

العصر الجاهلي

دكتور شوقي ضيف

# العصر الجاهلي



دار المعارف

تاريخ  
الأدب العربي

١

# العصر الجاهلي<sup>٣</sup>

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف



---

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

العصر الجاهلي

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتبٌ مختلفة في تاريخ الأدب العربي أدت كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها ، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث في أدبنا وأدبائنا على مرّ التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بسطاً مفصلاً دقيقاً . وأغزرُ هذه الكتب وأحَقُّها مادة كتابُ «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان ، وهو دائرة معارف جامعة ، لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكُتّابنا ، بل تُفِيضُ في الكلام عن فلاسفتنا وعلماثنا من كل صَنَفٍ وعلى كلِّ لون ، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها والإشارة إلى ما كُتِبَ عنهم قديماً وحديثاً . وهذه العناية من وصف التراث العربي جميعه جعلتُ بروكلمان لا يُعنى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية ولا ببحث شخصيات الأدباء بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً ، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة .

وإذن فأنا لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسطة تُبَحِّثُ فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مُسَبِّحاً ، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تاماً ، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملاً ، بجميع ملاحمها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولتُ أن أنهض بهذا العيب ، وأنا أعلم ثِقَلَ المتونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما يُنشر ، وكثيراً مما نُشر في حاجة إلى أن يعاد نشره نشرًا علمياً . وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام ، إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبي ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفاً



كافياً . يُضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً ، لكثرة ما يدخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة ، ولأنها تتألف من معانٍ وأساليب جميلة ، وهي لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه ، حقاً تخضع للطريقة العلمية ، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربي تأريخاً مفصلاً دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيناته ، غير أنه يضاعف في الوقت نفسه لذته فيه ، إذ يرى أمنيته في إتقان عمله بعيدة عسيرة ، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس ، فيجيد ويُلح ، ويمضي في الجِدِّ والإلحاح ، حتى يظفر بما يريد ، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحثُ الأدبي لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله .

ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربي الخاص بالعصر الجاهلي — والذي ستلوه أجزاء أخرى تتناول بقية عصور هذا التاريخ — لا أزعم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة . وإنما أزعم أن هذه الصورة هي التي استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج وتحريّت من دقّة ، وقد يأتي بعدى من يعدّل في جانب من جوانبها بما يهتدى إليه من حقائق أدبية غابت عني في بعض العصور أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية . وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال في نمو مطرد . والله أسأل أن يلهمني السداد في القول والفكر والعمل ، وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

القاهرة في ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٠

## تمهيد

١

### كلمة أدب

كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة . وقد اختلفت عليها معانٍ متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم ، وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يُقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً .

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلي نتقّب عن الكلمة فيه لم نجد لها تجري على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة أدب بمعنى الداعي إلى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد<sup>(١)</sup> :

نحن في المَشْتَاةِ ندعو الجَفَلَى لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِرُ<sup>(٢)</sup>

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذي يُدعى إليه الناس . واشتقوا من هذا المعنى أدبٌ يادُب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها .

وليس وراء بيت طرفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعنى الحسي إلى معنى آخر ، غير أننا نجد أنها تُستخدَم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في معنى تهذيبي خلقي ، ففي الحديث النبوي : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »<sup>(٣)</sup> ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة

(١) انظر ديوان طرفة (طبعة آلوارد) القصيدة

رقم ٥ بيت ٤٦ .

(٢) المَشْتَاة : الشتاء ، الدعوة الجفلى :

العامّة ، الآدب : الداعي إلى الطعام ،

لا ينتقر : لا يختار أناساً دون آخرين .

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر

لابن الأثير (طبع القاهرة ١٣١١ هـ) ج ١

ص ٣ .

الغنى بنفس المعنى إذ يقول (١) :

لا يمنع الناس منى ما أردت ولا أعطيتهم ما أرادوا حسنَ ذا أدبا

وربما استخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقى، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن. وذهب « نالينو » إلى أنها استخدمت في الجاهلية بمعنى السنة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب دأب، فقد جمع العرب دأباً على آداب كما جمعوا بئراً على آبار ورأياً على آراء، ثم عادوا فتوهّموا أن آداباً جمع أدب، فدارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشيم (٢). وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسى وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهنى وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم، شأنها في ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التي تستخدم أولاً في معنى حسى حقيقى، ثم تخرج منه إلى معنى ذهنى مجازى.

ولا ننسى في عصر بنى أمية حتى نجد الكلمة تدور في المعنى الخلقى التهذيبي، وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً، وهو معنى تعليمى فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدبين، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية، فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام. وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذى كان يُطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوى وتفسير القرآن الكريم.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمى يتقابلان في استخدام الكلمة، فقد سمي ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضرورياً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير ». وبنفس هذا المعنى سمي أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م الباب الثالث من ديوان

(١) انظر الأصمعيات (طبع دار المعارف) عصر بنى أمية لكارولونالينو (طبع دار المعارف)

ص ١٤ وما بعدها.

رقم ١٢ بيت ٣٠.

(٢) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى



الحماسة الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم باب الأدب . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذي عقده البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠ م في مؤلفه المشهور في الحديث والمعروف باسم الجامع الصحيح ، كما ينطبق على كتاب الأدب الذي صنفه ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨ م . وفي هذه الأزمنة أى في القرنين الثاني والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتب أدبٍ مثل « البيان والتبيين للجاحظ » المتوفى سنة ٢٥٥هـ وهو يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة . ومثله كتاب « الكامل في اللغة والأدب للمبرد » المتوفى سنة ٢٨٥هـ وقد وجه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والتقد كما صنع الجاحظ ، وقدم فيه صوراً من الرسائل النثرية التي ارتقت صناعتها في تلك العصور ، جاء في مقدمته : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضرورياً من الآداب ما بين كلام مشور وشعر مرصوف ومثل سائر موعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » . وما أُلّف في الأدب بهذا المعنى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ وزهر الآداب للحصري المتوفى سنة ٤٥٣هـ .

ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمي الخاص بصناعتي النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر ، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعي والثقافي ؛ فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى سنة ٢٣٦هـ : « الآداب عشرة ، فتلاثة شهرجانية<sup>(١)</sup> ، وثلاثة أنوشروانية<sup>(٢)</sup> ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصولج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس<sup>(٣)</sup> . وبهذا المعنى الواسع نجدها عند إخوان الصفا في القرن الرابع للهجرة ، فقد دلوا بها في رسائلهم إلى جانب

أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٢١-٥٧٩ م .

(٣) انظر زهر الآداب للحصري (طبع

مصر) ج ١ ص ١٤٠ .

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشارجة أو

الشهاريج وهم أشراف الفرس .

(٢) الأنوشروانية : نسبة إلى كسرى

علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار على علوم السحر والكيمياء والحساب  
والمعاملات والتجارات<sup>(١)</sup> . ولا نصل إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ حتى  
نجدها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية ، فهي تشمل جميع ألوان  
المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة ، ومن ثم قال : « الأدب هو حفظ أشعار  
العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »<sup>(٢)</sup> .

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل - فيما تدل عليه - على السنن التي  
ينبغي أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس ، وألّفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل  
أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ هـ . وتوالى  
كتب مختلفة في أدب القاضى وأدب الوزير وأخرى في أدب الحديث وأدب الطعام  
وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك . على أن أكثر ما كانت تدل عليه  
مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار .

وأخذت الكلمة منذ أواسط القرن الماضى تدل على معنيين : معنى عام يقابل  
معنى كلمة *Littérature* الفرنسية التي يطلقها الفرنسيون على كل ما يكتب في  
اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ، سواء أكان عالماً أم فلسفة أم أدباً  
خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً . ومعنى خاص هو الأدب  
الخالص الذي لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعاني ، بل يراد به أيضاً  
أن يكون جميلاً بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في  
صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات  
والمقامات .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة  
البيعية) ص ٤٠٨ .

(١) راجع الرسالة السابعة من القسم الرياضى  
في رسائل إخوان الصفا .

## تاريخ الأدب

واضح الآن أن تاريخ الأدب لأمة من الأمم إما أن يلتزم فيه المؤرخ المعنى العام لكلمة أدب ، فيؤرخ للحياة العقلية والشعورية في الأمة تاريخياً عاماً ، وإما أن يلتزم المعنى الخاص ، فيؤرخ للشعراء والكتّاب تاريخياً خاصاً بالأدب ونشأته وتطوره وأهم أعلامه ، ولعل أهم من أرخوا لأدبنا بالمعنى الأول بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» ، ونسج على منواله جرجي زيدان في كتابه المسمى بتاريخ آداب اللغة العربية . ونراهما يعرضان لتاريخ الحياة الأدبية والعقلية عند العرب في نشأتها وتطورها مع الترجمة للفلاسفة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتّاب من كل نوع . ومن غير شك يتقدم بروكلمان جرجي زيدان في هذا الصدد بسبب المادة الغنية التي يحتويها كتابه ، فقد أحصى إحصاء دقيقاً أدباء العرب وعلماءهم وفلاسفتهم مع ذكر آثارهم المطبوعة والمخطوطة وما كُتِبَ عنهم قديماً وحديثاً ، مبيّناً مناهجهم ومكانتهم في الفن أو العلم الذي حذقوه ، مع نبذة عن كل فن وعلم ومدى ما حدث له من تطور ورقى .

ومؤرخ الأدب العربي إما أن ينهج هذا النهج الواسع ، وإما أن ينهج النهج الثاني الذي أشرنا إليه ، فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتّاب مفصلاً الحديث في شخصياتهم الأدبية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية ، ومتوسعاً في بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التي شاعت في كل عصر . ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربي بمعناه الخاص يأخذ الفرصة كاملة كي يؤرخ لهذا الفرع الموثق من فروع الأدب بالمعنى العام ، وهو الفرع الذي يُراعَى فيه الجمال الفني والتأثير في ذوق القارئ والسامع وإثارة ما يمكن أن يثار في نفسيهما من مشاعر وعواطف متباينة . فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخياً مفصلاً لا يكتفي فيه بالنبذ الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية ولا بالتراجم المجملة عن الشعراء والكتّاب ، على نحو ما يصنع بروكلمان في تاريخه العام ، بل يكتب في ذلك الفصول الواسعة مطبقاً المناهج الحديثة في دراسة الأدب الخالص ومن أنتجوه من الأدباء .



وكان من آثار سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية في القرن الماضي على العقول الغربية أن نادى بعض مؤرخي الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية ، وحاول نفر منهم أن يضع للأدب قوانين كقوانين الطبيعة ، وتقدم سانت بييف ( Sainte-Beuve ) يدعو إلى العناية بشخصيات الأدباء وتعقب حياتهم المادية والمعنوية ومؤثراتها ، حتى نتبين ما ينفرد به الأديب وما يشترك فيه مع سواه من الأدباء ، فإذا تبينا الطرفين أمكن أن نضع الأدباء في فصائل وأسرع على نحو ما يصنع علماء النبات إذ يرتبونه في أنواع وفصائل نباتية مختلفة . وبالمثل يضع مؤرخو الأدب أصحابه في طبقات وفصائل على أساس ما يقوم بين الأديب وفصيلته من تشابه ، وهو تشابه تستخلص منه قوانين الأدب العلمية وما يمتاز به أصحاب كل فصيلة من خصائص وصفات . وتلاه تين ( Taine ) يقرر أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب في كل أمة وهي الجنس والزمان والمكان ، وكأنه أراد أن يحوّل تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعي ، فأدباء كل أمة يخضعون لهذه القوانين الثلاثة خضوعاً جبرياً ملزماً ، فلكل جنس خواصه ، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية ، وتلك هي مؤثرات الأدب ، بل قوانينه التي تطبع الأدباء بطوابعها الدقيقة . ولاحظ مؤرخو الأدب ونقادهم أنه تجاهل شخصيات الأدباء وفردتهم ومواهبهم وأصالتهم ، ولو أن قوانينه صحيحة لكان كل أديب صورة مطابقة للأدباء الآخرين ، ولما تميز أديب من سواه . والواقع يثبت عكس ذلك فلكل أديب شخصيته التي تجعل منه أديباً بعينه ، له مقوماته .

ويجانب هذين المهجين في دراسة تاريخ الأدب وجد منهج ثالث عند برونيتير ( Brunetière ) الذي فُتن بمذهب داروين المعروف في التطور ونشوء الكائنات العضوية وارتقاؤها، وكان ( سنسر ) سبقه إلى نقله من العضويات إلى المعنويات ، وطبقه على الأخلاق والاجتماع ، فحاول هو أن يطبقه على الأدب وفنونه المختلفة ، واختار لهذا التطبيق ثلاثة فنون ، هي : المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، فتتبع كلا في نشأته ونموه وتطوره وما عمل فيه من مؤثرات ، وذهب إلى أن الفنون الأدبية مثل الكائنات الحية تخضع للتطور ، وقد يتولد بعضها من بعض

على نحو ما تولد الشعر الغنائى الرومانسى فى القرن التاسع عشر من الوعظ الدينى الذى شاع بفرنسا فى القرن السابع عشر ، فهذا الشعر لم يتطور عن شعر مماثل له ، سبقه ، وإنما تطور أو تولد عن فن آخر على نحو ما يتطور أو يتولد كائن عضوى من كائن آخر .

وهذه الموجة الحادة التى اندفع خلالها هؤلاء المؤرخون فى القرن التاسع عشر يريدون أن يلحقوا تاريخ الأدب بالعلوم الطبيعية ويطبقوا عليه قواعد ما لم تلبث أن هدأت فى أوائل هذا القرن العشرين بتأثير نمو العلوم الإنسانية ، فإن هذه العلوم أثبتت أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية وأن تاريخ الأدب ينبغى أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية مثل التاريخ والقانون والسياسة وعلمى الاجتماع والنفس . وسرعان ما أخذ مؤرخو الأدب ونقادهم يطبقون على الأدب نظريات اللاشعور الفردى وعقد الجنس ومكبوتاته واللاشعور الجماعى ورواسب الحياة الإنسانية البدائية التى تتجلى فى الأساطير وما يتصل بها والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية .

وسنحاول أن نؤرخ فى أجزاء هذا الكتاب للأدب العربى بمعناه الخاص مفيدينه من هذه المناهج المختلفة فى دراسة الأدب وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزمانى والمكانى الذى نشأ فيه الأديب ، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية التى فسح لها سانت بييف فى دراساته . وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبى ، فما من شك فى أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض فيظهر نوع أدبى جديد لا سابقة له فى الظاهر ، ولكن إذا تعمقنا فى الدرس وجدناه قد نشأ من نوع آخر مغاير له ، على نحو ما يلاحظ ذلك من يدرس فن المقامة فى العصر العباسى ، فلإنها فى رأينا تولدت من فن الأرجوزة وما ابتغى به أصحابه فى العصر الأموى عند رؤية ونظرائه من تعليم الناشئة والمولى ألفاظ اللغة العربية الغربية وتراكيبها العويصة . فاقتران هذه الغاية بالأرجوزة يلفتنا إلى نفس الغاية فى المقامة عند بديع الزمان والحريرى وما بين الفنين من صلوات وروابط . ولا بد أن نستضىء فى أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم . وبجانب ذلك لا بد أن نقف

عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية وما تستوفى من قيم جمالية مختلفة ، ولا بد من المقارنة بين السابق واللاحق في التراث الأدبي العربي جميعه .

## ٣

## تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره

أكثر من أرخوا للأدب العربي وزعوا حديثهم في هذا التاريخ على خمسة عصور أساسية ، هي ( ١ ) عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام ( ٢ ) والعصر الإسلامي من ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠ م وهو العصر الذي تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية . ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر قسمين ، فهو إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين يسمى عصر صدر الإسلام ، وما يليه إلى آخر الدولة الأموية يسمى العصر الأموي . ( ٣ ) والعصر الثالث هو عصر العباسيين أو العصر العباسي ويستمر إلى سقوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين : العصر العباسي الأول ويمتد نحو مائة عام ، والعصر العباسي الثاني ويستقل ببقية العصر . ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام ، يتي فيها على القسم الأول بنفس الاسم ، أما العصر العباسي الثاني فيقف به عند سنة ٨٣٣هـ / ٩٤٥ م وهي السنة التي استولى فيها بنو بويه على بغداد والتي أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط ، ويمتد العصر العباسي الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد . وقد يقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسي الثالث قسمين ، فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ويستقل القسم الثاني أو العصر العباسي الرابع ببقية العصر . ( ٤ ) وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ( ٥ ) ثم العصر الحديث الذي يمتد إلى أيامنا الحاضرة .

وسنبتق في كتابنا على العصرين الأولين ، أما العصر الثالث وهو العصر العباسي فسندخل عليه بعض التعديل ، وذلك أننا سنبتق على قسمين منه : عصر عباسي أول ينتهي بانتهاء خلافة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، وعصر عباسي ثان ينتهي باستيلاء



البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ومن هذا التاريخ إلى نهاية العصور الوسطى نبتدى عصرًا رابعاً نمده إلى العصر الحديث وهو عصر الدول والإمارات ، فقد تفككت أوصال الدولة العباسية وظهرت إمارات وخلافات ودول كثيرة كإمارات الفرس في إيران وما وراءها وسيف الدولة الحمداني في حلب والفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين في مصر والأمويين ثم ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ومن خلفهم في الأندلس . وحرى أن يبيح الأدب العربي في هذا العصر الرابع ويؤرخ في كل إقليم على حدة ، فيكون هناك جزء لإيران والعراق وجزء لمصر والشام والجزيرة العربية وجزء للأندلس وبلاد المغرب ، وقد ينمو البحث وتتولد أجزاء أخرى ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الخامس وهو العصر الحديث وقسمناه بدوره أجزاء على البلاد العربية .

ولا أشك في أن هذا التقسيم الجديد لعصور الأدب العربي أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التي أثرت فيه فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجري تحتل المكانة الأولى في الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها في الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها في النهوض بالشعر والنثر تفوقاً واضحاً .



## الفصل الأول الجزيرة العربية وتاريخها القديم

١

### صفة الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>

تشغل جزيرة العرب الجنوب الغربي لآسيا ، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات في جنوبيها وغربيها وشرقيها ، فهي شبه جزيرة ، وليس في الأرض شبه جزيرة تضاهيها في المساحة . ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بإفريقية في الزمن المتعمق في القدم ، ثم فصلهما منخفض البحر الأحمر الذي يمتد في غربيها ، كما يرون أنه كان يغطي جزءاً منها في العصر الجليدي مروج خضراء ، وكانت تجرى بها بعض أنهار ، ولا تزال تشهد عليها أودية جافة عميقة . ويطل عليها في الجنوب المحيط الهندي وفي الشرق بحر عُمان وخليج العرب . وتترامى متوغلة في الشمال على حدود فلسطين وسوريا غرباً والعراق وبلاد الجزيرة شرقاً .

وكان جغرافيو اليونان والرومان يقولون إنها ثلاثة أقسام : العربية الصحراوية والعربية الصخرية أو الحجرية والعربية السعيدة ، أما العربية الصحراوية فلم يعينوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التي تصاقب بلاد الشام غرباً وتمتد شرقاً إلى العراق والحيرة . وكانت تقع في شمالها مملكة تدمر التي حكمتها أسرة الزبئ المشهورة . وأما العربية الصخرية فكانوا يطلقونها على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالي الحجاز وجنوبي البحر الميت ، وهي التي أقام فيها النبط مملكتهم واتخذوا مدينة سلع «بطرا»

٨٦ وما بعدها وكتاب تاريخ العرب (مطول)  
لفيليب حتى (الترجمة العربية) ج ١ ص ١٥  
وما بعدها وكتاب «قلب جزيرة العرب» لفضول حمزة

(١) انظر في صفة الجزيرة العربية  
كتب الجغرافية العربية وكتاب تاريخ العرب  
قبل الإسلام لجواد علي (طبع بغداد) ج ١ ص

حاضرة لهم ، وامتدت هذه المملكة في عهد الحارث الرابع أوائل القرن الأول للميلاد إلى دمشق ، غير أن الرومان استولوا عليها سنة ١٠٦ م . أما العربية السعيدة فكانت تشمل وسط الجزيرة وجنوبها ، أو بعبارة أخرى كل ما وراء القسمين الأول والثاني . وربما دل ذلك من بعض الوجوه على أن هذا القسم الثالث كان يدين بالولاء للدول الجنوبية مثل معين وسبأ .

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام ، هي : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وتهامة هي المنطقة الساحلية الضيقة المطلة على بحر القلزم أو البحر الأحمر . وتسمى في الجنوب باسم تهامة اليمن ، وقد يبلغ عرضها في بعض الأماكن خمسين ميلا ، وكان العرب القدماء يسمونها العَور لانخفاض أرضها ، وهي أرض رملية شديدة الحرارة ، وقد قامت بها بعض المرائق والثغور مثل الحديدية في اليمن ومثل جدة وينبع في الحجاز . ويقع في شماليها ثغر صغير يعرف باسم الوجه ، ويظن أنه كان ثغر مدينة الحِجْرُ المعروفة الآن باسم مدائن صالح . وفي جنوبي الوجه قرية الحوراء وربما كانت هي الموضع الذي أرسى فيه إليوس جالوس القائد الروماني بيجوشه سنة ٢٤ ق . م وهي الغزوة التي أراد بها أن يفتح بلاد اليمن وباعت بالفشل النريع .

وتمتد في شرق تهامة سلسلة جبال السّراة من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة لإقليم الحجاز المعروف ، وتكثر في هذا الإقليم الأودية والمناطق البركانية ، والحرّات وهي أراض رملية تعلوها قمم البراكين . وإذا وجدت في هذه الأراضي آبار وعيون آذنت بالخصب وقيام القرى الكبيرة مثل المدينة أو يثرب ووادي القُرى في شماليها وهو يقع بينها وبين العُلا وكانت تسمى قديماً دادان . ومن مدن هذا الوادي قُرْح وكانت تقام بها سوق عظيمة في الجاهلية ومدينة الحِجْرُ أو مدائن صالح وقومه من ثمود . ونزل اليهود ببعض قرى هذا الوادي مثل خيبر وقدك ، وامتدوا إلى تيماء في الشمال ويثرب في الجنوب . وكان ينزل في هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُدْرة وبلَسيّ وجُهَينَة ، وقُضاعة وكانت تمتد عشائرها إلى شبه جزيرة سيناء . وعثر المتقنون في وادي القرى على نقوش عربية جنوبية وأخرى شمالية كالثمودية واللّحيانية . وأهم مدن الحجاز مكة واسمها

عند بطليموس مكربا (Macoraba) وكانت قبل الإسلام تسمى بزمام القوافل المصعدة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيط الهندي، وكان بها الكعبة بيت أصنامهم حينئذ فكان العرب يحجون إليها ويتجرون في أسواقها ويتاعون ما يحتاجون إليه . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقى من مكة تقع الطائف، وقد أقيمت على ظهر جبل غزّوان، وتحف بها أودية وآبار كثيرة أُناحت للمملكة النباتية أن تزدهر هناك من قديم ، وقد عُثِر فيها على نقوش ثمودية .

وينبسط الحجاز شرقاً في هضبة نجد الفسيحة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العَرُوض وهي بلاد اليمامة والبحرين . ويسمى العرب جزءها المرتفع مما يلي الحجاز باسم العالية ، أما جزؤها المنخفض مما يلي العراق فيسمونه السافلة، بينما يسمون شرقها إلى اليمامة باسم الشوم وشمالها إلى جبلى طي: أجأ وسلمى باسم القَصيم، وهو عندهم الرمل الذى ينبت الغضا وهو ضرب من الأثل، وإليه يُنسَبُ أهل نجد فيسمون أهل الغضا. وشمالى نجد صحراء النفود وهي تشغل مساحة واسعة، إذ تبتدئ من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ٣٠٠ ميل وتزخر بكثبان من الرمال الحمراء، تتخللها مراعى فسيحة . وإذا اقتربت من العراق مدت ذراعاً لها نحو الجنوب، فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم الدهناء أو رملة عالج وهي منازل قبيلتي تميم وضبة في الجاهلية والإسلام، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت في الرُّبْع الخالى وهو صحراء واسعة قاحلة يظن أنها تبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع، وهي تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين عُمان ومهرة والشَّحْر وحضرموت من جهة ثانية، وتندمج فيها صحراء الأحقاف التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز . وهذه الصحارى التي تطوق نجداً في الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة، وخيرها القسم الشمالى إذ تكسوه الأمطار في الشتاء حلة قشبية من النباتات والمراعى . ووراء هذا القسم في الشمال بادية الشام وهي كثيرة الأودية والواحات وبادية العراق أو بادية السماوة ، وواضح أنهما لا تعدان من نجد .

وتشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاها . وعدّ ياقوت في معجم البلدان اليمامة من نجد ، وكانت عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى، مثل حَجْر وكانت حاضرتها ، ومثل سدوس ومنفوحة وبها قبر الأعشى ، ويقال إنها كانت موطن

قبيلتي طَسَمَ وجديس البائدتين . وقد عثُر فيها على نقوش سبئية متأخرة . وتمتد البحرين من البصرة إلى عُمان وبها كانت تنزل قبيلة عبد القيس في الجاهلية ، وهي تشمل الآن الكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر ، وتكثر في هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة في الأحساء ، ومن مدنه القديمة هَجْر وفي أمثالهم « كجالب التمر إلى هجر » ، والقَطِيف وكانت تسمى أيضاً الحَطَّ وإليها تنسب الرماح الخطية . وفي جنوبي البحرين عمان ومن مدنها صُحار ودِبا وكان بها سوق مشهورة في الجاهلية . وعُرف سكان هذه المنطقة من قديم بالملاحة واستخراج اللآلئ .

أما القسم الخامس من الجزيرة وهو اليمن فيطلق على كل الجنوب ، فيشمل حضرموت ومهرة والشحْر ، وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وهو الإطلاق المشهور الآن . وتتألف اليمن من أقسام طبيعية ثلاثة : ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن وجبال موازية للساحل هي امتداد سلسلة جبال السراة ثم هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالي ، وبها كثير من الأودية والسهول والثمار والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية الغزيرة وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « جَسْتَانٌ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ » . وأتاح ذلك لسكانها أن يقيموا فيها دولاً وحضارة منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي . ويسمى قسمها الشمالي المجاور للحجاز باسم عَسِير ، وكانت تنزله قبيلة بَسَجِيلَة في الجاهلية ومن أشهر مدن اليمن زَبِيد وظَفَّار وصنعاء وعدن ونَجْرَان . ومن أشهر وديانها تَبَالَة وبيشة وكانت به مأسدة . وتمتد شرقي اليمن حضرموت على ساحل بحر العرب ، لإقليم مهرة ، والشحْر ومعناه في اللغة الجنوبية الساحل ، وتنمو في جباله أشجار الكُنْدُر وهو اللبان الذي اشتهر به جنوبي بلاد العرب في الجاهلية .

ومناخ الجزيرة في جملته حار شديد الحرارة ، وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفاً ، فتشوى الوجوه شيئاً ، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصبَا ، وأكثر شعراؤهم من ذكرها . أما ربيع الشمال فباردة وخاصة في الشرق إذ تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان . والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف ، وإلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء . وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمال الحجاز ؛ وقد

وصف امرؤ القيس في معلقته سيلا جارفاً حدث بالقرب من تيماء حيث كانت منازل بني أسد . وتقل الأمطار في الداخل ولقلتها سموها غَيْثاً وحيّاً (من الحياة) واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . ومتى احتبست الأمطار جفت الأرض وأجذبت وحلّ الهلاك والفناء على القطعان والرّعاء . ولطول ما كان يحدث لهم من ذلك سموا الجذب سنة ، فيقولون : أصابتنا سنة أتت على الأخضر واليابس . ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العُشب والكلأ ، فترحل القبيلة بإيلها وأغنامها إلى مراعي جديدة . وليس في الجزيرة بحيرات إلا ما يقال من أن هناك بحيرة مالحة في الرّبيع الخلى ، وليس بها كذلك غابات ولا أنهار جارية .

وفي الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والثمار وتتناثر بعض الفواكه ، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللبان والطيب والبخور ، كما اشتهرت حديثاً بأشجار البن ، وتشهر الطائف بالكروم ، ولم يكونوا يعتمدون عليها وحدها في الخمر بل كانوا يعتمدون أيضاً على مدن الشام . والنخلة أهم الأشجار في الجزيرة كلها . ويتردد على السنة شعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على رأسها العرار والخزّامي وطائفة من الأشجار على رأسها الغصا والأثل والأرطى والسدر (الطلح) والحنظل والضّال والسلم .

أما الحيوان فقد صور شعراؤهم كثيراً من أليفه مثل الخيل والإبل والأغنام وحشيه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتونه وثور الوحش وبقرة ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والفمر . ودارت الطيور الجارحة على أسنتهم مثل الحدأة والصقر والنسر والغراب ، وقلما وصفوا منها دون أن يذكرها القسط وهو يشبه الحمام . وذكروا كثيراً الجراد ، وتحدثوا عن النحل واشتهرت به هذيل التي كانت تعني بيوتها وخلاياها . ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والورّك والضب ، وفي أمثالهم : « أعقد من ذنب الضب » .

## الساميون<sup>(١)</sup>

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الشعوب في الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها على أنها كانت في الأصل تتكلم بلهجات متقاربة تطورت إلى لغات سميت جميعاً باسم السامية أخذاً من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة، وهي تسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمى بالأمة السامية إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوي واحد ، إذ تتشابه في أصول أفعالها وأزمانها وفي كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد . وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية ، أما الشرقية فاللغة الأكديّة ( البابلية والأشورية ) وأما الغربية فاللغة الأوجریتیة ( لغة نقوش رأس شمرا ) والكنعانية ( الفينيقية والعبرية والمؤابية ) ثم الآرامية . وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهي الفصحى وعربية جنوبية وهي لغة بلاد اليمن وما والاها في الزمن القديم ، ثم الحبشية .

وتساءل العلماء عن المهده الأصلي لأسلاف الناطقين بهذه اللغات السامية المختلفة ، وتعددت إجاباتهم في هذا الصدد ، فمن قائل إنهم نشأوا مع الحاميين في موطن واحد ، لعله في شمالي إفريقية أو في ناحية الصومال ، ومنه هاجر الساميون إلى بلاد العرب عن طريق باب المنذب أو عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ومن قائل إنهم نشأوا مع الآريين في أواسط آسيا أو في أرمينية ، ومن قائل إنهم نشأوا في شمالي سوريا ، ومن قائل إنهم نشأوا فيما بين النهرين . ومهما يكن المهده القديم لأصل نشأتهم الذي يتعمق في عصور ما قبل التاريخ فإن الباحثين يتفقون على أن موطنهم في العصور التاريخية هو الجزيرة العربية ، فقد نزلوا بها واستقروا فيها

تاريخ الحضارات القديمة لطف باقر (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١١٥ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٣٢ - ٣٠٦ .

(١) راجع في الساميين وموطنهم الأول وأسرهم تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ج ١ ص ٨ وما بعدها ومقدمة في



وعاشوا حياة مشتركة اكتسبوا خلالها هذا التشابه في لغاتهم .

ودفعهم جَدَب الجزيرة وخصب ما حولها من العراق والشام واليمن إلى الهجرة في موجات يتلو بعضها بعضاً في فترات متباعدة وكأنما كانت الجزيرة تشبه خزاناً كبيراً يفيض على ما حوله في الحين بعد الحين . وأول موجة فاضت من هذا الخزان موجة الأكديين ( البابليين والأشوريين ) خرجت من الجزيرة إلى العراق في أواخر الألف الرابع ق . م وأوائل الثالث فوجدت هناك السومريين وقد عاشوا مدة تحت حكمهم ، تأثروا فيها بلغتهم ودينهم وعاداتهم وكل ما سبقهم إليه في الحضارة وال عمران . ولا نمضى طويلاً في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م حتى نجدهم يقيمون مملكة لهم يتخذون حاضرتها مدينة أكدَّ كان أهم ملوكها سرجون الأول ( في حدود ٢٣٥٠ ق.م ) الذي مد فتوحه حتى وسعت دولته العراق والجزيرة والشام ، فكانت تلك أول دولة سامية عُرُفت في الشرق الأوسط . ولم تلبث أن انهارت ، فقامت على أنقاضها دويلات مستقلة ، وتقدمت دولة بابل في أوائل الألف الثاني ق . م فأعادت الأمور إلى نصابها ، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي تولى الملك في القرن الثامن عشر ق.م وكان سياسياً ومشرعاً عظيماً ، واشتهر بين المؤرخين بمسلته التي سجل عليها في ثلاثمائة سطر شريعته ، وهي تصور تصويراً دقيقاً القانون البابلي القديم . وامتازت هذه الدولة بشخصية سامية حية ، فقد ازدهر القانون في عهدها وازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والقصاص . على أننا لا نمضى طويلاً حتى تفد أمم غير سامية من الشرق — هم الكشيون — فتحربَّ بابل ؛ ولا يلبث الحيثيون وهم من أمم آسيا الصغرى أن يقضوا عليها في أوائل القرن السادس عشر ق.م . وبينما كانت بابل تعاني من الكشيين والحيثيين كان إخوانهم الذين هاجروا معهم من الجزيرة العربية ويمموا نحو الشمال فيما بين النهرين وهم الأشوريون ينهضون ، ومعنى ذلك أنهم من نفس الموجة الأكديّة . وتاريخهم يتضح منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد اتخذوا نينوى في بعض عصورهم حاضرة لهم ، وكانت دولتهم حربية عسكرية ، واستعمروا الشام وآسيا الصغرى واستولوا على بابل وحاربوا مصر ، ولغتهم الآشورية تخالف البابلية في بعض خصائصها ، وقد ازدهرت في عهدهم علوم الطب والفلك والرياضيات كما ازدهرت فنون الأدب . ولا نصل إلى القرن السابع ق.م

حتى تهكهم حروبهم ، ويهجم عليهم الميديون من هضبة إيران ، ويستولوا على  
حاضرهم نينوى . فتستقل عنهم بابل وتقوم بها الدولة البابلية الحديثة أو دولة  
الكلدانيين ( ٦٢٦ - ٥٣٨ ق.م ) الذين اشتهروا بإتقانهم لعلم الفلك كما اشتهر  
ملكهم بختنصر بتخريبه لبيت المقدس . وسرعان ما يقضى عليهم الفرس بقيادة  
كورش سنة ٥٣٨ ق.م ويخضعون لدولتهم المعروفة بالكيانية . ويدور الزمن دورة  
وإذا الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م يستولى على الشرق الأوسط ، وبذلك  
ينتهي تاريخ هذه الموجة السامية القديمة موجة الأكديين من بابلين وأشوريين .

والموجة السامية الثانية التي خرجت من الجزيرة العربية هي موجة الكنعانيين ،  
وقد بدأت في خروجها منذ أوائل الألف الثاني ق. م ويمتد الشام وسواحل البحر  
الأبيض الشرقية ، وأسست هناك مدناً تجارية مثل صيدا وصور وجبيل  
وبيروت . وكان اليونان يسمون أهل السواحل من هذه الموجة باسم الفينيقيين ، وقد  
أسسوا لهم مستعمرات في إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وهم الذين اخترعوا الخط  
الأبجدى وعندهم انتشر في العالم . ومن هذه الموجة الأوجريتيون الذين تغلغوا في  
شمالى سوريا وقد وصلتنا عنهم نقوش رأس شمرا في شمالى اللاذقية وفيها شعر وحكم .  
ومن هذه الموجة أيضاً المؤابيون الذين استقروا في شرق الأردن وأسسوا به مملكة في  
القرن العاشر ق . م ، وكذلك منها العبريون الذين استقروا في فلسطين منذ القرن  
الثالث عشر ق.م وقد استولى الآشوريون على مملكتهم الشمالية في القرن السابع ق.م .  
وهدم بختنصر ملك بابل حاضرهم أورشليم في القرن السادس ق.م وأجلى سكانها إلى  
بابل . ولا تلبث الآرامية أن تغلب على لغتهم ، إلا أنهم ظلوا يحافظون عليها في  
تعاليمهم الدينية وفي بعض كتاباتهم .

والآراميون هم ثالث الموجات السامية الكبيرة التي خرجت من الجزيرة العربية  
قبل الميلاد ، وقد بدأ خروجهم منذ منتصف الألف الثاني ق.م . والمظنون أنهم  
كانوا بدواً رحلاً يتنقلون شمالى صحراء النفود في باديتى الشام والعراق ويتغلغلون إلى  
خليج العقبة غرباً وجنوبى الفرات شرقاً . وقد استطاعوا أن يكونوا لهم إمارة بين بابل  
والخليج العربى ، عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانيين . ونراهم في القرن  
الثالث عشر ق.م ينزحون إلى أراضى الرافدين دجلة والفرات في الشمال ، ويعرف

هؤلاء النازحون باسم آرام النهرين . ولا نلبث أن نراهم في القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م يبلغون أوج قوتهم فيغيرون على شمالى الشام ويكثرون به دويلات صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، وقد استولوا على دمشق وأسسوا بها مملكة اشتبكت في حروب طويلة مع الفينيقيين والعبريين . وكان لها دور مهم في شئون التجارة فقد كانت قوافلها الصلة بين العراق والشام وآسيا الصغرى ، وكانت تلتقى في شمالى الحجاز بقوافل اليمن وقوافل التموديين من الحجازيين . وظلت للآراميين هذه الأهمية التجارية بعد سقوط دويلاتهم ، فإنها سرعان ما سقطت إذ لم تكن تجمعها وحدة سياسية تشد من أزرها أمام هجمات الآشوريين ، فقبضوا عليها واحدة بعد أخرى . وقد أخذوا عن الفينيقيين أبجديتهم بسبب اختلاطهم بهم في التجارة وكتبوا بها لغتهم . ولما سقطت دويلاتهم تفرقوا في ممالك غربى آسيا ، فكان ذلك سبباً في انتشار لغتهم وثقافتهم وحضارتهم ، إذ وجدت أمم العراق وإيران سهولة في أبجديتهم ، مما جعل الدولة الكيانية تتخذها إحدى لغاتها الرسمية ، وقد أصبحت اللغة اليومية للآشوريين والبابليين والعبريين والفينيقيين ، وربما كان من الأسباب المهمة في ذلك سهولة نحوها بالإضافة إلى سهولة أبجديتها . وتقوم الحرب بين الفرس والروم ويتخذون من بلادهم ميداناً لها ، فيتأثرون بحضارتيهما ، وبذلك أصبحوا ورثة الحضارات القديمة في هذا المحيط : الحضارة الفارسية والرومانية والبابلية والآشورية والفينيقية . وقد كُتبت الأناجيل بالآرامية إذ كان يستخدمها حواريو المسيح كما كتبت بها معظم المؤلفات الدينية للكنائس الشرقية ، ولها لهجات عدة ، أهمها اللغة السريانية التى كانت منتشرة فيما بين النهرين ، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها ، وهى اللغة التى كان يدرس بها الطب والعلوم الطبيعية بجانب اليونانية في مدارس الرها فيما بين النهرين ومدرسة جنند يسابور الفارسية وغيرهما . ومن لهجاتها أيضاً لهجة الصابثة فيما بين النهرين . وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية في الشرق الأوسط إلى أن جاء الإسلام فقضت عليها وعلى لهجاتها لغة القرآن الكريم ، وإن ظلت معروفة في بعض البيئات .

والموجة السامية الأخيرة هى موجة العرب الجنوبيين وما تفرع عنها من موجة حبشية ، وقد بدأت في أواخر الألف الثانى ق.م متجهة إلى الجنوب وساحل المحيط

الهندي . ويظهر أن جماعات من نزلت في تهامة اليمن هاجرت إلى السواحل الإفريقية ، بقصد التجارة وتغلغلت في هضبة الحبشة وكونت هناك مملكة ، نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين سلسلة من الحروب انتهت بقضائها على دولتهم في سنة ٥٢٥ م . وقد اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي .

## ٣

العرب الجنوبيون<sup>(١)</sup>

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين ، تفصل بينهما صحراوات واسعة ، تجعل حياة كل منهما تختلف عن الأخرى . فبينما تحضر الجنوبيون كان الشماليون في الحجاز ونجد يعيشون معيشة بدوية ، إذ كانوا في الحملة بدواً رُحلاً ينتقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العُشب والكلأ . ونشأت عن ذلك فروق واسعة بين القسمين المتناقضين فبينما ظل الشماليون يقيمون في الغالب حياة بدوية إلا ما تسرب إليهم من الحضارات الأجنبية المجاورة في العراق والشام نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال حصونها وهياكلها وقلاعها وأبراجها قائمة لم تندثر اندثاراً تاماً . وقد استطاعوا أن يشيدوا سدّاً مآرب لحبس الماء في فصل الأمطار ، مما يدل على أنه كان لديهم نظام محكم لتدبير شئون الزراعة وتوزيع المياه ، فقد أقاموا السدود والصحاريح ، وكانت أرضهم مهيأة لتزدهر فيها حياة نباتات وأشجار واسعة بفضل مياه الأمطار الموسمية وطرق الري الصناعية . ونشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية شرقاً وشمالاً منذ الألف الثاني ق . م تحمل توابل الهند ورقيق إفريقيا وأفوايه اليمن وعروضها من اللبان والطيب والبخور وتعود محمّلة بعروض البلاد التي تتجر فيها .

وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلاً ، فهو لا يتجاوز إشارات

المستشرقين ترجمة فؤاد حسين على ( نشر  
وزارة التربية والتعليم ) وانظر تاريخ العرب  
قبل الإسلام لجواد على ١/٣٧٥ ، ٨/٢ -  
٢٧٦ ، ١٣٦/٢ - ٢١٤ .

(١) انظر في أصل تسمية العرب باسمهم  
كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على  
١/١٦٩ وراجع في تاريخ العرب الجنوبيين  
كتاب التاريخ العرب القديم لطائفة من

وردت عنهم في العهد القديم وفي بعض الآثار المصرية والبابلية والأشورية وفي كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومانيين ، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام ، وتختلط به الأساطير . وظل تاريخهم غير واضح إلى أواسط القرن الماضي ، فقد جد علماء الغرب في قراءة نقوشهم المنشورة على الأبراج والهياكل والنُصُب والأحجار ، وهي مكتوبة بخط يسمى الخط المُسند ، وهو خط ساسي قديم ، وقد عرف هؤلاء العلماء اللغة التي كتبت به ولجاتها ، فهي لغة سامية قريبة من الحبشية والعربية الشمالية ، انبثقت فيها لهجتان أساسيتان هما المعينية والسبئية .

ومن هذه النقوش استطاع الباحثون أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها ، واستقر بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هي مملكة معين وكانت حاضرتها معين في الجوف اليمنى ثم مملكة سبأ في جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتبان في الجنوب الغربي لسبأ وعاصمتها تمنع ، والمملكة الأوسانية جنوبي قتبان ، ثم مملكة حضرموت وحاضرتها شبوة . ويظهر أنه كان للمعنيين دولة قوية منذ القرن الثاني عشر ق.م وقد سيطروا على القتبانيين والحضرميين . أو بعبارة أدق سيطروا على طريق القوافل التجارية لا في الجنوب فحسب ، بل أيضاً على طول الطريق إلى الشمال . فقد وجدت نقوش معينية في شمالي الحجاز بدادان في منطقة العُلا الحالية وفي الحجر أو مدائن صالح ، مما يدل على أنهم أنشأوا في هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية كي تحميها ، وأغلب الظن أنه كان لهم بها حاميات نزلت بها بعض عشائهم . ومع مرور الزمن غلبت عليهم طوابع العرب الشماليين . فكانوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم في الشمال .

ولا نصل إلى القرن السابع ق.م. حتى يغلب السبئيون على المعينيين ويمدوا سلطانهم بعد ذلك على الاتحاد الجنوبي كله ، كما يمدونه على مراكز المعينيين في الشمال ، وقد تحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية ، واتخذوا مأرب حاضرة لهم ، وقصة سدّها وخرابه مشهورة ، وكذلك قصة ملكتها بلقيس مع سليمان عليه السلام . وحدث حوالي سنة ٢٧٠ ق.م أن أنشأ بطليموس الثاني أسطولاً بحرياً في البحر الأحمر يحمل إلى مصر عُرُوض الهند وإفريقية الشرقية فأحدث ذلك اضطراباً في

شئون السبثيين الاقتصادية، ونازعهم ملوك ريدان أصحاب ظفار وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية منذ سنة ١١٥ ق.م. وكانوا يتلقبون باسم ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات ، وهم الحميريون . ودولتهم آخر الدول العربية الجنوبية ، ولا نصل إلى سنة ٢٤ ق. م حتى نجد إليوس جالوس والى الرومان على مصر يجهز حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ما بأيديهم من مفاتيح تجارة التوابل والأفاويه ، وفشلت حملته فشلا ذريعاً . غير أن الرومان اتجهوا إلى الملاحه في البحر الأحمر، ويقال إنهم استولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتموين سفنهم، فشلتوا بذلك تجارة الحميريين وساءت أحوالهم الاقتصادية، فأهملوا شؤونهم العمرانية، وأخذت الحرب يدب في البلاد ، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربوهم واستولوا على بلادهم في منتصف القرن الرابع الميلادى وظلوا بها نحو عشرين عاماً ، عادت بعدها الدولة الحميرية ، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتها ، فإن القبائل الشمالية أخذت تُغير عليها كما أخذ كثير من عشائرها يهاجر إلى الشمال . وفي نقوشهم ما يدل على أن الأعراب نزلوا بديارهم منذ القرن الرابع الميلادى واستقروا فيها ، وقد أخذت لغتهم تتغلب في بعض الجهات على لغة البلاد الأصلية كما أن من هاجر من عرب الجنوب إلى الشمال غلبت عليه لغة الشماليين ، مما أعد لانتصار العربية الشمالية على العربية الجنوبية في أواخر العصر الجاهلى .

وفي هذه الأثناء تغلغت اليهودية في الجزيرة العربية منذ اضطهد أباطرة الرومان اليهود في القرن الأول للميلاد ، واندفعت بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب ، واعتنقت مدينة نجران في القرن الخامس هذا الدين الجديد ، وربما كان السبب في هذه البعثات المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة . وأفرغ ملوك حمير تغلغل النصرانية في ديارهم ، خوفاً من تحولها إلى البيزنطيين ، فناهضوها وأيضاً فإنهم كانوا يخافون من ملوك الحبشة المسيحيين أن يدخلوا عن طريقها بلادهم . ونشب هناك صراع حاد بين اليهودية والنصرانية ، ولا نلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين في نجران ، فأوعزت بيزنطة إلى النجاشى أن يغزو اليمن ، ففزاها سنة ٥٢٥ واستولى عليها وضمها إلى بلاده . وظل هذا الاحتلال الحبشى نحو خمسين عاماً، ثارت فيها اليمن ثورات عنيفة ، وأخيراً استنجد

أهلها بالفرس أعداء بيزنطة ، فردوا الأحباش وظلوا بها حتى سنة ٦٢٨ م إذ اعتنق  
بإذان عاملهم الإسلام . وبذلك ينتهى التاريخ القديم للعرب الجنوبيين .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن عرب الجنوب لعبوا دوراً واسعاً فى  
تاريخ الحضارة العربية القديمة ، وكانت حضارتهم عربية صافية لم تأت منهم من  
الخارج ، بل نمت وتطورت فى الداخل ، إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم ودياناتهم ،  
وكان لهم قَدَمٌ راسخة فى عمارة القصور والهاكل وتشبيد السدود . وكانوا يؤهلون  
السيارات الفلكية والنجوم ، وأثرت دياناتهم الوثنية فى العرب الشماليين إذ يُظنّ أنهم  
أخذوا عنهم — كما أخذوا عن الآراميين — عبادة الكواكب ، وكانت تقوم على  
أساس ثلاث هو القمر واسمه عند المعينين ودّ ، وكان إلههم الأكبر ، وتليه الشمس  
التي اعتبروها زوجه وهى اللات ، ومنهما ولد عثر أو العزى أى الزهرة أو فينوس .  
وبجانب هذا الثلاث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم أو بعض الطير  
أو بعض مظاهر الطبيعة ، وكانوا يقدمون لها القرابين وبينون الهياكل ويقوم عليها  
كهنة ذوو نفوذ كبير . ويظهر أنه كان لهم أدب دينى كثير ، إلا أن الإسلام  
قضى عليه كما قضى على الأدب الوثنى فى الشمال . وقد حملوا مع قوافلهم  
وهجراتهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين ، فأثروا فيهم آثاراً بعيدة . وظلوا  
حتى ظهور الإسلام يشكلون عنصراً مابيناً لهم ، على الأقل من حيث النسب ،  
فكانوا يدعون القحطانيين أو اليمنيين ، بينما دُعى عرب الشمال باسم العدنانيين  
أو النزاريين . ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت فى الأكثر جوار الأمم  
المتحضرة ، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما فى الشام ونزلت لخم فى العراق . ومنهم  
من نزل فى داخل الجزيرة وأظهر ميلاً إلى التحضر والاستقرار كالأوس والخزرج فى  
المدينة وكندة فى الشمال . على أن من تم منهم اندماجهم فى البدو تلاشت فيه هذه  
التزعة مثل طي فى جبلى أجبأ وسلمى . ومن يتعقب القبائل القحطانية فى الإسلام  
يرى أنها كانت تحترم النظام المطلق ، بينما كان يمجته النزاريون .

## العرب الشماليون<sup>(١)</sup>

هم العرب العدنانيون الذين كانوا يسكنون في الحجاز ونجد وتمتد عشائرتهم وقبائلهم إلى باديتي الشام والعراق ، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد في أكثر الأحيان على رعى الإبل والأغنام . ولم تهبط لهم هذه الحياة الاستقرار في سكنى دائمة ، إلا حيث توجد بعض الواحات في الحجاز . ويظهر أنهم أنشأوا في بعض الأزمنة مملكة لهم بالحواف (دومة الجندل) في أقصى الشمال بين العراق والشام ، وقد خضعت لنفوذ الآشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها كما نراهم يفخرون بالانتصار على الثموديين في شمالي الحجاز حيث كانوا يقيمون في العُلا والحجر (مدائن صالح) . وقد اتخذ نابونيد آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م مما يدل على أنه كان بها حضارة زاھية .

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد في وحدة سياسية تجمع شملهم ، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام، ولم يهتدوا في أثناء ذلك بهدى كهدى الإسلام يجمع كلمتهم ويؤلف بينهم ، ويجعل منهم دولة واحدة ، تلعب دوراً واضحاً في التاريخ القديم . وقد كشفت نقوش آرامية في تيماء الواقعة شمالي مدائن صالح تدل على أنه قامت فيها مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق.م . وكان للمعنيين مستعمرة في ناحية «العُلا» شمالي الحجاز ، كشفت فيها نقوش معينة كثيرة ، وكانت تسمى معين مُصْران ، وكان سكانها من عرب الجنوب، وقد نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة، وما زالوا ناشطين في التجارة، حتى نشأت دولة النبط في سلع «بطرا»، فكانت هي التي تنقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر ، حتى إذا دالت دولتهم في مستهل القرن الثاني الميلادي حملها اللججانيون الذين كانوا يتزلون في دادان (العلا الحالية) .

٣٧٤ ، ٢/٢٧٧ وما بعدها ، ٥/٣ وما بعدها ،  
٤٢٣/٣ وما بعدها .

(١) انظر في تاريخ العرب الشماليين كتاب  
تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على ١/٢٢٠-



واللحيانيون عرب شماليون ، كتبوا نقوشهم بالخط المعيني المسند مما يدل على أثر الجنوبيين فيهم ، ولعلمهم كانوا يختلطون بقوم منهم ، وقد كتب التموديون ، الذين كانوا يقيمون هم أيضاً في شمالي الحجاز وكانوا عرباً مثلهم ، بهذا الخط الجنوبي ، الذي انتشر إلى منازل العرب في الصفا بحوران جنوبي دمشق ، مما يؤكد علاقة وثيقة بين هذه الأجزاء وعرب الجنوب حين كانوا يسيطرون على طريق القوافل التجارية من القرن الثامن إلى القرن الثالث ق.م وهو القرن الذي قامت فيه إمارة عربية في شمالي الجزيرة هي إمارة النبط ، فقد كان أهل هذه الإمارة يأخذون عن الجنوبيين تجارتهم ويحملونها بدورهم إلى الشام ومصر ، واتخذوا « بطرا » حاضرة لهم ، هكذا ورد اسمها عند اليونان ولعله ترجمة لاسمها الذي جاء في التوراة وهو « سلع » ، وكانت الحجر ( مدائن صالح ) حاضرتهم في الجنوب بينما كانت بؤسرى حاضرتهم في الشمال . ويظهر أن قبائل من هؤلاء النبط كانت قد سبقت إلى الإغارة على بلاد الآراميين شمالا ، فتحضرت بحضارتهم واستخدمت كتابتهم الآرامية في نقوشها ، بينما ظلت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية . وبذلك نلتقي عند هؤلاء النبط بنقوش عربية كتبت بالخط الآرامي على نحو ما التقينا عند اللحيانيين والتموديين بنقوش عربية كتبت بالخط المعيني المسند ، غير أن الخط الآرامي هو الذي انتصر فقد تطورت نقوشه حتى انتهت إلى الخط العربي الذي أشاعه الإسلام .

والمظنون أن الأنباط لم ينزحوا من نجد إلى شمالي الحجاز ، بل نزحوا من بادية الشام ، واستطاعوا أن ينهضوا بحضارة راقية لا تزال تدل عليها آثارهم في بطرا حاضرتهم الكبيرة . وقد ظلت دولتهم نحو أربعة قرون ، من القرن الثالث ق.م. إلى أوائل القرن الثاني الميلادي ، وكانت العلاقة بينهم وبين البطالسة ثم بينهم وبين الرومان حسنة ، إذ حالقاهم ولم يتعرضوا لاستقلالهم حتى كانت الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، ففضى الرومان على استقلالهم وضموا بلادهم إلى دولتهم الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد .

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور في مملكة تدمر شمالي بادية الشام في أثناء القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، وكانت السيادة فيها لهم ، غير أن السكان كان

أكثرهم من الآراميين . ووقفت تدمر صامدة خلال المنافسة الشديدة بين روما والفرس لحظة حياذ التزمها ، زادت في قوتها ومنعتها ، وأصبحت من أهم المراكز التجارية . وبلغ من علو شأنها أن استولى ملكها أذينة على سوريا كلها واعترف به الرومان إمبراطوراً على المشرق ، إلا أنهم عادوا فنكسوا عهدهم في عهد زنوبيا (الزباء) إذ حاربوها وقضوا عليها سنة ٢٧٣ م ودمروا تدمر فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . وظلت سيرة هذه الملكة وأبيها أذينة في ذاكرة العرب إلى ما بعد الإسلام ، وإن شابتها الأسطورة وبعدت عن أساسها التاريخي الصحيح .

## ٥

## النقوش ونشأة الكتابة العربية (١)

لا يكاد يخلو حجر في جنوبي الجزيرة العربية وقلبها وشمالها من نقش تذكاري نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل ، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميمهم ، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قربانين ، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرتهم وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم .

ولا تخلو ديار أمة سامية من هذه النقوش التي أتاحت لعلماء الساميات اكتشاف تاريخ هذه الأمم من جهة وقيام دراسة اللغات السامية وخصائصها ومعرفتها تطورها ومقارنتها بغيرها من أخواتها من جهة ثانية . وبذلك وقفوا وقفاً دقيقاً على حقائق هذه اللغات وحضارات أهلها وثقافتهم ودياناتهم وكل ما اتصل بهم من رقى وتطور على مر العصور والأزمان .

ص ٤٢٣ وما بعدها، ج ٧ ص ٣٦ وما بعدها  
وكتاب تاريخ الأدب العربي لبلاشير (ترجمة  
إبراهيم الكيلاني - طبع دمشق) ج ١ ص ٧٠  
وما بعدها .

(١) انظر هنا كتاب أصل الخط العربي  
وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام لحليل يحيى  
نامي (بحث في مجلة كلية الآداب المجلد الثالث،  
العدد الأول) وكتاب تاريخ العرب قبل  
الإسلام لمجواد علي ج ١ ص ١٠ و ج ٣

وقد عُرِف الأكديون في العراق بخطهم المسماري أو الإسفيني ، بينما عرف عرب الجنوب بخطهم المسند ، ومنه نشأ الخط الحبشي وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهي اللحيانية والثمودية والصفوية. واللحيانيون — كما قدمنا — قبيلة عربية شمالية ، كانت تسكن في منطقة العلا ، ونراهم يستعملون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل ، وقد اختلف في تاريخهم ، فمن الباحثين من يرجعهم إلى القرون الأولى ق.م ومنهم من يتأخر بهم إلى ما بعد الميلاد ، بل منهم من يتأخر بهم إلى القرن الخامس إذ ضعفوا وتلاشوا في قبيلة هذيل. وعدّهم الهمداني من بقايا جرهم ، ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنيين ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء . أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون ، وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مرّ بنا في الحجر (مدائن صالح) وحوها ، ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة ، فثارت بهم بعض الزلازل أو بعض البراكين ، وفي القرآن الكريم « فأخذتهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » . وقد خلّفوا كثيراً من النقوش كتبوها بالخط المسند المعيني . وهم مثل اللحيانيين والصفويين كانوا يستخدمون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل . وأما الكتابات الصفوية فعُثر عليها في الحرّة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا . وكلمة الصفويين لا تعني شعباً معيناً أو قبيلة معينة ، إنما هي اصطلاح حديث للدلالة على تلك الكتابات التي عُثر عليها في تلك الجهات . وقد عُرِف من دراستها أنها كتبت بالخط المعيني وأنها لهجة عربية قديمة كالثمودية واللحيانية ، وكثير من نقوشها يرجع إلى القرون الأولى للميلاد ، ويظهر أن من كتبوها كانوا بين التبدى والتحضر ، فمنهم البدو الرعاة ومنهم الفلاحون ، ولهم قرى ومزارع ، وربما كان لهم تجارات .

وهذه النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية عربية كما قدمنا برغم أنها كتبت بالخط المعيني الجنوبي ، فخصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وإن اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية ، إلا أنها على كل حال تصور طوراً من أطوار اللغة العربية الشمالية ، وقد احتوت على كثير من أسماء الرجال وأسماء الآلهة والأصنام .

وبجانب هذه النقوش نجد نقوشاً أخرى بالخط النبطي ، وهي تنتشر في بطرا

حاضرة ملكهم وما حولها وفي الحجر حاضرتهم الجنوبية وبُصرى بحوران في الشام عاصمتهم الشمالية وما يتصل بهذه الجهات في شرق الأردن وجبل الدروز ، وقد مر بنا أنهم كانوا الصلة بين العرب الجنوبيين وحوض البحر المتوسط ، وبلغ من قوتهم أن كان يخشاهم اليهود وبقية أُمم الشام حتى أهل روما كانوا يخشونهم ، فعملوا على القضاء على دولتهم حتى تم لهم ذلك كما قدمنا سنة ١٠٦ للميلاد . ولم ينته بذلك تاريخهم ، فنقوشهم تستمر إلى القرن الثالث الميلادي ، ويظهر أنهم تلاشوا بعد ذلك في العرب . وكانوا يتكلمون في أحاديثهم اليومية العربية ، إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبعاديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم ، ولذلك قد يعدم بعض الباحثين من الآراميين ، ولكن من المحقق أنهم كانوا عرباً يتخاطبون بالعربية .

ولما سقطت دولتهم وانتشروا في الحجاز ونجد أخذ شيوخ العرب وأمراؤهم يتخذون خطهم في كتابة نقوشهم وهجروا الخط اللحياني والثمودي والصفوي . وسرعان ما تطور هذا الخط النبطي الآرامي إلى الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والمؤلفات الإسلامية . وهناك روايات عند المؤرخين المسلمين تزعم أن الخط العربي منشؤه الحيرة وأنه نُقل منها إلى مكة والحجاز . غير أن هذه الروايات لا تتفق ووثائق النقوش التي كشفت في الحجاز ودرسها علماء اللغات السامية ، فقد وجدوا نقوشاً حجازية وغير حجازية تصور انتقال الخط الآرامي إلى خط نبطي ، ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربي . والمعروف أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية وكانت تزخر بالثقافة السريانية ، كما كانت تكتب بالخط السرياني قلم المسيحيين في هذه الأنحاء . ولا يعقل أن يكونوا هم الذين تطوروا بالخط النبطي واشتقوا منه الخط العربي ، لأنه لم يشع في ديارهم ولأنه كان خط الوثنيين في شمالي الحجاز . وقد يكون مرجع هذا الهم في روايات المؤرخين الإسلاميين أن الخط الكوفي نما وازدهر في الكوفة ، فظنوا أن هذه البيئة هي التي ابتكرت الخط العربي وأنه نما وتطور في الحيرة .

والحق أنه إنما حدث له هذا النمو والتطور في الحجاز نفسها ، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة ، جعلتهم يأخذون الخط المعيني أولاً ، ويتطورون به إلى

خطوطهم الحيانية والثمودية والصفوية . ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامي وتطورت به ، وتفرق أهلها بعد سقوطها في داخل الجزيرة وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطي ، فهجرَ عرب الحجاز القلم المعيني وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطي إلى خطهم العربي الحديد متطورين به ضرورياً من التطور حتى أخذ شكله النهائي .

وليست المسألة مسألة فرض واحتمال ، وإنما هي مسألة نقوش حملت إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذي لا مطعن فيه على هذه الحقيقة ، فقد عثروا على نقوش في شمالي الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطي تطوراً سريعاً إلى الخط العربي . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليثان في قرية أم الجمال غربي حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠ م وهو لفهر بن سُلَيْمٍ الذي كان مريباً لجذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطي إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش التمارة الذي اكتشفه دوسو وماكلر سنة ١٩٠١ على بعد ميل من التمارة القائمة على أطلال معبد روماني شرقي جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التي عثُر فيها على الكتابات الصفوية ، وقد كُتِبَ شاهداً لقبير ملك من الملوك اللخمييين يسمى امرأ القيس بن عمرو ، وأُرِّخَ بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بُصْرِي وهو يوافق شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ٣٢٨ م وهذا نصه :

تِي نَفْسِ مَرِ الْقَيْسِ بَرِ عَمْرٍو مَلِكِ الْعَرَبِ كُلِّهِ ذُو أَسْرِ التَّجِ  
وَمَلِكِ الْأَسْدِيْنَ وَنَزْرٍو وَمُلُوكِهِمْ وَهَرَبٍ مَذْحَجٍو عَكْدِي وَجَا  
بِزَجَيِّ فِي حَبِيجِ نَجْرَانَ مَدِينَةَ شَمْرِ وَمَلِكِ مَعْدُو وَنَزَلَ بَنِيهِ  
الشَّعُوبِ وَوَكَلَهُنْ فَرَسُو لِرُومِ فَلَمْ يَبْلُغْ مَلِكِ مَبْلُغِهِ  
عَكْدِي . هَلِكِ سَنَةِ ٢٢٣ يَوْمِ ٧ بِكْسَلُولِ بِلِسَعْدِ ذُو وَلَدِهِ

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة تي الإشارية التي للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذي ، وهي لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طيء ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها في المعاجم العربية . وقد حذف الألف من كلمة « التاج » ،

ولم يكونوا يشبهونها حينئذ . وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية . ونراه في السطر الثاني يضيف واو إلى نزر و مذحجو وفقاً لكتابة النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدي فلعلها عكديا ، حذفت منها الألف ، وفي المعاجم العكد : القوة . ويريد بالأسدين قبيلتي أسد . ونراه في السطر الثالث يستخدم كلمة بزجي من فعل زجا بمعنى دفع أى باندفاع ، ومعنى حبّج في المعاجم أشرف وكأنها استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمير من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب . وفي السطر الرابع ووكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم . وفي السطر الخامس بلسعد ذو ولده أى لیسعد الذى ولده .

وواضح أن النص يمثل طوراً من أطوار اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا كلمة بر الآرامية ، وقد استخدمت فيه أل أداة للتعريف . وإذا أردنا أن نكتبه ونقربه إلى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو :

هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذى عقد التاج  
وملك قبيلتي أسد ونزاراً وملوكهم وشتت مذحجاً بالقوة وجاء  
باندفاع (بانتصار) فى مشارف نجران مدينة شمير . وملك معدا وولى بنيه  
الشعوب ، ووكله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه  
فى القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، لیسعد الذى ولده  
ولعل فى هذا النص ما يدل على أن اللغة العربية التي سيشرفها القرآن الكريم  
بنزوله فيها كانت قد أخذت تبسط سلطانها إلى شمالى بلاد العرب منذ أوائل القرن  
الرابع الميلادى . وتوجد الروابط بين الحروف فى هذا النص وتتخذ الحروف شكلاً  
أكثر استدارة .

ولهذا النص أهمية تاريخية بعيدة ، فهو يحدثننا عن ثانى ملوك الحيرة جدود  
المناذرة ويذكر أنه ملك قبيلتي أسد وقبيلة نزار وملوكهم ، وشتت قبيلة مذحج ، وانتصر  
على جموع نجران . ولعل هذه أول إغارة ثابتة تاريخياً لعرب الشمال على عرب  
الجنوب ومدينتهم نجران . ويحدثننا النص أيضاً أنه ملك معداً وولى بنيه على الشعوب

والقبائل الكبيرة ، وقد عقدت المعاهدات مع الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه في القوة . وليس هذا كله ما يحدثنا به النص ولا كل دلالته ، فوراء ذلك دلالة أعمق ، إذ يقول هذا الملك ملك العرب كلهم ، وتلك - ولا ريب - أول محاولة في إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين ، بعد أن دمر الرومان دولتهم في بطرا وتدمر . على أن إمارة الحيرة لم تلبث أن خضعت للفرس ، وقد خضع الغساسنة في الشام للبيزنطيين وأخذت البعثات المسيحية تغزو الشمال في غربيه وشرقيه . ولعل ذلك ما جعل العرب يلتفتون حول مكة ، وخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها واحتلتها الحبشة ثم الفرس . وقد نقلوا إليها من الجنوب والشمال أصنامهم ، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وأخذت تقوم بما كانت تقوم به اليمن من نقل التجارة وعروضها بين المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط .

ونمضي بعد نقش النمارة نحو مائة وثمانين عاماً ، فنلتقي في زبد الواقعة جنوبي شرق حلب بنقش وُجد على باب أحد المعابد هناك أُرِّخ سنة ٥١٢ م وفيه نرى خصائص الكتابة العربية الجاهلية تتكامل . ومن غير شك حدثت تطورات متعددة بينه وبين نقش النمارة ، أعدت لهذه الصيغة العربية الخالصة التي نجدها فيه أو بعبارة أدق في خطه . وعلى شاكلته نقش حَرَّان اللَّجَا الذي عُنر عليه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق وهو مؤرخ بسنة ٥٦٨ م .

ومعنى هذا كله أن الخط العربي نشأ وتطور شمالي الحجاز ، وأنه لا يرجع في نشأته وتطوره إلى بلاد العراق ، فتلك الوثائق السابقة دليل لا يرقى إليه الشك في أنه نشأ من الخط النبطي وتطور حتى أخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس الميلادي في تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة . وهو يختلف اختلافاً تاماً عن الخط الكوفي ذي الزوايا الذي يَرسَم في أشكال مستديرة . فالحجاز هو موطنه ، وهو الذي نشره في محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التي كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية .

## الفصل الثانى العصر الجاهلى

١

### تحديد العصر

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلى يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية فى عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده . ولكن من يبحثون فى الأدب الجاهلى لا يتسعون فى الزمن به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية ، وهى الحقبة التى تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، والتى جاءنا عنها الشعر الجاهلى . ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال : « أما الشعر ( العربى ) فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام » (١) . وهى ملاحظة دقيقة ، لأن ما قبل هذا التاريخ فى الشعر العربى مجهول ، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتهم فى بطرا وتدمر ، إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية قليلة وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات ، وتشير تلك النقوش والأخبار إلى إمارات الغساسنة فى الشام والمناذرة فى الحيرة ومملكة كندة فى شمالى نجد ، غير أن معلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادى محدودة ، وهى إنما تتضح فى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه ، إذ حمل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الإمارات وأمرائها الذين كانوا يستولون فيها على الحكم ، كما حملوا إلينا كثيراً من

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٧٤/١ .



الأخبار عن مدن الحجاز وخاصة مكة بيت الكعبة المقدسة ، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب .

من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذى ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية ، والذى تكامل فيه نشوء الخط العربى وتشكله تشكلاً تاماً كما قدمنا فى غير هذا الموضوع . فذلك العصر المتميز الواضح فى تاريخ العرب الشماليين هو العصر الجاهلي .

وينبغى أن نعرف أن كلمة الجاهلية التى أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ونقيضه <sup>(١)</sup> ، إنما هى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقى كريم . ودارت الكلمة فى الذكر الحكيم والحديث النبوى والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميَّة والطيش والغضب ، فى سورة البقرة : ( قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ) وفى سورة الأعراف : ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) وفى سورة الفرقان : ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) . وفى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وفى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وواضح فى هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استُخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحميَّة والأخذ بالثأر وإقرار ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

(١) انظر مادة جاهلية فى دائرة المعارف الإسلامية .

## الإمارات العربية في الشمال ( الغساسنة - المناذرة - كندة )

ليس بين أيدينا وثائق توضح في دقة نشأة هذه الإمارات ، التي ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على تدمر ، فتاريخها قبل العصر الجاهلي أو قبل أواخر القرن الخامس الميلادي يحيط به الغموض ، ويظهر أن الرومان وخلفاءهم البيزنطيين اتخذوا من الغساسنة في الشام إمارة تحجز بينهم وبين البدو وغاراتهم وتساعدهم في حروبهم ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة أو الحيرة في العراق . وبالمثل اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة دعماً تحميهم من غارات البدو وجنوداً تقف في صفوفهم في أثناء حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين والغساسنة . وبين الطرفين قامت إمارة كندة في شمالي نجد ، وكانت تدين بالولاء فيما يبدو للملوك اليمن الحميريين : ملوك سبأ وذى ريدان ويمنات .

والغساسنة<sup>(١)</sup> يعودون في رأى نسائي العرب إلى أصل يمني ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة أهمها جندام وعاملة وكلب وقضاعة . وقد أقاموا إمارتهم في شرقي الأردن ، ولم يتخذوا لها حاضرة بعينها فتارة تكون حاضرتهم الجولان أو الجابية ، وتارة تكون جلولاء أو جلق بالقرن من دمشق . وقد يكون في ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدواً يرحلون بنخيامهم ولبلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان في تلك الأنحاء . ويقال إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعة ، تغلبوا عليهم ، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التي حلوا فيها ، وقرَّبهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم القاباً رسمية من ألقابهم .

ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مزيقياء ، ولذلك

لجواد على ١١٨/٤ وما بعدها ومحاضرات في تاريخ العرب لصالح أحمد العلي ٤٤/١ وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى ( نشر دار الثقافة ببيروت ) ٤٤٦/١ .

(١) انظر في الغساسنة تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمة الأصفهاني ، وكتاب « أمراء غسان » لتولدك ترجمة قسطنطين زريق وبنتلي جوزي ، وتاريخ العرب قبل الإسلام

يسمون آل جَسَنَة ، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذي غزا فلسطين سنة ٤٩٧ للميلاد ، وخلفه ابنه الحارث (٥٢٨ - ٥٦٩) ويسمى أحياناً الحارث بن أبي شمر ، وقد لعب دوراً مهماً في حروب الإمبراطور جستينيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأنعم عليه بالإكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب في الشام ومنحه لقب فيلارك ومعناه شيخ القبائل ، ولقب البطريق ، وهو أعظم الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الملك . وقد اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة في حروب طاحنة ، وقع في أثناءها أحد أبنائه في قبضته سنة ٥٤٤ فقدمه المنذر ضحية للعزى . وثأر الحارث لنفسه في يوم حكيمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قُتل فيها ، وفي أمثال العرب : « ما يوم حليمة بسر » .

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمالى تدمر . وكانوا قد دخلوا في المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي ، وزار الحارث القسطنطينية ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، واستطاع أن يقنع أولى الأمر هناك بتعيين يعقوب البرادعي أسقفاً على الكنيسة المونوفيسيتية السورية فنشر عقيدته في سوريا وبين الغساسنة . وخلفه ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨١) فسار سيرته في تأييد العقيدة المونوفيسيتية التي لم تكن تتفق مع عقيدة البيزنطيين الرسمية ، كما سار سيرته في حروبه مع المناذرة ، فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠ في سلسلة معارك أهمها معركة عَيْنِ أباغ وفيها انتصر عليه انتصاراً حاسماً تغنى به الشعراء طويلاً . وتدل الدلائل على أن خلافاً نشب بينه وبين البيزنطيين ، لعل مرجعه إلى تأييده للعقيدة المونوفيسيتية ، وربما خافوا منه أن يثور عليهم كما ثارت الزباء على الرومان من قبل ، فحرموه من الإعانات التي كانوا يقدمونها إليه وإلى آبيه ، وقلبوا له ظهر الحنن ، ولكنهم عادوا إلى مصالحته ، حتى إذا حانت لهم فرصة منه قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية ، وثار أبناؤه بقيادة النعمان عليهم ، غير أنه لقي نفس المصير حوالي سنة ٥٨٤ .

ومنذ هذا التاريخ تمزقت وحدة الغساسنة ، إذ تجزأت إمارتهم أجزاء ، على كل جزء أمير كبير أو صغير ، ويلمع اسم الحارث الأصغر ، ويظهر أن جيوشه كانت

تشبكت مع القبائل النجدية في حروب دامية ، وقد أسرني إحداها شأساً أخا علقمة ابن عبدة الشاعر التميمي المشهور ، فرحل إليه يمدحه<sup>(١)</sup> رجاء أن يفك أخاه من أسره ، ونراه يذكر في مديحه معاركه وما كان ينزله بأعدائه من خسائر ، يقول :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ      صَوَاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ دَبِيبٌ<sup>(٢)</sup>  
فَلَمْ تَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بُلْجَامَهَا      وَإِلَّا طِيرٌ كَالْقَنَاةِ نَجِيبٌ<sup>(٣)</sup>  
وَإِلَّا كَمِيٌّ ذُو حِفَافٍ كَأَنَّهُ      بِمَا ابْتَلَّ مِنْ حَدِّ الطُّبَاتِ خَضِيبٌ<sup>(٤)</sup>  
وَأَنْتَ أَرَلْتَ الْخُنْزَوَانَةَ عَنْهُمْ      بِضَرْبٍ لَهُ فَوْقَ الشُّونِ دَبِيبٌ<sup>(٥)</sup>  
وَأَنْتَ الَّذِي آثَرَهُ فِي عَدُوِّهِ      مِنَ الْبُؤْسِ وَالنُّعْمَى لَهْنٌ نُدُوبٌ<sup>(٦)</sup>

وكان لابنيه النعمان وعمرو جيوش قوية ، تجوب نجداً والصحراء الشمالية وتدين لها القبائل بالطاعة ، ويظهر أن جيوش عمرو اشبكت في حروب مع بني أسد وبني فزارة ، ووقع كثير من أسرى القبيلتين في يد عمرو ، فقصده النابغة الذبياني يمدحه متوسلاً إليه في فكأكهم ، فأكرمه ، كما أكرمه أخوه النعمان ، ودبج فيها مدائح كثيرة ، لعل أروعها قصيدته البائية التي يقول فيها<sup>(٧)</sup> :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ      عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ  
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ      بِهِنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ

الفرس المتحفزة للوثوب ، شبهها بالقناة في الضمور .

(٤) الكى : الشجاع ، والظباة : جمع ظبة وهي حد السيف ، وخضيب : مصبوغ بالدماء .

(٥) الخنزوانة : الكبر ، وشؤون الرأس : ملتحق عظامها .

(٦) ندوب : جروح .

(٧) مختار الشعر الجاهل لمصطفى السقا ( طبع

الجلبي ص ١٥٩ .

(١) يذكر أكثر الرواة أن علقمة إنما قصد بقصيدته الحارث بن جبلة ( انظر ديوان علقمة بشرح الشتمري طبع الجزائر سنة ١٩٢٥ ص ٢٥ ) وراجع القصيدة في المفضليات . وقد دحض فولدكه هذه الرواية ذاهباً إلى أن القصيدة في مديح الحارث الأصغر . انظر جواد على ١٤٣/٤ .

(٢) صابت : مطرت ، يقول أصابها الصواعق فلم تقدر على الطيران فذبت تطلب النجاة .

(٣) الشطبة : الفرس الطويلة ، والطرير :

وعمر وهو ممدوح حسان بن ثابت ، وقد كان ينزل به وبغيره من أمراء الغساسنة ، وله فيه مطولة مشهورة يقول في تضاعيفها (١) :

أولاد جَفَنَةَ حول قَبْرِ أَبِيهِمْ      قبر ابن ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ  
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابهم      شُمُّ الأتوفِ من الطَّرَازِ الأوَّلِ

وعلى نحو ما كان ينزل به كان ينزل بجبله بن الأيهم الذي لحق الفتوح الإسلامية ، وحارب في صفوف الروم ، ثم أسلم وعاد فتنصر في عهد عمر بن الخطاب ، ورحل إلى بيزنطة . ويقال إنه حين أسلم دخل المدينة في موكب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزيينه لؤلؤلتان كانتا فيما مضى قرطين لأم الحارث بن جبلة .

وفي أخبار الغساسنة المتأخرين ما يدل على أنهم كانوا يصيبون حظوظاً من الترف والتنعيم ، فقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم ، فقال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . . . وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فُرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندي إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطَّن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ، يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء الفراء الفسك وما أشبهه . ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلعت علي ثيابه التي عليه في ذلك اليوم (٢) » .

ويقابل الغساسنة في الشام المناذرة (٣) في العراق ، وهم من لخم ، ويعود بها النسابون إلى أصل يمني ، هي وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ . وقد

وتاريخ العرب ( مطول ) لفيليب حتي  
( الترجمة العربية ) ١٠٧/١ ومحاضرات  
في تاريخ العرب لصالح أحمد العلي  
١٥/١ وما بعدها .

(١) ديوان حسان ( طبعة ليدن ) ص ١٦ .

(٢) أغاني ( ساسي ) ١٤/١٦ .

(٣) انظر في المناذرة تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥/٤ - ١١٧ ،

احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسة الرومان والبيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام . وربما كان جذيمة الأبرش أهم ملك أسطوري ظهر في هذه الأنحاء قبل اللخمين ، ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمي وهو رأس المناذرة . وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم ، فأخذ عنهم العرب ، على أن ابن الكلبي يزعم أنه استخرج تاريخهم من بيع الحيرة وأديرتها .

وكان هؤلاء العرب العراقيون ينزلون في الخيام أولاً ، ثم تحولوا إلى قرية في الجنوب الشرقى من النجف الحالية ، كانت تقع في منطقة خصبة يرويها نهر الفرات ، وهى الحيرة ( تحريف لكلمة حرثا في السريانية ومعناها الخيم أو المعسكر ) وسرعان ما نصب عليها الساسانيون المناذرة ليحموهم من غارات البدو وليساعدوهم في حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام . ويقال إن سابور ( ٢٤١ - ٢٧٢ ) هو الذى نصب عمرو بن عدى ، وتتابع من بعده خلفاؤه من بيته ، وربما كان ابنه امرؤ القيس الذى عُثر على نقشه فى النجارة كما أسلفنا يدين بالولاء للفرس والروم جميعاً . أما من خلفوه فكانوا يدينون بهذا الولاء للفرس وحدهم . ومن أهمهم النعمان الأعور أو السائح ، وكان له جيش قوى يتألف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر ، واشتهر ببنااته قصرى الخورنق والسدير ، ونرى الملك الساسانى الذى كان يعاصره وهو يزيدجرد الأول ( ٣٩٩ - ٤٢٠ ) يرسل أكبر أبنائه إليه ، لينشأ فى قومه ، وليتعلم الفروسية والصيد ، وهو بهرام جور . ولما توفى يزيدجرد أراد الفرس إقصاءه عن العرش فتدخل النعمان ، وأيده بجيش مكثه من استرداد عرشه ، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة . وهى لها موقعها فى طرق القوافل أن كانت مركزاً مهماً للتجارة ، فعاش المناذرة معيشة يسودها غير قليل من الترف ، بسبب التجارة التى كانوا يشاركون فيها وبسبب ما كان عندهم من حياة زراعية . ومن غير شك يسبق المناذرة الغساسنة فى الرخاء ، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالقياس إلى غساسنة الشام ، كما جعلهم أكثر حضارة ورفقاً .

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء ( حوالى ٥١٤ - ٥٥٤ م ) وقد

ساعت العلاقات بينه وبين قباذ ملك الفرس في أوائل حكمه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن قباذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة وحاول أن يفرضها على المناذرة فأبى المنذر ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فتوفى قباذ ، وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره المزدكية والمزدكيين ، فأعاد المنذر إلى حكم الحيرة ، ونسبت بينه وبين الحارث الكندى وأبنائه سلسلة حروب قضت عليهم جميعاً . وربما كان من أسباب القضاء عليهم استيلاء الحبش على اليمن وانحلال ملك الحميريين هناك ، منذ سنة ٥٢٥ . ومهما يكن فقد تحولت قبائل نجد وشرقي الجزيرة إلى الحيرة ، فدان معظمها للمنذر بالولاء ، ويظهر أنه مدّ سلطانه إلى عُمان كما تحدثنا بذلك الأخبار . وقاد منذ عاد إلى عاصمته سنة ٥٢٩ حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين كُتب له النصر في كثير منها ، ونستطيع أن نقف على مدى انتصاراته في هذه الحروب من معاهدة عُقدت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٣٢ أدواً له فيها ما أدّوه للفرس من أموال . واشتهر بين العرب بأن كان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس ، فكان أول من يطلع عليه في اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه في اليوم الثاني يقتله ، ومن قتله في هذا اليوم المشثوم عبيد بن الأبرص ، ويقولون إنه راجع نفسه ، فأقلع عن هذه العادة السيئة ، ويقال أيضاً إنه قتل - وهو ثمل - نديمين له ، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وهما الغريتان اللذان يذكران في أشعار العرب . وقد يكون هذا كله من باب الأسطورة ، وربما كان الغريان نصبيين من الأنصاب التي كان العرب الوثنيون يهرقون دماء الأضحيات والذبائح عندها . وما زال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتى قتل في يوم حليلة كما أسلفنا .

وخلفه ابنه عمرو بن هند ( ٥٥٤-٥٦٩م ) وينسب إلى أمه في بعض الروايات دبر هند في الحيرة ، وربما كانت نصرانية ، أما هو فكان وثنيّاً على دين آبائه ، وكان طاغية مستبدّاً ، وفيه يقول أحد الشعراء (١) :

أبى القلبُ أن يَهْوَى السِّدِيرَ وأَهله      وإن قيل عيشُ بالسِّدِيرِ غريرُ

به البقُّ والحُمى وأسدُّ خَفِيَّةٍ وعمرو بن هندٍ يَعْتَدِي وَيَجُورُ

ولقبه العرب بالحرِّق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرقاً وبراً بنذره في يوم أواره باليمامة . واشتبك مع تغلب وطي في بعض معاركه ، ويظهر أن سلطانه امتد على قبائل كثيرة في شرق نجد وشمالها وغربها ، وكان بحكم استبداده يتعرض له كثير من الشعراء بالهجاء ، وقصته مع طرفة والمتلمس مشهورة . وينسب إليه شعر كان ينظمه ، وقد أصبحت الحيرة في عهده مركزاً أدبياً مزدهراً ، إذ كان يجزل العطاء للشعراء ، فوفد عليه كثير من منهم عمرو بن قميئة والمسيب بن علس والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم التغلبي الذي يقال عنه إن ابن هند لقي مصرعه على يده ثاراً لكرامة أمه ليل حين أهينت في بيته .

وولى أمر الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع ، ولم تطل مدتهما ، وبذلك نصل إلى النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبي قابوس ( ٥٨٠ - ٦٠٢ ) وقد نشأ في حجر أسرة مسيحية هي أسرة عدى بن زيد العبادي ، ولعل ذلك سبب تنصره فهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة الوثنيين . وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعمان ، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة . وسار سيرة عمرو بن هند في رعايته للشعراء ، فوفد على بابيه منهم كثير من مثل أوس بن حجر والمنخل الشكري ولييد والمثقب العبدى وحجر بن خالد الذي يقول فيه <sup>(١)</sup> :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبي قابوس حزمًا ونائلاً

وهو ممدوح النابغة الذبياني ، وله فيه غير قصيدة ، وحدثت جفوة بينهما ، بسبب وفود النابغة على الغساسنة ، وأرسل له بمجموعة طريفة من قصائده يعتذر إليه وهي من أجود ما خلّف الجاهليون ، وفي إحداها يقول :

نُبِّئتُ أن أبا قابوسٍ أوعدني ولا قرارٍ على زارٍ من الأسدِ

وكان الشعراء يتعرضون له بالهجاء أحياناً وينالون منه ، على نحو ما نرى عند يزيد بن الجذّاق الشنّي من بني عبد القيس <sup>(٢)</sup> وعبد قيس بن خفاف البرجميّ

(٢) انظر الفضليات (طبع دار المعارف)

رقم ٧٨ ، ٧٩ .

(١) الحيوان ٥٨/٢ والمرزوق على ديوان

الحملة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)

ص ١٦٤٠ .



القيسي<sup>(١)</sup> . ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد ، ويقال إنه قتل عدى بن زيد فضاق به كسرى الثاني ملك الفرس واستدرجه إلى حاضرتة بالمدائن ، وألقاه في غيابة السجن ، ثم قتله ، ويقال إنه رمى به تحت أرجل القبيلة فزقته إرباً . ولم يولّ الفرس بعده أحداً من هذا البيت فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ، وثارَت قبيلة بكر حمية للنعمان على إياس والفرس وهزمتها شر هزيمة في يوم ذى قار . وبقيت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

واحتلت الحيرة وأمراؤها حيزاً كبيراً في أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن الغريسيّ وقصرى الخورنق والسدير، وطالما قصوا عن أمرهم الحقيقيين والأسطوريين مثل جديمة الأبرش. ويظهر أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة ، وكانوا أوسع منهم سلطاناً إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة . وعلى نحو ما أكثر الشعراء في مديح النعمان بن المنذر وأسلافه أكثروا من استعظافهم حتى لا تغزّوهم جيوشهم<sup>(٢)</sup> وقد يشكون من ثقل الضرائب وبما كانوا يدفعون ويؤدون من الإتاوات في أسواق العراق وفي غير أسواق العراق<sup>(٣)</sup> .

وكل الدلائل تدل على أن الحياة كانت مزدهرة في الحيرة قبيل الإسلام ، وكان أكثر سكانها من القبائل العربية ، وكان يجاورهم العباديون من النصارى ، ويظهر أنهم كانوا أخلاطاً من العرب وغير العرب . كما كان يجاورهم الأحلاف من بعض العرب ومن النبط : سكان العراق من بقايا الأكديين والآراميين ، وكانوا يحترفون الزراعة ، وكانت هناك جالية فارسية ، تتمن بعض المهن والحرف ، ويظن أنه كان هناك بعض اليهود . وكانت الحيرة كما قدمنا سوقاً تجارياً كبيراً ، وكل ذلك أعدّ لأن تتحضر ، وأن تتأثر بالثقافة الهيلينية الفارسية التي كانت تعم في تلك الأنحاء .

(٣) المفضليات رقم ٤٢ البيت ١٦ - ١٧  
وقارن مع رقم ٤١ البيت ١٧ .

(١) الحيوان ٤/ ٣٧٩ .  
(٢) الأصمعيات ( طبعة دار المعارف )  
رقم ٥٨ .

وبين إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة قامت إمارة ثالثة فى شمالى نجد كان أمراؤها يدينون - فيما يظهر - بالولاء لليمن ، وهى إمارة كندة<sup>(١)</sup> ، ويرجع النسابون بها - كما رجعوا بالغساسنة والمناذرة - إلى عرب الجنوب ، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم فى مواطنها الأصلية بمحصرموت إلى أن جاء الإسلام . وعُثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية فى القرن الرابع الميلادى .

وأشهر ملوكها فى القرن الخامس حُجْرُ الملقب بأكل المُرار ، وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية فى نجد وأن يمد نفوذه إلى الجمامة وتخوم إمارة المناذرة ، ويقال إن بكرًا وتغلب دانئا له بالطاعة . وخلفه ابنه عمرو المقصور ، وقد يكون فى هذا اللقب ما يدل على أن سلطانه كان محدوداً ، وفى عهده نقضت بكر وتغلب ولاءهما له ، ولم تلبث الحرب أن استعرت بين القبيلتين أربعين عاماً ، وهى حرب البسوس المشهورة .

وأعقبه ابنه الحارث ، وفى عهده بلغت كندة ذروة مجدها ، فقد خضعت له قبائل نجد ، ولجأت إليه بكر وتغلب فأصلح بينهما ، وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معد يكرب كما أقام على أسد ابنه حُجْرًا وعلى قيس عيلان ابنه سلمة ، وعقد محالفة بينه وبين إمبراطور بيزنطة ، ووجه همه إلى الإغارة على المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء ، وانتصر فى غير موقعة . ولم يلبث قباز ملك الفرس أن خلع المنذر وعينه والياً على الحيرة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أن قباز لم يلبث أن توفى ، فعاد ابن ماء السماء إلى الحيرة ، ويقال إنه أوقع بالحارث هزيمة نكراء ، قتل فيها وقتل معه أكثر من أربعين أميراً من بيته . ودس المنذر بين أبنائه ، فتحاربوا وسقط شرحبيل وسلمة فى ميادين الحرب وجُنَّ معد يكرب ، وانتقضت قبيلة أسد على حُجْر أبي القيس وقد حاول أن يسترد ملك أبيه ولكن المنذر كان له بالمرصاد ، ففشلت محاولاته وباعت بالخذلان ، ويقال إنه رحل إلى إمبراطور بيزنطة يستعين به فى محاربة المنذر خصمه ، غير أنه لم يعد

تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ٦٨/١ وتاريخ العرب (مطول) لتفليب حتى ١١٤/١ وما بعدها .

(١) انظر فى كندة وأمراؤها Olinder, The Kings of Kinda of تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على ٢١٥/٣ - ٢٧٣ ومحاضرات فى

من رحيله ، فقد مات دون أمنيته ، وشعره يفيض بالحقد على ابن ماء السماء وأصحابه الحيرين ، بينما يفيض شعر عبيد بن الأبرص شاعر بني أسد بالسخرية منه وبيان عجزه عن استرداد ملك آبائه مع الوعيد الشديد والتهديد .

٣

### مكة وغيرها من مدن الحجاز<sup>(١)</sup>

في منتصف الطريق المعبّد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة في واد من أودية جبال السّراة ، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « بوادٍ غير ذي زرع » . وهي تراءى لنا في العصر الجاهلي ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تراءى لنا أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية . ويقال إنه كان يسكنها في غابر الأزمنة قبائل من جرهم وبقايا من الأمم البائدة ، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال ، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجاري المهم . ولانصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصيّ ومعه قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة . ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هي من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم . وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرسقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ، وحاول أبرهة والى الحبشة على اليمن أن يستولى عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ فباعت حملته بالفشل الذريع ، فزاد ذلك في تقديس العرب لها وإعظامها وعمدّها رمزاً لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم ، إذ لم تدنْ لأى ملك أجنبي ، وفي ذلك يقول حرب بن أمية<sup>(٢)</sup> :

أبا مَطَرٍ هَلُمَّ إِلَى صَلَاحٍ  
فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ قَرِيْشٍ

وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وكتابي مكة والطائف قبل الهجرة ، للامنس .  
(٢) الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ وصلاح هنا: مكة .

(١) انظر في هذه المدن تاريخ العرب قبل الإسلام ١٨١/٤ وما بعدها وصالح أحمد العلي ص ٧٧ وما بعدها وفيليب حتى ١٤٤/١

فتأمنَ وَسَطَهُمْ وتعيش فيهم  
وتنزلَ بلدةً عزَّتْ قديماً  
أبا مطرٍ هُديتَ لخير عيش  
وتأمنَ أن يزورك ربُّ جيش

وقد هياً لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلاً ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها . وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب في اليمن وحضرموت وإلى الشرق في الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بَصْرَى في الشام وإلى غزة ومصر . وفي الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة ، يقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعزَّ العرب ، يتأمرون عليهم قاطبة » (١) وكانوا يأخذون منهم إتاوة تسمى الحرِيم إذا نزلوا في بلدهم (٢) كما كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم ، وكان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة (٣) يدل على ذلك الصحبايان الجليلان : صُهَيْب الرومي وسلمان الفارسي .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب ، فهي بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدسة ، فيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ومجنة وذى الحجاز . ولم تكن أسواقاً تجارية فحسب ، بل كانت أسواقاً أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر ، فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكمون من أمثال النابغة فيحكمون للمتفوق ببراعته . وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق ، سيطرت فيها لغتها بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها في أسواق العرب خارج ديارها ، فأصبحت لغة الأدب الرفيعة .

ولعل في هذا كله ما يدل على عظم شأنها في الجاهلية ، وقد زعم لامنس في

O'leary, Arabia Before (٢) انظر

Muhammad (London, 1927) P. 184

وراجع مروج الذهب للمسعودي (طبعة باريس)

١٤٨/٢

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه (طبعة أوربا)

ص ١٨ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وأخبار

مكة للأزرقي (طبعة أوربا) ص ١٧٥ .

كتابه عنها أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية التجارية<sup>(١)</sup> ، وقد وقف طويلاً عند ملكها ونظامها التجاري المعقد ، ومعروف أنه كان بها ملاً يجتمع بدار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة ، وكانوا يختارون على ما يظهر حسب ثرائهم وخدماتهم التي يؤدونها وهم سادة بطونها في البطاح وكانوا ينظرون في شئونها التجارية والدينية . وكانت تشبه مصرفاً كبيراً ، به المكاييل والموازين والبيع الحاضر والمؤجل والربا وصنوف المضاربة المختلفة . واشتهر فيها بيتان بالثراء هما بيتا الأمويين والخزوميين ، وكان للأولين أكثر قافلة بدر ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأسها ، وفي الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات الخزوميين وكان منهم من يسمى ربّ مكة<sup>(٢)</sup> . ولم يكن الثراء خاصاً بهذين البيتين فقد كان عبد الله بن جدعان وهو من تيسم ثرياً ثراء مفراطاً ، وشبهه بعض الشعراء بقيصر ، فقال<sup>(٣)</sup> :

يوم ابن جدعان بجنب الحزوره كأنه قيصر أو ذو الدسكره

وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى ، وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال ، ومديح أمية بن أبي الصلت في عبد الله بن جدعان مشهور .

وبهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية إذ كانت مثابة للعرب وأمناً . وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة ، وهم : هاشم وأمّية ومخزوم وتيم وعدي وجُمح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالي ، والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب اعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها<sup>(٤)</sup> ، وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة . ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مترفة ، بحكم ثرائهم واتصالهم بالفرس

مادة حزورة ٤٤٤/٢ . والحزورة : الرابية .

(٤) الحاسن والأنداد ص ٧٧ وقارن بالأغاني

(طبعة دار الكتب) ٦٥/١ .

(١) Lammens, LaMecque, P.175

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ و ٩٢ .

(٣) معجم ما استعجم للبكري (طبعة السقا)

والروم ، ويقال إنهم كانوا يصيفون في الطائف ويشتون في جدة ، ونجد في سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة<sup>(١)</sup> . ويقال أيضاً إن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دُفن في حُلَّتَيْن قيمتهما ألف مثقال من الذهب<sup>(٢)</sup> . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة<sup>(٣)</sup> والنجاشيين والأكاسرة<sup>(٤)</sup> ، كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التي كانوا يمرون بها في طرقهم التجارية<sup>(٥)</sup> .

ولكن هذا جميعه ينبغي أن لا يجعلنا نبالغ مبالغة لامنس ، فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كان مجتمعها قليلاً ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حلف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هناك أن اشتراكهم في مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف في القبائل الجاهلية ، ووجود ملاً فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة . إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر في شئونها حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد ، فقد كان كل فرد متمتعاً بحريته ، مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة . وهذا نفسه هو النظام الذي كان سائداً في مكة قبل الإسلام ، فالفرديته وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية .

وإلى الجنوب الشرقي من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلاً تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء ، فكان القرشيون كما قدمنا يصطافون فيها حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الخمر الصافية . وكانت

(٤) اليعقوبي ٢٨٢/١ والطبرى نفس الصفحة

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ١٨ .

السابقة .

(٢) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا) ١٣/٢ .

(٥) اليعقوبي ٢٨٠/١ .

(٣) اليعقوبي ٢٨٠/١ والطبرى (طبعة

أوربا) ١٠٨٩/١ .

تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وهناك قصة تزعم أنها من بقايا ثمود ، وربما كان لهذه القصة أصل صحيح ، وأن التهوديين حين تقوضت إمارتهم في الشمال هاجروا إلى الطائف كما هاجر اللحيانيون إلى منازل هذيل بين مكة والمدينة ، وقد يدل على ذلك أننا نجد النسابين يذكرون من بطون هذيل بنى لحيان ، وكأنهم ظلوا يحتفظون في أحد بطونهم باسمهم القديم . ولم تكن حياة الثقيفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية في شيء سوى ما أتاحتها لهم زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش في مكة .

ونمضي إلى شمالي مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل ، فنلتقى ببئر التي ذكرها بطليموس في جغرافيته كما ذكرتها الكتابات المعينية ، وهي تقوم في واد خصب ، تكنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً ، وتكثر الآبار والعيون في هذا الوادي كثرة أتاحت له أن يصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع ، مع الجو المعتدل ، إلا في بعض فترات الصيف ، إذ تشتد بها الحرارة ، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية .

ويقال إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة (مدينتا) وهو اسم آرامي . وقد ظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هدى الإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية في حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية في طقوسهم الدينية وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ولغتهم<sup>(١)</sup> ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم بالعربية مثل كعب بن الأشرف<sup>(٢)</sup> .

وما زال هؤلاء اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزديّة من الجنوب ، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا العربية الشمالية لساناً لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب . ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون

النبوية لابن هشام وطبقات الشعراء لابن سلام ،  
والأغاني ٩٧/١٩ ، ١٠٦ .

(١) انظر البلاذري (طبعة أوربا) ص

٤٧٤ .

(٢) راجع في شعراء اليهود بالمدينة السيرة

على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة . ويظهر أن النصرانية كانت معروفة هناك ففي السيرة أن شخصاً كان بها يسمى عبد عمرو بن صيفي خرج على الرسول وحاربه مع قريش ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح<sup>(١)</sup> .

وتدل دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف في شيء عن حياة البدو في الخيام ، مع أنهم سكنوا أطام المدينة . ومن أكبر الدلالة على ذلك أنهم كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية ، وأكبر الظن أن اليهود هم الذين عملوا على الوقيعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم ، حتى يشغلهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التي استخدموها في تلك الحروب الدامية . وفي كتب التاريخ والأدب أيام ومواقع لهم كثيرة مثل يوم سمير ويوم حاطب ويوم السرارة ويوم فارع ويوم الربيع ويوم البقيع ويوم معبّس ومضرس ويوم الفِجَار ويوم بُعَاث .

وتحرجت الظروف تحرجاً شديداً بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب وكأنما تعاهدوا على الفناء ، لولا أن نزل بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا في دينه الخفيف أفواجاً ، وتحولوا إليه يشدون أزره وينصرونه حتى أضاعت بتعاليمه الجزيرة العربية من جميع أطرافها ومسالكها ودروبها .

وكان لليهود في شمالي المدينة قرى خاصة بهم أشهرها خيبر وفدك وبتياء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة . والمظنون أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل يهود المدينة نزلوا في هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثاني الميلادي ، واتخذوا العربية لساناً لهم ، وعبروا بها عن عواطفهم ، فجرى الشعر على ألسنة نفر منهم ، لعل أشهرهم السمومل صاحب حصن الأبلق بتياء وكان معاصراً لامرئ القيس ، ويقال إن أمه كانت عربية من غسان ، ولعل ذلك العرق فيه هو الذي أنطقه بالشعر العربي ، وكان أخوه شعبة شاعراً مثله . ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمثون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ، ولذلك لم يؤثر في حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنهم .



## القبائل البدوية

يقسم النسابون هذه القبائل ، بل قبائل العرب الشمالية جميعها ، قسمين كبيرين : قسم عدنانى مضرى ، هو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر ، وقسم قحطانى ينحدر من قحطان ( ولعله يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من التوراة ) وقد هاجر هذا القسم من الجنوب ، من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين . وتشكك بعض المستشرقين فيما ساقه رواة الأخبار من هذا التقسيم وما يندرج فيه من أنساب القبائل الشمالية عامة<sup>(١)</sup> ، وقالوا إنه من وضع القرن الأول للهجرة وما كان من منافسات بين مكة التى نُسبت إلى عدنان والمدينة التى نُسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان ، وتداخلت عوامل سياسية واقتصادية مكنت من انتشار فكرة هذا التقسيم ، كما مكنت من ترتيب الأنساب العربية فى نظامها المعروف . ويبالغ بعض المستشرقين فينكر جملة أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال ، ويظن ذلك حديث خرافة .

ولكن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية ، كما يجد فيه العصبية مشتتة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة ، ومن التحكم أن نجرى وراء ظنون لا دليل عليها . وحقاً اختلف النسابون فى أصل بعض القبائل وهل هى عدنانية أو قحطانية مثل خُرَاعة وقضاة وخشعم ولكنه اختلاف محدود ، والرأى الصحيح أن هذه القبائل قحطانية . ومن الثابت الذى لا شك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال ، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة ، فقد كان المعينون على ما يظهر يضعون حاميات فى طرق قوافلهم التجارية ، ولما ضعفت الدولة الحميرية : دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات هاجر كثير من

من كتاب سميث :

Kinship and Marriage in Early Arabia.

(١) راجع فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام

لجواد على ٢٢٠/١ وما بعدها وتاريخ الأدب

العربى لبلاشير ٢١/١ وما بعدها والفصل الأول

الجنوبيين إلى الشمال ، وخاصة بعد سيل العرم الذى خرب سدَّ مأرب . ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة في الجزيرة العربية ، فكفندة التي هاجرت إلى الشمال وأسست لها مملكة أو إمارة في شمالي نجد كانت لا تزال بقيتها الكبرى تقيم في حضرموت حين ظهور الإسلام ، ونجد في أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية مثل شرحبيل بن الحارث ومعديكرب أخيه ، كما مر بنا في الحديث عن إمارة كفندة . وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل في شمالي نجران بينما يمت عشائر منها حوض الفرات ، أما الأزدي فقد توزعت عشائرها بين شمالي اليمن وعمان ، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج ، وشمالي الجزيرة في الشام حيث نزل بنو غسان<sup>(١)</sup> . وفي هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعترها الشك . وهاجرت تنوخ إلى البحرين ، ثم استقرت في جنوبي العراق حيث أسست أهم عشائرها ، وهي لحم ، دولة المناذرة في الحيرة . ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيء إلى الشمال واستقرت في جبلي أجا وسلمى . وهاجرت قبائل أخرى إلى شمالي الحجاز وانتشرت في بادية الشام وأهمها قضاة وبهراء وجهينة وبيلى التي نزلت في مساكن ثمود وجذام وكلب وعاملة اللاتى نزلن في حدود فلسطين وعدرة التي نزلت بالقرب من تيماء ووادى القرى . ومن هاجر من الجنوب أيضاً خزاعة وكانت مستقرة قبيل الإسلام في منطقة مكة وبجيلة وكانت تنزل جنوبي الطائف .

ويقابل هذا القسم القحطاني اليمنى قسم عدنانى مضرى ، ومن أهم قبائله قريش في مكة ، وثقيف في الطائف ، وعبد القيس في البحرين ، وبنو حنيفة في اليمامة ، وتميم وضبة في صحراء الدهناء ، وبكر وعشائرها الكثيرة التي تمتد من الشمال الشرقى للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون بنى حنيفة وبنى عجل وشيبان وذهل ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر في شمالي الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها بنو النمر ، بينما كانت تنزل أسد في شمالي نجد وتنتشر عشائرها إلى تيماء . ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً كنانة وهذيل بالقرب من مكة ،

( ١ ) انظر مادة إياد والأزد في دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مادة خثعم .

وقيس عيلان في نجد ، وأهم قبائلها هوازن ، وسليم ، وعامر وعشائرهما كلاب وعقيل وقُشَيْرٌ ومزينة وبنو سعد ، وغطفان وفرعاها الكبيران : عيس وذُبَيان . وفي المفضليات قصيدة طريفة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثير من هذه القبائل <sup>(١)</sup> .

وهذه الأنساب التي قدمناها كان يؤمن بها العرب إيماناً شديداً ، وظلوا على هذا الإيمان في الإسلام ، فتكثروا على أساسها في مجموعتين كبيرتين : مجموعة قحطانية يمنية ، ومجموعة مضرية عدنانية ، وكان التنافس شديداً بين الطرفين ، وكثيراً ما جرَّ إلى منازعات في الكوفة والبصرة كما جر إلى حروب في الجيوش المقاتلة في أقصى الشرق بخراسان وفي أقصى الغرب بالأندلس ، فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية ، وسرعان ما تنشبت بين الفريقين معارك دامية .

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب التي أجمعناها عنهم ورثها أبناؤهم في الإسلام ، وهي تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب ، وكأنهم رأوا في النسب ما نراه نحن الآن في الوطن ، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعز به وبأنها تعود إلى أصل واحد ، فهي من دم واحد ولحم واحد ، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللحمة كما عبروا عن عشائرتهم وفرعهم بالبطن والفضخذ . وهذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة في مدن كمكة والحيرة كانت تتحد في نظمها السياسية ، وهي نظم قبلية ، تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبناؤها في أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متقل مع المراعى ، وكذلك اشتراكها في تقاليد وعرف تمسك بهما تمسكاً شديداً . وكان الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهي عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، وحقاً تكونت عندهم إمارات في الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وإن بدا في تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه الولايات من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون ، وإنما نقول

شعوراً ضئيلاً ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلاً إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هناك اتحاد قبلي ، له رئيس .

ومن الاتحادات التي كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويُظنُّ أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البكري : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلاً ، والتماهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الدليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالمهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »<sup>(١)</sup> ومن القبائل التي تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ في العراق ، فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية<sup>(٢)</sup> .

وبمجرد أن تدخل القبيلة في حِلْفٍ يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها في نحورهم . وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى . وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف ، ولذلك سميت باسم جمرات العرب ، لما كان فيها من شجعان يكفونها في الحروب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تهك في المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لخشونة مسّها . وأصل الحِلْفِ والتحالف من كلمة الحِلْفِ بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم ، وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أو في دم ، وكانوا يقولون<sup>(٣)</sup> : الدم الدم والهدم والهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شدةً وطول الليالي إلا مدداً ، ما بَلَّ بجر صوفة وأقام رَضْوَى في مكانه ، إن كان جبلهم رضوى وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ، ويقال إن قبائل مرة بن

(١) معجم ما استعجم للبكري (طبعة السقا)

(٢) انظر مادة تنوخ في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر الحيوان للمعاظ ٣/٤ .

عوف الذيبانيين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتم (أحرقتم) فسمى حلفهم باسم المحاش . ومن الأحلاف المشهورة في مكة حلف المطيبين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تيسم وبنو أسد ضد بني عبد الدار وأحلافهم ، ويقال إنهم غمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً . وأكرم من هذا الحلف حلف الفضول وفيه تحالفت قبائل من قريش على أن لا يجذوا بمكة مظلوماً إلا نصره وقاموا معه حتى تُرد عنه مظلمته . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرّباب ، وهم خمس قبائل : ضبة وثور وعُكل وتيم وعدى ، وحلف عيس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد وحلف الحمّس بين قريش وكنانة وخزاعة .

وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها<sup>(١)</sup> وهو ندوتهم ، التي ينظرون فيها شئون قبيلتهم . وكان كل فرد يستطيع أن يحضره وأن يتحدث فيه ، ولم يكن له موعد معين ، وفي العادة كانوا يجتمعون مساء وكلما حزب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، فيتناقشون ويتحاورون ، وقد يخطبون ، أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم ، وفي أثناء ذلك يدلى سادتهم بحكمتهم وتجاربهم في الحياة ، وإلى ذلك يشير زهير بن أبي سلمى إذ يقول في مدح هرّم بن سنان وقومه<sup>(٢)</sup> :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهم

وإن جثتهم ألفت حول بيوتهم

وكانت قرارات هذه المجالس نافذة ، فجميع أفراد القبيلة تدعن لها ولا تشذ

عليها .

وغالباً ما يتقدم شيوخ القبيلة شيخ كبير مجرب ، هو سيدها ، له حنكة وحكمة وسداد في الرأي وسعة في الثروة ، وهو الذي يقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالفات ، ويقم الضيافات ، غير أنه ينبغي أن لا يفهم من ذلك أنه كانت له أو لشيوخ القبيلة سيادة واسعة ،

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)

(١) انظر في مجالس القبيلة وحقوق سيدها

وواجباته القسم الثالث من كتاب لامس :

فسيادته رمزية ، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كليلب التغلبي حين بغى وطني على  
أحلافه من بكر ، فقتلوه ، مما كان سبباً في نشوب حرب البسوس المشهورة .

فالسيد في القبيلة إنما هو الشخص الأملعي الذي حنكته التجارب ، وغالباً  
ما يرث سيادته عن آبائه ، حتى يتم له الحسب الرفيع ، وليس له أى حقوق سوى  
توقيره ، أما واجباته فكثيرة ، فلا بد فيه من الشجاعة والكرم والنسجدة وحفظ  
الحوار وإعانة المعوز والضعيف ، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة  
وما تدفعه من ديات ، ولا بد أن يكون حليماً متسامحاً ، وإلى ذلك كله يشير معاوية  
سيد بني كلاب حين يقول (١) :

لأني امرؤ من عصبية مشهورة	حُشد لهم مجدٌ أشمٌ تليدٌ (٢)
ألفوا أباهم سيداً وأعانهم	كرمٌ وأعمامٌ لهم وجدود
إذ كل حيٌ نابتٌ بأرومة	نبت العضاة فما جدٌ وكسيدٌ (٣)
نعطى العشيرة حقها وحقيقتها	فيها ونغفر ذنبها ونسود
وإذا تحمّلنا العشيرة ثقلها	قمنا به وإذا تعود نعود (٤)
وإذا نوافق جرأة أو نسجدة	كنا ، سُمى ، بها العدو نكيد (٥)
بل لا نقول إذا تبوأ جيرة	إن المحلّة شعبها مكدود (٦)

وواضح أن السيد في رأى معاوية لا بد أن يكون شريف الأصل والأرومة ،  
من عشيرة لها مجد فسيح الفناء ، ولا بد أن يرعى حقوق هذه السيادة ، وهى الحلم  
والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة ، ولا بد له أن يبذل المال  
والنفس في جنایات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريماً مضيافاً ،

(٤) الثقل : الغرم والدية .  
(٥) سُمى : مرخم سمية ، وحذف ياء النداء .  
(٦) الشعب : ما انفرج بين جبلين ،  
مكدود : في ضيق وشدة . يقول إنه لا يعتذر  
لأضيافه بما يلزم به من شذائده .

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ١٠٤ .  
(٢) الحشد : الذين يحتشدون ويجمعون  
المللمات ، والتليد : القديم .  
(٣) الأرومة : الأصل ، العضاة : شجر  
ضخم من أشجار البادية ، الماجد : ذوالجد ،  
والكسيد : الدون .

إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار . وكان من أهم ما يقوم به السيد لإصلاح ذات البين في القبيلة ولتمُّ شعماً ، مستعيناً في ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها . ودائماً لا بد له من استشارتهم ، بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء يتساوون في الحقوق . ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة ، وهي حق التوطن في القبيلة ، إذ كان لكل فرد فيها أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وأصبح له ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالتأثر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، فكل فرد فيها يضحي لها بنفسه كما يضحي لها بماله ، فهي حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحرية يعييش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً في ذلك بعصبية شديدة ، وهي عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية ، فتلك الشعائر تشرکہم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبية القبلية فإنها خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد . وربما تسامح الواحد منهم في دينه ، إذ لم يكن يهمه في كثير من الأحوال ، أما في العصبية فإنه لا يتسامح في أي واجب من واجباتها ، ومن خير ما يصور ذلك قول دُرَيْد بن الصَّمَّة (١) :

وما أنا إلا من غزِيَّةٍ إن غَوَتْ غويتُ وإن ترشُدُ غزِيَّةٍ أرشدِ

ففيه ورشده مرتبطان بعشيرته غزِيَّة ، فإن ضلت ضل معها وأمعن في ضلاله ، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن في هداه .

وكانت القبيلة من جانبها تعطي لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل بهم ظالمين أو مظلومين ، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتفه الأسباب . وقد تحولوا بسبب اختصامهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشتهم إلى ما يشبه كتائب حربية ،

(١) الأصبغيات (طبع دار المعارف) ص ١١٢

وانظر المرزوق على الحماسة ١١٥/٢ .

فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر ، وهي دائماً شاكية السلاح حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعياها ، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، فداًئماً يفتخرون ببطولتهم وبعدهم من قتلوا في حروبهم مما يدور في أشعارهم ويدور معه اعتدادهم بسيوفهم اليمانية والهندية ، ولبعضها أسماء اشتهرت بينهم ، وكما يعتدون بسيوفهم نراهم يعتدون برماحهم وقسيهم ودروعهم وتروسهم وبيضاتهم أو خوذاتهم ، وأشاد فرسانهم بالجيل إشادة بالغة وسموها أسماء كثيرة .

٥

### حروب وأيام مستمرة

لعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنة من سنهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعته المقدسة ، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يجرّمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرماهم . ولم يكن لأى فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هى إلا أن يُقتلَ أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته ، تؤازرها في الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية ، وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتى الحرب على الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سبّة وعاراً ، وفي ذلك يقول عبد العزى الطائي (١) :

رقم ٤٢ البيت ١٥ والأصميات القصيدة رقم ٤٤ البيت ٢٠١ .

(١) حماسة البحتري (طبع بيروت) ص ٢٨ وانظر ٢٩ ، ٣١ والمرزوق على الحماسة ٢١٥/١ - ٢١٦ وراجع المفضليات ، القصيدة



إذا ما طلبنا تَبَلَّنَا عند معشرٍ أبينا حِلاب الدرِّ أو نشرب الدِّمًا<sup>(١)</sup> ،  
 فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل وألبانها ،  
 فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم ، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غراتهم لا تزييلهم ،  
 فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً على شاكلة تأبط شراً إذ يقول<sup>(٢)</sup> :

قليلُ غرارِ النومِ أكبرُ همِّه دَمُ الثَّارِ أو يلقى كَمِيًّا مُسَفَعًا

فأكبر ما يهتم به وينصب له طلبُ الثَّارِ ولقاء بطل سفعت وجهه الهواجر .  
 وأكثر حروبهم كان يجرها نزاع بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين ،  
 إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود ، وحينئذ  
 تشبك عشيرتا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة عشائر قبيلتها ، وقد تنضم  
 أحلافهما ، فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة ، وصور ذلك شاعر الحماسة  
 إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

الشيء يبدوه في الأصل أصغره وليس يَصْلَى بكل الحرب جانبيها  
 والحربُ يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصَّحاح إلى الجَرْبَى فتُعديها

فهي تبدأ صغيرة ضعيفة ، ثم تقوى وتستحکم وتعظم بمرور الزمن ، فتصبح لها  
 عدوى كعدوى الحرب ، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره ، فالجميع يصطلون  
 بناها ، بل يترامون فيها ترى الفراش ، فهي أمنيتهم ومبتغاهم ، يقول زهير<sup>(٤)</sup> :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوال الرماح لا ضعافٌ ولا عُزْلٌ<sup>(٥)</sup>  
 فإن يُقْتلوا فيُشْتَفَى بدمائهم وكانوا قديماً من منايهم القتلُ

فجميعهم يطفرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم ، وتدور رحى الحرب فيقتلون

(١) التبل : الثَّار ، وحلاب الدر : كناية

عن الإبل التي تحلب وتشرب ألبانها .

(٢) المرزوق على حماسة أبي تمام ٤٩٢/٢

غرار النوم : قليله ، والكى : الشجاع .

(٣) المرزوق ٤٠٧/١ .

(٤) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٥) الأعزل مفرد عزل : من لا سلاح له ،

وفزعوا : أغاثوا .

من أعدائهم ويشفون حقدهم ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم . يقول دريد  
ابن الصمة<sup>(١)</sup> :

وإنا لِلْحَمِّ السيفِ غيرَ نَكيرةٍ      ونُلحِمه حيناً وليس بذي نُكْرٍ<sup>(٢)</sup>

يُغَارُ علينا واطرين فيُشْتَفَى      بنا إن أصبنا أو نُغير على وترٍ<sup>(٣)</sup>

قسَمنا بذاك الدهر شطرين بيننا      فما ينقضى إلا ونحن على شَطْرٍ

ومثلُ قبيلة دريد قبائلُ العرب جميعها ، فهم طعام السيوف ، يطعمونها  
أعداءهم ، ويطعمهم أعداؤهم لها في غير نكران، فهم دائماً واطرون موتورون ،  
وحياتهم مقسومة على هذين الحدين وإلى هذين الشطرين . ولم يكونوا يرهبون شيئاً  
مثل الموت حتّفت الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ،  
حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع ،  
يقول الشنفرى<sup>(٤)</sup> :

ولا تُقْبِرُونِي إنَّ قَبْرِي محَرَّمٌ      عليكم ولكن أَبْشِرِي أمَّ عامرٍ

فهو يتخنى أن لا يقبر ، وأن يترك بالعراء في ساحة الحرب تنوشه السباع ،  
ويبشر أم عامر وهي الضجيع بجسده ، حتى يخلد في سبيل قتلى الجاهلية المجيد .

وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً ، فإذا  
جَنَّهَم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهي  
تدور في كتب الأدب والتاريخ ، ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ للهجرة  
صنف في ألف يوم ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده ، ولم يصلنا  
هذا الكتاب ، وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها .  
وألف فيها من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم في المقالة الثالثة من الفن الأول  
بكتابه الفهرست . وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وشرح حماسة أبي تمام  
للبريزي منشورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبد ربه في العقد الفريد وابن الأثير

(٣) الوتر : الثأر ، واطرين : قاتلين

ومسببين الوتر .

(٤) المرزوق ٤٨٧/٢ .

(١) المرزوق ٨٢٥/٢ .

(٢) نكيرة ونكر : نكران وامتراء ،

ونلحمه : نلعمه اللحم .

في الجزء الأول من كتابه الكامل والنويرى في نهاية الأرب فصولا طويلة ، وكذلك صنع الميداني في الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوماً ضبط أسماءها وذكر القبائل التي اشتركت في كل منها .

وتسمى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها مثل يوم عَيْنِ أَبَاغٍ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس ويوم شِعْبِ جَبَلَةَ وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافها من تميم . وقد تسمى بأسماء ما أحدثت اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

ومن أيامهم المشهورة يوم خَزَّازٍ وكان بين ربيعة واليمن من مَدْحَجٍ وغيرهم ، ويوم طَخْفَةَ بين المنذر بن ماء السماء وبنى يربوع ، ويوم أُورَةَ الأول بينه وبين بنى بكر ويوم أُورَةَ الثاني بين ابنه عمرو بن هند وبنى تميم ، ويوم ظَهْرِ الدَّهْنَاءِ بين بنى أسد وطى ، ويوم الكَلَابِ الأول بين بنى بكر وعشائر من تميم وضبة بقيادة شرحبيل ابن الحارث الكندى وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة وأيام الأوس والحزرج ومرّ ذكرها في غير هذا الموضع ، ويوم حَوَزة الأول بين سُلَيْمٍ وغطفان ، ويوم اللّوى بين غطفان وهوازن ، ويوم الكلاب الثاني بين تميم وبنى عبد المدان النجرانيين ويوم الوقيط بين تميم وربيعة وكذلك يوم جَدَدٍ وذى طُلُوحٍ والغنيط وزُبَالَةَ ومبايض والحفار ، ويوم الرَّحْرَحَانِ بين قيس وتمر وكذلك الصرائم والمروت والنسار ، ويوم الشقيقة بين ضبة وبنى شيبان ، ويوم بُزَاخَةَ بين ضبة وإياد ؛ ويوم دارة مأسس بينها وبين بنى علمر . وكانوا لا يقتلون في الأشهر الحرم ، ومع ذلك وقعت فيها بعض مناوشات تسمى بأيام الفِجَارِ بين كنانة وهوازن يومها الأول ، أما يومها الثاني فكان بين كنانة وقريش وبين بنى عامر وتبعث ذلك أيام أخرى . وسنقف قليلا عند حرب البسوس وحرب داحس والغبراء لأنهما من أشهر حروبهم وأطولها زمناً .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتي بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادى ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب — وكان قد طغى واشتد بغيه — على ناقة للبسوس خالة جَسَّاسِ بن مرة سيد بنى بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم ،

فاختلط لبنا بدمها . ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كلبات فقتله ، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت - فيما يقال - أربعين سنة ، فكثرت أيامها مثل يوم عُنْتِيْزَة وكان سجالات بين الطرفين ، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قَصَّة ( تحلاق اللحم ) وفيه انتصرت بكر . ولما أنهكت الحرب الفريقين لجأ إلى الحارث بن عمرو الكندي ، فأصلح بينهما ، وأقام كما مر بنا على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة . ونمت في العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبي المهلهل أخى كليب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم « الزير سالم » .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت في أواخر العصر الجاهلي ، وكان السبب في نشوبها سباقا على رهان بين الفرسين . فسميت باسميهما ، وكان قد أجراها سيدنا عيس وذبيان : قيس بن زهير وحذيفة بن بدر ، وأوشك داحس أن يفوز ، غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له ، فاعترضه ونسره ، فعدل عن الطريق ، وبذلك سبقته الغبراء . وأبي قيس أن يعترف بهذا سبق وطُلب الرهان المضروب ، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره ، وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرّي ، فتحملا ديوات القتلى . وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف ، فقد انضمت عامر إلى عيس بينما انضمت تميم وأسد إلى ذبيان . وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنزة بطل هذه الحرب ، وكان من عيس ، فألفت عنه قصة شعبية مشهورة لا نعد إذا قلنا إنها تحولت إلى إلياذة كبرى للعرب وفروسيهم الرائعة .

## الفصل الثالث الحياة الجاهلية

١

### الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المحلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالى ، وهم عتقائها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائمهم وجنایاتهم . ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجبره ، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبناؤها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمشون على وجوههم في الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرراً والسليتك بن السلكة والشنفرى . على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد ، وكان كريماً فياضاً ، وأثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عبس ومعوذيا ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغامته<sup>(١)</sup> .

وهذا الخلع إنما كان يحدث في حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الللال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة التي تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغصص عن العوراء .

(١) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ٧٨/٣ وما بعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإحمال فكان الغنى بينهم يَفْضَلُ على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله في سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سُننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً على الكُشْبَانِ والجبال ، ليتهدى إليهم التائهون والضالون في القياض ، فإذا وفدوا عليهم آمنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور في شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص (١) :

ومستنبح يخشى القواء ودونه  
رفعت له نارى فلما اهتدى بها  
فلاتسألني وأسألني عن خليقتي  
ترى أن قدرى لا تزال كأنها  
مبرزة لا يجعل الستر دونها  
إذا الشول راحت ثم لم تفد لحمها

من الليل بابا ظلمة وستورها (٢)  
زجرت كلابي أن يهر عقورها (٣)  
إذا رد عافى القدر من يستعيرها (٤)  
لدى القروة المقرور أم يزورها (٥)  
إذا أخدم النيران لاح بشيرها (٦)  
بألبانها ذاق السنان عقيرها (٧)

واشتهر عندهم بالكرم القياض كثيرون (٨) ، مثل حاتم الطائي الذي ضربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره في كثير من شعره كقوله (٩) :

إذا ما بخيل الناس هرت كلابه  
وشق على الضيف الغريب عقورها

- (١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١٣٦/٥ .
- (٢) مستنبح : من ينبح حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : القلاة . . .
- (٣) يهر : ينبح نباحاً خفيفاً ، المقور : العاص .
- (٤) عافى القدر : مستعيرها .
- (٥) ذو القروة : السائل ، المقرور :
- الذي اشتد به البرد .
- (٦) بشيرها هنا : ضوؤها .
- (٧) الشول : الإبل العظيمة التي لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيغان .
- (٨) انظر في أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .
- (٩) الحيوان ١/٣٨٢ .

فإني جبانُ الكلبِ بيتي موطاً جواداً إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرُونَ شيئاً كما يقدرُونَ الوفاء ، فإذا وعد أحدُهُم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثمَّ أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظُمُونَ الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب . وبلغ من اعتدادهم بهذه الحصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبه سمية<sup>(١)</sup> :

أَسْمَى وَيُحَكُّ - هَلْ سَمِعْتَ بَعْدَرَةَ رُفِعَ اللِّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعٍ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعمو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضمير ، وكيف يقبلون الضمير ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المثلَّمَس<sup>(٢)</sup> :

إِنَّ الْهُوَانَ حَمَارُ الْأَهْلِ يَعْرِفُهُ وَالْحَرُّ يَنْكُرُهُ وَالرَّسْمَلَةُ الْأَجْدُ<sup>(٣)</sup>

وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانَ: عَيْرُ الْأَهْلِ وَالْوَتْدُ<sup>(٤)</sup>

هذا على الخسف معقول برمته وذا يُشجُّ فلا يبكي له أحدٌ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضمير ، فهما السواة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شيء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه ، وكان نازلاً معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلاً بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التي لا تنبى ولا تغتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً في أقوى صورها ، مضيفين إليها

(٣) الرسالة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق .

(٤) العير : الحمار .

(١) المفضليات ص ٤٥ .

(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حكام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم<sup>(١)</sup>، مثل عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي، وكانت تفرع إليهم القبائل في خلافاتها الكبيرة التي يصعب حلها في دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفرعون فيها إلى الكهنة والعرفان.

على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان، وقد اشتهر بالحدِيث عنها وعن كثوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادي الحيري، وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم. وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضرّبون خيامهم في بعض الأحياء أو في بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم. وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البراء بن قيس الكناني أحد أدلاء القوافل في الجاهلية، إذ كان سكيراً فاسقاً، فخلعه قومه وتبرأوا منه<sup>(٢)</sup>. ويقول طرفة في معلقته:

وما زال تشرباني الخمورَ ولذتي      وببَيْعِي وإنفاقِ طريقي ومُتَلَدِي<sup>(٣)</sup>  
إلى أن تحامتنى العشيرةُ كلها      وأفرَدتِ إفرادَ البعيرِ المعبُدِ<sup>(٤)</sup>  
ولولا ثلاثُ هن من عيشةِ الفتى      وجَدِّكَ لم أحفل متى قام عُودِي<sup>(٥)</sup>  
فمنهن سَبَقُ العاذلاتِ بشربةٍ      كُمَيْتِ متى ما تُعَلَّ بالماءِ تُزِيدِ<sup>(٦)</sup>

(٥) عود: جمع عائد أو عائدة، ويقصد من يمدونه عند الوفاة ويبيكونه. والجد: الحظ والبخت.

(٦) الكيت: الخمر، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل.

(١) انظر في حكام العرب كتاب المجر ص ١٣٢.

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ٧٥/١٩.

(٣) الطريف: المال الحديث، والمتلد: المال القديم.

(٤) تحامتنى: تجنبتني، المعبد: الأجر.



وكررى إذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا نبهته المتورداً (١)  
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخياء المعمد (٢)

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء . على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنترة ، بل حتى من صعاليكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عاداتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجررون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غرم إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى الموعلى . أما الأربعة الباقية فلاحظ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : ( يسألونك عن الخمر والميسر قل فىهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ) وقوله جل وعز : ( إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ) وقد وصف الخمر بأنها ( رجس من عمل الشيطان ) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها (٣) وقد جعل لها

(٢) الدجن : الغيم ، البهكة : المرأة الجميلة ، المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود وابن ماجه والسائى والبخارى ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية فى مادة خمر ..

(١) المضاف : الخائف المذخور ، والمحنب : الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناه قليل ، والسيد : الذئب ، والنضا : شجر ، نبهته : هيجته ، المتورد : الجرىء . يقول : إذا استغاث به خائف عطف فرساً يسرع فى عدوه إسراع ذئب النضا الجرىء حين تهيجه .

الرسول صلى الله عليه وسلم حدًّا : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط في شربها رفع حدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفي أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب في الوفود عليه بالمدينة ومدىحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينهاك عن خِلال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته<sup>(١)</sup> . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموي المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالاً إذ جعل حقه للدولة للأفراد ، وأقام لهم نظاماً سماوياً رفيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها في هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحُرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخذان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريقات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن في منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنزة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردّت إليه اعتباره .

وكانت الحرّة تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الحِباء ، إلا إذ كانت من الشريقات المخدمات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، فكن يحترن أزواجهن ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن<sup>(٢)</sup> . وبلغ من منزلة بعض شريقاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حرّيته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكيهة إلى السُلَيْمِيَّةِ بن السلّكَة حرّيته حين وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني عوار<sup>(٣)</sup> . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شيء

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٦/٩ .

والأمالي ١٠٦/٢ والمحرر ص ٣٩٨ .

(٢) انظر الأغاني ١٣/١٠ وما بعدها

(٣) الأغاني (طبعة السامى) ٣٧/١٨ .

يثيرهم كَسَبْتِي نَسَأْتُهُمْ وهم بعيد عن الحى ، فكانوا يركبون وراءهم كل وعمر حتى يلحقوا بهم وينفذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهن ، وهو عار عندهم ليس فوقه عار . وكانوا يصحبونهم معهم فى الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبته ندباً حاراً حاضت على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع فى هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن النساء ومراثيها فى أخويها صخر ومعوية مشهورة . وكن يستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها (١) :

فإن أنتم لم تشاروا واتديتُم فمشوا بأذان النعام المصلم (٢)

فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية فى أخيها أعطت عن يد وهى صاغرة صغار الأسرى الذين تجددع آذانهم ، بل صغار النعام المصلم المقطوعة آذانه . وتقول أم عمرو بنت وقدان فى أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته (٣) :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكُم فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق

ونخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نعب النساء فبئس رهط المرهق (٤)

فهم إن لم يثاروا لأخيها حق عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزويوا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزيتنهن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويروهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يثبتون فى المعركة ويناضلون حتى الذماء الأخير (٥) :

وكان جماهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

(١) المرزوق ٢١٨/١ وقارن الأصعبات

(٣) المرزوق ١٥٤٦/٣

(٤) المجاسد : جمع مجسد وهو الثوب المشع

(٢) اتديتُم : أخذت الدية ، وآذان النعام

صبغة ، والنعب : جمع نعبة ، وهى إزار للمرأة .

(٥) المرزوق ١٧٧/١

مصلمة خلقة .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضْحِي فَتَيْتُ الْمَسْكَ فَوْقَ فِرَاشِهَا      نَوَّوْمُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضَلِ  
ويقول المنخل اليشكري في فتاته<sup>(١)</sup> :

الكاعب      الحَسَناء      تَر      قُلُ فِي الدَّمَقِيسِ فِي العَرِيرِ

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى ، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّنْفَرَى في زوجته أميمة<sup>(٢)</sup> :

لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي لِاسْقُوطَا قِنَاعِهَا      إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلْفَتِ  
تَبَيْتُ بَعِيدَ النُّومِ تُهْدِي غَبُوقَهَا      لَجَارَاتِهَا إِذَا الْهَدِيَّةُ قَلَّتِ<sup>(٣)</sup>  
تَحَلَّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللُّومِ بَيْتِهَا      إِذَا مَا بِيوتُ بِالْمَذْمَةِ حُلَّتِ  
كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسِيًّا تَقْصُهُ      عَلَى أُمَّهَا وَإِنْ تَكَلَّمْتَ تَبَلَّتِ<sup>(٤)</sup>  
أُمِيمَةٌ لَا يُحْزَى نَثَاها حَلِيلِهَا      إِذَا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَفَّتْ وَجَلَّتِ<sup>(٥)</sup>  
إِذَا هُوَ أَمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ      مَا بَ السَّعِيدِ لَمْ يَسْمَلْ أَيْنَ ظَلَّتِ<sup>(٦)</sup>

فصاحبتة وقور خجول ، لا يسقط قناعها في أثناء سيرها ولا تلتفت حولها ، وهي كريمة مؤثرة تؤثر جارتها في الجذب بغبوق اللين ، وقد حصنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهي شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في سيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العطر عنها في العشرة ليملاً زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

(١) الأصعبيات ص ٥٥ .

(٢) المفصليات رقم ٢٠ .

(٣) الغبوق : اللين الذي يشرب في العشى .

(٤) النسي : الشيء المنسى أو المفقود ،

تقصه : تتمقب أثره ، أمها بفتح الهمزة :

قصدها . تبلت : أوجزت .

(٥) الثا : الحديث عن الشخص ، الحليل :

الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .  
وتدور في كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هيام بعضهم بهن ،  
وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض  
المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس في  
مطلع معلقته :

ففا نَبِكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ      بسِقْطِ اللّوى بين الدّخولِ فحوْمَلِ

فالمرأة لم تكن في الجاهلية مهملّة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها  
كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار  
الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم  
الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها  
كما حرم زواج المَقْتِ ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشُّعَار ، وهو أن  
يتزوج شخصٌ أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج  
الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك  
مما كانوا يبيحونه . وتلك كانت عادات عندهم ، وهي تلازم الأمم في عصور  
بداوتها ، ولكن ينبغي أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهذرة الحقوق في الجاهلية ،  
أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات في قوله تعالى : ( وَإِذَا بُشِّرَ  
أحدهم بالأُنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به  
أيمسكه على هُونٍ أم يدُسُّه في الترابِ أَلَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ) فأكبر الظن أن من  
كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهم من الفقر  
أو السبي ، إذ كان سباؤهن كثيراً في الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سبباً ما بعدها  
سبباً .

## المعيشة

لم يكن العرب يعيشون في الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عرفت الزراعة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عرّوضها وسلعها بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوبا في طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقاً في طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسي من شرقي مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خيبر ، ثم يتحرقون الصحراء في وادي الرّمة ، ويظن أنه كان مجرى نهر في عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم في هذه القوافل أدلاء يحمونهم الضلال في مجاهل الصحراء <sup>(١)</sup> ، ومن أشهرهم فرات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب <sup>(٢)</sup> ، وقد يبلغون ثلاثمائة عدداً ، ومن أهم القبائل التي كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هذيل وفهيم . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندي وإفريقية الشرقية اللبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بني سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية <sup>(٣)</sup> .

فكرة في الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قرى الأعياد والأسواق كسوق عكاظ <sup>(٤)</sup> ، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها في نجد

(٣) انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) راجع في تحقيق عكاظ رسالة بمتوان موقع

عكاظ لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف).

(١) المغازي للواقدي (طبع كلكتا) ص ٣٦ ،

١٩٦ ، والمجرب ص ١٨٩ .

(٢) المجرب ص ٢٦٤ .

بالمقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوق تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُيس بن ساعدة وهو يخطب في الناس . وقالوا إنه كانت تقام للناطقة فيها قُبَّة ويقف عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فمن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر في هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون في خصوصاتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قريش أيضاً ذو الحجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دومة الجندل في شمالي نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر باليمامة وسوق صُحارودبأ بعمان وسوق المشقر بهجر وسوق الشحر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه <sup>(١)</sup> .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيع والشراء فإن قوافل عروضاها القرشية وغيرها كانت تجعل الكثيرين منهم جُعلاً نظير حمايتها ، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتنفحهم بأموالها . على أنه ينبغي أن لا ننظر أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقير المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

وراء المجتمع المكي كان يعيش العرب في تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونها ويزدرونها ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التي

العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٢٢٣ .

(١) انظر في أسواق الجاهلية كتاب المحبر ص ٢٦٣ ، واليعقوبي ١/٣١٣ وتاريخ

لأنَّ حِدَّةً . ووقفت الصحراء تحميمهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذاؤهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالخواف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم الخفيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيلات والأوهام وما تمثل لهم من السعالى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أوعشيرة بل أسرة إلا وهى واطرة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصور ذلك تصويراً طريفاً تأبط شراً فى كلمة له ، فقال (١) :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُؤَمِّسِي بِغَيْرِهَا  
وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي  
إِذَا خَاطَ عَيْنِيهِ كَرِيَّ النُّومِ لَمْ يَزَلْ  
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيئَةً قَلْبِهِ

جَجِيْشَاوِ يَعْرُوْرِيْ ظَهْوَرِ الْمَهَالِكِ (٢)  
بِمُنْحَرِقِيْ مِنْ شُدِّهِ الْمَتْدَارِكِ (٣)  
لَهُ كَالِيٌّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ (٤)  
إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدْ أَخْضَرَ بَاتِكِ (٥)

الشد : العدو ، المتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالى :

الرقيب ، الشيحان : الجاد فى الأمر .

(٥) الربيئة : الرقيب والديديبان ، والسلة :

الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ،

والباتك : القاطع .

(١) المرزوقى ٩٥/١ وأمالى القالى ١٣٨/٢

وزهر الآداب ١٨/٢ .

(٢) يظل هنا : يفتدو ، المومة : الفلاة ،

ججيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وفد الرياح : أوطأ ، ينتحى : يقصد ،

منحرق : سريع ، يقصد العدو السريع ،



إِذَا هَزَّهٗ فِي عَظْمٍ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ      نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الضَّوَّاحِكِ (١)  
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي      بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٢)

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة في النهار ، فإذا آجنهم الليل وجدتهم في مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب ، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزعون حتى في النوم ، فإذا ناموا لم يبق قلبهم بل ظل يكلوهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعينهم إلا غراراً ، فهي معلقة بسيوفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون ، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم في التفرد بالقلاوات والقفار التي تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروبها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم ، كما لا تضل الشمس قصدها ، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هي التي دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والحرارة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تحفظها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجهدة البعير الذي يتحمل - مثلهم - مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذي يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به في شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التي تصادفهم من مثل أتن الوحش وحمارها وبقرة الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم ينفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس في معلقته وزهير في لاميته (٣) .

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم ، فكانوا يدرّبون الكلاب عليه ويضربونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفي شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التي كانت تنشب بينها وبين الأتن وحمارها أو البقر وثورها .

(١) القرن : الكف والنظير ، تهلت : (٢) أم النجوم : الشمس .

تلاّت وأشرفت . (٣) انظر ديوان زهير ص ١٢٤ وما بعدها .

وفي معلقة لبيد وصف بارع لأتن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبلهم ، ولما يتسوا أن يصيبوا منها مقتلاً أرسلوا في إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كَسَابِ وسُخَامِ ، يقول :

حتى إذا يتسَ الرماةُ وأرسلوا غُضْفًا دواجنَ قافلاً أعصامها<sup>(١)</sup>

فلحِقْنَ واعتكرت لها مدريةٌ كالمسْمهريةِ حَدُّها وتمامها<sup>(٢)</sup>

لتذودهنَّ وأيقنت إن لم تزد أن قد أحمَّ مع الحتوف حِمَامُها<sup>(٣)</sup>

فتقصَّدت منها كَسَابِ فضرَّجتْ بدمٍ وغودر في المكرَّ سُخَامُها<sup>(٤)</sup>

ولأوس بن حجر قصيدة فائية<sup>(٥)</sup> وصف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ،

ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أرانا فيه ناموسه وكيف كان يختبئ للوحش على عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقراهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم يعيشون على الصيد ، إذ يقول<sup>(٦)</sup> :

أبني زيادِ أنتم في قومكم ذنَّبٌ ونحن فُرُوعُ أصلٍ طيِّبِ

بالقهر بين مُربِّقٍ ومُكَلِّبِ<sup>(٧)</sup>

طلبُ الوعولِ بوقُضبةٍ وبأكلبِ<sup>(٨)</sup>

وكما كانوا يصيدون الوعول أو الماعز الجبل كانوا يصيدون الوحش ، ويتردد وصفهم له في أشعارهم تردداً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ في حيوانه سيولا

(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم

(طبع دار صادر بيروت) رقم ٣٠ .

(٦) حيوان ٣٠٩/٢ .

(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد

بالريقة وهي العروة في الجبل ، والمكلب :

الصائد بالكلاب .

(٨) الوفضة : جمعة للسهم من آدم .

(١) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ،

الدواجن : الضاريات وقيل الملمات ،

وقافلاً : يابساً ، والأعصام : قلائد من آدم

تجمل في أعناق الكلاب .

(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدرية

القرون الحادة ، والسهمرية : الرماح .

(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .

(٤) تقصَّدت : قتلت من قوطم رماه فأقصده .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعى للأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق ، فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شراً والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكفّ السماء عنهم غيثها وتجذب ديارهم وتُمنحل ، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلاً بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية فى هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفُّ بها المحل والجذب من كل جانب .

٣

## المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أوثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخطوا فى طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بيّنة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمناث أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

وبما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجار مكة يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم ، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية فى قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود فى الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى فى حدود ضيقة وأنه وقف فى جمهوره عند تأثيرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، فى السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب - بعد موقعة أحد - لغزو المدينة أشار سلمان الفارسي على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم من حوله بأساليب الحرب<sup>(١)</sup>. وفي السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفننديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ( وهو لا يزال في مكة ) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله خلّفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلهم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين<sup>(٢)</sup> .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون في طور السداجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا في نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهي مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداوة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمي دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضي من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن ريتان<sup>(٣)</sup> ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذي أحدث الحضارة ، وكأنهم يريدون أن يبرروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهي نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التي تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبة المتعادلة . ويدخل في هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢/٢٣٥ . (٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد

على ١٦٨/١ .

(٢) السيرة النبوية ١/٣٢١ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم<sup>(١)</sup> ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم في الجاهلية ، أما في الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا في الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم في عصوره الوسيطة . ويقول أوليري : إن العربي مادي ، ضيق الخيال والعواطف<sup>(٢)</sup> ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزخر به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأننا قادته إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآري على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب في الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون في مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا في ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون في هذا الباب من أبواب الرواية .

ويلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : « وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاح الأماليس<sup>(٣)</sup> - حيث لا أمانة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة - مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه<sup>(٤)</sup> ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرتته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثابت فيها وما يسير منها مجتمعا وما يسير منها فاردأ<sup>(٥)</sup> ، وما يكون منها راجعا ومستقيما . وسئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحا وقوفا على كل ليلة . ووصف أعرابي لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عبادى كان حاضرا : أما ترى هذا الأعرابي

(٣) الصحاح : الأرض المستوية ،

الأماليس : التي ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فاردأ : منفردا .

(١) المقدمة ( طبع المطبعة البهية ) ص

٢٥٢ وفي مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ( الطبعة

الأولى ) ص ٣٩ نقلا عن كتاب أوليري :

Arabia Before Muhammad .

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجداع<sup>(١)</sup> بيته<sup>(٢)</sup> ؟ ! .  
وهي معرفة أدهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ :  
« كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها  
على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في  
أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم<sup>(٣)</sup> » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكي  
بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير  
من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من  
الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ في المريض ، وكانوا يتداونون منها بالعزائم والرقي .  
فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنياً على قواعد عقلية ، وحقاً ما يقول ابن خلدون :  
« للبادية . . . طب بينونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ،  
متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على  
قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان  
فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كسلدة وغيره<sup>(٤)</sup> » . ومن أهم معارفهم الطبية  
معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيول والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزيها  
ويعيها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداونونه به .  
وقد تحدثوا طويلاً عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ  
في حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما اعتمد على ما عند الأعراب ،  
وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية<sup>(٥)</sup> ولا من جهة  
التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبباً أو بهيمة  
أو مشترك الخلق فإنما هي مبسوثة في بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط  
أو غيضة أو رملة أو رأس جبل ، وهي في منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى  
بينها وأقاموا معها . . . وربما بل كثيراً ما يُبستلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع  
والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل

(١) الأجداع: سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة.

(٢) الحيوان ٣٠/٦ .

(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت)

ص ٤٥ .

(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .

(٥) الفلاية : النظر العلى .

وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة وطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء<sup>(١)</sup> . وكانت علم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهي تتبع الأثر في الأرض والرمل ، ولهم في ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعي أن تنمو عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم في الصحراء ، أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم في غيبتهم عن أحيائهم .

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية ، فهم في جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلي مؤسس على أسلوب علمي . ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور ، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لهب ، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة ، ولهم في الطيرة أحاديث كثيرة ، قال الجاحظ : « وأصل التطير من الطير إذا مرَّ بارحاً (مياناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عابنوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبر زجروا عند ذلك وتطيروا . . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء . . وللطيرة سميت العرب المهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكسوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسماوا الغراب بجاتم . والغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم<sup>(٢)</sup> . وإليمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح ، وهي سهام ، كانوا يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الأمر والناهي والمتر بص ، وهي غير أزلام القمار وقداحه .

وكل هذا يدل على أن التسبب العقلي عندهم كان ضعيفاً ، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، وهذا طبيعي فقد كانوا في طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول ، وكانوا لا يتعمقون في بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطئاً . يقفون عند الجزئيات ، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التي يحويها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . وحقاً شاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها

(٢) الحيوان ٢/٤٣٨ وما بعدها .

(١) الحيوان ٦/٢٩ .

الذي عُرِفَ به في العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التي تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « في بيته يؤق الحسك » وهو من يحكم بين الناس في منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكيم هو العاقل المجرب الذي يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهي تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقفه على طرقها المستقيمة التي تهدي سبيل الرشاد .

وكرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة في العصر العباسي ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكري و « مجمع الأمثال » للميداني . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجري على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها في حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدور والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكرء ( الفطنة ) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع . . ولؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكرم بن صيني وربيعة بن حذار وهرم بن قُطْبَة وعامر بن الظَّرب وليد بن ربيعة » (١) . وللقمان سورة في القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها في صحيفة تدعى مجلة لقمان ، ففي أخبار سويد بن الصامت أنه « قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله : وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعني حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها علي ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل منه : قرآن أنزله الله عليّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لتراه مات مسلماً ، وكان قتلُهُ يوم بُعث (٢) » .

(٢) أسد الغابة ٢/٣٧٨ .

(١) البيان والتبيين ( طبعة عبد السلام هارون ) .



وتتملى كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء  
الجاهلية من حكم، مثل قول أكم: «مقتل الرجل بين فكَّيه» وقول عامر بن  
الظرب: «رب زارع لنفسه حاصد سواه». وفي الشجر الجاهلي كثير من هذه  
الحكم، وهي تُدكَرُ في ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة في معلقته:

أرى العيشَ كَنَزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ      وما تنقُصُ الأيامُ والدَّهرُ يَنفَدُ  
ومن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودي وليبد وعبيد بن الأبرص، وفي خاتمة  
معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله:

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قبله      ولكنني عن علم ما في غدٍ عمٍ  
ومن لا يصانِعُ في أمورٍ كثيرةٍ      يضرُّسُ بأنيابٍ ويوطأُ بمننِهم<sup>(١)</sup>  
ومن لا يدُذُّ عن حَوْضِهِ بسلاحِهِ      يهدمُ ومن لا يظلمُ الناسَ يُظلمُ  
ومن هابَ أسبابَ المنيةِ يلقيها      ولو رامَ أسبابَ السماءِ بسُلْمٍ  
ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ      وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلمُ

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسُننِها التي وصفناها فيما مر من  
حديثنا، وهي تجرى مجرى التعاليم التي ينبغي أن يأخذوا بها في حياتهم. وقد وقف  
شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والدهر وما يرمى به الناس، وكانوا يرون  
أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه، فلا يتفجع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة،  
وكثيراً ما يذكرون مَنْ سبقهم إليه متخذين من ذلك عظمتهم، يقول قُسس بن  
ساعدة<sup>(٢)</sup>:

في الداهيين الأوَّلا      ين من الشعوب لنا بصائرُ  
لما رأيت مواردًا      للموت ليس لها مصادرُ  
ورأيت قومي نحوها      تسعى الأصاغِرُ والأكابرُ  
لا يرجعن قومي إلَّا      يَّ ولا من الباقيين غابر

(٢) حماسة البحري ص ٩٩ وانظر البيان  
والتيبين ١/٣٠٩.

(١) المصانعة: الترفق والمداراة، يضرس: يعض،  
المنم: المنم: خف البعير.

أيقنتُ أنى لا محالة حيث صار القومُ صائرُ

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفناء الزمان لعشائهم وقيائلهم إلى إفنائه للدول والملوك من حوهم ، فالليالي والدهر والأزمان فى كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة ، وحتى الأنبياء وسليمان الذى سُخِّرَتْ له الجن تلفتْ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم (١) .

ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمنُ فى صباحه ومساءه ، ولهم فى عتابه على فجيعته لهم بالأهل محاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له (٢) :

يا من لأقوامٍ فُجِعْتُ بهم كانوا ملوك العُرب والعُجم

استأثر الدهرُ الغداةَ بهم والدهرُ يرمينى ولا أرمى

لو كان لى قِرْنًا أناضلُهُ ما طاش عند حَفِيظَةٍ سهمى (٣)

أو كان يعطى النُصفَ قلت له أحرزْتَ قسَمك فالهُ عن قسَمى (٤)

يا دهر قد أكثرتَ فَجَعَتْنَا بسِراتنا ووقرتَ فى العظم (٥)

وسلبتنا ما لستَ مُعقبنا يا دهر ما أنصفتَ فى الحكم

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير فى حقائق الحياة والموت ،

كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعاتهم ومعاشهم . وليس فى ذلك

كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والظفرة وما يدل على حنكهم وتجربتهم الحسية

الواقعية .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٤) النصف : العدل .

(٥) السراة : السادة ، وقوت : صدعت .

(١) حماسة البحرى ص ٨٣ وانظر

المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) حماسة البحرى ص ١٠٥ وانظر

الديوان (طبعة دار الكتب) ص ٣٨٥ .

## الدين (١)

كانت كثرة العرب في الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبي عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذة حاميا والمدافع عنها من مثل كلب وثور وعلبة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين (٢) ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء في القرآن الكريم، وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزا لآلهتهم، ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبي في بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم ، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس ، كما مر بنا ، هو القمر أو ودّ ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العزى . ونراهم يقصدون النار ، ويظهر ذلك في إيقادهم لها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها (٣) ويقال إن المجوسية كانت متشعبة في تميم وحمّان والبحرين وبعض القبائل العربية (٤) ، والمجوس كما نعرف ثنوية يؤمنون بالهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم ، وقد يرون في بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم ، ففي أخبارهم أن العزى كانت لغطفان ، وهي شجرة بوادي نخلة شرقي مكة ، وقد قطعها خالد بن الوليد ، وهو يقول :

الإسلام لمحمد عبد المعيد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسنين على .

(٢) راجع جواد على ٢٠/٥ وما بعدها و٥٣/٥ وما بعدها حيث يذكر رأى رينان وآراء غيره من المستشرقين .

(٣) انظر الحيوان ٤٦١/٤ وما بعدها .

(٤) جواد على ٢٨٤/٦ وما بعدها .

(١) انظر في ديانات الجاهليين الجزوين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على وكتاب روبرتسن سميث :

Lectures on the Religion of the Semites.  
وبقايا الوثنية العربية لولهورن : - Reste Arabis  
chen Heidentums . والأساطير العربية قبل

يا عَزَّ كُفْرَانِكَ لا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ<sup>(١)</sup>

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز : ( أفرايتم اللات والعزرى ومناة الثالثة الأخرى ) ويقول سبحانه وتعالى : ( ولا تدرنَّ ودّاً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونسراً ) . وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفي الحجاز ، وكان معبدها في الطائف ، ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بنتت عليه ثقيف بيتاً وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه<sup>(٢)</sup> ، ويتردد في أسمائهم وهب اللات وعبد شمس ، وعبد العزى ومثلها مثل اللات في تعظيم قريش والعرب لها وتقديسها . وكانت مناة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان في اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهي إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هذيل وخزاعة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحجون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يخلقون رعوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رعوسهم عندها ، لا يرون لحجمهم تماماً إلا بذلك »<sup>(٣)</sup> . وودّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية ، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام<sup>(٤)</sup> . وكان سواع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر<sup>(٥)</sup> ، وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك ، ويغوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن<sup>(٦)</sup> . وكان يعوق صنم همدان وخولان وما والاهما من القبائل<sup>(٧)</sup> . وفي اسمه واسم يغوث ما يشير إلى أرواح حافظة ، فعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

(٥) الأصنام ص ٥٧ وجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ١٠/٣٦٤ ومادة رهاط ، حيث أقاموه ، في معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت .

(٦) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمخبر ص ٣١٧ والطبرسي ١٠/٣٦٤ ومعجم البلدان في يغوث .

(٧) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسي ١٠/٣٦٤ ويعوق في معجم البلدان .

(١) الأصنام لابن الكلبي ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى في معجم البلدان .

(٢) الأصنام ص ١٦ والمخبر لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان في اللات .

(٣) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرقى ( طبعة المطبعة الماجدية ) ١/٧٣ ومعجم البلدان في مناة والمخبر ص ٣١٦ .

(٤) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمخبر ص ٣١٦ ومعجم البلدان في « ود » .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير<sup>(١)</sup> ، وانتشرت عبادته في الشمال ، ويشير اسمه في وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفي الطبرسي : « كان ودّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير »<sup>(٢)</sup> .

وراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً<sup>(٣)</sup> ، وكان أعظمها عند القرشيين هُبَل : « وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح ، مكتوب في أحدها : « صريح » والآخر : « مُلصَق » . فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح (السهم) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه ، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقدحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضَرَب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله »<sup>(٤)</sup> . وباسمه كان ينادى أبو سفيان في معركة أحد ويصيح : اعْلُ هبل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالا سيئة فمسخا حجرتين ، وعبدهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وتانيهما في موضع زمزم ، ويقال إن إسافا كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليماني<sup>(٥)</sup> . ومن أصنامهم مناف وبه سمي عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتيسم وشمس تميم وذو الخالصّة وهو صنم خشبهم وبجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكان موضعه بتبالة وله بيت يحجون إليه<sup>(٦)</sup> . وذو الشّري وكان له معبد ضخم في

(٤) الأصنام ص ٢٨ والطبرسي ٣٦٤/١٠ .

(٥) الأصنام ص ٢٩ والمخبر ص ٣١٨

والطبرسي ٣٦٤/١٠ .

(٦) الأصنام ص ٣٤ ، والأزرق ٢٥٦/١

والمخبر ص ٣١٧ .

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠

ومادة نسر في معجم البلدان واللسان وتاج العروس .

(٢) الطبرسي ٣٦٤/١٠ .

(٣) انظر الجزء الثاني من ابن الأثير في

ذكر فتح مكة .

سُلع (بطرا) <sup>(١)</sup> ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسوس عند اليونان إله الخصب والحمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدون لها مقرأً لبعض الأرواح . وفي القرآن الكريم : ( يا أيها الذين آمنوا إنما الحمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ) . والأزلام هي القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم والوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالا ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن ، يقول ابن الكلبي : « واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسنت ثم طاف به كطوافه بالبيت .. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه رباً وجعل ثلاثة أثافي لبقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك . وكانوا ينحرون ويدبحون عند كلها ويتقربون إليها » <sup>(٢)</sup> .

وهذه البيوت التي اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذي الحليفة وهي الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهي بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسه الوثنية في الجاهلية ، وهي التي وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون في حجهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويظنُّ أنه كان على كل منهما صنم ، ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم مئى . وكانت إفاضتهم في عرفة عند غروب الشمس ، أما في المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولَّى الإجازة في الأولى بعض التيمييين . وفي الكعبة الحجر الأسود وكانوا يتبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون في طوافهم ، فمنهم من يطوف عرياناً وهم الحلة <sup>(٣)</sup> ، ومنهم من يطوف في ثيابه وهم الحُمس <sup>(٤)</sup> من قریش

(٣) الحبر ص ١٨٠ وما بعدها .

(٤) الحبر ص ١٧٩ والأزرق ١/١١٤ .

(١) الأصنام ص ٣٧ وتاج العروس

واللسان في مادة الشرى .

(٢) الأصنام ص ٣٣ .

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرق طواف العريان بقوله : « يبدأ بإساف فيستلمه (يعتقه) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فياخذها ، فيلبسها ، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً<sup>(١)</sup> . وقد أبطل الإسلام العري في الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الخمس<sup>(٢)</sup> .

وكان من تقاليدهم رمي الجمرات في منى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الاصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفي القرآن الكريم : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لأهلهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأولها الناقة أو الشاة يحرمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسيب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلاً ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحويه ، وإن ولدت توأمًا : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من صلبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة في نذورهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدمًا ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة في الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبسون إلا أن بعضهم كان يشرك في تلبيته ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وكان لكل قبيلة بعد تلبية ، فكانت تلبية من نسك للعزى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحببنا إليك . وكانت تلبية من نسك للات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى بيبتنا بنية ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لود :

(٢) الأزرق ١/١٤٤ .

(١) الأزرق ١/١٤٤ .

ليبك اللهم لبيك ، لبيك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لدى الخَلَصَة :  
 لبيك اللهم لبيك ، لبيك بما هو أحب إليك . . . (١) .»

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهي رجب  
 وذو القعدة وذو الحجة والحرم ، وكان الحج إلى مكة في ثالثها ، وفي اسمه ما يدل  
 على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم  
 فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعُدّت  
 انتهاكاً عظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومُعِيناً لبعدهم  
 عن الأماكن المقدسة في الوصول إليها دون أن تُمسَّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون  
 ويميرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونها الحجابة ،  
 وكانت في مكة لبني عبد الدار ، وبجانب هؤلاء السدنة كهان كانوا يدعون معرفة  
 الغيب وأنه سُخَّر لهم طائف من الجن يسرق لهم السمع فيعرفون ما كُتِب للناس في  
 ألواح الغد . ومن عُرِف بذلك سَطِيح الذنبي وشِقّ بن مصعب الأنماري وعوف بن  
 ربيعة الأسدي وسلمة الخزاعي وسواد بن قارب الدوسي وعزّي سلمة (٢) . ونجد  
 بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة  
 ذى الخَلَصَة (٣) . وفي أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت  
 الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً في ثورة بحضرموت قضى عليها أمية بن أبي المهاجر  
 لعهد أبي بكر الصديق (٤) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح  
 وأنها تحل في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ،  
 هي الملائكة وأرواح شريرة هي الشياطين . وفي القرآن الكريم : ( وجعلوا الملائكة  
 الذين هم عباد الرحمن إناثاً شهدوا خلقهم ستمكتب شهادتهم ويسألون ) . فكانوا

بولاق) ٥/١ .

(١) المخبر ص ٣١١ .

(٢) انظر مجمع الأمثال للميداني ٩١/١ ،

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٥/١

٢٢٣/١ ، ٥٤/٢ .

والكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ٣٠١/١

(٤) المخبر ص ١٨٤ .

وأغانى (طبعة دار الكتب) ٨٤/٩ وطبعة

السامى ٧٠/١٥ والسيرة الحلبية (طبع



يترحمون أنها بنات الله ، وكانوا يعبدونها - كأصنامهم - من شفعايم عند الله وشركائه ، وحكى القرآن اعتقادهم في ذلك إذ يقول جلّ وعز : ( ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ) . وفي القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسباً ، يقول جلّ وعز : ( وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخـرقوا له بين وبينات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ) . وفي أساطيرهم أو قل في معتقداتهم أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلّة العطش ضربوا الثور ليقتمح الماء ، لأن البقر تتبعه<sup>(١)</sup> ، فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحاءهم . ولهم فيها كثير من الأساطير ، عرض لها الجاحظ في الجزء السادس من حيوانه ، فتحدث عن مواطنها في رأيهم وأنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصور في صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تسبّوهم وتقتلهم أو تخيلهم ، ويُسْمَع ليلاً عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرّئي ، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شِفَاءً ، ولكل شاعر شيطانه الذي ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة ، والغول وهي من سباعهم ، ويزعم تأبط شراً في شعر يضاف إليه أنه لقيها في ليلة مظلمة وهو يسعى في فلاة ، فنازلها وما زال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها ، يقول<sup>(٢)</sup> - إن صح أنه قائله - :

فلم أنفك متكثراً عليها لأنظر مصبهاً ماذا أتاني  
إذا عينان في رأسٍ قبيحٍ كراسٍ الهرِّ مشقوق اللسانِ  
وساقاً مُخَدَجٍ وشِوَاةٍ كلبٍ وثوبٌ من عباءٍ أو شِنانِ<sup>(٣)</sup>

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلّ وعز :  
( وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجّاب ، وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن

(١) انظر الحيوان ١٨/١ وما بعدها . (٢) مخدج : ناقص الخلق ، الشوأة :

(٣) الأغانى (سأسى) ٢٠١٢/١٨ . الأطراف ، الشنان : جلد القرية البالي .

هذا الشيء يُراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) . وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور يقول جل ذكره : ( وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ) وقال : ( وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ) وقال : ( وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ) . ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد ، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحنفاء ، وكانت تشك في الدين الوثنى القائم وتلمس ديناً جديداً يهديها في الحياة . يقول ابن إسحق : « اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينسجرون له ويعكفون عنده ويديرون ( يطوفون ) به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنم بعضهم على بعض قالوا أجل ، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعبيد الله ابن جحش . . . وعثمان بن الحويرث . . . وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجرٌ نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . ففترقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية . . . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم . . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر . . . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والمسيئة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان . . . وقال أعبد رب إبراهيم »<sup>(١)</sup> ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين في القبائل ، إذ تعد كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادى وأبأ ذر الغفارى وصيرمة

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العُدْوانى وخالد بن سنان العبسى وأمّية بن أبي الصَّلْتِ الثَّقَفى وعمير بن جندب الجُهَنتى . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام (١) مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التميمى وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكاً في حياتهم الدينية، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام ، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً .

٥

## اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلى حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز (٢) ، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اصطدامهم بالقيصر طيطوس (Titus) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد ، وكذلك اصطدام القيصر هديران بهم سنة ١٣٢ في هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز ، وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك ، ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة ، نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن ، وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهديران غير واضحة تماما .

وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلى أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادى أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذونُراس ، وأن يدخلوه في دينهم ، وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم ، وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : ( قُتِل أصحاب الأُخُدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نَقَموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ) .

السادس وكذلك كتاب مرجليوث :

The Relation between Arabs and  
Israelites Prior to the Rise of Islam.

(١) المبحر ص ٢٣٧ .

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب  
تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على الجزء

وربما كان السبب الحقيقي في استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية في بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نُوَاس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عاماً ، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التي قضها الأحباش النصارى هناك كانت سبباً في تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتهم في البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها في الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبّه ، وهما في الإسرائيليات التي شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز : يثرب وخيبر ووادي القرى وتيما ، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النَّضِير وبنو قريظة وبنو قيسنقاع وبنو بهدل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحداذة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعملون عمداً إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكنا في حروب دامية ، حتى جمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخواناً متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثرون معه مناقشات ومجادلات صورها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين ، ويؤيدون عليهم قريشاً وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفي السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم في دار ندوة لهم تسمى المدراس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمِشْنَةَ والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خيبر ووادي القرى وفدك وتيما ، واشتهر بينهم غير شاعر كالمسؤول بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فحاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل على دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة في الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به في قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين إثبات هذا التأثير (١) .

وقد انتشرت النصرانية في اليمن وشمالى الجزيرة الغربى والشرقى (٢) ، ويُظنُّ أن انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادى ، وكان من أهم الأسباب فى انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلمهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا نصل إلى العصر الجاهلى حتى نرى النصرانية منتشرة فى نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكبهم ذو نواس نكبته المشهورة التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فُدعمت النصرانية واعتمقتها كثيرون، وبُنيت لها كنائس فى غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران، وفى السيرة النبوية أن وفدًا منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحبّتهم أبو حارثة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » (٣) . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة فى مدن اليمن ، واهتم بزيتها وزخرفتها ، أشهرها القليس فى صنعاء ، وهى تعريب لكلمة Ecclesia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » (٤) . ويظهر أنه استعان فى بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة ، وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائمًا إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجُدّام وکلب وقضاة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيستيين ، وهم القائلون بأن

(٣) انظر وفد نجران فى سيرة ابن هشام  
٢٢٢/٢ .

(٤) مادة القليس فى معجم البلدان لياقوت  
وتفسير الطبرى ١٩٣/٣٠ .

(١) انظر جواد على ٩١/٦ وما بعدها  
وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى النصرانية بجزيرة العرب تاريخ  
العرب قبل الإسلام لجواد على ، الجزء السادس ،  
والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ،  
وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعي المولود حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد  
دخل في مذهبه — كما قد منا — الغساسنة ومسنّ والاهم من عرب الشام .

ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضاً إلى تغلب وإياد وبكر ، وتغلغلّت  
في الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العباديون ، وأغلب الظن  
أنهم سماوا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة  
كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس ( Nestorius )  
المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت  
وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر في التنصر ، ويقال إن هندا  
أم عمرو بن المنذر ابنت ديراً هناك ويقال بل بنسنته هند بنت المنذر ، وقد دخل  
أخوها النعمان في النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشي الذي تزخر به مكة نصرانياً ، ويظن أنه كان بها جالية  
من الروم النصراري<sup>(١)</sup> ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين  
التمر<sup>(٢)</sup> وإنه كان بها جوار روميات<sup>(٣)</sup> ، ويقال إن شماسا زار مكة في الجاهلية<sup>(٤)</sup> ،  
وكان يعيش في مرسّ الظهران راهب مسيحي<sup>(٥)</sup> . ويزعم اليعقوبي أن قوما تنصروا  
من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبي لب وعثمان بن الحويرث  
الأسدي<sup>(٦)</sup> . والمظنون أنه كان في المدينة بعض النصراري ، وإليه يشير حسان  
في رثائه للرسول صلوات الله عليه — إن صح أنه له — إذ يقول<sup>(٧)</sup> :

فرحت نصراري يشرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد

وكانت النصرانية منتشرة في طيء ودومة الجندل . وهي على هذا النحو كانت  
تختلف عن اليهودية التي لم تدع في القبائل . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور  
من تنصروا من العرب قبل الإسلام ، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقاً ،

(٤) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبي ١/٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان ( طبعة هرشفلد )

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad

p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤٤ / ٢٣٢ ،

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا الدين الجديد ، وظلوا يخالطونه بغير قليل من وثيقتهم ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العبادي<sup>(١)</sup> :

سعى الأعداء لا يألون شراً على رب مكة والصليب

فهو يجمع في قسده بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون في الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة في النصرانية .

والحق أن نصارى العرب في الجاهلية إنما عرفوا ظاهراً من دينهم ، وقبلما عرفوا حدوده ، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه ، فنذ امرئ القيس وقوله<sup>(٢)</sup> :

يضيئ سنناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبالب المفتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى<sup>(٣)</sup> :

كدمية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقرعها في أواخر الليل ، يقول المرقش الأكبر في بعض شعره<sup>(٤)</sup> :

وتسمع تزقاة من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس<sup>(٥)</sup>

وعرض النابغة الذبياني في مديحه للغساسنة لتدينهم ، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السبابس إذ يقول فيهم<sup>(٦)</sup> :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السبابس

(٤) المفضليات (طبعة دار المعارف)

ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح . والهدو : أوائل الليل .

(٦) مختار الشعر الجاهلي للسقا ص ١٦٢ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١١/٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبعة دار

المعارف) ص ٢٤ . و والسليط : الزيت .

(٣) الديوان (طبعة جاير) القصيدة رقم ١٨ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذي كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول (١) :

عليه كمصباح العزيز يُشبهه لِفِصْحٍ ويحشوه الذُّبَالُ المَفْتَلًا

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشتهر عندهم بنسجه للدروع المثينة القوية ، ومن ثمَّ يقول سلامة بن جندل في وصف بعض الدروع (٢) :

مُدَاخَلَةٌ من نسج داود شكَّها كحَبِّ الجَنَّا من أبلُمٍ متفلقٍ (٣)

وقد يتحدثون عن ملكه في صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى الدهر على الناس فلا يبقى ولا ينذر.

ويكثر في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت وعدى بن زيد القصصُ عن الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظناً أنه موضوع . وهو إن قُبِلَ من عدى النصراني فإنه لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو في شعر بعض الشعراء نزعة إلى التفكير في الحياة والموت على نحو ما أسلفنا في غير هذا الموضع ، كما يبدو في شعر نقر منهم إيمان بالله ، كقول عبيد بن الأبرص في معلقته - إن صح أنه له - :

من يسألِ الناسَ يحرموهُ وسائلُ الله لا يخيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التي تتفق معها في الوزن (٤) . وفي معلقة زهير :

فلا تكتمنُ الله ١٠ في نفوسكم ليخفي ومهما يُكتم الله يعلم  
يوخر فيوضع في كتاب فيُدخر ليوم الحساب أو يعجل فيُنقم

(٣) مداخلة: محكمة النسخ، شكها: أحكمها،

الأبلم : بقلة لها قرون بها حب يابس .

(٤) جواد على ٣٠٥/٦ .

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .

(٢) الأسميات (طبعة دار المعارف)

ص ١٥٠ .



فالله يعلم خائنة الصدور وما تخفي ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يده  
عاجلاً أو آجلاً في يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلاً على أنه  
ممن تحنفوا قبل الإسلام .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في  
الشعراء آثاراً مختلفة لا في شعرائها الخاصين بل أيضاً في بعض الشعراء الوثنيين ، وكان  
من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسربُ فكرة البعث والحساب إلى  
نفر من الجاهليين .

## الفصل الرابع اللغة العربية

### عناصر سامية مغرقة في القدم<sup>(١)</sup>

أشرنا في غير هذا الموضوع إلى أن اللغات السامية تتشابه في كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهاً يثبت القرابة بينها ، وهو تشابه يفيدنا في معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت في صورتها الأخيرة . وقد أبلى علماء الساميات بلاء مشكوراً في الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والإعراب والأصوات ، وهي دراسة تفيدنا فائدة جلتى في التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها . فإن لاحظنا تشابهاً بين لغتين من هذه اللغات في ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقى إلى العصر الذى كانت هذه اللغات متحدة فيه . وقد يقع التشابه في الظاهرة في لغتين غير متجاورتين ، فإما أن يرجع إلى أصل قديم ، وإما أن يكون ثمرة تطور تاريخى في كل منهما أدى إلى نفس النتيجة ، أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فإما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما ، وإما أن تكون إحدهما تأثرت الأخرى . ولعل في هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغي حين درسوا الدخيل في عربيتنا ، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية ، غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامى القديم ، فلا يقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب ، بل يقال إنها من الكلمات السامية

الإسلام لجواد على ومحاضرات خليل يحيى ناي  
بكلية الآداب في جامعة القاهرة .

(١) راجع في هذه العناصر كتاب « التطور  
النحوى للغة العربية » لبرجشتراسر (طبع القاهرة  
١٩٢٩) والجزء السابع من تاريخ العرب قبل

القديمة التي تداولها الساميون في زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية .

ونضرب مثالا آخر آثار ضجة واسعة بين المستشرقين ، وهو ما زعمه فولرز من أن القرآن الكريم كان في بادئ الأمر غير مُعرب ، إذ كان بلهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة - فيما يزعم - كانت غير معربة ، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو والعربية ؛ ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو المعربة . وقد رفض كثير من المستشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأي رفضاً باتاً<sup>(١)</sup> ، ويقول يوهان فك : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضاً على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالاً للشك في إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك ، انظر مثلاً آية ٢٨ من سورة فاطر : ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) وآية ٣ من سورة التوبة : ( أن الله برئ من المشركين ورسوله ) وآية ١٢٤ من سورة البقرة : ( وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه ) وآية ٨ من سورة النساء : ( وإذا حضر القسمة أولو القربى ) فثل مواقع الكلمات في هذه الآيات . . . لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها صحيحاً . يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل آية ١٣٠ من سورة النحل : ( وهذا لسان عربي مبين ) وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أي قبائل البدو »<sup>(٢)</sup> .

ومما يثبت بطلان رأى فولرز أيضاً أنه لم يُعرف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية . وقد نسى أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توقيفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه قرأه على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللهجات المعربة من حوله . وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأي وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدلل

ليوهان فك ص ٣ وما بعدها .

(٢) العربية ليوهان فك ص ٣ .

(١) انظر مادة قرآن في دائرة المعارف

الإسلامية وتاريخ القرآن لتولدكه وكتاب العربية

على صحته ، تارة بما وجده من نصوص متأخرة تحث على مراعاة الإعراب في ترتيب القرآن ، وتارة بما يزعمه من أن قرآء القرآن الأولين رحلوا لمخالطة عرب البادية ، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبّقوها على الذكر الحكيم<sup>(١)</sup> ، وهو يستمد في الشطر الثاني لقوله وزعمه من فولرز ، أما الشطر الأول فواضح البطلان ، لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء في عصور اللهجات العامية المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخي ، فإن الإعراب في الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفي بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة ، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكديّة ، كما تشترك في بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية . وحدث في سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء في رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشاً كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد في موضع كان يعرف قديماً باسم أوغريت (Ugarit) وجدوا في حل رموزها ، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة ، فسموها باسم موضعها تمييزاً لها ، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوغريتيّة يشيع فيها الإعراب مثل العربية ، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون أنه خاصة عربية .

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتي الإعراب والمنع من الصرف قديمتان في اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما ، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات ، فهما ليستأمن الظواهر المستجدة ، بحيث يمكن أن ينسبا إلى بعض قبائل البدو كما وهم فولرز وكاله ، وإنما هما من الظواهر السامية القديمة ، وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشاً أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه في لهجتهم الخاصة ، بل كان الإعراب عامّاً بينهم جميعاً في الشرق والغرب ، وفي الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد ، فن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملاً في لغة قريش ، فإن ذلك مجرد حدس لا قيمة له .

(١) راجع ما ساقه عبد الحليم النجار من تعليقات في كتاب العربية المذكور .

ومن ظواهر العربية التي أكدت اللغة الأوجرتية أنه قديم ظاهرة التعريف بأل ، وهي تقابل حرف الهاء الذي كان يستخدمه العبريون والآراميون في التعريف ، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والأخرون يلحقونه بآخرها . وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجارون العبريين في استخدام هذا الحرف في التعريف ومثلهم الموديون واللحيانيون . واستخدم النبط في نقوشهم أل استخداماً واسعاً ، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله واللات والعزى ، وقد تحذف الألف منها في الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لى وعبد لى بإشباع الكسرة ومدّها بحيث تتولد منها الياء ، ويقول اللغويون إن الأزديشبعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم في العربية . ويدل حذف الألف في مثل وهب لى أن النبط كانوا يسهلون الهمزة ولا يحققونها على نحو ما أثار عن قريش وأهل الحجاز في عدم تحقيق الهمزة لا في أل وحدها بل في كلمات كثيرة ، فيقولون في أسأل : سأل . وكل ذلك معناه أن أداة التعريف في العربية قديمة وأن تسهيل الهمزة حدث قبل العصر الجاهلي ، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون في غربي الجزيرة مثل النبط والحجازيين .

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل في العربية وصيغته في اللغات السامية وجدنا همزة التعدية في صيغة أفعال العربية تشيع في اللغتين الحبشية والسريانية ، بينما تعبّر العربية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء ، فهفعل عندهم تقابل أفعال في العربية ، وكان اللحيانيون والموديون يستخدمون الصيغتين جميعاً . وفي الوقت نفسه نجد النقوش اليمينية ما عدا السبئية ، ونقصد المعينية والقبتانية والأوسانية والحضرية تعبّر عنه بسفعل ، وتعبّر عنه الأكديّة بسفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين في وزن استفعل ، ومن ثم ذهب ليمان إلى أن أداة التعدية كانت في الأول سيناً ، ثم صارت شيئاً في الأكديّة ، وصارت السين هاء عند بعض الساميين ، ثم صارت الهاء همزة في العربية والسريانية والحبشية<sup>(١)</sup> . ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايا من هذه الصيغ جميعاً كصيغة هراق

المجلد العاشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٢٥ وما بعدها .

(١) انظر مقالة ليمان عن « بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي » بالجزء الأول من

الماء بمعنى أراقه . يقول ابن يعيش : « اعلم أنهم قالوا أهراق فمن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل في أردت ونظائره »<sup>(١)</sup> وكأنه كان بينهم من يجمع في التعدية بين الهمزة والهاء ، ومن يكتفى بإحداهما في مثل هذه الكلمة ، ويظهر أن هذا كان كثيراً إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة ، فيقولون هراح في أراح وهنار في أنار وهكذا . وفي القاموس المحيط الهذروف كعصفور : السريع ، وهذرف : أسرع . ومعنى ذلك أن بين الأسماء صيغا احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها ، يقول صاحب القاموس : « الهجَزَع كدرهم : الجبان لأنه من الجزع » .

أما وزن سفعل الذى استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية فإن العربية احتفظت به في صيغة استفعل . وفي المزهري من مزيد الثلاثي هفعل في مثل هلقم إذا أكبر اللقم وسفعل في مثل سنسب بمعنى نبس<sup>(٢)</sup> . ويمكن أن يُرَدَّ إلى هذه الصيغة كثير من الأفعال التي تبتدئ بالسين ، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التي تبتدئ بالهاء ، فهدر مثلا يمكن أن يكون أصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء ، وسكن أصلها كان من كان التامة ، ثم حذف الألف . وبهذا القياس يمكن أن ننعم النظر في بعض الكلمات المبدوءة بالشين فزدها إلى صيغة شفعل الأكديية ، فشسع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوش من وش وهكذا . وكأن العربية كانت تستخدم في بعض أزمنتها القديمة كل هذه الصيغ ، ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعل وآثرتها معرضة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف في النطق وأيسر .

ومن الظواهر التي تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر ، إذ نرى مثلا : أنا تختص بالمتكلم مع زيادة مميزات عددية أو جنسية في بعض اللغات ، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل ، وقد تخلفها الكاف كما في الأكديية ، على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير<sup>(٣)</sup> :

يا بن الزبير طالما عصيكا وطالما عنيتنا إليك

فقال عصيك بدلا من عصيت . وكما تتشابه اللغات السامية في الضمائر تتشابه في

(٣) النوادر في اللغة لأبي زيد (طبعة بيروت)

ص ١٠٥ وأسباب الأشراف للبلادى ٤٨/١١ .

(١) شرح المفصل للزمخشري ١٠/٥٠

(٢) المزهري للسيوطي ٤٠/٢ .

أسماء الصلة والإشارة ، ويدل الاسم الموصول « ذو » عند الطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت في الأصل أسماء إشارة ، وهو في الحبشية « ذ » وفي السريانية « د » ، و« دى » في النقوش النبطية . وأيضاً فإن هذه اللغات تتشابه في كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدوات الاستفهام وفي الميل إلى المخالفة بين الذكر والأنثى رغبة في الأزواج كما يتضح في العدد ومخالفته للمعدود في الجنس وفي تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكور .

وتشترك العربية مع أخواتها السامية في أن الأسماء الثنائية أقدم أسماؤها ، وفي العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها ، وقد أخذت - كأخواتها - تشتق منها الثلاثي وغيره أو تولدهما ، ومن أقدم ما اتبعته في ذلك تضعيف الحرف الثاني أو زيادة واو أو ياء في أوله أو زيادة حرف لين في وسطه أو نهايته . وقد تتكرر المادة الثنائية مثل حصحص وصرصر وسلسل . ولعلماء الساميات أبحاث في الكلمات التي تشترك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتي يمكن أن تعد من أقدم عناصرها ، وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنات وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة ، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه الأسماء : ولد وملك . ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وإبل وثور وحمار ونسير وعقرب وذباب ومعها فعل نَسَج . ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكون وزرع وسنبلة . ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان وسن وشعر ويد وظفر وركبة وكتف وذئب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم ، ومعها سَمِعَ وطعم . وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر . ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنيع وبئر ، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق ولهب . ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وحبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى . ومن المأكولات والمشروبات قمع ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقل . وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبل ونقل وفتب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووفر ، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة (١)

(١) راجع في ذلك كله برجستراسر ص ١٤٠ وما بعدها .

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم في مثل هذه الكلمات مشكل، فإما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض القروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت في زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ماتنفرد به العربية من كلمات لا توجد في أخواتها السامية هو من السامى الأصيل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجستراسر إلى أن « هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها . . وهذا من الأوهام التي لا سبب لها، فإن اللغة العربية ترفت رقياً بعيداً بالقياس إلى أخواتها الساميات . . ولا بد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوفاً من الكلمات الجديدة ولا عجب في ذلك بعد ما شاهدناه مراراً من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة»<sup>(١)</sup> ويضرب مثلين لذلك: كثرة ما اخترعته في باب الإبل وأوصافها وشيائها وأمراضها وأدائها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النفي، إذ تشترك مع اللغات السامية في أدواته الأساسية « لا » ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها في أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضاف إلى ذلك أدوات جديدة هي ما وإن وغير، وبذلك عددت وظائف النفي ونوعها.

ومعنى كل ما قدمنا أن هناك عناصر في العربية ترجع إلى أقدم أزمنتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين<sup>(٢)</sup> بحث فيهما أسماء الأعلام في اللغات السامية متخذاً منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها. ولا حظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخصص أمنية أو فرحاً أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية. ومن طريف ما لاحظته أن التبط كانوا يلحقون في كتابتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحياناً، يقول: والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو في آخرها. وأخذ

المجلد العاشر، العدد الثاني، والمجلد الحادى

عشر، العدد الأول.

(١) برجستراسر ص ١٤٢.

(٢) انظر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة



العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطي فألحقوها بعمر و فرقا بينه وبين عمر<sup>(١)</sup> و قارنَ مقارنات واسعة بين الأعلام في العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية ، وأدلى في هذا الصدد بملاحظات جيدة .

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت في نقوش قديمة ، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محاولين استخلاص عناصرها وظواهرها المغرقة في القدم ، والتي جدت على مر التاريخ . وقد لاحظوا أنها هي والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تُكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة ، كما لاحظوا أنها هي والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما ، وما يميزها أيضاً حرف الضاد ، ولم يلم كلام كثير فيه وفي منخرجه ، وتبادلته مع الظاء واللام في بعض الكلمات .

## ٢

## لهجات عربية قديمة (٢)

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة ، منها ثلاث كتبت بالخط المسند الجنوبي ، وهي اللهجة النمودية واللّحيانبة والصّفوية ، وواحدة كتبت بالخط الآرامي ، وهي اللهجة النبطية . وقد جاء ذكر ثمود في القرآن الكريم مراراً ، وكانوا يتزلون في مدائن صالح وما حولها ، وتمتد عشائرتهم غرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى جبلى أجا وسلمى ، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفي كتابات آشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وترجع نقوشهم التي عُثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده ، وهي تنتشر في كثير من البلاد ، فهي فضلا عن وجودها في أماكن إقامتهم وسكنهاهم نجدها مبثوثة في الطائف وطورسيناء ومصر بوادي الحمامات ، وربما كان في ذلك ما يدل على أن أهلها

ليتان في العدد الثاني من الجزء العاشر بمجلة كلية الآداب، وكذلك مقالته : « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » في الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

(١) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ،

العدد الثاني ص ٤٣ .

(٢) انظر في هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على ومقالة

كانوا أصحاب تجارة واسعة . ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى ، وقليل منها أدعية لأهتهم ، وهي صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبي ، مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين ، وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد . وما يزيد في صعوبته أيضاً ، أو عبارة أدق مما يزيد في صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيراً ما يحدفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من « لى » وأيضاً فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية .

وهذه النقوش مع أنها كتبت بالخط المسند الجنوبي نقوش "العرب الشماليين ، فاللغة التي تعبّر عنها عربية شمالية ، ويتضح ذلك في تراكيبها الصرفية والنحوية وفي اشتقاقات أفعالها وأزمنتها . ونجد عندهم صيغة المثني بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو . غير أن أداة التعريف الشائعة عندهم هي الهاء لا آل ، وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين ، أما عند النبط فهي آل ، ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء ، وهم في ذلك يتطابقون مع العبريين ، وأيضاً فإنه يشيع عند التموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثي بالهاء بدلا من الهمزة ، مثلهم في ذلك مثل العبريين والسبئيين ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع .

واللهجة القديمة الثانية هي اللهجة اللحيانية نسبة إلى منازل أهلها من بني لحيان الذين ذُكروا في نقوشها ، وقد عثر عليها علماء الساميات منثورة في شمالي الحجاز بمنطقة العُلا الحالية ، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح ، ويختلف الباحثون في تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده ، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد . وتلقانا في نقوشهم نفس الصعوبات التي تلقانا في نقوش التموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد . وهم يعرفون بالهاء على شاكلة التموديين ، وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية ، وقد يجمعون بينهما مثل هَلِحَمسى بمعنى الحمى . وهم يستبقون بين صيغ الفعل على صيغتي هفعل وسفعل ونراهم يلحقون بالماضي تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال

وذه وذات . ومن أسماهم الموصولة من وما وذو المعروفة في لهجة طيء . ومن ألقابهم التي يرددون ذكرها بعل والعزى ومناة وودّ وإلهة . ومن أسماهم عبد وودّ وعبد شمس وعبد مناة وبعيث وعمر وطود . ومن ألقابهم رب ويوم وبيت وحية وشيعة وحره ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم . وهم يكونون وينسبون على نحو ما نعرف في الفصحى ، وأيضاً نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالألف والتاء . ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفي ومن ومع وقبل وبعد وتحت ولدى وخلف ، وزراهم ينفون بلا .

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصفاة القائم في شرقي حوران ببادية الشام ، ولم توجد النقوش به ، وإنما وجدت في الحرّة الواقعة بينه وبين حوران ، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلئ بمجرات كثيرة ، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور ، واتخذوه علماء عليها ، وقد عثروا على نقوش منها في مواضع أخرى كالحرة الواقعة في جنوبي دمشق والصالحية على الفرات . وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى أمكنة بعينها ، إنما هي تسمية اصطلاحية . وخطها مشتق من الخط المسند الجنوبي كاللهجتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التي أشرنا إليها ، وما يزيدا صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد ، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين .

ونقوشهم قصيرة وشخصية ، وقد يضمونها وثائق تملك أو أدعية للآلهة ، وقد يذكرون تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بصرى أو ببعض حروب الببط والروم . وهي تسبق الميلاد وتمتد بعده قروناً . ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء ، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالألف واللام مثل الأوس والعبد . وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شاكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية ، فيقولون مثلاً « جبل الأحمر » بدلا من الجبل الأحمر ، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا يتقدمه فيقولون أو يكتبون « جو ، ذ » أي هذا الوادي ، بالضبط

كما نصنع في عاميتنا المصرية فنقول « النهاردا » بدلا من هذا النهار . وتلقانا عندهم ذو الطائية التي تُستخدم اسماً موصولا في مثلها المشهور « بئرى ذوحفرت وذو طويت » أى الذى حفرت والذى طويت .

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء في الضائير واستخدام العدد أو في أسماء الأعلام وصيغ الفعل ، فنحن لا نجد عندهم هفعل ، بينما نجد الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول ، وهى تتشابه مع العربية الفصحى في تصريف الأفعال ومصادرهما ففعل مصدره تفعيل أو تفعلة وفاعل مصدره فعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعال وهلم جرأ . ونراها تدخل تاء التأنيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث ، وتشيع فيها أدوات الجر المعروفة في العربية الفصيحة ، وتعطف بالواو والفاء ، وتنادى بها وبيا . والحروف جميعها هى نفس حروف عربيتنا عدداً ، ويشيع تسهيل الهمزة فيها ، وخاصة في أول الكلمة فعندهم ونس بدلا من أنس وودم بدلا من آدم . وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلا من إشاح . ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلا من آكل على نحو ما نصنع في لهجاتنا العربية المعاصرة ، وهم لا يدغمون الحرف الثانى مع الثالث في الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن ، بالضبط كما نطق في عاميتنا مادد بدلا من ماد . ومن أفعالهم المنقوصة التى احتفظت بها العربية : شتى وبنى وأنى ونجا ورعى ودعى ، ودائماً لام الفعل الناقص عندهم ياء . ومن العبارات التى وردت فيها هذه الأفعال : « نجى من هسلطان » أى نجى من السلطان و « رعى هضآن » أى رعى الضآن و « هأبل » أى الإبل و « همعز » أى المعز و « هبقر » أى البقر . وفى نقش من نقوشهم « ورعى هأبل سنة مرق نبط جوزد » أى رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادى . ومعنى كلمة مرق في النقش مر ، وهى تستخدم بنفس هذا المعنى في لهجاتنا المصرية . ومن آلهتهم رضا والللات ومناة وبعل وشيع هقوم أى شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط ، قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابدوه .

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصنفويين وأبناء عمومهم الثموديين

واللحيانيين لأنهم تمكن الحكيم بدقة على لهجاتهم جميعاً ، في صورة واضحة ، ومن المؤكد أنها تصور ضروباً من نمو العربية وتطورها في طريق اكتمالها ، ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعاً تنتهى بالقرن الثالث الميلادى . وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا في شمالى الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سَلْع (بطرا - Petra) حاضرتها الكبرى ، وموقعها الآن وادى موسى في جنوبى فلسطين . وكان لهم في الجنوب حاضرة صغرى هى الحِجْر وموضعها الآن يسمى مدائن صالح ، وكان لهم في الشمال حاضرة صغرى ثانية هى بُصْرَى بجوران في الشام . وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ م ، كما قدمنا ، إذ قوّضها الرومان ، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية في تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشى الرومان من اتساع سلطان أمراءها ، فحاربوا ملكها زنوبيا ، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميراً . وبذلك ينتهى تاريخ النبط ، ويظهر أنهم لعبوا دوراً واسعاً في التجارة ، فقد كانت قوافلهم تتسلم العرُوض من عرب الجنوب ومن التهوديين واللحيانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط .

والنبط عرب شماليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية في أحاديثهم اليومية ، غير أنهم اختلطوا بالآراميين ، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت في نقوشهم آثار آرامية كثيرة ، إذ نراهم يستعرون منهم بعض كلماتهم وقد يبقون في خطهم على بعض خصائص لغتهم . وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين ، فظهرت في نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم ، يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا في إمارتهم .

وتمتد نقوش النبط في الأنحاء التى سيطروا عليها ، وقد كتبوها بالخط الآرامى المشتق من الخط الفينيقى ، وهى منتشرة في الحِجْر ووادى موسى وتيما وشرقى الأردن وسيناء وحوران بُصْرَى ودمشق وصيدا وجبل الدروز ، وتنتهى بالقرن الثالث الميلادى مثلها مثل النقوش السابقة . وكثير منها عثر عليه علماء الساميات في القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور ، وهى تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لآلهتهم ، وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم ، وكثيراً ما يؤرخونها بالسنة التى انتهت فيها دولتهم الأولى وهى سنة ١٠٦ .

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافاً واضحاً عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والثموديين والصفويين في استخدامهم لأداة التعريف العربية ، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء في التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدام أل المعروفة في فصيحنا ، على أنهم قد يجارون الآراميين في تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف في نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر « قبرا » والمسجد « مسجدا » ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية « أل » . وربما صنعوا ذلك في كتابتهم فحسب ، مجازة للآراميين الذين أخذوا منهم خطهم وأبجديتهم ، أما في حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوخها في كتابتهم . وقد ميزوا في نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام الممنوعة من الصرف والمصروفة فكانوا يضيفون للأخيرة واواً دلالة على تنوينها ، مما بقيت آثاره في الخط العربي في مثل عمرو وعمر .

وهاتان الظاهرتان : أى استخدام أل في التعريف والواو في آخر الأعلام المصروفة يقرب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية . وما يلاحظ أنهم يكتبون أحيانا في كتابة أل باللام وحدها فيقولون أويكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعل بخذف الألف ، وكأنهم سهلوا وجعلوها همزة وصل لا قطع . وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقاً شديدة الصلة باللغة الجاهلية ، فهي لا تكاد تفرق عنها في أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن في التذكير والتأنيث للاسم والفعل . ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جلّ وعز . وتدور في نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذرو ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورعوف وسعود ومرأة وأمة وعبد ورب وسعد ، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بنى مثل آل قصى وبنى سهم .

واستخرج ليمان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهي مدونة في كتابه : (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين ، أمة ، أمة الله ، أوس ، إياس ، أوس الله ، أوس البعل ، بدر ، بكر ، تيم ، تيم الله ، تيم ذوشرا (يعنى عبد ذى الشرا) جذيمة ، اجرم ، جمل ، حجر ، حارث ، حارثة ، حنظل ، حيان ، رجب ، زيد ، سيع ، سعد ، سلم ، مسلم ، سكينه ، سمية ، أسود ، صعب ،

عدى ، عقرب ، على ، عمر ، عمير ، عميرة ، عياض ، غالب ، غانم ، غوث ،  
مغير ، فهر ، قصي ، كعب ، لحم ، مجد ، امرؤ الله ، امرؤ القيس ، معن ،  
مالك ، نصر ، نزار ، نعيمة ، نقيب ، تنوخ ، هاني ، وائل ، وحش ، ورد ،  
وهب ، وهبان ، وهب الله .

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية ، وهو طور قريب  
منها قريباً شديداً . ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطوراً سريعاً  
في القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطي مشتقين منه  
خطهم العربي على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع .

## ٣

## نشوء الفصحى

ليس من السهل تحديد الزمن الذي اتخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائي  
الذي تصوره الفصحى الجاهلية ، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب  
والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنوع الواسع في الجموع والمصادر وحروف  
العطف وأدوات الاستثناء والنفي والتعريف والتنكير والانهاء بالمنوع من الصرف  
إلى نظام تام منضبط مضافاً إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها  
لغة سامية احتفاظاً كاملاً ، وهي التاء والحاء والذال والظاء والضاد والغين .

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو  
والتطور ، وقد رأينا نماذج منها في نقوش كبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند  
الجنوبي ، وهي نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين ، ونقوش أخرى كتبت  
بأبجدية الآراميين ، وهي نقوش النبطيين ، غير أنها جميعاً لا تصور هذا التكامل  
الذي انتهت إليه الفصحى ، والذي تمثله نصوص العصر الجاهلي منذ أواخر القرن  
الخامس الميلادي ، وأوائل السادس ، فهل تم لها ذلك التشكل النهائي مع ظهور  
الشعر الجاهلي أو أن ذلك تم في حقب أبعد منه ؟ .

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة ، لسبب بسيط أو طبيعي ، وهو

أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة ، نستطيع أن نعرف منها بالضبط الزمن الذي يعد بدءاً حقيقياً للفصحى . وحقاً عثر علماء الساميات كما قدمنا في غير هذا الموضوع على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادي إلى القرن السادس ، غير أنها قليلة ، ثم هي قصيرة ، وأكثرها في أمور شخصية ، وليس بينها نص أدبي أو نص طويل يمكن أن نتيين في تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التي كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش ، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب ، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم ، وهي تخلو خلواً تاماً من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الإعراب .

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقرباً اقرباً شديداً من فصحانا ، وقد وقفنا في الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش النمارة المؤرخ بسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وهو لامرئ القيس ثاني ملوك الحيرة ، وُضع على قبره في النمارة شرقي جبل الدروز ، وقد لاحظنا أن كاتبه استخدم كلمة بر الآرامية بدلا من ابن العربية ، غير أن النقش بعد ذلك تام في عروبه وسواء من حيث الأسماء والأفعال ، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل . وأيضاً فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطي يعد مقدمة للخط العربي . إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلا أكثر استدارة .

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بدءاً لتكون الفصحى ، وقد لُقّب امرؤ القيس فيه بلقب ملك العرب ، وهي أول مرة نعت فيها على هذا اللقب ، وقد يكون في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون في إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ ، وكانوا قبله لا يفكرون في هذه الوحدة ولا في أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية .

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزاً لإحساسهم إحساساً عميقاً بوجود اتحادهم إزاء الدول التي كانت تناهضهم في الشمالين الغربي والشرقي ، ونقصد دولتي الروم والفرس ، فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط في سلع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم ، وبالمثل فرض الفرس سيادتهم



على الحيرة وقبائل العراق . وهذا في الشمال ، أما في الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها في أواسط القرن الرابع لمدة عشرين عاماً ، وعادوا في سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها .

والذي لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون في الشمال والجنوب ، وليس ذلك فحسب ، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية ، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم . وكان هذا كله حافزاً لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم ، فتمت شخصيتهم السياسية ، وأخذوا يكوّنون لهم إمارات مختلفة في الشمال ، يتجمعون حولها ، والتفت قلوبهم وأهواؤهم حول مكة بيت أصنامهم وكعبتهم الكبرى . وفي هذه الأثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا إخوانهم الجنيين في مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش ، وكان الجينيون يرحّبون بهم ، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة .

وليس هذا كل ما نلاحظه ، فنحن نلاحظ أيضاً أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة ، فلم يعد بيد الجنيين المهديين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهديين بالروم ، وإنما أصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين ، وربما كانوا يرجعون في أصولهم إلى النبط ، وكأنما هبطوا إليها بعيداً عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم . والمظنون أن التموديين هبطوا بدورهم إلى الطائف ، أما اللحيانيون فسقطوا إلى منازل هذيل .

وفي هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو سريعاً ، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو في سرعة ، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد . وزبد خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، ونقشها مكتوب بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية ، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه ، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربي الجاهلي تتكامل فيه . ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة في الحقبة الممتدة بينه وبين نقش التارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية . وعلى مثاله نقش حران اللّجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد ، وقد وُجد على باب معبد بنوه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق ، وجميع كلماته وعباراته عربية ، وهو يمضي على هذا النحو :

« أنا شرحيل (شرحبيل) بر (بن) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول (المعيد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خيرير بعم (بعام) ». وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيرير ، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقاً لقواعد النبط في كتابة أعلامهم المنصرقة ، وحذف حرف العلة من كلمة « عام » وهي نفس الصورة المألوفة في الأقسام الإسلامية الأولى .

ونرى من ذلك أن الخط العربي تكامل مع أوائل القرن السادس كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائي بشهادة نصوص الشعر الجاهلي التي يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس ، فنجد هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل ، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة ، هي الفصحى ، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم . وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها ، تلك التي عاشت في الشمال ، فقد حملتها إلى الجنوب القبائل التي تسقط فيه ، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوي الشمالي ، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزدي في جنوبي الحجاز .

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية في الجنوب ، ولسنا نريد أن نبالغ في هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب ، أما في داخل اليمن وفي ظفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم . ونستطيع الآن أن نفهم قول أبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعريبتنا »<sup>(١)</sup> فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخلين ومن يجرى مجراهم هو الذي يخالف لسان العرب الشماليين . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخلين أنفسهم أخذوا في التعريب ، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التي دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب<sup>(٢)</sup> يلاحظ تواتراً تقارباً في الكلمات أسماء وأفعالاً من اللغة الشمالية ، وحقاً تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية ، لكننا نجد في تضاعيفها صيغاً تشبه الصيغ

المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي وتعليق  
جواد علي عليها .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة

دار المعارف) ص ١١ .

(٢) انظر هذه الوثيقة في الجزء الأول من

العربية شبيهاً تاماً ، من مثل : « كن لهو خلفتن وقسد » أى كان له خليفة وقاسد ، وكلمة قاسد معناها قائد فى اللغة الجنوبية .

فتحن لا نصل إلى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها ، وأخذت تغزو العربية الجنوبية ، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قريباً وبعداً ، فهى فى الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحاً ، وهى فى الجهات البعيدة تؤثر تأثيراً يختلف قوة وضعفاً . على أنه ينبغى أن نعرف بأن اليمينيين كانوا فى نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم ، اما فى حياتهم اليومية وخاصة فى أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعريبتنا الفصحى .

#### ٤

### لهجات جاهلية<sup>(١)</sup>

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة فى العصر الجاهلى كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل ، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثانى للهجرة ، فسجلها اللغويون ، غير أنهم لم يعنوا غالباً بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانت مهمهم الصحة اللغوية من حيث هى ، وكأنهم يريدون التشبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التى نزل بلسانها القرآن الكريم . ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحياناً على القبيلة التى تنطق اللهجة الشاذة ، ولكنهم لم يعمموا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التى كانت تنطق بها إلا فى الندرة والحين بعد الحين ، فمن ذلك الكشكشة والكسكسة ، وهما تخصصان ضمير مخاطبة ، إذ كان بعض تميم وأسد ، وقيل أيضاً بعض بنى ربيعة يلحقون بكاف مخاطبة شيئاً فى الوقف ، وفى الوصل أحياناً ، فيقولون : رأيتكش وعليكش وبكش وكانت بعض قبائل ربيعة تلحق السين بدل

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليثان بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد العاشر ، العدد الأول وكتاب Ancient West-Arabian لرايين .

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليثان بمجلة

الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكس ، وكان منهم من يحذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين .

ومن ذلك العننة ، وهى فى تميم وبعض قيس وأسد ، إذ يجعلون الهمزة عيناً فى بعض الكلمات ، فيلفظون استعدى بدلاً من استأدى ، ويلفظون أعدى بدلاً من آدى ، ويقال إن بعض بنى طيىء كان يقول دأنى عوضاً عن دعنى . وكان هناك من يلفظ لعل لأن ، بإبدال اللام أيضاً نوناً ، وقالوا بدلاً من أن وأن عن وعن .

وتقرب من العننة الفحفة ، وكانت فى هذيل إذ تبدل الحاء عيناً ، ويقال إن بنى ثقيف كانوا يصنعون صنيع الهذليين فى ذلك فيقولون فى حتى عتى . وهذه اللهجات جميعاً كانت تشيع فى بعض القبائل الشمالية المضربة ، ومثلها التضجع وهو الإمالة ، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون . ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً فى القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل ، يقول سيبويه : « اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصبُ بعضٌ ما يُميل صاحبه ، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب فى لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين فى الكسر ( الإمالة ) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط فى لغته ولكن هذا من أمرهم » . ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التى حكيناها ، فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة ، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر فى قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها ، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافاً فى الكشكشة مثلاً هل كانت فى تميم أو كانت فى بكر أو كانت فى قيس أو كانت فيهم جميعاً ، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لاحظته سيبويه فى الإمالة من أن عشيرة أو أفراداً فى قبيلة تميل قد لا تميل ، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث فى اللهجات الشاذة التى رويت عن بعض القبائل المضربة .

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضربة وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ

كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار في يثرب تبدل العين نوناً في مثل أعطى فتقول أنطى ، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالا كما لاحظ ليتمان ، وإنما هما فعلان مختلفان .

وهناك لهجات نسبها للغويون إلى القحطانيين ، من ذلك التثنية في قضاة وبهراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون : تعلمون وتكتبون وتنجحون كما نصنع في عاميتنا المصرية . ومن ذلك العجعة في قضاة إذ يجعلون الياء المشددة جيما ، فيقولون تيمج في تيمى ، وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيما وجد عند بني تميم ، وقال الزخشرى إن بني حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيما مشددة .

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم ، وهو كسر الهاء في ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون : منهم وعنهم وبينهم . وسُمع عن قوم منهم ما سمي بالوكم إذ يكسرون الكاف في ضمير مخاطبين إذا سبقها ياء أو كسرة ، فيقولون : عليكم وبكم بكسر الكاف فيهما . واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيء بالطمطمانية ، وهى إبدال لام التعريف ميما ، فيقولون في السهم والبر والصيام : امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس إبدالا ، وإنما هى لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرفون بالألف والميم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون من أن طيء قبيلة يمنية ، ولا تزال لذلك بقية في عاميتنا المصرية إذ نقول بدلا من البارحة إمبراح وأول امبارح . وما ينسب إلى بعض القبائل اليمنية الشنشنة إذ يجعلون كاف الخطاب شيئا مطلقاً ، فيقولون بدلا من لبيك اللهم المضربين . وينسب إلى بعض الحميرين أنهم كانوا يجعلون السين تاء في بعض الكلمات فيقولون : النات بدل الناس . ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم :

يا قبح الله بنى السعلات عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا أعفَاء ولا أكيات

وواضح أنه استعمل النات بدل الناس والأكيات بدل الأكياس . على أن هذا الشاعر ليس حميرياً وإنما هو من بكر ، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويها .

وفي كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التي كانت تنفرد بها بعض القبائل ، وقد عقد السيوطي في المزهرة فصلاً لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين ، ويمكن أن نمد هذا الفصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافات لغوية . ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولين كانوا يحققون الهمزة وكان الثانون يسهّلونها فمثل سأل يسأل سؤالاً عند الأولين يقابل سال يسأل سؤالاً عند الثانين ، ومثل رثأت وعباءة ونبيء عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبيء عند الثانين . ويظهر أن ذلك لم يكن يطرد في كل الكلمات ولا على جميع الألسنة في الجانين المتقابلين من الجزيرة . وكان التميميون يدغمون الحرف الثاني في الثالث في أمرٍ مثل ردّ ، بينما كان يفك الحجازيون الإدغام فيقولون : ارددّ ، وهذه أيضاً فيما نظن كانت مسألة حيسّ ، فكان بين الفريقين من يجارى الفريق الآخر . وما اشتهر بينهما من فروق إهمالٍ ما عند التميميين في نحو ما زيد قائم وإعمالها عند الحجازيين فيقولون ما زيد قائماً ، ومن ذلك أيضاً أن الحجازيين كانوا يُجرون « هلم » مجرى أسماء الأفعال مثل صه ، فيلزمونها طريقاً واحداً في مخاطبة المفرد والمفردة والاثنتين والاثنتين والجماعتين ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء ، أما التميميون فكانوا يجرونها مجرى الأفعال ، فيقولون : هلم وهلمى وهلموا وهلمن يا نسوة ، وبلغت الحجازيين نزل القرآن الكريم في قوله تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلم إلينا » . ومن ذلك أمس عند الحجازيين فإنها تلزم البناء على الكسر ، أما التميميون فكانوا يقولون أمس في الرفع وأمس بفتح السين في الجر والنصب . ومن ذلك هيات فإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيات ، ورؤى فيها الإعراب بالحركات . ومن ذلك تنوين الترم في قوافي الشعر ، فقد كان الحجازيون يطلقون القافية ، ليفرقوا بين الشعر الذي يغنى والكلام المنشور ، وكان التميميون يبدلون المدّ في القافية نونا ، على نحو ما عُرف عن جرير في قصيدته :

أَقْلَى اللوم عاذل والعتابين وقولي إن أصبتُ لقد أصابن

فقد أبدل المدّ نوناً في « العتابين » و « أصابن » وهو يحذف في لغة

الحجازيين ، فيصبح البيت على هذا النمط :

أقل اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

وروى اللغويون كثيراً من اختلاف الفريقين في همس الحركات والجهر بها ومدّها ، فبينما يمد الحجازيون الألف في مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب ، وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون : ندهُ ، وبذلك نطق في عاميتنا المصرية ، ويقول الحجازيون خمس عشرة بتسكين الشين وتميم تفتحها ، ومنهم من يكسرها ومن يثقلها ، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها ، ويقول الحجازيون مرية بكسر الميم ويقول التميميون مرية بضمها ، ويقول الحجازيون الحجج بكسر الحاء ويقول التميميون الحجج بفتحها ، ويقول الحجازيون تخذت ونخذت ويقول التميميون اتخذت ، ويقول الحجازيون قلنسية بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو ، ويقول الحجازيون ينقد الدرهم ويقول التميميون ينتقد ، ويقول الحجازيون القير ويقول التميميون القار ، ويقول الحجازيون الكراهة ، ويقول التميميون الكراهية ، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة ( مصححية ) ويقول التميميون إضحيانة ، ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء في الفعل ويقول التميميون برئت بكسرها ، ويقول الحجازيون أنا منك براء ، ويقول التميميون برىء ، ويقول الحجازيون قلوب القمح وأقلوه قلاوأ ويقول التميميون قلوبته وأقلبه قلى ، ويقول الحجازيون لى بك إسوة وقدوة بكسر أولهما ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم ، ويقول الحجازيون : الشفع والوتر بفتح الواو في الوتر ، ويكسرها التميميون فيقولون الوتر ، ويقول الحجازيون وكدت والتمميميون أكدت .

ولعل خير مرجح يصور الاختلافات بين الفريقين هو قراءات القرآن الكريم ، فمثلاً في قوله تعالى : ( فنظرة إلى ميسرة ) قرأ الجمهور نظرة بكسر الطاء وهى لغة قريش ، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الطاء وهى لغة تميم ، وقال جل ذكره : ( ورضوان من الله أكبر ) وقرئت رضوان بكسر الراء وهى لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهى لغة تميم وبكر ، وقال تبارك وتعالى : ( وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ) وقرأ الجمهور كسالى بضم الكاف وهى لغة الحجازيين ، وقرأها الأعرج بالكسر وهى لغة تميم وأسد ، وقال : ( وليجدوا فيكم غلظة ) وقرأ الجمهور غلظة

بكسر الغين وهي لغة الحجازيين ، وقرأها السلمى وأبو حنيفة بالضممة ، وهي لغة تميم ، وقال : ( إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ) وقرأ الجمهور يستحي بياءين ، وهي لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحي بياء واحدة ، وهي لغة تميم ، وقال : ( ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسل ) وقرئت الرسل بتسكين السين وهي لغة الحجازيين ، وقرئت بضمها وهي لغة التميميين ، وقال : ( وإن أحضرتهم فما استيسر من الهدى ) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء ، وهي لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الباء ، وهي لغة تميم ، وقال : ( وآتوا حقه يوم حصاده ) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهي لغة الحجازيين وبفتحها وهي لغة تميم وقيس ، وقال تبارك وتعالى : ( وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهي لغة الحجازيين وقرئت بكسرهما وهي إحدى لغات تميم فيها كما قدمنا .

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل ، فقد قالوا إن بنى مازن كانوا يبدلون من الباء ميماً ، فيقولون : باسمك بدلا من ما اسمك ، ويقولون بكة بدلا من مكة والبوابة بدلا من المومة وهي الفلاة ، ويقال إن اطبان بدلا من اطمان لغة فى بنى أسد . ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع فى كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصاً ببعض الكلمات . ويقال إن بعض بنى تميم كان ينطق أثائى بدلا من أثافى جمع أئفية ، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم ، فقلبت الفاء فيها أولا ثاء ثم أصبحت مع الزمن ثاء تخفيفا . ويقال إن بنى عبد القيس فى البحرين كانوا يقولون رنز بدلا من رز وأرز ، كما كانوا يقولون إنجاص فى إجاجص ، ويقال إن بعض بنى تميم كانوا يقولون فى أفلت أفلط بالطاء ، ويقال إن قريشاً كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار فى يثرب يقولون التابوه ، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون ثاء الجمع المؤنث هاء فى الوقف فيقولون البناء والأخواه فى البنات والأخوات . ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون ذكر فى ذكر ، على نحو ما نعرف فى عاميتنا ، ويقال أيضاً إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صاداً فى مثل سوق وساق ، وفى عاميتنا راص بمعنى رأس . وتبادل الضاد والطاء فى كثير من الكلمات ، وفى لغة تميم فاظت نفسه ، وفى لغة الحجازيين



والقيسين والطائين فاظت نفسه بالطاء . ومن هذه اللهجات أن طياً كانت تفتح الفعل اليأى فى مثل بى ورضى فتقول بى ورضى ، وكانوا يقولون فى مثل توصية وجارية وناصية مما ياؤه مفتوحة توصاة وجارة وناصاة . وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من ، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعم بكسر العين بدلا من نعم وأنها كانت تكسر الباء فى ابن فتقول ابن ، وأنها كانت تقول إشاح فى مثل وشاح ، ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عيناً فى مثل حتى ، فتقول عى ، وأنها كانت تقول فى مثل أعطى أنطى ، وكانت تقلب الألف ياء فى مثل عصاى وهواى وفتاى فتقول عصى وهوى وفتى وكانت تنطق مثل قال وباع إذا بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واو ، وكانت لا تشيع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء فى بعض القراءات : ( واللبل إذا يسر ) بدون ياء .

وقد عقد أحمد بن فارس فى كتابه « الصحاحى » فصلا حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها الاختلاف فى الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها ، قال الفراء هى مفتوحة فى لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون . ووجه آخر : الاختلاف فى الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها . ووجه آخر ، هو الاختلاف فى إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك . . ومنها قولهم أن زيدا وعن زيدا . ومن ذلك الاختلاف فى الهمز والتلين نحو مستهزون ومستهزون . ومنها الاختلاف فى التقديم والتأخير نحو صاعقة ( فى لغة الحجازيين ) وصاعقة ( فى لغة التميميين ) . ومنها الاختلاف فى الحذف والإثبات نحو استحيت واستحيت وصددت وأصددت . ومنها الاختلاف فى الحرف الصحيح يبدل حروفاً معتلا نحو أما زيد وأيما زيد . ومنها الاختلاف فى الإمالة والتفخيم فى مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل . ومنها الاختلاف فى الحرف الساكن يستقبله مثله ، فبعضهم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول : ( اشروا الضلالة ) و ( اشرو الضلالة ) . ومنها الاختلاف فى التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل ، ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل . ومنها الاختلاف فى الإدغام نحو مهتدون ومهدون . ومنها الاختلاف فى الإعراب نحو ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإن هذين وإن هذان ،

وهذان بالألف دائماً لغة لبني الحارث بن كعب . . ومنها الاختلاف في صورة الجمع نحو أسرى وأسارى . ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عُنى له بتسكين الفاء وكسرها . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمة وهذه أمت . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو أنظرُ وأنظورُ وقال ابن فارس إنه « يقع في الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحصاد بكسر الحاء وفتحها ، ويقع في الكلمة ثلاث لغات نحو الزُّجاج والزَّجاج والزَّجاج بضم الزاي وفتحها وكسرها ، ويقع في الكلمة أربع لغات... ويكون فيها خمس لغات نحو الشَّمال والشَّمَل والشَّمَال والشَّيْمَل . ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرها وبإبدال السين صاداً مع ضم القاف وقُسَّطاط وقِسَّاط وقُسَّاط .

وراء هذه الاختلافات في نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير في التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثرة المترادفات في العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبُرّ ، قال الجاحظ في البيان والتبيين : « القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية » ويقول المفسرون في تفسير قوله تبارك وتعالى : ( وفومها ) الفوم هو الحنطة . وكما يكون الترادف في الأسماء يكون في الأفعال مثل تقافتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا . وكثيراً ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم في حذف بعض الحروف أو إبدال بعضها ببعض مثل جدث وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وتابوه وتابوت ومثل اذكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط ، ومثل لثام ولقام في لغة ومثل سجعته الحمامة وسجعت بالحاء ومثل حظوة وحظفة في لغة .

والترادف في العربية كثير كثيرة مفرطة ، وهو يُرَدُّ في جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعاني الحسية والذهنية من أسماء وأفعال ، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم ، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربي اتساعاً شديداً ، وهو في حقيقته معجم عدة لهجات ، نُظمت في سلك واحد هو العربية ، وحقاً ميّز اللغويون في مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادير والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا في ذلك شواهد احتفظ السيوطي في المزهر بكثير منها ،

ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعاً . وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلاً ويقولون إنها خمسون ، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير ، وأمدتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا ينفد أو بعبارة أدق لا يكاد ينفد في ذلك كله . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجارى العربية في هذا الباب : باب الترادف ، فهو باب واسع فيها ، وقد أعدها ليشيع فيها أسلوب من التكرار الصوتي والترادف الموسيقي عند الجاحظ وأضرابه .

ومما يرجع أيضاً إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعددده باب الأضداد ، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى ، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب ، بل بمعنى مضاد يناقضه ، مثل جليل بمعنى عظيم فإننا نجد المعاجم تنصّ على أنها تأتي بمعنى حقير ، ومن ذلك الجَوْنُ يوصف به الأسود والأبيض ويدلّ عليهما ، ومثله البَسَلُ بمعنى الحلال والحرام . وعلى شاكلة التضاد في الأسماء قد يكون التضاد في الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذي نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذي يضاده . وتكثر الأضداد لنفس السبب الذي كثرت من أجله المترادفات ، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة ، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثاً وكتباً مثل كتاب الأضداد لابن الأنباري . ونحن إننا نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به ، فإن اللغويين وسّعوا مفهوم الضد ، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة في المعنى مثل ناء بمعنى حمل ، وبمعنى حمل بمشقة ، وأيضاً فإنهم أدخلوا في الأضداد ما نشأ عن الحجاز والاستعارة ، كاستخدام العرب كلمة السلم للملدوغ بأفعى تفتأ ولا . فهذا ونحوه لا يُعدّ من الأضداد بمفهومها اللغوي الدقيق ، إنما الذي يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصرّيم بمعنى الليل والصبح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع وحفرة الأسد . ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا في الجزيرة متباعدين ، فقد تطلق قبيلة كلمة على مسمى ، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة ، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقاً ومحض مصادفة ، قال أبو عبيد في باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصاري

يقول : « السُّدْفَةُ في لغة تميم الظلمة والسُدْفَةُ في لغة قيس الضوء .. ولقيت الشيء ألقه لِقَاءً إذا كتبته في لغة بني عقيل وسائر قيس يقولون لِقْتَهُ بمعنى محوته » (١). وعن ابن دريد : « خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة إلى ذي جَدَن (من أقيال حمير) فأطْلَع إلى سطح ، والمَلِك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثَبْ أَي اقعد ، فقال : ليعلم الملك أني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللّعن ! إن الوثب في كلام نزار الطفر (القفر) فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم » (٢). ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب ، بل كان أيضاً في كثير من الكلمات التي كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها .

ولا نريد أن نمضي في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف معدودة ، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في الجاهلية لهجات كثيرة ، سجل منها اللغويون أطرافاً ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعاً لأنها لم تكن تعينهم في حد ذاتها ، إنما كان يعينهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التي تُنظَّم بها الشعر الجاهلي ونزل بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصِّوا في أكثر الأحوال على القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة ، وأيضاً فإنهم مع نصِّهم أحياناً على القبيلة لا نستطيع أن نتبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصاً ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها . ولعل في هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية ، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التي جمعها اللغويون تظل غير واضحة وبظل المجال واسعاً فيها للظن والتخمين ، وخاصة حين نحاول أن نضع حدوداً للهجة قبيلة بعينها كلهجة تميم أو لهجة هذيل . ونفس القدماء اضطربوا في نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل ، فتارة يجعلونه لتميم أو لعشيرة تميمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية ، وأخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة يمنية ، وقد يَشْرُكون بين قبائل متباعدة في الظاهرة اللغوية الواحدة .

## سيادة اللهجة القرشية

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلمت فيما بينها على لهجة أدبية فصحي كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تنضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً جداً . وقد اختلفت آراء<sup>(١)</sup> المستشرقين في هذه اللهجة التي كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات في الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، كانت قليلة ، وقد تركبت منها جميعاً هذه اللهجة الفصحى . وتبعه جويدي يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها ، وإنما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم . وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة ، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل . وذهب نالينو إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر والتي جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم ، وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي . وفي رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهدبت في زمن مملكة كندة ، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب . ويرى هارتمان وفولرز أنها لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ومضى فولرز يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ، ليصل إلى رأيه الذي سبق أن دحضناه ، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية ، ثم كُتِبَ بعد ذلك بالأسلوب الفصيح . وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غدتها جميعاً<sup>(٢)</sup> .

(١) النهضة في القاهرة .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع

دار المعارف) ٤٢/١ .

(١) راجع في هذه الآراء مقالة جواد على

عن لهجات العرب قبل الإسلام في كتاب الثقافة

الإسلامية والحياة المعاصرة (نشر مكتبة

وعلى ضوء من رأى نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية معتمداً على القبائل التي كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهي تميم وقيس وأسد وهذيل وعُلسيا هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متجها شرقا إلى الخليج العربي في البحرين ويمتد ثانيهما في الشمال من ضواحي يثرب إلى شمال الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن معاً وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهي لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التي تسامت على أحواتها ولا أسباب تساميتها ، ومضى يشكك في أن تكون لهجة قريش هي التي حققت لنفسها هذا التسمي (١) .

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحدس ، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها الذكر الحكيم ، يقول أبو نصر الفارابي : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها لإبانة عما في النفس » (٢) ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن أبي عبيد الله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشاً قُطبان حرمه وجيران بيته الحرام ، وولاته ، فكانت وفود العرب من حُججها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قريش في أمورهم . . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنات تميم ولا عجرية (٣) قيس

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير ٧٧/١ وما بعدها .

(٢) المزهر للسيوطي ٢١١/١ .

(٣) العجرية : التفرع وطلب الغريب الموحى من الكلام .

ولا كَشَكْشَكة أسد ولا كسكسة ربيعة» (١) . ويقول ابن خلدون « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم » فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم « حتى إن سائر العرب على نسبة بُعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية » (٢) .

وفي رأينا أن المستشرقين جانِبهم التوفيق في الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عين اللهجة القرشية ، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية ، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لا بد أن تقرن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيء لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغاتها المحلية . وما تزال اللغة الأدبية في الذبوع ، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التي تستخدم في الحياة اليومية العملية .

ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة في نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين ، بينما إذا طلبنا ذلك في قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادى ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أديعتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض

(٢) راجع الفصل الثاني والثلاثين من القسم السادس في مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ .

(١) انظر الصحابي في فقه اللغة (طبعة المؤيد) ص ٢٣ .

الدلالة سوقُها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُرَوَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عَبَّدة التيمي ، فأنشدهم قصيدته : ” هل ما علمت وما استودعت مكتوم “ فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : ” طحباك قلبٌ في الحسان طروب “ فقالوا : هاتان سمطا الدهر « (١) .

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد ونختم وهمدان وبنى الحارث بن كعب في نجران . ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدثنا رواية الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان لإرسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة . أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العَجَاز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك في رأي إنما هو تفسير منهم للحديث النبوي : « أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه » فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها



كثيرة ، فاختاروا منها سبعاً هي أفصحها ، وهي التي كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، وقد اختلفوا في بعضها . وفي رأينا أن الحديث لا يرد به تخصيص ، وإنما يرد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مَدِّ وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهلاً عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلاً في نطق بعض ألفاظه .

روى الرواة عن أبي حاتم السجستاني أنه قال في كتابه الكبير في القراءات : « قرأ على أعرابي بالحرم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طيب لهم وحسن مأب) فقلت : طوبي ، فقال : طيبي ، فلما طال على قلت : طوطو قال : طي طي»<sup>(١)</sup> . فلم يستطع أن يثني طبعه لأن لهجته القبلية في مثل طوبي مما وزنه فعلى تنطقه طيبي على وزن فعلى بكسر الفاء ، فتقلب الواو ياء والضممة في أول الكلمة كسرة . ولم ينفع في الأعرابي لفت أبي حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبي . ولثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم ، تخفيفاً للمشقة عليهم في تلاوته . وفعلاً قرأوه بلهجاتهم ، المرخص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التي دونها العلماء .

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هي أفصح لغات العرب هو الذي ضلل المستشرقين ، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش ، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التي عيَّنها اللغويون هي أقرب القبائل إلى قريش ، ومن هنا جاءت فصاحتها ، ولعل ذلك هو الذي جعل الطبري يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحرف السبعة التي أشار إليها الحديث النبوي . وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين ، وفي القرآن الكريم نفسه : ( وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش ، وما دام المستشرقون يسلمون بأنه نزل بالفصحى ، مع استثنائنا لقولرذ وأضرابه ، فإن هذه الفصحى إذن هي نفس لغة قريش التي لم يكن بها عوج من لغات أو لهجات شاذة كالعننة والكشكشة وكسر أول المضارع .

(١) الخصائص لابن جني بتحقيق محمد علي النجار  
(طبع دار الكتب المصرية) ٧٥/١ - ٧٦ .

وربما كان من الأسباب التي ضللت المستشرقين أيضًا ودفعتهم عن محجة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية منحازين عن قريش ، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أحاجم كثيرون في الإسلام وأن الفصحى فيها في أثناء القرن الثاني قرن جمع اللغة وتدوينها دخلتها شوائب من الأحاجم والموالي الذين كثروا فيها كثرة مفرطة . ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التي كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها . وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم عليًا هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل . ويوضح أبو نصر الفارابي السبب في أنهم اقتصروا على تلك القبائل في جمع اللغة فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتدى وعندهم أُخذت اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس و تميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جئدام لجاورتهم أهل مصر والقطب ، ولا من قضاة وغسان وإياد لجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرعون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدعوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) » .

فاللغويون في القرن الثاني حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتهم إنما كانوا يتحررون اليئابيع التي لا تزال نقية صافية ، وليس في عملهم ما يشكك أي تشكيك في لغة مكة في أثناء العصر الجاهلي وفترة نزول القرآن الكريم ، فقد التمسوا بغيثهم في القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس .

ومن المؤكد أن الفوارق في الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوباً أو شرقاً أو شمالاً . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصورها ، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلي على إذاعة اللهجة المكية في قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم .

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذبوعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظِمَ بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتي سُمِّيت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام ، فقد أقبل العرب في كل مكان شمالاً وجنوباً على الارتشاف من أفاريق لغته ، وقد أخذ يعممها لا في أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل في كل بلد إسلامي شرقاً وغرباً ، فإذا أعلامها تحقق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسي .

الفصل الخامس  
رواية الشعر الجاهلي وتلويحه

١

رواية العرب للشعر الجاهلي

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطي وتطوروا به إلى خطهم العربي منذ أوائل الجاهلية أو لعلمهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها ، فقد وجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك ، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقيش الأكبر (١) :

الدَّارُ قَفْرٌ والرَّسومُ كما رَقَشَ في ظَهر الأديمِ قَلَمِ

ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّجال قصيدة له حين وقع أسيراً في يد بعض العرب (٢) ، ويقول سلامة بن جندل (٣) :

لَمَن طَلَّلَ مِثْلَ الكِتَابِ المِثْمَقِ خِلا عَهْدَهُ بَيْنَ الصُّلَيْبِ فَمُطْرِقِ

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبيد في مطلع معلقته :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِئْنَى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فِرْجَامُهَا (٤)

فمدافعُ الرِّيانِ عُرَى رَسْمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِينِ الوَحْيِ سِلَامُهَا (٥)

وجلا السَّيولُ عَنِ الطُّولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجِدُّ مِثْوَنَهَا أَقْلَامُهَا (٦)

المجلس ، ومنى : موضع بحمي ضرية ، والغول والرجام : جيلان أو موضعان .

(٥) مدافع الريان : موضع ، والرسم :

آثار الديار ، وخلقا : دروسا ، والوحى : جمع وحى وهو الكتابة ، والسلام : الحجارة الرقيقة .

(٦) الزبير : جمع زبور وهو الكتاب ، وتجدد :

وتجدد .

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص

٢٣٧ ، رقتش : زين ونعم .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣٠/٦ .

(٣) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص

١٤٦ والصليب ومطرق : موضعان .

(٤) عفت : درست واحت ، تأبد :

توحش ، وأحل : حيث يحل القوم . والمقام :

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو الكتابة فى الحجارة الرقيقة ، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلول ، حتى لكأنما آثار الديار كتب طمست فأعيد بعضها على بعض وترك ما تبين منها ، فهى مختلفة . ويقول الأحنس بن شهاب التغلبى (١) :

لإبنة حِطَّانِ بنِ عَوْفٍ منازلٌ      كما رَقَّشَ العنْوانَ فى الرِّقِّ كاتبٌ

ويقول الحارث بن حلزة يشكرى البكرى (٢) :

لمن الديار عَفَوْنَ بالحُبْسِ      آياتها كمهارق الفُرسِ

ويدور هذا التشبيه كثيراً فى أشعارهم ، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادى وعدى بن زيد العبادى (٣) . ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة فى الحواضر وخاصة فى مكة التاجرة . وفى السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين فى بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة (٤) ، وكان من يكتبون بين يديه الوحى وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين فى عقودهم ومعاملاتهم كثيرين (٥) . فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة فى الجاهلية ، ورؤيت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغاً شعرياً لقومه فى بعض ما حزبه من الأمر (٦) . وغلا كرنكو فزعم أن نظم الشعر فى الجاهلية كان مرتبطاً بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة ، وأيضاً فإن استخدام الشاعر لبعض القوافى النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن (٧) .

(١) الحلبي) ص ١٢ .  
(٢) انظر الباب الثانى . فى كتاب مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد (طبع دار المعارف) .  
(٣) انظر مقالة له بعنوان The Use of Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry نشرت مع مقالات أخرى فى كتاب : A Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited by J.W. Arnold.

(١) المفضليات ص ٢٠٤ والرق : الجلد الرقيق .  
(٢) المفضليات ص ١٣٢ والحبس بتثليث الحاء : موضع ، وآياتها : علاماتها ، والمهارق : الصحف .  
(٣) أغاني ١٠١/٢ وطبعة السامى ٢٤/٢٠  
والشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ١٨٠/١  
(٤) طبقات ابن سعد ١/٢ : ١٤ .  
(٥) الوزراء والكتاب للجهمياري (طبعة

وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ في عصر التدوين أو بعبارة أخرى في القرن الثاني للهجرة ، وأيضاً فإن الشعر فن سمي ، وليس فناً بصرياً .

والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك في الإسلام ، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آيه وتحول جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون . ولا نكاد نمضى طويلاً في العصر الإسلامى حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة ، وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون . وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار في الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة في البيئات الآخذة بشيء من الحضارة ، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتخذت أداة لحفظ الشعر الجاهلى ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا فى الدين ولا فى غير الدين .

أما ما يقال من أن المعلقة كانت مكتوبة ومعلقة فى الكعبة فن باب الأساطير ، وهو فى حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقة ، فقد جاء فى العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن « عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقها فى أستار الكعبة ، فنه يقال : مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقة »<sup>(١)</sup> ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقة ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد ، ومعناها: المقلدات والمسمطات ، وكانوا يسمون فعلاً قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما<sup>(٢)</sup> ، وقد

(٢) البيان والتبيين ٩/٢ .

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ١١٩/٦ .

نفي ابن النحاس الأسطورة فقال : « لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة (١) » .

ونستطيع أن ندخل في هذا الباب باب الأساطير ما يروى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد « أمر فنُسخت له أشعار العرب في الطنوج - الكراريس - ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد ( حوالي سنة ٦٧ هـ ) قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فن تسم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة (٢) » ويقول ابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ( من شعر العرب في الجاهلية ) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بني مروان ، أو صار منه (٣) » . ويكفي أن يكون أصل الخبر حماداً المتهماً في روايته لنشك فيه ، بل إنه يحمل في أطوائه ما يجعلنا نهمه ، فهو ينتهي عنده إلى تعليقه به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، وكأنما ساقه حماد الكوفي لبيان سابقة الكوفة على البصرة في الشعر القديم والعلم به ، والمنافسة بين البلديتين في هذا الباب معروفة .

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجمَع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبي بكر رضوان الله عليه والصحابة ، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتاب ، إنما نشأ ذلك في الإسلام وبمرور الزمن . أما في الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها . ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت أزماناً متتالية في الإسلام ، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوي ظل في أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة . وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدويناً عاماً إلا بعد مرور

(١) في القصر الأبيض .  
(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص ٢٣ .

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت في ترجمة حماد ٢٦٦/١٠ .  
(٢) راجع الخصائص لابن جني (طبعة دار الكتب) ٣٩٢/١ ومعجم البلدان لياقوت

نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك في الشعر الجاهلي ، ولم يكن ركناً في الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة . ومن يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائماً الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل ، فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة ، يقول المسيب بن علس (١) :

فلاهلدين مع الرياح قصيدةً      مني مُغلغلةً إلى القعقاع (٢)  
ترد المياه فما تزال غريبةً      في القوم بين تمثُل وسماع

فقصيدته تنتشر في القبائل ، ويردها الناس مستمعين إليها وتمثلين بأبياتها ، ويقول عميرة بن جععل نادماً على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في رده (٣) :

نَدِمْتُ على شَتَم العشيْرة بعدما      مضت واستتبَّت للرواة مذهبُة  
فأصبحتُ لا أستطيع دَفْعاً لما مضى      كما لا يردُّ الدرُّ في الصُّرْع حالبُة

فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيبة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هي طبقة الشعراء أنفسهم ، فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروى عنه شعره ، وما يزال يروى له ولغيره حتى ينفق لسانه ، ويسبل عليه ينبوع الشعر والفن . ونص صاحب الأغاني على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمي ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهير بن أبي سلمى المزني ، وكان له راويان كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هذبة بن خشرم العُدري ، وعن هذبة أخذ جميل صاحب بثينة ، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة (٤) .

(٣) الشعر والشعراء ٦٣٢/٢ وقارن مع

المفضليات ص ١٠٠ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩١/٨ .

(١) المفضليات ص ٦٢ .

(٢) مع الرياح : يريد أنها تذهب كل

مذهب ، مغلغلة : نافذة تنفذ في الناس

ونسلك إليهم السبل البعيدة .



نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقها ، ومن أهم ما يلاحظ في هذه المدرسة أن شعراءها أو رواةها كانوا من قبائل مختلفة في شرقي الجزيرة وغربها . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهم شعر سلفهم ، ونصّ القدماء على ذلك في غير شاعر ، فقالوا إن الأعشى كان راوية لخاله المسيّب بن علس وكان يأخذ منه<sup>(١)</sup> وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة ابن جؤية الهذلي<sup>(٢)</sup> ، ومن يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم . وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة ، فطرفة يروى للمرقش الأصغر عمه ويأخذ عنه ، ويروى هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذى على شعره ، وأيضاً فإن طرفة كان يروى عن خاله المتلمس الذي رُبّي في أخواله من بني يشكر . وقد لا تكون القبيلة الجامعة الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك في الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرّاً والشنفرى أو عند أبي دؤاد الإيادي وزيد الخليل .

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدساً من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرّقنا وغربنا في الجزيرة ، وهي تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يجيدون عنها ولا ينحرفون ، فهي دائماً الإمام المتبع ، وهم كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أستاذه وشعراء قبيلته ، بل أيضاً شعراء القبائل الأخرى . ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم في ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معيّراً تغلب لكثرة ترادها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم ، وكان ليس لها شعر سواها ، يقول<sup>(٣)</sup> :

ألهي بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ      قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومٍ

(٢) الشعر والشعراء ٦٣٥/٢

(٣) أغاني ٥٤/١١ .

(١) الشعر والشعراء ١٢٧/١ والموشح

للمرزياتي ص ٥١ .

يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مشثومٍ .

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يُشيعون شعر شعرائها ، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم في إشاعته ، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة ، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، إذ لم يكن لهم شاغل سواه ، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم ، ومن ثمَّ قال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » (١) فهو كل علمهم وكل حياتهم .

وجاء الإسلام فانكبوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبداً ، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيراً ما يستشهد الصحابة الشعر ، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت ، قال الشريد بن سُوَيْد الثقفي : « استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : هيه ، هيه ، حتى أنشدته مائة قافية » (٢) . وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي ، وكان يتمثل به أحياناً في خطابته كخطبته المشهورة في يوم السَّقِيفَةِ ، وكذلك كان عمر ، وقلما كان يترك وافداً عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها ، وفيه يقول ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر » (٣) .

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ، فقد كانوا كثيراً ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤) . ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشد من أزرها وتقوى من شأنها ، فقد أخذت تنشأ منذ

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

(٢) ابن سعد ٣٧٦/٥ وخزاعة الأدب

٢٢٧/١ والمنزه ٣٠٩/٢ .

(٣) البيان والبيان ٢٤١/١ .

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ٩٥

وما بعدها .

تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب ، إذ كانت تلعب دوراً مهماً في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خططوها مثل البصرة والكوفة . وكان بين العرب قديماً من يشتهرون بمعرفة الأنساب ، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح لهؤلاء النسابين شأن خطير ، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقون لهم قطعاً من الشعر تحدد نسبهم ، ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنخار بن أوس العذري<sup>(١)</sup> .

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية حتى تشتعل العصبية القبلية اشتعالاً لم تتخبط نيرانه حتى نهاية العصر الأموي ، وكان الشعر الوقود الجزل لهذه العصبية ، فأخذت كل قبيلة تعنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبنائها ، فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم . ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه<sup>(٢)</sup> .

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروى منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها ، وقد ينشدون بيتاً ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم<sup>(٣)</sup> ، وكان أبنائهم على غرارهم « وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريداً إلى العراق »<sup>(٤)</sup> يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه . وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يرويه أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يخصي فيه أسماءهم .

وما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يروى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعي عبيد بن شريفة الجرهمي من

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص

٢٣١ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٣/٩١ .

(٤) التصحيف والتعريف للمسكوي ص ٤

(١) انظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوقه هنا من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتى القرن الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر الجاهلي .

صنعا العين ، ويتخذ سميّاً له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهاله ما عنده من العلم بذلك ، فاتخذ غلماناً يقيدون في دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها في الجاهلية وأشعارها (١) .

ومنذ وقت مبكر في صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعظة في المسجد الجامع ، وكانوا كثيراً ما ينثرون الأشعار الجاهلية التي تتصل بوعظهم في تضاعيف قصصهم ، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر ، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجري على ألسنة شعرائهم . وفي أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبا للناشئة يرويها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميث والطرماح (٢) . ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروي للجاهليين وينشد من شعرهم ، وفي كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذى الرمة والفرزدق وجربير ورؤبة من هذا الشعر (٣) ، وصور الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلي ، فقال في بعض قصيده (٤) :

وهب القصائد لي النوابيعُ إذ مضوا  
والفحلُ علقمةُ الذي كانت له  
وأخو بني قيسٍ وهنَّ قتلته  
والأعشيان كلاهما ومُرْقَشُ  
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى  
وأبو يزيد وذو القروح وجرول (٥)  
حللُ الملوك كلامه لا يُنحلُّ  
ومهلهُلُ الشعراء ذاك الأوّل (٦)  
وأخو قُضاعةَ قوله يُتمثلُ (٧)  
وأبو دُوَادٍ قوله يتنخّلُ

(٥) النوابيع : النابغة الذبياني والجمدى والشيباني . وأبو يزيد : المخبل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الخطيئة .  
(٦) أخو بني قيس : طرفة ، وهن قتلته : يريد القواقي ، لأنه قتل بسبب بعض أهاجيه .  
(٧) الأعشيان : أعشى بني قيس وأعشى باهلة .  
وأخو قضاة : أبو الطمحان القيني .

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ١٥٩ والفهرست ص ١٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٥١ ، ٢/٣٢٣ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٤) نقائص جرير والفرزدق ص ٢٠٠ والديوان (طبع القاهرة) ص ٧٢٠ .

وابن الفريضة حين جدّ المِقْوَلُ (١)  
 والجعفرى وكان بشرٌ قبله  
 ولقد ورثتُ لآلِ أوسٍ منطقاً  
 والحارثى أخو الحماس ورثته  
 لي من قصائده الكتابُ المُجْمَلُ (٢)  
 كالسّمِّ خالط جانبيه الحَنْظَلُ (٣)  
 صدعاً كما صدع الصّفاءة المِعْوَلُ (٤)

ويحيل إلى الإنسان أنه لم يبق عربي في العصر الإسلامي وما وليه من أوائل العصر العباسي إلا وهو يروي الشعر الجاهلي ، إن هو تحدث أو وقف خطيباً ، وتمثل الحجاج بالشعر في خطابه ذائع مشهور . وإذا كنا لاحظنا في الجاهلية أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ في العصر الإسلامي نشوء طائفة من الرواة ، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره في الناس وإذاعته ، وإليهم يشير جرير بقوله في وصف بعض قصائده (٥) :

خروج بأفواه الرواة كأنها قرأ هُنْدُوَانِيٌّ إِذَا هُزَّ صَمَمًا (٦)

وفي أخباره أنه كان له رواة يلزمونه ويأخذون عنه شعره ، وكذلك كان الفرزدق . ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهدبونه ، فمن شيخ من هذيل قال : « جئت الفرزدق . . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره . . . ثم أتيت جريراً . . . وجئت رواته وهم يقومون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد » (٧) . وفي رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما نشأ من العناية الشديدة برواية الشعر القديم والحديث ، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه العناية ، فمنهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية الشعر الجاهلي كيونس بن متي رواوية الأعشى (٨) .

(٦) قرأ : متن ، والهندواني : السيف .

(٧) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ٢٥٦/٤ وما بعدها .

(٨) راجع في تحقيق اسم هذا الراوي

مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣٨ وما بعدها .

(١) ابن الفريضة : حسان بن ثابت .

(٢) الجعفرى : لبيد ، وبشر هو بشر بن أبي خازم .

(٣) أوس : أوس بن حجر .

(٤) الحارثى : النجاشي .

(٥) النقاظ ص ٤٣٠ .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواية لا يحصيهم العدّ حملوا الشعر الجاهلي إلى عصور التدوين ، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ومن غير شك سقط منه كثير في أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمني الطويل ، يقول ابن سلام : « لما كثّر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وأنفقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » (١) .

## ٢

## رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامي ومطلع العصر العباسي حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملاً أساسياً لهم ، وتختلط في هذه الطبقة أسماء عرب وموال ، وأسماء قرآء للقرآن الكريم وغير قرآء ، وهم جميعاً حضريون ، عاشوا غالباً في البصرة والكوفة . ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات في المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفي أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحمامد الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ، وكان بين البدو أنفسهم من هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء لخدمهم بما يريدون . وقد أظهروا في عملهم مهارة منقطعة النظير ، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها ، وكان من أهم الأسباب في ذلك تفسير

ألفاظ القرآن الكريم ، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ الذكر الحكيم ، وأيضاً فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها ، واعتمدت في ذلك اعتماداً شديداً على الشعر الجاهلي فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التي ينبغي أن تتبع . على أن هاتين الغائبتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة ، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر في ذاته ومن أجل نفسه ، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته في أثناء العصر الإسلامي ، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون من حملوا عنهم هذا الشعر ، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلاً<sup>(١)</sup> .

ولا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى يكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين : مدرسة في الكوفة ومدرسة في البصرة ، وعرف الأولون بأنهم لا يتشددون في روايتهم تشدد الأخيرين ، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير . ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عرفت في الحديث النبوي بالوضع والانتحال أيضاً حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضرب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تضرب الدراهم والدنانير وتصنع . يقول أبو الطيب اللغوي : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بيّن في دواوينهم »<sup>(٢)</sup> . وندد بهم البصريون كثيراً ، وبأدلم الكوفيون نفس التنديد ، فكان كل منهما يشكك في الآخر<sup>(٣)</sup> ، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة . وليس معنى ذلك أن رواية الكوفة في الجملة كانوا متهمين بخلاف رواية البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحري .

وربما كان السبب الحقيقي في تقدم البصرة على الكوفة في الرواية أن رأس رواياتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، بينما كان رأس رواية الكوفة حماداً ، وكان متهماً كثير الوضع ، لا يوثق بما يرويه . وكان أبو عمرو من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، وُلد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفي سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ : « وكان أعلم الناس بالغريب

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٥٥ (٢) مراتب النحويين ص ٧٤ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ٤٣٤ وما بعدها . وما بعدها .

والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . ثم إنه تقرأ أي تنسك فأحرقها»<sup>(١)</sup> وهو إحراق لا يغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حملة عنه تلاميذه البصريون ، وكان إمامهم وقلوبهم . ويحكى عنه أنه قال : « ما زدتُ في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعني ما يُروى للأعشى من قوله :

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَرْتُ  
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا »<sup>(٢)</sup>

وحاول بعض الباحثين التشكيك في روايته لهذا الاعتراف<sup>(٣)</sup> ، وهو اعتراف يوثق روايته ويزيدها قوة ، وفي سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة ؛ فقد كان تقياً صالحاً ، وكان أحد الأعلام الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم . أما حماد رأس رواة الكوفة فكان من الموالى ، وُلد سنة ٩٥ للهجرة ، وتوفي سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه : « كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنتب ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ في العلم ما بلغ »<sup>(٤)</sup> وربما كان مما يصور هذا العلم ومداه ما يُروى عن مروان بن أبي حفصة من قوله : « دخلت أنا وطُريخ ابن إسماعيل الثقفى والحسين بن مطير الأسدى في جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد (١٢٥ - ١٢٦) هـ وهو في فُرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليد بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية<sup>(٥)</sup> » ويُروى عن الهيثم بن عدى أنه كان يقول : « ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد »<sup>(٦)</sup> . وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأناسيها وأيامها جعلتهم يطلقون

٤٢٩ وتاريخ الأدب العربي لبلاشير ١١١/١ .

(٤) الأغاني ٨٧/٦ .

(٥) الأغاني ٧١/٦ .

(٦) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت

٢٦٥/١٠ .

(١) انظر البيان والتبيين ٣٢١/١ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٣/٣ .

(٣) انظر مقالة مرجليوث TheOrigins

of Arabic Poetry في صحيفة الجمعية

الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص



اسم الراوية علماً عليه ، ويروى أن الوليد بن يزيد سأله بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : « بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشدُ شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال الوليد : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحك في هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ، ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم <sup>(١)</sup> . وقد يكون في هذا الخبر ضرب من المبالغة ، غير أنه يصور مدى ما استقر في أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلي .

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً <sup>(٢)</sup> ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه <sup>(٣)</sup> فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به ، وكثر منه ذلك حتى عُرف به واشتهر ، يقول الأصمعي : جالسته فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرضَ روايته ، ويقال إنه مدح بلال بن أبي بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة ، وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية <sup>(٤)</sup> ويقال إنه قدم عليه مرة ، فقال له : ما أطرفني شيئاً ؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة بمديح أبي موسى الأشعري (جد بلال) فقال بلال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى شعراً الحطيئة ! ولكن دعها تذهب في الناس <sup>(٥)</sup> وقصته في مجلس أمير المؤمنين المهدي مع المفضل الضبي مشهورة ، فقد زاد ثلاثة أبيات في مطلع قصيدة زهير : (دع

٢٠٩/٥ حيث يروى له أبياتاً بحكمة الصنعة .

(٤) الأغاني ٨٨/٦ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ - ٤١

وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة القصيدة للحطيئة لرواية المدائني ورواية ديوان الحطيئة لها ، ولكن ذلك لا يكتفى لصحة نسبها .

(١) الأغاني ٧١/٦ ومعجم الأدباء ٢٥٩/١٠ .

(٢) الحيوان ٤٤٧/٤ والأغاني ٧٤/٦

وأمال المرتضى ١٣١/١ ولسان الميزان ٣٥٣/٢ ، ١٧٣/٣ .

(٣) المزهري ٤٠٦/٢ حيث يذكر أن

الأصمعي روى شيئاً من شعره ، وانظر الأغاني

ذا وعد القول في هرم) فأنكرها المفضل ولما سأله عنها المهدي بكل يمين محرجة اعترف بأنه أضافها من عنده ، فأمر المهدي أن ينادى في الناس بإبطال روايته لكذبه وبصحة رواية المفضل مواطنه<sup>(١)</sup>. وحاول بعض الباحثين التشكيك في القصة<sup>(٢)</sup> ، لأن المهدي ولى سنة ١٥٨ بعد وفاة حماد ، ولكن هناك من تأخروا بوفاته إلى سنة ١٦٤ كما قدمنا ، وربما أخطأ الرواة في تعيين الزمان والمكان ، إذ ذكروا أن القصة حدثت في قصر عيساباذ الذي بناه المهدي في سنة ١٦٤ بينما أروخوا لها بسنة ١٥٨ . وحتى على فرض بطلان هذه القصة فإن هذا البطلان لا يدفع التهمة عن حماد ، كما لا يدفعها ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أن اتهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فسيرته كانت سيرة شخص سبي السيرة خلقياً ودينياً ، وما كان ابن سلام البصرى ليقول فيه : « كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار »<sup>(٣)</sup> . بعامل المنافسة والعصبية ، ونفس البصريين الذين اتهموه وثقوا رواية مواطنه رمعاصره المفضل الضبي . فليست المسألة مسألة منافسة بين بلدين ، وإنما هي حقيقة واقعة ، ونفس الرواة الأثبات من بلدته كانوا يشركون البصريين في نفس التهمة ، فابن الأعرابي الكوفي يروى عن المفضل أنه قال : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويُحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »<sup>(٤)</sup> .

فالتهمة لم تكن بصرية خالصة ، بل كانت بصرية كوفية ، وربما بالغ بعض البصريين فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحف ويكذب<sup>(٥)</sup> ، ولكن

(١) الأغاني ٦/٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر مقدمة لآيل المفضليات ص ١٨

وما بعدها ومقالة برينلتش في مجلة O.L.Z.

عدد ١٩٢٦ ص ٨٢٩ وما بعدها ومصادر

الشعر الجاهل ص ٤٤٢ .

(٣) ابن سلام ص ٤٠ .

(٤) الأغاني ٦/٨٩ ومعجم الأدباء ١٠٠٥/٢٦٥ .

(٥) الأغاني ٦/٨٩ وانظر ٨/٢٨٣ .

بعد تجريد التهمة من مبالغاتها تظل عالقة به . ولذلك ينبغي أن لا نقبل شيئاً مما يروى دون أن يأتينا عن الرواة الثقات ، وكذلك ينبغي أن نتشكك فيما يرويه تلاميذه مثل ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ وخلف الأحمر راوية البصرة المشهور إذ كان قد أكثر الأخذ عنه <sup>(١)</sup> ، ويروى أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويرويه <sup>(٢)</sup> . ومن رواية الكوفة الذين عاصروا حماداً واشتهروا بالوضع برزخ العروضي وكان من أكذب الناس في الرواية <sup>(٣)</sup> ومثله جناد وكان يخلط في الأشعار ويصحف ويلحن <sup>(٤)</sup> . وإذا كانت الكوفة أصيبت بمثل هؤلاء الرواة الوضاعين الذين ينحدرون من أصول غير عربية فقد كان من ورائهم رواة ثقات على رأسهم المفضل بن محمد ابن يعلى الضبي المتوفى حوالي سنة ١٧٠ للهجرة وكان عالماً علماً دقيقاً بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنساب العرب وأصولها ، ويجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه ، وقد خلف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هي الملقبة بلقب المفضليات ، وهي أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلي ووثائقه التي لا يترقى إليها الشك .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة في الحقبة التي تلت أبا عمرو بن العلاء وجدنا بها خلفاً الأحمر الذي تُسدّد إليه سهام الاتهام ، ولم يكن يقل عن حماد في معرفته بأشعار العرب وأخبارها ، بل لعله يتقدمه ، إذ كان شاعراً مبرزاً ، وكان بصيراً بالشعر ، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالي ، وُلد سنة ١١٥ للهجرة وتوفى حوالي سنة ١٨٠ وفيه يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس بيت شعر وأصدقهم لساناً ، وكنا لانبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه » <sup>(٥)</sup> غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التهمة الشديدة التي سلّطت على روايته ، وقد شهد هو نفسه بها إذ زعم كما قدمنا أنه كان يعطى حماداً المنحول من الشعر ويزيفه عليه فيرويه ، ويقال إنه هو الذي وضع اللامية المنسوبة إلى الشنفرى <sup>(٦)</sup> :

(٤) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت

وراجع الفهرست ص ١٣٥ .

(٥) ابن سلام ص ٢١ .

(٦) الأمالي ١/١٥٦ .

(١) مراتب النحويين ٤٧ ، ٧٢ .

(٢) الأغاني ٦/٩٢ .

(٣) إنباه الرواة ١/٢٤٢ والفهرست

(طبعة مصر) ص ١٠٧ .

أقيموا بنى أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فإني إلى قومٍ سواكم لَأَمِيلُ  
كما وضع اللامية الأخرى المنسوبة إلى تَابِطٍ شَرًّا أو إلى ابن أخته<sup>(١)</sup> :

إِنَّ بِالشُّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ لِقَتِيلًا دَمُهُ مَا يُطَلُّ

وتصدَّى له الأصمعي مراراً يهيمه بالوضع والنحل ، فقال إنه « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عيشاً بهم ، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة »<sup>(٢)</sup> وعرض مرة لرواة الكوفة يصفهم بأنهم يَتَقَبَّلُونَ كل ما يرد عليهم ، فقال : « رواة غير منقَّحين ، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُوَادٍ الإيادي قالها خلف الأحمر ، وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون وبها يفتخرون »<sup>(٣)</sup> .  
ويظهر أن البصريين كانوا يتحامون روايته ، بينما كان يحملها الكوفيون رواة حماد وأضرابه ، ويقول المبرد فيه موضعاً ذلك : « لم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يُضْرَبُ المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبهه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك ما لا عظيم خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك وقال : قد مضى لي في هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد . فلما تقرأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم »<sup>(٤)</sup> .

وواضح من ذلك أن الكوفة هي التي حملت رواية خلف بالإضافة إلى رواية حماد ، أما البصرة فقد حمل فيها بعض الرواة روايته ، ولكن الكثرة وعلى رأسها الأصمعي رفضتها . والأصمعي يقوم في البصرة مقام المفضل الضبي في الكوفة ، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية

(١) انظر المقدم الفريد ١٥٧/٦ والحيوان

(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .

(٣) ١٨٢/١ وانظر مصادر الشعر الجاهل ص

(٤) الموشح للمرزباني ص ٢٥١ وما بعدها

(٤) مراتب النحويين ص ٤٧ .

٤٥٨ وما بعدها .

وأشعارها وأخبارها ، وثقوه وعدلوه ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض منافسيه من النيل منه ، ولكنه نيل مردود ، فقد كان في الذروة من الثقة والأمانة ، وهو عربي صليبية ، ولد حوالي سنة ١٢٢ للهجرة وتوفى سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢١٦ ، أو ٢١٧ ، وفيه يقول ابن جني : « وهذا الأصمعي هو صنّاجة الرواة والنقلة ، وإليه محط الأعباء والثقلة . . . كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو يحدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبت ، لأنه لم يقر عنده إذ لم يسمعه ، وإما إسفاف من لا علم له وقول من لا مسككة به إن الأصمعي كان يزيد في كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفو عليه غير معبوه به »<sup>(١)</sup> ويقول أبو الطيب اللغوي : « فأما ما يحكيه العوام وسقطات الناس من نوادر الأعراب ويقولون : هذا مما افتعله الأصمعي . . . وأنى يكون الأصمعي كما زعموا وهو لا يفتي إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما ينفردون به عنه ، ولا يجوز إلا أفصح اللغات ويلج في دفع ما سواه<sup>(٢)</sup> . » وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هي الأصمعيات وهي كالمفضليات ثقة ودقة ، ورؤيت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنزة وعلقمة بن عبدة الفحل .

وكان يعاصره عالمان كبيران هما أبو زيد وأبو عبيدة ، وكان أبو زيد يُعنى بجمع اللهجات واللغات الشاذة وتوفى وقد قارب المائة ، سنة ٢١٤ أو ٢١٥ ، وهو عربي أنصاري خزرجي ، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فولد حوالي سنة ١١٠ وتوفى حوالي سنة ٢١١ وهو من الموالي وكانت فيه نزعة شعبية صارخة ، ولكن الرواة وثقوه<sup>(٣)</sup> وينبغي أن لا نتبعهم في توثيقه وأن تقدم عليه الأصمعي وأبا زيد ، وكان يهتم بالأنساب والأيام ، وشرح نقائض جرير والفرزدق شرحه المشهور .

وكان بجانب هؤلاء الذين تحدثنا عنهم رواة يختلفون ثقة وتجربياً مثل الهيثم ابن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يهتم بالأخبار التاريخية وتشوب التهمة روايته ، وأكثر منه تهمة في هذا الباب محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة وابنه هشام المتوفى سنة ٢٠٤ وهما من كبار الوضاعين ويروى عن هشام أنه كان يقول : « كنت

(٣) إنباه الرواة ٢٨٠/٣ .

(١) الخصائص ٣/٣١١ .

(٢) مراتب الثعوبين ص ٤٩ .

أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ( المناذرة ) ومبالغ أعمار منّ ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة <sup>(١)</sup> . ويتنظم في سلك هؤلاء المؤرخين الواقدي والمدائني .

وخلف بعد منّ قدّمنا تلاميذهم من رواة القرن الثالث ، وعلى رأسهم أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ الكوفيان وكان وراءهما كثير من الرواة في بلدتهم مثل محمد بن حبيب وابن السكيت المتوفى حوالي سنة ٢٤٤ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ . وانتهت الرواية في البصرة إلى أبي سعيد الحسن ابن الحسين السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وإليه يرجع الفضل في جمع كثير من الدواوين الجاهلية ، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية .

ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلي أُحيطت بكثير من التحقيق والتحخيص ، وأنه إن كان هناك رواة متهمون ، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفي والأصمعي البصري ، وما مثل الشعر الجاهلي في ذلك إلا مثل الحديث النبوي ، فقد دخله هو الآخر وضع كثير ، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه ، وقدّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة ، وكذلك الشأن في الشعر فقد دخله فساد كثير ، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا - في مهارة بالغة - أن يميزوا صحيحه من زائفه ، غير تاركين منفذاً إلى ذلك سواء في سند الرواة أو في المتن نفسه ، بل إن ابن سلام ليقدمهم على علماء الحديث في هذا الباب ، يقول : « حدثني يحيى بن سعيد القطان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع <sup>(٢)</sup> .

فينبغي أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات في بيئة الرواية اللغوية مزلقاً إلى الطعن في الشعر الجاهلي عامة ، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقاً ، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه . أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعي صحيحة . وكانا يتحريان تحريماً شديداً .

(٢) ذيل الأمل ص ١٠٥ .

(١) تاريخ الطبري (طبعة لندن) القسم

الأول ص ٧٧٠ .

فلنهمل إذن من الشعر الجاهلي ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتزيدين أمثال عبيد بن شريفة ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وما وضعه القصاص عن العرب البائدة ، وأيضاً ينبغي أن نهمل ما اختلف فيه الرواة ، أما ما اتفقوا عليه أو جاءنا عن أثباتهم فينبغي أن نقبله . وكانوا يأخذون بهذا القياس ، يقول ابن سلام : « وليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ( من الشعر ) - أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »<sup>(١)</sup> ويقول : « قد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه »<sup>(٢)</sup> . واحتفظ ابن سلام في طبقاته بمادة وفيرة من نقد البصرة للرواية والرواة ، فهو تارة يعدّ للشاعر القصائد الصحيحة النسبة إليه ، وتارة يقف عند بيت أو أبيات بعينها تنسب لشاعر من الشعراء الجاهليين وينص على أنها منتحلة ، فن الضرب الأول قوله عن طرفة وعبيد بن الأبرص : « وما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صحّ لهما قصائد بقدر عشر . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نألهما من ذلك أكثر ، وكانا من أقدم الفحول فلعل ذلك لذلك ، فلما قلّ كلامهما حُمِلَ عليهما حَمَلٌ كثير »<sup>(٣)</sup> ثم عاد فوسّع الشك في شعر عبيد فقال فيه : « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

ولا أدري ما بعد ذلك »<sup>(٤)</sup> . ومن الضرب الثاني إنكاره أن يكون النابتة هو الذى قال :

فَأَلْفَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

وقد عقب على إنكاره بأن أهل العلم أجمعوا على أن النابتة لم يقل هذا<sup>(٥)</sup> ،

(٤) ابن سلام ص ١١٦ .

(٥) ابن سلام ص ٤٩ وما بعدها .

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن سلام ص ٢٣ .

وعلى هذا النحو صفتى علماء الرواية واللغة الشعرَ الجاهليَّ من شوائب كثيرة علقَت به ، وإن كنا لا ننكر في الوقت نفسه أنهم تناولوا أشياء منه بالتنقيح ، غير أن ذلك كان في حدود ضيقة ، كأن يبدلوا كلمة مكان كلمة ، أو يقيموا بعض الألفاظ على سنن لهجة قريش ، فقد كانت تسقط على لسان الشعراء أحيانا أشياء من لهجاتهم القبلية ، فكانوا يصلحونها ، وقد يصلحون عروض بعض القصائد ، ولكنهم بصفة عامة حافظوا على جوهر هذا الشعر محافظة تشهد لهم بالدقة وأنهم استطاعوا أن ينقلوا غير قليل منه إلى أجيالهم والأجيال التالية في صورة تكاد تكون مطابقة تمام المطابقة لأصوله .

## ٣

## التلوين

مرَّ بنا أن العرب لم يدوّنوا شعرهم في الجاهلية ، وأن ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم ، إن صحَّ ، فإنه لا يدل على أنهم فكروا فعلا في تدوين أشعارهم ، إنما هي قطع تكتب على رَحْلٍ أو على حجر أو جلد لإنباء القبيلة أو بعض أفرادها بمحادث . وقد نفينا أن يكونوا علّقوا المعلقات في الكعبة وكذلك رفضنا رواية حماد عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب وما مُدح به هو أهل بيته . ومن الأدلة على ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة في الجاهلية ، كما أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أن شاعراً في الجاهلية أتى قصيدته من صحيفة مدونة ، إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشاداً ، ومن كان منهم يُعِدُّ قصيدته في حوّلٍ أو أقل من حول كان يعدها في نفسه ، ويردها في ذاكرته ، ثم ينشدها ، ويحتملها الناس عنه ، ومن ثم قال الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام . . فما هو إلا أن يصرف ( العربي ) وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ( أفواجا ) وتتثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه » (١) .



وظل هذا شأن العرب في صدر الإسلام ، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيّدونه إلا قليلا وفي ظروف خاصة ، حتى مُصِّرت الأمصار ، وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية ، فدوّن زياد بن أبيه كتاباً في المثالب ، ودوّن عروة ابن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه ، ودوّن معاوية أخبار عبيد بن شربة أو بعبارة أدق أمر غلمانه بتدوينها ، وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدوّن أحاديث الرسول عليه السلام . وقد يكون في تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق في تدوين الشعر ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها ، ولم تدوّن تدويناً عاماً إلا على رأس المائة ، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلي وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأجنادها ومثالب خصومها فإنها لم تعتمد إلى تدوين هذا الشعر إلا في حقبة متأخرة من عصر بني أمية .

ويظهر أنهم لم يكونوا يدوّنون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أخبارهم ، ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدونات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد في أول تعلقه بالشعر من أنه نقب ليلة على رجل ، فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار ! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل في طلبه ، فقال في نفسه : « لا يسألني إلا عن طرفيه : قريش وثقيف ، فنظرت في كتابي قريش وثقيف »<sup>(١)</sup> ويروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وأنه طلب لذلك من حماد وجناد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ، ثم رد إليهما ما أخذه منهما<sup>(٢)</sup> .

وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلاً على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل لعلها هي التي أعدت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التي نعرفها لديوان هذيل .

ونخصى بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء ، وكان يعتمد على الرواية ، ولكنه كان يقيّد إلى جانبها كثيراً من الأشعار والأخبار حتى قالوا إن

كتبه ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم تقرّأ ( تنسك ) فأحرقها كلها ، يقول الجاحظ : « فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية (١) » . وكان حماد على ما يظهر يُعنى بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة ، بل لعله لم يكن يعنى بالكتابة ، وإنما كتب عنه تلاميذه ، يقول صاحب الفهرست : « لم يرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده » (٢) . وتروى للمفضل الضبي كتب صنّفها ، فيها أشعار وأخبار (٣) ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته ، وإنما أنشدها تلاميذه فحملوها عنه .

ولعلنا لانخطئ إذا قلنا إن الرواة الأولين لم يدوتوا ما روهو لطلابهم ، ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم ، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلي جميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشاماً هو الذى حمل مادة أخباره ودونها في كتبه ، ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتاباً في النحو ، بل أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور . وكانوا يتأثرون في ذلك برواة الحديث ، وربما كانت الحاجة عندهم أمس ، لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه من ينشده ، ولذلك كانوا يبنذون في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحفى<sup>٤</sup> يأخذ عن الصحف ، ولا يأخذ شفاها عن مشيخة العلماء باللغة والشعر . ومن ثم ضعفوا من يروى عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ ، ولذلك ضعف ابن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كتاب ، يقول : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » .

والرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدويناً منهجياً قائماً على التوثيق والتجريح ، وعلى رأسهم الأصمعي ، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة . وكان هؤلاء الرواة المدوتون لا يكتفون بالسماع من جلّة الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعي

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٢١ .

(٢) الفهرست (طبعة المطبعة الرحمانية)

(٣) إنباه الرواة (طبعة دار الكتب المصرية)

. ٣٠٢/٣

نفسه وعن أبي عمر والشيباني الذي يقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتِيْجَتَانِ من حبر ،  
فما خرج حتى أفناهما بكتّيب سماعه عن العرب<sup>(١)</sup> .

وكان بعض الأعراب يفد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسدّ هذه الحاجة عند الرواة .  
والمهم أنهم لم يكتفوا بالاعتماد على ذاكرتهم صنيع الرواة من قبلهم ، بل كانوا  
يدوّنون ما يسمعون ويحتفظون به ويقرعون منه في مجالسهم وينقله عنهم طلابهم .  
وأخذت موجة هذا التدوين تتسع اتساعاً شديداً ، ويستطيع من يرجع إلى الفهرست  
وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التأليفى الذى لا يكاد يبلغه الحصر والعد ،  
فقد ترك هشام بن محمد الكلبي نحو مائة وأربعين كتاباً ، وكانت كتب المدائنى لا تقل  
عنها عدداً ، بينما خلف الهيثم بن عدى خمسين مصنفًا ، وأكثر كتبهم يعد مفقوداً  
ومن بينها ما يشير إلى عناية بالشعر ككتاب أخبار خزاعة للمدائنى وأخبار طيء  
للهميم ، وقد نُشر الأصنام لابن الكلبي وهو يمتلىء بالشعر الجاهلى مما يدل على أنه  
كان يملأ كتبه به .

على أنه يلاحظُ إزاء هؤلاء المؤرخين أن كثيراً منهم لم يكن دقيقاً فيما يجمع  
من شعر ، ولعل ابن إسحق صاحب السيرة النبوية أشهرهم في هذا الباب ، وقد  
تصدّى له ابن سلام في طبقاته ، فقال : « وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل  
كل غثاء منه محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخزّمة بن المطلب بن عبد مناف ،  
وكان من علماء الناس بالسّيَر . . فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها  
ويقول : لا علم لى بالشعر أوتى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب في  
السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ،  
ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام  
مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حمّل هذا الشعر ومن  
أدّاه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول : ( ففَطَّعْ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا )  
أى لا بقية لهم ، وقال أيضاً : ( وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقي ) وقال فى عاد :  
( فهل ترى لهم من باقية ) وقال : ( وقرّوناً بين ذلك كثيراً ) وقال : ( ألم يأتكم  
نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله )<sup>(٢)</sup> .

(٢) ابن سلام ص ٨٠ وما بعدها .

(١) نزهة الألباء للذئبى ص ٦٣ .

وقال ابن سلام أيضاً في ابن إسحق : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم » (١) وتعقب ابن هشام في سيرته ابن إسحق ورداً كثيراً مما روى ، أو صحح نسبه .

وواضح أن هذه المنتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة ، فقد ردها الرواة المحققون ، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين ليشككوا في الشعر الجاهلي عامة ، مع أن القدماء رفضوها وردوها ، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يُروى عن الجاهليين ، بل نحن نضيقها تضيقاً شديداً ، فلا نقبل إلا ما أورده الثقة مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي ، فجملة ما روه وثيق .

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غُفلاً لم يدرس ولم يفحص ، وقد خلف من بعدهم خلفٌ أتموا تدوين الشعر الجاهلي وأشهرهم في الكوفة أبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة ، وطبيعي أن يُخرج دواوين القبائل راو كوفي لأن بيوتات العرب وأشرفها كانوا في الكوفة ولم يكونوا في البصرة ، ومن غير شك كانوا من أهم الأسباب التي أعانت على حفظ الشعر الجاهلي وروايته إلى أن دُوِّن في القرن الثاني . ويظهر أن الكتب الخاصة بالقبائل لم تكن تكتفي برواية الأشعار بل كانت تضم إليها غير قليل من أخبارهم وأيامهم ، وربما كان هذا هو السبب في أننا نرى مؤرخيهم ينثرون في تاريخهم أشعاراً كثيرة كأنهم يرون أنها سنده وعماده ، على نحو ما تصور ذلك كتب المدائني والواقدي وابن الكلبي . وكان رواة الشعر يمزجون بروايتهم كثيراً من الأخبار التاريخية على نحو ما نرى في شرح النقائض لأبي عبيدة . وقد بقي من دواوين القبائل ديوان هذيل برواية السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وفيه تختلط الأشعار بالأخبار ، ومن خير ما يصور ذلك فيه ديوان أبي ذؤيب .

ويدل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني أنهم دونوا من هذه الأشعار

والأخبار تراثاً كبيراً ، ومعروف أنه يقع في واحد وعشرين مجلداً ضخماً وأن للجاهليين فيه حظاً موفوراً . وهو يسوق هذه المادة الجاهلية الشعرية التاريخية مقترنة بأسناد ، تصور مصدرها ، محتاطاً إزاء رواياته أشد الحيطه ، فن عرف بكذبه نبه عليه ، وحتى من عرف بصدقه كان يراجع روايته على روايات معاصريه ودواوين الشعراء ، مبالغة في الدقة والتحري . والكتاب مؤلف حقاً في القرن الرابع الهجري ، ولكنه يستمد من رواة القرنين الثاني والثالث الهجريين كما يتضح من أسانيد ، فهم الذين جمعوا هذا التراث الجاهلي الضخم ، وأتوا لمن جاءوا بعدهم أن يؤلفوا مؤلفاتهم الكبرى ، سواء أكانت مجموعات شعرية أو أمالي أو أخباراً وتراجيح . بل لقد بدأ منذ القرن الثالث تأليف هذه الكتب الجامعة مثل حماسه أبي تمام والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء .

وربما كان السكري أهم راوٍ ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث ، فقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو يجمع في روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين كما أخذ عن الرياشي وأبي حاتم السجستاني البصريين . ونمضى في القرن الرابع الهجري ، فيتكاثر التأليف والتدوين على نحو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنباري والقالى والمرزبانى ، وعملهم كما ذكرنا مشتق من عمل رواة القرن الثالث ، ونراهم يهتمون — مثل أبي الفرج الأصبهاني في أغانيه — بالسند ، فهم لا يكتفون غالباً بالراوى القريب الذى سمعوا منه ، بل يسلسلون الرواة حتى نصل إلى أبي عمرو بن العلاء أو إلى المفضل الضبي مثلاً . وبذلك قدموا لنا — صنيع سابقهم — مادة الشعر الجاهلى بكل ما تحمل من أسباب ضعف أوثقه ، وكان كثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنيع الرواة المتقدمين .

## قضية الانتحال

واضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير ، وقد أشار إلى ذلك القدماء مراراً وتكراراً ، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوضّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة ، وبلغ من حرصهم في هذا الباب أن أهمل ثقافتهم كل ما روى عن المتهمين أمثال حماد وخلف ، وكان الأصمعي خاصة لهم بالمرصاد ، كما كان المفضل الضبي من قبله ، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويحصون في التراث . ومن أهمهم في هذا الجانب ابن سلام ، فقد دون في كتابه « طبقات فحول الشعراء » كثيراً من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التي ينتسب إليها ، وأضاف إلى ذلك كثيراً من ملاحظاته الشخصية .

وهذا الكتاب في الحقيقة هو أول كتاب أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي ، وقد ردها إلى عاملين : عامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتزيد في مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين ، يقول : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار » (١) . فالقبائل كانت تتزيد في أشعارها وتروى على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه ، وقد أشار ابن سلام مراراً إلى ما زادته قريش في أشعار الشعراء ، فهي تضيف إلى شعرائهم منحولات عليهم ، وقد أضافت كثيراً إلى شعر حسان (٢) « ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك ، مثل داود بن متمم بن نُويرة ، فقد استشهد أبو عبيدة شعر أبيه متمم ، ولاحظ أنه لما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها ، فلما تولى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله » (٣) .

ولعل في هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه

(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٢) ابن سلام ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ١٧٩ ، ٢٠٤ وما بعدها .

القبائل ، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه ، ويسوق لنا ابن سلام شكاً في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في أشعارها والتي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> ، ومعنى ذلك أنهم نظروا في شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا<sup>(٢)</sup> . وهم يفتحصون ويحققون في شعر المدينة كما فحسوا وحققوا في شعر قريش وغيرها من القبائل .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان متحلاً كثيراً وتنسبانه إلى الجاهليين ، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين ، ومثّل لها بحماد ، ورأينا فيما مر بنا ، أشباها له في جَنَادٍ وخلف الأحمر . وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زَيْفٍ ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص ، من مثل ابن إسحق راوي السيرة النبوية إذ كانت تُصنَع له الأشعار ويُدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ ، منطلقاً بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وحمود والعماليق وطسم وجديس .

ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً ، فلم يقبلوا شيئاً مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتهم من مصادر وثيقة ، وكذلك لم يقبلوا شيئاً مما يرويه ابن إسحق لا عن الأمم البائدة فحسب ، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم ، إلا أن يجدهو عند رواية أثبات ، يقول ابن سلام وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قريش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراء المدينة : إن شعره في الجاهلية « سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل » ثم علق على ذلك بقوله : « ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم<sup>(٣)</sup> » . فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحق وأشباهاه من مثل عبّيد بن شَرِيّة وينحونه عن طريقهم ، يقول ابن سلام : « وليس يُشكّل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون<sup>(٤)</sup> » مما حمّله رواة القصص والأخبار من شعر غَثَّ « لا خير فيه ولا حجة في عربيته ولا أدبٌ يستفاد ولا معنى

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٤٠ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٥ .

يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجيب ولا نسب مستطرف<sup>(١)</sup> .

ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة<sup>(٢)</sup> ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء . وقد يغلب المنتحلُ الموثوق به ، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

وقد لفتت هذه القضية، قضية انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظر فيها نولدكه<sup>(٣)</sup> سنة ١٨٦٤ وتلاه آلورد حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعلقمة وعنزة فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة ، منتهيا إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلزم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها . وتابع كثير من المستشرقين آلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين ، أمثال موير وباسيه وبروكلمان . وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتب فيها مقالا مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة ١٩٢٥ جعل عنوانه كما مر بنا (أصول الشعر العربي : The origins of Arabic Poetry ) وفراه<sup>(٤)</sup> يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك ، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه ، وينبئ أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ، وقد بينا آنفاً بأدلة لا تدفع كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب ، ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة ، ثم يعود فينبئ كتابته في الجاهلية ليؤكد أنه نُظِم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ! . ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجناد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض ، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان

١٧٦/١ وما بعدها .

(١) ابن سلام ص ٥ .

(٤) لخص ناصر الدين الأسد هذه المقالة

(٢) ابن سلام ص ٦ .

في كتابه مصادر الشعر الجاهلي تلخيصاً دقيقاً

(٣) انظر في مناقشة المستشرقين لقضية

ص ٣٥٣ وما بعدها .

الانتحال، تاريخ الأدب العربي لبلاشير



مستمراً . ويقول إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة ، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله . وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي من الشعر الجاهلي ما ينقض زعمه نقضاً ، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحجة فنسلم بأنه موضوع ، ووضعه ينحصر فيه ، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية . وينتقل مرجليوث من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة ، وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب ، ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب . وأسلفنا في غير هذا الموضوع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش ، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية . فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم . أما أن الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الحميرية فهذا طبيعي لأنها ليست لغته ، وقديماً قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعريبتنا<sup>(١)</sup> وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة في الجاهلية نفسها ، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهد مبكرة . وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أى نشاط شعري فيها ، فكيف أتيج لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك . ودحض بروينلش هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمي<sup>(٢)</sup> .

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب في دعواه ، ولذلك هب كثير من المستشرقين يردون عليه ، مثل بروينلش ولايل ، واحتج عليه الأخير في مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر — على فرض التسليم بذلك — كانوا يحاكون نماذج سابقة

وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ، إذ لا يمكن أن يحاكو شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة ، وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه ، وحقاً دخله انتحال أمثال حماد وخلف ، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة . ونراه يعود إلى هذا الموضوع في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دوّن نهائياً في العصر العباسي ، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى المعلقات مثلاً يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها والتي تثبت أنها لصاحبها ، وأعاد ما قاله في المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجري تُلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في نفس التقاليد ، وأيضا فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدّم في عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح في جوهره .

ونضيف إلى ذلك أن في الشعر الجاهلي صوراً من الأساليب والتراكيب الملتوية التي تخرج على الصورة النحوية الطبيعية ، مما يدل على قدمها وأنها ليست من صنع العباسيين أيضاً فإن فيه صورة لتَهتك خلقى لا يمكن أن تقوم إلا في نفس وثني ، على نحو ما يلقانا في معلقة امرئ القيس وحديثه عن المرضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة . ولا يزال المستشرقون إلى اليوم يختلفون في قبول هذا الشعر بخدر والشك فيه شكاً معتدلاً أو متطرفاً ، ومن أدلى بدلوه منهم في هذا الموضوع بلاشير في الجزء الأول من كتابه : تاريخ الأدب العربي ، إذ تحدث طويلاً مبيناً بل مجسماً الشبهات ، وبينما يحاول الاعتدال أحيانا إذا به يهجم هجوماً عنيفاً<sup>(١)</sup> . ومن ألوان هجومه قوله : « نحن نجد في النصوص المذكورة أن الشعراء أيا كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزّهة بصورة عامة عن كل أثر لهجوي ، خاضعة لقواعد تركيبية ، هي بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة ، ولا شك في أن القصائد الجاهلية جُرّدت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية ، كما أن التثبيت الكتابي بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأسلوب<sup>(٢)</sup> » ويقول : « كل شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجرؤا في الشعر القديم إصلاحات ذات صبغة

(٢) بلاشير ص ١٨٨ .

(١) بلاشير ص ١٨٣ وما بعدها .

جمالية<sup>(١)</sup>» ثم يقول : « والمدهش هو تعدد الروايات واتساعها داخل كل بيت ، ولا ريب في أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة في أثناء الرواية الشفوية وأن عدداً قليلاً منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات في المترادفات . وما من شيء يجيز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه<sup>(٢)</sup> » وينتهي من ذلك إلى أن « دراسة النصوص الشعرية ( يقصد الصحيحة ) تقودنا إلى وضع مبدأ يقضى بعدم امتلاكنا أى أثر شفوي في شكله الأصلي . . ونحن نعلم لكى تم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التى يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن في كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات<sup>(٣)</sup> » .

وواضح أن بلاشير يزعم أن الأصول الصحيحة للشعر الجاهلى اختلطت بالتماذج والقصائد الموضوعية اختلاطاً يتعذر معه أن تميز ، وهو زعم مبالغ فيه ، لأن هذه الأصول كما قدمنا وصلتنا عن رواة ثقات ، وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها ، بحيث لا يرق إليها الشك . وهو يزعم أيضاً أن الرواة ونحاة البصرة عدلوا في هذه الأصول بما يتمشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية ، ويتخذ دليلاً على ذلك خلو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية ، وقدّمنا أن هذه الظواهر كانت فعلاً تكاد تكون منعدمة في الجاهلية نفسها لأن الشعراء في القبائل المختلفة اصطالحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش ، واتخذوها لغة لشعرهم ، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجتهم في أشعارهم إلا أشياء قليلة جداً ، سجلها هؤلاء النحاة البصريون ، وإلا فقيم هذه الشواذ النحوية التى تمتلئ بها كتبهم . ولم يكن رواة البصرة ونحاتها وحدهم الذين يروون هذا الشعر ، بل كان يرويه معهم رواة الكوفة ونحاتها ، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولاً يقاس عليها . أما أن هؤلاء الرواة جميعاً أدخلوا في الشعر الجاهلى إصلاحات ذات صبغة جمالية ، تقوم على متانة اللفظ وجزالته ، فهى دعوى تستلزم ضرباً من الدور ، إذ كانوا يرجعون في هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية الماثورة في هذا الشعر الجاهلى والتي تقوم على الرصانة والجزالة ،

(٣) بلاشير ص ١٩٢ .

(١) بلاشير ص ١٨٩ .

(٢) بلاشير ص ١٨٩ .

ثم يصلحونه على أساسها ، وبذلك يجعلهم بلاشير يدورون ، وهو دورٌ باطل ، تنفضه طبيعة الأشياء . والحق أن ثقافتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية وما داخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية أو لغوية . على أننا نسلّم بما يقوله بلاشير من أن القصائد أصابها بعض التغيير في أثناء سفرها الطويل من الجاهلية إلى عصر التدوين ، فقد يستبدل الراوى بكلمة أخرى ترادفها ، وقد يغيب عن ذاكرته بعض الأبيات ، وقد يخالف في ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها أو يؤخر . غير أن ذلك لا يخلّ بصحة ما حمّله ورواه العلماء الثقات الذين نَصَّوْا على المنتحل المصنوع على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا مصطفى صادق الرافعي يعرض هذه القضية قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عرضاً مفصلاً في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذي نشره في سنة ١٩١١ ولكنه لا يتجاوز في عرضه - غالباً - سرّده ما لاحظته القدماء<sup>(١)</sup> ، ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظاتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية ، فقد لاحظ ما دخل هذا الشعر من بعض الوضع ، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفهم التنبيه عليه .

وخلف مصطفى الرافعي طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة في كتابه « الشعر الجاهلي » الذي أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه . ولم يلبث أن ألف مصنفه « في الأدب الجاهلي » الذي نشره في سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً ، إذ زودها ببراهين جديدة ، وقد خصص لها في مصنفه أربعة كتب ، هي الكتاب الثاني والثالث والرابع والخامس ، ونراه يعنى في الكتاب الثاني ببيان الأسباب التي تحمل على الشك في الشعر الجاهلي ، ويقدم بين يديها نتيجة بحثه فيقول : « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أديباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح

(١) انظر الطبعة الثانية من هذا الكتاب

قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي<sup>(١)</sup> .

وواضح أنه يُبقى في الشعر الجاهلي على بقية صحيحة ، وإن كانت في رأيه قليلة ، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر . وقد مضى يبسط الأسباب التي تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه ، وردّها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية . أما من حيث حياتهم فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم ، فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلاً قوياً ، فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية ، ويُطْلَعنا في تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم ، بينما نجد الشعر - كما يقول - بريئاً أو كالبريء من الشعور الديني القوي والعاطفة المتسلطة على النفس . وقياس الشعر الجاهلي في هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض ، لأن القرآن كتاب ديني يريد أن يجمع العرب على الإسلام ، فطبيعي أن يعرض لدياناتهم ويناقشها ، ويبين ما فيها من ضلال ، بخلاف الشعر ، فإن شاعراً لم يدعُ لدين جديد ، ومع ذلك فإن في كتاب الأصنام لابن الكلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصوراً دقيقاً .

وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة في الشعر المنسوب إليهم ، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة ، وكانوا في جمهورهم بدواً لم يتحولوا إلى طور فكري منظم ، وقد عرضنا في غير هذا الموضع لذلك الطور وما يمثله من أشعارهم . ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة في شعرهم . ويخرج من ذلك إلى أن حياتهم السياسية لا تتضح في أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، مما يوضحه القرآن الكريم في سورة الروم ، إذ يعرض علينا العرب شيخين : شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس . وهذا في الواقع لا يصدق على العرب جميعاً ، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التي كانت تنزل في بلاد الدولتين . ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع

الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم . ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هدّهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلاً على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلاً .

ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأنا لا نظفر بشيء ذي غناء في شعرهم يمثل لنا هذه الحياة ، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين : طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين ، وليس في الشعر ما يصور ذلك كما يقول ، وإنما فيه أن العرب جميعاً أجواد كرام ، على حين يُلح القرآن الكريم في ذم البخل والبخلاء . وهذا القياس أيضاً لا يستقيم ، لسبب بسيط ، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء<sup>(١)</sup> ، وأيضاً فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا في مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا في هجأهم من ذكر البخل وشح النفس . ولا بد أن نلاحظ أن كثيراً من القرآن نزل في قريش التاجرة التي بلغ كثير منها مبلغاً عظيماً في الثراء والتي كان يشيع فيها الربباً أضعافاً مضاعفة .

ووقف طه حسين طويلاً إزاء لغة الشعر الجاهلي ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين في الجزيرة : لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية ، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعاراً بلغة الشماليين . وحقاً أن ما يضاف إلى من كانوا في أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل ، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا في الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب . على أنه يطرد القياس فيتشكك في شعراء القبائل اليمنية التي هاجرت من مواطنها الأصلية في الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس . وما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلي وتعربت ، فهي ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية ، وإنما هي شالية . وقد وقف عند لهجات الشماليين في الجاهلية ، تلك التي تمثلها قراءات القرآن الكريم ، ولاحظ أن الشعر الجاهلي لا يمثلها ، واتخذ من ذلك مطعناً في صحته ، ومر بنا في غير هذا الموضع أن لهجة قريش عمّت في الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادي واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم ، ينظمون

وما بعدها و ص ٢٢٧ وما بعدها .

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي  
ليوسف خليف (طبع دارالمعارف) ص ١٣٢

فيها أشعارهم مرتفعين غالباً عن لهجات قبائلهم المحلية ، فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات في شعر الجاهليين ، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلاً على أنه منتحل موضوع . ونراه يتشكك في شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، غير أن هذه الشواهد أبيات فردية ، وآهاتها ينبغي أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلي عامة .

ويخرج طه حسين في مصنفه من هذا الكتاب الثاني إلى الكتاب الثالث ، فيتحدث عن أسباب نحل الشعر ويبسطها بسطاً معتمداً على ملاحظات القدماء ، ونراه يردّها إلى السياسة والدين والقصص والشعبية والرواة ، أما السياسة وأراد بها العصبية القبلية فرأها تلعب دوراً واضحاً في شعر قريش والأنصار ، إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعاراً كثيرة ، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذي يهجى به الأنصار . وواضح أن هذا لم يكن غائباً عن ابن سلام ، فقد نص عليه وحذّر منه كما أسلفنا ، كما حذر من أشعار وضعها قريش على لسان حسان . على أن الأشعار جميعها التي وقف طه حسين عندها ليست جاهلية ، وإنما هي إسلامية . وينتقل إلى الدين فيبين دوره في هذا النحل متشككاً في الأشعار التي يقال إنها نُظمت في الجاهلية إرهاباً ببعثة الرسول ، مما رواه ابن إسحق واحتفظ به ابن هشام في سيرته ، ومثله ما يضاف إلى الجن والأمم القديمة البائدة . ومرّ بنا رَفُصُ ابن سلام لهذه الأشعار وما يمثّلها . وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار ، وكذلك ما أضيف إلى عدى بن زيد العبادي ، ولم يكن القدماء في غفلة عن ذلك (١) . ونراه يتحدث عن القصص والقصص وأثرهم في وضع الشعر ، ومرّ بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحق وأضرابه . ويعرض للشعبية وما يمكن أن تكون قد نحتت الجاهليين من أشعار ، لتثبت على لسانهم مثلهم التي تدعيها ، كما تثبت ثنائهم على الأعاجم . وقد تشكك في هذا الشعر الكثير الذي يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين في مصنفه الحيوان ، ليدل على اتساع معرفتهم في هذا العلم : علم الحيوان ، عصبية لهم ، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ ، فهو نفسه ينفي عنهم العلم الدقيق بالحيوان ، إذ يقول إن معارفهم فيه معارف أولية ، وإنه إنما دار في أشعارهم لأنه كان مبثوثاً تحت أعينهم وأبصارهم

(١) انظر ابن سلام ص ١١٧ .

في ديارهم<sup>(١)</sup> . ويحتم هذا الكتاب بالوقوف عند الموضوعين من الرواة أمثال حماد وخلف ، ومرّ بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد . ومعنى ذلك كله أنه في هذا الكتاب إنما يردّ ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا ، يريد أن يتسع بها لنقض الشعر الجاهلي جميعه ، وهي إنما تنقض جوانب منه ، وينبغي أن نقف عندها ، وأن لا نذهب مذهب التعميم ، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلي من سياج قوى ، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول .

ويمضى طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الرابع ، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال في شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعه ويبدأ في دراسته بامرئ القيس ويتشكك في شعره ، لأنه يبنى شعره قرشي اللغة ، ثم هو شعر مضطرب ركيك . ومرّ بنا أنه كان يبنى الجنس ، ولكنه كان قرشي اللغة ، أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يروى عن الأصمعي من أنه قال : « كل شيء في أيدينا من شعراء امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُسباً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء »<sup>(٢)</sup> . ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك في شعره ، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد<sup>(٣)</sup> . وشك في شعر عبيد بن الأبرص ، وأسلفنا أن ابن سلام لم يكن يعرف له سوى معلقته ( أقفر من أهله مسلحوب ) وكان يقول إن شعره مضطرب ذاهب . ومضى طه حسين على هذا النحو يشك في شعر عمرو ابن قميئة ومهلل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمداً على الأحكام الذاتية ، ولو أنه استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيراً في تحقيق أشعارهم جميعاً .

وننتقل مع طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الخامس ، وهو خاص بشعراء مضر ، فزراه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضر يون وشعر مضرى ، غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلاً : « لكننا لا نشك أيضاً في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف

(٣) ابن سلام ١١٦

(١) الحيوان ٢٩/٦ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٢ .



والنحل ، حتى أصبح من العسير جداً إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته<sup>(١)</sup> .  
ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفي في الحكم على الشعر المضرى بالسند  
ومن يحمله من الرواة ، أو بالغرابة والسهولة ، ذاهباً إلى أن الباحث في هذا الشعر  
ينبغي أن يحكم فيه مقياساً مركباً من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء  
بحيث يكونون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التي تتألف منه ومن زهير وابنه كعب  
والخطيئة ، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها  
وسلامته من الوضع والانتحال . وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة في الشعر الجاهلي ،  
فقد رجح أخيراً يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه . على أننا لا نسلم له بطرد هذا  
المقياس في تلك المدرسة نفسها ، فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر  
ابنه شريح<sup>(٢)</sup> ، واختلف الرواة في بعض ما نسب إليه من شعر هل هوله أو لعبيد  
ابن الأبرص الأسدي<sup>(٣)</sup> ، وسرى في درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية  
الكوفيين لديوانه ، فقد حتمت زيادات كثيرة ، شك القدماء في أطرافها ،  
ونفس الرواية البصرية سرفض قطعاً وأشعاراً منها ، على الرغم من أنها جاءتنا عن  
الأصمعي بل سنرى الأصمعي نفسه يشك في ثلاث قصائد مثبتة في روايته .  
والحق أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير ، غير أن ذلك لم يكن غائباً عن  
القدماء ، فقد عرضوه على نقد شديد ، تناولوا به رواته من جهة وصيغته وألفاظه  
من جهة ثانية ، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق . ومعنى  
ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحرى والتثبت ، فكان ينبغي أن لا يبالغ  
المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه ،  
إنما نشك حقاً فيما يشك فيه القدماء ورفضه ، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل  
أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد فحري أن نقبله ما داموا  
قد أجمعوا على صحته . ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض  
ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن ، كأن يروى لشاعر شعر لا يتصل  
بظروفه التاريخية ، أو تجرى فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته ، أو يضاف  
إليه شعر إسلامي النزعة ، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا .

(٣) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧ .

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٧٠ .

(٢) الحيوان ٦/٢٧٩ .

## أهم مصادر الشعر الجاهلي

رأينا علماء البصرة والكوفة ورواتهم يجمعون مادة الشعر الجاهلي ، وقد توزعها منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل غير كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة . وسنحاول وصف طائفة منها وبيان مقدار الثقة بها . ونبدأ من المنتخبات العامة بالمعلقات ، وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين ، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذاً من كلمة العلق بمعنى النفيس ، ويقال إن أول من رواها مجموعة في ديوان خاص بها حماد الراوية<sup>(١)</sup> ، وهي عنده سبع : لامرئ القيس وزهير وطرفة ولييد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنزة . ورواها عند صاحب الجمهرة سبعاً أيضاً ، غير أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث ابن حلزة وعنزة وأثبت مكانهما الأعشى والنايعة ، وربما أضاف حماد الحارث في مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبي لأن ولاءه كان في بكر . على أننا لا نخصي في عصر التبريزي حتى نجده يجعلها في شرحه لها عشرًا جامعاً بين الرويتين ومضيفاً قصيدة عبيد بن الأبرص : ( أقفر من أهله ملحوب ) .

وقد عني الشراح بهذه المجموعة ، فشرحوها مراراً ، وطبع من شرحهم شرح الزوزني المتوفى سنة ٥٤٨٦ هـ . وقد كتبه على رواية حماد ، ثم شرح التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ . وأكبر الظن أن حماداً لم يأخذ حرите كاملة في قصائد مجموعته ، فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب ، على أنه ينبغي مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة .

والجموعة الثانية في المنتخبات هي المفضليات ، نسبة إلى جامعها المفضل الضبي راوي الكوفة الثقة ، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأنباري ، وهي مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وُجدت في بعض النسخ ، وفي مقدمة الشرح

(١) انظر ترجمة حماد في معجم الأدباء

سند كامل لها يرفعه ابن الأنباري إلى ابن الأعرابي تلميذ المفضل وربيه ، ويقول ابن النديم « هي مائة وثمانية وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عن المفضل ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي (١) » ومعنى ذلك أن في أيدينا أوثق نسخة للمفضليات . وتعلّق عبد السلام هرون وأحمد شاكر ناشراها في دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألفاها المفضل على المهدي ، وزاد فيها الأصمعي أربعين ، ثم زاد البقية بعض تلاميذه (٢) ، وربما جاء الأخفش اللبس (٣) من أن الأصمعيات تلتقى معها في تسع عشرة قصيدة ، وأيضاً فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بثقيف ابنه المهدي بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة ، فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقى مع الأصمعيات في بعض القصائد ظن أن الأصمعي وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات ، ولو أنه اطّلع على رواية ابن الأعرابي خصم الأصمعي لزياله هذا الوهم ، وكان المفضل اختار أولاً ثمانين ألفاها على المهدي ، ثم زادها إلى مائة وثمان وعشرين كما جاءت في رواية تلميذه ابن الأعرابي .

وهي موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهلياً وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلزة وعلقمة بن عبدة والشنفرى وبشر بن أبي خازم وتابط شراً وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري والمسيب وبينهم امرأة من بني حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عسلة الشيباني وتتضح مسيحيته في اسمه ، ثم جابر بن حنّ التغلبي ، ونراه يقول في مفضليته :

وقد زعمتُ بهراً أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى الدّم

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلي سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليدهِ ووصفاً دقيقاً ، فقد مثلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث

البصري يريد أن يقول إن المفضليات من صنع البصريين والكوفيين جميعاً لما كان لها من شهرة في عصره فاقت شهرة الأصمعيات .

(١) الفهرست ص ١٠٢ .

(٢) ذيل الأماكي ص ١٣١ .

(٣) ذهبنا إلى أنه ليس ، وربما كان بمامل التنافس بين البصريين والكوفيين ، فالأخفش

وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعت في كثير منها البيئة الجغرافية . وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التي لم ترد في المعاجم اللغوية<sup>(١)</sup> على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة ، مما يرفع الثقة بها ويؤكددها .  
والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة الأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راويها ، وقد نشرها آلورد (Ahlwardt) عن نسخة سقيمة في برلين سنة ١٩٠٢ وأعاد نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي نقلها عن أصل قديم وهي نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس والحارث ابن عباد وحريد بن الصمّة وأبو دؤاد الإيادي وذو الإصبع العُدْوانى وسلامة بن جندل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم ، وبينهم يهوديان هما شعبة بن الغريض والسموأل . وهذه المجموعة كسابقتها في الثقة بها وعلو درجتها ، وقد جاء فيها أيضاً كثير من الكلمات المهجورة التي لم تثبت المعاجم<sup>(٢)</sup> ، غير أنها لم تلعب الدور الذي لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشراح ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات ، وأيضاً فإن الأصمعي لم يَرَوِ كثيراً من القصائد كاملة ، بل اكتفى بمختارات منها .

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين ، غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثاني جيلين أو ثلاثة ، فالوسائط بينه وبينهم في السند غير بعيدة ، ولذلك نظن أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، وقد ذكره ابن رشيح المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة في كتابه العمدة<sup>(٣)</sup> كما ذكره السيوطي في الزهر<sup>(٤)</sup> والبغدادى في الخزانة<sup>(٥)</sup> . والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وقد أخذ فيها برواية أنها سبع ، وأسقط منها معلقى الحارث وعنترة ووضع مكانهما معلقى الأعشى والتابعة ، وبلى هذا القسم الجمهرات وهي

(١) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات (٣) العمدة ٦٠/١ .

(٢) انظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعيات . (٤) المزهرة ٤٨٠/٢ .

(٥) الخزانة ١٠/١ ، ٦١ ، ٥٥/٢ . (٢) انظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعيات .

لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبي خازم وأمّية بن أبي الصلت وخيداش ابن زهير والنمر بن تولب وعنزة وألحقت قصيدته في النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلى ذلك المنتقيات أى المختارات ، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين ، وربما قصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب ، ثم عيون المرثى ، ثم المشوبات ، وهى لمخضرمين ، شابهم الكفر والإسلام ، ثم الملحمات وجميعها لإسلاميين . وهى مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية ، فلا بد فى الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة . وطُبعت الجمهرة مراراً فى بيروت والقاهرة .

ومثل هذه المجموعة فى ضعف سندها مختارات ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة ، وهى مختارات من شعر جاهلى وإسلامى ، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم من فى القسم الأول الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادى والمتملّس ، أما القسم الثانى فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبى خازم وعبيد بن الأبرص ، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة . وطُبعت هذه المجموعة بالقاهرة .

وتدخل فى هذه المختارات دواوين الحماسة ، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية ، إذ لا يعرفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبى تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣١ للهجرة وقد سُرح مراراً ، ومن شرحه المطبوعة شرح المرزوقى وشرح التبريزى وهو يفيض بالإشارات التاريخية . ونصّ المرزوقى على أن أبا تمام أصلح فى الشعر الذى رواه ، يقول : « إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها<sup>(١)</sup> » . وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها ، وهى مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وقلما روى فيها قصائد كاملة . وتلى هذه الحماسة فى الأهمية حماسة البحرى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ وهى مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين باباً ، وأكثر أبوابها فى نزعات خلقية ، ولم يُعَنَّ القدماء بشرحها . ولابن الشجرى صاحب

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (طبع)  
لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٤/١) .

المختارات حماسة طُبعت في حيدر آباد ، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي .  
 وطُبعت أخيراً حماسة الخالدين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدي المتوفى  
 سنة ٣٥٠ ومحمد المتوفى سنة ٣٨٠ ولا تزال الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج  
 البصري المتوفى في القرن السابع غير مطبوعة ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منها .  
 وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة

الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها ألوارد ،  
 إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعي التي احتفظ بها شرح الشنتمري ، بل أضاف  
 إليها زيادات هي في الأكثر منحولات ، ولا تزال في حاجة إلى نشر شرح  
 الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ وقد استخرج منه مصطفى السقا شرحه على تلك  
 الدواوين والتزم روايته في المجموعة التي سماها باسم مختار الشعر الجاهلي .  
 \*وطُبع ديوان امرئ القيس طبعت مختلفة لعل أهمها الطبعة الأخيرة  
 بدار المعارف ، وقد جَمَعَ فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها  
 وقارن بينها مقارنات دقيقة\* ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب ،  
 غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعي البصرية التي  
 يحتفظ بها الشنتمري في شرحه\* . أو طُبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة  
 ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفري وأوس بن حجر ، إلا أن أكثر هذه  
 الدواوين لا يزال في حاجة إلى نشرة علمية جيدة . وقد نشر لایل ديواني عبيد بن  
 الأبرص وعامر بن الطفيل ، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر .

أما دواوين القبائل التي جمع منها الشيباني نيفاً وثمانين ، وعنى السكري بكثير  
 منها ، ففقدت في الطريق<sup>(١)</sup> ، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت في  
 خمس مجموعات ، أربع منها في أوربا وهي من صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين  
 السكري ، طُبعت أولها في لندن سنة ١٨٥٤ بتحقيق كوزجاتن وطُبعت الثانية  
 في برلين سنة ١٨٨٧ بتحقيق فلهاوزن ، وطُبعت الثالثة وهي خاصة بديوان أبي  
 ذؤيب في هانوفر سنة ١٩٢٦ بتحقيق يوسف هل ، وفي سنة ١٩٣٣ نشر القطعة

(١) انظر في تحقيق هذه الدواوين مصادر  
 الشعر الجاهلي ص ٥٤٣ وما بعدها .

الرابعة في لينزج ، وهي تتداخل مع القطعة الخامسة التي نشرتها دار الكتب المصرية ، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكرى بنسخة أخرى مقتصرة . ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية . ويعني عبد الستار فراج - بمراجعة محمود شاكر - بتحقيق أشعار المهذليين من صنعة السكرى وقد نشرت منه مكتبة دار العروبة جزئين . ~~بالحق~~ من الحق أن القطع التي وصلتنا من شرح السكرى غاية في النفاسة لآلأنه يضمنها أخباراً وشروحاً فحسب ، بل أيضاً لأنه يقفنا وقوفاً دقيقاً على مصادره ، إذ يذكر دائماً الإسناد في القصيدة وألفاظها وأبياتها مثبتاً ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعي والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجهمي ، ومن بين من ينقل عنهم أبو عبيدة . ومنه نعرف أن الأصمعي كان ينقل عن مصدر من نفس القبيلة هو عمارة بن أبي طرفة المهذلي . وبذلك كانت هذه القطع التي رواها السكرى من ديوان هذيل لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات .

ومن الكتب الجيدة التي تشتمل على شعر جاهلي كثير شرح النقائض لأبي عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذي قيل في أيام العرب ، وحذا حذوه من كتبوا في أيام العرب مثل ابن الأثير في كامله وابن عبد ربه في عقده . ومن الكتب الجيدة أيضاً طبقات الشعراء لابن سلام ، ومر بنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلي صحيحه ومصنوعه . أما كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فر بما كان خير ما فيه مقدمته التي يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة ، أما بعد ذلك فالكتاب فقير في تراجمه وما يُطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها . وهناك كتب أدب ألقت في البصرة مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ، ومن الخير أن نرد ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة ، حتى نكون أكثر طمأنينة ، ويجرى مجراها ما في أمالي اليزيدي ومجالس ثعلب من أشعار . وينبغي أن نتلقى كتب الأدب البغدادية مثل عيون الأخبار لابن قتيبة بجزء ، ومثلها أمالي أبي علي القالي ففيها انتحال كثير . ومن المختصرات التي تفيد في المراجعة كتاب المؤلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزباني وكتابه الموشح نفيس في التعرف على كثير مما

وُضع على الشعراء الجاهليين . وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثل نقد الشعر  
 لقدامة والصناعتين لأبي هلال العسكري والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني  
 والعمدة لابن رشيق ، ومثلها مثل الشواهد المبثوثة في كتب اللغة والنحو ينبغي التوثيق  
 منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة . أما ما جاء في كتب السير والأخبار  
 والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي فينبغي أن نرفضه إلا أن  
 تدعمه روايات صحيحة .

وإذا كنا فقدنا كثيراً من الدواوين المفردة ودواوين القبائل وما كان بها من  
 أخبار وأشعار فإن كثيراً من ذلك احتفظ به أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني  
 الذي ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية ،  
 سجل فيها كثيراً من المادة التي فقدت ، وكان له ذوق عالم ناقد بصير ، فساق من  
 الكتب التي سبقته أطرف ما فيها من أخبار وأشعار ، ولم يسقها مفردة ، بل ساقها  
 بأسانيدها التي ترجع بها إلى مصادر رواها الأوائل مثل الأصمعي وأبي عبيدة  
 وابن الأعرابي وأبي عمرو والشيباني والهيم بن عدى وخالد بن كلثوم وابن الكلبي  
 وأضرابهم ، ومن خلفهم من جيلة الرواة والمصنفين ، وإذا تعددت الروايات في  
 الخبر ذكرها جميعاً ، وكثيراً ما يقف ليفحص ما ينقله ، فيرفض رواية لأن راويها  
 ابن الكلبي أو ابن خرداذبة أو غيرهما من المهمين . وقد يشك في مقطوعة أو قصيدة  
 تنسب لشاعر من الشعراء ، فيرجع إلى ديوانه في رواياته المختلفة ، وينص على أنه  
 وجدها أو لم يجدها . وقد يعرض الخبر على التاريخ ليتوثق منه . وفي تضاعيف ذلك  
 يسوق آراء الرواة والنقاد في الشعراء وشعرهم . والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر  
 الجاهلي وأصحابه ، فإذا أضفنا له الأصمعيات والمفضليات وديوان هذيل وما صح  
 من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة في الجاهليين وأشعارهم  
 وأخبارهم .

ومن الكتب المتأخرة التي احتفظت ببعض ما فقدت من الروايات والمصنفات  
 القديمة خزانة الأدب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ للهجرة ، وهو شرح على شواهد  
 الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب ، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين  
 وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة . ومثله في هذا الاتجاه  
 شرح السيوطي على شواهد المغني لابن هشام .



## الفصل السادس

### خصائص الشعر الجاهلي

١

#### نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل

لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لخصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة ، وهي تقاليد تلتق ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار ففقد فصلاً (١) تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء في صياغة القصيدة العربية ، وكان الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طواهم الزمان . وفي ديوان امرئ القيس (٢) .

عُوجا على الظلل المُحيل لَأَنسَا  
نبيكى الديار كما بكي ابن خِدام  
ولا نعرف من أمر ابن خدام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال .

وتبرأى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيول ، وكثيراً ما يشبهون الناقة في

ص ١١٤ وعوجاً : اعطفا . المحيل : الذي أتى عليه أحوال . لأننا هنا : لعلنا .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع

دار المعارف) ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف)

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون في تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاءً وفخرأً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها ، فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنتهي به من روى .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها ، وحقاً توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي (١) :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقُطَيْبَاتُ فَالذَّنُوبُ

فهي من مخنَّع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى في الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها (٢) :

عَيْنَاكَ دَمَعُهَا سِجَالٌ كَأَنَّ شَأْنَيْهِمَا أَوْشَالٌ

ومثلهما في هذا الاضطراب قصيدة المُرَقِّش الأكبر (٣) :

هَلْ بِالْدِيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمٌ لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كَلَمٌ

فهي من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

مَا ذَنْبُنَا فِي أَنْ غَزَا مَلِكٌ مِنْ آلِ جَفْنَةَ حَازِمٌ مُرْغَمٌ

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادي (٤) :

تَعْرِفُ أَمْسٍ مِنْ لَمَيْسِ الطَّلَلِ مِثْلَ الْكِتَابِ الدَّارِسِ الْأَحْوَلِ

مجرى الدمع . أو شال : جمع وشل وهو الماء القليل .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٣/٢ .

الأحوال : الذي أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

(١) انظر القصيدة في المعلقات العشر وفي

ديوان عبيد . وملحوب والقطيبيات والذنوب :

أسماء مواضع .

(٢) الديوان ص ١٨٩ سجال : جمع سجال

أي صب بعد صب . شأنيهما : مثني شأن وهو

فهى من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

أَنِعْمَ صِبَاْحًا عَلَّقَمَ بِنَ عَدِيَّ أَثْوَيْتَ الْيَوْمَ أَمَّ تَرَحَلُ  
فإنه من وزن المديد . ويمائل هذه القصيدة فى اختلال الوزن قصيدته (١) :

قد حان أن تَصْحُوَ أو تُقْصِرُ وقد أتى لما عهدت عُصْرُ  
ومن هذا الباب نونية سُلَيْمَى بن ربيعة التى أنشدها أبو تمام فى الحماسة (٢) :

إِن شِوَاءَ وَنَشْوَةَ وَخَبَبَ الْبِازِلِ الْأَمُونِ

فقد لاحظ التبريزى والمرزوق أنها خارجة عن العروض التى وضعها الخليل . واضطراب هذه القصائد فى أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدى الرواة لم تعبت بها . ومعروف أن الزحافات تكثر فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى بعامه ، وما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى القصيدة كقول امرئ القيس فى معلقته يصف جبل أبان :

كَانَ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقِهِ كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ (٣)

فقد ضم اللام فى نهاية البيت ، وهى مكسورة فى المعلقة جميعها . وفى رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلى بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته فى الجملة وأن الرواة لم يصلحوه لإصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية فى الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رُويت عنهم تلك القصائد المضطربة فى وزنها رُوى عنهم قصائد كثيرة مستقيمة فى وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتى شذوذاً وفى الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربى ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطاً بالحاء ووقع أخفاف الإبل

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص ١٣١ . البازل : الناقة المسنة . الأمون : الموثقة الخلق .  
(٢) انظر التبريزى على الحماسة ٨٣/٢ . (٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر . والمرزوق رقم ٤٠٨ . والخبب : ضرب من السير .  
البيجاد : كساء مخطط . مزمل : متدثر .

في أثناء سيرها وسرّاها في الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى (١) ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبيّاً لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون في الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون في الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج ، وإن كان نظّمهم في الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شيء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقيقته الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التي تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادي . ولم تكن تختص بهذا الشعر في الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندي وعدى بن رَعْلَاء الغساني (٢) والحارث بن وَعَلَة الجرمي القضاعي (٣) ومالك بن حَرِيم الهَمْداني (٤) وعبد يغوث الحارثي التَجْراني (٥) والشَّنْفَرِي الأزدي (٦) وعمرو بن معد يكرب المَدْحَجِي (٧) ، أما من ينسبون إلى مضر وربيعه فأكثر من أن نسّمهم ، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين في المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حينئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشرّكهم فيه النساء مثل الخنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام في طبقاته أربعين من فحولهم وفحول الخضرمين وقد جعلهم في عشر طبقات وجعل في كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب

العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص ٥١ .

(٢) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص

١٧٠ .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف)

ص ١٦٤ .

(٤) الأصمعيات ص ٥٦ .

(٥) المفضليات ص ١٥٥ .

(٦) المفضليات ص ١٠٨ .

(٧) الأصمعيات في مواضع متفرقة .

أربعة من أصحاب المراثي كما أضاف تسعة في مكة وخمسة في المدينة وخمسة في الطائف وثلاثة في البحرين ، وعدّ لليهود ثمانية . ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوي والحضري كما يجد بين البدو اليمنى والرّبعى والمضري .

وترجم أبو الفرج في الأغاني لكثيرين منهم ، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّميهم الذين دوّن شهرتهم ، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم ، يعدون بالثلاث على نحو ما يصور لنا ذلك المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزباني . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين لم يسجلوهم ، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التقدير عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » (١) . ومن يقرأ في كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكراً في ديوان قبيلته (٢) . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذي لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلي كان أوفر من حظ القبائل الربعية والقحطانية ، وأقرأ في الأغاني والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثرة الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهي كثرة يؤيدها تاريخها في الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التي نزلت في العراق على قبائل الشام والأخرى التي نزلت في مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت في جمهورها مضرية بينما كانت تلك في معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الربعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فككة كانت قليلة الشعر (٣) ، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة (٤) . ووقف الجاحظ في حيوانه عند جانب

١٨٧ ، ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(١) انظر مقدمة لكتابه الشعر والشعراء .

(طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤتلف والمختلف ص ٢٣ ،

٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،

من حظوظ القبائل وتفاوتها في ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم ، وتُخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكثرة أكلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إختومهم عجلٌ قصيد ورجز وشعراء ورجّازون . وليس ذلك لمكان الخِصْب وأنهم أهل مدر وأكّالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف "سكان الطائف" أهل دارناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب (سكان نجران) قبيل شريف يجرون مجارى ملوك اليمن ومجارى سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظّ في الشعر ، ولم في الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان في ولد زُرارة (جد بطن من تميم) لصلبته شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حصن ولا عيينة بن حصن ولا حمّس بن بدر شعر مذكور » (١) .

ومن المحقق أنه فقد كثير من الشعر الجاهلي ، إذ عدت عليه عوادى الرواية وتلك الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ بلاءكم علم وشعر كثير (٢) » . ونحن لا نبالغ مبالغة أبي عمرو ، فقد بقي منه كثير ألّفت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدي رواة أمماء سجلوه ودونوه .

(٢) ابن سلام ص ٢٣ .

(١) الحيوان ٤/٣٨٠ وما بعدها .

## الشعر الجاهلي شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالا واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستاني ، ولكثير من الأئم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهاباراتا وللفرس الشهامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكون من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزبود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام » التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، ف شعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه وإنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلم أو حين يمثل ، فهو في كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، وإنما يقف عند جانب قصصى تاريخي يحكيه أو علمي تهديبي يرويه أو تمثيلي مسرحي يؤدِّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلي يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقترّب من الضرب الرابع الغنائي ، لأنه يجول مثله في مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوره فرحاً أو حزناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء ، وكان يُصحبُ عندهم بآلة موسيقية يُعزفُ عليها تسمى ( لير Lyre ) ومن ثمَّ سمّوه ( Lyric ) أى غنائى .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعّم أن الشعر الجاهلي جميعه غنائى ، إذ يماثل الشعر الغنائى الغربى من حيث إنه ذاتى يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى أو حين يعتذروبعاتب ، أوحين يصف أى شىء مما ينبثُّ حوله في جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائى الغربى من حيث إنه كان يغنىّ غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنىّ في قصيدته :

طفلةٌ ما ابنةُ المحللِّ بيضا      ء لعوبٌ لذيدةٌ في العناقِ<sup>(١)</sup>

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهاني يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنىّ ببعض شعره من مثل السُّليك بن السُّلكة<sup>(٢)</sup> وعلقمة بن عبدة الفحل والأعشى ، وكان يوقّع

(١) انظر الأغاني ( طبعة دار الكتب )

٥١/٥ وما في البيت زائدة ، وطفلة :

رخصة ناعمة .

(٢) أغاني ( طبعة السامى ) ١٣٤/١٨ .



شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنّج، ولعله من أجل ذلك سمي صنّاجة العرب<sup>(١)</sup>. ويقول أبو النجم في وصف قينة<sup>(٢)</sup>:

تَغْنَى فإِنَّ اليَوْمَ يَوْمٌ مِنَ الصُّبَا      ببعض الذي غَنَّى امرؤ القيس أو عمرو  
وهو يقصد بعمرو، عمرو بن قسيثة. ويقول حسان بن ثابت<sup>(٣)</sup>:

تَغْنُ بِالشَّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ      إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ

فالعناء كان أساس تعلم الشعر عندهم، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقاءه بالإنشاد، ومنه الحُداء الذي كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم، وكان غناء شعبياً عاماً.

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالميزهر والدفّ وكانا من جلد وكالصنّج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجلنك، وكالبربط وهو آلة موسيقية وترية شاعت في بلاد الإغريق، ويقص علينا علقمة بن عبدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط<sup>(٤)</sup> وكانوا كذلك في الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية. وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خُلَيْدَة وهُرَيْرَة في البصرة<sup>(٥)</sup> والأخيرة هي صاحبة الأعشى التي ذكرها في معلقته، ويروى الرواة أنه كان بمكة قينتان لعبد الله بن جدعان جليهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس<sup>(٦)</sup> وفي أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم عليه ثلاثاً ونسحر الجزر ونظعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب<sup>(٧)</sup>. وفي السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن خطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول، فأمر بقتلهما، فقتلت

- 
- (١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩  
وافظّر ترجمته في الشعر وللشعراء ٢١٤/١.  
(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١.  
(٣) العمدة لابن رشيقي (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢.  
(٤) أغاني (ساسي) ١٤/١٦.  
(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٣/٩.  
(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٧/٨.  
(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٢/٤.

إحداهما ، وفرت الأخرى (١) . ومر بنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا  
 لإحدى القيان أن تغنى بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب (٢) .  
 ويكثر ذكر هؤلاء القيان في شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كن يضربن عليه من  
 آلات الطرب ، كقول علقمة في ميميته (٣) :

قد أشهد الشرب فيهم مِزْهُرَرَيْنِمْ والقوم تصرعهم صهباء خُرْطُومُ  
 ويقول الأعشى في معلقته :

ومستجيبٍ تخال الصنح يسمعه إذا تُرْجِعَ فيه القَيْنَةُ الفُضْلُ (٤)

ولطرفة في معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل في ذلك كله ما  
 يدل على أن الغناء في الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين في حفلاتهم لاعبات على  
 المزاهر (٥) ، وفي الطبرى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً  
 بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرس (٦) ، وأكبر الظن أنهن كن  
 يقرن هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن  
 يؤلفن في الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففي الطبرى والأغانى أن هنداً بنت  
 عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد وكانت هند تغنى  
 في تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها (٧) :

إن تُقبِلوا نعانقُ ونفرشِ النَّمَارِقَ (٨)

أو تدبروا نفارق غيرِ وامق (٩)

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة

الجلبي) ٥٣/٤ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٣) المفضليات ص ٤٠٢ ، والشرب : جمع

شارب ، رَم : مترنم ، والصهباء : الخمر ،

والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .

(٤) المستجيب : العود ، واستماع الصنح

له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل :

اللابسة ثوباً واحداً .

(٥) العمدة ٣٧/١ .

(٦) الطبرى (طبعة أوربا) ١١٢٦/١ .

(٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٤/١٦ وتاريخ

الطبرى ١٤٠٠/١ .

(٨) النمارق : جمع نمرقة وهى الطنفسة

والومادة الصغيرة .

(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء ديني يرتلونه في أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق تبير كيا نغير » . وكانوا في أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دماؤها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصْب الذي شاع بينهم في الجاهلية . وربما كان في اسم الدابجة والمدجحة ، وهي القينة تغنى في الدَّجْن وحين ظهور الغيم في صفحة السماء<sup>(١)</sup> ما يدل على أنهم كانوا إذا عزَّهم المطر وغلبهم الجذب توجَّهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر في الجاهلية كان يُصْحَبُ بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائي تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضرباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلي : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسَّناد والهزج ، فأما النَّصْبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذي يستعمل في المراثي ، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والتبرات ، وأما الهزجُ فالخفيف الذي يُرْقَصُ عليه ويُمَشَّى بالدفِّ والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفتحت العراق وُجلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المحزباً المؤلف بالفارسية والرومية وغنَّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »<sup>(٢)</sup> .

ولعل في اقتران النَّصْب بالمراثي ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينياً ، فهم يتغنون به في الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذي كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما الهزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلمهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذي يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن الهزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمْل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة في الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم في جو غنائي مشبه لنفس الجو الذي نظم فيه اليونان شعرهم الغنائي فقد كان الشاعر يغني شعره ، وقد يوقَّع هذا الغناء على

(٢) العمدة لابن رشيقي (طبعة أمين هندية)

٢٤١/٢ .

(١) انظر مادة دجن في لسان العرب وغيره من معاجم اللغة . وراجع المنفصليات ص ١٣٠ .

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء في شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف في أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ في أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً ، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها ، فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريح في مطالع القصائد وما كان يعتمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتي لأبياتهم كقول امرئ القيس في معلقته يصف الفرس :

مَكْرٌ ، مَفْرٌ ، مُقْبِلٌ ، مُدْبِرٌ ، مَعَا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ

ويكثر هذا التقطيع في أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التي يستهلها بقوله :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِنَى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن للبيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهيب نفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته في كلمتين متتاليتين . ولا نشك في أن صور الأوزان المتنوعة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة في بعض الأوزان ، كجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمقارب والرمل والهزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل في الرجز لأنه كان وزناً شعبياً وكان كثير الدوران في حداثهم وفي كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والتمشح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثرت فيه الحذف وكثرت التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر (١) ، وهو شعر غير أن التغني به تغنياً كثيراً حُدَاءً وغير حُدَاءً أحدث فيه تغيرات شتى .

(١) انظر باب الرجز في العمدة لابن رشيق .

## الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربي جاهلياً وغير جاهلي إلى موضوعات ألّف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمه فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبي ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تاماً باب العتاب والاعتذار .

ووزع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقي أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنسيب مديح وكذلك المرثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تصنيف موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة وهو ، ويدخل فى المديح المرثى والافتخار والشكر واللفظ فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطرّد وصنعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُردّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسي موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكري : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمرثى ، حتى زاد النابغة فيها قسماً

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه <sup>(١)</sup> « وهو تقسيم جيد غير أنه نسي باب الحماسة ، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات في الشعر الجاهلي ترتيباً تاريخياً ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انظمت كما قدمنا في ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظناً أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو في أصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره ، وفي أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وإبهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة <sup>(٢)</sup> .

ويظهر أنه كانت لا تزال في نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء في القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول في بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر ( وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ) ورد عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً في مثل : ( وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ) ومثل : ( إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ) . ويقول جل وعز في سورة الشعراء : ( وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ) وبعد ذلك : ( هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أئيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ) .  
وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

( ١ ) ديوان المعاني ١/٩١ .  
( ٢ ) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان .  
( طبع دار المعارف ) ٤٤/١ وما بعدها .

( ١ ) ديوان المعاني ١/٩١ .  
( ٢ ) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان .

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث في وعيه الشعر يسمى مسحلاً وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قطن ، كانت له تابعة من الجن اسمها جهنم<sup>(١)</sup> .

وظل بعض الشعراء في الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول<sup>(٢)</sup> :

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرِ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرٌ  
وفي أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلَّةً خاصة ، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شِقِي رأسه وانتعل نعلًا واحدة<sup>(٣)</sup> ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سنهم في الحج ، وكان شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطرراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن وراق الأسدَى أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلاماً ، فنظم زهير أبياتاً يتوعدده بالهجاء المقذع ، يقول فيها<sup>(٤)</sup> :

ليأتينك مني منطلقٌ قدعٌ      باقٍ كما دنس القُبْطِيَّةَ الودكُ

١٩١/١ .

(٤) مختار الشعر الجاهل للسقا ص ٢٥٥  
وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)  
ص ١٨٣ . القذع : القبيح . القبطية : كل  
ثوب أبيض . الودك : الدم .

(١) انظر المؤلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة  
جهم في لسان العرب ، والحيوان ٢٢٦/٦  
والقصيدتين رقم ١٥ ، ٣٣ في ديوان الأعشى  
(٢) الحيوان ٢٢٩/٦ .  
(٣) امالي المرتضى (طبعة عيسى الحلبي)

ففرع الحارث ورد عليه ما سلبه منه <sup>(١)</sup> . وواضح أن زهيراً يستخدم في وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس ، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرجس والإثم . ويروي أن رجلاً يسمى زُرْعَة بن ثوب من بني عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزرد بن ضيرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبلًا لأبويه فاشتراها منه بغم واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكت والله وأهلكتنا ، وركب إلى مزرد وقصَّ عليه القصة ، فقال مزرد : أنا ضامن لك أن تُردَّ عليك بأعيانها ، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زرعة ، ويطلب إليه أن يرد الإبل ، ونراه يعودُها بهجائه ، فهي إن لم ترد ستكون ناراً تأتي على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الحرب والأمراض المستعصية ، يقول <sup>(٢)</sup> :

فيا آلَ ثوبٍ إنما ذودُ خالدٍ      كنار اللّطي ، لا خير في ذودِ خالدٍ <sup>(٣)</sup>  
 بهن دُرُوهُ من نُحازٍ وُغْدَةٌ      لها ذرِّباتٌ كالثديِّ النواهِدِ <sup>(٤)</sup>  
 جربنَ فما يُهنَّانَ إلا بغلقَةٍ      عطينٍ وأبوالِ النساءِ القواعدِ <sup>(٥)</sup>

وقد تحولوا يصبؤون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرتهم ، فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظة ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجدته فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحملة عنه . ولذلك هجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرارةُ بنُ عدسٍ وهجى عبد الله بن جُدعان وهجى حاجب بن زُرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عبيّنة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زُرارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون <sup>(٦)</sup> » وبمقدار ما

(١) أغاني ٣٠٧/١٠ وما بعدها .

(٢) المفضليات ص ٧٩ .

(٣) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .

(٤) دروه : جمع دره وهو التتوه .

والنحاز : داء يصيب الإبل بالسعال . الغدة :

طاعون الإبل . الذرِّبات : جمع ذرِّبة وهي

رأس الخراج ، النواهد : النواض .

(٥) يهنان : يطلين . الغلقة : شجر

يدينغ به الحرب . عطين يريد أنه لا يدينغ بها إلا

بمد العطن ، القواعد : المعاجز .

(٦) الحيوان ٩٣/٢ .



كان في القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولاشرفها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء ( النسل ) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر وكثير الرؤساء في الأرحاء ( القبائل الكبيرة ) وكان الآخر قليل الذرء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير تخملوا أو دخلوا في غمار العرب وغرقوا في معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَبَ بهم المثل في قلة ونذالة ، إذ لم يكن ( منهم ) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهَجَّجُوا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على ألسنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالاً في العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولا سيما إذا جاورا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم كما لقيت غنني أو باهلة . . فن القبائل المتقادمة الميلاد التي في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيّلان ومثل فزارة ومرة وثعلبة ومثل عبّس وعبد الله بن غطفان ثم غنيّ وباهلة واليعسوب والظفاوة ، فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنيّ مما لقيت من صواب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة للمدارج الأقوام ينكبُّ فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليعسوب والظفاوة وهاربة البقعة ( من ذبيان ) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنيّ وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب . حتى صار من لاخير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ وثور وعكّل وتيمم ومزينة ، ففي عكل وتيمم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشيء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكل وتيمم . وقد شعثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضبّة مع ما في ضبّة من الخصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

علقمة بن علاثة وكما بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخداش بن زهير<sup>(١)</sup> .  
 وفي السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه  
 بأهاجيمهم في قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ في هجاء  
 القرشيين : « لشعرك أشد عليهم من وقع النبل » وفي ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء في  
 نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم في القتال ، ولذلك قرنه عبد قيس  
 ابن خفاف البرجمي إلى ما يَلتقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول<sup>(٢)</sup> :

فأصبحتُ أعددتُ للنائبَا      ت عِرْضًا بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلًا<sup>(٣)</sup>  
 وَوَقَعَ لِسَانِ كَحَدِ السَّنَانِ      وَرُمَحًا طَوِيلَ الْقِنَاةِ عَسُولًا<sup>(٤)</sup>  
 وَسَابِغَةً مِنْ جِيَادِ الدَّرْوِ      عِ تَسْمَعُ لِلسَيْفِ فِيهَا صَلِيلًا  
 كَمَا الْغَلْدِيرِ زَقْتَهُ الدَّبُورُ      يَجْرُ الْمَدَجُّ مِنْهَا فُضُولًا<sup>(٥)</sup>

فاللسان كان يَنكأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرماح . ويخيل إلى الإنسان  
 كأنما تراص شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها في صفوف ، وقد أخذ كل  
 منهم يرش سهام هجائه ويرى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن  
 يكون سهمه أنفذ السهام وأصمها . حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة . وكانوا  
 ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ ، فينشدون أهاجيمهم لتدفع ،  
 وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار ، وفي ذلك يقول راشد بن شهاب  
 اليشكري لقيس بن مسعود الشيباني<sup>(٦)</sup> :

وَلَا تُوعِدْنِي إِنْ نِي إِنْ تُلَاقِنِي      مَعِيَ مَشْرِقِي فِي مَضَارِبِهِ قَضْمٌ<sup>(٧)</sup>  
 وَذُمَّ يُغَشِّي الْمَرْءَ خَزِيًّا وَرَهْطَهُ      لَدَى السَّرْحَةِ الْعَشَاءِ فِي ظِلِّهَا الْأَدَمُ<sup>(٨)</sup>

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

(١) الحيوان ١/٣٥٧ - ٣٦٣ .

(٢) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٣) العضب : السيف القاطع ، والصقيل :

المصقول الحد .

(٤) المسول : اللين المصى .

(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية

تقابل الصبا ، المدجج : تام السلاح ، ويجر

منها فضولا كناية عن أنها سابقة تفضل عن أطرافه .

(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .

(٧) المشرق : السيف ، وقضم : فلول

من كثرة الطعن .

(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء : الخليفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون في حجورهم من حجارة الهجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مثلهم التي صورناها في غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهي تعني عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء فإذا هو يخلص القبيلة وأشرفها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهي لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهي تفر في الحروب وتقعده عن الأخذ بثأرها . ولا يكتبني الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولت على أديبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، وقرأ في المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم رقم ٣٨ فستره يذكر أمجاد قبيلته في أيام بزاحة والنسار وطخخفة والكلاب وذات السلم ، وقرأ قصائد بشر بن أبي خازم الأسدي في المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بني عامر في يوم النصار ومعهم ومع أحلافهم من تميم في يوم الحفار وما أنزلوا بهم من خسائر في الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جرّم والرباب وجذام وبنو سليم وبنو كلاب وبنو أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقذفون في الأعراض ويطنون في الأنساب ، متعرضين للأهيات على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدي في هجاء بني عامر وقد غدروا بأسدي منهم وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا ، مقدياً بأهم سلمى استهزاء بهم لما الحقوا بها من العار ، ثم عاد فادّعى عليها البيغاء (١) :

سائلٌ معداً من الفوارس لا أوقوا بجيرانهم ولا غنموا  
فدى لسلمى ثوباي إذ دنس ال قومٌ وإذ يدسمون ما دسموا (٢)  
أنتم بنو المرأة التي زعم ال ناسٌ عليها في النغي ما زعموا  
واسترسل يصمها أبشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه في  
الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعى في قومه زئيم . وشاع بينهم  
هذا الضرب من الوقوع في الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم وبأهم .

(١) المفضليات ص ٤١ .

(٢) ثوباي : أراد نفسه . يدسمون : من الدسم

في العصر الإسلامي ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يلطخونه بالعارما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثمّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قيس بن خفاف البرجمي (١) :

لعن الله ثم ثنى بلعن ابن ذا الصائغ الظلوم الجهولا  
يجمع الجيش ذا الألو ف يغزو ثم لا يرزأ العدو فتبلا (٢)

وكان النعمان كثير الوقائع في قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الحذاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول في بعضه (٣) :

نعمانُ إنك خائنٌ خدعٌ يُخفي ضميرك غير ما تُبدي

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمر بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجائهم يُنرّد بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالباً في تضاعيف حماستهم وإشاداتهم بأبجادهم وانتصاراتهم الحربية ، ولا تُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سعتهم الحروب ، وأمدّها شعراؤهم بوقود جزل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يرامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح في كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمى مجموعته من أشعارهم وأشعار من خلفوهم باسم الحماسة ، فهي التي تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهي ديوانهم الذي يسطر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء . وقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضيق الخناق على أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصبرها في

شق النواة .

(١) الحيوان ٣٧٩/٤ .

(٢) المفضليات ص ٢٩٦ .

(٣) يرزأ : ينقص ، والقتيل : الهنة في

الملمات وكرمها في الجذب وحمايتها للجار وإغايتها للمهوف ، وفي أثناء ذلك يصوب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً . ونحس في هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحقد البالغ على خصومهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروّعاً ، وكان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حد له ، فإذا ثارت لنفسها وشفقت غلغها وحقدتها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دريد بن الصمة التي يتغنى فيها بأنه ثار من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول (١) :

ويا راكباً إما عرضتَ فبلغنْ  
قتلتُ بعبد الله خير لداتِه  
فليليوم سُميتم فزاره فاصبروا  
تكرُّ عليهم رجلتى وفوارسى  
فإن تدبروا يأخذنكم في ظهوركم  
وإن تسهلوا للخيل تسهل عليكم  
ومرّة قد أخرجنهم فتركنهم  
وأشجع قد أدركنهم فتركنهم  
وشعلبة الخنثى تركنا شريدهم  
فليت قبوراً بالمخاضة أخبرتْ

أبا غالبٍ أن قد ثارنا بغالبِ (٢)  
ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قاربِ (٣)  
لوقع القنا تنزون نزوا الجنادبِ (٤)  
وأكرهه فيهم صعدي غير ناكبِ (٥)  
وإن تقبلوا يأخذنكم في الترائبِ (٦)  
بطعن كإيزاغ المخاض الضواربِ (٧)  
يروغون بالصلاء روع الثعالبِ (٨)  
يخافون خطف الطير من كل جانبِ  
تعلّة لاه في البلاد ولاعبِ  
فتخبرعنا الخضر خضر محاربِ (٩)

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .  
(٢) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولها .  
(٣) لدات : جمع لدة وهو التراب والكف .  
(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .  
(٥) رجلى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناتة . غير ناكب : غير عادل عنهم .  
(٦) الترائب : عظام الصدر .  
(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض .  
المخاض : الحوامل من النوق ، الضوارب : اللواقح ، وإيزاغها أن ترمى بيوها شبه رشاش الطعنة من الدم بيوها ورشاشه .  
(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلاء موضع هو مكان معركته مع مرة .  
(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب : قبيلة .

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .  
(٢) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولها .  
(٣) لدات : جمع لدة وهو التراب والكف .  
(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .  
(٥) رجلى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناتة . غير ناكب : غير عادل عنهم .

رَدَسْنَاهُمْ بِالخَيْلِ حَتَّى تَمَلَّاتِ عَوَافِي الضَّبَاعِ وَالذَّنَابِ السَّوَاغِبِ (١)  
ذَرِينِي أَطْوُفُ فِي الْبِلَادِ لَعْنِي أَلَاقِي بِإِثْرٍ ثُلَّةً مِنْ مَحَارِبِ (٢)

وواضح أنه يتشفي من قتله أخيه، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من فزارة، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء، ومسهلين في الأرض. ويصور ما لقيته مرة في الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببني ثعلبة وبني محارب، حتى شبت منهم الضباع. ويتهدهم بأنه سيعيد الكرة عليهم. وفي كل مكان يدوي مثل هذا النشيد، ومن روائعهم في هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المعلمة المشهورة من مثل قوله:

مَتَى نَنْقُلُ إِلَى قَوْمِ رَحَانَا يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقِيَّ نَجْدِ  
يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَاحِينَا نَطَاعِنُ مَا تَرَخَى النَّاسُ عَنَا  
وَلُهَوْتُهَا قِضَاعَةٌ أَجْمَعِينَا (٣) بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَطِيَّ لُدُنْ  
وَنَضْرِبُ بِالسِّيُوفِ إِذَا غُشِينَا نَشَقُّ بِهَا رَعُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا  
ذَوَابِلَ أَوْ بَبِيضٍ يَعْثَلِينَا (٤) كَأَنَّ جِمَاجِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا  
وَنُخْلِهَا الرُّقَابَ فَتَخْتَلِينَا وَرَثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمْتُ مَعَدًّا  
وَسُوقُ بِالْأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا (٥) وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ  
نَطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا (٦) نَجْدٌ رَعُوسُهُمْ فِي غَيْرِ وَتَرٍ  
عَلَى الْأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مِنْ يَلِينَا (٧) فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَ (٨)

المرتة . البيض : السيوف .  
(٥) الأماعز : الأراضي الصلبة ، السوق :  
جمع سوق وهو الحمل .  
(٦) يبين : يتضح .  
(٧) العماد : جمع عمود ، خرت : سقطت ،  
الأحفاض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة  
الحج للحرب .  
(٧) الوتر : الثأر ، ونجد : ف قطع .

(١) ردسناهم : رميناهم ، العوافي :  
الجماعة ، وكذلك السواغب .  
(٢) الثلة : الجماعة من الناس .  
(٣) الثفال : خرقة توضع تحت الرحي  
لاستقبال ما يطحن ، اللهوة : القبضة من الحب .  
(٤) توصف الرماح بالسمرة لذيوها ، وقنا  
الخطي : نسبة إلى الخط وهي بلدة كانت على  
ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن :

كَانَ سَيْوْفُنَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا<sup>(١)</sup>  
كَانَ ثِيَابُنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ خُضْبُنُ بَأَرْجَوَانَ أَوْ طُلِينَا<sup>(٢)</sup>

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذي يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها في نجد شرقها وغربها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التي يذيقون بها أعداءهم كتوس الموت المرة ، ومدّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رموس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فالسيوف في أيديهم وأيدي أعدائهم كأنها مخاريق بأيدي لاعبين ، وهم يقتلون فيهم ، كما يُقتل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذي يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفي الأصمعيات أمثلة منها طريفة ، من مثل قول المفضل النُكْرِي يصف موقعة بين عشيرته من بني نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول <sup>(٣)</sup> :

كَانَ هَزِيرُنَا يَوْمَ التَّقِينَا هَزِيرُ أَبَاءَةٍ فِيهَا حَرِيقُ<sup>(٤)</sup>  
وَكَمْ مِنْ سَيْدٍ مِنَّا وَمِنْهُمْ بَدَى الطَّرْفَاءِ مَنْطِقُهُ شَهِيْقُ<sup>(٥)</sup>  
فَأَشْبَعْنَا السَّبَاعَ وَأَشْبَعُوهَا فَرَاَحَتْ كُلُّهَا تَثْقُ يَفُوقُ<sup>(٦)</sup>  
فَأَبْكَيْنَا نِسَاءَهُمْ وَأَبْكُوا نِسَاءً مَا يَسُوغُ لَهْنِ رِيْقِ  
يُجَاوِزْنَ النَّيَاحَ بِكُلِّ فَجْرٍ فَقَدْ صَحَلَتْ مِنَ النَّوْحِ الحُلُوقُ<sup>(٧)</sup>

وطبيعي وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم ، وهناك كثيرون يطيلون في وصفها ووصف الخيل التي يركبونها في اللقاء . ومن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حجر في لامية له مشهورة أطال فيها في تصوير سيفه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً في المفضليات

(١) المخاريق: المتاديل تلف ويلعب بها ،  
لعبة كانت عندهم .  
(٢) الأرجوان : صبغ أحمر .  
(٣) الأصمعيات ص ٢٣٣ وما بعدها .  
(٤) الهزير : الصوت ، الأباءة : أجمة الغاب .  
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .  
(٦) تثق : تمتلئ ، يفوق : يأخذه الهر .  
(٧) صحلت : بحت .

والأصمعيات<sup>(١)</sup> ، كما يلقانا معه وصفهم للخيل وكانوا يلقبونها بالأسماء ، ومن اشتهر في هذا الوصف أبو دؤاد الإيادي وزيد الخليل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميناهم وغيرهم .

وفي الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلاً ربيعاً لهم في حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ في ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول<sup>(٢)</sup> :

وإن تسأليني فإني امبرؤ	أهين اللئيمَ وأحبو الكريما
وأبني المعالي بالمكرمات	وأرضى الخليل وأروى النديما
ويحمد بذلي له مُعتف	إذا ذمَّ من يعتففيه اللئيم <sup>(٣)</sup>
وأجزى القروض وفاءً بها	ببؤسى ببؤسى ونعمى نعيما <sup>(٤)</sup>
وقوى فإن أنت كذبتني	بقولى فاسئلُ بقوى عليما
يُهيئون في الحق أموالهم	إذا اللزباتُ انتحين المُسيما <sup>(٥)</sup>
طوالُ الرماح غداة الصباح	ذوو نَجْدَةٍ يمنعون الحرима

وهو يذكر في البيت الثاني أن من شيمه أن يروى نديمه بالخمير ، ويكثر في حماستهم تملحهم بأنهم يستقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر<sup>(٦)</sup> ، وكأن في ذلك إعلاناً عن كرمهم وبنطهم على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع عن طرفة وفتوته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها في الشعر الجاهلي على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد

بالسبئية مثلها وكذلك الحسنة .

(٥) اللزبات : الشدائد ، انتحى : قصد ،

المسيم : الكثير الإيل والغنم ، اشتقه من

السائمة .

(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها

ورقم ٦٤ و ٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و ٦٥ .

(٢) المفضليات ص ١٨٣ .

(٣) المعنى : السائل في غير طلب .

(٤) البؤس والبؤسى بمعنى ، يقول يجرى



العِبَادِي ، فقد تحولوا بها من هذا الباب إلى وصفها في ذاتها وصفاً طريفاً .  
ومن الموضوعات التي تتصل اتصالاً واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون  
أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم <sup>(١)</sup> ، فكانوا  
يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التي فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من  
قتلهم . وكان يشرك الرجال في ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن يَنحُنَّ على القتيل  
حتى تتأثر القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) الذي  
نعرفه في مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبا ، وقد حدثنا الرواة أن  
الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صخرًا ومعاوية ، وكانت هند بنت  
عتبة أم معاوية تحكيها نائحةً أباهما <sup>(٢)</sup> . وفي هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم  
يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يُطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال  
لأنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن  
ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل في حلق رؤوسهن ما يجمع بينهن  
وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويدات كانت  
تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن في لحده . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى  
تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن في فقيدهم ، فتلك التعويدات أصبحت  
وخاصة عند نساءهم بكاء ونواحاً وندباً حاراً . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من  
الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك في أن الصورة  
القديمة لهذا التأبين هي تلك النقوش التي عثروا عليها في أنحاء مختلفة من الجزيرة ،  
وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم  
تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع  
الذي نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمنون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى  
الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مرد لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشقن جيوبهن  
عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مائماً من العويل والبكاء ،  
ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مرثى شواعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهم

التي لا تنازعُ هي الخنساء ، فقد قُتِلَ أخوها معاوية في بعض المعارك ، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه ، وقُتِلَ أيضاً أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ، ومن رائع ما نذبت به صخرًا :

قَدَى بِعَيْنِكَ أُمَ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ (١)  
 كَأَنَّ عَيْنِي لَذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرْتُ  
 فَيَضُّ بِسَيْلِ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِذْرَارُ (٢)  
 فَالْعَيْنِ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقٌّ لَهَا  
 وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أَسْتَارُ (٣)  
 تَبْكِي خُنَّاسٌ وَمَاتَنَفَكُ مَاعَمَّرَتْ  
 لَهَا عَلَيْهِ رَيْنٌ وَهِيَ مِقْتَارُ (٤)  
 بَكَاءَ وَالْهَةِ ضَلَّتْ أَلَيْفَتَهَا  
 لَهَا حَنِينَانِ : إِصْفَارُ وَإِكْبَارُ (٥)  
 تَرَعَى إِذَا نَسِيَتْ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتُ  
 فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَإِدْبَارُ  
 وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ  
 كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ (٦)

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسّ داعي الموت نذب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن ، ثم تحننه ودفنه ، وتنسبُ للممزق العبدى أوليزيد بن الخدّاق قطعة يصور فيها هذا المصير الذي ينتظره ، يقول فيها (٧) :

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بِنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقٍ  
 أُمَ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ (٨)  
 قَدْ رَجَلُونِي وَمَا رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ  
 وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقٍ (٩)  
 وَأَرْسَلُوا فَتِيَةً مِنْ خَيْرِهِمْ حَسْبًا  
 لَيْسُنْدُوَانِي ضَرِيحَ التُّرْبِ أَطْبَاقِي (١٠)

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت  
 قطراً متتابعاً .

(٢) مدارار : كثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت  
 بجديد الأرض عن أنه مات حديثاً .

(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .

(٥) الإصفار : خفض الصوت بالحنين ،

والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجليل .

(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .

(٨) بنات الدهر : أحداثه ، حمام الموت : دفنوه .

(٩) الترجيل : ترميح الشعر ، الأخلاق :

المزقة .

(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثرون من تأيين من يموتون منهم في ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأيين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد في قصيدة المرقش (١) :

هل بالديار أن تعجيب صَمَمٌ لو كان رشمٌ ناطقاً كلَّمٌ  
فقد بدأها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فديح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأيين ، على نحو ما صنع دُرَيْدُ بن الصَّمَّة في مرثية أخيه عبد الله (٢) .

أرثَ جَدِيدُ الحَبْلِ من أمِّ مَعْبِدٍ بعاقبةٍ وأخلفتُ كلَّ موعِدِ  
وقد أسهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثي أخاه مصوراً مصرعه وولفه به وجزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والجرود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤنوا أبطاهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا في مراثيم لتأيين أشرفهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأيينهم مرثية أوس بن حجر لفصالة بن ككدة الأسدي ، وفيها يقول (٣) :

أَبَتْهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعَا      إن الذي تحذرين قد وقعا  
إن الذي جمعَ السماحة والذِّ      جُدَّةَ والحزمَ والقوى جُمعَا  
الألمى الذي يظنُّ لك ال      ظنَّ كأنَّ قد رأى وقد سمعا (٤)  
المخلفَ المتلفَ المرزأ لم      يُمْتَعِ بضعفٍ ولم يَمْتِ طَبِعا (٥)  
أودى وهل تنفع الإشاحة من      شىء لمن قد يحاول البِدعا (٦)

يحدس الأمور فلا يخطيء وأنه فلن صادق  
الظن جيد الفراسة .

(٥) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله  
لكومه ، يمتع : يصاب ، الطبع : اللثم .  
(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجدل فى  
طلب الشىء ، البدع : الأمور الغريبة .

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .

(٢) الأسميات ص ١١١ ، أرث :  
أخلق . بعاقبة : بأخرة .

(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغاني  
٧٤/١١ .

(٤) الأملى : حاد الذكاء ، يريد أنه

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك (١) :

وعلى هذا النحو ألمَّ الشاعر الجاهلي بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبي دؤاد الإيادي يرثي فيها من أودى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول في مطلع رثائهم (٢) :

لا أعدُّ الإقتارَ عُدماً ولكنَّ فَعْدُ مَنْ قد رُزِئَتْهُ الإِعْدَامُ

ويستمر يبكي فيهم العروس العظام وخاللهم من التأنى والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسد وما يخالط فرط حديدتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول إنهم أصبحوا هاماً وصدى ، إذ كانوا يعتمدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصدى ما يزال يقول اسقوني :

سُلِّطَ الدهرُ والمَنُونُ عليهم فلهم في صدَى المقابر هامُ  
فعلَى إثرهم تَسَاقَطُ نفسى حشراتٍ وذكرهم لى سَقام

وبجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناب قبائلهم وساداتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التي يمدحون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبانها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم (٣) .

وكان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التي أدوها ، كأن يفتكروا أسيراً ، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها (٤) « :

ربعى الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية عن كثرتة وإمراعه ، والندى : الكرم . ويقول إن مجلسه غير لطم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما هو مجلس سكون وحلم .

(١) المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) الأصمعيات ص ٢١٥ .

(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .

(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترع : ملآن .

مُتَرَعُ الْجَفْنَةِ رِبْعِيُّ النَّدَى حَسَنٌ مَجْلُسُهُ غَيْرُ لُطَمٍ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب ، فهم يقدّمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحهم . واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلامة بن عبدة فيهم مفضلية بديعة نظّمها في الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع في يديه أسيراً <sup>(١)</sup> . أما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائحها ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى في أيدي الغساسنة ، فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً في غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هي من أروع ما دبّجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفي ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . وما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقراب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العُدْوانى <sup>(٢)</sup> والمتلمّس <sup>(٣)</sup> . ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثيرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهليهم بـجُرّ الحقائق . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم في القبائل ، فكثّر الشعراء حولهم وأخذ يمجج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته ، ومن رحل إليه المتلمس والمزق العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء ومن يديع ما نُظِم فيه قول حُجْر بن خالد <sup>(٤)</sup> :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجِدْ كفعل أبي قابوس حزمًا ونائلا

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها .

(٢) انظر قصيدته في المفضليات برقمى ٣١٠، ٢٩ .

(٣) الأصمعيات رقم ٩٢ .

(٤) الحيوان ٥٨/٣ .

يُسَاقُ الغَمَامُ الغُرُّ من كل بلدةِ      إليك فأضحى حول بيتك نازلا  
 فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَدَى      وتُضحى قُلُوصُ الحمدِ جَرَّ بَاءِ حائِلا (١)  
 فلا ملكٌ ما يبلغنك سَعْيُهُ      ولا سوقَةٌ ما يمدحنك باطلا  
 وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة  
 والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا قصده وملحه  
 وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه  
 للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا في قصائدهم هي بكاء الديار القديمة التي  
 رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ،  
 ومرتبناً أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خديام ، وربما كان في  
 ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلم يسبق في قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون  
 وصف له ، إذ يتعرضون بلحبيها وخذها وعنقها وصدرها وعينها وفها وربيقها ومعصمها  
 وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحياتها وعفتها (٢) ،  
 وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهي مغامرات تحوّل بها بعض الرواة إلى  
 قصص غرامية على نحو ما قصوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة  
 بنت المنذر وعن حب المنخّل اليشكري للمتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة  
 رواها الأصمعي وهي تجرى على هذا النمط (٣) :

ولقد دخلتُ على الفتاة      في الخِدرِ في اليوم المَطِيرِ  
 الكاعبِ الحسناء ترّ      فل في الدَّمَقِيسِ وفي الحريرِ  
 فدفعْتُها فتدافعت      مَشَى القِطَاةِ إلى الغَدِيرِ

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الأصمعيات رقم ١٤ .

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم .

القلوص : الناقة الشابة . الحائل : التي

حمل عليها فلم تلتح .

وَلَثَمْتُهَا فَتَنَفَّسَتْ      كَتَنَفَّسَ الطَّبْنَى الْبَهِيرِ<sup>(١)</sup>  
 فَدَنْتُ وَقَالَتْ يَا مُدَّ      خَلَّ مَا بِجَسْمِكَ مِنْ حَرُورِ  
 مَا شَفَّ جَسْمِي غَيْرَ حُبِّ      كِ فَاهْدُئِي عَنِّي وَسِيرِي

ووقف الشعراء طويلاً يصورون حبهن للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبي خازم<sup>(٢)</sup> :

فَظَلَّتْ مِنْ فَرَطِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى      طَرْفًا فَوَادُّكَ مِثْلَ فَعْلِ الْأَيْهَمِ<sup>(٣)</sup>  
 وكانت ذكراها لا تنزال تلم بهم ، ومن ثمَّ أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره في أنفسهم من تباريح الحب<sup>(٤)</sup> ولم في وصف هذه الذكرى وما تصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبايتهم على شاكلة قول المرقش الأصغر<sup>(٥)</sup> :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا ، عَلَى أَنْ ذِكْرَةٌ      إِذَا خَطَرَتْ دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِمًا  
 وكانوا كثيراً ما يصفون ظعنها ، وهي ترحل في الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساساً في حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ، وينتقلون معها حيث حلت ، وفي معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن ، وربما فاقه في هذا الوصف المثقَّب العبدى في قصيدته<sup>(٦)</sup> :

أَفَاطُمُ قَبْلَ بَيْتِكَ مَتَّعِي      وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُ كَأَنْ تَبِينِي  
 فَإِنِّي لَوْ تَخَالَفَنِي شِمَالِي      خَلَافَكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي

وقد مضى يصف ظعنها ويتتبع سيرها وما تصنع هي وصواحبها في قلوب الرجال وهن يظهرن بكلفة ويسلدن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهن على ظهورهن :

- 
- (١) البهير : من البهر وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس .  
 (٢) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصميات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .  
 (٣) المفضليات ص ٢٤٥ .  
 (٤) المفضليات ص ٢٨٨ .  
 (٥) البهير : من البهر وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس .  
 (٦) المفضليات ص ٣٤٦ .  
 (٧) طرفاً : يطرف هنا وهناك ، الأيهم :

أَرَيْنَ مُحَاسِنًا وَكَتَنًا أُخْرَى مِنْ الْأَجْيَادِ وَالْبَشْرِ الْمَصُونِ

ويقول لإنهن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً وجمالاً. وكن كطبيعة النساء في كل عصر ينصرفن عن الشيب ومن قلّ ماله (١). ولذلك كثر عتابهم معهن، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذي يذهب بأموالهم، وداثماً نراهم يحتجون عليهن بأن خلود المرء في بذله لا في ثرائه (٢). وقد يصورون في تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسى، على نحو ما يصور ذلك طريقة في معلقته وكذلك امرؤ القيس، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة، فهم يتملحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم. على أن منهم من كان يتسامى في غزله حتى يمكن القول بأن الغزل العذرى له أصول في الجاهلية عند عنزة وأضرابه.

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن متمهنة عندهم، بل كانت في المكان المصون، وكان الشاعر يستلهمها شعره، ولذلك كان يضعها في صدر قصيده، ونحس عند كثيرين منهم، وخاصة فرسانهم من مثل عنزة، أنهم يقدمون مغامراتهم في الكرم وفي الحرب لها لينالوا حبها، وكان أكثر ما يشجيه ويبعث الموجدة في قلوبهم أن تؤسر وتسي، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم.

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف، وقد وصفوا كل شيء وقعت عليه أعينهم في صحرائهم، وفي العادة يذكرون ذلك بعد غزلم وتشبيهم إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم في الصحراء، فيتحدثون عن قطفهم للمفاوز البعيدة، فوق لابلهم، ويأخذون في وصفها وصفاً مسهباً على نحو ما هو معروف عن طريقة في وصفه لناقته بمعاقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير، والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجنوح الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيلدى السابح، وصوتها

(١) المفضليات ص ٣٥، ١٨٦، ٤١٨. بيت؛ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت

(٢) المفضليات ص ١١٨، ص ١٢٥. ١٢، ١١.



بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجيل ويشبهون صدرها بالطريق .  
 وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ،  
 وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب  
 الصيد<sup>(١)</sup>، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن  
 تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقى  
 بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلابُ هي المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن  
 قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلها . وأما في أكثر ذلك فلأنها  
 تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم »<sup>(٢)</sup> . وكأنهم كانوا  
 يتخذون قتل الكلاب في المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلاً يشبهونهم  
 بالكلاب<sup>(٣)</sup> .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من  
 وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار .  
 ولا مرى القيس قطعة بديعة بمعلته يصف فيها فرسه الذي اتخذه للصيد ، وفيها  
 يقول :

له أَيْطَلَا ظَبْيِي وَسَاقَا نِعَامَةً وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبَ تَحْفَلٍ<sup>(٤)</sup>  
 يقول أبو عبيدة : « ربما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها<sup>(٥)</sup> وقصرُ  
 ساقها وعُرَى نِسْبِيهَا<sup>(٦)</sup> وما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها ، وما يشبه من  
 خلقه خلق الحمار الوحشي غلظ لحمه وظماً فصوصه وسرّاته<sup>(٧)</sup> وتمحُّص<sup>(٨)</sup> عصبه  
 وتمكن أرساغه<sup>(٩)</sup> وعرض صهوته<sup>(١٠)</sup> .. وما يشبه من خلقه خلق الكلب هسرت<sup>(١١)</sup>  
 شدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قصبة<sup>(١٢)</sup> وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْب

(٦) النسي : عرق في الساق .  
 (٧) ظلماً هنا : ضمور ، الفصوص : ملتقى  
 كل عظمتين ، سرّاته : أعلاه .  
 (٨) تمحص : شدة .  
 (٩) الرسغ في الحيوان : المستدق بين الحافر  
 وموصل الوظيف من اليد والرجل .  
 (١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .  
 (١١) هرت : اتساع .  
 (١٢) قصه : صدره .

(١) انظر في ذلك معلقة ليبي والمفضليات  
 رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد  
 صائداً مسياً كلابه الستة .  
 (٢) الحيوان ٢٠/٢ .  
 (٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .  
 (٤) أَيْطَلَا الظبي : خاصرته ، الإرخاء :  
 سير السرحان وهو الذئب . والتتفل : الثعلب ،  
 وتقريبه : قفزه ووثبه .  
 (٥) الوظيف : مستدق الساق والذراع .

جلده ولحوق<sup>(١)</sup> بطنه<sup>(٢)</sup> . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة .  
ولأبي زُبَيْد الطائي قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه  
الأسد حطماً<sup>(٣)</sup> ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُفَيْل  
الغنوي وقد شبه فرسه بذئب<sup>(٤)</sup> :

كسبيد الغضا العادي أضلَّ جِراءَهُ      على شرفٍ مُستَقْبِلِ الرِّيحِ يَلْحَبُ<sup>(٥)</sup>  
وذكروا الهر والديك والخنزير في وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر<sup>(٦)</sup> :

كَأَنَّ هِرًّا جَنِيْبًا عِنْدَ مَعْرِضِهَا      وَالتَّفَّ دِيكٌ بَرَجْلِيهَا وَخِنْزِيرُ  
وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى<sup>(٧)</sup>  
كما ذكروا الحبارى والضب واليربوع والجردان والجراد والأرانب والضفادع والوعول  
أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعي ، ويشبه عنزة نفسه إزاء  
بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابيه ، ويقول في بعض وصفه له<sup>(٨)</sup> :

رَقُودٌ ضُحِيَّاتٍ كَأَنَّ لِسَانَهُ      إِذَا سَمِعَ الْأَجْرَاسَ مَكْحَالٌ أُرْمَدًا<sup>(٩)</sup>  
وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف وصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من  
وصف فرسهم بالعُقاب إلى وصفها<sup>(١٠)</sup> ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون  
به ، وفيه يقول عنزة<sup>(١١)</sup> :

ظَعَنَ الَّذِينَ فَرَّقَهُمْ أَتَوْعُ      وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغَرَابُ الْأَبْقَعُ<sup>(١٢)</sup>

- (١) لحوق : ضمور .  
(٢) الحيوان ٢٧٥/١ .  
(٣) الحيوان ٢٧٤/٢ والأغاني ١١/١٣٢ .  
(٤) الحيوان ٤١٦/٤ .  
(٥) السيد : الذئب ، والغضا : نبت ،  
وذئاب الغضا أخبث الذئب ، أضل جِراءه :  
فقد أولاده فهو يسرع في عدوه ، يلحِب :  
يمرراً سريعاً .  
(٦) الحيوان ٢٧٧/١ وديوان أوس ص ٤٣  
جنيباً : يجنبها ، معرضها : موضع الحزام منها ،  
وإنما ذكر الهر لأنه يجمع العض بالناب والحمش  
بالخالب ، يصفها بشدة تفرغها لفرط نشاطها .  
(٧) الفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص  
٢٥٢ والأصمعيات ص ١١٩ ، ١٧٤ ،  
٢٣٤ والحيوان ٢١/٧ .  
(٨) الحيوان ٣٠٨/٤ .  
(٩) رقود الضحى ، ذلك من شأن الأفاعي  
تنام في الضحى وتستيقظ في الظلام ، والأجرامس :  
الأصوات ، مكحال الأرمد : ما يكتحل به ،  
جمل لسانه كالمكحال في دقته وسواده .  
(١٠) الحيوان ٣٣٩/٦ وما بعدها .  
(١١) الحيوان ٤٤٢/٣ وختار الشعر الجاهلي  
ص ٣٩٢ .  
(١٢) الأبقع : الأسود .

حرق الجناح كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ جَلْمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مَوْلَعٌ (١)  
 إن الذين نَعَبْتِ لِي بِفِرَاقِهِمْ هُمُ اسْمُهُوا لَيْلِي التَّمَامَ فَأَوْجَعُوا (٢)

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوحه وما يبيع فيهم من شوق وشجا . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم من وصف ذلك كله وتصويره . وينبغي أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطورية عن طوق الحمامة والديك والغراب والمهدد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن أبي الصلت ، فقد حُمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى الجاحظ كثرة ما جاء على ألسنتهم من وصف فلواتهم (٣) ووصف البرد وقوارصه والحر وهو اجره (٤) وما يجرى في ديارهم أحيانا من خصب بعد مطر غزير (٥) ، وفي معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عسرا نزل في مواطن بني أسد بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف في شعره وشعر شاعرهم عبيد بن الأبرص .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء أكثروا من وصف الجذب . وطالما وصفوا وعوثة الصحراء ونخاوفهم في لياليها من الجن والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئا يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمرعى ، ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانها وسقامها ومجلسها وأثرها ، وكانوا يُقحمونها كما قدمنا في حماسهم ، ويفتخرون بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على صوت القيان ومع تحر الجزور ، يقول ثعلبة بن صعير في حماسية له (٦) :

أَسْمَى مَا يُدْرِيكَ أَنْ رَبِّ فِتْيَةٍ بِيضِ الْوَجْهِ ذَوِي نَدَى وَمَا ثَرِ  
 بِأَكْرَتِهِمْ بِسِبْءِ جَوْنِ ذَارِعٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَبْلَ لَعْوِ الطَّائِرِ (٧)

(٤) الحيوان ٧٣/٥ ، ٧٨/٥ وما بعدها وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥٠ ، ٥١ .  
 (٥) الحيوان ١٢٠/٣ والمفضليات ص ٣٣٥ .  
 (٦) المفضليات ص ١٣٠ .  
 (٧) السبأ : اشتراء الخمر ، الجن : الزق الأسود .  
 الذارع : المختلط بالماء .

(١) حرق : أسود ، وشبه لحيه بالجلمين لأنه يخبر بالفرقة كما يقطع الجلمان أو المقرضان .  
 (٢) نعب : صاح ، ليل التمام : الشديد الطول .  
 (٣) الحيوان ٢٥٥/٦ وانظر الأسميات رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥ .

فَقَصَّرْتُ يَوْمَهُمْ بَرْنَةً شَارِفٍ وَسَاعَ مُدْجِنَةٍ وَجَدَوِي جَازِرٍ (١)  
 وهذه الموضوعات التي قدمناها جميعاً كانت تتداخل في القصيدة الطويلة وكان  
 يتداخل معها ضرب من الحكم والمعاني التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدلى في تضاعيف  
 قصيدته بتجاربه، وقد يفرد لها مقطوعات، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لابنه، على  
 نحو ما صنع عمرو بن الأهم في وصيته لابنه التي يستهلها بقوله (٢) :

وإن المجد أوله وعورٌ ومصدر غبه كرمٌ وخيرٌ (٣)  
 ومن كثرت الحكمة في شعرهم زهير والأفوه الأودي وعلقمة بن عبدة، وهي  
 تكثر في ميمية الأخير وتتوالى في أبيات متعاقبة من مثل قوله (٤) :

الحمْدُ لا يُشْتَرَى إلا له ثَمَنٌ مما يَضِنُّ به الأَقْوَامُ معلومٌ  
 والجدود نافيةٌ للمال مهلكةٌ والبخلُ باقٍ لأهليه ومذمومٌ  
 وكلُّ حِصْنٍ وإن طالت سلامته على دعائمه لا بُدَّ مهذومٌ  
 ويلخص لنا رأى الجاهليين في المرأة وما تطلبه من الرجل، فيقول في بانيته (٥) :

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصيرٌ بأدواء النساء طبيبٌ  
 إذا شاب رأس المرء أو قلَّ ماله فليس له من وُدِّهن نصيبٌ  
 ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم، فنحن نجدها في معلقة عبدة بن الأبرص،  
 وفيها يقول :

وكلُّ ذى غَيْبَةٍ يَثُوبُ وغائبُ الموت لا يثوبُ  
 ويقول عبدة بن الطبيب (٦) :

والمرءُ ساعٍ لأميرٍ ليس يُدرِكُهُ والعيشُ سُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلٌ

(١) الشارف : الناقة ، ورنثها : صوتها عند النحر . المدجنة : القينة تغنى يوم الدجن والغيم . وجدوى الجازر : عطاياه من أطايب اللحم .  
 (٢) المفضليات ص ٤٠١ .  
 (٣) المفضليات ص ٣٩٢ .  
 (٤) المفضليات ص ١٤٢ .  
 (٥) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة رقم ١١٦ .

ويقول عدى بن رَعْلَاء الغساني (١) :

ليس من ماتَ فاستراحَ بمَيِّتٍ إنما الميِّتُ ميِّتُ الأحيَاءِ ،  
وتلك هي الموضوعات الأساسية التي تنظم في سلك القصيدة الجاهلية ،  
فالشاعر يبدوها بالتشبيب أو النسب بالأطلال والديار ، ويصف في أثناء ذلك  
جبهه ، ثم يصف رحلته في الصحراء ، وهي أول ما يقدمه للمرأة من ضروب  
جراته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم  
عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، فمفتناً في أثناء ذلك في  
وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

#### ٤

### الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس  
فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين  
يصور ما حوله في الطبيعة، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج  
به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك في رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء  
بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن  
يُدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة  
دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملا ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها  
وحيواتها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين  
ألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في  
هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من  
سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يقتصب الحيوان لنفسه ،

فيسكب عليه من خياله ما يجيله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا<sup>(١)</sup> ، وبفراره إن ولَّى الأديبار ونكص على أعقابهِ<sup>(٢)</sup> ، وفي أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم في الحروب ، ولهم في ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها . وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون في الحقائق ولا يعدلون في علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم لإزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندب بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتي شاذاً وفادراً . ونظن ظناً أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذي طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خلداع يموِّها أو طلاء يزيها . ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديداً يبرزها في أمم ما يكون من ضياء ، ومن ثمَّ تبدو في كثير من جوانبها كأنها شيء راسخ ثابت . ويتضح ذلك في حكمهم التي تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح في جوانب كثيرة من تأبينهم ومدحهم وغزلهم وحماسهم ، إذ يقدم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهي حقائق تُسردُ سرداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً في الوضوح والجلال . وقرأ في أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تضل في ممراتها وشعبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعاني دائماً مجسمة في أشخاص أو في أشياء . وخذ فضائلهم التي طالما أشادوا بها في حماسهم ومراثيمهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق في مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهني عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها في هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرها من الفضائل والردائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة في الشاعر الجاهلي جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ولا في أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة في نفس خياله وتشبيهاته فهو يتزعمها من عالمه المادى ، ولترجع مثلاً إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس

(٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ - ٣ .

(١) انظر مثلاً المفضليات رقم ١٠٨ .

والبدر والبيضة والدرّة والدُّمَيّة والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأقحوان وبنانها بالعَمّ وثغرها بالبلّور وخدها وترائبها بالمرأة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأتربة وريقها بالخمروبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعَجَزُها بالكثيب وساقها بالبرّدية . أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتميس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل .

وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعري الجاهلي جميعه ، فالشاعر يستقى في أخيلته من العالم الحسي المرأى حوله . وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقوا النظر في أجزائه ، وفصلوا الحديث فيها تفصيلاً شديداً ، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه ، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالاً ، فهو يستوفى ما يصفه بجميع أجزائه وتفصيله الدقيقة . وخير مثل لذلك وصف طرفه لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة . ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان .

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم ، بل جعلتهم يدورون حول معانٍ تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطلمحوا على معانٍ بعينها ، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ، فما يقوله طرفه في الناقة يقوله فيها غيره ، وما يقوله امرؤ التيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء ، وأقرأ حماسية كعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد . وقل ذلك في غزلم ومدحهم وراثتهم فالشعراء يتداولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة . ومن ثمّ تَبَسَّدوا في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد ، وجنى عليهم ذلك ضيقاً واضحاً في معانيهم ، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء . وأقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعاني ، وستجد أيضاً براعة نادرة في إعادتها وصوغها صوغاً جديداً ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته ، وخُذْ مثلاً تشبيه المرأة بالظبية ، فشاعر يشبهها تشبيهاً عادياً ، وشاعر يشبهها بها وهي تمد عنقها إلى شجر السلم الناضر ، يريد أن يستم بذلك منظرأً بديعاً

للظبية ، يقول علباء بن أرقم (١) :

فيوما تُوافينا بوجهٍ مُقسَمٍ  
كَأَنَّ ظبيةً تَعْطُو إلى ناضِرِ السَّلَمِ  
وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية في استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة (٢) :

وتصدفت حتى استبتت بواضحٍ  
صلت كمنتصب الغزال الأتلع  
ورابع يجعل وجه الشبه حور العين ، وخامس يجعله في التنفس كقول المنخل  
الشكري :

ولثمتها فتنفست  
كتنفس الظبي البهير

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلاً جديداً. وخذ مثلاً تصويرهم للرجال  
بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربي (٣) :

وكذا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ  
بدا زاهرٌ منهمنٌ ليس بأقمتما  
ويقول طُفَيْلُ الغنزي في مديح قوم (٤) :

نجومٌ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ  
بدا ساطعًا في حِندس الليل كوكبٌ  
ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادةً بدعيةً (٥) :

وإني من القوم الذين عرفتُم  
إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبهُ  
نجومٌ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ  
بدا كوكبٌ تاوى إليه كواكبه  
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم  
دجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه (٦)

وَألمَّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلةً جديدةً ، إذ قال في النعمان بن المنذر مقارناً  
بينه وبين الغساسنة (٧) :

(١) الأسميات ص ١٧٨ ومقسم : من  
القسم وهو الجمال ، وأن في كأن زائدة ،  
تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .  
(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت :  
أعرضت . بواضح : يريد بعنق ناصع جميل ،  
وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .  
(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقم : من

القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٩٤/٣ .

(٥) الحيوان ٩٣/٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٩٥/٣ ويختار الشعر الجاهل

ص ١٧٥ .



وإنك شمسُ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبٌ  
ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة في معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق  
كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثازية هي أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر  
الملل في نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثوا فيها كثيراً من الحيوية ،  
وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات  
والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلا ، ومن ثم كانوا إذا وصفوا  
الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجع إلى وصف طرفه لناقته فستجده  
يصفها وهي سائرة به في طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أمون كالأواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهْرُ بُرْجُدٍ<sup>(١)</sup>

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ،  
فيستمر في وصفها وكأنه تدلّه بها حباً ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقبده ، وكأنه  
يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً في أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوهم  
ويودون لو أتبع لهم من ينصبها لهم تمثالاً بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا  
يتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأُتن وحمارها  
ويصورونها لنا وهي تجرى في الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما في طريقها بكلابه  
أوعلى الماء مستراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولاً .

وطبيعي أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ،  
وقد يدخلون هذه الحركة في المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتبني بالوقوف بالأطلال  
وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظعن حبيبته وصواحبها في القافلة ، وقد خرجت  
تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعين الشاعر بإزائها  
تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلاً بديعاً .

البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق  
وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران :  
تابوت لوتاهم ، ونسأتها : زجرتها ، اللاحب :  
الطريق البين الواضح الذي أثر فيه المشي .

وهذه الحركة في حياتهم التي تعنى عدم الثبات والاستقرار، وبالتالي تعنى عدم التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه هي التي جعلت معانيهم سريعة، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها، فالشاعر لا يقف طويلاً عند المعنى الذي يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر. فحياته لا تثبت ولا تستقر، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر، بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة. ومن ثمَّ غلب عليه الإيجاز، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون، ولعل هذا هو الذي جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتفى فيها كل بيت غالباً بنفسه، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً.

وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في أن القصيدة الطويلة لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هي كل روابطها، أما بعد ذلك فهي مفككة، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه. ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس في الشعر الجاهلي، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقاً من حياته، وهو التنقل السريع. وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذي يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدتهم، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكري: إنما هي موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض في انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر في هذا الفضاء الصحراوي الواسع الذي لا يكاد ينتهي ولا يكاد يحده، والذي تراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة. على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية، لا نراه ماثلاً في وصفهم للحيوان الوحشي فحسب، بل نراه أيضاً في وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التي أنشدتها المفضل الضبي والتي يسهلها بقوله (١):

(١) المفضليات ص ١٠٨، وأجمت : عزمت أمرها، واستقلت : ارتحلت .

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت  
فإنه يقص علينا بعد غزها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك ،  
وهو لا يسردها في إجمال ، بل يسرد تفاصيلها ، إذ يذكر أنهم أعدوا العدة للغزو  
والسلب ، يحملون قسيهم الحمر ، وقد خرجوا من واديين : مشعل والجبا راجلين ،  
وقد حمل زادهم تأبط شراً الصعلوك المشهور ، وكان يقتتر عليهم في الطعام خشية أن  
تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً . ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التي كانت معهم ،  
وكيف أنهم كانوا يحملون حساماً صارماً ، بل سيوفاً قاطعة كأنها قطع الماء في الغدير  
لمعناً ، بل كأنها أذنان البقر الصغير محرکه ، وقد نهلت وعكّت من دماء محرم  
ساق هدّيته إلى الكعبة ، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه ، كما قتلوا بعض من كانوا  
يرافقونه ، ومن لم يقتل أخذوه أسيراً . ويسمى القصة مفتخرأ بشجاعته وأنه لا يهرب الموت .  
ويكثر الصعاليك من قصص مثل هذه المغامرة ، ويلقانا في حماسياتهم كثير من  
وصف معاركهم ، وقد يحاولون سردها ، وهو سرد تمشي فيه الروح القصصية على  
نحو ما تمثل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبي خازم في المفضليات ،  
إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلاً عن يومي النّسار وألجفار ، فالقصص يتخلل شعرهم ،  
وقد أفردوا له في مطولاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشي . ونراه ماثلاً في غزلم على  
نحو ما مر بنا في غزلية المنخل الشكري ، وإنما تمثلنا بقطعة منها ، وهو ماثل في غزل  
المرقش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات . فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم  
كان يسودها في بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم تكن مبالغين ، وهي  
روح لم تتسع عندهم ، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز . وبذلك  
لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي ، فقد ظل شعرهم غنائياً ذاتياً ،  
يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه ، غير محمول صنّع قصة ، يجمع لها الأشخاص  
والمقومات القصصية ، ويرتبها ترتيباً دقيقاً ، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله ، إذ كان  
مشغولاً بنفسه ، لا يهيمه إلا أن يتغنى بها ويمشعره .

## الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهي في الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفي أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقياً لغوياً ، وهورقي لم يحدث عفواً فقلدسبقتة تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدّي معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسومًا ، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور - إن صح أنه له - :

ما أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارَا أَوْ مُعَادَا مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورَا

فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة ، ويمجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب ، فكل شاعر ينقح فيه ويهذب ويصنئ جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا في ذلك ، حتى كان منهم من يُخرج قصيدته في عام كامل ، يردد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستويه في بنائها<sup>(١)</sup> .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريح في طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

(١) البيان والتبيين ٩/٢ وما بعدها .

في تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها في أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنَّع قطعة عرَّضها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يكرمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يُعيد فيها النظر فيبدل في بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلي لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يُدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفي أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة في هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألقاظ الشعر وأرقَّها<sup>(١)</sup> ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه<sup>(٢)</sup> ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا طفيلياً بالخبير لتزيينه شعره<sup>(٣)</sup> ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره<sup>(٤)</sup> ولقبوا غير شاعر بالنابعة في شعره ، ومن ألقابهم التي تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقَّب والمتنخَّل . وقد استطاعوا حقاً أن يبهروا العصور التالية بما وقَّروه لأشعارهم من صقل وتجويد في اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة في الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغة ، فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفون في نعم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملاً ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها ، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ في غزلية المتنخل اليشكري السابقة . وحقاً هو في جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفي حظوظاً من الجمال الفني ، ولذلك ظلت ماثلة في شعرنا العربي عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . وقرأ في حوَلِيَّات زهير وقصائده المطولة وفي غيره من المبرزين أمثال النابعة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتملس وعنرة ودريد بن الصِّمَّة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدى فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أُحكمت صياغتها وضُبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها في حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٥٧/٥ . (٣) المفضليات ١/٤١٠ .

(٢) انظر المفضليات (طبعة لائل) ١/٤١٠ ، ٤٨٥ . (٤) أغاني (طبعة الساسي) ٢١/١١٢ .

في هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزَلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونتي .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير في سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً في أشعارهم التشبيهية ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرونه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي ، فالفرس مثلاً يشبه من الحيوان بمنزل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأنفوان والحبل والهرواة والعسيب والجذع وتشبه ضلوعه بالحصير وصدرة بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكبير وعرفه بالقصب الرطبة وحافره بقعيب الوليد وعنته بالرمح والصدعة وعينه بالقررة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالحياض . وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة في المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف في التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كتصوير المتنخل اليشكري لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول (١) :

يَعْكُفْنَ مِثْلَ أَسَاوِدِ الْتَنُومِ لَمْ تُعْكُفْ لَزُورِ (٢)

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمَّ سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرجها إخراجاً جديداً فقال (٣) :

حَرَّةٌ تَجْلُو شَتِيَّتًا وَاضِحًا كَشِعَاعِ الشَّمْسِ فِي الْغَيْمِ سَطَعٌ (٤)

فجعل أسنان صاحبتة المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبرز من خلكل الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجرم ولهبه ، وألمَّ عَمِيرَةُ بْنُ جَعْلٍ بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال (٥) :

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .  
 (٢) يعكفن : يمشطن شعرهن ، والأساود : المفلجة ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور كناية عن عفتن .  
 (٣) المفضليات ص ١٩١ .  
 (٤) الشيت : المتفرق يريد أسنانها المفلجة ، واضحاً : أبيض .  
 (٥) المفضليات ص ٢٥٩ ، والرديني : الرمح .

جمعتُ رُدَيْنِيَا كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ  
وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنزة لبعض الرياض وتصوره  
للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول (١) :

جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالدَّرْهِمِ (٢)  
فترى الذبابَ بها يُغْنِي وحده هَزِجًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمَتْرَمِ  
عَرِدًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ فَعَلَ الْمُكَبَّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ (٣)

فقد شبه قرارات الروضة وحُفَرَهَا بالدراهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب  
المترم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب  
في حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين بقدح النار من عودين  
أوزنَدين فلا تفتدح ، فيستمر في قدحه لا يفتِر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التي تلقانا في شعرهم نجد الاستعارة بفرعيها من  
التصريحية والمكنية ، وهي ماثورة في أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس  
ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلتها الطريفة عند امرئ القيس  
تصوره طول الليل وفتوره وبطنه ببعير جاثم لا يريم ، إذ يقول في معلقته مخاطباً الليل :  
فَقَلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلِّكَلٍ (٤)  
وأُنشد ابن المعتز في كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن  
حَجَر :

وَإِنِّي أَمْرٌ أَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا وَقَوْلِ عَلَقَمَةَ بْنِ عَبْدَةَ :

رَأَيْتُ لَهَا نَابِيًا مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلًا (٥)  
عَرِيفُهُمُ بَأَثَانِي الشَّرِّ مَرْجُومٌ (٦)  
بل كلُّ قومٍ وإن عَزُّوا وإن كَرَمُوا

(٤) الكلكل : الصدر .

(٥) الأعصل : الموج في صلابه .

(٦) العريف : الرئيس ، والأثافي : الحجارة

التي تنصب عليها القدر ، استعارها لتوائب الدهر .

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهل للسقا

ص ٣٧١ .

(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ،

وشبه الحديقة بالدهرم في استدارته .

(٣) الأجزم : مقطوع اليدين .

وقول طُفَيْلِ الغَنَوِيِّ في وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوق ناجيةٍ

يقنتاتُ شَحَمَ سَنامها الرَّحْلُ<sup>(١)</sup>

وقول الحارث بنِ حِلْزَةَ اليشكرى :

حتى إذا التفتعَ الطُّبَاءُ بِأَطْ

راف الظَّلَالِ وَقَلْنَ في الكُنْيسِ<sup>(٢)</sup>

وفي شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات في دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التي شاعت في الشعر العباسي وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباقي والجناس ، فلهما أصول في الجاهلية ، ونحن نجدهما عند امرئ القيس في وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا

كجلمودِ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ من عِلْ

كُمَيْتٍ يَنْزِلُ اللَّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ

كما زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمَتَنْزِلِ<sup>(٣)</sup>

والطباقي واضح في البيت الأول ومثله الجناس في البيت الثاني . وقد أنشد المفضل الضبي لعبد الله بن سلمة الغامدي قصيدة كَثُرَ في آخرها الجناس كثرة مفرطة ، حتى لكأننا بليزاء شاعر عباسي من شعراء البديع ، يقول عبد الله<sup>(٤)</sup> :

ولقد أصاحبُ صاحباً ذا مَاقَةٍ

بِصِحابِ مُطَّلِعِ الأذَى نِقْرِيْسِ<sup>(٥)</sup>

ولقد أزاحمُ ذا الشُّذَاقِ بِمِزْحَمِ

صَعْبِ البِدَاهَةِ ذى شَمْدَاوِشْرِيسِ<sup>(٦)</sup>

(١) الكور : الرجل ، ناجية : ناقصة .

(٢) التفتع الطباء بالظلال : دخلت فيها واكننت من الحر . وقلن : أمضين القائلة وهي نصف النهار . والكنس : جمع كناس وهي حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية في أصل شجرة لتستر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر في سواد ، ينزل : يسقط ، يريد أنه أملس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٤) الفضليات ص ١٠٧ .

(٥) الماقاة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له في استعلاء ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشذاة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداهة : شديد المفاجأة . والشذا : الأذى ، والشريس : الشراسة .



ولقد أداوى داء كلُّ مُعَبِّدٍ بِعَيْنِيَّةٍ غَلَبَتْ عَلَى النَّطِّيسِ (١)  
 فقد جانس في البيت الأول بين أصحاب وصاحبها وصحاب، وجانس في البيت  
 الثاني بين أراحم وبمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس، وجانس  
 في البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلي يُعْنَى بِهَا حَتَّى يُوَثِّرَ فِي نَفْسِ سَامِعِيهِ  
 وَيُخَلِّبُ أَلْبَابَهُمْ ، وَهِيَ تَصَوُّرٌ مَدَى مَا كَانَ يُوَدِّعُهُ قَصِيدَتَهُ مِنْ جِهْدٍ فِي ، وَخَاصَّةً  
 مِنْ حَيْثُ التَّصْوِيرِ وَدَقَّتِهِ وَبِرَاعَتِهِ ، فَقَدْ كَانَ مَا يَزَالُ يَجْهَدُ خِيَالَهُ حَتَّى يَأْتِيَ فِيهِ  
 بِالنَّادِرِ الطَّرِيفِ .

النطيس كالنطاسي : الطيب الماهر .

(١) المعبد : البعير الأجرى ، أراد به  
 الشرير . العنية : من أدوية الحرب .

## الفصل السابع امرؤ القيس

١

### قبيلته وأسرته<sup>(١)</sup>

امرؤ القيس من قبيلة كندة ، ومن بيت السيادة فيها ، وهي قبيلة يمنية<sup>(٢)</sup> كانت تنزل في غربي حضرموت ، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة ، واستقرت جنوبي وادي الرمة الذي يمتد من شمالي المدينة إلى العراق . وقد احتلت كما مر بنا مكاناً بارزاً في نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد ، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حُجراً آكل المرار<sup>(٣)</sup> تعاقبت الإمارة في بنيه من بعده ، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، وأنه كان يدين بالطاعة للملك حمير اليمنيين<sup>(٤)</sup> .

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام ، وقد أدى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً ، وهو اصطدام تُروى أخباره منذ قيام حجر آكل المرار ، إذ كثيراً ما كان يشتبك في حروب مع الغساسنة<sup>(٥)</sup> . وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة ، ويتوفى فيخلقه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان ، ويُصهر إليه ملك الحيرة<sup>(٦)</sup> مما يدل على اتساع نفوذه ، ويعقبه

(١) راجع في كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره .

(٢) انظر في ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن)

٢/٢١٨ والأغانى ٩/٧٧ وهناك من يزعم أن كندة

قبيلة عدنانية (انظر الأغانى طبعة دار الكتب

١٣/٧٩ والمفضليات طبعة لايل ١/٤٢٧)

ولكن هذا الزعم غير صحيح ، ويدل على ذلك

دلالة قاطمة أننا نجد في أسماء أعلامها كما قدمنا

نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومعديكرب

ابن الحارث .

(٣) آكل المرار لقب لحجر ، وأصله

فعل الإبل يأكل نبتاً مرا يسمى المرار ، فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل .

(٤) الأغانى (طبع الساسي) ١٥/٢٨ وابن

خلدون ٢/٢٧٣ وجواد على ٣/٢٢٠ .

(٥) الأغانى ١٥/٨٢ وما بعدها .

(٦) تاريخ الطبرى (طبعة أوربا) ١/٩٠٠

وحزمة الأصفهاني ص ٦٩ .

ابنه الحارث ، وهو أهم أمراء هذه الأسرة ، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالي سنة ٤٩٠ للميلاد . ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابناه حُجْر ومعد يكرِب ، وقد أغار على فلسطين الرومانية في عامي ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد (١) .

ولا نتقدم في القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث في نجد . وحدث أن غضب قُبَاذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه للمذهب المزدكية ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، فعزله وولى على الحيرة مكانه الحارث ختنه (٢) ، فتحقق له حلم آباءه بتقويض الإمارة اللخمية ، وولّى أبناءه على القبائل ، فجعل - كما تقول بعض الروايات - حُجْرًا على أسد وغطفان ، وشرحيل على بكر ومعد يكرِب على تغلب وسلمة على قيس (٣) .

وسرعان ما تطورت الأحداث ، فإن الأحباش استولوا على اليمن وتوفى قُبَاذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية ، فاضطهد أنصارها في بلاده ، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته ، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة ، انتهت بقتل الحارث . وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم ، وسرعان ما سقط معد يكرِب وسلمة في معركة تعرف بيوم أواره الأول (٤) ويقال إن معد يكرِب أصابه الجنون ، وكان شرحيل قد سقط قبل ذلك في معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكلاب الأول (٥) .

أما حُجْر وهو أبو امرئ القيس فقتلته قبيلة بني أسد ، ويررى صاحب الأغاني أربع روايات مختلفة في قتله (٦) ، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) وهي تزعم أن حجراً كان له على بني أسد إتاحة يؤدونها كل عام ، فلما قُتل أبوه أرسل إليهم جباته فنعمهم وضربهم ضرباً مبرحاً ، فسار إليهم حجر يجتهد من ربيعة وقيس وكثانة ، فاستسلموا له ، فأخذ سادتهم ، وجعل يقتلهم بالعصا

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢٠٨/١٢ وما بعدها والمفضليات (طبعة لایل) ٤٢٨/١ وابن الأثير ٢٢٧/١ ومعجم البلدان لياقوت ٢٦٩/٧ .  
(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٢/٩ .

(١) انظر في ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٢٤٥/٣ .  
(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها .  
(٣) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها .  
(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ٢٢٨/١ .

— فسموا عبيد العسا — وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي الرمة إلى تهامة ، وجلس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدي ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها :

أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

فأثر ذلك في نفس حُجر ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضرموا له الانتقام ، وأصابوا منه غيرة ، فقتلوه في قبته ، ونهبوا ما كان معه من أموال .

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبي عمرو الشيباني (المتوفى سنة ٢١٣هـ) وهي تزعم أن حجراً خاف على نفسه من بني أسد ، فاستجار بعويبر بن شجينة التيمي لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدي ، وغافله ، وقتله .

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدى (المتوفى سنة ٢٠٦هـ) وهي تذكر أن حجراً لما استجار عويبر بن شجينة لبنيه وأهله تحول عن بني أسد فأقام في عشيرته كندة مدة ، وجمع لبني أسد منهم جمعاً عظيماً ، وأقبل مُدلاً بمن معه من الجنود ، فتأمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبي ! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشد العرب فوتوا كراماً . فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه ، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه ، فقتله ، وانهمزت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حجر ، فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم . وقد قتلوا من أهل بيته طائفة وأسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى حُجر ونساءه وكل ما كان معه من أموال ، واقتسموا ذلك جميعه .

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤هـ) وهي تزعم أن حجراً أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بني أسد ، وكان قد أساء ولايتهم . وتشاورت بنو أسد فيه ، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه ، وخرج إليه بعض شجعانهم ، فقتلوا من كان يقدم ركبته من غلمانه وسبوا جواريه . وعلم حجر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه ، ووثب منهم فتى كان له عنده ثار ، فقتله .

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي ، وهو منهم فيما يرويه ، فهي رواية ضعيفة ،  
ومما يدل على فساده قصيدة عبيد التي ذُكر في تضاعيفها يوم القيامة : ومن أين  
له بمعرفة هذا اليوم الذي جاء في القرآن الكريم وهو جاهلي وثني ؟ . ومثلها الروايتان  
الثانية والرابعة ، فأثر الافتعال فيهما واضح ، لسبب بسيط ، وهو أن حجراً يموت  
غيلة ، ولا نرى عشيرته كندة تثار له أو تشتبك من أجله في حرب مع بني أسد .  
لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدى ، وهي تتفق مع ما رده عبيد بن  
الأبرص في شعره مراراً من أن قبيلته نكَّلت بكندة وصاحبها حجر ، وكان عبيد  
معاصراً للحوادث وشاهد عيان لها ، ومن قوله في ذلك يخاطب امرأ القيس (١) :

وَرَكُضُكَ لَوْلَاهُ لَقَيْتَ الَّذِي لَقُوا  
فَذَاكَ الَّذِي أَنْجَاكَ مِمَّا هُنَاكَ

وهو يشير بذلك في وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التي قُتل فيها  
أبوه ، ونراه يصف هذه المعركة ، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقُتل حُجراً إذ يقول  
معرضاً بامرئ القيس وساخراً من وعيده وتهديده لقومه (٢) :

يَا إِذَا الْمَخُوفُنَا بَقَتْ لِأَبِيهِ إِذْ لَأَ وَحَيْنَا (٣)  
أَزَعَمْتَ أَنْكَ قَدْ قَتَلْتَ سَرَاتِنَا كَذِباً وَمَيْنَا (٤)  
هَلَا عَلَى حُجْرِ ابْنِ أُمَّ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا  
هَلَا سَأَلْتُ جُمُوعَ كَنْدَةَ يَوْمَ وَلُوا أَيْنَ أَيْنَا  
أَيَّامٍ نَضْرِبُ هَامَهُمْ بَبِوَاتِرٍ حَتَّى انْحَنِينَا (٥)

ويتكرر في ديوان عبيد وصف نهاية حجر ومُلك كندة على أسد بهذه الصورة  
مراراً (٦) مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدى أكثر قرباً إلى الصحة والصدق وأن  
الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال .

(٤) السراة : السادة ، المين : الكذب .

(٥) السيوف البواتر : القاطعة .

(٦) انظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤ ،

١٧ ، ٢٦ .

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لايل)

ص ٥٣ .

(٢) الديوان ص ٢٧ .

(٣) الحين : الموت .

## حياته

تردد في كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس ، فيسمى حُنْدَجًا وعتدياً ومَلَيْكَةً<sup>(١)</sup> ، ويكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث ويلقب بندي القروح والملك الضليل<sup>(٢)</sup> ، وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم في الجاهلية كانوا يعبدونه ويتسبون إليه . وأبوه حُجْر بن الحارث كما مربنا . أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلhel التغلبين<sup>(٣)</sup> . ووهم بعض الرواة في نسبه ، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السَّمْط بن امرئ القيس بن عمرو الكندي ، وإن أمه تَمَلْكَ بنت عمرو بن زُبَيْد بن مَدْحَج من رهط عمرو بن معد يكرب<sup>(٤)</sup> . وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر ، وكان في الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس .

ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه وُلد في أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس بين أيدينا أي شيء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى في شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، من ذلك مارواه<sup>(٥)</sup> هشام الكلبي إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُدَّ أذ القبائل : من طيئ وكلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد ، فنصيده ثم عاد ، فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغتته قيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى

الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف)  
٥٢/١ وما بعدها .  
(٣) أغاني ٧٧/٩ .  
(٤) أغاني ٧٧/٩ .  
(٥) أغاني ٨٧/٩ وما بعدها .

(١) انظر جواد على ٢٥٣/٣ و Olinder ص ٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزني ص ١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف للآمدى ص ٩ وجمهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطي ٤٢٢/٢ وشرح شواهد المغني له ص ٦ .  
(٢) الأغاني ٧٨/٩ وانظر ترجمته في

غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدّمون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصاف ، فلما أتاه بذلك قال :

تَطاول الليلُ على دَمونٍ دَمونٍ إنا معشرُ يمانونُ

وإننا لأهلنا محبونُ

ثم قال : ضيغني صغيراً وجملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . فذهبت مثلاً ، ثم قال :

خليلاً لا في اليوم مَصْحَى لشاربٍ ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشربُ  
ثم شرب سبعماء ، فلما صحى آلى أن لا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا ولا يدن من بدهن  
(طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره ، فلما جنّه الليل رأى برقًا ، فقال :

أرقتُ لبرقٍ بليلٍ أهلٌ يضيءُ سنانه بأعلى الجبلِ  
أتاني حديثٌ فكذبتهُ بأمرٍ تززعُ منه القلَلُ<sup>(١)</sup>  
بقتل بنى أسدٍ ربهم ألا كلُّ شيءٍ سواه جَلَلُ<sup>(٢)</sup>  
فأين ربيعةٌ عن ربها وأين تميمٌ وأين الخولُ<sup>(٣)</sup>  
ألا يحضرون لدى بابهِ كما يحضرون إذا ما أكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية المهيم بن عدى السابقة في مقتل حجر والى تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه في حربه لبني أسد وأنه فرّ حين هزمت كندة وقتل أبوه ، فهو من منحولات ابن الكلبي . ومثله الخبر الذي ساقه ابن قتيبة ، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جُلجل ما كان فقال قصيدته : (فقا نَبك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه دعا مولى يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس واتنني بعينيه ،

(٣) الخول : العبيد .

(١) القلَل : قم الجبال .

(٢) جلال هنا : هين .

فدبح جُوذراً<sup>(١)</sup> ، فأناه بعينيه . وندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ! إني لم أقتله ، قال : فأنتى به . . فردّه إلى أبيه ، فناه عن قول الشعر ، ثم إنه قال قصيدته : ( ألا انعم صباحاً أيها الظلل البالى ) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدمون<sup>(٢)</sup> . وواضح أن هذا الخبر يلتقى بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهو منتحل ، صنّع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التي يذكر فيها صاحبه فاطمة ويذكر معها يوم دارة جُلُجُل . ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه .

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هي وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه ، وكأن ابن الكلبي وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صبباً بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفقوا هذه الأخبار ، وضمنوها بعض الأشعار . وفاتهم أنه عاش في عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم .

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المحنّ ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يجاهد في سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بني أسد قتلة أبيه . ويظهر أن بني أسد خافوا العاقبة ، فأرسلوا إليه - في رواية للخليل بن أحمد - وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النظرة (الإمهال) حتى تضع الحوامل ، فتعقّد الرايات وتكون الحرب ، فقال : « لقد علمت العرب أن لا كفاء لحجر في دم ، وإني لن أعتاض به جملاً أو ناقة ، فأكتسب بذلك سبّة الأبد ، وقتّ العصد ، وأما النظرة فقد أوجبها الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطها سبياً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنّة علقاً (دما) ورويداً ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، فهضوا عنه<sup>(٣)</sup> » وقد عرفوا أنه طالبهم .

شواهد المغنى للسيوطي ص ٦ .  
(٣) الأغاني ١٠٣/٩ وما بعدها .

(١) الجوذر : ولد البقرة الوحشية .  
(٢) انظر الشعر والشعراء ٥٤/١ وشرح



ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبني أسد ، وأكثره مما رواه ابن الكلبي (١) ، إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرة وتغلب فسألم النصر على بني أسد ، وعلمت بنو أسد بما يدبر لهم ، فارتحلوا ولجئوا إلى بني كنانة ، فاختلفوا بهم . وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة ، وهو يحسبهم بني أسد ، فوضع السلاح فيهم ، فأعلموه أنهم ليسوا طلبيته . وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى لحقهم ، وقتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحجز الليل بينهم ، فهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم ، وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، وانصرفوا عنه . ومضى لوجهه حتى لحق حمير ، فاستنصر أزد شنوءة فأبوا أن ينصروه ، فنزل بقتيل (أمير) يدعى مرثد الخير الحميري فأمدّه بخمسة رجل ، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالا ، فسار بهم إلى بني أسد ، ويقال إنهم عادوا فتركوه ، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وذكّر ما بينهما من صهر فأجاره ، وبلغ المنذر مكانه فطلبه ، فهرب . وفي رواية إن المنذر ألحّ في طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم امرؤ القيس ومن معه من بني آكل المرار . فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل في أرض طيء وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضباب الإيادي فأجاره ، ثم تحول عنه إلى المعلّى بن تميم الطائي ، فأكرمه . وولى وجهه نحو عشيرة بني نبهان الطائية ، فبذلت له من مالها ، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جويين الطائي . وكان المنذر لا يزال يتبعه ، فتحول عن طيء إلى رجل من بني فزارة يسمى عمرو بن جابر فذله على السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتياء ، فلجأ إليه . وهنا يزعم ابن الكلبي وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح . ومضى حتى انتهى إلى قيصر في القسطنطينية ، وهو حينئذ جوستينيان فأكرمه ورفع منزلته ، وضم إليه جيشاً كثيراً . ولما فصل اندس إلى جوستينيان رجل من بني أسد يقال له الطمّاح فقال له : « إن امرؤ القيس غوي عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه

(١) الأغانى ٩٠/٩ وما بعدها .

كان يرأس ابتك وبواصلها، وهو قاتل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب ،  
 فيفضحها ويفضحك . فبعث إليه القيصر حينئذ بحلّة وثني مسمومة منسوجة  
 بالذهب ، وقال له : إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمه لك ، فإذا  
 وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إلى بخيرك من منزل منزل . فلما وصلت  
 إليه لبسها واشتد سروره بها ، فأسرع فيه السم وسقط جلده ، فلذلك سُمي ذا القروح ،  
 وقال في ذلك :

لقد طمَح الطمَّاحُ من بُعد أرضه ليُلبسني مما يلبس أبوساً<sup>(١)</sup>  
 فلو أنها نفسُ تموت سويةً ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا  
 فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضُر بها ، فقال :

رُبَّ حُطْبَةٍ مُسْحَنَفِرَةٍ وَطَعْنَةٍ مُثَعْنَجِرَةٍ<sup>(٢)</sup>  
 وَجَمْنَسَةٍ مُتَحَيِّرَةٍ حَلَّتْ بِأَرْضِ أَنْقَرَةٍ<sup>(٣)</sup>

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت في سفح جبل يقال له عسيب  
 فسأل عنها ، فأُخبر بقصتها فقال :

أجارتنا إن المزار قريبُ وإني مقيمٌ ما أقام عسيبُ  
 أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ  
 ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك ! » .

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويت في جملتها عن  
 ابن الكلبي المهم فيما يرويه ، والتلفيق فيها بين واضح . ويمكن أن يكون لها أصل ،  
 تشهد به الحوادث ، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه ، ولكنه  
 مات دون تحقيق غايته . ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن  
 جبلة الغساني وأنه أوصله إلى جوستينيان في القسطنطينية ، غير أنه مات في الطريق .  
 ومن المحقق أن قصة ثار جوستينيان لشرفه منه قصة متحللة ، نسجها القصاص حين

(١) يريد بالأبوس ما لبسه من الحلة المسمومة .

(٢) مسحرفة : مسهبة ، متعنجرة :

سائلة .

(٣) حفنة متحيرة : متلثة طاماً ودنيا .

وجلبوه في شعره يفخر بمغامراته الغرامية ، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه في القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة ، وقد تهادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه ، وإن ابنته نظرت إليه فعشقتة وواصلته .

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً في حياة امرئ القيس ، بحيث طُمست معالمها ، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده ، ومن ثمَّ ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر وموته في رجوعه من عنده إنما هي تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك ، وأخفق في مسعاه<sup>(١)</sup> . وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أي إشارة إلى امرئ القيس ابن حُجْر الكندي وزيارته لبيزنطة وطلبه النصره منها ضد المنذر بن ماء السماء ، وقد ورد عند «بروكوبيوس» اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد ، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس ، وذكر «نونوسوس» أن جوستينيان كلفه بالسفارة لديه<sup>(٢)</sup> . ومن ثمَّ ظن كوزان دي برسفال أن قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس<sup>(٣)</sup> ، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية ، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه في الأسماء .

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت في صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين للملك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل في شمالي الحجاز ويبسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe - جزيرة تيران الحالية في مدخل خليج العقبة - ويطرد منها عمال المكوس من الروم ، وعاد فرأى أن يصانع الروم ، مخافة غزوهم له ، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ، ليفاوض قيصر في أن يعينه حاكماً على جنوبي الأردن وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك . ونجح الأسقف في

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢١١ وما بعدها . (٢) انظر جواد علي في نفس الصفحة .

(٣) جواد علي ٢٦٥/٣ وما بعدها .

سفارته ، ودعا القيصر امراً القيس لزيارة عاصمته ، وبالغ في إكرامه ، وعاد إلى بلاده (١) .

وواضح ، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين للملك الفرس ، أنه كان من اللخمين ، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر في كتابه « المحبر » أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧ - ٤٨٣ م) هو الذي نصب امراً القيس بن المنذر اللخمي ملكاً ، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة في هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم ، وفي ذلك ما يؤكد ما تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً في شمالي الحجاز ، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس ، ثم استقل عنهم ، وأصنف ولاءه للروم . ومرّ بنا في أخبار الحارث الكندي أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية في الشمال ، ومرّ بنا أيضاً أنه كان يُغير في أواخر القرن الخامس على تخوم الروم ، وكان يقود هذه الغارات ابنه حُجر ومعد يكرب . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضى على امرئ القيس اللخمي في شمالي الحجاز وسواحل خليج العقبة ، وكأنه قضى على اللخمين في غربي الجزيرة ، ومرّ بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه ؛ فكأنه قضى على دولتهم في الغرب والشرق ، وإن كان ذلك لم يدم طويلاً ، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمدده كسرى أنوشروان بجيوشه ، ففرض على خصمه الكندي ، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية ، أما الإمارة الغربية فلم تعد ، فقد دخلت أملاكها في ملك الغساسنة .

وإنما أطلنا في بيان ذلك لنل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندي اختلطت في ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمي (٢) ، ومن هنا كنا نظن ظناً أن امراً القيس الشاعر الكندي لم يزر قيصر بيزنطة ، وكنا ندفع هذه القصة

به على الفرس ومكث هذا الشاعر طويلاً بالقسطنطينية ، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التي تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أي الولى ولكنه توفي في أنقرة بين عامي ٥٣٠ و ٥٤٠ هـ أثناء رحيله لتولى منصبه .

(١) انظر جواد على ٢٦٧/٣ وما بعدها .  
(٢) ويسبب من هذا الخلط قال هيار في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية : عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الفسافي والى بادية الشام فدعا امراً القيس إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٣٠ م ليستعين

الطويلة التي نسجت حول مقتله . غير أننا لا نرتاب في أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح . ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن يكون بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهي السنة التي توفى فيها أو قتل جده الحارث .

## ٣

## ديوانه

طُبِعَ ديوان امرئ القيس مراراً ، وكان أول من طبعه دى سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجته من مخطوطتين لكتاب « دواوين الشعراء الستة » للشتمري ، وهي دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة ، ومعروف أن الشتمري يحتفظ في شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعي ، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى . وقد نشر دى سلان الديوان باسم « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء في قصائد امرئ القيس » وجرّدَ نشرته من شرح الشتمري .

وعنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة في سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشتمري في ديوان امرئ القيس ، فقد نشره من نسخة مروية عن السكري ، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه في كتب الأدب والتاريخ . وطُبِعَ الديوان بعد ذلك من صنعة أبي بكر البطلبوسى في مصر والهند وإيران . وأخرجه حسن السندوبى في نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه في الكتب الأدبية والتاريخية . كما أخرجته مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشتمري في مجموعته التي سماها « مختار الشعر الجاهلي » . وفي سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف في القاهرة ، واعتمد في نشرته على طائفة من المخطوطات ، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته . وبدأ برواية الأصمعي نقلاً عن نسخة الشتمري التي تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتي تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشتمري والأصمعي ، فهي رواية موثقة ، وهي تشمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة

بشرح الشنتمرى ، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسى وهى رواية كوفية ، ويلى ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسى على انتحالها ، وتقع فى ٣٢ قصيدة ومقطوعة . ثم زيادات من نُسَخ السكرى وابن النحاس المصرى وأبى سهل عن بعض الكوفيين . وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة . وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً . وإذا أخذنا نبحت فى هذه الروايات لاحظنا تواتراً أن أعلاها فى الثقة رواية الشنتمرى عن الأصمعى ، فهى موصولة السند ، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية ، وبمجرد النظر فى تخريجها نجد كثيراً منها شك فيه الرواة ، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة ، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها ، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكرى وابن النحاس وأبى سهل . وإذن فالرواية التى ينبغى أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هى رواية الأصمعى ، وقبل مناقشتها ينبغى أن نلاحظ الشبّه العامة التى تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعى نفسه إذ روى عنه أنه كان يقول: « كل شيء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتقاً سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء » (١) وحماد فى أشعاره يقابل ابن الكلبي فى أخباره فأكثرها من منحوه . وفى الموشح للمرزبانى : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، وعن الرياشى يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره » (٢) .

ولا بد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس ، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين ، وقد أدبيل من قومه ، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه . ولا بد أن نضيف أيضاً أنه كان فى العصر الجاهلى كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس ، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر ، وقد تداخل شعرهم فى شعره . وينبغى أن لا ننسى أبداً أن رواية الأصمعى بشهادته غير وثيقة ، لما دخلها من رواية حماد . وأما الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرئ القيس حتى لئرى الطوسى يفرّد لذلك فصلين فى نسخته ، فصل يذكر فيه القديم المنحول ، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع .

(٢) الموشح ص ٣٤ وانظر ابن سلام ص ١٣٤ .

(١) مراتب النحويين ص ٧٢ .

نحن إذن بإزاء شاعر زُبَيْت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره ، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية الأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتباس ، وأول ما يلقانا فيها معلفته ، وهي بين المعلقات التي يقال إن حماداً أول من رواها ، غير أن روايته لها شُفِعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات ، وهي التي تبتدئ بقوله :

وقرْبَةَ أقوامٍ جعلت عصامها على كاهل مني ذلولٍ مُرَحَّلٍ (١)

لأنها لا تشاكل شعره ، إنما تشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثمَّ نسبها بعض الرواة إلى تَابِطٍ شراً (٢) . وتليها قصيدته (ألا عِمَّ صباحاً أيها الظلل البالي) وهي من روح القصيدة السابقة ، ولم يشك فيها الرواة ، فهي وثيقة عند المفضل الضبي والأصمعي وأبي عبيدة ، ولذلك كنا نسبها له . أما القصيدة الثالثة (خليليَّ مُرَّابٍ على أم جُنْدَب) التي يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكّم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوى فيها من قصة أم جندب (٣) على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة (٤) ، ولعل هذا هو الذي جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين ، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش في أوائل القرن السابع ، فهو ليس من معاصري امرئ القيس .

والقصيدة الرابعة ( سمالك شوق بعد ما كان أقصرا ) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً ، ويكفي ذلك لردّها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه . وشك الأصمعي نفسه في القصيدة الخامسة (أعنى على برق أراه وميض) وقال إنها تنسب في بعض الروايات لأبي دُوَادٍ الأيادي (٥) . ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة (غشيت ديار الحىّ بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه . أما القصيدة السابعة (ألا إن قوماً كنتمُ أمس دونهم) وهي في مديح عُوَيْر بن

(١) عصام القرية : الحبل الذي تحمل به ،  
مرحل : تعود الرحلة .  
(٢) انظر ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف)  
ص ٣٧٢ .  
(٣) الموشح ص ٣٠ .  
(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وانظر  
كتاب الحبل لأبي عبيدة ص ١٣٦ .  
(٥) الديوان ص ٧٢ .

شِجْنَةُ التَّمِيصِي فلم يروها الطوسي بين ما رواه عن المفضل الضبي<sup>(١)</sup> ، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل . وشك أبو عبيدة في القصيدة الثامنة (لمن طللٌ أبصرته فشجاني) وقال إنها محمولة عليه<sup>(٢)</sup> . والقصيدة التاسعة (قفا نيكٌ من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يُحْمَلُ عليها في مرضه ، فهي تتصل بقصة رحلته إلى قيصر ، وهي لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهياً صبح في حَجَرَاتِهِ) قيلت في مديح نَبْهَاتِي أَجَارِهِ في أثناء طوافه في القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة . والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة ، وهي مما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء<sup>(٣)</sup> . أما القصيدة الثانية عشرة (أماوى هل لي عندكم من معرس) فقد روى أبو عمرو الشيباني أنها لبشر بن أبي خازم الأسدي<sup>(٤)</sup> . والقصيدة الثالثة عشرة (ألمأ على الربع القديم بعسعسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة ، ولذلك كنا نرفضها . ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التي نظمها في مديح سعد بن الضباب الإيادي حين أجاره والتي يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبي إلى أهله بجرٌّ) وهي مما أثبتته له الأصمعي وأبو عبيدة والمفضل جميعاً . وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لمن الديار غشيتها بسُحام) وهي في عتاب سُبَيْع بن عوف وبما قاله بعد مقتل أبيه .

أما المقطوعة السادسة عشرة (يا دار ماويةً بالحائل) فقد أنكرها الطوسي وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحداً من الرواة يعرفها<sup>(٥)</sup> . ولاريب في أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بني ثعلبٍ) محمولة عليه ، لأنها تصف عمرو بن المسيح الطائي ورميه للصيد ، وكان من أرمى العرب له ، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب<sup>(٦)</sup> . والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تنكحي بوهة) أنكر الآمدي نسبتها إليه ، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميري<sup>(٧)</sup> . أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التي نظمها في

(٥) الديوان ص ٤١١ .  
 (٦) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن)  
 . ٢٣٢/٢ .  
 (٧) معجم الشعراء ص ١٢ وانظر الديوان ص ٤١٣

(١) الديوان ص ٣٩٧ .  
 (٢) الديوان ص ٣٩٨ .  
 (٣) الديوان ص ٤٠٢ .  
 (٤) الديوان ص ٤٠٤ .



هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شرحبيل في يوم الكلاب فقد كان ابن الأعرابي لا يعرفها<sup>(١)</sup>. وأما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بني عوف ابتنوا حسباً) التي قالها في مديح عُوَيْر بن شِجْنَة فيمكن أن تكون صحيحة . وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخى باطلا) فأغلب الظن أنها منتحلة لأنهم يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومراً بنا في رواية الهيثم بن عدى أنه كان حاضراً مقتله . وقد أنكر الأصمعي المقطوعة رقم ٢٢ (ألا إلاتكن إبلٌ فمعزى)<sup>(٢)</sup>. ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التي يقال إنه نظمها حين أخطأ بنى أسد وأوقع بنى كنانة صحيحة ، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التي يمدح فيها المعلّى الطائي والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون ، وهما مما نظمه في أثناء مطاردة المنذر له . أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هطلاء فيها وطف) فما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء عن ذى الرمة<sup>(٣)</sup> ، وهى لذلك من شعره الوثيق ، أما الثامنة والعشرون التي تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوعم اليشكري ، بحيث يقول امرؤ القيس شطراً ويتم البيت التوعم فأغلب الظن أنها من صنع الرواة ، ولعل اتهامها هو الذى جعل الطوسى لا يرويهما بين ما أسند روايته إلى الراوى الثبت المفضل الضبي .

وإذن لا يبقى صحيحاً من رواية الأصمعي سوى القصيدتين الأوليين ، وهما مطولتان ، ومثلهما في الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رويتا عن أبي عمرو بن العلاء ، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة . على أن كثرتها الكثيرة نُظمت — إن صحت — بعد مقتل أبيه ، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه ، وقد رويت طائفة منها على لسان ابن الكلبي في أثناء حديثه الذى رواه له صاحب الأغاني عن طلب امرئ القيس لبني أسد واستعداداته القبائل عليهم ، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة . وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى في ديوانه ، وتالياتها ، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء ، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون .

(٣) الديوان ص ١٤٤ .

(١) الديوان ص ٤١٤ .

(٢) الديوان ص ١٢٧ .

## شعره

حاول طه حسين أن يردَّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يبنى من كندة وشعره قرشيّ اللغة ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مرّ بنا أن لغة قريش هي التي سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلي على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضعٌ كثير . غير أن هذا كله لا ينتهي بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم ننبُتْ منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين : قسمًا نظمه قبل مقتل أبيه وقسمًا نظمه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية في ديوانه (الأعجم صباحاً أيها الطلل البالي) وهما جميعاً مما رواه الأصمعي والمفضل الضبي وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما في طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصاً بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع في القطعة السابعة والعشرين التي رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذى الرمة . ولعل في ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبّ في ديار بني أسد بالقرب من تيماء<sup>(١)</sup> ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه<sup>(٢)</sup> . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بيّن على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه . ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستهلها بقوله :

قفنا نَبَلِكُ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ  
بِسِقْطِ اللّوى بين الدخولِ فحوَمَلِ<sup>(٣)</sup>

(٣) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لا يزلون إلا في صلابه من الأرض ، والدخول وحومل : موضعان .

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التي يذكرها في معلقته فجميعها من منازل بني أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيب والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفسوا عنه ، وهو غارق في ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالاً سريعاً يقصُّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبه فاطمة وأن يزرع الغيرة في قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحيبه اللأئي أبكينه وبرح به حين مثل أم الحويّث وأم الرّباب ، ثم يفيض في وصف يوم عُنَيْزَة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلُّ عليه أحياناً ، وفي أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فمَثَلِكِ حُبِّي قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعاً فَأَلْهَيْتَهَا عَن ذِي تَمَائِمٍ مُّغِيلٍ (١)

ثم يعود فيبثُّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، في تلك الأبيات البديعة :

أَفَاطَمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرَمَعْتَ صَرْمِي فَأَجْمَلِي (٢)  
وَإِنْ كُنْتَ قَدْ سَاعَدْتِكِ مِنِّي خَلِيقَةً فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسَلِ (٣)  
أَغْرَكِ مِنِّي أَنْ حَبَسَكَ قَاتِلِي وَأَنْتِ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ  
وَمَا ذَرَفْتُ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَقْدَحِي بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُّقْتَلٍ (٤)

وما يلبث أن يرجع إلى استشارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كنى عنها ببياضة خِدْرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

(١) التأمم : جمع تميمة وهي العوذة تعلق على الصبي ، المغيل : المرضع .  
أمرك ، وتسل : تسقط .

(٢) ذرفت العين : سال دمعها ، الأعشار : القطع ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحي قلباً مكسراً .

(٣) بعض هذا التدلُّل : أى كنى عن بعضه ، وأزعمت : عزمت ، وأجمل : من التجمل وهو ترك ما يقيح .

(٤) ما بكيت إلا لتجرحي قلباً مكسراً .

بها ناحية من الحى يتبادلان فيها الصباية والغرام ، يقول :

- وَبَيْضَةِ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاوُهَا  
تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ غَيْرِ مُعْجَلٍ (١)
- تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا وَأَهْوَالَ مَعْشِرٍ  
عَلَى حِرَاصٍ لَوْ يُشْرُونَ مَقْتَلِي (٢)
- إِذَا مَا الثَّرِيًّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضْتُ  
تَعَرَّضَ أَثْنَاءِ الْوَشَاحِ الْمِفْصَلِ (٣)
- فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَمْتُ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا  
لَدَى السُّتْرِ إِلَّا لِبَيْسَةِ الْمُتَفَضَّلِ (٤)
- فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالِكُ حِيلَةٍ  
وَمَا إِنْ أَرَى عِنْدَكَ الْعَمَايَةَ تَنْجَلِي (٥)
- خَرَجْتُ بِهَا تَمْشِي تَجْرُ وَرَاعِنَا  
عَلَى أَثْرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرْحَلٍ (٦)
- فَلَمَّا أَجْزْنَا سَاحَةَ الْحَىِّ وَانْتَحَى  
بِنَابِطُنُ حِقْفٍ ذِي رُكَامٍ عَقَنْقَلِ (٧)
- إِذَا التَّفْتَتُ نَحْوَى تَضْوَعٍ رِيحُهَا  
نَسِيمَ الصَّبَاجَاتِ بَرِيًّا الْقَرْنُفَلِ (٨)
- إِذَا قَلْتُ هَاتِي نَوَلِيَّ تَمَايَلْتُ  
عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَخَلِ (٩)

فهو يذكركر خدرها وأحراسها ومنعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحى إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون، وكيف كانت تعفى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدتها وأطرافها، مصوراً كيف تستصبي الرجال وتعبث بقلوبهم .

- (١) شبه صاحبتة بالبيضة لبياضها ورقتها .  
(٢) يشرون : يظهرون .  
(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاتك بناحية منه ، والمفصل : الذى جعل بين كل خرزقين فيه لؤلؤة .  
(٤) نضمت : نزعته . اللبسة : هيئة اللباس . المتفضل : اللابس ثوباً واحداً .  
(٥) العماية : الغواية والجهالة .
- (٦) المرط : إزار من خز ، المرحل : الموشى .  
(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء . والحقف : المعوج من الرمل ، وركام : بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل . والواو فى وانتحى زائدة لأنها جواب لما .  
(٨) تضوع : انتشر . الريا : الرائحة .  
(٩) هضيم : ضامر ، الكشح : الخاصرة ، وريا المخلخل : أى أن موضع الخللخال من ساقها مثله .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تغد على ذهنه توأ مغامرات ابن أبي ربيعة في غزله ، لا من حيث حوارهِ مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن في الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرُ غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجَّرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه في غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصي الصريح وقال إنه انتحل انتحالا ، انتحله بعض القصاص على غيرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة<sup>(١)</sup> . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثر إذ يتأثر اللاحق بال سابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعي الشاعرين في وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقاً يتحدث عن زيارته لصواحيبه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من هو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنناً في رقة النجوى وفي كلف صواحيبه به ، بينما يمضى امرؤ القيس في وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيّاً حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقى الفاحش ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامى منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى<sup>(٢)</sup> ، ثم كان العصر الأموى فتعلق به عمر بن أبي ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس في المعلقة وحدها ، فثلثها المطولة (الأعشى صباحاً أيها الطلل البالي) فإنها تذهب نفس المذهب الذى رأيناه في المعلقة ، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى ، ثم يفيض في وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا في المعلقة ، يقول :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها  
 فقالت : سباك الله إنك فاضحي  
 فقلتُ : يمين الله أبرحُ قاعدًا  
 فلما تنازعنا الحديثَ وأسمحتُ  
 وصيرنا إلى الحُسنى ورقَّ كلامنا  
 فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلها  
 يَغِطُّ غطيَّ البكرُ شدَّ خناقهُ  
 أيقنتني والمشرقيُّ مُضاجعي

وكأن امرأ القيس هو الذي سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه في تشبيهه الذي يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع في معلقته بعد حديثه عن بيضة الخيدر يصف لصاحبه شقاء بجها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح ، ولا إلى عدلٍ عادل ، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف ، ويسترسل في وصفه فيقول :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدولهُ  
 فقلت له لما تمطى بصلبهِ  
 على بأنواع الهموم ليبتلي<sup>(٨)</sup>  
 وأردفَ أعجازاً وناءً بكلكل<sup>(٩)</sup>

الخال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل في خناقهِ ، فيسمع له غطيط ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير الختنق .

(٧) المشرقي : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطى : امتد . بصلبه : بظهوره . وفي رواية بجوزه وألجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكاني فكنت مثل حباب الماء يعلو بضه بعضاً في رفق ومهل .

(٢) سباك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسمحت : انقادت وسهلت . وهصرت : جذبت : وأراد بالفصن قامتها وبالشاريخ شعرها شبهه بشاريخ النخل لكثرتة وغزارته .

(٤) رضت : أذلت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلها ساءه ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف

- أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انجَلِي ١  
 فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَمَهُ  
 بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكُ بِأَمْثَلِ ٢  
 بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ بِيَدِ بَلِّ ٣  
 كَأَنَّ الثُّرَيَّا عَلَّقَتْ فِي مَصَامِيهَا  
 بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمْ جَنْدَلِ ٤

فهو يتصور الليل بسواده وهوومه كأنه أمواج لا تنهى ، ويحس كأنه طال وأسرف في الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّتْ بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهي لا تتحرك ولا تزول ، كأنما سُتِرَتْ في مكانها ، فهي لا تجرى ولا تسير ، وقد ردد الشعراء بعده هذا المعنى طويلاً . وزراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيدِه ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدي صاحبه فروسينه وشجاعته ومهارته في ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

- وَقَدْ أَغْتَدَيْ وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا  
 مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا  
 كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ  
 مَسَحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَسَى  
 بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ ٥  
 كَجُلْمُودٍ صَخْرَ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِي ٦  
 كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَنْتَزَلِ ٧  
 أَثْرُنَ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ ٨

أسقطه .  
 (٦) الكيت : الفرس الأحمر في سواد .  
 يزل : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة المساء ، المنزل : التازل عليها .  
 (٧) مسح : عداء يصب الجرى صبا ، السابحات : الخيل المرعة . الوقي : الضعف والفتور . الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذي ركفته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهي لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

(١) انجلي : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم في الليل وفي الصبح .  
 (٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .  
 (٣) المصام : مكانها الذي لا تبرحه ، والأمراس : جمع مرس وهو الخيل . والجنادل : الحجارة الكبيرة ، والضم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .  
 (٤) الوكنات : المواضع التي تأوى إليها الطير ليلاً ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكل : ضخم .  
 (٥) الجلمود : الصخرة الصلبة ، حطه :

على العقب جِيَّاشِ كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ  
 إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيَهُ عَلَى مِرْجَلٍ (١)  
 يُطِيرُ الْغُلَامَ الْخِفَّ عَنْ صَهْوَاتِهِ  
 وَيُلَوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ (٢)  
 دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرَهُ  
 تَقَلُّبُ كَفِّهِ بِخَيْطِ مُوَصَّلِ (٣)  
 لَهُ أَيُّطَلَا ظُبِّي وَسَاقَا نِعَامَةٍ  
 وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبُ تَتْفُلِ (٤)  
 كَأَنَّ عَلَى الْكِنْفَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى  
 مَدَاكَ عَرُوسٍ أَوْ صَرَايَةَ حَنْظَلِ (٥)

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً ، وبدأ فجعله قيداً لأوباد الوحش إذا انطلقت في الصحراء فإنها لا تستطيع إفلتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرّ في الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر في آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصبُّ الجرى صبّاً ، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا تقعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلي غليان القدر لا يني ولا يفتّر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه في سرعة انطلاقه بلعبة الخدروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان ، إذ يصلونها بخيط ويسرعون في إمرارها لإسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر ، فله خاصراته النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان ، وهو يهوى في الأرض كأنه الذئب الفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خيلاً إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مَدَاكَ عَرُوسٍ أَوْ صَرَايَةَ حَنْظَلِ . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرّاً من بقر الوحش عنّ لهم في الصحراء مصوراً كيف قيده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاءه ، أمره : أمضاه .

(٤) السرحان : الذئب ، التتفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .

(٥) مَدَاكَ العروس : حجر تسحق عليه طيها فيبرق ، شبه به الفرس في بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقه .

(١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامه : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلي ، المرجل : القدر .

(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع اللد من ظهره ، ويلوي : بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثقل : الذي لا يحسن الركوب .



تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهارة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التي أملت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء في شمال الحجاز ، يقول :

- أَحَارِ تَرَى بَرَقًا كَأَنَّ وَمِيضَهُ  
 يَضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ  
 قَعَدْتُ لَهُ وَصَحْبَتِي بَيْنَ حَامِرٍ  
 وَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ عَنِ كُلِّ فَيْقَةٍ  
 وَتَيْمَاءٍ لَمْ يَتْرِكْ بِهَا جِدْعَ نَخْلَةٍ  
 كَأَنَّ طَيْمِيَّةَ الْمُجَيْمِرِ غُدُوَّةٌ  
 كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقِيهِ  
 وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ بَعَاعُهُ  
 كَأَنَّ سِبَاعًا فِيهِ غَرْقَى غُدِيَّةٌ
- (١) كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ (١)  
 (٢) أَهَانَ السَّلِيطَ فِي الذُّبَالِ الْمَفْتَلِ (٢)  
 (٣) وَبَيْنَ إِكَامٍ بَعْدَ مَا مُتَأَمَّلٍ (٣)  
 (٤) يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنْهَبِلِ (٤)  
 (٥) وَلَا أُطْمَأُ إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْدَلٍ (٥)  
 (٦) مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَاءِ فَلَكَّةٌ مِرْزَلٍ (٦)  
 (٧) كَبِيرٌ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ (٧)  
 (٨) نَزُولَ الْيَمَانِيِّ ذِي الْعِيَابِ الْمَخْوَلِ (٨)  
 (٩) بَارِجَاتِهِ الْقَصْوَى أَنْابِيشٌ عُنْصَلٍ (٩)

(٥) الأطم : البيت .  
 (٦) طمية : جبل ، المجير : أرض  
 لبنى فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فئات  
 الأشجار . وفلكة المزل : ما استدار فوق  
 رأسه .  
 (٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب .  
 الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ،  
 ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر  
 بشيابه ملتف بها .  
 (٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ،  
 العياب : الحقائب ، المخول : كثير المتاع  
 والفلمان الذين يصحبونه .  
 (٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش  
 العنصل : جذور البصل البرى .

(١) حار : ترخيم حارث يعنى يا حارث ،  
 وميض البرق : لمعانه . الحبي من السحاب :  
 المتراكم ، وكذلك المكمل ، وقيل الحبي :  
 الداني من الأرض .  
 (٢) السناء : الضوء ، السليط : الزيت ،  
 اللبالب : الفتائل ، وأهانها هنا : أكثر منه ،  
 ويروى أمال بمعنى رعى ، وهى أجود .  
 (٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد  
 ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .  
 (٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه  
 يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا  
 بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلقى على الوجه ،  
 الكنبيل : ما عظم من شجر المضاه ، والدوح :  
 جمع دوحه وهى الشجرة كثيرة الورق والأغصان .

عَلَى قَطَنِ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى السُّتَارِ فَيَذْبُلُ (١)  
 أَلْتِي بِبُسْيَانَ مَعَ اللَّيْلِ بَرَكَةٌ فَأَنْزَلَ مِنْهُ الْعُصَمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ (٢)

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه في سحب متراكم ، وشبه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوءها بما يمدّها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحاً ، حتى لتقتلع سيوله كل ما في طريقها من أشجار العِصاه العظيمة . وتلك تباء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً ، إلا ما شيّد بالصخر ، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعد وأصوله . وهذا طمية جبل المحيمر التفت به السيول وما تحمل من غناء ، حتى لكأنه فلكة مغزل . وذلك أبان بما غطاه من هذا السيل والغناء يشبه شيخاً ملتفّاً في كساء مخطط . وقد ألتى بصحراء الغبيط ثقله فنشّره من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التي ينشرها التاجر اليماني حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت أجسام السباع ففرقت في لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وملاً أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بني أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلي بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التي كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة في الغيث والسيل تلتقى في كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهي ذات الرقم ٢٧ في ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهي تمضى على هذا النحو :

دِيمَةٌ هَطْلَاءٌ فِيهَا وَطْفٌ      طَبَقُ الْأَرْضِ تَحْرَى وَتَدْرُ (٣)

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة المظل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبقها وتممها لكثرة مطرها . تحرى : تعتمد إلى الأمكنة وتثبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درتها .

(١) قطن : اسم جبل في ديار بني أسد ، الشيم : النظر إلى البرق والمطر . الستار ويذبل : جبلان .  
 (٢) بسيان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

- تَخْرُجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْجَدَتْ  
وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفاً مَاهراً  
وَتَوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرُ (١)  
ثَانِيَا بُرْثَنُهُ مَا يَنْعَفِرُ (٢)  
وَتَرَى الشَّجَرَاءَ فِي رَيْقِهِ  
كِرْعَوسٍ قُطِّعَتْ فِيهَا الْخُمْرُ (٣)  
سَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَأَبِلَ  
سَاقِطُ الْأَكْنَافِ وَاهٍ مِنْهُمْ (٤)  
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَاثِمِ انْتَحَى  
فِيهِ شُوبُوبٌ جَنُوبٍ مُنْفَجِرٌ (٥)  
نَجَّحٌ حَتَّى ضَاقَ عَنِ آذِيهِ  
عَرَضُ خَيْمٍ فَجُفَافٍ فَيْسُرٌ (٦)  
قَدْ غَدَا يَحْمَلُنِي فِي أَنْفِهِ  
لَا حَقَّ الْإِطْلَاسِينَ مَحْبُوكٌ مُرٌّ (٧)

وهو بصور في هذه المقطوعة منظرًا يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدرُّ لها ويدنو منها بأهدابه ، وحيناً يُقْلَعُ قَتَبُو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار . وتُسْرَعُ القيعان فيخرج الضبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراهى كأنها رموس معمة قطعت في ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء ، فقد أُلْقِيَ السحب بوبلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبَّت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خَيْمٌ

- ساقط الأكناف : دان من نواحي الأرض .  
واه : متخرق ، نهمر : منسكب .  
(٥) راح : عاد بالمطر في آخر النهار .  
تمريه : تحركه وتدريه . الشوبوب : دفعة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .  
(٦) نجح : سال . الأذى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .  
(٧) يحملني في أنفه : يريد في أنف المطر أي أوله . لاحق الإطلسين : فرس ضامر الكشحيين ، محبوك : موثق الحلق ومثله مر ، وأصله من الحبل المر ، وهو المحكم الفتل .

- (١) الود : الورد ، أشجدت : أقلمت وسكنت . تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها .  
وقيل الود اسم جبل .  
(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً في عدوه .  
وبرثن الضب : كالإصبع للإنسان . وما ينعفر : لا يصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلمس بالتراب لطفة عدوه .  
(٣) الشجرَاء : الأرض ذات الشجر الكثير ، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراهى كأنها رموس قطعت وفيها الخمر وفيها العمام .  
(٤) انتحاهَا : قصدها . وأبل : مطر غزير ،

وجفاف ويُسّر .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التي كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهي التشبيب ، والغزل القصصي الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هي الموضوعات التي تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية ( ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي ) عند التشبيب والقصص المادى ، ووصف الوحش والفرس ، وهو في أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع وهو .

وكتب لامرؤ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذي يعد لاقتناص اللذات في اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتلّى مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عائرة في الأخذ بثأر أبيه ورجع سلطان كندة على بنى أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال في مطولته ( ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي ) :

كأنّي لم أركب جواداً للذة ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال  
ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل لخيلي كرى كره بعد إجمال<sup>(١)</sup>

ولعله نظم هذه القصيدة في إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا ننتظر منه في هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجّر يُقتل وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ، ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى في سبيل الأخذ بثأر أبيه ، والمندر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث . وربما لقي في أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر ، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يجيره ، وعين المندر تتبعه وسيف المندر مُصلّات يلمع أمام عينيه . فكان طبيعياً أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ، تصور حزنه على آباءه

(١) أسبأ : اشترى . الزق : دن الخمر .  
الروى : المملوء ، الإجمال : الانهزام في سرعة .

وما تجسّع عليه من البلاء، وهي ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مَوْضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ      وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ (١)  
عصافيرُ وَذِبَابٌ وَدُودٌ      وَأَجْرًا مِنْ مُجَلِّحَةِ الذَّنَابِ (٢)  
وكلُّ مكارمِ الأخلاقِ صارتُ      إليه هَمَّتِي وَبه اكتسباني  
فبعضُ اللومِ عاذلتى فإني      ستكفينى التجاربُ وانتسباني  
إلى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَّتْ عروفي      وهذا الموتُ يسلبنى شباني (٣)  
وَنَفْسِي سَوفَ يَسْلُبُهَا وَجِرمي      فيُلْحَقنِي وَشيكَا بِالثَّرَابِ  
ألمْ أَنْصِ الْمَطِيَّ بِكلِّ خَرَقِ      أَمَقُّ الطولِ لِمَاعِ السَّرَابِ (٤)  
وَأركبُ فى اللُّهَامِ المَجْرُ حَتى      أَنالُ مَا كَلَّ القُحْمِ الرِّغَابِ (٥)  
وَقَد طَوَّفْتُ فى الآفاقِ حَتى      رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالِإِيَابِ  
أَبعدَ الحارثِ الملكِ بنِ عمرو      وَبعدَ الخَيْرِ حُجْرٍ ذى القِيَابِ (٦)  
أرَجِي مِنَ صرُوفِ الدَّهْرِ لِيناً      وَلم تَغْفُلْ عَنِ الصَّمِّ الهِضَابِ (٧)  
وَأَعْلَمُ أَننى عَمَّا قَلِيلِ      سَأَنْشَبُ فى شَبَا ظَفَرِ وَنابِ (٨)  
كَمَا لاقى أبى حُجْرٌ وَجَدَى      وَلا أَنسى قَتِيلًا بِالكُّلابِ (٩)

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدُّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

(٥) اللهام : الجيش الكثيف . الحمر : الكثير . المآكل هنا : الغنائم ، القمح : جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة . الرغاب : الواسع .  
(٦) القباب : الخيام الكبيرة .  
(٧) الصم المصمتة : الجبال . الهضاب : الصلبة .  
(٨) شباكل شيء : حده . أنشب : أعلق .  
(٩) قتيل موقمة الكلاب هو عمه شرحبيل .

(١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت المغيب . ونسحر بالطعام : تلهى ونخدع .  
(٢) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .  
(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .  
(٤) أنص : أهزل بطول الرحلة . الخرق : الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .

يتعللون عنه بالطعام والشراب ، وهو في انتظارهم ، وهم جادون في المسير إليه . ويصغر الناس وتصغر أطماعهم في عينه ، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود ، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئباب الضارية . ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو ، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة . وهو ينتسب ، فلا يجد أمامه إلا موتى ، وهو يتربص نفس الأجل المحتوم ، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذي كان يركب الخيل وينضهها في الفلاة الواسعة ، والذي كثيراً ما انتظم في جيوش أبيه الكثيفة ، يغم المغامم الكبيرة . وما هو اليوم بطوف في الآفاق وراء مجده المضيئ فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل . وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آباته وقد واراها التراب . إنه ينتظره نفس المصير ، فالمت يفتح فاه ، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفرسه افراساً كما افرست جده الحجارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم الكلاب .

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه في تلك الفترة من حياته . وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعي مع رواية هشام بن الكلبي ، وفيها يمدح ويهجو بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الحوار فلا يمدون يد العون إليه ، وهي شطايا صغيرة لا توضح منهجاً في مديح ولا هجاء .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس ، فهو الذي نهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديث في بكاء الديار والغزل القصصي ووصف الليل والخيال والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سبق بأشعار في هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذي أعطاها النسق النهائي ، مظهراً في ذلك ضروراً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه ، سواء العرب في أحاديثهم عنه أو النقاد في تقديمهم للشعر الجاهلي ، يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه والبكاء في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالطباء والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأرباد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً (١) .

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصف النساء والخيل ، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لا يشوبها عسر ولا صعوبة ، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشئ ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أمانة اللغة فى يده ، وقليل جداً ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارٍ ترى بَرَقًا كأن وميضه      كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ  
يضىء سناءه أو مصابيحُ راهبٍ      أهان السُّلَيْطِ فى الذُّبَالِ الْمُفْتَلِّ

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يكمل وصفه للبرق بأنه فى حبي مكمل وسحاب متراكم وأنه يضيء سناءه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثل هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقاً ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيحاته جيدة ، وهى تراكم فى المعلقة وفى قصيدته (الأعم صباحاً أيها الطلل البالى) تراكماً يجعله حقاً صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيحات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلاً فى طبقاته (٢) ، استمدته فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيحات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجع إلى تشبيحاته فى المرأة ، فستره يشبهها بالبيضة فى بياضها ورقمها ، كما يشبهها بالدرة والبقرة الوحشية ، أما تراثها فكالمرأة وأما شعرها الغزير فكعبدق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليئن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردى فى بياضه ،

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر  
(٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .  
والشعراء ٥٧/١ .

وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة في المعلقة .  
 وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بحدُرُوف الوليد  
 ومدّاك العروس وصرّاية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من عل ، كما يشبهه بالطي  
 في خاصرتيه والنعامة في ساقيه والذئب في عدّوه والثعلب في تقريبه وقفزه . ونحس  
 دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كَأَنَّ دَمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عَصَارَةٌ حِنَاءٌ بِشَيْبِ مَرَجَلٍ (١)

فدم الوحش الذي صاده امرؤ القيس يلطخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة  
 حنّاء صبّغ بها شيب ، إذ لا يكاد يفترق عن الخضاب في شيء . ويخرج من ذلك إلى  
 وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ،  
 وهو لذلك يوشى به كل شيء يعرض له في المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو  
 يصف الليل ، وقد أبدع في وصفه لقطعه وأجزائه ، فهي ماتى تتدافع وتتلاحق غير  
 منتهية ، وألم بالوحش ، فشبّه بقره بعدارى دوار ، يقول :

فَعَنَّ لَنَا يَهْرَبُ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَدَارَى دُورٍ فِي الْمَلَأِ الْمَذِيلِ (٢)

وبذلك عكس الصورة فشبّه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه  
 الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التي ينسجونها .  
 وننتقل معه إلى مطولته (الأعم صباحاً أيها الطلل البالى) فتلقانا نفس تشبيهاته  
 للمرأة التي لقيتنا في معلقته ، فهي كالظبية وبيضة النعامة ، بل هي كالمثال الجميل  
 يقول :

وَيَارِبُّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةً بِآنَسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تَمَثَّلَ

ويشبه وجهها في إشراقه بالمصباح ، ويقول إنها لينة ممتلئة كحقيقف الرمل أو ما  
 استدار منه ، ويشبهها بالغصن في اعتدال قوامها وتنشئها ، أما شعرها فكشمار يخ  
 النخل في تداخله وغزارته . ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصاييح رهبان ، ويحدثنا

الوحش . ودوار : صنم كانوا يطوفون به في الجاهلية .  
 المذيل : الطويل السابغ .

(١) الهاديات : المتقدّمات من بقر  
 الوحش . مرجل : مسرج .

(٢) السرب : القطيع . النماج هنا : بقر



عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج مَنْ يغازلها ولا تهديده ، فيقول :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفُ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالٍ

وهي صورة طريفة ، لأنها تقوم على التخيل والوهم . ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا في ضموره وصلابته ، ويقول إنه ذعر به قطع بقر ، يجري البياض والسواد في سيقانه ، حتى لكأنها وشى برود يمانية بديعة . ويعود إلى فرسه ، فيشبهه بعقاب تنقض انقضاضاً على فريستها ، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها ، فتأكله إلا قلبه ، فنها الطرى الغض ، ومنها الجحاف المتقبض ، ويعمل خياله ، وما يلبث أن يقول :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالي أو التمر الرديء الجحاف ، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة . ويروى عن بشار أنه قال : ما زلت أحسد امرأ القيس على جمعه في هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين ، حتى قلت :

كَأَنَّ مُشَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رِءُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ (١)

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة (٢) .

ولعلنا لا نُسعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذي ألهم الشاعر العربي على مر العصور فكرة التشبيه ، بل هو الذي وجهه إلى الإسراف في استخدامه ، حتى عدَّ ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف والبديع (٣) . وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية ، وهو يأتي بها في قلة ، من ذلك قوله في المعلقة يخاطب الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكَلِّكَ لِكُلِّ

(٣) انظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة

كراتشفونسكى) ص ٥٨ وما بعدها .

(١) النقع : الغبار .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٦/٣ .

فقد استعار صورة البعير لهذا الليل الذي لا يزول . ومضى فاستعار صورة  
القيد لفرسه ، فسماه قيد الأوابد فهي لا تفوته ، على نحو ما مر بنا في بيته :

وقد أعتدى والطيْرُ في وُكُناتِها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكَلِ  
وإذا صحت رواية (١) آمال بدلا من أهان في قوله يصف البرق :

يضئ سناهُ أو مصابيحُ راهبِ آمالِ السِّلِيطِ في الذُّبَالِ المِفْتَلِ  
كان البيت يتضمن استعارة بديعة ، لأن من معاني آمال رعى ، وكأنه استعار  
صورة رعى الأنعام للنبات لما يُغْنِيهِ الذُّبَالُ مِنَ الزَّيْتِ شَيْئاً فشيئاً . وإذا تركنا معلقته  
إلى مطولته (ألا انعم صباحاً) وجدناه يستعير للحلْيَ على نَحْرِ صاحِبته وتوجهه صورة  
الجَمْرِ ، يقول :

كَأَنَّ عَلَى لِبَاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ أَصَابَ غَضًّا جَزْلاً وَكَفَّ بِأَجْدَالِ (٢)  
ومن الحق أن الاستعارة قليلة في أشعاره ، ولكنها على كل حال ماثلة فيها ،  
مثلها مثل لوني البديع المسميين بالطباق والجناس ، ومن أمثلة طباقه قوله في المعلقة  
يصف غداثر صاحبه :

غداثرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا تَضَلُّ المَدَارِي في مُشْنَى ومُرْسَلِ (٣)  
وقوله يصف فرسه :

مَكْرٌ مَفْرٌ مَقْبَلٌ مَدْبِرٌ مَعاً كَجَلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنَ عَلِ  
ومن أمثلة الجناس قوله في غزله :

وإن كنتِ قد ساءتِك مني خَلِيقَةٌ فَسُئِلِي ثِيَابِي مِنَ ثِيَابِكَ تَنْسَلِي  
وقوله :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحِ وَمَا الإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْثَلِ

بجواره مصطلياً يقلبه ويتمهده ومن حوله أصول  
شجر الغضا وعيدانه لا يزال يعد بها النار .  
(٣) مستشزرات : مفتولات ، المدارى :  
الأمشاط .

(١) ابن المعتز ص ٧ .  
(٢) الغضا : من أشجار نجد . الجزل :  
الكثير ، كف : مد . الأجذال : أصول  
الشجر . يقول إنه جمر لا يزال متقدماً ، لأن

وبجانب ذلك كله نجده يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية في حروفها ، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه ، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريح على نحو ما صنع في المعلقة فقد صرّح فيها مراراً ، كما في بيته الذى أنشدناه آنفاً والذى يخاطب فيه الليل . وفي الحق أن الموسيقى تطرّد في المعلقة اطراداً ، فلا نحس بنشاز ، سوى الزخافات التى يكثر منها على شاكلة قوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها      لَدَى السُّرِّ إِلَّا لِبَسَةِ الْمُتَفَضِّلِ

فإن التفعيلة الثانية في حشو البيت « مفاعلن » وليست مفاعيلن . وإذا قرأنا في المعلقة قوله :

مكراً مفرّاً مقبلٍ مدبرٍ معاً      كجلمود صخرٍ حطّه السَّيْلُ من عُلِّ  
بضم لام القافية - وهذا ما يقتضيه القياس النحوى تقول : من أسفل الجبل ومن عُلِّ أى من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه - أصبح في البيت إقواء ، وهو يكثر في الشعر الجاهلى وخاصة قديمه . وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغطائه الملتف يجبل أبان في قوله :

كَأَنَّ أَبَاناً فِي أَفَانِينَ وَذَقَهُ      كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بِيحَادٍ مَزْمَلٍ

بضم اللام في كلمة « مزمل » وهو ما يقتضيه القياس النحوى لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح في هذا البيت هو الآخر إقواء ، إذ اختلفت حركة الروى ، فأصبحت مرفوعة بينما هى في بقية القصيدة مجرورة . ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده .

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه ، فقد استوى عنده في صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلاً في استعاراته وبعض طباقاته وجناساته ، وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بمجسّلى معنوية ولفظية مختلفة .

## الفصل الثامن النابعة الذبياني

١

### قبيلته

النابعة من قبيلة ذُبَيَّان الغطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بَغِيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَيْلان ، وإلى بغيض تنتسب أيضاً قبيلة عَبَس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فزارة وبنو مرة وبنو سعد ، ومن فزارة بنو مازن ، وبنو بدر وفيهم كانت رئاسة فزارة في الجاهلية ، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمَل . ومن بنو مرة بنو غيظ وبنو سَهْم وبنو صِرْمَة وبنو حُصَيْلَة وبنو نُشْبَة وبنو يربوع عشيرة النابعة، وسيدا بنو مرة غير مدافعين هَرَم بن سنان والحارث بن عوف ومدوحا زهير بن أبي سلمى .

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلي مع حرب داحس والغبراء التي نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظن من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد . ومرّ بنا أن السبب في نشوبها سباق داحس والغبراء ، وكان داحس جواداً لقيس بن زهير سيد بنو عبس ، وكانت الغبراء فرساً لحَمَل بن بدر سيد بنو فزارة . وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً في نهاية الشوط نصره عن غايته ، فسبقت الغبراء . واستشاط قيس غضباً ، وطلب الرهان ، وبعث حَمَل ابنه يطلب منه الرهان المضروب - وقتله قيس . فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين ، واشترك فيها أحلافهما ، فكان مع عبس بنو عامر ، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد ، ودارت سلسلة معارك طاحنة ، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنزة ضمضها أبا حُصَيْن المري والحارث بن بدر ، ومن قُتل فيه أيضاً عوف بن بَدْر ، ويوم ذي حسي وكان لذبيان على عبس ، ويوم جفّر الهباءة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمه رثاء حاراً ، يقول في بعضه (١) :

شفتِ النفس من حملِ بنِ بدرٍ وسبني من حُدَيْفَةَ قد شفاني  
شفتِ بقتلهم لغيليلِ صَدْرِي ولكني قطعْتُ بهم بَنَانِي  
وثارتُ ذبيانَ لنفسها في معركة الجراجِرِ أو ذات الجراجِرِ . ثم تجمعت ذبيان  
وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفئتان في يوم شعب  
جبله ، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أئخت فيهم عبس وعامر القتل  
فقتل لقيط بن زُرارة التيمي وأسر أخوه حاجب . ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس  
وعامر في يوم شعواء وقعة منكرة . ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التي أتت على  
الأبطال والرجال ، فأرسلت وفداً إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقي الوفد سيدي بنى مرة :  
الحارث بن عوف وهريم بن سنان ، فحملا قورهما على الصلح ، وتحملاً ديات  
القتلى ، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها ،  
ويُظن أنه لم يُكتب للنابعة أن يرى انفضاضها ، فقد توفى قبل ذلك بقليل .

وبينما كانت ذبيان تدير رحى هذه الحروب كانت تدير رحى حروب أخرى  
مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بنى أسد ، ولعل في ذلك ما يدل على أن  
القبيلتين جميعاً كانتا تدبران بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم يشعرون سيوفهم  
ويشهورنها في وجوه خصومهم ، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة يهزمون وتمتلئ  
أيدي الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النابعة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل  
بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم .

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً في رفاق ووثام ، فهي  
تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتتناحر داخلياً ، على نحو ما تصور ذلك  
أشعار بشامة بن الغديرو والحصين بن الحمام المرى وزبان بن سيار الفزاري والنابعة ،  
إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها ،  
فمن ذلك قول الحصين بن الحمام عقب معركة بين عشيرته بنى سهم وبين بنى  
صيرمة ، وفيها انتصر الأولون (٢) :

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٦٥  
والهام : الروس .

(١) عيون الأخبار ٢/٨٨ والمرزوق على  
الحماسة ١/٢٠٣ ومط اللالكى للبكري ٣٠٥ .

صَبْرْنَا وَكَانَ الصَّبْرُ فِينَا سَجِيَّةً      بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَمَا وَمِغْصَمَا  
يُقْلَقْنَ هَاماً مِنْ رِجَالِ أَعْزَةٍ      عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقُ وَأَظْلَمَا  
ونجد يزيد بن سنان أخى هرم بن سنان يطلق زوجه ، وكانت ابنة النابغة ،  
ويشير على عشيرتها يربوع عشيرتى خصبلة ونُشْبَة ، عاقداً بينهما حلفاً سمي حلف  
المحاش ، وما يزال يربوع حتى يجلبها عن ديارها إلى ديار بنى عُدْرَة ، وفى ذلك  
يقول النابغة :

جَمْعٌ مَحَاشِكُ يَا يَزِيدُ فَإِنِّى      أَعَدَدْتُ يَرْبُوعاً لَكُمْ وَتَيْمًا  
حَدَبْتُ عَلَى بَطُونُ ضَيْتَةَ كُلِّهَا      إِنْ ظَالَمَا فِيهِمْ وَإِنْ مَظْلُوماً<sup>(١)</sup>

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل  
ويعتزل بعضها بعضاً ، وقد ترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُدْرَة وغير عُدْرَة .  
وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد فى الجاهلية العزى وتتخذ لها كعبة  
تحجج إليها ، وتقدم لها النذر والقربان ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى  
الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيها حتى دخلت فى الإسلام  
الحنيف .

## ٢

## حياته

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب<sup>(٢)</sup> بن يربوع ، وأمه عاتكة بنت  
أنيس من بنى أشجع الذيبانيين ، فهو ذيبانى أباً وأماً ، وكان يكنى بأبى أمامة  
وأبى ثمامة<sup>(٣)</sup> ، وهما ابتناه ، كما كان يلقب بالنابغة ، وبهذا اللقب اشتهر . واختلفت  
الرواة فى سبب تلقيبه به ، فقليل لقوله فى بعض شعره : ( فقد نبغت لنا منهم شتون )  
وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن يهتتر ويذهب عقله<sup>(٤)</sup> .

(٢) انظر الأغاني ٣/١١ وترجمته فى  
الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .  
(٤) الأغاني ٤/١١ وراجع الشعر والشعراء  
١٠٨/١ وشرح المعلقات الشعر للتبريزى .

(١) ضنة : عشيرة من عُدْرَة .  
(٢) هكذا فى ترجمته بالأغاني ( طبعة دار  
الكتب ) ٣/١١ وفى شرح التبريزى للمعلقات  
المشر جابر بن يربوع بدلامن جناب بن يربوع .

ونظن ظناً أنه سمي بذلك لنبوغه في شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقَّبَ بنفس اللقب مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيباني والنابغة التغلي ، ويميّز هو منهم باسم النابغة اللبياني .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشرف ذبيان وبيوتاتهم ، وقد يكون في مصاهرة يزيد أخي هرم ابن سنان له وهو من أشرف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن في شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثاني من حياته ، وهو شطر بدأه بالتزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة<sup>(١)</sup> ولزومه له يملحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضاوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان في هذا الولاء ، فطبعي أن يقصد شاعرها النابغة النعمان بن المنذر وأن يضفي عليه مدائحه . وسرَّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه وناداه ، وأجزل له في العطايا والصلات ، حتى أصبح شاعره الفدَّ ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حَجَرَ التميمي والمثقب العبدى وليبد العامري ولكن أحداً منهم لم يكرمهم إكرام النابغة ، وقد صور ذلك في معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائة المِعْكَاءَ زِينَهَا      سَعْدَانُ تُوضِحُ فِي أَوْبَارِهَا اللَّبْدِ<sup>(٢)</sup>  
والأدَمَ      قَدْ حُيِّسَتْ قُتْلًا مِرَافِقُهَا      مشدودةً بِرِحَالِ الحِجْرَةِ الجُدِّ<sup>(٣)</sup>  
والرَّاكضَاتِ ذِيوَلِ الرِّيْطِ فَانقَهَا      بَرْدُ الهَوَاجِرِ كَالغِزْلَانِ بِالجَرْدِ<sup>(٤)</sup>  
والخَيْلِ تَمزَعُ غَرْبًا فِي أعْنَتِهَا      كَالطَّيْرِ تَنجُو مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي البَرْدِ<sup>(٥)</sup>

(٢) المِكَاءُ : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضيح : موضع . السعدان : مراغ . لبد الشعر : ما تلبده منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيست : ذلت . فتلا مراقفها : كناية عن قوة خلقها ومثانتها .

(٤) الرَّاكضَاتِ : الساحبات . الريط : ثوب طويل . فانقها : نَمَمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزَعُ غَرْبًا : تسح سحاً شديداً . الشؤبوب : السحاب أو دفعات مطره .

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لمخ عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها :

أتاركة تدللها قطام وضنا بالتحية والكلام

وأغلب الظن أنها متحلة عليه ، وهي ليست

على كل حال في رواية الأصمعي للديوان ،

وروى الشنمري عن أبي عبيدة أنه ملح بها

عمرو بن الحارث النسائي .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذلة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المنعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه تَوّاً إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بنى أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادي أُقر الحصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلاً فظيماً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نساها . فألم النابغة أماً شديداً صورته في قوله :

لقد نهِتُ بنى ذبيانَ عن أُقْرِ      وعن تربُعِهِم في كل أَصْفارِ (١)  
وقلتُ يا قوم إن اللَّيْثَ منقبِضٌ      على برائنه لوثبِسة الضارِى (٢)  
لا أعرفنُ رَبَّرباً حُوراً مدامعُها      كَأَنَّ أبكارها نِعاجُ دُوارِ (٣)  
ينظرنُ شزراً إلى من جاء عن عُرضِ      بأوجهِ منكرات الرِّقِّ أحرارِ (٤)  
يَنذرينُ دمعاً على الأشفارِ منحدراً      يا مُلنَ رِحْلةَ حِصنِ وابنِ سَيَّارِ (٥)

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن ، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يمينا وشمالا ، لعل بطلى قومهما حِصن بن عيينة وزبَّان بن سيار يقلمان بالجيش ، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار ، وفي بعض الروايات أنه كان بينهما إحدى بناته. وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببنى أسد ، فقال في قصيدة أخرى مصوراً ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبق غير طريدٍ غير مُنْقَلِيتِ      وموَدِّقِ في جِبالِ القِدِّ مسلوبِ (٦)  
أو حُرَّةٌ كمهاة الرَّمْلِ قد كُيِّلتِ      فوق المعاصم منها والعراقيبِ (٧)

به في الجاهلية .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين . عرض : جانب .

(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هذب العين .

(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأسير .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

(١) أقر : واد . تربعهم : إقامتهم وقت الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .  
(٢) البرائن : الأظفار . الضارى : متعود الافتراس .

(٣) الريرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهي العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النعاج : إناث البقر . دوار : اسم صنم كن يطفن



تدعوقعيناً وقد عَضَّ الحديدُ بها عَضَّ الثَّقَافِ عَلَى صُمْمِ الْأَنْابِيْبِ (١)

ولم يجد النابغة بدءاً من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم ، حتى يكفوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة ، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، فعفواً عن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما ، وظل عندهما يببالغان في إكرامه ويبالغ في مديحهما ، محاولاً بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم . وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً في بني ضنة العذريين وعشاثرها من بني حُنَّ ، فتوسع لهم في ديارها ومراعياها ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بني حُنَّ ، فأعانتها ومُنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفي ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته      يريد بني حُنَّ بيرةً صادرٍ (٢)  
تجنبُ بني حُنَّ فإن لقاءهم      كريةً وإن لم تلق إلا بصابِرٍ (٣)  
عظامُ اللهى أولادُ عُدرةٍ إنهم      لهما ميمٌ يستلونها بالحناجرِ (٤)  
وهم منعوا وادى القرى من عدوهم      بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثِرِ (٥)

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفى عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً ، إذ كان يتخذة داعية له في قومه ، وكان يرى في نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلجُّ في مديح خصومه . وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم .

- (١) تعين : عشيرة من أسد . الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الأنابيب : كعوب الرماح .  
(٢) بركة صادر : موضع .  
(٣) صابر : شجاع في الحرب .  
(٤) اللهى هنا : المال . هاميم : جمع لهوم وهو الضخم العظيم . يستلونها : يتلونها ، يصفهم بعظم الخلق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .  
(٥) مبير : مهلك .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيماً ، وقد أخذ يدفع عن نفسه في اعتذاراته المشهورة التي قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظي برضاه ونائله العَسرَ إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به في غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل الفيلة .  
 وواضح أننا لم نأخذ بالروايات (١) التي رواها القدماء في سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاء به هجاء مقذعاً ، وفي بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير القرنند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه ، واضطغن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرضه عليه . وفي رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضائها ، فغار منه المنخل اليشكري وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسرى فيما بعد أن قصيدته في المتجردة موضوعة .

وفي الخلق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار محترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التي تنبئ بأنه جنى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان بهمّ النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصياً ، وإنما كان ذنباً سياسياً . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عميل كما تزعم بعض الروايات (٢) .

ونعتقد أن سفارته لقومه في بلاطى المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك في وقائعها . ومع ذلك نراه في بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها لديار أبناء عمومتهما من ذبيان ، يقول :  
 أَبْلَغُ بَنِي ذُبْيَانَ أَنْ لَا أَخَا لَهُمْ  
 بَعْبِيسٍ إِذَا حَلُّوا الدِّمَاحَ فَأَظْلَمًا (٣)

(٣) الدماخ : جبال . أظلم : موضع .  
 يشير بهما إلى منازل بني عامر .

(١) الأغاني ١٢/١١ وما بعدها وانظر ترجمته في الشعر والشعراء .

(٢) أغاني ٢٩/١١ .

هُم يَرُدُّونَ الْمَوْتَ عِنْدَ لِقَائِهِ إِذَا كَانَ وَرَدَ الْمَوْتَ لِأَبْدٍ أَكْرَمًا ،  
 وكأنه يَحْرَضُ قَوْمَهُ أَنْ يَعودُوا إِلَى السَّلْمِ مَعَ عَبَسٍ مُسْتَنْصِرِينَ بِهَا ضِدَّ أَعْدَائِهِمْ ،  
 ففِيهَا شَجَاعَةٌ وَجِرَاءَةٌ وَإِقْدَامٌ وَغَنَاءٌ فِي الْحُرُوبِ . وَلَيْسَ فِي شَعْرِهِ أَى إِشَارَةٌ لَوْعِيدٍ  
 أَوْ تَهْدِيدٍ لِعَبَسٍ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ يَبْقَى عَلَى الْقُرْبَى وَالرَّحِمِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَهُوَ لَا يَتَوَعَّدُهَا غَارَةً  
 وَلَا يَنْدُدُ بِالْوَقَائِعِ الَّتِي انْتَصَرَتْ فِيهَا قَبِيلَتُهُ . وَلَكِنْ إِذَا كَانَ قَدْ تَرَكَ عَبَسًا فَقَدْ تَعَرَّضَ  
 لِعَامِرٍ حَلِيفَتِهَا يَهْدِدُهَا وَيَهْدِدُ سَادَتَهَا وَأَبْطَالَهَا مِنْ مِثْلِ زُرْعَةَ بْنِ عَمْرٍو وَعَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ  
 بِغَارَاتِ شِعْوَاءَ لِقَوْمِهِمَا تُسَبِّحُ فِيهَا الْأَطْفَالَ وَالنِّسَاءَ . وَحَاوَلَ زُرْعَةُ وَبَعْضُ بَنِي عَامِرٍ  
 أَنْ يَدْفَعُوا ذَبِيحَانَ لِنَقِضِ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَسَدٍ مِنْ حَلْفٍ وَعَقْدٍ حَتَّى تُحَقِّقَنَّ الدَّمَاءَ ،  
 وَعَلِمَ النَّابِغَةُ بِذَلِكَ وَأَنْ عَيْبَةَ بْنَ حِصْنٍ وَبَعْضَ الذَّبْيَانِيِّينَ يَفْكَرُونَ فِي الْأَمْرِ ، فَتَوَلَّى  
 غَضَبًا يَنْشُدُ الْقَصَائِدَ مَسْفُهَا بَنِي عَامِرٍ وَعَيْبَةَ وَدَاعِيًا قَوْمَهُ إِلَى الْوَفَاءِ بِمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسَدٍ  
 مِنَ الْعَهْدِ وَالْعَقُودِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ قَصِيدَتَهُ :

قَالَتْ بَنُو عَامِرٍ خَالُوا بَنِي أَسَدٍ يَا بُؤْسَ لِلْجَهْلِ ضَرَّارًا لِأَقْوَامٍ <sup>(١)</sup>  
 يَا أَبَى الْبَلَاءِ فَلَا نَبْغِي بِهِمْ بَدَلًا وَلَا نَرِيدُ خِلَاءً بَعْدَ إِحْكَامٍ <sup>(٢)</sup>

وَتَوَجَّهَ إِلَى عَيْبَةَ يَعْنِفُهُ تَعْنِيفًا شَدِيدًا فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى ، يَقُولُ فِي تَضَاعِيفِهَا :

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فَجُورًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي

وَهُوَ مَوْقِفٌ يَدُلُّ عَلَى نَبَلِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى الْوَفَاءِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَدْحُهُ لِبَنِي أَسَدٍ  
 وَإِشَادَتُهُ بِشَجَاعَتِهِمْ وَبِلَأْمِهِمْ فِي الْحُرُوبِ .

وَجَمِيعُ أَخْبَارِهِ وَأَشْعَارِهِ الصَّحِيحَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ سَيِّدًا شَرِيفًا مِنْ سَادَاتِ  
 قَوْمِهِ ، فَهُوَ لَا يَتَفَتَّحُ نَفْسِي أَمْرِي الْقَيْسِ وَطَرْفَةَ وَأَضْرَابَهُمَا ، بَلْ يَتَرَاءَى سَيِّدًا وَقُورًا  
 ذَا خَلْقٍ وَشِيمٍ كَرِيمَةٍ ، فَهُوَ لَا يَتَدَنَّ فِي سَفَاهَةٍ وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي جَمُونَ . وَفِي أَشْعَارِهِ بَعْضُ  
 إِشَارَاتٍ مَسِيحِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَهُ ذَلِكَ مِنْ إِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةِ فِي الْحَيْرَةِ وَلَدَى الْغَسَّاسِنَةِ وَكَأَنَّهُ  
 اسْتَمَعَ إِلَى بَعْضِ مَا يَقُولُهُ الْأَجْبَارُ وَالرَّهْبَانُ ، وَلَكِنْ لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ

الخلاء : نقض المهد كالمخلاة .

(١) خالوا : من المخلاة وهي نقض المهد .

(٢) البلاء : يقصد بلامهم معهم في الحرب .

آبائه يتعبّد العزّرى وغيرها من آلهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة ،  
وفى معلقته :

فلا لعمرُ الذي مسّختُ كعبتهُ وما هُرِّيقَ على الأنصاب من جسدٍ  
فهو يقلس الدماء التي كانت تُصبُّ على الأنصاب .

وكان فيه حكمة ، وهي مبثوثة في شعره ، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرّم  
الخمر والأزلام في الجاهلية<sup>(١)</sup> . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال  
شهرة واسعة في عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً في داخل  
الجزيرة وبين الشعراء ، إذ كانوا يعرضون عليه في المواسم والأسواق أشعارهم .  
قال صاحب الأغاني : « كان يُضربُ للنابعة قُبَّةً من أدمٍ يسوق عكاظ ، فتأتيه  
الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير ،  
ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صَخْرًا لتأتُمُّ الهداةُ بهِ كأنه علمٌ في رأسه نارٌ<sup>(٢)</sup>

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ،  
فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابعة : يا بن أخي  
أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعٌ  
خطاطيفُ حُجْنٍ في حِبالٍ متينةٍ تَمُدُّ بها أيدي إليك نوازِعُ<sup>(٣)</sup>

فخس حسان لقوله<sup>(٤)</sup> . وفي رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له  
أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجفّنات الغرّيمعن بالضحي وأسيافنا يقطرن من نجسدةٍ دما

(١) الحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد)  
ص ٢٣٨ .  
(٢) العلم هنا : الجبل .  
(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة .  
(٤) أغاني ٦/١١ .

حجناه تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن :  
جمع حجناه وهي الموجهة . نوازِع : جواذب .  
ويقصد قصائده التي يستطفه بها .

ولدنا بنى العذقاء وابنى محرقٍ فأكرمنا خالاً وأكرمنا بنا ابناً<sup>(١)</sup>

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقلت أجفانك وأسيافك وفخرت بن ولدت ولم تفخر بمن ولدك<sup>(٢)</sup> . وأكبر الظن أن هذه الزيادة في تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال في جمع التكسير يدلان على القلة . وفي الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء ، وإن كان عبّر بكلمة ولدنا ، فهي مباحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعتمد إلى مثل هذه المباحكة والمغالطة . والمهم في الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألقت نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعيش طويلاً ، فليس في أشعاره أى شيء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف في حقن الدماء بما تحملا من ديات ، ومن ثم كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفي سنة ٦٠٤<sup>(٣)</sup> .

## ٣

## ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له في المجلة الآسيوية ( ١٨٦٨ - ١٨٦٩ ) وقد استخرجها من شرح الشتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا في حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج في نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشتمرى وجدهما في

(٢) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ٣٤٠/٩

والموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

(١) العتقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة القسافى ، ويعرف أن النساسة كالخزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها في فينا وهي شرح البطليوسى . وقد نَشَر في سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان في المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة في مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان آلود في مجموعة الدواوين الستة التي عُنِيَ بها الشتمرى، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشتمرى ، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده منسوباً في كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان في القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشتمرى وإنما بشرح البطليوسى . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بنى ذبيان » وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر في بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهي دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائي وعلقمة الفحل . وقد نشره لويس شيخوف في مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة آلود . ونشره مصطفى السقا في مجموعته «مختار الشعر الجاهلى» وهذه المجموعة كما مر بنا هي نفسها مجموعة الدواوين الستة التي عُنِيَ بها الشتمرى ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التي بثها الشتمرى فيه . وفي دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفي مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك في مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزى . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعمد في دراستنا للشاعر على شرح الشتمرى ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعى أوثق رواة الشعر الجاهلى ، وهي تنهى عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشتمرى بعقبها : « كل جميع ما رواه الأصمعى من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيرة مما رواه غير الأصمعى إن شاء الله تعالى » وهي سبع قصائد رواها عن الطوسى ، وهو إنما يروى عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعى أستاذ البصرة والبصريين . وكأن الأصمعى كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها في روايته ، ومن ثمَّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها في دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعي ،  
ونتخذُه أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضي في رواية الأصمعي حتى نجدُها في حاجة إلى مناقشة ،  
فإن الأصمعي احتفظ فيها بقصيدته في المتجردة : ( أمن آل مية رائح أو معتد )  
مع أنه كان لا يسندُها كما يقول الشنتمري . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن  
لا نقرؤها حتى نجدُها تتضمن غزلاً مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة  
الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً في شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ،  
ولكنه يأتي شذوذاً في هذه القصيدة ، ليدلّل - كما مر في غير هذا الموضع - على  
خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب في غضب النعمان بن المنذر على  
النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزل الماخن الذي يندى له الجبين ، وكأنما  
ضاقَت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج  
النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين في فهم العصر الجاهلي وما كان فيه من  
منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا في درس شعر النابغة  
لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفلك  
أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزمهم هزيمة  
منكرة . وبذلك أفقد النعمان داعيته في ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال  
النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتى إذا دار الزمن وتوفى خصماً ذبيان من  
الغساسنة ، وهما عمرو وأخوه النعمان ، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن  
المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليب القبائل على قبيلته .  
فالموقف كله كان موقفاً سياسياً ، ولم يكن موقفاً شخصياً ، ولذلك كنا نرد قصيدة  
المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين  
علم بمرضه ، ومن ثمّ كنا نشك في قصيدته الرائية التي يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نَعشُهُ      على فتيةٍ قد جاوز الحى سائرا  
ونحن لديه نسأل الله خُلده      يردُّ لنا ملكاً وللأرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً ، ليصوروا لنا النعمان عليلاً ، ونفس أسلوبها وما في  
نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية ، ومن ثمّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التي

تصل بمرض النعمان والتي يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلاً في مطلعها :  
 ألم أقسم عليك لتخبرني أمحمولاً على النعش الهمام  
 وأيضاً فإننا نشك في قصيدته :  
 لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المزلل ما أتاني

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي حين أصاب  
 إبلا للنعمان ، و كلاب عشيرة من عشائر بني عامر ، وهي قيسية مضرية ، ومع  
 ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يمينياً إذ يقول في نهايتها : ( ولكن لا أمانة لليمان )  
 وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمينى ، وكأنما القافية أعوزت في البيت منتحله ،  
 بل متحل القصيدة فدعاه يمينياً ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التي جاءت في  
 رواية الأصمعي ويملؤنا الشك فيها قصيدته :

بانس سعاد وأمسى حببها انجذماً واحتلت الشراع فالأجزاء من إضماً

لأنها نسيب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح في قوله مخاطباً صاحبه :

حيّاك ربى فإننا لا يحلُّ لنا لهو النساء وإن الدين قد عزماً<sup>(١)</sup>

مُشمِّرين على خووصٍ مزنمة نرجو الإله ونرجو البرِّ والطعمأ<sup>(٢)</sup>

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد في رواية الأصمعي ونبقى على سبع عشرة ، ومع  
 إبقائنا عليها لا نُخلِّجها من بعض أبيات أدخلت في روايتها ، فمن ذلك قصيدته العينية  
 التي يعتذر فيها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تَمْضى على هذا النحو :

لعمرى وما عمرى على بهينٍ لقد نطقتُ بطلاً على الأقارع<sup>(٣)</sup>

أقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوه قرودر تبغى من تجادع<sup>(٤)</sup>

أتاك امرؤٌ مستبطن لي بغضة له من عدوٍ مثل ذلك شافع

ورحالم . الطم هنا : الرزق .

(٣) الأقارع : بنو قريع بن عوف .

(٤) تجادع : تشام . ولفظ وجوه منصوب

على اللم .

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزمو عليه . فهو من باب القلب في التعبير .

(٢) مشمرين : جادين . الخوص :

الإبل غائرة العيون . مزنمة : مشودة بأزمتها



أَتَاكَ بِقَوْلٍ هَدَّهْلِي النَّسْجِ كَاذِبٍ      ولم يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعٌ  
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولَهُ      ولو كُتِبَتْ فِي سَاعِدِي الْجَوَامِعُ (١)

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب في هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُفَّاف نظما هجاء في النعمان على لسانه ، فلما علم به فرَّ على وجهه . ونحن ننفي هذه الأبيات عن القصيدة ونبتى على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التي جاءت في معاقته والتي يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشَبِّهه      ولا أحاشى من الأقوام من أحدٍ  
إلا سليمانَ إذ قال الإله له      قم في البرية فاحدُدها عن القند (٢)  
وخيسَ الجِنَّ إنِّي قد أذنتُ لهم      يَننون تَدْمُرَ بالصَّفاحِ والعَمَدِ (٣)  
فمن أطاعك فانفعه بطاعته      كما أطاعك واذلُّه على الرشدِ  
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً      تنهى الظلومَ ولا تقعد على ضمَدِ (٤)  
إلا لملك أو من أنت سابقه      سبقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ (٥)

وواضح أنه يسترسل في الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقد كان وثيقاً على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات أُقحمت على المعلقة إقحاماً (٦) . وقد نسبت إلى النابغة أبيات في غير رواية الأصمعي يقول فيها معتدراً إلى النعمان :

أَتَيْتِكَ عَارِيًّا خَلَقًا ثِيَابِي      على خَوْفٍ تُظَنُّ بِي الظنونُ  
فَأَلْفَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا      كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

(٤) الضمد : الفيظ وشدة الغضب .  
(٥) الأمد : الغاية التي تجري إليها الخيل .  
والبيت معلق بما قبله أي لا تقعد على غيظ  
إلا لمن هو مثلك في الناس أو قريب منك .  
(٦) في الأدب الجاهل ص ٣٣٧ وما بعدها .

(١) كتبت : وضعت . الجوامع : الأغلال .  
(٢) احددها : امنها . القند : الخطأ في  
القول والفعل .  
(٣) خيس : ذلل . تدمر : مدينة الزبء في  
بادية الشام . الصفاح : حجارة عراض . العمد :  
أساطين الرخام .

ونفى الجليظ<sup>(١)</sup> وابن سلام<sup>(٢)</sup> أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسّاً ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها في المعلقة الأبيات التالية التي تصوّر فطنة الإمامة وعدّها الدقيق لحمام طائر في مضيق من الهواء يجعله يشتد في طيرانه ويسرع لإسراعاً :

أَحْكُمُ كَحَكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرْتُ	إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ <sup>(٣)</sup>
يَحْفُهُ جَانِبًا نَيْقٍ وَتَتَّبِعُهُ	مِثْلَ الزَّجَاجَةِ لَمْ تُكْحَلْ مِنَ الرَّمَدِ <sup>(٤)</sup>
قَالَتْ أَلَا لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا	إِلَى حَمَامَتِنَا وَنِصْفُهُ فَقَدِ <sup>(٥)</sup>
فَحَسْبُوهُ فَأَلْفُوهُ كَمَا حَسِبْتُ	تَسْعَاءُ وَتَسْعِينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ
فَكَمَلْتُ مَائَةً فِيهَا حَمَامَتُهَا	وَأَسْرَعْتُ حِسْبَةً فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ

وهي أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصصح بقية المعلقة ، كما نصصح قصائده ومقطوعاته الأخرى التي جاءت في رواية الأصمعي باستثناء ما أتهمناه .

## ٤

## شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى ، فهؤلاء الأربعة في رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء في الجاهلية<sup>(٦)</sup> ، وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقاً هم المجلّون السابقون في اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم في فنونه المختلفة .

في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء . وشبه عين زرقاء الإمامة بالزجاجة في صفتها . لم تكحل من الرمذ : لم يصيبها رمذ فتكحل منه .  
(٥) قد : حسب .  
(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .  
(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ - ٥٠ .  
(٣) فتاة الحى : زرقاء الإمامة . شرع : مجتمعة . الثمد : الماء القليل .  
(٤) يحفه : يحيط به . نيق : جبل .  
وجمل الحمام يمر في جانبي نيق لأنه إذا مر

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب في ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرسهما التي اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ الموثق والديباجة الجزلة . وقد أتيح له أن يعيش في بيتين متحضرتين هما الحيرة وبلاط الغساسنة ، فرق ذوقه وسهل منطقته ولفظه ، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلاً عند إجادته لفضي المديح والاعتذار ، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غَضَّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقيل صلّتهم ونواهم ، وكان في غنى عن هذا القول . « قيل لأبي عمرو بن العلاء : أفن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا ، لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنا من أن يوجه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك<sup>(١)</sup> » .

ويبعد في رأينا أن يكون قد وفد على أبي النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعي يخلو من مدحيهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غَضَّ منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح ، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكبس ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا ، فقد كان سفيرها في بلاطهما . وحقاً إنه يبالغ في مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنهى إلى ذلة نفس ، بل هي المبالغة التي تأتي من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغساني ، وهو يقدم لراثه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان في الصحراء وصيده . وأيضاً ففي شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

(١) أغاني ٢٩/١١ وما بعدها .

وأحلافها من بني أسد وأعدادها من بني عامر ، وبعبارة أخرى في شعره فخر وهجاء ، وفي تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفاته وصدق مودته .

ونحن لا نلمّ بمدحج للغساسنة حتى نؤمن حقاً بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع في معانيه وكيف يستم صوره . وخير مدائحهم فيهم قصيدته البائية ، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم ، يقول :

كِلِينِي لَهُمْ يَا أَمِيمَةً نَاصِبٍ      وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ (١)  
تَطَاوَلَ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُضٍ      وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِآيِبِ (٢)  
وَصَدْرٍ أَرَا حَ الْلَيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ      تَضَاعَفَ فِيهِ الْحَزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ (٣)

فهو محزون في أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها هومها وأشجانها لما وقع في قبضة الغساسنة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمه فيه تصويراً بديعاً ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتى ليظن أن الصبح الذي يرعى النجوم بأضوائه ويحصد ما حصداً لن يؤوب ، والليل يثقل على صدره بما يرد عليه من موجات الهم والحزن . وهي براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسّم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصور . وقد خرج من ذلك ترواً إلى مدح عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلاً عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال في هذا التصوير قائلاً :

إِذَا مَا عَزَّوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ      عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ (٤)  
يُصَاحِبُنَّهُمْ حَتَّى يُغِرْنَ مُغَارَهُمْ      مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالْدمَاءِ الدَّوَارِبِ (٥)

(٣) أراح : رد . العازب : البعيد .

(٤) عصائب : جماعات .

(٥) الضاريات : المتمدات . الدوارب :

المدرية .

(١) كليلي : دعيتي . ناصب : متعب .

بطيء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور

ولا تضي .

(٢) آيب : راجع . وأراد براعى النجوم

الصباح .

- تراهن خَلَفَ القوم خُزْرًا عيونها  
جوانح قد أيقنَّ أَنَّ قبيله  
لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفنها  
على عارفاتٍ للطعان عوايس  
إذا استنزَلوا عنهن للطعن أَرَقَلُوا  
فهم يتساقون المنية بينهم  
يَطِيرُ فُضَاضاً بينها كلُّ قَوْنَسِ  
ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم  
تُورِثُنَ من أزمانِ يومِ حلِمةِ  
تَقْدُ السُّلُوقِ المضاعفَ نَسْجُهُ  
بضرب يُزيل الهام عن سَكَناته  
وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغماسة ،  
تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله :

وترى الطير على آثارنا  
رأى عَيْنِ ثِقَّةٍ أَنَّ سَتْمَارُ (١٢)

- (١) خزر العيون : جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخر عينه . المرانب : ثياب سوداء .  
(٢) جوانح : مائلات للوقوع .  
(٣) الخطي : الرماح . الكواثب : القربوس .  
(٤) عارفات : صابرات . كلوم : جروح .  
دام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .  
(٥) أَرَقَلُوا : أسرعوا . المضاعب : النافرة .  
(٦) بيض : سيوف .  
(٧) فضاضاً : متفرقاً . القونس : أعلى الرأس . فراش الحواجب : عظامها .  
(٨) فلول : ثلوم . قراع : مضاربة .  
(٩) يوم حلِمة : معركة مشهورة انتصر
- فيها الحارث بن جبلة الغساني على المنذر بن ماء السماء .  
(١٠) السلوق : الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن . تقد : تشق . الصفاح : الحجارة ويريد خوذ الجنود . الحجابح : ذباب له شعاع بالليل .  
(١١) الهام : جمع هامة وهي الرأس . سَكَناته : حيث يسكن ويستقر . الإيزاغ : دفع الناقة بولها . الخاض : الحوامل .  
(١٢) انظر ديوان الأفوه ص ١٣ . تمار :
- تعطى الميرة من لحوم القتلى .

غير أن النابغة فصل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهي تشبه في ألوانها ثياب المرانب السوداء التي يلبسها الشيوخ ، وهي تسير خلفهم موقنة بأنها لا بد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد ، وهي لذلك لا تزال جانحة ، عادة عرفتها فيهم لا يخلفونها ولا يطلونها . وقد أعجب القدماء طويلاً بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته<sup>(١)</sup> . ويمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة في الوصف ، وهي دقة استتبعت ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كثوس المنية ، كناية عن جرأتهم في الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يشخون في أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها ملح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس في حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسيوفهم مفلة من طول قراعها ومضاربتها للكثائب . ومثل هذا التعبير الذي سبق إليه يدل على أنه كان يدقق في معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم في يوم حكيمة الذي هُزم فيه المناذرة شرهزيمة ، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة . وقد جعل سيوفهم المفلة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة بروعهم ومرسلة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى لكانه أشعة الجاحب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ المخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة في ميادين الحروب انتقل بصورهم في سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشئائهم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

من الجود ، والأحلامُ ، غيرُ عَوَازِبِ<sup>(٢)</sup>  
قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقبِ<sup>(٣)</sup>

لهم شيمَةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرهم  
محلَّتْهم ذاتُ الإله ، ودينهم

(١) انظر الصناعتين العسكري (طبعة

الجلبي) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجاني (طبعة

الجلبي) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : العقول . عواذب : جمع

عازب وهو الغائب .

(٣) محلَّتْهم : منزلتهم ، ذات الإله : يقصد

كنائسهم .

رَقَاقُ النَّعْمَالِ طَيْبٌ حُجْرَاتُهُمْ  
 يُحْيَوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ (١)  
 وَكَسِيَّةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ (٢)  
 بِخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خُضِرِ الْمَنَاكِبِ (٣)  
 وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرًّا بَعْدَهُ  
 وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرًّا بَعْدَهُ  
 حَبَّوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا  
 بِقَوْمِي وَإِذْ أَعْيَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي (٥)

وهو في أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ في وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا في غير هذا الموضع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحول يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاحة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أعفاء ، يحيون بالأزهار في عيد السباسب أو يوم الشعانين ، وهو من أعياد النصارى ، وهم منعمون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجورهم واستتبع ذلك شرّاً وبلاء فإن في الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت بسبب من أُمير منهم عند مملوحيه ، وكأنه يبيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلا لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع . وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة . وقد نفذ في أثناء ذلك إلى معانٍ حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفعهم وما هم فيه من نعيم . وهو في ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بخواطيرهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة وفي بلاط الغساسنة ،

(٣) الأردن : الأكام . وخلصها :  
 نصوع بياضها .  
 (٤) لازب : لازم .  
 (٥) بها : يريد قصيدته . أعيت مذاهبه  
 عليه : ضاقت ومدت .

(١) الحجزات : معاهد الثياب . طيب  
 حجزاتهم : كناية عن عفتهم .  
 (٢) اللواتد : الجوارى والإماء . الإضريح :  
 الحرير الأحمر . المشاجب : جمع مشجب  
 وهو أعواد تعلق عليها الثياب .

فكان طبيعياً أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق مملوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق في الاعتذار ، وكان ذوقه الحضري هو الذي أعده لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحاً في التلطف محاولاً أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيء فيه . وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها ، مدبجاً في ذلك قصائد طويلاً تُعَبِّدُ من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجاحمة ، فإذا ذنبه يكبر في نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تعتفر ، فإني يقدّم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حِفاظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍ لاصغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضري الذي اكتسبه النابغة والذي جعله يختلف عن معاصريه ويقرب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى المملوحين ويأخذون في التنصل منه ، وتقديم شتى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجع إلى المعلقة فستره يستهلها بوصف أطلال دارمية ، ثم وصف ناقته التي قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتتاً في تصويرها ، ومشبهاً لها بشور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والحيل ومن الجوارى المنعمات ، ثم مضى يستعطفه قائلاً :

فلا لعمرُ الذي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ      وما هُرَيْقٌ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ حَسَدٍ<sup>(١)</sup>  
والمؤمنُ العائذاتِ الطيرِ تَمْسَحُهَا      رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّعْدِ<sup>(٢)</sup>

العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهيجها بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومي.

(١) مسحت : لمست أتمس البركة . هريق : سال . الجسد : الدم . الأنصاب : الحجارة التي كانوا يذبحون عليها قرابينهم للآلهة .  
(٢) المؤمن : الذي آمنها من الخوف .



ما قلتُ من سيِّءٍ مما أتيتُ بهِ  
 إلا مقالةَ أقوامٍ شقيتُ بها  
 إذن فعاقبني ربي معاقبةً  
 أنبتُ أن أبا قابوسٍ أو عدني  
 مهلاً فداءً لك الأَقوامُ كلُّهمُ  
 لا تَقذِفْنِي بِرُكْنٍ لا كِفَاءَ لهِ  
 وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه برىء مما يتهم به من غدر ،  
 ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلَّ يده إن كان ما يقول الوشاة  
 صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقرته وبطشه ، ويمثله أسداً  
 جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ،  
 فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله  
 وولده ، ويقول له لا ترمي بما لا أطيق منك ، وأنت الذى لا يستطيع الأعداء  
 مهما تآزروا أن يشبثوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه  
 فيقول :

فما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ لهِ  
 يمسُّه كلُّ وادٍ مُترَعٍ لَجِبِ  
 يَظَلُّ من خَوْفه المَلَّاحُ مُعْتَصِماً  
 يوماً بأجودٍ منه سَيَّبَ نافلةً  
 ترمى أواديه العبريين بالزَّبَدِ (٦)  
 فيه رُكَّامٌ من اليَنبُوتِ والخَضَدِ (٧)  
 بالخَيْزُرَانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجْدِ (٨)  
 ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دونَ غَدِ (٩)

(٦) مترع: ملوه . لجب : ذوصوت شديد .

الينبوت : شجر . الخصد : المحطم من الأشجار .

(٨) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين :

التعب . النجد : الكرب .

(٩) سيب : عطاء . نافلة : زيادة .

يريد أن عطاءه وفر .

(١) القرع : الضرب .

(٢) الفند : الكذب .

(٣) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .

(٤) أئمر : أنمي وأجمع .

(٥) الكفاء : النظير والمثل . تأفف :

تجمع . الرقد : الجماعات من الناس .

(٦) أواديه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .

هذا الشئ فإن تسمع به حسناً فلم أعرض - أبيت اللعن - بالصفد<sup>(١)</sup>  
 ها إن ذى عذرة إلا تكن نفعت فإن صاحبها مشارك النكد<sup>(٢)</sup>

وقد بدأ فشبهه بالفرات في كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات في ارتفاع فيضانه ،  
 وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية في دقة التصوير ،  
 فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملاً ما يقتلعه من  
 الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصماً في مركبه  
 بسكّانها يخشى الغرق . وقد نبي أن يكون الفرات في فيضانه أكرم من النعمان وأكثر  
 سيباً . ودأماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه  
 يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدّم له هذا الشئ لايغى به نواله ، وإنما يبغي  
 رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره أتى به في مهاوى النكد والهم . ومن بديع اعتذاراته  
 قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وَعَيْدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهٍ      أَنَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ<sup>(٣)</sup>  
 فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةً      مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعُ<sup>(٤)</sup>  
 يَسْهَدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا      لَحَلِّي النِّسَاءُ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ<sup>(٥)</sup>  
 تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سَمِّهَا      تُطَلِّقُهُ طَوْرًا ، وَطَوْرًا تُرَاجِعُ<sup>(٦)</sup>  
 أَنَانِي - أبيت اللعن - أنك لُمْتَنِي      وَتَلِكِ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ<sup>(٧)</sup>

المنطقة قطعاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل .  
 (٥) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام :  
 أطول ليالي الشتاء . السلم : الملدوغ . قعاقع :  
 أصوات . كانوا يجعلون الحل في يد الملدوغ  
 اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .  
 (٦) يقول من خبئها لا تجيب الراق . بل  
 مرة تجيب ومرة لا تجيب . تنادرها الراقون :  
 خوف بعضهم بعضاً منها .  
 (٧) تستك : تضيق .

(١) الصفد : العطاء . أبيت اللعن : تحية  
 كانوا يحيون بها ملوكهم .  
 (٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد :  
 حليف نكد وهم .  
 (٣) في غير - كنهه : كنهه : حقيقته ،  
 يريد على غير ذنب منه . راكس : واد في  
 منازل بني أسد . الضواجع : منحى الوادي .  
 (٤) ساورتني : لدغني . ضيلة : أفعى  
 دقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء ، وهي

وذلك من تلقاء مثلك رائع  
 وهل يَأْتَمَنُ ذُو أُمَّةٍ وهو طائع (١)  
 يَزُرُنَ إِلَّا ، سَيْرُهُنَّ التَّدَاْفِعُ (٢)  
 لهن رذايا بالطريق ودائع (٣)  
 فهنَّ كَأَطْرَافِ الحَنِيِّ خَوَاضِعُ (٤)  
 كَذَى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع (٥)  
 ولا حَلْفِي على السبْرَاءِ نافع  
 وَأَنْتِ بِأَمْرٍ لَا محَالَةَ واقع  
 وَإِنْ خِلْتِ أَنَّ المُنْتَأَى عنك واسع (٦)  
 مَدُّ بِهَا أَيْدِي إِيْلِكَ نَوَازِعُ (٧)  
 وتترك عَبْدًا ظالماً وهو ضالع (٨)  
 وَسَيْفٌ أُعْيِرْتَهُ المنيَّةُ قاطع (٩)  
 فلا التَّكْرُمَ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعٌ (١٠)

مقالةً أَنْ قد قلتَ سوف أَناله  
 حلفتُ فلم أَتركَ لنفسك ريبَةً  
 بمصطَحِبَاتٍ من لَصَافٍ وَثْبَرَةٍ  
 سَمَاماً تُبَارَى الرِّيحَ خُوصاً عيونها  
 عليهنَّ شُعْتُ عَامِدُونَ لِحَجَّهِمْ  
 لكَلَّفْتَنِي ذنبَ امرئٍ وتركتَهُ  
 فَإِنْ كُنْتَ لاذو الضُّغْنِ عني مَكْذَبٌ  
 ولا أَنَا مَأْمُونٌ بشئٍ أَقُولُهُ  
 فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الذي هو مدركي  
 خطاطيفُ حُجْنٌ فِي جبالٍ متينةٍ  
 أَتَوَعَّدُ عَبْدًا لم يَحْنُكَ أمانةً  
 وَأَنْتِ رَبِيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيْبُهُ  
 أَبِي الله إِلَّا عَدْلُهُ ووفاءهُ

- (١) طول السفر . الحنى : القسى . الخواضع :  
 المتطامنة روسها من الأرض .  
 (٥) العر : الحرب . وكانوا يداون الإبل  
 منه بكبها .  
 (٦) المنتأى : المكان الناقى البعيد .  
 (٧) مرشرحه .  
 (٨) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى  
 ظالع وهو الجائر المذنب .  
 (٩) الربيع هنا : الفيث . السيب :  
 العطاء .  
 (١٠) التكر : المنكر . العرف : المعروف .

- (١) أمة هنا : دين .  
 (٢) بمصطحبات : أقسم بالإبل التي  
 تصطحب في المسير إلى الحج . لصف وثبرة :  
 موضعان في ديار تميم . إلال : جبل بعرفة .  
 التدافع : العجلة .  
 (٣) سماما : طائر شديد الطيران شبه به  
 الإبل في سرعتها . خوصاً : غائرات من شدة  
 السير وإجهاده . رذايا : جمع رذية وهي  
 الساقطة إعياء من الإبل . ودائع : مستودعات  
 في الطريق . يريد ما سقط منهن إعياء فترك .  
 (٤) شعث : جمع أشعث وهو المغبر من

وَتُسْقَى إِذَا مَا شِئْتَ غَيْرَ مُصَرِّدٍ بزوراء في حافاتها المسك كانع<sup>(١)</sup>  
وهو في أول هذه الأبيات يقول له : إن وعيدك أتاني وأنا آمن في قومي وبينى  
وبينك منازل بنى أسد ومن وراءهم ، فألمت حفظاً للعهد وبت مسهداً ، كأنما  
لدغنتى أفعى ، وهى صورة بارعة ، وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه ، فهى أفعى  
من الرقش تستودع السم فى أنيابها الحادة ، فمن عضته لم يطف به النوم من شدة  
الألم ، وعلق عليه أهله الحلى والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ . وهى من الأفاعى الخبيثة  
التي قلما أجابت الرقى ، وإن الرقاة والحلوان ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا  
حماها . ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويخلف له بأمانه  
الوثنية ، ويختار هنا الحلف بالإبل التي كانوا يندرونها لآلهم ، ويقف ليعطينا  
صورة عن هذه الإبل ، فهى تقبل على مكة مسرعة سرعة السام ، حتى لكأنها  
تبارى الريح ، وقد أجهدت من السير وطول السفر ، حتى إن بعضها سقط فى  
الطريق إعياء ، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً . وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون  
يقصدون الحج ، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسي الضامرة . وهذا اليمين  
العظيم يقسم به متصلاً مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة  
بمدحهم وبهجوه ، وكان حريئاً به أن ينزل سخطه لا عليه ، وإنما على هذا الواشى  
وإلا فثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السلم يكوى من الحرب ، والأجرب  
راتع بجانبه لا يصيبه كى ولا أذى . وهى صورة أخرى بارعة . ويقول إن كنت  
لا تكذب من يضطغن على ولا تصدق يمينى ولا حلقى فما أحرانى بالرهبة منك  
والخوف من بطشك ، ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليل ،  
لا مفر لشخص من أن يطبق عليه . وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده  
التي يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثبَّتت فى جبال متينة ،  
وأيدى النابغة تمد بها إليه ، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه . ويصور له أمانته وأنه  
لا يخون عهده ، بينما من يختانون هذا العهد يقرَّبهم ويرعاهم ، ويحتم اعتذاره إليه  
بمدحج والثناء عليه ، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه ، وقد

النعمان يشرب فيها . كانع : لاصق .

(١) مصدر : من الصريد وهو الشرب دون  
الرى : زوراء : كأس طويلة من فضة كان

براه الله لرعيته عادلا وفيًا ، لا يلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم ، فهو يشرب في كأس مفضضة مزيج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتدالاته إليه قوله :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى  
فبت كأن العائدات فرشنى  
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة  
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة  
ولكننى كنت امرأ لى جانب  
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم  
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم  
وإنك شمس والملوك كواكب  
فلا تتركنى بالوعيد كأننى  
ألم تر أن الله أعطاك سورة  
ولست بمستبق أخأ لا تلمه  
فإن أك مظلوماً فعبداً ظلمته

وتلك التى أهتم منها وأنصب<sup>(١)</sup>  
هراساً به يعلى فراشى ويقشب<sup>(٢)</sup>  
وليس وراء الله للمرء مذهب  
لمبلغك الواشى أغش وأكذب  
من الأرض فيه مستراد ومذهب<sup>(٣)</sup>  
أحكم فى أموالهم وأقرب  
فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا  
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب  
إلى الناس مطلى به القار أجرب<sup>(٤)</sup>  
ترى كل مدك دونها يتذبذب<sup>(٥)</sup>  
على شعث ، أى الرجال المهذب<sup>(٦)</sup>  
وإن تك ذا عتبي فمثلك يعتب<sup>(٧)</sup>

وواضح أنه يصور نفسه فى أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمرىض ،

- (١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .  
(٢) الهراس : شجر كثير الشوك .  
العائدات : الزائرات فى المرض . فرشنى :  
بسطن لى . يقشب : يجدد .  
(٣) جانب من الأرض : متسع . مستراد :  
يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام  
والغساسة له فى ديارهم .  
(٤) القار : القطران ، وكانوا يداونون به  
الإبل الجربى .  
(٥) السورة : المنزلة . يتذبذب : يضطرب  
ولا يصل إليها .  
(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمه وتضمه .  
(٧) عتبي : رضا . يعتب : يعطى العتبي  
والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويحلف له بأنه برىء مما أتهمه به الواشى ، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده ، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة ، فأكرموه وحكّموه فى أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجّة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه ، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون فى ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً فى نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ما صبّه عليه من غضب بالقار يُصبّ على الأجرى فيتحاماه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هَبْ أن مديحى للغساسنة هفوة واعفُ عني ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهفو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتنى قبلت ظلمك ، وإن أسدلت على عفوك ورضاك فليس غريباً منك ، فنلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه وكيف يسلك إليها شعاباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصّب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً وجراً لا يقبض فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الحرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هدّيه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قدّوتهم .

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغساني ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى ، ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعي النعمان وإن كان سرّاً قيساً لما أثنى فيها بحروبه . وهو يعبر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل ،

ومن ثمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهتوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها في القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضمن بسابق الود ، فقد ظنوا أنه لن يرثي النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال في فؤاده ، ونحس أنه سَعَرَ قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحماً عليه :

سَقَى الْغَيْثُ قَبْرًا بَيْنَ بُصْرَى وَجَاسِمٍ      بَغِيثٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ قَطْرٌ وَوَابِلٌ<sup>(١)</sup>  
ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعَنْبَرٌ      على منتهاه دِيمَةٌ ثم هَاطِلٌ<sup>(٢)</sup>  
وَيُنْبِتُ حَوْذَانًا وَعَوْفًا مُنَوَّرًا      سَاتِبِعُهُ مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قَائِلٌ<sup>(٣)</sup>

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطرًا بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمدد الأمطار بما يُسْتَبْت عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرف . وحقاً كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور من يفقدونهم ، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بذوقه الحضري وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنبت من حول النعمان الأزهار والرياض . وهي صورة حضارية تقابل أختها التي مرت في مديحه لأخيه عمرو .

وقد قدّم لهذه المرثية كما قلنا بالنسيب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسباً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً في مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله في فاتحة معلقته التي أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مِيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ      أَقَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ<sup>(٤)</sup>  
وقفتُ فيها أَصِيلَانًا أُسَائِلُهَا      عَيْتُ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ<sup>(٥)</sup>

- (١) بصرى وجاسم : موضعان بالشام .  
الوسمي : أول المطر . وابل : غزير .  
(٢) منتهاه : قبره . الديمى : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .  
(٣) الحوذان والعوف : نباتان طيبا الرائحة .  
(٤) العلياء والسند : موضعان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .  
(٥) أصيلانا : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَأَيًّا مَا أُبَيِّنُهَا وَالنُّؤَى كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجِلْدَ (١)  
 رُدَّتْ عَلَيْهِ أَقَاصِيهِ وَلِبْدُهُ ضَرَبُ الْوَلِيدَةِ بِالْمِسْحَاةِ فِي الثَّأْدِ (٢)  
 خَلَّتْ سَبِيلَ أَنِيٌّ كَانَ يَجْبِسُهُ وَرَفَعْتُهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فَالْتَضُدِ (٣)  
 أَمَسْتُ خَلَاءَ وَأَمَسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدِ (٤)

وهو يستهلها ببناء دار مية ولا يسمع رجماً لندائه ولا رداً عليه ، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسألها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى . ويطيل في وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حضرته جارية في أرض صلبة ، وما زالت ترد أتربته على حوافيه ، بأسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع في تسمية الأرض التي لم تحفر بالمظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس إزاء الصخر الذي لا يُجْرَثُ ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التي رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرّت الأيام عليها أذيال البلى والعفاء ، كما جرّتها من قبل على لُبْدِ نَسْرٍ لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة ، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حباً ، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك في مقدمته لاعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبه ولكنه لم يكد يقول :

فَكَفَكَفْتُ مَنِيَّ عِبْرَةً فَرَدَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ (٥)

رفعته : أعلته . السجفان : مصراعاً الستر في الخيمة . الضد : المتاع .  
 (٤) أخنى عليها : أصابها بأفات الدهر .  
 لبْد : نسر للقمان يقولون إنه عمر طويل .  
 (٥) كفكف الدمع : مسحه . المستهل : السائل . الدامع : الذي يترقق في العين قبل أن يسقط .

(١) الأورى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النؤى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر . الجلد : الصلبة .  
 (٢) لبده : جمعه . الوليدة : الأمة .  
 الثأد : الثرى الندى .  
 (٣) خلت : شقت . الأني : السيل .



حتى أمسك نفسه ، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . ونراه في معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضاتها ، ثم يأخذ في تشبيهاها بشور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

- مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشَى أَكَارِعُهُ  
طَاوَى الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ (١)
- أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِوَزَاءِ سَارِيَّةٌ  
تُزْجِي الشِّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ (٢)
- فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ ، لَهُ  
طَوْعُ الشَّرَاوِمِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرْدِ (٣)
- فَبَثْنَهُ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَ بِهِ  
صُمْعَ الْكَعُوبِ بَرِيَّاتٍ مِنَ الْحَرْدِ (٤)
- وَكَانَ ضَمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزِعُهُ  
طَعْنَ الْمُعَارِكِ عِنْدَ الْمُحْجَرِ النَّجْدِ (٥)
- شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمِدْرَى فَأَنْفَذَهَا  
طَعْنَ الْمُبَيْطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَضِدِ (٦)
- كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ  
سَفُودٌ شَرِبَ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَأَدِ (٧)
- فَظَلَّ يَعْجَمُ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضًا  
فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقٍ غَيْرِ ذِي أَوْدِ (٨)
- لَمَّا رَأَى وَاشِقُّ إِقْعَاصَ صَاحِبِهِ  
وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلِ وَلَا قَوْدِ (٩)
- قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ إِنِّي لَا أَرَى طَمَعًا  
وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدِ (١٠)

(١) وجرة : موضع بنجد . موشى أكارعته : مزينة قوائمها بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .

(٢) أسرت : جاءت ليلا . الجوزاء : برج في السماء . سارية : سحابة . تزجي : تدفع . الشمال : ربيع الشمال .

(٣) الشراوimt : القوائم ويريد بطوعها إسراعها به . والصد : البرد .

(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضوامر . برييات : برينات . الحرد : العرج .

(٥) ضمران : اسم كلب للصائد . يوزعه : يفرزه . المحجر : حمى القبيلة . النجد : الشجاع .

(٦) العضد : اللحم . نسوه : تركوه . مفتأد : موضع النار الذي يشوى فيه .

(٧) سفود : يعجم : يملك . صدق : صادق في الطعن . أود : عوج .

(٨) واشق : اسم كلب آخر للصائد . الإقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .

(٩) المولى : الناصر . يسلم هنا : يأمر .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى في الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماء من برَدٍ لا ينقطع . ولم يلبث أن دُعر ذِعراً شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه ، فأسرع في جَرِّه ، ولحاه القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغى من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضمران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور لإبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان ينبغي ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسب السابق ، لما بثَّ النابغة في الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه ، فالثور خائف يتربص ، والكلاب طامعة تتربص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه . ويُقتل ضمران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحدثه نفسه بأنه يطمع في غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به في مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته في التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها في نسيج الأبيات .

وفي ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بني أسد من حِلْفٍ وبينها وبين بني عامر من حرب ، وهو في هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه في المديح والاعتذار والثناء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتأدى فيه ، وخاصة في الهجاء ، وأقرأ له هذه الأبيات في عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوهُ :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مَطِيَّةَ الجهل السَّبَابُ

فَكُنْ كَأَبِيكَ أَوْ كَأَبِي بَرَاءَ تَوَافَقْتُكَ الْحَكُومَةُ وَالصَّوَابُ<sup>(١)</sup>  
 وَلَا تَذْهَبُ بِحَلْمِكَ طَامِيَاتٌ مِنْ الْخِيَلَاءِ لَيْسَ لَهُنَّ بَابٌ<sup>(٢)</sup>  
 وَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنْهَى إِذَا مَا سُبَّتَ أَوْ شَابَ الْغُرَابُ<sup>(٣)</sup>

وهي أبيات تخلو من الإقذاع في الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعمد فيها بذوقه الحضري إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحمق ، ويصغر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله في أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثاني في البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكمة عند النابغة يأتي بها في ثنايا شعره وقصيده ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالببيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها ، ومن رائعها قوله :

وَلَسْتَ بِمَسْتَبِقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْدَبُ

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكمة على صدق نظره ودقة حسه .

وجوانب كثيرة في شعر النابغة تفصح عن مهارته في صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صورته ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة في دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغربية حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشي ، أما حين يمدح المملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسي يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً<sup>(٤)</sup> » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقَوَّى في شعره محتجين على ذلك بببيت في قصيدة المتجردة التي وضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروي ، بينما رويها المطرّد مكسور ، ورووا في ذلك قصة ، هي أن النابغة قدم

(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك

مثلا لعامر وأنه لن يحلم أبداً .

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص

٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١٠٨/١ .

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب

الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل .

(٢) طاميات : فانصات ومرتفعات . ليس

لهن باب : لا يخرج منهن .

يُثرب ، فعاب عليه أهلها ذلك في قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه في غناء ، فظنن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك (٢) . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحفل على النابغة ، فحرى أن تكون القصة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهى عناية أتاحت له كثرة الخواطر في اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك في تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجع إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبلفنى النعمان إن له فضلا على الناس فى الأدنى وفى البعد

وكذلك صنع فى اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلاً ، إذ قال إنه كفَّ عن التشبيب والحب لشبيهه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌ دون ذلك شاغلٌ مكان الشِّغاف تبتيغيه الأصابع (٢)

وعيدٌ أبى قابوس فى غير كُنْهه أنانى ودونى راكس فالضَّوامج

وهذه العناية البالغة بالمعاني والألفاظ كان يؤازرها عنده عناية بالصور وما يطوى فيها من تشبيهات واستعارات؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التى تخلب لبُّه ، وخاصة حين يتصلَّ للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعظفاً مسترحماً . وكان له ذوق جيد فى اختيار صورهِ ومعانيهِ جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التى نعيمَ بها فى الحيرة وبلاط الغساسنة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتى فى مديحه ورثائه بمعان حضارية غير مألوفة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هى صفحة

(٢) الشفاف : حجاب القلب .

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغانى

(طبعة دار الكتب) ١٠/١١ .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجري فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ،  
وتسربت من ذلك أسراب في جميع موضوعات شعره ، حتى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التي تتمثل في وقاره  
وارتفاعه عن الدنيات ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحيفاه الشديد على العهد  
وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التي احتلها في العصر الجاهلي وأسبابها ،  
إذ جعلوه محكماً بين الشعراء في عكاظ كما قدمنا ، وكأنه في رأيهم الشاعر الفذ  
الذي لا يُشَقُّ غباره والذي لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثمَّ كان حكمه  
قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .

## الفصل التاسع

### زهير بن أبي سلمى

١

#### قبيلته

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني ، فأبوه من قبيلة مزينة ، وكانت تجاور في الجاهلية بني عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون في الحاجر بينجد شرق المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبيه ربيعة . ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمناً مع أمه ، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيبي وأصابوا نعاماً كثيراً وأموالاً ، ولما رجعوا لم يفردوا له سهماً في غنائمهم ، فغاضبهم وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة ، ثم لم يلبث أن أقبل في جماعة منها مغيراً على عشيرة أخواله ، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله ، ولم يزل فيهم حتى توفى ومن ثم ولد له زهير وأولاده في منازل بني مرة وبني عبد الله بن غطفان<sup>(١)</sup> . وكان ذلك سبباً في أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أن زهيراً غطفاني القبيلة<sup>(٢)</sup> ، وهو في الحقيقة مزني النسب غطفاني النشأة والمزني ، وقد صرح ابنه كعب بهذا النسب إذ يقول في بعض شعره رداً على مزرد بن ضرار وقد عزاه إلى مزينة<sup>(٣)</sup> :

هم الأصل مني حيث كنت وإنني من المزنيين المصفين بالكرم  
ويظهر أن ربيعة لم يعش طويلاً في عشيرة أخواله ، ويقول الرواة إن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حنجر الشاعر التيمي المشهور . وهنا يلعب في حياة زهير اسم خاله بشامة بن الغدير ، فقد كفله هو وإخوته ، ونعرف منهم سلمى كما نعرف أخرى تسمى الخنساء .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٩١/١٠

لابن قتيبة ٨٦/١ .  
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٨  
وما بعدها .

(٢) انظر ترجمة زهير في الشعر والشعراء

وقد عاش زهير في خلال هذه الحروب التي نشبت بين عبّس وذُبيان، حروب داحس والغبراء التي سبق أن تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وقد أسهمت عشيرة أخواله ، في تلك الحروب واصلت ناراها . وأيضاً فإنها صليت نيران حروب أخرى كانت تنشب بينها وبين بعض العشائر الذيبانية ، وفي شعر خاله بِشامة ما يصور تلك الحروب الأخيرة ، فقد رَوَى له صاحب المفضليات قصيدتين يحرض فيهما عشيرته أن لا يخذلوا حلفاءهم «الحُرّة» وأن يقفوا معهم ضد بعض العشائر من بني سعد بن ذبيان . ومعنى ذلك أن الأيام التي عاشها زهير في عشيرة أخواله الذيبانيين لم تكن أيام استقرار وأمن ، إنما كانت أيام حروب وسفك للدماء، فدائماً تُشَنُّ الغارات، ودائماً تجيش القلوب بالأضغان، فتُسَلُّ السيوف وتُقَطَّع الرقاب. ويعودون من حروبهم دائماً إلى رعى الإبل والأغنام، وإلى صيد بعض الحيوان ، شأن القبائل النجدية في العصر الجاهلي .

وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبّد في الجاهلية العُزَيّ، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها ، وتُهدى القرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث ، وقد يقولون إنه كان في الكعبة وثن . وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العُزَيّ ، وكان من حوله شجرات يقُدسونها<sup>(١)</sup> . ومهما يكن فقد كانوا وثنيين ، وظلوا على وثنيّهم إلى ظهور الدين الحنيف .

## حياته

ليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش في منازل بني عبد الله ابن غطفان وأخواله من بني مرة الذيبانيين ، وفي كنف خاله بِشامة بن الغدير ، وكان شاعراً مجيداً كما كان سيداً شريفاً ثرياً ، يقول ابن سلام : « وكان كثير المال ، وكان

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٩٧/٥ وما بعدها .

من فقاً عَيْنَ بَعِيرٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَلَكَ أَلْفَ بَعِيرٍ فَقَامَ عَيْنَ فَحَلَّهَا (١)». وَكَانَ بَشَامَةَ مِنْ أَحْزَمِ النَّاسِ رَأْيًا فَكَانَ قَوْمُهُ يَسْتَشِيرُونَهُ وَيَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ جَعَلَ يَقْسِمُ مَالَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَعْطَى زَهِيرًا نَصِيبًا مِنْهُ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ لَهُ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَالِ، فَقَالَ زَهِيرٌ: مَا هُوَ؟ فَقَالَ لَهُ: شَعْرِي (٢)، وَهُوَ لَمْ يَرِثْ عَنْهُ شَعْرَهُ وَمَالَهُ فَقَطْ، بَلْ وَرِثَ عَنْهُ أَيْضًا خَلْقَهُ الْكَرِيمَ. وَفِي أَحْبَابِهِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَتَيْنِ: أُمِّ أَوْفَى وَهِيَ الَّتِي يَذْكُرُهَا كَثِيرًا فِي شَعْرِهِ، وَيُظْهِرُ أَنَّ الْمَعِيشَةَ لَمْ تَسْتَمِمْ بَيْنَهُمَا، فَطَلَّقَهَا بَعْدَ أَنْ وُلِدَتْ مِنْهُ أَوْلَادًا مَاتُوا جَمِيعًا. وَالثَّانِيَةُ الَّتِي تَزَوَّجَهَا مِنْ بَعْدِهَا هِيَ كَبْشَةُ بِنْتُ عِمَارِ الْغَطَفَانِيَّةِ، وَهِيَ أُمُّ أَوْلَادِهِ: كَعْبٌ وَبُجَيْبٌ وَسَالِمٌ، وَمَاتَ سَالِمٌ فِي حَيَاتِهِ وَرِثَاهُ بَعْضُ شَعْرِهِ (٣).

وَهُوَ يَتَحَدَّثُ فِي شَعْرِهِ طَوِيلًا عَنْ حُرُوبِ دَاخِسِ وَالْغُبَرَاءِ مَشِيدًا بِهَرَمِ بْنِ سَنَانَ وَالْحَارِثِ بْنِ عَوْفِ سَيْدِي بِنِي مَرَّةِ الَّذِينَ حَقَّقْنَا دِمَاءَ عَبَسٍ وَذُبْيَانَ بَعْدَ أَنْ طَالَ عَلَيْهِمَا الْأَمَدُ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ، إِذْ تَحَمَّلَا دِيَاتِ الْقَتْلِ، وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ بَعِيرٍ أَدْيَاهَا فِي ثَلَاثِ سِنِينَ (٤). وَاعْتَدَّ زَهِيرٌ بِهَذِهِ الْمَنَةِ الْجَلِيلَةِ فَأَشَادَ بِهَا فِي مَعْلَقَتِهِ، وَظَلَّ طَوَالَ حَيَاتِهِ يَمْدَحُ هَرْمًا وَيَمْجِدُهُ، وَهَرَمٌ يُغْنَدُقُ عَلَيْهِ (٥). وَبِذَلِكَ أُعْطِيَ كُلُّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ خَيْرَ مَا يَمْلِكُ، وَقَدْ ذَهَبَ مَا أُعْطَاهُ هَرَمٌ لَزَهِيرٍ مَعَ الزَّمَنِ، أَمَا مَا أُعْطَاهُ زَهِيرٌ هَرْمًا فَخَلَدَ عَلَى الْأَيَّامِ. وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى فِي هَذَا الصَّدَدِ أَنَّ هَرْمًا «حَلَفَ أَنْ لَا يَمْدَحُهُ زَهِيرٌ إِلَّا أُعْطَاهُ وَلَا يَسْأَلُهُ إِلَّا أُعْطَاهُ وَلَا يَسْلَمُ عَلَيْهِ إِلَّا أُعْطَاهُ: عَبْدًا أَوْ وَليدَةً أَوْ فَرَسًا، فَاسْتَحْيَا زَهِيرٌ مِمَّا كَانَ يَقْبَلُ مِنْهُ، فَكَانَ إِذَا رَأَاهُ فِي مَكَلٍّ قَالَ: عَمُوا صَبَاحًا غَيْرَ هَرَمٍ، وَخَيْرِكُمْ اسْتَشْنَيْتَ (٦)». وَنَرَاهُ يَشِيدُ بِمُحَمَّدِ بْنِ حَذِيفَةَ سَيْدِ بِنِي فِزَارَةَ الْغَطَفَانِيِّينَ، وَخَاصَّةً بِمُجْرُوبِهِ مَعَ أَحْلَافِهِ بِنِي أَسَدٍ ضِدَّ النُّعْمَانَ بْنِ الْحَارِثِ الْغَسَّانِيِّ وَمَا أَنْزَلُوا بِجِيُوشِهِ مِنْ هَزَائِمٍ مُنْكَرَةٍ (٧). وَليْسَ فِي دِيْوَانِهِ وَرَاءَ حُرُوبِ حِصْنِ وَحُرُوبِ دَاخِسِ وَالْغُبَرَاءِ إِشَارَةٌ إِلَى غَارَاتِ سُورَى مَا كَانَ مِنْ غَارَةِ الْحَارِثِ بْنِ وَرَقَاءِ الْأَسَدِيِّ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى عَشِيرَتِهِ، وَقَدْ أَخَذَ فِيهَا أَخْذَ

(٥) أغاني ٣٠٥/١٠  
 (٦) أغاني ٣٠٥/١٠  
 (٧) انظر ديوان زهير (طبعة دار الكتب)  
 ص ١٤٣ ومختار الشعر الجاهلي للسقا ص ٢٤٥.

(١) ابن سلام ص ٥٦٣  
 (٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١٢/١٠  
 (٣) أغاني ٣١٣/١٠  
 (٤) أغاني ٢٩٧/١٠



إبلاً و غلاماً لزهير يسمى يساراً . وغضب زهير غضباً شديداً، وهدده إن لم يردّ عليه إبله أن يهجوّه هجاء مقدعاً ، مذكراً له بما بين عشيرتهما من موثيق وعهود نقضها نقضاً ، ونخشي الحارث مرة لسانه وما يصبُّ عليه من لعنات فرد عليه ماله و غلامه<sup>(١)</sup> .

وتدل الدلائل على أنه عاش في سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدّم له هرم وغيره من أشراف قبيلته من أموال . وكان فيه توقر ونبيل ، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر ، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن . ومن غير شك كان وثيقاً ، مثله مثل قومه ، وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، يقول في معلقته :

فلا تَكْتُمَنَّ اللهُ ما في نفوسكم ليخفي ومهما يُكْتَم اللهُ يعلم  
يوخّرُ فيوضُ في كتابٍ فيُدْخَرُ ليوم الحساب أو يعجّلُ فيُنْقَمُ

وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلاً على أنه أحد من تحنقوا في الجاهلية وشكوا في دينهم الوثني<sup>(٢)</sup> وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه ، إنما هي خطرات كانت تمر به .

وحياة زهير\* من الوجهة الأدبية طريفة ، فقد كان أبوه شاعراً، وكذلك كان خاله كما قدمنا ، وأختاه سلمى والخنساء ، وورث عنه الشعر ابناه كعب وبُجَيْرٌ ، واستمر الشعر في بيته أجيالاً ، فقد كان عقبة بن كعب شاعراً ، وكان العوام ابن عقبة شاعراً أيضاً<sup>(٣)</sup> ويقولون إنه رحل عن البادية وأقام في البصرة .

فنحن بإزاء شاعر اتصل الشعر في بيته اتصالاً لم يعرف لشاعر جاهلي ممن عاصروه ، وليس هذا فحسب ، فإنه عاش للشعر يعلمه ابنه بُجَيْراً وكعباً من جهة ، وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الخطيئة ، فهو تلميذه وخريجه .

(٣) مقدمة ديوان زهير ( طبعة دار الكتب )  
ص ٩ وقارن بالأغاني ٣١٤/١٠ والشعر  
والشعراء ٩٢/١ .

(١) أغاني ٣٠٧/١٠ وما بعدها .  
(٢) انظر في ذلك المجرى لابن حبيب  
ص ٢٣٨ حيث يذكر أنه كان من حرموا  
على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام .

وفي أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التي كان يُخرج بها الشعراء، فقد كان يلقنهم شعره ويروونه عنه ، وما يزالون يتلقنونه ، حتى تنطبع في أنفسهم طريقة نَظْم الشعر وصوغه ، وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم ، بما يلقي عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها ، بنظم بيت على غرار البيت الذي ينشده في الوزن والقافية (١) . ويظهر أنه مُعَمَّر طويلاً إذ يقال في بعض الروايات إنه أدرك الإسلام وله مائة سنة ولم يسلم (٢) ، ولكن إدراكه الإسلام غير صحيح ، إنما الصحيح أنه مات قبيل الإسلام بمدة قليلة ، والذي أدرك الإسلام حقاً ابنه بجير وكعب ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، وكعب قصيدة معروفة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي ذائعة مشهورة .

## ٣

## ديوانه

طُبِعَ ديوان زهير طبعات مختلفة ، لعل أقدمها طبعة ألوارد في مجموعة العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ومرّ بنا - في حديثنا عن ديوان امرئ القيس - أنه استخرجها من شرح الشنتمري للدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنزة ، وهي برواية الأصمعي غير أنه جردها من الشرح وأضاف إلى تلك الدواوين أشعاراً أخرى مما وجدها في كتب الأدب والتاريخ . ونشر الديوان لندبرج السويدي بشرح الشنتمري سنة ١٨٨٩ في سلسلته التي سماها « طرفا عربية » ، ومكانه فيها الطرفة الثانية ، وطُبِعَ بعد ذلك في مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج ؛ ونشره مصطفى السقا في مجموعته مختار الشعر الجاهلي ، وهي تتضمن كما مرّ بنا نفس الدواوين الستة التي شرحها الشنتمري ، وقد أضاف إليها شرحاً مختصراً من شرح الشنتمري . ونُشرت هذه الدواوين برواية الأعلام البطلديوسي ، وهي تلتقي برواية الشنتمري عنده ، وكأنه هو الآخر عُنِيَ في عمله برواية الأصمعي .

وواضح أن هذه الطبقات تعتمد على رواية الأصمعي البصرية ، وكانت هناك مخطوطات عدة لرواية ثعلب الكوفية بدار الكتب المصرية ، ورأى القائمون فيها أن ينشروا هذه الرواية ، مستعينين بنسخة منها قديمة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية في هله ، وظهر الديوان بهذه الرواية في سنة ١٩٤٤ للميلاد .

وإذن فعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان : رواية الأصمعي البصرية ورواية ثعلب الكوفية ، وتمتاز الأولى بالثشد ، فهي لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيا الشتتمرى بقوله : « كمل جبيع ما رواه الأصمعي من شعر زهير ونصل به بعض الروايات » ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة في ثانيتهما<sup>(١)</sup> . وإذا نظرنا في رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصائد والمقطوعات ، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبي المعروفين بكثرة الوضع . ومن ثمّ كنا لا نستطيع أن نتخذ من الرواية الكوفية أساساً وثيقاً لدراسة زهير ، فنحن نرفضها رفضاً ، متخذين من رواية الشتتمرى أو بعبارة أخرى رواية الأصمعي أساساً لبحثنا في زهير وشعره ، وإذا كان هناك قصيدة يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة فهي القصيدة التي تليها في رواية الشتتمرى ، إذ يظهر أنها صحيحة النسب إلى زهير<sup>(٢)</sup> . وقد يكون مما يؤكد صحة شعر زهير برواية الأصمعي أن الشعر كما قدمنا اتصل في ولده أجيالا ، وأن آخرهم العوام نزل البصرة وأقام فيها ، وأكبر الظن أن أبناءه ظلوا يروون شعره حتى أسلموه أو أسلمه العوام إلى رواة البصرة وعلمائها .

وإذا أخذنا نفحص رواية الأصمعي التي تحتفظ بثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة وجدنا الشتتمرى<sup>(٣)</sup> ينقل عنه أنه كان ينكر ثلاثاً منها ، هي : (أبلغ بنى نوفل عنى وقد بلغوا) و (أبلغ لديك بنى الصيّداء كلهم) و (ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى) وكان أبو عبيدة ينكر مقطوعته : (إن الرزية لا رزية مثلها)

المصرية رقم ٨١ أدب ش وفي الخزانة التيمورية  
بدار الكتب نسخة ثانية برقم ٤٥٠ أدب  
- شعر تيمور .

(١) انظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص ١٩٣ .  
(٢) أغاني ٢٨٩/١٠ وفي الديوان ص ٢١٩  
أن المفضل الضبي كان يروها .  
(٣) راجع مخطوطة الشتتمرى بدار الكتب

ويقول إنها لقُرَاد بن حَسَن من شعراء غطفان<sup>(١)</sup>. ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعي سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة ، تضاف إليها القصيدة التي رواها المفضل واحتفظ بها الشنمري ، وهي : (غَشِيْتُ دياراً بالبقيع وثهمد). على أنه ينبغي أن نسقط من قصيدته (لمن الديار بقنَّة الحَجَر) الأبيات الثلاثة الأولى لأن حماداً زادها فيها كما مر بنا في حديثنا عن الانتحال . وقد شك الأصمعي في الحِكم الملققة بالمعلقة وقال إنها لِصِرْمَة بن أبي أنس<sup>(٢)</sup> الأنصاري ، ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها ، نظمها صرمة ، وسرى أن زهيراً كان يكثر من الحِكم في شعره .

## ٤

## شعره

لعل الشعر الجاهلي لم يعرف شاعراً عُنِيَ بتتقيقه عناية زهير ، وقد ذهب القدماء يقولون إنه كان يَرَوِي شعر زوج أمه أوس بن حَجَر الشاعر القيمي المشهور ، كما كان يروي شعر طُفَيْل الغنوي<sup>(٣)</sup> المعروف ببراعته في وصف الخيل والصيد ، وأيضاً فإنه كان يروي شعر خاله بَشَامَة بن الغدير<sup>(٤)</sup> . وهم لا يقفون بملاحظاتهم عند ذلك ، إذ يقولون إنه خَرَجَ ابنه كعباً في الشعر كما خرج الخطيئة<sup>(٥)</sup> .

فنحن إذن بإزاء شاعر ممتاز ، عاش للشعر يرويه ويعلمه ، أو بعبارة أخرى نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والخطيئة ، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقي تأثره في شعره من بين الثلاثة الذين ذكروهم وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه ، فإنه يتأثره في جميع جوانب فنّه ، يتأثره في الموضوعات التي عاجلها وفي طريقة معالجته لها ، وفيما يصوغه من معانٍ وصور ، وسنشير إلى مواضع ذلك عما قليل .

(٤) أغاني ٣١٢/١٠ .

(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ .

٩١/٨ والشعر والشعراء ٩٣/١ .

(١) ابن سلام ص ٥٦٨ .

(٢) المعمرين للسجستاني ص ٦٦ .

(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية)

١٣٢/١ وانظر الشعر والشعراء ٨٦/١ .

وإذا أخذنا نستعرض شعر زهير وجدناه يَنْظُم في المديح والغزل ووصف الصيد والهجاء ، وفي تضاعيف ذلك يجنح إلى الحكمة ووصف مكارم الأخلاق . وإذا أبدلنا المديح بالتأبين كانت هذه الموضوعات هي نفسها التي يدور فيها شعر أوس ، فإنه لم يؤثر عنه مديح إلا أبياتاً متفرقة ، وإذا كان مديحه فُقد فإن تأبينه خلد على الزمن ، وقد أنشدنا منه قطعة في غير هذا الموضع ، وهو يلتقي فيه بزهير حين يشيد بفضائل فضالة بن كسلدة ومناقبه ، التي يعود بها إلى المثل العربي الكريم للمرأة .

وتلمع بين مدائح زهير معلقته ، وقد نظمها مشيداً بهرم بن سنان والحارث بن عوف حين سعي بالصلح بين ذبيان وعبس فأعلنا أنهما يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحُصَيْن بن ضَمْضَم عبيساً ثاراً لأخيه هرم بن ضَمْضَم ، وكان قتله ورد بن حابس العبسي ، فثارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جنداً عتياً ، وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده ، فقبلوا الدية ودخلوا في الصلح ، وانتهت الحرب الدامية . وهنا نرى زهيراً يشيد بهذه المكرمة الجليلة ناعياً على حُصَيْن فعلته التي كادت تودي بفكرة الصلح ، لاهجاً بالثناء على السيدين وما قدما للقبيلتين من ديات حقنت الدماء ، يقول :

يميناً لنعمَ السيدانِ وَجِدْتُمَا  
تداركُمَا عَبْساً وَذُبْيَانَ بعد ما  
وقد قلتما إن نُدْرِكَ السُّلْمَ واسعاً  
فأصبحتما منها على خير مَوْطِنٍ  
عظيمين في عُلْيَا معدٍّ وغيرها  
على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبرَمٍ (١)  
تفانوا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمٍ (٢)  
بمالٍ ومعروفٍ من الأمرِ نَسَلَمَ  
بعيدين فيها من عُقوقٍ ومَأْتَمٍ (٣)  
ومن يَسْتَبِحُ كَنزاً من المجدِ يَعْظُمُ (٤)

٣٣٠  
(٣) يريد أنهما لم يشتركا في تلك الحروب ،  
فهما يؤديان عن غيرهما الديات .  
(٤) يريد بعليا معد رؤساءها وأشرفها .  
يعظم : يصبح عظيماً .

(١) السحيل : غير المبرم . يريد أنهما خير  
عشيرتهما في كل أمر ، أبرماه أو لم يبرماه .  
(٢) منشم : امرأة عطارة كانت في مكة ،  
غمس قوم أيديهم في عطرها وتعاهدوا على الحرب  
حتى فتوا عن آخرهم . يشبه قبيلتي عبس وذبيان

وجعلته هذه المأثرة يشيد بالسلم والسلام ، فكان بذلك شذوذاً على ذوق الجاهليين وأشعارهم التي تدوى بفكرة الأخذ بالثأر والترامى على الحرب ترامي الفراش على النار . وقد مضى يصور الحرب في صورة بشعة ، فيقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقمتم<sup>(١)</sup> وما هو عنها بالحديث المرجم<sup>(١)</sup>  
 متى تبعثوها تبعثوها ذميمة<sup>(٢)</sup> وتضر إذا أضر يئتموها فتضرم<sup>(٢)</sup>  
 فتغر كركم<sup>(٣)</sup> عرك الرحى بثفالها وتلقح كشا فأنتم تحيل فتتئم<sup>(٣)</sup>  
 فتنتج لكم غلمان أشام<sup>(٤)</sup> ، كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم<sup>(٤)</sup>  
 فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم<sup>(٥)</sup>

وأنت تراه يصور الحرب في صور مخيفة قبيحة ، فهي تارة أسد ضار ، وتارة ثانية نار مشتعلة ، وتارة ثالثة رحى تطحن الناس ، وتارة رابعة تلد ، ولكنها لا تلد إلا ذراري شوم . ووسع التهكم ، فقال إنهم يربحون منها ما لا يربحه أهل العراق من الغلال والدرهم ، وهو بذلك يدعو إلى السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب والمعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التي تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة . ونراه يصور ما هم فيه من بوار تصويراً بديعاً ، فيقول :

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا غماراً تسيل بالرماح وبالدم<sup>(٦)</sup>  
 فقصوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلاً مستوبل متوخم<sup>(٧)</sup>

فهم بحروبهم المستعرة كأنهم يرعون مراعى وخيمة وبيلة في سلمهم . وسرعان ما يردون موارد لا تشفى غليلهم ، موارد تزخر بالرماح والدماء .

(٤) أشام : مشوم ، وأحمر عاد : أراد أحمر ثمود وهو قدار عاقر الناقة ، وكان شوباً لقبوه .  
 (٥) القفيز : مكيال في العراق .  
 (٦) الظمأ : ما بين الوردتين أو الشريتين ، والغمار : المياه الكثيرة .  
 (٧) أصدروا : رجعوا ضد أوردوا ، مستوبل : مستثقل ، ومثلها متوخم أى إنه كرهه تعافه الإبل .

(١) المرجم : المظنون .  
 (٢) تبعثوها : تهيئوها ، قضر : من ضرى الأسد إذا تهيأ للفريسة ، وأضرى : درب وعود ، وقضرم : تشتعل .  
 (٣) عرككم : تطحنكم ؛ الثفال : جلد يجعل تحت الرحى حين تطحن ، ومن أجل ذلك ذكره ، يريد أنها طاحنة وتلقح كشافاً : تحمل كل عام ، وذلك أردأ النتائج . تتئم : تلد تووماً .

نحن إذن بإزاء شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهلي شخصية فيها برٌّ ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير . وليس معنى ذلك أنه تخلص في مديحه لهرم ابن سنان وابن عمه الحارث بن عوف من الصورة الجاهلية التي تشيد بالشجاعة والكرم المتهور ، فنحن نراه في قصيدة ثانية يتحدث عنهما وعن عشيرتهما على هذه الشاكلة :

طوالَ الرِّمَاحِ لِأَضْعَافٍ وَلَا عَزْلٌ <sup>(١)</sup>	إِذَا فَرَعُوا طَارُوا إِلَى مُسْتَغِيثِهِمْ
جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا	بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ
وَكَانُوا قَدِيمًا مِنْ مَنَابِيهِمُ الْقَتْلُ	وَإِنْ يُقْتَلُوا فَيُسْتَتَفَى بِدِمَائِهِمْ
سَوَابِغٌ بِيضٌ لَا تُحَرِّقُهَا النَّبْلُ <sup>(٢)</sup>	عَلَيْهَا أَسْوَدُ ضَارِيَاتٍ لَبُوسِهِمْ
ضَرُوسٌ تُهَرِّ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عَصْلُ <sup>(٣)</sup>	إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضَرَّةٌ
يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطَبَ الْجَزْلُ <sup>(٤)</sup>	قُضَاعِيَّةٌ أَوْ أُخْتُهَا مُضَرِيَّةٌ
لَهُمْ نَائِلٌ فِي قَوْمِهِمْ وَلَهُمْ فَضْلُ <sup>(٥)</sup>	هُمُ خَيْرٌ حَىَّ مِنْ مَعَدِّ عِلْمَتِهِمْ

وهو يصف سيدى بنى مرة وعشيرتهما بالشجاعة ونجدة من يستغيث بهم ، حتى ليكادون يطرون إليه طيراناً بسوا بقهم وخيلهم وكأنهم جنّة . وانظر إليهم حين تدور المعارك فستراهم أسوداً ضارية ، لا يرهبون الموت ، حين تشتد الحرب وتعض الناس بأنيابها وتحرقهم بنيرانها . وهم يحاربون في كل مكان ، لا يخشون أحداً ، يحاربون قضاة ومضراً . وهم يضيفون إلى هذه الشجاعة كرمًا مفرطاً ، وفي كل قبيل منهم ثار ، ومن ثم كانوا يُسْتَتَفَى بِدِمَائِهِمْ ، إنهم خير معد شجاعة وكرمًا فياضاً . ولا يلبث زهير أن يقول :

شديدة . تهر الناس : تخيفهم . عصل : قوية  
تطحن طحنًا .  
(٤) الجزل : الغليظ ضد الرقيق .  
(٥) النائل : العطاء .

(١) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .  
(٢) لبوسهم سوابغ : لبسهم دروع تامة .  
(٣) لقيحت : حملت ، يريد اشتدت . حرب  
عوان : مكررة قوتل فيها مرة بعد مرة . ضرّوس :

إذا السنةُ الشهباءُ بالناسِ أجمعتُ  
 رأيتَ ذوى الحاجاتِ حولَ بيوتهم  
 هنالك إن يُستَخْبَلوا المالُ يُخْبَلوا  
 وفيهم مقاماتُ حسانٌ وجوههم  
 على مُكثريهم رِزْقُ من يعترهمُ  
 وإن جثتهم ألفتِ حولَ بيوتهم  
 وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعدٌ  
 وما يكُ من خَيْرِ أتوه فإنما  
 وهل يُنبتُ الخطيُّ إلاّ وشيجهُ

ونال كرامَ المالِ في الحَجْرَةِ الأَكْلُ (١)  
 قَطِيناً بها حتى إذا نَبَتَ البَقْلُ (٢)  
 وإن يُسألوا يُعْطوا وإن يَسِرُوا يُغْلوا (٣)  
 وأنديّةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ (٤)  
 وعند المُقْلين السّامحةُ والبذلُ (٥)  
 مجالسٌ قد يُشْفى بأحلامها الجهلُ (٦)  
 رَشَدتْ؛ فلا عُرمٌ عليك ولا خَذْلُ (٧)  
 توارثه آباءُ آباءهم قَبْلُ  
 وتُغرسُ إلاّ في منابتها النّخلُ (٨)

وهو يستمر هنا في مديحه لهم بالكرم في السنين المجدية ، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم ، وكلما سألوهم شيئاً وهبوه لهم ، وهم في أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم ، حتى يطعموها السائلين والمحتاجين . ولما استتم هذه الصورة وصفهم بجمال الوجوه وجمال الكلام في مجالسهم ، ولم يُخجل مكثرأً ولا مقلاً منهم من سماحة وفضل وبيرو . وأشاد بمجالسهم ، وأنهم عقلاء حلما يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء . وهم متعاونون ، إن حمل منهم أحد حمالة لم يخذلوه ، بل أعانوه . وذكر فضل آبائهم ، وأحسابهم ، فقال إنهم ورثة مجد قديم توارثه الأبناء عن الآباء ، وساق دليلاً على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل ، فلا يولد الكريم إلا في البيت الكريم .

وظل زهير على شاكلة هذه القصيدة وسابقتها يديج مداثحه في هرم بن سنان ،

- (١) السنة الشهباء : المجدية ، الحجرة :  
 السنة شديدة البرد .  
 (٢) قطينا : ساكنين .  
 (٣) استخبال المال : أن يسألهم شيئاً  
 فيعطوهم إياه . يسرروا : يتقارروا . يغلوا :  
 يختاروا سنان الإبل :  
 (٤) المقامات والأندية : المجالس .  
 (٥) يعترهم : ينزل بهم .  
 (٦) الجهل : الحق .  
 (٧) الحامل : الذى يحمل الحمالة ، وهى  
 الدية ، ويريد أى مغرم .  
 (٨) الخطى : الرماح ، وشيجه : أغصانه .



ومن أروعها داليتها التي رواها المفضل الضبي والتي يقول فيها مصوراً كرمه وشجاعته  
وفصاحته وسبقه إلى المآثر المحمودة :

سواءً عليه أي حين أتيته  
ومدرة حرب حَمِيها يُتقى به  
إذا ابتدرت قَيْسُ بن عِيْلانَ غايَةَ  
سبقتَ إليها كل طَلَقٍ مُبرِّزٍ  
فلو كان حَمْدُ يُخْلِذُ النَّاسَ لم تَمُتْ  
لكنَّ حَمْدَ النَّاسِ ليس بمُخْلِذٍ

فهو يعطى في السعة وفي القلة ، ويدفع عن قومه بلسانه ويده وسلاحه ، وإذا  
تسابق الناس إلى غاية من غايات المجد كان السابق المجلي ، ولو أن حمداً يخلد به  
مستحقه لكان هرم أول خالد لكثرة مناقبه ومكارمه . وله فيه قصيدة رائية بديعة  
يقول في تضاعيفها :

دَعَّ ذَا وَعَدَّ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ  
وَلِنِعْمَ حَشْوُ الدَّرْعِ أَنْتَ إِذَا  
حَدَبْتُ عَلَى الْمَوَالِي الصَّرِيكَ إِذَا  
وَيَقِيكَ مَا وَقَى الْأَكَارِمَ مِنْ  
وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبِعِ  
وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَمَا  
أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتُ وَمَا

خَيْرِ الْبُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ  
دُعِيَتْ نَزَالٍ وَلَجَّ فِي الدُّعْرِ (٤)  
نَابَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ (٥)  
حُوبٍ تُسَبُّ بِهِ وَمِنْ غَدْرِ (٦)  
ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي (٧)  
يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ  
سَلَفَتْ فِي النَّجْدَاتِ وَالذُّكْرِ

(٤) الدعاء في الحرب نزال : حين تشتد  
فيتداعى الفرسان بالنزول عن الخيل والتقارع  
بالسيوف . ولج في الذعر : اشتد الخوف .  
(٥) الصريك : الفقير المجهد .  
(٦) الحوب : الإثم .  
(٧) تفرى : تقطع . يخلق : يقدر .  
يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه .

(١) يريد بساعتي النحس والسعد أوقات  
القلة والكثرة في المال .  
(٢) المدرة : المدافع عن قومه . وحى الحرب :  
شدتها . والرجام : المرامة في الحرب وفي الخطب  
والكلام .  
(٣) الطلق هنا : المعطاء ، وأصله الفرس  
السابق الذي لا يلوى على شيء . المجلد :  
الذي يضرب ويجلد . والتشبيه واضح .

وعلى هذا النحو يبدئ ويعد في هَرَم ، وقد تراءى له في الصورة المثالية للسيد  
البنوي الجاهلي ، فهو شجاع في معترك الحرب وهو كريم في معترك المسغبة  
والجوع ، وليس بفحاش ولا غادر ، وإذا صم اندفع يُمضى ما صم عليه ،  
لا يستر عن الخير ستر ، بينما تقوم الأستار بينه وبين كل فاحشة . وشاعرنا يثني  
عليه بما عرف من فضله وبما قدم من مآثر النجدة وإغاثة الضعفاء واحتمال كل بلاء .  
ودائماً تلقانا في مدائحه لهرم هذه المثالية الرائعة ، بل هذه القطع المتوجهة ، ومن  
رائع ما قاله فيه :

قد جعل المبتغون الخيرَ في هَرَمٍ      والسائلون إلى أبوابه طُرُقاً  
إن تلقَ يوماً على عِلَّاته هَرماً      تلقَ الساحة منه والندى خُلُقاً  
ليثٌ بعثراً يصطادُ الرجالَ إذا      ما كذبَ الليثُ عن أقرانه صدقاً (١)  
يطعنهم ما ارتَمَوْا حتى إذا اطَّعنوا      ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقاً (٢)  
هذا وليس كمن يعبأ بخطته      وسَطَ الندى إذا ما ناطق نطقاً

فهو لكرمه الفياض يسعى إليه الناس من كل حدب ، ويسلكون إلى أبوابه  
كل طريق ، حتى لقد أصبحت الطرق إليه مزدلفة ممهدة ، وهو يجزل لهم في العطاء  
حتى حين تضيق ذات يده . وهو يجمع إلى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة ،  
حتى ليتفوق على الليث في جرأته وطلبه لفريسته ، إنه يطعن الطعنات النجلاء ،  
وما يزال على ذلك حتى تنحسر غمرة الحرب ، فإذا كان السلم رأيته وسط الندى  
يبهرك بمقوله كما يبهرك بيده وسلاحه وطعانه ونزاله .

وقد أضفى حُللاً من هذا المديح الرائع على سيد بني فزارة حصن بن حذيفة ،  
وكانت له مواقع مأثورة في حروب قومه مع عبس وغيرها من القبائل ، وفيه يقول :

المتحاربون بالنبال أبي هرم إلا أن يطعن  
بسيقه ، وإذا تطاعنوا ضرب بسيقه ضربات  
مميعة وإذا ما تضاربوا صرع خصومه . فهو  
سابق في كل حال .

(١) عثر : موضع . كذب الليث : نكل  
عن لقاء أقرانه .

(٢) ارتَمَوْا : تراموا بالنبل ، اطعنوا :  
تطاعنوا بالسيوف . اعتنق قرنه في الحرب :  
أخذ بعنقه ، كناية عن قتله . يقول إذا تراءى

وَأَبْيَضَ فَيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ      عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِيبُ فَوَاضِلُهُ (١)  
بَكَرَتْ عَلَيْهِ غُدُوَّةٌ فَرَأَيْتُهُ      قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهُ (٢)  
فَأَقْصَرَ مِنْهُ عَنِ كَرِيمٍ مَرْزَأٍ      عَزُومٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ (٣)  
أَخِي ثِقَةٌ لَا تُتْلِفُ الْخَمْرُ مَالَهُ      وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ (٤)  
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَهْلَلًا      كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (٥)

وهو يمدحه بنقائه من العيوب وأنه كريم مفرط في كرمه حتى لتشبهه يده سحابة ، فما تزالان تهطلان على قاصديه بالعطايا ، وعبثاً يهتف به العواذل أن يكف عن كثرة نواله . إنه مثال للرجل الفاضل الذي لا ينفق أمواله في هواها وإنما ينفقها في الصنيع الجميل . وإنه ليقبل على معتفيه بالبشر والطلاقة ، حتى ليكادون يظنون أنهم المسئولون لا السائلون . وظل بعد ذلك يمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته وحلمه ، وأشار إلى وراثته الطيبة عن آبائه فهو شريف حسيب ، كما أشار إلى بلائه في حروبه مع الغساسنة .

وهذه القطع المختلفة التي أنشدناها من مديحه تدل على براعة واضحة ، فقد كان يحسن التعبير عما في نفسه ، وكان يحرص على الاقتصاد في القول فلا يسرف ولا يغلو ، بل يمثل ممدوحه بخصاله التي كان يشغف بها الجاهليون ويرونها أمانة السيادة والشرف . ولاحظ ذلك قديماً عمر بن الخطاب ، فقال : « كان لا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه (٦) » فهو يعتدل في الثناء ، وهو يمثل شخصية البلوى الحقيقي الذي يحيط كلامه بالصدق والبساطة ، وإذا أحس إزاء صفة من الصفات أو معنى من المعاني بأنه يكاد يخرج عن حده أحاطه بما يجعل قوله مقبولاً فيقدم لفظه « لو » ونحوها حتى لا يتجاوز القصد ، كما نرى في قوله يصف هرما وأمجاده :

- (١) المعتفون : السائلون . الفواضل : العطايا . وأبيض كناية عن نقائه من المساوئ .  
وتغيب : تنقطع .  
(٢) الصريم : الصباح . عواذله : لائمه .  
(٣) أقصرن : كففن . مرزأ : مصاب في
- ماله لكثرة ما يبذل منه .  
(٤) النائل : العطاء .  
(٥) مهللاً : طلق الوجه .  
(٦) أغاني ٢٩٠/١٠ .

لو نال حَيٌّ من الدنيا بمكرمةٍ أفقَ السماء نالت كفه الأفقا  
وقوله :

لو كنت من شئٍ سوى بشرٍ كنت المنورَ ليلةَ البدر  
فهو لا يطلق القول في مثل هذين المعنيين إطلاقاً ، بل يجعلهما في حيز  
« لو » حتى يخرج من باب المبالغة الذي أوشك على الدخول فيه .  
وكان يقدم لقصائده بالفزل والتشبيب ، متبعاً سنة الجاهليين في الوقوف  
بالأطلال وذكر الديار ، ونحس عنده إحساساً واضحاً بأنه لم يكن ممن شغف  
الحبُّ قلوبهم ، فهو يتغزل ، كما يرضى سامعيه ، لا لكي يرضى نفسه ، وبعبارة  
أخرى هو يتغزل أخذاً بتقليد متبع ، ولذلك نراه يتحم غزله أحياناً بقوله : « فعد عما ترى »  
أو « دع ذا » كأنه يريد أن يكف قلبه عن مثل هذا الحب الذي لا يتلاءم مع  
وقاره . وقد يعلن في أول قصيدته إعلاناً أن قلبه قد انصرف عن صاحبه على  
شاكلة قوله :

صحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفرَ من سلمى التعانيقُ فالثقلُ<sup>(١)</sup>  
ولعل من الطريف أن أستاذه أوس بن حجر كان يشركه في هذا الجانب ،  
فهما جميعاً لا يتغزلان للغزل ، وإنما يتغزلان جرياً على التمايلد . وقد يلتم زهير  
بأثر الحب في النفس فيبدع في تصويره ، وهو في هذا التصوير لا يمثل عاطفة  
ولا مشاعر حقيقية ، وإنما يمثل قدرته الفنية كقوله في وصف دموعه :

كأنَّ عيني وقد سال السليلُ بهم وجيرةٌ ما هم لو أنهم أممٌ<sup>(٢)</sup>  
غربٌ على بكرٍ أو لؤلؤٌ قلقٌ في السلكِ خان به ربَّاتِه النظمُ<sup>(٣)</sup>

فهم قد ساروا سيراً سريعاً ، فأبعدوا ولو كانوا جيرة لقصدهم بالزيارة ، وإن  
دموعه لتساقط من عينه تساقط الماء من الغرب أو الدلو ، أو تساقط اللؤلؤ من

(١) التعانيق والثقل : موضعان .  
(٢) سال السليل بهم : السليل : واد .  
وصال بهم : ساروا سيراً سريعاً . وما في قوله  
جمع نظام وهو الخيط أو السلك .

(٣) الغرب : الدلو . قلق : لا يستقر  
لانقطاع الخيط . ربَّاتِه : صواحبه . النظم :  
ما هم زائدة . وأم : قرييون يزارون .

عقد انقطع سلكه . وبهاتين الصورتين البديعتين صورَّ زهير الدموع ، وهي ليست دموع حب ، وإنما كل ما في الأمر أنه شاعر يعرف كيف يصور دموع الحب . وبهذا القياس نفسه تصويره لأسماء في قوله :

قامتُ ترأى بذي ضالٍ لتحزُنِي      ولا محالةً أن يشتاق من عَشيقا<sup>(١)</sup>  
 بجيدٍ مُغزلةً أدماءَ خاذلةً      من الظباء تُراعى شادنا خرقا<sup>(٢)</sup>  
 كأن ريقتها بعد الكرى اغتبتُ      من طيبِّ الرَّاحِ لما يعدُّ أن عتقا<sup>(٣)</sup>  
 شجَّ السُّقاءُ على ناجودها شيباً      من ماء لينة لا طرقاً ولا رنقا<sup>(٤)</sup>

فهو يصور جيدها بجيد ظبية بيضاء ، امتلاً قلبها بحب ابنها ، فهي عاكفة عليه ، كما يصور ريقها بخمر معتقة مزجت بالماء لشدتها وحدتها . وهما صورتان أريدتا لأنفسهما ، أو بعبارة أخرى رسمهما زهير ليدل سامعيه على قدرته في التصوير ، أما بعد ذلك فلا عاطفة ولا حب حقيقي ، ولذلك يكرر دائماً أن قلبه صحا عن حبه ، وأنه راجع نفسه فكفَّت عن الهوى وما يتبع الهوى ، على شاكلة قوله :

لقد طالبتها ولكل شيء وإن طالت لجاجته انتهاءً

فهو ليس من العشاق ولا ممن يشغلون أنفسهم بالغزل وبيان لوعة الحب ، وإنما هو يتحدث في ذلك مترسماً سنناً موضوعة كى يظهر قدرته على التصوير الفني . ولعله من أجل ذلك ملأ مقدماته الغزلية بوصف الظعن ، وكأنه يريد بها أن يتلافى ما يفوته من وصف الحب والصبابة على نحو ما رأينا عند امرئ القيس ، وفي الوقت نفسه يريد أن يدل على براعته في الوصف الدقيق ، فهو يستقصى ويدقق ، وما يزال يتبع صاحبته وصواحبها وهن راحلات في نجد مع عشيرتهن من واد إلى

(١) ترأى : تنبى وتظهر . وذو ضال : موضع به الضال وهو السبدر .  
 وهو شرب الليل ، لما يعد أن عتقا . يريد أن الخمر معتقة ولم تفسد .

(٢) شج : صب . الناجود : أول ما يخرج من الخمر أو إناؤها . الشم : الماء البارد . لينة : اسم بئر . الطرق والرناق : الكدر .

(١) ترأى : تنبى وتظهر . وذو ضال : موضع به الضال وهو السبدر .

(٢) الجيد : المتق ، مغزلة : ظبية التي معها غزال . أدماء : بيضاء . خاذلة : مقيمة على ولدها لا تتبع الظباء . الشادن : الذي شذن أى تحرك ولم يقوبعد . الحرق : الضعيف .

واد ، محاولاً أن يحفر الصورة في أذهاننا حَفْرًا على نحو ما نجد في معلقته  
إذ يقول :

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَل تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ	تَحْمَلُنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ (١)
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ	وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مَشَاكِهِةَ الدَّمِ (٢)
وَوَرَّكْنَ فِي السُّوبَانِ يَعلُونِ مَتْنَهُ	عَلِيهِنَّ دُلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِّمِ (٣)
وَفِيهِنَّ مَلْهَى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ	أَنِيقٌ لَعَيْنِ النَّازِرِ الْمُتَوَسِّمِ (٤)
بِكَرْزٍ بَكُورًا وَاسْتَحْرَنَ بِسُحْرَةٍ	فَهِنَّ لَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ اللَّفْمِ (٥)
جَعَلْنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينِ وَحَزْنَهُ	وَمَنْ بِالْقَنَانَ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ (٦)
ظَهَرْنَ مِنَ السُّوبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ	عَلَى كُلِّ قَيْنِيٍّ قَشِيبٍ وَمُقَامِ (٧)
كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَيْهِنِ فِي كُلِّ مَنْزِلِ	نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ (٨)
فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ	وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ (٩)

وواضح أنه يصور الرحلة التي سلكتها ظعن صاحبتة ، وهن يعلون الروابي  
ويهبطن الوديان ، وعلى هوداجهن الكلال والستائر الحمراء وعلى وجوههن دلال  
النعمة ، والأصدقاء من الشباب يطلبونهم ليمثلوا النظر بحسنهن ويتمتعوا برؤيتهن ،  
وهن يقطعن وادياً إثر واد ، ويمررن على منازل الأحلاف والأعداء ، يأخذن في  
طريق ويعدلن عن طريق ، وفي أثناء ذلك ينزلن ثم يرحلن وقد خلفن وراءهن فُتَاتَ

رحلن سحراً . كاليد للفم أى إن ما يقصدنه  
لا يخطئه كما لا تخطئ اليد الفم .  
(٦) القنان : جبل لبني أسد . حزنه : أرضه .  
الصعبة الغليظة . المحل : الحليف ضد المحرم .  
(٧) جزعته : قطعه . القيني : الرجل .  
قشيب : جديد . مقام : واسع رحب .  
(٨) العهن : الصوف . حب الفنا :  
عنب الثعلب .  
(٩) جمامه : سطحه ويمتعه . ووضع  
العصي كناية عن الإقامة .

(١) الظعائن : النساء الراحلات في الهوداج .  
العلياء : اسم موضع . جرثم : ماء لبني أسد  
أحلاف ذبيان .  
(٢) الأنماط : الستائر على الهوداج .  
وراد : حمراء . مشاكهة : مشابة .  
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة . السوبان :  
واد في ديار بني تميم . متنه : ظهره . دل  
الناعم : أثر النعمة .  
(٤) المتوسم : المتفرس في الوجه .  
(٥) بكرن : رحلن صباحاً . استحرن :

الصفوف المتساقط من هوادجهن ورحالهن كأنه حبب الفنا ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذي يطلبه والمرعى الذي يلتمسه ألقين مع عشائرهن عصا الترحال . وكان زهير يبدع في مثل هذا التصوير الذي يعرض به عرضاً حياً مليئاً بالحركة ظعن صواجه ، وهي ترحل في الصحراء تلك الرحلة الدائبة ، ومعها العشائر ، طلباً للآبار ومساقط الغيث والكلاء . وهو تصوير للتصوير فحسب ، فليس فيه وصف حب ، إلا ما قد يأتي عفواً أو عرضاً كالبيت الرابع من هذه القطعة ، وكان حرياً به أن يقف ليصور جمال هؤلاء النساء وأثره في نفسه وفي الشباب من حوله غير أن ذلك لم يكن يعنيه ، إنما كان يعنيه الوصف للوصف ، فهو يصور قدرته الفنية لا عواطفه ولا مشاعره ، ومن غير شك كان يحسن الوصف والتصوير لا بما يسوقه من صور بيانية فحسب ، بل بما يعتمد إليه من رسم دقائق المنظر الذي يصفه وبما يبث فيه من حياة وحركة .

ولزهير هجاء في بعض القبائل التي كانت تُغير على عشيرته ، وخاصة في الحارث بن وراق أحد بني أسد الذي أغار على قبيلته ونهب غلامه يساراً وبعض أمواله ، وهو فيما صحَّ من هذا الهجاء لا يوغل في الإقذاع وهتك الأعراض إبعال أستاذه أوس والجاهليين من حوله ، بل يُبقي على مهجوة وعلى نفسه ، عامداً إلى السخرية كقوله في عشيرة حصن من بني عليسم الكلبين :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء  
فإن تكن النساء مخباتٍ فحق لكل مُحصنة هداء<sup>(١)</sup>

فهن نساء خبئن في الخلدور، وينبغي أن يزوجن . وهي سخرية مرة ، تحمل كل ما يريد من وصفهم بالخبين . وكان يجد في مثلها ما يكفيه عن الإقذاع الفحش . وكأنما كان الإقذاع لا يتفق ووقاره ، فتحاشاه ، بينما كان أستاذه أوس من جهة وتلميذه الخطيئة من جهة ثانية يقذعان فيه ، وقد استعار منه تلميذه هذه الأداة أداة السخرية فأشاعها في أهاجيه على شاكلة قوله المشهور في الزبرقان ابن بلر :

(١) الهداء : الزفاف .

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرَحُلْ لِبُعَيْتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي  
فَجْعَلْ مَرْوَةَ لَا تَبْلُغْ بِهِ إِلَّا أَنْ يَأْكُلَ وَيَلْبَسُ . وَلَيْسَ بَيْنَ أَيْدِينَا رِثَاءُ مَاثُورٍ  
صَحِيحٌ لَزْهِيرٍ .

ولم نتحدث حتى الآن عن أهم الموضوعات التي تتجلى فيها براعة زهير ودقة فنه  
في التصوير ، ونقصد وصف الوحش والصيد ، وقد أشاد القدماء كثيراً ببراعة  
أستاذه أوس في هذا الباب (١) ، ووقفوا عند معان وصور اقتبسها منه زهير ، ولكن  
من الحق أنه نَمَى هذا الموضوع ، بحيث يعد في الطليعة من شعراء الجاهلية في  
وصف الوحش والصيد . وكأني به كان يجبرُ اللغة خبرة أوسع من خبرة أستاذه ، وكان  
له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر  
وهيئة وحركة ، وهو يعرض علينا ذلك تارة في بيت أو أبيات قليلة ، وتارة في قطع  
كبيرة ، وكأننا إزاء شريط يُعْرَضُ في دار من دور الخيالة ، وقرأ له هذا البيت  
في معلقته يصف رسوم دار صاحبه ، وقد ألمَّ بها بعد عشرين عاماً ، فلم يجد بها  
إلا بقر الوحش والظباء ، يقول :

بِهَا الْعَيْنُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمٍ (٢)  
وهو بيت واحد ، ولكنه عرف كيف يعرض علينا منظر البقر والظباء في  
بعض مواضع البادية عرضاً كاملاً إذ نتمثلها وهي تمشي في جهات متضادة ،  
وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك ، ناهضة من كل موضع . وانظر إليه يصور  
ناقته بظلم في بيتين ، يودعهما وصفاً دقيقاً له إذ يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره  
الدائم وانطلاقه المستمر في الصحراء كأنه مجنون لا يلوى على شيء ، يقول :

كَانَ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ  
أَصْلَكَ مُصَلِّمٌ الْأَذْنَيْنِ أَجْنَى  
من الظَّلْمَانِ جَوْجُوهٌ هَوَاءٌ (٣)  
له بِالسِّيِّ تَتُّومٌ وَأَاءٌ (٤)

جمع ظليم . الجَوْجُوهُ : الصدر . هَوَاءٌ : فارغ .  
(٤) أَصْلَكَ : مقارب العرقوبين . مُصَلِّمٌ :  
مقطوع . أَجْنَى من الجنا ، وهو إدراك الثَّارِ  
ونفضجها . السِّيِّ : موضع . التَّوْمُ والآءُ من  
أشجار الهادية .

(١) خزافة الأدب للبغدادى ٢/٢٣٥ .  
(٢) العين : بقر الوحش ، والآرام : الظباء  
البيضاء . خِلْفَةٌ : من جهات متضادة . الأطلاء :  
أولاد الوحش . مجتم : مريض .  
(٣) الصعل : صغير الرأس . الظلمان :



وتلك صورة كاملة للظلم أو ذكر النعام فهو صغير الرأس متقارب العرقوبين ليس لأذنيه حجم . وهو ليس ظليماً صغيراً فقد أدرك ، وهو هناك يرعى في السّيِّ بعض أشجار البادية . وماذا بقي من هيئة الظلم ؟ إنه لم يبق شيء إلا سرعته وحرته الدائبة ، وهو يصورها تصويراً دقيقاً في قوله « جَوْجُوهُ هَوَاءٍ » فصلده فارغ كأنما لا قلب أو لا عقل له ، فهو يعتسف الصحراء اعتساف مجنون يسرع في العدو هرباً من كل شبح ، فلا يكاد يقف . ولما تمت له هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة الجسمية والنفسية انتقل يصور ناقته في سرعتها بحمار وحش يسوق أنه سوفاً عنيفاً ليرد بها ماء ، وهو لا يغفل عنها ، وهي خاضعة لمشيئته ، يدعوها في كل فجر فتجيب ، وصَوَّرَ هذا الدعاء تصويراً بديعاً ، فقال :

كَأَنَّ سَحِيلَهُ فِي كُلِّ فَجْرِ عَلَى أَحْسَاءٍ يَمْثُودُ دُعَاءُ<sup>(١)</sup>

فهو ينادى أنه كل صباح كى يرد بها الحياض والمناهل ، وهي تلبيه . وكأنه يرسم بذلك صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها . واقرأ له هذه القطعة الطويلة في وصف النبات والمطر والفرس والصيد فستلذذك خصائصه في التصوير مجتمعة :

وغيثٍ من الوسميِّ حُوِّ تِلَاعُهُ  
هبطتُ بممسودِ النواشرِ سابحٍ  
تميمٍ قَلَوْنَاهُ فَأَكْمَلُ صُنْعُهُ  
أَمِينٍ شَطَاهُ لَمْ يُخْرِقْ صِفَاقَهُ  
إذا ما غَدونا نبتغي الصيدَ مرَّةً  
أجابت رَوَابِيهِ النَّجَاءِ هَوَاطِلُهُ<sup>(٢)</sup>  
مَمْرٌ أَسِيلُ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ<sup>(٣)</sup>  
فَتَمٌّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ<sup>(٤)</sup>  
بِمَنْقِبَةٍ وَلَمْ تَقْطَعْ أَبَا جِلَّهُ<sup>(٥)</sup>  
مَتَى نَرَهُ فَإِنَّا لَا نُخَاتِلُهُ<sup>(٦)</sup>

يريد أنه ضخم الجوف .  
(٤) تميم : تام الخلقة . قَلَوْنَاهُ : فطمناه .  
عزته : قوته .  
(٥) أمين : قوى . شطاه : عظامه اللاصقة بالذراع . الصفاق : الجلدة الباطنة وراء البشرة ، لم يخرق بمنقبة : لم يداو بآلة يطار . الأباجل : عروق في اليد .  
(٦) لا نخاتله : لا نأخذه بالخديمة .

(١) السحيل : نبيق الحمار . يمثود : موضع . الأحساء : جمع حمى ، وهو الموضع كثير المياه .  
(٢) النيث : المطر . الوسمي : أول النيث . حو : سوداء . تلاحه : مسايله ، وهي سوداء لسواد أطراف النبات . النجاء : المرتفعة .  
(٣) النواشر : عصب الذراع . مسود : مفعول : مر : محكم الخلق . أسيل : ناعم . نهدي : ضخم المراكل : مواضع ركل الفارس من الفرس

فبينما نُبغى الصَّيْدَ جاءَ غلامنا  
فقال : شِياهٌ راتعاتٌ بَقْفَرَةٌ  
ثلاثٌ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ وَمَسْحَلٌ  
وقد حَرَمَ الطُّرَادُ عَنْهُ جِحاشُهُ  
فقال : أميري ما ترى رأى ما نرى  
فبتنا عُرَاةً عند رأسِ جِوَادِنا  
ونضربه حتى اطمأنَّ قَدَالُهُ  
ومُلْجِمُنَا ما إن ينالُ قَدَالُهُ  
فَلأَيَّ بِلأَيِّ ما حملنا وُلَيْدِنا  
فقلت له : سَدِّذْ وَأَبْصِرْ طَرِيقَهُ  
وقلت : تَعَلَّمْ أَنْ لِلصَّيْدِ غِرَّةً  
فَتَبِعْ آثَارَ الشِّياهِ وِلَيْدُنَا  
نظرتُ إليه نَظْرَةً فَرَأَيْتُهُ  
يُثْرِنُ الحَصَا في وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ

يَدِبُّ وَيُحْفَى شَخْصَهُ وَيُضائِلُهُ<sup>(١)</sup>  
بِمُسْتَأْسِدِ القُرَيانِ حَوْ مَسائِلُهُ<sup>(٢)</sup>  
قد اخضرَّ من لَسِّ الغَميرِ جَحافله<sup>(٣)</sup>  
فلم تبقِ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلالته<sup>(٤)</sup>  
أَنخِيلُهُ عن نَفْسِهِ أم نُصاوله<sup>(٥)</sup>  
يُزاولنا عن نَفْسِهِ ونزاولُهُ<sup>(٦)</sup>  
ولم يطمئنَّ قلبه وَخِصائله<sup>(٧)</sup>  
ولا قدامه الأَرْضَ إِلَّا أَناملُهُ  
على ظَهرِ مَحْبُوكِ ظِمَاءِ مفاصلِهِ<sup>(٨)</sup>  
وما هو فيه عن وصائِي شَاغِلُهُ  
وإِلَّا تُضِيعُها فَإِنَّكَ قاتلُهُ<sup>(٩)</sup>  
كشُوبِوبِ غَيْثِ يَحْفَشُ الأَكْمَ وَاِبِلُهُ<sup>(١٠)</sup>  
على كلِّ حالٍ مرَّةً هو حامِلُهُ<sup>(١١)</sup>  
سِراعٌ تَوالِيهِ صِياِبٌ أوائلُهُ<sup>(١٢)</sup>

- (١) نُبغى : نطلب . يدب : يمشى  
راجلا ببطء . يضائل : يصغر .  
(٢) الشياه هنا : الأتن . القرَيان : مجارى  
الماء . مستأسد النبت : ما طال منه . حو :  
سوداء .  
(٣) السراء : شجر تصنع منه القمى .  
المسحل : حمار الوحش . جحافله : شفاهه .  
الغمير : نبت . له : أكله .  
(٤) خرم : نفر وأبعد . حلالته :  
زوجاته من الأتن .  
(٥) نختله : نخادعه . نصاله : نجاهره .  
(٦) عرأة : فى أرض عارية من الشجر .  
وقيل عرأة من العرواء : وهى الرعدة عند الحرص .

- يزاولنا : يدفعا لشدة نشاطه .  
(٧) القدال : مؤخر الرأس . خصائله :  
لحم المصيب .  
(٨) محبوك : متين . ظماء مفاصله : قليلة  
اللحم لا ترهل .  
(٩) الغرة : الغفلة .  
(١٠) الشوبوب : الدفعة من المطر . يحفش  
يملا .  
(١١) يقول إن الفرس كان يحمل فى كل  
حال الغلام ، يحمله على الطمع وعلى اليأس .  
(١٢) التوالى : الأواخر يريد الرجلين والعجز .  
ويقصد بأوائله يديه وصدوره . وصياب : سراع .

فردّ علينا العَيْرَ من دون إلفِهِ على رَعْمِهِ يَدْمِي نَسَاءُ وفائِلُهُ (١)  
وهو في مستهل هذه الأبيات يصف مطراً يتساقط على بعض المرتفعات  
والوهاد ، وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد ، وهو يقبل مع بعض رفاقه على  
فرس محكم الخلق ، فُطِمَ منذ عهد قريب ، فهو أشد ما يكون قوة ، لم يصبه مرض  
ولا علة . ويعرض علينا هيئته وخلقته كاملة . وسنراه بعد قليل يصور أحاسيسه  
وهواجسه ، فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية . ويستطرد إلى وصف الصيد فيذكر  
أن غلامه الذي ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية في الصحراء جاء يدبّ ويخفي  
شخصه ويضائله . وبهذه العبارة الموجزة رسمه لنا رسماً دقيقاً ، رسم حركته وسيره وأنه  
كان يحاول أن يخفي شخصه حتى لا تفرغ الوحوش . وأخبرهم أنه رأى غير بعيد  
ثلاث أتنٍ وحشية ، وهي ضامرة كأقواس السَّراء ، ومعها حمارها وقد أقبل على  
الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره . واخضرار المشافر لمسة من لمسات زهير  
الذي كان يبتغي الدقة في التصوير بما يعطى من ألوان الأشياء وما يذكر من  
تفاصيلها . وينتقل فيحدثنا أنهم باتوا يروضون الجواد ، حتى كان الصباح ،  
فألجمه الغلام ، وهو لا يكاد يطوله لضخامته . وزهير يوصيه كيف يتبع فريسته .  
ويبدع زهير في هذا الجزء من وصفه ، فهم منذ أخبرهم الغلام بخبر الصيد  
مفرغون لشدة ما هم فيه من حرص على طلب الصيد والحصول عليه ، وقد أحسّ  
الجواد ما هم فيه وما ينتظره في الصباح الباكر ، فأخذ الخوف من جميع أطرافه ،  
فهو يجاهدهم وهم يجاهدونه ويضربونه ، حتى اطمأن وأمكنهم منه ، غير أن  
قلبه وأعصابه لم تطمئن ، فلا يزال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد . ولم يكن  
الغلام من هذه الحالة النفسية غير بعيد ، فقد كان زهير يوصيه كيف يطارد الصيد  
وهو في شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره في تلك المعركة . وزهير بهذا كله يعد مصوراً  
بارعاً ، إذ يصور الهيئات الجسدية والأحوال النفسية فيما يصفه ، وكأنما كانت له عين  
كبيرة تعرف كيف تلتقط قسمات الجسد وسرائر النفس ، لانفس الإنسان وحده  
بل أيضاً نفس الحيوان وما يلم بهما جميعاً من وساوس وهواجس . وقد مضى يصور  
مطاردة الغلام — ولعله غلامه يسار — للأتن وحمارها وكيف انصبَّ عليها كأنه شؤبوب

(١) العير : حمار الوحش . والنساء والفائل : عرقان .

أو صاعقة من السماء ، وهي تثير الحصى في وجه فرسه ، والفرس لا يثنى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحيبه وصاده الغلام ، وجاء به جريحاً تنزف دماؤه .  
 وواضح أن زهيراً استم في هذا الوصف الدقيق كل براعته سواء من حيث توشيته بالتشبيات ، أو من حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية . وله قطعة لا تقل عن هذه القطعة جمالا وروعة في قصيدته الدالية التي رواها المفضل الضبي ، وفيها يصف بقرة وحشية شبه بها ناقته في سرعتها ، ومضى يستكمل وصفها مستطرداً إلى مطاردة الصائد لها بينما تفرس السباع أحد أفلاذ كبدها ، يقول :

كَخْنَسَاءِ سَفْعَاءِ الْمَلَاطِمِ حُرَّةٌ  
 غَدَتْ بِسِلَاحٍ مِثْلُهُ يُتَّقَى بِهِ  
 وسامعتين تعرف العتق فيهما  
 وناظرتين تطحران قذاهما  
 طبأها ضحاءٌ أو خلأه فخالفت  
 أضاعت فلم تُغفر لها غفلاتها  
 دماً عند شلوه تحجل الطير حوله

مُسَافِرَةٌ مَزْوودَةٌ أُمَّ فَرْقَدٍ (١)  
 وَيُؤْمِنُ جَأَشُ الْخَائِفِ الْمُتَوَحِّدِ (٢)  
 إِلَى جِذْرِ مَذْلُوكِ الْكَعُوبِ مُحَدِّدِ (٣)  
 كَانَتْهُمَا مَكْحُولَتَانِ بَائِثِيدِ (٤)  
 إِلَيْهِ السَّبَاعُ فِي كِنَاسٍ وَمَرْقَدِ (٥)  
 فَلَاقَتْ بَيَاناً عِنْدَ آخِرِ مَعْهَدِ (٦)  
 وَبَضَعَ لِحَامٍ فِي إِهَابٍ مَقْسَدِ (٧)

(٤) ناظرتين : عينين . تطحران قذاهما : ترميان به وتفتيانه . الإئتمد : كحل أسود .  
 (٥) طبأها : دعاها . ضحاء : رعى الضحى . خلأه : خلو المكان . فخالفت إليه السباع : أي اختلفت إلى ولد البقرة . الكناس : بيت في الشجر تستتر فيه البقر أو تستر أولادها من الحر والبرد .  
 (٦) أضاعت : تركت ولداً وغفلت عنه . البيان : ما استبانته عند ما رجعت ووجدت بقايا ولداً من بعض الجلود واللحم والدماء . آخر معهد : آخر موضع تركته فيه .  
 (٧) الشلو : بقية الجسد . البضع : جمع بضعة وهي القطعة . اللحام : جمع لحم . الإهاب : الجلد . المقدد : المشقق الخرق .

(١) الخنساء : بقرة الوحش سميت بذلك لتأخر أنفها ومثلها الظباء لأنها جميعاً فطس خنس . سفعاء الملاطم : السفع سواد في حمرة . والملاطم : الخدان . مزوودة : مذعورة ، مسافرة : ترحل من موضع إلى موضع . الفرقد : ولد البقرة .  
 (٢) يريده زهير بالسلاح قرني البقرة . الجأش : الصدر . المتوحد : الوحيد المنفرد .  
 (٣) سامعتين : أذنين . العتق : الأصالة . ومعرفة العتق كناية عن أنهما محددتان منتصبتان . إلى جذر : إلى هنا بمعنى مع ، والجذر : الأصل . مذلوك : أملس . والكعوب : جمع كعب وهو ما بين المقدتين في القرن . وزهير يريده بالشرط الثاني وصف قرنيها بأنهما أملسان محددا الرأس .

وتخشى رُماة العَوْثِ من كل مَرَصِدٍ (١)  
 مُسْرَبَةٌ في رازقٍ مُعَصِدٍ (٢)  
 وقد قعدوا أنفاقها كل مقعدٍ (٣)  
 وجالت وإن يُجشمنها الشَّدَّ تجهدٍ (٤)  
 وإن تتقدمها السوابقُ تَصْطَدِ (٥)  
 رأت أنها إن تنظرِ النبلُ تُقْصِدِ (٦)  
 وتذبيبها عنها بأسحَمِ مذودٍ (٧)  
 غباراً كما فارت دواخِنُ غرقَدٍ (٨)  
 إلى جَوْشِنِ خاظي الطريقةِ مُسْنَدٍ (٩)

وزهير يستهل حديثه عن البقرة بوصفها الجسدى والنفسى فهى خنساء فى حدودها حمرة مشربة بسواد ، وهى طليقة فى الصحراء ترحل من موضع إلى موضع مذعورة فقد خلفت ولداً لها فى كناس ، وهى تخشى عليه من السبع والإنسان . وإنما لشاكية السلاح ، كأنها معدة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم ، فقد برزها قرنان وإمها حريان بأن يقياها الخطر ويؤمنا وحدتها وخوفها ، إذ هما محددان أملسان كأنهما السيوف القاطعة ، ومن ورائها أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ وباصرتان

(٥) تبذ : تسبق . تصدق : تضرب بقرنيها ما يتقدمها من الكلاب .

(٦) تنظر النبل : يريد زهير تنتظر أصحابها وهم الرماة . تقصد : تقتل .

(٧) النجاء : سرعة العدو . الوثيرة : التلث والانتظار . تذبيبها : دفاعها . الأسحَم : الأسود . المذود : قرنها الذى تذود به عن نفسها .

(٨) جدت : أسرع فى العدو . الدواخِن : جمع دخان . الغرقد : شجر .

(٩) الملتئآت هنا : القوائم شهبها بالغذاريف إلى جوشن : مع صدر . خاظي الطريقة :

مكتنز اللحم فى أعلى الصدر . مسند : مرتقع .

وتنفض عنها غيب كل خميلة  
 فجالت على وحشيها وكأنها  
 ولم تدر وشك البين حتى رأتهم  
 وثاروا بها من جانبيها كليهما  
 تبدأ الألى يأتينها من ورائها  
 فأنقذها من عمرة الموت أنها  
 نجاء مجد ليس فيه وتيرة  
 وجدت فالقت بينهن وبينها  
 ملتئات كالحذاريف قوبلت

(١) تنفض : تنظر هل ترى ما تكره . الخميعة : الرملة بها شجر . العوث : قبيلة من طي تشتهر برماها وقناصها .

(٢) جالت : ذهبت وجاءت . الوحشى : الحانب الذى لا يركب منه وهو الأيمن يريد أنها مالت على عطفها الأيمن . مسربة :

لابسة سربالا وهو القميص . الرازق : ثوب أبيض . معصد : مخطط .

(٣) وشك البين : سرعته ، والبين هنا : فقدها لولعها . الأنفاق : الطرق والمسالك .

(٤) يجشمنها الشد : يكلفنها العدو ويحملنها عليه . تجهد : تسرع وتجهت .

سوداوان كأنهما مكحولتان تحدُّ بهما النظر إلى ما حولها .

وعلى هذا النحو يعرض علينا زهير تلك البقرة بهيئة جسدها وهيئة نفسها ،  
لنستعد إلى ماسيفجوها من كوارث . وهو يثبت هيئتها في نفوسنا بما يصوره من  
تفاصيل جسدها ولون خديها وعينيها . ولا يلبث أن يصور لنا فاجعها في ولدها ،  
وقد أعدنا لذلك منذ البيت الأول ، فهي مسافرة ، مسرعة في العودة ، وقد أخذها  
الذعر . لقد خرجت تطلب الرى والرعى ، وعاودها الحنين إلى ولدها ، بل عاودها  
الحوف الشديد ، وكأنها تعرف أنها تركته وراءها للسباع ، وعادت وبالهول ما رأت ،  
لقد رأت بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء ، والطير تحجل حوله ، فأخذها الحزن  
الشديد . إن أملها في الحياة فقدته . وقد عادت تجرى في الصحراء مذعورة تتلفت  
يميناً وشمالاً تنظر هل هناك ما تخشاه ، وإنها لتخشى رماة عشيرة الغوث الذين  
تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد ، ومرت على جانبيها الأيمن ،  
كأنها تظنه أكثر أمناً ، وهى تترامى في لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب  
الناصع الجميل ، ولم تكن تدري أن الموت يرصدها ، حتى رأت رأى العين رماة  
الغوث ، وقد أخذوا عليها جميع الطرق والمسالك ، وأرسلوا عليها كلاب الصيد ،  
فولت مسرعة ، والكلاب تلاحقها وهى تارة تسبق أوائلها ، وتارة تلاحقها الكلاب  
فتنوشها بقرنيا ، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعها قرنها الأسود  
وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار كأنه الدخان . ويصور زهير سرعة قوائمها  
وخفة حركتها بخذاريف الصبيان التى يديرونها دوراناً سريعاً بخيوط يشدونها إلى  
أليهم ، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة فى وصف سرعة فرسه ، إذ قال  
فيه كما مرّ فى غير هذا الموضع :

دريـر كـخـذـرـوف الـولـيد أـمـرّه      تـقـلّب كـفـيه بـخـيـط مـوـصـل  
وقد حاول زهير أن يضيف زيادة جديدة فجعل القوائم ملتبّات متناسقات  
كما جعلها متقابلات ، فهى كخذاريف لا كخذروف واحد ، يقابل بعضها بعضاً .  
والحق أننا نحس إزاء زهير أنه استوفى كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلى من  
براعة فى التصوير . وكان يحفّ هذه البراعة بضروب من الوقار تتضح فى مدائحه  
وأهاجيه وغزلياته جميعاً ، فهو يحتفظ بكرامته دائماً ، ولعل ذلك ما جعله ينفر من

الخمر والميسر كما قدمنا في غير هذا الموضع . واقرأ مدائحه وأنعم النظر فيها فستراه  
 يمثل لك في هَرَمٍ والحارث بن أبي عَوْفٍ وحِصْن بن حذيفة صورة السيد الفاضل ،  
 لا من حيث الشجاعة والكرم فحسب ، بل أيضاً من حيث الحلم والنفوس المسبوءة  
 في العشيرة والدفع بالمعروف من القول والحذب على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام .  
 واقترنت هذه الصورة المثالية للسيد الفاضل في شعره بكثير من الحكم والدعوة إلى  
 مكارم الأخلاق . وقد ذبَّل المعلقة بطائفة من الأبيات التي تذهب هذا المذهب ،  
 وقدمنا أن الأصمعي كان يشك فيها ويقول إنها لشاعر أنصاري يسمى صِرْمَةَ ،  
 ويظهر أن حِكماً له اختلطت بحكم لهذا الشاعر ، ونستطيع أن نفردها منها له مثل قوله :  
 وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلُّ لَهْدَمٍ (١)

فإن هذا البيت يتفق وما لاحظناه عنده من ميله إلى إخراج أفكاره ومعانيه في  
 صور متلاحقة . فقد أراد أن يقول من أبي الصلح لم يكن له بد من الحرب ، فلم  
 يقل ذلك مباشرة ، بل ذهب يبحث عن صورة تمثل الصلح عندهم ، وسرعان  
 ما لمعت في خياله عادة كانت معروفة لديهم ، وهي أن يستقبلوا أعداءهم إذا أرادوا  
 الصلح بأزجة الرماح ، ومن ثم قال « ومن يعص أطراف الزجاج » يريد « ومن لا يطع  
 الدعوة إلى الصلح والسلام » ومضى يمثِّل الدخول في الحرب بإطاعة أسنة الرماح  
 والسيوف . وفكرة البيت متصلة بالمعلقة وما تدعو إليه من السلام والاستجابة  
 إلى الصلح . وقد تكون الأبيات التي تتصل بفكرة الحياة والموت صحيحة النسبة إلى  
 زهير لأنها تتصل كالبيت السابق بموضوع القصيدة ، كقوله :

رَأَيْتَ الْمَنَائِيَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مِنْ تُصِبْ تُمْتَهُ وَمَنْ تُخْطِيءُ يَعْمَرُ فِيهِمْ .

وفي البيت أيضاً صورة بديعة ، إذ يشبه الموت بناقة عشواء لا تبصر طريقها ،  
 فهي تخبط الطريق خبطاً أعمى ليس له نظام ولا قياس . والتفكير في الحياة والموت  
 يكثر عند زهير كقوله في إحدى قصائده لهرم :

رفع كموب الرماح كناية عن الصلح والمسألة  
 إذ كانت تلك عاداتهم في الجاهلية .

(١) الزجاج : جمع زج وهو الحديدية في  
 أسفل الرمح . والعوالي : سنان السيوف والرماح .  
 المهزم : السنان القاطع . وواضح أنه جعل

تزوّد إلى يوم المماتِ فإنّه ولو كرهته النفسُ آخرُ موعدٍ  
وإذا أخذنا نقرأ في أشعاره لقيتنا فيها حكيم كثيرة ، وهو ينثرها نثراً خلال  
الموضوعات المختلفة التي يلم بها ، فن ذلك قوله :

وكنّت إذا ما جئت يوماً لحاجةٍ مضت وأجمتُ ، حاجةُ الغدِ ما تخلو<sup>(١)</sup>

وقوله الذي أنشدناه :

وهل يُنبت الخَطِيّ إلا وشيبيجُه وتُغرُسُ إلا في منابتها النخلُ  
وقوله :

كذلك خيمُهُم ، ولكلّ قومٍ إذا مستهم الضراءُ خيم<sup>(٢)</sup>  
وقوله الذي أنشدناه :

فلو كان حمدٌ يُخلد الناسَ لم تمّتْ ولكنّ حمدَ الناسِ ليس بمُخلدٍ  
وقوله :

فإن الحقّ مقطّعه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاء<sup>(٣)</sup>  
وكان عمر بن الخطاب يُعجّبُ بهذا البيت ويتعجب من صحة القسمة فيه ،  
ويقول : لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه<sup>(٤)</sup> .

ولعل في كل ما قلنا ما يوضح مكانة زهير في الشعر الجاهلي ، فقد كان  
شاعراً من طراز ممتاز ، شاعراً له نظراته في الحياة والأخلاق ، وهو إلى ذلك شاعر  
مصور يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، فقد تمرّس بنماذج أوّسٍ وغيره  
من فحول الجاهلية ، ولم يكد ينظم أشعاره حتى ذاع اسمه في القبائل ، فالتسه  
بعض الشبان يتعلمون عليه هذه الصناعة الدقيقة التي يحسنها إلى أبعد حدّ ، ونبغ

(٣) النفار : المنافرة إلى شيوخ القبائل  
للحكم . الجلاء : انكشاف الأمر .  
(٤) الصناعتين للمسكوى ( طبعة عيسى  
الجلبي ) ص ٣٤٢ .

(١) مضت وأجمت : مضت حاجة الأمس  
ودنت حاجة الغد . ما تخلو : يريد : لا يخلو  
المرد من حاجة ، فحاجة من عاش لا تنقضي .  
(٢) الخيم : الشيبة والخلق .



منهم الحطية ، ولقّن الشعر ولديه بُجَيْرًا وكعباً ، وطار صيت الأخير في العصر التالي عصر المخضرمين .

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خيّر صناعة الشعر الجاهلي وعرف أساليبها ، واستطاع أن يؤدّي أجمل صورة لها في لفظه وقوالبه وصيغته ، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا عنه عبارات مختلفة ، فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة في حول كامل وإنه صنع سبع حوَلِيَّات<sup>(١)</sup> ، ويتنسّبُ الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فيقول : « كان زهير بن أبي سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الحطية : خير الشعر الحولى المحكك ( يقصد شعر أستاذه وشعره ) وقال الأصمعي : زهير بن أبي سلمى والحطية وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جوّد في شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخرّج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة<sup>(٢)</sup> » . ويعلق الجاحظ على صنعة زهير وشعره في موضع آخر ، فيقول : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريماً ( كاملاً ) وزمناً طويلاً يردّد فيها نظره ويحيل فيها عقله ويقلبّ فيها رأيه ، أتاهم لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زمناً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمتفحات والحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً ( تاماً ) وشاعراً مقلقاً<sup>(٣)</sup> » .

وسواء سمّي زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته ، فقد أحسوا فيها بجهد شديد ، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة من الزمن ، وتخيّلوا حولاً كاملاً ، ومضوا يسمون زهيراً والحطية وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من طول الثّفاف والتنقيح والتجويد والتجوير ، وكأنهم يُلغون حرّيتهم وإرادتهم ، فهم عبيد فن الشعر ، يخضعون لإرادته الفنية وما يَطْوِي في هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والصيغ . ويظهر أن زهيراً كان يُعرَفُ بذلك من قديم ، فهم يروون عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاقل في

• الترجمة والنشر ) ١٣/٢ .  
• المصدر نفسه ٩/٢ .

( ١ ) الخصائص لابن جني ( طبع دار الكتب  
المصرية ) ١/٣٢٤ .  
( ٢ ) البيان والتبيين ( طبع لجنة التأليف

الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه<sup>(١)</sup>. والمعاظلة بين الكلام المداخلة فيه بحيث لا ينضد نضداً مستويًا. والحق أن صياغة زهير تستوفى حظوظاً بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلوصه من الأدران التي قد تؤذيه، وارجع إلى القِطْع التي أنشدناها له في المديح، فإنك ستجدها متوهجة، وما ذلك إلا من دقة التعبير وصقله إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلي، والذي لا ريب فيه أنه كان يستولى على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات، وما يزال ينسّقها حتى تترأى كأنها عقود من الجواهر. وعلى نحو ما كان يستوفى حظوظاً مختلفة من الجمال في عباراته وصيغته كان يستوفى ضروباً من الإتقان والكمال في موسيقاه، فليس فيها نشاز من إقواء وليس فيها اجتلاب قافية وإكراهها على إحلالها في أماكنها، فقوافيه تتمكن في مواضعها، ومهما ضاق عليه هذا الموضع نفذ منه على أجمل صورة، وانظر إلى قوله في معلقته:

وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علمٍ ما في غدٍ عمي  
فقد وصل إلى القافية، فوجد نفسه مضيقاً عليه، ولم يلبث أن نفذ إلى كلمة «عمي» فتمم البيت في غير عسر ولا مشقة. ومن ذلك قوله:

هم يضربون حبيك البيض إذ لَحِقُوا لا ينكصون إذا ما استلجِمُوا وحمُوا<sup>(٢)</sup>  
فقد نفذ من اللدب الضيق في القافية، بما جاء به من كلمة «حموا» ولم ينفذ فحسب، فقد استخدم كلمة تتناسق في حروفها مع الفعل السابق لها، فهي كلمة من نفس أسرتها، وهو ما يعبر عنه علماء البيان العربي باسم الجناس، وله أمثلة مختلفة في شعره كقوله الذي أنشدناه:

كأن عيني وقد سال السليلُ بهم وجيرةٌ ما همُّ لو أنهم أممٌ  
فقد جانس بين سال والسليل، وتعلق بحرف الميم في ألفاظ الشطر الثاني، فأحدث بينها تلاؤماً واضحاً. ومن أمثلة الجناس عنده:

وقد قلتما إن ندرِكِ السَّلْمَ واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من القول نَسَلَمَ

خوذهم في الحرب. استلحموا: من التلاحم والمخالطة في القتال. حموا: اشتد غضبهم.

(١) أغاني ١٠/٢٨٩.

(٢) حبيك البيض: طرائقه. البيض:

وقوله :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكْثِرْ غَنِيمَةً      بنهكة ذى القُرْبَى ولا بِحَقْلَدٍ (١)  
وعلى نحو ما كان يستخدم الجناس كان يستخدم الطباق ، وله أمثلة كثيرة  
عنده كقوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّنن :

جَعَلَنَّ الْقَنَانَ عَنِ يَمِينٍ وَخَزَنَهُ      وَمَنْ بِالْقَنَانِ مِنْ مَّجِلٍّ وَمُحْرِمٍ

وقوله :

يَمِينَا لَنَعْمَ السَّيْدَانِ وَوُجِدْتُمَا      عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ

وقوله :

وَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَلْمَى سِنِينًا ثَمَانِيًّا      عَلَى صَبِيرٍ أَمْرٍ مَا يَمُرُّ وَمَا يَحْلُو (٢)

وقوله الذى أنشدناه :

لَيْثٌ بَعَثَرَ بِصَطَادِ الرِّجَالِ إِذَا      مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

على أن زهيراً إنما كان يستخدم الطباق والجناس من حين إلى حين فهما ليسا  
لونين فاقعين فى شعره ، إنما اللون الفاقع فى شعره هو التصوير ، إذ كان يودعه كل  
مهارته ، وكان يأبى أن يُعْزَجَ كثيراً من أبياته إلا ويوشئها به ، بحيث لا نبعد إذا  
قلنا إنه شاعر التصوير فى الجاهلية ، ومن ثمَّ كَثُرَتْ عنده التشبيهات والاستعارات  
كثرة مفرطة ، وكان يسعفه بها خيال متوثب متبهي ليخرج من جلد يد ما سمعه من  
أستاذه أوس وغيره ، وليضيف إلى ذلك ثروة من عنده . ثروة خيالية تعقد  
فيها مشابهاً كثيرة بين الأشياء ، وهى مشابهاً من شأنها أن تجعلنا نحس بأننا  
ندخل معه فى عالم خيالى حالم ، وخاصة حين تلقانا استعاراته وما يملؤها به من  
أشباح وأرواح ، فإننا نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض ، كما  
نستشف الجمال فى داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع .

أقربائه ، وليس ببخيل لثيم .  
(٢) صير أمر : منتهاه وما يصير إليه .

(١) النهكة : الإصرار . الحقلد : البخيل  
المبىء الخلق ، يقول إنه لا يكثر ماله بظلم

وارجع إلى ما عرضناه من أشعاره فستجد التشبيهات تراكم فيها ، وستراه دائماً حين يفكر في شيء يلمع في ذهنه نظيره ، محاولاً أن يربط بين الشبيه والشبيه بعلاقة لا تنفصم . وهي علاقات ننتقل بينها معجبين ، بل هي مشاهد تجلب لنا البهجة والمسرة ، إذ كان يعرف كيف يأتي منها بالنادر الطريف على شاكلة قوله الذي أنشدناه في وصفه للظعن وقصدها إلى غايتها :

بكرنَ بُكوراً واستَحَرَنَ بسُحرةٍ      فهنَّ لوادي الرّس كَاليدِ للّصمِ

وليس كل ما يلاحظ عنده كثرة التشبيهات ولا وقوعه على نوادرها ، بل لعل أهم ما يلاحظ أنه يعنى بتفصيل التشبيه إذ لا يزال يلحّ على الصورة التي يعرضها ، وكأنه يريد أن يستوفيا بجميع دقائقها وتفصيلها استيفاءً ، كقوله في وصف بعض صواحيبه :

تنازعها المَهَا شَبَهًا ودُرُّ الذُّ      حُورٍ وشَاكَهتُ فيها الظُّبَاءُ (١)  
فَأَمَّا مَا فُويقَ العِقدِ منها      فمنَ أَدَمَاءَ ، مَرَتَعُهَا الخَلَاءُ (٢)  
وَأَمَّا المُقَلَّتَانِ فمنَ مَهَاةٍ      وللدُّرِّ المِلاحةُ والصَّفَاءُ

فهو لا يشبه صاحبه ببقر الوحش والدر والظباء تشبيهاً عاماً ويمضي ، بل يعود إلى تفصيل تشبيهه ، فهي تشبه الظباء في جيدها الطويل الجميل وبقر الوحش في سواد عينيها الفاتنتين والدر في ملاحظته وصفاته وإمانته وبهائه .

وإذا كان زهير أتقن لون التشبيه من حيث كثرة الصور والتعمق فيها والإلحاح عليها بالتفاصيل فإنه أتقن لون الاستعارة إتقاناً لعل شاعراً جاهلياً لم يبلغ مبلغه فيه ، وارجع إلى معلقته وإلى صور الحرب التي أنشدناها فإنك تجد الاستعارات فيها تتلاحق ، فالحرب أسد ضار ، بل هي نار مشتعلة ، بل هي رحي تطحن الناس ، بل هي ناقة تنتج غلمان شؤم ، بل هي أرض مغلّة غلة قبيحة ليس فيها منافع للناس إنما فيها الموت الزؤام . وقد مثل - كما مرّ بنا - حياة العرب في حروبهم الدائرة وما يتخللها من فترات راحة بصورة قوم يرعون مراعى وخيمة ، حتى

(١) المَهَا : بقر الوحش . شَاكَهتُ :

(٢) الأَدَمَاءُ : الظبية البيضاء . الخَلَاءُ :  
الموضع الخالي .

إذا أخذهم الظم الشديد وردوا على مياه وخيمة ، بل على دماء مسفوحة . ونراه في نفس المعلقة يصف شجاعاً ويصوره في صورة أسد فيقول :

لدى أسدٍ شاكى السلاحِ مقذِفٍ له لِيَدُ أظفاره لم تُقَلِّمِ (١)  
 وواضح أنه استم في استعارته صورة الأسد بشعره المسترسل على منكبيه وأظفاره

المسنونة التي لم تقلم يوماً والتي إن نشبت في شيء أتت عليه .  
 ولم يكن زهير يكثر من الاستعارة في شعره فحسب ، بل كان أيضاً يحاول أن يأتي فيها بالصور النادرة الغريبة كقوله في أحد مطالعه :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطله وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحله (٢)

وهو في الشطر الأول يقول إن قلبه كفَّ عن حب سلمى ، وقد أراد على طريقته أن يعبر عن هذا المعنى بصورة ، فذهب يتخيل ، وبعد به خياله ، فإذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التي كان دائماً يلزمها أفراساً ورواحل يركبها إلى صاحبته ، وكان طريقه إليها مشغولاً دائماً بهذه الرواحل والأفراس . وقد انتهى اليوم كل شيء ، فقد انصرف عن سلمى وحبا ، ولم تعد تشغله أسباب صبوته القديمة . وهي صورة بعيدة لا تقع إلا في ذهن يكثر من التخيل والإغراق في التصور ، ذهن يتعمق في الأشياء والمعاني ، حتى يتخيلها أحياء حقيقية .

وأكبر الظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن زهيراً كان شاعراً مصوراً ، فالتصوير أساس فنه ، وكأنما تحوّل عقله إلى آلة لاقطة ، وهي ليست آلة فوتوغرافية ، بل هي آلة خالقة ، آلة تفكر في الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهاً ومشاكلات ، وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباحاً وأطيافاً تتراعى لها واضحة تمام الوضوح .

ومهما تحدثنا في هذا الجانب فلن نستطيع أن نوفى زهيراً حقه من بيان مقدرته التصويرية ، وكأنى به كان الثمرة النهائية للجهود الفنية التي أودعها الجاهليون أشعارهم ، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل ، ومن جهة ثانية

(٢) أقصر : كف . الأفراس : جمع فرس . الرواحل : الإبل .

(١) شاكى السلاح : تام السلاح . مقذِف : غليظ اللحم . لبدة الأسد : ما تلبث على كفتيه من شعره .

عُنى بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أى شذوذ ، ومن جهة ثالثة استتم فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة .

وكل هذه ألوان جمال نُعجِبُ بها عند زهير ، فهو شاعر الجمال ، وهو شاعر الحقيقة بحِكمه ، وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام وبما رسمه للفضيلة من مثل فيمن مدحهم ، حتى ليرَوَى أن عمر بن الخطاب استمع إلى بعض قطعه المتألقة في مديح هرم ، فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>

والحق أنه يصور مثلاً جيداً من أمثلة الشعر الجاهلى ، فقد انتهى عنده هذا الشعر إلى صورة رفيعة للخير والحق والجمال ، وكان ما يزال يجهد نفسه في رسم خطوط هذه الصورة إجهاداً عبَّـرَ عنه القدماء بأنه حَوَلِيَّ صاحب حوليات ، وهل يمكن أن نتصوره محققاً لهذه البراعة التى وصفناها بدون جهد عنيف كان يستنفد منه آماداً طويلة من الزمن ؟ إن كل جانب فى شعره يدفعنا دفعاً إلى الإيمان بأنه كان يعانى طويلاً فى صنع قصائده وما يتخذها لها من هذا الإطار الفنى الدقيق .

## الفصل العاشر

### الأعشى

١

#### قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التي كانت تمتد فروعها وبطونها في شرقي الجزيرة من وادي الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويششكر وجششم وعجل ، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان في اليمامة ، وتتشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضبيصة ومن عشائريهم بنو عبدان وبنو كعب ، وربيعه ابن ضبيصة ومن بيوتاتهم بنو جحدر ، وسعد بن ضبيصة وإليه ينتمي الأعشى .

وتاريخ عشيرة بني سعد بن ضبيصة في العصر الجاهلي يندمج في تاريخ قبيلتها الكبيرة ، فقد وقعت معها في حروب البسوس التي ظلت أربعين عاماً ، كما وقعت معها في يوم الكلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمنادرة وطالما نصرتهم في حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمان بن المنذر احتسبى هو وأسرته ببني شيبان إحدى قبائل بكر وخلف عند سيدهم هاني بن قبيصة الشيباني أولاده وسلاحه الذي يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرّ في غير هذا الموضع وولى على الخيرة إياس بن قبيصة الطائي ، فتارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعهما تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازها ، ودارت على جيوشه الدوائر في يوم ذي قار المشهور الذي انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون في توقيت تاريخه (١) .

ولم تشترك قيس بن ثعلبة في هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بني حنيفة

الأثير ٢٩٠/١ والمقد الفريد ١١١/٦ .  
وراجع معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان  
لياقوت في « ذي قار » .

(١) انظر في يوم ذي قار الأغاني ( طبعة  
الساسي ) ١٣٢/٢٠ والطبري ( طبعة دي غويه )  
١٠١٥/١ ، ١٠٢٨/١ وما بعدها ، وابن

وغيرها من البكرين في حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر في الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تشب بينها خلافات تؤدي إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها في البعثة وسكناها بعض القرى مثل « منفوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعي الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إيراداً في بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول (١) :

لسنا كمن جعلت إيراد دارها      تكريت تنظر حبها أن يخصصدا  
 جعل الإله طعامنا في مالنا      رزقاً تضمّنه لنا لن ينفدا (٢)  
 مثل الهضاب جزارة لسيوفنا      فإذا ترّاع فإنها لن تطردا (٣)  
 ضمّنت لنا أعجازهن قُدورنا      وضروعهن لنا الصريح الأجردا (٤)

وواضح أنه يصرّح بأن إيراد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لهم الإبل التي لا تنفد ، وهي إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بسالتهم ، وهي تملأ قُدورهم بلحمها وبيوتهم بألبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بني حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخذوا الحنجر قصبه لهم ، وكان سيدهم في أواخر العصر الجاهلي هوذة بن علي ، وكان يحمي القوافل الفارسية في طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذي قار ، فلم تشرك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعي وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت في جملتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينما حنيفة لا يُعرف

(١) ديوان الأعشى طبعة جابر . القصيدة

رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .

(٢) المال هنا : الإبل .

(٣) جزارة : مصدر جزره أي ذبحه ومنه

يسمى البعير جزوراً .

(٤) الصريح : اللبن الخالص . الأجرد :

الصابق .



لها شاعر مذكور في الجاهلية<sup>(١)</sup> إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بدو قيس وكثرة الحروب التي عانتها ، يقول ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان<sup>(٢)</sup> » ونقول أيضاً إنه الذي قلل شعر حنيفة في الإمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويغار عليها ، وفي أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد الحمسة ، فما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمس وابن أخته طرفة والمسيب بن عكس . وقد أنشدنا في غير هذا الموضع قطعة طرفة في المعلقة التي يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته في الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح في شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلا خفيفاً رقيقاً ، ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

## ٢

## حياته

عاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي ، وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة في الإمامة وأن أباه كان يلقب بقتيل الجوع « لأنه دخل غاراً يستظل فيه من الحرِّ ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدت فم الغار ، فمات فيه جوعاً ، وفي ذلك يقول جهنم يهجو ، وكانا يتهاجيان :

أبوك قَتِيلُ الجوعِ قَيْسُ بنِ جَنْدَلٍ      وخالك عَبْدٌ من خُماعةِ راضِعُ<sup>(٣)</sup>

وخُماعة - فيما يظهر - جدُّ بعيد لأمه ، وهي أخت المسيب بن عكس ، وعنه حمل الشعر الأعشى ، إذ كان راويته ، ولا شك في أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٨/٩ .

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمي الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبي بصير<sup>(١)</sup> . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صنّاجة<sup>(٢)</sup> العرب » أنه انتقل بالشعر الجاهلي نقلة ، فإن كلمة صنّاجة تعني أنه كان يتغنى بشعره ، ويبالغون في ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه<sup>(٣)</sup> !!

وتدلّ أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة بمدح سادتها وأشرافها ، وفي ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائي وإلى الحيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندي وسلامة ذى فائش أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المسدّان بن اللديان سادة نجران وهموذة بن علي سيد بني حنيفة . وكان يفد على سوق عكاظ ، ويمدح من يمرّ به في طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافهم<sup>(٤)</sup> .

ولا يكنى الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة في حضرموت ونجّران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعمّان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشي الحبشة ، ويُسجرون على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول<sup>(٥)</sup> :

وقد طُفْتُ للمال آفاقه      عُمَانَ فَحِمَصَ فَأُورِشَلِيمَ  
أَتَيْتُ النجاشيَّ في أرضه      وأرض النَبِيطِ وأرض العجمِ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر في أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة بمدح شيوخ العرب وسادتهم . ووقع — كما يقول الرواة — في بعض رحلاته بديار بني عامر ومعه هداياها من بعض ممدوحيه ، فخشي على نفسه وعلى هداياها ، فاستجار بعلممة بن عُلّانة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى .  
انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ٢١٢/١ .  
(٢) أغاني ١٠٩/٩ .  
(٣) أغاني ١١٥/٩ والشعر والشعراء ٢١٤/١ .  
(٤) أغاني ١١٣/٩ وما بعدها .  
(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطَّفَيْسِل على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة ، اشترك فيها كثير من الشعراء ، فكان مع علقمة مروان بن سُراقَة والحطيثة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُعَجِرْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجزرتني قال : قد أجزرتك ، قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجبرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجزرتني من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة (١) .

والأعشى في شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففي ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد (٢) ، وهو يعيش كذلك في منازعات قبيلته مع بني شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسَهَّرِ الشيباني ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومته من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى في قصائده التي وجهها إلى بني جَحْدَرِ وبني عَبْدَان . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهْنَم ، فهاجبا طويلاً .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب في الوفود عليه ومديحه ، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حَرْب : إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكُلُّهَا بك رافق ولك موافق ، قال : وما هن ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والرِّبَا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره ، فقتله (٣) سنة ٦٢٩ للميلاد . وهذه الخلال التي ذكرها أبو سفيان والتي جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثيقاً مغرماً في وثنيته ، وفي شعره نفسه ما يصور معالم هذه الوثنية ،

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .  
(٣) أغاني ١٢٥/٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢١٢/١ .

(١) انظر في هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغاني (طبعة الساسي) ٥٥/١٥ وديوان الأعشى ص ١٦٥ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرَةَ وَقُتَيْبَةَ وَجَبْرِتَةَ ، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللاتي يعين أعراضهن<sup>(١)</sup> ، ويقرنه ابن سلام في هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : « وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ولا يستبر بالفواحش . . . ومنهم من كان يتعهر ولا يبق على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى<sup>(٢)</sup> . وقد تمدح في شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته<sup>(٣)</sup> :

من شبابِ تراهمُ غيرِ ميلٍ وكهولاً مَراجِحاً أَحلاماً<sup>(٤)</sup>  
ولقد تُصَلِّقُ القِدَاحُ على الذِّيبِ إذا كان يَسْرُهِنَّ غَراماً<sup>(٥)</sup>

فهم يضربون قلداح الميسر على النوق الضخمة التي يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتراضاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها في الجاهلية .

وطبيعي لمن تكون حياته على هذا النحو من المحن والإثم فيه أن يكون وثنيًا متعمقًا في وثنيته وأن لا يعتقد الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخوانه كان نصرانيًا ، وشاركه في هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية في الحيرة وبمثل قوله في القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّي كَرِيمٌ لا يَكْذُرُ نِعْمَةً وإِذا يَنأشُدُ بالمهارق أَنشُدًا

والمهارق هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصراني ، ترتل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتمًا ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم ، وقد يكون البيت دخيلاً على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوي ديوانه كان مسيحيًا ، وأغلب الظن أنه هو الذي أدخل هذا البيت في القصيدة ، كما أدخل في قصيدة أخرى قسّمه بالمسيح في قوله<sup>(٦)</sup> :

راجعي المقول .  
(٥) تصلق : تضرب . النبي : الإبل الكبيرة .  
المسر : القمار .  
(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣  
البيت ١٦ .

(١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .  
(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستهرق الفواحش :  
يتجسس بذكرها ويفصح عما حقه أن يكتب .  
(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .  
(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجحاً :

وإني ورب الساجدين عَشِيَّةً وما صَكَ ناقوسَ النصرى أَيْلُها<sup>(١)</sup>

وقد جعله في قصيدة ثالثة يقسم براهب اللُجِّ ، بل بثوبه<sup>(٢)</sup> . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنيّاً غالباً في وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التي وصفناها في شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التي رواها نفس هذا الراوى المسيحي ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم<sup>(٣)</sup> ، كما يقسم بالكعبة التي يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين في مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

إني لعمرُ الذي خَطَّتْ مَنْاسِمُها تَخْدِي وسِيَقُ إِلِيهِ الْبَاقِرُ الْغَيْلُ<sup>(٥)</sup>  
والحق أنه لم يكن نصرانياً ، إنما كان وثنيّاً على دين آبائه ، وقد احتفظ في وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور .

## ٣

## ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جابر في لندن<sup>(٦)</sup> سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد في نشره على مخطوطة في الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نُقلتا عنها في استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة في باريس وأخرى في ليدن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجدته من شعر الأعشى في كتب الأدب وما وجدته من أشعار لمن لقبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسي على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى ، وجميعها تتفق في رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق في أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

(١) صك : ضرب . الأيل : الراهب .  
تخدئ : جمع منسم وهو طرف الحف .  
تسرع في السير مع اضطراب . الباقر : اسم جمع البقر . الغيل : جمع غيول وهو الكثير .  
(٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

(٢) البيت ١٥ .  
(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .  
(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .  
(٥) خطت : شقت التراب . المناسم :

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها في فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهي لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ، وهي مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة في رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلاً على أنها لم تشتق من روايته ، فروايتة التي نشرها جابر كما قدسنا غير كاملة ، إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد في شعر الأعشى الرواية البصرية ، فيما عدا القصيدتين رقم ١١،٦٦ فقد نصَّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبي عمرو بن العلاء وأن الأصمعي سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً ، ونصَّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبي عمرو ، وظن جابر — كما ذكر في مقدمته — أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيباني ، فهو الذي كانت تُروى عنه الدواوين ، وهو رواية كوفي ينقل عنه السكري وثلعب وأضربهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصَّ في القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبي عبيدة البصري ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا في القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب<sup>(١)</sup> . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلي غير دقيقة وأنها تتريد فيه كما لاحظنا سابقاً في دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها للديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن روايته الذي حمله عنه وأذاعه في الناس كان نصرانياً معمرراً هو يحيى<sup>(٢)</sup> أو يونس بن متى وأن هذا الراوي من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ، ليزيد بعض المعاني المسيحية ، وقد رُوِيَ عنه أنه كان يقول: «كان الأعشى قد ربياً إذ يقول :

استأثرَ اللهُ بالوفاء وبال مدل وولَّى الملامة الرجلَا

(١) الديوان ص ٢٠٧ . (٢) الأغاني ١١٢/٩ ومصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣٨ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قبيل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتهم يشترى منهم الخمر ، فلقنوه ذلك <sup>(١)</sup> » .  
ويبعد أن يكون الأعشى حقاً قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حُرٌّ في تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحيى هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة فى القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول <sup>(٢)</sup> . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة فى قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصرانى ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه - كما قدمنا - لم يلقه وصدته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقي  
ندمت على أن لا تكون كمثلهِ  
فإياك والمنيئات لا تأكلنْها  
وذا النصب المنصوب لا تنسكْنه  
وصل على حين العشيّات والضحى  
ولا السائل المحروم لا تتركْنه  
ولا تسخرن من بائس ذى ضرارة  
ولا تقربن جارة إن سمرها  
ولاقيت بعد الموت من قد تزودا  
وأنت لم تُرصد لما كان أرصدًا <sup>(٣)</sup>  
ولا تأخذن سهماً حديدًا لتفصداً <sup>(٤)</sup>  
ولا تعبد الأوثان والله فاعبداً <sup>(٥)</sup>  
ولا تحمد الشيطان والله فاحمداً  
لعاقبة ولا الأسير المقيداً  
ولا تحسبن المرء يوماً مخلصداً <sup>(٦)</sup>  
عليك حرام فأنكحن أوتابداً <sup>(٧)</sup>

الكمة ويقدمونها أو هى الأوثان .  
(٦) الضرارة : ذهاب البصر أو النقص فى النفس والأموال .  
(٧) المرهنا : البضع . النكاح : الزواج .  
التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

(١) الأغاني ١١٣/٩ وما بعدها .  
(٢) الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ١٤ .  
(٣) أرصد : أعد وهياً .  
(٤) يشير إلى أنه لا بد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .  
(٥) النصب : حجارة كانوا ينصبونها حول

نعرف توّاً أنها موضوعة ، لالأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى : ( وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ) وقد نظم في البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخَنْزِيرِ وما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ به ) أما في البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : ( واذكُر ربك كثيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ) . ونظم في البيت السادس قوله جعلَّ وعز : ( والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ) . وفي البيت السابع نظم قوله جعلَّ ذكره : ( يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرَنَّ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : ( ولا تَقْرَبُوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ) وقوله : ( وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نكاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ من فضله ) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهي لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى ، وما كان ليسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط في هذه القصيدة ، بل نشك كذلك في القصائد الأخرى التي تردّدُ معاني الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعاني المسيحية . وبهذا القياس نهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وما أَيْبُلِيٌّ عَلَى هَيْكَلٍ      بناه وصلَّبَ فيه وصارا<sup>(١)</sup>  
يُراوِجُ من صَلَواتِ المَلِي      لك طوراً سجوداً وطوراً جُواراً<sup>(٢)</sup>  
بأعظم منه تُقَى في الحِسابِ      إذا النَّسَماتُ نَفَضْنَ العُبارا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذي يصلَّب له في هيكله ويصلى له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فإنه يعلم السرَّ وأخفى » فقال :

عطاء الإله فإن الإله      ٤ يسمع في الغامضات السرا

١ صور الصليب بيده . صار : سكن .  
٢ الجوار : التضرع بالدعاء .

(١) أيبل : راهب . الهيكل : موضع في  
صدر الكنيسة توضع فيه القرابين . صلب :



ومثلها القصيدة رقم ١٥ التي أنشد فيها منتحلها قسّمه بثوبى راهب اللج

فقال :

وإني وثوبى راهب اللجّ والتي بناها قصىّ والمضاض بن جرهم<sup>(١)</sup>  
 وحققاً أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة في  
 القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمنُ بيتك في العُلا بأجسادِ غربيّ الفناء المحرم<sup>(٢)</sup>

ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا في الإسلام أخذاً من قوله تعالى :  
 (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد دارت في القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من  
 القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذي مر بنا والذي يقسم فيه بالسيح وضرب الراهب  
 للناقوس ، وما لا شك فيه أن قوله في قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبني كافراً لك نعمةً علىّ شهيدٌ شاهدُ الله فاشهد

مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة في الإسلام .  
 وقد شك ابن قتيبة في القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذي أنشده يحيى بن متى  
 فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ في كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على  
 هذه الشاكلة :

وربّك لا تشرك به إن شركه يحطُّ من الخيرات تلك البواقيا

بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكنّ لك فيما تكدح اليوم راعيا

وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم وردّ الأمانات إلى أهلها  
 والتعفف عن الجارة ، ويقول محذراً من معصية الله : « فإنك لا تخفى على الله  
 خافياً » ويقول أيضاً : « كفى بكلام الله عن ذلك ناهياً » . فلاشك في أن هذه القصيدة  
 إسلامية . على أنها تلفتنا إلى شيء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار  
 تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب في أن يحيى بن متى لعب في ذلك

(٢) أجساد : موضع في بطحاء مكة ، والفناء  
 المحرم : حرم مكة .

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد  
 بثوبيه أعماله الصالحة . ومعروف أن أمر الكعبة  
 كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القُصَّاص والوعاظ المسلمون يزيدون في النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتي على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك في قصيدة من ديوانه أو قصيدتين ، بل إنه يجرى في قصائد كثيرة ، وأقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستهلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يليق فيها من العناية والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنية ، ويستمرسل في الحديث عن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة<sup>(١)</sup> . ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه في البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أورشليم والنجاشي في أرضه ، ولكن ليس هذا هو الذى نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضر وتخریب سابور له بجنوده ، وينهى قصته تلك بقوله

وفى ذاك للموتى أسورة . ومأرب قفى عليها رِم<sup>(٢)</sup>

ويعضى في هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير في البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتروا بأمرها حين خوفهم جيوشاً قادمة ، هي جيوش حسان تُبِع ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء في القصيدة وأنكروها<sup>(٣)</sup> . وليس في القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسب ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقباً ولا ذا نيمة ، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعاني تجعلنا نشك فيها كما نشك في القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شيء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

(٢) الموشح ص ٤٩ .

(١) انظر الموشح للمرزبانى ص ٤٩ .

(٢) المرم : سيل مشهور .

ملك الفرس ومورق ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتيامه  
الذى بناه سليمان ، ويسهب في وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم  
تنفعه أمواله ولا ما كان يُجبي إليه ، فلم يَسْجُجْ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه  
قصيدته رقم ٣٦ التي يقول فيها :

إنما نحن كشيء فاسدٍ فإذا أصلحه الله صلح

ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله حظة واعتبار ،  
فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع في قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣  
أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذي تداوله الحبش  
والفرس وما أصابه من البلى والحراب . وقد أنكر القديما نسبة المقطوعة رقم ٥٦ (١)  
إليه كما أنكروا أختها رقم ٦٠ وأشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط  
بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتمها هي الأخرى ، وأنكر القديما القصيدة  
رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنا بعة بنى شيبان (٢) . ونراه في القصيدة رقم ٧٩  
يدعو لإياد بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك  
ليعصمه من الطوفان . وثلثي في نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهي تلتقى في بعض  
أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبي في المفضليات لعوف بن الأحوص وهي فيها ذات  
الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها في الحيوان إلى مضرس (٣) بن زرارة  
ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها في الديوان هي التي ينبغي أن لانطمئن إليها ، لما  
يدخلها من الوعظ والمعاني الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الوضاعون  
غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد  
الشعر الجاهلي وأسلوب الأعشى نفسه في مطولاته التي لا يتورها الشك . وقد تأخذ  
القصيدة شكلا قصصياً غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ في  
الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة  
رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماء وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الحيوان ٧٨/٥ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٦/١ وانظر

الديوان ص ٢٠٤ .

البصر ولم يكن مكفوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه ، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه في القصيدة رقم ٢٥ يسوق في تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغساني له حتى يأخذها وتحصنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأدرع إلىّ وإما أن أقتل ابنتك ، وأبي السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهي قصة مشكوك في أصلها ، ويزيدها شكاً في قصيدة الأعشى أنه رواها مفصّلة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل في الإسلام ، ومن أجل ذلك نشك في القطعة رقم ٢٤ التي تقدّم لها . وإذا تقدمنا في الديوان وأعدنا النظر في القصيدة رقم ٣٩ التي أتهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن في نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبه رسولا شيطانياً لا يخشى الرقباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافتاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضي فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب في أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغي أن نشك فيما يجري مجرى هذه القصيدة المشحولة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك في القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، وما يزيدنا شكاً فيها استرساله في الخيال مع كل ما يشبه صاحبه به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل ، فقد أخذ في وصف من يشتر العسل ويجنبه ، ولم يكن العسل واشتياره مما تُعرّف به قيس بن ثعلبة في الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجرّوا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة في الشام وبنى الجلسنداء

في عُمان وغيرهم . وليس في القصيدتين رقمي ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك في القصيدة رقم ٧٦ ؛ لأنها كما يقول رواها في مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات في مطلعها ثم تَمْضِي القصيدة في الغزل والخمر ، وهي صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل في المدح . ونحن نشك أيضاً في القصيدة التي تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة في ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه في ٢٢ بيتاً ، ثم يترك لمدوحه ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٨٠ وهي غزل خالص أُودِع في أسلوب ركيك . أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعقمة بن عُلانة أجراه الوضاعون على لسانه حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه ، وما كان ليهجوه في قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له في العرب ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التي شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التي لا تتجاوز أحياناً بيتاً والتي لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهي ذوات الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقي له دراسة نظمنا إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ . على أن أعلاها ثقة هي القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبي عبدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبي عمرو بن العلاء ، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التي نرفعها على رواية الكوفة في التوثيق . على أننا نضرب صفحاً عما ألحقه جابر ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى في بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

## شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه في فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخرم وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدي بالقريض<sup>(١)</sup> واتخذهُ مستَجْرراً يطوف به البلاد<sup>(٢)</sup> ، وحقاً سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف في أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكراً ما يفيضون عليه من الإبل والحياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخبز والديباج ، منوهاً في أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُسبق على شيء من نفسه . ومعاني المديح عنده لا تفرق عن المعاني العامة في مدائح الجاهليين ، فهو ما ينى يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعَوْن الضعفاء في القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطيل في وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفي تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف في الأوصاف من حيث هي وإنما نقصد الغلو فيها والإفراط ، بحيث يُعدّ مقدمة لمبالغات العباسيين في مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة في العطاء ، وقد يكون من أثر الحضارات التي ألمّ بها في طوافه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فدوقه في المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلوّ دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباهت الذي بعث الأعشى على إفراطه في مديحه ، وتقصد طلب النوال والعطاء الجزيل . وقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معديكرب إذ يقول :

وَسَعَى لِكِنْدَةَ سَعَى غَيْرِ مُوَكِّلٍ      قَيْسٌ فَضَّرَّ عَسَدُهَا وَبَنَى لَهَا

(٢) العدة لابن رشيقي (الطبعة الأولى) ١/٤٩ .

(١) ابن سلام ص ٥٤ .

وأهان صالحَ مالهٍ لفقيرها  
 فترى له ضراً على أعدائه  
 أثراً من الخير المزين أهله  
 وإذا تجيء كتيبة ملمومة  
 كنتَ المقدمَ غير لابسِ جنة  
 وعلمتَ أن النفسَ تلقى حتفها  
 وأسى وأصلحَ بينها وسعى لها<sup>(١)</sup>  
 وترى لنعمته على من نالها  
 كالغيث صابٍ ببلدةٍ فأسأله<sup>(٢)</sup>  
 خرساءً بخشى الدارِ عونِ نزالها<sup>(٣)</sup>  
 بالسيف تضرب معلماً أبطالها<sup>(٤)</sup>  
 ما كان خالقها المليكُ قضى لها

فإنك تحس فيه روح العصر العباسي ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ،  
 ولا من حيث المقابلة بين المعاني فحسب ، بل من حيث ما يجري في ذلك من أثر  
 رقة الذوق بتأثير الحضارة ، وهي رقة دفعته إلى الغلو في وصف شجاعة ممدوحه ،  
 فإذا هو لجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترسٍ يحميه ، ويبيده سيفه  
 يضرب به في الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لا بد  
 أن سيوت ، فلا داعي للخوف ، فلكل امرئٍ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه  
 ولا يتقدم . وقرأ له هذه القطعة في مديحه لهوذة بن علي سيد بني حنيفة :

إلى هوذة الوهابِ أهديتُ مِدحتي  
 سمعتُ برحِبِ الباعِ والجدودِ والندى  
 فتى يحملُ الأعباءَ لو كان غيرهُ  
 وأنت الذي عودتني أن تَريشني  
 وإنك فيما نابني بي موزعُ  
 أرجى نوالاً فاضلاً من عطائكا  
 فأذليتُ دُلوي فاستقتُ برِشائكا<sup>(٥)</sup>  
 من الناسِ لم ينهضُ بها متماسكا  
 وأنت الذي آويتني في ظلالكا<sup>(٦)</sup>  
 بخيرٍ وإني مولعٌ بشنائكا<sup>(٧)</sup>

(٥) الباع : الكرم وكذلك الندى . الرشاء :

حبل الدلو .

(٦) تريشني : تعينني وتغنيني .

(٧) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية

وهو مضطرب في الديوان . موزع : مولع .

(١) أسى : داوى .

(٢) صاب المطر : سقط وانصب .

(٣) ملمومة : مجتمعة . خرساء : لا يسمع

لها صوت من كثرة الدروع أى ليس لها

تقمة .

(٤) الجنة : الترس .

وجدتَ علياً بانياً فورثتهُ  
بحورٌ تقوتُ الناسَ في كلِّ لزبةِ  
وما ذاك إلا أن كفيك بالندى  
يقولون في الأكفاء أكبرُ همُّه  
وجدتَ انهدامَ ثلْمَةٍ فبنيتها  
وربيبتَ أيتاماً وأنعشتَ صبيَّةً  
ولم يسعَ في العلياءِ سعيتك ماجدٌ  
ولا ذوو إني في الحيِّ مثلَ إنائكِ<sup>(١)</sup>  
أبوك وأعمامُ همُّ هؤلاءِكا<sup>(٢)</sup>  
تجودان بالإعطاء قبل سؤالكِ  
ألا ربُّ منهم من يعيش بما لكا<sup>(٣)</sup>  
فأنعمتَ إذ ألحقتها بينائكا<sup>(٤)</sup>  
وأدركتَ شأوَ السَّبِقِ دون عنائكا<sup>(٥)</sup>  
ولا ذوو إني في الحيِّ مثلَ إنائكِ<sup>(٦)</sup>

فإنك تحس المبالغة في المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل في السؤال تبذلا لم يعرف في عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف ذوق الجاهليين ، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضرة .

ولا نشك في أن هذا الذوق هو الذي جعله في أهاجيه ينحو نحو السخرية من مهجوة في كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء المقذع ، وأقرأ معلقته أو قصيدته السادسة في الديوان التي وجهت بها إلى يزيد بن مسهر الشيباني ، وكان قد قتل أحد بني قيس بن ثعلبة رجلا من قومه ، فحمسهم للثأر لقتيلهم ، فعرض له الأعشى يهدده ويهجوهم مستهلا تهديده وهجاءه بقوله :

أبلغُ يزيدَ بنى شيبانَ مالِكَةً  
أبأ تُبَيْتِ أما تنفكُ تَأْتِكِلُ<sup>(٧)</sup>  
ألستَ منتهاً عن نَحْتِ أثَلَتِنَا  
ولستَ ضائرها ما أطتِ الإبلُ<sup>(٨)</sup>

(١) واضح من الشطر الثاني أن مالكا وشيبان وطلقاً أعمام هذبة .

(٢) لزبة : شدة وأزبة .

(٣) يريد بالشرط الأول أن مدوحه يتهم بأنه يظل أكفاه .

(٤) الثلمة : فرجة المهدم أو ما فيه من شقوق .

(٥) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية وبه

بعض الاضطراب في الديوان .

(٦) إني : مقصور إناء .

(٧) مالكة : رسالة . تأتكل : تسمى بالشر أو تفضب وتقل حتى لكأنك تأكل نفسك .

(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثلتك : تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما أطت الإبل التأييد .



كناطحِ صخرةً يوماً لِيُوهِنَهَا فلم يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ<sup>(١)</sup>  
 وواضح أنه يوبّخه ساخرأً منه مزدرياً له، إذ يقول: يا أبا ثُبَيْتٍ أما تنفك  
 تسعى بالشر والفساد وتقع في أعراضنا بالذم والقدح ؟ ألسنت منتهياً عن ذمنا  
 وتنقصنا ؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر ،  
 وما مثلك إلا كمثل وَعَلٍ ينطح صخرة ليضعفها ، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم  
 يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه . وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن عُلَثة ،  
 فستجده يعتمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة ، إذ يقول له في أولاهما  
 موازناً بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل :

علقمَ ما أنتَ إلى عامرِ      الناقصِ الأوتارَ والواترِ<sup>(٢)</sup>  
 يا عَجَبَ الدَّهْرِ متى سُويَا      كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرِ  
 ولستَ بالأكثر منهم حَصِيٌّ      وإنما العِزَّةُ للكثيرِ<sup>(٣)</sup>  
 علقمَ لا تَسْفَهْ ولا تجعلنُ      عِرْضَكَ للواردِ والصادرِ  
 ولستَ في السُّلَمِ بذى نائلٍ      ولستَ في الهيجاءِ بالجاسرِ<sup>(٤)</sup>

وهذا من أشد الهجاء وأمضه ، ولو أنه شتم وأفحش لعُدَّ سفيهاً ، أما أن يهجو  
 على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى  
 كلامه وتكثر من تأويله . وهو يشير في الأبيات إلى حكم هرم بن قُطَيْبة حين تنافر  
 إليه علقمة و عامر ، فسوى بينهما في عبارته المأثورة : « إنكما كَرُّ كَبْتِي البعير  
 الأدرَم ( الفحل ) تقعان على الأرض معاً » والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه  
 قائلاً: أين الشَّرَى من الشَّرِيّاً . وقد مضى في القصيدة الثانية يذمه ، ولم يكن من  
 أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم      وجاراتكم غرثى يبتن خمائصاً<sup>(٥)</sup>

(٣) الحصى هنا : العدد .  
 (٤) النائل : العطاء . الجاسر : الجريء .  
 (٥) المشتى : زمن الشتاء . غرثى : جائعة .  
 خمائص : ضامرات البطون .

(١) الوعل : ضرب من الماعز الجبلي .  
 (٢) الأوتار : جمع وتر وهو النار .  
 ونافضها : الآخذ بثأره . الواتر : الذي  
 يترك ثأره في الأعداء فلا يستطيعون نقضه .

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلاً فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويُسْتَحْمُونَ في ليالي الشتاء الباردة على حين يشتد كَلْتَبُ الجوع والمنغبة على جاراتهم . واختار النساء ليتزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمع إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذى قار :

واقعدُ عليك التاجُ مُعتصباً بهِ لا تطلبينَّ سَوامنا فتعبداً<sup>(١)</sup>

وفي كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخف به ويجيوشه التي يعدّها لقتالهم وقتال شبان ، وكأنه يلوّح له أنه إن هاجمهم مُنِي بهزيمة تطيح بتاجه . ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه « إذا مدح رفع وإذا هجا وضع » ، فهو إذا مدح غالى في مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أوحع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر في شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التي كانوا يعتزون بها في الجاهلية من الجود في الجذب والشجاعة في الحرب والرعى في المكان الخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاءه لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخرأ مدوياً ، كقوله في معلقته التي أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسَهِّر الشيباني ومفتخرأ بشجاعة قبيلته وما أُنخنت في القبائل من جراح :

سائلُ بني أسدٍ عَنَّا فقد علموا أن سوف يأتيك من أنبائنا شكلاً<sup>(٢)</sup>  
 واسألُ قُشَيْرًا وعبد الله كلَّهُمُ واسألُ ربيعةَ عَنَّا كيف نَفَتَعِلُ<sup>(٣)</sup>  
 إنا نقاتلهم حتى نقتلهم عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا  
 لئن مُنيتَ بنا عن غيبٍ معركةٍ لم تُلفنا من دماء القوم ننتفيلُ<sup>(٤)</sup>

(٣) نفتعل هنا : فعل العظام .  
 (٤) غيب : عقب ، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدهم على أتم استعداد للقاء . نتفعل : نتفنى ، ويرى نتفعل .

(١) السوام : الإبل الراحية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصيح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .  
 (٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .

قَدْ نَخْضِبُ الْعَيْرَ مِنْ مَكْنُونِ فَائِلِهِ ..... وَقَدْ يَشِيْطُ . عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطْلُ (١)  
 نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْعَيْنِ ضَاحِيَةً ..... جَنْبِي فُطَيْمَةٌ لَا مِيلَ وَلَا عَزْلُ (٢)  
 قَالُوا الرُّكُوبَ فَقَلْنَا تِلْكَ عَادَتْنَا ..... أَوْ تَنْزَلُونَ فَإِنَّا مَعَشْرٌ نَزْلُ (٣)

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صورَّ فيه الأعرشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين . منوهاً بأن تلك سجية لهم درج عليها شيوخهم وشبابهم .

← ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبيعي لكثرة رحلاته وأسفاره ، وهو في هذا الموضوع يجري على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجري فيها من ظلام أو سموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشتها وعزيف الجن ليلا بها ، يقول في معلقته :

وبلدةٍ مثلِ ظهرِ التُّرسِ موحشةٍ ..... للجنِّ بالليلِ في حافاتها زَجْلُ (٤)  
 لَا يَتَنَمَّى لَهَا بِالْقَيْظِ يَرْكَبُهَا ..... إِلَّا الَّذِينَ لَهُمْ فِيهَا أَتَوَا مَهْلُ (٥)  
 جَاوَزْتُهَا بِطَلِيحٍ جَسْرَةٍ سُرْحٍ ..... فِي مِرْفَقَيْهَا إِذَا اسْتَعْرَضَتْهَا فَتْلُ (٦)

وواضح أنه في هذه الأبيات يفخر بتحملة لمشقات السفر في مثل هذه الأرض الوعرة الصلبة الموحشة التي لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتي لا يركبها في حمارة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكارة ، ويقول إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نضو أسفار ضامرة موثقة الخلق صلبة قوية . وهو

بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل : صوت . حافاتها : نواحيها .  
 (٥) يتنمى : يرتفع . القيظ : شدة الصيف . مهل : أناة وصبر .  
 (٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها . جسر : ضخمة . سرح : سريعة . فتل : قوة وصلابة .

(١) العير : حمار الوحش استماره للفراس لأن العير يتقدم الأذن : الفائل : القناة الدموية كالشريان . يشيط : يهلك .  
 (٢) يوم العين : يوم كان بين بني قيس بن ثعلبة وشيبان بجانب موضع في البحرين يسمى فطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان . عزل : جمع أزل : من لا سلاح له .  
 (٣) يريد بالنزول التضارب بالسيف .  
 (٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشبهها

لا يطيل في وصف أعضاء الناقة صنع طرفه ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ،  
ويتكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامة ، ويطيل  
في وصف ما يلم به منها على عادة الجاهليين . وقرأ هذه القطعة :

وفلاة كأنها ظهْرُ تُرَيْسٍ      ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقُ (١)  
قد تجاوزتها وتَحَى مَرُوحُ      عنتريسُ نَعَابَةٌ مِعْناقُ (٢)  
عَرْمِيسُ تَرَجُمُ الإِكَامَ بِأَخْفَا      في صِلابِ منها الحصى أَفلاقُ (٣)  
وكانَ القُتودُ والعِجَلَةُ الوَفْ      راءَ لَمَّا تَوَاحقَ السُّواقُ (٤)  
فوق مُسْتَبَقِلٍ أَضْرَبَ به الصَّيْدُ      فُ وَزَرَ الفُحولِ والتَّنْهاقُ (٥)  
أو فريدٍ طاوٍ تَصَيَّفَ أَرطَا      ةٌ عليه من الغصونِ رُواقُ (٦)  
أَخْرَجْتَهُ شَهْبَاءُ مُسْبِلَةُ الوَدِّ      قِ رِجوسُ قَدَّامها فُرَّاقُ (٧)  
وتَعادَى عنه النهارُ تُوارِي      عِراضُ الرِّمالِ والدَّرْداقُ (٨)  
وتَلَّتْهُ غُضْفُ طَوارِدُ كالنَّحْ      لِ مِغاريثُ هَمُّهُن اللِّحاقُ (٩)

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ،  
ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت تزجم  
المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصى شتتاً وسرعان ما يشبهها  
في سرعتها بحمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعضّ أمثاله وتنهاقها عليه ،

زر : طرد وعض .  
(٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش .  
طاو : جائع . الأراطة : من أشجار البادية .  
رواق البيت : شقته التي دون شقته العليا .  
وتلك رواية المخطوطة اليمنية .  
(٧) شهباء : سحابة بيضاء يصدعها سواد .  
مسيلة : مرسله . الودق : المطر . رجوس :  
مرعدة . فراق : جمع فارق وهي السحابة المنفردة .  
(٨) تعادى : تباعد . الدرداق : دك متلبد  
من الرمال .  
(٩) الغضف : كلاب الصيد مسترخية  
الأذان . مغاريث : جماعة .

(١) الرجيع : ما تجره من طعامها . العلاق :  
ما تطعمه الإبل من الشجر .  
(٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة .  
نعابة : تمد عنقها في سيرها . معناق : من العنق  
وهو سير واسع للإبل .  
(٣) عرمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .  
(٤) القتود : الرجل بأدواته . العجلة :  
المزادة ، وهي قربة الماء . الوفراء : كثيرة  
المياه . السواق : طويل الساق . تواحق :  
مد عنقه في السير . وتلك رواية المخطوطة اليمنية ،  
والبيت في الديوان مضطرب .  
(٥) مستبقل : حمار وحش يأكل البقل ،

فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلاً مع هذا الحمار ، بل يتركه إلى ثور وحش يشبهه به ناقته ، ويصوره طاوياً في ليلة من ليالي الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلاً بأغصان أرطاة ، والمطر يسقط من حوله والفرع يأخذه من كل جانب ، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ، فخرج يتوارى في عراض الرمال وكتبانها ، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فتوتها . والأعشى يشبهه ناقته به وهي تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شيء يطلبها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل في تصوير ذلك إطالة النابغة أو لبید أو غيرها من الجاهليين ، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز في وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع في الحديث عن الخمر والغزل .

وحقاً نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم ، على نحو ما نرى في معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجد ما في فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها في نفوس شاربها ، وكأنه يقدسها تقديساً ، فهي وثنه وصنمه ، ولذلك لم يكذب يسمع من قريش - كما أسلفنا - أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كفَّ عن لقائه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها إجابة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب<sup>(١)</sup> ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسّم فيه بيئتها ومجالسها وما يُنشَرُ فيها من الورود والرياحين وما يقوم فيها من السقاة والمغنين والإماء الخليعات اللأئي يَلْبَسْنَ الشفوف الرقيقة وما يضربُ عليه العازفون من آلات طرب كالصنّج والعود ، واستمع إليه يقول في معلقته :

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعني  
 في فتية كسيوف الهند قد علموا  
 نازعتهم قُضِبَ الرِّيحان مُتَكثاً  
 لا يَسْتَفِيقون منها وهى راهنة  
 يَسعى بها ذو زُجاجاتٍ لَهُ نَطْفُ  
 ومستجيبٍ تخال الصَّنَجِ يَسْمَعُهُ  
 والساحياتِ ذبولَ الخَزِّ آوَنَةٌ  
 من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ به

شاوٍ مِشَلْ شَلُولُ شُلْشَلُ شُولُ (١)  
 أن ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلةِ الحِيلِ  
 وقهوةٌ مُزَّةٌ رَاووقها خَضِلُ (٢)  
 إلا بهاتٍ وإن عَلُّوا وإن نَهَلُوا (٣)  
 مُقَلِّصٌ أسفلَ السَّرْبَالِ مُعْتَمِلُ (٤)  
 إذا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضْلُ (٥)  
 والرَّافلاتِ على أعجازها العِجَلُ (٦)  
 وفي التجاربِ طولُ اللُّهُوِّ والغَزَلُ

وهو يصف في الأبيات يوماً من أيام طوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشطٍ خفيف الحركة طيب النفس في فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول لإنهم تجاذبوا أغصان الرياحن وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يجف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقى : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساقى بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلّق في أذنه قُرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبع على العمل بجد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تنسق مع صنّج كانت تعزف عليه وتغنى قينة في ثوب واحد رقيق ، ومن ورائها نساء ترفل في ثياب الخبز والحريير ، وقد علت أعجازهن كأنها قرب مملثة ، فهي تهتز وترتج . ويختم أبياته بأنه تمتع بكل ذلك

نطف : جمع نطفة وهى القرط به لؤلؤة صافية .  
 مقلص أسفل السربال : قصير القميص .  
 متمل : مطبوع على العمل والنشاط .  
 (٥) المستجيب : العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . ويجعل الصنج يسمه كناية بذلك عن اتساق ألحانهما . القينة : الأمة المغنية .  
 الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .  
 (٦) العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الحيم وهى قرية الماء .

(١) غدوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم .  
 ومعنى مثل شلول شلشَل شول أنه خفيف الحركة نشيط .  
 (٢) قضب : جمع قضيب وهو الفصن ، القهوة : الحمر . الراووق : الوعاء الذى تروق فيه الحمر . خضل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .  
 (٣) علوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب ثباعاً ، نهلوا : من النهل ، وهو أول الشرب .  
 إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .  
 (٤) ذو زجاجات : يريد الساقى .

ولها به وجربه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانها وألوانها وما تفعله بعقول شاربها وما تُحدث في قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغولاً بها مفتوناً ، بل سكيراً مغرقاً في السكر ، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة المجان في العصر العباسي أمثال أبي نواس ، وفي الوقت نفسه يفتقر من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم إسرافه في اللهو والمجون . ولا نشك في أن هذا جاءه من أثر الحضارات التي ألمَّ بها في الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحوّل مدمناً لها ، يلزم حوانيتها ، فإن ولّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فيهلون ويعلّون ولا يفيقون ، وهو في أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضغى عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أتاني يؤامرني في الشمر	ل ليلاً فقلت له : غادها (١)
أرخنا نباكرُ جدَّ الصبو	ح ح قبل النفوس وحسادها (٢)
فقمنا ولما يصح ديكنا	إ إلى جونة عند حدادها (٣)
تنخلها من بكار القطاف	أ أزيقُ آمنُ إكسادها (٤)
فقلت له : هذه هاتها	ب بأدماء في حبل مقتادها (٥)
فقال : تزيدوني تسعة	و وما ذاك عدلاً لأندادها (٦)
فقلت لمنصفنا : أعطه	ف فلما رأى حضر شهادها (٧)
أضاء مظلته بالسرا	ج ج والليل غامرُ جدادها (٨)

(٥) أدماء : ناقة بيضاء . مقتادها : غلامها الذي يرعاهها .  
 (٦) أندادها : أمثالها .  
 (٧) منصف : خادم . حضر : حضور .  
 شهادها هنا : الدراهم .  
 (٨) مظلته : حانوته أو خيابه . الحداد : الأهداب والأستار .

(١) يؤامرني : يشاورني . الشمر : الخمر .  
 غادها : انطلق بنا إليها .  
 (٢) جد : نشاط . الصبو : خمرة .  
 الصباح .  
 (٣) جونة : جرة وخاوية . حدادها : خمارها .  
 (٤) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف :  
 أول ما يقطع . أزيق : أزرق العينين .  
 آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .

دَرَاهُنَا كُلُّهَا جَيْدٌ      فلا تحسبنا بتنقادها (١)  
 فقام فصب لنا قهوةً      تسكننا بعد إزعادها (٢)  
 كُمنياً تكشف عن حُمرةٍ      إذا صرحت بعد إزبادها (٣)  
 كحوصلة الرأل في جربها      إذا جليت بعد إقعادها (٤)  
 وجال علينا بإبريقه      مخضب كف بفرصادها (٥)  
 فباتت ركاباً بأكوارها      لدينا وخيل بالبادها (٦)  
 ورُحنا تنعمنا نشوةً      تجور بنا بعد إقصادها (٧)

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة في الديوان عن خمريات  
 أنى نواس وأضرابه في شيء ، لولا ذكره للأكوار والأباد في نهايتها ، ولوحظنا بيتهما  
 لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو في أولها يذكر  
 أن فتى طرقة قبل أن يسفر الصباح يدعو أن يذهب معاً لتناول الخمر . وذهباً في  
 هزيع الليل الأخير - قبل أن تصبح الديكة وقبل أن يسبقهما أى كاشح حسود - إلى  
 حانوت خمار أعجمي ، كنى عنه بزرقه العين ، وهو خمار حاذق لصنعتة ،  
 استخلص خمره من بكار القطاف ، وهي خمر معتقة ومثلها لا يكسند ولا يبور .  
 وطلباً إليه أن يسقيهما بناقة قاداها إليه ، وهي واقفة ببابه مزومة بجبل غلامها ،  
 فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليس كفوّاً لها ،  
 ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضئ الخمار خبائه  
 أو حانوته ، ويعدّ الدراهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه  
 أو رفاقه قام ، فناولهم خمرأً تمشت في أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهي خمر حمراء

من جلوة العروس . القاعدة ، إذا قعدت عن  
 الطلب . وانظر الحيوان ١٤/٤ .  
 (٥) الفرصاد : التوت الأحمر .  
 (٦) الأكوار : الرجال . الأباد :  
 جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج  
 (٧) إقصاد : قصد واعتدال .

(١) تنقادها : نقدها وعداها حتى يتبين  
 زائفها من صحيحها .  
 (٢) تسكننا : نسكن إليها .  
 (٣) كُمنياً : حمراء . صرحت : ذهب  
 زيلها .  
 (٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر  
 بحوصلة في الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ



فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يستقيم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه في صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الخمر ودنّها ولونها وخآرها وحانوتها وتعرض لصباح الديكة في السحر ومساومة صاحبها في ثمنها وأثرها في النفس وما تصيب به شاربها من انشاء يتمشى في المفاصل . وهذه المعاني جميعها تدور فيها وفي أفلاكها خريبات العباسيين . واستمع إليه يقول :

وَأدْكَنَ عَاتِقٍ جَحَلٍ سِبْحَلٍ      صَبِحْتُ بِرَاحِهِ شَرِبًا كِرَامًا (١)  
 مِنَ اللَّاتِي حُمِلْنَ عَلَى الرَّوَايَا      كَرِيحِ الْمِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكَامَا (٢)  
 مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ عَلَى قَرَاهَا      إِذَا مَا صَرَّحَتْ قِطْعًا سَهَامَا (٣)  
 تَخَيْرَهَا أَخُو عَانَاتَ شَهْرًا      وَرَجَى أَوْلَهَا عَامًا فَعَامَا (٤)  
 يَوْمٌ أَنْ تَكُونَ لَهُ ثَرَاءٌ      فَأَغْلِقْ دُونَهَا وَغَلَا سِوَامَا (٥)  
 فَأَعْطَيْنَا الْوَفَاءَ بِهَا وَكُنَّا      نُهَيْنُ لِمَثَلِهَا فِينَا السُّوَامَا (٦)  
 كَأَنَّ شُعَاعَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِيهَا      إِذَا مَا فُتَّ عَنْ فِيهَا الْخَتَامَا (٧)

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق ، صبح به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التي تجتلب من البلاد البعيدة والتي تنفذ رائحة خمرها بطيها إلى الأنف ، فتستل منه الزكام . ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروقة ، صافية كأنها بياض الحر أو سرابه اللامع ، وقد انتقاها صاحبها في «عانات» ، وظل

- (١) أدكن : هو الدن لأنه يطل بالفطران .  
 عاتق : قديم . الجحل : السقاء الكبير أو القرية الكبيرة . سبحل : ضمخ . الشرب : جماعة الشارين . صبحت : ناولت ، وهو خمر الصباح .  
 (٢) الروايا : جمع راوية وهو البعير .  
 (٣) مشعشة : مروقة . قراها : ظهرها .  
 صرحت : صفت . السهام : وهج الصيف وما يكون معه من البياض .  
 (٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تؤول إليه من ثمن غال .  
 (٥) السوام : بكسر السين المساومة في البيع والمغلاة .  
 (٦) السوام : بفتح السين الإبل الراعية .  
 (٧) قرن الشمس : أول ما ييلو منها في الصباح . الختام : السداد .

يعلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً في ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، ويصورها وهي تسقط من دَنِّهَا بشعاع الشمس الوهاج ، وهي من الصور التي أكثر العباسيون من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دِنَانِهَا ، ومن قوله في كأس من كتوسها :

وَكَأْسٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ بَاكَرَتْ حَدَّهَا      بَفْتِيَانِ صِدْقِ والنَّوْاقِيسُ تَضْرِبُ<sup>(١)</sup>  
سُلَافٍ كَأَنَّ الزَّعْفَرَانَ وَعِنْدَمَا      يَصْفُقُ فِي نَاجُودِهَا ثُمَّ تَتَّقَبُ<sup>(٢)</sup>

وهو يشبهها بعين الديك في صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين ، يشربونها معه في الأديرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها في نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خُاطِطٌ بصبغ العندم ، وقد سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها ، معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهي كل لذته ومتاعه ، يقول :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ      وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا  
لَكِي يَعْلَمُ النَّاسُ أَنِّي امْرُؤٌ      أَتَيْتُ المَعِيشَةَ مِنْ بَاهَا

وما نبى يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب ، بنفس الصورة التي تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون في العصر العباسي . ونحن إنما سقنا ما وثَّقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خيرية تزخر بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسي أباً وأماً ممن أتقنوا الشعر العربي في العصر العباسي وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفرق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبي نواس وأضرابه في شيء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية ، ولا يبخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر في تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجرى على لسان أبي نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

(١) باكر : شربها في الصباح الباكر .  
حدها : سورتها وحدها .  
شجر عروقه حمراء يصبغ به . يصفق : يبرق .  
(٢) السلاف : أجود الخمر . العندم :

ويزمزم . فإذا بقي لجان الفرس في العصر العباسي . وقُلْ ذلك نفسه في قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين ، وهي ترفض أيضاً لما فيها من صور خمرية تنبوعلى ذوق الجاهليين ، إذ يوصفُ زقُّها الأسود وقد طُملي بالقار وطُرح على الثرى بجبشى نام وانبطح ، كما يوصفُ السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسحٍ فلا يستطيعون حراكاً بالجمال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلاً عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ في وصف صاحبه ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المبنوثة في معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فَظَلَلْتُ أَرعَاها وَظَلَّ يَحُوطُها      حتى دنوتُ إذا الظلامُ دَنَا لَهَا  
فَرَمِيتُ غَفَلَةً عَيْنِهِ عَن شاتِهِ      فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَها<sup>(١)</sup>  
حَفِظَ النِّهَارَ وَبَاتَ عَنها غافِلاً      فَخَلْتُ لِصاحبٍ لَذَّةً وَخِلا لَهَا

فهو يخالس الزوج ويخاتله ، حتى يظفر ببغيته . وطبعي أن يكون غزله مادياً صريحاً لما رأينا من لهوه وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة في الغزل وشدة في الوله والتعلق بالمحجوبة ، حتى إن روجه لتكاد تسقط من بين جنبه جزعاً وصبابة ، وخاصة حين الوداع . واستمع إليه يقول في فاتحة معلقته :

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنْ الرُّكْبَ مُرْتَجِلُ      وهل تطيقُ وداعاً أيها الرَّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل ، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهي صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذي أثرت فيه الحضارة ، وحوادثه دقيقة الحس دقة شديدة فإذا هو يتذلل في حبه ويخضع ، وامضٍ معه في المعلقة فستجده يشببُ بصاحبه منحرفاً عن طريقة الجاهليين في بكاء آثار الديار والأطلال ، فهي موضوع حبه وغزله ، ولا داعي لأن يذهب بعيداً مع الذكريات ، وإذن

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ في وصفها مفتناً في ذلك افتناناً ، فتارة يصف بشرتها وشعرها وعوارضها وتارة يصف مشيتها الوانية وحسبها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عُلِّقَتْهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلًا  
غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاءه بحبها ، فهو يحبها ، وهي تعرض عنه ، وتحب رجلاً آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ، فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قَالَتْ هُرَيْرَةٌ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا  
وَيَلِي عَلَيْكَ وَيَلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ

فقد بالغ في وصف ارتباعها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل في هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز من ناحية بأنه حسي مادي ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف المحبين وأحاسيسهم التي يبوحون بها ولا يستطيعون كظمها ولا كتمها ، بل يندفعون في تصويرها معبرين عن وطهم وعشقهم .

والحق أن الأعشى في شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضري الذي ظهر من بعده ، سواء في غزله وخرمه أو في هجائه ومدحيه ، فهو في هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء في خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو في خطاب النساء والتذلل لهن أو في اللعب بمهجويته والاستهزاء بهن والاستخفاف ، أو في وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكثوسها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين في مبالغاتهم ، فقد كان يسرف على نفسه مثلهم في تصور ممدوحيه ، فإذا هو يقول في هُوَذَةَ بن علي الحنفي :

فَتَى لَوْ بَارَى الشَّمْسُ أَلْقَتْ قَنَاعَهَا  
أَو الْقَمَرَ السَّارَى لِأَتَى الْمَقَالِدَا (١)

فهو لو يبارى الشمس لألقت قناعها خجلاً ولو بارى القمر لذل له وانقاد صغاراً . وهي مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلاً :

(١) أتى المقالة : ذل وانقاد ، وفي رواية ينادى بدلا من يبارى بمعنى يجالس

لو أسندت مَيْتاً إلى نَحْرِهَا عَاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قَابِرٍ  
حتى يقولَ النَّاسُ مَا رَأَوْا يَا عَجَباً لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ (١)

فلو ضمت ميتاً إلى نحرها لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده إطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً تعمقه في صنع الأخيصة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها لا في موضوعه الجديد فحسب ، ونقصد الحمر ، وإنما في أقدم الموضوعات وأكثرها دخولا في البداوة ، ونقصد وصف الناقة ، إذ يقول في بعض شعره إنها تجترع الآكام اجترعاً ، لما تطوى منها ، يقول :

إِذَا مَا الْآكِمَاتُ وَنَيْنَ حَطَّتْ عَلَى الْعِلَاتِ تَجْتَرِعُ الْإِكَامَا (٢)

ويقول مصوراً سرعة ناقته في الهاجرة :

بِجَلَالَةٍ سُرْحٍ كَأَنَّ بَدْفَهَا هِرّاً إِذَا انْتَعَلَ الْمَطِيُّ ظِلَالَهَا (٣)

فهى تجرى مذعورة كأن هيراً يحدشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال في الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها ، وهى تنتعله في خطاها . وتكثر عنده الصور المخترعة في الحمر ، وهى مبثوثة فيما أنشدناه من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته أمثال طرفة ، وما نشك في أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقت معانيه ، وركت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلي ، وليس لفظه وحده الذى رقى ، بل إن نفسه رقت هي الأخرى ولانت ، فإذا هويأتى بخمرياته وغزلياته السابقة . وحقاً تأثر النابغة مثله بالحضارة ، ولكننا نحس عنده أنه يسبق على كثير من بداوته ، ولذلك

الإكام : المرتفعات .

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .

(٢) (٣) جلالة : ناقة ضخمة . سرح :

(٢) الآكيمات هنا : الوايات . العلات :

سهلة . الدف : الجانب .

الحالات المختلفة . حطت : أسرعت .

لم يرقّ غزله ولا خاض في الحمر ، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الحمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعياً أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة في سهولة ألفاظه فحسب ، بل يظهر أيضاً في خفة أوزانه وجمال موسيقاها ، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحِيل شعره أحياناً وأنعاماً خالصة . وهو كثير التنوع في أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء ، ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافي المتمكنة .

على أنه ينبغي أن نلاحظ شيئين ، هما كثرة ما نُحِيلَ عليه ، وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية في بعض قصائده ، حَمَلَ عليه من أجلها المرزباني في كتاب الموشح ، والذي لا شك فيه أن هذا من صُنْعِ المتحليين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحى عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشيء الثاني فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلاً عن صورة الأسلوب الجاهلي ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التي تدور في الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة في التركيز وحشد المعاني في الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين في أشعاره كقوله في مطلع قصيدته الأولى في ديوانه :

ما بكاء الكبير بالأطلالِ      وسؤالي فهل تردُّ سؤالي  
دمنةٌ قفرةٌ تعاورها الصبيُّ      فُ بريحين من صباً وشمالاً<sup>(١)</sup>

فقد جاء بفاعل تردّ في أول البيت الثاني ، ومن ذلك قوله في قصيدته التي يفخر فيها بتغلب شيبان على القرس في يوم ذي قار :

ولله عينا من رأى من عصابة      أشدّ على أيدي السعاة من التي<sup>(٢)</sup>

(٢) السعاة : الذين يسعون في الحرب ويهيجونها .

(١) - الدمنة : آثار الدار . الصبا : ريح جنوبية لينة . تعاورها : تتداولها .

أَتَتْنَا مِنَ الْبَطْحَاءِ يَبْرُقُ بَيْضُهَا وَقَدْ رُفِعَتْ رَايَاتُهَا فَاسْتَقَلَّتْ (١)

وهو يوازن في البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنما لأشد على من يثرون الحروب من تلك التي أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتحقق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول في البيتين ، وكأنه لم يعترف بأن البيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمين في شعره أكثر من أن تمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتمه في البيت ، بل يتمه في بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التي اشتهر بها في شعره ، وذلك أنه حين ينبغي تفضيل شيء على شيء يجعل المفضل عليه مبتدأ منفيًا بما ، ثم يسترسل في وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بنجر المبتدأ ، على شاكلة قوله في المعلقة يصف صاحبه وما ينتشر من طيبها :

ماروضةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ      خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلٌ (٢)  
بُضاحكِ الشمسِ منها كوكبٌ شَرِيقٌ      مَوْزَرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ (٣)  
يوماً بِأَطْيَبَ منها نَشَرَ رَائِحَةٍ      وَلَا بِأَحْسَنَ منها إِذْ دَنَا الْأَصْلُ (٤)

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها في بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمس أزهارها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبه شذى ولا أبهى منظراً .

وواضح من كل ما قدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلي ، وهي حلقة تضيف جديداً واضحاً إلى هذا الشعر سواء في موضوعاته أو في معانيه أو في أحاسيسه أو في سهولة ألفاظه أو في خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات .  
شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة  
تفتح الأزهار . موزر : لابس إزاراً . عميم  
النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .  
(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت  
قبل الغروب .

(١) البطحاء : موضع بقرب ذي قار .  
اليبيض : الخبز . استقلت : ارتفعت  
وعلت .  
(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتقع .  
وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض  
المنخفضات . مسبل هطل : كثير الأمطار .

## الفصل الحادى عشر طوائف من الشعراء

١

### الفرسان

رأينا القبائل فى الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهى كتائب تنزل للرعى ، وفى الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كى تدفع خصومها عن مراعيها ، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنبه أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والحيل ، وكانوا يرون فى الثانية مزية على الأولى لسرعتها فى الطراد والإغارة ، فأحبوها وعشّوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها فى شعرهم الجاهلى ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما ، وفى معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لحيلهم ، ومن اشتهر بوصفها أبو دؤاد الإيادى وطُفيل الغنوى وسلامة بن جَسَدَل التميمى .

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم عليها لخصومهم وأقربانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الحيل طويلاً وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم . وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البسوس وفارسها المهلهل التغلبى ، وهو الذى أشعل نيرانها ناراً لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقه<sup>(١)</sup> . وشعره يدور فى رثاء أخيه وتوعد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة ، وكانت الحرب كما قدمنا فى غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب

وخزاة الأدب للبغدادى ٣٠٢/١ .

(١) انظر أخباره فى الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤/٥ والشعر والشعراء ٢٥٦/١ .



سِجَالاً ، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك . وكان لا يبنى يحمّس قومه ويدعوهم إلى واصلّة القتال ، مفصّحاً في أثناء ذلك عن رغبة حارة في الانتقام ، واسمعه يقول : (١)

وإني قد تركتُ بوارداتٍ      بُجَيْراً في دَمٍ مثلِ العَبِيرِ (٢)  
 وهمّام بن مرّة قد تركنا      عليه القشعمان من النُّسورِ (٣)  
 وصبّحنا الوُخومَ بيومٍ سوءٍ      يُدافعن الأسنّة بالنُّحورِ (٤)  
 كأنّا غُدوةٌ وبنيّ أبينا      بجوفٍ عُنيزةٍ رَحياً مُديرِ (٥)  
 فلولا الريحُ أُسمِعَ أهلُ حجرٍ      صليلَ البَيْضِ يُقرَعُ بالذكورِ (٦)

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر في موقعة واردات وموقعة عنيزة ، وقد قتل في الأولى بجير بن الحارث بن عبّاد أحد فرسان بكر كما قتل همّام بن مرّة أخا جسّاس ، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم ، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكر من حرّ اللقاء .

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطُّفَيْلِ (٧) فارس بني عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدّها بأساً ، وكان بنو عامر ينتشرون في أواسط نجد شرق الحجاز ، وجنوبي منازل عبس وذبيان ، وغربي منازل بني تميم ، وكانت مراعيهم تمتد جنوباً حتى بني حنيفة في اليمامة وبني الحارث بن كعب في نجران ومدحج في شمالي اليمن . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس ، فاصطدمت بذبيان وأحلافها ، وقد جعلهم انتشارهم في أواسط نجد يحاربون

(٦) حجر : قرية باليمامة . البيض :

خودُ الحرب . يقرع : يضرب . والذكور : أجود السيوف وأيسها وأشدّها .

(٧) انظر أخبار عامر في الأغاني (طبعة

الساسي) ٥٠/١٥ ، وراجع ترجمته

الشعر والشعراء ٢٩٣/١ وانظر الخزانة ٤٧٣/١ ،

٤٩٢/٣ والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقائض في

يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جيلة ص

٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥٦/٥ والسيرة

النّبوية ٤/٢١٣ .

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف)

ص ١٧٤ والأغاني ٥٣/٥ .

(٢) واردات : موضع سميت به موقعة حدثت

فيه بين بكر وتغلب في حرب البسوس . العبير :

الزعفران .

(٣) القشعم من النُّسور : الضخم ، وهمّام :

أخو جسّاس قاتل كليب .

(٤) الوخوم : عشيرة من بكر .

(٥) عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع

حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير

أثرت كل منهما في الأخرى ، والصورة واضحة .

قبائل كثيرة مضرية ويمنية .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لایل مع ديوان عبید بن الأبرص في سلسلة جب التذكارية ، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه في حروب قومه مع ذبيان في يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرها من الأيام . وقد أظهر بطولة نادرة في يوم فيف الريح وكان لقومه على بنى الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج ، وتغنى به طويلاً في شعره على شاكلة قوله (١) :

لقد علمتُ علياً هوازنَ أنى  
وقد علم المزنوقُ أنى أكره  
إذا ازورَّ من وقع الرماح زجرته  
وأنباته أن الفرار خزاية  
ألست ترى أرماحهم في شرعا  
وقد علموا أنى أكرُّ عليهم  
وما رميتُ حتى بلَّ نحري وصدرة  
أنا الفارُّسُ الحامى حقيقة جعفر (٢)  
على جَمْعهم كَرَّ المَنِيحِ المَشْهَرِ (٣)  
وقلتُ له : ارجع مقبلاً غير مُدْبِرِ (٤)  
على المرء ما لم يُبَلِّ جهداً ويُعْذِرِ (٥)  
وأنت حِصانُ ماجِدُ العِرْقِ فاصْبِرِ (٦)  
عشية فيفِ الريحِ كَرَّ المَدْوَرِ (٧)  
نَجِيعُ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ المَسِيرِ (٨)

وهو يصور في هذه القطعة اقتحامه للحروب ، وكيف أنه لا يتسخلى عن بسالته الحربية ، حتى يحمي عشيرته وضعفائها ونساءها ، ويقول إنه لا يزال يرد إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها ، وإن ازورَّ عنها أو انحرف دفعه فيها دفعاً ، أما الفرار وعاره فدونه الموت ، ويدعو فرسه إلى التأسى به ، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال ، ويدعو فرسه إلى الصبر معه ، حتى

(٤) ازور : مال وانحرف .  
(٥) خزاية : خزي . يعذر : يأتي بعذر .  
(٦) شرعاً : مسددة .  
(٧) المدور : الذي يطوف بالدوار وهو من أصنامهم .  
(٨) ما رميت : ما يرحت . النجيع : الدم .  
الدمقس : الحرير . المسير : برود من اليمن بها خطوط .

(١) المفضليات ص ٣٦١ .  
(٢) علياً هوازن : مجموعة من قبائلها هي سعد وجشم ونصر وثقيف . وحقيقة : حمى .  
جعفر : عشيرة عامر ، وهي جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر .  
(٣) المزنوق : اسم فرسه . المنيح : من قداح الميسر ويكثر جولانه في القداح . فكلمنا يخرج منها رد فيها .

ينالا شرف النصر جميعاً ، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الرياح وما أظهر فيه من بسالة ، ويقول إنه لم يبرح موضعه في ميدان القتال ، حتى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء .

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرته لعلقمة بن عُلَثة ابن عمه ، بسبب منافستهما على سيادة عشيرتهما ، وقد احتكما إلى هيرم بن قُطبة الفزاري ، فسوّى بينهما كما مر بنا - في عبارته الماثورة إذ قال لهما : « أنتما كركبتي البعير الأدرم ( الفحل ) تقعان إلى الأرض معاً » . وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا في صف عامر ضد علقمة . وقد وفد عامر على الرسول صلي الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة ، غير أن الله لم يوقفه للإسلام ، فضى على وجهه ، والرسول غضبان عليه ، ولم يلبث أن مات بالطاعون عن اثنتين وستين سنة .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنتره بن شداد <sup>(١)</sup> ( وقيل ابن عمرو بن شداد ) العبسي ، وكان أبوه من أشرف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب ، كما ورث عنها تشقق شفثيه ، ولذلك كان يقال له عنتره الفلحاء . وكان من عادة العرب في الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة . ومن ثم لم يعترف شداد بعنتره ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة في حروب داحس والغبراء ، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذي أصابه في الصميم ، وفي ذلك يقول <sup>(٢)</sup> :

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصِباً      شَطْرِي ، وَأَحْمَى سَائِرِي بِالْمُنْصِلِ <sup>(٣)</sup>

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت      أَلْفَيْتُ خَيْرًا مِنْ مُعَمِّ مَخُولِ <sup>(٤)</sup>

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوي أو شطره الأول ، أما شطره الثاني من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب ، حتى غدا في قومه خيراً ممن

مجموعة « مختار الشعر الجاهل » . وطبع الديوان طبعات أخرى في بيروت والقاهرة وليدن .

( ٢ ) مختار الشعر الجاهل ص ٣٨٨ .

( ٣ ) منصِباً : أصلاً . المنصل : السيف .

( ٤ ) تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .

( ١ ) انظر في عنتره الأغاني ( طبعة دار الكتب ) ٢٣٧/٨ والشعر والشعراء ٢٠٤/١ وما بعدها والخزانة ٥٩/١ وراجع ديوانه برواية الأسمى ، في مخطوطة الشتمري « شرح الدواوين الستة » بدار الكتب المصرية . وقد طبع مطلق السقا نص المخطوطة بشرح مختصر في

عمه وخاله من سادتهم ، إذ لا يغنى القبيلة أحد غناءه ولا يدود عن حماها  
ذِي يادِه ، ويصوِّر لنا في نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول :

بَكَرْتُ تَخَوَّفَنِي الحُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عن غَرَضِ الحُتُوفِ بِمَعزَلِ (١)  
فَأَجِبْتُهَا إن المنيّة مَنهَلٌ لا بد أن أُسْقَى بِكأسِ المَنهَلِ (٢)  
فَأَتَنِي حِياءُكَ لا أبا لكِ واعلمى أَنى امرؤٌ سَأَموت إن لم أَقتلِ (٣)  
إن المنيّة لو تَمثَل مُثَلَّتْ مِثلى إذا نزلوا بِضَنكِ المنزلِ (٤)  
والخيلُ ساهمةُ الوجوه كَأَنما تُسقى فوارسُها نَقِيعَ الحَنظَلِ (٥)

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبه له مما قد يلقاه من المكارِه والمُتالف بسبب  
تهافته على الحروب ، بل إنه ليصم أذنيه عن نداءها قائلاً لها إن المنية مورد كل إنسان  
ولابد أن أموت ، فليكن موتي شريفاً في ميدان الحروب . ويدعوها أن تصون  
حياءها ، فهو ميت على كل حال ، وخير له أن يموت مناضلاً عن قومه مدافعاً  
عن نساءهم وأطفالهم وضعفائهم . ولا يلبث إحساسه ببطلته أن يتضخم في نفسه ،  
فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت في مثال لكانت في مثل صورته وخلقته ،  
وهو يقتحم الصفوف ، والحيل ساهمة من هول الحرب ، والفرسان كالحية وجوههم  
كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنتره بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، وما زالت  
ذكره عاقلة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية ،  
وقد اتخذت من أخباره نواةً للملحمة المعروفة باسمه والتي يمكن أن تعد لإبادة  
العرب ، وهو فيها يحارب في الجزيرة العربية وخارجها في الحبشة وإيران وبلاد الروم  
والفرنج وشمال إفريقيا والأندلس ، وينازل الصليبيين ، وبذلك كانت هذه القصة  
أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم في الجاهلية وفي الفتوح الإسلامية  
وبعد الفتوح في حروبهم مع الروم والصليبيين في الشرق والغرب .

ونحن لا نَعنى الآن بعنتره الأسطورة ، إنما نعني بعنتره الفارس الجاهلي الذي

(٤) الضنك : الضيق .

(٥) ساهمة : متفيرة .

(١) الحتوف : المتالف .

(٢) منهل : مورد .

(٣) اتنى : احفظى وصونى .

دَوَّخَ الأقران والأبطال في حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفسح شفتيه ، والذي لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضرباً من التسامى والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والحصال الحميدة، وقرأ فيهم فسراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض وفأهم وحلمهم وأنفهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح في أشعار عنزة ، ونظن ظناً أنه نمأه عنده ما قصه الرواة من أنه طلب عبلة من عمه مالك فأباها عليه لسواده ، ولأنه ابن أمة ، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم ، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس . ومن ثم كان يمكن أن يُعَدَّ أباً لشعر الحب العذرى عند العرب ، كما يعد فعلاً أباً للفروسية العربية بمخصاها وخلالها النبيلة السامية التي استرعت أنظار الصليبيين ، فاتخذوا منها مثالا لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عذرى<sup>(١)</sup> .

وَرَدُّ البَصَرِ في أشعار عنزة فستجده بأسر لبك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سمح السجايًا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغى على غيره ولا يحتمل البغى ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظلم تحوّل كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه . وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروته، وإذا دعاه داعي المكرمات لبيّ باذلاً كل ما يملك عن طيب نفس، يقول - في معلقته - مخاطباً ابنة عمه عبلة التي شغف قلبه بها حباً :

أثني على بما علمت فياني  
سَمَحٌ مُخالفتي إذا لم أظلم  
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسلٌ  
مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم<sup>(٢)</sup>

بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٢) باسل : كربه .

(١) انظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء

الثالث من المجلد الرابع ، الفصل الخامس الخاص

وإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ مالى ، وعرضي وأفرُّ لمُ يكلم<sup>(١)</sup> .  
وإذا صحتُ فما أقصر عن ندى وكما علمتِ شمالي وتكرمي

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته في الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصبُّ عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويصمى . ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه ، فيقول :

بخبرك من شهد الوقائع أننى أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم<sup>(٢)</sup>

فهو يتقدم في أهوال الحروب وخطوبها ، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . وما يزال يحدثنا في شعره عن كرامته ، وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان ، يقول في لاميته<sup>(٣)</sup> :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكلي

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الحبيث الدنى . وعلى هذه الشاكلة ما تزال تلقانا في أشعاره معان نبيلة ، وهي معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل الخلقى ، حتى لراه يرقُّ لأقرانه الذين يسفك دماءهم ، يقول - في معلقته - وقد أخذه التأثير والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم :

فشككتُ بالرُمح الطويل ثيابه ليس الكريمُ على القنأ بمحرّم<sup>(٤)</sup>

فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريماً ، ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء في ساحة القتال . وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذي يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصوراً آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية :

والطوى : ضمور البطن ، ويريد به الجوع الشديد .

(١) يكلم : يمحرج .

(٢) الوغى : الحرب .

(٤) يريد بالثياب جسده ويدنه .

(٣) مختار الشعر الجاهل للسقا ص ٣٨٧ .

فأزور من وَقَعَ القَنَا بِلْبَانِهِ وشكا إلى بَعْبِرَةَ وَتَحْمَحُمُ (١)  
لو كان يَنْدِرِي ما المحاورَةُ. اشتكى ولكن لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّبِي

وكأنما فرسه بضعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات وغير سبيات ، فإذا سبي امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقتها إلى أهلها . وكما للسبية حرمتها كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ، فإنه بغض طرفه عنها ولا يتبّعها قلبه وهواه ، يقول (٢) :

ما استمتُّ أنثى نفسَهَا في موطنِ حتى أوفِّيَ مَهْرَهَا مولاها (٣)  
أغشى فتاةَ الحيِّ عند حَلِيلِهَا وإذا غَزَا في الحرب لا أغشاهَا (٤)  
وأغضُّ طَرْفِي ما بدتْ لي جارِي حتى يوارِي جَارِي مَأْواها  
إني امرؤٌ سَمَحُ الخليفة ماجِدٌ لا أتْبِعُ النفسَ اللّجوجَ هواها

وعنّرة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهي مروءة طرّزها حب عنزى عفيف لابنة عمه عبلة ، وحقاً إن هذا الحب إنما شاع في بوادي نجد في أثناء العصر الأموي ، بسبب المعاني الروحية التي بثّها الإسلام في نفوس العرب ، وهو لم يشع في الجاهلية ، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنّرة ، فقد كان يتسامى لا في خلقه فحسب ، بل أيضاً في حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده ، فلم يزوجه من ابنته . ومضى يحبها حباً عنيفاً ، أو قل حباً يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملدّع الذي يكظم حزنه فتفضحه عباراته ، يقول (٥) :

أقمن بكاء حمامةٍ في أيكةٍ ذرفت دموعك فوق ظهر الميحملِ (٦)

(١) أزور : مال وانحرف . البان : الصدر . التحمّم . صهيل فيه شبه الأتین  
(٢) مختار الشعر الجاهل ص ٤٠٩ .  
(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها .  
(٤) الموطن هنا : موطن القتال .  
(٥) أغشى : أزور .  
(٦) أيكة : شجرة . ذرفت : سالت .  
المحمل : علاقة السيف .

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذى يهب من صَوْبِهَا ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يعبث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول فى معلقته :

حُبَيْتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ      أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمَّ الْهَيْثِمِ (١)  
ولقد نزلت - فلا تظننى غيره -      منى بمنزلة المحبِّ المكرم

ودائماً نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها ، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجملها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها فى معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية ، فن أجلها يحارب ويستبسل فى القتال ، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمى حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده . وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكركِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلُ      منى وببيض الهندِ تَقَطَّرُ من دى  
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السِّيفِ لَأْتَهَا      لمعت كِبَارِقِ ثَغْرِكَ المتبسِّم

فهو دائم الذكر لها فى وغى الحرب ، حتى حين تعبت به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر ، فلا غرو أن يذكرها فى ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يبتسم ، لأنها تترامى له من خلال بريق السيوف ، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنبرة ، فلم تصبح فروسية حربية فجسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذى يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى والذى يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تم عن صفاء النفس وبقاء القلب ، وفيها التسامى عن الدنايا والنقائص الذى يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق . ويقال إنه قُتِلَ فى غارة له على بنى نَسْبَهَانَ الطائيين بعد أن تقدمت به السن ، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتف أنفه (٢) .

(١) أقوى وأقفر : خلا من كان يسكنه . (٢) انظر الأغاني ٢٤٥/٨ .



## الصعاليك (١)

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحداّدية وأبي الطمحان القسني ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليلك بن السليكة وتأبط شراً والشنفرى ، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسمواهم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحيث قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العسبي ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفههم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي .

وتردد في أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما توج أنفسهم بشوة عارمة على الأغنياء والأشحاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السليلك » و « أعدى من الشنفرى » وتروى عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تأبط شراً من أنه « كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الأطباء ، فينتقى على نظره أسمها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله » (٢) . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النحام (٣) ،

(١) راجع بحثاً في الشعراء الصعاليك ليوسف

(٢) الأغاني ١٨ / ٢١٠ .

(٣) ذيل الأمالي للقال ص ١٨٨ .

خليفة (طبع دار المعارف) .

وللسنفرى فرس يسمى اليَسْحَمُوم<sup>(١)</sup>، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرَمَل<sup>(٢)</sup>.  
وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات .

وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الحصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها فى جبال السّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية فى كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذّوبان من قطعّاع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم فى أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم فى أثناء ذلك يتمسحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة فى الحياة ، ويصورّ لنا ذلك أبو خراش الهذليّ فيقول<sup>(٣)</sup> :

وإنى لأثوى الجوعَ حتى يملئى      فيذهب لم يَدْنَسْ ثيابي ولا جرمي<sup>(٤)</sup>  
وأغتبقُ الماءَ القراحَ فأنتهى      إذا الزادُ أمسى للمزجِجِ ذاطم<sup>(٥)</sup>  
أردُّ سُجاعَ البطنِ قد تعلمينه      وأوشرُ غيرى من عيالك بالطعمِ  
مخافة أن أحياناً يرغمٍ وذلةٍ      وللموتِ خيرٌ من حياةٍ على رغمِ

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضمير ، وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتغم من حوله أشحاء النفوس بالطعام ، أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسرى عما قليل عروة بن الورد يعبر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عنتره . وكأنما تحولت الصعلكة فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية ، وهى حقاً تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيّداً كريماً ، وقرأ<sup>(٦)</sup> فى صعاليك هذيل من مثل أبى كبير والأعلم وفى السليك وتأبط شراً وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته فى الحياة أو على

(١) ديوانه المطبوع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠ .  
(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .  
(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ١٢٧/٢ والأغانى ٤٢/٢١ .  
(٤) أثوى : أطيل حيسه .  
(٥) أغتبق : أشرب عشاء . القراح : الصاق . المزجج : البخيل .

الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقاً رفيعاً من البير، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة. ونقف قليلاً عند أكثرهم دوراناً على الألسنة، وهم تأبط شرّاً والشنفرى وعروة بن الورد.

أما تأبط شرّاً فمن قبيلة فهم واسمه ثابت<sup>(١)</sup> بن جابر بن سفيان ويعد في أغربة العرب، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها، وقيل بل أمة حرة من فهم تسمى أميمة. واختلاف القدماء في تعليل لقبه «تأبط شرّاً» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج، فلما سئلت عنه قالت: تأبط شرّاً ومضى لوجهه، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رآته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى. وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنائات وجزائر، أي إنه يحمل دائماً في أطوائه شرّاً يريد أن ينفذه. ويظهر أن أباه مات وهو صغير، فغترجحت أمه بأبي كبير الهذلي، وكان صعلوكاً كبيراً، فخرجه على شاكلته، وربما كان لسواده وتعبير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلوكه. وكان يرافق الشنفرى في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن براق. وليس له ديوان شعر مطبوع، غير أن له أشعاراً كثيرة مثورة في كتب الأدب، وتروى له مغامرات مختلفة، وهي مطبوعة بطابع القصص الشعبي، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نُسب إليه من أشعار، فن ذلك لاميته التي أنشدها أبو تمام في حماسته يرقى بها خاله والتي تسهل بقوله: «إن بالشعب الذي دون سلع» فقد ذكر الرواة أنها مما نحلّه إياه خلف الأحمر<sup>(٢)</sup>. ويمكن أن ندخل في هذا الباب من الانتحال ما يروى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للفلو. وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفرى وعمرو بن براق على بيجلة في الطائف، إذا أرصدوا لهم كيناً على ماء أو ثنهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة، نسجوا بها عدواً على الأقدام، ويصور لنا عدوه وشدة السريع حينئذ فيقول:

(٢) انظر تمليق التبريزي على القصيدة في شرحه لديوان الخماسة.

(١) انظر ترجمته في الأغاني ٢٠٩/١٨ والشعر

والشعر ٢٧١/١. وشرح شواهد المعنى للسيوطي

ص ١٩، ٤٣، والحزاة ١/٦٦.

ليلة صاحوا وأغرّوا بي سراعهم  
 كأنما حشحووا حصاً قوادمه  
 لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر  
 حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى  
 بالعيكتين لدى معدى ابن براق<sup>(١)</sup>  
 أو أمّ خشف بذي شت وطباق<sup>(٢)</sup>  
 وذا جناح بجنب الريد خفاق<sup>(٣)</sup>  
 بواله من قبيض الشد غيداق<sup>(٤)</sup>

وواضح أنه يذكر كيف فات عدّأتى بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق ، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظلم والظبية ، وحتى أصبحت الخليل الجياد لا تلحق شأوه ، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عدّوه ، وكأنما جنّ جنونه. ويمضى في رسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذى يقدره ويحمله ، قائلا :

لكنما عولى إن كنت ذا عول  
 سباق غيات مجد في عشيرته  
 عارى الظنابيب ممتد نواشره  
 حمال ألوية شهاد أنديه  
 فذاك همى وغزوى أستغيث به  
 على بصير بكسب الحمد سباق<sup>(٥)</sup>  
 مرجع الصوت هذا بين أرفاق<sup>(٦)</sup>  
 مدلاج أدهم واهى الماء غساق<sup>(٧)</sup>  
 قوال مُحكمة جواب آفاق<sup>(٨)</sup>  
 إذا استغنت بضاقى الرأس نعاق<sup>(٩)</sup>

كالعويل .

(١) العيكتان : موضع . معلى : عدو .  
 (٢) حشحووا : حركوا وأثاروا . القوادم : ما يلي الرأس من ريش الجناحين . الحصى : جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر لسرعته ، يريد بذلك الظلم . الحشف : ولد الظبية . الشث والطباق : من نباتات الصحراء .  
 (٣) ذا العذر : الفرس . والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . وذا جناح : يريد الطير . الريد : حرف الجبل .  
 (٤) السلب : ما يسلب في الحرب . الواله : ذاهب العقل . القبيض : السريع . الشد : العدو . غيداق : واسع .  
 (٥) العول : الاستغاثة ، وأصله رفع الصوت

(٦) مرجع الصوت : يصبح أمراً ناهياً . أرفاق : رفاق . الهد : الصوت الغليظ .  
 (٧) عارى الظنابيب : خفيف اللحم ، وأصل الظنابيب عظم الساق . النواشر : عروق ظاهر الذراع . تمتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة .  
 (٨) الحكمة : الكلمة الفاصلة .  
 (٩) غزوى هنا : مقصدى . ضاقى الرأس : كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه . نعاق : يكثر من الصياح .

فهو إنما يعول على هذا الصعلوك المثالي الذي يشركه في غزواته والذي يتصف بسبقه إلى المحامد في عشيرته ، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضهور جسمه وقوته وصلابته وجراته في اقتحام الليالي المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذي يحمل لواءها ، وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد في مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه ، حتى إنه لا يبقى على شيء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بَلْ مَنْ لَعْدَالَةٍ خَدَّالَةٍ أَشِيبَ حَرَقَ بِاللُّومِ جِلْدِي أَيَّ تَحْرَاقِ (١)  
 يقول أهلكتَ مالا لو قنعتَ بهِ من ثوبِ صدقٍ ومن بَرٍّ وأَخْلَاقِ (٢)  
 عاذلتني إن بعضَ اللُّومِ مَعْنَفَةٌ وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ (٣)

ولعل في هذه الأبيات وما سبقها ما يدل في وضوح على أن الصعلوك الذي كان يقطع الطريق في الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفاتُ الفروسية وما بعث لعصره من سمو في الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتى قُتِل في إحدى غاراته بمنازل هُدَيْل .

أما الشَّنْفَرَى فكان من عشيرة الإواس (٤) بن الحجر الأزدية اليمنية ، فهو قحطاني النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه القليظ الشفاه (٥) ، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه ، فهي أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عدَّ في أغربة العرب . ولا نراه ينشأ في قبيلة الأزد ، إنما ينشأ في قبيلة فهم ، ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بني فهم ، وما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بني سلامان الأزديين معلناً في أشعاره أنه يقتصُّ لنفسه منهم . ويقال

(٤) انظر في ترجمة الشنفرى الأغاني (طبع الساسى) ٨٧/٢١ وخرزانه الأدب ١٤/٢ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنبارى ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨ .  
 (٥) خرزانه الأدب ١٦/٢ .

(١) العذالة : كثير العذل . الخزالة : كثير الخذلان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعينى على هذا العذالة .  
 (٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البرز : الشيايب والسلاح . الأغلاق : كرائم المال .  
 (٣) معنفة : عنف .

إن الذي رَوَّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله<sup>(١)</sup> . وما زال يغير على الأزدي ، وينكل بها ، حتى قَسَّطَل ، فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين ، انتقاماً لأبيه ، وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثلون به تمثيلاً فظيماً ، يقطعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع ، ويقال إن رجلاً عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزدي مائة . وخيوط الأسطورة واضحة في مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط في أخباره جميعاً كما تلعب في أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشغرى ديوان شعر صغير طُبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، وما اشتهر له لامية العرب ، وهي مما نُحِل عليه ، فقد نصَّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر<sup>(٢)</sup> ، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع في جنوبي اليمن هو إحاطة ليدل على أن قائلها كان يتجول في هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدمى إلى تصديقها والثقة بها . وهي تصور تصويراً حياً حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية . ويجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته الثائية الطويلة التي رواها المفضل في مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو في أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيباً نحيلاً يلبس ثياباً بالية ونعالاً ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً في تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها في وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بني سلامان في ججع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه في مستهل وصفه يتحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيايين ولا وجَّلين ، يقول :

وباضعة حُمُرِ القَمِيسِ بَعَثْتَهَا  
وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمُ مَرَّةً وَيُشْمَتُ<sup>(٣)</sup>  
خَرَجْنَا مِنَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنَ مِشْعَلِ  
وَبَيْنَ الْجَبَا ، هِيَهَات ، أَنْشَأْتُ سُرْبِي<sup>(٤)</sup>

تحمّر لتقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت :  
يخيب ويفشل .  
(٤) مشعل والجيا : موضعان . السرية :  
الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .  
(٢) الأمال للقال (الطبعة الأولى) ١٥٧/١ .  
(٣) باضعة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ،  
بعثتها : غزوت بها . حمر القمى ، يقال إنها

أَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَنْ تَضُرَّنِي لَأَنْكِي قَوْماً أَوْ أَصَادِفَ حُمْتِي (١)  
أَمْشَى عَلَى أَيْنِ الْغَزَاةِ وَبُعْدَهَا يَقْرُبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدُوَّتِي (٢)

وهو يعترف في البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غارتهم أو غزوتهم ، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهببون الموت ولا وعثاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتسر عليهم في الطعام خيفة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، ويقص علينا ذلك في مداعبة طريفة له ، إذ يدعوهم أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقْوَتَهُمْ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْ تَحَتَّ وَأَقَلَّتِ (٣)  
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعَيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِيَاعٌ ، أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ (٤)  
مُضْعَلِكَةٌ لَا يَقْصُرُ السُّتْرُ دُونَهَا وَلَا تُرْتَجَى لِلبَيْتِ إِنْ لَمْ تُبَيِّتِ (٥)  
لَهَا وَفِضَةٌ فِيهَا ثَلَاثُونَ سَيْحَفًا إِذَا آنَسَتْ أُولَى الْعَدِيِّ أَقْشَعْرَتْ (٦)  
وَتَأْتِي الْعَدِيَّ بَارِزًا نِصْفُ سَاقِهَا تَجُولُ كَعَيْرِ الْعَانَةِ الْمُتَلَامِتِ (٧)  
إِذَا فَزَعُوا طَارَتْ بِأَبْيَضِ صَارِمٍ وَرَامَتْ بِمَا فِي جَفْرِهَا ثُمَّ سَلَّتِ (٨)  
حُسَامٍ كُلُّونَ الْمِلْحِ صَافٍ حَدِيدُهُ جُرَازٍ كَأَقْطَاعِ الْغَدِيرِ الْمُنْعَتِ (٩)  
تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الْحَسِيلِ صَوَادِرًا وَقَدْ نَهَلَتْ مِنَ الدَّمَاءِ وَعَلَّتِ (١٠)

النصل . العدى : العداون أو الرجاله .  
أقشعرت : تهبأت للقتال .

(٧) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الحدق في الأمر .  
العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أئنه الوحشية .

(٨) فزعوا : دهمهم محاريون وتهبأوا لقتالهم .  
أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : اللعبة .  
رامت بمافيه أي بسهامه . سلت السيف : شهرته .

(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع  
الماء فيه . شبه السيف بها في اللعان والبريق .

(١٠) الحسيل : جمع حسيلة . وهي أولاد  
البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب  
المكرر .

(١) لن تضرنني : لن يخيفني بها شيء . أنكي  
العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .

(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه .  
أين : تعب .

(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم :  
تطمهم . أوتحت : أقلت وقترت .

(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أي  
آل تألت : أي سياسة ساست من آله بمعنى  
سامه .

(٥) مصلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك .  
لا يقصر الستر دونها : لا تغطي أمرها .

(٦) وفضة : جمبة . سيحف : سهم عريض

وواضح أنه ينتقل من تصوير شح هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست  
أما حقيقية ، فهي صاحبة صعاليك ، لا تتخذ السر ولا تبيت في الخيام ، ولها جعبة  
سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية  
حمام الوحش لأنته ، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغفرون بادرت إلى سهامها ، ثم  
نازلتهم هي ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التي تنهل من دماهم وتعل ، فترى  
وكأنها أذنان الحسيل ، وهي أولاد البقر المستأنسة . ووقف لاييل في ترجمته  
للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشنفرى وأنه يبنى حقا ،  
لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا في بلاد اليمن (١) .

ونخصي مع الشنفرى في القصيد فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان  
يقصد بها بنى سلمان ، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفي حقه وغليله ، يقول :

جَزَيْنَا سَلَامَانَ بْنَ مُفْرِجٍ قَرَضَهَا      بِمَا قَدَمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَأَزَلَّتْ (٢)  
وَهُنِّي بِي قَوْمٌ وَمَا إِنْ هَنَاتُهُمْ      وَأَصْبَحْتُ فِي قَوْمٍ وَلَيْسُوا بِمَنْبِي (٣)  
شَفِينَا بَعْدَ اللَّهِ بَعْضَ غَلِيلِنَا      وَعَوْفٌ لَدَى الْمَعْدَى أَوْ أَنْ اسْتَهَلَّتْ (٤)  
وَإِنِّي لَحُلُوٌّ إِنْ أُرِيدْتُ حَلَاوِي      وَمُرٌّ إِذَا نَفَسَ الْعَرُوفُ اسْتَمَرَّتْ (٥)

وهو يصرح بأنه جزى بنى سلمان بما قدمت أيديهم ، وبأسى أن يكونوا قومه  
ولا ينتفعوا به وببأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثار قديم ،  
ويحدثنا أنه شنى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه  
حلوا لأصداقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات  
ومغامرات ، حتى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الورد العبسى (٦) ، وكان أبوه

والمراد ساحة المعركة ، أو أن استهلت : في  
الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .  
(٥) العزوف : المنصرف عن الشيء .  
استمرت : من المارة .  
(٦) راجع في ترجمة عروة الأغاني (طبعة  
دار الكتب) ٧٣/٣ والشعر والشعراء ٦٥٧/٢  
والخزافة ١٩٤/٤ والشعراء الصماليك ص ٣٢٠ .

(١) راجع ترجمة المفضليات للایل ٦٨/٢  
(٢) أزلت : قدمت .  
(٣) معنى الشطر الأول أن الأزدي هنتون به  
وبشجاعته لأنه منهم وفي الوقت نفسه هو لا هنتون  
لأنهم لا ينتفعون به . وهو يشير في وضوح إلى  
أنه يزل في بنى فهم وليس منهم .  
(٤) الغليل في أصله حرارة العطش ، وهو  
هنا العطش إلى القتل . المعدى : موضع العدو ،



من شجعان قبيلته وأشرفهم ، ومن ثمَّ كان له دور بارز في حرب داحس والغبراء<sup>(١)</sup> .  
 أما أمه فكانت من نَهْد من قضاة ، وهي عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ،  
 فأذى ذلك نفسه ، إذ أحس في أعماقه من قبيلها بعار لا يُمحيى ، يقول<sup>(٢)</sup> :

وما بي من عارٍ إخالُ علمته سوى أن أخوالى - إذا نسبوا - نَهْدُ

فهى عاره ، الذى حَلَّت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعاً إلى الثورة على  
 الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافل دماء ولا إلى متشرد  
 يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخله ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة  
 كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صلكنه باباً من أبواب  
 المروءة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّبَ  
 عروة الصعاليك بلجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضاقت بهم  
 الدنيا . وفي الأغاني « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة ( أزمة جذب )  
 شديدة وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس  
 من عشيرته في الشدة ، ثمَّ يحفر لهم الأسراب ، ويكسِّفُ عليهم الكسِّفَ ( الحظائر )  
 ويكسِّبهم . ومن قَوَى منهم - إما مريضٌ يبرأ من مرضه أو ضعيفٌ تثوب قوته -  
 خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب  
 الناس وألبسوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن  
 كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سُمى عروة  
 الصعاليك<sup>(٣)</sup> » . وفي خبر آخر أن عبساً كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن  
 أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ،  
 وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم<sup>(٤)</sup> .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب  
 كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين المهلَّك والفقراء والمرضى والمستضعفين من  
 قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغَيِّر على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

(١) أغاني ٣/ ٨٨ .

(٢) ديوانه ص ١٥٧ .

(٣) أغاني ٣/ ٧٨ وما بعدها والشعر والشعراء

. ٦٥٧/٢

(٤) أغاني ٣/ ٨١ .

لغارته من عرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم<sup>(١)</sup> . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صنواً للفروسية ، بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعي بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعايبكه ، فلهم مثل حظله غزواً معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلاً رفيعاً في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، في جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتردّد أشعاره فيه هذه المعاني الكريمة التي قدمناها ، وهي معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتمّ به في خلاله وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم<sup>(٢)</sup> » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد<sup>(٣)</sup> » وكان يقول أيضاً : ما يسرّني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله :

إني امرؤ عافى إنائي شريكاً      وأنت امرؤ عافى إنائك واحد<sup>(٤)</sup>  
 أهزأ مني أن سمنت وأن ترى      بجسمنى شحوب الحق ، والحق جاهد<sup>(٥)</sup>  
 أفرق جسمنى في جسوم كثيرة      وأحسو قراح الماء ، والماء بارد<sup>(٥)</sup>

وعروة يعبر عن معنى إنساني رفيع ، إذ تعرّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضنى هزيل شاحب اللون ، فقال له : إنني يشركني كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة في إنائي أو طعامي ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلاً ، وما شحوب وجهي إلا أثر من آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين

بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .  
 (٥) حسا الماء : شربه شيئاً بهشياً . القراح : الخالص الذي لا يخالطه لبن ولا غيره .

(١) أغاني ٣/٨١ .

(٢) أغاني ٣/٧٣ .

(٣) أغاني ٣/٧٤ .

(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد

البَطِين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جِسمهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزهريره . والذي لا ريب فيه أنه طمّح إلى مثل نبيل في البِرِّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعي في أصمعياته<sup>(١)</sup> ، وهي بذلك من أوثق شعره وأصدقه . وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التي تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته في الغزوات والغارات ، وقد ردّ عليها بأنه ينبغي حسن الأحذوثة وبقاءها ، وأنه إنما يرمى بنفسه في المهالك من أجلها ، حتى يغنيها ، وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهي تماريه شفقة عليه :

تقول : لك الويلات هل أنت تاركٌ ضُبُوءًا بِرَجُلٍ تارةً وبِمَنْسِرٍ<sup>(٢)</sup>

فهى تقول له إنك لن تنتهى عن غاراتك بالصعاليك من الرجالين تارةً ومن الفرسان تارةً ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتى لا تلقى حتفك ، ويردّ عليها :

أبى الخَفْضَ من يَغْشَاكَ من ذى قرابةٍ ومن كلِّ سوداءٍ المعاصمِ تَعْتَرى<sup>(٣)</sup>  
وَمُسْتَهْنِيءٍ ، زيدٌ أبوه ، فلا أرى له مدفعاً ، فاقننى حياءكِ واضبرى<sup>(٤)</sup>

فهو لا يستطيع التعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونساءها المعوزات ، والعفّاءة ، طلابّ العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يترأى الصعلوك خاملاً ، حسبه أن ينال أكلة من فئات مائدة ، لا يهمه أهله ولا عياله

بسوداء المعاصم التي أجدها الجوع والهزال  
تعتري : تغشى .

(٤) مستهنيء : طالب للهنء وهو العطاء ،  
وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اقننى  
حياك : صونيه واحفظه .

(١) الأصمعيات ( طبع دار المعارف )  
ص ٣٥ .

(٢) ضُبُوء : غزو . رجل : جمع راجل  
ضد راكب . المنسر كجلس ومبتر : الجماعة  
من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللَّهُ صَعْلوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ  
يَعْدُ الْغَنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ  
يُنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ قَاعِدًا  
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعْنَهُ  
مُصَافِي الْمَشَاشِ آلِ الْفَاكِلِ مَجْزَرٍ (١)  
أَصَابَ قِرَاها مِنْ صَدِيقِ مَيْسِرٍ (٢)  
يَحُثُّ الْحِصَا عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ (٣)  
فِيضِحِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحْسَرِ (٤)

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف المهمة فحسبه لقمة تشبعه ، مما يتساقط من فضلات  
الموسرين ، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو في النهار  
ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه .  
ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يَحْيَا حياة وضعية . أما  
الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ،  
يقول في وصفه :

وَلِلَّهِ صَعْلوكٌ صَحِيفَةٌ وَجْهُهُ  
مُطَلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ  
وَإِنْ بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ  
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا  
كَضوءِ شَهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ (٥)  
بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشْهَرِ (٦)  
تَشَوُّفُ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنْظَرِ (٧)  
حَمِيدًا ، وَإِنْ يَسْتَعْنِ يَوْمًا فَاجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذي يعجب به عروة ، صعلوك وجهه مشرق بأعماله الحجيذة ،  
لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من  
صياحهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

أو يأخذها . المتنور : المضيء .  
(٦) مطلا : مشرفاً . يزجرونه : يصيحون  
به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح :  
قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر :  
المشهور .  
(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المتنظر  
قدومه .

(١) لحي : قبح ولعن . المشاش : روس  
العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .  
(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى  
كثرت إبله .  
(٣) يحث : يحرك .  
(٤) الطليح : المعبي ، ومثله المحسر .  
(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة  
ساطعة من النار . القابس : الذي يقبس النار

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لا بد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجريء إن يمت تظل ذكراه خالدة لمحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أَهْلِكَ مُعْتَمٌ وَزَيْدٌ وَلَمْ أَقُمْ      عَلَى نَدَبٍ يَوْمَ أُولَى نَفْسٍ مُخْطَرٍ (١)  
سُتْفِرِّعُ بَعْدَ الْيَأْسِ مَنْ لَا يَخَافُنَا      كَوَاسِعُ فِي أُخْرَى السَّوَامِ الْمُنْفَرِ (٢)  
نُطَاعِنُ عَنْهَا أَوْلَ الْقَوْمِ بِالْقَنَا      وَبِيضٍ خِيفٍ وَقَعْنُ مُشَهْرٍ (٣)  
وَيَوْمًا عَلَى غَارَاتٍ نَجِدُ وَأَهْلِهِ      وَيَوْمًا بِأَرْضِ ذَاتِ شَثٍّ وَعَرَعَرِ (٤)  
يُرِيحُ عَلَى اللَّيْلِ أَضْيَافَ مَاجِدٍ      كَرِيمٍ وَمَالِي سَارِحًا مَالُ مُقْتَرِ (٥)

وهو في أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتنا معتم وزيد ، وهو قاعد في الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خلق لرعاية الضعفاء والهالك من قبيلته ، وهو لذلك لا بد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حيمى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة في الحجاز وتارة في نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدره لضيافته ، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُسبى على شيء في يده ، فماله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إثثار وبرِّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

ورواية الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن في البيت إقواء .  
(٤) الشث والعرع : من أشجار البادية .  
(٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً في المرعى . مقتر : فقير مقل .

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس . ندب : خطر .  
(٢) كواسع : خيل تطرد إبلا وتكسبها .  
السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر . المنفر : المنعور .  
(٣) بيض : سيف . وفى البيت إقواء .

## شعراء آخرون

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت في أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثاني بالمدينة والواحات المنثورة في شمالها بالحجاز مثل فدّك وخيبر ووادي القُرَى وتيسمَاء ، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية ، وإن ظلوا على دينهم ، وما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، وقد عني هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية . وأخبارهم في الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم ، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم ، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديداً ، ومن يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطُرَّ - لكيدهم له ونقضهم لما بينهم وبينه من عهود موثقة مراراً وتكراراً - إلى إجلالهم عن المدينة ، وأتمَّ عمر من بعده هذا الإجماع عن الجزيرة ، من يتابع ذلك يعرف أن العرب كانوا في الجاهلية يجفونهم وينفرون منهم ومن دينهم ، فلم يؤثروا فيهم شيئاً ، وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية ، وينفذ بعضهم إلى التَّظُّم بها .

على أنه ينبغي أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم ، فلا نتق بكل ما روه في هذا الصدد ، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم . ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلاً<sup>(١)</sup> في كتابه « طبقات فحول الشعراء » يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له ، وهم على التوالي السموأل بن الغريض بن عاديا ، والربيع بن أبي الحُقَيْسِق ، وكعب بن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وشعبة بن الغريض أخو السموأل ، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الذّيال ، ودرهم بن يزيد . ويضيف أبو الفرج في الأغاني<sup>(٢)</sup> وابن هشام في السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دثيّ وسمّاك والغريض بن السموأل .

(٢) الأغاني (طبعة الساسي) ٩٤/١٩ وما بعدها.

(١) ابن سلام ص ٢٣٥ .

وأشهرهم جميعاً السموأل<sup>(١)</sup> صاحب حصن الأبلق بتياء ، وكان معاصراً  
لامرئ القيس ، ومرت بنا أسطورته معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه  
سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني أو الحارث بن ظالم المرى على  
اختلاف الروايات ، فطلب منه سلاح امرئ القيس ، فأغلق حصنه من دونه ،  
وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن ، فأخذه الحارث ، وهدده إن لم يعطه  
السلاح قَتَلَ ابنه ، فقال له : اقتله ، فلن أعطيه لك . وبذلك وقى على غير عادة  
قومه ! . وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى  
التي عرضت لهذه القصة في إسهاب . وبما نُسب إلى السموأل خطأً القصيدة  
المشورة :

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عَرَضُهُ فكلُّ رداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ  
وهي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي<sup>(٢)</sup> ، وهو شاعر إسلامي . وقد نشر  
لويس شيخو ديواناً له برواية نفظويه في مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهي  
رواية ضعيفة ، إذ تشتمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة . وروى  
الأصمعي تائيداً له<sup>(٣)</sup> ، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال ،  
وهي تسهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط :

نُطْفَةٌ ما مُنِيَتْ يَوْمَ مُنِيَتْ أُمِرَتْ أَمْرَها وفيها وُبِيَتْ<sup>(٤)</sup>  
كُنْها اللهُ في مَكانٍ خَفِيٍّ وخَفِيَ مَكانُها لو خَفِيَتْ  
أنا مَيِّتٌ إذ ذاك تُمِتَّ حَيٌّ ثم بعدَ الحِياةِ للبعثِ مَيِّتٌ  
وصلة هذه الأبيات بما جاء في القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نُطْفَةٍ  
يُمْنَى وأنه يمحي ثم يموت ثم يُبْعَثُ ؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة ، وما حياته الثانية  
في الآخرة بمستغربة ، إنها تلي موته وحياته الأولى التي تحوّل إليها من ماء دافق  
يخرج من بين الصُّلب والترائب ويتولّ جِلسٌ وعز : (أولم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه

ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦ .

(٤) ما منيت : ما زائدة . ومنيت : قدرت

وخلقت . وبيت : هيت .

(١) انظر ترجمته في الأغاني ٩٨/١٩ .

(٢) شرح المرزوق على ديوان الحماسة  
لأبي تمام (طبع لجنة التأليف) ١١٠/١ .

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف)

من نُظفَتَة فإذا هو خَصِيم مَبِين ، وضرب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال من يُحْيِي العظام وهي رَمِيم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . وتردُّ هذا المعنى في الذكر الحكيم هو الذي يجعلنا نشك في هذه القصيدة ، ونعتقد اعتقاداً أنها نُظمت في العصور الإسلامية على هدى التنزيل العزيز ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظمٌ مباشر لبعض آي القرآن الكريم مثل :

ليت شعري ! وأشعرنَّ إذا ما . قيل إقرأ عُنوانها وقريتُ<sup>(١)</sup>

وأصل هذا البيت قوله تعالى في سورة الإسراء : ( وكلَّ إنساناً أئتمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وعلى هذه الشاكلة :

مَيَّتَ دَهْرٍ قد كنتُ ثم حييتُ وحياتي رهنٌ بأن سأموتُ  
فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه : ( كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ) .

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السمؤال ينبغي أن نحذر منه ، وخاصة حين يُعلى من أخلاقهم ويسمو بها ، أو حين يندمج في بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله ، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبي في مفضلياته شعراً ليهودي ، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم .

وإذا كان العرب الشماليون في الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد ، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى ، وإن ظلوا في الحملة يحتفظون بدينهم الوثني ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم ، وأنه ينبغي أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم . وكانت المسيحية أمامهم في الشام ديناً للدولة ، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا في غير هذا الموضع ، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق ، واعتنقها اللخميون في أواخر القرن

(١) رواية هذا الشطر في ابن سلام : « قريوما منشورة فقريت . وقريت : لغة في قرأت .



السادس للميلاد ، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها في جمهور عربي من سكان الحيرة سمي بالعباديين ، وتشير الكلمة التي سُموا بها ، إلى أنهم عباد الله ، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى . وقد انتشرت في الجنوب بنجران فكانت مركزاً مهماً من مراكزها ، كما عُرُفت في بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاة وكلب وطيء وبكر وتغلب وتنوخ وتيمم ، ويزعم اليعقوبي أن نفرأ من مكة تنصروا قبيل الإسلام<sup>(١)</sup> . وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة في الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها ، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحي ، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع .

وأشهر شعراء المسيحية في الجاهلية عدى بن زيد<sup>(٢)</sup> شاعر الحيرة المشهور ، وهو من العباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية ، خدم أبوه في دواوين الفرس وفي دواوين المناذرة بالحيرة ، ولما أُنْفِع ابنه عدى عني بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية ، فكان يُحسِّن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلَّم الرمي بالشَّاب ولعب العجم على الخيل بالصَّوَّالِجَة . ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز ( ٥٩٠ - ٦٢٨ م ) وعُهِد إليه فيه بالشئون العربية ، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم في بيزنطة بهدية ، فلما أتاه بها أكرمه . وفي أثناء عودته مرَّ بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر . وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفي . وظل مدة متنقلاً بين الحيرة والمدائن ، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبي قابوس ، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً في توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته . ويقال إن الذي أفسد ما بينهما بعض بني مَرِيْنَا ، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذي ولاه ما ولاه . فاضطغن عليه النعمان ، وانتهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة ، وأمر بحبسه ولم يُجِدْه عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار في مديحه . وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره

والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وخزانة الأدب  
١٨٤/١ وما بعدها والموشح للمرزباني ص ٧٢  
وكتاب لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين  
عرب الجاهلية » .

(١) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوروبا)

٢٩٨/١ وراجع المحبر لابن حبيب ص ٧١ ،  
وابن هشام ٢٣٩/١ .

(٢) انظر في عدى بن زيد الأغاني (طبعة

دار الكتب) ٩٧/٢ وما بعدها ، والشعر

بإطلاقة ، غير أن الرسول وجد عدياً قد مات في سجنه محتقناً . وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً ، وربما كان هذا الغضب أهم الأسباب في قضائه عليه كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وأهم الموضوعات التي يدور فيها شعر عديّ الخمر ، وذكر الموت والفناء ، وهو في الموضوع الأول يعد أباً لشعراء الخمر في الجاهلية من مثل الأعشى ، ثم لمن ظهروا في العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبي نواس . وفي أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادي ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً ، وكان لا يصبر عنه ، ونظن ظناً أنه هو الذي وصله بشعر عدي ، إذ كان يرويه له ويغني فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت (١) :

بَكَرَ العاذِلونَ في وَضَحِ الصَّبِّ ح يقولون لي ألا تَسْتَفِيقُ  
لست أدري وقد جفاني خليلي أعدو ياومني أم صديقُ  
ثم قالوا ألا اصْبَحُونَا فقامتُ قَيْنَةٌ في يَمِينِها لِإِبريقُ (٢)  
قَدَمْتُهُ على عُقارِ كَعِينِ الـ لَدَيْكَ صَفَى سُلَافِها الرّاووقُ (٣)

وواضح أن الأبيات من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومنّ جاوعوا بعده من شعراء الخمريات ، وكان القاسم العبادي هو الذي وجه الوليد ليحتذى في خمرياته على أسلوب عدي وليجري في طريقتة .

ويروى الرواة لعدي بجانب شعره في الخمر أشعاراً في الفناء وزوال الحياة ، وهي تجرى في أسلوبين : أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية ، وأسلوب قصصي يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة ، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر (٤) :

من رأنا فليحدِّثْ نَفْسَهُ أنه موفٍ على قرْنِ زوالِ (٥)  
وصروف الدهر لا يبقَى لها ولما تأتى به صُـمُّ الجِبَالِ

(٤) الأغاني ١٣٤/٢ .

(٥) قرن : طرف .

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٦٥/٧ .

(٢) اصبحونا : اسقونا خمر الصباح .

(٣) الراووق : الدن .

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا      يشربون الخمرَ بالماء الزَّلَالِ (١)  
عَمَرُوا دَهْرًا بَعِيشَ حَسَنِ      آمِنِي دَهْرَهُمْ غَيْرَ عِجَالِ  
ثُمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ      وكذلك الدهرُ يُودِي بالرجالِ  
وكذلك الدهرُ يرمى بالفتى      في طِلاب العيشِ حالا بعد حالِ  
فالدنيا إلى زوال وكلُّ من عليها فان، حتى صُمُّ الجبال، ولا يغررك ما يغرُق  
فيه بعض الناس من ترف ونعيم، فعمّا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن  
قبلهم. ومن الأسلوب الثاني قوله (٢):

أَيُّهَا الشَّامِتُ المَعِيرُ بالدَّهْرِ      رِ أَأَنْتَ المَبْرَأُ المَوْفُورُ  
أَمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيقُ مِنَ الأَيِّ      أَمْ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ  
مَنْ رَأَيْتَ المَنْوَنَ خَلَدُنْ أَمْ مَنْ      ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَضَامَ خَفِيرُ (٣)  
أَيْنَ كَسْرِي: كَسْرِي المَلُوكِ أَنوَشِرُ      وَأَنْ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ  
وَبَنُو الأَصْفَرِ الكِرَامِ مَلُوكُ الأَ      رُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكَورُ  
ويستمر في ذكر ملوك مختلفين شيّدوا قصوراً شامخة، وانتهى أمرهم إلى الفناء،  
وطوبهم الحُفْرَ والتَّبُورَ كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، إلى أن يقول:

ثُمَّ بَعْدَ الفَلاحِ والمَلِكِ والإِمَّةِ      قِةِ وَارْتَهُمُ هَناكَ القَبُورُ (٤)  
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَ      فٌ فَأَلُوتَ بِهِ الصَّبَا والدَّبُورُ (٥)  
ويكثر البحترى في حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التي  
يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين. ونحن لا نظمن إلى  
كل هذه الأشعار، بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى، فإن  
القُصَّاصَ والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتى ليكن القول  
بأن أكثر ما روى له من أشعار منحول عليه، ولعل ذلك ما جعل اللغويين

(١) الزلال: الصافي العذب.  
(٢) الأغاني ١٣٨/٢.  
(٣) المنون: الموت، وأعاد عليه الضمير مجموعاً.  
(٤) الإمة: النعمة.  
(٥) ألوت: ذهبت. الصبا والدبور: ريجان.

يرفضون الاستشهاد بشعره ، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهّل منطقه ، فحُمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد<sup>(١)</sup> » وأكبر الظن أن هذا هو السبب في أن المفضل والأصمعي لم يُثبتا له في مجموعتيهما شيئاً من شعره . وقد قلنا في غير هذا الموضع إنه لا يفصح في شعره عن فكرة التثليث المسيحية ، وينبغي أن لا نغلو في فهم مسيحية أمثال عدى في الجاهلية ، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم ، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم . بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيانهم يذكرون أحياناً الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية في النصرانية ، وهو مخطئ في ذلك خطأً بيناً .

وربما كان أهم شاعر جاهلي وثني ظهر عنده واضحاً التأثير بأهل الكتاب أمية<sup>(٢)</sup> ابن أبي الصلت الشَّقَقيّ ، وهو من الطوائف ويقال إنه اتصل بالأخبار وتحنّف ولبس المسوح وتنسك . وكان يزور مكة قبل البعثة ، وله مدائح في سيد من ساداتها المشهورين هو عبد الله بن جدعان ، الذي يقول له في بعض مديحه<sup>(٣)</sup> :

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي      حَيَاؤُكَ إِنْ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ  
كَرِيمٌ لَا يَغْيِرُهُ صَبَاحٌ      عَنِ الْخَلْقِ الْكَرِيمِ وَلَا مَسَاءُ  
وَأَرْضُكَ كُلُّ مَكْرَمَةٍ بِنْتِهَا      بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهُمْ سِمَاءُ<sup>(٤)</sup>  
ويقول أيضاً<sup>(٥)</sup> :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَامِرِيٌّ قَدْ جَبَّوْتَهُ      بِخَيْرٍ ، وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ  
وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لَامِرِيٌّ بَدَلٌ وَجْهِهِ      إِلَيْكَ ، كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ  
وَمَا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَوْمِهِ أَضْلَهُ اللَّهُ فَعَادَاهُ ، وَزَيْنٌ لَهُ

الأدب ١٣٠/١ وحياة الحيوان للدميري ١٥٤/٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢٩/١ .  
(٣) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٣٢٨/٨ .  
(٤) بنو تيم : عشيرة عبد الله بن جدعان .  
(٥) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٣٢٨/٨ .

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان ١٤٩/٧ والشعر والشعراء ١٧٦/١ .  
(٢) انظر في أمية الأغاني (طبعة السامى) ٦٩/١٦ وطبعة دار الكتب ٣٢٧/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٢٢٠ وما بعدها وخزاعة

الشیطان سوء عمله وأغواه، فلم يُسَلِّم، بل أخذ في معاندة الرسول ومحادثته بلسانه، ولما هزمت قريش في موقعة بدر هزيمتها المشهورة، قُتِل كثير من رجالها وسادتها حزناً ذلك في نفسه، فراح على قَتْلها بقصيدة طويلة يقول فيها (١):

ماذا يبدرُ فالعقدُ قَل من مرآزية ججاجِ (٢)  
هلاً بكيت على الكرام م بنى الكرام أولى المادح

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها في لينز سنة ١٩١١ وفي سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت في بيروت طائفة من أشعاره باسم ديوان أمية. وتدور هذه الأشعار في موضوعين أساسيين أما الموضوع الأول فيتحدث فيه عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلاً بذلك على وجود الله، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله (٣):

إلهُ العالمين وكل أرضٍ وربُّ الراسياتِ من الجبالِ  
بناها وابتنى سبعاً شداداً بلا عمدٍ يُرينَ ولا رحالِ (٤)  
وسواها وزينها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلالِ  
ومن شهبٍ تلالاً في دُجائها مراميهما أشيدٌ من النصالِ (٥)  
وشقَّ الأرضَ فانبجست عيوناً وأنهاراً من العذب الزلالِ (٦)  
وكلُّ معمرٍ لا بُدَّ يوماً وذى دُنيا يصير إلى زوالِ  
ويَفنى بعد جدته ويَبلى سوى الباقي المقدس ذى الجلالِ  
وسيق المجرمون وهم عراةٌ إلى ذات المقامع والنكالِ (٧)  
فنادوا ويَلنا ويلاً طويلاً وعَجوا في سلسلها الطوالِ (٨)

(٤) السبع الشداد : السموات السبع .  
(٥) النصال : جمع نصل وهو حد السيف .  
(٦) انبجست : انفجرت .  
(٧) المقامع : محاجن من حديد يضرب بها الحيوان الشكس .  
(٨) عجا : صاحوا ورفعوا أصواتهم .

(١) ابن سلام ص ٢٢١ .  
(٢) المقتل : كتيب ريل بيدر .  
المرآزية : جمع مرزبان وهو رئيس القوم المقدم عليهم . الججاج : جمع ججاج وهو السيد الكريم .  
(٣) ديوان أمية (طبعة شولتهس) ص ٣٠ .

فليسوا ميّتين فيستريحوا وكلهم بحرّ النارِ صالٍ  
وحلّ المتقون بدارِ صدقٍ وعيشٍ ناعمٍ تحت الظلال

وهذه المعاني تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة ، وأساوبها ضعيف واهن ، ولذلك كنا نظن ظناً أنها وما يماثلها مما نُحل على أمية . والموضوع الثاني الذى يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتهاماً ، بل لعل الاتهام فيه أوضح ، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء ، قنصصاً لا يكاد يفترق في شيء عما جاء في القرآن الكريم كقوله في رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من اقتدائه يذبح عظيم<sup>(١)</sup> :

ولإبراهيمَ الموفى بالنذ	ر احتساباً وحامل الأجزاء <sup>(٢)</sup>
بكره لم يكن ليصبر عنه	أو يراه في معشر أقتال
يا بنى أننى نذرتك لدا	ه شحيطا فاضبر فدى لك حال <sup>(٣)</sup>
فأجاب الغلام : أن قال فوه	كل شيء لله غير انتحال
فاقضى ما قد نذرت لله واكف	عن دى أن يمسه سربالى <sup>(٤)</sup>
بينما يخلع السراويل عنه	فكّه ربّه بكبش جلال <sup>(٥)</sup>
قال : خذه وأرسل ابنك إنى	للذى إن فعلتما غير قال

وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ في عصور متأخرة عن الجاهلية . وقد ذهب هيار يزعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم<sup>(٦)</sup> ، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ، ولما تورط في هذا الخطأ البين ، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين<sup>(٧)</sup> . ويظهر

(٦) انظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية  
قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ .  
(٧) انظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان  
١١٣/١ ودائرة المعارف الإسلامية في أمية .

(١) ديوان أمية ص ٣٣ .  
(٢) الأجزاء : العظام .  
(٣) شحيطاً : ذبيحاً .  
(٤) سربال : ثوب .  
(٥) جلال : عظيم .

أن الانتحال على أمية قديم ، ففي ابن سلام أن الحسن بن علي بن أبي طالب استشهد النابغة الجعديّ ببعض شعره ، فأنشده قصيدته :

الحمدُ لله لا شريك له من لم يَقلها فنفسه ظلما

فقال له : « يا أبا ليلى ما كنا نرؤى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ، قال : يا بن رسول الله ! والله إني لأول الناس قالها (١) » وكان اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعديّ وأمية . ومما نحلوا أمية من قديم أيضاً أشعار مختلفة في قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات ، ويشركه عدى في بعض هذه الجوانب ، وكان القصاص والوعاظ أجروا على لسانها كثيراً من الشعر الذي أرادوا به إلى العظة والاعتبار ، وإنما نقول إنهم نحلوها ذلك من قديم ، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعاراً كثيرة في هذا الاتجاه (٢) .

وواضح مما قدمناه أن ما رُوى من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصّر من العرب في الجاهلية وكذلك من تحنّف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغي أن نحترس منه وأن لا نتسع في الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم ، إذ يجري فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغثاء والإسفاف في اللفظ والتعبير .

(١) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها . ٥١١/٣ ، ١٩٦/٤ وما بعدها .

(٢) انظر مثلاً الحيوان ٣٢٠/٢ وما بعدها ،

## الفصل الثاني عشر

### النثر الجاهلي

١

#### صور النثر الجاهلي

حين نتحدث عن النثر الجاهلي ننحى النثر العادى الذى يتخاطب به الناس فى شئون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شىء منه أدباً إلا ما قد يجرى فيه من أمثال ، إنما الذى يُعدّ أدباً حقاً هو النثر الذى يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قصصاً وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبّرة . ويسمى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفنى .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها فى الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثمّ استخدموها فقط فى الأغراض السياسية والتجارية<sup>(١)</sup> . ولا ينقص ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً .. فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيْد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علىّ ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعدُ منه ، وقال : إن هذا القول حسن<sup>(٢)</sup> .. «

(١) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى (٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي)



وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزع ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن الحق أن نؤكد أنهم كانوا يُشغفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يُرُخى الليل سُدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفيض القصاص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهر سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدِّ ، وعيونهم تلمع في وجوههم السمر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصاص الذي كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دونوا لنا ما انتهى إليهم منه ، وطبيعي أن تتغير وتتحرّف أصوله في أثناء هذه الرحلة الطويلة التي قطعها من العصر الجاهلي إلى القرن الثاني الهجري ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دوته العباسيون أن نعرف ألوان هذا القصاص الذي كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروعة وما منيت به بعض قبائلهم من هزائم منكّرة، وقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويو القرن الثاني للهجرة ورواؤه، فدونهاها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبّاء ، مما نجده ماثولاً في تاريخ الطبري وفي السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبي الفرج في أغانيه ، ومن المحقق أن كثيراً من هذا القصص يخالف التاريخ الحقيقي لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزبّاء ، فإنها لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الروماني الصحيحة<sup>(١)</sup> حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حُرِّف إلى الزبّاء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباهما كان يُدعى زبای ، فنسبوا إليه وقالوا بنت زبای ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزبّاء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حولهم وشجعانهم، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن النَّضْر بن الحارث كان من شياطين قريش ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسَم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً، فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسَم وإسفنديار<sup>(٢)</sup> . . .

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصّون كثيراً عن كهّانهم وشعراهم وسادتهم ، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معيّناً لا ينضب من الأخبار ، وارجع إلى تراجم صاحب الأغاني فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصص الهري ، كقصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها، واعتذار الأب له بجدائة سنه وأنه لم يُعرف بعد بشجاعة ، وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك ومديح له وبقائه عنده زمناً ، وفي هذه الأثناء أصاب عوفاً زمان شديد ،

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ١/٣٢١

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد عل

٣/٩٩ وما بعدها .

فأتاه رجل من مُراد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة المرقش لا تخبروه بخبرها حين يرجع، بل قولوا له إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشاً، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها، ويتوسل إليه أن يتحدث عنه، فيقول له: إني لا أستطيع أن أدنو منها، ولكن تأتيني جاريته كل ليلة، فأحلب لها عتراً، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبت فالتقه في اللبن، فلإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء. فلما سكنت الرغرة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، ففرع الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالي به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فرعاً، فقال لها: لم دعوتني؟ قالت له: ادعُ عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سئله أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل في كهف حبان، فقال لي: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء، فلإنك مصيب به خيراً، وما أخبرني من هو، ولقد تركته بأخر رمتي. فقال له زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرّقاها من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلها، فمات عند أسماء وقال: قبل أن يموت:

سرى ليلا خيالاً من سليمانى	فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال	وأذكر أهلها وهم بعيد
سكن ببلدة وسكنت أخرى	وقطعت الموائق والعهود
فما بالى أفي ويخان عهدي	وما بالى أصاد ولا أصيد

ثم مات فدفن في أرض مُراد<sup>(١)</sup>.

ولم نَسْتَوْقُ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التي دارت في الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكننا سقناها لنندل بطوابعها على صورة أمثالها في الجاهلية ، وما كان يتيح القَصَّاصَ لمثلها من عناصر التشويق ، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله ، وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا ، على نحو ما نعرف في قصة الزبَاء ، وهي تتضمن عند الضبِّي اثني عشر مثلاً (١) .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب (٢) كان معني ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويلتقى في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيرانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب (٣) ، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبي على هذه الشاكلة (٤) :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما ، فأجذبت بلادها ، وكان قريباً منهما واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المُكَّابِي ، فرعيت فيه إبل وأصلحتنا ، فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطن . فهبط ذلك الوادي ، فرعا إبله به زماناً ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما في الحياة بعد أخي خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأبعن أخي . فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألسنت ترى أني قتلت أخاك ، فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم . قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال : فإني أفعل . فحلف لها وأعطها الموائيق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثرت ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالاً . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدها ، ثم قعد لها ، فرت به ، فتبعها ، فضر بها فأخطأها ، ودخلت الحجر ،

(٣) انظر كتاب الأمثال في النثر العربي

(١) أمثال العرب للمفضل الضبي (الطبعة

القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .

الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .

(٤) أمثال العرب للضبي ص ١٠٦ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان/١-١٠٢ .

فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جُحْرها، فأثرفيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال لها : هل لك في أن نتعاقد ( نتعاهد ) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان ( من قصيدة يعاتب بها بنى مرة ) :  
 وإني لألتي من ذوى الضمغن منهمُ بلا عثرة ، والنفس لا بُدَّ عائِره  
 كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكت الأمثالُ في الناس سائره  
 ويُنشِدُ الضبي بقية القطعة التي يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى أختان عهده . ونحن نشك في الأبيات كما نشك في أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى ، وإن كنا في الوقت نفسه نظن ظناً أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى في بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود ، والذي تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف في قصص إيسوب اليونانى ، وبين قصصه الزارع والحية<sup>(١)</sup> ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعاً .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل في أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو في صورة امرأة عداً رجلها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تتراعى الجن في صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويسّرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها في كتب الأساطير والعجائب التي ألّفت في العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لتؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئاً من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً ، ولذلك كنا نهمه جملة ، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

## الأمثال

إذا كان القصص الذي أضيف إلى الجاهلين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلي بحكم تأخره في التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تتغير ، وأن تظل طويلاً بصورتها الأصلية ، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ، إذ ألفت فيها صُحاح العسدي أحد النسايب في أيام معاوية بن أبي سفيان ( ٤١-٦٠ هـ ) كتاباً كما ألفت فيها عبيد بن شريفة معاصره كتاباً آخر ، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة <sup>(١)</sup> . وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي ، ونخصي إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتاباً بشرحه من بعده أبو عبيد البكري باسم « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميذاني ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يرويه على خمسين كتاباً . ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التي تسمى مثلاً ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التي تمخض عنها المثل ، وقد تمخض عن أمثال أخرى فتروى في تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلي بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلي وإن اختلفت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذي ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فنن الحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية ، وخاصة أكثر ما رواه عبيد ابن شريفة ، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ درَج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الأولى على نحو ما ترتب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتبونها أو يؤلفونها في تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها في كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهي تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو في أثناء قصة جاهلية ، كذلك الأمثال التي نقرؤها في قصة الزبء من مثل : « لا يطاع لقصير أمر » و « لأمرٍ ما جدع قصير أنفه » و « بيدي لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميداني ثمانية عشر مثلاً . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذي زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمي ابنتي قصرأله يسمى الخورنق ، بناه له رومي يسمى سنمَار ، فلما أتمه قال له سنار : إني أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمي من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سنمَار .

وأما الطريق الثاني فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغرق في القدم مثل لقمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التي كانت تنزل في الأحقاف ، والتي بادت ولم تبق منها باقية في الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على السنة شعرائهم<sup>(١)</sup> وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُدكَرُ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والسكرَاء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم<sup>(٢)</sup> كما ينص على ذلك المفسرون<sup>(٣)</sup> . ولقد تم لقمان حفَّت الأسطورة به وبجياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قوياً قوة

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي (طبعة القاهرة) ٣٤٠ ، وتفسير أبي حيان ١٨٦/٧ وانظر خزانة الأدب للبغدادى ٧٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ١٨٣/١ وما بعدها و ٣٠٤/٣ .  
(٢) البيان والتبيين ١٨٤/١ .

خارقة حكماً بحكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعةِ نَسورٍ وأن كل نسرٍ منها عاش ثمانين سنةً وكان لُبْدٍ آخرها، وبه ضربوا المثل في طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبْدٍ »<sup>(١)</sup>. ونُسبت إلى لقمان في عصور متأخرة طائفة من الأفاضل أريد بها إلى العظة والاعتبار، وسميت أمثال لقمان، وهي مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف. وقد زعم هلر « Heller » كاتب مادة لقمان في دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل: ( أ ) مرحلة جاهلية وفيها يترأى لقمان عاد الأسطوري الذي يقال إنه عاش عمر سبعةِ نَسورٍ وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر، حتى كان لُبْدٍ الذي ذكره شعراؤهم كثيراً. ( ب ) مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به في الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل فسرودوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور<sup>(٢)</sup> بن ناحور ابن تارخ. ( ج ) مرحلة متأخرة، وهي مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان ».

ومن المحقق أن « هلر » مخطئٌ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان، لسبب بسيط، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم، فهما ليسا شخصاً واحداً بل هما شخصان. وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثاني تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه، وهي تُطْبَعُ بطابع ديني<sup>(٣)</sup>. واشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكرم بن صَيْقِي وربيعة بن حُنْدَارٍ وهرم بن قُطَيْبَةَ وعامر بن الظَّرْبِ ولَيْبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ »<sup>(٤)</sup> وأحكمهم أكرم بن صَيْقِي التَّمِيمِي وعامر بن الظَّرْبِ العَدَوَانِي، فأما أكرم فكان من المعمرين<sup>(٥)</sup>،

(٤) البيان والتبيين ١/٣٦٥.

(٥) انظر في أكرم المعمرين للسجستاني ص ١٠

والأغاني ( طبعة السامى ) ١٥/٧٠ وجمع

الأمثال ٢/١٤٥ وجمهرة الأمثال للمسكوى

على هامشه ١/١٢٠.

(١) انظر المعمرين للسجستاني ص ٣

وأخبار عبيد بن شريفة ص ٣٥٦ والخزانة

٢/٧٧ والميداني ١/٣٧٥.

(٢) انظر الثعلبي ٣٤٠ وتفسير أبي حيان

١٨٦/٧.

(٣) البيان والتبيين ٢/١٤٩.



ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات في الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطي في المزهرة طائفة منها نقلًا عن ابن دريد في أماليه ، وهي تجرى على هذا النسق<sup>(١)</sup> :

« رُبَّ عَجَلَةٍ تَهْبِئُهَا<sup>(٢)</sup> . ادْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغى . شر النصرة التعدى . ألم الأخلاق أضيقتها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رُبَّ قول أنفذ من صَوْل<sup>(٣)</sup> . الحرُّ حرٌّ وإن مسَّه الضر . العبد عبد وإن ساعده الجد<sup>(٤)</sup> . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رُبَّ كلام ليس فيه اكتتام . حافظ على الصديق ولو في الحريق . ليس من العدل سرعة العدل . ليس ييسر تقويم العسير . إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مأسوم . قد يبلغ الخضمُّ بالقضم<sup>(٥)</sup> . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بععل ستثيم<sup>(٦)</sup> . الحر عزوف . لا تطمع في كل ما تسمع . »

وعامر مثل أكنم يدخل في المعمرين<sup>(٧)</sup> ، ويقال إنه « لما أسنَّ واعتراه النسيان أمرابته أن تقرع بالعصا إذا هوفه<sup>(٨)</sup> عن الحكم وجار عن القصد . وكانت من حكيمات العرب حتى جاوزت في ذلك مقدار صحر بنت لقمان وهند بنت الخس وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس في ذلك :

لذي الحليم قبل اليوم ما تقرعُ العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما<sup>(٩)</sup> »  
وكان مثل أكنم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العديواني في بعض شعره فقال<sup>(١٠)</sup> :

- (١) المزهرة للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/١  
(٢) الريث : البطة أى رب عجلة تفوت على صاحبها حاجته  
(٣) الصول : الاستطالة في الحرب .  
(٤) الحد : الحظ .  
(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .  
(٦) تثيم : يهلك عنها الزوج .  
(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميداني في المثل : إن العصا قرعت لذى الحليم .  
(٨) فه : حاد وجار وأنحرف .  
(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .  
(١٠) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٩٠/٣ .

ومنا حَكْمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه<sup>(١)</sup>.

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيّنون قائلها ، وهذا طبعي لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل ، ممن لا يمجّدون ولا يحفل بهم الناس ، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال ، كقولهم : « بَعِيْنِ ما أرينك » فإن معناه : أسرع ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علق عليه أبو هلال العسكري بقوله : « هو من الكلام الذي قد عُرِفَ معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه<sup>(٢)</sup> » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضيّعتِ اللبن »<sup>(٣)</sup> بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنتين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون في المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . ففي أمثالهم : « أعط القوسَ باريها<sup>(٤)</sup> » بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضاً : « أجنأؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جنأتها بنأتها » لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكم بن صَيْقَى وعامر بن الظَّرْبِ ، وكان خطباؤهم المفوّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشدها في خطاباتهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع<sup>(٥)</sup> » وتبع شعراؤهم خطباءهم يودعونها أشعارهم . ومن ثمّ كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقي ، فإذا هو شطر

بعد فوت أوانها .

(٤) أى استعن على ما تعمل بأهل الخلق

والمهارة .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١ ، ٢/١٩٩ .

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري على هامش

مجمع الأمثال للميداني ١/١٦٨ .

(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ في بعض عباراتها احتفالاً بتوازن الكلمات توازناً ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النِّظَامُ إنها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية (١) »  
واقراً هذه الأمثال :

تجوع الحرّة ولا تأكل بشدّ يسيها (٢) - المقدره تُذْهب الحفيظة - مقتل الرجل بين فكّيه (٣) - إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه - من استرعى الذئبَ ظلم - في الجريرة تشترك العشيرة (٤) - وقد يأتيك بالأخبار من لم تزود (٥) - كذى العرّ يُكوى غيره وهوراتع (٦) - استنوقَ الحمل (٧) - كالمستجير من الرمضاء بالنار (٨) - حلب الدّهْرَ اشطّره (٩) - يحببُ خببُ عَشْواء (١٠) - المنيّة والالذنيّة (١١) - تحت الرّغوة اللبنُ الصّريح (١٢) - هُدنةٌ على دخن (١٣) - رمثني بدائها وانسلت .  
فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنعيم الموسيقي للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسّم المعنى ويزيده حدة وقوة . والحق أن كل شيء يؤكد أن العرب في الجاهلية عنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جملٌ وعز أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفنّهم في لحن القول » وقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » . وكأما أصبحت المقادرة البيانية عندهم سليقة من سلاتقهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هي القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

- (١) جمع الأمثال ٥/١ .  
(٢) يضرب في صياغة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة .  
(٣) بين فكّيه : أي لسانه وما يتكلم به .  
(٤) الجريرة : الحناية .  
(٥) شطر بيت لطرفة .  
(٦) شطر بيت للناطقة .  
(٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلاً لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .  
(٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .  
(٩) أشطره : الأشرط : أخلاف الناقة ، يضرب مثلاً لمن عرك الدهر .  
(١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلاً في التعثر .  
(١١) الذنيّة : العمل اللئيم .  
(١٢) الصريح : الخالص .  
(١٣) دخن : حقد .

## الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغي أن نحترس مما رواه منها صاحب الأملى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهي بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهي بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين <sup>(١)</sup> ، فقد كان كل شيء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتقننهم في المقال وحوك الكلام ، وأسعفتهم في ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من خلاصة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا (أفواجا) وتنتال عليه الألفاظ انشبالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب <sup>(٢)</sup> » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل إلى هريم بن قُطَيْبة الفَرَّارِي <sup>(٣)</sup> ومنافرة

(١) في الأدب الجاهلي لطلح حسين ص ٣٧٤ . (٢) أغاني (ساجي) ٥١/١٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢٨/٣ .

القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي إلى ربيعة بن حنذار الأسدي<sup>(١)</sup> .  
واستخدموها في الحضر على القتال وبعث الموجدة في نفوس قبائلهم ودفعها إلى  
نيران الحرب وتراميمهم في أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائي<sup>(٢)</sup> :

وخطيبٍ إذا تمعرتِ الأُوَّ جهُ يوماً في مَأْقَطٍ مشهودٍ<sup>(٣)</sup>

ويقول عامر المحاربي في مديح قومه<sup>(٤)</sup> :

وهم يَدْعُمُونَ القَوْلَ في كل موطنٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظْمًا<sup>(٥)</sup>  
يقوم فلا يَعْيَا الكلامَ خطيبُنَا إذا الكربُ أنسى الجِبْسَ أن يتكلما<sup>(٦)</sup>

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح  
وإصلاح ذات البسِّين وأن تضع الحرب أوزارها، يقول ربيعة بن مقروم الضبي<sup>(٧)</sup> :

ومتى تَقُمُّ عند اجتماعِ عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانوا كثيراً ما يخاطبون في وفادتهم على الأمراء، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي  
الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحياه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفي السيرة النبوية  
ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان  
يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو  
معروف عن وفد تميم وخطبة عطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه<sup>(٨)</sup> . وكان ذلك  
سنة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة .  
يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة<sup>(٩)</sup> :

أبادُليجَةَ مَنْ يَكْفِي العشيرةَ إذ أمسوا من الخطبِ في نارٍ وبلبالبِ  
أم من يكون خطيبَ القوم إذ حَفَلوا لدى الملوكة ذوى أيدٍ وأفضالٍ<sup>(١٠)</sup>

- (١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .  
(٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .  
(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت .  
المأقط : موضع القتال .  
(٤) الفضليات ، القصيدة ٩١ .  
(٥) كُظْمًا : جمع كاطم وهو الساكت غيظاً .  
(٦) الجبس : الثيم المنقطع .  
(٧) أغاني (سأسي) ٩/٩٣١ .  
(٨) تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٧١١ .  
والأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .  
(٩) نقد الشعر لقدماء (طبعة الجوائب)  
ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣ .  
(١٠) أيد : قوة .

وقد يتنبرون في الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم ، على نحو ما هو معروف عن قُسٍّ وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقرين ، كبعض ما يُروى عن عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي . وكان من عادتهم في الزواج ، وخاصة زواج أشrafهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها ، وخطبة أبي طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء - باسمك اللهم ذُكرتُ فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت » (١) . ويقول كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر الجيب (٢) ، ويتحدث عن خطابهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدَن والوَبَرِّ والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة ، ومتشاكلًا في استواء الصنعة ، ومنها ذوات القصر الحسان والنتف الجياد . . . ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع (٣) » .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفًا من تعدد أنواعها وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفاة على الأمراء أو النصيح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكف عن القتال أو في المنافرات والمفاخرات ، فقد استقر في نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثر من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق في البيان والتبيين أثباتًا طويلة بأسمائهم ومواقفهم مُوردًا من حين إلى حين فقرًا وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافًا من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم في كتب الأدب والتاريخ من خطب ، ومن ثمَّ سنعمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التي تصور بيانهم وبراعتهم في هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آماداً من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

(٣) البيان والتبيين ٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ١١٦/١ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع في صورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين بموج بهم ، من مثل قيس بن شماس في يثرب ، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذي اعترضت ابنته النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع <sup>(١)</sup> . أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمّية ونُقَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمّية <sup>(٢)</sup> . ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هياً لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهي تشبه مجلس شيوخ مصغراً ، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون <sup>(٣)</sup> ، ومن عُرف فيها بالخطابة عتّبة بن ربيعة وسُهَيْل بن عمرو الأعمى ، وهو الذي قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع ثنيتيه <sup>(٤)</sup> السُّقْلين حتى يدُلَّع <sup>(٥)</sup> لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثل فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده <sup>(٦)</sup> » ومن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن الظَّرْب في عدوان وربيعة <sup>(٧)</sup> بن حذار في أسد وحنظلة بن ضرار في ضبّة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل <sup>(٨)</sup> ، وعمرو ابن كلثوم في تغلب <sup>(٩)</sup> وهانئ بن قبيصة في شيبان ، وهو خطيب يوم ذي قار <sup>(١٠)</sup> ، وزهير بن جَنَاب في كَلْب وقُضاعة <sup>(١١)</sup> ، وابن عمار في طي ، وهو خطيب مذحج كلها <sup>(١٢)</sup> . ومن خطبائهم لبيد بن ربيعة العامري ، ومن قوله <sup>(١٣)</sup> :

وأخلفُ قُسا ليتنى ولو أننى وأُعْبَى على لقمانَ حكيمَ التدبّرِ

وهيذان بن شَيْخ الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه : ربّ خطيب من عبّس <sup>(١٤)</sup> ، وخوَيْلِد بن عمرو والعُشْرَاء بن جابر الغطفانيان <sup>(١٥)</sup> ، ومن خطباء

- |        |                       |       |                                      |
|--------|-----------------------|-------|--------------------------------------|
| ( ٨ )  | نفس المصدر ٣٤١/١      | ( ١ ) | البيان والتبيين ٣٥٨/١ - ٣٦٠          |
| ( ٩ )  | نفس المصدر ١٤١/٢      | ( ٢ ) | تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١    |
| ( ١٠ ) | أغاني ( ساسي ) ١٣٧/٢٠ | ( ٣ ) | السيرة النبوية ( طبعة الحلبي ) ١٢٤/٢ |
| ( ١١ ) | نفس المصدر ٦٥/٢١      | ( ٤ ) | الثنيتان : الأضراس في مقدم الفهم .   |
| ( ١٢ ) | البيان والتبيين ٣٤٩/١ | ( ٥ ) | يدلّع : يسترخى ، فلا يحسن النطق .    |
| ( ١٣ ) | البيان والتبيين ١٨٩/١ | ( ٦ ) | البيان والتبيين ٣١٧/١                |
| ( ١٤ ) | البيان والتبيين ٢٧٣/١ | ( ٧ ) | نفس المصدر ٣٦٥/١ والأغاني            |
| ( ١٥ ) | نفس المصدر ٣٥٠/١      | ( ٨ ) | نفس المصدر ٦١/١٠ ( ساسي )            |

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل<sup>(١)</sup> وهريم بن قُطَيْبَةَ الفزاري<sup>(٢)</sup> الذي احتكم إليه علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما - كما مر بنا - : « أنتما كركبتي البعير الأدرم ( الفحل ) تقعان على الأرض معاً<sup>(٣)</sup> » .

ومن خطباء تميم المفوهين أكرم بن صينيّ وضمرّة بن ضميرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زَرَى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقتله، فقال للنعمان : « تسمع بالمُعَيْدِيّ لأن تراه » فقال : أبيتَ اللّعن ! « إن الرجال لا تُكَال بالقُفْزَانِ<sup>(٤)</sup> ولا توزن بالميزان، وليست بمُسُوكٍ<sup>(٥)</sup> يُسْتَقْتَى بها، وإنما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه، إن صال صال بجَنَان، وإن قال قال ببيان<sup>(٦)</sup> » . ومن خطباء تميم أيضاً عطارد بن حاجب بن زُرارة وهو خطيب وفدها، كما مر بنا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عمرو بن الأهمم المنقريّ ، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه<sup>(٧)</sup> ، ويروى أن الرسول سأله عن الزُّبْرَقَانِ بن بدر فقال « مانعٌ لحوزته ، مطاعٌ في أدنيه » فقال الزُّبْرَقَان : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فو الله ما علمته إلا ضيقُ الصدر ، زَمِيرٌ<sup>(٨)</sup> المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال : « يا رسول الله ! رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إن من البيان لسحراً<sup>(٩)</sup> » . ومن خطباء بني منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه : هذا سيدُ أهل الوبر<sup>(١٠)</sup> ، وهو الذي قال فيه عبدة بن الطبيب حين مات<sup>(١١)</sup> :

وما كان قيسٌ هُلكهُ هُلكٌ واحدٍ ولكنهُ بُنيانُ قومٍ تهتدُما

(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .

(٨) زمر : قليل .

(٩) البيان والتبيين ١/٥٣ .

(١٠) البيان والتبيين ٢/٣٤ .

(١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .

(٣) أغاني ( ساسي ) ١٥/٥١ .

(٤) القفزان : جمع قفيز ، وهو مكيال عراقي .

(٥) المسوك : جمع مسك وهو الجلود .

(٦) البيان والتبيين ١/١٧١ .



ومن خطباء إياد قُسُّ بن ساعدة، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: رأيت بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعصوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت (١). ويقول الجاحظ: «ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي رَوَى كلام قُسِّ بن ساعدة وموقفه على جملة بعكاظ ووعظته، وهو الذي رواه لقريش وللعرب، وهو الذي عجب من حُسْنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال (٢)». على أن ابن حجر آتهم هذا الإسناد (٣)، وخاصة بعد توسُّع الرواة في خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام، وبما لا ريب فيه أن لها أصلاً صحيحاً تزيد فيه الرواة.

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين، إن لم يصح ما أثار عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً في أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة في هذا اللون من ألوان اللِّسَن والبيان. وكان مما بهم على إحسانه حاجتهم إليه في مواطن ومواقف عدة، وكان قلما يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجاياه، حتى تساق له القلوب بأزمته وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها. وكل شيء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة، يقول أبو عمرو بن العلاء: «كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفسرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهاجم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (٤)». وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول: «كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (٥)».

وقارن باللائق المصنوعة للسيوطى ١/٩٥.

(٤) البيان والتبيين ١/٢٤١.

(٥) البيان والتبيين ٤/٨٣.

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٨.

(٢) نفس المصدر ١/٥٢.

(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ١/٢١٠.

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر - إذا استثنينا زهيراً - كان هو الذي يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالنار ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنازلاً بالألقاب والأحساب والمآثر والمعائب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد في خطاباتهم ، فكانوا يخطبون على رِوَاهِلِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ الْعِظَامِ وَالْحِجَامِ الْكِبَارِ (١) ، وقد لاثوا العمائم على رؤسهم ، وفي أثناء خطابهم كانوا يمسكون بالعِصِيَّ وَالْمُخَاصِرَ الْقَضْبَانَ وَالْقِنَانَ وَالْقِسِيَّ رَاكِبِينَ أَوْ وَاقِفِينَ عَلَى مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول (٢) :

مَا إِنَّ أَهَابُ إِذَا السُّرَادِقُ عَمَّهُ      قَرَعُ الْقَيْسِيَّ وَأُرْعَشَ الرَّعْدِيدُ

ووقفت الشعبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصي والمخاصر ، ورد عليهم الجاحظ في بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله في تلك العادة : « إن حَمَلَ الْعَصَا وَالْمُخَصِرَةَ دَلِيلٌ عَلَى التَّأَهُبِ لِلخُطْبَةِ وَالتَّهَيُّؤِ لِلْإِطْنَابِ وَالْإِطَالَةِ ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصود عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون في حوارهم ، والمخاصرُ بأيديهم إلغاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها (٣) » وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهاة الصوت وقوته ، وكانوا يعيرون فيه التنحج والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام ، يقول النَّمِرُ بْنُ تَوَلِّبٍ (٤) :

أَعَذَّنِي رَبٌّ مِنْ حَصْرٍ وَعِيٍّ      وَمَنْ نَفَسٍ أَعَالَجَهَا عَلاَجَا

ويقول أبو العيَّالِ الهذلي :

وَلَا حَصْرٌ بِخُطْبَتِهِ إِذَا مَا عَزَّتِ الْخُطْبُ

وذموا في الخطيب أن يُكْثِرَ مِنْ مَسِّهِ لِدَقَّتِهِ وَشَوَارِبِهِ وَحَيْتِهِ ، وكأما رأوا في ذلك

(٤) انظر في هذا البيت وتاليه البيان والتبيين

٣/١ .

(١) البيان والتبيين ٧/٣ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٧٢ ، ٩/٣ .

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٧ .

ضرباً من الخرق في استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزني في بعض هجائه (١) :

إذا اجتمع القبائلُ جِئْتَ رِدْفاً      وراءَ الماسحين لك السببِالاً (٢)  
فلا تُعْطَى عَصَا الخُطباءِ فيهم      وقد تُكْفَى المقادَةَ والمقالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون في جهازة الصوت ويتحلون سعة الأشداق وهذل الشفاه ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياي والتشادق ، وقال : أيغضكم إلى الثرثارون المتتسيهقون (٣) .

وإذا ذهبنا نستنطق النصوص عن أساليب خطابهم ، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متهم لا يمكن الاعتماد عليه في الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقبةً متطوالة تفصل بين العصر الذي دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذي قيلت فيه . ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رُويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم رُوِي مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيمهما لنُفَيْسِل بن عبد العززي في تاريخ الطبري (٤) فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس ، فقد رُويت في شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ، وهي مسجوعة (٥) ، ومثلها منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفَيْسِل المروية في كتاب الأغاني ، فهي الأخرى مبنية على السجع (٦) . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالتقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضَمْرَةَ بنِ ضَمْرَةَ وهَرَمَ بنِ قُطْبَةَ والأقرع بن حابس ونُفَيْسِل بن عبد العززي كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُدَار (٧) »

(٤) الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١ .  
(٥) النقائض ١٤١/١ .  
(٦) أغاني (طبعة الساسي) ٥١/١٥ .  
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٧٢ .  
(٢) السبيل : مقدم اللحية . يهجوه بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .  
(٣) البيان والتبيين ١/١٣ . المتفحيق : الذي يفتح بالكلام جوانب فيه ويملؤه به .

كما يقول في موضع آخر إنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، بينما كانوا يستعملون المنشور المرسل في خطب الصلح وسلّ السخيمة وعند المعاهدة والمعاهدة . وكأنهم عرفوا في الجاهلية لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلًا . ولا تظن أنهم في خطابهم المرسله لم يكونوا يروون فقد كانوا يعملون إلى ما يشير السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثر فيهم ويبلغوا ما يريدون من أسمائهم ، يقول الجاحظ : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال الخطب ، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاليم التدبير ومهمات الأمور ميسّوه<sup>(١)</sup> في صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومته الثقف ، وأدخِلَ الكبير ، وقام على الخلاص أبرزه محككاً منقحاً ومُصَفّى من الأدناس مهذباً<sup>(٢)</sup> » .

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التي بقيت من تراثهم ، تلك التي يروها الجاحظ ، يشعر حقاً أنهم كانوا يبتغون التجويد في كلامهم ، تارة بما يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة . ودائماً يعنون بهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجة ، وتصوّر أشعارهم جوانب من ذلك كقول لبيد لهرم بن قُطَبة حين احتكم إليه عامر بن الطُّفَيل وعلقمة بن عُرَثة<sup>(٣)</sup> :

إنك قد أوتيت حُكماً معجِبا فطَبِقَ المَفْصِلَ واغْنَمَ طَيِّبا

وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلاً قاطعاً يفصل بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصِلَ العَظْمين . ومن ذلك قولهم فلان يفلُ الحَزَّ ويصيب المَفْصِلَ ويضع الهِناء مواضع الثَقَبِ<sup>(٤)</sup> . والعبارة الأخيرة مستعارة من صنيع الحاذق حين يلمّ الجرب بإبله فيضع دواءه في مواضعه الدقيقة ، يمثّلون بذلك للمصيب الموجز في خطابه وبيانه ، كما مثّلوه في التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق الذي يصيب عين الموضع من جزّوره سواء في العظم أو في اللحم . وقد يشبهون كلامهم بالسهم المصمّية ، ومن ثم استخدموا كلمة مِدْرَه للشجاع والخطيب المفلق في الوقت نفسه ، وأصل معناها المُرَامى ، فاستعيرت من رامى السهام لرامى الكلام

(١) ميسّوه : ذلّوه .  
 (٢) البيان والتبيين ١٤/٢ .  
 (٣) البيان والتبيين ١٠٩/١ .  
 (٤) نفس المصدر ١٠٧/١ . الهناء : القطران . والنقب : أول ما يبيد من الحرب في الإبل .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكابة به ، يقول زهير بن أبى سلمى (١) :  
 ومِدرَةٌ حَرْبٍ حَمِيْهَا يُتَّقَى بِهِ شَدِيدُ الرَّجَامِ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ  
 ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسن، وافتخروا بذلك طويلا على  
 نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرِي يصف ما فيه وفي عشيرته بنى  
 مَنقَر من الخطابة والفصاحة (٢) :

إِنِّي أَمْرٌ لَا يَغْتَرِي خُلُقِي دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ وَلَا أَفْنٌ (٣)  
 من «مِنقَرٍ» فِي بَيْتٍ مَكْرُمَةٍ وَالْأَصْلُ يَنْبِتُ حَوْلَهُ الْغُضْنُ  
 خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لُسن

وقد حذروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد  
 وإنه غضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة (٤) :

بِحُسامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْكَلِمُ الْأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ  
 ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا  
 نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشاة وبالخلل والدجاج وأشباه ذلك ، يقول  
 أبو قردودة الطائي في رثاء ابن عمّار خطيب مدحج وقد مات مقتولا (٥) :

وَمَنْطِقِي خُرْقٌ بِالْعَوَاسِلِ لَدُّ كَوْشِي الْيُمْنَةِ الْمَرَّاحِلِ (٦)

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة  
 في الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون في كل موقف :  
 في المفاخرات وفي الدعوة إلى السلم أو الحرب وفي النصيح والإرشاد وفي الصهر  
 والزواج . وابتغوا دائما في كلامهم أن يؤثر في نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب  
 بيان وبلاغة .

(٤) البيان والتبيين ١/١٥٦ . أُرْغَب :

أوسع : الكلم بسكون اللام : الجرح .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .

(٦) العواسل : الرماح . المراحل : جمع  
 مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرجال .

(١) ديوان زهير ( طبعة دار الكتب )

ص ٢٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢١٩ .

(٣) يفند : ينقض ويضعف . الأفن :

ضعف الرأي .

## سجع الكهان

كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يُلقي إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمّى كاهناً كما يسمّى تابعه الذي يوحى إليه باسم «الرّئيّ» . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم في كل شئوهم ، وقد يتخذونهم حكماً في خصوماتهم ومنافقاتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمّية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الحزاعي ، وقد نفّر هاشماً على أمّية<sup>(١)</sup> . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شئوهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نحر ناقة<sup>(٢)</sup> ، أو قعود عن نصرة أحلاف<sup>(٣)</sup> ، أو نهوض لحرب ، ففي أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رقى لهم ، فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبني أسد : « يا عبادي ! قالوا لبنيك ربّنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلب ، في الإبل كأنها الرّبرب<sup>(٤)</sup> ، لا يعلق رأسه الصّخب ، هذا دمه ينشعب<sup>(٥)</sup> ، وهذا غداً أول من يُسلّب ، قالوا : من هو يا ربّنا ؟ قال : لولا أن تعجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حججراً فهاجموا فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حججراً فهجموا على قبّته » وقتلوه<sup>(٦)</sup> . وكثيراً ما كانوا يندرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر<sup>(٧)</sup> ، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رؤؤهم وأحلامهم<sup>(٨)</sup> .

فتمتزة كهانهم في الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها ،

- |                                   |   |
|-----------------------------------|---|
| (١) السيرة الحلبية ٤/١ .          | (٦) أغاني ٨٤/٩ .                        |
| (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٨/١١ | (٧) الأمال للقالي ١٢٦/١ والسيرة النبوية |
| (٣) أغاني ١٤٠/١١ .                | ٤٣/١ ، ٢٢١ .                            |
| (٤) الربرب : القطيع من الظباء .   | (٨) السيرة النبوية ١٥/١ وما بعدها .     |
| (٥) ينشعب : يسيل .                |   |

ومن ثمَّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، وما يلاحظ أنهم كانوا يكثرُّون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القصاص، فيسمون لبعضهم صوراً خيالية، فن ذلك أن شقيق بن الصعْب كان شق لإنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق<sup>(١)</sup>، وربما كان أحذب. ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدؤسي وقد أدرك الإسلام ودخل فيه<sup>(٢)</sup>، ومنهم المأمور الحارثي، كاهن بنى الحارث بن كعب<sup>(٣)</sup>، وخنافر الحميري، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه «شصار<sup>(٤)</sup>». وأكهنهم عزى سلمة، يقول الجاحظ: «أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبي حية وهو الذي يقال له عزى سلمة<sup>(٥)</sup>». ومن قوله<sup>(٦)</sup>: «والأرض والسماء، والعقاب والصقعا، واقعة ببقعاء، لقدنقر المجد بنى العشاء للمجد والسناء<sup>(٧)</sup>». ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كن في الأصل من النساء اللاتي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشعثاء<sup>(٨)</sup> وكاهنة ذى الخليفة<sup>(٩)</sup> والكاهنة السعدية<sup>(١٠)</sup> والزرقاء<sup>(١١)</sup> بنت زهير والغبظلة القرشية<sup>(١٢)</sup> وزبراء كاهنة بنى رثام، ويروي أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: «واللوح الخافق واللبل الغاسق والصبح الشارق والنجم الطارق والمزّن الوادق، إن شجر الوادي ليأدوختلاً، ويحرق أنياباً عَصلاً، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً، لا تجدون عنه مَعلاً<sup>(١٣)</sup>».

- (١) عجائب المخلوقات للقزويني ١٧١/١ .  
 (٢) السيرة النبوية ٢٣٣/١ .  
 (٣) الأمالي ٢٧٦/١ واسمه فيه المأمون ،  
 وانظر ١٥١/٣ والأغاني ٧٠/١٥ .  
 (٤) الأمالي ١٣٣/١ .  
 (٥) البيان والتبيين ٣٥٨/١ .  
 (٦) نفس المصدر ٢٩٠/١ .  
 (٧) الصقعا : الشمس ، بقعاء : ماء  
 أو موضع . نقر : حكم بالغلبة . بنو العشاء :  
 عشيرة من فزارة . السناء : الرفعة .
- (٨) جمع الأمثال للميداني ٩١/١ .  
 (٩) نفس المصدر ٢٢٣/١ .  
 (١٠) نفس المصدر ٥٤/٢ .  
 (١١) أغاني (دار الكتب) ٨١/١٣ .  
 (١٢) سيرة ابن هشام ٢٢١/١ .  
 (١٣) اللوح هنا : الريح . الوادق : المطر .  
 يأدو : يختل . يحرق أنياباً عَصلاً : كناية عن  
 الفضب والشر . عَصلاً : معوجة . الطود :  
 الجبل . المعل : الملجأ . انظر الأمالي ١٢٦/١ .

ونحن لا نظمن إلى ما يُروى في كتب التاريخ والأدب من أقوال جرت على السنة هؤلاء الكهان والكاهنات، فإن بُعد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلي يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال، إذ من الصعب أن تُروى بنصها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان. وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت في أذهان من تحدثوا عن الكهّان والكاهنات في الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كلامهم، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما روينا من أقوالهم. ومعنى ذلك أنه وُجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنتهم ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعز: (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرن) وقال سبحانه وتعالى: (فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال: (إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرن).

ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديث المروى عن أبي هريرة، فقد حدث أنه «اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاخصصوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ف قضى رسول الله أن دية جنيها غرة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلها<sup>(١)</sup>... فقال حمل بن النابغة الهذلي: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل<sup>(٢)</sup>، فقتل ذلك يُطَل<sup>(٣)</sup>، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهّان، من أجل سجعه الذي سجع<sup>(٤)</sup>». ويقول الجاحظ: «كان حازي (كاهن) جهينة وشقّ وسطيح وعزى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع<sup>(٥)</sup>». وإذا صح أن ما يروى في كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب،

(٤) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ١١٠/٥  
وانظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ .  
(٥) البيان والتبيين ٢٨٩/١ وما بعدها .

(١) عاقلة المرأة: عصبها الذين يتضامنون معها في دفع الدية .  
(٢) استهل: صاح .  
(٣) يطل: يهدر دمه .



بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمة ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كى يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم ، إذ يوثقون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعاني من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا في وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبهم الذى يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التى تخدع السامع وجوهاً من الخُدْع ، ون ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذى يضاف إليهم ، فإنه يلاحظ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجى والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم فى هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم ولبيلغوا ما يريدون من التأثير فى نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الدينى كان يقابله - كما قدمنا - سجع آخر فى خطابهم ، بل فى كلامهم وأمثالهم التى دارت بينهم . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عُنوا بنثرهم كما عُنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

## خاتمة

### خلاصة

حاولتُ في الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربي في العصر الجاهلي ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة في إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يَمَمُّوا حوض المحيط الهندي آخر موجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم في لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم في حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلوات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا في آخر الأمر إلى صورة خطهم العربي المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلي وحددته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجأ في أول هذا العصر باكتمال الخط العربي ، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذي يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم في الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهي بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهي مركز تجارتهم وقوافلهم التي تربط بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهي وحدة دعمتها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطلب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا بجزيرتهم إلى ما يشبه ميداناً حربياً كبيراً ، ففي كل مكان عراك وقتال وفي كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجلها علماء اللغة والأدب في العصر العباسي كحرب البسوس وحرب  
داحس والغبراء .

وانتقلت من ذلك أبحاث في حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع  
القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هي أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم  
شئ يشد من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان  
كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإياء الضيم ، وتخللت  
ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات  
عند بعض الشباب أمثال طرفة شكل فتوة جامحة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة  
عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة في  
الجنوب والشرق وواحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان  
البدو يعيشون على رعى الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون  
مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات  
المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ،  
ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم  
الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت  
الكعبة في مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يحجون إليها في أشهر معلومات . على أن  
نفرأ منهم شكوا في أواخر هذا العصر في دينهم الوثني والتمسوا دين إبراهيم ويسمون  
المتحنفة والحنفاء وكانما كانوا إرهاباً لظهور الإسلام والدعوة الحمديّة . وكانت  
النصرانية في أثناء ذلك تنتشر في القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من  
اليهود ينزلون في واهات الحجاز وفي اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم  
وينفرون من دينهم .

ولما تمّ لي بيان هذه الجوانب أخذت أبحث في اللغة العربية وعناصرها السامية  
القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة في النقوش ، وهي التمودية واللّحيانية  
والصّفوية ، تلك التي كتبت نقوشها بالخط المسند الجنوبي ، ثم اللهجة النبطية ،  
وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامي ، ومنه نشأ تطور الخط العربي في الحجاز .  
وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت في الدثور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادي حتى تتكامل تكاملاً تاماً وتعم بين القبائل النجدية وفي الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هي اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً في المجال الأدبي ، بحيث كان الشعراء في كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلاً في معرفة اللهجة التي سادت بين القبائل في الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان ، وأثبت أنها لهجة قريش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تتم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلي .

وبحثت عقب ذلك في رواية الشعر الجاهلي وتلويته ، مبيناً كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالها وشعرائها على حتمه جيلاً بعد جيل ، حتى تسلمه منهم طبقة من الرواة المحترفين في البصرة والكوفة ، وكان بينهم الثقة الذي لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبي والأصمعي والمهم الذي يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفي تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلي يدون ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تلويته . والذي لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصروا على كل ما شكوا فيه من رُواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضي يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث في هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلي جميعه منحول على أهله ، وهب كثير من المستشرقين يردون عليه ، ومن ذهب مذهبه في تعميم الحكم على الشعر الجاهلي بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى هندی من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير في الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربي » . وقد ناقشت آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلاً كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكن بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبي

والأصمعي ، وهو الذي نستند عليه في دراسة الأدب الجاهلي ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلي دقيق . زمن أجل ذلك وقفتُ عند مصادره لأدلّ على قيمتها ومدى ثروتها .

ومضيتُ أبحث في خصائص الشعر الجاهلي ، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت في ثنايا الجاهلية الأولى ، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية شيئاً نستبين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيد الجاهلية ، وهي صورة شاعت بين القبائل جميعاً ، وكان للقبائل المضربة منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التي كانوا يرتلون لها لأهنتهم ، كما وقفت عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة ، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد ، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة .

وأفردتُ بعد ذلك فصلاً لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين الجليلين في العصر الجاهلي ، وهم امرؤ القيس والنابعة وزهير والأعشى . واعتمدت في دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعي لدواوينهم ، وبدأت بامرئ القيس ، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثت عن ديوانه ، وبحثته بحثاً داخلياً ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعي ، واستظهرت أن تكون المعلقة وتاليتها في ديوانه صحيحتين في جملتهما ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبي عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرّض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزع شعره على دورتين في حياته ، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث ، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورّتُ خصائصه الفنية مبيّناً منزلته في الشعر الجاهلي وكيف عدّه أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابعة الذيباني ، فتحدثت عن حياته ، وكيف أمضاها في بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذيبانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة في داخل الجزيرة وفي مكة وسوق عكاظ . وبحثتُ في ديوانه على ضوء رواية

الأصمعي ، وأنكرت منها خمس قصائد على رأسها قصيدته في المتجرده . وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة في حياته ولا في شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبيناً قدرته على الوصف ورصف الموضوعات وتنسيق المعاني وابتكار الصور والأخيلة ، يهديه في ذلك كله ذوق مهذب ، هذبته الحضارة التي نعم بها في الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسٍّ دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبي سلمى المزني ، وقد نشأ في بني مرة الذيبانيين بحيث عدَّ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حجر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحتمل عنهما جميعاً الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً للمدرسة عُرِفَتْ به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعي . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتحرير في قواله وصيغته تحبيراً لاحظته القدماء إزاء بعض مطولاته ، فقالوا إنه يصنع القصيدة في حول كامل وإن له سبع حوليات . وهويضم إلى هذا التحبير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يُعدَّ حقاً شاعر التصوير في العصر الجاهلي وكان يكثر من الحكيم ومن الدعوة إلى الخير والسلام ، فلا تغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التي كان ينفقها متنقلاً في أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطرت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال ، وتصادف أن كان رواية شعره مسيحيًا ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القصاصُ والوعاظ المسلمون ، فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التي تحكى قصة وفاء السمؤال . وجعلنا هذا كله نشك في كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نبقى له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلوًا في المديح وتأثراً دقيقاً بالحضارة التي عاصرته في الحيرة ، حتى يقترب شعره من شعر العباسيين لا في معانيه فحسب ، بل أيضاً في سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

في شيء عما نقرؤه للعباسيين ونقصد وصفه للخمر وغزله وتدلّفه فيه وما قد يلاحظ عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

وخرجتُ من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا في اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرستُ أولاً الفرسان وما يصورون في أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقية الرفيعة . ثم درستُ الصعاليك وما يصورونه في أشعارهم من غاراتهم وما نحسُّه عند نفر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحث في شعراء اليهود مبيّناً كثرة ما نُحلّ عليهم . ووقفت عند النصاري من الشعراء أمثال عدى بن زيد العبادي ، ولاحظتُ أن شعراً كثيراً زيّف عليه . ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبي الصلت ، إن لم يكن كله ، موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه في موضوعين أساسيين ، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب .

ولما فرغتُ من بحث الشعر الجاهلي وشعرائه انتقلتُ أبحث في النثر الجاهلي ، فلاحظتُ أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهّان . ومن الحق أنهم لم يدوّنوا شيئاً من قصصهم ، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصور غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضتُ لأمثالم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السُّنن والتقاليد . وكان كهّانهم يحاولون التأثير البالغ في نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا في نثرهم ما حاولوه في شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخلبوا عقولهم وألبابهم .

### تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلي إنما تُعنى بإبراز خطوطه الأساسية ، ومن المحقق أن هناك خطوطاً صغرى لا يبرزها البحث ، فنحن مثلاً إنما تحدثنا عن الشعراء المجليين ، وتركنا كثيرين لم نكد نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً في بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد في كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولتقف قليلاً عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس ، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة ولييد ، فأما عمرو والحارث فإنهما مُقلّان ، وقد تشكك ابن سلام في شعر عبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب<sup>(١)</sup> . أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة<sup>(٢)</sup> ، وهي قوله :

لخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِيَرْقَةٍ تَهْمَدُ      وقفتُ بها أبكى وأبكى إلى الغَدِ<sup>(٣)</sup>

وفيها أبداع في وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ، وكأنه يريد أن ينحت لها تماثلاً ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعاً يتداخلان في شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة زهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضاً فإنه مقل والأسطورة تجرى في أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه في تضاعيف كلامنا عن الفرسان . ولييد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلاً في الإسلام ، فأولى أن يدرس في الخضرين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حجر لأن فنه يندمج في فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شُرَيْح<sup>(٤)</sup> وعبيد<sup>(٥)</sup> بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه في طبقته — وهي الثانية — بشر بن أبي خازم الأسدي وهو مقل ، وفي شعره مصنوع كثير<sup>(٦)</sup> . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من الخضرين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرّاً رأينا في أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدى بن زيد العبادي ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عبدة ويذكر له ثلاث قصائد جيد ، ويقول : لا شيء له بعدهن يُذكر<sup>(٧)</sup> .

(٤) الحيوان ٢٧٩/٦

(٥) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧

(٦) الحيوان ٢٧٩/٦

(٧) ابن سلام ص ١١٧

(١) ابن سلام ص ١١٦

(٢) ابن سلام ص ١١٥

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثاني في البيت :

« تلوح كباتي الوشم في ظاهر اليد » .



وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظلم ونعامته (١) . ومن ذكرهم ابن سلام في الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النهشلي التميمي ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شَفَعَهَا بِمَثَلِهَا قَدَمَاهُ عَلَى مَرْتَبَتِهِ » (٢) . أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حصين ابن الحمام المريّ والتلمس (خال طرفة) والمسيب بن علس (خال الأعشى) وسلامة بن جندل السعدي التميمي . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قميئة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الحرّع ، وهما مقلان . وجعل في الطبقة التاسعة الحادرة أو الحويلدة ، وقصيدته (٣) :

بَكَرَتْ سُمَيَّةٌ بُكْرَةً فَتَمَتَّعَ . وَغَدَتْ غَدَوَْ مَفَارِقٍ لَمْ يَرْبَعِ .

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المراثي فضلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبي الصلت شاعر الطائف ، ومرّ بنا في حديثنا عن أصحاب الديانات كثرة ما وضع عليه من أشعار . وفي قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المثقّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يسلك في المقلين . وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غناء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . وبما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم في القصص الشعبي ، ويشبههم في هذا الجانب حاتم الطائي الذي طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع في الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثمّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التي عسى الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارى في حسن الديباجة ورونق الكلام .

(٣) المفضليات رقم ٨ . يربح بالمكان :

يقيم .

(١) الحيوان ٤/ ٣٦٦ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .

## فهرس الموضوعات

صفحة	
٦ - ٥	مقدمة . . . . .
١٥ - ٧	تمهيد . . . . .
٧	١ - كلمة أدب . . . . .
١١	٢ - تاريخ الأدب . . . . .
١٤	٣ - تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره . . . . .
٣٧ - ١٧	الفصل الأول : الجزيرة العربية وتاريخها القديم . . . . .
١٧	١ - صفة الجزيرة العربية . . . . .
٢٢	٢ - الساميون . . . . .
٢٦	٣ - العرب الجنوبيون . . . . .
٣٠	٤ - العرب الشماليون . . . . .
٣٢	٥ - النقوش ونشأة الكتابة العربية . . . . .
٦٦ - ٣٨	الفصل الثاني : العصر الجاهلي . . . . .
٣٨	١ - تحديد العصر . . . . .
	٢ - الإمارات العربية في الشمال ( الغساسنة - المناذرة - كننة ) . . . . .
٤٠	٣ - مكة وغيرها من مدن الحجاز . . . . .
٤٩	٤ - القبائل البدوية . . . . .
٥٥	٥ - حروب وأيام مستمرة . . . . .
٦٢	
١٠٣ - ٦٧	الفصل الثالث : الحياة الجاهلية . . . . .
٦٧	١ - الأحوال الاجتماعية . . . . .
٧٦	٢ - المعيشة . . . . .
٨١	٣ - المعارف . . . . .

٨٩	٤ - الدين
٩٧	٥ - اليهودية والنصرانية
١٠٤ - ١٣٧	الفصل الرابع : اللغة العربية
١٠٤	١ - عناصر سامية مغرقة في القدم
١١١	٢ - لهجات عربية قديمة
١١٧	٣ - نشوء الفصحى
١٢١	٤ - لهجات جاهلية
١٣١	٥ - سيادة اللهجة القرشية
١٣٨ - ١٨٢	الفصل الخامس : رواية الشعر الجاهلي وتدوينه
١٣٨	١ - رواية العرب للشعر الجاهلي
١٤٨	٢ - رواة محترفون
١٥٨	٣ - التدوين
١٦٤	٤ - قضية الانتحال
١٧٦	٥ - أهم مصادر الشعر الجاهلي
١٨٣ - ٢٣١	الفصل السادس : خصائص الشعر الجاهلي
١٨٣	١ - نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل
١٨٩	٢ - الشعر الجاهلي شعر غنائي
١٩٥	٣ - الموضوعات
٢١٩	٤ - الخصائص المعنوية
٢٢٦	٥ - الخصائص اللفظية
٢٣٢ - ٢٦٥	الفصل السابع : امرؤ القيس
٢٣٢	١ - قبيلته وأسرته
٢٣٦	٢ - حياته
٢٤٣	٣ - ديوانه
٢٤٨	٤ - شعره

صفحة	
٢٩٩ - ٢٦٦	الفصل الثامن : النابغة الذبياني
٢٦٦	١ - قبيلته
٢٦٨	٢ - حياته
٢٧٥	٣ - ديوانه
٢٨٠	٤ - شعره
٣٣٢ - ٣٠٠	الفصل التاسع : زهير بن أبي سلمى
٣٠٠	١ - قبيلته
٣٠١	٢ - حياته
٣٠٤	٣ - ديوانه
٣٠٦	٤ - شعره
٣٦٥ - ٣٣٣	الفصل العاشر : الأعشى
٣٣٣	١ - قبيلته
٣٣٥	٢ - حياته
٣٣٩	٣ - ديوانه
٣٤٨	٤ - شعره
٣٩٧ - ٣٦٦	الفصل الحادى عشر : طوائف من الشعراء
٣٦٦	١ - الفرسان
٣٧٥	٢ - الصعاليك
٣٨٨	٣ - شعراء آخرون
٤٢٣ - ٣٩٨	الفصل الثانى عشر : النثر الجاهلى
٣٩٨	١ - صور النثر الجاهلى
٤٠٤	٢ - الأمثال
٤١٠	٣ - الخطابة
٤٢٠	٤ - سجع الكهان
٤٣٢ - ٤٢٤	خاتمة
٤٢٤	خلاصة
٤٢٩	تعليق

تاريخ  
الأدب  
العربي

٢

دكتور شوقي ضيف

# العصر الإسلامي



دار المعارف

تاريخ  
الأدب العربي

٢

# العصر الإسلامي

تأليف

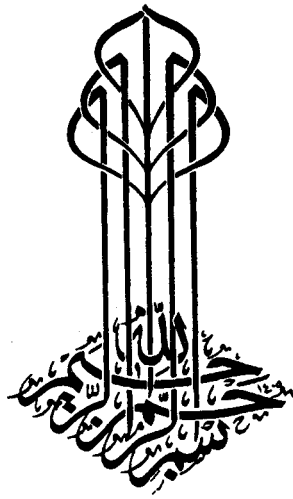
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة السابعة



دارالمغارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ع . م .





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالعصر الإسلامي ، وقد وزعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بني أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولاً تُبَحِّثُ فيها جوانب الحياة في العصر بحثاً ترتب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبَحِّثُ فيها الأعلام النابون في الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرَسِّمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل في أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق ، فقد آتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يصندرون عنه في أشعارهم صدور الشدَى عن الأزهار الأرجة . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاءً إذ أنشأوا - على هدى القرآن الكريم - آيات بدیعة من المواظ الدينية ، كما أنشأوا ضرباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بني أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم في مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى في نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يحسبي في

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التي أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يخضعون في كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفي هذه الأثناء كان الموالي يتعربون، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعرّبوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب في العصر الأموي، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بيرة وتعاون وإخاء.

والكتاب الثاني يتبسّط كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه، فقد مضى شعراء الهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التي بثوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية، كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والخوارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين. ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طابع تميزه، فبيما يميز مثلا شعر الخوارج بتصوير استبسالهم في الحروب وتهاقهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذرفوا على أمتهم المستشهدين من دموع غزير، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشرعيين. وقد اضطرت فنون الشعر اضطراباً لا في المديح والهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً في الغزل، فظهر فيه الغزل العنثري بجانب الغزل الصريح، وزكا شعر الزهد، وتما شعر المجون ووصف الطبيعة، ومدّ الرّجّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطرديات، فهي ليست عباسية - كما كان يُظن - إنما هي أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها، حتى غدت - في بعض جوانبها - كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعل عصرأ عربياً لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطابوها ينددون عن نظرياتهم مؤلّبين الناس على خصوصهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتلّمت على لسان الوعاظ والقصاص احتداماً ، استطاعوا في أثناءه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المتبدلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات في المراكز المتحضرة التي يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات . مع العناية بدقائق المعاني وفتق الحيل للتعبير عن خفياتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجّة ، وبذلك كانوا أول من مهد لوضع قواعد البلاغة العربية .

ومآ تدوين المعارف في عصر بني أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبوي وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء . وفي المثالب والأمثال والمواعظ . وفي مسائل العقيدة من قنّدر وغير قنّدر ، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء ، ودوتوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة . جعلتهم يستعبرون من الوعاظ أسلوبهم الذي وصفناه ، وما زالوا يترقّون بكتابتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهديني سواء السبيل .

شوقي ضيف

القاهرة في ١٥ من يولييه سنة ١٩٦٣



الكتاب الأول

في عصر صدر الإسلام



## الفصل الأول

### الإسلام

١

#### قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوي على معنى الخضوع والانقياد ، وقد ترددت في القرآن الكريم بهذا المعنى في مثل : ( وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له ) ( وأمرت أن أسلم لرب العالمين ) . ومن ثم أُطلقت علماً على ديننا الحنيف في قوله تبارك وتعالى : ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة وسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جل شأنه : ( وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ) ، ويقول : ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ) ويقول : ( هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ) . ويقول : ( وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه ) .

فالإسلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ما سبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهم أصل في العقيدة الإسلامية الإيمان بوحدة الله ، يقول سبحانه وتعالى : ( قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو ( رب العالمين ) رب كل شيء في الكون وخالقه ( ليس كمثل شيء ) ( لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما في الكون ( وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم وتقبض على زمامه (وسع كرسيه السموات والأرض) (والله على كل شيء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده، يقول سبحانه (ورحمتي وسعت كل شيء) ( وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقترن بالرحمة في القرآن الكريم المحبة التي يفيضها على عباده مستشعرين لجلاله وكماله المطلق ( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) ( فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهي عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب المتوكلين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم في الدارين الأولى والآخرة (رُسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية، خاتمتها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

وراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبي، به نوعان من الأرواح خيبر وشرير، والخير هو الملائكة الذين يتنزلون بالوحي على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهي الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى، وهم ينشقون غوايتهم فيسئفون عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .



ويُكثِر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد، فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبْعَثُونَ) وهو يوم الحساب، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يرهُ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيآت جزاءُ سيئةٍ بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطباً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يدوقون فيها برّداً ولا شراباً إلا حَمِيماً وَعَسَافاً جزاءً وفاقاً).

وإذا ما يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه في كل ما يأتي ويدع. فهناك مشيئة مطلقة هي مشيئة الله التي تسيطر على كل ما في الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبها مشيئة الإنسان التي تجعله مسئولاً أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يده (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كل نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه).

وتلك هي أصول العقيدة الإسلامية، وبجانبها أعمال من العبادات يجب على المسلم أداؤها، وهي ترجع إلى أربعة أصول: الصلاة والصوم والحج والزكاة. الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسييح واستغفار، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفيتها وأوقاتها، وفي القرآن الكريم (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً). والصوم هو صوم شهر رمضان تبتلاً إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبكم لعلكم تتقون). شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه. وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج ( والله على الناس حجاج البيت من استطاع إليه سبيلاً ) وهو في أشهر معلومات ، وقد بيّن الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسييح . ثم الزكاة وهي أن يُردّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهي تُذكر في القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثاً عليها في مثل ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغى أن يتحلّوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته ، يقول تبارك وتعالى : ( وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . . والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يُبقتروا وكان بين ذلك قواماً . . . ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزننون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً . . . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ) ( ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنأ على وهن . . . وآمُرُ بالمعروف وأنهى عن المنكر واصربر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعّرْ خدك للناس ولا تمش في الأرض مَرَحًا إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ) . ويقول جلّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : ( إنما المؤمنون إخوة . . . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجنّبوا كثيراً من الظن: إن بعض الظن إثمٌ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ ) .

وقد حرّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر ( قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ) . وما حرّمه تحريماً باتاً آفة الخمر وآفة القمار ( إنما الخمر والميسر .. رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ) .

ودائماً تلقانا في الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنيا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس وتبئد كل الفواحش والرزائل ، ومراقبة الإنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُجزى كل إنسان بما قدّمت يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه في سره وعقله ، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه .

## ٢

## قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلّصه من الحماقات والثرهات ، وقد مضى يحتكم إليه في معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبّر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل في ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر في هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخلَق عبثاً وأن له صانعاً سوى كل شىء فيه وقدّره ، يقول جلّ ذكره : ( إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ) ( الشمس والقمر بحسبان ) ( والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن في الإيمان بوحدهائه . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته ( وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ) وما كان لهذا الذى

فضَّلَه على كل ما في الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخرها لفائدته (قل أغير الله أبغى رباً وهو ربُّ كل شيء) (ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهنَّ). وهو إله واحد يدبِّر السموات والأرض (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) (وما كان معه من إله إذا ذهب كل إله بما خلق ولعلَّا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون). وبالمثل يحتكم القرآن إلى العقل في الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من بيعت الحياة في الكائنات قادر على أن يردَّها إليها (كما بدأنا أولَ خلقنا نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير).

ويُنحى الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم ، فيشبههم بالأنعام التي لا تعقل ، ويقول إنهم لا يمتازون في شيء عن الصمِّ البكمِّ العمى (لم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً). وكثيراً ما تُختم الآيات بمثل (أفلا تتذكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

ووداعاً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خلق له من التدبير ، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثه بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة ، ومن ثمَّ كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسياً في الإسلام ، فمن أسلم عن غير فهم وتبصر كان إسلامه منقوصاً ، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والاعتناع لا على التقليد والمحاكاة للآباء والأسلاف .

ويشير القرآن مراراً إلى ما وهب الإنسان من فضيلة العقل ، وأن الله أودع في هذه الفضيلة خواص تمكنه من السيطرة على جميع مخلوقات ، يقول جلَّ شأنه : (الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفُلُكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون) ( وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ) هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ) فكلُّ ما في الوجود مسخر للناس ولعقولهم كى يستغلوه وكى يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : ( اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم ) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تتردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء فى مثل : ( وقل رب زدنى علماً ) ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) ( قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) . وفى كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كى يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم فى أى عصر من العصور ، بل تعاونوا دائماً تعاوناً مثمراً . وقد رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحث على العلم والتعلم من مثل : « طلب العلم فريضة » على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد حملت الإسلام هؤلاء العلماء أمانة الدين الخفيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد فى فروعه وما يُطوّر فيه من استنباط للأحكام يقول جتل ذكره : ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ) ويقول : ( وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ) . ويقول للرسول الكريم : ( وشاورهم فى الأمر ) ، وفعلاً كان يستشير أصحابه فى كثير من المسائل ويصنّدر عن رأيهم<sup>(١)</sup> . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلاً من أصول الإسلام حين لا يوجد نصّ فى كتاب أو سنة ، روى الرواة عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أفضى بما فى كتاب الله

(١) انظر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وما بعدها .

لمصطفى عبد الرازق ( الطبعة الأولى ) ص ١٤٣

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
 قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجهت رأيي لا آلو ، قال : فضرب  
 بيده في صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول  
 الله<sup>(١)</sup> . وقد نسما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم  
 يكن الخلفاء يفتون بأرائهم إلا بعد استشارة الصحابة<sup>(٢)</sup> . ومُصرت الأمصار  
 وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء في كل مصر إسلامي تحمل  
 للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكْمه في  
 القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفي كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفع من شأن العقل  
 الإنسانى إذ جعله الحكيم في فروع الشريعة وحثه على استكمال سيطرته على  
 الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتح الأبواب واسعة أمامه  
 كى يجتهد في مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين  
 يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى .  
 وسرعان ما شادوا صرح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم  
 الذهنية في جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصله الإسلام من  
 حق الاجتهاد العقلى أثر واسع في أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقاً  
 أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصول أسست على العقل الصحيح وفسحت  
 له في التشريع .

### قيم اجماعية

كان العرب يعيشون في الجاهلية قبائل متنازعة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما  
 يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها  
 تعصباً شديداً ، فإذا جنسى أحدهم جناية شركته في مسئوليتها ، وإذا قتل لها

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن

عبد البر (طبع القاهرة) ٥٥/٢

أحد أبنائها هبَّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحلُّ محلها فكرة الأمة ، يقول جلَّ ذكره : ( إن هذه أمتكم أمةٌ واحدة وأنا ربكم فاعبدون ) ( كنتم خير أمة أُخرجت للناس ) وهي أمة يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء ، ومن ثمَّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توحد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نَقَلَ حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر — كما كان الشأن في الجاهلية — يجرُّ ثأراً في سلسلة لا تنتهي ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدِّمَ القاتل لأولى الأمر حتى يلتقي جزاءه . وقدمضى الإسلام بمحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزَّ شأنه : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) ، ويقول الرسول في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . » (١)

وأخذ الإسلام يُرسى القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير أمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، تُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات ، وينبغي أن يعودوا لإخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، بإدلاله ولصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع . فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يقديها بروحه وبماله وبكل ما أوتي من قوة . ومن ثمَّ وُضع نظام الزكاة وعُدَّتْ — كما قدمنا — ركناً أساسياً في الدين ، فواجبُ كل شخص أن يقدم من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

(١) البيان والتبيين ( طبع مطبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر ) ٣٣/٢ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم في مال الغني ، يؤديه إليه راضياً . ومدّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق في سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة في حسن المثوبة ، يقول جلّ وعزّ : ( من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . . مسألُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حَبَّةِ أُبْتُنْتُ سبع سنابِل في كل سُنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حَبَّةِ بَرْبُوتٍ أصابها وابلٌ فَأَتَتْ أَكْلُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يصبها وابلٌ فَطَلَّ اللهُ بِمَا تعملون بصير . . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخديه إلا أن تُغْمِضُوا فِيهِ واعلموا أن الله غني حميد . . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردّ الغني بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقّاً دينياً . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأتمته ويرابط معها ترابطاً اقتصادياً كما يترابط في وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها في سبيل الله ، ويؤثّر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر »<sup>(١)</sup> وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ، فقد جهّز عثمان جيش العُسرة في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمّ الألف بخمسين فرساً<sup>(٢)</sup> ، وكشّر مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قدّم عليه في إحدى تجارته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها في سبيل الله<sup>(٣)</sup> . ولم يُعْنِ الإسلام فقط بتنظيم العلاقات بين الغني من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عُنِيَ أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ . (٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف)



للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغلّ الناس بأى وجه من الوجوه ، سواء في الكيل والميزان أو في التعامل المالى ، يقول جلّ شأنه : ( وأوفوا الكيلَ إذا كِلْتُمْ وزنوا بالقسطاس المستقيم ) ( ولا تبسّخوا الناس أشياءهم ) ( الذين يأكلون الربّا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ .. وأحلّ الله البيع وحرم الربّا ) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة .

وقد نظّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق في الجاهلية ، فردّ إليها حقوقها ، وجعلها كفوّاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : ( وهن مثل الذى عليهن بالمعروف ) وأيضاً هن مثل ما للرجال من السعى في الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : ( للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن ) . وكان كثير من غلاظ القلوب يَشُدون بناتهم خشية العار ، فحرم ذلك القرآن ، يقول جلّ ذكره : ( وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أئمنسِكهُ على هُونٍ أم يدسهُ فى الترابِ ألساء ما يحكمون ) . وحرم البغاء وشدّد في النكير عليه حتى القتل . ونظّم الزواج وجعله فريضة محبّبة إلى الله ونعمة من نعمه ( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ) . ودعا في غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقّاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم وأن لا يدخُلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ( أسيرات ) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلّ شأنه : ( فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاقَ بَيِّنهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تُفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يُسَرَّحها بإحسان وأن لا يُمسك عنها شيئاً من صداقها ، يقول جلّ وعز: (وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكلِّ ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يربحها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحرِّيم الذي شاع في العصر العباسي ، فإن الإسلام يُجِلّ المرأة ويرفع قدرها ، حتى لراها في الصدر الأول من العصر الإسلامي تشارك في الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين في حروب عليّ وطلحة والزبير ، وكانت هي نفسها مصدرأ كبيراً من مصادر الحديث النبوي وهدى الرسول الكريم .

#### ٤

### قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته ، إذ حرَّره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلاً من أن يشعر أنه مسخَّر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوى نَبْهه إلى أنها مسخرة له ولنفعته ، ودعاه لأن يستخدم في معرفة قوانينها عقله ويُعمَل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهياه لحياة روحية وعقلية سامية ، كما هياه لحياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبرِّ والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة في الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه في المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يتمفضلُ سائر المخلوقات فقد خلق في ( أحسن تقويم ) ، وسوى وعدل ورُكب في أروع صورة ، ووهب من الخواص الذهنية ما يُحيل به كل عنصر في الطبيعة إلى خدمته ، يقول جل شأنه : ( ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً ) . ويذكر القرآن في غير موضع أن الإنسان خليفة الله في الأرض ( وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة ) ( وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض ) فالإنسان خليفة الله في أرضه ووكيله فيها ، خلقه ليسودها ، ويخضع كل ما في الوجود لسيطرته .

وقدمضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل في جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغّب في ذلك ترغيباً واسعاً ، فانبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكّون رقاب الرقيق بشراهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحق الكامل في أن يكتب مولاه ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه ( والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاთبوهم . . وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاه ، حتى إذا مات رُدّت إليها حريتها . وكانوا في الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كأباؤهم .

ووسّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها في الدين نفسه إذ نصّت آية كريمة على أن ( لا إكراه في الدين ) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام ، بل يُشْرَكون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الديني ، يقول تبارك وتعالى : ( ولو شاء ربك لآمنَ من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) . وحقاً اضطرّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان ، يقول جلّ وعز : ( وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

المعتدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلاً إلى السلم والسلام في مثل قوله تعالى :  
( وَإِنْ جَسَحُوا لِلسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ) ( يا أيها الذين آمنوا ادخلوا  
في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ) لذلك لانعجب  
إذا كانت نحية الإسلام هي « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن تترف عليها ألوية الأمن والطمأنينة ،  
ومن تنمة ذلك ما وضعه من قوانين في معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرماً ، فقد  
أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين في حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً  
ولا طفلاً ولا امرأة ، وعهده<sup>(١)</sup> لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن  
المعاملة لأهل الذمة ، فقد أمر أن لا تُمسّ كنائسهم ومعابدهم وأن تُترك لهم  
الحرية في ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به في  
معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور  
هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم  
أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . . . لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم  
ولا يُنقَص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرهون  
على دينهم ولا يضار أحد منهم »<sup>(٢)</sup> . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التي  
عُقِدت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هي التي فتحت الشام ومصر  
إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند ، فقد كفل للناس حريتهم لا لأتباعه  
وخدمه ، بل لكل من عاشوا في ظلالة مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة  
النوع الإنساني ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبي)

٢٣٩/٤ وما بعدها و ٢٤١/٤ وما بعدها ،

وقارن بفتح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة

المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري (طبع مطبعة الاستقامة

بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ١٠٥/٣ .

## الفصل الثاني

### القرآن والحديث

١

#### نزول القرآن وحفظه وقراءته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنْجِماً في ثلاث وعشرين سنة . حتى تَمَيُّاً النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهي ( وقرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ) . وكان أول نزوله في شهر رمضان وفي ليلة معلومة منه هي ليلة القدر ( شهر رمضان الذي أُنزِلَ فيه القرآن ) ( إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ) وظلَّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربي بليغ ( وإنه لتنزيل رب العالمين نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ) ( من كان عدواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله ) ( نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذي اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافةً . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبيين مثل علي وعثمان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب . ووضي كثير من كتّبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعولوا على كتابته فقط ، إنما عولوا أولاً على حفظه وأخذوه شفاهاً عن الرسول الأُمِّي ، الذي كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سنَّته يتحفَّظونه ويتلونه أثناء الليل وأطراف النهار مرتلين له ترتيباً .

ونصوصُ القرآن صريحة في أن سورة وآياته جميعاً رُتِّبَتْ بوحي من الله إلى رسوله ، يقول جبلُّ شأنه : ( وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ) ( إن علينا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ) . فالرسول لم

بُرْفَعُ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى إِلَّا بَعْدَ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ وَأَيَاتِهِ وَسُورِهِ تَرْتِيبًا كَامِلًا . وَتَلْقَاهُ  
عَنْ الصَّحَابَةِ بِهَذَا التَّرْتِيبِ ، وَكَانَ حَفَظْتُهُ يَسْمَوْنَ بِالْقُرْءَاءِ . وَلَمَّا اسْتَحْرَجَ الْقَتْلَ بِهِمْ  
يَوْمَ الْبَيْمَاتِ لِمَهْدِ أَبِي بَكْرٍ خَشِيَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يَسْتَحْرَجَ بِهِمْ فِي مَوَاطِنَ  
أُخْرَى ، فَيَذْهَبَ قُرْآنٌ كَثِيرٌ ، فَدَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ لَسْتَيْنِ مِنْ خِلَافَتِهِ ،  
فَقَالَ لَهُ : إِنْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ يَهَافَتُونَ فِي الْمَعَارِكِ ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْتِيَ عَلَيْهِمْ .  
وَهُمْ حَمَلَةُ الْقُرْآنِ فَيُضَيِّعُ وَيُسْتَسَى ، فَلَوْ جَمَعْتَهُ ! وَلَمْ يَزَلْ عَمْرُ يَرَاغِبُهُ حَتَّى شَرَحَ  
اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْفِكْرَةِ وَرَأَى رَأْيَهُ ، وَحَيْثُذَ عَهْدَ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ - أَحَدِ كُتَبَةِ الْوَحْيِ  
الْأَبْرَارِ - بِجَمْعِهِ ، فَجَمَعَهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللَّخَافِ وَصَدُورِ الْخَفِظَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمُ بِالْإِتْقَانِ  
مِنْ مِثْلِ أَبِي بَرْزٍ كَعْبِ وَعُمَانَ وَعَلَى وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَطَلْحَةَ وَحَذِيفَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ  
وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ وَتَحْرِييَا فِي الدَّقَّةِ وَمِبَالِغَةَ فِي الْحَيْضَةِ أَمْرَ أَبُو بَكْرٍ  
أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْ حَافِظِ شَيْءٍ حَتَّى يَشْهَدَ شَاهِدَانِ عَدْلَانِ بِصِحَّتِهِ وَأَنَّهُ كُتِبَ بَيْنَ  
يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَمَّا جُمِعَ الْمَصْحَفُ حُفِظَ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ ،  
وَلَمَّا تَوَفَّى وَخَلَفَهُ عَمْرُ انْتَقَلَ الْمَصْحَفُ إِلَيْهِ ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ انْتَقَلَ إِلَى حَفْصَةَ ابْنَتِهِ  
أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ .

وَحَدَّثَ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ أَنْ أَخَذَ الْقُرْءَاءَ فِي الْأَمْصَارِ الْبَعِيدَةِ يَخْتَلِفُونَ فِي بَعْضِ  
الْأَدَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَصْحَفُ أَبِي بَكْرٍ لِيَرْجِعُوا إِلَيْهِ ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ  
حَذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانَ الَّذِي كَانَ يَغْزُو فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَّةٍ وَأَذْرَبِيجَانَ فَهَرُوعَ إِلَى عُثْمَانَ  
قَائِلًا : إِنْ النَّاسَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْقُرْآنِ حَتَّى إِنِّي وَاللَّهِ لِأَخْشَى أَنْ يَصِيبَهُمْ مِثْلُ  
مَا أَصَابَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْاِخْتِلَافِ . فَهَمَّ عُثْمَانُ الْأَمْرَ ، وَأَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى  
أَنْ يَكْتُبَ لِلْمُسْلِمِينَ إِمَامًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ . وَبَعَثَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسَلِي إِلَيْنَا  
بِالْمَصْحَفِ نَنْسَخُ مِنْهُ نَسْخًا ، ثُمَّ نَرُدُّهُ إِلَيْكَ ، فَأَرْسَلَتْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ  
ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنَ  
هَشَامٍ ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرُّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ ، وَهُمْ الثَّلَاثَةُ الْأَخِيرُونَ : إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ  
وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي كِتَابَةِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْتَبِعُوا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ  
بِلِسَانِهِمْ ، فَصَدَعُوا بِأَمْرِهِ . وَرَدَّ عُثْمَانُ مَصْحَفَ أَبِي بَكْرٍ إِلَى حَفْصَةَ وَطَابَتْ

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القراء إلى الأمصار ، ويُقرئوا الناس على حرّفها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحرق ماسواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم في صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القراء في العالم الإسلامي يُقرئون الناس القرآن على حرّف هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف . وهي المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها ، وهي قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبي عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائي .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونّها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً ونهاراً ، وسرعان ما نجمعه ويكر في مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

### سور القرآن وتفسيره في العهد الأول

عدّدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولاً وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهي تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسمت تسهيلاً لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهي أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلت كثرة السور بمكة ، ومن ثم كانت السور إمامكية وإمامية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الحنيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبّى نداء ربه . على أن بعض السور تمتزج فيها آيات مكة بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جلَّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهي لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً في المعاني التي تدور عليها . أما السور المكية فإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونبذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر في خلق السموات والأرض ، فإن من تدبر في هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فإنها تفصل القول في العمل الصالح الذي ينبغي على المسلم أن يقوم به ، ومن ثم كان يكثر فيها التشريع الديني وكذلك التشريع الاجتماعي بكل ما يتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق وبيع الوالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمدانة وقسمة الغنائم والزكاة وتحريم الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم . وفي تضاعيف ذلك تُذكرُ العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسّر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبين لهم بعض الآيات ، يقول جلَّ ذكره : ( وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ) ويقول : ( هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهياً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن في القرآن آيات تحتاج تأويلاً ، وهي تصرح بذلك في وضوح .



وفي مقدمة تفسير الطبري عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسروا للناس أي الذكر الحكيم ، وهم الذين يسميهم الله عز وجل باسم الراسخين في العلم . ويحدثنا السيوطي في كتابه « الإتيان <sup>(١)</sup> » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدونها في كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره في كتاب طبع في ستة أجزاء سماه « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وابن عباس <sup>(٢)</sup> ، ويصرح بأن الرواية عن أبي بكر وعمر وعثمان نزره ، أما على فقد روى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير . أما أبيّ فله سند في الطبري عن طريق أبي العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كَوّن في أثناءها مدرسة في الكوفة حَمَلت عنه تفسيراً كثيراً ، وسنده الجيد هو السُدّي الكبير عن مرّة الهمداني . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبي طلحة . وهو يُعدّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير فهو الذي تهجه ووضع أصوله ، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم في تفسير بعض الألفاظ <sup>(٣)</sup> . وقد حمل ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير ما أُثّر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة في تفسير هذا النبع الإلهي الذي لا تنفى كنوزه .

(٣) انظر في ابن عباس ودوره في التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسهر (ترجمة عبد الحلیم النجار) ص ٨٣ وما بعدها .

(١) انظر النوع الثامن والسبعين في هذا الكتاب .

(٢) راجع النوع الثمانين .

### أثر القرآن في اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يُتَّخَ لأمّة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خلقه للسماوات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين: الأولى والآخرة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم، سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألد خصومه سمعه يتلو بعض آي الذكر الحكيم، فتوجّه إلى نفر من قريش يقول لهم: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن»، وإن له الحلاوة وإن عليه لطاوة، وإن أعلاه لثمر وإن أسفله لمغدق<sup>(١)</sup>. وواضح أنه أحسن في دقة أن آي القرآن تبين كلام الإنس من فصاحتهم كما تبين كلام الجن الذي كان ينطق به كهانهم. إنه ليس شعراً موزوناً، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده فصّلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس، وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعدوبة. إنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته، يقول جمل ذكره: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين). وفعلا عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً، فمضوا يجرّدون سيوفهم ويغمدون ألسنتهم، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت،

(١) انظر تفسير الزمخشري في

سورة المدثر. مغدق: كثير المياه.

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هياً لانقلاب واسع في تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجْمِل ذلك إجمالاً ، فإن تفصيله لا يتسع له كتاب فضلاً عن صحف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جَمَعَ العرب على لهجة قريش ، وحقاً كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية في الجاهلية ، غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً ، أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلاً أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُّ بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصرت الأمصار أخذت لهجته تسود في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثَّ الإسلام على حفظه وترتيبه ، يقول عزَّ شأنه : ( ورتل القرآن ترتيلاً ) (ومنَّ أعرضَ عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ) . وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظة للقرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورعوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تُحَفِّظ أيضاً وتظل على مرِّ العصور جديدة غَضَّة لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوبٌ — لا حصر لها — لسانها . فأصبح هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي . فكل من عاشوا في هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذ حلَّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذي حفظ العربية من الضياع ، ونشرها في أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثاني آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر ، وبذلك أحلّ فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتهيم والركوع والسجود ، وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد ، له مضمونه الذي لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلقت السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعي من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من حجب ، ومن تقرير البعث والنشور وبسّط صور الثواب والعقاب مستعنياً في ذلك بالوجدانات الغريزية وبالقول وتمييزها وما ينبغى أن يتهيأ لها من صواب الرأي . وإنه ليرتقى دائماً من معرفة الخواص إلى معرفة الأذهان ، وفي خلال ذلك يشرع للناس ما يشغى أن تكون عليه حياتهم من نظام في أمرهم وفي مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يبذل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ، أخوة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربي ولا أعجمي . وكل هذه الدعوة الكريمة التي لزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تعدّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصري وغيره من كبار الواعظين ، إنما هو من فيض القرآن ومعينه العزيز .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا في غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التي عرض لها السيوطي في كتابه « الإتيقان في علوم القرآن » وهو يقع في مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامه وخاصه مما هيأ لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذي هيأ بقوة لهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هدب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفي أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لببند أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقاً اختطَّ أسلوباً جزلاً ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف . ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذي ابتدع هذا الأسلوبَ المحكم ، بل هذا الأسلوبَ السهل الممتنع الذي يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذي يميز عرب بيتنا ، والذي استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفافة . وقرأ في قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفي ملاحظاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطرداً في جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ وماتته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبْعَثُونَ : ( ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَاتِ وَقَضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسَيِّقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَشْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ) . وقارن بين ذلك وبين ملاحظته جلَّ وعز لرسوله في سورة الضحى : ( والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولنسوف يعطيك ريك فترضى ألم يجدهك يتيماً فأوى وجدهك ضالاً فهدى وجدهك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث ) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعدة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعدوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانها ، ومع الألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التي تغذى العقول برحيقها الصافي وتشفي القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره ، فعلى هديهِ أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتمين بديباجته الكريمة وحسُن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب — ولا يزالون — يتحفظونهُ ، فهو معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هُداها ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقّة وسلسّ الموقع . وقال الهيثم بن عدى : قال عمران بن حِطّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأُعجب بها الناس وشهدها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتي أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن » (١) . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نظمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتي في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضيء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقومُ ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

## ٤

## الحديث النبوي

الحديث هو كل ما حُكي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالاً له ، بل منه ما يسمّى باسم

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خلقه أو عمله أو في شأن من شئونه .  
 وضم إليه الرواة كثيراً مما حكى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ  
 كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعالهم عملاً بقوله تعالى : ( لقد كان لكم في رسول الله  
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ) ويقول الجاحظ : « كانوا يكرهون أن يقولوا سُنَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ،  
 بل يقال : سنة الله وسنة رسوله »<sup>(١)</sup> . وفي ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :  
 « اجتمعت أنا والزُّهْرِيُّ ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السنن ، قال : وكتبنا  
 ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن  
 الصحابة فإنه سُنَّةٌ ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم  
 أكتب ، فأنجح وضيعت »<sup>(٢)</sup> .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي  
 وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها ، فالقرآن مثلاً لم يذكر  
 تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله  
 تعالى ( وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ) وفصل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها ،  
 كما فصل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها . وهذا  
 أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذي بيّن  
 أحكام الشريعة وصورها عملياً كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية  
 التي جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملًا للقرآن ، وخاصة حين تُجْمَل أحكامه  
 أو يَسْتَبْهِم المراد من معنى بعض آياته ، فقد روى عن علي بن أبي طالب أنه لما  
 أرسل ابن عباس ليحاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه  
 حَمَالٌ أَوْجِهٌ ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السُنَّة فلا يجدوا منها  
 مخرجاً<sup>(٣)</sup> .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان  
 هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائي قلنا

(١) الحيوان للجاحظ ( طبعة الحلبي ) ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ .  
 (٢) نهج البلاغة ( طبعة بيروت ) ١٤٦/٢ .  
 (٣) طبقات ابن سعد ( طبعة أوروبا ) ٣٣٦/١ .

يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس<sup>(١)</sup> . وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها من وراءكم من العشائر ، وتكرر في خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يرسل في القبائل رسله ليعلموهم القرآن وسنته . ومر بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تقضى؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد؟ قال : فبسنة رسوله . فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته في الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفى الرسول وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما روى عنهم في هذا الباب مثل أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالحدث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . ومن ثم تكون سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من روايته ، تلك السلاسل التي تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرق الصحابة في الأرض ، وبذلك تعددت طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنناً يطول ويقصر . وطبيعي أن يسمى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوي ، وهو يسمى أيضاً السنة ، وهي في اللغة العادة ويراد بها العادة المقدسة التي رويت عن النبي وصحابته ، وهي تستعمل في القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التي حكيت عن الرسول وصحبه .

وما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُون في حياته ، وخاصة تلك

(١) انظر في هذا الحديث مقدمة القسطلاني

على البخاري .



التي تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبيِّن لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك في بعض كتبه المأثورة<sup>(١)</sup> . ورخص النبي في بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكاً إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه<sup>(٢)</sup> ، وعن رافع بن خديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج<sup>(٣)</sup> » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له<sup>(٤)</sup> ، وكان يسمي صحيفته التي كتبها عن الرسول الصادقة<sup>(٥)</sup> . وفي بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يمني خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية<sup>(٦)</sup> . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول في حياته ، فإنها كانت محدودة جداً ، وكان الرسول ينهى أن تصبح كتابة حديثه عامة ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أُثر عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فن كتب شيئاً فليمحاه<sup>(٧)</sup> . » وما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة في كتابته ، وطفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإني والله لألبيس كتاب الله بشيء أبداً<sup>(٨)</sup> . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدون في القرن الأول للهجرة تدويناً عاماً . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

(٤) تقييد العلم ص ٧٤ وما بعدها

(٥) تقييد العلم ص ٨٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٨٦ .

(٧) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها .

(٨) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك مجموعة الوثائق السياسية

في العهد النبوي والخلافة الراشدة لحميد الله

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (طبعة

يوسف العث ) ص ٦٥ .

(٣) تقييد العلم ص ٧٢ .

الخلافة (٩٩ - ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء في حاشية<sup>(١)</sup> الزرقاني على موطأ مالك: « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث وإنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع في العلماء (من حفظها) الموت، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزبي (والى المدينة) فيما كتب إليه: أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه . وقال مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة أو نحو هذا فاكتبه لي فأني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علقه البخاري في صحيحه ، وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه . وتوفى عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد . وأول مدون للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهري<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف في الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تتابعت صحاحه مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .

وإنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبيعياً أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى ينهجوا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا في عبارته وقدموا في كلماتها وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونها ، لأن الأحاديث لم تكن تُروى بألفاظها كما جاءت عن الرسول وإنما كانت - تُروى غالباً - بمعانيها، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

٥٧١/١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٤٥

وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٢/١ والمعارف

لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/٧٧ .

(١) انظر الحاشية ١٠/١ .

(٢) انظر في ترجمته كتاب الأنساب

لسماعان ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق)

على أن طائفة من الأحاديث رُويت رواية تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نصَّ عليه العلماء بأنه رُوِيَ بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم ، وحقاً ما يقوله الجاحظ من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويُسرَّ بالتوفيق » (١) ويضرب الجاحظ لبيانه الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذي قبلَ عدد حروفه وكثرت معانيه ، فمن ذلك قوله للأَنْصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتقلُّون عند الطمع ، وتكثرُّون عند الفزع » وقوله « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم » ، وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصدقة مغرمًا » ، وقوله « المستشار مؤتمن » ، وقوله : « إن أحبَّكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطَّئون أكفأً الذين يألَفون ويؤلَّفون . وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفسيِّهون » ، وقوله « لا تجنَّ يمينك على شمالك » وقوله : « ما أملك تاجر صدوق » وقوله : « رَحِمَ اللهُ عبداً قال خيراً فغنمَ أو سكت فسلمَ » وقوله : « إن الله يرزق لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يرزق لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصرحوا من ولّاه الله أمركم ، ويكره لكم قيلَ وقالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقوله : « يقول ابنُ آدم : مالي مالي ، وإنما لك من ماله ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو وهبت فأمضيت » وقوله : « إن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتموها فصار لكل رجل موضع ، فنقَرَ رجل موضعه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع به ما شئتُ ، فإن أخذوا على يدي نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وقوله : « حصَّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله أن يجرِّم لحمه على النار » وقوله : « أوصاني ربي بتسع : أوصاني بالإخلاص في السرِّ والعلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ، وأعطى من حرمني ، وأصِل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبيراً » وقوله : « إن الأحاديث ستكثر

بعدي كما كثرت على الأنبياء من قبلي، فاجاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله». ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التي دارت بين الناس دوران الأمثال والتي تُعدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>:

يا خيلَ الله اركبي - مات حتف أنفه<sup>(٢)</sup> - لا تنتطح فيه عنزان - الآن حمى الوطيس<sup>(٣)</sup> - كل الصيِّد في جوف الفراء<sup>(٤)</sup> - هُدنة على دخن وجماعة على أقداء<sup>(٥)</sup> - لا يُلْسَع المؤمن من جُحُر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المنبَت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى<sup>(٦)</sup> - إياكم وخضراء الدمن<sup>(٧)</sup> - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة<sup>(٨)</sup>.

وإذا كنا قد عرضنا في غير هذا الموضع لأثر القرآن في اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه في البلاغة ، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وفي حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُستخدَم من قبل هذا الاستخدام الخاص ، وقد أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسونه ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقاً أن كثرة رُويت بالمعنى . ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور في عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهي من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالي هي كثر ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكثر في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها - على مر العصور - رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

(١) انظر البيان والتبيين ١٥/٢ وراجع

كتب الأمثال .

(٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .

(٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلاً في

اشتداد الحرب .

(٤) الفراء : حمار الوحش . يضرب مثلاً

في نفاسة الشيء أو الشخص .

(٥) دخن : حقد .

(٦) المنبت : من أسرع بناقته حتى

هلك فلم يقض ما يبغى من حاجة أو من سفر .

والظهر : الناقة التي يركبها .

(٧) الدمن : البعر المتليد . يضرب مثلاً

للتنفير من المرأة الحسناء تنشأ في منبت سمي .

(٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذي أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من أمبيراً منصيام في أمستفر » ، أى ليس من البر الصيام في السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء في غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا في السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً في تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب في أن المسلمين أشد الأُمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف في مثل طبقات ابن سعد وأُسُد الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبي . فالحديث هو الذى فتَح باب الكتابة التاريخية وهيباً لظهور كتب الطبقات في كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه ، مما بعث على نهضة علمية رائعة .

## الفصل الثالث

### الشعر

١

#### كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظِمَ من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة ، نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهي دعوة اضطرته إلى حمل السيف للذياد عنها ، وانقسم العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحسن إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلاً على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام في الجزيرة ، غير أن أقواء ارتدوا لعهد أبي بكر ، فحاربهم ومثل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على ومعاوية من جهة ثانية ، فعَلَّتْ أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم في كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون في هذا العصر لامع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهديته الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر ، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه . وقرأ في كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبرى وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، وقرأ في

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان في كتابيهما بغير مطولة للمخضمين ، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوديهم البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهراً في صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخترسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحفظه وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه <sup>(١)</sup> . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحي لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرفهم عن الشعر - إن صح - إنما كان لمدة عامين أي إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله في أول كلامه بما قاله في آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة يتأفحون عنه ويردون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذاتيين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وحتى في العامين الأخيرين من حياته عامي الوفود كان كل وفد يقدم معه خطبائه وشعراؤه ، وبمجرد أن يمشلوا بين يديه يتحدث خطبائهم وينشد شعراؤهم ويرد عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه <sup>(٢)</sup> .

ولعل الذي دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلام وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب وتشاغلوا

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) . (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٦/٤

بالجهاد وغزو فارس والروم ولقت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثرت الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألصقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير<sup>(١)</sup> . وابن سلام إنما يقول ذلك ليدل على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفي ما قاله من أنهم لم يدونوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لمت عن الشعر وشُغلت عنه بالجهاد فينفضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : ( والشعراءُ يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ) . وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويشطون عن دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذي قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتليء جوف أحدكم قيساً خيراً له من أن يمتليء شعراً »<sup>(٢)</sup> . أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة »<sup>(٣)</sup> ، وكان يحضُّ حسان بن ثابت وغيره على نظمهم وشيبيهم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذهم وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذي أحفظه بأشعار مختلفة ندد فيها بالإسلام ، ثم قدّم عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فهلّل وجهه بشراً وخلع عليه بُردته<sup>(٤)</sup> .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام

(٢) العمدة ٩/١

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/١٤٢ وما بعدها

(٤) طبعة دار المعارف) ص ٢٢ .

(٢) العمدة لابن رشيّق (الطبعة الأولى) ١٢/١ .



والحق أن الإسلام لم يردَّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذهُ سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وقع نبئله عليهم أشد من وقع الحسام<sup>(١)</sup> . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم<sup>(٢)</sup> ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد<sup>(٣)</sup> . وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً<sup>(٤)</sup> ، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مَرَّ مَن قَبَلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »<sup>(٥)</sup> ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »<sup>(٦)</sup> .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُشَبَّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الخطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزبيرقان بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهدته على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء<sup>(٧)</sup> . وتابع عثمان سنة عمر في التشديد على من يستلقون المسلمين باللسنة حداد ، وقصته مع ضابي بن الحارث البُرجمي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعا أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات<sup>(٨)</sup> .

٢٧٠/٥ . وخزانة الأدب للبغدادى ٢٩٢/٢ .

(٥) العمدة ١٠/١ .

(٦) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٥/٢ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ . وانظر في ترجمة

ضابي أيضاً الشعر والشعراء ٣٠٩/١ والإصابة

٣/٢٦٧ والخزانة ٨٠/٤ والكامل للبريد (طبعة

رايت) ص ٢١٩ .

(١) العمدة ١٢/١ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السقيفة

وكتاب عثمان إلى علي حين حوَّص ، وانظر ابن

سعد ٥٧/٦ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ج ١ ق ٢

ص ٩٥ - ٩٦ . والفائق للزخشرى ١/٢٥٧ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٩/٨ ،

١٠/٢٨٨ والمقد الفريد (طبعة لجنة التأليف)

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة في هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض ، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان يُنشدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لاعلى خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو في الفتوح أو في معركة على مع خصومه في العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلت من عقدة الألسنة وأنظمت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعرَف في الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا لزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الحضرة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً .

## ٢

## الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فاتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للحضرة ، ومن ثم كُنا نخرج دُرَيْد بن الصَّمَّة والأعشى وأمّية ابن أبي الصلت والأسود بن يعفر النهشلي وأضرابهم من سبيلك المخضرمين ونظمهم في سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادثت الله ورسوله حين بُعثت مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلديتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب في جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفؤوا حوله في المدينة في جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء في الجانبيين المتناقضين يسلدون ألسنتهم ، ولم تكن مكة في الجاهلية - كما قدمنا - تُعرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنسب لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نبيته ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفهري وأبي عزة الجمحي وهبيرة بن أبي وهب الخزوي ، وقد أخذوا يسدّون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعز ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدون عن سبيل الله بما يدبّع من شعرهم في القبائل العربية ، فقال للأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله سلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسبان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرني به ميقول بين بصرى وصنعاء»<sup>(١)</sup> وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . وقرأ في سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد في السنة الثالثة وغزوة الخندق في السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك في فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغي أن نشك في كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق - كما يقول ابن سلام - كان يحتمل كل غشاء من الشعر حتى أفسده وهجنه<sup>(٢)</sup> ، ونرى ابن سلام يقول في ترجمته لأبي سفيان بن الحارث : «لسنا نعد ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم»<sup>(٣)</sup> . على أن ابن سلام نفسه يُثبت لأبي سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها في يوم أحد كافية كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر<sup>(٤)</sup> ، وقد

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(١) أغاني ٤ / ١٣٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ٨ .

أثبت لابن الزبَعْرَى قصيدته التي قالها في نفس اليوم<sup>(١)</sup> ، والتي يقول فيها :

ليت أشياخي ببدر شهدوا      ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وَقَعِ الأَسْلِ<sup>(٢)</sup>  
 حين أَلَقْتُ بقباءَ بَرَكَمَا      واستحراً القتلُ في عبدِ الأَسْلِ<sup>(٣)</sup>  
 فقبلنا النُّصْفَ من سادتهم      وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل<sup>(٤)</sup>

وأيضاً فإنه أثبت لأبي عَزَّةَ ميميةً يحرِّضُ فيها بني كنانة<sup>(٥)</sup> ، وقال عن هبيرة بن أبي وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذي يقول في يوم أحد<sup>(٦)</sup> :

قَدْنا كنانةً من أكنافِ ذى يَمَنٍ      عَرَّضَ البلادَ على ما كان يُزجِئها<sup>(٧)</sup>  
 قالت كنانةٌ : أنى تدهبون بنا      قلنا : النخيلَ ، فأموها وما فيها<sup>(٨)</sup>

وكان في الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث<sup>(٩)</sup> :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه      وعند الله في ذلك الجَزَاءُ  
 فإن أبى ووالده وعِرْضِي      لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ  
 أتَهجوه ولستَ له بكفءُ      فشرُّكما لخيركما الفِداءُ

(٥) ابن سلام ص ٢١٣ .

(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .

(٧) الأكناف : النواحي . ذويمن : موضع

قريب من مكة . يزجي : يسوق ويدفع .

(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرة فيها .

أموها : قصدها .

(٩) أغاني ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر

ص ١٢٩ .

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركي

قريش . الأسل : الرماح .

(٣) قباء : موضع بضواحي المدينة . أَلَقْتُ

الحرب بركمها : حمى وطيسها . استحرا القتل :

اشتد وكثر .

(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلنا منهم

لقتل بدر .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أُحُدٍ في كلمة :

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَهُ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعٌ<sup>(١)</sup>  
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ ثَلَاثُ مِثْمِينَ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعٌ<sup>(٢)</sup>  
فَرَاخُوا سِرَاعاً مُوجِفِينَ كَأَنَّهُمْ جَهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعٌ<sup>(٣)</sup>  
وَرُخْنَا وَأَخْرَانَا بِطَاءٌ كَأَنَّا أَسْوَدٌ عَلَى لَحْمٍ بَيْشَةَ ظُلَعٌ<sup>(٤)</sup>

وقال في أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يَرْعِيلٍ بَعْضُهُ بَعْضُهُ  
فَلَيَاتِ مَأْسَدَةٌ تُسَلُّ سِيوفُهَا بَعْضًا كَمَعْمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُحْرَقِ<sup>(٥)</sup>  
بَيْنَ الْمَذَادِ وَبَيْنَ جِزَعِ الْخَنْدَقِ<sup>(٦)</sup>

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مؤتة وأُثبت له من هجائه لقريش قوله<sup>(٧)</sup> :

نَجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضِ فَنَاسِرِهِمْ فِينَا النَّبِيُّ وَفِينَا تَنْزِلُ السُّورِ<sup>(٨)</sup>  
وَقَدْ عَلِمْتُمْ بَأَنَا لَيْسَ غَالِبَنَا حَىَّ مِنَ النَّاسِ إِنْ عَزَّوْا وَإِنْ كَثُرُوا  
يَا هَاشِمَ الْخَيْرِ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلاً مَالَهُ غَيْرٌ<sup>(٩)</sup>  
فَثَبَّتِ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتِ مُوسَى وَنَضْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا<sup>(١٠)</sup>

النفاري القصب . الأباء : أجمة القصب .  
يصف أصوات المعركة .

(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد :  
موضع بالمدينة . جزع الخندق : منقطه .

(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .

(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم  
لا يزالون من يضر بون .

(٩) غير : تغيير .

(١٠) يقصد الرسل .

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا  
عند جبل يسمى حبشيا . الحاسر : الذي لا بيضة  
له عكس المقنع .

(٢) النصية : الخيار والأشراف .

(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب  
أفرغ مائه .

(٤) بيشة : مسبعة في واد كثير الشجر .  
ظلع : من الظلع وهو العرج . يكئى بذلك عن سيرهم  
البطيء المظلم .

(٥) يرعيل : يمزق . المعمة : صوت لذب

وفي الأغاني أن حسناً وكعباً « كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعبيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة»<sup>(١)</sup>. ومن المؤكد أن حسناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبت على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة، لأنها هي التي كانت تؤذي نفوس القرشيين المكّيين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزّون بها، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا في الأحساب والأنساب، وعير اساداتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير. وطبيعي لذلك أن لا نجد عندهما تأثيراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم في ذمّ المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والظعن في الأعراض والأحساب، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مبيّرة تأتي على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يشوبون إلى عقولهم ويدخلون في دينه الحنيف.

وكان يشترِكُ شعراء قريش في التآليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار<sup>(٢)</sup> وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذّلون عنه قريشاً والعرب، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتّيمَّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم في هذا الفساد كعب بن الأشرف<sup>(٣)</sup>، وقد بلغ من سوء فعله أن كان يشبّب بنساء الرسول ونساء المسلمين، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله في رهط من الأنصار<sup>(٤)</sup>. غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سراً وجهاً على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلالهم عن المدينة، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلالهم عن الجزيرة.

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية

٥٤/٣ وما بعدها.

(١) أغاني ١٣٨/٤.

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٤٧/٢.

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٠٦/١٩.

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، ورثاؤه لقتلى بدر مشهور<sup>(١)</sup> ومثل الأسود بن يعفر الذى أشاد بانتصارها في يوم أحد<sup>(٢)</sup>، وقد ماتا في أثناء هذا الصراع. وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التى لما تدخل في الإسلام. وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر<sup>(٣)</sup>:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كَلًّا وَتَرِيٍّ وَخَيْبَرَ ثُمَّ أَحْجَمْنَا السُّيُوفَا<sup>(٤)</sup>  
 نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا<sup>(٥)</sup>  
 فَلَسْتُ لِحَاصِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِنَسَاحَةِ دَارِكَمٍ مَنَا أَلُوفَا<sup>(٦)</sup>  
 فَتَنْتَزِعَ الْعُرُوشَ بَيْبُطِينَ وَجَّ وَنَتْرِكَ دَارِكَمٍ مَنَا خُلُوفَا<sup>(٧)</sup>  
 وَنُرْدِي اللَّاتَ وَالْعَزَى وَوَدَا وَنَسْلُبَهَا الْقَلَائِدَ وَالشُّنُوفَا<sup>(٨)</sup>

وتفتتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية في شعراء هذيل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهذلي في بكائه لدبيبة سادن العزى حين قتله خالد بن الوليد<sup>(٩)</sup>. وتظل بقية أخرى في ثقيف ومعاركها مع الرسول في حنينين. على أنه بمجرد أن دخلت مكة في الإسلام أدمجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدين الحنيف. وفي هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

- (١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١١ .  
 (٢) ابن سلام ص ١٢٣ .  
 (٣) ابن سلام ص ١٨٤ .  
 (٤) الوتر : الثار .  
 (٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف .  
 (٦) الحاصن : المرأة العفيفة .  
 (٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم .  
 (٨) الطائف ونواحيها . والحى الخلوف : الذى فارقه الرجال ، يقصد أنهم سيبيدوهم .  
 (٩) نردى : نهدم . اللات والعزى وود : أصنام : القلائد : السموط . الشنوف : جمع شنف وهو القرط .  
 (٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ١٤٨/٢ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ٢٤ وما بعدها .

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ،  
ومثله أنس بن زنيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم تاب إلى رشده ، فقدم عليه  
معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول في تضاعيفها<sup>(١)</sup> :

وما حملتُ من ناقةٍ فوق رَحْلِها أبرُّ وأوفى ذِمَّةً من محمدٍ  
ونظّم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرةً بأسى فيها على ما فرط في جنب  
الله ورسوله على شاكلة قوله<sup>(٢)</sup> :

لعمركُ إنى يومٍ أحمل رايةً لتغلبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ محمدٍ  
لكالمُدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ ليلَه فهذا أوانٌ حينٍ أهْدِي وأهْتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم  
في ذلك شعراء المدينة ، وتُنسَبُ إلى الأعشى قصيدة في مديحه<sup>(٣)</sup> لا شك أنها  
منحولة ، وتُنسَبُ لأبي طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضٌ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ربيعُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل  
ويقول ابن سلام : «قد زيد فيها وطوّلت»<sup>(٤)</sup> وتُنسَبُ إلى عباس بن مرداس  
فارس بنى سُلَيْمٍ أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

نبيُّ أتاناً بعد عيسى بناطقٍ من الحق فيه الفضلُ منه كذلكا  
أميناً على الفرقان أول شافعٍ وآخر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونظّم كثير من المرثي في قتل المسلمين والمشركين ، ورثاءُ قتييلةٍ  
لأبيها النَّضْرُ بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل للرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه  
الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رثي به قصيدة حسان التي يستهلها بقوله<sup>(٦)</sup> :

ما بالُ عيني لا تنام كأنما كُحِلَّتْ مآقيها بكُحْلِ الأرمَدِ

(١) الإصابة لابن حجر ١/٦٩ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٠٥ .

(٤) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص ٥٨ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩/١٢٥ .



وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكنى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصقَى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون في صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

## ٣

## الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

عمَّت أضواء الإسلام في الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن في الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قضى على الوثنية في أنحاءها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية، وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتمهم وبعيرهم ؛ فاستشار الصديق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أحرَّ من السماء فتخطفني الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأبي هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حسن إسلامهم في القبيلتين أن يردهما عن غيئهما ، ولم يلبث أن التى بهما خالد عند بئر بزأخة ، فنكّل بهما تنكيلا شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد تَوّاً إلى تميم ومتنبئتها سجاج فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنّت له ،

وقُتِل حينئذ مالك بن نويرة سيد بني يربوع ، ولأخيه متمم فيه مرث رابعة<sup>(١)</sup> .  
 واتجه خالد بجيوشه نحو بني حنيفة في اليمامة ومتنبهاً مُسَيِّلمة ، فالتقى بها في  
 « عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحرّ فيها القتل ، غير أن الدوائر لم  
 تلبث أن دارت على بني حنيفة ، فسقط متنبهاً في ميدان المعارك ، وأعلنت  
 استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله ، وسرعان ما دانت « البحرين »  
 بالطاعة ، واتجهت أمراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ،  
 حيث التفّ الناس هناك حول متبني<sup>٢</sup> يسمى الأسود العنسي ومتبني<sup>٣</sup> آخر يسمى  
 قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت  
 ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هي الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها  
 كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبني  
 عامر<sup>(٢)</sup> :

بني عامرٍ إن تَنصَرُوا الله تَنصَرُوا      وإن تَنصَبُوا لله والدين تُخَذَلُوا  
 وإن تُهزَمُوا لا يُنْجِكمُ منه مهربٌ      وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول  
 أوس بن بَجَيْر الطائي في موقعة بُزَاحَة<sup>(٣)</sup> :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنا      وما تَخْتَلِي من أذْرُعِ ورقابِ<sup>(٤)</sup>  
 ألم تر أن الله لا ربَّ غيره      يصبُّ على الكفار سَوَاطِ عذابِ  
 وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم<sup>(٥)</sup> .

- |  |   |
|--|---|
| (١) انظر في متمم وراثته لأخيه الأغاني<br>(طبعة الساسي) ٦٣/١٤ والشعر والشعراء<br>(طبع دار المعارف) ٢٩٦/١ والخزاعة | (٢) الإصابة لابن حجر ٥٥/٢ وراجع<br>في أشعار أخرى الإصابة ٢٧٤/١ ، ٣/٢ ،<br>١٥٢/٢ ، ١٢٢/٥ . |
| (٣) ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي)<br>ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف)<br>ص ٢٦٣ ، ٢٧١ .                 | (٤) الإصابة ٥٥/٢ .  |
| (٥) تاريخ الطبري ٤٩٤/٢ والإصابة ١٢٥/٣ .  | (٤) تختل : تقطع .   |

ورُئِبَ الصَّدْعُ وعاد الحق إلى نصابه ، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كى ينشروا الإسلام في آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون في سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبي العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهاز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان في فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانصر على أرتطون في موقعة أجنادين كما انتصر في موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص . ويتوقى أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ولرسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبُّ تَوْفَى مُسْلِمًا وَالْحَقْنَى بِالصَّالِحِينَ »<sup>(١)</sup> ، وبكاه كثير من الشعراء<sup>(٢)</sup> ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت<sup>(٣)</sup> :

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ      فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا  
التالى الثانى المحمودَ سيرته      وأولَّ الناس منهم صدقَ الرِسا  
وثانى اثنين في الغار المنيف وقد      طاف العدو به إذ صعَّد الجبلا  
وكان حُبُّ رسولِ الله قد علموا      خيرِ البرية لم يعدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف في الحق لومة لائم . وهو أول من دوّن الدواوين ورَتَّب الناس فيها على سوابقهم ، وأول من رَتَّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمر المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره في ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش في الشام وولّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمَّ يعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما في الشرق فكانت المعركة

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين

(١) الطبرى ٦١٥/٢ .

(٢) الطبرى ٦١٧/٢ والاستيعاب ص ٣٤٢ . ٣٦٢/٣ .

حامية الوطيس . وقد أمدَّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسس الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومثنى الفرس بهزيمة شديدة ، وقُتل قائدهم رستم فى المعركة . وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان من قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ويحيل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسَّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الخنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البربريق بن عياض الهذلى ، إذ يقول (١) :

وإن أميس شيخاً بالرجيع وولدةً      وتصبح قوى دون دارهم مضر (٢)  
أسائلُ عنهم كلما جاء راكبٌ      مقياً بأملاح كما رُبط اليعر (٣)  
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم      بستة أبيات كما نبت العتر (٤)  
وكان عمر يستهسى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برأبهم ، ويروى أن الخبيل السعدى جزع جزعاً شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنَّ وضعف ، فاقتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشدته أبياتاً يقول فيها :

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢  
حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً ماثلة .  
(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .  
(٣) أملاح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .  
(٤) العتر : شجر له ورق صفار .  
خلافهم : بعدهم .

إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب  
ويخبرني شييان أن لن يعقني تعقُّ إذا فارقتني وتَحُوبٌ<sup>(١)</sup>  
فرق له عمر، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شييان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل  
عنده حتى مات<sup>(٢)</sup>. وليس المخبل وحده الذي فزع إليه يشكو هجرة ابنه، فقد  
فزع إليه أيضاً أمية بن حرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب  
الفرس، وكان مما أنشده فيه:

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا<sup>(٣)</sup>  
إذا هتفتُ حمامةُ بَطْنِ وَجٍّ على بَيضاتها ذكراً كلابا  
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يدها وأمك ما تُسبِغ لها شرابا  
فأمر بإشخاصه إليه<sup>(٤)</sup>. ومن فزع إلى عمر أيضاً في ذلك أبو خراش الهذلي  
حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام، وقد أنشده شعراً مؤثراً، فأمر برده عليه  
وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته<sup>(٥)</sup>.

ولعل في هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد  
في سبيل الله، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء  
الدنيا والغنائم<sup>(٦)</sup> لا ابتغاء الله وثواب الآخرة، وربما كان من خير ما يرد عليهم  
قول النابتغة الجعدى لامراته، وقد أظهرت تأثرها لهجرته في فتوح فارس<sup>(٧)</sup>:

يا ابنة عمى كتابُ الله أخرجني طوعاً وهل أمنعُ الله ما فعلا  
فإن رجعتُ فربُّ الناس يرجعني وإن لحقتُ بربي فابتغى بدلا  
ما كنتُ أعرج أو أعمى فيعذرني أو ضارعا من ضنى لم يستطع حِوْلا<sup>(٨)</sup>

(٦) راجع تاريخ الدولة العربية لفلوهون

(٧) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥

والمعقدة والشريعة لجولد تسبهر ص ١٣٧.

(٨) الشعر والشعراء ١/٢٥١ وقد ظلت هذه

الروح مسيطرة على الفاتحين في العصر الأموي،

انظر الطبري ٤١٣/٥.

(٨) ضارعا: ضاويانحيا. ضنى: مرض.

(١) تحوب: تأثم.

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/١٩٠.

(٣) يقصد ما في كتاب الله من رعاية الآباء

والبر بهم.

(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والخزافة ٢/٥٠٥.

(٥) أغاني (ساسي) ٢١/٦٩ وديوان الهذليين

١٧٠/٢ وانظر في حالات مشابهة الأمالي

٣٠٩/٢ وذيله ص ١٠٩.

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعا للعدل والتقوى والزهد في الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبي لؤؤة الجوسى الآثمة في الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين وتشيجهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جرء بن ضرار أخى الشماخ<sup>(١)</sup> :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ      يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمَمْرُقِ<sup>(٢)</sup>  
فَمَنْ يَسْنَعُ أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نِعَامَةٍ      لِيُذْرِكَ مَا حَاوَلْتَ بِالْأَمْسِ يُسْبِقُ  
قَضِيَّتْ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا      بَوَائِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ<sup>(٣)</sup>

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى في ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، ففضى ينفذ سياسة عمر في إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقر معاوية بن أبي سفيان على الشام ، إلا أنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاهها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان في الكوفة يقودها الأشتر النخعي وفي مصر يقودها محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملاهم موجدة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خمس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالقىء وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يسلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ١٥٩/٩ (٣) البوائق : الدوامى . تفتق : تشق عن والبيان والتبيين ٣/٣٦٤ .  
(٢) الأديم : الجلد .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المهاجرين يرون أن يشتركوا الدولة في الفئء ، ولكن صوته لم يرتفع في عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التدمير يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدى إلى قتله في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة (١) ، من ذلك قول أيمن بن خريم (٢) :

ضَحَّوْا بِعُثْمَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضُحًى وَأَيُّ ذَبْحٍ حَرَامٍ لَهُمْ ذَبَحُوا  
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَتْلَهُ سَفَهًا لَاقُوا أَنَامًا وَخُسْرَانًا فَمَا رِيحُوا  
مَاذَا أَرَادُوا أَضَلَّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ بِسَفْحِهِمُ اللَّدْمَ الزَّأَكِي الَّذِي سَفَحُوا

وكان على يبعد أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم ترض طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فنزل في الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر على في موقعة الجمل المشهورة ، وقتل طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان على قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولي دم عثمان ، فجهز الحيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه على بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية في صفين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يكتب لعل ، غير أن معاوية عمد - بمشورة عمرو بن العاص - إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده ترفع المصاحف على أسنة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووقف هذه الحرب الميرة للمسلمين ، وتنبه على للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وقف القتال والدخول مع معاوية في مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكيمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبي موسى الأشعري عن على ليحكما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بخلع على ومعاوية

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل .

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣

المبرد (طبعة رايت) ص ٤٤٤-٤٤٥ والطبرى

معاً . ولم يلبث مركز عليّ أن تزعزع في العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعت منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها في حـروراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع علي . وعبثاً حاول إقناعهم بخطئهم ، ولم ير أخيراً بدأً من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النهـروان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذي تحيّن منه فرصة ، وقتله غيلةً ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه (١) ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي إذ يقول (٢) :

أفي شهر الصيام فجعتمونا	بخير الناس طراً أجمعينا
قتلم خير من ركب المطايا	وخيسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين	رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث حلت	بأنك خيرها حسباً وديننا

وقد كسّرت الأشعار في هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض الثائرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم في أشعار كثيرة (٣) ، ويُقتل عثمان ، ويبيكه كثيرون وخاصة من بني أمية . وقد ذهبوا يتوعدون عليّاً ويهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم (٤) :

وإنا وإياكم وما كان منكم	كصدع الصفا لا يترأب الصدع شاعبه
هم قتلوه كي يكونوا مكانه	كما غدرت يوماً بكسرى مرابيه

وقد مضى يحرّض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة (٥) . وتطورت

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٠/٥ -  
والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .

(١) انظر في مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ -  
٤٨٦ والطبرى ١١٦/٤ .

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢  
١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢  
والطبرى ٤٤٩/٣ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢  
والطبرى ١١٦/٤ وخيسها في البيت الثاني :  
ذليها .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .



الأمر ، ونشبت وقعة الجمل بين علي وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوت في هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة<sup>(١)</sup> من مثل قول القائل<sup>(٢)</sup> :

نحن بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجملِ نَنعَى ابنَ عَفَّانَ بِأطرافِ الأَسَلِ  
ننازلُ الموتِ إذا الموتُ نَزَلَ والموتُ أَشهى عندنا من العَسَلِ

والتقى علي بمعاوية في صفين ، وحمى وطيس المعارك . وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون ، وكلُّ يعتقد أن الحق في جانبه ، من مثل قول أبي الطَّفَيْلِ عامر بن واثلة يصف بعض أنصار عليّ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتُ معشرٍ على الخَيْلِ فرسانٌ قليلٌ صدودها  
شعارهُمُ سِما النبيِّ ورايَةُ بها انتقمُ الرحمنُ ممن يكيدها  
ورداً عليه خزيمةُ الأسدِ يصف جيش معاوية<sup>(٣)</sup> :

ثمانون ألفاً دينُ عثمان دينهم كتائبُ فيها جبرئيلُ يقودها  
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمُتُ في النارِ سُقياهُ هناك صديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبية القبلية<sup>(٤)</sup> ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن في تاريخ الطبري وفي كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفي لبيان ما انزل على الألسنة من أشعار ملتهبة<sup>(٥)</sup> . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين علي والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يستخمد له أوار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربي إذكاءً وأشعلتها إشعالا .

(١) تاريخ الطبري ٥٢٢/٣ وما بعدها . نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ،

(٢) الطبري ٥٢٧/٣ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٩/١٥ .

(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبدالسلام محمدرون)

(٥) انظر الطبري ١٦/٤ وما بعدها

## شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي  
الفرس والروم . فقتلوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام  
ومصر . وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوّية ، يتغنّون  
فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن  
نعرّض كل ما نظموه في مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف  
قليلاً عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم  
أبي محجن الثقفي<sup>(١)</sup> ، وكان مولعاً بالخمرة فحبسه سعد بن أبي وقاص ، حتى  
إذا احتدمت المعركة توسّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه - على أن يعود إلى  
قيده - ليسّهم في شرف المعركة ، فأطلقته وأبل فيها بلاء حسناً ، وعاد  
إلى سجنه وهو ينشد<sup>(٢)</sup> :

لقد علمت ثقيفٌ غير فخرُ بآنا نحن أكرمهم سيوفنا  
فإن أحبسَ فقد عرفوا بلانئ وإن أطلقَ أجرعهم ختوفنا  
وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا بروع أبطالهم ،  
وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ، منهم عمرو بن معديكرب الزبيدي<sup>(٣)</sup> ، وكان  
من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك  
ونهاوند ، ومن شعره<sup>(٤)</sup> :

والقادسية حين زاحم رُستم  
والضاربين بكل أبيض مخدّم  
كنا الحماة بهنّ كالأشطان<sup>(٥)</sup>  
والطاعنين مجامع الأصفان<sup>(٦)</sup>

٤٦٠/٣ ومعجم الشعراء للمرزباني ( طبعة  
الخليج ) ص ١٥ ومعاهد التنخيص ٢٤٠/٢  
والعيني ٣٧٩/١ .

(٤) ذيل الأمل ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجنّ والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخدّم : القاطع .  
مجامع الأصفان : القلوب .

(١) انظر في ترجمة أبي محجن الأغاني ( طبع  
السائي ) ١٣٧/٢١ والشعر والشعراء ٣٨٧/١  
والإصابة ١٧٠/٧ والخزانة ٥٥٠/٣ وما بعدها  
والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغاني ١٤٠/٢١ .

(٣) انظر في ترجمته كتب الصحابة وأغاني  
( دار الكتب ) ٢٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٣٣٢/١  
وذيل الأمل ص ١٤٥ والخزانة ٤٢٢/١ ،

ومنهم بشر بن ربيعة الحشعمرى، وله بصور بلاءه وبلاء قومه في مواقع القادسية<sup>(١)</sup> :

تذكّر - هداك الله - وَقَعَ سيوفنا  
عشيةً ودَّ القوم لو أن بعضهم  
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ  
ترى القوم فيها واجمين كأنهم  
بباب قُدَيْسٍ والمكرِّ عَسِيرُ<sup>(٢)</sup>  
يُعار جَنَاحِي طائر فيطير  
دَلَفْنَا لأخرى كالجبال تسيير<sup>(٣)</sup>  
جمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفير<sup>(٤)</sup>

ومن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك، وله بصور ذلك<sup>(٥)</sup> :

جلبتُ الخيلَ من صَنَعَاءِ تَرْدِيْ  
إلى وادى القُرَى فديارِ كلبِ  
وجِئْنَا القادسيَّةَ بعدَ شَهْرٍ  
فناهضنا هنالك جَمْعَ كسرى  
بكل مدججٍ كالليث سامى<sup>(٦)</sup>  
إلى اليَرْمُوكِ فالبلد الشامى  
مسومةً، دوابرُها دواى<sup>(٧)</sup>  
وأبناء المرازبة الكرام<sup>(٨)</sup>  
فلما أن رأيتُ الخيلَ جالتُ  
قصدتُ لموقف الملك الهمام  
فأضربُ رأسه فهوى صريعاً  
وقد أبلى الإلهُ هناك خيراً  
وفعلُ الخير عند الله نامى

ومن حضر القادسية الأسود بن قُطَبة، وله فيها أشعار كثيرة<sup>(١٠)</sup>، وعمرو بن

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٤٣/١٥ .  
(٢) قديس: يريد القادسية أو موضع بجانبها.  
(٣) دلفنا: تقدمنا.  
(٤) واجم: من الوجوم وهو انسكوت مع كظم النيط.  
(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .  
(٦) تردى الخيل: ترجم الأرض بجوافرها.  
(٧) مسومة: معلمة. الدواير: العراقيب.  
دواى: ملطخة بالدم.  
(٨) المرازبة: رؤساء الفرس.  
(٩) أقل: مثلم. كهام: كليل لا يقطع.  
(١٠) الإصابة ١٠٨/١ .

شأن الأسدى<sup>(١)</sup>، وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام، وله يذكر قتل  
رستم<sup>(٢)</sup> :

قتلنا رُستماً وبنيه قَسراً      تشير الخيلُ فوقهم الهَيْلَا<sup>(٣)</sup>  
وفرَّ الهُرْمُزَانُ ولم يحامى      وكان على كتيبته وبالاً<sup>(٤)</sup>

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله<sup>(٥)</sup> :

برزتُ لأهل القادسية معلماً      وما كلُّ من يَغشى الكريهة يُعلم  
ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي<sup>(٦)</sup>، وقد ختم  
الجاحظ كتابه «الحيوان» بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ، يقول فيها<sup>(٧)</sup> :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها      أبناء فارسَ بيضُها كالأعبل<sup>(٨)</sup>  
مُتسربلي حلق الحديد كأنهم      جُربٌ مقارفةٌ عنيّةٌ مهمل<sup>(٩)</sup>

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج في أغانيه، وهو فيها يتحدث بجانب  
صنيعه في تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى  
صاحبه الصبوح، ونحن نعرف أن الإسلام حرّم الخمر، ومن ثم كنا نقطع  
بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما في الجاهلية، وقيل ثانيهما في  
الإسلام، وسرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين ترجم  
له في الفصل التالي. ومن ذلك قصيدة لعبيدة<sup>(١٠)</sup> بن الطبيب، وهو من الشعراء  
المجيدين الذين أبلوا في حروب القادسية والمدائن، ونراه يستهلها بقوله<sup>(١١)</sup> :

- (١) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الحلبي) ٢٦٣/٧ .  
دار الكتب) ١١/١٩٦ والشعر والشعراء  
١/٣٨٩ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب  
ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٢ .  
(٢) الطبرى ٣/٥٠ .  
(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار .  
(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس .  
(٥) الأغاني (طبع الساسي) ١٦/٥١ .  
(٦) انظر ترجمته في أغاني (ساسى) ١٩/٩٠  
والشعر والشعراء ١/٢٧٩ والإصابة ٢/٢٢٠  
والجزاة ٣/٥٦٦ .  
(٧) الحيوان (طبعة الحلبي) ٧/٢٦٣ .  
(٨) البيض : الخوذ . الأعبل : حجر أبيض .  
(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من  
القراف وهو داء يقتل البعير . العنيّة : طلاء  
للجرب ، وأراد نفس الإبل الجربى . والمهمل :  
الذي يهمل الإبل في المرعى .  
(١٠) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسي)  
١٨/١٦٣ والشعر والشعراء ٢/٧٠٥ والإصابة  
٥/١٠١ والموشح ص ٧٥ .  
(١١) انظر القصيدة في المفضليات (طبعة  
دار المعارف) ص ١٣٥ .

هل حبل نحوّلة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ  
ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رعوَسَ العُجمِ ضاحيةً منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلٌ<sup>(١)</sup>  
ويحدّثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضِلَ رَبِّ سَيِّبهُ حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهو مقبول  
ولكننا نُصدِّمُ في آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثمّ كنا  
نقطع بأن للقصيدة أصلاً قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يخلّون من  
خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة في سبيل  
الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجعل كثيراً من الأشعار التي نُظمت في  
كل معركة ، سواء مع الفرس أو مع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة  
مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبرى وكتب الأدب مثل  
الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب في الفتوح  
ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مرث رائعة لبعض  
من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كثير بن الغريزة التميمي يرثى بها من  
أصيبوا في معارك الطَّلَاقان وجوزجان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

سَقَى مَزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجوزجانِ  
وما بي أن أكون جَزِعْتُ إلا حنينَ القلبِ للبرقِ اليماني  
ورُبُّ أخٍ أصاب الموتُ قبلي بكيْتُ ولو نُعيْتُ له بكاني

وعبروا في أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهلهم . وبجانب هذا الحنين  
والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم في المغازى بعامّة ، على نحو

حيث سرد أبو الفرج القصيدة في ترجمته وانظر  
فيه الإصابة ٣١٨/٥ والخزانة ١١٨/٤ ومعجم  
الشعراء ص ٢٤٠ .

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس .  
العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .  
الميل : جمع أميل وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل .  
(٢) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٢٧٨/١١

ما نجد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازي الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين<sup>(١)</sup> ويروون أنه كان لأوس<sup>(٢)</sup> بن مخرم « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم في الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمدٌ خيرٌ من يمشى على قَدَمٍ      وكان صافيةً لله خُلصانا  
ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما اتَّسَمُوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق ، فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الحجاج ، يقصُّ عليه كيف أثاروا ثراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها وما يأخذون لأنفسهم من المغازي ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

نُؤوبٌ إذا أبوا ونغزو إذا غَزَوْا      فأنى لهم وقرٌ وليس لنا وقرٌ  
وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه في فتوحهم من المعامل والحصون والحيوان كالقيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين<sup>(٤)</sup> .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المائة مبلغ الأشعار التي نسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجودين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند . ومن ثمَّ اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يرسل الراوي الشعر لإرسالاً بدون نسبتته إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبري على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يُعرَف من نظمهما ، ويعقب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

(١) طبرى ١٠٨/٣ . مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة

دار الكتب) ٨/٥ والشعر والشعراء ٦٦٨/٢

(٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

(٤) الحيوان ١٣٧/٤ والإصابة ٣/١٤٤/٥٠٦٠

والإصابة ١١٨/١ وابن سلام ص ٤٤٥ وفي

ذلك في عامة بلاد العرب<sup>(١)</sup> . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب . فناظمتها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجَدِّدوا بل إنه لا يعينهم أن يذكروا أو يمجِّدوا . إذ هم آخرون منهم بهذا الفضل .

ويسود في هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الحافظة . وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدوره دون معاناة أو مكابدة ، ويرى به في سرعة كما يرى بسهمه أو يضرب بسيفه . غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أُضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لخيلة القمصان فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فالهنا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين . وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك ، مقصدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب .

## الفصل الرابع

### الشعراء المخضرمون

ومدى تأثيرهم بالإسلام

١

### كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القديح المعلنى في هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصورين لهديه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله (١) :

شهدتُ بأن وعد الله حقٌ وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تنمُّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بديعة (٢) :

ونعلم أن الله لا شيء غيره  
وقول أبي الدرداء (٣) :

يريد المرء أن يؤتَى مناهُ

يقول المرء فائدتي ومالي

ويأبى الله إلا ما أَرادَا

وتقوى الله أفضل ما استفادَا

(١) الاستيعاب ص ٢٦٢ .

(٢) الاستيعاب ص ١٤٠ ، ٣٣٤ .



وتحوّل شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا في دين الله يكفّرون عما  
قدّمتم ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن  
الزبّعري<sup>(١)</sup> :

يا رسولَ الملّيك إنَّ لساني راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور<sup>(٢)</sup>  
إذ أجارى الشيطان في سننِ العاى ومن مال مَيْلُهُ مَثْبُورٌ<sup>(٣)</sup>  
آمن اللحمُ والعظامُ بما قُدِّمَتَ فنفسى الفِداً وأنتَ الذَّئيرُ  
وقد حَسُنَ إسلامهم ، ومضوا يصمدون عنه في أشعارهم ، حتى إذا انتقل  
الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجّعون عليه ، على شاكلة قول  
أبي سفيان بن الحارث<sup>(٤)</sup> :

لقد عظمتُ مُصِيتُنَا وَجَلَّتْ عَشِيَّةَ قَيْلٍ : قد قُبِضَ الرسولُ  
نبيُّ كان يَجْلُو الشكَّ عِنا بما يوحى إليه وما يقولُ  
وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبادى وجدنا بينهم  
كثيرين يتقبسون من أضواء الإسلام ، ولا تقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل  
الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا في الجزيرة ولم يُتَبَّحْ لهم تقدم سنهم شرف  
الاشترك في هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهورهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من  
الشهرة ، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عبّدة بن الطبيب الذى تحدّثنا عنه  
في شعر الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه في شطر  
كبير منها يوصى أبناءه بتقوى الله وبيّر<sup>٥</sup> الوالد والحذر من التمام الذى يزرع  
الضغائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول<sup>(٥)</sup> :

أوصيكمُ بتقىِ الإلهِ فإنه يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ  
وبيّرٌ والدكم وطاعةِ أمره إن الأبرُّ من البنين الأطوعُ

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مَثْبُور : هالك ضائع .

واعصوا الذي يُزجى النمام بينكم متنصّحا ذاك الممام المنقّع<sup>(١)</sup>  
 يُزجى عقاربه ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخدع<sup>(٢)</sup>  
 وهو القاتل في رثاء قيس بن عاصم<sup>(٣)</sup> :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاء أن يترحمها  
 فلم يك قيسٌ هلكهُ هلكٌ واحدٍ ولكنه بنيانُ قومٍ تهدّما

وواضح ما في البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سويد<sup>(٤)</sup> بن  
 أبي كاهل الشكري فسرى المفضل الضبي يروي له قصيدة<sup>(٥)</sup> يفخر فيها فخراً  
 جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم به عليهم  
 من نعيمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدُ له سعةُ الأخلاقِ فينا والضلعُ<sup>(٦)</sup>  
 وإبَاءٌ للدنِيَّاتِ إذا أعطَى المكثورُ ضيماً فكَنَّعُ<sup>(٧)</sup>  
 وبناءٌ للمعالى إنمّا يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وضعُ  
 نعمٌ لله فينا ربّها وصنيعُ اللهُ ، واللهُ صنعُ<sup>(٨)</sup>

ويمضى فيعرض لحصم دنى النفس كان يراه يصفه وصفاً  
 يستلهم فيه الآية الكريمة (ولا يفتبّ بعضكم بعضاً يجب أحدكم أن يأكل  
 لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ) يقول :

- (١) يزجى: يدفع ويسوق. الممام: الدم .  
 المنقّع: القاتل .  
 (٢) الأخدع: عرق في العنق إذا ضرب  
 أجابته العروق .  
 (٣) الشعر والشعراء ٢/٧٠٥ .  
 (٤) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ١٠/٣٨٤  
 والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن  
 سلام ص ٢٨ والإصابة ٣/١٧٢ والخزانة

- ٥٤٦/٢ وحديث الأرباء لعه حسين  
 (طبعة الحلبي) ١/١٩٠ .  
 (٥) الفضليات ص ١٩٠ .  
 (٦) الضلع: الاضطلاع بالأمر .  
 (٧) المكثور: المغلوب . كنع: خضع .  
 (٨) ربه: أتمها . صنع: صفة ، لافعل ،  
 أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وَدَاءٌ يُدْرَعُ<sup>(١)</sup>  
 وَيَحْيِيْنِي إِذَا لَا قِيْتَهُ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعُ<sup>(٢)</sup>  
 وَمَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي سَنٍّ كَبِيْرَةِ الْحَصِيْنِ<sup>(٣)</sup> بِنِ الْحُسَامِ سَيِدِ بَنِي مِرَّةَ الذِّيْبَانِيْنَ ،  
 وَهِيَ أَبْيَاتٌ تَطْرُدُ عَلَي هَذَا النِّحْوِ<sup>(٤)</sup> :

وَيَوْمَ تَسْعَرُ فِيْهِ الْحُرُوبُ لَبِسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا<sup>(٥)</sup>  
 فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا التَّقَى وَنَفْسٌ تَعَالَجُ آجَالَهَا  
 أُمُورٌ مِنْ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَادِيرُ تَنْزُلُ أَنْزَالَهَا<sup>(٦)</sup>  
 أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمُخْرَبَا تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسَ أَعْمَالَهَا  
 وَخَفَّ الْمَوَازِيْنُ بِالْكَاهِرِيْنَ وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى :  
 (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم  
 يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذى  
 يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإن من شيء  
 إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله عزَّ شأنه: (إذا زلزلت الأرض  
 زلزالها) (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه  
 هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم  
 بما يفعلون) .

واقراً فى النَّسْرِ<sup>(٧)</sup> بِنِ تَوَلَّبَ ، وَهُوَ مِمَّنْ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ وَقَدْ عَاسَتْ سَنَّتُهُمْ ،

- (١) وخم : غير مرى . يدرع : يلبس .  
 (٢) رتع : أكل بهم .  
 (٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢٠/٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب)  
 ١/١٤ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد  
 الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٧/٢  
 (٤) أغانى ١٤/١٤ .  
 (٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .  
 (٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع  
 مواقعها .  
 (٧) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧  
 ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨  
 وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩/١٥٧  
 والموشح ٧٨ والخزانة ١/١٥٢ والاستيعاب  
 ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ .

فسترى في شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله (١) :

ومتى تُصَبِّحُ خِصَاصَةً فَارْجُ الْغِنَى      وإلى الذي يُعْطَى الرَّغَائِبَ فَارْغَبِ  
وهو القائل (٢) :

أَعِذْنِي رَبِّ مِنْ حَصَرٍ وَعَيٍّْ      ومن نَفْسٍ أَعَالَجُهَا عِلَاجَا  
ومن حاجاتِ نَفْسِي فَاغْصِمْنِي      فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَفْسِ حَاجَا (٣)  
وَأَنْتِ وَلِيِّهَا فَبِرْتُهُ مِنْهَا      إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجَا (٤)  
وَيُرَوَى أَنَّهُ أَنْشَدَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصِيدَةَ قَالَ فِيهَا (٥) :

لِللَّهِ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ      وَالشَّمْسُ وَالشُّعْرَى وَآيَاتُ أُخْرَى  
ومرت بنا استجارةُ الْمُحْبِلِ (٦) السَّعْدِيُّ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ هَاجَرَا  
لِلغَزْوِ وَكَيْفَ رَدَّهُ عَلَيْهِ ، ومن قوله في نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبي (٧) :

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشُدُهُ      تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ

وكان في الشَّيْخِ (٨) شَرِكْثِي ، وهو ممن شاركوا في معركة القادسية ومعارك  
أذربيجان ، ومع ذلك لا نجد في ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده في سبيل الله ،  
وكانت عُنَى الرِّوَاةِ بِشَعْرِهِ الْبَدْوِيِّ وَإِحْسَانِهِ فِيهِ لَوْصِفَ الْقَوْسُ وَحِمَارُ الْوَحْشِ (٩) ،  
ومما يتمثل به من شعره (١٠) :

ليس بما ليس به بأسٌ بأش      ولا يَضُرُّ الْبَرَّ مَا قَالَ النَّاسُ

- 
- (١) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والأغاني ١٦١/١٩ .  
(٢) الأغاني ١٦٢/١٩ والحيوان ٣٠٥/٢ .  
(٣) حاج : جمع حاجة .  
(٤) خلاج : اعراض .  
(٥) أغاني ١٥٩/١٩ .  
(٦) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٨٣/١ والأغاني ١٨٩/١٣ .  
(٧) الإصابة ٢/٢١٨ والخزانة ٥٣٦/٢ والموشح .  
(٨) الحيوان ٧٩/٥ .  
(٩) انظر ترجمته في المراجع السابقة وراجع  
(١٠) الشعر والشعراء ٢٧٧/١ وبأس الأولى : شجاعة .  
ص ٧٥ .

وقد أنشدنا في الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جزء لعمر بن الخطاب، واشتهر أخوهما مزرد<sup>(١)</sup> بهجائه وخاصة للأضياف، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء، كما يدل على ذلك قوله<sup>(٢)</sup> :

تَنْزَلْتُ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بَتَوِيَةٍ إِلَى اللَّهِ مَنِي لَا يِنَادِي وَلِيَدَهَا  
ومن شعراء هذيل البارعين في هذا العصر أبو ذؤيب<sup>(٣)</sup> الهذلي، وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلاً من أبيات<sup>(٤)</sup> :

كُسِفَتْ لِمَصْرِعِهِ النُّجُومُ وَبَدَّرَهَا وَتَزَعَزَعَتْ آطَامُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ  
وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلُّهَا وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُقَدِّحِ

وهو في ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْلِ، مثله في ذلك مثل شعراء هذيل، وقد خرج يغزو في سبيل الله، ونراه في جنود عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذين فتحوا قرطاجنة، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين له بفتحها. وعاد إلى مصر، ولكن حدث أن توفي له - قبل وفاته بعام - خمس بنين في وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحس<sup>٥</sup> رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله<sup>(٥)</sup> :

أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ السُّرْقَادِ وَعِبْرَةٌ لَا تُقْلِعُ  
فَقَبَّرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشٌ نَاصِبٌ وَإِخَالٌ أَنَّى لَاحِقٌ مُسْتَتِيعٌ<sup>(٦)</sup>

ومعاهد التخصيص ١٩٥/ ومعجم الأدباء  
لياقوت (طبع مصر) ٨٣/١١ وشرح  
شواهد المفني ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجي)  
ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .  
(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب  
المصرية) ١/١ وما بعدها .  
(٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب .  
مستتيع : تابع .

(١) راجع في ترجمة مزرد الشعر والشعراء  
١/٢٧٤ والخزانة ٢/١١٧ والإصابة ٦/٨٥  
ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التخصيص  
٢٠٢/١ .

(٢) الإصابة ٦/٨٥ .  
(٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ١١٠  
والشعر والشعراء ٢/٦٣٥ والأغانى ٦/٢٦٤  
والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٧/٦٣  
والخزانة ١/٢٠٣ وأسد الغابة ٥/١٨٨

وإذا النية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع  
والنفس راغبة إذا رغبته وإذا تردُّ إلى قليل تنفع  
وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى  
أبا عبيد (١) :

أبا عبيد وقع الكتاب واقترب الوعيد والحساب  
وأشاع الإسلام في نفوس كثير من الشعراء برأً ورحمة بأهلهم وأقربائهم،  
ويشتهر في هذا الصدد عمرو بن شأس الذي سبق أن عرضنا له في شعر الفتوح،  
فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها  
بقطعته المعروفة (٢) :

أردتِ عِراراً بالهوان ومن يرِدْ عِراراً لعمري بالهوان فقد ظلم  
وكان ينحو هذا المنحى معن (٣) بن أوس المُرزني في عتابه لابن عمه الذي  
أساء إليه إساءة كبيرة، وظل يسيء إليه وهو يوالى أشعاره في صفحته عن  
زلاته برأً به وبقرابته مع تجنّبه عليه وتجرّمه، يقول (٤) :

وذى رحيمٍ قلّمت أظفار ضغنيهِ بحلمي عنه وهو ليس له حلْمٌ  
فما زلتُ في لينٍ له وتعطفٍ عليه كما تحنُّو على الولد الأمم  
ومن غير شك كان يستهدى في ذلك آى الذكر الحكيم التي تدعو إلى  
البر بالأقرباء والصفح الجميل. ويمرض عمرو (٥) بن أحمر الباهلي فيتوجه  
إلى ربه داعياً (٦) :

- (١) أغاني ٢٧٩/٦ ومعجم الأديباء ١١/٨٩ .  
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ٣٨٩/١ .  
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥٤/١٢ والإصابة ١٧٩/٦ والخزاعة ٢٥٨/٣ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة للمرزوق ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره في ليبزج .  
(٤) أغاني ١٢/٦٠ وديوانه (طبعة ليبزج)  
(٥) راجع ترجمته في ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ١١٤/٥ والإصابة ٣٨٨/٣ والخزاعة ص ٢٤ والمرج ص ٨٠ .  
(٦) الشعر والشعراء ٣١٦/١ . وقد روى له ابن سلام قطعة حكيمة يقول فيها :  
والحى كالميت وبقى التقى  
والعيش فان فخلو وسر

إليك إله الحق أرفع رغبتى عياداً وخوفاً أن تُطيلَ صَهايِدِي<sup>(١)</sup>  
 فإن كان بُرّةً فاجعل البُرّةَ نعمةً وإن كان فيضاً فاقض ما أنت قاضيا<sup>(٢)</sup>  
 ومن نحس عندهم أثر الإسلام واضحا نهشل<sup>(٣)</sup> بن حيرى في مراثيه لأخيه  
 مالك ، وكان قد قُتِلَ بصيفين ، ومن قوله في إحداها<sup>(٤)</sup> :

أناسٌ صالحون نشأت فيهم فأودوا بعد إلفٍ واتساقِ  
 أرى الدنيا ونحن نعيش فيها مولىةً تيباً لانطلاق  
 أعاذلَ قد بقيتُ بقاء قيسٍ وما حى على الدنيا يباق  
 وكان بجانب من قد منا شعراء عرفوا برقة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب  
 شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر في نسجه من حين إلى حين ، منهم  
 عبّد<sup>(٥)</sup> بنى الحساس ، وكان يتغزل غزلاً مفحشاً جعل قومه يقتلونه لعهد  
 عثمان ونراه يقول :

عَمِيرَةٌ وَدَّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غازِيا كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا  
 ويروى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك  
 مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشي<sup>(٦)</sup> قيس بن عمرو ، الذى حدّه على بن  
 أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى  
 رأسهم تميم بن أبى بن مقبل العجلانى ، وفيه وفى قبيلته يقول :

إذا الله عادى أهل لؤمٍ ودقةٍ فعادى بنى العجلان رهط . ابن مقبل<sup>(٧)</sup>  
 قبيلة لا يغدرون بدميةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردلٍ

والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة  
 ٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المفنى  
 ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .  
 (٦) راجع فى ترجمة النجاشى الاشتقاق  
 لابن دريد (نشرة الخانجى) ص ٤٠٠ والشعر  
 والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة  
 ٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح  
 أن النجاشى يرميهم بأن أحسابهم ثيمة خسية .

(١) الصهان : ما يصيب الإنسان فى جسده  
 من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥  
 والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠  
 والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .

(٤) أسال المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحساس فى  
 أغانى (سالى) ٢٠/٢٠٠ وما بعدها والشعر

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثاني، فإن الإسلام يُسجِلُ الوفاء بالذم والعهد وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية. وكان ابن<sup>(١)</sup> مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: «إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية»<sup>(٢)</sup> ومع ذلك نددت على لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الخفيف من مثل قوله<sup>(٣)</sup>:

هل الدهرُ إلا تارتان فمئهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدحُ  
وكلتاها قد خطَّ لى فى صحيفه فلا الموتُ أهوى لى ولا العيش أروحُ

وهو يصنِّد في البيتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن ننبئ أها) وما يروى له قوله<sup>(٤)</sup>:

الناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خبال  
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

ومن يسُنك في هؤلاء الشعراء الذى عرفوا بركة دينهم الحطيئة، وسرى عما قليل أثر الإسلام في شعره.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين الباحثين عربياً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية<sup>(٥)</sup>، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون في طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير وليبيد والحطيئة والنابعة الجعدى، لنرى فيهم مدى تأثير المخضرمين بالإسلام، ولننل في وضوح على أن هذا التأثير لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو ما سنرى عند لبيد والنابعة الجعدى.

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣.

(٤) طبرى ٢٩/٥.

(٥) راجع مثلاً تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية لالنينو (طبع

دارالمعارف) ص ٩٥.

(١) راجع في ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء

٤٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة

١٩٥/١ والخزانة ١١٣/١ وزهر الآداب

١٩/١.

(٢) ابن سلام ص ١٢٥.



حسان<sup>(١)</sup> بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي « من سادة قومه وأشرفهم » ، وكانت أمه « الفُرَيْعَة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله<sup>(٢)</sup> . وهو يُسَلِّك في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى ، وهي سنٌ تقريبية ، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين . وهو ليس خزرجياً فحسب ، بل هو أيضاً من بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

وزناه قبيل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة ، ويقال إنه مدَّ رحلته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، ومن ثمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت<sup>(٣)</sup> . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وفدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجدته<sup>(٤)</sup> .

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيدخل حسان في الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أيدّه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال : « لهذا أشدُّ عليهم من

المغني، ص ١١٤ والخزافة ١/١٠٨ . وقد طبع ديوان، طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوق وفي تونس والهند وبيروت ، وستعتمد في المراجعة على طبعة ليدن .  
(٢) انظرها في ابن سعد ٨/٢٧١ .  
(٣) انظر أغاني ( دار الكتب ) ١٢/٣ والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة .  
(٤) أغاني ( دار الكتب ) ٩/٣٤٠ .

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني ( دار الكتب ) ٤/١٣٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٤/١٥٧ و ( طبعة الساسي ) ١٦/١٢ وما بعدها والشمر والشعراء ١/٢٦٤ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/١٢٥ والالستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٢/٨ وسير أعلام النبلاء للذهبي ( طبع دار المعارف ) ٢/١١٥ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد

وقع النَّبَلُ » ، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرتُ عبد الله ابن رواحة ( بهجاء قريش ) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشقي واشتفى » . ومرَّ بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعي لأنهم كانوا مشركين فعلاً ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهُمْ وجبريل معك » (١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنِيَّ مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ (٢)  
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَىٰ أَنَا مِلِّي

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل أثاروه في هذا الحادث ، حتى وجد وجداً شديداً ، فقال :

أَمْسَى الْجَلَابِيْبُ قَدْ عَزَّوْا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْفَرِيْعَةِ أَمْسَى بِيْضَةَ الْبَلَدِ (٣)  
على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد ، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بميزة رفيعة ، حتى ليرُوى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطمحه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يتقسم له في الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهي أم ابنه عبد الرحمن . وكان

(١) انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته

في كتب الصحابة والأغاني ٤/١٣٧ وما بعدها .

(٢) حسان : عفيفة . رزان : ذات وقار .

تزن : تهم . غرنى : جائعة . يريد أنها لا تقتاد

النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصفاً

لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفي المثل هو أذل

من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلّونه ويفرضون له في العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عمي بأخرة .

وبحق سُمي حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم ، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصمّية . وقصته مع الحارث بن عوف المُرتي حين قُتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة ، فقد قال فيه وفي عشيرته :

إِنْ تَغْدِرُوا فَالغَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالغَدْرُ يَنْبِئُ فِي أَصُولِ السَّخْبِرِ (١)

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزبيرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً ، يقول في تضاعيفه :

إِنْ الذَّوَابِّ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيْنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ (٢)  
يَرْضَى بِهَا كُلٌّ مِنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا  
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَذْنَى سَبَقَهُمْ تَبِعُ  
أَهْدَى لَهُمْ وَيَجِي قَلْبُ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانُ حَائِكُ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب ، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي : «تُنسب إليه أشياء لاتصح عنه» (٣) ويقول ابن سلام : «قد حُمِلَ عليه مالم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضهت (تشاطمت) قريش واستببت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقى» (٤) . وكان ممن حَمَلَ عليه غُثَاءً كثيراً ابنُ إسحق في المغازي ، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يروى عنه السيرة النبوية ، فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

(١) السخبير : شجر ، ومن أمثالهم : ركب

ذلان السخبير إذا غدر . (٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .

(٢) الذوائب : الأعلى في الشرف . فهر : (٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُسبِّتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكره مثبتاً في رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليعلم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهل العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »<sup>(١)</sup> ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك<sup>(٢)</sup> ونسب ثالثة إلى عبد الله<sup>(٣)</sup> بن الحارث السهمي ورابعة إلى معقل<sup>(٤)</sup> بن خويلد الهذلي وخامسة إلى ربيعة بن أمية اللدلي وقيل بل هي لأبي أسامة الجشمي<sup>(٥)</sup> . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن<sup>(٦)</sup> . وإذا مضينا نبحت في مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهي في رثاء نافع بن بُدَيْل<sup>(٧)</sup> ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهي في رثاء عثمان<sup>(٨)</sup> ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصيرمة<sup>(٩)</sup> بن أبي أنس الأنصاري ، ونُسب له بيتان في الفخر بالأزد وهما لسعد<sup>(١٠)</sup> بن الحصين الأنصاري ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهي لبشير<sup>(١١)</sup> بن سعد بن الحصين . ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجاء قريش ،

(٦) السيرة النبوية ١٩٩/٤ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ١٠٨/٣ حيث تشكك الباحث في مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .  
(٧) انظر الديوان ص ٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ١٩٨/٣ .  
(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .  
(٩) راجع الديوان ص ٢١-٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .  
(١٠) انظر الديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني (طبع الساسي) ١٢٠/١٤ .  
(١١) راجع الديوان ص ٤٢-٤٣ وقارن بالأغاني ١٢٠/١٤ .

(١) انظر ابن هشام في مقطوعة عينية ٥٦/٣ وفي قصيدة عينية ١٤٩/٣ وما بعدها وقابل بالديوان ص ٧٦ وهي في رثاء حمزة ، وانظر حائية في رثاء حمزة ١٥٩/٣ ومقطوعتين في رثاء حبيب ١٨٦/٣ وقابل بالديوان ص ٨٤ ، ٤٦ وكذلك مقطوعة يائية في ١٩٢/٣ وقابل بالديوان ص ٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية في عمرو بن ود في ٢٨١/٣ وقابل بالديوان ص ٤٦ .  
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٣ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣٦٢/٣ وقابل بالديوان ص ٦٣ .  
(٣) السيرة النبوية ٢٠/٣ والديوان ص ٢٩ .  
(٤) السيرة النبوية ٨١/٣ والديوان ص ٨٤ .  
(٥) السيرة النبوية ٢٨٢/٣ والديوان ٥١ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذمّاً قبيحاً<sup>(١)</sup> . ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حمّل عليه<sup>(٢)</sup> . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون<sup>(٣)</sup> ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرته حين كان أبوسفیان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير<sup>(٤)</sup> بن العوام وعبد الله<sup>(٥)</sup> بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً في وضع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كثّر الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة ، لا لأن شعره لأن وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة<sup>(٦)</sup> ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى  
وَأَسْيَافُنَا يَقَطُرْنَ مِنْ نَجْدَةِ دَمَا

ولاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بِيضُ الْوَجْهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الْأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

أما هجائه لقريش فينبغى أن نبتعد منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثم كنا نرتضى ميميته (تَبَلَّتْ فُوَادِكُ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةٌ) التي يعيّر فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره في يوم

(١) ابن سلام ص ١٢٥ . عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .

(٢) انظر الديوان في هجاء بنى الحماس الحارثيين قوم النجاشى ص ٤٧ ، ٨١ ، وكذلك انظر مقطوعة رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٤٩٢

حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في رثاء

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١/٣٣٠ .

(٦) انظر الأغاني (ساسى) ١٤/١٢٥-١٢٧ .

بلدر ، ومثلها قصيدته الميمية ( منع النوم بالعيشاء الهموم ) التي يهجو فيها ابن الزبير عرّى ويفتخر بقومه فخرأعنيفا ، ومن نمطهما لاميته ( أهاجك بالبيداء رسّم المنازل ) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام<sup>(١)</sup> ، ومثلها مقطوعته الدالية التي يستهلها بقوله :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد<sup>(٢)</sup>  
ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام<sup>(٣)</sup>  
وأيضاً نحن ثبت له قصيدته الهمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :

هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبه مشبهاً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزئين : جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام<sup>(٤)</sup> ، وهو يمضي في الجزء الثاني متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء لمعانى الجاهلية بالمعانى الإسلامية إذ يعرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه : من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كفاء<sup>(٥)</sup>  
وقد تبرز المعانى الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نتبعه حتى الممات ونصُرُّ غير محدود  
مستعصمين بحبلٍ غير مُنجدمٍ مُستحکمٍ من حبالِ الله ممدود<sup>(٦)</sup>

الإل : القرابة .

( ٤ ) انظر الاستياب ص ١٢٩ .

( ٥ ) كفاء : كفء ونظير .

( ٦ ) منجدم : منقطع .

( ١ ) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

( ٢ ) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي

وهي أم عبد الله وأبي طالب والزيبير بن عبدالمطلب .

( ٣ ) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام .

وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى : ( واعتصموا بحبل الله جميعاً ) .  
وله مرث في الرسول الكريم تتضح فيها المعاني الإسلامية اتصاحاً على نحو  
ما يلقانا في مرثيته التي رواها أبو زيد الأنصاري والتي يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقد  
وقد مرّت بنا في الفصل السابق مرثيته البديعة لأبي بكر الصديق ، ومن  
قوله في عمر حين توفّي على إثر طعنة فيروز الجوسى :

فَجَعْنَا فَيْرُوزُ لا دَرَّ دَرُهُ بأبيض يتلو المُحكّمات منيب<sup>(١)</sup>  
وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأصواء الدين  
الحنيف وهدية الكريم .

## ٣

كعب<sup>(٢)</sup> بن زهير

أبوه زهير بن أبي سُلمى من فحول الشعر في الجاهلية . وهما من قبيلة  
مزينة ، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أحواله  
بنى مُرة الذُبَّانين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بُجَيَّر  
ومثل الحُطَيْيئة . ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه  
من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى  
تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ،  
فيُلقي عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه<sup>(٣)</sup> تمريناً له وتدريباً على صوغ

والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٤/٢٤٠  
والإصابة ٣٠٢/٥ ومعجم الشعراء للمرزباني  
ص ٢٣٠ والخزانة ١/٣٧٥ ، ٤/١١ .  
وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .  
(٣) أغاني ( طبع الساسي ) ١٥/١٤١ وأمالى  
المرتضى ( طبع الحلبي ) ١/٩٧ .

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو  
عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات  
الذكر الحكيم . وكفى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .  
(٢) راجع في ترجمة كعب طبقات فحول  
الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر  
والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ وأغاني ( طبعة الساسي )  
١٥/١٤٠ وابن هشام ٤/١٤٤ وما بعدها

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الحطيئة ، يدلُّ على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمتَ روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع »<sup>(١)</sup> ، فقال كعب قطعته التي يقول فيها :

فَمَنْ لِلقَوافي شانها من يَحُوكها إذا ما ثَوَى كعبٌ وفوزَ جَرولُ<sup>(٢)</sup>  
ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بـجَيْرٍ ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله<sup>(٣)</sup> :

ألا أبلغا عني بـجيراً رسالةً فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا  
شربت مع المأمون كأساً رويةً فأنهلك المأمون منها وعلك<sup>(٤)</sup>  
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء ويب غيرك ذلك<sup>(٥)</sup>  
على خلتي لم تُلَفِ أمًّا ولا أباً عليه ولم تدرك عليه أنخاً لكا  
ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بـجَيْرٍ فيما أجابه به بقوله<sup>(٦)</sup> :

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزم  
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم  
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من النار إلا طاهر القلب مسلم  
وما زال كعب على وثنيته حتى فتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغاني (طبع

دار الكتب) ١٦٥/٢ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول :

الحطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغاني (ساسي)

١٤٢/١٥ والسيرة ١٤٤/٤ والاستيعاب

ص ٢٢٦ .

(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبابكر .

النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثاني .

(٥) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك ،

وويب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ١٤٥/٤ .



آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يتقدم على رسول الله تائباً. وشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه « فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله! هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده، فحسّر كعب عن وجهه، وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير. فتجهّمته الأنصار وغلّظت له، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحبّت المهاجرة أن يسلم ويؤمّنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنه رسول الله<sup>(١)</sup>، وأنشده مدحته الخالدة:

بانَتْ سَعادُ فقلبي اليوم مَتَبُولٌ مَتِيمٌ إِثْرَها لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ<sup>(٢)</sup>

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم برُدة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين<sup>(٣)</sup>. وقد اكتسى بها كعب حُلّةً مجد لا تبلى، ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة. ونراه يستلها بالغزل، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتن عندها فليس له فكاك، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده<sup>(٤)</sup>:

وفارقتك برهنٍ لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهنُ قد غَلِقًا<sup>(٥)</sup>

ويُلبح في وصف سعاد ويشبها بالظبي ويشبه ريقها بالخمير، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبته لوعدها. ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل. وما زال ينعت ناقته حتى قال بصور خوفه وفزعه من رسول الله:

(٣) ابن سلام ص ٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦/١٠٦

والإصابة ٣٠٢/٥

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٣٣

(٥) غلق الرهن: لم ينفك أبداً.

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء

١٠٤/١ وانظر الأغاني ١٤٢/١٤

(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة

دار الكتب المصرية) ص ٦. ومتبول: مفرم.

وبانت: فارقت. ومكبول: مقيد.

وقلت خلّوا طريقي - لا أبا لكم -  
كلّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامته  
أنبتت أن رسول الله أوعدني  
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال  
لا تأخذنني بأقوال الوشاة ولم  
إن الرسول لنورٌ يُستضاءُ به  
في عُصبةٍ من قريش قال قائلهم  
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ  
ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم  
يعرض بالأنصار لغلظتهم - كانت عليه - فأنكرت قريش ما قال ،  
وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصار :  
من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل  
البادلين نفوسهم لنبيهم  
يتطهرون - كأنه نُسكٌ لهم -  
صلموا علياً يوم بدرٍ صدمةً  
ضربُ إذا عردَ السودُ التنايل<sup>(٤)</sup>  
فإنكرت قريش ما قال ،  
قال يذكر الأنصار :  
في مقنّبٍ من صالحى الأنصار<sup>(٥)</sup>  
يوم الهياج وسطوة الجبار  
بدماءٍ من علقوا من الكفار<sup>(٦)</sup>  
دانت لوقعتها جميع نزار<sup>(٧)</sup>

عن صحبه ومن يستغيث به .  
(٤) الزهر : البيض . عرد : نكل وجبن .  
التنايل : القصار .  
(٥) المقنّب : جماعة الخيل والفرسان .  
(٦) علقوا : قتلوا .  
(٧) يريد بعل بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند  
وهو خير السيوف .  
(٢) زولوا : هاجروا .  
(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف  
الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف  
فى القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان .  
معاذيل : جمع معزال : وهو الذى ينعزل فى الحرب

ورثوا السيادة كابراً عن كابرٍ إن الكرام هم بنو الأخيار  
وحسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر في شعره عن مواعظ وحكم يستهدى  
فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبنى سَعَى الفتي وهو مخبوءٌ له القَدْرُ  
يسعى الفتي لأمرٍ ليس يُدركها والنفس واحدةٌ والهَمُّ منتشرٌ  
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ  
ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم

الذى يَفْضَلُ عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أعلمُ أنى متى ما يأتنى قَدْرِي فليس يَخْبِسُهُ شُحٌّ ولا شَفَقُ<sup>(١)</sup>  
والمرءُ والمال يَنْمِي ثم يُذْهِبُهُ مَرُّ الدهورِ ويُفْنِيهِ فَيَنْسَحِقُ  
فلا نخافى علينا الفقر وانتظري فَضْلَ الذى بالغنى من عنده نَشِقُ  
إن يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا وَمَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق

وهو في ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر  
الشخص منهم في رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر .  
وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها في الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر  
مع من يصطفيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأقسمتُ بالرحمن لا شيء غيره يمينَ امرئٍ بَرٌّ ولا أتحلُّ<sup>(٢)</sup>  
لأستشعرنُ أعلى دَرِيَسِيَّ مسلماً لوجه الذى يُحْيِي الأنامَ ويقتل<sup>(٣)</sup>  
هو الحافظُ الوَسنانَ بالليل مِيثاً على أنه حَيٌّ من النومِ مُثَقِّلٌ<sup>(٤)</sup>  
من الأسودِ السارى وإن كان ثائراً على حَدِّ نابيه السَّامُ المُثْمَلُ<sup>(٥)</sup>

(٤) الوسنان : النائم .

(١) شفق : خوف .

(٥) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير

(٢) لا أتحلل : لا أستثنى .

لبلا . الثائر : الطالب بثأر . المثمل : المجمع

(٣) الدريس : الثوب البالى . كنى بذلك عن

حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى ويميت .

وهي تتمّ عن ولائه لدينه الخفيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذي يكلاً عباده و يقيهم الأذى ، ولعلّ في ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام في نفسه وفي شعره . وديوانه يدل - كما يدل تأخره في إسلامه - على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخرأ متوعداً مههدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معاني الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى نراه في الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائفاً له . لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفّ أذاه عنه ، يقول (١) :

إن كنت لا ترهب ذمّي لما تعرف من صفحي عن الجاهل  
 فاخش سكوقي إذ أنا منصتُ فيك لمسموع خنا القائل  
 فالسامع الدائم شريكٌ له ومطعمُ المأكول كالأكل  
 مقالةُ السوءِ إلى أهلها أسرع من منحدرِ سائل  
 ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل  
 ولا تهجج إن كنت ذا إربةٍ حربَ أخي التجربة العاقل (٢)  
 فإنّ ذا العقل إذا هجته هجّت به ذا خبلٍ خابل

فهو ينهاه أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا يجني على نفسه ما هو أقبح أثراً وأبى وسمّاً ، ويقول إن الذين يبسطون السنهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءً أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو في ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التفرّيع لمن يهجوّه بدلاً من الطعن في الأعراض سنّهم القديمة .

(٢) الإربة : الدعاء .

(١) الخزانة ١٢/٤ والاستيعاب ص ٢٢٧

والحيوان ١٥/١ .

ليبد<sup>(١)</sup>

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوهريرة وأعمامه الطُفَيْلُ وأبو براء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثمَّ لُقِّبَ : « ربيع المُقْتَرين » وقد قتله بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأسته ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقَّب بمعوذ الحكماء . وأم ليبد تامرة بنت زبياع العبَّسية .

وقد نشأ ليبد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأجدادها ومناقبها . وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل - إن صحَّ - بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثًا ، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفداً من بني عبَّس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العباسيين وبني عامر قبيلة ليبد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جديمة سيد بني عبس في بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط ليبد غضباً ، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز

والمعمر بن ص ٦٠ والخزاعة ١/٣٣٤ وقد طبع الخالدي جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبع في ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت في الكويت سنة ١٩٦٢ .

(١) انظر في ترجمة ليبد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ١/٢٣١ والأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٥/٣٦١ وطبعة السامى ١٥/١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦/٢٠ وأسد الغابة ٤/٢٦٠ والموشع ص ٧١ وأمالى المرتضى ( طبعة الحلبي ) ١/١٨٩ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٦/٤

مقدح ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامريين . وسواء  
أصح هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه  
في الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتبه في أول  
الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَّتْ الديار محلُّها فقامها » أخذ يظهره .  
وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته  
النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه <sup>(١)</sup> ، فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم  
يُعلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته : حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها  
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم في دين الله . وكان ابن عمه  
عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شراً فعصمه  
الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامران أصابه طاعون في عنقه فقتله : أما  
أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء  
حاراً .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار  
ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خَطَّ عمر الكوفة فترها وأقام بها إلى أن توفاه  
الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه  
حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلاً ، ويصورون ذلك فيقولون إن عمر  
أرسل إلى المغيرة بن شُعْبَةَ واليه على الكوفة : أن استنشد من قبلك من شعراء  
مصر ما قالوا في الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة  
في صحيفة : ثم أتاه بها . وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ،  
فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين .  
ويعمى الرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه <sup>(٢)</sup> ،  
فن قائل هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتني أجـلي حتى كساني من الإسلام سِرّاً بالآ

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/١٣١ .  
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغاني  
ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/١٣١ .  
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغاني

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والماءُ يُصلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضي مفاخرأ فخرأ عنيفأ بأبائه وفتوته معتدأ اعتدادأ لا حدأ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثم وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن علالته حين تفاخرا إلى هرم بن قُطبة النزاري<sup>(١)</sup> وأقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخرأ بقومه وشجاعتهم وبلاهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشمه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته ، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيرأ ما يهجم في قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع في معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الطاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعها . وخرج من ذلك إلى تشبيهها لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه ، ويفخر بقومه وكثرة ساداتهم وما سنه لهم آباؤهم ، يقول :

إننا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا ليزازُ عظيمةٍ جشامها<sup>(٢)</sup>  
ومقسَّمٌ يُعطى العشيرة حَقَّها ومُعذِّمٌ لحقوقها هضامها<sup>(٣)</sup>  
فضلاً ، وذو كرمٍ يُعين على الندى سَمَحٌ كسوبٌ رغائبٍ غنامها

(٣) معذمر : لا يعطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم آخرين .

(١) أغاني (ساسي) ٥٢/١٥ .

(٢) اليزاز : الملازم للشيء ، جشامها :

من التجشم وهو ركوب الخطر .

من مَعْشَرٍ سَنَتْ لَهُمُ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا  
فَبِنَا لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ فَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا  
فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

وشعره الجاهلى دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره ووصف راحلته وتشبيهاه بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ، وقد يتحدث عن المطر . وهو فى ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد فى لفظه ، حتى ليس قارنه شىء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها . وقرأ ما لم نرّوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التى أنشدناها فإنك ستجده مفرغاً فى ألفاظ متناهية فى الإغراب ، ومن ثمّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال : إنه رحي بزّر<sup>(١)</sup> ، يريد أنه خشن لا يحسن فى السمع ، وقال الأصمعى ، شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانى أى أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامى وجدنا قراءته للقرآن الكريم تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلّالة ، ومن ثمّ يقول فيه ابن سلام : « كان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق » ويتضح ذلك فى مرثية المشهورة لأخيه أربد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفى معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك والصياغة ، وستجد الروح الإسلامىة ماثلة فى تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله<sup>(٢)</sup> :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ<sup>(٣)</sup>  
فَلَا جَزَعٌ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلُّ فِتْنٍ يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعٌ  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوْهَا ، وَغَدَوْا بِلَاقِعٍ<sup>(٤)</sup>

(٤) بلاع : جمع بلع وهو الأرض القفر .  
وغدوا : غدا .

(١) الموشح للمرزبانى ص ٧١ .

(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .

(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .



وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئه      يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعٌ (١)  
وما البرُّ إلا مُضمراتٌ من التُّقى      وما المالُ إلا عارياتٌ ودائعُ  
وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامي أنه انتقل من الألفاظ  
الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام في ضميره . فاتجه في  
أشعاره إلى ربه منيباً إليه . والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذي ينتظره ،  
يقول في قصيدة له (٢) :

إنما يحفظ التُّقى الأبرارُ      وإلى الله يستقرُّ القرارُ  
وإلى الله ترجعون وعند الله      هـ ورُدُّ الأمور والإصدارُ  
كلُّ شيءٍ أحصى كتاباً وعِلماً      ولديه تجلَّتِ الأسرارُ  
إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أُنْ      ظرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ (٣)  
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الأيّ      ام إلا يرمرمُ وتعارُ (٤)

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس  
معروضون على الله يوم القيامة وقد أحصى كل شيء في كتاب وأن الموت  
حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره . وتمضى في  
طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية خوفاً  
من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا  
ومتاعها الزائل ونعيمها الفاني ، على نحو ما نرى في لاميته التي تؤمن بأنه نظمها  
في الإسلام ، وفيها يقول (٥) :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ      وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلُ  
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم      دويهيَّةٌ تصفرُّ منها الأناملُ (٦)

(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء

٢٣٧/١ والطبرى ٢٨/٥ .

(٦) يريد بالدوهمية الموت .

(١) يحور : يصير .

(٢) ديوان لبيد ص ٤١ والحيوان ١٦٣/٧

(٣) الإنظار : التأخير .

(٤) يرمرم وتعار : جيلان في نجد .

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : ( كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام ) ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله جلَّ وعز : ( كلُّ نفس ذائقة الموت ) أما البيت الثالث فاستمدّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : ( أفلا يعلم إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور ) . واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه<sup>(١)</sup> وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم ، ومن ثمَّ مضى يتحدث عن الغساسة وأصحاب الرِّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله<sup>(٢)</sup> :

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضلِ وله العلاءُ وأثيْتُ كلِّ مؤثِّلِ<sup>(٣)</sup>  
لا يستطيعُ النَّاسُ مَخَوَ كتابِهِ أنَّى وليس قضاؤه بمبدلِّ

وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزَى بما سجَّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : ( وكلَّ شئٍ أحصيناه كتاباً ) ( وكان أمر الله قدراً مقدوراً ) ( وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ) . ويمضى ليبد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العمالق ولقمان ونسره وأبرهته وأمراء المناذرة والغساسة من ريب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته<sup>(٤)</sup> :

من يبيسطُ اللهُ عليه إضْبَعاً بالخيرِ والشرِّ بآئٍ أولعاً<sup>(٥)</sup>  
يملاً له منه ذنوباً مُترعاً وقد أباد إرماً وتبعاً<sup>(٦)</sup>

والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثرت في نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسب إليه منها يدل على أن

( ٤ ) الديوان ص ٣٣٧ .

( ١ ) انظر الديوان ص ٢٥٤ .

( ٥ ) الإصبع : الأثر الحسن .

( ٢ ) الديوان ص ٢٧١ .

( ٦ ) ذنوباً مترعاً : دلواً تملوا .

( ٣ ) أثيْتُ : موطأً عظيم . مؤثِّل : مؤثِّل ،

ويوصف به الملك والمجد .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، ففضى بحيلها أبياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها (١) :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ      وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٌ (٢)  
أَحْمَدُ اللَّهِ      فَلَا نِدَاءَ لَهُ      بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ  
مِنْ هِدَاةِ سُبُلِ الْخَيْرِ اهْتَدَى      نَاعِمَ الْبَالِ وَمِنْ شَاءَ أَضَلُّ  
فَاكْذِبِ النَّفْسِ إِذَا حَدَّثَتْهَا      إِنَّ صَدَقَ النَّفْسُ يُزْرَى بِالْأَمَلِ  
غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبَنَّهَا فِي التُّقَى      وَاخْزُهَا بِالْبِرِّ ، اللَّهُ الْأَجَلُ (٣)

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقداه لأربد وبيكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

## ٥

## الحطية (٤)

اسمه جرّول ، ولُقّب بالحطية لقصره أولدمامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضراء ، كانت لأوس بن مالك العبّسي . ونشأ في حجره مغموراً في نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعف جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تقتحمه العيون ، ولم يكن فيه

والأغانى (طبع دار الكتب) ١٥٧/٢ والإصابة  
٦٣/٢ والخزاعة ٤٠٨/١ وحديث الأربعماء  
لطه حسين (طبعة الحلبي) ١٥٣/١ وما بعدها .  
ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جولد تسهر  
والشتنيطي ، وكذلك نشره نعان أمين طه بمطبعة  
الحلبي ، وصنعتهم ما نشره .

(١) الشعر والشعراء ٢٣٨/١ والديوان  
ص ١٧٤ وما بعدها .  
(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .  
(٣) اخزها : سها واقهرها .  
(٤) انظر في ترجمة الحطية ابن سلام  
ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٠/١

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في « عيس » على نحو ما صنع  
عنترة من قبله . ومن ثمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب  
في غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبي سُلمى يعلمه إحكام  
صنعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الحطيثة كان يروى  
شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوّه به ، حتى يدور على الألسنة  
ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيثة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله  
وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنى بالمعاني ودقها .

ويضئ الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة  
هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة  
كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفى الرسول الكريم . ونراه  
يسارع إلى الردّة ، معينا بشعره المرتدّين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى  
ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا      فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر  
أيورثها بكراً ، إذا مات ، بعده      فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهرِ

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره<sup>(١)</sup> . وقد عاد مع المرتدين  
إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور في المديح والهجاء ، ويقول الأصمعي : « كان الحطيثة  
جسماً سؤولاً ملحفاً ذئب النفس . كثير الشر . قليل الخير . بخيلاً ، قبيح المنظر ،  
رثاً الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شاعر من  
عيب إلا وجدته ، وكلما تجد ذلك في شعره »<sup>(٢)</sup> . وقد يكون الأصمعي بالغ  
في نعمته بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في  
الجاهلية من أمثال عبيسة بن حصن الفزاري وزيد الخليل ، وكان يتورط فيما

(١) انظر الطبري ٢/٤٧٧ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/١٦٣ .

الخطيب وقارن بالديوان نم ٣٢٩ والأغاني ٢/١٥٧ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف في صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبَّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن علاثة حين نافر عامر بن الطفيل<sup>(١)</sup> . وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى وليد يقفان في صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هي التي شوهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يوم المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلَّته على داره حيث زوجته وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفرغ بنو أنف الناقة - إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان - حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت في استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه ، وانطلق يُشتم عليهم ثناء رثعاً معرضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرَحَّلْ لُبغيتها وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي<sup>(٢)</sup>  
ورفع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكَّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرخٍ زُغِبِ الحواصل لا ماء ولا شَجْرٌ<sup>(٣)</sup>  
ألقيتَ كاسِبهم في قعرٍ مُظلمةٍ ، فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عمر  
ولأن له قلب عمر ، ففعا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم<sup>(٤)</sup>

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزبرقان وجدناه لا يُقنذع في هجائه ، إنما يمسُّه على نحو ما رأينا في بيته السالف برفق ، عامداً إلى التهمك والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفف من حدة لسانه ، ونراه يصرِّح بذلك إذ يقول<sup>(٥)</sup> :

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .  
(٢) يريد المطعوم المكسو .  
(٣) ذميرخ : واد بالهجاز . الأفراخ :  
(٤) انظر في القصة الأغاني ١٧٩/٢ وما بعدها .  
(٥) الديوان ص ٩٨ :

ولما أن مدحتُ القوم قلم هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ  
 ألمُ أكُ مسلماً فيكونُ بيني وبينكمُ المودَّةُ والإخاءُ  
 ولمُ أشتمُّ لكمُ حسبا ولكن حَدوتُ بحيثُ يُستَمعُ الحُدَاءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذم بها ، ويقول إنه حين مدح بني أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبير فان جعلوا ذلك ذمًا لهم وهجاء ، لمدحه خصوصهم . ونراه يولئ وجهه نحو علقمة بن عُلانة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجزل له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان ، فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويدود عنه حين يطعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ - ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشية معرفة لسانه . والمظنون أنه توفي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعنى بشعره وتجويله عناية شديدة ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولُ المحكك » فهو ممن كان يتأثرون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطعات ، ونراه في مطولاته يشبب ويصف الصحراء وحيواناتها الوحشية والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها . وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجدُّ  
 أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنا . وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقَدُوا شدوا

وكانوا يعيرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرّضاً بالزبيران وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذنبُ غيرهمُ . ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتروى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي  
ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لى وجها شوّه الله خلقه ففُبح من وجهه وقُبِحَ حامله  
أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ،  
وبقصيدته « وطاوى ثلاث »<sup>(١)</sup> وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف ، وعياله  
من حوله يتضورون جوعاً ، فهم أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عسنت له أتان  
وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم  
العربية .

والحق أن الرواة بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا في  
اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره في  
الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه في مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لمملوحه  
على ما يقدم له من برّه على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِهِ اللهُ خَيْرًا مِنْ أَخِي ثَقَةٍ وَلِيَهْدِهِ بِهَيْدَى الْخَيْرَاتِ هَادِيهَا  
وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله :

الحمد لله إني في جوار فتى حامى الحقيقة نفاعٍ وضرارٍ  
وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت  
الخطيئة<sup>(٢)</sup> :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس  
ولعل في ذلك ما يدل على أنه حسن إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على  
ذلك قوله في وصف التقي والعمل الصالح<sup>(٣)</sup> :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للاتقى مزيد

(٣) أغاني ١٧٥/٢ والديوان ص ٣٩٣ .

(١) الديوان ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٧٣/٢ .

فالسعادة في رأيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هي في الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذي لا يُنال إلا بالتقوى ، فهي السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيئة ، بل أخذ يُرسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

## ٦

النابة<sup>(١)</sup> الجعدى

هو عبدالله<sup>(٢)</sup> بن قيس من بنى جَعْدَةَ العامريين ، ولد بالفسّاج جنوبى نجد ، ولما شبَّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُمّي النابغة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام .

والنابة الجعدى في جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخاه في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التي يؤبّنه فيها بقوله<sup>(٣)</sup> :

فَتَى كَمَلْتَ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ      جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا  
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ      عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوؤُ الْأَعَادِيَا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخمين في الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنةً إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

١) انظر في ترجمة النابغة : الشعراء والشعراء ٢٤٧/١ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الغابة ٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨ وأمال المرتضى ١/٢٦٣ والمممرين ص ٦٤ والخزانة ٥١٢/١ والموضح ص ٦٤ . وقد جمعت ماريًا

٢) نالينو أشعاره ونشرتها في روما سنة ١٩٥٣ .

٣) اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس

٤) الشعراء والشعراء ٢٥٢/١ والديوان ص ١٢٣ .

١) انظر في ترجمة النابغة : الشعراء والشعراء ٢٤٧/١ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الغابة ٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨ وأمال المرتضى ١/٢٦٣ والمممرين ص ٦٤ والخزانة ٥١٢/١ والموضح ص ٦٤ . وقد جمعت ماريًا



بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجَدُودُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . وعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَفْتَضُّصُ الله فاك (١) .

ويُظَنُّ أنه لم يرجع مع قومه إلى منازلهم ، بل أقام في المدينة مهاجراً ، حتى إذا كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحو الشرق والقرس مجاهداً في سبيل الله ونشّر الدعوة المحمدية . وقد أخذ يضيف إلى رائعته التي أشدها الرسول أبياتاً كثيرة ، تصور حياته في الإسلام وابتغاهه رضوان الله بجهاده وتقواه جميعاً يقول (٢) :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا (٣)  
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلًا إِذَا مَالِحَ ثُمَثَ غَوْرًا (٤)  
أَقِمِ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِي بِفِعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَوْجَرًا (٥)

وعاد إلى المدينة وتشوّق إلى منازل قومه في البادية ، فاستأذن عثمان في الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين علي ومعاوية وجدناه في صفوف علي بصفيين ، يَرَجُزُ بِمُخَصِّمِهِ وَيَنْظِمُ الْأَشْعَارَ فِي مَدِيحِهِ وَهَجَاءِ مَعَاوِيَةَ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (٦) :

قَدْ عَلِمَ الْمِصْرَانِ وَالْعِرَاقُ أَنْ عَلِيًّا فَخَلُّهَا الْعِتَاقُ (٧)  
إِنَّ الْأُتَى جَارُوكَ لَا أَفَاقُوا لَهُمْ سِيَاقُ وَلَكُمْ سِيَاقُ  
قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَمُ الرِّفَاقُ سُقْتُمْ إِلَى تَهْجِ الْهُدَى وَسَاقُوا  
إِلَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ فِي مِلَّةٍ عَادَتْهَا النَّفَاقُ (٨)

(١) أغاني ٨/٥ .  
(٢) أغاني ٩/٥ والديوان ص ٣٣ وما بعدها .  
(٣) الهجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء .  
(٤) غور النجم : غاب .  
(٥) أوجر : خائف .  
(٦) أغاني ٣١/٥ والديوان ص ١٣٣ .  
(٧) المصران : الكوفة والبصرة . العتاق : الكرم .  
(٨) التي ليس لها عراق : التي لا تعرف لها غابة .

ولعل هذا هو الذي جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْلٍ شاعر معاوية .  
 وَيُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ عَلَى وَتَحَوَّلَتِ الْخِلاَفَةُ إِلَى مَعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى مِرْوَانَ عَامِلَهُ عَلَى  
 الْمَدِينَةِ أَنْ يَأْخُذَ أَهْلَهُ وَأَمْوَالَهُ ، فَاسْتَعْطَفَهُ بِأَبْيَاتِ الْآلِثِ قَلْبَهُ فَعَفَا عَنْهُ .  
 ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيَبْضُطَرَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ  
 إِلَى الْبَصْرَةِ لِعَمْرٍ أَنْ يَضْرِبَهُ أَسْوَاطاً ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْ عَصَبِيَّتِهِ  
 الْجَاهِلِيَّةِ . وَلَا نَشْكُ فِي أَنَّ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ فِيهِ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى الْإِصْطِدَامِ بِأَوْسِ  
 ابْنِ مَعْرَةَ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ إِنَّهُ غَلِبَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَيْهِ فِي الشَّعْرِ وَلَا قَرِيباً .  
 وَنَزَلَ مَعَ قَوْمِهِ بِأَصْبَهَانَ ، وَهَنَّاكَ نَرَاهُ يَتَهَاجَى مَعَ سَوَّارِ بْنِ أَوْفَى الْقَشِيرِيِّ ،  
 وَتَتَصَدَّى لَهُ زَوْجُهُ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةِ ، وَيَغْلِبَانِ عَلَيْهِ جَمِيعاً . وَهَمَا أَيْضاً لَمْ يَكُونَا  
 إِلَيْهِ فِي الشَّعْرِ ، وَرَبَّمَا كَانَ لَتَتَمَعَّقَ الْإِسْلَامُ فِي نَفْسِهِ أَثْرٌ فِي تِلْكَ الْمَزَامِرِ ،  
 إِذْ كَانَ يَتَحَرَّجُ مِنَ الْمَضَى فِي الْمَهْجَاءِ الْمَقْدَعِ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ إِنَّ الْأَخْطَلَ  
 هَجَاهُ بِأَخْرَةٍ . وَلَمَّا دَعَا ابْنَ الزُّبَيْرِ لِنَفْسِهِ فِي أَوَاخِرِ خِلاَفَةِ يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ قَدِمَ  
 عَلَيْهِ فِي مَكَّةَ وَمَدَحَهُ بِقَصِيدَةٍ رَائِعَةٍ يَقُولُ فِيهَا (١) :

حَكَيْتَ لَنَا الصُّدَيْقَ لَمَّا وَكَيْتَنَا وَعَمَّانَ وَالْفَارُوقَ فَارْتَاخَ مَعْدُمُ  
 وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّيْلِ مُظْلِمُ

وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلاً . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن  
 توفى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن  
 الرواة بالغوا في ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبياني وأنه عمّر مائة وثمانين  
 سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله (٢) :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا  
 نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذَرِ بْنِ مَحْرَقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفَرَا  
 وَالْمُنْذَرُ بْنُ مَحْرَقٍ هُوَ الْمُنْذَرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي قُتِلَ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ مَعَ  
 الْغَسَّاسَةِ سَنَةَ ٥٥٦ لِلْمِيلَادِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ مَصْنُوعٌ عَلَيْهِ .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آتاء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبّر في غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله<sup>(١)</sup> :

مَنَعَ الْغَدَرَ فَلَمْ أَهْمُمْ بِهِ وَأَخُو الْغَدْرِ إِذَا هَمَّ فَعَلَّ  
خَشِيَةَ اللَّهِ وَأَنْتَى رَجُلٌ إِنَّمَا ذِكْرِي كَنْسَارٍ بِقَبْلٍ<sup>(٢)</sup>

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحولاه من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول<sup>(٣)</sup> :

عُمِّرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى وَقَوَارِعِ تَتَلَّى مِنَ الْقُرْآنِ  
وَلَبِستُ مِلَّ الْإِسْلَامِ ثَوْباً وَاسِعاً مِنْ سَبَبِ لَا حَرِمٍ وَلَا مَتَّانٍ<sup>(٤)</sup>  
وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام آياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهي تطرّد على هذا النمط<sup>(٥)</sup> :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَا  
الْمَوْلُجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ لِي نَهَاراً يُفْرَجُ الظُّلْمَا  
الْخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعْمَا<sup>(٦)</sup>  
الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمَصَوِّرِ فِي الْأَرْحَامِ مَاءً حَتَّى يَصِيرَ دَمَا  
مِنْ نُطْفَةٍ قَدَّمَا مَقْدَرُهَا يَخْلُقُ مِنْهَا الْأَبْشَارَ وَالنَّسَمَا  
ثُمَّ عِظَاماً أَقَامَهَا عَصَبٌ ثُمَّتَ لَحْماً كَسَاهُ فَالْتَمَا  
ثُمَّ كَسَا الرَّأْسَ وَالْعَوَاتِقَ أَبْشَاراً وَجَلَدَا تَخَالَه أَدَمَا<sup>(٧)</sup>

- (١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣/٥٠٤ .  
(٢) القبل : النشر من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .  
(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمال المرزقي ١/٢٦٦ .  
(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب :  
عطاء . حرم : مناع .  
(٥) الشعر والشعراء ١/٢٥٣ وانظر الديوان ص ١٠٢ .  
(٦) دعم : دعائم وعمد .  
(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

وَالصَّوْتِ وَاللَّوْنِ وَالْمَعَايِشِ وَالْأَخْلَاقِ شَتَّى وَفَرَّقَ الْكَلِمَاتِ  
 تُنَّتْ لَا بُدَّ أَنْ سِيَجْمَعَكُمْ وَاللَّهِ ، جَهْرًا ، شَهَادَةً قَسَمًا  
 فَانْتِمِرُوا الْآنَ مَا بَدَأَ لَكُمْ وَعَاتَصَمُوا إِنْ وَجَدْتُمْ عِصْمًا  
 فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا عِصْمَةً مِنْهُ إِلَّا لِمَنْ رَحِمَا  
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى فَارَسٍ بَادَتْ ، وَخَدَّهَا رِغْمًا (١)  
 أَمْسُوا عَيْدًا يَرْعَوْنَ شَاءَ كُمْ كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلْمًا  
 أَوْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا  
 فَمَرْقُوا فِي الْبِلَادِ وَعَاتَرَفُوا الّهْونَ وَذَاقُوا الْبِئْسَاءَ وَالْعَدَمَا (٢)  
 وَبَدَّلُوا السُّدْرَ وَالْأَرَكَ بِهِ الّهْمَطَ وَأَضْحَى الْبُنْيَانَ مُنْهَدِمَا (٣)

والناطقة في مطلع هذه العظة يُثنى على الله بما هو أهله ، مقررًا إيمانه  
 بوحديانيته وأنه لا شريك له ، ونحس أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو  
 يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا  
 يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث في البيت الثاني عن  
 نظام الكون المنبىء عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ،  
 مستعيراً من القرآن نفس لفظه في قوله جلَّ وعز : ( قل اللهم مالك الملك . . .  
 بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تواج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ) .  
 وفي البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : ( الله الذي رفع السموات بغير عمد  
 ترهبها ) . وخرج في البيت الرابع من خلقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم  
 مثل قوله جلَّ وعز : ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في  
 قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مُضغمةً فخلقنا المضغمة عظاماً  
 فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ) . وهو  
 يمضى فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

(٣) السدرو الأراك : شجر لا ينتفع بثمره . الهمط :  
 ثمر الأراك أو هو نبت مر .

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .  
 (٢) اعترفوا الهون : عرفوه .

القرون والأمم البائدة مكملًا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ وأقرأ قوله تعالى: (لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادي كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوهم وتألفت أضواءه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى ! تتحول جوانب منها إلى مواضع خالصة ينفرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفاني ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

## الفصل الخامس

### النثر وتطوره

١

#### تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخاطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يجاسب فيها الإنسان على ما قدمت يداه ولو كان مثقال ذرة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حلت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثمّ كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحفظ كتب الحديث بما اتخذته فيها من سنن وتقاليد<sup>(١)</sup> ثبتت إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد ، وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو تنشر من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ، ويُقبل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويؤثر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »<sup>(٢)</sup> . وعادة يتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى يستلهمها في موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقاك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني في غيرة ، ولا تجعلني مع الغافلين »<sup>(٣)</sup> . ولا تُفتتح خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتح بالكبير ، فيكبر الخطيب في أولهما سبع تكبيرات وفي ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعي أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا تقصد سجع الكهّان الذي كان يرتبط بدينهم الوثني فحسب ، بل تقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تنفد عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة بين يديه مفاخرأ بقومه ،

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(١) انظر في صلاة الجمع والعيدين كتب

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

الحديث مثل صحيح البخارى وسلم .

وقد نَدب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله<sup>(١)</sup> .

ونمضى في عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثرت بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشعث الذي كاد يؤدي بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكمن من خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أهدأ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قد مناً فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يخلونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الحنيف في أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاشين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده بيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بمخاديفها . ولا نعتلوا إذا قلنا إن بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شعبة في القادسية<sup>(٢)</sup> ، وخالد بن الوليد في اليرموك<sup>(٣)</sup> ، وعتبة بن غزوان في فتح الأبله ، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول<sup>(٤)</sup> :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولت حذاء<sup>(٥)</sup> مدبرة ، وقد آذنت أهلها بصُرم ، وإنما بقي منها صباية كصباية الإناء يصطبها<sup>(٦)</sup> صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبي بكر

(٤) البيان والتبيين ٥٧/٢ .

(٥) حذاء : سريمة الإدهار .

(٦) يصطبها : يشر بها . والصباية : بقية الماء .

(١) تاريخ الطبري ٣٧٨/٢ .

(٢) الطبري ٣٧/٣ .

(٣) الطبري ٥٩٢/٢ .



في استشارة أصحابه في كل مهم<sup>١</sup> ، وكل ما يجد من تشريع ، وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو الخطابة في العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطياً ، وكان من حق كل شخص أن يخاطب مصوراً وجهة نظره ، وفَسَّحَ عمر لخطابة الوفود في مجالسه ، تَسْتَمِيعُ لآقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه<sup>(١)</sup> .

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحلّ مع المسلمين في كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يردّونها ومن يحسنون حوكمها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يفظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة<sup>(٢)</sup> :

«أصدقُ الحديثُ كتابُ الله ، وأوثقُ العُرَى كلمةُ التقوى ، وخيرُ المثلِّ مِلَّةُ إبراهيم ، وأحسنُ السننِ سنةُ محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحدَثاتها ، وخيرُ الأمور عزائمها ، ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى . . . خيرُ الغنى غنى النفس . الحمرُ جُماعُ الآثام . . . أعظمُ الخطايا اللسانُ الكذوب . سببُ المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب في ديوانِ المحسنين من عفا عني عنه . السعيد من وعظ بغيره . . . أحسن الهدى هدى الأنبياء .»

وفي هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه في الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الأشتر النخعي في الكوفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولّى علي بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيضطّرّ علي إلى أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

المشهوره ، وفيها ينتصر على<sup>٤</sup> ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفي أثنائها تكثرت الخطب بين أنصار علي وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفي تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، ومن يذكروهم بين من ثبَطوا الناس عنه أبو موسى الأشعري<sup>(١)</sup> ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعي وزيد بن صوحان وأخوه سيحان .

وانتدب على<sup>٤</sup> أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صِفِّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف علي وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفهوماً . وكان يجيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى بن حاتم الطائي وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعي . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل علي ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثاً تحاول الوفود لم الشعث ، ويُقضى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه . ومن رهوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجع كفة علي وجيشه رجحاناً واضحاً ، فيلهأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكمين يستهدون بآيه . ويُغمد القُراء في جيش علي سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم علي ، فيهددونه بأن يُصبح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُختار أبو موسى الأشعري عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفي أثناء رجوع علي بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ، ويتلومون علياً لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبدي التحكيم ومنفري منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه ويتزلون معسكراً خاصاً بهم في حِسر وراء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذي جمعهم فهو الخوارج .

ويحاول علي<sup>ؑ</sup> وعبد الله بن العباس أن يردَّ أحم إلى سواء السبيل، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات في مسألة التحكيم يكن عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث، وبذلك يعترف هذا العصر المناظرة الشفوية، بل إنها لتتفجر تفجراً. ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبرى، وهو يجرى على هذه الصورة<sup>(١)</sup>:

« راجعهم ابن عباس، فقال: ما نقتم من الحكيمين، وقد قال الله عزَّ وجل: (إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما)<sup>(٢)</sup> فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟. فقالت الخوارج: قلنا أما ما جعل حُكْمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به، وما حُكْم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حُكْم في الزاني بمائة جلدة وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)<sup>(٣)</sup>. فقالوا له: أو تجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟! وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك، أعدُّل عندك ابن العاص وهو بالأبس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلنسنا بعدول ونحن أهل حرِّبه، وقد حُكِّمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عزَّ وجلَّ حُكْمه في معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا<sup>(٤)</sup>. وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً، وجعلتم بينكم وبينه الموادة والاستفاضة<sup>(٥)</sup>، وقد قطع عزَّ وجلَّ الاستفاضة والموادة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الإل من أقرَّ بالجزية». ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضطُرَّ على إلى حربهم، وفنك بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان. وكانوا يظهر ون استبسالا شديداً، يدفعمهم إلى ذلك

(١) الطبرى ٤/٤٧.  
 (٢) الآية في الصلح بين الزوجين وتماهما: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما).  
 (٣) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرَّم، وتماهما: «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما

قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم).  
 (٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تنوء إلى أمر الله فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل).  
 (٥) الاستفاضة: الموادة.

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وحرّ قوص بن زهير السعدي والمُسْتورد بن عُلْفَةَ ، ومن يرجع إلى خطيبهم يجدها تنقد حماسة وحمية من مثل قول ابن وهب في بعض خطبه (١) :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُسَبِّحُونَ إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتبّار (٢) - أثرٌ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإن من (٣) وضُرٌّ ، فإنه من يُسَمِّنَ ويُضَرِّرَ في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عز وجل والخلود في جناته . »

وينتهي التحكيم بمهزلة خلع علي ، وتمتد يد آئمة من أيدي الخوارج إليه في الظلام ، ففتعنه طعنة نَجَلَاء ، ويُسَلِّمُ الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معاني القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهي معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معاني هذا الدين الخفيف الذي بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذي مرتها وذلكها لكي تؤدي الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضيء به في كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة في كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسَمِّونَ كل خطبة تخلو منه بَتْرَاء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهَاء (٤) .

(٣) من : قطع وهجر .

(٤) البيان والتبيين ٦/٢ .

(١) الطبري ٤/٤٤٠ .

(٢) تبار : هلاك .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يُلْقُونَهُ على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب (١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض آيات من الشعر تؤكد المعنى الذي يريد أن يصبّه في نفوس سامعيه صبّاً ، على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار (٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربي غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تتقدّم على الخلفاء ، يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة » (٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبيّة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ الجاهة ، ويقول الجاحظ إنه « عدداً على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » (٤) . وما يُروى له — إن صحَّ — قوله (٥) :

« سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سترَ نفسه يجتمع ، رأكم ربكم فحيّاًكم ، ومن وحشة خيلاًكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبار ، رب الغيوم والأمطار . »

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع في خطابته ، وكان يستنفر منه حين يلهج به أحد محدثيه (٦) ، كراهيةً للتشبه بالكهّان في سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبدي حين قدم عليه من غزوة مكران الفارسية عن شأن وشأن العرب هناك ، فأجابته : « أرضٌ سهّلها جبل ، وماؤها وشلّ (٧) »

- |  |                                     |
|--|-------------------------------------|
| (١) الطبري ٤٥٦/٢ وقارن بكلمة لعثمان      | (٤) الحيوان ٨٩/٤                    |
| ابن عفران في البيان والتبيين ٣٤٥/١ وعيون | (٥) الطبري ٤٩٨/٢                    |
| الأخبار ٢٣٥/٢                            | (٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ١١١/٥  |
| (٢) زهر الآداب ٣٢/١                      | وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ |
| (٣) البيان والتبيين ٢٩٠/١                | (٧) وشل : قليل .                    |

ومرّها دَقَل (١) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل إن كثُر الجند بها جاعوا ، وإن قتلوا بها ضاعوا . وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أسجّاع أنت أم مخبر (٢) . وكان الخلفاء بعد عمر يُنكرون السجع على محدّثهم . وأمامنا خطب القوم ، وهي تخلو خلواً تاماً من السجع إلا ما جاء عفواً في الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورضانته ، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحظُ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ؛ فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول ، إذ يحدث الناس واعظاً ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلمُّ بأطرافه وتفصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولّدون ويفرّعون . ونحن نقف قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي وسّعت جنبات النثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة .

## ٢

## خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتي من اللسانِ

والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(١) دقل : ردى .

(٢) انظر في هذا الخبر الطبرى ٣ / ٢٥٧ .

والفصاحة ما ملك به أزمّة القلوب، وكأنا كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصنغي له الأفئدة. وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قریش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة، ليَجْزِي بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، حتى إذا انتقل إلى المدينة فُرضت الخطابة— كما قدمنا— في صلاة الجمع والأعياد ثم في مواسم الحج. وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تُلِم. وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات<sup>(١)</sup> غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خُطْبِهِ وعصر التدوين فضاقت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة.

وأكثرُ هذه البقايا مما خُطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه، إذ نراه تارة واعظاً، وتارة مشرعاً، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع. ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة، وهي تمضي على هذه الشاكلة<sup>(٢)</sup>:

« الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره وأستهد به وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلّة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يقطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً. وإن تقوى الله، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عَوْنٌ صِدْقٌ على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من

أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره  
 وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك  
 يود لو أن بينه وبينه أمدأ بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد .  
 والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خائف لذلك ، فإنه يقول عز وجل :  
 ( ما يُبدّل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد ) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ،  
 في السر والعلانية ( ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً ) . ومن  
 يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى  
 سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا  
 بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله  
 ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا  
 أعداءه ، ( وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم )<sup>(١)</sup> وسماكم المسلمين  
 ( ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة ) ولا قوة إلا بالله . فأكثروا  
 ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفئه الله  
 ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ،  
 ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

والخطبة موعظة رائعة ، يستلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه  
 أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة  
 ويدخلوا في رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة  
 والوسط المشقى على الهلاك ويجمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه في السر  
 والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكن في الصدور ، وليقدّموا من خشيته  
 وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا  
 في جنّاته . إنه يوم ما بعده مستعب ، فإما الجنة وشقيعها العمل الصالح ،  
 وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوة  
 الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، وينشروها  
 في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهى تقف

(١) اجتباكم : اختاركم .



منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضيء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التي تفجرت منها ، إذ كانت تسيل في نفسه ، بل كانت تشع بمعاني نورها ، كما يشع نور الشمس في السماء . وكان أحياناً ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير ، وهو خير تطبيع عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجرى على هذا النمط (١) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهتد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبيعن لكم ، فإنني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمن عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع (٢) ، وإن أول ريباً أبدأه ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة (٣) والسقاية (٤) . والعمد قود (٥) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يشس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

(١) البيان والتبيين ٣١/٢ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٢٥٠/٤ .  
 (٢) الموضوع : ساقط ومجرم .  
 (٣) السدانة : خدمة الكعبة .  
 (٤) السقاية : سقاية الحجاج .  
 (٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القاتل بمن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس ! ( إنما النسيء <sup>(١)</sup> زيادةٌ في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يخلدونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله ) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، ( إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ) : ثلاثة متواليات وواحد فَرْدٌ . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطئُنَّ فُرُشَكُمْ غيركم ، ولا يدُخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنتكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعصوهن <sup>(٢)</sup> وتمجروهن في المضاجع وتضربوهن . ضرباً غير مبرح <sup>(٣)</sup> . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان <sup>(٤)</sup> ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله . واستحلّتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد : أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحلّ لامرئٍ مسلمٍ مالٌ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لنمّ تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربّكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرهكم عند الله أتقاكم . إن الله عليمٌ خبير . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراس وللعاهر الحجر <sup>(٥)</sup> . من ادعى إلى غير أبيه أو تولّى غير وُواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه

عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإنارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه .

(٢) جمع عانية وهي الأسيرة ،

أي هن عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٣) الضرب غير المبرح : تضيقتوا عليهن .

(٤) عوان : أي لصاحبه ، وللعاهر الحجر : أي أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجما .

(٥) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ (١) ولا عَدْلٌ (٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .  
 وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكذب بِلَيْمٍ بالحمد لله والشهادة  
 والوصية بالتقوى حتى انتقل يبيِّن طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها  
 الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد  
 كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال .  
 وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يسبغى بعضها  
 على بعض . ولكي يقضى على كل سبب للحرب بينهم رَدَّ دم التثليل إلى الدولة  
 فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى النزاع عن حق الأخذ  
 بالثأر القديم ، وحرَّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيهِ بإعلان أن دماء المسلمين  
 وأمواهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردَّها على صاحبها ، وأن على  
 كل مسلم أن يبرِّعَ أخاه في ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرَّم  
 الرِّبَا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب  
 المدنيين له رِباهُ . وعلى نحو ما أسقط الرِّبا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم  
 أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن  
 عبد المطلب . ولم يسبق من ما ثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ،  
 وأوجب في قتل العمدة القود ، ولكن الدولة هي التي تقوم به ، وبذلك قضى  
 الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمدة مائة بعير .  
 كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوثام .

ويحذّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ،  
 واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حرُّمٌ : ذو القعدة  
 وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاتها بزواجها ،  
 فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يَحْفَظ لها كرامتها كما  
 يحفظ لزواجها نفس الكرامة . داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق  
 وإحسان .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهد من ننتهضه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابد وتفاخر ، فالتناس جميعاً لآدم ، ولا عربي عدناني ولا عربي قحطاني ، بل لا عربي ولا أعجمي ، فقد وضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهي معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن في الميراث وأنصبت ، وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرسي قاعدة مهمة في شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرّم ذلك تحريماً باتاً . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخثولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيّن في خطابه حدود الحياة الإسلامية وما ينبغي أن يأخذ به المسلم نفسه في علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغي أن يأخذوا أنفسهم به ، في سلوكهم حتى تزكرو نفوسهم ، وفي عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا في مراقي الكمال الإنساني .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران في دقة حسن منطلق الرسول في خطابه ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللوئين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برّاه الله منه إذ يقول في كتابه العزيز : قل يا محمد : ( وما أنا من المتكلمين ) . والذي لا شك فيه أنه كان يبلغ بعقوه وقوى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء ، وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابه أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التقييب (١) ، واستعمل المبسوط في موضع البسّط والمقصور في موضع القصّر ، وهجر الغريب الوحشي ،

(١) التقييب : التقيير وهو للتكلم بأقصى قعر اللم .

ورغب عن المهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشيّد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغناؤه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يتقمّم له خصم ، ولا أفحجه خطيب ، بل يبذل الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفسّاح<sup>(١)</sup> إلا بالحق ، ولا يستعين بالحلاوة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فتحوى<sup>(٢)</sup> ، من كلامه صلى الله عليه وسلم «<sup>(٣)</sup> . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذي رسمها ، وفجر بناييعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأما احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحسّ دقيق تبيينهما فيما روى عنه من قوله : « لا يقولن أحدكم خبّشت نفسي ولكن ليقل : لقيست نفسي »<sup>(٤)</sup> كراهية أن يضيف المسلم الظاهر إلى نفسه الخبيث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البريء من كل ما يُستكره ، اللفظ الذي يجبّب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقاته .

## ٣

## خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في الذروة من الفصاحة والبلاغة ، إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن برغيه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(٣) البيان والتبيين ١٧/٢ .

(٤) الحيوان ١/٣٣٥ ولقيت النفس : غشت .

(١) الفلج : الفوز .

(٢) فتحوى : دلالة .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وألصق أصحابه به ، وقد نوّه القرآن بذكره . فقال جلَّ شأنه : ( فأما من أعطى واتى وصدّق بالحسنى فسنيسره ليسرى ) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية . وقد أثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسّه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمّت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبّله ، وقال : بأبي أنت وأمي طيّبت حياً وطبت ميتاً . وخرج من عنده فبدر الصحابة بخطبته المشهورة<sup>(١)</sup> التي قال فيها : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت » ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى : ( إنك ميتٌ وإنهم ميتون ) ، وتلا : ( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ) ، ثم تلا : ( كل نفس ذائقة الموت ) ، ثم تلا : ( كل شيء هالك إلا وجهه ) . فثاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبادة في سقيفة<sup>(٢)</sup> بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعاه ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل السر . وتبعه عمر وأبو عبيدة في نثر من المهاجرين . وهناك خطب في الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن حمّد الله وأثنى عليه وقال<sup>(٣)</sup> :

« أيها الناس ! إني قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حقٍّ فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فسدّ دوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ

(١) الطبري ٢/٤٤٤ وزهر الآداب ٣٠/١ . (٢) عيون الأخبار ٢/٢٣٤ والطبري ٢/٤٥٠ .

(٢) الطبري ٢/٤٤٥ وما بعدها .

الحق له ، وأضعفكم عند القوى حتى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .»

وأخذت تتجلى مراقفه العظيمة ومآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قبيل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منوني عقلاً (١) مما أعطوه النبي لحامدتم عليه » ، وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم . وإذا أخذنا نقرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظماً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله في خطبة له (٢) :

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم الله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدتدوها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قدركوها لمن خلفهم ، فقلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركيزاً (٣) . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .»

واستنَّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو في وصاياه يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا

(١) المقال هنا : كناية عن البعير .

(٢) (٣) الركن : الصوت الحلق .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

للمأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصور ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول (١) :

« أيها الناس ! قِفُوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تتغلثوا (٢) ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تنقروا (٣) نخلًا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة . وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . »

وواضح مما تمثلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوحى ظاهر اللفظ إذ قد يُظنُّ أن النفي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله (٤) .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صني رسول الله . وقد أعزَّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرُّ به منه ويتخذة موضع مشورته ، حتى توفى وخلفه أبو بكر ، فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يرد عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً ، وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدة عزم ، مجتهداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتم فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكاليء والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء (٥) ، فما هو إلا

(٤) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٢ .

(١) الطبرى ٢/٤٦٣ .

(٢) تغلثوا : تخونوا في النوى .

(٣) تقمروا : تستأصلوا وتقطموا .



أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يتهنئ بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفي بقوله في إحدى مواضعه (١) :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، وزرقتكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمَّ بها بني آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمةٌ وصلت إلى امرئٍ خاصةً إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبيهم شكرها ، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَخْلَقُونَ في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمودُ مع الفتح العظام في كل بلد . . . فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمساعدة إلى مرضاته . »

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الخنيف في أقطار الأرض ، وهو ان ينتشر إلا بالقوة التي تُعزِّز الحق وتُعلى سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن تراث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يُبهرز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف الخلق ، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب (٢) :

« أين الطُّرَّاء (٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ( لِيُظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ) والله مظهرٌ دينه ، ومعزُّ ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون ؟ » . ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

(١) الطبرى ٢٨٣/٣ .

(٢) الطبرى ٦٣١/٢ .

في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يُصَدِّها إلا الرجل المسكيت<sup>(١)</sup> الذي يعرف الفرصة والكفّ .

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه أُرتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعَدَّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرتج عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فملاً النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس<sup>(٢)</sup> :

« إنكم في دار قُلُوعَةٍ<sup>(٣)</sup> وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صُبْحْتُمْ أو مُسِيَّتُمْ . ألا وإن الدنيا طُوبيت على الغرور ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرّنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها ومَتَّعُوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : ( واضرب لهم مثلاً الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هَشِيماً تَدْرُوه الرياح وكان الله على كل شيء مُقْتَدِراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ) . »

وامتحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحَدِّثُوا فتنق هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطِروهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي على ما يقضى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلّبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحار بهم .

(١) المكيت : الرزين المتبصر في الأمور . (٢) قلمة : انقلاع أى أنها لا تقوم .

(٣) الطبرى ٣٠٥/٣ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صيفين ، ثم كانت خُدعة التحكيم ، وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو في كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً منوهاً لا يُشَقُّ غُبارُه ، ومن مواظبه قوله (١) :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وأذنتْ بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلتْ وأشرفتْ باطلاع ، وإن المصمار (٢) اليوم والسباق غدأ . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أملة قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أملة ، ومن قصر في أيام أملة قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أملة ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب في أصحابه حائثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة (٣) له بأخيرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الحسف ، ومنع النصف (٤) . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزؤهم قبل أن يغزؤكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عُقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهيرياً ، حتى شئت عليكم الغارات ... فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ... حتى صرتم هدفاً يرمى وفيئاً ينسهب ، يُغار عليكم ولا تغرون ، وتغزون ولا تغزون .. قد ورىتم (٥) صدرى غيظاً ، وجرّ عتموني الموت أنفاساً (٦) ، وأفسدتم على رأبي بالعصيان والحيدلان . »

(٥) ورىتم : ملائم ، وأصله من ورى القمح

جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ،

وهو الجرعة من الماء .

(١) البيان والتبيين ٥٢/٢ .

(٢) المصمار : الزمن الذي تضمر فيه الخيل

للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤) النصف : الإنصاف .

وقد خلف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر مما يُنسب إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرته وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون<sup>(١)</sup> ، واختلفوا في واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفي أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفي الثاني سنة ٤٠٦ . ومن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان<sup>(٢)</sup> الاعتدال وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان<sup>(٣)</sup> . وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى<sup>(٤)</sup> ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسّمه باسمه : نهج البلاغة<sup>(٥)</sup> ، وذكر ذلك أيضاً في كتابه « مجازات الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على علي<sup>٣</sup> قديم . فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن له أربعمئة خطبة ونيقاً وثمانين يتداولها الناس<sup>(٧)</sup> .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعول على شيء منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يجلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

(٤) كتاب الرجال (طبعة بومباي)

ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف

الرضي (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد)

ص ٢٢ ، ٤١ .

(٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤/٤٤١ .

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن

خلكان ، وراجع مرآة الجنان للياقبي ٣/٥٥٠

وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٥٧ .

(٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو)

٢/٢٠١ .

(٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد)

٤/٢٢٣ .

تشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهي في كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعاني وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

## ٤

## الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلّ شأنه : ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلت الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ) . ومن تمام هذا التنويه القسم بالقلم في قوله تعالى : ( ن والقلم وما يسطرون ) وبالكتاب في قوله سبحانه : ( والطور وكتاب مسطور في رق منشور ) . وتردد في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف في مثل قوله تبارك وتعالى : ( بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ) ، وقوله : ( قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس ) وقوله : ( رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة<sup>(١)</sup> ، وقد حثّ القرآن على استخدامها في المعاملات ، يقول عزّ سلطانه : ( يا أيها الذين آمنوا إذا ندد آيتكم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما أمره الله فليكتب وليُمثل الذي عليه الحق ) . ومن غير شك كانت هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفظوه .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته - كما قدّمنا - بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياهمم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحضرمي . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب<sup>(١)</sup> .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستخدَم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع موثيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والموثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد قدم لها بحث عن مقدار الثقة بها، وجمهورها مما لا يترقى إليه الشك . وهي تفتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطورها للنثر الكتابي عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطوَى فيه من تعاليم الدين الخفيف وحدوده وفرائضه . وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغى عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهي أمة

(١) الوزراء والكتّاب الجهشيارى (طبعة الحلبي)

يعلموها سلطان الله الذي يُرَدُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شره .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التي تربط بين أفرادها، وهو يوضح هذه العلاقات في داخل العشائر كدفع الدية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التي يُشرف عليها الله ورسوله، وهي علاقات وثقتها روابط الدين توثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الديني الجديد، الذي يلغى الفوارق القبلية، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجز ثأراً بل عقاب عادل بالمثل في القتل وغير القتل .

ونحصى في تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التي كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية<sup>(١)</sup> والتي نصّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ». ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، ومن دعاه النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمرائها وولاة شرق الجزيرة من قبل كسرى ، وكذلك جنوبيها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدة مع أهل نجران<sup>(٢)</sup> ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية . . . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبي بكر وعمر التي كتبها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم في

(١) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والنشر ص ١٣ .

والخلافة الراشدة ( طبع لجنة التأليف والترجمة . (٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفي اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمراءهم . ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه<sup>(١)</sup> إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحت تؤدى تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصالح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعقده .

ويتولّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتد كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفّ وعمل صالحاً قبيلَ منه وأعين عليه ، ومن أبى فلن يُعجز الله وقوتل حتى يُقرّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمرء الأجناد ضمّته نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يرسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد<sup>(٢)</sup> : وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه لعمر : وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّاً وعدلاً فذلك علمي به ورأى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت . ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » .

وولّى عمر ، فتمت في عهد فتوح إيران والشام و مصر ، ومع كل بلد تُفتتح كان أمرء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ . (٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .



عن مراسلتهم في كل ما بهم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا ( بيت المقدس ) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضوع مشهور، وفيه يقول (١):

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريتها وسائر ملتها : أنه لا تُسكَنُ كنائسهم ولا تُهدَم ولا يُسْتَقَصُّ منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولائه في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة ، وهي تمضى في البيان والتبيين على هذا النحو (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في مجلسك وجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البيّنة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائر بين المسلمين إلا صلحاً حرماً حلالاً أو أحلّ حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرسلك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بيّنة أمدأ ينبت إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنى للشك

وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عُذولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حقدٍ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنينا<sup>(١)</sup> في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودراً عنكم بالبيئات والأيمان. ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق، التي يُوجب الله بها الأجر، ويُحسن بها الذخر، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، ولو على نفسه يكفهِ الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله. والسلام عليك.»

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة. وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضائه أن يرجع فيه. وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُشير له الحكم اجتهاد برأيه معتمداً على القياس. ويجعل للمدعى أمداً ينتهي إليه. ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً، إلا أن تستنقِ عدالته فلا تصح شهادته. ويوضح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذى بهم ولا يتنكر لهم. وقد ترك وصية<sup>(٢)</sup> للخليفة من بعده تُعدّ دستوراً رقيقاً للحكم، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يؤخذوا به من الرفق.

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة. وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويبدع، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه. فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيبت في العصر رقيقاً بعيداً لم نكن مغالين. إذ وسّعت كل الحاجات السياسية التي جددت،

(١) ظنينا : متها .

(٢) البيان والتبيين ٤٦/٢ .

وكل ما أُعطي للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بممارسة العهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاياته في الحرب والسلام . وخلفه على فكرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة<sup>(١)</sup> التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيقة . وكان الرسول عليه السلام هو الذي ذلّلها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطبقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غابوا عليهم من جهة أخرى، ولعمر من بينهم في ذلك القيدُ المعلن إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .



الكتاب الثاني

في عصر بني أمية



## الفصل الأول مراكز الشعر الأموي

١

### المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت في هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة في عهد علي<sup>١</sup> ثم إلى دمشق منذ معاوية فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الديني ، كما ظلت مستقرّاً لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة ودماثة . وهيات لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع وما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بمحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالغوا في تجميلها وزخرفتها<sup>(١)</sup> ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيقُ الأجنبي الذي اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليرُوى عن الزبير بن العوّام مثلاً أنه خسّف وحده ألف عبد وأمة<sup>(٢)</sup> . ومنذ أن دون عمر الدواوين كان يُفرض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغدقون عليهم إغداقاً<sup>(٣)</sup> ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير في الخلافة .

كل ذلك أعدّ لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هي الفترة التي انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي (طبعة) (٣) الفخرى ص ١٢٧ واليعقوبي ٣٥٨/٢ باريس ٢٥٤/٤ .  
(٢) نفس المصدر ٢٥٤/٤ .  
والأغاني ٢٢/٧ .

الانتفاض باهظاً في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة في سماءها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شيء ، فقد تجنّبت السياسة ، ونقرأ في أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة<sup>(١)</sup> ورافلين رجالاً ونساء في الثياب الحريرية<sup>(٢)</sup> وأنواع الطيب والعطور<sup>(٣)</sup> ، وبالغ النساء خاصة في اتخاذ صنوف الحلى والجواهر<sup>(٤)</sup> .

وطبيعي أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاطل الذي يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في لهو برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو ، إذ عُنِيَ بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت في أثنائها نظرية الغناء العربية التي نقرأ رُقمها في كتاب الأغاني تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هي التقييل الأول والتقييل الثاني وخفيف التقييل والرّمّل وخفيف الرمل والهَرَج ، وميَزوا مَجْرَى الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلاً : تقييل أول بالوسطى وخفيف تقييل بالسبابة وخفيف رمل بالبينصر .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبي يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراض فإن كبار المغنين الأولين في المدينة يُؤنّسُ عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسي بجانب غنائهم العربي<sup>(٥)</sup> ، وكان هناك من يَشْخَصُ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم<sup>(٦)</sup> . على أنه ينبغي أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربي نُقلت نقلاً عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوتت في صورة عربية مستقلة . وما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبي ولدوا في بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسي . وكانت العادة أن يبدأوا

٢٧٨ .

(١) ابن سعد (طبعة أوروبا) ١٢٦/٤ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/١ ،

(٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغاني ١٣/٦

٣٢٢/٨ .

والعارف ص ٢٧٤ والأغاني ٣١٠/١ .

(٦) أغاني ٣٧٨/١ .

(٣) أغاني ٢٦٢/٩ .

(٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٢/٨ ،



بالغناء العربي ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدخلوا ألحانه في غناء العرب . وما يدل على ما نزع من أكثر الآلات الموسيقية التي يتردد ذكرها في هذا العصر قديم مثل الصنّج والمزهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والظمبور عُرِفَت في العصر الجاهلي .

على كل حال نهضت المدينة في هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها في ذلك مكة كما سئرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدين جميعاً لم تُسبقا إلا قليلا للعصور التالية كمن تضيفه إلى نظريته التي استحدثتها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك في ذلك عامتهم وخاصتهم وعبيّادهم وزهادهم <sup>(١)</sup> وقضاةهم <sup>(٢)</sup> ، حتى لتؤثر عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنى بها في إمارته لهم <sup>(٣)</sup> . وكان من أشرافهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقصد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء <sup>(٤)</sup> ، وقد تخرج في هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة في هذا العصر طويس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن <sup>(٥)</sup> وأول من صنع المزج والرمّال في الإسلام <sup>(٦)</sup> ، وسائب خاثير مولد ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربي <sup>(٧)</sup> ومعبّد وهو إمامهم في الغناء غير منازع ، وابن عائشة ومالك الطائي وعطرّد ويونس الكاتب ويُنسب إليه أول كتاب في الغناء والأغاني ونسبها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة الميلاء وجميلة وسلامة القيس وحبابة وسلامة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسمع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

(١) أغاني ٢/٤٠٢٣٨/٤٠٢٢٢/٨٠٢٢٤ . (٥) أغاني ٣/٢٩ .

(٢) أغاني ٨/٢٧٧ . (٦) أغاني ٤/٢١٩ .

(٣) أغاني ٩/٢٥٠ . (٧) أغاني ٨/٣٢١ .

(٤) المعوى ٥/٣٨٥ .

بالمغنين والمغنيات ، ويسعدُ أبو الفرج منهم في أغانيه عشرات<sup>(١)</sup> ، ويقصّ علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء في المدينة من رقى وازدهار ، إذ كانوا يتغنون الغناء المصحوب بالجووقات الكبيرة<sup>(٢)</sup> ، والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة<sup>(٣)</sup> . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا في المدينة فقط ، بل أيضاً في مكة<sup>(٤)</sup> ، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة<sup>(٥)</sup> .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة في هذا العصر لفن الغناء تنميته وترقيه ، ورقيةً إنما هو رمز لما أصاب مجتمعا من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرفه والنعيم . وكان يلتقى في هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشعب ، وكان ماهراً في إضحاك معاصريه لابنكته ونواده فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتطّفق كتب الأدب بدعاياته وفكاهاته<sup>(٦)</sup> .

ولع في هذا المجتمع كثيرات من النساء قدنّ المرح فيه والظرف وعلمن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سَكِينَةَ بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج في أغانيه ترجمة<sup>(٧)</sup> ، صور فيها جمالها وبهاءها وقارها وأخذها بأسباب الزينة حتى إنها عُدت بتصفيف لحمة شعرها كانت النساء يقلدنّها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها في جممتها . وكانت ظريفة مزاحة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تفسح في مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن يلزنا مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كى يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المهذب . ولعلنا الآن نفهم

- 
- (١) أغاني ١٨٦/٨ وما بعدها .  
 (٢) أغاني ٢١٨/٨ ، ٢٢٧/٨ .  
 (٣) أغاني ٢٢٦/٨ .  
 (٤) أغاني ١٨٨/٨ ، ٢١١/٨ .  
 (٥) أغاني ٢٠٩/٨ .  
 (٦) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الساسي) ٨٣/١٧ .  
 (٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٧/١٤ وما بعدها .

حزن أبي قَطيفة الأموي على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول (١) :

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَاءُ بينهما      أشهى إلى القلب من أبواب جَيرونِ  
ويقول (٢) :

أقطعُ الليلَ كلّه باكتئابٍ      وزَفِيرٍ      فما أكاد أنامُ  
إلى أشعار كثيرة (٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .  
وفي هذا الجو الرقيق الذي زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرّب في بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تاماً . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسريّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقهاء المشهورين عروة ابن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أرقطة وابن هرمة . وممن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١ ، (٢) أغاني ٢٩/١ .  
(٣) انظر ترجمته في الأغاني ١٢/١ وما بعدها .  
الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .

وإذا أخذنا نقرأ في شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يتجسّر في الحب والغزل ، وهو شيء طبيعي ، دفعت إليه حياة الشباب المترف في المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقاً بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة<sup>(١)</sup> ، ولكن هذه المعركة انتهت بهما ، ولا تبتقى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بني أمية طلباً لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحرص<sup>(٢)</sup> وموسى شهوات<sup>(٣)</sup> ، وأخيه إسماعيل بن يسار<sup>(٤)</sup> . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفي الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغي أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما في المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذي كان يتفق وترف البيئة والذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثمّ طبع هذا الغزل بطوايع غنائية قوية ، إذ كان في حقيقته أغاني تُصحبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوايع في جوانب كثيرة من حيث الكمّ ومن حيث الكيف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا - تحت تأثير الغناء - إلى الأوزان القصيرة والحزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحملوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعر أغنيةً يوقّعها عليه<sup>(٥)</sup> ، وكان بين الشعراء من يُحسن وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذينة<sup>(٦)</sup> ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد وسلامة القسّ ، وقد ترجم لهما صاحب الأغاني .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها في كل ما وصفناه من

- (١) أغاني (ساسي) ١٣/١٤٤ . (٤) أغاني ٤/٤٠٨ .  
 (٢) أغاني (دار الكتب) ١/٢٩٧ و ٤/٢٤٨ . (٥) أغاني ٢/٢٣٨ وطبعة الساسي ٢١/١٠٧ .  
 (٣) أغاني ٣/٣٦٥ . (٦) أغاني (ساسي) ٢١/١٠٩ .

مظاهر الحياة والحضارة وفرن الغناء الحديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل . وكانت مثلها تفرق في ثراء واسع ورثة الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان في حجورهم من أموال التجارة في العصر الجاهلي ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس في عصرنا ، إذ كانت تنقل السِّلَع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فُرض لأهلها من أعطيات ورواتب في دواوين الخلافة وما قَسَمَ فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يُنفى عليهم كل سنة بما يسدُّ خَلَّة كل محتاج .

فكرة لم تكن تقلُّ في هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التي تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبَتْ « بالرُّقْط » لاختلاف ألوانها أحضَر لها بنائين من الفرس<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى<sup>(٢)</sup> . ومعروف أنه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته<sup>(٣)</sup> . وقد عُنِيَ كثير من الخلفاء ومن ولاتها الذين أُنثروا في الفتوح باستنباط العيون فيها وغرس النخيل والأشجار في ضواحيها<sup>(٤)</sup> من ذلك ما يروى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسري عامله عليها أن يُجْرِي له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة في أصل « نَسِير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قَصَب من رصاص انتهى بفوارة تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم<sup>(٥)</sup> .

ولم تَسْغُرْ مكة في دور وقصور وعيون فحسب ، بل لقد أخذت تفرق إلى آذانها في الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة<sup>(٦)</sup> ، ونفر يلبسون مقطعات الخَزِّ والسندس والديباج والحلل الموشاة

ص ١٦٤ و الأزرق ٤٤١/١ وما بعدها .

(٥) اليعقوبي (طبعة أوروبا) ٣٥١/٢ .

(٦) أغاني ٦٦/٥ .

(١) أغاني ٢٨١/٣ .

(٢) أغاني ٢١١/١ .

(٣) الأزرق ٣٩٢/١ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن )

على كل لون<sup>(١)</sup>، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم<sup>(٢)</sup>. وبالغ النساء في ذلك كله وفي اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر<sup>(٣)</sup>.

واكتظت مكة - كما اكتظت المدينة - بالرقيق الأجنبي الذي نهض بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفههم. وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة وأصحابه في المدينة، فهم دائماً يلتقون، حتى ليخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلديتين ضاحية للأخرى. وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم، ومن مقدميهم وكبارهم في مكة ابن مسجح الذي اشتهر بأنه أول من غنّى الغناء المتغن، وأنه «نقل غناء الفرس إلى غناء العرب»، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبريطانية والأسطوخوسية، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً، وتعلم الضرب، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم، وألقى منها ما استقبحة من الثبرات التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب، وغنّى على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعد<sup>(٤)</sup>. وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات في مكة، ومن أنبهم وأشهرهم ابن محرز، وهو أول من غنى الرمّل<sup>(٥)</sup>، وابن سرينج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طويس وغيره من مغنينا<sup>(٦)</sup>، وكان أول من ضرب على العود الفارسي بالغناء العربي، والغريز وكان لا يسبح في الندب والنياحة، والأبجر، والهدلى. ومن مغنيات مكة سميّة، وبغوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبي ربيعة. ومكة إن لم تُعرف بدار كبيرة كدار جميلة في المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعد نادياً من نوادي الغناء.

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يشغفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(٤) أغاني ٢٧٦/٣

(٥) أغاني ٣٧٩/١

(٦) أغاني ٣٢١/٨

(١) أغاني ٦٥/٥

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ ، ٤٧/٣

(٣) أغاني ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨/٨ وانظر ابن

هد (طبعة أوروبا) ٣٤٣/٨

مكة جميعاً حتى فتحها وهم من مثل عطاء<sup>(١)</sup> بن أبي رباح وابن<sup>(٢)</sup> جُريج وقضائهم من مثل الأوقص<sup>(٣)</sup> الخزومي . وتبع ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي ، كان خفيف الروح ، وفي كتاب الأغاني ترجمة<sup>(٤)</sup> طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل الثُريّا<sup>(٥)</sup> بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعقد فيه ندوات يؤمها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلاً ، إذ كانت الثريا مولاةً للغريص ويحي قيسل وسمية .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كل ليلة على أوتار العيوان والطناير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعد هذا كله شعراء مكة لأن يجري جمهور شعرهم في الغزل والحب . وربما كان أهم شاعر مكّي تعلق بالهجاء والمديح عبید الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذ مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّاحيه ومداحي أخيه عبد العزيز وإلى مصر ، ولكن حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غراره العرجي . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة ، ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سُريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرّقصه<sup>(٦)</sup> » .

وكل ما قلناه عن تأثر غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصب انصباباً على غزل أهل مكة ، وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غلب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

(٥) أغاني ١/١٢٢ ، ٢٠٩/١ وما بعدها

وفي مواضع متفرقة .

(٦) أغاني ١/٢٨٤ .

(١) أغاني ١/٢٥٧ .

(٢) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) أغاني ٢/٣٦٧ .

(٤) أغاني ٣/٤٥٠ .

استولى عليه استيلاءً بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تبادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونظرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

وما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يروى عن العرسجي الشاعر المكي من أنه كان يتزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفند<sup>(١)</sup> . ويلقانا هناك شاعران كلفا بالغزل هما محمد بن عبد الله النميري ويزيد بن ضببة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يقدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر<sup>(٢)</sup> الوادي .

## ٢

## نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجدًا وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرعي وطلب الكلاء، فهي تعيش - كأسلافها في الجاهلية - معيشة متبديية فيها غير قليل من الشطّاف .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعي ، وظل تربص القبائل

(٢) أغاني ٧/٨٥ .

(١) أغاني ١/٣٩٣ .



بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحاد الذي كان عليه القوم في الجاهلية ، بسبب نهى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحول حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة ، وكان ولاية بني أمية في نجد وبادي الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زجّوا به في السجون . غير أن بقية من الشر والشجار بقيت ، وهي بقية استتبت ظهور بعض قُطَاع الطرق من أمثال طهّمان<sup>(١)</sup> بن عمرو الكلابي الشاعر ، كما استتبت غير قليل من شعر الفخر والهجاء ، على نحو ما نجد في مهاجاة<sup>(٢)</sup> شبيب بن البرصاء الذبباني لعقيل بن علفمة وأرطاة بين سهيئة ، ومهاجاة<sup>(٣)</sup> ابن ميادة الذبباني للحكم الحضري .

ودفع شظف المعيشة في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاية في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثم كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُبعد إذا قلنا إن شعراء شرق الجزيرة من ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تنسّد به رحلاته إلى خراسان .

ومرّ بنا أن كثيراً من العرب المتبددين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرّدّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الديني راضية مرضية . ويظهر أن بعض عمّال الصدقات كان يقسوفى جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثم ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموي تشكو منهم شكوى مرة<sup>(٤)</sup> .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إمامة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سعت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبية ، وحقاً هو لم يُمت ذلك نهائياً ولكنه قلل من حدّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجر وا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظره في أخبار اللصوص للسرى ١٠٠ . (٢) أغاني ٢/٢٩٨ . (٣) أغاني ٢٧١/١٢ (طبع دار الكتب) . (٤) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة وما بعدها) .  
الرحمانية) ص ٣٠٥ .

بِرمِّمَتها . على أن هذا أحدث حزناً في نفوس كثيرين سبق أن وصفناه في عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن في هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعفاً في مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة في مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بنى عُدْرَةَ وبنى عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُدْرَةَ بن حزام وقيس ابن ذَرِيح ، ووقف طويلاً عند مجنون ليلي وشكَّ في حقيقته ، وهو يصوِّر بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبيّاً ، وكان عرب نجد وبادى الحجاز أفرغوا فيه وفي أفرادهِ صور البطولة التي فقدوها في حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربي ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسبهُ الأدباء والمؤرخون إلى بنى عُدْرَةَ ، لكثرة ما أنتجت فيه ، فيقولون غزل عُدْرِي وهو غزل يسمح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائريهم وأهلبيهم ، ودائماً يُصنِّق الحزن النفس وينقيها ويعدّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجِي حقّاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبادى الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْمٍ تنزح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها البينية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلي واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية في الرعوى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها البينية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعياً أن تقف قيس في الصفوف المعادية حين تواتبها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سنّحت حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حطَّبت قيس في حَيْمَلِه ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحَّاك بن قيس في الشام وزُفَر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا بالجزيرة . وتوالى الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامة ابن بَحْدَل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثارَت قيسُ الشام ، وأوقعتُ بها كلب وقبائل قضاة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة في مَسْرَجِ راهط ، قُتِل فيها الضحَّاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان في الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرة ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْسِر بن الحُباب السُّلمي ، وأخذ عمير يعير غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل : يوم الغُوَيْرِ ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان (١) . ووالد قيس غاراتها على تغلب ، ونكَّل بها عمير في غير موقعة ، وخاصة يوم ماكسين (٢) وكان بين مَسْنٍ أسرتَه قيس فيه القطامي ، فلما عرفه زفر خلَّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامي ينوه بمأثرته عليه طويلاً (٣) ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ في إحدى غاراته عليها بالحشَّاك إلى جانب نهر الرثار . ويثار له زفر في موقعة مَسْرَجِ الكُحَيْسِلِ حيث فنك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك في هذه الأثناء يَدَه عن قيس الجزيرة رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفي ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبد الملك أن ينتظر رجاء أن يُفْتَى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح في جذب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمناً اقتحم بجيشه العراق وقتل مصعباً سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة ففرض عليه . وبذلك أنفذت تغلب من مخالف قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الجحَّاف بن حكيم السُّلمي فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائلِ الجحَّافَ هل هو نائرٌ      بقتلي أصيبتُ من سُليمٍ وعامرٍ (٤)

(١) انظر الأغاني (طبعة السامى) ١٢١/٢٠ (٣) أغاني ١٢٨/٢٠ .  
 وما بعدها .  
 (٤) يريد الأخطل اليوم الذى قتلت فيه بنو تغلب عمير بن الحباب السلمي .  
 (٢) أغاني ١٢٧/٢٠ .

وكان الجحّاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الحُباب . وقد ظل  
يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سَوْفَ نَبْكِيهِمْ بِكُلِّ مَهْنَدٍ      وَنَبْكِي عُمَيْرًا بِالرَّمَاخِ الْخَوَاطِرِ<sup>(١)</sup>

ومضى الجحّاف، فأغار بقومه بني سُلَيْمِ سنة ٧٣ على تغلب عند موضع  
يسمى البِشْر، فنكّل بها تنكيلاً فظيماً، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبثّر بطون  
حواملهم ، وكان ممن قتله ابن للأخطل : أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير  
أنه موهّ على بني سُليم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلقوه وهم لا يعرفونه .  
ولما رأى الجحّاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم  
خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمنّه ،  
غير أنه أزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْر فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألّه  
الجحّاف بعد ذلك ونَسَسَكَ<sup>(٢)</sup> .

وإنما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جنداعة بين  
قيس من جهة وكتب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح  
فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع في كل مكان النار ولا العار ، واشتطوا  
في القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودةُ العصبية القبلية على هذا النحو هيأت في قوة لعودة أشعار الفخر  
والهجاء ، ففي كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالوَيْلِ والثبور ،  
ويقضي الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري بأشعارهم ، ونجد  
من ذلك آثاراً في الطبري ينشدها مع الأحداث في موقعة مرج راهط<sup>(٣)</sup> وغيرها ،  
وآثاراً أخرى كثيرة في كتاب الأغاني<sup>(٤)</sup> ، فقد تراص شعراء كلب من أمثال جِوَّاس  
ابن القسْعَطَلِ وعمرو بن المَحَلَّةِ ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل ،  
كما تراص شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحُباب وجهم

(٤) الأغاني ( طبعة دار الكتب ) ١٢ / ١٩٨

وما بعدها و ( طبعة الساسي ) ١٧ / ١١١

وما بعدها ، ٢٠ / ١٢١ وما بعدها .

(١) خط الرمح : اهتز في يد فارسه .

(٢) أغاني ١٢ / ١٩٨ وما بعدها .

(٣) الطبري ٤ / ٤١٨ .

القشيري وابن الصنمّار المخاربي ، وأخذ كل فريق يسريش سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، فالتهب الهجاء والفخر التهاوبا .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والقطامي وأعشى تغلب وأعشى بنى شيبان ونابعثهم . وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

## ٣

## الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يبسنى لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية ، حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش الحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد حُطّطت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية في شريقيها والعدنانية في غربيها ، ولم تلبث أن حُشدت حسب أنسابها في سبع خطط ، خطة أو سبُع لكنانة وحلفائها وجديلة ، وخطة أو سبع لقضاة وغسان وبسجيلة وخشعهم وكيندة وحضرموت والأزد ، وخطة أو سبع لمذحج وحمير وهمدان وحلفائهم ، وخطة أو سبع لتيمة وسائر الرّباب وهوازن ، وخطة أو سبع لأسد وغطفان ومحارب والنمير وضبيعة وتغلب ، وخطة أو سبع لإياد وعكّ وعبد القيس وأهل هجر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع (١)

(١) طبري ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون في كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طي<sup>١</sup> ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هي الأخرى ذكراً في الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدخل القبائل بعضها في بعض .

وكان يَكْنُف الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريتان ومنتزهات وديرة كثيرة<sup>(١)</sup> ، وبمجرد أن نزلها العرب نزلها معهم بقايا الحيوش الساسانية التي انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان تقييهم يسمى ديباسم ، فنُسبوا إليه ، وُسِّمُوا حمراء ديلم<sup>(٢)</sup> ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التي خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبي طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة ، ووقعت بين البلدين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة علي والكوفة . ويدخل أهل البصرة في طاعة علي ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ في صدورهم إحتن لأهل الكوفة . ويخرج علي بجوشه إلى لقاء معاوية في صفين ، وتخدم المعركة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفتين المتحاربتين . ويكون التحكيم .

ويخلص الأمر لمعاوية فيولّي على الكوفة المغيرة بن شعبة ، ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرن فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُستورد ابن عُدَّة الخارجي حين ثار عليه ، فأنبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونه وجماعته<sup>(٣)</sup> به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلفه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضيق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطرَّ حُجْر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة في معجم البلدان لياقوت .

المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .

(٢) طبرى ١٤٣/٤ وما بعدها .

(٣) فتوح البلدان للبلادري ( طبعة المطبعة

ارتفع فيها صوت الشعر<sup>(١)</sup> ، وتغلب زياد عليه وعلى المتتمردين معه ، وأرسله في نفر منهم إلى معاوية ، فقتله في سنة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس في الكوفة ضد الحكم الأموي ، واعتبر الشيعة حُجراً وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم<sup>(٢)</sup> . وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضةً شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطبغ بصبغة الشيع لعلّى وبنيه . ويتوفى زياد في سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحاك بن قيس الفهري ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ثم النعمان بن بشير ، ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمها إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة . ويأبى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بآب بن عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم في الطريق أن ابن عمه اضطرّ إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تحذوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبني هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضي إلى غايته فيقتل وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكربلاء على سمر القرات في العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفى يزيد بن معاوية ويضطرّ عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم في حق الحسين ونفورهم عن نُصرتهم ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حربٌ مَنْ قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُموا التوابين ، وولّوا أمرهم سليمان ابن صرّد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثاروا للحسين ، فالتقوا في عيّن الوردية ( رأس العين ) في وسط الجزيرة بجيش أموي على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان في المعركة ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعي إلى الكوفة ، وانتَهز المختار الثقفي الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من وإلى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

ينكّل بمن كان هواهم مع بنى أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همام السأولي (١) :

دَعَا يَا لثارات الحسين فأقبلتُ      كتابتُ من همدان بعد هزيع (٢)  
وآب الهدى حَقًّا إلى مستقرِّه      بخير إيابِ آبهُ ورجوع  
إلى الهاشميِّ المهتديِّ المهتديِّ به      فنحن له من سامعٍ ومطيع  
ولما استجمع الأمرُ للمختار أعدَّ جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل  
الشام ، فالتقى في سنة ٦٦ بجيش عليه عبيد الله بن زياد في «خازر» بين الموصل  
وإربل ، ودارت الدوائر على جيش عبيد الله وسقط في المعركة . ويولّي ابن  
الزبير على البصرة أخاه مصعباً سنة ٦٧ وتنشب الحرب بينه وبين المختار ،  
وتعلو كفة مصعب ، فيُقْتَلُ المختار وتدخل الكوفة في طاعة ابن الزبير .

ونمضى بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك في ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج  
وهي ليست ثورة شيعية ، وإنما هي ثورة أهل السيادة والشرف في الكوفة على  
بنى أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية (٣) . وكان سادة هذه  
البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم ولاية بنى أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة  
وخاصة الحجاج ، وأتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة  
على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه  
كثير من الموالى والقُرَّاء . ونازله الحجاج في وقائع كثيرة أهمها وقعة دبر الجماجم  
وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل في هروبه ، حتى وصل  
إلى ملك الترك مستجبراً ، وقُتِلَ أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوي الذي يخلصهم من الأمويين  
وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن علي بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة  
منشأً نظرية شيعية جديدة نُسبت إليه ، هي نظرية الزيدية . وما زال به شيعته  
يستعدونه على بنى أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج في سنة ١٢١ وما كاد

زرارة بن عدس التميمي وبيت الأشعث بن قيس  
الكندي وبيت حذيفة بن بدر القرظي وبيت  
ذي الجدين الشيباني .

(١) طبري ٤/٥١٠ .  
(٢) الهزيع : نحو ثلث الليل .  
(٣) من بيوت الشرف العريقة في الكوفة بيت



القتال يستحضرُ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلاً منهم ثبتوا معه حتى قُتِلوا عن آخرهم ، وقُتِل زيد ، وصُلِب بسوق الكُنَاسة في الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى في سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل في كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة في هذا العصر وأن ساداتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكتنون بغضاً لبني أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور في الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطرِّمَاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان يجوارهم من يُقبَلون على اللهو والحمر ، أمثال الأقيشير الأَسدي ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إلياس وحلبته .

ولم تتورط الكوفة في العصبية القبلية ، ولذلك كان حظها في شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر المهجائين في العصر هو الحكم بن عَبدَل . وقد مضى كثير من شعرائها يُعَسَى بمدح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبني أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأَسدي .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة في الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذي تكثر مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روعى فيها كما روعى في الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعت القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة لتميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولأذ أهل هجر بخطة عبد القيس ، ولأذت ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هي سوق المربد ، وقد تجولت في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقته .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسي الذي جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزيد جرد خرج عليه وقتاله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل في حلف تميم ، ودخل أيضاً في حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الزط والسيابجة والإندغار ، ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصبهانيين وأخرى من الحبش<sup>(١)</sup> . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيباً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيباً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هي الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهرات الكثيرة التي اشتقت من دجلة ، وخاصة نهري الأبلّة ومعدل .

وأخذ نزلتها من العرب المجاهدين في سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشخون بقيادة الأحنف بن قيس التيمي لعهد عمر بن الخطاب في أرض فارس وتغلغوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان<sup>(٢)</sup> . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان<sup>(٣)</sup> . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم<sup>(٤)</sup> ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلي ، يتقدم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بصفين ، وظلت موالية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة في العصر الأموي ، ونراها تُدعى معاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ في اجترار العصبية القبلية القديمة ، وكان مماهياً لذلك قيام حلفين كبيرين بها ، هما حلف تميم وقيس وحلف الأزدي وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها في حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزد عُمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغل هذه العصبية في توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شُغِلت الكوفة ،

(٢) طبرى ٣/١٨٩ - ٢٢١ - ٢٤٤ .

(٣) طبرى ٣/٣٥٨ وما بعدها .

(٤) طبرى ٣/٥١٠ - ٥١١ .

(١) انظر في تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح

البلدان للبلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبرى

٤/٢٦٥ ، ٤٧٨ ، ٥٥٩ ، ونقائض جرير

والفرزدق ٧٣٧ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقاً هو الحصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخْرِجهم بِأَسْرِهِمْ إلى غزو خراسان<sup>(١)</sup> ، حتى يتخلص من عناصر الشغب فى البلدين .

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضَرْبِ القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويبيع كثيرون منها ابن الزبير ، وَيُضْطَرُّ عبيد الله أن يرحها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أزره قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فنزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد و تميم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُسْنِكته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير ديه كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتتسع البصرة ابن الزبير ، ويولى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجه إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجْهز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبنى أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تتغلى بالعصبيات القبلية . ووكيلها الحاجج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده عملاً شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها ، فجنحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يعزل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

ابن مسلم الباهلي . ونراه يولّى على الجيوش الغازية في الهند محمد بن القاسم الثقفي .  
ومعروف أنه كان يُنصب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي . وولّى  
على أصبهان ختنته مالك بن أسماء الفزاري . ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها في  
البصرة لعهد الحجاج . ويتوفى سنة ٩٥ ويتوفى بعده الوليد بن عبد الملك ، ويخلفه  
سليمان أخوه ، فيولّى على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب . فيعظم شأن قبيلة  
الأزد .

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص  
منها ، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبية بينها ، لما يستتبع  
من المغنم السياسية في تولي الوظائف وغيرها . وولى الخلافة عمر بن  
عبد العزيز ، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب ، وولّى عليها عدى بن أرطاة  
الفزاري ، فعادت إلى قيس مكانتها . ويتوفى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك ،  
فيثور عليه يزيد بن المهلب ، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعه بينما تقف  
تميم وقيس بجانب ابن أرطاة . ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش  
الشام على المسرح ، ويقضى على ابن المهلب ، ويتبع فلول جيشه هلال بن  
أحوز المازني التميمي فيقضى عليها وعلى من بقى من المهالبة قضاء مبرماً . ويولّى يزيد بن  
عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة ، إذ سرعان ما ولّى عليه عمر بن هبيرة  
الفزاري ، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً ، ولم يُشر عليه الأزد وربيعه  
وحدما ، فقد أثار عليه أيضاً تميمياً وشاعرها الفرزدق . ويلى الخلافة هشام  
ابن عبد الملك ، فيعزل ابن هبيرة ، ويولّى خالد القسري لنحو خمسة عشر  
عاماً ، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً ، فاضطرّ الخليفة آخر الأمر أن  
يعزله ويولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي ، وبذلك رفعت قيس رأسها ،  
وعادت إلى سابق مكانتها . وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز  
وكان آخر ولايتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسي .

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبية القبليه ،  
ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها ، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته  
مصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل . ولم يقف الشعراء عند الخصومات

بين الحليّفين اللذين تحدّثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعة ومن انضم إليهما من القبائل البينية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأصافوها إلى ما تكوّن من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا وفا شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنمَّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد بمدحهم وبأخذون جوائزهم . ولنا أنفأ إن الخوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حطّان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كى تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدواة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون في صفوف بني أمية ضد معارضتهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير . ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن ينتظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، ومن اشتهروا منهم يزيد بن مفرغ الحميري . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالخمير مثل حارثة بن بدر الغداني التيمي ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسّحت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

### خراسان

مرّ بنا أن جنّدت البصرة هم الذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان ، فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبية القديمة . وكان مما زادها

ضراوة في نفوسهم أن قواد الجيوش المحاربة كانوا يكافأون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التي يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسند إليه ولاية يخص قبيلته بالعنم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهي موجدة أدت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلق فيها القبيلة كما كان يعلو الثأر على كل شيء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان في نفس الموقف الذي كان عليه أسلافهم في الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقاً كانوا يُشغفون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدون وينصرفون قليلاً عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهي حرب عادت فيها العصبية جندةً .

وقد بدأت هذه العصبية تستتعر هناك في نفس الوقت الذي بدأ استعمارها فيه بالبصرة . أي بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزدي وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعاة عبد الله ابن خازم السلمي القيسي . واستطاع أن يجمع السلطان في يده هناك معلناً ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يدخل في طاعته على أن يُطعمه خراسان سبع سنين ، وأبى ابن خازم ، غير أن نائبه في مرو : بكير بن وشاح التيمي ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية في طاعة بني أمية ، وولّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولي أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي . وضمّها إلى الحجاج ، فولّى عليها في سنة ٧٨ المهلب الأزدي بعد قضائه على الأزارقة . فقدمها يصحبه شاعره كعب الأشقرى الذي طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حبيب التيمي ونهار بن تَوْسعة اليشكري البكري وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفى المهلب سنة ٨٢ . فيولّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان مجراً فياضاً ، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه في فرغانة وخورزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويعزله الحجاج لعصبية الشديدة للأزدي

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولّى أخاه المفضل ، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولى قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً ، فضى يفتح في طخارستان وأرض السُّغند وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو في أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وليّ الخلافة بعد أخيه الوليد ، وكان حائقاً على الحجاج وعمّاله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعهم تميم ، لأنه كان قتل منها نفرأ من آل الأهم ، وأساء معاملة بطلها وكيع بن أبي سُود . وترغم وكيع حربته ، وانضمت إليه الأزد . وكانت مغیظة منذ عزّل المهالبة وانضمت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالى بقيادة حبيّان النبطي . وأخيراً خذلته قيس إلا نفرأ من عشيرته باهلة ، فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبي سُود ، فأخذ الناس بالعنف . فعزله . وولّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق . وقد مضى يتبع سياسة قبلية جامحة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملاأها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر في الغنائم . وتوفّى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحبسه لتأخره في أداء الفیء ، وكان قد بالغ لسليمان في بعض كتبه . فقال إن الفیء في بعض حروبه كان قناطير من الذهب . وزعم أن خمسَه بعد أن أخذ كل محارب حقه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفي رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أداءه حبسه حتى يؤدي ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزدیین ، وبذلك سقط أو هوى نَجْمُ الأزد ، وقد ولي عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي . ودخلت في عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يُظَلِّمَهَا عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسري والى العراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينيب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه في سياسته ، فالتهمت العصبيات القبلية التهاباً ، وامتشتت الحسام الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة الأزد وأحلافها

من جهة أخرى وقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وعُزلت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ، ووليها الحكيم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السَّلمى القيسى ، وخلفه عليها الجنيد بن عبد الرحمن المُرمي سنة ١١٢ وعُزل عنها في سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالي. وفي عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالي ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمي هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذا انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالي . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل في سنة ١١٧ وولى مكانه أسد القَسْرى للمرة الثانية فضيَّق الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد في العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفي ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفي عهده اشتدت العصبية اشتداداً مروّعاً واشتد معها الشجار والقتال في كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراساني . وبعثنا يصيح نصر بن سيار بجنوده أن يتداركوا الأمر<sup>(١)</sup> وتكون نهاية بني أمية .

ويفيض تاريخ الطبري بأشعار الشعراء في هذه العصبية التي احتدمت هناك وفي وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط في خراسان نشاطاً عظيماً ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية . وحيماً وجدت المضرين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فأهملت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن معبدان الأشقرى ونهار بن توسعة وثابت قُطْنَة والمغيرة بن حَبِيبَاء . ولعل من الطريف أن نعرف أن من هؤلاء الشعراء من كان فارساً مقداماً مثل ثابت قُطْنَة وكعب بن معبدان ، وكان من هؤلاء الشعراء الفرسان من يقع في حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبي جليدة اليشكري<sup>(٢)</sup> ، وأعشى همدان<sup>(٣)</sup> . وكان بين المحاربين كثيرون يحنون إلى ديار

(١) خبري ٣٦/٦ وما بعدها والأخبار الطوال (٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٥، ٣١٩/١١

(٣) أغاني ٣٤/٦ وما بعدها . لدينوري ص ٣٦٠ .



قومهم في الجزيرة، وخاصة حين يُلم بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيصة مالك بن الربيع في مرضه مشهورة<sup>(١)</sup>. وكان يحدث أحياناً أن يُحقق بعض البدو بالجزيرة العربية في حبسهم ، فيرحلوا إلى الثغور ، وينظموا شعراً يضمنونه حبهم اليائس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضّة على نحو ما نجد عند الصمّة القشيري<sup>(٢)</sup> الذي مات غازياً بطبرستان .

٥

### الشام

لا يكاد يُقاس الشعر في الشام لهذا العصر إلى ما انبث منه في خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت في جمهورها قبائل يمنية ، وهي لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبثه بيئة الشام في هذا العصر هو عدى بن الرقاع العاملي ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرزين أمثال جرير والفرزدق وعمربن أبي ربيعة .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح ، واصطدمت مصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء في موقعة مَرَجٍ راهط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعه طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

وما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعرُ الشعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين بمدحهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابنُ قيس الرقيّات ونصيب الأصوص وكثير وإسماعيل

(١) أغاني (ساس) ١٦٢/١٩ وذيل الأمال (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/٦

ابن يسار النسائي وطُريح الثقفى ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرَّاعى والعُجَيْر السَّلُولى وأرطاة بن سُهَيْبَة وعقيل بن عُلْفَة وابن مِيَادَة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمى وعبد الله بن الزَّبير الأَسدى وأعشى شيبان ونابعهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا فى الشام ، إنما كانوا يُلمتون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهلهم يُجْر الحقائق . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر فى هذه البيئَة هى العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره فى موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثمَّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة فى حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر فى هذه الحروب ، غير أن نفرأ من المضربين شاركوا فيها ، فعجى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به فى بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبى العيال الهُدَلَى حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم <sup>(١)</sup> واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً <sup>(٢)</sup> .

وعلى هذا النحو كان الشعر فى الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان فى جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموى القرشى نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

## ٦

## مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المصرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تتقدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار . فكان طبيعياً أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسة الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارة للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذى لاريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تنفس فى جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقاً نجد فيها أشعاراً كانت تُنظَّمُ من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبنوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى ززمة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر ( ٦٥ - ٨٥ هـ ) وأشعاره المنسوبة إليه لا تترقى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافتد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان يمدحونه لأخذ نواله ، وكان بجرأً فياضاً ، وغيناً مدراراً ، فقصدته الشعراء من كل صوب أمثال كثير وابن قيس الرقيات ونُصِيبَ وجميل وأيمن بن خرَيسم وعبد الله بن الحجاج الثعلبي . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فصر لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسي ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها  
وال على شاكلة عبد العزيز بن مروان ، يترحل إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك  
الشأن في الأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحها قبائل  
يمنية ، ومن ثم لم يزهو الشعر بها ، بل ظل ذاوياً ذابلاً إلى نهاية العصر .

وطبيعي أن يكون النشاط الشعري في اليمن خامداً ، لأنها لم تُجَلِّ فيه من  
قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبية والثورات التي تدلّع ألسنة الشعراء على نحو  
ما مرّ بنا في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء  
لمديح ولانها على شاكلة أبي دَهْشِيل الجمحي الذي اشتهر بمدح ابن الأزرق  
المنزومي والى ابن الزبير<sup>(١)</sup> . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر  
هذا العصر أخذ الشعري يجري على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر  
هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدي الذي ترجم له ياقوت  
في معجمه<sup>(٢)</sup> .

## الفصل الثاني

### مؤثرات عامة في الشعر والشعراء

١

#### الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك في اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة في أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة في جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها في الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه في العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرب الأقطار الأخرى التي لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يعد اللسان العربي خاصاً بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع في شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيا لتعربها نظام الولاء الذي أخذ به العرب أنفسهم في فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب في ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كي يدخلوا في هذا الولاء ويتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمت الفتوح أخذ العرب والموالي جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى في المدن التي اختطها الفاتحون لمسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط ، فإن العرب اختلطوا فيها وفي غيرها من المدن بالأجانب الذين قد ملأهم خدماتهم في الحرف والزراعة والتجارة ، وغصت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم في حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إمائهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسراى والحوارى . وظهر أثر ذلك في أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهمات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالي زواجاً وولاء لم يكن تأثر الموالى به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا في التعرّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة في المغرب والأندلس اللاتينية وفي مصر والشام اليونانية والسريانية وفي العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من ألسنة أصحابها لتحلّ محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عشية وضحاها ، فقد أخذ التعرّب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفي أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن نُحِيت إلى حد كبير - بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية - فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هي اللغة العامة التي يتخاطب بها العرب مضرّين ويميّنين في كل مكان ، وإن ظلت من الماضي آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالي تطور ثان في لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسّطة ، حتى يفهم عنهم الموالى ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفي أثناء ذلك كانوا يستعرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعرّبونها وقد يقونها على صورتها الأصلية . ويعرّض علينا الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التي جرت على ألسنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمّون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقِشَاء «خياراً» والمجدوم «ويذى»<sup>(١)</sup> وكانت الفارسية شائعة في البصرة ويتضح ذلك في دخول مقطع «آن» الفارسي على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران»<sup>(٢)</sup> «لعمربن عبيد الله بن معمر و«سُوَيْدَان» لسويد بن منجوف السَّدُوسِي و«خالدان» لخالد بن أسيد و«مهلبان» لآل المهلب. وما يدل على شيوع الفارسية في البصرة ما يروى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد في ولايته عليها سقاها نبيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقروراً إلى هِرَّة وخنزير، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المزرية، فتجمَّع حوله الصغار يسألونه بالفارسية أين جيست؟ أي ما هذا، فكان يجيبهم بلسانهم<sup>(٣)</sup> :

آبَ اَسْتُ نَيْدَ اَسْتُ عَصَارَاتِ زَيْبَبَ اَسْتُ  
سُمِّيَةَ رُوسِيَّ اَسْتُ

واست : من أفعال الكينونة ، وآب : ماء . وسمية : أم زياد . وروسبي : الخنزيرة . أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زيبب وسمية الخنزيرة ، ويريد البغبي . ويلاحظ الباحث أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس ، ولذلك سمو البطيخ «الخرْبَز» والسميظ «الرزق» ، وطعام الموصو وهو لحم ينقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء<sup>(٤)</sup> .

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية ، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجريز اللذين عاشا في البصرة ، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة «البندق والبياذق» المعروفة في لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْسِنْدَق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً ، يقول مخاطباً جريراً<sup>(٥)</sup> :

(١) البيان والتبيين ١٩/١ وما بعدها .  
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٣ وما بعدها .  
(٣) البيان والتبيين ١٤٣/١ .  
(٤) البيان والتبيين ١٩/١ .  
(٥) نقائض جريز والفرزدق (طبعة بيغن) ص ٧٨٧ .

ونحن إذا عدتْ تيممٌ قديمها مكانُ النَّواصي من وجوه السوابق  
 منعتك ميراث الملسوك وتاجهم وأنت لدرعى بيذق في البياذق  
 فهو يجعله بيذقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم في إحدى أهاجيه  
 للفردق كلمة « الرُّوذق » الفارسية بمعنى الحمل المتوفٍ وبه بعد سلقه ،  
 ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول في  
 جِعْتَنَ أخت الفردق<sup>(١)</sup> :

لا خير في غضب الفردق بعدما سلخوا عجانك سلخ جلد الرُّوذقِ  
 سبعون والوصفاء مهر بناتنا إذ مهرٌ جِعْتِنَ مثل حرِّ البيذقِ

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا  
 كان ابن مفرغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه  
 شعراء من الزنج مثل رباح<sup>(٢)</sup> ومن الهند مثل أبي عطاء السندی .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لكُنُتات هؤلاء الموالى ، فإن  
 كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً في نطق بعض حروف العربية التي لا توجد  
 في لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ في البيان والتبيين صوراً مما كان يجري على  
 ألسنة عامتهم من هذه اللكُنُتات ، حتى لتُفسد العبارة العربية إفساداً ، فن  
 ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جنُتد السلطان؟ فأجابه :  
 « شر يكاننا في هوازا وشر يكاننا في مداينها ، وكما تجيء تكون . » ولم يفهم  
 الحجاج ما يقول فقال له وبلك ما تعنى؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع  
 الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شركاؤنا  
 بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب » ، فنحن نبيعها على وجوهها<sup>(٣)</sup> ،  
 ومن ذلك أن أمَّ ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجُرُدان في عجان أمكم »

رياح أو سنيح بن رباح . انظر العربية ليوهان

فك هامش ص ٣٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٦١ .

(١) النقاظ ص ٨٤٥ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضاء

الجاحظ وأمال ابن الشجري (طبعة كرنكو)

١٩٤/١ وقد اختلف في اسمه هل هو رباح أو



فأبدلت الذال من الجرذان دالاً ونطقت العجين عجاناً . وقال بعض الشعراء  
في أم ولد له يذكر لُكْنَتَهَا :

أولُّ ما أسمع منها في السَّحَرِ تذكيرُها الأُنثى وتأنيثُ الذَكَرِ  
والسوءةُ السوءاءُ في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر<sup>(١)</sup> . وكانت آثار من هذه اللكنات تجرى على  
السنة فصحاء الموالى ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربي ، حتى  
أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلص ، نذكر من  
بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكْنَةَ فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين  
همزة والطاء تاء والسین شيئاً<sup>(٢)</sup> ، ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتَى زاده السُّلطان في الوُدِّ رفعةً إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلي  
فقال : « زاده السلطان<sup>(٣)</sup> » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً  
ينشد شعره<sup>(٤)</sup> . وكان أبو عطاء السندی وهو ممن عاشوا في العصرين :  
الأموي والعباسي يبذل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب  
ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبي غلاماً ينشد شعره<sup>(٥)</sup> .

ولم تجر هذه اللكنات على السنة الموالى وحدهم ، فقد تسربت منها بعض  
الآثار إلى السنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ،  
على نحو ما يحدثنا الرواة عن عبید الله بن زياد والى العراق ، إذ استبقاه  
أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبذل الحاء هاء  
والقاف كافا ، فإذا قال : أَحَرَّورِيُّ أنت ؟ قال : أهروري أنت ؟ وإذا قال  
قلت لك قال : كلت لك<sup>(٦)</sup> . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سلُّوا  
سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجو بقوله<sup>(٧)</sup> :

- (١) البيان والتبيين ٧٣/١ .  
(٢) البيان والتبيين ٧١/١ والأغاني (طبعة  
السامى) ٩٩/١٤ .  
(٣) البيان والتبيين ٧١/١ والكامل للمبرد  
طابعة رايت) ص ٢٦٦ .  
(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٩/١٣ .  
(٥) الشعر والشعراء ٢/٢٠٧ وراجع الأغاني  
(طبعة السامى) ٧٩/١٦ .  
(٦) البيان والتبيين ٢/١ .  
(٧) البيان والتبيين ٢/٢١٠ .

ويوم فتحت سيفك من بعيدٍ أضعفت وكلُّ أمرِك للضَّياع  
ويُرَوَى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكنته:  
« إن ابنك كما وصفت ولكن قَوْمٌ من لسانه »<sup>(١)</sup>

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك في مراكز الشعر  
الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث في العراق من هذه  
اللكنات كان يحدث في المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقترن بهذه اللكنات  
لحنٌ كثيرٌ بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غادٍ ولا رائحُ

وكان القياس أن يقول: « ليس غادياً ولا رائحاً »<sup>(٢)</sup> . ويظهر أن اللحن شاع  
على السنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عني خلفاء بني أمية بتأديب أولادهم  
ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، وما  
يروون من لحنه أنه نطق يوماً بكلمة « لص » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين  
قُتل أبو فديك الخارجي : « يا أمير المؤمنين قُتل أبي فديك » وقال مرة :  
« يا غلام رُدَّ الفرسان الصادقَان عن الميدان »<sup>(٣)</sup> .

واتسع هذا اللحن في الكوفة والبصرة حتى لئرى الحجاج المعروف بفصاحته  
ولسنه ونشأته في البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يعمر : أسمعني  
الحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أسمعني  
الحن ؟ قال : حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : في القرآن ، فقال : ذلك  
أشنع له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : ( قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم  
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن  
ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله ) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب .  
وكانه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتدأ به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع  
لي لحناً أبداً<sup>(٤)</sup> . وكان خالد القسري مع ما اشتهر به من فصاحته لحناناً ، ويُرَوَى

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

(١) البيان والتبيين ٣/٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٣٩٨ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبيون فإننا رمضانيون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل (١) :

وَأَلْحَنُ النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ قَاطِبَةً      وَكَانَ يُوَلِّعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الْخُطْبِ

ويروى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن أبي بُرْدَةَ وإلى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتبّع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه ، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّ هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تشاغلُ به واقصد لحجتك (٢) ، ومن عُرِفَ في خراسان باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم (٣) ، وكان سليمان بن عبد الملك في دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخّم اللحن كما يفخّم نافع بن جبير الإعراب (٤) .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرّد جماعة من العلماء وخاصة في البصرة لتتقى العربية مما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدم نقداً نحويّاً ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك القافية ، واشتهر في هذا الجانب عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحدّثه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجع حتى قال فيه بيته المأثور :

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلىَ هَجْوَتُهُ      وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلىَ مَوَالِيَا

فتعرض له ابن أبي إسحق قائلاً : كان يحسن أن تقول : مولى موال (٥) .

على أن الفرزدق لم يُعرّف بضعف في الحسّ اللغوي لأنه نشأ في البادية ، إنما الذى عُرِفَ بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا في المدن مثل الطّرمّاح والكُمَيْت . ويسجّل الرواة على الطرمّاح أنه كان يَسْتخدم الألفاظ البدوية الغربية في شعره استخدماً غير دقيق (٦) ، وأنه كان يَتكَلّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين في شعره (٧) . ولم

(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .

(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغاني (طبعة دار

الكتب) ٣٦/١٢ .

(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

(١) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٢١٨ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

(٤) البيان والتبيين ٢/٢١٧ .

يكن الكميّت يسلك في أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يشترك الطرماح في ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية<sup>(١)</sup> ، ويروى أنه أنشد ذا الرّمة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيّه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما يتقدّر إنسان أن يقول لك فيه أخطأت أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تحيى به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميّت بوجهة نظره واعتلّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له<sup>(٢)</sup> ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح في اللغة<sup>(٣)</sup> :

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم في الحضرة ولم يتعدّوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسي حتى يضع اللغويون خطأً فاصلاً بين الشعر القديم الجاهلي والإسلامي والشعر العباسي الحديث الذي سموه شعر المولّدين وهو خط فَنصَلوا به فصلاً تاماً بين الشعر الفصيح الذي يمكن الاستشهاد به في اللغة والشعر الذي لا يُعدّ به في هذا الاستشهاد . وقد اعتدّوا بشعر الجاهليين والحضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نقرأ من العرب أمثال الطرماح والكميّت متخذين النشأة في الحضرة مقياساً لمعرفة المشوب والمصفى والمعيب والسليم .

## ٢

## الإسلام وأثره في موضوعات الشعر

طبيعي أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون في مختلف الأجواء عسير وعظهم ونُسكهم ، سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغانى (دار الكتب) (٢) أغانى (سالى) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا في غير هذا الموضوع إلى ما أصاب الغزل بتأثير الإسلام من براءة وطُهر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادي الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة ، مما هيا لظهور الغزل العذرى بل لشيوعه ، وكأنما أضفى الإسلام على المرأة وعلاقاتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الخلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا في احتياط ، بل إذا هو يرى دنوها صعباً أى صعب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشف عن ألمه وعذابه في حبه ، وهى شكوى يضرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جميل (١) :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبها ولا بد من شكوى حبيبٍ يُرَوِّعُ  
ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع  
فياربُّ حَبِيبِنِي إِلَيْهَا وَأَعْطِنِي الـ مودَّةً منها أنت تعطى وتمنع

ونرى الغزلين جميعاً عذريين وغير عذريين يستلهمون في غزلم بعض الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران ، يقول عمر بن أبى ربيعة (٢) :

فديتكَ أَطْلِقِي حَبْلِي وَجودِي فإن الله ذو عَفْوٍ غَفُورٌ  
وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم في القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ،  
ونرى الفرزدق يفصل هذه الفكرة تفصيلاً في إحدى مقطوعاته ، فيقول (٣) :

يا أختَ ناجيةَ بنِ سامَةَ إنني أخشى عليك بنىَّ إن طلبوا دى  
فإذا حلفتِ هناك أنك من دى لبريئة فتحللى لا تأثمي (٤)  
فلئن سفكتِ دما بغير جريرة تُخلدِنَّ مع العذاب الألام

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار

ص ١١٧ .

(٣) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ٧٧٨/٢ .

(٤) تتحلل من اليمين : تستثنى .

(٢) ديوان عمر (نشر شوارتز) رقم ٤٠

ولئن حملتِ دمي عليك لتَحْمِلِنُ ثِقْلًا يكون عليك مثل يَلَمِّمُ<sup>(١)</sup>

وإذا كان الفرزدق توسّع في فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل في غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمين يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخّص في اللَّمَمِ ، يقول<sup>(٢)</sup> :

إذا قلتُ يوماً نَوَّلَني تَبَسَّمْتُ      وقالتُ معاذَ الله من فعل ما حَرُمُ  
فما نَوَّلْتُ حتى تَضَرَّعْتُ عندها      وأعلمتُها مارحَّصَ الله في اللَّمَمِ  
وواضح أنه يقصد باللمم النظرة وما يماثلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذي كان يخالط قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره تبرز بمعاني الحب وألفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، وثبّت هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عنهما ، ففضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية في الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغي أن يتحلّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بني أمية أن نفذوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار ديني لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثلاً حقاً للحاكم الأموي التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يُطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُشَيْبِير<sup>(٣)</sup> :

وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَعَ الَّذِي      أَتَيْتَ فَمَأْسَى رَاضِيَا كُلِّ مُسْلِمٍ  
وَقَدْ لَبِسْتُ لِبَسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا      تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمٍ  
وَتَوْمُضٌ أَحْيَانًا بَعِينٍ مَرِيضَةٍ      وَتَبَسَّمُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْتَظَمِ

(١) يللم : جيل على مرحلتين من مكة .

(٢) أغاني ٦/٣٢٨ .

(٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ١٢٣/٢ .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مَشْمُزًا كَأَنَّمَا سَقَتَكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمٌ (١)  
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مَوْنِقًا وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيٍ مَصْمَمٌ  
 وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلدِّيِّ أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٌ  
 وهو لا يَصور في عمر التقوى فحسب ، بل يَصور فيه أيضاً الزهد  
 والإعراض عن الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل الذي يَغُرُّ الناس من حوله . وتتسع  
 هذه الصورة في مديح الشيعة لأئمتهم على نحو ما نجد في هاشميات الكُمَيْتِ  
 وفي شعر أيمن بن خُرَيْمٍ إذ يقول في بني هاشم (٢) :

نَهَارِكُمْ مَكَابِدَةً وَصَوْمٌ وَلَيْلِكُمْ صَلَاةٌ وَأَقْتِرَاءٌ  
 وَلَيْتُمْ بِالْقُرَانِ وَبِالتَّرَكِّيِّ فَاسْرِعْ فِيكُمْ ذَاكَ الْبِلَاءُ

وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ومثاليته الروحية تأثر الهجاء ، إذ أخذ  
 الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا في وصفهم بالفسوق  
 والبغي والطغيان كقول جرير في آل المهلب (٣) :

آلُ الْمَهْلَبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَغَوْا كَمَا فَعَلَتْ ثُمُودُ فَبَارُوا

ودائماً يرى شعراء الشيعة الأمويين بالظلم وانتهاك الحُرُمَاتِ وتعطيل أحكام  
 الدين وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سُنَّةٌ من مثل قول الكُمَيْتِ (٤) :

لَهُمْ كُلٌّ عَامٌ بَدْعَةٌ يَحْدِثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا  
 كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِءْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنَزَّلٌ  
 تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلِ

واشدد لب الهجاء - كما قدمنا في غير هذا الموضع - بتأثير العصبية ،  
 ولم يكذب يَسْتَجُ منه خليفة ولا وال ولا شريف ، بل حتى القُرَّاءُ كان يتعرض لهم  
 الشعراء ، وخاصة إذا رأوهم يداجون أولى الأمر . فكانوا يرمونهم بالنفاق وأنهم

(١) مدوفاً : مزيجاً . (٢) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٢١٩ .

(٣) أغاني (ساسي) ٦/٢١ . (٤) الهاشميات ص ١٢٣ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة  
ساخراً من إحدى طوائفهم (١) :

أما النبيذ فلا يذَعْرَكُ شاربُهُ واحفظْ ثيابك ممن يشرب الماء  
قومٌ يُؤارُونَ عما في صدورهم حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداء  
مشمّرين إلى أنصافِ سوقهم همُ اللصوص وهم يُدَعَوْنَ قراء

ولعلنا لا نُبْعَدُ إذا قلنا إن شعر الحماسة كان أقوى في تأثره بالإسلام من  
شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنظَّمُ أكثره في الجهاد ، ومعروف أنه كان  
دائماً في صفوف المحاربين قُصَّاصٌ ووعاظٌ يحثُّونهم على الاستشهاد في سبيل  
الله، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثمَّ تحولت بعض القطع الحماسية التي نُظمت  
في خراسان إلى مواعظ خالصة ، كقول نصرين سيَّار (٢) :

دَعَّ عَنْكَ دُنْيَا وَأَهْلًا أَنْتَ تَارِكُهُمْ ما خَيْرُ دُنْيَا وَأَهْلٍ لا يَدومونا  
وَأَكْثَرُ تُقَى اللَّهِ فِي الْأَسْرَارِ مَجْتَهِدًا إنَّ التُّقَى خَيْرُهُ ما كان مَكُونًا  
واعلمْ بِأَنَّكَ بِالْأَعْمَالِ مُرْتَهَنٌ فَكُنْ لِذَلِكَ كَثِيرَ الْهَمِّ محزونًا  
وامنَحْ جِهَادَكَ مَنْ لَمْ يَرْجُ آخِرَةَ وَكُنْ عَدُوًّا لِقَوْمٍ لا يَصِلُونَا  
فأقتلهمْ غَضَبًا اللَّهُ منتصرا منهم به ، ودعِ المرتابَ مفتونا

وواضح أن نصرأ يزهد في الدنيا ومتاعها الفاني بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو  
إلى التقوى في السر والخفاء مذكراً باليوم الآخر وما ينبغي أن يُستخذ له من ذخِر  
الجهاد والذب عن دين الله ، وبيع النفس في محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة ، أما هم فآمنوا بأنهم على  
الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغي جهادهم حتى  
يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم  
ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُغْنِمُ سَسُ غمساً

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) (٢) طبرى ٤٣٣/٥ .



في العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفي سبيلها ، ونحس كأنما غاية كل خارجي أن يُقْتَلَ حتى يُكْتَبَ في سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربهم يسيل بالدعوة للاستبسال في الحرب وجهاد هذه الفرقة التي زاغت في رأيهم عن طريق الهدى ، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقرى في ملحمة الطويلة التي وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم<sup>(١)</sup> :

إنا اعتصمنا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَحَدُوا      بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا  
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا      ديننا يخالف ما جاءت به النذر  
وكان كثيرون يُقْتَلُونَ فِي هَذِهِ الْحُرُوبِ ، فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً ،  
مازجين نديهم بما ينتظروهم من نعيم الخلد ، كقول الضحاک بن قيس يرثي بهلولاً  
الصفري الذي خرج لعهد هشام بن عبد الملك وقُتِلَ<sup>(٢)</sup> :

يَا عَيْنُ أَذْرِي دَمَوْعاً مِنْكَ تَهْتَانَا      وَأَبْكِي لَنَا صُحْبَةً بَانُوا وَإِخْوَانَا  
خَلُّوا لَنَا ظَاهِرَ الدُّنْيَا وَبَاطِنَهَا      وَأَصْبِحُوا فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ جِيرَانَا  
وتعمُّ هذه الروح الدينية في مرثي من قُتِلُوا من العلويين منذ علي بن أبي طالب ، وقد تحوَّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح في مرثيهم ، كقول جرير في عمر بن عبد العزيز<sup>(٣)</sup> :

حُمِّلْتَ أَمراً عَظِماً فَاصْطَبَرْتَ لَهُ      وَقَمْتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عَمْرَا  
بل لقد طُبع الرثاء عامة بطوايع هذه الروح وما يُطَوَّى فيها من التسليم لله والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت ، وهو حتمٌّ في رقاب العباد ، وعليهم أن يتندرعوا لإزاده بالصبر الجميل .

(٣) الديوان ص ٣٠٤ .

(١) طبرى ٥/١٢٥ .

(٢) طبرى ٥/٤٦٠ .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر في نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذى الرمة أحسنا أن قلبه يمتلئ بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثر به الإسلام في الشعر الأدوى ، فإنه فجر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على السنة بعض الشعراء ، ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه في هذا العصر ، ونقصد ينبوع الزهد وما يُطوى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسرى في غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا الينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يُعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة في شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة في إبليس الرجيم<sup>(١)</sup> . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جراه الرجز في هذا الاصطباغ حتى لنجد رجازاً كثيرين يبدءون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثر أثراً واسعاً في نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظاً يعظون الناس ويذكرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرم من قرون بعدقرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصورين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والحياة ، والتحلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والحدود والأمانة .

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر . وبذلك فرض الإسلام على كل مسلم أن يشترك في الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسي ، وهو نشاط ينبغي أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا - في غير هذا الموضع - كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فَوَلِيَ عَلَى ، ونسبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صِفِّينَ بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتِل ، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموي وأصبحت وراثية في هذا البيت . وكان الأمويون في نظر كثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عَادَوْا الإسلام في أول ظهوره ، وبذلك كانوا يُعَدُّون مغتصبين للخلافة . وزاد في الحُنُق عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن عُصَمَاءَهُمْ ظلموا الناس . ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القُرَّاء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكون حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط في الناس ، واشترك منه نفر في بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقم بثورة منظمة . على أنه ينبغي أن نشير إلى ثورة المرجئة في خراسان بقيادة الحارث بن سُرَيْج ، وسنعرض لها في حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التي نشأت فيها المعارضة لبني أمية ، وقد بدأت معارضة الحجاز لهم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذ البيعة على ذلك من أهل الأمصار . فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولي الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشد دعوى هؤلاء الثلاثة في أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رُخْصَةٌ ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفِرَّ الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته . فخرج وقُتِل بكر بلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعاد بالبلد الحرام الذي لا يحلُّ فيه القتل وسفك الدم ، ولما يئس يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبير على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلح هذا الجيش في مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفي هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرفها ، ولما مَلَّوا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قلعنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطناير وتَضْرِبُ عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرَّاب والفتيان (١) » . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المرسي ونشبت بين الفريقين معركة الحرة المشهورة التي استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وقد بكأها من الشعراء كثيرون (٢) . وولَّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفى مسلم في طريقه ، فخلفه الحصين بن نمير السكوني ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءت بوفاته يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكَّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيئاً لذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير ، فإن الأمصار اضطربت على ولاية بني أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولائها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت في طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفي دعا لابن الحنفية ( أحد أبناء علي من سيدة من بني حنيفة ) في الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذي انتقم منه بحبس ابن الحنفية في سجن عارم بمكة ، وولَّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقبياع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفي وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول في طاعة ابن الزبير . وتلقانا في هذه الأحداث أشعار كثيرة مبنوثة في الطبري .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس في موقعة مَرَّج راهط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

معجم البلدان لياقوت .

(١) طبري ٤/٣٦٨ .

(٢) طبري ٤/٣٧٠ . وراجع كلمة حرة في

عبد الملك. فيترث في القدوم على مصعب بجيوشه ، حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفي . ويُسْتَعْلُ مصعب بعد المختار بالحوارج ، ويقدمُ عبد الملك فيقتضى عليه ، ويرسل الحجاج إلى ابن الزبير بمكة ، فيهمزه ويقتله في سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاه فضالة بن شريك هجاء مرأً<sup>(١)</sup> . أما مصعب فكان جواداً ممدحاً ، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر<sup>(٢)</sup> :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير في مكة دخل الحجاز في طاعة بني أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الحوارج وخاصة في البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة في الكوفة ، وكان فيه كثير من أشرف العرب الذين كانوا يعدون بني أمية غاصبين للخلافة . ومترّ بنا في غير هذا الموضوع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب . وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً ، مرة في عهد المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة<sup>(٣)</sup> ، ومرة ثانية في عهد مصعب ، ومرة ثالثة في عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجّل ذلك بعض الشعراء في أشعارهم<sup>(٤)</sup> .

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس في شيء إلى ثورات الحوارج التي امتدّ لها إلى أركان كثيرة في العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وعمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين علي ومعاوية وما كان من رضا علي به ، فقد تنادى فريق من جيشه : لا حُكْمَ إلا لله ، وبذلك شقوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلا هاجروا إلى حَرَّوراء بالقرب من الكوفة ، وبذلك سمو الحرورية . وُسِّمُوا أيضاً الحوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لثلمهم هم الذين سَمُّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

(١) أغاني ١٥/١ وانظر ٧١/١٢ وما بعدها . (٣) البقوي ٢/٢٦٢ .  
 (٢) انظر الأغاني ٣٣/٦ وابن سلام ٥٣٠ . (٤) طبري ٥/٣٣٨ وما بعدها .  
 والطبري ٤/٥٩٢ ، ٩/٥ وما بعدها .

( ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ). وَسَمَّوْا أَنْفُسَهُمُ الشُّرَاقَةَ أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ جَبَلٌ وَعِزٌّ : ( ومن الناس من يَشْتَرِي نفسه ابتغاءَ مرضاة الله ). وكان الذي أثارهم أنهم رأوا علياً ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فناروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً في سبيل الله وسبيل دينه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا علياً ، ولكنه نكّل بهم في موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجَم المرادى أن قتله لينال رضا امرأة منهم <sup>(١)</sup> . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فأرأوا فيه إماماً زائماً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغي أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهي ليست حقاً لقريش ، إنما هي حق لله وينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشياً . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التي ارتضت الأمويين وما ثبتوه من نظام الوراثة للخلافة في بيتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السحّر في كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالى والأتقياء . وزيارهم يُغمدون سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج في الكوفة بقيادة المستورد بن علفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقضى عليهم . وتهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظبئان وينتظروهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور في الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان في البصرة ، وهي لذلك تُعدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطروا معه إلى الاستتار . وخلقه ابنه عبيد الله فضى في سياسته ، وعنف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أدبنة ومن نسائهم البساجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمي عبيداده ألقان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة نكراء عند « أسك » فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة <sup>(٢)</sup> :

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٤٩ . (٢) طبرى ٤/٢٢٢ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

ألفا مؤمنٍ منكم زعمتم      ويقتلهم بآسك أربعونا  
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم      وركن الخوارج مؤمنونا  
همُ الفئةُ القليلةُ قد علمتم      على الفئة الكثيرة يُنصرونَا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرعة بن أسلم العامري ، فلم يكن حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركه أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجي ونفر معه لقاتله فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبي بلال في خروجه شعراً<sup>(١)</sup> وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سيُسيَّر لابن الزبير في مكة ، فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام . وتوفى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضَّ الخوارج من حول ابن الزبير ، إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفي مقدمتهم نَجْدَةُ بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق وعبد الله بن الصَّفَّار وعبد الله بن إياض ، وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يدعون لمحاربة السلطان ، وساعدتهم في شغبيهم فرار عبيدة الله بن زياد عقب وفاة يزيد إلى الشام وانتقاض تميم وحلفائها على الأزرق ومن آزرها . وانهز نافع بن الأزرق الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمَّال ابن زياد ، وتخلَّف عنه نَجْدَةُ بن عامر وابن الصَّفَّار وابن إياض ، إذ رأوه يغلو في آرائه ، وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب تحريم ذبائحتهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نساءهم وأطفالهم ، وسلك ابنُ الأزرق معهم القَعْدَةَ من الخوارج . وخالفه في كل ذلك الثلاثة الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفارَ دينٍ لتمسكهم بالتوحيد والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثمَّ يحلُّ التزوج منهم كما يحلُّ التوارث بينهم وبين الخوارج ، وحقاً يجب جهادهم ولكن لا يصحُّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

على أن القعدة منهم ليسوا كفاراً<sup>(١)</sup>. ومضى نجدة بأصحابه الذين يسمون بالنسجندات نسبةً إليه فنزل اليمامة، وأعلن هناك الجهاد، أما عبد الله بن الصفار الذي تنسب إليه الصفورية، لصفرة وجوههم من أثر العبادة<sup>(٢)</sup> فإنه لم يعلن الخروج، ومن أجل ذلك شاع القعود عن الجهاد بين أنصاره<sup>(٣)</sup>.

وقد انضمَّ إلى نافع بن الأزرق كثيرٌ من جموع الخوارج الذين دانوا برأيه، وهم يسمون الأزارقة نسبةً إليه، وكان من بنى حنيفة، إلا أن أكثر أنصاره كانوا من بنى تميم، ولم يلبث أن جهَّز جيشاً كبيراً اتجه به إلى البصرة فخرج إليه مسلم بن عبيد بن عبيد بن معمر عند سابور، وما زال يدافعه حتى كانت وقعة دولا ب على نهر دجيل في الأهواز وفيها قُتل نافع ومسلم معاً، وتوالت وقائع أخرى قُتل فيها عبد الله بن الماحوز خليفة نافع. وتصدَّى لهم المهلب في سولاف ثم في سيلي وسلبرى، وانسحب الخوارج إلى الجبال بقيادة الزبير بن الماحوز، وهزمهم عمر بن عبيد الله بن معمر عند سابور، فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان وتعقبهم هناك عتاب بن ورقاء وقتل أميرهم الزبير فولدوا عليهم قطري بن الفجاءة وتقدَّم بهم إلى العراق، فوجهَّ إليهم مصعب المهلب، فصدَّهم وما زال يناوشهم حتى قُتل مصعب، وتحوَّل الأمر إلى بنى أمية، فأرسلوا إليهم قواداً حالقهم الهزائم، حيثنَّذ وجهَّ إليهم بشر بن مروان المهلب عدوهم اللدود، وما زال يخضد من شوكتهم في رامهرمز وسابور وكرمان، وتعقبهم إلى جيرفت، ولم يلبث أن دبَّ الخلاف بينهم، وتجاربوا، إذ خرج على قطري جماعةٌ كبيرة من صفوفه بزعامته ابن عبد رب، وكان أكثرهم من الموالي. ورأى قطري أن ينسحب بجموعه إلى طبرستان، وبذلك قضى المهلب سنة ٧٨ على عبد رب وأصحابه قضاءً مبرماً، وتعقبت جيوش أخرى قطرياً وصاحبه عبيدة بن هلال، وكُلت جهودها بالنجاح،

(٢) الكامل ص ٦١٥ .

(١) الكامل ص ٦١٠ - ٦١٥ وانظر الفرق

(٣) نفس المصدر ص ٦١٥ والشهرستاني

بين الفرق للبغدادى ٦٢ وما بعدها والشهرستاني

ص ١٠٢ .

(طبعة لندن) ص ٩٠، ٩٣، ١٠٠، ١٠٢

وما بعدها حيث تحد تفصيلاً لآراء هذه الفرق .



وبذلك انتهت حروب الأزارقة التي استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير (١) .

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وُعمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة في عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه في اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره ، فولّوا عليهم أبا فُدَيْك سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم في سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قَضَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُفْرىة في الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرّح ، وكان من وعظّاهم ، فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم في سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتِل في إحدى الوقائع ، فنهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غزّالة وأمه جتهيزة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسة قواد أرسلهم إليه واحداً بعد واحد . ودخل في بعض غاراته مع زوجته غزّالة على الحجاج في الكوفة ، فهزّع إلى قصره ، وتحصّن به منه ، وبذلك جعله بالعار . وفي إحدى حروبه نفرّ به فرسه ففرق في نهر دُجَيْمِل سنة ٧٧ غير أن ذكره بقيت خالدة في ذاكرة الحوارج . وظل صُفْرىة الموصل بعده لا يهدءون فقد تجدد خروجهم في عهد يزيد بن عبد الملك بقيادة شوذب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده في عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسرى ، وكان آخر شوّارهم الضحّاك بن قيس الذي استولى على العراق في سنة ١٢٧ وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلباً خلفه فقال شُبَيْمِل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْمِي (٢) :

ألم تر أن الله أظهر دينهُ  
وصلّت قريشٌ خلف بكر بن وائلٍ

وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نازله بنفسه فقضى على ثورته .

(١) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧ - ٧٠٣ . في مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك

(٢) البيان والبيّن ١/٣٤٢ وانظر في الأحداث الطبرى الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباح المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه في سنة ١٢٩ عميد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق في حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجهز جيشاً بقيادة أبي حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويّاً لقيه في وادي القرى وهزمه هزيمة ماحقة فرّ على إثرها إلى مكة ، وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش ففضى على عميد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بنى أمية جهراً وسراً ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويضطرّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا في غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقبل الحسين فلا يخفّوا إلى نجدته ، ويُقتل في كربلاء ، ويتحوّل قتله في نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلا وحرّاً لا ذعة<sup>(١)</sup> . ثم تكون حركة التوّابين بزعامة سليمان بن صرد ، ويُقتضى عليها ، ويبكيهم أعشى همدان في قصيدة طويلة كانت من المكتّمات في أيام بنى أمية<sup>(٢)</sup> .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صرد قيادة الشيعة في الكوفة . فيخرج عنها ولى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن علي بن أبي طالب من امرأة من بنى حنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كيسان . وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية في الأسس التي قام عليها التشيع ، وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلي ، فهي ليست مفوّضة للأمة ، بل هي تنتقل بالوصية في علي وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالاً طريقته النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

ص ١٢٦ .

(١) انظر الطبري في حوادث سنة ٦١ ومقاتل

(٢) طبري ٤/٧٢ .

الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (طبع الخابري)

ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزباني

يغلو في تصور على ، حتى لتمد زعم أن به قبساً إلهياً ورثه عن الرسول ، وهو ينتقل من بعده في الأئمة واحداً تلو الآخر . وبذلك أشاع فكرتي الحلول والتناسخ ، وأيضاً فقد زعم أن علياً سيعود فيملاً الأرض عدلاً وعلماً ونوراً . وبذلك وضع أسس فكرة الرجعة . ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب ، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات .

وكل هذه الأفكار انزلت إلى الكيسانية<sup>(١)</sup> وزاد المختار عليها شعوذات<sup>(٢)</sup> كثيرة ، من ذلك أنه كان يقول بالبسداء على الله أى أن له أن يعدل في الأحكام كلما بدا له التعديل . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما اعتمق هذا القول لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحى إليه ، فكان إذا وعد أصحابه بحدوث شيء ، فإن حدث جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يحدث يقول : قد بسدا لربكم . وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر الذي يخلص العالم من شروره ، وكان يتكهن بالأسجاع ، واتخذ لأشباعه كرسياً غشاه بالديباج وقال لهم : إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وهو منكم بمنزلة التابوت في بني إسرائيل . وكان يكثر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء . وفي ذلك يقول سرقة<sup>(٣)</sup> البارقي وقد فتر عنه<sup>(٤)</sup> :

ألا أبلغ أبا إسحاق أني رأيت البلق دهماً مصمات<sup>(٥)</sup>  
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً على قتالكم حتى المات

(١) الطوال للدينوري ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه في القاهرة بتحقيق حسين نصار .

(٤) طبرى ٤/٥٢٧ وأغانى ١٣/٩ .

(٥) البلق : الحمامات . مصمات : لا يتخالط دهماً لون آخر .

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستاني ص ١٠٩ .

(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ - ١١١ .

(٣) انظر في ترجمة سرقة الطبرى ٤/٥٢٦ وما بعدها والأغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٨ ، ٦٨ ، ١٣/٩ ، وابن عساكر ٦/٦٩ والأخبار

ويقول أعشى همدان (١)

شهدتُ عليكم أنكم سبئيةٌ      وأنى بكم يا شُرطةَ الكُفْرِ عارفُ  
وأقسم ما كرسيتكم بسكينةٍ      وإن كان قد لُفَّت عليه اللفائفُ (٢)  
وإن لبس الثابوت فتناً وإن سميتُ      حماماً حواليه وفيكم زخارفُ (٣)

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية هذا العصر هي فرقة الزيدية أتباع زيد بن علي الذي ثار في الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقتل كما مرَّ في غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته في الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص في الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوز لإمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جَوَّزَ إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، وذهب إلى أن كل فاطمي عالم زاهد سخي شجاع قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية — في نشأتها — من أكثر فرق الشيعة اعتدالاً (٤) ، وشاعرها الأول الذي عاش يردُّ نظريتها الكُفُوسِيَّت . وهاشمياته مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غايته . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بمخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تقدّم من خراسان ، وتكون نهاية بني أمية .

ومن اختلف أن هذه الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية لعصر بني أمية وما جرّرت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بنفن وحروب داخلية لو لم تُشغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصبوفاً تتحارب وتتناجر في سبيل

(١) الحيوان ٢٧١/٢ .

ربكم .

(٢) فنن : جمع فنان وهو الغشاء .

(٣) يشير إلى الآية الكريمة التي كان يقصدها

(٤) انظر في الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل

الختار في اتخاذ كرسيه : ( وقال لم نبيهم إن

الحكم ومطامعهم ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمي أو من البيت الأموي أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حمالاً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير في المصلحة العامة للشعب وما ينبغي أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون في الخلافة ومن أحقُّ بها من سواد ، وكأئنا انقلبت الوسيلة غاية ، تُسْفَك من أجلها الدماء .

وفي كل الأحداث التي قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتها وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تروى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجري على كل لسان ، وانخذله الأمويون وخصوصهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

## ٤

## الحضارة

رأينا في الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا في نعيم الحضارة ، بما صبَّ فيهما من أدبواك ورقيق أجنبي وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصر والأمصار ونزلوا في بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون وتأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلئ بأموال الفسبي وغنائم الحرب وما رُسم لهم في دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما تُسرفوا ، إذ ابتنوا التصور . وطعِموا في أوافى الذهب والنقصة مختلف الأطعمة . ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة . وتعطروا بالمسك وغيره من أنواع الطيب . وكان الموالى من ورأهم يهتئون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف . إذ اكتظت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبنائهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شئ من الحضارة . فقد حكى أنه قدَّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا

على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجبتهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المتهرة في أمثال ذلك والقبومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترّف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرُثِي<sup>(١)</sup> فأثروا من ذلك وراء الغاية<sup>(٢)</sup> .

وقد ورث العرب في الشام المدن هناك ولم يمحّصروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا في نفس المدن والدور والقصور التي كانت قبل الفتوح تتنفس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً في سرعة تحضرهم ، إلا من آثر منهم العيش في البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التي أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قُطْر ، ثم توزَّعها في الناس من أهل الشام أولاً ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنَّ لهم ذلك معاوية الذي كان يتردُّ بالناس على أرجاء وادٍ رَحْب<sup>(٣)</sup> ، ويؤثّر عنه أنه كان يقول إننا تمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً<sup>(٤)</sup> . ويظهر إثم هذا النعيم في ابنه يزيد الذي عُرف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويتضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناءؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أهبة الملك لا في قصورهم التي كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها النسُسيّمْسَاء وصفائح الذهب وتراعى في أفنيها النافورات فحسب ، بل أيضاً في بيوت الله . وعناية عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبته التي تُعمدّ إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموي في دمشق وزخرفته بالمرخام والنسُسيّمْسَاء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها<sup>(٥)</sup> ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسط هذه العناية على المسجد الحرام في مكة ، فأحائه تحفة رائعة<sup>(٦)</sup> . وما يُبدّ كثرُ له من ما أثر أنه عمَّ بعضائه الخبذّ مين وقال لهم : لا تسألوا

(١) الخُرثي : أثاث البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية

(٤) طبري ٤/ ٢٤٧ .

(٥) الحيوان للجاحظ ١/ ٥٦ .

(٦) اليعتوي ١/ ٣٤٠ .

بمصر) ص ١٢١ .

(٣) طبري ٤/ ٢٩٨ .

الناس، وأعطى كل مُتَّعِدٍ خادماً وكل ضريح قائداً<sup>(١)</sup>. وتفننَ الناس لعهدِه في بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبَّ عنايةً على الملابس والمطاعم وتأثَّره الناس لعهدِه تأثراً واسعاً<sup>(٢)</sup>. وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى، فقال: إنه « يشرب الخمر ويلبس الحُلَّة قُوِّمَتْ بألف دينار... حَبَابَة عن يمينه وسَلَامَة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قَدَّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أظير»<sup>(٣)</sup> وقد أرسل في طلب مغنى الحجاز، فجاءه منهم كثيرون.

ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمول الجواهر والآلئ كما يحدثنا الجهشيارى<sup>(٤)</sup>، ويسرّوى الطبرى أن يوسف بن عمر حمل إلى هشام بن عبد الملك لآلئ حبَّها أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قُوِّمَ بثلاثة وسبعين ألف دينار<sup>(٥)</sup>. وقد بلغ الترف أقصاه في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء، حتى تحوّل قصر الخلافة في عهدِه إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو، ويقولون إنه « كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة، ويغيرها في اليوم مراراً كما تغير الثياب شغفاً<sup>(٦)</sup> ».

ومن المؤكد أن أفراد العرب في الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه في هذا الترف الآثم، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أتروفا، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية. وبالمثل تحضّر من نزلوا في النمسطاط والقيسروان والأندلس، وكانت كثرتهم من عرب الشام، الذين أصابوا حظاً من الحضارة قبل الفتوح لنزولهم قديماً في تلك البيئة المتحضرة.

وإذا ولّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرون تحضراً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبياتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحولت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقسّم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب (١) ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذري في فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة نهوله كثرة القطن التي تملكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفير وز حصين وحسان النبطي . وكانت الحمامات تدرّ في البصرة لهذا العصر أموالاً كثيرة ، حتى ليروى أن بعضها كان يُغلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يملكها العرب وحدهم ، بل كان يملكها أيضاً الموالى . وما يذكره البلاذري من حماماتهم حمام آعين مولى سعد بن أبي وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسواري .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة في بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذري منها قصر زربي مولى عبد الله بن عامر وقصر أبي نافع مولى عبد الرحمن بن أبي بكر وقصر ابن الأصهباني وقصر شيرويه الأسواري الذي سُمّي «هزارد» لأنه اتخذ فيه ألف باب . وما يدلُّ على مبلغ الثأق في بناء هذه القصور ما يُروى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يُعيّنه في بناء داره باثني عشر ألف جِدْع (٢) ، وكذلك ما يُروى من أن عميد الله بن زياد أنفق على داره هناك التي سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات (٣) ، وفي نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين (٤) .

وتبع ذلك كله الرفق والترّف في المطعم والملبس ، حتى لمرى نفرّاً من الأتقياء يلبس اللديباج والقلائس (٥) ، ونراهم يَكْنُون عن هذا التحول في حياتهم بأنهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ .  
 (٢) طبري ٢٤٦/٤ .  
 (٣) راجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة أ  
 (٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان والتبيين ٨٢/٢ .  
 (٥) ابن سعد ١٣٩/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٧ ق ١٥٣/١ .  
 البيضاء وانظر طبري ٤٠٢/٤ .



طعموا الحَرْدُقَ ولبسوا النَّمْرُقَ<sup>(١)</sup>. وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَلُ إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُرْوَى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس «ابعث إلى بعسل من عسل خَلَّار<sup>(٢)</sup>، من النَّحْلِ الأَبْكَارِ، من الدَّسْتَفْشَارِ<sup>(٣)</sup>، الذي لم تَمَسَّ النار<sup>(٤)</sup>». وما يصور هذا الرفه في العيش والتنعم ما يُرْوَى من أن عبيد الله بن زياد هياً لأبيه حين توفى ستين ثوباً ليكفنه فيها<sup>(٥)</sup> ، فلم يعا الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكفي الكفن الواحد .

وطبيعي أن يُعَمَّنُوا في ثنایا هذه الحياة الرَّغْدَةُ بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل<sup>(٦)</sup> والصيد<sup>(٧)</sup> والقَسْنَصُ ولعبي<sup>(٨)</sup> الشطرنج والزدوسنرى أن كثيرين تورطوا في إثم الخمر. وقد أخذت الكوفة تُعْنَى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حُسَيْنِ<sup>(٩)</sup> الحيرى وأحمد<sup>(١٠)</sup> النَّصْبِي ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار<sup>(١١)</sup> ابن رامين . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربي، إذ نجد في القسقاط ابن أبجر<sup>(١٢)</sup> مغنى المدينة .

ونَعِمَ العرب في خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفسح الغنائم، وفي كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذي ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ في أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إنى قد رت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم<sup>(١٣)</sup> ، ويُرْوَى أن مصعب بن الزبير في ولايته على العراق جاءه من هناك نخلة مصنوعة من الذهب ، عتاً كيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

- |  |  |
|--|--|
| (١) طبرى ٢٨٠/٥ . والنمرق : مفرد نمارق وهي الطنافس  | (٧) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ والشمر والشمر ٥٨٨/٢ . |
| (٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل .           | (٨) نقائص جرير والفرزدق ص ٧٨٧ .                    |
| (٣) الدسقفشار : كلمة فارسية معناها المعصور باليد . | (٩) أغاني (دار الكتب) ٣٤١/٢ .                      |
| (٤) البيان والتبيين ١٠٣/٢ .                        | (١٠) أغاني ٣٣/٦ .                                  |
| (٥) طبرى ٤١٥/٤ .                                   | (١١) أغاني (دار الكتب) ٦٠/١٥ .                     |
| (٦) البيان والتبيين ٢٥٧/٣ .                        | (١٢) أغاني ٣٤٦/٣ .                                 |
|  | (١٣) الجهشيارى ص ٢٩ .                              |

وأخضر ، وقد قومت بألني ألف دينار<sup>(١)</sup> . ويُروى أن الإصهبذ في طبرستان صالح يزيد بن المهلب في بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتي ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرنس ، وعلى البرنس طيلسان ولحام من فضة وسرقة (شُقَّة) من حرير<sup>(٢)</sup> . ويُقال إن الجراح الحكمي والبا لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقراً بملؤها ذهباً وفضة ويوزعها على من يدخل عليه من أصحابه<sup>(٣)</sup> . وكان الأمراء والدهاقين يتقدمون على ولاية خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قومت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسري بألف ألف ، وكانت قصرين : قصرأ من فضة وقصرأ من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة<sup>(٤)</sup> . وكان الولاية بيد ورهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُروى أن نصر بن سيار أعدَّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارحة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الطباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب<sup>(٥)</sup> .

ووسط هذه الأمواج من الأموال تحضر العرب في خراسان ، بل أُتُرفوا ترفاً شديداً ، حتى نرى بعض الولاية يقول إن فيسيء خراسان لا يبق بمطبخي<sup>(٦)</sup> ! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خِوان يُطعم عليها الناس<sup>(٧)</sup> . وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطيالسة والقلائس القصيرة والطويلة<sup>(٨)</sup> ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلفوا إلى سماع الطبول والمزامير<sup>(٩)</sup> ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضطُرَّ بعض الولاية لتفشيهِ في الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل<sup>(١٠)</sup> .

وفي كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفي كتاب الأغاني تراجم كثيرة لمن كانوا يُسرفون على أنفسهم في شراب الحمرا لا في خراسان فقط ، بل أيضاً

(١) الجهشيارى ص ٤٤ .

(٧) طبرى ٢٨٨/٥ .

(٢) طبرى ٢٩٥/٥ .

(٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان ،

(٣) بلاذرى ص ٤١٥ .

فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن

(٤) طبرى ٤٦٥/٥ .

سعد ٢٥٥/٦ ، ٢٠٢/٦ ، ٣٩٢/٥ ، ١٣٩/٥ .

(٥) طبرى ٥٣٣/٥ .

(٩) طبرى ٤٣٧/٥ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٨١/١٤

(١٠) طبرى ٢٨٣/٥ .

وطبرى ١٣٢/٥ .

في العراق وفي الحجاز ، ولم تكن الخمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت في المدينة طائفة من الخنثين ، كانوا يتشبهون بالنساء في ثيابهن وعاداتهن من مثل تصفير الشعر وتصفيفه وصبغ الأظافر بالحناء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن يُنزل بهم عقاباً صارماً<sup>(١)</sup>.

وطبىعي أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهن في قلوب الرجال ، ففتنن في زينهن تفنناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سُكينة بنت الحسين . ويروى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حَبَّات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة : لقد كان النوم أحبَّ إليَّ<sup>(٢)</sup> . ويروى الأغاني أن عاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته في الحج فقال لها : ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحجُّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرَّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا : هذه ماشطها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سنسنيها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهواج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى<sup>(٣)</sup>.

## ٥

## الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية في هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلي وجدول إسلامي وجدول أجنبي . فأما الجدول الجاهلي فيبدو في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٧١/٤ وما بعدها . (٣) أغاني ١٨٨/١١ .

(٢) أغاني ١٨٢/١١ .

أقبل العرب يعبثون من هذا الجدول عبثاً، وكأنما صُفِّمُوا عليه صفوفاً، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةَ راوية الأخبار اليمنية، ودَعْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ النَّسَّابِ والنَّخَّارِ بْنِ أَوْسِ العُدْرِيِّ وزيد بن الكَيْسِ التَّمْرِيِّ وشهاب بن مذعور وبنو الكَوَّاءِ وغيرهم كثيرون. وفي أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمي (١) :

وَحَكْمٌ دَعْفَلًا وَارْحَلٌ إِلَيْهِ      وَلَا تَرِحَ المَطِيُّ مِنَ الكَلَالِ  
تَعَالَ إِلَى بَنِي الكَوَّاءِ يَقْضُوا      بِعِلْمِهِمُ بِأَنْسَابِ الرِّجَالِ  
هَلُمَّ إِلَى ابْنِ مَذْعُورِ شِهَابٍ      يُنَبِّئُ بِالسَّوْفَلِ وَالْعَوَالِ  
وَعِنْدَ الكَيْسِ النَّمِرِيُّ عِلْمٌ      وَلَوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّمَالِ

وأما الجدول الإسلامي فيبدو في القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته . ثم في الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب علي وخصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعنى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير في اهتمامهما بمغازي الرسول . وكان هناك من عُنوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبه . وشعبة دينية تُعنى بقراءات القرآن وبالحدِيث النبوي وما يتصل بهما من تشريع وفقه . وقد أَلَّفَ أصحاب هذه الشعبة في كل بلد إسلامي مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلي رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن أَدِيْسَةَ والزُّهْرِيُّ وباليمن طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلي رأسهم الشَّعْبِيُّ وسعيد بن جُبَيْرِ وشُرَيْحِ بْنِ الحَارِثِ القَاضِي وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصري وقتادة وإيَّاس بن معاوية ومالك بن دينار وجراسان الضحَّاك بن مزاحم وبالشَّام شهر بن حَوْشَبٍ ومكحول والأوزاعي وبمصر الصَّابِحِيُّ ويزيد بن عبد الله البرقي .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى اخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين  
العامين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما ، وكان منهم  
معلمون لأولاد الخاصة<sup>(١)</sup> من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبدالصمد  
ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتابيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج  
الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلّمين بالطائف. ومن هؤلاء المعلمين الكُمَيْت بن  
زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة ، وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى  
خراسان الضحّاك بن مزاحم وفى الرّى الطرمّاح ، وفيه يقول بعض من شاهده  
هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عندهم وكأنهم قد جالسوا العلماء<sup>(٢)</sup> » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبي جاء  
العرب من ملابستهم للأُمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم  
من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني وطريقة  
استغلال الأرض وشقّ الترعّ والقنوات ، كما تعرفوا على طرق جباية الخراج  
وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر  
يستعينون بالأوليين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالآخرين فى دواوين  
مصر والشام ، وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك : إذ عُرِّبَت تلك الدواوين .  
وقد دفعتم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم  
الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد  
تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى  
فتحوها الثقافة الهيلينية : وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة  
دينية وغير دينية . وكانت تُعنى بهذه الثقافة مدرسة جُنُودِ يَسَابُور فى إيران  
ومدارس أخرى فى الرُّها ونصيبين وأنطاكية وقنّسرين وحرّان والإسكندرية  
كما كانت تُعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين للخاصة ومن يليهم

والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٧١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٢٣ .

٢٥١/١ البيان والتبيين

في هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، ومن اشهر منهم في هذا العصر «سويرس سيديخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوى وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعَمَّنُونَ بالمنطق الأرسططاليسى والفلسفة اليونانية<sup>(١)</sup>.

وطبيعى أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقى الذى كان يشرف على الشؤون المالية لغير خليفة أموى بأنهم كانوا يكثرون من جداله ، وله مصنفات مختلفة، منها محاوراة مع بعض المسلمين في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة<sup>(٢)</sup>. وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ما عند القوم من وجوه الاستدلال المنطقى ، حتى يستعينوا على دحض الشبهة ، ويدعوا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغى أن نلاحظ أن كثيرين من حَمَلَة هذه الثقافة الهيلينية المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طويلاً هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُترجم ، فقد كان أهلها يعرّبون تعريباً تاماً ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك ما يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومى يسمى ماريانس ليعلمه الكيمياء<sup>(٣)</sup> ، كما استعان بأصطفن القديم ، ويقول الجاحظ : « هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء<sup>(٤)</sup> » ويذكر ابن النديم بعض كتبه في ذلك<sup>(٥)</sup>. وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصرى أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً في الطب للقس أهرن بن أعين<sup>(٦)</sup> ، وقد ذكر الحكم بن

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٥) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة)

ص ٣٣٨ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ١/١٦٣ وتاريخ

الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليزج ص ٣٢٤

وانظر نقولا عن ماسرجويه فى الحيوان ٣/٢٧٥ ،

٣٦٤/٥ .

(١) انظر مقالة مايرهوف « من الإسكندرية

إلى بغداد» فى التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى

ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب

حتى (الطبعة العربية) ٢/٣١٤ .

(٣) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان)

٢٤٦/١ .

عبدل الكوفي أهرن وطبّه في بعض شعره<sup>(١)</sup>. ويروى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل لأرسطاليس<sup>(٢)</sup>. كما يروى أنه نقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية<sup>(٣)</sup>.

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة في عصر بني أمية إنما هي رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يوناني ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسي كى يتم ، أو كى تم دورته ، فقد كان كل شيء في هذا العصر الأموي يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربي دُعم في هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دَعَم نجد آثاره في ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار في كثرة المناظرات التي نشبت بين الآراء المختلفة في السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجع إلى أخبار الخوارج فستجدهم يثيرون الجدل في كل مكان ، وجداهم مع علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، ويروى أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم ، فجعل يبسط له من قوهم ويزين له من مذهبهم بلسان طلسق وألفاظ بينة ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع في خاطري أن اللجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبتت الله على من الحجة وقرّر في قلبي من الحق<sup>(٤)</sup> . وهذا رجل من عامتهم فما بالنّا بزعمائهم ، ويُسّيد المبرد في كتابه «الكامل» بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين<sup>(٥)</sup> ، وقد جعلهم

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وعيون الأخبار ٤/٦٢ . ص ٨١ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ . (٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣ .

(٣) راجع صفحات عن إيران لصاّدق نشأت

(٥) الكامل ص ٥٦١ . ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو المصرية)

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونجدية وصُفوية وإباضية، وشكازيد بن جُنْدَب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال (١) :

كُنَّا أَنَسَاءَ عَلَى دِينِ فَرَقْنَا      طَوْلُ الْجِدَالِ وَخَلَطُ الْجِدِّ بِاللَّعِبِ  
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالًا ضَلَّ سَعِيَهُمْ      عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم ، ومن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن علي بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعي ، وقد تحول شاعره الكمييت بأشعاره الملقبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة في المذهب الزيدي تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلا في مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفاء وفي مجالسهم العامة والخاصة ، وتُرَوَّى من ذلك مناظرة (٢) بين قَتَادَةَ والزُّهْرِيَّ في مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى (٣) بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . وتُرَوَّى أن الشَّعْبِيَّ الكوفي كان يجلس في مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه (٤) . وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أي اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السَّخْتِيَّاني يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف (٥) » ، وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل في آرائهم والتدقيق في مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُمُّوا أهل الرأي لغلبة القياس على فقههم (٦) .

وقد تجادلوا طويلا في مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام في الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجبسرية والمُرْجِسِيَّة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل التي أثرت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار في أفعاله أو هو

(١) البيان والتبيين ٤٢/١ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤٣/١ .

(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .

(٤) البيان والتبيين ٣٢٢/٢ .

(٥) البيان والتبيين ٩٨/٢ .

(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .



مُجْبِرٌ مَسِيرٌ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصري يدافعون عن الرأي الأول، إذ لو كان الإنسان مسيراً بتضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسَقَطَ وَعَدُّ اللَّهِ ووعيده.

واصطفَّ أمام القدرية أصحاب مذهب الجبر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر. وكان هذا المذهب يُرضى الأمويين، لأنه يَصْرِفُ الناس عن التفكير. في ولايتهم وتديبرهم لشئونهم، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به، ومن ثم نرى شعراءهم يردِّدون هذه الفكرة طويلاً على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup>:

اللَّهُ طَوَّقَكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى وَاللَّهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرْجِئَة فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل، فالؤمن مسلم وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية، إذ المعوَّل في الإيمان على التصديق بالقلب. وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جلَّ جلاله، ومن ثم رأوا إرجاء الحكم في أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم. وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة، لما تنهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه، ويلقانا منهم أبو رؤبة سنة ١٠٢ في نقر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب في ثورته على الأمويين<sup>(٢)</sup>. وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم في الكوفة من أمثال عَمْرٍو بن عبد الله بن عتبة الهُدَلِي، وناظرهم في آرائهم<sup>(٣)</sup>. ونرى عَمْرٍو يرجع من عنده: فيراً منهم، وينضم إلى الشيعة، مصوراً ذلك في أبيات تُنَسَّبُ إليه تجرى على هذا النقط<sup>(٤)</sup>:

وَأَوْلَ مَا نَفَارِقُ غَيْرَ شَكٍّ      نَفَارِقُ مَا يَقُولُ الْمُرْجِئُونَ  
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ جَوْرِ      وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ بِجَائِرِينَ  
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلَالٌ      وَقَدْ حَرَمَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٤٧٤.

(٢) ابن سعد ٢١٨/٦.

(٣) البيان والتبيين ٣٢٨/١.

(٤) طبري ٣٤٠/٥.

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلون دماء المسلمين مما كان سبباً في تعقب الأمويين لهم ، وقتلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لغيبان<sup>(١)</sup> الدمشقي .

ولم يُعَرَفْ هذا المذهب في العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار في خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنَة وهو من مُرَجَّة الجبرية ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول في تضاعيفها<sup>(٢)</sup> :

المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون أشتوا دينهم قَدَدَا<sup>(٣)</sup>  
 ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً من الناس شرُّه كما إذا ما وحدوا الصمداً  
 وما قضى الله من أمرٍ فليس له رَدٌّ وما يَقْضِ من شيءٍ يكن رَشْدًا  
 كلُّ الخوارج مُخْطِ في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا  
 أما عليٌّ وعمانٌ فإنهما عبدان لم يُشْرَكا بالله مُدَّعَبَا  
 ويتوقى ثابت ، ويظهر هناك جهنم بن صفوان أحد رؤس الإرجاء<sup>(٤)</sup>  
 ويضع يده في يد الحارث بن سُرَيْج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ،  
 ويُقْضَى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التي انبثق عنها هذا المذهب هي مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصري ومن تابعوه من القدرية يرون أنه مؤمن فأسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالاً عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسن عمرو بن عبَّيْدَ ليجادله فيه . فأقنعه واصل برأيه<sup>(٥)</sup> ، وبذلك فارقاً معاً مذهب الحسن ، وسُمِّيَا هما ومن

(١) انظر في ترجمته لسان الميزان ٤/٢٤٤ ؛

(٢) أغاني ١٤٠/٢٧٠ .

والمعارف ص ٢٤٤ وفي هذين الكتابين أنه كان

(٣) أشتوا : فرقوا . قَدَدَا : طرائق وفرقا .

قدرياً ولكن في الفهرست ص ١٧١ والمثل والنحل

(٤) انظر المثل والنحل ص ٦٠ حيث يوضح

(طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم

كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجمعية بيننا

فعداده في مرجئة القدرية . وراجع فيه المنية والأمل

بعض أصول مقالاتها .

لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

(٥) انظر في ذلك أمالي المرتضى ١/١٦٥ .

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ،  
تَسْنَدُهُمَا فِي ذَلِكَ دراسة مستفيضة لآي القرآن الكريم وعقل "دعماه بالمنطق وأدلته  
الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر  
الاعتزال وأصبح في العصر العباسي الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

ولنما أطلننا في هذا الجانب لنندل على أن العقل العربي في عصر بني أمية أمده تهر وافد  
كثيرة ، دعمته دوماً ، مما كان له آثار بعيدة في أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندمجين  
في الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات ، ويسوق الرواة من ذلك  
مجادلة بين ذى الرِّمَّة ورؤبة في القدر، وكان أولهما قدرياً وثانيهما جبرياً<sup>(١)</sup> . وتأثير  
هذه المجادلات تحوّل جرير والفرزدق يتجادلان جدالاً عنيفاً في عشيرتهما  
من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف في نقائضهما ،  
وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل  
النَّحْل . وكلُّ ذلك من آثار هذا التطور الذي أصاب العقل العربي ، والذي  
جعله يندفع في البحث والمناظرة والتدرب على جَسَع البراهين والأدلة في أي  
موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية  
تعليمية ، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكُمَيْت والظَّهْرِيّ يَحْشِدُونَ  
في أشعارهم أوابد اللغة وشواردها ، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرَّجَّاز  
وعلى رأسهم العَجَّاج ورؤبة أن قدّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

## ٦

## الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لا ريب في أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً في حياة الإنسان ، وبالتالي  
في كل ما ينتج من أعمال وآثار . وإذ أخذنا ننظر في حياة الشعراء لهذا العصر  
وجدنا للاقتصاد أثره العميق في اتجاهاتهم ، وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل

المادى الصريح في مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف في نجد وبيئات البوادي إلا برد ذلك إلى نعمة العيش وما كان يتسعم به سكان تلك المدن من ثراء عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبوادي من شظف العيش وخشونته ، ولا ننكر أثر الإسلام في نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة الاقتصادية ومدى عمله في النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع المديح في العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا برد ذلك إلى ظهور طبقة ضخمة من الأثرياء كانت انحلاطاً من الحكام الذين أداروا شؤون الدولة في الحجاج وغير الحجاج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من مديح ، يقول ذو الرمة (١) :

وما كان مالى من تراثٍ ورثتهُ      ولا ديةٍ كانت ولا كسبٍ مائتم  
ولكن عطاء الله من كلِّ رخلصةٍ      إلى كلِّ محجوب السُّرادقِ خضرمٍ (٢)

وقد مضى كثير من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو إليه نفوسهم من صور الترف مما أدت ، وخاصة في أواخر العصر ، إلى ذبوع شعر الخمر والحجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتمتع النزاع السياسي الحاد الذي نشب طوال العصر وتكونت بسببه فرق الزبيريين والشيعية والخوارج رأيتاه يعود في كثير من جوانبه إلى بواعت اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة ينثرونها على أنصارهم ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل الجينية التي جعل لها الأمويون معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن أن تتحقق إلا برد الأمر إلى الأمة لتختار أوليائه الصالحين ، ومضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً .

(٢) الخضرم : كثير الخير والجلود .

(١) الديوان ص ٦٢٣ .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاية بني أمية ومن كانوا يقيمونهم على شئون الحراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم في جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين في ذلك إلاّ ولا ذمة ، فالمهلب مثلاً حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجج لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم<sup>(١)</sup> ، بينما احتجج ابنه يزيد حين صُرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم<sup>(٢)</sup> ، ويقال إن راتب خالد القسري في ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصفي لنفسه - بوسائل غير مشروعة - ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرج منه ومن موظفيه يوسف الثقفى حين وليّ بعده العراق سبعين ألف ألف<sup>(٣)</sup> . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لنرى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة بن بدر الغداني التميمي حين ولي على سُرُق إحدى كور الأهواز<sup>(٤)</sup> :

أحارِبَ بَنَ بَدْرِ قَدْ وَلِيْتَ إِمَارَةً فَكُنْ جُرْدًا فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ  
وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة في نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوّر ذلك شكوى الراعي التي وجّه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجذبة أصابت قومه بني نَمَيْر . ومع ذلك ففرض عليهم السعاة فروضاً ثقيلة ، فلما لم يؤدوها صبّوا عليهم السّيّاط وأرهقوهم من أمرهم عُسْرًا ، ون قولُه في تلك الشكوى المريرة<sup>(٥)</sup> :

أَخْلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعَشْرٌ حُنْفَاءُ نَسْجُدُ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلَا  
إِن السَّعَاةَ عَصُوكَ يَوْمَ أَمْرَتَهُمْ وَأَتَوْا دَوَاهِيَ لَوْ عَلِمْتَ وَغُولَا  
فَادْفَعْ مَظَالِمَ عَيْلَتِ أبنَاءِنَا عَنَا وَأَنْقِذْ شِلْمُونَا الْمَأْكُولَا<sup>(٦)</sup>

(٤) الحيوان ٣/١١٦ والشعر والشعراء ٢/٧١٥ .

(٥) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي

(طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .

(٦) عيلت : أفقرت . الشلو : العضو .

(١) طبرى ٥/١٣٥ .

(٢) طبرى ٥/٣٠٣ وانظر ٥/٣١٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا)

٢/٣٨٨ ، ٥٥٠

وإذا كان هذا يحدث في نجد والبادية فما كان يحدث في العراق وخراسان أدهى وأمر ، فقد مضى الولاة وجباة الخراج يعتمرون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقاً والنفوس سخطاً ووجداً ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة في الحكم لا في عهد بنى أمية فحسب ، بل أيضاً في عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همام السلولي وجه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عماله في العراق ومن أقامهم هناك على الخراج ، وهو يستهلها بقوله (١) :

يا بن الزبير أمير المؤمنين ألم يبلغك ما فعل العمال بالعمل  
باعوا التجار طعام الأرض واقتسموا صلب الخراج شحاً أقسمه النفل (٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لخيا نهم في الحكم ومطالباً بحسابتهم على ما استخاصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحسرين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن ولي الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحط الجزية عن أسلموا من الموالى . وبعث على العراق وخراسان عملاً جديداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال (٣) :

إن الذين بعثت في أقطارها نبدوا كتابك واستحل المَحْرَمُ  
طلس الثياب على منابر أرضنا كل يجور وكلهم يتظلم (٤)  
ويناديه كعب الأشقرى من خراسان (٥) :

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئاب  
لن يستجيبيوا للذي تدعو له حتى تجلد بالسيوف رقاب

(١) أنساب الأشراف ١٩١/٥ وما بعدها .

(٢) النفل : غنائم الحروب .

(٣) البيان والتبيين ٣/٣٥٩ .

(٤) طلس : غير ، وهو يكتى بغيره الثياب

عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم

حقه : يظلمه إياه .

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

وَيُتَوَفَّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم. ويشور الحارث ابن سُريْنَج بخراسان في العقد الثاني من القرن الثاني مطالباً برفع الجزية عن أسلموا من الموالي ، ويتولَّى هناك نصر بن سيار في العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالي مثبتاً للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالي ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يترعون لهم أخوتهم في الإسلام. ويسوق المستشرقون دليلاً قوياً على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث في أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالي السواد في العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردهم إلى قراهم ونقش أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها <sup>(١)</sup> وظاهر الحادث عنف شديد في الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضطرَّ إلى ذلك لتعطل الزراعة في السواد وبالتالي تعطل الخراج الذي كان يُسفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التي كانت مفروضة على مسلمي الموالي ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُراء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح في إنكارها إلحاحاً حتى رُفعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في العقد الفريد ، صور فيه العرب يسيئون في المعاملة إلى الموالي لعصر بني أمية إساءة بالغة <sup>(٢)</sup> . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يضطهدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق في الكوفة والبصرة نسبته شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف <sup>(٣)</sup> . أما ما يلاحظه فلهوزن من أنهم كانوا يجارون في جيش المختار رجالة لا قُرسانا <sup>(٤)</sup> فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد في خراسان مثل حرَيْث بن قُتَيْبَة وأخيه ثابت وحيَّان النبطي وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

(١) طبري ١٨٢/٥ وتاريخ الدولة العربية  
 (٢) الحبر ص ٣٤٠ .  
 (٣) تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ٢٣٧ .  
 (٤) العقد الفريد ٤٠٣/٣ وما بعدها .

وقد مرّ بنا في حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُسْتَنْغَلُ في البصرة . فهم لم يكونوا في مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعلّ مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله<sup>(١)</sup> بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة<sup>(٢)</sup> ابن سنان مولى بني مسمع وكثير<sup>(٣)</sup> بن سيار مولى بني سعد ومسلم<sup>(٤)</sup> بن المسيب مولى بني بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده في إحدى قصائده يفتخر بمعدّ مدخلا فيها قضاة كما يفتخر بالموالي ذاكرة أنهم ينتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول<sup>(٥)</sup> :

أنا ابنُ الثّرى أدعو قضاة ناصري      وآل نزارٍ ما أعزّ وأكثرا<sup>(٦)</sup>  
وأبناء إسحاق اللبوث إذا ارتدها      محامل موتٍ لابسين السّنورا<sup>(٧)</sup>  
فيوما سراييلُ الحديد عليهم      ويوما ترى خزا وعصبا منيرا<sup>(٨)</sup>  
إذا افتخروا عدّوا الصّبهد منهم      وكسرى وآل الهُرْمزان وقبصرا<sup>(٩)</sup>

ويصرّح بأن الموالي أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا      أبٌ كان مهدياً نبياً مطهراً

ولا تهنا صحة الأسطورة التي ردّها جرير في هذه الأبيات ، والتي تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهنا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالي شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

- (١) ديوان الفرزدق ( طبعة الصاوي ) ص ٢ .  
 (٢) الديوان ص ١٠٦ .  
 (٣) الديوان ص ٢٨٧ .  
 (٤) الديوان ص ٨٨٧ .  
 (٥) ديوان جرير ( طبعة الصاوي ) ص ٢٤٢ .  
 (٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم عدد الثرى .  
 (٧) السنور : السلاح . وهو يصف بذلك الفرس .  
 (٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من الثياب النفيسة . منيرا : منسوجاً بالصب وله أهداب ووشى .  
 (٩) الصبهد : لقب أمراء إيران .

(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم



على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً في نفس القصيدة ينوّه بمولى من البربر  
يسمى وضاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُعلماً فأورث مجداً باقياً أهلَ بَرَبِراً  
والحق أن العرب اندمجوا في الموالى منذ الأيام الأولى في الفتح ، فقد  
ساكنوهم وتزوجوا منهم ، وعربوهم عن طريق نظام الولاء الذي شرعه الإسلام ،  
إذ أدخلوهم في عداد قبائلهم ، وكأنما أردوا بذلك أن يُلغوا جنسياتهم إلقاءً ،  
فهم عربٌ ولاءً . واستشعر الموالى ذلك في عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نَظَمَ  
الشعر وجدناهم يقفون في صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح  
أبنائها الأصليين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس  
فقد عاش لقبيلته يحامى عنها ويصول<sup>(١)</sup> ، ومثاله هرون<sup>(٢)</sup> مولى الأزد وثروان<sup>(٣)</sup>  
مولى بنى عُذرة وشُقْران<sup>(٤)</sup> مولى بنى سَلَمَان . وكانت القبائل تبادلهن نفس  
التعصب ، فإذا جنى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به في السجن لم يفرقرار لقبيلته  
حتى تُردَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف الجانية من ابن مفرغ  
حين زُجَّ به عَبَّاد بن زياد في سجن سجستان ، فإنها ما زالت تتشفع فيه عند  
الخليفة وتتوسل حتى أمر بإطلاق سراحه<sup>(٥)</sup> .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أو اصر بين العرب والموالى كأواصر الرحم ،  
أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائي شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس<sup>(٦)</sup>  
فإنه يعد شذوذاً في العصر ، وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التي  
كان يفتخر فيها كل عربي بقبيلته مجدداً لها ومشيداً بها محاولاً الغضب من القبائل  
التي تعادىها ، وكان ذلك نبيّه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسي ، وقد لقي  
جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه  
يفخر بأصله الفارسي .

- (١) أغاني ( دار الكتب ) ٨٩/١٣ ، ( الكتب ) ٣٠٨/٢ .  
(٢) ٣٨٠/١٥ وما بعدها .  
(٣) الحيوان للجاحظ ( طبع الحلبي ) ٧٥/٧ .  
(٤) البيان والتبيين ٣٠٩/٣ .  
(٥) نفس المصدر ١٠٨/١ وأغاني ( دار  
الكتب ) ٤١١/٤ وما بعدها .  
(٦) الشعر والشعراء ٣٢٢/١ .  
(٧) انظر ترجمته في أغاني دار الكتب

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالى أنفسهم في هذا العصر ،  
وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذى أعلن النزعة الشعوبية في  
عهد العباسيين إعلاناً قوياً يفتخر في هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً  
عنيفاً<sup>(١)</sup> . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم  
الأعجميات مثل ابن ميادة<sup>(٢)</sup> ، ومثل أبى نُخَيْلَةَ الذى يقول<sup>(٣)</sup> :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطتُ العَجَمُ فأنَّا فيما شئتُ من خالٍ وعمِّ

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض  
المستشرقين من أن العرب والموالى كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض في هذا  
العصر<sup>(٤)</sup> ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه  
كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً  
مشتركاً . وحقاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولائها من العرب ، ولكنها  
فسحت للموالى في شئون الخراج وفي الدواوين حتى بعد أن تُرجمت وعُربت ،  
على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله  
عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالى في عصرها أنها كانت  
تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها  
من وعظ وإمامة للمسلمين في المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم  
لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل لأنهم يبرزونهم ، حتى  
لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله  
أن الموالى شاركوا في الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا  
يعبُدون فعلا عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربى ، على أنه أديبهم ، فهجر وآدابهم  
المتنوعة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة  
القرآن الكريم التى ملكت أئمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

(١) أغاني ١٣٩/٣ والديوان ٣١٦/١ ، (٣) البيان والتبيين ٢٢٥/٣ والشعر والشعراء  
٢٥٠/٣ ، ٨١/٢ .  
(٢) أغاني ٢٦١/٢ .  
(٤) فلهوزن ص ٤٧٢ وفي مواضع متفرقة .

### الفصل الثالث

## شعراء المديح والهجاء

١

### شعراء المديح

تعود العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوِّهوا في أشعارهم بأشرفهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملاً إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنَّة في الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يحفظي بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبرى لترى مصداق ذلك واضحاً ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدَّاح الأولين في الفصل التالي . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم من لم يتعلق الشعراء بمدحهم ونسب ورود الثناء في طريقه .

وأول من يلقانا من الولاة البارزين في العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ومدوح حارثة<sup>(١)</sup> بن بدر الغُداني التميمي ومسكين<sup>(٢)</sup> الدارمي ، وقد شُغف عبد الله بن الزبير الأسدي بمدح ابنه عبید الله<sup>(٣)</sup> . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولّي عليه أخاه مصعباً ، وكان جواداً سمحاً ، فالتفت حوله كثير من الشعراء بمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى<sup>(٤)</sup> همدان ودكَيْن الفقهسي<sup>(٥)</sup> . ويدخل العراق في طاعة عبد الملك بن مروان فيولّي عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي وهو من الأجواد الممدحين<sup>(٦)</sup> ولا يلبث أن يعزله ويولي أخاه بشراً « وكان من فتیان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدّحاً » مدحه جبرير<sup>(٧)</sup> والفرزدق والأخطل

- (١) أغاني (ساسي) ١٩/٢١ وطبرى ٤/١٦٨  
والمبرد ص ١٧٩ .  
(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ .  
(٣) أغاني (دار الكتب) ١٤/٢٢٧/٢٣٥ .  
(٤) أغاني ٣٣/٦ وطبرى ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .  
(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٦ .  
(٦) الهجر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبرى ٥/٤٥ .  
حيث يذكر أنه وزع على الناس في يوم واحد ألف ألف .

وكثير وأعشى بنى شيبان<sup>(١١)</sup> « كما مدحه نصيب<sup>(١٢)</sup> والأقيشير<sup>(١٣)</sup> الأسدي وأيمن<sup>(١٤)</sup> بن خريم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفي ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابهِ من مثل جرير والفرزدق وأعشى<sup>(١٥)</sup> بنى شيبان وحُمَيد<sup>(١٦)</sup> الأرقط وليلى<sup>(١٧)</sup> الأخيلية ، وكانت فيه قسوة جعلت من يقترفون بعض الجنائيات حين يقعون في يده يمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العدّيل بن الفرخ العجّليّ فيه<sup>(١٨)</sup> :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفهُ لكلِّ إمامٍ مُصطَفَى وخليلُ  
بَنَى قُبَّةَ الإسلامِ حتى كأنما هدى الناسَ من بعد الضلال رسولُ  
ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النخعيّ<sup>(١٩)</sup> يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلاً كثيراً يملأه موحدة عليه ، فيطلبه ويهرب منه إلى اليمن ويركب البحر هناك ، ثم يعود إليه ، وقد ضاقت به الأرض ، متوسلاً بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

وتتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ، وسنعرض لمدّاحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور في عهد يزيد بن عبد الملك ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويولىه العراق لفترة محدودة ومن مدّاحه أبو نخَيْبَةَ<sup>(١١٠)</sup> وأعشى<sup>(١١١)</sup> تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزاري ، وللفرزدق

- 
- (١) ابن سلام ص ٣٧٧ .  
 (٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ .  
 (٣) أغاني ٢٧٠/١١ .  
 (٤) انظر ترجمة أيمن في الشعر والشعراء ٥٢٦/١ والأغاني (طبع ساسي) ٢٥/٢١ والإصابة ٩٤/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨٧/٣ والموشح ص ٢٢١ .  
 (٥) أغاني (ساسى) ١٥٦/١٦ .  
 (٦) طبرى ١٩٠/٥ وانظر ترجمته في معجم الأدباء ١٣/١١ .  
 (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٤٨/١١ .  
 (٨) البيان والتبيين ٣٩١/١ وانظر ترجمته في الأغاني (ساسى) ١١/٢٠ والشعر والشعراء ٣٧٥/١ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٥ والخزانة ٣٦٧/٢ .  
 (٩) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب) ١٩٠/٦ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي) ص ٣٤٢ .  
 (١٠) انظر الأغاني (ساسى) ١٤٠/١٨ .  
 (١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٠/١١ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١٣٢/١١ ومجلة المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

فيه مدائح<sup>(١)</sup> ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائح في خالده القسري الذي ولي بعده<sup>(٢)</sup> ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . ومن مدحوا خالدا القسري جرير<sup>(٣)</sup> ، وأبو الشَّغْب وفيه يقول حين عُزل وسجن<sup>(٤)</sup> :

فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

وكان الذي وليّ العراق بعده يوسف الثقفي . ونرى الكميّ بمدحه تقيّة وخوفاً من بطشه<sup>(٥)</sup> . وآخر ولاية هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جوادا معطاءً ، وهو ممدوح أبي عطاء<sup>(٦)</sup> السندي وبشار<sup>(٧)</sup> بن بُرْد وخلف<sup>(٨)</sup> بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء في العراق هؤلاء الولاة وحدهم ، فقد كانوا يمدحون أيضاً نوابهم وأصحاب شرطتهم وعمالمهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفي نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق<sup>(٩)</sup> وجرير<sup>(١٠)</sup> ومثل مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسري ، ومن مدّأحه الفرزدق<sup>(١١)</sup> ، ومثل بلال بن أبي بردة ، نائب القسري على البصرة ، وهو ممدوح ذى الرمة<sup>(١٢)</sup> والفرزدق<sup>(١٣)</sup> وحزمة<sup>(١٤)</sup> بن بيض ، وكان منقطعاً إليه ، ومثل أبان بن الوليد البجلي صاحب الخراج في عهد القسري ، ومن مدّأحه الفرزدق<sup>(١٥)</sup> ، ومثل قطّان بن مدرّكة الكلابي والي البحرين ، وقد خصه الفرزدق

- 
- (١) الديوان (طبعة الصاوي) ص ٢٨٠ ،  
٥٧٩ .  
(٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ .  
(٣) الديوان (طبعة الصاوي) ص ١٧٤ .  
(٤) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ .  
(٥) أغاني (ساسي) ١١٦/١٥ .  
(٦) الشعر والشعراء ٢/٧٤٥ .  
(٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٤٥/١ .  
(٨) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٦٩٢ .  
(٩) الديوان ص ٢٣ .  
(١٠) أغاني (دار الكتب) ١٣/٨ وما بعدها .  
(١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ،  
٨٠٣ .  
(١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) والبيان والتبيين ١/١٤٨ وأغاني (ساسي) ٣٨/١٦ والمبرد ص ٢٥٩ .  
(١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ،  
٦٦٠ ، ٦٩٤ ، ٦٩٣ ، ٦٧٤ .  
(١٤) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسي) ١٤/١٥ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٨٠ .  
(١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ .

ببعض مدائنهم<sup>(١)</sup> ، وكان المهاجر بن عبد الله ولى البحرين جواداً  
ممدحاً ، ومن ممدحيه جرير<sup>(٢)</sup> وأبو نخَيْسِلَة<sup>(٣)</sup> وذو الرمة<sup>(٤)</sup> . ومن ولاية فارس  
الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مسعمر ، وله أحاديث  
كثيرة في جوده<sup>(٥)</sup> وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم<sup>(٦)</sup> وأبو حُرَابة<sup>(٧)</sup>  
ومن ولاية الرَّمَّى الممدحون خالد بن عتَّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همدان<sup>(٨)</sup> .

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاية والعمال هناك  
ببكيلون الأموال والعطايا للشعراء كئيباً ، وهم بدورهم ينثرون عليهم  
رياحين مديحهم نثراً . ولعل أسرة لم تحفظ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن  
أبي صفرة الأزدي الذي قضى على الأزارقة في فارس ، ثم ولى للحجاج خراسان  
سنة ٧٨ وظل بها إلى أن توفى سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى  
أن صرفه عنها وولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر .  
وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البرزوغ . إذ ولّى سليمان بن عبد  
الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق .  
ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه في أموال خراج خراسان ،  
ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ، غير أنه لم يلبث أن  
قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره  
هلال بن أحنوز المازني .

ولعلنا لا نبتعد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم في عصر بني أمية مقام أسرة البرامكة  
في عصر بني العباس ، إذ كان أفرادها بجورا فياضة ، فنور بهم الشعراء طويلاً  
في خراسان والعراق جميعاً ، ويؤثر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن  
يشترى الممالك بماله ولا يشترى الأحرار بمعرفة<sup>(٩)</sup> » ونرى الشعراء مصطفين

(٦) أغاني (دار الكتب) ٣٧٩/١٥ ، ٣٨٥ .

(٧) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة ساسي)

١٥٢/١٩ .

(٨) أغاني (دار الكتب) ٥٦/٦ .

(٩) البيان والتبيين ٢٠٥/٣ .

(١) الديوان ص ٧٠٠ .

(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .

(٣) أغاني (ساسى) ١٤٥/١٨ وما بعدها .

(٤) انظر فهرس ديوانه .

(٥) المهر ص ١٥١ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفي مقدمتهم كعب<sup>(١)</sup> الأشقري وزياد<sup>(٢)</sup> الأعجم  
 وحمزة<sup>(٣)</sup> بن بيض والمغيرة<sup>(٤)</sup> بن حبشاة التيمي ونهار<sup>(٥)</sup> بن توسعة ، وله بزئته حين  
 توفي بمرو الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقربَ للغنى ومات الندى والحزم بعد المهلبِ  
 أقاما بمرو الروذ رهنَ ضريحه وقد غيبا عن كل شرقٍ ومغربِ  
 وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونوالاً غمراً ، وتوفى قبله بقليل ، فبكاه  
 الشعراء طويلاً على شاكلة قول زياد الأعجم في مرثية بديعة له<sup>(٦)</sup> :

إن الساحةَ والمروةَ ضمنا قبرا بمرو على الطريق الواضح  
 ولا يكاد يوجد شاعر في العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا ملحه ونوه  
 به تنويهاً بعيداً ، ومن مدّاحه الفرزدق<sup>(٧)</sup> ونهار<sup>(٨)</sup> بن توسعة وحمزة<sup>(٩)</sup> بن  
 بيض وحاجب<sup>(١٠)</sup> الفيل والعدبيل بن الفرخ العجلي وفيه يقول<sup>(١١)</sup> :

يداه يدُ بالعرف تنهب ماحوت وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ  
 وكان كعب الأشقري وثابت قطننة لا يفارقان مجلسه<sup>(١٢)</sup> ، وفيه يقول ثابت  
 حين خذله أهل العراق في ثورته على بني أمية وفرّ واعنه ، فقتل قعصاً بالرماح<sup>(١٣)</sup> :

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك وبعض قتل عارُ

- |   |  |
|---|--|
| (١) طبرى ٥/٢٢ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغانى (دار الكتب) ١٨٧/١٤ وما بعدها .  | (١٩) أغانى (ساسى) ١٨/١٥ .  |
| (٢) أغانى (دار الكتب) ٣٨٣/١٥ وما بعدها .  | (٢٠) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٦ وما بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٢/٦١٣ وفهارس الطبرى والبيهان والتبيين والحويان وأمالى المرتضى (طبعة الحلبي) ١٠٥/٢ . |
| (٣) أغانى (ساسى) ٢٤/١٥ .  | (٢١) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣ .  |
| (٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ١/٣٦٧ وأغانى (دار الكتب) ١٣/٨٤ والخزانة ٣/٦٠١ وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣ والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث يقول ابن دريد إنه استشهد بخراسان وكان شاعر تميم في عصره . | (٢٢) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٦ .  |
| (٥) انظر في ترجمة نهار بن توسعة وأخباره الشعر والشعراء ١/٥٢١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى  | (٢٣) أغانى ١٤/٢٧٩  |

وكان أخوه المفضل ممدّحاً ومن أشادوا به كعب<sup>(١)</sup> الأشقرى وثابت<sup>(٢)</sup> قطنه ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة<sup>(٣)</sup> بن بيض والكميت<sup>(٤)</sup> . وفي المهالبة وكرمهم الفياض يقول<sup>(٥)</sup> بـكبير بن الأخنَس :  
 :  
 بـكبير بن الأخنَس :  
 :  
 بـكبير بن الأخنَس :  
 :

نزلتُ على ال المهلب شاتيا فقيراً بعيدَ الدار في سنةٍ محلّ<sup>(٦)</sup>  
 فما زال بي إلفاتهم وافتقادم وإكرامهم حتى حسبتهُم أهلي<sup>(٧)</sup>

ومن ولاية خراسان الممدّحين قتيبة بن مسلم الذي وليها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبني أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند. وقد تغنّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة<sup>(٨)</sup> بن حبّشَاء وكعب<sup>(٩)</sup> الأشقرى وهاار بن تروسة وفيه يقول<sup>(١٠)</sup> :

وما كان مذ كُنّا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلم  
 أعمّ لأهل الشرك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مغنماً بعد مغنم

وليها لعهد عمر بن عبد العزيز الجراحُ بن عبد الله الحكيم ممدوح الفرزدق<sup>(١١)</sup> . ومن الأجواد الممدّحين الذين ولوها لخالد القسري الجحنيّ بن عبد الرحمن المرّي ممدوح جرير<sup>(١٢)</sup> ، وأسد القسري وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

(١) طبري ١٩٤/٥ .

(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغاني

٢٧٥/١٤ .

(٣) أغاني (سأسي) ١٩/١٥ .

(٤) نفس المصدر ١٥/١٠٨ ، ١٢٢ .

(٥) البيان والتبيين ٣/٢٣٣ .

(٦) محل : مجديّة .

(٧) الديوان ص ٢٢٨ .

(٨) الديوان ص ٥١ .

(٩) الافتقاد : طلب الشيء عند غيبته كناية

عن كثرة سؤالهم عنه واهتمامهم بأمره .

(٨) طبري ٢٤٠/٥ .

(٩) طبري ٢٤٧/٥ وأغاني (دار الكتب)

٢٩٩/١٤ .

(١٠) أمالي القائل ٢/٢٠٢ والشعر والشعراء

٥٢٢/١ .



به الفرزدق طويلاً<sup>(١)</sup> . ووليها ليوسف بن عمر الثقفي نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغواراً وغيثاً مدراراً ، وهو آخر ولاتها للأمويين ، ومن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق<sup>(٢)</sup> وثابت<sup>(٣)</sup> قُطْنَةُ ومن مُدَّأَحِه في ولايته أبو عطاء<sup>(٤)</sup> السَّئِدِي . ومن قُودَاد الجيوش في خراسان هلال بن أَحْوَز المازني الذي أبلى في حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جَهْم بن صفوان متكلم المرجئة في ثورتهم بخراسان ، ومن أشادوا به طويلاً الفرزدق<sup>(٥)</sup> وجرير<sup>(٦)</sup> .  
ويلقانا في سجستان من الممدحين عبد الله بن الحشرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم<sup>(٧)</sup> :

إِنَّ السَّاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخزاعي الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة في عصره غير مدافع ، ومن مدحوه أبو حنيفة<sup>(٨)</sup> وعوييف<sup>(٩)</sup> القوافي والمغيرة<sup>(١٠)</sup> بن حبشنة ، ونوه به ابن قيس الرقيات طويلاً حتى إذا توفي رثاه بقصيدة بديعة<sup>(١١)</sup> ومنهم عميد الله بن أبي بكر ممدوح الفرزدق<sup>(١٢)</sup> وابن مفرغ<sup>(١٣)</sup> ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبي جليدة اليشكري ، وفيه يقول حين وافته الموت<sup>(١٤)</sup> :

كُنْتُ الشَّهَابَ الَّذِي يُرْمَى الْعَدُوَّ بِهِ وَالْبَحْرَ مِنْهُ سِجَالُ الْجُودِ نَعْتَرَفُ

ومن ولاية الحجاز الممدحين سعيد بن العاص والي معاوية على المدينة ، وكان ينسحر

- 
- |                                 |  |
|---------------------------------|--|
| (١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ،   | (٨) أغاني (ساسي) ١٥٣/١٩ .                  |
| ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ .   | (٩) انظر في ترجمة عوييف أغاني (ساسي)       |
| (٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ . | ١٠٥/١٧ والخزاعة ٨٧/٣ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ . |
| (٣) طبري ٣٩٩/٥ .                | (١٠) أغاني (دار الكتب) ٨٥/١٣ .             |
| (٤) أغاني (ساسي) ٨١/١٦ .        | (١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد     |
| (٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ،   | يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ .                |
| ٥٧٤ ، ٥٤٨ ، ٥٠٧ .               | (١٢) الديوان ص ٥٧ .                        |
| (٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ .  | (١٣) أغاني (ساسي) ٧٠/١٦ وما بعدها .        |
| (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٣/١٢ .   | (١٤) أغاني (دار الكتب) ٣١٣/١١ .            |

في كل يوم جزّراً يطعمه الناس<sup>(١١)</sup>، ومن نوهوا به الحطّيبية<sup>(١٢)</sup> والفرزدق<sup>(١٣)</sup>. وكان ابن الأزرقي المخزومي وإلى ابن الزبير على اليمن جواداً معطاءً، وهو ممدوح أبي دَهَبَل<sup>(١٤)</sup> الجهمي. ولعلّ والياً لم يُمدح كما مدح عبدالعزیز بن مروان في ولايته على مصر، وكان بحراً سيالاً من بحور العرب، ومن مدّأحه نُصَيْب<sup>(١٥)</sup> وابن قيس<sup>(١٦)</sup> الرقيات وكثير<sup>(١٧)</sup> وعبد الله<sup>(١٨)</sup> بن الحجاج والأحوص<sup>(١٩)</sup> وأيمن<sup>(٢٠)</sup> بن خُرَيْم وأمّية<sup>(٢١)</sup> بن أبي عائذ. ومن ولايتها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الخزّين<sup>(٢٢)</sup> الكناني.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفي مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عبيد<sup>(١٣)</sup>، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامي<sup>(١٤)</sup>، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عؤيف<sup>(١٥)</sup> القوافي ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير<sup>(١٦)</sup>، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامي<sup>(١٧)</sup> وأعشى شيبان<sup>(١٨)</sup>، وعكرمة بن ربيع الفياض ممدوح الأنخطل<sup>(١٩)</sup> والعديّل<sup>(٢٠)</sup> بن الفرخ العجلي، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق<sup>(٢١)</sup> وأبي الأسود<sup>(٢٢)</sup> الدؤلي، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأفيشر<sup>(٢٣)</sup> الأسدي. ومالك بن مسمع ممدوح العديّل<sup>(٢٤)</sup>، وكانت قبائل ربيعة في البصرة تجتمع عليه

- 
- |                                 |  |
|---------------------------------|--|
| (١٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٣/١٥ . | (١) الخبر لابن حبيب ص ١١٥  |
| (١٣) أغاني ٤٢٥/٢ .              | (٢) ابن سلام ص ١٠٠ ، ١٠١ وأغاني (سأسي) ٣٨/١٦ .                       |
| (١٤) أغاني (سأسي) ١١٩/٢٠ .      | (٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥ .                                  |
| (١٥) أغاني (سأسي) ١١٧/١٧ .      | (٤) الخبر ص ١٥٢ .  |
| (١٦) الديوان ص ١٥٢ ، ١٨٢ .      | (٥) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ وما بعدها .                              |
| (١٧) ابن سلام ص ٤٥٥ .           | (٦) أغاني ٨٧/٥ .   |
| (١٨) أغاني (سأسي) ١٥٧/١٦ .      | (٧) البيان والتبيين ١٢/٣ وأغاني (دار الكتب) ٣٣/٩ .                   |
| (١٩) ابن سلام ص ٤١٧ .           | (٨) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ١٥٨/١٣ والبيان والتبيين ٣٩٠/١ . |
| (٢٠) أغاني (سأسي) ١٨/٢٠ .       | (٩) ابن سلام ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ .   |
| (٢١) الديوان ص ٢٢٠ .            | (١٠) أغاني (سأسي) ٧/٢١ .   |
| (٢٢) أغاني (دار الكتب) ٣٣١/١٢ . | (١١) أغاني (سأسي) ١١٥/٢٠ .   |
| (٢٣) أغاني ٢٥٥/١١ .             |  |
| (٢٤) أغاني (سأسي) ١٧/٢٠ ، ١٩ .  |  |

في الإسلام اجتماعها على كليب في الجاهلية . ومن كان لا يبارى في جوده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وله في كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدَّأحه ابن<sup>(١)</sup> قيس الرقيات . وكان يجرى على مثاله في الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح لإسماعيل<sup>(٢)</sup> بن يسار النسائي ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى<sup>(٣)</sup> شهوات ، وفيه يقول<sup>(٤)</sup> :

حمزةُ المبتاعُ بالمالِ الثَّنا ويرى في بَيْعه أن قد غَبِنُ  
وهو إن أعطى عطاءً فاضلاً ذا إخاءٍ لم يكدره بِمَنُ

وظلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ممدوح الحزيرين<sup>(٥)</sup> الكنانى . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامي من الجزيرة وكعباً الأشقرى وزباداً الأعجم من خراسان .

### نُصَيْبُ<sup>(٦)</sup>

شاعر حجازى نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك محتجاً لونه كثيراً على شاكلة قوله في بعض شعره :

فإن يك من لوزى السوادُ فإننى لكالمسك لا يروى من المسك ذائقة

وكان مُسْتَرْقِماً لرجل من كنانة من أهل ودان بالقرب من مكة ، وتيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتب مولاة ، وفرغ إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، فرد إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه . فدبج فيه مدائح رائعة من مثل قوله :

- (١) أغاني (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ .  
 (٢) أغاني ٤٠٨/٤ .  
 (٣) انظر ترجمة موسى شهوات في الأغاني (طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء ٥٥٨/٢ والخزاعة ١٤٤/١ ومعجم الشعراء المرزبانى ص ٢٨٦ .  
 (٤) أغاني ٣٥٧/٣ والمبرد ص ٣٦٧ .  
 (٥) المعبر ص ١٥٢ .  
 (٦) انظر في ترجمة نصيب أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ وراجع فهرسه والشعر والشعراء ٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٩ وشواهد العيني ٥٣٧/١ والموشح ص ١٨٩ .

فبشّر أهل مصرَ فقد أتاهم مع الثَّيل الذي في مصرَ نيلٌ  
يقول فيحسن القولَ ابنُ ليلٍ ويفعل فوق أحسنٍ ما يقول<sup>(١)</sup>  
وقوله :

لعبد العزيز على قومهٍ وغيرهمُ مِنُّ غامرهِ  
هبابك أسهلُ أبوابهمُ وداركُ مأهولةٌ عامره  
وكفكُ حين ترى السائلِ بين أندى من الليلة الماطره

وما زال مع عبد العزيز حتى توفي سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حاراً ،  
وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه ، ومن قوله فيه :

قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعرفه من أهل ودانَ طالبُ  
فعاجوا فأننوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أننت عليك الحقائبُ<sup>(٢)</sup>

وله مدائح في يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى  
أوائل القرن الثاني ، وله مدائح في بعض ولاة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام  
الخزومي وإلى مكة وعبد الواحد النصري وإلى المدينة ، وبعض ولاة العراق وقواده  
مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بشيابه وطيبه ،  
وكان كبير النفس ، فلم يتورط في هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقي  
طاهر ، وهو لذلك يُسَلِّكُ في العذريين .

### القطامي<sup>(٣)</sup>

لقب غلب على عميمير بن شيبيم التغلبي ، وهو من بني القمدومس عشيرة  
الأخطل ، ومن ثم نشأ نصرانياً ، غير أنه فيما يظهر دخل في الإسلام . وقد  
اشترك في الحروب التي نشبت بين قبيلته تغلب وقيس في أثناء فتنة ابن الزبير ،

٧٠١/٢ والخزاة ٣٩١/١ والاشقاق ص ٣٣٩  
ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٧ ومعاها  
التنخيص ١٨٠/١ والموشح ص ١٥٨ . وقد  
نشر ديوانه في ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار  
الثقافة بيروت ، ونشر فشرة محققة ببغداد .

(١) ليل : أم عبد العزيز بن مروان وهي  
بنت زيان بن الأصم الكلبية .

(٢) عاجوا : وقفوا .

(٣) راجع في ترجمة القطامي أغاني (ساسي)  
١١٨/٢٠ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء

وأُسْرَهُ أحدَ التَّمِيسِيِّينَ فِي يَوْمِ مَاكَسِينَ ، غَيْرَ أَنْ زُفَّرَ بِنَ الْحَارِثِ حِينَ عَرَفَهُ  
اِفْتِكَتَهُ مِنَ الْأُسْرِ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مَا سُلِبَ مِنْهُ ، وَأَعْطَاهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ مِمَّا جَعَلَهُ  
يَذُوهُ بِهِ وَيَصْنَعُهُ مَعَهُ طَوِيلًا ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ :

وَمَنْ يَكُنْ اسْتِلَامٌ إِلَى ثَوِيٍّ فَقَدْ أَحْسَنْتَ . يَا زُفْرُ ، الْمَتَاعَا (١)  
أَأَكْفَرُ بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرَّتَاعَا (٢)  
وَلَمْ أَرِ مُنْعَمِينَ أَقَلَّ مَتَا وَأَكْرَمَ عِنْدَمَا اصْطَنَعُوا اصْطِنَاعَا (٣)  
مِنَ الْبَيْضِ الْوَجُوهِ بَنِي نُفَيْلٍ أَبَتْ أَخْلَاقَهُمْ إِلَّا اتْسَاعَا (٤)

وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَتَأَمَّى لِلْحُرُوبِ النَّاشِئَةِ بَيْنَ تَغْلِبَ وَقَيْسِ عَلَى مَا بَيْنَهُمَا مِنْ  
صَلَاتٍ وَأَسْبَابٍ ، وَيَدْعُو مَخْلَصًا لِلصَّلْحِ وَرَقَفَ هَذِهِ الْحُرُوبِ الْمُبِيرَةَ الَّتِي  
لَا تَتَوَقَّفُ رَحَاهَا حِينًا إِلَّا لَتَعُودَ أَشَدَّ التَّهَامَا لِأَبْنَاءِ الْقَبِيلَتَيْنِ ، يَقُولُ :

أَلَمْ يَحْزَنْكَ أَنْ حِبَالَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنْتِ انْقِطَاعَا  
وَكُنَّا كَالْحَرِيقِ أَصَابَ غَابَا فَيَخْبُو سَاعَةً وَيَشِبُّ سَاعَا  
أُمُورٌ لَوْ تَدَبَّرَهَا حَلِيمٌ إِذْنًا لَنَهَى وَهَيْبٌ مَا اسْتَطَاعَا

وَوَفَدَ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقِيلَ عَلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَقِيلَ لَهُ  
إِنْ الشَّعْرَ لَا يَنْفَقُ عِنْدَهُ ، وَهَذَا عَبْدُ الْوَاحِدِ (٥) بْنُ سَلِيمَانَ سَيِّبَرُكَ إِنْ مَدَحْتَهُ ،  
فَدَحَهُ ، وَأَضْحَى عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ بَرِّهِ وَنَوَالِهِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَا مَدَحَهُ بِهِ قَصِيدَتَهُ :

إِنَّا مَحْبُوكٌ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ وَإِنْ بَدَيْتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطَّيْلُ (٦)

- (١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى :  
الضيف المقيم . المتاع : الزاد .  
(٢) يريد بالكفر كفر النعمة وجعلها .  
الرتاع : جمع راتعة .  
(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم  
لا يمتنون بما يصنعون .  
(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بني عامر  
ابن صعصعة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره  
من الشيم الفاضلة .  
(٥) انظر في تحقيق نسب هذا المدوح  
وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو  
عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص  
الخرزاة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القطامي في الأغاني  
وبالقصيد الأولى في الديوان .  
(٦) الطليل هنا : الأزمنة .

ونراه يضمّتها نظرات في الحياة وفي الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب في ذلك من ذوق المتنبي في مدائح كما نرى في مثل قوله :

والعيش لا عيش إلا ما تقرُّ به عَيْنٌ ، ولا حال إلا سوف تنتقل  
والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأمّ المخطيء الهبل  
قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وشيد في القصيدة بقريش ونصرتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتها لدعائم الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام ، يقول :

قومٌ همُ ثبّتوا الإسلام وامتنعوا قومُ الرسول الذي ما بعده رسل  
ومن أشاد بهم ونوّه بذكورهم أسماء بن خارجة الفزاري ، وله فيه أمداح رائعة على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حصنٍ فلا هطلت على الأرض السماء  
ولا رجع البريد بغنمٍ خيرٍ ولا حملت على الطهر النساء  
ومن أهم ما يميزه في شعره صفاء موسيقاه وحلاوة الأناظر وعدوية أنغامه وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفى في أوائل القرن الثاني للهجرة .

### كعب<sup>(١)</sup> بن معدان الأشقري الأزدى

من شعراء خراسان الذين برعوا في المديح ، وهو فارس شجاع له آثار في حروب المهلب للأزارقة في فارس ولترك في خراسان . وله في المهلب ووصف حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة في حروبه للأزارقة تشبه أن تكون ملحمة ، وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً . وروى منها الطبري ثلاثة وثمانين بيتاً<sup>(٢)</sup> وهو في شعره يحسن حوكم اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب وأبنائه :

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء (٢) طبري ١٢٢/٥ .

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ٣٩٧/١ وما بعدها ومعجم المرزباني ص ٢٢٦ .

بَرَكَ اللهُ حينَ بَرَكَ بَحْرًا      وفَجَّرَ منكَ أَنهارًا غِزارًا<sup>(١)</sup>  
 بنوكَ السابقونَ إلى المعالي      إذا ما أعظَمَ الناسَ الخِطارًا<sup>(٢)</sup>  
 كأنهمُ نجومٌ حولَ بَدْرِ      درارىُّ تكَمَّلَ فاستدارًا<sup>(٣)</sup>  
 ملوكٌ ينزلونَ بكلِّ ذَفْرِ      إذا ما الهامُ يومَ الرُّوعِ طارا<sup>(٤)</sup>  
 رِزانٌ في الأمورِ ترى عليهم      من الشَّيخِ السَّمائِلِ والنَّجارًا<sup>(٥)</sup>  
 نجومٌ يُهتَدَى بهمُ إذا ما      أخو الظُّلَماءِ في الغمراتِ جارا  
 وتوفى المهلب ، فلزم ابنه يزيد يمدحه ويصف حروبه مع الترك وبره  
 ونائله الجزل ، ومن بديع ما قاله فيه :

يَدَاكَ إِحْدَاهُمَا تَسْقِي العَدُوَّ بِهَا      سَمًا وَأخرى نَدَاهَا لِم يزل دِيمَا  
 ولما عَزَلُ يزيد عن خراسان لعهد الحجاج ووليا قتيبة بن مسلم الباهلي وانتصر  
 على الترك انتصاراته الرائعة مضى يُشيد به ويانتصاراته بمثل قوله<sup>(٦)</sup> :  
 دُوخُ السُّغَدِ بالكتائبِ حتى      تركَ المُسُغَدَ بالعِراءِ قعودا  
 فوليدٌ يبكي لفقْدِ أبيه      وأبٌ موجعٌ يبنكي الوليدا  
 وجره ذلك إلى التخلص من عصبية لقبيلته وصاحبها يزيد بن المهلب ،  
 ويقال إنه نال منه وثله . وكان قبل هذه الفترة من حياته يستشعر عصبية حادة  
 للأزد ، وهي عصبية جعلته يتهاجى هجاء مريراً مع شعراء قبيلة عبد القيس  
 وعلى رأسهم زياد الأعجم ، كما تهاجى مع شعراء ربيعة . وكان موقفه مع قتيبة  
 سبباً في غضب يزيد بن المهلب عليه غضباً شديداً ، فلما ولي العراق وخراسان  
 لعهد سليمان بن عبد الملك طلبه ، فهرب إلى عُثمان ، وظلَّ بها إلى أن ثار يزيد  
 على الأمويين سنة ١٠٢ فأُتبعه من قتله .

(٥) رزان : جمع رزين . ويريد بالشيخ

المهلب . السَّمائِلُ : الطباع . النَّجارُ : الأصل

والحسب .

(٦) طبرى ٢٥٥/٥ والسغد : جنس من

الترك .

(١) بَرَكَ : خلقت .

(٢) الخِطارُ : المراهنة .

(٣) نجوم درارى : مضيفة .

(٤) الهام : الرووس ، يوم الروع : يوم

الحرب والخوف .

زياد<sup>(١)</sup> الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ، ومولده ، ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه  
لغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحَسِّن فَمِنَّ المديح إحساناً رائعاً ،  
ومن ظلاً بمدحهم طويلاً عمر بن عميد الله بن معمر والى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فما تَأبَى      وأعطى فوق مُنَيِّتِنَا وزادا  
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنَا      فأحسنَ ثم عُدْتُ له فعادا  
أخُ لك لا تراه الدهرَ إلا      على العِلَّاتِ بساماً جوادا

ويروى أن ابن مَعْمَرٍ عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت  
ألفاً . وما زال يلزمه حتى توفى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن  
المشرج والى سجستان ، وتوفى فرثاه رثاء حاراً ، تمثلنا فيما سلف ببیت منه ،  
وحديث أن مدح المهلب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبِيبِة ، فأمر  
لهم بجوائز ، وفضل زيادا ، ولاحظ - كما أسلفنا - لُكْنَتَهُ في قوله :

فَتَى زاده السُّلطانِ في الخيرِ رِفْعَةً      إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلِ  
إذ نطق السلطان « الشلتان » بإبدال السين شيئاً والطاء تاء ، فوهب له  
غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغازب صنيع المهلب بزياد المغيرة بن حَبِيبِة وكعباً ،  
وانتدب له المغيرة ، فتهاجيا طويلاً . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق  
عليه في عدة قصائد يقول في إحداها هاجيا قبيلته :

قُبَيْلَةٌ خَيْرُهَا شَرُّهَا      وَأَصْدَقُهَا الكاذِبُ الأثَمُ  
وضيفهم وَسَطُ      أبياتهم      وإن لم يكن صائماً صائماً  
وهاجى قتادة بن مغرب اليَشْكُرى ، وفي قبيلته هو الآخر يقول :

ويشكر لا تستطيع الوفاء      وتعجز يشكر أن تغدرا

ص ٣٣٣ وراجع أغاني ( دار الكتب )  
١٣/٨٩ وما بعدها وذييل الأمانى ص ١٠ والجزء  
الخامس من الطبرى في مواضع متفرقة .

(١) انظر في ترجمة زياد أغاني ( دار  
الكتب ) ٣٨٠/١٥ وابن سلام ص ٥٥٧  
والشر والشراء ٣٩٥/١ . ومعجم الأدباء  
٢٢١/١١ والخزاعة ١٩٣/٤ والاشتقاق



وكان مُعْتَرِي بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق هم بهجائه حين رآه يُكثِر من هجاء المغيرة بن حَبَسَاء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لي إن هجوته مصحاً أراه في أديم الفرزدق  
وإننا وما تُهْدَى لنا إن هجوتنا لكَا لبحر مهما يُلْتَق في البحر يَغْرَق

فتوصل الفرزدق إليه أن يكفَّ عنه . وفي ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ، ومريثته للمغيرة بن المهلب من رواثمه . وقد توفى في حدود المائة الأولى للهجرة .

## ٢

## شعراء الهجاء

احتدم الهجاء في هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبية القبلية التي اشتعلت - كما مرّ بنا - نيرانها في كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَسَبِ هذه العصبية وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا - فيما يظهر - كان مثلاً أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الردّة وأشرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية، على نحو ما يروى عن أبي شجرة السلمي وانتصاره للمرتدين من قبيلته سَلَيْم ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قرينش . وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرماً على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون، حتى تحدث فتنة عثمان وتتشب الحروب بين عليّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من الجمانية وربيعة ، ونراهما تتنافسان في قيادة حربه بموقعة الجمل ، كما تتنافسان في موقعة صفين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلٌّ يصور حسن بلاء قرينه في الحرب . والتفت هذه الأصوات أصوات مُضَرِّبَةٍ كثيرة . وحدث هذا نفسه في صنوف خصومه ، مما نجد آثاره في الطبري وفي

وقعة صيفين لنصر بن مزاحم . وعبثاً حاول علي<sup>ع</sup> أن يُعَلِّي كلمة الإسلام الذي حاول أن يحوِّل الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبية ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة في جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت في تولى قريش تدبير الأمور في الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشهرت صيغتها في وجهه مما اضطره أن يجارها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة

وما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استشعار جماعته للعصية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية في الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحسب قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التي كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوَّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهي التي تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد في استشعار العصية في صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنتاً بنت الفرافصة . وتزوج معاوية من ميسون بنت بحدل ، وهي أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلي بنت زبَّان بن الأصبح الكلبية ، وهي ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية في حربه لعل ذلك ، لأن الصُّهر عند العرب كالنسب ، ووسَّع استغلاله ، إذ ضمَّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصية القبلية تسرى في أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفى يزيد وجدنا العصية تستعر بين القبائل في الشام والجزيرة وفي البصرة وخراسان . أما في الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها في أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفي ثانيتهما بتغلب الرَبِيعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيس<sup>ع</sup> ابن الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروان بن الحكم ، وصل الطرفان سيوفهما في معارك حامية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آباؤهم في الجاهلية ويهجون .

وفي نفس الوقت نجد الحلفين الكبيرين في البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة واليمينية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حاداً . ومرّ بنا في غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمر الأحنف بن قيس فرّق الفستق . وقد ظلت نفوس الحلفين تغلّي طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلي حتى لنجد أبا نُخَيْلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفاخرأ بانتصارهم على شاكلة قوله (١) :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحى من ربيعة المرأق  
ضرباً يُقيم صعر الأعناق بغير أطماع ولا أرزاق (٢)

إلا بقايا كرم الأعراق

ولم تحتدم العصبيات القبلية في البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعي ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُند البصرة ، إذ هم الذين ابتدءوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعياً أن تنعكس بها نيران هذه العصبيات ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالا بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الوالى هناك يولّى عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلاً قدّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيس وتمد ، وإذا تولّى قتيبة بن مسلم الباهلي مثلاً رفعت قيس وتمد وعوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل في الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتصاربت وتطاحت بسبب الاختلاف على المنافع وطمعاً في اكتنازها ، وقرأ في أى شاعر ممن عاشوا هناك وترجم له صاحب الأغاني فسّراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من موالها ، على نحو ما مرّ بنا من استعارة الهجاء بين زياد الأعجم مولى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ( طبع دار المعارف ) ص ٦٣ .  
عن الكبير . الفطرسه ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .  
(٢) الصمر : الميل ، وصعر الأعناق كناية

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدي ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبَسَاءَ التميمي وقتادة بن مغرَّبَ الشكري وابن عمه أبا جِلْدَةَ<sup>(١)</sup> . وقد يرتفع صوت في أثناء هذا الضجيج باعترال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن تَوْسَعَةَ<sup>(٢)</sup> :

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ إذا هتفوا ببكر أو تميم

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع في غمار هذه العصبيات التي استعلت سلطانها في العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة في جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شغلت عن العصبيات القبلية بتشيعها وخصوصيتها للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميث بن زيد الأسدي يثير معركة حامية مع حَكِيم<sup>(٣)</sup> بن عياش الكلبي وهرورن<sup>(٤)</sup> مولى الأزدي ، وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت في خراسان والبصرة . وإذا رأينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموي هجاء مريراً<sup>(٥)</sup> ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشيَّبَ بأخته رملة تشبيهاً أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأتصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف<sup>(٦)</sup> .

ويلقانا في نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير ما يمثله تهاجى المرَّار بن منقذ الأسدي ومُساوِر بن هند العبسي . ومن طريف ما للمرَّار قوله<sup>(٧)</sup> :

- (١) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١١ .  
 (٢) الشعر والشعراء ٥٢١/١ .  
 (٣) أغاني (سأسي) ١٠٧/١٥ .  
 (٤) الحيران ٧٥/٧ .  
 (٥) أغاني (سأسي) ١٤١/١٣ والمبرد .  
 (٦) انظر في ترجمة النعمان بن بشير أغاني (سأسي) ١٤٧/١٣ ، ١٤٤/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٥٦/١ . وقد طبع له ديوان على المحرر في دهلي يشره كرنكو مع ديوان أبي بكر بن العزير .  
 (٧) أغاني (دار الكتب) ٣١٨/١٠ .

شَقِيتُ بنو عَبَسٍ بشعرِ مساورٍ إن الشقَّ بكلِّ حَبَلٍ يُحْنَقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شيبب بن البرصاء الذبباني وابني عمه عقيل بن  
هَلْفَةَ وأرطاة بن سُهَيْبَةَ ومهاجاة ابن مِيَّادَةَ والحكم الحَضْرِي ، وكان في ابن  
مِيَّادَةَ (١) شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير  
وعقال بن هاشم الغنوي وشُقْران مولى بني سلامان .

وعملت بجانب هذه العصبيات أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران  
الهجاء ، فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل في تهاجيه مع زميل آخر ،  
حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير في تهاجيه مع  
الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصب  
عليهم شواظ نار . وقد يفاضل أحد الرلاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء  
فيزيد شاعراً في جائزته على زميله أو زملائه ، فيفضب المفضول ، ويسقط بغضبه  
على من فضله كما مر بنا في تهاجي المغيرة بن حبشاة ، وزياد الأعجم . وقد  
يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا  
أخزيين الكناني عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله (٢) :

مواعيِدُ عمرو نُزُهاتٌ وروبعهه على أهل ما قد قلتُ فبسه دليلُ  
جبانٌ وفحاشٌ لثيمٌ مذممٌ وأكذبُ خلق الله حين يقسول

وقد يحرم ممدوح مادحا له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان  
من عكرمة بن ربیعى مع المتوكل (٣) الألبى ، وقد لا تقوم مكافأة الممدوح في

ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى ( دار الكتب )  
١٥٩/١٢ ومعجم الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب  
البيت المشهور :  
لأنه عن خلق وثأق مشله  
عار عليك إذا قلت عظيم

(١) انظر في ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء  
٧٤٧/٢ والمؤلف ١٧٤ والأغانى ( طبع دار  
الكتب ) ٢٦١/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧  
والخزاعة ٧٦/١ والموشح ص ٢٢٨ .  
(٢) أغانى دار الكتب ٣٣٨/١٥  
(٣) انظر في ترجمة المتوكل ابن سلام

رأى المادح بما قَدَّم له من مديحه . فبهجوه ويسرف في هَجْوِه على نحو ما صنع  
الشَّمْرَدَالُ بهلال<sup>(١)</sup> بن أحوز المازني فارس تميم في عصره غير مدافع . وقد  
يحجب المدوح مادحه فلا يأذن له بلفائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو  
ما روى الرواة عن حَجَّابِ مقاتل بن مسمع بن مالك لأبي جِلْدَةَ اليشكري ،  
فقد تولَّى بهجوه بمثل قوله<sup>(٢)</sup> :

قَرَى ضَيْفَهُ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ ابْنَ مِمْسَعٍ      وَكَانَ لَثِيماً جَارُهُ يَتَذَلَّلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ  
يستقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ،  
وكان على شرطة القُبَاعِ والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازورَّ عنه  
فهجاه وهجا عشيرته الحَبَطَاتِ طويلاً ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

رَأَيْتَ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا      كَمَا الْحَبَطَاتُ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم  
والذين طالما ملحهم الشعراء يُهَجَّجُونَ كثيراً أو قليلاً ، فزياد وبنو زياد بهجوم  
ابن مفرغ ، والحجاج بهجوه العُدَيْلِ<sup>(٤)</sup> بن الفرخ العجلي ومالك<sup>(٥)</sup> بن الربيع  
التميمي ، وفيه يقول<sup>(٦)</sup> :

وَلَوْلَا بَنُو مِرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسُفٍ      كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِ إِيَادٍ  
زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمَقْرُّ بِذُلِّهِ      يِرَاوِحُ صَبِيَانَ الْقُرَى وَيَغَادِي

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمال عصبيةً لقبيلته تميم

- 
- (١) أغاني (دار الكتب) ٣٥٨/١٣ .  
(٢) أغاني ٣٣١/١١ .  
(٣) البيان والتبيين ٣٧/٤ والخزانة ٢٨٠/٤ .  
(٤) أغاني (سامي) ١٣/٢٠ .  
(٥) انظر في ترجمة مالك الشعر والشعراء  
٣١٢/١ وأغاني (سامي) ١٦٣/١٩ والخزانة  
٣١٧/١ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .  
(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، ومن أكثر من هجائهم عمر<sup>(١)</sup> بن هبيرة الفزاري وخالد القسري<sup>(٢)</sup> ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار<sup>(٣)</sup> :

بكتِ المنابرُ من فزارة شجّوها فالآن من قسّرٍ تضحُّ وتجزع  
وكان المهالبة ممدّ حين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء  
وعلى رأسهم الفرزدق<sup>(٤)</sup> . ومن ولاية الشرق الذين مجاهم غير شاعر قتيبة بن  
مسلم الباهلي والى خراسان ، وسنرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله  
العبيسي مهجّو أبي حزابة<sup>(٥)</sup> . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتاب بن  
ورقاء والى الرى وأصبهان حين جفاه بمثل قوله<sup>(٦)</sup> :

ويركب رأسه في كلِّ وُحْلٍ وَيَعْتُرُّ في الطريقِ المستقيمِ  
ويهجو أبو نُخَيْلَةَ المهاجر بن<sup>(٧)</sup> عبد الله والى اليمامة . وفي الحجاز نجد  
الأحوص مشغوقاً بهجاء ابن<sup>(٨)</sup> حزم والى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد  
العرجي مشغوقاً بهجاء محمد بن هشام المخزومي والى مكة هشام بن عبد الملك .  
ونحن نقف قليلا عند ثلاثة من الهجائين هم ابن مفرغ البصرى والحكم بن عسبدل  
الكوفي وثابت قطننة الخراساني .

### ابن مفرغ<sup>(٩)</sup>

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان  
حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسترقاً للضحاك الهلالي فأعتقه . وكان يتقن  
الفارسية كما أسلفنا في غير هذا الموضع ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه  
يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميري فلعل منشأه أنه كان من حنقذة  
الفرس الذي نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبّع .

- |                                     |  |
|-------------------------------------|--|
| (١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ .           | (٧) أغاني (ساسي) ١٤٥/١٨ .              |
| (٢) أغاني (ساسي) ٢٢/١٩ .            | (٨) أغاني (دار الكتب) ٢٢٧/٤ .          |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٧٩/١١ .      | (٩) انظر في ترجمة ابن مفرغ ابن سلام    |
| (٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ . | ص ٥٥٤ . والنشر والشعراء ٣١٩/١ وأغاني   |
| (٥) ٤١٢ ، ٢٦٢ .                     | (ساسي) ٥١/١٧ والطبرى ٢٣٥/٤ والاشتقاق   |
| (٦) أغاني (ساسي) ١٥٢/١٩ .           | ص ٥٢٩ . ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزاعة |
| (٧) البيان والتبيين ٥٠/٤ .          | ٥١٤ ، ٢١٢/٢                            |

ويظهر أن موهبة الشعر تيقضت عنده مبكرة ، وطبعي وهو قد نشأ في البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله ، غير أن الهجاء هو الذي غلب عليه ، وقد صبه صباً على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذي دلغ لسانه فيها أن سعيد بن عثمان والى معاوية على خراسان أراد استصحابه فأثر عليه عَبَّاد بن زياد والى سجستان . وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابن مفرغ يسير معه في موكب ، فهبَّت ربيع ، فنفتحت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

ألا ليت اللَّحَى كانت حشيشاً فنعلفها دوابَّ المسلمينا  
وعلم عباد بما قال ، فأخذ يحفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صحبته وترَّكه لسعيد بن عثمان ، وفي ذلك يقول :

إن ترَّكى ندى سعيد بن عثما ن فتى الجود ناصرى وعديدى  
وأتباعى أخوا الوضاعة والدُّوم لنقص وفوتُ شأؤى بعيد  
وكان على ابن مفرغ دَيْن ، فاستعدى عليه دائنوه عَبَّادا ، فأمر ببيع ماله في دينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُردٌ وجارية تسمى أراكة ، فبكاهما طويلاً بمثل قوله :

وشريتُ بُرداً ليتنى من بعد بُردٍ كنت هامه<sup>(١)</sup>  
يا هامةً تدعو صدئى بين المُشقرِّ فالهامه<sup>(٢)</sup>  
الريح تبكى شجوهً والبرق يلمع فى الغمامه<sup>(٣)</sup>

وأخذ يهجو عَبَّادا وأخاه عبيد الله والى العراق وأباهما زيادا هجاء مقذعا ، وكان مما وقف عنده طويلاً استلحاق معاوية لزياد : معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

(١) يقال فلان هامة اليوم أو الغد أى أنه يموت فى يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .  
(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصنى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين وفجران .  
(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً فى الغمامة .



أَبْلَغُ معاويةَ بنِ حَرْبٍ مُغْلَغَلَةٌ عن الرجل اليماني  
 أَنْغَضَ أَنْ يُقالَ أبوكَ عَفٌّ وترضى أن يقالَ أبوكَ زاني  
 وَأَشْهَدُ أَنَّ إِلَكَ من زيادٍ كِإِلِّ الفيلِ من ولدِ الأَثانِ<sup>(١)</sup>  
 وكان أهل البصرة يتغنون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله،  
 فطلبه وألحَّ في طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائبٌ عنها في وفادة  
 على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمندربن الجارود ، وكان عبيد  
 الله مُصْهراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَرْعَ جوار المندر ، وأخذ ابن  
 مفرغ وسجنه . ورأى أن ينكئ به ، فأمر - كما مر بنا في غير هذا الموضع -  
 أن يُسْتَقى نبيداً ويَحْمَل على بعير مقروناً إلى هِرَّةٍ وخنزير ويُطاف به في أزقة  
 البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله في طوافه يخاطبونه بالفارسية  
 ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجياً عبيد الله وجدته مُسمِّية هجاء مقذعاً .  
 ورُدَّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عناباً  
 ألماً ، فألقى به في غيابات السجون . وشفعت فيه اليمنية عند يزيد بن معاوية ،  
 وألحت في شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى يهجو عبَّاداً وأخاه عبيد الله ،  
 وخاصة حين خلا له الجوُّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن  
 معاوية ، فقد ظلَّ يَسْقُط عليه بهجاء مريز . ، وقد توفي سنة تسع وستين .

### الحكم<sup>(٢)</sup> بن عبدل

من بني أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بني أمية ،  
 فلما دخل العراق في طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام ، فقدمها على عبد الملك  
 وحظيَّ عنده ، وله في تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته  
 أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعري وليتُ ربما نفعتُ      هل أبصرنُ بني العوامِ قد سُملوا  
 بالذلِّ والأسر والتشريدِ إنهمُ      على البرية حَتَفٌ حيناً نزلوا

الأديب ٢٢٨/١٠ وما بعدها وفهرس البيان  
 والتبيين والحيوان .

(١) الإل : القرابة .  
 (٢) انظر في ترجمة الحكم بن عبدل أغاني  
 (دار الكتب) ٤٠٤/٢ وما بعدها ومعجم

ولما دخلت العراق في طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعلك في بعض مدائحهم، إذ نراه يصف لمدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان<sup>(١)</sup>. وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في العصر العباسي، وكانوا سبباً في نشوء فن المقامات عند بدیع الزمان ثم الحريري. وكان هجاء خبيث اللسان، ومن هجاهم طويلاً محمد بن حسان بن سعد، وكان يتولّى خراج الكوفة، فكلمه في شخص ليضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه فرده ردّاً قبيحاً جعله يسئل لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها:

رأيت محمداً شَرِهاً ظلوماً      وكنت أراه ذا ورعٍ وقَصْدِ  
يقول: أَمَاتَنِي رَبِّي خِداً      أَمَاتَ اللهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدِ  
وذاعت القصيدة على السنة الكوفيين، حتى كان المُكاري يسوق بغله أو حماره فيقول: عَدَّ، أَمَاتَ اللهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدِ. وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخطبة بأشعار كثيرة من مثل قوله:

وما كان حسانُ بن سعدٍ ولا ابنُه      أبو العِيسِكَ من أكفء قيس بن عاصم<sup>(٢)</sup>  
نخذي ديةً منه تكن لكِ عُدَّةً      وجيئني إلى باب الأمير فخاصمي  
وكان ذلك سبباً في تقض هذا الصهر، إذ أنفت للفتاة عشيرتها وردت ابن حسان ردّاً قبيحاً. ومن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدي صاحب شرطة الحجاج، وله يصف شحّه وتقثيره:

جئنا وبين يديه التَّمْرُ في طَبَقِ      فما دعانا أبو حَفْصٍ ولا كادا  
وولى إمارة الكوفة لمسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وكان أعرج، وتصادف أن كان صاحب شرطته مثله أعرج، فدخل عليه الحكم، وكان هو الآخر أعرج، فأنشده في أبيات:

(١) انظر الحيوان ٢٩٧/٥ وفي مواضع متفرقة. (٢) يكنى ابن عبدل بأبي المسك عن فتى ابن حسان.

أَلْتِي الْعَصَا وَدَعِ التَّخَامُعَ وَالتَّمَسُّسَ عَمَلًا فَهَذَا دَوْلَةُ الْعُرْجَانِ (١)  
 فأعطاه عبد الحميد مائتي درهم وسأله أن يكف عنه ، ويقول الجاحظ :  
 « لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من  
 الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم  
 أخرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ،  
 ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْبَسُّ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قَدَّرَ وأوفر  
 مما أمل ، فقال يحيى بن نوفل (٢) :

عَصَا حَكْمٍ فِي الدَّارِ أَوْلُ دَاخِلِي وَنَحْنُ عَلَى الْأَبْوَابِ نُقَصِّي وَنُحَجِّبُ (٣)

وللحكم هجاء فكه في زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها  
 متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفي في مطلع القرن  
 الثاني للهجرة .

### ثابت (٤) قُطْنَةُ

هو ثابت بن كعب من بني العتبيك الأزديين ، وقيل بل هو مولى لهم ،  
 ولقب قُطْنَةُ لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه في بعض حروب الترك ، فذهب  
 بها ، فكان يجعل عليها قُطْنَةَ . وهو من فرسان المهلب المبرزين وقد علا نجمه في  
 ولاية يزيد بن المهلب الأزدي على خراسان إذ كان يوليّه أعمالاً في الثغور ،  
 فيحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون ويتجادلون  
 فال إلى قولهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته في الإرجاء في تضاعيف  
 حديثنا عن الثقافة .

عمر قاضي الكوفة .

(١) التخامع : المرج .

(٢) البيان والتبيين ٣/٧٤ .

(٣) انظر في ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء

(٤) راجع في ترجمة ثابت الشعر والشعراء

٧١٧/٢ وأغانى ( دار الكتب ) ٤/٢٧ والطبرى

٢/٦١٢ وأغانى ( دار الكتب ) ١٤/٢٦٣

٥/٤٥٧ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد .

والخزانة ٤/١٨٤ والاشتقاق من ٤٨٣ .

وكان مولعاً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن

وبلثتم في ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث بثيره . ونراه مع المهلب في حروب الأزارقة ، ويتعرض بعض بني الكوآء اليشكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبرى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدهم واليشكوريون منهم ألام العرب  
ويمضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً في سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له ودّه ، فكان يمدحه ، وكلمها شغبت عليه قبيلة صَبَّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد في البصرة كما قدمنا تعيينها وتشدُّ من أزرها لا في البصرة فقط ، بل أيضاً في خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيد في بعض الأمر ، وهي تنزل مع الأزد حواليه ، فشغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تنزرو في الفساد وفي الوغى إذا راعها روعُ جماميح بروق<sup>(١)</sup>  
وأنتم على الأذى أسود خفية وأنتم على الأعداء خزان سملق<sup>(٢)</sup>

وحين ولي قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزور عنه امتعاضاً لابن المهلب ، ولم يلبث أن هجاه هو وقبيلته باهلة حين هُزمت في بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

توافت تميم في الطعان وعردت بهيلة لما عاينت معشراً غلباً<sup>(٣)</sup>  
تسامون كعباً في العُلا وكلابها وهيها أن تلقوا كلاباً ولا كعباً

وأهمُّ شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازني التميمي ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه ، فغبطه عليها ، وأساء له

جمع خُزُرٌ وهو ذكر الأرناب وهي معروفة بالجن .  
والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .  
( ٣ ) عردت : هبطت . بهيلة : تصغير باهلة .

( ١ ) تنزرو : تشب . الروع : الفزع .  
الجماميح : ما ثبت على رموس القصب مما إذا دق  
تطايير . بروق : ثبت ضعيف .  
( ٢ ) خفية : أجمة في سواد الكوفة . خزان :

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله انهجاء ، ولقبه في هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسماه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول في بعض أهاجيه :

أحاجبُ ! لولا أن أصلك زَيْفٌ      وأنت مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ  
وَأنى لو أكثرْتُ فيك مقصراً      رميتك رمياً لا يبِيد يدَ الدهرِ

ونه أشعار كثيرة في مدح المهالبة وراثهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل في معاركه مع بنى أمية طويلاً ، وهو في مديحه وراثه لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قوياً . وأكبر الظن أنه توفي قبل نهاية العقد الأول من القرن الثاني .

## ٣

## شعراء النقائص

هياً استعار العصبية في البصرة وخراسان لاشتعال انهجاء طوال هذا العصر ، كما هياً نمو فن النقائص نمواً واسعاً ، وقد أعدت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فردتها إلى حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من الملاهي يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلي وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلاً نهضت - كما رأينا في غير هذا الموضوع - دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاهي يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم ، وقد رأينا المدينة ومكة تُقبِلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلها من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالاً شديداً . حينئذ انبرى الهجاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيمهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائص مثيرة ، فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأجنادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بتصديده على وزن قصيدته ورؤيتها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمع الناس من حولهما يصفقون ويهتفون ويصبحون<sup>(١)</sup> . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هي سدُّ حاجة الجماعة الحديثة في البصرة إلى ضرب من ضروب الملاحى .

وتدخلت في صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردّها إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقيدية وفي الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها في أدلة خصمه لينقضها دليلاً دليلاً ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحاطون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان<sup>(٢)</sup> . وكان أولهما من عشيرة كلثيب اليربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتهما من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفًا كثيرة جعلت جريراً يقف في صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فانفق هوى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشع الزبير بن العوام حين لحاً بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن بلحات السوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجو<sup>(٣)</sup> .

أجزاء ضخمة. ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوي سنة ١٩٣٥ .

(١) أغاني ( دار الكتب ) ١٠٢/١٠

وطبعة ساسي ١٠٣/١٩ .

(٢) أغاني ( دار الكتب ) ٩/٣٢٤ وما بعدها

(٣) شرح أبو عبيدة نقائض الشعراء ،

وحقق الشرح ونشره بيثن سنة ١٩٠٥ في ثلاثة

ونحن لا نصل إلى حكم القُباع وإلى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين في تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجد في نقيضتين لهما يُعلنان تكبيرهما على هذا الوالي ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل<sup>(١)</sup> . ويقول الرواة إن سبب التجامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غساناً هجا جريراً فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالسبيث<sup>(٢)</sup> المُجاشعي ، فأغاثه بمثل قوله في جرير وعشيرته :

أترجو كُليبٌ أن يحجى حديثها بخيرٍ وقد أعيا كليباً قديمها  
فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شواط نار . وأفحش بنسائهم إفحاشاً  
شديداً جعلهن يستغثن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه في الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فقُتيم التميميين معروفة ، ووَجَدَ نُه عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة ، فما زلن به يسترنه قائلات إن جريراً هتَكَ عورات نساءك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظته ، فهجا جريراً ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء ينزلق فيها متحيزاً للفرزدق على جرير ، فكان يَشْوِي وجوههم ووجوه عشائهم بنيران هجائه ، فينسخبون منهزمين على شاكلة الراعي<sup>(٣)</sup> ، وكان من سوء حظّه أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبيّ دنا الرّواحُ فسيراً غلب الفرزدقُ في الهجاء جريراً  
وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعَدُّها « حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

عساكر ١٢٢/٥ ومعجم الأدباء ١١/٥٢ .  
(٣) انظر في ترجمة الراعي ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٣٧٧ وأغانى (ساسة) ٢٠/١٦٨ وفي ترجمة جرير ، وفي الخزانة ١/٥٠٢ والموشح ص ١٥٧

(١) شرح النفاض لأبي عبيدة (طبعة بيقن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذري ٥/٢٧٨ .

(٢) انظر في ترجمة البميث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٤٧٢ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن

بالمربد . وكان له مجلس ، وللترزدق مجلس ، فدعا بدهن° (طيب) فادهن  
وكف<sup>(١)</sup> رأسه . وكان حسن الشعر . ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له  
حصاناً ، ثم قصد مجلس الترزدق والراعي ، فتوجه للراعي يقول له : أبعتك  
نيسوتك تكسبهن المال بالعزاق . أما والذي نفس جريز بيده لترجعن إليهن يميمير<sup>(٢)</sup>  
يسوءهن ولا يسرهن<sup>(٣)</sup> . ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعي بيته  
المشهور .

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغت ولا ركابا  
ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الترزدق يعلوه الخيزي والصغار ،  
واتجه توا إلى منازل قبيلته نيمير في نجد ، وهو يردد : فضحنا والله جريز ، وهم  
يقولون : هذا شوأمك .

وإنما أطلنا في هذا الخبر لنعطي صورة عن شاعر النقائص في المربد ،  
وكيف كان يحتفل بشبابه وزينته ، وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس  
من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصباح والتليل ، وأيضاً لندل على قات  
جريز في الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال  
إنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفاً . كانت  
أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، ومن ثبت له قليلاً ثم  
اندحر عمر بن لجا التيمسي<sup>(٤)</sup> . وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريد  
ويُقضى الأمر حين تغيب تيمٍ ولا يُستأذنون وهم شهود  
لثام العالمين كرامٍ تيمٍ وسيدهم - وإن رغبوا - مسود

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .  
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .  
(٣) انظر في هذا الخبر أغاني ( دار الكتب )  
٢٩/٨ .  
(٤) انظر في ترجمة عمر بن لجا ابن سلام

ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفي  
مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢/٦٦٢ والاشتقاق  
ص ١٨٥ والخزاعة ١/٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن  
من الأغاني والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .



وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب، وسنعرض لذلك عما قليل . وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه . إذ كان على شاكلته يعرف كيف يبسرى نبال الهجاء المصممية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلاسنين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب في نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التي يتحدثان عنها دون أن يذكرها . فجزير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان ، إذ دفعت تهما الحوادث هناك لكي تنكّل بعبد الله بن خازم السُّلَسي والى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب : كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلي حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ في نقائضهما ، بحيث تُعدّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعب عمل النقيضة : لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضاً دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي كان يحامى عنها فحسب ، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها ليقف على الأيام التي انهزمت فيها ، حتى ينشر مخازيها في الناس .

وواضح أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبية القبلية ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن هذه العصبية اختلطت في العصر الأموي بالسياسة ، وهياً ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاة ، بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ، بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسبياً وغزلاً . والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في مجانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل ، وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجريز عملاً فنياً معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند تقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعاني ، ونحن نختار للفرزدق تقيضته :

تحنُّ بزوراء المدينة ناقتي حنينَ عَجُولٍ تبتغي البوّ راثم<sup>(١)</sup>

وهو في غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلالاً من يوم الحساب . ونراه يعتذر مما قد بدّر منه من أشعار تصوّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولست بمأخوذ بلغوٍ تقوله إذا لم تعدد عاقدات العزائم

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : ( لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ) ويمضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جعلت لأهل الأرض نوراً ورحمةً وعدلاً وغيث المغبرات القوام<sup>(٢)</sup>

وكان الحجاج ليج في البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفى قبل خلافته ، فنكل بمن لجوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرّاً صورّه فيه طاغياً باغياً ، لقي جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب القيل إذ ترميهم طير أبيبيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . ومن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلي وثورته على سليمان بخراسان ، وافتخر بأن تميا بزعامه وكيع بن أبي سؤد هي التي قضت عليه . ومضى يتكلم لقيس وشاعرها جريز هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس في الجزيرة . ويتجسّم له جريز كأنه قيس نفسه فيقول :

حقيقة .

( ٢ ) المغبرات القوام : السنوات المجدبة .

( ١ ) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأه أي تحن إليه فلنا منها أنه ولدها

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفَيْكَ جِبِلَّ جَمَاعَةٍ وَطَاعَةَ مَهْدَى شَدِيدِ النَّقَائِمِ (١)

ويسمى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذي ضرب الله به مشركي قريش في يوم بدر . ويعير جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف في يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخراً عارماً بتميم وأيامها في الجاهلية وأجاده العريقة في الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المراغة ( الأتان ) فهم ليسوا فرساناً ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبني وكانت كليبٌ مدّرجاً للشثائم  
' ودائماً يصف كليباً باللؤم والدناءة ، ويُفحش في التَّيْل من نساءها ومن أم  
جرير خاصة ، ولا يترك ماذمة إلا ويسلّفح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من  
نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِي كَلَيْبٍ نَجُومُ اللَّيْلِ مَا وَضَحَتْ لَسَارِ  
ولو يُرْمَى بِلُؤْمِهِمْ نَهَارٌ لَدُنَّسٍ لَوْمُهُمْ وَضَحَ النَّهَارِ  
وما يغدو عزيزُ بني كليبٍ ليطلب حاجةً إلا يجارِ  
ووقف جرير في الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التي لخصناها آنفاً ،  
فحسى بعد غزها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذي اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتُ أمَّ الفرزدق فاجرا وجاءت بِوَزْوَاٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ (٢)  
وما كان جارٌ للفرزدق مسلمٌ لِيَأْمَنَ قِرْدًا لَيْلَهُ غَيْرِ نَائِمِ  
أَتَيْتَ حَدُودَ اللَّهِ مَذَّ أَنْتَ يَا فَعُ شَبَّتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ (٣)  
تَتَبَّعَ فِي الْمَاخُورِ كُلِّ مَرِيْبَةٍ وَلَسْتَ بِأَهْلِ الْمُحْصَنَاتِ الْكَرَائِمِ (٤)

(١) المهدي هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه

بالمهدي كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

(٣) الهازم : أصول الحية .

(٤) المحصنات : العفيفات .

ومضى بِصَمِّهِ بأخته جِعِثِينَ ، وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه الهجاء ، كما وصفه بأنه قَيْن ابن قَتِين ، فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان بلخه قيون ، فرمى جِدَّتَهُ بهم ، كى يغيطه ويُحفظه . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه في أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما في هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حواليه نطقاً من الذل . وكان الذى قَتَلَ قَتِيبة بن مسلم الباهلي وكيع بن أبى سُود اليربوعي . فهو ليس مجاشعياً ؛ إنما هو من قوم جرير ، ومن تَمَّ يقول له :

فَغَيْرُكَ أَدَى لِلخَلِيفَةِ عَهْدَهُ      وَغَيْرُكَ جَلَى عَنْ وَجْهِهِ الْأَهَاتِمِ (١)  
فَإِنْ وَكَيْعاً حِينَ خَارَتْ مَجَاشِعُ      كَفَى شَعْبَ صَدْعِ الْفِتْنَةِ الْمُتَفَاقِمِ  
لَقَدْ كُنْتُ فِيهَا يَا فَرَزْدُقُ تَابِعَا      وَرِيْشُ الذَّنَابِي تَابِعُ الْقَوَادِمِ (٢)

وبذلك استل منه الفخر بحادثة وكيع ، وجعلها لقومه اليربوعيين ، لالمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قَتِيبة القيسية وأيامها في الجاهلية ، وعمم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب في الجزيرة ، وغير تغلب بمسيحيها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين . وكان عمر قبيل منها أن تدفع صدقة كالعرب لاجزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمى ما تدفعه جزية ، تلسباً وتعبيراً . ويعود إلى أيام قيس في الجاهلية ، يعددها ، ويعدد ما لها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك في أثناء حجة له ، وجاءوه بأسرى من الروم ، فأمر بحز حلاقهم ، وأعطى لبعض من صحبوه أسياف يضرَبون بها رؤوس هؤلاء الروم ، وعرف بعض القيسيين أن سيطلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم ، فدسوا له سيفاً كليلًا لا يقطع ، فلما ضرب به لم يصنع شيئاً في الروم . وانتهزها جرير ، فكان يكرر له هذا

جناح الطائر ، والذئب ما خلفها من ريشات  
قصيرة .

(١) الأهاتم : من أشرف تميم .

(٢) القوادم : الريشات الطويلة في مقدمة

الحادث ليضحك أهل المرید عليه، بما يصور من خوره وجبئنه، ومن ثم يقول له الفرزدق في تقيضته السالفة :

فهل ضربة الرويُّ جاعلةٌ لكم ( أبا عن كليبٍ أو أبا مثل دارم -  
ونرى جريراً يردُّ عليه بمثل قوله :

بسيفٍ أباي رَعَوَانِ سيفٍ مجاشعٍ  
ضربتَ به عند الإمام فَأَرْعَشَتْ  
ضربتَ به عُرْقُوبَ ذابٍ بِصَوَّارٍ  
عنيفٌ بهزِّ السيفِ قَيْنٌ مجاشعٍ  
(١) ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم  
يداك وقالوا مُحَدَّثٌ غير صارم  
(٢) ولا تضربون البَيْضَ تحت الغمام  
(٣) رفيقٌ بأخرات الفُؤوس الكرازم

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صوعر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فَجَسَلَلْ له جرير هذه المكرمة بعار الجبن، فأبوه وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذي نبا في يده، عراقيب الإبل لا صدور الفرسان. ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفرع وتطلع حين تمسك به، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهي صناعتك.

وواضح أن جريراً لم يقف بنبو السيف في يد الفرزدق ووصفه بأنه قين ابن قين عند حد التَّسَلُّب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق. واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدلُّ أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربيَّ عند جرير من قدرة على التوليد في المعاني، كما نرى في مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدُّوا  
أَبَانَ الْمُقْرِفَاتُ مِنَ الْعِرَابِ (٤)  
فأورثك العلاةَ وأورثونا  
رباط الخيل أفنية القباب (٥)

(٣) أخرات : جمع خرت وهو النقب في أعلى الفأس. الكرازم : الفئوس ضخمة الأروس.

(٤) المقرفات : الهجينات التي لا يخلص نسبها. العراب : الأصليات والمعزوبة.

(٥) العلاة : سندان الحداد.

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المري أحد فرسان قيس في الجاهلية.

(٢) التاب : الناقة المسنة. البيض : خوذ الحاربيين. الفغامم : أصوات الجيوش، جمع غمفة.

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القَيْنِ لاقينَ مثله لَطُحَ المساحي أو لِيَجْدَلِ الأَدهم<sup>(١)</sup>

وقوله :

ورَقَّعَ لَجَدَكَ أَكْبَارَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ  
وَأَذِنَ العَلَاةَ وَأَذِنَ القَدُومَ ووَسَّعَ لِكَبْرِكَ فِي المَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصر من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصراني ضده ، فأخذ بضحك عليه سامعيه في المرْبَدَ بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهما على دين نصرانيةٍ لتنصراً  
وقوله :

يحبك يوم عيدهمُ النَّصاري ويومَ السَّبْتِ شِيعتُ اليهودِ

ولعل في هذا ما يدل أكبر الدلالة على أن النقائص عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقصدُ بها قبل كل شيء إلى تسلية الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهي مناظرة كانت تقاطع بالتهميل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلاً جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلاً من هذه الأشكال لشهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق في قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فناً يُقصدُ به إلى إمتاع الناس في البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين . ليتناشدا أماتهم ابتغاء اللهو والتسلية<sup>(٢)</sup> . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متواديين لامتخاضيين متباغضين ، فهما يجتمعان

(١) فطح المساحي : تسويتها وتعريفها . وهو القيد .

(٢) أغاني ( طبع دار الكتب ) ٧٦ ، ٣٧ / ٨ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سويباً، وإذا نزلت بأحدهما شدة  
أوحزبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يَدَ العون، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة  
تشفَّع له الفرزدق (١) ، وإذا هجا الفرزدق خالداً القسريَّ وحبسه تشفع له  
جرير عنده (٢) ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه  
ويطلقه (٣) . ونراه حين يبأسى القدر قبله يرثيه رثاء حاراً بمثل قوله :

ولا حملتُ بعد الفرزدق حُرةً      ولا ذاتُ حملٍ من نِفاِسٍ تعلَّتْ (٤)  
هو الوافد المَحْبُوبُ والراتقُ الدَّائِي      إذا النعل يومًا بالعشيرة زلَّتْ (٥)

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر في  
عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر في عصرنا أصحاب الصحافة  
الحزبية في آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم في أثناء ذلك صداقتهم .  
وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة  
إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما  
كانوا يبتغون من ذلك ، إذ تحولوا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة  
التي استضاء فيها بقدرة العقل العربي الحديث على الجدال والتوليد في  
المعاني . وارجع إلى أي فكرة عندهما كمنكرة أن الفرزدق قيّمين أو فكرة ذل  
بني كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التي يقف عندها في صور كثيرة ،  
إذ ما يزال يولّد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرّع ويشعب ، وكأنما يريد أن لا يُسبق  
فيها بقية . وانظر في أي نقيضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستره يقف بلزاء  
كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صنّع المتناظرين من أهل اللدّ والحصومة في  
المسائل العقيدية ، فهو يحاول جاهداً أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه  
في هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثمّ كنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق  
فن جديد ، وهي ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقها مقدمات في العصور

(٤) تعلت : تطهّرت .

(٥) الثأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

(١) أغاني (ساسي) ٢٨/١٩ .

(٢) أغاني ٤٢/١٩ .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين في صورة جديدة ، وهي صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع في العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة في انجاء القديم ، وهي ظاهرة التندير على المهجور وقبيلته . حتى تُضحك المستمعين في المرید ، وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصباح والصفير والتصفيق . ومن ثم لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك في خصمه إلا آثاره ، كأن يقول الفرزدق في جرير :

يُهْدِي الوعيدَ ولا يحوطُ حريمَهُ  
كالكلبِ يَنْبَحُ من وراءِ الدارِ  
أو يقول في كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نهاق حمارهم  
وتنام أعينهم عن الأوتار<sup>(١)</sup>  
أو يقول :

أتعدل أحساباً لثاماً أدقّةً  
بأحسابنا إني إلى الله راجعُ  
وكان جرير يلقاه بمثل قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مريباً  
أبشِرُ بطول سلامةٍ يا مريبُ  
وقوله :

خذوا كُحْلاً ومِجْمَرَةً وعِطْراً  
فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ  
وهو يتفوق على الفرزدق في هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاءه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلُ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميا المناضل عنها . وكان الأخطل - كما قدمنا - يهاجى قيساً في الحروب التي

(١) الأوتار : جمع وتر وهو الثار .



نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرَجِ رَاهَط. سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فَيُنْجِمُهُم بِأَهَاجِيهِ الْمَقْدَعَةِ .

وشاعت المقادير أن يلمَّ بالعراق في ولاية بشر بن مروان . فاصطدم هناك بجريز ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه <sup>(١)</sup> وطبيعي أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجَنِّبُ عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفني من حيث هو ، إنما كان منشؤه الحصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين . وإذا هما يَخْلِفَان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام <sup>(٢)</sup> . وقد ظلا ينظماها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفى الأخطل حوالي سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر في هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَن هجوه ، ومدحوا فرفعوا مَن قدر مَن مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَن هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون . جرير والفرزدق والأخطل » <sup>(٣)</sup> وجميع الظواهر التي لاحظناها في نقائض جرير والفرزدق نجدناها مجسمة في نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَتِيَان بتاريخ القبائل في الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبية بالسياسة . وقد ساقَت الظروف تغلب لتقف في صفوف بني أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، كما ساقَت الأخطل التغلبي ليكون شاعر بني أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق في الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير . ونراه يستلمها بالنسيب ووصف حزنه لفرق أحبته ، وهو يُشَبِّهُم طرفه مولَّها . حتى ليشبَّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يُلمَّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نصرانياً ، فانفرد بهذا الموضوع في شعره .

اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشعراء ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لها .  
(٣) البيان والتبيين ٤/٨٢ .

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٣١٥/٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .  
(٢) نشر صالحاني هذه النقائض في بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة في الأستانة ، وقد

على أنه لم يُطَنب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعن الحبيبة : مستلهماً زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء ، وإقبالن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فدحه من حيث هو خليفة ، منوهاً بجموده ، ومشبهاً له في هذا الجود بالفرات ، وهي صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنفر في مملته . ويمضي فيفصل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوهاً بشرفها العريق وأنفها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل في طاعة عبد الملك ، وكأنه ينبغي أن يُحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بني أمية إني ناصح لكمُ فلا يبيتنَّ فيكمُ آمنا زُفَرُ

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبها بالجزيرة : ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحشّاك التي قتل فيها فارسها عمير بن الحُباب وأن زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بُعدَ نظر . ومضى الأخطل بهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأذع في هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُليبُ بن يربوعِ فليس لهم  
مخلفون ويقضى الناسُ أمرهمُ  
ملطمون بأعقار الحياض فما  
قومُ أنابتُ إليهم كلُّ مخزبةٍ  
على العيَازات هداجون قد بلغتُ  
عند التفارط إيراد ولا صدْرُ<sup>(١)</sup>  
وهمُ بغيبٍ وفي عمياء ما شعروا<sup>(٢)</sup>  
ينفكُ من دارميٍّ فيهم أثرُ<sup>(٣)</sup>  
وكل فاحشةٍ سببتُ بها مضرُ<sup>(٤)</sup>  
نجرانٍ أو حدثتُ سوءاً لهم هجرُ<sup>(٥)</sup>

لعزتها وشرفها .

(٤) أنابت : رجعت وتناحت .

(٥) العيَازات : جمع عير وهو الحمار ،

يهجو بينهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل .

المنجج : تقارب الخطو .

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ،

والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يستشارون ولا يعي بهم .

(٣) يقول إنهم يملطمون حيث يكوزون في

مؤخرات الحياض ، تلمطم دارم عشيرة الفرزدق

ويأخذ في هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقذع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل في نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نبال الذل والحسنة والدناءة، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس في الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات، وكثيراً ما يضم إلى ذلك فخرأبأيامها في الجاهلية، كما يضم انتصاراً للفرزدق وعشيرته دارم، حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير.

وكان جرير ينقص عليه كالصمَّير الجارح، فيضع تحت عينه مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في يوم ما كَسَّين الذي نكَّل بها فيه عمير بن الحُبَاب أو في يوم الكُحَيْيل الذي نكل بها فيه زفر بن الحارث أوفي يوم البِشْر الذي نكَّل بها فيه الجَحَاف السُّلَمِيّ، ضاماً إلى ذلك انتصارات قبيلته: يربوع في الجاهلية وملججا في هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة:

نحن اجْتَبَيْنَا حِيَاضَ الْمَجْدِ مُتْرَعَةً  
 من حَوْمَةٍ لَمْ يَخَالِطْ صَفْوَهَا كَدْرٌ<sup>(١)</sup>  
 لَمْ يُخْزِرْ أَوْلَى يَرْبُوعٍ فَوَارِسُهُمْ  
 ولا يُقَالُ لَهُمْ كَلَا إِذَا افْتَخَرُوا  
 هل تعرفون بندي بَهْدِي فَوَارِسَنَا  
 يومِ الْهُذَيْلِ بِأَيْدِي الْقَوْمِ مُقْتَسَرٌ<sup>(٢)</sup>  
 خَابَتْ بَنُو تَغْلِبٍ إِذْ ضَلَّ فَارِطُهُمْ  
 حَوْضَ الْمَكَارِمِ إِنْ الْمَجْدُ مُبْتَدِرٌ<sup>(٣)</sup>  
 الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعِمْيَاءِ إِنْ ظَعَنُوا  
 والسائلون بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَا الْخَبِرُ<sup>(٤)</sup>  
 الآكُلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدْمُ  
 والنازلون إِذَا وَاوَاهِمَ الْخَمِيرُ<sup>(٥)</sup>  
 إِنِّي رَأَيْتَكُمْ وَالْحَقُّ مَغْضَبَةٌ  
 تَخْزُونَ أَنْ يَذْكَرَ الْجَحَافُ أَوْزُفْرُ  
 كانتْ وَقَائِعُ قَلْنَا لَنْ تُرَى أَبَدًا  
 من تغلبِ بَعْدَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ  
 حَتَّى سَمِعْتُ بِخَنْزِيرٍ صَغَا جَزَعًا  
 منهم فَقُلْتُ أَرَى الْأَمْوَاتِ قَدْ نُشِرُوا<sup>(٦)</sup>

(١) الحومة: معظم الماء.

(٢) ذو هدى: يوم ليربوع على تغلب وفيه

أُسرَت فارسها الهذيل بن هبيرة.

(٣) الفارط: الذي يتقدم قبل الإبل يملأ لها

المحوض.

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تدبراً، فهم

لا يُسألون في شيء وهم يُسألون عن أخبار الناس.

(٥) الخمر: الموضع المستتر، يقول إنهم

ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التي تلزمهم.

(٦) نشروا: حيوا وبعثوا.

(٢) ذو هدى: يوم ليربوع على تغلب وفيه

أُسرَت فارسها الهذيل بن هبيرة.

(٣) الفارط: الذي يتقدم قبل الإبل يملأ لها

المحوض.

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنىً ، وقد لقبه في البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصراني ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضى في نفس هذه النقيضة : فيقول .

رَجْسٌ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا ، أَذَانُهُمْ قَرَعُ النُّوَاقِيسِ لَا يَدْرُونَ مَا السُّورُ (١)  
وما لتغلب إن عدت مساعيها نجمٌ يضيء ولا شمس ولا قمرٌ  
الضاحكين إلى الخنزير شهوته يا قُبِحَتْ تِلْكَ أَفْوَاهَا إِذَا كَشَرُوا (٢)  
والمُقرِّعين على الخنزير ميسرهم بئس الجزور وبئس القوم إذيسروا (٣)  
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا وهل يضيرُ رسولَ الله أن كَفَرُوا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه أنجححر ، ولم يستطع له جواباً ، ومن ثم كان جرير يقول إنني أُعِنتُ عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته في التندير على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله في نقيضة ثانية :

قَبِحَ الْإِلَهُ وَجْوهَ تَغْلَبَ كَلِمَا شَبَحَ الْمَحْجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالًا (٤)  
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِجِبْرِئِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالَا  
المُعْرِسِينَ إِذَا انْتَشَوْا بِنِنَاتِهِمُ وَاللَّدَائِبِينَ إِجَارَةً وَسُؤَالًا (٥)  
والتغلبُ إِذَا تَنَبَّحَ لِلقُرَى حَكَ أَسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْشَالَا (٦)  
ولو أَنَّ تَغْلَبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَزَنْ مَثْقَالَا  
نَبَّتُ تَغْلَبُ يَنْكُحُونَ رِخَالَهُمْ وَتَرَى نَسَاؤَهُمُ الْحَرَامَ حَلَالًا (٧)  
لا تَطْلُبَنَّ خَوْوَلَةً فِي تَغْلَبِ

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير

ضحكوا شهوةً للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور

وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول

إنهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على الخنزير .

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجبر وسائل .

(٦) تنبج : كانوا ينبجون في الظلام إذا ضلوا لئلا يرد عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

ويقول في نقيضة ثالثة :

إن الذى حَرَمَ المكارمَ تَغَلَّبَا      جعل الخلافة والنبوة فينا  
مُضَرُّ ابْنِ وَأَبُو الملوِكِ فهل لكم      يا خُزَرَ تَغَلَّبَ من أب كَابِينَا<sup>(١)</sup>  
هذا ابنُ عَمِيَّ في دمشقَ خليفةً      لو شئتُ ساقكمُ إلى قَطِينَا<sup>(٢)</sup>  
وما زالَا يتهاجيانِ حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقبل له ألا توصى ؟  
فقال تَوَّأ :

أوصى الفرزدقَ عندِ الماتِ بِأَمِّ جَرِيرٍ وَأَعْيَارَهَا<sup>(٣)</sup>  
ولم يكد يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت  
وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فَأَصْبَحَ أَلَمَ زَوَارَهَا<sup>(٤)</sup>  
والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ، وقد شهد له  
الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يتروى الرواة : «إن جريراً أوتى من سير  
الشعر ما لم نُؤْتَهُ ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهججى منه ، قلت :

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كَلَبَهُمْ      قالوا لأَمَّهُم بُولَى على النار  
فلم يَرَوْهُ إلا حكماءُ أهلِ الشعر ، وقال هو :

والتغلبى إذا تُنْبِحَ لِلقَرَى حَكَ أَسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الأَمْثَلَا

فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَوْه<sup>(٥)</sup> . ولعل من الخير أن نلمَّ بحياة هؤلاء  
الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرزيه فى  
الهجاء والمديح جميعاً .

(٣) أعيار : جمع عبر وهو الحمار

(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .

(٥) أغاني ٣١٨/٨ .

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى

به جرير عن اللؤم .

(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .

## الأخطل (١)

واضح مما قلنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهي إحدى القبائل العربية الكبيرة التي كانت تكون مجموعة قبائل ربيعة ، وكانت تنزل في الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة وغرباً إلى الشام ، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بكترجسكتى فيها المهلهل . وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قتلى فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم وعمرو بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها في الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة . ولما فتحت الفتوح لحقت في أول الأمر مع الفرس والروم ؛ وسرعان ما اضطرت إلى الدخول في طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقبيلَ منها أن تؤدِّي الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها في الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية في حروبه مع علي بصيفيين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْبِل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحدَّ الألسنة في جيش معاوية على خصومه (٢) :

وقد مضت تغلب بعد صيفيين تحطبت في حبل الأمويين ، من سفيايين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزحت إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها في

أشعاره تقاض جريراً والأخطل وديوانه نشر صالحاني .

(٢) انظر في أشعار كعب بصيفيين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفي مواضع متفرقة . وانظر في ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٦٣١/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ٤٥٧/١ ؛ وراجع فهرس الطبري والأغاني .

(١) انظر في ترجمة الأخطل أغاني (دار الكتب) ٢٨٠/٨ وكذلك في ترجمة جرير ٣/٨ وما بعدها وفي خير الجحاف ويوم البشر ١٩٨/١٢ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ٤٥٥/١ ؛ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة وخزانة الأدب ٢٢٠/١ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس : Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بني أمية السيد مصطفى غازي وانظر في

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تؤكد تتقدم بهما الأيام في أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سبباً سيوفهما ، واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس في طاعة عبد الملك وتكافأت القبيلتان عن المغازي في الجزيرة .

وفي هذه القبيلة وفي فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفي عشيرة من هذا الفرع تسمى بني القَدَّوكس وُلد الأخطل في بادية الحيرة حوالي سنة ٢٠ للهجرة ، وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهي من قبيلة إياد ، ومن ثمَّ نشأ نصرانياً ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل في الإسلام . وفي أخباره أنه كان يُكثر الشجار في صباه مع زوج أبيه فلقتبه دَوْبلا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوج أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه . فإنا نراه يطلق زوجته . ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وافتن بها سَفَه شديداً ، فكان يُكثر من هجاء الناس ، ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْمِل الأخطل ومعناه السفيف . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبي مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموي ويتعرض لنساء بني أمية . وكان ممن تعرض لمن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلاً مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسي ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبني أمية منذ وقوفهم مع علي في صفين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يرد عليه ، فاستعلاه ابن حسان . فقال يزيد لكعب بن جُعَيْمِل : أجبته عنى وأهجه ، فقال : «أرادى أنت إلى الإشرار بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثور ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : أهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

في الإسلام؟ أحافهم على نفسى، فقال يزيد: لك ذمة أمير المؤمنين وذمتى، فنظم في هجائهم قصيدته التى يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكانم والعُلا واللُّؤم تحت عمائم الأنصارِ

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى، وكان ممن صحبوا معاوية في حروبه ضد على وولائه الولايات وأكرمه، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه، فقال ما حاجتك؟ قال لسانه، فقال معاوية ذلك لك. وعلم الأخطل، فاستغاث بيزيد، فدخل على أبيه، وقال له: لاني جعلتُ له ذمتك وذمتى، إذ ردّ عني، فقال معاوية للنعمان: لا سبيل إلى ذمة يزيد. وردّ النعمان على الأخطل كما أسلفنا - ولكن الهجاء لم يستطر بينهما، وكان الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه. ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بنى أمية، فهو يعيش لهم يمدحهم، وهم يُغدقون عليه. وليس في ديوانه مديح لمعاوية، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان، فإن المرتضى في أماليه روى له فيه هذين البيتين (١):

إذا متَّ مات العزُّ وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرّد (٢)  
ورُدَّتْ أكفُّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلفٍ مجدّد (٣)

وفي ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد، ونحسُّ في قصائده لأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبني أمية، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية في صيفين وأن الله اختار بينهم للخلافة، على شاكلة قوله:

تمَّتْ جُدودهم والله فضّلهم وجَدُّ قوم سواهم خاملٌ نَكِدُّ  
ويوم صِفِّين والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم - إذ دعوا من ربهم - مَدَدُ  
وأنتم أهلُ بيتٍ لا يوازنهم بيَّتٌ إذا عُدَّتِ الأحسابُ والعُدُدُ

(١) أمال المرتضى (طبعة الحلبي) ٢/٢٤ .  
(٢) مصدر: مقل .  
(٣) الخلف: واحد أخلاف الناقة، ويقال تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها .



ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلاً ، فقد كان ينفذ عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه في الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً في صفوف قومه يناضل عنهم الراعي وابن الصَّفَّار المحاربي وابن الصَّعِق وغيرهم من شعراء قيس . ومربّ بنا أن القبائل اليمنية في الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان في موقعة مَرَجِ رَاهِط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها في تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس في الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَمِيَّيَ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت ألسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِع في تغلب على نحو ما أسلفنا في الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُدْعون ويدخلون في طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفراً ، ويحاول في سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين ، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل في هذا الاختصاص ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجحاف السلمي ، فينشد :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائرٌ      بقتلى أصيبت من سليمٍ وعامرٍ  
أجحاف إن نهبط عليك فتلتقي      عليك بحور طاميات الزواجر

ووثب الجحاف يَجْرُ مُطْرَفَهُ غضباً، وذهب تَوّاً إلى قومه في الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلا فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وبقر من النساء من كانت حاملاً . ومن كانت غير حامل قتلها . وتسمى تلك المعركة معركة « البشر » باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضلَّ من أسروه إذ قال لهم إنه عبد ، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمنته ، فعاد على أن يؤدي الحملات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتصور من هذه الوقعة تصورا شديداً ، حتى لئراه يهدد بني أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحافُ بالبشرِ وقعةً      إلى الله منها المشتكى والمعولُ  
فسائلُ بني مروانَ ما بالُ ذمّةِ      وحبلي ضعيفٍ لا يزال يوصلُ  
فإلا تغيّرها قريشُ بملكها      يكن عن قريشٍ مُسترادٌ ومزحلُ<sup>(١)</sup>

واستطاع عبد الملك أن يرمم الفتق ويحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلاً علياً ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يسئلُ بين يديه « وعليه جبة خبزٌ وحرزُ خبز ، في عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفضُ لحيته خديرا<sup>(٢)</sup> »

وعصرُ عبد الملك يُعَدُّ العصر الذهبي للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة ، وأثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يُعلن بين الناس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفي الأغاني أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبني أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهي دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قيس وساعدهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « حَفَّ اللَّقَطَيْنُ » التي أسلفنا الحديث عنها ، وقد أضحكهم نسجها حتى لتتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله في الأمويين :

حُشِدْ عَلَى الْحَقِّ عَيَافُو الْحَنَا أَنْفُ      إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبِرُوا  
وَإِنْ تَدَجَّتْ عَلَى الْآفَاقِ مُظْلَمَةٌ      كَانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصِرٌ<sup>(٣)</sup>

(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٩/٨ .

(١) بملكها : بتدريتها . مستراد : مرعى

(٣) تدجت : اظلمت . معتصر : ملجأ .

مزحل : من زحل عن مكانه إذا زال عنه وتضحى .

أَعْظَاهُمْ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَقَرٍ (١)  
 شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظُمُ النَّاسُ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا (٢)  
 والأخطل في مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجريير ، بل لاشك  
 في أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ، وكان يعتز بأبائه اعتزازاً شديداً ،  
 فلم يبرع في المديح ، إنما برع في الفخر . أما جريير فكانت نفسه لينة ،  
 ومن ثمَّ يُعَدُّ هو والأخطل في المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ في الوقت  
 نفسه أن مدائح جريير أكثر عدوية ، إذ كان يتفوق على خصميه جميعاً في  
 حلاوة الألفاظ وجمال النظم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز  
 برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ومدائحها في عبد الملك تُعَدُّ درره الشعرية .  
 وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلة قوله

وقد جعل الله الخلافة فيكمُ بأبيض لا عارى الخوان ولا جذب  
 ولكن رآه الله موضعَ حقها على رغم أعداءٍ وصدادةٍ كُذِبِ (٣)  
 ونراه يُلمُّ في هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً يمدح ولاهما  
 وأجوادهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي ، وبشر بن مروان  
 والحجاج ، وسمك الأسدي ، وهو من أجواد الكوفة . ونراه ينوّه بمصقلة بن هبيرة  
 الشيباني أحد قواد طبرستان ، كما ينوّه بعكرمة بن ربیع الفياض وجوده الغمير ،  
 ومن قوله فيه :

إن ابن ربیعٍ كفساني سبيبه ضيغن العدوِّ وعذرة المَحْتالِ (٤)  
 وإذا عدلتَ به رجالاً لم تجدُ فيضَ الفراتِ كراشح الأوشالِ (٥)  
 ومن نوّه بهم جريير بن عبد الله السجلى وجدار بن عتاب التغلبي وهام بن  
 مطرف .

(٤) السيب : العطاء . العذرة : الاعتذار ،

يشير إلى من يسألهم فيعتذرون .

(٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وشل  
 وهو الماء القليل . والراشح : الذى يسيل في قلة .

(١) الجد : الحظ .

(٢) شمس : جمع شموس وهو العسير في  
 عداوته . استقاد له : أعطاه مقادته وذمامه ،  
 فخفضه وذلل .

(٣) كذب : جمع كذوب .

تُطَوَّى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفى عبد الملك ، ويخلفه ابنه الوليد ، فيأفل نجمه ، إذ يُقَصِّيه عنه ، ويقرب منه شاعراً شامياً مسلماً هو عدى بن الرقاع العاملي ، وبذلك انزوى الأخطل ، ولم يعد له كبير شأن . وقد مدح الوليد ، ومدحه فيه فاترة .

وعلى نحو ما كان الأخطل يجيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودنانها ونداماها ، ويطيل المديح في عتقها والسرور بشرها ، يقول :

صهباء قد كلفت من طول ما حُبِسْتُ في مخدع بين جنات وأنهار<sup>(١)</sup>  
عذراء لم يجتَلِ الخطاب بهجتها حتى اجتلاها عبادي بدينار<sup>(٢)</sup>  
واقراً له القصيدة الأولى في ديوانه ، فستراه يصور فيها زقاق الخمر تصويراً بديعاً ، إذ يقول ،

أناخوا فجرؤا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا<sup>(٣)</sup>  
ويصف تمسحها في دمه وجسمه وعظامه ، فيقول :

تدب دبيبا في العظام كأنه ديببُ زمال في نقا يتهيل<sup>(٤)</sup>  
ويرسم صورة المنتشى بها نشوة تفقده حسه ووعيه ، على هذا النحو :  
صريع مُدام يرفع الشرب رأسه ليعيا وقد ماتت عظام ومفصل  
نهاديه أحيانا وحينئذ نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل<sup>(٥)</sup>  
إذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها مخبل  
وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغفاً شديداً ، حتى لنراه يذكر في حديث له مع عبد الملك أنها هي التي تمنعه من إعلان إسلامه<sup>(٦)</sup> . وفي أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا ، فقد كان يتمسح بالقساوسة تبركاً ، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان . ونراه يذكر الصليب في ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مار سرجيس ، ويُنقَسَم بالمسيح والرهبان . وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفى سنة اثنتين وتسعين للهجرة .

(١) الصهباء : الخمر . كلفت : تغير لونها .

(٢) عذراء : لم تنفض . العبادى : نسبة .

إلى قوم في الحيرة كانوا يتجرون في الخمر ، وهم

نصارى ، سمو العباد .

(٣) الشاصيات : المتلثة .

(٤) النقا : الكتيب من الرمل .

(٥) نهاده : نسوقه . الحشاشة : بقية النفس .

(٦) أغاني ( دار الكتب ) ٨ / ٢٩٠ .

## الفرزدق (١)

شاعر تميمي ، وكانت تميم تنزل في الجاهلية بشرق الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل في نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل الثمينة والمضرية والربيعة في أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتعدّ أكبر القبائل المضرية ، وهي في حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ، ومن أشهر هذه القبائل دارم ويربوع ومازن ومنشقر وبنو الهجيم وبنو أنف الناقة . ويفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق في الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ، ومن أهمها «أوارة» بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و«الرحرحان» بين دارم وعامر و«ذو نجب» بين يربوع وعامر و«النباج» بين منشقر وبكر و«إراب» بين يربوع وتغلب و«جبله» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عيس و«طخخفة» بين دارم ويربوع . وكانت وثنية إلا نفرأ قليلا تنصروا ، وهم يسمون في الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حجر وسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وعدي بن زيد العبادي ، ومن شعرائها في صدر الإسلام عبدة بن الطبيب وتمام

ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ والمبرد  
ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ،  
٢٩٢ والأمال ٣/٥٣ وكذلك الاستيعاب لابن  
عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزباني  
ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها . وقد  
طبع ديوانه طبعا مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً  
كبيراً منه وأكمله هل . وطبع في مصر ويبروت  
طبعا مختلفة ، أهمها طبعة الصاوي . ونشر  
بيغن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبي  
عبدة ، والديوان والنقائض جميعا في حاجة  
إلى نشرة علمية محققة .

(١) انظر في ترجمة الفرزدق الأغاني (طبع)  
ساسي) ٢/١٩ وما بعدها وأخبار مع ابن الزبير  
وزوجه النوار في أغاني ( دار الكتب )  
٢٢٤/٩ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء  
٤٤٢/١ و ابن سلام ٢٤٩ وما بعدها والموشح  
ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت  
٢٩٧/١٩ وخزانة الأدب ١٠٥/١ و امرأة  
الحنان لليافعي ٢٣٨/١ وأمال المرتضى  
٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة  
في الأغاني انظر الفهرس ، وراجع الإصابة  
٢٢٠/٥ والطبري ١٨٠/٤ وما بعدها و

ابن نويرة . وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجاح . وتبعها كثيرون . فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة في فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة في معارك صفين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج في زمن علي بن أبي طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة في صفوف الأزارقة . وقد مر بنا أنها تحالفت في البصرة مع قيس ضد الأزدي وربيعه . وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزد ، وظلنا متناقضتين طول العصر لا في البصرة فحسب ، بل أيضاً في خراسان .

وكانت دارم تتشعب شعباً أهمها بنو فُقميِّم وبنو تَهْشَل وبنو مجاشع . وفي بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة ولد الفرزدق وهو لقبٌ لُقِّبَ به لجاهلته وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الحُبْرَة الغليظة التي يتخذ منها النساء التَمْتوت . واسمه هَمَام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ، وجميعهم في ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فُتدَى الموءودات في الجاهلية ونهى عن قتلهن ، ويقال إنه فُتدى أربعمئة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوّه الفرزدق في شعره بهذه المكربة لجلده طويلاً ، من مثل قوله :

أَبِي أَحَدُ الْغَيْثِينَ صَعْصَعُهُ الَّذِي      مَتَى تُخَلْفُ الْجَوْزَاءُ وَالنَّجْمُ يَمْطُرُ  
أَجَارِبِنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجْرِرُ      عَلَى الْقَبْرِ يُعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفِرِ

وكان لصعصعة قيون منهم جُبَيْسِرُ وَقَبَانُ وَدَيْسِمُ ، ومن ثم جعل جرير مجاشعا قيوناً كذباً وبهتاناً . وضعصعة أحد من أتوا النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر في الجاهلية كان ابنه غالب في الإسلام وأمه ليلي أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، وما يروى من جوده السيال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جودهم ، فما كاد يسمع مسألهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويروى أن دارما و يربوعا أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سُحَيْمِ بْنِ وَتَيْلِ فَصَنَعَ صُنْعَهُ ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحَيْمِ مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحر إبله كلها في مكان يسمى صَوَّع ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً في شعره . ولم يكن يتلفح بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعْثَيْن ، وتصادف أن أحد أشرار بني منقر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ، وقد غير جرير الفرزدق بذلك كثيراً حتى لراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التي وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالي سنة عشرين للهجرة ، في أخباره أنه قال « : كنت أهاجى شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفي أخباره أيضاً أن أباه قدّمه إلى علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابني هذا شاعر ، فنصحه أن يعلمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ في بيت كريم ، مآثره ومفاخره لا تُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق في نفسيته إذ كان يعتدُّ بأبائه اعتداداً شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم في هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجِير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجِيرون . ولما توفّي صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاقُ الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوى في هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التي حرّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوى في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة الذي لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلاً بعيداً عن قصر بني أمية في دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بني أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمّ عم له يسمى الحُتات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفّي قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكده بسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة في معاوية يقول فيها :

فما بال ميراث الحُتات أخذته وميراث حَرْبٍ جامدٌ لك ذاتبُهُ<sup>(١)</sup>  
 فلو كان هذا الأمرُ في جاهليَّةٍ علمتَ من المرءِ القليلُ حلاتبهِ<sup>(٢)</sup>

ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه في ذئبٍ ذهب بكبش  
 من غمٍ لأهله ، وهو يستهله بقوله :

تلوم على أن صَبَحَ الذئبُ ضأنها فألوى بكبشٍ وهو في الرعْيِ راتعُ  
 وهى أبيات جيدة الصياغة . وفي أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد  
 اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن  
 هجأهم وأسرف في هجائهم بنو فُقَيْمٍ وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم في قوم ،  
 فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبتُ وفودُ بنى فُقَيْمٍ بِألمٍ ما تؤوبُ به الوفودُ  
 ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلة النهشلي ،  
 واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك  
 في سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو  
 البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ،  
 وأعانوه على الفرار ، فولَّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قبيل  
 معاوية ، وكان سيداً ممدحاً ، فأمنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

ترى الغرَّ الجحاجحَ من قریشِ إذا ما الأمرُ في الحدثنانِ غالا<sup>(٣)</sup>  
 قياماً ينظرون إلى سعيدٍ كأنهم يرون به هلالاً  
 وسمعه الخطيئة وهو بنشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ  
 لا ما نعللُ به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رَقَّ له وقال : لو أتاني لآمنتُه وأعطيتُه ،  
 فقال في كلمة :

دعاني زيادٌ للعطاءِ ولم أكنُ لآتيهُ ، ما ساق ذو حَسَبٍ وقرأ<sup>(٤)</sup>

(١) وهو السيد الكريم . الحدثنان : حوادث الدهر

ونوائبه . وغال : أصاب بشر .

(٢) الوفير : المال الكثير . وأراد التأييد أى

لآتيه أبداً .

(١) حرب : جد معاوية .

(٢) الخلائب : الجماعات وأبناء العم في القبيلة .

(٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الفرة

ويريد به الشريف . الجحاجح : جمع جحاجح



ومضى في المدينة ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القيان ،  
وذكر ذلك في شعره بمثل قوله :

إِذَا شِئْتُ غَنَانِي مِنَ الْعَاجِ قَاصِفٌ عَلَى مِعْصِمِ رِيَّانٍ لَمْ يَتَّخَذِدِ (١)  
وقوله :

مِمَّا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَازٍ أَقْتَمُ الرَّيْشِ كَاسِرُهُ

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثُّغرة في خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل  
المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم ، فَوَلِيَ مروان ، وكانت فيه  
شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفي طريقه إليها  
أتاه نعي زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه  
مسكينا الدارمي يتفجع على زياد بمثل قوله :

رَأَيْتُ زِيَادَةَ الْإِسْلَامِ وَلَّتْ جِهَارًا حِينَ وَدَّعَهَا زِيَادُ  
فحقق عليه حنقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أَمْسِكِينُ ! أَبْكَى اللَّهُ عَيْنَكَ إِنَّمَا جَرَى فِي ضَلَالٍ دَمْعُهَا فَتَحَدَّرَا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه . حتى لا يهدم شطر حسبه . ونراه  
يمدح عبید الله بن زياد ويوسع له في مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بني  
منقر ، ويغضب لهم مرةً بن محكان (٢) شاعر بني زُبَيْع التميميين وسيدهم ،  
فيهجوه وعشيرته بكلمة يقول في تضاعيفها :

تُرَجِّى رَبِيعٌ أَنْ يَجِيءَ صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل في فترة فتنة ابن الزبير ، وتبعه العراق كما  
تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعبُ ابن محكان . ونرى الفرزدق في هذه الأثناء

(١) أراد باللاج أساور العاج . قاصف : من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة لأساور : ريان : متلى . يتخذد : يتجمد .  
(٢) انظر ، ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥ والشعر والشعراء ٦٦٧/٢ . وأغانى ( ساسي ) ٩/٢٠ ومعجم اللغة ص ٢٩٥ .

يدخل - كما مر بنا - مع جرير في معركة الهجاء التي استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتي أورثتنا نقائضهما آنفه الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النّوّار وهي ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعي ، وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليّها ، فأنهز الفرصة . وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الخدق . فنضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادّعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور بن زبّان الفزاري . وشفّعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة . فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقبَلْ شفاعتهم      وشفّعتْ بنتُ منظور بن زبّانا  
ليس الشفيعُ الذي يأتيك مؤتزرًا      مثلَ الشفيع الذي يأتيك عُريانا  
وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله في العراق فمضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا في مكة ، غير أنها ظلت تشاره وتشاجره ؛ إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت سالحة حسنة الدين . وخطب حدراء بنت ريق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرض بالنوار ، فاستغاث منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا منه فطلقهما ، وما زالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم نداماً شديداً : يقول في كلمة له بصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسيِّ لما      غَدَتْ مني مطلقَةً نَوَّارُ<sup>(١)</sup>  
وكانتُ جَنَّةً فخرحتُ منها      كآدم حين أخرجته الضَّرارُ<sup>(٢)</sup>

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبطة وسبطة وخبطة وركضة من النوار وُلد له أيضاً زمعة وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه في الشعر . وفي تسميته

(١) الكسي: شخص يضرب به المثل في الندم. (٢) الضرار: العصيان والمخالفة.

لأبنائه هذه الأسماء ما يدل من بعض الوجوه على غلبت نفسه ولا شك في أن فضله المبكر في حياته الزوجية يدل على جفوته . وزراه مقرباً من بشر بن مروان الذي ولى العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستشير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به على العدو وغيثٌ يُنبت الشجرا

ووكى العراق الحجاج ، وكانت فيه قسوة ، فعشى بطشه ومضى يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسف محمودٌ خلائقهُ سيان معروفهُ في الناس وانظرُ

هو الشهابُ الذي يُرمى العدوُ به والمشرقُ الذي تعصى به مُصر<sup>(١)</sup>

ونوه طويلاً بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل : حتى إذا توفى رثاه رثاء حاراً ، يقول فيه :

ومات الذي يرعى على الناس دينهم ويضربُ بالهندي رأس المخالف<sup>(٢)</sup>

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التيمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، واجتمع معه الحجاج وولاته في المشرق ، وتصادف أن توفى الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولي لم يكن له هم إلا أعمال الحجاج وثار عليه فتية بن مسلم الباهلي القيسي بخراسان ، فقتلته تميم وردت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع في هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لميم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يضطرراً اضطراراً النزول عنها . وتأثيرها نجده يشد على ذوق مواطنيه ، فهجو المهلب الأزدي السيد الجواد والفراس الشجاع الذي لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه في جرجان ، ليضنق عليه من نواله ، فيأني قائلاً :

(١) تعصى هنا : تضرب ، من العصا . (٢) الهندي .

دعاني إلى جرجان والرّى دونه لآتيه ، إني إذن لرتور<sup>(١)</sup>  
 سآبي وتآبي لي تميم وربما أبيت فلم يقدر على أمير  
 حتى إذا ولي يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى يمدحه مسرفاً  
 في مديحه على شاكلة قوله :

إني رأيتُ يزيدَ عند شبابه لبسَ التقي ومهابة الجبارِ  
 وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم خضعَ الرقاب نواكسَ الأبصارِ

ودار الزمن فنار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته  
 مسلمة تعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازني الذي تعقب آل المهلب  
 في قنديل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع  
 تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مر<sup>(٢)</sup>.

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلاً لا يفد على قصر بني أمية في دمشق ، وأول  
 من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بني حَرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتية والمتخيراً  
 أباك وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤمن أو جراً<sup>(٢)</sup>  
 فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمناً

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بني أمية الذين يدعون لهم ويدافعون  
 عن خلافهم ، ماضين عليهم هالة قدسية من التقوى والبر ، تحفها المبالغة  
 المسرفة من مثل قوله في سليمان :

أنت الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزُّبرِ  
 كم كان من قسٍ يخبرنا بخلافة المهديّ أو حبرِ  
 جعل الإلهُ لنا خلافته برةً القروح وعصمة الجبرِ

(٣) الأوتير : الخائف .

(١) زهور : كنية الزيادة .

(٢) الديوان ص ٥٢٥ .

وقوله في يزيد بن عبد الملك ، وهو مجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم  
لكنت الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام  
ورثتم خليل الله كل خزائنه وكل كتاب بالنبوة قائم  
ولعل في هذه الآيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعياً ماثلاً إلى  
بني هاشم وإنهم ليسترسلون في ذلك فينسبون إليه قصيدة في علي بن الحسين  
وهي القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم  
وقد أنكر أبو الفرج الأصبهاني نسبة القصيدة إليه<sup>(١)</sup>، والذي لا شك فيه  
أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته  
وأبائه ، وقد مدح بني أمية بأخرة ، أما ولاية العراق فكان إذا خاف بطشهم  
مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد  
نميم ، ومن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزاري والي يزيد بن عبد الملك ،  
وفيه يقول :

أمير المؤمنين وأنت عَفٌّ كريمٌ لست بالطَّبعِ الحَرِيصِ<sup>(٢)</sup>  
أوليتَ العراقَ ورافدينه فزارياً أحدٌ يدِ القميصِ<sup>(٣)</sup>

ووكلي بعده خالد القسري لهشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ،  
وكانت أمه مسيحية ، فبني لها كنيسة بالكوفة ، وسخر الناس في شق نهر  
المبارك ، وانتَهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجو بالعملين جميعاً ، يقول :

بَنَى بيعةً فيها الصليبُ لأُمَّه وهَدَمَ من كُفْرِ منارَ المساجِدِ  
ويقول

أهلكتَ مالَ الله في غير حقِّه على نَهْركَ المشثومِ غيرَ المباركِ

(٣) أحد : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير  
أمين على أموال الأمة .

(١) أغاني (سامي) ٧٥/١٤ .

(٢) الطبع : اللثم الذي .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الحارود أن يحبس ، فألقى به في السجن ، فانقلب يستعطف مالكا وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حج خالد وأتاب عنه أخاه أسدا ، فرد إليه حرثته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أناب إلى ربه في سنه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته في إبليس ، وفيها يقول :

أطعتك يا إبليس سبعين حجةً فلما انتهى شئبي وتمّ تمامي  
فَرَرْتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُسْلِقٍ لآيام المَنتونِ حِمَامِي  
وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة ، إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المخذ ، فكان ينصب عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجراح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهراً بالنساء وكان زير غوان وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسب المذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً » (١) . وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتد بأبائه وقبيلته اعتداداً لاحد له ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ ضَرْبِنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ (٢)

(١) البيان والتبيين ٢٠٨/١ .  
صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخضوع والذل .

(٢) صعر خده : أماله كبراً ونظرته .  
الأخدع : جمع أخدع وهو العرق البارز في

وقوله :

تري الناس ماسرنا يسبيرون خَلْفَنَا  
وإن نحن أو مانا إلى الناس وقفوا<sup>(١)</sup>

وقوله :

إن الذي سَمَك السماء بنى لنا  
حُلُلُ الملوك لبائسنا في أهلنا  
أحلامنا تَزُنُ الجبالَ رزاةً  
فادْفَعْ بكفك - إن أردت بناءنا -  
بَيْتاً دعائمهُ أعزُّ وأطولُ<sup>(٢)</sup>  
والسَّابِغَاتِ إلى الوغَى نَتَسَرَّبِلُ<sup>(٣)</sup>  
وتخالنا جننا إذا ما نَجْهَلُ<sup>(٤)</sup>  
ثُهْلانَ ذَا الهضباتِ هل يتَحَلَّحِلُ<sup>(٥)</sup>

والحق أن الفرزدق كان نبعا كبيرا من يتابع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صلبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر في أساليبه ، من مثل قوله المشهور في مديح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُمَلِّكاً أبو أمه حتى أبوه يُقَارِبُهُ

فإن البيت لا يُفْهَمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعياً على هذا النحو :  
« وما مثله ( الممدوح ) في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أو ملكاً ( هو هشام بن عبد الملك ) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعَضُ زَمانٍ يابنَ مَرَّوانٍ لم يدَعْ من المالِ إلا مُسْحَناً أو مُجَرَّفَ<sup>(٦)</sup>

وكان القياس أن يقول مجرفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف ثمشياً مع روى قصيدته . وكان ابن أبي إسحق الحضرمي يراجعه في ذلك ومثله كثيراً ، فكان يستسخر منه . وقد عدّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثم دارت أشعاره في كتب اللغويين والنحاة كما دارت في كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

(١) وقفوا : وقفت ركائبهم لا يتقدمون .  
(٢) سَمَك : رفع .  
(٣) السابغات : الدرود الكاملة . تتسريل :  
(٤) نجهل هنا : نغضب حمية .  
(٥) ثهلان : جبل . يتحلحل : يتحرك .  
(٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .  
نلبس .

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان ، وله مدائح وأهاج مختلفة في ولايتها وولاية فارس ، أمثال عبيدالله بن أبي بككرة والجسراحي الحكيم وعمر بن عبيدالله بن معمر والجنيد ابن عبد الرحمن المُرِّي ، وقد نوّه طويلاً بأسدين عبد الله القسري وهلال بن أحوز المازني . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء ، وهو يضمن ذلك مدائح وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضخم ناشئ من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التي قلما تعرف الرقة واللين

٦

(١) جرير

شاعر تسمى من عشيرة كليب البربوعية ، ولم يكن لأبائه ولا لعشيرته ما لأبائه الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأجداد ، أما العشيرة فعرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة في الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفرسانها طويلاً .

وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً ، أما جدّه الحسطنبي فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قبيله الشعر ، وما يُروى من شعره قوله :

عجبتُ لإزراء العبيِّ بنفسه  
وصمّت الذي قد كان بالقول أعلماً  
وفي الصمت سترٌ للعبيِّ وإنما  
صحيفةٌ لبّ المرء أن يتكلماً

وراجع فهرس الأغاني في مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه في القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوي بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيغن نقاضه مع الفرزدق بشرح أبي عبيدة ، ونشر صالحا نقاضه مع الأخطل برواية أبي تمام .

(١) انظر في ترجمة جرير الأغاني (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٣٥/١ وابن سلام ص ٣١٥ والموشع للمرزباني ص ١١٨ وخزافة الأدب ٣٦/١ والعين ٩١/١ وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين - وانظر ذيل الأملال ص ٤٣ والطبري ٥/٢٦٧، ٢٧٣



وكانت أمه تسمى أم قيس، وهي من نفس عشيرته، وقد ولدت جريراً في بادية  
اليمامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد، كانا  
ينظمان الشعر.

فجرير إن لم يكن نشأ في بيت مجد فقد نشأ في بيت شعر، وظل الشعر  
يتوارث في أبنائه، وأشعرهم بلال. وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين في  
العصر العباسي، وعنه أخذ الرواة شعر جدّه وأكثر أخباره، ويقول ابن قتيبة  
كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور.

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة، وقد وجد في جدّه الخطّابي  
خير من يلقنه الشعر، ويقال إن من أوائل ما نظمه ممارواه له الرواة أبياتاً عاتبه  
بها، وذلك أنه كان ذا مال كثير، وكان ينحلُّ أبناءه وأحفاده من ماله  
فاستنحله جرير، فأعطاه بعض ماله، ثم رجع فيه، وقيل بل أعطاه قليلاً فاستراد  
فلم يزد، فتسخّطه، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها، وقد وصلها بعد  
ذلك بسنوات بأبيات نظمها في الفرزدق وغسان السليطي، وفيها يقول معاتباً  
جدّه:

وإني لمغرورٌ أعللُّ بالمعنى ليالي أرجو أن مالك ماليا  
وإني لعفُّ الفقر مُشترَكُ الغنى سريع - إذا لم أرض داري - انتقاليا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة، فأنشدته هذه  
الآبيات، فقال له: كذبت إنها لجرير، فقال له: أنا جرير. ومن قوله فيها:

وليست لسيني في العظام بقيةٌ وللسيف أشوى وقعة من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف، فالسيف إنما يقطع الشوى  
أي الأطراف، فيبقى على من طعنه، أما لسانه فلا يبقى بقية فيمن يقطعنه.  
وهو استهلال لحياته الشعرية، يدل على أنه مقتحم بها فن الهجاء، وقد ظل  
يجول ويصوم في هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفي بعد  
الفرزدق بنحو ستة أشهر. ونراه يهاجى غساناً السليطي، ويعينه البعيث، فيقطعنه  
ويطعن نساء عشيرته مجاشع طعنات نجلاء، فيضطرُّ الفرزدق أن ينازله،

ويحتدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجو وهو مقيم بالمسوت من بادية النمامة بضع سنوات ، فأرسلت بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمسوت ، ليس عندك أحد يروى عنك ، والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فأنحدر إلى العراق ، فأقام بالبصرة ، منشدا :

وإذا شهدت لشغري قومي مشهداً      آثرتُ ذاك على بنِي ومالي

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق في طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الملقب بالقُبَاع ( ٦٥ - ٥٦٦ ) يأمر - حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمربد - صاحب شرطته عبّاد بن الحُصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ داري مرّتين هدمتها      وكنت ابن أُختٍ لا تُخاف عواند،  
ويقول جرير :

وما في كتاب الله هدمُ بيوتنا      كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مداخله  
ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى - كما أسلفنا - مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرى بهم واحداً ، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً أغلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدءوني ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إنني لا أبتدىء ولكن أعنتى ، ويروى أن الراعي سمع ركباً يتغنى :

وعاوي عوى من غير شيء رميته      بقافية أنفاذها تقطر الدما<sup>(١)</sup>  
خروج بأفواه الرواة كأنها      قرأ هتدواني إذا هز صمما<sup>(٢)</sup>

كثيرة الإنشاد . قرا : متن وظهر . الهندواني :  
السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند .  
صم : قطع اللحم وبرى العظم .

( ١ ) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلام الذي تحدته  
الطعنة .

( ٢ ) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال . والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً . هل ألام على أن يغلبني مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصوصه يطعمهم طعناً مسمومة في نساء عشائرتهم ، كقوله في نساء عشيرة سُرَاقَة البارقي ، وكان ممن رفعوا الفرزدق عليه :

يُغَطِّي النِّسَاءَ مَهْرَهْنَ كِرَامَةً      ونِسَاءَ بَارِقَ مَالَهْنَ مَهْرُ

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأحطل ، وثبت له عمر بن لجأ التَّيْمِيُّ إلى حين ويقال لإنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأتهما يتهاجيان ، فأمر بأن يُضْرَبَا تَأْدِيباً ، فَضْرَبَا وَأَقِيمَا عَلَى الْبُلْسُ (١) مقرنين . وعادا إلى العراق ، وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قَوْمٌ إِذَا حَضَرَ الْمُلُوكَ وَفُودَهُمْ      نَتِفَتْ شَوَارِبَهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ

واستغاثت تَيْمٌ بجرير وتوسلت إليه وتضرعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد أن ثلَبَهَا وشاعرها ثلَباً قبيحاً . وويل للعشيرة التي كانت تتعرض له ، روى الرواة أن الفرزدق أتى مجلس بني الهُجَيْمِ في مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريرا ، فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائل له : اتَّقَ اللهُ ، فإن هذا المسجد بُني لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ، وهو يقول :

إِنَّ الْهُجَيْمَ قَبِيلَةٌ مَلْعُونَةٌ      حُصَّ اللَّحَى مِثْلَ شَاهِبِ الْأَلْوَانِ (٢)  
لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكَلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ      بَعْمَانُ أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بَعْمَانُ  
مُتَوَرِّسِينَ بَيْنَهُمْ وَبِنِسَاتِهِمْ      صُعْرَ الْأَنْوْفِ لَرِيحٍ كُلِّ دُخَانِ (٣)

(٣) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم ويهنهن ويذهبن يسألون بهم . صعر : جمع أصعر وهو الذي ينظر بوجهه لاورياً عنقه .

(١) البلس : غرائر كبار تعشى قتيلاً ، كان يرفع عليها الجنة شهيراً لم وتأديباً .  
(٢) الأحص : قليل الشعر في ذقنه وعارضيه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ - ٩٥هـ) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أظلم هذا العصر، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة، فيمدحه برجز، يقول فيه:

خليفة الحجاج غير المتهم في معقِد العزِّ وبؤبؤ الكرم<sup>(١)</sup>

واستنطقه فأعجبه ظمرفه وشعره، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعث به إلى، فقدم عليه، فأكرمه. وسرعان ما عاش له جرير بمدحه مدائح رائعة من مثل قوله:

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ      أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ<sup>(٢)</sup>  
 أَمْ مِنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيظَةً      إِذْ لَا يَتَّقِنَ بَغْيِرَةَ الْأَزْوَاجِ<sup>(٣)</sup>  
 إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا      مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَأَضْحَ الْمِنْهَاجِ  
 مَاضٍ عَلَى الْغَمْرَاتِ يُمَضِي هَمَّهُ      وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي<sup>(٤)</sup>  
 مَنَعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمُ سُبُلَ الْهُدَى      وَاللِّصَّ نَكَلَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ<sup>(٥)</sup>  
 وَإِذَا رَأَيْتَ مَنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا      سَبَلَ الضَّجَّاجِ أَقَمْتَ كُلَّ ضَجَّاجِ<sup>(٦)</sup>  
 دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ      غِبْرَاءَ ذَاتِ دَوَاحِنٍ وَأُجَاجِ<sup>(٧)</sup>  
 وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مَنَافِقٍ      وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التي يجلبها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق، مع شجاعة فائقة ومحافظة على الذمام. ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد، ويصور كيف أقام العدل في الناس ومنع

(١) بؤبؤ: أصل.

(٢) المطلع: المنفذ من أعلى، أو المصدر.

(٣) الحفيظة: النضب.

(٤) الغمرات: الشدائد. داجي: مظلم.

(٥) الإدلاج: السير ليلا.

(٦) الضجاج: الباطل.

(٧) الأجاج هنا: من أجة النار. والدواخن

جمع داخن وهو الدخان

الرشوة وقضى على اللصوص وقُطِّع الطريق في الليل المدلهم . ويقول إنه قوم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيشون في الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجاجُ مثلَ دُعَاءِ نوحٍ فَاسْمِعْ ذا المَعَارِجِ فاستجابا<sup>(١)</sup>  
صبرتَ النفسُ يابنَ أبي عَقِيلٍ مَحَافِظَةً فكيف ترى الثَّوَابِيا  
ولو لم يَرَضْ رَبُّكَ لم يَنْزِلْ مع النَّصْرِ الملائكة الغِضَابِيا  
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ رأى الحجاجَ أثَقَبَها شهابِيا  
وكان عبد الملك بن مروان في دمشق يفسح في مجالسه للأخطل شاعر تغلب  
النصراني، ويُنتقلُ إليه شعر جرير في الحجاج فيغيبُطه عليه لروعة شعره ومهارته  
في المديح . ورأى الحجاج أن يهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة في  
أن يَسْمَلَ بمديحه بين يديه ، فصحبه معه في وفادته التي وفدها على عبد الملك ،  
ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له في النشيد ، فبدأ فأنشده مدائح  
في الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التي يقول في استهلالها :

تعزّت أمٌ حَزْرَةَ ثم قالتُ رأيتُ الموردين ذوى لِقِياح<sup>(٢)</sup>  
تعللُ ، وهى ساغبةٌ ، بنيتها بأنفاسٍ من الشِّيمِ القَرِاح<sup>(٣)</sup>  
سَأَمَاحِ البَحورِ فجنّيبني أذاة اللومِ وانتظري امتياحي<sup>(٤)</sup>

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإني قد رأيتُ على حَقًّا زيارتي الخليفةَ وامتداحي  
ألستم خيرَ من ركب المطايا وأنذى العالمين بطونَ راح<sup>(٥)</sup>

أم حزره : إحدى زوجاته .  
(٣) تملل أبناءها : تشغلهم . ساغبة : جائعة .  
النفس من الماء : الجرعة . الشيم : البارد .  
القراح : الصافي .  
(٤) أمتاح : استقى من الميع وهو العطاء .  
(٥) أفدى : أجود .

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)  
ذو المعارج : الله جل جلاله .  
(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء .  
ولقاح : جمع لقحة وهي الناقة في أول نتاجها .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير بصور فنتنه وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقومٍ قد سموت لهم فدانوا <sup>(١)</sup>      يدْهم في مُلملمة رَداحِ  
أبحت حِمى تهامة بعد نجد <sup>(٢)</sup>      وما شيءٌ حميت بمستباح  
دعوت المُلحدين أبا حَبِيبِ <sup>(٣)</sup>      جماحاً ، هل شفيت من الجماح  
فقد وجدوا الخليفة هَبْرِزِياً <sup>(٤)</sup>      أَلْفَ العِيصِ ليس من النواحي  
فما شجرات عِيصِك في قُرَيْشِ <sup>(٥)</sup>      بعِشَّاتِ الفروع ولا ضواحي  
رأى النَّاسُ البصيرة فاستقاموا <sup>(٦)</sup>      وبِئِنَّتِ الجِراضُ من الصَّحاحِ

وأعجب عبد الملك بجزير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومحبلاً من فضة . وجزير في هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه في الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر في مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم في الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين في الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدُّ سهامه إلى خصومهم ، وهو في تضاعيف ذلك يخفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقررّاً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشيع أهل باطل وضلال وأهواء وبدع ، يقول في عبد الملك :

لولا الخليفة والقرآن نقرؤه      ما قام للناس أحكام ولا جمع

- (١) دانوا : أطعوا . الدم : الجيش الكثير .  
مللممة : مجتمعة . رداح : ضخمة . يتقدم من ثاروا عليه .  
(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك على ما كان في يديه من نجد والحجاز .  
(٣) أبو حبيب : ابن الزبير : الجماح : العناد والخلاف .  
(٤) هبرزيا : نافذاً في الأمور ماضيأ .  
ألف : ملتفت . العيص : الشجر . يريد أنه في صميم الغز وليس في نواحيه .  
(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان .  
والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .  
(٦) بينت : تبينت .

أنت الأمين أمينُ الله لا سرفٍ      فيما وليتَ ولا هيابةً ورعٌ<sup>(١)</sup>  
 أنت المباركُ يَهدي اللهُ شيعتهُ      إذا تفرقتِ الأهواءُ والشَّيعُ  
 فكلُّ أمرٍ على يُمنٍ أمرتَ به      فينا مُطاعٌ ومهما قلتَ مُستمعُ  
 يا آلَ مروانِ إن الله فضلكم      فضلاً عظيماً على مَنْ دينه البِدعُ

وواضح أنه يُزرى على أصحاب الأهواء الذين يحادون بنى أمية من الزبيريين والخوراج والشيعية ، ويسميهم أهل بدع وضلالة . ويتوفى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه في أول الأمر ، فقد مر بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لجأ عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يتصرف جريراً عنه ، فقد كان يلمُّ به في دمشق ، وكان يراه يقرب عدى بن الرقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عديا آثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقِعاً حسناً بما دبَّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إنَّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى      بالنَّصر هُزَّ لواءُه والمَغنمُ  
 ذو العرشِ قدَّرَ أن تكونَ خليفةً      ملَّكتَ فاعلُ على المنايرِ واسلَمُ

وزراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة ، حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليئها عبد العزيز رأيناه يحطب في حبله بمثل قوله :

إذا قيلَ أيُّ الناسِ خيرٌ خليفةً      أشارتُ إلى عبد العزيز الأصابعُ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفى الوليد ويتولى سليمان ، فيسد عليه مادحاً ، محاولاً أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصور من تقواه ومن عدله وكيف أطلق من سجنهم الحجاج وكيف رددَ مظلله عن أهل العراق وأحسن

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الورع بفتح الواو .

إلى الناس ، وهو في تضاعيف ذلك ينوّه بأن الله اختاره للأمة ناعماً له بأنه المهدي المنتظر ، يقول (١) :

سليمانُ للبسارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضح السبيلُ  
أجرتَ من المظالمِ كلَّ نفسٍ وأديتَ الذي عهدَ الرسولُ  
صَفَّتْ لك بيعةُ بثباتِ عهدٍ فوزنُ العَدْلِ أصبحَ لا يميلُ  
وتدعوكِ الأرامِلُ واليتامى ومن أمسى وليس به حَوِيلُ (٢)  
ويدعوكِ المكلفُ بعدَ جهْدٍ وعانٍ قد أضربَ به الكيولُ (٣)

وزراه يمدح ابنه أبوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله في دينه ويزهد في الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه ، ومعرفته به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصور فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله .

أنتَ المباركُ والمهديُّ سيرتُ تعصِي الهوى وتقوم الليل بالسُورِ  
نال الخِلافةَ إذ كانتَ له قَدْرًا كما أتى ربُّه موسى على قَدْرِ

ويشير إلى سياسة عمر في طرح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجسبي منها غير الخراج (٤) ، فيقول في مدحة أخرى :

إن الذي بعث النبيَّ محمّداً جعل الخِلافةَ في الإمامِ العادلِ  
ولقد نفعتَ بما منعتَ تحرجاً مكسَّ العُشورِ على جسورِ الساحلِ (٥)

طاقته . وإعاني هنا : السجين . والكيول : القيود . وهو يشير هنا في وضوح إلى صف الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناوله بالهجاء على نحو ما صنع الفرزدق في ميميته .

(٤) انظر الطبري ٣٢١/٥ .

(٥) موضع المكس حيث ظريق المارة في قنطرة أو جسر .

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولى الخِلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبري ٣٠٤/٥ وراجع ميمية الفرزدق التي نظمها في قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها في الكلام على النقائص .

(٢) حويل : حيلة وقوة .

(٣) المكلف بعد جهد : الذي كلف فوق



وسرعان ما توفى عمر ، فندبه ندباً حاراً ، بصور فجيعة الأمة فيه حتى  
ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنعَى النُّعَاةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا      يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ  
حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبْرَتْ لَهُ      وَقَمَتْ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا  
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ      تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَ (١)

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه في العراق يزيد بن المهلب ،  
ويَقْضَى على ثورته مسلمة ، ويصبح به جزير مراراً في قصائد مدح بها يزيد  
ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التي صور بها سابقه من الخلفاء ، من  
مثل قوله :

زَانَ الْمَنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمَنْتَجَبٍ      مَثَبَتْ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورِ  
ويصفه بالعدل وأنه ورث الملك عن آبائه بعهد منهم . ودائماً ينوّه في مدح  
لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة في الأمة ولا في قريش ، بل هي وراثية  
في بني أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد  
الملك ، وفيه يقول في آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :  
إِلَى الْمَهْدِيِّ تَفْزَعُ إِنْ فَرَعْنَا      وَنَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ الْقَمَاهُ  
وَجَبَلُ اللَّهِ يَنْصُمُكُمْ قُوَاهُ      فَلَا نَخْشَى لِعُرْوَتِهِ انْفِصَامَا (٢)

ومدح جزير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك  
وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ،  
ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ  
عرف عبد الملك داعية للأمويين لم نكن مبالغين . وليس له في سواهم إلا مدائح  
قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالد القسري  
مستشفعا للرزق كي يُطْلَقَهُ ، ومدح بعض أشراف قيس وتميم مثل المهاجر بن

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر آبد

(٢) قوى الحبل : طاقاته .

عبد الله الكلابي والحُسيند بن عبدالرحمن المرثي وهلال بن أَحوز المازني الذي نكَل  
بآل المهلب في ثورتهم . ويظل أضخم صوت في ديوانه تغنى به مادحاً صوته  
في الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون  
الشعر حتى برز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفي  
رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسي رهان ، بل لقد كان يتقدمه في  
كثير من الأحيان بعدوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار  
الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطل والفرزدق جميعاً في الموضوعات التي تتطلب  
دقة في الإحساس ورقة في الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ،  
وكان الفرزدق — كما أسلفنا — صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق في  
الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته  
كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته  
ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانضوت نفسه على حزن عميق صنيّ  
جوهرها ، وزاد في هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان ديناً عفيفاً طاهر النفس .  
واقراً رثاءً لزوجته أم حزرّة ، إذ يقول :

لولا الحياء لعادني اشعبارُ      ولزرتُ قَبْرَكَ والحبیبُ يُزارُ  
ولَهتِ قلبي إذ علتني كَبْرَةٌ      وذوو التائم من بَنِيكَ صِغارُ  
ولقد أراكِ كُسيّتِ أجملَ منظرٍ      ومع الجمالِ سَكِينَةٌ ووقارُ  
صَلَّى الملائكة الذين تُخَيَّرُوا      والصالحون عليكِ والأبرارُ

فإنك تحسن تفضعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها وبينه هو وأولادها ،  
وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محبباً فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل  
دلائل كثيرة على أن علاقته بزوجاته : أم حزرّة هذه وأمامة التي أهداها إليه  
الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات ودّ ومحبة .  
ولم تتشتر عليه سوى جارية اشتراها بأخرة ، وقد عابت عليه عيشه وكبيرة سنه ،  
ففارقتها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكان يبادلنّه ودّاً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطوائها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتلطف ويستعطف ويشكو ويتضرع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنبه عزيزٌ      علىّ ومنّ زيارته لمام<sup>(١)</sup>  
ومن أنسى وأصبح لا أراه      ويظرفنى إذا هجع النيام  
وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تيمى      لا أستطيع لهذا الحب كتماناً  
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ      قتلنا ثم لم يُخين قتلانا  
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به      وهن أضعف خلق الله كانا  
أتبعتهن مُقلّةً إنسانها غرقٌ      هل ما ترى تاركٌ للعين إنساناً<sup>(٢)</sup>  
وكان إذا هجا نساء من يهجوهُ أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النّوار زوجة الفرزدق إغاظته له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يشغف القلوب ، ومن بارع قوله فى نساء عشيرة النّوار :

وهنّ كماء المزن يُشفى به الصدى      وكانت ملاحاً غيرهن المشارب<sup>(٣)</sup>  
ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها لقاء الولد على نحو ما صور ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تشنه أمه      يشقى الصداع ريحُه وشمه<sup>(٤)</sup>  
ويذهب الهموم عنى ضمه      ينفح ريح المسك مستحمة<sup>٥</sup>  
يمضى الأمور وهو سام همه      بحرُ البحور واسع مجمه<sup>(٥)</sup>  
يفرج الأمر ولا يعمه      فنفسه نفسى وسى سمه<sup>(٦)</sup>

(٤) يشير إلى أن أمه أعجمية ، ولم تشنه عجمياً .

(٥) الهجم : الصدر .

(٦) يفحه : يبهمه ويستره .

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .

(٢) إنسان العين . سواد حدقتها .

(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطش .

وواضح أن جريراً كان لا يبارى في جميع الموضوعات التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما في الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يرش سهامه ويسدّها إلى محور خصومه ، محمّلاً لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبنى منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشرته إلى يربوع أو إلى تيم عامة ، حينئذ تنبّد عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق في هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نسبياً ثمرّاً من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتي دون الشاعرين جميعاً ، إلا يسوقه في النذرة من قطع مديح متوهجة . وساق نفس هذا الحكم عليهم قديماً بشارٌ ، فقال حين سأله سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربعة تعصبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريراً على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار ( زوجته ) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ؛ إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شيء لجرير من المراثي إلا التي رثى بها امرأته : أم حنزة ، فأورد عليه بشار مرثيته في ابنه سودة التي يقول فيها :

فارتقتي حين كفّ الدهرُ من بصري وحين صرّرت كعظم الرّمة البالي

فاقتنع سائله (١) .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يعنى أشد العناية بصقل ألفاظه وتبقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضوع ، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغى . وما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة فى نقد الشعر وتميز جيده من رديئه، حتى قالوا إنه كان يسسّطو على بعض أبيات معاصريه ، حين يبهره حسنّها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره بجزالة لفظه وشدة أسرّه . أما جرير فإنه لا يبارى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ، فإذا قرأته أحسست الذوق المهذب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجزت أشعاره صافية ، كأنها الجدول الرقراق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرسها وتلذ النفوس والأفئدة .

## الفصل الرابع

### شعراء السياسة

١

#### شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضوع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضةٌ حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليباعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته ، فخلا الجوّ لابن الزبير الذي عاذ بمكة ، وقد اتخذ من قتل الحسين أداةً للتشجيع على يزيد وعمّاله ، وثارَت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحرة المشهورة . فانتسعت الجروح في الحجاز ، وبدا للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيف كسلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وكأنه لم يَعدْ لقريش وللحجاز عامة شيء في الحكم . وحقاً أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق ، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يبدؤون الخلافة كما وليها يزيد ، لا بساطان شرعي ، وإنما بسطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتي أولاً بين أبناء كبار الصحابة فبينهم من يفضّلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذي نكسب المدينة في وقعة الحرة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهب كثير من العرب حتى من الخوارج للدّود عن البلد الحرام . وضرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرُفِع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه .  
وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذي اختير للجماعة ، فأبوه من  
كبار الصحابة المقدّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله  
عليه وسلم . وكان قوياً الشخصية تقياً وشارك في فتوح إفريقية ، وسرعان ما  
انضمت تحت لوائه قيس في الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته  
خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السَّلَمي القيسي . وولى بعد يزيد ابنه معاوية  
بعهد منه ، ولكنه توفّي سريعا ، وبدا كأن حكم بني أمية قد انتهى ، حتى ليقول  
ابن عَرادة بخراسان (١) :

أَبْنَى أُمِيَّةَ إِنَّ آخِرَ مُلْكِكُمْ      جَسَدٌ بِحُورَيْنِ ثُمَّ مَقِيمٌ (٢)  
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وِسَادِهِ      كُوبٌ وَزِقٌّ رَاعِفٌ مَرْتُومٌ (٣)  
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ      بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ (٤)

وظل ابن الزبير يقود الولايات التي تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن  
الحكم أن ظهر بالشام تَسُنْدُه كلب والقبائل البينية ، وأوقع بَقَيْسَ الشامِ وقعةً  
مَرَّجَ راهط المشهورة ، فخلصت له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ،  
ولتّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفينيين إلى  
بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفّي وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان  
سياسياً أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال في جمع الناس من حوله ، وكان في  
ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويقترب  
الرواة لذلك مثلاً هو أن فَصَّالَةَ بن شريك الأسدّي ، وقيل بل ابنه ، وقد عليه (٥)

(١) طبرى ٤/٤٢١ .

(٤) مرّة : مغنية .

(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفى بها

(٥) انظر في هذه الوفاة ترجمة فضالة بن

يزيد .

شريك في الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١٢

(٣) راعف : سائل . مرتوم : انكسر حتى

وبما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة

تقطرت منه الخمر .

٣/٢٢٤ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له : إن ناقتي قد نَقَبَتْ<sup>(١)</sup> وَدَبَّرَتْ<sup>(٢)</sup> ، فقال : اِرْقَعْهَا بِجِلْدِ<sup>(٣)</sup> ،  
وَاخْصِفْهَا بِهُلْبِ<sup>(٤)</sup> ، وَسِرِّ السَّرْدِينَ<sup>(٥)</sup> بِهَا تَصَحَّ ، فقال فضالة : إني أتيتك  
مُسْتَحِمًّا ولم آتِكَ مُسْتَوْصِفًا ، فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له ابن  
الزبير : إن<sup>(٦)</sup> وراكبها . وانصرف فضالة من عنده ، وهو يقول :

شكوتُ إليه أنْ نَقَبَتْ قَلوصي فَرَدَّ جوابَ مشدودِ الصَّفادِ<sup>(٧)</sup>  
يَضِنُّ بناقةٍ ويروم مُلْكًا محالًا ، ذلكم غيرُ السِّدادِ

ومضى يُشيدُ بنبي أمية وكرمهم الفياض ، ويقول إنه صائر إليهم . ولعل  
في هذا الحادث ما يفسر السبب في قلة الشعراء الذين صدروا عن رأي ابن  
الزبير في الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم ، وكأنما لم تكن تَعْنِيهِ هذه النبال .  
وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف ابن الزبير ، وإنما  
معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية ، أو قل رغبَ به شُحُّه عنه ،  
ومع ذلك فقد وقف في صَفِّهِ كثير من الشعراء ، لا في الحجاز حيث كان يدعو  
لنفسه بل بين قيس في الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب واليه على العراق .  
ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن العصبية والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل  
القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وأن الشعراء في الطرفين  
جميعاً سَلَّوْا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين ، أو بعبارة أخرى مفاخرين  
ومهاجين هجاء مريراً . ولم يكن الطرفان يتناقضان في العصبية القبلية فحسب ،  
بل كانا أيضاً يتناقضان في السياسة ، إذ كان هوَى قيس مع ابن الزبير وهوَى  
القبائل اليمنية وتغلب مع بنى أمية ، ومن ثم اختلطت في أشعارهم العصبية بالسياسة ،  
ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَطِينِ» التي ضمَّنها الأخطل هجاء قيس  
ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

(١) نقبت : من نقب البعير إذا حو ورقته . أن يخرز الحف به ليقيه .

أخفافه . (٥) البردين : الغداة والعشى .

(٢) دبرت : أصابها جرح في ظهرها . (٦) إن هنا بمعنى نعم .

(٣) ارقعها بجلد : يريد أن يجعل لها خفا . (٧) القلوص : الناقة . الصفاد : ما يشد به

من جلد . الأسير من قيد ونحوه .

(٤) الهلب : الشعر . الخصف : الخرز . يريد



مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدها تقطر عصبية<sup>(١)</sup> عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو في تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدَل الذي يناصر بني أمية ، يقول<sup>(٢)</sup> :

أفي الله أما بَحْدَلُ وابنُ بَحْدَلِ فيَحْيَى وأما ابنُ الزبير فيقتلُ  
كذبتم وبيتِ الله لا تقتلونهُ ولما يكن يومُ أعرُ محجلاً<sup>(٣)</sup>

ولما يكن للمشرقية فوقكم شعاعُ كقرنِ الشمس حين ترجلُ<sup>(٤)</sup>  
وعلى هذا النحو كانت تختلط في أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة .

وظلوا يجترئون ذلك طويلاً ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحامها يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذي انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا في النقائض .

وكان مصعب بن الزبير من فتیان قریش شجاعة وسخاء ، فلما ولي العراف لأخيه أنهلت غيـوثه على الشعراء ، فدحه منهم كثير ون مثل أعشى همدان ودكيس

الفُقَيْمِي ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمننا ، إنما يهمننا الشعر السياسي الذي كان يدافع عن نظرية ابن الزبير في الخلافة ، هاجياً لبني أمية مؤلباً عليهم

القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مدافعٍ ، ومن ثمَّ ينبغي أن نقف عنده قليلاً .

### ابن قيس الرقيات<sup>(١)</sup>

اختلف الرواة في اسمه هل هو عبید الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن في أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا في اسمه اختلفوا في

١/٥٢٣ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب

٣/٢٦٥ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المعنى ص

١١/٢١١ وحديث الأربعماء لطف حسين (طبعة الحلبي)

١/٣١٦ وكتابتنا الشعر الغنائي في مكة ( طبع

دار الفكر العربي ) ص ٢٠٤ وما بعدها . وله

ديوان نشره رودكناكس في فينا سنة ١٩٠٢

وحققه تحفيقا علميا وأعاد نشره في بيروت محمد

يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينون

قيس وإما مضافة . راجع في ذلك الخزانة .

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف

للبلاذري في مواضع متفرقة والأغاني ( ساسي )

١٧/١١٢ ، ٢٠/١٢٤ .

(٢) طبري ٤/٤٩٩ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبقى

ولا يذر .

(٤) المشرقية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر في ترجمة ابن قيس الأغاني ( طبع

دار الكتب ) ٥/٧٣ وما بعدها والشعر والشعراء

سبب نعته بالرقبيّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقبيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤي ، وُلد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شريح بن مالك بن ربيعة ( النويعم ) بن أهيب بن ضباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لؤي . وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تكذ تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين ، حتى سُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلاً ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب خاثر وبُدَيْح وَفَيْد ، وهم من مغني المدينة المشهورين ، ونراه يذكر في بعض شعره داراً له بها <sup>(١)</sup> ، ويبدو أنه لم ينزها وحده ، بل نزها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية في المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذي كان يُعقّب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص في حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت في مروان شدة وغلظة فكان إذا وائى يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد ، ومن ثمّ تعرّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته <sup>(٢)</sup> ، وهو في أثناء ذلك ينظم مقطوعاته في الغزل ، ويرتّم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءت الأنباء بموقعة الحرّة وأن طائفة من أهل بيته قتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله ، فهزته تلك الأنباء هزاً عنيفاً ، فإذا هو يبكي من ماتوا من أهله بكاء حاراً ، يقطر بالثورة على يزيد وبني أمية ، يقول :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقرعن مروية <sup>(٣)</sup>

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ .  
 (٢) الديوان ص ١٧٧ والأغاني ٧٢/٥ وما بعدها .  
 (٣) المروة : حجر أبيض تقطع منه النار . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عَبْدِ وَإِخْوَتَهُمْ حَلَّ الْهَلَاكِ عَلَى أَقَارِبِيهِ (١)  
 وَنُعَى أَسَامَةُ لِي وَإِخْوَتُهُ فَظَلَلْتُ مُسْتَكًّا مَسَامِعِيهِ (٢)  
 تَبْكِي لَهُمْ أَسْمَاءُ مُعْوَلَةٌ وَتَقُولُ لِيلى : وَارْزَيْتِيَةَ  
 وَاللَّهُ أَبْرَحُ فِي مَقْدَمَةٍ أَهْدَى الْجِيُوشَ ، عَلَى شِكْتِيَةَ (٣)  
 حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأَسْرَقَ نِسْوَتَهُمْ بِنِسْوَتِيَةَ

ولم يلبث يزيد أن توفي ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس وتغلب على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن الحُبَاب بطل قيس في بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان طبيعياً أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بني أمية منذ موقعة الحرّة ، يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثار لابني أخيه ، ويسبي نساءهم . وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغي أن تكون في قريش روحاً وواقعاً عملياً ، بحيث تكون حاضرتها في الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كُتَلب وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التي أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرّة المشنومة . وهو يصدر في ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التي أصابت فؤاده من أهل الشام من جهة أخرى ، ومن ثمّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بني أمية والرغبة الشديدة في أن ينقض حكمهم في الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهمزية التي يفتتحها بقوله :

أَفْضَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كِدَاءً فَكُدَيٌّْ فَالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ (٤)  
 وَمَضَى يَطِيلُ فِي ذِكْرِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي هَجَرَهَا الْأُمَوِيُّونَ إِلَى دِمَشْقَ وَرَبُوعَ

(١) بنوعيد : عشيرته نسبها إلى جده السابع .  
 (٢) استكتت المسامع : صمت وضامت ، هو مثل يضرب للنبأ الشديد يمرّك سامعه .  
 (٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكّة :  
 السلاح التام .  
 (٤) كداء وكدي : جبلان بمكة . والركن . ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت في الجاهلية .

الشام منوهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش ، فقد تفرقت بُلْدَانًا وِشِيْعًا ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرح بذلك فيقول :

حَبْدًا العِيشُ حينَ قومي جميعُ لم تفرَّقْ أُمورَها الأَهواءُ  
 قبل أن تظمَعِ القبائلُ في مُدِّ كِ قريشٍ وتَشَمَّتَ الأعداءُ  
 ويمضى فيرد على الخوارج وأشباهم ممن كانوا يرون أن تنزعَ الخلافة من قريش وتُردَّ إلى العرب ، بل إلى المسلمين جميعاً ، يقول :

أيها المُشْتَهَى فناء قريشٍ بيَدِ الله عُمُرُها والْفَنَاءُ (١)  
 إن تودَّعَ من البلاد قريشُ لا يَكُنْ بعدهم لحيُّ بقاءِ  
 فقريش هي عمود الخلافة ، ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطاً لا يرتفع بعده . ولا يلبث أن يتوجه بخطابه إلى عبد الملك هاجياً :

قد عَمِرْنَا قَمْتُ بَدَائِكَ غِيظًا لا تَمِيتُنَّ غيرَكَ الأَذْواءُ (٢)

ويأخذ في الفخر بقريش وفضلها على الإسلام والخلافة ، فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وحمزة عم الرسول وجعفر الطيار والزبير بن العوام حواري النبي وأبا عبد الله ومصعباً . ويشير إلى انتصار مصعب على المختار الثقفي ، ويعرض لما كان يزعم من أنه يوحى إليه ، ويمدح مصعباً ، فيقول :

إنما مصعبُ شهابٌ من الألهِ تجلَّتْ عن وجهه الظلْماءُ  
 مُلْكُهُ ملكُ قوَّةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا بهِ كِبْرِياءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالها في الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببيتها الحرام الذى يجمع إليه الناس من كل فج عميق ، ويأسى لحرق جيوش الشام هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرّة ، ويشيد ببناء ابن الزبير له بعد هذا الحصار ، ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك

خليفة ابن الزبير وأنها استقرت له أحوالاً .

(١) عمرها : يريد بقاءها .

(٢) عمرنا : عشنا زمناً طويلاً ، يشير إلى

و بنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام ، وقتلوا الحسين في كربلاء يقول :

كَيْفَ نَوَى عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ  
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنِ بَنِيهِ وَتُبْسِدِي عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعَذْرَاءُ<sup>(١)</sup>  
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمِيَّةٍ مُزَوِّرٌ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِي الْأَعْدَاءُ  
إِنَّ قَتَلِي بِالطُّفِّ قَدْ أَوْجَعْتَنِي كَانَ مِنْكُمْ لَكُنْ قُتِلْتُمْ شَفَاءً<sup>(٢)</sup>

وهذه هي الأنعام السياسية التي كان يوقّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشي بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرَجٍ راهط التي هُزم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالفارات المبيرة ، ومشيدياً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه في هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفي الوقت نفسه كان يشبب بزوجتي مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيهاً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء ، يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزيرى السياسي ومن قوله في عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهي غاضبة عليه ليرضّاها<sup>(٣)</sup> :

جَنِيَّةٌ بَرَزْتُ لَتَقْتَلَنِي مَطْلِيَّةُ الْأَصْدَاغِ بِالْمِسْكِ  
عَجَبًا لِمَثَلِكِ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمِنْبَرُ الْمَلِكِ<sup>(٤)</sup>  
تَرَمِي لَتَقْتَلَنَا بِأَسْهَمِهَا وَنَزْنُهَا بِالْحَلْمِ وَالنُّسْكِ<sup>(٥)</sup>

القطعة بأبيات في أم البنين لاشك في أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .

(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة كأنه يتمناها لمصعب .

(٥) نزلها : ننسبها إلى .

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيهن من فرع شديد .

(٢) الطف : من ضواحي الكوفة حيث كربلاء التي قتل فيها الحسين .

(٣) انظر الأغاني ( طبع دار الكتب )

١٧٦/١١ وقارن بالديوان ص ١٤١ وقد وصل

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرن هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذي كان يسوقه في مقدمة مدائحهم لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما في صورة تؤذيهما كقوله في عاتكة :

بَدَتْ لِي فِي أَتْرَابِهَا فَقَتَلَنِي      كذلك يقتلن الرجال كذلك  
وقالت لو أنا نستطيع لزاركم      طبيبان منا عالمان بدائكما<sup>(١)</sup>

ويتخيل أم البنين جاءته في الحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتدلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهي تمنع معه في اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أَتْنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ      تَ هَذَا حِينَ أُعْقِبُهَا<sup>(٢)</sup>  
فَلَمَّا أَنْ فَرِحْتُ بِهَا      وَمَالَ عَلِيٌّ أَعْدَبُهَا<sup>(٣)</sup>  
شَرِبْتُ بِرِيقِهَا حَتَّى      نَهَلْتُ وَبِتُّ أُشْرِبُهَا<sup>(٤)</sup>  
وَبِتُّ ضَجِيعَهَا جَذَلًا      نَ تَعَجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا<sup>(٥)</sup>  
وَأَيَّقُظْنَا مَنَادٍ فِي      صَلَاةِ الصُّبْحِ يَرْقُبُهَا<sup>(٦)</sup>

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذي يمثل الحكم القرشي الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه في دَيْرِ الجاثليق ، وقد انقضت عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقتل مصعب ويفرُّ ابن قيس إلى الكوفة متفجعاً على صاحبه آسياً لا تنفصاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظناً

(١) طبيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء      (٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها .  
الحب الذي سرى في نفس عاتكة له .  
(٢) أعقبها : صارت عتباها لى صارت إلى .  
(٣) جدلان : فرح .  
(٤) أعجبها : صارت عتباها لى صارت إلى .  
(٥) يرقبها : أى يرقب الصلاة .  
(٦) أعذبها : فيها .

أنها زوجة<sup>(١)</sup> على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثم رأينا يخرج من محبته ، ميمماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر في المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، ولبياه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفي رواية أن ابن جعفر هو الذى شَفَع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مثل بين يديه ينشده باثيته التى يقول فيها :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إ  
لأَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا  
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنِ الْمُلُوكِ فَلَا  
تُصَلِّحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ  
إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبُوهُ أَبِوَالِ  
عَاصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحَجْبُ<sup>(٢)</sup>  
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنْبِرِهِ  
يَعْتَدِلُ التَّاجَ فَوْقَ مَفْرَقِهِ  
عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ  
ويظهر أن عبد الملك لم يَطِيبَ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، ويعطيه الجزيل . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش في ظل ابن جعفر يُغَدِّقُ عليه من بصره ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلاً ، حتى إذا فكر عبد الملك في صَرْفِ ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأينا يثور معه على أخيه ، إذ يقول في بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتَهْنِهْ مِصْرُ وَالْعِرَاقُ وَمَا  
بِالشَّامِ مِنْ بَزَّةٍ وَمِنْ ذَهَبِهِ<sup>(٣)</sup>  
يَخْلُفُكَ الْبَيْضُ مِنْ بَنِيكَ كَمَا  
يَخْلُفُ عَوْدُ النَّضَارِ فِي شُعْبِهِ<sup>(٤)</sup>  
نَحْنُ عَلَى بَيْعَةِ الرَّسُولِ وَمَا  
أَعْطَى مِنْ عُجْمِهِ وَمِنْ عَرَبِهِ

(٣) البز : الثياب والمتاع .

(٤) النضار : يريده الشجر النضر ، ويخلف

الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

(١) انظروفيات الأعيان لابن خلكان ( طبعة

أوربا ) ص ٤١٢ .

(٢) الفنيق أصله الفحل من الإبل الكريم

على أصحابه .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوعده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقر له  
قرار وضافت الدنيا في عينيه فنظم قصيدة بديعة يذم فيها من يغتابونه عند  
عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشْرُ الظُّبَيْيِّ والغُرَابُ بسُعدى      مرحباً بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من نَحْسٍ رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد  
على عبد الملك من حين إلى حين في ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه  
يستهل بعضها بغزله بأَم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن  
يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف  
جمالها ووقارها متلطفاً . وليس في ديوانه مدائح في الوليد مما يدل على أنه إن  
كان لحق عصره فإنه لم يعش فيه طويلاً . وفي ديوانه قصائد مختلفة مدح بها  
عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به وبجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أَتَيْنَاكَ نُثْنِي بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ      عَلَيْكَ كَمَا يُثْنِي عَلَى الرُّوضِ جَارُهَا  
إِذَا مَتَّ لَمْ يُوَصَّلْ صَدِيقٌ وَلَمْ تَقْمُ      طَرِيقٌ مِنَ المَعْرُوفِ أَنْتَ مَنَارُهَا

ومن مدحهم ونوه بهم طويلاً طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو  
يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفى بيته المشهور من مرثية  
فيه بديعة :

نَصَرَ اللهُ أَعْظَمًا دَفَنُوهَا      بِسِجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلِحَاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله  
ابن خالد حين هُزِمَ في حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجائيين في  
عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو في الطليعة من شعراء الغزل المكيين ،  
ولو أنه لم يشغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وخُلص للغزل على شاكلة  
عمر بن أبى ربيعة لما قصر عنه في هذا الفن ، وقد رأيناه في مطلع حياته يلزم



المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع في موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعدوبة حتى في مدائحهم ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطَبِّع شعره بطوابع الغناء التي عاصرتة ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقِيَّ بَعِيْشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا      وَمَنِينَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا  
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شِئْتُ إِنَّا      نُحِبُّ - وَإِنْ مَطَلْتِ - الْوَاعِدِينَا  
فَإِمَّا تُنْجِزِي عِدَّتِي وَإِمَّا      نَعِيشُ بِمَا نُوْمَلُ مِنْكَ حِينَا

وقوله :

رُقِيَّةُ تَيَّمَّتْ قَلْبِي      فَوَاكَبْدِي مِنَ الْحَبِّ  
وَقَالُوا إِذَاؤُهُ طَبُّ      أَلَا بَلْ حَبُّهَا طَبِي

وقوله :

حَبٌّ ذَاكَ الدَّلُّ وَالْغُنْجُ      وَالتِّي فِي عَيْنِهَا دَعَجٌ (١)  
وَالْتِي إِنْ حَدَثَتْ كَذِبَتْ      وَالتِّي فِي وَعْدِهَا خَلَجٌ (٢)  
خَبَّرُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ      عَاشِقٌ فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عدوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّيَ باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلاً يملؤه بالصباغة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

(١) الدل : الدلال . الفنج : حسن الدل  
(٢) الخلاج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .  
والمزج . الدعج : شدة سواد العين .

## شعراء الخوارج

راينا في غير هذا الموضوع كيف أن الخوارج بفرقتهم المختلفة من أزارقة وُصُفَريّة ونَجَدات وإباضية ظلوا يحاربون الحيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد في سبيل عقيدتها في ولاية الأمة وأنه ينبغي أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الديني الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر للحرب ، مستحلّين دماء إخوانهم المسلمين ، وهي معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوار ترافقهم السيوف في غدوهم ورواحهم وفي استقرارهم وترحالهم . وقد استعدبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا، ومن ثمّ كان شعرهم في جملته حماسياً ، وهي حماسة لا تحركها العصبية القديمة ، عصبية القبيلة التي كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التي تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الخفيف وأن عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا في معسكراتهم ، وبذلك مزّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالبين في فضالهم ، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطنين أنفسهم على طلب الشهادة في ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : ( وعجلتُ إليك ربَّ لترضى ) (١) وكأنا وهبوا أنفسهم للموت . ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوتون من شأنا . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأشُدَّ (٢) :

ما رغبةُ النفس في الحياة وإنْ عاشت قليلا فالموت لاحقها  
وأيقنتُ أنها تعود كما كان بَراها بالأمس خالقها (٣)  
يوشك من فرَّ من منيته في بعض غسراته يوافقها  
من لم يمت عبطةً يمت هـرما والموت كأس والمرء ذائقها (٤)

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجي ، الموت قَعَصًا بالرماح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حُبَيْنا وكان من الأزارقة :

أبيتُ وسرِّبالي دِلاصُ حصينة ومغفرها والسيف فوق الحيازم (٥)  
أريد ثواب الله يوما بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم (٦)  
فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطرى بن الفجاءة (٧) :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معاراتها تدعو إلى حماميا (٨)  
أقارعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاءً على حالٍ لمن ليس باقيا  
ولو قرَّب الموتَ القراعُ لقدأنى لموتى أن يدنو لطول قراعي (٩)

(٧) انظر في ترجمة قطرى وأشعاره وفيات

الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠

وأمال المرتضى ١/٦٣٧ وفهارس الكامل للمبرد

والطبري والبيان والتبيين .

(٨) تعاريني : تطلبني عارية . الحمام :

الموت .

(٩) القراع : مضاربة السيوف في الحرب .

أنى : أن .

(١) المبرد ص ٥٦٤ .

(٢) المبرد ص ٤٣ .

(٣) براها : خلقها .

(٤) عبطة : شابا .

(٥) الدلاص : الدرع المساء اللينة .

المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق

يتقنع به المسلح .

(٦) غموس : واسعة . العنبري بن سالم :

رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعةفه .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويتزح عنها إلى الحياة الباقية التي لا تزول ، وهو لذلك يستبطئ الموت ، وكأنما ملَّ دُنياه . وتصوّر لنا هذا الملل إحدى نسايمهم المقاتلات ، وهي أم حكيم ، إذ تقول (١) :

أَحْمَلُ رَأْسًا قَدْ سَمَّمْتُ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَيْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ  
أَلَا فَتَى يَحْمَلُ عَنِي ثِقْلَهُ

وكانما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى وبمن سبقوهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس في خروجه (٢) :

أَبْعَدُ ابْنَ وَهَبٍ ذِي النَّزَاهَةِ وَالتَّقَى وَمَنْ خَاضَ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْمَهَالِكَا  
أَحَبُّ بَقَاءً أَوْ أَرْجَى سَلَامَةً وَقَدْ قَتَلُوا زَيْدَ بْنَ حِصْنٍ وَمَالِكَا  
فِيَارِبُ سَلِّمْ نَبِيَّ وَبَصِيرِي وَهَبُ لِي التَّقَى حَتَّى أَلَاقِي أَوْلَكَا

فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبي والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طلبته ، فيقتل في سبيل عقيدته ، وكان الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التي نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة ، وهي سعادة يطلبها كل خارجي لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الراسبي حين قُتل ابنها في يوم دولا ب (٣) :

اللَّهُ أَيَّدَ عِمْرَانًا وَطَهَّرَهُ وَكَانَ عِمْرَانٌ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحْرِ  
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِيَرْزُقَهُ شَهَادَةً بِيَدِي مِلْحَادَةٍ غُدْرَ (٤)

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء، إذ يصورون استشهاد قتلاهم زُلْفَى إلى الله راسمين فيهم مثلاً أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٠/٦ وترديد (٣) أغاني ١٤٥/٦ .

أم حكيم يدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب . (٤) ملحادة : من الإلحاد والتاء للمبالغة .

(٢) المبرد ص ٥٨٦ . غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قُتل من أصحابهما (١) :

يَا رَبِّ أَسْلَكْنِي سَبِيلَهُمْ      ذَا الْعَرْشِ وَأَشْدُدْ بِالثَّقَى أَرْزَى  
فِي فَتْيَةٍ صَبَرُوا نَفْسَهُمْ      لِلْمَشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا السُّمْرِ (٢)  
مَتَاهِبِينَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ      نَاهِينَ مِنْ لَأَقْوَا عَنِ التُّكْرِ

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاساً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ قَدْ فُجِعْتَ بِهِ      قَوَامَ لَيْلَتِهِ إِلَى الْفَجْرِ  
مَتَاوَهُ يَتَلَوُ قَوَارِعَ مِنْ      آيِ الْقُرْآنِ مَفْرَعِ الصَّدْرِ

ويعمى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أُشْرِعَت الرماح وسُلَّت السيوف ورَعِدَت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب في أن هذه صورة جديدة في الرثاء ، تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا يكون فيمن يرثونهم خلال الكرم والمروءة ، وإنما يكون فيهم المثل الأعلى للخارجي من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذي يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذي يفتح لهم أبواب الفرديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم في حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسي ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضى قَدْماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صلورها وصلورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماستهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القَعْدَةُ منهم ، فقد كانت فرقتهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب . ولكن نحس دائماً كأن هذا القعود هدنة مسأحة إلى حين ، وبذلك نفسركثرة ثورات الصغرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يفعلون

(١) أغاني (سأى) ١١١/٢٠ وما بعدها . (٢) المشرفية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفرأ منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدُّ في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يتقلب لهم الدهر المِجَنَّ من بعدهم ، وكان لا يزال تُؤَارَهُمْ بِمَسُونِهِمْ ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين في رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد (١) من أن أبا خالد القناني استحبَّ التَّعُودَ ، فلامه قَطَرِيَّ بن الفُجَاءة بمثل قوله :

أبا خالد يا أنفِرْ فلستَ بخالد وما جعل الرَّحْمَنُ عُدْرًا لقاعدٍ (٢)  
أترجم أن الخارجيَّ على الهدى وأنت مقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدٍ  
فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلى حُبِّنا بناتي إهن من الضَّعافِ  
أحاذر أن يرينَ الفقر بعدى وأن يشربنَ رنقاً بعد صافي (٣)

ولا يتحول مثل هذا الاختلاف في الرأي بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقاً بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الدِّمَاء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً في الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا في مقالاتهم دون رفق ودون تفكير عميق في المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنازعا فرقاً وتتقطع شيعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة في أشعارهم ، هي أنهم يُبدئون ويعيدون في معانيهم التي صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسنا في أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب في أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنا هي صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجي أو ذلك . وارجع إلى يوم « دولاب »

(١) المبرد ص ٥٢٩ .

(٢) يا أنفِرْ يا للتنبية أو في تقدير حذف

(٣) الرنق : الكدر .

في الأغاني فسرى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة في ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطرى بن الفجاءة ، ونسبها المدائني إلى صالح بن عبد الله العَبْشِمِيِّ . وقال خالد بن خِدَاش : بل قائلها عمر والقَسَناء ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سَهْم <sup>(١)</sup> . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح .

### عمران <sup>(٢)</sup> بن حِطَّان

بَصْرِيُّ سَدُّوسِيٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل في مقالة الخوارج . ونلقاه في عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه <sup>(٣)</sup> . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، وَيُرْوَى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت في الجنة ، قال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أُعْطِيتَ مثلي فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر في الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، وَيُشِيدُ بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ، وفي طعنته له يقول <sup>(٤)</sup> :

يا ضربةً من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا  
إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا  
ونراه يتأثر متأثراً بليغاً حين قُتِلَ أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر في الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

(١) أغاني ١٤٧/٦ وما بعدها .  
(٢) انظر في ترجمة عمران الأغاني (سامي)  
١٤٦/١٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما  
بعدها والإصابة ١٨١/٥ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢  
وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمال  
المرتضى ص ٦٣٥ .  
(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ .  
(٤) انظر في نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١  
والخزانة ٤٣٦/٢ .

لقد زاد الحياةَ إلى بُغْضاً وحبًّا للخروج أبو بلالٍ  
 أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت دُرَى العوالى<sup>(١)</sup>  
 ولو أنى علمت بأنَّ حَتْفِي كحَتْفِ أَبِي بلالٍ لم أبال  
 فمن يكُ هَمُّهُ الدنيا فإني لها والله ربُّ البيتِ قالى<sup>(٢)</sup>  
 فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج  
 الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبي بلال ، وقد ظلت ذكره عاقلة بنفسه طويلا ،  
 حتى يقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنتُ أعرفه ما الناس بعدك يامرءاس بالناس

وكان الناس جميعاً ما توفيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ،  
 ومن ثمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرى ودعا إلى القعود ، حتى عدَّ رئيس قعدتهم . ولم  
 تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبي خالد<sup>(٣)</sup> ، إنما قعد به - في أغلب الظن -  
 حبه لزوجته جمره ، فقد كان يُشغف بها شغفاً شديداً ، ويعلّل أبو الفرج  
 ذلك علةً أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن  
 الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب في سن عالية . على أنه إن  
 كان قعد فقد مضى في شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى  
 يحسن لغيره الخروج ويزيئته ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون في  
 الحروب ويُغفرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تهادى في ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ،  
 ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة في بعض أصحابهما ،  
 فهلج الحجاج وتحصن في قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدٌ علىَّ وفي الحروب نعامه رِبْداءٌ تنفر من صَفيرِ الصافرِ<sup>(٤)</sup>  
 هلا برزتَ إلى غَزالةٍ في الضُّحَى بل كان قلبك في جناحَي طائر<sup>(٥)</sup>

جاء عند المبرد .

(١) العوالى : الرماح .

(٢) رِبْداء : من الربداء وهو لون إلى القبرة .

(٣) قالى : كاره .

(٤) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع

(٥) نسبت أبيات أبي خالد إلى عمران في

الحجاج ورعبه .

ترجمته بالأغاني ، والأرجح أنها لأبي خالد كما



وغضب الحجاج واشتد في طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبه سنة ٧٧ للهجرة ففر منه على وجهه يتنقل في القبائل منتسباً في كل حي نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل في سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامي بالشام . فانتسب له أزدياً فأنزله منزلاً آمناً نحو عام وبالغ في إكرامه ، وكان روح سميراً لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه في أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإني تابعتك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفاً لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جاركَ حَولاً ما تروءُ عني      فيه روايح من إنسٍ ومن جانٍ<sup>(١)</sup>  
 حتى أردتَ بيَ العظمى فأدركني      ما أدرك الناسَ من خوف ابنِ مروان  
 ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث في قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعياً ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزدى رأيتُه عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى ؟ إن كنت خائفاً أمانك وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التي أصبحتُ يعيى بها زُفَرُ      أعيتُ عياءً على رُوحِ بنِ زنباعِ  
 وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قوماً من الأزد في روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفي سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة تروىها كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدري الحياة ويزهد فيها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ في نفسه صراع عنيف بين الرغبة في الحياة الكريمة التي يجيهاها

(١) روايت هنا : من الروح وهو الخوف والفرع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة في الموت ، وعبر عن ذلك في صور مختلفة ، كأن يصور تهالك الناس على الدنيا ، وهي ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُ العيش فيها وأولعنا بحرصٍ وانتظارٍ  
ولا تَبَقَى ، ولا نَبَقَى عليها ولا في الأمر نأخذ بالخيارِ  
كركبٍ نازلين على طريقٍ حثيثٍ رائحٍ منهم وسارى<sup>(١)</sup>

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى جياعهم وعراهم فأفَّ لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوي . ولا يُخفى أنه يسير على كره منه في نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوي منها على شيء من الحب والحرص ، وحري به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء النَّاسِ لا يسأمونها على أنهم فيها عرّاةٌ وجوعٌ  
أراها وإن كانت تُحبُّ فإنها سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تقشعُ<sup>(٢)</sup>  
وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتي على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتى الموت نفسه ، يقول :

لا يُعجز الموتَ شيءٌ دون خالقه والموتُ فان إذا ما ناله الأجلُ  
وكلُّ كَرَبٍ أمام الموتِ متَضِعٌ للموت ، والموتُ فيما بعده جَلَلٌ<sup>(٣)</sup>  
فالموت سيموت في النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التي تلقانا دائماً في شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائئاً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدري شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحها ، فتعرض له يقول :

أيها المادح العبادَ لِيُعْطَى إن لله ما بأيدي العبادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلاً . (٣) جلال : عظيم .

(٢) تقشع : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا في عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجي الذي تعمقته مقاله حتى الشغاف .

### الطَّرِمَاحُ (١)

شاعر طائى نشأ في الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فتزل في بنى تميم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سمت وفيه وقار ، فكان الطرماع يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحّه حتى مات عليه . واختلف الرواة في الفرقة التي دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل في فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفْرِيَّةِ ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يجرّمونه ولا يجيزونه . ولم يُمنح قعوده في مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفْرِيٌّ مسلم . ويظهر أنه كان يمتضى في السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفّر المسلمين كمتطرفه الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادّهم ويصادقهم ، حتى لراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميث ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالاً من الكُمَيْثِ والطَّرِمَاحِ ، كان الكميث عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماع خارجياً من الصُّفْرِيَّةِ ، وكان الكميث يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماع يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجرّ بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الحصال إليه . » وأكبر الظن أن الذي وثق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هي تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويروى عن الطرماع أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرّبي بفارس حيث عُني بتأديب الناشئة

٣٢٣/٢ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٢/٧  
والخزاعة ٤١٨/٣ وله ديوان نشره كركوك في  
لندن سنة ١٩٢٧ . والطرماع : الطويل القامة .

(١) انظر في ترجمة الطرماع أغاني ( دار  
الكتب ) ٣٥/١٢ والشعر والشعراء ٥٦٦/٢  
والعيني ٢٧٦/٢ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح  
للمرزياتي ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ٤٦/١ ،

فيها ، وَيَرَوِي الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرّى فلم أر أحداً أخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّء عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففي أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحاه مخلد ، ودعى الكميت فأنشدته قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفي أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسرى الذى ولى العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحاً في طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزدي قبيلة المهلب بن أبي صفرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل في معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزدي والقبائل القحطانية عامة . ومرّبنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت في البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تعمقه هذه العداوة وما يُطوّى فيها من عصبية وهو خارجي ، والخوارج لا يعتدون بالعصبية القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجي يأتي على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله في تميم :

لو حان وِرْدَ تميم ثم قيل لها      حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ  
أو أنزل الله وَحياً أن يعذبها      إن لم تُعَدِّ لقتال الأَزْدِ لم نُعَدِّ  
لا تُأْمَنَنَّ تميمياً على جَسَدِ      قد مات ما لم تُزَايِلْ أعْظَمُ الجَسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه في الحروب على شاكلة قطرى وإنما يتحدث فيه عن خلقه معتدّاً بشمائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادني حُبًّا لنفسيَ أني بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلٍ<sup>(١)</sup>  
 وأني شقٌّ باللثام ولا ترى شقيًّا بهم إلا كريمَ الشمائل  
 والطرماع بذلك كله يبتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل  
 ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من  
 حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله  
 من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان  
 يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليرتمى الخروج ، يقول :

وإني لمقتادُ جوادى وقاذفٌ به وبنفسى العامِ إحدى المقاذفِ  
 لأكسبَ مالا أو أوولَ إلى غنى من الله يكفينى عِداتِ الخلائفِ<sup>(٢)</sup>  
 فياربِّ إن حانتْ وفاتى فلا تكن على شرجعٍ يُعلَى بخُضرِ المطارفِ<sup>(٣)</sup>  
 ولكن أحنَّ يومى سعيداً بعضبةٍ يصابون فى فِجٍّ من الأرضِ خائفِ  
 فوارسٍ من شيبانِ أَلَفٍ بينهم تُقى الله نزالون عند التزاحفِ  
 إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى  
 تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى  
 البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح  
 غنياً ثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشُّرارةِ إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا<sup>(٤)</sup>  
 يرجعون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شهقوا  
 خوفاً تبيتُ القلوب واجفةً تكاد عنها الصدورُ تنفلقُ

(٣) الشرجع : النمش .  
 (٤) الطل : الأعناق ، مفرد ما ظلية .

(١) غير طائل : خيس .  
 (٢) عِدات : جمع عدة ويريد بها الصلة .  
 الخلائف : جمع خليفة .

كيف أرجى الحياة بعدهمُ  
وقد مضى مؤنسيً فانطلقوا  
قومٌ شحاحٌ على اعتقادهمُ  
بالقوز مما يُخاف قد وثقوا

وعلى قَبَسٍ من زهد الخوارج في الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء في القرآن الكريم من ذم الشحيح الذي يجمع مالا ويدخره دون أن ينفقه على المحتاجين والمساكين ، وما جاء فيه أيضاً من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت يده يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمَلٌ عِدَّةُ الْعُمِّ رِ وَمُودٍ إِذَا انْقَضَى عَدَدُهُ (١)  
عَجَبًا مَا عَجِبْتُ لِلْجَامِعِ الْمَا لِ يَبَاهِي بِهِ وَيَرْتَفِدُهُ (٢)  
وَيُضِيعُ الَّذِي يَصِيرُهُ اللِّ هِ إِلَيْهِ فَلَيْسَ يَعْتَقِدُهُ  
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْمَخْوَلُ ذَا الثَّرِ وَةَ خِلَانُهُ وَلَا وَلَدُهُ (٣)  
يَوْمَ يُوتَى بِهِ وَخِصْمَاهُ وَسَطُ الِ جِنَّ وَالْإِنْسِ رِجْلُهُ وَيَدُهُ  
خَاشِعَ الصَّوْتِ لَيْسَ يَنْفَعُهُ دَمٌّ أَمَانِيَهُ وَلَا لَدَدُهُ

وكل من يقرأ شعر الطرواح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ، فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيتها ، وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد به أن يدور في أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور في أفواه المتأدبين حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمي محض . ويصور اللغويون مدى إغرابه في شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابي العالم اللغوي المشهور سُئل عن ثمان عشرة كلمة أبدت في أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن حِسَّة اللغوي لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغولاً بإدخال الألفاظ النبطية في كلامه . وقد مات حوالي سنة ١٠٥ للهجرة .

(١) مود : ميت .

(٢) يرتفده : يكتبه .

(٣) الخول : الثرى .

## شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيين وأصحابها الشرعيين ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغي أن تُردَّ عليهم . وتكوّنت في أثناء ذلك فرقة الكيسانية التي دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر ، وأنه ورث عن عليٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس ينتقل في أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفى قالوا يرجعته ، وأنه سيعود فيملاً الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموي فتظهر فرقة الزيدية ، ولم تكن غالبية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك في حديثنا عن السياسة . وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج في هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيرٌ شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة في أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف في العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ في أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يـرـعون فيهم إلاّ ولا ذمة ، وقد تحولوا يبيكونهم ويندبونهم بدموع لا تـرـفـقاً ولا تجفُّ . وربما كان هذا الطابع أهمّ ما يميّز الشعر الشيعي في هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولاً ثم على زيد بن علي وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قسّمة يرثي الحسين (١) :

(ساسي) ١٥٨/١٤ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ والاستيعاب ص ١٤٦ .

(١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ١٢١ وانظر أيضاً في مرآة الحسين الطبري ٢٠٩/٤ وما بعدها وأغاني

مررتُ على أبيات آلِ مُحَمَّدٍ فلم أرها كمهدما يوم حُدَّتْ  
وكانوا رجاءً ثم صاروا رَزِيَّةً وقد عظمتُ تلك الرزايا وجَلَّتْ  
ألم تر أن الشمس أضحَّتْ مريضةً لفَقْدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرتْ  
وقد أعلوتْ تبكى السماء لفقدِهِ وأنجُمها ناحتْ عليه وصلَّتْ

ولم يكونوا يرثونه ويكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه  
وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض  
يتحول إلى رغبة شديدة في سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن  
نصرتِهِ . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح  
ومن خير من يصورها عوف<sup>(١)</sup> بن عبد الله بن الأحمر الأزدي ، وله في  
الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضَّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لِيَبْكُ حُسَيْنًا كلما ذرَّ شارقُ وعند غسوقِ الليل من كان باكياً  
وباليتنى إذ كان كنتُ شهيدته فصاربتُ عنه الشانئين الأعاديا  
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهداً وأعملتُ سِنِي فيهمُ وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلامون في الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة  
التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الحرّ ، ويروى أنه خرج في جماعة  
من أصحابه حتى أتى كربلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ،  
ثم مضى وهو ينشد<sup>(٢)</sup> :

ويا ندمي أن لا أكون نصرتُهُ ألا كلُّ نفسٍ لا تسدُّ نادمه  
ولإني لأني لم أكن من حُماتِهِ لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقْتَسَلُ زيد بن علي بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعْولين منذرين لبني  
أمية ومهددين من مثل قول المفضلِ المطَّلبي<sup>(٣)</sup> :

(١) انظر ترجمة عوف في معجم الشعراء .

(٢) طبري ٤/٣٦٠ .

(٣) مقاتل النباليين ص ١٤٩ .

المرزباني ص ١٢٦ .



ألا يا عينُ لا تَرَقَى وَجُودِي      بدمعك ليس ذا حينَ الجمود<sup>(١)</sup>  
وكيف تَضُنُّ بالعَبْرَاتِ عيني      وتطمع بعد زَيدٍ في الهجود<sup>(٢)</sup>  
وكيف لها الرُّقَادُ ولم تَرَأِي      جِيَادَ الخيلِ تَعْدُو بِالأسودِ  
بأيديهم صفائحُ مرهفاتُ      صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهد هودِ  
بها نَسَقِي النفوسِ إذا التقينا      ونقتل كلَّ جبارٍ عنيدي  
وَنُحَكِّمُ في بنى الحَكَمِ العوالى      ونجعلهم بها مثل الحَصِيدِ<sup>(٣)</sup>  
وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعي يَطْوِي في نفسه حزناً عميقاً على أُمَّته  
المستشهدين ورغبة عنيفة في سفك دماء من قتلوهم ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف  
بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبون هم وولاتهم أحياءهم  
ويعدُّون أنفاسهم عدًّا . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هي نظرية  
التقية ، فمن حق الشيعي أن يخفي عقيدته ويكتتمها ، حتى لا يعرَّض نفسه للخطر  
بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سئرى عند كثيرٍ والكميت  
عما قليل ، إذ مدحا بنى أمية ، وهما يكتنآن لهم العدوَّة والبغضاء .  
وهذان المترعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلوهم كان  
ينطوي فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهي أحياناً إلى دعوة  
الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين  
ولى خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مَرَوَ  
يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها<sup>(٤)</sup> :

ألا أبلغُ جماعةَ أهلِ مَرَوَ      على ما كان من نَأَى وبُعْدِ  
رسالةَ ناصحٍ يُهدى سلاماً      ويأمر في الذى ركبوا بجِدِّ  
فلا تَهَنُوا ولا تَرَضُوا بخَسْفِ      ولا يغررُكمُ أسدٌ بعَهْدِ  
وإلا فارقوا الراياتِ سُوداً      على أهلِ الضَّلالةِ والتعدى

(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم .  
العوالى : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .  
(٤) طبرى ١٣/٥ .

(١) ترقى : من رقاً الدمع إذا جف وسكن .  
جمود العين : بخلها بالدمع .  
(٢) الهجود : النوم .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغیظ على بنی أمیة فقد كانت تمتلئ بالحُبِّ لآل البيت حبًّا يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرهما، على شاكلة قول أبي الأسود الدؤلی وقد عابه قوم بتشيعة: (١)

أحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا      وعباسًا وحمزة والوصيا<sup>(٢)</sup>  
 أحبهمُ لحب الله حتى      أجيء إذا بُعثتُ على هويًّا<sup>(٣)</sup>  
 هوى أعطيته منذ استدارتُ      رَحَى الإسلام لم يُعدَلْ سويًّا<sup>(٤)</sup>  
 بنو عم النبي وأقربوه      أحبُّ الناس كلَّهم إليسا  
 فإن يك حبهم رُشدًا أصبه      ولستُ بمخطئٍ إن كان غيًّا  
 ويقول عبد الله بن كثير السهمي في نفس المعنى (٥):

إن امرأ أمتت معايبه      حب النبي لغير ذی ذنب  
 وبنی أبي حسن ووالدهم      من طاب في الأرحام والصلب  
 أبعد ذنبًا أن أحبهم      بل حبهم كفارة الذنب

فهم يحبون آل البيت بلدهم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفرًا منهم إلى الزهد في الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سنرى عند أبي الأسود الدؤل في حديثنا عن شعراء الزهد ، ومما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، في كلمة له (٦) :

فحسبي من الدنيا كفافٌ يُقيمني      وأثوابُ كتانٍ أزورُ بها قبري<sup>(٧)</sup>  
 وحبي ذوی قُرْبى النبي محمدٍ      فما سألنا إلا المودَّة من أجر<sup>(٨)</sup>

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٦٠ .

(٦) البيان والتبيين ٣/٣٦٥ .

(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .

(٨) سألنا بالتخفيف : لغة في سأل . وهو

يشير إلى الآية الكريمة : ( قل لا أسألكم عليه

أجرًا إلا المودة في القربى ) .

(١) المبرد ص ٥٥٤ .

(٢) يريد بالوصي على بن أبي طالب ، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يمتقدرون أن النبي أوصى له بالخلافة .

(٣) على هويًا : على هواي .

(٤) لم يعدل سويًا : لا مثيل له .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم في عصر بني أمية منازع قوية من حب آل البيت حباً قد ينتهي إلى الزهد في الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بني أمية ، ثورة تَطْوِي في داخلها رغبة شديدة في أن تُسْفِكَ دماؤهم كما سُفِكَت دماء شهد أمهم : الحسين وزيد بن علي ، ومن قبلهما على نفسه. ودائماً سيكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شيء ، وإنهم ليدلعون في قلوبهم ناراً لا تَطْفَأُ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند كثيرٍ شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

### كُثِيرٌ (١)

هو كثيرٌ بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، شاعر حجازي من خِزَاعَة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمّماً وفي الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لجميل بن معمر العنري ، وهو في جمهور غزله يترنم بعزّة بنت حُمَيْل النَّضْمِرِيَّة ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّي كثير عزّة ، وأروع أشعاره فيها تائيته التي يقول في تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لعزّة من أعراضنا ما استحلّت  
وهو يلتزم في رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً في غزله ، ويقول ابن سلام : إنه كان يقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفي لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكيسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

والخزاعة ٣٧٦/٢ ومراة الجنان ٢٠٢/١ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والنحل ص ١١١ وحديث الأربعماء ٣٥٨/١ وما بعدها . وقد نشر بيرس ديوانه في الجزائر .

(١) انظر في ترجمة كثير أغاني ( دار الكتب ) ٢/٩ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفي مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والموشح ص ١٤٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤٢

قبس النبوة لا يزال ينتقل في علي وأبنائه ، وكشكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر وفيه يقول :

هو المهديُّ خبْرناه كعبٌ أخو الأخبار في الحَقَبِ الأوَّلِي (١)

وزاره يمتلئُ حقدًا على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه في سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفي له في الكوفة وإخراجه واليه منها . وكان ابن الزبير كما مرَّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيرٌ يقول :

تخبر من لا قيت أنك عائدٌ بل العائدُ المظلومُ في سجن عارمِ  
وصى النبيُّ المصطفى وابنُ عمِّه وفكَّكُ أغلال ونفَّاعُ غارمِ  
أبي فهو لا يشرى هدى بضلالةٍ ولا يتقى في الله لومةَ لائمِ  
ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف خيف المحارمِ (٢)  
بحيث الحمامُ آمنُ الرِّوع ساكنٌ وحيث العدوُّ كالصديق المُسالمِ  
وما فرحُ الدنيا بباقي لأهله ولا شدةُ البلوى بضربة لازمِ

وواضح أنه يسجل على ابن الزبير خرقته لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يهل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذي يأخذ بأيدي العنائة ، والذي يتقى الله حق تقواه .

ويرد ابن الزبير لابن الحنفية حريته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك في دمشق ، وكثيرٌ في ركابه ، فيكرمه وينزله منزلاً علياً هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التي انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأخبار ، كان من (٢) الحيت : ناحية من مئ بمكة .  
يقصون في المهدي الأول .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ أراه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغزوَ لم تثنِ همَّهُ      حصانٌ عليها عقدُ درٍّ يزِينُها<sup>(١)</sup>  
 نهته فلما لم تر النهى عاقه      بكت فبكاً مما شجها قطينُها<sup>(٢)</sup>

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليهما . وظن بعض المعاصرين في مديحه لبني أمية ضرباً من النفاق<sup>(٣)</sup> ، وهو لم يكن في مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً في ذلك لإمامه الذي رآه يمنح عبد الملك ولأه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية في بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقيّة لا نفاقاً ، ومرّ بنا أن الشيعة كانوا يجيزون التقيّة خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهي تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه يصر عليه لإصراراً . على أنه كان يحمل مديحه له كثيراً من السوم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يقلّب عيني حيةً بمحارةٍ      إذا أمكنته شدةٌ لا يُقيلُها<sup>(٤)</sup>

وزاره حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفي في مجموعة الخلفاء الذين لا تقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة علي ، لأنها الخلافة الصحيحة في رأيه بين تلك الخلافات الظالمة ، يقول :

و كنت المعلّى إذ أُجِلت قداحهم      و جال المنيحُ وسطها يتقلقلُ

والمعلّى هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موّه بذلك في الظاهر ، وعنى في الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

(١) الحصان : الغنيفة .

(٢) القطين ، الخدم والوصفاء .

(٣) انظر حديث الأربعاء لطف حسين (طبعة

(٤) المحارة هنا : جحر الحية . الشدة :

الهجمة على العدو . يقيلها : يفسخها . أراد أنه

يبرم عزيمته ولا يتردد .

ترتضى الشيعة إمامتهم . ومن ثمَّ يقابل عبد الملك في ترتيب هؤلاء الخلفاء القدرح السابع بين القدرح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك في مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخلائف بعد الرسو ل الله كلهم تابعوا  
 شهيدان من بعد صديقهم وكان ابن حَرْب لهم رابعاً<sup>(١)</sup>  
 وكان ابنه بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعاً  
 ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعاً

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته في مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له في مديحه لبني أمية ، وهو إخلاص مرجعه في رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ في إكرامهم ومنع عماله منعا باتاً من سبهم على المنابر ، وكان صالحاً تقيماً ، وفيه يقول كثير مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَكَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمِ عَلَيَّ وَلَمْ تُخِيفْ  
 وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي  
 وَقَدْ لَبِسْتُ لُبْسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا  
 وَتَوَمَّضُ أحياناً بعين مريضة  
 فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مَشْمُزاً كَأَنَّمَا  
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مَوْزِقاً  
 وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي  
 بَرِيّاً وَلَمْ تَقْبَلْ إِشَارَةَ مُجْرِمٍ  
 أَتَيْتَ فَأَمْسَى راضياً كلُّ مسلمٍ  
 تَرَاعَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمَعَصَمٍ<sup>(٢)</sup>  
 وَتَبَيَّمُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ<sup>(٣)</sup>  
 سَقَّتْكَ مَدُوفاً مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمٍ<sup>(٤)</sup>  
 وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بَرَأً مِصْمَمٍ  
 أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمٍ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلاص لا يقف عند إشارات بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدي أو وصي ، أوصى له على ، بل يتجاوز ذلك إلى استشعاره ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) الشهيدان : عمر وعثمان . الصديق : أبو بكر .

(٢) الجمان : اللؤلؤ .

(٣) المدوف : المحلوط . السيام : جمع سم .

(٤) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .

مأتمهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول في ابن  
الحنفية حين لبى نداء ربه :

ألا إن الأئمة من قريشٍ ولاة الحق أربعة سواهُ  
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء  
فَسِبْطُ. سِبْطُ. إيمانٍ وبرٍ وسِبْطُ غَيْبَتُهُ كَرَبْلَاءُ  
وسِبْطُ لا تراه العين حتى يقود الخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ  
تغيب لا يُرى عنهم زمانا برَضْوَى عنده عَسَلٌ وماء

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم علي والحسن  
والحسين وابن الحنفية ، وهم متساوون في هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى  
قتل الحسين في كربلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يَطْعَمُ  
العسل والماء ، وسيعود في جيش كثيف يقوِّض الحكم الأموي ويرد الأمر إلى  
نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة  
١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

بَرِثْتُ إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا<sup>(١)</sup>  
ومن عمرٍ بَرِثْتُ ومن عتيقٍ عَدَاةٌ دُعِيَ أمير المؤمنين<sup>(٢)</sup>  
وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق في لقب أمير المؤمنين ، أما من  
حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم في رأيه يُعَدُّون مغتصبين .  
وعلى هذا النحو كان يغلو في تشييعه غلوًّا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْتَات (٣)

هو الكُمَيْتُ بن زيد الأسدي ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكد

للباحظ (انظر الفهرس) وأمال المرتضى (طبعة  
الطلي) ١/٦٦ ، ٩٩ ، ٢٠/٨٠ ومعجم الشعراء  
للمرزباني ص ٢٣٨ ومعاهد التنصيص  
وكتابتنا للتطور والتجديد في الشعر الأموي (طبع  
دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مذكرته  
في بني هاشم مراراً باسم الهاشميات .

(١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه .  
(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .  
(٣) انظر في ترجمة الكيت وأخباره أغاني  
(سأسي) ١٥/١٠٨ والشعر والشعراء ٢/٦٢ د  
والموشح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة  
الأدب ١/٦٩ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوي وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة في مسجد الكوفة . ونراه يشدو الشعر ، وتتعدد مودة بينه وبين الطّرمّاح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً .

ولا يلبث أن يبرع في الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففي أخباره أنه وفد على مخلد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالاً في مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك ، ويقال إنه لقي على بابه أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتروى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه في مطالع القرن الثاني يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففي أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزین العابدين . ومعروف أنه توفي سنة تسع وتسعين . ونمضى معه إلى ولاية خالد القسري على العراق ( ١٠٥ - ١٢٠ هـ ) فنجاهه قد أصبح شيعياً خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع ، ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أُشرب قلبه حبه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ      ولا لعباً مني وذو الشيب يلعبُ  
ولم تلهنني دارٌ ولا رسم منزلٍ      ولم يتطرّبنني بنانٌ مُحضَبُ  
ولكنني إلى أهل الفضائل والنهي      وخير بني حواء والخير يُطلبُ  
بني هاشمٍ رهطٍ النبيّ فإنني بهم      ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

فلم يعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بني هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد أجراً وجصاً فبني ، أي أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن في نظمه . ونراه في تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بني أمية وواليتهم خالد القسري . إذ كان ما بني يؤلّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة ، حتى لراه يكتب - كما أسلفنا - إلى أهل مرو أن يثوروا في وجه أسد القسري حين ولاه أخوه خالد على خراسان .



وكانت أشعاره الثائرة لا تصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسهِ ، فألقاه في غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه في ثياب وهيئة حتى عرفها الحرُّ أس ، فدخلت في غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها ونهياً بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبَّته على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بشياهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألنوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذي توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفي بني أمية مدائح نظمها حينئذ ، من مثل قوله :

الآن صرْتُ إلى أميَّة والأُمور لها مصائرُ  
أهلِ التجاوب في المحا فل والمقاوِلِ بالمخاصرِ<sup>(١)</sup>  
أنتم معادنُ للخلافة كابرًا من بعد كابر

وهي مدائح تُحْمَلُ على التقيَّة ، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حرَّيته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يتفَسِّح لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمين هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمني هو حَكِيم بن عِيَّاش الكلبي كان يتعصب للأُمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن علي هجاء<sup>(٢)</sup> مرّاً ، فرأى الكميت أن يصرفه عن ذلك بفتح معركة معه في البنية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بني هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يُمكِر به فيفخر عليه ببني أمية المضريين حتى يسكنه ويغلبه ، وقد ظهر عليه فعلا لا بذلك فحسب ، بل بما نظم في عصيته لمضرو وهجائه لليمن من قصائد دوَّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهبتَه<sup>(٣)</sup> : ( ألا حُسَيْبَتِ عَنَا يَا مَدِينَا ) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجلَّها ووصمه بها وصماً .

٨٠/٢ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٨ .  
(٣) في خزانة الأدب ١/٨٦ بمضرب أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغاني (طبع الساسي) ١٥/١١٢ .  
والمسعودي (طبعة دار الرجاء بمصر) ٣/١٦٢ .

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفوه .  
والمقاوِل بالمخاصر : الخطاب لاتخاذهم لها في الخطابة .  
(٢) انظر في ذلك ترجمته في الأغاني والإصابة

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهى تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال فى بيان حق الهاشميين الشرعى فى الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه فى شعره وفى هاشمياته خاصة يخرج على المؤلف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون فى الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثم قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد نهج بشعره نهجاً جديداً ، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تشفع به من براهين وأدلة . وهو فى ذلك يعدّ صدقياً قوياً لما شاع فى عصره من الجدل بين المتناظرين فى مسائل العقيدة ، فقد مثل هذا الجدل تمثيلاً باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدل ، فقد كان إمامه زيد يتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميت فى هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقن منه الكلام والجدل فى المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه فى هاشمياته ، فإذا هى ليست أشعاراً فى مديح زيد إمامه ، إنما هى مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية ، وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل فى دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياتة التى يعلن فيها أنه لن يقف بالرسم والأطال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصب على بنى هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سنة من سبقوه ، وهو يمضى ، فيسوف الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمى من سلالة فاطمة رضى الله عنها فى الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

فلم أرَ غَضْباً مثله يُتَغَصَّبُ	بخاتمكم غَضْباً تجوز أمورهم
تأولها منا ببقٍ ومُغْرَبُ	وجدنا لكم فى آل حاميم آية
لكم نصبٌ فيها لذى الشكِّ مُنْصَبُ	وفى غيرها آياً وآياً تتابعن
وما ورثتَهُمْ ذاك أمٌ ولا أبٌ	وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
به دانَ شرقى لكم ومغْرَبُ	ولكن مواريثُ ابن آمنه الذى
لقد شَرِكت فيه بكيلى وأَرْحَبُ <sup>(١)</sup>	يقولون لم يُورث ولولا تراثُهُ

(١) بكيلى وأرحب : هشيرتان من همدان .

وَعَكَ وَلَحْمٌ وَالسَّكُونُ وَجَمِيرٌ وَكَنْدَةٌ وَالْحَيَّانُ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ  
 وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذَلَّةً وَلَا غِيْبًا عَنْهَا إِذِ النَّاسُ غِيْبٌ  
 فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلِحْ لِحَى سَوَاهِمُ فَإِنْ ذَوَى الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بأى القرآن الحكيم في سُورِ « حَامِيم » وغيرها التي تُشيد بأهل البيت وقرابهم من الرسول ، مقررة حقَّ ذوى القربى من مثل : ( وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّتْهُ ) ومثل : ( قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ) وبناقش الأمويين في نظامهم الوراثي ، وأنهم لا يُدلون للرسول كما يدل آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية تارة ويحكّم العقل تارة أخرى .

وإذا ما يعرض هذه الأدلة مجادلاً محاولاً الظفر بخصوصه ، فإن ترك ذلك لِحَ في عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت— في أصلها — من أكثر العقائد الشيعية اعتدالاً وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان زيد بن علي لا يؤمن بتناسخ ولا ببداء ولا برجعة على نحو ما كان يؤمن الكيسانية ، وكان لا يدخل في عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي يوم غدير خم<sup>١</sup> ، وفي ذلك يقول الكميّ :

وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوَّحَ غَدِيرِ خَمٍّ أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أَطِيعَا<sup>(١)</sup>  
 وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك صحح خلافة أبي بكر وعمر ولم يظعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع الرافضة ، وفي هذا يقول الكميّ :

أَهْوَىٰ عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَىٰ بِشْتَمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرًا  
 ومعروف أن زيدا كان يشترط في الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتم أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخياً<sup>(٢)</sup> ، ويردّد الكميّ في هاشمياته هذه الصفات ، يقول في مدح الأئمة من الهاشميين :

(١) غدير خم : بين المدينة ومكة ، نزله الرسول  
 (٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .

الحُمَاة الكُفَاة في الحرب إن لُ  
والغيوثُ الذين إن أمحلَ الذَّا  
غالبِيين هاشميين في العِدْ  
وهمُ الآخذون من ثقة الأُمَّ  
فَ ضِرَامَا وقودُهَا بضِرَامِ  
س فَمَاوِي حواضن الأيتام  
م رَبَّوَا من عطية العَلَامِ (١)  
رِ بتقواهم عُرَى لا انفصام (٢)

ويضيف الكميّت إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا  
الناس لم يظلموهم فقيراً . وكثيراً ما يقف في تقريره لهذه الصفة عند جور بني  
أمية وظلمهم للناس ، وأنهم لا يتقون الله في رعايتهم لهم ، بل يعاملونهم كأنهم  
أغنام ، مبتدعين دائماً بيد عالم يجيئ بها الإسلام ، يقول

لهم كلّ عام بدعةٌ يُحدثونها أزَلُوا بها أتباعهم ثم أوحلُوا  
ودائماً يجارلربه أن يكشف غُمَّتهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطفخوا ،  
وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب ، وإنه ليسأل الله أن يُحلَّ  
الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أَجَاعَ اللهُ من أشبعتموه وَأَشْبَعَ مَنْ بِجَوْرِكُمْ أَجِيعَا  
عَرَضُهَا الهَيَاة هاشمِيٌّ يَكُونُ حَيًّا لِأُمَّتِهِ رَبِيعَا (٣)

ووقف الحاجز عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق  
المذهب الذي ذهب إليه الكميّت في منديح النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السّراج المنير أحمد لا تَعْدَلْنِي رَغْبَةً ولا رَهَبُ  
عنه إلى غيره ولو رفع ال نَأْسُ إِلَى العيونِ وارْتَقِبُوا  
وقيل أفرطت بل قصدت ولو عَنَّفَنِي القائلون أو ثَلَبُوا

(١) ربوا : نما من التربية .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : ( فمن يكفر

بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

الوثقى لا انفصام لها ) .

(٣) الحيا : المنظر .

فتى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيدونه ويثلبونه ويعتقونه<sup>(١)</sup> . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته<sup>(٢)</sup> . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، ففعد عن نصرته ، وفي هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه . من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبة تطلُّ لها الغربان حولي تحجبلُ  
 وخرج زيد وقتل : فجزع الكميت ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفي محمّساً الناس أن ينفضوا عنه وعنهم . وضيق عليه يوسف الحناق . وظلَّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلَّ ضغنه دَسَّ إليه من قتله .

## ٤

## شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا في حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام . ولم يعد لهم من الأمر شيء . وسلّط عليهم الأمويون ولايةً يعنفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم ، فتعلتوا بكل نائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لارحمة فيها ولا شفقة ، ويحس كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم . فيأثفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسدت فيه هذه المشاعر من أشراف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتبهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كي يقود هذه الثورة التي كانت تغلوها نفوس الأشراف في الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل سجستان أخفق في حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجهشه حتى يقال إنه مات كمدأ .

وفكر الحجاج في قائد محمك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهذاه تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان في كرمّان ، فأمدّه بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس» ، تمام أهبتة وعُدته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغانم ، غير أنه رأى - خشية على جيشه - أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبي بكره . ولم يكده يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالخور والضعف ، وهذده إن لم يمحض في القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّتهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهلهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالي بموتنا ، ويريد أن يعرضنا للخطر ، حتى نسوق له وخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

ووادع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فمنهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه في طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بحاميات الأمصار ، ولما صار في فارس شاع عبد الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش « مثل السيل المنحط من عكس » ، ليس يرده شيء حتى انتهى إلى قراره ، وأعشى همدان وأبو جليدة اليشكري في مقدمته يثيران الناس ويممّسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم فيما أخرجوا منها

للحرب والموت في سجستان وخراسان على نحو ما نرى في قول أبي جليدة (١) :

أيا لهفي ويا حزني جميعاً ويا غمّ الفؤادِ لما لقينا  
تركنا الدين والدنيا جميعاً واخلينا الحلائل والبنينا (٢)

فما كنا أناساً أهل دينٍ فنصبرَ للبلاء إذا بلينا  
ولا كنا أناساً أهل دنيا فنمنعها وإن لم نرج دينا

تركنا دورنا لطفام عكّ وأنباط القرى والأشعرينا (٣)  
وتقدّم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دجيل في ذي

الحجة سنة ٨١ وانصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده ، فاستولى على البصرة ،  
ومضى الحجاج فنزل بجيشه في ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية، وحدثت فيها بين  
الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جليدة يحرص على قتال الحجاج بمثل قوله (٤) :

نحن جلبنا الخيل من زرنجا مالك يا حجاج منا منجى (٥)

لتبعجن بالسيف بعجا أو لتفرون فذاك أحجى (٦)

وما زال أبو جليدة يحمس الجنود ويث الغيرة فيهم لنسائهم ، حتى شدوا  
على عسكر الحجاج شدة ضعفته ، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام ،

فراجعوا وثبتوا ، وكانت الدائرة له . وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة  
وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دبر الحمام ، وفيها هزم هزيمة ساحقة .

ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة ، والتقى به في « مسكن » فحالفته  
الهزيمة ، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان ، فالتجأ إلى زنبيل ،

وبعد محاولات منه لرجع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج ، وقطعت رأسه ،  
وقيل بل مات انتحاراً . ويلقانا بجانب أبي جليدة شعراء كثيرون لحنوا في هذه

الثورة لعل أهمهم أعشى همدان ، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة .

الشام اليمنية. ونظمتها الأشعر قبيلة يمنية. وسام  
أنياطا يريد أنهم ليسوا يدياً ، فهم فلاحون .

(٤) أغاني ٣١٢/١١ .

(٥) زرنج : قصة سجستان .

(٦) البج : الشق . أحجى : أخلق وأجدر .

(١) مرت في الفصل السالف مصادر  
ترجمته وانظر في الأبيات أغاني (دار الكتب)

٣١٢/١١

(٢) الحلائل : الزوجات .

(٣) الطغام : الأوغاد . وعك : من قبائل

عشى<sup>(١)</sup> همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الحمداني القحطاني، نشأ في الكوفة، وعشى في أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لرى الشَّعْبِي فقيه الكوفة المشهور يُصْهِرُ إليه ، فيتزوج أخته ويزوجه أخته . وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوي ، وأقبل عليه ، وأخى أحمد النَّصْبِي مغمى بلده ، فكان إذا قال شعراً غنَّى له فيه . وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصاري الذي ولي على الكوفة سنة تسع وخمسين ، وفيه يقول :

مَنْ أَكْفَرُ النِّعْمَانَ لَمْ أَلْفَ شَاكِرًا      وَمَا خَيْرٌ مِنْ لَا يِقْتَدِي بِشَكُورِ  
وله أشعار يتزعم فيها مترع زهد في الدنيا ، فهو ينفّر منها ومن التعلق بمناجعتها ، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار في أول عهدِه بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعظ الكوفة ، ومن أطرفها قوله :

وبينا المرء أعشى ناعماً جَدِلاً      في أمه مُعْتَجِباً بِالْعَيْشِ ذَا أَفْنِي<sup>(٢)</sup>  
غراً ، أتبيح له من حَيْنِهِ عَرَضٌ      فَمَا تَلَبَّثَ حَتَّى مَاتَ كَالصَّعِقِ  
فَمَا تَزُودُ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ      إِلَّا حَنْوُطاً وَمَا وَاوَاهُ مِنْ خِرْقِ<sup>(٣)</sup>  
وغير نَفْحَةٍ أَعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ      وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمَنْطَلِقِ

ونراه حين هُزِمَ التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين بيكهم بقصيصة كانت إحدى المكتّمات التي كتبت في ذلك الزمان<sup>(٤)</sup> . ويتولّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه في سلمه وحرابه للمختار الثقفي ناظماً أشعاراً كثيرة، رواها الطبري، يصور فيها شعوذة المختار الثقفي وما كان يتخذ من

(١) انظر في ترجمة عشى همدان الأغاني

(طبع دار الكتب) ٣٣/٦ والاشتقاق

ص ٤٢٣ والمؤلف ١٤ والموشح ص ١٩١

وراجع فهرس الطبري والجزء الخامس من أنساب

الأشراف للبلاذري وله ديوان نشره جابر ملسماً

ديوان أعشى قيس .

(٢) أنق : فرح وسرور .

(٣) الحنوط : طيب يتخذ للبيت خاصة .

(٤) طبري ٤/٤٧٢ .



كُرْسِيَّ وَحَمَامَاتٍ بِيضَاءَ تَمْوِيئاً عَلَى جَنْدِهِ <sup>(١)</sup> . وَيُدَالُ لِلْبَصْرَةِ مِنَ الْكُوفَةِ ،  
وَيَفْتَخِرُ الْبَصْرِيُّونَ بِانْتِصَارِهِمْ ، فَيَغْضَبُ لِبَلَدَتِهِ ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِالْحَطَابِ قَائِلاً :  
وَإِذَا فَاخِرْتُمُونَا فَاذْكُرُوا مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ <sup>(٢)</sup>

وزراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب  
وغیره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر  
سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ زراه في موقعة جندولاء . وقد  
انتصر الخوارج ، ففضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن  
عتاب بن ورقاء أصهبان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه  
يحفوه ، فيهجوه . وزراه في شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بدائها .  
ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مَكْرَانَ : فيمرض هناك ، وينظم  
قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغبة ،  
خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج في بلاد الديلم ،  
فيقع أسيراً ، وتراه بنت للعلاج الذي أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرُقاً تعرفها ،  
وبذلك تخلصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يزل وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى  
سجستان حيث كان ينازل عبید الله بن أبي بكرة زنبيل ملك الترك . ولما دارت  
على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبي بكرة  
سواء في قيادته غير الحكيمة أو في إهداره لمسئوليياته ، إذ اتهم ما كان فيه جيشه  
من ضيق ، فباع القفيز من الشعر بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِضْرَم ، وهم  
يتساقطون جوعاً ، يقول :

أَسْمَعَتْ بِالْجَيْشِ الَّذِينَ تَمَزَّقُوا  
حُبْسُوا بِكَابِلٍ يَأْكُلُونَ جِيَادَهُمْ  
لَمْ يَلْقَ جَيْشٌ فِي الْبِلَادِ كَمَا لَقُوا  
وَأَصَابَهُمْ رَيْبُ الزَّمَانِ الْأَعْوَجِ  
بِأَضْرَ مَنْزِلَةٍ وَشَرُّ مُعَرِّجٍ <sup>(٣)</sup>  
فَلَمَثَلَهُمْ قُلٌّ لِلنَّوَائِحِ تَنْشِجِ

بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصة زنبيل ملك الترك .

(١) انظر الطبري ٤ / ٥٥٠ ، ٥٦١ ،

٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار على فيها

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وَلَيْتَ شَأْنَهُمْ وَكُنْتَ أَمِيرَهُمْ فَأَضَعْتَهُمْ وَالْحَرْبُ ذَاتُ تَوْهِيحٍ  
وَتَبْيِيعِهِمْ فِيهَا الْقَفِيزَ بِدَرَاهِمٍ فَيُظَلُّ جَيْشِكَ بِالْمَلَامَةِ يَنْتَجِي<sup>(١)</sup>  
وَمَنْعَتَهُمْ أَلْبَانَهُمْ وَشَعِيرَهُمْ وَتَجَرَّتَ بِالْعَنْبِ الَّذِي لَمْ يَنْضَجْ

ومات ابن أبي بكرة كما قدمنا ، فولّى سجستان ابن الأشعث ، فسأله أن  
يزيد في عطائه ، فلم يُلبَّسْ سؤاله ، فضى يعاتبه في قصيدة طويلة ، يقول له في  
تضاعيفها :

مَالِكٌ لَا تَعْطَى وَأَنْتَ امْرُؤٌ مُثْرٍ مِنَ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ  
تَجْبِي سَجِسْتَانَ وَمَا حَوْلَهَا مَتَكْسًا فِي عَيْشِكَ الرَّاغِدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى  
يده في يده وكأنه صدّر في ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم في صفوف  
المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن  
الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاية بني أمية ، ويراهم ظالمين للرعية يسومونها  
العذاب على نحو ما رأينا في هجائه لابن أبي بكرة . وهذا الحجاج على العراق  
قد بغى وطفى ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج في  
بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مرغماً ، لا يعرف متى يأذن له في العودة لتقرّ عينه  
بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر  
حمساً بلجده ، فلما توجه مقبلاً إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إِنَّا سَفَوْنَا لِلْكَفُورِ الْفِتَانَ حِينَ طَفَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ<sup>(٢)</sup>  
بِالسَّيِّدِ الْغَطْرِيْفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَارِجِجَعٍ كَالدَّبِيِّ مِنْ قَحْطَانَ<sup>(٣)</sup>  
أَمْكَنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانَ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ يُسَلِّي مَا كَانَ  
إِنْ ثَقِيفًا مِنْهُمْ الْكَذَّابَانَ كَذَّابُهَا الْمَاضِي وَكَذَّابٌ ثَانٌ

(٣) الدبي : الجراد .

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهي السر .

(٢) سفا : خف وأسرع .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثير بها الجند ويحرضهم على القتال ، ونجده في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم ، وما كان لآبائه من مُلك وشرف وسيادة في الجاهلية ، وهو بذلك يضع في يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشرف الكوفة الذين انحدروا من أُسَرِ العصر الجاهلي النبيلة ، يقول :

يَأْبَى إِلَهَ وَعِزَّةُ ابْنِ مُحَمَّدٍ      وَجُدودُ مَلِكٍ قَبْلَ آلِ ثَمُودِ (١)  
 أَنْ تَأْتَسُّوا بِمُدَّةٍ مِنْ عُرُوقِهِمْ      فِي النَّاسِ إِنْ نُسِبُوا عُرُوقُ عُبَيْدِ  
 كَمْ مِنْ أَبٍ لَكَ كَانَ يَعْقِدُ تَاجَهُ      بِجَبِينِ أَبْدَجٍ بِقَوْلِ صِنْدِيدِ (٢)  
 مَا قَصَرَتْ بِكَ أَنْ تَنَالَ مَدَى الْعُلَا      أَخْلَاقُ مَكْرَمَةٍ وَإِرْثُ جُدودِ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يلبس قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَسَّمْ نوره      وَيَطْفِئُ نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتَحْمَدًا  
 وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْمَدِ      لِمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمُؤَكَّدَا  
 وَمَا نَكَّرُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ      إِذَا صَمِنُوهَا الْيَوْمَ حَاسِبًا عَدَا (٣)  
 وَمَا أَحْدَثُوا مِنْ بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ      مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَضَعْنِي إِلَى اللَّهِ مَضْمَدَا  
 وَمَا زَاحَفَ الْحَجَّاجُ إِلَّا رَأَيْتَهُ      نَعَانَا مُلْقَى لِّلْفَتْوحِ مَعُودَا  
 لِيَهْيَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَهْرَهُ      عَلَى أُمَّةٍ كَانُوا بُغَاةً وَحَسْبَدَا

ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فارتدَّ وجهه واهتزَّ منكباؤه ، وأمر الحرسَ فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

(٢) أبلج : طالق الوجه . مقول : خطيب .  
 صنديد : الجواد الشجاع  
 (٣) تخاس : قدر ونكث

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بالثمود قبيلة ثقيف وهم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بنو أمية

## شعراء بني أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بني أمية ، فالمدائح شيء والشعر السياسي شيء آخر . المدائح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسي فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مدائح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعنتها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون في الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسي المناصر لبني أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق في الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثم فهم أولياء دمه . وكان عليٌّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بني أمية معاوية أمير الشام يسنده جيش يمتلئ موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيعاً ، وأخذت كل شعبة تحاول أن تفرض رأيها السياسي باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا في وقعة الجمل ، فخلا الجو لمعاوية ومظالبتة بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن يابعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صفين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها على انتصاراً حاسماً لولا ما لحأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفي هذه الموقعة نُظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته في الحكم وعن إمامه الذي ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق في الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جعيل التغلبي :

أرى الشام تكره مُلكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا  
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابنَ هِنْدِ رضينا  
وردَّ عليه بعض شعراء العراق ، فقال ينقض ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين  
الطرفين من عداوات قديمة :

أناكم على بأهلِ العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا  
فإن يكره القومُ مُلكَ العراق فقد ما رضينا الذي تكرهونا<sup>(١)</sup>

وتطورت الظروف وُقُتل على بعد التحكيم ، وبابح الناس معاوية ، ودخلت  
العراق في طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ،  
وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة  
مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضتهم الحجاز في  
عهد يزيد بن معاوية وتجمعت معارضتها في عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون في هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن  
نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر .  
وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار  
حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفي رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ،  
فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصراني التغلبي ، على نحو ما مر بنا في غير هذا  
الموضع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويّاً يناضل عن السياسة  
الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية في بيته ، وأن يأخذ البيعة  
لابنه يزيد في حياته . وكان ذلك في رأى كثيرين بدعة منكرة ، إذ تَخْرُجُ  
الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند  
الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعَرَفَ معاويةُ نفور المسلمين من ذلك ،  
فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع  
من لبّاه منهم مسكين الدارمي فأنشأ يقول في كلمة له<sup>(٢)</sup> :

(١) انظر الأخبار الطوال للدينوري ( طبع ) (٢) الأغاني (سأسي) ٧١/١٨ .

بني خلفاء الله مهلاً فإنما      يُبَوِّئُهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يَرِيدُ<sup>(١)</sup>  
 إِذَا الْيَنْبِئُ الْغَرْبِيُّ خَلَى مَكَانَهُ      فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ  
 عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالْجَدُّ صَاعِدٌ      لِكُلِّ أَنْاسٍ طَائِرٌ وَجَدُودٌ<sup>(٢)</sup>

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلاصلته .

ومن شعراء آل أبي سفيان المشوكل<sup>(٣)</sup> الليثي وعبدالله<sup>(٤)</sup> بن همام السلولي « وكان مكيناً حظياً فيهم وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية » في أشعار يرويها الرواة ، كان يرثي فيها أباه ويحضره على البيعة لابنه من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :  
 اضْبِرُّ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ دَامِقَةَ      وَاشْكُرْ جَبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ حَابَاكَ  
 لَارُزَّةَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ نَعْلَمَهُ      كَمَا رَزَيْتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ  
 أَصْبَحْتَ رَاعِيَّ أَهْلِ الدِّينِ كُلَّهُمْ      فَأَنْتَ تَرَعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرَعَاكَ  
 وَفِي مَعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا خَلْفٌ      إِذَا نُعَيْتَ وَلَا تَسْمَعُ بِمَنْعَاكَ  
 ونمضى إلى عصر المروانيين ، وأول من تلقاه من شعرائهم أبو العباس<sup>(٦)</sup> الأعمى الشاعر المكبي مولى بني الدثئل يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان من شعراء بني أمية المعدودين المقدّمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم » ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان ابن الحكم يبكيهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وَلَمْ أَرْ حَيًّا مِثْلَ حَيٍّ تَحَمَّلُوا      إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مِنْذُ بُرَيْتِ<sup>(٧)</sup>  
 أَعَزُّ وَأَمْضَى حِينَ تَشْتَجِرُ الْقَنَا      وَأَعْلَمَ بِالْمَسْكِينِ حَيْثُ يَبَيْتِ

(١) يبويئها : ينزلها .

(٢) الجدد : الحفظ .

(٣) انظر في ترجمته الأغاني (طبع الساسي)

(٤) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/١٥ ونكت الحميان للصفدي ص ١٥٣ ومعجم الأدباء

١٥٩/١٢ ١٧٩/١١ والتهذيب ٤٤٩/٣ والبيان والتبيين

(٥) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٢/٦٣٣ ١/٢٣٢ ، ٢٣٣ .

وإبن سلام ص ٥٢٢ والخزاعة ٣/٦٣٨ . (٧) تحملوا : ارتحلوا . برئت : خلقت .

(٥) البيان والتبيين ٢/١٣٢ والمبرد ص ٧٨٥

إذا مات منهم سيّدٌ قام سيد بصيرٌ بعَوْرَاتِ الكلامِ زَمَيْتُ (١)  
وقوله :

ليت شعري أفاح رائحة المسه  
حين غابتُ بنو أميَّة عنه  
خطباءُ على المنابرِ فُرْسًا  
نُ عليها وقالةٌ غيرِ خُرْسِ  
لا يُعابون صامتين وإنِ قا  
لوا أصابوا ولم يقولوا بلبسِ  
وبلغ ابن الزبير نُبَيْدًا من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه  
وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهبوه وآله هجاء مرًا ، محرصًا عبد  
الملك على حربيه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن  
بنى هاشم ، وفي ذلك يقول لأبي الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعيًا :

لعمرك إنني وأباطفيلٍ لمختلفان واللهُ الشهيدُ  
لقد ضلُّوا بحبِ أبي ترابٍ كما ضلَّتْ عن الحقِ اليهودُ  
ويقال إنه أدرك دولة بنى العباس ، وتروى له أشعار مختلفة - إن  
صحت - في بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسرًا شديدًا من  
مثل قوله :

خلتِ المنابرُ والأسرةَ منهم فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ  
ومن كان يلهج بهم ويقف في صفوفهم نايغة بنى شيبان (٣) عبد الله بن المخارق ،  
ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانيًا ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التي  
يخلف بها النصراني ، وفي ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل  
قوله :

ويزجرني الإسلامُ والشَّيبُ والتُّقى وفي الشَّيبِ والإسلامِ للمرءِ زاجرُ

(٣) انظر في ترجمته الأغاني ( طبع دار  
الكتب ) ١٠٦/٧ وقد نشرت دار الكتب ديوانه .

(١) زميت : وقور .  
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همَّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مثل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول في تضاعيفها :

لَأَبْنُكَ أَوْلَى بِمُلْكِكَ وَالِدَهُ وَنَجْمٌ مِنْ قَدِّ عَصَاكَ مَطْرَحٌ  
فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَأْيُ عَبْدِ الْمَلِكِ . وظل من بعده يمدح أبناءه ، وله  
تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . وازم بعده ابنه الوليد ،  
وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه في الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .  
وعلى شاكلة في الانتصار لبني مروان أعشى قبيلته عبد<sup>(١)</sup> الله بن خارجة ،  
وكان شديد التعصب لهم ، وله في عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على  
حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

آلُ الزُّبَيْرِ مِنَ الْخِلاَفَةِ كَالْتِي عَجِلَ النَّجَاجُ بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا<sup>(٢)</sup>  
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلغَوَاةِ أَطْلَمْتُ إِمَهَالَهَا  
إِنَّ الْخِلاَفَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ مَا زَلْتُمْ أَرْكَانَهَا وَثِمَالَهَا<sup>(٣)</sup>  
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلاً مَغْلَقاً فَانْهَضْ بِيَمِينِكَ فَانْتَحِمْ أَقْفَالَهَا

ومن شعراء بني أمية أبو عطاء<sup>(٤)</sup> السَّندِيّ مولى بني أسد ، وكانت فيه  
لكثيرة سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاية  
الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مرثى بديعة . وقد عاش إلى أيام  
المنصور ، وزراه يبكي بني أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين في أشعار  
كثيرة من مثل قوله :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنَّ عَدْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ  
وَقَوْلُهُ :

بَنِي هَاشِمٍ عُودُوا إِلَى نَحْلَاتِكُمْ فَقَدْ قَامَ سِعْرُ التَّمْرِ صَاعاً بِدَرَاهِمٍ  
فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ

(٤) انظر في ترجمة أبي عطاء أغاني (ساسي)

٧٨/١٦ والشعر والشعراء ٧٤٢/٢ والخزانة

١٧٠/٤ ومعجم الشعراء المرزباني ص ٥٦

والعيني ٥٦٠/١

(١) انظر ترجمته في الأغاني طبع (ساسي)

١٥٥/١٦ وقد نشر جابر ديوانه ملحناً

بديوان أعشى قيس .

(٢) أحاطها : جعلها لا تنتج .

(٣) الثمال : الغياث الذي يقوم بأمر قومه .



وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبني أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص في الوليد بن عبد الملك (١) :

تَخِيرُهُ رَبُّ الْعِبَادِ لِخَلْقِهِ وَلَيْسَا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا  
وقد يصعدون بهم فيشبهوهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم في سليمان (٢) :  
سُمِّيَتْ بِاسْمِ امْرِئٍ أَشْبَهَتْ شَيْمَتَهُ عَدُوًّا وَفَضْلًا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَا  
أَخِيذُ بِهِ فِي الْوَرَى الْمَاضِينَ مِنْ مَلِكٍ وَأَنْتِ أَصْبَحْتَ فِي الْبَاقِينَ مَحْمُودَا  
وكان في زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد في تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثير ، ويقول العبدلي في هشام بن عبد الملك وأسلافه (٣) :

يَقْطَعُونَ النَّهَارَ بِالرَّأْيِ وَالْحَزْمِ وَيُخَيِّونَ لَيْلَهُمْ بِالسُّجُودِ  
والغريب أن نجد هذا التصوير يمتد حتى إلى من عرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبة (٤) :

إِمَامٌ يُوضِعُ الْحَقَّ لَهُ نُورٌ عَلَى نُورٍ  
ولما اضطربت الدولة في عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يجترّبون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبدت في الأفق النذر بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة في دياره قائلا (٥) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ اضْطِرَامٌ  
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي  
فَلَمَّا كَانُوا لِحِينِهِمْ نِيَامًا  
فَلَمَّا قَامُوا فَفَقَدُوا طَالَ الْمَنَامُ

(١) انظر ترجمته في الأغاني ٧/٩٥ وما بعدها .

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٩٨/١ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٨٨/١٢ .

(٣) أغاني ٣٠٦/١١ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٥٨ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضت حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبي عطاء السندی ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

### عبد الله<sup>(١)</sup> بن الزبير

كوفي المنزل والمنشأ من بني أسد « كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجو ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يفره على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مدبجاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراخت مني  
أيادي لم تُعنن وإن هي جلت  
فتى غير محبوب الغنى عن صديقه  
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت  
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها  
فكانت قذى عينيه حتى تجلت<sup>(٢)</sup>

ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مجدٌ إلا مجدُ أسماء فوقه  
ولا جرى إلا جرى أسماء فاضله  
فتى لا يزال الدهر ما عاش مُخصباً  
ولو كان بالموماة تخدي رواحله<sup>(٣)</sup>  
وعزل ابن أم الحكم عن الكوفة وضمت إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه بمدحه وينوّه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ الله والمجدُ صفوة الـ  
وأنت إلى الخيرات أولُ سابق  
حليفين ما أرسى نبيراً ويثرب<sup>(٤)</sup>  
فأبشراً فقد أدركت ما كنت تطلب

(٣) الموماة : المغارة . تخدي الناقة : تسرع فى سيرها .

(٤) نبيير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر فى ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢١٧/١ وما بعدها والخزانة ١/٣٤٥ وما بعد التنصيص ٢٠/١ .

(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفي فيتحول إليه ابن الزبير يتوعدده ويتهدده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤثى به أسيراً ، فيمن عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمادحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجو حيز يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أيها العائدُ في مكةَ كمٍ من دمٍ أهرقته في غير دمٍ  
أيدي عائدةٍ معصمةٍ ويدٌ تقتل من حلَّ الحرمِ  
ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج

للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى يناذره بسوء المصير قائلاً :

كأنى بعبد الله يركب رذعه وفيه سنان زاعجى مُحربٌ (١)  
وقد فر عنه الملحدون وحلقتُ به وبمن آسأه عنقاء مُغربٌ (٢)  
تولدوا فخلّوه فشالَ بشلوهِ طويلٌ من الأجداع عارٍ مشدبٌ (٣)  
بكنمى غلامٍ من ثقيفٍ نمتُ به قريشٌ وذو المجد التليد معتبٌ  
ويلزم بشر بن مروان في ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفى في خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعيش طويلاً بعد بشر ، ويقال إنه عمى بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يرهبُ شره .

### عدى (٤) بن الرقاع

من عاملة إحدى قبائل قضاة ، كان منزله بدهشق ، وهو بذلك يسئلك في حاضرة الشعراء . وكان مقدماً عند بنى أمية - كما يقول أبو الفرج مدحاً

أغانى ( طبع دار الكتب ) ٢٩٩/١ وما بعدها  
و ٣٠٧/٩ وما بعدها و ( طبع الساسي )  
١٦٥/١٧ والطبرى ٢/٥ والشعر والشعراء  
٢/٦٠٠ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ،  
٥٥١ ، ٥٥٨ ومعجم الشعراء للرزقاني ص ٨٦  
والاشتقاق ص ٣٧٥ والموشح ص ١٩٠ والطرائف  
الأدبية ( طبع لجنة التأليف ) ص ٨١ .

( ١ ) يقال ركب رذعه : إذا سقط قتيلاً يتشخب دمه . والزاعجية : ضرب من الرياح . محرب : محدد .

( ٢ ) يقال عنقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .

( ٣ ) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشدب : مصلح مقوم .

( ٤ ) انظر في ترجمة عدى وأخباره وأشعاره

لهم، خاصاً منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك في مخاصمات أشرف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أشرعت الأسنة بين القبائل الحنمية وقيس في الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك في حربه لمصعب بن الزبير ، وله بمدحه مفاخرأ بنصرتهم له :

لعمري لقد أضحرت خيائنا بأكناف دجلة للمصعب<sup>(١)</sup>  
 يهزون كلَّ طويل القنا ة ملتئم المنصل والشعلب<sup>(٢)</sup>  
 تقدّمنا واضح وجهه كريم الضرائب والمنصب<sup>(٣)</sup>  
 أعين بنا ونصرتنا به ومن ينصّر الله لم يغلب

ولا نكاد نمضى في عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه منه ويتخذة شاعره الرسمي ، حتى لئيب عليه على جرير في بعض مجالسه ، ويشور جرير ، ويهجوّه ، فيتدخل الوليد ويهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل في رعايته يصفيه مدائح ، ويتغنى له فيها المغنون ، وما غنّى له ابن سريج فيه قوله :

صلّى الذي الصلوات الطيبات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا  
 هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعة  
 إن الوليد أمير المؤمنين له مُدكُّ عليه أعان الله فارتفعاً  
 وقوله :

صلّى الإله على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها  
 أولاً ترى أن البرية كلها ألفت خسائرها إليه فقادها<sup>(٤)</sup>  
 ولقد أراد الله إذ ولأكها من أمة إصلاحها ورشادها  
 أعمرت أرض المسلمين فأقبلت ونفيت عنها من يروم فسادها

(٤) الخرائم : جمع مخزومة . وهي البرة يخزم بها البعير في أنفه . كنى بذلك من الانقياد والطاعة .

(١) أصحرت : برزت

(٢) الشعلب : رأس الرمح

(٣) الضرائب : الطباع

وَأَصْبَبَتْ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ مَصِيبَةً عَمَّتْ أَقَاصِي غَوْرِهَا وَنِجَادَهَا  
ظَفَرًا وَنَضْرًا مَا تَنَاوَلَ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ كَانَ أَرَادَهَا  
وَإِذَا نَشَرْتُ لَهُ الشَّنَاءَ وَجَدْتُهُ جَمَعَ الْمَكَارِمَ طَرْفَهَا وَتِلَادَهَا<sup>(١)</sup>

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولاً بكل ما  
يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره  
لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والثام شعبتها ، وقد انقادت إليه بأزمته ،  
والله يتم عليه نعمته ، وهي تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله في علاه ليصلى  
عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ،  
وكيف أعمار أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده  
منزلاً على أعدائها صواعقه ، فتمحمتهم محملاً .

وفي أشعاره ما يدل على أنه كان يُعنى بها عناية شديدة إذ ما يزال يصفقها  
ويشذبها حتى تلبين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلاً عقله ، يقول :

وَقَصِيدَةٍ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقْوَمُ مَيْلَهَا وَسِنَادَهَا<sup>(٢)</sup>  
نَظَرَ الْمُثَقَّفِ فِي كُهْوَبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مَنَادَهَا<sup>(٣)</sup>

واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحشم الوحش والظباء ،  
ومن بديع وصفه لظبية ترتعى ومعها شادنها أو ابنها قوله :

تُرْجَى أَعْنَ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلْمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاءِ مِدَادَهَا<sup>(٤)</sup>

ويشبه امرأة بجؤذر ، فيقول :

وَكَأَنَّهَا وَسَطَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمِ<sup>(٥)</sup>  
فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ<sup>(٦)</sup> وَسِنَانُ أَقْصَدِهِ الدُّعَاسُ فَرَنْقَتُ

(١) طرفها : حادتها . تِلَادها : قديمها .  
(٢) السناد : من عبوب الروى .  
(٣) المثقف : الذى يشهد الرماح والسيوف ويقومها . منادها : معوجها .  
(٤) تزجى : تسوق . الأذن : الشادن فى  
صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه  
الهدد .  
(٥) الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة .  
وجاسم : من قرى دمشق .  
(٦) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت .

ونراه يصنف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويثيران من  
حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول .

يتعاوران من الغبار مُلاصَّةً غَبْرَاءَ محكمةً هما نسجاها  
تُطَوِّى إِذَا عَدَّوْا مَكَاناً نَاشِزاً وَإِذِ السَّنَابِكُ أُسْهَلَتْ نَشْرَاهَا

وله فى النسيب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تبیت يَدُ الفتاة وسادةً لى جاعلاً يُسْمِرَى يَدَى وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب  
فى شعره أن يأتى بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

## الفصل الخامس

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل الصريح

رأينا في حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما في الرفه والنعيم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبي ، وكيف أخذ هذا الرقيق يسدّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدّم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربي القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التي وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربي قروناً طويلة .

ويجيئ إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان في الحجاز للغناء ، فالناس يختلفون فيها إلى المغنين والمغنيات ، حتى النسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه في مجالسهن . وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصور كلف سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل<sup>(١)</sup> . وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجة واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستوى الناس من رجال ونساء . وبذلك كادت تختفي من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيها مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعات قصيرة ، وعُدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرمل والسريع والخفيف والمتقارب والهجج

(١) انظر في ذلك كتابينا : الشعر الفنائى فى بعدها والشعر الفنائى فى مكة ( طبع دار الفكر المدينة ) ( طبع دار الفكر العربى ) ص ٦١ وما العربى ) ص ٥٧ وما بعدها .

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوعات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كى يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الهمس . وليس ذلك فقط ما أثر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيهاً بالديار وبكاء على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلتقي الرجال وتحادثهم ، وكانت - شأن المرأة في كل عصر - تُعجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصيح ممتنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم لإقبال الثوري بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنى بأُم البنين في مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالاً ونساءً في مكة والمدينة يقبلون على شعر



الغزل، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه في نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقي ظاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبي عمَّار الجُشَّمي ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهي المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحبياته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب ، وهم جميعاً يُلْقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون في نفوسهم من ربيعة ، وبلغ من تيه عمر في ذلك أن رأيناه يصورها متهاككة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلا عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

### عمر<sup>(١)</sup> بن أبي ربيعة

في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بني مخزوم ، ولد عمر في سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبي ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى مجندا . وكان أبوه في الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل عليه في عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله في مكة بعد هجرتهم<sup>(٢)</sup> ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلاً فدلته ، يؤازرها في ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكّي ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

وشاعر الغزل ( في سلسلة اقرأ ) لعباس محمود العقاد وكتابتنا : التطور والتجديد في الشعر الأموي ( طبع دار المعارف ) ص ٢٣٩ والشعر الغنائي في مكة ص ١٤٧ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفي بيروت . ( ٢ ) ابن سعد ٣٢٨/٥ .

( ١ ) انظر في ترجمة عمر الأغاني ( طبع دارالكتب ) ٦١/١ وما بعدها ، ٢٣٩/٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٣٥/٢ والموشح ص ٢٠١ والخزاعة ٢٣٨/١ وميرآة الجنان لليافى ١٨٢/١ وابن خلكان وشذرات الذهب ٤٠/١ وأمالى القالى ٥١/٢ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأريعاء ( طبعة الحلبي ) ٣٧٢/١ وما بعدها

بعض المعاصرين ، وبنوا دراساتهم له على هذا الوهم<sup>(١)</sup> ، وفي الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقص هذا الوهم نقضاً<sup>(٢)</sup> ، وما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤٌ بِقَرَارِ مَكَّةَ مَسْكِنِي      ولها هَوَاىَ فَفَقَدَ سَبَبَتْ قَلْبِي  
وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمه من حوله ، والمغنون والمغنيات من أدل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجَع والغريض يازمونه ويغنونه في شعره ، حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلاً عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة<sup>(٣)</sup> . ويقول الرواة إنه كان بيته مغنيتان تغنيانه في أشعاره هما بَعُوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل متعبد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبر غَزَلٍ في عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلف أضخم ديوان لا في عصره فحسب ، بل في جميع العصور العربية .

وهو في غزله يُخضع ملكاته لنغناء الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والحزوة . حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تَفَسِّح لهم في روعة النغم . وزراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظهِرنا على حقيقته في غزله ، وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحوّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِدُ النَّاسَ لِلطَّوْفِ احْتِسَاباً      وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةً فِي الطَّوْفِ  
وتذهب مواسم الحج ، فيتصدى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت على الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الحميلات بها من مثل سَكِينة بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل في فتيات قریش النبيلات ، ومن ثم وصف ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التي تصوّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر عمر بن أبي ربيعة حياته وشعره

أخباره في الأغاني مع معنى مكة ومع الثريا .

(٢) انظر الأغاني ( طبع دار الكتب )

بجور طبع بيروت .

٢٠٨/٨٠٢٩٦/٤ ، ٣٢٢/٣ ، ٣٥٩/١

(٣) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع

وحلبي وطيب ، على نحو ما نرى في قوله :

قالت ثُرَيَّا لِأَتْرَابِ لَهَا قُطْفٌ      فَمَنْ نُحَيِّيَ أبا الخَطَّابِ مِنْ كَثَبِ (١)  
فَطِرُنَ طَيْرًا لما قالت وشايعها      مثلُ التَّائِيلِ قد مُوهِنَ بالذهب  
يرفلن في مُطْرَفَاتِ السُّوسِ آوَنَةً      وفي العتيق من الدِّيَابِجِ والقَصَبِ (٢)  
تري عليهن حَلَى الدَّرِّ مَتَسِقًا      مع الزبرجد والياقوت كالشهب  
وزراه أحيانًا يلهج بصبايته وحبه وما يذوق من وجد وألم ، متلطفًا لصاحبه ،  
ملحًا على أن تواصله بودها ، مستعطفًا ، متضرعًا ، بمثل قوله :

ما كنت أشعر إلا مذ عرفتكم      أن المضاجع تسمى تُنَبِّت الإبرا  
قد لمتُ قلبي وأعياني بـواحدة      فقال لي : لا تَلْمِني وادْفَعِ القَدرا  
ولكن هذا يأتي نادرًا في غزله ، إذ قلما يشكو من هجر أو يتألم لصد ،  
فقد تحول بشره يملؤه تهاً بنفسه . ويقال إنه كان جميلاً ، وكأنما انعكست  
فيه صورة الحب ، فهو لا يشكو الغرام والعشق ، بل محبوبته هي التي تشكو من  
ذلك ، فهي التي تحيطه بشباك التضرع والاستعطاف ، وهي التي ما تني  
مسهدة تتعذب في حبه وتتمنى لو تراه . واسمعه يقول على لسان إحدى صواحيه :

تقول إذ أيقنتُ أني مفارقها      ياليتني ميتٌ قبلَ اليوم يا عمرا  
ويقول على لسان ثانية :

ما وافق النفس من شيءٍ تُسرُّ به      وأعجبَ العينَ إلا فوقه عمرُ  
ويقول عن ثالثة :

قد حلفتُ ليلة الصُّورَيْنِ جاهدةً      وما على المرءِ إلا الحلفُ مجتهداً (٣)  
لأختها ولأخرى من مناصفها      لقد وجدتُ به فوق الذي وجداً (٤)  
لو جُمعَ الناسُ ثم اختيرَ صَفْوُهُمْ      شخصاً من الناسِ لم أعدل به أحداً

(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .

(٤) مناصف : جمع منصف ككبر ، وهو

الخادم .

(١) قطف : جمع قطوف وهي بطيخة الخطو .

كثب : قريب .

(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد

بالمغرب . القصب : الحرير .

ويصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكبرى أتعرفنَ الفتى قالت الوُسْطَى نعم هذا عُمَرُ  
قالت الصُّغرى وقد تيممتها قد عرفناه وهل يخْفَى القمر

ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ يصور كلفها به وتصديها له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو في أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ، وهي تسعى إلى الوصول منتهزة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :

قالت لِيَتْرَبِ لها تحدُّها لِنُفْسِدَنَّ الطَّوْفَ في عُمَرِ  
قومي تصدِّي له ليعرفنسا ثم اغمزيه يا أختَ في خَفر

قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرتُ تَسْعَى على أثرى<sup>(١)</sup>

وعلى هذا النحو نراه في غزله ، يوقد قابوب الفتيات حباً ، وهن يتمنين عطفه وحنانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة في الغزل العربي ، إذ لا يزال الشاعر يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والهيام مسترحماً مستعظماً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا في تصوير حبه هو وإنما في تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقد به قلوبهن من العشق والصبابة .

فعمر في غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل في جمهور هذا الغزل ، ويستتم خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء حبهن له فحسب ، بل أيضاً بما يصفن من خطوط هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يدقن مرارة الغيرة ويصطابن بناهما المحرقة ، وهن يتألمن من الوشاة ومن فقدن لعظنه وأمنه لا يجدن عنده إلا الإعراض والصدوف ، يقول على لسان إحداهن :

أَمْ أَجَلِ وَاِشْ كاشِحِ بِنَسِيمَةٍ مَشَى بَيْنَنَا صَدَقَّتْهُ لِمَ تَكْذِبِ

وأتاح له ذلك أن يصور عواطف المرأة ونسيتها وما يتعمتها من دقائق الحب وما يثير في قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لاسترضاء عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول

أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

(١) اسبطرت : أسرعت

قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها  
فجاوبتها حصاناً غير فاحشة  
أقننى حياءك في سِتْرٍ وفي كرمٍ  
لا تظهرى حُبّه حتى أراجعه  
ما تأمرين فإن القلبَ قد شَغِلًا<sup>(١)</sup>  
بِرَجْعِ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطلاً  
فلمستِ أولَ أنثى عُلِقَتْ رجلاً<sup>(٢)</sup>  
إني سأكفيك إن لم أمت عَجلاً  
وترضى خطتها وتوصيها أن تكذبَ عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف  
في لومه وعذله :

فإن عهدي به والله يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العذلا  
وتكرر الرسل بينه وبين محبوباته في ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهم ،  
على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ بَلَدِي      كِتَابَ مَوْلِيهِ كَمِيدِ  
كُتِيبِ وَأَكْفِ الْعَيْنِ      يَنْ بِالْحَسْرَاتِ مَنْفَرِدِ<sup>(٣)</sup>  
يُورِّقُهُ لَهَيْبُ الشُّو      قِ بَيْنِ السُّحْرِ وَالْكَبِدِ<sup>(٤)</sup>  
فِي مَسْكُ قَلْبِهِ بِيَدِ      وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

وتردُّ عليه الثريا شعراً<sup>(٥)</sup> ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من  
تبادل الرسائل بينه وبين صواحيبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يطبع غزله هذا الحوار القصصي الذي رأيناه على لسان محبوباته  
يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجوارين حبهن له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً  
إلى تصوير افتتاحه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحيبه على نحو ما  
نعرف في قصيدته :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتِ غَادٍ فَمُبَكِّرُ      غَدَاةٍ غَدَاةٍ رَائِحٌ فَمُهْجَرُ<sup>(٦)</sup>

(٦) غاد : من الغدوة وهي البكرة أو أول  
النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من  
الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهاجرة وهي  
نصف النهار . وانظر في هذه القصيدة وشرحها  
المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

(١) رقية : انتظار .  
(٢) اقننى حياءك : احتفظى به .  
(٣) واكف العينين : سائل الدموع .  
(٤) السحر : الرثة .  
(٥) أغاني (دار الكتب) ١/٢٣٥ وما بعدها .

ويعمى فيصور قضاءه الليل في الحديث معها حتى تبشير الصباح ، وكأنه في ذلك يحاكي امرأ القيس في معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثم كنا ننق القيصص التي تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظناً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها (١) ، وإذا صح ذلك يكون قد توفى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

### الأحوص (٢)

أوسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجدده عاصم حمى الدبر أى النحل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لحيان في نقر ، فحاربهم في يوم يسمى يوم الرجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهراً حتى إذا جن الليل أمطرت السماء فاحتمله السيل ، فسمى حمى الدبر . ونحال أبيه حنظلة بن أبي عامر الذى قتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَلْتُ نَحَالَ الملائكة الأبرار مَيْتاً طُوبَى لَهُ من صَرِيح

وَأنا ابن الذى حَمَت لَحْمَهُ الدَّبْرُ قَتِيلُ اللَّحْيَانِ يوم الرَّجِيح

وإنما لقب الأحوص لحوص كان في عينيه ، وهو ضيق في مؤخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبي ربيعة عاش للحب

(١) أغاني (دار الكتب) ٧١/١

(٢) انظر في ترجمة الأحوص وأخباره

الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٤/١ ،

٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٢٢٤/٤ وما بعدها ،

٢٥٤/٦ وما بعدها ، ٦٤/٩ وما بعدها وابن

سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ٤٩٩/١

والموشح ص ١٨٧ والاشتقاق ص ٤٣٧ والخزاعة

٢٣١/١ وحديث الأريباء ٣٢٩/١ وكتابتنا

الشعر الغنائى في المدينة ص ١٥٨ وما بعدها .

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثرياً، ومن ثم كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بني أمية وينال عطاياهم الجزيلة ، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتَلدِّداً  
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ مَلَأَ الأرضَ معروفاً وجوداً وسُودداً  
وله مدائح مختلفة في الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه  
وزيد بن عبد الملك . وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد ، ولعله من  
أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه ، فيهجوم هجاء قبيحاً . وهو  
في غزله شديد الصبابة ، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شيء ، حتى  
ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حَجراً من يابس الصخر جَلَمداً  
فالحب الحياة ومن لم يعشق عدو من الأموات ، بل من الجماد ، بل من  
الحجارة أو أشد قسوة . وهو يعلن حبه إعلاناً ، يعلن صبوته وثورة نفسه . وكان  
فاسد الخلق ، فانصرفت الفتيات والنساء عنه ، إذ رأينه يذهب بعيداً في  
التصریح ، على شاكلة قوله :

تعرَّضُ سلماك لما حرم متَّ ضللاً من مُحرمٍ<sup>(١)</sup>  
تريد به البرِّ يا ليتني كفافاً من البرِّ والمائمِ<sup>(٢)</sup>  
وأشعاره في أم جعفر الأوسية أتق غزلياته ، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً ،  
وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أمين ، حتى ليرَوِي أنه أصلاه يوماً سيّاطاً حامية ،  
وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ  
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُ  
وما كنتُ زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

فخرت غير بار ولا آثم .

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت .

(٢) يقول : ليتني تعادل إيمي وبري ،

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبْهتَ حتى ما أكاد أُجيبُ  
 لكِ اللهُ إني واصلٌ ما وصلتيني ومُثْنٍ بما أوليتني ومُثِيبُ  
 أبْثُك ما ألقى وفي النفس حاجةٌ لها بين جِلْدِي والعظام دَبِيبُ  
 ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهي تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . وزراه مشغوقاً  
 بجميلة المغنية ونادياها المشهور في المدينة ومن كنَّ فيه من الإماماء مثل الذَّلْفَاءِ  
 وعَقِيلَةَ وسَلَامَةَ القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله  
 في الذَّلْفَاءِ :

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هَمِّي فليدعني من يلومُ  
 حَبِّ الذَّلْفَاءِ عِنْدِي مَنْطِقٌ مِنْهَا رَخِيمُ  
 حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ مَسْتَكْنٌ لَا يَرِيمُ<sup>(١)</sup>

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبراً به ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ،  
 يصورُ كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْهَا لَسْتُ ذَاكِرُهَا إِلَّا تَرَقَّرَقَ مَاءُ الْعَيْنِ أَوْ دَمَعَا<sup>(٢)</sup>  
 لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعًا عَنْ مَحَبَّتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحَبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا  
 وَزَادَنِي كَلْفًا فِي الْحَبِّ أَنْ مَنَعْتُ وَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنَعَا  
 وهو في هذا الغزل بالإماماء والحواري يختلف عن ابن أبي ربيعة الذي كان  
 لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحوائر النبيلات من القرشيات والعرييات . وهو يختلف  
 عنه أيضاً في بعده في التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن  
 ثمَّ شكاه أهل المدينة لأبي بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على  
 البُلْسُ للناس . ولما ولي عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال  
 خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سلامة — وقد صارت إليه —  
 عنده فعفا عنه . ولما رُدَّتْ إليه حريته زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على  
 ابن المهلب طويلاً . ويقال إنه توفِّي حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

(٢) دين هنا : داء .

(١) لا يريم : لا يبرح .



## المرجبي (١)

لُقِّبَ هذا اللقب لضبيعة له قرب الطائف تسمى العَرَجَ كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه سُهر بالفزل ونحا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته في أهله ، وكان مشغولاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُدَّ في الفرسان ، ومن ثمَّ اجتذبت حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبراهم لسهم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالت رضىتُ ولكن جئتَ في قمرٍ هلاً تلبثتَ حتى تدخلَ الظلمُ  
وقوله :

باتا بأنعم ليلةٍ حتى بسداً صُبْحُ تلوح كالأغرَّ الأشقرِ  
فتلازما عند الفراق صبايةً أخذَ الغريم بفضل ثوب المُعسرِ<sup>(٢)</sup>

وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرى بها حتى الحواج الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سمرت عن وجه جميل :

أماطت كساء الخز عن حرِّ وجهها وأدنت على الخدين بُرداً مهلهلاً  
من اللاء لم يخججنَ يبغينَ حسيبةً ولكن ليقتلن البريء المغفلاً

ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تقسم أن لا تدخله منزها لكثرة عبثه وسفهه ، ويشفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه في قوله :

والشعراء ٢٠/٥٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث  
الأربعماء ١/٣١٦ وقد طبع ديوانه في العراق .  
(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن .

(١) انظر في ترجمة المرجبي وأخباره  
الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٣٨٣ وما  
بعدها ٨/١٨٤ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر

ألا قاتل الله الهوى كيف أخلقا فلم تُلْفه إلا مَشوباً ممدقاً<sup>(١)</sup>  
وما من حبيبٍ يستزير حبيبه يعاتبه في الودِّ إلا تفرقاً  
لقد سنَّ هذا الحبَّ من كان قبلنا وقاد الصِّبا المرءَ الكريمَ فأعنقنا<sup>(٢)</sup>

وكان يمضى في التغنى بهذا الغزل لا ينجل ولا يستحي من الجموح فيه ،  
إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه في تتبعه للنساء المتروجات  
يتغزل بهن ، كما نراه في ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً  
فإننا نرى هذا العنف في هجائه لمحمد بن هشام الخزومي ، إذ أخذ يتغزل بزوجه  
جبيرة الخزومية وأمه جيداء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجى علىَّ فسلمى جبرُّ فِيمَ الصُّدودُ وَأَنْتُمْ سَفَرُ  
وقوله :

عوجى علينا ربَّةَ الهودجِ إنك إن لا تفعلى تخرجى  
أيسرُ ما نال محبُّ لدى بَيْنَ حبيبٍ قوله عرَّج  
نفض إليكم حاجةً أو نقل هل لى مما بى من مخرج

فلما ولى محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البلس وحبسه ،  
وظل في سجنه تسع سنوات إلى أن مات ، وله أشعار كثيرة بأسى فيها على ما صار  
إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أضاعونى وأىّ فتى أضاعوا ليوم كريمةٍ وسداد ثغر<sup>(٣)</sup>  
ومما يستجاد له قوله :

ارجع إلى خلقتك المعروف ديدنه إن التخلت يأتى دونه الخلق  
ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصَّ للعرجى من محمد بن هشام الخزومي حين  
صارت الخلافة إليه ، إذ لم يرعَ حرمة قرشيته ونسبه في بنى أمية .

بيدانه .

(١) أخلق : بلى . مذكاً : مشوباً ومخلوطاً .

(٢) أعنق : ما يسد به الخلل . وسداد

(٣) سارسيراً منبسطاً ، يريد أن

الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

الصبا إذا قاد المرء الكريم أنقاد له وجرى في

## شعراء الغزل العذرى

الغزل العذرى غزل نقي طاهر ممعن فى النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بنى عذرة إحدى قبائل قضاة التى كانت تنزل فى وادى القرى شمالى الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنى به ونظمه ، ويروى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العذرى صاحب عفرأء : أصحيح ما يروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابته : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العذرى لهذا العصر عند عذرة وحدها ، فقد شاع فى بوادى نجد والحجاز ، وخاصة بين بنى عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك فى أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذى طهر النفوس ، وبرأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة فى مكة والمدينة ولا ما يطوى فيها من هو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرّ بنا عند الأحوص والعرجى ، وهى من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضرى المترف ولا الحب الذى تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتديتها بالإسلام الخفيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللوين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامى الذى يصلّى الحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفى كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وطمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا يبنى يتغنى بمعشوقته ، متدللاً متضرعاً متوسلاً ، هبى ملاكه السماوى ، وكأنها فعلا وراء السحب ، وهو لا يزال يناجها مناجاة شجية ، يصور فيها وجده الذى ليس بعده وجده وعذابه الذى لا يشبهه

عذاب . وتغضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها في يقظته ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلاً أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرق إليه السلوان ، حتى ليظل يُغشى عليه ، بل حتى لِيُسجَنُ أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسذاجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدنين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، تحيلوا لسامعهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعرَف في جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جنابة عظيمة ، ولو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعفين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرّم القرآن الكريم والحديث النبوي قتل النفس بغير حق . ولا شك في أن هذا كله قصص لفق الرواة كى يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طوى فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التي احتلت في الجزء الثاني من كتاب الأغاني تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القرية وإنما وصفهما الرواة » ، ويقول ابن الكلبي : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه قتي من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التي يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقياً ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذريح ، يقول أبو الفرج في ترجمته لمجنون بنى عامر نقلاً عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل في ليلى إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح . وقد تُفصَح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينص على ذلك القدماء ، وخير ما يمثل ذلك قصة (١) وضَّاح اليمين التي تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه في صندوق ، وعرف ذلك زوجها ، فحضر برأ عميقة ، رماه فيها ، وهيل عليه التراب وسويت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا في هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرق إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وجد هذا الغزل العذرى في العصر الأموي بنجد وبوادي الحجاز ، وكثر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لوناً شعبياً عاماً ، ولعل شعبيتها هي التي أكثرت من القصص حولها ، كما أبهت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالاً ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التي وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فلنهم أضافوها - كما لاحظ الجاحظ - إلى قيس ابن ذَرِيح .

ومن الأشخاص الحقيقية في هذا الغزل عُرْوَة بن حزام العُدْرَى وصاحبته عَمْرَاء ، وقد ترجم له صاحب (٢) الأغاني وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإني لتَعْرُونِي لذكراك رِغْدَةٌ لها بين جلدي والعظام دَبِيبُ  
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصِّبَا وما أعقبتهما في الرياح جَنُوبُ  
ومهم الصَّمَّة (٣) القُشَيْرِي ، وكان من فتيان بني عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رِيَاء ، وخطبها من أبيها فأثر عليه شاباً موسراً ، فزاد

الشعر والشعراء ٢/٦٠٤ وذيول الأملال ص ١٥٧ والخزاة ١/٥٣٣ .  
(٣) ترجمته في الأغاني (طبع دار الكتب) ٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته العينية في الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

(١) انظرها بترجمته في الأغاني (طبع دار الكتب) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥ وحديث الأربعاء ١/٢٩٣ .  
(٢) أغاني (ساسي) ١٥٢/٢٠ وانظر

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها ، ثم رأى أن يغزو في طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكرها لانفارقه حتى قتل في غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله في عينية له بديعة :

وأذكر أَيَّامَ الحِمَى ثم أنثى على كَيْدِي من خَشِيَّةٍ أَن تصدَّعا  
ومنهم كثيرٌ عزَّةٌ ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له في شعراء  
الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن  
ابن أبي عمَّار الجُشَمِي وعروة بن أذينة وخبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان  
عبد<sup>(١)</sup> الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقسّ لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً  
إلى سَلَامَةَ ، فشغف بها ، وشاع ذلك ؛ فلقيها الناس بلقبه وسموها سلامة  
القسّ ، وفيها يقول :

سَلَامٌ هل لي منكم ناصرٌ أم هل لقلبي عنكم زاجرٌ  
قد سمع الناسُ بوجدي بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ  
وكان عروة<sup>(٢)</sup> من فقهاء المدينة ومحدثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقّع شعره  
ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى في غزله ، فهو ألحان  
وأنغام على شاكلة قوله :

إن التي زعمتُ فوادك ملها جعلتُ هواك كما جعلتَ هوى لها  
فبك الذي زعمتُ بها وكلا كما يُبدي لصاحبه الصَّابَةَ كلها  
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها بلباقه فأدقها وأجلها  
منعتُ تحيَّتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها

أما ابن<sup>(٣)</sup> عثبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدِّمين في المدينة الذين حُمل  
عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر في حبه لسلامة الأغاني (طبع دار

الكتب) ٨/٣٣٤ وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمته الأغاني (طبعة ساسي)

١٠٥/٢١ والشعر والشعراء ٥٦٠/٢ والموشح

ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

الكتب) ٨/١٣٩ وما بعدها وصفة الصفة

٥٧/٢ وتهذيب التهذيب ونكت الميمان ١٩٧ .

غزل كثير في زوجته عثمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمري لئن شطت بعثمة دارها لقد كدت من وشك الفراق أليح<sup>(١)</sup>  
أروح بهم ثم أغدو بمثله ويحسب أني في الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا في هذا الحب العذري بكاء المعشوقات لمن حرموا منهن، وماتوا على حبهن، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليل<sup>(٢)</sup> الأخبيلية الخفاجية العامرية، وكان قد تعلق بها من قومها في شاعر شجاع يسمى توبة ابن الحمير، وشغف بها شغفاً، والتاع قلبه، وهام بها هياماً شديداً، حتى ليقول :

ولو أن ليل الأخبيلية سلمت علي ودوني تربة وصفائح  
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح<sup>(٣)</sup>

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل في بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته ليل بقصائد كثيرة تصور ما أوقده في فؤادها من جذوة الحب، من مثل قولها :

أيا عين بكى توبة بن حمير بسح كفيض الجدول المتفجر  
لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شون العبرة المتحدر

وقولها :

وآليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فنن رزقاء أو طار طائر  
وكل شباب أو جديد إلى بلي وكل امرئ يوماً إلى الله صائر

٢٠٤/١١ وما بعدها والشعر والشعراء ١٦٦/١

والأمالى للقالى ٨٦/١ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر في ليل الأخبيلية وأخبارها مع

توبة ترجمتها في الأغاني (طبع دار الكتب)

ويقال إنها ماتت في إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جنبه . وتقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذريح عاشق لُبْنَى وجميل عاشق بثينة .

### قيس<sup>(١)</sup> بن ذريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن في ضواحي المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن علي ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هي كل حياته . وهي قصة محبوبكة الأطراف ، إذ يُروى أنه مر في رحلته بديار لُبْنَى الخزاعية ، فرآها ، وقعت في قلبه ووقع في قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن علي ، فتوسط له عند أبيه وأبى لُبْنَى ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرزقا الولد ، وداخلت أم قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأعزت إلى أبيه أن يغيره بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلحِجَان عليه بعد شفائه من علته أن يفارقها وصدع لمشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قبل أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعَى غُرَاب قبل رحيلها ، فتشام تشاؤماً شديداً ، ونظم في نعيه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ ببَيْنِ لُبْنَى      فطار القلبُ من حذر الغرابِ  
وقال : غداً تباعدُ دارُ لُبْنَى      وتناى بعد وُدِّ واقترابِ  
فقلت: تعستَ ويحك من غُرَاب      وكان الدهرَ سعيك في تَبَابِ

ورحلت لُبْنَى ، فاضطربت جذوة الحب في نفس قيس اضطراباً ، ووجد بلبْنَى وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

٦١٠/٢ وأمالى القالى ٣١٨/٢ وراجع الموشح  
ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ٢٥٦/١ .

(١) انظر في قصة قيس الأغاني (طبع دار  
الكتب) ١٨٠/٩ وما بعدها والشعر والشعراء.



مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول في غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلني بلُبنِي      بلاء ما أسيغ به الشرابا  
إذا نادى المنادى باسم لُبنِي      عييتُ فما أطبق له جوابا

وقوله :

ولاني لأهوى النومَ في غير حِينِه      لعل لقاءَ في المنام يكونُ  
تحدثني الأحلامُ أني أراكمُ      فياليت أحلام المنام يقين  
وكانت لبني تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنا لها عيش ، وتبكي مصبرها  
ومصيره . ويُرَوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس  
في غراب البين ، وأخذت تتنف ريشها وهي تصيح بأشعار مختلفة من مثل  
قولها :

ألا يا غرابَ البين لونك شاحبُ      وأنت بلوعات الفراق جديرُ  
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصِرِ      كما ليس لي من ظالمي نصير  
ولما أضنى الحب قيساً رقاً له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار  
لبني لعله يحظى برؤيتها ، فمضى معهم وهو ينشد :

لقد عذبتي يا حبَّ ليلى      فقنعَ إما بموتٍ أو حياةٍ  
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ      تدوم على التباعد والشَّتاتِ  
ووقعت عينه عليها ، فخر مغشياً عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق  
من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحجج ورآها هناك ، فعادوه  
فُتُونَه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت  
تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلقُ روحى روحها قبل خلقنا      ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهدِ  
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا      وليس إذا متنا بمنصرم العهدِ  
ولكنه باقٍ على كل حادث      وزائرنا في ظلمة التبر واللحدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبتَه .  
 وتمضى القصة فترعم أنه رأى في بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها  
 مخايل صاحبتَه ، فتروجها ، ولكن حنينه إلى صاحبتَه الأولى عاوده ، وكأنما لم  
 يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وترعم القصة أيضاً أن أباها شكاه  
 إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرَّض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ،  
 ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنى له ؟ لقد أمضه الغرام ،  
 ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ،  
 وبكى أحراً بكاءً منشداً :

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها      حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ  
 فإن نسيمَ الجوّ يجمع بيننا      ونُبصرَ قرَنَ الشمسِ حين تزول  
 وأرواحنا بالليل في الحَيِّ تلتقى      ونعلم أنا بالنهار نَقِيلُ<sup>(١)</sup>  
 وتجمعنا الأرضُ القَرَارُ وفوقنا      سماءُ نرى فيها النجومَ تجول

واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته  
 تمنع في القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى      ومن حُرْقٍ تعتادنى وزفيرِ  
 ومن ألمِّ للحب في باطن الحشما      وليلٍ طويل الحزن غير قصيرِ  
 وقوله :

وبين الحشما والنحر منى حرارةً      ولوعةٌ وجَدٍ تترك القلبَ ساهيا  
 تمرُّ الليالي والشهور ولا أرى      ولوعى بها يزداد إلا تهاديا  
 وقوله :

ألا لبت أياماً مَصِينِ تعودُ      فإن عُدُن يوماً إننى لسعيدُ

(١) نقيل : من القيلولة وهي نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبه ، حتى رأى رضيعه الحسين بن علي ونفر من قريش تعمقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبي في شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئهم راضياً ، فعادت لبي إلى قرّة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلاً إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنبها .

### جميل<sup>(١)</sup> بن معمر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ في منازل عُدرة بوادي القُرى ، وأخذ يَختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقي ابن أبي ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببني أمية كثيراً ، ففي أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثير عزة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفي أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدبة بن الحشم تلميذ الحطيئة ، ونعرف أن الحطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التي كانت تُعنى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الخزيم الكنانى .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما عُنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهي أشعار يُمضى جمهورها في التغنى ببشينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحاباً صغيرين ، ولم تلبث أن أهتمته الشعر ، إذ أحبها حباً انتهى به إلى الهيام بها ، وعرفت ذلك فنحتته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقى به حين شباً في غفلات من قومهما ، وحنى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيسقوا عليها الحناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقي برىء ،

وحديث الأربعماء ١/٢٤٩ ، ٢٨٧ . وطبع ديوانه بشير يموت في بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر في بعض قصائده الأملال ٨٧/٢ ، ٣٠٣ .

(١) انظر في جميل وأخباره وأشعاره الأغاني (طبع دار الكتب) ٨/٩٠ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ١/٤٠٠ وما بعدها والخزانة ١/١٩٠ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٩٥

وأخذت الألسنة في الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ، فهجرتة ، واحتجبت  
من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإني لأرضى من بُشِينَةٍ بالذى لو أبصره الواشى لقرت بِلابلهُ (١)  
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آملهُ  
وبالنظرة العجلى وبالحوّل تنقضى وأواخرهُ لا نلتقى وأوائله  
وكانت تلمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتشرق الدنيا في عينه ،  
ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردّه ، لكراهة العرب أن يزوجوا  
فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من قو في  
القبيلة يسمى نُبيهاً ، فتسودُّ الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح  
حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ،  
يقول :

ولو تركت عقلي معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى  
خليلى فبما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلى  
فلا تقتليني يا بُشِينُ فلم أصب من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى  
ويقول :

لها في سواد القلب بالحب ميعّة هي الموت أو كادت على الموت تُشرفُ (٢)  
وما ذكرتك النفس يا بشن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلفُ  
وإلا اعترتني زفرة واستكانة وجاد لها سجّل من الدمع يذرفُ (٣)  
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلّة أسرُّ به إلا حديثك أطرفُ  
ويعضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتنبه في بعض الأحيان  
أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

(١) البلابل : الوسواس . قرّت : سكنت .

(٢) يقصد بالميعة حرارة الحب وقوته .

(٣) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملاً من الجهد في عشقها ما يطيق  
وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبرته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكراها  
لا تبرح مخيلته : بل تعيش في قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات  
يُودِعها عبادته على شاكلة قوله .

ألا ليت شعري هل أبيننَّ ليلةً      بوادى القرى إني إذن لسعيد  
وهل ألقين فرداً بثينة مرة      تجود لنا من ودّها ونجود  
علقت الهوى منها وليداً فلم يزل      إلى اليوم ينمى حبّها ويزيد  
وأفنت عمري في انتظر نوالها      وأبليت فيها الدهر وهو جديد  
إذا قلت ما بي يابثينة قاتلي      من الحبّ قالت ثابتٌ ويزيد  
وإن قلت رُدّي بعضَ عقلي أعش به      مع الناس قالت ذاك منك بعيد  
فلا أنا مردودٌ بما جئت طالباً      ولا حبّها فيما يبيد يبيد  
موت الهوى مني إذا ما لقيتها      ويحياً إذا فارقتها فيعود

وشعرٌ جميل كله في بثينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة  
العاطفة . وقد ظلت بثينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر في ولاية  
عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن  
لحقت به

### شعراء الزهد

تردد في القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها  
الزائل ، وهي دعوة تحبل في تضاعيفها الحث على التتموى والعمل الصالح ،  
فالمسلم الحق من عاش للأخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ  
محدود ، حظ يقيم أودنه ، ويعبده للكفاح في سبيل الله ، ومن ثم كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : ( وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ) وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، وروى أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله دلّنى على عمل إذا عملته أحببته الله وأحبنى الناس ، فقال : « ازهدْ في الدنيا يحبك الله وزهد فيما عند الناس يحبك الناس <sup>(١)</sup> » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة <sup>(٢)</sup> المسجد منزلاً لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمُترين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثير من أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفى ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس <sup>(٣)</sup> .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضياع وشيدوا القصور ، وهم فى ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم فى كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت فى كل بلد أقاليم فيها جماعات القراء الأتقياء : بالإضافة إلى من كان منهم يعيش فى مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النسك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر فى ذلك ، وكأنّ قوماً انصرفوا عن الفنّ ، خشية على أنفسهم من التورط فى الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثير من ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم ودنياهم ، ومضوا يتعبّدون ، وكان الخوارج فى

(٣) انظر فى ذلك كتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٦١ وما بعدها .

(١) انظر فى هذا الحديث رقم ٣١ فى الأربعين النووية والبيان والتبيين ٣ / ١٦٦ .

(٢) الصفة : وضع مظلل من المسجد .

جمالهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلّت في اجتهادها وما زعمته من كفر  
الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تفضل يوماً في تقواها .  
لذلك كله عمّت في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في الدنيا ونعيمها  
المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل في تنايا هذا الزهد  
تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل في الإسلام من الموالى  
والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه  
وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهاال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق .  
وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس  
وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم . زهى لذلك مانى تحذيرهم  
— مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله في خلقه السموات والأرض ، وعن  
الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ  
وهو في وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى وكأنه يشاهدها بين عينيه ،  
ويحض حضاً قوياً على الزهد في الدنيا وحطّامها . وكان هو وغيره من الوعاظ  
لا يزالون يستشهدون في وعظهم بأشعار لسييد والنايعة الجعدي وغيرهما تلك التي  
تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة  
تلك التي تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون  
إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته  
الروحية في الشعراء ، كما مرّت بنا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار  
زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبي النجم  
العجلى والعجاج يبدؤون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول  
الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية  
وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته (١) :

يأربُّ قد أشرفتُ نفسى وقد علمتُ      علماً يقيناً لقد أحصيت آثارى  
يا مخرج الروح من جسمى إذا احتضرتُ      وفارج الكرب زحزخى عن النار

(١) ديوان ذى الرمة ( طبعة كبريدج )

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا في أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام .  
 وأول من نقف عنده عروة بن أذينة فقيه المدينة الذي رُويت له - كما أسلفنا - مقطوعات في الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد في هذا العصر ، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة في أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبيع من مبالغة بعضهم في هذا المبدأ أن رأوا في السعي والكد نقصاً في التوكل والثقة بربهم . ولا شك في أن هذا المبدأ يفضي إلى طمانينة نفسية قوية ، كما يفضي إلى طرح الدنيا طرحاً تاماً ، وفي تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقٍ      أن الذي هو رزقي سوف يأتيني  
 أسعى له فيعنيني تطلُّبُهُ      ولو قعدتُ أتاني لا يعنيني  
 خيمي كريمٌ ونفسي لا تحدثنِي      إن الإله بلا رزق يخائني

ومن اشهروا بكثرة أشعارهم في الزهد عبد الله بن عبد الأعلى ، ويظهر أنه كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام ، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونونه في دينه ، ويقولون إنه كان سبيء العقيدة<sup>(١)</sup> ، وهو من أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيْحَ هذِي الأَرْضُ ما تصنع      أكلٌ حَتَّى فوقها تَصْرَعُ  
 تَزْرَعُهُمْ حَتَّى إذا ما أتوا      عادتْ لهم تحصد ما تزرع  
 وقوله :

مَنْ كان حين تُصِيبُ الشمسُ جَبْهَتَهُ      أو الغبارُ يخافُ الشَّيْنِ والشَّعْثَا  
 ويألفُ الظِّلَّ كى تَبْقَى بشاشته      فسوف يسكن يوماً راغماً جَدَثَا<sup>(٢)</sup>

في تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضيء أصحابها بما جاء في الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ . (٢) الجلد : القبر .

وما بعدها وانظر أمالي القالي ٢/٣٢٣ .



الدعوة مسكين<sup>(١)</sup> الدارمي القائل :

وُسِّمْتُ مُسْكِينًا وَكَانَتْ لِحَاجَةٍ وَإِنِّي لِمُسْكِينٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ  
ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ،  
ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً  
أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . وما يتردد في كتب  
الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قد رله ، وأن الله لا بد أن يكشف  
غمته :

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَأَكْرَهَهُ إِلَّا سَيَجْعَلُ لِي مِنْ بَعْدِهِ فَرْجًا  
ومن مستحسن شعره قوله :

وَلَسْتُ إِذَا مَا سَرَّنِي الدَّهْرَ ضَاحِكًا وَلَا خَاشِعًا مَا عَشْتُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ  
أَعِفُّ لَدَى عُسْرِي وَأُبْدِي تَجَمُّلاً وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَعِفُّ لَدَى العُسْرِ  
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْسِرًا صَدِيقِي وَإِخْوَانِي بَأَن يَعْلَمُوا فَقْرِي  
وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْلَمُ مَكَانَ صَدِيقِهِ وَمَنْ يَغْنَى لَا يَعْدَمُ بِلَاءَ مِنَ الدَّهْرِ  
وهو القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بغير سلاح  
وله أشعار طريفة في الغيرة<sup>(٢)</sup> وأن على الزوج أن لا يبالي في آتاهم زوجته ،  
حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبية  
القبلية في فخره بخصاله ؛ وقد مر بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه  
في ذلك من شعر . وهو في الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ،  
إنما كان متأثراً متأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها في إشارات  
بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري .

المرتضى ٤٧٢/١ وابن عساكر ٣٠٠/٥ .

(٢) أمالي المرتضى ٤٧٥/١ وما بعدها .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (ساسي)

٦٨/١٨ والشعر والشعراء ٥٢٩/١ ، والخزانة

١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١٢٦/١١ وأمال

## أبو الأسود الدؤلي (١)

اسمه ظالم بن عمرو من بني كنانة ، ولى قضاء البصرة في ولاية عبد الله بن عباس عليها لعل بن أبي طالب ، ولما خرج على أبي العراق لزمه في حروبه ، ودخل بعد وفاته فيها دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشييعه لآل البيت . وهو أول من وضع النقط في المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدُّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم . وله مدائح وأهاج في معاصريه وأشعار في أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلاً شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقياً صالحاً ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبت من الحوائج حاجةً فادعُ الإله وأحسن الأعمالا  
فليعطيك ما أراد بقُدرةٍ فهو اللطيف لما أراد فعلا  
ودع العباد ولا تكن بطلابهم لهجاً تضععُ للعباد سؤالا<sup>(٢)</sup>  
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوال  
وهو في زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعي في الدنيا والمشى في  
مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألقِ دُلوك في الدلاء  
تجثك بملشها يوماً ويوماً تجثك بحمأةٍ وقليل ماء<sup>(٣)</sup>  
ولا تقعد على كسلٍ تمنى تحيل على المقادر والقضاء

على أنباء النحاة ١٣/١ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٠٤/٧ ومعجم الشعراء المرزباني ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيلي ببغداد .

(٢) تضعع : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

(١) انظر في ترجمته الأغاني ( طبع دار الكتب ) ٢٩٧/١٢ والشعر والشعراء ٧٠٧/٢ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٧٠ وأسد الغابة ٦٩/٣ والإصابة ٣٠٤/٣ والخزائن ١٣٦/١ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزري ٣٤٥/١ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباء الرواة

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الربط بين العلم الديني والعمل ، فالعلم  
 إن لم يُقَرَّن بالعمل لم يكن علماً ، بل كان هواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد  
 ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بموفٍ بميثاقٍ عليه ولا عهدٍ  
 ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر  
 الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرءُ مالا ثم يُحرِّمهُ عمَّا قليلٍ فيلقى الذلَّ والحرباً<sup>(١)</sup>  
 وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذرُ منه الفؤتَ والسلبا  
 وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول  
 الأول هو الصحيح .

### سابق<sup>(٢)</sup> البربري

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان  
 قاضي الرِّقَّة بالموصل وإمام مسجدها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز  
 يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف  
 والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون  
 بلحم المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى نلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنٌ  
 وتجمعُ ما لاتأكل الدهرُ دائباً كأنك في الدنيا لغيرك خازنٌ  
 ويقول :

أموائنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نَبنيها  
 والنفس تكلفُ بالدنيا وقد علمتُ أن السلامةَ منها ترك ما فيها

٢٨/٦ والخزاة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين

٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٣ .

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر في سابق تاريخ ابن عساکر

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغي لكل إنسان أن يعدَّ العُدَّةَ للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحاً ، ومن قوله في ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زایلَ روحه      خوى وجمالُ البيتِ يانفسُ آهلهُ  
وقد كان فيه الروح حيناً يزينه      وما الغمْدُ لولا نصلُّه وحمائله  
إذا الأرضُ خفَّتْ بعد ثقلِ جبالها      وخلقى سبيلَ البحرِيا نفسُ ساحلهُ  
فلا يرتجى عوناً على حملِ وزره      مُسِيءٌ وأولى الناس بالوزرِ حامله

وزناه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا معنء، عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك في أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء ما لا تستطيعان دفعه      فلا تجزعا مما قضى الله واضبراً  
ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته :  
« لو أن شعر سابق البربرى كان مفزقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات . . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع » .

## ٤

## شعراء اللهو والمجون

رأينا في غير هذا الموضوع كيف تحضر العرب في هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم أترفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والمجون ، وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد في العصر كان لها آثار عميقة في

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد في الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهاك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقرّفونها من مثل أبي محجن الثقفي ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة وإلى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبي محجن في عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضي في عصر بني أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملت من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أترفتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا في الفتوح واستقروا في البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع في الاستمتاع بالحياة ، وبالغ نفر في هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا في العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة في البيئات البعيدة التي رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيئة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها – هو قتيبة بن مسلم – اضطرّ حين وجد تفشي الخمر في جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر في كل البيئات ، فنحن نجدتها في مكة<sup>(١)</sup> والمدينة<sup>(٢)</sup> حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين نهلوا من كثوسها في هذه البيئية لعهد معاوية بن أَرْطاة<sup>(٣)</sup> ، وعبثا حاول مروان بن الحكم إلى المدينة أن يردّه عنها ، وفيها يقول :

إِنَّا لَنَشْرِبُهَا حَتَّى تَمِيلَ بِنَا كَمَا تَمِيلُ وَسَنَانُ بَوَسْنَانَ  
ومنهم عبد الرحمن بن الحكم<sup>(٤)</sup> الذي كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ،  
وفيها يقول :

(١) انظر كتابنا الشعر الغنائي في مكة ص ٥٠ وما بعدها .  
(٢) انظر كتابنا الشعر الغنائي في المدينة ص ٤٩ وما بعدها .  
(٣) راجع في ابن أَرْطاة الأغاني (طبع دار  
الكتب) ٢/٢٤٢ وما بعدها .  
(٤) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ٢٥٩/١٣ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٣/٣٤٨ .

تري شاربيها حين يعتورانها يميلان أحياناً ويعتدلان  
ومن كانوا يحتسونها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميادة<sup>(١)</sup> مادح الوليد  
ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضري الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتق حُرْمِ الوَقُودِ كرامَةً كدم الذَّبِيحِ تمجُّهُ أَوْ دَاجُهُ<sup>(٢)</sup>  
ضمنَ الكرومُ له أوائلَ حَمَلِهِ وعلى الدُّنَانِ تمامُهُ ونتاجه<sup>(٣)</sup>  
ومثله ابن هرمة<sup>(٤)</sup> ، وكان مشغوقاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أَسْأَلُ اللهَ سَكْرَةً قَبْلَ مَوْتِي وَصِيَاحَ الصَّبِيَانِ يَا سَكْرَانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر في غير  
حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حملتهم من الخطوب باعثاً لهم  
على المجون ، حتى ينسوا به عناءهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرة  
لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَّيم<sup>(٥)</sup> بن وثيل الرياحي التميمي ،  
وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرة لغالب  
أبي الفرزدق التي مرت بنا ، والتي مضى فيها ينافسه في نحر إبله لقومه ،  
ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حنّاء تراجمه وتكثر من  
مراجعته ، فقال :

تقول حنّاء ليس فيك سوى الـ خَمْرُ معيبٌ يعيبُهُ أَحَدٌ  
فقلت: أَخْطَأْتُ بِلِ مَعَارِقِي الـ خَمْرَ وَبَدَّلِي فِيهَا الَّذِي أَجْدُ

(٤) راجع في ترجمته أغاني (دار الكتب)  
٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزاعة  
٢٠٣/١ والموشع ص ٢٢٣ .

(٥) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩  
والإحصاء ١٦٤/٣ والخزاعة ١٢٣/١ والشعر  
والشعراء ٦٢٦/٢ .

(١) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)  
٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزاعة  
٧٦/١ والبيان والتبيين ٣/٣٤٤ .

(٢) المعتق : الشراب القديم . حرم الوقود : لم  
يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق  
في العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمله .

هو الثناء الذي سمعت به لا سبَدٌ مُخَلدِي ولا لَبَدٌ<sup>(١)</sup>  
ويحك لولا الخمور لم أحفيل الـ عيش ولا أن بضمني لحد<sup>(٢)</sup>  
هي الحيا والحياة واللَّهُو لا أنت ولا ثروة ولا ولد  
ويقف اسرادق الذُّهني هذا الموقف نفسه من ابنته . فيعلن أنه لن يكف  
عنها : إذ صارت له غده لا يستطيع الصبر عنه<sup>(٣)</sup> . ويلقانا في عهد زياد بن  
أبيه حارثة<sup>(٤)</sup> بن بدر أحد عماله وخلصائه ومدَّاحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله  
فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج في ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكف عنها ،  
مهما أكثر لاثموه ، على شاكلة قوله :

يعيب على الرَّاح من نو يدوقها لجنُّ بها حتى يغيب في القبر  
علام تدمُّ الرَّاح والرَّاح كاسمها تريح الفتى من همِّه آخر الدهر  
فلمَّني فإنَّ اللوم فيها يزيدني غراماً بها إن اللامة قد تُغري  
وكان يذهب مذهبه في الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفي  
وواليه على أصهبان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج في ترجمته<sup>(٥)</sup> . ولعل  
عراقياً لم يشهر بها كما اشهر الأقيشر<sup>(٦)</sup> الأسدي وكان كوفياً خليعاً ماجناً ،  
وفيها يقول :

أفنى تِلادِي وما جمعتُ من نَسبٍ قَرعُ القَوَاقيزِ أفوَاهَ الأَبَاريقِ<sup>(٧)</sup>  
ويقول :

كُمَيْتٌ إِذَا فُضِّتْ وَفِي الكَأْسِ وَرَدَةٌ  
(١) لا سبد ولا لبد : مثل أي لا قليل ولا كثير .

(٢) اللحد : شق اللبث في جانب القبر .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٧٠ .

(٤) انظر ترجمته في الأغاني (طبع الساسي)

١٣/٢١ وأمالى المرتضى ١/٣٨٠ وما بعدها

وراجع فهارس الكامل المبرد والبيان والتبيين

والطبرى .

(٥) انظر ترجمته في الأغاني ( ساسي )

٤٠/١٦ والخزانة ٢/٤٨٥ ومعجم الشعراء

لها في عظام السارين دبيب  
ص ٢٦٦ والموشح ٢٢٠ والشعر والشعراء  
٧٥٦/٢

(٦) انظر في ترجمة الأقيشر أغاني (دار الكتب)

٢٥١/١١ والشعر والشعراء ٥٤١/٢ ومعجم

الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢/٢٧٩ والموشح

ص ٢٢١ .

(٧) التلاد : المال القديم . النشب : العقار

والضباع . القواقيز : الكنوس وأواني الخمر التي

تُشرب فيها .

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم في الشرق دافعا لهم إلى الإمعان في المحون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربية وعناء الحروب . ويروى البلاذري أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا في جيش الحجاج الذي وجهه إلى الديلم ، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم : فدفنه صاحبه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكيا . ومات الثاني فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء<sup>(١)</sup> . ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّمرْدَل<sup>(٢)</sup> بن شَرِيك ، وكان قد خرج للغزو في تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يغرق فيها حزنه . ومنهم أبو جَلْدَةَ اليشكري الذي سبق أن عرضنا له في شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدْمِنُها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال<sup>(٣)</sup> :

سَأرْكُضُ فِي التَّقْوَى فِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكَضْتُ إِلَى أَمْرِ الْعَوِيِّ الْمَشْهُرِّ

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المحون في خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرَدَ وَيحْيَى بن زياد ، وهم جميعاً ممن عاشوا في الدولتين الأموية والعباسية ، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسي منهم بالعصر الأموي ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا في قوة إلى تهالك الناس على المحون في الكوفة في أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هياً لهذا الانحلال الخلقى على الأقل عند بعض الأفراد في هذا العصر أن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذي أكبَّ على الخمر والمجون لإكباباً ، كما أكبَّ على نظم الخمريات وهو وأبو الهندي شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

٦٨٥ / ٢ الشعراء والشعر وما بعدها ٣٥١ / ١٣

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٣) أغاني (دار الكتب) ١١ / ٣٣٠ .

(٢) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب)



الوليد<sup>(١)</sup> بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك في سنة ٨٨ الهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترّف ، بل على اللهو والحجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمير والغناء ، حتى في خلافته ، إذ كان يستقدم مغنيّ مكة والمدينة ومغنياتهما ، واشترى سلامة القس وحبّابة ، وانصرف عن شؤون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصّف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف في الحجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذي خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفّي سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوّل قصره ببادية شرق الأردن مقصفاً كبيراً للخمير والعزف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً في مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبّ من كتوس الحجون عبّاً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقف بن عمه يزيد بن الوليد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ توازره اليمانية ثاراً لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، وما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمير والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقنص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل في نفس الجلو الماجن ، الذي كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرق الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا في غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما في ولايته الخراسانية من الخليل والبراذين الفارهة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتمائيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

٣١٨ وحديث الأربعاء ١/١٦٩ وقد نشر ديوانه في مطبوعات المجمع العلمي "ربيع دمشق".

(١) انظر في ترجمة الوليد أغاني (دار الكتب)

١/٧ وما بعدها والطبري في سنتي ١٢٥ و١٢٦

وكتابتنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأنبياء .

وينبغي أن لا مضي مع الرواة في كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانوياً زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً<sup>(١)</sup> ، وفي الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان<sup>(٢)</sup> . وفي الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ في وصفه بالهجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه في التشنيع على خلفاء بني أمية . وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرّم الله ومن شرب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التي لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره في الخمر ، وله أشعار في الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الحد في الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقّف كل ما نُظّم فيها قديماً ، وخاصة عند عاصم<sup>(٣)</sup> بن زيد العبادي ، وقد مضى ينمّيه ويصيف إليه من مواهبه وساعره وملكاته ما أتاح لفنّ الخمريات أن تأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها كما كان الشأن عند عدي وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنظّم في مقطوعات ، ها وحدتها الموضوعية والمعنوية . تنبض بالحياة وتخفق بالحدل والسرور ، لسبب طبيعي ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها في غمرة عشقه ، وتأنما تفجّر له ينابيع الفرح تفجيراً . وقرأ له هذه الخمرية :

أصدغ نَجِيَّ الهموم بالطرب	وانعم على الدهر سائبة العنب
واستقبل المش في غضارته	لا ثقُ منه آثاراً مُعتقبي
من قهوة زانها تقادّمها	فهى عجزو تعلقو على الحقب

(١) راجع الأغاني ٧/٤٠ وما بعدها ، ٧٢/٧ .

(٢) انظر الأغاني ٧/٦٥ .

(٣) انظر الطبري ٥٠٥١ .

أشهى إلى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب  
فقد تجلّت ورقّ جوهرها حتى تبدّت في منظرٍ عجب  
كانها في زجاجها قبسٌ تذكو ضياءً في عينٍ مُرتقبٍ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب  
المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرّة .  
واقراً أيضاً هذه الحمريّة :

علّاني واسقياني من شرابٍ أصبهاى  
من شراب الشيخ كسرى أو شراب القيروان  
إن فى الكأسِ لِمسكا أو بكفى من سقانى  
أو لقد غودِرَ فيها حين صُبّت فى الدنانِ  
كلّاني توجّاني وبشعري غنياني  
إنما الكأسُ ربيعٌ يُتعاطى بالبَنانِ  
وحُمياً الكأسُ دبّت بين رجلِ ولساني

وهى تجرى أيضاً فى نطاق الفرحة العميقة بالحر ، بل لعلها أقوى  
من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعها ، وهو يتلظى  
بنشوتها التى تسرى فى جسده من فترّعه إلى قدمه . وهو بحق يُعدُّ رائد العباسيين  
من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً  
فقال أبو الفرج : « وللوليد فى ذكر الحر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها  
الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه  
سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستم الحمريّة عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى  
يجعلها كاللهب المندلع فحسب ، فإنها استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم  
بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ،  
يحسن اللعب على أوتار العيذان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره<sup>(١)</sup> . ومن ثمَّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والحزوءة من مثل التهجيز والرمّال ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقي إلى اكتشاف وزن الحجتّ ، فكان أول من نظم فيه<sup>(٢)</sup> . وإذا صححت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم الجمعة - وهي موعظة<sup>(٣)</sup> طويلة - كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي .

#### أبو الهندي<sup>(٤)</sup>

هو غالب بن عبد القدوس بن شيبث بن ربيعة الرياحي التميمي . وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرة الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فرّبه نصر بن سيار واليهما للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنّتها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُتَرَفُّ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شيائها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لئزى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخليل وأبي هفان وطبقهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقة منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع والبة . إذ يقال إنه

(٤) انظر في ترجمته أغاني (ساسي) ١٧٧/٢١

والشعر والشعراء، ٢/٦٦٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

(١) الأغاني ٩/٢٧٤ و ٧/٣٢ ، ٤٤ .

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي

(طبع دار المعارف) ص ٥٩ .

(٣) الأغاني ٧/٥٧ .

شرب عند خمّار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشرّبوا وناموا  
وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرعون من الخمر ، فشرّب ،  
حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ،  
يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم في بعض شعره . إنه يعيش  
للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سقامها ودنانها وأباريقها وزقاقها مثل قوله :

يَمِجُّ سُلَافًا مِنْ زِقَاقِ كَأَنِّهَا      شَبِوْخُ بَنِي حَامٍ تَحَنَّتْ ظَهْرُهَا  
وقوله :

وَإِذَا صُبَّتْ لِشَرَبِ خَلْتِهَا      حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ  
وزناه يصف القيان اللأئي يسمعهن في أثناء شربها ، كما يصف من تصرعهم  
وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينة ، بل فرحته ومسرته  
حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره في قبره ، فلا تزيله حياً ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا - إن مت يوماً - كَفْنِي      وَرَقَ الكَرِّمِ وَقَبْرِي مَعْصِرَةَ  
وَادْفِنُونِي وَادْفِنُوا الرَّاحَ مَعِي      واجعلوا الأقداحَ حَوْلَ المَقْبِرَةِ  
وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في سكة الحسران إلى الأنفاس الأخيرة  
من حياته ، يَصْدَحُ بنجرياتة ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

٥

### شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير في نفسية  
الشاعر العربي ، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يَصْدُرُونَ عنها في أشعارهم ، فلم  
يركوا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا في حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم ، فهم  
يصورون فلواتها بكثبانها ورمالها وغدُرانها وغيشها وسيولها وخصبها وجدبها  
ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض  
مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموي - على سُنَّة آبائهم - يستلهمون صحراءهم ،  
مزاوجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً  
مطولاته بوصف أطلال الديار التي قضى بها شبابه مع بعض صواحيبه ،  
ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته  
في الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في وصفها لما لها  
من جمال في نفسه ، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو في  
ثنايا ذلك يحدِّثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه ويخلف أثرأ في ذهنه من  
طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة ،  
فإن الصحراء لم تجفَّ ينائيعها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول  
في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرِّزيهم من أمثال الفرزدق والأخطل  
وجرير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء  
ونُهيِّردُجَيْلٍ وما يجري فيه من سفن ، موازنة يُعلِّى فيها الطبيعة الأولى علواً  
كبيراً ، يقول (١) :

لَفْدَجٌ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهِمَا	أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ (٢)
وَرَاحِلَةٌ قَدْ عَوَّدُونِي رَكُوبَهَا	وَمَا كُنْتُ رَكَابًا لَهَا حِينَ تُرْحَلُ (٣)
قَوَائِمُهَا أَيْدِي الرِّجَالِ إِذَا انْتَحَتْ	وَتَحْمَلُ مَنْ فِيهَا قُعُودًا وَتُحْمَلُ (٤)
إِذَا مَا نَلَقْتَهَا الْأَوَادِي شَقَّهَا	لَهَا جُوجُوجٌ لَا يَسْتَرِيحُ وَكَلْكَلُ (٥)
إِذَا رَفَعُوا فِيهَا الشَّرَاعَ كَأَنَّهَا	قَلُوصُ نَعَامٍ أَوْ ظَلِيمٌ شَمْرَدَلُ (٦)

وواضح أنه يُؤثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة  
وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس في رحلات نهريَّة ممتعة . وهو يعبر بذلك

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٢٦ .  
(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة  
وحمي ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .  
(٣) ترحل : تهبأ للرحيل .  
(٤) القوائم هنا : الهاذيف بأيدي الملاحين .  
(٥) الأواذي : الأمواج . الجوجوز : بطن  
السفينة من أمام الكلكل : الصدر .  
(٦) قلووص النعام : طويلة القوائم ، الظليم :  
ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتِنُوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرِّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرِّجَّاز . أمثال رُوْبَة الذى يقول (١) :

إِن الرُّدافى وَالكَرِّىَّ الأَرْقَبَا      يكفيكِ دَرَّةَ الفَيْلِ حَتَّى تَرَكْبَا<sup>(٢)</sup>  
فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة في شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هي التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه في بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه في طريقه شتاءً من نثير الثلج ، يقول (٣) :

مستقبلين شمالَ الشام تَضْرِبُهُمْ      بحاصِبِ كَنْدِيفِ القُطْنِ مَنْشُورِ<sup>(٤)</sup>  
على عَمَائِمِنَا يُلْقَى ، وَأَرْحُلُنَا      على زواحفَ نَزْجِيهَا محاسيرِ<sup>(٥)</sup>

وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد في وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا في ديوانه قطعة صور فيها نُهَيَّرَاتٌ شَقَّهَا هاشم بن عبد الملك من نهر الفرات ، وخاصة نهر الهنيء ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهي تطَّرد على هذا النمط (٦) :

شَقَّقَتْ من الفُراتِ مَبَارِكَاتٍ      جَوَارِيَّ قَدْ بَلَغْنَ كما تَرِيدُ  
وَسَخَّرَتْ الجِبَالَ وَكُنَّ خُرْسَاءً      يَقْطَعُ فِي مَنَاكِبِهَا الحَدِيدُ

(٤) شمال الشام : ربيع شمالية . الحاصب :

ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج .

النديف : نثير الثلج والبرد .

(٥) نزجيتها : نسوقها وندفعها ، محاسير : كليلية .

(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ١٥٠ .

(١) الحيوان ٩٠/٧ .

(٢) الردافى : الحادى . الكرى : الذى

يكرى دابته ويؤجرها . والأرقب : غليظ الرقبة .

دره الفيل : دفعه وكفه .

(٣) للديوان ص ٢٦٢ .

بلغت من الهنيء فقلت شكرا  
 بها الزيتون في غللي ومالت  
 فتمت في الهنيء جنان دنيا  
 يعضون الأنامل أن رأوها  
 ومن أزواج فاكهة ونخل  
 يكون لحمله طلع نصيد<sup>(٤)</sup>  
 هناك ، وسهل الجبل الصلود<sup>(١)</sup>  
 عناقيد الكروم فهن سود<sup>(٢)</sup>  
 فقال الحاسدون هي الخلود  
 بساتينا يؤازرها الحصيد<sup>(٣)</sup>

وجرير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات في الجبال وتحطيم ما يعترض من  
 الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية في تلك البيئة وما حفا بها من  
 أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

.. فالشاعر الأموي مع استغراق مناظر الصحراء له لم يغمض عينيه عن مناظر  
 البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من  
 كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك في حديثنا عن  
 الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رؤبة  
 يصفه<sup>(٥)</sup> :

أجرّد كالحصن طويل النابيين مشرف اللحي صغير الفقمين<sup>(٦)</sup>  
 عليه أذنان كفضل الثوبين

واشتهر في هذا المجال هرون مولى الأزدي<sup>(٧)</sup> . فالطبيعة الجديدة المتحركة  
 والصامته أهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن يبيتهم الصحراوية  
 كانت ملهمهم الأول في هذا العصر .

(٤) الطلع : ثمر النخل في إبانته . نصيد : منتظم .

(٥) الحيوان ٧٩/٧ .

(٦) الفحيان : اللحيان .

(٧) الحيوان ٧/١١٤ وما بعدها .

(١) الصلود : اليابس .

(٢) الغل : الماء الجاري تحت الشجر على

وجه الأرض . الكروم : الأعتاب .

(٣) الحصيد : الزروع التي تحصد ثمارها

كالقمح .



## ذو الرِّمَّة (١)

هو غيَّيلان بن عقبة من بني عدى بن عبَّيد مناة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله في بعض شعره يصف الوتدَ : « أشعث باق رُمَّة التقليد » والرُّمَّة : القطعة البالية من الحَبَل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّبَ بذى الرمة لأنه كان - وهو غلام - يتفرَّع ، فأنت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له معاذة في جلد غليظ ، وعلَّقَها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمي ذا الرمة . وقيل إن مية التي شغفت قلبه حباً هي التي لُقِّبته بذلك حين ألمَّ بحبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لاتعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحرَاء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بني أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفي بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس . وقد ولد حوالي عام ٧٧ للهجرة . وتلقَّن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر في خلاف نشب بين قبيلته وعتية بن طَرثوث بسبب بئر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة في هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة : فلم يكرمهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً في اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرثئ ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمده به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان ينزل الكوفة والبصرة - ويطيل النزول فيهما - منذ مطلع القرن الثاني للهجرة مادحاً رجالاًهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى  
المرثضى ، وكتابتها « التطور والتجديد في الشعر  
الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارثي ديوانه  
في كبريدج سنة ١٩١٩

(١) انظر في ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥  
وما بعدها والشعر والشعراء ٥٠٦/١ وأغاني  
(ساسي) ١٠٦/١٦ وابن خلكان في غيلان  
والموشع للمرزباني ص ١٧٠ والخزانة ٥٠/١  
ومرآة الجنان لليافعي ٢٥٣/١ وفهارس الأغاني

لهلال بين أحوز المازني في انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقي منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق في سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزاري فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسري منذ سنة ١٠٥ رأيناه بمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام ، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البسّجلى ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبي بريدة الأشعري الذي ولي شئون الشرطة لخالد في البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولي منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفي الشاعر . وقد امتدت رحلاته في طلب النوال إلى دمشق وخاصة في عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومي ، ولما ولي فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا في بعض شعره حكيم بن عياش الكلبي الكوفي الذي كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة في شعر ذى الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالضلال ، ودائماً يذكر في رحلاته الصحراوية التيمم والقنصر في الصلاة وتلاوة آي الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعّاظ والمتكلمين في عصره ، حتى لراه يعتقد مذهب القدرية في العدل على الله جتل جلاله وفي حرية الإرادة ، ويناقش رؤية في ذلك ويعلو عليه في نقاشه<sup>(١)</sup> ، وما صدر فيه عن مذهبه قوله في الغزل :

وعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كَوْنًا فَكَانَتَا فَعَوْلَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرز بذلك من القول بخلاف العدل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويجمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاءً حاداً وأنه كان كترًا من كنوز الفطنة وذخايرها الدقيقة ، كما كان كترًا من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعي ، حتى قالوا إنه كان راويته

ولعله هو الذي ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى  
يتغناها إلى أن دُفن في أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف في المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق  
وجرير ، وكان الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبْقيا فيه بقية . ومُلْهَمته الأولى  
في الديوان مِية بنت طُلْبة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها في بعض رحلاته ، فشغفت  
قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها في كل مكان . وفي الديوان أخرى تسمى  
خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة  
أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ  
من مثل قوله :

وقفتُ على ربيعٍ لميةً ناقتي      فمازلتُ أبكي عنده وأخاطبه  
وأُسقيه حتى كاد مما أبثُهُ      تكلمني أحجارُهُ وملاعبه (١)

وقوله :

وحبُّها لى سوادِ الليل مرتعداً      كأنها النار تحبوثم تلتهب

وقوله :

أداراً بحزوى هجبت للعين عبرةً      فماء الهوى يرفض أو يترقرق (٢)

وقوله :

أجل عبرةً كادت لِعِرفان منزلِ      لمية لو لم تُسهلِ الماءَ تذبُّحُ

ولعل شاعراً عربياً لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً  
كان يظنُّ بها نيران الحب المندلعة في قلبه لمية ، وقد مضى يتعزى عنها بمحراها  
الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقاً  
كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها  
وليالها ورمالها وكتبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والرحشى

(١) أسقيه : أدعوه بالسقيا . يسيل . يترقرق : يسكن في العين جانلاً .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض :

وكل ما يُطْوَى فيها من آبارٍ وسامٍ وسرابٍ وطيرٍ ورياحٍ وكل ما يلمع في سماءها من كواكبٍ ونجومٍ وسحابٍ وغيومٍ .

وكأنما وجدَ ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره في لوحات رائعة ، وارجعُ إلى القصيدة الأولى في ديوانه التي يفتتحها بوصف دموعه التي تسيل دائماً ولا تفتُر ، إذ يقول :

ما بالُ عينك منها الماءُ يَنْسكبُ

كأنه من كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرَبُ (١)

فإنك ستراه ينخص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضى في نحو مائة بيتٍ يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التي كانت تهيج نفسه ، أولها مشهد أتن الوحش وجمارها ، وهو يقودها في يوم حارٍّ إلى ماء بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غلَّتْها ، فيتعرض لها صائد مخنف وراء الأشجار بسهامه ، فتفرُّ على وجهها ، وتطيش سهامه ، وداًئماً تطيش هذه السهام في شعر ذى الرمة حباً للحيوان . والمشهد الثاني مشهد ثور الوحش في كِناسه مكتنئاً من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل ووساوسه ، وتفتلت أضواء الصباح فيخرج من كِناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظلم وصاحبته يرعيان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهرُ الجو ، فيسرعان إليها خيفة أن يسقط عليها برَدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة في المشاهد الثلاثة يشبه الرسامين الذين يحشدون في لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يجسِّم صورة الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمالتها ومفازاتها وأعشاشها ونباتاتها وغُدْرانها ، وهو إلى ذلك يبتُّ في الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس . وقد صور في الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثِّل فيه البدوى وإحساسه بكرامته ، كما صور في الظلم وصاحبته عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة . ولعل هذه أهم خاصة تميِّز وصف الحيوان الوحشى عند ذى الرمة إذ يحمله

البالية التي لا تني ترسل الماء .

(١) الكلى : الرقع في عروة المزادة . مفريّة :

مقطوعة ، يشبه عينه التي يسيل دمعها برقع المزادة

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله في خيبة  
وابنبا أو خيشفها :

إذا استودعته صمغصفاً أو صريمَةً      تنحّت ونصّت جيدها بالمنظر<sup>(١)</sup>  
حذاراً على وسنان يضرعه الكرى      بكل مقيلٍ عن ضعافٍ فواتر<sup>(٢)</sup>  
وتهجره إلا اختلاساً نهارها      وكم من محبٍ رهبة العين هاجر  
حذار المنايا رهبةً أن يفتنّها      به وهى إلا ذاك أضعف ناصر<sup>(٣)</sup>

وواضح أنه صور محبة الطيبة لابنبا وكيف تخشى عليه السباع ، فهي  
تبعد عنه حتى لا تدلهاً عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب  
والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبث في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى في وصف  
الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتي بذلك في خمود  
الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان في النهار بالسراب . فإذا ذرى الجبال تتحرك  
كأنها خيل ظالعة أو إبل تُهدى للنحر عند البيت الحرام ، أولعلها سفن تجرى في  
الفرات ، أما إذا جنّه الليل فحسبه النجوم التي يرى فيها صورة بقر الوحش  
والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجرى في الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة  
من مثل قوله في وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأن بلادهن سماء ليل      تُكشّف عن كواكبها الغيوم  
وقوله في ظباء أخرى :

كأن أذمانها والشمس جانحة      وذع بأرجائها فض ومنظوم<sup>(٤)</sup>  
وقوله في وصف الإبل ورحلتها في الصحراء :

كأن مطايانا بكل مفازة      قراقير في صحراء دجلة تسبح<sup>(٥)</sup>

(١) الصمغصيف : الأرض المستوية . صريمة : (٣) يفتن . يسبقها .  
رملة . نصت : نصبت مستقيمة . (٤) الأذمان : الظباء ، فض : متفرق .  
(٢) الكرى : النوم . المقيل : وقت القيلولة . (٥) القراقير : السفن .

وفي الحق أن مخيلته كانت حاملة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة في رؤى غريبة، وهي رؤى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله:

وريحُ الخُزاي رَشها الطَّلُّ بعدما دَنَا الليلُ حتى مَسَّها بالقَوادمِ (١)

وقوله:

ألا طرقتِ مَيَّ هَيُوماً بذكرها وأيدي الثُّريَّا جُنحُ في المغاربِ (٢)

ومن صوره الطريفة صورته للحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاحقاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول:

إذا جعل الحرباء يَغْبِرُ لـرِونه ويخضرُ من لَفحِ الهجيرِ غَبَاغِبُهُ (٣)

ويشَبِّحُ بالكفَّينِ شَبِّحاً كأنه أخو فَعَجْرَةٍ عَالِي به الجِدْعِ صالِبِه (٤)

وعنى طويلاً بوصف همس الفلوات وما يُسْمَعُ في حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن، ونراه يشبها بتراطن الروم وتضراب الطبيل وصياح الضرائر وأصوات السم (٥). ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة في صوره، وهو عنصر جعله يقرون الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض، فنصبح وكأننا حقاً في عالم من عوالم الرؤى والأحلام.

## ٦

## الرُّجَّازُ

الرُّجَّازُ من البحور القديمة في الشعر العربي، فقد كان يُسْتَعْمَدُ بِكَثْرَةٍ في العصر الجاهلي، وهي كثرة تؤكد أنه كان الوزن الشعبي العام الذي يدور على

- (١) القوام: الريش الطويل في جناح الطائر.  
 (٢) الهيوم: ذاهب العقل، وأراد بأيدي الثريا أوائلها.  
 (٣) القباغ: الجلد أسفل الحنك،  
 (٤) يشيح: يمد يديه.  
 (٥) الحيوان ١٧٥/٦ وما بعدها، ٢٤٧، ٣٦٣.

كل لسان ، ومن ثمّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزحاف ، لا تلقانا في أي وزن آخر ، فكثُر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطُلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يحدون بغير حين يجولون في ميادين الحروب ، وحين يتناولون أي عمل كحَقْر بئر أو مَسْح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنظَّم بديهة وارتجالاً مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثمّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسراها ، وهيأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقرانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب <sup>(١)</sup> العجلى ، ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يقصر بعض الشعراء النابيين حياتهم على تجويده وتجيده ، وهم في ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثرها منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد .

وقد أخذت الأرجوزة - حين طالت - تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة في الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهي لا تختلف غالباً عنها في النظام وسرد الموضوعات المتنوعة . ومضت تزحمها حتى غلبتها في باب الصيد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشمر دل بن شريك التميمي الذي عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان الشمر دل صاحب قنص وصيد بالجوارح وله في الصقر والكلب أراجيز كثيرة <sup>(٢)</sup> » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

ص ٥٧١ وما بعدها والموضح ص ٢١٣ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ .

(١) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٩٥/٢

والأغاني ١٦٤/١٨ والخزانة ٣٣٢/١ وأسد

الغابة ١٠٥/١ والإصابة ٥٦/١ وابن سلام

قد أغتدى والصبحُ في حِجابِهِ      والليلُ لم يَأُوِ إلى مآبِهِ  
وقد بدا أبلقُ من مُنْجابه      بتوجيُّ صاد في شبابه<sup>(١)</sup>  
مُعاوِدٍ قد ذلَّ في إصعابه      قد خرَّق الصَّفارَ من جذابه<sup>(٢)</sup>  
وعرفَ الصوتَ الذي يُدعى به      ولعةَ المُلْمَعِ في أثوابه<sup>(٣)</sup>

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلَةَ<sup>(٤)</sup>، وهو مثل الشمردل كان يجمع بين الرجز والقصيد ، ويقول ابن المعتز : « له في الطرد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه في القنص وغيره كثيرة » وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز ، ولعل في هذا ما يصحح الفكرة التي كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب . وربما كان أهم من جمع بين الرجز والقصيد في هذا العصر أبو النجم العجلي ، وسنعرض له عما قليل .

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد ، منهم دُكَيْسُ<sup>(٥)</sup> بن رجاء الفُقَيْمِيُّ ودكين<sup>(٦)</sup> بن سعيد الداري ، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظت ياقوت في معجمه ، ومنهم الزَّفِيانُ<sup>(٧)</sup> السعدي التيمي ، وأبرزهم جميعاً العَجَّاجُ وابنه رُوْبَةُ اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة ، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية ، فلم يعد يُقْصَدُ به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها ، بل أصبح يُقْصَدُ به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة ، وشركهما في ذلك من بعض الوجوه أبو النجم ، ولكنه لم يُبْعَدَ في الإغراب إبعادهما .

(٥) انظره في معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٣/١١ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وتهذيب ابن عساكر ٢٤٧/٥ .

(٦) راجع معجم الأدباء ١١٧/١١ وابن عساكر ٢٤٨/٥ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وانظر الهامش .

(٧) راجع معجم المرزباني ص ١٥٩ وقد نشر ألوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجي: الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس .

(٢) خرَّق: شق. الصفار: الحبل يشد به .

(٣) الملمع: المشير بثوبه .

(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٨٣/٢

والأغاني (سابق) ١٣٩/١٨ والخزائن ٧٨/١ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف)

ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩ .



ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطرمّاح والكُمَيْت ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِيّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب <sup>(١)</sup> . وهو اتجه تعليمي نظنّ أنّ الذي دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُوْبَةَ يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوّل ديوانهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدُّان أهم من هَيَّأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذي صنّفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصّوا وساقوا الحكم والأمثال <sup>(٢)</sup> .

### أبو النجم <sup>(٣)</sup> العِجْلِيّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول <sup>(٤)</sup> :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرْفِ      تخطُّ رجلاي بخطِّ مختلفٍ  
تكتّبان في الطريق لأمّ ألف

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجمَع الرواة على أنه كان سريع البديهة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثمّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

والموشح ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٥٨٤/٢  
وأغاني دار الكتب ١٥٠/١٠ والخزّانة  
٤٨/١ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها  
ومعجم الشعراء ص ١٨٠ .  
(٤) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب)  
٢٩٧/٣ .

(١) البيان والتبيين ٣٤٣/١ وانظر كتاب  
المكائنة عند المذاكرة للطالبي (نشر  
جاير) ص ٤٠ .  
(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر  
العربي (طبع دار المعارف) ص ١٣٩ وما بعدها .  
(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦

يَسْتَبْقُونَ فِي مَوْضِعٍ يَطْرَحُهُ خَلِيفَةُ أَوْ وَالٍ ، وَيظْفَرُ بِالْحَائِزَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ : إِنَّهُ أَبْلَغُ فِي النَّعْتِ مِنَ الْعَجَاجِ . وَأُمُّ أَرَاخِيْزِهِ لَامِيْتُهُ الَّتِي يَسْتَهْلِكُهَا بِقَوْلِهِ (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجْزِلِ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يُبْخَلِ

وَالْأَرْجُوزَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَفِيضُ بِالْغَرِيبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَمَرَاعِيهَا ، وَكَانَ رُؤْيَا يَسْمِيهَا أُمَّ الرَّجْزِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَإِعْجَابًا بِهَا . وَيُرْوَى أَنَّ الْعَجَّاجَ غَدَا عَلَى النَّاسِ بِالْمِرْبَدِ يَنْشُدُهُمْ أَرْجُوزَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « قَدْ جَبَرَ الدِّينَ إِلَهُهُ فَجَبَرَ (٢) » وَقَدْ ضَمَّنَهَا هَجَاءَهُ لِرَبِيعَةَ ، فَاسْتَعَدْتُ عَلَيْهِ رَاجِزَهَا أَبَا النُّجُومِ ، فَبَادَرَهُ يَنْشُدُ أَرْجُوزَتَهُ « تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجَهْلًا مَا ذَكَرَ » حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : « شَيْطَانُهُ أَثْنَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ » تَعَلَّقَ النَّاسُ هَذَا الشَّطْرَ وَهَرَبَ الْعَجَاجُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى مِنْ أَرَاخِيْزِهِ أَرْجُوزَتَهُ فِي وَصْفِ فَهُودِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَهُوَ يَسْتَهْلِكُهَا بِقَوْلِهِ :

إِنَّا نَزَلْنَا خَيْرَ مَنَزِلَاتٍ	بَيْنَ الْحُمَيْرَاتِ الْمُبَارَكَاتِ
فِي لَحْمٍ وَحَيْشٍ وَحُبَارِيَاتٍ	وَإِنْ أَرَدْنَا الصَّيْدَ ذَا اللَّذَاتِ (٣)
جَاءَ مُطِيعًا لِمَطَاوِعَاتٍ	عُلْمَنَ أَوْ قَدْ كُنَّ عِلْمَاتٍ
فَهِيَ ضَوَارٍ مِنْ مَضْرِيَّاتٍ	تُرِيكَ أَمَاقًا مَخْطَطَاتٍ
سُودًا عَلَى الْأَشْدَاقِ سَانَلَاتٍ	تَلْوِي بِأَذْنَابٍ مَوْقَفَاتٍ

وَكَثِيرٍ مِنْ رَجْزِهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ لَا يُسْتَعَدُّ فِيهِ وَلَا يَغْرَبُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ الْحَقِّ أَنَّهُ « كَانَ يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَحْمِلُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَشْتَقُّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ (٤) » ، وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ قَرِيبًا مَنَا فِي جَمْهُورِ رَجْزِهِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَعْمَدُ إِلَى التَّنْدُرِ وَالِدَعَابَةِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ يَوْصِي ابْنَتَهُ « بَرَّةَ » عِنْدَ زَوَاجِهَا :

(١) نَشَرُ هَذِهِ اللَّامِيَّةَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمِمْبَنِيِّ فِي « الطَّرَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ » طَبَعَتْ لِمَنْعَةِ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنَّشْرُ ص ٥٥ .  
 (٢) جَبَرَ الثَّاقِبَةَ بِمَعْنَى انْجَبَرَ .  
 (٣) حُبَارِيَّاتٍ : جَمْعُ حُبَارَى وَهُوَ طَائِرٌ .  
 (٤) الْخِصَائِصُ ١ / ٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةٍ قلباً حُرّاً      بالكلب خيراً والحماةِ شراً  
لا تسأى ضَرْباً لها وجراً      حتى ترى حُلْوَ الحياةِ مُراً  
وإن كسنتكِ ذهباً وُدراً      والحيَّ عُميهم بشرُّ طراً

وكان يمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له في مجالسهم ويجزلون له العطاء .

### العجاج<sup>(١)</sup>

هو عبد الله بن رُوْبِيَّة التميمي ، نشأ في البادية ونزل البصرة ، وكان دائم الرحلة إلى منازل قومه في الصحراء ، وقد سخر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية في مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه في خصومتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولي مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفي ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروافيين ، فيمدح بشر بن مروان والى العراق وأخاه عبد العزيز والى مصر ، كما يمدح عمر بن عبید الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبي فُدَيْك زعيم النجدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسئل في ذلك فقال : هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التي ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، في وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكثبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشي والأليف ، وكل ما يجري في أرضها من رياح وسموم وطير وفي

٧/٣٩٤ ونهارس البيان والتبيين والخصائص لابن

جني والمزهر للسيوطي (طبعة الحلب) . قد نشر الأورد

ديوانه في مجموع أشعار ،      ن تاني .

(١) انظر في العجاج الشعر والشعراء ٢/٥٧٢

والموضح لمرزبان ص ٢١٥ وما بعدها وشرح

شواهد المفني ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعمدُ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله  
 يخوض في كل ما تخوض فيه التصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة  
 من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ  
 يقيس في اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية .  
 ولم يقف في ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض  
 الألفاظ الفارسية فيعرّبها ، وقد يصرف منها أفعالا ، على نحو ما صنع في  
 أرجوزته الجيمية : إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت في الملاء البرّ دجّما »  
 يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشي التفّ أو تسبّجا » يريد لبس قميصاً ، وهو  
 بالفارسية شبي ، فعربّه بسبيجة ، ثم صرف منه فعلا في بعض أبياته (١)

وزراه يلتزم في أرجوزته الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الرويِّ  
 في الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ،  
 على نحو ما يلاحظ ذلك في أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبر » ،  
 وهي في نحو مائتي بيت ، ولو أُطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة (٢) .  
 ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أرجوزته  
 بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل في  
 ذلك استرسالاً ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذي استقلّتْ بإذنه السماءُ واطمأنّتْ

وقد تحدّثتْ فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله  
 عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه في ثوابه . وهو في ذلك يتأثر مباشرة  
 بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصري وغيره وقد توفى سنة ٩٧ للهجرة .  
 وتُنسبُ له أرجوزة في مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحّت يكون قد لحق  
 أوائل القرن الثاني حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي) (٢) افظر الأغاني (طبع ساسي) ٦٠/١٨

عالية ، ونراه في أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ،  
من مثل قوله :

إمّا ترينى أصِلُ القَعَادَا      وأتقى - أن أنهض - الإِرْعَادَا<sup>(١)</sup>  
من أن تبدلتُ بِآدَى آدَا      لم يك يَنَادُ فأمسى انآدَا<sup>(٢)</sup>  
وقصبا حُتَّى حَتَّى كَادَا      يعود بعد أعْظُم أعوادَا<sup>(٣)</sup>

والجناس واضح في البيت الثانى ، وهو يشيع في أراجيزه ، لكثرة ما كان يُعنى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا في الآد وانآد ، وقد جناس في البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالاً ومشتقات ، أو يأتي ببعض المزيادات من الحروف ، وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقصد لذاته ، فإن فاته في اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

### رؤية<sup>(٤)</sup>

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالى عام ٦٥ للهجرة ، ويظهر أنه عنى به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ، إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، ونراه في رقصة الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين<sup>(٥)</sup> . ويظهر أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

١٨/١٢٤ وما بعدها و ٥٧/٢١ والخرازة  
٤٣/١ ومعجم الأدباء ١١/١٤٩ وابن خلكان  
وتهذيب التهذيب ٣/٢٩٠ ولسان الميزان ٢/٤٦٤  
والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/٣٢١ وكتابتنا  
« التطور والتجديد في الشعر الأموى » ص ٣٤٠ .  
وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث  
من مجموع أشعار العرب .  
(٥) طبرى ٥/٣٠٠ .

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالأيدي . انآد : اعوج وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذى مخ . حتى : دق ، يريد أن عظمه وهن .

(٤) انظر في ترجمة رؤية الشعر والشعراء ٥٧٥/٢ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى (سائى)

ومنذ أوائل القرن الثاني يلزم ولاية العراق يمدحهم ، يمدح أولاً مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزدي وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويحترق في هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى يمدح هريم بن أبي طحمة المجاشعي أحد قوادهم الذين أبلوا في القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا في ديوانه أراجيز كثيرة في مديح خالد القسري وولاته وفي مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله والي الحماة، وبلال بن أبي بردة الأشعري نائب خالد على البصرة، وأبان بن الوليد البجلي نائبه في شئون الحجاج ثم والي فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود، وعمرو بن عتبة بن سعيد بن العاص . ويقدم على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلج في هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان ، فيمدح نصر بن سيار ويحذره من أبي مسلم الخراساني في غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراساني أن يذهب عنه روعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح ، وله في مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمئة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو في أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبي نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومر بنا أنه كان جبّرياً ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر مقدور عليه لا منر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة في مذهبه القسري على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية في شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتأله . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية ، إذ تحوّل به يرضى اللغويين من حوله ويقدم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية في الألفاظ وأبنيثها وهيئاتها وما قد يحدث في بعض الحروف كالهزمة من إعلال ، وكأنما تحوّل معيناً لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثم غدت الأرجوزة

عنده وكأنها من لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبي عبيدة وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقا ، زوائد من تغيير في الحركات أو إعلال في الحروف أو إتيان بصيغ جديدة في التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول في مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأعماقِ خاوى المُخْتَرَقِ مُشْتَبِهِ الأعلامِ لَمَاعِ الخَفَقِ<sup>(١)</sup>

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإبتاع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيعمل بفتح العين في قوله : « ما بال عيني كالشعيب العين » والقياس العين بكسر الياء مع التشديد<sup>(٢)</sup> . وأقرأ قوله في وصف الليل :

وجلُّ ليلٍ يُحْسِبُ السَّدوسا يَسْتَسْمِعُ السَّارى به الجُروسا<sup>(٣)</sup>  
هَمَاهِمًا يَسْمَهِنُ أَوْرَسيسا علوتُ حين يَخضع الرُّعوسا<sup>(٤)</sup>  
قَرَعُ يَدِ اللَّعابة الطَّسيسا<sup>(٥)</sup>

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو . ا وصفه من نحو السدوس والرسيس والرعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعنى بأن يلائم بين الروى

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) همهم : جمع همهمة وهي الصوت الخفى ، الرسيس : الحديث غير البين . الرعوس : الذى يهز رأسه في نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست .

(١) يتحدث روضة عن فلاة . قاتم : أسود ، أعماق المفازة : أطرافها البعيدة . عترق الرياح : مهها . خوازه : خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وحفقه : اضطرابه وتحركه .  
(٢) راجع الخصائص ٣/٢١٤ ، وسيبويه ٣٧٢/٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالي . العين : سائل الماء .

والكلمات الداخلية في البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعنى بالجناس كثيراً في نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقراً في أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تتعكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر في سبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ في شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذي فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذي انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة في الإغراب ، إذ كان يُكثر من القياس في اللغة والتصرف فيها بالتفريع والتوليد ، محالاً أن يأتي بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفزع إليه الشعراء الذين كانوا يُعنون بإدخال الغريب من مثل الطَّرِمَّاح والكَمَيْمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه في أشعارهم<sup>(١)</sup> . وتحول إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجلون رجزه وما يأتي به من مستغلات لغوية ، كان يحشدها في أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرح بذلك ، إذ يقول في أرجوزة له « يلتمس النحويّ فيها قصدي » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤية بغاية تعليمية واضحة ، وهي غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمي الذي أخذ ينظمه الشعراء في العصر العباسي ، وكأنهم وجدوا في وفرة موسيقاتها ما يتلافون به نقص المعاني الشعرية في هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولدون من اتحاد مصاريعها صروراً جديدة من المزدوج والخمسن . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافي يعتمدون في هذا الصنيع على نظام الأرجوزة في التصريح ، فيجعلون الشطر وحدة في الموشحة ، على نحو ما صنع رؤبة ورُجَّاز هذا العصر في أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هي التي ألهمت ابن دريد حكاياته في تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمداني والحريري صنع مقاماتهم المعروفة .



## الفصل السادس

### الخطابة والخطباء

١

#### ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يتبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشاداته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق في تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوجَّ هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسطو ليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان في الخطابة ، وبما لا شك فيه أنهم يتخلفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن من فنون النثر القولي .

وعواملٌ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان يُستَظَر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة في الدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقَصَّرُ على بني أمية أو

تكون حقاً شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُردّ إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقررون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولّاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو كان غير عربي . ومضوا يحاجون في أول الأمر عليّاً وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قديداً ، فكان منهم الأزارقة والنسجديات والصفريّة والإباضية ، وأخذ كل فريق يحنج لرأيه مستعيناً بدقة مداخلة في حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعي في الخلافة . ويتوقّى على ، فيدعون للحسن ، ويخبئ ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوقّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقتلُ بكربلاء دون غايته . ويتوقّى يزيد ابن معاوية ، فتتشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صرد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير ، فيسقط عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويشور ، وسرعان ما يُفَضَّى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُقصر على قريش وأن تُردَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدِي يعبر عنه في ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء السنهم في تصوير مذاهبهم السياسية ، يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بني أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يضلُّون الطريق . وكل ذلك هياً في قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين بلى نحو ما مرَّ بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة ، وما اندلع من السنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان . وهي — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونصرتهم لهم أو انفصاحهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من يبنثونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الجديد . وندخل في عصر بني أمية ، فتنحول هذه الوفود إلى سيول ، تنقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة في شؤون قومها ، واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تعين له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

في بيعة الخليفة الحديد وفي بثَّ شكواها حين يلمُّ بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهئة والتعزية . وكانوا يُسَمُّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدر عن رأيه . ويتصافد في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق في البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع في الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأَيَّانَ ركَّزَ الإسلامُ أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كى يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسَمُّهم في ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم وبكثير من مخلَّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى . وكانوا يستهون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد في هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإضرار على خصومهم<sup>(١)</sup> ، فراضين لهم رواتب ومكافآت شهرية<sup>(٢)</sup> . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبشون في الجيوش لتحسيس الجنود على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفي الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عتَّاب بن وراقاً حين نازل شيبيناً الخارجى يقصُّ على جنده محملاً<sup>(٣)</sup> كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور<sup>(٤)</sup> . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قُصَّاصهم صالح بن مسرح الصُفْرَى ،

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكننى ص ٣٠٤ وخطب المقرئى (طبعة بولاق) ٢/٢٥٣  
(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .  
(٣) طبرى ٥/٨٩ .  
(٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ .

وفي الطبري طَرْف من قصصه<sup>(١)</sup> ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جهنم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريح بخراسان<sup>(٢)</sup> .  
 وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رُقُّ العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدلٌ كثير ينشأ في مسائل العقيدة ، كسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان محيَّرٌ في الحياة أو مسيَّرٌ لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجسرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضوع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم في جدهم يستمعون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعدُّون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة ، وهي صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحقلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدَّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رُقِّ الخطابة رُقياً بعيداً .

(٢) طبري ٣/٦ وما بعدها .

(١) طبري ٥٠٠/٥ .

## خطباء السياسة

تمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراصين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستره لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولائهم وقوادهم . وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج ، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم ، ولم يتدعوا لها سراً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم في وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتخرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيها ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها ، ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم (١) .

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها

٢/٣٦٤ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبَيْيَان السُّلَمِيّ والمستورد بن عُلْفَةَ لعهد المغيرة بن شعبه في ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقي بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجده على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا - على نحو ما مرّ بنا - إلى أزارقة ونسجديات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم في وجوه ولاة ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاة بني أمية . وتصدّى لهم المهلب ابن أبي صُفْرَةَ وقواد آخرون ، ومزّقوهم شرّ ممزّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا في خطبائهم نفس الروح التي وصفناها في أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامي على الموت ترامي الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، لأنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة في الدار الآخرة . وهم إنما يجارون في سبيل الحق ، يجارون تلك الفئة التي ضلت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير في بعض خطبه <sup>(١)</sup> : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وحزى . وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض والعاقبة للمتقين » . فهم في رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلّة ، وهم المؤمنون حقّاً وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم في الجنة أما قتلى غيرهم ففي النار ، وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجلة إليه ، حتى يحلّ لهم من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا . ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم ، على نحو ما يلقانا في خطبة قَطْرِيّ ابن الصُّجاء قائدهم بعد الزبير بن علي ، وهو يستهلها على هذا النمط <sup>(٢)</sup> :

٢٥٠/٢ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وعيون الأخبار

« أما بعد فإني أخذتكم الدنيا فإنها حلوة خَصِرَة <sup>(١)</sup> ، حُفَّتْ بالشهوات ... مع أن امرأ لم يكن منها في حَبِيرة <sup>(٢)</sup> ، إلا أعقبته بعدها عِبْرَة ، ولم يلق من سرَّائها بطناً ، إلا منحتة من ضرائها ظهراً ، ولم تَطُلْهُ غَبِيَّة <sup>(٣)</sup> رخاء ، إلا هطلت عليه مُزْنَة <sup>(٤)</sup> بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوب واحلولى <sup>(٥)</sup> أمر عليه منها جانب وأوبى <sup>(٦)</sup> ، وإن آتت امرءاً من غضارتها <sup>(٧)</sup> ورفاهتها يوماً أرهقتة من نوائها نِقَمًا ، ولم يُمنس امرؤٌ منها في جنتاح أمنٍ إلا أصبح منها على قوادم <sup>(٨)</sup> خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى . »

وتخصى الخطبة وهي طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها قطري السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباقي ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه .  
وهو أشهر من خطباء الأزارقة عبسيدة بن هلال اليشكري وزيد بن جندب الإيادي وعبد رب الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُفْرية عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرَّح الذي كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان في وعظه وقصصه يجمل على بني أمة ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرَّج على الحجَّاج ، وقُتِل ، فخلفه شبيب الذي دوخ جيوش الحجَّاج طويلاً ، ومن قول صالح في بعض مواظله <sup>(٩)</sup> :

« أوصيكم بتقوى الله والزهدي في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة في الدنيا ترغَّب العبد فيها عند الله وتفرَّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

(٥) احلولي : صار حلواً .

(٦) أوبى : من الوباء .

(٧) الغضارة : النضارة والخصب .

(٨) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر .

(٩) تاريخ الطبري ٥٠/٥ .

(١) خصرة : فاضرة .

(٢) حبرة : سرور .

(٣) المطر القليل . الغيبة : المطر القليلة .

(٤) المظل : المطر الكثير . المزنة : السحابة .

المطر .



يَجْرَأُ<sup>(١)</sup> إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه : ( وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَتَقِمُ عَلَيْهِ قَبْرَهُ لَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ) وإن حبَّ المؤمنين للسبِّ الذي يُنال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرىة ويحرضهم على قتال بني أمية أئمة الضلال الظلّامة كما يقول ، حائثاً لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بين الصُّفْرىة بالخطابة الطرمّاح بن حكيم وشبّيسل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِي والضحاك بن قيس الذي خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النّجّادات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبي حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردّت الأمر إلى نصابه . ولأبي حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بيّنة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في مكة ، ويقال بل ألقاها في المدينة<sup>(٢)</sup> ، وهو يستهلها بالشثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيّلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والحجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعدين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة، الحياة الباقية التي لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكّهون<sup>(٣)</sup> في شبابهم غَضِيضَةٌ عن الشرِّ أعينهم ، ثقيلةٌ عن

(١) يجأر : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون

والأغانى ١٠٤/٢٠ .  
(٣) مكّهون : يريد أن لهم رزاة الكهول .

الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد الفريد ١٤٤/٤

الباطل أرجلهم، أنضاء<sup>(١)</sup> عبادة وأطلاق<sup>(٢)</sup> سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلاهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شيق شهقة كأنّ زفير جهنم بين أذنيه. موصول كآلامهم<sup>(٣)</sup> بكلامهم، كلال الليل بكلال النهار. حتى إذا رأوا السهم قد فوقت<sup>(٤)</sup> والرماح قد أشرعت<sup>(٥)</sup> والسيوف قد انتضيت<sup>(٦)</sup>، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، ومضى الشباب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخصبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء. فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله.

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة لإخراجها في ألفاظ طلية تستميل القلوب بعدوتها، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يوم أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قعصاً بالرماح، وأن تنوشه سباع الحيوان والطيور، حتى يستحق رضوان ربه.

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً بيني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم. وتدور هذه الأفكار دائماً في خطابهم وخطابة أئمتهم، على نحو ما نجد عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

(١) أنضاء : مهزولون .

(٢) أطلاق : مكودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعله فوقاً وهو موضع

الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمي .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبید الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له <sup>(١)</sup> .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنّ أَرْضَى الله . ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان » .

وتتطور الأمور ويُقتلُ الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوقى يزيد بن معاوية فيجتمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقرباتهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين . الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صرد فى إحدى خطبه <sup>(٢)</sup> :

« قتل فينا ولدنا وولد نبينا وسالته وعصارتة وبضعة <sup>(٣)</sup> من لحمه ودمه . . اتخذها الفاسقون غرضاً للشبيل . . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل <sup>(٤)</sup> والأبناء حتى يرضى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تتاجزوا من قتله أو تبيراوا <sup>(٥)</sup> » .

وكان من زعماء التوايين معه عبید الله بن عبد الله المُرّى ، وكان خطيباً لا يبارى ، فضى يعظ الناس ويحرضهم على الانتفاض على الأمويين بمثل قوله <sup>(٦)</sup> :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترم <sup>(٧)</sup> إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم <sup>(٨)</sup> إياه بالدم . وتجراهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(١) طبرى ٣٠٣/٤ . (٥) تبيراوا : تهلکوا .

(٢) طبرى ٤٢٨/٤ . (٦) طبرى ٤٣٣/٤ .

(٣) بضعة : قطعة . (٧) اجترم : اقترف وارتكب .

(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة . (٨) ترميلهم : من رمه إذا لطمه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل . . إلا أن يناصح لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العثرة . . إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحَدِّثِينَ والمَارِقِينَ . .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكَّلَ بهم وفرق جمعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقاهم المختار الثقفي ، زاعماً أن ابن الحنفية - على الرغم من تبرئه منه - بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لفرقة الكيسانية المشهورة في تاريخ الشيعة ، وقد مرَّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن علي ، وتعدده وصيِّه والإمام المهدي المنتظر . وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً<sup>(١)</sup> وكان لسنافصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم في « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير وإلى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت في المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر في خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم - على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أنه يُوحى إليه ، مصوراً هذا الوحي في فقرات من السجع يوشئها بالأيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله<sup>(٢)</sup> :

« أما وربُّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه<sup>(٣)</sup> والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كلَّ جبَّار ، بكلِّ لِدَنٍ خطَّار<sup>(٤)</sup> ، ومهشَّد بَتَّار<sup>(٥)</sup> ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بمِجِلِّ أعمار<sup>(٦)</sup> ، ولا بَعْرَلِ<sup>(٧)</sup> أشرار ، حتى إذا أقمْتُ عمود الدين ورأيتُ شَعْب<sup>(٨)</sup> صدِّع المسلمين ، وشفيت

(٦) الميل : جمع أميل وهو الجبان ،

الأغار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .

(٧) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .

(٨) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

(١) الملل والنحل ص ١٠٩ .

(٢) طبرى ٤/٤٥٠ .

(٣) المهامه : الفياق .

(٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .

(٥) المهشد : السيف ، البتار : القاطع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين . لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى . »

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعاني التي كان يردّها خطاباً الشيعة ، وهي معان تُردُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر من قتله الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطابتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صنوحان : صعصعة وزيد وسينحان وكانوا شيعة وفي الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المحاضرات والمحاورات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي محاضرات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المحاضرات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعيش حزب الزبيريين طويلاً ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه (١) ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول (٢) :

« إن يُقْتَلْ فقد قُتِلَ أبوه وعمه وابن عمه (٣) ، وكانوا الخيار الصالحين ، إنا والله لانموت حتف أنوفنا (٤) ، ولكن قعصاً (٥) بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ،

(١) طبري ٤/٤٣٧ وما بعدها .

(٢) العقد الفريد ٤/١٢٢ وعيون الأخبار

٢١٣/٣ .

٤٢٠/٢ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل

وعمه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك

وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيا ملكه ، فإن تُقبِلَ الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر<sup>(١)</sup> البَطِرِ ، وإن تُدْبِرْ عنى لم أبك عليها بكاء الخَرِقِ المهين<sup>(٢)</sup> . »

ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة<sup>(٣)</sup> ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة<sup>(٤)</sup> طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من تلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته في خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرَهًا مَفْوَهًا ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شيبث بن ربيع . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان حاضاً الجند على متابعتة . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب فى جنوده يحرصهم على أهل الشام

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم فى الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسْفٍ وكيف أنهم جميعاً عطَّلُوا أحكام الشريعة واستأثروا بالقسْءِ ، حتى لرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم<sup>(٥)</sup> .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، ومن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

(١) الأشر : البطر .

(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد

١٣٥/٤ .

(٤) طبرى ٣٠/٥ .

(٥) طبرى ٣٣٥/٥ .

الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية في خطابته فقال (١) :

رَكوبُ المنايرِ وثأبها مِعْنٌ بِخُطْبَتِهِ مِجْهَرٌ (٢)  
تَرِيحٌ إِلَيْهِ هَوَادِي الكَلَامِ إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ المِهْدَرُ (٣)

وخطابته قسمان : قسم "سياسة" خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب ، وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة (٤) . وهو في القسم الثاني ينفّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ (٥) ، وقد اتهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى علي بن أبي طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسي أنه من كتّاب الوحي وأنه من جليّة الصحابة . وتردد في خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليه (٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فخظبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدّم من يده على شاكلة قوله في كلمة له (٧) :

« أيها الناس! إنكم لم تُخْلَقُوا عَبَثاً وَلَنْ تُرْكَوَا سُدًى ، وَإِنْ لَكُمْ مَعَادٌ يُحْكَمُ اللهُ نَبِيَّتَكُمْ فِيهِ ، فَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَحُرِّمَ الْجَنَّةُ الَّتِي عَرَّضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ غَدَأٌ لِمَنْ خَافَ اللهُ الْيَوْمَ وَبَاعَ قَلِيلاً بِكَثِيرٍ وَفَائِئْتاً بِيَأَق ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ فِي أَسْلَابِ الْهَالِكِينَ ، وَسَيُخْلِفُهَا مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقُونَ ، كَذَلِكَ حَتَّى تُرَدُّوا إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ . »

وليزيد الناقص حين ولي الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .  
(٢) معن : تمن له الخطبة فيخطبها مقتضياً لها .  
(٣) تريح : ترجع . هوادى الكلام :  
أوائله .  
(٤) العقد الفريد ٤/٨١ .  
(٥) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار  
٢/٢٤٦ .  
(٦) العقد الفريد ٤/٨١ .

بديعة<sup>(١)</sup> يصور فيها سياسته ودستوره في الحكم معلناً أنه إن وفّي بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه . ويقول إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وكان ولاية بنى أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبي سفيان وإلى مصر وعند ولاية العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسري ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، فمن خير ما يمثل ذلك خطبته في الكوفة حين قدم على العراق وإلياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء تفرق بين العمام والدمى . إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوي الأخلاق ما أغمز تغماز التين ولا يفة معق لي بالشنان<sup>(٣)</sup> ، ولقد فررت<sup>(٤)</sup> عن ذكاء وفئتت عن تجربة . إن أمير المؤمنين كسب كينانته<sup>(٥)</sup> ثم عجم<sup>(٦)</sup> عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجهني إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم<sup>(٧)</sup> في الفن واضطجعتم في مراقد الضلال وسنتنتم سنن الغي . أما والله لألحون<sup>(٨)</sup> لكم لحو العصا ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل<sup>(٩)</sup> .. أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده . »

وهو يفتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ العريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زحرت خطبته بأسلوب تصويري قوى ، وهو يعد في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه في طبقة واحدة ، وإن فضله زياد بجلالة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

(١) البيان والتبيين ١٤١/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وعيون الأخبار

٢٤٤/٢ .

(٣) التعمقة : التحريك ، الشان : جمع

شن وهو القرية البالية كانوا يحركونها إذا استحووا

الإبل للمسير . مثل يضرب لمن يروعه

ما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اخترت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اختير .

(٧) أوضع : أسرع في سيره أو سار بين القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند الحرب وعند

الخلاط على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد .



ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُرْوَى أن الحسن البصرى كان يقول عنه إنه «يعظُ عظة الأزارقة ويبتطش بطش الجبَّارين» (١) ومن قوله في بعض مواعظه : « اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه وأرني الغنى غياً فأجتنبه ولا تكلِّني إلى نفسى فأضلَّ ضلالاً بعيداً (٢) » .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة يحثُّ فيها على طاعة الخلفاء مندرأ متوعداً من ينقض حبل الجماعة . وأكثر في خطب أجمع من المواعظ ، حتى سُمي خطيب الله (٣) ، ويُرْوَى أنه كان يخطب يوماً فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال (٤) :

« سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوقها جناحها ، ووشى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المارك الدامية من خوارج وشيعة وناشرين مختلفين حاربوا بني أمية غضباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بني أمية في الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام في وقعة الحررة : « يا أهل الشام أهدا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يعزوا به نصر إمامهم (٥) » وقول المهلب بن أبي صفرة في حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ولأنهم إن قلدوا عليكم فتنوكم في دينكم وسفكوا دماءكم (٦) » . فقواد بني أمية في هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق في جانبهم وأن أعداءهم أهل غيٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفي بلاد الروم لا يزالون يحشون جنودهم على الاستشهاد في سبيل الله مقتبسين من آي الذكر الحكيم ما يشعل حماسهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .

(٥) طبرى ٤/٣٧٥ .

(٦) الكامل للمبرد ص ٦٣٠ .

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والمقد الفريد

٤/١١٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .

ويذكرى جذوة شجاعتهم وبسالتهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي وقد تهيأ لغزو طُخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول (١) :

« وَعَدَّ اللهُ نَبِيَّهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصْرَ بِمُحَدِّثِ صَادِقٍ وَكُتَابِ نَاطِقٍ ، فَقَالَ : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) وَوَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ أَحْسَنَ الثَّوَابِ وَأَعْظَمَ الذُّخْرِ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَبْصِيهِمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا تَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَأَخْبَرَ عَمَّن قُتِلَ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ حَيٌّ مَرْزُوقٌ فَقَالَ : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فَتَنْجِزُوا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ . »

واشتهر في خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القسري ونصر ابن سيّار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته في جنده حين دخلها مشهورة (٢) ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من نهوض ورقى .

### زياد (٣) بن أبيه

وُلِدَ فِي عَامِ الْهَجْرَةِ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ لِسُمِّيَّةٍ جَارِيَةٍ فَارْسِيَّةٍ كَانَتْ لِلْحَارِثِ بْنِ كَلْبَةَ الثَّقَفِيِّ الْمَشْهُورِ بَطْبَخَةَ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ زَوْجُهَا ثَقْفِيًّا يُسَمَّى عُبَيْدًا ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ يُسَمَّى فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ زِيَادَ بْنَ عُبَيْدٍ . وَيَذْهَبُ بَعْضُ الرِّوَاةِ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا وُلِدَ عَلَى فَرَّاشِ الْحَارِثِ وَأَنْ عُبَيْدًا كَانَ عَبْدًا رُومِيًّا ؛ وَلَمْ يَكُنْ ثَقْفِيًّا ،

١/٢٥٩ والأغاني (طبعة الساسي) ٣/١٦  
وما بعدها وابن عساكر ٤٠٦/٥ والعقد الفريد  
٤/٥ (راجع الفهرس) ومروج الذهب  
للمسعودي (طبعة مصر) ٥٥/٢ والفيهرى في  
مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية  
لقلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

(١) طبرى ٥/٢١٤  
(٢) انظر فتح الطيب ١/١١٢  
(٣) انظر في ترجمة زياد وتحقيق نسبه  
طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٧٠ وأسد الغابة  
٢/٢١٥ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن)  
ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووى

وما تقدم معه إلى عهد عمر ، حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلّة تسجيل الغنائم وقسمها في الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاية البصرة يكتب لهم ، ويوفده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر ، فيعجب بكائه ولسنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعنّ عجز أم عن خيانة صرفتني ، فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك (١) .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبد الله بن عامر وإليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعليّ وولّى عليّ البصرة ابن عباس جعله على خراجها ، وأتابه عنه أحياناً ، وأظهر في أثناء نيابته له حنكة ، ذلك أن معاوية دسّ إلى تميم بعض من أفسدها على عليّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على عليّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشعث ورآب الصدع متوسلاً إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعده من نصره ومنّاه ، وخوف قوماً وتوعدّهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصدقت له فارس فلم يلق فيها جتمعاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان (٢) .

ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة (٣) » . ولما قتيل عليّ ظلّ على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شعبه الثقفي ، ذا كراً ما بينهما من الرّحم ، وما زال به ، حتى دخل في طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ، ولما صار إليه

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٦٠ .

(٢) طبرى ٤/ ١٠٥ .

(٣) طبرى ٤/ ١٠٦ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمون به . ولم يلبث معاوية أن ولّاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة ، فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفساد والجنّة بالعرف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعه وقصته مع حجر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقي حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعده غاية .

وكان خطيباً لا يبارى في جودة خطابه ، يعرف كيف يصوغ كليمه صوغاً تَهشُّ له الأسماع وتُصغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً<sup>(١)</sup> » . وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وقفر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلّفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبترء<sup>(٢)</sup> ، سُمّيت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد<sup>(٣)</sup> ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجمل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي رَدَّتْ إلى البصرة أمثها بعد أن عاث فيها الفساد والفسق واضطرب حبلُ النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسم الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

الأخبار ١/٢٤١ والعمد الفريد ٤/١١٠ .

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٦٢ وانظر ٢/٦٢ .

(٣) اقلظها في البيان والتبيين ٢/٦٢ وعيون

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء<sup>(١)</sup> والضلالة العمياء والغنى الموقى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا ينشأ<sup>(٢)</sup> عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمند<sup>(٣)</sup> الذي لا يزول ، أن تكونون كمن طرفت<sup>(٤)</sup> عينيه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات واختار القانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدّث الذي لم تُسبّقوا إليه من ترككم الضعيف يُقهرُ ويؤخذُ ماله وهذه المواخير<sup>(٥)</sup> المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغوأة عن دكج<sup>(٦)</sup> الليل وغارة النهار؟! قربتم القرابة وبعادتم الدين ، تعتزرون بغير العذر وتغضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنّع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرّم الإسلام . »

وعلى هذا النحو استهلّ خطبته بتجسيم صور الفساد التي انتهت إليها حياة الناس في البصرة ، وهو في أثناء ذلك يقرّع سامعيه بأنهم انتبلوا كتاب الله وراء أظهيرهم مؤثرين القانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل بصور خطبته في حكمهم وما أعدّه لهم من ضرب العقوبات ، يقول :

« إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذنّ الولي بالمولى<sup>(٧)</sup> والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : ( انجُ سَعَدُ فقد هلك سَعِيدُ ) أو تستقيم لي قناتكم . . من نَقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياي ودكج الليل فإنّي لا أوقى بمُدلج إلا سفكت دمه .. وإياي ودعوى<sup>(٨)</sup> الجاهلية فإنّي لا آخذ

(١) الجهلاء: وصف مؤكد كما تقول ليلة ليلاء.

الريية .

(٢) ينشأ: ينفر .

(٦) الداج : السير في الليل .

(٣) السرمند : الدائم .

(٧) الولي : السيد ، المولى : العبد .

(٤) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت .

(٨) دعوى الجاهلية : قولهم يا نعم مثلاً ، إثارة

(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت

من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقّب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفّوا عن أيديكم وألستكم أكفّ عنكم يدي ولساني ، ولا تظهرُ على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوامٍ إحسن<sup>(١)</sup> جعلتها دبر<sup>(٢)</sup> أذنى وتحت قدمي ، فمن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قتله السُّلّ من بغضي لم أكشف له قيناعاً ولم أهتك له سترأً ، حتى يبدى لي صفحته<sup>(٣)</sup> ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرعوا<sup>(٤)</sup> على أنفسكم ، فربّ مسوءٍ بقدمونا سنسرّه ، ومسرورٍ بقدمونا سنسوءه .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودسغوره في حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه موادّ العقوبة وأنه سيأخذ بالظنّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرّد سيفه لقتل من لا يرعوى ، وأن من عاد إلى العصية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة في إعادة الأمور إلى نصابها في ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تسيب وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصاً ، وكان الشيء يسقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفي نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش . وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فليئن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته في الحكم بأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وأيضاً حين يجهر في ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعه . ويمضي في فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بيفسىء<sup>(٥)</sup> الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

(١) إحسن : جمع إحنة ، وهي الحق والصفينة . (٤) أرعوا : أبقوا وارقعوا .

(٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها . (٥) الفىء هنا : الخراج وغنائم الحروب .

(٣) أبدى صفحته : جاهر بعمادته .

فيما أحببنا. ولكم علينا العدلُ والإنصافُ فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عدلنا وفَيْسَتْنا بما صحتكم لنا .. وادعوا الله بالصَّلاحِ لِأَنَّكُمْ فَإِنَّهُمْ سَأَسْتَكُمُ الْمُؤَدَّبُونَ وَكَهْفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوِنُونَ، وَمَتَى يَصْلُحُوا تَصْلُحُوا، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضَبِهِمْ، فَيَشْتَدُّ لَذَلِكَ غَيْظُكُمْ. وَيَطُولَ لَهُ حَزْنُكُمْ، وَلَا تَدْرِكُوا بِهِ حَاجَتَكُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ. أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَ كَلَاءً عَلَى كُلِّ. وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفَذَ فِيكُمْ الْأَمْرَ فَأَنْفَذُوهُ عَلَى أَذْلَالِهِ<sup>(١)</sup>، وَأَيُّمُ اللَّهُ إِنْ لِي فِيكُمْ لَصَرْعَى كَثِيرَةٌ، فَلْيَحْذَرُوا كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرْعَايَ .

وزياد في هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهي المعروفة عند الفرس ، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قبيل ربهم ، وفي ذلك دلالة واضحة على تأثير الخطباء بالأفكار الأجنبية . وهو يلوح لسامعيه بما في يد الدولة من أموال الخراج وغانم الحروب وأنها ستنثرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نثرًا ، ولا يلبث أن يهدد من تحدتهم أنفسهم بنقص الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة ، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته في الحكم من جميع أطرافهما . وهي مقسمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وكل لفظة تقع في مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة ، فلا توعد ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته في الجمع والأعياد يعتمد إلى الوعظ كثيراً ، وهو فيه يُبدع ، كما يبدع في خطبه السياسية ، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهي تطرد على هذا السياق<sup>(٢)</sup> :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسن بنعمة الله ومسيء بخذلان الله إياه . والله النعمة على المحسن والحجة على المسيء . فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه ورأى العبرة في غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ولا يتكثّر

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل ، فأخذَ رَكَمَ الله الذي حذَرَ رَكَمَ نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجْزة ، قبل أن تَصِيرُوا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدرُوا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة .

وواضح ما في هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقاً ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه في بعض خطبه ، من أنه أوفى حُسْنِ البيان وبراعة الخطاب .

## ٣

## خطباء المخالف

مرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللون من الخطابة ، إذ كانوا يقدِّمون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مُشْتِنِينَ عليهم ، ومفاخرين بقباثلهم . وكانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حائنين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا في الأسواق وفي عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كي يطمئنون إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تَمَثُلُ بين أيديهم ، وكانوا يُعْقدون عليها إغداقاً واسعاً . ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تبعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظلامتها ، وهو دائم الخفاوة بها ، يُضقى عليها من نواله القمَر ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سنَّته . ومن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبَان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهَاء » التي خطب بها عنده ، فلم يُنشد شاعر ولم يخطب خطيب (١) ،



ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سَلَفَ من منطقته <sup>(١)</sup> ». ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع وصُحار بن عبيّاش العبّدي ، الذي قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا <sup>(٢)</sup> » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعة ، ومَصْفَلَة بن رَقَبَة و رَقَبَة بن مصقلة و كَرَب بن مصقلة <sup>(٣)</sup> . ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها <sup>(٤)</sup> ويقابل آل رَقَبَة و صُوحان في بني عبد القيس آل الأهم في تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهم الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات <sup>(٥)</sup> ، ومثله ابناه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشيب بن شَيْبَة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابي ، وهو الذي خاطب معاوية بقوله <sup>(٦)</sup> :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا أَلْوَى <sup>(٧)</sup> بي الليل فقَبِيضَ البصر وعُفَى الأثر أقام بدني وسافر أُملي ، والنفس تلومّ والاجتهاد يعذر ، وإذ قد بلغتك فقَطَنِي <sup>(٨)</sup> » .

وواضح ما في هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضى خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروى فيها طويلاً حتى يروق لفظه الخليفة ومنّ بحضرتة ، وربما جعلهم ذلك يسجعون في خطابهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتّاب في دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المناقسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

(٥) نفس المصدر ١/٣٥٥ .

(٦) البيان والتبيين ٢/٧٥ .

(٧) ألوى هنا : استأثر .

(٨) قطني : يكفني .

(١) البيان والتبيين ١/٣٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٦ .

(٣) نفس المصدر ١/٩٧ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

البيعة لابنه يزيد<sup>(١)</sup>، وعلى نحو ما كان من عمران بن عَصَام العَسَزِيّ في خطبته التي صدر فيها عن رغبة عبد الملك في خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد<sup>(٢)</sup>. ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولي الكوفي، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخْلِف والناس مجموعون على بابه يتهيبون القول، فقال<sup>(٣)</sup>:

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرّزِيّة، وبارك لك في العطيّة، وأعانك على الرعيّة، فلقد رزّنت عظيماً، وأُعطيّت جسّياً، فاشكر الله على ما أُعطيّت، واصبر له على ما رزّيت، فقد فقدت خليفة الله، ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلاً، ووهِبتَ جزيلاً . . . »

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء. وتلقانا من هذا التأبين المزوج بالتعزية نصوص متعددة في المناسبات المماثلة. ومن أشهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر، وكان الحجاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطبائهم بين يديه. وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبي حازم<sup>(٤)</sup>، ولم يكثر الوعاظ على باب كثيرهم على باب عمر بن عبد العزيز<sup>(٥)</sup>، منهم خالد بن صفوان وعبد<sup>(٦)</sup> الله بن الأهم ومحمد<sup>(٧)</sup> بن كعب القسري. وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن<sup>(٨)</sup> صفوان في مجالسه، ولما فتر الكميّة من سجن خالد القسري وضاق به الأرض بما رحبت لجأ إلى ساحته متوسلاً ببعض أهله، حتى إذا مثل بين يديه خطب خطبة طويلة<sup>(٩)</sup> يستترل بها عطفه عليه، فرق له وعفا عنه.

- |   |   |
|---|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار | (٦) البيان والتبيين ٢/١١٧ .             |
| (٢) ٢١٠/٢ والعقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمال   | (٧) نفس المصدر ٢/٣٤٠ و٣/١٤٣ .           |
| (٣) ٧٣/٢ ، ١٧٧/٣ .                      | (٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار |
| (٤) البيان والتبيين ١/٤٨ .              | ٣٤١/٢ .                                 |
| (٥) زهر الآداب ١/٤٩ .                   | (٩) أغاني (سأسي) ١٥/١١٣ .               |
| (٦) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .             |   |
| (٧) زهر الآداب ١/٧ .                    |   |

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يفدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حِطَّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة<sup>(١)</sup> . ومن وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربي وقد تسخَّطه ببعض قوله<sup>(٢)</sup> ، وكان قواده لا يَسْتُون يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن معبدان الأشقري ينبئه بقضائه على الأزارقة<sup>(٣)</sup> .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم في المصاهرات<sup>(٤)</sup> وفي إصلاح ذات البين<sup>(٥)</sup> . وهناك خطب تأخذ شكل المنافرات القديمة ، وهي تلك التي يقال إنها حدثت بين بعض بني هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضَعَفْنَاها ، ورجَّحْنَا انتحالها ، ومثلها ما يروى في بعض كتب الأدب من خصومة أبي الأسود الدؤالي وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر في هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

### الأحنف<sup>(٦)</sup> بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بني سعد إحدى عشائر تميم لُقِّبَ بالأحنف لحنف<sup>(٧)</sup> كان في رجله جميعاً ، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُسنِة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان ودلافة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولائها في وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال في مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شؤون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

١٣٥/٢ .

(٦) انظر في الأحنف طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ٤٦/١ ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبري (راجع فهرسهما) .  
(٧) الحنف : هو أح في الرجل .

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٢) نفس المصدر ١٣٥/٢ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ .

(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٧٣/٤ وعيون الأخبار ٧٢/٤ والعقد الفريد ١٤٩/٤ .

(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ،

الأرزاق ومن شقَّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقه إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ: «نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف ملتفتٌ في بنت<sup>(١)</sup> له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبعق<sup>(٢)</sup> منه ما تبعق، وتكلمت بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا<sup>(٣)</sup>. ويقولون إنه استبقاه عنده حولا كاملا ليبلغ في تصفح حاله. وعاد إلى البصرة وأخذ يتقد على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش، إذ كان النصر دائماً يرافقه.

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أغمدت استجابة لرأيه، حتى إذا انتصر على<sup>١</sup> دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صفين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه. وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علي<sup>٢</sup> أن يحكم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبيث عمرو بن العاص ودهائه. وما زال على ولائه لعلي إلى أن لبى ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولائه وخاصة زياداً يكبرونه إكباراً عظيماً، ونراه يُصبح سفيراً لقومه لدى معاوية. فهو يتقد عليه من حين إلى حين، ويوسع له في مجالسه، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره.

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة، بعد ولاتها، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة. حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب. وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُدأري، وأنه كان يجهر برأيه

(٣) البيان والتبيين ١/٢٣٧ وانظر ١/٢٥٤.

(١) البت: كساء صوف غليظ.

(٢) تبعق المطر: تفجر وانسال.

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله في شيء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريد ، جاهر برأيه في رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال (١) :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسيره وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً وهذه الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكانه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفى يزيد ، ويضطر عبيد الله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسلم أمورها إلى الأزدي وزعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزدي ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويحقق الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامه الأحنف في طاعته ، ويقرب مصعب ويصبح من خدائصائه ، فيقف معه في حرب المختار الثقفي ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى في أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكياً من قومه وعارفيه ، ويروى أن فرغانة بنت أوس بن حجر التميمية وقفت على قبره ، فأبنتته قائلة (٢) :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر (٣) من مجن (٤) في جنن ، ومدوج في كفن ، فوالذي ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشت حميداً ، ومت فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، وارى الزناد ، منيع الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت في المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفا ، ومن الناس لقربيا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوداً ، وإلى الخلفاء لموفداً ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومر بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنف مضر الذي تعطس عنه وأبسن العرب والعجم

(٤) أجنه: ستره . تريد أنه ستر في الجن أنى وضع في القبر .

(١) العقد الفريد ٤ / ٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٠٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

قاطبة<sup>(١)</sup> . ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدي الخلفاء، حتى يرونا منطقته، لقدرتة على حوك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأسايب التصوير . ولم يكن يُطيل في هذه الخطب ، بل كان يعتمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلدتين تصوران منطقته ، فقد وفد على معاوية مرة ، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه في الخليفة من مَدِّ يد العون والمساعدة<sup>(٢)</sup> :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير ، مع تتابع من المحول واتصال من الذحول<sup>(٣)</sup> ، فالمكثر فيها قد أطرق<sup>(٤)</sup> ، والمقل قد أملتق ، وبلغ منه الخسنى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُشعش الفقير ، ويَجْبِرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء<sup>(٥)</sup> . وإن السيد من يعم ولا يخص ومن يدعو الجفلى<sup>(٦)</sup> ، ولا يدعو النقرى<sup>(٧)</sup> ، إن أحسن إليه شكر وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المعضلات .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتبه في تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيمضونه في التواء والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصفح الجميل ، مستعظفاً ، ولكنه الاستعظاف الذي يُبتي فيه الرجل الكريم على مروته . ودائماً كلما قرأناه أحسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد ، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعاني التي يعبر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التي أشرنا إليها كما صورته كلمته الآنفة ، وقد ألتى بها حين ادلهم الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزد بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه<sup>(٨)</sup> :

(٥) اللأواء : الشدة .

(١) البيان والتبيين ١/٦٠ .

(٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .

(٢) زهر الآداب ١/٤٦ .

(٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة .

(٣) الذحول : الثارات .

(٨) البيان والتبيين ٢/١٣٥ .

(٤) أطرق : هزل وضعف .

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدين وشركاؤنا في الصَّهْرُ وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار، ويَدُّنا على العدو. والله لأزُدُّ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزُدُّ الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استَشْرَى<sup>(١)</sup> شَتْنَا نكم، وأبى حَسَسَكُ<sup>(٢)</sup> صدوركم في أموالنا وأحلامنا سَعَة لنا ولكم ». .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغمدت الأَسنة وُحقت الدماء .  
وعلى هذا النحو تُشَبَّطُ خطب الأحنف وسيرته صدق فِراسة ابن الخطاب فيه ،  
إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصره .

## ٤

## خطباء الوعظ والقصاص

نشط الوعظ والقصاصُ الديني في هذا العصر نشاطاً عظيماً، فقد كان الوعَّاظُ والقُصَّاصُ في كل بلدة إسلامية لا يَسُونُ عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ في بيانه صحفاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرزهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسودُ بن سريع وهو أول من قصَّ بالبصرة<sup>(٣)</sup>، وكان يقابله في الكوفة زيد<sup>(٤)</sup> بن صُوحان وفي المدينة عُبَيْدُ بن عُمَيْرٍ<sup>(٥)</sup> وكان عبدالله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبيكى من شدة تأثره . ومن القُصَّاصِ أيضاً إبراهيم<sup>(٦)</sup> التميمي الكوفي وسعيد بن جبَّير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر<sup>(٧)</sup>، ومسلم<sup>(٨)</sup> بن جندب قاصٌ مسجد المدينة، وذَرَّ<sup>(٩)</sup> بن عبد الله، وكان بليغاً، وهو الذي كان يقصُّ في جند ابن الأشعث حائثاً الناس على حرب الحجاج، ومطرف

- (١) استشرى : تفاقم . الشتان : العداوة .  
(٢) حَسَسَكُ الصدور : الحقد .  
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .  
(٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .  
(٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين .  
(٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .  
(٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .  
(٨) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .  
(٩) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٩٨ والمقد ٣/١٩٨ .  
٣٦٧/١

ابن عبد الله الشَّخِير وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة<sup>(١)</sup>، ومنهم وهب<sup>(٢)</sup> بن منبّه ويزيد بن أبان الرقاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه<sup>(٣)</sup>. « ليتنا لم نُخَلِّقْ، وليتنا إذ خُلِّقنا لم نَعْبَسْ، وليتنا إذ عَصِينا لم نَمِتْ، وليتنا إذ مَتْنَا لم نُبْعَثْ، وليتنا إذ بُعِثْنَا لم نحاسِبْ، وليتنا إذ حوسِبْنَا لم نَعْدَبْ، وليتنا إذ عُدْبْنَا لم نَخَلَّدْ ».

فالقُصَّاصُ كانوا وعَاطَافاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ، ومن اشتهروا بوعظهم عبد<sup>(٤)</sup> الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء<sup>(٥)</sup> ابن حبيّوة والأوزاعي<sup>(٦)</sup> في الشام وسعيد<sup>(٧)</sup> بن المسيّب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانتهما مواعظ كثيرة كان يعظُّ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئِلَ ما مالك؟ قال: ما لان: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس<sup>(٨)</sup>. ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد<sup>(٩)</sup> بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز. وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن<sup>(١٠)</sup> شبرمة ومورق<sup>(١١)</sup> العجّلي وبكر<sup>(١٢)</sup> بن عبد الله المزنيّ والشَّعبي<sup>(١٣)</sup> وأيوب<sup>(١٤)</sup> السَّخْتياني ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وسان طرير<sup>(١٥)</sup>. ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك<sup>(١٦)</sup> بن دينار، وكان يقول في قصصه: ما أشد فِطام الكبير، وينشد:

وتروض عرسك بعد ما هرمت ومن العناء رياضة الهرم

- (١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ١٧٠/٣  
 (٢) ٢٨٩/٢  
 (٣) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢  
 (٤) وما بعدها ٢/٢٨١، ٣٢٨  
 (٥) البيان والتبيين ١/٢٦٢  
 (٦) عيون الأخبار ٢/٢٩٤  
 (٧) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ٤٠/٣  
 (٨) ١٨٦/٤  
 (٩) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨  
 (١٠) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢  
 (١١) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والعقد الفريد ١٧٠/٣ وطرير: محدد  
 (١٢) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ١٩٧/٣  
 (١٣) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤



ومنه إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضربُ به المثل في الذكاء وصدق الفِراسة<sup>(١)</sup>، ومنهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه الأهمتيان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ : « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه للذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلاهما<sup>(٢)</sup> » ويقول في خالد : « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدّمين في الخواص خالد بن صفوان . . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الورّاقين<sup>(٣)</sup> » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمّاره، ويؤدّبُ عنه أنه كان يقول : « احذروا مجائيق الضعفاء يعني الدعاء<sup>(٤)</sup> » ومن قوله : « بيتٌ ليلى كلها أمتي فملأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطِمران<sup>(٥)</sup> » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبوكاه<sup>(٦)</sup> .

ومن كبار وعّاظ العصر وقُصّاصه الحسن البصري، وفيه يقول الجاحظ : « أما الخطب (الدينية) فإننا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصريّ فيها<sup>(٧)</sup> » ومن يأتي بعده في الوعظ عبد الله بن شداد، وهو القائل : « أرى داعي الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع<sup>(٨)</sup> » . ومن كبار القُصّاص والوعّاظ الفضل بن عيسى الرقاشي، وكان يسجع في وعظه<sup>(٩)</sup>، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً<sup>(١٠)</sup> » وهو الذي يقول في قصصه : « سئل الأرض فقل من شقّ أهلك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً<sup>(١١)</sup> » . ومن أشهر الوعاظ وأنبيهم واصل<sup>(١٢)</sup> بن عطاء رأس المعتزلة، وكان أغزر خطباء عصره

- |                                      |   |
|--------------------------------------|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها . | (٨) نفس المصدر ٢/١١٣ .                    |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣١٧ .          | (٩) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .               |
| (٣) نفس المصدر ١/٣٣٩ - ٣٤٠ .         | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .              |
| (٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٤ .          | (١١) نفس المصدر ١/٣٠٨ .                   |
| (٥) نفس المصدر ٣/١٦٤ والظمر :        | (١٢) انظر في ترجمة واصل الملل والنحل      |
| الثوب البالي .                       | للشهرستاني ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعاني |
| (٦) عيون الأخبار ٢/٣٤١ .             | وابن خلكان ولسان الميزان ٦/٢١٤ .          |
| (٧) البيان والتبيين ١/٣٥٤ .          |   |

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويروى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في إمارته على العراق ( ١٢٦ - ١٢٩ هـ ) وحضره معه خالد بن صفوان وشيب بن شيبه والفضل بن عيسى الرقاشي ، وتبارى الأربعة بين يديه في الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التي جانب فيها الرأى ، إذ كان يلثغ فيها لثغاً فاحشاً ، ونوه بذلك بشار بن برْد طويلاً ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله (١) :

أَبَا حُدَيْفَةَ قَدْ أُوتِيَتْ مُعْجِبَةٌ      فِي خُطْبَةٍ بَدَهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ  
وَقَوْلِهِ :

تَكَلَّفُوا الْقَوْلَ وَالْأَقْوَامُ قَدْ حَفَلُوا      وَجَبْرًا خُطْبًا نَاهِيكَ مِنْ خُطَبِ  
فَقَامَ مُرْتَجِلًا تَغْلَى بَدَاهَتُهُ      كَمِرِّجَلِ الْقَيْنِ لِمَا حُفَّ بِاللَّهَبِ (٢)  
وَجَانِبَ الرَّاءِ لَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَحَدٌ      قَبْلَ التَّصْفَحِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الطَّلَبِ  
ولا نستطيع أن نزعم كما زعم بشار أن واصل ألقى هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحسُّ أثر التروية والتحضير وأنه تأتت لها في أناة حتى اتسقت في نسقها البديع ، وهي من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَّاقته ، على هذا النمط (٣) :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي عملا في دنوّه ، ودنا في علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يشوده (٤) حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداءً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شيء خلقه ، وتمّم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقب (٥) لحكمه ولا دافع لقسضائه ، تواضع كلَّ شيء لعظمته ، وذلَّ كلَّ شيء لسultanه ، وسع كلَّ شيء فضله ، لا يعزّب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدّست أسماؤه ، وعظّمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

الرسائل النادرة لعبد السلام هرون وجمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت ٤٨٢/٢ .  
(٤) يتوده : يتقله .  
(٥) لا معقب : لا زاد .

(١) انظر في هذا البيت وما يليه البيان والتبيين . ٢٤٤/١ .  
(٢) القين : الحداد .  
(٣) انظر في هذه الخطبة الحلقة الثانية من

كل مخلوق ، وتنزّه عن شبيهه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول والأفهام ، يُعصَى فيَحُلْمُ ، ويُدعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .

وواضح أن واصلا يستظهر في هذا التمجيد والتمجيد آى القرآن الكريم في وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرره من نفي التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثل شىء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلاً في صلاته كما أطال في حمده . وبقية بس من صنيعه أخذ الكتاب من أمثال عبد الحميد يطيلون في تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والنجابة لمعصيته ، وأحضكم على ما يندنيكم منه ويؤلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد وأحسن عاقبة في معاد ، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدعها وفواتن لذاتها وشهوات آباها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شىء فيها يزول . فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من جبايلها ، وأهلكتم من جنح إليها واعتمد عليها ، أذاقهم حلواً ، ومزجت لهم سمّاً . »

وواصل في هذه الفقرة يردّ ما كان يجرى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبرقها الخلب وما يبطوى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمد لهم في غوايات الشهوات ، والعاقل من ازور عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمماً قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزود كل لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوقفوا الأبواب ، وكانوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بحمليها (١)

(١) الحمل : الشقان على البعير يحمل فيما

شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحنهم بكتلها<sup>(١)</sup>، وعضتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العزة ذلاً، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُرى إلا مساكينهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبساً» .

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقصاص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتهم، وما صبَّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جلب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة . ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، وكنى به واعظاً هادياً .

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته، إذ كان فاحش اللثغة في الرأ، فخلَّص كلامه منها تخليصاً، بحيث لم يكن أحد يظن لذلك لبيانه الرائع، يقول: إنه كان داعية ورئيس نحلة. وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لا بد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، ومن أجل الحاجة إلى ذلك « رام إسقاط الرأ من كلامه وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لسرته والراحة من هُجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمّل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة<sup>(٢)</sup> الأكتفاء ومفاوضة الإخوان .. وذكر ذلك أبو الطروق الضبيُّ فقال

علمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكل خطيبٍ يغلب الحقُّ باطله<sup>(٣)</sup> »

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الرأ في جميع محاوراته آية بيّنة على تمام آله في البلاغة وإحكام صنعته. وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(٣) البيان والتبيين ١/١٤ وما بعدها .

(١) الكلكل : الصدر .

(٢) مناقلة : مدافعة .

معاً ، وخرَج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى  
مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق في منزلة بين  
منزلة المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه  
فيقول (١) :

له خلفَ شَعْبَ الصِّينِ في كلِّ تُغْرَةٍ إلى سوسها الأَقْصَى وخلف البرابِرِ (٢)  
رجالٌ دعاةٌ لا يَفْلُءُ عَزِيمُهُمْ تَهْكُمُ جَبَّارٍ ولا كيدُ ماكِرٍ  
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلمُ التشاجرِ (٣)  
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُمْ ولا الشُّدُقُ من حَيِّ هلالِ بنِ عامرٍ (٤)

وهو لا ينوّه بوعظهم فحسب ، بل ينوه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع  
وتقرير الأدلة في عقول الناس . ويمضى فيصور براعة واصل في هذا العلم  
الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشبهة عند  
خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى  
أتباعه ، يقول :

تلقب بِالغَزَالِ واحدٌ عصره فَمَنْ لليتامى والقَبِيلِ المُكَاثِرِ (٥)  
وَمَنْ لِحُرُورِيٍّ وآخَرَ رافِضٍ وآخَرَ مُرْجِيٍّ وآخَرَ جَائِرِ (٦)  
وأمرٍ بِمَعْرُوفٍ وإنكارٍ منكَرٍ وتحصينِ دينِ الله من كلِّ كافرٍ  
يُصِيبُونَ فَضْلَ القَوْلِ في كلِّ موطنٍ كما طبقتْ في العظمِ مُدْيَةَ جازِرٍ  
وسياهمُ معروفةٌ في وجوههم وفي المشي حُجَّاجاً وفوق الأَبَاعِرِ  
وفي ركعةٍ تَأْتِي على الليلِ كلُّه وظاهرِ قولٍ في مثالِ الضمائرِ

(٥) خير الأقوال في تلقيب واصل بالغزال  
أنه كان يجلس في سوق الغزاليين ليعرف المتعففات  
من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد  
ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

(١) البيان والتبيين ١/٢٥٠ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت  
حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : ويريد به علم الجدل في  
المقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

وبهنا ما وقف عنده صفوان والباحظ بعده من محاجةً واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحرورية ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل في العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلاح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامة الحسن البصرى، وظهر المرجئة بزعامة غيلان الدمشقى وغيره من دعاة هذا المذهب في العراق وخراسان. وفي كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بنى أمية<sup>(١)</sup>. واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بيينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاوره واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصرى في مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقاً، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافراً، لأنهم كما قدمنا كانوا يفتصلون الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عبسيد من تلاميذ الحسن البصرى، فجمع بينه وبين واصل ليناظره في رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة<sup>(٢)</sup>، ويقدم لها بأن واصل أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عبسيد، فحاوره في رأيه، ورد عليه واصل رداً مفحماً مستخدماً بعض آى الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقى دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رموس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً في آرائه، فإن فكرة المنزلة بين المتزلتين التى وضع فيها مرتكبي الكبائر فكرة لا يؤتاها إلا من استبصر المعانى وعرف حدودها ومقاديرها ومدخلها ولطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة في الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » (طبع دارالمعارف) ص ٧٩ .  
 (٢) أمال المرتضى ١/١٦٥ .

لا يأتي عفواً، وإنما يأتي من تصفح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعمت فيها الأدلة ودقّت المعاني ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائنها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التي كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاقاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثمّ فتحوا الأبواب واسعة للأسلوب المولّد الجديد، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم في حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق، وهياً لهم ذلك شيئاً من التروى والتهمل كان له أثره في روعة الأداء ، حتى لرى فريقاً منهم يعمد إلى السجع في وعظه مثل أسرة الرقاشيين <sup>(١)</sup> ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشي . ولكن هذا ليس الأسلوب الذي شاع في تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح في خطبة واصل التي مرّت بنا، وفي خطابة الحسن البصري وغيّيلان <sup>(٢)</sup> الدمشقي، وإنما ألبأهم إليه ضيق معاني الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدّوا لهذا الأسلوب الذي نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومنّ تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ . ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق في كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والحنة والنار يصوغون خطابهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني .

(١) انظر في هذه الأسرة البيان والتبيين (٢) انظر في مواضعهم الأخبار ٢/٢٤٥ .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدوا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يوجع بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطلقهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعهم وطبقاتهم، ومتى يُسْتَحَبُّ الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعول دائماً على وضوح الدلالة حتى يصنع الكلام في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عبَّيد ما البلاغة؟ فأجاب (١):

« ما بلغ بك الجمة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشذك وعواقب غيِّك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن إفهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكالمين وتخفيف المثونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابهم ونفسي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحقت على الله جزيل الثواب.»

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاورة والمناظرة، ويؤثر عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: «اعلم - رحمك الله - أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهديان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجمة» (٢) وكان شبيب بن شيبه يقول: «الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت» (٣). ولم يكونوا يتفقدون

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر المقدم الفريد ٢/٢٦١ .  
 (٢) البيان والتبيين ١/١١٢ .  
 (٣) الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٣ .



مطالع كلامهم ونحواته فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناياه ومقاطعته . ونحن نتوقف قليلاً عند الحسن البصرى وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

### الحسن<sup>(١)</sup> البصرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سبى ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة في وادى القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت تروى أحاديث عن أم سلمة وتدمجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق في نفس ابنيها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفي أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما في المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة عليّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن ينجح عن المشاركة في الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك في الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمداومة القرآن الكريم ورواية الحديث محالوا الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية في الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة في خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربى) .

(١) انظر في ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبأً من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ في مصره إذ كان لا يجارى في بلاغته وبيانه .

وُكِبِرَ عَصْرُهُ كما تكبره العصور التالية لزهده الذي لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازع ، حتى تسوّغ آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رؤاها الأولى ، فالجبرية يقولون إنه كان ينفي حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شيء بقضاء من الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَرِيًّا ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوّه به الجاحظ المعتزلي هذا التنويه العريض الذي تلقاه دائماً كلما ذكره في صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه في القدر ، فكتب إليه رسالة ضمنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله<sup>(١)</sup> ، وتلتقى بهذه الرسالة في نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك<sup>(٢)</sup> .

والذي لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد في عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شيء والزهد شيء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صور إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه في مواظبه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر  
(٢) انظر مصورة هذه الرسالة في دار الكتب  
المصرية برقم ٥٢٢١ هـ أدب .  
آباد) ص ١٢ .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقبيل أن يتولى القضاء إلى فترة في عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربي محكك»<sup>(١)</sup> « ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص<sup>(٢)</sup> البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت<sup>(٣)</sup> » وهو إنما يعنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج<sup>(٤)</sup> ». وكان يجمع إلى فصاحته حسناً لغوياً دقيقاً ، ومما يصور ذلك ما يُروى عن رجل من بني مجاشع قال : « جاء الحسن في دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجهكم ، وأجرك الله<sup>(٥)</sup> » .

وتموج بعضاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته في الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وقد نوّه به الغزالي في الإحياء مراراً . وهو في مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته<sup>(٦)</sup> .

وهو في وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حائثاً على التقوى والعمل الصالح والتأسي بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكرمّة التي حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التي رواها له الجاحظ قوله<sup>(٧)</sup> :

« يا بن آدم ببع دنياك بأخرتك تربعهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الشّواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس

(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .

(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .

(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .

(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون

الأخبار ٢/٣٤٤ .

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٢) الخصب : البيت من قصب ، وكان في

البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها

الحسن زهداً وورعاً .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .

والساعة تسوقكم، وإنما يُسْتَنْظَرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً<sup>(١)</sup> لم يضع لِسِينَةً على لبنة ولا قصبَةً على قصبَةٍ . . ( لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة ) . يابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبَّيْرُكَ، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . يابن آدم اذكر قولهُ : ( وكلَّ إنسان أَلزَمناه طائرهُ في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حَسِيباً ) عدلَ ، والله ، عليك مَنّ جعلك حَسِيبَ نَفْسِكَ . خذوا صفاء الدنيا وذرّوا كدّها ، دعوا ما يربّيبكم إلى ما لا يربّيبكم . لقد صحبت أقواماً<sup>(٢)</sup> ما كانت صحبتهم إلا قُبْرَةَ العَيْنِ وجلاء الصدر . ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ من أن تُردَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهّدَ منكم فيما حرّمَ عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافتم<sup>(٣)</sup> ، تهاديتم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطّاب : رحم الله امرأً أهْدَى إلينا مساوِيناً . أَعِدُّوا الجواب فإنكم مسؤلون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتعني ، ولكنه ما وقَّرت في القلوب وصدّقتهُ الأعمال .

وواضح كيف كان يمزج عظته بأى الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يربّيبكم إلى ما لا يربّيبكم » ففي الحديث النبوي : « دع ما يربّيبك إلى ما لا يربّيبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتي بها في تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : ( إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينّ أن يحملنها وأشفقنّ منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ) ثم عقب عليها بقوله<sup>(٤)</sup> :

(٢) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض

لاستثقلت المشى في الجنائز .

(٤) أمال المرتضى ١٥٤/١

(١) يريد أنه كان ينلو ويروح في كسب

عيشه الضروري .

(٢) يريد صحابة الرسول .

« إن قوماً غَدَّوا في المطارف <sup>(١)</sup> العتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيِّعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمَّة أهرلوا دينهم وأسمنوا برأذنيهم <sup>(٢)</sup> ووسعوا دورهم وضميتوا قبورهم . ألم ترهم قد جَدَّ دوا الثياب وأخلقوا الدين ، يتكئ أحدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بحدو بعد حامضٍ وبحارٍ بعد باردٍ وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكظة <sup>(٣)</sup> تجشأ من البشم <sup>(٤)</sup> ، ثم قال يا جارية هاتي حاطوماً <sup>(٥)</sup> يهضم الطعام ، يا أحسبُ لا واللهن تهضم لإدينك أين جارك ؟ أين يتيملك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عز وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظرفيا بحكم الناس ، حتى إذا حكمهم وظلمهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الخفيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعسف بالأغنياء عنقه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلَّت ورقها وكثر شوكتها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسيلعها البائرة وعودهم عن الآخرة وسلعها الراجحة ، ومن قوله <sup>(٦)</sup> :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قَصْداً ، وقدَّم فضلاً ، وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضَعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ، ففضَّحها ، فلا والله ما وجد ذو لُئبٍ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جِماعها الضلالة وميعاها النار . أدركتُ من صدُر هذه الأمة قوماً كانوا إذا أجتهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم <sup>(٧)</sup> . . . يابن آدم إن كان لا يُغنيك

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .  
 (٢) برأذنيهم : دوابهم  
 (٣) الكظة : الشبع .  
 (٤) البشم : الامتلاء .  
 (٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .  
 (٦) البيان والتبيين ٣ / ١٣٥ .  
 (٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغْنِيكَ ، وإن كان يُغْنِيكَ ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدَّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلِّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ، فطوبى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوة ورواحه المعاد ، وأعدَّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدي الله ، وهو لا يدرى أيُّ مَرٍّ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير في ذلك حرى أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والحلم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصرى ، وقد كان يختار لها كُسُوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لاتزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبتوا في هذا العصر ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتّاب إذ كان يقندر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهاً والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

## الفصل السابع الكتابة والكتاب

١

التدوين

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم - كما مر بنا - على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيباً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أمية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والإسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار<sup>(١)</sup> ومن أشهرهم دغفل<sup>(٢)</sup> بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت في كتاب له اسمه «التصاغر والتناصر»<sup>(٣)</sup> وهي تدور بينهما في أسلوب حيواري ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويحبيه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريفة.<sup>(٤)</sup>

الاستيماح لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .  
(٣) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .  
(٤) البيان والتبيين ١/١٢١ ، ٢٤٧ ، ٨٠/٢ ، ٢٥٣ .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/٣١٨ وما بعدها  
(٢) راجع في ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال المهدائي ٢/٢٧٣ والإصابة ، وفي

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعَنِّى بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها، وتكاثرت هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرسقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام<sup>(١)</sup> . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يُكْتَبُ ويدون ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذي الرِّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أحب إليّ من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهى في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »<sup>(٢)</sup> ، وفي أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسينا بإعداد ألواح ودواة ليُحْمَلِ عليه بعض أشعاره<sup>(٣)</sup> وأنه كان يقول لسامعيه بالميريد قيّدوا قيّدوا أي اكتبوا<sup>(٤)</sup> ، وفي الأغاني أن مهالد بن كلثوم الكلبي كان يدون شعره وشعر الفرزدق<sup>(٥)</sup> . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة ، يُعَنِّى بتدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثله أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتب التي كتبت عن العرب الفاضحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ ( تنسك ) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حَفِظَ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »<sup>(٦)</sup> .

وغناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى غنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيبت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقيح الناس الفقه وشئون التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون . وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم ، وحتمل عنه تفسيره نفر من التابعين

(١) أغاني ( دار الكتب ) ٩٤/٦ .

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .

(٥) أغاني ( ساسي ) ١١/١٩ - ١٢ .

(٢) الحيوان ٤١/١ .

(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٣) نفاث جريير والفرزدق ( طبعة بيثن )

ص ٤٣٠ وانظر أغاني ( دار الكتب ) ٣٢/٨ .



أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «بمصر صحيفة في التفسير عن ابن عباس رواها علي بن أبي طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً»<sup>(١)</sup> . ولا يحتمل تفسير الطبري تفسير ابن عباس وحده ، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب . وقد أخذت معظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون ، وما نشك في أن كثيراً منها دون في هذا العصر ، وإلا ما وصلت إلى الطبري . وكان الصحابة والجليل الأول من التابعين كما مر بنا في غير هذا الموضع يترددون في تدوين الحديث ، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان ، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصور لنا ذلك البغدادي في كتابه «تقييد العلم» . ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث ، ويُعنى بذلك كما مر بنا الزُّهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه ، ويتتابع التدوين فيه . وعلى نحو ما أخذوا في تدوين الحديث والتفسير أخذوا في تدوين الفقه ، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية ، فإنهم حرروا فتياه ومذهبه في التشريع<sup>(٢)</sup> . ويذكر جولدتسيهر أن عروة<sup>(٣)</sup> بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة<sup>(٤)</sup> . ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم في أنهم المهادون المهديون الذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوانا بفتاوى علي وأفضيته ، ويظهر أن أول من ألف فيها سليم بن قيس الهلالي معاصر الحجاج<sup>(٥)</sup> ، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد في المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر في الفقه اسمه «مجموعة زيد بن علي»<sup>(٦)</sup> .

وأخذت تدون منذ القرن الأول مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عُنوا

وصفة الصفوة ٤٧/٢ ، والمعارف لابن قتيبة

ص ١١٤

(٤) انظر مادة فقه في دائرة المعارف

الإسلامية .

(٥) المفهرست ص ٣٠٧ .

(٦) مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر النوع التاسع والسبعين في كتاب الإتيقان للسيوطي .

(٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية

لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام

المؤمنين لابن قيم الجوزية .

(٣) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب

بها عروة بن الزبير وأبان<sup>(١)</sup> بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب<sup>(٢)</sup> ابن منبّه المتوفى سنة ١١٤. وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا في العصرين الأموي والعباسي كتبهم التاريخية التي يُفِيضُ الفهرست لابن النديم في بيان أسماؤها، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦. وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠. ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة، وتمثلت هذه العناية في معاوية، إذ استقدم عُبَيْدُ<sup>(٣)</sup> بن شَرِيَّةَ الجرمي اليمنى ليحدثه في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين، وأمر معاوية بعض علمائه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم، فتألف من ذلك كتابه «أخبار الأمم الماضية»، وكان متداولاً في عصر المسعودي<sup>(٤)</sup>. وقد طُبِعَ له في «حيدرآباد» كتاب باسم «أخبار عبيد بن شرية الجرمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها» وهو يدور في أسلوب حوارى، إذ يسأل معاوية ويجيب عبيد، ويستهلُّ بأخبار عاد ولقمان ومثود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تبع إلى زمان مملكة طسم وجديس، وتتخلله أشعار كثيرة. ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه، وهو مطبوع معه، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة. ولوهب كتاب يسمى «الابتداء في الأمم الخالية»، ذكره المقدسى<sup>(٥)</sup> وقال السخاوى إنه كثير الخرافات<sup>(٦)</sup>. وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسب إليه باسم «قصص الأنبياء». ويلمع في هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب<sup>(٧)</sup>

(٣) راجع في ترجمته الفهرست ص ١٣٢

والمعمرين لأبي حاتم السجستاني ومعجم الأدباء  
٧٢/١٢

(٤) مروج الذهب (طبعة أوروبا) ٨٩/٤

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥

(٦) الإعلام بالتلويح ص ٤٨

(٧) انظر في ترجمة كعب الإصباة والمعارف

ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ في ٢ ص ١٥٦ ..

(١) انظر في ترجمة أبان المعارف

ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥  
وابن سعد ١١٢/٥ والنورى (طبعة وستنفلد)

ص ١٢٥

(٢) انظر ترجمته في كتاب المعارف

ص ٣٠١، ٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥

وميزان الاعتدال ٢٧٨/٤ وتهذيب ابن حجر

وطبقات الحفاظ للسوطى ١٧/١ وشنوات

ابن العماد ١٥٠/١

الأخبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق « في حديث ذى الكِفَل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضَعُ زياد بن أبيه لكتاب في المثالب <sup>(١١)</sup> وَوَضَعُ ابن مفرغ الشاعر قصة تُبَعِّعُ وأشعاره <sup>(١٢)</sup> وتأليف كل من علاقة الكلابي <sup>(١٣)</sup> معاصر يزيد بن معاوية وصُحَّار <sup>(١٤)</sup> العبيدي كتاباً في الأمثال . ومن ذلك كتاب <sup>(١٥)</sup> في الوصايا والحكم للمستورد بن عُلمة الخارجي . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبه لكتاب في القدر <sup>(١٦)</sup> ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان <sup>(١٧)</sup> المرجيء رسائل في ألني ورقة <sup>(١٨)</sup> ، ومع أنها كانت تدور في المواعظ <sup>(١٩)</sup> تؤمن بأنها حملت آراءه في الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة <sup>(٢٠)</sup> . ومرّ بنا في الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصرى أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتاج لرأيه في القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حمل عنه <sup>(٢١)</sup> . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب في الغناء <sup>(٢٢)</sup> ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب <sup>(٢٣)</sup> .

وفي ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين في عصر بني أمية ، ولا نشك في أن القوم دونوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يرووها وكذلك قلّ في رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتّاب البالغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة <sup>(٢٤)</sup> . وبالمثل كانوا يدونون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

- |   |   |
|---|---|
| (١) انظر الفهرست ص ١٣١ .                              | (٩) انظر عيون الأخبار ٢/٣٤٥ .                   |
| (٢) أغاني (سأسي) ١٧/٥٢ .                              | (١٠) البيان والتبيين ١/١٥٠ .                    |
| (٣) الفهرست ص ١٣٢ .                                   | (١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ . |
| (٤) نفس المصدر ص ١٣٢ .                                | (١٢) انظر الأغاني ( طبع دار الكتب )             |
| (٥) المبرد ص ٥٧٨ .                                    | ٢٩٨/٤ .   |
| (٦) انظر معجم الأدياء ١٩/٢٥٩ .                        | (١٣) الفهرست ص ٢٠٧ .                            |
| (٧) مفتت مصادر ترجمته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . | (١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها .                  |
| (٨) الفهرست ص ١٧١ .                                   |   |

الخلفاء والخطباء الناهيين وعَاطَظاً وغير وعَاطَظ ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين»<sup>(٢)</sup> ومرت بنا في الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن المولى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا في حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغولاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارة ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب صحبته في الصنعة »<sup>(٣)</sup> . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهون في الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم في علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقدونها حتى عصر ابن سينا<sup>(٤)</sup> وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسططاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية<sup>(٥)</sup> . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية<sup>(٦)</sup> . ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع ويتشرب بين العرب لهذا العصر في جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لتتحدث عما خَلَّفَ العصر من رسائل مختلفة .

## ٢

## كثرة الرسائل الملوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أُثرت عن هذا العصر ،

- |  |   |
|--|---|
| (١) انظر في خالد المعارف ص ٢٠٦   | (٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١٢١/١ وابن القفطي ص ١٠٥ .              |
| (٢) الفهرست وابن خلكان ونجم الأدباء ٢٤/١٢ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ . | (٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري ( طبعة الحلبي ) ص ٦٩ .                        |
| (٣) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ .                        | (٦) انظر «صفحات عن إيران» لصادق فشتات ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١ . |
| (٤) الفهرست ص ٤٩٧ .  |   |

وحيثما هناك كتب تزيّدت في هذه الرسائل ونقصت كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة. ولكن إذا نحينا هذين الكتابين وأضربهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبري والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة في الطبري سيول من هذه الرسائل كتبها على مرّ العصر وأجداته فرق الخوارج والشيعة والزبيريين ومن ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بني أمية وولاهم وقوادهم .

ولئن نستطيع أن نعرض كل ما رُوِيَ للخوارج من رسائل ، لكثرتها ، ومن ثمّ سنكتفي بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هي الأزارقة والنجدية والصفورية والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق بجموع القعود عن الخروج ويستحلون دماء المسلمين وقتل أطفالهم ، وخالفهم في ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد في تصوير هذا الخلاف رسالتين <sup>(١)</sup> متبادلتين بين نَجْدَة بن عامر الحنفي زعيم النجدات ونافع بن الأزرق ، فنجدة يراجمه في مقالته ، ونافع يحتاج لها . والرسالتان وثيقتان طريقتان في بيان مقاتلي النجدات والأزارقة . ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع في وقعة دولا ب ، فقد ظلوا يحاربون قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق في طاعة عبد الملك مضوا في ثورتهم ، وظلت الجيوش توجه إليهم ، يوجهها ولاية العراق وخاصة الحجاج ، وكان زعيمهم لعهد قطرى ابن الفُجاءة ، ونرى الحجاج يرأسه مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعّد ، ونحن نسوق رسالتين <sup>(٢)</sup> لها تصوّران كيف كان يرأس الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجري على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فإنك سرقت من الدين مرق السهم من الرميّة ، وقد علمت حيث تجرّمت ، <sup>(٣)</sup> ذاك أنك عاصي لله ولولاة أمره . غير أنك أعرابي

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

ص ٢١٤ .

(٣) تجرّمت الشيء : أخذت معظمه .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣١٠ وانظر المبرد

جِلْفٌ<sup>(١)</sup> أَمْ تَسْتَظِمُ<sup>(٢)</sup> الْكَيْسِرَةَ وَتَسْتَشْنِي<sup>(٣)</sup> بِالْهَمْرَةِ، وَالْأُمُورَ عَلَيْكَ حَسْرَةً،  
خَرَجْتَ لِنَتَالِ شُبُعَةٍ<sup>(٤)</sup>، فَلَحِقَ بِكَ طَعَامٌ<sup>(٥)</sup> صَدَّوْا بِمَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ الْعَيْشِ  
فَهُمْ يَهْزُونَ الرِّيحَ وَيَسْتَشْنُونَ<sup>(٦)</sup> الرِّيحَ، عَلَى خَوْفٍ وَجَهْدٍ مِنْ أُمُورِهِمْ،  
وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِنَزْحَتَيْنِ<sup>(٧)</sup>.  
وَالسَّلَامُ.

وَأَجَابَهُ قَطْرِي :

« سَلَامٌ عَلَى الْمُدَّةِ مِنَ الْوَلَاةِ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ حَرِيمَ اللَّهِ وَيَرْهَبُونَ نِقْمَتَهُ،  
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ دِينِهِ، وَأُظْلِعَ بِهِ أَهْلَ السَّفَالِ<sup>(٨)</sup> وَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالِ  
وَنَصَّرَ بِهِ عِنْدَ اسْتِخْفَافِكَ بِحَقِّهِ. كَتَبْتُ إِلَى تَذَكَّرَ أَنِي أَعْرَابِي جِلْفٌ أَمْ  
أَسْتَظِمُ الْكَيْسِرَةَ، وَأَسْتَشْنِي بِالْهَمْرَةِ، وَلَسَمَّيْتُ يَا بَنَ أُمَّ الْحِجَاجِ<sup>(٩)</sup> لِمَتَّيَّةٍ فِي  
جَبَلَيْتِكَ<sup>(١٠)</sup>، مُطَّلَحِيمٍ<sup>(١١)</sup> فِي طَرِيقَتِكَ، وَاهِ فِي وَثِيقَتِكَ<sup>(١٢)</sup>، لَا تَعْرِفُ اللَّهُ  
وَلَا تَنْجِرُجُ مِنْ خَطِيئَتِكَ، يَسْتِ وَاسْتِيَّاسْتَ مِنْ رَبِّكَ، فَالْشَيْطَانُ قَرِينُكَ،  
لَا تَجَاذِبُهُ وَثَاقُكَ، وَلَا تَنَازِعُهُ خِنَاقُكَ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أُبْرَزَ لِي  
صَفْحَتِكَ، وَأَوْضَعَ لِي صَلْتِكَ<sup>(١٣)</sup>، فَوَالَّذِي نَفْسُ قَطْرِي بِيَدِهِ لَعَرَفْتُ أَنَّ  
مِقَارَةَ الْأَبْطَالِ لَيْسَ كَتَصْدِيرِ<sup>(١٤)</sup> الْمَقَالِ، مَعَ أَنِي أَرْجُو أَنْ يَسُدَّ حَضْرَةَ اللَّهِ  
حُجَّتَكَ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي مُهْنَجَتَكَ. »

وَوَاضِحٌ أَنَّ كِلَا مَنِيهَا يَرِي صَاحِبَهُ بِالضَّلَالَةِ وَالغَوَايَةِ، وَقَدْ عُنِيَ جَمِيعاً  
بِالتَّنَاقُ فِي أَسْلُوبِهِمَا. وَمِنْ ثَمَّ زَيَّنَّا كِلَا مَنِيهَا بِالسَّجْعِ. وَإِذَا تَرَكْنَا الْأَزَارِقَةَ  
إِلَى الصُّفْرِيَّةِ وَجَدْنَا شَبِيهاً يَرِاسِلُ صَالِحِ بْنِ مَسْرُوحٍ حَاضِراً عَلَى الْخُرُوجِ<sup>(١٥)</sup>.  
وَلَمْ تَحْتَفِظِ الْمَصَادِرُ بِرِسَائِلِ النَّجْدَاتِ إِلَّا بِإِضَاحِيَّةٍ.

- |  |  |
|--|--|
| (١) جلف : جاف .                        | (٨) أظلم : من الظلم وهو العرج . السفال :   |
| (٢) تستظم الناس : تسالم أن يطعموك .    | سفلو الخلق .                               |
| (٣) تستشني : تطلب الشفاء .             | (٩) يقولون ذلك إذا أرادوا الطعن في النسب . |
| (٤) الشبعة : ما يشع من الطعام .        | (١٠) متيه : مفضل . الجبلية : السجية .      |
| (٥) طعام الناس : أزدالم .              | (١١) مطلحيم : متعجرف .                     |
| (٦) يستشنون الرياح : يتنصمونها ، كناية | (١٢) الوثيقة : الثقة .                     |
| عن جوعهم .                             | (١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره .          |
| (٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما     | (١٤) تصدير المقال : تسطيره وتحويله .       |
| الأزارقة أمام المهلب بن أبي صفرة .     | (١٥) طبري ٥٢/٥ .                           |

ورسائل الشيعة في هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات (١) تحض على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين . ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوأمين ، ويصور زعيمهم سليمان بن صرد في مكاتبتة لبعض أصحابه ندمهم على خذلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالتأثر من قاتليه (٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفي لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول (٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبيلته ، فسلم أنتم ، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر (٤) ، فإن الأحنف مورد قومه سقر (٥) ، حيث لا يستطيع لهم الصدر (٦) ، وإني لأملك ما خبط في القدر ، وقد بلغني أنكم تسمونني كذاباً ، وإن كذبت فقد كذبت رسل من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » .

وفي الرسالة خصائصه التي مرت بنا في خطابته ، إذ كان يعنى باختيار ألفاظه والسجع في كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفي إلى أنه يوحى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً في خطابته وأحاديثه كما استخدمه في الرسالة الآتفة (٧) .

وأثرت عن ابن الزبير وولائه في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبري ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار (٨) الثقفي . ونرى ولاته يكاتبون من يوجهونهم إلى الخوارج (٩) . وتلتقى في عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القريظة المشهور بسجعه .

- |  |                              |
|--|------------------------------|
| (١) طبرى ٢٥٧/٤ وما بعدها .   | من قبائل مضر .               |
| (٢) طبرى ٤٢٩/٤ .   | (٥) سقر : جهنم .             |
| (٣) طبرى ٥٣٩/٤ .   | (٦) الصدر : الرجوع .         |
| (٤) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التعجب منه . وكان المختار يعمل من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها ستكفل بتميم وغيرها | (٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها . |
|  | (٨) طبرى ٥٤١/٤ .             |
|  | (٩) طبرى ٤٨١/٤ وما بعدها .   |

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت في البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون باليهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم<sup>(١)</sup> ، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بني أمية . وكذلك كانوا يكتبون باليهود إلى من يؤمنونهم على الولايات<sup>(٢)</sup> . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آية بينهم وبين ولائهم في كل كبيرة وصغيرة . وكان قوادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولائهم وقوادهم من مراسلات يتطفع بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية في شأن حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة<sup>(٣)</sup> ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته في الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن علي<sup>(٤)</sup> ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد في وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه<sup>(٥)</sup> . ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولائهم كما كثرت في عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يُكثِر من الكتابة إلى قواده ، ويكثر من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآتية التي أرسل بها إلى قطرى . ولا بد أن نفق قليلاً عنده إذ كان يُعنى بتجبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتجبير خطبه . ونراه يكثِر من مراسلة المهلب وحشّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة<sup>(٦)</sup> ، كما يكثِر من مراسلة قواده في حروب الخوارج الشيبية<sup>(٧)</sup> وفي فتنة ابن الأشعث<sup>(٨)</sup> وحروب خراسان<sup>(٩)</sup> . ورسالته مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدة وحدة ، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك — وهو لا يزال ولياً للعهد — من رسالة له : « إنما

(١) طبرى ٣٠٧/٥ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .

(٣) طبرى ٢٠٢/٤ وما بعدها .

(٤) طبرى ٧٩/٥ وما بعدها .

(٥) طبرى ٢٥٠/٤ وما بعدها .

(٦) طبرى ١٤٩/٥ وما بعدها .

(٧) طبرى ٢٦٥/٤ وما بعدها والوزراء

(٨) طبرى ١٤٠/٥ ، ١٤٦ .

والكتاب للجيشيارى ص ٣١ .

(٩) طبرى ١٢٠/٥ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .



أنت نقطة من مِداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتك<sup>(١)</sup> ، وكان الخلاف دباً بينهما ، ومن ثم حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنيعه عبد الملك ، فهو الذي أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولاه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأتق ما استطاع في تعبيره ، ومن خير ما يصور ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خصباً بعد جدب ومطراً بعد قحط ، وهي تجرى على هذا النمط (٢) :

« أما بعد فلما نُخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وابلٌ منذ كتبت أخبره عن سُقيا الله إيانا إلا ما بَلَّ وجه الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرِّذاذ<sup>(٣)</sup> ، حتى دَقَعَت<sup>(٤)</sup> الأرض واقشعرت<sup>(٥)</sup> واغبرت<sup>(٦)</sup> وثارَت في نواحيها أعاصير تَدْرُو<sup>(٧)</sup> دُقَاق الأرض من توابها ، وأمسك الفلأحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها<sup>(٨)</sup> وامتناعها ، وأرضنا أرض سريعٍ تغيَّرها ، وشيكٌ تنكَّرها ، سَيءٌ ظنُّ أهلها عند قحوظ المطر ، حتى أرسل الله بالقبول<sup>(٩)</sup> يوم الجمعة ، فأثارت زَبْرَجاً منقطعاً متمصراً<sup>(١٠)</sup> ، ثم أعقبته الشَّمال<sup>(١١)</sup> يوم السبت ، فطَحَّطحت<sup>(١٢)</sup> عن جتهامه<sup>(١٣)</sup> ، وألَّفت منقطعه ، وجمعت متمصره ، حتى انتضد فاستوى ، وطَمَا وطَحَا<sup>(١٤)</sup> ، وكان<sup>(١٥)</sup> جَيوناً<sup>(١٦)</sup> مرثعناً<sup>(١٧)</sup> ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهل

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتمصر :

المتقطع .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(١٢) طحطحت : بددت وقرقت .

(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(١٤) طأ : امتلأ وزهر ، وطحا : انبسط

وملأ الأفق .

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

(١٦) الجون : الضارب إلى السواد

(١٧) مرثعنا : سائلا .

(١) البيان والتبيين ١/٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٩٩ .

(٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل .

(٤) دقعت : غلت من النبات .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجذب .

(٦) اغبرت : ثربت من الغبار .

(٧) تدرو : تسفى وتحمل .

(٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهي الأرض

الصلبة .

(٩) القبول : الزرع الشرقية .

مُنسَجَل<sup>(١)</sup> ، يردف<sup>(٢)</sup> بعضه بعضاً ، كلما أردف شُبوب أردفته شَائِب<sup>(٣)</sup> لشدة وقعه في العراض<sup>(٤)</sup> . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهي ترمى بمثل قِطْعِ القُطْن ، قد ملأَ اليَبَاب<sup>(٥)</sup> . وسدَّ الشُّعَاب<sup>(٦)</sup> ، وسقَى منها كلُّ ساقٍ . فالحمدُ لله الذي أنزل غَيْثَهُ ونشر رحمته من بعد ما قَنَطُوا<sup>(٧)</sup> ، وهو الوليُّ الحميد ، والسلام .

ويتضح في الرسالة ما اشتهر به الحجاج في خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يخالون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التتميق ، وسرى عما قليل طبقة من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة . وهم كتاب الدواوين .

وأخذت تشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعاظ أن يرسلوا إليه بعضاتهم ، ويُرَوِّى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبج له رسالة طويلة أسهلها بقوله<sup>(٨)</sup> .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائلة وقصد<sup>(٩)</sup> كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفه<sup>(١٠)</sup> كل مظلوم ، ومفرج كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكفيها من أذى الحتر والقُر<sup>(١١)</sup> . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البررة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلاً ، تسهر بسمه ،

- |  |                                  |
|--|----------------------------------|
| (١) منسجل : منصب .                           | (٦) الشباب : المسالك والسبل .    |
| (٢) يردف : يتبع .                            | (٧) قنطوا : يشوا .               |
| (٣) الشائب : جمع شُبوب وهو الدفعة من المطر . | (٨) المقد الفريد ١ / ٣٤ .        |
| (٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية .           | (٩) قصد : هداية .                |
| (٥) اليباب : الموضع الخالى لا نبات فيه .     | (١٠) نصفه : من الإنصاف .         |
|  | (١١) القر : البرد ، مثلث القاف . |

وتسكن بسكونه، تُرُضعه تارة وتفظمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايبته .  
ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت  
والبعث والوقوف بين يدي الله وما ينبغي أن يتزوَّد لذلك من التقوى والحكم الصالح .  
والحسن في هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذي مرَّ بنا وصفه ،  
والذي يقوم على الازدواج وتزيين المعاني بالصور حتى تتمكن في النفس ، وكان  
يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطبائقاته الكثيرة . وكان يجاريه - كما قدمنا - في هذا  
الأسلوب كثير من الوعاظ ، وعلى رأسهم غسيلان الدمشقي ، ويُروى أنه كتب  
إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة ، منها قوله (١) :

« اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام حناناً بالياً ، ورأساً عافياً ، فياميتُ  
بين الأموات لا ترى أثراً تفتتبع ولا تسمع صوتاً تفتتفع ، طفتى أمر السنة ،  
وظهرت البدعة ، أُخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يُعطي الجاهل فيسأل . »

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته (٢) ، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسي كانوا  
يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصري ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة  
البيانية (٣) . وما نشك كما أسلفنا - في أن بلغاء الكتاب في عصرهما كانوا  
يجارونهما في أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ ، فنحن لا نقرأ في  
سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذي يتحلى  
بالطباق والتصوير والذي يقوم على التوازن في الكلام توازناً ينتمى به إلى الازدواج ،  
حتى يؤثرا في أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم .

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت في هذا العصر الكتابات  
الشخصية ، بحكم تباعد العرب في مواطنهم ، وبتأثير بعض الظروف من موت  
يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهنئة ، أو شفاة عند وال لقریب أو صديق ،  
أو عتاب أو اعتذار . وطبيعى أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها ،  
لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة ، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية  
قليلة ، فمن ذلك رسالة عقال بن شيبّة إلى خالد القسرى في شفاة تجرى على  
هذه الصورة (٤) :

(٤) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٤١٦/٢ .

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٩٥/١ .

« إن الله انتخبك <sup>(١)</sup> من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً <sup>(٢)</sup> شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية، وأعان خطرك بقدره مقسومة، ومنزلة ملحوظة، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار <sup>(٣)</sup> الله لك، وليس كلهم أداله <sup>(٤)</sup> الزمان ولا ساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية <sup>(٥)</sup> قرابتى، وذوى الهيئة من أسرتى، عرف معروفك، وأجبت أن تُأَيِّسَه نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعتى وإياه ما تجده باقياً على النشتر، جميلاً فى الغيب <sup>(٦)</sup> ».

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقى فى الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى، والفقه الحسنى بمدخل التأثير فى نفس القارئ وما ينبغى أن يسلك إليه الكاتب من طرق كى يستولى على عقله، فيقضى له حاجته. ومن اشتهر فى هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذى قُتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لَسِيناً بليغاً، يعرف كيف يحوك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد فى هذه الرسالة التى كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول <sup>(٧)</sup> :

« أما بعد فقد عاقبى الشك فى أمرى عن عزيمة الرأى فىك، ابتدأتنى بلطف عن غير خبيثة، ثم أعقبته جفاء عن غير ذنب، فأطمعنى أولك فى إختائك، وأياسنى آخرك من وفائك، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطرأحاً، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرى عن عزيمة فىك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على ائتلاف، والسلام » .

(١) انتخبك : اختارك .

(٢) خطراً : قدراً .

(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .

(٤) أداله : نصره وأعانه .

(٥) دنية : لاصق .

(٦) الغب : العاقبة .

(٧) البيان والتبيين ٨٤ / ٢

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف يتخيّر ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جلب المعاني الطريفة ، التي تروع بما فيها من منطلق عقلي دقيق ، وهو يعرضها في أسلوب من الازدواج الرشيق تزيينه الاستعارات والطباقات .

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترقى لاف الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحمقون نفس الرقي ، وحرى بنا الآن أن ننحول إلى كتّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتحمير .

## ٣

## كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين في الإسلام ، وتؤكد الروايات التي رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم<sup>(١)</sup> ، إذ أحس حاجته إلى سجلات يدرّج فيها الناس وأعطياتهم وأموال الفتي والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديواني الخراج والجدد ، حتى إذا ولي معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم<sup>(٢)</sup> ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يكتسب في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان ، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخشسي كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومي<sup>(٣)</sup> ، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبا الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراقي

(١) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

الفارسي<sup>(١)</sup> ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر<sup>(٢)</sup> هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه «الوزراء والكتاب» بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن في الواقع إنما يهمننا ديوان الرسائل ، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبّجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللّسن والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تابعت أجيالهم على مرّ الزمن في هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسَلَّم إلى خلفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يسلّموا ببلاغتهم من يكتبون لإيهم من الخلفاء ، حتى يعيّنوهم في دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه<sup>(٣)</sup> ، وكان إذا أعجبه كاتب وملاً نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد<sup>(٤)</sup> بن يزيد الأنصارى . ولم يعرض علينا الجهشيارى آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلاً ، فقد اكتفى بعرض أسماءهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفي عهد كل خليفة يسرد أسماء

١٨٧/٥ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٢٠٨/٥ .

(١) الجهشيارى ص ٣٨

(٢) الجهشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ٣٨٧/١ والطبرى

كُتِبَ الولاية . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقته وجهارة صوته ، وكان خطيباً لا يبارى<sup>(١)</sup> . ولم يُؤثّر عنه شيء من الرسائل في عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة في عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد فإن استدراج النعم إياك أفادك البغى ، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة . زجرت عما واقعت مثله ، وندبت إلى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعف الأسباب يُؤيس الطلاب ما انتقل سلطان ولا ذلّ عزيز . وعمّا قليل تبين من أسير الغفلة ، وصريع الخدع ، والرحيم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرك أقدمُ به منك والسلام » .

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة . وكان يتولى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد<sup>(٣)</sup> الله بن أوس الغسانی ، وروى له الجهشيارى رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العدة في مقاومة الحسين بن علي حين نزوله العراق وهي تمضي على هذا النحو<sup>(٤)</sup> :

« أما بعد فإن المبدوح مسبوبٌ يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميت إلى منسب كما قال الأول :

رُفِعَتْ فجاورت السحابَ وفوقه فما لك إلا مرّقبَ الشمس مرقبُ  
وقد ابتلى بحسين زمانك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونكبت  
به من بين العمّال ، فيما تُعتق أو تعود عبداً ، كما يُعبّد العبيد ، والسلام .  
والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر في الرسائل الدبلوماسية حتى هذا العهد . وكان أول من أطل فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو<sup>(٥)</sup> بن نافع ، ولا شك في أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم في هذا التاريخ من التفنن في القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ وراجع

(٢) الجهشيارى ص ٢٤ ، ٣١ .

(٣) الجهشيارى ص ٣١ .

(٤) طبرى ٤/٢٨٥ .

(٥) البيان والتبيين ٤/٨٧ .

ورياضة في نسق الكلام وضبط أساليبه، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .  
 ونمضي إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه رُوِّح بن  
 زنباع الجُدّامي ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي <sup>(١)</sup> الكتابة ، وليس بين  
 أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهشيارى وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد  
 غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له <sup>(٢)</sup> :  
 « لا تُشْمِتَنَّ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقَمَتَتَهُ <sup>(٣)</sup> ، ولا تسوهنَّ بِي صديقاً أَنْتَ سَرَرْتَهُ ،  
 ولا تهدمنَّ مَنِي رُكْنَا أَنْتَ بِنَيْتَتِهِ ، هلا أتى حلمك وإحسانك على جهلي وإساعتي ؟ » .  
 فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الخُشَنِيّ كاتب  
 رسائله الذي جوَّال الدواوين من الرومية إلى العربية ، ولم تنصَّ المصادر القديمة  
 على ما كتبه به بين يدي الخلفاء . وما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة  
 والبيان ، وفي الجَهْشِيَارِي أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك  
 قبل تولّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد  
 وإلى الحجاج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله <sup>(٤)</sup> : « لِمَ بَعَثَ أمير المؤمنين  
 إلى أسامة بن زيد ؟ فقال : لا أدري ، قال : أفتردي ما مثلك ومثل أسامة ؟  
 قال : لا . قال : مثلك ومثله مثل حيّة كانت في ماء وطين وبرّد ، فإن رفعتُ  
 رأسها وقع عليها حافرُ دابّة ، وإن بقيت ماتت برّداً ، فرَّبها رجل ، فقالت :  
 أدخلتني في كَمِّك حتى أدفأ ثم أخرج ، فأدخلها ، فلما دفنت قال لها :  
 اخرجي ، فقالت : إني ما دخلت في هذا المدخل قط فخرجت حتى أنقُرَ  
 نقرةً ، إما أن تسلّم منها ، وإما أن تموت ، والله لئن دخل أسامة ليتنقُرَنَّكَ  
 نقرةً إما أن تسلّم معها وإما أن تموت » .

والكلمة تدل دلالة بيّنة على دقة مداخلة ومسالكه إلى الإقناع ، وإن  
 في نقله الدواوين ما يدل على سعة ثقافته وهي سعة كانت تقرن بعدوبة المنطق  
 وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضّحه كلمته .

(١) الجهشيارى ص ٣٥ .  
 (٢) الهيان والتبيين ٣٥٨/١ والجهشيارى ص ٥٦ .  
 (٣) وقته : قهره وأذله .  
 (٤) الجهشيارى ص ٥٦ .  
 ص ٣٥ والأمال ٢/٢٥٩ .



وإذا ولّينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتاب يُهون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، وما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القيربئة كاتبه حين ثار على الحجاج : « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجعاً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سيرته » وينفذ ابن القيربئة مشيئته ، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة<sup>(١)</sup> ولا تهمننا الرسلتان بقدر ما تهمننا رغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه .

وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تفتقر بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن يحيى بن يعمر - أحد علماء اللغة الأوائل - كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في « بادغيس » انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب<sup>(٢)</sup> : « إنا لقينا العدو ، فنحننا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة بعرائر<sup>(٣)</sup> الأودية وأهضام<sup>(٤)</sup> الشيطان ، وبتنا بعمر عروة<sup>(٥)</sup> الجبل وبات العدو بحضيفضه<sup>(٦)</sup> . »

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة ، وشجعته على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوايد الألفاظ ، على نحو ما قدّمنا في غير هذا الموضوع . وفعلاً راعت الرسالة الحجاج ، فقد روى الرواة أنه حين تراها قال : ما يزيد بأبي عُدرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يُشخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي<sup>(٧)</sup> .

- (١) الأخبار الطوال للدينوري (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .  
 (٢) البيان والتبيين ١/٣٧٧ والمبرد ص ١٥٨ والطبري ٥/١٨٧ .  
 (٣) عرائر الأودية : أساطيلها .  
 (٤) أهضام الشيطان : مداسها .  
 (٥) عروة الجبل : أعلاه .  
 (٦) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .  
 (٧) البيان والتبيين ١/٣٧٨ .

وعلى هذا النحو كان كتاب الولاية والقواد في الشرق يجبرون رسائلهم ، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرج فيها الكتاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي نقل الدولوين من القلاوسية إلى العربية ، يقول الجهمشياري : « كان عامة كتاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبي قرة كتب ليزيد بن المهلب في ولايته لسليمان بن عبد الملك ) ومنهم قُحْدُمُ بن أبي سُلَيْم وشيبة بن أيمن كاتباً يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن إياس كتب لخالد القسري ، وغيرهم » (١) .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعَنِّون بالطوامير والقراطيس (٢) التي كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفي الجهمشياري أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظم كتبه ويجلل (٣) الخط الذي يكتب به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض (٤) . ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على كتبهم ، حتى لرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاعتقاد في القراطيس ، طالباً من الكتاب أن يوزوا (٥) ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ - ١٢٤ ) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهي مدرسة رقي فيها النثر الفني لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله والثاني من غير بيته ، هو صهره وختنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ونقل عنها - كما مر بنا - بعض رسائل لأرسططاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول (٦) ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة (٧) . ومن يرجع إلى الجهمشياري

- |   |                       |
|---|-----------------------|
| (١) الجهمشياري ص ٣٩ .                   | (٤) الجهمشياري ص ٤٧ . |
| (٢) الطوامير والقراطيس : الصحف الكيرة . | (٥) الجهمشياري ص ٥٢ . |
| (٣) يجلل : يعظم .                       | (٦) الفهرست ص ١٨٢ .   |
|   | (٧) الفهرست ص ١٧١ .   |

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له (١).

فالحليفة لم يعد يُعْمَلُ على كتابه كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثمّ لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول في مسهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزعج أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنصُّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصّت المصادر على اسمه . وتحول عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية . ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تُطَبِّعُ بطوايح أسلوبية واحدة ، إذ تجرّى في أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرحيمة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفَّ ببعض أهله (٢)

« حلت هضبة أصبحت تحو (٣) بها عليهم مفتخراً ، هنا إن لم يدَهْه (٤) بك قلة شركك متحطماً وقيناً (٥) ، فهلا - يا ابن مجرشة (٦) قومك أعظمت رَجَلهم عليك داخلا ، ووسّعت مجلسه إذ رأيتك إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاورضته (٧) مقبلا عليه بيشركك إكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهي كلها من هذا النسيج الأنيق الذي يترينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أثرت لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدّمه إليه ، وهي على هذا النمط (٨) .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسم للرجاء فيما بقي لي عندك . قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شركك ، وجعل

(٦) المجرشة : الماشطة .

(٧) فاورضته : حلثته .

(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفحت ٤٣١/٢ .

(١) الجهشاري ص ٦٢ .

(٢) طبري ٦٨/٥ وما بعدها .

(٣) تنحو : تشرف وتطل .

(٤) يدَهْه : يسقط .

(٥) وقيناً : صريماً .

ما سلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك .

وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه ، فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ المبرد في كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة تسع عشرة ومائة إلى خالد القسري حين أخذ ابن حسان النبطي وكيل هشام على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتتحها بقوله (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب (٢) الصنعة قبلك واستتمام معروفي عندك . وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعدد مثل مقاتلك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرته ، فأساء حتمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه إلى حيلته وحسبه بيته ورهطه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغيبر (٣) ، وانكشطت (٤) عنه حماية الغي والسلطان ، ذل منقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً عليه قاهراً له . . . »

وأطب عبد الله في الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ، ومصغراً لأمره بالقياس إلى سلفه الخجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يعاونه ويغمره . ويمضى يعدد عليه أخطاءه في سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس في أعماله ، وكيف ضيع أموالاً كثيرة ، هي أموال المسلمين ، في حفر نهر المبارك ، وكيف يبتز أموال رعاياه باسم هدايا النيروز والميهرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع بابن حسان ، ويسجل عليه نقص الخراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان ، مظهراً بها العصبية الجنية متحاملاً على المصرية . وهو في ثنايا ذلك يهدده بواجع بغية وأنه إن لم يكف عن غيبه فقبيل أمير المؤمنين كثير من خير منه عاقبة وعملا . وطالت الرسالة ، حتى لكانها تاريخ مختصر لخالد القسري وولايته الطويلة

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) الفير : حوادث الدرر .

(٣) رب الصنعة : إتمامها وتنميتها .

(٤) انكشطت : انكشفت .

على العراق . وهي جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذى رأيناه فى فاتحتها ،  
والذى ثبتته سالم فى دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه  
عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

### عبد الحميد <sup>(١)</sup> الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بى عامر بن لؤى ، وهو فارسى  
الأصل . ويقول أكثر من ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق <sup>(٢)</sup> وسكن  
الرقبة . وكان فى أول أمره ينتقل فى القرى معلماً فى كتابتها ، وعرف فى  
نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك ، وأُعجب  
به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرج كاتباً لابياري . وعرفه مروان  
ابن محمد ، وكان عاملاً لهشام ، كما مر بنا ، على أرمينية ، فاتخذه  
كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ فى الحكم إذا قلنا إن ما أثبتته الطبرى من رسائل  
لمروان فى ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم  
عبد الحميد . ويتولى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد  
رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ، وبعثاً حاول أن يلم الشعث حين انقضت  
جيوش أبى مسلم من خراسان ، حتى إذا هزم مروان فى موقعة الزاب ولّى  
وجهه معه إلى مصر حيث فُتلاً معاً فى معركة بوصير .

وهكذا كان وفيماً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض  
الرواة أنه فرّ بعد موقعة الزاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح  
فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل  
عشور السفاح عليه . وهى مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعل مما يدل

(الطبرى) ص ٦٩ وصحح الأعشى ٨٥/١ ،  
١٩٥/١٠ واليمنية لشمالي (طبعة الصاوى)  
١٣٧/٣ والجزء الثانى من جمهرة رسائل  
العرب لإحمد زكى صفوت ومن حديث  
الشمر والنثر لظه حسين ص ٤٠ وما بعدها  
(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول  
إنه من أهل الشام .

(١) انظر فى عبد الحميد الوزراة والكتاب  
لجبهشيارى ص ٧٢ وما بعدها وروايات الأعيان  
لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١  
والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والسنن  
للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٢٥ والبيان  
والشيبين ٢٠٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ ، وصيون  
الأخبار ٢٦/١ والصناعتين للمسكرى (طبعة

على أنه قُتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم (١) .

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سباه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونصّح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم (٢) ، وظلت شهرته ممدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وكأنه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كماً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مرّ بنا في أول خطبته المنزوعة الرائ . ولا تلتفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ، وإنما بلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت عن الساسانيين والتي يُقال إنه كان أحدَ نقلتها إلى العربية (٣) . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنتهي إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب (٤) وهي رسالة عامة ليست موجّهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هي موجّهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب في تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية . ونحن لا نقتربها إلى ما استهّل به الجهشيارى كتابه « الوزراء والكتّاب » من وصايا كان يوصى بها ملوك الفرس ووزرائهم الكتّاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تعدُّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية في سياستها

(١) الجهشيارى ص ٨٢ .

. ٢٩/٣

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وصحح الأعشى

. ٨٥/١

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين

وضبط شئونها في الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغي أن يحسنه الكتاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشرَ الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عزَّ وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فلما ثِقافُ ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حليمةُ كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بحلى العلم والأدب ، ويصرح بأن عليهم أن يوسّعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شئون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك في كتاباتهم السياسية . ونراه في تضايف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد حصّم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرِّفة في العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طيفور<sup>(١)</sup> وهي في رأينا تكملها ، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغي أن يجمعهم من إلف الوداد والصدقة ، ومضى في هذه الرسالة يفصّل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيّناً دعائه التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تندخل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاق الذي شاع في بلاط الساسانيين ، وصلبر عنه ابن المقفع في كتابيه

## الأدب الكبير والأدب الصغير (١)

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسائلتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه (٢) وولي عهده عبد الله حين أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصُّمِّري، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨. ولا نكاد نلمُّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طولاً غير مألوف، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القطع الكبير. وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلين دماء المسلمين؛ وأنه رأى أن يكتب إليه بعهد يؤدي به حق الله الواجب عليه في إرشاده. ويمضى العهد بعد ذلك موزعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها. وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده. ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركاته، ويقيض في بيان الحصال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن تتصف بها طلائعه. وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يتقسّمه إلى وحدات، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة. ويشير إن ما ينبغي أن يتحلى به خازن أمواله من خلال. وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنال والولايات. ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غدوة ورواحه ومنازلة خصمه. ويختم الرسالة بالدعاء له.

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش، وهو دستور استعان

(٢) صبح الأعشى ١٠/١٩٥

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر

لعربي » ص ٢٣٩ وما بعدها.



فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها في كتبهم ، هى خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكمتهم ووكهم ، وقد شفعا بتعاليم الإسلام الزكية واطرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتبع له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهى صياغة لا تكاد تفتقر في شىء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأصراهما من الوعاظ الذين ألنوا اللغة ومرتونها لأداء معانيهم ، وكأما تحول إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفتقر عنهم في شىء ، فهو يزواج في ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقهم في الترادف ، موشياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية<sup>(١)</sup> ، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشرها في كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهى شائعة في الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومررت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مررت بنا .

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهى تتضح في رسالة ولى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصل له ما ينبغى أن تكون عليه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخيِّله من صفات، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً. ومن هنا الباب رسالته (١) التي وصف بها الصيد، وجوارحه ومعاركها مع الطباء والآرام وحُمر الوحش، وما وقعوا عليه من بعض الغدُران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين.

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد. وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساساً فيها أن تُسند بالتفنن في القول وتشعيب المغاني معتمدة على ثقافات مختلفة: أجنبية وعربية. وأخذت تترجم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين، إذ نرى عبد الحميد يُجري قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد. ودائماً تروعننا براحته البيانية، ولا نستطيع أن نقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة، غير أنه ينبغي أن لا ننسى دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة (٢) التي كتب بها إلى أهله يعزيهم عن نفسه، وهو منهزم مع مروان:

«أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكُرّه والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فن درت (٣) له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها سكن إليها ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعصته بأنبيائها، وتوطأته بثقلها، قلأها (٤) نافرأ عنها، وذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستريداً منها، وقد كانت الدنيا أذقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درها أفأويق (٥) استحليناها، ثم شمسست (٦) منا نافرة، وأعرضت عنامتكرة، ورحتنا (٧) مولية، فلدح عذبتها، وأمر»

(٥) الأفويق: ما يتجمع في الفرج من اللبن.

(٦) شمسست: من شمس الفرس إذا جمع.

(٧) رحنتنا: من رجع الفرس إذا ركله.

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٤.

(٢) الجهشيارى: ص ٧٢.

(٣) درت: من الدر وهو اللبن.

(٤) قلأها: كرهها وأبغضها.

حلوها، وخُشِنَ لَيْتِهَا، ففَرَّقْتَنَا عَنِ الْأوطَانِ، وَقَطَّعْتَنَا عَنِ الْإِخْوَانِ، فدارُنَا نازحةٌ،  
 وطيْرُنَا بارحةٌ (١)، قد أخذت كلَّ ما أعطت، وتباعدت مثلما تفرَّبت، وأعقبت  
 بالراحة نصباً (٢)، وبالجدل (٣) هما، وبالأمْنِ خوفاً، وبالعزِّ ذُلًّا، وبالجدَّة (٤)  
 حاجة، وبالسرَّاءِ ضراء، وبالحياة موتاً، لا تترحم من استرحمها، سالكة بنا  
 سبيل مَنْ لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء» .

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميّز بها في أسلوبه  
 ومعانيه، فالألفاظ منتخبة وليس فيها توغرُّ ولا غريب وحشيٌّ، وإنما فيها  
 العذوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها  
 الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يُعنى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهي به  
 إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات  
 موسيقية تثبتتها في الذهن وتجلوها جلاء تاماً. وهو يضيف إلى ذلك حلي من  
 طباقات وتصويرات تُضفي على أسلوبه روعة بيانية خلاقة، بل إننا لا ندقق في  
 القول حين نزعم أنه يضيف هذه الحلي، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام،  
 وكأنها سداه ولُحْمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر  
 الأموي على كل ما كان يُنتظر لها من رقي وإبداع فني .

(٣) الجدل : السرور

(٤) الجدَّة : الميسرة .

(١) الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى

اليسار، والعرب القدماء كانوا يتشامون بها .

(٢) نصبا : تعباً

## خاتمة

١

### خلاصة

انقسم العصر الإسلامي في هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بني أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمَتِهِ الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية ، مبيّناً كيف أخرج العرب من الظلمات إلى النور وبمعهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتى دخلوا في دين الله أفواجاً . وألّمت بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروب الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثالية الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا في مدى تأثرهم واستلهاهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مساً عنيفاً ، ومنهم من مسّ روحه مساً خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحطّيشة ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيق الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعتمد على الإقذاع في الهجاء فحسبهُ التمكّم والسخرية . وكان يجازيه كثيرون بتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثر في نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبّيد والناطقة الجعدى فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواظ خالصة .

وكان تأثر النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض في معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووصف الكون في طرفيه من النشأة والدثور ورسَم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التي تحقّق للناس السعادة في الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشریباً ، وقد تجمّع بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخاطبون في الجيوش الفاتحة محمّسين وهاوئين باتباع تعاليم الإسلام السمحة في معاملة الأمم المغلوبة . وسار في نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبي طالب ، وكان خطيباً مفوهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة في صفوفه وفي الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة في الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسح طاقة النثر العربي في صدر الإسلام ، ومدّ أطنابها مدداً واسعاً . وجدت بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذّكر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة موثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكروهم الجهشيارى وغيره . وتحدّث الفتوح ، وتكثّر الرسائل بين الخلفاء وقوادهم وولاتهم ، كما تكثّر المعاهدات ، وفي أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابي عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابي ، بما أخذ يحتمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثاني الخاص بعصر بنى أمية ، فتحدّثت عن مراكز الشعر في هذا العصر ، ووقفت أولاً عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترّف واللّهو والغناء ، مما كان له أثر واسع في نمو الغزل بهما وذيوعه على كل لسان . وكان سكان نجد وبادى الحجاز يعيشون في شظف من العيش هياً بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العُدريّ العفيف وشيوعه . وحدث أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفخر والهجماء . وكانت الكوفة مستقراً للشيعة وثوراتهم ضد بنى أمية فطبع شعرها في جمهوره

بطابع شعبي حزين . وأخذت العصبية تحتدم في البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون في خراسان ، فكثرت الشعر الذي ينطق عنها في البيتين . وكثرت سيول المديح فيها وفي الكوفة ، ومضت أسراب تنغنى بالزهدي أو بالحنون ، وأسراب أخرى تنغنى بنظرية الخوارج السياسية وخاصة في البصرة وبين جيوش الأزارقة في فارس . ولم ينشط الشعر في الشام إلا قليلاً ، فإن أكثر ما أنشد فيها وقد عليها إما مع مدائح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التي هاجرت إلى الشمال وإما مع بني أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر في المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تنقدّمها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولايتها مادحين .

وكانت تؤثر في الشعر الأموي مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب في البلدان المفتوحة بالموالي ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على السنة الموالي لكُنُيات مختلفة وانتشر الحزن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم في الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام في أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمسون للجهاد في سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسي واللهو والترف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعث بينهم فرق الجبسية والمُرَجثة والقدرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداؤه في الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالي ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأئما مُحيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بموانهم من العرب ، إذ يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكتبت شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المداحون يتغدون وبروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد نافرين وروداً الشاء محمّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نصيب القطاى وكعب بن معبدان الأشقرى وزباد الأعجم . وسعرت العصبيات القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرغ والحكم بن عبيدل وثابت قطننة . وما لاريب فيه أن أبرع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء النفاض النابون : الأخطل والفرزدق وجريير ، فقد أتاحوا للتقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ومروض ، كما أتاحوا للمدحة كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

وقف كثير من الشعراء فى صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويتناضلون وكانت لكل فرقة نظرية فى الخلافة تدافع عنها وتدود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة فى حكمه إلى قریش لا إلى كسلب وغيرها من القبائل اليمنية التى يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرقييات أهم من صدر فى شعره عن هذه النظرية . وكان الخوارج يرون أن الخلافة حق للمسلمين جميعاً لا لقریش وحدها ، وأنه ينبغى أن يتولأها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشياً ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذيعين فى أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة فى الاستشهاد وزهداً قوياً فى الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثلهم عمران بن حبطان والطرمآح . وكان الشيعة يرون أن الخلافة حق شرعى لأبناء على اغتصبه منهم الأمويون وينبغى أن يرد عايمهم ، وكان استشهاد أمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، ففضوا ببيكونهم بدموع غزار ، مُحفَظين الناس على أن يثاروا لهم من الأمويين ويذيقوهم حتفهم ، كما مضوا يصورون عقيدتهم فيهم وما يكدون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متبتلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثلهم كثير والكُمَيْت . وكان كثير من أشراف العرب وخاصة فى الكوفة متغيظين مُحفَظين على الأمويين لجعل الخلافة وراثية فيهم من دون العرب جميعاً ، وعبر عن ذلك ابن الأشعث فى ثورته وشاعره أعشى همدان فى شعره واصطف مع الأمويين شعراء كثيرين يدعون لهم ويتناضلون ضد كل هؤلاء الخصوم ، على شاكلة ما نرى عند عبد الله بن الزبير الأسدى الكوفى وعدى بن الرقاع الدمشقى .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها فى اتجاه واحد أو على الأقل

في اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، وأصحاب الغزل العفيف من أمثال قيس ابن ذريح وجميل بثينة، وأصحاب الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرمة. ومن ذلك الرجّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تنسع لكل أغراض القصيدة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرّروا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبدة .

وازدهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمت بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعْمَنُونَ بتجبير كلامهم ، وخيرٌ من يمثلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثروا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتته تبييناً قوياً ، وهو أسلوب نهض على حلّتي من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني . وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثلهم الحسن البصري .

ونمتي التدوين في هذا العصر نمواً واسعاً ، إذ دونوا معارفهم التي تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التي تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه والمغازي وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها



من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات في المثالب والأمثال والمواعظ والحكم وفي مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة في الكيمياء والطب والنجوم . وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترفين ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبد الملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقمص الديني الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعاني وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ، ومضى يديج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

## ٢

## تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم في الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولاً وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظم ابن سلام المخضرمين منهم في طبقات الجاهليين العشر الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والخطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والناطقة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ ، وكلهم عاشوا في العصرين الجاهلي والإسلامي . ونخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا في الجاهلية . ثم مضى في الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المرثي وشعراء القمري ، مشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما في الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والخطيئة ، كما ترجمنا لاثنتين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والناطقة الجعدي ، وترجمنا لحسان . ولم نترجم لأحد وراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يعدون في الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثر به الإسلام في أشعارهم. ولم نُغفل من سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفي الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم في الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بني أمية وجدناه يسلكهم في طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرب من سأمهم في تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا عرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وعُنينا بأخريين لم يجرؤوا على لسانه ، لأنهم فعلاً يتقدمون من عرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التي عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثمَّ اهتمَّ بمجهورهم صاحبُ الأغانى ، ففتح لهم في كتابه فصولاً طويلة ، وعنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعه صنعة مُحْكَمَة . وكثرة من سأمهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجلة ، وهم غالباً من تَجَدَّد ، وكأنه إنما عني بمن كانوا يدورون على السنة اللغويين متمثلين بأشعارهم ومستشعدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بيّنة ، فقد سلك الراعى في الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلٌّ ، ويدنو عن طبقتهم درجات . وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به في بيئة اللغويين من إحسانه لنعث الإبل ، وحشده في هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخبره عن طبقتهم وضع فيها بدلاً منه ذا الرُمة الذي يتقدم جميع شعراء عصره في وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُمة في الطبقة الثانية وقرب به فيها البعيث والقطامي وكثيراً ، والبعيث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْب بن وَيْبِل وأوس بن مَغْرَاء ، وَهَشَل بن حَرْمِي وَحُمَيْد بن ثور الهلالي والأشهب ابن رُمَيْلة وعمر بن لَحْطَاء التيمي ، وأبو زُبَيْد الطائي والعُجَيْب وعبدالله بن هَمَّام السلوليان ونُفَيْع بن لقيط الأسدي ، جميعهم مقلون ، ولا يمثلون عصرهم لا في أحداثه الجسام ولا في تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل في الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلاً ونُصَيْباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقرن بالمتوكل الليثي في الطبقة السابعة ابن مفرغ وزيداً الأعجم وعدى بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقله أشعاره . وجعل في الطبقة الثامنة عقييل بن علفة وشيب بن البرصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك في الطبقة التاسعة أربعة من الرجزاء هم : الأغلب العجلى وأبو النجم والعجاج ورؤية ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقله أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العقبيلي ويزيد بن الطشربينة وأبي دؤاد الرؤاسي والقحيف العقبيلي ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام في طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا في الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحى كثيرين يغنون فيه غناء محموداً ، مسوقاً في ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثم عنى بشعراء نجد والبهادي ، ولم يكده يُعنى بشعراء المدن مع أنهم يتفصلونهم بما دفعوا إليه الشعر من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبي ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل في عصره ، وأهمل معه العرجي وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حطان والطيرماتج ، ولم يُعنى من شعراء الشيعة إلا بكشيسر ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري وشعراء المهون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبية في عهد بني أمية . وقد ترجمت لكل من ذكرتهم آنفاً ممن أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثل في كل جانب من جوانب العصر وفي كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير من ترجمت لهم نائراً في الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع في دراستهم . والذي لا شك فيه أن شعراء العصر الأموي تطوروا بالشعر في جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نطقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

## فهرس الموضوعات

صفحة	
٧ - ٥	مقدمة
١٣٥ - ٩	الكتاب الأول في عصر صدر الإسلام
٢٤ - ١١	الفصل الأول : الإسلام
١١	(١) قيم روحية
١٥	(٢) قيم عقلية
١٨	(٣) قيم اجتماعية
٢٢	(٤) قيم إنسانية
٤١ - ٢٥	الفصل الثاني : القرآن والحديث
٢٥	(١) نزول القرآن وحفظه وقراءاته
٢٧	(٢) سور القرآن وتفسيره في العهد الأول
٣٠	(٣) أثر القرآن في اللغة والأدب
٣٤	(٤) الحديث النبوي
٦٧ - ٤٢	الفصل الثالث : الشعر
٤٢	(١) كثرة الشعر والشعراء المخضرمين
٤٦	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٣	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين
٥٣	(٤) شعر الفتوح

## صفحة

٦٨ - ١٠٥	الفصل الرابع : الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام
٦٨	( ١ ) كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام . . . . .
٧٧	( ٢ ) حسان بن ثابت . . . . .
٨٣	( ٣ ) كعب بن زهير . . . . .
٨٩	( ٤ ) ليبيد . . . . .
٩٥	( ٥ ) الحطيئة . . . . .
١٠٠	( ٦ ) النابغة الجعدي . . . . .
١٠٦ - ١٣٥	الفصل الخامس : النثر وتطوره . . . . .
١٠٦	( ١ ) تطور الخطابة . . . . .
١١٤	( ٢ ) خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم . . . . .
١٢١	( ٣ ) خطابة الخلفاء الراشدين . . . . .
١٢٩	( ٤ ) الكتابة . . . . .
١٣٧ - ٤٧٩	الكتاب الثاني في عصر بني أمية . . . . .
١٣٩ - ١٦٨	الفصل الأول : مراكز الشعر الأموي . . . . .
١٣٩	( ١ ) المدينة ومكة . . . . .
١٤٨	( ٢ ) نجد وبادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال . . . . .
١٥٣	( ٣ ) الكوفة والبصرة . . . . .
١٦١	( ٤ ) خراسان . . . . .
١٦٥	( ٥ ) الشام . . . . .
١٦٦	( ٦ ) مصر والمراكز الأخرى . . . . .
١٦٩ - ٢١٤	الفصل الثاني : مؤثرات عامة في الشعر والشعراء . . . . .
١٦٩	( ١ ) الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك في اللغة . . . . .

صفحة	
١٧٦	(٢) الإسلام وأثره في موضوعات الشعر . . . . .
١٨٢	(٣) السياسة . . . . .
١٩٣	(٤) الحضارة . . . . .
١٩٩	(٥) الثقافة . . . . .
٢٠٧	(٦) الاقتصاد وموقف العرب من المولى . . . . .
٢٨٩ - ٢١٥	الفصل الثالث : شعراء المديح والمهجاء . . . . .
	(١) شعراء المديح : نصيب : القطامي ، كعب بن
٢١٥	معدان الأشقرى الأزدي ، زياد الأعجم . . . . .
	(٢) شعراء المهجاء : ابن مفرغ ، الحكم بن عبدل ،
٢٢٩	ثابت قطنة . . . . .
٢٤١	(٣) شعراء النقائض . . . . .
٢٥٨	(٤) الأخطل . . . . .
٢٦٥	(٥) الفرزدق . . . . .
٢٧٦	(٦) جرير . . . . .
٣٤٦ - ٢٩٠	الفصل الرابع : شعراء السياسة . . . . .
٢٩٠	(١) شعراء الزبيريين : ابن قيس الرقيات . . . . .
٣٠٢	(٢) شعراء الخوارج : عمران بن حطان ، الطرماح . . . . .
٣١٥	(٣) شعراء الشيعة : كثير ، الكميت . . . . .
٣٢٩	(٤) شعراء ثورة ابن الأشعث : أعشى همدان . . . . .
	(٥) شعراء بني أمية : عبد الله بن الزبير ، عندي . . . . .
٣٣٦	بن الرقاق . . . . .
٤٠٤ - ٣٤٧	الفصل الخامس : طوائف من الشعراء . . . . .
	(١) شعراء الغزل الصريح : عمر بن أبي ربيعة ،
٣٤٧	الأحوص ، العربي . . . . .

## صفحة

- (٢) شعراء الغزل العذرى : قيس بن ذريح ، جميل  
 ٣٥٩ ابن معمر . . . . .
- (٣) شعراء الزهد : أبو الأسود الدؤلى ، سابق البربرى  
 ٣٦٩
- (٤) شعراء اللهو والمجون : الوليد بن يزيد ، أبوالهندي  
 ٣٧٦
- (٥) شعراء الطبيعة : ذو الرمة . . . . .  
 ٣٨٥
- (٦) الرجاز : أبو النجم العجلي ، العجاج ، رؤبة  
 ٣٩٤
- الفصل السادس : الخطابة والخطباء . . . . .  
 ٤٥٠ — ٤٥٥
- (١) ازدهار الخطابة . . . . .  
 ٤٥٥
- (٢) خطباء السياسة : زياد بن أبيه . . . . .  
 ٤١٠
- (٣) خطباء المحافل : الأحنف بن قيس . . . . .  
 ٤٢٨
- (٤) خطباء الوعظ والقصاص : الحسن البصرى . . . . .  
 ٤٣٥
- الفصل السابع : الكتابة والكتاب . . . . .  
 ٤٧٩ — ٤٥١
- (١) التدوين . . . . .  
 ٤٥١
- (٢) كثرة الرسائل المدونة . . . . .  
 ٤٥٦
- (٣) كتاب الدواوين : عبد الحميد الكاتب . . . . .  
 ٤٦٥
- خاتمة . . . . .  
 ٤٨٧ — ٤٨٠
- (١) خلاصة . . . . .  
 ٤٨٠
- (٢) تعليق . . . . .  
 ٤٨٥

تاريخ  
الخطب  
العربي

٣

دكتور شوقي ضيف

# العصر العباسي الأول



دار المعارف



تاريخ  
الأدب العربي

٣

# العصر العباسي الأول

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثامنة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع. ٩

# العصر العباسي الأول

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاصٌ بالعصر العباسي الأول ، وكان طبيعياً أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التي فرّصت نفسها على الأدباء العباسيين فرّصاً ، سواء الحياة السياسية وما كان يجري فيها من نظم وظروف وأحداث مختلفة ، أو الحياة الاجتماعية وما كان يشيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق في المجون وزندقة وزهد ونسك ، أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونقل علوم الشعوب المستعربة ووضع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية .

وقد بسطت القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكب الشعراء على العربية يتقنونها ويمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقاً ، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة ، وحيناً يجمع بين الرقة والعدوبة . وكان تأثيرهم عميقاً بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تُحصى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور ، وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعاني والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية . وفتحوا صفحة لم تكن تتخطر لأسلافهم على بال ، هي صفحة الشعر التعليمي الذي صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانية منظومات طريفة . واكتشفوا للشعر أوزاناً لم تكن معروفة وأنماطاً من القوافي كانت مجهولة .

ودرست دراسة نقدية تاريخية أعلام الشعر في العصر ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، وحاولت أن أرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم في تطور الشعر العربي وتجديده ، فأما بشار فسن للشعراء أن يزوجوا مزوجة

دقيقة بين عناصر الشعر التقليدي وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الجديد المستحدث وسيوله الحضارية والاجتماعية والعقلية . وكان تأثير هذه السيول في أبي نواس أشد عمقاً وأكثر حدة ، فتعمق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه في اللهو والحجون . وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفاً أفضى به إلى تنوع واسع في أشعار الزهد والمواعظ والأمثال . وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشائخة مع التدقيق الشديد في المعاني والإكثار من ألوان البديع . أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجاً رائعاً ، بحيث أصبح معروضاً باهراً لطرائف البديع وطرائف المعاني والأخيلة البارعة .

وراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور في تطور الشعر في العصر تطوراً متفاوت قوة وضعفاً ، مما دفعني إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم ، ووضعهم في فصائل متقابلة ، والتمست لكل فصيلة صفة من يمثلونها ، فللسياسة ممثلوها ، وكذلك للمديح والهجاء والغزل والحجون والزندقة والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية .

وانتقلت أدرس النثر وماحدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثقفه الوعاط والمتكلمون والكتّاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية . وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصاص . ونفذ المتكلمون إلى فن نثرى مستحدث هو فن المناظرات ، ونحوه ورقوا به رقيماً بعيداً . وازدهر النثر الديواني وكل ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات ، وحبر الكتّاب كثيراً من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء والتي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، ودبج نقر منهم رسائل أدبية خالصة حللوا فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حيناً ، وحيناً حاكوا قصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية .

وعُتبت برسم شخصيات أعلام الكتّاب في العصر وآثارهم الأدبية ، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات ، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية ،

وكتَبَ رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وافتنَّ سهل بن هرون في كتابة رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء . وبرع أحمد بن يوسف في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مُضْفِيًا على أساليبه كل ما يستطيع من صور الترميق . وحرص عمرو بن مسعدة على التأنيق والاقتصاد المسرف في التعبير . ولم يكن ابن الزيات يتأَنَّق في كتاباته ، غير أنه كان يُعْنَى بِحُسْنِ القَوْلِ وجزالة اللفظ ورصانته . واللهَ أسأل أن يُلْهَمَني السَّدَادَ والإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

القاهرة في أول ديسمبر سنة ١٩٦٦ م



## الفصل الأول

### الحياة السياسية

١

#### الثورة العباسية

تعدُّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التي نشبت ضد بني أمية ، وهي ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعي ، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرفق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء ، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محوً على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب . وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح في وجوههم مراراً ، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائماً أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحاراً من الدماء ، متخذين من القضاء على كل ناثر وأنصاره نكالا لكل من يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية .

وقد انتهت ثورات ابن الزبير وابن الأشعث ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج ، ومثلها ثورة الشيعة ، فظلت تشتعل من حين إلى حين في العراق وجنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق . وكانوا كلما قضوا على ثورة وقتلوا منها مقتلة عظيمة هبَّت ثورة ثانية . وكلفتهم ثورات الخوارج خاصة جهوداً هائلة ، إذ كانوا لا يستيئون أبداً ، وكان قد استقر في نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغي أن يعود إليها بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها وبحيث يعم العدل الذي لا تستقيم حياة الناس بدونه . وقد مضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً ، لا يصانعون فيه ولا يداهنون ، بل يشهرون سيوفهم باذلين أرواحهم في سبيل عقيدتهم ، وكلما هُزمت منهم طائفة امتشقت الحسام طائفة أخرى ، فقد باعوا أنفسهم لله ودينه الحنيف يقاتلون في سبيله ، فيقتلون من خالفوا



الطريق السويّ في رأيهم ويقتتلون راضين . وأهم ثورات الشيعة المسلحة ثورة المختار الثقفي بالكوفة ، وقد تكفّل مصعب بن الزبير حين كان والياً لأخيه على العراق بالقضاء عليها قضاء مبرماً . ولم تقم للشيعة بعده قائمة حتى كانت ثورة زيد ابن علي زين العابدين في أول العقد الثالث من القرن الثاني ، وقد انتهت بإخفاق ذريع ، ولم يلبث ابنه يحيى أن قُتل على أثره ، كما قُتل بعده بقليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية ، وحرموهم المساواة بالعرب في الحقوق ، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب في الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا في ذلك ألواناً من البؤس الذي يُطاق والذي لا يُطاق . فكان طبيعياً أن تكثر مطالبتهم بالعدل الاجتماعي وأن يطمحوا إلى حكّام جُدُدٍ يُقرّرون فيهم مبادئ الإسلام الذي يوجب المساواة بين أفراد الأمة في جميع الواجبات المالية وغير المالية والذي ينكر الظلم أشد الإنكار ، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة . وقد وضعت كثرتهم آمالها في أبناء علي وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعتهم ، غير أنهم فقدوا في أسرة علي وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الحرى الذي يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يُكْتَسَبُ لها النجاح .

وعرف ذلك فيهم أبناء عمومتهم العباسيون ، ولكن كيف يلون هذه الزعامة ، والشيعة من حولهم ينضمون تحت ألوية أبناء علي وحدهم دون من سواهم من الهاشميين؟ لقد أخذوا يفكرون في ذلك ، ولم يلبثوا أن نفذوا إلى أمنيته المتبغاة عن طريق فرقة الكيسانية الشيعية التي تكونت حول ابن الحنفية ، فقد استوطن ابنه أبو هاشم - الذي ورث عنه زعامة هذه الفرقة وإمامتها - بلدة الحُمَيْمَةِ ببلقاء الشام ونزلها معه علي بن عبد الله بن العباس وأسرته ، وسرعان ما توثقت الصلة بين ابنه محمد وبين أبي هاشم ، ورأى فيه أبو هاشم خير خلف له على جماعته ، فلما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى له وصية صريحة بالإمامة من بعده . وبذلك وجد محمد ركيزة يعتمد عليها في إثبات حقه في الخلافة ، وكان حصيف الرأى بعيد

النظر ، فعمد تَوًّا إلى تنظيم الدعوة العباسية سرًّا من مقره في الحَمَيْسَة متخذاً من الكوفة دار التشيع ومستقره مهدياً لها ومركزاً<sup>(١)</sup> ، ووضع خطة تنظيمها هناك في يد ميسرة ، وجعل له الإشراف على الدعوة بخراسان حيث كان الموالى هناك يمتثلون سخطاً وموجدة على الأمويين الذين كانوا لا يزيلون عنهم ظلماً إلا ليقيموا مكانه ظلماً أشد عنفاً . وقد اتخذ دعائه هناك من التجار وكانوا أخلاطاً من عرب وموال ، فضوا يثيرون الناس هناك ضد بني أمية مصورين ما ينبغي أن يسود في الأرض من العدل وإزالة الظلم ، ومات ميسرة سنة ١٠٥ فأقام محمد بن علي مكانه بـكَيْسِر<sup>(٢)</sup> بن ماهان ، وكان لا يقل عن سلفه دهاء ونهوضاً بعظائم الأمور ، فوثق الدعوة ونظمها بخراسان خير تنظيم . وتوفي الإمام محمد بن علي سنة ١٢٥ عاهداً بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم فارتضاه الدعاء وتوفى على إثره بكبير فخلفه على الدعوة صهره أبو سَلَمَة<sup>(٣)</sup> الخَلَّال ، فجند في الأمر وجدد معه الدعاء . وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولي الخلافة ، وكان مدمناً للخمر منادماً للفَسَاق والمغانى ، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد ، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاء أبي سلمة في خراسان ، فقد بدا في وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التي رزح الموالى تحت أثقالها الباهظة . وتراءى حينئذ في الأفق أن سلطان البيت الأموي يؤذن بالسقوط ، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب ، بل أيضاً لما نشب من خلاف عنيف بين أفرادها ، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحنًا مرًّا ، وتغلب بأخرة مروان بن محمد ، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده ، وانتهر الخوارج الفرصة ، فنازلوه في الموصل وفي اليمن والحجاز .

وفي هذه الأثناء تولى أبو مسلم الخراساني قيادة<sup>(٤)</sup> الدعوة في موطنه ، وكان من دهاء الرجال ومن أكفهم في النهوض بجلائل الأعمال ، فأخذ يصور للناس فساد الحكم الأموي وما يسومهم به من خسف وظلم وكيف أنه سيمسكهم الأرض ويجعلهم

(١) انظر في تنظيم الدعوة العباسية فُلهورن في

كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة

أبي ريذة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٠ والطبري

(٣) طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ٣٧٦/٥ .

(٤) فُلهورن ص ٤٨٦ وما بعدها والطبري

٦٢٢/٥ .

(٤) فُلهورن ص ٤٩١ .

(١) انظر في تنظيم الدعوة العباسية فُلهورن في

كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة

أبي ريذة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٠ والطبري

(٣) طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ٣٧٦/٥ .

(٤) فُلهورن ص ٤٨٦ وما بعدها والطبري

٦٢٢/٥ .

(٤) فُلهورن ص ٤٩١ .

سادة بعد أن كانوا عبيداً مسترقين والناس يسمعون له ويحفون به وينضمون إلى دعوته حتى كثف جمعهم وحتى غدا نزاله لنصر بن سيار وإلى الأمويين هناك قاب قوسين أو أدنى . غير أنه رأى أن يتمهل قليلاً قبل أن يبدأ مغامرته الخطيرة متخذاً لها من الأسباب ما يكفل النجاح المحقق ، ولم يلبث أن عمد - بدهائه - إلى الإيقاع بين الكرمانى ومن معه من القبائل اليمينية وبين نصر بن سيار ومن معه من القبائل المضرية ، واشتعلت الحروب بين الفئتين ، وسفك فيها كثير من الدماء . حتى إذا وهنت قوة نصر أعلن أبو مسلم الثورة عليه وعلى من وراءه من الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين السوداء تخفق فوق جنوده ، وحواضر خراسان تسقط - واحدة إثر أخرى - فى يده . ويستصرخ نصر بن سيار مروان بن محمد وابن هبيرة وإليه على العراق أن يمداه بالنجدة ، ولكنهما كانا فى شغل عنه بشواث الخوارج فى العراق وغير العراق ، ويموت كمدأ بين الرى وهمذان . وتتقدم جيوش أبى مسلم بقيادة قحطبة وابنه الحسن مستخلصه المدن والحصون مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وما تلبث أن تقتحم العراق ويسرع ابن هبيرة للقائها عبر الفرات ، ويحاول قحطبة أن يتجنبه متجهماً إلى الكوفة ، ثم يلتقى به فتدور عليه - كما دارت على نصر بن سيار من قبله - الدوائر ، فينحاز بجيشه إلى واسط . ويقتتل قحطبة فى ظروف غامضة ، ويتولى القيادة بعده ابنه الحسن ويدخل الكوفة دون أن يلقى أى مقاومة ، وحينئذ تبرز إلى النور حكومة بنى العباس السرية وعلى رأسها أبو سلمة الخلال .

وكان مروان بن محمد قد قبض - قبل دخول الحسن بن قحطبة الكوفة بوقت قصير - على إبراهيم بن محمد الإمام ، إذ عرف أنه هو الذى يدبر هذه الثورة من مقره فى الحميمة ، وعرف إبراهيم أنه قاتله ، فعهد بالأمر من بعده إلى أخيه أبى العباس السفاح . وقتل إبراهيم ، ونقلت الأنباء إلى أبى العباس دخول الحسن ابن قحطبة الكوفة ، فخرج إليها فى أهله يتقدمهم أعمامه : داود وعيسى وصالح وعبد الله وإسماعيل وعبد الصمد ، وأخوه أبو جعفر ، وابن عمه عيسى بن موسى ابن محمد .

وظل العباسيون - طوال المدة السرية لدعوتهم - لا يذكرون للناس أنهم طُلابٌ خلافة ، إنما يذكرون لهم أنهم يطلبون إسقاط الدولة الأموية الجائرة التى

طالما أرهقتهم بعسفها وظلمها وطالما احتكرتهم لمآربها وشهواتها مع الاستبداد بالشعب واستعباده ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم إفساداً لاصلاح لها بعده إلا بمحوهم محوًّا . وبذلك وارى العباسيون أشخاصهم وقدموا القضية التي نصبوا أنفسهم للدفاع عنها ، قضية نصره الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم المتصل . ولكي يحكموا خطتهم كانوا لا يأخذون البيعة لأنفسهم بالخلافة ، إنما يأخذونها لإمام رِضاً<sup>(١)</sup> من آل البيت النبوي ، حتى لا يثيروا أبناء عمهم العلويين عليهم ، بل حتى يجمعوهم تحت لوأثمهم . وكانوا يشيعون دائماً أنهم نهضوا لهذا الأمر كي يثأروا للشهداء من أبناء فاطمة الزهراء .

وكان أبو سلمة الخلال الذي لقبوه بلقب « وزير آل محمد » يرى أن يختار للخلافة أحد أحفاد علي بن أبي طالب ، ومن أجل ذلك أخفى أمر أبي العباس وأهله حين نزلوا الكوفة وعزلم عزلاً تاماً عن جند خراسان ، غير أن أبا العباس استطاع الاتصال بأبي مسلم إذ وجهه إليه مَنْ أطلعه على نوايا أبي سلمة ، فأرسل إليه وفداً من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة ، واضطُرَّ أبو سلمة اضطراراً أن يعلن تأييده<sup>(٢)</sup> له ، واتَّجه أبو العباس تنوًّا إلى المسجد الجامع في الكوفة ، فبايعه الناس ، وارتقى المنبر ، فاشرَّبت إليه الأعناق وأصغت إليه الآذان ، فإذا هو محتج بأبي القرآن الكريم على أن بيته العباسي أحق بالخلافة من بيت العلويين . وكان متوعكاً فانقطع عن متابعة الكلام ، وتابعه عمه داود متحدثاً باسمه ومؤكداً فضل الخراسانيين في تحرير الأمة من نير الأمويين<sup>(٣)</sup> ، ومن حكمهم الباغي الفاسد . ولم يطمئن أبو العباس لمقامه في الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحول عنها إلى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه إلى الخيرة وأخذ في بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى أبا مسلم الخراساني بأبي سلمة فُدسَّ إليه مَنْ قتلته<sup>(٤)</sup> .

وكانت الجيوش قد اتجهت لمتابعة حرب مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن علي عم السفاح ، فالتقت به علي الزاب شمالي العراق ، وهزمته هو وجيشه هزيمة

(٣) طبرى ٨١/٦ وما بعدها .  
(٤) طبرى ١٠٣/٦ والمسعودى ١٩٩/٣  
واليعقوبى ٨٩/٣ .

(١) انظر الطبرى ٧٩، ٢٧/٦  
(٢) الطبرى ٨٥/٦ وروج الذهب للمسعودى  
(طبع دار الرجا بالقاهرة) ١٨٣/٣ وتاريخ  
اليعقوبى (طبعة النجف) ٨٦/٣ .

ساحقة ، فولّتى مع بعض فلول جيشه حتى حران وتركها إلى نهر أبي فطرس بفلسطين والأردن ، وتبعه عبد الله بن علي ، وتلقاه بلدان الشام بالتهليل والترحيب إلا ما كان من دمشق ولكنها سرعان ما انقادت له . وبرحها إلى نهر أبي فطرس ، فإذا مروان قد آوى إلى مصر ، فأرسل وراءه أخاه صالحاً فما زال يفر أمامه من بلدة إلى بلدة حتى لقي حتفه في بوسير من بلدان الصعيد لأواخر سنة ١٣٢ للهجرة . وكان لا يزال يزيد بن عمر بن هبيرة يقاوم في واسط ، وقد ضرب من حوله الحصار ، حتى إذا جاءه نعى مروان بن محمد أخذ يفاوض العباسيين في التسليم لهم ، وسرعان ما عقدوا له أماناً فتح على إثره أبواب واسط ، غير أنهم عادوا ففتكوا به وبكثيرين ممن كانوا معه (١) .

وتذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموي فتكاً ذريعاً يريدون أن يستأصلوهم من الأرض استئصالاً ، حتى ليتخذ ذلك شكل احتفالات دامية ، وكان أول من بدأها عبد الله بن علي إذ دعا في أبي فطرس نحو ثمانين منهم إلى وليمة ، ولم يكادوا يجتمعون لها حتى انبرى بعض الشعراء يحرصونه على الفتك بهم ثاراً للإمام إبراهيم بن محمد ومن قتلوا من العلويين والهاشميين ، فأمر بهم جميعاً أن يضربوا بالعمد حتى يلقوا حتفهم (٢) . نكالا لهم ولآبائهم . وصنع صنيعه بجماعات أخرى منهم السفاح وعماه داود وسليمان (٣) ، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا على وجه الأرض أحداً منهم ، وحتى موتاهم لم يفلتوا من هذا العقاب الصارم ، إذ يقال إنه نُبشت قبور خلفائهم — ما عدا قبرى معاوية وعمر ابن عبد العزيز الخليفة الورع — وحُرقت بقايا جثثهم بالنار تحريقاً (٤) . وكان هذا البطش الذى لا يُبْتقى ولا يندر دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك إلى أن يلوذ بالفرار إلى الأندلس حيث أسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثمائة عام .

وعلى هذا النحو ظفرت الثورة العباسية بالبيت الأموى الذى كانت نفوس الرعية تمتلئ سخطاً وحفيظة عليه لما أذاقهم من الظلم ، ولما حرّمهم من الإنصاف

(١) طبرى ١٠٤/٦ . (طبع دارالكتب) ٣٤٤/٤ .

(٢) (٤) المسعودى ١٤١/٣ واليعقوبى ٩٣/٣ .

(١) طبرى ١٠٤/٦ .  
(٢) الطبرى ٩٧/٦ واليعقوبى ٩٢/٣ .  
(٣) الطبرى ٩٧/٦ ، ١١١ والأغانى

والعدل الاجتماعى ، ولما ازدرى من الحق والواجب . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق موثلاً لخلافتهم ، فعلا نجمه ، بينما هوى نجم الشام إذ أصبحت ولاية تابعة له بعد أن كان يتبعها . واتخذ السفاح - كما أسلفنا - الهاشمية مقر الدولة ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار قرية صغيرة على الضفة الغربية لدجلة لتكون حاضرة الخلافة ، هي بغداد .

## ٢

## بناء بغداد ثم سامراء

رأى أبو جعفر المنصور أن يتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات ، وحتى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم . وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية ، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم ، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج ، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني عنه وحسن بلائه (١) .

ولما انتهت هذه الفتنة رأى المنصور - بثاقب نظره - أن يحول حاضرتهم من الهاشمية إلى موضع يأمن فيه الفتن ، فبعث بجماعة من أصحابه يرتادون له المكان الذى يبتنى به مدينته المحصنة الجديدة، وخرج بنفسه يرتاد معهم . وأعجبه بقعة بغداد التى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، فأحضر صاحبها وأصحاب القرى المجاورة لها من بطارقة ورهبان ، وأخذ يسألهم عن أحوالها ، فانبرى صاحبها يذكر له أنه يحفُّ بها أربعة طساسيج (٢) : طَسَّوْجان فى الجانب الغربى هما قَطْرُبُل وبادوربا ، وطسوجان فى الجانب الشرقى هما : نهر بوق وكتلواذا ، فإن أجذب طسوج أخصب طسوج ثان . ثم ذكر له قربها من الفرات وما يُحْمَل فيه من طرائف الشام والمغرب ومصر ووقوعها على دجلة وما يحمل فيه من متاجر البصرة التى

(٢) انظر الطبرى ١٤٧/٦ وابن الطقطقى ص ١٨ . والطساسيج : جمع طسوج وهو الناحية .

(١) الطبرى ١٤٧/٦ والفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى (طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة) ص ١١٦ .

تأتيها من المحيط الهندي وأيضاً ما يحمل فيه من عروض أرمنية والحزيرة والموصل وما وراءه ، وكيف أنها محجوزة وراء دجلة وأمام الفرات وكأنهما سدان منيعان أمام الأعداء ، ثم هي وسط في سواد العراق وبين مدنه .

حينئذ اعتزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة ، وقد اختلف الباحثون في أصل اسمها ، فقال فريق إنه اسم فارسي وقال آخرون إنه اسم آرامي (١) ، وسماها المنصور « دار السلام » أخذاً من قوله جَلَّ وَعَزَّ ، ( لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ) وبهذا الاسم كانت تُضْرَب النقود العباسية . وقد كانت منطقتها موثلاً لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقي بها قبل الإسلام الحضارات : الكلدانية والفارسية والآرامية ، وكانت تنبثُ حواليها أديرة كثيرة .

وعنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرتِه ، بل قلعتِه الحصينة ، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض ، ومثل لهم صفتها التي في نفسه ، وهي أن تكون مدورة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة ، ووضع أول لبنة فيها بيده سنة ١٤٥ قاتلاً : « بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ويقال إنه جلب إليها كثيراً من مواد البناء التي كانت لا تزال قائمة في المدائن حاضرة الساسانيين . وظل البناء قائماً بها حتى سنة ١٤٩ .

ويمكن لإجمال وصفها في أنه كان يستدير حولها خندق (٢) كبير وسوران شاهقان عريضا الجدران ورائهما سور داخلي مبالغاً في تحصينها . وفتُح في كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد : باب الشام في الشمال الغربي ويقابله باب البصرة في الجنوب الشرقي على الصراة التي تأخذ من الفرات وتضى حتى تتصل بدجلة ، وباب خراسان في الشمال الشرقي بجذاء دجلة ويقابله باب الكوفة في الجنوب

وختصر البلدان لليعقوبي وكتاب بغداد قديماً وحديثاً الآنف الذكر ، وبغداد في عهد الخلافة العباسية لحي لسترانج ترجمة بشير يوسف فرنسيس ( طبع المطبعة العربية ببغداد ) وبغداد مدينة السلام لطف الراوي ( طبع دار المعارف ) .

( ١ ) راجع كتاب بغداد قديماً وحديثاً لمصطفى جواد وأحمد سومة ( طبع مطبعة المجمع العلمي العراقي ) ص ١٧ وما بعدها .

( ٢ ) انظر في تخطيط بغداد الجزء الأول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ومعجم ياقوت

الغربي . وكان على كل باب خارجي مجلس يُصعد إليه على الخليل وقباب مذهبة في رأسها تماثيل تتجه مع الريح ، وكان بين كل قبتين ثمانية وعشرون برجاً مجهزة بأدوات الدفاع عن المدينة . وبُنِي في الرحبة الداخلية مسجد كبير ، وبني بجواره قصر المنصور المسمى باسم قصر الذهب ، وقد أقيم في صدره إيوان شامخ يتصل بإيوان مثله جعلت فوقه قبة عظيمة عرفت باسم القبة الخضراء ، وكان يعلوها تماثيل فارس بيده رمح ولا يزال الفارس يدور مع الريح . وبنيت دور كثيرة للدواوين والخزائن . وأقطع المنصور قواده كثيراً من القطائع داخلها ، ومن أجل ذلك نُسبت دروبها إليهم ، وأقطع الجند أرباضها كما أقطع أهل بيته أطرافها ، وابتنى لنفسه قصرًا صيفيًا على دجلة وراء باب خراسان سماه « قصر الخلد » . وأجرى الماء إليها في قناتين بُطنتا وعُطيتا بخشب الساج حتى لا تلوثهما دوابُّ السقائين ، وتعددت فيها وفي ضواحيها بعد ذلك القنوات . وفي سنة ١٥١ أمر المنصور بإنشاء معسكر للمهدى أمامها شرق دجلة ، جعل له سوراً وخندقاً ، ومن ورائهما قصر الرصافة بناه للمهدى . وسرعان ما أنشأ كبار القواد حول القصر منازل لهم وتكاثرت الأبنية وضمَّ إليها كثير من الأرباض بحيث أصبح هذا المعسكر شطر بغداد الشرقى . ووصل المنصور بين الشطرين بجسرين كبيرين من السفن . وبذلك اتسعت بغداد فشملت المدينة المدورة في الغرب والرصافة في الشرق ، كما شملت أرباضاً ومحال كثيرة من أهمها محلة الحربية نسبة إلى حرب أحد قواد المنصور ، ومحلة الكرخ وبها كانت أسواق التجار ودور الملاهي . ومن محلاتها الشرقية محلة الشماسية ، وبها ابنتى البرامكة كثيراً من قصورهم .

وما لبثت بغداد أن أصبحت أهم مدينة في العالم العربي ، إذ بنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة ، وتكاثر بها التجار والصناع ، وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين وذاك سوق البزازين ، وهذا سوق الصياغة مستبدلى النقود وذاك سوق الوراقين ، وهذا سوق بائعي الحلى والطرف المعدنية وذاك سوق الرقيق المكتظ بالحواري من كل جنس . وأمَّها المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من كل صنف وعلى كل لون . فزخرت بالحياة ، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمنتزهات وميادين اللعب بالصوبلجان وغيره ،



كما تزينها القوارب التي كانت تتلأأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة من طيارات وسميريات وحديديات وحراقات وزلايات وجعفریات .

ولم تزل بغداد حاضرة للخلفاء العباسيين حتى استكثر المعتصم في عسكره من الترك وآذوا العامة بما كانوا يجرون من خيلهم في الأسواق والشوارع ، فكانوا يرصدونهم ويقتلونهم . حينئذ رأى المعتصم أن يعتزل بجنده في موضع ناء عن بغداد ، حتى يبعد أذاهم عن العامة ، ولم يزل يتخير لهم موضعاً حتى انتهى إلى سامراء شرقي دجلة بين بغداد وتكریت ، فأعجبه موقعها ، وكان بها دير كبير فاشتره من أصحابه ، وأخذ في بنائها سنة ٢٢١ وَاختلف الباحثون في اسمها ، كما اختلفوا في بغداد ، فقيل هو اسم فارسي ، وقيل : بل هو آراي<sup>(١)</sup> . وأمر المعتصم أن تسمى « سُرَّ مَنْ رَأَى » وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية .

وقد أحضر لها المعتصم المهندسين والفعلة والصناع من سائر الأمصار وابتدأ فيها ببناء قصره<sup>(٢)</sup> المسمى بالجوسق وابنتي بجواره مسجداً كبيراً ، كما ابنتي دوراً مختلفة للدواوين ، وأخرى لقواده ورجال حاشيته وموظفيه الكبار . وابنتي لجنده قطائع في المطيرة جنوبيها ، واختطت فيها الشوارع والدروب ، وأفرد لأهل كل صناعة وتجارة سوقاً خاصة بهم . فارتفع بها البنيان وكثرت العمارة ، ويقال إن المعتصم حمل إليها الساج وسائر الخشب من البصرة والرخام من أنطاكية واللاذقية . وأجرى فيها قنوات تأخذ من دجلة ، وعقد عليه جسراً يصلها بجانبه الغربي ، وأنشأ بها كثيراً من المتنزهات والملاعب . ويقال إنه جلب إليها الغروس من البصرة ومن الشام وخراسان وسائر البقاع .

وظل الخلفاء بعد المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦ إذ تحولوا منها إلى بغداد ، وكان ذلك سبباً في أن أسرع الخراب إليها ، فلم يكذ يتقدم القرن الرابع الهجري حتى أصبحت أطلالا ورسوماً إلا ما كان من مسجدها الذي تأنق المعتصم في بنائه حتى قال المقدسي إنه يفضل مسجد الوليد بن عبد الملك بدمشق في عمارته ، ولا تزال مأذنته الشاهقة قائمة إلى اليوم .

(٢) راجع في تخطيط سامراء المرجعين السالفين والمسعودي ٩/٤ وكتاب البلدان للياقوت ومعجم البلدان لياقوت .

(١) انظر بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترانج وترجمة بشر فرنسيس وكوركيس عواد ص ٧٦ ومادة سامراء في دائرة المعارف الإسلامية.

## النظم السياسية والإدارية

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الحراسانية إيذاناً بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ، فقد قامت في المجال الفارسي وعاشت تنفّس فيه . وقد بلغ الفرس قبل الفتوح الإسلامية مرتبة عالية في تنظيم الحكم ، حتى لئرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم في هذا التنظيم ، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند ، مقتدياً فيه بصنيع الساسانيين ، يقول ابن الطقطقي : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة ، وهى خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى أن الفتوح قد توالى وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تباغت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازمة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دَخْلِهِمْ وخَرَجِهِمْ مضبوط فيه لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل . فتنبّه عمر رضى الله عنه ، وقال : صفه ، فوصفه المرزبان . ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء (١) » .

وكان هذا الديوان الأصل الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية . وارتضى عمر لولائه فى الشرق أن يستعينوا فى جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون فى جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبرتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع ، وخاصة من حيث تقدير الخراج . وبذلك استمرت فى أيدي هؤلاء الدهاقنة سجلات الخراج الإسلامى ، وظلوا يكتبونها بالفارسية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها فى العراق ، كما أمر بتعريب الدواوين الرومية فى الشام ومصر . وصدع الحجاج واليه على العراق بأمره فعربها ،

(١) ابن الطقطقى ص ٦٠ .

غير أنها ظلت لا تعرّب في خراسان حتى سنة ١٢٤ وهى السنة التى أمر فيها نصر ابن سيار بتعريبها هناك .

وعلى هذا النحو استعان العرب منذ أوائل الفتوح فى العراق وخراسان بدهاقنة الفرس فى إدارة شئون الخراج وجبايته . ولم يتوسع عمر فى الاقتباس من نظام الحكم الساسانى ، فإنه لم يتعدّ فى اقتباسه ديوان العطاء ، أما نظام الحكم الوراثى الذى كان متبعاً عند القوم فإنه لم يعخطر بباله ، إذ أبى الخلافة على أساس شورى انتخابى تؤخذ فيه البيعة للخليفة ، حتى إذا كان عهد معاوية رأيناه يتأثر هذا النظام ، فيجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وتبعه على ذلك مروان بن الحكم وأبناؤه . وتوسع معاوية بجانب ذلك فى التأثير بنظم الدواوين الفارسية ، فاتخذ ديواناً للخاتم وديواناً للرسائل محاكياً بذلك الدواوين الساسانية .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها فى كل شئون الحكم ، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكاً ساسانياً ، فهو يحكم حكماً مطلقاً وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى ، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحماة له وحراساً . وكان العباسيون من بيت النبوة ، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم فيما يزعمون ، وهو زعم باطل ، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث ، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده ، ولم يرثها أبو بكر الصديق ، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث ، لما صح فى الحديث النبوى من قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » . وإذا كان هذا الإرث ممنوعاً فى الأعيان والأموال فمنعه فى ولاية الأمة ألزم وأوجب ، إذ ينبغى أن يتولاها الكفاء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر .

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول ، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد ، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية .

وقد أخذ العباسيون يلقون - على شاكلة الساسانيين - في وعى الناس أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم فهم « سلطان الله في أرضه »<sup>(١)</sup> . وأحاطوا أنفسهم - على مثالهم - بنظام تشريعات معقد ، مخفين عن أعين الناس وراء أستار صفيقة ، ومتخذين كثيرين من الحُجَّاب أو رؤساء التشريعات . وبذلك لم يعد العرب يدخلون على الخلفاء كلما أرادوا كما كان الشأن في عصر بني أمية ، بل لا بد لهم قبل الدخول عليهم من استئذان هؤلاء الحُجَّاب ، وكانت كثرتهم من الأعاجم الذين احتكروا لأنفسهم أكثر شئون الحكم . وكان الخليفة يستقبل مَنْ يدخل عليه وكبير حُجَّابه في جانب ، وفي جانب آخر كبير حراسه المعروف باسم الجلاد<sup>(٢)</sup> والنَّطَّع دائماً أمامه ، فن غضب عليه أطاح برأسه تَوْأً .

وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد ، حكم لا يُحْسَبُ فيه أي حساب للرعية ، فهي أدوات مسخرة للحاكم ، وليس لها من الأمر أي شيء ، ففي يده كل الأمور وكل السلطان ، يولى الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزهم جميعاً ، حسب مشيئته وهواه . وكان يختار الوالي غالباً من أهل بيته أو من أكفاء حاشيته وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده . ومن البيوت العربية التي لمعت في العصر بيت المهلبيين وبيت معن بن زائدة الشيباني .

واتسع الخلفاء في محاكاة الدواوين الساسانية ، وكان في كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية ويرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية ديوان خاص ، ويسمى مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام أو بيت المال ، وقد وُلِّيَ عليه السفاح خالد بن برمك كما ولاه على ديوان الجند<sup>(٣)</sup> الذي كان يُعْنَى برواتبهم . وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها . ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذي لعب دوراً خطيراً في نهضة النثر العربي ، وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء . وكان بجواره ديوان الخاتم الذي تُخْتَمُ فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها ، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر

(٣) كتاب الوزراء والكتاب الجهشيارى  
طبعة الحلبي ص ٨٩ .

(١) طبرى ٣٣١/٦ .  
(٢) البيان والتبيين ( طبع مطبعة لجنة التأليف  
والترجمة والنشر ) ٣٢٩/٢ .

في المظالم ورقاع أصحاب الشكوى وكانوا يسمونها باسم القيصص ، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة ، فجاراهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع .

وكان هناك ديوان كبير على رأسه صاحب الخبر ، وكانت تأتيه أخبار الولايات بواسطة موظفين مهمتهم أن يوافوه بكل ما يجري في الولايات من أحداث وأسعار ، وهم يشبهون - في عصرنا - أدق الشبه مراسلي الصحف ومندوبيهم . وكانوا يُحصّون كل كبيرة وصغيرة للوالى ومن وراءه من قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم ، وهو بدوره يبلغها إلى الخليفة<sup>(١)</sup> . وقد أحكم هذا النظام للبريد إحكاماً دقيقاً ، فكان هناك رسل موقوفون على حمل تلك الأخبار في سرعة شديدة على خيل مضمّرات توجد في عدة أماكن على الطرق الممتدة من الولايات إلى بغداد . وقد ألّفت من أجلهم كتب المسالك والممالك المشهورة لابن خرداذبة وغيره ، وهي كتب تفيض بوصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية لولايات الدولة وبلدانها المختلفة في المشارق والمغرب .

وليس هذا كل ما أخذته العباسيون عن ملوك بني ساسان من النظم الإدارية والسياسية ، فقد أخذوا عنهم أيضاً نظام الوزارة ، وكلمة وزير عربية فقد وردت في القرآن الكريم يقول جلّ شأنه على لسان موسى : ( واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى ) ومعناها في الآية الكريمة المؤازر والمساعد ، غير أنها أخذت تُطلّق منذ فاتحة العصر العباسى على المستشار الأول للخليفة في إدارة شئون دولته . وهي وظيفة كانت معروفة في الدولة الساسانية ، إذ كانوا يقيمون - لاحتجاجهم عن الرعية - وسطاء بصرفون أمور الدولة ويرسمون سياستها ويعيّنون موظفيها ، ومن أشهرهم بزُرّ جَمِيهَر وزير أنوشروان الذى عُرف بحكمته وحنكته . وكان العباسيين رأوا أن يجاروهم في هذا النظام ، فاتخذوه لأول مرة في تاريخ الخلافة العربية ، وأطلقوا على صاحبه اسم الوزير ، يقول ابن الطقطقى : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طباعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ...

(١) انظر الطبرى ٦/٣٣٦ .

والوزارة لم تتمهد قواعدها وتنقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمّى كاتباً أو مشيراً<sup>(١)</sup> .

وقلما نجد للعباسيين وزيراً غير فارسي ، وهو شيء طبيعي ، إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية . وأول من اتخذه العباسيون وزيراً منهم أبو سلمة الخلال حتى إذا قضى نَحْبُه اتخذ السفاح بعده خالد بن برمك ، وكان قد جلس تحت لواء أبي مسلم في حروبه ضد بني أمية ، وأظهر بسالة وحُصْنَةَ حربية . وهو ينحدر من أسرة كانت تقوم على سدانة معبد النوبهار البوذى في بلخ . واتصلت وزارته في عهد المنصور وناط به حكم بعض الولايات وقيادة بعض الجيوش فأظهر كفاءة نادرة ، ووكى ابنه يحيى أذربيجان فنهض بولايتها خير نهوض . ووكى المهدي بعد أبيه المنصور ، فاستدعى يحيى إلى بغداد ووصله بابنه هرون كاتباً له ومستشاراً ، وتوفى المهدي وولى بعده ابنه الهادي ، فحاول أن يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد ، غير أن يحيى البرمكى عرف بسعة حيلته كيف يصرفه عن فكرته ، وكان لذلك وقع حسن في نفس الرشيد ، حتى إذا صارت الخلافة إليه خاطبه بالأبوة إجلالاً له قائلاً : « يا أبت أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقك إليك فاسكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت ، وافرض ( اعط راتباً ) لمن رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإني غير ناظر معك في شيء »<sup>(٢)</sup> ودفع إليه خاتم الخلافة ، فصار بيده الحل والعقد ، فقلّد ابنه الفضل المشرق كله من الشَّهْران إلى أقصى بلاد الترك ، وقلّد ابنه جعفرًا المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية<sup>(٣)</sup> . وشخص الفضل إلى عمله فأزال ما وقع على الناس من ظلم وبنى الحياض

(١) ابن الطقطقى ص ١١٠ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى ص ١٩٠ .

(٣) الجهشيارى ص ١٧٧ والمسعودى ٣/٢٥٧ .

والمساجد وزاد في عطاء القواد والهند ، أما جعفر فأقام بحضرة الرشيد وأرسل نواباً عنه إلى أقاليم ولايته ، إذ كان الرشيد لا يطيق صبراً على بعده عنه .  
وظل يحيى البرمكي وابناه جعفر والفضل يلون أمور الدولة سبعة عشر عاماً كانوا هم المتصرفين أثناءها في جميع شئونها ، وأتاح ذلك لهم أن يصبغوها بصبغة فارسية خالصة ، حتى إذا كانت سنة سبع وثمانين ومائة نكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة ، إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وإخوته ما عدا محمداً ، ومات يحيى والفضل ابنه محبوس . واختلف المؤرخون وأصحاب السير في هذه النكبة ، فردّها بعضهم إلى أسباب شخصية ، وردّها ثانون إلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان وكل أمر ونهى ، وردّها ثالثون إلى أن الرشيد وقف على ما كانوا يبطنونه من الزندقة ، ويظهر أن سببها الحقيقي يرجع إلى إطلاق جعفر لعلوي نائر من محبسه ، هو يحيى ابن عبد الله ، كان قد استأمنه الرشيد عليه ، فلم يوفّ أمانته (١) .

ونمضى إلى عصر المأمون فنجد أسرة بني سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة له ، وتمكّن بدورها للتقاليد الفارسية في الحكم ، وكان أول من وليها منهم الفضل ابن سهل الملقب بذي الرياستين : رياسة السيف والقلم ، وكان قهرماناً ليحيى بن خالد البرمكي يلي شئون بيته ، أما أبوه سهل فكان مجوسياً وأسلم . وقد لزم المأمون منذ حياة أبيه الرشيد ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره ، ويروى الرواة أنه كان إذا دخل عليه وهولا يزال بمرو « يجلس على كرسي مجنّح ويحتمل فيه ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضع الكرسي ونزل عنه ، فثنى . وحُمِل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ، ثم يسلم ، ويعود فيقع على الكرسي . وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يُحتملُ في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين أيديها عليه» (٢) .  
فحتى تقاليد وزراء الساسانيين في دخولهم على الأكاسرة وجلسهم بين أيديهم كانت تُحاكى محاكاة دقيقة . وكان من رسم ملوك الفُرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لِبسةً لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل

ص ١٥٦ .  
(٢) الجهشيارى ص ٣١٦ .

(١) انظر الطبري ٤٨٤/٦ وما بعدها  
والمسعودي ٢٨٤/٣ والجهشيارى ص ٢٠٦ ،  
٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ وابن الطقطقي

إلى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التي هو فيها» (١) . وطبق العباسيون هذا الرسم على موظفيهم تطبيقاً دقيقاً حكاها الجاحظ إذ يقول : « ولكل قوم زيٌّ ، فللقضاة زيٌّ ، ولأصحاب القضاة زيٌّ وللشراطين زيٌّ ، وللكتاب زيٌّ ، وللكتاب الجند زيٌّ . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطننة ، ومنهم من يلبس الدرّاعة (٢) ، ومنهم من يلبس القباء (٣) ، ومنهم من يلبس البازيكند (٤) ، ويعلق الخنجر ويأخذ الجرّز (٥) ويتخذ الجمّنة (٦) . وكان الفقهاء يلبسون المبطننة والطيلسان (٧) والقلائس (٨) »

فتقاليد الساسانيين حوكيت حتى في أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم ، وكان ما دخل منها في شئون الحكم أقوى قوة ، مما دفع كثيرين من الفرس إلى ترجمة الكتب التي تصورها عن لغتهم ، وعملُ ابن المقفع في هذا الميدان ذائع مستفيض ، فقد نقل إلى العربية طائفة من الكتب والرسائل التي تتصل بالحكم الساساني ورسومه من مثل كتاب « آيين نامه » ومعنى آيين النظم والتقاليد . ولم يقف عمله في هذا الصدد عند الترجمة ، فقد نقل في رسائله القصيرة والطويلة كثيراً من وصايا الفرس في السياسة والحكم على نحو ما يلقانا في رسائله المعروفة باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » و « رسالة الصحابة » وهو يريد بهم صحابة السلطان وحاشيته . وقد بعث البرامكة وبنو سهل - بعد ابن المقفع - المترجمين على نقل كثير من الكتب والرسائل التي تحمل تقاليد الساسانيين في الحكم والسلطان وحققاً فقدت الكثرة الكثيرة من هذه الكتب ، ولكن بقيت منها نصوص وفيرة تلقانا في حديث الطبري عن الفرس في أوائل تاريخه الكبير وفي مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهمشيارى وفي عيون الأخبار لابن قتيبة . ولعلنا لا نغلوب بعد ذلك كله إذا قلنا إن النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية طبعت بطوابع فارسية

- 
- (١) الجهمشيارى ص ٣ .  
 (٢) الدراعة : جبة فارسية .  
 (٣) القباء : ثوب فارسي قصير .  
 (٤) البازيكند : كساء يلقى على الكتف .  
 (٥) الجرّز : آلة من حديد يضرب بها .  
 (٦) البيان والتبيين ١١٤/٣ والجمّة :  
 ما يسقط على المنكين من الشعر .  
 (٧) أغاني ( طبع دارالكتب ) ٣٦٠/٥ .  
 والطيلسان : ثوب فارسي .  
 (٨) أغاني ٢٩١/٦ والقلائس : جمع قلنسوة وهي غطاء فارسي للرأس .



قوية ، تحولت في أثنائها الخلافة ملكاً كسروياً يقوم على الاستبداد والقهر والبطش  
الذى لا يعرف رفقاً ولا ليناً .

## ٤

## العلويون والخوارج

مرّ بنا في غير هذا الموضوع أن العباسيين ظلوا طوال دعوتهم السرية يدعون  
للرضا من آل البيت ، لكى لا يصطدموا بأبناء عمهم العلويين ، وأيضاً فإنهم  
أرادوا أن يثبتوا الأصل الذى تعتمد عليه خلافتهم المبتغاة وهو ميراثها عن الرسول ،  
فهى حق شرعى لآل بيته ، وقد تحدثنا آنفاً عما فى هذا الأصل من فساد ، لأن  
الرسول لا يورث فى ماله فضلاً عن الولاية العامة للمسلمين .

ولم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة ، حتى أخذ العلويون يشيعون  
فى الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقيون ، إذ هم أبناء بنت الرسول :  
فاطمة ، وأبناء على ابن عمه . وردّ عليهم العباسيون بأنه ينبغي أن يرجع فى ذلك إلى  
أصل حكم الله فى الموارث ، وما فرض فيها من حجب العم لابن العم وحرمان  
ابن البنت من ميراث جده لأمه ، فهم يدّعون للرسول بعمه العباس الذى آل إليه  
ميراثه ، وهم لذلك أولو الأمر وأهله «خصصوا برحم رسول الله وقربته ونشأوا من آبائه  
ونبتوا من شجرته» (١) . وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نصّ على إمامة  
على بن أبى طالب بعده وأن أبناءه ورثوا منه إمامته فقد زعم العباسيون أن الرسول قال  
لخدمهم العباس : إن الخلافة تكون فى ولدك (٢) .

وأخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشميين فى أيهما أقرب إلى الرسول وأمسّ  
به رحماً وأيهما أحق بميراث ولايته على الأمة ، وسرعان ما أخذ المنصور يرصد العلويين  
فى دارهم : المدينة ، ويضيق الخناق عليهم . وترامت إليه الأنباء بأن محمد بن عبد الله  
سليل الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية يبث الدعاة له فى الحجاز  
والعراق ، فأمر عامله على المدينة أن يجدّ فى طلب العلويين ، وحجّ ، فقبض على

(٢) ابن الطقطقى ص ١٠٣ .

(١) انظر خطبة السفاح بعد بيعته فى الطبرى

جماعة منهم ، وأوثقهم بالحديد ، وحملهم معه إلى الحيرة ، وهناك ألقى بهم في سرداب تحت الأرض عند قنطرة الكوفة لا يعرفون ليلاً ولا نهاراً حتى ماتوا جميعاً . ولا نصل إلى شهر رجب من سنة ١٤٥ حتى يعلن محمد بن عبد الله ثورته<sup>(١)</sup> ويغلب على المدينة وكان يحيى بن زيد بن علي زين العابدين قد فوّض له الأمر من بعده<sup>(٢)</sup> ، وأخيراً رأى إعلان الثورة على المنصور ، وهى أول ثورة للزيدية . ويفزع المنصور فيكتب إليه كتاباً يعرض عليه فيه الأمان له ولأهله وأن يعطيه ألف ألف درهم وينزل على أى بلد شاء . ويردّ عليه محمد بكتاب طويل يصور فيه اغتصابهم للخلافة من دون أصحابها الشرعيين في رأيه قائلاً : « إن الحق حقنا وإنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا . . وإن أبانا علياً كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء . . وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لى ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلّى للقبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة » . ولم يكذ المنصور يقرأ هذا الكتاب حتى ردّ عليه بكتاب نقض فيه حجج النفس الزكية نقضاً قائلاً : « بلغنى كلامك فإذا جُلُّ فحرك بالنساء لتُضِلَّ به الحفّاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة<sup>(٣)</sup> . . وإنكم بنو ابنة رسول الله وإنها لقربة قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤمَّ ( في الصلاة ) فكيف تورث الإمامة من قبيلها . . وأفضى أمر جدك إلى أهلك الحسن ، فسلمه إلى معاوية بخِرقٍ ودراهم ، وأسلم في يديه شيعة . . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه . . ولقد خرج منكم غير واحد ، فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم . . ولقد علمت أنه توفى رسول الله صلّى

(١) انظر في ثورة النفس الزكية الطبري

١٨٣/٦ واليعقوبي ١١٠/٣ والمسعودي

٢٢١/٣ وابن الطقطقي ص ١٢٠ .

(٢) راجع الملل والنحل للشهرستاني (طبع

لندن) ص ١١٧ .

(٣) العصبة : الذين لا يرثون إلا بما بقى من

أصحاب الفروض ، يشير إلى أن جده العباس

يحجب ابن أخيه على بن أبى طالب .

الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب» (١). ولما لم تُجَدِّدْ المفاوضات أرسل المنصور إلى النفس الزكية جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فالتقى به وبمن معه قرب المدينة ، واحتدم القتال ، فانهزم الناس عن النفس الزكية ، وأحيط به فلم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتِلَ واحتُزَّ رأسه وحُمِلَ إلى المنصور . وكان أخوه إبراهيم قد مضى يدعو له في البصرة وكثرت جموعه فاستولى عليها ، وأذعنت له فارس وعظم خطره . وعاد عيسى بن موسى من الحجاز ، فوجهه المنصور إلى إبراهيم فالتقى به وبجموعه عند « باخسَمْرَا » بالقرب من الكوفة ، وسرعان ما دارت على إبراهيم الدوائر ، فقُتِلَ ولاذت جموعه بالفرار ، وأُخذ كثير من العلويين فأُلقي بهم في غياهب السجون (٢).

وإذا كان المنصور قضى على هذه الثورة العنيفة للعلويين في أيامه فإنه لم يقض على التشيع ، بل لقد أخذ يزداد مع الأيام سرّاً وجهراً ، وأخذت فرقه تتكاثر ، وأهمها حينئذ الزيدية والإمامية ، أما الزيدية فكان مقرها البصرة حيث التحمت بالاعتزال ، وأما الإمامية فكان مقرها الكوفة ، وبذلك ورثت ما كان فيها من تراث شيعي ، وقد انقسمت بمرور الزمن إلى فرق كثيرة أهمها الإسماعيلية والإثناعشرية .

والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي في حياة أبيه فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه كما مات إسماعيل. ويتلو محمداً — عندهم — أربعة أئمة مستورون يعقبوهم عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية . ومنهم خرجت شعبة القرامطة في البحرين . أما الاثنا عشرية فذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه موسى الكاظم الذي عاش بعده ، وسماوا بالاثني عشرية لأن الإمامة تتوالى — عندهم — في اثني عشر إماماً هم : علي فالحسن فالحسين فابنه علي زين العابدين ، فمحمد الباقر فجعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ فموسى الكاظم المتوفى في سجن الرشيد سنة ١٨٣ فعلي الرضا المتوفى سنة ٢٠٣ فمحمد الجواد المتوفى سنة ٢٢٠ فعلي

(٢) راجع في مقتل إبراهيم وحره الطبري ٢٥٠/٦ واليعقوبي ١١٢/٣ والمسعودي ١٢٢/٣ وابن الطلق ص ١٢٢ .

(١) انظر في هذين الكتابين المتبادلين بين المنصور والنفس الزكية الكامل للبريد (طبعة رايت) ص ٧٨٦ والطبري ١٩٥/٦ .

الهادى ، فالحسن العسكرى ، فحمد المهدي المنتظر المتوفى حوالى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه غاب وسيعود فيملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ولما لم يكن له ولد توقفت هذه الفرقة عنده . ومن المهم أن نعرف أنها كانت تعتنق - مثل فرقة الإسماعيلية - التقية ، فلم تجنحوا إلى ثورة علنية ضد العباسيين في هذا العصر ، وكأما تركا ذلك لأبناء الحسن بن على بن أبى طالب من مثل النفس الزكية وكانوا يعتنقون نظرية الزيدية .

والعجب العاجب أن نرى جمهور المسلمين في هذا العصر لا يعودون بالخلافة إلى نظام الشورى وأن تصبح حقاً للأمة ، فقد ضللتهم دعاية البيت الهاشمى وجعلتهم يقتنعون بأنها ميراث آل إلههم من الرسول ، وانقسموا إزاء ذلك إلى معسكرين كبيرين : معسكر عباسى بيده مقاليد الحكم ، ومعسكر علوى يحاول الوصول إلى الحكم ، وبذلك انتكست الأمة صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ شغلت بحروب وفتن داخلية ما زالت تنخر فيها حتى توزعت دولا ، ولو أنها لم تُشغَل بها وظلت لها وحدتها لفتحت أكثر العالم وتغير وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ نظر الناس إلى الخليفة على أنه وريث شرعى وأن حقه في الخلافة مقدس ، ولو بغى وطغى وظلم ، وعليهم دائماً طاعته مهما أشاع من الطغيان والفساد . ومن غير شك تقع على الفقهاء تبعة ذلك ، إذ كان من الواجب عليهم أن يوضحوا للناس نظرية الإسلام الحقيقية في الخلافة وأنه لا يجعلها وراثية في بنى هاشم بل يقيهما على الشورى ليتولاها الأجدر بها . وبذلك أخذ الصحابة الأولون في تولية أبى بكر وعمر وعثمان ، فأجدر المسلمين كفاء للخلافة سواء أكان من البيت الهاشمى أو غيره ، وسواء أكان من بيت شريف أم بيت مشروف ، فالعبرة بالجدارة والكفاءة لا بالنسب . وشيء من هذه التبعة يقع على عاتق المتكلمين ، وحقاً إنهم عنوا بالرد على الزنادقة والملاحدة والدهريين ، ولكنهم قلما عنوا بالتفكير في المصلحة العامة للأمة والخروج بالخلافة من نطاق فكرة الميراث إلى نطاق فكرة الشورى بحيث تختار الأمة الخليفة الصالح دون نظر إلى هاشميته أو قرشيته .

وقد ظل العلويون يقاومون العباسيين سرّاً وجهراً ، وظل أتباعهم يزدادون ، والعباسيون يرصدونهم جميعاً ، فمن حدثه نفسه بالثورة أو الفتنة قُتِل أو زُجَّ به

في السجون . وكان بعض شيعتهم يصل إلى أرفع مناصب الدولة ، فما هي إلا أن تُعرف سريرته حتى يُنكب فتصادر أملاكه ويلقى به في غياهب السجون أو يقتل ويصلب نكالا لأمثاله . وأول ما يلقانا من ذلك بعد المنصور إيقاع المهدي بوزيره يعقوب بن داود حين علم بإطلاقه - وكان زیدی الهوی - أحد العلويين من السجن وردّ حريرته إليه ، فقد ألتي به في السجن وظل سجينا إلى أن شفع له يحيى البرمكي عند الرشيد فأمر بإطلاقه (١) .

وفي عصر الهادي خرج الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب في مكة والحجاز ، فلقه ومنّ معه جيش عباسي بالقرب من مكة ، في مكان يقال له « فنج » وقاتل قتالا عنيفا حتى قُتل ، وقُتل معه كثيرون من أنصاره ، وظلوا في العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان (٢) . وهرب خاله إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية إلى المغرب ، فغلب على فاس وأسس بها دولة الأدارسة (٣) . وهرب أيضا خاله يحيى بن عبد الله إلى خراسان ، وما زال الرشيد يتعقبه حتى طلب منه الأمان ، فأجابه إلى طلبه وقدم عليه ، فدفعه إلى جعفر بن يحيى البرمكي وأمره بحبسه ، فحبسه ، ورق له فأطلقه دون إذن الرشيد (٤) مما كان سببا في نكبته ونكبة أسرته كما أسلفنا ، ووقع يحيى في يد الرشيد ثانية فسجنه حتى مات . واعتقل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام السابع عند الشيعة الإثني عشرية ، وظل في السجن إلى وفاته (٥) .

ونمضي إلى عصر المأمون فيخرج عليه قبل انتقاله إلى بغداد إبراهيم بن موسى سليل الحسين بن علي بن أبي طالب باليمن وتعظم ثورته ويقضى عليه (٦) . ويخرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ، وسرعان ما يؤخذ فيعضو عنه المأمون (٧) . ويخرج بالكوفة أبو السرايا داعيا لمحمد بن إبراهيم سليل الحسن بن علي بن أبي طالب

والطبري ٦/٤٥٠ ، ٤٨٥ والمسعودي ٣/٢٦٢ وابن الطقطقي ص ١٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/١١٥ (٥) اليعقوبي ٣/١٤٥ والمسعودي ٣/٢٦٥ وابن الطقطقي ص ١٤٥ والنجوم الزاهرة ٢/٧٢ (٦) الطبري ٧/١٢٣ . (٧) الطبري ٧/١٢٥ وابن الطقطقي ص ١٦٥ .

(١) الجهشيارى ص ١٥٩ والطبري ٦/٣٨٤ . (٢) اليعقوبي ٣/١٣٧ والطبري ٦/٤١٠ والمسعودي ٣/٢٤٨ والنجوم الزاهرة ٢/٥٩ . (٣) اليعقوبي ٣/١٣٧ والطبري ٦/٤١٦ والمسعودي ٣/٢٢٢ والنجوم الزاهرة ٢/٤٠ ، ٥٩ . (٤) اليعقوبي ٣/١٤٠ والجهشيارى ص ١٩٠ .

المعروف بابن طباطبا ويقضى على ثورته قضاء مبرماً<sup>(١)</sup> . وكان المأمون حر الفكر ويظهر أنه كان يأسى لما أصاب أبناء عمه العلويين في دولتهم ، واستغل ذلك فيه وزيره الفضل بن سهل ، وكان فيه تشيع لهم ، فزيّن له - وهو بمرو - أن يعهد بالخلافة من بعده إلى علي الرضا بن موسى الكاظم الإمام الثامن في ترتيب الشيعة الإثني عشرية وكان مثالا للتقوى والورع وكان المأمون يبعثه ويعظمه ، فاستصوب رأى وزيره وجعله وليّ عهده من بعده ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولُبس الخصرة شعار العلويين<sup>(٢)</sup> . ولم يكذب يصل هذا الصنيع إلى العباسيين ببغداد حتى وجدوا على المأمون موجدة شديدة ، جعلتهم يسارعون إلى خلعه والبيعة لعمه إبراهيم بن المهدي . وأحسّ أن الأمر يوشك أن يخرج من يده ، فتجهّز للمسير إلى بغداد ، وفي طريقه بطوس توفّي علي الرضا ، فلم يتخذ وليّاً لعهد من العلويين ، بل عاد إلى بني العباس واغتيل حينئذ الفضل بن سهل . وما إن وصل إلى بغداد حتى اختفى عمه إبراهيم وظل مستخفياً مدة حتى عفا عنه . وعاد ثانية إلى لبس السواد ، وظل يعطف على أبناء عمه العلويين ، على الرغم من خروجهم عليه مراراً<sup>(٣)</sup> ، وكان مما وثق هذا العطف في نفسه ثمامة بن أشرس النمري مقدم المعتزلة في مجالسه ، وكان شيعي الهوى ، ولعله هو الذي دفعه إلى أن يأمر منادياً ينادى في الناس سنة ٢١١ : «برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضّله على أحد من الصحابة ، وإن أفضل الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه»<sup>(٤)</sup> وأيضاً لعله هو الذي دفعه إلى أن يكتب في شهر ربيع الأول من السنة التالية إلى الآفاق بتفضيل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على جميع الصحابة<sup>(٥)</sup> . وربما كانت أهم ثورة للشيعة بعد المأمون

(٣) انظر الطبري ١٦٨/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٣/٢

(٤) الطبري في حوادث سنة ٢١١ ، ٢١٢ ، وراجع النجوم الزاهرة ٢٠١/٢ .

(٥) الطبري في حوادث سنة ٢١٢ والنجوم الزاهرة ٢٠٣/٢ وقد أوصى المعتصم عند وفاته بأبناء عمه العلويين خيراً وأن يتفاضى عن مسيئتهم فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى . انظر الطبري ٢١٠/٧ .

(١) اليعقوبي ١٧٥/٣ والطبري ١١٧/٧ والمسعودي ٣٤٨/٣ وابن الطقطقي ص ١٦٥ والنجوم الزاهرة ١٦٤/٢ وفي مواضع متفرقة (انظر الفهرس) .

(٢) انظر في بيعة المأمون لعلي الرضا كتاب اليعقوبي ١٧٦/٣ والطبري ١٣٩/٧ والمسعودي ٣٤٩/٣ وابن الطقطقي ص ١٦٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٢ .

ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين لعهد المعتصم سنة ٢١٩  
فقد خرج بالطائفتان يدعو إلى الرضا من آل محمد فاجتمع عليه خلق كثير ،  
وما زالت جيوش عبد الله بن طاهر وإلى خراسان تواقعه حتى انهزم وأسر ، فأرسله  
ابن طاهر إلى المعتصم فحبسه ، ولكنه هرب من السجن واختفى فلم يوقف له على  
أثر ولا على خبر (١) .

وقد استأثر التشيع في هذا العصر بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين .  
أما مذهب الخوارج فضعف شأنه بسبب فتك الأمويين بهم فتكاً ذريعاً ، بحيث  
لم يبق منهم إلى العصر العباسي سوى فلول في أنحاء متفرقة بعمان والجزيرة وخراسان  
وتونس . وكانت نظريتهم في الخلافة وإمامة المسلمين صائبة ، غير أنهم صرفوها  
إلى قتال إخوانهم المسلمين وبذلك لم يكتب لها النجاح من قديم ، فقد كانوا يرون  
أن تُردّ الخلافة إلى الأمة ، بحيث يليها أجدر المسلمين بها ولو كان عبداً حبشياً ،  
غير أنهم مضوا فكفروا المسلمين واستحلّت بعض فرقههم لادماءهم فحسب ، بل  
أيضاً دماء أطفالهم ونسائهم ، وبذلك ضلّوا الطريق ، إذ أغمدوا الدعوة الحسنى وشهروا  
السيوف متهمين إخوانهم في الدين بالكفر والردة ، وبدلاً من أن يتعاونوا معهم في  
حرب أعدائهم جميعاً من الأمم الأجنبية حاربوهم حرباً عنيفة يريدون أن يحوهم  
من الأرض محوّاً . وبذلك لم تعد المسألة مسألة تحقيق المساواة بين المسلمين في  
حقوق الحكم وما يتبع ذلك من إقرار العدالة التي لا تطيب الحياة إلا بها ولا تستقيم  
إلا عليها ، بل أصبحت مسألة كفر وإيمان وسيوف مشرعة ودماء مسفوحة .

وأول ثورة تلقانا لهم في هذا العصر ثورة خوارج عُمان الإباضيين بقيادة الجلُّسندی  
وقد جرّد له السفاح جيشاً جرّاراً بقيادة خازم بن خزيمه ، ففضى عليه (٢) .  
وفي عهد المنصور ثار ملبّد بن حرمة الشيباني بالجزيرة ففضى عليه أيضاً خازم  
ابن خزيمه (٣) ، وثار الإباضية بتونس وفضى عليهم يزيد (٤) بن حاتم المهلبی .  
وفي عهد المهدي ثار بخراسان في طائفة من الخوارج يوسف بن إبراهيم المعروف  
بالبرم ، فتصدّى له يزيد بن مزيد الشيباني ، وأسرّه في جماعة من أصحابه ،

(٣) طبرى ١٤١/٦ .

(١) اليعقوبى ١٩٨/٣ والطبرى ٢٢٣/٧

(٤) اليعقوبى ١٢٠/٣ والطبرى ٣٥٨/٦ .

والمسعودى ٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٠/٢ .

(٢) طبرى ١١٤/٦ .

وبعث بهم جميعاً إلى المهدي ، فأمر بقتلهم وصلبهم<sup>(١)</sup> ، وثار بقنسر بن عبد السلام الخارجي وقضى عليه بعض<sup>(٢)</sup> القواد . وفي عهد الرشيد ثار الوليد بن طريف الشيباني بالجزيرة واشتدت شوكته ، فوجه إليه إبراهيم بن خازم بن خزيمه فقتك به ، وسار إلى أرمينية وكثرت بها جموعه ، فجرد له الرشيد يزيد بن مزيد في جيش كثيف ، فحقه محقاً<sup>(٣)</sup> . وعاث حمزة الشاري في خراسان ولقى حتفه<sup>(٤)</sup> ، كما عاث ثروان الحروري في ضواحي البصرة ولقى نفس المصير<sup>(٥)</sup> . وفي عهد المأمون خرج مهدي بن علوان الحروري بسواد العراق وباعت ثورته بالفشل<sup>(٦)</sup> على نحو ما باعت ثورة بلال الشاري<sup>(٧)</sup> . ولا نسمع بعد ذلك عن ثورات للخوارج إلا ما كان من ثورة محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة وقضاء أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري عليه<sup>(٨)</sup> . وعلى هذا النحو كان الخوارج لا يلبثون - حين يثورون - أن يُقضى عليهم ، وفرق بعيد بين ثوراتهم في هذا العصر وثوراتهم في العصر الأموي ، فقد أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذ في الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً .

## ٥

## أحداث مختلفة

لم تطل مدة أبي العباس السفّاح إذ سرعان ما توفي سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور ، وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، فهو الذي أصلها « وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس »<sup>(٩)</sup> ولم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله في شمالي سوريا وكان يقود جيشاً ضخماً لحرب البيزنطيين ،

- |                                     |                                |
|-------------------------------------|--------------------------------|
| (١) طبرى ٣٥٨/٦ واليعقوبي ١٣٠/٣      | (٥) طبرى ٤٢٥/٦                 |
| والنجوم الزاهرة ٢٧/٢ .              | (٦) طبرى ١٤٢/٧                 |
| (٢) طبرى ٣٧٢/٦ وانظر النجوم الزاهرة | (٧) طبرى ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة |
| ٤٢ ، ٤١/٢ .                         | ٢٠٩/٢ .                        |
| (٣) طبرى ٤٦٥/٦ والنجوم الزاهرة ٩٢/٢ | (٨) البيهقي ٢٠٧/٣              |
| ٩٥ ،                                | (٩) انظر ابن الطقطقى ص ١١٦ .   |
| (٤) طبرى ٤٧٢/٦ .                    |                                |



فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراساني في جيش جرار ، فهزّمه هزيمة منكرة فرّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن علي واليها ، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن علي والي الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب أمان ، وتولى ابن المقفّع كتابته فشدّد فيه العهد والميثاق على المنصور حتى أحفظه عليه . وما زال المنصور يُمكّر بعمه حتى وفد على بابه ، فحبسه مدة إلى أن مات في حبسه (١) .

ولم يكن همُّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبي مسلم الخراساني وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علي أن يعود إلى خراسان ، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه ، إذ كان كل منهما يجد على صاحبه موجدة شديدة ، فكتب إليه بالقدوم عليه ، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه ، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان . وقلق المنصور ، وكان مدبراً داهية ، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذاكراً لخدماته لدولتهم ، وأرسل له رسلاً يزيتون له المثل بين يديه ، فما زالوا به حتى قدم عليه ، وكان بالقرب من المدائن ، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتفريع ، ولم يلبث أن قتله ، وبادر إلى من كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنوية وفرّق في جنده أموالاً كثيرة ، فرضخوا للواقع ورضوا به (٢) .

وغضب أتباع أبي مسلم في خراسان حين علموا بمصيره ، ولم يلبث أن ظهر بينهم سبّاذ ، فقادهم معلناً أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل ، وتابعه كثير من مكوّنين فرقة المسلمية أو الحرّمية (٣) ، وقدم بهم إلى الرّى فغلب عليها ، والتقى به المنصور بن جمهور العجلي في جيش كثيف ، فقضى عليه وعلى ثورته (٤) ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته ، فقد أخذت تَسْرَى في نفوس كثير من الخراسانيين والإيرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية .

وكان السفاح قد جعل ولاية العهد بعد المنصور لعيسى بن موسى فرأى المنصور أن يحولها عنه إلى ابنه المهدي وما زال به حتى خلع نفسه منها ، فصيرّها في ابنه ،

(٣) انظر في الحرّمية وعقيدتهم المسعودي

٢٢٠/٣ والفرق بين الفرق (طبع مصر)

ص ٢٥١ .

(٤) الطبري ١٤٠/٦ والمسعودي ٢٢٠/٣

وابن الطقطقي ص ١٢٥ .

(١) الجهشباري ص ١٠٣ واليعقوبي

١٠٤/٣ والطبري ١٢٤/٦ ، ١٤٥ ، ٢٦٩

والمسعودي ٢٣٠/٣ والنجوم الزاهرة ٧/٢ .

(٢) طبري ١٣٠/٦ واليعقوبي ١٠٢/٣

والمسعودي ٢١٧/٣ .

وبايعة الناس<sup>(١)</sup> ، وأقرت بذلك بلدان الخلافة ما عدا باذغيس إذ ثار بها شخص يسمى أستاذسيس ادعى النبوة وتبعه خلق كثير وتفاقم شره ، فتصدى له خازم ابن خزيمة التميمي وفض جموعه ، وحمله إلى المنصور أسيراً ، فأمر بقتله<sup>(٢)</sup> .

وولى المهدي بعد أبيه سنة ١٥٨ وفي عهده تحركت الحرّمية حركتين ، أما أولاهما فحركة رجل من أتباع أبي مسلم يسمى حكيماً من أهل مرو ، وقد أعلن ثورته في سنة ١٦١ واتخذ لوجهه قناعاً من ذهب ركّبه عليه حتى لا يُرَى ، ولذلك اشتهر باسم المقنّع الخراساني . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، فزعم أنه نبي وأنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبي مسلم . وبايعة خلق عظيم أضلهم واستغواهم حتى كانوا يسجدون إلى ناحيته ، ووثب بهم على بعض ما وراء النهر ، فوجه إليه المهدي القواد وعلى رأسهم سعيد الحرّسيّ ، فاعتصم منهم بقلعة من أعمال كاش على مقربة من جرجان ، ولما يئس من المقاومة أضرم ناراً عظيمة أحرق بها كل ما في القلعة من دواب وثياب ومتاع وألقى فيها بنفسه وأولاده ونسائه ، ويقال : بل مَصَّ سَمّاً وأسقى نساءه وأولاده فتكفّ وتلفوا ، وبذلك خمدت حركته<sup>(٣)</sup> . أما الحركة الثانية فكانت في سنة ١٦٢ إذ ظهرت طائفة من الحرّمية بجرجان تسمى المحمّسة لحمرة راياتها ، وكان على رأسهم شخص يسمى عبد القهار ، فقتلوا وأفسدوا وعاثوا في الأرض ، فسار إليه من طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وقتله ودمّر جنده<sup>(٤)</sup> .

وعظمت - في عهد المهدي - حركة الزندقة ببغداد والعراق ، ورأى المهدي فيها شراً مستطيراً يتهدّد كيان الدولة والإسلام جميعاً ، فجدّد في طلب الزنادقة منذ سنة ١٦٦<sup>(٥)</sup> وقيل بل منذ سنة ١٦٣ واتخذ لهم ديواناً يتعقبهم ، جعل عليه عمر الكلواذاني<sup>(٦)</sup> ، وأخذ يقتلهم ويصلبهم نكالا لغيرهم ، وكان ممن قتله عبد الله ابن وزيره أبي عبيد الله وبشار بن برد وتوفّي الكلواذاني سنة ١٦٨ فخلفه على الديوان حمّد ويّنه<sup>(٧)</sup> وهو محمد بن عيسى من أهل ميسان .

- والنجوم الزاهرة ٤٢/٢ .  
 (١) اليعقوبي ١١٥/٣ والطبري ٢٧١/٦  
 (٢) وابن الطقطقي ص ١٢٦ والنجوم الزاهرة ٧/٢  
 ٥٣ ،  
 (٣) اليعقوبي ١١٥/٣ .  
 (٤) طبري ٣٦٧/٦ ، وابن الطقطقي  
 ص ١٣٢ والنجوم الزاهرة ٣٨/٢ ، ٤٥ .  
 (٥) اليعقوبي ١٣٣/٣ والطبري ٣٩١/٦  
 والنجوم الزاهرة ٥٥/٢ ، ٥٦ .

وفي عهد المهدي أغار الروم على سميساط (١) ونكّلوا بأهلها ، فجرد إليهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس بن محمد فبلغ أنقرة . وتوالى غزو الروم حتى إذا كانت سنة ١٦٣ تولى هرون الرشيد قيادة الجيوش الغازية ، فعصف بهم عصفاً ، حتى إذا كانت سنة ١٦٥ بلغ خليج القسطنطينية دون مقاومة تذكر ، وامتلاً الروم هولاً ورعباً وفزعاً ، فتعهدوا أن يؤدوا الجزية كل عام سبعين ألف دينار وهم صاغرون (٢) .

ومما يؤثر للمهدي لإجراؤه الرواتب على المجدّمين . وتوفي سنة ١٦٩ فخلفه ابنه الهادي ، وسار على سنته في تتبع الزنادقة وقتلهم ، وفي عهده خرج دحية بن المصعب ابن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بناحية أهناس في صعيد مصر وملك أكثر بلاده ، وهزم جيوش الولاة مراراً ، وأخيراً قُضى عليه في سنة ١٦٩ (٣) . واعتزم الهادي خلع الرشيد من ولاية عهده ، ولكن يحيى البرمكي عرف - كما قدمنا - كيف يصرفه عن ذلك ، وسرعان ما توفي بعد أربعة عشر شهراً من خلافته .

وولى الرشيد سنة ١٧٠ وامتدت خلافته إلى سنة ١٩٣ ويُعدّ عصره العصر الذهبي للخلافة العباسية بما بلغته من أبهة الملك وفخامته ، ولا تزال ذكراه حيّة في نفوس العرب إلى اليوم ، وربما كان للقصص الحكية عنه في « ألف ليلة وليلة » أثر في ذلك فإن مترجميها وواضعي بعض قصصها رأوا أن يدخلوه في ثنايا القصص حتى يصوروا ما بلغته بغداد من الرّفه والتّرف والبذخ . وحفلت حينئذ بالعلماء من كل صنف والمترجمين والأطباء والشعراء والمغنين والمغنيات والحواري من كل جنس وعلى كل لون . وكان الرشيد كذلك بالسماع والمتاع بنعيم الحياة مع إعطاء الدين حقوقه ، يقول ابن الطقطقي : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، وكان يحج سنة ويفزو سنة كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة ، وحجّ ماشياً ، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . . ولم يرَ خليفة أسمح منه بالمال ، وكان يحب الشعر

(١) سميساط : مدينة غربى الفرات في طرف

والنجوم الزاهرة ٤٧/٢ .

(٣) اليعقوبى ١٣٧/٣ والنجوم الزاهرة

٤٩/٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ .

(٢) اليعقوبى ١٣٥/٣ والطبرى ٣٧٩/٦

والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه» (١) وكان إذا لم يحجَّ أحجَّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الباهرة ، وكان يتصدق من صُلْب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته (٢) ، وكانت أيامه تشبّه بأيام العروس لما امتازت به من بهاء وجمال .

ولم تخل أيامه من الفتن والثورات ، وقد ذكرنا آنفاً ما كان من حركات بعض العلويين والخوارج ، وفي عهده هاجت العصبية بالشام بين اليمينية والمضرية وأطفاً نائرتها جعفر بن يحيى البرمكي (٣) ، وثار أهل الحوف بمصر وقضى على ثورتهم هَرَمَة بن أعين كما قضى على ثورة أخرى بإفريقية (٤) ، وثار الحمرة بمرجان وفضّ جمعهم على (٥) بن عيسى بن ماهان ، وانتفض الخزر في القوقاز وأرمينية وقلم أظافهم خازم (٦) بن خزيمة ويزيد بن يزيد الشيباني ، وثار الحرّمية بأذربيجان وعصف بهم عبد الله (٧) بن مالك ، وثار بلاد الزاب جنوبي الجزائر ، وأعاد الأمن إلى نصابه هناك إبراهيم بن الأغلب فكافأه الرشيد بكتابة عهد له على إفريقية نظير خراج يؤديه سنوياً ، فأنشأ هناك دولة الأغالبة ، واتخذ حاضرة له « العباسة » التي بناها جنوبي القيروان .

وامتنع نقفور لإمبراطور بيزنطة عن أداء الجزية التي فرضت على بلاده في عهد المهدي ، كما أسلفنا ، ولم يكتف بذلك فقد كتب إلى الرشيد يطالبه برد ما أدّوه منها في السنوات الماضية ، وكتب إليه الرشيد على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام (٨) » وشخص إليه على رأس حملة قوية اخترق بها آسيا الصغرى وغنم مغنم كثيرة وافتتح هرقلية ، فارتاع نقفور وفرح فرحاً شديداً وتعهد بأداء الجزية صاغراً (٩) . ورأى الرشيد - فيما يقال - أن يصطنع شارلمان ملك الفرنجة في غربى أوروبا حتى يؤديه ضد إمبراطور

(١) ابن الطقطقى ص ١٤٣ .  
 (٢) طبرى ٥٣٠/٦ .  
 (٣) الجهمشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٤٥٧/٦ ،  
 ٤٦٦ .  
 (٤) طبرى ٤٦١/٦ .  
 (٥) طبرى ٤٦٦/٦ .  
 (٦) طبرى ٤٧١/٦ .  
 (٧) طبرى ٥٢٤/٦ والنجوم الزاهرة ١٣٩/٢ .  
 (٨) طبرى ٥٠١/٦ .  
 (٩) طبرى ٥٠٩/٦ .

بيزنطة ، وكان شارلمان يود لو أيدته الرشيد ضد الأمويين في الأندلس ، وسفرت بينهما السفارات وتبادلا هدايا ثمينة (١) .

وفي سنة ١٩٠ ثار رافع بن الليث بسمرقند وتفاقت ثورته ، فرأى الرشيد أن يسير إليه بنفسه في سنة ١٩٢ . ولكنه توفى في طريقه إليه بطوس سنة ١٩٣ ، وتمت الغلبة بعد ذلك على رافع وشيعته . وكان الرشيد قد عقد ولاية العهد من بعده لابنه محمد سنة ١٧٣ ولقبه بالأمين ، وضمَّ إليه الشام ومصر ، ثم عقد لابنه عبد الله ولاية العهد من بعد أخيه سنة ١٨٣ ولقبه بالمأمون ، وضمَّ إليه الولايات الشرقية ، وأكد هذا العقد بين الأخوين بتوقيعهما عليه وقسمهما على الوفاء به وتعليقه (٢) في الكعبة سنة ١٨٦ وفيها بايع الرشيد بولاية العهد لابنه القاسم بعد أخويه ولقبه المؤمن وضمَّ إليه الجزيرة والثغور وكان لا يزال صبيًّا .

وكان هذا الصنيع من الرشيد نذير شؤم فإن بساطاً قد يتسع لنوم عشرة من الناس ، ولكن مملكة بأسرها لا تتسع لسultan حاكمين . فلم يكد ينتقل الرشيد إلى جوار ربه حتى شجر الخلاف (٣) بين الأمين والمأمون إذ أخذت حاشية الأمين تسوّل له أن ينقض العهد الموثق في البيت الحرام . وشاءت الظروف أن يقع الأخوان فريسة للتنافس بين الحزبين : العربي والفارسي ، وكان الحزب الأول يغلب على الأمين بينما كان الحزب الثاني يغلب على المأمون ، وكانت أم الأمين هاشمية عربية فهي زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، بينما كانت أم المأمون أمة فارسية تسمى مراجل . وما زال الحزب العربي - فيما يقال - يغوى الأمين بخلع أخيه وتولية ابنه موسى ولاية العهد من بعده ، حتى استجاب له ، وتردّدت المراسلات بينه وبين المأمون وأوشك أن يجيئه إلى ما يريد من خلع نفسه ، ولكن الفضل بن سهل وزيره ردّه عن ذلك ونهض بأمره ، واستمال له الناس ، وضبط الثغور .

ولم يلبث الأمين أن أمر بقطع اسم المأمون من خطبة الجمعة وصنع المأمون صنيعه بخراسان ، وأخذوا في إعداد الجيوش ، وسارع الأمين فأنفذ على بن عيسى

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن (الترجمة العربية) ٢١/٢ وقصة الحضارة لول ديورانت (الترجمة العربية) ٩٤/١٣ .  
(٢) الطبرى ٤٧٥/٦ والمسدودى ٢٧٠/٣ ،

٣٠٨ والنجوم الزاهرة ١١٩/٢ .  
(٣) انظر في هذا الخلاف الطبرى ٢/٧  
والمسدودى ٣٠٢/٣ ، ٣٠٨ والجيشيارى  
ص ٢٨٩ وابن الطقطقى ص ١٥٩ .

ابن ماهان في جيش جرار لمنازلة المأمون وحنده والتقى به في الرى طاهر بن الحسين ، فقتله ومزق جيشه تمزيقاً . وشغب الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان على الأمين فخلعه وحبسه ، غير أن بعض العسكر خلصوه ، ونعجب إذ نراه يعفو عنه ويوليه قيادة جيشه ويوجهه إلى طاهر ، ويلقاه ، غير أنه سرعان ما يفر ويقتل في فراره ، كما يقتل قواد آخرون أرسل بهم الأمين . وفي هذه الأثناء تدخل مكة والمدينة في طاعة المأمون ، ويحاصر قائداه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد لنحو خمسة عشر شهراً ويرميانها بالحنانيق فيكثر بوبا الحرق والهدم وتفوضى الحياة فيها إلى هول هائل ، فتنهب الأموال وتقترف المنكرات ، ويحاول سهل بن سلامة الأنصاري وابن الدريوش أن يجمعوا الفساد وشذوذ الدُّعَار (١) ولكن أنى لهما أن يدفعا ما تردت فيه بغداد من أهوال الشر ، والنيران تأخذها من كل جانب أياماً طويلاً والمساجد قد عطلت والصلاة قد أهملت . وبيكى الشعراء من أمثال الحريري بغداد بكاء مرّاً ، وتسقط محلاتها محلة إثر محلة في يد الجيوش المحاصرة ، ولا يجد الأمين أخيراً مفرّاً من الاستسلام ، فيسلم نفسه لأعدائه ، ويقتل في طريقه لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ ويصبح الأمر خالصاً للمأمون ، وما توفى سنة ٢٠١ حتى يعزل أخاه القاسم من ولاية العهد ويولى عليها مكانه على الرضا كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع ، وتثور عليه أسرته ببغداد ، وتبايع عمه إبراهيم بن المهدي فيعزم على المسير إلى دار السلام ، ويدخلها في شهر ربيع الأول سنة ٢٠٤ ، فيتوارى عمه إبراهيم مدة ويعفو عنه كما أسلفنا .

وعصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية ، فقد كان حر الفكر شغوفاً بالمعرفة ، ولم يكد يستقر في بغداد حتى جعل من مجامع ندوة علمية كبيرة يتحاور فيها ويتناظر الفقهاء والمتكلمون والعلماء من كل صنف ، وجعله اتصاله بعلماء الكلام وفي مقدمتهم ثمامة بن أشرس النمرى وبشر بن غياث المريسي يعنى بالفلسفة وعلوم الأوائل حتى مهر فيهما ، وقد استطاعا أن يجرّاه إلى الاعتزال وإلى القول بأن القرآن مخلوق ، وأن من لا يقول بذلك يدخل في عداد المشبهة ، وما توفى سنة ٢١٢ حتى يجعل المأمون من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، ويكتب إلى الآفاق

(١) طبرى ١٣٦/٧ وما بعدها .

بامتحان<sup>(١)</sup> الفقهاء فيها ، فمن لم يقر بأنه مخلوق ضُرب وحبس وأشخص إلى بغداد . وتوفى ثمانية سنة ٢١٣ وتولى كبر هذه المحنة بشر المريسي المتوفى سنة ٢١٨ ثم أحمد ابن أبي دؤاد أحد رموس المعتزلة ، لا في عهد المأمون فحسب ، بل أيضاً في عهد المعتصم والوائق أى إلى نهاية هذا العصر . وأعظم سنة اشتدت فيها هذه المحنة سنة ٢١٨ إذ عنف المأمون بالفقهاء عنفاً شديداً ، فضُرب من لم يُقرأ بأن القرآن مخلوق وأهينوا وردّ عوا بالسيف وغيره ، وكان ممن ثبت على رأيه أحمد بن حنبل فقيده وأمر المأمون بأن يحمل إليه هو ومن امتنع مثله عن الإقرار بخلق القرآن ، وكان يغزو بأرض الروم شمالى الشام ، فأوثقوا بالحديد ، وحُملوا إليه . وما إن وصلوا إلى الرقة ، حتى جاء الخبر بنعى المأمون ، فردوا إلى بغداد ، وعاد المعتصم إلى امتحان ابن حنبل ، فثبت للمحنة ولم يرجع عن رأيه .

وقد حدثت في عصر المأمون ثورات كثيرة كان يعهد في إخمادها إلى قواده الأكفاء من مثل طاهر بن الحسين ، وقد ولّاه خراسان في سنة ٢٠٥ ففضى على رموس الفتن بها ، ويقال إنه فكر في خلع طاعة المأمون ولكن الموت عاجله ، وجعل المأمون بعده ولاية خراسان لابنه طلحة فظل بها إلى وفاته سنة ٢١٣ وولى المأمون عليها من بعده أخاه عبد الله فأسس هناك الدولة الطاهرية التى ظلت نحو قرن من الزمان . وكان عبد الله قد أدّى للدولة خدمات جليلة ، إذ ولّاه المأمون الرقة لحرب نصر بن شبث العقيلي وضيق عليه الخناق حتى ألقى له عن يد طالباً الأمان<sup>(٢)</sup> لسنة ٢٠٩ وكانت نار الفتنة مشتعلة<sup>(٣)</sup> بمصر منذ حروب الأمين والمأمون ، إذ ناصرت القيسية الأمين واليمينية المأمون ، واشتبكت الفتنان في حروب دامية ظلت مضطربة ، وظلت معها القلاقل ، وزاد فيها نزول جموع من الأندلس في الإسكندرية كان قد طردهم الحكم أمير قُطْرهم فولّوا وجوههم إليها واستولوا عليها . فرأى المأمون أن يولّى على مصر عبد الله بن طاهر حتى يقمع ما بها من فتن وحتى يرد الأندلسيين

وابن طيفور ص ٧٧ .

(٣) انظر في أحداث مصر التسالية الطبرى

١٧١/٧ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، والنجوم الزاهرة

٢١٠/٢ - ٢١٦ واليعقوبي ١٨٧/٣ - ١٩٢ .

(١) انظر في هذه المحنة الطبرى ١٩٥/٧

وما بعدها واليعقوبي ١٩٤/٣ وكتاب بغداد

لابن طيفور (طبع القاهرة) ص ١٨١ والنجوم

الزاهرة ٢١٢/٢ ، ٢١٨ ، وما بعدها ، ٢٢٤ .

(٢) اليعقوبي ١٨٧/٣ والطبرى ١٧١/٧ ،

عن الإسكندرية ، فدخلها في ربيع الأول سنة ٢١١ وهزم عبيد الله بن السرى وأعاد الأمن إلى نصابه ، وأكره الأندلسيين على الانسحاب إلى جزيرة إقريطش ( كريت ) فنزلوها واستوطنوها لسنة ٢١٢ ، وعاد ابن طاهر إلى بغداد في رجب من نفس السنة واستخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى فأقره المأمون على إمرتها ، وعزله في السنة التالية وولّى عليها أخاه المعتصم ، فاستخلف عليها عمير بن الوليد ، وثار عليه القيسية واليمينية ، وخرج لحربهم بالحَوْف في ربيع الأول لسنة ٢١٤ غير أنه قتل في المعركة ، فاستخلف عليها المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى ثانية ، واشتبك مع اليمينية والقيسية وهزموه هزيمة منكورة ، فخرج إليها المعتصم بنفسه ، فقمع ما بها من فساد ، وعاد إلى الموصل . وثار القبط في مستهل سنة ٢١٦ وقضى على ثورتهم الأفشين ، غير أن الفتن ظلت قائمة بمصر حتى دخلها المأمون لخمس خلون من المحرم سنة ٢١٧ فههّدها ورتب أحوالها واستقرت ، وقد ظل بها تسعة وأربعين يوماً .

وكانت قد اندلعت في أذربيجان منذ سنة ٢٠١ ثورة عنيفة للخرمية بقيادة بابك ، فوجه إليه المأمون محمد بن حميد الطوسي سنة ٢١٢ فواقعه مراراً منكلاً به وبأنصاره ، حتى إذا كانت سنة ٢١٤ خانه الحظ في بعض معاركه معه ، فخرّ صريعاً<sup>(١)</sup> ، وكان لذلك رنة حزن عميقة في العالم العربي جعلت الشعراء يبكونه طويلاً . وبعث المأمون إلى بابك من بعده على بن هشام وخالد بن يزيد الشيباني ، فاشتبكا معه في غير موقعة ، ولكنهما لم يستطيعا القضاء عليه . وعلم المأمون أن إمبراطور بيزنطة يعين بابك في حروبه ، فاستشاط غضباً ، وأخذ منذ سنة ٢١٥ يقود بنفسه حملات عنيفة ضده وضد البيزنطيين<sup>(٢)</sup> ، يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم والأفشين وخالد بن يزيد الشيباني وجعفر الخياط ، ومضى في بعض حملاته حتى بلغ أنقرة ، فارتعدت فرائص تيوفيل إمبراطور بيزنطة وطلب الصلح والمهادنة ، غير أن المأمون ظل يوالى حملاته حتى إذا كان في آخر حملة له سنة ٢١٨ نزل به مرض شديد ، ولم يلبث أن لبّى نداء ربه في موضع يسمى «البُدّ تدون»

واليعقوبي ١٩٣/٣ والنجوم الزاهرة في السنوات ٢١٥-٢١٨ وكتاب العرب والروم لغازيليف (نشر دار الفكر العربي) ص ٨٩ وما بعدها .

(١) اليعقوبي ١٩٠/٣ والطبرى ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة ٢٠٩/٢ .  
(٢) انظر الطبرى ١٨٩/٧ وما بعدها



وقد حمل منه جثمانه إلى طرسوس .

ويخلف المعتصم أخاه المأمون وتظل في عهده محنة القول بخلق القرآن قائمة وإن كان قد خفف من حدتها كثيراً . وكان قد استكثر من الترك وأذوا العامة في بغداد فبنى لهم سامراء ، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع . وفي أوائل عهده ثار الزُّطُّ بالبصرة وقضى على ثورتهم عجيف<sup>(١)</sup> بن عنبسة . وماتوا في سنة ٢٢٠ حتى يعد جيشاً ضخماً لحرب بابك بقيادة الأفشين ويمده بكثير من القواد أمثال أبي دلف العجلى ومحمد بن يوسف الثغرى ، وتتوالى انتصارات هذا الجيش على بابك وشيعته ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٢ سُحقت جموعه سحقاً ، واستسلم صاغراً<sup>(٢)</sup> ، ولم يلبث أن أُدخل إلى بغداد مقيداً مغلولاً ، فتعالى التكبير ، وقتل وعلقت رأسه وأحرق جسده عبرة ونكالا . وكان إمبراطور بيزنطة – كما ذكرنا آنفاً – يضع يده في يد بابك ، وحدث أن أغار على زِبْطُرَة<sup>(٣)</sup> وأعلى الفرات فأمر المعتصم بإعداد جيش جرَّار لتأديبه قاده بنفسه ، ووطئت جنوده بلدان<sup>(٤)</sup> الروم في آسيا الصغرى بقيادة الأفشين وجعفر بن دينار وخالد بن يزيد الشيباني ومحمد بن يوسف الثغرى وغيرهم ممن ساموا البيزنطيين ذلاً وصغاراً ، وقد أخبروا فيما أخبروا أنقرة وسلطوا مجانيقهم على عمورية حتى فتحت أبوابها عنوة . وعاد المعتصم قرير العين ، وعلم في عودته أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر مؤامرة ضده ، فأحبط مؤامرتة . وثار مازيار بطبرستان سنة ٢٢٤ وجاءت به الجيوش التي حاربتة مكبلاً بالحديد إلى بغداد ، فقتل وصلب<sup>(٥)</sup> . وثبت أن الأفشين كان يكاتبه سرّاً آملاً في عودة دين آباؤهما الحجوس ، فسجنه المعتصم سنة ٢٢٥ وظل في سجنه حتى مات وصلب بعد موته<sup>(٦)</sup> .

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ فخلفه ابنه الواثق ، وقد أعاد محنة القول بخلق القرآن

واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسعودى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٨/٢ وفازيليف ص ١٢٤ وما بعدها .  
(٥) اليعقوبى ٢٠٢/٣ والمسعودى ١٦/٤ والطبرى ٣٠٢/٧ والنجوم الزاهرة ٢٤٠//٢ .  
(٦) اليعقوبى ٢٠٣/٣ والطبرى ٣٠١/٧ والمسعودى ١٦/٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٢/٢ .

(١) طبرى ٢٢٥/٧ واليعقوبى ١٩٨/٣ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٢ .  
(٢) أنظر الطبرى ٢٢٦/٧ وما بعدها واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسعودى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٢/٢ وما بعدها .  
(٣) زبطرة : مدينة بين سميساط والحدث في الطريق إلى بلاد الروم .  
(٤) انظر في هذه الحملة الطبرى ٢٦٣/٧

جذعة ، إذ نراه يكتب إلى الولايات المختلفة بامتحان الفقهاء والعنف بمن لا يُقرّون  
بأنه مخلوق . ولم تحدث في سنواته الخمس فتوق كثيرة سوى ما كان من شغب  
بعض الأعراب في الحجاز وقد قضى على شغبهم بغا الكبير (١) . وشغب  
بعض الأكراد وسحق شغبهم وصيف (٢) التركي . وسرعان ما توفّي الواصل  
سنة ٢٣٢ للهجرة .

(٢) طبري ٣٣١/٧ .

(١) طبري ٣٢٢/٧ وما بعدها واليعقوبي  
٢٠٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٧ .

## الفصل الثاني

### الحياة الاجتماعية

١

#### الحضارة والثراء والترف

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما في الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما في الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية ، وأخذوا يكوّنون من ذلك ومن تراثهم العربي الخالص حضارتهم الإسلامية ، وكان طبيعياً أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية ، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية ، وهي تبدو واضحة في بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين ، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة .

وقد كشفت حفائر سامراء عن طريق بناء الدور والقصور لافيها فحسب ، بل أيضاً في بغداد ، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف<sup>(١)</sup> يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان ، وتتناثر في الدهليز والفناء عُرف متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية ، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة . ويجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغيرة ثانوية تعلوها بعض القباب ، وأكبرها جميعاً قبة الإيوان . وفي الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسرايب معدة للسكنى ، وتكثر الأساطين في الأفنية ، وتكثر الشرفات وتلحق بها

الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٢٠٩  
ووصف إيوان قصر المعتصم في الموشح للمرزباني  
ص ٣٠١ .

(١) انظر في ذلك كتاب الحضارة الإسلامية  
لآدم ميتز (الترجمة العربية) ١٥١/٢ وما  
بعدها ، وراجع وصف إيوان قصر الأمين في طبقات

بعض البساتين وبعض النافورات والبرك . وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملون ، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار ، وقد يذهب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة ، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء ، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنافس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتمائيل العقيان والحامات المذهبة والأواني المرصعة بالجواهر . ولا ريب في أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسي ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين ، وكأنما كُتب على الشعب أن يكدح ليملاً حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم ، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق . ومردُّ ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد ، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة ، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد ، وطبقات قُتِرَ عليها في الرزق ، فهي تشقى إلى غير حد ، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم .

وكانت خزائن الدولة هي المعين الغدق الذي هياً لكل هذا الترف ، فقد كانت تُحمَل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض ، حتى قالوا إن المنصور خلّف حين توفي أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستائة مليون من الدراهم (١) وإن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير (٢) . وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تُصبُّ في حجور الخلفاء ومن يحفّ بهم من بيستهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين . ونسوق من ذلك أطرافاً تصور ما آل إليه ذلك من شيوع الإقطاع والثراء العريض في الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها ، فقد روى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام (٣) ، ويقال إن غلّة

وضحى الإسلام (الطبعة الأولى) ١١١/١ .

(٣) طبرى ٣٢٧/٦ .

(١) المسعودي ٢٢٢/٣ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة

البيهية) ص ١٢٧ والجهشياري ص ٢٨١

الخيزران زوجة المهدي من إقطاعاتها كانت تبلغ سنويًا مائة وستين مليونًا من الدراهم<sup>(١)</sup>، وكانت إقطاعات محمد بن سايمان بن علي العباسي والى البصرة تُدرّ عليه كل يوم مائة ألف درهم<sup>(٢)</sup>، وكانت للفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين قطيعة تُغليّ له سنويًا مليون درهم<sup>(٣)</sup>، ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون خلّف بعد وفاته ثمانين ألف دينار ونُقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب، بل قال: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا<sup>(٤)</sup>.

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين، ورَسَمُ المهدي لمروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين<sup>(٥)</sup> حين يطرب لبعض أصواتهم، وتجاوز رسمه لمروان ابنه الهادي فأعطاه يوماً على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم<sup>(٦)</sup>، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة<sup>(٧)</sup> ألف دينار. وكان الرشيد بحراً فياضاً ما نبى ينهل على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبي يوسف والأصمعي والكسائي، والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع، ويقال إنه صار إليه في عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم<sup>(٨)</sup>، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله، ويكفي أن نعرف أنه وصل سلما الخاسر وحده لمداخحه فيه بعشرين ألف دينار<sup>(٩)</sup>، وطرب يوماً لغناء محارق فأقطعه ضيعة وداراً ووصله بثلاثة آلاف دينار<sup>(١٠)</sup>، أما مغنيه الأثير عنده وهو إبراهيم الموصلي فيقال إن صلواته له تجاوزت مائتي ألف دينار<sup>(١١)</sup> أما الأمين فقد تجاوز بصلواته كل حدٍّ حتى قالوا إنه أجاز عبد الله بن أيوب التيمي الشاعر يوماً بمائتي ألف درهم<sup>(١٢)</sup>، وطرب ليلة لغناء إسحق الموصلي، فأعطاه ألف ألف درهم<sup>(١٣)</sup>، وكان يعجب بمغنيّة تسمى بدلا، فأنفق عليها أموالاً طائلة،

- (٧) طبرى ١٣٩/٦.  
 (٨) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبعة دار الفكر بيروت) القسم الأول من الجزء الثاني ص ٥٨.  
 (٩) أغاني طبعة (الساسي) ٧٧/٢١.  
 (١٠) أغاني ١٤٤/٢١.  
 (١١) أغاني طبعة (دار الكتب) ١٩٢/٥.  
 (١٢) النجوم الزاهرة ١٨٩/٢.  
 (١٣) أغاني ٣٦٨/٥.

- (١) المسعودي ٢٥٧/٣  
 (٢) الجهشيارى ص ٢٥٠  
 (٣) المسعودي ٢٣٦/٣  
 (٤) النجوم الزاهرة ٢٢٧/٢  
 (٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٢/٦.  
 (٦) النجوم الزاهرة ٦٤/٢ والأغاني ٨٠/١٠  
 ويقال إن سلما الخاسر أنشده مدحة فيه فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم انظر الجهشيارى ص ١٧٣.

ويقال إنه أهداها من الجوهر ما لم تملك واحدة مثله<sup>(١)</sup>. وكان المأمون كثير الإغداق على حاشيته حتى قالوا إنه فرق في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف ألف درهم<sup>(٢)</sup>، ويروي ابن تغرى بردى أنه أمر يوماً لكل من ابنه العباس وأخيه المعتصم وعبد الله ابن طاهر بخمسمائة ألف دينار، وعجب ابن تغرى بردى من تفريقه هذه المبالغ الطائلة، فعقب على ذلك بقوله: لعل الدينار يوم ذاك لم يكن مثل دينارنا اليوم<sup>(٣)</sup> وكأنا ذهب عن ابن تغرى بردى أن أموال الدولة كلها كانت في أيدي المأمون وسابقه وتاليه يبذلونها للناس حسب مشيئتهم وينثرونها عليهم نثرًا.

ونافسهم الوزراء في هذا البذل الواسع، وللبرامكة فيه ما ليس لأحد، حتى يقال إنه لم يكن يرعى جليس خالد البرمكي دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها<sup>(٤)</sup>، وصنيع ابنه يحيى وولديه جعفر والفضل في هذا الباب فوق صنيعه درجات، فقد كانت بأيديهم خزائن الدولة لعهد الرشيد، فملأوا منها أيدي العلماء والأطباء والمترجمين والمغنين والشعراء بالأموال، بل بالثروات الضخمة، على نحو ما يحكى من أنهم أعطوا لإبراهيم الموصلي يوماً ستمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألفاً<sup>(٥)</sup>، وأعطى يحيى البرمكي يوماً ابنه إسحق مائة ألف درهم ليبتاع بها داراً وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف لفرضها، وأعطاه ابنه الفضل مائة ألف لخرقتها، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة لفتقتها<sup>(٦)</sup>، وبلغ - فيما يقال - ما أعطوه لسلم الخاسر الشاعر عشرين ألف دينار<sup>(٧)</sup>، وكانهم كانوا يبارون فيه الرشيد. وكان ينافسهم في هذا البذل الواسع الفضل بن الربيع وبنو سهل وكبار الولاة والقواد من أمثال معن بن زائدة وابن أخيه يزيد بن يزيد الشيباني وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبى وأخيه روح ومحمد بن حميد الطوسى وأبى دلف العجلي، وآل طاهر وفي مقدمتهم طاهر نفسه، ويقال إن صلته بلغت يوماً أثنى درهم وسبعمائة ألف وأن ابنه عبد الله تجاوز بصلته يوماً هذا الرقم، بل لقد ضاعفه إذ بلغ به أربعة آلاف ألف درهم وسبعمائة ألف<sup>(٨)</sup>.

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/٥ .  
 (٦) أغاني ٣٠٨/٥ وما بعدها .  
 (٧) أغاني (سأسى) ٧٧/٢١ .  
 (٨) النجوم الزاهرة ١٩٥/٢ .

(١) أغاني (سأسى) ١٣٨/١٥ .  
 (٢) طبرى ٢١٢/٧ .  
 (٣) النجوم الزاهرة ٢٠٥/٢ .  
 (٤) الجهشيارى ص ١٥٠ .

وكان لهذه السيول التي كانت ما تني تسيل إلى حجور العلماء والأطباء والمترجمين والشعراء والمغنين أثرها الواسع في نهضة العلوم والآداب والفنون ، فقد كُتِبَ أصحابها مئونة العيش ، وكان منهم كثيرون يرتب لهم رزق معلوم يأخذونه في كل شهر أو في كل سنة ، بل لقد كان منهم وخاصة من المغنين والشعراء من يثرى ثراء فاحشاً حتى ليقال إنه صار إلى إبراهيم الموصلي المغني أربعة وعشرون مليون درهم سوى رزقه أو راتبه الجارى وهو عشرة آلاف درهم في كل شهر وسوى غلات ضياعه<sup>(١)</sup> ، ويقال إن سلماً الخاسر خلّف حين توفي خمسين ألف دينار<sup>(٢)</sup> ، وما وصل الأصمعي من الرشيد والبرامكة يتجاوز كل حد ، وكذلك ما وصل أبا يوسف القاضي من الرشيد ، ويقال إنه دخل عليه وفي يده درتان بديعتان يقلبهما وينظر فيهما ، فقال له : هل رأيت أحسن منهما ؟ فأجابه : نعم الوعاء الذى هما فيه ، فألقى بهما إليه<sup>(٣)</sup> ، ويروى أن زُبَيْدَةَ زوجة الرشيد سُرَّت بإحدى فتاواه فأهدته حقاً من فضة بداخله حقان مملوءان طيباً ، وبأحدهما جام من ذهب مملوء دراهم وبالثانى جام فضة مملوء ذهباً ، مع غلمان وتخت من ثياب وبعض الدواب الفارسة<sup>(٤)</sup> . وسنعرض في الفصل التالى لما سكبته الخلفاء والوزراء والولاة وعلية القوم من أموال على العلماء والمؤدبين والأطباء والمترجمين مما جعل حياتهم نعيماً خالصاً .

وطبيعى أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب ، بل أيضاً إلى الترف في الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة . ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن مجلس للمهدى كان يجلس فيه على فرش ماردة وعليه ثياب ماردة وعلى رأسه جارية تلبس هي الأخرى ثياباً ماردة<sup>(٥)</sup> ، وما يروى عن مجلس الرشيد من أنه كان يعبق بالطيب والزعفران والأفاويه من كل شكل<sup>(٦)</sup> ، وأيضاً ما يروى عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، فقد أنفق فيه ما يفوق أغرب القصص الخيالية ، إذ قيل إن أباهما فرق على حاشية المأمون رقاعاً بأسماء كثير من الضياع وبدراً من

(٤) المسمودى ٢٦٠/٣ .

(٥) الجهشيارى ص ١٦٠ .

(٦) الطبرى ٥٣٧/٦ .

(١) أغاني ١٦٣/٥ .

(٢) أغاني (سالى) ٧٧/٢١ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٨٢/٢ .

الدنانير والدرهم كل بدرة عشرة آلاف ، وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت ، ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة<sup>(١)</sup> . وبنوه المؤرخون بأناقة المعتصم حتى قيل إن ثيابه كانت تشبّه بالزُهْرَة لتألقها<sup>(٢)</sup> ، واشتهر بلبس قلانس طويلة ذات ألوان مختلفة سميت بالمعتصميات ، كما اشتهر بأنه ألبس قواده وكبار جنده دراعات الديباج المنسوجة بالذهب المرصعة بالياقوت والأكالييل المرصعة بالدر من كل لون<sup>(٣)</sup> ، ويصف بعض المغنين مجلس الوراق فيقول : « لم يزل الخدم يُسلمونني من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، وإذا الوراق في صدره على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب»<sup>(٤)</sup> . وكان الوزراء وغير الوزراء من عليّة القوم يَحْيَوْنَ هذه الحياة المترفة وينغمسون فيها انغماساً ، جامعين لقصورهم ومجالسهم كل ما يمكنهم من طُرف ، ويصور ذلك - من بعض الوجوه - ما يُروى عن الأصمعي من أنه دخل على الفضل بن يحيى البرمكي في يوم بارد من أيام الشتاء « فإذا هو في بهوٍ قد فُرِش بالسَّمُور (ضرب من الفراء) وهو في دَسْت منه وعلى ظهره دُوَاج (ثوب) سمور أشهب مبطن بخز ، وبين يديه كانون فضة فوقه أثنيّة ذهب في وسطها تمثال أسد رابض في عينيه ياقوتتان تتوقدان »<sup>(٥)</sup> .

وطبيعي أن يشيع في هذا الجو الزاخر بالترف التأنق في الملبس والثياب ، وقد عمّ حينئذ ببغداد لبس الأزياء الفارسية ، ومرّ بنا في الفصل السابق كيف كانت كل طائفة من طوائف الموظفين ورجال الدولة تلبس زياً خاصاً بها يميزها من الطوائف الأخرى . وكان المنصور أول من دفع إلى ذلك إذ رسم للوزراء لبس الدرّاعات والطيلسانات والشاشيات ، وأمر أفراد حاشيته بلبس القلانس الطوال

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ والطبرى

١٨٧/٧ واليعقوبي ١٨٦/٣ والمسعودي ٣٥١/٣

وإبن طيفور ١١٤ وإبن الطقطقي ص ١٦٧ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤٥/٥ .

(٣) المسعودي ٩/٤-١٢ .

(٤) أغاني ١١٦/٤ .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار

المعارف) ص ٢١٤ .



مما جعل أبا دلامة مضحكه ينشده<sup>(١)</sup> :

وكنّا نُرجّي من إمامٍ زيادةً فزاد الإمامُ المصطفى في القلائس  
تَراها على هامِ الرجالِ كأنّها دنانُ يهودٍ جُدِّلتْ بالبرانسِ<sup>(٢)</sup>

وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات الحريرية<sup>(٣)</sup> ، ويلبس المغنون قطوع  
الدباج والخز<sup>(٤)</sup> ، ويقال إنه كان لعمارة بن حمزة أحد كتّاب الخراج ألف  
دوّاج من صوف وفراء<sup>(٥)</sup> .

واستكثروا حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والكافور والعنبر  
والروائح الأربعة التي كانت تستخلص من البنفسج والزرجس والنيسلوفر وغير ذلك  
من الأزهار ، واشتهرت جور الفارسية بماء الورد وأدهنة الزعفران .

وبالغ النساء حرائر وجواري في زينتهن وأناقتهن ، فكن يرفلن في الثياب  
الحريرية ويختلن في الحلى والجواهر متخذات منها تيجاناً وأقراطاً وخلاخيل وعقوداً  
وقلائد ، وقد ينظمنها على شعرهن<sup>(٦)</sup> أو على عصائبهن<sup>(٧)</sup> ، ويقال إن دنانير  
جارية البرامكة كانت تتحلّى بعقد من الجواهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار  
كان قد أهداه إليها الرشيد<sup>(٨)</sup> . وكن يتعطرن بأنواع الطيب من مفرقهن إلى أقدامهن ،  
ويقال إن عريب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه في كل  
غسلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً<sup>(٩)</sup> . وكن يمشطن شعورهن بأمشاط من الصدف  
والصنّدل<sup>(١٠)</sup> ويعقصنّه أو يرسلنه غدائر تنوس ، وقد يلوينه على أصداغهن في  
هيئة النون أو هيئة العقرب ، وفي ذلك يقول أبو نواس واصفاً طائفة منهن<sup>(١١)</sup> :

أصداغهنَّ معقرباً      تٌ والشّواربُ من عيّيرٍ

(٨) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٣٢ وانظر  
في عقد آخر نفيس أعداه الواثق لفريدة الصغرى  
المغنية الأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/١١٧ .  
(٩) أغاني (ساسى) ١٨/١٨٧ .  
(١٠) وكان الرجال يتخذون هذه الأمشاط  
أيضاً . انظر كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة  
دار الكاتب المصرى) ص ٥٣ .  
(١١) ديوان أبي نواس (طبعة آصاف)  
ص ٨٣ .

(١) أغاني ١٠/٢٣٦ .  
(٢) الهام : الروس . جللت : غطيت . البرانس  
كالقلائس ، والشاشيات : أغطية للرأس .  
(٣) البيان والتبيين ٣/١١٥ .  
(٤) أغاني ٦/٢٩٣ وانظر ٥/٣١٧ .  
(٥) الجهشيارى ص ١٤٩ . والدواج : من  
الملابس التي يلتحف بها .  
(٦) طبرى ٦/٤٣٥ .  
(٧) أغاني (طبع دار الكتب) ١٠/١٦٢ .

وكنَّ يلبس جوارب الحرير ويتحلين بعقود الأزهار من بنفسج وغير بنفسج ، ويقول الجاحظ إن المرأة حين كانت تزوجَّ ابنتها تحليها بالذهب والفضة وتكسوها المروزيّ والوشى والقنزَّ والخزَّ وتعلِّق لها المعصفر وتدق الطيب حتى تعظم أمرها في عين زوجها وأهله<sup>(١)</sup> . ولعل امرأة لم تبلغ من التأنق ما بلغته زُبَيْدَة زوجة الرشيد وفيها يقول المسعودى إنها : « أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلمة بالجواهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذى اتُّخذ لها خمسين ألف دينار . . وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل . . ملبسة بالوشى والسمر ( الفراء ) والديباج وأنواع الحرير . . واتخذت الحفاف ( النعال ) المرصعة بالجواهر ، وشمع العنبر ، وتشبَّه الناس بها »<sup>(٢)</sup> .

ولا ريب في أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التى كانت تحيا حياة بُؤْس تقوم على شطف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسى الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفاً لعهد المأمون<sup>(٣)</sup> . وطبيعى أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر ، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية ، فالجمهور يعيش في الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذى كان يعمل في القصور والضياع ، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار ، وكأنما كانوا جميعاً أرقاء في هذا النظام الذى كُفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة .

ولعل هذا البذخ وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقى في كثرة الثورات على العباسيين وخاصة في إيران ، مما عرضنا له في الفصل السابق ، وأيضاً لعله السبب الحقيقى في تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذى ينشر العدل الاجتماعى في الأرض ، مما هيا لكثرة الجمعيات السرية واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها . غير أن المسألة لم توضع وضعاً سليماً صريحاً على أساس مشكلة العدالة الاجتماعية واستنزاف الشعب لمصلحة طبقة تعيش معيشة

(٢) المسعودى ٢٤٤/٤ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ .

(١) البخلاء ص ٢٥ . والمروزي نسبة

إلى مرو . ويريد الجاحظ بالمصفر السمر

الحريرية التى كانت تعلق على الحيطان .

باذخة مسرفة في البذخ ، بل وجهت توجيهاً خاطئاً ، على أساس دعوات دينية مارقة كدعوة الحرمية التي استوجبت آراء المزدكية والمانوية ، وحتى الشيعة وفرقهم أعلوا المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية . وبذلك أخفقت هذه الثورات جميعاً ، لأنها لم تضع للشعب اللافئات والشعارات الحقيقية التي يلتف حولها ويعمل من أجلها ، ومضى العباسيون وحواشيهم يغرقون إلى آذانهم في البذخ والترف .

وقد هب هذا الترف لنشوء طبقة وسطى في بغداد ومدن العراق من التجار والصناع الذين كانوا يقومون على مطالب الترف وأدواته ، أما التجار فكانت سفنهم وقوافلهم غادية رائحة في البحر والبر تجلب الطرف النفيسة من جميع أنحاء العالم ، وأما الصناع فكانوا يتفننون في صوغ التحف الثمينة . وكان مركزهم جميعاً في الأسواق حيث تتجمع حوانيت كل طائفة منهم في سوق أو شارع . وكانت رؤوس أموالهم تختلف قلة وكثرة وضيقتاً وسعة ، فمنهم من كان رأس ماله ثلاثة آلاف دينار (١) ومنهم من بلغ رأس ماله مائة وأربعين ألف دينار ومليونين وسثمائة ألف من الدراهم (٢) ، ويقال إن ربح بعض التجار بلغ في صفقة واحدة مائة ألف دينار (٣) . وكان أكثرهم ثراءً البزازين والعطّارين وتجار التحف النفيسة .

ومن أهم الجوانب التي يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها ومشاربها ، فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة وصحاف الصيني المزخرفة والصحاف الزجاجية المنقوشة والمحفورة ، وتفنّن لهم الطهاة في ألوان الطعام والشراب ، وكانوا يسمّون باسم ما يعدونه منها من خببّاز وشوّاء وطبّاخ وخببّاص وهو الذي يصنع الحلوى وشرابى وهو صانع الشراب وألوانه . وفي كتاب البخلاء للجاحظ حشّد كبير من الأطعمة والمشارب وهي في جمهورها فارسية ، فمنها السبّاج وهو لحم يطبخ بخخل مع شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والطبّاهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والشبّارقات وهي شرائح مشوية من اللحم ، ومنها الفانيد وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن ، والحشكنان وهو كعك يحشى بالجزوز والسكر ، والفالودج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، ومنها الجلاب وهو شراب من ماء الورد .

(٣) الجهشيارى ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

(١) البخلاء ص ١٠١ .

(٢) البخلاء ص ٣٤ .

وكانوا يتفننون تفنناً واسعاً في إضافة الأفاويه إلى الأطعمة وصنع المشهيات والمخللات الحريفة وصنوف النقل من مثل مملوح البندق والجوز واللوز والفسق. وتكثر عندهم أسماء الفواكه من مثل التين والعنب والموز والكمثرى والخوخ والمان والإجاص والسفرجل والتفاح ، وكان البطيخ لديهم كثيراً حتى نسبوا إليه سوق الفاكهة ، فسموها باسم سوق البطيخ ودار البطيخ .

ومما يدل على كثرة أفانين الطهارة في الأطعمة ما يروى من أن مائدة المأمون ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون<sup>(١)</sup> ، وقد انبهر الأصمعي لكثرة ما رآه على مائدة الفضل بن يحيى البرمكي من ألوان الطعام وما غسلوا به أيديهم بعد الأكل من ألوان الطيب والغالية والعنبر<sup>(٢)</sup> . ويقال إن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار بينما كان ينفق وزيره ابن أبي خالد على طعامه يومياً ألف درهم<sup>(٣)</sup> ، وهو نفس المبلغ الذي كان ينفقه إبراهيم الموصلي يومياً على طعامه وطيبه<sup>(٤)</sup> .

ومن تمة هذا الترف في المطعم أن نراه يتواضعون على طائفة من آداب المائدة اقتبسوا كثيراً منها عن الفرس<sup>(٥)</sup> ، فمن ذلك أن يضم الآكل شفتيه في أثناء المضغ وأن لا يستأثر لنفسه بشيء من محاسن الطعام وأن لا يمسح فمه بكمه وأن لا يتناول إلا ما بين يديه وأن لا ينظر إلى ما بين يدي غيره وأن لا يطلب ما عسى أن لا يكون موجوداً .

وعلى نحو ما كان للمائدة آدابها كان لمجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم أيضاً آدابها ، وهي تعرف بآداب المسامرة<sup>(٦)</sup> ، وكان لا بد للنديم من إحسانها ، حتى يخفف على قلب منادمه ، وكثير من هؤلاء الندماء استطاع أن يعتلى منصب الوزارة بما كان يحسنه من التبسط إلى الخليفة في الحديث في ساعات صفوه وغضبه ، ومن لم يعتل منهم منصب الوزارة سالت عليه الصلوات السنية ، ولذلك لا نعجب أن يصبح الخدق بالمنادمة وما تتطلب من كياسة مطنحاً لكثير من العلماء والأدباء ومن اللغويين والفقهائ وكل من يريد الخطوة عند خليفة أو وزير . وتلمع في هذا الجانب أسماء الأصمعي وأبي يوسف منادى الرشيد وثمامة بن أشرس نديم المأمون .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دارالكتب)

٢١٤/٣

(٦) المسمودي ١٩٥/٣ وما بعدها

(١) ابن طيفورص ٣٦ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٤ .

(٣) ابن طيفورص ١٢٣ .

(٤) أغاني (طبعة دارالكتب) ١٦٤/٥ .

وكان النديم يورد في أحاديثه أخبار العامة ونواديرهم وبعض الحكايات القصيرة وبعض الطرف الأدبية . وكان بين هؤلاء الندماء مضحكون لا يزالون يوردون فكاهات مضحكة ، ومن أشهرهم أبو دلامة الشاعر مضحك السفاح والمنصور والمهدى ، وله فكاهات كثيرة تدور في كتب الأدب ، ومنهم ابن أبي مريم مضحك الرشيد « وكان محدثاً فكهاً ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته ، وكان ممن جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد الحجان » (١) ومنهم أبو الشمقمق وكان الناس يتهافتون على جمع نوادره (٢) .

وكانت هناك أدوات للترويح ولعب كثيرة ، من ذلك سباق الخيل (٣) وسباق الحمام الزاجل (٤) ولعبة الصولجان وهو كرة تضرب من فوق ظهور الخيل ، ومن ذلك المحادثة بين الديوك والكباش والكلاب ، ولعبُ أبي نواس بالكلاب هو الذى أتاح له التفوق في وصفها بطردياته ، ومن ذلك لعبة الشطرنج حتى ليشتهر شخص بإحسانها يسمى أبا حفص الشطرنجى ، ولعبة التردُّ ( الطاولة ) ويقال إن واضعه أراد به تمثيل الحياة ، فرقعته تقابل الأرض المبسوطة لسكانها ، ومنازله الأربع تقابل الطبائع الأربع وخطوطها وهى أربعة وعشرون تقابل ساعات الليل والنهار وبيادقة ( حجارته ) الثلاثون تقابل عدد أيام الشهر واختلاف ألوانها بين البياض والسواد تقابل اختلاف الليل والنهار وفصَّاه ( الزهر ) يقابلان القضاء . ويظهر أنهم عرفوا لعبة خيال الظل ، فقد هدَّد د عَجَبِل ابناً لأحد طبَّأخى المأمون بأنه سيهجوهُ ، فقال له : والله إن فعلت لأخرجنَّ أمك في الخيال (٥) .

ومن أسباب اللغو التى فُتِنَ بها الخلفاء الصيد بالبُرْزاة والشواهين والصقور والكلاب والفهود ، والصيد قديم عند العرب والفرس جميعاً ، ومن الملوك الذين اشتهروا به عند الأخيرين بهرام جور (٦) ، وأولع به المهدي ، فكان يخرج إليه في مواكب كبيرة ومعه الحرس والوُصفاء وبعض حاشيته ، ويروى أن على بن سليمان العباسى خرج معه يوماً فعرض لهما ظبي سانح ، فرماه هو والمهدى بسهمين ،

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٤/١٤ .

(٥) الديارات للشابشى ص ١١٩ .

(٦) الحيوان ١/١٤٠ .

(١) طبرى ٥٣١/٦ .

(٢) الحيوان للجاحظ (طبعة الخليلي) ٦١/١ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٠٧ والمسعودى ٢٧٩/٣ .

أما المهدي فأصابه وأما علي بن سليمان فأصاب كلباً كان قد أُرسِلَ عليه وقتلها  
جميعاً، فقال أبو دلامة متندراً (١) :

قد رمى المهديُّ ظبيّاً شكَّ بالسهم فوَّادَهُ  
وعلىُّ بن سليمان رمى كلباً فصاده  
فهنيئاً لهما كما لأمريءٍ يأكل زاده

وشُغِفَ بالصيد كل من جاء بعد المهدي من الخلفاء (٢) ، وكان يشغف  
به الفضل بن يحيى البرمكي شغفاً شديداً (٣) .

وكان للعامّة ملاهيم وفي مقدمتها الفرجة على القرّادين والحوائثين ، وكانوا  
يتجمعون حول قصّاص يطرفونهم بحكايات خيالية ، كما كانوا يتجمعون حول  
طائفة من الحكّائين الذين كانوا يحكون في دقة لهجات سكان بغداد ونازليها من  
الأعراب والنبط والحراسانيين والزنج والفرس والهنود والروم ، ويصور الجاحظ  
عملهم ، فيقول : « إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج  
كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للحراساني والأهوازي والزنجي  
والسندي والأحباش وغير ذلك ، نعم حتى تجده كأنه أطع منهم ، فإذا ما حكى  
كلام الفأفاء فكأنما قد جمعت كل طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد ،  
وتجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف  
أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في  
أعمى واحد ، ولقد كان أبو دبّوبة الزنجي مولى آل زياد يقف بباب الكرخ  
بحضرة المُكّارين ، فينهب ، فلا يبقى حمار مريض ولا هريمٌ حسير ولا مُتّعبٌ  
بَهِيرٌ إلا نهق ، وقيل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبث لذلك ،  
ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبّوبة فيحركها ، وقد كان جمع جميع

ص ١٧٣ والطبري ٤٩٤/٦ والأغاني ٣٤٤/٥  
٤١٨ ، ١٥٨/٧ ،  
(٣) المسعودي ٢٨٤/٣ .

(١) أغاني ٢٤٠/٦ والمسعودي ٢٩٧/٣  
وابن الطقطقي ص ١٣١ ، ١٣٣ .  
(٢) انظر المصايد والمطارد لكشاجم (طبع  
دار المعرفة ببغداد) ص ٣ وما بعدها والجهشياري

الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد ، وكذلك كان في نباح الكلاب» (١) .

## ٢

## الرقيق والحوارى والغناء

كثر الرقيق في العصر العباسى كثرة مفرطة بسبب كثرة من كانوا يؤسرون في الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب ، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة في إيران وخراسان وما وراءهما وفي الدولة البيزنطية ، وعظمت هذه التجارة في الإسلام على مر السنين ، حتى كان في بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق (٢) ، وكان يقوم عليه موظف يسمى قيس الرقيق .

وكان الرقيق حينئذ يُجلب من بلاد الزنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبي أوربا وكان الزوج يعملون في فلاحه الأرض غالباً ، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة في المنازل والقصور . وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يحررون ، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب في الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره (٣) . وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قال إنه سار يوماً وبين يديه أربعمائة منهم (٤) ، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركى ، وما زال يشتريهم من أيدي مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا له بالآلاف وحتى اضطر أن يبني لهم - كما أسلفنا - سراً من رأى كى يجنب العامة شرهم وأذاهم .

وكان يتشيع بينهم الخبيثان ونحن نعرف أن الإسلام يحرم خصاء الإنسان احتراماً لآدميته ، ولكنه كان منتشرأ في العالم القديم بين البيزنطيين (٥) وغيرهم ،

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢١٨/٥ .

(٥) انظر الحضارة البيزنطية لرنسيان (نشر

مكتبة النهضة المصرية) ص ٢٤٣ .

(١) البيان والتبيين ٦٩/١ .

(٢) المسعودى ٣١٦/٣ .

(٣) انظر الجهشيارى ص ١٢٥ وابن العلقم

ص ١٢٩ .

وما نصل إلى العصر العباسي حتى نجد القصور في بغداد وغيرها من بلدان العالم الإسلامي تكتظ بهم ، ومن المؤكد أن المسلمين لم يكونوا هم الذين يقومون بهذا العمل البغيض من الحضارة ، إنما كان يقوم بذلك اليهود والنصارى متحملين وزرّه وإثمه . وقد اشتهر الأمين بكلفه بهم كلفاً شديداً حتى تنذر عليه معاصروه<sup>(١)</sup> .

وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور ، إذ أحلّ الإسلام للشخص أن يملك من الإماء والجوارى ماشاء ، وبينما قيّد حرّيته إزاء الحرائر فحرّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حرّيته إزاء الجوارى فلم يقيده بعدد منهن ، وإن كان قد حرم عليه بيع من يستولدها وردّها إليها حرّيتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحراراً منذ ولادتهم . وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس مختلفة ، فمنهن السنديات والفارسيات والحبشيّات والحراسانيات والأرمنيّات والتركيّات والروميّات ، وأيضاً ربما كان للحجاب دخل في ذلك ، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر ، أما الجوارى فكان معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم ، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم ، وصوّر ذلك الجاحظ فقال : « قال بعض من احتجّ لليلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيّرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمّل كل شيء منها وعرفه ما خلا حطوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرّة إنما يستشّار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرّف المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك . وقد تحسّن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكان عنقها لإبريق فضة وكان ساقها جمّارة وكان شعرها العناقيد وكان أطرافها الممداري وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أخربها يكون الحب والبغض »<sup>(٢)</sup> .

وكانت هؤلاء الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة ، فأثرن آثاراً واسعة في أبنائهن ومحيطهن ، وهي آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملاً بعيد الغور ، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن ، فالمنصور

(٢) رسائل الجاحظ (طبعة السندوي) ص ٢٧٤ .

(١) طبري ١٠١/٧ ، ١١٠ .



أمه حبشية والهادى والرشيده أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة ، وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس . وقد أخذ هؤلاء الجوارى يكثرن في القصر منذ المهدي وكان بينهن من يعلقن الصُّلبان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم<sup>(١)</sup> . وقد استكثر الرشيد وزوجه زُبَيْدَة من الجوارى والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفي جارية في أحسن زى من الثياب والجوهر<sup>(٢)</sup> ، وكانت سحرٌ وضياءٌ وحننٌ من بينهن يشغفن قلبه ، وفيهن يقول ، وقيل : بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه<sup>(٣)</sup> :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِنائي      وحَلَلْن من قَلْبِي بكلِّ مكانِ  
مالي تطاوعني البريةَ كُلُّها      وأَطِيعهنَّ وهُنَّ في عَصياني  
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى      - وبه عَزَزَن - أعزُّ من سلطاني

وكان قصر الأمين يزخر بالجوارى الغلاميات اللاتي يلبسن لبس الغلمان<sup>(٤)</sup> ، وزخر قصر المأمون بالجوارى المسيحيات<sup>(٥)</sup> ، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق<sup>(٦)</sup> .

وكانت قصور الوزراء والأمراء تمتلئ بهن ، حتى ليرَوَى أنه كان لاعتبابة زوج يحيى بن خالد البرمكي مائة وصيفة ، لبوس كل واحدة منهن وحليتها خلاف لبوس الأخرى وحليتها<sup>(٧)</sup> . ويفيض كتاب الأغاني بأخبارهن في دور عملية القوم وفي دور النخاسة والقيان ويصور كيف كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء ، والجوارى يستصين قلوبهم وكثيراً ما يقع حب جارية في قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلاً ، وكان من الشعراء من يقاوم إغراءهن ، ولكنه يغاديون صباح مساء مفتوناً بهن . وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال ، وهي معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغير

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/١٦٢ .  
(٢) أغاني ١٠/١٧٢ وانظر طبعة السامى ١٦/١٣٢ .  
(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/٣٤٥ .  
(٤) المسعودى ٤/٢٤٤ .  
(٥) أغاني (سامى) ١٩/١٣٨ .  
(٦) أغاني (دار الكتب) ٥/٢٨٨ ،  
٧/٩٨ ، ١٢/٥١ ، ١٦/١٢ .  
(٧) الجهشيارى ص ٢٤١ والمسعودى ٣/٢٩٧ .

الشعراء يتملّون بالجمال ومفاته ، وفي ذلك يقول أبو دلامة<sup>(١)</sup> :

إن كنت تبغى العيش حلواً صافياً فالشعرَ أعزبه وكنْ نخاسا  
تنل الطرائف من ظرافٍ نهدي يُحدثنَ كل عشيّةٍ أعراسا

وهي أعراس ظلت قائمة طوال العصر ، وظل الشعراء يختلفون إليها ، وكان أحياناً يزرنهم في دورهم ويتنّ عندهم ، وقد يشتري الجارية الخليفة أو وزير أو أمير أو قائد مشهور أو أحد العلية من أبناء البيوتات فيظل الشاعر متعلقاً بها وتظل تملك عليه كل شيء من أمره على نحو ما كانت تملك عتبة إحدى جوارى قصر المهدي قلب أبي العتاهية وجنان جارية الثقفين قلب أبي نواس وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر قلب العباس بن الأحنف .

وكانت كثيرات منهن يتقنن بفنون الآداب ، فكان يجتمعن إلى جماهن عذوبة الحديث ، فيملأن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم ، بل كان منهن من يتقنن نظم الشعر مثل عنان جارية الناطق وسكن جارية محمود الوراق وقد عرض عليه بعض الطاهريين أن يشتريها منه بمائتي ألف درهم فأبى التفريط فيها<sup>(٢)</sup> لما كانت تتسعر به قلبه من الحب المضطرم . وكان منهن من يضمنن إلى ذلك إجادة الغناء فكانت فتنه من فتن العصر على نحو ما كانت دنائير جارية البرامكة ومتيمّ جارية علي بن هشام أحد قواد المأمون وعريب جارية الأمين والمأمون .

وكان للغناء في الناس لهذا العصر أثر أي أثر ، فقد شغلوا به أي شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرون سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج ، ومعروف أنه انتقل من الحجاز إلى العراق لأواخر عصر بني أمية ، إذ نرى ابن رامين الكوفي يستقدم مغنيات الحجاز<sup>(٣)</sup> ، ويقم داراً واسعة يقصدها الناس . وما تنشأ بغداد ويُطل عصر المهدي حتى تصبح داراً كبيرة للغناء ، فقد جذبت إليها المغنين والمغنيات من كل فجّ ، ونثرت الأموال عليهم نثرًا ، بل كالتها كيلا . وأول من كالمها من الخلفاء المهدي ، واقتدى به الهادي ، وخلفهما الرشيد فجعل المغنين

(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١١/٣٦٤ -

(١) أغاني ١٠/٢٥٠ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢ .

مراتب وطبقات على نحو ما جعلهم أردشير<sup>(١)</sup> بن بابك ، وهو الذى طلب إلى إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفليّح بن أبى العوراء أن يختاروا له الأصوات المائة التى أدار أبو الفرج الأصبهاني - فيما بعد - كتابه الأغاني عليها . وكان الأمين يعيش للسمع والقصف ، ويقال إنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم<sup>(٢)</sup> . وكان فى المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدمه من خراسان أربع سنوات ، ثم أقبل عليه فلأ مجالسه بإسحق الموصلى ومخارق ، ويقال إنه اشترى عريب المغنية المحسنة الشاعرة بمائة ألف درهم ، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته<sup>(٣)</sup> ، وكان الواصل أشد كلفاً بالغناء لإحسانه الضرب على آلاته ، وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغاني ، ويقال إنه اشترى له قلم الصالحية المغنية بعشرة آلاف دينار<sup>(٤)</sup> .

ومن أبرز المغنين حينئذ إبراهيم الموصلى ، ويقال إنه خلّف تسعمائة صوت صنعها ابتداء<sup>(٥)</sup> ، وكان يغنى الرشيد على ضرب زلزل وزمر برصوما<sup>(٦)</sup> ، وفى ذلك ما يدل على أنهم عرفوا غناء الجوقات . ومنهم ابن جامع مغنى الرشيد وكان يقال فيه إنه زق عسل حلو ، وطرب الهادى لصوت غناه فأعطاه ثلاثين ألف دينار<sup>(٧)</sup> . ومنهم مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته ، وسمعه أبو العتاهية فقال له : يا دواء المجانين لقد رقت حتى كدت أن أحسوك ، فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدماً ، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة<sup>(٨)</sup> . ومنهم علكويه ، وكان يقول فيه الواصل : غناء علكويه مثل نقر الطست يبقى فى السمع ساعة بعد سكوته<sup>(٩)</sup> وأنبه المغنين فى العصر لإسحق الموصلى ، وقد تلقن الغناء عن إبراهيم أبيه والضرب على العود عن زلزل ، وفى ترجمته بالأغاني أنه أعطاه على تعليمه له مائة ألف درهم . وكانت صنعته محكمة الأصول ، وكان يتصرف فى جميع بسط الإيقاعات . ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير ، بل لعل

(١) كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ

ص ٣٧ .

(٢) أغاني (طبعة الساسى) ١٣٨/١٥ .

(٣) أغاني ١٨٢/١٨ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٥٠/١٣ .

(٥) أغاني ١٨٧/٥ .

(٦) أغاني ٢٤١/٥ .

(٧) أغاني ٣٠٣/٦ .

(٨) أغاني (ساسى) ١٤٧/٢١ .

(٩) أغاني (دار الكتب) ٣٣٧/١١ .

ذلك كان شأواً ارتفع إليه المغنون في عصره ، فقد روى صاحب الأغاني أن مغنياً تغنى في مجلس الواثق بصوت له ، فنظر إليه مخارق نظراً شزرراً حتى إذا خلا به قال له : « ويحك أتدرى أى صوت غنيت ؟ إن إسحق جعل صيحة هذا الصوت بمنزلة طريق ضيق وعَرَّ صعب المرتقى ، أحد جانبي ذلك الطريق حرف الجبل ، وعن جانبه الآخر الوادى ، فإن مال مرتقيه عن محجته إلى جانب الوادى هَوَى ، وإن مال إلى الجانب الآخر نطحه حرف الجبل فَتَكَسَّر » (١) . ولعله بفضل ما كانت تحمل أصوات الغناء من صور التعبير كانت تعلم وتباع بأغلى الأثمان حتى لقد بيع صوت بمائة ألف دينار (٢) ، وكان سُراة بغداد يتهادونها كما يتهادون التحف الثمينة (٣) .

ويبلغ من رقى هذا الفن وارتفاع شأنه في النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه وإتقانه حتى لزمهم يصنعون فيه الحاناً وأصواتاً تنسب إليهم ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك آنفاً عند الواثق ، وقد فتح أبو الفرج في أغانيه فصلاً بل فصلاً طويلة (٤) لأبناء الخلفاء وما أُثر عنهم من أصوات ، وأشهرهم في هذا الباب إبراهيم ابن المهدي وأخته عُلَيْسَةَ وكان إبراهيم يُعَدُّ في كبار المغنين المحسنين ، وله أصوات (٥) كثيرة ، وكانت عليه مثله تجيد الغناء وقد خلّفت فيه ثلاثة وسبعين صوتاً (٦) . ومن برع في الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه عبد الله (٧) بن طاهر ، وأبو دلف (٨) العجلي قائد المأمون المشهور .

وقد جعل هذا الغناء الذى ملأ حياة الناس واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجوارى المسمّين بالقيان اللأئى كن يتقننه ويدلن ناره في القلوب ونسيمه الخلو الصافى ، وقد مرّ بنا ما بيعت به عريب مرارا وما بيعت به بسدّل وقلم الصالحية ، ويقال إن صالح بن على عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم واشترى ابن أخيه جعفر بن سليمان رُبَيْسَةَ بمائة ألف والزرقاء بمائة ألف ثانية (٩) ، والثلاث

(٥) انظر ترجمته في الأغاني ٩٥/١٠ .

(٦) أغاني ١٧٤/١٠ .

(٧) أغاني ١٠٦/١٢ .

(٨) أغاني ٢٤٨/٨ .

(٩) أغاني ٦٢/١٥ وما بعدها .

(١) أغاني ٣٠٥/٥ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٠٠/٧ .

(٣) أغاني ٣٨٤/٥ .

(٤) أغاني ٩٥/١٠ ، ١٦٢ وفي مواضع

متفرقة .

من جواری ابن رامین اللائی استقدمهن من الحجاز ، واشترى المهدي سرّاً من أبيه المنصور بَصْبُصَ جارية ابن نفيس بسبعة عشر ألف دينار<sup>(١)</sup> ، واشترى الرشيد ذات الحال بسبعين ألف درهم<sup>(٢)</sup> ، بينما اشترى علي بن هشام أحد قواد المأمون متيماً الهاشمية بعشرين ألف درهم<sup>(٣)</sup> .

وكانت هذه الأثمان الباهظة التي تدفع في شراء الجوارى اللاتي يحسن الغناء سبباً في أن يُعَنَّى المقيّنين بتعليمهن هذا الفن حتى يصيبوا من ورائهن الأرباح الطائلة ، وجاراهم في ذلك بعض المغنين الحاذقين من أمثال إبراهيم الموصلي ، حتى يقال إنه كان عنده ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء<sup>(٤)</sup> . وكان ابنه إسحق على شاكلته يعلم الجوارى والغلمان جميعاً ، ويقال إنه علم غلامين - لبعض أمراء البيت العباسي - الغناء نظير مائة ألف درهم<sup>(٥)</sup> . ولم يكن هو وأبوه وحدهما يحترفان هذا التعليم والتتقيف ، فقد شركهما فيه كبار المغنين لعصرهما من مثل ابن جامع ويزيد بن حوراء وبعض الجوارى المحسنات للغناء ، وهذا هو سر ما نجده عند صاحب الأغاني من نصه دائماً على أساتذة المغنى المتقن والقينة المحسنة وتلامذتهما .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في بغداد ولا في الكوفة ولا في البصرة سرّياً إلا عمل على أن يتقتنى قينة أوقيانا يُشِعِّنَ المرح في داره . وكان من لا يستطيع اقتناء قينة يمكنه أن يستأجر من المقيّنين إحدى قياتهم لتغنيه ليلة أو ليلتين متصلتين ، فالرواة يذكرون أنه كان لأبي النضير عمر بن عبد الملك جوار يغنين ويخرجن إلى أهل البصرة<sup>(٦)</sup> ، وكانت قيان بربر في الكوفة ما يزلن يختلفن إلى مطيع بن إلياس ورفقته<sup>(٧)</sup> ، وبالمثل كانت قيان بغداد يُكثِرْنَ من الاختلاف إلى دور الشعراء ، وكان الشعراء وغيرهم من فتیان بغداد يزورونهن في دور أصحابهن من المقيّنين ، وكانت أشبه بنوادٍ كبيرة للغناء والموسيقى ، فالناس يذهبون إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وعلى كل لون ، وكثيراً

من الجوارى فن الغناء .

(١) أغاني ٢٧/١٥ .

(٥) أغاني ٢٩٣/٥ .

(٢) أغاني ٣٤٢/١٦ .

(٦) أغاني (طبع الساسي) ٧٤/٢٠ .

(٣) أغاني ٢٩٣/٧ .

(٧) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١١/١٣ .

(٤) أغاني ١٦٤/٥ وانظر ٢٥١/٣

٣٢٢٢ ،

حيث اشترك مع يزيد بن حوراء في تعليم طائفة

ما كان يقع الشعراء في حب بعض الجوارى المكتملات الخَلْمَقُ الجميلات الجسد، فيستأثرن بكل ما فيهم من عاطفة وهوى على نحو استثناء ريم بقلب مطيع<sup>(١)</sup> بن إياس، وعبادة بقلب عبد الله<sup>(٢)</sup> بن محمد البواب وعنان بقلب أبي النضير<sup>(٣)</sup>، وسلسل بقلب أبان<sup>(٤)</sup> بن عبد الحميد. وكن يتبارين في جذب الشعراء بما يُشعن في أحاديثهن من عذوبة حلوة وبما يحسن من صنوف الغزل والعبث بقلوب الرجال.

وكثيرات من هؤلاء القيان والجوارى كن يحسن الرقص، ويظهر أنه بلغ حينئذ حظاً واسعاً من الرقى على نحو ما يصور لنا ذلك المسعودى بما ضبط من إيقاعاته على الغناء ورسم من صفاته<sup>(٥)</sup>، ويذكر ابن خلدون أنه كان للرقص عندهم آلات خاصة في الملبس وما يستخدم من قصبان مع ما يترنم به من أشعار، ويقول إنه كان عندهم ضرب آخر من الرقص يتخذ في آلات تسمى الكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقيية، يلبسها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفررن كأنهن في حرب<sup>(٦)</sup>، وفي كتاب الأغاني أن الأمين كان يرتكز في الكرج بصحن قصره، بينما الوصائف من حوله يغنين على الطبول والسرنايات والمخثون يزمرن ويطنربون<sup>(٧)</sup>.

وقد أشاع هؤلاء الجوارى والقيان في المجتمع كثيراً من ضروب الرقة والظرف، فقد جعلت كثرة معاشرتهن الرجال لهن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهن، وكيف يستنزلونهن بالكلام الرقيق إلى ودّهم، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذي يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان، وكان لذلك أثره البالغ في الشعر والشعراء، فقد شاعت في كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة.

واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة في الأزياء وفي العطور وآداب الطعام والسمر، ومن أهم مظاهره تهادى القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها وأشكالها

- (١) أغاني ٣٠٠/١٣ .  
 (٢) أغاني (ساسي) ٤٤/٢٠ .  
 (٣) أغاني (طبع دارالكتب) ٢٨٦/١١ .  
 (٤) أغاني ٤٨/١٠ .  
 (٥) المسعودى ١٦١/٤ .  
 (٦) مقامة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٣٠٠ .  
 (٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٣٣/١٦ .

إلى معاني المودة والمحبة<sup>(١)</sup> ، وكان الجوارى والقيان يَكَلِّفُنَ بالورود كلفاً شديداً ،  
ويروى أن مقيم الهاشمية جارية على بن هشام ومغنيته كان يعجبها بنفسج جديداً  
فكانت لا تخلى منه كمها<sup>(٢)</sup> . وكان لهذا الإعجاب والكلف أثره في العناية بالأزهار  
والرياحين وتغنى الشعراء بها غناء كثيراً<sup>(٣)</sup> .

وكان الجوارى يهدين التفاح كثيراً إلى من يكلفون بهن أو يتعلقن هن بهن ،  
وكن يضعن عليه أثر أخذه بأفواههن ، وقد يفلجنه ويشققننه بالمسك وغيره من  
أنواع الطيب ، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة ، تصور صبايتهن ، وفي أخبار  
المهدى أن جارية من جواريه أهدت إليه تفاحة وطيبتها وكتبت عليها<sup>(٤)</sup> :

هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَى الْمَهْدِيِّ تَفَاحَةٌ تُقَطِّفُ مِنْ خَدِّي  
مَحْمَرَةٌ مَصْفَرَةٌ طُيِّبَتْ كَأَنَّهَا مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ

واستغلن أبيات الحب والعشق كثيراً لا في أحاديثهن فحسب ، بل في كل  
ما يتصل بهن ، فكن يكتبنها على المناديل الحريرية التي يرسلن بها تذكاراً إلى  
عاشقيهن ، وقد يكتبنها على عصائبهن وذوائبهن وثيابهن وأكمامهن وفرشهن وما  
يمسكن به من مراوح ، ويروى بعض الأشخاص أنه دخل على هرون فرأى  
الوصائف من ورائه وقد تزينن بعصابت نطمت فيها الدرر والياوقيت وكتبت  
عليها أبيات في صفائح الذهب ، مثل قول بعض الشعراء<sup>(٥)</sup> :

مَالِي رَمَيْتُ فَلَمْ تُصِيبْكَ سِهَاهِي وَرَمَيْتَنِي فَأَصَابْتَنِي يَا رَامِي

وقول آخر على لسان إحدى الجوارى :

أَفَلْتُ مِنْ حُورِ الْجِنَانِ وَخُلِقْتُ فِتْنَةً مِنْ بَرَانِي

ويذكر إسحق الموصلي أنه دخل على الأمين يوماً فوجد من حوله وصائف

(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف  
والترجمة والنشر) ٤٠٦/٦ .  
(٥) العقد الفريد ٤٢٤/٦ .

(١) أغاني ١٧٠/٧ .  
(٢) أغاني ٣٠٦/٧ .  
(٣) انظر على سبيل المثال وصف إبراهيم  
ابن المهدي للرجس في الأغاني ١١٥/١٠ .

يَخْتَلِنَ فِي حَسَنِهِ ، وَبِأَيْدِيهِمْ مِرَاوِحٌ نَقَشَتْ عَلَيْهَا آيَاتُ غَزَلٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مِنْهَا هَذَا الْبَيْتُ (١) :

أَتَهْوُونَ الْحَيَاةَ بِلَا جُنُونٍ فَكُفُّوا عَنِ مَلَاخِظَةِ الْعَيُونِ  
وَكُنْ يَتْبَارِينِ فِي التَّهَادِي بِالتَّحْفِ النَّفِيسَةِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا يُرْوَى عَنْ مَوْسَى  
جَارِيَةِ الْمَأْمُونِ مِنْ أَنَّهَا أَهَدَتْ إِلَى مَتِيمِ الْهَاشِمِيَّةِ جَارِيَةٍ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ فِي يَوْمِ احْتَجَمَتْ  
فِيهِ مِخْنَقَةً ( قِلَادَةٌ ) فِي وَسْطِهَا حَبِيَّةٌ - لَهَا قِيَمَةٌ جَلِيلَةٌ - كَبِيرَةٌ وَعَنْ يَمِينِ  
الْحَبِيَّةِ وَيَسَارِهَا أَرْبَعُ يَوَاقِيْتُ وَأَرْبَعُ زَمْزَمَاتٍ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شَذُورِ الذَّهَبِ ، وَغَمَسَتْهَا  
فِي الْغَالِيَةِ (٢) .

وعلى هذا النحو كانت الجوارى والقيان في هذا العصر من العوامل الفعالة في انتشار الظرف والرقعة في المجتمع العباسي حتى أصبحتا سميتين بارزتين فيه ، وبذلك رقت المشاعر والأحاسيس ودقت الأذواق وأرهفت إرهاباً شديداً .

## ٣

## المجون

ورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة ، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ويمعن معهم الناس ، فقد مضوا يعبون الخمر عباً ويحتسون كئوسها جعياً الثألة ، وحاكاهم من عايشوهم حتى أصبح الإدمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن الكريم عنها وحضه على اجتنابها إذ يقول عز شأنه : ( إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون ) . وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها أن أدنى اجتهاد بعض تنهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة كنيذ التمر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ونيذ العسل والبُرِّ والتين (٣) . فشرب الخلفاء هذه الأنبذة وشربها الناس ، وتهالك بعض الناس - إمعاناً في

(٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١١٩ .

(١) المقدم الفريد ٦/٤٢٤ .

(٢) أغاني ٧/٣٠٦ .



الحجون - على أنواعها المحرمة بإجماع الفقهاء .

والمعروف أن الهادي أول خليفة عباسي أغرَى بالخمِر (١) ، وتبعه الرشيد (٢) ومن جاءوا بعده ، وأغلب الظن أنهم لم يكونوا يتجاوزون الأنواع المحللة إلى الأنواع المحرمة إلا ما كان من الأمين الذي كان يعيش للخمِر المسكرة يشربها أرتالاً (٣) ، وكأنما كان في قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلا بشربها متتابعاً ، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه ، حدث ابن المعتز أنه اصطبح بها يوماً مع أبي نواس وطائفة من ندمائه : « فأُتِيَ بالشراب كأنه الزعفران ، أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب ، وقام سقاة كالبذور بكنوسٍ كالنجوم فطافوا عليهم ، وضربت المغنيات خلف الستائر بمزاهرها . فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره في مذاكرة (أحاديث) كقطع الرياض ، ونشيد كالدرد المفضل بالعقيان ، وسماعٍ يحجي النفوس ويزيد في الأعمار . فلما كان آخر النهار دعاً بعشرة آلاف دينار في صوائفٍ فأمر فنشرت عليهم فانتهبوها والشرابُ - بعدُ - يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والمزوج » حتى إذا نام واستيقظ في السحر طلب إلى أبي نواس أن ينشطه إلى متابعة السكر ببعض الأبيات ، فأنشده :

نَبَّهْ نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسَ      يَسْقِيكَ كَأْساً فِي الْغَلَسِ  
صِرْفاً كَأَنَّ شُعَاعَهَا      فِي كَفِّ شَارِبِهَا قَبَسِ  
تَذَرُ الْفَتَى وَكَأَنَّهَا      بِلِسَانِهَا مِنْهَا خَرَسِ  
يُدْعَى فِيرْفَعُ رَأْسَهُ      فَإِذَا اسْتَقَلَّ بِهِ نَكَسِ

فهش الأمين ونشط ودعا بالشراب يصطبح به لليوم التالي وينعم بنشوته (٤) ، غير مفكر في وقار خلافة ولا في دين ، فقد احتلت قلبه وبسطت سلطانها عليه فأحبها وهام بها هياماً .

والأمين في خمرة ومجونه ليس شذوذاً في عصره بل هو امتداد لموجة حادة

٢٢٤ ، ٢٩٩ ، وطبري ٧/٢١٥ وأغانى ٥/٣٢٩ ،  
٣٥٥ ، ٣٤٢ ،

(٣) الجهشيارى ص ٢٩٩ والمسعودى ٣/٣٠٥ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٠ .

(١) الجهشيارى ص ١٤٤ والطبري

٤٣٠/٦ ، ٤٣٥ ، وقارن بالأغانى ٥/١٦٠

والطبري ٦/٣٢٩ .

(٢) طبري ٦/٤٨٩ وأغانى ٥/٢١٦ ،

بدأها الوليد بن يزيد في دمشق لآخر عصر بني أمية ثم مطيع بن إياس ورفقاؤه من أمثال والبة بن الحباب في الكوفة وبشار وأضرابه المُجَنَّان في البصرة . ومن الحق لو أن العصر العباسي لم يقبل ويقبل معه الخراسانيون من الشرق لما اتسعت تلك الموجة ولا انحصرت في حيز ضيق ، فقد أحسَّ الفرس أن الحياة واتتهم وأخذوا يعبثون كئوس الخمر مترعة ، ونهالك الشعراء عليها من حولهم حتى أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي ، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياتة ، على نحو ما هو معروف عن أبي نواس . ومن يقرأ في الأغاني لأبي الفرج يخيل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشرفين قد تورطوا في إثمها تورطاً ، وكان منهم من يسرف في شربها إسرافاً شديداً حتى ليتناول منها عشرة<sup>(١)</sup> أرتال دفعة واحدة . ويؤثر عنهم أنهم كانوا يكرهون أن يدور الشراب بين اثنين ، لأن أحدهما قد ينهض لحاجة فيبقى صاحبه واجماً ، ومن أجل ذلك استحبوا أن يدور الشراب بين ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، بحيث لا يزيدون عن ذلك ، حتى لا يستحيل الشراب إلى لون من ألوان الشغب ، وفي ذلك يقول أبو نواس<sup>(٢)</sup> :

ثلاثة في مجلسٍ طيبٍ      وصاحب الدعوة والضاربُ  
فإن تجاوزتَ إلى سادسٍ      أتاك منهم شغبٌ شاغبٌ

وقد تفنن الشعراء في وصف نشوتها وأثارها في الجسد والعقل ووصف دنائها وكئوسها ومجالسها ونُدَمَانها وسقاتها وكانوا عادة من النصارى والمجوس واليهود ، وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهر كما يزينون قاعة الشراب بالرياحين ، وفي ذلك يقول أبو نواس خمريته<sup>(٣)</sup> التي كان يعجب بها الجاحظ إعجاباً شديداً :

ودارٍ نَدَامِي عَطَّلُوهَا      وَأَدَلُّجُوا      بِهَا أَثْرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارُسٌ<sup>(٤)</sup>  
مَسَاحِبٌ مِنْ جَرِّ الزُّفَاقِ عَلَى الثَّرَى      وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسٌ<sup>(٥)</sup>

(٤) أدبلوا : ساروا الليل كله أو آخره .  
دارس : محو .  
(٥) الزقاق : دنان الخمر . أضغاث : أخطا .

(١) الحيوان ٢٢٦/٢ والأغاني ٥/٢٢٥ .  
(٢) ديوان أبي نواس ( طبعة آصاف )  
ص ٣٥٦ وانظر ٣٥٨ .  
(٣) ابن المعتز ص ٢٠٦ .

حبستُ بها صحبي فجددت عهدهم وإني على أمثال تلك لحابسُ  
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يومُ الترحلُ خامسُ  
تُدار علينا الرَّاحُ في عسجدية حَبَّتْها بألوان التصاوير فارسُ (١)  
قرارتها كسرى وفي جنباتها مَهَى تَدْرِيبها بالقِسيِّ الفوارسُ (٢)  
فللخمر ما زُرْتُ عليه جُيوبها وللماء ما دارتُ عليه القلانِسُ (٣)

وهي خمرية تقطر حينئذٍ وجباً للخمر ، فقد بثَّ في مطلعها لوعة عشاق  
العرب لإزاء الرسوم الدائرة لوعة تجعلهم يحبسون مطيهم عندها وفاء لحق حبهم فيها ،  
حتى إذا استتم هذه الصورة مضى يعلن صبايته بتلك الدار وكيف حبس بها صحبه  
أياماً يتداولون كثوس الخمر التي كانت تشيع فيهم البهجة والفرحة بشكلها المادي  
وما ارتسم عليها من صور فارسية بديعة وبما تسكب في بطونهم من رحيق الخمر  
ومتاعها المتصل .

ومنذ أول العصر نجد الخمر تقترن بالغناء والرقص ، إذ تحول المقيِّنون في كَرْخ  
بغداد وفي البصرة والكوفة بدورهم إلى حانات كبيرة للشرب والقصف كل مساء ،  
فكان الشعراء وغيرهم يؤمونها للشرب على غناء القيان وضرب الطبول والدفوف ،  
ومن أشهر تلك الدور دار ابن رامين المقيِّن في الكوفة ، فقد جلب إليها طائفة من  
قيان الحجاز ، كان يختلف إليهن للشرب والسماع مطيع بن إياس وصحبه من  
الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم الباهلي (٤) . وعلى  
شاكلتها دار لإسماعيل القراطيسي المقيِّن في بغداد ، وكانت مألفاً لأبي نواس  
والحسين بن الضحاك وأبي العتاهية وغيرهم من الشعراء (٥) .

وكانت البساتين في ضواحي بغداد تمتلئ بالحانات التي يختلف إليها الشعراء  
وغيرهم من الفتيان كحانة بستان صَبَّاح التي وصفها مطيع بن إياس في بعض  
شعره (٦) ، ويرَوِي الصولي أن أبان بن عبد الحميد أظهر من التهالك على الشرب

(١) عسجدية : كأس ذهبية .

(٢) المها : البقر الوحشي . تدربها : تدفعها .

(٣) الجيوب : أطواق الثياب .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٦٤/١١ ،

٦٧/١٥ .

(٥) أغاني (مأسي) ٨٩/٢٠ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١٣ وانظر

كتاب الورقة (طبع دار المعارف) ص ٣٧ .

والحجون ما جعل أباه ينصحه أن يخرج إلى بعض البساتين لعله يسلبو الخمر ، وغاب فيها طويلا ، فكتب إليه أبوه يتشوقه ، وما كان أشد عجبه حين أجابه بقوله (١) :

يا أباي لا تَرثِ لي من غيبتي أنا في خير ولهو ودَعَا  
ومعى في كل يومٍ مُسْمِعٌ حاذقٌ يُطربني أو مُسْمِعُه  
ونَدَامِي كمصابيح الدجى كلهم يأخذ كأساً مُترعه  
لا يبالي مَنْ لَحَا في شُرْبِها أبدأ حتى يوارى مصرعه

فالبساتين أو على الأقل طائفة منها تحولت إلى حانات كبيرة للخمر والقصف والمتعة بسماح بعض المغنين والقيان .

وكانت الأديرة تقدم لروادها الخمر المعتقة وقد استحالت قاعات شرابها إلى مجتمعات لطلاب الخمر والحجون من الشعراء وغيرهم ، وكانت متناثرة في ضواحي بغداد وغيرها من مدن العراق ، ونرى الشعراء الماجنين يذكرون خمرها ونشوتها ورهبانها وراهباتها من مثل قول أبي نواس (٢) :

يا دَيْرَ حِنَّةٍ من ذات الأَكْبِرَاحِ مَنْ يَصْحُحُ عنك فإني لستُ بالصاحي  
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها يلعبن منا بألبابٍ وأرواحِ  
بل لقد كثرت أشعارهم فيها كثرة مفرطة دفعت كثيرين إلى تخصيص مؤلفات لها على نحو ما هو معروف عن كتاب الديارات للشابشتي ، وفيه نراها تتحول في العراق إلى دور واسعة للهو والعبث .

وكثير من دور الشعراء أنفسهم في بغداد وغير بغداد تحولوا بها إلى مقاصف للخمر والحجون على نحو ما كانت دور مطيع بن إلياس ورفقائه في الكوفة ودار بشار في البصرة ودار أبي نواس في بغداد . وكانت هناك أيام على مدار السنة يخرجون فيها للهو والقصف والعبث والحجون ، وهي أيام الأعياد : أعياد الإسلام وأعياد الفرس والنصارى وكانت تأخذ شكل كرنفالات عظيمة ، يخرج فيها الناس للشراب

زيات (طبع بيروت) ص ٢٢ . وذات الأَكْبِرَاحِ : موضع .

(١) الأوراق للصولي ، أخبار الشعراء ص ٢٦ .  
(٢) الديارات النصرانية في الإسلام لحبيب

واللهو المباح وغير المباح والفرجة على أصحاب المسخر ، وكان منهم من يتهدون على صفحة دجلة في القوارب الجميلة ومنهم من يبعد في البساتين . أما أعياد الإسلام فهي عيد الفطر وعيد الأضحى ، وأما أعياد الفرس فكانت كثيرة ، مثل عيد السّدق وهو عيد مجوسى للنار وكانوا يوقدونها طوال الليل متغنين من حولها وراقصين ، ومن أعيادهم عيد هرمزُد إله الخير ، وفيه يقول والبة بن الحباب (١) :

قد قابلتنا الكئوسُ      ودابرتنا النحوسُ  
واليوم هُرْمَزُدُ رُوِي      قد عظّمته المجوسُ

وأهم أعيادهم عيد النيروز ، وهو عيد الربيع ، وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس بُرْجَ الحمل ، وفيه يقول أبو نواس (٢) :

أما ترى الشمس حَلَّتِ الحَمَلَا      وقام وَزُنُ الزمان فاعتدلا  
وَعَنَّت الطير بعد عُجْمَتِهَا      واستوفتِ الخمر حولها كَمَلَا  
واكتستِ الأَرْضُ من زخارفها      وَشَى نِباتٍ تخاله حَلَلَا  
فاشربْ على جِدَّةِ الزمان فقد      أصبح وجه الزمان مقتبلا

وكانوا يحتفلون بعيد المهرجان بعده بمائة وأربعة وتسعين يوماً .

وكانت أعياد النصارى كثيرة أيضاً ، فمنها عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد دَيْرِ الثعالب في الجانب الغربي لبغداد وعيد دير أشموني بمقَطْرِبُل ، ومنها عيد الشّعانيين وكان عيداً قديماً للأشجار وخاصة أشجار الزيتون ، وكانت الجوارى النصرانيات يحتفلن به في قصر الخلافة ، إذ يَرَوِي أحمد بن صدقة المغنى أنه دخل على المأمون في هذا العيد ، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزنّار حول أساطهن وتزين بالديباج وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب وأمسكن في أيديهن بالحوص والزيتون ، ولم يكد المأمون يراه حتى طلب إليه أن يغنيه في أبيات تصفهن ، تجرى على هذا النمط :

طِبَاءُ      كالدنانيرِ      مِلاحُ      في المقاصيرِ

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣١٣ .

(١) ابن المعتز ص ٨٨ وروز: يوم بالفارسية .

جلاهنُ الشَّعائينُ علينا في الزَّنابيرِ (١)  
 وقد زرقنُ أصداغا كأذئاب الزرايزيرِ (٢)  
 وأقبلنُ بأوساطِ كأوساطِ الزَّنابيرِ (٣)

وغناه فيها ابن صدقة ورقصت الوصائف في أثناء الغناء ، وشرب المأمون على رقصهن وغناؤه وأكثر من شربه حتى تغشاه السكر (٤) .

وبما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية ، وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية ، فمضى كثير من يطلقون لأنفسهم العنان في ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين . وكان من أهم العوامل التي هيأت لذلك السلع التي كانت تباع وتشتري من الجوارى والقيان ، فقد كن من أجناس وشعوب مختلفة ، ولم يكن يشعرن إلا في النادر بشيء من الكرامة ولا كن يصطنعن شيئاً من التحفظ والاحتشام وسعر ذلك في قلوبهن النحاسون والمقينون الذين يبتزون عن طريق علاقتهن بالشباب والقيان أموال السراة . وبذلك تحولت كثرتهن إلى أدوات فتنة وإغراء وريبة ومجون وعبث ، وأخذن يتفننن في الحيل التي يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء وغير شعراء ، مداعبات لهم بالتبسم وغامزات بطرف العين وناشطات معهم بالسكر ، ولم تكن الواحدة منهن تكتفي برجل واحد ، فقد كن يستكثرن من اتخاذ الخلان سالكات إلى ذلك طرقاً مستقيمة ومعوجة ، ووصف ذلك الجاحظ فقال : « ربما اجتمع عند القينة من معشوقها ثلاثة أو أربعة . . فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالآخرى ، وتغمز هذا بذلك ، وتعطي واحداً سيرها والآخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذي يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرئها بالباقيين وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لإبليس شريك يقتل به ولا علم يدعو

الريش .

(٣) الزنابير : جمع زنبور وهو النحل .

(٤) أغاني (طبعة السامى) ١٩/١٣٨ .

(١) الزنابير : جمع زنار وهو خيط كان

يشده غير المسلمين على أوساطهم تمييزاً لهم .

(٢) الزرايزير : جمع زرور وهو طير مفوف

إليه ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه»<sup>(١)</sup> . ويمضى الجاحظ فيصور العلة التي جرت إلى فُجْر القينة وتها لكها على الإثم وأوزاره ، فيقول : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تكتسب الأهواء وتتعلّم الألسن والأخلاق بالنشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من هو الحديث ... وبين الخُلعاء والمُجَّان ومن لا يسمع منه كلمة جيد ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وترَوَى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت ( أغنية ) فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش وإنشادهم مرادة . »

وقد دفع هذا الفساد الخلقى الذي كان يشبهه القيان والحوارى في هذا العصر إلى انتشار الغزل المكشوف الذي لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعاً ، فقد كانت المرأة غير الحرة تبتذل ابتذالاً ، وتطورت الحياة فلم يعد العرب هم الذين يستبدون بالشعر مصورين فيه مروءتهم وارتفاعهم بالمرأة عن الصغار والامتهان ، بل مضى شعراء الفرس يستبدون به ، إذ كان أكثر الشعراء حينئذ منهم ، فلم يعرفوا للمرأة حقها من الصيانة والارتفاع عن الفجر الفاجر ، بل لعلهم كانوا يدفعونها إليه دفعاً ، بما كانوا ينظمون من أشعار صريحة عاهرة ، على نحو ما يلقانا عند مطيع بن إياس ورفقته في الكوفة وبشار بن برد ومعاصريه في البصرة ، وقد استحال شعر بشار إلى نداء صارخ للغريزة الجسدية ، نداء يندى له جبين الشرف والخلق مما جعل وعاظ بلدته من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار يصرخون به أن يكف عن غيبه ، وتعالى صياحهم ونظرائهم حتى وصل سمع<sup>(٢)</sup> المهدي ، فهده وأنذره أن ينزل به عقابه إن هو لم يزدجر ولم يسرعو ، واضطر أن ينزل على مشيئته

متفرقة من ترجمة بشار في هذا الجزء .

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ .

(٢) انظر الأغاني ١٨٢/٣ وفي مواضع

وبكى ذلك طويلاً في أشعاره. على أن تدخل المهدي جاء متأخراً ، فقد عمّ طوفان هذا الغزل لا في البصرة والكوفة وحدهما بل أيضاً في بغداد عند أبي نواس وأضرابه ، بحيث عدّ ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على جيله ومجتمعه .

وليس معنى ذلك أن الحياة في بغداد كانت كلها مجوناً ونهاكاً على الفجر والعهر ، فإن تعدد الزوجات الذي أباحه الإسلام وما أعطاه للرجل من حق تسرى الجوارى ، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها في هوة الفساد ، ومن أجل ذلك ينبغي أن لا نبالغ في تصور موجة المجون والعبث حينئذ وأن نطن أن أهل بغداد جميعاً قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التي يحوطها الخلق والتقاليد والدين ، إنما هو الكرخ حيث بيوت النخاسين والمقينين ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون في غير استخفاء ولاحياء .

وقد أشاع هؤلاء المجان والحلماء آفة مزرية هي آفة التعلق بالغلماں المرء ، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب ، وهو يصرح بذلك تصریحاً في غير موارد ولا استحياء<sup>(١)</sup> ، ويقال إنه هو الذي يتحمل وزر لإفساد أبي نواس ، بل هو في رأينا الذي يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخفق كرامة الشباب والرجال خفقاً . وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان الحصيان في بغداد وغيرها من مدن العراق، وكان منهم من تسقط عنه رجولته حتى ليلبس لبس النساء . وكان من الجوارى من يلبس لبس الغلمان لفتناً للشباب والرجال ، ويروى أن الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدّم الحصيان وآثرهم ، فشاعت قالة السوء فيه ، ورأت أمه زُبَيْدَةَ دَرءاً لتلك القالة أن تبعث إليه بعشرات من الجوارى ، ألبستهن لبس الرجال ، حتى ينصرف عن الحصيان فكن يختلفن بين يديه ، وأبرزهن للناس ، ولم يلبث كثيرون أن جاروه في هذا الصنيع<sup>(٢)</sup> ، وكن يسمين بالغلمايات ، وعمت هذه البدعة في الساقيات<sup>(٣)</sup> بالحانات ، ولعل ذلك هو السر في أن أبا نواس كثيراً ما يتحدث عن بعض

(٢) المسمودى ٤/٢٤٤ .

(٣) أغاني ٥/٣٣٠ .

(١) البيان والتبيين ٣/٢٢٠ وانظر ترجمته

في الأغاني (طبع الساسي) ١٦/١٤٢ .



الحوارى بضمير المذكر . ومن تنمة هذا التبادل بين الحواري والحصيان في الزرى والهينة حيثنذ كثرة المخنثين بين المغنين والضارين على الدفوف ، وكانوا يتشبهون بالنساء في عاداتهن وثيابهن وضفقر شعورهن وصنغ أظافرهن بالحناء<sup>(١)</sup> .

## ٤

## الشعبوية والزندقة

نادى الإسلام في قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب ، حتى يسود الوثام بين أفراد الأمة الإسلامية ، فلا عدنانى ولا قحطانى ولا عربى ولا أعجمى ، إنما هى أمة واحدة يتساوى أفرادها في جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح ، يقول جلّ شأنه : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى »<sup>(٢)</sup> .

وهذا بلا ريب مثل أعلى أراداه الإسلام لأمتة ، غير أنا لا نصل إلى عصر على بن أبى طالب وما نشب لعهد من حترّب صيفين حتى نرى العصبية القبيلة تعود جندعةً بين القبائل ، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة ، بل لقد اضطرت اضطراباً لم تهدأ نائرتة طوال عصر بنى أمية . وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادة الدين في معاملة الموالى ، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب ، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب في الحقوق ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة ، فلم يؤت عمله في هذا الجانب أى ثمرة .

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سبباً في اضطغانهم على العرب ، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية ، فشاركوا الحوارج والشيعه في الثورة عليها ، وأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل<sup>(٣)</sup> بن يسار النسائي يفاخر العرب بحضارة أمتة الفارسية وملوكها

(٣) أغاني ٤/١٠ وما بعدها .

(١) أغاني ٧/٤ .  
(٢) البيان والتبيين ٢/٣٣ .

الساسانيين الذين غلبوا على الأرض . وعظم حقد الموالي على الدولة ، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم ، والثفتت منهم جماعات كثيرة حول أبي مسلم داعية العباسيين بخراسان ، وما لبثوا أن زحفوا في جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين والفرس من العرب إداالة نفذوا في أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا ، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة ، وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة في عهد الرشيد وبنو سهل في عهد المأمون .

وكان هذا التحول الخطير في مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة في المجتمع العباسي الجديد سبباً في بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية ، وهي نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب - وفي مقدمتها الشعب الفارسي - للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداعة وحياة خشنة غليظة . وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربي يفضل أعجمياً ولا أعجمي يفضل عربياً ، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة في نفسها تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواء وقد خلُقوا من تراب ويعودون إلى التراب .

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإضرار عليهم والتزول بهم دونها مرتبة أو مراتب ، وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين ، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنفصوا قدرهم وصغروا شأنهم ، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان ، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحت ديارهم وقوضوا دولهم وهي مشاعر ما زالت تحتدم في نفوس الفرس حتى أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد ، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة . وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة ، وفيهم يقول الجاحظ : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك

الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقُدوة» (١) .

وكانت أهم مطاعنهم التي وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً (٢) رعاة أغنام ولابل ، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا معرفة بالعلوم ، فأين هم قديماً من ملك الأكاسرة والقيصرية ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية ؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان ؟ وقد مضوا يُزرون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصى وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسي كما أزرؤا على أسلحتهم الساذجة وأطعمتهم الخشنة . وأخذوا يتبعون مثالبهم ويحسونها عليهم ويستقنونها ، وكان العرب بسبب أهاجهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها ، فاستغلوها في ذمهم وأضافوا إليها مادة مُختلقة صاغوها في قصص وأشعار وأضافوها إليهم . وبلغ من سوء نيتهم وشدة موجدهم عليهم أن حاولوا تقييح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم ، وقايسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق في السياسة وبين ما للعرب من حكم مثورة . وزعموا - فيما زعموا - أن الرسول فضلهم على العرب بمثل قوله : « لأنابهم أوثق مني بكم » (٣) والوضع في هذا الحديث لا يحتاج دليلاً . وحاولوا أن يستلوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم في غمارهم فزعموا أن سائلاً سأل الرسول عن أهله وأصل قريش ، فقال : نحن قوم من نبط كوثي (٤) .

ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين كانوا يُدّعون نازعة الشعوية فيمن حولهم من الفرس ، وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر ، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوي الإخباري المشهور ، وأصله من يهود فارس ، وقد صبَّ عنايته على تسجيل مثالب العرب

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .  
(٢) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ( والمعقد  
الفريد ٤٠١/٣ وما بعدها .

(٣) انظر تيسير الوصول ١١١/٣ ، ١٢٧ .  
(٤) انظر مادة كوثي في معجم البلدان لياقوت .

(٢) انظر في هذه المطاعن البيان والتبيين  
٥/٣ - ١٢٤ و كتاب العرب لابن قتيبة في  
مجموعه رسائل البلغاء بتحقيق محمد كرد علي

وبلغ من فساد طويته أن طعن في بعض أسباب<sup>(١)</sup> الرسول صلى الله عليه وسلم .  
وليس من شك في أن عنايته بتلك المثالب هي التي دفعته إلى شرح نقائض جرير  
والفرزدق لما تحمل منها من وقود جزل ، وكان في الوقت نفسه يُعنى بالكتابة  
في فضائل الفرس<sup>(٢)</sup> . ومنهم علان الشعوبى الفارسى وكان منقطعاً إلى البرامكة  
ونسخ في بيت الحكمة للرشد والمأمون ، وألّف في مثالب القبائل العربية كتاباً  
سماه الميدان<sup>(٣)</sup> . وكان يستشعر هذه النزعة في أعماقه الكاتب الأديب سهل بن  
هرون الفارسى أحد صنائع البرامكة ، وقد أسند إليه المأمون الإشراف على بعض  
خزائن بيت الحكمة ، وكان يتعصب على العرب تعصباً مسرفاً ، وصنف في ذلك  
كتباً كثيرة<sup>(٤)</sup> ، وقد افتتح الجاحظ كتابه بمسالة له أشاد فيها بالبخل  
وغضاً غصّاً شديداً من فضيلة الكرم العربية .

وأهم شاعر في العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يدها يحطب جزل من  
أشعاره بشار بن برد وكان في عصر بني أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس ،  
حتى إذا حدث الانقلاب العباسى انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً  
ولاءه إلى الله ذى الجلال ، يقول<sup>(٥)</sup> :

أصبحتُ مولى ذى الجلالِ وبعضهم مولى العُربِ فخذُ بفضلك فافخرِ

وقد مضى يشنُّ حرباً عنيفة على العرب ، وكان أبوه طيئاناً يضرب اللبّين ،  
فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلا - كما يقول الجاحظ - بذلك في باب  
فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه . ولم يكتب بهذا النسب الذى  
ادعاه فقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الروم على نحو ما نجد  
في قصيدته<sup>(٦)</sup> :

هل من رسولٍ مُخبرٍ عنى جميعَ العربِ

(٤) الفهرست ص ١٧٤ .  
(٥) أغاني ٣/١٣٩ .  
(٦) ديوان بشار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٣٧٧ .

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ٧٩ .  
(٢) الفهرست ص ٨٠ والبيان والتبيين ٣٠٨/١ والكامل للمبرد ص ٣٥١ .  
(٣) الفهرست ص ١٥٣ .

وهي تصور ضراوة حقدته العنيف على العرب ، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم . وفي الحق أن شعوبيته كانت صارخة ، إذ كان زنديقاً وعدواً للعرب ودينهم الخنيف عداوة ترسب في ضميره وفؤاده .

ومن يُسَلِّكُون في شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريزمي ، ولم يكن جاداً في تعصبه على العرب وخصومتهم ، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، ولذلك ينبغي أن ينحى عن جماعة الشعوبيين ، وأدخل منه فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالحمرة وعكوفه على المحون وإعجابه بالحضارات الأجنبية ، فهي شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات ، وكان يبتغيها ما وجد إليها سيلا ، ويجعلها غاية الغايات من حياته ، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدية الخشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالحمرة والغلو في الشراب والإغراق في اللذات ، وله في ذلك أشعار كثيرة . وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند ، من مثل قول أبي الأصمعي الهندي يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند<sup>(١)</sup> :

لقد يَعْدَلُنِي صَحْبِي وما ذلك بِالْأَمْثَلِ  
وَفِي مِدْحَتِي الْهِنْدُ وَسَهْمُ الْهِنْدِ فِي الْمَقْتَلِ  
وَفِيهِ السَّاجُ وَالْعَاجُ وَفِيهِ الْفَيْلُ وَالِدَغْفَلُ<sup>(٢)</sup>

وينبغي أن نعرف أن الروح العربية - على الرغم من هذه الشعوبية - ظلت شائعة مهيمنة ، يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشاري الدولة ، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ورواة الشعر . وقد ردّ بعض شعراء العرب على الشعوبية وأصحابها على نحو ما نجد عند أبي الأصمعي الأموي في تصدّيه لعبد الله بن طاهر حين افتخر في قصيدة له بنسبه من الفرس وبأبيه طاهر بن

والدغفل : ولد الفيل .

(١) الحيوان ١٧١/٧ .

(٢) الساج : نوع ثمين من الخشب ،

الحسين قاتل الأمين ، فقد نقضها نقضاً بقصيدته<sup>(١)</sup> :

لا يرُعكُ القَالُ والقَيْلُ كُلُّ ما بُلِّغْتَ تَضْلِيلُ

وتجرّد نفر من الموالى أنفسهم للرد على أصحاب هذه النزعة الخبيثة وما تحمل من كيد للعرب ودينهم الحنيف على نحو ما يلقانا عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وابن قتيبة في رسالته التي سماها « كتاب العرب » ومر بنا منذ قليل رأى الجاحظ في أنها كانت تدفع الموغلين فيها دفعاً إلى الإلحاد في الدين والزندقة . وكلمة الزندقة ليست عربية إنما هي تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤوّلون « الأفستا » كتاب داعيتهم زرادشت تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة ماني ومن فُتِنوا بها من الفرس . وأخذ مدلول الكلمة يتسع في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل الخوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم .

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كانوا مجوساً على دين زرادشت الذي ظهر في ديارهم حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه لهم من تعاليم<sup>(٢)</sup> ضمّنها كتابه « الأفستا » وفيه زعم أن للعالم إلهين هما « أهورا مزد » إله النور خالق كل خير و « أهرمن » إله الظلمة خالق كل شر ، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فإما النعيم وإما الجحيم ، وأن النار مقدسة ظاهرة مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد في كل مكان . وظهر عندهم في القرن الثالث الميلادي داعٍ يسمى ماني مزج في تعاليمه بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية<sup>(٣)</sup> ، فأبى من الأولى على عقيدة إلهي النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات ، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنسك ، وفرض على أصحابه صلوات وأدعية

لأحمد أمين ( الطبعة الأولى ) ص ١١٨ .  
(٣) راجع في ماني والمانوية الفهرست ص ٤٥٦ والشهرستاني ص ١٨٨ ومختصر تاريخ الدول لابن العبري ص ١٢٢ وفجر الإسلام ص ١٢٤ .

(١) أغاني ( طبع دار الكتب ) ١٢ / ١٠٤  
وابن الممتز ص ٣٠٠ .  
(٢) انظر في تعاليم زرادشت الملل والنحل للشهرستاني ( طبعة كيورتن ) ص ١٨٥ وترات فارس ( الطبعة العربية ) ص ٣٦ وفجر الإسلام

كثيرة . وفي أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر في إيران داع جديد هو مَزْدَك وكان ثَنَوِيًّا<sup>(١)</sup> يؤمن بإلهي النور والظلمة وتقديس النار ، وقد مضى يدعو دعوة صارخة إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها ، وأحلّ النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة للناس ، وكان له - كما كان لماني - أتباع كثيرون .

وقد عامل الإسلام والمسلمون الجوس معاملة أهل الكتب السماوية ، وبذلك ظلت الجوسية حية حياة قوية حتى العصر العباسي ، ومرّ بنا ما كان من ثورات سنباذ والحرمية في خراسان وأذربيجان وطبرستان ، وهي ثورات كانت تستوحى هذه الملل الجوسية السابقة ، وكانت تسرى في نفوس كثيرين من نازلة بغداد والعراق سرّاً وجهراً ، وكانت المانوية أخطرها جميعاً لما كانت تأخذه من الزهد ومن بعض التعاليم المسيحية ، مما جعلها تقترب من دعوات الديانات السماوية في السلوك وفي التخلق بالخلق الحسن ، وإن افرقت عنها بعد ذلك افرقاً شديداً في ثنويتها وتحليلها الزواج بالبنات والأخوات وما جلبته من بعض مذاهب الهند .

وتنبه المهدي لانتشار هذه الملل الجوسية المارقة في أمصار العراق ورأى فيها خطراً أي خطر على الدولة والإسلام ، فأمر - كما أسلفنا في الفصل السابق - باتخاذ ديوان خاص لتعقب من يعتنقها من المسلمين ونصب لهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، فكل من تثبت عليه زندقته قُدِّم وقوداً لتلك الحرب التي ظلت قائمة إلى عهد ابنه الرشيد . ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطاً واسعاً في نشرها بين الناس ونشط معهم كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحل الفارسية ويصنّفون في الدعوة لها وفي تعاليمها ، وأيضاً فهم وبعض النصاري نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصاري وملحدتهم مثل مَرْقِيون<sup>(٢)</sup> وابن دِيصان<sup>(٣)</sup> ، يقول المسعودي : « أمن المهدي في قتل الملحددين والمداهنين في الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومَرْقِيون

(١) انظر في مزدك والمزدكية الفهرست

ص ٤٧٩ والشهرستاني ص ١٩٢ وفجر الإسلام

ص ١٣٠ .

(٢) من أهل آسيا الصغرى وكان يعتنق المسيحية

وأنحرف عن تعاليمها وكون لنفسه مذهباً مستقلاً

(٣) من أهل الرها ولد سنة ١٥٤ وكان يعتنق

المسيحية وشذ عن تعاليمها مكوناً عقيدة مستقلة

فطرده الكنيسة .

ما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية واليهودية إلى العربية وما صنّف من ذلك ابن أبي العوّاج وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المتأينة<sup>(١)</sup> والديسانية والمرقيونية ، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس<sup>(٢)</sup> » ويقول الجاحظ : « لولا متكلمو النصارى وأطبائهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحدائنا شيء من كتب المتأينة والديسانية والمرقيونية .. ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخبأة في أيدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في أحدائنا وأغبيائنا فن قبيلهم كان أولها<sup>(٣)</sup> » .

ولم ينصب المهدي وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها ، فقد نصبوا لهم أيضاً حرب اللسان : لسان المتكلمين انذين مضوا يجادلونهم ويفحمونهم وينقضون شبهاتهم بالبرهان القاطع والدليل الساطع ، وصنفوا في ذلك الرسائل والكتب الطوال ، ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجده يتوقف كثيراً ليُورد ردّ النظام وغيره من المتكلمين على هؤلاء الزنادقة وكيف كانوا يسدون إليهم أدلة مصمية رادعة ، وكان للمعتزلة في ذلك القديحُ العلّى ، فهم الذين عاشوا يناظرونهم ويدفعون شرهم عن العامة والخاصة موضحين ما في شبههم من زيف وتمويه وما في عقائدهم من فساد ومناقضة للعقل المنطقي السليم .

وقد قُتل كثير من رعوس الزنادقة لهذا العصر ، يتقدمهم ابن المقفع الذي قُتل لعهد المنصور ، وفيه يقول المهدي : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع<sup>(٤)</sup> » . وقُتل منهم كثير من لعهد المهدي ، منهم — في بعض الروايات — صالح بن عبد القدوس<sup>(٥)</sup> ، وكان يعتنق المانوية ، ويحاضر فيها ويناضر فقُتل وصلب على الجسر ببغداد<sup>(٦)</sup> نكالا للناس وعظة ، ومنهم بشار وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين كما يفضل إبليس على الإنسان ، وبلغ من تحمس المهدي لقتله أن خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد مقتله<sup>(٧)</sup> . وكانت

(٥) يجزم ابن المعتز بأنه قتل في عهد الرشيد.

(٦) أمالي المرتضى ١٣٤/١ وانظر ترجمته في

تاريخ بغداد ٣٠٣/٩ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣/٢٤٤ .

(١) النسبة إلى ماني إما ماني أو مانوي .

(٢) المسعودي ٢٤٢/٤ .

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .

(٤) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١٣٤/١ .



البصرة - فما يظهر - أكبر وكره حينئذ للزنادقة والملاحدة ، ففيها نبت وعاش بشار وصالح بن عبد القدوس ، ونرى محمد بن سليمان العباسي واليهما للمهدى يقتل من ملاحظتها زنديقين كبيرين هما عبد الكريم<sup>(١)</sup> بن أبي العوجاء وحمام<sup>(٢)</sup> عجرد « وكان عبد الكريم مانويًا يؤمن بالتناسخ ويتخذ من سيرة ماني وسيلة لدعوته إلى الزندقة وتشكيك الناس في عقائدهم »<sup>(٣)</sup> ولما قُدم للقتل قال : « لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة »<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك ما يصور جانباً من دس هؤلاء الزنادقة على الإسلام ومحاولة تشويه هديه الكريم . وقد تنبّه لهم رواة الحديث النبوي فأسقطوا ما وضعوه وبينوا كذبه واختلاقه . ومر بنا آنفاً أن حماد عجرد كان ممن يؤلفون الكتب في تأييد الإلحاد والزندقة استغواء للعامة وإفساداً لها وقد سلك معه المسعودي في هذا الاتجاه يحيى بن زياد الحارثي ومطيع بن إياس ، ولا نجد ذكراً لقتلهما ولا لحبسهما على الزندقة ، وربما لم تثبت عليهما ثبوتاً قاطعاً .

واشتد الهادي مثل أبيه في طلب الزنادقة حين ولي الخلافة لسنة ١٦٩ وقتل منهم جماعة<sup>(٥)</sup> من بينهم أحد أبناء عمه داود بن علي ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب . وسرعان ما خلفه هرون الرشيد لسنة ١٧٠ فسار فيهم نفس السيرة ، ومن تعقبهم يزيد<sup>(٦)</sup> بن الفيض ، ويونس بن أبي فروة وكان قد ألف كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام - بزعمه - وصار به إلى ملك الروم فأغدق عليه مالا كثيراً<sup>(٧)</sup> . وطلب الرشيد أيضاً على بن الخليل الشاعر لما ذاع من زندقته ، غير أنه تبرأ منها فأطلقه<sup>(٨)</sup> .

وكان المأمون إذا سمع بزندق أو زنادقة أمر بحملهم إليه وأحضرهم مجالسه حيث المتكلمون ودفعهم جميعاً إلى المناظرة ، لعلمهم يقنعونهم ويردونهم إلى الإسلام ومحجته المستقيمة ، وكان يناظرهم هو نفسه أحياناً<sup>(٩)</sup> ، فإذا لم يكفوا عن غوايتهم

- (١) لسان الميزان لابن حجر ٥١/٤ وما بعدها .  
 (٢) لسان الميزان ٣٥٠/٢ .  
 (٣) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٣٤٩ .  
 (٤) أمالي المرتضى ١٢٨/١ .  
 (٥) طبري ٤٠٨/٦ وما بعدها .  
 (٦) طبري ٤٤٤/٦ .  
 (٧) انظر أمالي المرتضى ١٣٢/١ والحيوان ٤٤٨/٤ والطبري ٤٤٤/٦ .  
 (٨) أغاني (طبع دار الكتب) ١٧٤/١٤ .  
 (٩) أمالي المرتضى ١٤٦/١ .  
 (١٠) الحيوان ٤٤٢/٤ .

أمر بقتلهم ، ويقال إنه بلغه خبر عشرة رجال في البصرة يجتمعون على المانوية ، فأمر بقتلهم إليه ، فلما أُدْخِلوا عليه امتحنهم ، وحاول أن يردّهم عن ضلالهم ، غير أنهم ثبتوا على عقيدتهم الفاسدة فأمر بقتلهم جميعاً<sup>(١)</sup> . ومر بنا في الفصل السالف ما كان من ثبوت الزندقة على الأفشين قائد المعتصم التركي ، مما جعله يزج به في غياهب السجن حتى مات وصلب بعد موته .

ومما لا ريب فيه أن خلفاء بني العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتاً لا يرقى إليه شك ، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من يتزعم نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك الأخبار السابقة ، فكثرة المقتولين تضاف إليهم صفة المانوية ، ويؤكد هذا تأكيداً قوياً وصية المهدي لابنه الهادي بتتبع الزنادقة ، فقد وصفهم له وصفاً يدل على أنه إنما أراد من يعتنقون تعاليم المانوية<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا يقتلون على الإباحة المسرفة والإمعان في المحجون ولا كانوا يعاقبون عليهما عقاباً صارماً ، وكان حريماً بهم أن يشددوا في ذلك حتى لا تؤول الحياة في أمصار العراق إلى ما آلت إليه في بعض جوانبها من الفساد والتحلل الخلقي .

٥

### الزهد

ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحللاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة في المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين . أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً ، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام وصاحبه ، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدى بأضوائه وتَسْجُرَى على سنّته ، وأما من حيث المجون فإنها لم تكن مترفة ولا

(٢) طبرى ٤٣٣/٦ وما بعدها .

(١) المسعودي ٣/٣٢٢ .

ثرية ، بل كانت تعيش على الكفاف ، بل كان كثير منها يعيش في البؤس والضنك والضيقة وقلوبه تنقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم . وكانوا ساخطين سخطاً شديداً على كل ما يرونه حولهم من جموح الأهواء والإمعان في المجون ، وهو سخط اتسع في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حين حوصرت بغداد واستطال شر المُجَّان والعُهَّار ، وظلت من ذلك بقية في سنتي ٢٠١ و ٢٠٢ فإذا جماعات كبيرة تتطوع للتكبير عليهم والأخذ على أيديهم<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت حانات الكترخ ودور النخاسة والمقنين به اكتظت بالحواري والإماء والقيان والمغنين ، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعبَّاد والنسَّاك وأهل التقوى والصلاح ، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكر بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم . وكان من الوعَّاظ مَنْ يفتح قصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد في وعظه للمنصور<sup>(٢)</sup> وصالح بن عبد الجليل في وعظه للمهدي<sup>(٣)</sup> وابن السماك في وعظه لهرون الرشيد<sup>(٤)</sup> ومن كلامه : « الدنيا كلها قليل والذي بقى منها في جنب الماضي قليل ، والذي لك من الباقي قليل ، ولم يبق من قبلك إلا القليل »<sup>(٥)</sup> .

وكان الوعظ في هذا العصر يلتمح بالقصص للعة والعبرة ، وهو التحام قديم منذ تميم الداري وكعب الأخبار في عصر الخلفاء الراشدين ومنذ قُصاص الفتح من أمثال أبي سفيان بن حرب . وقد ازدهر هذا الوعظ القصصي في عصر بني أمية عند الحسن البصري وأضرابه ، وتكامل ازدهاره في هذا العصر . وينبغي أن نميز بين هذا الضرب من القصص الديني وقصص آخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه في طرقات بغداد وغيرها من أمصار العراق ليسلِّوهم بال نوادر والحكايات القصيرة ، ومن أجل ذلك قرُّنوا بأصحاب المساخِر من مثل القسَّاردين<sup>(٦)</sup> . وقد كثر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوي وسلوك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثرة مفرطة<sup>(٧)</sup> .

(٥) النجوم الزاهرة ١١٢/٢ .

(٦) انظر ما كتبه المحاظ عن أبي كعب الصوفي في كتابه الحيوان ٢٤/٣ وراجع التاج ص ٤٠ .

(٧) القصاص لابن الجوزي ص ١٨ .

(١) طبري ١٣٦/٧ وما بعدها .

(٢) انظر عيون الاخبار ٣٣٧/٢ والمعد الفريد ١٦٤/٣ .

(٣) عيون الاخبار ٣٣٣/٢ والمعد الفريد ١٥٨/٣ .

(٤) طبري ٥٣٨/٦ والمعد الفريد ١٦٤/٣ .

وكان بجانب هؤلاء القُصَّاص الواعظون كثير من النساك ، ومن الصعب استقصاؤهم إذ كانوا منتشرين في كل الأمصار ، وكان يحيون حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدي الذي لا يزول . وفي البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منشورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سُفْيَان الثوري المتوفى سنة ١٦١ وداود الطائي المتوفى سنة ١٦٥ وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ والفَضِيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وسُفْيَان بن عُيَيْبَةَ المتوفى سنة ١٩٨ وكان يقول : « فكَرَّكَ فِي رِزْقٍ غَدِيدٍ يَكْتُبُ عَلَيْكَ خَطِيئَةَ (١) » ويقول : « لَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّعَاءِ مَا يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اسْتَجَابَ دُعَاءَ شَرِّ الْخَلْقِ وَهُوَ إبْلِيسُ ( قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ) ، وكان يستحب أن يقال في الدعاء : اللهم اسررني بسترِكَ الجميل (٢) . ومن مشهورى هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ وهو الذى أنشأ أول رباط أو أول صومعة للناسكِين في عَبَّادَانَ بالقرب من الكوفة ، وفيهم وفي رباطهم يقول أبو العتاهية (٣) :

سَقَى اللَّهُ عَبَّادَانَ غَيْثًا مُجَلَّلًا      فَإِنَّ لَهَا فَضْلًا جَدِيدًا وَأَوْلَا  
وَتَبَّتْ مَنْ فِيهَا مُقِيمًا مَرَابِطًا      فَمَا إِنْ أَرَى عَنْهَا لَهُ مَتَحَوَّلًا  
إِذَا جِئْتَهَا لَمْ تَلْقَ إِلَّا مَكْبَرًا      تَخَلَّى عَنْ الدُّنْيَا وَإِلَّا مَهَلَّلًا  
فَأَكْرَمَ بَيْنَ فِيهَا عَلَى اللَّهِ نَازِلًا      وَأَكْرَمَ بَعْبَادَانَ دَارًا وَمَنْزِلًا

وقد أخذت تُقام في هذا العصر رباطات أخرى في أنحاء العالم الإسلامي ، وكانت الدولة التي تقيمها أحياناً ، في أخبار الفضل بن يحيى البرمكي أنه شخص إلى خراسان في سنة ثمان وسبعين ومائة ، فبنى المساجد والرباطات (٤) .  
ويدل أكبر الدلالة على ارتفاع موجة النسك حينئذ أنه أخذت تنبثق بين

(٣) ديوان أبي العتاهية (طبع بيروت) ص ٢١٨ .

(٤) الجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .

(١) عيون الأخبار ٣١٥/٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٥٨/٢ .

النُّسَّاكَ مقدمات نزعة التصوف متمثلة في شيوخ كثيرين ، في مقدمتهم إبراهيم ابن أدهم البلسخى المتوفى سنة ١٦٠ و رابعة العدوية المتوفاة بالبصرة سنة ١٨٠ وشقيق البلخي تلميذ ابن أدهم المتوفى سنة ١٩٤ ويقال إنه أول من تكلم في التصوف وعلوم الأحوال بـكورة خراسان وأن له يداً طولى في إشاعة مبدأ التوكل<sup>(١)</sup> . ومن مشهورهم معروف الكرخى من أهل كرخ بغداد المتوفى سنة ٢٠٠ ومن مآثور كلامه : « مَنْ كَابِرَ اللّٰهَ صَرَعه ، وَمَنْ نَازَعَه قَمَعَه ، وَمَنْ مَآكِرَه خَدَعَه ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ مَنَعَه وَمَنْ تَوَاضَعَ لَهُ رَفَعَه »<sup>(٢)</sup> . ومن مشهورهم أيضاً عبّيدك الكوفى وأبو سليمان الداراني الشامي المتوفى سنة ٢٠٥ وبشر بن الحارث الحافي الخراساني نزيرل بغداد المتوفى سنة ٢٢٧ وكان يقول : « الجوع يصنئ الفؤاد ويُميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، والمتقلّب في جوعه كالمتشحط في دمه في سبيل الله ، وإذا أعجبتك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبتك الصمت فتكلّم »<sup>(٣)</sup> . وتلقانا من هؤلاء المتصوفة جماعة بمصر على رأس المائتين<sup>(٤)</sup> .

وينبغي أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج في هذا العصر ، إنما أخذت مقدماته في البروز والظهور ، أما تكونه التام فقد حدث في العصر التالي ، أما في هذا العصر فقد تفتحت تباشيره الأولى ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطاً وثيقاً بين زهد هؤلاء النُّسَّاكَ وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا متشربين في العالم الإسلامي وخاصة في العراق والشام ومصر<sup>(٥)</sup> ، ونحن لا نمنع التأثير العام ، ولكن ينبغي أن يستقر في نفوسنا أن الزهد الإسلامي يختلف عن الزهد المسيحي في جوهره إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة ، والإسلام لا يُقرُّ هذه الفكرة ولا ما تؤدي إليه من تعذيب الجسد ، فإن لبدن المسلم عليه حقاً ، ومن أجل ذلك نهى الإسلام عن العزوبة ، بينما دعت إليها المسيحية .

وقد حاول جولدم تسيهر أن يربط بين مقدمات نزعة التصوف الإسلامية وبين

(٤) كتاب الولاية والقضاة للكننسى ص ١٦٠ .  
(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام . لجولدم تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٣١ وما بعدها .

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ وانظر في تاريخ وفاته ١٤٦/٢ .  
(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٦٧ .  
(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٠ .

تعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من مذهب الفيض ووحدة الوجود<sup>(١)</sup> ، كما حاول أن يربط بين هذه المقدمات وبوذية الهند ، إذ رأى في سيرة إبراهيم بن أدهم التي صورها بعض من تحدثوا عن أخباره ما يحكى محاكاة تامة سيرة بوذا ، إذ يقال إنه كان ابن ملك من ملوك بلخ ورأى من إحدى نوافذ قصره رجلاً مسكيناً فتدبر أمره ، ولم يلبث أن خلع ثوب الإمارة إلى الأبد ولبس أطماراً بالية وفارق قصره وزوجه وأولاده وأوى إلى الصحراء سائحاً مطوّفاً عابداً ربه<sup>(٢)</sup> . وهي سيرة لابن أدهم صنعتها له الأجيال المتأخرة<sup>(٣)</sup> فلا يصح أن تُحمّل على العصر العباسي الأول ولا أن تتخذ دليلاً على أن متصوفه كانوا يتأثرون البوذية وما ترويه عن بوذا الناسك . وقد رأى جولد تسيهر الباحث يروى خبراً عن ناسكين سائحين<sup>(٤)</sup> فقال إنهما من ناسكي البوذية ، كى يدعم دعواه ، وهما من ناسكي المانوية .

والحق أن جولد تسيهر يببالغ في كل ما رآه من هذا الربط بين مقدمات التصوف الإسلامي والبوذية من جهة والأفلاطونية من جهة أخرى . يمكن أن يكون قد حدث ذلك في بعض جوانب التصوف فيما بعد هذا العصر إذ كان التصوف لا يزال يستمد من معين الإسلام ذاته كما لاحظ ذلك نيكلسون<sup>(٥)</sup> ، وهو حينئذ لم يكن أكثر من نمو للزهد الإسلامي وما ارتبط به من نسل ، وآية ذلك القاطعة أن نظريتي الفيض ووحدة الوجود لم تمدأ ظلما عليه حتى هذا التاريخ . على أن هذا الزهد الإسلامي وما ارتبط به من مقدمات التصوف كانت تجرى بجانبه أسراب من زهد فاسد هو زهد الزنادقة الذين اعتنقوا تعاليم المانوية على نحو ما يلقانا في أشعار صالح بن عبد القدوس المقتول لمانويته وهي تزخر بالترغيب عن متاع الدنيا الزائل حتى ليقول ابن المعتز إن له في ذلك ما ليس لأحد<sup>(٦)</sup> .

يا إبراهيم ما هذا العيب ؟ ! أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة ، فنزل عن دابته ورفض الدنيا . وانظر صفة الصفوة ١٢٧/٤ .  
(٤) الحيوان ٤٥٦/٤ وما بعدها .  
(٥) انظر كتاب في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكلسون ( طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٣ .  
(٦) ابن المعتز ص ٩١ .

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١٣٦ .  
(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١٤٣ .  
(٣) قارن هذه السيرة التي حكاها جولد تسيهر بما قاله ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ٣٦/٢ وهو من المصادر المتأخرة ، يقول : « كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه شريفاً كثيراً المال والخدم والجنانيب (الدواب) والبراة ، فبينما إبراهيم يأخذ كلابه وبيزاته للصيد ودوعلى نرسة يركضه إذ هو بصوت يناديه :

ومعنى ذلك أن العصر العباسى الأول شهد لوزين من الزهد : زهداً إسلامياً خالصاً أعدَّ للنسك والتصوف ، وزهداً مانويّاً مارقاً ، وهو الذى يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية ، إذ المانوية تتأثر بها - كما مر بنا - من قديم . وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة على نحو ما أسلفنا ، وكان من تمام النسك فى هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس<sup>(١)</sup> .

## الفصل الثالث

### الحياة العقلية

١

#### الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالاً ، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والخزيرة العربية والشام ومصر والمغرب . وهي أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة ، غير أنها لم تكد تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجاً قوياً ، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة ، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي حتى غدت كأنها جنس واحد .

ومن أهم الأسباب التي هيأت لذلك نزول القبائل العربية في الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها في السكتى وعن طريق المصاهرة وتسرى الإماء ، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالحوارى من كل جنس : سنديات وحشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات وروميات وصقلييات ، وبحيث أصبح العربي خالص الدم في بغداد نادراً ، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب أمهاتهم من الحواري والإماء ، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم على نحو ما أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق .

وكان وراء هذا المزج الدموي بين العنصر العربي والعناصر الأجنبية مزج روى عن طريق الولاء الذى شرعه الإسلام والذى اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم ، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو رومياً أو قبطياً ويكون عربياً ولاء ، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثلهم مثل أبنائها الأصليين ، وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير دعوة واسعة ،



وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير ، وكان كثير منهم حين يبحرون يحدون ويعتلون المناصب الكبرى في الدولة .

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذى كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة ، وقد دخلت كثرتهم في الإسلام ، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يكفل للناس من عدل ومساواة ، وحقاً تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه ، بل لقد فسحوا للفرس كى يغلبوا على العرب في تصريف شئون الدولة . وحتى من لم يسلم من الموالى : من المجوس والصابئة والنصارى أخذ يندمج في المحيط العربى بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية . وبذلك فتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق - على مصاريعها - في جميع شئون الحياة ، وحقاً دخل جمهورهم الضخم في الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف .

وبذلك استطاع الإسلام - بتعاليمه السمحة - أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ، إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه تسلم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة .

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعاً إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوى ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامى لا بين المسلمين وحدهم ، بل أيضاً بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لافى البيئات التى كانت قد أخذت تستعرب في العصر الجاهلى : بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب ، بل أيضاً في البيئات النائية : في إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب ، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل ، فإذا هى تتعرب وتتعرب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية في الأندلس .

وكان سكان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة ، ففي إيران كانوا يتكلمون الفهلوية ، وفي العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية ، وفي الشام كانوا يتكلمون اللغة الأخرية ولغات سامية مختلفة ، وفي مصر

كانوا يتكلمون القبطية وفي بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع - منذ غزو الإسكندر - في الأوساط الثقافية بالشرق كله : في إيران والعراق والجزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع في تلك الأوساط بشمالى إفريقيا والأندلس .

ولا نكاد نتقدم في كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحاءها القريبة والبعيدة ، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها ، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة . وقد اختلف إسراعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية ، فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام ، وكان تعربها جميعاً قد بدأ في الجاهلية ، فأتمته الفتوح العربية سريعاً ، فإذا اللغات السامية التي كانت تنتشر في تلك البيئات وعلى رأسها السريانية تترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيثة الصابئة في حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كدرسة جنديسابور . وتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجاً .

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالا منقطع النظير ، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم وجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم ، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبي حنيفة وتلاميذه ، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع ، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهنون منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس .

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً ، فقد ظلت من ذلك بقايا حتى في أكثر البيئات تعرباً أى في العراق والشام ، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية<sup>(١)</sup> . وأعل أهم لغة قديمة

بكثرة ما كان يدخل في أشعاره من ألفاظ نبطية  
هو الطبراني : انظر الموشح للمريزبانى ص ٢٠٨ .

(١) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٧٦/٥  
وقد اشتهر في أواخر عصر بني أمية شاعر عربي

ظلت حية هي الفارسية، لا بين سكان إيران فحسب، بل أيضاً بين سكان الأمصار في العراق، إذ زحفت إليها منذ عصر بني أمية جموع كبيرة منهم، وازداد زحفهم في هذا العصر الذي علا فيه سلطانهم. ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاص<sup>١</sup> من قُصَّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسوارى إذ يقول:

« كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدرى بأى لسان هو أبين<sup>(١)</sup>. وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها، حتى لنها تدور في مجالسهم<sup>(٢)</sup>، وحتى أنرى الأصمعي العربي القُحَّ يفهم ما يجري منها على لسان بعض الفرس<sup>(٣)</sup>. وعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس. ودخل العربية في هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة في أسماء النباتات والحيوانات من مثل الأبنوس والبيغاء والفلفل كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج.

ولم تُفسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتي على هامشها، وكثيراً ما كانت تعرب بحيث تتفق واللسان العربي، وقد ألفت العرب فيها مصنفات كثيرة تميز ألقابها وتعريفها بها. ولم يكونوا يعمدون دائماً إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التي لم يكونوا يعرفونها، بل كانوا يحاولون في أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع في مدلولاتها ومعانيها القديمة. وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية.

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٧/٥.

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨.  
(٢) أغاني (طبعة السامى) ١٩/١٧.

وحتى أخذ يفشو الالحن ولكن علماء اللغة كانوا بالمرصاد لكل من يلحن ، حتى لكأنهم كانوا يعدون الالحن لإحدى الكبائر ، وقد مضوا يسجلون على كل عالم وكل كاتب وكل شاعر ما تعثر فيه أحياناً من بعض الالحن . وجمع من ذلك « يوهان فك » في كتابه « العربية » مادة واسعة ، ومن ينم النظر فيها يعرف أن الالحن لم يكن متفشياً في أوساط المثقفين بل كان محدوداً جداً ، إذ مبلغ ما يضاف إلى أى شخص لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا في النادر . وقد وقف يوهان فك طويلاً عندما ساقه الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » من لُكنات بعض الأعاجم ، وهى لُكنات مردّها إلى ما كان يجده نفر منهم من صعوبة في التكيف العضوى لمخارج الحروف العربية التى لا توجد في لغاتهم ، إذ كان منهم من يبدل الراء غيناً والزاي والتاء والشين سيناً والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زايماً أو ذالاً والحاء هاء والصاد سيناً والظاء زايماً واللام ياء . وهذه اللكنات إنما كانت تشيع على ألسنة العامة وقلما سقط منها شئ إلى ألسنة الفصحاء من العرب والموالى . وهذا نفسه يلاحظ في الالحن فإنه إنما كان يشيع في أوساط العامة ، وكان علماء اللغة يعنون بتنقية العربية وتصفيتها من الشوائب ، وفي ذلك ألف الكسائى كتابه في لحن العامة ، وهو مطبوع .

وما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المثل الأعلى للناس في هذا العصر ، وخاصة الطبقة المثقفة ، وكان أهم ما دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم ، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم في التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها . وقد عاش علماء اللغة يحوطونها ويحرسونها بحراسة حفظت لها كل مقوماتها الاشتقاقية والتعبيرية والنحوية ومكنتها من الثبات والجريان على الألسنة لا في الأوساط الثقافية والأدبية فحسب ، بل أيضاً في أوساط العامة وبين العناصر التى لم تدخل في الإسلام مما أحالها وعاء كبيراً لكل ما لقيته من ثقافات في البيئات التى ذكرناها ومن معارف مختلفة متباينة ، وهى معارف امتزجت فيها منذ فتوح الإسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكونة ما يسمى باسم الثقافة الهيلينية ، ومعروف أن فتوحه شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وخراسان وأفغانستان وشرقاً من بلاد الهند ، وقد عنى بنشر الثقافة الإغريقية في كل البلدان التى افتتحها ومضى خلفاؤه الذين

ورثوا ملكه يستنون بعمله . وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة ، وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية . وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة في الإسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحسراًن وجُنْدِيسَابُور ، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم ، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة ، منها الترجمة ونقل علوم الأرائل وسنعرض لذلك في موضع آخر . ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الأجانب مما اضطرروا إلى الوقوف عليه في إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة . ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل ، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامي ، فاضطرت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصابئة والنصارى واليهود وغيرهم ، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم . وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام ، فقد تحولوا إليه بترائهم العقيدى ، بل بكل تراث آبائهم الثقافى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافات العامة التى كانت ماثورة في البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعى وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان طبيعياً أن تتحول معهم ثقافاتهم وأن لا تنتظر حتى ينظّم لها النقل والترجمة . وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثاً في الإسلام واندمجوا في عرب العراق ، ومعروف أن جمهور الهندوثيون يدينون بالبوذية ، ومنهم براهمة<sup>(١)</sup> ينكرون الثبوت ودهريون لا يؤمنون بشىء سوى الدهر وسُمّيتة لا يؤمنون بشىء سوى الحس وقد ناظرهم قديماً جهم<sup>(٢)</sup> ابن صفوان ، وظل المعتزلة — على نحو ما يصورهم الجاحظ في كتابه الحيوان —

(٢) النية والأمل لابن المرتضى ص ٢١ .

(١) انظر في نحل الهند الشهرستانى ص ٤٤٤

وما بعدها .

يردون عليهم رداً عنيفاً<sup>(١)</sup> ، ونعجب أن نرى عربياً أزدياً يعتقد عقيدة السَّمْسِيَّةِ<sup>(٢)</sup> . وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيماناً شديداً حتى ليقول البيروني : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحلها لم يك منها ولم يعد من جملتها»<sup>(٣)</sup> إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال ، وما تزال تطلبه حتى تستوفي شرف ذاتها وتستغنى عن الاتصال بالأبدان ، وحينئذ يتحد العقل والعامل والمعقول ويصبحون جميعاً شيئاً واحداً . وقد سقطت هذه العقيدة - كما مر بنا في غير هذا الموضع - إلى ماني والمانوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهي في الأمم ، وأيضاً فإنها سقطت في هذا العصر إلى الحرورية ، وكان يؤمن بها أحمد بن حائظ المتكلم صاحب فرقة الحائظية ويدافع عنها دفاعاً شديداً<sup>(٤)</sup> . وكان يشيع على السنة عامتهم بعض قصصهم كقصة السندباد . وقد تأثرت المانوية - على نحو ما أشرنا في الفصل السابق - بزهد البوذيين وطرقهم في النسك وتحريمهم لذبح الحيوان .

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً في المحيط العربي لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم في المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم ، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا ، ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رسم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكامهم . وكانت الجوسية لا تزال حية بمعايد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثنوية أو إيمان بأن للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهاً للظلمة . ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنويةً مانويةً على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس . وكان تأثير المزدكية في المجتمع أشد عمقاً ، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقى والعكوف على اللهو والحجون والاندفاع في إباحية مسرفة .

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في أسواق النخاسة ، وكان تأثيره في

(١) انظر مثلا الحيوان ٧٠/٤ وما بعدها .  
 (٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .  
 (٣) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٤٢ .  
 (٤) أغاني ( طبع دار الكتب ) ١٤٧/٣ .

المجال العربي محدوداً ، وحقاً أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت في الفكر العباسي ، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب ، وأيضاً عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التي كانت سائدة في المنطقة والتي حملت في أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشّاميين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من أقاصيص عن السحر والعرافة وما يجري في كل ذلك من إيمان بالغيبات ومن نزعات روحية عميقة .

وكان يشارك في الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ، ويصور لنا الجاحظ في رسالته « الرد (١) على النصارى » موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً ، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانيتهم في يثرب ، على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدّوا إليهم يد البرّ والعون . ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندمجين في حياة الخلفاء والرعية ، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة ، فن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والطارون والصيافة ، أما اليهود فمنهم الصباغون والديباغون والقصابون والشعّابون ، وقد رسخ في ذهن العرب أنهم أقدّر الأمم . ونرى نفرأ منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التي دخلت في تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأبحار ووهب بن منبه ، وقد استغلها القصاص في وعظهم للعامة استغلالاً واسعاً ، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه ، ففضى يسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدماً بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد الله بن سبأ ، وقد لعب دوراً واسعاً في فتنه عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة في الإسلام ، حتى إذا حدثت أخذ يلتقي في روع بعض الضعفاء والعوام أن علي بن أبي طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلّت فيه ، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود . وبذلك وضع نواة

(١) انظر هذه الرسالة في ثلاث رسائل للجاحظ .

التشيع الباطن ، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجتهم وجادلهم المعتزلة في هذا العصر . وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده ، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم مَنْ يخالطون العرب في مجالسهم <sup>(١)</sup> ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية <sup>(٢)</sup> ، حتى ليصبح هناك قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم . وقد عُنِيَ المعتزلة طويلاً بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضاً . وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفرأ منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق <sup>(٣)</sup> . وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي أنه كان من رموس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسي المتكلم ، وكان غياث يهودياً يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن <sup>(٤)</sup> وما زال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء . وهو بلاء جبراً إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مبرماً على ما كان للأولين من مجد في العصر العباسي الأول .

وقد شكنا الجاحظ - على نحو ما مر بنا في الفصل السابق - من متكلمي النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المانية والديصانية والمرقونية المارقة ، مما أفسدوا به عقول العوام ، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه ، وكان المسلمون يَبْتَرُونَهُمْ ويعاملونهم معاملة كريمة ، وقد دخل منهم جمهور غفير في الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواريتهم مما هياً للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية في المجتمع العباسي ، ولا نقصد اللقاح الدموي فحسب ، بل نقصد أيضاً اللقاح الثقافي ، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات ، وطبيعي أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهم وكثيراً

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٢٣٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٨ وقارن ب

١٨٧/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) انظر الشهرستاني ص ٦٤ - ٦٥ ، ٧٧

حيث يقول إن التشبيه في اليهود طباع حتى قالوا في الله : اشتكت عيناه فعادته (فزارته) الملائكة .



من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن ، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائط الذى ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرَّع بالجدس الجسمانى وأنه الكلمة القديمة المحسدة (١) .

وكان للأناجيل تأثير — من بعض الوجوه — فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله فى وعظهم ، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك مادة وافرة ، وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المنبشرين فى العالم الإسلامى من أثر عام فى زهد الزهاد حينئذ ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك . وأشرنا أيضاً فى غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة . وبما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا فى النصرارى لهذا العصر اندماجاً واسعاً ، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقله علوم الأوائل ، كما جعلهم يملئون قلوبهم أمناً ورضاً دون أى عسف أو ظلم .

## ٢

## الحركة العلمية

أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا فى هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم فى الكتابات حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار والأمثال (٢) ، وكان بعض محلمى هذه الكتابات يعلمون الناشئة أيضاً السنن والفرائض والنحو والعروض (٣) . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة

(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

(١) الشهرستانى ص ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٨٠ .

النور<sup>(١)</sup>، ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب<sup>(٢)</sup> من مثل أبي البيداء الرياحي اللغوي ومحمد بن السكن المحدث وأبي عبد الرحمن السلمي المقرئ وأبي صالح الإخباري. وخص الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة مملأها بنوادهم<sup>(٣)</sup>، مما كان سبباً في أن تدور شخصية معلم الكتاب بين الشخصيات المضحكة في الأدب العربي، ومن كثرة التندير عليه في هذا العصر منهم علقمة ابن أبي علقمة النحوي الذي كان يتقعر في كلامه مكثرأ فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى في مكتبته بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات في خلافة المنصور<sup>(٤)</sup> وقد ألف بعض الأدباء رسالة تجمع نوادره<sup>(٥)</sup>

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادي أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه منها وأثبتوا مكانه درساً آخر. وكان معلمهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس، وفي أخبار إبراهيم الموصلي أنه «أسلم إلى الكتاب فكان لا يتعلم شيئاً، وكان لا يزال يضرب ويحبس ولا يتسجع ذلك فيه، فهرب إلى الموصلي وهناك تعلم الغناء»<sup>(٦)</sup> ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سلميم ابن رآه مسناً كان يدع الكتاب ويلعب بالكلاب، فكتب أبوه إلى معلمه<sup>(٧)</sup>:

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها طلب الهراش مع الغواة الرجس  
فاذا خلوت فعضه بملامة أو عظه موعظة الأديب الأكيس  
وإذا هممت بضربه فيلدة وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس  
وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة، لا تتجاوز أحياناً

بعض رُغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غني وفقراً، حتى لقد ضربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت. وكان بجانب معلمى أولاد العامة في الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة، كان منهم اللغوي والإخباري والفقهي والمحدث والمقرئ، وكانوا أحسن حالا من معلمى

(١) البيان والتبيين ١/١٨١ .  
(٢) انظر البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف  
لاين قتيبة (طبعة وستفولد) ص ٢٧١ .  
(٣) انظر قطعاً من هذه الرسالة بين رسائل  
الجاحظ المطبوعة على هامش الكامل للمبرد .  
(٤) المعارف ص ٢٧٢ .  
(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٣٥ .  
(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٧/٥ .  
(٧) الحيوان ٢/٨٤ وانظر عيون الأخبار  
١٦٧/٢ .

أبناء العامة ، على أن الجاحظ يقول في جمهورهم : « يكون الرجل نحوياً عروضيّاً وقسماً فَرَضِيّاً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما » (١) . وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسي والقواد والسراة فقد كانت تُفَرِّضُ لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يعيشون في خَفَقُص من العيش وسعة من الرزق ، نذكر من بينهم المفضل الضبي معلم المهدي وله اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالفضليات ، والكسائي معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبي دلف العجلي قائد المأمون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبي الأمين ويقال إنه أعطاه يوماً ثلاثمائة ألف درهم (٢) ، ومنهم الزبيدي يحيى بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميري خال المهدي ومن أجل ذلك لقب باليزيدي ، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثمة قائد الرشيد والمأمون .

وامتازت في هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المرْبَدِ ، وكان منهلاً لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمريناً لألستهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفأة من شوائب العجمة . وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبي نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب (٣) . وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصلية على نحو ما هو معروف عن بشار (٤) .

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب ، بل كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلقون حول الأساتذة ، يكتبون ما يلقونه أو يملونه ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة في المسجد ، ثم يأخذ في إلقاء محاضراته أو إملائها ، وفي الحلقات الكبيرة كان يردّد مستمل كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه في الحلقة . وكان لكل فرع من المعرفة حلقاته أو حلقاته

(٣) الحيوان ٢٣٩/٦ .  
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٥٠/٣ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٣/١ .  
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي  
(نشر الخانجي) ص ١٤٧ .

الخاصة ، فحلقة لفقيه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمنسر وحلقة للغوى وحلقة لنحوى وحلقة لمتكلم ، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة ، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل . وكان يتحلّق كثيرون في حلقات اللغويين والنحاة ، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابي الكوفي زهاء مائة شخص<sup>(١)</sup> ، وكثيراً ما كانت تدور في تلك الحلقات هي الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يروى عن الأخصس من أنه تعرض للكسائي في حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة<sup>(٢)</sup> . وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم<sup>(٣)</sup> .

وهذه الحلقات الكثيرة التي لم يكن يشترط للحضور فيها أى شرط سوى الرغبة في السماع والتي كانت مباحة لأى وارد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيأت لظاهرتين كبيرتين ، أما أولاهما فكثرة العلماء المتخصصين في كل علم وفن ، حتى ليُروى أن النضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيّعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى<sup>(٤)</sup> ، ولا بد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشيعه . وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل منهم على أضعاف له مضاعفة . وتلك هي الظاهرة الأولى ، أما الظاهرة الثانية فهي نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنوعاً واسعاً ، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً في كل صور المعرفة والثقافة . وكان يطلق على هذه الطائفة في البصرة

٢٢٨/١١ .

(٣) الموشح ص ٢٨٩ .

(٤) معجم الأدباء ٢٣٨/١٩ .

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (طبعة دار

الكتب المصرية) ١٣٠/٣

(٢) إنباه الرواة ٣٧/٢ ومعجم الأدباء

اسم المسجدين ، وكان لهم حلقات خاصة بهم في المساجد ، يسوقون فيها فنوناً من الجدال والحوار في أى شىء يعنّ لهم ، وقد عرض الجاحظ في كتاب البخلاء صورة من جدالهم تناولوا فيها الاقتصاد في النفقة والتشهير للمال (١) . وكانت لهم سوق نافقة في مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، إذ كانوا يستطيعون أن يظرفوهم بالأحاديث الظلية ويروّحوا عنهم في ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به في المجتمع العباسي هو الذى جعل الجاحظ وغيره يحوّلون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة ، بل لقد استقر في الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف .

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيراً ، فإنهم لم يجرموا طائفة العلماء المتخصصين ، بل كثيراً ما كانوا يضيفون عليهم عطاياهم الجزيلة ، وجاراهم في ذلك الولاة وكبار القواد ، وكان أول من سنّ ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدي فإنه أكثر من مكافأته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة (٢) ، واحتذاه في ذلك ابنه الرشيد ، ويقال إنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم (٣) وكان من المحظوظين لدى البرامكة ، ويروى أن جعفرأ البرمكي وصله بخمسمائة ألف (٤) . وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين ، وقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرور خمسين ألف درهم (٥) . ويروى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين ألفاً ، وأجرى عليه ابنه عبد الله عشرة آلاف درهم في كل شهر (٦) .

وليس من شك في أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من يبرز نجمه في حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فإذا العطايا تسبّغ عليه وإذا الرواتب تُفَرَّض له شهرياً . وحقاً كان بين علماء الفقه والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من الله ، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف

(١) كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٤ .  
 (٢) إنباه الرواة ٢/١٩٩ - ٢٠١ .  
 (٣) إنباه الرواة ٣/٣٤٩ وما بعدها .  
 (٤) إنباه الرواة ٣/١٦ وما بعدها .  
 (٥) طبرى ٦/٥٤١ .

أو التجارة كأبي حنيفة وكان بزّازاً ، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفه لهم ومتجرراً ، بل لقد كان متجرراً راجحاً .

وكان من أهم الأسباب في بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق ، إذ أخذ يعمُّ منذ مفتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى . ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكى أن أنشأ في عهد الرشيد مصنعاً ببغداد للورق ، ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة في الجلود والقراطيس . وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تلبث أن ظهرت المصنفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ ، فانتسعت صناعة الوراقة ، وهى تحل في هذا العصر محل الطباعة في عصرنا الحديث ، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها ، فاتخذوا لأنفسهم ورّاقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها في الناس مثل دماذ أبي غسان وراق<sup>(١)</sup> أبي عبيدة . وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هى دار الحكمة وعُنيّت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التى تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب في أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

وقد أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر<sup>(٢)</sup> ، وأضحخ منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكى ويقال إنه لم يكن في مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ<sup>(٣)</sup> ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٢٠٧ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب<sup>(٤)</sup> وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً<sup>(٥)</sup> .

ولعل في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية

(٤) معجم الأدباء ١٨/٢٨١ .

(٥) الفهرست ص ١٤٤ .

(١) الفهرست ص ٨١ .

(٢) الحيوان ١/٦١ .

(٣) الحيوان ١/٦٠ .

للمعرفة ، إذ كانت تسجّل أمهات العلم وأصوله بما لعله يفضل تلقيه وأخذه عن العلماء ، وفي ذلك يقول الجاحظ : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرى أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً ( قاضياً ) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان » (١) .

ولم تكن الكتب تُعدّ لهذا التحصيل السريع في الفقه وحده ، بل كانت تعدّ لذلك في جميع فروع العلم والمعرفة ، فطبيعي أن يقبل عليها الناس إقبالا شديداً لما تجمع لهم في كل فن وكل علم من مادته الغزيرة المنظمة المرتبة ، بل لقد أصبحت الأداة الطيبة التي تسوق لهم المعرفة وألوان الثقافة سوقاً وهم يكبّون على هذه الأداة أو هذه الوسيلة السهلة منفقين عليها كل ما يستطيعون من أموال مؤمنين بأن « من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألدّ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيعاً ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله » (٢) .

وأنشأ بعض الورّاقين لهم دكاكين كبيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشتري منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذّ وطاب من صنوف الآداب نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها . وبلغ من عناية الورّاقين بعملهم أن موّه بعضهم خطوطه بالذهب ، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون في كتبهم تأنقاً شديداً (٣) وكان بعض السراة يطلب هذه الأناقة المسرفة حتى في كتب الهزل والفكاهة (٤) .

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هيأ لازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد هيأ لها أيضاً مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسراة ، إذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف ، على نحو ما يروى من مناظرة

(٣) نفس المصدر والصفحة وما بعدها .

(٤) الحيوان ١/٦١ .

(١) الحيوان ١/٨٧ .

(٢) الحيوان ١/٥٥ .

الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي<sup>(١)</sup> وما يُروى من مناظرة الكسائي وسيبويه بين يدي الرشيد أو بين يدي يحيى بن خالد البرمكي<sup>(٢)</sup>. وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون في كل ما يعرض لهم من مسائل ، وفي ذلك يقول المسعودي : « كان يحيى بن خالد البرمكي ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور والقدم والحديث والإثبات والنفي والحركة والسكون والمماسّة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والظفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتجوير والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنص<sup>٣</sup> هي أم اختيار وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع فقولوا الآن في العشق على غير منازعة ، وليورد كل منكم ما سنع له فيه وخطر بباله »<sup>(٣)</sup> ويورد المسعودي أطرافاً من كلامهم وحوارهم في العشق تصور كيف كانوا يفرعون الأفكار ويستنبطونها ويشعبونها في الموضوعات المختلفة التي كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة في الإمامة .

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، ففضى يحول مجالسه في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفي ذلك يقول يحيى بن أكثم : « أمرني المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم<sup>(٤)</sup> » ويمضي ابن أكثم فيقول : إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلى المأمون أن أنواع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس . ويعرض طيفور في كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طُرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة . ويصور المسعودي ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التي غدت كأنها مجمع علمي كبير ، فيقول : « قَرَّبَ المأمون إليه كثيراً

(٣) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .

(٤) بغداد لطيفور ص ٤٥ .

(١) مجالس العلماء للزجاجي ص ٢٨٨ .

(٢) إنباه الرواة ٢/٢٧١ .



من الجدلّيين والنظّارين كأبي الهذيل العلاف وأبي إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما ( يريد من المعتزلة وغيرهم ) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق ( الرواتب ) فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله <sup>(١)</sup> .

وقد كُفّلت الحرية العقلية في هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة ، بحيث كان كل رأى يُعرض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة <sup>(٢)</sup> . وما لا شك فيه أن المجتمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطاً وثيقاً في جميع شؤنه الروحية والاجتماعية ، ولكن كأنما أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين ، وكل ذلك باعته الحقيقى رقى الحياة العقلية في هذا العصر ، فإذا كل شيء يناقش في حرية ، وإذا كل شيء يعرض على بساط البحث والجدل .

وكان وراء هذا المجلس الكبير ومجلس يحيى بن خالد البرمكى مجالس صغرى ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون ، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شَمير المتكلم ، وكانت في أبي شمر رزانة تجعله لا يحرك يديه ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر ، فاضطره النظام بما أورد عليه من الحجج وأثقل عليه من البراهين في مسألة ناظره فيها أن يحرك يديه وأن يجبو إليه جبواً يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية <sup>(٣)</sup> ، ومن ذلك مجلس أزدى بالبصرة وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون في مجلس الأزدى ويختصمون عنده » <sup>(٤)</sup> ويتحدث صاحب النجوم الزاهرة عن مجلس آخر في نفس البلدة ، فيقول : « كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا يُعرَفُ مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سننّى ، والسيد ابن محمد الحميرى الشاعر رافضى وصالح بن عبد القدوس سننوى ، وسفيان بن

(١) مروج الذهب ٤/٢٤٥ .

(٢) الحيوان ٤/٤٤٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٩١ .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ .

مجاهع صُفْرِيّ ، وبشار بن برد خليف ماجن ، وحمام عجرد زنديق ، وابن رأس  
الجالوت الشاعر يهودي ، وابن نظير النصراني متكلم ، وعمرو بن أخت الموبد  
مجوسي ، وابن سنان الحرّاني الشاعر صابئي ، فتنناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً<sup>(١)</sup> .

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقي أصحاب الملل والنحل والأهواء  
المختلفة في المجالس ، وكيف كانوا يثيرون كثيراً من المسائل التي تتصل بأهوائهم  
ونحلهم وملهمهم ويتحاورون فيها حواراً طويلاً . وكانت هناك مجالس أخرى  
للمتفلسفة والمتكلمين ، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه « كان أعمر مجلس  
بمدينة بغداد لمتطّيب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من  
أصناف أهل الأدب » وكان تلاميذه يقرءون عليه في هذا المجلس كتب المنطق  
لأرسططاليس وكتب جالينوس في الطب<sup>(٢)</sup> . وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين<sup>(٣)</sup>  
ابن إسحق ، ويقال إن المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه  
ذهباً . وكانت لابن أبي دؤاد المعتزلي مستشار المأمون والمعتمد والواثق ندوة كبيرة  
يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل<sup>(٤)</sup> .

ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة في كل مكان  
بأمصار العراق وهي حقاً كانت مطروحة في الطرقات معرضة لكل الأيدي ،  
فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها ذكابين الوراقين ،  
ولا مصارييف تطلب للتعليم ، والتعليم مجاناً من حق الجميع . وكان لذلك آثار  
بعيدة ، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة ، ويكفي  
أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن  
الوليد وأبو تمام كانوا جميعاً من الطبقة الدنيا في الشعب فبشار كان أبوه طيّباً  
يضرب اللبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوص ومن هذا الغزل كانت تعوله ،  
وأبو العتاهية كان في صغره يحمل الخبز والجرار على ظهره في شوارع الكوفة يبيعهها  
للناس ، وكان أبو مسلم حائكاً ، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خمراً ، ومن

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٠ .  
(٢) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (طبعة  
دار الفكر العربي ببيروت) القسم الأول من الجزء  
الثاني ص ١٢٤ وابن القفطي في أخبار الحكماء  
(طبعة الخانجي) ص ٢٤٩ .  
(٣) ابن أبي أصيبعة ص ١٣٩ .  
(٤) الحيوان ٤/١٢٣ .

وراءهم من الشعراء كان جمهورهم من أبناء العامة ، وكذلك كان العلماء في جميع فروع العلم ، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التي نشأ فيها مثل أبي أحمد التَّمَّار وشعيب القلال الذي كان يصنع فعلا القلال ، وهما من المتكلمين .

وأبعد من ذلك وأعمق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيرون حظوظاً مختلفة من الثقافة ، إذ لم يكن بينهم وبينها أى حجاب ولا أى حاجز ، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها في المساجد ودكاكين الوراقين ، فنهل كلُّ ما نزع إليه من ينابيع المعرفة ، ومن خير ما يصور ذلك أن نرى الجاحظ يقول : « وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة (١) » وكان العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك ، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل من العامة أيضاً ، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزاهرة عن النظام ونشاطه في الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول : « وفي سنة ٢٢٠ ظهر لإبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم في القدر ، فتبعه خلق (٢) » . ونرى الجاحظ في رسالته « الرد على النصارى » ينكر على العامة تعرضهم لمناقشة الملحدين في آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما ينتقضاها نقضاً من الأدلة ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » . ويهمننا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصره أصاب حظاً من طريقة المتكلمين في حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة ، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية .

وليس من شك في أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية في العصر ، فقد تغلغت المعرفة والثقافة في جميع الأوساط حتى في أوساط العامة ، وأصبحنا غداء لجميع العقول والقلوب ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيع كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها

(٢) النجوم الزاهرة ٢/٣٣٤ .

(١) الحيوان ٥/٣٠٤ .

وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

## ٣

## علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الحصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فيها من معارف وعلوم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقين : طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثانى ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يُذكر من أنه تُرجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب فى الصنعة والطب والنجوم<sup>(١)</sup> وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب فى الطب لأهرن<sup>(٢)</sup> بن أعين وأن كتاباً فى تاريخ الساسانيين ونظهم السياسية تُرجم لهشام<sup>(٣)</sup> بن عبد الملك . وقد مضت بيئات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة فى جنديسابور القريبة من البصرة وفى نصيبين وحرّان والرّها وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادى فى ترجمة الآثار اليونانية ، واستمر نشاطهم فى هذه الترجمة محتدماً حتى القرن التاسع ، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندرى المعروف باسم يحيى النحوى وكان يعيش فى القرن السادس الميلادى ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة فى المنطق والطب والطبيعات<sup>(٤)</sup> . ومن أبرزهم فى العصر الأموى سويرس سيپوخت

بالقاهرة) ص ٨١ .  
(٤) انظر ابن أبى أصيبعة فى الجزء الثانى من  
القدم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار  
الحكماء للقفلى ص ٢٣٢ وعلوم اليونان وسبل  
انتقالها إلى العرب لأوليرى (نشر مكتبة النهضة  
المصرية) ص ٣٧ ، ١٢٣ .

(١) ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين  
٣٢٨/١ .  
(٢) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل  
(نشر المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ص ٦١ .  
(٣) انظر صفحات عن إيران لصاى  
نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو

أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم في النحو السريانى .  
 وكان لمن خلفوهم في العصر العباسى اليد الطولى في ترجمة المصنفات اليونانية  
 من لغتها الأصلية التي كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة  
 العربية . وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة ، ولعلها  
 لذلك سبقت الكوفة في التعرف على الفلسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات  
 اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلهم لا في نقل ثقافتهم فحسب ،  
 بل أيضاً في نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع  
 لمنطق أرسطو ، وقد نقل كليلة ودمنة الهندي الأصل إلى العربية ، وفي ذلك إشارة  
 إلى ما كان في الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلتهم<sup>(١)</sup>  
 وسرى عما قليل أن قوماً من مستعربي الهند شاركوا في هذا النقل .

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة  
 وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ،  
 يتقدمهم في ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى : « كان أول خليفة قرَّب المنجمين  
 وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه - وهو أبو هؤلاء  
 النوبختية - وإبراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابى المنجم . وهو أول  
 خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة  
 ودمنة وكتاب السند هند ، وتُرجمت له كتب أرسططاليس من المنطقيات وغيرها ،  
 وتُرجم له كتاب المحسطى لبطليموس وكتاب الأثرماطيق وكتاب أوقليدس<sup>(٢)</sup> » .  
 واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسى ويظهر أنه كان منجماً  
 كبيراً، إذ ينسب له وضع بعض الجداول<sup>(٣)</sup> الفلكية ، وكذلك كان صاحباها وثانيتها  
 وهو على بن عيسى رسالة في الاسطرلاب - وهو آلة فلكية لرصد الكواكب -  
 وقد نشرها لويس شيخو . ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك  
 والتنجيم ، فقد نُقل له كتاب السندهند الهندي وكتاب المحسطى اليونانى لبطليموس  
 وهما في علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب

(٢) المسعودى ٢٤١/٤ .

(٣) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١١ .

(١) كانت مدينة بلخ أهم مركز إيراني امتزجت  
 فيه الثقافتان الفارسية والهندية، وكان بها معبد  
 النوبهار البوندى المشهور . انظر أوليرى ص ١٤٩ .

استمدوا في هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضاً من الصابئة ورثة الكلدانيين في الفلك والتنجيم .

وصورٌ نالينو أثر كتاب السندهند في علم الفلك العربي وكيف وصل إلى العرب ونُقل إلى العربية فقال : « إن وَقَدًا من الهند وَقَدَ على أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (بَرَاهْمَسَبْهُطْسِيدْ هانت) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ الفلكي الرياضي (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . وتولى ذلك الفزاري وعمل منه زيجاً<sup>(١)</sup> اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية . . واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سِيدْ هانت) ثم حَرَفُوهُ قليلاً وسَمَّوه السندهند<sup>(٢)</sup> . » . ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندي يعقوب بن طارق وكان رياضياً ممتازاً وله مؤلفات قيمة في الفلك<sup>(٣)</sup> .

ويذكر المسعودي أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطى كتب أرسططاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرتماطيق في الحساب وكتاب أفليدس وهو في علم الأشكال الهندسية أمهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودي عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعى في سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء في بيارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية<sup>(٤)</sup> وأغلب الظن أنها كانت في جمهورها كتباً طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب

وعلم اليونان لأول مرة ص ٢٠٩ .  
(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٣٧ والقفطي ص ١٠٩ .

(١) الزيج : علم الجداول الفلكية .  
(٢) انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩ .  
(٣) نالينو ص ١٥٦ والفهرست ص ٣٨٨ .

والترجمة . ومن لمع اسمهم لعهد المنصور في ترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيى البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عُنِيَ بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس (١) .  
وتنشط الترجمة في عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجلب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيباً نسطورياً من مدرسة جنديسابور ، وفيه يقول ابن جليل : « قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وُجد بأقنرة وعمورية وبلاد الروم حين سبأها المسلمون ، ووضع أميناً على الترجمة ، ووضع له كتاباً حذافاً يكتبون بين يديه (٢) » . وقد عاش ابن ماسويه طويلاً إذ توفي سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة في الطب وتركيب الأدوية . وأسهم في الترجمة حينئذ جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تُضاف إليه كتب مختلفة في الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق .

والبرامكة فضل عظيم في إذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكي إلى بطريك الإسكندرية أن يترجم في الزراعة كتاباً عن الرومية ، وقد ترجمه برسمه (٣) ، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التي ترجمت قبل عصرهم ، بحيث تكون أكثر دقة وإتقاناً ، على نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المجسطي لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان وسلاماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المحجودين ، فاخترنا نقلهم وأخذنا بأفصحه وأصحّه (٤) . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسي ونرى جيلاً كبيراً ينهض في عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك (٥) ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون في حدائثه بعض الكتب

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أولرى

أنه ترجم لبطليموس كتاباً في التنجيم . انظر علوم اليونان ص ٤٢ .

التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي .

(٤) الفهرست ص ٣٧٤ .

(٥) الفهرست ص ٣٨٢ .

(٢) ابن جليل ص ٦٥ والقفطي ص ٢٤٩ .

(٣) انظر مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة

الفارسية ويعجب بترجمته<sup>(١)</sup> . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي حينئذ محمد بن جهم البرمكي وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسرى وعمر بن الفرسخان وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين<sup>(٢)</sup> . ومن أنفس ما نقلوه أمثال بزُرْجِمَهْر وعهد<sup>(٣)</sup> أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان<sup>(٤)</sup> خرد في صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليله ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكي ، ويقال إنه نظم في أربعة عشر ألف بيت<sup>(٥)</sup> ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربي سيرة أردشير وسيرة أنوشروان<sup>(٦)</sup> . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسي واليوناني دفعوا أيضاً إلى الانتفاع بالتراث الهندي وترجمته ، يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكي أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبيرقل وسندباد وفلان وفلان » وقد عملوا في البيارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند في نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة في الطب والعقاقير<sup>(٧)</sup> وشمل نقلهم صحيفة طويلة في قواعد البلاغة سجلها الجاحظ في بيانه<sup>(٨)</sup> ، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة في الخرافات والأسفار مما تولع به العامة<sup>(٩)</sup> .

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها في عهد المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً وقد ألحق بها مرصده المشهور وجدد في الترجمة ، يقول ابن النديم : « لما استظهر (غلب) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة الخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا

(٤) انظر جمع الجواهر للحصري ص ٧٤ وما بعدها .

(٥) الجهشيارى ص ٢١١ .

(٦) الفهرست ص ٢٣٢ .

(٧) الفهرست ص ٣٤٢ ، ٤٢١ .

(٨) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٩) الفهرست ص ٤٢٤ .

(١) الجهشيارى ص ٢٣٢ .

(٢) انظر في هؤلاء النقلة عن الفارسية

الفهرست ص ١٧٤ ، ٣٤١ وكتاب البيان

والتبيين ٣/٢٩ .

(٣) راجع في هذا الكتاب وسابقه ثلاث

رسائل للجاحظ (نشر فتكل) ص ٤٢ وابن أبي

أصبعة ص ١٠٩ .



ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، فنقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه من نفذ إلى بلد الروم<sup>(١)</sup> » ويقول ابن نباته في ترجمته لسهل بن هرون : « جعله المأمون كاتباً على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها إليه ، واغتنب بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها<sup>(٢)</sup> .

ونحن نقف قليلاً عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول في الهندسة لأوقليدس<sup>(٣)</sup> وكتاب المحسطى لبطليموس<sup>(٤)</sup> . وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعاً وقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسططاليس مختصراً في النفس وكتبه في الآثار العلوية وفي الحيوان وفي العالم<sup>(٥)</sup> وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار ، وهو مما نُحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد في السياسة وفي الصحة والتغذية ، وترجم أيضاً كتاب الترياق لجالينوس<sup>(٦)</sup> . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية ، إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها ويتقحان فيه ، وهما من أئمة المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا . ومن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون في الترجمة حنين بن إسحق ، وكان دقيقاً في ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسي الثاني . ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسططاليس وشرح يحيى النحوى ( يوحنا فيلوبونوس ) على كتاب السماع الطبيعي له أيضاً ،

(١) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٢) سرج العيون لابن نباته ( طبع مطبعة

الموسوعات بالقاهرة ) ص ١٦٦ .

(٣) يقول ابن التميمي ص ٣٧١ : نقل هذا

الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهاروني نسبة

إلى هرون الرشيد والثاني بالمأموني نسبة إلى المأمون ،

انظر ابن أبي أصيبعة ص ١٧٢ والحيوان للجاحظ

٨٠/١ والتفطى ص ٦٤ .

(٤) علوم اليونان لأوليري ص ٢١٥ .

(٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور

( نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٢٢ .

(٦) ابن جلجل ص ٦٧ وأوليري ص ٢١٧ .

والعلم عند العرب لآلد ومييل ( نشر الإدارة الثقافية

بجامعة الدول العربية ) ص ١٢٧ وما بعدها .

وترجم كتاباً نُسب إليه خطأ وهو كتاب الربوبية أو أوثولوجيا أرسطو ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندري المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية (١) .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبى منصور وألحق به طائفة من نابهي الفلكيين (٢) مثل على بن عيسى الإسطرلابى ومحمد بن موسى الخوارزمى والعباس بن سعيد الجوهري . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكى مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية والرياضية والجغرافية التى سبقها إليها الهنود والفرس واليونان ، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها ، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة (٣) .

ومحمد بن موسى الخوارزمى هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يُعَدُّ بحق منشىء عصر جديد فى التاريخ العالمى للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذى شاع من بعده فى العالم كله ، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة فى أرقام الحساب الهندية وفى حساب المثلثات وفى الجغرافية وفى الأرياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدومبيلى : « وله فى هذا المجال أعظم تأثير ، أولاً فى الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك فى الشعوب الغربية المسيحية ، وحسابه المفقود نصه العربى مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثانى عشر الميلادى كان له أعظم الفضل فى تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندى ، وكتابه المشهور المختصر فى حساب الجبر والمقابلة لم يؤدِّ فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالى ، بل إنه افتتح عصرًا جديدًا فى الرياضيات . . وألف أيضاً كتباً فى الهندسة ، ووضع جداول خاصة بحساب

(١) انظر دى بورص ٢٢ وعلوم اليونان

لأوليرى ص ٢١٧ .

(٢) راجع فى الفلكيين لمعهد المأمون ألفهريست

ص ٣٨٣ .

(٣) انظر فى بحوث هؤلاء الفلكيين ألدومبيلى

ص ١٤٨ وأوليرى ص ٢٢٣ .

المثلثات والسطوح الفلكية<sup>(١)</sup> .

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه « الجبر والمقابلة » وهو يذكر في مقدمته تشجيع المأمون له منوهاً به . ويظهر أنه نجح في صنع الجداول الفلكية نجاحاً رائعاً ، ويقول نالينو إنه « اصطنع زيجاً سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند ، وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس<sup>(٢)</sup> » .

والخوارزمي - بدون ريب - يفتتح افتتاحاً رائعاً سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام . وقد نبغ في هذا العصر كثيرون في الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سيول الرسائل والكتب في الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها . وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه - بما كان يعكف عليه من تشريح القرود<sup>(٣)</sup> - أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلفه جالينوس في علم التشريح ، وله في طب العيون رسالة مهمة سماها « دغل العين » وقد دوّت شهرتها في عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية<sup>(٤)</sup> .

وقد مضى العرب يُعْتَوْنَ - منذ خالد بن يزيد بن معاوية - بعلم الصنعة (الكيمياء) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صيدلى كوفى ، فأرْسَى هذا العلم على دعائم التجربة وخلّف فيه كثيراً من النظريات في الإكسير وخواصّه ، وصور ذلك في أكثر من مائة رسالة ، تُرجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جلتى مما كان له أكبر الأثر في نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك في شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين<sup>(٥)</sup> ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لنرى ابن النديم يرد عليهم رداً طويلاً<sup>(٦)</sup> ، وهو - دون نزاع - المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند

(٥) انظر كتاب جابر بن حيان لزكى نجيب محمود في سلسلة أعلام العرب ص ١٩ والدويبيل ص ٩٩ ومادة جابر في دائرة المعارف الإسلامية .  
(٦) الفهرست ص ٤٩٩ .

(١) الدويبيل ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨ .  
(٢) نالينوس ص ١٧٥ .  
(٣) ابن أبي أصيبعة ص ١٢٨ - ١٢٩ .  
(٤) علوم اليونان لأولبرى ص ٢٢٤ .

العرب ، كما أن الخوارزمي المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ،  
وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره<sup>(١)</sup> ، وكان لها  
تأثير بعيد في نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم  
منها إلى وضع علم العروض العربي ، وأيضاً فإنه ألف كتاباً بديعاً في علم الإيقاع  
اتخذه إسحق الموصلي قدوته في كتبه الموسيقية<sup>(٢)</sup> .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجرى معها سيول أخرى من تراث اليونان  
والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينتقل  
إلى العربية ، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل  
بالعجائب والأسفار والحرفات ، أو ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه  
السيول تتجمع في دكاكين الوراقين ، ويطلب كلُّ منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حَمَلت هذه السيول ، وقد  
مضى العقل العربي يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة، والمتكلمون  
— وعلى رأسهم المعتزلة — هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، وقد  
عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار  
والآراء التي لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلاً متفلسفاً  
كما أصبح عقلاً علمياً، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضاً من حيث  
إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة  
الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمي علم الجبر. وكان هذا العقل قد أظهر نضجه  
العلمي وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني ، مما نراه متجلياً في العلوم اللغوية  
والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

(٢) إنباه الرواة ٣٤٣/١ ومعجم الأدباء  
٧٣/١١ والمزهر (طبعة الحلبي) ٨١/١ .

(١) الفهرست ص ٣٧٢ والأغانى (طبعة  
دار الكتب) ٢٧١/٥ .

## العلوم اللغوية والتاريخ

عنى - منذ أواخر عصر بني أمية - جمهور كبير من العلماء في البصرة والكوفة يجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب في الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب في هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التي دخلت في الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلاتتهم بسبب تحضرهم، وكان كثيرون منهم قد نشأوا في حجور أمهاتهم من الإماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يفسو في كلامهم. وكانت هناك لهجات كثيرة تتفاوت قرباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدين الكبيرتين.

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفي العربية في لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تُسْفَى عنها وتُطْرَحُ شوائب اللهجات القبلية. وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربي حضري وأن يرحلوا في طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية، وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين، أولاهما أن يقوموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة، وثانيتها أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية النصححة التي يعرضونها على الناشئة وفي حلقات المساجد، ويصور أبو نصر الفارابي صيغهم في هذا الجانب فيقول: «والذين عنهم نقتل العربية وبهم اقتدى وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وقيم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكّل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكتان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم

يؤخذ لا من لَحْمٍ ولا من جُدَامٍ لمجاورتهم أهل مصر والقطب ، ولا من قُضَاعَةٍ  
وَعَسَّانٍ وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرعون بالعبرانية ، ولا من تغلب  
والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ،  
ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من  
أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف  
وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن  
الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم  
وفسدت ألسنتهم<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون في نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة  
التي يجمعونها من هنا وهناك ويمثلون بها حقائبهم ، وعن أبي عمرو بن العلاء شيخ  
البصرة : « لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية »  
يقصد الجزء الغربي من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز .  
وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء  
ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد  
الذي أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة<sup>(٢)</sup> ، وأبي سَوَّار الغنوي أستاذ أبي عبيدة<sup>(٣)</sup> ،  
ويسوق ابن النديم أسماء<sup>(٤)</sup> طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب .

وقد تعاقبت في هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة  
والشعر ، ورأس الجيل الأول في البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقيل  
سنة ١٥٩ وهو أحد القراء السبعة المقدمين الذين أخذت عنهم قراءات القرآن  
الكريم ، وكان حجة ثبناً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ : « كان أعلم الناس بالغريب  
والعربية وبالقرآن والشعر وأيام العرب وأيام الناس<sup>(٥)</sup> » . وأشهر أفراد الجيل التالي  
له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ وفي تعيين سنة وفاته  
اختلاف كبير وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ .  
وكان الأصمعي ثقة ثبناً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة ،

(٤) الفهرست ص ٦٥ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(١) المزهري للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/٢١١ .

(٢) الفهرست ص ٦٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

ورويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنتره وعلقمة بن عبدة . وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصباً عنايته على جمع اللغات الشاذة كما يتضح في كتابه « النوادر » في اللغة . وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعي درجات في الثقة به إذ كان شعوبياً ذمياً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز في القرآن . وأهم أفراد الجيل الثالث من لغويي البصرة محمد بن سلام الجمحي صاحب « طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين » وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية في توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية .

ورأس الجيل الأول من لغوي الكوفة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالماً بالشعر والغريب غير أنه كان ماجناً فاسقاً زنديقاً ، فشابه روايته بالوضع والانتحال على ألسنة العرب ، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبي معاصره يسقطونها ويزيفونها . وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة في الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات أنفس مجموعات الشعر القديم . وأشهر أفراد الجيل الثاني في الكوفة أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دستيجان<sup>(١)</sup> حبيراً فما خرج حتى أفناهما بكتابة سماعه عن العرب الفصحاء ، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة . ولا يقل عنه شهرة معاصره ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ وقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو إلى أن يكون في جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون في جيلها الثاني . ومن أهم أفراد الجيل الثالث أبو عبّيد القاسم بن سلام ، ويقال إن الناس لم يكتبوا في اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة ، وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغريب المصنف .

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور من التأليف في موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب القرس وكتاب الإبل إلى تأليف المصنفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على

(١) اللستيج : إناء .

شاکلة کتاب الغریب المصنف لأبی عبید ، وسترى الخلیل بن أحمد یضع منهج أول معجم لغوی فی العربیة . وینفی أن نعرف أن الطریقة الأولى الی تعنی بالجزئیات المفردة ظلت غالباً علی محاضرات اللغویین طوال القرون : الثانی والثالث والرابع علی نحو ما یصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالی القالی . وإذا ترکنا جمع اللغة وروایة الشعر إلی النحو وجدنا البصرة تسبق الکوفة إلی وضع قواعده ومصطلحاته وصبغها بالصبغة العلمیة ، وقد حاول بعض المستشرقین أن یربطوا بین النحو العربی والنحو یونانی أو السریانی ، محاولین أن یشتوا وجوها من الصلة بینهما وبین النحو العربی ، وكأنه نشأ علی هدیهما (١) . وأکبر الظن أنه ولید العقل العلمی العربی الذی استوی علی سوقه فی القرن الثانی ، ودفع دفعا إلی وضع علوم عربیة کبیرة ، منها اللغوی ومنها الدینی .

وجاء فی بعض المصادر القدیمة أن أول من وضع العربیة أبو الأسود الدؤلی المتوفی سنة ٦٩ وشبّه علی بعض القدماء والمحدثین أنه وضع شیئاً من قواعد النحو ، والحقیقة أنه لم یضع منها شیئاً ، إنما الذی وضعه حقاً وكان أول واضعیه نَقَطُ المصحف نَقَطاً یعین حركات أواخر الکلم فیهِ أو بعبارة أدق یعین حركات الإعراب (٢) ، فكان یضع نقطة فوق الحرف الآخر للکلمة إشارة إلی الفتحة ، ونقطة بین یدیه إشارة إلی الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلی الکسرة ، وإذا تبع شیئاً من هذه الحركات غنة أو تنوین نقط الحرف نقطتین . واختلط التعبير عن هذا الصنع بکلمة العربیة علی بعض أصحاب کتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله .

وأول نحاة البصرة الحقیقین عبد الله بن أبی إسحق الحضرمی المتوفی سنة ١١٧ وعیسی بن عمر الثقفی المتوفی سنة ١٤٩ . أما ابن أبی إسحق فیقال إنه أول من نهج النحو ومدّ القیاس وشرّح العلل ، وأما عیسی بن عمر فإنه أول من وضع الکتاب فی النحو إذ ألف فیهِ مصنفین هما الإكمال والجامع ، ویقال إن الأخير أصل کتاب سیبویه ، زاد فیهِ وحشاه . ویعد الخلیل بن أحمد المتوفی فی سنة ١٧٥ هو الواضع الحقیقی لعلم النحو فی صورته النهائیة الی أداها عنه تلمیذه سیبویه فی

(٢) انظر المحکم فی نقط المصاحف لأبی عمرو الدانی (طبع دمشق) ص ٤ وما بعدها .

(١) راجع فی ذلك تاریخ الأدب العربی لبروکلمان ١٢٤/٢ . ونولده فی مجلة الجمعية الشرقیة الألمانية ، المجلد ٥٩ ص ٤١٤ .



مصنفه الملقب باسم « الكتاب » وهو في كثير من صفحاته يحكى آراءه وقد ذكره في نحو ثلاثمائة وسبعين موضعاً ، ويقول السيرافي : « كل ما قال سيويه : سأنته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل (١) » ويقول إنه كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ويقول الزبيدي : إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق (٢) .

فالخليل هو المؤسس الحقيقي لصرح النحو العربي ، بل هو المقيم لقواعده والمشيد لبنياته وأركانه ، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما في رفع هذا الصرح إلى عنان السماء - كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيويه - القياس والعلل ، أما القياس فيتضح في ضبطه القواعد واطرادها بحيث تُنفَى الشواذ ، وأما العلل فمقدمات القياس التي تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة .

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذي ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ، وأيضاً فإنه كان يتقن العلوم الرياضية (٣) ، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات في مسائلهم الفرضية لترسخ ملكة هذه العلوم في عقول الناشئة . وعلى ضوء من هذا الصنيع مدَّ القياس في التصريف والنحو ، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض في الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهي ما يسميه النحاة بالمارين غير العملية . وقد تمثل تمثلاً دقيقاً فكرة المعادلات والتوافيق والتباديل التي هيأت عند الخوارزمي لنشأة علم الجبر ، وهي تلاحظ عنده في الميزان الصرفي وفي الخطة التي وضعها لصنع المعجم المعروف باسم « العين » إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرابعة والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نظقت به العرب ومما لم تنطق مع نصه في المعجم على الطرفين . وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتب عند الهنود حروف السنسكريتية (٤) ، وفي ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية في الأصوات ، ولعل ذلك ما جعله

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي (طبعة

كرنكو) ص ٤٠ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي

(انشر الحانجي) ص ٤٣ .

(٣) الزبيدي ص ٤٣ وإنباء الرواة ١/٣٤٦ .

(٤) انظر ترجمة الخليل في دائرة المعارف الإسلامية .

يعنى بالهمز والتشديد والروم والإشمام<sup>(١)</sup> . ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية في وضعه لعلم العروض ، لا من حيث ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط ، بل أيضاً من حيث ما وضعه فيه من دوائر ، إذا قُدِّمَتْ فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التي استعملها العرب وأوزان أخرى أهملوها ولم يستعملوها ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كي يجدوا في الأوزان حسب إرادتهم الفنية .

وخلد نفسه على تراثه النحوي سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره في أرجح الأقوال ، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم « الكتاب » مضيفاً إليه من أنظاره ما يدل دلالة بينة على فطنته ونفاذ بصيرته . والكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربي حتى سماه بعضهم قرآن النحو ، ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسي : « لا أعرف كتاباً أَلَّفَ في علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ، أحدها المحسطى لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثاني كتاب أرسططاليس في علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما لا خطر له<sup>(٢)</sup> » . وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخصش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره ، وله في النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من النغموض والتعقيد رغبة في التكبس بها<sup>(٣)</sup> ، واشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه .

ولم يكن النشاط النحوى منذ أوائل هذا العصر خامداً في الكوفة ، فقد كان بها طائفة من النحاة غير أنهم لم يبرعوا في النحو براعة البصريين ، ومن أجل ذلك كانوا يكثرون من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم ، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم في البصرة بمذهب نحوى خاص بهم بحيث أصبح في النحو مذهبان متقابلان : مذهب البصرة الذي يعنى بالقياس مستنداً له من استعمال العرب الشائع ، ومذهب الكوفة الذي يُعْنَى بالسماح ويقدمه على القياس مهما كان شاذاً نادراً .

(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٧ .

(٣) الحيوان ١/٩١ .

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (طبعة

مطبعة حجازي بالقاهرة) ١٧١/٢ .

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرُّوَّاسِي تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين ،  
 وحسبته مناذ بن مسلم الهَرَّاء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذي وضع علم الصرف  
 غير أننا نشك في ذلك لأن الصرف مندمج في كتاب سيبويه المتوفى قبله . وأرسخ  
 منه قدماً في الدراسات النحوية الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ وقد تتلمذ للخليل وتلقى  
 عن الأخفش كتاب سيبويه ، ونراه يشيد بالقياس قائلاً :

إنما النحو قياسٌ يُتَّبَعُ وبه في كل أمرٍ يُنْتَفَعُ

ويقول بعض البصريين : « لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن  
 شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل (١) »

وأهم نحاة الكوفة في العصر الفَرَّاء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائي  
 يقدم السماع على القياس ، وأكثر من قراءة كتاب سيبويه ، ليحاول تعقبه ومخالفته  
 في بعض ألقاب النحو ، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه في كتابه « معاني القرآن »  
 مثل الجحد بدلا من النفي والتكرير بدلا من البديل والتفسير بدلا من التمييز (٢) .  
 وهو الذي جسَّم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج  
 والجدل ، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة ، وأنه كان يستخدم في  
 كتبه ألفاظ الفلاسفة ، ويدل على ذلك كتابه « الحدود » في النحو فإن اسمه يحمل  
 صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود في المنطق ، ومن أهم كتبه « معاني القرآن » وهو  
 يكتظ بأرائه النحوية .

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تُسهم مساهمة حقيقية في وضع أصول النحو  
 فقد سبقتها البصرة إلى ذلك محتكمة احتكاماً شديداً إلى القياس (٣) ، وإلى نظرية  
 العامل التي ينفرد بها نحونا العربي والتي تُعَدُّ قوامه ، وهي تدل على أن هذا النحو  
 لم يوضع على أساس نحو أجنبي ، فمحوره الذي تدور حوله بجوئه محور عربي  
 خالص ، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية الحصبة التي  
 اكتسبها العرب في العصر العباسي الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية  
 الفلسفية والعلمية .

٢٢٥ ،  
 (٣) انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح في علل  
 النحو للزجاجي (طبع القاهرة) .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي) نشر  
 مكتبة نهضة مصر ( ص ٧٤ .  
 (٢) انظر معاني القرآن للقراء ١/٥١ ، ٥٢

وبما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التي تؤديها أشعارهم ، وهي عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ ، وهو نمو ارتبط بالسيرة النبوية ، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس .

وكانت السيرة النبوية مثبتة فيما يروى من الأحاديث ، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعُتُو بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآني وللعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعُتُو أيضاً بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها . وما نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى تكثُر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثة الحربية ، ويلمع في هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزَّع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة ، هي المبتدأ والمبعث والمغازي . ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء ، ويتضمن المبعث حياة الرسول في مكة ، ويتضمن المغازي حياته في المدينة . ولم يصلنا هذا الكتاب<sup>(١)</sup> ، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالقسطاط سنة ٢١٨ .

ومن المؤرخين الكبار الذين عنوا بكتابة السيرة والمغازي النبوية في هذا العصر محمد بن عمر الواقدي قاضي المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة في الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس ، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازي ، وقد ضمن كاتبه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه « الطبقات الكبرى » سيرة مطولة للرسول عليه السلام .

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة في السيرة الزكية أن أخذت تُفسرُ لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زُبالة المتوفى بعد المائتين ، وكتابه الذي خصه بها هو الأصل الذي ألهم العلماء بعده التأليف في تاريخ المدن .

وعُتُو كثير من المؤرخين بالكتابة في أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى سنة ١٥٨ وله كتب مختلفة في الفتوح وفي حروب صفين ، وسيف بن عمر التميمي المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات

(١) توجد قطعة من هذا الكتاب في مكتبة الرباط العامة بالمغرب .

له في الردة والفتوح ووقعة الجمل ، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نُشرت له بالقاهرة وقعة صيفين .

وصبَّ هشام بن محمد الكلبي عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار ، وكان متهماً بالوضع عند معاصريه ، ونُشر له بالقاهرة كتاب الأصنام . ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ وكان له كتاب ضخيم في أخبار الخلفاء وآخر في الدولة العباسية ومصنفات مختلفة في السيرة النبوية وفي الفتوح وأيام الناس ، وهي تُعمدُ بالمئات ، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم . وأخذت تُؤلف في هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوي من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذي أشرنا إليه آنفاً ، ومثله كتاب معرفة الرجال ليجي بن معين المتوفى في سنة ٢٢٣ .

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول ، فلم تقف عند السيرة النبوية ، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب في الجاهلية وفتوحهم ودولهم في الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء ، وهبطت إليهم روافد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس ، إذ عُنِيَ ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة في سير ملوك العجم .

٥

### العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية في ظلال الحديث النبوي ، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أُثِرَ عن الصحابة لا في تعاليم الدين الحنيف فحسب ، بل أيضاً ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم في تفسير الذكر الحكيم . وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير . وقد أخذ يدوّن تدويناً عاماً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ وما إنكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يتكاثر التصنيف فيه ، وكانوا يوزعونه في

مصنفاته غالباً على أبواب الفقه ، وأول جيل يلتقانا لمصنفه (١) في هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوفى سنة ١٥٠ ومعمربن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبي عرّوبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثوري بالكوفة المتوفى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعي بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥ . ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعاني باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة بالمدائن المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيعة بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفى سنة ١٩٧ .

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس إمام أهل المدينة، وهو مرتب على أبواب الفقه، وفي كل باب أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه . وقد ظل عمله على طلابه نحو أربعين عاماً، وهو يزيد وينقص فيه وفي أحاديثه، ولذلك اختلفت رواياته، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقاني وشرحه مطبوع .

وأخذت تقترن في أواخر القرن الثاني بالطريقة السالفة في تصنيف الحديث طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث في مصنفاتهم على أساس رواته من الصحابة ، وهي الطريقة المعروفة باسم «المساند» إذ يُسند المؤلف لكل صحابي ما روى عنه من الأحاديث، ومن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضي البصري المتوفى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسي المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع .

٧٩/١ وقوت القلوب ص ٢١٦ وأنفهرست  
ص ٣١٤ .

(١) انظر في جليل مصنفى الحديث التالبيين  
خط المقيزى ١٤٣/٤ وإحياء العلوم للقرالى

وأشهر المصنفات في هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع في ستة أجزاء ضخام .

وبجانب الطريقتين السالفتين في تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة ثالثة توزع فيها الأحاديث على المعاني والموضوعات التي تتصل بها فقهية وغير فقهية ، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقرئى : « تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف <sup>(١)</sup> » واتبع طريقة في العصر العباسي الثاني البخارى وغيره من أصحاب الصحاح الستة .

وأخذ المحدثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة ، مما أدى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح ، وهو علم محص مادة الحديث ونقن عنها الزيف والتدليس ، وأهم من بدأ التصنيف فيه — كما أسلفنا في غير هذا الموضع — محمد بن سعد ويحيى بن معين . ومن العلوم التي نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه ، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة ، وقد ألف فيه كثيرون من لغوي <sup>(٢)</sup> هذا العصر وعلى رأسهم أبو عبيد القاسم بن سلام .

وإذا تركنا التصنيف في الحديث إلى التصنيف في تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تستمد مما أثار عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وخاصة أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه ، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات <sup>(٣)</sup> ، وتولأها العلماء بالجرح والتعديل ، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه ، وقد أجمعوا على صحة ما دوته على بن أبى طلحة المصرى عن ابن عباس ، وفي ذلك يقول ابن حنبل : « بمصر صحيفة في التفسير ( عن ابن عباس ) رواها ابن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً » <sup>(٤)</sup> . ومن أهم المفسرين في هذا العصر بتلك الطريقة التي تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبى شيبة . وقد ضاعت كتبهم هم

(٤) الإتيقان للسيوطى (طبع مطبعة حجازى)

. ١٨٨/٢

(١) خطط المقرئى ١٤٣/٤ .

(٢) الفهرست ص ١٢٩ .

(٣) الفهرست ص ٥٠ .

ومن سبقهم غير أن الطبرى احتفظ في تفسيره الكبير بكل هذه الثروة الماثورة الغنية. وقد أخذ الشيعة يستقلون - منذ هذا العصر - بتفاسير للقرآن خاصة بهم ، لعل أهمها تفسير<sup>(١)</sup> جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ ، إن صحت نسبتة إليه . ونشط المعتزلة في كتابة تصانيف عن المشابهة في القرآن على نحو ما يروى عن بشر<sup>(٢)</sup> بن المعتز وأبي الهذيل<sup>(٣)</sup> العلاف ، وما زالوا يعنون بتأويل الآيات التي قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر وبمباحث مختلفة حول القرآن وإعجازه حتى استطاع أخيراً أبو بكر الأصبم المتوفى سنة ٢٣٢ أن يصنف أول<sup>(٤)</sup> تفسير اعتزالي . ونشأت بجانب التفسير - لهذا العصر - علوم قرآنية كثيرة ، أحصاها ابن النديم لإحصاء دقيقاً ، ذاكراً أهم من صنّفوا فيها ومصنّفاتهم<sup>(٥)</sup> ، وهي علم نقطه وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل في العربية ، وقد أخذ من صور حروف العلل الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فو<sup>(٦)</sup> . ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء في آياته ، ومن ألفوا فيه الفراء ، وعلم غريبه ومن ألفوا فيه محمد بن سلام الجمحي وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم لغاته ومن صنّفوا فيه الأصمعي وأبو زيد الأنصاري ، وعلم معانيه ومن صنّفوا فيه الفراء وأبو عبيدة ، وعلم قراءاته ومن صنّفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم ناسخه ومنسوخه ومن صنّفوا فيه أحمد بن حنبل ، وعلم أحكامه ومن صنّفوا فيه الشافعي ويحيى بن أكثم صنفى المأمون وقاضيه .

وازدهرت دراسات الفقه في هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية . ومعروف أن الإسلام فتح أمام الفقهاء أبواب الاجتهاد على مصاريعها ، وكان منهم من يبحث عن نص من القرآن أو السنة يبتدى به في فتواه ، وقلما اعتمد عقله أو استنباطه العقلي ، ومنهم من كان يتسع في الاستنباط والقياس

(٤) انظر مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر

(نشر الخانجي) ص ١٣٥ .

(٥) الفهرست ص ٥١ - ٥٧ .

(٦) المحكم في نقط المصاحف ص ٧ .

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع

دار المعارف) ٣/٣٤٣ .

(٢) الفهرست ص ٥١ .

(٣) الفهرست ص ٥٥ .



السديد على ضوء الإسلام وتعاليمه. ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سُمُّوا أهل الرأي ، وسرعان ما تحول الاتجاهان في هذا العصر إلى مذهبين واضحين في الفقه والتشريع : مذهب أبي حنيفة في الكوفة والعراق ومذهب مالك في المدينة والحجاز ، وينفذ الشافعي من خلال المذهبين إلى مذهب مستقل به ، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامة بغداد .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسي ، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازاً وهو مع ذلك يتشرف بالحديث والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه في الفقه والرأي ، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به ، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة ، كما كان يعتمد على القياس العقلي اعتماداً واسعاً متخذاً منه حلولاً للأحكام الكثيرة التي تطلبها المشاكل التي نشأت في حياة الناس من الجهتين الدينية والدنيوية ، ويقال إنه أفتى في ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفاً في العبادات والبقية في المعاملات. وإلى دقته في استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول (١) :

إذا ما الناس يوماً قايسوناً بآبدةٍ من الفتيا ظريفه  
أتيناهم بمقياسٍ طريفٍ مصيبٍ من قياس أبي حنيفة

ونخص من بعده بمذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب المولود بالكوفة سنة ١١٣ والمتوفى سنة ١٨٢ وهو الذي انتشر به مذهب أبي حنيفة في العراق وسائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية ، إذ كان قاضي القضاة في عهد الهادي والرشد وكان لا يولى على أي بلد قاضياً إلا من الفقهاء المتممين إلى مذهبه (٢) ، وله في الحراج كتاب مشهور مطبوع ، وهو أول من ألف في علم الحيل (٣) وهو علم يفتح بفتاويه المنشورة فيه المنافذ لكي يخرج منها من يقع في حرج . وانتهت رئاسة المذهب بعده إلى تلميذه محمد بن الحسن الشيباني الكوفي المتوفى سنة ١٨٩ وكان

(٢) انظر المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١/١٦٤ .  
(٣) الحيوان ٣/١١ .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٦٣ .  
وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر  
٧٧/٢ وقيون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٤٠ .

قد سمع أبا حنيفة وتلمذ له ، كما سمع مالك بن أنس والأوزاعي فقيه الشام ، ومن أخذ عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو الذي حرَّرَ المذهب الحنفي بكتبه الكثيرة من مثل المبسوط والسير الكبير والجامع الكبير والجامع الصغير ، وقد نوه ابن جني بدقة استخدامه للعلل في كتبه (١) . وإلى هؤلاء الأئمة الثلاثة يرجع الفضل في صياغة الفقه الحنفي ومصطلحاته صياغة علمية دقيقة .

وكان يقابل هذا المذهب العراقي مذهب مالك بن أنس في الحجاز ، على نحو ما يمثله كتابه « الموطأ » الذي تحدثنا عنه بين كتب الحديث والذي تُعَرِّضُ فيه أبواب الفقه ومسائله على أساس رواية الحديث النبوي والآثار عن الصحابة والتابعين . ومن أهم من تلقوا هذا المذهب عن مالك تلميذه عبد الرحمن بن القاسم المتوفى بالفسطاط سنة ١٩١ وقد أدَّاه بدوره إلى سحنون عالم القيروان المتوفى سنة ٢٤٠ فألف فيه كتابه الملقب باسم « المدونة الكبرى » ونشره ببلاد المغرب . وتلقى المذهب عن مالك أيضاً يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، ونشره بموطنه على نحو ما نشر أبو يوسف مذهب أبي حنيفة إذ كان مقدِّماً عند حكام الأندلس وجعلوا له تولية القضاة فكان لا يولى قاضياً إلا من أصحابه المالكية .

ونفذ من خلال هذين المذهبين إلى تكوين مذهب جديد الشافعي محمد بن إدريس المولود بغزة سنة ١٥٠ والمتوفى بالفسطاط سنة ٢٠٤ وقد نشأ بمكة وحمل ما بها من حديث ، وفي سنة ١٧٠ رحل إلى المدينة ولزم مالكا إلى أن توفى ، فرحل إلى اليمن واتَّهم باشتراكه في ثورة لبعض العلويين ، فأُرسِلَ به إلى الرشيد وعفا عنه . وانتَهزَ فرصة مقامه ببغداد فقرأ كتب محمد بن الحسن الشيباني وناظره طويلاً ، وخرج إلى مصر ونشر بها مذهبه الذي يجمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على القياس . وقد انتهت عنده الروح العلمية الأصيلة التي سادت في مباحث الفقهاء إلى الغاية المنتظرة إذ استطاع أن يضع في كتابه الملقب باسم الرسالة علم أصول الفقه لأول مرة ، وفيه حرَّرَ المناهج في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو بذلك يقف علماً في تاريخ الفقه الإسلامي ، يقول الرازي : « واعلم أن نسبة الشافعي

(١) راجع الخصائص (طبعة دار الكتب المصرية)

إلى علم الأصول كنسبة أرسططاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . . فإن الناس كانوا قبله يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعي - رحمه الله - علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجعُ إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسططاليس إلى علم العقل<sup>(١)</sup> . وعاد الشافعي إلى العراق في سنة ١٩٥ ثم رجع إلى مصر سنة ١٩٨ وتركها إلى مكة ولم يلبث أن عاد إليها وظل بها إلى وفاته . وحمل عنه مذهبه في مصر تلاميذ كثيرون من أهمهم البُويطي المتوفى سنة ٢٣١ وقد انتشر مذهبه في كثير من بلدان العالم الإسلامي .

وأكبر تلامذة الشافعي في العراق أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وقد استقل بمذهب فقهي جديد يُعلى من شأن الحديث إلى أبعد غاية ، وبذلك عدَّ ممثلاً لأهل السنة ، غير أن مذهبه لم يكتب له الانتشار كما كُتب للمذاهب الثلاثة السالفة ، وإن كان قد ازدهر حديثاً بين الوهابيين .

وكان للشيعة في هذا العصر نشاط مستقل في الفقه ، إذ ينسب للإمام العلوي جعفر الصادق كتب مختلفة فيه مثل كتاب « مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة » المطبوع في طهران ومثل كتاب « فقه الرضا » لعلي الرضا حفيده وهو كسابقه مطبوع بطهران .

ولعل علماً لم يزددهر في هذا العصر كعلم الكلام ، ويراد بالكلام الجدل الديني في الأصول العقيدية لا عند المسلمين وحدهم ، بل عند جميع الملل والنحل ، ومن أجل ذلك نرى الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة مثل هشام بن الحكم وشيطان الطاق<sup>(٢)</sup> ، بل نراهم يضيفونه إلى أهل الحجاج من المسيحيين<sup>(٣)</sup> ، بل لقد أضافوه إلى أهل الجدل من المنانية الثنوية القائلين بلهى النور والظلمة الذين يحامون ويناضلون عن عقيدتهم الفاسدة<sup>(٤)</sup> . وقد مضى كل متكلم مدافع عن

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .

(٤) الفهرست ص ٣٣٨ .

(١) مناقب الإمام الشافعي للرازي ص ١٠٠ .

(٢) الفهرست ص ٢٩ - ٢٥٢ .

عقيدة في هذا العصر يتسلح في دفاعه بالفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق وغير منطق حتى ليقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة (١) » .

وأهم فرق المتكلمين في هذا العصر فرقة المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدة الإيمان الإسلامية وما يتصل بها من توحيد الله وتنزيهه عن التشبيه وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة أمام المرجئة والمجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهريين الماديين والمناويين الشنويين . وقد ملثوا بجدالهم وحجاجهم لهم مساجد البصرة وجذبوا بحسن بياتهم وقوتهم في الإقناع وإفحام الخصوم الشباب شعراء وغير شعراء . ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثاني إلى بغداد ، فخلبوا الألباب هناك ببياناتهم الساحر وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار ، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة ، وإذا المأمون يعتقد عقيدتهم ، حتى شعبة خلق القرآن التي دلغ شررها بشر المريسي كما مر بنا ، وحاول أن يعلنها عقيدة رسمية للدولة .

ولعلنا لا نغلو إذا سمينا هذا العصر عصر الاعتزال ، فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجهه حسب مشيئته ، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه أصحابه ، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس ، فكان ذلك سبب سقوطه من حائق . ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون فإنه نجح نجاحاً كبيراً في أن صبغ العقول بصبغة فلسفية وأن مرتها تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة في الاستنباط لخفيات المعاني ودقائقها والبراعة في تفريعها وتشعبها وتوليدها ، مع القياس الناصع والبرهان الساطع . وسرت من ذلك أسراب في جميع جوانب الفكر العباسي ، إذ أكب الناس على مناظراتهم وأكب معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعراً نابهاً في هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وأبان اللاحق والعتابي ومنصور النمرى وأبي تمام .

واختلف الباحثون في سبب تسميتهم معتزلة ، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال

أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصرى ومجالسه ، وقيل بل يرجع إلى سرّيان نزعة زهد فيهم واعتزلهم الناس ، ورجح نالينو أنهم نعتوا بذلك لا بتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعة ، فقد وقفوا على الحياذ لا ينصرون فريقاً على فريق<sup>(١)</sup> ، وبالمثل لم ينصروا العلويين على أبناء عمهم العباسيين ، بل ظلوا متمسكين بحيادهم ومضوا يناضلون غلاة الشيعة نضالاً عنيفاً على نحو ما ناضلوا المانويين والدهريين ، ولذلك احتضنهم العباسيون . واستطاع أستاذهم واصل أن يؤثر في زيد بن علي بن الحسين تأثيراً واسعاً وأن يحمله على التخلص من الآراء الشيعية الغالية .

وتميز الاعتزال بأصول خمسة ، هي التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والقول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فأما التوحيد فأراد به المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وقد أولوا الآيات التي يُفهم منها مشابهته للمخلوقات من مثل : ( يد الله فوق أيديهم ) فعنى اليد في الآية عندهم القدرة ، ومضوا ينفون عن الله الصفات لأنها من عوارض الأجسام ، فقالوا إنها عين الذات حتى لا يتعدّد القديم جِلّ جلاله ، ومن أجل ذلك نفوا عنه صفة الكلام ، ومن هنا اندفعوا إلى القول بأن القرآن مخلوق حتى لا يُظنّ أنه قديم ، ولا قديم سوى الله .

أما العدل فقد مضوا يؤصّلون عليه فكرة خلق العباد لأفعالهم وأنهم أحرار في إرادتهم ، وهي حرية ضرورية لكي يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة ، وقد أولوا الآيات التي تدلّ على الجبر من مثل : ( وما تشاءون إلا أن يشاء الله ) ودفنهم هذا الأصل إلى القول بالصلاح والأصلح وأن الله لا يأمر بالشر ولا يعمل إلا ما فيه صلاح العباد وما هو أصلح لهم .

وأما الوعد والوعيد فهو أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته ، وهم بهذا الأصل يردون على المرجئة الذين يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة ، فالله لن يغفر لمرتكب كبيرة إثمه إلا إذا تاب وأتاب ، وهو لا بد مدخل

(١) انظر التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوي ص ١٧٣ وما بعدها .

الأتقياء الجنة حسب وعده الذى وعده ، ومدخل العصاة النار حسب إيعاده الذى أوعده .

وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين فهو قول نفذوا به من خلال رأى الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ويجب حربه وقتله ورأى الحسن البصرى القائل بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق ، فقد اعتزلوا الرأيين جميعاً وقالوا إنه فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وبذلك لم ينتصروا - كما يقول نالينو - لطرف من طرفى هذه الخصومة .

وأما الأصل الخامس فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كل حسب استطاعته ، وكان ينبغى وهم يعتقدون هذا الأصل أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدي المجان والفساق وأرباب الدعارة ، وأيضاً كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم وظلمهم للعامة ، وأن يصارحهم بنظرية الإسلام فى الخلافة وأنها ليست حقاً من حقوق أهل البيت إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة .

وقد أدّاهم النظر فى الأصول السالفة إلى مباحث كبيرة فى العلاقة بين الله والإنسان وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة ، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد فى الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية . وتجردوا للرد على الملاحدة وأصحاب النحل والملل ودفعهم ذلك إلى الوقوف على كل التراث العقيدى والفكرى عند المستعربين من أهل الكتب السماوية وغيرهم كالجوس والصابئة .

وواصل بن عطاء المتوفى بالبصرة سنة ١٣١ هو مؤسس فرقته كما قدمنا ، وهو أول من قال منهم بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر<sup>(١)</sup> ، وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل . وخلفه على آرائه نختنه عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥ وكان يكثر من الجدال فى عقيدة العدل وما يتصل بها من حرية<sup>(٢)</sup> الإرادة . وقد مضى تلاميذه فى البصرة يفرعون فى مسائل الاعتزال وبعض المسائل الفلسفية تفريعات انبثقت منها شعب اعتزالية كثيرة أهمها البشرية والثامية والهدلية والنظامية .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٦٩ وضحى الإسلام

(١) انظر أمالى المرتضى ١/١٦٥ والشهورستانى

والبشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ وقد تحول من البصرة إلى بغداد فنشر بها الاعتزال ، وكان يقول بتفضيل علي بن أبي طالب على بقية الصحابة ومنه سرى هذا القول إلى أصحابه من معتزلة بغداد ، وله أشعار كثيرة نظمها في التاريخ الطبيعي وفي أصناف الفرق والاحتجاج على أصحابها . وهو أول<sup>(١)</sup> من ذهب إلى تولد الأفعال بعضها من بعض كالحجر يُرمَى فيحطم زجاجاً ، فتطير منه شظية فتصيب إنساناً ، وقد اشتق من هذه الفكرة بحثاً واسعاً في تحديد المسئولية إزاء مثل هذا الفعل المتولد عن غيره . وكان يخالف بعض رفاقه من المعتزلة في فكرة وجوب الأصلح على الله لعباده ، لأنه لا غاية لما يقدر عليه من الصلاح ، فما من أصلح إلا وفوقه أصلح منه ، وإنما الذي عليه حقاً أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة .

والثامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس النعمي البصري المتوفى سنة ٢١٣ وقد تحول مثل بشر بن المعتمر إلى بغداد ، وكان يقول هو الآخر بتفضيل علي على الصحابة ، كما كان يقول بخلق القرآن ، وأكبر الظن أن بشراً المريسي هو الذي أقنعه بذلك . وكان المأمون يقدمه ويجعل له الرياسة على المتكلمين في مجالسه . وكان يذهب إلى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها<sup>(٢)</sup> وأن المعارف كلها ضرورية وأن الحسن والتبجح ذاتيان في الأفعال ، وعلى أساسهما يدور التحليل والتحرير في الأوامر والنواهي الإلهية .

والهذيلية نسبة إلى أبي الهذيل العلاف المتوفى بسمراء لسنة ٢٢٧ وقيل : بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عمر طويلاً ، ويُعدّ المؤسس الحقيقي للاعتزال . وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية<sup>(٣)</sup> . وفرق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح . وتحدث في مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ومسألة الكمون ككمون النار في الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية .

٢٤٧/٣ .  
(٣) الشهرستاني ص ٣٤ وأمال المرتضى ١/١٧٨ .  
وضحي الإسلام ٩٨/٣ ودي بورص ٥٧ .

(١) الشهرستاني ص ٤٤ وضحي الإسلام  
١٤١/٣ .  
(٢) الشهرستاني ص ٤٩ وضحي الإسلام

والنظامية نسبة إلى النظام المتوفى سنة ٢٣١ ويقول الشهرستاني إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وإنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين ، وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلاح لعباده ، وأن إرادته التي يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ<sup>(١)</sup> . وأعلّى في مباحثه سلطان العقل إعلاءً بعيداً .

---

(١) الشهرستاني ص ٣٧ وضحى الإسلام  
١٠٦/٣ ودى بورص ٥٩ .



## الفصل الرابع

### ازدهار الشعر

١

#### ملكات الشعراء اللغوية

كانت البادية في هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوى السليقة العربية السليمة من مثل أبي البيداء وابن الدُمَيْنَة وابن مِيَّادَة وأبي حِيَّة النُّمَيْرِيّ وأبي ضَمَّضَم الكلابي وابن عمه أبي زياد والعُماني وشُبَيْل بن عَزْرَة الضُّبَيْعِيّ وأبي العَمَيْثَل وعُمارة بن عَقِيل حفيد جرير . وقد تحول كثير من هؤلاء الشعراء إلى معلمين يعلمون الناشئة اللغة ورواية الشعر القديم<sup>(١)</sup> . وكان يقابلهم في المدن شعراء لم ينشأوا في البادية ، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت في دخائلهم ، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبيانا .

ولعلماء اللغة الذين تحدثنا عنهم في الفصل السابق الفضل في تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلامي ، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعاً دقيقاً ، وظلوا طوال العصر يبحثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المُشْتَمَلَى . وكان من هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادرُوا إلى الاحتذاء على هذه القدوة ، نذكر من بينهم حمادا الراوية والخليل بن أحمد وخلفا الأحمر والأصمعي .

ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالحوشي والألقاظ الغريبة ، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم حتى ليقول الجاحظ : « لم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب ، ولم أرَ غاية رِوَاة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج<sup>(٢)</sup> » . ومعروف أن أهم مجموعتين للشعر القديم أُلْفَتَا في العصر هما المفضليات للمفضل

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة)

(٢) البيان والتبيين ٢٤/٤ .

الضبي الكوفي والأصمعيات للأصمعي البصري ، وهما تزخران بالغريب . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجلوها ودوّنوها ، وفسروها وشرحوها . وبذلك انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء .

وكان من أهم ما حفزهم إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوي ، حتى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم ، مما جعل الجاحظ يقول : « للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإراداتهم . فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل . فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس <sup>(١)</sup> » . وانضم إلى ذلك باعث سياسي ، فإن خلفاء بني العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار . وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها ، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حدقها وبرع في أدائها . وأخذوا أبناءهم بتعلمها ، بل بإتقانها ، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيراً من نماذجها الشعرية وكى يفقوهم على صياغاتها وأساليبها ، وتأليف المفضل الضبي للمهدى كتاب المفضليات ، وهو لا يزال ناشئاً في عهد أبيه ، ذائع مشهور . وبذلك سرى في القصر العباسي ذوق محافظ كان له أثره في الشعراء ، إذ كانوا يمشلون بين أيدي الخلفاء مادحين لهم . وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق ، فكان لا بد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة . وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائي والأصمعي ، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم ، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم في العطاء .

وبذلك أصبح اللغويون سدنة الشعر في هذا العصر وحراسه ، فمن نوّوها به طار اسمه ، ومن لوّحوا في وجهه ختملّ وغدأ نسيباً منسيباً . ويلقانا كثير من الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها في المحافل العظام ، فإن استحسناها مضوا فأنشدوها ، وإن لم يستحسناها ذهبوا يعاودون الكرة بصنع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم ، فمن ذلك ما يروى عن مروان بن أبي حفصّة

من أنه لما نظم قصيدته : ( طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيَالَهَا ) وهي إحدى روايته في المهدي ذهب إلى حلقة يونس النحوي فقال له : قد قلت شعراً أعرضه عليك ، فإن كان جيداً أظهرته ، وإن كان رديئاً سترته . وأنشده القصيدة ، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب<sup>(١)</sup> . حينئذ مضى فأنشدها المهدي ، فزحف من صدر مُصَلَّاهٌ حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ، ثم قال مروان : كم هي ؟ قال مروان : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر في أيام بني العباس<sup>(٢)</sup> . ويسوق المرزباني في كتابه الموشح فصلاً طويلاً<sup>(٣)</sup> ، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجزوها لهم ، فهم قضاة الشعر وصيارفته ، وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن منذر : « إنما أنتم - معشر الشعراء - تسبع لي ، وأنا سكاك السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتكم<sup>(٤)</sup> » .

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسي ، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعري القديم تمسكاً شديداً ، وهو تمسك جعل كثيرين منهم يُسْقَطُونَ الشعراء العباسيين إسقاطاً حتى لنرى أبا عمرو بن العلاء يختم الشعر بذي الرئمة والرجز برؤبة قائلين : « إنهم ككل<sup>(٥)</sup> على غيرهم ، إن قالوا حسنناً فقد سبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فن عندهم<sup>(٦)</sup> » . وكان الأصمعي يختم الشعر بابن ميادة وابن هرمة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية<sup>(٧)</sup> . وأنشده إسحق الموصلي بيتين من شعره دون أن يسمى قائلهما ، فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق : إنهما من نظمه ، فبادره قائلاً : أفسدت الشعر ، إن التوليد فيهما لبس<sup>(٨)</sup> . ويروى الرواة أن ابن منذر كان يقول لأبي عبيدة : « اتق الله واحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلي وهذا عباسي ، وذاك قديم وهذا مُحدثٌ ، فتحكم بين العصرين ولكن احكم بين الشعرين ، ودع العصبية<sup>(٩)</sup> » . وكان ابن الأعرابي يقول : إنما أشعار هؤلاء

- (١) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٢/١٠ .  
 (٢) أغاني ٨٨/١٠ .  
 (٣) الموشح ص ٣٥٨ وما بعدها .  
 (٤) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٧ .  
 (٥) كل : عالية .  
 (٦) أغاني (ساسي) ١٦/١٠٩ .  
 (٧) أغاني (دار الكتب) ٤/٢٧٣ .  
 (٨) أغاني ٥/٣١٨ .  
 (٩) أغاني (ساسي) ١٧/١٢ .

المحدثين - مثل أبي نواس وغيره - مثل الرِّيحانِ يُشَمُّ يوماً وَيَذَوَى فيُرمَى به ،  
وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حرَّكته ازداد طيباً<sup>(١)</sup> .

ولا شك في أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثة خطأ في التقويم ،  
إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة ، والشعر الجيد في كل زمان ومكان .  
ولكن من الحق أنهم - بهذا الموقف - جعلوا نماذج الشعر القديم ، بالقياس إلى  
العباسيين ، تصبح كالأمهات الغذائية ، فكلهم نهلوا من أئدائها وتغذوا بها غذاء  
سرى في قلوبهم وتمكن من نفوسهم . وبأخذنا العجب حين نقرأ لهؤلاء الشعراء ،  
فراهم عرباً نامين وكانهم فصلوا تنوّاً من الجزيرة . ومع هذه العروبة اللغوية القوية  
فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم مخافة أن يحدث اضطراب في النموذج  
الشعري القديم ، وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة . وقد  
مضوا يعدون عليهم سقطاتهم ، وهي ليست سقطات بالمعنى الصحيح ، إذ هي  
في كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون في الشعر القديم ، فقاوسوا عليها ،  
وإما لغات شاذة رأوها أيضاً في هذا الشعر وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وإما اشتقاقات  
وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التي تلقنوها . وقرأ في كل ما نثره  
المرزباني في « الموشح » من هذه السقطات فستراه قلما يتعدو وهذه الوجوه الثلاثة .  
ونضرب مثلاً لذلك : ما كان يأخذه الأخصس على بشار من اشتقاقه في بعض  
أشعاره كلمتي « الوَجَلَسَى ، والغَزَلَى » من الوجل والغزل ظناً منه أن هذا من حقه  
وإن لم يُسْمَع عن العرب ، وكذلك جمعه لفظة « نون » بمعنى البحر على « نينان »  
ظناً منه أن الكلمة تدخل في قياس هذا الجمع<sup>(٢)</sup> . وأبو نواس هو أكثر العباسيين  
مأخذ<sup>(٣)</sup> ، وهي تُرَدُّ عنده إما إلى ضرورات شعرية وإما إلى بعض لهجات  
عربية ، وفي ذلك يقول ابن قتيبة : « وقد كان أبو نواس يُلْحَنُ في أشياء من  
شعره لا أراه فيها إلا على حُجَّة من الشعر المتقدم وعلى عِلَّة بَسِيئَةٍ من علل  
النحو ، منها قوله :

فَلَيْتَ مَا أَنْتِ وَاطٍ مِنْ الدَّرِي لِي رَمَسَا<sup>(٤)</sup>

(٣) الموشح ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٤) رمسا : قبرا .

(١) الموشح ص ٢٤٦ .

(٢) الموشح ص ٢٤٦ وما بعدها .

أما تركه الهمز في « واطى » فحجته فيه أن أكثر العرب ترك الهمز وأن قريشاً تركه وتبدل منه . وأما نصبه « رمسا » فعلى التمييز . . ألا تراه قال : ( فليت ما أنت واط من الثرى لى ) فتم الكلام وصار جواب ليت في « لى » ثم بيّن من أى وجه يكون ذلك ، فقال « رمسا » كما تقول في الكلام : « ليت ثوبك هذا لى » ثم تقول « إزاراً » لأن جواب ليت صار في قولك « لى » وصار الإزار تمييزاً<sup>(١)</sup> . ومضى ابن قتيبة بوجه له آياتاً أخرى وقف اللغويون والنحاة عند حروف منها .

ولعل من الغريب أن يقف يوهان فك في كتابه « العربية » عند هذه الآيات<sup>(٢)</sup> وما يمثّلها مما أخذ على أبي نواس وعند أخرى تشبهها لشعراء آخرين متخذاً منها دليلاً على مخالفة العباسيين لقواعد العربية ، وكأنه لم يقرأ ما نقلناه عن ابن قتيبة . ولو أنه أنعم النظر فيما سجّله الموشح على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف لعرف أن العباسيين لم يخرجوا على قواعد الفصحى في الصورة التي رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ما هناك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين ، فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواذ ، وهم في ذلك يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم .

ووقف يوهان فك عند استخدام نفر من الشعراء العباسيين لبعض الألفاظ والصيغ الفارسية في أشعاره معتمداً على ما كتبه الجاحظ في « البيان والتبيين » عن بعض الأعراب مثل العُماني والعُدافر الكندي ذاكراً أنهما كانا يتملحان بإدخال بعض الألفاظ الفارسية في أشعارهما ، وتمثّل للعُماني بلفظتين ، وساق لشاعر يسمّى أسود بن أبي كريمة قطعة اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية<sup>(٣)</sup> . وقد جعل ذلك يوهان فك يزعم أن الفارسية أدخلت في هذا العصر ضيماً على العربية ، مبالغاً في تصور هذا الضيم<sup>(٤)</sup> ، وهي مبالغة لا تسندها نفس النصوص التي رواها الجاحظ ، إذ كان الشعراء يسوقون في أشعارهم أحياناً بعض الألفاظ الفارسية تملحاً وتظرفاً كما يلاحظ الجاحظ نفسه ، أما بعد ذلك فإنهم كانوا يحافظون على ما استقر في ملكاتهم من قوانين الصياغة العربية ، وربما كان أكثرهم استخداماً

(٣) البيان والتبيين ١/١٤١ وما بعدها .

(٤) كتاب العربية ص ١١٢ وما بعدها .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع دار

المعارف) ص ٧٩٤ .

(٢) كتاب العربية ص ٩١ وما بعدها .

للألفاظ الفارسية في شعره أبا نواس إذ كان يأتي بها في بعض خمرياتة تعابثا ومجانة ، وخاصة حين يوجه كلامه إلى بعض غلمان المحوس مقسماً عليهم بألثتهم وشعائرهم الدينية وأعيادهم المحوسية ، على شاكلة قوله <sup>(١)</sup> :

والمهرجانِ المُدارِ لوقته الكرَّارِ <sup>(٢)</sup>  
والنوكرورِ الكبيرِ <sup>(٣)</sup> وجشَّنَ جاهنبارِ <sup>(٤)</sup>  
وآبَسالِ الوهارِ <sup>(٥)</sup> وخُرَّه إيرانِ شارِ <sup>(٦)</sup>

ولم يكن يصنع ذلك دائماً إنما كان يصنعه في الحين بعد الحين تملحاً وتندراً . وقد تسقط على لسان بعض الشعراء لفظة نبطية ، من مثل قول إبراهيم الموصلي واصفاً وداعه لخمَّارٍ نَبَطِيٍّ <sup>(٧)</sup> :

فقال : إزَلِ بِشِينِ ، حين حَدَّثَنِ وقد - لعمرك - زُلْنَا عنه بِالشَّيْنِ  
وكلمة « إزَلِ بِشِينِ » نبطية ، ومعناها : امضِ بِسَلامٍ . غير أن ما قدمنا  
ومثله لم يتحول إلى ظاهرة عامة ، فقد كان يأتي على ألسنة الشعراء في الندرة ،  
وكثرتهم - على الرغم من أصولهم الفارسية - لم يتورطوا في شيء منه . ومن أجل  
ذلك كان ينبغي أن لا يندفع باحث إلى القول بأن السليقة العربية انتقصت في  
نفوس العباسيين ، فقد كانت أقوى قوة من أن تنتقص ، حتى لَدَى مَنْ كانوا  
يحسنون الفارسية مثل أبي نواس . وقد كانت اللغة العربية تتعمق جوهر نفسه بفضل  
من زودوه بها من اللغويين أمثال خلف الأحمر أستاذه ، ومضى ينهلها من  
ينابيعها الصافية في البادية ، فأقام بها حولاً كاملاً <sup>(٨)</sup> ، يعبُّ منها ويرتوي .  
وأكبَّ على دواوين الجاهليين والإسلاميين من أصحاب القصيد والرجز يستظهرها ،  
حتى قالوا إنه كان يحفظ دواوين ستين امرأة فضلاً عن الرجال <sup>(٩)</sup> ، وإنه حفظ

(٦) خره : موضع الشرب ، أو عيد ، إيران  
شار : إيران العزيزة .

(٧) أغاني (طبع دارالكتب) ١٧٦/٥ .

(٨) أخبار أبي نواس لابن منظور (طبع

مصر) ص ١٢ .

(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار

المعارف) ص ١٩٤ .

(١) انظر أشعاراً مماثلتي كتابنا «الفن ومذاهبه

في الشعر العربي» (طبع دارالمعارف) ص ١٢٣ .

(٢) المهرجان : من أعياد الفرس .

(٣) النوكروز : عيد النيروز .

(٤) جشَّنَ : من أعياد الفرس . جاهنبار :

الدعوة العامة .

(٥) آبسال : ابتداء الربيع . الوهار : المشرق .

سبعمائة أرجوزة غير ما كان يحفظه من قصائد الجاهليين والخنزيرين والأمويين (١) ،  
وفيه يقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح  
لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه (٢) » ويقول أبو عمرو الشيباني العالم اللغوي  
المشهور : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره ، لأنه محكم  
القول (٣) » .

ولم يكن أبو نواس وحده الذى حذق العربية وبرع فيها ، فقد كان من سبقوه  
وعاصروه من الشعراء لا يقلّون عنه براعة وهدقاً بأساليبها ، ويكفى أن نرجع إلى  
بشار الفارسي الأصيل زعيم المحدثين فسراه يعلل لإتقانه العربية بنشأته في بني  
عُقَيْل وتبديّه أعواماً طويلة ، يقول : « ولدت ههنا (في البصرة) ونشأت في حجور  
ثمانين شيخاً من فصحاء بني عُقَيْل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ،  
وإن دخلت على نساتهم فنساتهم أفصح منهم ، وأيفَعَتُ فأبدتُ (دخلت  
البادية) إلى أن أدركت (بلغت الحُلُم) فن أين يأتيني الخطأ (٤) » . ولم تكن  
المسألة مسألة خلو كلامه من الخطأ ، إنما كانت - في حقيقتها اكتساب السليقة  
العربية ، حتى غدا كأنه عربي أصيل ، مما جعل اللغويين يشيدون به طويلاً (٥) .

وبشار من خير الأمثلة على مدى استيعاب العباسيين ممن يرجعون إلى أصول  
غير عربية لصورة الشعر العربي بقصيده ورجزه ، وتروى له في ذلك طرائف  
كثيرة ، منها ما رواه أبو الفرج من أنه استمع إلى عقبة بن رُوْبَة وهو ينشد عقبة  
ابن سلم وإلى البصرة أرجوزة يمدحه بها ، فلما فرغ منها قال له : هذا طراز لا  
تحسنه يا أبا معاذ ، فغضب بشار وقال له : ألى يقال مثل هذا الكلام ؟ أنا والله  
أرجز منك ومن أهلك وجدك (يريد العَجَّاج) . ومضى إلى منزله فألّف أرجوزة  
بديعة ، وغدا فأنشدها عقبة بن سلم وعنده عقبة بن رُوْبَة ، وهى التى يستهلها بقوله :

يا طَلَلَ الحىُّ بذات الصَّمْدِ بالله خَبْرٌ كيف كنت بعدى (٦)

فطرب عقبة بن سلم وكأفاه مكافأة كبيرة ، وانكسر عقبة بن رُوْبَة انكساراً

وما بعدها .

(٥) أغاني ١٤٣/٣ وما بعدها .

(٦) ذات الصمد : موضع .

(١) ابن المعتز ص ٢٠١ .

(٢) أخبار أبي نواس ص ٦ .

(٣) ابن المعتز ص ٢٠٢ .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤٩/٣

شديداً<sup>(١)</sup> ، ويُروى أنه أنشد في شعر الأعشى الكبير :

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَّرْتُ  
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا  
فَأَنْكَرَهُ ، وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى ، ولم يلبث الرواة  
أن تحققوا من قوله<sup>(٢)</sup> . وذكر الرواة أنه أنشد خلفاً للأحمر قصيدته في سلم بن  
قتيبة :

بَكْرًا صَاحِبِيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ . إِنْ ذَاكَ النَّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ  
فلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال له : بلغني  
أن مسلماً يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه . وقال له خلف :  
لو قلت مكان ( إن ذاك النجاح في التبكير ) ( بَكْرًا فالنجاح في التبكير ) كان  
أحسن . فأجابه بشار : « إنني بنيتها أعرابية وحشية فقلت : ( إن ذاك النجاح )  
كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت ( بَكْرًا فالنجاح ) كان هذا من كلام  
المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة ، فقام خلف ،  
فقبل بين عينيه<sup>(٣)</sup> » .

وعلى هذا النحو كان الشاعر العباسي يحوّل إلى نفسه نماذج الشعر القديم بكل  
خصائصها وكل شاراتها ، يعينه في ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها تجاه سمعه  
وتحت بصره . وشركهم في ذلك بعض الشعراء على نحو ما هو معروف عن أبي تمام ،  
ومجموعاته الشعرية التي انتخبها بذوقه من أشعار القدماء والمحدثين ، وفي مقدمتها  
ديوان الحماسة . ولم يكتف اللغويون بما عرضوا من القصيد والرجز ، فقد وضعوا  
للشعراء أقيسة اللغة في الاشتقاق والتصريف والنحو وموسيقى الشعر وعروضه . وبذلك  
وضعوا في أيديهم جميع الآلات التي تعينهم لا على التثقف بالعربية والتدرب  
عليها فحسب ، بل أيضاً على أن يتقنوا التعبير بها والتصرف فيها حسب حاجاتهم  
الوجدانية والعقلية والحضارية .

واعلنا لا نغلو إذا قلنا إن اللغويين هيّأوا للشاعر العباسي من العلم بالشعر القديم

(٢) أغاني ٣/١٤٣ .

(٣) أغاني ٣/١٩٠ .

(١) أغاني ٣/١٧٤ وانظر ابن المعتز ص ٢٥

والموشح ص ٣٦٦ .



مالم يكن يتهباً لأصحابه أنفسهم ، فقد جمعه له وكشفوا مادته من جميع أطرافها ، وأخذت تونق وتزدهر من جديد ، وهو ازدهار نفذ منه العباسيون إلى أسلوب لهم حديث عُرِفَ باسم أسلوب المولدين ، وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعدَّة من الذوق الحضري الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنفَى عنه ألفاظ العامة المبتدلة كما تُنفَى عنه ألفاظ البدو الوحشية . وكان من الشعراء نَمَسْرُ يسرفون على أنفسهم في النهج على أساليب الرُّجَّاز المحشوة بأوابد الألفاظ ، ولكنهم كانوا يُعَدُّون نابين على ذوق العصر ، ومن خير مَنْ يُمثل ذلك ابن منذر ، وقد تعرَّض له أبو العتاهية يوماً قائلاً : « إن كنت أردت بشعرك العَجَّاج ورؤبة فما صنعت شيئاً ، وإن كنت أردت أهل زمانك فما أخذت مآخذنا<sup>(١)</sup> » . وأبو العتاهية إنما يشير إلى ما حدث لأساليب اللغة في عصره ، فقد تناولها في الحاضرة صنَّاع مهرة لم يلبثوا أن اشتقوا لهم منها أسلوباً متميزاً يبتعد عن خشونة البدو وألفاظهم الكثرة . وليس ذلك فحسب فإنهم أشاعوا في هذا الأسلوب الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً والجزالة والرصانة حيناً آخر ، يهديهم في ذلك ذوقهم المتحضر الدِّمِث الذي ينفر من كل لفظة غريبة وكلمة وعرة .

وعلى هذا النحو دفع التحضر شعراء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتدلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتدال ، تُخْتَارُ الكلمات فيه ، وكأما هي جواهر تختار في عقود ، إذ تحوَّل الشعراء إلى ما يشبه الصَّاعِغَة ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته في صياغته وسبكه بما ينتخب من الكلمات التي يحسن وقعها في السمع والتي تصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة .

وبشار في طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، وفيه يقول ابن المعتز :  
 « كان شعره أنقى من الراحة ، وأصفى من الزجاج وأسلس على اللسان من الماء العذب<sup>(٢)</sup> » . وأسلوبه يمتاز بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق . وتلاه جيل من

(٢) ابن المعتز ص ٢٨ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٩٠/٤

والموشع ص ٢٩٥ .

الشعراء توزّعوا بين من يؤثرون الجزالة والفضامة وقوة البناء وضخامته مثل مسلم بن الوليد ، ومن يؤثرون الليونة والسهولة مثل أبي العتاهية الذي عمّم ذلك في الشعر الرسمي : شعر المديح ، والشعر الشخصي : شعر الحمر والغزل ، وشعر الزهد والوعظ ، وكان معاصره أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي ، وفي بعض شعره الشخصي ، وكثيراً ما يعمد في الضرب الأخير إلى السهولة المفرطة . على أن الشعراء سرعان ما انصرفوا عن طريق أبي العتاهية مؤثرين طريق بشار وما انتهى إليه هذا الطريق عند مسلم من المتانة وقوة البناء والرصانة ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا الأسلوب الجزل الرصين على غايته من الفضامة والروعة . وبذلك رُدَّ الأسلوب المولد إلى قوة السبك وضخامة البناء . وحقاً جمّد بعض الشعراء وأسرفوا في الاقتداء بأساليب القدماء من الرجاز وأضرابهم ، ولكنهم سقطوا صرّعي في الميدان الفني ، إذ ازورّ عنهم جمهور الشعراء منضوين تحت لواء بشار ومسلم وأبي تمام . أو تحت لواء أبي العتاهية وأبي نواس ، بحيث ينتخب الشاعر أنصع الألفاظ وأجزؤها وأرشقها وأعذبها مكوّناً أصداف شعره وجواهره المتألقة .

## ٢

## طوابع عقلية دقيقة

رأينا في الفصل السابق كيف رقيت الحياة العقلية في هذا العصر رقيّاً بعيداً . وهو رقى هيأت له الكتب الكثيرة التي ترجمت عن الهند والفرس واليونان ، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء ، وهي مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل ، الذي ما ينبي صاحبه يحاور وينظر ، متناولا كل شيء ، حتى يصقل عقله ، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة . وما لم يعرفه ولم يعلمه سأل عنه العلماء ، ليصوروه له ، وليزيلوا الشبهة فيه عن نفسه ، وفي ذلك يقول بشار (١) :

(١) عيون الأخبار ١٢٣/٢ وأدب الدنيا  
والدين للماوردي (طبعة الحلبي) ص ٥٠ .

شفاء العمى طول السؤال وإنما دوام العمى طول السكوت على الجهل  
فكن سائلا عما عناك فإنما دُعيتَ أخوا عقلٍ لتبحثَ بالعقل

ولم يكن الشاعر العباسي يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم  
وإلحاحه في السؤال فحسب ، بل كان يلتمسها أيضاً في الكتب المترجمة من كل  
صنف ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات لمحمد بن يسير ، يشرح فيها أنه في بيت  
كتبه ، وكنوز الآداب من حوله ، يغذى بها نفسه وعقله غذاء ممتعاً ، يقول (١) :

هم مؤنسون وألأف غَنِيَتْ بهم فليس لي في أنيسٍ غيرهم أربُ  
فأما أدبٍ منهم مددتُ يدي إليه فهو قريبٌ من يدي كَثَبُ (٢)

حتى كَأَنِّي قد شاهدتُ عَصْرَهُمْ وقد مضتْ دونهم من دهرهم حَقَبُ

وابن يسير إنما يعبر عن نزوع الشعراء عامة في عصره للتزود بجميع ألوان المعرفة  
وما كانوا يجدون في ذلك من لذة عقلية لا تعد لها لذة . وقد مضوا يتمثلون كثيراً  
من هذه الألوان ويحولونها غذاءً شعرياً بديعاً ، سواء منها الهندي والفارسي واليوناني ،  
وما لم يحلوه تأثروا به من قريب أو من بعيد . ولنقف قليلاً عند الثقافة الهندية ،  
فقد لاحظ ابن قتيبة أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها في أشعاره ، من ذلك  
قوله في الخمر :

تُخَيَّرَتْ والنجوم وُقِفُ لم يتمكن بها المدَارُ

يقول ابن قتيبة : « يريد أن الخمر تُخَيَّرَتْ حين خلق الله الفلك ، وأصحاب  
الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفةً في بُرْجٍ  
ثم سيرها من هناك ، وأنها لا تزال جاريةً حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها  
فيه ، وإذا عادتُ إليه قامت القيامة وبطل العالم ، والهند تقول إنها في زمان نوح  
اجتمعت في الحوت إلا يسيراً منها ، فهلك الخلق بالطوفان ، وبقى منهم بقدر  
ما بقي منها خارج الحوت (٣) » . وينشد ابن قتيبة قول أبي نواس في بعض المغنين  
هاجياً :

(٣) الشعراء والشعراء ص ٧٧٤ .

(١) الحيوان ١/٩٥ .

(٢) كتب : قريب .

قُلْ لزهيرٍ إذا حدا رشدا  
أَغْلِلْ أَوْ أَكْثِرَ فَأَنْتَ مِهْدَارُ  
سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ الْبُرُودِ حَ  
تَى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ  
لا يعجب السامعون من صفتي  
كذلك الثلجُ بارِدٌ حارٌ

ويعلق بقوله : « هذا الشعر يدلُّ على نظر أبي نواس في علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً ، ووجدت في بعض كتبهم : لا ينبغي للعاقل أن يعتزَّ باحتمال السلطان وإمساكه ، فإنه إما شرس الطبع بمنزلة الحية إن وطئت فلم تلتسع لم يُغتَرَّ بها فيُعاد لوطئها ، أو سمح الطبع بمنزلة الصنوبر الأبيض البارد إن أفرط في حرِّه عاد حاراً مؤذياً<sup>(١)</sup> . » وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه الفرس عن الهندية ، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية ، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع ، وخلفه أبان بن عبد الحميد فنظمه شعراً بكل ما فيه من قصصٍ وحكم . وكان أثره عميقاً فيما صاغه العباسيون من حكم وأمثال ، ونرى ابن عبد ربه في العقد الفريد يتمثل بحكمة منه هي : « إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدّاً منه ، لأن النفقة فيه من النفس والنفقة في غيره من المال » ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال<sup>(٢)</sup> :

كم بين قومٍ إنما نفقاتهم مالٌ وقومٍ ينفقون نفوسا

وكان تأثير الثقافة الفارسية في الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية ، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية ، لا من يرجعون إلى أصول فارسية فحسب مثل أبي نواس ، بل أيضاً بعض من يرجعون إلى أصول عربية مثل العتّابي ، وكان يعكف على قراءة كتبها ، وراه شخص يوماً ينسخ بعض صحفها ، فسأله متعجباً : لمَ تكتب كتب العجم ؟ فأجابه منكرأ سؤاله : وهل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعاني لهم<sup>(٣)</sup> . وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس

والنشر) ١٤٢/١ .

(٣) كتاب بغداد لطيفورص ٨٧ .

(١) الشعر والشعراء ص ٧٧٧ .

(٢) العقد الفريد ( طبع لجنة التأليف والترجمة

وحكمهم ووصاياهم في الصداقة والمشورة وآداب السلوك والسياسة ، ومن يرجع إلى  
بشار يجده يفرد للمشورة قطعة طويلة في إحدى مدائحه ، يقول فيها<sup>(١)</sup> :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمٍ  
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً مَكَانَ الْخَوَافِي نَافِعٌ لِلْقَوَادِمِ<sup>(٢)</sup>

وقد نُقلت أمثال بزجمهر الوزير الفارسي إلى العربية ودارت في كتب  
الأدب ، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة ، من مثل قوله : « إذا أقبلت  
عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفي ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » وقد  
أخذه بعض الشعراء وزاد عليه قائلاً<sup>(٣)</sup> :

فَأَنْفَقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا وَأَنْفَقْ - عَلَى مَا خَيَّلَتْ<sup>(٤)</sup> - حِينَ تُعَسِّرُ  
فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبَخْلُ يَبْقَى الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ<sup>(٥)</sup>

ويقال إنه كان في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم<sup>(٦)</sup> .  
ولا ريب في أن الثقافة اليونانية كان تأثيرها في الشعر والشعراء أعمق وأبعد  
غوراً ، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفي وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلتها ،  
وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعاني واستخراج دقائقها . وقد مضى  
كثير من الشعراء يزدون محصولهم من تلك الثقافة ، بل كان منهم من ألف في  
المنطق<sup>(٧)</sup> ، حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله . وكان مما تُرْجِمَ لهم من  
تلك الثقافة مرثي فلاسفة اليونان للإسكندر المقدوني عند وفاته ، وقد نقل منها  
أبو العتاهية أطرافاً إلى مرثيته<sup>(٨)</sup> في صديقه علي بن ثابت ، من ذلك أن أحدهم  
وقف عند رأسه ، وقال : سكنت حركة الملك في لذاته وقد حررنا اليوم في سكونه  
جزعاً لفقده ، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية قائلاً :

(١) أغاني ١٥٦/٣ وانظر ص ٢١٤ .  
(٢) القوادم : الريش الطويل في جناح الطائر  
والخوافي : الريش القصير .  
(٣) عيون الأخبار ١٧٩/٣ .  
(٤) علي ما خيملت : على أي حال .  
(٥) الجدد : الحظ .

(٦) التحفة البهية ص ٢١٧ .  
(٧) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ٢٧/١٧ .  
(٨) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٤/٤  
والبيان والتبيين ١/٤٠٧ وزهر الآداب للحصري  
٩١/٣ .

يا عليُّ بن ثابت بن منيُّ صاحبٌ جَلَّ فَقْدُهُ يومَ بِنْتِنا  
 قد لعمرى حَكِيمَتِ لى غُصَصِ المو ت وحرَّ كَتِنى لها وسكَنَتِنا  
 وقال فيلسوف آخر : « الإسكندرُ كان أمسَ أنطقَ منه اليوم ، وهو اليومَ  
 أوعظُ منه أمس » . فتمثَّلَه أبو العتاهية في مَرثِيَةِ أُخْرى لصديقِه على هذا النمط :

بكيتك يا عليُّ بدمع عيني فما أغنى البكاءُ عليك شيئاً  
 كَفَى حُزْناً بِدَفْنِكَ ثم أنى نفضتُ ترابَ قبرك عن يدياً  
 وكانت في حياتك لى عظامُ وَأَنْتَ اليومَ أوعظُ منك حياً

وقد ذكرنا في الفصل السابق أن كثيراً من أقوال المسيح في الأناجيل نقل إلى العربية وتداوله الوعاظ في وعظهم كما تداوله شعراء الزهد ، واستوحوه في كثير من أشعارهم ، من ذلك ما يروى عن المسيح من أن قومه عيَّروه بالفقر ، فقال : من الغِنَى أتيتم ، واستوحى محمود الوراق هذا المعنى وزاد عليه إيضاحاً وتبييناً بقوله<sup>(١)</sup> :

يا عائبَ الفقرِ ألا تزدجرُ عَيْبُ الغِنَى أكثرُ لو تَعَبَّرَ  
 من شرفِ الفقرِ ومن فضلهِ على الغِنَى إن صحَّ منك النَّظَرُ  
 أنك تعصى كى تنالَ الغِنَى وليس تَعْصِي اللهُ كى تفتقر

وسنعرض في ترجمتنا لأبي العتاهية وصالح بن عبد القدوس بعض ما دخل على الزهد من عناصر غريبة بوذية أو مانوية .

ولعل أكبر بيئة عُنيت بهذه الثقافات المتنوعة ، وكان لعنايتها بها أثر واسع في الشعر والشعراء ، بيئة المعتزلة إذ كانت تقوم من الفكر العباسي في هذا العصر مقام السكان والمجداف من السفينة ، فهي تثيره وتدفعه إلى أن يزيد محصوله من جميع المعارف والمعتقدات ، وأن يتمثلها إلى أبعد حد ممكن . وبدءوا بأنفسهم فتثقفوا أروع ما يكون التثقف بكل ما ترجم عن الهند والفرس واليونان ، وعكفوا على الفلسفة اليونانية عكوفاً جعلهم يثقفون على كل شعبها وكل مناحيها في الفكر الدقيق ، ولم يلبثوا أن استكشفوا لأنفسهم عالمهم العقلي الذى يمج بظرائف الذهن في جميع

المعاني الحسية والعقلية . وكانوا ما يزالون يحاورون أصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة ، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضاً في غوامض الفلسفة ، محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط ، وكثيراً ما ردوا على فلاسفة اليونان واشتقوا لهم آراء جديدة ، يدعمها العقل الذى شغفوا به وبأدلته وبراهينه ، وهو شغف صورته منهم بشر بن المعتمر تصويراً طريفاً ، إذ يقول (١) :

لله درُّ العقل من رائدٍ      وصاحبٍ في العُسرِ واليسرِ  
وحاكمٍ يقضى على غائبٍ      قضية الشاهد للأمر  
وإن شيئاً بعضُ أفعاله      أن يفصل الخيرَ من الشرِّ  
لذو قُوَى قد خصّه ربُّه      بخالص التقديس والطهرِ

وقد سخرَ بشر عقله في الرد على أصحاب المقالات والنحل وفي نظم قصائده تدخل في التاريخ الطبيعى يتحدث فيها عن مشاهد الطبيعة ودلالاتها على قدرة الصانع الأكبر . وكان وراءه من المعتزلة شعراء لم يبعدها بشعرهم عن دوائر الشعر المألوفة من المديح والغزل والهجاء والثناء والوصف ، ولكنهم طبعوا ما نظموه بطوابع جديدة من دقة المعاني ومن غرائب الأخيلة والصور ، على نحو ما يلقانا عند العتّابى والنظام ، وسنخص كلاهما منهما بمحدث مستقل في الفصل السابع .

وقد سرت هذه الطوابع في شعر الشعراء ، وخاصة من التحموا منهم بالمعتزلة ومباحث المتكلمين ، ويكفى أن نصور ذلك عند ثلاثة من الشعراء النابهين هم : بشار وأبو نواس وأبو تمام . فأما بشار فكان يُعدُّ من أصحاب الكلام ، وكان يكثر من الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، ويستمتع إلى ما يجرى فيها من حوار بين أصحاب الملل والنحل سماوية وغير سماوية ، وتشوش عقله ، فإذا هو يصبح زنديقاً ، مما سنعرض له في ترجمته . وكان من أهم المشاكل التى يحاور فيها واصل خصومه مشكلة الجبر والاختيار ، وكان يرفض فكرة الجبر وتعطيل إرادة الإنسان أمام إرادة الله المطلقة ، لما يؤدى إليه ذلك من فقدان الإنسان لحرية في أعماله وأنه كتبها عليه القضاء المحتوم ، وأيضاً لما يؤدى إليه ذلك من

ظلم الله للناس فهو يكتب عليهم الشقاء ويأخذهم به ، والله لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وما يأتون من أفعال وأقوال إنما يأتونه بإرادتهم وحريرتهم ، وهم لذلك مسئولون عنه ومحاسبون . وقد مضى بشار في أشعاره يعارض واصلا في هذه المشكلة الإنسانية الكبرى ، مصراً على أن الإنسان مسير في رحلته الدنيوية بقضاء يخطئ له غده ومستقبله ، وفي ذلك يقول (١) :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِيَّ غَيْرَ مُخَيَّرٍ      هَوَايَ وَلَوْ خَيْرْتُ كُنْتُ الْمَهْدَبَا  
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَى وَأُعْطَى وَلَمْ أُرَدِّ      وَيَقْصُرْ عِلْمِي أَنْ أَنَالَ الْمُعْجَبَا  
فَأُصْرَفُ عَنْ قِصْدِي وَعِلْمِي مَقْصُرٌ      وَأُمْسِي وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّعْجَبَا

وربما كان لفقده بصره أثر في اعتناق هذا المذهب . وأهم من هذه المشكلة وأدخل فيما نحن بصدد الحديث عنه من الطواع العقلية الدقيقة التي تغلغلت في الشعراء العباسيين وأشعارهم أننا نجد عنده استدلالات عقلية كثيرة على نحو ما مررنا بنا في أبيات الصداقة والصديق ، كما نجد عنده توليدات وتشعيبات للمعاني التي طرفها القدماء لا تكاد تحصى ، مع محاولة الأطراف والإتيان بالمعنى المتكرر والصورة البديعة . ولنتقف قليلا عند معنى طول الليل الذي وقف عنده امرؤ القيس ، في معلقته ، إذ يقول :

فيا لك من ليلٍ كأن نجومه      بكل مغار الفتل شدت يبدبل (٢)

فهو يتصور نجوم الليل لطوله الشديد كأنما سُمِّرت ، فهي لا تريم . وقد مضى الجاهليون والإسلاميون بعده يتناولون هذا المعنى ، وقلما أضافوا إليه إضافة جديدة ، حتى إذا كان بشار أخذ يتناوله بطرقٍ مختلفة تدل دلالة بينة على دقة العقل العباسي وقدرته على التعليل والتحليل وأنه يستطيع أن يؤدي المعنى القديم في معارض جديدة شديدة الروعة ، من ذلك قوله (٣) :

خليلي ما بال الدجى ليس يبرح      وما بال ضوء الصبح لا يتوضح  
أضل الصباح المستنير طريقه      أم الدهر ليل كلّه ليس يبرح

(٣) الديوان ٢/١٠٤ .

(١) أغاني (دار الكتب) ٣/٢٢٧ .

(٢) مغار : محكم . يبدل : جبل .



وهو خيال زاخر بالحركة ، وفيه تعميم ، فقد تحول الدهر ليلاً مظلماً لا آخر له . ويعود إلى التفكير في نفس المعنى ، وما يزال يلحُّ في التفكير والتخيُّل حتى تتكوَّن له صورتان جديدتان لا تقلان طرفاً عن الصورتين السابقتين ، إذ يقول عن نفسه وقد بات ليلة مسهَّدة إثر فراقه لإحدى صواحيبه (١) :

كَأَنَّ جَفُونَهُ سُمِلَتْ بِشَوْكٍ      فليس لَوْ سَنَةَ فِيهَا قَرَارُ  
أَقُولُ وَلِيَلْتِي تَزْدَادُ طَوْلًا      أَمَا لِلَّيْلِ بَعْدَهُمْ نَهَارُ  
جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى      كَأَنَّ جَفُونَهَا قِصَارُ

واكن أيكفيه أن يعلل لمعنى طول الليل القديم وما يُطَوِّى فيه من السهر بهذه العلل البارة ؟ أو لا ينبغي أن يسلك مسالك المتكلمين والمعتزلة لا في الإتيان بالعلل الخفية المستورة وإنما في الإتيان بما ينقض المعنى نقضاً من أساسه على شاكلتهم في محاوراتهم ومداوراتهم ؟ وإذن فليتنقض ما يقال من طول الليل ، إنما هو السهر والسهاد الطويل الذي يخيلُ إليه كأن الليل يطول ، والليل مظلوم ، وفي ذلك يقول : (٢)

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمَ      وَنَفَى عَنِ الْكَرَى طَيْفُ أَلَمِّ

وتشيع هذه القدرة على التعليل الطريف في جميع جوانب شعر بشار ، كما تشيع معها قدرته على تقليب المعاني والاحتيايل للتوليد فيها والتفريع ، على شاكلة قوله (٣) :

وَعِيُّ الْفِعَالِ كَعِيُّ الْمَقَالِ      وَفِي الصَّمْتِ عِيُّ كَعِيُّ الْكَلِيمِ

فقد جعل العيِّ أقساماً ، فهو لا يكون في الكلام فحسب ، بل يكون أيضاً في الصمت حين يكون واجباً ويكون الكلام ثرثرة ، بل إنه يكون أيضاً في الفعال السقيمة .

ولعل في ذلك ما يوضح من بعض الوجوه كيف منح المعتزلة ومباحثهم بشاراً هذه الطوابع العقلية التي جعلته يمتاز في شعره بشخصية قوية . ولم يكن ما منحه أبو نواس من تلك البيئة أقل حظاً وقدرًا ، بل لعله ظفر منها بأكثر مما ظفر بشار ،

(٣) البيان والتبيين ١/٤ .

(١) الديوان ٣/٢٤٩ .

(٢) أغاني ٣/١٥١ .

إذ كان يغدو ويروح في نشأته على مجالس المتكلمين والمعتزلة ، وفي أشعاره سيول من ألفاظهم وأفكارهم ، من ذلك فكرة التولد ، وهي الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد ، فقد صدر عنها في قوله متغزلاً بجستان (١) :

وذاتِ	خَدُّ	مورِّدٌ	فَتَّانَةٌ	المتجرِّدُ
تأملُ	العين	منها	محاسناً	ليس تنفدُ
فبعضُها	قد	تناهى	وبعضها	يتولِّدُ

ومن ذلك فكرة الجزء الذى لا يتجزأ أو فكرة الجوهر الفرد ، وكان النظام ينكره ، وتجادل فيه طويلاً مع نظرائه من المعتزلة ، وقد ألمَّ بها أبو نواس في قوله متغزلاً (٢) :

يا	عاقِدَ	القلبِ	عنى	هلا	تذكرتَ	حَلَاً
تركتَ	منى	قليلاً	من	القليلِ	أَقَلَّ	أَقَلَّ
يكاد	لا	يتجزأ	أَقَلَّ	فى	اللفظِ	من لا

ويقال إن النظام سمع منه هذه الأبيات ، فقال له : « أنت أشعر الناس في هذا المعنى ، والجزء الذى لا يتجزأ - منذ دهرنا الأطول - نخوض فيه ما خرج لنا فيه من القول ما جمعت أنت في بيت واحد (٣) » . ومن ذلك قوله في شخص كان يبغضه (٤) :

كمنَ الشَّنَانُ فيه لنا ككُمُونِ النارِ فى حَجْرَةٍ

ونظرية الكمون إحدى النظريات التى تحاور فيها النظام مع بعض معاصريه طويلاً ، إذ كان يرى أن الله جميلٌ جلاله خلق الموجودات دفعة واحدة ، ثم أكن بعضها في بعض على نحو ما أكن في آدم أبناءه . ومما كان يحاوره فيه أبو نواس فكرة صدق الوعد والوعيد على الله وهي إحدى الأفكار الأساسية في عقيدة المعتزلة ،

أبي نواس لابن منظور ص ١٣ .  
(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ص ١٣ .  
(٤) الديوان (طبعة أصاف) ص ٦٧ .

(١) البيان والتبيين ١/١٤١ .  
(٢) نفس المصدر والصفحة ، وانظر في أشعار أخرى له تزخر بألفاظ المتكلمين أخبار

كما مر بنا في الفصل السابق ، وقد جعلتهم يرفضون فكرة العفو التي قال بها المرجئة والتي تذهب إلى أن الله من حقه أن يترك وعيده لمن أجرم وارتكب الكبائر ، فيسدل عليه أستار عفوه ، وكان أبو نواس يتصدر عن فكرة المرجئة في حوارهِ للنظام بمثل قوله في إحدى خمرياته (١) :

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعَى فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً      حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ  
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأً حَرَجاً      فَإِنْ حَظَرَكَه بِالدِّينِ إِزْرَاءُ

وقد فتقت مجالس المعتزلة والمتكلمين عقل أبي نواس ، فإذا هو يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلاً بالمعاني المبتكرة والأخيلة المبتدعة من مثل قوله (٢) :

لَا أَذُودُ الطَّيْرِ عَنْ شَجَرٍ      قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ  
خَفِئَتْ مَأْثُورُ الْحَدِيثِ غَدًّا      وَغَدُّ دَانَ لِمُنْتَظَرِهِ

وقوله (٣) :

وَكَأْسٍ كَمَصْبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا      عَلَى زَوْرَةٍ أَوْ مَوْعِدٍ بِلِقَاءِ  
أَتَتْ دُونَهَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانَهَا      تَسَاقُطُ نُورٍ مِنْ فُتُوقِ سَمَاءِ

وتلقانا في كثير من جوانب شعره طوايع المعتزلة في لغتهم وفي حجاجهم وفي تفكيرهم المجرد من مثل قوله يصف الخمر (٤) :

تَوَهَّمْتُهَا فِي كَأْسِهَا فَكَأَنَّمَا      تَوَهَّمْتُ شَيْئاً لَيْسَ يُدْرَكُ بِالْعَقْلِ  
وَصَفْرَاءُ أَبْقَى الدَّهْرُ مَكْنُونٌ رُوحَهَا      وَقَدْ مَاتَ مِنْ مَخْبُورِهَا جَوْهَرُ الْكُلِّ  
فَمَا يَرْتَقِي التَّكْيِيفُ مِنْهَا إِلَى مَدَى      تُحَدُّ بِهِ إِلَّا وَمَنْ قَبْلَهُ قَبْلُ

وقوله (٥) :

وَقَدْ خَفِيَتْ مِنْ لُطْفِهَا فَكَأَنَّمَا      بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُذْهِبُهُ الشُّكُّ

(٤) الصناعتين (طبعة الحلبي) ص ٣٦٤ .

(٥) خزائن الأدب للحموي (طبع الطبعة

الخيرية) ص ١٨٣ .

(١) الديوان ص ٣٥ .

(٢) الوساطة بين المنتبى وخصومه (طبعة

الحلبي) ص ٥٨ .

(٣) الوساطة ص ٥٩ .

وواضح ما في هذه الآيات من ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم وتجريداتهم التي تبلغ حد الوهم ، فقد جعل الأحمر لا تُدْرَكُ بالعقل كأنها معنى خفي لا ينكشف ، ودعاها : « جوهر الكل » وقال إنه لا يحيط بها كَيْفٌ أو تكييف تُحَدِّدُ به وتُعْرَفُ ، وعاد يصور خفاءها ببقايا يقين تسترها سحب الشك حتى لا تكاد تبين . وكان أبو تمام - على شاكلة أبي نواس - يتعمق الاعتزال وعلم الكلام ، بل يظهر أنه مدَّ تعمقه إلى الفلسفة وما يتصل بها من المنطق ، وقد ألح إلى ذلك الآمدي في فاتحة كتابه : « الموازنة بين الطائنين » فقال إن شعره إنما يعجب أصحاب الفلسفة . وتراءى ألفاظها عنده من حين إلى حين كقوله في هجاء بعض خصومه<sup>(١)</sup> :

هَبْ مَنْ لَه شَيْءٌ يَرِيدُ حِجَابَهُ      مَا بَالُ لَا شَيْءٍ عَلَيْهِ حِجَابُ  
وكلمة لا شيء في اصطلاح المتفلسفة تعني العدم . ومن ذلك قوله<sup>(٢)</sup> :

لَنْ يَنَالَ الْعُلَا خُصُوصاً مِنَ الْفِتْرِ      يَانِ مِنْ لَمْ يَكُنْ نَدَاهُ عَمُوماً<sup>(٣)</sup>  
والعموم والخصوص من كلام المناطقة . ومن ذلك قوله في أحد ممدوحيه<sup>(٤)</sup> :

اغهم ذو الجلال من جوهر المَجْبُودِ      وصاغ الأنام من عَرْضِهِ  
والجوهر عند الفلاسفة والمتكلمين أثبت من العرض . وفي أشعاره بعض إشارات إلى المذاهب الكلامية ، وعلى رأسها مذهب الاعتزال والجهمية ، يقول في أبي سعيد الثغري أحد القواد المشهورين في عصره<sup>(٥)</sup> :

عَمْرِيُّ عَظْمُ الدِّينِ جَهْمِيُّ النَّدَى      يَنْفَى الْقَوَى وَيُثَبِّتُ التَّكْلِيفَا  
وهو في أول البيت يجعله عمري العقيدة ، يريد أنه على مذهب عمرو بن عبسند إمام المعتزلة بعد واصل بن عطاء ، فهو يأخذ - كما يأخذ عمرو وأصحابه - بفكرة

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٣١٧/٢  
وطبعة بيروت ص ١٦٨ .

(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ٣٨٧/٢  
وطبعة بيروت ص ١٨٥ .

(١) ديوان أبي تمام (طبع المطبعة الأدبية  
بيروت) ص ٤٣٦ .

(٢) نفس الديوان (طبعة دار المعارف)  
٢٢٥/٣ وانظر الطبعة السابقة ص ٢٥٩ .

(٣) الندى : الكرم .

حرية الإرادة الإنسانية ، وأن الإنسان يتصرف كما يشاء له عقله ، ولا يلبث أن يجعله في نداءه وكرمه على مذهب جهّم بن صفوان الذى كان يقول - كما يقول المعتزلة - بوجوب التكاليف الشرعية بينما كان يؤمن بالجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية . وكل ذلك ليبالغ في مدح أبى سعيد بالكرم وأنه قدر مقدور عليه ، لا يستطيع عنه حولا . ويعود إلى مذهب جهم ، ولكن لا فى الجبر وإنما فى أسماء الله وصفاته ، فقد كان يمتنع عن تسميته باسم ، حتى لا يثبت عليه شيئاً من التشبيه بالمخلوقات . وقد استمد أبو تمام من هذه الفكرة الدقيقة فى نعتة الخمر ، إذ يقول (١) :

جَهْمِيَّةُ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ

فالخمر فى رأيه رقت حتى كادت لا تسيّن ، بل حتى كادت لا تسمى - على مذهب جهم - باسم ، ولكنها لعظم شأنها لُقِّبَتْ جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ . ولعل ذلك ما يشهد بأن أبا تمام كان يتغلغل فى معرفة مذاهب المتكلمين ، وهو تغلغل التحم بتغلغله فى قراءة الفلسفة ، فإذا شعره يُطْبَعُ بطواع الفكر الدقيق ، وهو فكر يجلّله الغموض فى كثير من جوانبه ، ولكنه الغموض الزاهى الذى يلد العقل والشعور ، والذى ما تزال توليداته واستنباطاته الخفية فيه تروع قارئه روعة شديدة ، وهى روعة جعلت القدماء يقولون إنه أكثر العباسيين اختراعاً وابتكاراً (٢) . ولا تقف المسألة فى شعره عند اختراع بعض المعانى وابتكار بعض الصور ، فقد نشر فى صحف أشعاره التضاد الذى يقف عنده المناطقة واستخرج منه ما لا يحصى من المعانى والصور الجديدة ، كقوله بصور جمال إحدى صواحبه : (٣)

بِضَاءِ تَسْرِي فِي الظلام فيكتنسَى نوراً وتَسْرُبُ فِي الضياءِ فيظلمُ

فقد جعلها تكسف نور الشمس ببهائها ، وكأنها القمر يكسف ضوء الكواكب حتى ليصبح ضياء النهار مظلماً لشدة نورها . وهو تضاد بديع ، فالضياء يظلم . ويمكن لهذا المعنى ويزيده عمقاً فيقول واصفاً إحدى صواحبه فى ساعة الوداع (٤) :

(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ٢١٣/٣

وطبعة بيروت ص ٢٥٢ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٢٤٩/٣

وطبعة بيروت ص ٢٧٧ .

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٣٤/١

وطبعة بيروت ص ١٢ .

(٢) انظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية)

١٧٧/١ ، ١٨٩/٢ .

وَلِهَتْ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا وَأَنَارَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مُظْلَمٍ .  
 فهى تودعه والهة لفراقه ، ويحس كأنما طمست بنورها كل ضوء من حولها ،  
 وأنها سرعان ما كست الوجود بنورها ، ففارقت الأشياء الظلمة والظلام . وكثيراً  
 ما يمتدّ هذا التضاد في وصفه ، فتتوالى الأبيات مغموسة به ، على نحو وصفه المشهور  
 لقلم ابن الزيات وزير المعتصم ، وفيه يقول (١) :

لَعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِي عَوَاسِلُ (٢)  
 لَهُ رِيْقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقَعَهَا بِآثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ (٣)  
 فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْظَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ وَأَعْجَمٌ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ (٤)

وكثير من كانوا وراء أبي تمام وأبي نواس وبشار كانوا لا يقلون عنهم محاولة  
 في الإتيان بطرائف المعاني والصور ، وكانوا ما يزالون يغدون ويروحون على مجالس  
 المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، كما كانوا يكتبون على قراءة كتب الفلسفة والثقافات  
 الأجنبية ، محاولين أن يكتسبوا من ذلك كله ما يتيح لهم في أشعارهم أن يشيعوا فيها  
 المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة .

## ٣

## التجديد في الموضوعات القديمة

ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان  
 ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيته الموروثة ،  
 وقد مضوا يدعمونها دعماً بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبية وأذواقهم  
 المتحضرة المرهفة ، فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاصيل  
 بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة ، بل يقوم على التواصل  
 الوثيق .

(٣) الطل : المطر والندى الخفيف . والوايل  
 المطر الغزير .

(٤) راجل : ضد راكب ، ويريد بركوبه  
 إمساك الأصابع به للكتابة .

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ١٢٣/٢  
 وطبعة بيروت ٢٢٩ .

(٢) لعاب الأفاعي : سمها . والأرى : العسل  
 واشتاره : جناه .

وأول موضوع تقف عنده المديح ، ومعروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي كان يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التي تقدرها الجماعة ، وإذا كان مؤثراً في حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله ، وللأحداث التي شارك فيها ، أما إذا كان بطلاً يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية . وقد اضطرت هذه الغايات للمدح في العصر العباسي ، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون في تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، ويعدو الحصر ، استنبطوه من معان طريفة في السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس ، وقد جسموها في الممدوحين تجسماً قوياً ، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويجوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تبت في الأمة التريية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذي لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية ، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها في النفوس بما رقدوها به من عقولهم الحصبة وأخيلتهم البارعة . وقد مضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كانوا صوتاً قوياً لها ، صوتاً ما بنى يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبي حفصة في مطالع قصيدة للمهدي (١) :

أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ سُنَنَ النَّبِيِّ : حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا  
وفيه يقول الحسين بن مطير (٢) :

يَعِفُّ وَيَسْتَحْيِي إِذَا كَانَ خَالِيَا كَمَا عَفَّ وَاسْتَحْيَا بِحَيْثُ رَقِيبٌ  
ويقول أبو العتاهية في هرون الرشيد (٣) :

وَرَاعٍ يُرَاعِي اللَّهَ فِي حِفْظِ أُمَّةٍ يَدْفَعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رُقُودٍ

(٣) أغاني ٤/١٠٤ .

(١) أغاني (طبع دارالكتب) ١٠/٨٩ .

(٢) أغاني ١٦/٢٣ .

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقةٌ ليست بدارِ خلودٍ  
وفيه يقول منصور النَّمْرِي (١) :

بُورِكَ هَرُونُ من إمامٍ بطاعةِ اللهِ ذى اعتصامٍ  
له إلى ذى الجلالِ قُرْبَى ليست لِعَدَلٍ ولا إمامٍ

وقد يكون الخليفة سبباً السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفاتها وراعيتها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسى ، الذى يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب فى الحكم والخلافة ، وهو نمو بدأ منذ وقعة صفين ، وهياً لظهور أحزاب الخوارج والشيعة ، ومعروف أن حركة الأولين خمدت فى هذا العصر ، أما حركة الشيعة فظلت مضطربة ، وسنعرض لشعرائها وأشعارهم السياسية فى الفصل السادس ، وأيضاً لمن كانوا يشايعون العباسيين .

ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة فى مدائحهم وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت فى عصور الخلفاء ، وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح فى هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهى تسجل الأحداث التي عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء ، مما يعطيها قيمة بعيدة إذ تصبح وثائق تاريخية ، ومن أجل ذلك كنا نرى الطبرى فى تاريخه يتوقف من حين إلى حين لينشد ما نظمه بعض الشعراء فى الحادث الذى يرويه ، وليجلوه جلاء تاماً على لسان هؤلاء الشعراء الذين عاصروه . وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديح إلى تاريخ ، وكان من أوائل من نفذ إلى ذلك السيد الحميرى ، فإنه حوّل أخبار على بن أبى طالب ومناقبه إلى مدائح بديعة ، وفى ترجمته بكتاب الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني من ذلك طرائف كثيرة .



وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح في هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطالا دون تصوير يضرم في النفس العربية الاستبسال والمضاء وجلاذ الأعداء جلاداً عنيفاً ، وكل كاتب في هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن في رسم بطولة القائد الذي يمدحه رسماً يشعل الحماسة في نفوس جنوده ونفوس الشباب العربي من ورائهم فإذا هم يترامون على منازل أعدائهم تراهي الفراش على النار يريدون أن يسحقوهم سحقاً . وكان الرشيد والمأمون والمعتمد يقودون بأنفسهم الجيوش التي كانت تمحق البيزنطيين محققاً ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم غناء يسكب الفرح في كل نفس ، لعل من أروع غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لطرقة في آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور إمبراطور بيزنطة<sup>(١)</sup> ، وأكثر منه روعة غناء أبي تمام بفتح المعتمد لأنقرة وحرقة لعمورية في بائته المشهورة ، وهي إلى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة جميع القواد ، لا الذين أسهموا في حروب البيزنطيين فحسب ، بل أيضاً في حروب الترك وبابك الحرّمي وغيره من الثائرين في شرقي الدولة . ولم يكتب الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية ، وبذلك لم تعد قصائدهم مديحاً فحسب بل أصبحت أيضاً تاريخاً ، وهو تاريخ كتب شعراً ، تاريخ أبطالنا وأجدادهم الحربية . وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هذه البطولات ، ورسموها حقاً رسماً باهراً سنرى مقتطفات منه في تضاعيف تراجمهم ، ويكفي أن نسوق قطعة من تصوير علي بن جبلة لبطولة أبي دؤب العجلى قائد المأمون المشهور ، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه<sup>(١)</sup> :

المنايا	في	مقانيه	والعطايا	في	ذراً حُجْره <sup>(٢)</sup>
وزحوف	في	صواهلله	كصياح	الحشُر	في أمره <sup>(٣)</sup>

فناؤها .

(٣) زحوف : صفة مبالغة من الزحف ، يريد الجيش . والأمر : الكثرة .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٥

والأغاني (طبعة السامي) ١٠٣/١٨ .

(٢) المقاب : جماعات الخيل ، ذرا الحجر

- قُدَّتَهُ والموتُ مَكْتَمٌ في مذاكيه ومُشْتَجِرِهِ (١)  
 فرمتُ جيلُوه منه يَدٌ طوتِ المنشورَ من بَطْرِهِ (٢)  
 زُرْتُهُ والخيَلُ عَابِسَةٌ تحمِلُ البؤسَى إلى عُقْرِهِ (٣)  
 فأبَحَتَ الخيَلُ عَقْوَتَهُ وَقَرَيْتَ الطيرَ من جَزَرِهِ (٤)  
 صاغك اللهُ أبَا دُلْفٍ صيغَةً في الخَلْقِ في خَيْرِهِ  
 كلُّ من في الأَرْضِ من عَرَبٍ بين باديه إلى حَضْرِهِ  
 مستعيرٌ منك مَكْرَمَةٌ يكتسيها يومَ مُفْتَحَرِهِ

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعثاً ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشى ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً ما يضمونها بجانب ذلك حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي ، ولكن مع إضافات كثيرة ، حتى يلائم بينه وبين عصره . وتتسع الإضافة أحياناً وتضيق أحياناً ، ولكنها دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبيهم الدائر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة ، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين للذكريات حبيهم ومعاهده لا يزال يترقق في أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد (٥) :

هلا بكيتَ ظعائناً وحُمولاً ترك الفؤادَ فراقهم مخبولاً  
 فإذا زجرتُ القلبُ زادَ وجيبُهُ وإذا حبستُ الدمعُ زادَ هُمولاً (٦)

الضيافة . والجزر : ما يذبح .  
 (٥) ديوان مسلم (طبع دار المعارف) ص ٥٣ .  
 (٦) واضح أن مسلماً يخاطب نفسه وكأنه يخاطب غيره ، والطعائن : النساء في الهوادج .  
 والحمول : ما يحملته معهن .

(١) المذاكي : الخيل ، والمشتجر : القنا والرماح .  
 (٢) جيلوه : من ثوار أذربيجان . البطر : الطفيان بالنعمة .  
 (٣) العقر : حلة القوم .  
 (٤) العقوة : ساحة الدار . والقرى :

وإذا كتمتُ جَوَى الأسي بعث الهوى نَفْساً يكون على الضمير دليلاً<sup>(١)</sup>  
 واهاً لأيام الصِّبا وزمانه لو كان أمتع بالمُقَام قليلاً  
 وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور  
 الحاضرة المأنوسة ، وحينئذ كان لا يسترسل في وصف حنينه ، على شاكلة أشجع  
 إذ يستهل إحدى قصائده بقوله<sup>(٢)</sup> :

قَصْرٌ عليه تَحِيَّةٌ وسلامٌ نشرتُ عليه جمالها الأيامُ  
 وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا  
 رحلة الصحراء ، وفتنوا في وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التي تكاد تتوقد  
 توقداً ، على شاكلة قول مسلم<sup>(٣)</sup> :

ومَجْهَلٍ كاطراد السيف مُحتَجِزٍ عن الأدلاء مسجور الصياخيد<sup>(٤)</sup>  
 تمشى الرياحُ به حَسْرَى مَوْلَهةً حَيْرَى تلوذ بأطراف الجلاميد<sup>(٥)</sup>  
 فالرياح من شدة الحر وما يجرى في قلبها من الفزع تلجأ إلى أطراف الصخور  
 المستعلية فوق الآكام ، كأنها تريد الفرار من هذا الحجم المطبق . وقد داروا حول  
 وصف الحيوان الوحشي محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول  
 بشار في بائثته<sup>(٦)</sup> ، يصور ما نالُ أُنن الوحش من خرقة العطش الشديد :

غدتُ عانةً تشكوباً بصارها الصدى إلى الجأبِ إلا أنها لا تخاطبُهُ<sup>(٧)</sup>  
 وهي صورة تخفق بالحياة ، إذ مثل العطش في غور أحداقها ، حتى لتهمُّ  
 بالكلام شاكية لحمارها ، ولكن أنى لها ذلك وهي عجماء لا تبين . وكان الشاعر  
 القديم يكثر من وصف نحول بعيره ونوقه لطول الطرق الوعرة وما يصيبها من شدة  
 الكلال والإعياء ، حتى يشبهها بالأقواس والأهلة ضموراً وهزلاً ، وردد الشاعر

(١) جوى الأسي : ناره وحرقة .

(٢) ابن المعتز ص ٢٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٥٤ .

(٤) مسجور : موقد . الصياخيد : جمع

صيخود وهو اليوم اللافح الحر .

(٥) الجلاميد : الصخور .

(٦) انظر القصيدة في الديوان ٣٠٥/١ .

(٧) العانة : القطيع من الأتن . الجأب :

حمار الوحش . الصدى : العطش . ومعنى

شكواها العطش بأبصارها أنه قد تبين في أحداقها

فغارت .

العباسي هذا المعنى طويلاً محاولاً الخلوص إلى بعض الأفكار المستحدثة ، من مثل قول أبي الشيبص مخاطباً أحد ممدوحيه وواصفاً نحول نوقه ونحول راكبيها<sup>(١)</sup> :

أَكَلِ الْوَجِيفُ لِحَوْمَهَا وَلِحَوْمَهُمْ فَاتُّوكَ أَنْقَاصاً عَلَى أَنْقَاضِ<sup>(٢)</sup>  
 وَلَقَدْ أَتَتْكَ عَلَى الزَّمَانِ سِوَا خَطَا فَرَجَعْنَ عَنْكَ وَهَنَّ عَنْهُ رَوَاضِي  
 وتحول الشاعر العباسي في أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهيجة في الربيع ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة أبي تمام في مديح المعتصم التي يستهلها بقوله<sup>(٣)</sup> :

رَقَّتْ حِوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرَّمُرٌ وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ<sup>(٤)</sup>  
 وقد مضى يتحدث في إسهاب عن جمال الطبيعة في الربيع ، وكأنه يتخذ منه رمزاً لعصر المعتصم . واتخذوا أحياناً من وصف السفن ورحلتها في الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير في الصحراء ، مثل قول بشار في إحدى مدائحه للمهدى<sup>(٥)</sup> :

وعذراء لا تجرى بلحمٍ ولا دمٍ قليلة شكوى الأين مُلجَمَةِ الدُّبْرِ<sup>(٦)</sup>  
 إِذَا ظَعَنْتَ فِيهَا الْفُلُولَ تَشَخَّصَتْ بَفُرْسَانِهَا لَا فِي وُعُوثٍ وَلَا وَعْرِ<sup>(٧)</sup>  
 تُلَاعِبُ تِيَّارَ الْبَحُورِ وَرَبْمَا رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا تَجْرِي  
 وجعلتهم موجة المحون الحادة في العصر يصفون في مقدمات مدائحهم الخمر أحياناً ، واستهل ذلك بشار ، وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة . وعُتُوا على نحو ما عنى الشاعر القديم بيت الحكم في قصائدهم ، وكان قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية ، فأفادوا من ذلك كله ونثروه في تضاعيف مدائحهم ، مضيفين إليه كثيراً من تأملاتهم في الحياة والطباع ، من مثل قول أبي تمام في فضل الحسود ونقص الحسود<sup>(٨)</sup> :

(٥) أغاني طبعة دار الكتب (٢٤٢/٣) .  
 (٦) الأين : الإعياء .  
 (٧) الفلول : الجماعات . ووعوث : جمع وعث وهو المكان السهل .  
 (٨) الديوان (طبع دار المعارف) ٤٠٢/١ .  
 وطبعة بيروت ص ٧٨ .

(١) ابن المعتز ص ٧٦ .  
 (٢) الوجيف : السير السريع .  
 (٣) الديوان (طبع دار المعارف) ١٩١/٢ .  
 وطبعة بيروت ص ١٣٩ .  
 (٤) تمرمر : تموج ليناً ونعومة . الثرى : التراب ويريد به النبات . ويتكسر : يتشقق .

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ طَوِيَتْ أتاح لها لسان حسودٍ  
لولا اشتعالُ النار فيما جاورتُ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفُ العود (١)

وهو كثير الحكم في مدائحه ، وقد صبَّ فيها كثيراً من شكوى الزمن وخطوبه ،  
بحيث يعد مقدمة قوية لابن الرومي والمتنبي . وهو يمزج شكواه بمغالبة عاتية للدهر  
ونوازله ، وبذلك كانت مدائحه تسكب القوة في نفس كل عربي ، لا بما يصور  
من بسالة الأبطال والقواد في الحروب فحسب ، بل أيضاً بما يودعها من فتوة عارمة  
على شاكلة قوله (٢) :

أعاذلني ما أخشنَ الليلَ مركبا وأخشنُ منه في الملماتِ راكبةً (٣)  
ذريني وأهوالَ الزمانِ أفانها فأهو اله العظمى تليها رغائبه (٤)  
ألم تعلمي أن الزمامَ على السرى أخوالُ النجح عند النائبات وصاحبه (٥)  
دعيني على أخلاقِ الصمِّ التي هي الوفرُ أو سربُ ترنُّ نواديه  
فإن الحسامَ الهندوانيَ إنما خشونته ما لم تُفَلِّ مضاربه

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسي لا بما رسم فيها من  
مثاليتنا الخلقية وسجل من الأحداث وصور من البطولات العربية فحسب ، بل  
أيضاً بما تمثل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر  
جديدة استمدتها من بيئته الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم  
الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم ومدوحهم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا بتقواهم  
وعدهم في الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطلوا في وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا  
الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ،  
فلكل أوصافه التي تخصه ، وهي أوصاف طلبوا فيها وفي كل مدائحهم الفكر  
الدقيق والتعبير الرشيق .

أصعب منه. الفتي من الرجال الصلب .  
(٤) أفانها : تفتني وأفتنيها .  
(٥) الزمام : المضاء في الأمر ، يقول :  
من ترك الدعة ورحل في طلب المجد نال طلبته .

(١) العرف : الرائحة والشئى .  
(٢) الديوان (طبع دار المعارف) ٢٢٦/١  
وطبعة بيروت ص ٤٤ .  
(٣) يقول إن السرى في الليل صعب ولكنه

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح الخالص ، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامّة اتصلاً لعله أدق من اتصال المديح ، وهي حياة لم يعد أساسها العصبية القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي ، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسراباً قليلة كانت تظهر من حين إلى حين . ولكن إذا كان هذا الفن ضعيفاً ، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء ، وقد عمّت فيه روح جديدة ، إذ أخذوا يرشونه سهاماً مصمّية . ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها ، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها ، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء ، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل . وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح ، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية ، والهجاء يرسم المساوي الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد . وقد تبارى الشعراء في رسم معانيه ، تارة يسخرون وخز الإبر ، وتارة يطعنون طعنات قاتلة ، من ذلك قول بشار في هجاء ابن قزعة بشحّه (١)

فلا تبخلاً بخل ابن قزعة إنه مخافة أن يرجى نداءه حزين  
إذا جثته للعرف أغلق بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقول أبي تمام مصوراً غير شخص لا في موضع الغيرة من نسائه ، وإنما في الغيرة على طعامه ورغفانه حتى لكأن كسر رغيفه كسر عظم من عظامه ، بل لكأنه فتك به أشد الفتك ، يقول (٢) :

صَدِّقْ أَلَيْتَهُ إِنْ قَالَ مَجْتَهِدًا لا والرغيف ، فذاك البر من قَسَمِهِ (٣)  
قد كان يعجبني لو أَنَّ غَيْرَ تَه على جَرادقه كانت على حُرْمِهِ (٤)  
إِنْ رُمْتَ قَتَلْتَهُ فَاقْتِكْ بِخُبْزَتِهِ فَإِنَّ مَوْعِهَا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ

وأهم ليقة غمس فيها الشعراء هجاءهم ليقة الاستخفاف والتّهوين والتحقير ،

(٣) أليته : قسمه وحلفه .  
(٤) الجرادق : جمع جردق وهو الرغيف ،  
معرب كرده .

(١) ابن المعتز ص ٢٦ .  
(٢) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٥٩  
وقارن بعيون الأخبار ٣/٢٤٦ .

وقد استمد منها حماد عجرد كثيراً حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله (١) :

وأعمى يشبه القِرْدَ إذا ما عمى القِرْدُ  
 دَنِيٌّ لم يَرُحْ يوماً إلى مَجْدٍ ولم يَغْدُ  
 ولم يَحْضُرْ مع الحُضَا ر في خَيْرٍ ولم يَبْدُ  
 ولم يُخْشَ له دَمٌ ولم يُرَجَّ له حَمْدُ

ويقال إن بشارا حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه ، فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما أبكي من هجائه ، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيضنني ولا أصفه . وأتاه من باب جديد أهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحضارة أنفسهم من النظافة والتعطر ، فوصفه بالقذارة والدنس في أبيات لعلها كانت أشد إيلاما وأوجع وخزا لنفسه من الأبيات السابقة ، إذ يقول (٢) :

نهارُهُ أَخْبِثُ من ليلِهِ ويومُهُ أَخْبِثُ من أمْسِهِ  
 وليس بالمُقْلَعِ عن غِيَّهِ حتى يوارِي في ثَرَى رَمْسِهِ (٣)  
 ما خلق اللهُ شبيهاً له من جِنَّه طُراً ومن إنْسِهِ  
 والله ما الخنزيرُ في نَتْنِهِ بِرُبْعِهِ في التَّنِّينِ أو خُمْسِهِ  
 بل رِيحُهُ أَطيبُ من رِيحِهِ ومَسَّهُ أَلينُ من مَسِّهِ  
 ووجْهُهُ أَحسنُ من وجْهِهِ ونَفْسُهُ أَنبَلُ من نَفْسِهِ  
 وعودُهُ أَكْرَمُ من عودِهِ وجِنْسُهُ أَكْرَمُ من جِنْسِهِ

يقول الجاحظ : « وأنا - حفظك الله تعالى - أستظرف وضعه الخنزير بهذا

(٣) الرمس : القبر .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤/٣٢٩ .

(٢) الحيوان ١/٢٤٠ وأغاني ١٤/٣٣٠ .

المكان في هذا الموضع حين يقول : ( وعُوده أكرم من عوده ) وأى عود للخنزير  
 قَبَّحَهُ اللهُ تعالى وَقَبَّحَ من يشتهي أكله . « . وحماد يضيف إلى قذارة الجسد قذارة  
 الخلق . ومع أن بشاراً كان في الذروة الرفيعة من صنع الشعر ونظمه وكان حماد في  
 السفح البعيد فإن حمادا كان يستعلي عليه في الهجاء . ولما أعياه أمره جاءه من  
 باب ضيق ، محاولاً أن يضع أغلال أولى الأمر في يديه ، إذ ادَّعى عليه أنه زنديق  
 يؤمن بالهلي النور والظلمة كما يؤمن المجوس قائلًا في أبيات :

يا بن نِهْيَا رَأْسٍ عَلَيَّ ثَقِيلُ      واحتمالُ الرءوسِ خَطْبُ جَلِيلُ  
 ادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّي      نِي فإني بواحدٍ مشغولُ

ومكر به حماد فأشاع الأبيات لبشار في الناس وجعل فيها مكان ( فإني بواحد  
 مشغول ) : ( فإني عن واحد مشغول ) ليثبت عليه الزندقة والكفر . يقول أبو الفرج :  
 فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس حتى انتهت إلى بشار ، فاضطرب منها  
 وتغيَّرَ وجَزِعَ ، وقال : عَرَضَنِي لِلْقَتْلِ ، والله ما قلت إلا ( فإني بواحد مشغول )  
 فغيرها حتى يشهرني في الناس بما يهلكني <sup>(١)</sup> . وكانا جميعاً زنديقين مستترين ،  
 وكأنما خافا أن يفتضحوا ويحاكهما المهدي . ونرى بشاراً يلطخ بالتهمة زنديقا ثالثا  
 هو عمارة بن حربية ، وله يقول <sup>(٢)</sup> :

لو كنت زنديقاً - عمارُ - حَبَوْتَنِي      أو كنت أعبد غير ربِّ محمدٍ  
 لكنني وحَّدتُ رَبِّي مخلصاً      فجفوتني بُغْضاً لكلِّ موحدٍ

ويكثر في هجاء بشار وغيره هنك الأعراض ، وربما كان لشيوع المجون  
 والفحش أثر في ذلك . وتشيع في كثير من قطع الهجاء روح السخرية المريرة ،  
 وقد تشيع روح الفكاهة المضحكة ، على نحو ما يلقانا في هجاء أبي العتاهية  
 لعبد الله <sup>(٣)</sup> بن معن وقد جعل منه فتاة تنزى لتلفت إليها الرجال . ودفعت بشاراً  
 شعوبيته الذميمة ليهجو العرب بأشعار تُعَدُّ وصمة في جبينه . وعلى نحو ما لاءموا  
 بين مدائحهم ومدحويهم لاءموا بين أهاجيبهم ومهجوهم ، فإذا كانوا قضاة وصفوهم  
 بالظلم ، وإذا كانوا مغنين وصفوهم برداءة الصوت ودمامة المنظر ، ولعل من الطريف

(٣) أغاني ٤/٢٢ .

(١) أغاني ١٤/٣٢٥ وما بعدها .

(٢) الحيوان ٤/٤٤٣ .



أن نجد شاعراً يهجو محمد بن يسير بما يدعى من معرفة السحر والشعبذة والعزائم على الجن والشياطين<sup>(١)</sup> .

وظلت للفخر حيويته القديمة ، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلي ، على أن أسراباً بقيت منه عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم أبو نواس إذ كان يتعصب لمواليه من بني سعد العشيرة القحطانيين وينظم في ذلك أشعاراً كثيرة ، ومثله كان دعبل ، وقد رد على مذهبة الكميت التي تشيع فيها للزاريين على القحطانيين ردّاً عنيفاً ، مما جعل أبا سعد الخزومي يهاجيه طويلاً<sup>(٢)</sup> . وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك به في معركة حامية من معارك الهجاء القبلي ، ولكن مسلماً أخرسه<sup>(٣)</sup> . وكان بشار يتعصب في عصر بني أمية لمواليه القيسيين تعصباً حاداً ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب ، وأخذ يعنف بهم عنفاً شديداً ، مصوراً البغض الذي كان يحرق كبده . والجديد حقاً في الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا في فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلم الخزاعي<sup>(٤)</sup> :

وإني لذو جِلمٍ على أن سَوَّرِتي      إذا هزَّني قومٌ حميتُ بها عِرْضِي<sup>(٥)</sup>  
وإني لأَجْزِي بالكرامة أهلها      وبالحقد حقداً في الشدائد والخفْضِ  
وقول بكر بن النطَّاح<sup>(٦)</sup> :

ومَن يفتقرُ منا يَعِشُ بحسامِهِ      ومن يفتقر من سائر الناس يَسْأَلُ  
وإننا لنلهو بالسيوف كما لهتُ      فتاة بعقدٍ أو سخابٍ قرَنْفُلِي<sup>(٧)</sup>

ونشط الشعراء في الرثاء نشاطاً واسعاً ، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبَّئوه تأبيناً رائعاً ، وقد صوروا في القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيش في وفاتهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفرعاً . وحقاً رثاؤهم لم يفرض بالحزن

(٤) ابن المعتز ص ١٩٢ .

(٥) السورة : السطوة وشدة الغضب .

(٦) أغاني (طبعة الساسي) ١٧/١٥٥ .

(٧) السخاب : قلادة ، وعادة تكون من القرنفل و بعض الطيب .

(١) الحيوان ٦/٢٣٢ .

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ٢٩/١٨ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/١٦٢ .

وانظر ترجمة أبي الفرج لمسلم الملحقة بديوانه

ص ٣٨٣ وما بعدها .

واللوعة ، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت ، دفاعاً يقوم على البأس والبسالة والاستطالة . وكان يحدث أن يخزّ بطل صريعاً في بعض الميادين ، حينئذ ينظم فيه الشعراء مرثى حماسية توجج لهيب الحفيظة في القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذباً عن حرمان الوطن ، ومن خير ما يمثل ذلك مرثى أبي تمام في محمد بن حُمَيْد الطوسي الطائي ، فإنه أوقع بيابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعاً ورعباً ، ولكن حدث في آخر وقعة أن اندفع ابن حميد في مضيق حرج ، والتف به جنود بابك ، فظل قائماً يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه ، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل عزيزاً كريماً . وحزنت الأمة حزناً عميقاً لموته ، وانبرى أبو تمام يرثيه مرثى رائعة تصور جلده في القتال وصبره في النضال حتى الموت الزؤام ، على نحو ما يلقانا في مرثيته العينية ، التي استهلها استهلالاتاً بديعاً بقوله (١) :

أصم بك الناعي وإن كان أسمعاً وأصبح مَغْنَى الجود بعدك بَلَقَعَا (٢)  
وفيها يقول :

فَتَى كلما ارتاد الشجاعُ من الرَدَى مَفْرَأً غداة المَأْزِقِ ارتاد مَصْرَعَا (٣)  
فإن تَرَمَ عن عُمُرٍ تدانى به المدى فخانك حتى لم تجد فيه منزعا (٤)  
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبةً ففقطَعها ثم انثنى ففقطَعَا (٥)

ومن الأبطال الذين بكاهم الشعراء منصور بن زياد ، وقد أبلى لعهد الرشيد في القضاء على ثورة بالقيروان ، ووافاه القدر ، فرثاه عبد الله بن أيوب التَّيْمِيُّ بقصيدة بديعة يقول في تضاعيفها (٦) :

أما القبورُ فإنهن أوائسُ بجوار قبرك والديارُ قبورُ

والتشبيه واضح .  
(٥) الضريبة : الرجل المضروب بالسيف  
(٦) ديوان الحماسة بشرح المرزوق ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٩٥٠ .

(١) الديوان ( طبعة بيروت ) ص ٣٣٥ .  
(٢) المغنى : المنزل . البلقع : الخالي .  
(٣) ارتاد : طلب . الردى : الموت .  
(٤) المنزع : مكان نزع السهام من القوس

والناس ماتهم عليه واحدٌ في كل دارٍ رنةٌ وزفيرٌ  
عجبا لأربعٍ أذرعٍ في خمسةٍ في جوفها جبلٌ أشمٌ كبيرٌ  
ولعل بطلا لم تُدْرِفْ دموع الشعراء عليه كما دُرِفَتْ على يزيد بن يزيد الذي  
فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وسنلتني في تراجم الشعر بمرث له  
مختلفة ، وفي تأيينه يقول منصور النعمري (١) :

وإن تكُ أفنته الليالي وأوشكتُ فإن له ذكراً سيُفني الليالي  
وواضح ما في هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال ، ويلقانا ذلك دائماً  
في تأييناتهم ، إذ كانوا يتنافسون في استنباط المعاني النادرة ، ومن طريف ما لمسلم  
ابن الوليد من هذه المعاني قوله في رثاء شخص (٢) :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دلاً على القبر  
وكان الشاعر القديم كثيراً ما يفرغ إلى العزاء بالأُمم السالفة والقرون الخالية وأن  
الموت كأس دائر يتجرع غصصه جميع الناس ، فردّد ذلك الشاعر العباسي في  
مرثيه ، وأخذ يضيف إليه من فكره الخصب تأملات في حقائق الموت وسنن الوجود ،  
من مثل قول ابن منذر في تأيين عبد الحميد الثقفي (٣) :

كل حَيٍّ لاقى الحِمَامَ فمُودِي مالحٍ مُؤمِّلٌ من خلود (٤)  
لا تهاب المَنون شيئاً ولا ترز عَى على والدٍ ولا مولود (٥)  
يَقْدَحُ الدَّهرُ في شماريخِ رَضوى ويحطُّ الصخُورَ من هَبود (٦)  
ولقد تترك الحوادث والآيا مُ وهبياً في الصخرة الجلمود (٧)  
يفعل اللهُ ما يشاء فيمضي ما لفعل الإله من مردود (٨)  
فكأننا للموت ركبٌ مُحسِنون سراعٌ لمنهلٍ مورود

(٦) رضى : جبل . وشاريخه : أعاليه .

هبود : موضع .

(٧) وهبياً : شقياً .

(٨) محسِنون : مسرعون .

(١) العقد الفريد ٣/٢٨٧ .

(٢) الديوان ص ٣٢٠ .

(٣) ابن المعتز ص ١٢٢ .

(٤) الحمام : الموت . مودى : ميت .

(٥) المنون : الموت .

وشاع في العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء ، بكاءً يفجر الحزن في النفس ، لما  
يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة ، من مثل  
قول بشار في نذب أحد أصدقائه من الزنادقة (١) :

أشربُ على تَلَفِ الأَجْبَةِ إننا جُرُّ المنيّةِ ظاعنين وخُفْضًا (٢)  
ويلى عليه وويلتي من بَيْنِهِ كان المحبُّ وكنت حِبًّا فانقضى  
قد ذقتُ ألفتَه وذقت فراقه فوجدت ذا عَسَلًا وذا جَمَرَ الغُضَا (٣)

وكان لإخوتهم وأبنائهم يموتون تحت أعينهم ، فتدور بهم الأرض ويبكون  
بدموع غزار ، وينفسون عن أنفسهم بأبيات تصور الحزن المقيم في قلوبهم لا  
يبرح ، من مثل قول العُتْبِي في ابن له اختطفه الموت بعد أبناء آخرين ، وقد  
مات في ريعان شبابه (٤) :

وقاسمني دهري بَنِي بِشَطْرِهِ فلما تقضى شطره عاث في شَطْرِي (٥)  
ألا ليت أمي لم تَلِدْنِي وليتني سبقتك إذ كنا إلى غايةِ نَجْرِي  
وكنت به أكنّي فأصبحت كلما كُنيت به فاضت دموعي على نَجْرِي

وعلى نحو ما تفجعوا على أبنائهم وإخوتهم تفجعوا على زوجاتهم تفجعاً كله  
عطف وبر ورحمة ، ولابن الزيات مرث مختلفة لزوجته ، توضح من بعض الوجوه  
ثراء الفكر العباسي بالحواطر وقدرته على تحليلها وتمثيل أحزانه وحزن طِفْلِهِ الذي  
افتقد عطفَ الأم وحنانها ، من مثل قوله (٦) :

ألا مَنْ رأى الطفلَ المفارقَ أمَّهُ بُعِدَ الكرى عيناه تبتدران (٧)

(٥) يريد أن الدهر قاسمه بنبيه إذ أخذ نصفهم  
وأبقى له نصفاً ثم عاد يميث في نصفه ونصيبه .

(٦) ديوان ابن الزيات (نشر جميل سعيد  
بمطبعة نهضة مصر بالفيحالة) ص ٦٧ وانظر  
العمدة لابن رشيقي ١٢٥/٢ .

(٧) الكرى : النوم . تبتدران : تسحان  
وتهملان بالدموع .

(١) المختار من شعر بشار للخالدين (طبعة لجنة  
التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥ .

(٢) جزر : جمع جزور وهو البعير الذبيح .  
ظاعنين : سائرين . خفصاً : جمع خافض  
وهو المقيم .

(٣) الغضا : من شجر البادية .

(٤) الحماسة بشرح المرزوق ص ١٠٧١  
وانظر زهر الآداب ٢/٣١٢ .

رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمِّهِ      يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ  
 وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تُجِنُّهُ      بِلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفْقَانِ (١)  
 فَلَا تَلْحِيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا      أَدَاوِي بِهَذَا الدَّمْعِ مَا تَرِيَانِ (٢)  
 وَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنِّي      جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لِابْنِ ثَمَانِ  
 ضَعِيفَ الْقُوَى لَا يَطْلُبُ الْأَجْرَ حِسْبَةً      وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ (٣)

وظلت المآتم قائمة على قتلى الشيعة في العصر والعصور السابقة منذ قتل علي بن أبي طالب ، فهم ينوحون عليهم نواحاً حاراً ، ودموعهم لا ترقأ ولا تجف ، وسنعرض لذلك في الفصل السادس . وبكى الشعراء البرامكة طويلاً حين نكبتهم الرشيد ، من مثل قول سلم الخاسر (٤) :

خَوَتْ أَنْجُمُ الْجَدْوَى وَسَلَّتْ يَدُ النَّدَى      وَغَاضَتْ بِحَارُ الْجُودِ بَعْدَ الْبِرَامِكِ (٥)  
 هَوَتْ أَنْجُمٌ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَرَمَكِ      بِهَا يَعْرِفُ الْحَادِي طَرِيقَ الْمَسَالِكِ  
 وظهرت ضروب جديدة في الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق ، وكان الجيش الذي أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء ، وعم فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء ، مما جعل كثيرين من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى ، من مثل قول بعضهم (٦) :

أَلَا ابْنِكَ لِإِحْرَاقِ وَهَدْمِ مَنَازِلِ      وَقَتْلِ وَإِنهَابِ اللَّهِى وَالذَّخَائِرِ (٧)  
 وَإِبْرَازِ رِيَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرَا      خَرَجْنَ بِلَا خُمْرٍ وَلَا بِمَآزِرِ  
 كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَغْدَادُ أَحْسَنَ مَنظَرَا      وَمَلَّهَى رَأْتَهُ عَيْنِ لَاهِ وَنَاطِرِ  
 ومن ضروب الرثاء الجديدة مرأى الطير الصادح من مثل القمصري والحيوانات

٢٩٦/٣ .

(٥) خوت : سقطت وخرت . الجدوى :

العطاء . الندى : الكرم .

(٦) مروج الذهب ٣/٣١٣ .

(٧) الهى والذخائر : الأموال .

(١) تجته : تلفه وتشتمل عليه .

(٢) لالتحيانى : لالتلويانى .

(٣) حسة الأجر : احتساب الثواب عند

الله بالصبر على نزول الموت . الحدثان : نوايب

الدهر .

(٤) مروج الذهب للسعودى (طبعة مصر)

المستأنسة ، وقد جعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف كاتب المأمون ذلك وَكَدَهُ ، كما يقول أبو الفرج (١) الأصبهاني ، فاستغرق أكثر شعره فيه ، من مثل قوله يرثي شاة :

عَيْنُ إِبْنِكِي لِعَنْزِنَا السُّودَاءِ كَالْعُرُوسِ الْأَدْمَاءِ يَوْمَ الْجِلَاءِ (٢)

وكان لابن الزيات فرس أشهب لم ير مثله فراهة وحسناً ، فوصفت للمعتصم فراهته ، فطلبه منه ، فلم يستطع رد طلبه ، حتى إذا بان عنه رثاه بقصيدة طويلة يقول فيها (٣) :

كَيْفَ الْعَزَاءُ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ عَنَا فَوَدَّعْنَا الْأَحْمَ الْأَشْهَبُ (٤)  
مَنْعَ الرِّقَادَ جَوَى تَضَمَّنَهُ الْحَشْمَا وَهَوَى أُكَابِدَهُ وَهَمَّ مُنْصِبُ (٥)

ومن المرثي الجديدة الموضوع مرثية (٦) محمد بن يسير لبستان له عاثت فيه شاة أفلتت لأحد جيرانه ، ودخلت البيت ، فعاثت ببعض صحفه وقراطيسه ، وفيها يَسْنَدُ بُرُوعَةَ هَذَا الْبِسْتَانَ قَبْلَ أَنْ تَعْبَثَ بِهِ ضَارِعًا إِلَى رَبِّهِ بِالشُّكُورَى مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ وَأَنْ يَسْنَزَلَ بِهَا عِقَابَ أَلِيمٍ .

وقد أكثر الشعراء في العصر من العتاب والاعتذار متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضح الدلالة على رهاقة الحس ونخصب الذهن من مثل قول أبي دلف معاتباً (٧) :

وَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَىٰ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ  
وَقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ (٨) :

لِئِنْ كُنْتُ أَخْطُو سَاحَةَ الْمَحَلِّ لِإِنِّي لِأَتْرَكَ رَوْضًا مِنْ جَدَاكَ وَجَدَوْلًا (٩)  
وستلقانا في تراجمهم معاتبات كثيرة بين الأصدقاء ، تعبر عن عواطف

(٦) انظر الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢٠/١٤ وما بعدها. وانظر مرثيته للوح أبي نوس في الأغاني ٤٧/١٤ .

(٧) المقدم الفريد ١٦٥/٢ .

(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١٠٨/٣ .

(٩) المحل : الجذب . الجدا : العطاء .

(١) أغاني (طبع الساسي) ٥٦/٢٠ وانظر الأوراق للتصويل (أخبار الشعراء) ص ١٦٣ .

(٢) الأدماء : السوداء .

(٣) ديوان ابن الزيات ص ٦ .

(٤) الأحم : الأسود ، الأشهب : من الشبهة وهي سواد يصدعه بياض .

(٥) الجوى : حرقة الهوى . منصب : متمب .

الصدقة الدقيقة ، وقد تفننوا في صور اعتذاراتهم مستوحين قدرتهم العقلية في الحجاج والمنطق ، من مثل قول إبراهيم بن سيابة يعتذر للفضل بن الربيع ، وكان قد سخط عليه سخطاً شديداً<sup>(١)</sup> :

إن كان جرّمي قد أحاط بحرمتي      فأحطَ بجرّمي عَفْوَك المأمولا  
فكم ارتجيتك في التي لايرتجي      في مثلها أحدٌ فنزلتُ السُّولا<sup>(٢)</sup>  
وضللتُ عنك فلم أجد لي مذهبا      ووجدت حلمك لي عليك دليلا  
هبتني أسأتُ - وما أسأتُ - أُفركي      يزداد عَفْوَك بعد طَوْلِكَ طُولا<sup>(٣)</sup>  
فالعفوُ أجملُ والتفضلُ بامرئٍ      لم يَعْدِم الراجون منه جميلا

وواضح أن هذا الاعتذار مكتوب بأقيسة منطقية سديدة .

ولعل الشاعر العباسي لم يُعْنَبَ بموضوع قديم كما عُنِيَ بالغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التي كانت تخفق بأغانيها صباح مساء العيدان والطنابير والدفوف والمعازف من كل شكل مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الإيقاعات من الشدة واللين . وكانت المغنيات خاصة أو بعبارة أخرى القيان يعبثن بقلبه هن ومن حولهن من الجوارى والإماء ، وكان يتصل بهن اتصالا غير مقطوع على نحو ما أسلفنا في الفصل الثاني ، وكل منهن تود لو استحوذت على شاعر ، وبادلته حباً بحب وهياماً بهيام . وكاد أن يكون لكل شاعر طائفة من الجوارى يحفظن به ، وكان منهن كثيرات يحسنن نظم الشعر ، فكن يكتبن أبيات الغزل المثيرة على عصائبهن وثيابهن ، وقد يطارحن بعض الشعراء أبيات العشق والصبابة ، على نحو ما صورنا من ذلك في غير هذا الموضع .

ومن المحقق أن هؤلاء الجوارى والقيان هن اللاتي دفعن المجتمع العباسي في بعض جوانبه إلى الفساد الخلقى ، إذ كن يععشن في بيوت النخاسة ، وكانت دوراً كبيرة للعبث واللهو ، ولم يكن يستمعن فيها إلى ما يعدل بهن إلى السيرة السوية ، إنما كن يستمعن إلى أحاديث العشق والصبوة ، ومن حولهن الشياطين الذين يستهينون

وخفت الهمة للشعر .

(١) أغاني (طبع دارالكتب) ٩١/١٢ .

(٢) الطول بفتح الطاء : الفصل .

(٣) السؤل : السؤل ، وهو ما يسأله ،

بكل شيء ، بل كان منهم من ينكر أصول الدين إنكاراً غارقاً في اللذة والمجون من أمثال بشار وأبي نواس . فطبيعي أن تسوء سيرتهن ، أو على الأقل سيرة طائفة منهن ، وأن يفتح ذلك الأبواب للغزل الإباحي الذي يدفع إليه الجشع الجسدي والذي لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان ، وهو غزل لم يكن يعرفه العرب في العصور الماضية ، عصور الوقار والارتفاع عن أدرك الغرائز النوعية . حقاً عرفوا الغزل الصريح ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين في الصراحة وما وراء الصراحة من الجهر بالفسوق والإثم دون رادع من خلق أو زاجر من دين .

لذلك كان طبيعياً أن يشيع الغزل الماجن في هذا العصر ، وبلغ من حدته أن شاع الغزل الشاذ بالعلمان ، فحتى هذا الغزل المزرى بكرامة الرجل دار على كثير من الألسنة الدنسة . وقد استطاع تراث الغزل القديم أن يكبح جماح هذه الموجة المادية الحادة من بعض الوجوه ، فإن هؤلاء الشعراء الماجنين كانوا يستظهرونه ويتلونونه ، وكانوا يرون فيه إكبار الرجل للمرأة وإعزازها ، بل كانوا يرون فيه حباً عذرياً عفيفاً ، كله تحفظ واحتشام ، وكله عذاب وآلام . فزجوا ذلك بندايات غرائزهم الجسدية . وأيضاً فإنه كان قد تُرجم — على ما يظهر — شيء من الحب الأفلاطوني اليوناني ، وأخذ مفكرو العرب ومتفلسفتهم يتحدثون عن العشق أحاديث فيها كثير من السمو والسعة والعمق ، على نحو ما يلقانا عند المسعودي ، إذ أورد مجلساً ليحيى البرمكي تناظر فيه نفر من المعتزلة والمتكلمين وبعض أهل الملل والنحل في العشق وحقائقه وظواهره وعذابه وحرارته ولطافة صاحبه ورقته ورهافة شعوره<sup>(١)</sup> ، وهو حديث أوهى مناظرة دارت كلها حول العشق العفيف الطاهر الذي يستأثر بالقلوب ويملك عليها أهواءها وعواطفها ومشاعرها . وفي رأينا أن هذه المناظرة ترمز بوضوح إلى ما كان في أيدي الشعراء من كلام عن الحب النقي البريء بالإضافة إلى ما ورثوه عن أسلافهم وخاصة شعراء نجد العذريين من الحب السامي الذي يوقد في القلوب جذوة لا تنطفئ<sup>٢</sup> والذي يدلغ فيها جحياً من العذاب لا يطاق . وكل ذلك سرى في نفوس الغزلين الماجنين من العباسيين ، ومضوا يضيفون إليه من خواطرهم الثرية الخصبية ما أذكى جذوته ، ومن أجل ذلك كنت تقرأ عند بشار وأبي نواس وغيرهما



من الحجان قطعاً من الحب الأفلاطوني أو قل من الحب العفيف البريء الذى يرتفع  
عن المادة والحس من مثل قول أولهما (١) :

دَعَا بِفِرَاقٍ مَنْ تَهَوَّى أَبَانُ ففاض الدَّمْعُ واحترق الجَنَانُ  
كَانَ شِرَارَةً وَقَعْتُ بِقَلْبِي لَهَا فِي مَقَلَّتِي وَدُمِي اسْتِنَانُ (٢)  
إِذَا أَنْشَدْتُ أَوْ نَسَمْتُ عَلَيْهَا رِيَاحُ الصَّيْفِ هَاجَ لَهَا دُخَانُ

على أنه سرعان ما ظهر شاعر تخصص بالغزل العفيف واشتهر به هو العباس  
ابن الأحنف ، وسنفرد له في الفصل السادس ترجمة خاصة . وكانوا في غزلهم العفيف  
والصريح الماجن يحرصون دائماً على أن يملأوا معاصريهم إعجاباً بدقائق معانيهم  
وطرائف أخيلتهم ، من مثل قول بشار (٣) :

أَتَتْنِي الشَّمْسُ زَائِرَةً وَلَمْ تَكِ تَبْرَحِ الْفَلَكََا  
وَقَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ (٤) :

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَهُ نَ مِنْ أَزْوَارِهِ قَمَرًا  
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زَدْتَهُ نَظْرًا  
بِعَيْنٍ خَالِطَ التَّفْتَةَ يَرُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا  
وَخَدَّ سَابِرِي لَوْ تَصَوَّبَ مَاوَةٌ قَطْرَا

وقول مسلم بن الوليد (٥) :

أَقْرُّ بِالذَّنْبِ مِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ كَيْمَا أَقُولُ كَمَا قَالَتْ فَتَتَفَقُّ  
حَبِسْتُ دَمْعِي عَلَى ذَنْبٍ تَجَدَّدَهُ فَكَلَّ يَوْمَ دَمَوْعُ الْعَيْنِ تَسْتَبِقُ

وقد اتسعت موجة الحجون كما مررنا ، واتسع معها وصف الخمر ، وكان القدماء  
يصفونها على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد العبادي ، وأخذ

(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ١٦٥ .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٩ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٠٦/٣ .

(٢) استنآن : جرى شديد .

(٣) المختار من شعر بشار للخالدين ص ٦٤ .

وصفها يكثر في أواخر عصر بني أمية عند الوليد بن يزيد وأبي الهندي وأضرابهما . ونرى مجالسها ، منذ مطالع هذا العصر ، معتمدة في البصرة والكوفة ، حتى إذا قامت بغداد نافستهما في تلك المجالس . وكانت تنبث حاناتها في الكرخ ببغداد وغير الكرخ وفيما وراءه من دور النخاسة والأديرة المنشورة في ضواحي الكوفة وعلى الطريق منها ومن البصرة إلى بغداد ، فأمتها جميعاً مجان الشعراء هم وغيرهم من عامة الفساق ، وكانوا أخلاقاً ، منهم الزنديق الثائر على الإسلام وتعاليمه ، ومنهم الحزبن الذي لم تحقق له الدولة أحلامه ، فأكب على الخمر يغرق فيها آلامه ، ومنهم المحوسبي والدهري الذي لا يؤمن بأى كتاب سواى . وقد مضوا جميعاً يعبئون من الخمر حتى الثمالة ، وتلقانا منهم منذ أوائل العصر جماعات ألف المحبون والعشوق والفسق الآثم بينهم مثل جماعة مطيع بن إياس ووالبة وحمامد عجرد ويحيى بن زياد الحارثي في الكوفة وكانوا يعبئون الخمر أرتالاً ويتغزاون الغزل المكشوف الماخن بالجوارى والغزل الشاذ الدنس بالغللمان ، متحررين من كل خلق وعرف ودين ، وفي ذلك يقول مطيع (١) :

اخْلَعْ عِذَارَكَ فِي الْهَوَىٰ      وَاشْرَبْ مَعْتَقَةَ الدَّنَانِ  
وَصِلِ الْقَبِيحَ مُجَاهِراً      فَالْعَيْشُ فِي وَصْلِ الْقِيَانِ  
لَا يُلْهِئُكَ غَيْرَ مَا      تَهْوَىٰ فَإِنَّ الْعُمَرَ فَإِنَّ

وتبلغ حدة هذه الموجة غايتها في عهد الأمين ، إذ حول قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفاً للخمور والمجون ، واتخذ أبا نواس نديمه ، وكان يعكف على الخمر والمجون عكوفاً يقترن بعجيج وضجيج وهجوم على مقدمة الأطلال القديمة طالباً إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمر المعتقة ، صائحاً بذلك صياحا كثيراً من مثل قوله (٢) :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسَ      واقفأ ما ضرَّ لو كان جَلَسَ (٣)  
تَصِفُ الرَّبْعَ وَمَنْ كَانَ بِهِ      مثل سَلَمَىٰ ولُبَيْبَتِي وَخَنَسَ (٤)

(١) الديارات للشابثي ص ١٦٦ .  
(٢) الديوان (طبعة آصاف) ص ٢٩٩ .  
(٣) درس : انمى .  
(٤) لبني : تصغير لبني . وخنس : الخنساء .

اترك الرِّبْعَ وَسَلَّمَى جانِباً واضطَبِخَ كَرخِيَةً مثلَ القَبَسِ<sup>(١)</sup>  
وتردد مع هذا الصياح في خمرياته مجاهرة بأنه يقترف ما يقترف من آثامه  
دون تفكير في جنة أو نار ، ولكن من الحق أنه لم يكن زنديقاً ولا شعوبياً ، إنما  
كان متحلل الأخلاق ساقط المرءة ، وأكبر الظن أنه اندفع في مجونه هروباً من  
واقع نشأته وواقع أمه على نحو ما سنوضح ذلك في ترجمته ، وكأنه يريد أن ينسى  
ماضيه وذكرياته السيئة .

وقد انتشر في العصر شعر الزهد ، وكان أكثر اتصالاً بحياة الجماهير من شعر  
الخمير والمجون ، فإنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف ، وكانت تعيش حياة  
دينية مستقيمة يشيع في بعض جوانبها النسك والعبادة . وإذا كان كتاب الأغاني  
يفيض بالمجون فإن كتب الطبقات التي ترجمت للفقهاء والمحدثين تفيض بأخبار  
العباد والزهاد الذين رفضوا الدنيا وشهواتها وملاذها وآثروا ما يبقى على ما يقنى ،  
ممسكين أيديهم عن أخذ عطاء أو مال من خليفة أو وال . ويشيع مع هذه  
الأخبار كثير من الأشعار التي تصور زهد هؤلاء الناسكين وانصرافهم عن متاع  
الدنيا الزائل والإقبال على الآخرة بالتقوى والتوكل على الله والعمل الصالح . وقد  
تبعهم كثير من الشعراء يردُّون نفس النغم ، حتى شعراء المجون أنفسهم فإن منهم  
من كان يثوب إلى نفسه فيعاف ما تردى فيه من فسق ومجون ، وحينئذ إما أن يقلع  
عن غيه إلى الأبد على نحو ما أفعل محمد بن حازم الباهلي<sup>(٢)</sup> ، وإما أن يقلع إلى  
حين يطول أو يقصر على نحو ما يلقانا عند أبي نواس مما جعل ديوانه يشتمل على  
مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

ألا ربَّ وجهٍ في التراب عتيق      وياربُّ حُسنٍ في التراب رقيق<sup>(٤)</sup>  
فقل لقريب الدار إنك راحلٌ      إلى منزلٍ نائي المحل سحيق  
وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكٍ      وذو نسبٍ في الهاكين عريق  
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت      له عن عدوٍّ في ثياب صديق

(١) كرخية : خمراً منسوبة إلى الكرخ ضاحية  
الملاهي ببغداد .

(٢) الديوان ص ٢٩٩ .

(٣) عتيق : جميل .

(٤) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ١٠٥ / ١٤

وإذا كان أبو نواس شُغل في زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم ، وغيره كثير ، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالحظ المقسوم والغنى عما في أيدي الناس والحكام من مثل قوله (١) :

أضْرَعُ إِلَى اللَّهِ لَا تَضْرَعُ إِلَى النَّاسِ      واقنَعُ بِبِئْسِ فَإِنَّ الْعِزَّ فِي الْيَأْسِ  
وَأَسْتَعْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ      إِنَّ الْغِنَىَّ مِنْ اسْتَعْنَى عَنْ النَّاسِ  
وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف ، غير أنه لا يزدهر في هذا العصر ، إنما يزدهر في تاليه ، وسنعرض لتلك التباشير في الفصل السادس ، وأيضاً سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثاً أكثر تفصيلاً .

## ٤

### موضوعات جديدة

رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تتجدد وأسعاً في معانيها ، فقد أخذت تُعْرَضُ بصورة أدق وأعمق ، وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة . ولم يقف الشاعر العباسي عند ذلك فقد أخذ ينمى بعض جوانب هذا الشعر حتى لتخرج منه فروع جديدة كثيرة . ونحن نعرضها بترتيب الموضوعات التي تحدثنا عنها ، وأولها مثالية الشيم العربية الرفيعة التي كان يصف بها الشعراء بمجدوحيم ، فقد تناولوا هذه الشيم شيمة شيمة ، وأخذوا يفرّدونها بمقطوعات أو قصائد ، يجرّدونها لها محللين ، ومفكرين ملاحظين ، فقطعة في تصوير الكرم ، وقطعة في تصوير الحلم ، وقطعة في تصوير الحياء ، وقطعة في تصوير العفة ، وقطعة في تصوير الصبر والتنفير من اليأس من مثل قول محمد بن يسير : (٢)

لَا تِيَأْسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مَطَالِبُهُ      إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجًا  
إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا انْسَدَّتْ مَسَالِكُهَا      فَالْصَبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ مَا ارْتَجَا (٣)

حازم . انظر ص ٣٠٩ .  
(٣) ارتج : أغلق .

(١) المقدم الفريد ٢٠٧/٣ .  
(٢) أغاني ٤٢/١٤ وقد نسبها ابن المعتز لابن

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ<sup>(١)</sup>  
فاطلب لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غرة زلجا<sup>(٢)</sup>

وهياً ذلك لفتح باب واسع من تحليل الأخلاق المحمودة . وأيضاً فإنهم وسعوا معاني الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة ، فتناولوها هي الأخرى باليسر والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء . وبذلك أتاحوا للمربين والمعلمين مادة طريفة لتأديب الناشئة وحثهم على الأخلاق الفاضلة وصددهم عن الأخلاق المذمومة . وقد وقفوا طويلاً عند واجبات الأخوة والصدقة واختيار الإخوان والأصدقاء وسبب أخلاقهم قبل اصطفايتهم فهم على طبقات منهم من يشبه الدواء ومنهم من يشبه الداء ، ومنهم المتصنع الملق الذي يشبه الثمرة المرة حسنة المنظر ، فإن نزل بك سوء فر منك وأزور عنك ، وفي ذلك يقول حماد عجرد<sup>(٣)</sup> :

كم من أخٍ لك لست تنكره ما دمت من دنياك في يسر  
متصنع لك في مودته يلقاك بالترحيب والبشر  
يُطرى الوفاء وذا الوفاء ويدحى الغدر مجتهداً وذا الغدر<sup>(٤)</sup>  
فإذا عدا - والدهر ذو غير - دهرٌ عليك عداً مع الدهر<sup>(٥)</sup>  
فأرفض بإجمال مودة من يقبل المقل ويعشق المثري<sup>(٦)</sup>  
وعليك من حاله واحدة في العسر إما كنت واليسر  
لا تخلطنهم بغيرهم من يخلط العقيان بالصفير<sup>(٧)</sup>

وحماد يجعل مقياس الأخوة الصادقة المواصلة في العسر ، ويعرض علينا صورة الإخاء الكاذب الذى لا يعرف الأخ فيه أخاه إلا فى السراء ، أما فى الضراء فيزور عنه ازواراً . وجعلهم تفكيرهم فى الأخوة ينهون عن صحبة الحمقى لما تجر من بلاء كثير ،

(٥) عدا الأولى من العدا والثانية من العدو أى جرى .

(٦) بإجمال : بأدب . يقبل : يكره .

(٧) العقيان : الذهب . الصفير : النحاس .

(١) يلج : يدخل .

(٢) زلقاً : مكاناً زلقاً . غرة غفلة

زلج : زلق وزل .

(٣) ابن المعتز ٦٨ وأغانى ١٤ / ٣٥٩ .

(٤) يطرى : يمدح . يلحى : يذم .

وفى ذلك يقول أبو العتاهية: (١)

أخذرِ الأحمقَ أن تصحبه      إنما الأحمقُ كالثوبِ الخلقِ (٢)  
كلما رقعته من جانبٍ      زعزعته الريح يوماً فانخرقِ  
أو كصدعٍ - في زجاجٍ - فاحش      هل ترى صدع زجاجٍ يلتصق  
فإذا عاتبته كى يرعوى      زاد شراً وتمادى في الحمقِ

وكان الشاعر القديم كما أسلفنا يقدم لمدحته بوصف الأطلال معبراً عن حينئذ قوى للملاعب حبه في صباه وشبابه ، مستطرداً من ذلك إلى وصف الصحراء ، وقد صورنا ما حدث من إضافات في هذه المقدمات ، والمسألة تتسع ، فإذا هي توحى للشاعر العباسى بمقطوعات أو قصائد مستقلة وكأنه اتخذ منها نوافذ لموضوعات جديدة ، وهى موضوعات نجد بذورها في مدائحه ، فقد ذكرنا أنه عدل أحياناً عن وصف الأطلال إلى وصف القصور ، ولكن الذى نسجله هنا أنه ترك أطلال نجد إلى أطلال بعض القصور فى الحاضرة وخصها بمقطوعات مفردة من مثل قول محمد ابن يسير فى قصر خرب (٣) :

ألا يا قصرُ قصرَ النوشجاني      أرى بك بعد أهلك ما شجاني (٤)  
فلو أعفى البلاءَ ديارَ قومٍ      لفضلٍ منهم ولعظم شاني  
لما كانت ترى بك بيئاتٍ      تلوح عليك آثارُ الزمان

وهذا الموضوع الحديد هو الذى ألهم البحترى فيما بعد سينيته المشهورة فى إيوان كسرى . وقد دفع الحنين الذى صحب وصف الأطلال الشاعر العباسى فى بعض مدائحه إلى بث حنين مقابل لوطنه وبلده حين ينأى عنه وتظل روحه ملتصقة به ، ولكن الحديد أنه أفرد لهذا الحنين قطعاً بديعاً من مثل قول دعبيل (٥) :

ألم يأنٍ للسفر الذين تحمّلوا      إلى وطنٍ قبل الممات رجوعُ (٦)

(٤) شجاني : أحزنى .  
(٥) أغاني (سالى) ٤٤/١٨ .  
(٦) يأن : يحق . تحمّلوا : ارتحلوا .

(١) العقد الفرید ٣٥٧/٦ .  
(٢) الخلق : البالى .  
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٩/١٤ .

فقلتُ ولم أملك سوابقَ عَبْرَةٍ      نَطَقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضُلُوعُ  
تَبَيَّنَ ، فكم داره تفرَّقَ شَمْلُها      وشَمْلٌ شتيتِ عاد وهو جَمِيعُ  
كذاك الليالي صَرَفُهنَّ كما ترى      لكل أناسٍ جَدْبَةٌ وربيعٌ<sup>(١)</sup>

ومرَّ بنا أن الشاعر العباسي كان يحتفظ أحياناً في مقدمات مدائحه بوصف الصحراء وأحياناً يتركها إلى وصف الطبيعة في الحاضرة بيساتينها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة ، بحيث أصبحت موضوعاً جديداً واسعاً ، وكان يمزج نشوته بها في بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان ، وفي كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فنتته بها وبورودها ورياحينها من مثل قول إبراهيم بن المهدي في النرجس<sup>(٢)</sup> :

ثلاثُ عيونٍ من النرجسِ      على قائمٍ أخضرٍ أَمَلَسِ  
يذكرُنني طيبَ رِيأ الحبيبِ      فيمَنَعنني لذةَ المجلسِ<sup>(٣)</sup>

وقد أكثروا من وصف الأمطار والسحب ، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة في الربيع حين تبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة . وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحياناً خلال هذا الوصف ، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها ، وكأنها أناسٌ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان ، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إلياس لنخلتي حلوان على هذه الشاكلة<sup>(٤)</sup> :

أَسْعِدَانِي يَا نَخَلْتِي حُلُوانِ      وابْكِيالِي من ريبِ هذا الزمانِ<sup>(٥)</sup>  
واعلما أن ريبه لم يزل يَفُ      رُق بين الألاف والجيرانِ  
ولعمري لو ذقتما ألمَ الفُر      قة أبكا كما الذي أبكاني  
أسعداني وأيقنا أن نحسأ      سوف يلقاكما فتفتقرانِ  
كم رمتني صروفُ هذي الليالي      بفراق الأحيابِ والخُلانِ

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٣/٣٣١ .

(٥) حلوان : من بلاد العراق في طرفه الشمالي

بما يلي إيران . أسعداني أعياني بالدموع .

(١) جدبة : المرة من الجذب وهو القحط .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٠/١١٥ .

(٣) الريا : الرائحة الجميلة .

ونرى شعراء كثيرين يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف في الطعام والتأنيق في الملابس والثياب ، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجري فيها من الطباء والغزلان من مثل قول أبي عيينة المهلي في وصف قصر ابن عمه عمر بن حفص المهلي (١) :

فيا طيبَ ذاك القَصْرِ قصرًا ومنزلاً      بِأَفْيَحٍ (٢) سَهْلٍ غيرِ وَعَرٍ ولا ضُنْكِ  
بِعَرَسٍ كَأَبْكَارِ الجِوَارِي وتُرْبِيَةٍ      كَأَنَّ ثَرَاهَا ماءٌ وَرَدٍ على مِسْكِ  
وَسِرْبٍ مِنَ الغَزْلَانِ يَرْتَعْنَ حوله      كما استلَّ منظومٌ من الدرِّ من سِلْكِ

وأكثرها من وصف الحيوان والطيور والحشرات ، واشتهر بذلك خلف (٣) الأحمر وجهم (٤) بن خلف ، وفي كتاب الحيوان للجاحظ من ذلك مادة وافرة .

وعلى هذا النحو نفذ الشاعر العباسي من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها الأليف والوحشي إلى وصف بيئته بجميع مظاهرها وعناصرها الصامتة والمتحركة ، وقد وصف وصفًا دقيقًا الأمراض والآفات التي انتابته ، ويصور ذلك من بعض الوجوه قصيدة لعبد الصمد بن المعتدل يصف فيها حمى اعترته ، وفيها يقول (٥) :

وبنتُ المنية تنتابني      هَاهُؤَا (٦) وتطرفني سُحْرَةٌ  
كَأَنَّ لَهَا ضَرَمًا فِي الحَشَا      وفي كلِّ عَضْوٍ لَهَا جَمْرَةٌ  
لَهَا قُدْرَةٌ فِي جِسْمِ الأَنَامِ      حباها بها اللهُ ذُو القُدْرَةِ  
وطورًا أَلْقَبَهَا سُخْنَةٌ      وطورًا أَلْقَبَهَا فَتْرَةٌ  
وَصِرْتُ إِذَا جُعْتُ يَوْمًا ظَلِلْتُ      كَأَنَّ على كَبِدِي شَفْرَةٌ (٧)  
ويربو الطحالُ إِذَا ما شَبِعْتُ      فتعلو التَّرَائِبُ والصُّدْرَةٌ (٨)

ص ١٢١ .  
(٦) الهدو : أوائل الليل . سحرة : وقت  
السحر .  
(٧) الشفرة : حد السيف وبجانب النصل .  
(٨) الصدر : الصدر .

(١) الشعر والشعراء ص ٨٥٣ والأغاني  
(طبعة السامى) ١٤/١٨ .  
(٢) أفيح : أوسع ، وأولعله من فائحة الرايحة .  
(٣) الحيوان ٤/٢٧٩ .  
(٤) الحيوان ٣/٢٤٢ وانظر الهامش .  
(٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي)



وأُمسى كَأَنِّي من معدني لبستُ الثياب على زُكْرَةٍ (١)  
 إِذَا ما رأيت امرءًا مُطَلَقًا له الأكلُ تخنقني العَبْرَه (٢)  
 كَأَنِّي في منزلي مُخْصَبًا بِبَلْقَعَةٍ جَدْبَةٍ قَفْرَه

وهو وصف دقيق لأثر الحمى في الجسم وأوقاتها التي تفد فيها وآلامه مع الجوع والأكل وما يحس به في جوفه من مرارة وحدة . وقد صور شعوره بالحرمان وغبطته الأصحاء على ما يطعمون ، وبيته حافل بألوان الغذاء ، ولكنه يشعر كأنما هو في فلاة مجذبة .

وقد رأينا أبا تمام يخلط بعض مقدمات مدائحه بالشكوى من الزمن ونوازله ، وقد نظم هو نفسه قصائد خصها ببيت شكواه من الدهر وهمومه (٣) ، وشركه في ذلك بعض الشعراء ، مما جعل هذا الباب يتسع منذ هذا العصر ويصبح أحد الموضوعات الأساسية في دواوين الشعراء ، وخاصة دواوين العصر التالي ، إذ ساءت أحوال المجتمع وانعكست أصداء ذلك على نفسيات الشعراء وبالتالي على أشعارهم .  
 ومرةً بنا اتساع الشعراء بمراثيمهم حتى شملوا بها الطير والحيوان والبساتين والمدن ، وكان منهم من يبكي في مقدمات مدائحه أحياناً الشباب في بيت أو أبيات قليلة . وسرعان ما رأينا القصائد تستقل بهذا الموضوع ، ومن أروعها قصيدة محمد بن حازم ، وفيها يقول (٤) :

سَقِيًّا ورَعِيًّا لأَيام الشباب وإن لم يبق منه له رَسْمٌ ولا طَلَلُ  
 ليت المنايا أصابتني بأَسْهُمِها فكنَّ يبكين عهدى قبلَ أكتهلُ  
 عهدَ الشباب لقد أبقيت لي حزنًا ما جدَّ ذكرك إلا جدُّ لي ثكلُ (٥)

ومما استحدثوه من المراثي محللين لمشاعرهم تحليلاً دقيقاً بكاؤهم حين يخبو نور البصر ، ويمن أكثروا من تصوير هذه المشاعر أبو يعقوب الخُرَيْمِيُّ ، وكان قد أصبح ضريباً ، حين طعن في السن ، فتحول يصور أحاسيسه ، متفجعاً على عينيه

(١) الزكرة : زق الخلل .

(٢) البلقة : الفلاة .

(٣) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٥ ،

تفجعاً يبعث الأسي في النفس من مثل قوله (١) :

أضغى إلى قائدى ليخبرنى إذا التقينا عمن يحيينى  
أريد أن أعدي السلام وأن أفصل بين الشريف والدون  
أسمع مالا أرى فأكره أن أخطئ والسمع غير مأمون  
لله عيني التي فجعتم بها لو أن دهرأ بها يواتينى  
لو كنت خيرت ما أخذت بها تعمير نوح في ملك قارون  
وقد صوروا كثيراً من العواطف الدقيقة ، من ذلك التعاطف الرقيق بين الأب  
وبنيه وبناته وما يطوى فيه من الرحمة والبر والحنان ، على نحو ما يلقانا عند ابن  
يسير مصوراً عطفه على بنية له وكيف يستأثر به ويحشمه اقتحام المصاعب من  
أجل سعادتها ، وكيف يحببه في الحياة خوفاً عليها من ذل اليم وجفوة الأهل ،  
وإنه ليشفق عليها حتى من الدموع التي سترسلها حين يتأهب لمفارقة الحياة ،  
يقول (٢) :

لولا البنية لم أجزع من العدم وزادنى رغبة في العيش معرفتى  
ولم أجب في الليالي حنيس الظلم (٣) وأخشى فظاظة عم أو جفاء أخ  
ذلّ اليتيمة يجفوها ذؤو الرّحم وإذا تذكرت بنتى حين تندبنى  
وكنت أخشى عليها من أذى الكليم جرت إعبرة بنتى عبرتى بدم  
وحلّوا كثيراً من المشاعر ، من ذلك شعور الزوج بالغييرة الشديدة على  
زوجته وما يجر ذلك عليهما من البلاء ، وللخريمى في ذلك مقطوعة بديعة يفرق فيها  
بين الغيرة المطلوبة في حينها وبين الغيرة التي تتحول إلى ما يشبه مرضا يعزّ دواؤه ،  
فإذا الزوج يشك في زوجته ، حتى ليعصف بها شكه ، فإذا هى توشك أن تتردى  
في مسالك الريبة . وينصحها أن يمنحها ثقته وأن لا يشوب سلوكه بريية ، فتمسير  
سيرته المعوجة ويتقصد عليه كل شيء ، وفي ذلك كله يقول (٤) :

(٣) العدم هنا: الموت . الخندس شدة الظلمة .

(٤) عيون الأخبار ٧٩/٤ برالمعر والشعراء .

ص ٨٣٤ .

(١) الحيوان ١١٣/٣ والشعر والشعراء .

ص ٨٣٠ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٨١ .

ما أحسن الغيرةَ في حينها وأقبح الغيرةَ في كلِّ حينٍ  
 من لم يزل متهما عرسُهُ تتبعا فيها لقول الظنون (١)  
 يوشك أن يُغريها بالذي يخاف أن يُبرزها للعيون  
 حسبك من تحصينها ووضْعها منك إلى عرضٍ صحيحٍ ودينٍ  
 لا تطلِّع منك على ريبةٍ فيتبع المقرون حبلَ القرين  
 وقد صوروا تصويراً دقيقاً حياة البؤس والمسغبة التي كان يرزح تحت أثقالها  
 جماهير الشعب ، ومن خير ما يمثل ذلك مقطوعة لأبي فرعون الساسي يصور فيها  
 جوع عياله وكيف يبیتون في الشتاء القارص عراً لا يجدون ما يحميهم من هول  
 البرد وزمهريره ، وهي تجرى على هذا النمط (٢) :

وصبيّةٌ مثل صغار الذرِّ سود الوجوه كسواد القندر (٣)  
 جاءهم البرد وهم بشرُّ بغير قمص وبغير أزرٍ  
 تراهم بعد صلاة العصرِ وبعضهم ملتصقٌ بصدري  
 وبعضهم ملتصقٌ بظهري وبعضهم منحجرٌ بحجري  
 إذا بكوا عللتهم بالفجرِ حتى إذا لاح عمود الفجرِ  
 ولاحت الشمس خرجت أسرى عنهم وحلّوا بأصول الجدرِ  
 كأنهم خنافسٌ في جحر

وقد أسلفنا في حديثنا عن الحياة الاجتماعية ولع الخلفاء بالصيد ، وكيف كانوا  
 يخرجون إليه في مواكب حافلة ، ومعهم البزاة والصقور والكلاب ، وتبعهم في هذا  
 الصنيع الوزراء وعليسةُ القوم . وقد نظم الشعراء في هذه المتعة الرياضية أراجيز  
 كثيرة سموها الطرديات ، وأكثر من النظم فيها أبو نواس ، وأحسن غاية الإحسان  
 في وصف الكلاب « لأنه كان قد لعب بها زماناً وعرف منها ما لاتعرفه الأعراب » .  
 وحقا سبقه في هذا الموضوع بعض شعراء العصر الأموي من مثل الشمردل

لابن الجراح (طبع دارالمعارف) ص ٥٤ .  
 (٣) الذر : النمل .

(١) الظنون : سوء الظن .  
 (٢) ابن المعتز ص ٣٧٧ وانظر كتاب الورقة

وأبي نُخَيْلَةَ، ولكنه هو الذى مدَّ طُنْبُهُ وفتح أبوابه ، لا من حيث كثرة ما نظمه فيه فحسب ، بل أيضاً من حيث دقة وصفه لأدواته وجوارحه مما جعل الجاحظ ينوه بطردياته طويلاً فى الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » وقد أشد منها طائفة معجبين ببرايعته وحذقه ، من مثل قوله فى إحداها (١) :

ما البرقُ فى ذى عارضٍ لمَاحٍ      ولا انقضاضُ الكوكبِ المُنصاحِ (٢)  
 ولا انبتاتُ الدَّلْوِ بالمُتَّاحِ      أجدُّ فى السَّرْعَةِ من سِرِّياحِ (٣)  
 يطير فى الجوّ بلا جَنَاحِ      يفترُّ عن مثل شَبَا الرِّماحِ (٤)  
 فكم وكم ذى جُدَّةٍ لِيَياحِ      ونازبٍ أَعْفَرَ ذى طِمَاحِ (٥)  
 غادره مَضْرَجٌ الصَّفاحِ (٦)

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء تعنى بالنوادر والفكاهات ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وهياً ذلك لشبوع روح الهزل فى بعض المقطوعات والقصائد ، وكانوا أحياناً يختارون لذلك بعض القصائد التى اشتهرت بقوتها الحماسية مثلاً ، فيقبلونها فى الدعوة إلى اللهو والتواصى بشرب الخمر (٧) ، وأحياناً يختارون موضوعاً جاداً ، كقصة العشق العذرى الذى كان يفضى بأصحابه - كما يقول القصاص - إلى الجنون أو الموت ، فيجرونه على لسان حمار أحب ومات عشقاً ، مما تلقاه عند بشار ، فقد ذكر الرواة أنه مات له حمار ، فانتظر حتى اجتمع إليه رفاقه ، فأظهر لهم أنه مغموم محزون ، وألحوا عليه يريدون أن يعرفوا سبب حزنه وغمه ، فقال لهم : إننى رأيت حلماً مزعجاً : رأيت حمارى فى النوم فقلت له : ويلك ! مالك مت ؟ قال : إنك ركبتنى يوم كذا فررنا على باب

- (١) الحيوان ٦٨/٢ .  
 (٢) العارض: السحاب . المنصاح: المضيء .  
 (٣) انبتات الدلو: انقطاعها وهويها .  
 المتاح : الذى يستق بالدلاء . وسرياح : اسم الكلب الذى يصفه .  
 (٤) شبا الرمح : حده .  
 (٥) ذو الجدة : حمار الوحش ، والجدة :

- الخطة السوداء فى ظهره . لياح : أبيض . النازب : الظبي . الأعفر : ما يملو بياضه حمرة طماح : جاح .  
 (٦) الصفاح : الجوانب . يريد أنه تركه مضرجاً بدمائه .  
 (٧) ابن المعتز ٢٢٧ .

الأصبهاني فرأيت أانا عند بابہ ، فعشقتها فت . وزعم بشار أنه أنشده هذه المقطوعة :

سَيْدِي ! مِلْ بَعِينَانِي      نَحْوَ بَابِ الْأَصْبَهَانِي  
 إِنَّ بِالْبَابِ أَنَا      فَضَلْتُ كُلَّ أَتَانِ  
 تَيْمَنِي يَوْمَ رُحْنَا      بِشَنَائِيهَا الْحِسَانِ  
 تَيْمَنِي بَيْنَانِ      وَبَدَلْتُ قَدْ شَجَانِي  
 وَبِحُسْنِ وَدَلَالِ      سَلَّ جَسْمِي وَبِرَانِي  
 وَلَهَا خَدُّ أَسِيلُ      مِثْلُ خَدِّ الشَّيْفَرَانِ  
 فِيهَا مِتُّ وَلَوْ عَشْتُ      إِذْنُ طَالِ هَوَانِي

فقال له أحد جلسائه : ما الشيفران ؟ قال : ما يُدْرِينِي هذا من غريب الحمير ! فإذا لقيتم حماراً فسألوه (١) . ولعلمهم لم يكثروا من التندير على شيء كما أكثروا من التندير على اللّحى ، وكان كثير من أهل الوقار يطيلونها ويعرضونها جدّاً ، فتندّر عليهم الشعراء طويلاً من مثل قول مروان بن أبي حفصة في لحية شيخ يسمى رباحاً (٢) :

لقد كانت مجالسنا فِساحاً      فضيقتها بلحيتِه رباحُ  
 مبعثرةُ الأسافل والأعلى      لها في كلِّ زاوية جناحُ

ولم نتحدث حتى الآن عن فن استحدثه الشعراء العباسيون ، ولم تكن له أى أصول قديمة ، ونقصد فن الشعر التعليمي الذي دفع إليه رقى الحياة العقلية في العصر ، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار . ومن أوائل ما يلقانا من ذلك تحدث صفوان الأنصاري في أشعاره عن فضل الأرض وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة (٣) . ولا ريب في أن أبان ابن عبد الحميد هو الذي عمل على إشاعة هذا الفن الشعري الجديد ، فقد نظم فيه

(١) أغاني ٣/٢٣١ والمقد الفريد ٦/٤٤٢ . (٢) البيان والتبيين ١/٢٧ وما بعدها .

(٣) عيون الأخبار ٤/٥٦ .

تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيراً<sup>(١)</sup> ، فأما التاريخ فنظم فيه سيرتى أردشير وأنوشروان ، وأما الفقه فنظم فيه الأحكام المتعلقة ببابي الصوم والزكاة ، وصنع قصيدة فى مبدأ الخلق وضمنها شيئاً من المنطق . وأهم من ذلك كله أنه نظم فى القصص كتاب كليلة ودمنة فى أربعة عشر ألف بيت . وفى كتاب الأوراق للصولى قطعة كبيرة من منظومته الفقهية وقطع أخرى من نظمه لكليلة ودمنة ، ونراه يستعملها بقوله<sup>(٢)</sup> :

هذا كتابُ أدبٍ ومِحنةُ      وهو الذى يُدعى كليله دِمنةُ  
فيه دلالاتٌ وفيه رُشدُ      وهو كتابٌ وضعته الهندُ  
فوصفوا آداب كلِّ عالمٍ      حكايةً عن ألسنِ البهائمِ  
فالحكماءُ يعرفون فضلهُ      والسخفاءُ يشتهون هزلهُ  
وهو على ذلك يسيرُ الحفظِ      لذُّ على اللسان عند اللَّفظِ

ويتأثره ابنه حمدان فى هذا الضرب من الشعر التعليمى فينظم مزدوجة طويلة مسرقة فى الطول يصف فيها الحب وأهله وطبيعته وصوره المختلفة . وعلى قبَسٍ من عمل أبان ينظم أبو العتاهية مزدوجته التى سماها « ذات الأمثال » وهى - كما يتضح من اسمها - حِكْمٌ وأمثال ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت . وقد أنشد أبو الفرج فى ترجمته قطعة منها ، ومن قوله فى تضاعيفها<sup>(٣)</sup> :

حَسْبُكَ مما تَبْتَغِيهِ القوتُ      ما أكثرَ القوتَ لمن يموتُ  
لكل ما يُؤدَى - وإن قَلَّ - أَلَمٌ      ما أطولَ الليلَ على مَنْ لم يَنَمْ  
ما انتفع المرءُ بمثل عقلِهِ      وخيرُ دُخْرِ المرءِ حُسْنُ فعلِهِ  
إن الفسادَ ضِدُّهُ الصلاحُ      وربُّ جِدِّ جِرَّهُ المَزاحُ

واقفى محمد بن إبراهيم الفزارى أثر أبان ، فنظم فى علم النجوم مزدوجة طويلة ، يقول ياقوت إنها كانت تدخل فى عشرة مجلدات ، وقد بناها من ثلاثة أفعال أو

(٢) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء)  
ص ٤٦ .  
(٣) أغانى (طبع دارالكتب) ٣٦/٤ .

(١) انظر ترجمة أبان فى كتاب الأوراق  
للصولى (قسم أخبار الشعراء) وفى الأغانى  
(طبع السامى) ٧٣/٢٠ .

ثلاثة شطور، ثلاثة شطور، على هذا النمط<sup>(١)</sup> :

الحمد لله العليُّ الأعظم ذى الفضل والمجد الكبير الأكرم  
الواحد الفرد الجواد المنعم  
الخالق السبع العلاء طباقاً والشمس يجلو ضوءها الإغساقاً<sup>(٢)</sup>  
والبدر يملأ نوره الآفاقاً

ودخلت شعاعات من هذا الفن التعليمي الجديد إلى بيئات الأخباريين ، فإذا الأصمعي ينظم قصيدة طويلة في ذكر الملوك والجبابة الهاكبين والأمم الحالية البائدة<sup>(٣)</sup> وتتكاثر هذه الشعاعات في بيئات المتكلمين ، فإذا مَعْدَان الأعمى الشيعي الشُمَيْطِيُّ أحد متكلمي الشيعة الإمامية ينظم قصيدة طويلة في أصناف الشيعة وعقائدهم ، مقدماً عليهم فرق الشميطة الغالية<sup>(٤)</sup> . ولعل متكلماً لم ينظم في هذا الفن كما نظم بشر بن المعتمر المعتزلي المشهور ، فقد أكثر من النظم في الرد على أصحاب المقالات والنحل المختلفة ، وقد ساق له الجاحظ في الحيوان قصيدتين طويلتين<sup>(٥)</sup> يمكن أن يدخلنا من بعض الوجوه في علم التاريخ الطبيعي إذ تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوانات ، وما يتجلى فيها جميعاً من حكمة الله البالغة في خلقه العجيب . ومن نمطهما قصيدة الحكم بن عمرو البهْراني في غرائب الخلق<sup>(٦)</sup> وقصيدة هرون مولى الأزدي في وصف الفيل وصورة خلقه وتركيبه<sup>(٧)</sup> .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلي والفني للشاعر العباسي وكيف كان يحرص على التجديد، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده ، ولا يكتفي بها ، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى ، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية ، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمي ، فسجّل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة .

١/ ٢٣ ، ٣/ ٧٥ ، ٤/ ٣٥٦ .  
(٥) الحيوان ٦/ ٢٨٤ ، ٢٩١ .  
(٦) الحيوان ٦/ ٨٠ .  
(٧) الحيوان ٧/ ٧٦ .

(١) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١٧/ ١١٨ .  
(٢) السبع : هي السموات السبع . طباقاً :  
لمطابقة بعضها بعضاً . الإغساق : الظلام .  
(٣) الحيوان ٦/ ١٤٩ .  
(٤) الحيوان ٢/ ٢٦٨ والبيان والتبيين

## التجديد في الأوزان والقوافي

سبق أن تحدثنا في كتاب « العصر الإسلامي » عن مدى ما أثر به الغناء المستحدث حينذاك في موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نَظْمُ المقطوعات القصيرة في الغزل وأخذ الشعراء يصفون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالباً عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم في الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزءاً منها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الحروق أو بعبارة أخرى من الزخافات، إكثاراً نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصنّع بعض المقطوعات فيه. وانتقلت موجة هذا الغناء في أواخر العصر الأموي إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسي الأول بلغت في مدن العراق كل ما كان يُسْتَضْرَبُ لها من حدة وقوة، فمن جهة صُفِيَّتْ لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرّ بنا في أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمي: شعر المديح والثناء، بينما تشيع المقطّعات في الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون — على هدى الشعراء الأمويين — في الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفي وزن المجتث الذي اقترحه الوليد بن يزيد، ومن خير من يمثّل ذلك مطيع بن إياس الكوفي فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث في ترجمته بكتاب الأغاني نجد كثرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكمال والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله (١):

ويلى ممّن جفّاني وحبّه قد برّاني

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٩٢.



وَطَيْفُهُ يَلْقَانِي وَشَخْصُهُ غَيْرُ دَانِي  
أَغْرُ كَالْبَدْرِ تَعَشَى بِحَسَنِهِ الْعَيْنَانِ

ولم يلبث الشاعر العباسي أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة ، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض ، وهما وزنا المضارع والمقتضب ، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاع لانن مفاعيلن ، ودائماً تُحذَفُ فيه التفعيلة الأخيرة ، ومنه مقطوعة أبي العتاهية (١) :

أَيَا عُتَبَ مَا يَضُرُّكَ أَنْ تَطْلُقَ صِفَادِي (٢)

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن ، وتُحذَفُ منه التفعيلة الأخيرة أيضاً ، كما يلقانا عند أبي نواس في مقطوعته (٣) :

حَامِلُ الْهَوَى تَعِبُ يَسْتَحْفَهُ الطَّرْبُ  
إِنْ بَكَى يَحِقُّ لَهُ لَيْسَ مَا بِهِ لَعِبُ

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغماً وإيقاعاً من سابقه ، ولعل ذلك هو الذي جعله يشيع ويتداوله الشعراء ، بينما كادوا يهملون المضارع ، واكتشف الشاعر العباسي أيضاً وزن المتدارك أو الخبب ، ويقال إن الخليل لم يسجله في عروضه ، إنما سجله تلميذه الأخصش (٤) ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسماً فإنه عرفه ونظم منه أشعاراً مختلفة (٥) ، من مثل :

أَبَكَيْتَ عَلَى طَلَلٍ طَرَباً فَشَجَاكَ وَأَحْزَنَكَ الطَّلَلُ

ومثل :

لَيْسَ الْمَرْءُ الْحَامِي أَنْفَأَ مِثْلَ الْمَرْءِ الضَّمِيمِ الرَّاضِي (٦)

(٥) إنباه الرواة ٣٤٢/١ وانظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٣٢ .  
(٦) الحامي أنفا : العزيز الأبي الضميم : الدليل .

(١) الفصول والغايات لأبي العلاء ص ١٣٢ .  
(٢) الصفاد : القيد .  
(٣) الديوان ص ٣١٦ .  
(٤) شرح الدهموري على الكافية (طبع  
مكتبة محمود توفيق) ص ٣٩ .

وبذلك وضع للشاعر العباسي منه نماذج كي يحاكيها ، وكان أول مَنْ بادر إلى محاكاته - فيما نظن - أبو العتاهية فله على نسق مقطوعته الثانية بيتان نظمهما في بعض القضاة على هذه الشاكلة (١) :

همُّ القاضي بَيِّتٌ يُطْرِبُ      قال القاضي لما طوِّبَ  
ما في الدنيا إلا مُدْنِبٌ      هذا عُدْرُ القاضي واقْلِبْ

والحق أن الخليل اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم ، وذلك أنه - كما مر بنا في غير هذا الموضع - استضاء بفكرة التباديل والتوافق الرياضية في وضع عروض الشعر ، إذ جعل أوزانه تدور في خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاءها من الأسباب والأوتاد ، فإذا هو يحصى الأوزان التي استخدمها العرب واضعاً لها ألقابها ويحصى أو يستنبط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها في أشعارهم ، كي ينفذ منها الشاعر العباسي إلى ما يريد من تجديد في أوزان الشعر وبحوره . وكان من أوائل من استغلوا صنيعة تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمِينِدَع البصري ، وفيه يقول أبو الفرج : « أخذ العروض عن الخليل بن أحمد ، فكان مقدماً فيه وانقطع إلى آل سليمان بن علي ، وأدب أولادهم ، وكان يمدحهم كثيراً . . . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة في شعره لم ثم أخذ ذلك عنه ونسحا نحوه فيه رُزَيْنُ العَرُوضِي ، فأتى فيه ببدايع جَمَّة ، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس » (٢) . ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت في معجمه ، وهي في مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قَرَّبُوا جَمالَهُمُ      للرحيل      غُدُوَّةً أَحْبَبْتُكَ      الأَقْرَبوكِ  
خَلَّفوكِ ثُمَّ مَضُوا      مدلجين      مفرداً بِهِمُّكَ      ما ودَّعوكِ (٣)

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجري على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعلن فاعلن . وربما كان أهم شاعر

(٣) مدلين : سائرین لیلا .

(١) المسمودی ٣/ ٣٦٠ .  
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦٦ .

نابه عني بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة ، هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله (١) :

للمنون دائراتٌ يُدِرْنَ صَرَفَهَا هُنَّ يَنْتَقِينَنَا واحداً فواحداً  
وقوله :

عُتِبَ ما للخيال خَبْرِي ومالي لا أراه أتاني زائراً مُدْ لِيالي  
ووزن البيت الأول فاعلن مستغلن مرتين فهو عكس البسيط بينما وزن البيت الثاني فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعاً من الأوزان المهملة التي تستنبط من دوائر الخليل . على أنه ينبغي أن نعرف أن هذه الأوزان المهملة التي استخدمها أبو العتاهية ورزين وابن السמידع لم تشع على السنة العباسيين ، وكأنهم أحسوا نقص أنغامها وإيقاعاتها بالقياس إلى الأوزان المستعملة . وينسب إلى هذا العصر وزن شعبي هو وزن « المواليا » ويقال إن سبب ظهوره أن الرشيد منع الناس من رثاء البرامكة ، فلم يجروا على رثائهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى البرمكي بكتته في أشعار نظمها من هذا الوزن بالعامية ، وكانت تختتمها بكلمة « يامواليه » غير أن هذه القصة — فيما يظهر — أسطورة إذ لم يثبت أن الرشيد منع الشعراء من رثاء البرامكة ، وفي كتب الأدب من مرثيهم أشعار كثيرة . ولعل مما ينقضها نقضاً أن ابن تغري بردي أنشد مواليا للعتابي شاعر البرامكة والرشيد على هذا النمط (٢) :

يا ساقياً خُصَّني بما تهوَاهُ لا تمزج أقداحي رعاك الله  
دَعَهَا صِرْفاً فَإِنِّي أَمْزَجَهَا إِذْ أَشْرَبَهَا بِذِكْرٍ مِنْ أَهْوَاهِ  
وكان المواليا لم تبدأ عامية ملحونة ، وإنما بدأت فصيحة ، ثم تحولت إلى العامية ، إذ ازور عنها شعراء الفصحى كما ازوروا عن الأوزان المهملة السابقة .  
١ وعلى نحو ما جدّ دوا — لهذا العصر — في الأوزان جدّ دوا في القوافي مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمّطات ، أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد في الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد في الشطرين المتقابلين ، وعادة تُنظَّم من

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٨٦/٢

(١) الشعراء والشعراء ص ٧٦٦ .

بحر الرجز . وتُنسَبُ إلى الوليد بن يزيد منظومة من هذا الطراز صاغ فيها خطبة من خطب يوم الجمعة<sup>(١)</sup> ، وإذا صح ذلك كان هو أول من استحدثه ، ثم تلاه العباسيون وفي مقدمتهم بشار ، إذ نعته الجاحظ بأنه صاحب مزدوج<sup>(٢)</sup> ، وإن كنا لا نجد منه أمثلة فيما طُبع من ديوانه . وبمجرد أن ظهر الشعر التعليمي ازدهر هذا الضرب الجديد ، إذ صاغ أبان بن عبد الحميد فيه كل ما نظمته من قصص وتاريخ وعلم ودين ، وكذلك صنع محمد بن إبراهيم الفزاري في مزدوجته الفلكية ، وإن جعل وحدتها ثلاثة شطور لا شطرين . وقد نظم أبو العتاهية من هذا النمط الجديد مزدوجته « ذات الأمثال » وسبق أن اقتبسنا منها أبياتاً . ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على النظم في المزدوج من بشر بن المعتمر وإنه كان أقدر فيه من أبان بن عبد الحميد<sup>(٣)</sup> ، وقد روى له في الحيوان مزدوجة طويلة ، في تفصيل على بن أبي طالب والرد على الخوارج<sup>(٤)</sup> . وللقاشي مزدوجة طويلة في المجون والخلاعة<sup>(٥)</sup> وكذلك لبكر بن خارجة مزدوجة في أعياد النصارى وشرائعهم وأديرتهم<sup>(٦)</sup> . ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر في قصصهم متخذين له اسماً جديداً هو « المثنوى » . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذي رشح لظهور الرباعيات في الأدبين العربي والفارسي ، وهي تتألف من أربعة شطور ، تتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، من مثل قول بشار مازحاً مع جاريته ربابة<sup>(٧)</sup> :

ربابةٌ ربةٌ البيتِ      تصبُ الخَلَّ في الزيتِ  
لها عشرُ دجاجاتٍ      وديكٌ حسنُ الصوتِ

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعي أشعاراً مزوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله في صلاتهم<sup>(٨)</sup> ، وما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

- (١) أغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/٧ .  
 (٢) البيان والتبيين ٤٩/١ .  
 (٣) أمالي المرتضى ١٨٧/١ .  
 (٤) الحيوان ٤٥٥/٦ .  
 (٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .  
 (٦) أغاني (طبعة الساسي) ٨٧/٢٠ .  
 (٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦٣/٣ .  
 (٨) أغاني ٣٢٤/١٤ .

يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعتز ، وكان على أعشار البصرة وظهرت منه خيانة<sup>(١)</sup> :

ظهر الأمير عليك يا غيلانُ إذ خنته إن الأمير معانُ  
أمع الدمامة قد جمعت خيانةً قبَحَ الدميمُ الفاجر الخوانُ  
وتكثر الرباعيات في ديوان أبي نواس وخاصة في الحمريات والغزل<sup>(٢)</sup> ، ونستبعد أن تكون مقطوعة من مطالع قصائد له ضاعت ، لكثرتها عنده ، ومن أمثلتها الطريفة قوله<sup>(٣)</sup> :

أدر الكأس وأعجل من حبسٍ واشقينا ملاح نجمٍ في الغلس<sup>(٤)</sup>  
قهوةً كرخيةً مشمولةً تنفص الوحشة عنا بالأنس<sup>(٥)</sup>

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء في الأغاني يجد منها أمثلة كثيرة ، ومن كان يكثر منها - فيما يظهر - أبو العتاهية سواء في الغزل أو في الزهد، من مثل قوله في الموت الدائر على جميع الناس<sup>(٦)</sup> :

الموتُ بين الخلق مُشترِكٌ لا سوقةً يَبقى ولا مَلِكُ  
ما ضَرَّ أصحابَ القليلِ وما أغنى عن الأملاك ما ملكوا

والمسمّطات قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه مستقل بقافية مغايرة ، وفي الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة ، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذي يدور عليه . وإنما سُمي مسمطا من السمط وهو قلادة تُنظَّم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة ، وكذلك كل دور في المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر

(١) أغاني ١٤ / ٣٦٢ .

(٢) راجع الديوان ص ١٢٩ ، ١٣١ ،  
١٨١ ، ٢٤٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٧ ،

٤٣٥ .

(٣) الديوان ص ٢٩٩ .

(٤) حبس : انظر وتلبث . الغلس :

أخرى الأغاني ٤ / ٢٠ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٩١ ، ١١٠ ، ٩٧ .

الأخير . ومن أمثلة المسمط المربع خميرية لأبي نواس تتوالى على هذا النمط (١) :

كشمسٍ دَجْنٍ (٢)	سُلافٌ دَنٌّ
كخمرٍ عَدْنٍ	كدَمْعٍ جَفْنٍ
كلونٍ وَرَسٍ (٣)	طبيخٍ شَمْسٍ
حليفٍ سِجْنٍ	رَبِيبٌ فُرْسٍ
على زمانى	يا من لحافى
فلا تَلْمُنِي	اللهو شانى

وواضح أنه بنى شطورها على تفعيلة واحدة . وكان شيوخ المسمطات الخمسة أوسع من شيوخ أختها المربعة ، واشتهر بشار بنظمه لبعض الخمسات (٤) ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع الخمسات من بشر بن المعتمر (٥) ، وقد أنشد الهميري لأبي نواس خمسا ختمه بهذا الدور (٦) :

يا ليلةً قضيتها حُلوةً مرتشفاً من ريقها قَهوةً  
تُسكّر مَنْ قد يبتغى سَكْرَهُ ظننتها من طيبها لَحْظَةً  
يا ليت لا كان لها آخرُ

وقد اختار لآخر الخمس - كما هو واضح - صيغة يبدو من تركيبها أنها عامية ، وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسيين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقوال عامية . ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقتراباً شديداً سواء من حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال ، إذ يُنسَبُ لديك الجن صنُّعه لمنظومة على هذا النحو (٧) :

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى عند المنام

(٦) حياة الحيوان الكبرى للهميري (طبعة

بولاق) ٩٦/١ .

(٧) خزانة الأدب للحموي (طبعة بولاق)

ص ٩٧ .

(١) الديوان ص ٣٤٦ .

(٢) دجن : غيم .

(٣) الورس : نبات زهره أصفر .

(٤) العمدة لابن رشيق ١٢٠/١ .

(٥) أمالي المرتضى ١٨٧/١ .

عند الرِّقَادُ عند الهجوعُ عند الهجوذُ عند الوسنُ  
 فعسى أَنَامُ فتنطفي نارٌ تَأَجَّجُ في العظامِ  
 في الفواذُ في الضلوعُ في الكبوذُ في البدنُ  
 جسدٌ تُقَلِّبُهُ الأَكُفُ على فراشٍ من سقامِ  
 من قَتَادُ من دموعُ من وَقُوذُ من حزنُ  
 أما أَنَا فكما علمتِ فهل لوصولك من دوامِ  
 من مَعَادُ من رجوعُ من وجودُ من ثمنُ

وواضح أن هذه المنظومة نشأت من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروى جديد ، وكأنما وقعت هذه المنظومة لمقدم بن معافى القبرى الأندلسى شاعر الأمير عبد الله بن محمد المروانى ( ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ) فنظم على نمطها بعض منظوماته إعجابا بها ، واستحسانا لها . وكتب لهذا النمط أن يشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات وأن يسكب الوشاحون فيه من الأنغام ما يمتع الأسماع والأفئدة .

## إفصل الخامس

### أعلام الشعراء

١

بشار (١)

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجُوخ<sup>(٢)</sup> بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجدُّه يَرْجُوخ من طُخَارُسْتَانِ مِمَّنْ سَبَّاهِمُ المَهْلَبِ بنِ أَبِي صَفْرَةَ وَالى خِرَاسَانَ (٧٩ - ٥٨١) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْدُ على الرِّقِّ . وكان أولاً في عِدَادِ رَقِيقِ خَيْرَةِ القُسَيْبِيِّينِ امرأة المَهْلَبِ ، ثم وهبته لامرأة من بني عُقَيْبِلَ ، وفي ملكها وُلد له بشار على الرِّقِّ ، ولم تلبث العُقَيْبِلِيَّةُ أَنْ أَعْتَقَتْ بُرْدًا . وبذلك عَدَّ هو وابنه في موالى بني عُقَيْبِلَ . وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم ، إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

وقبصرٌ خالى إذا عددتُ يوماً نَسْبِي

وإن صحَّ ذلك كان فارسيَّ الأب روى الأم ، وقد ذكرها حماد عمجد في بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة<sup>(٤)</sup> ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وفي ذلك يقول<sup>(٥)</sup> :

العربي (طبع دار المعارف) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازني (طبع عيسى الحلبي) وبشار ابن برد لمعرفوخ (طبعة بيروت) وبشار بن برد لظه الحاجري (طبع دار المعارف) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده

يهن . انظر الأغاني ١٣٥/٣ .

(٣) الديوان ١/٣٧٧ .

(٤) الحيوان ١/٣٥٤ ، ٤٥٣/٤ .

(٥) أغاني ٣/١٤٢ .

(١) انظر في بشار وترجمته الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣٥/٣ ، ٢٤٢/٦ والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وتاريخ بغداد ٧/١١٢ والمختار من شعر بشار للخالدين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشح للمرزباني ص ٢٤٦ ونكت الهميان (طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة) ص ١٢٥ ومرآة الجنان لليافعي ١/٣٥٤ وشذرات الذهب ١/٢٦٤ وابن خلكان ومراجعات في الآداب والقنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعماء لظه حسين ٢/٢٣٢ وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر



عميتُ جَنِيناً والذكاء من العمى فحجثُ عجيبَ الظنِّ للعلم موثلاً  
 وكان أبوه طيَّاناً يعيش من ضَرْبِ اللَّيْنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال  
 إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّائِنِ يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّيْنِ  
 إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتتر اليد .

وحدَّتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مِرْبَدِ  
 البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانتته نشأته في بني عُقَيْلٍ على أن يتمثل  
 السليقة العربية . ولم يكذب يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه .  
 وكان الهجاء حينئذ يضطرم في موطنه اضطراماً لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل  
 بين جميع الشعراء ، فكان طبيعياً أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال  
 إن أباه كان يضربه بسببه ضرباً مبرحاً لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه  
 لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إني لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له  
 بشار : قُلْ لهم : أليس الله يقول : ( ليس على الأعمى حَرَجٌ ) . وعادوا إلى  
 بردٍ يرددون شكواهم ، فتسلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فقهُ  
 بُرْدٌ أغْيِظُ لنا من شعر بشار . واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فيمَّم  
 نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكثت له في عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشؤون  
 البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما  
 يكثر من النظم في المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه في عبد الله بن  
 عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة<sup>(١)</sup> . ولما خطب واصل بن عطاء  
 رأس المعتزلة بين يدي هذا الولى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وبيانه طويلاً<sup>(٢)</sup> ،  
 مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفي الأغاني أنه كان يحضر  
 مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب الشنوية الجوسية والدهرية  
 الهندية<sup>(٣)</sup> ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس  
 المتكلمين شيء من الفلسفة والمنطق، على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

(٣) أغاني ١٤٦/٣ .

(١) الديوان ١٧٢/٣ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤/١ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرجعة أو عودة الإمام الخنفي ويكفر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله بشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين<sup>(١)</sup> :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وتماذى يفضل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا<sup>(٢)</sup> :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبّهوا يا معشر الفجار  
النار عنصرة وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وتصدى له صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة يرد عليه وعلى ما روى إليه من تصويب رأى إبليس في عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار ، في رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقصدونها ، خير من الأرض . وأطال صفوان في تفضيل الأرض وذكر له العلة التي بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقه وموجدته على الدين الخنيف ، قائلا<sup>(٣)</sup> :

كأنك غضبان على الدين كله وطالب دخل لا يببت على حقد<sup>(٤)</sup>

غير أن بشارا مضى يعلن زندقته لا يزدجر مصرحاً بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهدته الحس<sup>(٥)</sup> . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار في وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جبّرى ، بل لا شيء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية<sup>(٦)</sup> .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان ما زاد هذه الثورة في نفسه اضطراراً أن رآه يكبر من غزل مادي<sup>(٧)</sup> آثم بعدد أي خطر على شباب البصرة ونسائها<sup>(٧)</sup> ، فهتف به في بعض خطبه الواعظة داعياً إلى قتله

(١) البيان والتبيين ١٦/١ والأغانى ١٤٥/٣ .  
(٢) رسالة الغفران لأبي العلاء (نشر كامل كيلانى) ١٣٧/٢ .  
(٣) البيان والتبيين ٢٩/١ .  
(٤) دخل : نار .  
(٥) أغانى ٢٢٧/٣ .  
(٦) نفس المصدر والصفحة .  
(٧) أغانى ١٨٢/٣ .

بمثل قوله : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنّف (١) المكنّى بأبي معاذ من يقتله (٢) ١٤٢ »  
وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ،  
وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائباً عنها حتى توفي عمرو (٣)  
ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . ونراه يقصد إلى حرّان في سنة ١٢٧  
فيمدح سليمان (٤) بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله (٥) ، فيتجه  
إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم  
قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويغدق عليه من بيرة وصلاته السنية (٦) ،  
ويغدق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قس تعصباً قوياً ،  
وصادف ذلك هوى في نفس بشار إذ كان ولاؤه لبني عُمَيْل القيسيين ، وكان  
مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها في حروبه مع  
الثوار من بني عمه وغيرهم ، فاندفع بشار يمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه  
القيسين فخراً عارماً .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت في سنة ١٣١ للهجرة من خراسان ،  
وطوّحت جيوشهم ببني أمية واليهيم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم  
فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً  
في التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ، وكانما رأى فيه بشار لحمه نسب  
تصله به إذ كان إيرانيّاً مثله ، فوفد عليه يمدحه ، وخالد يجزل له في العطاء  
والإكرام (٧) . ويحسُّ بشار في عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنّى بشعوبيته ويفخر  
بقومه الفرس فخراً مصرفاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور  
العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار  
من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائحة ، وسرعان

(٣) البيان والتبيين ٢٥/١ .

(٤) الديوان ٢٩١/١ والأغاني ٢١٧/٣ .

(٥) أغاني ٢١٨/٣ .

(٦) أغاني ٢٣٦/٣ - ٢٣٧ .

(٧) أغاني ١٩٢/٣ .

(١) المشنّف: ذو القرط ، يقال إنه كان

يلبس قرطاً وهو صغير فلُقب بالمرعث من الرعاث

وهو القرط . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغاني

١٤٠/٣ .

(٢) البيان والتبيين ١٦/١ والأغاني ١٤٦/٣ .

ما يخيب فأله ، إذ قمع المنصور الثورة ، ويهارج بشار فيحدث تغييرات في القصيدة ، ويجعلها في مديحه<sup>(١)</sup> ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه . ويأخذ منذ هذا التاريخ في مديح ولاية البصرة ، وخاصة سلم<sup>(٢)</sup> بن قتيبة الباهلي الذي وليها لخمسة أشهر في سنتي ١٤٥ و ١٤٦ وعقبه<sup>(٣)</sup> بن سلم الهنائي الأزدي الذي وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١ .

ويمضي بشار في غزله الفاجر ، وكان كل شيء فيه ينفر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجذور الوجه جاحظ العينين قد تغشأهما لحم أحمر ، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذي كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف . على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللاتي كانت تكتظ بهن دور القيان يُقبلن عليه ويتغنين في شعره . وفي هذه الأثناء يصطدم بحماد عَجْرَد وتتشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس .

ويتوقى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدي فتطمح نفسه إلى الوفاة عليه والحصول على جوائزه ، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيباني القائد الممدح المشهور كي يذكره للمهدي ويدخله عليه ، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوفه ، غير أن قائداً آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه ، فتبرع بذكره للمهدي متلطفاً ، فأمر بإحضاره ، ولم يكذ يفرغ من إنشاده مدحته التي أعدها حتى وصله بعشرة آلاف درهم وهب له عبداً وقينة وخلع عليه خلعاً كثيرة<sup>(٤)</sup> ، وجعله من سُمّاره ومن يحضرون مجالسه<sup>(٥)</sup> . وكانت في المهدي شدة في شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكف عن ذلك ، وكف بشار على مضض ، وأخذ يردد في أشعاره أنه ترك الغزل والنسب نزولاً على إرادة الخليفة من مثل قوله<sup>(٦)</sup> :

(٤) أغاني ٣/٢١٣ .  
 (٥) ابن المبرز ٢١ وما بعدها .  
 (٦) أغاني ٣/٢٣٩ وانظر ص ٢٤١ وما بعدها .

(١) أغاني ٣/١٥٦ - ١٥٨ .  
 (٢) أغاني ٣/١٩٠ والديوان ٢/٣٢٦ -  
 ٣٣٨ ، ٢٠٣/٣ .  
 (٣) أغاني ٣/١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٩ ،  
 والديوان ١/١٠٧ ، ١٤٠ ، ٢/٢١٩ .

يا منظرًا حسنًا رأيتُهُ  
من وجه جاريةٍ فديتُهُ  
بعثتُ إلىَّ تَسْؤِمِي  
بُرْدَ الشَّبابِ وقد طويتُهُ  
واللهُ ربُّ مُحَمَّدٍ  
ما إنْ غدرتُ ولا نويتُهُ  
أَمَسَكْتُ عنكَ وربما  
عَرَضَ البلاءُ وما ابتغيتُهُ  
إنْ الخليفةُ قد أبى  
وإذا أبى شيئاً أبيتُهُ  
ونهاىَ الملكُ الهما  
مُ عن النَّسِيبِ وما عصيتُهُ

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يَغْرِقُ فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدي الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويلزم بشار البصرة إشفاقاً على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ في رثاء أصدقائه الذين يُقْتَلُونَ على الزندقة (١) ، ويهجو المهدي ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعاً (٢) ويقدمُ المهدي إلى البصرة في سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثِّقون بأن بشاراً زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف ، فَيُضْرَبُ سبعين سوطاً يموت على إثرها ويُرْمَى به في البَاطِيحَة ، ويحییء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وأخبار بشار في أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجْرَد له أنه كان له امرأة تسمى أمامة (٣) ، وهو يُكْتَبِرُ في أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحيه حتى يضاعفوا له الجائزة (٤) ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمداً (٥) ، واختطف منه بنتاً صغيرة (٦) . ومر بنا في غير هذا الموضع أنه كانت له جارية تسمى ربابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول (٧) :

وغادِةٌ سوداءٌ بَرَّاقَةٌ  
كالماء في طيبٍ وفي لينٍ

(٥) أغاني ٣/١٦١، ٢٢٠ ، وانظر الديوان

. ٢٥٦/١

(٦) أغاني ٣/٢٢٩ .

(٧) أغاني ٣/١٩٣ .

(١) أغاني ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار

ص ٢٥ وأمال المرتضى ٢/١٣٣ .

(٢) أغاني ٣/٢٤٣ .

(٣) أغاني ١٤/٣٦٥ .

(٤) الديوان ١/٢٣٩ .

كأنها صيغت لمن نالها من عنبرٍ بالمسك معجون  
ولعلها السندية العجماء التي لم يتبع جنازته سواها<sup>(١)</sup>. وذكر في غزله كثيرات  
من القيان والحوارى ، وقتن فتونا بعبدة ، وقد أفرد صاحب الأغاني لأخباره معها  
فصلاً خاصاً<sup>(٢)</sup>.

وواضح مما قدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة ، بل كانت معقدة ،  
فقد كان فارسي الأصل ، وورث عن الفرس حدة في المزاج ، ونشأ قيناً ابن قين ،  
وولد أعمى لا يبصر . وكان لذلك يحسُّ بغير قليل من المرارة ، وضاعفها في  
نفسه فقرأسرته وتخلفها في المجتمع . وقد رُبِّي في مهد عربي ، فأتقن العربية وتمثَّل  
سليقتها بكل مقوماتها . وسرعان ما أخذ يختلف إلى حلقات المتكلمين بالمسجد  
الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة ، وليس من  
ريب في أنه اطلع على ما نقله ابن المقفع إلى العربية من الآداب الفارسية وغير  
الفارسية ومن الآراء المزدكية والمانوية . وكان ذلك كله سبباً في أن يحدث تشويش في  
فكره وأن تمتلئ نفسه بالشك والحيرة ، ولم يستطع الخلوص من ذلك فتحول زنديقاً  
يبغض الدين الخفيف ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحوَّل شعوبياً يبغض  
العرب والعروبة . وكانت بيئته تكتظ بالحوارى والقيان ممن لا يعصمهم من الغواية  
دين ولا عرف ، فاختلط بهم ، وتغزل فيهن غزلاً حسيماً ، وربما دفعه فقد بصره  
إلى ذلك من بعض الوجوه ، إذ الضرير لا يرى الجمال ببصره ، وإنما يحسه بلمسه  
ويده ، ويتسع جشعه الجسدى ، حتى ليصبح غزله ، في بعض جوانبه ضرباً من  
صياح الغريزة النوعية الذى ينبو عن الذوق .

وكل هذه العناصر السالفة أثرت في طبيعة بشار وجعلتها شديدة التعقيد ،  
ويجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهي زعامة تُردُّ إلى أنه استطاع  
أن ينهج لهم في قوة السبيل التي ترسمها الشعراء من حوله ومن بعده ، وهي سبيل  
تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربي من جهة ، ومن جهة ثانية تفسح  
لتجديد الشاعر العباسي بحكم رقيه العقلى ومعيشتة الحضارية . وبذلك ازدهر الماضى  
في الحاضر ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذى جعل الشعر العربي عنده يحتفظ

(٢) أغاني ٢٤٢/٦ وما بعدها .

(١) أغاني ٢٤٨/٣ .

بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه - مهما لانت ورقّت - مطبوعة بطوابع النصاعة والإيجاز والتركيز ، تلك الطوابع التي تشيع فيه الدقة والوضوح والجمال ، كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسبها الخيالية . وحقاً حدث فيه تجديد واسع ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلّقه بحسّ متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من كنوز الآداب والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين ما يصوغه وبين بيئته المتحضرة . وقد أتاح ذلك لأغراض الشعر عند بشار أن تتطور تطوراً قليلاً أو كثيراً ، بحيث يظل الاتصال قائماً بين الشعر العباسي والشعر القديم .

وعجيبٌ حقاً أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الخنيف وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداة من أدوات ازدهاره وبرهانا بيّناً على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التي يظل فيها الماضي الفني ماثلاً ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات في الزمان والمكان ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألدوا في العروبة والدين . وما من شك في أن بشاراً كان ملحداً زنديقاً يكفر بالعرب ، ومع ذلك اضطرّ اضطراراً حين عاش شعرهم أن يتمثّل أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرمم محترقاً في تمثله حجج الزمان والمكان مطأطئاً من غروره . وليس معنى ذلك أنه انفصل عن عصره ، فقد مضى يزاوج بين الماضي والحاضر ، يتلقّى الماضي ويحياه ، وأيضاً يتلقّى الحاضر ويحياه ، وبذلك وصل بين الحاضر والماضي بريقه العقلي وحياته الحضارية وصلاً خصباً

وقد يكون من الغلو أن نزعّم أن ذلك كان من عمل بشار وحده ، فقد شرّكه فيه جميع شعراء عصره إلا نفرأ قليلاً ، إذ مثّل الشعر القديم أمامهم كالأمّ الغاذية ، فكل شاعر يتغذى منه ما يقوم به عمله ، حتى إذا مرّان عليه أخذ يوازن بين الغذاء القديم والغذاء الحديث : غذاء الثقافة والحضارة ، وهي موازنة غدت كأنها طبيعة العصر ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوس الشعراء أن شاعرأ لم يكن يحظّى بتقدير بين أقرانه إلا إذا حقق لنفسه حظاً من هذه الموازنة ، وبما لا شك فيه أن حظ بشار منها كان موفوراً ، فإنه احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطور في أغراضه ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثرة وسعة وعمقاً .

والمديح أهم غرض وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سنته الموروثية ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورسالتها ومثانتها ، أو من حيث المنهج الذى سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما فى الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدتها الطبيعية وما يجرى فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين فى أطراف قصيدهم بعض الحكم . وكل ذلك احتذاء بشار فى كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى نفس المعانى والأخيلة ، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكثراً فيها من الغريب الوحشى على نحو ما هو معروف فى أرجوزته<sup>(١)</sup> : ( يا طلل الحى بذات الصّمّد ) . ونراه يصرح فى بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشية حتى يرضى بمدوحه سلم بن قتيبة الذى كان يتباصر بالغريب<sup>(٢)</sup> .

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التى ساقها فى وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشيم الرفيعة التى طالما خلعتها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحهم من الكرم والمرءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم ، وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل فى الجاهلية ، فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية ، ونرى بشارا يقتدى بهم وخاصة فى مديحه للمهدى<sup>(٣)</sup> ، وكأنه حتى فى هذا الجانب لا يزال موصولاً بالتراث الفنى القديم . وكان طبيعياً لذلك أن يستمد جمهور معانيه فى المديح من القدماء ، وهذا نفسه يلاحظ على مقدماته الطلاية والغزلية ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام النقاد كى يبحثوا فى سرقاته منهم ، كما فتحها أمام الشعراء لكى يحتذوا على صنيعه . على أنه ينبغى أن نعود فنقرر أنه كان يحاول النفوذ من خلال هذا الصنيع إلى معان وصور جديدة يستلهم فيها حسه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضارى المترف حتى حين يعمد إلى المحاكاة المسرفة للقدماء على نحو ما يلقانا فى أرجوزته : « يا طلل الحى بذات الصّمّد » . وحرى بنا أن نقف

(٢) الأغاني ١٩٠/٣ وما بعدها .

(٣) انظر الديوان ٣٢١/٣ ، ٢٧٧/٢ .

وما بعدها ، ٢٩٧/٢ .

(١) الديوان ٢١٩/٢ والأغاني ١٧٤/٣

وراجع فى أراجيزه أخرى الديوان ١٣٤/١ ،

١٤٠/١ .



قليلاً عند قصيدته البائية التي مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة وفي رواية أنه مدح بها مروان بن محمد ، وهي تلك التي يستهلها بقوله :

جفا ودهً فازوراً أو ملّ صاحبه وأزرى به أن لايزال يُعائيه

فإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سرى الليل على بعيره وسط الفيافي المقفرة ، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأنته وما مرّ بها وبه من أيام الربيع المنعشة ثم ما سقط من أيام الصيف اللافحة التي أوقدت العطش في صدور الأتّن وحمارها، فإذا هي تطلب الماء تريد أن تشفى غلتها منه، وما إن تريد أن تقع عليه حتى يرسل الصائد عليها سهامه . ويمضي إلى مديح يزيد فيوغل في فخر شديد بقيس قبيلته التي كان لها ولاؤه ، ويطنل في وصف بلائها في حروب مروان بن محمد وقسّم الثائرين عليه . وبشار في كل ذلك يتزع متزع القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائهم فيفخرون بما أثر العشيرة ووقائعها الحربية ، وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ، ولكن لا تظن أنه طابق النموذج القديم تمام المطابقة ، فقد أدخل في نسيج قصيدته خيوطاً جديدة ، وتلقانا هذه الخيوط واضحة في نسيبه إذ تحدث فيه عن الصداقة والصدق ، وكأنه يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه « الأدب الكبير » كما يستلهم الكلاميين في قوة البرهان والحجة ، فإذا هو يقول (١) :

إذا كنتَ في كل الأمورِ معاتباً      صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه  
فِعش واحداً أوصلُ أخاك فإنه      مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبةً (٢)  
إذا أنت لم تشربَ مراراً على القذى      ظمئتَ وأىُّ الناسَ تصفو مشاريه

ونضى معه في وصف مشاهد الصحراء وصفاً حياً ، حتى إذا انتهى منه فخر بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم حقاً ، يقول :

إذا الملكُ الجبارُ صعرَّ خدهً      مشينا إليه بالسيوفِ نعاتبه (٣)

(٢) مقارف : مرتكب .  
(٣) صمرخده : تكبر وعتا وبغى .

(١) أغاني ٣/١٩٧ وانظر القصيدة في الديوان  
٣٠٥/١ .

وكنا إذا دبَّ العدو لسُخْطنا  
 ركبنا له جَهْرًا بكل مثقَفٍ  
 وجيشٍ كجُنْحِ الليل يزحف بالحصى  
 غدونا له والشمسُ في خِدرِ أمِّها  
 بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمه  
 كأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوق رعوَسنا  
 بعثنا لهم موتَ الفُجَاءةِ إننا  
 وراقبنا في ظاهرٍ لا نراقبُه<sup>(١)</sup>  
 وأبيضَ تَسْتَسْقِي الدِّمَاءَ مضارِبُه<sup>(٢)</sup>  
 وبالشُّوكِ وَالخَطِيَّ حُمْرُ ثَعَالِيه<sup>(٣)</sup>  
 تطالعنا والطلُّ لم يَجْرِ ذائبه  
 وتدرِك من نجى الفِرَارُ مثالبه<sup>(٤)</sup>  
 وأسِافنا ليلٌ تهاوَى كواكبه<sup>(٥)</sup>  
 بنو المُلْكِ خَفَّاقٌ علينا سبائِبُه<sup>(٦)</sup>

والفخر بالبلاء في الحروب قديم ، غير أن جديداً واضحاً يداخل معاني هذه  
 الأبيات ، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسي الذي أدَّى به إلى  
 المبالغة ومجاوزه القصد الذي يُعَدُّ من مميزات الطبع العربي الخالص ، كما يُرَدُّ  
 إلى محاولة الإبداع في التصوير ، ويُرَوَى أن الأصمعي وقف متعجباً إزاء البيت  
 السابع وأنه قال : « وُلِدَ بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبه الأشياء  
 بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البُصْرَاءُ أن يأتوا بمثله »<sup>(٧)</sup> . وكان يعتمد  
 في ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالاً  
 فاق فيه المبصرين من حوله ، مستعيناً بحس دقيق . وكان مما دفعه إلى ذلك شعوره  
 بفقده لبصره ، وكأنه كان يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف  
 الصور الحسية بل أن يبدع في تأليفها . على أن من يعمن النظر في تصاويره يلاحظ  
 عجزه عن تمثيل الدقائق التي لا تُرَى إلا بحاسة البصر .

ومهما يكن فقد استطاع بشار في مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة  
 عناصر مستحدثة ، وهي تبدو قليلة في قصائده الأموية ، وكلما أوغلنا معه في  
 العصر العباسي أحسنا بنموها ، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن

(١) الريح . ثعالبه : أطرافه .

(٤) مثالبه : معايبه .

(٥) النقع : غبار الحرب .

(٦) سبائبه : أعلامه وراياته .

(٧) أغاني ١٤٢/٣ .

(١) دب : مشى في استخفاء .

(٢) المثقف : الريح المقوم . الأبيض :

السيف .

(٣) يزحف : يهجم . بالحصى أي أنه

كالحصى كثرة . الشوك هنا : السلاح . الخطي :

المقدمات الطلية مكثفياً بالغزل . ولما أمره المهدي بالكفّ عن الغزل الماخن أخذ يردد - كما أسلفنا - في مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولاً على مشيئته . وكان قد وصف السفينة في إحدى (١) مدائحه لابن هبيرة ، ونراه يعود إلى ذلك مراراً في بعض مدائحه (٢) للمهدي ، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطلية القديمة مقدمة جديدة من بيئته . وقد عكف على معاني المديح القديمة بولّد فيها ويفرّع ويستتبط دقائق كثيرة من مثل قوله في خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر (٣) :

إذا جثته للحمد أشرق وجهه وإليك وأعطاك الكرامة بالحمد  
مفيدٌ ومتلافٌ سبيلُ تراثه إذا ما غدا أوراخ كالجزر والمد (٤)

وقوله في عمر بن العلاء قائد المهدي الذي قضى على ثورة الحرّمية بيجرجان (٥)

فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم  
يلدّ العطاء وسفك الدماء ويغدو على نغم أو نغم  
ويقرن دائماً في مديحه للقواد والولاية الشجاعة إلى الكرم الفياض ، ويستتبط منهما دقائق كثيرة مستلهمًا لطائف عقله ودقائق تصويره ، من مثل قوله في مديح عقبة بن سلم وإلى البصرة (٦) :

إنما لذة الجواد بن سلم في عطاء ومركبٍ للقاء  
كخراج السماء سببٌ يديه لقريبٍ ونازح الدار نائي (٧)  
ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلدّ طعم العطاء  
يسقط الطير حيث ينتثر الحبوب وتغشى منازل الكرماء  
لا يهاب الوغى ولا يعبد الما ل ولكن يهينه للشناء

(٥) المختار من شعر يشار إلخالدين ص ٧٧ .

(٦) الديوان ١١١/١ والأغانى ١٨٩/٣ .

(٧) خراج السماء : الغيث . السيب : العطاء .

(١) الديوان ١٤٧/١ .

(٢) الديوان ٢٨٣/٢ ، ٢٨٠/٣ .

(٣) أغاني ١٩٢/٣ والديوان ١٢٥/٣ .

(٤) التراث هنا : المال مطلقاً .

أَرْيَحِيُّ لَهُ يَدٌ تُمَطِّرُ النَّيْلَ لَ وَأُخْرَى سُمُّ عَلَى الْأَعْدَاءِ (١)

وواضح أنه يجعل لذته في الكرم والشجاعة، ويصور كرمه واسترساله فيه بالغيث الذي لا مفر من سقوطه على القرييين والنائين . ويجرّد عطاءه عن الغايات ، فهو لا يعطي خوفاً من هجاء ولا رجاء في مديح ، وإنما يعطي لأنه يجد لذة في العطاء من حيث هو ويجد فيه استرواحا . ويتمثل عكوف السائلين على بابهِ بسقوط الطير على الحب . ويصف شجاعته ويقول إنه لا يهاب الموت ، وإنه لا يزال يبذل ماله كأنه يريد أن يهينه لمن يثنون على صنيعه . ويصوره مرسلًا نداءه على السائلين وصواعق الموت على الأعداء الباغين . وتتضح في هذه القطعة خصائصه ، فهو يحاول أن يستقصى المعاني عارضاً لها في وجوه شتى تصور دقة فكره وطرافة أخيلته ، مستعيناً بالمقابلة والطباق وبيعض الحكم كما في البيت الرابع . وقد أفرد للحكم قصيدة خاصة (٢) .

ولم تُؤثّرْ لبشار مرث كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمساً في اللهو وأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهز نفسه هزاً حين فقد ابنه محمداً ، وفيه يقول (٣) :

أَصِيبَ بُنْيٍ حِينَ أَوْرَقَ غُضْنُهُ      وَأَلْتِي عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ  
وكان كَرِيمًا حَانَ الْعُرُوسُ تَخَالُهُ      ذَوَى بَعْدَ إِشْرَاقِ الْغُصُونِ وَطِيبِ  
وما نحن إلا كالخليط الذي مضى      فرائس دهر مخطىء ومصيب  
نؤمل عيشاً في حياة ذميمة      أَضْرَّتْ بِأَبْدَانِ لَنَا وَقُلُوبِ

وزراه يحزن حزناً عميقاً على أصدقائه من الزنادقة الذين فتك بهم المهدي فتكاً ذريعاً ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذي ينتظره ، وقد مرت في الفصل السابق قطعة يرثي بها صديقاً منهم ، وكأنه يرثيهم جميعاً وقد ندبه بها أحرّ ندب وأشجاء . وروى له أبو الفرج ميمية رثى بها خمسة من أصدقائه تقطر أسى وحزنا، ولانشك

(٢) الديوان ٢٥٢/١ .  
(٣) الديوان ٢٥٤/١ والأغاني ١٦١/٣ .

(١) أريحي : كريم يهز للندي . النيل :  
العطاء .

في أنهم جميعاً قتلوا على الزندقة ، إذ نراه فيها جزعا أشد الجزع ، مُلتاعاً أشدّ  
الالتباع على شاكلة قوله (١) :

كيف يصفونى النعيمُ وحيداً والأخلاءُ في المقابر هاماً (٢)  
نَفِسْتَهُمْ عَلَى أُمِّ المنايا فَأَنَا مَتَهُمْ بعنفٍ فناموا  
لا يَغِيضُ انسجامُ عيني عليهم إنما غاية الحزين السَّجَامُ (٣)

والرثاء عنده — على كل حال فن طارئ ، وكانت وراءه فنون أخرى عاش  
لها حياته ، ونقصد فنون الفخر والهجاء والغزل والمجون . وقد بدأ حياته مفاخرأ هاجباً ،  
مستلهماً ما شاع في بيئة البصرة من الفخر والهجاء على لسان جرير والفرزدق ومن  
كان حوّلها من الشعراء . وحاول أن يدخل في معاركهما ، وهو لا يزال غَضَّ  
العود ، فهجا جريراً مؤملاً أن يردّ عليه فيطير اسمه في الناس ، ولكن جريراً لم يحفل  
به لأنه كان لا يزال فتى ناشئاً ، ولم يردّه عدم احتفال جرير به عن الميدان ،  
فقد أخذ يصول ويجول في هجاء الناس ، ودخل في الخصومات القبلية بين عشيرته من  
بنى عَقْبِيلِ القيسية وغيرها من العشائر . ولما تفاقم شره شكاه الناس إلى أبيه ،  
ولكنه ازداد شراً وإيذاءً ، كما مر بنا في صدر ترجمته .

وعوامل مختلفة جعلت بشاراً يسرف في هجائه وفخره ، من ذلك أنه كان يريد  
أن يشتهر في هذين الفنين شهرة جرير والفرزدق ، ومن ذلك أن نفسه كانت تنطوي  
كما أسلفنا على غير قليل من المرارة بسبب فقد لبعصره ، وهى مرارة زادها اضطراباً  
في نفسه أنه كان مولى ، والمولى كانوا متخلفين في المجتمع الأموى ، وكان فقيراً  
بائساً ، فاندلع بنفسه بفخره وهجائه عن قروحه النفسية ولكن بمن يفخر ؟ أما في  
العصر الأموى فقد مضى يفخر بعشيرته وأصولها من قيس ، وكان مما أشعل هذا  
الفخر في نفسه أن الخليفة حينئذ — وهو مروان بن محمد — كان قيسى الهوى ،  
وأن والى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفرارى كان يتعصب لأصوله من قيس  
تعصباً شديداً ، وكان بشار يعيش في كنفه ، فضى آنذاك يفتخر بقيس ومضر

(٣) يفيض : يحف . السجام : سيلان  
الدمع .

(١) أغاني ٢/٢٣٦ .  
(٢) هام هنا : أموات .

افتخاراً يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا في قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله (١):

إذا ما غَضَبْنَا غَضْبَةً مُضْرِبَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمْطِرَ الدَّمَ  
 إذا ما أَعْرَضْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمًا  
 . وإذا مضينا معه إلى العصر العباسي ، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصية الجنسية ، فإذا هو يفاخر العرب بماضى قومه التليد ، وإذا هو يتحول شعوبياً مارقاً يتغنى بأجداد قومه الحضارية كافرأ بالعرب والعروبة ، وتصوّر هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته (٢):

هل من رسولٍ مخبرٍ عنى جميعَ العربِ

وهي صياح وضجيج بتصوير أبهة الملك الفارسي وأيضاً الملك الرومي ، إذ زعم أن الروم أخواله ، هاتفاً هتافاً مقذعا بالعرب ومعيشتهم البدوية الحشنة . واصطدم بشار بكثير من الشعراء ، وجرّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيراً وخاصة من حماد عجرد الذي سلقه بلسانه ، وأصلاه بناه ، مما جعل معارك هجائية عنيفة تنشب بين الواعلين على نحو ما مر بنا في الفصل السابق وهي معارك كانت تُسْتَخْدَمُ فيها غالباً مقطوعات قصيرة ، تشبه أدقّ الشبه سهاماً مسمومة ، وقد اختلفت أنواع السموم التي كانا يغمسانها فيها ، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير ، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات ، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة . وما نسوقه من ذلك قول بشار في أم حماد (٣)

إذا سُئِلْتُ لِمَ تَكُنْ كَرَّةً وَلَكِنْ تَذُوبٌ وَلَا تَجْمُدُ

وراء هذا البيت في القصيدة أبيات يصرح فيها بفجورها وغوايتها تصريحاً تتفرّز منه النفس الكريمة .

واشتهر بشار بالتمنن في الغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نُظِمَ في هذا الفن قديماً من التشبيب والنسب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادى عند عمر بن

(٣) الديوان ١٢٣/٣ .

(١) أغاني ١٦٢/٣ .

(٢) الديوان ٣٧٧/١ وانظر ٢٢٩/٣ .

أبي ربيعة وأضرابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العذري عند جميل وأمثاله من النجديين والنازليين ببوادي الحجاز . وقد مضى في ذلك كله يستلهم الرقي العقلي الحديث والحضارة المادية التي تنفّس فيها ، ونزاه أحياناً يقرب اقتراباً شديداً من القدماء ، حتى ليتحدث عن الأطلال والرسوم في مثل قوله (١) :

لَعْبَدَةٌ دَارٌ مَا تَكَلَّمْنَا الدَّارُ تَلُوحُ مَغَانِيهَا كَمَا لَاحَ أُسْطَارُ<sup>(٢)</sup>  
 أَسْأَلُ أَحْجَارًا وَنُؤْيًا مَهْدَمًا وَكَيْفَ يَجِيبُ الْقَوْلَ نُؤْيٌ وَأَحْجَارُ<sup>(٣)</sup>  
 وَمَا كَلَّمْتَنِي دَارَهَا إِذْ سَأَلْتُهَا وَفِي كَبِدِي كَالنَّفْطِ سُبَّتْ بِهِ النَّارُ  
 وَعِنْدَ مَغَانِي دَارِهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ لَمَكْتَسِبِ بَادِي الصَّبَابَةِ أَخْبَارُ  
 وَيَقْتَرِبُ أَيْضًا حِينَ يَسْتَغْلُ عُنَاصِرَ النَّسِيبِ وَالغَزَلَ الْقَدِيمِ وَمَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ  
 وَصْفِ لَوْعَةِ الْحَبِّ وَالسَّهَادِ الطَّوِيلِ ، وَمَا صَوَّرَ عِشَاقَ الْعَرَبِ مِنْ إِذْعَانِهِمْ لِمَعشُوقَاتِهِمْ  
 وَمَا يَسْكُبْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ سِحْرِ وَفْتَنَةٍ ، وَمَا يَبْعَثُ نَسِيمَ الصَّبَا الْحُلُومَارَ بِدِيَارِهِمْ فِي  
 أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَرْدٍ وَأَمْنٍ وَغَبْطَةٍ وَمَا يَنْصَبُونَ حَوْطَنْ مِنْ شَبَاكَ التَّنْضَرِغِ وَالتَّذَلُّلِ وَالاسْتِعْطَافِ ،  
 حَتَّى لِيخِيلُونَ لِإِيهِنِ أَنْهَمُ قَتَلِي حَبِيهِنِ وَسَهَامِ عِيُونِهِنِ ، يَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَعشُوقَتِهِ  
 عَبَّسَدَةٌ<sup>(٤)</sup> :

أَبَيْتُ أَرَمَدًا مَا لَمْ أَكْتَحِلْ بِكُمْ  
 رَقَّتْ لَكُمْ كَبِدِي حَتَّى لَوْ أَنْكَمُ  
 كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا ذَكَرَاكُمْ عَرَضَتْ  
 مَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ أَرْضِكُمْ  
 يَرِقُّ قَلْبِي وَتَزْدَادِينِ لِي غِلْظًا  
 تَحْرَجِي بِالهُوَى إِنْ كُنْتِ مَوْمِنَةً  
 وَفِي اكْتِحَالِي بِكُمْ شَافٍ مِنَ الرَّمَدِ  
 تَهْوُونَ أَنْ لَا أُرِيدَ الْعَيْشَ لَمْ أُرِدِ  
 مِنْ سَحْرَهَارُوتَ أَوْ مَارُوتَ فِي عُقْدِ<sup>(٥)</sup>  
 إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدًا عَلَى كَبِدِي  
 مَا ذَاكَ فِيمَا أُرَجِّي مِنْكَ بِالسَّدَدِ<sup>(٦)</sup>  
 بِاللَّهِ أَنْ تَقْتُلِي نَفْسًا بِلَا قَوْدِ<sup>(٧)</sup>

(١) أغاني ٦/٢٤٦ .

(٢) مغانيها : منازل المهجورة . أسطار :

جمع سطر ، يشبه المغاني بسطور الكتابة .

(٣) النؤي : حفرة يخفونها حول الخيمة على

شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار .

(٤) انظر الديوان ٣١٥/٢ والمختار من شعر

بشارص ٨٢ .

(٥) العقد : ما ينقبه الساحر بزمزيمته لفرض

الحر .

(٦) السدد : السداد والصواب .

(٧) القود : القصاص .

وقد رقت الحضارة حسنه وفتحت له في الغزل أبواباً من المعاني والصور التي  
نمّ عن أثر البيئته وما شاع فيها من ترف مادي وشعور رقيق حاد ، وما يمثل ذلك  
عنده من بعض الوجوه قوله (١) :

يا ليلتي	تزداد	نُكْرًا	من حُبٍّ مَنْ أَحْبَبْتُ بِكْرًا
حَوْرَاءُ	إِنْ نَظَرْتُ	إِلَيْكَ	كَ سَقَتِكَ بِالْعَيْنِينَ خَمْرًا
وَكَأَنَّ	رَجَعَ	حَدِيثَهَا	قِطْعُ الرِّيَاضِ كُوسِينَ زَهْرًا
وَكَأَنَّ	تَحْتَ	لِسَانِهَا	هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سِحْرًا
وَتَخَالَ	مَا جَمَعْتُ	عَلَيْهِ	هَ ثِيَابَهَا ذَهَبًا وَعِطْرًا
وَكَأَنَّهَا	بَرْدُ	الشَّرَا	بَ صَفَا وَوَأْفَقَ مِنْكَ فِطْرًا
جَنِيَّةٌ	إِنْسِيَّةٌ	أَوْ	بَيْنَ ذَلِكَ أَجَلٌ أَمْرًا

وواضح في هذه القطعة أثر فقدته لبصره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم  
والسمع واللمس والحس ، فهو يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض  
ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر ، ويصور جسدها ذهباً وعتراً ، أما ما ينم  
به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائماً يتحرق عطشا . وقلما ارتفع في  
غزله عن الحس والسمع والأذن ، ونوه بذلك كثيراً في شعره ، محاولاً أن يعتذر عن  
فقدته لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر ، ومن ثمّ مضى يردد في أشعاره أن السمع  
يحلّ محلّ العين في تقدير الجمال والإحساس التام به ، من مثل قوله (٢) :

يا قومُ أذني لبعض الحَيِّ عاشقَةٌ والأذُنُ تعشق قبل العين أحياناً  
قالوا بمن لا ترى تهدي؟ فقلت لهم الأذُنُ كالعين تُوفِّي القلب ما كانا

وكان لذلك أثر عميق في غزله إذ طبعه بطوايع الحس ، وليس ذلك فحسب ،  
فقد أماله بشار - كما أسلفنا - نحو الإفصاح في وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحاً  
بثّ فيه كل ما استطاع من فحش وإثم وفسق ، لا يتحرج ولا يرمى ديناً ولا خلقاً ،



حتى ليصور جانبه الحيواني الجشع ، عامداً إلى التفصيل أحياناً <sup>(١)</sup> ، وأحياناً إلى الإجمال بمثل قوله <sup>(٢)</sup> :

فَبِتْنَا مَعاً لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَى الصَّبْحِ دُونَ حَاجِبٍ وَسْتَوْرٍ  
وقد مضى يحضّ حصّاً صريحاً على الإثم ويغري الناس بفتنة الجسد ، وكأنما لم يعد لجمال المرأة عنده من معنى نفسى سام ، فقد رُدَّ جمالها كله إلى جسدها وأصبحت في رأيه أداة للغريزة الجنسية ، أداة طيبة تنال مهما تأبّت واستعصت ، إذ لا تلبث أن ترضى وأن تُبْلِغَ الرجل منها ما يريد ، يقول <sup>(٣)</sup> :

لَا يُؤَيِّسُنْكَ مِنْ مَخْبِئَةٍ قَوْلٌ تَغْلُظُهُ وَإِنْ جَرَحَا  
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مِيَاسِرَةٍ وَالصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

ويحاول أن يبرر المعصية ، فيحلّ القبلية ، ويغري باجتناء زهرات الجسد واقتطاف ثمراته ، بل خطيئاته ، دون التفات إلى الناس وإلى عرفهم وألستهم ، فالحياة فرص واستمتاع جسدى ، بل هجوم على هذا الاستمتاع وما يُطوَى فيه من لذة وإثم ، يقول <sup>(٤)</sup> :

قَالُوا حَرَامٌ تَلَاقَيْنَا فَقُلْتُ لَهُمْ مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ  
مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكِ اللَّهْجُ

ومن أجل ذلك كله ضاق به الوعاظ وأهل الصلاح وهتفوا به في وعظهم وكلامهم ، ولم يرعوا فرفعوا أمره إلى السلطان ، وتدخل المهدي ونهاه فانتهى ، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن شاع غزله الفاجر على كل لسان ، وكان مما هياً لذلك تعلق الجوارى والقيان بهذا الغزل وتغنيهن فيه ، وكان جمهورهن مثل بشار لا يعصمن خلق ولا عرف ولا دين ، وكان قد انغمس بعض الناس في اللذات . وقد يكون من المبالغة أن نجعل بشاراً وحده المسئول عن شيوع هذا الغزل العاهر ، فقد كان يشركه فيه الحجان من حوله في البصرة والكوفة وبغداد ، ولكنه على كل حال يعد

(٣) أغاني ٢٠٩/٣

(٤) أغاني ٢٠٠/٣

(١) أغاني ١٨٣/٣ وما بعدها .

(٢) المختار من شعر بشار ص ٢٤١ .

في طليعة من رَوْجوا له بحكم خصب ملكاته الشعرية . وقد مضى يكثر من وصف مجالس اللهو والغناء ، وله مقطوعات بديعة يصور فيها غناء بعض القيان ومدى ما كنَّ يخلبن به الألباب من غنائهن وضربهن على آلات الطرب<sup>(١)</sup> ، وقد تغنى طويلا بالخمير وكتوسها ودنانها ونُدْمانها وسُقَاتها من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

رَبِّ كَأْسٍ كَالسَّمْسِبِيلِ تَعَلَّدُ	تُ بِهَا وَالْعَيُونَ عَنِ نِيَامٍ
حُبِسَتْ لِلشُّرَاةِ فِي بَيْتِ رَأْسٍ	عُتِّقَتْ عَانِسًا عَلَيْهَا الْخِتَامُ <sup>(٣)</sup>
نَفَحَتْ نَفْحَةً فَهَزَّتْ نَدِيمِي	بِنَسِيمٍ وَانْشَقَّ عَنْهَا الزُّكَامُ
وَكَانَ الْمَعْلُولَ مِنْهَا إِذَا رَا	حَ شَجَّ فِي لِسَانِهِ بِرِسَامٍ <sup>(٤)</sup>
صَدَمْتَهُ الشُّمُولُ حَتَّى بَعِينِي	هَ انْكَسَارًا فِي الْمَفَاصِلِ خَامٍ <sup>(٥)</sup>
وَهُوَ بَاقِي الْأَطْرَافِ حَيَّتْ بِهِ الْكَأُ	سَ وَمَاتَتْ أَوْصَالُهُ وَالْكَلامُ <sup>(٦)</sup>

وهو يصور صفاءها وقدمها وشذاها الذي يشق الزكام ، وتأثيرها الجسدى في الشارب وما تصيبه به من هذيان ومن فتور في العيون وارتخاء في المفاصل ، ثم ما تنزل به من هدوء وسكون وصمت حتى لكأنما ماتت أوصاله ومات الكلام . وهو يتصل في وصفه للخمير بترائها القديم عند الأعشى وأضرابه وما أضيف إليه عند الوليد بن يزيد ونظرائه ، في الوقت نفسه يُعَدُّ مقدمة للماجنين من حوله ومن بعده لكي يزيدوا في الطنبور ما شاءوا من أنغام وألحان .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بشارا تمسك بالتراث الفنى وأصوله التقليدية وكيف مضى ينمي ويلائم بينه وبين حياته العقلية الحصبة وما عاش فيه من حضارة مادية حفَّ بها المحجون . وقد حاول ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، أن يجدد في شكل القصيدة ، فنظَّم في الرباعيات وفي المزدوج والمسلمات ، غير أنه ظل محتفظًا للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة ، وقد يرقَّ ويلين ، ولكن دون

يريد الهذيان نفسه .  
(٥) الشمول : الخمر . خام هنا : ارتخاء ،  
وأصله طاقات الزرع الفضة .  
(٦) حيث : حيث .

(١) أغاني ١٦٥/٣ .  
(٢) أغاني ٢٣٥/٣ .  
(٣) بيت رأس : من قرى فلسطين وتشتهر  
بالكروم والخمر .  
(٤) البرسام : مرض يصحبه هذيان ، وهو

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهاً دقيقاً وكل ما يتصل بلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

## ٢

## أبو نواس (١)

إذا مضينا بعد بشار إلى الجليل الذي خلفه رأينا تأثيره بالحضارة الفارسية المادبة يزداد اتساعاً كما تزداد ثورته على العرف والخلق والدين الحنيف ، حتى لتتحول في بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبيعي أن ذلك لم يكن عاماً بحيث يشمل الجليل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يسرى بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المحبون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فإلى دورهم التي حولوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلطان .

وأبو نواس الحسن بن هاني هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسي الأم والأب أيضاً ، وقد انبهم أمرأيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة اليمنين ويتكئى بكنية يمنية هي أبو نواس ، وكذلك حين رأوا في أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربي ، وتمادوا فصنعوا له نسبا في بني سعد

منظور ولأبي هفان وأبو نواس لعبد الرحمن صدق وله أيضاً في خمرياته كتاب الخان الخان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبو نواس الحسن بن هاني » للعقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه في حديث الأربعاء الجزء الثاني وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

(١) راجع في أبي نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٣ والأغاني (طبع الساسي) ٢/١٨ وتاريخ بغداد ٤٣٦/٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٥٤/٤ وابن خلكان في الحسن بن ابن هاني ونزعة الألبا ص ٩٩ وشذرات الذهب ٣٤٥/١ ومراة الجنان ٤٤٩/١ والموشح للمزباني ص ٢٦٣ وأخبار أبي نواس لابن

العشيرة<sup>(١)</sup> . والصحيح أنه كان مولى فارسياً من موالى الجراح بن عبد الله الحكمي<sup>(٢)</sup> والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم في جند الخلافة<sup>(٣)</sup> ، وقد نزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧-١٣١ م) وهناك تعرف على جارية فارسية تسمى جليبان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورزق منها عدة أولاد<sup>(٤)</sup> ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة في السنة التي ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة<sup>(٥)</sup> ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن وأطرافاً من الشعر ، وتفتحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحاً صبيحاً<sup>(٦)</sup> ، ويقال إن صبية وضيفة الوجه مرت به فازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضضة ، فقال على البديهة من أبيات<sup>(٧)</sup> :

ليس ذاك العُص من عيبٍ لها إنما ذاك سؤالٌ ليلقبَلُ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب في العشي إلى المسجد يستمع من أبي عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبي زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نواذر الشعر<sup>(٨)</sup> وساقه القدر ليتعرف على والبة بن الحباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت في البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكذ تقع عينه على أبي نواس حتى استظرفه ، فحشّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فضى معه<sup>(٩)</sup> ، ويقال إن الذي أرغبه

(١) انظر أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٣.

(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجي)

ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبو هفان

ص ١٠٩ ، ١٢١ .

(٣) وقيل: بل كان كاتباً من كتاب الجراح

وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .

(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤

وما بعدها .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور

ص ٥ .

(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز

ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصري ص ٩٤ .

(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .

(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبو هفان

ص ١٠٩ .

(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧

وما بعدها وتاريخ بغداد ٤٨٧/١٣ . وأبو هفان

ص ١٠٩ .

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله (١):

ولها ولا ذنبٌ لها حُبُّ كَأَطرافِ الرماحِ  
في القلبِ يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحي

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه - فما بعد - في الحجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه في البصرة (٢) ، فارتحل معه ، وأخذ يَعْبُثُ من الخمر كي ينسى أمه ، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد وقع في حبال شيطان كبير ، غمسه في كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مَجَان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عَجْرَد ، وكأنا كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والحجون لعصره . وثاب قليلا إلى رشده ، فخرج إلى بادية بني أسد ، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة (٣) ، وعاد ، ولكنه ولَّى وجهه نحو موطنه ، وأخذ يفد على المربد بالأواحه للقاء الأعراب الفصحاء (٤) ، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذي حثّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه ، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعاً ، وفيه يقول في بعض مراثيه له (٥):

أودَى جِماعُ العلمِ إذ أودَى خَلْفٌ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ  
كنا متى ما نَدُنُّ منه نَعْتَرِفُ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفِ

ولم يكنف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: « كان عالماً فقيهاً عارفاً بالأحكام والفتيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه » (٦) . وطلب أيضاً علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين ، ومرّ بنا في الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم في أشعاره ، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلماً ثم انتقل إلى نظم الشعر (٧) . وقد وصله هذا العلم

(٥) الديوان ص ١٣٣ .

(٦) ابن المعتز ص ٢٠١ .

(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨ .

(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) ابن منظور ص ١٢ .

(٤) الحيوان ٢٣٩/٦ .

بالثقافات التي كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية ، ولا شك في أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقاً فقد كان فارسي الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها في أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضاً لا بد أنه نظر في الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم ثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن في هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة » (١) . وفي خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس الجوس واليهود والنصارى وعقائدهم (٢) . وتفرد للواد والملاح وحفظ منها شيئاً كثيراً (٣) ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفاً (٤) ، مما أعدّه لتكثر مطايباته ومداعباته ، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكي ، فيقول: (٥)

كم من حديثٍ معجبٍ لي عندك      لو قد نبذتُ به إليك لسرّاً  
إني أنا الرجلُ الحكيم بطبعه      ويزيد في علمي حكاية من حكى  
أتبع الظرفاء أكتب عنهم      كما أحدثت من أحب فيضحكا  
وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التي عاصرته ، فقد كانت تزدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حباً ، وهو لا يزال في البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء ؛ جنان جارية الثقفين ، وعقد أبو الفرج فصلاً في أغانيه (٦) لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسببها وشتمها ، وهو يزداد بها شغفاً ، حتى يقول (٧) :

أتاني عنك مَبْكٌ لي فُسبِي      أليس جرى بِفِيكَ اسمي فحَسْبِي  
وقُولي ما بدالكِ أَنْ تقُولي      فما ذا كُلُّهُ إِلَّا لِحْبِي  
وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبت به بغداد فيمن جذبت من شعراء

(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .  
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .  
(٦) أغاني (طبع الساسي) ٢/١٨ وما بعدها .  
(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

(١) الحيوان ١٣٤/٢ .  
(٢) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٣ وأبا هفان ص ٢٥ والديارات للشابثي (طبع بغداد) ص ١٣١ .  
(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكيًا عليه ولا آسفًا ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق في علاقته بيجنان وعلاقته بالرفاق حتى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفي ذلك يقول (١) :

أيا من كنت بالبَصْرَ ة أصفى لهم الوُدَا  
ومن كانوا موالئ ومن كنت لهم عبدا  
ومن قد كنت أرحاه وإن ملَّ وإن صدًا  
شربنا ماء بغدادٍ فأنساناكم جدًا  
فلا ترعوا لنا عهدا فما ترعى لكم عهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها في مباله ، غير تارك حانة الكرخ أو في ضواحي بغداد إلا ارتادها ، ملمًا من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثة على شواطئ دجلة ، وكأما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر (٢) ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُردّ له حريته . وقد غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمانيين ، فأطال حبسه (٣) ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر في هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من برّهم ونوالهم الغمّر ، ونراهم يحزن عليهم حزناً عميقاً حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله (٤) :

لم يظلم الدهرُ إذ توالّت فيهم مصيباته دراكَا  
كانوا يجيرون من يُعادي منه فعاداهمُ لداكَا

ويولّي وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصب بن عبد الحميد ، وكان فارسياً مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضفى عليه من

(٣) ابن منظور ص ١٥ .

(٤) أبو هفان ص ١٢١ .

(١) الديوان ص ١٦٦ .

(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشع ص ٢٨٧ .

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول (١) :

أنت الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتدققا فكلكما بَحْرُ  
النيلُ يُنعشُ ماؤه مبصرًا ونداك ينعشُ أهله الغمْرُ

وسرعان ما أخذ يحنُّ حينئذٍ شديداً إلى بغداد حيث المحجون قائم على قدم وساق ،  
وصورٌ هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله (٢) :

كفى حَزْناً أُنَى بفسطاط نازحٌ ولى نحو أكناف العراق حنين

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفي وخلفه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديماً له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغل ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتباً بعبويه تُقرأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني' ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاسقيني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تَسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ  
وُبُحْ باسمٍ من تَهْوَى ودَعْنَى من الكُنَى فلا خَيْرَ في اللذات من دونها سِتْرُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبي نواس في المحجون . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم يته ، حينئذٍ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى في حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشبعاً فيها روحه الفكهة بما يُصوّر من نسكه وعلامات السجود في جبهته وحمله للمسابيح أو السُّبُح في ذراعه وللمصحف في لَبَّتِهِ (٣) . وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردَّ إليه

(٣) الديوان ص ١٠٨ .

(١) الديوان ص ١٠٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .



حربته<sup>(١)</sup> . وكانت قد تقدمت به السن<sup>٤</sup> وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُسبب إلى ربه ، وينظم أبياتاً مختلفة في الزهد ، وفي أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غيبته ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلْقَى به في السجن ، إذ يقال إنه حج سنة ١٩٠ للهجرة<sup>(٢)</sup> ، وكأنما هي صحوات كان يفتق فيها ثم يرجع إلى خطاياها . وتوفى الأمين ، ولم يلبث أن توفى من بعده ، وقد اختلف الرواة في تاريخ وفاته<sup>(٣)</sup> ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفى بعد المائتين بقليل وفي ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضاً في سبب وفاته<sup>(٤)</sup> ، فقيل إنه توفى وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض ، فلدس له شربة من سم قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دس له من ضربته حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت في تكوين طبيعة أبي نواس ، فقد كان فارسياً حاد المزاج وثقف كل الثقافات التي عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق في حضارة عصره المادية وفي آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة لإزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المحون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وتردّى في أسوأ صور المحون ونقصد غزله الشاذ بالغلمان . ونراه أحياناً يعلن تمرداً وإلحاداً في الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كالإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقاً ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتقد الزندقة إنما كان يعتقد المحون ، ويتعبد للملاذ الحاضرة التي عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقاً عن خمرة ومجونه وإيمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

١٥٦/٢ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء

ص ٧٨٣ .

(٤) أبو هفان ص ٣٤ .

(١) زهر الآداب ١١١/٢ وما بعدها وذيل

زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء

والكتاب للجهشياري ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبو هفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة

أشد الاضطراب تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور<sup>(١)</sup> وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرّ بنا في الفصل السابق وحواره للنظام في فكرة العفو التي قال بها المرجئة<sup>(٢)</sup> .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهماً في مزاجه هو عنصر التندير والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذي جرّه إلى صباح كثير في وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نزّأ بي المحزون حتى أتناول العظام<sup>(٣)</sup> » وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصباح إنما كان ينظمه في أثناء معاقبته للخمر هزلاً وتعايلاً وبجاجة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته في خمرياته ، إذ نراه في ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعاً ومضى يقدم لمذائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار ونسّعت رحلته في الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس — على الرغم من مجونياته — يُعَدُّ من أعاجيب عصره في الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بدیعة ، وهي ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبي نواس<sup>(٤)</sup> » وأضاف إلى هذا العلم علماً دقيقاً بقوالب الشعر الجاهلي والإسلامي وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو في اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعية دون أن يشتط في التجديد ، واتجاه يجدد فيه تجديداً واسعاً ، يجدد في معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلک في الاتجاه الأول مذائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلک في الاتجاه الثاني أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهو . أما المديح

(٣) أبو هفان ص ٣٨ .  
(٤) تاريخ بغداد ٧/٤٣٧ .

(١) أبو هفان ص ٣٧ .  
(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله في ذلك قلائد بديعة مثل رائيته في الخصب (١) :

أجارة بَيْتِنَا أَبوكِ غَيْرُ وَميسورُ ما يُرَجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ  
وميمته في الأمين (٢) :

يا دارُ ما فعلتُ بكِ الأيَّامُ لم تُبَقِ فيكِ بِشاشةً تُستامُ (٣)  
ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار في وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه في المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله في الرشيد (٤) :

وأخضتْ أهلَ الشُّركِ حتى إنه لتخافكِ التُّطْفُ التي لم تُخَلِّقِ  
وقوله أيضاً فيه (٥) :

ملكٌ تصوّرَ في القلوبِ مثالُهُ فكأنه لم يَخُلُ منه مكانُ  
وقوله في الأمين مخاطباً ناقته (٦) :

يا ناقُ لا تَسامَى أو تبُلغِي ملكاً تقبيلُ راحته والرُّكنِ سيانِ  
محمدٌ خيرٌ من يَمْشِي على قَدَمِ مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنسٍ ومن جانِ

وزاه في هذه القصيدة يضي على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى يشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردّى فيه من لؤو ومجون ، واستطرد في تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين في الخلافة راداً رداً عنيفاً على بنى عمهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله في بعض ممدوحيه (٧) :

تَغَطَّيْتُ من دَهري بظِلِّ جناحِهِ فَعَبَّيْتُ ترى دَهري وليس يراي  
فلو تُسألُ الأيَّامُ ما اسمي لمادرتُ وأين مكاني ما عرفنَ مكاني  
وجانب آخر في بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

(٥) الديوان ص ٥٩ .  
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .  
(٧) الديوان ص ٩٧ .

(١) الديوان ص ٩٨ .  
(٢) الديوان ص ٦٣ .  
(٣) تستام : ترى  
(٤) الديوان ص ٦٢ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التي تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائح على شاكلة سينيته في الأمين وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

أضحى الإمام محمدٌ للدين نوراً يُقْتَمِسُ  
تبيكى البدورُ لضحكهِ والسيفُ يضحك إن عَبَسَ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف ، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفها في النطق وأحلاها في السمع ، وكان يدنو في ذلك حتى يمس شغاف القلوب ، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجري على ألسنة الناس في حياتهم اليومية . ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء ، حتى في المديح ، أو قل في كثير منه ، فإنه كان يبتغي فيه أو على الأقل في بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة .

وأبو نواس في أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكاً بالقوالب القديمة ، وقد سبقه ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، أبو نُخَيْلَةَ وأضرابه من شعراء العصر الأموي مثل الشَّمْرَدَك إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف ، ومضى في إثرهم يحاكيهم في التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب . وقرآن بهذه المحاكاة الشديدة ضرورياً من التجديد في المعاني والصور على شاكلة قوله في إحدى طردياته<sup>(٢)</sup>:

لما تبدى الصُّبْحُ من حجابهِ كطلعة الأشمط من جلبابهِ<sup>(٣)</sup>  
وانعدل الليلُ إلى مآبهِ كالحبشيُّ افتترَّ عن أنيابهِ  
هَجْنَا بكلب طالما هَجْنَا بِهِ يَنْتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلَابِهِ<sup>(٤)</sup>  
كَأَنَّ مَتْنِيهِ لدى انْسِرَابِهِ مَتْنُ شَجَاعٍ لَجَّ في انْسِيَابِهِ<sup>(٥)</sup>

(٤) ينتسف : يتزع بقوة .

(٥) انسراه : انسيابه وإسراعه . الشجاع

هنا : الأقمي ، متناه : مكتنف صلبه .

(١) ابن المعتز ص ٢١١ .

(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٤٠/٢ .

(٣) الأشمط : الذي يخالط سواد شعره بياض

الشيب .

كأنما الأظفورُ في قنابه      موسى صناعٍ رُدَّ في نصابه<sup>(١)</sup>  
 كأن نسرًا ما توكلنا به      يعضو على ما جرَّ من ثيابه<sup>(٢)</sup>  
 ترى سوام الوحش يُحتوى به      يرُحْنَ أسرى ظُفْرِهِ ونابه<sup>(٣)</sup>

وتمتلي طردياته بمثل هذه الصور ، وهي تُعدُّ ركنا هامًا في شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يحدد فيها وكيف يأتي بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوبًا جزلا مصقولًا ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظًا بالأسلوب الرصين . وهو في مراثيه يمتاز بجملة من اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعًا مراثيه في الأمين ، وهي تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ      وليس لما تطوى المنيةُ ناشرُ  
 فلا وصلَ إلا عبْرَةٌ تستديهما      أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرَ ذاكِرُ  
 وكنت عليه أحذر الموت وحده      فلم يبق لي شيءٌ عليه أحاذرُ  
 لئن عمرتُ دورٌ بمن لا أودُهُ      لقد عمرتُ ممن أحبُّ المقابرُ  
 ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التي نظمها في السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع<sup>(٥)</sup> .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ في كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة ، فإنه حاول أن يحدد في الهجاء والغزل والمجون ، وأهاجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين<sup>(٦)</sup> وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق ، فهي تعجّ بالمثالب

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه .  
 صناع : ماهر . نصابه : قرابه وبقبضه .  
 (٢) توكلنا به : اعتمادنا عليه . يعضو : يمحو .  
 (٣) سوام الوحش : الوحش المنطلقة في الفياق .  
 (٤) الديوان ص ١٢٩ .  
 (٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .  
 (٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

القبلية التي عرفها في نقائضهما والتي طالما سمعها من أبي عبدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجري فيه في نفس الدروب التي مهّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التي كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته - إن صح هذا التعبير - من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجري فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفاً ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله (١) :

عاج الشقّي على رسمٍ يسائلُهُ      وعُجّت أسألُ عن خمّارة البلدِ (٢)  
 يبكي على طلل الماضين من أسدٍ      لا درّ درّك قل لي من بنو أسدٍ؟  
 كم بين ناعمتِ خمرٍ في دساكرها      وبين بالكِ على نُويٍ ومنتضدِ (٣)  
 دَعْ ذا ، عَدِمْتَكَ ، واشربْها معتقّةً      صفراءَ تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك - كما ذهب بعض المعاصرين (٤) - شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان في التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكأها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء ومن كان يمدحهم ويرعى على موائدهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله (٥) :

خُبِرُ إسماعيل كالوئدٍ      ي إذا ما انشَقَّ يُرْفَا  
 عجباً من أثر الصنْدِ      عَجْ فيه كيف يخفى

منتضد: مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبية .  
 (٤) حديث الأربعماء (طبعة سنة ١٩٣٧)  
 ص ١١٣ - ١١٤ .  
 (٥) الديوان ص ١٧٢ .

(١) الديوان ص ٢٦٦ .  
 (٢) عاج : عطف .  
 (٣) الساكر : جمع دسكرة وهي القرية العظيمة . النوي : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ،

إِنْ رَفَاءَكَ هَذَا أَلْطَفُ الْأُمَّةِ كَفَاءً

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشي ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء يقدر جوائزهم ، فبَحَسَسَه جَائِزَتَهُ (١) ، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبي نواس أن ينقل لهم كليله ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يحشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستغنى منه ، وتخلَّى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلا . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونشبت بينهما خصومة عنيفة (٢) ، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام (٣) ، وكان من أشد ما هجاه به على نفسه نعتة له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول في إحدى أهاجيه مصورا ثقله (٤) :

فِيكَ مَا يَحْمَلُ الْمَلُوكَ عَلَى الْخُرِّ      قِ وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحَّجَاحِ (٥)  
فِيكَ تَيْبُهُ وَفِيكَ عُجْبٌ شَدِيدٌ      وَطِمَاحٌ يَفُوقُ كُلَّ طِمَاحٍ  
بَارِدُ الظَّرْفِ مَظْلَمُ الْكُذْبِ تَيْبًا      هُ مُعِيدُ الْحَدِيثِ غَثُ الْمَزَاحِ

وكانت هذه الأبيات سبباً في سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعبيد لا يلقاه ولا يُذْكَرُ له إلا يجلُّه . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشي يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعاً ، فأتاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول (٦) :

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا      كُنْتُ بِأَهْجِي لَكَ مِنْ أَصْلَاكَ

وله أهاج كثيرة في القيان والمغنين ، وحتى مَنْ أكرموه مثل الخصيب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائماً يلتمس السيئات وكثيراً ما يُفْضِي إلى فحش وإفداع شديد .

ولأبي نواس غزل كثير في المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل في المرأة ما نظمه في جَنَّان ، إذ يعبر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .

(٥) الخرق : الحق . الجحجاج : الجواد .

(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .

(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردّه ردّاً منكراً عنيفاً ، وهو كلما ردّته ازداد بها غراماً وعليها تهاكأ ، وكلف  
بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رأها تندب في  
بعض المآتم<sup>(١)</sup> :

يا قمراً أبصرتُ في مآتمٍ      يَنْدُبُ شَجْوًا بين أترابِ  
أبرزه المآتمُ لي كارها      برغم داياتٍ وحُجابِ  
يبكى فيُنزِرِي الدرَّ من نرجسٍ      ويَلطِمْ الوَرْدَ بعُنبِ<sup>(٢)</sup>  
لا تَبْكُ مَيْتًا حلَّ في حُفْرَةٍ      وإيْكِ قتيلا لك بالبابِ  
لا زال موتاً دأبُ أحبابه      وكان أنْ أبصره دابِ<sup>(٣)</sup>

وعبثا استطاع يوماً أن يلقاها ، مما جعله يصطلي حقاً بحبها وناره المحرقة ،  
ويتعذب عذاباً طويلاً ، بثّه في كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التي  
استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شيء من أمره . ونراه في بغداد يسوق غزلاً كثيراً  
في إمائها وجواربها ، يشوبه بكثير من الفحش الذي ينبو عنه الذوق ، حتى مع  
عنان جارية الناطني ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطرحهم  
الشعر ، ممعنة معهم في كل ما يخوضون فيه من بذاءة نظرفاً ومعابثة<sup>(٤)</sup> . وديوانه من  
هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللاتي كان يجلبهن النحاسون إلى بغداد ،  
وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عرّفن شيئاً من العفة  
والطهارة .

ويتسع الفحش في غزل أبي نواس الشاذ بالغلمان ، حتى ليصبح وصمة في  
جبين عصره ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستّر بذلك عن فسقه الحقيقي  
بالجوارى الخليعات<sup>(٥)</sup> . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسّر نفسية أبي نواس  
على أساس هذه الآفة الشاذة التي كان يتظاهر بها ليخفي حقيقة سريره وحياته  
الماجنة . وينبغي أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه في حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيراً  
من غزله المفحش في الغلمان والنساء جميعاً كان ينظمه في مجالس الخمر تعابثاً

(٣) الدأب : الشأن والعادة .

(٤) المقد الفريد ٥٧/٦ .

(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

(١) أغاني ٦/١٨ والديوان ص ٣٦١ .

(٢) استعمار الدر للدمع والنرجس للبين والورد

للخد والعناب لأطراف الأصابع .



ومجانة ، على أننا كثيراً ما نقع في ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله (١) :

يا مَنْ له في عينه عَقْرَبُ فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ  
ومن له شمسٌ على خَدِّهِ طالعةٌ بالسَّعدِ ما تَغْرُبُ

وهو أستاذ فن الحمزية في الشعر العربي غير مدافع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شيء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمَّاه بشار ومطيع بن إياس والبالبة بن الحباب وعصاباتهم من المجان في البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الحمزية تتكامل صورتها وتُفَرِّدُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فناً مستقلاً ، له وحدته الموضوعية ، مستعينة في ذلك بملكاته العقلية الخصبه التي أمدته بكثير من المعاني الدقيقة ومستعينة أيضاً بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التي رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحياناً فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كثوسها ودنانها وعتقها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه وتهالكه على احتسائها من أيدي سقاتها بين آلات الطرب ورنات القيان ، يقول (٢) :

إنما العيشُ سماعٌ ومُدامٌ ونِدامٌ  
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا سلام

فلا حياة في رأيه سوى حياة الخمر والمجون في بيوت القيان وفي الحانات ، ومن ثمّ مضى يدعو في خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك في قوله (٣) :

لا تَبْكِ ليلى ولا تطربِ إلى هِنْدِ وأشربِ على الورد من حمراء كالورد  
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها أجذته حُمْرَتها في العين والخذ (٤)

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .  
(٤) أجذته : أفادته وأعطته .

(١) الديوان ص ٤٠٧ .  
(٢) المقدم الفريد ٦/٢٢١ .

فَالخَمْرُ ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ في كَفِّ جاريةٍ ممشوقة القَدِّ تسقيك من يدها خَمْرًا ومن فمها خَمْرًا فما لك من سُكرين من بُدِّ وأخذ يجدِّف كثيراً ضد الدين الخفيف الذي يجرم الخمر وجملة الآثام التي كان يتردَّى فيها ، معلناً ذلك إعلاناً صريحاً بمثل قوله (١) :

ترى عندنا ما يُسخط. الله كلُّه من العمل المُردى الفتى ما عدا الشرِّ كما  
وقد يتمادى في ذلك حتى ليعلمن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا حساب ولا بجنة  
ولا نار ، وهو في ذلك كله إنما يماجن ويتعابث .

وكان كثيراً ما يلمّ بالأديرة ، فيصف معاقرة الخمر فيها وسفقاتها من الرهبان  
والراهبات ، وقد يلمّ بجانة لمجوسى أو ليهودى . وأتاح له ذلك أن يصف كل تلك  
البيئات بالإضافة إلى حانات الكرخ ببغداد وعلى ضفاف دجلة ، وشعره من هذه  
الناحية مليء بتصوير الحياة الاجتماعية لعصره .

وفي خمرياته فحش كثير ، وكأما وجد ليحمل ذنوب عصره وجميع خطاياها .  
على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه وُضع عليه كثير من الشعر في هذا الباب ، إذ تحول  
إلى ما يشبه شخصية أسطورية ، فإذا هو يدخل في قصص ألف ليلة وليلة ، وإذا  
هو توضع في فحشه ونوادره كتب مستقلة ، بدأها أبو هفان في كتابه « أخبار  
أبي نواس » ومضت تتسع من بعده . وليس ذلك فحسب ، فإن كثيراً من أشعار  
المجنّان الذين عاصروه أضيفت إليه ، وعرف ذلك القدماء ، إذ نرى ابن قتيبة ينصُّ<sup>٢</sup>  
على أن الخمرية المشهورة : « ياشقيق النفس من حكم » تُنسبُ إليه وهي لوالبة (٢) ،  
ويقول أبو الفرج في ترجمة الحسين بن الضحاك الخليع إنه « كان إذا شاع له شعر  
نادر في الخمر نسبة الناس إلى أبي نواس » (٣) ويقول ابن المعتز : « إن العامة  
الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر في المجنون إلى أبي نواس ، وكذلك تصنع في  
أمر مجنون بنى عامر ، كلُّ شعر فيه ذكر ليلي تنسبه إلى المجنون » (٤) ولم تقف  
المسألة عند العامة ، بل تعدتهم إلى الرواة ، وأيضاً لم تقف عند شعر الخمر والمجنون

(٣) أغاني ١٤٦/٧

(٤) ابن المعتز ص ٨٩

(١) الديوان ص ٢٥٠

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٧١

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه في جميع الموضوعات، ويكفي أن نرجع إلى ترجمة النظام في ابن المعتز، فسراه ينشد له في الخمر بيتين وردا في ديوان أبي نواس<sup>(١)</sup>، وينشد له قطعة في مديح الأمين جاءت أيضاً في ديوان أبي نواس<sup>(٢)</sup>، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالي المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية في الغزل إلى النظام وهي مبثوثة في الديوان<sup>(٣)</sup> وكان الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعاني وبعد في الخيال والوهم. وكان حملهم عليه لأشعار المجان أوسع مدى، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبي العتاهية<sup>(٤)</sup>

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن، إنما نزعم أنه حمل عليه كثير في هذا الباب، ومن ثم ينبغي أن لا نتسع في أحكامنا عليه، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهاني، فإنها تمتلئ بالشعر الموضوع عليه، ولذلك لا يصح أن تتخذ أساساً لدرسه وبحثه. وهو يعتد في كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ المونق والأسلوب الرصين، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عذوبة ونعومة، غير أن له أيضاً وراء ذلك كثيراً من الشعر المهلهل، إذ « كان لا يقوم على شعره ويقول على السكر كثيراً، فشعره متفاوت، لذلك يوجد فيه ما هو في الشرياً جودة وحسناً وقوة وما هو في الحضيض ضعفاً وركاكة »<sup>(٥)</sup>. وكان كثيراً ما يدخل ألقاظاً فارسية في خمرياته بحكم شيوع الفارسية في الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان الجوس الذين كان يتغزل بهم، ودفعه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثة، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم. وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجاب من روائع الشعر ونادره، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة، جعلته يحكم تصاويره ويجري فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة.

وحين علت سن أبي نواس ووخطه الشيب أخذ يفتق أحياناً من سكره مفكراً

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان

ص ٢٦٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦

(٣) أمالي المرتضى ١٨٨/١ والديوان

ص ٤١٩ .

(٤) انظر الأغاني ١١/٤ ، ٢٩ ، ٧٠

والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ،

٢٠٠ .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

في الحياة وعواقبها وفي البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينيب إلى ربه ، مما جعله يردد أنغاماً مختلفة في الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقوى والعمل الصالح من مثل قوله (١) :

يا طالب الدنيا ليجمعها جمحت بك الآمال فاقتصد  
والقصد أحسن ما عملت له فاسلك سبيل الخير واجتهد  
واعمل لدارٍ أنت جاعلها دارَ المقامة آخرَ الأبد

وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير في الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما ينزله بالناس من خير وشر بمجونياته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلاً حتى يوجد عمر الخيام ولكان أبو نواس خياماً آخر ولو وجد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبثه الوقح مع الغلمان والحواري . ومرّ بنا في الفصل السابق أنه عني في بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسمطات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفرّ له عنايته صفاء النغم وعدوبته . ولعل ذلك هو الذي دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والحزوة

### أبو العتاهية (٢)

وُلد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسَان في « عين التَّمْر » بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطياً من موالى بني عَنزَة ، أما

ومرأة الجنان ٤٩/٢ وشذرات الذهب ٢٥/٢  
ومروج الذهب للمسعودي ٣/٢٤٠ ، ٢٧٤ ،  
٣٥٨ وزهر الآداب للحصري ٣٤/٢ وما بعدها  
وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق ( نشر لجنة البيان  
العربي بالقاهرة ) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء  
اليسوعيين ببغداد سنة ١٨٨٦ م .

(١) الديوان ص ١٩٣ .  
(٢) راجع في ذى العتاهية وأخباره وأشعاره  
أغانى ( طبع دار الكتب ) ١/٤ . وطبعة الساسي  
في ترجمة والبة ١٤٢/١٦ وترجمة سلم الحاسر  
٧٣/٢١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥  
وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها ٣٦٤ وتاريخ  
بغداد ٢٥٠/٦ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤

أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين . وكان أبوه يشتغل بالحِجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به في بلدته ، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته ، ومعه ابنه الصغيران : زيد وأبو العتاهية ، ولا يكاد يشبّ ثانيهما ، حتى نراه ينتظم في سلك الخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم<sup>(١)</sup> . ولعل في ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع ، إذ نشأ في أسرة فقيرة مغموراً ، لا يعتزّ بأى شيء في دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة ، وكان دميم الوجه قبيح المنظر<sup>(٢)</sup> ، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون ، فإذا يصنع ؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط في جماعة الخنثين ، وبذلك كُتِب عليه أن يكون سيئ السيرة في مطالع حياته . وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجرار والفخار ، فحاول أن ينقذه مما تردى فيه ، وما زال به حتى أشركه معه في حرفته ، وكان نبيع الشعر قد أخذ يتدفق على لسانه ، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسّر من الخزف وما يشترونه من الجرار<sup>(٣)</sup> .

واشتهر أمر أبي العتاهية في الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس والبالبة ، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين في مساجد الكوفة ، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات ، وهو في أثناء ذلك يكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدو والرواح إلى نوادي القيان والمغنين ، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النبط دوت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلي ، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد<sup>(٤)</sup> ، لعل بضاعتها تروج فيها ، وفتحت الأبواب لإبراهيم بينما سدّت في وجه أبي العتاهية ، فصمّ على العودة إلى الكوفة ، وعرج في طريقه على الحيرة ، ورأى بها نائحة تسمى سعدى كانت مولاة لبنى معن بن زائدة ، وكانت ذات حسن وجمال ، فشغفت قلبه حباً ، وأخذ ينظم فيها شعره ، غير أنها عرضت عنه ، وتصدى له مولاها عبد الله ابن معن ، ونهاه أن يعرض لها ، فعمد إلى هجائه هجاء مقنّداً ، فأنزل به

(٣) أغاني ٩/٤ .

(٤) أغاني ٤/٤ .

(١) أغاني ٧/٤ .

(٢) أغاني ٧٥/٤ وانظر المسعودي ٣/٣٦٠ .

عقاباً صارماً إذ ضربه مائة سوط ، وتوسط بينهما مواليه من عتزة ، وكفَّ أبو العتاهية لسانه<sup>(١)</sup> .

ويُسمَّ الكوفة غير أن مقامه لم يَطُلْ بها ، فإن إبراهيم الموصلي صديقه أقبلت عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) وقرَّبَه مع من قرَّب من المغنين ، فأرسل إليه أن يَلْحَقَ به ، ليقدمه للخليفة ، وطار إليه أبو العتاهية ، وأعجب الخليفة بمديحه ، وأخذ يغدق عليه جوائزهِ<sup>(٢)</sup> ، وأوسع له في مجالسه حتى أصبح أثيراً عنده مقدِّماً له على كثير من الشعراء ، وحتى نراه يقبل شفاعته في أحد وزرائه وقد أمر بسجنه<sup>(٣)</sup> . ويعظم شأن أبي العتاهية ويتهادله كبار رجال الدولة وجوهرها وفي مقدمتهم خال المهدي يزيد بن منصور الحميري وقائده وواليه على طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وله يقول من قصيدة :

إني أمنتُ من الزمان ورَيْبِهِ لما علقْتُ من الأمير حِيالا  
ويقال إنه وصله على القصيدة بسبعين ألف درهم<sup>(٤)</sup> .

وتمر الأيام بأبي العتاهية باسمه ، غير أن سحابة لاتبث أن تتعد في سمائها ، فقد تعلقت بجارية من جواري زوجة المهدي رائطة بنت السفاح ، وهي عتْبة ، وكانت تزدر به كما ازدرتهُ سَعْدَى من قبل ، ومضى لا يكفُّ عن غزله بها ولا يرعى ، ففرقت مولاتها خبره وأثارها عليه ، فحدَّثت المهدي بشأنه ، فغضب لتعرضه لحرمه وجواري قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميري أن شفع له لدى المهدي ، فغفا عنه وردَّ إليه حريته ، ويقول الرواة إنه لم يكن يجبها حباً صادقاً إنما كان يريد الشهرة في الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن في حبها وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحبح تكلفاً<sup>(٥)</sup> ، وقد ظل يذكرها ويتغنَّى باسمها طويلاً ، ولعل ذلك هو الذي جعل المهدي يقول له إنك إنسان معته ، فاستوى له بذلك لقبه « أبو العتاهية » وغلب على اسمه<sup>(٦)</sup> .

وكانت بغداد لعهد المهدي قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة

٣٨/٤ .  
(٥) انظر في قصته مع عتبة ابن المعتز  
ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٣٥/٢ وتاريخ بغداد  
٢٥٤/٦ وما بعدها .  
(٦) أغاني ٢/٤ .

(١) انظر القصة في الأغاني ٢٢/٤ وما بعدها .  
(٢) انظر ابن المعتز ص ٢٣١ والمسعودي  
٢٤٠/٣ وزهر الآداب ٣٨/٢ .  
(٣) أغاني ٥٦/٤ .  
(٤) زهر الآداب ٣٤/٢ وانظر الأغاني

قصد المعاش والتكسب ، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة الحجان من أمثال مطيع ابن إياس والبة وأبي نواس ، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبُّ معهم من كتوس الحمر واليهو في دور القيان والحجانة بالكرخ من أمثال دار القراطيسي<sup>(١)</sup> وفي الأديرة من مثل دير أشموني<sup>(٢)</sup> . ويفسد الأمر بينه وبين والبة ، فيصلبه ناراً حامية من هجائه بمثل قوله يعرضُ باعتزائه المزيف للعرب ، إذ كان ينسب نفسه في بني أسد<sup>(٣)</sup> :

أولبُ أنت في العَرَبِ كمثل الشَّيْصِ في الرُّطْبِ  
 هلمَّ إلى الموالى الصِّيدِ في سَعَةِ وفي رَحْبِ  
 فأنت بنا لعمر الله أشبه منك بالعرب  
 وما زال به حتى فضحه فعاد إلى الكوفة كالهارب وخمل ذكره<sup>(٤)</sup> .

ويتوفى المهدي فيخلفه الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه في كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر ، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة (١٧٠ - ١٩٣ هـ) وكان منقطعاً إليه ملازماً له أيام أبيه المهدي ، فاتصل ما انقطع في مدة الهادي القصيرة ، وأصبح لا يفارقه في سفر ولا حضر « وكان يُجرى عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلوات السنية »<sup>(٥)</sup> وكثيراً ما كانت تبلغ في المرة الواحدة مائة ألف درهم<sup>(٦)</sup> . وينال جوائز كثيرة من كبار رجال الدولة حينئذ وعلى رأسهم يزيد بن يزيد الشيباني ، ويقال إنه أجازته في إحدى مدائحه فيه بعشرة آلاف درهم<sup>(٧)</sup> ويظهر أنه دقَّ أبواب البرامكة طويلاً ، ولكنهم لم يفتحوها له ، إذ كانوا مشغولين عنه بشعرائهم من أمثال أبا ن وأشجع السلمي .

وظل يعيش للهو والقصف ، حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة ، وهي السنة التي نزل فيها الرشيد الرقة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والحجون إلى حياة الزهد والتقشف ولبس الصوف . ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى حياته القديمة وإلى ما كان يصنع له من رقائق الغزل ، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه ، ويأمر بضره وحبسه

(٤) أغاني ١٦/١٤٢ .

(٥) أغاني (دارالكتب) ٤/٦٣ .

(٦) أغاني ٤/٧٤ .

(٧) أغاني ٤/١٠٠ .

(١) أغاني (ساسي) ٢٠/٨٨ .

(٢) الديارات للشابشي ص ٣١ .

(٣) أغاني (ساسي) ١٦/١٤٣ .

والشيص : أودأ القمير .

في دار موسعاً عليه حتى يصدع لأمره ، ويسترسل أبو العتاهية في استعطافه بمثل قوله<sup>(١)</sup> :

إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَةٌ وَسَلَامَةٌ      زَادَكَ اللَّهُ غِبْطَةً وَكِرَامَةً  
لَوْ تَوَجَّعْتَ لِي فَرَوْحَتَ عَنِّي      رَوْحَ اللَّهِ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ويرق له الرشيد ويأمر بإطلاقه ، ويأخذ منذ هذا التاريخ في الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد تشكك معاصروه في هذا الزهد الذي طرأ عليه ، وردته كثرتهم إلى عناصر مانوية ، حتى أوشك حمّدُ وبنه صاحب الزنادقة المانويين أن يُنزل به العقاب الصارم الذي كان يُنزله بأمثاله ، لولا أن موّه عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين<sup>(٢)</sup> ، ويقال إن منصور بن عمار هتف به في بعض وعظه ، وقال : إنه زنديق مستدلا على ذلك بأنه يكتر من ذكر الموت في شعره ولا يذكر الجنة والنار<sup>(٣)</sup> . وهي ملاحظة دقيقة ، ذلك أن أبا العتاهية يذكر الثواب والعقاب في الآخرة حقاً ، ولكنه لا يفصل الحديث فيهما تفصيل القرآن الكريم ، ومن المعروف أن المانوية كانوا يدعون للزهد في الدنيا والعمل للآخرة كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش<sup>(٤)</sup> ، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبي العتاهية الزاهدة ، وخاصة أنه استقى فيها كثيراً من آي الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن من يتعمق في هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولاً بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ومن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر ، وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشر ، وفي كل حاسة من حواس الإنسان جنس قائم بنفسه من النوعين ، جنس مستقل عما يماثله في الحواس الأخرى<sup>(٥)</sup> ، وفي ذلك يقول أبو العتاهية<sup>(٦)</sup> :

لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْلِينٌ وَجَوْهَرٌ      وَأَوْسَطٌ وَأَصْفَرٌ وَأَكْبَرٌ

(٥) انظر الحيوان ٤/٤٤١ والشهرستاني

ص ١٨٨ .

(٦) أغاني ٤/٣٧ .

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٧ .

(٢) أغاني ٤/٧ .

(٣) أغاني ٤/٣٤ .

(٤) طبرى ٦/٤٢٣ .



وكلُّ شيءٍ لا حِقُّ بجوهره أصغره متصلٌ بأكبـره  
 الخير والشرُّ هما أزواجٌ لذا نِتَاجٌ ولذا نتاجٌ  
 لكل إنسانٍ طبيعتان خيـرٌ وشرٌّ وهما ضِدَّان  
 والخير والشر إذا ما عُدَّا بينهما بونٌ بعيدٌ جدًّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانًا بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ،  
 وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية ، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى  
 في العقيدة إلى آخر الشوط ، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله (١) :

فيا عجباً كيف يُعصَى الإلـهُ أم كيف يجحده الجاحِدُ  
 وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ

وكانه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية ، وفي ذلك يقول  
 أحمد بن حرب : « كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين  
 متضادين لا من شيء ، ثم إنه بنسى العالم هذه البنية منهما .. وكان يزعم أن الله  
 سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفتى الأعيان جميعاً (٢) » وهو  
 يقصد بالجوهرين طبعاً النور والظلمة أو الخير والشر .

وابن حرب يضع في يدنا المفتاح لحل مشكلة أبي العتاهية ، فهو ليس مانوياً  
 نَسُوياً يؤمن بأن للعالم إلهين ، كما ظن ابن المعتز (٣) وبعض معاصريه ، إنما هو  
 مانوي من نمط جديد ، إذ يمزج بين المانوية والإسلام ، إلا إذا كان قد موّه عن  
 مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه . ومر بنا في الفصل الثاني أن تعاليم ماني كانت  
 مزيجاً من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ، ونرى أبا العتاهية يصور لنا في بعض  
 شعره الزاهد الناسك في صورة بوذا المشهورة إذ يقول (٤) :

يا مَنْ تشرف بالدنيا وزينتها ليس التشرفُ رَفَعَ الطَّينَ بالطَّينِ  
 إذا أردت شريفَ الناس كلَّهم فانظرْ إلى ملكٍ في زِيٍّ مسكينِ

(٣) ابن المعتز ص ٢٢٨ ، ٣٦٤ .

(٤) الديوان ص ٢٧٤ .

(١) أغاني ٣٥/٤ .

(٢) أغاني ٥/٤ .

ومعروف أن بوذا - عند الهنود - كان ملكاً أو ابن ملك خلع ثياب ملكه وساح في العالم عابداً ناسكاً . وخصّلة عند أبي العتاهية لا يمكن تفسيرها إلا على أساس نزعتة المانوية ، ذلك أنه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحاً شحناً شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضة وتروى في شحه نوادر كثيرة<sup>(١)</sup> ، تدلُّ على حرصه البالغ ، حتى ليأبى أن يتصدَّق بدائق ، وتفسير ذلك أن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوي الصادق ينبغي أن يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كَسَّبَ غيره الذي عليه غُرْمُه ومأثمُه<sup>(٢)</sup> ، فهو يجرِّم ماله على نفسه وعلى غيره ويعيش على السؤال والاستجداء . وفعلا ظل أبو العتاهية على الرغم من نسكه الظاهر يمدح الرشيد وينال جوائزَه ، فهو يمدحه حين يعهد عهده المعروف لبنيه الثلاثة<sup>(٣)</sup> سنة ١٨٦ وهو يمدحه حين يهزم نقفور إمبراطور بيزنطة ويستولى على هرقله<sup>(٤)</sup> سنة ١٩١ . وحين يتوفى الرشيد يبادر إلى مديح الأمين بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

ياعمودَ الإسلام خير عمودٍ      والذي صيغ من حياءٍ وجودٍ  
إن يوماً أراك فيه ليومٌ      طلعت شمسُه بسعدِ السُّعودِ

وينال جوائزَه وجوائز أمه زبيدة . ولما قتل الأمين وقتل المأمون العراق الحسن ابن سهل أسرع يدقُّ بابه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم<sup>(٦)</sup> ، وقدم المأمون فاستقبله بمثل قوله<sup>(٧)</sup> :

لخيرٍ إمامٍ قام من خيرٍ عنصُرٍ      وأفضلُ راقٍ فوق أعوادٍ منبِرٍ

ويقول الرواة إنه كان يجري عليه في كل عام عشرين ألف درهم غير ما كان يقدِّم عليه من جوائزَه في الحين بعد الحين<sup>(٨)</sup> . ومعنى ذلك أن زهده إنما كان زهداً في الظاهر ، أما في الباطن والواقع فقد ظل من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، وظل يطلبها ويلج في الطلب إلحاحاً شديداً وسجَّل عليه سلم الخاسر ذلك في بعض أشعاره<sup>(٩)</sup>

- |                                |                                    |
|--------------------------------|------------------------------------|
| (١) أغاني ١٦/٤ وما بعدها .     | (٦) أغاني (طبع دارالكتب) ٨٩/٤ .    |
| (٢) الحيوان ٤٥٩/٤ .            | (٧) أغاني (سأسي) ١٣/٢١ .           |
| (٣) أغاني ١٠٤/٤ .              | (٨) أغاني (دارالكتب) ٥٣/٤ .        |
| (٤) أغاني (طبع السأسي) ٤٦/١٧ . | (٩) أغاني (سأسي) ٧٦/٢١ وانظر أغاني |
| (٥) أغاني (طبع السأسي) ١١/٢١ . | (دارالكتب) ٧٦/٤ .                  |

وهكذا ظلَّ يسترفد الخلفاء والوزراء ، حتى وافته منيته سنة مائتين وإحدى عشرة وقيل سنة اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة .

ولعل فيما قدمنا ما يدلّ دلالة بينة على أن طبيعة أبي العتاهية كانت معقدة ، فهو نبطى أحسنّ غير قليل من المسكنة منذ نشأته ، وقاده هذا الإحساس أولاً إلى أن يصبح مخنثاً ، ثم ماجناً ، وقاده أخيراً إلى أن يصبح زاهداً على طريقة المانويين من سؤال الناس ومما طابت به أنفسهم له . وتدل نزعته المانوية على أنه اضطرب بين أصحاب المقالات ، ويؤكد ذلك عنده ما يقال من أنه كان على مذهب الشيعة الزيدية البُستَرية<sup>(١)</sup> ، ونؤمن - مع نيكلسون<sup>(٢)</sup> - بأنه لم يعيش هذا المذهب حقاً ، إذ يشيد فى أشعاره بأبى بكر وعمر وعثمان<sup>(٣)</sup> ، إنما هو ضرب من الاضطراب بين أصحاب النحل سرعان ما زايله . وقد دفعته صلته بالمانويين إلى الاطلاع الواسع على الآداب الفارسية ، ونقل كثيراً من حكمها إلى أشعاره ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «ذات الأمثال» التى صور فيها نظرية الخير والشر المانوية والتى أنشدنا منها الأبيات السالفة . ويظهر أنه قرأ كثيراً مما تُرجم عن فلاسفة اليونان ، ومن ثمّ وصل بعض معاصريه بينه وبينهم<sup>(٤)</sup> ، ومرّبنا فى الفصل السابق نقله لجوانب من مرأى فلاسفة اليونان للإسكندر فى رثائه لصديقه على بن ثابت ، وكان من رعوس<sup>(٥)</sup> الزنادقة ، ولعله هو الذى دفعه فى هذا الطريق . وكان إلى ذلك مثقفاً ثقافة إسلامية واسعة ، وهى تتضح فى كثرة ما نقله إلى زهدياته من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أيضاً مثقفاً ثقافة عربية دقيقة جعلته يتقن اللغة ويرع فى الشعر ، حتى أصبح له طبعاً .

وكل هذه العناصر التى اصطلحت على تكوين طبيعة أبى العتاهية جعلتها أبعد الأشياء عن البساطة كما جعلتها خصبة واسعة الخصب . وكل من يقرأ أشعاره يلاحظ أنها تمثل حياته وما حدث فيها من انقلاب أوضح تمثيل ، فهو فى شطر منها يتغزل ويصف الحمر ، وهو فى الشطر الثانى يكف عن الغزل ووصف الحمر

(٣) الديوان ص ١٠٤ .  
 (٤) أغانى ٢/٤ .  
 (٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

(١) أغانى ٦/٤ .  
 (٢) انظر التاريخ الأدبى للعرب لنيكلسون  
 ص ٢٩٧ .

مستبدلاً بهما الزهد ونثر الحكم والدعوة إلى محاسن الأخلاق . وإذا كنا لاحظنا عند أبي نواس وبشار أنهما كانا يحافظان إلى حد كبير في مدائحهما على الأوضاع والتقاليد الموروثة في الصياغة وفي التمسك بوصف الأطلال وبكاء الديار ونعت الصحراء وإبلها وحيوانها وكل ما يتصل بها فإن أبا العتاهية يخطو إلى الإمام خطوة بمدائحها إذ ينتحى عن الصحراء والأطلال إلا ما قد يأتي عرضاً ، وأيضاً فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين ، وكأنه يريد أن يفسح لأساليب عصره اللينة الخفيفة ، ومن خير ما يمثل ذلك مدحته اللامية للمهدى ، وفيها يقول (١) :

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرُّرُ أَذْيَالَهَا  
وَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا  
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا  
وَلَوْ لَمْ تَطْعُهُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ لَمَا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا (٢)  
وَأِنْ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَغْضٍ لَا إِلَيْهِ لِيُبْغِضَ مِنْ قَالِهَا

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف ، وألفاظها تسيل نعومة وعدوبة . وأكبر خليفة عني بمدح هرون الرشيد فقد كان يمدحه في سلمه وحرابه وفي كل المناسبات من مثل توليته العهد لبنيه ، وفي هذه التولية يقول (٣) :

وَشَدَّ عُرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفَتْيَةٍ ثَلَاثَةِ أَمَلِكٍ وَوَلَاةٍ عَهْدٍ

وكان يحرص دائماً على مديحه بالتقوى والانصراف عن الدنيا متعزباً بوصف جيوشه وذابته عن حمى الإسلام وما ينزل بأعدائه من موت يمدحهم محققاً ، على شاكلة قوله (٤) :

وَهَرُونَ مَاءُ الْمَزْنِ يُشْفَى بِهِ الصَّدَى إِذَا مَا الصَّدَى بِالرِّيْقِ غَصَّمتْ حَنَاجِرُهُ (٥)  
وَأَوْسَطُ بَيْتٍ فِي قَرِيشٍ لَبَيْتُهُ وَأَوَّلُ عِزٍّ فِي قَرِيشٍ وَآخِرُهُ

(١) أغاني ٢٣/٤ .  
(٢) بنات القلوب : النيات .  
(٣) أغاني ١٠٤/٤ .  
(٤) أغاني ١٥/٤ .  
(٥) المزن : السحاب المطر . الصدى : يفتح الدال : العطش وبكسرهما العطشان .

وَزَحْفٍ لَه تَحْكِي الْبُرُوقَ سَيُوفُهُ      وَتَحْكِي الرُّعُودَ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرُهُ  
 إِذَا نُكِبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ      فَهَرُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ ثَائِرَةٌ  
 وَمَنْ ذَا يَفُوتُ الْمَوْتَ ، وَالْمَوْتُ مُدْرِكٌ      كَذَا لَمْ يَفْتُ هَرُونَ ضِدًّا يُنَافِرُهُ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْعَدُ في جزالته ورسانته ، إذ كان يُعْنَى باختيار ألفاظه من المعجم اليومي أو بعبارة أدق مما يقاربه سهولة . وقد نظم استعطافات كثيرة للرشيذ حين حبسه ، وهي لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب ، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع ، حتى ليبادر الرشيذ بالفوق عنه كما أسلفنا لمثل قوله (١) :

أَنَا الْيَوْمَ لِي ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَشْهُرُ      يَرُوحُ عَلَيَّ الْهَمُّ مِنْكُمْ وَيَبْكُرُ  
 تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي      وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي لَعَلَّكَ تَذَكَّرُ

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلفه فيه يدل على إحكامه لسهامه ، حتى لنرى والبة بن الحُباب يفرُّ على وجهه منه إلى الكوفة ، ومن أوائل هجائه أشعاره في عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سَعْدَى النَّائِثَةِ ، وقد صَوَّرَهُ في بعض هذه الأشعار صورةً نَدَى لَهَا وَجْهَهُ طَوِيلًا ، إذ أَخْلَاهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالشُّجَاعَةِ بَلْ أَيْضًا مِنَ الرَّجُولَةِ ، حتى ليقول على لسانه (٢) :

أَنَا فَتَاةُ الْحَيِّ مِنْ وَاثِلٍ      فِي الشَّرْفِ الشَّامِخِ وَالنُّبْلِ  
 مَا فِي بَنِي شَيْبَانَ أَهْلِ الْحِجْبِيِّ      جَارِيَةٌ وَاحِدَةٌ مِثْلِي  
 قَدْ نَقَطْتُ فِي وَجْهَهَا نَقْطَةً      مَخَافَةَ الْعَيْنِ مِنَ الْكُحْلِ  
 إِنْ زُرْتُمُوهَا قَالَ حُجَّابُهَا      نَحْنُ عَنِ الزُّوَارِ فِي شُغْلِ

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه بمثل هذه النبال المصمية ، فن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سَلَمِ الْخَاسِرِ ، فما هو إلا أن قال فيه :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو      أَذَلَّ الْحَرِصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

حتى سار البيت مسير الأمثال ، وحتى أن منه سلم طويلاً<sup>(١)</sup> . ويقول ابن  
المعز إنه « أتى باب أحمد بن يوسف كاتب المأمون ، فحجّب عنه ، فقال :  
متى يظفر الغادى إليك بحاجةٍ ونصّفك محجوبٌ ونصّفك نائم  
فسار بيته هذا في الآفاق ، وجعل الناس يتناشدونه ، فاعتذر إليه ابن يوسف<sup>(٢)</sup> »  
وجيلاً من أن يتأدى في هجائه .

وبين أيدينا له مرث مختلفة ، لعل أحرّها مرثيه في صديقه على بن ثابت  
الزنديق ، وقد أنشدنا منها أطرافاً في الفصل السابق ، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلاً  
ندباً كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

فتى لم يملّ الندى ساعةً \* على عُسرِهِ كانَ أو يُسرِهِ  
أنته المنيةُ مغتالةً \* رُوَيْدًا تَحَلَّلَ من سِرِّهِ  
فخلّى القصور لمن شادها \* وحلّ من القبرِ في قَعْرِهِ  
وأصبح يُهدى إلى منزلٍ \* عميقٍ تُوْنَقُ في حَفْرِهِ  
أشدُّ الجماعةِ وجداً بهِ \* أشدُّ الجماعةِ في طَمْرِهِ

وليس له خمريات كثيرة وكأما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به  
من شعره ، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقصٍ للخمر وندمانها  
وساقبها ومن يلمُّ بهم من الجوارى الحسان ، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته  
الماجنة في الكوفة<sup>(٤)</sup> :

لهنى على الزمن القصيرِ \* بين الخورنقِ والسديرِ<sup>(٥)</sup>  
إذ نحن في غُرفِ الجنّا \* ن نعومُ في بحرِ السُرورِ  
في فتيةٍ ملكوا عينا \* ن الدهرِ أمثالِ الصقورِ

(١) أغاني ٧٥/٤ وطبعته السامى ٧٦/٢١ .  
(٢) ابن المعز ص ٢٣٣ .  
(٣) الديوان ص ١٢٤ .  
(٤) أغاني ٦٠/٤ .  
(٥) الخورنق والسدير : قصران قديمان  
بالقرب من الكوفة .

وَمُقَرَّطِيٍّ بِمَشَى أَمَا م الْقَوْمِ كَالرَّشَاءِ الْغَرِيرِ<sup>(١)</sup>  
 بِزَجَاجَةٍ تَسْتَخْرِجُ السَّهَّ رَّ الدَّفِينِ مِنْ الضَّمِيرِ  
 زَهْرَاءَ مِثْلَ الْكُوكَبِ الِ لُدْرِيٍّ فِي كَفِّ الْمُدِيرِ  
 وَمَخْصَرَاتٍ زُرْنَنَا بَعْدَ الْهُدُوِّ مِنَ الْخُدُورِ<sup>(٢)</sup>  
 يَرْفُلُنَ فِي حُلَلِ الْمَحَا سَنِ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ<sup>(٣)</sup>

والمقدمة تكتظ على هذا النحو بغير قليل من مشاعر الفرح والبهجة .  
 وقد مرَّ بنا تدهه بُعْتَبَةٌ ، وله فيها غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ،  
 وأكبر الظن أن رفته فيه جاءت من تخنثه القديم ، حتى ليقول ابن قتيبة إن غزله  
 يشاكل طبائع النساء ، وكأنما سَرَّتْ فيه مشاعرهن ، وهي مشاعر تقترن عنده  
 بالتذلل والتضرع على شاكلة قوله :

بَسَطْتُ كَفِّي نَحْوَكُمْ سَائِلًا مَاذَا تَرُدُّونَ عَلَيَّ السَّائِلِ  
 إِنْ لَمْ تُنِيلُوهُ فَقُولُوا لَهُ قَوْلًا جَمِيلًا بَدَلِ النَّائِلِ  
 أَوْ كُنْتُمْ الْعَامَّ عَلَيَّ عُسْرَةَ وَيَلِي فَمَنْوَهُ إِلَى قَابِلِ

ويقول ابن المعتز معلقاً على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء  
 موقع الزلال البارد من الظمان لرقته<sup>(٤)</sup> » . وعلى نفس هذا المثال قوله في عُتْبَةَ  
 أيضا<sup>(٥)</sup> :

كَأَنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا دُرَّةٌ أَخْرَجَهَا الْيَمُّ إِلَى السَّاحِلِ  
 كَأَنَّ فِي فِيهَا وَفِي طَرْفِهَا سَوَاحِرًا أَقْبِلُنَّ مِنْ بَابِلِ  
 لَمْ يُبَيِّقْ مِنِّي حُبُّهَا مَا خَلَا حُشْمَاشَةً فِي بَدَنِ نَاحِلِ  
 يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا بَكَى مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلَى الْقَاتِلِ

(٣) يرفان : يتبخترن . المجاسد : القمصان  
 الداخلية الرقيقة .

(٤) ابن المعتز ٢٣٠ .

(٥) أغاني ٤٥/٤ .

(١) مقرطق : يلبس القرطق وهو ثوب ذو  
 طاق واحد .

(٢) مخصرات : دقيقات الحصور . الهدو  
 من الليل : أوائله .

ودائمًا يشكو مسكته وأن صاحبه لا تنيله كثيراً ولا قليلاً وأنها استرقته ولا ترد عليه  
حريته ، وأنها أضنته وأسقمته ، وأنها تزهد فيه وهو المحب الوامق الذي يرسل الدموع  
مِدْرَاراً على من ظلمته ، وإنه ليستجير ولا يجير وينصبر ولا صبر إلا النواح  
الطويل

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تُعَدُّ انقلاباً  
في حياته ، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد ، وظل نحو ثلاثين عاماً  
يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق ، فالكل مصيره إلى الفناء  
والكل وشيك الزوال ، والكل سيصبح تراباً في تراب ، يقول (١) :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يُصِيرُ إِلَى تَبَابٍ (٢)

ويقول (٣) :

النَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَى الْمَيْتَةِ تَطْحَنُ

ويقول (٤) :

كُلُّ حَيٍّ عِنْدَ مَيْتَتِهِ حِظُّهُ مِنْ مَالِهِ الْكَفْنُ

ويقول (٥) :

بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ حَيٍّ عِلْمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ  
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْ كَيْنَ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ

وهكذا يمضي ينعي الحياة إلى أهلها ويبكيها ويندبها ، مهولاً رعدة الموت  
الأبدية ، ومنغصاً على مَنْ يسمعه كل لذة له وكل نعيم ، فالأجل قصير والمنايا  
راصدة ، والقدر أزل ونحن آلات بأكفه . ولعله من أجل هذا الإحساس آمن  
بالجبر والاضطرار (٦) ، وإنه ليصرخ من أعماق قلبه : ليس هناك إلا الفناء وإلا  
الأسى والكآبة ، وهي نظرة سوداء جاءت من مانويته ، إذ الإسلام لا ينسعى إلى

(٤) الديوان ص ٢٥٢ .

(٥) أغاني ١٠٣/٤ .

(٦) أغاني ٦/٤ .

(١) الديوان ص ٢٣ .

(٢) تباب : هلاك .

(٣) الديوان ص ٢٦٧ .



الناس حياتهم ولا يصورها لهم في كرب أبي العتاهية التي تخنق الأنفاس والتي تجعله يقف طويلاً عند سكرات الموت وما يعانيه المحتضر من آلام كما تجعله يقف عند نزلاء القبور والقبور نفسها يسألها عن أصحابها ، مسجلاً أن ذوى السلطان يستون مع السوق في الموت وأن الطبيب كثيراً ما يسبق مريضه إلى ساحته ، يقول (١) :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ  
وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور ، ولكنه لا يسترسل في ذكر عذاب الحميم ونعيم الجنان ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، بل يلم إماماً بالبعث والحساب على شاكلة قوله (٢) :

فلو أنا إذا مُتْنَا تُرِكْنَا لكان الموتُ غايةَ كلِّ حيٍّ  
ولكننا إذا مُتْنَا بُعِثْنَا ونُسألُ بعده عن كلِّ شَيْءٍ

ويتسع أبو العتاهية في أشعاره الزاهدة ، حتى لتؤلف وحدها ديواناً كاملاً ، وفعلًا جمع منها ابن عبد البرّ النّمرى الأندلسي ديواناً مستقلاً ، وقد بنى اليسوعيون على هذا الديوان نشرتهم لأشعار أبي العتاهية باسم « الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية » ضامين إلى رواية النمرى ما تيسر جمعه من أشعار الشاعر وقصائده . وأبو العتاهية في زهدياته ، كما رأينا ، يطيل الحديث عن الحياة والموت والفاء ومصير الإنسان ، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً ، وهو في عظامه يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوي ووعظ الوعاظ من أمثال الحسن البصري ، كما يستمد من أشعار سابقيه ، وقد وقف المبرد عند موعظة له يستهلها بقوله :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

وردّها إلى بعض الأحاديث النبوية وإلى كلام الحسن البصري وعلى بن أبي طالب وإلى معاني بعض الشعراء مثل الخليل بن أحمد (٣) . وهو في جوانب من مواعظه يلتقى بآي الذكر الحكيم في اتخاذ العبرة من الأمم الدائرة والقرون الخالية

(١) الديوان (طبعة سنة ١٩٠٩) ص ١٨ .  
(٢) الديوان ص ٣٠٢ .  
(٣) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢٣٠ وما بعدها .

وفي تصوير الموت وسكراته ، وقد يسوق ذلك بلفظ القرآن الكريم من مثل قوله (١) :

يا عجباً كلُّنا يَحِيدُ عن الِ حَيِّنٍ وكلُّ لَحَيْنِهِ لا قِ  
 كَأَنَّ حَيًّا قد قام نادِبُهُ والتَفَّتِ الساقُ منه بالساقِ (٢)  
 واستلَّ منه حَيَاتِهِ مَلِكُ الِ مَوْتٍ خَفِيًّا وقيل : مَنْ راقِ (٣)

وطبيعي أن يطبع أسلوبه في الزهد بطوايع الأسلوب الوعظي من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر . ونراه يشيع في زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قوله (٤) :

سبحان من لا شئ يَحْجِبُ علمه . فالسُّرُّ أجمع عنده إعلانُ  
 سبحان من هو لا يزال مُسَبِّحًا أبداً وليس لغيره السُّبْحانُ  
 وقوله (٥) :

إِلَهِي لا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي مُقِرٌّ بالذي قد كان مِنِّي  
 ومالي حِيلَةٌ إِلا رَجائِي لعفوك إن عفوتَ وحُسْنُ ظَنِّي

ويجانب ذلك نراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق كما يذيع حكماً وأمثالاً كثيرة مقتبساً لها من الآداب الفارسية كما أسلفنا، ومما رُوِيَ عن حكماء العرب مثل لقمان (٦) ، وأفرد لها - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع - قصيدته « ذات الأمثال » التي يقال إنها امتدت إلى أربعة آلاف بيت .

وكانت عامة بغداد تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته ، وفي أخباره أن بعض الملاحين غنوا الرشيد في إحدى نزهاته على صفحات دجلة بعظة من عظاته (٧) ، وفي ذلك ما يدل على ما كان لأشعاره الزاهدة من صدى عميق في نفوس الطبقة

الملائكة حين يسألون من يرقى به إلى السماء ،

أملئكة الرحمة أم ملائكة العذاب .

(٤) الديوان ص ٢٥٨ .

(٥) الديوان ص ٢٦٣ .

(٦) البيان والتبيين ٢/٧٦ .

(٧) أغاني ٤/١٠٢ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ .

(٢) الشطر الثاني اقتباس من الآية رقم ٢٩

من سورة القيامة . والتفاف الساق بالساق كناية عن فقدهما للحركة .

(٣) آخر البيت اقتباس من الآية ٢٧ من

سورة القيامة ، والقائل إما أهل الميت حين

يأسون منه ويطلبون له الرأق أو الطبيب ، وإما

العامّة التي لم تكن تعرف ترفاً ولا نعيمًا ، إنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش ،  
وكأنما أحست عنده أنه يتغنى آلامها وبؤسها . وزياره يتعمقه الشعور بما هي فيه  
من ضنك ، فإذا هو يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار ، يقول  
في تضاعيفها (١) :

من	مبلغ	عنى	الإما	م	نصائحًا	ممتاليّة
أنى	أرى	الأسعار	أسه	حار	الرعيّة	غاليه
وأرى	المكاسب	نزرّة	وأرى	الضرورة	فاشيه	
من	يرتجى	للناس	غيد	رك	للعيون	الباكيه
من	مُصيّبات	جوع	تمسى	وتصبح	طاويه	
من	يرتجى	للدفاع	كر	ب	ملمّة	هى ماهيه
من	للبطون	الجائعا	ت	وللجسوم	العاريه	
ألقيتُ	أخبارا	إلي	يك	من	الرعيّة	شافيه

ولم يكن أبو العتاهية يقرب من العامة بزهده وما صور فيه من بؤسها وأوصا بها  
فحسب ، بل كان يقرب منها أيضًا بأسلوبه الذى كان يشتقه اشتقاقًا من لغة  
الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد كما ابتعد عن  
العجمة ، ولكنه بعد ذلك أجراه فى مستوى أفراد الشعب ، بحيث لا يعزُّ على أحد  
منهم أن يفهمه ، ويؤثّر عنه أنه كان يقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون  
ألفاظه مما لا تتخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التي فى  
الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب  
الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث وائفقهاء . .  
والعامّة ، وأعجبُ الأشياءُ إليهم ما فهموه (٢) » ومن الحق أنه ظلت فى أسلوب شعره  
منذ فاتحة حياته السهولة ، حتى إذا أخذ فى الزهد ضاعفها وأكثدها تأكيداً شديداً

(٢) أغاني ٧٠/٤ .

(١) الديوان ص ٣٠٣ .

حتى لتكاد تسقط منه بعض مقطوعاته ، لما يجرى فيها من ضعف ، وحتى ليقول صاحب الأغاني إنه كثير الساقط المرذول<sup>(١)</sup> . وينبغي أن لا نبالغ مبالغة أبي الفرج ، فقد كانت لأبي العتاهية أذن موسيقية دقيقة وقلما نجد عنده قافية غير متمكنة في موضعها أو كلمة لم تحلّ في نصابها ، إذ كان الشعر عنده طبعاً أو كالطبع<sup>(٢)</sup> ، حتى كان لا يسمع كلمة من مناد على بضاعة أو من بعض جلسائه تصلح أن تكون شطراً لبيت حتى يبادر بصنع الشطر الثاني تَوّاً على البديهة<sup>(٣)</sup> . وبلغ من اقتداره على صنع الشعر وسهولته على لسانه أن اخترع - كما أسلفنا في الفصل السابق - أوزاناً جديدة لا تدخل في مجور الشعر المستعملة ، وكان إذا روجع في ذلك وقيل له إن أشعارك لا تدخل في عروض الخليل قال : أنا أكبر من العروض<sup>(٤)</sup> يريد أن الشعر يجرى على لسانه قبل أن يضع الخليل عروضه ، وهو لذلك أسنّ منه ، ولا نشك في أن ديوانه لو وصلنا كاملاً لاستخرجنا منه أوزاناً كثيرة طريفة ابتكرها ابتكاراً ، غير أن نَبَعَ الشعر عنده كان غزيراً ، فكثُر ما نظمه ولم تستطع الأجيال التالية أن تحمله تماماً لكثرتة .

## ٤

مسلم<sup>(٥)</sup> بن الوليد

وُلِدَ في الكوفة حوالي سنة ١٤٠ للهجرة لأب كان يشتغل بالحياكة ، واختلفت المصادر القديمة في تصحيح نسبه ، فقليل إنه خزرجي من الأنصار ، وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القول الصحيح ، ويشهد له أنه كان من الصنّاع ، ولم يكن العرب يُقبَلون على الصناعات حتى هذا التاريخ . وفي أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً ، وأغلب الظن أنه كان من موالي الفرس ، ووُلِدَ قبل

والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٩٦/١٣ وترجمته بالأغاني الملحقه بديوانه وكذلك بقية المصادر الملحقه بنشرة سامى الدهان للديوان (طبع دار المعارف) وراجع مسلم بن الوليد لفؤاد ترزى (طبع بيروت) .

(١) أغاني ٢/٤ وانظر رأي الأصمعي ص ٤٠ .

(٢) أغاني ١٣/٤ والبيان والتبيين ١١٥/١ .

(٣) أغاني ٣٩/٤ والحويان ١٣٧/٥ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ١٣/٤ .

(٥) انظر في أخبار مسلم وأشعاره الشعر

مسلم ابنُ كان يكبره يسمى سليمان ، وكان كفيفاً ، كما كان شاعراً مجيداً ، ويُجمع الرواة على أنه كان زنديقاً وأن الذي لقننه زندقته بشار<sup>(١)</sup> ، ومن قول الجاحظ فيه : « كان من مستجبي بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غلام ، فقَبِلَ عنه ذلك الدين<sup>(٢)</sup> » . وفي اختلافه إليه ما يدلُّ على أنه نزل البصرة ، ويظهر أنه نزلها مع أبيه ، إذ كان لا يزال غلاماً ، وكان ضريراً ، يحتاج إلى من يعينه ويعسوله ، وفي ديوان مسلم قصيدة طويلة<sup>(٣)</sup> يذكر فيها مقامه أولاً بالكوفة ، ثم نزوله البصرة وذكرياته السعيدة بها ، وذكريات الحب واللهم .

وفي ذلك كله ما يدل على أن مسلماً نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة ، ولا نرتاب في أنه كان يختلف مع أخيه سليمان إلى بشار ، وأن ذلك أتاح له أن يحمل عنه شعره ، ولكنه لم يحمل عنه زندقته ، كما حملها أخوه ، إذ لم يُعرف عنه شيء من الزندقة . ويظهر أنه مضى يتقف نفسه بكل معارف عصره وأنه عكف على قراءة كثير من الآداب المترجمة ، ونراه يصرح بأن قوله :

دَلَّتْ عَلَى عَيْبِهَا الدُّنْيَا وَصَدَّقَهَا مَا اسْتَرَجَعَ الدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي

قد أخذ معناه من التوراة<sup>(٤)</sup> . وفي أشعاره من التعمق في الأفكار ما يدل دلالة قاطعة على أنه اختلف إلى متكلمي البصرة وحذق على أيديهم النظر والتفكير وتصحيح المعاني والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفية . وأيضاً في أشعاره ما يدل دلالة بينة على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهلي والإسلامي ، فقد أشرَبَتْهُ روحه لا بصياغاته فحسب ، بل أيضاً بجميع معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية . والتحمت في نفسه هذه الثقافة بشعر بشار ومعاصريه من شعراء الجليل العباسي الأول التحاماً قوياً خصيباً .

ويظهر أن مواهبه الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة ، وليس بين أيدينا أخبار

(١) انظر الحيوان ١٩٥/٤ ومعجم الأدباء ٢٥٥/١١ ونكت الهميان ص ١٦١ وفي الكتابين الأخيرين أنه ابن مسلم وهو خطأ ، انظر فيه الحيوان والبيان والتبيين ٢٠٢/٣ حيث ينص الجاحظ على أنه أخوه ، وقد توفى قبله بنحو ثلاثين عاماً سنة ١٧٩ للهجرة .

(٢) الحيوان ١٩٥/٤

(٣) راجع الديوان ( طبع دار المعارف )

ص ٢٢٥ .

(٤) انظر ترجمة أبي الفرج لمسلم الملحقة

بديوانه ص ٣٧٣ .

واضحة عن حياته في موطنه الأول الكوفة ولا في البصرة ، غير أننا نراه يصطبم  
 بشاعر بصرى يسمى ابن قُسْبُر ، عُنِيَ بِأَن يَسْرُدَ عَلَى الطرماح الشاعر الأموى  
 الخارجى أهاجيه في قبيلته تمم ، وأن يهجو طيئاً والأزد وغيرهما من قبائل اليمن التى  
 انتصر لها الطرماح ، وامتعص مسلم لمواليه من الأنصار الأزدية اليمنيين ، وزجَّ  
 بنفسه معه في معركة هجاء عنيفة ، وكان أقوى منه شاعرية ، فهتكه ومزقه واضطره  
 إلى أن يمسك عن مناقضته .

وجدت بغداد مسلماً فهاجر إليها ، لعل بضاعته تروج فيها ويحفظى بماحظى  
 به أعلام الشعراء في عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد . ولا يُعرَف  
 بالضبط تاريخ هجرته ، ولكن في أخباره أنه هاجر إليها مع أخيه سليمان وانقطعا  
 لمديح يزيد بن يزيد ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وقد توفى سليمان  
 سنة ١٧٩ للهجرة . وفي أخبار مسلم أنه كان يمدح مَنْ دُونَ الخليفة ولا يطمح إليه ،  
 فكان يقول : أرى نفسى تذوب حشرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء مَنْ لا يوازىنى  
 فى أدب . ويدل ذلك على أنه ظل فى بغداد مدة قصرت همته فيها عن لقاء الرشيد  
 ثم لقيه ، ويقال إن منصور بن يزيد الحميرى خال الرشيد هو الذى أوصله إليه .  
 وتلتقى أخبار لقائه له بمدائحه ليزيد بن يزيد وقصائنه على ثورة الوليد بن طريف  
 الخارجى فى سنة ١٧٩ للهجرة ، ومن حينئذ لمع اسمه وعلا نجمه بين شعراء بغداد  
 ويظهر أن صلةً انعقدت بينه وبين البرامكة ، فقد كان وثيق الصلة بمحمد بن  
 منصور كاتبهم ، وله فيهم مدائح مختلفة .

وفى ديوانه قصائد أربع فى مديح الرشيد ، ويظهر أن كثيراً من مدائحه فيه  
 سقط من يد الزمن ، ويقال إنه لما أنشده لاميته فيه ، وأورد على سمعه قوله فى  
 مقدمتها :

هل العَيْشُ إِلَّا أَنْ أروح مع الصِّبا وَأغدو صَرِيحَ الرَّاحِ وَالْأَعْيُنُ النَّجْلِ<sup>(١)</sup>

قال له : أنت صريح الغوانى ، فلصقت به الكلمة ، وأصبحت لقباله لا  
 يُعرَفُ إِلَّا به<sup>(٢)</sup> . ونراه دائماً ينوه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

(١) نجل : جمع نجلاء وهى الواسعة . الراح :  
 (٢) ابن المعتز ص ٢٣٥ والديوان ص ٤٣ .  
 (٣) الديوان ص ٢٥٤ .  
 الخمر .

خليفةَ اللهِ إنَّ النَّصْرَ مُقْتَصِرٌ  
عليكُ مُذْ أَنْتَ مَبْدُوءٌ وَمُخْتَبِرٌ  
أعددتَ للحربِ سيفاً من بنى مطرٍ  
يمضى بأمرِك مخلوعاً له العُدْرُ (١)  
لاقى بنو قَيْصِرٍ لما هممتَ بهم  
مثل الذى سوف تلقى مثله الخَزْرُ  
لقد بعثتَ إلى خاقانَ جائحةً  
خرقَاءَ حصَاءَ لا تبقَى ولا تَدْرُ  
أظْلَهُم منك رُعبٌ واقفٌ بهمُ  
حتى يوافق فيهم رَأْيَكَ القَدْرُ

وهو يريد بسيف بنى مطر يزيد بن يزيد الشيباني ، وقد مضى يتحدث عن انتصارات الرشيد على الروم وظفره بخاقان ملك الترك ، وكان شخص إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش ضخم سنة ١٧٨ للهجرة ، فأسره واستباح عسكره وغنم أمواله (٢) . وفى أخباره أن الرشيد وصله صلوات كثيرة ، حتى يقال إنه وصله مرة بمائتى ألف درهم (٣) . وتقرن أخباره إعجاب الرشيد به بإعجابه بمدحيه لقائده يزيد ابن يزيد الشيباني ، وهو إعجاب نظن أن السياسة تتداخل فيه ، فقد كان كل شىء فى الحكم بيد البرامكة الإيرانيين ، وأكبَّ عليهم الشعراء بمدائحهم لإكباباً جعل الخليفة يتنفس عليهم ذلك ، وربما كان مما يؤذيه أنه لا يجد لقائده من العرب الخالص من يمدحهم وينوه بهم ، وكان البرامكة يقفون فى وجه بعض هؤلاء القادة ويحاولون إبعادهم عن الخليفة ، وكان يضطّرّ للنزول على إرادتهم لعلو نفوذهم ، وكان ممن صنعوا به ذلك يزيد بن يزيد ، فإنه لما قضى على ثورة الوليد ابن طريف وانصرف بالظفر حُجِبَ برأيهم وجاراهم الرشيد فأظهر سخطه عليه ، فقال : « وحقَّ أمير المؤمنين لأصيّفنَّ وأشتونَّ على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ، فلما رآه ضحك وسرَّ وأقبل يصيح : مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم (٤) » وأقبل الشعراء يمدحونه ، ومدحه مسلم بقصيدته المشهورة (٥) :

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .  
(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشياري  
ص ١٩٠ وما بعدها .  
(٣) انظر ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان  
(٤) أغاني ( دار الكتب ) ١٢/٩٦ وما  
بعدها .  
(٥) هى أولى قصائد الديوان .

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .  
(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشياري  
ص ١٩٠ وما بعدها .  
(٣) انظر ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان

أَجْرَزْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصُّبَا غَزَلٍ وَشَمَّرْتُ هِمُّمَ الْعَدَالِ فِي الْعَدَلِ (١)

وارتفعت إلى سمع الرشيد ، فطار سروراً بمدح قائده وبمادحه . ومن حينئذ توثقت الصلة بين الشاعر والخليفة من جهة وبينه وبين القائد من جهة ثانية ، وأخذ يزيد يُغَدِّق عليه نواله الغمَّر ، حتى ليقال إنه أعطاه في إحدى وفاداته عليه مائة وتسعين ألف درهم ، وأقطعته إقطاعات تُغَلِّ مائتي ألف درهم . ولما ولَّى الرشيد يزيد أرمينية وآذربيجان سنة ١٨٣ للهجرة صحبه وظل معه حتى توفي سنة ١٨٥ . وقد احتفظ الديوان بقصيدته السابقة فيه وقصيدة ثانية ميمية ومقطوعة قصيرة ، وهو في القصيدة الأولى ينوّه بانتصاراته في حروب الروم وظفره بيوسف البسْرَمِ الثائر في خراسان لعهد المهدي ثم الوليد بن طريف الخارجي الثائر بالجزيرة لعهد الرشيد . ونراه في القصيدة الثانية وهي التي يستهلها بقوله (٢) :

طَيْفَ الْخِيَالِ حَمِدْنَا مِنْكَ إِيْمَامَا دَاوَيْتَ سُقْمًا وَقَدْ هَيْبَتَ أَسْقَامَا

يتغنّى بانتصاره على الوليد بن طريف ويشيد بشجاعته وإقدامه .

وكان منذ نزوله بغداد يمدح محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وكان خليفة الفضل بن جعفر البرمكي بباب الرشيد ، وكان يسمى في العسكر لبلائه في الحروب ، ولمسلم فيه قصيدتان وبعض مقطوعات مثورة في ديوانه ، وهو في إحدى قصيدتيه ، وهي التي افتتحها بقوله (٣) :

عَاَصَى الشَّبَابَ فَرَاخَ غَيْرَ مَفْنَدٍ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلْدٍ (٤)

يشيد طويلاً بانتصاره في بعض حروب الروم وفتكه بأحد بطارقتهم ، كما ينوّه بانتصارات أبيه « منصور » على خوارج القيروان ، ولعله كان في عداد جيش يزيد بن حاتم المهلبى الذى فتك بهم فتكاً ذريعاً لعهد الخليفة المنصور (٥) . وقد وصله محمد بن منصور بن زياد بالبرامكة ، وفي ديوانه بيتان في مديح يحيى ، وقصيدة ومقطوعة في مديح ابنه جعفر ، وهو في القصيدة يشير إلى قضائه على فتنة

(٣) الديوان ص ٢٣٠ .

(٤) مفند : ملوم .

(٥) النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

(١) أجرت حبل خليع كتابه عن تركه

يصنع ما يشاء .

(٢) الديوان ص ٦١ .



بالشام سيره إليها الرشيد سنة ١٨٠ للهجرة (١) ، يقول (٢) :

أعطى المقادة أهل الشام حين غشوا من جعفرٍ بهناتٍ مالها حولٌ  
وأبدع قصائده في البرامكة لاميته في الفضل بن جعفر ، وهي تُعدُّ من  
روائعه (٣) وإذا صح أن سماه إسماعيل في قصيدته : « وإني وإسماعيل يوم وداعه » (٤)  
من البرامكة كانت هي الأخرى من دُرره فيهم . ونراه بعد وفاة يزيد بن يزيد  
يتصل بدادود بن يزيد المهلبي أحد قواد الرشيد وولاته على إفريقية ، وقد ولاه السند  
سنة ١٨٤ فرمَّ ما فيها من شعث بين اليمينية والنزارية ، وفتح كثيراً من مدنها ،  
ويقال إنه « كان يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً فيقصدونه ذلك اليوم وينشدونه  
مدائحهم ، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته فيه (٥) :

لا تدعُ بي الشوقَ إني غير معمودٍ      نهى النهى عن هوى البيض الرعايد (٦)

فلما أنشدها بين يديه أمر له بعشرة آلاف درهم وأمر لمسلم بمائة ألف ، وهي  
إحدى فرائده ، ونراه فيها يتحدث عن انتصاراته في « كِرمان » وسجستان ومن  
فتك بهم من الخوارج والثوار ، وكيف دانت له السند واستقامت أمورها خير  
استقامة .

ونرى مسلماً يمدح جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة في  
عهد الرشيد ، وفي مقدمتهم يعقوب (٧) بن سعدان ، وكان سعدان كاتب زُبَيْدَةَ (٨)  
زوج الرشيد ، وسهل (٩) بن الصباح المدائني ، وكان من مقدمي رجال الدولة  
وأجوادهم (١٠) ، والحسن (١١) بن عمران الطائي وإلى الرشيد على دمشق (١٢) ، وزيد  
ابن مسلم الحنفي أحد قواده ، وقد نوه به وبكرمه وشجاعته وبلائه في الحروب في

(١) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٤٥٧/٦

الأكفال .

(٧) الديوان ص ١١٤ ، ٣٣٦ .

٤٦٦ .

(٨) الجهشيارى ص ٢٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٥٠ .

(٩) الديوان ص ٢٤ وانظر ص ٣٢٦ ،

(٣) الديوان ص ٢٦٠ .

٣٣٣ ، ٣٣٧ .

(٤) الديوان ص ٣٣٢ وقارن بسط اللالي

(١٠) الجهشيارى ص ١٦٥ وما بعدها

٣٢٧ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار

(١١) الديوان ص ٢٥٧ .

المعارف) ص ٨٠ .

(١٢) زهر الآداب ٨٢/٤ .

(٥) الديوان ص ١٥١ .

(٦) معمود : عاشق . الرعايد : المرتجات

قصيدتين<sup>(١)</sup> بديعتين . ونمضى معه إلى عصر الأمين ففراه بمدحه بقصيدته<sup>(٢)</sup> :

شُغِلِي عَنْ الدَّارِ أَبْكِيهَا وَأَرْتِيهَا إِذَا خَلْتُ مِنْ حَبِيبِ لِي مَغَانِيهَا

ونراه يشيد بانتصاراته على أعدائه في الشرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار هرثمة بن أعين على رافع بن الليث الثائر بسمرقند سنة ١٩٤<sup>(٣)</sup> . ولا يابث الأمين أن ينقض عقد ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه موسى مما أدّى إلى تطاحن الأخوين وظفر المأمون بأخيه على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع . ويولّى مسلم وجهه شطر مرّو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل . وتلقّاه الفضل بترحيب عظيم ، إذ كان من ندمائه قبل وزارته للمأمون<sup>(٤)</sup> ، ونظنّ ظناً أن الصلة توثقت بينهما منذ كان مسلم يغدو ويروح على البرامكة ، وخاصة على الفضل بن جعفر البرمكي فقد كان ابن سهل يخدمه أولاً ثم التحق بخدمة المأمون . ولم يكد مسلم يمثل بين يديه حتى أنشده قوله فيه :

لَوْ نَطَقَ النَّاسُ أَوْ أَثَنُوا بِعَلْمِهِمْ وَنَبَّاتٍ عَنْ مَعَالِي دَهْرِكَ الْكُتُبِ  
لَمْ يَبْلُغُوا مِنْكَ أَدْنَى مَا تَمَتُّ بِهِ إِذَا تَفَاخَرَتِ الْأَمْلَاقُ وَانْتَسَبُوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم<sup>(٥)</sup> ، وقد سقطت من ديوانه ، كما سقطت قصيدة كافية له في المأمون لم يبق منها إلا هذان البيتان<sup>(٦)</sup> :

وَرَدْتُ عَلَى خَاقَانَ خَيْلِكَ بَعْدَمَا كَرِهَ الطَّعَانَ وَقَدْ أَطْلَنَ عِرَاكَا  
حَتَّى وَرَدَنَ وَرَاءَ «شَاشٍ» بِمَنْزِلٍ تَرَكَتُ بِهِ نَفَالًا لَهُ الْأَتْرَاكَا

وأيضاً فقد سقطت له قصيدة ثالثة في الفضل بن سهل لم يبق منها إلا بيت واحد<sup>(٧)</sup> ، وحظي عنده حظوة كبيرة جعلته يولّيه جرجان أو بعض ضياعها أو بريدها أو مظالمها أو ضياع أصبهان على اختلاف في الروايات<sup>(٨)</sup> . ولعل

(١) الديوان ص ١٧٧ ، ٢٠٠ .  
(٢) الديوان ص ٢١٦ .  
(٣) اليعقوبي ٣/ ١٦٥ .  
(٤) ابن الطقطقي ص ١٦٦ .  
(٥) ترجمة مسلم في الأغاني للمحقق بالديوان ص ٣٨٠ .  
(٦) الديوان ص ٣٣١ .  
(٧) الديوان ص ٣٠٧ .  
(٨) انظر ملحقات الديوان ص ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ وما بعدها .

أولها أكثرها صحة ، ويقال إنه كان يربح ألف ألف درهم في العام ، وما زال يجرجان حتى لَبَّى داعي ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

وواضح أن مسلماً أخذ يعيش في هناة ورغد منذ أواخر العقد الثامن من القرن الثاني ، فقد انتهالت عليه الدنيا وأخذ يظفر بجوائز ضخمة ، وما زال يرقى به شعره حتى تَوَلَّى جُرْجَان . وفي أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهو والطرب ، ويفسِّحُ في حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن ينغمس في ذلك انغماس أبي نواس وأحداً ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته . وكل شيء يؤكد أن حياته في أسرته كانت تجرى رُخاء ، فقد رُزق ابنة وولدين هما مخلد وخارجة ، وسبقته زوجته إلى دار البقاء ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ولعل في حزنه عليها ما يدل على أنها كانت له شديدة الوفاء والإخلاص .

وفياً قدمنا ما يدل دلالة بيّنة على أن ديوان مسلم لم يحتفظ بكثير من قصائده ، فأشعاره في المأمون والفضل بن سهل مفقودة كما أسلفنا ، إلا البيت بعد البيت ، وحتى من رُويت له فيهم بعض قصائده يظهر أن وراءها قصائد له فيهم سقطت من يد الزمن . وبما يجعلنا نقطع بذلك أننا نجد ابن المعتز يشيد بلاميته السائرة التي أنشدتها الرشيد والتي لقبَّه كما مر بنا من أجل أحد أبياتها باسم « صريع الغواني » ويقول إن الرشيد كتبها بماء الذهب <sup>(١)</sup> ، ومع ذلك لم يبق منها في الديوان إلا مقدمتها ، ويصفها ابن المعتز بأنها « مشهورة سائرة جيدة عجيبة » . وكان ديوانه مختارات تتضمن بعض قصائده وبعض مقطوعاته . ويظهر أن العبث بالديوان قديم ، حتى ليروى بعض الرواة أن مسلماً تغافل راويته يوماً ويده دفتر ديوانه ، فقذف به في بحر ! ولهذا قلَّ شعره ولم يبق منه بأيدي الناس إلا ما رواه بعض معاصريه العراقيين وإلا ما كان في أيدي المدوِّحين من مدائحه <sup>(٢)</sup> . وربما كان هو نفسه أول مَنْ حَوَّل ديوانه إلى مختارات ، إذ كان شديد الحساب لنفسه ، وكأنه أسقط كثيراً من أشعاره ، حتى لا يبقى له في أيدي الناس إلا عيون شعره .

ولعل القرن الثاني للهجرة لم يعرف شاعراً جهد نفسه في صنع الشعر ، كما

(١) ابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٢) انظر ترجمة الأغاني الملحقة بالديوان ص ٣٧٤ .

جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلاميه بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثيل تمثلاً لا يقل عنه عمقاً ولا دقة لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه . وبذلك التأم القديم والجديد في نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية في المزج بينهما ، مفكراً في كل التراث الشعري الذي سبقه وناقداً ومحللاً مستنبطاً . وهداه ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف في وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكله وتصوير وأن يجعلها أساساً في صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو الذي أعطاه لقبه <sup>(١)</sup> » . وحققاً نجده ماثلاً في أشعار بشار وأبي نواس وأضرابهما من سابقه ومعاصريه ، ولكنه يأتي عندهم في الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنه يتخذه وكده وغايته من عمل الشعر . وقد حاول ابن المعتز في كتابه « البديع » أن يرد البديع إلى الشعر القديم والقرآن الكريم ، فهو عربي الأصول . ولا يمكن لأحد أن يدعى أن مسلماً حين استظهر مذهب البديع والتصنيع في شعره لم يعتمد على أصول تركيبيته ، فقد كان منبشاً في العصور السابقة له ، إذ كان الجاهليون والإسلاميون يأتون به في خفة ، ثم عني به العباسيون منذ بشار ، حتى ليحمله الجاحظ زعيم فن البديع ، وبه اقتدى مسلم وحذا حذوه <sup>(٢)</sup> . ولا نستطيع أن نجري مع الجاحظ في ردّه مذهب البديع إلى بشار ، لأنه لم يقصر فنه عليه ، ولم يتخذه مذهباً يعيش له ويعيش به ، أما مسلم فإنه اتخذه مذهباً له ، وفرضه على شعره فرضاً منحازاً إليه واقفاً نفسه على التفكير فيه تفكيراً متصلاً معتمداً على حس دقيق وشعور رقيق وعقل مثقف ثقافة ممتازة .

وليس ذلك فحسب فقد أشربت روح مسلم صياغة الشعر القديم بأبنيتها الجزلة الضخمة الناصعة ، وتحولت إليه هذه الصياغة بكل ما يجري فيها من روعة وجمال ، فإذا أساليبه معتدلة مستوية ليس فيها أى عوج أو انحراف إنما فيها التناسق الكامل الذى يفتن قارئه بدقته وباتساع جنباته ليث فيه مسلم بديعه ، ولينميه مع روح عصره ، وليصب فيه نفسه وعقله وخياله ، وهو في ذلك يتكلف

(١) ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان ص (٢) البيان والتبيين ٥١/١ .

كل ما يستطيع من جهد عنيف وعناء شاق ، مراجعاً نفسه ومتأنياً محتاطاً ، حتى يبلغ كل ما يريد من امتياز على أقرانه . ولعله لم يمنح موضوعاً عنايته كما منح المديح وهو فيه يلائم ملاءمة دقيقة بين ماضى الشعر وحاضره ، فيستنفد ما قاله القدماء في وصف الصحراء والنوق والتشبيب ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات في أشعارهم وما أضافوا إليها من وصف الخمر، أو وصف السفن في طريقهم إلى ممدوحهم . حتى إذا خلص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى عرض جديد رائع يصور زاده الأصيل من التراث الفنّي مضيفاً كثيراً من المعانى والصور البديعة ، وقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة العجيبة في يزيد بن مزيد وتصوير فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق وما يتسم به من مروءة كاملة :

لولا يزيدُ لأضحى الملكُ مطرَحاً  
يَغشى الوغى وشهابُ الموتِ في يدهِ  
موفٍ على مُهجٍ في يومِ ذى رَهجٍ  
لا يَرَحُلُ الناسُ إلا نَحو حُجرتِه  
يكسو السيوفَ دمَاءَ الناكثينِ بهِ  
قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وثِقنَ بها  
تراه في الأمنِ في دِرْعٍ مضاعفةِ  
لا يَعْبُقُ الطَّيْبُ خَدْيَه ومَفْرِقَه

أومائلُ السَّمَكِ أو مُسْتَرخِي الطُّوَلِ (١)  
يَرْمِي الفوارسَ والأبطالَ بالشُّعَلِ (٢)  
كَأنه أَجَلٌ يسعَى إلى أَمَلِ (٣)  
كالبيتِ يُفَضِي إليه مُلتقى السُّبُلِ (٤)  
ويجعلُ الهامَ تيجانَ القَنَا الذُّبُلِ (٥)  
فهنَّ يَتَبَعنَه في كل مُرْتَحَلِ  
لا يَأمنُ - الدهرَ - أن يُدْعَى على عجلِ  
ولا يُمَسِّحُ عينيه من الكُحْلِ (٦)

فإنك تشعر بضخامة البناء وقوة الحبيك وأن مسلماً يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوء ولا قصور وإنما ضبط وإحكام . وهو يستمد صورته في البيت

الحرب .  
(٤) يريد أن الطرق تلتقي براكبيها عند المندوح لجوده النمر .  
(٥) الهام : الرووس . الذبل : الرقيقة الحادة .  
(٦) لايمسح عينيه من الكحل : لا يكتحل .

(١) مطرَحاً : مخذولاً . الطول : الجبال .  
وقد ضرب السك والطول مثلا لاستقامة الأمر كاستقامة الخيمة حين يقوم عمودها وتشد جبالها .  
(٢) شهاب الموت : السيف . وأراد بالشعل اللهب المتساقط من الشهاب .  
(٣) المهج : الأرواح . الرهج : غبار

الأول من البادية وخيامها وما يُطَوَى فيها من حبال وأعمدة . وطالما شبه الشعراء  
السيوف بالشهب ، غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك تشبيهاً بشعل النار وهي في  
يد يزيد يرمى بها يميناً وشمالاً . ومضى في البيت الثالث يضيف إلى تصويره السابق  
جناسين واضحين . والتمس صورة سبقه إليها زهير في بيته الرابع ، إذ يقول في  
مديح صاحبه هرم بن سنان :

قد جعل المبتغون الخيرَ في هَرَمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقاً

ومضى يصور فتكه بالأبطال تصويراً بديعاً في بيته الخامس ، وكان القدماء  
يذكرون صحبة الطير للجيوش حين يصفونها كناية عما ستجد من أشلاء قتلاها ،  
فاستغل ذلك في بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً في رحلاته واثقة بما سُميرها  
به ، حتى أصبح ذلك من عاداتها فهي دائماً مرفرفة فوقه . ومثله في البيتين السابع  
والثامن شجاعاً تام الشجاعة حتى لا يفارقه درعه في أوقات أمنه وسلمه ، وحتى  
لا يتعطر شأن المترفين اللاهين فعطره شجاعته وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال .  
واقراً له هذه القطعة من مديح داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وتصويره فيها  
لبسالته وبطولته :

موحِّدُ الرَّأْيِ تَنَشِقُّ الظُّنُونُ له عن كل ملتبسٍ منها ومعقودٍ (١)  
كاللَّيْثِ بل مثله اللَّيْثُ الهَـضُورُ إذا غَنَّى الحديدُ غناءً غيرَ تغريد  
يلقى المنيَّةَ في أمثالِ عُدَّتْهَا كالسَّيْلِ يقذفُ جُلْموداً بجلمود  
يجود بالنفسِ إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفسِ أقصى غاية الجود

فإنك تحس قوة البناء ودقة التعبير وروعة التصوير ، فداود محكم الرأي إذا  
فكر في شيء انكشف له غامضه ومتشابهه ، وهو كالليث في انقضاضه على فريسته ،  
بل الليث هو الذى يحاكيه ويتخذة قدوته ، وإن بسالته لتتحول إلى ما يشبه موجاً  
لا يزال يسقطه على الأبطال موجة في إثر موجة كالسيل يدفع جلموداً بجلمود . وإن

(١) ملتبس : مشتبه . معقود : غامض .

شجاعته لضرب رائع من جوده وكأنما الجود شريعته حتى بروحه الزكية . ومن رائع مدنيحه قوله في الفضل بن جعفر البرمكي :

تُسَاقَطُ يُمْنَاهُ النَّدَى وَشِمَالُهُ الرَّدَى وَعِيُونَ الْقَوْلِ مَنْطِقُهُ الْفَضْلُ<sup>(١)</sup>  
عَجُولٌ إِلَى مَا يُودِعُ الْحَمْدَ مَالُهُ يَعُدُّ النَّدَى غَنَمًا إِذَا اغْتَنِمَ الْبُخْلُ  
بِكَفِّ أَبِي الْعَبَّاسِ يُسْتَمَطَّرُ الْغِنَى وَتُسْتَنْزَلُ النَّعْمَى وَيَسْتَرْعَفُ النَّضْلُ<sup>(٢)</sup>

والأبيات من طراز بنائه الضخم ، وهي متينة السبك ، قوية الحبك ، وانظر في البيت الأول كيف صور تصويراً بديعاً كرم الفضل وشجاعته وبلاغة بيانه ، وقد طابق في البيت الثاني بين الكرم والبخل ، وعاد في البيت الثالث إلى تركيزه الشديد وتجميعه المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، مع قوة تجسيمها وتجسيدها . ومن بارع مديحه قوله في إسماعيل البرمكي :

وإني وإسماعيلَ يوم وداعِهِ لكَالْغَمْدِ يَوْمَ الرَّوْعِ فَارِقَهُ النَّضْلُ  
فَإِنْ أَعْشَ قَوْمًا بَعْدَهُ أَوْ أَزْرَهُمْ فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحْلُ<sup>(٣)</sup>

يقول ابن المعتز : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله في ألف سنة<sup>(٤)</sup> » . وفي نفس هذه القوالب القوية كان يصوغ مرثيه على شاكلة قوله في رثاء يزيد بن مزيد :

نَفَضْتُ بِكَ الْأَمَالَ أَحْلَاسَ الْغِنَى وَاسْتَرْجَعْتُ نَزَاعَهَا الْأَمْصَارُ<sup>(٥)</sup>  
أَجَلٌ تَنَافَسَهُ الْحِمَامُ وَحَفْرَةٌ نَفَسَتْ عَلَيْهَا وَجْهَكَ الْأَخْفَارُ<sup>(٦)</sup>  
فَازْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ أَتْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ<sup>(٧)</sup>

والصورة في البيت الأول دقيقة ، فقد أراد أن يصور قعود المعتفين والسائلين عن الرحلة في طلب نواله ، فقال إن الآمال نفضت أحلاس الغنى ، أي أنها لم تعد

(٥) أحلاس جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرجل . نزاعها : الذين يزرعون إليه ويفتربون عن أوطانهم .  
(٦) الحمام : الموت .  
(٧) المزنة : السحابة الممطرة .

(١) الندى : الكرم . الردى : الموت .  
(٢) يسترف : يقطر دماً . النصل حد السيف .  
(٣) الأنس : بفتح الهمزة كالأنس بضمها ، المحل : الجذب .  
(٤) ابن المعتز ص ٢٣٦ .

تهَيَّيْءُ الإِبِلِ لِلارْتِحَالِ نَحْوَهُ . وَجَعَلَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ يَتَنَافَسَانِ عَلَيْهِ ، كُلٌّ يَرِيدُ أَنْ يَحُوزَهُ لِإِلَهِهِ ، وَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ جَعَلَ جَمِيعَ الْقُبُورِ تَنْفَسَ عَلَى قَبْرِهِ جَسَدُهُ الْعَالِي . وَدَعَا لَهُ مِثْمَثًا جُودَهُ الَّذِي عَمَّ بِهِ النَّاسَ كَمَا تَعَمُّ السَّحَابَةُ بِوَابِلِهَا السَّهْلَ وَالْوَعْرَ . وَمِنْ دَقَائِقِ مَعَانِيهِ فِي الرَّثَاءِ قَوْلُهُ :

وَمَخَادِعِ السَّمْعِ النَّعِيِّ وَدُونِهِ      خَطْبُ أَلْمِ بِصَادِقٍ لَا يَخْدَعُ

وَهُوَ يَصُورُ فِي الْبَيْتِ ذَهُولَ الصَّدِيقِ حِينَ يَأْتِيهِ نَعْيُ صَدِيقِهِ فَيَفْزَعُ إِلَى تَكْذِيبِهِ ، ثُمَّ يَثُوبُ إِلَى رَشْدِهِ . وَقَدْ بَدَأَ حَيَاتَهُ بِنَقَائِضٍ فِي الْمَهْجَاءِ نَاقِضَ بِهَا ابْنَ قَبْرِ ، وَهُوَ فِي هَذِهِ النَّقَائِضِ يَصْدُرُ عَنِ رُوحِ النَّقَائِضِ الْقَدِيمَةِ عِنْدَ جَرِيرِ وَالْفَرَزْدَقِ وَمَا يُطَوِّى فِيهَا مِنْ عَصَبِيَّاتٍ ، وَيَتَكَافَأَنَّ فَلَا يَعُودُ إِلَى هَذَا النَّمَطِ الْقَدِيمِ ، بَلْ يَأْخُذُ فِي النَّمَطِ الْمُسْتَحْدَثِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَالَّذِي كَانَ يَجْرِي فِي آيَاتِ قَصِيدَةِ تَشْبِهِ السِّهَامِ الْمَسْمُومَةِ ، كَقَوْلِهِ فِي دَعْبِلِ تَلْمِيذِهِ وَقَدْ فَسَدَ مَا بَيْنَهُمَا :

أَمَّا الْهَجَاءُ فَدَقُّ عِرْضِكَ دُونَهُ      وَالْمَدْحُ عِنْدَكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُ  
فَاذْهَبْ فَإِنَّتِ طَلِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ      عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتِ ذَلِيلُ

وَتُرَوَّى لَهُ آيَاتٌ فِي هَجَاءِ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدٍ ، وَأَكْبَرَ الظَّنِّ أَنَّهَا مِتْحَلَةٌ أَوْ لَعْلَهَا أُضْيِفَتْ لِإِلَهِهِ خَطَأً ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ مَدَحُ مُوسَى بْنِ خَازِمِ بْنِ خَزِيمَةَ وَسَعِيدَ بْنِ سَلَمِ بْنِ قَتَيْبَةَ ، فَلَمْ يَسْرَاهُ ، وَاسْتِشْطَاطُ غَضَبًا ، فَرَمَاهُمَا بِسِهَامٍ لَادِعَةٍ مِنْ هَجَاءِ مَرِيرٍ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ فِي مُوسَى :

لَوْ أَنَّ كَنْزَ الْبِلَادِ فِي يَدِهِ      لَمْ يَدَعِ الْإِعْتِدَارَ بِالْعُدْمِ<sup>(١)</sup>  
وَقَوْلُهُ فِي سَعِيدٍ :

وَأَحْبَبْتُ مِنْ حُبِّهَا الْبَاخِلَ      بَيْنَ حَتَّى وَمِمْتُ ابْنَ سَلَمٍ سَعِيدًا<sup>(٢)</sup>  
إِذَا سِيلَ عُرْفًا كَسَا وَجْهَهُ      ثِيَابًا مِنَ اللَّوْمِ صُفْرًا وَسُودًا<sup>(٣)</sup>  
وَكَانَ لَا يَزَالُ يَدْفَقُ فِي مَعَانِي الْمَهْجَاءِ حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْنَى نَادِرٍ يَرُوعُ سَامِعِيهِ ،

(٢) وميمت : أحببت .

(١) العدم : فقدان المال .

(٣) سيل : سئل ، خفف . العرف : المعروف والجود .



من مثل قوله يهجو رجلا بقبیح وجهه وخلقه :

قَبَحَتْ مَنَازِرُهُ فَحِينَ خَبَرْتُهُ حَسُنَتْ مَنَازِرُهُ لِقُبْحِ الْمَخْبَرِ

وبنفس هذا النسيج من الصياغة وهذه الدقة في المعاني والصور كان مسلم ينظم في الحب والخمر ، سواء أودعها مقدمات مدائحه أو أفردها ببعض المقطوعات ، وهو يصور منزعه فيهما ومتعته بهما إذ يقول :

وما العيش إلا أن أبيتَ موسداً - صريعَ مُدامٍ - كفَّ أخوراً أكحل<sup>(١)</sup>

وكان لا يزال يبتى فيهما على نفسه ولا يزال يحتفظ بغير قليل من كرامته . وهو في غزله لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه ونيران شوقه وحببه الذى يلذع فؤاده من مثل قوله :

إن كنتِ تَسْقِينِ غيرَ الرَّاحِ فاسقيني كاساً أَلَذُّ بها من فيكِ تَشْفِينِي  
عينكِ راحي ، وريحاني حديثك لي ولونُ خديك لونُ الوردِ يكفيني  
وقوله :

ولما تلاقينا قضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بوجهِ كوجهِ الشمسِ ما إنْ له مِثْلُ  
وخالٍ كخالِ البَدْرِ في وجهِ مِثْلِهِ لَقِينَا المُنَى فيه فحاجزنا البَدْلُ  
وقوله :

وأقسمتُ أنسى الداعياتِ إلى الصِّبَا وقد فاجأتها العَيْنُ والسُّتْرُ واقِعُ  
فغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثِمَارَ نُحُورِهَا كَأَيْدِي الأَسَارَى أَنْقَلَّتْهَا الجِوَامِعُ<sup>(٢)</sup>

والخمر عند مسلم تأتي غالباً في مقدمات مدائحه ، وفيها يحاول أن يستنبط المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة من شاكلة قوله :

ومانحةٍ شُرَّابِهَا المُلْكُ قَهْوَةٌ مجوسيةٍ الأنسابِ مسلمةِ البَعْلِ

(٢) الجوامع : الأغلال والقيود .

(١) المدام : الخمر .

قد استودعت دنا لها فهو قائمٌ بها شفقاً بين الكروم على رجلٍ  
شققنا لها في الدنَّ عينا فأسبكتُ كالسنة الحياتِ خافت من القتلِ (١)

وقد جعلها في البيت الأول من بنات الجوس كما جعل شاربها مسلماً وسماه  
بعلاً أو زوجاً ، لأنه اشتراها وخطبها وهو يعنى نفسه . أما في البيت الثاني فقال  
إنها ظلت طويلاً في شجرة الكرم ، وظلت واقفة بها شفقة لها وحنواً عليها . وقال في  
البيت الثالث إنهم شققوا لها في دنَّها شقياً وهي تسيل منه حمراء مهتزة ، كأنها  
السنة حياتٍ ترتجف من القتل ، فهي لا تكف عن إرسالها لها خوفاً وفزعاً . ومسلم  
من أمهر الشعراء وأدقهم في التصوير ، وهي دقة تراءى في جميع جوانب ديوانه  
من مثل قوله مصوراً سرعة النوق ونحوها لطول السفر :

إلى الإمام تهادانا بإرْحَلِنَا خَلَقُ من الرِّيحِ في أشباحِ ظِلْمَانِ (٢)  
كَانَ إِفْلَاتِهَا والفجرُ يأخذها إِفْلَاتُ صادرةٍ عن قَوْسِ حُسْبَانِ (٣)

فقد جعل نوقهم كأنما خلقت من الريح لسرعتها ، وصورها في ضمورها  
كأنها ذكور نعام وهي تمرُّ مسرعة مرور ظبية رماها صائد فأخطأها ، فهي لا تنى  
عن الانطلاق والعدو الشديد . وقد نوّه القدماء طويلاً بتصويره للسفينة بمثل  
قوله :

إذا أقبلت راعتٌ بقنَّةٍ قرهبٍ وإن أدبرت راعتٌ بقادِمَتِي نَسْرٍ (٤)  
أَقَلَّتْ بِمَجْدَافِينِ يعثورانها وَقَوْمَهَا كَبَّحُ اللَّجَامِ من الدُّبْرِ (٥)  
كَانَ الصَّبَا تحكى بها حين واجهتُ نَسِيمَ الصَّبَامِشَى العروسِ إلى الخِدرِ (٦)

وهو يشبه في البيت الأول صدرها برأس ثور وحشى كما يشبه مجدافيهما بجناحي  
نَسْرٍ ، ويرسم صورتها في البيت الثاني بمجدافيهما وسكَّانها الذى يقوم جموحها .

(٤) راعت : أفتت . قنة قرهب : رأس

ثور وحشى . قادمات النسر : جناحاه ، أراد بها

المجدافين .

(٥) أقلت : ارتحلت وسارت .

(٦) الخدر : البيت الذى تستتر فيه المرأة .

(١) يقصد بالعين الثقب . أسبكت : سالت

(٢) تهادانا : تحملنا . أشباح : أشخاص .

ظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام .

(٣) إفلاتها سرعتها وانبعثها في السير . صادرة

راجمة . قوس حسان : ضرب مشهور في عصرهم

من القسي .

أما في البيت الثالث فيشبهها في سيرها الوئيد بالعروس في سيرها الرفيق إلى خدِّها .  
وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعاني والصور ،  
مضيفاً إلى ذلك حُلًى كثيرة من وثنى الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة ، وهو  
في ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوى محكم ، مزاجاً  
بكل ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والحديثة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة  
الجزلة الرصينة التي تلذ الأسماع العربية ، وإذا هي تفسح لمذهب البديع الجديد  
بكل طرائفه العقلية والخيالية ، بحيث يمتع القلوب والأفئدة .

٥

### أبو تمام (١)

هو حبيب بن أوس الطائي ، وُلد بقرية جاسم بقرم دمشق على الطريق منها  
إلى طبرية ، وقد تعددت الروايات في سنة ولادته ، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢  
وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونُسب إليه أنه قال : ولدتُ سنة ١٩٠ (٢) . والآراء  
متضاربة في صحة نسبه من طيئ ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطي (٣) ،  
وزعم قوم أن أباه كان نصرانياً (٤) يسمّى تدوس وأنه حرّفه إلى أوس وانتسب في  
طيئ . وظن مرجليوث في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم  
أبيه المذكور في المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبَنَى

تمام الطائي : حياته وحياته شعره « لنجيب محمد  
البيهقي » وأبو تمام « لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه  
طبعتات مختلفة ، أهمها طبعة دار المعارف بشرح  
التبريزي وقد ظهر منها ثلاثة أجزاء تشمل على مدائحه ،  
وسُرجع إلى هذه الطبعتات ، وما ليس فيها سُرجع  
فيه إلى طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م .

(٢) أنظر في ميلاده وفيات الأعيان وأخبار

أبي تمام للصولي ص ٢٧٢ .

(٣) الصولي ص ٢٣٥ .

(٤) الصولي ص ٢٤٦ وأنظر النجوم الزاهرة

. ٢٦١/٢

(١) انظر في أبي تمام وأخباره وأشعاره ابن  
المعز ص ٢٨٣ والأغانى (طبع دار الكتب)  
٣٨٣/١٦ وتاريخ بغداد ٢٤٨/٨ والموشح ص  
٣٠٣ وابن خلكان (طبعة سنة ١٢٩٩ هـ)  
١/١٥٠ وتهذيب ابن عساكر ١٨/٤ وشذرات  
الذهب ٧٢/٢ ومرآة الجنان ١٠٢/٢ وكتاب  
الموازنة بين الطائنين للآدمي وأخبار أبي تمام  
للصولي وهبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبيهقي  
ودائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي تمام ومن  
حديث الشعر والنثر لطلح حسين والفن ومذاهبه في  
الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢١٩ وأبو

طه حسين على هذا الظن أنه يوناني الأصل<sup>(١)</sup> ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان<sup>(٢)</sup> . ونصرانية أبيه - إن صححت - لا تنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهور من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائي صليبية<sup>(٣)</sup> ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيء وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجّلوا لها في عصره أجداداً حربية ، مما يدل على أنه طائي عريق وعربي أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضاً في نشأته ، فقيل إنه نشأ بمصر يستق الناس في مسجدها الكبير ، وأكثر المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بحائك كفي يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف - منذ نعومة أظفاره - إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجري فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه به إلى بعض اليمينين والطائيين في بلده وفي حمص مثل نوح بن عمرو السكسكيّ وبني عبد الكريم الطائيين . ونراه يولّي وجهه نحو مصر قاصداً عيَّاش بن لبيعة الحضرمي الذي كان يقوم أحياناً على شرطتها وخراجها ، وله يقول في إحدى مدائحه<sup>(٤)</sup> :

وأنت بمصر غاييتي وقرايتي بها وبنو الآباء فيها بنو أبي

وهو يشير دائماً في مديحه له إلى حرمة منه وأنه يعني مثله ، ويلجج في الافتخار بملوك اليمن وأقبالها القدماء . ويظهر أنه عاد فازور عنه ، مما جعله يكثر من عتابه ، حتى إذا يثس منه أصلاه بنار هجائه . وليس بين أيدينا ما يدلُّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عيَّاش ، غير أن في كتاب « الولاة والقضاة » للكندي أشعاراً له تتصل بأحداث مصر بين سنتي ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها في تلك الفترة ، وفي هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرّف على عبد الله بن طاهر في ولايته على مصر ( ٢١١ - ٢١٣ هـ ) وقد نوّه به وبقضائه فيها على الفتن . وفي ديوانه بيتان هجا بهما

(٣) ص ٥٩ والأغاني ١٦/٣٨٣ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ( الطبعة الثانية بدار المعارف ) ص ٣٩٩ .

(٤) الديوان ( طبع دار المعارف ) ١/١٦٢

(١) مقدمة نقد النثر لقدامة ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٩ وانظر مقاله عنه في كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ( طبع

دارالمعارف ) ٢/٧٢ .

المطلب بن عبد الله الخزاعي معلناً له أن مدحه فيه كان كذباً وبهتاناً ، وقد ولي المطلب مصر في سنتي ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته ، فهل يعني ذلك أنه نزل مصر مرتين : مرة في أواخر القرن الثاني ومرة في أوائل العقد الثاني من القرن الثالث ؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل في ذلك ، وخاصة أنه ليس في ديوانه مديح للمطلب ، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه .

وقد عاد إلى موطنه في سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة في كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسي الذي كافح بابك كفاحاً مريراً ، وخنانه القدر فسقط في ميدان النضال لأوائل هذه السنة . وتعمقت الحادثة نفس أبي تمام فبكاه بكاء حاراً أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلُّ به مكانة ممتازة بين الشعراء . وأخذ يتردد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبي ، ونراه يقول في إحدى مدائحه له (١) :

بالشام أهلى وبغدادُ الهوى وأنا بِالرَّقَّتَيْنِ وبالفُسطاطِ إخواني  
وما أظنَّ النَّوَى ترضى بما صنعتُ حتى تشافه بي أقصى خراسان

وذكره الفسطاط يدل على أنه كان حديث عهد بالأوبة منها ، ولا تزال ذكرى واليها عبد الله بن طاهر حية في نفسه ، ولذلك ينوى أن يزوره في خراسان : ولايته الجديدة ، وهو يتمنى أن تكتحل عيناه بمراى بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها في صحبة محمد بن حسان الضبي إلاما قصيراً (٢) ، وفي ديوانه قصيدة موجهة إلى الحسن بن سهل الذي كان جوده الغدق لا يزال يسيل على الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول (٣) :

ستُّ وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب (٤)  
فإذا صح أنه مدحه بها في بغداد فإنه يكون قد زارها وهو في السادسة والعشرين من عمره . على أنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلى الموصل متنقلاً بينه وبين موطنه ،

(١) الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/٣٠٩ . (٢) الديوان (طبعة دار المعارف) ١/١١٥ .  
(٣) لم تحب : من الحوب وهو الإثم . (٤) ابن المعتز ٢٨٣ .

وربما بدأ مديحه للملك بن طَوْق التغلبي والى الجزيرة منذ هذا التاريخ . ونراه يحاول المشول بين يدي المأمون في إلامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته على الروم ، وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : ( كُشِفَ الغطاء فأوقدى أو أخدمى ) وفيها يعلن له حبه لآل البيت مشيدا بقضائه على الثورات والفتن بمصر ، يقول (١) :

وانتاش مصر من اللتيا والتي بتجاوزٍ وتعطفٍ وتعهدٍ

والمعروف أن المأمون زار مصر في أول سنة ٢١٧ للهجرة ، وقد عاد منها إلى دمشق ثم توجه منها إلى ثغر « أذنة » معسكراً بها وجيوشه تتغلغل وراء البيزنطيين ، مبددين لجموعهم في غير جهة ، وتقدم بنفسه إلى حصن « لؤاوة » فأناخ به ، وجيوشه تغدو وتروح في آسيا الصغرى منزلة بالروم هزائم ساحقة . ونرى أبا تمام يتغنى بتلك الانتصارات في ميميته للمأمون تغنياً بديعاً بمثل قوله يصف تلك الجيوش واستبسالها في القتال (٢) :

مُسْتَرَسِلِينَ إِلَى الْحَتُوفِ كَأَنَّمَا بَيْنَ الْحَتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ  
آسَادُ مَوْتٍ مُخَدَّرَاتُ مَالِهَا إِلَّا الصَّوَارِمَ وَالْقَنَا آجَامُ (٣)

وقد مضى يشيد بقائدين من حواد هذه الحروب ، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني والى أرمينية وقد سجل له انتصاراً حريياً ماحقاً على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده ، يقول (٤) :

ولما رأى تُوفِيْلُ رَايَاتِكَ الَّتِي تَوَلَّى وَلَمْ يَأَلِ الرَّدَى فِي اتِّبَاعِهِ  
كَأَنَّ بِلَادَ الرُّومِ عُمَّتْ بِصِيحَةٍ إِذَا مَا اتَّلَّابَتْ لَا يَقَاوِمُهَا الصَّلْبُ (٥)  
كَأَنَّ الرَّدَى فِي قِصْدِهِ هَائِمٌ صَبُّ  
فَضَمَّتْ حَشَاهَا أَوْرَغًا وَسَطَهَا السَّقْبُ (٦)

(٥) اتلَّابَتْ : تتابع هزماً . الصلْبُ : جمع صليب ، ويريد النصرى .

(٦) السَّقْبُ : ولد الناقة التي عقرتها ثمود فصارت شوباً عليهم وهلاكاً لهم .

(١) الديوان ٤٨/٢ . انتاش : خلس .

(٢) الديوان ١٥٦/٣ .

(٣) مخدَّرات : ساكنات بيوتها وغاباتها .

آجام : جمع أجمة وهي الشجر الكثير المتنف .

(٤) الديوان ١٩٧/١ .

وأما القائد الثاني فجعفر الحياط ، على أنه لم يتوسع في تصوير حروبه وانتصاراته ، ونظن ظناً أنه لقي في هذا الحين المعتصم إذ كان المأمون يعهد إليه بقيادة بعض تلك الجيوش الغازية للروم ، فقد جاء في بعض أخباره أن أول لقائه له إنما كان في المصيبة إحدى ثغور الشام<sup>(١)</sup> ، وفي بعض الروايات أنه إنما لقيه بعد بنائه لسُرَّ من رأى وفتحها لعمورية في سنة ٢٢٣ للهجرة غير أنه في إحدى مدائحه له يقول<sup>(٢)</sup> :

أربعينا في تسع عشرة حجةً حقاً لهنك للربيع الأزهر<sup>(٣)</sup>

وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد في تلك السنة ، وكأنه شدَّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبي القائم على شرطة بغداد وأعمالها ، وزراه يشيد بانتصاراته على الحميرة الذين ثاروا بالجليل شمالي إيران لسنتي ٢١٨ ، ٢١٩ إشارات رائعة<sup>(٤)</sup> . ويظهر أنه لم يلبث أن ارتحل إلى عبد الله بن طاهر والي خراسان ، واستقبله ذو ومن حواه من الكتّاب والشعراء استقبالا حافلا ، ويقال إنه لما أنشده قصيدته فيه : (هـنَّ عوادى يوسف وصواحيبه) نشر عليه ألف دينار . وقد دَبَّحَ قصائد كثيرة في رئيس ديوانه وكتّابه محمد بن الهيثم بن شُبَّانة وأيضاً في كثير من العمَّال والقواد هناك مثل محمد بن المستهل ودينار بن عبد الله وحفص بن عمر الأزدي وعلي بن مرّ ، ونوّه في طريقه بكثير من الولاة وخاصة الحسن بن رجاء والي فارس . وفي عودته نزل بهمذان على أبي الوفاء بن سلمة ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة وهو مطبوع مراراً ، وطُبع له شرحان : شرح التبريزي وشرح المرزوقي ، وهو يصور لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبي تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربي ودرره النفيسة في القديم والحديث .

وعاد إلى « سُرَّ من رأى » وأخذ يتغنّى بانتصارات القواد على بابك الحرّمي وكان قد ثار منذ سنة ٢٠١ للهجرة ونازله كثيرون من قواد المأمون ، وما توفّى

(٣) لهنك : لغة في لإنك .

(٤) الديوان ١٦٨/٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ .

(١) الصول ص ١٤٤ .

(٢) الديوان ١٩٣/٢ .

سنة ٢٢٠ حتى يعقد المعتمصم للأفشين على الجيوش التي تنازل أتباعه من الحرّمية في الجبال وأرمينية وأذربيجان ، وكان من أهم القواد الدين عصفوا حيثئذ بأتباعه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى وقد مضى أبو تمام يشيد بانتصاراته وكأنه يحيى فيه قبيلته طيناً وأمجادها الحربية الحديثة ، ومن ثمّ لم يترك له انتصاراً دون أن يسجله في ملحمة رائعة . ومجد بجانبه بطلا عربياً ثانياً من نكلوا ببابك وأصحابه تحت لواء الأفشين هو أبو دؤف العجلى ، وكان فارساً مغواراً ، وغيبشاً مدراراً ، فنوه به تنويهاً رائعاً . وأخيراً فى أوائل سنة ٢٢٣ قدم الأفشين ببابك مقيداً إلى سُرّ من رأى ، فتعالى بها التكبير والضجيج ، وقتل وقطع جسده وصأب جزاءً وفاقاً لبغيه ونكته بالعهود . وأخذ الشعراء فى مقدمتهم أبو تمام يهنئون المعتمصم والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة ، هى : ( غدا الملك معمور الحمى والمنازل ) و ( آلت أمور الشرك شر مآل ) و ( بئذ الجلالدُ البئذ<sup>(١)</sup> ) فهو دفين . ولم يلبث تيوفيل إمبراطور بيزنطة أن أغار على زبطرة بالقرب من سُميساط والحدت فى طرف بلاده ، واستشاط المعتمصم غضباً ، فجهز الجيوش لغزو الروم ، والتقى بتيوفيل وهزمه هزيمة ساحقة ، افتتح على إثرها عمورية وتفرقت جيوشه فى آسيا الصغرى تمحق الروم محقاً ، وتوطئهم صغاراً وذلاً . وكان لمحمد بن يوسف الثغرى فى تلك الحروب دور كبير جعل أبا تمام يتغنّى به وبانتصاراته طويلاً على نحو ما تصور ذلك قصيدته : ( لا أنت أنت ولا الديار ديار ) و ( ما عهدنا كذا نجيب المشوق ) وهو فيهما يسمّى كثيراً من الحصون الرومية التي افتتح أقالها ، مصوراً كيف تغلغل حتى خليج القسطنطينية سائقاً بين يديه مئات الأسرى والمغانم الكثيرة . ودرة تلك الحروب قصيدته فى عمورية التي امتدح بها المعتمصم : ( السيف أصدق أنباء من الكتب ) وهى ملحمة رائعة .

وأخذت تتوثق علاقة أبى تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبى دؤاد مستشار المعتمصم وقاضى قضاته ، وبأحمد بن المعتمصم وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها . وما نكاد نتقدم فى سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيار بطبرستان ، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغراً إلى « سُرّ من رأى » فى سنة ٢٢٥ فيقتل ويصأب

(١) البئذ : كورة بين أران وأذربيجان خرج بها بابك .



بجانب بابك . وتجمعت أداة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر ويتنوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبي دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه في غيابات السجون ، ويموت ، فيصُلب بجانب بابك ، ثم يُحرقُ بالنار التي كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة<sup>(١)</sup> :

الحقُّ أَبْلَجُ والسيوفُ عَوَارِي فحذارٍ من أَسَدِ العَرِينِ حذار  
وقد صَوَّرَ فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين  
المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذي أوردته موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار  
وصلبه قبل ذلك بجوار بابك وما يزار يقول :

ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعِهِ حتى اصطلى سِرُّ الزناد الواري<sup>(٢)</sup>  
ناراً يُساور جسمه من حرِّها لهبٌ كما عَصَفَتْ شِقٌّ إزارِ<sup>(٣)</sup>  
صَلَّى لها حَيًّا وكان وقودها مَيْتًا ويدخلها مع الفُجَّارِ  
ولقد شَفَى الأحشاء من بُرَحائها أن صار بابكُ جارَ مازيار  
سودُ الثيابِ كأنما نسجتْ لهم أيدي السَّمومِ مَدَارِعًا من قارِ<sup>(٤)</sup>  
كادوا النبوةَ والهدى فتقطَّعتْ أعناقُهم في ذلك المضمار

وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥  
وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن وهب وظل يمدح أبا سعيد الثغرى وخالد بن  
يزيد والى أرمينية ومالك بن طوق التغلبي والى الجزيرة ، ومدح موسى بن إبراهيم  
الرافقي والى دمشق للمعتصم والواثق . وتهاداه الرؤساء وكبار رجال الدولة . وتوفى  
المعتصم وخلفه الواثق فهنأه وعزَّاه بقصيدته البديعة : ( ما للدموع تروم كلِّ مرام )  
ويُضنُّ عليه مدائح مختلفة . ويظهر أنه أخذ يحس منذ ولاية الواثق سنة ٢٢٧ مله

(١) الديوان ١٩٨/٢ .

(٢) يشير إلى صلب الثلاثة الأفشين وبابك وما يزار ،  
وأراد بسواد ثيابهم سواد جلودهم بالشمس وغبار  
الرياح .(٣) يشير إلى أنه حرق بالنار وهو مصلوب على  
الجدع ، ومن أجل ذلك يشبهه بإزار عصفرنصفه

من حرفته ، وأنها تضطره أحياناً لبذل مديحه لغير مستحقه من مثل موسى بن إبراهيم الرافقي ، فتمنى لو صار له عمل في الدولة يدرّ عليه ما يكفيه مثوته ، وسرعان ما حقق له صديقه الحسن بن وهب أميته ، فعيّنه على بريد الموصل ، وظل هناك عامين ، جاءه فيهما نعي خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني فبكاه وبكى بطولته بكاء حاراً ، ولا يدور العام حتى يلبي داعي ربه سنة ٢٣١ للهجرة ويرثيه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم الحسن بن وهب ، وفيه يقول (١) :

فُجِعَ القَرِيضُ بِخَاتَمِ الشُّعْرَاءِ      وَغَدِيرِ رَوْضَتِهَا حَبِيبِ الطَّائِي  
مَاتَا مَعًا فَتَجَاوَرَا فِي حُفْرَةٍ      وَكَذَلِكَ كَانَا قَبْلُ فِي الْأَحْيَاءِ

ويقال إن بني حميد الطوسي بنوا على قبره قبةً خارج باب الميدان على حافة الخندق (٢)

وأخبار أبي تمام في أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية في زوجة له ، ويقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف (٣) . وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثراً . ويقول الصولي إنه كان أسمر طُوالاً ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدي المعتصم وغيره (٤) . ويقال إنه كان من أكثر الناس مزاحاً (٥) تسعفه في ذلك بديهية حاضرة . وفي ديوانه رائية يمدح بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها يفضل علياً ويشيد بمواقفه في عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ . الحق أنه لم يكن متشيعاً ، أما هذه القصيدة فنظن ظناً أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق في سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر ، وكان حينئذ بمصر وفي القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول في مطالعها (٦) :

وَإِنْ نَكْبِرًا أَنْ يَضِيقَ بَيْنَ لِه      عَشِيرَةٌ مِثْلِي أَوْ وَسِيلَتُهُ مِضْرٌ

(٤) الصولي ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٥) ابن المعتز ص ٢٨٣ .

(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ١٤٣ .

(١) الصولي ص ٢٧٧ .

(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٩ .

(٣) الصولي ص ١٤٤ .

ونراه في أول قصيدة أتى فيها المأمون يصرح له فيها كما قدمنا بأنه مشغوف بحب آل محمد ، تقريباً إليه وزُلقى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثاً عن قصيدته (١) :

ووسيلتي فيها إليك طريفةً      شامٍ يدين بحبِّ آل محمدٍ  
نِيطتُ قلائدُ عزمه بمحبرٍ      متكوفٍ مُتدَمِشِقٍ مُتَبَعِدٍ (٢)  
حتى لقد ظن الغواة - وباطلٌ -      أن قد تجسَّم في روح السيد (٣)

ومعنى ذلك أن تشيعة في القصيدتين جميعاً إنما كان في سبيل المأمون ، يحاول أن يمت إليه بما يعطفه عليه . وفي أخباره أن الحسن بن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلي صلاة خفيفة لا يطيل فيها (٤) ، وتوسع بعض الباحثين في الخبر فقالوا إنه لاحظ عليه تقصيره في أداء الفروض الدينية (٥) . وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه ، وأيضاً ففيه قصيدة وصّف بها حجّة حجّتها (٦) . وليس في ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثاً أو ماجناً . يلهو ولكن بقسطاس وكان خصومه حاولوا أن يغضّوا منه فزيّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه . أما الخبر الذي يُدكّر فيه أنه كان له غلام رومى وللحسن بن وهب غلام خنزرى وكل منهما يتعشق غلام صاحبه (٧) ، فهو أدنى إلى الفكاهة ، ولعل غلام أبى تمام المذكور هو الذى كان ينشد شعره . والحق أنه كان وقوراً وكان يترفع عن الدنيا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبتة .

وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقضّ على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثّلها تمثلاً دقيقاً ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأجنادها في الجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا في قصائده (٨) لخالد بن

(٥) انظر مقالة مرجليوث عن أبى تمام في دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٩ .

(٧) الصولى ص ١٩٤ .

(٨) الديوان (طبع دارالمعارف) ١٩٤/١

وانظر ٨٧/١ وما بعدها .

(١) الديوان (طبع دارالمعارف) ٥٥/٢ .

(٢) بمحبر : يقصد نفسه وأنه محبر القصائد

ويجودها . متكوف يقصد أنه كوفى تشيعاً .

متباعد : يقصد أنه ظريف من أهل بغداد .

(٣) السيد : يريد السيد الحميرى المشهور

بتشيعة .

(٤) الصولى ص ١٧٢ .

يزيد بن مزيد الشيباني ومالك بن طوق التغلبي ، وكذلك حين يقرب وقائع بعض الأبطال ودويتها في الخافقين إلى وقائع جاهلية وإسلامية مشهورة على نحو ما نرى في تمجيده لانتصار إسحق بن إبراهيم المصعبي على المحمّرة بالجليل<sup>(١)</sup> ، وكان يعرف كيف يحول التاريخ شعراً على شاكلة قوله في إحدى قصائده لخالد بن يزيد الشيباني وانتصار قومه في يوم ذى قار المشهور على الفرس<sup>(٢)</sup> :

انهم يومٌ ذى قار مَضَى وهو مُفْرَدٌ      وحيدٌ من الأشباه ليس له صَحْبٌ  
به علمتُ صُهْبُ الأعاجمُ أَنه      بهِ أعربتُ عن ذاتِ أنفُسها العُربُ<sup>(٣)</sup>  
هو المشهدُ الفَصلُ الذي ما نَجَا بهِ      لكسرى بنِ كسرى لا سَنامٌ ولا صُلبُ<sup>(٤)</sup>

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جذب شديد ، فابتغت الرعى في أرض العراق ، وكاتب والى الحيرة كسرى هل يأذن لهم في الرعى ؟ فاشترط أن يقدموا رهائن منهم ، ولما طُلبت من رئيسهم حاجب بن زُرارة ، قال : ليس معي إلا قوسى ، فاسترهنوها منه ، ووفى لهم بما وافقهم عليه . فصار ذلك معدوداً في مناقب نبي تميم . وإلى ذلك يشير أبو تمام في قصيدة يمدح بها أبا دُكَّاف متحدثاً عن المنقبة الكبرى لشيبان يوم ذى قار ، إذ فتكوا بالفرس الذين كسوا تميماً منقبة القوس وأدالوا منهم للعرب والعروبة ، مسجلين هذا المجد الحقيقي على التاريخ ، يقول<sup>(٥)</sup> :

إذا افتخرت يوماً تميمٌ بِقَوْسِها      وزادتُ على ما وطَّدتُ من مناقبِ  
فأنتم بذي قارٍ أمالتمُ سيوفكم      عروشَ الذين استرهنُوا قوسَ حاجبِ  
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوا بها      محاسنَ أقوامٍ تَكُنُّ كالمعايبِ  
مكارمُ لَجَّتْ في عُلوِّ كَأَنما      تحاولُ ثأراً عندَ بعضِ الكواكبِ

وقد تحدثنا في الفصل السابق عن تعمقه في مذاهب المتكلمين وفي الفلسفة والمنطق تعمقاً جعله ينشر في معانيه الأضداد المتنافرة نشرًا يدخل البهجة على

(٤) السنام : كناية عن النوق . والصلب

هنا : كناية عن الخيل .

(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٢١٥ .

(١) الديوان ٣/٣٠٠ وما بعدها .

(٢) الديوان ١/١٩٥ .

(٣) صهب : شقر شعر الرأس ، ويوصف

الأعاجم بالشقرة لغلبة ذلك عليهم .

النفس بما يصور من تعاقبها في الحياة ، تصويراً يدل على عمق غوره في الإحساس بحقائق الكون ، وبترباط جواهرها ، حتى الجواهر التي تبدو متضادة ، فإن بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقي التقاء وثيقاً ، على شاكلة قوله (١) :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ السَّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنُضْرَةٍ مِنْ شُحُوبٍ (٢)

وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وهي عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون ، فإذا بعضها يُرَى من خلال بعض ، بل إذا بعضها يتخذ دليلاً وحجة على بعض ، من مثل قوله لمن عدلته على ضيق ذات يده (٣) :

لَا تُتَكْرَى عَطَلُ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي  
وقوله في تحبيب الرحلة عن الأوطان (٤) :

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مَخْلُوقٌ لِدِيْبَاجَتِيهِ فَاعْتَرَبْتُ تَتَجَدَّدُ (٥)  
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيْدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ (٦)

ويتسع التأثير بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض في كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة في الصباح والغروب إذ يجلله دائماً شفق يأخذ بالأبواب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله (٧) ، كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع (٨) ، حتى قالوا إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعاً ، تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ، وبالشعر العربي قديمه وحديثه ، كما تسنده قوة ملكاته التي جعلته يُعَدُّ بحقٍّ حامل لواء الشعر العربي في عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ، أما الخصائص العقلية فتتضح في دقة معانيه وغوصه على طرائفها

بالديباجتين الوجه والمكانة الأدبية .

(٦) سرمد : دائم .

(٧) انظر مناقشتنا لهم في كتابنا الفن ومذاهبه

في الشعر العربي ( الطبعة السادسة بدار المعارف )

ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .

(١) الديوان ١/١٢٦ .

(٢) الخفض : سمة العيش . السرى : السيريليا ،

غناء : نفع .

(٣) الديوان ٣/٧٧ .

(٤) الديوان ٢/٢٣ .

(٥) مخلوق : من أخلق أى أبلى . ويريد

النادرة ، محتكماً إلى قانوني التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص الزخرفية فتتضح في روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوران عنده تزاوراً رائعاً بحيث يصبح الزخرف عملاً عقلياً والعمل العقلي زخرفاً نادراً لا يكاد يتعاق به أحد .

والمدبح أهم الأغراض التي تتجلى فيها خصائصه ، وهو في كثير منه ، بل في جمهوره ، يحتفظ بالمقدمة الطلابة وما يتصل بها من التشبيب والنسيب ، مودعاً فيها كثيراً من لفتاته وخواطره النادرة التي تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يخضع التفكير للشعر ، وكأنه فيأسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق ، وهل هناك جانب في شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيراً متصلاً ، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها في معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله في تصوير أيام عشقه الماضية<sup>(١)</sup> :

أعوامٌ وَضَلْ كَادَ يُنْسِي طَوْلَهَا      ذَكَرُ النَّوَى فَكَأَنَّهَا أَيَّامٌ  
ثم انبرتْ أَيَّامٌ هَجَرَ أَرْدَفَتْ      بِجَوَى أَسَى فَكَأَنَّهَا أَعْوَامٌ  
ثم انقضتْ تلك السنون وأهلها      فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ

وواضح أن قانون التضاد يلعب بأقواسه الأرجوانية في هذه الأبيات ، فالأعوام أيام ، والأيام أعوام ، وأوقات الصحو الممتعة أحلام . ومن طريف حكمه في الغزل والنسيب قوله<sup>(٢)</sup> :

أَجْدَرُ بِجَمْرَةٍ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا      بِالذَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طَوْلَ وَقُودِ  
وقوله<sup>(٣)</sup> :

أَحَلَى الرِّجَالَ مِنَ النِّسَاءِ مَوَاقِعًا      مِنْ كَانَ أَشْبِهَهُمْ بَيْنَ خُدُودَا  
وقد ردّد كثيراً في تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث ، حتى ليقول ضميراً متأففاً منه ومن سياسته الحرقاء<sup>(٤)</sup> :

(٣) الديوان ١/١٥٠ .  
(٤) الديوان ٢/٣٢٤ .

(١) الديوان ٣/١٥١ .  
(٢) الديوان ١/٣٩٢ .

لقد ساسنا هذا الزمان سياسةً      سُدى لم يسسها قط عبداً مجدعُ  
تروح علينا كل يوم وتغدى      خطوب كأن الدهر منهن يضرعُ

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومي والمنتبي الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم ، وأيضاً فإنه هو الذى ألهم المنتبي اعتداده بنفسه وما طوى في ذلك عنده من فخر محتدم ، وإقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيه في مديحه للحسن بن سهل (١) :

وغربت حتى لم أجد ذكرَ مشرقٍ      وشرقت حتى قد نسيتُ المغاربا  
خطوبٌ إذا لاقيتهنَّ ردَدْنى      جريحاً كأتى قد لقيتُ الكتائباً  
وقد يكهمُ السيفُ المسمى منيةً      وقد يرجع المرءُ المظفرُ خائباً (٢)  
وكنت امرءاً ألقى الزمان مسالماً      فأليتُ لا ألقاه إلا محارباً

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى نلقاه عند المنتبي مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر ، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عوداً وأصلب من الزمن ، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية .

وكان أبو تمام يضيف إلى نسيه أحياناً وصفاً لبعيره وما يقطع من الفلوات ، مستمداً من معانى القدماء فى هذا الوصف ومضيفاً طرائفه الحديثة ، كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال لطول رحلته به إلى خراسان ليمدح ابن طاهر (٣) :

رعتَه الفيافى بعد ما كان حِقْبَةً      رعاها وماء الروض ينهلُ ساكبُهُ

فالصحراء بطرقها الوعثة كأنماهى التى رعته إذ أضمرته وأنحلته ، بينما كان يرعى أعشابها ، وهو تضاد بديع ، فهو يرعى الصحراء والصحراء ترعاه . وقد ألم بوصف الحمر فى بعض مقدماته للمديح ، وهو ليس ممن يجيدون فى وصفها ، لأنه لم يكن ممن ينغمسون فى إثمها ، وقد يلقانا عنده بعض أبيات طريفة فيها كقوله (٤) :

(٣) الديوان ١/٢٣٠ .

(٤) الديوان ١/٣٤ .

(١) الديوان ١/١٤٧ .

(٢) يكهم : لا يقطع .

وضعيفة فإذا أصابت فُرصةً قتلْتُ كذلك قدرةُ الضعفاءِ  
وكانَّ بَهْجَتها وبهجةَ كأسها نارٌ ونورٌ قيِّداً بوعاءِ

وقد فسح في مقدماته مراراً للحديث عن الشيب ، وكان قد وخطه في  
سن مبكرة ، وهو لا يحاول تزيينه ، بل يعرف دائماً بأنه قبيح مكروه وخاصة في  
عين المرأة ، ومن طريف ماله فيه قوله (١) :

لو رأى الله أَنَّ للشيب فضلاً جاورته الأبرارُ في الخلد شيئاً  
ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو  
لا يبارى في تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده تصويره  
لقُمريةٍ وقمرىٍ وهما يرشفان رحيق الهوى بينما هو يتعمقه الحزن ، وكأنما ترى له  
السماء فتستهل بروقها ورعودها ، والطبيعة من حوله مكتسبة بثياب الربيع المشرقة  
والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذناها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس  
الرائع من أعراس الربيع ، يقول (٢) :

عَنِّي فشاك طائرٌ غرِيدُ      لما ترنم والغصونُ تَمِيدُ  
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمرِيَّةً      فدعت تقاسمه الهوى وتَصِيدُ (٣)  
إِلْفانٌ في ظلِّ الغصونِ تَأَلَّفَا      والتفَّ بينهما هَوَى معقودُ  
يتطعمان بريقَ هذا هذه      مجعاً وذاك بريقِ تلك مُعيدُ (٤)  
يا طائرانِ تمتعا هُنَيْمًا      وعِما الصباحِ فإنني مجهودُ  
أبكي وقد تلتِ البروقَ مضيئةً      من كلِّ أقطارِ السماءِ رُعودُ  
واهتزَّ رِيْعانُ الشِبابِ فأشْرقتُ      لتَهْلُلِ الشجرِ القرى والبِيدُ (٥)  
ومَضَّتْ طواوِيسُ العراقِ فأشْرقتُ      أذْناهُ مُشْرِقةٍ وهنَّ حُفودُ (٦)

(٤) مجعاً : حسواً .  
(٥) يريد بريمان الشباب الربيع .  
(٦) ومضت : لمعت وتلاذت . وحفود ، جمع  
حافد ؛ وهو الخادم .

(١) الديوان ١/١٦٨ .  
(٢) الديوان ٢/١٤٨ .  
(٣) الساق الأولى : القمرى أو ذكر الحمام ؛  
والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد : تصيده  
وتوقعه في شباكها .



يَرْفُلْنَ أَمْثَالَ الْعَذَارَى طُوفًا حَوْلَ الدَّوَارِ وَقَدْ تَدَانَى الْعِيدُ (١)

وهي قطعة رائعة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس، مشاعر أبي تمام المحزون وأحاسيس الطير المبتهجة بالحُب والطاويس المبتهجة بالربيع . ونراه في إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلاً بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وقد مضى يحتكم في هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه مجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يترأى في طقسه والشتاء يترأى في زهره (٢) ، بل إن المطر في الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل كما يحمل الصحو بترطيبه للجو نضرة المطر ، يقول :

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ النُّضَارَةِ يَمَطِّرُ  
ويتسع به الخيال فإذا الندى الذي تترقرق حباته على الأوراق والغصون كأنه طيب سقط من غدائر السحاب على لم الثرى ولحاه ، يقول :

وَنَدَى إِذَا ادَّهَنَتْ بِهِ لِيَمِّ الثَّرَى خَاتَ السَّحَابِ أَتَاهُ وَهُوَ مُغَدَّرٌ  
ويمضى في حُلْمِهِ ، فإذا هو يرى نفسه في رياض الربيع وأضواء الشمس تخالط الورود والرياحين كأنه في ليلة مقمرة جميلة ، والأحلام تفتد عليه من كل صَوْبٍ ، يقول :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيَا نَظْرَيْكُمَا تَرِيَا وَجْهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ  
تَرِيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرَّبِيِّ فَكَيْفَا هُوَ مُقَمَّرُ

وله بائية (٣) في مديح ابن الزيات استهلها بوصف ديمة ممطرة مصوراً فرحة الطبيعة بها بعد الجفاف الطويل ونراه يصل بينها وبين مديحه لابن الزيات وكأنه يرى فيها خلالة وكرمه الفياض . وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء في هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس في وضوح عنده بوحدة القصيدة ، ودأبها بمقدماتها عمل فَنِّيٌّ نامٍ لا يزال بعضه يتولد من بعض .

(٣) الديوان ٢٩٦/١ وانظر هبة الأيام ص ٣٧ حيث نص على أنها في ابن الزيات .

(١) طوفاً : جمع طائفة . الدوار : صنم كان النساء يظفن حوله في الجاهلية .

(٢) انظر القصيدة في الديوان ١٩١/٢ .

وإذا أخذنا ننظر في معاني مديحه وجدناه يحاول دائماً أن يستنبط منها مبتكرات طريفة مستمداً من مناجم عقله الغنية وكنوز أخيلته الثرية التي تحفل دائماً بما يملأ النفس إعجاباً به وبشعره ، كقوله يصف جود أبي دُلَاف<sup>(١)</sup> :

تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهْشُ عِرَاضُهَا فَتُرَكَّبُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ<sup>(٢)</sup>  
وقوله يصور جود المعتصم وكثرة بذله ونواله<sup>(٣)</sup> :

تَعُودُ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاها لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ  
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لِعَجَادَ بِهَا فَلَيْتَنِي اللَّهُ سَائِلُهُ

وقد تحول بوصفه بسالة الأبطال الذين تغنى بمدحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم كبرى جسمٌ فيها بطولتهم تجسيمياً يدلح الحماسة في قلب كل عربي ، ويضرمها إضراراً . ونراه يتغنى طويلاً ببطولة محمد بن يوسف الثغري الطائي وما أنزله من صواعق الموت على رءوس الحرورية أصحاب بابك ورءوس الروم ، وكأنه قيس يتغنى بليلاه . ومن رائع ما له فيه قوله يصور هجومه من الجنوب واقتحامه حصون العدو في الشمال ، والثلوج تغطي الطرق والآفاق<sup>(٤)</sup> :

لَقَدْ انْصَعَتَ وَالشِّتَاءَ لَهُ وَجْدٌ هُ يَرَاهُ الرِّجَالُ جَهْمًا قَطُوبًا<sup>(٥)</sup>  
طَاعَنَا مَنَحَرَ الشَّمَالِ مُتَبِحًا لِبِلَادِ الْعُدُوِّ مَوْتًا جَنُوبًا  
فِي لَيَالٍ تَكَادُ تُبْقِي بِحَدِّ الشِّتَاءِ مَسٌّ مِنْ رِيحِهَا الْبَلِيلِ شَحُوبًا  
فَضْرِبَتِ الشِّتَاءَ فِي أَخْدَعِيهِ ضَرْبَةً غَادَرْتَهُ عَوْدًا رَكُوبًا<sup>(٦)</sup>  
لَوْ أَصَحْنَا مِنْ بَعْدِهَا لَسَمِعْنَا لِقُلُوبِ الْأَيَّامِ مِنْكَ وَجِيبًا<sup>(٧)</sup>

وأمّ ملاحمه قصيدته في عمورية التي مدح بها المعتصم مسجلاً انتصاره العظيم على البيزنطيين ، وهو فيها مبتهج ابتهاجاً لا حدَّ له بهذا الفتح المبين ، وقد استهلها

القطوب : العيوس .  
(٦) الأخدعان : العرقان البارزان في العنق .  
العود : البعير المسن ركوب : مذلل .  
(٧) أصحنا : أرفقنا السمع . الوجيب : الخفقان .

(١) الديوان ٢١٢/١ .  
(٢) العراض : الساحات .  
(٣) الديوان ٢٩/٣ .  
(٤) الديوان ١٧٣/١ وما بعدها .  
(٥) انصعت : رجعت مسرعاً . الجهم ،

بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هي تسقط أركانها ويتداعى بنايانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرُّ توفيل إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمورية من كل جانب ، يقول (١) :

فَتَحُّ الْفَتْوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ      نَظْمٌ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ نَشْرٌ مِنَ الْخُطْبِ  
فَتَحُّ نَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ      وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِ الْقَشْبِ

ويتحدث عن وقتها وما حققت للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد، بينما هوت بالروم وديارهم في الخضيض. ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها عتيقة منذ الإسكندر ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها وكأما كان نصر جنود المعتصم في يوم « أنقرة » جرباً أصابها ، فإذا هي تركع صاغرة تحت قدمي المعتصم وقد لطح الدم ذوائب فرسانها وجباهم ، والتهمت النيران التفاماً ، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جرب ووجهها من تشويه تسكب في نفوس العرب من الفرح والبهجة مالا تُدكر بجانبه فرحة ذي الرمة وبهجته حين كان يلمُّ بربع مية التي تغنت بحبه لها الأحياء والبيد ، يقول :

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها      للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ  
غادرتَ فيها بهيمَ الليل وهو ضحى      يَشُلُّهُ وَسَطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ (٢)  
حتى كأن جلابيبَ الدجى رَغِبَتْ      عن لونها أو كأن الشمس لم تغبِ  
ضوءٌ من النار والظلماء عاكفةٌ      وظلمةٌ من دخانٍ في ضحى شحبِ  
فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلمتْ      والشمس واجبةٌ في ذا ولم تجبِ (٣)  
ما رُبِعَ مِيةٌ معموراً يُطيفُ به      غَيْلَانُ أَبْهَى رَبِّي مِنْ رَبِّعِهَا الْخَرِبِ (٤)  
ولا الخدودُ وقد أذمين من خجلٍ      أشهى إلى ناظري من خدّها الترابِ

(٣) واجبة ، أفلة : غاربة .

(٤) غيلان : ذوالرمة .

(١) انظر القصيدة في الديوان ٤٥/١ .

(٢) الليل البهيم : شديد الظلام . يشله : يطرده .

وواضح استمداده من قانون الأضداد في وصف حريقها ليلا ، وهو استمداد تخلّق في تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو في الليل البهيم ويتصور كأنه في الصباح المضيء ، بل هو في الضحى المنير ، وكأنما خلع الليل ثيابه بل لكأنما رغب عنها ، بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب ، بل لقد غربت ولم تلبث أن أشرقت في ربوع عمورية . فيا للحلم وبالروعة ، وإن نشوة الظفر ليجرى رحيقها في نفسه ، فإذا هو يحس إزاءها نفس أحاسيس ذى الرمة إزاء مية التي شغفت قلبه حباً . وقد مضى بصور قوة المعتصم وجنوده ، وكيف فر تيوفيل بفلول جيشه أمامه وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وما زال يصور فتك المعتصم بجيوشه وأبطاله ، حتى قال والجلد يغمره :

خليفةَ الله ! جازى الله سَعِيكَ عن  
بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الكبرى فلم ترها  
إن كان بين صُرُوفِ الدَّهْرِ من رَحِمٍ  
فبين أيامك اللَّاتِي نُصِرْتَ بها  
أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهم  
جُرْثُومَةَ الدين والإسلام والحَسْبِ (١)  
تُنال إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ  
موصولة أو ذِمَامٍ غير مُنْقَضِبِ (٢)  
وبين أيام بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ  
صُنْفَرَ الوجوه وجَلَّتْ أَوْجُهُ العَرَبِ (٣)

وعواطفه الدينية والقومية بارزة في هذه الأبيات الأخيرة ، بل إنها تبرز في جنبات الملحمة جميعها ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المبتهج الذي تبددت أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحامت مكانها أضواء النصر في كل مكان .

وإذا تركنا ملاحمه إلى مدائحه الأخرى وجدناه يلائم دائماً بين مدحه ومدوحه ، فإذا مدح كاتباً شاعراً مثل الحسن بن وهب نوه بأدبه وبلاغته ودرر لفظه ومعانيه ، وكذلك الشأن في مدحه لابن الزيات ، وكان هو الآخر كاتباً شاعراً ، وجلّى في وصفه لقلمه الذي أنشدنا منه قطعة في الفصل الرابع والذي استهله بقوله (٤) :

(١) جرثومة : أصل .  
(٢) صرُوف الدهر : أحداثه . منقضب : منقطع .  
(٣) بنو الأصفر : الروم .  
(٤) الديوان ١٢٢/٣ وما بعدها .

لك القلم الأعلى الذى بشبائته تُصابُ من الأمر الكلى والمفاصل<sup>(١)</sup>

وقد استمد فى وصفه له من قانون الأضداد مستنبطاً كثيراً من المعانى اللطيفة الدقيقة . ونحسُّ فى مديحه له وللحسن بن وهب ظاهرة نادرة هى الصداقة التى تنعقد بين رجال الأدب والشعر والفن ، وقد عبّر عنها تعبيراً بديعاً فى قوله لصديقه على بن الجهم الشاعر المعروف<sup>(٢)</sup> :

إِنْ يُكْدِ مُطَّرَفُ الْإِخَاءِ فَإِنَّا نَعْدُو وَنَسْرِى فِي إِخَائِ تَالِدِ<sup>(٣)</sup>  
أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْوِصَالِ فَمَاؤُنَا عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ  
أَوْ يَفْتَرِقُ نَسْبٌ يُوَلِّفُ بَيْنَنَا أَدَبٌ أَقْمَنَاهُ مُقَامَ الْوَالِدِ

ومرائى أبى تمام لا تقلُّ عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مرثيته لابن حميد الطوسى الطائى ، وكان قد سقط - كما أسلفنا - فى ميدان النضال ، وما إن أتاه نعيه حتى غمِسَ - كما يقول الرواة - طرف رداءه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره<sup>(٤)</sup> وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

فَتَى كَلِمَا فَاضَتْ عِيُونُ قَبِيلَةٍ  
فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مِيتَةٌ  
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرَبُ سَيْفِهِ  
وَقَدْ كَانَ فَوْتَ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ  
وَنَفْسٌ تَعَاثُ الْعَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا  
هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ إِنْ فَاتَهُ الْكُفْرُ<sup>(٦)</sup>  
فَأَثْبِتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ  
وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ<sup>(٧)</sup>

(٥) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٠ .  
(٦) الحفاظ : الذب عن الحمى والحمار .  
الوعر : الصعب .  
(٧) يوم الروع : يوم الحرب والفرع .  
(٨) الأخصص : باطن القدم .

(١) الشبابة : الحد .  
(٢) الديوان ١/٤٠٧ .  
(٣) يكدى : لايشمر ، ويريد بمطرف الإخاء حديثه . تالد : قديم .  
(٤) هبة الأيام ص ١٤١ .

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهَى مِنْ سُنْدُسٍ خُضَرَ (١)  
 مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ غَدَاةَ ثَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرٌ (٢)  
 وَحَقًّا قَالَ أَبُو دُلْفٍ لَهُ : لَمْ يَمْتَ مِنْ رُثَى بِمِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ (٣) ، فَقَدْ جَسَمَ  
 فِيهِ بَطُولَةَ ابْنِ حَمِيدٍ تَجَسِيمًا رَائِعًا ، وَمَا زَالَ يَتَغَنَّى بِبَطُولَتِهِ وَاسْتَبْسَالِهِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ  
 حَتَّى أَبْدَلَهُ مِنْ كَسْوَةِ الدَّمِ الزَّكِيِّ كَسْوَةَ الْفَرْدُوسِ السُّنْدُسِيَّةِ . وَجَاءَهُ نَعْيُ خَالِدِ بْنِ  
 يَزِيدَ بْنِ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيِّ وَهُوَ عَلَى بَرِيدِ الْمُوصِلِ فَبَكَاهُ بِكَاءٍ حَارًّا ، وَنَرَاهُ يَتَفَجَّعُ تَفَجُّعًا  
 كُلَّهُ حَزْنٌ وَأَسَى عَلَى ابْنَيْهِ مُحَمَّدٍ وَأَبِي عَلِيٍّ وَعَلَى أَخِي لَهُ حَضَرَ وَفَاتِهِ وَفِيهِ يَقُولُ وَاصْفَاءً  
 لِحَظَّةِ النَّزْعِ الْأَخِيرِ (٤) :

لِللَّهِ مَقْلَتُهُ وَالْمَوْتُ يَكْسِرُهَا كَأَنَّ أَجْفَانَهُ سَكْرَى مِنَ الْوَسَنِ (٥)  
 يَرُدُّ أَنْفَاسَهُ كَرَّهًا وَتَعْطِفُهَا يَدُ الْمَنِيَةِ عَطْفَ الرِّيحِ لِلْخُصْنِ  
 وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرِ ابْنَانِ صَغِيرَانِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَهَزَّهَ الْخَبْرُ ،  
 وَحَرَّكَ شَاعِرِيَتَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَنْشَدَهُ مَرثِيَةً بَدِيعَةً يَقُولُ فِي تَضَاعِيفِهَا (٦) :

نَجْمَانِ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يَطْلُعَا إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفِقَا  
 وَكَانَ يَجِيدُ الْعِتَابَ وَالْإِعْتِذَارَ ، وَمِنْ أَرْوَعِ اعْتِذَارَاتِهِ مَا قَدَّمَهُ لِابْنِ أَبِي دُوَادٍ  
 حِينَ غَضِبَ عَلَيْهِ لِنَيْلِهِ مِنْ مُضَرٍّ فِي إِحْدَى قِصَائِهِ لِأَبِي سَعِيدٍ (٧) الثُّغْرِيُّ الطَّائِي ،  
 فَقَدْ أَحْسَسَ أَنَّهُ أَذْنَبَ ذَنْبًا عَظِيمًا وَأَخَذَ يَسْتَعْطِفُهُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ (٨) :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرَى عَقَارِبُهُ بِدَاهِيَةٍ نَادٍ (٩)  
 نَشَا خَبْرٌ كَأَنَّ الْقَلْبَ أَمْسَى يُجْرُّ بِهِ عَلَى شَوْكِ الْقِتَادِ (١٠)  
 كَأَنَّ الشَّمْسَ جَلَّلَهَا كَسُوفٌ أَوْ اسْتَتَرَتْ بِرِجْلِ مَنْ جَرَادٍ (١١)

- (١) دجى : أظلم .  
 (٢) ثوى : مات .  
 (٣) الأغاني ١٦ / ٣٩٠ والصولي ص ١٢٥ .  
 (٤) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٥١ .  
 (٥) الوسن : الناس .  
 (٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٤٠ .  
 (٧) هبة الأيام ص ٢٢٥ .  
 (٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ٣٧٨ .  
 (٩) عائير : سائر وذائع . ناد : عظيمة .  
 (١٠) نشا : ذائع ومنشتر . القتاد : شجر له شوك كالإبر .  
 (١١) رجل هنا : طائفة .

بَأْنِي نِلْتُ مِنْ مُضَرٍّ وَخَبَبْتُ      إِلَيْكَ شَكِيَّتِي خَبَبَ الْجَوَادُ (١)  
 لَقَدْ جَازَيْتُ بِالْإِحْسَانِ سُوءًا      إِذْ وَصَبِعْتُ عُرْفَكَ بِالسَّوَادِ (٢)  
 وَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا      وَمِنْ جَدَّوِكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي (٣)

ولم يقبل ابن أبي دؤاد استعطافه فاستشفع عنده بخالد بن يزيد بن يزيد الشيباني ودبج فيه قصيدة يستدرُّ عطفه بها ، موازناً بين استشفاعه عنده بخالد واستشفاع يزيد بن المهلب قديماً بسايمان بن عبد الملك عند أخيه الوليد وعفوه عنه . وزراه يحاول أن يبرئ ساحته مما قُرف به وأنه كيدٌ حاسدٌ لعل له فضلاً إذ يذيع فضائله وما يلبث أن يقول (٤) :

لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ      لِلْحَاسِدِ التَّعْمَى عَلَى الْمُحْسُودِ (٥)

ولأبي تمام أوصاف كثيرة في المطر والسحاب والاشتاء وفي بعض الخماع التي كانت تُهدى إليه وبعض الخليل . وله غزل مفرد عن مقدمات مدائحه ، ولكنه لا يبلغ روعة ما يجلبه منه في تلك المقدمات . وله زهديات قليلة وأهاج مختلفة ، وهو لا يجيد في الهجاء ، ويقول الصولي إنه كان لا يجيب حاجياً له حتى لا يستدرَّ سببه (٦) . أما الفخر فله فيه قصائد ينوّه فيها بقومه من طيئ تنويهاً على شاكاة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم (٧) :

أَنَا ابْنُ الَّذِينَ اسْتَرَضِعَ الْجُودَ فِيهِمْ      وَسُمِّيَ فِيهِمْ وَهُوَ كَهْلٌ وَيَافِعُ  
 مَضُوا وَكَأَنَّ الْمَكْرَمَاتَ لَدِيهِمْ      لَكثْرَةَ مَا أَوْصُوا بِهِنَّ شَرَائِعَ  
 بِهَالِيلُ لَوْ عَايَنْتَ فَيَضُّ أَكْفُهُمْ      لِأَيَقْنَتِ أَنْ الرِّزْقَ فِي الأَرْضِ وَاسِعَ (٨)

وتتوهج في مقدمات قصائده قطع كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتداداً لا حدَّ له ، اعتداد النفوس الكبيرة التي تسعى إلى الكمال واجدة لذتها في هذا السعي

للحاسد فضل على المحسود لأنه يظهر فضله وينشر محامده .

(١) خبت : من الحبيب وهو ضرب من عدو الفرس .

(٢) الصولي ص ٢٤١ .

(٣) العرف : الجود .

(٤) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٢٧ .

(٥) جدواك : عطائك .

(٦) بها ليل : سادة .

(٧) الديوان (طبع دار المعارف) ٤٠٢/١

(٨) يريد أنه لولا أن الحسد مذموم لكان

مهما كلفها من جهد مُضْنٍ ومهما لقيت من خطوب ، وهو يعرض ذلك في ثنايا حديثه إلى من شغفن قلبه مصوراً بعد همته وجلده وقوة احتماله للمحن ، حتى لكأنه يبدئ كل سابق ولاحق فيما حاول — ويحاول — من اكتساب المجد . وله في ذلك طرائف كثيرة ، كقوله لإحدى صواحيبه ، وقد تعمقها الأدي لشبيهه المبكر<sup>(١)</sup> :

يومي من الدهر مثلُ الدهرِ مشتهرٌ      عَزَمًا وَحَزَمًا وَسَاعِي مِنْهُ كَالْحِقَبِ  
فَأَصْغِرِي أَنْ شَيْبًا لَاحَ بِي حَدَثًا      وَأَكْبِرِي أَنْي فِي الْمَهْدِ لَمْ أَشِبِ  
وَلَا يُوْرَقُكَ إِيمَاضُ الْقَتِيرِ بِهِ      فَإِنْ ذَاكَ ابْتَسَامُ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ<sup>(٢)</sup>  
لَا تَنْكِرِي مِنْهُ تَخْذِيدًا تَجَلَّلَهُ      فَالسَّيْفُ لَا يُزْدَرَى أَنْ كَانَ ذَا شَطْبِ<sup>(٣)</sup>

وعلى هذا النحو يملأ شعره نفس قارته فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولة ليوث الغاب من العرب فحسب ، بل أيضاً بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فني ، وقد دأب على وصف أشعاره بالغرابة وباللآلي الفريدة ، يقول<sup>(٤)</sup> :

مُفَصَّلَةٌ بِاللُّوْلُو الْمُتَتَقَى لَهَا      مِنَ الشُّعْرِ إِلَّا أَنَّهُ اللُّوْلُو الرُّطْبُ  
وَهِيَ حَقًّا لآلِي تَوْمَضُ بِالْفِكْرِ الدَّقِيقِ      وَبِأَلْوَانِ الْبَدِيعِ الزَّاهِيَةِ ، لآلِيءِ سَوَى  
مِنْهَا عَقُودُ قِصَائِدِهِ وَقَلَانِدِ شِعْرِهِ .

والجبن مع تقدم السن . شطب السيف : طرائقه التي تظهر فيه بسبب شحذه .  
(٤) الديوان ١/٢٠٤ .

(١) الديوان ١/١١٦ .  
(٢) يورقك : يسهدك . إيماض : لمعان .  
القتير : ابتداء الشيب وأوائله .  
(٣) التخديد : الطرائق التي تبدو في الخلد



## الفصل السادس

### شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

#### شعراء الدعوة العباسية

رأينا في الجزء الثاني من هذه السلسلة كيف كانت أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين تصطرع ويجاهد بعضها بعضاً، وكيف استقرت على أصول ثابتة في نظرية الخلافة ، فحزب الشيعة كان يرى أن تكون الخلافة في أبناء علي من بنى هاشم ، لأنهم أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجمهورهم من حَفَدَتَه وقد أوصى لأبيهم — فيما يذكرون — بالخلافة ، وكان حزب الخوارج يرى أن تُردَّ الخلافة إلى الأمة لتولّي عليها الخليفة التّقى الصالح من أعلامها ، وكان حزب الزبيريين يرى أن تُردَّ الخلافة إلى أبناء الصحابة الأولين من المهاجرين وأن تعود إلى الحجاز ، حتى يسندها الحجازيون من أهل مكة والمدينة لا عرب القبائل اليمنية الشامية التي تتأزر الأمويين . بينما كان الأمويون يدعون لأنفسهم بأنهم الأكفأ لتلك الخلافة ، ووصلوها بنظام الحكم الأجنبي المتوارث عند القباصة والأكاسرة . ومضت هذه الأحزاب الأربعة تختصم ويجاهد بعضها بعضاً ، وكان أقصرها عمراً حزب الزبيريين فإنه لم يكده يتجاوز بضع سنوات لا تزيد على ثمان ، أما حزب الشيعة فقد ظفر بحظ من الحكم في الكوفة لعهد المختار الثقفي الذي كان يدعو لمحمد بن الحنفية من أبناء علي والذي أسس نظرية الكيسانية إحدى نظريات المذهب الشيعي ، على أن هذه الحركة سرعان ما خمدت ، غير أن التشيع ظل ملتهباً سرّاً ، وتكوّن مذهب الزيدية ، وقُضِيَ على صاحبه ، ولكن جمرات اللهب ظلت متقدمة . وامتشق الخوارج الحسام في غير ميدان ونازلوا الأمويين ودوخوهم ، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا عليهم أو كادوا . ووراء كل هذه الأحزاب كان هناك شعراء كثيرون ينافحون عن سياسة أحزابهم ويظاهرونها على أعدائها ويناضلون نضالاً عنيفاً ،

مما هياً لازدهار الشعر السياسي .

وإذا تحولنا إلى العصر العباسي وجدنا هذا الشعر يأخذ في الضعف ، لسبب مهم هو ضعف الأحزاب التي يعبر عنها ، أما حزب الزبيريين فكان قد سقط نهائياً منذ سنة ٧٢ للهجرة ، ولم تقم له بعد ذلك قائمة ، وأما حزب الخوارج فإن معاركة مع الأمويين كانت قد طحنته طحنًا ولم تُبْق منه إلا بقايا ضعيفة ، كانت كلما تجمعت وأوقدت ثورة قضى عليها قائد عباسي قضاء مبرماً ، وبذلك سقط هذا الحزب هو الآخر لا من حيث جهاد الدولة وحرربها فحسب ، بل أيضاً من حيث الشعر والشعراء . أما حزب الشيعة فقد ظل حياً في كثير من النفوس ، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين وظل كثير من أئمتهم وأعلامهم يُقْتَلون ويسجنون إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الخلافة الأقربون وأصحابها الشرعيون ، وأن العباسيين اغتصبوها منهم اغتصاباً . وكان العباسيون كما أسلفنا في غير هذا الموضع قد حولوا إلى أسرتههم دعوة الكيسانية وأصبحوا أوصياءها ، ومضوا ينظمون الدعوة ضد بني أمية ، حتى قوّضوا حكمهم ، وأصبحوا ولاية الأمر وأصحاب السلطان ، وأخذوا يرصدون كل حركة للعلويين ، لا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة . حتى إذا كان المأمون ورأى أن يوصى بالعهد من بعده لعلوي هو علي الرضا بن موسى الكاظم ثار عليه بيته ، واضطُرَّ إلى الانصراف عن تلك الفكرة كما مر بنا .

وعلى هذا النحو ظل الشيعة في العصر العباسي الأول يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه ، وتبعهم في تقرير نظريتهم كثير من الشعراء ، غير أنهم كانوا يخافون بطش العباسيين ، فكانوا ينظمون ما ينظمون سراً وقلما أعلنوه ، بل لقد مضى فريق منهم يمدح الخلفاء تقيّةً وبيالغ في مديحه ، حتى ليصبح كأنه من دعائهم . وكثر حينئذ من يدعون لهم كثرة مفرطة ، فقد كانت الدنيا بيدهم وكنوز الدولة في حجورهم فسأل لها لعاب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين في الخلافة ويردّون على العلويين منكرين حقهم فيها ، مستلهمين رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية والتي عرضنا لها في الفصل الأول ، وما ذكره فيها من أن أبناء البنت لا يحوزون الميراث ، إنما يحوزه العم وأبناؤه كما قرر الإسلام . ومن الغريب أنه لم يرتفع في هذه الأثناء صوت ثالث يقرّ بأن

الخلافة في منشئها كانت تقوم على استشارة الأمة في تولية الصالح من زعمائها، فهي ليست لُقمة تستأثر بها أسرة خاصة، بل هي نظام يقوم على الشورى، هدفه الأساسي مصلحة الجماعة، وهي شركة بين أفرادها جميعاً يتولاها أكفؤهم سواء أكان من بيت هاشمي أم لم يكن، وسواء أكان قرشياً أم كان غير قرشي. وكان المفروض أن يجهر بذلك الفقهاء والمتكلمون، وكأنما لم يتبينوا حينئذ الطريق الصحيح لحكم الأمة ومصلحتها العامة، فضوا يصانعون العباسيين مُذْغِبِينَ لهم خاضعين.

وإذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يُحصوا ويستقصوا، وإنما يهمننا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم في الخلافة مناضلين عنهم خصومهم من الشيعة العلويين، ولا بد أن نلاحظ منذ أول الأمر أن أصحاب مذهب الكيسانية كانوا يوالون العباسيين، ولذلك لا نعجب إذا رأينا السيد الحميري يكثر من مدحهم، وقد مدح طويلاً أبا العباس السفاح والمنصور والمهدى<sup>(١)</sup>. ويلمع اسم أبي دلامة في بلاطهم جميعاً، وكانت فيه دعاية جعلتهم يتخذونه لهم نديماً، ومن أوائل من استظهروا في أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نُخَيْلَةَ، وهو من مخضري الدولتين: الأموية العباسية في مديح السفاح إذ يقول<sup>(٢)</sup>:

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا      وقام من تَبَرِ النَّبِيِّ الجَوْهَرُ  
أقبل بالناس الهوى المشهَرُ      وصاحَ في الليل نهاراً أنور  
وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استخلصوا لها كما يستخلص الجوهر. وقد مدح المنصورَ كثيرين في مقدمتهم بشار وأبو دلامة نديمه والسيد الحميري، ونرى أبا نخيلة يمدحه طويلاً، وقد رُوِيَ له فيه قطعة من أرجوزة يغريه فيها بخلع ولي عهده عيسى بن موسى وعقَدَ العهد لابنه محمد المهدى، وفيها يقول<sup>(٣)</sup>:

(١) انظر ترجمته في الجزء السابع من الأغاني  
طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٤٩/١٨ وما

بعدها.

(٣) أغاني ١٥٠/١٨.

ليس وليَّ عَهْدِنَا بِالْأَسْعَدِ عَيْسَى فَرَحَلِفْهَا إِلَى مُحَمَّدٍ (١)  
 من عند عيسى معهداً عن معهدٍ حتى تَوَدَّى من يَدٍ إِلَى يَدٍ  
 فَنَادِ لِلْبَيْعَةِ جَمْعاً نَحْشُدِ فِي يَوْمِنَا الْحَاضِرِ هَذَا أَوْ غَدٍ  
 وَيُعَدُّ الْمَهْدَى أَوَّلَ خَلِيفَةِ فَتَحِ أَبْوَابَهُ عَلَى مِصَارِيعِهَا لِلشَّعْرَاءِ ، فَقَدْ مَضَى  
 يَجْزَلُ لَهُمْ فِي الْعِطَاءِ وَمَضُوا يَجْزَلُونَ لَهُ فِي الثَّنَاءِ ، وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ الْخَيْطِ ، إِنْ صَحَّ  
 أَنَّهُ لَهُ (٢) :

لَمَسْتُ بِكَفِي كَفَّهُ أَبْتغِي الْغِنَى وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى  
 فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُووُ الْغِنَى أَفَدْتُ وَأَعْدَائِي فَاتَلَفْتُ مَا عِنْدِي  
 وَمَنْ أَكْثَرُوا مِنْ مَدِيحِهِ مِرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ وَسَلَمَ الْخَاسِرَ وَأَبُو دَلَامَةَ وَبِشَارَ  
 وَأَبُو الْعَتَاهِيَةَ وَالسَّيِّدَ الْحَمِيرِيَّ وَنُصَيْبَ الْأَصْغَرَ وَالْعُمَانِيَّ الرَّاجِزَ ، وَقَدْ رَوَى لَهُ  
 ابْنُ الْمُعْتَزِ أَرْجُوزَةَ يَسْتَحِثُّهُ فِيهَا عَلَى تَوَلِيَّتِهِ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنِيهِ الرَّشِيدَ وَالْمَهَادِيَّ (٣) ،  
 وَمَنْ مُدَّ أَحَاهُ الْحُسَيْنَ بْنَ مُطَيَّرٍ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَكَانَ يَغْلُو فِي مَدِيحِهِ غَلَاوًا شَدِيدًا  
 حَتَّى لِيَرْفَعَهُ عَلَى الْبَشَرِ دَرَجَاتٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (٤) :

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَا مَهْدَى أَفْضَلَهُمْ مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودٌ  
 أَضَحْتُ بِمِينِكَ مِنْ جُودٍ مَصُورَةٍ لَا بَلَّ يَمِينِكَ مِنْهَا صُورَ الْجُودِ  
 لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ طُرًّا إِذْنَ لَا بَيَضَّتِ السُّودُ  
 وَنَرَى كَثِيرِينَ مِنَ الشَّعْرَاءِ لِعَهْدِهِ يَدَافِعُونَ عَنْ حَقِّهِ وَحَقِّ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي الْخِلَافَةِ  
 مَنكَرِينَ عَلَى الْعُلُوِّينَ حَقَّهُمْ فِيهَا ، فَهَمَّ وَرَثَتُهَا الشَّرْعِيِّينَ وَحِصُونُهَا الْحَقِيقِيِّينَ ،  
 وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ الْمَوْلَى (٥) :

وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَهْطَهُ لِأَهْلِ الْمَعَالِي مِنْ لُؤْيٍ بَنِ غَالِبٍ  
 أَوْلَتْكَ أَوْلَادُ الْبِلَادِ وَوَارِثُو النَّبِيِّ بِأَمْرِ الْحَقِّ غَيْرِ التَّكَاذِبِ

(١) زحلف : دحرج ودفع .  
 (٢) أغاني (طبعة الساسي) ٩٤/١٨ .  
 (٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار  
 المعارف) ص ١١١ .  
 (٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٣١/١٦ .  
 (٥) أغاني ٢٩٣/٣ .

(١) زحلف : دحرج ودفع .  
 (٢) أغاني (طبعة الساسي) ٩٤/١٨ .  
 (٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار

ومضى في القصيدة يذكر بلاء العباسيين في تقويض الحكم الأموي والأخذ للعلويين بثأرهم الذي كان مهدرًا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه .

وكان الهادي منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه<sup>(١)</sup>، وفي مقدمتهم مروان ابن أبي حفصة وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأبو الخطاب البهْدَلِيُّ . وخلفه سريعاً هرون الرشيد، وظل في الخلافة نحو اثنين وعشرين عاماً، ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء<sup>(٢)</sup>، ومن مدّأحه أبو الشَّيْص والعُماني وابن منذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السُّلَمِي والسيد الحميري ومنصور النَّمْرِي وأبو الغول الطُّهَوْرِي ، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون<sup>(٣)</sup> :

بنيتَ لعبد الله بعد محمدٍ ذُرّاً قُبّةَ الإسلام فاخضرَّ عودها  
هما طُنْبَاهَا - بارك الله فيهما - وأنت - أميرَ المؤمنين - عمودها  
ومن مدّأحه أيضاً ربيعة الرَّقِيُّ ونُصَيْب الأصغر، ونراه يردّد له أن خلافته ميراث ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> ، كما نرى الشعراء يحيطونه بهالة من التقديس حتى ليقول النَّمْرِي<sup>(٥)</sup> :

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلكَ اللهُ منها حيث تتسعُ  
إذا رفعتَ امرءاً فالله يَرْفَعُهُ ومن وضعتَ من الأَقْوَامِ متّضعُ  
ويقال إنه كان لا يرى بأساً في أن يمدح بما تمدح به الأنبياء<sup>(٦)</sup> ! . وكانت له انتصارات مدوية على الخوارج والروم ، فتغنى بها الشعراء طويلاً .

وولى بعده الأمين ، وكان فيه هو ومجون فلزمه أبو نواس ، ومن مدّأحه أبو الشَّيْص وعبد الله بن أيوب التيمي ، وكان يكثر في مديحه له من التنديد بأخيه

(٤) أغاني (طبعة الساسي) ٢٥/٢٠ وما

بعدها .

(١) أغاني ٣٢٦/١٣ .

(٢) انظر الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي)

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/١٤٧

٣٨٢/٤ .

(٦) أغاني ١٣/١٤٤ .

(٣) ابن المعتز ص ١٤٩ .

المأمون حين خلع طاعته على شاكلة قوله (١):

خِلافةُ اللهِ قد توارثها آباؤه في سِوَالفِ الكُتُبِ  
فهي له دونكم مورثةٌ عن خاتم الأنبياء في الحِقَبِ  
وقوله (٢):

مَنْ رَأَى النَّاسَ لَهُ الْفِضَّةُ لَ عَلَيْهِمْ حَسَدُوهُ  
مِثْلَ مَا قَدْ حَسَدَ الْقَا ثَمَّ بِالْمُلْكِ أَخُوهُ

وكان المأمون ممدّحاً مثل أبيه الرشيد ، ومن ممدّأحه — وهو لا يزال وليّ عهد — منصور النمرى وأشجع السامى وأبو محمد اليزيدى مؤدبه ، ومن تغذّوا بمديحه في خلافته أبو تمام وإبراهيم بن المهدي عمه ودعبل وعبد الله بن أيوب التيمى ومحمد بن عبد الملك الزيات وابن البواب ومحمد بن وهيب ، ومدائحهم فيه مبثوثة في أخبارهم بكتاب الأغاني . ومرّ بنا في الفصل السالف تنويه أبى تمام بالمعتصم وانتصاراته المدوية ، ومن ممدّأحه ابن الزيات ومحمد بن وهيب والحسين بن الضحاك ومحمد بن بكر الموصلى وخالد الكاتب . ومن نوهوا بالوائق أبو تمام وله فيه قصائد بديعة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند نفر من مداح هؤلاء الخلفاء ، هم أبو دلامة مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر .

### أبو دلامة (٣)

هو زَند بن الجَوْن ، كوفى أسود ، من موالى بنى أسد ، كان أبوه عبداً فأعتقه رجل منهم ، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يكن له في أيام الدولة الأولى شأن يذكر ، غير أن الدولة العباسية لم تكف تظله حتى أخذ نجمه

(١) أغاني (سالى) ١٢٠/١٨ .  
 (٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب)  
 . ١٦١/٢ .  
 (٣) انظر في ترجمة أبى دلامة وأشماره  
 وأخباره ابن المعتز ص ٥٤ وابن قتيبة في الشعر  
 والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ٧٥١ والأغاني  
 (طبعة دار الكتب) ٢٣٥/١٠ وابن خلكان  
 وتاريخ بغداد ٤٨٨/٨ وشذرات الذهب  
 ٢٤٩/١ ومرآة الجنان لليافعى ٣٤١/١ والمؤتلف  
 ١٣١ ومعجم الأدباء ١٦٥/١١ وذيل زهر  
 الآداب للحصرى (طبعة القاهرة) ص ٨١ وما  
 بعدها . وقد طبع ديوانه بالجزائر .

(١) أغاني (سالى) ١٢٠/١٨ .  
 (٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب)  
 . ١٦١/٢ .  
 (٣) انظر في ترجمة أبى دلامة وأشماره  
 وأخباره ابن المعتز ص ٥٤ وابن قتيبة في الشعر  
 والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ٧٥١ والأغاني

يتألَّتْ إذ قرَّبه منه السَّفَاحُ ، وكانت فيه دعاية جعلته خفيف الظل على قلبه فاتخذته هو ومن وليه من الخلفاء نديماً لم يُطْرَفْهم بنوادره . ويقول أبو الفرج : « كان فاسد الدين رديء المذهب مرتكباً للمحارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك ، وكان يُعَلِّمُ هذا منه ويُعَرِّفُ به فيَسْتَجِاني عنه للطف محله » . ولعل أبا الفرج بنى هذا الحكم على ما ساقه من أخباره إذ ذكر أن المنصور بلغه أنه معتكف على الحمر ولا يحضر صلاة ولا مسجداً ، فأمره بلزوم الجماعة في مسجد قصره ، وطال عليه ذلك فاستعفاه بقصيدة يقول له فيها :

ألم تعلموا أن الخليفة لزني بمسجده والقصرِ مالى وللقصرِ !  
وما ضره والله يغفر ذنبه لو أن ذنوب العالمين على ظهري  
وضحك المنصور حين قرأ القصيدة وأعفاه من الحضور معه . وروى أبو الفرج في موضع ثان أن المنصور أمره بالقيام معه في ليالى شهر رمضان ، وأنه شقَّ عليه ذلك فكتب إلى ربيطة زوجة ابنه المهدي شعراً يُضحكها به ويستشفعها عند عمها المنصور . وفي خبر ثالث أن المنصور سجنه لسكره . وقد يكون فيه لهُو وميل للمجون ، أما أن يكون فاسد الدين مخلاً بالفروض للخبرين الأولين وما يشبههما فإن ذلك يكون مبالغاً في الحكم إذ كان يذهب بذلك إلى الدعاية شأنه في دعاياته الأخرى التي رواها أبو الفرج وغيره .

ويروى أنه انقطع في بعض أيامه إلى رَوْح بن حاتم بن قبيصة المهلبى ، أما في عامة أيامه فكان ملازماً للخلفاء إذ كانوا يتخذونه نديماً لهم يضحكهم بنوادره ، ويُقال إنه لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إليه من المنصور خاصة ، وكان أول ما جعله يُسنى له الجوائز داليته التي مدحه بها حين قتل أبا مسلم الخراساني وفيها يقول :

أبا مجرمٍ ما غيرَ الله نعمةً على عبده حتى يغيرها العبدُ  
أفى دولة المهديِّ حاولتَ غدرةً ألا إن أهل الغدرِ آباؤك الكرُّدُ  
وواضح أنه يلقب المنصور في البيت الأخير بالمهدي . مستعيراً ذلك من الشيعة وما يردُّونه في آثارهم عن صفاته وأنه المنتد الذي يخلص الناس من بلاياهم

وَمِمَّا الْأَرْضَ عَدْلًا بَعْدَ أَنْ مَلَأْتَ ظِلْمًا وَيَهْدِي النَّاسَ إِلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ الْمُسْتَقِيمِ ،  
وتذهب بعض الروايات السننية إلى أن الاسم الحقيقي للمهدي إنما هو محمد ، ولعل  
المنصور لاحظ ذلك حين لقب ابنه محمداً بالمهدي ، وكأنه كان يريد أن يوحى  
للناس بأنه المهدي المنتظر . على أن من الشعراء من مضى مثل أبي دلامة يلقبه هو  
نفسه بهذا اللقب ، وكان ما يزال يرفع من شأنه هو وأسرته درجات فوق العالمين  
على شاكلة قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ قومٌ لِقِيلَ اقْعُدُوا يَا آلَ عَبَّاسٍ  
ثم اِرْتَقُوا فِي شِعَاعِ الشَّمْسِ وَارْتَفَعُوا إِلَى السَّمَاءِ فَأَنْتُمْ سَادَةُ النَّاسِ  
وكان يجيد الرثاء كما يجيد المديح وقد بكى السفاح طويلاً . ولما توفى المنصور  
رثاه بقصيدة جيدة جمع فيها بين الحزن عليه والفرحة بتولية المهدي ، والطريف أنه  
جمع المعنيين في كل بيت من أبياتها على نحو ما نرى في قوله :

عينان : واحدة تُرَى مسرورةٌ بإمامها جَذَلَى وأخرى تَذْرِفُ  
تبكى وتضحك مرة ويسوءها ما أبصرتُ ويسرُّها ما تعرفُ

وله نوادر كثيرة تروىها كتب الأدب ، منها ما يتصل بالخلفاء ونسائهم ،  
ومنها ما يتصل بزوجه وأولاده ، وكان يعرف كيف يحيل بعض نوادره شعراً ،  
إذ كان الشعر يتدفق على لسانه تدفقاً ، ويروى أنه بشربينت له ، فقال تَوًّا  
مداعباً ومتفكهاً :

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم  
ولكن قد تضمك أم سوءٍ إلى لباتها وأب لئيم

وله بجانب ذلك أشعار في وصف الشراب والرياض ، وانقطع بعد المنصور  
إلى المهدي فكان يصله بالجوائز السننية ويستطيب مجالسته ونوادره إلى أن توفى سنة  
١٦١ للهجرة .



## مروان<sup>(١)</sup> بن أبي حفصة

أصل جده من يهود خراسان ، وكان مولى لمروان بن الحكم ووهبه له عثمان بن عفان ، ويقال إنه ألبى في الدفاع عنه حين حوَّصر في داره وقُتل ، فأعتقه مروان جزاء بلائه ، ولما ولي المدينة لمعاوية ولأه على خراج اليمامة ، واقترب هناك بعربية أنجب منها ابنه يحيى ، وكان شاعراً متوسطاً ، ويقال إنه تزوج بنت زياد بن هوزة وأنجب منها فيمن أنجب ابنه سليمان وكان هو الآخر يقرض الشعر ، ورزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥ للهجرة . وقد نشأ في اليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى في أعراقه فلم يلبث أن شدا به ، غير أن اسمه لم يلمع إلا في العصر العباسي ، ونراه ينقطع لمعن بن زائدة الشيباني ، وكان جواداً مقداماً وبطلا مغواراً ، وولاه المنصور اليمن ثم سجستان . ويقال إن مروان أخذ منه مالا كثيراً ، وخاصة حين مدحه بقصيدته اللامية ، وفيها يقول عنه وعن عشيرته :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم أسودُّ لها في بطنِ خفانٍ أشبيل<sup>(٢)</sup>  
 همُّ يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزلُ  
 بها ليلٌ في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أولُ  
 همُّ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا  
 وما يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

وله بجانب هذه القصيدة فيه قصائد كثيرة ملأ بها حجَّره من الأموال ، ومن طريف مديحه فيه قوله يصور سيادته وشرفه وكرمه وشجاعته :

وكذلك فهرس الأغاني ومرآة الجنان لليافعي  
 ٣٨٩/١ وحديث الأربعماء لطف حسين (طبعة  
 الحلبي) ٢٨٦/٢ .  
 (٢) خفان : مأسدة بالقرب من الكوفة .  
 ومطر اسم جد معن ، وهو مطر بن شريك  
 الشيباني .

(١) انظر في ترجمة مروان وأشعاره وأخباره  
 ابن المعتز ص ٤٢ وابن قتيبة ص ٧٣٩  
 والأغاني (طبعة دار الكتب) ٧١/١٠ والموشح  
 للمرزبان ص ٢٥١ والنجوم الزاهرة (طبعة دار  
 الكتب) ١٠٦/٢ وتاريخ بغداد ١٣/١٤٢  
 وشذرات الذهب ٣٠١/١ وابن خلكان ١١٧/٢  
 والوزراء والكتاب للجيشياري ، انظر الفهرس ،

مَعْنُ بن زائدة الذى زيدت به شرفاً إلى شرفِ بنو شيبانِ  
 إنَّ عُدَّ أَيَّامُ الفَعَالِ فَإِنَّمَا يَوْمَاهُ يَوْمَ نَدَى وَيَوْمَ طِعَانِ  
 وما زال يوالى مديحه له حتى توفى سنة ١٥٢ للهجرة ، فأبَّنه تأييناً حاراً ، ومن  
 رائع تأيينه له لاميته ، وفيها يقول معبراً عن حزنه العميق وأساه :  
 أقمنا بالهامة بعد مَعْنٍ مُقَاماً لا نُريدُ له زِيالاً  
 وقلنا : أين نرحل بعد مَعْنٍ وقد ذهب النوال فلا نوالاً

ويقول من أخرى :

قُلْ لِلْمَنِيَةِ لا تُبْقَى على أَحَدٍ إِذ مات مَعْنٌ فما مَيِّتٌ بمفقودِ  
 ولما ولى المهدي بعد أبيه المنصور وَقَدَّ عليه ، ولم يكذب يلقى بين يديه أولى  
 قصائده فيه حتى بهره بمدحجه ، ولم يكن مديحاً عادياً بالكرم والشجاعة والخلال  
 الكريمة التى يقدرها العرب دائماً ، بل كان أيضاً مديحاً سياسياً ، إذ عمد إلى الدفاع  
 عن حقوق العباسيين فى الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق ،  
 ولعل شاعرهم يبلغ فى هذا الدفاع مبلغه ، إذ كان يعرف كيف ينتفض على العلويين  
 بالحجة القاطعة على نحو ما نرى فى قوله :

هل تَطْمَسُونَ من السماء نجومها بأَكْفُكُمْ أو تسترون هلالها  
 أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَغها النبيُّ فقَالَها  
 شهدتُ من «الأنفال» آخِرُ آيةٍ يترأثمُ فأردتمُ إبطالها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا  
 معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل  
 شئ عليم) يشير بذلك إلى حق العباسيين فى وراثة الخلافة وأنهم مقدمون فى هذا  
 الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على  
 الأسباط فى الوراثة ، على نحو ما هو معروف فى الشريعة الإسلامية . وبلغ من

فرط إعجاب المهدي بالقصيدة أن سأل كم عدد أبياتها ، فقال مروان : مائة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وكانت أول مائة ألف درهم أخذها شاعر في أيام بني العباس . ومضى مروان يردد في مديحه للمهدي هذا الدفاع السياسي عن حق العباسيين في وراثة الخلافة ، وهو يغدق عليه عطاياها الجزيلة ، ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التي يخاطب بها المهدي :

يا بن الذي ورث النبيَّ محمدًا      دون الأقارب من ذوى الأرحامِ  
الوَخِيُّ بين بني البنات وبينكم      قطع الخِصام فلات حين خِصامِ  
ما للنساء مع الرجال فريضةً      نزلتُ بذلك سورة الأنعامِ  
أنتى يكونُ وليس ذاك بكائِنٍ      لبني البنات وراثَةُ الأعمامِ  
وما زال يفد على المهدي حتى توفّي وخلفه ابنه الهادي فوفد عليه مع من وفدوا  
يهنتونه بالخلافة ويعزونه عن أبيه ودخل فأخذ بعِضادتي الباب ، ثم قال :

لقد أصبحتُ تختالُ في كل بلدةٍ      بقبر أمير المؤمنين المقابرُ  
ولو لم تسكُن بابنه في مكانه      لما برحتُ تبكى عليه المنابرُ  
ومضى يفد على هرون الرشيد ويجزل له في الصلوات السنية ، ووفد على البرامكة - شأنه في ذلك شأن جميع شعراء الرشيد ، إذ كانوا يجمعون بين مديحه ومديحهم - وله في يحيى بن خالد البرمكي من قصيدة :

إذا بلَغَتْنَا العيسُ يحيى بن خالدٍ      أخذنا بحبل اليُسْر وانقطع العُسْرُ  
فإن نشكر النُّعمى التي عمَّنا بها      فحقَّ علينا - ما بقينا - له الشكرُ  
ومن رائع قوله في الفضل ابنه :

إذا أمُّ طفلي راعها جوعُ طفلها      غَدَتَه بذكر الفضل فاستعصم الطُّفْلُ  
ليحيى بك الإسلام إنك عزه      وإنك من قومٍ صغيرهم كَهْلُ  
وليس له وراء المدح والرتاء شعر مذكور . وقد اشتهر ببخله وشدة حرصه وكان يلم ببغداد ثم يعود سريعاً إلى اليمامة ، ولذلك لم يتضح عنده التأثير بالحضارة العباسية

وما تُرجم من ثقافات أجنبية، على أنه كان يحكم صنعته إحكاماً بعيداً، ويروى عنه أنه كان يحك القصيدة في سنة، أما في الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها، وكان في الأشهر الأربعة الثانية يصقلها وينقحها، أما في الأشهر الأربعة الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد حتى إذا وثق من جودتها أنشدتها بمدوحه، وما زال في المحل المرموق من الشعر حتى توفي سنة ١٨٢ ويقال إنه مات مقتولاً بيد شيعي انتقاماً منه للعلويين .

### سلم<sup>(١)</sup> الحاسر

من موالى تيسم عشيرة أبي بكر الصديق، وُلد بالبصرة وبها نشأ، واختلف الرواة في سبب تلقيه بالحاسر، فقيل إن أباه عمرو بن حماد خلّف له مالا كثيراً أنفق على الشعر وفي اللهو فلقتب بذلك، وقيل بل لأنه اشترى بمصحف ورثه من أبيه طنُبوراً، وقيل أيضاً إنه إنما لُقّب بذلك لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه دفتر شعر. ويقول أبو الفرج: « هو راوية بشار بن بُرد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اعترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » وروى عنه أنه قال: « هل أنا إلا جزء من محاسن بشار، وهل أنطق إلا بفضل منطقته . . . إني لأروى له تسعة آلاف بيت ما يعرف أحد غيري منها شيئاً » ويقال إنه كان من أعرف الشعراء بأشعار الجاهلية. ونراه في مطالع حياته يمدح معن بن زائدة وعمر بن العلاء والى طبرستان ومدوح أستاذه بشار، وله يقول:

كم كربةٍ قد مسنى ضرُّها ناديتُ فيها عمر بن العلاء  
ورثي معنا حين توفي رثاء حاراً، وبنفس اللوعة رثي أبا جعفر المنصور،  
وفيه يقول:

عجباً للذي نعى الناعيانِ كيف فاهتُ بموته الشفتانِ

الأديب ٢٣٦/١١ والوزراء والكتاب الجهشيارى  
انظر الفهرس .

(١) انظر في سلم وأخباره وأشعاره ابن المعتز  
ص ٩٩ والأغانى (طبعة الساسى) ٧٣/٢١  
وتاريخ بغداد ١٣٦/٩ وابن خلكان ومعجم

لَيْتَ كَفًّا حَدَّثَ عَلَيْهِ تُرَابًا لَمْ تَعُدَّ فِي يَمِينِهَا بَيْتَانِ  
 وَتُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ الْخِلَافَةِ مِنْذُ عَصْرِ الْمَهْدِيِّ ، إِذْ كَانَ يُعْطِيهِ هُوَ وَمِرْوَانَ بْنَ  
 أَبِي حَفْصَةَ عَطِيَّةً وَاحِدَةً . وَيَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِ إِنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ بِهِ فِي مَدِيحِهِ إِلَى أَنَّهُ  
 الْمَهْدِيُّ الَّذِي وَصَفَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ آثَارٍ ،  
 وَهُوَ يَقُولُ فِي بَعْضِ قِصَائِهِ :

وإلى أمير المؤمنين محمد خير الأنام  
 فضل الملوك محمد فضل الحلال على الحرام  
 ويقول :

ومهدى أمتنا والذي حماها وأدرك أوتارها  
 له شيمة عند بذل العطا \* لا يعرف الناس مقدارها  
 وكان يقف بجانبه في كل مناسبة ، من ذلك أن نراه ينهري حين اتخذ يعقوب  
 ابن داود وزيراً له قائلاً منوهاً به وبوزيره :

قل للإمام الذي جاءت خلافته تُهدى إليه بحق غير مردود  
 نعم المعين على التقوى أعنت به أخوك في الله يعقوب بن داود  
 ولما ماتت ابنته « البانوكة » حزن عليها هو وأمها الخيزران حزناً شديداً ،  
 وإذا بشاعره يقف بين يديه معزياً بل نادياً باكياً بمثل قوله :

أودى ببانوكة ريب الزمان مؤنسة المهدي والخيزران  
 بانوك يا بنت إمام الهدى أصبحت من زينة أهل الجنان  
 بكت لك الأرض وسكانها في كل أفق بين إنس وجان

ويقال إنه بلغ المهدي أنه مدح بعض العلويين فتوعده وهم به ، ولكنه  
 استطاع أن يسلم منه سخيمته بقصيدة بالغ فيها في تصوير اعتذاره بمثل قوله :

وأنت كالدهر ميثوثاً حباثله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

والحق أنه كان خالصاً للعباسيين ، وقد مضى بمدح الهادى بعد المهدي مُضْفِيَا  
عليه نفس صفات القدسية والجلال من مثل قوله :

وجدناك في كتب الأولي ن محي النفوس وقتالها  
لقد جعل الله في راحتك حياة النفوس وآجالها  
وله يقول من أخرى :

لولا هداكم وفضل أولكم لم تَدْرِ ما أصل دينها العربُ  
ولم يكد الهادى يسمع منه هذا البيت حتى استخفه الطرب ، وأمر له بثلاثمائة  
ألف درهم . وولى بعده الرشيد فوالى فيه سلم مدائحه ، ووالى عليه هرون عطاياه  
الجزيلة ، ومن قوله فيه حين جعل ولاية العهد في ابنه الأمين :

قد بايع الثقلان في مهدي الهدى لمحمد بن زُبَيْدَة ابنة جعفر  
ويقال إن زبيدة وصلتته من أجل هذه القصيدَة بمائة ألف درهم . ولم يلبث  
الرشيد أن عقد العهد من بعد الأمين للمأمون فنوّه به كما نوّه بأخيه . وجذبته البرامكة  
إليهم ، فأشاد بهم طويلا ، ومن رائع قصائده فيهم لاميته التي مدح بها يحيى  
ابن خالد وفيه يقول :

بَلَوْتُ النَّاسَ مِنْ عَجْمٍ وَعُرْبٍ فَمَا أَحَدٌ يَسِيرُ كَمَا تَسِيرُ  
فَكَلُّ الْأَمْرِ مِنْ قَوْلٍ وَفَعْلٍ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِهِ صَغِيرُ  
وَفِي كَفْيِكَ مَدْرَجَةُ الْمَنَابِيَا وَمِنْ جَدِّوَاهُمَا الْغَيْثُ الْمَطِيرُ  
وأكثر من مديح الفضل بن يحيى ، حتى كاد ينقطع له ، ومن بارع مديحه  
فيه قوله مصوراً شجاعته وكرمه :

له يومان : يومُ نَدَى وَبَأْسٍ كَأَنَّ الدَّهْرَ بَيْنَهُمَا أَسِيرُ  
وقوله :

أقام الندى والجود في كل منزلٍ أقام به الفضل بن يحيى بن خالدٍ

وكان يمدح أيضا الفضل بن الربيع وزير الرشيد . ويظهر أن الفضل البرمكي أكثر من بيرة ونواله عليه حتى حسده الشعراء وفي مقدمتهم صديقه أبو العتاهية ، مما جعل كلا منهما يلتمز صاحبه بعض اللمز ، أما أبو العتاهية فوصفه بالحرص والشح في بيته الذي أنشدناه في الفصل السابق :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذلَّ الجِرْصُ أعناقَ الرجالِ  
وأما سلم فاتهمه بأنه كاذب منافق في زهده وتقشفه ، وكان قد تحول إلى الزهد على نحو ما أسلفنا ، ومع ذلك كان لا يزال يمدح ويستجدي وفي ذلك يقول له سلم :

ما أقبحَ التَّزْهِيدَ من واعظٍ . يُزْهِدُ النَّاسَ ولا يزهدُ  
لو كان في تزهيده صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد

وفي أخباره ما يدل على أنه كان يهاجى والبة بن الحباب ، غير أنه لم يكن يحسن الهجاء . ويظهر أنه كان يلم بشيء من اللهو والمجون في مطالع حياته ، غير أنه لم تتقدم به السنُّ حتى التزم جانب الوقار . وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه . ولم يكن شحيحاً كما وصفه أبو العتاهية ، بل كان كريماً سمحاً إذ يقول ابن المعتز إنه كان ينفق ما يأخذه من الأموال على إخوانه وغيرهم من أهل الأدب . وفي أخباره ما يدل على أنه كان يتأنق تأنقاً شديداً في ملبسه ومظهره وأنه كان يحيا حياة مترفة ناعمة . وأشعاره مائة بالرشاقة والعدوبة والنعومة ، وله في الهادي مدحة اشتهرت في عصره وبعد عصره ، إذ بنى شطورها من تفعيلة واحدة على هذا النمط :

موسى المطرُ عدلُ السَّيرِ

وقد جعلها على قافية واحدة ، وهي تفيض بالخفة والرشاقة ، ومن حكمه البديعة :

لا تَسْأَلِ المرءَ عن خلائقِهِ في وَجْهِهِ شاهدٌ عن الخَبْرِ  
وما زالت حياته تجري رُخاء حتى توفى سنة ١٨٦ للهجرة .

## شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة ، وربما كانت الفرقة الوحيدة التي لم تجد في ذلك غضاضة هي فرقة الكيسانية من أصحاب أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم ، كما أسلفنا ، عن الخلافة ، ولعل ذلك ما جعل شعراءها ، من أمثال السيد الحميري ، يقفون في صفوف العباسيين مادحين مثنين . أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم الفرحة حين انتصرت الثورة العباسية ، ظانين أن العباسيين سيشركون أبناء عمهم العلويين في الحكم معهم ، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفصوا أيديهم منهم ، وخاصة شعراء الزيدية . أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كبرى يناقوا العباسيين ، وكى يظهرها غير ما يبطنون ، لمبدأ التقية المشهور الذي كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعاً من اثني عشرية وإسماعيلية ، ومن ثم رأيتهم يمدحون خلفاء بني العباس ، يسترّون بذلك حقائقهم ، على نحو ما هو معروف عن منصور النعمري . وخير من يمثل شعراء الزيدية في أوائل هذا العصر سُديف وهرون بن سعد العجلي . أما سديف فاشتهر بتحريضه السفّاح لأول خلافته على الثأر من بني أمية بمثل قوله (١) :

أصبح الملك ثابت الأساس      بالبهايل من بني العباس  
لا تُقبلنَّ عبدَ شميسٍ عِثاراً      وأقطعنَّ كلَّ رَقلةٍ وغراسٍ (٢)

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجدة وحقناً ، فدعاهم إلى مآذبة كبيرة ، حتى إذا قدموا وتهيئوا للطعام وقف سديف ينشده (٣) :

لا يغرّتك ما ترى من رجالٍ      إن تحت الضلوع داءٌ دويّاً  
فضعِ السيفِ وارفعِ السوطِ حتى      لا ترى فوقَ ظهرها أمويّاً

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة تقوت اليد .  
(٣) ابن المعتز ص ٤٠ والأغانى ٤/٣٤٨ .

(١) ابن المعتز ص ٣٩ والأغانى ( طبع دار الكتب ) ٤/٣٤٥ .



ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم ، ويقال : بل سُدِّحُوا بالأعمدة . وصنع صنيعه بجمعهم في الشام والحجاز والبصرة أعمامه : عبد الله وداود وسليمان . وتوفى السفاح وخلفه المنصور فاستقر في نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئاً . وما تُوَافَى سنة ١٤٥ للهجرة حتى يثور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . وهي — كما أسلفنا في الفصل الأول — أول ثورة للزيدية ، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة ، ناظماً كثيراً من الأشعار ضد المنصور ، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية ، ومن قوله في بعض تلك الأشعار ، مخاطباً النفس الزكية (١) :

إنا لنأمل أن تتردَّ أُلْفَتَنَا      بعد التباعد والشحناء والإخْرَ  
وتنقضي دولةُ أحكامُ قادتها      فينا كأحكام قومِ عابدى وثْنِ  
فانهض ببيعتكم نهض بطاعتنا      إن الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

وطبيعي أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة ، إذ يقال إنه أمر بدفنه حياً . ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العجلى ، وقد ولّاه إبراهيم ابن عبد الله في أثنائها واسطاً ، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفى وهو بهم بدخول البصرة (٢) ، وفي عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالبية الشيعة من الإمامية ردّاً عنيفاً ، ناقضاً ما زعمه رافضتهم من غلو في تصور جعفر الصادق إمامهم ، حتى يجعله بعضهم إلهاً وبعضهم رسولا ، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دون كل ما يحتاج إليه من هذا العلم في جلد يسمونه جَعْفَرًا ، يقول في تضاعيف قصيدته (٣) :

ألم تر أن الرافضيين تفرّقوا      فكلّهم في جعفرٍ قال مُنْكَرًا  
فطائفةٌ قالوا إلهٌ ومنهم      طوائف سمّته النبيّ المطهراً  
فإن كان يرضى ما يقولون جَعْفَرُ      فإني إلى ربّي أفارقُ جَعْفَرًا

بعدها وص ٣٥٩ وما بعدها .  
(٣) عيون الأخبار ٢/١٤٥ .

(١) مقاتل الطالبين (نشر عيسى الحلبي) ص ٤٧٦ والعمدة لابن رشيقي ١/٤٥ .

(٢) انظر مقاتل الطالبين ص ٣٣١ وما

ومن عجبٍ لم أقضيه جلدُ جفَرهم بَرِثْتُ إلى الرحمن ممن تجفراً  
 وكانت البصرة بيئة هذه النحلة ، ولعل ذلك ما جعل بعض المعتزلة يعتنقها ،  
 من مثل بشر بن المعتز ، وربما كان أكبر دليل على زديته أننا نراه يهاجم غالبية  
 الإمامية على نحو ما هاجمهم هرون بن سعد العجلي<sup>(١)</sup> . ومن شعراء الزيدية غالب  
 ابن عثمان الهمداني ، وله مرث في النفس الزكية وأخيه إبراهيم تقطر أسى وحزناً  
 عميقاً<sup>(٢)</sup> . وثار ، كما مر بنا في الفصل الأول ، لعهد الهادي الحسين بن علي  
 الحسنى في مكة ونازله جيش عباسى في « فنج » فقتل هو وكثيرون من أهله وتركوا  
 في العراء للسباع والعقبان ، مما جعل الشعراء من الزيدية يندبونهم آحر نذب  
 وأشجاء<sup>(٣)</sup> . ويتحول نشاط هذه النحلة إلى خراسان والطالقان<sup>(٤)</sup> ، ويتكاثر الثائرون  
 والمقتولون من أئمتها في تلك البلاد النائية . ومن أهم ثورات الزيدية ثورة<sup>(٥)</sup> ابن  
 طباطبا بالكوفة لأول خلافة المأمون ، ويقضى عليها قضاء مبرماً وطبيعى أن يكثر  
 شعراء الزيدية من رثاء المقتولين في هذه الثورات والتفجع عليهم ، مما نقرؤه في  
 كتاب مقاتل الطالبين لأبى الفرج الأصبهاني مفصلاً أوسع تفصيلاً .

ولم يكن الإمامية بفرقهم المختلفة يشهرون السيوف في وجوه بنى العباس ، فقد  
 جعلوا جميعاً التقية مبدأ أساسياً في نحلهم المختلفة ، واتخذوا الدعوة السرية وسيلتهم  
 في جمع الناس من حوطم بالكوفة ، واجتمع حوطم فعلا خلق كثير يبطنون غير  
 ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون ، وكأنهم كانوا يؤمنون جميعاً بأن الثورة على  
 العباسيين لم يحن موعدها . وقد تفرقوا شيعاً كثيرة ، ومر بنا في الفصل السابق أن  
 لمعدان الأعمى قصيدة صنف فيها طوائف الإمامية الرافضة والغالية وطوائف الزيدية  
 وعقائدهم جميعاً ، مقدماً عليها نحلة فرقة الشُحَيْطية الغالية ، ونراه يَوْم زيد بن  
 على زين العابدين لعدم أخذه بمبدأ التقية ، إذ سنَّ لأصحابه من بعده إعلان ثورتهم  
 وامتشافهم للحسام في وجه الحكام مما جعل الخلفاء العباسيين يوالون فيهم قتلهم

(٤) الملل والنحل للشهرستاني (طبع لندن)

ص ١١٧ .

(٥) انظر في هذه الثورة وأنها زيدية مقاتل

الطالبين ص ٥١٨ وما بعدها .

(١) الحيوان ٦/٢٨٤ .

(٢) مقاتل الطالبين ص ٣٠٤ ، ٣٨٤ وما

بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥٨ وما بعدها .

وسفك دمائهم ، يقول في قصيدته (١) :

سَنَ ظُلْمَ الإِمَامِ فِي القَوْمِ زَيْدٌ    إِنْ ظَلَمَ الإِمَامَ ذُو عُقَالٍ (٢)  
 والمهم أن مبدأ التقية أتاح لكثيرين من شعراء الإمامية أن لا يجاهرُوا الناس  
 فضلا عن الخلفاء بحقيقة نحلهم ، وقد مضى كثير منهم يعلنون موالاتهم لبني  
 العباس ، مادحين لهم ، بل إن منهم مَنْ سخر شعره للدفاع عن حقهم في الخلافة  
 مبالغة في السر والتقية على نحو ما سترى عند منصور النمرى . وربما كان الشاعر  
 الإمامي الوحيد الذي جاهر بنحلته دعبلًا ، إن صح أنه كان متشيعًا حقًا فضلا  
 عن إماميته . ومن شعرائهم القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف ، وقد مر بنا  
 في الفصل السابق أنه سخر كثيرا من شعره في رثاء الحيوان والطير ، وقد عمل في  
 خلافة المأمون فكانت إليه جباية السواد ، ونرى الصولي يروى له في كتاب الأوراق  
 أشعارا شيعية مختلفة في مديح بني هاشم وبيان فضائل علي بن أبي طالب وفي رثاء  
 الحسين وندبه ندبا حارًا ، ملوحا بيده في وجه أبي بكر وعمر وفي وجوه خصوم  
 الإمامية ، مشيرًا إلى مهدئهم الذي سيأخذ بثأرهم ، يقول (٣) :

إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ تَنَالَهُمُ    مِنِّي يَدٌ تَشْنُقُ جَوَى الصُّدْرِ  
 بالقائم المهديّ إن عاجلا    أو آجلا إن مُدٌّ فِي عُمُرِي

ومثله محمد بن وهيب كان يفد على وزراء بني العباس وخلفائهم ، وهو غال  
 في تشيعه وإماميته ، ويروى الرواة ، أنه تردّد على مجالس تُذكر فيها فضائل  
 أبي بكر وعمر وعثمان ، ولا يُذكر فيها شيء من فضائل علي ، فتولّى حنقا ،  
 وهو يقول (٤) :

أَغْدُو إِلَى عُصْبَةٍ صُمَّتْ مَسَامِعُهُمْ    عَنِ المَهْدَى بَيْنَ زَنْدِيقٍ وَمَأْفُونٍ  
 لَا يَذْكُرُونَ عَلِيًّا فِي مَشَاهِدِهِمْ    وَلَا بَنِيهِ بَنِي البَيْضِ المِيَامِينِ  
 لَوْ يَسْتَطِيعُونَ مِنْ ذِكْرِي أَبَا حَسَنِ    وَفَضْلِهِ قَطَّعُونِي بِالسُّكَاكِينِ

(٢) كتاب الأوراق للصولي (أخبار الشعراء)

ص ١٨٢ .

(٤) أغاني (طبعة السامى) ١٧/١٤٦ .

(١) مقاتل الطالبين ص ٤١٩ والبيان

والتبيين ٣/٣٥٧ .

(٢) عقال : من العقل وهو مفرغ الجناية .

ولستُ أترك تفضيلي له أبداً حتى الممات على رَغْم الملائعِين  
وكثُر في هذا العصر بين شعراء الشيعة الحديث عن علي بن أبي طالب  
وفضائله ، ومرَّ بنا في الفصل الرابع أن لبشر بن المعتمر مزدوجة صورٌ فيها منزلته  
وكيف أنه يرتفع فوق خصومه من الخوارج درجات . وينبغي أن نشير هنا إلى  
ما كان من محاولة المأمون عقد البيعة من بعده لعلي الرضا الإمام السابع عند الشيعة  
الإثني عشرية ، وأن أسرته ثارت عليه في بغداد ، وأن علياً الرضا توفّي سريعا ،  
فانصرف عن فكرته ، وقد ظل يوالى العلويين على الرغم من قيامهم ببعض ثورات  
في خلافته ، إذ نراه - كما أسلفنا في غير هذا الموضع - يكتب إلى الآفاق في  
سنة ١١٢ للهجرة بتفضيل علي بن أبي طالب على جميع الصحابة ، مما جعل شعراء  
الشيعة يطمئنون إليه ، ونفذ بعض الشعراء من غيرهم مثل أبي تمام إلى النظم في فضائل  
علي إرضاء للدولة . وأيضاً ينبغي أن نشير هنا إلى كثرة الانقسامات بين الشيعة  
وما جرَّ إليه ذلك من أشعار انتصر فيها الشعراء لما اعتنقوه من بعض المذاهب الشيعية  
وفي كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي منشورات مختلفة من تلك الأشعار . وجديرٌ بنا  
أن نعرض لأبرز شعراء الشيعة في العصر ، وهم السيد الحميري ومنصور النعمري  
ودعبل وديك الجني .

### السيد (١) الحميري

هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الذي ترجمنا  
له في الجزء الثاني من هذه السلسلة ، وقد تشككنا هناك في نسبه من حمير واستظهرنا  
أنه يرجع إلى أصول إيرانية لما عُرِف عنه من إتقانه الفارسية . على أننا نجد السيد

ص ٢٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٩ ، ٦٨ ،  
٧٤ وفوات الوفيات في إسماعيل وفرق  
الشيعة للتوبختي ( طبعة ريتز ) ص ٢٦ ،  
ومعرفة أخبار الرجال للكشي ١٨٤ وترجمة  
جده يزيد بن مفرغ في الجزء الثاني من هذا  
الكتاب وحديث الأربماه لطف حسين ٢/٣٠٥ .

(١) انظر في ترجمة السيد الحميري وأشعاره  
وأخباره ابن المعتز ص ٣٢ والأغانى ( طبعة  
دار الكتب ) ٧/٢٢٩ وما بعدها والبيان والتبيين  
٣/٣٦٠ والحيوان ٥/٣١٧ والفرق بين الفرق  
للبيدادي ص ٣٠ والملل والنحل للشهرستاني  
( طبعة لندن ) ص ١١١ وروضات الجنات

يفتخر بحميرته ، وكانت أمه من الأزديين ، ومن ثم يقول :

إني امرؤ حميري غير مؤتشب  
جدي رعين وأخوالي ذويزن<sup>(١)</sup>

وقد ولد لأبويه في البصرة سنة ١٠٥ للهجرة ، وكانا من إباضية الخوارج ، فنشأ يسمع منهما سبباً على بن أبي طالب ، بل تكفيره وتكفير بعض الصحابة ، وعبثاً كان يراجعهما . ولم يابث أن أوغل في التشيع لعل وآله ، ويظهر أنه وقع لبعض أصحاب مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية والمعتنقين لنظرية الغيبة والرجعة ، فإذا هو يصبح كيسانياً حمياً وروحاً ، ولا ندرى هل حدث له ذلك في البصرة أو حدث في الكوفة فقد أقام بها ردهاً من الزن . وأياً كان فقد اعتنق المذهب مبكراً وأصبح شيعة لأصحابه منذ أواخر عصر بني أمية ، حتى إذا أظله العصر العباسي تمشت في نفسه الفرحة لانتصار الهاشمين وتقويض حكم الأمويين ، وأخذ يستبشر بقيام الدولة العباسية ، وكأنه رأى فيها انتصاراً لمذهبه الشيعي ، إذ كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى من بعده ، كما مر بنا ، لمحمد بن علي العباسي ، وأوصى محمد للسفاح ومن ثم كانت إمامته وخلافته هو ومن تلاه من العباسيين صحيحة في نظر الكيسانية أو على الأقل جمهورهم الذي كان يتبع فرقة أبي هاشم . وطبيعي لذلك أن نجد السيد الحميري الكيساني يهال لانتصار العباسيين حتى ليبادر أبا العباس السفاح حين خطب في الكوفة خطبته المشهورة التي أخذ على إثرها البيعة من الناس قائلاً :

دونكموها يا بني هاشم  
فجددوا من عهدا الدارِسا

قد ساسها قبلكم ساسة  
لم يتركوا رطباً ولا يابساً

ولست من أن تملكوها إلى  
مهبط عيسى فيكم آيساً

وواضح أنه يهنئه بالخلافة لامتياز الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلماً وجوراً ، ويقول إنها لن تزال فيهم إلى هبوط عيسى بأخرة من الدنيا ، فهو لا يفكر في زوالها عنهم ، بل هو يراها لم خالصة حتى تفي الأرض وون عليها ، وتوفى السفاح

ذي وزن أحد أمراء اليمن الأقدمين .

(١) المؤتشب : غير الصريح في نسبة .  
وذويعين : من ملوك اليمن ، وذويزن : أبناء

وخلفه المنصور ، فأغدق عليه من صلاته السنّية وأغدق عليه السيد الحميري من مدحه بمثل قوله :

إن الإله الذي لا شيء يشبهه      أعطاكم الملكَ للدنيا وللدّينِ  
أعطاكم الله ملكاً لا زوال له      حتى يقاد إليكم صاحبُ الصينِ  
وصاحبُ الهند مأخوذاً برمّته      وصاحبُ التُّرك محبوباً على هونِ

ومدح من بعده ابنه المهدي وظن طه حسين أن السيد الحميري كان في هذا المدح منافقاً ، فهو لا يستحلُّ أن يظهر غير ما يضمّر وأن يمدح بني العباس بلسانه ويلعنهم في قلبه ، فيظفر بما لم ويتق شرهم ، كان يستحلُّ ذلك كما كانت تستحلُّه عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقيّة<sup>(١)</sup> . ولا تقيّة ولا نفاق ، وإنما شاعر كيسانى يمدح أوصياء عقيدته الكيسانية الذين أدالوا من بني أمية وسلطانهم الجائر ، وهو بعد ذلك مخلص في كيسانيته إخلاصاً بعيداً حتى ليؤمن بأن محمد ابن الحنفية حتى وأنه راجع يوماً يقول :

حتى متى ؟ وإلى متى ؟ ومتى المدي ؟      يا بن الوصيِّ وأنت حتى تُرزقُ  
ويُروى أن شيطان الطاق محمد بن علي بن النعمان أحد متكلمي مذهب الشيعة الإمامية ناظره يوماً في عقيدته الكيسانية يريد أن يجذبه إلى عقيدته ، وغلبه في مناظرته ، غير أن السيد لم يلبث أن أنشأ قصيدة أدارها على أبيات كثيرٍ سلفه الكيسانى في العصر الأموي التي تجرى على هذا النمط :

ألا إن الأئمّة من قريش      ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سواءُ  
عليٌّ والثلاثةُ من بنيه      همُ أسباطه والأوصياءُ  
فسيبُ سبُتُ إيمانٍ وحلم      وسبُتُ غيبته كزبلاءُ  
وسبُتُ لا يذوق الموت حتى      يقودُ الخيلَ يقدّمها اللّواءُ

والسبُتُ الأولُ الحسن والثاني الحسين المقتول بكر بلاء. والثالث إمامه محمد بن الحنفية ، وكثيرٌ يقول إنه لا يزال حياً لم يذق الموت وأنه سيعود في جيشٍ لتجيبِ

(١) حديث الأربعماء ٢/٣٠٧ .

وكان السيد الحميري في القرن الثاني لا يزال يؤمن مثله برجمته . وزعم بعض الرواة أنه رجع بأخرة من حياته عن كيسانيته واعتنق مذهب الإمامية أصحاب جعفر الصادق ، وأجروا على لسانه :

تجعفرتُ باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ وأيقنْتُ أن الله يعفو ويغفرُ  
غير أن أبا الفرج ردَّ ذلك قائلاً هو ورواته إنه ظل على كيسانيته حتى الأنفاس  
الأخيرة من حياته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه كان أكثر شعراء القرن الثاني تمجيداً  
لعلى وبنيه ، فقد أنفق حياته في نظم أخبارهم ومناقبهم ، ويقول ابن المعتز إنه لم  
يترك فضيلة معروفة لعلى بن أبي طالب إلا نقلها إلى الشعر ، وقد كرَّر طويلاً  
ما تدعِّيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند  
غدير خم<sup>١</sup> بين مكة والمدينة ، وفيه يقول :

أقسم بالله وآلائه والمرء عما قال مسئولُ  
إن على بن أبي طالبٍ على التقى والبرِّ مَجْبُولُ  
ولعل أطول قصائده الشيعية قصيدته التي تسمى المذمبة ، وقد عُنِيَ بها الشيعة  
وشرحوها مراراً ، وهو يستهلها بذكر الأمويين ومسير عائشة رضي الله عنها إلى البصرة  
مع طلحة والزبير ، يقول :

أين التطرُّف بالولاء وبالهوى أ إلى الكواذب من بروق الخُلبِ  
أ إلى أمية أم إلى الشُّعْبِ التي جاءت على الجمل الخِذْبِ الشُّوقِبِ<sup>(١)</sup>  
تَهْوَى من البلد الحرام فنبهت بعد الهدو كلاب أهل الحَوَابِ  
وهو يشير إلى أن كلاباً نبحت أم المؤمنين عند بُرِّ الحوَابِ ، وكان يفرط في  
سبِّها وسب طلحة والزبير وأبي بكر الصديق وعمر وكثير من الصحابة لا يترَعَوِي  
ولا يزدجر ، وكان يستطيع أن يسجِّل لعلى ما شاء من فضائله ، دون أن يزوج  
بنفسه في هذه المضائق الوعرة غير مراعاة لجللة الصحابة وأمهات المؤمنين أي حرمة ،  
وليش ما قال في عائشة وصاحبها :

(١) الخدب ؛ البعير الضخم . الشوقب : الطويل .

جاءت مع الأشقيين في هودجٍ تزجى إلى البصرة أجنادها  
كانها في فعلها هرة تريد أن تأكل أولادها

ويروى أن المهدي جلس يوماً يعطى قريشاً صلواتها وهو ولي عهد ، فبدأ  
ببني هاشم ثم سائر قريش ، ولم يلبث السيد أن وفد عليه بقصيدة يذم فيها عشيرتي  
عمر وأبي بكر الصديق وينهاه أن يعطى أحداً منهما صلته ، ولبّاه المهدي . وقد  
روى أبو الفرج قطعة منها ، وقال إنه حذف باقيها لقبح ما جاء فيها من السبِّ  
والشتم .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على أن السيد الحميري كان غالباً في تشيعه غلوّاً قبيحاً ،  
ولو أنه لم يشب مديحه لعلى وبنيه بهذا السبِّ المنكر لتداول شعره الرواة ، إذ كان  
شاعراً بارعاً ، ومن مستحسن شعره فيهم قوله ناظماً ما رُوِيَ من أن الحسن  
والحسين، أتيا الرسول فوجداه ساجداً فركبا على ظهره ، فقال عمر : نعم المطيُّ  
مطيكما :

أتى حسناً والحسينَ الرسولُ وقد برزا ضحوةً يلعبانِ  
فضمَّهما ثم فدَّاهما وكانا لديه بذلك المكانِ  
وراحا وتحتهما عاتقاه فنعم المطيَّة والراكبانِ

وكان يكثر من رثاء الحسين رثاء يستترف الدمع ويذيب القلب حسرات ،  
ويقال إنه استأذن يوماً على جعفر الصادق فأذن له وأقعد حرمة خلف ستر ،  
فدخل ، فأنشده قوله :

امرؤ على جدِّ الحسِّ بين فقلْ لأعظمه الزكيَّة  
آ أعظماً لا زلتِ من وطفاء ساكية روية (١)  
وإذا مررت بقبره فأطلنْ به وقفَ المطيَّة  
وابكِ المطهر للمطهرِ والمطهرة النقيَّة

(١) الوطفاء : السحابة المحملة بالأمطار الغريزة .



## كُبُكَاءِ مُعْوَلَةٍ أَتَتْ يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمَنِيَّةَ

فسالت دموع جعفر على خديه مداراً وارزفع النشيج والصراخ في داره فأمره بالإسماك فأمسك .

وللسيد وراء تشيعه ومدائحه للعباسيين مدائح في بعض ولاية البصرة والأهواز ، وله أهاج في المرجئة وفي عبد الله بن سوار قاضي البصرة الذي ردَّ شهادته لقتله في الصحابة ، وقد شكاه للمنصور فانتصف له منه . ويقال إنه كان يعكف على الخمر ، وليس له فيها أشعار مذكورة . وفي الحق أنه عاش للتشيع ينفق فيه أيامه وقصيده ، وكان يعرف كيف يوازن بين جزائمه وعدوبته ، مع الرنق والحلاوة ، ولعل ذلك ما جعله يتحامى فيه الغريب واللفظ الآبد ، حتى يلدَّ الأسماع والأفئدة وحتى يسير على الشفاه والألسنة . وما زال هذا دأبه حتى توفي سنة ١٧٣ للهجرة .

### منصور<sup>(١)</sup> النَّمَرِي

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة<sup>(٢)</sup> من قبيلة النَّمَرِ بن قاسط من أهل الجزيرة وهو تلميذ العنابي المتكلم وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى وتشبه كما يقول أبو الفرج ، ويُقال إنه وصَّفه للفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ونوّه به وقرَّظه ، فاستقدمه من الجزيرة ، فأنشده بعض مدائحه فيه ، وحطَّيَّ عنده ، ولم يلبث أن وصله بالرشيد ، ووقع من نفسه خير موقع ، إذ مضى يمدحه على طريقة مروان بن أبي حفصة ينسئ الإمامة عن أبناء علي بن أبي طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين ، وأنهم لا يزالون يطوقون رقابهم بالمن ، وهم يجحدونها ، فيثورون ، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو عنهم على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله ، فإنه اكتفى بسجنه ، ولم يقتله ، وفي ذلك يقول :

بني حَسَنٍ وَقُلُّ لِبْنِي حُسَيْنٍ  
عليكم بالسداد من الأمورِ

المرتضى (طبعة الحلبي) ٢/٢٧٤ وما بعدها  
وزهر الآداب ٦٨/٣ .

(٢) في بعض المصادر منصور بن سلمة بن الزبرقان .

(١) انظر في أخبار النمرى وأشعاره ابن المعتز ص ٢٤٢ وابن قتيبة ٨٣٥ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣٤/٦٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/٢١٢ وأمال

أميطوا عنكم كذب الأمانى  
 مننت على ابن عبد الله يحيى  
 يدك لك فى رقاب بنى على  
 وإنك حين تبلغهم أذاة  
 فإن شكروا فقد أنعمت فيهم  
 وإن قالوا بنو بنتٍ فحق  
 وما لبنى بناتٍ من تراثٍ

ويقال إنه استخفَّ الرشيد حين أنشده هذه القصيدة ، فإذا هو يأمر الفضل ابن الربيع أن يدخله بيت المال ويدعه يأخذ ما يشاء ، فأخذ سبعاً وعشرين بدرّة . ومن روائع قصائده فيه قصيدته العينية ، ويقول ابن المعتز إنه أقام القيامة بحديثه فى مطلعها عن الشباب إذ يقول :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزعُ  
 إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتجعُ  
 بان الشبابُ وفاتتنى بلذتهِ  
 صروفُ دهرٍ وأيامٍ لها خدعُ  
 ما كنت أوفى شبابى كنهه غرتهِ  
 حتى انقضى فإذا الدنيا له تبعُ  
 إن كنت لم تطعمى ثكل الشباب ولم  
 تشجى بغصته فالعذر لا يقع

ويقال إن الرشيد حين سمع منه هذا المطلع قال له : أحسنت والله ، لا يتهنأ أحد بعيش حتى يخطر فى رداء الشباب ، وخرج إلى المديح ملوحاً فى وجه العلويين بمثل قوله :

يا ابن الأئمة من بعد النبى ويا أب  
 ن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا  
 وما لآل على فى إمارتكم  
 حق وما لهم فى إرثكم طمعُ  
 العم أولى من ابن العم فاستمعوا  
 قول النصيح فإن الحق يُستمعُ

وهو يشير إلى أن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم يحجب على بن أبى طالب ابن أخيه كما تقضى بذلك فريضة الإرث فى الإسلام . وكان لا يزال يحيط

هرون بهالة من القدسية حتى ليرفعه على آل الرسول جميعاً ، وحتى ليجعل من  
يشتمل عليه سخطه لا ينتفع بدينه ولا بصلواته ، يقول في القصيدة السالفة :

أى امرى بات من هرون فى سَخَطِ فليس بالصلوات الخمس ينتفع  
ويقول فى قصيدة ثانية :

يا خير ماضٍ وخير باقٍ بعد النبیین فى الأنام  
ومن قصيدة له ثالثة :

آل الرسول خيارُ الناس كلهم . وخيرُ آلِ رسولِ الله هرونُ

ولم يكن منصور فى كل هذه الأشعار مخلصاً ، بل كان يظهر غير ما يضمّر ،  
إذ كان شيعياً إمامياً ، وكأنه كان يتخذ تلك الأشعار متجراً ، ليعيش آمناً ،  
ولينال ما يريد من طيبات الحياة ومتاعها معتمداً على ما يؤمن به الإمامية من التقية .  
وقد زعم المرتضى فى أماليه أنه « كان ينافق الرشيد ويذكر هرون فى شعره ويُريه  
أنه من وجوه شيعته وباطنه ومراده بذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه  
السلام لقول النبي ، صلى الله عليه وآله ، له : أنت منى بمنزلة هرون من موسى »  
وفراه يكثر من مدح آل الرسول والتنديد بالأمويين والعباسيين ، ومن خير ما يصور  
ذلك لاميته وفيها يقول :

شَاءَ مِنَ النَّاسِ رَاتِعٌ هَامِلٌ	يَعْلُونَ النَّفُوسَ بِالْبَاطِلِ <sup>(١)</sup>
تُقْتَلُ ذَرِيَّةُ النَّبِيِّ وَيَرَى	جُونَ جِنَانَ الْخُلُودِ لِلْقَاتِلِ
وَيْلِكَ يَا قَاتِلَ الْحُسَيْنِ لَقَدْ	بُوتَ بِحَمَلٍ يَتَوُّهُ بِالْحَامِلِ
مَا الشُّكُّ عِنْدِي فِي كُفْرِ قَاتِلِهِ	لَكُنِّي قَدْ أَشْكُ فِي الْخَاذِلِ
وَعَافِلِي أَنِّي أَحَبُّ بَنِي	أَحْمَدَ فَالتُّرْبُ فِي فَمِ الْعَاذِلِ
قَدْ دَنْتُ مَا دِينَكُمْ عَلَيْهِ فَمَا	وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ
دِينِكُمْ جَفْوَةٌ النَّبِيِّ وَمَا	جَانِي لَأَلِ النَّبِيِّ كَالْوَاوِلِ

(١) عامل : المتروك ليلاً ونهاراً .

وقد مضى في القصيدة ينكر موقف أبي بكر وعمر من دعوى فاطمة إرثاً «فلك»  
زاعماً أنهما ظلماها ، ومطالباً بمن يثار لها من ظلمتها ، يقول :

مظلومةٌ والنبيُّ والدها تدير أرجاء مُقلِّةٍ حافلٍ  
ألا مساعيرٌ يغضبون لها بسَلَّةِ البيضِ والقنا الذابلِ<sup>(١)</sup>

وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين أستاذه العتابي ، فأسخط الرشيد عليه ،  
غير أنه عاد فعفا عنه وأوسع له في مجالسه ، وانتهز العتابي منه يوماً فرصة ، فذكر  
له حقيقة النمرى وأنه شيعي غال في تشيعه ، وأنشده اللامية الآتفة وأشعاراً أخرى  
من مثل قوله :

أَلُ الرسولِ ومن يحِبُّهم يتطامنون مخافة القتلِ  
أمنَ النصرارى واليهودِ وهم من أمةِ التوحيدِ في أزلِ<sup>(٢)</sup>

فاستشاط الرشيد غضباً ، وبعث إلى الرقة ، وكان مقيماً بها ، من يقاتله ،  
غير أن رسوله وجد جنازته تستقبله ، فانكفاً راجعاً إلى الرشيد ، فأعلمه خبره .

ومن مدحهم وأشاد بهم يزيد بن مزيّد الشيباني ، وكان من مدّاح الفضل  
ابن يحيى البرمكي كما مرّ بنا ، وقد بكاه حين نكبه الرشيد هو وأباه وأخاه جعفرأ  
لسنة ١٨٧ ، وفي ذلك ما يدل على أن وفاته كانت بعد نكبتهم . وواضح مما أنشدناه  
من أشعاره أنه كان يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وانتقاء معانيه ، وكان  
ما يزال يجهد فكره وخياله حتى يأتي بالطرائف النادرة من مثل قوله :

ولقد تبسّيت أناملِي يَجْنِينِ رُمانَ النُحُورِ

ومن المحقق أنه لم يكن يتعلق بلهو ولا مجون ولا خمر شأن كثير من معاصره ،  
وأنه كان يكتبني من ملامه عصره بالسماح إلى الغناء واجداً فيه ما يبتغى من لذة ومتاع .

(٢) أزل : ضيق وشدة .

(١) مساعير : جمع مسعار ، وهو وقد الحرب  
البيض : السيوف . الذابل : الرقيق الحاد .

دعبل<sup>(١)</sup>

هو دعبل بن علي بن رزين ، وقيل دعبل لقبه ، واختلفوا في اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن ، وهو من خزاعة صليبية لاولاء<sup>(٢)</sup> ، ومن بيت شعر ، فقد كان أبوه شاعراً متوسطاً ، وكذلك عمه عبد الله وأخواه علي ورزين وولدها الحسين وعلي وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبي الشيص . وقد وُلد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ للهجرة ويظهر أنه اختلف مبكراً إلى حلقات الدرس . على أننا نجد في شبابه يصحب الشُّطَّارَ ويشترك معهم في مغامراتهم ، مما يؤكد أنه كان فيه نزعة متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات ، وقد دفعته فيما بعد إلى أن يصبح أكبر هجاء في عصره ، وأن يعمَّ بهجائه الخلفاء وكل من قدّموا له صنيعاً . ويظهر أن مواهبه الشعرية تفتحت مبكرة ، فضى يختلط بالشعراء ، وانعقدت بينه وبين مواطنه مسلم بن الوليد مودة كان لها أثر عميق في شعره إذ عني فيه على شاكلة مسلم بالبديع وبالجزالة ونصاعة القول ، ويرمز الرواة لذلك بأن مسلماً صنع قوله :

مستعبرٌ يبكي على دِمْنَةٍ ورأسه يضحك فيه المشيبُ

فما زال دعبل يدير البيت في نفسه ، محاولاً أن يبني على معناه قطعة في الغزل حتى صنع قطعته التي فتحت له باب الشهرة على مصاريعه ، إذ قال في بكاء الشباب ووقوعه في شباك الهوى :

أين الشبابُ؟ وأيةً سَلَكا؟ لا، أين يُطَلَبُ؟ ضَلَّ بل هَلِكا

الزاهرة ٢/٣٢٢ . وجمع شعره ونشره كل من محمد يوسف نجم ببسبورت وعبد الصاحب الدجيل في النجف بالعراق وعبد الكريم الأشتر في دمشق .

(٢) من زعموا أنه خزاعي ولاء عبد الله بن طاهر (انظر ترجمته في الأغاني) . وراجع ابن خلكان ولسان الميزان وابن كثير في البداية والنهاية ١٠/٣٤٨ .

(١) انظر في دعبل وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٤ وابن قتيبة ص ٨٢٥ والأغاني (طبعة الساسي) ٢٩/١٨ وتاريخ بغداد ٨/٣٨٢ والموشع ص ٢٩٩ وابن خلكان ١/١٧٨ ومعجم الأدباء ١١/٩٩ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٢٢٧ وشذرات الذهب ٢/١١١ ومرفعة أخبار الرجال للكشي ٣١٣ وأخبار الرجال للنجاشي ١١٦ ومرآة الختان للياقبي ١٤٥/٢ ولسان الميزان ٢/٤٣٠ والنجوم

لا تعجبي يا سَلَمَ من رَجُلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكي  
يا ليت شعري كيف نومكما يا صاحبي إذا دمي سُفِكَا  
لا تأخذنا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتركا

وغنى بالأبيات بعض المغنين بين يدي الرشيد ، فطرب ، وسأل عن ناظمها ، فقيل له دعبل ، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب ، وسار دعبل إليه ، وأنشده بعض شعره فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنياً ، ولم يلبث أن ارتحل إلى خراسان وواليتها العباس بن جعفر الخزاعي (١٧٣ - ١٧٥ هـ) فأكرمه وولاه على سَمِينْجان إحدى بلاد طَبْرِسْتان . وعاد إلى بغداد ونزل الكرخ حيث اللهو والقصف ، منشداً مثل قوله :

إنما العيشُ خلالُ خمسةٌ حَبِداً تلكَ خلا لا حَبِداً  
خدمةُ الضيفِ وكأْسُ لَذَّةٍ وندِيمٌ وفتاةٌ وغِنا  
وتؤثَّرُ له في الخمرِ بعضُ الأشعارِ ، وله بجانبها غزليات قليلة ، وهو يُعْنَى فيها ببعض فنون البديع على شاكلة قوله مطابقاً :

دموعُ عيني لها انبساطٌ ونومٌ عيني به انقباضُ  
وليس في ديوانه مديح للرشيد ولا للبرامكة مما يدل على أنه ظل بعيداً عن القصر وأهله ووزرائه ، وحقاً تُروى له بعض أبيات في البرامكة حين نكبهم الرشيد ، ولكنها لا تدخل في باب الرثاء إنما تدخل في باب العظة والاعتبار . وقد ظل لا يلم بالقصر في عصر الأمين ، ونراه يخرج إلى الحج في سنة ١٩٨ للهجرة ، ولا يعود إلى بغداد ، بل يرتحل إلى مصر وواليتها المطلب بن عبد الله الخزاعي (١٩٨ - ٢٠٠ هـ) وفيه يقول :

زمني بمُطَلِّبٍ سُقِيتَ زماناً ما كنت إلا روضةً وجناناً  
كلُّ النَّدى إلا نداءك تكلفُ لم أرض غيرك كائناً من كانا  
أصلحتني بالبير بل أفسدتنى وتركتني أتسخط الإحسانا  
ولم يكتف المطلب بما أغدق عليه من البير والنوال ، فقد ولّاه على أسوان ،

وسرعان ما شعر في هذا البلد البعيد عن بغداد بوحشة شديدة، وعبث حينه إليها بقلبه ، فإذا هو ينظم أبياته المشهورة في الحنين إلى الوطن وقد أنشدناها في الفصل الرابع .

ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب ، فإذا هو يهجو هجاء مقذعاً ، كافرأً يده عنده ، وكان قد ولي الموصل قبل ولايته على مصر ، فقال في بعض هجائه له :

تعلق مصرُ بك المخزياتِ وتبصق في وجهك الموصِلُ  
وأخذ يكثر من هجائه ، مولياً وجهه نحو بغداد ، وتبعه المطلب معزولاً عن مصر ، وتكَلَّفَ له فكفَّ لسانه عنه .

وأتاه نبأ عهد المأمون لعلي الرضا بالخلافة من بعده لسنة ٢٠١ وكان المأمون لا يزال بخراسان فارتحل إليهما ولم يكذب يمثل بين أيديهما حتى أنشد تائيته المشهورة .

مدارسُ آياتِ خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفَرُ العرصاتِ  
وقد صور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث في « كربلاء » و « فح » نائحاً على قتلاهم وخاصة الحسين نواحاً مؤثراً ويفيض في حرمانهم من الاستمتاع بحقهم في الخلافة آملاً في خروج مهديهم المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً ، وفيها يقول :

ملا مَكَ في آلِ النبيِّ فلإنهم	أحبايَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتي
فياربُّ زدني من يقيني بصيرةً	وزدِ حُبهم ياربُّ في حسناتي
ألم تر أني من ثلاثين حجةً	أروح وأغدو دائمَ الحسرات
أرى فينهم في غيرهم متقسماً	وأيديهم من فينهم صفرات <sup>(١)</sup>
ولولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ	تقطعُ قلبي إثرهم حسرات
خروجُ إمامٍ لا محالةً خارجٌ	يقوم على اسم الله والبركات

على شؤون المال . صفرات : خالية .

(١) النبي : الخراج وغنائم الحرب ، يريد أن العلويين سلبوا حقهم في سياسة الدولة والقيام

يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَيَجْزِي عَلَى النَّعْمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ

وأعجب بالتقصيدة المأمون وعلى الرضا ، فأعطاه أولهما عشرة آلاف درهم من دراهم كان قد ضربها باسم الرضا ، أما الرضا فخلع عليه حلّة من ثيابه ، ويقال إن أهل مدينة « قُصْم » الشيعية اشتروا منه الحلّة بثلاثين ألف درهم ، كما اشتروا الدراهم المضروبة باسم الرضا ، كل درهم بعشرة . ويقول ابن المعتز إن أهل هذه المدينة قسّطوا له كل سنة خمسين ألف درهم . وتطورت الظروف سريعاً فتوفى على الرضا بطوس سنة ٢٠٣ وهو في طريقه مع المأمون إلى بغداد ، ودفن بها ، بجانب قبر هرون الرشيد ، ولم يكده النعي يبلغ دعبلا ، حتى قال :

قبران في طوس خبير الناس كلّهم - وقبرٌ شرّهم هذا من العبير  
ما ينفع الرّجس من قُرب الزكّي ولا على الزكّي بقرب الرّجس من ضرر

ولم يكن الرشيد رجساً كما يقول ، فقد كان طهراً ، إذ كان يحج سنّة ويغزو سنة على نحو ما هو معروف في تاريخه ، وقد أنزل بالروم هزائم ساحقة ، وليس ذلك فحسب ، فإن له يداً على دعبل إذ استقدمه من موطنه وفرض له راتباً سنياً كما مرّ بنا ، ولكن كأنما ينطوي دعبل على جحود غريب ، حتى ليطعن كل من قدم له صنيعاً . وله شعر شيعي كثير ، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضائل علي بن أبي طالب ، كما أكثر فيه من بكاء الحسين وراثته بمثل قوله :

رأس ابن بنت محمدٍ ووصيه يالرجال على قناة يُرْفَعُ  
والمسلمون بمنظرٍ وبمسمَعٍ لا جازعٌ من ذا ولا متخشعٌ

وهو يبدو في شعره الشيعي إمامياً وقد تشكك أبو العلاء في تشيعه ، فقال إنه لم يكن صادقاً فيه وإنه إنما كان يريد التكسب به<sup>(١)</sup> ، ولعله محق في تشككه ، لأن مثل دعبل المنطوي على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت ، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقد ، وكأن أموال « قم » هي التي دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية ، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء ،

(١) رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٣٤ .



ويقال إن المأمون كان إذا سمع هجاءه فيه أو في بعض وزرائه ضحك ، وكان ذلك يدفعه إلى التماذى حتى ليقول له مهدداً وكأنه يهدده بلسان أهل قم :

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد  
وهو يشير إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالى قبيلته خزاعة . على أن هذا الولاء لطاهر لم ينفعه عنده ، فقد رماه بسهم لاذع من سهام هجائه التي كان ما بنى يرسلها على جميع من حوله ، وكان طاهر أعور ، ويلقب بذي اليمينين ، فقال :

وذي يمينين وعينٍ واحدةٍ نقصان عينٍ ويمين زائده  
ووليَّ وجهه نحو صديقه القديم مسلم بن الوليد ، وكان الحسن بن سهل ولاه بريد جرجان ، فجفاه ولم يلقه ، وأثر ذلك في نفس دعبل ، غير أنه لم يعمد إلى هجائه ، خوفاً من لسانه ، وقد مر بنا كيف كان مسلم يقذع في هجائه وكيف كان يريشه سهاماً مصمية ، وكأنما خشى دعبل معرفة هجائه إن هو عرض له بالهجاء ، فعاتبه عتاباً رقيقاً بأبياته المعروفة :

أبا مَخْدِدٍ كُنَّا عَقِيدِي مَوْدَةٍ هوانا وقلباناً جميعاً معاً معاً  
عَشَّشْتَ الهَوَى حَتَّى تَدَاعَتْ أَسْوَلُهُ بِنَا وابتذلت الوصل حتى تقطعاً  
فَلَا تَعْدُلْنِي لَيْسَ لِي فِيكَ مَطْمَعٌ تَخَرَّقَتْ حَتَّى لَمْ أَجِدْ لَكَ مَرْقَعاً  
فَهَبِكَ يَمِينِي اسْتَأْكَلْتُ فَقَطَعْتُهَا وَجَشَّمتُ قَلْبِي صَبْرَةً فَتَشَجَّعاً

ويقال إنه قصد عبد الله بن طاهر في ولايته خراسان ( ٢١٤ - ٢٣٠ هـ ) فكان يصله في الشهر بمائة وخمسين ألف درهم ، ومع ذلك لم يسلم من لسانه . ولعله لم يتعرض لخليفة بالهجاء كما تعرض للمعتصم ، فقد صبَّ عليه شواظاً ملتهباً من أهاجيه كقوله :

ملوكُ بني العباس في الكُتُبِ سَبِعةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهم الكُتُبُ  
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كذبُ

وظل يرميه بسهام هجائه حتى توفي ، وخلفه ابنه الواثق ، فأسرع يطلق لسانه فيه ، جامعاً في هجائه بينه وبين أبيه بمثل قوله :

خليفة مات لم يحزن له أحدٌ وآخر قام لم يفرح به أحدٌ  
وروى الرواة له في المتوكل بيتاً مقذعاً واحداً ، وفيه يهجوهُ باستيلاء مواليه  
من الجند الأتراك على الحكم حتى أصبح كأنه لعبة في أيديهم ، بل أصبح لهم  
عبداً ، يقول :

ولستُ بقاتلٍ قذعاً ولكن لأمرٍ ما تعبدك العبيدُ

ولم يقف عند هجاء الأفراد ، فقد استعاد هجاء العصبية القديم ، وكانت  
قصيدة الكميث الشيعي في هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة  
نونية أودعها مثالب القبائل العدنانية . ولو أنه كان مخلصاً في تشيعه حقاً لأعلّى  
صلة التشيع بينه وبين الكميث على العصبية القبلية ، وخاصة أن الكميث كان قد  
مات منذ زمن بعيد . وأثار ذلك أبو سعد الخزومي فاندلعت بينهما معركة هجاء  
عنيفة . والحق أن الهجاء كان طبعاً ركّب في نفسه حتى لراه يهجو بجانب كل من  
أسدى إليه صنيعه زوجته وأخاه رزينا وأهل مدينة «قم» بل الناس جميعاً ، يقول :

ما أكثر الناس ، لا ، بل ما أقلهمُ والله يعلم أني لم أقل فنسداً  
إني لأفتحُ عيني حين أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحداً

ومن هجاهم فأقذع في هجائه مالك بن طوق التغلبي ممدوح أبي تمام ، ويقال  
إنه وجد عليه موجدة شديدة جعلته يرسل له من اغتاله في بعض قرى الأهواز .  
واختلف الرواة في سنة وفاته ، فمنهم من جعلها في عهد المعتصم ومنهم من تأخر بها  
إلى سنة ٢٤٦ للهجرة . وأكبر الظن أنه لم يتأخر إلى هذا التاريخ وأنه توفي لأوائل  
عهد المتوكل عقب هدمه لقبور الحسين والعلويين سنة ٢٣٥ .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعريته ، فقد كان شديد العناية بصياغته  
وكان لا يزال يغوص على المعاني الدقيقة ، ومن حين إلى حين يوشى شعره بزخرف  
البديع ، وله أبيات كثيرة دارت على الألسنة من مثل قوله :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَشْهَلُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْتِيهِمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ  
 وَهُوَ أَحَدٌ مَن بَرَعُوا لِعَصْرِهِ فِي عِلْمِ الشَّعْرِ وَنَقْدِهِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يُؤَلَّفُ فِي أَنْخَبَارِ  
 الشُّعْرَاءِ كِتَاباً نَفِيساً طَالَمَا اسْتَقَى مِنْهُ الْقِدَمَاءُ فِي كِتَابَاتِهِمْ .

### ديك (١) الجن

هو عبد السلام بن رَعْبَان ، اشتهر بلقبه ديك الجن ، وهو من سلالة شخص  
 يسمى تيميا من أهل مؤتة بالشام أنعم الله عليه بالإسلام على يد مولاه حبيب بن  
 مسلمة الفهري صاحب معاوية . ويقول الجهمي إن جدَّ ديك الجن حبيب  
 ابن عبد الله كان يتقلد ديوان الإعطاء لأبي جعفر المنصور . وولد ديك الجن  
 لأبيه بحمص سنة ١٦١ للهجرة ، ويقول أبو الفرج « إنه لم يَبْرَحْ نَوَاحِيَ الشَّامِ  
 وَلَا وَقَدَّ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مُتَّجِعاً بِشَعْرِهِ وَلَا مُتَصَدِّقاً لِأَحَدٍ ، وَكَانَ يَتَشَبَّعُ  
 تَشَبُّعاً حَسَنًا ، وَلَهُ مِرَاثٌ كَثِيرَةٌ فِي الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ مِنْهَا قَصِيدَتُهُ :

يَا عَيْنُ لَا لِلْغَضَا وَلَا الْكُشْبِ بُكََا الرَّزَايَا سِوَى بُكََا الطَّرْبِ

وهي مشهورة عند الخاص والعام ويُنَاحَ بها ، وله عدة أشعار في هذا المعنى .  
 ويقول أبو الفرج أيضاً إنه كان يكثر المقام عند أحمد بن علي الهاشمي وأخيه  
 جعفر في سَلَمِيَّةَ ( من أعمال حمص ) وكان يمدحهما كثيراً ، وقد بَرَّحَ به  
 الحزن حين توفي أحمد وأبنته في قصيدة طويلة معزياً بها أخاه جعفرأ ، وقيل بل معزياً  
 له عن زوجته ، وهي تصور غلوه في التشيع إذ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير من أئمة  
 الشيعة ، ومن ثمَّ يخلع عليه بعض صفاتهم القُدْسِيَّةِ فِي رَأْيِ شَيْعَتِهِمْ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

نَحْنُ نَعَزِّيكُ وَمِنْكَ الْهُدَى

نَقُولُ بِالْعَقْلِ وَأَنْتَ الَّذِي

مُسْتَخْرَجٌ وَالنُّورُ مُسْتَقْبَلُ

نَاوِيٌ إِلَيْهِ وَبِهِ نَعْقِلُ

أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري بدار الثقافة ببيروت ،  
 وانظر أيضاً ديوانه جمع الملوحي والدرويش  
 طبع حمص وما نقلاه في مقدمته عن كتابي  
 الكشكول للعامل وتزيين الأسواق للأطفاكي .

(١) انظر في ترجمة ديك الجن وأخبار  
 وأشملره الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥١/١٤  
 ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب  
 للجهمي ص ١٠٢ وراجع ديوانه نشر

وَأَنْتَ عَلَامٌ غَيْبِ النَّشَا يَوْمًا إِذَا نَسَّالَ أَوْ نُسَّالٌ<sup>(١)</sup>  
نَحْنُ فِدَاءُ لَكَ مِنْ أُمَّةٍ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ وَالْأَوَّلُ

فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون في أمتهم . ولم يلبث جعفر أن توفي فبكاه بكاء حاراً . وكان يضم إلى هذا التشيع شعوبية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذات وشكوكاً في الدين ، حتى ليبدو أحياناً شاكاً في البعث والنشور . ولم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة ، كقوله في شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب :

إِنْ كَانَ عُرْفُكَ مَذْخُورًا لَدَى نَسَبٍ فَاضْمُمْ يَدِيكَ فإِنِّي لَسْتُ بِالْعَرَبِيِّ<sup>(٢)</sup>  
إِنِّي أَمْرٌ بِأَزَلٍ فِي ذِرْوَتِي شَرَفٍ لَقَيْصِرٍ وَلِكَسْرِي مَحْتَدِي وَأَبِي<sup>(٣)</sup>

أما لوه وعكوفه على الخمر فواضحان في أشعاره ، ويقال إنه كان له ابن عم فيه تقوى ، فكان لا يزال ينهاه ، وهو لا يرعوى ولا يزدجر ، ومن طريف نعتة للخمر وساقيتها قوله :

تَسْقِيكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا وَرَدِيَّةٍ وَمُدَامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا

وقد ضاع أكثر شعره ، ولم يبق منه إلا أطراف قليلة ، وإلا ما دار حول قصته مع زوجته « ورد » وكانت نصرانية من أهل بلدته ، فشغف بها حباً ، وأكثر فيها من غزله ، وبادلته حباً بحب ، وأسلمت واقرنت به ، وعاشا مدة هائنين ، وهو سادر في مجونه وغوايته . وكان ذلك - فيما يقال - يؤذى ابن عمه ، فرأى أن يعكر عليه صفو حياته ، وسوات له نفسه أن يرصد له في إحدى أوباته من سلمية من يرى عنده زوجته بالسوء ، ولا ندري كيف صدق ذلك ، وقد مضى قاله السوء يزيدون في وهمه ، حتى سارع يضربها بسيفه ، فقصت نحبها ، ثم عرف براءتها فعاش يبكيها ويندبها ، ندب قلب مزقه الألم والندم ، بمثل قوله :

رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الشَّرِيَّ وَلَطَالَمَا رَوَى الْهَوَى شَفْتِي مِنْ شَفْتَيْهَا

(١) البازل : الكامل في التجربة . المحمد : الأصل .

(٢) النشا : الخبر .  
(٣) العرف : المعروف .

وقوله :

كنتِ زَيْنَ الأحياءِ إذ كنتِ فيهمُ  
ثم قد صرّتِ زينَ أهلِ القبورِ  
وقوله :

قَمَرٌ أنا استخرجته من دَجْنِهِ لبليّتي وجلوته من خِدْرِهِ  
عهدي به مَيْتاً كأحسنِ نائمٍ والعزُنُ يَسْفَحُ عبرتي في نَحْرِهِ

وكان يتعلّق غلاماً وينظم فيه بعض أشعاره ، فجمعت الكتب المتأخرة بين الزوجة والغلام ، وجعلته مصدر شكه واتهامه ، ثم توسعت في القصة ، فجعلته يراها فجأة في بعض الأيام متعانقين تحت إزار واحد ، فقتلها وأحرق جسديهما وصنع من رماد كل منهما كوزاً يَحْتَسِي به الخمر ، وتزعم القصة أنه كان إذا أخذ في الشرب تناول هذا تارة وذاك تارة ثانية ، مقبلاً لهما ، ثم أخذ يصب الخمر وهو يصب دموعه منشداً مرثيه فيهما وقلبه يتقطع حزناً وكمداً .

وواضح مما أنشدناه له أنه كان يُعْنَى بشعره ويروى فيه ، ويقول أبو الفرج إنه يذهب مذهب الشاميين في أشعاره ، وكأنه يريد أن يقرنه بأبي تمام والبحري ومن كانوا يُعْنُونَ في شعرهم بالبديع . وليس من شك في أن أروع أشعاره ما نظمه في بكاء صاحبه ، متفجعاً متحسراً نادماً كما لم يندم أحد ، وما زال يردد ذلك حتى توفى سنة ٢٣٥ للهجرة .

٣

### شعراء البرامكة

مرّ بنا في الفصل الأول أن البرامكة ينحدرون من أسرة كانت تضطلع بسدانة معبد النوبهار البوذي في بلخ ، وقد تألق اسم خالد بن برمك في قيادته لبعض الجيوش الخراسانية التي قوّضت حكم بني أمية . ونرى السفاح يتخذه وزيراً له وقيمه على بعض الدواوين ، كما نرى المنصور وابنه المهدي يقربانه منهما ويولّيانه الولايات والأعمال الجليلة . وما زال عندهما في حظوة حتى توفى سنة ١٦٦ للهجرة . وعرف

المنصور فضل ابنه يحيى ، فولاه ولايات مختلفة في إيران وأذربيجان . ويظهر أن علاقة وثيقة مبكرة انعقدت بين زوجة يحيى والخيزران زوجة المهدي ، فإن زوجة يحيى حين ولدت ابنها الفضل في ذى الحجة لسنة ١٤٧ وولدت الخيزران ابنها الرشيد في شهر المحرم التالي أرضعت كل منهما ابن صاحبتهما ، فكانا أخوين في الرضاع . ولا تكاد توافي السنة الثالثة من خلافة المهدي أى سنة ١٦١ حتى يتخذ يحيى مؤدباً لابنه الرشيد ، ويصبح منذ سنة ١٦٣ القيم على ديوان رسائله ، فكان يلزمه ويدبر شؤنه ، حتى إذا توفى المهدي وخلفه الهادي وفكر في تنحية الرشيد عن ولاية العهد عرف كيف يصرفه عن عزمه ، فعظمت منزلته عند صاحبه ، وتطورت الأمور سريعاً ، فتوفى الهادي وخلفه الرشيد لسنة ١٧٠ فاتخذ يحيى وزيراً له ، وأطلق يده في جميع شئون الدولة وسلّمه خاتم الخلافة ، فأصبح كأنه الحاكم الحقيقي ، وقد أقام ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى بلاد الترك وأقام ابنه جعفرأ على المغرب كله من الأنبار إلى أقاصى إفريقيا .

وكان يحيى عاقلاً حسيماً يحسن السياسة وتدير الحكم والنهوض بشئون الثقافة ، ففضى كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع يصنّف نظم الدولة السياسية والإدارية بالصبغة الساسانية كما مضى يُعنى بشئون الطب والترجمة ، فأنشأ المارستان واستدعى له غير طبيب من الهنود وغيرهم ، وشجع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية والفارسية ، وبعث نهضة فكرية واسعة . وفتح أبوابه للشعراء والمغنين وأسبغ عليهم هو وابناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة ، حتى لُتروى في ذلك روايات تشبه الأفاصيص ، وهي تدل على أنهم كانوا بحوراً فيأضة وغيوثاً منهلة . جود سيال توارثوه عن أبيهم خالد ممدوح بشار ، وهو جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء ، فإذا كثيرون منهم ينقطعون لهم ، وإذا هم يشركون الرشيد في جميع شعرائه ، وقلما وجد شاعر لعصرهم في بغداد إلا ودبج فيهم بعض مدائحهم ، ومرت بنا أطراف من ذلك عند سلم الحاسر ومروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد ، ومن كان يختص بهم نُصيب الأصغر ، وله في يحيى كلمة طارت أبياتها في الآفاق من مثل قوله (١) :

عند الملوك مَصْرَةٌ ومنافعُ وأرى البرامك لا تضرُّ ، وتنفعُ

(١) أغاني (ساسي) ٣٤/٢٠ والجهمشيارى

وكان ابن منذر كثير المديح ليحيى ، وله فيه قصيدة كانت فاكهة أهل  
الأدب لجودة ألفاظها ومعانيها ، وفيها يقول مشيداً به وبابنيه الفضل وجعفر (١) :

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ      فيأطيب أخبارٍ ويأحسنَ منظرٍ  
لهم رحلةٌ في كل عامٍ إلى العدا      وأخرى إلى البيت العتيقِ المُستترِ  
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفتُ      بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ  
فما خلقتُ إلا لوجودِ أكفهم      وأقدامهم إلا لأعوادِ منبرِ  
إذا رامَ يحيى الأمرَ ذلتُ صعابُهُ      وناهيك من داعٍ له ومدبرِ  
ومن لهج بمديح يحيى وابنيه أبو قابوس الحيرى النصراني ، وفي يحيى يقول  
مصوراً بيرةً وجوده ووفاءه بوعوده وعهوده (٢) :

رأيت يحيى أتمَّ الله نعمتهُ      عليه يأتي الذي لم يأتَه أحدُ  
ينسى الذي كان من معرفه أبداً      إلى الرجال ولا ينسى الذي يعدُّ  
وكان الأصمعي يألف جعفر بن يحيى ويخصُّ به ، وله فيه مدائح كثيرة  
وتقريظ وتفضيل ، ومن طريف ما له فيه (٣) :

إذا قيلَ : منَ اللنديِّ والعُلا      منَ الناسِ قيلَ الفتى جعفرُ  
وما إن مدحتُ فتى قبله      ولكن بنو برمكٍ جوهراً  
وفيه تقول عنان جارية الناطقي (٤) :

بديتهُ وفكرتهُ سواءُ      إذا التبست على الناسِ الأمورُ  
وكان أخوه الفضل أكثر منه جوداً وأندى راحة ، فتكاثر الشعراء على بابه ،  
وتكاثرت مدائحهم فيه ، وصوّر ذلك بعض الشعراء فقال (٥) :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى      ترك الناس كلهم شعراء

(٤) الجهشيارى ص ٢٠٤

(٥) الجهشيارى ص ١٩٥

(١) ابن المعتز ص ١٢٥ .

(٢) الجهشيارى ص ١٧٩ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٠٦ .

عَلَّمَ الْمُفْحَمِينَ أَنْ يَنْظُمُوا الْأَثَى عَارَ مَنْأَ وَالْبَاخِلِينَ السَّخَاءَ  
وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ مَدِيحَهُ نُصِيبُ الْأَصْغَرِ وَفِيهِ يَقُولُ وَاصْفَاءً جُودَهُ الْغَدَقُ (١):

جَادَ الرَّبِيعُ الَّذِي كُنَّا نُوْمَلُهُ فَكَلْنَا بِرَبِيعِ الْفَضْلِ مُرْتَبِعُ  
وَفِيهِ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ (٢):

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْفِعَالِ فَعَلَا عَنْ مَدِيحِنَا بِالْمَقَالِ  
وَيَقُولُ إِسْحَقُ الْمُوصِلِيُّ مِنْ أَيْبَاتِ فِيهِ عَمَلٌ فِيهَا لِحْنًا وَغَنَاءَ بِهَا ، فَطَرِبَ طَرِبًا  
شَدِيدًا (٣):

لَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْفَضْلِ مَعْرِفَةٌ فَضْلُ بْنُ يَحْيَى لَأَعْدَانِي عَلَى الزَّمَنِ  
هُوَ الْفَتَى الْمَاجِدُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ وَالْمَشْتَرَى الْحَمْدَ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ  
وَكَانَ أَخُوهُ جَعْفَرُ يُجْفَوُ أَبَا نَوَاسٍ فَصَبَّ عَلَيْهِ شَوْظًا مِنْ هِجَائِهِ ، أَمَا هُوَ  
فَأَدْنَاهُ مِنْهُ وَعَظْمُ نَائِلُهُ إِلَيْهِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يُلْهَجُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ (٤):

أَوْحَدَهُ اللَّهُ فَمَا مِثْلُهُ لَطَالِبِ ذَاكَ وَلَا نَاشِدِ

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمَسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدِ

وَمِنْ كَانَ يَنْقَطِعُ إِلَيْهِ أَبُو التَّضْوِيرِ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ الْمَغْنِينَ ، وَفِيهِ وَفَى آلِهِ يَقُولُ (٥):

إِذَا كُنْتَ مِنْ بَغْدَادِ مَنْقَطِعِ النَّدَى وَجَدْتَ نَسِيمَ الْجُودِ مِنْ آلِ بَرْمَكِ

وَمَا زَالَ الشُّعْرَاءُ يَتَنَاشَدُونَ مَدَائِحَ الْفَضْلِ وَأَخِيهِ وَأَبِيهِ مِنْذَ أَسْلَمَ الرَّشِيدُ يَحْيَى  
مُقَالِيدَ الْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ ١٧٠ حَتَّى أَوَّلِ صَفْرِ سَنَةِ ١٨٧ إِذْ نَكَبَهُمُ الرَّشِيدُ نَكْبَتَهُ  
الْمَشْهُورَةَ أَمْرًا بِقَتْلِ جَعْفَرٍ وَصَلَبِ أَجْزَاءِ جَسَدِهِ وَحَبْسِ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، وَظَلَا فِي  
الْحَبْسِ إِلَى أَنْ مَاتَ ، أَمَا يَحْيَى فَاتَ فِي سَنَةِ ١٩٠ وَمَاتَ الْفَضْلُ فِي سَنَةِ ١٩٢ .  
وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَبْكِيَهُمُ الشُّعْرَاءُ وَأَنْ يَذْرِفُوا عَلَيْهِمُ الدَّمْعَ مَدْرَارًا ، لَمَّا أَغْدَقُوا عَلَيْهِمْ  
مِنَ النِّعَمِ وَالصَّلَاتِ السَّنِيَّةِ ، وَمِنْ طَرَائِفِ مَرَاثِمِهِمْ قَوْلُ مَنْصُورِ التَّمْرِيِّ (٦):

(٤) الحيوان للجاحظ ٦٣/٣ .

(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٦/١١ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ٤٩٦/٣ .

(١) أغاني (ساسي) ٣١/٢٠ .

(٢) أغاني (ساسي) ٧١/٢١ .

(٣) الجهمياري ص ١٩١ .



أيدى بنى برمكٍ لدينا تبكى عليهم بكلِّ وادٍ  
كانت بهم بُرْهَةً عروسا فأضحت الأرض في حِدادِ

وكان الفضل بن عبد الصمد الرقاشي منقطعاً إليهم ، وطالما نوهوا باسمه وأجزلوا في عطائه ، فلما صُلب جسد جعفر على الجسر اجتاز به وهو على الجِدْع فوقف يبكي أحرَّ بكاء ، ثم أنشأ يقول (١) :

أما والله لولا خوفٌ واشٍ وعينٌ للخليفة لا تنامُ  
لطفنا حول جدِّك واستلمنا كما للناس بالحجرِ استلام  
وما أبصرتُ قبلك يابن يحيى حُساماً حتفه السيف الحسام  
على اللذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمكٍ السلام

وأخذ يتحسر عليهم ويتفجع في مرث كثيرة ، ونحن نقف قليلا عند شاعرين من أهم شعرائهما : أبان بن عبد الحميد اللاحق وأشجع بن عمرو السلمي .

### أبان (٢) بن عبد الحميد (٣) اللاحق

من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء ، وسرعان ما اصطدم بالمعدّل بن غيئلان ، واستطار بينهما الشرُّ ، ونرى المعدّل في هجائه يتهمه بأنه مانوي (٤) زنديق ، وهي تهمة ظلت عالقة به ، مما يدلّ على أن لها أساساً في حياته ، وسرى الجاحظ لا ينفى عنها ، بل يشبها متعجّباً ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئاً من العكوف على اللهو والجنون شأن أخذانه من الشعراء . ومن هجاهم أيضاً في باكورة حياته بعض

وص ٢٤١ والوزراء والكتاب للجيشياري  
ص ٢١٨ والحيوان للجاحظ ٤٤٧/٤ وما بعدها  
وتاريخ بغداد ٤٤٧/٤ والنجوم الزاهرة ١٦٧/٢  
(٣) في الفهرست لابن النديم : حميد . انظر  
ص ١٦٣ .  
(٤) الصولي ص ٧ .

(١) أغاني (ساسي) ٣٤/١٥ وانظر له  
مرثية أخرى في غرر الحصائص الواضحة للوطواط  
(طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ص ٤٠٧ .  
(٢) انظر في ترجمة أبان وأخباره وأشعاره  
الأغاني (طبعة الساسي) ٧٣/٢٠ والأوراق  
للصولي (قسم أخبار الشعراء) طبع مطبعة الصاوي  
ص ١ - ٥٢ وابن المعتز ص ٢٠٢ وما بعدها

قضاة البصرة ، ومن طريف ما يروى من هجائه أنه كان في جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له ، فتزوج ثقيفية يقال لها عمارة بنت عبد الرحمن ، كانت موفورة الثراء ، فقال أبان يهجوها ويحذرهما منه :

لما رأيتُ البزَّ والشَّارَةَ	والفرشَ قد ضاقتُ به الحارَةَ
واللَّوزَ والسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ	من فوق ذى الدار وذى الدارِه
وأحضرُوا المُلهِين لم يتركوا	طَبْلًا ولا صاحِبَ زَمَارَه
قلتُ لماذا؟ قيلَ أعجوبةٌ	محمدٌ زُوجَ عَمَّارَه
لا عمرٌ اللهُ بها بيته	ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأتُ فيه؟ وماذا رجحتُ؟	وهى من النسوان مختاره
أسودٌ كالسُّفودِ يُنسى لدى اللِّدِّ	نورٌ بل مِخْرَافِ قِيَارَه
يُجْرِي على أولاده خمسةٌ	أرغفةٌ كالرَّيشِ طيارَه
وأهله - فى الأرض من خوفه	إن أفرطوا فى الأكل - سيَّارَه

وما كادت عمارة تسمع هذا الهجاء حتى فرّت على وجهها ، وهو هجاء يدل على ما وراءه من ظرف . ولا يكاد يُظَلَّ الناس عصر الرشيد والبرامكة الأجواد حتى نراه يهاجر من موطنه إلى بغداد ، متجهاً تنوياً إلى الفضل<sup>(١)</sup> بن يحيى ، ومدبجاً فيه قصيدة طويلة صور فيها نفسه مثالا للنديم وأوصافه التي كانت تُشترط لهذا العصر فى الندماء ، يقول :

أنا من بغية الأمير وكنز	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ خطيبٌ	ناصرٌ راجحٌ على النصاح
شاعرٌ مفلقٌ أخفٌ من الريد	شبةٌ مما تكون تحت الجناح
وظريفٌ الحديث من كلِّ فن	وبصيرٌ بترهات الملاح
كم وكم قد خبأتُ عندى حديثاً	هو عند الملوك كالتفاح

(١) فى بعض الروايات أنه اتجه إلى جعفر .

ومضى في القصيدة يصف أخذه من كل علم بطرف وبصره بالصيد وشثونه وأنه ليس قصيراً ولا مفراط الطول ، مع صباحة الوجه ولطافة المزاج . فوصله الفضل ونحف على نفسه ونفس أبيه يحيى وأخيه جعفر ، وقرب من قلوبهم جميعاً حتى صار صاحبهم وحظيهم . وقد نوّه بالفضل طويلاً حين قضى على ثورة يحيى ابن عبد الله العلوي بالديلم لسنة ١٧٥ للهجرة وجاء به إلى بغداد ، وكان قد طلب الصلح حقناً للدماء ، وفي ذلك يقول أبا ن مخاطباً الرشيد :

هنيئاً أمير المؤمنين لك الظفرُ      فقد تمت النعمى وقد ساعد القدرُ  
أتاك بيحيى الفضلُ سلماً يقوده      مقيراً ولولا يُمنُ جدك ما أقرُّ

ويظهر أنه كان يتشيع للعلويين تشيعاً يسيراً ولا يظهره ، ففي أخباره أنه عتب على البرامكة أنهم لا يصلونه بالرشيد ، ذاكراً لهم أمنيته في أن يحظى من جوائزه السنوية ما يحظى به مروان بن أبي حفصة ، فقالوا له إنه إنما يحظى بتلك الجوائز لدفاعه عن حق البيت العباسي في الخلافة ورده على العلويين رداً عنيفاً ، فاسلُك طريقه إن شئت ، فقال : لا أستحل ذلك . ثم حَلبَت في عينه صلات الرشيد ، فراجع نفسه ونظم فيه ملحّة طويلة يقول في تضاعيفها :

نشدتُ بحق الله من كان مسلماً      أعمُّ بما قد قلته العُجمَ والعربُ  
أعمُّ رسول الله أقربُ زُلْفَةً      لديه أم ابن العمِّ في رتبة النسبِ  
وأهما أولى به ويعهده      ومن ذا له حقُّ التراث بما وجب؟  
فإن كان عباسٌ أحقُّ بترككم      وكان عليٌّ بعد ذلك على سببِ  
فأبناء عباس هم يرثونه      كما العمُّ لابن العمِّ في الإرث قد حجبُ

ولم يكذب يفرغ من إنشاد القصيدة بين يدي الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم واتصل مدّحه به . وبلغ من عظم قدره عند يحيى بن خالد أن قلّده ديوان الشعر فكان الشعراء يرفعون إليه أشعاره في البرامكة ، فيسقط منها ما يرى إسقاطه ويعرض ما يرى أنه خليق بالعرض ، مميّزاً بينهم مقدراً لكل منهم المكافأة التي يستحقها جزاء إحسانه . وحدث أن تقدم إليه أبو نواس بقصيدة مع طائفة

من الشعراء، فأمر له بدرهم ناقص ، وفي رواية أنه أسقط قصيدته ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وهجاه وتبادلا الهجاء طويلاً . ويُقال إن الهجاء بينهما إنما اندلعت ناره لأن يحيى بن خالد كان قد تقدّم إلى أبي نواس بنظم كليله ودمنة فزيّن له أبان أن يستعفى يحيى من النهوض بهذا العمل المصنئ ، ثم حبس نفسه في بيته لا يخرج منه حتى فرغ من نقلها إلى الشعر في أربعة أشهر بالغاً بها أربعة (١) عشر ألف بيت . وحمل نقله إلى يحيى بن خالد ، فأعطاه عليه مائة ألف درهم ، وفي رواية أنه أعطاه عليه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف . فحزن أبو نواس ووجد عليه وجداً شديداً ، وأخذ يقتصُّ منه بهجاء مرير ، وردَّ عليه أبان ، فاشتعلت بينهما معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس دائماً هو الذي يكثر فيها من الأسهم المسمومة .

وقد أتاه كثيراً من ثغرة زندقته ، وروى له الجاحظ في حيوانه هجائية من هذا اللون ، وهو يتهمه فيها بأنه مانوى وأنه يتشبه بمطيع بن إياس ووالبة وحمام عجرد وغيرهم من الحجان ، ولا ينفي الجاحظ تهمة الزندقة عن أبان غير أنه ينفي أن يوضع مع مطيع وأمثاله في كفة واحدة ، يقول : « ولقد كان أبان وهو سكران أصحَّ عقلاً من هؤلاء وهم صحابة » . ويقول ابن المعتز موازناً بينه وبين أبي نواس : « كان في جميع أحواله أرفع طبقة من أبي نواس ، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير فما سار له فيه شيء على شهرة شعره ، ولم يقل في أبي نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت في الدنيا ، وهي هذه :

أبو نواس بن هاني وأمه جُلْبَانِ (٢)  
والناسُ أفطنُ شيءٍ إلى حروف المعاني  
إن زدت بيتا على ذي ما عشتُ فاقطعُ لساني

وهي أبيات لاذعة . ويروى الرواة أنه كان له جار يعاديه ، فاعتلَّ علةً طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صحَّ من علته ، وخرج فجلس على بابهِ ، وإذا أبان ينشده أهجية ، فلم يلبث أن أُرْعِدَ منها واضطرب ، ودخل منزله فما خرج منه حتى

أم أبي نواس ، وكان أبانا يتخذ من ذلك منزلاً له .

(١) في ابن المعتز : أن أبانا إنما بلغ بها خمسة آلاف بيت .

(٢) الجلبان : شجرة الورد ، وهو اسم

مات . وكان يحسن الرثاء ، وورثته التي رواها الصولي في سوار بن عبد الله قاضي البصرة من أجود المرثي ، وهي طويلة طولاً مسرفاً .

وأهم ما نهض به أبان في الشعر نظمه لكليلة ودمنة ، وقد نظم بجانبها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - أرجوزة مزدوجة في الصوم والزكاة ومزدوجات أخرى في التاريخ الفارسي وقصيدة في نشأة الخلق وعلم المنطق . وبذلك مكّن لشيوخ الشعر التعليمي في العربية ، ونكتني هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور في كليلة ودمنة ، وهي تَمْضِي على هذه الشاكلة :

وإن من كان دَفِي النَّفْسِ	يَرْضَى من الأَرْفَعِ بالأَخْسِ
كمثل الكلب الشَّقِيَّ البائسِ	يَفْرَحُ بالعظم العتيق اليابِسِ
وإن أهل الفضل لا يرضيهمُ	شئ إذا ما كان لا يَعْنِيهمُ
كالأسد الذي يصيد الأَرْتَبَا	ثم يرى العَيْرَ المجدَّ هَرَبَا <sup>(١)</sup>
فِيرْسِلُ الأَرْتَبَ من أظفاره	ويتبع العَيْرَ على أدباره

وتطرد أرجوزته في كليلة ودمنة وفي كثير من الموضوعات التعليمية التي عُنِيَ بالنظم فيها على هذا النمط المزدوج الذي اصطفى له لغة جزلة متينة طالما راعت معاصريه ومن تلاهم ، حتى ليقول ابن المعتز في التعريف به : « كان شاعراً أديباً ، عالماً ظريفاً ، منطيقاً ، مطبوعاً على الشعر مقتدرًا عليه . . وهو الذي نقل كليلة ودمنة شعرا بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة . . ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ في نقله ، ولا أن يقول : ترك من لفظ الكتاب أو معناه » . وترجم الصولي لأخيه عبد الله وابنه حمدان وحفيده أبان . ونظن ظناً أنه ظل مشغولاً بعد البرامكة بشعره التعليمي ، حتى توفي سنة ٢٠٠ للهجرة ، فإنه لم يُؤثِرْ له شعر في مديح الأمين ولا في مديح المأمون وقواده ووزرائه .

(١) العير : حمار الوحش .

أشجع<sup>(١)</sup> بن عمرو السُّلَمي

من بني الشريد السُّلَميين ، كان أبوه ينزل البصرة ، وتعلق بامرأة من أهل اليمامة ، فشخص معها إلى موطنها وتزوجها ، فولدت له بموطنها أشجع حيث قضى السنوات الأولى من حياته . ومات أبوه فقدمت به أمه إلى البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكانت قد رُزقت منه أيضاً ولديها أحمد وحُرَيْثاً . وأكمل أشجع نشأته ومربّاه بالبصرة ، وفتحت مواهبه الشعرية فابتهجت به قبيلته وأخواتها من القبائل القيسية ، وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر معدود ، فلما نجم أشجع ولمع اسمه افتخرت به قيس ، وبادلها فخراً بفخر من مثل قوله :

إذا افتخرتُ قيسٌ بطيبِ العناصرِ      على الناسِ طاطا رأسه كلُّ فاجرٍ

ولم يلبث أن شد رحاله إلى بغداد لأواخر عهد المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) فدخل ابنه جعفرًا ، ويقال إن الذي وصله به عوف بن أحمد بن يزيد السُّلَمي ، وله فيه وفي أبيه أحمد وعمه محمد مدائح مختلفة . ولم يكذب يبرز عصر الرشيد حتى وصلته به زوجته زُبَيْدَة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه ، فأسنى جوائزها ، ويقال : بل الذي وصله به جعفر بن يحيى البرمكي . وتؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان في الرِّقَّة حين انتقل إليها من بغداد سنة ١٨٠ لينظر منها سريعاً إلى حرب الروم حين يدعو الداعي ، ومن أجل ذلك استوطنها مدة . ونظن أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ ، فقد روى صاحب الأغاني عنه أنه قال : « دخلتُ على محمد الأمين حين أجلس مجلس الأدب للتعليم وهو ابن أربع سنين ، وكان مجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدت :

مَلِكُ أبوه وأمه من نَبَعَةٍ      منها سراجُ الأمة الوهاجُ<sup>(٢)</sup>

ومروج الذهب للمسعودي ٢٩٦/٣ والوزراء  
والكتاب للجيشياري ص ٢١٥ والمرزوق على  
الحماسة ص ٨٥٦ .  
(٢) النبعة : شجرة ضخمة تتخذ منها القسي  
والسهام ، والاستمارة واضحة .

(١) انظر في أشجع وأشعاره وأخباره ابن المعتز  
ص ٢٥١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٥٧  
والأغاني (طبعة الساسي) ٣٠/١٧ والأوراق  
للصولي (قسم أخبار الشعراء) ص ٧٤ وتاريخ  
بغداد ٤٥/٧ والمرثج للرزباني ص ٢٩٥

شربت بمكة في ربى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج<sup>(١)</sup>  
 فأمرت له أمه زبيدة بمائة ألف درهم ، ويقال إنه لم يتولَّ الخلافة أحد أبوه  
 وأمّه من بني هاشم إلا على بن أبي طالب ومحمد الأمين . ومعروف أن الأمين  
 ولد سنة ١٧٠ ومعنى ذلك أن دخول أشجع عليه ومدحه كانا في سنة ١٧٤ وفي  
 ابن المعتز ما يدل على أن البيتين من قصيدة مدح بها الرشيد . وسنراه يكثر من  
 مدحه في حربه لتقفور ، وقد مضى يوثق عهده للمأمون بولايته العهد بعد أخيه  
 الأمين توثيقاً شديداً بقوله :

بيعة المأمون آخذة بعنان الحق في أفة  
 لن يفك المرو ربقتها أو يفك الدين من عنقه  
 وله من وجه والده صورة تمت ومن خلقه

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد ، وعلّقه في سقف الكعبة سنة ١٨٢  
 فابرى أشجع يصوب رأيه ويؤكدّه في قصيدة طرب لها الرشيد .

على أن صلته به إنما كانت في ثنايا صلة وثيقة بجعفر بن يحيى البرمكي وأبيه  
 وأخيه ، حتى لكأنما اقتطعوه منه ، ويقال إن أنس بن أبي شيخ كاتب جعفر هو  
 الذى وصله به ، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحيى وكان أول ما أنشده :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مثل مذاهب الشمس  
 ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وكان جعفر حينئذ بمجلس في أحد قصورهم  
 بجى الصالحية ، فقال له صف موضعنا ، فأنشد على البديهة :

قصور الصالحة كالعذارى ليسن ثيابهن ليوم غرس  
 مطلات على روض كسته أيادى الماء وشياً نسج غرس  
 إذا ما الطل أثر في ثراه تنفس نوره من غير نفس<sup>(٢)</sup>

(٢) الطل : الندى والمطر الخفيف .

(١) بطحاء مكة : وادها بين الربى والجبال . وكانت تنزله في الجاهلية عشائرها الشريفة .

فَتَغْبِقُهُ السَّمَاءُ بِصَبْنِغٍ وَرُزِينٍ وَتَضْبِجُهُ بِأَكْوَسِ عَيْنِ شَمْسٍ<sup>(١)</sup>  
وأعجب جعفر بحسن بديهته . وأصبح شاعره وشاعر أسرته يمدحه ويمدح أباه  
يحيى وأخاه الفضل ، ويغدقون جميعاً عليه العطايا الجزيلة ، ومن قوله في يحيى :

كفانى صروف الدهر يحيى بن خالدٍ فأصبحتُ لا أرتاع للحدثانِ  
كفانى - كفاه الله كلَّ مُلِمَّةٍ - طلابَ فلانٍ مرَّةً وفلان  
فأصبحتُ في رَعْدٍ من العيشِ واسعٍ أقَلِّبُ فيه ناظري ولساني

ونراه يرافق جعفرأ حين هاجت العصبية بين النزارية واليمينية في الشام لسنة ١٨٠  
وقد ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد وشرَّد آخرين وأصلح ذات البين بين الفئتين  
المتناحرتين . وأكثر من مديحه حينئذ ، ويقال إنه كان يُجرى عليه في كل يوم  
جمعة مائة دينار وأشجع يجرى عليه أشعاره من مثل قوله :

أصلحتَ أمر الشام محتسباً ورتقت ما فيها من الفتقِ  
ما كان يُدْرِكُ بالقتال ولا بالمال ما أدركت بالرفقِ

وعزم الرشيد في نفس السنة على تولية جعفر خراسان وسجستان وأخرج له الأمر  
بذلك ، فابتهج وابتهج معه شاعره ، ولم يلبث أن دبَّج فيه إحدى روائعه وفيها  
يقول :

يريد الملوك مدى جعفرٍ ولا يصنعون كما يصنعُ  
وليس بأوسعهم في الغنى ولكنَّ معروفه أوسع  
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع  
بديتهُ مثلُ تدبيره متى رُمتهُ فهو مستجمع

وبدا للرشيد فرجع في أمره وعزيمته ، فأنشده شعراً طريفاً يسليه به ، زاعماً أن  
الرشيد رأى حاجته إليه أمسّ من حاجة أهل خراسان . ويكثر من مديح جعفر

الصبوح وهو شرب الخمر في الصباح .

(١) تغبقه : من الغبوق وهو شرب الخمر في  
المساء ، والورس : زهر أصفر . تصبجه : من



ولا يلُمُّ به مرض هو أو أبوه إلا ويكثر من دعائه لهما بالشفاء وفي يحيى يقول وقد أخذته علة :

إذا ما الموتُ أخطأه فلنسنا نبالي الموتَ حيث غدا وراحا

ولما استأذن من الرشيد أن يجاور بمكة لسنة ١٨١ ظل يردد افتقاد بغاة الخير له وحزنهم لطول غيبته من مثل قوله :

قد غاب يحيى فما أرى أحداً يأنسُ إلا بذكره الحسنِ  
أوحشتِ الأرض حين فارقها من الأيادي العظام والمِنَنِ  
لولا رجاء الإياب لانصدعتُ قلوبنا بعده من الحزنِ

ويروى صاحب الأغاني أن جعفرا وياه عملا ، فرجع إليه أهله شكوايات كثيرة متظلمين منه ، فصرفه جعفر عنهم ، فلما رجع إليه من عمله مشتل بين يديه وأنشده قصيدة طويلة يقول فيها :

لقد هزّت سنانَ القول مني رجالٌ وقيعةٍ لم يعرفوني  
أطافوا بي لديك وغبتُ عنهم ولو أدنيتني لتجنبوني

فوصله جعفر وخلع عليه . وظل يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد ، فتحسر عليهم طويلاً ومن قوله فيهم :

كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا  
وجعلته صلته بالبرامكة يمدح كتابهم وأصحابهم من مثل إسماعيل بن صبيح ،  
وهن جيد قوله فيه :

له نظراً لا يغمض الأمرُ دونه تكاد ستورُ الغيب عنه تمرقُ

ولعله لم يكثر من مديح صاحب لهم كما أكثر من مديح محمد بن منصور ابن زياد . وقد مضى بعد نكبتهم يحاول القربى من الرشيد ، وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع قائلاً له : « هو أشعر شعراء أهل الزمان وقد اقتطعته

عنك البرامكة فأمر بإيصاله مع الشعراء « وقد تغنى بانتصاراته على نقفور وجنوده وفتحه لهرقلة غناء حاراً ، من مثل قوله :

برقتُ سِماؤك في العدوِّ وأمطرتُ هَاماً لها ظلُّ السيفِ غَمَامُ (١)  
وعلا عدوك يا بن عمِّ محمد رَصْدان : ضوء الصبح والإِظلامُ  
فإذا تنبه رُجْعتهُ وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفك الأَحلام

ولما بلغ هذا البيت في القصيدة اهتز الرشيد ، وأمر بأن ينثر عليه الدر إعجاباً واستحساناً ، وله يقول من قصيدة أخرى وقد جلس للشعراء عقب هذا الفتح في يوم عيد :

لا زلتَ تنشر أعياداً وتطويها تَمْضَى بها لك أَيَّامٌ وتُمْضِيها  
ولِيَهْنِك الفتح والأَيَّامُ مقبلة بالنصر والعزُّ معقوداً نواصيها  
أَمَسَتْ هرقلة تهوى من جوانبها وناصرُ الله والإِسلام يرميها

وكان الرشيد يكثر من حجه إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف للروم ، قاسماً سنه بين حج وغزو ، فصور ذلك أشجع تصويراً بديعاً في قصيدة استقبله بها في يوم قدوم له من حج بإحدى السنوات ، وفيها يقول :

أَلِفَ الحِجِّ والجِهَادِ فَمَا يَنْدُ فِكُّ من سَفَرَتَيْنِ في كلِّ عامٍ  
سَفَرٌ للجِهَادِ نحوِ عدوِّ والمطايا لِسَفَرَةِ الإِحْرَامِ (٢)  
طَلَبَ اللهُ فَهُوَ يَسْعَى إِلَيْهِ بالمطايا وبالجياد السَّوَامِ  
فِي دَاهِ يَدٌ بِمَكَّةَ تَدْعُو هِ وَأُخْرَى في دَعْوَةِ الإِسْلَامِ

وله مدائح مختلفة في الفضل بن الربيع . وكان يجيد الرثاء كما كان يجيد المديح ، إذ كان يعرف كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن في الصدور ، على نحو ما يلقانا في رثائه لمحمد بن منصور بن زياد ، وفيه يقول :

رمزاً للجهاد ، والسوام : من سامت الريح :  
إذا مرت واستمرت .

(١) الهام : الرووس .  
(٢) جعل المطايا أي الإبل رمزاً للحج والجياد

أَنْعَى فَتَى الْجُودِ إِلَى الْجُودِ      مَا مِثْلُ مَنْ أَنْعَى بِمَوْجُودِ  
 أَنْعَى فَتَى مَصَّ الثَّرَى بَعْدَهُ      بَقِيَّةَ الْمَاءِ مِنَ الْعُودِ  
 فَالْأَرْضُ يَبَسَتْ أَشْجَارُهَا بِمَوْتِهِ .      وَمِنْ مَرَاثِيهِ الرَّائِعَةُ الَّتِي رَوَاهَا أَبُو تَمَامٍ فِي  
 حِمَاسَتِهِ مَرِثَتِهِ فِيمَنْ يَسْمَى ابْنَ سَعِيدٍ وَفِيهَا يَقُولُ :

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقُ      وَلَا مَغْرِبُ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ  
 وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ      عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيَّبْتَهُ الصَّفَائِحُ (١)  
 فَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ مَيْتاً      وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيْقُ الصَّحَاصِحُ (٢)  
 سَابِكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغْفُضُ      فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تُجِنُّ الْجَوَانِحُ (٣)  
 وَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَازِعُ      وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ  
 كَأَنَّ لَمْ يَمْتَحِ حَتَّى سَوَاكَ وَلَمْ تَقْمِ      عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النَّوَاحِ  
 لَئِنْ حَسُنْتَ فَيْكَ الْمَرَاثِي وَذَكَرُهَا      لَقَدْ حَسُنْتَ مِنْ قَبْلِ فَيْكَ الْمَدَائِحُ  
 وَغَزَلَهُ رَقِيقٌ وَلَهُ خَمْرِيَاتٌ قَلِيلَةٌ .      وَوَاضِحٌ مِمَّا أَنْشَدْنَاهُ لَهُ أَنَّهُ كَانَ غَزِيرَ الْمَعَانِي  
 رَشِيقَ الْأَسْلُوبِ وَأَنَّ قِصَائِدَهُ الْجِيَادُ تَعُدُّ مِنْ عَيُونِ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَدَرَرَهُ النَّفِيسَةُ ،  
 وَقَدْ عَاشَ حَتَّى شَهِدَ قَتْلَ الْأَمِينِ فِي سَنَةِ ١٩٨ إِذْ رَوَى لَهُ الصُّوْلِي قِصِيدَةً فِي مَدِيحِ  
 طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ الَّذِي حَاصَرَهُ إِلَى أَنْ ظَفَّرَ بِهِ وَقَتَّلَ صَبْرًا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ  
 مَخَاطِبًا لَهُ :

سَلَبْتَ رِدَاءَ الْمَلِكِ ظَالِمَ نَفْسِهِ .      وَصَنْتَ الَّذِي وَلَاكَ قَضَمَ الْجَبَابِرِ  
 وَأَكْبَرَ الظَّنَّ أَنَّهُ تَوَفَّى بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ .

(٢) الصَّحَاصِحُ : الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ الْمَسْتَوِيَّةُ .  
 (٣) تَجِنُّ : تَضْمُرُ . الْجَوَانِحُ : الضُّلُوعُ .

(١) الصَّفَائِحُ : الْحِجَارَةُ الْعَرَاضُ فِي سَقْفِ الْقَبْرِ .

## شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا يكاد يوجد في هذا العصر وزير ولا وال ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلباً لجوائزه السنية ، ولن نستطيع أن نستقصى مدائحهم ، ولذلك سنكتفي بأكثرهم تداولاً على ألسنة الشعراء ، ولعل أبنه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مديحه خالد بن برمك . وكان يعقوب بن داود وزير المهدي ومنهجو بشار ممدحاً لكثير من الشعراء ، وقد وجدوا عليه وجداً شديداً حين حبسه المهدي ، وصوروا ذلك في أشعارهم من مثل قول أبي حنشل التميمي<sup>(١)</sup> :

يعقوبُ لا تَبْعُدْ ، وَجُنِبْتَ الرَّدَى فلبكين زمانك الرطبَ الثرى  
وقول أبي الشيبان مخاطباً المهدي<sup>(٢)</sup> :

أبلغ إمام الهدى أن لست مضطعاً للنائبات كيعقوب بن داود  
لو تبتغي مثله في الناس كلهم طلبت ما ليس في الدنيا بوجود  
واستوزر المهدي بعده الفيض بن أبي صالح ، وكان غيئاً مدراراً ، ومن كان ينقطع إليه أبو الأسد الحماني التميمي وفيه يقول<sup>(٣)</sup> :

ولأئمة لامتك - يا فيض - في الندى فقلت لها لن يقدح اللوم في البحر  
أرادت لتنهى الفيض عن عادة الندى ومن ذا الذي يثنى السحاب عن القطر  
مواقع جود الفيض في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر  
كان وفود الفيض لما تحملوا إلى الفيض لا قوا عنده ليلة القدر

ومررت بنا مدائح الشعراء في البرامكة ، وكان الفضل بن الربيع يحجب الرشيد في وزارتهم ، ثم خلفهم على وزارته ، ووزر من بعده للأمين ، وقد مدحه ونوه

(٣) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤ / ١٣٤ .

(١) المرزوق على الحماة ص ٩٤٦ .  
(٢) الوزراء والكتاب للجيشاري ص ١٦٣ .

به كثيرون وفي مقدمتهم أبو نواس وأبو العتاهية ، وفيه يقول (١) :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً      فمثل الفضل فاتخذِ الخليلاً  
يرى الشكر القليل له عظيماً      ويُعطى من مواهبه الجزيلاً  
أراني حيناً يَمْتُّ طرفي      وجدتُ على مكارمه دليلاً

ولإسحق الموصلي أشعار فيه لحنها وغنى فيها ، ومن يُسَلِّك في مُدَّاحه  
أبو نخيلة ، وسلم الخاسر ، وأشجع السلمي ، ومنصور النَمْرِي ، وفيه يقول (٢) :

هو الأَوْحَدُ في الفضلِ      فما يُعْرِفُ ثانيه

ونلتني بعده بالفضل والحسن ابني سهل وزيرى المأمون ، وكانا جوادين  
مدحّين ، وقد نوّه مسلم بن الوليد بالفضل طويلاً ، وفيه يقول مشيراً إلى تديره  
الأمر للمأمون حتى أسقط الأمين (٣) :

أَقَمْتَ خِلافةً وَأَزَلْتَ أُخْرَى      جَلِيلٌ ما أَقَمْتَ وما أَزَلْنَا

وقد عاش الحسن بعد الفضل طويلاً ، فكثرت أمداح الشعراء فيه ، وفي  
مقدمتهم أبو تمام وأبو العَمَيْثَل وأبو فرعون الساسي ومحمد بن عبد الملك الزيات  
ومحمد بن وهيب ، وفيه يقول (٤) :

به تُجْتَدَى النعمى وتُستدرك المنى      وتُستكمل الحسنى وتُرعى الأواصِرُ  
ولما رأى الله الخلافة قد وهت      دعأها والله بالأمر خابِرُ  
بني بك أركاناً عليها محيطَةٌ      فأنت لها دون الحوادث ساترُ

ولعل وزيراً بعده لم يُمدَحْ كما مُدِّح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم  
والوائق ، وللحسن بن وهب كاتبه فيه أشعار كثيرة ولعل شاعراً لم ينوّه به كما نوّه  
أبو تمام .

وإذا تركنا الوزراء إلى الولاة وجدنا بينهم كثيرين من الأجواد المدحّين

(٣) ديوان مسلم ص ٣٠٧ .  
(٤) أغاني (سأى) ١٧/١٤٤ .

(١) أغاني ٤/٦٧ .  
(٢) أغاني ١٣/١٥٠ .

وفي طليعتهم معن بن زائدة الشيباني والى اليمن للمنصور ثم سجستان ، وهو ممدوح مروان بن أبي حفصة كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، ومن مدّاحه مطيع بن إياس والحسين بن مطير ، وله فيه حين توفى مريّة بديعة أنشدنا قطعة منها في غير هذا الموضع . وطبيعي أن يكثر في هذا العصر مديح ولاية البصرة والكوفة ، ويتردّد مديح الأولين في ديوان بشار حتى وفاته ، كما يتردّد الثانون في أشعار الكوفيين تردداً أوسع من أن يُحصَى ويستقصى . وكان في كل ولاية شعراء من أهلها لا يزالون يمدحون ولانها ، وكان كثير من شعراء العراق يفدون عليهم لأخذ جوائزهم ، ويكنى لتصوير ذلك أن نرجع إلى مصر فسرى بها شعراء من الطبقة الثانية لا يزالون يمدحون من يتولى عليها على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب الولاية والقضاة للكندي . وقد رحل إليها غير شاعر مقدّمًا مدائح لولاتها الذين اشتهروا بجودهم ، ظافراً منهم بالصلوات السنية ، ومن لولاتها الأجواد لعهد المنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى ممدوح بشار وربيعة الرقّي . وقد قدم عليه في ولايته ابن المولى ومدحه بقصائد كثيرة من مثل قوله :

يا واحدَ العربِ الذي أضحىَ وليس له نظيرُ  
لو كان مثلكَ آخرُ ما كان في الدنيا فقيرُ

ويقال إنه أعطاه في هذه القصيدة عشرين ألف دينار<sup>(١)</sup> ، غير ما أعطاه في قصائده الأخرى . وقد عرضنا في حديثنا عن أبي نواس لرحلته إلى الحصيب صاحب خراجها وما أغدق عليه من برّه ، كما عرضنا في حديثنا عن أبي تمام لرحلته إلى عياش بن لهيعة الحضرمي ، وما كان من اتصاله بولاتها المختلفين ، وصورنا من بعض الوجوه مدائح بعض ولاية دمشق والموصل وديار ربيعة وأذربيجان والثغور . ومرّت بنا أيضاً مدائح دعبل للمطلب الخزاعي حين ولي مصر وكيف أشاد به أولاً ثم هجاه .

وليس من شك في أن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله هما أهم ولاية تغنى بهما الشعراء ، إذ جذبا إلى ولايتهما في خراسان غير شاعر ، ومن مدّاح طاهر الرقاشي وأبو العميثل والشاعر الملقب بالصيني ، على نحو ما يصور لنا ذلك ابن المعتز ،

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٨٩/٣ وما بعدها .

ويقول في ترجمة عوف بن محلم الخزاعي : « كان معدوداً من الشعراء الظرفاء المحدثين وكان طاهر بن الحسين قد استخصه واختاره لمناذمته ، فكان لا يفارقه في سفر ولا حَضْر . . . وما سار له في الدنيا قوله له إذ وقف على الجسر في حرّاقة (١) يَسُحدر إلى دار الخليفة ، فقال رافعاً صوته :

عجبت لحرّاقة ابن الحُسَّ بين كيف تسير ولا تَغْرَقُ  
وبحران : من تحتها واحدٌ وآخرٌ من فوقها مُطْبِقُ  
وأعجب من ذلك عيدانها وقد مسها كيف لا تُورِقُ

وكان ابنه عبد الله على مثاله جوداً وشجاعة وسماحة ، ويقال إنه لما ولاه المأمون مصر لسنة ٢١١ أعطاه مالها لعام : خراجها وضياعتها ، فوهبه كله وفرقه في الناس ، وقد لهج الشعراء فيها بمدحيه وفي مقدمتهم معلّى الطائي وله يقول (٢) :

لو أصبح النبلُ يَجْرى ماؤه ذهباً لما أشرتَ إلى خَزَنِ بِمِثْقَالِ  
تَفْكُ بِالْيَسْرِ كَفَّ الْعُسْرِ مِنْ زَمَنِ إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِقْلَالِ  
وما بثثت رَعِيلَ الْخَيْلِ فِي بِلَدِ إِلَّا عَصَفْنَ بِأَرْزَاقِ وَأَجَالِ

وقد لزمه في ولايته على خراسان كثير من الشعراء أمثال أبي العميسيل وعوف بن محلم الخزاعي شاعري أبيه ، وله يقول عوف من قصيدة طويلة (٣) :

يا بِنَ الَّذِي دَانَ لَهُ الْمَشْرِقَانُ وَالْبَيْسَ الْأَمْنَ بِهِ الْمَغْرِبَانِ  
وهو ممدوح على بن جبلة وأبي تمام والعتابي ، وله يقول (٤) :

وَدُكْ يَكْفِينِيكَ فِي حَاجَتِي وَرَوَيْتِي كَافِيَةً عَنْ سُؤْلِ  
وَكَيفَ أَحْشَى الْفَقْرَ مَا عَشْتَلِي وَإِنَّمَا كَفَّكَ لِي بَيْتُ مَالِ  
وعلى نحو ما مدح الشعراء الولاة ونوّهوا بهم طويلاً مدحوا القواد أمداحاً رائعة ، ومدائح بشار وأبي العتاهية في عمر بن العلاء الذي قضى على الحمرة بمرجان لعهد المهدي

(٣) ابن المعتز ص ١٨٨ .

(٤) أغاني ١١٧/١٣ .

(١) الحرّاقة : ضرب من السفن .

(٢) أعاني (دار الكتب) ١٠٢/١٢ .

مشهورة . ولعل قائداً لم يُمدَحْ في عصر الرشيد كما مُدح يزيد بن يزيد الشيباني ممدوح مسلم بن الوليد ، وفيه يقول منصور النمرى (١) :

لا تقربنَّ يزيداً عند صَوْلِيهِ لكنَّ إذا ما احتببى للجود فاقترب

ومن مداحه على بن الخليل وعبد الله بن أيوب التيمي . ومن كبار القواد لعهد المأمون والمعتمد أبو دُلْف العِجَلِي ، يقول أبو الفرج في ترجمته له : « محله في الشجاعة وعلوِّ المحل عند الخلفاء وعظم الغناء في المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محل ليس لكبير آخر من نظرائه (٢) » وكانت غيوث كرمه لا تزال تنهلُّ على الشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحِهِ ، ومن كان ينقطع إليه على بن جبلة وأبو الأسد الحِمَّاني التيمي وبكر بن النطاح ، وفيه يقول مصوراً شجاعته (٣) :

قالوا وينظم فارسين بطعنةِ يومَ اللقاء ولا يراه جليلا

لا تعجبوا لو أن طول قناتهِ ميلٌ إذن نظمَ الفوارسَ ميلا

وله يقول (٤) :

فكفك قوسٌ والندى وترُّ لها وسهَمك فيه اليسر فارمٍ به عُسري

ويقول أيضاً فيه :

ولقد طلبنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم يُنسبُ

وهو من مدّاح أبي تمام ومحمد بن وهيب وغيرهما . وقد جلتى في

حروب المأمون والمعتمد مع بابك والروم قواد كثيرون في مقدمتهم الأفشين وخالد

ابن يزيد بن يزيد وأبوسعيد محمد بن يوسف الثغرى ولأبي تمام فيهم أمداح رائعة

صورتنا أطرافاً منها في ترجمته . ونحن نقف قليلا عند أربعة من شعراء هؤلاء القواد

ومن سبقهم من الولاة والوزراء وهم: أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمي وعلى

ابن جبلة والخريزمي .

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٥/١٧ .

(٤) ابن المعتز ص ٢١٩ .

(١) أغاني ١٥٥/١٣ .

(٢) أغاني ٢٤٨/٨ .



## أبو الشَّيْص (١)

غلبَ عليه لقبه أبو الشَّيْص واسمه محمد بن عبد الله بن رَزِين وهو ابن عم دِعْبَل ، ويقول أبو الفرج « كان متوسط المحل في شعراء عصره غير نابه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبي نواس ، فحمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخزاعي أمير الرِّقَّة فدحه بأكثر شعره ، فقلما يُروى له في غيره ، وكان عقبة جواداً فأغناه عن سواه » . ومن مختار شعره فيه قوله مستطرداً من وصف الإبل إلى مديحه :

إنَّ الأمانَ من الزمانِ ورَبِيه  
بَحْرٌ يلوذُ المعتفونَ بِنَيْلِهِ  
ثَبَّتَ المقامَ إذا التوى بعدوه  
لَمْ يَخْشَسْ من زَلَلٍ ولا إِدْحاضِ (٢)  
غَيْثٌ توشحتِ الرياضُ عِهادَهُ  
لَيْثٌ يطوفُ بغابةٍ وَغِياضِ (٣)  
ومشمرٌ للموتِ ذَيْلَ قَمِيصِهِ  
قانى القنائةِ إلى الرَّدَى خَواضِ

ويقول ابن المعتز إنه مدح الرشيد مدائح كثيرة ، ولما مات أكثر من رثائه ومدح الأمين وله في ذلك بدائع كثيرة من مثل قوله :

جَرَتْ جوارٍ بالسَّعدِ والنَّحْسِ  
العَيْنُ تبكى والسِّنُّ ضاحكةٌ  
يضحكنا القائمُ الأمينُ وتبُّه  
بدران : بدرٌ أَضحى ببغدادِ في الأ  
فمنحن في وَحْشَةٍ وفي أنسِ  
فمنحن في مأتمٍ وفي عُرْسِ  
كيننا وفاءة الإمام بالأمسِ  
خُلدٍ وبَدْرٌ بطوسٍ في الرَّمْسِ (٥)

(٣) إدحاض : انزلاق .

(٤) المهاد : أول مطر الربيع . غياض :

جمع غيضة وهي الشجر الملتف .

(٥) الخلد : قصر بناه المنصور ببغداد .

الرمس : القبر .

(١) انظر في أبي الشَّيْص وأخباره وأشعاره

ابن المعتز ص ٧٢ وابن قتيبة ص ٨٢٠ والأغاني

(طبعة دار الكتب) ٤٠٠/١٦ ونكت الحميان

للصفدي ص ٢٦٧ وتاريخ بغداد ٤٠١/٥

وفوات الوفيات ٢/٢٢٥ .

(٢) فعم : ملوه .

وله فيه مرثية طويلة عجيبة يقول فيها مستغلا وفاته بطوس في المشرق :

عَرَبْتُ فِي الْمَشْرِقِ الشَّمْسَ      سُسُ فَقُلْ لِلْعَيْنِ تَدْمَعُ  
مَا رَأَيْنَا قَطُّ شَمْسًا      غَرِبَتْ مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ

ومن رائع مرثيته قوله يبكي بعض الأبطال وقد سقط صريعاً في ميدان القتال مصوراً بأسه وشجاعته :

خَتَلَتْهُ الْمَنُونُ بَعْدَ اخْتِيَالٍ      بَيْنَ صَفِينٍ مِنْ قَنَا وَنِصَالٍ  
فِي رِءَاءٍ مِنَ الصَّفِيحِ صَقِيلٍ      وَقَمِيصٍ مِنَ الْحَدِيدِ مُذَالٍ (١)  
وهو أحد من برعوا في الغزل ووصف الخمر ، وله فيهما أشعار كثيرة طارت في الدنيا وسارت بها الركبان من مثل قوله في الغزل :

مَهَاءٌ تَرْتَمِي الْأَلْبَا      بَ عَنْ قَوْسٍ مِنَ السُّحْرِ  
لَهَا طَرْفٌ يَشُوبُ الْخَ      مَرَ لِلنَّدْمَانِ بِالْخَمْرِ  
عَفِيفٌ اللَّحْظِ وَالْإِغْضَا      ءِ فِي الصَّحْوِ وَفِي السُّكْرِ  
وقوله في الخمر :

وعذراء لم تفترعها السُّقَاةُ      وَلَا اسْتَامَهَا الشَّرْبُ فِي بَيْتِ حَانِ (٢)  
وَلَمْ تَزَلِ الشَّمْسُ مُشْغُولَةً      بِصَنْعَتِهَا فِي بَطُونِ الدَّنَانِ  
تَرشُّهَا لِأَثَامِ الرَّجَالِ      إِلَى أَنْ تَصْدَى لَهَا السَّاقِيَانِ  
عَجُوزٌ غَدَاً الْمِسْكَ أَصْدَاعِهَا      مَضْمُخَةٌ الْجَلْدِ بِالزَّغْفَرَانِ  
يَطُوفُ عَلَيْنَا بِهَا أَحُورٌ      يَدَاهُ مِنَ الْكَأْسِ مَخْضُوبَتَانِ

وله في المشيب وبكاء الشباب كثير من الأشعار الرائعة التي يُطَرْفُ فيها تارة بالصور والأخيلة البديعة ، وتارة بالمعاني التي تمس المشاعر والقلوب من مثل قوله :

(٢) استامها : ساوم على شرائها .

(١) مذال : طويل الذيل .

أبدى الزمانُ به نُدوبَ عِضاضٍ ورمى سوادَ قرونه ببياضٍ<sup>(١)</sup>  
وقوله :

خلع الصِّبا عن منكبيه مشيبٌ وطوى الذوائبَ رأسه المخضوبُ  
نَشَرَ البلى في عارضيه عَقَارِباً بِيضاً لهنَّ على القرون دَبِيبُ  
وقوله يذكر الشباب :

فهل لك يا عيشُ من رجعةٍ بأيامك المونقاتِ الحِسانِ  
وهيهات يا عيش من رجعةٍ بأغصانك المائلاتِ الدَّوانِ  
لقد صدع الشيبُ ما بيننا وبينك صدعَ الرِّداءِ اليَمانيِ  
وعَمِيَ بأخرة من حياته ، فحزن حزناً عميقاً ، ومضى يرثى عينيه ويبكيهما  
بأبيات مؤثرة ، تصور التبايعه التبايعاً شديداً من مثل قوله :

يا نفسُ بكِّي بأدمعِ هُتَنِ وواكفِ كالجُمانِ في سَنَنِ<sup>(٢)</sup>  
على دليلي وقائدي ويدي ونور وجهي وسائسِ البدنِ  
أبكي عليها بها مخافةً أنْ تَقْرَنِي والظلامَ في قرَنِ

ولعل في ذلك كله ما يصور براعته في الشعر وكيف كان يحسن نسيجه نافذاً  
إلى كثير من دقائق المعاني ورائع الصور والأخيلة . ويقال إن بعض الغلمان قتله  
وهو شَمَل بالخمرة سنة ١٩٦ للهجرة .

### عبد الله<sup>(٣)</sup> بن أيوب التيمي

كان يُكْنَى أبا محمد وهو من موالى بني تَيْمٍ ومن أهل الكوفة ، وقد تركها إلى  
بغداد طلباً لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد ، وبها انعقدت صلة وثيقة بينه وبين

وأشعاره الأغاني ( طبعة الساسي ) ١٨ / ١١٥  
وانظر ٣١ / ١٧ و ٤٥ و الحيوان ٦ / ٥٥٥  
والنجوم الزاهرة ٢ / ١٨٩ .

( ١ ) الندوب : الكلوم والجراح .  
( ٢ ) هتن : غزيرة . واكف : سائل لا ينقطع .  
( ٣ ) انظر في عبد الله بن أيوب وأخباره

إبراهيم الموصلي وابنه إسحق ، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعاً ونال جوائزهم ، ويقال إنه أخذ من يحيى البرمكي وبنيه مائة ألف درهم ، وقد جلتى في حادثة مشهورة ، ذلك أن الرشيد هزم نقفور صاحب بيزنطة هزيمة ساحقة جعلته يركع على قدميه ويؤدى له الجزية التى افترضها صاغراً . ورجع الرشيد إلى الرقة ، فلما سقط الثلج وأمن نقفور أن يُغزى نقض الصلح المعقود ، وحرار وزراء الرشيد كيف يخبرونه ، ثم رأوا أن يخبره بذلك بعض الشعراء ، وسرعان ما دبج التيمى قصيدة حماسية رائعة ضمّنها الخبر ، ودخل على الرشيد فأنشدها بين يديه قائلاً :

نَقَضَ الذى أعطاكه نَقُورُ فعليه دائرة البوار تدورُ  
أَبَشِرُ أمير المؤمنين فإنه فَتَحَ أتاك به الإلهُ كبيرُ  
نَقُورُ ! إنك حين تَغْدُرُ أن نأى عنك الإمامُ لجاهلٍ مغرورُ  
أظننت حين غدرتَ أنك مفلتٌ هَبِلْتَ أمك ما ظننت غرورُ  
أبقاك حينك في زواجر بحره فَطَمَتْ عليك من الإمام بحور<sup>(١)</sup>

واهتز الرشيد طربا بشعره ونَشَرَ عليه الدرَّ . وزحف بجيوشه حتى أناخ على هرقله ، فافتتحها عنوة ، وذلَّ نقفور وذلَّت الروم .

ويقول صاحب الأغاني إن التيمى اتصل بيزيد بن يزيد ، فلم يزل منقطعا إليه حتى مات ، وليس بين أيدينا ما يصور مدائح له ، وقد بكى فيه بطولته وزياده عن حياض الدولة وفتكه بأعدائها فتكاً ذريعاً حين اختطفه الموت ، وفي ذلك يقول من مرثية رائعة تعد من أجود مرثى العصر :

أحقُّ أنه أوْدَى يزيدُ تبيّنَ أيها الناعى المشيدُ<sup>(٢)</sup>  
أتدرى مَنْ نَعِيَتْ وكيف فاهتُ به شفتاك؟! كان بك الصَّعيدُ<sup>(٣)</sup>  
أحامى المجد والإسلام أوْدَى فما للأرض ويحك لا تَمِيدُ<sup>(٤)</sup>  
تأمل هل ترى الإسلامَ مالتُ دعائمه وهل شاب الوليدُ

(٢) الصميد هنا : القبر .

(٤) تميد : تتحرك وتهتز .

(١) الحين : الموت والهلاك .

(٢) أودى : مات .

وهل شِيمَتُ سيوفِ بنى نِزارٍ وهل وُضِعَتْ عن الخيل اللُّبُودُ<sup>(١)</sup>  
 وهل تَسْقَى البلادَ عِشارُ مُزْنٍ بِدِرَّتِهَا وهل يَخْضَرُ عودُ<sup>(٢)</sup>  
 أَبَعَدَ يزيدٍ تَخْتَزِنُ البواكى دموعاً أو تُصان لها خُدُودُ  
 ومن عجبٍ قَصَدَنَ له المنايا على عَمْدٍ وهنَّ له جنود  
 لقد عَزَى ربيعةَ أَنَّ يوماً عليها مثل يومك لا يعود  
 ويقال إن الرشيد كان حين يسمع هذه المرثية في قائده يبكي بدموع غزار  
 حتى لو كان بين يديه كأس للملأه بدموعه .

وزرى التيمي بعد عصر الرشيد يصل حباله بالأمين ويلجج معه في نقضه لعهد  
 أخيه المأمون ، وله في ذلك قصيدة يقال إن الأمين أعطاها عليها مائة ألف درهم .  
 ولما تطورت الحوادث وانتصر المأمون على أخيه أخذ ينقض ما صاغه في الأمين بمثل  
 قوله :

نُصِرَ المأمون عبد الله لما ظلموه  
 نقضوا العهد الذى كانوا قديماً أكدوه  
 لم يعامله أخوه بالذى أوصى أبوه

وعفا عنه المأمون ووصله ، واتصل بقواده ووزرائه من مثل طاهر بن الحسين  
 والفضل بن سهل ، وفيه يقول<sup>(٣)</sup> :

لَعَمْرُكَ ما الأشرافُ فى كلِّ بلدةٍ وإن عظموا إلا لفضلٍ صنائعُ  
 ترى عظماءَ الناسِ للفضلِ خُشَعاً إذا ما دنا والفضلُ لله خاشعُ  
 وهو يُعَدُّ فى الخلقاء المُجَّانِ ، غير أن أشعاره فى الخمر متوسطة ، ويظهر  
 أنه كَفَّ عنها بأخرة من حياته ، وحسنت سيرته ، وحسَّن إيمانه ، يشهد لذلك  
 مثل قوله :

ويريد المطر الغزير .  
 (٣) قارن الوزراء والكتاب للجيشيارى ص  
 ٣٢٠ بالأغانى ١٨/١٩٩ حيث ذكر أبو الفرج  
 أن البيهقي فى مديح الفضل بن الربيع .

(١) شيمت السيوف : أغمدت .  
 (٢) المزن : السحب . والعشار : جمع عشار  
 وأصلها الناقة على وشك أن تلد ، ويريد  
 المزن الحملة بالأمطار ، الدرّة : أصلها كثرة اللبن

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ ، فإنَّ ذاك مُضِرٌّ منك بالدينِ  
وارغبْ إلى الله بما في خزائنه فإنما هو بين الكاف والنونِ  
وواضح أنه كان شديد أسر الشعر ، وأنه كان يعرف كيف يصطنى اللفظ ،  
سواء أراد الأسلوب الجزل الرصين أو الأسلوب العذب الرقيق . وقد توفى سنة ٢٠٩ للهجرة .

علي<sup>(١)</sup> بن جبلة

اشتهر بلقبه العكوك ، ومعناه القصير السمين ، وهو من أبناء شيعة العباسيين  
الخراسانيين ، وُلد سنة ١٦٠ للهجرة بحميّ الحربية في بغداد ، وكان ضريراً ،  
وفي بعض الروايات أنه وُلد أكمه لا يبصر ، وفي روايات أخرى أنه فقد بصره في  
صباه . وجعلته هذه العاهة يتجه إلى الدرس والتعلم ورواية الشعر وحفظه ، وسرعان  
ما استبانت فيه موهبته الشعرية ، فأخذ ينظم الشعر متكسباً به . ولم تطمح نفسه  
إلى مديح الخلفاء ، وإن كان يقال إنه مدح المأمون ، ولكن على كل حال ليس  
بين أيدينا شيء من هذا المديح . ونراه يمدح وزيره الحسن بن سهل بمثل قوله :

أعطيني يا وليَّ الحق مبتدئاً عطيةً كافآتٌ مدحى ولم ترفى  
ما شئتُ برِّقك حتى نلتُ ريقه كأنما كنتُ بالجدوى تبادرنى<sup>(٢)</sup>

وأهم ممدوحيه حميد بن عبد الحميد الطوسي وأبو دلف العجلي ، وله في  
أولهما قصيدتان يقال إنه أعطاه في كل منهما مائة ألف درهم ، وقد أنشده أولهما  
في يوم عيد والثانية في يوم نيروز ، وفيها يقول :

حميدٌ ياقاسم الدنيا بنائله وسيفه بين أهل النكث والدينِ

الميمان للصفدي ص ٢٠٩ ومراة الجنان لليافعي  
٥٣/٢ وشذرات الذهب ٣٠/٢ ووفيات الأعيان  
لابن خلكان .  
(٢) شام البرق : نظر إليه أين يتجه . والرقيق :  
أول الغيث . الجدوى : العطاء .

(١) انظر في علي بن جبلة وأخباره وأشعاره  
ابن قتيبة ص ٨٤٠ وابن المعتز ص ١٧١ ،  
٤٣٣ والأغانى (طبع الساسي) ١٠٠/١٨  
وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دارالمعارف)  
ص ١٠٦ وتاريخ بغداد ٣٥٩/١١ ونكت

أنت الزمان الذي يجرى تصرفه  
 لو لم تكن كانت الأيام قد فنيت  
 على الأنام بتشديد وتلين  
 بالمكرمات ومات المجد مذحين  
 وصور الناس من ماء ومن طين  
 وله فيه مدائح كثيرة ، ومن بديع مديحه فيه قوله وكان يلقب بأبي غانم كناية  
 عن بطولاته وانتصاراته المدوية في الحروب :

دَجَلَةٌ تَسْقِي وَأَبُو غَانِمٍ يُطْعَمُ مَنْ تَسْقِي مِنَ النَّاسِ  
 وَالنَّاسُ جَسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّأْسِ  
 وَقَوْلُهُ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حُمَيْدٌ وَأَيَادِيهِ الْجِسَامُ  
 فَإِذَا وَلَّى حُمَيْدٌ فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

وعثر القدر بمحمد بن حميد في حروبه مع بابك ، فخر صريعاً في ساحة  
 البطولة والجهاد لأول سنة ٢١٤ للهجرة ووجدت عليه بغداد والعالم الإسلامي وجداً  
 شديداً ، ورثاه أبو تمام بمرث رائعة عرضنا لها في حديثنا عنه ، ولعل بن جبلة مرثية  
 بديعة فيه ويقال بل هي في أبيه حميد ، ويقول أبو الفرج إن البحري وأبا تمام  
 سلخا في مرثيتهما أكثر معانيها وفيها يقول :

أَللَّهِرِ تَبْكِي أُمَ عَلَى الدَّهْرِ تَجْزَعُ وَمَا صَاحِبُ الأَيَّامِ إِلا مَفْجَعُ  
 أَصَبْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ ظَلَّتْ تَضَعُضِعُ  
 وَكُنْتُ أَرَاهُ كَالرُّزَايَا رَزَتْهَا وَلَمْ أَدْرُ أَنَّ الخَلْقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ  
 نَعَاءُ حَمِيدًا لِلسَّرَايَا إِذْ غَدَتْ تُذَادُ بِأَطْرَافِ الرَّمَاحِ وَتَوَزَعُ<sup>(١)</sup>  
 كَأَنَّ حَمِيدًا لَمْ يَقْدِرْ جَيْشَ عَسْكَرٍ إِلَى عَسْكَرِ أَشْيَاعِهِ لَا تَرُوعُ  
 وَلَمْ يَبْعَثِ الخَيْلَ المَغِيرَةَ بِالضُّحَى مِرَاحًا وَلَمْ يَرْجِعْ بِهَا وَهِيَ ظَلَعُ<sup>(٢)</sup>

(٢) ظلع : من الظلع وهو العرج .

(١) فعاء : اسم فعل أمر من نعى . توزع :

رواجع يحملنَ النَّهَابَ ولم تكن كتائبه إلا على النهب ترجعُ  
هوى جبل الدنيا المنيعُ وَعَيْشُهَا الـ مَرِيْعٌ وحاميتها الكميُّ المشيعُ (١)

واستنفد أبو دلف بعطاياه السنية أكثر مدائحه حتى لم يكذب يبق فيه شيئاً  
لغيره ، إلا ما كان من حميد الطوسي ، ومدائحه فيه أبدع وأروع ، وقد طار  
منها كثير على كل لسان من مثل قوله فيه :

ملكٌ تَنَدَى أَناملُهُ      كانبلاج النوءِ عن مَطْرَةٍ (٢)  
مُسْتَهْلٌ      عن مواهبِهِ      كابتسام الروض عن زَهْرَةٍ  
إنما الدنيا أبو دَلْفٍ      بين مَغْزَاهِ وَمُخْتَضِرِهِ (٣)  
فإذا ولى أبو دلف      ولَّتِ الدنيا على أثرِهِ

وقوله وقد أسرف في المبالغة :

أنت الذي تُنزلُ الأيَّامَ منزلها      وتنقل الدهر من حالٍ إلى حالٍ  
وما مددتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أَحَدٍ      إلا قضيتَ بأرزاقِ وآجالِ

ويقال إنه كان يثير المأمون بمثل هذا الشعر في أبي دلف وشعره الآخر في ابن  
حميد ، فطلبه وهرب منه إلى الجزيرة ، وحُمِلَ إليه فأمر بإخراج لسانه من قفاه  
ثم قتله . وقد رفض ابن المعتز وأبو الفرج هذه الرواية الكاذبة على المأمون المعروف  
باتساع أفقه وسباحة نفسه وكرم سجاياه ، وقالوا إنه مات حتف أنفه . وقال بعض  
من ترجموا له إنه مات سنة ٢١٣ وفي أخباره أنه رحل إلى عبد الله بن طاهر  
في ولايته على خراسان ومدحه فأجزل صلته واستأذنه في الرجوع ، فسأله أن يقيم  
واتصل برُّه به ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله ، فدخل إليه وأنشده من قصيدة  
مستأذنا في القبول إلى موطنه :

ملكٌ عَزَمَهُ الزمنا      نُ وَأَفْعَالُهُ الدُّوْلُ

(١) المريع : الخصب . الكمي : الشجاع . (٢) النوء : نجوم تظهر قبل المطر .  
العصر العباسي الأول



لَيْتَهُ حِينَ جَادَ لِي بِالْغِنَى جَادَ بِالْقَفْلِ

وأذن له مغدقا عليه من نواله. وعبد الله بن طاهر إنما أقام في خراسان منذ سنة ٢١٤. وفي ذلك دليل على أن وفاة علي بن جبلة تأخرت على الأقل إلى هذه السنة، وواضح أنه كان يجيد المديح إلى أبعد حد، وكان يعرف كيف يتصرف بمعانيه، مع الألفاظ الرشيقة العذبة، ومن طريف معانيه قوله:

يَأْسُو الَّذِي يَجْرَحُ أَعْدَاؤُهُ وَمَا لِمَا يَجْرَحُهُ آسٍ  
وقوله:

كَأَنَّهُمُ وَالرَّمَاحُ شَابِكَةٌ أُسْدٌ عَلَيْهَا أَظَلَّتِ الْأَجْمُ  
وقوله في مديح أبي دلف:

لَهُ هِمَمٌ لَا مَنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهَمَّتْهُ الصَّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور براعته في صنع الشعر وأنه كان يعمد إلى لغة سهلة عذبة موقنة، ودفعه مزاجه الفارسي الحاد إلى الإكثار من المبالغة في نعت ممدوحه، حتى ليفرط في ذلك إفراطاً شديداً.

### الْخُرَيْمِيُّ

هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهي الخُرَيْمِيُّ، من صُغْدَ التُّرْكِ من مرو، وهو جزري نزل بغداد، وكان له ولاء في غطفان جعله يلزم عثمان بن خُرَيْمِ المُرِّي الغطفاني في ولايته على أرمينية، وظلَّ وُفِيًّا لَهُ، فَنُسِبَ إِلَيْهِ، وَفِيهِ يَقُولُ:

جَزَى اللَّهُ عَثْمَانَ الْخُرَيْمِيُّ خَيْرَ مَا جَزَى صَاحِبًا جَزَلَ الْمَوَاهِبَ مُفْضِلًا

والحيوان للجاحظ وكذلك الطبري ٤٥٨/٦ و٥٢/٧ والكامل للمبرد (طبعة ليبسك) ص ٧٠٣ ومعجم البلدان ٣٦٣/٥ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٠٢.

(١) انظر في الخُرَيْمِيِّ وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٢٩ وتاريخ بغداد ٣٢٦/٦ وزهر الآداب ٢٠١/٤ وفهارس الوزراء والكتاب للجهشياري والبيان والتبيين

كفى جَفْوَةً الإخوان طول حياته وأورث مما كان أعطى وخوَّلاً (١)  
 وفي أخباره ما يدل على أنه كان يكثر من الاختلاف في بغداد إلى مجالس  
 الأدب ، ويظهر أيضاً أنه كان يختلف إلى مجالس المتكلمين إذ يكثر الجاحظ  
 في بيانه من النقل عنه . وقد تألق نجمه في عصر الرشيد والبرامكة ، وفيه يقول ابن  
 المعتز : « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعْطَى الكثير » ، ومن شعره في  
 يحيى البرمكي :

يا راعي السلطان غير مفرطٍ في لينٍ مختبِطٍ وطيبٍ شامٍ (٢)  
 حتى تنخنج ضارباً بجرائه ورستٍ مراسيه بدارٍ سلامٍ (٣)

وأكثر مدائحه في صاحبه عثمان المري وفي محمد بن منصور بن زياد كاتب  
 البرامكة الملقب بفتى العسكر لقيامه على ديوان الجيش ، وفيه يقول :

زاد معروفك عندي عظماً أنه عندك مستورٌ حقيرٌ  
 تناساهُ كأن لم تأتِه وهو عند الناس مشهورٌ خطيرٌ

ويظهر أن صلة وثيقة انعقدت بينه وبين الحسن بن البَحْبَاحِ البَلْخِيّ كاتب  
 الفضل بن يحيى البرمكي ، إذ نراه يكتب له قصيدة بديعة حين ولي مصر للرشيد  
 سنة ١٩٣ يعبر فيها عن شدة شوقه إليه ، ومدى ما كان يتوثق بينهما من مودة  
 وصداقة ، وفيها يقول :

إلى صاحبٍ لا يُخلقُ النَّأْيُ عهده  
 هو الشهدُ سلماً والدُّعافُ عداوةً  
 فيا حسن الحُسنِ الذي عمَّ فضله  
 إليك على بُعدِ المزارِ وصعبه  
 لناءٌ ولا يَشْقَى به من يُصاقِبُه (٤)  
 وبحرٌ على الوُرَادِ تجرى غواربه (٥)  
 وتمتْ أياديه وجمتْ مناقبه (٦)  
 نوازعُ شوقٍ ما تُردُّ عوازيه (٧)

استقر واستقام .

- (٤) يخلق : يبلى . يصاقبه : يجاوره .  
 (٥) غواربه : أعالي موجه .  
 (٦) جمت : كثرت .  
 (٧) عوازيه : جمع عازب وهو البعيد .

(١) خول : أنعم .

- (٢) محتبط : من اختبطه إذا سأله بدون  
 قرابة أو معرفة . شام : دنو وقرب .  
 (٣) تنخنج : من تنخنج البعير إذا برك وجثم  
 على الأرض . الجران : عنقه . وضرب بجوانه :

فهل يرجعن عيشي وعيشك مرةً ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه  
 عسى ولعل الله يجمع بيننا كما لاءمت صدغ الإناء مشاعبه  
 ومن مدحهم المأمون وأبو دلف قائده ، وكان أبو دلف شاعراً بليغاً محكم  
 القول ، ولعل ذلك ما جعله يصف شعره له في بعض مدحيه بقوله :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاء القلوب كَرَكِبٍ وقوفٌ

وهو تصوير دقيق . ولاحظ بعض معاصريه أن مدائحه التي دبَّجها في ممدوحيه  
 أحسن من مرثيهم فيهم وأجود ، وسأله في ذلك ، فقال : كنا يومئذ نعمل على  
 الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد ! ومن بديع رثائه قوله :

وأعددت ذُخْرًا لكل مصيبةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مولعٌ  
 ولو شئت أن أبكى دمًا لبكيتيه عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وله في بغداد حين رماها طاهر بن الحسين بالمجانيق في فتنة الأمين ، فأحرق  
 كثيراً من قصورها ، وهدم بعض أحيائها ، مرثية طويلة امتدت إلى مائة وخمسة  
 وثلاثين بيتاً ، بكأها فيها ، وندبها نَدْبًا حارًّا ، موازناً ماضيها وحاضرها  
 ومصوراً ما كان فيها من مجون وإثم وما صارت إليه أحيائها من هذا الدمار الذي  
 صبه الله عليها جزاء طغيانها وفسوقها ، وفيها يقول :

يا بؤسَ بغدادَ دار مملكةٍ دارت على أهلها دوائرُها  
 أمهلها اللهُ ثم عاقبها لما أحاطتُ بها كباثرها  
 رَقَّ بها الدين واستخفَّ بندي الـ فضِّل وعزَّ النَّسَاكَ فاجرها  
 وصار ربُّ الجيران فاسقهم وابتزَّ أمرَ الدروب شاطرُها

وهو في القصيدة ينتصر للمأمون . ونراه يتعرض بالهجاء إلى أبي دلف العجلى ،  
 ويظهر أنه لم يشبه بما كان يبتغيه منه ، فتحول يهجو به بمثل قوله :

إني وجدت أخي أبادُلف عند الفعّال مولد الشرفِ

ومن تولع بهجائهم على بن الهيثم أحد كتاب الدواوين ، وكان يتقعر في كلامه ، حتى ليؤذى من يجالسونه بكثرة ما يورد عليهم من غريب ، وله يقول :

لَا تَشَادِقْ إِذَا تَكَلَّمْتَ وَعَلِمَ أَنَّ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَشْدَاقًا  
وحدث في أثناء رفقته لعثمان بن خريم في ولايته على أرمينية أن عقد له في بعض حروبه للترك على أشراف ممن معه ، ففكر هو ذلك ، وما زالوا به ، حتى عزله ، وأثاره هذا الحادث ، فنظم قصيدة فخر فيها بأبائه من الصُّغَد ، وفيها يقول :

أَيْبَالُ الصُّغَدِ بَأْسٌ إِذْ تُعَيِّرُنِي جُمْلُ سَفَاهًا وَمِنْ أَخْلَاقِ جَارِقِي الْجَهْلُ  
فَإِنْ تَفْخِرِي يَا جُمْلُ أَوْ تَتَجَمَّلِي فَلَا فَخْرَ إِلَّا فَوْقَهُ الدِّينُ وَالْعَقْلُ  
أَرَى النَّاسَ شَرْعًا فِي الْحَيَاةِ وَلَا يُرَى لِقَبْرِ عَلَى قَبْرِ عِلَاءٍ وَلَا فَضْلُ<sup>(١)</sup>  
وَمَا ضُرَّتْني أَنْ لَمْ تَلِدْنِي يُحَابِرُ وَلَمْ تَشْتَمَلِ جَرْمُ عَلَى وَلَا عُكْلُ<sup>(٢)</sup>

وقد سلكه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين في أصحاب نظرية الشعوبية لخریان هذا الفخر على لسانه ، وهو لا يستمد فيه من شعوبية ، إنما يستمد من نظرية الإسلام التي تسوى بين الناس عرباً وموالى ، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وفي أشعاره ما يدل على حسن تدينه وأنه لم ينغمس فيما انغمس فيه بعض معاصريه من مجون أو زندقة يقول داعياً إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح :

تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعًا لِغَيْرِهَا فَقَدْ شَمَرْتَ حَذَاءً وَأَنْصَرَمَ الْحَبْلُ<sup>(٣)</sup>  
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ لِكُلِّ أَنْاسٍ مِنْ طَوَارِقِهَا التُّكْلُ  
وفي الأغاني بترجمة حماد الراوية خبر يدل على معاشرته للمجان ، ولعله مكذوب ، لتأخر عصره عن عصر حماد ، وقد رويت له أشعار قليلة في الغزل ، وقيل إن أول ما نظمته قوله :

بِقَلْبِي سِقَامٌ لَسْتُ أَحْسَنُ وَصَفَهُ عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ فَهُوَ شَدِيدُ  
تَمَرُّ بِهِ الْأَيَّامُ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا فَتَبِيلِي بِهِ الْأَيَّامُ وَهُوَ جَدِيدُ

(١) شرعاً : متساوين لأفضل لأحدهم على الآخر .  
(٢) يحابر وجرم وعكل : قبائل عربية .  
(٣) حذاء : سريرة الإديبار .

ونرى القدماء يلقبونه تارة بالأعور وتارة بالأعمى ، ويظهر أنه فقد إحدى عينيه مبكراً ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنَّ ، وله أشعار كثيرة ، يبكى فيها عينه وبصره ، أنشدنا منها قطعة في الفصل الرابع ، ومن طريف ما نسوقه له هنا قوله :

إذا ما مات بَعْضُكَ فإبْكِ بعضاً      فإن البعض من بعض قريب  
يُمْنِي الطبيبُ شفاء عَيْني      وهل غيرُ الإله لها طبيبُ  
وقوله :

كفى حزناً أن لا أزورَ أحبتي      من القرب إلا بالتكلف والجهد  
وأني إذا حُييت ناجيتُ قائدي      ليعدلني قبل الإجابة في الردِّ  
وفي أشعاره نزعة واضحة إلى التدقيق في المعاني ، وهو تدقيق أداه إلى الوقوف عند الطباع وتحليلها تسعفه في ذلك ملاحظات نافذة وقدرة على النظرة الكلية في الأشياء ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قوله :

الناس أخلاقهم شتى وإن جُبِلوا      على تشابه أرواح وأجساد  
للخير والشر أهلٌ وكُلوا بهما      كلُّ له من دواعي نفسه هادٍ  
وقوله :

ودون الندى في كلِّ قلبٍ ثنيةٌ      لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومنحدرٌ سهْلٌ  
وودُّ الفتى في كلِّ نَيْلٍ يُنِيلُهُ      إذا ما انقضى لو أن نائِلُهُ جَزْلٌ  
وزناه بصور الكرم تصويراً بديعاً ، إذ يجعله في بَشَرِ المُضَيِّفِ وحسن استقباله لا في طعامه وكثرة ذبائحه ، يقول :

أضاحكُ ضَيْفِي قبل إنزال رَحْلِي      ويُخْصِبُ عندي والمحلُّ جَدِيبُ  
وما الخِصْبُ للأضياف أن يكثر القرى      ولكنما وَجْهُ الكَرِيمِ خِصْبُ  
ومما يجري هذا المجرى من دقة التفكير وطرافته قوله السائر في الآفاق :

ولستُ بنظَّارٍ إلى جانبِ الغني      إذا كانتِ العلياءُ في جانبِ الفقْرِ

وواضح أن اللفظ البارع كان يسند دائماً معانيه وأشعاره ، فلا تجد فيه عوجاً ولا انحرافاً ، بل تجد دائماً المتانة والسهولة ، ويُرْوَى أنه سُئِلَ : ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنته وقبلته طبيعته ؟ قال : لأني أجاذب الكلام إلى أن يساهلني عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه . وقد توفي سنة ٢١٤ للهجرة .

## ٥

## شعراء الهجاء

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبية القبلية خفت حدّته في هذا العصر ، حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة تمثلت في نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد ، كما تمثلت في نقائض دعبيل وأبي سعد الخزومي ، ومرجع ذلك إلى تطور واسع في الحياة ، جعل الفخر الجنسي يحل محل الفخر القبلي ، مما دفع إلى ظهور الشعبية ، وحقاً بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها ، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفي في مثل قوله مفتخراً بقبيلته بكر (١) :

وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنَّا يَعْشُ بِحَسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ

وكان أبو نواس - كما مرّ بنا - يفتخر بمواليه القمطانيين افتخاراً حاداً ، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية ، وطلب بكراً وهرب منه . وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبية وبالتالي خبّست نار النقائض التي كانت مشتعلة في عصر بني أمية . وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأ لهيبه ، بل لقد تعالت نيرانه واضطربت اضطراماً ، إذ ظل الشعراء يسارعون إليه كلما حجبههم وزير أو وال أو قائد أو قصر في عطائهم ، وقد يهجون بعض الخلفاء على نحو ما أسلفنا عند دعبيل . وهو جانب أوسع من أن يستقصى لكثرة ما قيل فيه من أشعار ، ولذلك سنكتفي هنا بالحديث عن تهاجي الشعراء بعضهم مع بعض ، وقد ذكرنا قبلاً تهاجي حماد عجرد وبشار

(١) ابن المعتز ص ٢١٧ وما بعدها والأغاني

(طبعة السامى) ١٥٤/١٧ .

وكانت في حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس ، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان . ولعل شاعراً لم يُهَجَّ في هذا العصر كما هُجِيَ أبان بن عبد الحميد ، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبي نواس ، ومن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذَّل بن غيلان ، وفيه يقول (١) :

صَحَّفْتُ أُمَّكَ إِذْ سَمَّيْتُكَ بِالْمَهْدِ أَبَانَا  
 قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ لَمْ تُرِدْ إِلَّا أَتَانَا  
 صَيَّرْتُ بَاءَ مَكَانِ التَّاءِ عِيَانَا  
 قَطَعَ اللَّهُ وَشَيْكََا مِنْ مَسْمِيكَ اللِّسَانَا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه ، وسلقوه بألسنة حداد ، وفي مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشي ، وكان كثيراً ما يهجو به بأنه ليس عربياً وأنه دعى في ولائه لبني سعد العشيرة القحطانيين ، مما جعله يرد عليه بمثل قوله (٢) .

وجدنا الفضل أبعد من رقاش من الأثنى ادعتُ فيها الفيولُ  
 وجدنا الفضل أكرم من رقاش لأن الفضل مولاة الرسول  
 يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا مولى من لا مولى له » .  
 قد مرَّ بنا تهاجي أبي العتاهية ووالبة ، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسماً حتى فرَّ منه راجعاً إلى الكوفة وحمل ذكره . واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر ، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك في ترجمتنا لأولهما ، وكان سلم يرميه بأنه كاذب في زهده ويرميه أبو العتاهية بشح نفسه وما يجره ذلك عليه من الذل . ومن اصطدم به مروان بن أبي حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجثنى وله يقول (٣) :

غَدَا اللُّؤْمُ يَبْغِي مَطْرَحًا لِرِحَالِهِ فَتَنْقَبُ فِي بَرِّ الْبِلَادِ فِي الْبَحْرِ

(٣) أغاني ١٠/٩٢ وما بعدها .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٢٧ .  
 (٢) ديوان أبي نواس . وأغاني (ساجي) ١٥/٣٤ .

فلما أتى مروانَ خَيْمَ عنده وقال رضيْنَا بالمقام إلى الحَشْرِ  
وليسَتْ لمروانَ على العَرِسِ غَيْرَةً ولكنَّ مرواناً يغار على القِدْرِ  
وكان دعبِلُ كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى  
أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه ، وربما كان أهمُّ شاعر حسده أبا تمام ، حتى  
كان لا يكتبني بهجائه ، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين  
وفيه يقول (١) :

أدعبِلُ إن تطاولتِ الليالي      عليك فإن شعري سمُّ ساعه  
وما وفد المشيبُ عليك إلا      بأخلاق الدناءةِ والوضاعه  
ووجهك إن رضيت به نديماً      فأنت نسيجُ وحدك في الرقاعه  
ولو بُدلتَه وجهاً بوجه      لما صلَّيت يوماً في جماعه  
وكانت صلواتُ أبي تمام في كل بيته ينزل بها سبباً في كثرة من هجوه ، وقد  
صورنا ذلك من بعض الوجوه في حديثنا عنه . ونحن نخص بالحديث هجاءين  
كبيرين هما أبو عَيْسَةَ المهلبي وعبد الصمد بن المعدل .

### أبو عيينة (٢) المهلبي

هو أبو عيينة بن محمد بن أبي عَيْسَةَ ، من سلالة المهلب بن أبي صفرة ،  
مولده ومنتشؤه وحياته في البصرة ، إذ لم يفارقها إلا لماماً ، وكان أبوه يولّي الري لأبي  
جعفر المنصور ، ثم قبض عليه وحبسه وغرّمه . وكان لأبي عيينة أخوان شاعران  
هما عبد الله وداود ، ومن الغريب أنهم جميعاً كانوا هجائين ، أما عبد الله فقصده  
ابن طاهر ومدحه ، ثم هجاه هجاء مرّاً ، وأما داود فتعلق بهجاء آل سليمان بن  
علي والي البصرة ، وقد تولاهما من أبنائه غير واحد ، وفيهم يقول :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم      واستوثقوا من رتاج الباب في الدارِ

ص ٢٨٨ وابن قتيبة ص ٨٤٧ وما بعدها والأغانى  
(طبعة الساسي) ١١/١٨ وما بعدها .

(١) أغانى (طبعة الساسي) ٣٤/١٨ .  
(٢) انظر في أشعار أبي عيينة وأخباره ابن المعتز



لا يَقيِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارهمُ ولا تكفُّ يدٌ عن حُرْمَةِ الجارِ  
 وأبو عيينة أشعر الثلاثة ، ويقول ابن المعتز أنه « أحد المطبوعين الذين لم يرَ في  
 الجاهلية والإسلام أطبع منهم ، وهم بشَّار وأبو العتاهية والسيد الحميري وأبو عيينة » .  
 وقد استغل موهبتة في فنين هما المعجاء والغزل ، وأكثر هجائه في ابن عمه خالد  
 ابن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب إذ صحبه معه في جنده حين توجهَ إلى  
 جرجان والياً عليها للمهدي وكان خالد قد أوسع له في الأمانى وأنه سيفدق عليه  
 ويؤليه بعض الولايات ، ولما نزل جرجان جفاه وتكرَّر له ، فبسط لسانه فيه وذكره  
 بكل قبيح عند أهل عمله ووجوه رعيته . وعبثاً حاول أبو عيينة أن يتخلص منه ومن  
 الجندية ، فشكاه إلى الهادي وكان قد ولي الخلافة بعد أبيه ، فأمر له بصلته وأقفله  
 من جيش خالد ، فعاد وهو يهتف بهجائه ، وأكثر منه كثرة تدل على قوة طبعه  
 وخصبه ، ومن قوله فيه :

لقد خَزَيْتُ قحطان طُراً بخالدٍ فهل لك فيه - يُخزِكَ اللهُ - يا مُضَرَّ  
 دنىء به عن كل خيرٍ بلادةً لكل قبيحٍ عن ذراعيه قد حَسَرَ  
 له منظرٌ يُعْمى العيون سماجةً وإن يُخْتَبَرُ يوماً فيا سوءَ مُخْتَبَرٍ  
 أبوك لنا غَيْثٌ نَعِيشُ بِوَبْلِهِ وأنت جَرادٌ ليس يَبقى ولا يَدْرُ  
 له أَثَرٌ في المكرمات يسرُّنا وأنت تعفَى دائماً ذلك الأَثَرُ  
 تسييءٌ وتمضى في الإساءة دائباً فلا أنت تستحجي ولا أنت تعتذر

ويقال إن الرشيد أنشد البيت الأول ، فقال : بل الخزي موقرٌ على قحطان .  
 وقد عرف كيف يخزه وخز الإبر لا بما صور فيه خزيه الذي عمَّ به عشيرته وأخلاقه  
 السيئة وغباوته ، بل أيضاً بموازنته بينه وبين أبيه جامعاً في البيت الواحد بين المديح  
 والهجاء . وهو يكثر في هجائه من الاستخفاف به والسخرية سخرية شديدة ، مع  
 الإقذاع ومع الغمز واللمز ، ومن طريف ماله فيه قوله :

خالدٌ لولا أبوه كان والكلب سواه  
 لو كما ينقص يزدا دُ إذن نال السماء

وقوله :

وإذا تطاولت الرُّمُو سُ فغَطُّ. رأسك ثم طَاطِةٌ

ويروى أنه (١) قصد ابن عمه ربيعة بن قبيصة بن روح بن حاتم المهلبى واستباحه فلم يجد عنده ما قدره فيه ، فولّى عنه مغاضبا وعرف ذلك داود بن يزيد بن حاتم ابن قبيصة المهلبى ، فترضاه بصلته سنية جعلته يمدحه مدحا رائعا هاجيا فى تضاعيفه قبيصة هجاء كله سموم من مثل قوله :

داوُدُ محمودٌ وَأَنْتَ مُدَمَّمٌ عَجَبًا لِدَاكِ وَأَنْتَا مِنْ عَوْدِ  
وَلرُبَّ عَوْدٍ قَدْ يُشَقُّ ، لِمَسْجِدِ نَصْفٌ ، وَسَائِرُهُ لِحُشِّ يَهُودِ  
فَالْحُشُّ أَنْتَ لَهُ وَذَاكَ لِمَسْجِدِ كَمْ بَيْنَ مَوْضِعِ مَسْلَحِ وَسُجُودِ  
دَاوُدِ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُغْلَقٍ بِنَدَى يَدَيْهِ وَأَنْتَ قُفْلُ حَدِيدِ

وكأنما كان موكلا بهجاء أبناء أعمامه ، وأيضا بناتهم ، فقد روى صاحب الأغاني أن ابن عمه سعيد بن المهلب تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا عنها ، فكتب أبو عيينة إليه ، يعنّفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها ، يقول :

رَأَيْتَ أَثَانَهَا فَطَمَعْتَ فِيهِ وَكَمْ نَصَبْتَ لغيرِكَ مِنْ أَثَانِ  
فَصَبِيرٌ أَمْرًا بِيَدَيْ أَبِيهَا وَسَرْحٌ مِنْ حِبَالِكَ بِالثَّلَاثِ (٢)  
وإِلا فَالسلامُ عَلَيْكَ مِنْى سَأَبْدُ مِنْ غَدٍ لَكَ بِالْمِرَاثِ

وكانت فاطمة بنت عمه عمر بن حفص المهلبى قد شغفته حباً ، وتصادف أن اقترنت بعبسى بن سليمان بن على العباسى ، فكاد يُجَنُّ جنونه ويطيّر صوابه ، وظل يدور حولها وينظم فيها أشعاره ، غير أنه كان يخشى زوجها وآله ، فعمد إلى التكنية عنها بمولاة لها تسمى دنيا ، وفى ذلك يقول :

وَكَتَمْتُ اسْمَهَا حِذَارًا مِنَ النَّاسِ وَمِنْ شَرِّهِمْ وَفَى النَّاسِ شَرٌّ

(١) أخيه أبى عيينة ، مما يدل على أنه صاحب الخبر .  
(٢) سرح : طلق .

(١) نسب أبو الفرج الخبر إلى عبد الله ،  
ولكن ابن المعتز نسب الشعر المصاحب له إلى

ويقولون بَحُّ لَنَا بِاسْمِ دُنْيَا      واسمُ دُنْيَا سِرٌّ عَلَى النَّاسِ ذُخْرٌ  
وهو يكثرُ في أشعاره لها من تصوير ذكرياته معها ، وزياراته ، التي كانت  
متصلة لها قبل زواجها وكيف كانت تبادلُهُ ودًّا بُودَ وَجِبًّا بِحَبِّ ، وكيف كانا  
يُجْتَمِعَانِ فِي قَصْرِهَا الْفَخْمِ وَمَا حَوْلَهُ مِنْ رِيَاضِ رَائِعَةٍ ، وكيف كانا يلعبان ويعيشان  
منذ صغرهما ، يقول :

وَمَلَّعْنَا فِي النَّهْرِ وَالْمَاءِ زَاخِرٌ      قرنين كالغصنين فرعين في أَصْلٍ  
وَمِنْ حَوْلِنَا الرِّيحَانُ غَضًّا وَفَوْقِنَا      ظلالٌ مِنَ الْكَرْمِ الْمَعْرَشِ وَالنَّخْلِ  
إِذَا شِئْتَ مَالَتْ بِي إِلَيْهَا كَأَنِّي      إِلَى غُضْنِ بَانٍ بَيْنِ دِعْصَيْنِ مِنْ رَمَلٍ<sup>(١)</sup>  
فِيَا طِيبَ طَعْمِ الْعَيْشِ إِذْ هِيَ جَارَةٌ      وَإِذْ نَفْسَهَا نَفْسِي وَإِذْ أَهْلَهَا أَهْلِي  
وَإِذْ هِيَ لَا تَعْتَلُّ عَنِّي بِرِقْبَةٍ      وَلَا خَوْفَ عَيْنٍ مِنْ وَشَاةٍ وَلَا بَعْلٍ  
فَقَدْ عَفَّتِ الْآثَارَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا      وَقَدْ أَوْحَشْتُ مَنِي إِلَى دَارِهَا سُبُلِي  
وكانت سيدة فاضلة ، فكانت لا ترد عليه رسائله وكانت تنتهر رسله ، بينما  
هو يصطلي بنار الحب المحرقة ويتعذب كما لم يتعذب أحد ، ملوحاً لها بأنه سيموت  
في سبيلها وأن أحداً لن يحزن عليه حزنها لجامعة القرابة والحب القديم ، يقول :

وَلَأَنْتِ إِنْ مِتُّ الْمِصَابَةُ بِي      فَتَجَنَّبِي قَتْلِي بِلَا وَتْرِ  
فَلَنْ هَلَكْتُ لِتَلَطُّمِنِ جَزَعًا      خَدَّيْكَ قَائِمَةً عَلَى قَبْرِ  
وعلى هذا النحو ظل حبها قوياً حاراً في قلبه ، وظلت ترده عنها في عنف تارة  
وفى رفق تارة ثانية ، وهو يذكرها عهدهما القديمة وكيف أنه يبني لها وفاء شديداً ،  
بينما هي تدافعه وتقاومه قاطعة لكل عهد وسبب بينها وبينه ، وهو كل يوم يزداد  
بها كلفاً وغراماً وحباً ما فوقه حب ، وفي ذلك يقول :

أَرَى عَهْدَهَا كَالْوَرْدِ لَيْسَ بِدَائِمٍ      وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَدُومُ لَهُ عَهْدٌ  
وَعَهْدِي لَهَا كَالْآسِ حُسْنًا وَبَهْجَةً      لَهُ نُضْرَةٌ تَبْقَى إِذَا مَا انْقَضَى الْوَرْدُ

وما وَجَدَ العُذْرِيَّ إِذْ طَالَ وَجْدُهُ      بعفراءَ حَتَّى سَلَّ مَهجته الِوَجْدُ  
كوجدى غداة البين عند التفاتها      وقدشفَّ عنها دون أترابها البُرْدُ  
فقلت لأصحابي هي الشمسُ ضوءها      قريبٌ ولكنْ في تناولها بُعْدُ  
وفي أشعاره ما يدل على أنه فارق البصرة مع ابن عمه خالد بن يزيد طلباً للسلوى  
عنها ، ولكنه ظل هناك يذكرها ويذكر حبها متغنياً به وبها ، وعاد يدور حول  
بيتها لا يستطيع كظم حبه ، بل يعلنه إعلاناً ويكرر هذا الإعلان مازجاً له  
بكثير من التضرع والاستعطاف ، وصاحبته لا تُعنى به ولا تكترث ، وهو يزداد بها  
شغفاً وهيأماً ناظماً فيها أشعاره البديعة من مثل قوله :

صِيَعَتِ عهد فتى لعهديك حافظٍ .      في حفظه عجبٌ وفي تضييعك  
ونأيبت عنه فماله من حيلةٍ      إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعك  
متخشعاً يُذرى عليكِ دموعه      أسفاً ويعجب من جمود دموعك  
إن تفتنيه وتذهبي بفؤاده      فبحسن وجهك لا بحسن صنيعك  
وأكبر الظن أنه ظل يذكرها ويتغنى بها حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ،  
وقد جرته غيرته من زوجها إلى لزمه ببعض هجائه . وكانت له نظرات وتأملات  
دقيقة في الحياة جعلت الحكمة تجرى أحياناً على لسانه ، ومن رائع ما يروى له  
في تصوير القدر والحظوظ :

مالا يكون فلا يكون بحيلةٍ      أبداً وما هو كائنٌ فيكونُ  
سيكون ما هو كائنٌ في وقته      وأخو الجهالة مُتعبٌ محزونُ  
يسعى القويُّ فلا ينال بسعيه      حظاً ويعظى عاجزٌ ومهينُ

وواضح من كل ما قدمنا أنه كان نبعاً غزيراً من ينابيع الشعر العباسي ،  
ويقول ابن المعتز إن « شعره أتق من الراحة ، ليس فيه عيب ولا بيت يسقط » .  
ويقول أبو الفرج : « كان أبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً . . وكان  
يقرب البعيد ويحذف الفضول ويُقلّ التكلف » . وفي حديث ابن المعتز عنه  
ما يدل على أنه لحق خلافة المأمون وبظهر أنها لم تظله طويلاً .

عبد الصمد<sup>(١)</sup> بن المعدل

من قبيلة عبد القيس ، ومولده ومنشؤه بالبصرة ، وهو من بيت شعر ، كان جده غيلان بن الحكم شاعراً ، ويروى أن محمد بن سليمان العباسي كان يستخدمه في ولايته البصرة على بعض أعشارها ، فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانته فيه ، فقال حماد عَجْرَد يهجو بهذين البيتين اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع :

ظَهَرَ الْأَمِيرُ عَلَيْكَ يَا غَيْلَانُ إِذْ خُنْتَهُ إِنْ الْأَمِيرُ مُعَانُ  
أَمْعَ الدَّمَامَةِ قَدْ جَمَعْتَ خِيَانَةً قَبْحَ الدَّمِيمِ الْفَاجِرُ الْخَوَّانُ

وكان ابنه المعدل شاعراً مجيداً ، وقد أسلفنا ما نشب بينه وبين أبان بن عبد الحميد من هجاء كانا يتعابثان به ، ومن طريف ما يُنسب إليه من شعر قوله :

وَإِنِّي لَصَبَّارٌ عَلَى مَا يَنْوِبُنِي وَحَسْبِكَ أَنْ اللَّهُ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ

وأم عبد الصمد أم ولد يقال لها الزرقاء ، وكان له أخ يسمى أحمد كان شاعراً أيضاً ، يقول أبو الفرج : « كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم في المعتزلة » . وفي أشعار عبد الصمد ما يدل على أنه كان يختلف إلى حلقات الرواة واللغويين إذ يقول :

لَنْ تَلْبَسُوا مَنْطِقَ بِمَشْكَلَةٍ إِلَّا عَنِ الْأَصْمَعِيِّ أَوْ خَلْفِ<sup>(٢)</sup>

يريد خلفاً الأحمر . وكان على عكس أخيه أحمد فيه لهُو ومجون وتعابث ، وكان هجاءً خبيث اللسان حتى ليصبح المهجاء عنده كأنه غريزة ، فإذا هو يتناول به أخاه ، وكان له جاه واسع في بلده وعند حكامه لا يقاربه عبد الصمد

الوفيات والأوراق للصولي (قسم أخبار الشعراء)  
ص ٣٩٠، ٥٣٠، ١٣٦، والوساطة بين المتنبي وخصومه  
(طبعة الحلبي) ص ١٢١ و ٢٩١ و ٣٠١ .  
(٢) لبس الأمر : خلطه .

(١) انظر في عبد الصمد وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٣٦٨ والأغاني (طبعة دار الكتب)  
٢٢٦/١٣ وما بعدها و ٣٦١/١٤ وما بعدها  
وكتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٠ وقوات

فيه فكان يحسده ويهجوّه فيحلم عنه ، وحدث أن قدم على بعض الخلفاء فأكرمه وخلع عليه ووصله بمال كثير ، ورجع إلى البصرة ، فاستقبله جلّلتها استقبالا حافلا ، أما عبد الصمد فاستقبله بقوله :

ولما أن أتنه دُرَيْهَمَاتٌ من السلطان باع بهنَّ ربّة  
كسبتَ أبا الفضولِ لنا مَعَاباً وعاراً قد شُملتَ بهِ وَسْبَةٌ

وفكر أحمد في أن يجاور في الثغور ويجاهد في جيش إسحق بن إبراهيم المصعبى صاحب بغداد وحاكمها ولم يكده ليقاه حتى أنشده شعراً مدحه به ، فأمر له بخمسمائة دينار . وبدا لأحمد أن يعود إلى البصرة ، فتلّقه عبد الصمد بقوله :

يُرِي الغُزَاةَ بَأَن الله هِمَّتُهُ وإنما كان يغزو كَيْسَ إِسْحَاقِ  
فباع زهداً ثواباً لا نفاذله وابتاع عاجلَ رِفْدِ القومِ بالباقي<sup>(١)</sup>

وكان لا يخفُّ على نفسه أحد أبناء أخيه ، ويقال إنه كان فيه تيه وعجب ، فتولاه كما تولى أباه بأهـاج كثيرة من مثل قوله :

يا أَبغضَ النَّاسِ في عُسْرٍ وميسرةٍ وأقذرَ النَّاسِ في دُنْيَا وفي دين  
لو شاءَ رَبِّي لأضحى واهباً لأخِي بمُرٍّ تُكَلِّكُ أجراً غيرَ مَمْنُونِ  
إن القلوبَ لتطوى منك يابنِ أخِي إذا رَأَتْكَ على مثلِ السَّكَاكِينِ

وطبيعي وهذا شأنه في أهله أن يعظم شره على من حوله من الشعراء ، وأن يقود معهم معارك هجاء كثيرة ، وهى معارك كثرت فيها السهام المسمومة ، على نحو ما نجد في أهـاجى خمدان بن أبان له ، إذ قذف أمه الزرقاء طويلا ، وكان كثيراً ما يأتي هو نفسه الشعراء من هذه الجهة لا يتورع ، من مثل قوله في أبى رهم :

لو جاد بلمال أبو رهم كجوده بالأخت والأم  
أضحى وما يُعرَفُ مثْلُ له وقيل أسخى العُربِ والعُجمِ  
واشتبك مع الجَمَّازِ ابنِ أختِ سلمِ الخاسرِ ، وكان لا يقلّ عنه خبثاً في

هجائه ولا شراً ، وكان مما صَبَّهَ الجَمَازَ على رأسه قوله :

ابنُ المَعْدَلِ مَنْ هُوَ      ومن أبوه المَعْدَلُ  
سَأَلْتُ وَهْبَانَ عَنْهُ      فقال : بَيِّضٌ مَحْوَلٌ (١)

وكان وهبان رجلاً يبيع الحمام ، فجمع طائفة من أصحابه وجيرانه وجعل يَغْتَشَى المجالس ويحلف أنه ما قال : عبد الصمد بيض محول ويسألهم أن يعتذروا إليه ، فلم يبق خاصٌ ولا عام إلا رواها ، وردَّ عليه عبد الصمد قائلاً :

نَسَبُ الجَمَازِ مَقْصُورٌ      رُ      إِلَيْهِ مِنْهَا  
ليس يدري من أبو الجَمَّةِ      از      إِلَّا مَنْ يَسْرَاهُ

غير أن شعره فيه لم يشع على الألسنة ، لأن فهمه يحتاج إلى شيء من الفطنة .  
ووقع بينه وبين يزيد بن محمد المهلبى الشاعر تباعد ، فهجاه يزيد ونسبه إلى الشوم ،  
فقال له الصاع صاعين ، ونراه يتعرض لأبى تمام حين اجتمع به فى مجلس مزرباً  
على تكسبه بشعره ، قائلاً له :

أنت بين اثنتين تَبَرَّزُ لِلنَّا      س وكلتاها بوجهٍ مُذَالٍ (٢)  
لست تنفكُ طالباً لوصولِ      من حبيبٍ أو طالباً لِنَوَالِ  
أى ماءٍ لحرٍّ وجهك يبقِ      بين ذلِّ الهوى وذلِّ السُّؤالِ  
وفكر أبو تمام فى إفحامه ، ثم أنشد :

أفَى تَنْظُمُ قولِ الزُّورِ      والفَنَدِ      وَأَنْتَ أَنْزَرُ مِنْ لاشيءٍ فى العَدَدِ (٣)  
أشْرَجْتَ قلبك من بُغْضِ على حُرْقِ      كأنها حركاتُ الروحِ فى الجَسَدِ (٤)

وكان لا يزال يصبُّ سياط هجائه على جيرانه ومن يختلط بهم من القيان  
اللائى يُعَرِّضُنَّ عنه وأصحابهم من المقينين ، وله مرثية كلها هجوفى أحد الطفيليين  
وقد صور فيها نهمه وموته من هذا النهم ، استهلها بقوله :

(٣) الفند : الكذب .  
(٤) أشرجت هنا : نسجت .

(١) محول : حضنه غير أبويه .  
(٢) مذال : مهان .

أحزانُ نفسى عليه غير مُنصَرِمةٌ وأدمعى من جفونى الدهر مُنْسَجِمةٌ  
وله أشعار مختلفة فى الغلمان وقصيدة بديعة يصور فيها عشق جارية مغنية  
لشاب كان كاتباً عند مولاها ابن الجوهرى وكان شيخاً هيماً قبيح الوجه ، وكيف  
أنها هربت إليه فى جنح الليل ، وفيها يقول :

خرجتُ والليلُ معتكراً لم يَهْلها آيةٌ سلكتُ  
وعيونُ الناسِ قد هجعتُ ودُجى الظلماءِ قد حلكتُ  
لم تخفُ وجداً بعاشقها حرمةَ الشهرِ الذى انتهكتُ  
ورأتُ لما شفتُ كمداً أنها فى دينها نسكتُ

وكان يحسن تصوير ما يصفه ، وهو إحسان جعله يبرع فى تصوير الطبيعة ،  
ويظهر أنه كان يشغف بمناظرها شغفاً شديداً على نحو ما نرى فى تصويره لبستانه ،  
وكان بستاناً غاصاً بالأشجار والرياحين وفيه يقول :

إذا لم يَزُرْنى نَدْمَانِيَّةٌ خلوتُ فنادمتُ بُسْتَانِيَّةٌ  
فنادمته خضراً مُونِقاً يُهيجُ لى ذكرَ أشجَانِيَّةٌ  
يقربُ لى فرحةَ المُستَلِدِّ ويبعدُ همى وأخزَانِيَّةٌ  
أرى فيه مثلَ مدارى الطُّبَاءِ تظلُّ لأطلانها حَانِيَّةٌ (١)  
ونورَ أفاحِ شتيتِ النباتِ كما ابتسمتُ عَجَباً غَانِيَّةٌ  
ونرجسُهُ مثلُ عينِ الفتاةِ إلى وَجدِ عاشقها رَانِيَّةٌ

وقد مرت بنا فى حديثنا عن ازدهار الشعر قطعة طويلة من قصيدته الرائعة فى  
تصوير حمى أصابته تصويراً يدل على دقته فى الوصف وإحاطته بتفاصيل ما يصفه .  
وبما لا شك فيه أنه كان شاعراً بارعاً خصب القريحة ، وأنه كان يحرص على الألفاظ  
المألوفة ، ولكن مع المتانة والرصانة ، وكانت وفاته سنة ٢٤٠ للهجرة .

(١) المدارى : القرون . الأطلاء : جمع طلا

وهو ولد الظبية ساعة يولد . والاستمارة واضحة .



## الفصل السابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

كثّر الغزل في هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليتمكن أن يقال إن جميع الشعراء عُنُوا بالنظم فيه ، وهي عناية أعدته لكي يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفاضل الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الحصبة الحديدية وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة . وقد مضوا يتسعون بكل صورة القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة ، فقد استبقوا هذا الوصف ، وحاولوا أن يبتثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضري المرهف ، على نحو ما مرّ بنا في الفصل الرابع .

وقد مضى الغزل يجري في نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بني أمية ، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان وروميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويُسَعْن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقى ، مستبدات بمكان الحرائر القديم من الشعراء . ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق . وشتان بين الغزل الصريح في هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبي نواس وأضرابهما وبينه في العصر الأموى عند عمر بن أبي ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس وبيشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خرجوا يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون في غزلهم عن غرائزهم

النوعية في غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثير من منهم - باستثناء بشار - ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالغللمان ، وهو بصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعون ولا يستحون .

وكان يجري بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بني أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادي الحجاز وحتى تجرى أسراب منه في مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشمي الملقب بالقَسَّ لنسكه وفي المدينة عند أمثال عروة بن أذينة . ومن أعلامه في البوادي قيس بن ذريح وجميل بن معمر العُدري ، حيث نجد الحب النقي الطاهر الذي يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه ، حتى ليصبح ضرباً من الضيم القوي الحاد الذي يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته في شعر عذب لا يخدش حياء ، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذي لا ينتهي . وطبيعي أن يضعف هذا التيار في العصر العباسي الأول الذي قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بعنَّ وضرب بينهم وبينهن حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب في قلوبهم قوياً حاداً ، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفي الذي أحب جارية تسمى « منهلة » منذ صغرها ، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين ، فطار لبه ، وبكاها بكاء حاراً بمثل قوله (١) :

صاحوا الرحيلُ وحنَّيْ صَحْبِي      قالوا الرواح فطيرُوا لُبِّي  
لا صَبْرَ لِي عند الفِرَاقِ على      فَقَدَ الحبيبِ ولوعِ الحَبِّ

ويقول أبو الفرج : « له حديث طويل معها في كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لها ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار ، وأمرها متعاً لَمَّ عند العامة » وفيها يقول (٢) :

يا نُصَبَ عينيَ لا أرى      حيث التفتُ سواكِ شياً

إِنِّي لَمَيْتٌ إِنْ صَدَدْتُ وَإِنْ وَصَلْتُ رَجَعْتُ حَيًّا

وعلى شاكلته محمد بن أمية ، وكان يهوى جارية تسمى خِدَاعَ رآها تغنى ببعض دور النخاسة ، فشُغِفَ بها شغفًا شديدًا واتصلت زيارته لها ، وبادلته حبًّا بحب ، ولقيته ، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها ، وكثيراً ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره . وهو يقول لها دائماً إني أحبك إني أنتظرك ، من مثل قوله (١) :

رُبَّ وَعْدٍ مِنْكَ لَا أَنْسَاهُ لِي أَوْجِبَ الشُّكْرَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلِي

أَقْطَعُ الدَّهْرَ بظَنِّ حَسَنِ وَأَجْلِي غَمْرَةً مَا تَنْجَلِي

كَلِمَا أَمَلْتُ يَوْمًا صَالِحًا عَرَضَ الْمَكْرُوهُ لِي فِي أَمَلِي

وَأَرَى الْآيَامَ لَا تُدْنِي الَّذِي أُرْتَجِي مِنْكَ وَتُدْنِي أَجْلِي

وبينا هو يمني نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدي ، فحُجِبَتْ عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلة . واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل شيء من أمره ، ففضى يتغنى بها طويلاً ، وكان خُلاًّنه يلومونه ويقولون له : إنَّها تبخل عليك بودّها ، فدَعَّهَا إلى غيرها ، فينشدهم مثل قوله (٢) :

أَنَّ حُجِبَتْ عَنِّي أَجُودَ لغيرها بُوْدِي وَهَلْ يُغْرَى الْمَحَبَّ سِوَى الْبُخْلِ

أَسْرُ بَأَنَّ قَالُوا تَضِنُّ بُوْدَهَا عَلَيْكَ وَمَنْ ذَا سُرَّ بِالْبُخْلِ مِنْ قَبْلِي

ويونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له في عصر بني أمية الذي نقرؤه عند قيس بن ذريح وأضرابه ، فإن غزلم يصور حبًّا جامعًا ، وكأن في صدورهم شواظ نار ، فهم يألمون كما لم يألم أحد ، ألماً تعجز النفوس العادية عن احتمالها ، ألماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذي لا يترك لهم رويّة ولا أناة ، إنما يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك نقول : إن الغزل العذري في العصر العباسي الأول قد أخذ يضيق مجراه ، لأنه لا يبلغ من التأثير في النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموي ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن ، فإذا هو يجري فيه التكلف ولا يكاد يؤثر في العاطفة والشعور إلا قليلاً .

على أنه من الخطأ أن نضع حدًّا فاصلاً في هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل

الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يَحْتشِمون ولا يتوقَّرون ، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرِّح تجعلهم يقترَبون أحيانا من أصحاب الحب العفيف ، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيرا من الغزل الآثم ، وستجد بجانبه غزلا ، فيه أوعه ، وفيه ألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبه عَبَّدة ، ومثله أبو نواس فى أشعاره لحنان جارية الثقفين ، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب ، والحب يرضيه ويرِّح به ، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقا يفضى إلى كثير من السعة والجمال ، وهو هذه القطعة التى أنشدتها صاحب الأغاني لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز ، وكان خليعاً ماجناً فى أول أمره ، وفيها يقول لصاحبه له (١) :

أحبُّكِ حُبِّينِ : لى واحدٌ      وآخرُ أنْلكِ أهلُ لذكِ  
فأما الذى هو حبُّ الطَّبَّاعِ      فشئى خُصِصْتِ به عن سواكِ  
وأما الذى هو حبُّ الجمالِ      فلستُ أرى ذاك حتى أراكِ  
ولستُ أَمُّ هذا عليكِ      لك المَنُّ فى ذا وهذا وذاك

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلاً على هذه القطعة ، فأصبحت أمماً للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد . وفى الأغاني حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه ، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم .

ومررنا فى الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دقائق المعانى فى غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعانى وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب ، بل يصور أيضاً حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عن أعلامهم فى الفصل الخامس . وظاهرة ثالثة هى كثرة العبارات اللينة

فى غزلم ، وهى شىء طبيعى مردة إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلم إلى الجوارى المغنيات ، ولم يكن متبديات إنما كن متحضرات ، فكانوا يختارون لمن اللفظ السهل البسيط الذى يلمس القلوب لمساً بدون أى حجاب . وظاهرة رابعة هى شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة فى هذا الغزل ، وقد أوضحنا فى كتاباتنا عن عصر بنى أمية نشوء هذه الظاهرة فى شعر الغزل الأموى بسبب معانقته لنظرية الغناء التى استحدثها الموالى الأجانب ، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملاءمة الدقيقة بين غزلم وأصوات الغناء ، ووضعها بحيث يؤدى ما يريدونه من مد أصواتهم بالألحان والهمس بها ، وهى غاية أحدثت فى الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات ، وما زالت هذه الصور تتسع حتى استكشف الوليد بن يزيد وزن المبحث .

وقد بسطنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » كيف أن هذه الظاهرة نمت فى غزل العباسيين بنمو الغناء ، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة ، هى أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك . وفى الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك . وينبغى أن ننبه هنا إلى أن الغزل هو الذى دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير فى الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفى القوافى .

وظاهرة خامسة تقرن بالجوارى اللاتى كان ينظم فيهن الشعراء ، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسن صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يراسلونهن ، وكانوا أحياناً يفضون إليهن ويتطارحون معهن شعر الغزل . ومن أشهرهن فى هذا الباب عربى جارية المأمون ومتم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه « طبقات الشعراء » فصلاً لطائفة منهن ، على رأسهن عنان جارية الناطفى ، ويقول ابن الجراح : « كانت تجلس للشعراء ويجتمعون إليها ، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغربية والمعانى النادرة فتجيبه بديها<sup>(١)</sup> » ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس ، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاه قد ضربها وهى تبكى فقال :

(١) كتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٩ .

بكتُ عنانٌ فجرى دَمْعُها كالدَّرِّ قد تُوبع في خيطهِ  
فقالَت ، والعبرة في حَمَلَتِها :

فليت من يضرها ظالماً تجفُّ يمناه على سَوَطِهِ  
ويروى ابن الجراح أن شخصاً وجد بيتاً في كتاب ، أعجبه ، فطلب من يجزئه  
وعزَّ عليه الطلب ، فلجأ إليها ، وأنشدها البيت :

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعته تنفَّس من أحشائه أو تكلمها  
فما لبثت أن قالت :

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما  
وقد أشاع هؤلاء الجوارى الشواعر كثيراً من الظرف والرقعة في الغزل العباسي ،  
إذ كن يعجبن باللمحة الدالة والخطاطرة الدقيقة . وغيرهن من الجوارى كن يشاركنهم  
في تذوق الشعر ، وكن يكتبن ما يستحسن منه على عصائبهن ومرآجهن كما مرَّ بنا  
في الفصل الثاني . وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل في هذا العصر ازدهاراً واسعاً ،  
ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه ؛ أحدهما من أصحاب الغزل العفيف ، وثانيهما  
من أصحاب الغزل الصريح ، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤذى النفوس  
المهذبة ، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرقي .

### العباس بن الأحنف (١)

عربي من بني حنيفة ، كان أباه ينزلون في خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ولع  
منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد ، ويظهر  
أنه نشأ في نعمة وثراء ، جماله ينصرف عن شعر المديح الذي كان يجذب إليه عامة  
الشعراء طلباً للنوال والعطاء . وقد أخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء من

١٢٧/١٢ وشذرات الذهب ٢٣٤/١ ووفيات  
الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدياء ٤٠/١٢  
وقد نشرت ديوانه وحققته عائكة الخرجي وطبعته  
بمطبعة دار الكتب المصرية .

(١) انظر في العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز  
ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغانى ( طبعة  
دار الكتب ) ٣٥٢/٨ و ٣٤٣/١٦ و ٣٤٥ -  
( وطبعة السامى ) ١٣٥/١٥ وتاريخ بغداد

أمثال أبي نواس وغير أبي نواس ، ولكن دون أن يتردّي في خلاعتهم ومجونهم . وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم ، وفي ذلك يقول ابن المعتز : « كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه ، وكان جواداً لا يُلتيق درهما ولا يجبس ما يملك » . وفي أشعاره وصف للكرة والصوبلحان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة . ويقولون إنه كان فيه ظرف . وكأنه كان مثال العربي البغدادي المهذب في عصره الذي أخذ بأسباب الترف والنعم أخذاً كان له أثره في ذوقه المصنعي المهذب وشعوره الرقيق المرهف . وقد مضى ينفق حياته في التغيى بعواطفه ووجهه ، وفي ذلك يقول أبو الفرج : « كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولعانيه عدوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني ، وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب في وصفه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، وقال : كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلعاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد الترف ، وذلك بَيِّنٌ في شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولاً غَزَرَ لاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً » . وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه ، حتى أصبح من ندمائه ، وحتى صحبه في غزواته بأرمينية وأذربيجان ، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدلت عليه أمره بصنّع أبيات يغنى فيها إبراهيم الموصلي ، فتعود صاحبته إليه ، ويتصل بينهما ما انقطع ، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم ، وتوقع أن تبدأه بالترضى ، فلم تفعل حتى أقفلته وأرقته ، وصار بأمر عيش ، وعرف ذلك جعفر البرمكي ، وقيل الفضل بن الربيع ، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول في ذلك شيئاً ، فلم يلبث أن قال :

العاشقان كلاهما متجنبٌ وكلاهما مُتَعَتَّبٌ متغضِبٌ

صدت مغاضبةً وصدت مغاضباً وكلاهما مما يعالج مُتَعَبٌ

راجعَ أَحَبَّتِكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ      إِنَّ الْمُتَيْمِّمَ قَلِمًا يَتَجَنَّبُ  
إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا      دَبَّ السُّلُوكُ فَغَزَّ الْمَطْلَبُ

وألقاها إلى إبراهيم الموصلي فغنتى بها الرشيد ، فلما سمعها بادر إلى ماردة ففرضها . ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفا .

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز ، ف وقعت في قلبه ، وأخذ يكثر من زيارته ، وهو إنما يريد لها ، وعرفت حبه ، فكانت تصدّ عنه ، وهو يزداد حباً وشكوى من أنها لا تقبل عليه ، وأكثر من تصوير إغراضها عنه بمثل قوله :

قالتْ ظلومٌ سميّةُ الظُّلمِ      مالى رأيتك ناحلَ الجِسْمِ  
يا مَنْ رَمَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ      أَنْتَ الْعَلِيمُ بِمَوْضِعِ السَّهْمِ<sup>(١)</sup>

وأخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصوراً سهاده وما دلغته من نيران العشق في قلبه ، وغدا مستهماً بها يحبها كل الحب ويفتتنُ بها كل الفتون ، حتى لكأنها غدت ليلي وغدا الحنون ، فهو دائماً يصف صبايته بها ووجده وجداً لم يجده أحد ، وجداً يتعمقه حتى ليصطلي بناره المحرقة ، وقد مضى بصور ذلك لا في قصيدة أو قصائد معدودة وإنما في ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غذاءً روحياً ممتعا ، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى ، بما يصف من حب لا يخمد أواره ، من مثل قوله :

الحبُّ أول ما يكون لِحاجة      تأتي به وتسوقه الأقدارُ  
حتى إذا سلك الفتى لِحَجِّ الهوى      جاءتْ أمورٌ لا تُطاق كِبيارُ  
نَزَفَ البكاء دموعَ عَيْنِكَ فاستعِرْ      عيناً لغيرك دمعها مدرارُ  
من ذا يُعيرك عَيْنُهُ تبكى بها      أرايتَ عيناً للبكاء تُعارُ

(١) أقصده : أصابه .



وقوله :

أخْرَمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشَقُوا  
صَرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تَضْيِئُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات ، وربما زارته زورة قصيرة ومضت ،  
مخلفة وراءها حسرته وآلامه وعذابه ، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلاً أو قصيراً  
أو أن تزور عنه في بعض زيارته لها ، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء  
بمثل قوله :

أَبْكَى الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتِهِمْ حَتَّى إِذَا أَيَقْظُونِي لِلْهَوَى رَقَدُوا  
جَارُوا عَلَيَّ وَلَمْ يَوْفُوا بَعْدَهُمْ قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُمْ يَوْفُونَ إِنْ عَهَدُوا  
لَا أُخْرِجَنَّ مِنَ الدُّنْيَا وَحُبِّكُمْ بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ

وقوله :

لَمَّا رَأَيْتَ اللَّيْلَ سَدَّ طَرِيقَهُ عَنِّي وَعَذَّبَنِي الظَّالِمُ الرَّأَكِدُ  
وَالنَّجْمُ فِي كِبَدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ أَعْمَى تَحِيرٌ مَالِدِيهِ قَائِدُ  
نَادَيْتُ مَنْ طَرَدَ الرِّقَادَ بِصَدِّهِ مِمَّا أُعَالَجُ وَهُوَ خِلْوٌ هَاجِدُ  
أَلْقَيْتَ بَيْنَ جَفُونِ عَيْنِي حَرْقَةً فَايَ مَتَى أَنَا سَاهِرٌ يَا رَاقِدُ

وفي قصيدة هذه المقطوعة يقول :

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَارِقٌ لِلوَلَدِ الصَّغِيرِ الْوَالِدُ

وخرجت من مملك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسي وحج  
بها ، فضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه في أشعار كثيرة من مثل  
قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها :

أَزِينِ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ أَجِيبِي دَعَاءَ مَشُوقٍ بِالْعِرَاقِ غَرِيبِ  
كَتَبْتُ كِتَابِي مَا أَقِيمُ حُرُوفَهُ لَشِدَّةِ إِعْوَالِي وَطُولِ نَحْيِي

أخطُ وأمحو ما أخطُ بعبرةٍ      تسحُّ على القِرطاسِ سَحَّ ذُنُوبٍ (١)  
 أيا فوزُ لو أبصرتني ما عرفتني      لطولِ نحولِ بعدكم وشحوبِ  
 وأنتِ من الدنيا نصيبِي فإنِ أمت      فليتكَ من حُورِ الجنانِ نصيبِي  
 أرى البينَ يشكوه المحبون كلهم      فياربُّ قَرَبُ دارِ كلِّ حبيبِ  
 وعادت ، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد ، وقد ظل يهتف باسمها وحبها  
 حتى وافته منيته سنة مائة واثنين وتسعين . ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض  
 الرياض ، وقد اعتراه ضعف شديد ، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه ، وهو  
 لا يكاد يرفعه ضعفاً ، وأنشأ يقول :

ياسقيمَ الجسمِ من مِحْنِهِ      مُفْرَدًا يبكي على شَجْنِهِ  
 كلما جَدَّ البكاءُ به      دَبَّتِ الأَسقامُ في بدنه  
 ثم أغمى عليه ، وأقبل طائر فوق على الشجرة ، وجعل يغرد ، فسمع  
 تغريده ، وفتح عينيه ، وقال :

ولقد زاد الفؤادَ شَجِيَّ      طائرٌ يبكي على فَنَنِهِ  
 شَفَّهُ ما شَفَّتِي فبكي      كلُّنا يبكي على سَكْنِهِ

ثم تنفس تنفساً مديداً فاضت فيه نفسه .  
 وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذري طاهر نقي وأنه يمتاز بجزالة  
 اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعاني والحواطر حتى لكأنما يستمد من معين في  
 نفسه لا ينضب . وكان يعمد أحيانا إلى شيء من صور البديع ، غير أنها تأتي  
 عفواً ، ولا تؤثر أي تأثير في قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع .

### ربيعة الرَّقِيَّةِ (٢)

هو ربيعة بن ثابت ، من أهل الرِّقَّةِ ، بها مولده ومنشؤه ، وكان  
 ضريراً ، وفتحت شاعريته مبكرة ، فأخذ شعره يشيع ، حتى رقى إلى سمع المهدي ،

٢٥٤/١٦ ومعجم الأدباء ١٠/١٣٤ ونكت  
 الهميان ص ١٥١ .

(١) الذنوب : اللؤلؤ المملوءة .  
 (٢) انظر في ربيعة وأخباره وأشعاره ابن المعتز  
 ص ١٥٧ والأغاني (طبعة دار الكتب)

فأشخصه إليه ، فلدحه بعدة قصائد ، وأثابه عليها عطاء جزيلاً . غير أنه حنَّ إلى موطنه ، فعاد إليه ، وكان لا يبرحه إلا قليلاً ، مما كان سبباً في إخمال ذكره ، لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء في بغداد . ولم تَرَوْ له كتب الأدب شيئاً من مديحه في المهدي إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها في العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس صَفِيَّ الرشيد ، وفيها يقول :

لو قيل للعباس يا بن محمدٍ قل : لا ، وأنت مخلدٌ ، ما قالها  
ما إن أعدُّ من المكارم خصلةً إلا وجدتك عمها أو خالها  
وإذا الملوك تسامروا في بلدةٍ كانوا كواكبها وكنت هلالها  
وجزاء جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين ، فجنَّ غيظاً ، وهجاه هجاء مريراً .  
وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس ، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعة .  
ومن صلبى هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة ، ومنهم يزيد بن أسيد السلمي ،  
وكان قد ردّه ردّاً غير جميل ، بينما أوسع له في العطاء يزيد بن حاتم المهابي ،  
فضى يقول أبياته السائرة :

لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم -  
يزيد سليم سالم المال والفتى أخو الأزد للأموال غير مسلم -  
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم -  
فلا يحسب التمتام أنى هجوته ولكننى فضلت أهل المكارم -

وقد تعلق بغير جارية ، مما جعله ينظم غزلاً كثيراً ، ويقول ابن المعتز : أما شعره في الغزل فإنه أشعر أهل زمانه جميعاً ، وما أجد أطبع ولا أصحَّ غزلاً منه ، ويقول أيضاً : « كان ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس لأن في غزل أبي نواس برّداً كثيراً وغزل هذا سليم سهل عذب » . وغزله يُسلك في الغزل الصريح إذ كان فيه لهُو حتى لُقِّب بالغاوى ، ومن كان يهواهن جارية يقال لها « عشمه » كانت أمةً لرجل من أهل قرقيسياء ، وقعت في قلبه ، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله :

أَعْمَةٌ أَطْلَقِي الْعَلَقَ الرَّهِينَا      بعيشك وارحمي الصَّبَّ الحزينا<sup>(١)</sup>  
تعلق زائراً لك فارحميه      فقد أورشيت زائرِك الجنونا  
ولما أن رآك الناس قالوا      تعالى الله ربُّ العالمينا  
فقد أعطاك ربك فاشكُريه      جمالاً فوق وصفِ الواصفينا  
إذا أقبلتِ رُعتِ الناسِ حُسنا      وإن أدبرتِ قيدتِ العوينا  
وله فيها أشعار كثيرة ، ويظهر أنها أول جارية سُغف بها ، وقد سُغف من  
بعدها بجارية من جواري الكرخ ببغداد تسمى « رُخاص » كما سُغف بأخرى  
تسمى داخا ، وفيها يقول :

صَاحِ إني غيرُ صَاحِي      أبداً من حُبِّ دَاحِ  
أنا والله قَتيلٌ      لكِ من غيرِ جِراحِ  
لا بسيفٍ قَتَلتَنِي      لا ، ولا سُمُرِ الرِّمَاحِ  
أنتِ للناسِ قَتولٌ      بالهوى لا بالسَّلاحِ  
وبشكْلِ      وبِبدَلِ      وبِحُسْنِ      ومُزَاحِ  
وبعينين      صَيُودِي      نِ      وثَغْرِ      كالأفَاحِي  
ليتني كنتُ حَمَاماً      لكِ مقصُوصِ الجِناحِ

وله في جارية تسمى « سعاد » أشعار كثيرة أيضاً يصور فيها حبه وهيامه  
وما كانت تراسله به من رسائل ، وفي إحدى قصائده فيها يقول :

الحبُّ داءٌ عِيَاءٌ لا دواءَ لَهُ      إلا نَسِيمٌ حَبِيبٌ طَيِّبِ النَّسَمِ  
أوقبلتُ من فَمِ نِيلَتِ مُخَالَسَةً      وما حرامٌ فَمُ أَلصقتَه بِفَمِ

ويظهر أن غزله كان يذيع في عصره وينتشر على كل لسان ، حتى يقال إن  
جوارى المهدي من اللاتى دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمع منه إلى شعره .  
ويتصل بهذا الانتشار ما يروى من أن صانعي البُسط كانوا يكتبون أشعاره

(١) يريد بالعلق الملق بالحب .

عليها ، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى في دَوْرٍ بساط قديم من بسط دار  
الخلافة هذه الأبيات :

وتزعم أنى قد تبدلتُ خلةٌ سواها وهذا الباطل المتقولُ  
لحا الله من باع الصديقَ بغيره فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ  
ستَصْرِمُ إنساناً إذا ما صرَمْتَنِي يحبك فانظرْ بعده من تبدلُ  
وشعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول ، الذى يروع بسلاسته وجمال  
ديباجته ونصاعة ألفاظه ، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة . ويقال إنه توفى سنة ١٩٨  
للهجرة .

## ٢

## شعراء المجون والزندقة

كثُر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة ،  
وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة ، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان  
كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس  
وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية  
مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من  
يريد تحطيمها تحطيماً . وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما  
كانت أسواقاً للعبث . وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليتمد إلى  
الغزل بالغلمان غزلاً يصور - عند أبى نواس وأضرابه - انحطاطاً خلقياً شنيعاً .  
وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدّى إلى انحلال الروابط  
الاجتماعية لتسلطنهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة ، وكن  
مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كُنَّ قد نُشِئْنَ على اللهو والمجون والابتذال  
والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة .

وطبيعى لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المجون ، ومن غير شك تعد الدولة

مسئولة منذ المهدي عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديواناً للزنادقة وكان حريصاً به أن يتخذ ديواناً آخر للمجون، ولكنه لم يصنع . وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكناً لاهو ولا من تلاه من الخلفاء ، بل لقد أسهم فيها ابنه الأمين إسهاماً واسعاً ، حتى غلدا القصر كأنه حانة ، إن صح ما يرويه الرواة . ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يُشغَلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومضى الشعراء من حولهم في الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون في المجون والفجور ، وحقاً صرخ شيوخ البصرة من أمثال واصل ومالك بن دينار في وجه بشار وغزله المادى الصريح الذى يفسد به نساء البصرة وشبانها ، وارتفع صياحهم إلى سماع المهدي ، فنهاء عن هذا الغزل ، وانتهى على كره ومضض ، غير أن شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت . ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل ، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان ، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير ، وكان لا يبلغ من الإفحاش في غزل الإماء ما بلغه الجيل التالى له .

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعاً لهذا العصر في الفسق والمجون ، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها ، وكان مما أعد ذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بني أمية ، وهى دار ابن رامين ، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سَعْدَةَ ورُبَيْحَةَ وسَلَامَةَ الزرقاء ، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشُرَاعَةَ بن الزَّئِدِ بُؤذ ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التى لا تخلو أحيانا من الفحش<sup>(١)</sup> . ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من الحجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد .

وكان والبة شيطانياً مريداً، فهو يسرف في المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكان ينتسب في قبيلة أسد<sup>(٢)</sup> ، وهى والعرب جميعاً برآء منه ومن فحشه

في والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد  
٥١٨/١٣ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٦٤/١١ وما بعدها ٥٦/١٥ وما بعدها .

(٢) أغاني (طبعة السامى) ١٤٢/١٦ وانظر

وشذوذه ، وقد أعفاهم منه أبو العتاهية ، إذ نسبه في الروم<sup>(١)</sup> ، وهو الذي أدب أبا نواس وأفسده فيما يقول الرواة ، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين . وقد ذهب شعره إلا أطرافاً رواها أبو الفرج وابن المعتز ، وهي تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية . ومن خلفوا أبا ناساً وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خازجة مولى بني أسد ، وكان ورّاقاً ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ، وكان معاقراً للشراب في منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاماً نصرانياً يقال له عيسى بن البراء العبادي الصيرفي ، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصاري وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

زُنارُهُ في خَصْرِهِ معقودٌ كأنه من كَيْدِي مقدودٌ

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة في هذا الفساد الخلقى ، يقودهم الخاركي ، وفيه يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ولا خلعتُ العذارحتي عاشرت الخاركي فجاهر بذلك ولم يحششم فامثلنا نحن ما أتى به وسلكتنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب مذهبتنا عيالٌ عليه<sup>(٣)</sup> . وكان طبيعياً أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقومون بها في عهد المهدي ومن تلاه من الخلفاء ، يتقدمهم أبو نواس . ومن مجانها المشهورين الرقاشي ، يقول أبو الفرج : « كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التي يوصى فيها بالخلاعة والحجون مشهورة سائرة في الناس ، مبتذلة في أيدي الخاصة والعامة وهي التي أولها :

أوصى الرقاشي<sup>٤</sup> إلى إخوانه وصيئةَ المحمودِ في نُدمانه<sup>(٤)</sup>»

ويقول ابن المعتز إنها كانت في الغلمان وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب<sup>(٥)</sup> . وقد اتسعوا في الحديث عن الخمر ورائحتها ونفّسحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها ، وتعرضوا طويلاً للربان والراهبات وزنانيرهم . ونرى أبا الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينص<sup>٥</sup> على

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٤٦ .

(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .

(١) أغاني ١٦/١٤٣ وما بعدها .

(٢) أغاني (طبعة السامي) ٢٠/٨٧ .

(٣) ابن المعتز ص ٣٠٦ .

خبث دينيهم أو على زندقتههم ومروقبهم من الإسلام وشريعته الغراء على نحو مانري في حديثه عن حماد الراوية وحماد عَجْرَد ومطيع بن إياس ، وكأنهم كانوا على مذهب مزدك الذي يدعو إلى اللذات واقتراف الكبائر . وكان من الزنادقة نفر أشسريوا حباً مذهب ماني وما فيه من الزهد والانصراف عن مُسَع الحياة وخير من يمثلهم صالح بن عبد القدوس الأزدي .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حينئذ في الخمر والحجون لأوائل حياتهم ، عادوا فتابوا إلى ربهم وأنابوا ، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز ، يقول أبو الفرج : « كان في أول أمره خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب ، ثم نسك بعد ما عمر ومات على طريقة محمودة » ويروي أن المهدي شك في أنه زنديق ، فأمر بضربه ثلاثمائة سوط على أن يقر بالزندقة ، فقال : والله ما أشرك بالله طرفة عين ، فقال له المهدي : فأين قولك :

أَسْقِنِي	وَأَسْقِي	خَلِيلِي	فِي مَدَى	الليل الطويل
قهوةً	فِي	ظِل كَرَمٍ	سُبَيْتٍ	من نهر بيل <sup>(١)</sup>
فِي	لسان المرء	منها	مثلُ	طعم الزنجبيل
قُلْ	لمن يلحاك	فيها	من فقيه	أو نبيل <sup>(٢)</sup>
أَنْتَ	دَعَهَا	وَارْجُ	أُخْرَى	من رحيق السلسبيل <sup>(٣)</sup>
تعطش	اليوم	وَتُسْقَى	فِي	غَدٍ نَعْتِ
				الطلول

فقال للمهدي : كنت فتى من فتیان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلتُ على سبيل الحجون ، والله ما كفرت بالله قط ، ولا شككت فيه . فخلتني سبيله ورقاً له<sup>(٤)</sup> . وأمثال آدم كانوا كثيرين . ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والحجون وهم حماد عَجْرَد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس .

(٣) يشير إلى رحيق القردوس .  
(٤) أغاني ٢٨٥/١٥ وما بعدها .

(١) بيل : من نهيرات سواد العراق . سبي  
الخمر : حملها من بلد إلى بلد .  
(٢) يلحاك : يلومك ويشتمك .



## حماد (١) عجرد

من الموالي، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نَبِيلاً يَسْبِرِي النَّبْلَ ، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً ، ويقال إنه لُقِبَ بعَجْرَدٍ لأن أعرابياً مرَّ به في يوم شديد البرد وهو عَجْرِيَان يلعب مع الصبيان ، فقال له : تعجرت يا غلام أى تعرَّيت فسمى عَجْرَدًا . وظل عاكفاً على التعلم والتأدب ، حتى أتقن العربية وانتظم في سلك المعلمين المؤدبين ، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه : حماد الراوية وحماد بن الزبرقان ، يقول ابن المعتز : « كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا جميعاً يَرْمَوْنَ بالزندقة » . فهو لم يكن ماجناً فحسب ، بل أشربت روحه الزندقة كما أشربت المجون ، وقد مر بنا في الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمي بالزندقة لعكوفه على المجون ، حتى إذا حَبِسَ في سجن الزنادقة وجدهم يقرءون في صلاتهم شعراً مزاجاً له ، فعرف أنه كان إماماً من أئمتهم . وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الراوية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المترندقة من أمثال مطيع بن إياس ويحيى ابن زياد . وهو يُسَلِّكُ في مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه ، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوى ولا يزدجر ، بل يصرح بذلك تصريحاً عارياً مكشوفاً، كما يصرح بزندقته مجاهراً ، حتى ليقول فيه مساور الوراق :

لو أن ماني وديصانا وعصبتهم  
جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

١٤٨/٨ والحيدان للباحظ ٤٤٧/٤ وفي مواضع  
أخرى ( انظر الفهرس ) وأمالى المرتضى ( طبعة  
الجبلى ) ١٢٨/١ - ١٣٤ . ولسان الميزان  
٣٤٩/٢

( ١ ) انظر في حماد وأخباره وأشعاره الأغاني  
( طبعة دار الكتب ) ٣٢١/١٤ وابن المعتز  
ص ٦٧ - ٧٢ وابن قتيبة ص ٧٥٤ ومعجم  
الأدباء ٢٤٩/١٠ وابن خلكان وتاريخ بغداد

أنت العبادة والتوحيد مذخلقا وذا التزندق نيرنج مغاريق  
فهو يفوق - في رأيه - ماني وديسان وأصرا بهما من رعوس الزنادقة . ويعايشه  
صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلا :

نعم الفتى لو كان يعرف قدره ويقيم وقت صلته حماد  
هدلكت مشافره الدنان فانفه مثل القدم يسنها الحداد  
وابيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد  
وكأتما كان عمره في صباه ولقبه عجرد الذي لزمه إرهاسا لما أخذ فيه بعد من  
الإباحة وطلب اللذات . وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وفي البساتين ،  
متغزلا في الإماء والغلمان غزلا مكشوفاً كان يتبادل مع مطيع بن إلياس وغيره ممن  
كانوا يمعنون معه في المحون هازئين بالإسلام ودعوته التي تحرم الإباحة واقتراف  
المنكرات ، حتى لينحازوا إلى الزندقة التي تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر  
الفاجر .

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور ، فيستخدمه أداة للنيل  
من محمد بن أخيه السفاح ، حتى يسقط في أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدي ،  
ذلك أنه كان قد اتصل به من قبل وأدبه ، وترك فيه أثرا سيئا ، إذ جعله يميل  
إلى اللهو وشيء من المحون . ورأى المنصور أن يهتك ستر ابن أخيه فولاه البصرة  
بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصبحه حمادا ، فأكمل إغواءه له ، وكشف  
للناس مجونه ، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بانا يا أكرم الناس أعراقا وأغصانا  
لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارته لمجِّ عودك فينا المسك والبانا

وحدث أن خطب محمد حين ولي البصرة ابنة عم أبيه زينب بنت سليمان العباسي  
وكان يهواها ، فلم يزوجها له لنقص كانوا يرونه في عقله ، ورأى أن يؤذيهم فطلب  
إلى حماد أن ينظم فيها غزلا على لسانه ، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد  
ابن سليمان وأهلها ، ولم يلبث محمد أن توفي لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة ،

فبكاها حماد بكاء حاراً بمثل قوله :

صرتُ للدهر خاشعاً مستكيناً بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا  
ليتني متُّ حين موتك ، لا بل ليتني كنت قبلك المقبورا  
ولم يجرّ عليه نزوله البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب ، بل لقد جرّ عليه  
أيضاً معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة ، ذلك أنه  
أفسد عليه بعض من كانوا يثيرونه ، فبهجاه والتحم بينهما الهجاء ، وشغف  
بعض معاصريهما بالتحريش بينهما ، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله في  
صاحبه ، فيثور ويحاول أن يقذفه بحجر مُدمّم ، وتكاثرت الأحجار . وكان بشار  
— مع زندقته — يكثر من هجائه بالزندقة ، وردّ عليه بنفس السهام وبسهام أخرى  
لم تكن أقل إيذاءً ، إذ كان يهجو بهما ويقح خلقته ودنسه وقذارته مهوناً منه  
أشدّ التهوين ومستخفّاً به أشدّ الاستخفاف ، وقد أنشدنا في الفصل الرابع أطرافاً  
من هذا الهجاء المُصنّى ، وأكثرها جميعاً من هجو الأمهات والزوجات . ومن  
المحقق أن حماداً كان يستعلي عليه في تلك المعركة ، إذ كان يُشيع في هجائه له  
سخرية مرة من مثل قوله :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد أمكنتُ بشاراً من التيه  
وذلك إذ سمّيته باسمه ولم يكن حرّاً يسميه  
لم أهجُ بشاراً ولكنني هجوتُ نفسي بهجائيهِ

ونراه في بعض عبثه وطوه مع مطيع بن إياس يلزمه بعض الامز ، ولكنهما  
لا يندفعان في الهجاء ، فقد كانا صديقين متوادّين . واتصلت صداقته مع يحيى  
ابن زياد ، وكان مثله خليعاً ماجناً متربّماً بالزندقة ، ويقال إنه تاب وأتاب بأخرة  
وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذُكر عنده ثلبه وحكى تهتكه ومجونه ، فكتب  
إليه حماد من قصيدة :

إن كان نُسكك لا يت مٌ بغير شتمى وانتقاصى  
فعليك فاشتُمُ أمنأ كلّ الأمان من القصاص

فلطالما زكيتني وأنا المقيمُ على المعاصي  
أيام أنت إذا ذكرتُ مناضلٌ عنى مُناسي<sup>(١)</sup>  
وأنا وأنت على ارتكابي الموبقات من الجِراضِ

وله معانيات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق حديثاً كله برُّ وعطف ، على شاكلة قوله :

لقد حُزَّتْ من قلبي مكانا مننعا أرى لك فيه أن أريق لك الدما  
سأشرب كأسيك اللتين سقيتني وإن كانتا والله صابياً وعلقما  
وأدخل كفي إثر كفك في الذي عراك ولو أدخلتها ثقبَ أرقما<sup>(٢)</sup>

وبلغه توعد محمد بن سليمان العباسي بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردّه من الغزل بلسان ابن عمه في أخته على نحو ما أسلفنا فمدحه أمداحاً مختلفة غير أن محمد بن سليمان ظل حقيقاً عليه وجدّ في طلبه ، ففضي إلى قبر أبيه سليمان بن علي فاستجار به ، وبلغ ذلك محمداً فقال : والله لأبُلِّنَّ قبر أبي من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد فعاد بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، ويقال إنه طلب إليه هجاء محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلبّاه وهجاء هجاء مقذعا بمثل قوله :

له حَزْمٌ بُرْغُوثٌ وعقل مكاتبٍ وغلْمَةٌ سِنُورٌ بليلٍ تُوَلِّوُلُ<sup>(٣)</sup>

وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه ، ويقال بل قتله لزندقته ، وقال : والله لا يفلتني أبداً ، وعرف أنه استتر منه بالأهواز ، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره أن يفتك به ، فلم يزل يطلبه حتى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة .

مطبع<sup>(٤)</sup> بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً ، وكان من أهل فلسطين الذين أمدّ بهم

٢٧٤/١٣ وتاريخ بغداد ٢٢٦/١٣ وعيون

الاجبار ١٨٢/٢ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبي)

١٤٢/١ والديارات للشابشي ص ١٥٩ وما

بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٥١/٦ .

(١) مناصي : مدافع .

(٢) الأرقم : الثعبان .

(٣) تولول : تعول .

(٤) انظر في مطبع وأخباره وأشعاره ابن الممتز

ص ٩٤ والأغصان (طبعة دار الكتب)

عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف في حروبه ضد الثوار ، وقد أقام بالكوفة وتزوج بها فولد له مطيع ، وبها كان منشؤه ومرباه . وقد نسب أبو الفرج إلى كنانة ، ثم عاد فتشكك في هذا النسب محسباً أنه من صنع الرواة . وكل شيء فيه يؤكد أنه لم يكن عريباً إنما كان من الموالي ، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد ، ومضى في مطالع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجوازه السنية ، ووصله بأخيه الوليد ، فسلكه في ندمائه .

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة ، وغرقا في اللهو والحجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والحجان . واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ونادمه ، ورافقه في ثورته على الأمويين حتى إذا قُتل عاد إلى الكوفة يحتمس كئوس الخمر حتى الثمالة .

وليست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتُضاف إليه . وكان فيه ظرف ودعابة ، مما جعله محبوباً إلى رفاقه ، وله معهم نوادر كثيرة ، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوماً : انطلق بنا إلى فلانة المغنية صديقتي فإن بيني وبينها مغاضبة ، لعلك تصلح بيننا فدخلنا إليها ، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع : ما يسكتك ؟ فتوجه إليها مطيع قائلاً :

أنت معتلةٌ عليه ومازا ل مُهينا لنفسه في رضاك  
فأعجب يحيى ما سمع ، وهش له مطيع ، ثم قال :

فدعاه وواصل ابنَ إياسٍ جُعِلتْ نفسى الغداةَ فِداكِ  
وأغربت الحارية في الضحك . وفي كتاب الأغاني أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف في داره وفي البساتين والأديار . وغزله في الغلمان قليل ، ولكن لا شك في أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزرى ، وله غزل كثير في القيان الكوفيات وخاصة في جوهر ، وفيها يقول :

أنتِ يا جوهرُ عندى جَوهره في قياس الدررِ المشتهره  
أو كشمسٍ أشرقَتْ في بيتها قَدَفَتْ في كل قلبٍ شَرَرَه

وفي أخباره أنه صحب سلم بن قتيبة حين ولي مدينة الرّبيّ للمنصور سنة ١٤٥ وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلاً بجوار دارها، ولم يلبث المنصور أن استدعى سلماً في نفس السنة ، فاضطّر مطيع إلى الرحيل معه ، وألمّ في طريقه بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته، فخنقته العبرات وقال أبياته المشهورة التي أنشدناها في الفصل الرابع والتي يخاطب فيها نخلة حلوان خطاباً مؤثراً شاكياً لهما فراقه الأعباء والحلان .

ومن الأجواد الذين فرع إليهم في تلك الفترة يستميجهم بمدايحه معن بن زائدة الشيباني ، ويروى أنه لما أنشده مدحته التي يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه وحلمه وحصافته :

ففي نزاره وكهلهما وأخو الـ جود حوى غايته من كسب  
تري له الحلم والنهى خلقتا في صولة مثل جاحم اللهب

قال له معن مداعبا : إن شئت مدحناك كما مدحتنا ، وإن شئت أثبتناك ، فاستحي مطيع من إيثار الثواب على المديح ، وهو محتاج إلى الثواب ، فأنشأ يقول بديهة :

ثناء من أمير خير كسب لصاحب فاقه وأخى ثراء  
ولكن الزمان برى عظامي وما مثل الدراهم من دواء

فقال معن : لقد لظفت حتى تخلصت ، وصدقت لعمري ما مثل الدراهم من دواء ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنينة.

وجذبه بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء ، فولتى وجهه نحوها ، وربما كان من أسباب ذلك خروج رفيقه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد ابن العباس السفاح بالبصرة . ويظهر أن الدواء الذى وصفه له معن بن زائدة عزّ عليه في أول مقامه ببغداد ، مما جعله يقول :

زاد هذا الزمان عسراً وشرّاً عندنا إذ أحلنا بغدادا  
بلدة تمطر التراب على النا س كما تمطر السماء الرذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسي ، فتحها له جعفر بن المنصور . وكان فيه خبث ، فانتبهز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدي بولاية العهد من بعده ، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشاداتهم بالمهدي ، فروى حديثاً مصنوعاً لتوه زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « المهدي منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » . وسُرَّ من صنيعه المنصور ، وحفظ ذلك له المهدي . ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهمَّ بأنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدي تشفع فيه فعفا عنه ، وبذل له المهدي مائتي دينار ، وأوصى به والي البصرة فولاه أعمال الصدقات . وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة ، ولكن من المؤكد أن المهدي ظل راضياً عنه ، ولعل هذا الرضا هو الذي جعله يفلت من عقابه حين شدَّ في تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برعوس كثيرين منهم . وبما يؤكد زندقته ما يقال من أن الرشيد أتى ببنت له في الزنادقة ، فأقرت بزندقته وتوبتها قائلة : هذا دين علمنيه أبي وتبت منه . فقبل الرشيد توبتها وردَّها إلى أهلها .

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدي منهمكاً في المحون والخلاعة والشراب والانطراح في مواضع اللذات ، ونظم في تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الأشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان . وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه تفيض حناناً وعطفاً وبراً ، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد ، ويقول ابن المعتز : « كان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة » . وحدث أن تهاجرا ولم يُطق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله :

كنت ويحيى كَيْدِيْ وَوَاحِدِ	نَرَمِيْ جَمِيْعاً وَتَرِيْنَا مَعاً
إِنْ عَضْنِي الدَّهْرُ فَقَدْ عَضَّهُ	يُوجِعُنَا مَا بَعْضُنَا أَوْجَعَا
أَوْ نَامَ نَامَتْ أَعْيُنُ أَرْبَعُ	مَنَا وَإِنْ أَشْهَرُ فَلَنْ يَهْجَعَا
حَتَّى إِذَا مَا الشَّيْبُ فِي مَفْرِقِيْ	لَا حَ وَفِي عَارِضِهِ أَسْرَعَا
سَعَى وَشَاءَ فَمَشُوا بَيْنَنَا	فَكَادَ حَبْلُ الْوُدِّ أَنْ يُقَطَّعَا

حتى إذا استمكن من عَثْرَةٍ أوقَدَ نيرانَ القَلْبِ مُسرِعاً  
 فلم أَلَمَّ يحيى على فعله ولم أَقل مَلًّا ولا ضيِّعاً  
 وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق . وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا  
 يعبان من دنان اللهو والمجون حتى كفَّ يحيى بأخرة فيما يقال . ولم يلبث أن توفي  
 فبكاه مطيع بكاء حاراً ، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه :

يا أهلى أبكوا لقلبي القريح . وللدُموع السواكب السُّفْحِ (١)  
 راحوا بيحيى ولو تطاوعنى أُلُّ أقْدَارُ لم يبتكر ولم يرُح (٢)  
 ياخير مَنْ يحسن البكاء له الـ يوم ومن كان أمس للمدح  
 قد ظفِرَ الحُزْنُ بالسرور وقد أدبل مكرهنا من الفرح (٣)

وواضح أن مطيعاً كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز في أشعاره بالسلاسة  
 والعدوية . ولعل ذلك ما جعله يميل في كثير من نظمه إلى وزن المجتث والأوزان  
 المحزوءة . وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة ،  
 حتى تجرى على أفواه الناس ، وحتى تَلَسَدَ آذانهم ، ويقول صاحب الأغاني  
 إن حكما الوادى المغنى تغنى في قطعة له ، فلم يبق سقَاء ولا طحَّان ولا مكار  
 إلا غنى فيها . وقد ظل مطيع سادراً في غيه ومجونه حتى توفي سنة ١٦٩ وقيل بل  
 في سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد .

### صالح (٤) بن عبد القدوس

بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسي الأصل ، وكان في صدر

بغداد ٣٠٣/٩ ومعجم الأدباء لياقوت ٦/١٢  
 وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣٧١/٦ وفوات  
 الوفيات ١٩١/١ ونكت الهميان للصفدى  
 ص ١٧١، ٧١ ولسان الميزان لابن حجر ١٧٢/٣  
 وفهارس كتابي البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ،  
 وشرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربي)  
 ص ٢٢٧ .

(١) السواكب السفح : المنهارة .  
 (٢) يبتكر : من البكور . ويرح : من الرواح  
 وهو وقت العشى .  
 (٣) أدبل : أصبحت له دولة وصوله .  
 (٤) انظر في صالح وأخباره وأشعاره أمالى  
 المرتضى (طبعة الحلبي) ١٤٤/١ وما بعدها  
 وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٠ ورسالة  
 الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٤٢ وتاريخ



نشأته يختلف إلى حلقات الوعاظ والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع في تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتقد الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم ، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ولكل منهما إلهه الخاص ، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين ، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد في الحياة ونعيمها الزائل . ونراه في عصر بني أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، مشاركاً فيما كان يدور في مجلسه من محاضرات كلامية ودينية<sup>(١)</sup> ، ونظن ظناً أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ ، وإلا لفت به واصل ، كما هتف ببيشار طالباً من أصحابه قتله<sup>(٢)</sup> ، وفي بعض شعره أنه كان يستر نحلته خشية الحبس والعقاب والتنكيل به ، يقول :

رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُهُ فَكَأَنِّي أَخْرَسٌ أَوْ ثَنِي لِسَانِي خَبَلٌ  
ولو آتَى أَبْدَيْتَ لِلنَّاسِ عِلْمِي لَمْ يَكُنْ لِي فِي غَيْرِ حَبْسِي أَكْلٌ

وتوفى واصل سنة ١٣١ للهجرة ، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحسَّ صالح كأن الحياة وافته ، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حيناً ، وحيناً يسترها حين يخاف بعض الحكام ، حتى ليصلي صلاة المسلمين حين تحين الصلاة ، ويعجب من صلاته بعض من يعرف مذهبه ، ويسأله في ذلك متعجباً ، فيقول : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد » . ونمضى في العصر العباسي ويكثر الزنادقة والمتزندقون ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع ، ويعلن صالح زندقته ولا يوارئها ، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته ، حتى ليؤلف - كما يقول ابن النديم - كتباً في نصرة عقيدته<sup>(٣)</sup> . وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة ، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف ، ويروى أنه ناظره في الامتزاج الذي يدعيه المانوية بين النور والظلمة في الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح ، وأنه أفحمه وقطعه ، فقال :

(٣) الفهرست ص ٤٧٣ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤٦/٣ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٦/١ .

أبا الهذيل هداك الله يا رجلُ فأنت حقاً لعمري مُعْضِلٌ جَدِلُ

ونظره أبو الهذيل مرة أخرى في أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهي النور والظلمة ، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه ، فسأله أبو الهذيل : على أي شيء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين . وكان المسألة تحوَّلت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء ، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا في الديانات فحسب ، بل في حقيقة كل شيء ، ولعله اطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها في نفسها ، ويدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتاباً سماه كتاب الشكوك ، ويروى إنه مات له ولد ، فلقبه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام ، فوجده جَزِعاً على ابنه ، فقال له : لا أعرف بلزحك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان ؛ فقال له النظام : فشكَّ أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمُت وإن مات ، وشكَّ أيضاً في أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ، فحصر صالح . وفي أشعاره ما يدل على أنه عمي في آخر عمره ، إذ يقول :

عزاءك أيها العينُ السُّكوبُ ودَمَعُكُ إنما نُوبٌ تنوبُ

على الدنيا السلامُ فما لشيخٍ ضرير العين في الدنيا نصيبُ

إذا ما مات بَعْضُكَ فابنك بَعْضاً فإن البعض من بعض قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدي في تعقب الزنادقة وينصب لهم ديواناً لحاكتهم ومن تثبت عليه الزندقة يُصلب لتوه ، حينئذ يفرُّ صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة ، ثم يقبض عليه ويلقي به في غياهب السجون ببغداد انتظاراً لحاكته ، ويصور مشاعره وهو في السجن تصويراً دقيقاً بمثل قوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموق

طوى دوننا الأخبارِ سجنٌ ممنعٌ له حارسٌ تهذا العيون ولا يهدأ

قُبِرْنَا وَلَمْ نُدْفَنَ فَنَحْنُ بِمَعزِلٍ      من الناس لا نُحْشَى فَنُعْشَى وَلَا نَعْشَى  
أَلَا أَحَدٌ يَاوَى لِأَهْلِ مَحِلَّةٍ      مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا  
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ دَارِهِمْ      ولم يعرفوا غير التضايق والبُلُوى

ويختلف الرواة في زمن هذه المحاكمة والخليفة الذي تولاها ، فمن قائل إنه المهدي ومن قائل إنه هرون الرشيد ، وقد ضعف ابن المعتز القول الأول ، وقال الصحيح أن الذي حاكمه وناظره في زندقته الرشيد ، وكان قد أُتْهِمَ إليه أبيات يهجو بها الرسول - كبرت كلمة تخرج من فمه - لزواجه من زينب بنت جحش بعد فراق مولاه زيد لها (١) ، وهي طعن صريح في الرسول الكريم والذكر الحكيم ، ولا بد أنه أنهى إليه كل شيء عن زندقته وإثنييته ومانويته ، فأمر بالقبض عليه ، وُزِّجَ به في السجن ، ثم عُقِدَ له يوم لمحاكمته ، وتولَّى الرشيد المحاكمة بنفسه ، غير أنه حاول التبرؤ من كل ما نُسبَ إليه ، ويقال إنه ظل يستعطف الرشيد طويلا حتى رُقَّ له ، ولكنه لم يلبث أن استنشده سينيته التي يقول فيها :

لا يبلغ الأعداء من جاهلٍ      ما يبلغ الجاهلُ من نفسه  
والشَيْخُ لا يترك أخلاقه      حتى يُوارَى في ثَرَى رَمْسِهِ (٢)  
إذا ارعوى عاد إلى جهله      كذى الضننا عاد إلى نُكْسِهِ (٣)  
وإن من أدبته في الصبا      كالعود يُسقى الماء في غرسه  
حتى تراه مورقا ناضرا      من بعد ما أبصرت من يُبْسِهِ

فتلا عليه الرشيد البيت الثاني ، وقال له : نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً ، وأمر فضربت عنقه وصلب على الجسر ببغداد عقاباً له وتنكيلا .

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفناء ، والحث على مكارم الأخلاق واطاعة الله ، ولعله يريد إله النور والخير ، وقد جعل

(٣) الضننا هنا: المرض، والنكس: الانتكاس  
أى رجوع الناقة إلى مرضه .

(١) ابن المعتز ص ٩٠ .  
(٢) الرمس : القبر .

شيوخ ذلك في أشعاره ابن المعتز يشك فيما نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقوله :

وليس بعجز المرء إخطاؤه الغنى ولا باحتيال أدرك المال كاسبه  
ولكنه قبض الإله وبسطه فلا ذا يجاربه ولا ذا يغالبه

يقول ابن المعتز : « فيا عجباً كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقاً ؟. وكأنما أحس أنه يصدر في البيت الثاني عما جاء في الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيقه ويجعله بقدر قليل . ونراه يتمثل في شعره أحيانا بعض الأحاديث كقوله :

ولله في عرض السموات جنة ولكنها محفوظة بالمكاره

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى : (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثاني فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات ». واستمداد ابن عبد القدوس أحياناً من الحديث النبوي أو من القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصري لا يخرج من دائرة الزنادقة المانويين ، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا في ترجمته ، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب . أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد في الدنيا الفانية فهي دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عنهم وعن أبي العتاهية في غير هذا الموضع ، مما جعل بعض القدماء يتشككون في زندقة أبي العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن في زندقة ابن عبد القدوس . ومما لا شك فيه أنه كان زنديقاً مانوياً كبيراً ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم في البصرة حقباً متطاوله .

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله في تقرير محاسن الأخلاق والشيم ، ناظراً فيها نظرة تجريدية ، وهي نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم ، حتى قالوا إن في ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم<sup>(١)</sup> ، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر في الفضائل وتجارب الأفراد والأمم ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده

قصيدته الزينية التي تغزل في مطلعها فيمن تسمى زينب ، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله :

احذَرُ مصاحبةَ اللئيم فإنه يُعَدِي كما يعدي الصحيح الأجرُبُ  
يلفكك يحلف أنه بك واثقٌ وإذا تَوَارَى عنك فهو العَقْرَبُ  
يعطيك من طَرْفِ اللسان حلاوةً وَيَرُوغُ منك كما يروغُ الثُّغْلَبُ  
واختَرُ قريتك واصطفيه تفاخرًا إن القَرِينِ إلى المقارن يُنْسَبُ  
واحفظ لسانك واحترس من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطِبُ  
والسُرُّ فاكتمه ولا تنطق به إن الرُّجاجة كسرها لا يُشعَبُ (١)

ومن نط هذه القصيدة الحكيمة قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من النصائح الخلقية التهذيبية ، وفيها يقول :

المرءُ يجمع والزمانُ يفرُقُ ويظل يَرَقَعُ والخطوبُ تمزُقُ  
ولأنَّ يعادي عاقلاً خيراً له من أن يكون له صديقٌ أحق  
فأربأ بنفسك أن تصادق أحماً إن الصديق على الصديق مصدق  
وزن الكلام إذا نطقت فإنما يُبدي عقولَ ذوى العقول المنطقُ

وعلى هذه الشاكلة تجرى أشعاره في صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلما شُفعت بخيال أو تصوير ، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدي الأجيال التالية ، إلا قليلا ، وتنبه لذلك الجاحظ ، فقال لو أن حكمه كانت مفرقة في قصائد مختلفة لسارت في الآفاق « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسير ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع (٢) » . على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكيمة وظلت تدور فيها من مثل قوله في العزاء :

إن يكن ما به أصبتَ جليلا فلفقدُ العزاء فيه أجلُّ

(١) يشعب : يصلح .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠٦ .

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فدَعُهُ وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

وقوله :

وتروض عِرْسَكَ بعد ما هَرَمْتَ ومن العناء رياضةُ الهَرَمِ (١)  
 وواضح فيما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء  
 القوى المحكم ، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس .

### ٣

#### شعراء الزهد

هذه الصفحة التي صورناها من شعر المحبون والزندقة كانت تقابلها صفحة  
 رائعة من شعر الزهد ، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنسك وأهل الحديث  
 والفقه والورع ، ومن حولهم العامة ، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة  
 بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا  
 ينبغي أن تكون دار زادٍ لدار المعاد . وما نبى الوعاظ والنسك من المحدثين يزجرونهم  
 عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن  
 العاقل من عرف أن الناس سَفَرٌ وعمّا قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم  
 مقيم ، فأسرع يغتم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات  
 الصالحات .

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون في وعظهم  
 وقصصهم أبياتاً وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنها  
 ما ينشئونه لإنشاء ، فمن ذلك ما يروى عن صالح المري القاص العابد من أنه كان  
 كثيراً ما ينشد في قصصه ومواعظه :

(١) العرس : الزوجة .

فبات يروى أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل<sup>(١)</sup> ،  
 وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث في مجالسه عن الموت ،  
 حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل  
 محدود ونفس معدود ، وعمما قليل يصبح الإنسان ترابا في تراب ، كمن سبقوه ، فأولى  
 له أن يتعظ ويعتبر ، يقول<sup>(٢)</sup> :

أتيت القبور فناديتها ن أين المعظم والمحتقر  
 وأين المدل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر  
 تفانوا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر  
 تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور  
 فيا سائل عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر

ومن كان يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري .  
 وكان الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كى يصوغوا على نمطها  
 مواعظ تذكرى الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس ، وقد أقبل كثيرون ينظمون دقائق  
 الزهد ، حتى بن الهجان حين كانوا يثوبون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند  
 أبى نواس ، وكما يلقانا عند محمد بن يسير ، وكان ماجناً هجاء خبيثاً ، فقد ألم  
 يوماً بمجلس أبى محمد الزاهد صاحب الفضيل بن عياض ، فأنشد<sup>(٣)</sup> :

ويئس لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مشواه  
 واغفلتاً في كل يوم مضى يُذكرنى الموت وأنساه  
 من طال في الدنيا به عمره وعاش فالمت قصاره  
 كأنه قد قيل في مجلس قد كنت آتية وأغشاه  
 محمد صار إلى ربه يرحمنا الله وإياه

وكان من الشعراء الخلقاء الهجان من يقلع إقلاعا عن غيه ، فيكثر من أشعار

(١) البيان والتبيين ١١٩/١ والفسيل :

(٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٢ .  
 (٣) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٩/١٤ .

صغار النخل .

الزهد مكفراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة ، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم ، وكان ينغمس في اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير في طريق غواية ، وأخذ يكثُر من شعر الزهد حاضماً على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفاني بمثل قوله (١) :

وَمَنْتَظِرٌ لِّلْمَوْتِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يَشِيدُ وَيَبْنِي دَائِماً وَيَحْصِنُ  
لَهُ حِينَ تَبْلُوهُ حَقِيقَةُ مَوْقِنٍ وَأَفْعَالُهُ أَفْعَالُ مَنْ لَيْسَ يَوْقِنُ  
وقوله الذي مرّ بنا في الفصل الرابع :

أَضْرَعُ إِلَى اللَّهِ لَا تَضْرَعُ إِلَى النَّاسِ وَأَقْنَعُ بِبِئْسَ إِذَا الْعِزُّ فِي الْيَاسِ  
وَاسْتَعْنَى عَنِ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحْمٍ إِنَّ الْغِنَى مَنِ اسْتَعْنَى عَنِ النَّاسِ  
وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية ، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد ، بل يكتفون من العيش بالكفاف ، وإن عُرِضت عليهم وظيفة أبوها حرصاً على دينهم ورفضاً لدنياهم ، ومن اشتهروا في هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض ، وله في الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله (٢) :

عِشْ مَا بَدَلَكَ ، قَصْرُكَ الْمَوْتُ لَا مَهْرَبُ مِنْهُ وَلَا قَوْتُ  
بَيْنَنَا غِنَى بَيْتٍ وَبِهَجَّتْهُ زَالَ الْغِنَى وَتَقَوَّضَ الْبَيْتُ  
واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوي الجاه لما في أيديهم من الدنيا ، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، وكان والياً على السند ، وجّه إليه يستزيه فكتب إليه (٣) :

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي دَعَاةٍ  
سَخِنِي بِنَفْسِي أَنِّي لَا أَرَى أَحَدًا  
وَفِي غِنَى غَيْرِ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالٍ  
يَمُوتُ هَزْلاً وَلَا يَبْقَى عَلَى حَالٍ

(٢) البيان والنبين ٣/١٨٣ .

(٣) إنباه الرواة ١/٣٤٤ .

(١) انظر في هذين البيتين وتاليهما المقدم  
الفرید ٣/٢٠٧ .



الرُّزْقُ عَنْ قَدَرٍ ، لا الضَّعْفُ يَنْقِصُهُ      ولا يَزِيدُكَ فِيهِ حَوْلٌ مُحْتَالِ  
والفقرُ فِي النَفْسِ لا فِي المَالِ تَعْرِفُهُ      ومِثْلُ ذاكِ الغِنَى فِي النَفْسِ لا المَالِ

وفي كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة ، مما دفع لظهور مقدمات التصوف في هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهي الذي يتجرد عن كل مادة وحسّ والذي يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية ، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق ، ومن أروع ما يصور ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة<sup>(١)</sup> :

أحبُّكَ حُبِّينَ : حُبُّ الهوى      وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا  
فأما الذي هو حبُّ الهوى      فشغلي بذكرك عمن سواكا  
وأما الذي أنت أهلٌ له      فكشفك لي الحُجْبَ حتى أراكا  
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي      ولكن لك الحمد في ذا وذاكا  
وهي تميز بين حبين : حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان في دنياه ، وحب بهجماله وجلاله القدسي الذي رفعت الحجب والأستار بينها وبينه ، وهو الحب الصوفي المحرد الذي يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة . ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر في هذا العصر ، إنما يزدهر الزهد ، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد ، لتوضح لنا المعاني التي كانوا يرددونها في أشعارهم ، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق .

### عبد الله (٢) بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي ولاه ، التركي

والتهذيب لابن حجر ٣٨٤/٥ والنجوم الزاهية  
١٠٣/٢ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٤  
وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢٧٩/٨ ومختصر جامع  
بيان العلم وفضله لابن عبد البر ( طبعة الموسوعات )  
ص ٨٥ .

(١) قوت القلوب للمكي ٨٤/٣ وإحياء علوم  
الدين للقرظي ٢٦٧/٤ .  
(٢) انظر في ترجمة ابن المبارك وأشعاره  
الأنساب للسماعني ١٧٩ وتاريخ بغداد  
برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ١٠٩/٤ وتذكرة  
الحفاظ للذهبي ( طبع حيدرآباد ) ٣٥٤/١

المروزي أبًا ، الخوارزمي أمًّا ، ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة ، فلقى المحدثين ، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى ، وهو يُعَدُّ من كبار الحفاظ فى عصره وأحد من كانت تُشَدُّ إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله ، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقہ على مذهب أبى حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة . واشتهر شهرة مدوية بنسكه وزهده ، حتى قال سفیان الثورى : « او جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر » . وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد فى سبيل الله من جهة ، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحسبهم للقتال ويُلقي على الناس الحديث فى الثغور من مثل طرسوس . وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هى أنهم كانوا سلبين لا يشاركون فى الواجبات الوطنية وهى إحدى الأفكار التى أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكله زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية ، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين — وخاصة الأولين — لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ، ليكسبوا قوتهم ، ويعيشوا من كسبهم ، لا مما يلقي إليهم من فتات الموائد ، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفا كثيرة على نحو ما سئرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجوارى والإماء ، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه . وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الضيوف المجاهدة طلباً للاستشهاد فى سبيل الله . وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك ، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريقة توضح ذلك أتم توضيح ، فقد روى الرواة أنه أملى وهو بطرسوس رسالة شعرية وجهه بها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وكان مجاورا بمكة :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا      اعلمتَ أنك فى العبادة تلعبُ  
 مَنْ كان يَخْضِبُ جِيدَه بدموعِه      فنُحورُنَا بدمائنا تتخضَّبُ  
 أو كان يُتَعَبُ خَيْلُه فى باطلٍ      فخيولُنَا يوم الصَّبِيحة تَتَعَبُ  
 رِيحُ العَبِيرِ لَكم ونحن عَبيرُنَا      وَهَجُّ السَّنابِكِ والغبارُ الأَطيبُ

ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب  
لا تستوى أغبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلهب<sup>(١)</sup>  
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب . وهو بصور الهوة التي تفصل بينهما ، فالناسك يقدم لربه دموعه والمجاهد يقدم دماه ، متخذاً الخيل العاديات لافي هو وإنما في التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، منطياً بطيب أكثر شذى وعطراً من الطيب الحقيقي، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل وهي تقدح الأرض قدحاً . ويقول إن الإسلام أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً » كما يشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت ، بل يظل حياً عند ربه حياة خالدة : ( ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ) وفي موضع آخر من التنزيل : ( ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ) . وهي ميزة خص بها الله سبحانه المستشهدين في سبيله دون سائر المؤمنين من نساك وغير نساك ، إذ جعلهم يحيون في قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه .

ولا بن المبارك موقف ثان يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون في مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم الدنيا فينحرفوا عن الجادة ، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عليمة وآبى الصدقات بالبصرة ، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له : أحب أن تبعث إلى إخواننا من القراء لتسغلتهم ، فأجابه : القراء ضربان : قوم طلبوا هذا الأمر ( أي قراءة القرآن ) لله فأولئك لا حاجة لهم في لقائك ، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك أضرت على الناس من الشرط ، وألحق بجوابه هذه الأبيات :

(١) الأغبار : جمع غبرة ، وهي النبار .

يا جاعلَ الدينِ له بَازِيًا      يصطادُ أموالَ المساكينِ  
 احتلتَ للدنيا ولذاتها      بحيلةٍ تذهبُ بالدينِ  
 وصرتَ مجنوناً بها بعدما      كنتَ دواءً للمجانينِ  
 أينَ رواياتكُ فيما مضى      عن ابنِ عَوْنٍ وابنِ سِيرينِ  
 أينَ رواياتكُ في سَرُدها      في تركِ أبوابِ السُّلاطينِ  
 إن قلتَ أَكْرَهْتُ فذا باطلٌ      زلَّ حِمَارُ العلمِ في الطُّينِ

وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام : « كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا » ونظم ذلك شعراً قائلًا :

أرى أناساً بأدنى الدينِ قد قنعوا      ولا أراهم رضوا بالعيشِ بالدونِ  
 فاشتغرنِ بالدينِ عن دنيا الملوكِ كما أسه      تغنى الملوكُ بدنياهم عن الدينِ

وهو كثير التنفير من الدنيا ومتاعها الذى يزول وتبقى تبعاته ، بل إنه ليحمل بين طيَّاته من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حسيَّةً لينا مسها قاتلا سمها :

حلاوةُ دنياك مسمومةٌ      فما تأكلُ الشَّهْدَ إلا بِسَمِّ  
 وهى خداعةُ غرورٍ ، لا يكاد يطمئن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفجع أو مصيبة موجعة ، فن جرَّعته يوماً حلاوتها جرَّعته أياماً مرارتها :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً      شيبتْ بأكرهٍ من نقيعِ الحنظلِ  
 وبناتُ دهرٍ لا تزالُ مُلمةً      فيها فجائعٌ مثلُ وقعِ الجنِّدِ

وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه ، فانها إمارة بالسوء ، وإن هو أطاعها حملته مالا يطيق من الذنوب والآثام ، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الخلاك :

رأيتُ الذنوبَ تميَّتُ القلوبُ      ويخترمُ العقلَ إدمانها  
 يبيعُ الفتى نفسه في رداه      وأسلمَ للنفسِ عصيانها

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم في الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه بترج ، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته . وقد لبي نداء ربه سنة ١١٠ هـ وثمانين ومائة للهجرة .

### محمد<sup>(١)</sup> بن كُناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بني أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة في بيت صلاح وتقوى ، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم أحد من تُذكر أسماءهم في نشأة التصوف . ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافاً أتاح له أن يُحتمل الحديث عنه ، وأن يُعَدَّ في رجاله . ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، غير أنه كان - كما يقول أبو الفرج - امرءاً صالحاً فلم يتصدَّ لأحد بمدح ولا هجاء ، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والاتعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها ، فنعمة دائماً زائلة ونقمة نازلة ، ومهما طال عمر الإنسان فيها فإلى يَلْمَى وفناء وإلى كوارث وفواجع ، فكلنا يجرى إلى غاية ينتهي عندها أجله ، ومن عجب أن تتعلق قلوبنا بها ، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهواها ، وكان حرياً به أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه ، يقول :

ومن عجب الدنيا تُبْقِيكَ لِلْبَيْلَى      وَأَنْكَ فِيهَا لِلْبَقَاءِ مَرِيدُ  
وَأَيُّ بَنِي الْأَيَّامِ إِلَّا وَعِنْدَهُ      مِنَ الدَّهْرِ ذَنْبٌ طَارِفٌ وَتَلِيدُ  
وَمَنْ يَأْمَنُ الْأَيَّامَ أَمَا اتَّسَاعَهَا      فَحَظْرٌ وَأَمَا فَجَعُهَا فَعْتِيدُ (٢)  
إِذَا اعْتَادَتِ النَّفْسُ الرِّضَاعَ مِنَ الْهَوَى      فَإِنْ فِطَامَ النَّفْسِ عَنْهُ شَدِيدُ

الزاهرة ١٨٥/٢ .  
(٢) اتساعها : نعيمها . خطرنا : متقطع .  
عتيد : مهيب حاضر .

(١) انظر في ابن كناسة وأخباره وأشماره  
الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣٣٧/١٣ ،  
والفهرست لابن النديم ص ١٠٥ ، والنجوم

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقیل وأن السعيد من عصى هواه في طاعة ربه ، فاجتنب المحارم والمآثم ، ولاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث في عواقب اتباع الهوى ، وكأنه يقول بضمه ما ليس له ظل في قلبه ، أو كأنه يَعْظُ ولا يتعظ ، وفي ذلك يقول :

ما مَنْ رَوَى أَدْباً ولم يعمل بهِ      ويكفَّ عن زَيْغِ الهوى بِأَدْيَبِ  
حتى يكون بما تعلَّمَ عاملاً      من صالحٍ فيكون غير معيب  
ولقلما تُغْنِي إصابةُ قائلٍ      أفعاله أفعالُ غير مصيب  
فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير في القلوب ، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها ، وكانت كالسراج يضيء الدار ويحرق نفسه .  
وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمراء ، بينما هو يحسن نظم الشعر ، ونظراؤه يكسبون به الألوף المؤلفة ، وهو يعيش في كفاف وبلوغ وصباية ، فكان يردهم ردًّا منكراً ، إذ أعرض عن الدنيا مصمماً ، غير راغب في متاعها ، فحسبه متاع الآخرة الذي ينتظره والذي يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته ، فلا يبتذلها لمخلوق ، فضلاً عن أن يمدحه ويدهنه ويطلب منه ما ينبغي أن لا يتجاوز في طلبه ربه . إنه إن فعل طعن وجهه وحياهه طعنة نجلاء ، بل طعن زهده وتقواه ، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعم العاجلة على نعم الباقية ، يقول مجيباً بعض لأميّه :

تؤنَّبني - أن صُنْتُ عِرْضِي - عصابةً  
يقولون لو غمَّضتَ لآزدتَ رِفْعَةً  
أتكلِّمُ وجهي - لا أبأ لأبيكمُ -  
معاشي دُوَيْنَ القوتِ ، والعِرْضُ وافرٌ

لها بين أطنابِ اللثامِ بصيصٌ (١)  
فقلتُ لهم إني إذن لحريصٌ (٢)  
مطامعُ عنها للكرامِ مَحِيصٌ (٣)  
وبطنِي عن جدوى اللثامِ خميصٌ (٤)

(٣) تكلم : تجرح .

(٤) الجدوى : العطية . خميص : ضامر .

(١) الأطناب : حبال الخيام والاستمارة واضحة . بصيص : بريق .

(٢) غمضت : تساهلت . حريص : جشع

سألني المنايا لم أخالط. ذنبةٌ ولم تسرِ بي في المخزيات قُلُوص<sup>(١)</sup>

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنابير وكان ذوو المروءة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة في الشعر ، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة في كل الأحاديث ، واختطفها منه الموت ، فحزن حزناً عميقاً ، صورّه في قوله يرثيها ، وقد استسلم لأمر ربه :

الحمدُ لله لا شريكَ له      ياليت ما كان منك لم يكن  
إن يكن القول قلّ فيك فما      أفحمتي غيرُ شدّة الحزنِ

وله مريثة طريفة في خاله إبراهيم بن أدهم ، وهي ترسم صورة العابد الناسك في العصر العباسي الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعاً به ، مزدرياً الدنيا ومتاعها ، مقبلاً على عبادة ربه ، قامعا لدواعي الهوى في نفسه ، متحلياً بالفضائل الرفيعة ، لا يعرف الغضب ولا الطيش ، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا ، يعيش صامتاً مفكراً في ملكوت ربه الأعلى ، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع . وهو دائماً مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذي لا يخدش مروءة ولا كرامة ، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليوث الكواسر . وفي ذلك كله يقول مخاطباً بعض من لا يزالون يستزيدون من الغنى والثراء :

رأيتك ما يكفيك ما دونه الغنى      وقد كان يكفي دون ذلك ابن أدهما  
وكان يرى الدنيا صغيراً عظيمها      وكان لحق الله فيها معظماً  
أما الهوى حتى تجنّب الهوى      كما اجتنب الجاني الدّم الطالب الدّم  
وللحلم سلطاناً على الجهل عنده      فما يستطيع الجهل أن يتّرمّماً<sup>(٢)</sup>  
وأكثر ما تلقاه في القوم صامتاً      وإن قال بدّ القائلين وأحكما  
يرى مستكيناً خاضعاً متواضعاً      وليثماً إذا لاقى الكتيبة ضيغماً

(٢) يترمم : لا يتحرك للكلام .

(١) القلوص من النوق : الشابة .

على الجَدَثِ الغَربِيِّ من آلِ وائلٍ سلامٌ وِبرٌ ، ما أْبَرَّ وأَكْرَمًا<sup>(١)</sup>  
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يُصنِّق قلبه وعقله  
للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه ، وكيف كان يعيش له وبه مؤمناً بأنه الغاية العليا  
التي ينبغي أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته ، حتى يفوز برضوان ربه ،  
وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة .

### محمود<sup>(٢)</sup> الوراق

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود ، ويقال إنه كان نخاساً  
ببغداد يبيع الرقيق ، ويبدو أنه كان في فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو ، ثم كف  
نفسه وردعها ، وأخلص وجهه لربه . وفي أخباره ما يدل على حسن عشرته لجواربه  
وأنهن كن لا يؤثرن عليه أحداً ، وكانت جاريته سكن من بينهن من أحسن قريناتها  
وجهاً ، وكانت تتغن الغناء وتنظم الشعر البارع ، فلكت عليه لبَّه وقلبه ، وحدث  
أن رقت حاله واختلت حياته ، فرأى أن يبيعها حتى يوفر لها خفض العيش عند  
غيره ، وتنافس الناس في اقتنائها ، وعرض فيها أحد الطاهرين مائة ألف درهم ،  
فقال محمود إلى بيعها ، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع ، وقالت له إنى  
أختار عيشة الفقر معك ، فرق لها وحررها وأصدتها داره ، وكانت كل ما يملك .  
ومن طريف ما يروى من أخبار جواربه اللاتي كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض  
له في إحداهن عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فلما توفى اشتراها في ميراثه بخمسة  
آلاف دينار . وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه ، فقالت : يا أمير  
المؤمنين إذا كانت الخلفاء ترَبِّص بلدانها المواريث فسنشترى بأرخص مما اشتريت .  
ولعل العصر العباسي الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً  
مذكراً كما أكثر محمود ، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة ، منها موقف وجوب  
الطاعة لله ولأوامره ونواهيه ، فالمسلم الصحيح ينبغي أن لا يقترف إثماً ولا يرتكب  
معصية ، وإلا أوتقته ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده ، وحري

بعدها والعقد الفريد ٢٢٨/١ ، ٢٨٥/٢ ،  
١٧٩/٣ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ وما بعدها ،  
٤٠٤/٦ وفوات الوفيات ٢٨٥/٢ وعيون  
الأخبار ٥٣/٣ .

(١) الجَدَث : القبر .  
(٢) انظر في محمود وأخباره وأشعاره تاريخ  
بغداد ٨٧/١٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز  
ص ٤٢٢ ، ٣٦٧ والبيان والتبيين ١٩٧/٣ وما



بمن أهنته الدنيا ، وتراكت عليه الذنوب ، أن لا يؤمل في جنة ولا ثواب ، فقد استحق العقاب ، يقول :

يا غافلا تنرو بعيني راقداً ومشاهدًا للأمر غيرَ مشاهدٍ  
تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجى دَرَكَ الجِنانِ بها وفوزَ العابدِ  
ونسيتَ أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنوبٍ واحدٍ

لا بد للمسلم إذن أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجاني الذنوب والآثام حتى يكون حقاً مطيعاً لربه ، وهي طاعة لا تتم معرفة الله وشكر نعمه بدونها ، بل لا تتم محبته محبة صحيحة إلا إذا ألحَّ الإنسان في التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً المعاصي وكل ما يجر إلى العصيان ، منقطعاً إلى الله متبتلاً له ، يقول :

تعصى الإله وأنت تظهر حُبَّهُ هذا محالٌ في القياس بديعُ  
لو كنت تضمر حبه لأطعته إن المحبُّ لمن أحبُّ مطيع  
في كل يومٍ يَبْتَلِيكَ بنعمةٍ منه وأنت لشكرٍ ذاك مُضِيع  
وموقف ثان هو موقف الرضا بقضاء الله ، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة وراحة ، بل تفاؤلاً وأمناً ، فلا يخشى شيئاً ، إذ لا يتمنى غير ما يحدث ، وكل ما ينزل به يتقبله بنفس راضية ، يقول :

قَدَّرُ اللهُ كائناً حين يُقْضَى وُورُودُهُ  
قد مضى فيك علمه وانتهى ما يريد

وموقف ثالث هو التوكل الحق على الله والثقة به ، والاعتماد عليه دون سواه من الناس ، فهو الكافل والضامن ، وهو الذي يقدَّر ما يصيب الإنسان ، ولن يستطيع الوصول إليه قبل موعده المقدور أو طلبه بقوة السماء والأرض ، وقد كفل له رزقه وضمن له حياته ، فنعم الضامن الكفيل ، يقول :

أَتَطْلُبُ رِزْقَ اللهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ وَتَصْبِحُ مِنْ خَوْفِ الْعَوَاقِبِ آمِنًا  
وَتَرْضَى بَعْرَافٍ<sup>(١)</sup> وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا ضَمِينًا وَلَا تَرْضَى بِرَبِّكَ ضَامِنًا

(١) العراف : المنجم والناظر في الغد .

ويقول :

أما عجبٌ أن يكفل الناسُ بعضهم ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ  
وقد كفل الله الوفيُّ بعهدِهِ فلم يُرَضْ والإنسان فيه عجائبُ  
علمٌ بأن الله موفٍ بوعدِهِ وفي قلبه شكٌ على القلبِ دائبُ

وهذا الموقفُ أدناه إلى موقفٍ رابعٍ هو القناعة ، أو بعبارةٍ أخرى أن يقنع الإنسان بما عند الله وما ادَّخره له في يومه وغده ، وأن يُقْلَع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه لا يكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بخذا فيرها ، بل إن شدة الطمع تؤدي بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضنكاً من الفقير المحتاج ، والغنى الحقيقي هو غنى النفس القانع لا غنى الثراء الجشع ، وفي ذلك يقول :

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم يَقْنَع فذاك الموسرُ المُعسرُ  
وكلُّ من كان قنوعاً وإن كان مُقِلّاً فهو المُكثِرُ  
الفقرُ في النفس وفيها الغنى وفي غنى النفس الغنى الأكبر

ويكثر محمود من تقريع غنى المال فقير النفس ، مصوراً جشعه في جمع الدراهم والدنانير وإلحاحه في طلبها ، واسترقاقها له ، بل عبادته لها وهيامه بها الذي لا يقف عند حد ، إذ فتنتته عن نفسه وعن دينه وعن ربه. وكان يعجب عجباً شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربهم وهو قد استأثر بقلوبهم وعواطفهم وأهوائهم وملك عليهم كل شيء من أمرهم ، يقول :

أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا  
وله صاموا وصلُّوا وله حجُّوا وزاروا  
لو بدا فوق الثريا ولهم ريشٌ لطاروا

ودائماً يقول ألتبساً للغنى الذي يتملك الإنسان ويستعبده ، ومرحى بالفقر وعيشة الكفاف التي يعيشها الزهاد ، غير ملتصين شيئاً فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة عنهم ، ويكفي فقر الزهاد سمو أنك لا تجد فقيراً يعصى الله ليفتقر ، بينما يفتح الثراء على

أصحابه أبواب الحرص والطمع ، بل إنهم يخوضون إليه أحياناً أبواب المعاصي  
ومن ورائها أبواب سقر، وفي ذلك يقول هذه الأبيات التي أنشدناها في الفصل الرابع :

يا عائبَ الفقر ألا تزدجرُ عَيْبُ الغني أكثر لو تَعْتَبِرُ  
من شرف الفقر ومن فضلهِ على الغني إن صَحَّ منك النَّظَرُ  
أنتك تعصي كي تنال الغني وليس تَعْصِي الله كي تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل  
الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حسرات إزاء صروف الدهر ، بل تدرع  
بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها همٌّ تَلُوهمُ  
وأن كل شيء فيها إلى فناء ، يقول :

يَمَثُلُ ذُو اللَّبِّ فِي نَفْسِهِ مِصَابِيهِ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا  
فإن نزلتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعُهُ لَمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِثْلًا  
رَأَى الهمَّ يَفْضِي إِلَى آخِرِهِ فَصِيرٌ آخِرُهُ أَوْلَا  
وذو الجهل يَأْمَنُ أَيَّامَهُ وَيَنْسَى مِصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا  
فإن بَدَهْتُهُ صُرُوفُ الزَّمانِ بِيَعُضِ مِصَابِيهِ أَعْوَلَا  
ولو قَدَّمَ الحِزْمَ فِي أَمْرِهِ لَعَلَّمَهُ الصَّبْرَ عِنْدَ البِلا (١)

وموقف سادس هو اتخاذها من الشيب نذيراً للموت ، وأنه إذا دبَّ السواد  
خلال البياض كان حرياً بالإنسان أن يقلع عن غيِّه ويتزود لآخرته ، فقد دقت  
أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله ، وجدير به أن يبكي ويتفجع على نفسه ،  
فالحياة توشك أن تنقضي ويوشك ظلُّها أن ينحسر عنه إلى غير مآب ، كما انحسر  
عن الأفراد والأمم ، يقول :

بِكَيْتٍ لِقُرْبِ الأَجَلِ وَبُعْدِ فَوَاتِ الأَمَلِ

ووافدٍ شَيْبٍ طَرَا بِعِقبِ شِبابٍ رَحَلْ  
 شِبابٌ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَشَيْبٌ كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ  
 طَوَاكُ بَشِيرٌ البِقاءِ وَحَلْ بِشِيرِ الأَجَلْ  
 طَوَى صَاحِبٌ صَاحِباً كَذَاكَ اِختِلافُ الدُّونِ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم ، فهو لا يلقى الإساءة بالإساءة إذ يجد في ذلك وقوداً لتهييجها ، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئاً نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح . وهي خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله : ( وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولنن صبرتم لحو خير للصابرين ) وقوله : ( فمن عفا وأصلح فأجره على الله ) وقوله : ( وأن تعفوا أقرب للتقوى ) . وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البرِّ والمحبة في قلوب المسلمين بعفو بعضهم عن بعض ، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والثوبة الحسنة . وعن كل ذلك صدر محمود في تصوير عفوهِ عن بعض ظالميه قائلاً :

إني وهبتُ لظالمى ظُلْمى  
 ورأيتُهُ أَسدى إلىَّ يَدَا  
 رجعتُ إِساءتُهُ عليه وإِحْ  
 وغدوتُ ذا أَجرٍ ومحمدية  
 وكأَنما الإِحسان كان لَهُ  
 ما زال يظلمنى وأرحمه  
 وغضرتُ ذاك له على عَلمِ  
 لما أباَن بجِهلِهِ حِلْمى  
 سانى إلىَّ مِضاعَفِ الغُنى  
 وغدا بِكسبِ الظلمِ والإِثمِ  
 وأنا المِسىءُ إليه فى الحِكمِ  
 حتى رثيتُ له من الظُّلمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلى وروحى لا ينضب ، فهو تارة يرغب فى محاسن الأخلاق والشيم وتارة يعظ ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفانى والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه ، وقد توفى فى حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل .

## شعراء الاعتزال

تحدثنا في الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية في هذا العصر ، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق ، حتى ليتمكن أن نسمى هذا العصر عصر الاعتزال ، وقد ملثوا مساجد البصرة بمجدالم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة ، واستألوا كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسن والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة ، بل لقد استألوا الخلفاء منذ عصر المأمون ، فإذا هو يعلن رأيهم في أن القرآن مخلوق عقيدةً رسميةً للدولة . وكانوا - كما أسلفنا - يعلنون النظر العقلي إعلاء كبيراً ، حتى ليحيط بشر بن المعتمر العقل - كما مرَّ بنا في الفصل الرابع - بهالة قدسية ، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره ، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله ، وأدَّاهم ذلك إلى البحث في العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب ، بل أيضاً بين الله والطبيعة ، ففيها علل ثانوية فعالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان ، وإذا كان الله يتصف بالعدل لإزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة لإزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبشئ حتى من عناصر الشر . وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم لها واحداً خالفاً حكماً ، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته ، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة في الطبيعة . وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة ، وقالوا إن صفاته عين ذاته . وأفاضوا في هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك في الفصل الثالث من بعض الوجوه

ولا يكاد يلم القارئ بأرائهم ومذاهبهم في كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز ، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرعوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون ، إذ لم يقفوا بمباحثهم عند العقيدة

الإيمانية ، بل بسطوها حتى وسعت كل ما خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعات مما يتصل بمبادئ الموجودات والجسمانيات والروحانيات التي وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات في الكون والنفس الإنسانية . وبذلك تحوّل الاعتزال في هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفياً سائلاً ما يزال يرفد الفكر العربي بدرره وجواهره ، وتحوّل شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطيرهم ، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم .

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا في مجال الشعر ، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين : وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه ، ووجهة خاصة فهم ينظمون في الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث في الطبيعة ، وكثيراً ما يردّون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة . وأقدم شاعر منهم يلقانا في فاتحة هذا العصر صفوان الأنصاري تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدّى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلحاده ونادى في الناس أن يقتلوه ، لقوله بالرجعة وتفضيله النار على الطين وبالتالي إبليس على آدم معتدراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له ، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان . ولصفوان في تصديه لبشار موقفان : موقف يمدح فيه واصلًا ويتحدث عن أتباعه وذبيّهم عن الدين وحرّماته وما أوتوا من الفصاحة واللدد في الخصومة ، وكيف يضربون في أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقيدتهم ، مستطرداً إلى وصف سيئاتهم ونسكهم وتقشفهم ، وفيهم وفي أستاذهم يقول :

تلقَّبَ بِالغَزَّالِ وَاحِدُ عَصْرِهِ      فَمَنْ لِّلِيتَامَى وَالْقَبِيلِ الْمَكَائِرِ (١)  
وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ      وَآخَرَ رَافِضِيٍّ  
وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْكَارٍ مَّنْكَرٍ      وَآخَرَ مُرْجِيٍّ      وَآخَرَ جَائِرِ  
لَهُ خَلْفَ شَعْبِ الصِّينِ فِي كُلِّ تُغْرَةٍ      وَتَحْصِينَ دِينَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ كَافِرِ  
إِلَى سُوسِهَا الْأَقْصَى وَخَلْفَ الْبَرَابِرِ

ليصرف صدقته إليهن . وانظر في الأبيات البيان والتبيين ١ / ٢٥ وما بعدها .

(١) لقب واصل بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين ، وعطل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتعفات من النساء

رجالٌ دعاةٌ لا يَقُلُّ عَزِيمَهُمْ تَهَكُّمٌ جَبَّارٍ ولا كَيْدٌ ماكِرٍ  
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ وموضعٌ فُتِيّاها وعلمُ التشاَجُرِ

وموقف ثانٍ سبق أن عرضنا له في ترجمتنا لبشار ، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصويب رأى إبليس في رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم ، كما ينقض مزاعمه في الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة ، وخير ما يصور ذلك داليتيه التي أنشدها الجاحظ ، وهو فيها يسهب في بيان فضائل الأرض ، بادئاً بأنها تحمل فيما تحمل النار ، على نحو ما هو معروف في الحجارة والزند ، ثم يفيض في بيان طرائفها المبتوثة في البحار من لآيء وغير لآيء ، ومن عنبر وغير عنبر ، مع ما تحمل من السمك السايح ، إلى طرائف لا تكاد تحصى في الجبال والحِرار وظاهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة ، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق ، ومن قوله في ذلك (١) :

زَعَمْتَ بَأَنَّ النَّارَ أَكْرَمُ عُنْصُرًا  
وتُخَلِّقُ فِي أَرْحَامِهَا وَأَرْوَمِهَا  
وَفِي الْقَعْرِ مِنْ لُجِّ الْبَحَارِ مَنَافِعُ  
وَفِي قُلَلِ الْأَجْبَالِ خَلْفَ مَقْطَمٍ  
وَفِي الْحَرَّةِ الرَّجْلَاءُ تُلْفَى مَعَادِنُ  
مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ وَالْفِضَّةِ الَّتِي  
وَكُلِّ فِلِزٍّ مِنْ نَحَائِرِ وَأَنْكٍ  
وَكُلِّ يَواقِيْتِ الْأَنَامِ وَحَلِيْهَا

وَفِي الْأَرْضِ تَحْيَا بِالْحِجَارَةِ وَالزُّنْدِ  
أَعَاجِبُ لَا تُخْصَى بِخَطِّ وَلَا عَقْدٍ (٢)  
مِنَ اللَّوْلُوِّ الْمَكْنُونِ وَالْعَنْبِرِ الْوَرْدِ (٣)  
زَبْرَجْدُ أَمْلَاكِ الْوَرَى سَاعَةَ الْحَشْدِ (٤)  
لَهْنَ مَغَارَاتُ تَبَجُّسٍ بِالنَّقْدِ (٥)  
تَرَوُّقٍ وَتُضْبِي ذَا الْقِنَاعَةِ وَالزُّهْدِ  
وَمِنْ زَنْبِقٍ حَيٍّ وَنُوشَاذِرٍ يُسْدِي (٦)  
مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَحْجَارِ فَاخِرَةَ الْمَجْدِ

(٥) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة .

الرجلاء : الوعرة الحشنة . تبجس : تتفجر .

(٦) أنك : رصاص . النوشاذر بالذال والذال :

حجر أبيض صاف كالبلور .

(١) البيان والتبيين ١/٢٧ .

(٢) القمد : الحساب ، ويريد العد .

(٣) الورد : الأحمر .

(٤) المقطم : جبل مصر الممتد من القاهرة

إلى أسوان على الشاطئ الشرقي للنيل .

وفيها مقام الخِلِّ والرُّكْنُ والصفَا ومُسْتَلَمُ الحُجَّاجِ من جَنَّةِ الخُلْدِ  
ويأخذ صفوان بعد ذلك في بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردُّ  
آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية ، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع  
الصحابة لتركهم بيعة علي وطعن في علي لقبوله التحكيم ولأنه قعد في عهد الخلفاء  
الثلاثة الأول عن المطالبة بحقه ، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى  
شخص . ويظهر أيضاً أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان وماني عن النور والظلمة  
وأنه كان لا يزال يلوک أسماء غالية الشيعة من مثل ليلي الناعظية وأبي منصور العجلي  
وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم ، ويسجِّل ذلك كله صفوان عليه ، يقول :

أَتَجْعَلُ عَمْرًا وَالتُّطَاسِيَّ وَاصِلًا      كَأَتْبَاعِ دَيْصَانَ وَهُمْ قُمُشُّ المَدِّ (١)  
فِيَا ابْنَ حَلِيفِ الطَّيْنِ وَاللُّومِ وَالعَمِي      وَأَبْعَدَ خَلْقِي اللهُ مِنْ طُرُقِ الرُّشْدِ (٢)  
أَتَهْجُو أَبَا بَكْرٍ وَتَخْلَعُ بَعْدَهُ      عَلِيًّا وَتَعْزُو كُلَّ ذَاكِ إِلَى بُرْدِ (٣)  
كَأَنَّكَ غَضْبَانٌ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ      وَطَالِبُ دَحْلٍ لَا يَبِيْتُ عَلَى حَقْدِ  
أَتَجْعَلُ لَيْلَى النَّاعِظِيَّةَ نِحْلَةً      وَكُلَّ عَرِيْقِي فِي التَّنَاسُخِ وَالرَّدِّ

وقد خلاص بشار بعد ذلك للمذاهب الخوسية وعبادة إلهي النور والظلمة . ولم  
يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة . راء هذا الرد على  
بشار ، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القديما لم يثبتوا ردوده . وسرى  
بشر بن المعتمر يسير على هديه في هذا الاتجاه . ومثله العطوى الذي نلقاه بأخرة  
من هذا العصر ، وقد أنشد له القالي قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضي  
أحد متكلمي الشيعة الغالين وما كان يزعمه من التشبيه على الله وأنه في صورة إنسان  
وله نفس الخواص الخمس ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، واه يقول العطوى  
في بعض رَدِّه (٤) :

جَلَّ رَبُّ الأَعْرَاضِ والأَجْسَامِ      عَنِ صِفَاتِ الأَعْرَاضِ والأَجْسَامِ

(١) قمش : آراذل .  
(٢) يشير إلى حرفة أبيه برد وأنه كان طياناً  
يضرب اللبن .  
(٣) دحل : ثار . لا يبيت على حقد : يريد  
أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .  
(٤) أمالي القالي ٢/٢٣٦ .



جَلَّ رَبِّيَ عَنِ كُلِّ مَا اكْتَنَفْتَهُ      لَحَظَاتُ الْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ  
 بَرِيءٌ اللَّهُ مِنْ هَشَامٍ وَمِمَّنْ      قَالَ فِي اللَّهِ مِثْلَ قَوْلِ هَشَامٍ  
 قُلْ لِمَنْ قَالَ قَوْلَهُ وَرَأَاهُ      خَيْرَ مُسْتَرْشِدٍ وَخَيْرِ إِمَامٍ  
 لَمْ أَنْكَرْتَ قَوْلَ مَنْ عَبْدِ الشَّمْسِ      سَ وَصَلَّى لِلْأَنْجُمِ الْأَعْلَامِ  
 مَا الدَّلِيلُ الْمَبِينُ عَنْ حَدَثِ الْعَا      لَمْ أَفْصَحْ بِهِ لَدَى الْأَقْوَامِ  
 لَا دَلِيلٌ فَلَا تَرْمُهُ وَقَدْ قُدَّ      مَتَّ كِبَيْضِ الْأَنَامِ رَبُّ الْأَنَامِ  
 لَمْ تُرِدْ غَيْرَ قِدْمَةِ الْخَلْقِ فَاقْصِدْ      قَصْدَهُ دَعُ مَنَاقِضَاتِ الْكَلَامِ

وواضح أن العطوى يرى في التشبيه على الذات الإلهية تعطيلاً للألوهية ، فالله بنص القرآن ليس كمثل شيء وهو منزّه عن كل تجسيد وتجسيم ، ولو أشبهته المخلوقات لأصبح العالم قديماً مثله ، ولكان هناك قديمان : الله والعالم ، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القول من فلاسفة اليونان ومن بعض المتكلمين أمثال هشام حرباً عنيفة فالله وحده هو القديم ، أما العالم فحدث ، خلقه الله وأحدثه ، والدلالة على حدوثه وخلقته قائمة في بنيته وتركيبه .

وكان العطوى ينظم في أغراض الشعر المختلفة صابغاً كثيراً من معانيه بأصباغ المعتزلة ، ونقص القدرة على توليد الأفكار واستنباط خبيئاتها ، وفي ذلك يقول بعض القدماء « كان له فن من الشعر لم يُسبَقْ إليه ، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه وخفّ شعره على كل لسان ورؤى واستعمله الكتاب واحتادوا معانيه وجعلوه إماماً » . وقد أنشد له أبو الفرج في أغانيه طائفة من الأشعار في أغراض مختلفة ، وهي تصور كيف كان يطلب الإطراف في المعنى والخيال من مثل قوله يرثي أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة في عصره ومقدّمهم عند المعتصم والوائق (١) :

أَحْنَطْتُهُ يَا نَصْرُ بِالْكَافُورِ      وَزَفَقْتَهُ لِلْمَنْزِلِ الْمَهْجُورِ (٢)

(١) الأغاني ٥٨/٢٠ .

(٢) أحنطته : من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت .

هلا ببعض خصاله حنطته فيضوع أفق منازل وقبور<sup>(١)</sup>  
وقوله في رثائه أيضاً<sup>(٢)</sup>:

وليس نسيم المسك رياً حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف<sup>(٣)</sup>  
وكان منهوماً بالنيذ والشراب ، وله في وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس  
أشعار كثيرة نفع فيها على المعاني النادرة من مثل قوله: <sup>(٤)</sup>

فكم قالوا تمنّ فقلت كأس يطوف بها قضيب من كثيب  
وندمان تساقطني حديثاً كلحظ الحب أو غص الرقيب  
وعلى هذا النحو كان العطوى يتأق لمعانيه محاولاً أن يصل إلى كثير من دقائق  
الأخيلة والأفكار حتى يبهر معاصريه . ولعل من الخير أن نعرض بشيء من  
التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دوت أسماؤهم في هذا العصر وهم العتّابي  
وبشر بن المعتز والنظام .

### العتّابي<sup>(٥)</sup>

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي ، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد  
أصحاب المعلقات السبع ، ولد ونشأ في قنسرين بالشام ، ثم سكن الرقة بالموصل ،  
وتحول عنها إلى بغداد ، واختلف إلى حلقات المتكلمين ، ولم يلبث أن شغف  
بالمعتزلة والاعتزال ، كما شغف بالآداب الفارسية شغفاً أداه إلى تعلم الفهلوية من  
جهة ، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمر وخراسان ، ليتزود منها  
بكنوز الأدب الفارسي ، ومرّ بنا في الفصل الرابع لإكبابه على هذه الكتب ونسخه

والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدياء  
٢٦/١٧ ومروج الذهب للمسعودي ٣/٣٢٧  
وما بعدها والوزراء والكتاب للجيشياري ص  
٢٣٣ ، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفورص ٨٧  
وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/٤٨٨  
والفرج بعد الشدة للتونخي ٢/١١٩ والنجوم  
الزاهرة لابن تينري بردي ٢/١٨٦ .

(١) فيضوع : يفوح .  
(٢) أغاني (طبع الساسي) ٥٩/٢٠ .  
(٣) ربا : شذى ورائحة .  
(٤) أغاني ٥٩/٢٠ .  
(٥) انظر في العتّابي وأخباره وأشعاره ابن المعتز  
ص ٢٦١ والشعر والشعراء ص ٨٣٩ والبيان والتبيين  
٥٦/٤ ، ٥٣/٣ ، ٢٢٠ ، ١٢٠ ، ٥/١١  
والحيوان ٦٢/٣ ، ٤٨٣ والأغاني ١٣/١٠٩ .

لكثير من صحفها ومعانيها ، مما جعل بعض معاصريه يعجب من كثرة نسخه لها ، وقد ابتدره قائلاً : هل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعاني لهم . وكان طبيعياً أن يؤديه اعتزاله إلى قراءة كتب الفلاسفة ، بل يظهر أنه تعمق في قراءتها ، وهو تعمق دفعه إلى أن يؤلف في علم المنطق كتاباً اشتهر في عصره ، وله بجانبه مصنفات لغوية وأدبية مختلفة منها كتاب الألفاظ وكتاب فنون الحكم ، وفيه يقول المسعودي : « كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان والمكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القرينة على ما لم يكن لكثير من الناس في عصره مثله » وكان إلى ذلك يتزهّد في متاع الدنيا ويلبس الصوف أسوة بالناسكين . وسمع يحيى ابن خالد البرمكي وزير الرشيد بفضله فوصله به وبمجالسه ، وأخذ يرضى عليه هو وابناه الفضل وجعفر من نواهم ، وهو يرضى عليهم من مدائحهم ، ولم يلبثوا أن قدموه إلى الرشيد ، فمدحه ونال جوائز السنية ، مع انقطاعه لهم . ويروى الرواة أن الرشيد سمع باعتزاله ، ولم يكن يعجب بالاعتزال ولا بالمعتزلة ، فطلبه ، وخصى البرامكة مغبة طلبه ، فستروه عنه مدة ، وقيل إنه هرب إلى اليمن ، وما زال يحيى بن خالد - وقيل ابنه جعفر - يستعطف الرشيد عليه ، حتى استلّ ما في نفسه وأمنه . ويروى أنه غضب عليه حين ثار الوليد بن طريف الخارجي الشيباني ، لاشتراك بعض أفراد قبيلته معه ، غير أنه مثل بين يديه يتنصّل من الحرم الذي جناه بعض قومه ، وكان يزيد بن مزيد الشيباني قضى على الوليد فلوح بأن يزيد غسل عن ربيعة كلها ذنبها ، فرضى عنه ووصله .

وما زال العتابي منقطعاً إلى البرامكة حتى إذا فتك بهم الرشيد ظل يمدحه واصلاً أسبابه بطاهر بن الحسين وابنه عبد الله وعلى بن هشام أحد القواد الأجواد في العصر . ويظهر أنه كان يكثر من التردد على الرقة ورأس عين في ديار الجزيرة شمالي العراق . ولما تحول المأمون من مرو إلى بغداد وعقد المجالس لجلّة العلماء يتناظرون ويتحاورون بين يديه أشخص العتابي إليه ، ووالى بره ونواله عليه .

وقد أشاد القدماء بشعر العتابي وبراعته في الحوار في كل ما كتب من رسائل ، وفي ذلك يقول ابن المعتز : « كان العتابي مجيداً مقتدرّاً على الشعر عذب الكلام

وكانت جيد الرسائل حاذقا، ولما يجتمع هذا لأحد ، وما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابي . . فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام » ويقول أبو الفرج عنه : « شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية » . ويقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتّابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحدّوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولّدين كنعو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما ، وكان العتابي يحتذى حدو بشار في البديع » . ويقول في موضع آخر من بيانه : « العتابي يذهب شعره في البديع » .

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصاویر فحسب ، بل يقصد أيضاً المعاني الطريفة النادرة التي أتاحت للعتابي ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها في معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب . وأول ما نقف عنده مديحه ، وقد طارت له فيه قصيدة في الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورة الوليد بن طريف التي أشرنا إليها فيما أسلفنا ، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسيب على هذه الشاكلة :

ماذا شجاك بحوارين من طللٍ      ودمتة كشفت عنها الأعاصير<sup>(١)</sup>  
شجاك حتى ضمير القلب مشترك<sup>(٢)</sup>      والعين إنسانها بالماء مغمور<sup>(٢)</sup>  
في ناظري انقباض عن جفونهما      وفي الجفون عن الآماق تقصير  
لبست أردية الثوار من طللٍ      وزلت أخضر تعلق الأزهير<sup>(٣)</sup>

وواضح ما في هذا المطلع من دقة في التفكير ، فهو يصور شجو نفسه وحزنها حين ألم بالطلل ، ويطيل في هذا التصوير ، محاولا النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح في البيت الثالث ، وهو لا يعنى بدقة الفكر والحيال وحدهما بل يعنى أيضاً بدقة الحس على نحو ما نرى في دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسواً

(١) حوارين : من قرى حلب . والدمتة :  
(٢) مشترك : مهموم .  
(٣) أردية : ثياب .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله في الرشيد :

مستنبت عزمات القلب من فكرٍ ما بينهن وبين الله معمورٌ  
فَتَّ المدايح إلا أن أنفسنا مستنطقات بما تحوى الضمائر  
ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهيرٌ  
وهو دائماً في مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته  
وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمامٌ له كَفٌّ يَضُمُّ بَنَائِهَا عَصَا الدِّينِ مَمْنُوعاً مِنَ الْبَرِّي عَوْدُهَا  
وَعَيْنٌ مَحِيطٌ بِالْبَرِيَّةِ طَرْفُهَا سِوَاءِ عَلَيْهِ قُرْبُهَا وَبَعِيدُهَا  
وَأَصْمَعُ يَقْظَانُ يَبِيتُ مَنَاجِيَا لَهُ فِي الْحَثَا مَسْتَوْدَعَاتٌ يَكِيدُهَا  
سَمِيعٌ إِذَا نَادَاهُ فِي قَعْرِ كُرْبِيَّةٍ مَنَادٍ كَفْتَهُ دَعْوَةٌ لَا يَعِيدُهَا

ونحس في هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف في تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى في معارض مختلفة ، يرفده في ذلك عقله الاعترالي الخصب الذي لا يزال يثير في نفسه الخواطر التي تبهر السامعين من مثل قوله في الرشيد ، معيدا للمعاني السابقة في هيآت جديدة :

رَعَى أُمَّةَ الْإِسْلَامِ فَهُوَ إِمَامُهَا وَأَدَّى إِلَيْهَا الْحَقَّ فَهُوَ أَمِينُهَا  
وَيَسْتَنْتِجُ الْعَقْمَاءَ حَتَّى كَأَنَّهَا تَغْلُغَلُ فِي حَيْثُ اسْتَقَرَّ جَنِينُهَا (٢)  
وَمَا كُلُّ مَوْصُوفٍ لَهُ الْحَقُّ يَهْتَدِي وَلَا كُلُّ مَنْ أَمَّ الصُّوَى يَسْتَبِينُهَا (٣)  
مَقِيمٌ بِمُسْتَنْزِ الْعُلَا حَيْثُ تَلْتَقِي طَوَارِفُ أَبْكَارِ الْخُطُوبِ وَعُؤْنُهَا (٤)

وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الخفيف وما سنه في حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته في حلّ المشاكل

(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .  
(٤) المستن : مكان الاستئنان وهو سرعة العدو . الطوارف : الحدیثات . العون : جمع عوان ضد البكر .

(١) أصمغ : يقظ القلب فطن حاذق .  
يكيدها : يدبرها .  
(٢) العقماء : المشكلة العسرة . يستنتج : يستولد .

العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكنن<sup>١</sup> في أعماقها وأرحامها من حلول خفية ، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب . وواضح ما يُعنى به العتّابى من دقة في معانيه وطرافة ، ويُرْوَى أنه دخل سرّاً مع المتظلمين إلى الرشيد في بعض سخطاته عليه ، فأنشده :

أخِضْنِي الْمَقَامَ الْعَمَرَ إِنْ كَانَ غَرَّنِي سَنَا خُلْبٍ أَوْ زَلَّتِ الْقَدَمَانِ<sup>(١)</sup>  
 أَنْتَرَكْنِي جَذَبَ الْمَعِيشَةَ مُقْتَرًا وَكَفَّاكَ مِنْ مَاءِ النَّدى تَكْفِيَانِ<sup>(٢)</sup>  
 وَتَجْعَلْنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَمَا بَلَدْتِ يَمِينِي بِالنَّدَى وَلِسَانِي  
 فَأَعْجَبَ الرَّشِيدُ قَوْلَهُ ، وَأَجَازَهُ جَائِزَةً سَنِيَةً . وَكَانَ جَعْفَرُ الْبَرْمَكِيُّ أَوْ  
 أَبُوهُ يَحْيَى شَفَعَ لَهُ عِنْدَ الرَّشِيدِ فِي مَوْجِدَةٍ لَهُ أُخْرَى عَلَيْهِ ، كَمَا أَشْرْنَا إِلَى ذَلِكَ آتِفًا ،  
 فَقَالَ بِمَدْحِهِ :

مَا زَلْتُ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ مَطْرَحًا قَدْ ضَاقَ عَنِّي فَسِيحُ الْأَرْضِ مِنْ حَبِيلِي<sup>(٣)</sup>  
 وَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلَطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيْ أَجَلِي

وهذا البحث عن المعاني النادرة أشاع في شعر العتّابى ظاهرة لم تكن مألوفة هي قِصْرُ المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة في كثير من الأحيان ، وكأنما يتشبه في ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التي كان يعكف عليها والتي يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع ، وما يصور ذلك عنده أجمل تصوير ما يُروَى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوماً فأنشده مادحاً :

حُسْنُ ظَنِّي وَحُسْنُ مَا عَوَّدَ اللَّؤْلُؤُ سِوَايَ مِنْكَ الْغَدَاةَ أَتَى بِي  
 أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْ حُسْنِي نِي يَقِينِي حَدَاةَ إِلَيْكَ رِكَابِي  
 ثم دخل عليه من الغد ، فأنشده البيتين التاليين اللذين أنشدناهما في الفصل السادس :

١) تكفان : تهلان وتسيلان .

٢) غمرات : شدائد .

١) المقام العمر : المقام الشديد . منا خلب :

ضوء البرق الذي لا يعقبه مطر .

٢) مقترًا : ضيق الرزق . الندى : الجود .

وَدُّكَ يَكْفِينِيكَ فِي حَاجَتِي وَرُؤْيَتِي كَافِيَةٌ عَنِ سُؤَالِ  
وَكَيْفِ أَخْشَى الْفَقْرَ مَا عَشْتَلِي وَإِنَّمَا كَفَّكَ لِي بَيْتَ مَالٍ  
ثُمَّ دَخَلَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ ، فَأَنْشَدَهُ :

بِهَجَاتُ الشِّيَابِ يُخَلِّقُهَا اللَّهُ رُ وَثُوبُ الشَّنَاءِ غَضُّ جَدِيدُ  
فَاكْسُنِي مَا يَبِيدُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ هُ فَيَكْسُوكَ اللَّهُ مَا لَا يَبِيدُ  
وَوَاضِحٌ أَنَّهُ حَوْلَ قَصِيدَةِ الْمَدِيحِ إِلَى بَيْتَيْنِ قَصِيرَيْنِ ، يَحْمِلَانِ مَعْنَى طَرِيفًا ،  
وَهُوَ مَعْنَى لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ التَّدْبِيرِ وَبَعْدَ طَوْلِ الرَّوِيَةِ وَبَعْدَ النَّظَرِ وَطَوْلِ التَّفَكِيرِ ،  
بَلْ بَعْدَ التَّوَقُّفِ وَطَوْلِ التَّنْقِيبِ . وَعَلَى نَحْوِ مَا يَلْقَانَا ذَلِكَ فِي مَدِيحِهِ يَلْقَانَا فِي عَتَابِهِ  
مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مُغْتَرِبًا حُشِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ  
رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمْلِي وَثَنَى إِلَيْكَ عِنَانَهُ شُكْرِي  
وَجَعَلْتُ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مُنْتَهَى عُدْرِي

وَلَهُ غَزَلِيَاتٌ تُطَبِّعُ بِنَفْسِ الطَّوَابِعِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ ، فَهُوَ مَا يَزَالُ يَحَاوِلُ فِيهَا  
اسْتِنْبَاطَ الْمَعَانِي وَالصُّوَرِ الدَّقِيقَةِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ :

رُسُلُ الضَّمِيرِ إِلَيْكَ تَتَرَى بِالشُّوقِ ظَالِمَةٌ وَحَسْرَى<sup>(١)</sup>  
مَا جَفَّ لِلْعَيْنَيْنِ بَعْدَكَ يَا قَرِيرَ الْعَيْنِ مَجْرَى  
إِنَّ الصَّبَابَةَ لَمْ تَدْعُ مِنِّي سِوَى عَظْمٍ مُبْرَى<sup>(٢)</sup>  
وَمَدَامِعِ عَمْبَرِي عَلَى كَيْدِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرَى<sup>(٣)</sup>

وَأَدَاءَهُ طَوْلَ نَظَرِهِ وَفَحْصَهُ لِلْمَعَانِي إِلَى أَنْ يَجْرِدَهَا وَيَجْسِمُهَا أَحْيَانًا ، وَأَحْيَانًا  
أُخْرَى يَتَعَمَّقُ فِيهَا وَيَتَغَالُغُ إِلَى لَبِهَا ، مُسْتَخْرِجًا بَعْضَ الصُّوَرِ أَوْ بَعْضَ الْحُكْمِ ،  
مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ مَجْسَدًا لِشُكْرِهِ :

(٢) مبرى : مهزول .

(٣) حرى : محترقة .

(١) ظالمة : من الظلوع وهو العرج من كثرة

السير . حسرى : متعبة .

فلو كان للشكر شخصٌ يبينُ  
لثَلَّتُهُ لك حتى تراه لتعلم أنى امرؤٌ شاكِرٌ  
إذا ما تأمله الناظرُ

وقوله في ملامة الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن :

لومٌ يعينك من سوءِ تُقارِفُهُ أبقى لِرِضِّك من قولٍ يُداجيكَا<sup>(١)</sup>  
وقد رمى بك في تِيهَاءٍ مهلكةٍ من بات يكتمك العيبُ الذي فيكَا<sup>(٢)</sup>

وله أشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع ، محللا لها تحليلا بديعاً ، من ذلك تصويره لمن اتبع هداة ، فعدل عن محجة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق الذميم ، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذي وهب الإنسان من العقل ما يميز به الحيث من الطيب ، والضار من النافع ، فإذا هو يستجيب لهواه ودواعي نفسه ، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستم شكره لأنعم ربه ، ولكن أنى له وفطام النفس عسير ، يقول :

وكم نعمةٍ آتاكها الله جَزَلَةً مبرأةٍ من كلِّ خُلُقٍ يَدِيمُهَا<sup>(٣)</sup>  
فَسَلَّطْتَ أخلاقاً عليها ذميمةً تعاورنُها حتى تفرى أديمُهَا<sup>(٤)</sup>  
وكنت امرءاً لو شئت أن تبلغ المَدَى بلغتْ بأدنى نعمةٍ تستدِيمُهَا  
ولكنْ فِطامُ النفسِ أَعْسَرُ محملاً من الصخرة الصِّماءِ حين ترومها

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعاني محتالا لذلك متلفظاً له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية ، وقد ظل الناس يفتنون بشعره ، وهو يعرض عليهم مبتكراته في معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه في سنة ثمان ومائتين .

(٣) يدِيمُهَا : يميها .

(٤) تفرى : تقطع .

(١) تقارِفُهُ : ترتكبه . يداجيك : يتناقك .

(٢) تيهاء : فلاة مضلة .



بشر<sup>(١)</sup> بن المعتمر

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم ، يقال إنه كوفي الأصل وأمله تحوّل منها أولاً إلى البصرة موطن المعتزلة ، ثم استوطن بغداد ، وقد اتخذ النخاسة حرفة له ، مثله في ذلك مثل محمود الوراق ، وكان أيضاً مثله زهداً ونسكاً وعبادة . ولا نعرف بالضبط متى نزل بغداد ، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبرامكة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكي ، وربما كان السبب الحقيقي في توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية ، وكان البرامكة يتشيعون سرّاً ، ففسحوا له في مجالسهم ، ونصّ كثيرون على هذه النزعة ، يقول النوبختي إنه كان يوافق الشيعة في الحكم على عليّ بأنه كان مصيباً في حربه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ ، وأيضاً كان مصيباً في قبوله التحكيم . ويقول ابن أبي الحديد : « كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخننا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علي عليه السلام (أى على أبي بكر وعمر) ويقول كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا (من المعتزلة) البغداديين قاطبة وفي كثير من البصريين » . وقد روى له ابن المرتضى أبياتاً من أرجوزة يقول في بعض شطورها « نبرأ من عمرو ومن معاوية » خصمى علي في صيفين ، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه .

وقد عرضنا في الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التي تكونت حول آرائه ، والتي سميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التي كان يعتنقها نظرية التولد ، وكان يذهب فيها إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أوفى غيرنا فهو فعلنا . وذكرنا أيضاً أنه كان ينكر فكرة وجوب الأصلح على الله ، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية ، ومن أجل ذلك يكون الذي يجب عليه

ص ٣٥ ، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبعة الحلبي) ٣١٦/٣ والملل والنحل للشهرستاني ص ٤٤ والمواقف للإيجي (طبع بولاق) ص ٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحى الإسلام ١٤١/٣ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١ .

(١) انظر في بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٢٣٩/٤ و٦٢/٦ ، ٩٠ ، ٢٨٤ وما بعدها و٤٠٥ ، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١/١٣٥ وما بعدها وأمالى المرتضى ١/١٨٦ ولسان الميزان ٢/٣٣ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلي والأنساب للسمعاني في البشرى وفرق الشيعة للنوبختي

حقاً هو تمكين العبد بما أودع فيه من القدرة والاستطاعة . وكان ينصر القياس العقلي نصرة شديدة ، كما كان يجل العقل إجلالا بعيداً حتى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة ، وقد مرّت بنا في الفصل الرابع أبياته التي يشيد فيها به إشادة بالغة ، لما أودع الله فيه من المعرفة الفطرية التي تجعل الإنسان يميز الشر من الخير، ويدرك الحسن فيعنتقه والقيبح فيتجنبه ، ويقول لولاه لذهب الإدراك والتمييز ، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته . وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديم في فهرسته .

وكان حسن الجدال قوى الحجة، وهو يُعدّ في الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم ، وقد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر ، وروى عنه في بيانه صحيفة طويلة في البلاغة ، تجعله واضع أصولها الأولى في صورتها الدقيقة ، وقد حللناها في كتابنا « البلاغة (١) : تطور وتاريخ » . وهي تشهد له ببصره النافذ في معرفة طبقات الكلام والملاءمة بينها وبين طبقات السامعين .

ولم يكن يروى الشعر فحسب ، بل كان أيضاً بارعاً في نظمه ، غير أنه لم ينظمه في الأغراض الغنائية التي تعود الشعراء أن ينظموا فيها ، بل نظمه في الاتجاه التعليمي الذي كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه ، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقہ والمنطق ، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة ، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله في صنوف خلتفه ، مما يمكن أن يدخل في التاريخ الطبيعي ، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحداً أقوى منه على الخمس والمزدوج وأنه يفوق أبانا . وليس بين أيدينا شيء من خمساته ، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة ردّ فيها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت ، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص . وأكبر الظن أن القطعة التي أنشدها له صاحب الانتصار في التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جهم مقتبسة هي الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول :

ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ  
ولا همُ منا ولا نرضاهمُ

(١) انظر كتاب البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٤١ وما بعدها .

لِإِمَامِهِمْ جَهَنَّمُ وَمَا لَجَهَنَّمُ وَصَحْبِ عَمْرٍو ذِي التَّقَى وَالْعِلْمِ  
وَمَعْرُوفٍ أَنْ جِهْمَا كَانَ يُؤْمَنُ بِالْجِبْرِ وَيُنْفِي اسْتِطَاعَةَ الْإِنْسَانِ وَحَرِيَّةَ إِرَادَتِهِ  
مِمَّا كَانَ يَعْتَقُهُ الْمَعْتَزِلَةَ وَأَسَانِدَتُهُمْ أَمْثَالُ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ وَوَأَصْلُ بْنُ عَطَاءٍ ،  
وَرَوَى الْجَلَّاحُ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ حَيَوَانِهِ مَقْطُوعَةٌ مِنْ إِحْدَى أَرَاجِيزِهِ ، وَرَبَّمَا  
كَانَتْ هِيَ الْآخَرَى مِنَ الْأَرْجُوزَةِ السَّالِفَةِ ، وَكَذَلِكَ مَا رَوَى فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ  
مِنْ تَفْضِيلِهِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى الْخَوَارِجِ ، إِذْ يَقُولُ :

مَا كَانَ فِي أَسْلَافِهِمْ أَبُو الْحَسَنِ      وَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَلَا أَهْلُ السُّنَنِ  
غُرٌّ مَصَابِيحُ الدُّجَى مَنَاجِبُ      أَوْلَثِكَ الْأَعْلَامِ لَا الْأَعْرَابُ  
كَمِثْلُ حُرْقُوصٍ وَمِنْ حُرْقُوصٍ      فَقَعَةٌ قَاعٍ حَوْلَهَا قَصِيصٌ (١)  
لَيْسَ مِنَ الْحَنْظَلِ يُشْتَارُ الْعَسَلُ      وَلَا مِنَ الْبَحُورِ يُصْطَادُ الْوَرَلُ (٢)  
هِيَهَاتَ مَا سَافَلَةٌ كَعَالِيَةٍ      مَا مَعْدُنُ الْحِكْمَةِ أَهْلُ الْبَادِيَةِ

وَرَوَى لَهُ الْجَلَّاحُ فِي الْحَيَوَانِ قَصِيدَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ قَدِمَ لِهَمَّا بِقَوْلِهِ : « أَوْلُ  
مَا نَبْدَأُ قَبْلَ ذِكْرِ الْحَشْرَاتِ وَأَصْنَافِ الْحَيَوَانِ وَالْوَحْشِ بِشَعْرِ بَشَرِ بْنِ الْمَعْتَمِرِ  
فَإِنْ لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ قَصِيدَتَيْنِ قَدْ جَمَعَ فِيهِمَا كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِبِ وَالْفَرَائِدِ ، وَنَبَّهَ بِهَذَا  
عَلَى وَجْهِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَجِيبَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْبَلِيغَةِ . . وَإِذَا قَسَمْنَا مَا عِنْدَنَا  
فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ عَلَى بِيوتِ هَذَيْنِ الشَّعْرَيْنِ وَقَعَ ذِكْرُهُمَا مَصْنُفًا فَيَصِيرُ حِينَئِذٍ  
آتَقَ فِي الْأَسْمَاعِ وَأَشَدَّ فِي الْحَفْظِ » . وَبَشَرٌ يَسْتَهْلِكُ الْقَصِيدَةَ الْأُولَى بِحَدِيثِهِ عَنْ  
طَبَاعِ الْإِنْسَانِ وَمَا رَكِبَ فِيهِ مِنَ الطَّمَعِ الَّذِي يَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى أَنْ يَتَوَاتَبُوا بَعْضُهُمْ  
عَلَى بَعْضٍ تَوَاتَبَ الذَّنَابِ ، وَيَفِيضُ فِي وَصْفِ الْحَيَوَانِ وَالْحَشْرَاتِ وَبَعْضُ الطَّيْرِ  
وَيَبَيِّنُ طَبَاعَهَا وَعَجَائِبَ خَلْقِهَا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ تَحَوَّلَ إِلَى إِبَاضِيَّةِ  
الْخَوَارِجِ وَرَافِضَةِ الشَّيْعَةِ مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِ الْجَحْرِ ، وَهُوَ كِتَابٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ عِنْدَ  
أُمَّتِهِمْ فِيهِ كُلُّ أَصْنَافِ الْعِلْمِ وَكُلُّ مَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَلَكَ مَعَ الرَّافِضَةِ

مثلا للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها.  
(٢) يشتار : يستخرج . الورل : دابة  
صحراوية كالغلب .

(١) حرقوص : من زعماء الخوارج لم يعد على .  
القصيص : شجرتنتبت في أصله الكفاة وهي الفقع .  
والقاع : الأرض المستوية ، ويضرب الققع

والإباضية الحشوية ، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه في القرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وفي ذلك يقول :

لستُ إباضياً غيبياً ولا كرافضياً غره الجفراً  
 كما يغرُّ الآلُ في سبَسبِ سَفراً فأودى عنده السَّفراً<sup>(١)</sup>  
 لسنا من الحشو الجفاة الأولى عابوا الذي عابوا ولم يدروا  
 لا تنجع الحكمةُ فيهم كما ينبوعن الجرولة القطر<sup>(٢)</sup>  
 أولئك الداءُ العُضالُ الذي أعيأ لديه الصَّابُ والمقرُّ<sup>(٣)</sup>

وفي هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب الإمامية كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السادس، وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان زيدى الهوى . وهو في القصيدة الثانية يتحدث أيضاً عن غرائب الخلق في أوابد الوحش والحشرات والطيور السابح في الهواء، مستنبطاً كثيراً من العظام ، ومنوها بالعقل وساطع نوره الذي نكتشف به مثل هذه العجائب والعبر وتفصل بين الخير والشر والنافع والضار ، ويعرض في أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة ، فيقول :

قد غمرَ التقليدُ أحلامهم فناصبوا القياسَ ذا السِّبرِ  
 فهو يأخذ عليهم أنهم يلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلي  
 السديد الذي به تقاس الأشياءُ ويُسبَرُ ويُعرَفُ غورها ومقدار ما فيها من  
 الخطأ والصواب . وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولاً في شعره التعليمي بالرد على  
 خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الرباني حتى وافاه القدر في سنة عشر  
 ومائتين .

(١) الآل : السراب . السبَسب : الفلاة .  
 السفر : جماعة المسافرين .  
 (٢) الجرولة : الصخرة الملساء . ينبو : يزل  
 ويسقط .  
 (٣) الصاب والمقر : نباتان شديدا الحرارة

## النظام (١)

هو إبراهيم بن سيار بن هانيء ، وُلد ونشأ بالبصرة ، وكان يحترف نظم الخرز في سوقها لأول حياته فلُقِّبَ بالنظام ، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد رُوي أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذي ظنناه ، إذ نجده يناظر ويحاور أهل الكلام في مجالس البرامكة ، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلا بد أن يكون قد نضج ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠ . وهو ابن أخت أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عني به وبثبته عناية كبيرة ، وهي عناية صادفت فيه عقلا خصيباً وذكاء نادراً . وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك وعلوم اللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعا في المناظرة وقطع الخصوم بالحجج الساطعة ، فتلقن ذلك عنه ، بل لعله بذه فيه ، وقد مرَّ بنا في ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرَّض له وهو حدث ، فإذا هو يلقمه بمحاورته له حجراً ، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة ، وكان كثيراً ما يظفر بخاله . وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة في عصره ، وطارت شهرته في هذا الباب ، لإفحامه دائماً لهم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة ، حتى ليقول الجاحظ في حيوانه : « لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم

والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٤ والملل والنحل للشهرستاني ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١ وانظر مروج الذهب للسعودي ٣/٢٨٧ وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربي) ص ٢٢٦ . وضحي الإسلام ٣/١٠٦ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورص ٥٩ .

(١) انظر في النظام وأخباره وأشعاره فهارس البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وأمال المرتضى ١/١٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/٩٧ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن المعتز ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الخياط ومقالات الإسلاميين للأشعري ولسان الميزان ١/٦٧ وروضات الجنات للخوانساري ص ٤٢

وإبراهيم (النظام) هلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة<sup>(١)</sup> . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالي انذى نُسب إليه ، فتبعه - كما يقول ابن تغرى بردى - خلق كثير ، مما جعل اسمه يشيع في العامة ويدور على كل لسان . ومرت بنا في الفصل الثالث كلمة موجزة عن نظريته الاعتزالية ، وهي نظرية كانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وقد مزج في قوة بين كلام الفلاسفة وأفكار المعتزلة ومال في آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصلاح لعباده ، وقوله بنى الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ، وقوله إن الله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتاً وحيواناً وإنساناً ، غير أن الله أكنن بعضها في بعض ، فأدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده ، وهو ما ما يعرف عنده بنظرية الكمون ، ومن ذلك قوله إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت . وكان يُعَلَى سلطان العقل إعلاء شديداً ، ولعل ذلك هو الذي أدّاه إلى إنكار حجية الإجماع والقياس وكأنه خشي في الأخير إلى نقص الأصل الذي يقاس عليه ، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به يعيبه هو نفسه بأنه كان قليل التثبت من صحة المقدمات في أقيسته ، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق .

وله شعر كثير يدور في كتب التراجم ، وهو مطبوع بطوابع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة ، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذاً إلى أغوار المعاني ، متصرفاً فيها تصرف الحاذق الفطن ، وملاًئماً بينها إلى أبعد حدود الملاءمة يعينه في ذلك حسّ دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله :

وشادنٍ ينطقُ بالظرفِ يقصُرُ عنه منتهى الوصفِ

رَقَّ فُلُو بُزَّتْ سَرَابِيلُهُ عُلِقَهُ الْجَوُّ مِنَ اللَّطْفِ (١)  
يَجْرَحُهُ اللَّحْظُ بِتَكَرُّرِهِ وَيَشْتَكِي الْإِيمَاءَ بِالطَّرْفِ

وكلمة اللطف في الأبيات لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى أن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذي يحتويه . وفي البيت الأخير مبالغة واضحة يستم بها مبالغة البيت الذي يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها ، فقال :

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَآلَمَ خَدَّهُ فَكَانَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظْرِي أَثْرُ  
وَصَافِحِهِ قَلْبِي فَآلَمَ كَفَّهُ فَمِنْ صَفْحِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ عَقْرُ (٢)  
وَمَرَّ بِقَلْبِي خَاطِرًا فَجَرَحَتْهُ وَلَمْ أَرَ خَلْقًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ  
يَمُرُّ فَمِنْ لَيْنٍ وَحُسْنٍ تَعَطُّفٍ يُقَالُ بِهِ سُكْرٌ وَلَيْسَ بِهِ سُكْرُ

وهو وهم بعيد لا يقع في عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون في تصور الأشياء ، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذي كان يؤمن بأن الأعراض كامنة في الجوهر وأن حركات الإنسان كامنة في نفسه وأن حركات النفس أجسام مستترة ، وبذلك نفذ إلى هذا التجسيم الغريب في الأبيات . ويستلهم رأيه في أن النور سماء علوي ، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شيء عليه ، فيقول :

أَفْرِغَ مِنْ نَوْرِ سَمَائِي مَصُورٌ فِي جِسْمِ إِنْسِي  
وَأَفْتَقَرَ الْحُسْنَ إِلَى حُسْنِهِ فَجَلَّ عَنْ تَحْدِيدِ كَيْفِي  
أَبْدَعَهُ الْخَالِقُ وَاخْتَارَهُ مِنْ مَازِجِ الْأَنْوَارِ عُلُوي  
فَكَلُّ مِنْ أَغْرَقَ فِي وَصْفِهِ أَصْبَحَ مَنْسُوبًا إِلَى الْعِي

وتختلط في الأبيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة . ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديد

(٢) المقر : الجرح .

(١) بزت : نصيت ونعلت .

أو عبارة أخرى عن العرض ، وهو عنده جسم . وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف في الخيال ، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوله يصف احتسائه للخمر من بعض الدنان :

ما زلت آخذ روح الزُّقِّ في لُطْفٍ      وأَسْتَبِيحُ دَمًا من غير مجروح  
حتى انشيتُ ولي روحان في جسدي      والزُّقُّ مُطْرَحُ جسمٍ بلا روح  
وهو هنا أيضًا ينظم بعقله الاعتزالي وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابه للبدن بأجزائه تشابك المائة للورد ، وهي صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشية . وله في تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذي كان يبادله إعجابا بإعجاب وودًا بود :

حي لعمرو جوهرٌ ثابتٌ      وحبُّه لي عَرَضٌ زائلٌ  
به جهاتي الستُ مشغولةٌ      وهو إلى غيري بها مائلٌ

وواضح تشبته بلغة المتكلمين وآرائهم في الجوهر والعرض والجهات الست . ولم يكن هناك غرض ينظم فيه إلا ويدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذي يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوله بمدح الأمين :

ألا ياخيرَ مَنْ رَأَتْ العيون      نظيرُك لا يُحسُّ ولا يكونُ  
وفضلكَ لا يُحدُّ ولا يجارى      ولا تحوى حيازته الظنونُ  
خُلقتَ بلا مشاكلةٍ لشيءٍ      فأنتَ الفوقُ والثقلانِ دون  
كأنَّ الملكَ لم يك قبلُ شيئاً      إلى أن قام بالملك الأمين

وهي مبالغة مسرفة ، وكأن النظام كان أحد من ثبتوا مثل هذه المبالغة في المديح ، وهي مبالغة نفذت إليه من إغراقه في الوهم واستيحائه لغة المتكلمين . وقد



اختلف القدماء في السنة التي توفي فيها ، فقبل سنة إحدى وعشرين ومائتين وقيل بل سنة إحدى وثلاثين ، وأكبر الظن أن حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة .

٥

### شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسي كان يصدر في جمهوره عن روح الشعب ، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدا في مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون عنها فإنه انفصال في الظاهر ، إذ كانوا ما يزالون يضعون نصب أعينهم مثالية الحاكم التي تتطلبها الأمة والتي رسمها لها الدين الحنيف . وكانوا في جوانب من هذا المديح ونقصه مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة في صدور الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين . فحتى المديح لم يبعد عن روح الشعب ، وكان الهجاء يصدر في وضوح عن هذه الروح ، إذ مثل الشعراء فيه الخصال السيئة التي ينبغي أن يتطهر منها المجتمع ، سواء في الأفراد العاديين أو في الحكام ، ولعل ذلك هو الذي كان يشيعه على جميع الألسنة .

وخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة الشظف وعيشة الكفاف وما يطوى فيهما من زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون من تجسيم ، فحياة الحانات والقيان والأديرة وكل ما في المجتمع من لهو ومواسم للهو ، ونقصه الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية ، كل ذلك مصور في شعر الشعراء ، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعمل الصالح وكانت أكثر شيوعاً من حياة اللهو والمجون ، مما جعل أشعار الزهد تجرى على كل لسان ، وفي الأغاني خبر يصور ذلك أدق تصوير ، إذ يروى أن الملاحين في دجلة كانوا يتغنون في نزهة للرشد بقطعة زاهدة لأبي العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها في غير هذا الموضع وفيها يقول (١) :

(١) أغاني ١٠٣/٤ وما بعدها .

سَيَصِيرُ المرءُ يوماً جَسَدًا ما فيه رُوحُ  
كلنا في غَفَلَةٍ وال موتُ يغدو وَيروحُ  
لتموتنَّ وإنَّ عَمَّ رَتَ ما عُمَّرَ نُوحُ

ومرت بنا في ترجمة أبي العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار ، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعاً غير عادل ، فالخلفاء والوزراء وحواشيبيهما يعيشون في الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم ، ويمدون مَن حوْلهم ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب ، ويُنثرى بعض التجار ثراء فاحشاً . وتجمُّ في البؤس والمسغبة كثرة الشعب التي كانت لاتجد بداً تمتد إليها وتخمد نار الفقر والظنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العارى ويسقى الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكندية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدبائية التي كانت تنبئ عندنا لأواخر القرن الماضي في المواسم والموالد والاحتفالات العامة ، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسي ، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده في الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم ، وله يصور بؤسه وفقره (١) :

ليس إغلاقي لبابي أن لي فيه ما أخشى عليه السرِّقا  
إنما أغلقه كى لا يرى سوء حالى من يوجب الطُّرِّقا  
منزل أوطنه الفقرُ فلو دخل السارقُ فيه سرِّقا

ومن الشعراء الذين عاشوا في ضنك وحرمان أبو المخصَّف وكان في أيام المأمون ، وكان يدور في بغداد يسأل الناس رغيِّفاً أو كسرة خبز ، وله أشعار مختلفة في وصف الرغيِّف وكيف كان كلَّ همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكيسرِ اليابسة يتبلَّغون بها ، وهو لذلك يجعله موضع شعره من مثل قوله (٢) :

(٢) كتاب الورقة لابن الجراح ص ١١٥

(١) ابن المعتز ص ٣٧٧ .

دَعَّ عَنْكَ رَسْمَ الدِّيَارِ      وَدَعَّ صِفَاتِ القِفَارِ  
 وَعَدَّ عَنْ ذَكَرِ قَوْمٍ      قَدْ أَكْثَرُوا فِي العُقَارِ<sup>(١)</sup>  
 وَدَعَّ صِفَاتِ الزَّنَانِيَةِ      رَ فِي خِصُورِ العِذَارِي<sup>(٢)</sup>  
 وَصِفَ رَغِيْفًا سَرِيًّا      حَكْتَهُ شَمْسُ النِّهَارِ  
 أَوْ صُورَةَ البِدْرِ لِمَا أَشْهَ      تَتَمُّ فِي الاسْتِدَارِ  
 فليس تَحْسِنُ إِلَّا      فِي وَصْفِهِ أَشْعَارِي  
 وَذَلِكَ أَنِّي قَدِيمًا      خَلَعْتُ فِيهِ عِذَارِي

فهو إنما يتدلته في الرغيف ويمتلء به قلبه المحروم حبا وصبابة . وكان وراءه كثيرون متعففون لا يمدون أيديهم للسؤال ، وربما فقدوا حتى الرغيف ولم يجدوه . ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائسة على نحو ما وصفها أبو الشمقمق ولذلك كان ينبغي أن نقف عنده قليلا .

### أبو الشمقمق<sup>(٣)</sup>

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى ، خراسانى الأصل ، من موالى الأمويين ، ومعنى الشمقمق الطويل ، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى قبح شكله نخبث لسانه ، فتحاماه الناس وازوروا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم إلا قليلا ، وسرعان ما كان الباب الذى يفتح فى وجهه يُغْلَقُ من دونه ، فعاش فقيراً محروماً إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من بعض زملائه الشعراء ، فى الحين الطويل بعد الحين . وقدم بغداد فى أيام الرشيد والبرامكة غير أن أبوابهما لم تفتح له ، ولعل ذلك ماجعله يهجو الفضل بن يحيى

(١) العقار: الخمر.

(٢) الزنانية: جمع زنار وهو خيط كانت تلفة الجوارى على أوساطهن .

(٣) انظر فى كتاب أبى الشمقمق وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد ١٤٦/١٢ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٦

وابن خلكان فى ترجمة مزيد بن يزيد  
 وكتاب الورقة ص ٦٣ والعهدة الفريد ٣/٣٥ ،  
 ٢١٥/٦ والحيوان للجاحظ ( انظر الفهرست )  
 وكتاب البغال للجاحظ والأغاني فى ترجمة بشار  
 بجزءه الثالث والوزراء والكتاب للجيشيارى  
 ص ٢٨٩ والكامل للمبرد ص ٤٣١ ، ٤٥٩ .

البرمكى كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد . ومن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد المشهور ممدوح مسام بن الوليد ، ومالك بن علي الخزاعي أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، ولعلمهم خشوا معرفة لسانه . ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عملها ، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكى سابور ، فيحسن إليه ويمدحه ببعض شعره ، ويقصد جميل بن محفوظ والى أركان ، فيلقاه لقاء سيئاً ، ويتولا بهجاء مريز ، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمر ابن مساور الكاتب بعض أعمالها ، ويُعرض عنه ، فيصب عليه شواظاً من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً ، فلا يجد من يقبل عليه حتى من الشعراء رفاقه ، ويسلقهم بلسانه ، فيعطونه النزر القليل الذى لا يكاد يسد رمقه . ويحس أنه يعيش مضيقاً ، ويزيده ضيقاً أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه فى اصطحابه ومناذمته إذ كانت العين تقتحمه كما أسلفنا ، وكانت فيه خشونة وجفوة ، مع نزق وطول لسان وتعجل فى اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتى قالوا إنه كان يلزم بيته فى أطمار بالية وثياب خاقمة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه .

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتى فى المديح ، فإننا نجد له لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التى كانت تشيع حينئذ فى شعر المديح ، وأيضاً فإنه لا يعنى بمعانيه وأخيلته ، وكأنه ينظمه عفواً الخاطر ، غير متأن ولا متكلف . وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نظرائه فإن أهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاعاً ، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعه ما بلغه ، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة ، حتى لنرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يحشاه خشية شديدة ، حتى ليرتب له فى كل سنة مائتى درهم رجاء أن يكف عنه لسانه ، وأتاه فى بعض السنين ، فحاول أن يرده ، فما هو إلا أن تتم بشطور مقذعة حتى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له : لا يسمعن هذا منك الصبيان ، وأتاه مرة أخرى ، فلم يسرع له بالضريبة ، وما إن قال :

سبع جوزاتٍ وتبينه فتحوا باب المدينة

إن بشار بن بُرْدٍ تَبَسَّ أَعْمَى فِي سَفِينِهِ  
 حَتَّى رَمَى لَهُ بِشَارٌ بِالْدِرَاهِمِ . وَذَكَرَ بِشَارٌ لِلصَّبِيَانِ يَدُلُّ عَلَى شَعْبِيَّةِ أَبِي الشَّمْقَمَقِ  
 وَأَنَّهُ كَانَ يَشْتَقُّ شَعْرَهُ مِنْ أَلْفَاظِ الْعَامَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ سُرْعَانَ مَا يَدُورُ عَلَى أَلْسِنَةِ  
 الْعُلَمَانِ . وَمِنْ طَرِيفٍ هَجَّائِهِ قَوْلُهُ فِي بَخِيلٍ :

كَفَّاهُ قُفْلٌ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ قَدْ يَبْسِسُ الْحَدَّادُ مِنْ فَتْحِهِ  
 وَقَوْلُهُ فِي بَعْضِ الثَّقَلَاءِ :

أَسْمَجُ النَّاسِ جَمِيعًا كُلَّهُمْ كَذَّبَابٍ سَاقِطٍ فِي مَرَقَةٍ  
 وَلَعَلَّ أَشْعَارًا لَهُ لَمْ تَمَسْ قُلُوبَ الشَّعْبِ كَمَا مَسَّتْهَا أَشْعَارُهُ الَّتِي صَوَّرَ فِيهَا فَقْرَهُ  
 وَبُؤْسَهُ ، وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضَ إِخْوَانِهِ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَرَأَى سُوءَ حَالِهِ ، فَأَرَادَ أَنْ  
 يَخْفِضَ عَنْهُ مَا هُوَ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبَشِيرٌ أَبَا الشَّمْقَمَقِ فَإِنَّهُ رَوَى فِي بَعْضِ  
 الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَارِبِينَ فِي الدُّنْيَا هُمُ الْكَاسُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ سَاخِرًا : إِنْ كَانَ  
 وَاللَّهِ مَا تَقُولُ حَقًّا لِأَكُونَنَّ بَرَّازًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَنَا فِي حَالٍ تَعَالَى إِلَا ه رَبِّي أَيَّ حَالٍ  
 لَيْسَ لِي شَيْءٌ إِذَا قِي ل لِمَنْ ذَا ؟ قُلْتُ : ذَا لِي  
 وَلَقَدْ أَهْزَلْتُ حَتَّى مَحَتِ الشَّمْسُ خِيَالِي  
 وَلَقَدْ أَفْلَسْتُ حَتَّى حَلَّ أَكْلِي لِعِيَالِي

وَلَهُ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ يَصُورُ فِيهَا فَقْرَهُ وَإِقْلَالَهُ وَأَنَّهُ لَا يَقْتَنِي حَتَّى مَا يَكْسُو بِهِ  
 السَّرِيرَ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَتَاعِ شَيْئًا إِلَّا حَصِيرَةً وَبَعْضَ السَّمَارِ  
 وَالْأَطْمَارِ الْخَلْفَةَ ، يَقُولُ :

لَوْ قَدْ رَأَيْتَ سَرِيرِي كُنْتَ تَرَحَّمْنِي اللَّهُ يَعْلَمُ مَا لِي فِيهِ تَلْبِيسٌ (١)  
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا لِي فِيهِ شَابِكَةٌ إِلَّا الْحَصِيرَةُ وَالْأَطْمَارُ وَالْدَيْسُ (٢)

(١) الشابكة : ما يضم بعضه إلى بعض .  
 الديس : هو المعروف في مصر باسم السمار .

(٢) يريد بالتلبيس ما يكسئ به السرير من  
 الحشية والملاءة .

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئاً ، بل يقعد به العُدم الذي تعودّه ويقعد به سوء البخت الذي يلازمه في حِلِّه وترحاله ، حتى ليجفّ البحر الذي يخوضه ، وحتى ليستحيل الدر في يده حصي وزجاجاً والماء العذب ملحاً لا يسوغ شرابه ، وفي ذلك يقول :

لو ركبت البحارَ صارتُ فجاجاً لا نرى في متونها أمواجاً  
ولو آنى وضعتُ ياقوتةَ حَمَ راءٍ في راحتي لصارتُ زجاجاً  
ولو آنى وردتُ عذباً فُرَاتاً عاد لا شك فيه ملحاً أجاجاً

ويصور لنا مسغبة عياله ، وهو في الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة في بغداد التي كانت تكدح لثملاً الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هي في الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعاً ، ومن طريف تصويره لذلك قوله :

ما جمع الناسُ لدنياهمُ	أنفعَ في البيت من الخُبزِ
والخُبزُ باللحمِ إذا نلته	فأنت في أمنٍ من التَّرزِ <sup>(١)</sup>
وقد دنا الفِطْرُ وصبياننا	ليسوا بندى تَمْرٍ ولا أُرزِ
كانت لهم عنزٌ فأودى بها	وأجدبوا من لبن العنزِ <sup>(٢)</sup>
فلو رأوا خُبزاً على شَاهِقِ	لأسرعوا للخبزِ بالجَمزِ <sup>(٣)</sup>
ولو أطاقوا القَفزَ ما فاتهم	وكيف للجائع بالقَفزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها لجسده ، كما يكثر من حديثه عن خلو داره من الطعام ، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس ، بل إنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده ، وتيأس منه ومن طعامه ، فتفر على وجهها تبحث عن غذائها ، ولا يبقى معه في البيت سوى السنور أو الهرِّ ، وإنه ليكي

(٣) الجمز : القفز .

(١) التَّرز : الهلاك .

(٢) أودى بها : هلكت .

حاله ، إذ لا يجد الفأر الذى تعود أن يصيده ، فيفارقه إلى غير مآب ، ومن بعض قوله فى ذلك :

ولقد قلتُ حين أجحرنى البرّ      دُ كما تُجحرُ الكلابُ نُعالَةً<sup>(١)</sup>  
 فى بُيوتٍ من النضارة قفراً      ليس فيه إلا النوى والنخاله<sup>(٢)</sup>  
 فارقته الجرذان من قلة الخي      ر وطار الذبابُ نحو زباله<sup>(٣)</sup>  
 هارباتٍ منه إلى كل خصبٍ      حين لم يرتجبن منه بُلالة<sup>(٤)</sup>  
 وأقام السنورُ فيه بِشراً      يسألُ الله ذا العلاء والجلاله  
 أن يرى فأرةً فلم ير شيئاً      ناكساً رأسه لطول الملاله  
 قلت صبراً يا نازُ رأس السنأ      نير وعَلَلته بحُسن مقاله<sup>(٥)</sup>  
 قال : لا صبر لى وكيف مقامى      فى قفارٍ كمثل بيدٍ تباله<sup>(٦)</sup>  
 ثم ولى كأنه شيخٌ سوءٌ      أخرجوه من محبِس بكفاله

وعلى هذا النحو كان أبو الشمقمق يخطط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان ما يبنى يصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالا شديدا ، حتى ليرى الجاحظ فى الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز أن أبا الشمقمق توفى فى حدود الثمانين ومائة ، ولعل الخبر الذى ساقه عنه والذى يدل على أنه حُق عصر المأمون منحول عليه .

(١) أجحره : أدخله فى الجحر . ثعالة : الثعلب .  
 (٢) بيوت : تصغير بيت . النضارة : النعم .  
 (٣) زباله : موضع فى صحراء الكوفة .  
 (٤) بلالة العيش : ما يسد الرمق .  
 (٥) ناز : اسم السنور بالفارسية .  
 (٦) بيد : جمع بيداء وهى القلاة . وتباله : بلدة فى الطريق من الطائف إلى اليمن .

## الفصل الثامن

### تطور النثر وفنونه

١

#### تطور النثر

كان العصر العباسي الأول عصرًا خطيراً حقاً في تطور النثر العربي ، إذ تحوت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخل جميع ذلك في تركيبه واثلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلوّ جديد .

وتم هذا التحول - كما مرّ بنا في الفصل الثالث - عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عنيّ به الخلفاء العباسيون - ووزرائهم وبخاصة البرامكة - إلى أبعد حد ممكن ، كما عني به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع . آل نوبخت . وطريق ثانٍ لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضاً بعباداتهم وتقاليدهم وطرائقهم في المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية في تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، وهي مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الأدب العربي بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية في المحيط العربي الجديد .

وعلى سُنَنٍ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعاً ، إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومثلت أوانيه بشرابها الجديد. الذي اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربي مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعاً لا يكاد يُحدّ أو يحصى ،



وكل جدول يذوب في النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربياً ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صبأ في قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيذاناً بتعدد شعَب النثر العربي وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمي والنثر الفلسفي ، وأصبح فيه أيضاً النثر التاريخي ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقصص كليلة ودمنة الهندي الأصل ونبثله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونُظْمهم في السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر في الرسائل الديوانية وفي نشوء الرسائل الأدبية التي تُعَسَى بالكتابة في موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعاً في طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربي عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التي جاءت من لدن الأجانب ، فقد انبرت العبقرية العربية في هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر في تمهيد اللغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محدّدة الألفاظ والاصطلاحات التي ترسم المعاني رسماً دقيقاً . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضاً لا في مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضاً في مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كيمائيون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية في المجال العلمي أثمرت في المجال الفلسفي وخاصة في بيئات المتكلمين ، إذ مدّوا مباحثهم في العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا - وخاصة المعتزلة منهم - بأنظارهم العقلية أن يدّلوأ في جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريقة على نحو ما يفصل ذلك الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه في الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والحير والشر . وكل ذلك كان له آثار بعيدة في النثر العربي ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضاً من حيث ذخائر الفكر الفلسفي اليوناني والعربي التي التقت في أوعيته وأوانيه والتي جعلته يعرف صوراً من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقي الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعاني وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلي والبرهان الخفي ، مما جعل الفكر العربي يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلاً بما لا يُحصَى ولا يُستقصى من الخواطر والمعاني .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعاني والخواطر لم يكن مألوفاً للعربية ، غير أنه قيَّض لها من نابهي المتكلمين والكتّاب والمترجمين مَنْ مدَّ طاقتها وجعلها تسيع تلك الخواطر والمعاني دون دخول أي ضيْمٍ عليها من شأنه أن يمحوظاوبعها أو يجور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق في أثناء هذا التحول العقلي والحضاري وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء في المجال العلمي والفلسفي أو في المجال الأدبي الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعاني العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورسمها رسماً محمداً دقيقاً ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجاني عن الألفاظ الغامضة والمعاني المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامع بعدوبة منطقته ، بل بحيث يَسَندُ الآذان حين تستمع إليه كما يلد العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هَجْر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التي تنسب على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورسائنه والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة في الجرس الصوتي . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولاً بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلاً عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا في جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا في ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا في البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان<sup>(١)</sup> ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندي في عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته في البلاغة ، فيعطيه في ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية ، ويقول له إننى لا أحسن ترجمتها لك ، لأننى لم أعالج صناعة البلاغة فأتق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويسلّمى معمر بالصحيفة الترجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ في البيان<sup>(٢)</sup> والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا ينقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطاً من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعاني ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تنفى بمعانيها وتؤديها أداء سليماً دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا في هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام ، أو بعبارة أخرى فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموى وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذلك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويتقطعه عن الكلام قطعاً .

وطبيعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة فى القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون فى ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلاً يتعرض لمعتزلى كبير فى

(٢) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(١) البيان والتبيين ١/٨٨ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عبَّيد ، فسأله عن البلاغة وقُطِبها الذى تدور عليه ، ويحييه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإِفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان<sup>(١)</sup> » . ويدور السؤال طوال العصر وتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العتّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له<sup>(٢)</sup> :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبُسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهارُ ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هتاه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع منى ، واستمع إلىّ ، وافهم عنى ، أو لست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عيٌّ وفساد »

وواضح أن العتّابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصْرٍ وعيٍّ ، ودون استعانة بحشو يؤذى الذوق الحضريّ المهذب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحدق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدةً على خلاصة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتتيال على ذلك والتلطف له حتى يبرى كأنه الحق الذى لاحق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه<sup>(٣)</sup> هى أروع ما أُنثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئاً تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطاً له تمام النشاط . وينصحه

(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين  
طبعة الحلبي ص ١٣٤ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .  
(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعاني بحيث تكون بقدرها لافاضلة عنها ولا مقصرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدي دلالتها أداء واضحاً مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاماً يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة، وفي الوقت نفسه تُلَقِّي عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها في لغة متوسطة بين لغة العامة المتبدلة ولغة الأعراب الحشنة المملوءة بالغريب .

وينصح من لا تواتبهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها في مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والمهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طبائعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشيء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة . ولا يكفي للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذي يتحدث عنه ، بل لا بد له من ضميمته ثانية هي إحسانه الملازمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون في كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراد هذه المصطلحات التي يفهمونها فهماً حسناً ، والتي قد يجدون فيها شيئاً من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة في شئون البيان والبلاغة ، وهي متناثرة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون في معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يَشْرِكُهُمْ فِي ذَلِكَ كِتَابُ الدواوين والمترجمون، ومن خير مَنْ يمثُلُهُمْ فِي مَطَالَعِ العَصْرَيْنِ المَقْفَعِ، وَيُرْوَى أَنَّهُ سَثَلَ عَنِ البَلَاغَةِ وَتَفْسِيرِهَا، فَقَالَ<sup>(١)</sup> :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السامعين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطب والإطالة في غير إملال . وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقيل له : فإن ملّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك ؟ قال : إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتركيذ الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب في غير خطب ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون في صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعد ، باسم براعة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هي أن يتلاءم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم ردّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب في الكلام مقامه ، وأنه ينبغي دائماً أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التي عرضنا لها في الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولاً بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فمن أظفر كفاءته فيما طُلب إليه من بعض الرسائل رُفِع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحسن ما طلب إليه ردّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصبح الكلام بليغاً وما العيوب التي تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائهم ، المفوهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضاري المترف في أدق صوره فدققوا في كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حِسِّ بالغة ، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أَرَقَطَّ أمثل في طريقة البلاغة من الكُتَّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً<sup>(١)</sup> » .

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر لكي ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدُّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي ، إذ أخذت تَغذِّوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذِّوه الثقافات الأجنبية وكل ما اتصل بها من الفكر اليوناني ، ومضى يتفارع مع ذلك كله محتفظاً بمقوماته وطوابعه العربية الأصيلة ، بحيث لم يحدث أيُّ ازدواج في اللغة يعرضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجديدة في شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوَّن فيها أزهار ذاكية الشدَى وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والتكلمين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغونها وتمَّوها حتى في مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغي الذي يغدِّي العقول ويشغى القلوب والأفئدة .

## ٢

## الخطب والوعظ والقصص

نشطت الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أدواتها في بيان حق العباسيين في الحكم ، وكانوا يحسُّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكدون في خطاباتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بني أمية وهم الذين قوضوا حكمهم وحطَّموه حَطًّا ، وقد انهالوا عليهم بالتجريح والظعن العنيف ، على نحو ما يتضح في خطبة<sup>(٢)</sup> أبي العباس السفاح حين بوبع بالخلافة في الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رَحْمِهِم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تالياً من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل (إنما يريد

(٢) انظر الخطبة في الطبري ٨١/٦ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

اللهُ ليذهب عنكم الرَّجْسَ - أهلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً) وما يلبث أن يعرض للسبئية من الشيعة الغالية قائلًا: « وزعمت السبئية الضُّلالَ أن غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بِمِمْ - ولمَ أيها الناس ، وبنا هَدَى اللهُ الناسَ بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهلَ تعاطفٍ وبيِّرَ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوقة . وخطب عمه داود بن علي بنفس اللحن ، ويشيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلًا إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالًا واقتضابًا للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من ذلك خطبته في أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهي تمضي على هذا النمط : « شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لنحتنفر فيكم نهراً ولا لنبنى قصرًا ، أظنَّ عدوَّ الله أن لن نظفر به إذ أرخىَ له في ذمامه ، حتى عُثِرَ في فَضْلِ خِطامه . فالآن عاد الأمر في نِصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبيلُ إلى النَّزعة<sup>(٢)</sup> ، ورجع الحق إلى مستقره في أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرَّافة والرَّحمة » .

ويعتد السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن في العباسيين أئيبٌ منه ولا أخطب ، وفي عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ، ويتكاتبان كما مر بنا في الفصل الأول ، وكل منهما يؤكد حقه في الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل منهما السلاح في وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ، وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لساناً وفصاحة ، ومن قوله في بعض خطبه<sup>(٣)</sup> : « إن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ، فأحصهم عدداً ، واقتلهم بدّداً<sup>(٤)</sup> ، ولا تُسبِق على الأرض منهم أحداً » .

ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرما ، ولم يعد العلويون

(٣) ذيل الأمالي للقالي ص ١٢١ .

(٤) بدداً : متفرقين .

(١) البيان والتبيين ١/٣٣١ وما بعدها .

(٢) النزعة : الرماة .



— كما أسلفنا في غير هذا الموضوع — يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عودوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ — كما قدمنا — حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُفِّت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكفَّلُ للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن في عصر بني أمية ، أما في هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدّة فضعفت الأحزاب السياسية وفيتت أو ذابت حريتهم في سلطانهم الباطش بكل مَنْ حدثته نفسه بخروجٍ عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقاً عادت الخطابة السياسية إلى الظهور في فتنة الأمين وحرابه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر الأموي وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التي كنا نعهد لها في عصر بني أمية لسبب طبيعي ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَمُتُّ على قصور الخلفاء ، وبالتالي لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدِلت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يَسْتَقْبَلُ وفودها ولا خطباءها المفوّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ، وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة ، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزيه في أبيه المنصور (١) :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمر المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فاقبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزية » .

وكان يُعَقَّدُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجال الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيباً بين يدي الخليفة الجديد منوهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علويين

(١) البيان والتبيين ٢/١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب في خطبته بين يدي الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله<sup>(١)</sup> :

« إن الله بمنه ولطفه منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشدّد عَضُدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والدّابّين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدّم الحرام والآكلين الفيتىء<sup>(٢)</sup> والمستأثرين به . »

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئاً نادراً يقال في الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارها في هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بني أمية كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العهد ، إذ نجد للمهدى خطبة بارعة مأثورة<sup>(٣)</sup> ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول<sup>(٤)</sup> :

« عبادَ الله إنكم لم تُخَلِّقُوا عبثاً وإن تُشْرِكُوا سُدَى ، حَصَّنُوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له . » إنكم سَفَرٌ<sup>(٥)</sup> مجتازون وأنتم عن قريب تستقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنباتة

(٤) المعقد الفريد ١٠٢/٤ .  
(٥) السفر : الجماعة المسافرون .

(١) تاريخ الطبري ٤٤٢/٦ .  
(٢) الفيتىء : غنائم الحرب .  
(٣) المعقد الفريد ١٠١/٤ .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين .  
 على أننا نجد الرشيد يستنُّ سنَّةً كانت سبباً في أن تضعف هذه الخطابة  
 على السنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعي أن يعدَّ لابنه الأمين خطبة يخطب  
 بها يوم الجمعة<sup>(١)</sup> ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدي وابن أخيه أحمد أن يعدَّ خطبة  
 مماثلة يخطب بها المأمون<sup>(٢)</sup> ، وبذلك سنَّ للخلفاء أن يخضبوا بكلام غيرهم ،  
 وكان المأمون معروفًا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة<sup>(٣)</sup> ،  
 وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب<sup>(٤)</sup> : أولها في يوم الجمعة وثانيها في يوم  
 الأضحى وثالثها في عيد الفطر وفيها يقول :

« اتَّقُوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر  
 الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عشرة  
 ولا تحظَّرُ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا  
 فوقه .. ولا يعين على القبر وظلمته وضيقه وحشته وهول مَطْلعه ومسألة ملائكته  
 إلا العمل الصالح الذي أمر الله به فمن زلَّتْ عند الموت قدمه فقد ظهَّرت ندامته  
 وفاتته استقالته ودعا من الرَّجعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفدية ما لا  
 يُقبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا  
 مع مر الزمن يخضبون بكلام غيرهم ، وقد يندبون من يقوم مقامهم في الصلاة  
 والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسي والى البصرة والكوفة لعهد  
 المنصور والمهدى أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيرها ، وهي خطبة قصيرة<sup>(٥)</sup>  
 ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء  
 فإنها أنبعت في بيئة الوعاظ والنسك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة  
 والكوفة ، وكانوا أخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وكان بعضهم  
 يلم بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحيانا كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكوهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٥٣ وما بعدها .

(٥) انظرها في البيان والتبيين ٢/١٢٩ .

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي ٢/٢٠٠ .

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٨/٨٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٩١ ، ١١٥ .

بما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم ، وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات . ومن كبارهم الذين عرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدي الخلفاء الثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي وابن السماك واعظ الرشيد ، ويروى عن أولهم أنه دخل على المنصور يوماً فقال له : عِظْنِي ، فقال (١) :

« إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده . فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع (٢) : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : إن هذا صحكك عشرين سنة لم يرك عليه أن ينصحك يوماً واحداً ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ ! قد قلت لك : خاتمي في يدك فتعال وأصحابك (٣) ، فاكفني . قال عمرو : ادعنا بعدك لك تسخ أنفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق . »

وكان صالح بن عبد الجليل ناسكاً مفاهاً ، وكان يلم بمجالس المهدي ويعظه ، ويطلق في وعظه له حتى يبكيه وحتى يذرف الدمع مدراراً ، ويروى أنه دخل عليه يوماً فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال له تكلم ، ومن بعض كلامه حينئذ (٤) :

« كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصر بها ، فاقبيل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لا قبول سمنعة ورياء فإنه لا يعدمك منا إعلام لما تجهل أو مواطأة على ما تعلم أو تذكير من غفلة ، فقد وطن الله عز وجل نبيه عليه السلام على نزولها تعزية عما فات وتحصيناً من التماهي ودلالة على المخرج فقال : ( وإما يستزغتك من الشيطان نزع »

(٣) يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .

(٤) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ .

(١) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ .

(٢) حاجب المنصور .

فاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) فَأُطْلِعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ بِمَا يُسَوِّرُهُ مِنْ إِثَارِ الْحَقِّ وَمَنَابِذَةِ الْأَهْوَاءِ ،  
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وكان ابن السماك محدثاً وواعظاً مؤثراً ، رَوَى عَنْهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ ،  
وَلَهُ كَلَامٌ وَمَوَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ تَدُورُ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ ، وَمِمَّا يُؤَثِّرُ  
عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : عِظْنِي ، فَقَالَ (١) :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : اتَّقِ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ وَقِفٌ غَدَاً  
بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ رَبِّكَ ثُمَّ مَصْرُوفٌ إِلَى إِحْدَى مَنزَلَتَيْنِ لَا ثَالِثَةَ لهُمَا جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ . فَبِكَيْ  
هَرُونَ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ (٢) . »

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائماً من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول  
الكريم وأقوال أصحابه ومن سبقوهم إلى الوعظ في العصر الأموي من مثل الحسن  
البحري ، وداًئماً تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمان شديد بالدين وثقة  
وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما في أيدي الناس من متاع الحياة الزائل .

وكثير من الوعاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينية وتفسير بعض  
آي القرآن ؛ وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام . وكثر هؤلاء القصاص  
الوعاظ في عصر بني أمية مما جعل الجاحظ يعقد لهم فصلاً (٣) طريفاً في كتابه  
البيان والتبيين ، وفيه يقول عن قصص العصر العباسي الأول :

« وَمِنَ الْقُصَصِ مَوْسَى بْنِ سَيَّارِ الْأُسُوَارِيِّ وَكَانَ مِنْ أَعَاجِيبِ الدُّنْيَا ،  
كَانَتْ فَصَاحَتُهُ بِالْفَارْسِيَّةِ فِي وَزْنِ فَصَاحَتِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانَ يُجَلِّسُ فِي مَجْلِسِهِ  
الْمَشْهُورِ بِهِ ، فَتَقْعُدُ الْعَرَبُ عَنْ يَمِينِهِ وَالْفَرُّسُ عَنْ يَسَارِهِ ، فَيَقْرَأُ الْآيَةَ مِنْ كِتَابِ  
اللَّهِ وَيُفْسِرُهَا لِلْعَرَبِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ يَحْوِلُ وَجْهَهُ إِلَى الْفَرَسِ فَيُفْسِرُهَا لَهُمُ بِالْفَارْسِيَّةِ ،  
فَلَا يُدْرِي بِأَيِّ لِسَانٍ هُوَ أَيْبِنُ . وَاللِّغَتَانِ إِذَا التَّقْتَا فِي اللِّسَانِ الْوَاحِدِ أَدْخَلَتْ  
كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا الضَّمِيمَ عَلَى صَاحِبَتِهَا إِلَّا مَا ذَكَرْنَا مِنْ لِسَانِ مَوْسَى بْنِ سَيَّارِ  
الْأُسُوَارِيِّ . وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي مَوْسَى الْأَشْعَرِيِّ أَقْرَأَ فِي مِحْرَابٍ مِنْ  
مَوْسَى بْنِ سَيَّارٍ ثُمَّ عُمَانَ بْنِ سَعِيدٍ ثُمَّ يُونُسَ النَّحْوِيِّ ثُمَّ الْمُعَلِّثِي . ثُمَّ

(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٦٧ وما بعدها.

(١) تاريخ الطبري ٦/٥٣٨ .

(٢) اخضلت : بللها الدموع .

قصّ في مسجده أبو علي الأسواري وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة ، فاختتم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً لسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسّر آية واحدة في عدة أسابيع . . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقصّ في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . . ثم قصّ بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يُدرَك في القصص مثلثه . وكان يقصّ معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . . فأما صالح المرّي فكان يُكسّي أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس . وسمعه سفيان بن حبيب ( أحد كبار المحدثين ) فقال ليس هذا قاصّاً ، هذا نذير . .

ووقف الجاحظ في بيانه مراراً عند صالح المرّي حاكياً بعض كلامه ، أو بعض ما كان يردّه من شعر في قصصه ، من ذلك قوله عنه : « كان صالح المرّي القاص العابد البليغ كثيراً ما يُنشد في قصصه وفي مواعظه هذا البيت الذي أنشدناه في غير هذا الموضوع :

فبات يُروى أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل<sup>(١)</sup>»

ومن ذلك ما يُذكر من أنه مات ابن لعبيد الله بن الحسن قاضي البصرة . فعزّاه صالح المرّي ، فقال : « إن كانت مصيبتك في ابنك أحدثت لك عظة في نفسك ، فنع المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثت لك عظة في نفسك فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ابنك<sup>(٢)</sup>» . وعزّى رجلا في أخيه فقال : « إن تكن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خشيةً فنع المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جزعاً فبئس المصيبة مصيبتك<sup>(٣)</sup>» . ويذكر الجاحظ أنه كان كثيراً ما يردد في مجلسه : « أعوذ بك من الحسف والمسخ والرّجفة والزّلزلة والصاعقة والريح المهلكة ، وأعوذ بك من جهنم البلاء ومن شماتة الأعداء» . وكان يقول : أعوذ بك من التّعيب والتعذر والحسبة وسوء المنقاب . اللهم من أرادني بخير فيسرّ لي خيره ، ومن أرادني بشر فأكفني شرّه . اللهم إني

(٣) البيان والتبيين ١٧١/٣ .

(١) البيان والتبيين ١١٩/١ .

(٢) البيان والتبيين ٨٢/٢ .

أسألك خِصْبَ الرَّحْلِ<sup>(١)</sup> ، وصَلَحَ الْأَهْلِ<sup>(٢)</sup> . وروى الجاحظ من بعض وعظه في كتابه الحيوان قوله : « تَغْدُو الطير خِمَاصًا وتروح شِبَاعًا ، واثقة بأن لها في كل غدوة رزقًا لا يفوتها . والذي نفسى بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرحمتكم وبطونكم أَبْطَنُ من بطون الحوامل<sup>(٣)</sup> . »

وواضح مما روينا من كلام صالح المرثى وغيره من القمصاص والوعاظ أنهم ارتقوا بصناعة النثر في المعاني التي كانوا يرددونها رقيا بعيداً ، إذ شعبوا وفرعوا في تلك المعاني طويلاً ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التي تمسُّ القلوب والعقول . وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم ، وهى عناية تقوم على الدقة في اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصيغة . وأدأهم ذلك في بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى وفيه يقول الجاحظ كان سجّاعاً في قصصه<sup>(٤)</sup> ، وكان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصاً مجيداً<sup>(٥)</sup> ، ويروى من وعظه : « سَلَّ الْأَرْضَ قَلَّ مِنْ شَقِّ أَنْهَارِكَ وَغَرَسَ أَشْجَارِكَ ، فَإِنْ لَمْ تُجِيبْكَ حَوَارًا ، أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا<sup>(٦)</sup> » ويقول الجاحظ : « كَانَ يَتْلُو آيَةَ الَّتِي فِيهَا ذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالْمَوْتَ وَالْحَشَرَ<sup>(٧)</sup> » ثم يفيض في الوعظ . وكان ابنه عبد الصمد قاصاً مثله ، وكان أغزر منه وأبين وأعجب وأخطب<sup>(٨)</sup> ، وقيل له : « لِمَ تَوَثَّرَ السَّجْعُ عَلَى الْمَشُورِ وَتَلَزَمَ نَفْسَكَ الْقَوَائِي (أى روى الأسجاع) وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا أمل فيه إلا سماع المشاهد لقلّ خلافي عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتمديد وبقلة التفلسّت<sup>(٩)</sup> . »

- (٦) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .  
 (٧) البيان والتبيين ١/٢٩١ .  
 (٨) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .  
 (٩) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .

- (١) الرجل هنا : المسكن والبيت .  
 (٢) البيان والتبيين ٣/٢٨٨ .  
 (٣) الحيوان ٧/٦٢ .  
 (٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .  
 (٥) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

## المنظرات

قلما عُنِيَ مؤرِّخو الأدب العباسي بالحديث عن المناظرات التي احتدمت بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم ، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد في المساجد ، وقد مرَّ بنا أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات ، وأنه كان وراء مجالسهما مجالس صغرى كثيرة ، يجتمع فيها المتناظرون من الشيعة والزنادقة والمتكلمين ، ويتحاورون في المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون في بعض المسائل الفلسفية ، على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة ، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء ، ومناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني مشهورة .

والمعتزلةُ أهمُّ طوائف المتناظرين حينئذ ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم في أصولهم الخمسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وجدال من كانوا يعتقدون التشيع الغالي مثل شيطان الطاق وهشام بن الحكم وجادلوا جدالاً عنيفاً أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية من الدهرية والمناوية ، ومن أشهرهم في الجدال والمناظرة أبو الهذيل العلاف المتوفى في حوالي سنة ٢٣٠ للهجرة ، وفيه يقول ابن خلكان : « كان حسن الجدال قوى الحججة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات » . وروى الخطيب<sup>(١)</sup> البغدادي والمرتضى<sup>(٢)</sup> في أماليه وبعض المراجع القديمة طائفة من مناظراته . من ذلك مناظرته في حديثه ليهودي ورَد البصرة ، وتعرض لتكلميها يقول لهم ألا تقرُّون بنبوة موسى عليه السلام ؟ حتى إذا اعترفوا بها قال : نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدَّعونه . فتقدم إليه ، وقال له : أسألك أم تسألني ؟ فقال له اليهودي : بل أسألك فقال : ذاك إليك ، فقال اليهودي : أتعترف بأن موسى نبي صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ، فقال له أبو الهذيل : إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشرَّ بنبيي

(٢) أمال المرتضى ١٧٨/١ وما بعدها .

(١) تاريخ بغداد ٣٦٦/٣ وما بعدها .



عليه السلام وشهد بنبوته وصدقه فهو نبي صادق ، وإن كان غير من وصفتُ  
فذلك شيطان لا أعترف بنبوته . فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسابانه . ولم  
يلبث أن سأل أبا الهذيل : أتقول إن التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى  
مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة  
بنبيى عليه السلام فذلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرُّ بها .  
فبهت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول . وناظر يوماً مجوسياً فسأله ما تقول فى  
النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قصصاً أجنحتها  
وحطتها إلى الأرض يُحرثُ عليها ، قال : فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل  
فما الجوع والعطش ؟ قال : فقمر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل  
الأرض ؟ قال : بهمن الملك . حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من  
المجوس أخذوا ملائكة الله فذبجوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شتووها ببنت الله ،  
ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة  
الله . فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه . وقال له المعتدل بن غيلان يوماً إن فى  
نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الإنسان حرٌّ حرية مطلقة فى أعماله فبيِّن  
لى ما يذهب الريب عنى ، فقال له : خبرتنى عن قول الله تعالى : ( وسيحلفون  
بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ) هل يخلو  
من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون الخروج وهم تاركون له ، فلاستطاعة  
الخروج فيهم وليسوا يخرجون قال ( إنهم لكاذبون ) أى هم يستطيعون الخروج  
وهم يكذبون فيقولون : لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على  
هذا الوجه . أو يكون على وجه آخر يقول : ( إنهم لكاذبون ) أى إن أعطيتهم  
الاستطاعة لم يخرجوا ، فتكون معهم الاستطاعة على الخروج ولا يخرجون .  
وعلى كل حال قد كانت الاستطاعة على الخروج ثابتة لهم . ولا يعقل  
للآية معنى ثالث غير الوجهين اللذين وصفنا . وبذلك أقام الحجة القاطعة  
على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم ، حتى ينقض ما يستشهد به أصحاب  
الخبز وتعطيل إرادة الإنسان وحرية من بعض آية التى لا تعطيهام الدلالة البينة  
الملزمة . وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل

الجنة والنار لا تبقى بل تنقلب إلى سكون دائم ، تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة ويجتمع العذاب لأهل النار ، إلى غير ذلك من الآراء المبسوطة في الملل والنحل للشهرستاني وفي مقالات الإسلاميين للأشعري .

وكان ابن أخته النظام لا يقل عنه قوة في الجدل والإقناع وإفحام الخصوم ، ومراً بنا في غير هذا الموضع كيف أفحم أبا شَمِيرَ الجَبْرِيَّ المرجئيَّ وقطعه بالبراهين الساطعة ، حتى زحف إليه وأمسك بيديه ليسكت . ويقول ابن النديم إنه ما زال يناظر الحسين النجار في الجبر وحرية الإرادة ، حتى انصرف محموراً ومغموراً وكان ذلك سبب علته التي مات فيها<sup>(١)</sup> . وهو يُعَدُّ أكبر من جادلوا الدهرية والمناوية وغيرهما من أصحاب النحل غير الإسلامية لعصره ، حتى ليقول الجاحظ على نحو ما مر بنا في ترجمتنا له بين الشعراء: « لولا مكان المتكلمين هلكت العوامُ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل وأولا أصحاب إبراهيم ( النظام ) وإبراهيم هلكت العوام من المعتزلة ، فإنني أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلًا وفَسَّقَ لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة<sup>(٢)</sup> » . وحكى الجاحظ كثيراً من جداله وروده على الدهرية والمنانوية والديبصانية ، وفي الجزء الخامس من كتاب الحيوان مادة من ذلك كثيرة، نراه فيها يرد على من يقولون بأن أصل العالم ضياء وظلام وأن الحرارة والبرودة واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجها، ويلاحظ أنهم يقفون عند حاسّة اللمس فقط دون غيرها من الحواس . ويبحث مباحث واسعة في النار وأنها حر وضياء وأن الضياء ليس بلون لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها واحداً . ويفيض في ردود كثيرة على المجوس ، واحتفظ أبو الحسين الحياط هو الآخر بكثير من هذه الردود ، من ذلك قول المنانوية بالنور والظلمة وأن النور هو مصدر كل خير والظلمة مصدر كل شر ، فالصدق خير لأنه من النور والكذب شر لأنه من الظلمة ، مما جعله يقول لهم : « حدثونا عن إنسان قال قولاً كذب فيه مَن الكاذبُ ؟ قالوا الظلمة ، قال : فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وقد أسأت ، من القائل : قد كذبت ؟ فاختلفوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ، فقال لهم إبراهيم : إن زعمتم أن النور هو

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٤ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٦ .

القائل : قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهو هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيان مختلفان : خير وشر على حكمكم ، وهذا هدم قولكم بقدم الاثنين<sup>(١)</sup> « أى الخير والشر وإلهيما اللذين يؤمنون بهما . وعلى نحو ما كان يناظر المناية وَيَقْطَعُهُمْ كان يناظر الدهرية القائلتين بالدهر وخلوده وأن حركات الأفلاك لا تنتهى ، ويفحهم بمنطقه وقوة نسجه للأدلة ، من ذلك أنه تعرّض لهم يوماً يجادلهم فيما يزعمون من عدم التناهى فى حركات الأفلاك ، وكان مما قاله لهم : « ليس تخلو الكواكب من أن تكون متساوية الحركة ، لا فضل لبعضها على بعض فى السير والقطع أو بعضها أسرع قطعاً وسيراً من بعض ، فإن كانت متساوية القطع فقطع بعضها أقل من قطع جميعها ، وإذا أضيف قطع بعضها إلى قطع البعض الآخر كان قطع الجميع أكثر من قطع الواحد ، وإن كان بعضها أسرع من بعض قطعاً ، فقد دخلته القلة والكثرة وما دخلته القلة والكثرة متناه<sup>(٢)</sup> » وهو تناه يدل على حدوث الحركة . وكان يكثر من مناظرة خاله أبى الهذيل ويعاود عليه بقوة حججه ، مما جعله يراوغه كثيراً ويعتل عليه ، حتى قال له بعض مستمعيهما : « إنك إذا راوغت واعتلت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ، فقال : خمسون شكاً خير من يقين واحد<sup>(٣)</sup> » . ومر بنا فى غير هذا الموضوع بعض آرائه الفلسفية وفى الحق أنه هو وخاله وغيرهما من المعتزلة غمسوا آراءهم وتفكيرهم فى الفلسفة غمساً . ونراه يحوّل كل شيء إلى المناظرة ، فهو يناظر فى الآراء العقيدية وفى الآراء الفاسفية مما ذكرناه فى ترجمته السابقة كما يناظر فى المسائل الطبيعية وفى الحيوان . ومناظرته لمجد فى مساوىء الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره مشهورة وقد شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان للجاحظ ، إذ استقصيا جميع الجوانب المتصلة بذلك استقصاء يدل على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى العصر

(٢) انظر كتاب الانتصار ص ٣٥ .

(٣) حيوان ٦٠/٣ .

(١) كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٠ .

العباسي . وهي وما يماثلها لم تكن تُراد لنفسها وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله في خلقه وما أودعه فيه من ذخائر الحكمة ، كما كانت تُراد للفرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين لا في بحث عجائب الكون في الحيوان فقط بل في بحث كل صور الوجود أيضا وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلة هذا الجدال العقلي على النسك والعبادة وجعلوه فوق الحج والجهاد<sup>(١)</sup> .

وفي الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرة العقل العربي إلى أبعد غاية ، فقد أمدوه بسبيل من دقائق المعاني وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينتقب عن خبيثات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعماق الأعماق دُررها الباهرة . وقد تعاوروا على الأشياء المشهورة يصححونها ويسدونها ، وتعاور معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا يتقنون على شاكلتهم الحوار في كل شيء . ومن طريف ما يصور ذلك أن نجد الجاحظ يذكر أن شخصا يسمى جعفر بن سعيد كان يفضل الديك على الطاووس ، كأنه يريد أن يمكن ما شاع عند الناس من جمال الطاووس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله في ذلك على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحمدُ من الطاووس وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلعه<sup>(٣)</sup> إذا مشى سليم من مقابح الطاووس ومن موقه<sup>(٤)</sup> وقبح صورته ! ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجله ونذالة مَرَاتِهِ . وزعم أنه لو ملك طاووسا لألبس رجله خُفًا . وكان يقول : وإنما يُفخّرُ به بالثلاوين وبذلك التعاريج والتهاويل التي لألوان ريشه ، وربما رأيت الديك النبطي وفيه شبيه بذلك إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلم من العيوب من الطاووس . وكان يقول : ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبطي في تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القمدِّ والخِرطِّ وبفضل حسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك ولكان السليم من العيوب في العين أجمل لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حُسن الطاووس

(٣) التقلع : التحدر في المشي .

(٤) الموق : الحق .

(١) حيوان ١/٢١٦ .

(٢) حيوان ٢/٢٤٣ .

في عين الناظر إليه . وأول منازل الحمد السلامة من الدم . . . والعامة لا تبصر الجمال ،  
ولفرسٌ رائع كريم أحسن من كل طاووس في الأرض ، وكذلك الرجل والمرأة . وإنما  
ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه كحسن  
البازي وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشيات والهَيْئَة والرأس  
والوجه الذي فيه . وكان جعفر يقول : لما لم يكن في الطاووس إلا حسنه في ألوانه  
ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويَشغَل عنه ذكر وتبين  
وظهر . وخصال الديك كثيرة وهى متكافئة في الجمال . » .

وواضح أن هذه قدرة بارعة في الجدل وفي تأليف الحجج والأدلة ، وهى تدل  
على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن  
استقصاء وأدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون  
التعمق والتدقيق وكان يصحب ذلك بكثير من الظرف ومن السفسطة التى تدل على  
ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما حكاها  
الجاحظ في فاتحة كتابه البخلاء عن مذهب من يسمى باسم الجهَّجاء « في  
تحسين الكذب في مواضع وفي تقييح الصدق في مواضع وفي إلحاق الكذب بمرتبة  
الصدق وفي حطِّ الصدق إلى موضع الكذب وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى  
مناقبه وتذكر مثالبه ويحبابون الصدق بتذكر منافعهم وبتناسى مضاره وأنهم لو وازنوا  
بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه  
العيون » . ويتلو الجاحظ هذا المذهب بمذهب من يسمى باسم صحَّص « في  
تفضيل النسيان على كثير من الذكر وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة  
وأن عيش البهائم أحسن موقعا في النفوس من عيش العقلاء وأنك لو أسمنت بهيمة  
ورجلا ذا مروءة أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غباء وغفلة لكان الشحم إلى  
البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأن العقل مقرون بالخذر والاهتمام  
ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تقمَّو شحما في الأيام اليسيرة ،  
ولا تجد ذلك لدى الهمة البعيدة ، ومتوقَّع البلاء في البلاء وإن سلم منه ، والغافل  
في الرجاء إلى أن يدركه البلاء » .

وقد يقال إن هذا التقييح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة عُرِف

في الأدب الفهلوي القديم ، وأن العباسيين تأثروا في هذا الاتجاه بما كان منه في هذا الأدب ، ونحن لا ننفي ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا في هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وما داخلها من سفسطة أحياناً ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقييح نمطا من أنماط التفكير العباسي ، وبحيث عمَّ في كل شيء ، مما هيا فيما بعد هذا العصر لظهور كتب المحاسن والمساوي . ونضيف أن المتكلمين تأثروا أيضاً في مناظراتهم بما كان في التراث الفلسفي اليوناني من جدال وحوار ، وبخاصة في المسائل الفلسفية الخالصة ، ومعروف أن أفلاطون كان يدير كثيراً من رسائله على الحوار والجدل بين نَسَقَرٍ من الفلاسفة ، على نحو ما هو معروف في رسالته أو كتابه الذي سماه المأدبة وفيه جلب سقراط وبعض المتفلسفة ليتحاوورا في عاطفة الحب ، ومرِّبنا في غير هذا الموضوع أن يحيي البرمكي دعا من كانوا يتناظرون بمجالسه في المسائل الفلسفية والكلامية إلى الحديث عن العشق ، وكان حديثاً طويلاً تبادل هؤلاء المتناظرون آراءهم فيه ، وأكبر الظن أنهم سمعوا بمأدبة أفلاطون إن لم يكن بعضهم قد اطلع عليها مترجمةً ، ولم يُسْتَقَلْ لنا جميع هذا الحديث الطريف ، إنما نُقِلَ بعض ما تحدَّثَ به مَنْ شارَكوا في هذه المحاوراة البديعة ، نَسَقَلَهُ المسعودي في كتابه مروج الذهب على هذه الشاكلة<sup>(١)</sup> :

« قال علي بن ميثم ( المتكلم الشيعي ) : العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الطبيعة وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمي وهو خارجي المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشكليين ، وله نفوذ في القلب كنفوذ صَيِّبِ المزن في خَلَلِ الرَّمْلِ تنقاد له العقول وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل العلاف المعتزلي : العشق يختم على النواظر ويطلع على الأفتدة مرتق في الأجساد ومسرعة في الأكباد ، وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوايب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع وطلاوة

توجد في الشئائل وصاحبه جواد لا يَصْغُو (يميل) إلى داعية المنع ولا يسنح به (يصرفه) نازع العذل.

وقال إبراهيم النظام بن يسار المعتزلي : العشق أرق من الشراب ، وأدب من الشباب ، وهو من طينة عطرة عُمِجَتْ في إناء من الحلي ، حلو المحبتي ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد صِلاً قاتلاً ، وفساداً معضلاً ، لا يُطْمَعُ في إصلاحه . له سحابة غزيرة على القلوب ، فتعُشِبُ شغفاً وتُشْمِرُ كلفا . وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس طويل الفكر إذا جَسَنَهُ الليل أرق وإذا أوضحه النهار قاتى ، صَوْمُهُ البِلسَوَى ، وإفطارُهُ الشكوى .

ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتناسب ، وفيما مرّ دليل عليه .

وكنا نتمنى لو أن المسعودى أورد كل ما قاله هؤلاء المتحاورون إذن أورثنا عن العباسيين مآدبة في العشق تقابل مآدبة أفلاطون . والذي لا شك فيه - كما أسلفنا - أن هذه المآدبة كانت تحت أعين معاصريهم كما كانت تحت بصر من جاءوا بعدهم مثل المسعودى ، وأن الشعراء استمدوا منها كثيراً من معانيهم في العشق والغزل . ومضى المسعودى يذكر بعض ما أثير عن الفلاسفة والأطباء في العشق ، مما يقطع بأن العباسيين إن لم يعرفوا مآدبة أفلاطون فقد سقطت إليهم آراء يونانية مختلفة في الحب والهوى .

وواضح ما في هذا الحوار عن العشق من دقة في المعاني ومن حسن سبك وأداء ، حتى ليُعْنَى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعاً ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزالون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة ، وبذلك أعدوا لتطور النثر تطوراً واسعاً في مضامينه الجديدة التي لم يكن للعربية بها عهد وفي أساليبه وبما شفعوها به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء .

وليس ذلك فحسب كل ما قدمه فن المناظرة للنثر في هذا العصر ، فقد جعل المتكلمون والمتناظرون وفي مقدمتهم المعتزلة يبحثون في بلاغة القول ويكثرون من ملاحظاتهم في هذا الاتجاه على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع ، مما أعدّ لوضع أصول البلاغة العربية .

### الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات

تحدثنا في الفصل الأول عن تعقد الدواوين في هذا العصر وتنوعها ، فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرق الدولة ودواوين لغربيها ، ولكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمى ديوان الزمام الذى ينظر في ضبط كل ديوان على حدة . ويجانب هذه الدواوين العامة في بغداد دواوين في الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء وللاوزراء وكبار القواد ، ومن لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيراً كان له كاتب يكتب عنه وينظر في تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذن الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً واسعاً ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم في ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة . وكان من يظنهم منهم مهارة في دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رئاسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشؤونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البجياج البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر في عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر في بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعاد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث والى خراسان للرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر والى مصر والشام والجزيرة ثم والى خراسان ومثل أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة في هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يلقبوا بالإكبار



والإعجاب في كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحسَّ في نفسه قدرة عليها ، حتى يحطَى بما يكفل له العيش فضلاً عما قد يصيب من رَغَدٍ ونعيم ، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم ، فيُستَحْسَنُونَ امتحاناً عسيراً ، تُبْحَثُ فيه مهارتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساء الدواوين بملازمتهم ، ثم ضمومهم إلى دواوينهم وترقوا بهم من حال إلى حال ، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التي يستحقونها ، وربما أحقوهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف في بعض الأعمال أو في بعض دواوين الخراج .

ولم يكن نجاح الكاتب الناشئ هينا ، فقد كان لا بدَّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتيان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفني ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالباً إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيث الجمال الفني فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد ، ولا بد أن يروعهم ببيانهم وبلاغته ، وقد توقَّفَ الجاحظ مراراً في كتاباته يُشيد ببراعتهم في القول وعذوبة آدائهم وطلاوة صياغاتهم من مثل قوله : «إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت لسان باب البلاغة ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني (١) » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفي مقدمتها علوم اللسان العربي وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضرورياً لهم ، لأنهم كانوا يكتبون في شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤديه من أموال ، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمون بكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ، فقد مضى يقرأ كل ما تُرجم من الحكمة اليونانية ومأثور

ما تبادلہ الإسكندر المقدوني وأرسطو من رسائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقصص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرّ بنا مدى إعجاب يحيى البرمكي بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثرًا ، ومرّ بنا في غير هذا الموضوع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم في الملك وتدبيرهم في السياسة والحكم وأن نقله « خدای نامه » في سير ملوكهم و « آيين نامه » في أنظمتهم و « التاج » في سيرة كسرى أنوشروان و « الأدب الكبير » و « اليتيمة » و « الصحابة » . وأكبّ الكاتب العباسي على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له في الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب « جاويدان خرد » في الآداب والأخلاق و « عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات في رقى الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقاً أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا في هذا العصر إذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة في كتابات الكاتب العباسي ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عرض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثاً في ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبساً فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين ناهين . وعرض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، وبعض وصايا الهند وحكمهم . وفي ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسي نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس في وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل ما يتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر ورففه ، ويستشهد به في رسائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحياناً ، وأحياناً يحاول مجازاة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والثمام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسي من إجادته .

ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجذب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم . وأيضاً فإنها أخذت تتناول بعض الأعراض التي كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له في الرسائل الإخوانية التي تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلاً في التحميدات التي تُصدّر بها الرسائل ، وتُنسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> . وفي رواية ثانية أن يحيى البرمكي وزيره أول من زاد في الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ في ذلك كتاباً ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام<sup>(٢)</sup> .

ونحن نقف سد طائفة من الكتاب النابيين مرتبين لهم على عهد الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه في مطالع العصر عُمارة بن حمزة كاتب السفاح والمنصور وقد ولاه الأخير في سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدي خراج البصرة ، وعاش حتى سنة ١٩٩ للهجرة<sup>(٣)</sup> ، وكان المهدي يجلّه ، وكان جواداً غير أنه كان فيه تيه شديد حتى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتتبه من عُمارة ، وتروى له في التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البلغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الحميس ، وهي رسالة كانت تُكْتَسَبُ في عهد كل خليفة عباسي ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضاً برسالة

(١) النجوم الزاهرة ٢/١٠٣ .

الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ١٥٠/٢٤٢  
والجهشياري ص ٩١ ، ١٣٣ وفي مواضع أخرى  
متفرقة ، راجع الفهرس .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٧٧ .  
(٣) النجوم الزاهرة ٢/١٦٤ وانظر في ترجمته

لُقِّبَتْ بِاسْمِ المَاهَانِيَةِ وفيها يقول ابن النديم : « الكتب المجمع على جودتها عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » . ويظهر أنها كُتبت لعامل كفى يستشير عيسى بن ماهان في كل ما يأخذ من الأمر ويدع ، وفيها يقول له على لسان الخليفة<sup>(١)</sup> :

« أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلب القلوب واختلاف الحالات عند ميسل الهوى ولا يُنكرُ جِرَى المقادير بغييب ذلك عن العباد واستثثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة . بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما في قلوبهم ضغائن ، دونها الغدر ، يُظهر أسرارهم ويخرج أضغانهم ، ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن في ذلك عنده عزيزاً ، ولم يكن بهم امتناع . غير أنه قد أنكر أن تعجل إلى ابن ما هان - وإن كان محلاً بارزاً - بأمرٍ دون مؤامرتة ( مشاورته ) ويكره لك العجلة فإنها موكَّلٌ بها الندم وإنه كان يقال : أصاب متأمل أو كاد . وقالت العرب : فإما تترين أمراً رشداً فتبين ثم ارعوى أو أقدم وأحكم . ولحق ما أمر الله عز وجل به من التبيين وما حذر أن يصاب قوم بجهالة وما خوف على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجل واتعظ واستيقظ » .

وواضح حرص عمارة على التمثل بكلام العرب واستعارة ألفاظ القرآن ومعانيه ، فقد حلَّ في آخر كلامه قوله جلَّ شأنه : ( يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأً فتيبوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ) .  
ومن كُتَّاب المنصور مسعدة بن سعد بن صول أحد ملوك جرجان فيما يقال ، وكان يكتب أولاً لخالد بن برمك وزير المنصور ثم لواليه على فارس . ولما اتخذ المنصور أبا أيوب المورياتي وزيراً وقلده الدواوين أقام مسعدة على ديوان الرسائل ، ويسرى ياقوت في ترجمته لابنه عمرو أن المنصور قال يوماً لكتَّابه : اكتبوا لى تعظيم الإسلام ، فبدر مسعدة فكتب<sup>(٢)</sup> :

( ٢ ) معجم الأديباء لياقوت ١٦ / ١٢٨ .

( ١ ) انظر الرسالة بأكملها في جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ٣ / ١٢٧ .

« الحمد لله الذى عظمَّ الإسلام واختاره وأوضحه وأثاره وأعزَّه وأناناه (أعلاه) وشرفه ، وأكمله ، وتممه ، وفضَّله ، وأعزَّه ، ورفعَه ، وجعله دينه الذى أحبَّه واجتنباه (اختاره) واستخلصه وارفضاه ، واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذى تعتدُّ به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياءه وهدى له من أراد إكرامه وإسعاده من خلقه فقال جلَّ من قائل : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال جلَّ وعلا : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبَل منه) وقال : (مَلَّةٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ) . فبهذا الإسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله إلى رضوان الله ورحمته ، وجواره فى جَنَّتِهِ ، وبه تحرَّروا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته .»

فقال المنصور: حَسْبُكَ يَا مُسْعِدَةَ، اجْعَلْ هَذَا صَدْرَ الْكِتَابِ إِلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ بِالْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ . وفى جوانب من التحميد أسجاع مما يدل على القصد إلى العناية الفنية وأن الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء. ومن كُتَّابِ الْمَنْصُورِ أَيْضًا يَوْسُفُ (١) بن صُبَيْحٍ ، وكان يكتب ، فى ديوان الكوفة لبنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور فى مطلع الدولة العباسية ، حتى إذا أخفقت ثورته على ابن أخيه واستتر بالبصرة عند إخوته بلخا يوسف إلى أصحابه من الكتاب فى ديوان المنصور ، فألحقوه به . ويظهر أنه ظل يعمل فى ديوان الخلافة ، حتى إذا كان البرامكة قربوه ، فكان يختلف بين دواوينهم ودواوين الرشيد ، ومن مآثور ما يُروى له رسالة قصيرة كتبها عن عبد الله بن على إلى ابن أخيه السفاح يعزیه عن ابن له على هذا النمط (٢) :

« أما بعد فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلَّ وعزَّ مَنْ كَانَ إِمَامًا خَلَقَ اللَّهُ وَخَلِيفَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَعَزَّزْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِفَهْمِكَ ، وَارْجِعْ فِي وَعْدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنَ الصَّابِرِينَ إِلَى عِلْمِكَ .»

ومن الكُتَّابِ لِعَصْرِ الْمَنْصُورِ جَبَلُ بْنُ يَزِيدَ كَاتِبَ عِمَارَةَ بْنِ حِمَزَةَ وَفِيهِ يَقُولُ صَاحِبُ الْفَهْرَسْتِ : « كَانَ مُرْجَمًا وَكَانَ مِنْ مَعْدُودَى الْبُلْغَاءِ وَالْبِرْعَاءِ (٣) » وقد

(٢) جمهرة رسائل العرب ٩/٣ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

(١) انظر فى ترجمته الأوراق للصولى (أخبار)

الشعراء) ص ١٤٦ والجهشياري ١٣١ ، ١٧٥ .

احتفظ له ابن طيفور في كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة بديعة من رسائله ، منها رسالة كتب بها إلى المهدي يعزبه عن أبيه ويهنته بالخلافة ، ويظهر أنه كتبها عن عمارة بن حمزة وفيها يقول (١) :

« أعظم بالمصيبة مصيبة نزلت ، وأعظم بالنعمة نعمة حدثت ، وإن أحت من انتصح لله في قضائه واعترف بوجود حُسن بلائه من علم أن الفجائع أمرٌ جرت به سنن الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً . . ولولا ذلك لم يكن لمعز أن يروم تعزية أمير المؤمنين . . فعظم الله على الحادث النازل أجره ، وأحسن على الخلافة عونه ، ثم لا وكله الله في شيء من الأمور إلى نفسه ، وألهمه العمل بما يرضيه ويبلغ به تأدية حقه ، فيها استرعاه واستحفظه وجعله أهله وأحق به » .

ومن الكتاب أيضاً لعصر المنصور غسان بن عبد الحميد كاتب (٢) عمه سليمان بن علي واليه على البصرة لسنة ١٣٣ للهجرة ، وفي الفهرست أنه كتب لابنه جعفر بن سليمان على المدينة سنة ١٤٦ للهجرة ويقول : « كان بليغا حلوا الكلام لطيف المعاني (٣) » واحتفظ له أيضاً ابن طيفور بطائفة جيدة من رسائله ، وأكثرها يدور في التعزية ، ويظهر أنه كان يتقنها إتقاناً بعيداً على نحو ما نرى في هذه القطعة من رسالة يعزى بها المهدي عن أبيه (٤) :

« أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علماً ثابتاً عنده وكتاباً سابقاً منه ، فجرت عليه ومضت به الأمور في قدرته ، والعباد في قبضته . وليس عبئاً من عبئيه إلا وقد كان عمره في الدنيا موظوفاً قبل خلقه ، وكان ما يصيبه منها مكتوباً عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ متكاملة في السعادة وأهل فضائل متظاهرة في الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه ، وانتجب منهم خلفاءه ، وأزهمهم على ذلك الموت الذي لا بد منه وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفى منهم له سعادةً فيما يصيرهم إليه وحياة من أحيا منهم له كرامة فيما يصطنعهم له ، فيمضى الأول منهم سعيداً ويبقى الباقي منهم مصطنعاً فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ولا يبقى باقيهم إلا ليزداد خيراً فيها .

(١) جبهة رسائل العرب ١٤٨/٣ .

(٢) الفهرست ص ١٨٣ .

(٣) الجهشيارى ص ١١٠ .

(٤) جبهة رسائل العرب ١٤٩/٣ .

والماضى مفقود مستخلف منه ، والباقي محمود مرضى به ، وأمر الرعية قائم معدول فيه .

وننتقل إلى عصر المهدي فنلتقى بأبي عبيد الله معاوية<sup>(١)</sup> بن عبيد الله بن يسار وكان المنصور ضمته إليه حين أنفذه إلى الري ليكتب له ويصدر عن رأيه ومشورته ، فلما ولى الخلافة استوزره وفوض إليه الدواوين ، حتى إذا كانت سنة ١٦٣ صرفه عن وزارته واقتصر به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة ١٦٧ . ثم صرفه الميبدى عنه أيضا ، ولم يلبث أن توفي سنة ١٧٠ للهجرة . وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعاً في القول ، ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله : « التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بَطَر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وذل الفقر قاهرٌ لعز الصبر ، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان في غريزته فضل كرم وفي أعراقه مناسبة لعلو الهمة<sup>(٢)</sup> » . وكان أهل الخراج يعدّون بصنوف من العذاب : من السباع والزنانير والسنانير ، فكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عنهم . وقد اشتهر ببراعته في التحميدات التي كانت تصدر بها الرسائل والكتب من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم واستيجابهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تجديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها ومِنَّة ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعماء ، وإعذاراً إليهم بالحجج وتقديماً بالوعد وإنذاراً إليهم عواقب سخطه في المعاد . والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل وطموسٍ من معالم الحق ودروسٍ من سبيل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبي فيه لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء، الظاهرين بحقه القاهرين لمن ابتغى

ص ١٣٤ .

(٢) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٦٥ .

(١) الجهشيارى ص ١٢٦ وفى ثنايا حديثه عن أيام المهدي ووزرائه وكتابه، وانظريه كتب التاريخ مثل الطبرى وابن الأثير والفخرى

سيلا غير سبيله ، فعظّم حرّمته ووسّع حَوْرته وصدع بأمره وجاهد عن حقه في حَوَمات الضلالة وظلمات الكفر بالحق المبين والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن سبقه من الرسل ومجدداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة »

ومن البلغاء المحيدين الذين كتبوا له في دواوينه إسماعيل بن صبيح ومطرف<sup>(١)</sup> ابن أبي مطرف العسبدي الذي كان يتقلد ديوان الخراج ، ويظهر أن أبا عبيد الله كان يستعين به من حين إلى حين في كتابة بعض الرسائل الديوانية ، فما أثر له رسالة إلى بعض العمال كلها إغذار وإنذار على هذه الشاكلة<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد فإن الله حبّب إلى كل مسلم شُعبه من دينه ، فمنهم من حبّب إليه الصلاة فهو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ومنهم من حبّب إليه الزكاة فهو ينفق ماله بالليل والنهار سِرّاً وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، ومنهم من حبّب إليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذب عن حريمهم ويقاتل مِينَ دونهم وفاءً بعهد الله وتسليماً لبيعة الله ، فأما الراسخون في العلم ممن قد عرف سيرتك ، وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله في أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسألونه بآلائه مخلصين وبأسائه مُلْحِضِينَ أن يصيبك بعذاب من عنده أو بأيديهم ، لما استحلّت جنودك من سفك الدماء ، وأباحت رسلك من حرّم النساء ، ولظلمك اليتامى وافترائك على ذوى القربى وتعريضك إياهم في فتوحك للعقاب والهلكة والخلاف والمعصية ، فويل لك ولكتابك مما كتبت أيديكم وويل لكم مما تكسبون ، وقد وردت كتبك - بحمد الله - من أمير المؤمنين - على حلم لا يوهنه الغضب وعلى عمل لا يغيره الكذب وعلى إيمان لا يستخفه الذين لا يوقنون » .

وواضح كثرة اقتباساته من ألفاظ الذكر الحكيم ، من مثل قوله تعالى : ( أَمَّنْ هُوَ قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ) وقوله : ( الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سِرّاً وعلانية ) وقوله : ( ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة

ص ١٦٦ .  
(٢) جمهرة رسائل العرب ٢١٣/٣ .

(١) انظر في أخباره ترجمة ابنه عمر بن مطرف في معجم الأدباء ٧٢/١٦ والجهشياري



الله وتثبيتاً من أنفسهم . . . ) وقوله : ( ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ) ( ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ) وقوله : ( ونحن نربص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو بأيدينا ) وقوله جل ذكره : ( فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ) . وقد توفي مطرف سنة ١٦٤ للهجرة وكان له ابن كاتب يسمى عمر (١) تقلد ديوان المشرق للمهدى والهادى وقلده الرشيد ديوان الأزمّة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة في عصر المهدي ، وربما لحقته هذه الشهرة في عصر المنصور محمد (٢) بن حجر كاتب ولاية أرمينية والشام ، واتخذته العباس بن محمد أخو المنصور كاتباً له ، ولعله تعرف عليه في أثناء نهوضه بقيادة الجيوش في غزو الروم ، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدي حين جعل ابنه الرشيد ولي عهده بعد أخيه الهادي سنة ١٦٣ وفيها يوثق البيعة لولي العهد الجديد على هذا النمط (٣) :

« قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلّع نحوها، فتبادرتها أكفئنا، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيّاتنا وسلامة من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صَفقت (٤) عليه أيماننا ، عارفين بأنها مُفْتَتِحُ نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة في الخير رقيقة مقدمين للسرور بها نُصَحَ الجُيُوب (٥) باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب . »

ونضى إلى عصر الرشيد، ويلقانا يحيى (٦) البرمكى ، أحد من جمع جمعاً رائعاً بين ثقافة العرب وثقافة الفرس، وكان قلده المهدي الكتابة لابنه، منذ جعله ولياً عهده، والقيام على نفقاته وتدبير أمر الجيوش التي كان يقودها الرشيد ضد الروم . وحسُنْ أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولي الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال

(٥) ناصح الحبيب: ناصح القلب والصدر .

(٦) انظر في ترجمة يحيى كتب التاريخ في

خلافة الرشيد من مثل الطبري وابن الأثير واليعقوبي

وراجع الفخرى والجهشياري ص ١٥٠ ، ١٦٨

وفي أيام الرشيد، وراجع في بلاغته وبلاغة أبنائه

العقد الفريد ٥٨/٥ .

(١) انظر ترجمته في ياقوت ٧١/١٦

والفهرست ص ١٨٤ .

(٢) انظر ترجمته في الفهرست ص ١٧٢ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/١٦٩ .

(٤) صفق يده بالبيعة : ضرب يداً بيد دلالة

على التزامها .

ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولي ابنه جعفرأ على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية وولّى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك كله في الفصل الأول من فصول هذا الجزء ، ومضى ما نهض به البرامكة في الشؤون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد في سنة ١٨٧ للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا في الحبس .

وكان يحيى سيّوساً حصيفاً ذقيق الحس مهذب الذوق رقيق الشعور ، وحول مجلسه كما أسلفنا إلى ندوة علمية أدبية كبرى يتحاور فيها كبار العلماء من كل صنف ، وكان آية في البلاغة والإيجاز ، وتوقف الجهشيارى مرارا لبروى بعض المأثور من كلامه من مثل قوله : « البلاغة أن تكلم كل قوم بما يفهمون » وقوله لجعفر ابنه : « يا بني انتق من كل علم شيئاً فإنه من جهل شيئاً عاداه وأنا أكره أن تكون عدواً لشيء من الأدب » وقوله : « الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون » وقوله : « العَجَبُ للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزيكّيه ويشهد بأنه محسن » وقوله : « لست ترى أحداً تكبّر في إمارة إلا وقد دل على أن الذي نال فوق قدره ، ولست ترى أحداً تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال في سلطانه » . وكتب إلى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« من شخص أسلمته ذنوبه وأوثقتّه عيوبه ، ونخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدّثان<sup>(٢)</sup> ، فحلّ في الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدّعة ، وافترش السخبط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود<sup>(٣)</sup> ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف القسوت ، جزعا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك » .

(٢) الحدّثان : نوازل الدهر ونوائبه .

(٣) الهجود : النوم .

(١) العقد الفريد ٦٨/٥ وغرر الخصاص

الواضحة للطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ)

ص ٤٠٦ وجمهرة رسائل العرب ٢٢١/٣ .

وفي هذه العبارات المحبوبة المسجوعة ما يدل على عناية يحيى بتعبيره وحوّكه الفنى ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن البرامكة كانوا من أهم العوامل في شيوع السجع في الكتابة الديوانية ، وحقاً أنه لا يطرد دائماً في كتاباتهم ، ولكن نحس ميلهم الواضح له هم وبعض كتبهم ومن كانوا يكتبون إليهم .

وكان جعفر<sup>(١)</sup> لا يقل عن أبيه بياناً وفصاحة وبلاغة ، إن لم يتقدم في ذلك خطوات ، وكان مثقفاً بمعارف عصره ثقافة واسعة وضممه أبوه إلى أبي يوسف القاضى فعلمه وفقهه حتى صار نادرة زمنه . وحظى عند الرشيد حظوة كبيرة لم ينلها أحد قبله ، حتى قتله سنة ١٨٧ لما ثبت عنده من إطلاقه يحيى بن عبد الله العلوى من سجنه ، على نحو ما مر بنا في الفصل الأول . وكانت تُضربُ بيلاغته الأمثال ووصفه ثمامة بن أشرس فقال : « قد جمع الهدوء والتمهل والحزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة<sup>(٢)</sup> » . ومن رسالة له في العفو إلى أحد عماله<sup>(٣)</sup> :

« عندنا الاعتقار لما اقترفت ، وتصديق كل ما قلت ، واحتججت بذكره ، واعتذرت بوصفه ، والإسقاط لما جحدته ، والإكذاب للجور الذى اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاء لك وإن انصرفت ، وحياطة لما قدمت وإن ذُمت ، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلغ في الإصلاح ، وأنجع في الاستنجاح ، وأسرع في التعليم ، وأكبر في التقويم ، إن احتيج إليه في مثلك ممن تؤمن عليه قريبته ، وترده إلى الاستقامة تجربته »

والرسالة مبنية على السجع ، وكان جعفر يؤثره في كتاباته ، مبالغته منه في التأنق والتنميق ، وهو تنميق كان يطلبه في كل ما يتصل به حتى في ثيابه<sup>(٤)</sup> . وكثير هم الكتاب البلغاء الذين كتبوا في دواوين الرشيد والبرامكة وفي مقدمتهم

والعقد الفريد ٥٨/٥ .  
(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٩٠ .  
(٤) الجهشيارى ص ٢١٥ .

(١) انظر في جعفر كتب التاريخ في خلافة الرشيد والجهشيارى ( انظر الفهرس ) .  
(٢) البيان والبيان ١٠٦/١ . وانظر وصف سهل بن هارون لبلاغته في زهر الآداب ٦٩/٢

إسماعيل<sup>(١)</sup> بن صبيح وكان يكتب في أول حياته لأبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله ابن يسار وزير المهدي ورئيس دواوينه ، ولما ألحق المهدي يحيى البرمكي بابنه الرشيد اتخذه كاتبه ، حتى إذا ولي الهادي توسط له عند وزيره إبراهيم الحراني فقلده ديوان زمام الشام وما يليها ، ولما صارت الأمور بيد يحيى في عصر الرشيد قلده ديوان الحراج ، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل ، وظلّ على هذا الديوان مدة في عصر الأمين . ومما يؤثّر له رسالة عن الرشيد إلى جميع العمال بما عقد بين ولديه الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد في بيت الله الحرام ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« قد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أمّلت الأمة ومدّت إليه أعناقها . وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دهمائهم ، ودفع المخذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزمّتهم وأعطوهما بيعتهم وصفقات إيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مَرَدّ ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا على صرّف له عن محبته ومشيتته ، وما سبق في علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة ، لا عاقب لأمر الله ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه » .

ومن الكتّاب البلغاء الذين اتصل عملهم في الدواوين من عهد المنصور حتى هذا العهد يوسف بن صبيح ، وقد عرضنا له آنفاً ، وفي الجهشيارى أن يحيى البرمكي أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد<sup>(٣)</sup> ، وفي الأوراق للصولي رسالة له عن الفضل بن يحيى في حاجة لشخص إلى أحد العمال ، وهي تجرى على هذه الشاكلة<sup>(٤)</sup> .

(٢) الطبري ٤٨١/٦ وما بعدها .  
 (٣) الجهشيارى ص ١٧٥ .  
 (٤) الأوراق للصولي (قسم الشعراء) ص ١٥٨ .

(١) انظر في اسماعيل الجهشيارى ص ١٥٠ ،  
 ١٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠١ وفي مواضع متفرقة .

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنعة حرمة المصطنع وسيلة إلى مصطنعه سيما عند من يحسن الصنعة ويستتمها ، مستتبنا للشكر عليها والثناء الجميل بها ، بسط الله بالخير يدك ، ووصل به أسبابك وأعانك عليه وجعلك من أهله . »

ومن الكتاب المفوهين حينئذ محمد بن الليث ، وفيه يقول صاحب الفهرست :  
 « كتب ليحيى بن خالد . . ويعرف بالفقيه وكان بليغا مترسلاً كاتباً فقيها متكلما بارعا<sup>(١)</sup> . ومن أروع ما أُنثر عنه رسالته<sup>(٢)</sup> التي كتبها للرشد إلى قسطنطين السادس إمبراطور بيزنطة ، وهي تمتد إلى نحو سبعين صحيفة ، وفيها يدعو الرشد إلى الإسلام ، وقد أفاض ابن الليث في وصف رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما طوى فيها من الهدى للبشر وإنقاذهم من ظلمة الضلال ، كما أفاض في وحدانية الله ورسالات الأنبياء وهيمنة الإسلام وسلطانه على تلك الرسالات والرسالة أشبه بدفاع قوى عن الإسلام وشريعته ، وكأن ابن الليث استمد فيها كثيراً مما كان يجادل به المتكلمون النصارى وأصحاب الملل والنحل من حوله . وهو تارة يجادل بالمنطق وتارة يجادل بآيات الرسالة الباهرة ، ناقضاً ما يردده الرهبان من أن عيسى ابن الله وما يكررونه من نظرية الأب والابن والروح القدس ، مناقشا في ثنايا ذلك آيات من الإنجيل ومن العهد القديم ، وملوحاً بما سينزاه الرشد في ديارهم من خراب ودمار ، وأن الروم لو تابعوه لعم مساكينهم وذراًعهم وفقراءهم وضعفاءهم من العدل ما يجعلهم يعيشون في أمن وسلام ، ولذاقوا لذة الحفص ودعة الحال ورفاهية العيش والرخاء ، ولاستقاموا على الشريعة الصحيحة والتوحيد القويم . ويروى الرواة أن جعفر بن يحيى كتب إلى محمد بن الليث يستوصفه الخط ، فكتب إليه رسالة بديعة في الخط والقلم على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

« أما بعد فليكن قلمك بحرياً ، لا متيناً ولا رقيقاً ما بين الرقة والغلظ ، ضيق الثقب ، وأبره بريراً مستويا كمنقار الحمامة ، واعطف بطنه ورقق شفتيه ، وليكن مدادك فارسياً خفيفاً إذا وزنته ، وانقع له ليلة ، ثم صفه في

الدَّوَاةُ ، وليكن قرطاسك رقيقاً مستوي النَّسْجِ ، تخرج السَّحَاةُ (١) مستوية من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك في طرف القرطاس الذي في يسارك ، وأقله في الوسط ، ولا تَمَطِّطْ في الطرف الآخر ، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة ، ولا تترك الأخرى بغير مَطِّطٍ ، فإنك إذا قرنت القليل كان قبيحاً ، وإذا جمعت الكثير كان سَمِجَاجاً . ثم ابتدء الألف برأس القلم كله واخْطُطْهُ بعرضه واختمه بأسفله . واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطَّة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مُرْسَلٍ برأس القلم . واكتب الجيم والحاء والحاء والذال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . وامْطُطْ بعرض القلم ، والمط نصف الخط ، ولا يقوى عليه إلا العاقل ، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضاً إلا بالنظر إلى اليد في استعمالها الحركة ، والسلام .

وإنما نقلنا هذه الرسالة بطولها ، لندل على مدى احتفال الكتاب باختيار الأقلام وبجودة الخط ، حتى تجرى الأقلام في القراطيس جريان نماء ، وحتى يروع الخط برونقه وبهائه ، وحتى الحروف ومطاتها العليا والسفلى ، كل ذلك يُكْتَبُ بقسطاس . ولا بد من أن تكون السطور معتدلة متناسقة ، وقطع القراطيس مقطوعة بانتظام ، حسنة النسج والهندام ، ولا بد للكاتب من أن يراعى مواضع سين القلم من كتابة الحروف ، ولا بد من أن يراعى التوازن في مدات هذه الحروف ومطاتها . وبأيدي محمد بن الليث وغيره من الكتاب في العصر العباسي تطوَّر الخط العربي وارتقت صناعته رقياً بعيداً ، وهو رقى كان يرافق احتفالهم بألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم حتى تصبح الكتابة كأنها وَشْيٌ خالص ، وَشْيٌ في العين ، وَشْيٌ في السمع ، وَشْيٌ في العقل والذهن .

وكان يكتب لجعفر بن يحيى البرمكي أنس بن أبي شريح ، وقد سلكه ابن النديم في البلغاء العشرة الأوَّل في العصر ، وفيه يقول الجاحظ : « كان زكياً فهِمَّاً نقي الألفاظ جيد المعاني حسن البلاغة (٢) » وعدّه الرشيد شريك جعفر

(١) السحاة : القطعة من القرطاس .

(٢) الجهشياري ص ٢٣٩ .

في إثمه ، فلما قتله أذاقه نفس المصير وصلبته . ويُؤثر من تحميداته قوله <sup>(١)</sup> :

« الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالعقول حُجَّتَه ، الذي بعث محمداً صلى الله عليه أميناً فوفى له ، ومبدئاً فأدنى عنه ، فحسب به المنكر ، وتألَّف به المدبر ، وثبت به المستبصر ، إلى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه ثم أورثكم عهده ، وخصكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى » .

والسجع واضح في هذا التحميد ، ولعل في ذلك ما يؤكد من بعض الوجوه ما قلنا من أن البرامكة أشاعوا في كتاب دواوينهم ذوق التسجيع ، وإن لم يطرد في جميع رسائلهم وآثارهم ، لكنه على كل حال أخذ يشيع في كتاباتهم ، وقد عمل في دواوينهم ودواوين الرشيد كثير من الكتّاب الذين لمعت أسماءهم فيما بعد مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن ومثل سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا في عهد الرشيد قمامة بن أبي يزيد ، وكان يكتب أولاً لصالح <sup>(٢)</sup> بن علي ، ثم أصبح كاتباً للقاسم <sup>(٣)</sup> بن الرشيد ، ثم اختص بعبد الملك بن صالح والى الرشيد على الجزيرة والشام ومصر . وسعى على عبد الملك إلى الرشيد وثبت كذبه فقتله صبراً سنة ١٧٨ للهجرة . وكان لساناً فصيحاً بليغاً ، وما أثر له قوله من رسالة وجهها - فيما يبدو - عن عبد الملك بن صالح إلى الرشيد <sup>(٤)</sup> :

« كل ما قبَلنا وما يتناهى إلينا من ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلادهم أقصاها وأدناها في صلاح ذلك كله واستقامته وهدوئه على أفضل ما عود الله أمير المؤمنين فيه العلوّ والعافية ، وأنا أحتذى فيه من أمير المؤمنين أمرين : إما تقدمه عرفني فيها رأيه فأنا ألزمها ولا أعدل عنها ، وإما أثر قد نهجه أمير المؤمنين فأنا أركبه وأتبعه ولا أفارقه . فعلى هذا - بحول الله - قوتي ومعتمدي ، قد كفى الله به في الهداية ، وأعطى فيه الخير والمَنَّ والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

ومن عرفوا لعصر الرشيد بالكتابة البليغة جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان

(٣) الجهشيارى ص ٢٦٥ .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٣٨ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٩١ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٢ وانظر الفهرست

ص ١٧٣ .

الرشيد جعل ابنه الأمين في حِجْرِهِ ثم جعله في حجر الفضل<sup>(١)</sup> بن يحيى البرمكي ، وولاه على خراسان ثم صرفه عنها سنة ١٧٣ للهجرة<sup>(٢)</sup> ، وأعله لذلك كله كان يضطغن على يحيى البرمكي ويُرْوَى أن يحيى حاول أن يسند إليه بعض الأعمال فكتب إليه يستعفيه برسالة يقول فيها<sup>(٣)</sup> :

« شكري لك على ما أسألك الخروج منه شكر من نال الدخول فيه ، فأما عذري في تطويل الكتاب إليك فلم يذهب . على أن وجوه الحوائج قد يكثر الكلام فيها وتشتد قراءتها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وإن نفسي جاشت بعظيم حاجتها » .

ومن الكتاب لعصر الرشيد أيضا عمر بن مهران كاتب<sup>(٤)</sup> الخيزران أم الرشيد ، وقد ولاه الرشيد على خراج مصر سنة ١٧٦ للهجرة وكان بعض أهلها قد اعتادوا المَطْلُ بالخراج وكسره ، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاطا<sup>(٥)</sup> فاستمهله مدة ، فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فأقسم عمر أن لا يؤديه إلا ببغداد . وسرعان ما قدم له الخراج فلم يقبله منه ، وحمله إلى بغداد فأدّى الخراج بها ، وخاف الماطلون ، فأدّا وخارجهم ، وكتب عمر مع الرجل إلى الرشيد<sup>(٦)</sup> :

« إني دعوت بفلان وطالبت بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى<sup>(٧)</sup> ، فأنظرته ثم دعوته فدافع ومال إلى الإلطاط ، فأليت أن لا يؤديه إلا في بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إليّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

ونخرج إلى عصر الأمين ، ويتولى وزارته ورياسة دواوينه للفضل بن الربيع ، ويظل إسماعيل بن صبيح على ديوان الرسائل ، ويروى الطبرى أنه لما عزم الأمين على خلع المأمون أشار عليه إسماعيل أن يكتب إليه بحاجته له للاستعانة برأيه ويسأله القدوم عليه ، فقال الفضل للأمين : القول ما قال يا أمير المؤمنين ، قال

الزاهرة ٧٨/٢ وما بعدها .  
 (٥) إلطاطاً : جحوداً وماطلة .  
 (٦) طبرى ٤٥٩/٦ .  
 (٧) لوانى : مطلى . استنظرنى : استمهلى وأجاني .

(١) الجهشيارى ص ١٩٣ .  
 (٢) النجوم الزاهرة ٧٢/٢ .  
 (٣) كتاب الصناعتين لأبي هلال (طبعة الحلبي) ص ٣٣٨ وانظر الجهشيارى ص ١٧٩ .  
 (٤) الجهشيارى ص ٢١٨ وانظر النجوم



الأمين فليكتب بما رأى ، فكتب إليه الرسالة التالية (١) :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ،  
 أما بعد فإن أمير المؤمنين روى (٢) في أمرك والموضع الذي أنت فيه من تَغْرُك  
 وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكانفة (٣) على ما حملته الله وقلَّده من أمور  
 عبادته وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به  
 من إقرارك على ما تصير إليك منها . ورجاء أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه  
 وكتب (٤) في دينه ، ولا نكث في يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على  
 المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين أن  
 مكانك بالقرب منه أسد للثغور ، وأصلح للجنود ، وأكد للشمس ، وأرد على  
 العامة ، من مقامك ببلاد خراسان ، منقطعاً عن أهل بيتك ، متغيباً عن أمير  
 المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك . فاقدم على أمير المؤمنين  
 على بركة الله وعمونه ، بأبسط أمل ، وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ  
 بصيرة ، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النصب  
 فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته ، والسلام .

والرسالة تحمل خصائص إسماعيل وما كان يعنى به في كتابته من إجادة  
 القول وإتقانه ، وهى إجادة تُردُّ إلى دقته في اختيار الألفاظ والصياغات بحيث  
 تصبح مظهراً للجمال الفنى الأدبى ، وبحيث يجد فيها السامع من لذة الكلام  
 ما يمتعه ويروعه .

ومن الكتاب البلغاء الذين عملوا في دواوين الأمين موسى (٥) بن عيسى بن  
 يزيدانيروذ ، وقد احتفظ ابن طيفور برسالة له إلى الأمين يتحدث فيها عن موسم  
 الحج وسلامته ودعته ، وهى تجرى على هذا النمط (٦) .

« أما بعد فإن الله بحمده ومسَّه هو ولى أمير المؤمنين وولى النعمة عليه فيما  
 حملته واستحفظه ، وجعله القائم به والمحافظ عليه ، من ولاية دينه ورعاية أهله ،

(٤) وكف : عيب وفساد .

(٥) الجهشيارى ص ٢٨٩ .

(٦) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٥٠ .

(١) الطبرى ١١/٧ .

(٢) روى : فكر .

(٣) المكانفة : المساعدة .

والمرجو لإتمام ذلك بمنه ورحمته . وإني كتبت إلى أمير المؤمنين يوم التفرغ الأول ، وقد قضى الله مناسكتنا ، وتمم حججنا ، وأرانا في مواقفنا وإفاضتنا ومن حضر الحج معنا من رعية أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُسبلى (١) الله أمير المؤمنين ويعوده ويُسبلى الرعية في خلافته من السلامة والعافية والتوفيق والكفاية ، والله المحمود . ولم أر موسماً كان أعم عافية وسلامة ، وأحسن هدًياً ودعة ، وأكثر داعياً لأمر المؤمنين وولىً عهده بطول البقاء من موسم الناس في عامهم هذا بنعمة الله وفضله . أحببت الكتاب إلى أمير المؤمنين لمعرفةً بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليسرَّ به ، ويحمد الله عليه ويشكره ، فإنه يحب الشاكرين .

وسرعان ما يخلف المأمون الأمين ، وفي عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة ، فقد تكاثرت الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم ، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفني والتدقيق في المعاني أشد التدقيق . وأول من نلقاه من هؤلاء الكتاب البارعين الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزير المأمون ، وكان سهل مجوسياً وأسلم على يد يحيى البرمكي وأصبح من أتباعه ، فأحضر له ابنه الفضل والحسن ، فأعجب بهما يحيى وطلب إلى الفضل أن ينقل له كتاباً من الفارسية إلى العربية فأعجب بنقله وجودة عبارته ووصله بابنه جعفر ووصل الحسن بابنه الفضل (٢) ، ولم يلبث جعفر أن ضمَّ الفضل إلى المأمون ، فأسلم على يديه وغلب عليه بحصافة رأيه وسعة عقله وبلاغته ، حتى إذا أنفذه أبوه إلى مرو أصبح أمر المأمون كله بيده . ولما احتدم النزاع بينه وبين الأمين وخلعه من ولاية العهد قام على تدبير أموره خير قيام ، من تنظيم للجيوش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، ومن حسن سياسة ودقة تصرف لشئون المأمون في ولايته حتى تم له القضاء على أخيه وصارت له الخلافة . وقد عقد له المأمون في سنة ١٩٦ والنزاع بينه وبين أخيه على أشده على الشرق طولا وعرضاً ولقبه ذا الرياستين : رياسة السيف ورياسة القلم والتدبير ، ويظهر أنه كانت فيه ميول شيعية فقد

وفي مواضع متفرقة والفخرى ص ١٦٥ وزهر الآداب ١٤/٢ .

(١) يبيل هنا : ينعم ويحسن .  
(٢) انظر في ترجمة الفضل بن سهل كتب التاريخ والوزراء والكتاب للجبهشيارى ص ٢٢٩

دفع المأمون في سنة ٢٠١ إلى البيعة بولاية العهد من بعده لعلوي كان يعظمه المأمون ويجله ويتخذة رفيقا ، هو على الرضا ، وكتب بذلك إلى الآفاق . فغضب آله العباسيون ببغداد ، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، فعزم المأمون على المبادرة إلى بغداد ، وفي طريقه إليها قتل الفضل بسرخس ، وفنك المأمون بقتلته ، ولم يلبث على الرضا أن توفى بطوس ، وعادت ولاية العهد إلى العباسيين . وتروى للفضل كلمات كثيرة مأثورة ، وما روى له من رسائله الرسالة التالية وقد وجه بها مع جائزة منحها لبعض خاصته ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« قد وجهت إليك بجائزة لا أعظمها تكثراً ، ولا أقللها تجبراً ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستشيك عليها ثناء » .

أما الحسن<sup>(٢)</sup> أخوه فقد ولاه المأمون دواوين الخراج في سنة ١٩٦ للهجرة ، وفي سنة ١٩٩ جعله نائبه في بغداد ، فقدم إليها وفرق عماله على البلاد ، ولما مات أخوه الفضل اتخذه وزيراً له بعده ، حتى إذا تزوج ابنته بوران سنة ٢٠٧ طلب منه أن يعتزل الوزارة ، فأعفاه . وظل وافر الحرمة حتى توفي بسرخس سنة ٢٣٦ للهجرة . وكان لا يقل عن أخيه لسنناً وبلاغة ، وله رسالة بديعة كتب بها إلى محمد بن سماعه قاضي بغداد في اختيار شخص يتولّى بعض أموره وقد وصف له فيها الخصال التي ينبغي أن يشتمل عليها ، وهي تجرى في هذه الصورة<sup>(٣)</sup> :

« أما بعد فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير ذي عفة ونزاهة طعممة<sup>(٤)</sup> ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين في رأيه ، ولا بمطعون في حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلّد مهمماً من الأمور أجزأ<sup>(٥)</sup> فيه ، له سين مع أدب ولسان ، تُفَعِّده الرزانة ، ويسكِّنه الحلم ، قد فرّ<sup>(٦)</sup> عن ذكاء وفطنة ، وعَضَّ على قارحة<sup>(٧)</sup> من الكمال ، تكفيه

(٣) الأمانى للقال ٢٥٣/١ .

(٤) طعمة : مكسب .

(٥) أجزاء : أغنى وكفى .

(٦) فر : اختبر وجرب .

(٧) قارحة هنا : تجربة ناجحة .

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

٣٤٢/١٢ .

(٢) انظر الحسن كتب التاريخ والفخرى في

الآداب السلطانية ص ١٦٧ والجهشياري

ص ٢٣٠ وفي مواضع متفرقة وزهر الآداب ٢٥/٤ .

اللحظة ، وتُرشد السكنة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام في أمورهم فحُمِدَ فيها . له أناةُ الوزراء ، وصولُ الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده ، يكاد يسرقُ قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارة العلم له شاهدة ، مضطلعا<sup>(١)</sup> بما استنهض ، مستقلا<sup>(٢)</sup> بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياحه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك .

وتلك الخصال في الواقع كانت حينئذ الخصال المنشودة فيمن يتولون أعمال الدواوين ، وخدمة الوزراء والخلفاء ، وهي ترينا ما كان يُطلَبُ في الكاتب من ثقافة واسعة ومن حصافة وتهذيب في الذوق وحلم وأناة وذكاء وقدرة على تصريف الأمور وإحسان للجواب ولباقة في الخطاب وبلاغة في الكلام بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، بل بحيث يسرق أفئدة الرجال ويستولى على عقولهم استيلاء .

ومن الكتاب الذين طارت شهرتهم في دواوين المأمون أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة ، وستحدث عنهما في الفصل التالي ، وكان وراءهما كثيرون لم يبلغوا مبلغهما في الشهرة ، منهم محمد بن يزيد<sup>(٣)</sup> « وكان بليغا مترسلا شاعراً » وله رسائل مجموعة<sup>(٤)</sup> ، ومنهم محمد<sup>(٥)</sup> بن سعيد ، ومنهم علي بن عبيدة الريحاني الكاتب وكان أديباً فصيحاً بليغاً صنّف الكتب في الحكم والأمثال واختصّ بالمأمون<sup>(٥)</sup> .

وفي مقدمة القواد والولاة الذين اشتهروا بالكتابة البليغة في عصر المأمون طاهر<sup>(٦)</sup> بن الحسين ، وهو الذي قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين وحاصره ببغداد حتى ظفر به وقتله في سنة ١٩٨ للهجرة . وولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥ . ولم يلبث أن توفي سنة ٢٠٧ ، وله وصية طويلة كتب بها إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرقة سنة ٢٠٦ وهي أشبه بدستور للحكم القويم والحاكم الرشيد ، وقد وزعها بين ما يجب على الحاكم في دينه وخلقه وما يجب عليه في

(٥) النجوم الزاهرة ٢/٢٣١ وانظر

الفهرست ص ١٧٣ وزهر الآداب ٢/١٢٢ .

(٦) انظر في طاهر كتب التاريخ ووفيات

الأميين لابن خلكان ١/٢٩٥ .

(١) مضطلماً: ناهضاً .

(٢) مستقلاً: محتلاً في قوة .

(٣) الفهرست ص ١٧٩ .

(٤) الفهرست ص ١٨٢ .

سيرته مع حاشيته وخاصته ومع الجند والرعية ، استهلها بحديثه عما ينبغي على ابنه من تقوى الله وطاعته والأخذ بسنة رسوله واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، ثم نصحه بالاقتصاد في أموره وعدم الريبة في عماله مع المسألة عن شئونهم ، وأمره بالحياطة للرعية وإقامة حدود الله ، والنظر في استصلاح العامة وعمارة ديارهم وبلادهم وانتظام معاشهم ، كما أمره بتفقد الجند ورواتبهم والعناية بهم وبالقضاء الذى به يستقيم العدل والأمن ، والعناية بالخراج وعدم الشطط في تقديره ، والعناية بأمور الفقراء والمساكين بتعاهد ذوى البؤس منهم واتخاذ دور يأوى إليها فقراؤهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، مع العمل بشريعة الله ، ومع تصفح الأعمال والعمّال وما ينبغي أن يكونوا عليه من العون في سياسة أمير المؤمنين ، ومن قوله في تضاعيفها<sup>(١)</sup> :

« اعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعياً ، وإنما سُمى أهل عمالك رعيك لأنك راعيهم وقيّمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه في قِوام أمرهم وصلاحتهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كُور عمالك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالرياسة والعفاف ووسّع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسُن الأحداث في عمالك واحترزت النَّصحة من رعيك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب في كُورك ، فكثرت خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك وكنتم محمود السياسة مرضى العدل . . واستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشر بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك وافترغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه ،

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٦٠ وما بعدها .

فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبتدتك وأحكمت أمور سلطانك «  
 وشاعت هذه الوصية في الناس ، فكتبوها وتدارسوها ، وسمع بها المأمون ،  
 فطلبها ، ولما قرأها قال ما أبقى طاهر شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى  
 والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة  
 إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر أن تكتب منها نسخٌ وترسل إلى جميع العمال  
 في نواحي الأعمال .

وكان ابنه عبد الله<sup>(١)</sup> بارع الآداب حسن الشعر ، وقد عني بتأديبه في  
 صغره ، واختلافه إلى حلقات المحدثين والفقهاء ، وكانت فيه نزعة قوية إلى  
 الفنون ، فلم يكتف بالشعر ، بل حذق بجانبه الموسيقى ، وروى أبو الفرج أصواتا  
 تؤثر له . وقلده المأمون الأعمال الجليلة ، فجلّى فيها ، وكان أول ما قلده  
 الجزيرة والرقّة ، فقمع المفسدين فيهما ، ثم ولاه مصر سنة إحدى عشرة ومائتين  
 فلمّا ما كان بها من شعث ومهتدّها ورتب شئونها ، حتى إذا انتظمت أمورها  
 غادرها سنة اثنتي عشرة ومائتين مستخلفاً عليها عيسى بن يزيد الجلودى . وتوفى  
 أخوه طلحة وإلى خراسان فولاه المأمون عليها سنة ٢١٣ وظالت له ولايتها حتى  
 توفى سنة ٢٣٠ . وكان بجرا فياضاً ، كما كان كاتباً بارعاً ، وله أمان طريف<sup>(٢)</sup>  
 كتبه في ولايته على الجزيرة لنصر بن شيبث حين ضيَّق عليه وعاذ بالأمان  
 وطلبه ، ويقال إنه لم يطلبه إلا بعد أن كتب إليه وقد اعتصم منه بأحد الحصون<sup>(٣)</sup>  
 « اعتصامك بالقلال<sup>(٤)</sup> ، قيّد عزمك عن القتال ، والتجأوك إلى الحصون ،  
 ليس ينجيك من المَسُون ، ولست بمفلت من أمير المؤمنين فيما فارس مطاعن  
 أو راجل مستأمن » . فلما قرأ هذه الرسالة حصره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث  
 أن طلب الأمان وخرج من حصنه إلى عبد الله بن طاهر مستأمنًا صاغراً ، فوجهه  
 به إلى بغداد .

ونمضى إلى عصر المعتصم والوائق ، وفيه يتألق في الكتابة البليغة اسم ابن

(٢) تاريخ الطبرى ٧/١٧٣ .

(٣) زهر الآداب ٤/١٢٦ .

(٤) القلال : أعالي الجبل .

(١) انظر في ترجمة عبد الله كتب التاريخ

والنجوم الزاهرة ٢/١٩١ وما بعدها ووفيات

الأعيان ٣٢٧/٣ .

الزيات وزيرهما ، وسنخصه بمحدث مفصل في الفصل التالي ، ومن اشتهر ببلاغته حينئذ إبراهيم بن العباس الصولي ، وقد عمل في دواوين المأمون ووزيره الحسن بن سهل ، وتولى الأهواز حيناً من الزمن وعزله عنها ابن الزيات ، فوجه إليه باستعطافات طريفة ، ونحن نؤخر الحديث عنه إلى العصر العباسي الثاني ، إذ تولى ديوان الرسائل فيه للمتوكل وكتب عنه كثيراً ، مما يجعله أحق بوضعه فيه . وقد تولى ابن الزيات وزارة المعتصم وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن الحسن الأصبهاني ويروى صاحب<sup>(١)</sup> الأغاني أنه كتب عن المعتصم إلى قائده وواله على أرمينية خالد ابن يزيد بن يزيد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك في غير فحْمٍ ، ويخاطب امرءاً غير ذي فهم . »

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حمدّ آد . وأبطل الكتاب . ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تجرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنقْصان ، ولا تميل برُجْحان » فقال عبد الله الأصبهاني : الحمد لله ! قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة<sup>(٢)</sup> ، بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصف الأصبهاني من محمد ، وحقدتها عليه ابن الزيات حتى نكبه . »

واستخدم ابن الزيات بعده على ديوان الرسائل الحسن<sup>(٣)</sup> بن وهب ، وهو من بيت قديم في الكتابة إذ خدم أجداده في دواوين الأمويين ، جداً بعد جد ، حتى إذا آلت الخلافة إلى العباسيين توالى أجداده يعملون في دواوينهم . وقد كتب جده سعيد وأبوه وهب للبرامكة ، وعمل وهب في دواوين الفضل بن سهل

(٣) انظر في أخبار الحسن بن وهب وترجمته الفهرست ص ١٧٧ وترجمته أخيه سليمان في ابن خلكان والأغاني ٦٧/٢٠ .

(١) انظر الأغاني ٤٩/٢٠ .  
(٢) يشير إلى حرفة أبيه إذ كان تاجراً بالكرخ .

وأخيه الحسن وتوفى قبل دخول المأمون بغداد ، وعمل ابنه سليمان في دواوين المأمون . ولا نشك في أن الحسن أخاه هو الآخر اشتغل في تلك الدواوين ، وعرف ابن الزيات حذقه في الكتابة فأسند إليه ديوان الرسائل ، ونهض به خير نهوض ، ويقول ابن النديم : « كان شاعراً مرسلاً فصيحاً وأحد ظرفاء الكتاب ، وله ديوان كتاب رسائله » . وقد عاش شطراً في العصر العباسي الثاني ، ولكنه أبعد عن الديوان منذ نكبة ابن الزيات لأول عصر المتوكل ، ولذلك لم نؤخره إلى هذا العصر ، فنشاطه الكتابي إنما كان في وزارة ابن الزيات وعصر المعتصم والوائق . ومع ذلك ليس بين أيدينا رسائل ديوانية له ، سوى ما تبادلته مع ابن الزيات في المودة والتزاور والشكر ، وهما تارة يتكاتبان شعراً وتارة يتكاتبان نثراً ، وله بجانب ذلك بعض رسائل في التعزية ، ونحن نسوق له رسالة في الشكر لندل بها على مقدار بلاغته وحسن بيانه ، وهي تجرى على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكركي لك على مهجة أحيتها وحشاشة <sup>(٢)</sup> أبقيتها ، ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنْتَهَى إليه ، ومَسَدِي يوقف عنده ، وغاية من الشكري سمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف ، وطالت الشكر وتجاوزت كل قدر ، وأنت من وراء كل غاية . رددت عنا كيد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنسف كريم ، فكيف يشكر الشاكر وأنّي يبلغ جهد المجتهد » .

ولم نتحدث حتى الآن عن التوقيعات ، وهي عبارات موجزة بليغة ، تعود ملك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم ، وحكاهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع ، وكانت تشيع في الناس ويكتبها الكتاب ويتحفظونها ، وقد سموا الشكاوي والظلمات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكي وظلامته ، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب . ودارت في الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أثرت لكل خليفة عباسي وكل وزير خطير ، من ذلك توقيع السفاح في كتاب جماعة من

(٢) الحشاشة : بقية الروح .

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٣٣ .



بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر في الشدة شارك في النعمة <sup>(١)</sup> ،  
وتوقيع المنصور على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم <sup>(٢)</sup> »  
وتوقيع المهدي لشاعر : « أسرفت في مديحك فقصرنا في حبيائك <sup>(٣)</sup> » وتوقيع  
الرشيد على رسالة لوالى خراسان : « داو جرحك لا يتسع <sup>(٤)</sup> » وتوقيع المأمون على  
قصة متظلم : « ليس بين الحق والباطل قرابة <sup>(٥)</sup> » .

ولعل وزير آل مبرع في التوقيعات براءة جعفر بن يحيى البرمكي « وكان إذا  
وقَّع نُسِخَتْ توقيعاته وتدورست بلاغاته » وحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ  
أنه جلس للمظالم فوقَّع في ألف قصة ونيف ، ثم أُخرجت فعمُضت على العمال  
والقضاة والكتَّاب وكتَّاب الدواوين فما وُجد فيها شيء مكرر ولا شيء يخالف  
الحق <sup>(٦)</sup> » وقال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقِّع في القصص بين يدي  
الرشيد ويرى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها  
للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها  
بدينار <sup>(٧)</sup> » وما رواه له الجهشيارى من توقيعاته <sup>(٨)</sup> توقيعه على رقعة لمحجوس متظلم  
من حبسه : « العداوان أَوْبَقَه ، والتوبة تُطْلِقَه » وتوقيعه على كتاب لعلى بن عيسى  
ابن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغت عنه : « حَسِبَ إلينا الوفاء الذى أبغضته ،  
وبُغِضَ الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت  
عُذراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً . واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته  
البليغة المحكمة ، فن ذلك توقيعه على قصة مظلوم « كفى بالله للمظلوم ناصراً <sup>(٩)</sup> »  
وتوقيعه على كتاب لتميم بن خزيمه بن خازم : « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها  
والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جرتُ الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناعَ  
الشك فحُمد السابق وُذِمَّ الساقط <sup>(١٠)</sup> » . وكثيراً ما كانوا يوقعون بآية من  
الذكر الحكيم أو بيت من الشعر أو بمثل من الأمثال .

(٦) الجهشيارى ص ٢٠٤ .  
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .  
(٨) الجهشيارى ص ٢٠٥ .  
(٩) الجهشيارى ص ٢٠٥ .  
(١٠) الجهشيارى ص ٣٠٧ .

(١) المقدم الفريد ٢١١/٤ .  
(٢) المقدم الفريد ٢١٢/٤ .  
(٣) المقدم الفريد ٢١٣/٤ .  
(٤) المقدم الفريد ٢١٣/٤ .  
(٥) المقدم الفريد ٢١٥/٤ .

## الرسائل الإخوانية والأدبية

نمت الرسائل الإخوانية في هذا العصر نمواً واسعاً ، ونقصد الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح ورتاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدّى في العصر الأموي بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخّم ، وأتاح له ذلك أمران : أولاً ظهور طبقة ممتازة من الكتّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعَسِّنُونَ بتحبير كلامهم وتجويده وحشّده كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفاً . والأمر الثاني مرونة النثر ويُسرّ تعابيره وقدرته على تصوير المعاني بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوّع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبهم ومرنوها على أن تحمل كثيراً من المعاني الجديدة غير المألوفة .

وبذلك كله ثبت النثر للشعر في التعبير عن العواطف التي طالما عبّر عنها ، بل لقد أظهر في ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء ، ومن أجل ذلك رأينا منهم كثيرين يتخذون النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سنرى عند العتّابي وأبي العتاهية ، وكأنهم وجدوا فيه يسراً في التعبير وفسحة لعرض بعض المعاني التي يلموّن بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أداءه .

وتدور في كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة مما دبّجه كتّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء ، فقد تعاور عليها كثيرون ، وكل منهم يتأق في ما يكتب منها ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته وما يبث فيها من مهارته الفنية . ومن كان يُعَسِّنِي بها عناية واسعة في أوائل هذا العصر ابن المقفع وسنفرده بعض الصحف في الفصل التالي ، ومنهم محمد بن زياد الحارثي ، وهو أخو يحيى بن

زياد الحارثي رفيق مطيع بن إياس وجبيليه ، وفيه يقول ابن النديم « شاعر مرسل بلينغ (١) » وله في الشكر (٢) :

« قد يجب على من يتقلب في ظل كرامتك ، ويأوى إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ويخبر عما هو به مرتَهَنٌ من شكر بلائك (٣) ، وحتى نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت منتك لديهم ، فيما أبلت وأوليت من جميل رأيك ، وحسُنْ أثرك ، بعطفك وتحنُّنك ، واستخلاصك إياه مِقَّةً وأنسا ... في أيادٍ من أياديك عظمت فلا تُججحدُ ، ونعم من نعمك شُهرت فلا تنكر ، ولا يُحصَى عددها وإن اجتهدنا في حفظها ، ولا نبلغ في شكرها ، وإن دأبنا في بلوغ تأديته ، فقد اعتقدتها منةً علينا ، وبدأ عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بقينا وبقي الخلسُ منا » .

وكانت ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء في كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة مادة غزيرة للكتاب كي يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحقة والصدقة الصادقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه رسالة للجليل بن يزيد إلى بعض إخوانه وهي تجرى على هذا النمط (٤) :

« اعلم أني إليك مشوق وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاءُ والحفظُ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذي يكاتب إخوانه على حال الرغبة . . . إن أحبَّ مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذي يكاتب إخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشنعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء . والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ولا توضعُ منك الرغبة في الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال أن كنت في خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الأخوان أعظم الخاصة بك خاصة ،

(٣) البلاء هنا : الإحسان .  
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/١٣٦ .

(١) الفهرست ص ١٧١ .  
(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٧٩ .

وإنما أمرنا في كل هذا كأمرك في الذي تستغني به من خاصتك تلك التي لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التي لنا لك ، أليس ما سرنا سرّك ، والله يوفقنا وإياك .

وواضح أنه يتسع في تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودّد دين الملحقين في الأخوة أصنافا ، فمنهم من يطلبها للرغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعة الشنيعة . ويقول إن إخاءه ليس من هذين الضربين المقوتين ، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أن لا يعزل بشغل عنه بخاصة نفسه وانصرافه إلى بعض شئونه فالإخاء الصادق أخصّ ما ينبغي له أن يشغل صاحبه ويصرفه عن كل شيء سواه .

وما أكثروا فيه التعازي ، وعادة يتحدثون فيها عن ثواب المنكوب ببعض أهله على حسن صبره وما ينبغي عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه ، وقد يعرضون لذم الدنيا وأنها دائماً تكدر الصفاء وتنقص السرور ، ويُرَوَى أن المهدي جزع جزعا شديدا حين ماتت ابنته البانوقة ، فأكثر الناس من تعازيه ، وكان ممن عزاه لإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي بهذه الرسالة الموجزة<sup>(١)</sup> :

« أما بعد فإن أحقّ مَنْ عرف حق الله عليه فيما أخذ منه من عظم حق الله عليه فيما أتى له . واعلم أن الماضي قبّلك هو الباقي لك ، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافون منه . »

وكثيراً ما تعاتبوا عتاباً رقيقاً ، وقد يعنّفون في عتابهم ، ولكن عنف المتحضر المهذب الذي قد يمسّ ولكنه لا يتخذش ، ومن رسائلهم الطريفة في العتاب التي تدل بوضوح على دقة الحس ورهافة الشعور رسالة يوسف بن صبيح إلى محمد بن زياد الحارثي ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« حفظك الله وحاطك ، رأيتك - أكرمك الله - في خسرّجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبتك ، وإبلاغنا خبرك ، وقطعتنا قطع ذي السلوة أو أخي المسلة<sup>(٣)</sup> ،

حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا، وإلى البعد منا تَوَّاقا ، فوقع بُعْدُكَ بحيث تحبّ من جهتين : إحداهما حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجّسناه قاطعناك مجملين ، أو لبسناك على يقين . . وما أدرى ما أقول في اختيارك ترك الكتب المحدثّة عن العتّب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثة الحضور ، على تنأى الدور ، والقلوب بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدان متباعدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقديمًا عزّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهمن أنى أردت ، إعتانتك بإعتابي ، ولأن أزرى عليك بكتابي ، فإن وصلت فشكور ، وإن قطعت فمعدور ، والسلام »

وتأنقُ يوسف وتنميقة ودقته في التعبير واضح في تلك الرسالة ، وقد تفنّن الكتاب طويلا حينئذ في صور الاعتذار ، ومن رسالة لمحمد بن الليث في اعتذاره لشخص ظنّ به بعض الظنون الخاطئة دون تبين ولا روية<sup>(١)</sup> :

« كيف يسعك أن تأخذني بظن لو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذى ولا عقابي عليه ، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن في سُوَيْدَاء القلب واسعة لك في حكم الربّ لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل في القلوب التي لا تثبت على حال ، إلا ريثما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عني ، وتقف ، حتى تعرف أيمضى رأى أم ينصرف » .

وهو يشير إلى معنى نفسي دقيق ، وهو أن الخواطر التي تلم بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان ينتقل بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصح أخذ الإنسان بخاطر إلا إذا ثبت فيه وعاش طويلا ، فقد يمر به خاطر سريع ويمضى دون أوبة ولا رجعة . ولعل رسالة استعطف لم تشتهر في هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم<sup>(٢)</sup> بن سيّابة الشاعر التي استعطف بها يحيى بن خالد البرمكي ، وكان قد أنكر منه شيئا ، فكتب إليه يرضاه على هذه الشاكلة<sup>(٣)</sup> .

١/٤٠٥ والوزراء والكتاب للجيشياري ص

٢٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢١٥ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٨٥ .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبع

دار الكتب) ١٢/٨٨ وانظر البيان والتبيين

« للأصيد<sup>(١)</sup> الجواد ، الوارى الزناد<sup>(٢)</sup> ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم<sup>(٣)</sup> الباذل ، اللباب الحلاحيل<sup>(٤)</sup> ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير فإني أحمد الله ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة . أما بعد فاغنم واسلم ، واعلم إن كنت تعلم ، أنه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغم ، ومن يصنع المعروف لا يعلم<sup>(٥)</sup> ، وقد سبق إلى ، تغضبك على ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم ، له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحى صحيح ، ولا بميت مستريح ، فسررت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرعتُ بي حثًا إليك خطائى      فأنأختُ بمُذنبٍ ذى رجاء<sup>(٦)</sup>  
 راغبٍ راهبٍ إليك يُرجى      منك عفواً عنه وفضلَ عطاء  
 ولعمري ما منَ أصرٍّ ومن تا      بَ مُقِرًّا بذنبه يسوء

فإن - رأيت - أراك الله ما تحب ، وأبقاك فى خير - أن لا تزهد فيما ترى من تضرعى ، وتخشعى ، وتذلى ، وتضعفى ، فإن ذلك ليس منى بنحيزة<sup>(٧)</sup> ، ولا طبيعة ، ولا على وجه تصيد تصنع ، وتخدع<sup>(٨)</sup> ، ولكنه تذلل ، وتخشع ، وتضرع من غير ضارع<sup>(٩)</sup> ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف .

وما إن تلاها يحيى حتى عفا عن جرمه ، ورضى عنه ووصله . ويقول الجاحظ إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة ، إعجاباً ببلاغتها ، وهى بلاغة تُرد إلى ما أجرى فيها ابن سيابة من هذا السجع الرشيق الذى يدل بوضوح على أن العبارات كانت طبيعة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن

- (١) الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشما .  
 (٢) وارى الزناد : أصله مخرج النار منه ، وهو كناية عن مضاء العزيمة .  
 (٣) الأشم : المملوء أنفة .  
 (٤) الحلاحيل : السيد الشجاع ذو المروءة .  
 (٥) لا يعلم : يريد لا يعلم مكافأته .  
 (٦) حثا : مسرعة . خطائى : جمع خطوة أنأخت : بركت وأقامت .  
 (٧) نحيزة : طبيعة .  
 (٨) تخدع : خداع .  
 (٩) ضارع : ذليل .

يستعصى عليه منها شيء ، حتى مع ما اختاره لها من ممرات السجع ودروبه الضيقة .

ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم في الشعر والكتابة الإخوانية العتّابي ، وقد ترجمنا له بين شعراء العصر النابيين وكانت قدرته في الكتابة لا تقل عن قدرته في الشعر ، وكان يعمد فيهما جميعاً إلى الإيجاز وأن يروع السامع بمعانيه كما يروعه بأساليبه ، ومما يصور ذلك في كتابته ما كتب به إلى صديق انتجعه في أيام شحيحة مجدية ، على هذه الشاكلة (١) .

« أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتدُّ بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نعفيها من النجعة (٢) استتماماً لزهرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سيني يوسف ، اشتدَّ علينا كلسبها (٣) ، وغابت قِطَّتُها (٤) ، وكذبنا غيومها ، وأخلفتنا بررقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتك (٥) ، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمي بأنك موضع الرائد (٦) ، وأنتك تُغْطِي عين الحاسد . والله يعلم أني ما أعدُّك إلا في حومة (٧) الأهل . واعلم أن الكريم إذا استحيى من إعطاء التليل ولم يمكنه الكثير لم يُعْرَف جوده ولم تظهر همته ، وأنا أقول في ذلك :

إذا تکرَّهتَ من بذل القليل ولم      تقدرُ على سعةٍ لم يظهر الجودُ  
بُتَّ النوالَ ولا تمنعك قِلَّتُهُ      فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

ويقال إنه بلغ من تأثيره في صديقه حين قرأ هذه الرسالة الرقيقة أن شاطره ماله حتى أعطاه لإحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه . وعلى نحو ما كان يقصد في أشعاره إلى المعاني الدقيقة الطريفة بصوغها في مقطوعات قلما تجاوزت بيتين

(٥) انتجعتك : طلبت نائلك ومعرفك .

(٦) الرائد : الذي يتقدم القوم في طلب المشب .

(٧) حومة : موضع .

(١) الأماي ١٣٧/٢ .

(٢) النجعة : الاستغناح ، وأصلها طلب الكلاب .

(٣) كلسبها : سوماها وقطعها .

(٤) كناية عن الجذب ، فالقطة لا تجرد ما تأكل .

كان يصنع برسائله، فهو يصوغها غالباً في عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة، ولكنها مع قلتها حملت من المعاني والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية، فن ذلك ما كتب به إلى بعض أصحاب السلطان<sup>(١)</sup>.  
« أما بعد فإن سحائب وعدك قد أبرقت، فليكن وبيلها<sup>(٢)</sup> سالماً من علل المَطْل، والسلام ».

وهي صورة طريفة عرف كيف يستمها وكيف يرسمها في عبارات موجزة رسماً يبهـر قارئها ويجعله يكرر النظر فيها. ومن ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة حادثة<sup>(٣)</sup>:

« لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوك عني لم أبذل وجه الرغبة إليك، ولم أتجشّم مرارة تماديك، ولكن استخفّتنا صبايتنا، فاحتملنا قسوتك، لعظيم قدر مودتك، وأنت أحق من اقتصّ لصلتنا من جفائه، وأشوقنا من إبطائه ».

واتسع استخدام الكتاب للنثر في كل فنون الشعر، حتى فن الهجاء، بل إن بعض الشعراء كانوا يستخدمونه ويؤثرونه أحياناً على الشعر كما رأينا عند العتّابي وابن سيّابة، وكانوا يسلكون فيما يكتبون أحياناً بعض أبيات الشعر من نظمهم أو نظم سواهم، وقد ينثرون معناها قبلها، على نحو ما مرّ بنا آنفاً في رسالة العتّابي. ومن خير ما يصور ذلك رسالة لأبي العتاهية في هجاء الفضل بن معن بن زائدة، وكان قد استرفده وطلب نواله ببعض شعره، فردّه ردّاً غير جميل، مما أغضبته وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة<sup>(٤)</sup>:

« أما بعد فأني توسلت إليك في طلب نائلك<sup>(٥)</sup> بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاءً للغنى، فازددتُ بهما بُعداً مما فيه تقربتُ، وقرباً مما فيه تبعّدتُ. وقد قسمت اللائمة<sup>(٦)</sup> بيني وبينك، لأنى أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعى، أمّرتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم، ونهيت عن منّع أهل الرغبة، فنعتهم، وفي ذلك أقول:

(٤) المقدم الفريد ٤/٢٣٦.

(٥) النائل: الرشد والعتاء.

(٦) اللائمة: اللوم.

(١) المقدم الفريد ١/٢٥٠.

(٢) الويل: المطر الغزير.

(٣) زهر الآداب ٤/١٢٢.



فررتُ من الفقر الذى هو مُدركى إلى بُخلٍ محظورِ النَّوالِ مُنوعِ  
فأعقبنى الجِرْمَانُ غِبَّ مطامعى كذلك من تلقاه غير قنوعِ  
وغيرُ بديعٍ مَنعُ ذى البخلِ ماله كما بَدَلُ أهلِ الفضلِ غيرُ بديعِ  
إذا أنت كَشَفْتَ الرجالَ وجدتهم لأعراضهم من حافظٍ ومذيعِ»

ومن يقرن هذه الأبيات الأربعة إلى ما قبلها من النثر يجده أشد لذعا ، وأكثر مرونة على أداء الهجاء الذى كان يريده أبو العتاهية ، ومرَّ بنا أن الشعر كان يسيل على لسانه سيلانا لم يعرف لشاعر فى عصره وأنه لم يكن يجد فيه مشقة ولا جهدا ، ومع ذلك فهو لا ينهض عنده بالمعاني العاطفية التى يستطيع النثر أداءها فى يسر وسهولة ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه رقى فى هذا العصر رقيا واسعا ، حتى فى المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعراً ، وهو رقى تتزوج فيه اللذة العقلية بما استنبط الكتاب من دقائق المعانى ، واللذة الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور وما بثوا فى ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ومن جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع فى كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة .

ومما أكثر الكتاب من الكتابة فيه الدعوة إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت فى اللهو أو فى الشراب أو فى سماع المغنين والقيان أو فى المسامرة المستحبة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه دعوة الحسن بن سهل لبعض أصدقائه كى يصطبح<sup>(١)</sup> معه فى يوم دَجْنٍ غامت فيه السماء ولم تمطر<sup>(٢)</sup> :

« أما ترى تكافؤَ الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قولٌ كثيرٌ :

وإنى وتَهَيَّأى بعزَّة بعدما تخَلَّيْتُ مما بيننا وتَخَلَّتْ  
لكالمُرْتَجَى ظلَّ الغمامة كلما تبوَّأَ منها للمَقِيلِ اضمحلَّت<sup>(٣)</sup>

(٣) المقيل : النوم وقت القيلولة بعد ارتفاع الضحى .

(١) يصطبح : من الصبوح وهو الشرب فى الصباح .

(٢) زهر الآداب ١٤٦/٢ .

وما أصبحتُ أُمْنِيَّ إِلَّا فِي لِقَائِكَ ، فليْتَ حِجَابَ النَّأْيِ دُمْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ،  
ورَفَعْتِي هَذِهِ وَقَدْ دَارَتْ زُجَاجَاتُ أَوْعَعَتْ بَعْقَلِي وَلَمْ تَتَحَيَّفْهُ ، وَبَعَثْتَ نَشَاطَ حَرَكَتِي  
لِلْكِتَابِ ، فَرَأَيْكَ فِي إِمْطَارِي سُرُورًا بِسَارٍ خَبْرَكَ ، إِذْ حُرِّمْتَ السُّرُورَ بِمَطَرِ هَذَا  
الْيَوْمِ مَوْفِقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وعلى نحو ما أكثروا في طلب الزيارة من الكتب والرسائل أكثروا منها أيضاً  
مع الهدايا التي كانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم أو إلى بعض الوزراء وأصحاب  
السلطان ، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة مثل عيد من الأعياد أو ختان بعض  
الأولاد ، من ذلك ما يروى من أن يحيى البرمكي عزم على ختان أحد أولاده ،  
فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته ، وتظرف بعض من كانوا  
من أسبابه ، للدلالة على قصور همته ، فلأ وعاء من أدمٍ مِلْحَحًا مطيباً ووعاء  
ثانياً سَعْدًا<sup>(١)</sup> معطرًا وكتب معهما هذه الرقعة<sup>(٢)</sup> :

« أو تمت الإرادة ، لأسعفت العادة ، ولو ساعدت القدرة ، على بلوغ  
النعمة ، لتقدمت السابقين إلى خدمتك ، وأتعبت المجتهدين في كرامتك ، لكن  
قعدت بي القدرة ، عن مساواة أهل النعمة ، وقصرت بي الجِدَّةُ<sup>(٣)</sup> عن مباحة  
أهل المُكْنَةِ<sup>(٤)</sup> ، وخشيت أن تُطَوِّىَ صحيفَةَ البِرِّ ، وليس لي فيها ذكر ،  
فأنفذت المُفْتَسِحَ بِيَسْمِنِهِ وبركته وهو المِلْحُ ، والمُخْتَتَمَ بطيبه ونظافته وهو  
السَّعْدُ ، باسطق يد المعذرة ، صابراً على ألم التقصير ، متجعراً غُصَصَ الاقتصار  
على اليسير ، والقائمُ بعذري في ذلك : ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا  
على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ ) . والمُهْدَى ضارِعٌ في الامتنان عليه بقبول  
معذرتِهِ ، والإحسان إليه بالإعراض عن جراتِهِ .

وعرضت الهدية على يحيى ، فلما قرأ الرقعة أمر أن يُفْرَغَ الإِنَاءُانَ ويملأ  
أحدهما دنانير والآخر دراهم ، إعجاباً بتلطف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه .  
وكانت أكثر هداياهم طيباً وعطراً وتحفياً ثمينة ، وربما أهدوا السيوف والخيل ،  
ويروى أن عبد الله بن طاهر أهدى المأمون فرساً وكتب إليه<sup>(٥)</sup> :

(١) السعد : نبت طيب الرائحة .  
(٢) غرر الخصائص الواضحة للوطواط  
(٣) الجدة : الغنى .  
(٤) المكنة : الاستطاعة والقدرة .  
(٥) زهر الآداب ١٧/٢ .  
ص ٤٤٨ .

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يلحق الأرانب في الصَّعداء<sup>(١)</sup> ، ويجاور الطَّيِّبَاء في الاستواء ، ويسبق في الخُدُور<sup>(٢)</sup> جَرَى الماء ، فهو كما قال تأبَّط شَرًّا :

ويسبقُ وفدَ الرِّيحِ من حيثَ يَنْتَحِي بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المتداركِ<sup>(٣)</sup> »

وأكثرُوا من التهاني مع كل مناسبة ، فهم يهنتون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهنتون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يهنتون بالزواج وعقد القران ، وهم يهنتون بإنجاب الأولاد ، وهم يهنتون بحكم الولايات ، وهم يهنتون بنعمة الحج وقضاء مناسكه ، وهم يهنتون بالظفر على الأعداء ، وإبراهيم بن المهدي من رسالة هنا فيها المعتصم بخروجه عن أرض الروم بعد فتحه لعمورية<sup>(٤)</sup> :

« الحمد لله الذي تمّم لأمير المؤمنين غزوته ، فأذلَّ بها رقاب المشركين وشَقَى بها صدور قوم مؤمنين ، ثم سهل الله له الأوبئةَ سالماً غانماً . . . وليهِنَّهُ ما كتب الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لسيِّفه به موقفاً يرضاه ، فإنه عزَّ وجلَّ يقول : ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدَّ عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ) . فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعدِ برّاً وبِحراً ، ووقاه وصَبَّ السفر سهلاً ووعراً ، وحاطه بحراسته كالثا ، ودافع عنه بحفظه راعياً ، حتى يؤدِّيه إلى المحل من داره ، والوطن من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة . »

وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يُظهروا القارئ على براعتهم وتفننهم في الأداء ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف

(١) الصعداء : الصعود الشاق .  
بمنخرق : يتمتع . شده : عدوه ، المتدارك : المتتابع .

(٢) الخدور : الجرى السريع .  
(٤) جمهرة رسائل العرب ٨ / ٤ .

(٣) وفد الرِّيح : جماعته ، ينتحى : يقصد .

الطبيعة أحياناً ، ولجلبل بن يزيد رسالة جيدة في وصف الأمطار عقب سنة  
مجدبة أهلكت الحرث والضرع حتى استيأس الناس ، وهي تمضي على هذه  
الشاكلة (١) :

« عادت لنا من الله عائدةٌ رحمةٌ بيوتى<sup>(٢)</sup> مطرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا  
من المطر ، وإبلا جوداً<sup>(٣)</sup> ، لا يفتقر غزيره ، ولا يرعوى جوده إلا إلى ديمة<sup>(٤)</sup>  
عن ديمة ، يراخى إليها يسيراً ربنا تعود ، فأقامت علينا سماؤه مستهلةً<sup>(٥)</sup>  
بذلك إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح وفتور من القمر<sup>(٦)</sup>  
وفضل من الله عظيم ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع  
البركة ، وأوثق<sup>(٧)</sup> بحمد الله معارف الخصب . والله محمود على آلائه<sup>(٨)</sup> ،  
مشكور على بلائه<sup>(٩)</sup> ، وما أنزل من سقياه ورحمته بعد الذي أقبلت به السنة  
البرية<sup>(١٠)</sup> ، والقحط وعدم الأمطار ، وشدة ما بلغ الناس من القنوط<sup>(١١)</sup> وسوء  
الظنون . »

ومرّ بنا في حديثنا عن الشعر أن الشعراء كانوا أحياناً يصفون روعة شعرهم  
وقدرتهم على استنباط الدرر والآلئ الشعرية ، ومعروف أن من أكثرهم ترديداً  
لهذا الوصف أبا تمام ، ونرى صديقه الحسن بن وهب يكتب إليه رسالة بديعة  
يجعل موضوعها وصف شعره الرائع الذي كان يخصه أحياناً ببعض منظوماته  
مشيداً ببلاغته ، على نحو ما أشاد ببلاغة ابن الزيات في وصفه لقلمه المشهور ،  
وكان الحسن بن وهب رأى أن يجاريه في هذا المضمار نثراً لا شعراً ، فكتب إليه  
هذه الرسالة (١٢) :

« أنت - حفظك الله - تحتذى من البيان في النظام ، مثل ما يُقصد  
ببحر من الدرر في الأفهام ، والفضل لك - أعزك الله - إذ كنت تأتي به في  
غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، في منظوم الأشعار ، فتَحُلّ متعقده ،

(٧) أوثق هنا : أنبت وأعشب .

(٨) الآلاء : النعم .

(٩) البلاء هنا : الإحسان .

(١٠) البرية : المجدبة .

(١١) القنوط : اليأس .

(١٢) زهر الآداب ٢٤٨/٣ .

(١) جمهرة رسائل العرب ١٣٧/٣ .

(٢) ولي المطر : الذي يسقط دفعة بعد دفعة .

(٣) الجود : المطر الغزير .

(٤) الديمة : المطر المنهمر بدون برق ولا رعد .

(٥) مستهلة : منصبة .

(٦) القر : البرد .

وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصله في حدوده ، وتخرجه في قيوده . ثم لا تأتي به مهما اقتبسته مُشْتَرَكًا فيلبس ، ولا متعمداً فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تُضْرَبُ بها الأمثال ، ويُشْرَحُ فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة وفرائدك وافدة .

وهذه الرسائل الإخوانية التي كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهاد دفعهم تفننهم في بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهي التي تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط في مهاوى الشر . ومن خير ما يصور ذلك رسالة يحيى بن زياد التي ردَّ بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة<sup>(١)</sup> :

« أما بعد فإننا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذي البُعْدَةِ ومشاركته بين ذوى الأرحام في القُرْبَةِ لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البرِّ ، فوجدناه محتويا على الكرم والنَّجْدَةِ والصدق والحياء والنَّجَابَةِ والزَّكَاةِ<sup>(٢)</sup> وسائر ما لا يأتي عليه العدد من الحماد . ثم انحدرنا فيما أصددنا فيه من هذا النسب ، فعمدنا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا مَنْ هذه الخصال كلها أخلاقه . ولما استوجب الإخاء مسالك الحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التروى وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسن من الندم بعد بذله ، واستوجب - إذ كان جماع الحماد - أن نتخير له محامله التي يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة في الانتهاء ، فقد موا اللأئمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّروية ، واستحسبوا عاجل المحبة ،

(٢) الزكاة : صدق الحس .

(١) جمهرة رسائل العرب ٦٧/٣ .

ولها عن آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لائمة ، ولم يجد المُعذِرُون (١) إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعدر عند الحاجة .

وواضح أن يحيى بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له ، إنما يتحدث حديثاً عاماً عن الإخاء ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقته المجرّدة وما ينبغى أن يكفّل له من الوفاء . ويراها يقوم على البر ، ويتغلغل في بحث جوهره ، فيراه يحتوى مجموعة من الخصال النبيلة لا يتمُّ كيانه بدونها وفي مقدمتها الكرم الذى يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله ، والنجدة التى تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذى يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذى يكفُّ صاحبه عن التناول وسوء الأدب وسورة الغضب ، والنجابة التى تحوط صاحبها بحسن الرأى وتبين حقيقة الأمر ، والزكاة أو صدق الحسِّ الذى يكفّل لصاحبه صواب القول والرأى . ويقول يحيى بن زياد لما كان يتطلب الإخاء التحلى بجميع الخصال الحميدة كان على كل شخص أن يتأنّى في اختيار أخيه وأن يتجسّس حتى لا يتورط في الأخ السوء ، وهو ما يأخذ نفسه به . ومن حوله من الناس صنفان : صنف يعذرونه لأنهم ممن يرون رأيه في تخير الإخوان ، وصنف لا يعذرونه لأنهم يتسرعون إلى بدل إخائهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه ، ولذلك سرعان ما ينتقض إخاؤهم وتذوى صداقتهم إذ لا يُصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة .

ومن الرسائل التى نَحَتَّ هذا النحو من التجريد والنظر من أعلى إلى الموضوع الذى نتحدث فيه رسالة غَسَّان بن عبد الحميد فى العتاب ، وهو يفتتحها على هذه الصورة (٢) :

« أما بعد فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطواراً فى صورهم وجعل بينهم أموراً يتألفون عليها ويعملون أحلامهم فيها : من حَرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودّةٍ يتعاطونها ، وأخوةٍ يتداولونها تُرعى

(٢) جمهرة رسائل العرب ١١٣/٣ .

(١) المذر : من له عذر .

بوفاء ، وتؤدَّى بأمانة ، وتضيق بتقصير ، وتُسْتَقَصُّ بخيانة ، ليس مَنْ أُدِّيَتْ لِيهِ فِيمَا يَحْفَظُ مِنْهَا بِأَسْعَدِ مِنَ الْمُؤَدِّيِّ لَهَا فِيمَا يَأْخُذُ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ لِنَفْسِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ ضَيَّعَتْ مِنْهُ بِأَشَقَى مِنْ ضَيَّعَهَا فِيمَا يُدْخِلُ مِنَ التَّقْصِيرِ عَلَيْهِ ، فَإِنْ مِنْ أَخْطَأَهُ الْوَفَاءُ مِنْ أَخِيهِ فَإِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ تَقْصِيرٌ غَيْرُهُ ، وَمَنْ ضَيَّعَ الْوَفَاءَ لِإِخْوَانِهِ فَقَدْ أَدْخَلَ النَّقْصَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ ، وَالْمَرْءُ يَجِدُ مِنْ أَخِيهِ إِذَا خَانَهُ بَدَلًا ، وَلَا يَجِدُ عَنْ نَفْسِهِ إِذَا قَصَّرَتْ بِهِ مَتَحَوَّلًا ، وَلَيْسَ نَقْصٌ يُسْتَبَدَلُ بِهِ كِنَقْصِ لَا يُسْتَطِيعُ مَزَابِلَتَهُ .

وغسان يتحدث عما بين الناس من حُرْمٍ وَحَقُوقٍ وَمُودَةٍ وَأَخُوَّةٍ ، وَيُرَى أَنَّهُ لَا بَدَ لِلْأَخُوَّةِ مِنَ الْوَفَاءِ الَّذِي يَحْفَظُ عَلَى الْإِخْوَانِ عَهْدَهُمْ ، وَلَا بَدَ لَهَا مِنَ الْأَمَانَةِ الَّتِي تَمْنَعُ الْحَيَاةَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ وَتَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَطِيعَةِ الْمَرْذُوعَةِ ، وَلَا بَدَ لَهَا مِنَ النَّهْوِصِ بِجَمِيعِ مَطْلَبَاتِهَا مِنَ الصِّيَانَةِ وَالثِّقَةِ وَتَوَطُّبِ النَّفْسِ عَلَى أَنْ لَا يَقُومَ هَجْرَانٌ بَيْنَ الْأَخِ وَأَخِيهِ . وَيَأْخُذُ غَسَّانُ فِي تَصْوِيرِ مَعْنَى دَقِيقِ غَايَةِ الدَّقَّةِ ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ يُؤَدِّي حَقُوقَ الْأَخُوَّةِ إِلَى أَخِيهِ لَعَلَّهُ أَكْثَرَ مِنْهُ سَعَادَةً بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَضِيْعُ حَقُوقَهَا لَعَلَّهُ أَشَقَى مِنْ أَخِيهِ الَّذِي يَغْمُهُ تَضْيِيعُ هَذِهِ الْحَقُوقِ ، لِأَنَّهُ إِذَا يَدْخُلُهُ الْغَمُّ بِتَقْصِيرِ غَيْرِهِ ، أَمَا صَاحِبُهُ الْمَضِيْعُ لِتِلْكَ الْحَقُوقِ فَإِنَّهُ يُدْخِلُ لَغْمَ وَالشَّقَاءَ وَالنَّقْصَ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، وَالْأَوَّلُ يَجِدُ مِنْ أَخِيهِ إِذَا خَانَهُ عَوْضًا فِي أَخٍ آخَرَ صَادِقٍ ، أَمَا الثَّانِي فَإِنَّهُ لَا يَخْسِرُ شَخْصًا وَلَا أُنْخَا ، إِذَا يَخْسِرُ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبِيهِ بِمَا أَدْخَلَ عَلَيْهَا مِنْ كَرْبِ الْحَيَاةِ ، وَابْتِغَاءِ خَسَارَةٍ يُمْكِنُ تَلَاْفِيهَا ، لَخَسَارَةِ لَا يُمْكِنُ مَزَابِلَتُهَا ، وَلَا يَجِدُ صَاحِبَهَا عَنْهَا حَوْلًا وَلَا مَنَصْرَفًا . وَيَمْضِي غَسَّانُ يَفْصَلُ الْقَوْلَ فِي خِيَانَةِ الْأَخِ لِأَخِيهِ وَتَضْيِيعِهِ لِنِعْمَةِ الْوَفَاءِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَقُولَ :

« لَيْسَ مِنْ كَانَتْ مِنْهُ فَجِيعَةٌ لِأَهْلِ الْإِخَاءِ وَالْحُرْمَةِ الَّذِينَ ارْتَادُوا ارْتِيَادًا وَاخْتَارَ وَاخْتَارُوا فَوْقَ رَأْيِهِ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَعَ رَأْيُهُمْ عَلَيْهِ ، وَارْتَضَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَارْتَضَاهُمْ لِنَفْسِهِ ، وَاقْتَصَرُوا عَلَيْهِ بِمُودَتِهِمْ ، وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِمْ بِمُودَتِهِ ، فَحَمَلُوهُ أَخُوْتَهُمْ ، وَحَمَلَهُمْ أَخُوْتَهُ ، وَاسْتَرْعَوْهُ الْوَفَاءَ لَهُمْ ، حَتَّى ثَبَّتَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مَا كَانَ دَاعِيًا لِكُلِّ رَأْيٍ جَمِيلٍ ، نَافِيًا لِكُلِّ صَنْبِيعٍ مَعِيْبٍ ، وَأَمْرٍ مَرِيْبٍ ، فَأَيُّ

نَقَصَ أَكْثَرَ وَأَيَّ دَنَاءَةَ أَيْبِنَ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَمْرُوهُ بِمَنْزِلَةِ ثِقَةٍ قَدْ حَفِظَتْ مِنْهُ حُرْمَةً، وَاعْتَقَدَتْ بِهَا عَلَيْهِ أَمَانَةً، فَوَجِبَتْ مِنْهُ مَصَافَاةٌ، وَانْتِظَرَتْ مِنْهُ صِلَةٌ، ثُمَّ يَنْكَشِفُ عَنْ خِيَانَةِ وَغْدَرٍ وَقَطِيعَةٍ وَفَجِيعَةٍ؟

وغسان يصور هنا مذمة قطيعة الإخوان ، ويجعلها فجيعة فيمن أؤتمن فخان وعاهد فغدر ، وأي غدر؟ إنه غدر بالحرمة التي قامت بينه وبين إخوانه ، حرمة الوداد الصادق الذي لم يحدث فجأة ، إنما حدث عن طول اختيار وتفقد وتوقف وتثبت ، فإذا مَنْ وثقتَ فيه وملكتَه زمام نفسك قد نكث كل عهوده ، بل قد طعن الأخوة المفقودة الطعنة التي ليس منها براء ولا إقالة . وأطال غسان في تصوير وقبعة واش به لصديقه وما يراه على نفسه وعلى صديقه من حقوق الأخوة وأن لا يأخذ بالظنة وأقوال الوشاة الكاذبين . والرسالة أشبه ببحث واسع في واجبات الإخوان وحقوقهم .

وعلى هذا النحو أخذ بعض الكتّاب ينمون الرسائل الإخوانية حتى غدّت رسائل أدبية بديعة ، وكان ابن المقفع - كما أسلفنا - قد ترجم عن الفارسية كثيراً من الرسائل الأدبية التي تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر في الحياة العامة كما تتصل بالسياسة وتدير الحكم ، وأيضاً فإنه ترجم قصص كليلية ودمنة ، وكل ذلك أخذ بعض الكتّاب يحاكونه ، من ذلك ما يذكره ابن النديم عن العتّابي من أن له رسالة في فنون الحكم ورسالة أخرى في الآداب<sup>(١)</sup> ، ويذكر عن محمد بن الليث الكاتب أنه كتب ليجي البرمكي كتاباً في الأدب<sup>(٢)</sup> ، وأن لسعيد بن هرون أحد خزنة دار الحكمة للمأمون رسالة في الحكمة ومنافعها<sup>(٣)</sup> ، وأن للعتبي المتوفى سنة ٢٢٨ للهجرة كتاباً في الأخلاق<sup>(٤)</sup> ، ومر بنا إن على ابن عبيدة الريحاني الكاتب في دواوين المأمون صنف كتباً مختلفة في الحكم والأمثال . وكل هذه الرسائل كان يرادُ بها أن ترشد الناس في حياتهم إلى الخير بما تقدّم لهم من الأمثال وتفصّل من الحكم . وأخذ بعض الكتّاب يُعَنِّونَ بالكتابة في السياسة ، على هدى ترجمات ابن المقفع فيها ، على نحو ما يذكر ابن النديم عن أبي دلف<sup>(٥)</sup> العجليّ وسهل<sup>(٦)</sup> بن هرون ، واشتهر سهل بأنه استوحى كليلية

(٤) الفهرست ص ١٧٦ .

(٥) الفهرست ص ١٦٩ .

(٦) الفهرست ص ١٧٤ .

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) الفهرست ص ١٧٥ .

(٣) الفهرست ص ١٧٤ .



ودمنة في كتابة قصص على شاكلتها ، وسنفرد له حديثاً مستقلاً في الفصل التالي . ويقول ابن النديم عن علي بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد إنه « كان أحد البلغاء ، وكان يسئلك في تصنيفاته طريقة سهل بن هر ون ، وله من الكتب كتاب الجرهمية وكتاب الحرة والأمة وكتاب الظرف<sup>(١)</sup> » . وفي اسم الكتاب الأخير ما يشير إلى أن الكتاب عرفوا في هذا العصر الرسائل الأدبية التي يقصد بها إلى التفككة والترويح عن النفس .

## الفصل التاسع أعلام الكتاب

١

ابن (١) المقفع

فارسي الأصل، اسمه رُوزبِه بن داذُويه، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسيا مانويا، غير أنه استعرب سريعا، لاختلاطه بمواليه آل الأهم التميميين، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل في دواوين الحجاج للحجاج، وظهرت عليه خيانة في أموال الدولة، فضربه الحجاج ضرباً مبرحاً تقفّعت (بيست) منه يده، فسمى من حينئذ المقفّع، ولم يسلم، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عنيّ عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسّب بصناعة أبيه، فاشتغل، في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة والي العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد في ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثاني داود في ولايته على كيرمان بإيران وأفاد منهما أموالا كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن علي عم المنصور وواليه على البصرة، ولأخيه عيسى بن علي والي الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبي محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن

١٨١/١ والأغاني (طبعة السامي) ١٨/٢٠٠  
وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة  
بولاق) ص ٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادي  
٤٩٥/٣ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة  
ليبيج) ص ٧٦ ومقدمة كلية. ودمنة  
لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف)  
وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١٩٥ ومن حديث  
الشعر والنثر لطلحة حسين (طبع دارالمعارف) ص ٤٦.

(١) انظر في ترجمة ابن المقفع وأخباره  
الفهرست ص ١٧٢ والجهشباري ص ١٠٣ ،  
١٠٩ وفي مواضع متفرقة وأمال المرتضى ١/١٣٤  
وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢  
و ٤٧ والبيان والتبيين ١/١١٥ وفي مواضع  
متعددة (انظر الفهرست) والحيوان ١/٧٦ ،  
٣٣٠/٦ وروج الذهب للمسعودي ٤/٢٤٢  
واعجاز القرآن للباقلاني ص ١٨ وزهر الآداب

يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه في حفل عظيم ، وحدث أن حضر طعام العشاء ، فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم ، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية الجحوس ، فسأله عيسى : أنت صنع ذلك وأنت على نية الإسلام ، فأجابه : كرهت أن أبيت على غير دين . وظل بعد إعلانه الإسلام يعمل في دواوينه .

واتفق أن يخرج عبد الله بن علي عم المنصور وواليه على الشام ، إذ أعلن ثورته عليه ، غير أن جيوش المنصور هزمته ، ففر إلى أخويه سليمان وعيسى ، فطلبه المنصور منهما ، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل ما عرضاه ، وكلفهما كتابته ، فأمر ابن المقفع أن يكتبه ، فكتبه ، وتشدّد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملاه موجدة ، إذ طلب إليه أن يكتب في أسفل الأمان هذا التوقيع <sup>(١)</sup> :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن علي أو أحداً من أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصریحاً أو كناية أو بحيلة من الخيل ، فأنا نقي من محمد بن علي ابن عبد الله ، ومولود غير رَشْدَة ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خلتني وحدّ البراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي وإعانة من ناوأني من جميع الخلق ، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين . وهو متبرئ من الخوّل والقوة ، ومدّع إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة ، محرّم المأكّل والمشرب والمناكح والمركب والرّقّ والملئك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطّي ، ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني إلا إياه ، والوفاء به » .

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن علي عمك ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فانتهاز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بتسّور ، فملى وقوداً

حتى إذا حميت ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرى بكل جزء في التنوير حتى أتى عليه . ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيدته للإسلام ، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح ، لما صعب في صيغة الأمان على المنصور تصعباً امتهن فيه كرامته ووطنها بالأقدام ، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بعمه أو بأحد ممن معه فנסأوه طواق وعبيده أحرار ودوابه محرمة عليه والمسلمون في حل من بيعته بل عليهم أن يحاربوه حتى يعطى عن يد وهو صاغر ، وأيضاً فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان . فكان طبيعياً أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله ، ويقول الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن علي بالمنصور ، ففُظن له وقُتل ، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن علي سوى صيغة هذا الأمان المشؤم ، واخت الرواة في السنة التي قُتل فيها ، فقبل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة .

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو السبب الحقيقي في قتل ابن المقفع أننا ننفي عنه الزندقة ، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده ، وكان المهدي يقول : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع »<sup>(١)</sup> ويقول المسعودي : « أمعن المهدي في قتل الملحدين . . لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ووجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »<sup>(٢)</sup> ويقال إنه مرَّ ببيت نار للمجوس بعد إلامه ، فلما رآه أحسَّ بجنين شديد إلى دينه المانوي القديم ، وأنشد بيتي الأحوص<sup>(٣)</sup> :

يا بَيْتَ عاتِكةَ الذي أتَعَزَّلُ      حَذَرَ العِدا وبِكَ سَمَاءُ  
إني لَأَمْنَحُكَ الصَّدودَ وإِنني      قَسَمًا إِيْليكَ مع الصَّدودِ لَأَمِيلُ

وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوي القديم فهو يظهر الإسلام ويضمّر مانويته، وقد مضى ينقل ديانات قومه المجوسية ومذاهب الملحدتين

(٣) أمال المرتضى ١/١٣٥ .

(١) أمال المرتضى ١/١٣٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٤٢ .

مثل ابن ديسان ومرقيون ، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النّقل وما كان يتصل به من ترجمة الحكم الفارسية ، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم ، وعرض لذلك الباقلاني فقال : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرّة اليتيمة ، وهي كتابان : أحدهما يتضمن حكماً منقولة.. والآخري شيء من الديانات<sup>(١)</sup> » وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً في نقض زندقته سماه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله » . وذكر في أوائله أن ابن المقفع وضع كتاباً عاب فيه المرسلين وافتري الكذب على رب العالمين<sup>(٢)</sup> ، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً . وشك أحمد أمين في هذا الكتاب الذي نسبه ابن طباطبا إلى ابن المقفع ، ولا ينبغي هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرؤوا كتاباته ، وكثير منها سقط من يد الزمن .

وكان - مع زندقته - نبيل الخلق وقورا يترفع عن الدنيا ولا يجعل للهيوى سلطاناً على عقله ، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة ، ويقول الجهشيارى إنه « كان سريراً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجئرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين في كل شهر » . وتروى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض ، كما تروى عنه أخبارٌ تدل على دقة حسه ، من ذلك أن عيسى بن علي دعاه يوماً للغداء فاعتذر بأنه مزكوم ، والزكاة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار<sup>(٣)</sup> . وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم ، فسأله سائل : من أدبك ؟ فقال : نفسي ! إذا رأيت من غيري حسناً أتيت ، وإن رأيت قبيحاً أتيت . . وكان يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما ، وقد بنى عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه في الأدبين : الصغير والكبير . وكان ذكياً ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد

(١) إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام)

جوينى) ص ٨ .

(٢) أمالي المرتضى ١/١٣٦ .

ص ١٨ .

(٣) كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر

الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»<sup>(١)</sup> . وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم ، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب . ولعله لذلك دأب على التثقف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما تُرجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنوشروان .

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة ، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع كتاباً في تعاليم مزدك وكتاب «خدای نامه» وهو في سير الملوك الإيرانيين ، وعليه اعتمد الفردوسي في نظم «الشاهنامه» وكذلك نقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان . ونقل عنها في أنظمة الملك وتدبير السياسة والحكم كتاب «آيين نامه» ورسالة «تنسر» وفي عيون الأخبار منها ومن كتاب التاج نقول مختلفة . وكان في الفهلوية أدب أخلاقي كثير نما في بلاط الساسانيين ، وكان يُراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تُشْفَعُ به من الحكيم ، ونقل من ذلك ابن المقفع مادة غزيرة في الأدب الصغير والأدب الكبير واليتميمة ورسالة الصحابة . وعمد إلى خير أثر في لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية ، كما نقل عن لغته بعض ما تُرجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو في المقولات والقياس المنطقي .

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود ، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم في الملك والقضاء وفنون الحرب . ونحن نقف قليلاً عند الأدبين الصغير والكبير واليتميمة ورسالة الصحابة .

والأدب الصغير رسالة قصيرة<sup>(٢)</sup> في نحو ثلاثين صحيفة تتضمن المئات من

لمحمد كرد علي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللؤلؤي (طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨ .  
(٢) انظر الأدب الصغير في رسائل البلغاء

الوصايا الخلقية والاجتماعية التي ترشد الناس إلى صلاح معاشهم في أنفسهم وفي علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن غيرهم ، وزراه يقول في أوائلها : « قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصقلها وتجليه أبصارها ، وإحياءٌ للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » ومن قوله في تضاعيفها :

« على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزَّلَل في العلم والإغفال في الأمور. إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً ، فإذا الصغير كبير ، وإنما هي تُسَلِّمُ <sup>(١)</sup> يَسْلَمُها العجز والتضييع ، فإذا لم تُسَدِّدْ أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق . كلامُ اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم ، ومقارفة <sup>(٢)</sup> المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة . لا يَمْنَعُكَ صِغَرُ شأن امرئ من اجتهاد ما رأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً ، فإن اللؤاؤة الفاتكة لا تُهَانُ لهوان غائصها الذي استخرجها . أعدلُ السَّيْرُ أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يُؤْتِيَ إليك . حقٌ على العاقل أن يتخذ مِرَاتِينَ فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيمهم بها ويأخذ ما استطاع منها . عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هَوَى ، والهوى آفة العفاف . من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه فإنه من خفى عَيْبُهُ عليه خفيت عليه محاسن غيره ، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف ، وإن ينال محاسن غيره التي لا يبصرها أبداً . لا يَمَّ حَسَنُ الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه ، فإذا هو لم يتداو به لم يُغْنِهِ علمه . والرجل ذو المروءة قد يُكْرَمُ على غير مال كالأسد الذي يهاب وإن كان عَقِيرًا <sup>(٣)</sup> ، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكتسب الذي يهون على الناس وإن طَوَّقَ وَخُلْسِلَ <sup>(٤)</sup> .

وأكثرُ وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القصَرِ وقلما يطَّرد فيها

(٣) عقيراً : جريئاً .

(١) ثلم : جمع ثلثة وهي الخلل .

(٤) خلخل : وضع في رجله خلخال .

(٢) مقارفة : ارتكاب .

السياق . أما الأدب<sup>(١)</sup> الكبير فرسالة\* أكثر طولاً إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة ، موزعة بين موضوعين كبيرين ، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والصداقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح : ونراه يصرح في تقديمه لهذه الرسالة بما صرّح به في أوائل الأدب الصغير من أنه يفيد في وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء ، إذ يقول : « منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسنتنا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع ... ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه » . ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت في وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم ، وأنه سيضمن كتابه أو رسالته منها أطرافاً . ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما تنقل عن القدماء ممّا قرأه في الأدب الساساني السياسي والأخلاقي ، وإما استنباطات وصل إليها على هديهم ، وهو يستهل رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعي والسياسي ، ثم يورد بعض الوصايا لمن يتقلد شيئاً من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أن يرضى ربه ومن فوقه من أصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية ، ويقول له : لا تلمس رضا الناس جميعاً ، لأن ذلك شيء لا يدرك ، إذ بينهم من رضا الجور ومن رضا الضلالة ، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء ، ومن طريف ما يوصيه به قوله :

« لا تترك مباشرة جسيم أمرك ، فيعود شأنك صغيراً ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم . . وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة فأحسن قسمتهما<sup>(٢)</sup> بين دعتك وعملك ، واعلم أنك ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم . . وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة . واعلم أن من

(٢) قسمتها : أى قسمة الليل والنهار .  
العصر العباسي الأول

(١) انظر في رسائل البناء ص ٣٩ وما بعدها .



الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكَلُوح<sup>(١)</sup> والتقطيب في غير مَنْ أَغْضِبَهُ ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهيم بعقوبته ، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر<sup>(٢)</sup> لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد إعطائه ويكرم من لاحق له ولا مودة فأحذر هذا الباب الحذر كله .

ويسترسل ابن المقفع في مثل هذه الوصايا للوالى ، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكّام ، ثم ينتقل إلى الصديق والصدّاقة ، ويصور الخلال التى ينبغى أن يتصف بها فى رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمه وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمدّ له يَدَ العَوْنِ فى الشدة . ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغى من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه ، ويُفَيضُ فى الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التى تنفّر الناس من صاحبها فضلا عن الصديق ، وما يسوقه فى الطرفين قوله :

« انظُرْ مَنْ صاحبتَ من الناس من ذى فَضْلٍ عليك بسلطان أو منزلة ومنّ دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان فوطنْ نفسك فى صحبته على أن تقبل منه العَمَوَ ، وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبلكه غير معاتب ولا مستبطن ولا مستزيد ، فإن المعاتبه مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضا بالعفو والمسامحة فى الخلق مقرب لك كلّ ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمرودة . . ولا تلمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى ، ولا تجترئن على تقيعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحققتك إذا وضحت . وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول . . واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون ، بل

(٢) الخطر : الشرف .

(١) الكلوح والتقطيب : العبوس .

الرأى كله غرر<sup>(١)</sup> ، لأن أمور الدنيا ليس شىء منها بثقة ، ولأنه ليس شىء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعيبى الخزمة<sup>(٢)</sup> ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعل ذلك عليه لوما وعدّلاً بأن تقول: أنت فعلت هذا بي ، وأنت أمرتني ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطيعك في شىء بعدها ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . وإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه فبدأ صوابك فلا تمنّ ولا تكثرن ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تلمّنه عليه إن كان استبان في تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل ، ألم أفعل ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .. واعلم أن من تنكّب الأمور ما يسمى حدّراً ، ومنه ما يسمى خوراً فإن استطعت أن يكون تجنّبك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعل ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تهيبه ، فإن ذلك هو الخور ، وإن الحكيم لا يخوض نهراً ، حتى يعلم مقدار قعره .

وردّد محمد كرد على في نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة ، وهما كتابان لا كتاب واحد ، كما يشهد بذلك كلام الباقلاني عن اليتيمة الذى سبق أن نقلناه عنه ، وفيه أنها قسمان قسم في الحكم المنقولة ، وقسم في شىء من الديانات ، وليس في الأدب الكبير حديث عن الديانات ، إنما هو حديث كما رأينا عن السلطان والصدّاقة . ومما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هى الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ في كتابه « اختيار المنظوم والمشور » بقطعة طويلة من صدرها لا توجد في الأدب الكبير ، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة ، وأنه سيجيهم عما سألو ، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول ، وهو يدور على الزمان ، وقد أجابهم بأن الزمان الناس ، وهم رجلان ، وال مولى عليه . وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام : قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين ، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسّد المحكومون ، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم ،

وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعاً ، وفي الأول يقول (١) :

« خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم : في الرد عنهم والغیظ على عدوهم ، والجهاد من وراء بيضتهم (٢) والاختيار لحكّامهم ، وتولية صلحائهم ، والتوسعة عليهم في معاشهم ، وإفاضة الأمن فيهم ، والمتابعة في الحق لهم ، والعدل في القسمة بينهم ، والتقويم لأوْدهم (٣) والأخذ لهم بحقوق الله عز وجلّ عليهم . وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وتَرْك المنازعة في أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة على أنفسهم ، والشدة على من أخلّ بحقه وخالف أمره ، غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابسين (٤) عليه أحداً . فإذا اجتمع ذلك في الإمام والرعية تمّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تمّ الصالحات »

ويظهر أن الأسئلة الأولى في الرسالة كانت تخوض في السياسة ، وتلتها أسئلة كانت تخوض في شئون الديانات ، ولعل ذلك هو الذي جعل الدرّة اليتيمة تسقط من يد الزمن ، وكان الناس تحاموا تداولها . أما رسالة الصحابة (٥) فهي في صحابة السلطان وبطانته ومن يستعين بهم في حكمه من جنده وما ينبغي له في سياسته إزاء رعيته ، كتب بها إلى المنصور ، وكأنه يضع له دستوراً للحكم ، وقد استهلّها بمدحه وبيان فضله على خلفاء بني أمية وما تحلّى به من تشجيع ذوى النصح والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير . ثم أخذ في تصوير الدستور الذي يريد من المنصور اتباعه في حكمه ، واصفاً حسن سياسته ، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين ، واجتمعت حواه قابو الرعية لما اشتمل عليه من حسن العفو واللين . ولم يلبث أن تحدث عن الجند ، ومعروف أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين في جمهورهم ، ومن ثمّ أخذ يشيد بجند خراسان وأنه لم يدرك مثلهم في الإسلام لما امتازوا به من الطاعة والفضل والعفاف والكف عن الفساد والإعطاء عن يد الولاة والحكام ، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية

(٤) لابسين هنا : مقدين ، وأصل ليس

القوم التمل بهم زماناً .

(٥) انظر في هذه الرسالة رسائل البلغاء ص

١١٧ رجهرة رسائل العرب ٢٥/٣ .

(١) جهرة رسائل العرب ٤٩/٣ .

(٢) البيضة : حوزة كل شيء وساحة ، القوم

والمراد بلدهم .

(٣) الأود : الاعوجاج .

بهم بوضع قانون لهم ، يوضح في دقة واجباتهم وما ينبغي أن يفعلوه وما ينبغي أن يذروه ويتجنبوه ، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغي أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيه ، كما يطيعون الخليفة في الأحداث المتجددة من إعلان حرب أو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة . وما يُنظَرُ فيه لصالح الجند أن لا يولّى أحد منهم على شيء من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية ، ويشغلهم بأمور المال والاراهم والدنانير . ولقت المنصور إلى أن من عاينهم من هم خير من قادتهم . ولذلك يبنى أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة ، فيردّ بعضهم عن القيادة ويوليها الكفاء المجهول من الجند . وطلب إليه أن يُعنى بتعليمهم القرآن والتفقه في السنة وأن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة من الأمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف في المطعم والملبس ، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتفصّى أحوالهم بثقات لا يكتُمون عنه منها شيئاً . وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة ، لأنهم شيعة العباسيين . وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم في الفقه والعفاف والعقول والفصاحة ، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور في دولته ، وكان الأمويون قد حرموهم من تدبير الحكم مع أنهم أهلهم ومستحقوهم . وأوصاه - كما أوصاه في الجند - أن يتبع خيارهم من المجاهيل عنده ، فيسند إليهم شئون الدولة ، ويردّ عنها من وقع فيهم الخطأ ومن اختبروا دون تثبيت وفحص كاف . وسرعان ما يعرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء ، حتى ليُحكَمُ في القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكام مختلفة لا في البلاد المتباعدة بل في البلد الواحد ، واقترح لدراء هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاء على اختلاف منازعهم الفقهية ، سواء أكانوا ممن يقدّمون الرأي ويعتدّون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدّون بها ، ويسخّر من الأخيرين ، إذ تبادوا في الأخذ عن التابعين وخلفاء بني أمية مسمّين ذلك سُنَّةً ، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع في الأقضية ، يقول :

« وما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين ( البصرة والكوفة ) وغيرها من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها

أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال ، فَيُسْتَحَلُّ الدَّمُ وَالْفَرْجُ بِالْحَيْرَةِ ، وَهُمَا يَحْرَمَانِ بِالْكَوْفَةِ ، وَيَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافُ فِي جَوْفِ الْكَوْفَةِ ، فَيُسْتَحَلُّ فِي نَاحِيَةِ مَنْهَا مَا يَحْرَمُ فِي نَاحِيَةِ أُخْرَى . غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى كَثْرَةِ أَلْوَانِهِ نَافِذٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي دِمَائِهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ ، يَقْضَى بِهِ قِضَاةُ جَائِزِ أَمْرِهِمْ وَحُكْمِهِمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ فَرِيقٌ لِإِقْدَاحِ لِحٍّ بِهِمُ الْعَجَبِ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ وَالاسْتِخْفَافِ بَيْنَ سَوَاهِمِ ، فَأَقْحَمَهُمْ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَتَبَيَّنُ (١) بِهَا مِنْ سَمْعِهَا مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ . أَمَّا مَنْ يَدَّعِي لَزُومَ السَّنَةِ مِنْهُمْ فَيَجْعَلُ مَا لَيْسَ لَهُ سَنَةٌ سَنَةً ، حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ بِهِ إِلَى أَنْ يَسْفِكَ الدَّمَّ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا حُجَّةٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي يَزْعَمُ أَنَّهُ سَنَةٌ ، وَإِذَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ : هُرَيْقٌ (٢) فِيهِ دَمٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ أُمَّةٍ الْهَدَى مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ : أَيُّ دَمٍ سَفَكْتَ عَلَى هَذِهِ السَّنَةِ الَّتِي تَزْعُمُونَ ؟ قَالُوا : فَعَلَّ ذَلِكَ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنُ مَرْوَانَ أَوْ أَمِيرٌ مِنْ بَعْضِ أَوْلِيَاءِ الْأَمْرَاءِ . وَرَبَّمَا يَأْخُذُ بِالرَّأْيِ ، فَيَبْلُغُ بِهِ الْاِعْتِزَامَ عَلَى رَأْيِهِ أَنْ يَقُولَ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ قَوْلًا ، لَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ لَا يَسْتَوْحِشُ لِانْفِرَادِهِ بِذَلِكَ وَإِمضَائِهِ الْحُكْمَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مَقْرُوفٌ بِأَنَّهُ رَأَى مِنْهُ ، لَا يَحْتَجُّ بِكِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . فَلَوْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ يَأْمُرُ بِهَذِهِ الْأَقْضِيَةِ وَالسَّنَنِ الْمُخْتَلِفَةَ فَتَرْفَعُ إِلَيْهِ فِي كِتَابٍ ، وَيَرْفَعُ مَعَهَا مَا يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ قَوْمٍ مِنْ سَنَةٍ أَوْ قِيَاسٍ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي ذَلِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْضَى فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ رَأْيَهُ الَّذِي يُلْهِمُهُ اللَّهُ ، وَيَعْزِمُ عَلَيْهِ عِزْمًا ، وَيَنْهَى عَنِ الْقَضَاءِ بِخِلَافِهِ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ كِتَابًا جَامِعًا لِرَجُونَا أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الْمُخْتَلِطَةَ الصَّوَابَ بِالْخَطَأِ حُكْمًا وَاحِدًا صَوَابًا ، وَرَجُونَا أَنْ يَكُونَ اجْتِمَاعُ السَّنَنِ قَرِينَةً لِاجْتِمَاعِ الْأَمْرِ بِرَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى لِسَانِهِ ، ثُمَّ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ إِمَامٍ آخَرَ ، آخَرَ الدَّهْرِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن مأثورة غير مجمع عليها فينبغي الأخذ بما هو أشبه بالعدل ، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأي والقياس ، فإن القياس قد يخطئ ، وليس المدار على القياس في حد ذاته ،

(٢) هريق : لغة في أريق .

(١) يتبيح : يبيح .

وإنما المدار على ما يقود إليه فإن قاد إلى حسن أخذ به وإن قاد إلى قبيح ترك ، إذ المراد ليس عين القياس ، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله . ولعل هذه الدعوة إلى إصلاح التشريع وجمع السنن والأحكام والأقضية ووضع قانون عام للقضاء هي التي دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلف في الفقه كتابه « الموطأ » وقد قال له : إني أريد أن ترسل لي به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس في الأمصار ، غير أن مالكاً لم يرتض الفكرة ، لأن المسلمين في كل بلد رويوا من السنة النبوية ما دانوا به ، غير أنه ألف « الموطأ » وذاعت أحكامه الفقهية في الحجاز ، وفي كثير من الأمصار وخاصة في مصر والمغرب والأندلس . ويدعو ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكنونه للدولة من عداوة ، لسلبها السلطان منهم ، وأن يصطنع خيارهم ، فيتبعهم في محبة الدولة غيرهم ، وتأخذ دائرة هذه المحبة في الاتساع . ويطلب إليه أن يرد عليهم فيسئتهم ، حتى يدعوا للدولة عن رضا ، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا ثورات . ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دوائه ويطلب إليه أن يعيد النظر فيهم ، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غناء ، بل بينهم من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة ، مع أن منهم من يصرف أمور الدولة ومن يعمل في دواوينها . وحرى بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة ، والعدالة وجودة الرأي وأن لا يقرب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء حسناً ، أو عرف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالماً ينتفع الناس بعلمه ، وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً في عمله لا يتعداه . ونصح به بأن يستخدم أهل بيته ويُسند إليهم جسام الأمور والأعمال . ثم وقف عند الخراج أو بعبارة أخرى الضرائب المفروضة على الأراضي والضيايع في الدولة ، ولقت المنصور إلى ما فيها من فوضى ، إذ ليست هناك قواعد مقررة ، وكل عامل يفرض الضريبة حسب مشيئته ، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة ، وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضيايعهم وأراضيهم ، كما دعاه إلى تخير عمال الخراج وتفقدتهم واستبدال من تظهر عليه خيانة . وتحدث عن أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومن وراءهم من البدو ، وطلب إلى

المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يُجسبي منهم، وكأنه نظر في ذلك إلى فقر بلادهم وجدد بها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح . ودعاه إلى أن يولي عليهم الخبير من أهل بيته . وطلب إليه أخيراً أن يعين في الأمصار طائفة من الفقهاء والمحدثين النابضين تكون مهمتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البدع والفتن ، وبذلك رشح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب في الدولة العباسية ، وكان يُعهدُ إليه بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ في البيع والشراء أو نقص في المكايل والموازين .

وقد يكون ابن المقفع تأثر في هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستينيان الروماني ولكن من المحقق أنه صدرَ فيها عن فطنة وقوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية في عصره وما حذقه من شئون السياسة التي استوحاها مما قرأه عند الأوائل . ودائماً لا نستطيع أن نُخلّيه في كتاباته من التأثير بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها في عصره ، وكان ذهنه من الخصب ، بحيث يستنبط كثيراً من الآراء والأفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الإجماعي والسياسي . ولعل هذا الإصلاح الذي كان ينشده للدولة العباسية هو الذي دفعه إلى ترجمة القصص الخيالي الهندي ، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة ، ويقال إنها نُقلت في عهد كسرى أنو شروان من الهندية إلى الفهلوية ، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية ، من مثل « بسنج تانرا » ومثل « هتو بادشا » ووجدوا منها بعض أصول في « المهابهارتا » مما يؤكد أنها هندية الأصول ، بل يشبهه إثباتا قاطعاً<sup>(١)</sup> . ورجح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد في الكتاب بعض الفصول والقصص ، ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده ، إذ تُرجم الكتاب مرارا ، شعراً ونثراً ، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذي وضعه بين يدي القصص وسماه « عرض الكتاب » وذكر البيروني قديماً أنه زاد أيضا باب برزويه « قاصدا تشكيك ضعفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنائية ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل<sup>(٢)</sup> »

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦ .

(١) مقلة كليلة ودمنة (طبع دار المعارف)

ص ٣٥ وما بعدها .

غير أن أبحاث المحدثين أثبتت أن هذا الفصل كان موجوداً في الأصل الفارسي ، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلوا الكتاب قبل نقله إلى العربية في الدعوة لمذهبهم المانوي .

ومشّلهُ ابن المقفع في ترجمة هذا الكتاب مشّلهُ في ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والحلّية يصبُّ في دقة المعنى الذي يترجمه في القوالب العربية التي تلائمه وتلائم الذوق العربي ، بحيث خسيّل إلى كثير من القدماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه ، إذ لم يجدوا أى فارق في الصياغة بين ما يترجمه وينشئه . وحقّقاً حمل عليه الجاحظ في ترجمته لمنطق أرسطو ، إذ لاحظ في ألفاظه قصوراً أحيانا عن أداء المعاني المنطقية<sup>(١)</sup> ، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعاني لأول مرة في العربية ، ومهما يكن فله فضل الرائد . وهو إن فاته التوفيق في نقل المنطق الأرسططاليسى فإنه لم يفته في بقية ترجماته ، وأمامنا كليله ودمنة التي لا تُعدّ آية من آيات بلاغته فحسب ، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق . وفي رأينا أن غَضَّ الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذي دفع طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » إلى التشكك في مقدّراته على أداء المعاني الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه : « له عبارات من أجود ما تقرأ في العربية وبنوع خاص في الأدب الكبير وفي كليله ودمنة ، ولكنه عند ما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة »<sup>(٢)</sup> ويبلغ من إزرائته عليه أن يقول إنه « كان مستشرقاً كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهما ، وربما أعياه الأداء فيها » ويستشهد لذلك بأمثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير ، كل ما يلاحظُ عليها اضطرابٌ في بعض الضمائر ، وكأنه نسي أن الرسالتين تداولتهما أيدي النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم . والحق أنه أسرف في إزرائته عليه وفي عده مستشرقاً كالمستشرقين الغربيين في عصرنا ، فهؤلاء لا ينشأون في بيئات عربية كميّنة البصرة التي نشأ فيها ابن المقفع ، وهم لا ينقلون إلى العربية آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

(١) الحيوان ١/٧٦ .



الفارسية ، ثم هم لم يوظّفوا في الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتباً يكتبون الرسائل السياسية الرسمية ، على نحو ما وُظّف ابن المقفع . ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربي ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية في البلاغة ، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سيّوهم في هذا العصر (١) ، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة ، على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، ونفسُ الجاحظ يقول في بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذقوا البيان ويلقحوا عقولهم وألستهم بخير لقاح (٢) .

ولم يكن ابن المقفع بليغا فحسب ، بل كان أكبر بلغاء عصره ، إذ استطاع أن يملأ أواني العربية بمادة أجنبية غزيرة ، دون أن يُحدّث فيها انحرافاً من شأنه أن يجرّ ضرباً من الازدواج اللغوي ، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة في التعبير ، ولها أيضاً صورُها وأخيلتها التي قد تستعصى على الأداء في لغة أخرى . وشيء من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع ، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية في ترجماته بمقوماتها الأصلية ، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية ، بحيث لا نحسُّ عنده نبوءاً ولا انحرافاً ، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السايقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية .

والحق أنه كان آية في البلاغة وجزالة القول وحرصاته مع سهولته ، وقد نصح مرة لبعض الأدباء ، فقال له : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً في نَيْل البلاغة فإن ذلك هو العيبُ الأكبر » . ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال : « دى التى إذا سمعها الجاهل ظنّ أنه يحسن مثلها » .

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة ، فهي أوسع من ذلك وأبعد مدى ، إذ كان من أوائل من ثبتوا الأسلوب الكتابي العباسي المولّد ، وهو أسلوب يقوم على الوضوح وأن تشفّ الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشى ومبتذل

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ .

(١) النهرست ص ١٨٢ .

عامى . ولم يتقصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية ، بل عممه في ترجماته ، وبذلك وطّده أقوى توطيداً ومكّن له أوسع تمكين ، إذ جعله أسلوب النثر العام في العصر مهما اختلفت فنونه . وكانت غزارة معانيه سبباً في أن يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، فالألفاظ بقدر المعاني لا تنقص ولا تزيد ، والمعاني تؤدّى أداءً فصيحاً رصيناً ، دون قصد إلى الجمال التعبيري من سجع أو ترادف صوتي . ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً في جوانب كتاباته حتى في القصص الحيوانية قصص كليلة ودمنة ، وطبيعي أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغاية في تحميداته التي كان يفتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتي كان يعظّم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى في هذا التعميد<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله ذى العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذى لا يعجزه شيء »  
ولا يمتنع منه ، ولا يُدْفَعُ قضاؤه ولا أمره : ( إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون ) . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه ، ودبّر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيها اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها ومملكته<sup>(٢)</sup> منه لها ( لا معقب لحكمه ) ولا شريك له في شيء من الأمور ( يخلق ما يشاء ويختار ) وما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم ( سبحان الله وتعالى عما يشركون ) . والحمد لله الذى جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذى ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقربون ، يعظّمون جلاله ويقدمون أسماءهم ويذكرون آلاؤه لا يستحسرون<sup>(٣)</sup> عن عبادته ولا يستكبرون ( يسبحون الليل والنهار لا يفترون ) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه يطيعون أمره ويذبّون عن محارمه ، ويصدّقون بوعدده ، ويوفون بعهده يأخذون بحقه ويجاهدون عدوه . وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه<sup>(٤)</sup> حُجَّتْهم وإعزازهم دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسه ، وانتقامه منهم وغضبه عليهم . مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه

(١) جهمرة رسائل العرب ٥٣/٣ .

(٢) يستحسرون بالشيء : يمينا به .

(٣) ملكة : ملك .

(٤) إفلاجه : نصره .

فيا مضى ، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقى ( لِيُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون )  
 و( ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ) . والحمد لله الذى لا يقضى فى الأمور  
 ولا يدبرها غيره ، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته ، وهو وليها ومنتهاها ، وولى الخيرة  
 فيها والإمضاء لما أحب أن يمضى منها ( يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة  
 سبحانه الله وتعالى عما يشركون ) . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذى  
 المِنَّة والطَّوْلِ (١) والقدره والحَوْل (٢) ، الذى لا ممسك لما فتح لأولياته من رحمته ،  
 ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نعمته ، ولا راداً لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ،  
 ويُحكِّم ما يريد . والحمد لله الميثب بحمده ومننه ابتداءه ، والمنعم بشكره وعليه  
 جزاؤه ، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه .

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة فى هذا التحميد ، وقد وضعناها بين  
 أقواس لتتضح مواضعها ، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم . وبدأ  
 عنده هنا شيء من السجع الذى يأتى عفواً سمحاً ، وكأنما ابتغى هنا التعميق بأكثر  
 مما كان يبتغيه فى ترجماته . ونحن نسوق طائفة من رسائله الإخوانية ليتضح لنا  
 ما كان يبذل فيها من جهد فى ، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه  
 على هذا النمط (٣) :

« بارك الله لكم فى الابنة المستفادة ، وجعلها زيناً ، وأجرى لكم بها خيراً ،  
 فلا تكرهها ، فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات ، ومنهن ( الباقيات  
 الصالحات ) ورب غلامٍ ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها  
 بعد مساءتهم »

واقتبس هنا من القرآن كلمة ( الباقيات الصالحات ) وعنى بالإيجاز والاقتصاد  
 الشديد ، وبما كتبت به فى التعزية عن ولد (٤) :

« إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه ، فلا تجتمع إلى ما فُجعت  
 به من ولدك الفجعية بالأجر عليه والعوض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ،  
 وأنكى الممرزؤشتين (٥) لك ، أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب . »

( ٤ ) جمهرة رسائل العرب ٥٨/٣ .

( ٥ ) المرزؤشتين : المصيبتين .

( ١ ) الطول : الإتمام .

( ٢ ) الحول : القوة .

( ٣ ) جمهرة رسائل العرب ٥٧/٣ .

والدقة المنطقية واضحة في هذه الرسالة مع ما يجري فيها من طرافة التفكير ، فقد جعل الجزع على الولد فجيعة لا تقل عن فجيعة فقده ، بل جعلها أعظم وأنكى ، إذ تحرم صاحبها الثواب . وتلطّف فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه ؛ ومن رسائله الإخوانية البديعة ما كتب به إلى بعض إخوانه يستقصيه حاجة<sup>(١)</sup> :

« أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وُضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده . وكتبت إليك ، ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أول ما فيها معروف ، تستوجب به الشكر علينا ، وتدّخر به الأيادي قبيلنا . »

ودقة التفكير واضحة في الرسالة ، فقد جعل قضاء أخ لأخيه حاجة ليس مِمّا يؤديه إليه ، وإنما يؤديه إلى نفسه ، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه . ويتحدث عن بذل المعروف ، ويتبادر إليه جحود بعض الناس ، فيقول إن المعروف غرس لا بد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون . ومرت بنا في الفصل السالف رسائل إخوانية تحوّل بها بعض الكتّاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الأخوة والصدّاقة من حيث هما مفصّلة صفاتهما وشرائطهما ، ولا بن المقفع قطعة أدبية بديعة في وصف أحد إخوانه ، وفي رأينا أنه لم يصف فيها أحداً بعينه ، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل ، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل ، وهي تمضي على هذه الشاكلة<sup>(٢)</sup> :

« إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظّمه عندي صغّر الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتوى ما لا يجد ، ولا يكتسز إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه ربيبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يأسر<sup>(٣)</sup> عند نعمة ، ولا يستكين عند

العرب ٥٦/٣ .  
(٣) يأسر : يبطر .

(١) جمهرة رسائل العرب ٦٠/٣ .  
(٢) انظر هذا الوصف في آخر الأدب الكبير ،  
وفي زهر الآداب ١٧٩/١ وفي جمهرة رسائل

مصيبة . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى <sup>(١)</sup> فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بَدَّ القائلين . وكان يَرى ضعيفاً مُستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو اللَّيْسُ عادياً . وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ، ولا يُدلى بحجة ، حتى يَرى قاضياً فَهَيْمًا وشهوداً عدولاً . وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العُدْرُ في مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرم ، ولا يتسخط ، ولا يتشكى ، ولا يتشهى . وكان لا ينقم على الولي ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تُطيق ، ولكنَّ أَخَذَ القليل خَيْرٌ من تَرَكَ الجميع .

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يُعَدُّ دَرَّةً ثَمِينَةً من درر البلاغة العباسية ، ومن الخطأ البين أن يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التي أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر في أساليبه وتضطرب لغته ، ويعيبه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء ، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له ، وكان أعجوبة زمانه في البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً ، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة .

## ٢

سهل بن <sup>(٢)</sup> هرون

هو سهل بن هرون بن راهبوني كما جاء في البيان والتبيين ، وفي كتاب البخلاء

والتنبيه والإشراف للمسمودي (طبع ليدن) ص ٧٦ وعيون الأخبار ٣/٢٥ ، ١٣٨ ، ١١٢/٤ وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدر بن (طبعة دوزي) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥/٥٨ وفي مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ١٨١/١ وشرح العيون في شرح رسالة =

(١) يمارى : يجادل .  
(٢) انظر في ترجمة سهل وأخباره البيان والتبيين ١/٥٢ ، ٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٨ ، ٢٩٩/٣ ، ٣٤٦ والحيوان ٢/٣٧٤ ، ٦٦/٣ ، ٤٦٦ ، ٦٠٣/٥ ، ٢٠٢/٧ والفهرست ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢/٢٥٧ - ٢٥٩

« راهبون » وفي الفهرست « رامنوي » وفي حياة الحيوان للدميري « راهويه » . وهو فارسي الأصل ، وعلى نحو ما اختلف الرواة في اسم جده اختلفوا في مسقط رأسه ، فقيل إنه من أهل دَسْتَمِيْسَان ، وهي كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، وقيل إنه من أهل مَيْسَان قرية بتلك الكورة ، وقيل إنه من أهل نيسابور . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وأغلب الظن أنه وُلِدَ حوالي منتصف القرن الثاني الهجري ، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة ، وأقبل على التزود من ينابيع الثقافة التي كانت منبعثةً بها ، وخاصة علم الكلام وما نُقِلَ عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية ، وأخذ هو نفسه يشارك في ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية . وتجذبه بغداد إليها آملاً أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة ، وسرعان ما يقربه يحيى البرمكي وزير الرشيد منه ، فيلحقه بالدواوين ، حتى إذا أسس الرشيد دار الحكمة عُيِّنَ بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يُتَرْجَمُ فيها من الآداب الأجنبية ، إذ كان أحد النقلة النابهين من لسانه الفارسي إلى العربية . وفي أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون ومستشاره وكتابه ، فقدّمه إلى المأمون ، فأعجب ببلاغته وصحة منطقته وذكائه ، حتى إذا تحوّلت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عناية الواسعة المعروفة ، إذ حوّلها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة ، جعله قيماً على خزائن كتب الفلسفة التي جلبت من قبرص ، ليشرّف على نقلها إلى العربية . وكان يلزم المأمون في مجالسه وندواته التي كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين ، وما زال خازناً بدار الحكمة حتى توفي سنة ٢١٥ للهجرة .

واشتهر سهل في زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سباه معاصروه بزرّجهمر الإسلام ، إشارة إلى أنه يحل في العربية محل بزرجهمر في الفارسية وما أثرعنه من حكم وأمثال كثيرة ، ووصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلاً في نفسه عتيق الوجه <sup>(١)</sup> ، حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة <sup>(٢)</sup> ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة

(١) عتيق الوجه : جميل .

(٢) الفدامة : العي .

== ابن زيدون لابن نباتة ( نشر دار الفكر العربي )

ص ٢٤٢ وسحابة الحيوان للدميري ١/٥١٣

وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤ .

وبرقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبل قبل  
التكشف (١) « ووصفه الحسن بن سهل وزير المأمون فقال : « ازن  
العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ،  
كالغيث أين وقع ، وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حملتها  
حملت ، وكالماء طهوراً للتمسه وناقع لغلته من حرّ (٢) إليه ، وكالهواء الذي  
تُقَطَّفُ منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التي يعيش بها المَقْرور ، وكالسماء التي  
قد حسنت بأصناف النور » . ويقول ابن النديم إنه كان « شعوبى المذهب ،  
شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل في البخل » وكأنه  
أراد بتلك الرسائل أن ينقض فضيلة الكرم العربية . وكان البخل سجية وطبعاً  
ركب فيه ، ورؤيت عنه في ذلك نوادير كثيرة ، منها أن شخصاً لقيه ، فقال له :  
هَبْ لِي ما لا ضرره عليك ، فقال : وما هو يا أحمى ، قال : درهم ، فقال سهل :  
لقد هَوَّنت الدرهم ، وهو طائع الله في أرضه لا يَعْصِي ، وهو عشر العشرة ،  
والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين  
انتهى الدرهم الذي هَوَّنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم . فانصرف  
الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت سهل . ومن حكاياته العجيبة في البخل ما حكاه  
دَعْبِل ، قال : « كنا عنده يوماً ، فأطلقنا القعود ولم نَسِرْح ، حتى كاد يموت  
جوعاً ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ويلك غَدْنَا ، فأثاه بصحفة فيها مَرَقٌ ،  
تحتة ديك هرم لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطَّلَع في الصحفة  
وقلَّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلَّب جميع ما في القصعة ، حتى  
فقد الرأس من الديك . فبقي مطرقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين  
الرأس ؟ فقال : رميتُ به ، قال سهل : ولم رميتُ به ؟ قال : لم أظنك تأكله ،  
قال : ولأى شيء ظننت أني لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقت من يرى برجليه ، فكيف  
من يرى برأسه ، ثم قال له : لولم أكره ما صنعته إلا للَطَّيْرَة (التشاؤم) والفقائل  
لكرهته ، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما  
أُرِيد ، وفيه فَرْقَه الذي يتبرَّك به ، وعينه التي يُضْرَبُ بها المثل ، يقال شراب

(٢) حر : عطش ، والصفة حران .

(١) البيان والتبيين ١/٨٩ .

كعين الديك في الصفاء ، ودماعه عجيب لوجع الكُلى ، ولم أر عظماً قط أمش تحت الأسنان من عظم رأسه ، فهلا إذ ظننت أني لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نيبك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعتق ؟ انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدري أين رميتُ به ، قال سهل : لكني أدري أنك رميتَ به في بطنك ، واللهُ حسيبك . ولعل في هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه ، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الحلوة أحياناً ، وأحياناً بالسخرية المرة ، من ذلك أنهم قَصَّوا عنه أنه حدث بعض الأمراء ، فقال له كذبت ، فأجابه على البديهة : إن وجه الكذاب لا يقابلك ، يعنى أن الأمير هو الكذاب ، لأن وجه الإنسان لا يقابله . وطلب إليه أبو الهذيل العسلاف المتكلم المشهور أن يكتب له رسالة إلى الحسن بن سهل يوصيه فيها به ، فلبى طلبه ، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضَّها وقرأ ما فيها أغرب في الضحك ، إذ وجد سهلاً ينهاه عن أن يمدَّ لأبي الهذيل العنَّونَ بأبيات تحيِّفه وتقبض يد قارئها عن مساعدته ، استهزأها بقوله :

إن الضميرَ - إذا سألتك حاجةً      لأبي الهذيل - خلاف ما أبدى  
فامنحه روحَ اليأس ثم امدد له      حبيلَ الرجاء بمخلف الوعدِ  
حتى إذا طالت شقاوةُ جدِّه      وعنائه فاجبهُ بالردِّ

وقال الحسن : هذه صفته لا صفتنا ، وأمر لأبي الهذيل بمال ، فعاد إليه ، وعاتبه ، فقال سهل : تُسرى أين عزب عنك الفهم ، أما سمعتَ قولي : « إن الضمير خلاف ما أبدى ، فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا . وهي مغالطة واضحة ، غير أنها تدل على قدرته العقلية في الإتيان بالحجة الصحيحة تارة ، والحجة المدخولة تارة ثانية .

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً ، وفيه يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسِّير الحسان المدوّنة والأخبار المولّدة سهل بن هرون بن راهبوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفراء في معارضة كتاب كليله ودمنة ، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل



وكتاب الخزومي والمهذلية وغير ذلك من الكتب» . وذكر ابن النديم من كتبه أيضاً « كتاب النمر والثعلب ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الضربين وكتاب الغزالين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان في القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة » . وذكر ابن نباتة كتاباً له في سيرة المأمون .

ويظهر أنه عُنِيَ في كثير من كتبه بالقصص على السنة الحيوان ، مشاكلة لكتاب كليلة ودمنة ، وكان من أهم ما وضعه في ذلك كتاباه : « ثعلة وغفراء » و « النمر والثعلب » وقد أشاد المسعودي بأولهما وقال إنه يزيد على كليلة ودمنة بحسن نظمه . وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربية الاجتماعية والسياسية بما يفصل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضح كليلة ودمنة ، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وغفراء سوى هذه النصيحة :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظهرٌ على وهن العقيدة وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخجلٌ بالاختيار ، وليس في نفع تحمّدُ به عوضٌ من فساد المروعة ولزوم النقيصة » .

ويقول الحصرى بعد ذكره لهذه النصيحة : إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً . وعثر السيد عبد القادر المهيري حديثاً على كتاب النمر والثعلب ، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة في العدد الأول من حولية الجامعة التونسية ، والكتاب ، أو بعبارة أدق القصة تدور على ثلاث شخصيات هي الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى ، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقاً ، فالثعلب كان يعيش مع زوجه في واد غبر عليه زمان فيه وهو حسن الحال رخيّ البال ، ومرّ به ثعاب آخر ، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه ، مخافة أن يهجم عليه السيل ، واستشار زوجه ، فأبت عليه التحول ، ولم يلبث أن جاء طوفان من السيل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حسيباً ، ولم ير أنيساً ، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح ، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئبٌ يمرُّ به ، فتعارفا ، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالظباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن

يقربها ولا أن يتجاوز موضعه ، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش للملك طاغ باغ هو النمر الذى تجبر وتكبر . وقال له : إننى لا أكلمك الآن إلا فرعاً مرتعياً خشية أن يرانا ، فلنصرف ، ولنلتق غداً فى مكان خفى ، فالتقيا ، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلطف له ويطلب منه ولاية فى الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها ، ويتخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها . ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش ، وما يزال يشجعه حتى يلقاه . ويُعجبه حديثه وما عرض عليه ، فيعيثه والياً على مناهل الظباء . ونحن نسوق هذه القطعة من القصة لندل على أسلوب سهل وطريقته فى هذا القصص الحيوانى الخيالى ، وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقهما على اللقاء ، وما كان بينهما من حوار فى هذا اللقاء ، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة :

« انصرف الثعلب حزينا مغتماً لما حزره من عداوة النمر وعدم القوت ، ثم فكر فقال : إنما يُعرَفُ فضل عقل المرء فى شدائد الأمور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل ، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل ساترة لتقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثلئ قوة على صيد الظباء وبقر الوحش ، وإنما يصيد كل امرئ [ على ] قدره ، وليس ههنا إلا طلب الحيلة . فلما أصبح الصبح قصد المكان الذى وعد الذئب فيه والتقيا هنالك عن رِقْبَةٍ ( تحفظ ) من النمر ، فقال له الثعلب يا أبا النفرَاء كنت مهموماً بنفسى ، فزادنى اهتماماً ما أبثنتى من حديثك وأقيت إلى من سوء حالك ، وههنا تدبيرٌ إن أعنتى عليه بهمة صادقة ، فلعله أن يعود إلى صلاح ، فقال الذئب : وما هو ؟ قال الثعلب : اتت النمر ، فسئلته أن يوليك ولاية تردُّ عليك نفعاً وتردّ لك ذكراً وتكسبك حمداً ، قال الذئب : فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه ، وإنه لكما قال القائل : سواء هو والعدم ، قال الثعلب : فأعلمه أنك لا تنفيذ شيئاً إلا بعثت إليه بشرطه فإن لك فيما يبقى منتفعاً وصلاًحاً ، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب ، وكن كما قال الشاعر :

وليس الرزقُ عن طلبِ حَشيثٍ ولكن ألقِ دُلوكَ فى الدَّلاءِ

تجشك بملتها طوراً وطوراً تجيء بِحِمَاءٍ وقليل ماء<sup>(١)</sup>

قال الذئب : يا أبا الصبّاح إنه كان يقال : اتقوا مقارفة<sup>(٢)</sup> الحريص الغادر ، فإنه إن رآك في القوة رأى منك أخبث حالاتك . وإن رآك في الفضول<sup>(٣)</sup> لم يدعك وفضولك ، قال الثعلب : يا أبا الفراء : إنه ليس الرأى . . من عاش غير حامل الذكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قلّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه في ضيق وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر . قال الذئب : إنه كان يقال : أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل : صحبة السلطان واثمان النساء على الأسرار وشرب السم على التجربة . قال الثعلب : قد يُسَلِّغُ الحَضْمُ بالقَضْمِ<sup>(٤)</sup> ، ويركب الصعّب من لا ذأول له . وليس يواظب على باب السلطان أحد ، فيسَلِّقَ عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خلص إلى حاجته من السلطان . قال الذئب : إنه كان يقال : لا تغتبط بسلطان من غير عدل ، ولا بغنى من غير فضل ، ولا ببلاغة من غير صدق ، ولا بجود من غير إصابة ، ولا بحسن عمل من غير خشية . قال الثعلب : إنه ينبغى للعاقل أن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح في الماء البحارى ، وقال الممثل : أرَضَى من المركب بالثعلب . قال الذئب : السبب الذى يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذى يحول بين الحازم وطلبته . قال الثعلب : المال زيادة في القوت والرأى ، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال ، ولا يُظْهَرُ المروءة إلا المال ، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العُدم فقصر عنه . قال الذئب : إنَّ للسلطان سكرات ، فنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، والسخط عنم يستوجب الرضا ، ولذلك قيل : قد خاطر من لَسَجَّجَ في البحر ، وأشدُّ منه مخاطرة مَنْ صاحب السلطان . قال الثعلب : من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب ، ومن ترك الأمر الذى لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يُوقَّاه فليس ينال

(٤) مثل معناد أن الغاية البعيدة قد تدرك بالرفق . وأصل الحضم الأكل بجميع القم ، والقضم : الأكل بأطراف الأسنان .

(١) الحمأة : الطين الأسود .  
(٢) مقارفة : مخالطة .  
(٣) الفضول : جمع فضل وهو النعمة .

جسماً ، وقد كان يقال : أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظم خطر : صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو . فأعجب الذئب كلامه ، فأتى النمر ، فشكر له ، وأقام بين يديه ، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة . فافتتح الكلام ، فقال : أيها الملك إني لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحى الأعوان وثقات الخدم ، ولما رأيت الملك كثير الكُلف عظيم المؤن رحب الفناء جزل العطاء ، وليس له من عبيده من يعينه على مثوته ويكفيه المهم من عمله نذبتُ نفسى للذى رأيتنى أقوى عليه من حسن السياسة وضبط الناحية التى أتولاها ورددتُ المنفعة على الملك منها . فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده ، فقال له : صدقت وبتَّرت ، وأنا مستكفيك ومقلِّدك ، فأنظرُ كيف يكون ضبطك وكفائتك وغناؤك وفاؤك بما شرطت على نفسك . اكتب له يا غلام عهدَه على مناهل الظباء ، واجمع له أعمال ما هنالك ، فخرج الذئب إلى عمله ، واستخلف الثعلب وأحلَّه محل الوزير الكاتب .

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره ، حتى إذا دانت له رعيته واستتبَّ أمره وتمكن سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات ، وراسله النمر وذكره بعهوده ووعوده ، ولكنه ظل سادراً فى غيبه ، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال ، وكان الذئب قد صمم على التمرد ونقض الطاعة ، فردَّ على النمر بهذه الرسالة العنيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، أما بعد فإن كتاب الملك - أمتع الله به - وصل إلى بما حذَّر فيه وأنذر ، وقدَّم وأخَّر ، وفهمته ، وقد كان الملك - حفظه الله - أسند إلى أمر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدو به ، وانقطاع من سبيله ، واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه ، فرأبتُ<sup>(١)</sup> صدع الآفة ، وجمعت شمل الطاعة وكشفت دُجِيَّة<sup>(٢)</sup> الفتنة وأسغت الريق بعد الشجَا<sup>(٣)</sup> ، وقمعت أولى العداوة والبغضاء ، وأقمت حقماً كان معلمه<sup>(٤)</sup> متروكاً ، ودمغت ضلالة كان طريقها

(٣) الشجا : النصة وما يعترض فى الخلق .

(٤) معلمه : مفرد معاملة .

(١) رأيت : أصلحت .

(٢) الدجِيَّة : الظلمة .

مسلوكاً ، ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده ، فعاد ما عملته هباءً ، ولم أجد منه شيئاً مشكوراً ، وما يُقَعِّعُ لِبُئْلِ بِالسَّنَانِ (١) وإني لألثوى بعيد المستممر (٢) فإن يستم الملك صنيعته ويرب (٣) نعمته فأنا بين العصا ولحائها (٤) ، وإلا فسيجدني جِدْلَ حِكَاكِ (٥) إذا نكأت (٦) قُرْحَةَ أدميتها ، أحمر (٧) ، ضرباً بالسيف ، والسلام .

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه ، وكانوا ثلاثة ، فاستشارهم في أمره ، فأشار الأول بالكتابة إليه في إيجاز لتبسين دخيلة أمره وحقيقة موقفه إن سِلِمًا فِسْلِمٌ وإن حَرَبًا فَحَرْبٌ ، وأشار الثاني بالصفح عن زلته ، فإن الحرب سجال ، وهي حتى على الظافر خسارة في الأموال والرجال ، وأشار الثالث بمحاربتة قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً ، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه ، وأخذ النمر بقول الوزير الأول ، فكتب إلى الذئب رسالة ، نسختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، أما بعد فإني رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا نظرت في كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت فإن كنت سِلِمًا فأقبِلْ وإلا فأذَنْ بِحَرْبٍ ، والسلام . »

ولجَّ الذئب في عصيانه ، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس ، انتهت بمقتله والقبض على الثعلب وزيه ومدبر أموره ، وكاد أن يُقْتَلْ لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة تفكيره ، مما جعله يعيده أن يُبْتَقَى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ما يُلْتَقَى عليه من أسئلة . وتتوالى الأسئلة في الإنسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفي مكانة العقل من العلم وأثره في سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر . وتلقانا في هذه الإجابات طرافة تفكير سهيل

( ٤ ) لحاء العصا : قشرها . والكتابة واضحة .  
( ٥ ) الجدل : أصل الشجرة . حكاك من الحك وهو الدلك . وجدل حكاك : مثل يضرب إن يستشفي برأيه .

( ٦ ) نكأت القرحة : قشرها قبل أن تبرا .

( ٧ ) كنى بالحمرة عن البأس الشديد .

( ١ ) الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس . وقمعق : ضرب . وكانوا إذا ضربوا عليه نفرت الإبل ، ويضرب ذلك مثلاً لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذار ولا تحذيف .

( ٢ ) ألوى : عسر ، يلتوى على خصمه . بعيد المستمر : قوى في الخصومة .

( ٣ ) يرب : ينمي ويزيد .

ودقته وتعمقه ، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم في درجات متفاوتة تفاوتاً بعيداً ، ومع ذلك يطاق عليهم جميعاً اسم واحد ، يقول مورداً السؤال والإجابة ، ومنتهاً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده .

«أخبرني عن العقل أهو شيء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس في نسيله مستوون أم متفاضلون ؟ قال : بل متفاضلون . قال : فكيف دُعي ذو الحظ اليسير منه باسم ذي الحظ الكبير ، فقيل لهما عاقلان وهما في العقل متباينان ؟ فهل يقع اللقب الواحد على ذوى الدرجات الشتى ؟ قال : نعم ، وليس ذلك بخطأ من القائل ، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد ، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يدعى كل ذى درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر ، ولو كُلفت اللغة ذلك لطلال الكلام . . . لتوزع المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد . قال : فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد؟ . قال : بالتمييز وكشف المعرفة ، ومثل ذلك في اللغة ما يدعى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت ، إذ يقال : بُناة وبحارون وتجار وخياطون ، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل . فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل ، وهم فيما أتوا منه متفاضلون ، أحدهم فيه أكثر حظاً منه . قال : كيف مُدَّت هذه الغاية ومُنِع ذوو العقل بلوغها؟ قال : لأن الغاية كمال ، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق ، ولا يستوى الخالق والمخلوق في صفته ، تعالى الله عن ذلك .»

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرين والولاة المتمردين وحيل الوزراء الدهاة ، مستخلصاً في ثنايا ذلك كثيراً من العظات وناثراً كثيراً من الحكم والأمثال . وهو يبتغى بذلك نفس الغاية التي ابتغاها واضع كليلة ودمته من نصح الملوك والحكام عن طريق ما يجرى على السنة الحيوان من مقت الظلم والبغى وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف . وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليلة ودمنة ، إذ يعرض للعلم والجهل والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر . والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب ، بل بطرافة الحوار

وما يجرى فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة . وفي أسماء كتب سهل التي ذكرناها آنفاً ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على السنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه « الخزومي والهلالية » واسم كتابه الثاني : « الوامق والعذراء » .

واحتفظ الجاحظ في أول كتابه البخلاء برسالة طويلة له يحتج فيها للبخل وينصره على الكرم ، ومرّ بنا ما يقال من أنه كتبها شعويةً على العرب ، إذ حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدماً . ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهل يرجو مكافأته عليها ، فكتب له على ظهرها : « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك » . ونراه في فاتحتها يتوجّه بالحديث فيها إلى بني عمه ، وظن القدماء أنه يريد بني عمه الحقيقيين من آل راهبون ، وأغلب الظن أنه يقصد العرب . وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أخطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية ، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه ، مستعيناً بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية وبما حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط في الإسراف ، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلاً عن الرسول الكريم الذي حَضَّ على البذل والإيثار والسخاء بكل ما في اليد ، كما حَضَّ القرآن الكريم لا على الصدقات فحسب ، بلى على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون ، وصورَ المثل الأعلى في ذلك فقال جَلَّ شأنه : ( وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ) . وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة ، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل ، فاختر من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ما قد يشهد له ، وهو إنما يشهد على زهادتهم في الدنيا وصغر متاعها في أعينهم حتى بَعُدَ إقبالنا عليهم ، وفرَّقَ بين الزهد والبخل والحرص والشح ، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة ، لنطلع من جهة على قدرته في الجدل والحجاج ، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية ، يقول :

« وعبتموني حين ختمت على سَدِّ (١) عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة

ومن رُطَبَة (١) غريبة على عبد نهم (٢) وصبي جَشَع وأمة لكعَاء (٣) وزوجة خرقاء (٤) . وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحكَم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة أن يستوى في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوى مواضعهم في المجالس ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يُستقبلون به من التحيات . . . وعبتموني بِخَصْف (٥) النعال وبتصدير (٦) القميص ، وحين زعمت أن الخصوفة من النعل أبي وأوطأ (٧) وأقوى وأنسى للكبر وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، ويقول : « لو أتيت بذراعٍ لأكلت ، ولو دُعيت إلى كُرَاع (٨) لأجبت » ولقد لَفَقْتُ (٩) سَعْدَى بنت عوف إزارَ طلحة (١٠) وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض ، وكان في ثوب عمر رِقَاعِ أَدَمٍ وقال : من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مؤنثه وقلَّ كِبَره ، وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يلبس الخلق (١١) . . فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبيين ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . . وعبتموني حين قلت : لا يَغْتَرَّنَّ أحدكم بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عَظْمه ووهن قوته وأن يرى أكرومه (١٢) فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون معمرًا وهو لا يدري ، ومدوداً له في السن وهو لا يشعر ، وإعله أن يُرْزَقَ الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبات الدهور ، مما لا يَخْطُرُ على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعف ما كان عن

(٨) الكراع : مستدق الساق .  
 (٩) لفقت : ضمت جانباً منه إلى آخر  
 وخاطبتها .  
 (١٠) هو طلحة بن عبيد الله كان غيثاً مداراً  
 في الكرم فلقب بالفياض .  
 (١١) الخلق : البالي .  
 (١٢) الأكرومة : فعل الكرم .

(١) الرطبة : التمر المرطب .  
 (٢) نهم : شره .  
 (٣) لكعاء : لثيمة .  
 (٤) خرقاء : حمقاء .  
 (٥) خصف النعال : ترقيعها وإصلاحها .  
 (٦) تصدير القميص : ترقيع صدره .  
 (٧) أوطأ : ألين .



الطلب ، وأقبح ما يكون به الكسب ، فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص :  
 اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ عَمَلًا مِنْ يَعْيشُ أَبَدًا ، وَعَمَلًا لِآخِرَتِكَ عَمَلًا مِنْ يَمُوتُ غَدًا . . . وعبتموني  
 حين زعمت أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُقَاد العلم ، وبه تقوم النفوس  
 قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، وأنى  
 قلت : إن كنا نستبين الأمور بالنفوس فإننا بالكفاية نستبين وبالخبرة (١) نَعْمَى (٢) .  
 وقلتم : كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء : العلماء أفضل  
 أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر  
 مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى وبجهل الأغنياء بفضل  
 العلم . فقلت : حالهما هي الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شيء تُرَى حاجة  
 الجميع إليه وشيء يَغْنَى بعضهم فيه عن بعض . . . وعبتموني حين قلت إن  
 فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار ، إن احتيج إليها  
 استعملت ، وإن استغنى عنها كانت عُدَّة . . . وقال بعض الحكماء : عليك  
 بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذلٌّ في قلب عدوك لكان  
 الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً . واسنا نَدَع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب  
 الحكماء لأصحاب الأهواء . . .

وبمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل ، وهي حجج يستمد فيها من المأثور  
 عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة  
 حكماء أمته الفارسية ، مما يدل على اتساع ثقافته . وليس هذا ما يلفتنا وحده في  
 تلك الحجج فإنه يلفتنا فيها أيضاً قدرته المنطقية التي تتضح في إيراد الأقسام المتقابلة  
 إيراداً مستقصياً ، كما تتضح في استخدام الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً  
 دقيقاً ، وفي تضاعيف ذلك تتضح غزارة فكره وكأنه يستمد من معين لا ينضب ،  
 كما يتضح إلحاحه على المعاني حتى لكانه يريد أن يحصرها ويحيط بكل دقائقها ،  
 وتأمل في رده على من يَسْتَحِثُّ الهَرَمَ على إنفاق ماله على الناس وفي الملدات ،  
 وفي الوجوه التي وضعها تحت عينه مخوفاً له ومحذراً من تضييع ماله ، فسراه يجمع  
 هذه الوجوه في استقصاء وتفصيل دقيق ، فهو قد يعمر ، وقد يرزق الولد ، وقد

(١) الخلة : الحاجة والفقير .

(٢) نعى : نضل .

تنزل به بعض الكوارث ، وحيثذ إما أن يحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم . ويردّ خائباً محسوراً . وإما أن يشكو إلى بعض الناس قائته ولكن لن يرحموه ، وفي الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيق سَهْلُ الأبوابِ على من يتسع في العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن ، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح . وتؤديه غزارة معانيه وأفكاره وحججه وأدلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً ، هو الموازنة بين العلم والمال وأيُّهما أفضل من صاحبه ، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يُفَضَّلُ العلم ، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الأصول والفروع ، فيجعل المال الأصل والعلم الفرع ، ولا يستوى فرع وأصل . وسهلٌ في ذلك كله يرينا تطور العقل في العصر العباسي ومدى ما أصابه من رقي ومن نمو ومن ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأدلة ، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جدلاً ، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفحم خصمه ويقهره . ويظهر أن هذه الطريقة استقرت في نفس سهل بتأثير المناظرين من المتكلمين في عصره وكثرة مناظراتهم في كل شيء ، في العقيدة وغير العقيدة ، وكان يرى الناس من حوله يُعْجَبُونَ بالظافر المنتصر على خصمه ، وخاصة حين يدافع عن رأى ضعيف ، فينصره نصراً مؤزرًا ، على نحو ما نصر البخل على الكرم ، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه ربُّ ما لم ينصره شعوبية على العرب ، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته في صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين ، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى في نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية . وما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظام ينم الزجاج ، كما رأى شداداً الحارثي يطنب في وصف الذهب ، فكتب هذه الرسالة معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف ، وقد سقطت من يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سَرَحِ العيون ، وهي تمضي على هذا النمط :

« الزجاج مجلّو نوري ، والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن ، ولا يُفْقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُشْقِلُ اليد ، ولا يرتفع في

السَّوْمُ<sup>(١)</sup> واسم الذهب يُتَطَيَّرُ منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام، وهو فائن فانك<sup>(٢)</sup> لمن صانه، وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا : أهلك الرجال الأحمران<sup>(٣)</sup>. والزجاج لا يحمل الوَضْرَ<sup>(٤)</sup>، ولا يداخله الغَمَرُ<sup>(٥)</sup> ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب «

ولسهل بجانب رسائله الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى في الرسالة التالية<sup>(٦)</sup>، وقد كتب بها إلى صديق تماثل للشفاء من مرض :

« بلغني خبرُ الفَتْرَةِ<sup>(٧)</sup> في إلامها وانحسارها، والشَّكَاةِ في حلولها وارتحالها ، فكاد يَسْتُغْلُ القلقُ بأوله ، عن السكون لآخره ، وتُدْهَلُ الحيرةُ في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه. وكان تعبرى في الحالين بقدرهما ارتباعاً للأولى وارتباحتاً للآخرى . وواضح ما في هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعاني ، فهو يقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء ، وكيف شغلته حركة القلق مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثاني ، وكيف أذهلته الحيرة وكربها أولاً عن المسرة وامتعتها ثانياً . ويقول إن ما دخله من تغير في الحالين يقاس بارتباعه مع بدء العلة وارتباحته مع انحسارها . وهو في جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق في معانيه ، وجاء السجع على لسانه في أكثر هذه الرسالة ، وهو إنما يجيء عنده أحياناً عفواً . وليس معنى ذلك أنه لم يكن يُعْنَى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم ابن المقفع خطوات ، إذ يعنى ببسط عباراته ، حتى يجرى فيها ضرباً من التقطيعات والتوقعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف ، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة ، ودائماً حين فقرؤه يلد عقولنا بغزارة معانيه ودقتها كما يلد أسمعنا بجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بدیعة .

(٥) الغمر : الدم .

(٦) انظرها في سرح الميرون ص ٢٤٥ .

(٧) الفترة : الوعكة والضعف .

(١) السوم : المساومة في البيع .

(٢) فانك : غالب .

(٣) الأحمران : الذهب وطيب الزعفران .

(٤) الوضر : الوسخ .

أحمد<sup>(١)</sup> بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفي مولى بنى عجل ، وقد أُلْمِنَا بأبيه في الفصل الماضي وقلنا إنه كان يكتب في دواوين الكوفة لولادة بَنِي أُمِيَّة ، ثم لما تحولت مقاليد الخلافة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن علي ثم التحق بدواوين المنصور ، وظل يكتب في دواوين المهدي والهادي ، ولع نجمه في عصر الرشيد والبرامكة ، فكان يخلف يحيى البرمكي على الدواوين في قصره وقصر الرشيد . ولا نعرف بالضبط متى ولد له ابنه أحمد ، ويغلب أن يكون ميلاده حول منتصف القرن الثاني للهجرة ، ويظهر أنه عُنِيَ بتأديبه عناية واسعة ، كى يَصْلُح للعمل في الدواوين على شاكلته ، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم الشعر وصوره ، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة ، حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة وأصول الدين وفروعه ، وأخذه أيضاً بثقافة رياضية واسعة تعينه في الحراج وشئونه . ولا بد أن يكون قد أخذ بثقافات العجم مما يتصل بأداب السياسة وبكتب الفلسفة والحكمة ، ولا بد أن يكون أيضاً قد أخذ بأداب اللياقة حتى يُحَسِّن مخاطبة الخلفاء والوزراء ، وحتى الخطّ نراه يوجهه إلى إتقانه مما جعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطه ، ويرُوى أن قائلاً قال له يوماً : ما أدري ممّ أعجب ، مما وليه الله من حسن خَلْقِكَ أو مما وليته من تحسين أخلاقك .

وعلى هذا النحو أُعِدَّ أحمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الحاذق النابه ، وأغلب الظن أن أباه ألحقه بالدواوين معه ، وأنه كتب بين يديه في دواوين الرشيد ، وأعجبت الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون نجابته ، فالتقطه وحثه على التحول معه ومع المأمون إلى مرو حين اتخذها قاعدة لولايته على شرق الدولة كى يكتب في

٥٦/٢٠ وزهر الآداب ١٣٠/٢ والفخرى  
ص ١٦٩ ومجمع الأدباء لياقوت ١٦١/٥  
وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٠٩  
وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ والمقد الفريد  
. ١٤٥/٢

(١) انظر في ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره  
كتاب الأوراق للصول (قسم الشعراء) ص  
١٤٣ ، ٢٠٦ وكتاب بغداد لطيفور في مواضع  
متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب  
للبنادى ٢١٦/٥ والأغانى (طبعة الساسى)

دواوينه ، وأذعن لرغبته ، وظل يعمل في الدواوين هناك ، حتى بعث طاهر بن الحسين في سنة ١٩٨ إلى المأمون برأس أخيه الأمين ؛ فلما رآها نأثر ، وقال للفضل ابن سهل : ينبغي أن تأمر الكتاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرني فيها بهذا الخبر ، مع الاحتياط للاعتذار منه ، لتُقَرَأَ على الناس ، فكتب الكتاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطأها . ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة في شبر من قرطاس كما يقول بعض الرواة ، فلما عرضها على الفضل رجع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه ، ثم قال له : ما أنصفناك وأمر بصلات وفرش وكسَى وآلات . وقال له : إذا كان الغد فاقعد في الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب بذلك إلى الآفاق .

ويدور العام ، فيجعل المأمون الحسن بن سهل نائبه على بغداد ، فيصطحبه معه ، وكأنَّ أخاه الفضل آثره به ، ليُعينه في عمله ، ويكتب له في دواوينه . ويُقدِّم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات ، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه ، لظرفه ورقته . وكان فيه ميل شديد إلى الرف فعاش عيشة يحفها النعيم في الفُرش وأواني الطعام وألوانه . وشارك في متاع عصره من الشراب والسماع للقبان ، ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته . ولما توفى أحمد بن أبي خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلفه على الوزارة فأشار عليه بابن يوسف ، فاستوزره ورفع منزلته ، فكان يعرض القصص أو رقايع الشكوى عليه ، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات ، غير أنه لم يلبث أن واغاه القدر سنة ٢١٣ للهجرة ، ويقال إنه أشرف ، وهو على وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مطلة على دجلة ، فظل يتأمله ويتأمل دجلة ، ثم تنفس . وقال :

ما أطيب العيش لولا موت صاحبه      ففيه ما شئت من عيب لعائبه

وسرعان ما التقمه الموت . ولأخيه القاسم الشاعر رثاء له يتمجج فيه تجمجماً ، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً ، فقالت ترثيه :

ولو أن مَيِّتًا هابه الموتُ قبله لما جاءه المِقْدَارُ وهو هَيُوبٌ  
ولو أن حَيًّا قبله جازه الرَّدَى إذنٌ لم يكن للأرض فيه نَصيب

وهو يُعَدُّ في الذروة من كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي الأول، لبلاغته  
ودقة تفكيره وحسن تأتية في الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية،  
وأولُ ما تقف عنده رسالته التي أشرنا إليها آنفًا، والتي كتبها للناس على لسان  
ظاهر بن الحسين، وهي تجرى على هذه الصورة<sup>(١)</sup>:

« أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قَسَمِ أمير المؤمنين في النسب واللحممة  
(القربة) فقد فرَّق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحُرمة، لمفارقتة  
عصمة الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله عزَّ وجلَّ فيما  
اقتصَّ علينا من نَسَبِ نوح وابنه: (يا نوحُ إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير  
صالح) ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله.  
وكتبتُ إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوعَ وردَّاه<sup>(٢)</sup> رداء نكثِهِ، وأحصَد<sup>(٣)</sup>  
لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده، فالأرض بأُكنافها<sup>(٤)</sup>  
أوطأ مهاد لطاعته، وأتبعُ شَيْءَ لمشيئته . . . والحمد لله الآخذُ لأمير المؤمنين  
بِحَقِّه، والكائد له من خان عهده ونكث عقده، حتى ردَّ به الأُفَّة بعد فرقتها،  
وجمع به الأمة بعد شتاتها، وأحيَّسَّا به أعلامَ الدين بعد دروسها<sup>(٥)</sup>، والسلام  
على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . »

ودقة التعبير واضحة في الرسالة، وكذلك المهارة في تصوير عصيان الأمين  
والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوة أبيه  
وقربته. وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة، فقد خرج من أهله، وهو إنما  
تولى الخلافة ميراثًا منهم، وقد نكث عهده في الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده،  
هذا العهد الذي كتبه بيده وعلَّقه أبوه هرون على الكعبة، حتى لا يستطيع الخروج  
منه، وقد نال جزاء خيانتته، وعادت الأمور إلى نصابها، فاجتمعت كلمة الأمة

(٣) أحصد: قوى وأحكم.

(٤) أكنافها: نواحيها.

(٥) دروسها: أمحاثها.

(١) زهر الآداب ١٣٠/٢ ومجمع الأدباء.

١٦٧/٥ والجيشاري ص ٣٠٤.

(٢) ردَّاه: ألبسه.

بعد فرقتها ورُدَّ صوب لجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته . وكان توفيق أحمد بن يوسف في هذه الرسالة دافعاً لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الحميس ، وهي الرسالة التي كان يوجهها خلفاء العصر العباسي الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادة جيوشهم وغيرهم يسطون فيها حقهم في الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغي على أهل خراسان من الولاء له . وأحكمت ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً ، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة ، وأُعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول : « الكتب المجمع على جودتها : عهد أردشير ، كليله ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الحميس لأحمد بن يوسف » وقد استهلها بتحميد طويل طريف على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

« من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ، أما بعد فالحمد لله القادر ، القاهر ، الباعث ، الوارث ، ذي العز والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر <sup>(٢)</sup> السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمن والظول <sup>(٣)</sup> على أهلها ، قبل استحقاقهم لثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته . الذي جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الأبواب <sup>(٤)</sup> ، التي يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى أقيموا على موارد الاختبار ، وتعقبوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومتقن صنعته ، وحاجة متزاييل <sup>(٥)</sup> خسلته ومتواصله إلى القوم <sup>(٦)</sup> بما يسلمه ويصلحه ، على أن له بارئاً <sup>(٧)</sup> هو أنشأه ، وابتدأه ، ويسر بعضه لبعض ، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم في تصرف أحوالهم ، وفنون انتقالهم ، وما يظهرون <sup>(٨)</sup> عليه من العجز عن التأتى <sup>(٩)</sup> لما تكاملت

(١) القوم : القيام .

(٢) بارئاً : خالقاً .

(٣) يظهر : يطلعون .

(٤) التأتى : الترقى .

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٧٧ .

(٢) فاطر : خالق .

(٣) الطول : الإتمام .

(٤) الأبواب : العقول .

(٥) متزاييل : متفرق .

به قواهم ، وتمت به أدواتهم ، مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخليفة المحكمة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم في شيء منها تلطّف يتّيمّمونه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره : ( يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعد لك في أي صورة ما شاء ركبك ) . ثم ما يتفكّرون فيه من خلق السموات ، وما يجري فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، على مسير من تصاريف الأزمنة التي بها صلاح الحُرث والنَّسْل وإحياء الأرض ولِقاحُ النبات والأشجار ، وتعاور<sup>(١)</sup> الليل والنهار ، ومرُّ الأيام والشهور والسنين التي تُحصَى بها الأوقات . ثم ما يوجد من دلائل التركيب في طبقات السقف<sup>(٢)</sup> المرفوع ، والمهاد<sup>(٣)</sup> الموضوع ، باتساق أجزائه والثامها ، وخرق الأنهار وإرساء الجبال . ومن البيان الشاهد على ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق حدوثه بعد أن لم يكن ، مرقياً في السماء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثم محاره<sup>(٤)</sup> منقضياً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَسِّحٌ عدد ، ولا منقطع أمّد ، ما ازداد بنشوءه ولا تحيّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان . ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض وقوام كل شيء منه بما يُسرّ له في بدء استمداده ، إلى منتهى نفاذه ، كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ( أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ) وقال عز وجل : ( كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ) . وكل ما تقدّم من الإخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بسّى ، وأطباق الأرض التي دحا<sup>(٥)</sup> ، وآثار صنّعه فيما برأ ، وذراً<sup>(٦)</sup> ، ثابت في فطر العقول حتى يستنجر أولي الزبغ ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد ، والأنداد ، جعلّ عما يشركون . ولو لا توحدّه بالتدبير ، عن كل معين وظهير ، لكان الشركاء جُدّراء أن تختلف بهم إراداتهم في الخلق ، ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص فيما ذراه وبرّاه ، جعلّ البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك ، وتعالى

(٤) محاره : رجوعه .

(٥) دحا : بسط .

(٦) برأ وذراً : خلق .

(١) تعاور : تداول .

(٢) السقف المرفوع : السماء .

(٣) المهاد الموضوع : الأرض .



علوًّا كبيراً ، كما قال سبحانه : ( ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كلُّ إلهٍ بما خلق ولعلَّ بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ) .

وواضح أن أحمد بن يوسف تحوّل بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من مقالات المتكلمين ، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذى أنشأ العالم وخلق الإنسان فى صورة مقدرة محكمة ، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر فى خلق السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً ، لما يجرى فى أفلاكه من نظام دقيق لا بد له من منظم ، أحكم تصاريح الأوقات التى يتم بها صلاح كل حى فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صنعة الكون فى عالم السماء وعلم الأرض بما مهد فيه من سهول وخطّ من أنهار وأرسى من جبال . ويتعمق فى الدلالة على وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا يزالون يترقون فى النمو حتى تمتد لهم يد الفناء ، فلا بد من محدث لهم ، وفرق واضح بينه وبين الحادث ، فالحدث له أول وله آخر ، أو كما يقول : « مفتتح عدد ، ومنقطع أمد » أما المحدث فلا أول له فى الزمن ولا آخر . وهو مصدر الوجود وقوامه ، وهو مدبّره ومصرفه . ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله ثابت فى فطرّ العقول السليمة ، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له ، إلا عند من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كجوس الفرس الذين آمنوا بأن للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وكفيرهم ممن جعلوا له ندين أو أكثر ، ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة فى الخلق واختانوا فيه بين الإثبات والإزالة ، وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه ، ويتم العجز والنقص على الله فيما برأه عليه من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة . وعلى هذا النحو يتطور التحميد عند أحمد بن يوسف فى رسالة الحميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً فى الدلالة على وجود الله ووحدانته وحدوث الخلق وفناء العالم . ونلاحظ أيضاً فى هذا التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التضميق وجّره ذلك إلى الاتساع باستخدام السجع فيه ، وهو لا يطّرد فى كل صياغات التحميد ولا فى بقية الرسالة ، ولكنه يكثر ، ونحس كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً ، وخاصة حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة . ويمضى فيتحدث عن نعمة الله على خلقه

بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصور جهاده في سبيل دعوته ورسالته حتى أعزَّ الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجاً . ويتحدث عن حق العباسيين في الخلافة ، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الله عليه ، وكانوا أحق بميراثها من جميع آله ، وبذلك يخوض في تأييد الدعوة العباسية . ويتنقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمأمون بادئاً بتقرير موقفه من الأمين ومسترسلاً فيما ينبغي على شيعة الخراسانيين من مواصلتهم نصرته . ويفيض في وعظهم وما ينبغي عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمأمون الذي يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذي يتوى جزاءهم بالحسنى وحملهم على الطريقة المثلى .

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن يكتب رسالة يشكر المأمون فيها على صنعه جبئراً لمصابه ، فكتب رسالة ضافية<sup>(١)</sup> ، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الأئمة الراشدين بالمأمون أمير المؤمنين . وأخذ يطب في الثناء على عدله وما منح الرعية من عطفه ، وأشاد باختياره علياً الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له في رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه ، حتى حُمَّ أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامّة . ويتجه إلى شيعة وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه . ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنى الرتبة . ويعود إلى بيان ما خصَّ به الفضل في حياته من المنزلة الرفيعة ومن رياسة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصَّه في وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصته وقوادته وعمّاله وكتّابه على مراتبهم وما أولى الحسن أخاه من وزارته وعطفه . ويفيض في التنويه بالمأمون وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدرة والعفو ، ويشكره عن الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله

(١) انظرها في جمهرة رسائل العرب ٤١١/٣ .

عليه وسلم وحفظه لعِترته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووفر من روايتهم ، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شئونهم وهزم من أعدائهم ، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً : أن يرأب الصدع وترتق الفتوق به وينكّل في أعدائه .

ولأحمد بن يوسف رسالة في تهنئة عبد الله بن طاهر بقضائه على ثورة عبيد الله ابن السرى بمصر وأخرى في تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس ، ولكنهما لا تبلغان من التعميق ما بلغته الرسائل السابقة . ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحي في الاستكثار من القناديل بالمساجد في شهر رمضان ، وقد جاء فيها<sup>(١)</sup> :

« فإن في ذلك عمارة للمساجد ، وإضاءة للمتجهدين<sup>(٢)</sup> ، وأنساً للسابلة<sup>(٣)</sup> ، ونفياً لمكان الريب ، وتزيهاً لبيوت الله عزّ وجلّ عن وحشة الظلم . »

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون في بعض الشئون ، فيتلطف غاية التلطف ، وما يروى له من ذلك أن طلاب الصلوات كثروا بباب المأمون ، وتأخرت صلواتهم ، فلما طال ذلك غلبهم كتب إليه<sup>(٤)</sup> :

« إن داعى نَدَاك ، ومنادى جَدِّ وَاك<sup>(٥)</sup> ، جمعاً ببابك الوفود ، يرجون نائلك<sup>(٦)</sup> المجهود ، فمنهم من يمتُّ بحُرْمَةِ ، ومنهم من يُدلى بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَهُمْ بِسَيِّبِهِ<sup>(٧)</sup> ، ويحقق حسن ظنهم بطوّله<sup>(٨)</sup> ، فعل إن شاء الله »

فوقع المأمون في كتابه : الخير متبع ، وأبواب الملوك مغان<sup>(٩)</sup> لطالبي الحاجات ومواطن لهم . وأمره أن يكتب أسماء من الباب ومراتبهم ليصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه .

- (١) الصلواتين للعسكري ص ٢٣ وزهر الآداب ١٣٢/٢ .  
 (٢) المتجهدين : من التهجّد وهو الصلاة في جوف الليل .  
 (٣) السابلة : السائرون في السبل ولا مأوى لهم .  
 (٤) زهر الآداب ١٣١/٢ ومعجم الأدباء .  
 (٥) المعنى : العظية والنوال .  
 (٦) النائل : النوال والعتاء .  
 (٧) السيب : العطاء .  
 (٨) الطول : الانعام .  
 (٩) مغان : منازل ومواطن .

وكان كثيراً ما يُهْدَى إلى المأمون هدايا في أيام النيروز<sup>(١)</sup> ، ويرُفَقها برسالة رقيقة ، تحمل سطرًا أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر ، فن ذلك أن أهدها مرة — فيما يقول الرواة — سَمَطَ ذهب فيه قطعة عودٍ هندی في طوله وعرضه ، وكتب معه<sup>(٢)</sup> :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف الناسِ السادة ، وقد قلت :  
 على المرءِ حقٌّ وهو لاشك فاعلُهُ      وإن عَظُم المولى وجَلَّتْ فَوَاضِلُهُ<sup>(٣)</sup>  
 ألم ترنا نُهدى إلى الله مالُهُ      وإن كان عنه ذاغِنَى فهو قابله  
 ولو كان يُهدى للجليل بقدره      لقصّر عنه البَحْرُ يوماً وساحله  
 ولكننا نُهدى إلى من نُجلُّهُ      وإن لم يكن في وُسْعنا ما يشاكلُهُ »  
 وروت كتبُ الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف ، وهو فيها يتروى ويتأنق في اختيار لفظه ، مع حسن البيان وحرصانة القول ، من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له<sup>(٤)</sup> :

« بارك الله في مواودك الذي أتاك وهنأك نعمته بعطيته ، وسلاك<sup>(٥)</sup> كرامته بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله باراً تقياً ، ميموناً مباركاً زكياً ، ممدوداً له في البقاء مبلغاً غاية الأمل مشدوداً به عضدك ، مكثراً به ولدك ، مُداماً به سرورك ، مدفوعاً به الآفات عنك ، مشفوعاً بأكثر العدد ، من طيب الولد . وهو دائماً في التهنة بالمواليد يتحدث عن أنها نعمة من الله وهبة ، ويدعو للأب أن تقر عينه بابنه ، وأن يبارك الله له فيه ، ويجعله باراً بأبويه ، تقياً زكياً ميموناً سعيداً ، وأن يشدّ به أزر الوالد ويكثر من أحفاده : أولاد هذا الولد الصالح . وله من تهنة لأحد إخوانه بإبلاله من مرضه<sup>(٦)</sup> :

« قد أذهب الله وصَبَّ العلة ونَصَبَهَا<sup>(٧)</sup> ، ووفّر أجراها وثوابها ،

(١) النيروز : من أعياد الفرس وهو أول يوم عندهم في السنة .  
 (٢) صبح الأعشى ٢/٢٠٠ .  
 (٣) الفواضل : النعم .  
 (٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٣٨ .  
 (٥) ملك : متعك .  
 (٦) العتد الفريد ٤/٢٣٩ .  
 (٧) النصب : التعب الشديد ، والوصب : الوجع .

وجعل فيها إرغام العدو بُعْتَبَاهَا<sup>(١)</sup> ، أضعاف ما كان عنده من السرور بِقَبِيحٍ  
أولاهها .

وتأنقه في العبارة واضح لا بما يُجْرَى فيها من سجع فحسب ، بل بما يوفر  
أيضاً في أوائلها من ترادف النَّصَب مع الوَصَب والثواب مع الأجر ، ليستمَّ  
الجمال الصوقي . ومن رسائله في الشكر<sup>(٢)</sup> :

« من اتسع في الأفضال<sup>(٣)</sup> ، اتسعت به الأقوال من شاكر مُثْنٍ ، ومادحٍ  
مُطْرٍ ، ولسنا نصفك بما يَعِينُ لنا ، وَيَدِلُّ على أَلْسُننا ، مما يتقرب به  
ذو الرغبة ، وَيَضْرَع به ذو الرَّهْبَةِ ، لاستئزال مرغوب ، أو استئجاز مطلوب ،  
واكنتنا نطق عن سيرتك بإفصاح ، ونُيِّن عنها بإيضاح ، فَسَنَكْفُ شَغَبَ  
الكائد ، ونُطِيل نفس الحاسد . »

وسجعه المطرد في هذه الرسالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً ، فهو يسجع  
حيناً ، وحيناً لا يسجع ، ولكنه يُعْنَى كما قلنا بالترادف بين الألفاظ والعبارات ،  
عل نحو ما نرى في هذه الرسالة إذ تلا كلمة « شاكر مثن » بكلمة « مادح مطر »  
وهي بنفس معناها ، ليحكم لتعبيره التلاؤم الصوقي والتعادل الموسيقي ، وهو ما كان  
يسميه القدماء بالازدواج ، ودائماً تردد أساليبه بينه وبين السجع على شاكلة قوله  
في المديح<sup>(٤)</sup> :

« لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذروته ، وبلَّغك من الفضل أبعد غايته ،  
فالآمال إليك مصروفة ، والأعناق إليك معطوفة . عندك تنتهي الهمم السامية ،  
وعليك تقف الظنون الحسنة ، وبك تُشْفَى<sup>(٥)</sup> الخناصر ، وتستفتح أغلاق  
المطالب ، ولا يستريح<sup>(٦)</sup> النَّجْجَحَ مَن رجاك ، ولا تعرفه النوائبُ في ذَرَاك<sup>(٧)</sup> . »  
وعلى نحو ما كان يتفنن في المدح والثناء كان يتفنن في الذم والهجاء ، وكان  
أحياناً يَخْزِرُ فيه وخز الإبر وأحياناً يطعن طعنات مدمية ، من ذلك ما كتب به  
إلى آل سعيد بن سلم<sup>(٨)</sup> :

- 
- (١) عقبها : عاقبها .  
(٢) الأوراق للصوقي ( قسم الشعراء )  
ص ٢٣٣ .  
(٣) الأنضال : النعم والأيدى .  
(٤) الصوقي ص ٢٣٢ .  
(٥) تنفي الخناصر : كناية عن أن الآمال  
تعقد به .  
(٦) يستريح : يستبطل .  
(٧) الذرا : الكنف والظل .  
(٨) زهر الآداب ١٣٢/٢ .

« لولا أن الله عزَّ وجلَّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكُتِبَتْهُ بِالْقُرْآنِ لَبَعَثَ لَكُمْ نَسِيبِي نِقْمَةً ، وَأُنزِلَ فِيكُمْ قُرْآنَ غَدْرٍ ، وَمَا عَسَيْتُمْ أَنْ أَقُولَ فِي قَوْمٍ : مَحْسَنُهُمْ مَسَاوِي السَّفَلَةِ ، وَمَسَاوِيهِمْ فَضَائِحُ الْأُمَمِ ، وَالسُّتُهِمُ مَعْقُولَةٌ بِالْعَبِيِّ ، وَأَيْدِيهِمْ مَعْقُودَةٌ بِالْبُخْلِ ، وَأَعْرَاضُهُمْ أَغْرَاضٌ لِلذَّمِّ ، وَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

لا يكشرون وإن طالَّتْ حَيَاتُهُمْ      ولا تَبِيدُ مَخَازِيَهُمْ وَإِنْ بَادَا  
وله معاتبات واعتذارات كثيرة ، وكان يعرف في الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق ، كما كان يعرف في الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة للبيعة ، حتى يستل من صاحبه عفوه ورضاه ، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه (١) :

« أَيْتِكَ وَافِدًا بَدَنُونِي عَلَى عَقْرُوكَ ، وَانْقَمًا لِعَقْرُوقِ بَيْرِكَ ، لَا مُسْتَظْهِرًا عَلَيْكَ بِشَفِيعٍ قَدْ مَتَّهُ ، خَلَا تَطَوُّكَ (٢) بِالْعَفْوِ عَنِ الْإِخْوَانِ ، وَتَفَضَّلَكَ عَلَيْهِمْ بِالْإِحْسَانِ ، فَإِنْ تَعَاقَبَ فَقَدْ حَكَمْتَ بِالْمَعْدَلَةِ (٣) بِعَقُوبَتِكَ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنْ تَجَافَى عَنِ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي لَمْ يُصِرْ لَكَ عَلَى قَطِيعَةٍ ، وَكُلُّ ذَنْبٍ كَانَ أَصْلُهُ الْاسْتِبْطَاءَ لِدَالَّةِ الْحَرَمَةِ ، وَالْاسْتِعْطَافَ بِمَاتَّةٍ (٤) الْخُدْمَةِ ، فَهُوَ مِمَّا يُعَدُّ فِي الْحَسَنَاتِ ، لَا السَّيِّئَاتِ . »

وتدور في كتب الأدب له توقعيات طريفة كان يوقِّعُ بها على رِقَاعِ الشُّكُورِيِّ . وكتب بعض العمال ورسائل الاستراحة وبتدل المعروف ، فن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلا غضب آخرَ ضيعةً في أثناء غيابه واستغلَّها سنوات معدودة ، فلما قدم طالبه بضيعة ، فاشتكاها قائلاً : الضيعةُ لي وفي يدي ، واطَّاعَ ابنُ يوسفَ على الشُّكُورِيِّ ، فوَقَّعَ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ (٥) :

« الْحَقُّ لَا تَخْلُصُ جِدَّتَهُ ، وَإِنْ تَطَاوَتْ بِالْبَاطِلِ مُدَّتَهُ ، فَإِنْ أَنْطَقْتَ حُجَّتَكَ بِإِفْصَاحٍ ، وَأَزَلْتَ مَشْكَلَهَا بِإِضْوَاحٍ - غَيْرِ . « لِي وَفِي يَدِي » فَكثيراً ما أراها ذريعة الغاصب ، وحجة المغالب - وُقِّرَ حَقُّكَ عَلَيْكَ ، وَسَبِقَ بِلَا كَسَدٍ إِلَيْكَ ، وَإِنْ رَكَنْتَ مِنَ الْبَيَانِ لِإِيَّهَا ، وَوَقَفْتَ عَنِ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهَا كَانَتْ حُجَّتَهُ بِالْبَيِّنَةِ

(٤) مائة : صلة .

(٥) جمهرة رسائل العرب ٤/٥٨٨ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٥٥٢ .

(٢) تطولك : تفضلك .

(٣) بالمعدلة : بالعدل .

أعلى ، وكان بما يدعّيه أولى ، إن شاء الله .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت تعتمد على غزارة في الفكر وبراعة في الأداء وهي براعة يتقدم بها من سبقوه من كتّاب الدواوين في القرن الثاني الهجري تقدماً واسعاً وخاصة في الرسائل السياسية ، إذ تأنتق في ألفاظها وعباراتها تأتقاً جعله يتخللها بالسجع ، فإن لم يواته تخلّلها بالازدواج والترادف الصوتي ، وبذلك أسبغ عليها ضروراً من الجمال الموسيقي لم تكن مألوفة قبله إلا في بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقيعات ، على نحو ما مرّ بنا في الفصل السابق عند ابن سيّابة وجعفر بن يحيى البرمكي . ولا ننسى سهال بن هرون ، فقد كان يُعنى مثله بالازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذي أعدّ هذا الأسلوب وما طوّى فيه من سجع ليشيع في الكتابات الديوانية.

#### ٤

#### عمرو<sup>(١)</sup> بن مسعدة

كان جده الأعلى صول أحد ملوك جرجان ، وكان من الترك الذين اعتنقوا المسيحية وتشبهوا بالفرس ، وقد اعتنق الإسلام في زمن بني أمية ، ودخل ابنه سعيد في الدعوة العباسية ، فلما نجحت صارت له منزلة في الدولة إذ كان من دُعاتها النابيين ، ولم يلبث خالد البرمكي أن استخلص ابنه مسعدة للكتابة بين يديه في وزارته للسفاح والمنصور ، وظل يعمل في دواوين الأخير حتى قلده وزيره أبو أيوب المورياني رياسة ديوان الرسائل ، ويولّد له ابنه عمرو ، فيُعنى بتأديبه حتى يصلح للكتابة في دواوين الدولة . ويظهر أنه مضى يتثقف ثقافة عربية وإسلامية واسعة ، حتى غدا لسناً فصيحاً ، بل لقد غدا شاعراً ينظم الشعر ، كما غدا يحسن شئون الفقه مما يتصل بالخراج ، ووقف على العلوم الرياضية ، وما يتصل بها من الحساب مما كان يشقّفه الكتاب ، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم في السياسة والأخلاق وتدبير الحكم ، وربما وقف أيضاً على شيء من

خلكان ٤٩٢/١ وتاريخ بغداد للخطيب  
البغدادى ٢٠٣/١٢ وزهر الآداب ٣/٢٤٩

(١) انظر في ترجمة عمرو بن مسعدة معجم  
الأدباء ١٢٧/١٦ ووفيات الأعيان لابن

الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية . وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكي يعمل في الدواوين لعصره ، ويتقن العمل فيها ، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى في المراتب السنوية .

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتى نجد جعفر بن يحيى البرمكي يستخلص عمراً لنفسه ، ويتخذها كاتباً للتوقيع بين يديه ، إذ حدثت عن نفسه قائلاً : « كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانته ورقة يستزيدونه في روايتهم ، فرمى بها إليّ ، وقال : أجِبْ عنها ، فكتبت : قليل دائم خير من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهرى وقال : أى وزير فى جليلك ! » . وأفاده عمله مع جعفر فى التوقيعات إفادة واسعة ، إذ كان جعفر يُعَنِّى - كما قدمنا - بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد ، فطُبع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل .

ونراه بعد ذلك متصلاً بالفضل بن سهل القائم على تدبير شئون المأمون حين كان يحكم من مرو الولايات الشرقية ، وقد اتخذها كما مرّ بنا فى غير هذا الموضوع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم ، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا ، وباع الناس المأمون بالخلافة ، وظلاًّ جميعاً بمرو حتى سنة ٢٠٢ للهجرة ، فبارحها قاصدين إلى بغداد ، وقتل الفضل فى الطريق ، كما أسلفنا . وإنما ذكرنا ذلك لما نظنه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل فى دواوين الفضل فلا بد أن يكون عمل بها فى مرو ، مثله مثل أحمد بن يوسف ، وكأن الفضل أعجب به ، فأدناه منه واصطحبه معه هناك . وعاد إلى بغداد ، فعمل فى دواوين أخيه الحسن وزير المأمون أو بعبارة أدق عمل فى دواوين الخلافة ، ووقع من نفس المأمون موقِعاً حَسَنًا فعهِدَ إليه أحياناً تفتيش الولايات ، وما زال يعجب به وببلاغته ، حتى إذا رَفَعَ أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل ، وكان يأنس له ويستطيب حديثه ، فلما أخذ فى غزو الروم كان يستصحبه فى غزواته . ولعظم منزلته عنده ظن بعض الشعراء أنه استوزره ، وذكر ذلك فى بعض مديحه له ، إذ يقول :

لقد أسعد الله الوزير ابن مسعدة وبث له فى الناس شُكراً ومُحمداً



وكان جواداً ممدّحاً ، كما كان فاضلاً نبيلاً حميد العشرة محبباً إلى معاصريه ، وما تُؤا في سنة ٢١٧ للهجرة حتى يُلبسَ نداء ربه بأذنة في غزوة مع المأمون . ويُروى أنه لما مات رُفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خلّف ثمانين ألف ألف درهم ، فوَقَّع في ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيما خلّف وأحسن لهم النظر فيما ترك » .

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته ، وهي تُعمدُ امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكي ، تتصف بصفتين أساسيتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضوح البالغ ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة ، أما الإيجاز فقد بلغ منه أنه كان يُضربُ به المثل فيه ، كما كان يُضربُ بجعفر بن يحيى من قبله ، وكان يقول للكتّاب : إذا استطعم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكأنا استقر ذلك في نفس عمرو فإذا هو يُجمل كتبه في مختلف الأغراض إلى ما يشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً في القول . وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به ، وكثيراً ما كان يوصي به الكتّاب من حوله ، ومرّ بنا في الفصل الماضي وَصَفُ ثُمَامَةَ بن أَشْرَسِ المعتزل لبلاغته ومدى ما كان يجرى فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد ، ويُروى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال : « هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه <sup>(١)</sup> . وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى : ما حدّ البلاغة ؟ فقال : التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

وليس هذا كل ما أخذه عمرو عن جعفر ، فقد كان جعفر يتأنق في اختيار لفظه ، حتى لينمته أحياناً بالسجع الرشيق ، فحاكاه عمرو في تنميته وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً في كلامه ، وخاصة إذا كان موجزاً وطال نظره فيه ، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التي تروق في السمع ، كما يبحث عن المعنى الدقيق ، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلفاهم بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجري عفو الخاطر ، بل أصبحت بحثاً بأدق

ما تدل عليه كلمة بحث ، بحثاً في استقطار المعاني ، بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالة الواضحة البينة عن طائفة واسعة من الأفكار ، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأدائه أداء يخلب الأبواب . ولعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشف منها خصائصه البلاغية ، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستم صنائعه عنده (١) :

« أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى ، وإذا أسس بنى ، ليستم تشييد أسسه ، ويجتنى ثمار غرسه ، وبنائك عندي قد شارف الدروس (٢) ، وغرسك مشف (٣) على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرست ، إن شاء الله » .

وواضح تأنقه في الكتاب وتنميته ، حتى ليبينه على السجع ، وواضح أيضاً تدقيقه في اختيار الألفاظ ، وأنه لا يعتمد إلى الإطناب ، إنما يعتمد إلى الاقتصاد ، مؤدياً بصورتين كل ما في نفسه ، فصنائع الحسن عنده تشبه بناء ، وضع أساسه ، ولا بد من متابعة الإنفاق عليه حتى يرتفع في الجو وتقوم أركانه ، أو هي تشبه غرساً ، لا بد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤق ثماره . ويقول إن الأساس قد أشرف على الإحماء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضن بالنفقة والتعهد عليهما حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولاً . رأيت كيف أننا حين نعمل إلى فهم كلام ابن مسعدة نضطر إلى شيء من البسط والإطناب ، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائي المركزة التي يشقلها ما تحمل من معانٍ كثيرة في عبارات مسرقة في الإيجاز . ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح ، ولكنها مع وضوحها تحمل معاني غزيرة ، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها في النطق .

وقال أحمد (٤) بن يوسف : « دخلت على المأمون وفي يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعد فيه بصره ويصوبه ، فالتفت إلي وقد لحظني في أثناء قراءته للكتاب ، وقال : يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه مني ! قلت : نعم ، وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكني أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ،

(٤) انظر وفيات الأعيان ١/٩٤ ؛ وقارن

بزهرة الآداب ٣/٢٤٩ والعقد الفريد ٢/٢٧٢ .

(١) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .

(٢) الدرر : الإحماء .

(٣) مشف : مشرف .

فإني سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا ، ورمى به إلى وقرأته ، فإذا فيه : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جُند تأخرت أرواقهم ، وانقياد كُفأة تراخت أعطياتهم ، واختللت لذلك أحوالهم ، والثالث<sup>(١)</sup> معه أمورهم » .

فلما قرأته قال : إن استحساني إياه بعثني أن أمرت للجند قبيلته بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حبل محله في صناعته . وفي رواية أخرى أنه قال لابن يوسف : لله درّ عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار .

ولا ريب في أن عمراً تعب طويلاً في كتابة هذا الكتاب الموجز ، حتى يقع على العبارات القليلة التي تؤدي إلى المأمون امتعاض القواد والجند من تأخر رواتبهم ، وقد أخذ يمتال لإنبائه بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عمدوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب ، فذكر أولاً أنهم مثلون له متقادون ، وأنهم مستمسكون بعمرى طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليفته ، ثم أتبع ذلك بتأخر أرواقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم ، ومثلهم - مع طاعتهم وانقيادهم - حرى أن يسدّ اختلالهم وأن يرعى لهم وفاقهم ، فتعجّل رواتبهم وأرواقهم . وكان للكتاب أثر بالغ في نفس المأمون إذ أمر أن تُصرف للجند والقادة في الحال أعطياتهم ، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة . ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو أيضاً راتبه لثمانية أشهر جزاء وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة نطقه في إيرادها وتصويرها .

ويروى صاحب<sup>(٢)</sup> زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عِدّة سلفت له منه بتوليته بلده ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون بما وعده به ، فقصد عمرو بن مسعدة ، وعرض عليه المسألة ، وسأله

(٢) زهر الآداب ٤ / ١٥٨ .

(١) الثالث : اضطربت .

إيصال رقعة إلى المأمون بها ، فقال له : اكتب بما شئت ، فإني موصله . فتوسل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه ، حتى يكون له فضلاً ، فكتب عمرو : « إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أسْرَ عِدته من رِبْقَةٍ (١) المَطْل بقضاء حاجة عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فعل موفّقاً » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرًا ، فأطلعه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابة له في هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة تفي دناءة المَطْل » .

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب ، بل استحسناها أيضاً للصورة المبهوثة فيها ، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يُعْنَى بالتصوير في كتابته على نحو ما مرّ بنا في رسالته للحسن ابن سهل . وبذلك تحوّل فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقيعات وإلى صور نادرة تستهوى القلوب بطرافتها ودقتها في التعبير عن المعنى الذي يريد تجسيمه . وكان يضيف إلى ذلك رقعة في الشعور ، هي رقعة الكاتب المتحضر الذي أُرهِف ذوقه ، والذي عودته آداب اللياقة الاحتياط فيما يورده على سمع الخليفة والوزير ، بحيث ينال إعجابه واستحسانه . ويروى صاحب المثل السائر (٢) أن رجلاً من بني ضَبَّة ضَرَعَ إليه أن يشفع له عند المأمون في الزيادة لمنزله وراتبه المقدّر له ، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له :

« أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين - لتطولك (٣) على - في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدّي طاعته ، والسلام » .

وأعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها في معرض التعريض ، تطفلاً ، وإشارةً من طرف خفي إلى حرمة منه ، وما يختصه بالعطف والحظوة عنده . وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق ذريعة لإجابة طلبه وشفاعته ، مما جعل

(٣) تطولك : تفضلك .

(١) ربقة : عروة .

(٢) المثل السائر ص ٣٩١ .

المأمون يوقع على الكتاب بقوله : « قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبتك إليهما ، ووافقناك عليهما . »

وكان إيجازه المفرط مع دقته في أداء المعاني يروع المأمون روعة شديدة ، ويروى أنه أحب يوماً أن يرى مدى مقدرته في هذا الإيجاز ، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال في العناية بشخص والاهتمام بأمره ، وأن يوجز كتابه ما أمكنه ، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطرًا واحدًا ، فكتب (١) :

« كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنني بمن كتب له ، وإن يضيع بين الثقاية والعناية حامله ، والسلام . »

ولا ريب في أن هذا الكتاب القصير - بل المفرط في القصر - يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف في جمع المعاني الكثيرة وتركيزها في معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء ، سواء بما يختار من لفظ أنيق أو صورة بدیعة ، وكأنه لا يصوغ كلاماً ، وإنما يقطر من الكلام شدًى فائحاً شديد التأثير في قارئه وسامعه .

وعلى هذا النحو تحوّلت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار ، ككلمات التوقيعات ، بل لعلها أشد قصراً ، وأقوى منها حدة . وما نشك في أنه تأثر في هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التي تُرجمت في عصره ، على نحو ما نرى في الأدب الصغير والكبير لابن المقفع ، وكأنه أراد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتّاب والأدباء . وروى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء ، وقد أهتمه وأحزنه زواج أمه ، لينفّس عنه ، وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه المم والحزن . وشك ابن خلكان في الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد ، وهو محق في شكه ، لسبب بسيط ، هو طولها الذي لا نألفه عند ابن مسعدة ، فقد كان يتبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معدودة محكمة .

## ابن (١) الزيات

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، اشتهر بابن الزيات ، لأن جده أباناً كان يجلب الزيت من موطنه إلى بغداد متجرراً فيه ، وأصله من مقاطعة جيل جنوبي بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة . وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة ، وجدد فيها حتى صار من تجار الكرخ<sup>(٢)</sup> المياسير ، وولد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب ، فأقبل ينهل منه ، كما ينهل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة في عصره ، حتى شدا الشعر ونبع فيه كما نبغ في النثر . وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المرهبة فكان يصدّه ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويلزم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية ، وقال له أبوه يوماً : « والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرّك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفي » ، ولك ولأبيك فيه مالٌ وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه ، فقال : والله لتعلمنّ أينما ينتفع بما هو فيه : أنا أم أنت ، ثم شخص إلى الحسن بن سهل ، فامتدحه بقصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه . ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدراهم المذكورة مشتملاً بين يديه ، وأنشده :  
لم أمتدحك رجاءً المال أطلبُهُ لكن لتدبسنى التحجّيل والغرّرا<sup>(٣)</sup>  
وليس ذلك إلا أننى رجلٌ لا أطلب الورْدَ حتى أعرف الصّدرا<sup>(٤)</sup>  
يشير بذلك إلى مأربه من مديحه ، وأنه لم يمدحه طلباً للمال ، وإنما مدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين ، وعيّنّه الحسن بن سهل ، فحقّق له أملاً طالما كان يراوده .

٧٠/٢ .

- (٢) الكرخ : محلة الأسواق والتجار ببغداد .  
(٣) التحجّيل : بياض في قوائم الفرس .  
الغرر : جمع غرة ، بياض في وجهه . والاستمارة واضحة .  
(٤) الورد : ورود الماء . الصدر : الصدور والرجوع عنه .

(١) انظر في ترجمة ابن الزيات الأغاني ( طبعة الساسي ) ٤٦/٢٠ والفهرست ص ١٧٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٤٢/٢ والفخرى ص ١٧٥ والمسعودي ٣٩/٤ والطبرى ٣٤٣/٧ وغرر الخصاص الواضحة للوطواط ص ١٤٢ ، ١٠٤٢ ووفيات الأعيان لابن خلكان

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو ، ويظهر أنه تزود منها زاداً وافراً ، فقد ذكر الرواة أن أبا عثمان المازني حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في مسائل علم النحو ، فإذا اختلفوا في مسألة يقع فيها الشك قال لهم : ابعثوا إلى هذا الفتي الكاتب - يعنى ابن الزيات - وأسألوه واعرفوا جوابه ، وكانوا يفعلون ، ويعرضون ما يجيب به على المازني ، فيرى أنه الصواب الذي يرتضيه ، ويشرحه لهم ويقفهم عليه .

وعلى نحو ما كان عالماً باللغة والنحو كان شاعراً بارعاً ، ومرت بنا في حديثنا عن الشعر مرثية لزوجه ، وهى من روائع المراثي ، وله وراءها مرث أخرى فيها وأشعار كثيرة ، كوّنت له ديواناً نُشر في القاهرة ، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة ، كما يجد الشعر مدللاً له في المواقف المختلفة التي قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده . ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة حين عقد المأمون لعلى الرضا البيعة بولاية العهد ، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه ، وظل مستخفياً سنوات لا يُعرفُ موضعه ، حتى إذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التي كان قد اقترضها منهم فكان يقول : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فيئتهم والأمر الآن إلى غيري ، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم ، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب ، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدره ونكته ، حتى يوغر صدر المأمون عليه ، ويطير به طيرة بطيئاً سقطها . ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدي ، فأنشدها له ، وقال : والله لئن لم تعطني المال الذي اقترضته من أبي لأوصلنّ هذه القصيدة إلى المأمون ، ففزع إبراهيم وجزع ، وقال له متوسلاً : خذ مني الآن بعض المال ، واجعل الباقي أقساطاً ، ولا تظهر القصيدة ، ووفى كل منهما لصاحبه .

وما زال ابن الزيات يعمل في الدواوين حتى وكى مقاليد الخلافة المعتصم ، فقرّبه منه ولم يلبث أن استوزره ، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القباء<sup>(١)</sup> على

(١) القباء : ثوب فارسي قصير .

عادة الوزراء وأن يلبس الدرّاعة<sup>(١)</sup> ويتقلّد عليها سيفاً بجمائل ، فأجيب إلى طلبه ، ويحسُّ بإقبال الدنيا عليه ، فيفتح أبوابه للشعراء ، ويُجزّل لهم في العطاء ، ومن أهمّ مُدّاحه كما مرّ بنا أبو تمام ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التي وصف فيها قلمه وبلاغته . وكانت قد انعقدت أيام عمله في الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب ، فلما ولي الوزارة قلّده ديوان الرسائل ، وربما كان الجاحظ أهمّ أديب توفقت به صلته في وزارته .

وتوفّي المعتصم ووكّليّ ابنه الواثق ، فظل وزيراً له ، ولعل من الغريب أن نجده في وزارته لهما جميعاً يعادى أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي المشهور ، وكان المعتصم جعله قاضي القضاة واتخذّه كما اتخذّه ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً ، ودبّ التنافس بينه وبين ابن الزيات ، حتى انقلب إلى عداوة وتهاج بالشعر ، وكان ابن أبي دؤاد يحرّض الشعراء على هجائه ويصلهم ، ويقال إن بعض الشعراء هجاه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها ابن أبي دؤاد ، فقال :

أَحْسَنُ مِنْ سَبْعِينَ بَيْتاً سُدِّيَ جَمْعَكَ إِيَاهُنِ فِي بَيْتِ  
مَا أَحْوَجَ النَّاسَ إِلَى مَطْرَةٍ تَذْهَبُ عَنْهُمْ وَضَرَ الزَّيْتِ  
وكان ابن الزيات لبراعته في الشعر يكيل له الصاع صاعين ، فاضطربت العداوة بينهما اضطراباً . وكانت في ابن الزيات قسوة شديدة قلما تُؤلّفُ في أمثاله من الأدباء الذين رُزقوا دقة في الحس ، ورهافة في الشعور ، ويؤثر عنه أنه كان يقول : « الرحمة خوراً في الطبيعة وضعف في المنسنة<sup>(٢)</sup> » ، ما رحمت شيئاً قط . وبلغ من قسوته أن اتخذ تنوراً من حديد ، وجعل فيه مسامير ، ليعذب به المطالبين بالأموال من أرباب الدواوين . وكان في وزارته للواثق ، يتجهّم للمتوكل ، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق ، وطمح إلى إنفاذ ذلك بعد وفاته ، بينما تحمس ابن أبي دؤاد للمتوكل ، فلما ولي الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يوماً ليطمئن ، وظل ابن أبي دؤاد يغريه به لينكبه ، حتى أصاح له وقبض عليه وطالبه بالأموال ، ولم يلبث أن أدخله التننور الذي صنعه ، وقيدّه فيه بخمسة عشر رطلاً من حديد ، وظل به أربعين يوماً يعذب عذاباً شديداً ،

(١) الدراعة : جبة فارسية .

(٢) المنّة : القوة .



حتى مات ، وكان موته في آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة .

ولم تدُرْ لابن الزيات رسائل كثيرة في كتب الأدب ، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه ، ويظهر أنه وكتب في وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها ، ومن القليل الذي احتفظت به تلك الكتب العهد للوائح على مكة ، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة<sup>(١)</sup> :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين قد قلّدتك مكة وزمزم ، تُراث أبيك<sup>(٢)</sup> الأقدم ، وجندك<sup>(٣)</sup> الأكرم ، وركضة جبريل ، وسقيا إسماعيل وحفّر عبد المطلب ، وسقاية العباس ، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته . »

وابن الزيات يشير في هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه ، وغارت زوجته الثانية سارة ، واضطرت أن ينزلها منزلاً بعيداً عنها ، فأنزلهما بوادي مكة الجذب ، وذكر ذلك القرآن الكريم في قوله جلّ شأنه على لسان إبراهيم : ( ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ) . وأعيها أن يجدا ماء يستقيان منه ، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راکضاً على موضع ، لا تلبث بث أن تتفجّر منه ، هي بثّر زمزم ، فتستقي منه هاجر وإسماعيل . وتمر الأيام فتظمر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة ، حتى يُلْقَى في روع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها ، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء ، واتخذها لسقاية الحجيج ، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين . وإلى كل هذه القصة يشير ابن الزيات في عهد اللوائح ، وكأننا نلتقي عنده بأسلوب ابن مسعدة المبني على الإيجاز والاقتصاد في القول من جهة ، وعلى التأنيق في التعبير من جهة ثانية ، تأنقاً يحجره إلى السجع ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعمد إلى السجع دائماً ، وكأنما كان يرى فيه مبالغة في التكلف ، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع ، وهي تجري على هذا النمط<sup>(٤)</sup> :

(٣) يريد بجده الأكرم : إبراهيم الخليل .

(٤) العقد الفريد ٢٤١/٤ .

(١) زهر الآداب ١٦٠/٤ .

(٢) يريد بأبيه الأقدم : إسماعيل عليه السلام .

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ( كذا ) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لأئمة<sup>(١)</sup> : إما تقصير في عمك دعائك للإخلال بالحزم والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره<sup>(٢)</sup> لأهل الفساد ومداهنة لأهل الرئس ، وأية هاتين كانت منك مُحَلَّةٌ الشُّكْرَ بك وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلغاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة<sup>(٣)</sup> والأخذ بالحجة والتقدم في الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أُقِلَّت<sup>(٤)</sup> من عظيم العشرة يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام . »

والقصد إلى الإيجاز واضح في الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة ، فإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقعات والحكم والأمثال ، إنما هو ضرب من الاقتصاد في التعبير ، مع الاتساع في المعنى وبسط أطرافه قليلا ، ليحيط بكل ما يدور في نفس الكاتب ، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزالته ومئاته ، ومع الدقة في انتخابه واختياره ، دون تكلف لجمال صوتي يجرُّ إلى السجع أو إلى الازدواج الذي كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأضرابهما من الكتّاب ، وما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبدربه من بعض فصوله مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

« إن الله أوجب لخلفائه على عبادته حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة . فإذا أدّى كلٌّ إلى كلِّ حقّه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة . »

فالفكرة تؤدّي في عبارة موجزة تُلَمِّحُ بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطّاب ، ودون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينحو نحوهما ، على شاكلة قوله في فصل آخر<sup>(٦)</sup> :

« إن أعظم الحق حقّ الدين ، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يراعى له حسب ما رعاه الله به ، ويُحَفِّظَ له حسب ما حفظ الله على يديه . »

(٤) أقلت : نهضت  
(٥) المعقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .  
(٦) المعقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

(١) اللائمة : اللوم .  
(٢) مظاهره : مساعدة .  
(٣) النظرة : التأجيل .

والرغبة في الإيجاز والاقتصاد في القول واضحة في هذا الفصل وخاصة في كلماته الأخيرة . ولم تُؤثّر لابن الزيات رسائل شخصية نثرية ، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر في هذه الرسائل ، لمطاوعته له وسهولته عليه ، إذ تُروى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب ، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين . ويُروى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأته رسوله ولا تعرّف خبره ، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها ، وردّ عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً ، يعتذر إليه متنصلاً من علمه بمرضه ، وطالباً إليه التفضل بصفحه والتطول بعفوه ، على هذه الشاكلة (١) :

دَفَعَ اللهُ عَنْكَ نَائِبَةَ الدَّهْرِ ، وَحَاشَاكَ أَنْ تَكُونَ عَلِيلاً  
أَشْهَدُ اللهُ مَا عَلِمْتُ وَمَاذَا لَكَ مِنَ الْعُذْرِ جَائِزاً مَقْبُولاً  
وَلِعَمْرِي أَنْ لَوْ عَلِمْتُ فَلَا زَمَ تُمْ حَوْلًا لَكَانَ عِنْدِي قَلِيلاً  
فَاجْعَلْنِي لِي إِلَى التَّلَقُّ بِالْعُدِّ رِ سَبِيلاً إِنْ لَمْ أَجِدْ لِي سَبِيلاً  
فَقَدِيمًا مَا جَادَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَ مَا سَامَحَ الْخَلِيلُ الْخَلِيلاً

ويقول صاحب الأغاني إنه كان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، ويسوق شاهداً على ذلك أنه « جلس يوماً للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال الرجل : نعم تُدُنِّيني إليك ، فإنني مظلوم ، فأدناه ، فقال : أنا مظلوم ، وقد أعوزني الإنصاف ، قال : ومن ظلمك ؟ . قال : أنت ، ولست أصل إليك فأذكر حاجتي ، قال : ومن يحجبك عنى وقد ترى مجلسي مبذولاً ؟ قال الرجل : يحجبني عنك هيبتي لك وطول لسانك وفصاحتك واطراد حجتك ، قال : فقيم ظلمتك ؟ قال الرجل : ضييعتي الفلانية أخذها وكيلك غصباً بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدبته باسمي لثلاثين لك اسم في ملكها ، فيبطل ملكي ، فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها » . وتمضى القصة فتذكر أن ابن الزيات ردّ على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها . وأبو الفرج إنما ساق القصة ليدل على ما شاع عند معاصري ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته .

## خاتمة

تحدثتُ في هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول عن الحياة السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامراء واتخاذهما حاضرتين متعاقبتين ، كما تحدثت عن غلبة الطوايع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة . وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سرّاً وجهراً ، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفاً شديداً . ويُعدّ أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس ، ويخلفه المهدي فيقضى على ثورات الخرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه في غير موقعة . ويعقبه ابنه الهادي لمدة قصيرة . ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد ، وعصره يعد أزهى عصور الخلافة العباسية ، بما شاع فيه من رخاء ، وقد محقت جيوشه الخوارج محقاً وسحقت البيزنطيين سحقاً . ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة ، ويتولى بعده المأمون ، ويقود حركة عقابية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ، بينما يقضى قياده على كثير من الثورات ، ويقلم أظافر البيزنطيين مراراً ، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضى على ثورة بابك الخرمي ، ويدق أعناق البيزنطيين دقاً في عمورية وغير عمورية ، ويعقبه ابنه الواثق ، وبه يُختتم العصر العباسي الأول .

وكانت بغداد وسامراء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء ، وصبّت سيول منه في حجور المغنين والشعراء والعلماء ، مما أعدّ لهضة واسعة في الفنون والآداب والعلوم ، وشاع الترف في الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس ، وكثر الرقيق والجواري وشُغِفَ الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظرف وتورط كثيرون في الخمر والحجون . وكان انتصار العنصر الفارسي على العنصر العربي في الثورة العباسية سبباً في أن تبرز موجة حادة من الشعبية ، ورافقتها موجة حادة من الزندقة ، جعلت المهدي ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاكمتهم ، ويبعث العلماء للرد على بُهتانهم . وتغنّى كثيرون بالزهد ورفض

الدنيا ومتاعها الزائل ، وتعالى أصوات الوعّاظ والقُصّاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف .

وقد حدث امتزاج جنسى ولغوى وثقافى واسع بين الشعب العربى والشعوب المستعربة ، إذ امتزجت به فى السكنى والتزواج وفى الأخلاق والعادات ، واتخذت لغته لساناً لها فتترجمُ به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها ، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التى كانت ماثوثة فى هذا المحيط الحديد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أم دينية خالصة . ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً ، فشاع التعليم فى الكتاتيب والمساجد وكثر العلماء فى كل فن ، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة ، وترجمت علوم الأوائىل إلى العربية من هندية وفارسية ويونانية ، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هى دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكياً ضخماً . وأخذت تُوضَعُ منذ أوائىل العصر العلومُ اللغوية : علوم النحو والتصريف والعروض وُوضِعَ أول معجم للعربية ، وهو معجم العين المشهور . ونمت المصنفات التاريخية . وُصنفت فى الحديث النبوى كتبٌ جامعة . وكثرت المصنفات فى تفسير القرآن الكريم . ووُضعت مذاهب الفقه الأساسية : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل . وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا فى المباحث الفلسفية .

وازدهر الشعر ، وحذق الشعراء الموالى لغته ، واستوعبوا مقوماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولدٍ جديد ، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المتدلة ولغة البدو الجافية ، أسلوب يمجج بالجزالة والرصانة حيناً ، وحيناً بالعدوبة والنعومة . واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطواع عقلية دقيقة ، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم فى الاستدلال وتوليدات المعانى وتفرعاتها المتشعبة . وظل الشعراء ينظمون فى موضوعات الشعر العربى القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً ، وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة ، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية . وقد اضطرم المديح اضطراماً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة ، وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وملاكاتهم العقلية . ونظور

الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريرة والفكاهة السامة . وتحولوا بالفخر القبلي إلى فخر شعوبى محتلم . واتسعوا بالثناء . فوثروا المدن المنكوبة والحيوان والطير . وتفنتوا فى الغزل بنوعيه الإباحى والعفيف . وتبدلوا فى شعر المحبون والخمر . ونظموا كثيراً فى الزهد . ونفذوا إلى موضوعات جديدة ، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقدته أو وصف بعض الغرائز كغريزة الغيرة أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر . واستحدثوا فن الشعر التعليمى ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقصص والمعارف والنحل المختلفة . وأكثروا من النظم على الأوزان القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمقتضب والمتدارك أو الخجب ، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم ، غير أنه لم يكتب لها الشيوخ لنقص أنغامها بالقياس إلى الأوزان الموروثة . وعرفوا وزناً شعبياً هو وزن المواليا . وجددوا تجديداً واسعاً فى القوافى ونمط القصيدة ، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسلمات ، ونظموا صورة تُعَدُّ أمماً للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى أصول عباسية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، فأما بشار فكان فارسى الأب رومى الأم ، وكان أكمه ، ووُلد على الرِّقِّ ، ونشأ فى البصرة نشأة عربية خالصة ، فحذق اللغة وبرع فى الشعر ، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية ، فاضطرب بين هذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، واستظهر شعوية آثمة . وهو يُعَدُّ زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقليدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعه وحضارته وثقافته . وقد أكثر من الفخر الشعوبى الذميم ، وأثُرَ فقده لبصره واضحٌ فى غزله فهو فى أكثره غزل حسى يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يُزرى بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونه ذمماً شديداً . وأكثر أيضاً من وصف مجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقُتل على الزندقة . وكان أبو نواس فارسى الأب والأم ، ونشأ مثل بشار فى البصرة ، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غيبه ومجونه

ولأمته هو والبة ، ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصاص والمحذّثين وعسب من الثقافات الأجنبية عسباً . ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة ، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأمين . وشعره يجرى في اتجاهين : اتجاه تقليدى فى المديح والرثاء واتجاه تجديدى فى الهجاء والغزل والمجون والطّرديات ، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه . ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتياده على عفو الله ومغفرته ، وهو - غير منازع - شاعر الحمرة على توالى العصور العربية بما ابتكر فى صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة . أما أبو العتاهية فكان نبطيّاً ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة ، وكان سيئ السيرة فى صباه إذ انتظم فى سلك الخنثيين ، وعمل مع أخ له فى بيع الحرار وصنعها ، واختلف إلى بيئات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين ، ولم يلبث أن أتقن العربية وبرع فى الشعر فرحل إلى بغداد ومدح المهدي وتعلق بجارية من جواري قصره تسمى عتبة رنظم فيها غزلاً كثيراً ، ومدح ابنه الهادي والرشيد ، ويقبل على الخمر والمجون مفرطاً فيهما . ويحدث انقلاب فى حياته ، فيتزهد ويلبس الصوف ، ويظل متصلاً بالخلفاء والحسن بن سهل وزير المأمون حتى يبرح دنياه . وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب فهو فى جانب منها يمدح ويتغزل ويصف الخمر ، وفى جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن فى المراثى ، وتشيع فى أساليبه سهولة وليونة مفرطة . وكان يعاصره مسلم بن الوليد ، وهو أيضاً ينتظم فى عداد الموالى ، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة ، وأكب على الشعر القديم وشعر بشار خاصة ، حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المحيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووزراءها وعمّالها وولاه بأخرة الفضل بن سهل وزير المأمون بريد جرجان فظل بها حتى وفاته . واشتهر بتجويد شعره والتدقيق فى معانيه والعناية برصانة اللفظ وجزائته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع . وأبو تمام الطائي خاتمة هؤلاء الأعلام ، وقد ولد بجاسم ، وهى قرية من قرى دمشق ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرحل إلى حمص ، ثم إلى الفسطاط ، وعاد إلى الشام وتردد بينها وبين الرقة والموصل ، ثم هبط بغداد ، ورحل عنها إلى خراسان ، ثم عاد إليها ، وتحوّل عنها مع المعتصم إلى « سُرّ من رأى » ولزم بابيه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة ، وظل وثيق الصلة بابنه

الواثق ووزيره ابن الزيات وكتابه الحسن بن وهب ، وولاه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته . وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية ، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد ، يقوم على التدقيق في المعاني والأخيلة والتعمق فيها تعمقاً قد يفضي إلى الغموض ، كما يقوم على استخدام ألوان البديع ، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته ، بل حتى لتوهج فيها توهجاً .

وكرر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء ، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون ، ومن أشهرهم أبو دلامة نديم السفاح وغيره من الخلفاء ، ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر اللذان وجهها شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين في الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم ردّاً عنيفاً . وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين في الخلافة ، يجهرون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويخفونه كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين ، ومن أشهرهم السيد الحميري وكان كيساني العقيدة لا يرى بأساً في مدح الخلفاء العباسيين ، كما كان لا يخفي حبه للعلويين ، وأكثر من تغنيه بمنابح علي بن أبي طالب وذم قاتلي الحسين وثلبهم . ومثله منصور النمرى الشيعي الإمامي ، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهذرة في الخلافة . ومثلهما دعبل ، وكان يعلن تشييعه إعلاناً صريحاً ، وتشكك أبو العلاء المعري في صدقه وقال إنه كان يريد التكبس بإعلان تشييعه . وكان ديك الجن مخلصاً في تشييعه ، غير أن ما أثر من شعره الشيعي قليل . وكان البرامكة بجوراً فياضة ، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدائح ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحق مترجم كليلة ودمنة شعراً ، وأشجع بن عمرو السلمي ، وله قصائد طنانة فيهم وفي انتصارات الرشيد على نقفور إمبراطور بيزنطة . وكان كثير من الوزراء والقواد والولاة يجزّلون العطاء للشعراء ، فدبّجوا مدائح كثيرة فيهم ، على نحو ما يلقانا عند أبي الشيص شاعر عقبة بن جعفر الخزاعي والي الرقة بالموصل ، وعبد الله بن أيوب التيمي شاعر يزيد بن مزيد قائد الرشيد ، وعلى بن جبلة شاعر أبي دلف العجلى قائد



المأمون ، والحريجي شاعر عثمان بن خُرَيْم المُرِّي والى أرمينية . وبرع في الهجاء شعراء كثيرون من أمثال أبي عيينة المهلبي وكان يُكثّر في هجائه من الإقذاع الشديد ، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعدّل وكان هجاءً شكساً حديد اللسان .

وتكاثر شعراء الغزل بنوعيه النقي العفيف والمادى الصريح ، وكان النوع الثاني أكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء ، وخير مَنْ يَصور النوع الأول العباس بن الأحنف الذي عاش يتغنى بالغزل العذرى الطاهر . أما النوع الثاني فخير من يصوره ربيعة الرقي وغزله يسيل عذوبة . وكان شعراء الحجون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقاتلات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد ، وكان يخاط مجونه بزندقة أُشْرَبتها روحه . ومنهم مطيع ابن إبّاس وهو من أكثر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان . ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً ، ولكنه كان زنديقاً كبيراً ، إذ كان يعتقد عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها ، ومجادلاً مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه ، وجمهور شعره أمثال وحكم . وكان غير شاعر يأخذ نفسه بجماعة زاهدة ناسكة على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد في سبيل الله وإلى التقوى واجتنب الآثام ، وعند محمد بن كناسة الكوفي وتغنيه طويلاً برفض الدنيا ومتاعها الزائل ، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم في الموت والفناء . وشارك المعتزلة في الشعر وفنونه ، وكان منهم من ينظم في نفس الأغراض التي ينظم فيها الشعراء من حوله مثل الجعّاني الذي يروع قارئه بمعانيه الطريفة ، ومثل النّظّام الذي يصنع أشعاره في الغزل وغير الغزل بصبغة كلامية واضحة . ومنهم من كان ينظم في حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتزم وكان يكثّر من الحديث عن عجائب الله في خلقه . وصورّ نفر من الشعراء في أشعارهم النزعات الشعبية صادرة عن روح العامة وأحاسيسها ، وخير من يمثلهم أبو الشمقمق وكان يستخدم في شعره أحياناً ألفاظ العامة ، مجسماً فقره ويؤسه ومسغبتة وأسما له البالية ، وكثيراً ما يعرض ذلك في صورة فكهة .

وتطور النثر في هذا العصر وتنوّع وكثرت فنونه بما ملأ أوانيه اللفظية من

الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وما استوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة ، وقد انبرى المتكلمون معتزلة وغير معتزلة يبحثون في الأسس التي تقوم عليها براعة القول وبلاغته ، واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البيان . وعنى كتّاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول ، مما جعلهم يتحولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة . وحقاً ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية ، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصّاص ازدهرت ازدهاراً عظيماً ، كما ازدهرت المناظرات وخاصة في بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثرون من حوار زعماء الفرق والنحل في المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون ، مثيرين ما لا يُحصَى من دقائق المعاني وخفيات الأدلة ، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وإفحام الخصوم أن نفذوا كثيراً — بقصد إظهار المهارة الجدلية — إلى تقييح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة ، مما هيباً لظهور كتب المحاسن والمساوى . واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقيعاتهم ، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبّجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقيعات . وكان الكتّاب يحرصون في هذا النثر الديواني الرسمي على بلاغة القول والتفنن في الأفكار والمعاني ، ويلقانا في عصر كل خليفة كتّاب ذاع صيتهم وطارت شهرتهم كل مطار . وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية ، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكروهجماء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتهنئة وتعزية ، وأخذوا يجبرون فيها رسائل شخصية مفتنّين في أساليبها البيانية وما يصورون بها من عواطفهم وأهوائهم . ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد . وأخذ بعض الكتّاب البارعين يحاكون ما نقله ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيوانية والرسائل السياسية الفارسية .

وأعلام الكتاب في العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات . أما ابن المقفع فكان فارسي الأصل ونشأ بالبصرة

في ولاء آل الأهم ، وهم بيت فصاحة وخطابة ، فحذق العربية ، وعمل في دواوين العراق آخر زمن بني أمية ، ثم في دواوين سليمان بن علي وعيسى بن علي عمي المنصور ، وكان لا يزال مجوسياً فأسلم على يد الأخير . وأغرّى به المنصور سفيان بن معاوية والى البصرة ، فقتله . وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسي وكتاب كليلة ودمنة الهندي الأصل وبعض منطق أرسططاليس . وكان آية في البلاغة وحسن الأداء وفصاحته . على نحو ما يتضح في الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة ورسالة الصحابة ، وهي جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والحلقة . وتُعدُّ ترجمته لكليلة ودمنة من روائعه الفذة . وله رسائل لإخوانية زأدية بديعة . وكان سهل بن هرون مثله فارسي الأصل ، وعكف على الآداب الأجنبية . وشارك في الترجمة عن لغته الأصلية ، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعورية . وكان فيه ميل إلى التندر ، ووظفه الرشيد بخزانة الحكمة التي أنشأها ، وقربه المأمور جعله خازناً لبعض أقسامها . وكان من أفراد عصره في البلاغة والبيان وصحة المنطق ، وعُني بتأليف قصص حيواني على شاكلة كليلة ودمنة ، وهو يملؤه بالترية السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه « النمر والثعلب » . ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته في الاحتجاج للبخل . ورسالته الأخرى في نصرة الزجاج على الذهب . وله رسائل شخصية بديعة . ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتي لألفاظه وأساليبه . أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة ، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن ذاع صيتهم في دواوين القرن الثاني ، وقد عُني بتأديب ابنه وإعداده للعمل في الدواوين . وسرعان ما استخلصه الفضل بن سهل للمأمون ، فجعله على ديوان الرسائل ، ثم اختاره وزيراً له ، وظل على وزارته حتى توفي . وكان واحد زمانه في الكتابة الديوانية ، ومن لُروغ رسائله السياسية رسالة الحميس التي كتبها في تأييد الدعوة العباسية ، وثقافته الكلامية واضحة في تحميدها إذ تحول به إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووجدانيته وحدث الخلق وفناء العالم . وله رسائل شخصية يتضح فيها ما يتضح في رسائله الديوانية من تأنق التعبير . حتى يمكن أن يقال إنه هو الذي أعدَّ في قوة لأن يشع في النثر الديواني الرسمي أسلوب الازدواج والترادف الصوتي وما يجري فيه أحياناً من السجع . وكان عمرو بن مسعدة مثله من بيت كتابة ،

إذ كان أبوه مسعدة إلى ديوان الرسائل للمنصور ، وقد أحكم تأديبه وثقيفه ،  
وتلقفه جعفر بن يحيى البرمكي ، فاتخذته كاتباً للتوقيع بين يديه ، وغرس فيه  
شغفه بالإيجاز والتأنق في التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه .  
والتحق بدواوين المأمون ، حتى إذا رفع أحمد بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على  
ديوان الرسائل وظلّ يليه إلى وفاته . وتتميز كتابته الديوانية بالاعتقاد المسرف  
حتى كان يُضربُ به المثل في الإيجاز ، وهو يضيف إليه ميلاً شديداً  
إلى التأنق والتنميق . وكان ابن الزيات من بيت تجارة ، غير أنه نشأ محبباً للأدب ،  
فأقبل على التزود بعلوم اللغة وكنوز الآداب الأجنبية والعربية ، حتى برع في  
الشعر والكتابة جميعاً ، وسرعان ما التحق بدواوين المأمون ، وما زال نجمه في  
ضعود ، حتى استوزره المعتصم ، وظلّ وزيراً في عهد ابنه الواثق والمتوكل إلى  
أن نكبه الأخير نكبه المشهورة . وكان لسناً بليغاً ولم يكن يصدر في بلاغته  
ولسنة عن تكلف ، وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف  
أو التنميق المفرط ، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الجزالة  
والصّاعة .

## فهرس الموضوعات

صفحة	
٧-٥	مقدمة
٤٣-٩	الفصل الأول : الحياة السياسية
٩	(١) الثورة العباسية
١٥	(٢) بناء بغداد ثم سامراء
١٩	(٣) النظم السياسية والإدارية
٢٦	(٤) العلويون والحوارج
٣٣	(٥) أحداث مختلفة
٨٨-٤٤	الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية
٤٤	(١) الحضارة والثراء والترف
٥٦	(٢) الرقيق والحواري والغناء
٦٥	(٣) المجون
٧٤	(٤) الشعبية والزندقة
٨٣	(٥) الزهد
١٣٧-٨٩	الفصل الثالث : الحياة العقلية
٨٩	(١) الامتزاج الجنسي واللغوى والثقافى
٩٨	(٢) الحركة العلمية
١٠٩	(٣) علوم الأوائل : نقل ومشاركة
١١٨	(٤) العلوم اللغوية والتاريخ
١٢٦	(٥) العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال
٢٠٠-١٣٨	الفصل الرابع : ازدهار الشعر
١٣٨	(١) ملكات الشعراء اللغوية

## صفحة

١٤٧	.	.	.	.	(٢) طوابع عقلية دقيقة
١٥٩	.	.	.	.	(٣) التجديد في الموضوعات القديمة
١٨١	.	.	.	.	(٤) موضوعات جديدة
١٩٣	.	.	.	.	(٥) التجديد في الأوزان والقوافي
٢٨٩-٢٠١	.	.	.	.	الفصل الخامس : أعلام الشعراء
٢٠١	.	.	.	.	(١) بشار
٢٢٠	.	.	.	.	(٢) أبو نواس
٢٣٧	.	.	.	.	(٣) أيو العتاهية
٢٥٣	.	.	.	.	(٤) مسلم بن الوليد
٢٦٨	.	.	.	.	(٥) أبو تمام
٣٦٩-٢٩٠	.	.	.	.	الفصل السادس : شعراء السياسة والمديح والهجاء
	.	.	.	.	(١) شعراء الدعوة العباسية: أبو دلامة ، مروان بن أبي حفصة ،
٢٩٠	.	.	.	.	سلم الخاسر
	.	.	.	.	(٢) شعراء الشيعة: السيد الحميري، منصور النمرى، دعبل ،
٣٠٥	.	.	.	.	ديك الجن .
	.	.	.	.	(٣) شعراء البرامكة: أبان بن عبد الحميد اللاحق ، أشجع بن
٣٢٦	.	.	.	.	عمرو السلمى
	.	.	.	.	(٤) شعراء الوزراء والولاة والقواد : أبو الشيص ، عبد الله بن
٣٤١	.	.	.	.	أيوب التيمي ، على بن جبلة ، الحريري
٣٥٩	.	.	.	.	(٥) شعراء الهجاء : أبو عيينة المهلبى ، عبد الصمد بن المعذل
٤٤٠-٣٧٠	.	.	.	.	الفصل السابع : طوائف من الشعراء
٣٧٠	.	.	.	.	(١) شعراء الغزل : العباس بن الأحنف ، ربيعة الرقى
	.	.	.	.	(٢) شعراء المحبون والزندقة : حماد عجرد ، مطيع بن إياس ،
(٣٨٢)	.	.	.	.	صالح بن عبد القدوس

## صفحة

- (٣) شعراء الزهد : عبد الله بن المبارك ، محمد بن كناسة ،  
 محمود الوراق . . . . . ٣٩٩
- (٤) شعراء الاعتزال : العتابي ، بشر بن المعتمر ، النظام . . . . . ٤١٤
- (٥) شعراء النزعات الشعبية : أبو الشمقمق . . . . . ٤٣٤
- الفصل الثامن : تطور النثر وفنونه . . . . . ٥٠٦-٤٤١
- (١) تطور النثر . . . . . ٤٤١
- (٢) الخطب والوعظ والقصاص . . . . . ٤٤٨
- (٣) المناظرات . . . . . ٤٥٧
- (٤) الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات . . . . . ٤٦٥
- (٥) الرسائل الإخوانية والأدبية . . . . . ٤٩١
- الفصل التاسع : أعلام الكتاب . . . . . ٥٦٥-٥٠٧
- (١) ابن المقفع . . . . . ٥٠٧
- (٢) سهل بن هرون . . . . . ٥٢٦
- (٣) أحمد بن يوسف . . . . . ٥٤١
- (٤) عمرو بن مسعدة . . . . . ٥٥٢
- (٥) ابن الزيات . . . . . ٥٥٩
- خاتمة . . . . . ٥٦٥

تاريخ  
الأدب  
العربي

٤

دكتور شوقي ضيف

# العصر العباسي الثاني



دار المعارف بمط



تاريخ  
الأدب العربي

٤

# العصر العباسي الثاني

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف بمطرو

١١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

# العصر العباسي الثاني

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي خاصّ بالعصر العباسي الثاني ، وقد تناولتُ فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحوّلٍ مقاليد الحكم من أيدي الفُرس إلى أيدي التُرك . ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، ولا كان لهم معرفةٌ بإدارة ولا بنظم سياسية ، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً . وكانت هناك طبقةٌ تغرق في الترف والتعيم ، وكان جمهور الشعب يعيش في الضنك والبؤس . وظلت الحياة العقلية مزدهرةً بما نُقل - وما كان يُنقلُ - من الثقافات الأجنبية . مما هيأ لظهور فلاسفة عظام وعلماء بارعين في جميع العارم اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية .

وصوّرتُ نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثّل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً ، وكيف أوْدعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ، مما جعلهم يجدّون في الموضوعات القديمة والأخرى المُستحدثة في العصر العباسي الأول صوراً مختلفة من التجديد ، تحفيلٌ بما لا يكاد يُحصى أو يُستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المُبتدعة . وظلوا يُنتمون الشعر التعليمي وينظّمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة .

وبحثتُ بحثاً تحليلياً تاريخياً أعلام الشعراء في العصر ، وهم علي بن الجهم والبُحترى وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري ، أما ابن الجهم فكان داعيةً للمتوكل يصبح مهللاً مع كل عمل له ، وأروعُ أشعاره ما نظمه في الاستعطاف وفي تصوير صلابة نفسه حين ادهمت له الخطوب ونزلت به الكوارث . وكان البُحترى الشاعرَ الرسميّ في بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد ، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التي سادت حينئذ في الشعر ونقده وتدوقه ، مع ما سُحّر

له فيها من تلاوين الجمال الموسيقي الآسر وأنغامه وألحانه الرائعة ، ومع مهارته في وصف المعارك البحريّة ومظاهر الحضارة والعُمُران . وكان يقابله ابن الرومي ممثلاً للنزعة التجديدية في الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه ، وقد نفذ بعقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع ولون جديد آخر من الهجاء الساخر ، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال . وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترنة ومأساة أبيه وجده في أشعاره ، وهي تزخر بالصور والأخيلة . وكان الصنوبري يُعنى بصنعتة الشعرية ، وهو من شعراء الطبيعة ، ويُعدّ أول ناظمٍ للثلجيات في العربية .

وعرضتُ لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام ، ووزعتهم على طوائفٍ متقابلة ، فشعراءُ للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوّار ، وشعراءُ لبعض الوزراء والولاة والقواد ، وشعراءُ هجاء عاديّ أو مرير ، وشعراءُ غزل عفيف أو مادّي صريح . وشعراءُ لهو ومجون ، وشعراءُ زهد وتصوف ، وشعراءُ شعبيون . وحاولتُ أن أتحدث في كل طائفة عن خير من يمثلونها ، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية .

ومضيتُ أبحثُ النثر والتحامّ الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصوراً كيف تعاونتُ بيئاتٌ مختلفة في وضعٍ مقابسه البلاغية ، وكانت الخطابة قد ضعفت ، ولكن الوعظ نشط نشاطاً واسعاً ، وتحوّل من مواعظ زهدية إلى مواعظ صوفيّة ، وأخذ ينشأ نثر صوفيّ شعبيّ يعتمد على القصص والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامة . وتكثر المناظرات في جميع البيئات العلمية ، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية . وتُجمَعُ أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية في صور متقابلة من القندح والمدح . وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كتّابها النابهين . وتنشط الرسائل الإخوانية ، ويساعد ضيقُ رقعتها على أن يتكاثر فيها التأنق والتشويق . ويكتب ابن المعتز رسالةً أدبية يملؤها بسجع كثير . ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبي جميعه .

وبحثتُ أعلام الكتاب حينئذ ، وهم إبراهيم بن العباس الصوليّ ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حميد ، وأبو العباس بن ثوابة . وكان الصوليّ أول رئيس

لديوان الرسائل في العصر، وعنه كانت تصدّر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات، وهو يُعنى بدقة ألفاظه واصطفاء كلماته وحسن جرسها في الأداء. والباحظ أكبر كتّاب العصر غير منازع، وكتّابته مرآة صافية لعصره بجميع طبقاته، مع ما يسرى فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة، ومع ما تموج به من أسلوب الازدواج الرائع. وقد عرضت خمسة ألوان من فنه النثري، هي المناظرة، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية، والقصاص، والناوادر. وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبي بعده، وهو يمزج في كتابه: «عيون الأخبار» بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب. وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مثبتاً أنها أقواس وهمية، فقد استحالت جميعها في كتابه ثقافة عربية، ولم يعد يرتفع صوت للشعوية. ويتشبه ابن قتيبة كثيراً بالباحظ في تمسكه بالواقع ومزج الهزل بالجيد وفي استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين. وما زال سعيد بن حميد يرقى في الدواوين، حتى أسند له ديوان الرسائل، وكان يُعنى بالتدقيق في ألفاظه ومعانيه، نافذاً من خلال حيل عقلية كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة، مع تقطيعات صوتية تُضفي على أسلوبه جمالا. ويسلمع اسم أبي العباس بن ثوابة، وكان بدوره من رؤساء ديوان الرسائل، وكان يكثر من التأنق والتكلف في كتابته، مما جعله يستخدم فيها أحياناً السجع، مع العناية بالتصوير، ومع وزن الكلام بمعيار بياني دقيق. والله وليُّ الهدى والتوفيق.

القاهرة في أول مايو سنة ١٩٧٣ م.

شوق ضيف

100  
C  
100

## الفصل الأول

### الحياة السياسية

١

#### استيلاء الترك على مقاليد الحكم

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف هيأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمي يخلّص المولى فرسًا وغير فرس من حكم بني أمية الجائر، محققاً لهم المساواة المشروعة - بحكم الإسلام - بينهم وبين العرب في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرماً . وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين ، مما جعل كثيرين منهم يشورون عليهم طوال العصر ، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوي سرّاً كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، في حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم والسلطان وتمادوا في حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجّاب ، أما الشعب فلم يزد في رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة ، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة ، على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول . وحقاً كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس ، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد ، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية ، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل . ونشب من جرّاء ذلك عدااء شديد بين الفرس والعرب ، فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة ، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محققاً ، مما أعدّ



لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلُّ عنه عنفًا ولا محاولة  
لهدم الإسلام والعروبة جميعًا . وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطربة فى شرق  
الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وكان آخرها اندلاعًا ثورة بابك  
الخرمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عامًا والتى كلفت الدولة كثيرًا من  
الجيوش إلى أن سحقتها المعتصم وقواده سحقتًا .

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى  
الفرس ، فثوراتهم لا تنقطع ، وأما نبيهم فى إحياء مجدهم القومى لا تخمد ، واستظهارهم  
للشعبوية والزندقة لا تهدأ فورته ، وهذاه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق  
اشتهر لعصره بالصبر تحت ذلال الرماح ، مع حذقه بالرى يمنة ويسرة ومقبلا  
ومدبرًا ، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق ، فأخذ يستكثر  
من شرائه وطلبه من سمرقند وفيرغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدته ثمانية عشر  
ألفاً<sup>(١)</sup> ، وكل يوم يزيد ، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها . وكان جمهور هذا  
الرقيق بدأ جفافة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض  
الشيوخ والأطفال والنساء ، مما اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سامراء<sup>(٢)</sup> شمالى  
بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتصم  
سنة ٢٧٦ للهجرة .

وكان ذلك تحولا خطيراً فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد كانت تعتمد كل  
الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثوها فى الحياة العربية ، وأعدوا  
لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات  
الأجنبية المختلفة ، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية . أما الترك فلم يكونوا أصحاب  
ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ، إذ كانوا بدأ لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة  
ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما هم سكان صحار وقفار  
وحرب وجلاد وبأس ومراس ، وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقاً فى رسالته التى

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٣ .

(٢) انظر فى تخطيط سامراء والسبب فى بنائها  
كتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت

وسامراء فى دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة

الشرقية تاليف لسترانج وترجمة بشير فرنيس  
وكوركيس عواد .

تحدث فيها عن مناقبهم قائلاً: «الترك أصحاب عمَد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواشٍ، وهم أعراب العجم... فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرسٌ ولا بُسْنِيانٌ ولا شقٌّ أنهار ولا جباية غلّاتٍ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَيْد وركوب الخَيْل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت همهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخّرة ومقصورة عليها وموصونة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم وذلّتهم وفخرهم وحدثهم وسمهم، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات... وكآل ساسان في الملك والرياسة».

وهؤلاء البدو الموغلون في البداوة الذين لم يُعرّفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عرفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم، والمعتمَصم هو الذي هيأ لهم ذلك لا يجعلهم جنُود الخلافة العباسية فحسب، بل أيضاً باتخاذهم مدينةً خاصة وجعلها عاصمة الدواة، فأتاح لهم الفرصة كي يُخَلّتي بينهم في المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخّرين بأيديهم يصرّفونهم كما يشاءون. وإيس ذلك كل ما صنع فقد ولّي كبيرهم «إشناس» مصر وجعل له الحق في أن يوآي عليها ولاة من قبيلته، فكان يُدعى له فيها على المنابر<sup>(١)</sup>. وبذلك فتح المعتمَصم الباب لقواد الترك كي يمسكوا بزمام الشئون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشئون العسكرية. وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلدة إذ وآي إشناس من يابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يوآي عليها من شاء بدون مراجعته، واستخلفه على السلطنة وأبسه وشاحين بجوهر<sup>(٢)</sup>. وإيس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك، فقد ولى على الجانب الشرقي للدولة من كُور دجلة حتى خراسان والسند «إيتاخ»<sup>(٣)</sup> حتى إذا توآي إشناس سنة ٢٣٠ منحه مَرْتَبته وأكثر أعماله<sup>(٤)</sup>. ولم يقف تجنّي الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد، فقد ارتكب خطأ خطيراً في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة، وسرعان

(٣) اليعقوبي ٢/٢٠٥.

(٤) اليعقوبي ٣/٢٠٦.

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٩.

(٢) اليعقوبي (طبعة النجف) ٢/٢٠٥.

والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٢.

ما استغلّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباؤه وصيفٌ وبُغا الكبير هذه الفرصة حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة ، إذ حملوا رجال الدواة على البيعة للمتوكل ، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك ، وعمّا قليل سيصبح عزهم - كما سنرى - بأيديهم ، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه ، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني .

ويبدو أن المتوكل تنبّه - منذ استيلائه على الحكم - إلى خطورة ازدياد النفوذ التركي ، مما دفعه إلى التخلص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجابه والقيام على دار الخلافة ، وكأنه نائب للخليفة ، بل الكأنا أصبح الخليفةُ ولا سلطان له ، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج ، وما إن خرج من سامراء وأبعد في الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابه وولاها وصيفاً تركي<sup>(١)</sup> . وهي سياسة سيتبناها الخلفاء بعد المتوكل أن يضرّوا قواد الأتراك بعضهم ببعض . وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيداً بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥ . ولكن المتوكل لم يسدّد لترك ضربة قاضية ، بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يضيف بُغا الكبير إلى وصيف في الحجابه . وتوالى السنوات وهو ضيقٌ بقيادة الترك ويفكر في التخلص منهم جميعاً ويهديه تفكيره في سنة ٢٤٣ أن يترك سامراء ويتخذ دمشق حاضرة له ، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشروهم ، ويَسْتَخَصُّ إليها في ذى القعدة ، ويبدو أن فكرته ذاعت في الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويّة (٢) :

أظنّ الشام تَشَمّت بالعراقِ إذا عزم الإمامُ على انطـلاقِ  
فإن تدع العراقَ وساكنيها فقد تُبلى المليحةُ بالطلاقِ

ودخل المتوكل دمشق في صفر لسنة ٢٤٤ عازماً على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها ، وأمر أن يُسَنَى له بها بعض القصور . غير أن الترك فطنوا لمأربه ، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم ، وهو سيف سيظلون يشهرونه على الخلفاء

(٢) الطبرى ٩/٢٠٩ .

(١) تاريخ الطبرى (طبع دار المعارف)

١٦٧/٩ وما بعدها .

كلما أرادوا منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلاً ، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين<sup>(١)</sup> . وعاودته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالى سامراء ، إذ فكر في انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها ، وسماها « الجعفرية » ، وبني لنفسه فيها قصره « الجعفرى » وقصراً سماه « لؤلؤة » وقصوراً أخرى . وفي أثناء ذلك أخذ يجفئ الترك ويجيل الآراء في استئصالهم والاستبدال بهم ، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضمَّ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثني عشر ألفاً من العرب<sup>(٢)</sup> ، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته . وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بجاجبيه وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من قواد الترك ، فصمَّوا على مبادرته ، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولي عهده ، فوضع يده في أيديهم ، وعزموا على قتله والتخلص منه ، وأعدوا لذلك نفرأ من أصاغر الترك . منهم بُغا الشرايى وباغر وموسى بن بُغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزيره الفتاح بن خاقان في ليلة من ليالى شوال سنة ٢٤٧ للهجرة ، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذمَّة<sup>(٣)</sup> . ومن حينئذ أصبح للترك كل شيء في الدواة ولم يعد للخلفاء شيء ، وفي ذلك يقول ابن الطقطقى : « استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه »<sup>(٤)</sup> .

واعلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الترك ، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس ، ولم يلبثوا أن حضَّوه على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده ، وكان المتوكل أبرمها لهما مع المنتصر ، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فيبطش بهم ثاراً لأبيه ، وتسمَّ خلعهما . وتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بُغا الكبير ، وكانوا قد أخذوا المواثيق على من سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنية على

(١) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار

الأندلس) ٣٢/٤ والطبرى ٢١٠/٩ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة أوروبا)

ص ٣٦١ .

(٣) طبرى ٢٢٥/٩ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع

المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٨١ .

أن يرتضوا من يرضونه للخلافة، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم وأقبوه بالمستعين، وبايعوه وبايعه الناس. وتوفى بؤغا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول في شئون الدولة، وأخذ يحتزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة، ووصيف وبؤغا الشرايى الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره<sup>(١)</sup>. واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل، وكان شره قد تعاضم في قصر الخلافة فقتلوه بدوره. وسُم المستعين حركات الترك ودساتيمهم، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها، وجزعوا لصنيعه، فأرسلوا إليه وفدأ يسترضيه سنة ٢٥١، ولكنه رفض العودة إلى سامراء، فخلعوه، وبايعوا المعتز بالله ولى العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر، فكان هناك خليفة مولى بسامراء وخليفة معزول ببغداد، هو المستعين، ونشبت الحرب بينهم وبينه، وحاصروا بغداد، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى «واسط» وهناك تم تدبير قتله<sup>(٢)</sup>. وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسمع بأن نفرأ من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولي الخلافة وعزله، فسجنه ثم فتل به. وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة، وفتك بوصيف وبؤغا الشرايى الصغير قاتل أبيه، يقول المسعودى: «ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال (روايتهم) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك<sup>(٣)</sup>. وأرسلوا تسواً إلى بغداد في طلب محمد بن الواثق، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم، وبايعوا محمداً ولقبوه بالمهتدى، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعاً. وحاول المهتدى أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز في العدل ورفع المظالم والاقتصاد في النفقات، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم، وقرب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرّم الشراب ونهى عن القيان فثقلت وطأته على الخاصة والعامة. وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم

(٣) مروج الذهب ٩٣/٤ .

(١) طبرى ٢٦٣/٩ .

(٢) طبرى ٣٤٨/٩ ومروج الذهب ٧٧/٤ .

وفي مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أسند زعمائهم ، فقتلوه في رجب (١) سنة ٢٥٦ .

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل ، ببايعه الترك ثم تبايعه العامة ، وكانت ثورة الزنج قد نشبت في عصر المهندي ، وعمشاً استطاع قواد الترك أن يُجهزوا عليها ، إذ استفحل شرها وتفاقم ، فضعف شأنهم من جهة ، وشغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء ، وخذلهم وسفك دمائهم . ويتاح للمعتمد ودولته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيفقد بنفسه الممارك مع الزنج ومع من ثاروا بإيران ويكتسب له الظفر والقضاء على الزنج قضاءً هبرماً ، وبذلك يرد إلى الخلافة العباسية هيبتها ، ويحسنى الترك رعونتهم لما ولا نعود نسمع بفتنة حُجَّاب الخليفة عليه وتدبيرهم لخلعه ، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيغلق وكنمر بن طاشتمر ، وقد ظلوا جميعاً يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعاً ، وبويع من بعده لسنة ٢٧٩ ابن أخيه الموفق أبو العباس أحمد وألقب بالمعتضد ، وكان قد أبلى مع أبيه في حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاء حسناً فهاهه الترك وقوادهم ، ونراه في سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكنمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكناً رهبة منه وهيبة له (٢) ، وظلوا من بعده خائعين لابنه المكتفي الذي ولي الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقرف خطأ فاحشاً إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبي وأياً للعهد من بعده ، وكان حريئاً به أن يجعل ولاية العهد في شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حد من السلطان لا يتجاوزونه . وتوفي سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وعظم كلام الناس فيه ، وقالوا كيف يلي الخلافة من لم يبلغ الحلم ، وأجمع أمرهم على أن يتولاها عبد الله بن المعتز ، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور ، وبايعه القضاة والعدول ، وتلقب بالمتصف وقيل بالراضى وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة ، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس ، وأخذ عنوةً وقتل ، وتفسح عليه كثير من الشعراء . أما ابن الجراح فاستمر مدة ثم انكشف أمره ،

(١) طبرى ٤٥٦/٩ وروج الذهب ٩٦/٤ . (٢) طبرى ٤٠/١٠ .

وقُتِل بدوره ، وعادت الخلافة إلى المقتدر<sup>(١)</sup> ، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق . وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر « شغب » وهي أم ولد رومية شربت مؤنساً في تصريح شئون الحكم والسياسة ، فكانت الوزارة لا تُسند إلى شخص في عام حتى ينجح عنها في عام قابل ، ودارت الأيام ، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند ، ويتفاقم الأمر بينهما في سنة ٣١٧ ويُعزّل الخليفة ويؤاى أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله ، ويُرْتَقُ الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيدة إلى الخلافة ويجدد له البيعة<sup>(٢)</sup> . وما تلبث السماء أن تكفور ، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر ، ويُقتل الخليفة سنة ٣٢٠ ويؤلى مؤنس الخلافة بعده القاهر بالله ، وكان شجاعاً غير أنه كان أحق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء ، وكان لا يكاد يصحو من سكر ، ومع ذلك حرم على الناس الخمر والسباع ، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد<sup>(٣)</sup> ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعه سنة ٣٢٢ وسملوا عينيه<sup>(٤)</sup> ، وبايعوا بعده الراضى بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر ، وظل يلى الخلافة حتى توفي سنة ٣٢٩ . وفي عهده تغلب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم . وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع العطاء مات وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، وخلفه أخوه المتقى بالله ، وكان تقياً صالحاً ، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة ، فحدثت في زمنه فن وحروب كثيرة بين الجند ونهبت دار الخلافة ، وقبض عليه لسنة ٣٣٣ وخلع وسُملت عيناه<sup>(٥)</sup> . وتولاها بعده المستكنى بالله ابن المكتفى ، ولم يكد يدور به عام في خلافته حتى نزل معز الدولة البويهى بغداد ، فلقبه المستكنى بأمر الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء . غير أن معز الدولة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه ، فخلع من الخلافة ونهبت داره وسُملت عيناه<sup>(٦)</sup> ، وبذلك ينتهى العصر العباسى الثانى بدخول البويهيين الفرس بغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مآب .

- (١) طبرى ١٠/١٤٠ - ١٤١ .  
(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .  
(٣) مروج الذهب ٤/٢٢١ والهمدانى ص ٧٨ .  
(٤) مروج الذهب ٤/٢٢١ والفخرى ص ٢٠٥ .  
والهمدانى ص ٨٠ .  
(٥) الفخرى ص ٢١٠ ومروج الذهب ٤/٢٤٧ .  
والهمدانى ص ١٤٣ .  
(٦) مروج الذهب ٤/٢٧٦ والفخرى ص ٢١٢ .  
والهمدانى ص ١٤٩ .

## تدهور الخلافة

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل في السنوات الثمان التي تلتها ، ثم منذ عصر المقتدر ، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة ، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان ، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزّونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم ؟ وصور ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، فقال (١) :

خليفةٌ في قَفْصٍ بين وصيفٍ وبُغا  
يقول ما قالوا له كما يقول الببغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون بببغا في قفص يردّ ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه ، فالأمر كله لحاجبيه : وصيف وبغا ، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعه ، وولّيا بعده المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) ويروى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين ؟ وكم يعيش ؟ وكان بالجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ فقال : طالما أراد الترك ذلك ، فلم يبق في المجلس أحد إلا غلبه الضحك (٢) . ولم يمكث المعتز في دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه ، وولوا بعده المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعاً تقيّاً اطرح الملاحى وحرّم الشراب والغناء ، وكأنا آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه ، وولوا المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ، وكان منهمكاً في اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لُقّب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبّت الخلافة إلى أبعد حد ، وأعاد إليها مجزموه وعزمه وجدّه هيبته ومكانتها المهذرة ، وقد ترك

(٢) الفخرى ص ١٨١ .

(١) مروج الذهب ٦١/٤ .



أخاه عاكفًا على ملذاته ، واحتمل أعباء الخلافة في البطوأة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب ، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقي ، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصور ذلك بنفسه قائلاً (١) :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليهِ  
وتؤخذُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديهِ

وتصادف أن توفي الموفق قبل المعتمد بقليل وكان ولياً للعهد ، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلاً مغواراً ، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة ، فلم يرتفع للترك في عهده صوت ، وكان اسمه - كما مرّ بنا - أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله ، وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان المعتضد شجاعاً مهيباً أسمر نحيفاً معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بني العباس وشجعانهم ، كان يتقدم إلى الأسد وحده » ، ويقول : « هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده في إدبار » (٢) . وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولي عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيّاً ، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، وسنه ثلاث عشرة ، فكان كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوّضه في لحظات ، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء ، وزادوا ستملّ الأعين .

وإذا كان المكتفي أخطأ في أواخر العصر بتولّي أخيه المقتدر للعهد وهو صبي فإن المتوكل اقترف بدوره خطأ عظيماً في أوائل العصر ، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه (٣) ، وكان حريّاً به أن يتعظ بجده الرشيد وتوليته العهد للأمين والمأمون والقاسم ، مما جرّ بلاء كبيراً ذهب ضحيته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ، فكان حريّاً بالمتوكل ألا يعرض أبنائه

(١) الديارات للشابشي (الطبعة الثانية - مطبعة .

(٣) طبرى ١٧٥/٩ وروج الذهب ٥/٤

والنجوم الزاهرة ٢/٢٨٠

المعارف ببغداد) ص ١٠١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٢٧ - ١٢٨ .

للتنافس على الخلافة ، وكان المنتصر أولهم في الولاية ، ويليه المعتز والمؤيد ، فأوغر المتوكل صدره حتى أصبح خصماً له . وإذا كانت حادثة الرشيد جرّت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه . وكان المتوكل هو الذى هيا للترك أن يعلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم أصحاب السلطان الحقيقى يؤثرون ويعزلون ويستنجون ويقتلون ، وتمادوا فى ذلك حتى ردّ الموقف إلى الخلافة مهابتها ، وتبعه فى صنيعه ابنه المعتضد ، ولكن لم يلبث المكتفى أن هوى بها من حائق ، فعاد إلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء .

وكان من أهم الأسباب فى تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست فى اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادمى من بناء قصور باذخة ومعيشة كُفّلت لها كل وسائل النعيم وأدواته ، وأولهم المتوكل ، وزراه لا يبنى لنفسه بسامراء قصرأ واحداً ، بل قصوراً ينفق عليها أموالاً طائلة ، منها الشاه والعروس والشبذاز والبديع والغريب والبرج ، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليوناً وسبعمائة ألف دينار . وبنى فى سنة ٢٤٦ بالماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالاً قصوراً عدة ، منها الجعفرى والهارونى واللواؤة ، كلفته ملايين الدنانير <sup>(١)</sup> . ويروى أنه سأل شخصاً حين أتمّ بناء الجعفرى كيف قولك فى دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : إن الناس بنوا الدور فى الدنيا وأنت بنيت الدنيا فى دارك <sup>(٢)</sup> ، وهو سقته وخرق ، فالخليفة لا يفكر إلا فى نفسه وملذاته ، وكان ليس هناك جيوش تُعدّ للحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة ، وكان ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها ، فيبنى لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء ، بل الرعية تكدح وتشقى وتدق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبنى القصور ويملاها بالجوارى من كل لون . وتبع الخلفاء المتوكل يقتلون بسيرته السيئة ، ما عدا المهتدى والمتقى وكانت مدة خلافتها قصيرة ، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزمًا لا يدايه حزم يقول عنه المسعودى لم تكن له رغبة إلا فى النساء والبناء ، ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثرى أربعمائة ألف دينار ، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ <sup>(٣)</sup> ، ثم تكون النكبة الكبرى بتولى المقتدر الخلافة وهو صبي ، ويقال إنه كان فى قصره أحد عشر

(٢) مروج الذهب ١٤٧/٤

(٣) مروج الذهب ١٤٥/٤

(١) معجم البلدان فى سامراء والطبرى ٢١٢/٩

ومروج الذهب ٤٠/٤ والنجوم الزاهرة ٣٢٠/٢

ألف غلام حصي من الروم والصقالبة والسودان ، ويقال أيضاً إنه أئلف من الأموال ثمانين مليوناً من الدنانير <sup>(١)</sup> غير ما بدده من الجواهر الثمينة التي كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأولين .

وطبيعي أن يقضى هذا السفه على هيبة الخلافة وأن يستلها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض . وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً ، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب ، بل إنهم جميعاً كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة ، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسي الأول في زمن الواثق إذ صادر في سنة ٢٢٩ للهجرة كتاب الدواوين واستخلص منهم نحو مليوني دينار <sup>(٢)</sup> ، وكلما تقدمنا في العصر العباسي الثاني اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رتقُه ، ولذلك مظهر واضح هو كثرة المصادرات لأموال الوزراء والكتّاب ، إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه ، ويصادر أموال كاتبه عمر بن الفرج الرُّحَجِيّ . ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفاً <sup>(٣)</sup> ، ونكب كاتباً ثانياً استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتي ألف دينار <sup>(٤)</sup> ، ونكب كاتباً ثالثاً من كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار <sup>(٥)</sup> ، ونكب القاضي أبا الوايد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار <sup>(٦)</sup> ، ونكب يحيى بن أكرم قاضي قضائه واستخلص منه خمسة وسبعين ألف دينار <sup>(٧)</sup> . وأثرى قواد الترك في السنوات التي تلتها ثراء فاحشاً وأثرى كثير من الوزراء ، ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار <sup>(٨)</sup> .

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتّاب والولاة كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ، ويخيّل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف

(٥) طبرى ٢١٥/٩ .

(٦) مروج الذهب ١٤/٤ .

(٧) طبرى ١٩٧/٩ .

(٨) النجوم الزاهرة ٤٠/٣ .

(١) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .

(٢) طبرى ١٢٥/٩ .

(٣) طبرى ١٥٨/٩ ومروج الذهب ١٩/٤ .

(٤) الفخرى ص ١٧٧ .

هذه الجريمة النكراء . وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا في ولاياتهم ، وبلغت الرشوة أحياناً مائتي ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا<sup>(١)</sup> ، وحتى رجال الحسبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال ، في أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء في الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسى الفيلسوف ، إذ خان الأمانة في ولايته الحسبة ببغداد ، وكان جملة ما أخذه مائة وخمسين ألف دينار<sup>(٢)</sup> . ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يتورط في هذا الاختلاس وما يطوى فيه من الرشوة أكثر موظفي الدولة ، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج ، وكثيراً ما كانوا يعدّون أصحاب الضياع والأعيان وذوى الوجاهة بالضرب والسحب على الوجوه والرسف في القيود وصب الزيت على رؤسهم أو النفط وتعليقهم في الجندر من أيديهم وأرجلهم ، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال ، ويصور ذلك ابن المعز في أرجوزته<sup>(٣)</sup> التي أرخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجلييلة مبيّناً كيف كانت تجبى أموال الخراج قبله في قسوة بل في عنف بل في أهوال من التعذيب والتنكيل ، يقول :

فكمّ وكم من رجلٍ نبيلٍ	ذى هَيْبَةٍ ومَرَكَبٍ جليلٍ
رَأَيْتُهُ يُعْتَلُّ بالأَعْوَانِ	إلى الحُبُوسِ وإلى الديوانِ
وجعلوا في يده حِيالاً	من قِنَبٍ يَقَطُّعُ الأَوْصَالَ
وعَلَّقُوهُ في عُرَى الجدارِ	كَأَنَّهُ بَرَادَةٌ في الدارِ
وصَفَّقُوا قفاه صَفَقَ الطَّبْلِ	نَضْباً بعَيْنِ شامتٍ وخِلِّ
وصَبَّ سَجَانُ عليه الزَّيْتِ	فصار بعد بَزَقِ كَمَيْتِ

ويمضى ابن المعز فيذكر أنهم ما يزالون يعدّون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة ، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كي يقرضوه بعض أموالهم ، أو حتى يبيعهم بعض عقاره ، وأن يؤجلاه لذلك خمسة أيام ، وبعد لأيٍ يجعلونها أربعة ، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة ، فيقرضونه واحداً

(٣) انظر الديوان (طبعة دار صادر بيروت)

(١) الفخرى ص ١٧٨ .

(٢) مروج الذهب ١٧٠/٤ .

بعشرة ، ويكتبون عليه صكاً بأنه باع ضيعته ، وينزل على إرادتهم ، حتى يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الخراج . ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ ، ولكنه كان قمعاً إلى أجل محدود، إن كان حقاً قمعه أو استطاع قمعه . ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة ، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة ، فقد كانوا يدعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها ، وكانوا لا يزالون يتفننون فى تعذيبه :

حتى إذا ملَّ الحياةَ وضَجِرَ وقال ليت المال جمعاً فى سَقَرِ  
أعظاهمُ ما طلبوا فأُطْلِقاً يستعمل المشى ويمشى العنقا

والعنقُ مشية سريعة ، وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب ، فهو يطير طيراناً . وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثاً ضخماً ، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى ، إذ يسجنونه ، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى ، وما يزالون يضرّبونه ويلكمونه ويصفعونه ، يقول ابن المعتز :

وأسرفوا فى لكمه ودفعه وانطلقت أكفهم فى صفعه  
ولم يزل فى أضيق الحبوس حتى رى إليهم بالكيس

وكاننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق . وما إن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له ، وقد استوزر اثني عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث ، أولهم ابن الفرات ، ويروى أنه حاسب كتّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار<sup>(١)</sup> ، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته ، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير<sup>(٢)</sup> ، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين<sup>(٣)</sup> . وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها

(٣) النجوم الزاهرة ٢١٢/٣ .

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب ص ٢٥ .

(٢) عريب ص ٢٦ .

الحاقاني، وكان سيء السيرة، فأخذ يبيع الولايات غير مراعى الأمانة عهداً ولا ذمة، ويقال إنه ولّى على الكوفة في يوم واحد تسعة عشر والياً آخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر، وفيه يقول بعض معاصريه<sup>(١)</sup>:

وزيرٌ لا يملُّ من الرِّقَاعَةِ يولِّي ثم يعزل بعد ساعة  
إذا أهلُّ الرُّشَا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

ونعجب أن تُدرَّ إقتلاعات الوزير في عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً<sup>(٢)</sup>، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختلس ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوى الملايين. وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبذل في سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة<sup>(٣)</sup> ألف دينار، مؤملاً أن يستردها في أسرع وقت. ويروى أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهداه بستاناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الحراسانية<sup>(٤)</sup>. واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية، فاستخلص منه مليوناً وثلاثمائة ألف، ويقال إنه كان ينفق على موائده يومياً مائتي دينار<sup>(٥)</sup>، في حين كان المستكنى ينفق بأخرة من العصر على مائده كل يوم خمسين ألف درهم<sup>(٦)</sup>. وكان الولاة يستنون سنة الوزراء في نهب الأموال واختلاسها<sup>(٧)</sup>.

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تُختلس وتُنهب، ينهبها ويختلسها الولاة والكتّاب والوزراء، ينعمون ويتزنون، والشعب يتمرغ في البؤس والحرمان والشقاء، وكأنما تعطلت أداة الحكم، بل لقد فسدت فساداً لا يتقف عند حد. وكان مما زاد في هذا الفساد غلبة النساء على الحكم، فكان كثيراً ما يصرّفته بحسب أهوائهن، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضبياع والعقارات والأموال الطائلة، حتى يقال إن المستعين مات وفي خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار، على حين كان في خزائن أمه مليون دينار كاملة<sup>(٨)</sup>، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً، ويقال إن

- (١) الفخرى ص ١٩٨ وعريب ص ٢٩-٣٠.  
(٢) الهمداني ص ٥١.  
(٣) الفخرى ص ٢٠٢.  
(٤) الهمداني ص ٢٢.  
(٥) الهمداني ص ٣٦.  
(٦) الهمداني ص ١٤٨.  
(٧) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب ص ٣١ والهمداني ص ١٣.  
(٨) طبرى ٢٨٤/٩.

قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار ، فلم يجدها في خزائن الدولة ، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ ، حتى يتسدى نفسه به من القتل ، فأنكرت أن يكون عندها مال ، وخلع ابنها وقتل بعد أيام ، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف ، وملاؤه العجب حين وجد في خزانة لها مليوناً من الدنانير ، غير جواهر قدّرت قيمتها بمليون دينار . ولما رأى وصيف ذلك قال : قبّحها الله ، عرّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش ، وعندها هذا كله في خزانة واحدة من خزائنها <sup>(١)</sup> . وثالثة الدواهي الطامة شغب أم المقتدر ، وهي أم ولد رومية ، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهي في الدولة ، وكانت تستعين بقهرمانتها ثمل ، وأقعدتها في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم ، فكانت تكتب بأحكامها على رقع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة <sup>(٢)</sup> . وأثرت شغب حتى كان دخلها في العام من غلات ضياعها مليون دينار <sup>(٣)</sup> ، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها ، فاستخلصت ثمل منها مليوناً من الدنانير <sup>(٤)</sup> ، كأن مليون دينار في أيدي نساء القصر وجواريه شيء عادي تتملكه أي وصيفة . وكان المقتدر متلافياً فأنتق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة ، من ذلك إهداؤه الدرة اليتيمة - التي ظل آباؤه يحتفظون بها حقباً طويلاً - لبعض حظاياها ، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل . وأهدى حظية ثانية سُبْحَةَ جَوهَر لم يُرَ مثلها ، قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وأهدى حظية ثالثة فصّ ياقوت اشتراه الرشيد بثلثمائة ألف دينار ، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار <sup>(٥)</sup> ، وكان كل ذلك وقع في يد معنوه ، فهو ينثره يميناً وشمالاً . واستولى قواد الترك لعهدده على كثير من الإقطاعات والضياع ، ويقال إن إقطاعات يانس الموقى المتوفى سنة ٣١١ كانت تغلّ له سنوياً ثلاثين ألف دينار <sup>(٦)</sup> . وكانت قهرمانه شريرة هي علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكفي <sup>(٧)</sup> .

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشنوم ، فقد أصبح

- |  |                                  |
|--|----------------------------------|
| (١) طبرى ٣٩٥/٩ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ . | (٥) الهداني ص ٦٥ والفخرى ص ١٩٢ . |
| (٢) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ .  | والنجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .          |
| (٣) النجوم الزاهرة ٢٣٩/٣ .             | (٦) عريب ص ٨٠ .                  |
| (٤) الهداني ص ٣١ .                     | (٧) الهداني ص ١٤٣ .              |

الترك والنساء والجند هم الذين يصرفون أمور الدولة ، وعمّ الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً ، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون لعهد الخليفة المتقي يؤمّن لـصاً فاتكاً هو حمدي ، ويشترط عليه أن يدفع له شهرياً خمسة عشر ألف دينار ، في حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر . ويستظهر ابن تغرى بردى أن هذا اللص هو الذي سُمّي عند العامة في سالف الأعصار أحمد الذنف ، وقصته في ألف ليلة وأيلة مشهورة (١) .

وهيّا ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب ، بل إلى نهب الأقاليم والولايات ، فإذا أسره طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم انفسها في خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدواة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب ، وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر . وفي سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية في إقليم بلوخستان شرق إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند ، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الظاهريين في خراسان . وتوفى يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر . وحدث في سنة ٢٥٥ أن أهدى المعتز بايكباك حاجبه مصر فوائى عليها أحمد بن طواون فاستقلّ بها ومدّ حكمه إلى الشام ، وخلفه على الإقليم ابنه خمارويه ، وزواج ابنته بوران من المعتضد مشهور . وظلت تلك الإمارة الطواونية في أبناء أحمد بن طواون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت في عهد المكتفي إلى حظيرة الدواة ، فوائى عليها عيسى النوشري ، وتبعه ولاة مختلفون إلى أن واها محمد ابن طُعْجُج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التي ظلت تلى شئون مصر حتى تسلّمها منها المعز الفاطمي سنة ٣٥٨ . وإمارة السامانيين في خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً ، فقد بدأت حوالي سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة

(١) النجوم الزاهرة ٢٨١/٣ .



العباسية حسنة ، فكان أمراؤها يتواونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية ، وأذن لهم الخلفاء في أن تُدكَرَ أسماءهم معهم في خطبة الجمعة وأن يضرِّبوا أسماءهم على الدنانير ، وكانوا سُنيِّين ، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة .

ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، فتصبح فارس والرَّيِّ وأصبهان والجليل في أيدي بني بويه ، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني ، وطَبْرَسْتَان وجُرْجَان في يد الديلم ، وكِرْمَان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر في أيدي بني حمدان ، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريدي ، واليامة والبحرين في يد أبي طاهر الجسنَّابي القرمطي ، ومصر والشام في يد محمد بن طغيج الإخشيد ، والمغرب وإفريقية في يد القائم بأمر الله ابن المهدي الفاطمي المتلقب بأبیر المؤمنین ، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي . ولم يبق في يد الخليفة سوى بغداد ، واستولى عليها منه - كما أسلفنا - البويهيون وخلعوه ، وولَّوْا المطيع لله ، وأصبحوا هم الذين يولِّون الوزراء والقضاة والولاية وأصحاب الشرطة والحسبة ، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يدُعيَ له على المنابر ، وخفَّضت نفقاته ، وقُرِّرت له نفقة طفيفة .

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني ، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة ، وخاصة ثورتي الزنج والقرامطة ، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضي بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرماً ، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر ينازرون الدولة ويتزاون بها خسائر فادحة في الرجال والأموال ، ولعل من الخير أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة .

### ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تتصَّحَّ فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذي

أعد لها وأشعلها رجل فارسي من ورزّين: قرية من قرى الرّى بإيران ، زعم في أول الأمر أنه من بنى عبد القيس سكان البحرين ، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجري ، فبعه نفر قليل . وأحسّ كأن البحرين لن تتبعه ، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه ، وارتفع أمره إلى الوالي فطلبه ، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد ، حتى إذا استدّار العام عاد بفكرة جديدة هي أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك ، وكان يسخرهم كبار الملاك الإقطاعيين في هذا الكسح وفي زرع أرضهم لقاء أجرزهد لايسد ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن . ومضى يثيرهم ويتجمعون إليه ، ورأى إحكاماً لدعوته أن يُسبغ عليها صبغة دينية ، فزعم أنه يُوحى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جورّ الملاك الظالمين ، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبه بإمام الزيدية : زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، حتى يثبت حقه الشرعي في الثورة ضد الخلافة العباسية<sup>(١)</sup> ، وهو نسب مكنوب إذ هو فارسي كما قدمنا ، وحقاً نجد ابن المعتز ينعمته في الأرجوزة التي تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوي إذ يقول عنه :

والعلويّ قائدُ الفُساقِ وبائعُ الأحرارِ في الأسواقِ

ونؤمن بأن ابن المعتز تعمد ذلك حتى يلطّخ العلويين خصوم أسرته بعارٍ هذا الرجل الذي لم يكن يرعى في الأمة إلاّ ولا ذمة على نحو ما سيوضح عما قليل . وكان لا يزال يردّد بأن العباسيين انغمسوا في إثم الخمر والمجون والمعاصي ، وأنه تجب حربهم حتى يتخلص الناس من شرورهم ، وحتى يردّ الأمر إلى نصابه وإلى مستحقّيه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زوراً وبهتاناً .

وكان الزنج يبلغون أوفاً ، وكلهم يعملون في كسّح السباخ والزراعة ، وكانوا يُجلبسون من شرق إفريقيا ، وسرعان ما التفوا حول هذا الناثر والتفّ معهم كثير من عبيد الفرات بحيث غدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين ، وثبّت

ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز  
الدوري ( طبع بغداد ) ص ٧٩ .

(١) طبري ٤١٠/٩ وروج الذهب ١٠٨/٤  
والفخرى ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣

ذلك في نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى تحريرهم ، وهي دعوة كريمة ، غير أنه لم يمحض فيها إلى النهاية ، إذا استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جدياً في إلغاء الرق . ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقاً ولا كان علويّاً ما رواه المسعودي عنه من أنه « كان ينادي في عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس ، فتبّاع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، وينادي عليها بنسبها : هذه ابنة فلان ، ولكل زنجي منهن العشرة والعشرون والثلاثون . . . واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال لها : هو مولك وأولى بك من غيره»<sup>(١)</sup> . وأو كان علويّاً ما استباح استرقاق العلويات ، وأو كان ثائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزوج وردّها على الأحرار ، بل كان يُبقي لهم حرّيتهم . ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويصّالح به أوضاعهم المالية والاقتصادية . ولذلك حوّل ثورته سريعاً من ثورة ضد الملاك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة ، فالدولة يجب أن تقاوم ويقاوم معها الخلفاء وولايتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتقد آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحلّ مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم ، وكان يرى رأيهم في أن المسلمين جميعاً كافرون وينبغي قتلهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ويحاول المسعودي أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة ، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التي رددوها حين ثاروا في وجه علي بن أبي طالب : « ألا لا حكم إلا لله » ، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضي إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا - مثل الخوارج الأوّلين - على أبي بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعلياً غضباً عليهما ولعنوا جابرة الأمويين والعباسيين<sup>(٢)</sup> . وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأولون على بن أبي طالب إلى حروراء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة

وراجع النجوم الزاهرة ٤٨/٣ .

(١) مروج الذهب ١٢٠/٤ .

(٢) انظر مروج الذهب ١٠٨/٤ ، ١١٩ .

الضالة ، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة ، كذلك هاجر صاحب الزنج بأتباعه إلى سببِخة بـمآخِر أنهار البصرة تسمى سببِخة أبي قرّة ، فأقام فيها ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها ، وبثّ الزنج والسود يُغيّر بهم على القرى وينهب الأموال والدواب<sup>(١)</sup> ، ثم تحوّل إلى الجانب الغربي من نهر أبي الحصيب واتخذ عليه مدينة<sup>(٢)</sup> سماها « المختارة » بنسى له فيها دوراً حصينة ، وأمر أصحابه بالبناء فيها .

وكرّرت إغاراته على البصرة وقراها ، فاستغاث أهلها بالخليفة المهتدي ، فأرسل إليهم في سنة ٢٥٦ جيشاً أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوات والنخيل والأدغال . ويشعر صاحب الزنج بقوته ، فيقتحم مدينة الأبلّسة مما يلي نهر دجاة ويقتل بها خلقاً كثيراً ، ويُسّعل بها ناراً تأتي على كثير من منازلها ، إذ كانت مبنيةً من خشب الساج ، ويعمل فيها النهب والسلب . ويهاجم بعدها مدينة عبّادان ، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبلّسة ، فألقوا له عن يد ، وانضمّ إليه من كان بها من العبيد ، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمثونة . وولّى وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة ، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة<sup>(٣)</sup> .

وتولى المعتمد الخلافة ، فأرسل إليه في سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفاً انتصر على بعض كتائبه ، غير أن الزنج استترأ منه بالقنوات والأدغال ، فاضطر إلى الانسحاب ، ونازلهم منصور بن جعفر الخياط بجيش ثان لم يصنع شيئاً<sup>(٤)</sup> . وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة . وكان يردّد على مسامع أصحابه أنه اجتهد في الدعاء عليها أن يصيبها الحراب من جميع جهاتها ، وأنه خوطب في أمرها ، فقيل له : إنما البصرة خبزةٌ لك تأكلها من جوانبها . وانضمّ إليه حينئذ كثير من الأعراب ، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد في أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات ، وقد انقضّ عليها من ثلاث جهات ، معملاً فيها النهب والسلب والقتل وإشعال

(٣) انظر الطبري ٤٧٠/٩ وما بعدها .

(٤) طبري ٤٧٨/٩ .

(١) طبري ٣٧/٩ .

(٢) طبري ٤٧٠/٩ .

النار<sup>(١)</sup>، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأُنثى وشيخ وطفل وإنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضاً ، يقول المسعودي : « واختنى الناس ذعراً في الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبجونها ويأكلونها ، وكذلك الفئران والسنانير ، وأفئوها حتى لم يقدرُوا منها على شيء ، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب »<sup>(٢)</sup> وتسامع الناس والشعراء في بغداد وسامراء بهذه النكبة المروعة التي حلَّت بالبصرة ، فبكرها بدموع غزار ، وفي مقدمتهم ابن الرومي ، وقصيدته :

ذَادَ عَنِ مُقَلَّتِي لِذَيْدِ الْمَنَامِ شَغْلُهَا عَنْهُ بِالْدمُوعِ السُّجَامِ

ندبٌ حارٌّ لها وتفرج وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التي لا تكاد تتخيلها الأوهام ، وقد مضى يصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسببهم الحرائر المصونات ممزقات الثياب داميات الوجوه ، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوَّلوا قصورها تلالاً ورماداً ، وكيف ملثوا شوارعها بالرءوس والجثث والأيدى والأرجل المبتورة ، وهو في تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذَّيَادِ عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الولدان فتكماً لا يُبْتِغَى ولا يَتَدَرُّ .

وكأنما استجابت الدواة لصرخة ابن الرومي ، فجهَّزت جيشاً ضخماً بقيادة الموفق أخى الخليفة المعتمد ، وكان بطلاً لا يبارى وصاحب رأى وحزم لا يدانيه حزم وتدابير لا يشبهه تدبير ، غير أن الزنج وصاحبهم استروا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفة والنخيل الكثيف . فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه . فتقدم الموفق إلى نهر يسمى نهر معقل ، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحراني وأرسل به إلى سامراء حيث ذُبِحَ وأُحْرِقَ<sup>(٣)</sup> . وعاد الموفق إلى سامراء ، وخلف على قتال الزنج موسى بن بغا ، ونشبت حروب متتابعة قُتِلَ فيها كثير من الجانبين<sup>(٤)</sup> . ويؤمى المعتمد في سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج ، وينازل الزنج وترجح كفتهم ، ويدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها<sup>(٥)</sup> .

(٤) طبرى ٥٠٤/٩

(٥) طبرى ٥١٣/٩

(١) طبرى ٤٨١/٩

(٢) مروج الذهب ١١٩/٤

(٣) طبرى ٤٩١/٩

وتَسْخَلُ اللؤلؤة وقائدها الموفق بيعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الظاهريين واستولى منهم على خراسان ، وأقبل بجموعه في سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد ، ولم يكده يلم بدبير العاقول على بعد اثني عشر ميلاً منها حتى تصدّى له الموفق وهزمه هزيمة ساحقة ، فرّ على أثرها إلى الأهواز ، وإلى ذلك يشير ابن المعتز في أرجوزته آفة الذكر إذ يقول عن الموفق :

وحاربَ الصّفّارَ بعدَ الزّنجِ فطارَ إلا أنه في سَرَجِ  
وفرّ من قُدّامه فراراً وكان قدماً بطلاً كرّاراً

وظل الموفق مشغولاً به بعد هزيمته إلى أن توفي سنة ٢٦٥ . وفي هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له ، فكان يُغِير على بعض المدن ، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودست ميسان . وكانت أنبأؤه لا تزال تصل إلى الموفق ، فصمم على منازلته ثانياً ، وجهّز لحره جيشاً جراراً تسنده سفن حربية ، وأسند قيادته إلى ابنه أبي العباس . (الذي ولي الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقّب بالمعتضد) وكان شجاعاً حازماً من أهل الرأي الصائب مثل أبيه ، فحفّ إليه في ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزق جنوده واستولى على ما كان بيده من قرى دجلة<sup>(١)</sup> ، ودخل مدينة واسط وردّها على أهلها ، وعسكر بجيشه في جوارها ، وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته . وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفناً تسمى بالسُمَيْرِيَّات ، لكل منها أربعون مجدافاً والملاحون من فوقها يحملون السيوف والرماح والتروس ، ولكن أبا العباس عرف كيف يُنزل بهم هزيمة نكراء ، استولى في أثناءها على أكثر سُمَيْرِيَّاتهم<sup>(٢)</sup> ، وأخذت هزائمهم تتلاحق . وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعدّ جيشاً كثيفاً لمساعدة قائديه : سليمان بن جامع وعلي بن أبان ، فأعدّ جيشاً ضخماً بدوره لنصرة ابنه ، ومضى معه إلى حصن الزنج الشمالي في البطيحة الذي سمّوه باسم « المدينة المنبوعة » وأوقعا بقائد لهم يسمى الشعرائي ويجنده وقعة ماحقة . واتخذ

(١) طبرى ٥٥٧/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٦١/٩ .

الموفق حينئذ خطة سديدة أن يعفو عنم يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون<sup>(١)</sup>. واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذي سموه مدينة « المنصورة » وكان بجوار « طهيثا » والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة ، وفرَّ سليمان على وجهه لا يلوى ، وفرَّ كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة ، وأعلن الموفق مرة ثانية أنه يعفو عفواً تاماً عن كل من يستسلم راضياً ، واستسلم له كثيرون ، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه . وكانت سياسة قوية إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق<sup>(٢)</sup>. ومضى إلى الأهواز والقرى التي بينها وبين فارس ، وفرَّ عنها سريعاً قائدان من قواد الزنج هما المهلبى وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركين وراءهما عتاداً ضخماً من الميرة احتواه الموفق . وكاتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمنهم وسلكهم في جيشه ، واستأمن قائد اسمه « مناب » وكثير من المقاتلين في سميريات الزنج وسفنهم<sup>(٣)</sup>. وتقدم الموفق بجموعه إلى المدينة « المختارة » حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله . ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول ، فبنى لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها « الموقية » شيد فيها جميع المرافق ، وساق إليها أصناف المنافع ، وشدَّد في حصار المختارة ، حتى غدت كأنها سجن كبير لصاحبها وأتباعه ، ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم ، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة ، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزته الميرة والمؤن ، وفي ذلك يقول ابن الرومي للموفق من قصيدة طويالة<sup>(٤)</sup> :

حَصْرَتَ عَمِيدَ الزَّنْجِ حَتَّى تَخَاذَلَتْ      قُـوَاهُ وَأَوْدَى زَادَهُ الْمُتَزَوِّدُ  
فَظَلَّ وَلَمْ تَقْتَلْهُ يَلْفِظُ نَفْسَهُ      وَظَلَّ وَلَمْ تَأْسِرْهُ وَهُوَ مَقِيدُ  
تُفَرِّقُ عَنْهُ بِالْمَكَائِدِ جُنْدَهُ      وَتُرَدِّدُهُمْ جُنْدًا ، رَجْدُكَ مُحْصَدُ<sup>(٥)</sup>  
وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يشنَّ عليها حملة حاسمة سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه ، والتقى

(٤) زهر الآداب للحصرى ١٩٤/٣ .

(٥) محمد : مجتمع محكم .

(١) طبرى ٥٦٦/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٧١/٩ وما بعدها .

(٣) طبرى ٥٧٥/٩ وما بعدها .

الموفق في هذه الأثناء يجيش له في غربي نهر أبي الحصيب فمزقه شرمزق ، وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفي مقدمتهم الشعرائي وشبل<sup>(١)</sup> بن سالم . وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة المختارة ومضائق طرقها وحصونها كمن يحضوه النصيحة في الوصول إلى صاحبها ، ودكوه راضين ، فاستولى على قصره في صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة ، وواغاه البشير بقتله ، فخر الله ساجداً على ما أولاه ، وأمر بصلب قائديه سليمان بن جامع وعلى<sup>(٢)</sup> بن أبان المهلبي . وكان الموفق قد جرح جرحاً بليغاً في صدره في أثناء المعارك الأخيرة ، ولم يثنه ذلك عن الحرب حتى كُتِبَ له فيها النصر المبين ، ولذلك يقول ابن المعتز في تهنته بهذا النصر من قصيدة صور فيها بطواته :<sup>(٣)</sup>

شَقَّ الصَّفوفَ بسيفِهِ وَشَفَى حَزازاتِ الإِحْنِ  
دَامِي الجِراحِ كَأَها وَرَدُّ تَفْتَحَ في غُصْنِ

وبذلك انتهت ثورة الزنج ، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف ، وأمر الموفق بالنداء في أهل البصرة والأبلة وكور دجلة والأهواز وواسط بقتل صاحب الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمناً على نفسه وماله وأهله<sup>(٤)</sup> .

## ٤

## ثورة القرامطة

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الشيعة كانوا فرقاً ، وظلت هذه الفرق نشطة في العصر العباسي الثاني ، وأهمها فرقة الزيدية التي حملت السلاح دائماً في وجوه العباسيين ، ثم فرقة الإمامية التي كانت تعيش على التقية وتعمل سراً ضد العباسيين ، وقد انقسمت مبكرة إلى اثني عشرية آمنت بأن الإمامة توالى في اثني عشر إماماً ، آخرهم محمد المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي قبل أبيه ، فقالوا إن

(٣) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧ .

(٤) طبرى ٩ / ٦٦٣ .

(١) طبرى ٩ / ٦٤٣ .

(٢) طبرى ٩ / ٦٥٤ وما بعدها .



الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر ، حتى لو مات في عهد أبيه . وأخذت تتكوّن سريعاً حول محمد الحركة <sup>(١)</sup> الإسماعيلية ، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان ، وأخذ في سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تفويض الدواة العباسية ، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص ، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة ، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك . وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ، ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك في كل ما يكسبون مقيماً بينهم ضرباً من الألفة . وبدأ بدعوته في موطنه بالأهواز ، ثم تركها إلى البصرة وبعه رفيقه الحسين الأهوازي ، وأحس بمطاردة والى البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى « سَلَسْمِيَّة » بقرب اللاذقية في الشام ، ومن هناك أخذ يرسل دعواته إلى العراق ، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثناً فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جليها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية . ودعا في قوة إلى فكرة التأويل في الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التي تروى إليهما من بعيد . وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريته ما قبله من الشرائع ، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون . وزعم أيضاً أن أئمة الدعوة قسمان : أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرون ، وأئمة بجانبهم مستودعون وهم رءوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك أصبح هو نفسه إماماً مستودعاً ، وتبعه على ذلك أبناؤه ، ومن هنا جاء الشك في نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التي حكمت مصر نحو قرنين من الزمان ، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين ؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهي سبع مراتب ، مرتبة للعامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبة لمن مرّ عليه عام ، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان ، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام ، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام ، ثم المرتبة السابعة ، وجعلت المراتب فيما بعد تسعاً .

وما يلبث عبد الله بن ميمون — وقيل بل ابنه أحمد خلفه — أن يرسل الحسين

(١) انظر في الحركة الإسماعيلية والقرامطة  
كتاب عبد العزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها .

الأهوازي إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى في السواد بنبطى يحمل بعض الغلات على أثوار له اسمه حمدان ، كان أهل قرينته يلقبونه - فيما زعم الطبرى - لقباً نبطياً هو قرهط لاحمرار عينيه الدائم<sup>(١)</sup> ، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السرى<sup>(٢)</sup> . وكأنما وجد الأهوازي في هذا الرجل طلبته ، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له في حماسة بالغة ، وأحسن الأهوازي بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة ، وجدد فيها. حتى أصبحت له فرقة كبيرة دُعيت جميعها باسم القراهطة نسبة إليه . وكان داهية فأخذ في تنظيم الحركة ، وفرض على جميع أتباعه أن يدفع كل منهم سنويًا درهماً واحداً ، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنانير ، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباعه أن يؤدي إليه خمس ماله ، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة ، وهى الشركة فى الأموال ، وبذلك هياً لظهر نظام اشتراكى كامل . ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحل لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان فى السنة : يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه<sup>(٣)</sup> . وفى سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكونة سماها « مهما باد » نزلها كثيرون من الرجال والنساء . وكان أكبر معاونيه فى حركته صهره عهدان ، ويُدكر له كتاب صور فيه طريق التابع ومراتبه السبع آتفة الذكر التى تنتهى به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفى أو المستر ومثليه من الأئمة المستودعين .

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين فى سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقدير الشديد فى الأجور ، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة فى المدن ممن كانوا يعيشون فى بؤس مدقع ، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلونهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذله إلى الغنى وعزه . غير أنهم لم يقفوا

(١) الطبعة العربية) ص ٢٢٩ .

(٢) طبرى ١٠/٢٥ وما بعدها .

(١) طبرى ١٠/٢٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

جميعاً بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكي ، إذ مضوا يدعون إلى التحلل من الدين الحنيف وفروضه حتى ليقول البغدادي إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار ، وقالوا : هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد (١) ، وزعموا : « أن الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعهم بنيرانجات واستعبدهم بشرائعهم » (٢) . ومضى حمدان يتخذ لهم أعلاماً بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور ، ويقال إنه كان يكتب عليها : ( وزيدي أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ) .

وقد أرسل مبكراً دعاة إلى اليمن جاهدوا فيها بدعوته وأحدثوا شعباً كثيراً ، ونزل « كلواذي » وأخذ يدير منها دعوته ، ومن أهم دعواته الذين اتخذهم حينئذ أبو سعيد الحسن بن بهرام الحنابى . وجسّابة من قرى بحر فارس ، وقد أرسل به إلى جنوبي إيران ، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة ، والتفّ حوله كثيرون اتخذ من نفسه مشرفاً على إدارة أموالهم . غير أن ولاية العباسيين تنبها لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال ، ففرّ على وجهه إلى حمدان ، يبلغه الخبر ، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى ، واختار له الأحساء في منطقة البحرين ، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشائرها البدوية ، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ في تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها « المؤمنية » بدلا من « هجر » العاصمة القديمة وهي المسماة اليوم باسم « الهفوف » « وفي السنة نفسها أغار على « القطيف » القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء (٣) . وفي السنة التالية هددت جنوده البصرة (٤) . وأحس حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد ، وتصدّى لهم بدر غلام الطائى . وأوقع بهم على غرة بناوحى رودميستان وقتل منهم مقتلة عظيمة (٥) . ويعودون إلى الانتشار في سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبلى غلام الطائى ويقع في أسرهم قائدهم المعروف بابن أبى قوس (٦) ، فيرسل به إلى المعتضد ،

(٤) طبرى ١٠ / ٧٥ .

(٥) طبرى ١٠ / ٨٢ .

(٦) فى الطبرى : فوارس .

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ( طبعة محمد

محيى الدين عبد الحميد ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ٧١ .

فيضرب عنقه ، ويظلمه على الجسر في جماعة من القرامطة ، ويذكر ذلك ابن المعتز في أرجوزته آفة الذكر ، مندداً بالدعوة القرمطية ، قائلاً :

ابنُ أبي قَوسٍ لهمُ نبيُّ إمامٌ عدلٌ لهمُ مرَضِيٌّ  
 خَفَّفَ عنهم من صلاةِ الفَرَضِ وقال : ناب بعضها عن بعضِ  
 فاذهبْ إلى الجِسرِ تجده فارسا على طِميرٍ<sup>(١)</sup> لَأَسِيرٍ جالسا  
 وتلك عقي الغيِّ والضلالِ والكُفرِ بالرحمن ذي الجلالِ

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ليزعمون أن ابن أبي قوس نبي ، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن ، وسجل عليهم في الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التي اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختف لا يظهر أبداً . ومنذ هذا التاريخ الذي قُتل فيه ابن أبي قوس يختفي من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان ، ونفاجاً بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زكرويه<sup>(٢)</sup> . ويبدو أنهما أحسباً بتغير في المبادئ التي<sup>(٣)</sup> كانا يدعوان إليها ، فأرسل حمدان بعبدان إلى سَلَمِيَّة ليقف على حقائق الأمور ، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ترفى وخلفه ابنه الحسين ، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذي يدعون إليه وعن حجته ، فعجب الحسين من سؤاله ، وقال له : « من هو الإمام إذن ؟ » فأجابه عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي دعا له أبوك وكان حجته ، فاستنكر الحسين القداحي إجابته ، وقال له : إن الإمام إنما كان والده ، وحلَّ هو محلّه الآن . وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القداحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن إسماعيل خداعاً للناس وتمويهاً عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم . وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر ، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة . وأخذ حمدان برأيه ، فوقف الدعوة في الأماكن القريبة منه ، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا في الأماكن النائية ، وترك كلواذي واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ ، ويبدو أن

. ٩٤ / ١٠

(١) طمر : : فرس .

(٣) الدورى ص ١٦٥ .

(٢) كان أحد دعاة قرمط المهين . الطبرى

القдахين عملوا على اغتيالهما ، واتخذ زكرويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال .  
وعلى هذا النحو صارت رياسة الدعوة في سواد الكوفة والعراق إلى زكرويه  
الدندانى ، وكان أعظم نشاطاً من حمدان قرمط وصهره عبدان ، ولما رأى الدولة  
تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غناء عندهم سعى في استغواء البدو من أسد  
وطي وقيم وغيرهم ، وتابعتهم منهم جماعات ، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنوبى  
العراق لم تستجب له ، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً إلى عشائر قبيلة كلب  
في بادية السماوة بين العراق والشام ، فأصاخوا لهم وبايعوهم ، وكان مما زعموه  
لهم أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، حتى إذا رأوهم يدعونهم  
إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العليص ، إذ بايعوا في آخر  
سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقباً لهم بالشيخ وزاعماً أنه أبو عبد الله على بن محمد  
ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله . وزعم  
لهم فيما زعم أن أباه - ودعاه أبا محمود - يدعو له ، وأنه يتبعه في السواد بالعراق وفي  
المشرق والمغرب مائة ألف ، وأيضاً زعم لهم فيما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة ،  
وأنهم إذا اتبعوها في لقاء عدو نزل عليهم الفتح المين ، وتكهن لهم أو ادعى  
فيهم الكهانة ، وأظهر لهم عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آيته (١) . ومضى في  
سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيث فساداً في المدن السورية ، وكانت تتبع حينئذ الدولة  
الطولونية ، وكانت تعاني من ضعف شديد ، وكانت قد ولت عليها طغنجياً  
الإخشيدى قبل ولايته على مصر ، فأرسل لابن زكرويه جيشاً سرعان ما هزم  
وقُتل قائده (٢) . وقصد ابن زكرويه الرقة في جمع كثير يقتل وينهب ، وواقع  
هناك جيشاً للخليفة المكتفى وهزمه وقتل قائده . وحاصر دمشق غير أنها  
صمدت لحصاره ، وسرعان ما قُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا  
به خليفة من بعده ، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر  
الصادق ، وأظهر لهم شامة في وجهه المثلث ذكر أنها آيته ، ولذلك سُمى بصاحب  
الشامة ، ووفد عليه ابن عجم له يسمى عيسى بن مهرويه ، فزعم أنه مثله من نسل  
جعفر الصادق ولقبه المدثر ، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر (٣) ! وأجابه كثير

(٢) طبرى ١٠ / ٩٦ .

(١) طبرى ١٠ / ٩٥ .

(٣) طبرى ١٠ / ٩٧ .

من البدو ، واشتدت شوكته ، فزحف بجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتقدّم إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخُطب له على منابرها باسم المهدي المنتظر ، ثم سار إلى حماة والمعرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب . ونزل سَلَمِيَّةَ ، وبدأ يقتل مَنْ بها من بني هاشم ثم قتل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتائب ، ولم يُبَقَّ بها عيناً تطرف<sup>(١)</sup> . ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقاً ، حتى يصفو الجو له وإمامته ودعوته وخلافته ، ونرى الطبري يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعي إلى كتاب الله ، الذابّ عن حرّم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومذلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحدّين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومشتت المخالفين ، والقائم بسند سيد المرسلين ، وولد خير الوصيين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين ، وسلّم كثيراً . . . »<sup>(٢)</sup> .

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودعاً مثل القداحين ، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه . ولذلك ادّعى له نسباً إلى محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتلقب بالمهدي وخليفة الله أمير المؤمنين . وفرّ منه عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية ، ومضى في فراره حتى شمالي إفريقيا . ولما تكاثرت فظائعه وضجّ أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفي أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان ، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة في المحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً . ففرّ كثيرون من جنده إلى البوادي ، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات ، وأسروا هناك جميعاً ، وصلّوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جيء بهم من الكوفة ، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه<sup>(٣)</sup> . ويذكر الطبري أن أحداً لصاحب الشامة - لعله الأخ الثاني

(٣) طبري ١٠ / ١٠٨ .

(١) طبري ١٠٠ / ١٠٠ .

(٢) طبري ١٠٥ / ١٠٥ .

المسمى محمداً - عاث ببعض الأعراب في نواحي دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية فغلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية<sup>(١)</sup>. وأرسل زكرويه في السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم ، فالتفت حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادي مثل بَصْرَى وأذرعاء ، وتعقبتهم جنود الخلافة من ماء إلى ماء ، وقتل أبا غانم أحد أتباعه<sup>(٢)</sup> فقضى على تلك الثورة . وبذلك تنتهي حركة زكرويه في بوادي الشام ، إذ يقضى العباسيون عليهم هناك قضاء مبرماً ، وأحكم لهم ذلك أنهم قضاوا في الوقت نفسه على الدولة الطولونية التي كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً ، مما مكن لزكرويه وأبنائه وأتباعه أن يحدثوا هناك شغباً وفتناً كثيرة .

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومن كان به من أتباع زكرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة ، واجتمع له كثيرون ، حتى إذا كان المحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قُدِّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحاج نحو عشرين ألفاً ، وبلغ النبا بغداد ، فندب له الخليفة المكنفي وصيف بن صوارتكين في جيش جرار ، فلقبه في الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقاتلة عظيمة ، وخلص بعض الجنود إلى زكرويه فضر به بالسيف وهو فاراً ضربة اتصلت برأسه ، فاستسلم ، وأخذه أسيراً ، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامراته ، وحمل وهو جريح فتوفى في الطريق إلى بغداد من أثر الضربة<sup>(٣)</sup> . وبذلك قُضى على حركة زكرويه في سواد الكوفة وبوادي الشام قضاء نهائياً .

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت في هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجحت إلى حد بعيد في منطقة الأحساء والبحرين على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الذي مر ذكره آنفاً ، وكان من كبار دعاة حمدان قرمط ، واستطاع أن

(٣) طبرى ١٠/١٢٤ وعريب ص ١١  
والنجوم الزاهرة ٣/١٥٩ .

(١) طبرى ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة  
٣/١٥٨ .

(٢) طبرى ١٠/١٢٢ .

يؤسس هناك دولة ظلت آماماً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر . وكانت تسود في دولة أبي سعيد الروح الاشتراكية التي بشَّها أستاذه حمدان قرمط ، وعظم أمره . وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفي أن يتقدم بجنوده نحو البصرة ، وتلقاه جيوش الخلافة ، ويقتتل الطرفان قتالاً شديداً<sup>(١)</sup> . وما زال يسوس دولته ، حتى قتله غلام له صقلي في سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده<sup>(٢)</sup> ، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي ، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم<sup>(٣)</sup> ، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد إلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها<sup>(٤)</sup> . ودخلها لسنة ٣١١ في ألف وسبعمائة من أتباعه ، وضعوا السيف في أهلها ، وقتلوا واليها سبكاً المفلحي ، وأحرقوا المربد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة ، وظل بها سبعة عشر يوماً يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع<sup>(٥)</sup> . وفي السنة التالية رصد الحاج في مقدمهم من مكة لشهر المحرم وأخذ يوقع بقوافلهم ، وينهب الأموال ، ويأسر ويقتل ، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النوح والبكاء وخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه يلطنن ويندبن<sup>(٦)</sup> . وفي سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء في ألف فارس ، فلقبهم أبو طاهر ، فناوشهم بالحرب ، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد ، فاتجه إلى الكوفة ، فقاتلوه ورجعت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب ، وكان مما نهبه منها أربعة آلاف ثوب وشي وثلاثمائة راوية زيت<sup>(٧)</sup> . وفي سنة ٣١٥ خرج في ألف فارس وخمسة آلاف راجل متجهاً إلى الكوفة ، وعلم المقتدر فجهز لحربه يوسف بن أبي الساج في عشرين ألفاً ، وتقاتلا على أبواب الكوفة ، ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وأسر جريحاً ، وقُتلت جماعة كثيرة من أصحابه . وبلغ ذلك المقتدر فراعته الخبر ، وندب مؤنساً لقتاله ، فخرج بالعساكر إلى الأنبار في أربعين ألفاً ، وانضم إليه أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته في أصحابهم وأعوانهم ، ووقعت بينهما

- (١) طبرى ١٠/٧٥ ، ٧٩ ، ٨٥ .  
 (٢) طبرى ١٠/١٤٨ ، والهمداني ص ١٤ .  
 والنجوم الزاهرة ٣/١٨٢ .  
 (٣) الهمداني ص ١٤ .  
 (٤) الهمداني ص ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٧ .  
 (٥) الهمداني ص ٤٣ والنجوم الزاهرة ٣/٢١١ .  
 (٦) الهمداني ص ٤٨ والنجوم الزاهرة ٣/٢١٣ .



مناوشات ليست بذات بال ، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة في جنوب العراق سالباً ناهباً سافكاً للدماء<sup>(١)</sup> . وفي السنة التالية دخل الرحبة جنوبي قَرْقِيسِيَاءَ شمالي العراق ، ووضع فيها السيف ، فبعث إليه أهل قَرْقِيسِيَاءَ يطلبون الأمان فأمنها ، ثم دخلها . وتوجه إلى الرقة ، فأخذها ، وتفانم أمره وكثر أتباعه<sup>(٢)</sup> . حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاجَّ يوم التَّروِيَةِ ، وهم يهلُّون ويلبُّون ، وقتل الحجاج قتلاً ذريعاً في فيجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف ، طُرح كثير منهم في بئر ززم ، وعرَّى البيت من كسوته وقلع بابَه واقطلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر ، وظل هناك حتى رُدَّ إلى موضعه في عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩ . ونهب جميع التحف التي زينَ بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصَّعوها به من الجواهر النفيسة ، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصرَّعون حوله في المسجد الحرام ، وهو ينشد مثل قوله :

أنا لله وبالله أنا يَخْلُقُ الخلقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

ويقال إنه كان زنديقاً لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي فرائض الإسلام ، مع تظايره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدي بإفريقيا<sup>(٣)</sup> . ولم ينج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦ ، خوفاً من شره وشر أتباعه من القرامطة ، غير أن شره لم ينحسر عن العراق ، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩ ، وعاود الهجوم عليها في سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة في سنة ٣٣٠ ، ومات في شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجُدري بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وبعد أن طال عذابه ورأى في جسده العبير . وخلفه أخوه سعيد<sup>(٤)</sup> بن الحسن الخنَّابِي ، وهو الذي رُدَّ الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة ، وكان العراق قد دخل في حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء ، واضطروا بأخرة إلى الدخول في طاعة الخلافة العباسية وتبذَّ عقيدهم القرمطية .

الزاهرة ٣ / ٢٢٤ .

(١) الهمداني ص ٥٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١٧ .

(٤) الهمداني ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٠ .

الزاهرة ٣ / ٢٢٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ .

(٣) الهمداني ص ٦٢ عريب ص ٩٥ والنجوم

## أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل في أوائل خلافته وَقَفَّ القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلدة الفقهاء السنيين وفي مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رفضوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت - كما مرَّ في كتابنا العصر العباسي الأول - منذ عصر المأمون سنة ٢١٢ ، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها ، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضُرب وقَسِدَ وأرسل إلى بغداد لمحاكمته وجبسه. وتظل المحنة قائمة في عهد المعتصم ، وإن خفست حدتها كثيراً ، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق . حتى إذا ولي المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض في ذلك ويهتموا بالحديث والسنة<sup>(١)</sup> . وبذلك هياً لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالحطب الجزل، حتى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالها رماداً، وكان لذلك أثر بعيد في الحياة العقلية والفنية ، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر، وتأنق نجم أهل السنة المحافظين ، وأخذ الذوق المحافظ يسود في كل شيء في الشعر وفي الغناء ، وحتى في الدراسات الدينية ، إذ ظهر مذهب داود الظاهري الذي يرفض القياس .

وثار في أذربيجان لسنة ٢٣٤ ، محمد بن البعيث وقضى على ثورته . وتدخل سنة ٢٣٦ ، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يُحَرِّثَ ويبيدُرَ ويُسْقَى موضع قبره ويُسْمَعَ الناس من إتيانه ، فحَرِّثَ الموضع وزرَع ما حوَالِه حتى يزول أثره ، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبي طالب وشيعتهم . ويقول المسعودي إنه حين انتهى الفعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها<sup>(٢)</sup> . ويقول الطبري : نُدِى في

(١) مروج الذهب ٣/٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٧٥ . (٢) مروج الذهب ٤/٥١ .

الناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجون ، فامتنع الناس من المصير إليه<sup>(١)</sup> . وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين ، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه ، وبالمثل لم يتحرك الخوارج لا في الموصل ولا في خراسان .

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين - ويسمونها الصائفة - قائمة طوال عصر المتوكل ، وينزلون في سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال ، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه<sup>(٢)</sup> . ويحاولون الإغارة على سُمَيْسَاط وبعض الثغور في شمالي الشام والموصل ، ويُنزل بهم علي بن يحيى الأرمني في سنة ٢٤٥ هزائم متلاحقة<sup>(٣)</sup> ، ويدور العام ، فينكل بهم في غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة ، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغامته ، ويغزوهم الفضل بن قارن في عشرين مركباً ويفتح حصن أنطالية<sup>(٤)</sup> . وما يزال غزو صقلية مستمراً في عهد المتوكل منذ نزول العرب بها في عصر المأمون حتى تستسلم نهائياً<sup>(٥)</sup> . وفي ديوان البحتری غزوة بحرية دمّر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون<sup>(٦)</sup> .

ويولّي المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد في العراق ونيابته في بغداد ، وهي وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا ، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده في بيته طويلاً . وفي سنة ٢٤١ ثارت البجة في شمالي السودان على والي مصر وامتنعت من دفع الحجاج ، واشتباك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمي في سلسلة من المعارك توالى فيها انتصاراته ، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا إلى أداء ما كانوا يؤدونه من الحجاج<sup>(٧)</sup> . وفي سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بختيشوع المتطبب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين<sup>(٨)</sup> . ويقول المسعودي : « كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنصرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »<sup>(٩)</sup> .

(١) ، ١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها .  
(٢) ديوان البحتری (طبع دار المعارف) ٩٨٠/٢ .  
(٣) طبرى ٩ / ٢٠٣ وما بعدها .  
(٤) طبرى ٩ / ٢١١ .  
(٥) مروج الذهب ٤ / ٤ .

(١) طبرى ٩ / ١٨٥ .  
(٢) طبرى ٩ / ١٩٣ وانظر العرب والروم لغازيليف ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ص ١٨٧ .  
(٣) طبرى ٩ / ٢١٨ .  
(٤) طبرى ٩ / ٢١٩ .  
(٥) العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ .

وخلفه ابنه المنتصر في شوال سنة ٢٤٧ ، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر ، وفيها وجه جيشاً كثيفاً بقيادة وصيف لغزو الصائفة<sup>(١)</sup> . ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبي طالب ، وأمر برد أرض فدك في الحجاز إلى أولاد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف العلويين جميعاً وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه<sup>(٢)</sup> . وخرج لعهد محمد بن عمرو الشاري بناحية الموصل ، وتجمع حواه كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد ، فوجه إليه جيشاً بقيادة سيبا التركي ، هزمه هزيمة ساحقة ، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيراً إلى سامراء ، فقتلوا وصلبوا جميعاً<sup>(٣)</sup> . وفي عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته في سجستان وتحرك إلى هراة<sup>(٤)</sup> .

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفي عهده يعود أبناء عمه الطالبيين إلى التحرك ، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطالبي حفيد زيد بن علي زين العابدين ، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضى على ثورته ويقتل ويحتمل رأسه إلى بغداد ويصلب ويبكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه<sup>(٥)</sup> ، وجيمية ابن الرومي في رثائه والتفجع عليه مشهورة ، وفيها يقول :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجَسَجٌ<sup>(٦)</sup>

وفي سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد ، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين ابن علي بن أبي طالب ، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها<sup>(٧)</sup> ، ويظل ثابتاً لجيوش الدولة العباسية حتى يلبي نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد<sup>(٨)</sup> . ويخرج على المستعين علويون مختلفون

- (١) طبرى ٢٤٠/٩ والعرب والروم ص ٢١٧ .  
 (٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .  
 (٣) طبرى ٢٥٥/٩ ومروج الذهب ٤ / ٥٣ .  
 (٤) طبرى ٢٥٥/٩ .  
 (٥) طبرى ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .  
 (٦) والفخرى ص ٢٤٠ .  
 (٧) سجعج : معتدل لا حار ولا شديد البرد .  
 (٨) طبرى ٢٧١/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .  
 (٩) طبرى ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .  
 ١٧٧ . ٦٣/٤ مروج الذهب

بالرّمي وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعاً<sup>(١)</sup>. ويتحرك بعض الحوارج ويلقاهم المصير نفسه<sup>(٢)</sup>. وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين في جبهة الروم إذ استشهد في سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة في الحروب ، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلي بن يحيى الأزني اللذان طالما دوّخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة ، أما عمر فكان يغزو الصائفة في جمع من أهل مَسَطِيَّة فلقية لإمبراطور بيزنطة في جيش جرار بلغ خمسين ألفاً ، ونشب القتال بينهما ، واستبسل عمر في الجموع القليلة التي كانت معه استبسلاً رائعاً ، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به ، فاستشهد في ألف من المسلمين الأبرار ، بعد أن أبلوا في المعركة بلاءً عظيماً . وأما علي فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شمالي العراق ، وجاءه نعي عمر المفجع ، فاستشاط غضباً وأسرع إليه في أربعمائة مقاتل ، وهو لا يعلم عدّة الروم ، فأحاطوا به مثل صاحبه ، ومضى إلى ربه شهيداً<sup>(٣)</sup>

وبويع بالخلافة المعتز في المحرم من سنة ٢٥٢ وفي عهده أوقع مفلح بعبد العزيز ابن أبي دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء<sup>(٤)</sup> ، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان ، وهزم الحسن بن زيد العلوي وأحرق منازله ، وفر الحسن إلى الديلم ، وتوجه مفلح نحوه<sup>(٥)</sup>. وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار ، واستولى على كرمان وفارس<sup>(٦)</sup>. وأقطع المعتز حاجبه بايكباك مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طولون ، وسرعان ما أسس بها الدولة الطولونية .

وتولى الخلافة المهدي في سنة ٢٥٥ ومكث في الخلافة أحد عشر شهراً ، وكان صالحاً تقياً عادلاً طاهر السيرة ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرّم الشراب والاختلاف إلى القيان للسمع ، وبنى قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص ، والنظر في المظالم وأقل من المطعم والمشرب ، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس في المسجد الجامع ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم

(٤) طبرى ٣٧٣/٩ .

(١) مروج الذهب ٦٩/٤ .

(٥) طبرى ٣٨٢/٩ .

(٢) طبرى ٣٠٨/٩ .

(٦) طبرى ٣٨٢/٩ وما بعدها .

(٣) طبرى ٢٦١/٩ ومروج الذهب ١٢٥/٤

والعرب والروم ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ .

عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل المائتته وسائر مؤنه كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل العبادة والصيام<sup>(١)</sup> ، فبدأ غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه . وفي عهده بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وخلفه المعتمد في رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهي غير أنه رُزق حظوة بأخيه أبي أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأور الحرب وشئون السياسة ، فغلب على الخلافة وتديريها ، وأصبح المعتمد معه كالحجور عليه . وكانت الخلافة العباسية تردت في هوة بعيدة القرار ، فأعاد إليها هيبتها ، وقضى كما مرّ بنا على ثورة الزنج قضاء مبرماً ، وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء ، اضطر على إثرها إلى الفرار إبقاء على نفسه من الموفق وجنوده . وتحركت حينئذ الحوارج في الموصل وخراسان ، وقضى على حركاتها جميعاً<sup>(٢)</sup> . وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازولون الروم في الصوائف وفي مقدمتهم البطل يازمان الذي نكّل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم في البحر ، وأخذ لهم أربعة مراكب<sup>(٣)</sup> .

وبلى الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩ ، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم ، كما كان فارساً شجاعاً وبطلا مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين دوّخوا القواد قائداً تلو قائداً . وفي أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار . وأدبل له دائماً من المخالفين عليه ، وكانت جيوشه تغدو وتروح بالنصر ، وممن ظفر بهم هرون الشاري الذي خرج بالموصل<sup>(٤)</sup> وثار عليه بأصبهان والجليل في سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي الشيباني فوجه إليه عيسى النوشري ففرّ من أمامه ، ثم عاد إلى الظهور في سنة ٢٨٤ ، وقضى على ثورته . ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوي أخا الحسن الذي مرّ ذكره ، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها<sup>(٥)</sup> لسنة ٢٨٧ . ونازلوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسروا ملكهم وامرأته خاتون ونحواً من

(٤) طبري ١٠/٤٣ .  
(٥) طبري ١٠/٨١ ومرج الذهب ٤/١٧٧ .

(١) مرج الذهب ٤/٩٧ ، ١٠٣ .  
(٢) طبري ٩/٥١٢ ، ٥٣٢ .  
(٣) طبري ١٠/١٣ وما بعدها .

عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة<sup>(١)</sup>، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة، وغزاهم قائده راغب في البحر لسنة ٢٨٥، واستولى منهم على مراكب كثيرة، غير ما أغرقه، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم<sup>(٢)</sup>. ويغادر أبو عبد الله الشيعي في عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين الذي كان قد فرّ من الحسين بن زكرويه، على نحو ما أسلفنا في حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية<sup>(٣)</sup>. ويحدث لعهد المعتضد حادث مفرح إذ يوغر دميانة أحد قواده في الثغور صدره على أهل طرسوس لشيء كان في نفسه منهم، ويشير عليه أن يحرق سفنهم التي كانوا يغزون فيها الروم. والعجب العجيب أن يصيح له المعتضد المعروف بكياسته، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية، يقول الطبري: «وكانت خمسين مركباً قد أنفقت عليها أموال جليلة فأضرب ذلك بالمسلمين وكسر في أعضادهم وقتل به الروم وأمنوا أن يُغزوا في البحر أو تُدمر سفنهم وأساطيلهم فيه»<sup>(٤)</sup>.

ويتولى الخلافة المكتفي سنة ٢٨٩، وكان يتوخى العدل والإنصاف في حكمه، فردّ المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية. وفي عهده تسمّ القضاء على زكرويه القرمطي ومن بقي من أبنائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطالية على ساحل البحر المتوسط عنوة، وقتل من أهلها خمسة آلاف، وأسر مثلهم، واستولى على ستين مركباً للروم حملها ما غم من الرقيق والمتاع والذهب والنفضة<sup>(٥)</sup>. ويذكر آدم مینز أنه في السنة نفسها، وهي سنة ٢٩٣، استولى المسلمون على مدينة سالونيق ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً<sup>(٦)</sup>. وفي السنة التالية غزت جنود المكتفي سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلها مقتلة كبيرة<sup>(٧)</sup>. وفي السنة نفسها ظهر السفيناني بالشام، ودعا إلى نفسه، وتبعه نفر، فحملوا جميعاً مقيدين إلى باب المكتفي<sup>(٨)</sup>.

(٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم

مينز ترجمة الدكتور أبي ريذة (الطبعة الأولى)

٥/١

(٧) طبري ١٣٠/١٠

(٨) طبري ١٣٥/١٠

(١) طبري ٣٤/١٠

(٢) طبري ٦٨/١٠

(٣) انظر النجوم الزاهرة ١٢٤/٣

(٤) طبري ٨٠/١٠

(٥) طبري ١١٧/١٠

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وما يوافق شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦ ، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوى الرأى ويُجَمِّعوا على خلعه وتولية ابن المعتز ، وتم له البيعة ، ولا يكاد يمضى عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فيُقْتَل وتُردّ الخلافة على المقتدر ، ويصبح لعة فى أيدى الترك يحركونه كما يشاعون ، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل العتمد وأخيه الموفق . وكان فى بيت المال يوم تولى الخلافة خمسة عشر مليوناً من الدنانير بددها كلها ، وبدد معها القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تُجَبِّى من أطراف الدولة الواسعة . وتحكمت أمه « شغب » ووصيفاتها فى شئون الدولة ، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم ، فكثرت الرشوة وعمّ الظلم والبغى ، وكثرت الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتّاب والتجار ، كما كثر الاستيلاء على أموال ذوى اليسار بغير حق ، مما ألمنا به فى غير هذا الموضع . وكان هذا الفساد سبباً فى كثرة الفتن والثورات ، وما توافى سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطروش العلوى وهو الحسن بن على الحسى ، لقب نفسه بالداعى ، واستطاع أن يَدْخُل فى الإسلام كثيرين استجابوا له ، وبنى لهم المساجد ، وكان حصيفاً فاضلاً أصلح الله الديلم به <sup>(١)</sup> . وأغار الروم على اللاذقية بحرراً وسبوا منها خلقاً كثيراً ، وردّ دميانة قائد الأسطول العربى فى البحر المتوسط على هذا الغزو فى السنة نفسها وهى سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيراً من الحصون وحرقت وسببى كثيرين <sup>(٢)</sup> . وفى سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية مَلَطِيَّة وفتح حصوناً كثيرة <sup>(٣)</sup> ، وردّ الروم على هذا الغزو فى سنة ٣١٤ فدخلوا مَلَطِيَّة بالسيف ، وقتلوا وسبوا ، وظلوا فيها أياماً <sup>(٤)</sup> . وفى سنة ٣١٣ فتحت بلوخستان ، وكانت لا تزال وثنية فدخلت فى دين الله .

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وكان مولعاً بالشراب والغناء ، وكان سفاكساً للدماء ، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك ، وقتل منهم نقرأ فى مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب فى عصره وعصر المقتدر ، وهابه الناس وخشوا

(١) طبرى ١٤٩/١٠ وروج الذهب ٢١٩/٤ (٣) النجوم الزاهرة ٣/١٩٠ .

(٢) مروج الذهب ٢١٨/٤ . والنجوم الزاهرة ٣/١٨٥ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣/٢١٥ .



صواته ، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السماع وقبص على المغنين وكسر آلات اللهو وأمر بتتبع الجوارى من المغنيات<sup>(١)</sup> ، وما زال مخوف السطوة حتى احتيل عليه بعد سنة ونصف من خلافته فخلع وسملت عيناه ، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصارم من الخلفاء ، وهي عادة بيزنطية ذميمة ، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً .

وخلفه الراضى بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢ ، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخلعة أو صلّة ، ومن أهمهم أستاذه الصولى أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنبارى . وخصّه الصولى بترجمة ضافية فى كتابه الأوراق ، فى القسم الخاص بأبناء الخلفاء ، روى فيها طائفة كبيرة من أشعاره ، وهو آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب فى صلاة الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء<sup>(٢)</sup> . وفى عهده قُتل ابن مقفلة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسى الوزارة مراراً . وعظّم أمر ابن رائق بعد تواليه الوزارة ، إذ قلّده الراضى جميع أمور الدولة ، غير أنه لم يلبث أن صار محجوراً عليه وكالأسير فى يده<sup>(٣)</sup> . وفى أوائل عهده سنة ٣٢٤ شين سيف الدواة الحمدانى أول حرب على الدمستق فى آمد<sup>(٤)</sup> ، وتوالت بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين .

ويتولى الخلافة المتقى سنة ٣٢٩ ، وكان ناسكاً تقيماً يصوم الدهر ، ولم يشرب النبيذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جلساء غيره ، غير أنه كان تعس الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزمام من يد الدواة ، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريدى بالموصل . وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدى على بغداد ، ومضى البريدى يسوم الناس ظلماً فادحاً فى الخراج وغير الخراج ، ويأخذ أموال التجار وغيرهم غصباً ، أما الخليفة فلجأ إلى الحمدانيين فى الجزيرة ،

(١) التنبيه والإشراف

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٨ .

ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ .

وما زال ينتقل معهم إلى أن قدموا به إلى بغداد وهرب منها البريدي ، وخلع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه بناصر الدولة وعلى أخيه عليّ ولقبه بسيف الدولة<sup>(١)</sup> . ولم تهدأ الأمور في بغداد فقد تفاقم أمر العبيّارين وازداد النهب حتى خلت الدور من أهلها وعُظلت المساجد والأسواق وأغلقت الحمامات . وكأنا كتب على المتقي أن يعيش سني خلافته بائساً تعيساً . حتى القصور وقبابها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء ، وكأنا كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الدولة العباسية ، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميسافارقين ونصيبين بديار بكر ، فقتلوا وسبوا كثيرين ، وطلبوا من أهل مدينة الرها مندبلاً من كنيسةها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته ، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أمرى المسلمين . وكوتب الخليفة المتقي في ذلك ، فاستفتى الفقهاء والقضاة ، واختلفوا في الرأي ، ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه ، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب . فأرسل المندبيل إلى الروم وأطاعت الأسارى ، وحملوا المندبيل إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك ورجال الدين والدولة لاستقباله في موكب كبير<sup>(٣)</sup> . وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً ، وتوقف جهاد الروم ، ونهب الحجاج وقُطعت الطرق ، وأخذت دعائم الدولة تتداعى تداعياً شديداً ، ولم يلبث توزون القائد التركي للمتقي أن غدر به ، فقبض عليه وخلعه ، لقاء ستمائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة . وتولت الجارية الشيرازية «حُسن» سمل عينيه بيد غلام لها سندی . وعاش بعد خلعه خمساً وعشرين سنة<sup>(٤)</sup> ، ومات توزون بعد خلعه بقليل .

ويخلفه المستكفي سنة ٣٣٣ بعد أن تأمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية ، ونادراً ما كان يهنأ بأيامه في الخلافة ، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الجشعة ، فلم يهدأ له بال . ولم يدر عليه عام في خلافته حتى دخل بنوبويه بغداد وصارت

(١) النجوم الزاهرة ٢٧٤/٣ وما بعدها .  
 (٢) النجوم الزاهرة ٢٧٠/٣  
 (٣) الهداني ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة .  
 (٤) الهداني ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة .  
 ٢٧٨/٣ ومتر ٥/١ .  
 ٢٨٢/٣ ومتر ١٦/١ .

إليهم مقاليد الأمور ، وسرعان ما طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، فنزل على مشيئتهم ،  
غير أنه اشترط ألا يقطع شيء من أعينائه ، وكان المطيع أخو المتقى هو الذي خلفه  
فأمر بأن تُسَمَّلَ عيناه انتقاماً لأخيه . وبذلك انتهت الحقب التي استولت فيها  
الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية ، وأنزلوا بالخلفاء ما لا يطاق من الذل والهوان .

## الفصل الثاني

### الحياة الاجتماعية

١

#### طبقات المجتمع

كان يتوزع مجتمع العصر العباسي الثاني ثلاث طبقات أساسية : طبقة عليا تشمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورعوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار ، وطبقة وسطى تشمل على رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشمل على العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والحدم والرقيق ، ويأتي في إثر تلك الطبقات أهل الذمة .

وكانت الطبقة الأولى تغرق في النعيم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُجسبي إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبي من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبياراتات ومن بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خردادبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليوناً من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه في عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفاً من الدنانير<sup>(١)</sup> . وتدهور الدخل في عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليوناً وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابي مع هذا الإحصاء الدخل العام لهده في سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليوناً وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً<sup>(٢)</sup> .

(٢) رسوم دار الخلافة للهلل الصابي ص

(١) كتاب الوزراء للهلل بن الحسن الصابي

وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تُسَنَفَقُ سنوياً ، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولي المعتضد ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) ادَّخَرَ من كل سنة من سني خلافته مليونَ دينار ، بلغ ما ادخره تسعة ملايين <sup>(١)</sup> ، وخلفه ابنه المكتفي ( ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ ) ، فبلغ بالمدَّخَر أربعة عشر مليوناً <sup>(٢)</sup> . وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أتلف كل المدَّخَر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنوياً ، وما كانت تُغَلِّه الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدَّد - كما مرَّ بنا في الفصل الماضي - ثمانين مليوناً من الدنانير . ويورد الصابى في كتابه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتاً <sup>(٣)</sup> بما كان يُسَنَفَقُ على حواشى الخليفة وداره في عصر المعتضد والمقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) ، وهى تصور عِظَم هذه النفقات . فقد كان يُسَنَفَقُ على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهرياً وكان يُسَنَفَقُ على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهرياً ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفاً ، غير ما يُسَنَفَقُ على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُسَنَفَقُ على المماليك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القراء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاحين فى السفن وأصحاب المشاعل والأطباء ، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجرى مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً . ويقال إنه كان فى الدار لأيام المكتفي عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة ، أما فى أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وأوف من الغلمان الحجريّة ( المقيمين فى الحجريّة ) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة <sup>(٤)</sup> . ويروى المؤرخون أن الراضى ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ) ، عمل على القصد الشديد فى نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

(١) المكتفد كانت سبعة آلاف دينار يويباً .  
(٢) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال إن الخدم فى عهد المتوكل كانوا سبعمائة .  
انظر الديارات للشابشى (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .  
(٢) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .  
(٣) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابى فى الكتاب الأول أن نفقات الحضرة لمهد

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار<sup>(١)</sup> يومياً .

وقد بدأ العصر بالمتوكل ، ويمتال إن التمهقات لم تبلغ في عصر من عصور انحفاء ما بلغت في عصره ، وخاصة في بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيري ، وكان يُجعلُ فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان في الراق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزائن الكسوة وعلى اليسار ما يُحتسج إليه من الشراب<sup>(٢)</sup> . وكان كلما بنى قصراً أتبعه بآخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهي : بركوار ( دار المناعة ) والشاه والعروس والبركة والجوسق والخمار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشيداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو والواوأة ، وبلغ ما أنفق على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم<sup>(٣)</sup> . وكان البرج من أجملها زينة إذ جعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرد وتصغر مكلفة بالجواهر ، وسميت طوبى ( من أشجار الجنة ) . واتخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالاً سبعين عظيمين ودرج عليه صور السباع والنسور . وألنبت حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسينساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار<sup>(٤)</sup> . وتبارى الخلفاء بعد المتوكل في بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصراً ضخماً<sup>(٥)</sup> ، وبنى المعتضد ( ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة<sup>(٦)</sup> ، وبنى المعتضد قصر الثرى ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياها ، وفيه يقول ابن المعتز<sup>(٧)</sup> :

وَبُنَيَانِ قَصْرِ قَدِ عُلْتُ شُرْفَاتُهُ كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدِ تَرَبَّعْنَ فِي الْأَزْرِ

(٥) انظر ياقوت في التاج وديوان البحترى

(طبع دار المعارف) ١٤٨٣/٣ .

(٦) ديوان البحترى ١٤٦٧/٣ .

(٧) ديوان ابن المعتز (طبعة دار صادر

بيروت) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان في الثريا .

(١) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤ .

(٣) الديارات للشابثى (الطبعة الثانية) ص

١٥٩ .

(٤) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج

٤٠/٤ .

ولعل في كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحياناً يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلّف المعتضد - كما قدمنا في الفصل الماضي - أربعمائة ألف دينار . وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرّ بنا آنفاً عدد من كان بها في عصر المكتفي والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعَدُّون بالآلاف ، فطبيعي أن يكون بها فلاحون وأكّرة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحياناً أربعمائة<sup>(١)</sup> . وكانت الدار تشتمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون في هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدرّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتى إذا كان عهد المقتدر أجرى عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار في كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف<sup>(٢)</sup> . ولكي نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفي أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) استخلص - كما مر بنا في الفصل الماضي - من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروى أنه أحصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات في خاصة نفسه دون ما وجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته في سائر ضياعه مليوناً وثلثمائة ألف<sup>(٣)</sup> . ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المحرّم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع<sup>(٤)</sup> . وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين<sup>(٥)</sup> ، ويقال إنه

(١) رسوم دار الخلافة ص ٨ .  
 (٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .  
 (٣) مروج الذهب ٤/١٢١ .  
 (٤) مسكويه ٥/٤١٠ .  
 (٥) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

لما عُيِّن وزيراً زاد ثمن الشمع في يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة، وسُقِيَ في داره في ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجياً<sup>(١)</sup>.

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواص والخواشي بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة، وكان يَغْدُو إليه الكِتَاب، فيقنهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه، ثم يروحون إليه بما عملوا، وفي أثناء ذلك تُعْرَضُ عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسابات<sup>(٢)</sup>، والكتّاب جلوس بين يديه كلٌّ في مكانه ومعه دواته.

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يُعَدُّون بالعشرات<sup>(٣)</sup> وكان مجلسه يَغْصُ بغلمان مسلّحين، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه، وأكل مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه، ويَسْرُو بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة في داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال، بل كانت أربعين، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلاً، وعلى كل واحدة جدى أو جداء وبارد وحلوى مما لذ وطاب<sup>(٤)</sup>. وكان الوزير يتولّى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب. واشتهر غير بيت بتولية الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق، وعمل كثير منهم في الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب، أما الوزارة فتولاها منهم في هذا العصر أربعة، كان في مقدمتهم سليمان بن وهب الذي مرَّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله، ثم ابن عبيد الله القاسم، ويقال إن المكثفي زوّج ابنة أبا أحمد من ابنته، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة، أما الصداق فكان مائة ألف دينار<sup>(٥)</sup>، وأنفق على

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣ ، ١٩٥ .  
 (٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .  
 (٣) كتاب الوزراء ص ١٢١ .  
 (٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم  
 الزاهرة ٢٠٨/٣ والهمداني ص ٢٠ ، ٣٧ .  
 (٥) النجوم ١٣١/٣ .



الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار<sup>(١)</sup>.

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون في هذا الترف كان يعيش فيه أيضاً القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقَطِّعونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالاً وفيرة ، ولعل خليفة لم يكن من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقي في عهده كانت تغلُّ سنويًا ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر<sup>(٢)</sup> ، ولما قدم بغداد في عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه<sup>(٣)</sup> ، وهو ما لم تجربه عادة وزير من قبله ، فقد أصبح القواد يقدِّمون على الوزراء . وكان لهم حجائبهم ومماليكهم وحشمهم وخدمهم وبنفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاية الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذي مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر والياً على فارس والبصرة ومن ولايتهما كون ثروته الواسعة . ويروى أن خمارويه صاحب مصر حين زوج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسي حمل معها من الجهاز ما لم ير مثله ولا يُسمع به ، وكان ابن الجصاص الجواهرى البغدادي القائم على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقي بيني وبينك من الحساب شيء ؟ فأجابته كَسْرٌ (باق) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار<sup>(٤)</sup> ، فما بالناس إذن بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار والى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب<sup>(٥)</sup> . وكان مما أرسله لإسماعيل بن أحمد الساماني والى خراسان إلى المكتفي سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون<sup>(٦)</sup> . وكأما أموال الولايات ودخولها كانت ملكاً للولاية ينفقونها في بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وتوفي لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسبي وكان متوايماً من حدود واسط في العراق إلى جَسْتَدِيسَابُور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلص مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

(٤) النجوم ٦٢/٣ .

(٥) مروج الذهب ١٤٨/٤ .

(٦) النجوم ١٥٦/٣ .

(١) عريب ص ٥٣ .

(٢) النجوم ٢٠٣/٣ .

(٣) الوزراء ص ٥٠ .

ومن الخبزِ ألف ثوب ، وخطف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تُسَنَج فيها الثياب التي للمبوسه<sup>(١)</sup> وملبوس حرّمه وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسي يتقاضون من الدواة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتعاونون مناصب هامة ، وكان منهم دائماً من يحج بالناس في كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقرّبين منهم إقطاعات وضياعاً كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التي كانوا يرثونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن علي بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق في كل سنة ٤ على شحّه - أربعين ألف درهم في صلوات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين<sup>(٢)</sup> وكان المعتضد يُجسّري على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثاً ألف دينار شهرياً ، وكان يُجسّري على أولاد الواثق والمهتدي والمستعين خمسمائة دينار في الشهر<sup>(٣)</sup> .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة في الدعة والنعيم ، وفي مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحياناً مائة دينار في الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة<sup>(٤)</sup> ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحياناً من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضي منصباً رفيعاً ، وكان يتقاضى راتباً عالياً مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير<sup>(٥)</sup> ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شيء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضاً أن منهم من كان مترفاً وسّع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضي بجلب والعواصم من أرض الشام إذ يروي المسعودي أنه « قطع لزوجته أربعين ثوباً تُسْتَرِيماً وقصباً (حريراً) وأشباه ذلك من الثياب في يوم واحد وخطف أموالاً عظيمة »<sup>(٦)</sup> .

٣١٤ ، ٢٠ .

(٥) الولاة والقضاة للكندي ص ٣٧٧ ،

٤٢١ .

(٦) مروج الذهب ١٧٤/٤ .

(١) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص

وكان يدخل في هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضياح الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون برعوس أموال ضخمة في مطالب تلك الطبقة من أدوات الزرّ والزينة ، وكان في مقدمتهم النخاسون الذين كانوا يجابون الرقيق والجواري من أطراف الأرض ، وتجار الطرّف النفيسة التي كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكفي أن نذكر ابن الحصاص التاجر الجوهري البغدادي الذي أشرف على جهاز قَطْرَ الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيا لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباه مئآت الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أُخِذَ منه من المال والجوهر ما عدّ بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليوناً من الدنانير ، ويقول المسعودي : «الذي صحَّ مما قبُض من ماله من العين (الذهب) والورق (الفضة) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار»<sup>(١)</sup>. وكانت كل طائفة من التجار تقيم في سوق واحد فيقال سوق النخاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطارون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهريين والصيدالة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبيارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التي صارت لإيهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد في عينه ، فأبى الطبيب الذي عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار<sup>(٢)</sup>. وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلوات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من عينية القوم مثل علي بن يحيى المنجم الذي أثرى ثراء طائلا من منادمته للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفي مقدمتهم علماء العربية والفقهاء والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

(٢) حكماء الإسلام للبيهقي ص ٢١ .

(١) مروج الذهب ٢١٨/٤ والنجوم

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفاناً من الخبز أحياناً ، وكانت هذه الرغفان تختلف اختلاف أسر الصبيان في الغنى والفقير ، ولذلك ضربت الأمثال في الاختلاف والتفاوت متفاوت رغفان المعلم واختلافها في الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدر له راتب شهري معلوم .

ويدخل في عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تتدفق عليه الأموال تدفقاً ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصاً بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا في بذخ وترف شديد ، أما عامة منهم فيسلكون في الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب في الدواوين ينظمون في الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون في الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة في دواوين الخراج ودواوين الجيش وفي أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفي البريد ودواوين الأخبار وفي المكوس والضرائب الجمركية . ويضمّ إلى كتّاب الدواوين وعمّالها رؤساء الجند ممن يسلّون القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقاً حسناً .

ومن هذه الطبقة أوساط الصنّاع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل في الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والبارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غداءهم بمطاعم في أسواقهم أو في دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا في المساء . وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجر وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين في تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصنّاع ، ونجد من كبارهم من كان يربح في صفقة واحدة ألوف الدنانير<sup>(١)</sup> ، أما أوساطهم

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري (طبعة

الجلي) ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم في تجاراتهم على ثلاثة آلاف دينار<sup>(١)</sup>، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفة في الأرباح . ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة في بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً ، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد<sup>(٢)</sup> . وفي الفرج بعد الشدة للتونخي خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه ، إذ يروى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار ، فبنى لنفسه داراً بألف دينار ، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعة آلاف دينار ، وأعطى تاجراً ألفي دينار ليتاجر له فيها ، وخزن عشرة آلاف للشدائد ، واشترى بالباقي ضيعة تُغِلُّ له في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته<sup>(٣)</sup> . وقد لا يصور ذلك حياة الطبقة الوسطى تماماً ، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة ، وكان يُعَدُّ من يقنئ سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة ، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك ، وهم الذين كانوا يندمجون في الطبقة الوسطى من الأمة .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهي التي كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة وفي الصناعات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور ، فهي التي تعمل في الإقطاعات والضياح ، وهي التي تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا ، عاملة تارة أو صانعة ، أو خادمة تارة ثانية . فكل ما تنقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدي هذه الطبقة العامة ، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء . ومرّت بنا في الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمرون الدولة تدميراً ، لشدة نقمتهم على الأوضاع التي كانت سائدة ، وما كادت تخدم حتى هبّت ثورة القرامطة ، وعنت بالدولة هي الأخرى عنفاً شديداً ، وشاعت معها فكرة المهدي المنتظر الذي ينشر العدالة بين الناس في الأرض ، ولو أن دعوة القرامطة وُجّهت توجيهاً سليماً على أساس العدالة التي

(٢) مصارع العشاق ص ١٥٩ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتونخي ١٧/٢ .

(١) البخل للجاحظ (طبعة دار الكتاب

المصري) ص ١٠١ .

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حده ، ولكنها وُجِهت توجيهًا خاطئًا على أساس دعرة باطنية ، حتى لكأنما مَحَى منها مقصد الإصلاح الاجتماعي ، ولذلك أخفقت إختناقًا ذريعًا .

وسائل شتى كانت تُبْتَسَرُ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون في الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيدًا لا يُتْرَكُ لهم إلا ما يسدُّ رمقهم ، وإن سده كان ذلك شيئًا كثيرًا . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والنفعلة والفِرَّاشون والبوابون وكل من يُؤلفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلَّغون به إلا نادراً وحين يعملون في الدواة بأجر مهما يكن طفيفًا ، لأنه يضمن لهم القوت اليومي . وكان مَنْ يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التي كانت تُفَرَّضُ حتى على الأسواق وما يُصنَعُ فيها وما يباع ويُشْتَرَى . ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجار بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة في عهد المعتضد إذ أرسلوا وفدًا كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينةنتهم من غلاء فاحش أملين أن يمدَّ الخليفة لهم يد المساعدة<sup>(١)</sup>

وكانت هذه الطبقة تعمل في كل المهن الحقيرة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحرِّفيين أو المهنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يتقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جودت الثقب وانظرْ أي نجار يدق فيها « الرِّزَّة »<sup>(٢)</sup> وكان من النجارين مَنْ كان للثقب ومَنْ كان لتركيب الرزة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب في أن ذلك هو الذي أدَّى إلى أن تنشأ في العالم العربي من قديم فكرة النقابات للحرِّفيين والصناع وإن كانت حينئذ

(١) بروج الذهب ١٤٩/٤ .

(٢) الحيوان ٢٧٦/٣ - ٢٧٧ .

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القَرَآدِينِ وأصحاب الملاهى الصغيرة الطَوَّافِينَ والحَوَّاثِينَ كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبتسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضاً كثير من رَاضَةِ الخيل والسوَّاسِ وأصحاب القنص والصيد بالكلاب والفهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمُكْنَدِينِ ، وكانوا حينئذ خليطاً من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقْسَى أو رُقِيَّة ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثر بها اللصوص ، حتى غدوا في أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم في كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروعة الفرسان ، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية<sup>(١)</sup> .

وراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم في ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يصفون ويحترسون ويحترسُ نساؤهم وأسراهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كيانهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤسائهم الدينيون : للنصارى مثلاً الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوصياتهم . تسامح لم يعترفه دين ولم تعترفه أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تعمهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدواة إلا ضريبة مالية محدودة هي الجزية التي لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلة لا بُرءَ منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين في كل ملة فلا يؤدون شيئاً ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدى ثلاثة دنائير لأصحاب

(١) انظر قصة خالد بن يزيد في مطالع كتاب البخلاء .

الثراء الطائل منهم، ودينارين لتوسطى الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسباً  
الأيضيرهم معه دفعه، وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثني عشر درهماً، وهذا  
دكل لما يدفعونه في العام المتطول، وهو في حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم.  
ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد في أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين  
ألف درهم ومائتي ألفاً<sup>(١)</sup>، مما يدل على أن دافعي الجزية في تلك الحقب كانوا  
لا يزالون على نحو عشرين ألفاً، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من  
النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً تبين أن عدد أهل الذمة  
حينئذ ببغداد كان لا يقل عن نحو ستين ألفاً. وكانوا جميعاً يشدُّون إلى  
أوساطهم زناير أشبه بأحزمة.

وكان أهل بغداد وغيرها ببغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة، فكانوا  
يوسعون لهم في كل عمل معهم، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم، إذا  
كانوا يؤثرونهم على الجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود، كما يقول الجاحظ في  
رسالته الرد<sup>(٢)</sup> على النصارى، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم  
في الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل  
العطارة والصيرفة، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلية القوم وأطباء البيارستانات،  
حتى استقر في أنفس الناس أن الطبيب الجاذب لا يكون إلا مسيحياً. أما اليهود  
فكانوا يعملون في أحقر المهن، حتى ليقول الجاحظ في الرسالة آفة الذكر:  
« لا تجد اليهودى إلا صباغاً أو دباًغا أو قصاباً (جزاراً) أو شعاباً (مصلح  
جرار وأحذية) »؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنتم خلق الله فناء<sup>(٣)</sup>. وكان النصارى  
يتخذون أفخر الدواب والثيران والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالحة  
وحتى تسموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ  
ويأمر المتوكل لسنة ٢٣٥، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيالس العسلية

(١) كتاب الخراج القديمة (طبع ليدن) (١) (٢) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن)

ص ٢٥١ وابن خردادبة ص ١٢٠ (٣) ص ٦٦

(٢) انظرها في ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل



ويشدوا في أوساطهم الزنابير وأن يركبوا السروج برّيب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومن لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرين ، وأمر أيضاً أن يجعلوا رقعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسلياً ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسلياً وأمر بهدم بيّعتهم وكنائسهم المحدّثة وألا يُستعان بهم في الدواوين وأعمال الدولة، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين<sup>(١)</sup>.

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجدته هو نفسه يجعل النفقة في سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفري بيد دليل بن يعقوب النصارى كاتب بعا<sup>(٢)</sup>. وكثر أهل الذمة بعده في الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة في سنة ٢٧٢ للهجرة تنور عليهم<sup>(٣)</sup>.

ويعظم أمر أهل الذمة في أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم في الكتابة وفي أمور المسلمين فيأمر المقتدر سنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا في الطب والجهينة وأن يطالبوا بلبس العسلي وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهورهم<sup>(٤)</sup> ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعاً<sup>(٥)</sup>.

وواضح من هذا كله ما يدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأمر التي كانت تصدر أحياناً بالتشديد عليهم لم تكن تنفّذ، وأنهم كانوا يعملون في مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم - وخاصة من النصارى - يعيشون في نعيم غلق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

(٤) النجوم الزاهرة ١٦٥/٣ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٤٥ وانظر ص ٩٥ .

(١) طبرى ١٧١/٩ وانظر ١٩٦/٩ .

(٢) طبرى ٢٧٢/٩ .

(٣) طبرى ٩/١٠ .

## الحضارة والترف والملاهي

رأينا تفنن الخلفاء والوزراء في بناء القصور ، حتى يشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات ، مع التأنق في أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر

وقد افتتح العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التي كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكنى لتصور ما كان في عصره من بذخ وترف شديد أن نروي ما قصه الرواة عن حفلة الذي أقامه بمناسبة إعدار ( ختان ) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس في خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصر البركوار الذي أقام فيه الإعدار ، وأن يكون في طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطاً مذهباً مبطناً ، يقال إن التجار قوموه بعشرة آلاف دينار . وبسط في الإيوان ووضع للمتوكل في صدره سرير ، مُدَّ بين يديه أربعة آلاف مرفع ( كرسى ) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والند والكافور . ومدت الموائد وتعدت للمتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأحضرت الأمراء والقواد والندماء فأجلسوا على مراتبهم ، وجمى بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صببت فيها حتى ارتفعت . ووزع الغلمان الشراب ، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملت يده من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه في أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدرهم حتى يعود كما كان . وخلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُمَلوا عند انصرافهم من الحفل على الخليل المطهّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان في صحن الدار بين يدي الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . ترف لا يماثله ترف ! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجته قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا في جانبه من العلمان وبعض الجنود وقهارة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مال ينفق ويبيع بدون حساب ، وكأما أمسك به سفهاء ، لا يعرفون حقوقاً لرعية ولا يقدرّون مسئولية . وحضر الحفل كثير من الندماء في مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء في مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين في مقدمتهم عمرو بن بانة وابن المكي وعشعث وسليمان الطيال وصالح الدفاف وزنّام الزاير ، وكثير من المغنيات في مقدمتهن عريب وبذعة جاريتها وشاربة وجواريتها . ويقال إنه أنفق على هذا الإعذار أو الختان ستة وثمانون مليوناً من الدراهم <sup>(١)</sup> . سفه ما بعده سفه ! وعلى هذا النحو كانت ملايين الدراهم تنفق بدون حساب وبدون أي رقابة في حفلات القصر ، وهي حفلات أمدّت القصر في كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع في الخيال الواهم من بلذخ وترف لا يضاف له ، وبدلاً من أن توجه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش في حروب الترك والبيزنطيين كانت تبيد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشقى ويسبل عرقه مديراً ويتجرّع غصص اليأس والحمرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شاء تبنّى وينفق فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هي تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنشَر حمول الذهب والفضة . ويروي أن المتوكل شرب يوماً في القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار ، فقال لندماهه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرايم إن عملنا احتفالاً بالورود

(١) الديارات للشابقي (الطبعة الثانية)

أور كما نطقه بالفارسية : « شاذ كلاه » ، فقالوا له : لا يكون الشاذ كلاه إلا بالورد ،  
 وليست الأيام أيام ورد فقالوا ادعوا إلى عبيد الله بن يحيى - وكان أحد وزراءه -  
 فحضره فقال لهم : اضرب لي دراهم ، في أكل درهم حبيتان من الفضة ، فسأله :  
 بكم المقدار يا أمير المؤمنين ، فأجابهم خمسين مائة درهم ، فأمر عبيد الله بضربها ،  
 فضربت وأبنا المتوكل بضربها ، فقال له : اصنع طائفة منها بالحجرة وطائفة  
 بالصفرة وطائفة بالسواد ، وأترك طائفة على باطلها ، فصنع عبيد الله أمره به ،  
 ثم تقدم المتوكل إلى خدمه وجواشيه وكانوا سبعمائة - فأمرهم أن يعد كل منهم  
 قباء جديداً وقلنسوة بخلاف لون قباء صاحبه وقلنسوته ، ففعلوا ، ثم تجسّن يوماً فيه  
 ريح ، فأمر أن تنصب قبة لها أربعون باباً ، فاصطحب فيها والندماء حوله ،  
 وعلى الخليم الكسوة الجديدة ، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، طائفة طائفة ،  
 فشربت تباعاً ، وكانت الريح تحملها خلفتها ، ففتطير في الهواء كما يتطير  
 الورد (١) في الورد (٢) ، فقلعه قبضه في ، فكانت قبة من الملائكة ، ورمى كاله

وكل هذا من الفراغ ومن الترف المفرط ، فإذا الخلفاء ينعمون بالحياة إلى حد  
 السفة والهوس . وطبقات من ورائهم قتر عليها في الرزق ، فهي تعيش في ضنك  
 وضيق شديد . ولعل هذا هو السبب في أن الشعب لم يهتم أي اهتمام بما كان يجري في  
 القصر من تحكّم الأتراك في الخلفاء ، كأنهم لا يعنونهم في شيء . وكل يوم  
 يسمعون بجديد من هوسهم وسفههم ، كان يسمعون بأن المتوكل حين انتهى من بناء  
 قصره الجعفرى استدعى أصحاب الملاحى ، فقدموا له بعض المساحر والملاعب  
 المضحكة ، ومنحهم مليونين من الدراهم . ويحق يقول المسعودى إن التفقات  
 لم تبلغ في وقت من الأوقات ما بلغت في أيام المتوكل (٣) . وكان أكثر أبنائه على غراره  
 من مثل المعتز ، وكان يكثر من عقد مجالس الشراب في قصوره ، وهو أول من  
 ركب من الخلفاء مجلّة الذهب (٤) . ولم يتوقف هذا البذخ والترف طوال العصر ،  
 ويصور ذلك من بعض الوجوه استقبال المقننر لرسول ملك الروم سنة ٣٠٥ للهجرة  
 وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة ، إذ فرشت قصوره بأجمل الفرش وميلت دار الخلافة

(١) الديارات ص ١٦٠ . (٢) مروج الذهب ٣٩/٤ . (٣) مروج الذهب ٣٩/٤ . (٤) طبرى ٢١٢/٩ .

ودها ليزها وممراتها وصحونها بالهند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب الشَّمَّاسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفاً بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عددُ الغلمان سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب بالبِزَّةِ الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان في دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبَّارات والزلاجات والسَّمَّيريات ( سفن شتى ) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصلوا إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدُّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالديبقي المطرز ، ثمَّ أدخلوا قصر الشجرة ، وهي شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصناً عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تمايل وورقها يتحرك على نحو ما تُحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثمَّ أدخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقوِّم ، وفي الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة<sup>(١)</sup> ، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابي جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسي مرتفع في عرش أرنى من الحرير أو من الخز وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم ( الحرير ) وعلى رأسه معمة سوداء ، ويتقلد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خُفّاً أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُرْدَة النبي صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم الطَّبْرَزينات والدَّبَّابيس ( من أسلحة الحروب ) . وكان يقوم من وراء السرير وجانيه خدم صقالية يذبون عن الخليفة بالمذابِ المقمَّعة بالذهب والفضة ، وتُمدَّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أريد صَرْفهم مُدَّت . ورُتَّب في الدار قريباً من المجلس خدم بأيديهم قِسيُّ البندق يرمون بها الغربان والطيور لئلا ينعب ناعب أو يصوت مصوت . ترف ليس فوقه ترف ، حتى أذن الخليفة يجرسونها من أصوات الغربان والطيور ! وكان زى الأمراء من أهل البيت العباسي الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطبالسة

(١) رسوم دار الخلافة للصابي ص ١١ وما بعدها  
والتجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة<sup>(١)</sup>. ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطنة وخفياً<sup>(٢)</sup> وكان السود هو اللباس الرسمي العام، وكانوا يلبسون في أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنابير. وفي يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القبايا الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة، وأمامه الحجاب ونوابهم، ويجلس في الدهليز من وراء الستر، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة، فإذا أذن الإذن العام دخل وحده حتى يقف في الصحن ويقبل الأرض، ثم يؤذن له بتقديم الناس، فيخرج ويدعو ولي العهد إن وجد، وكذلك أولاد الخليفة، إن كان له أولاد، ثم يدخل الوزير، ويمشى الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش، فإذا قرب تأخروا عنه، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فلن مدّ يده إليه أخذها وقبّلها وتراجع حتى يقف في يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب، ثم القواد ونواب الحاجب على مراتبهم، ويقفون يميناً وشمالاً على رسومهم، ثم ينادى على بنى هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين، ثم يقع الإذن العام فيدخل الخند ويقفون صفين. وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون في الحكم ولا يشاطرون فيه، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام. وكان للوزراء بالمثل مواكبيهم، وكذلك كان للقواد، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشى في موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل<sup>(٣)</sup>.

وكان يرافق هذه الأبهة أبهته في المسكن والملبس والمطعم، فكانت الستور الجميلة تعلق دائماً على حيطان المسكن، وكانت تُفترش أرض غرفه وممراته وصحونه بالبسط والسجاجيد، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والنارق، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظاً شديداً، ويصور ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّخَجِيِّ أحد كبار موظفي الدولة، وصادر أمواله،

(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠.

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠.

(٢) كتاب الوزراء للصابي ص ٣٢٥.

خملت فُرش من أمتعة من داره على خمسين بعيراً<sup>(١)</sup>، فما بالناب بما كان في قصور  
الوزراء، فضلاً عن الخلفاء، من فرش فخمة. وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا  
يهتمون بالثياب، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها، وكان الصناع يتفنون  
في صنعها من الحرز والذبياج والحرير. ويروى صاحب الديارات أن المتوكل جلس  
يوماً في أحد قصوره على عرش من الذهب وعليه ثياب وشى مشقة، وأمر ألا  
يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشى مثله<sup>(٢)</sup>، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم  
ثياب حمراء موردة<sup>(٣)</sup>. ويقال إن المستعين هو الذي أحدث لبس الأكام الواسعة  
فجعل عرضها ثلاثة أشبار، وصغرها القلائس، وكانت طويلة كأقباغ القضاة<sup>(٤)</sup>.  
وكان المعتضد يلبس الثياب الدبقية الرفيعة التي كانت تُصنع بمصر والثياب الحريرية  
التي كانت تُصنع بمدينة تَسْتَر وغيرها من المدن الفارسية<sup>(٥)</sup>، ويروى أن إسحق بن  
إبراهيم المصعبي حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانه معنى العنصر  
عشرة أثواب حرز أقلها قيمة بمائة دينار<sup>(٦)</sup>، وكان الخليفة على بغداد محمد بن  
عبد الله بن ظاهر يتأنق في ثيابه، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوشى قيمتهما  
ألف وخمسمائة دينار<sup>(٧)</sup>، وهو بنا أن الراسي والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه  
ثيابه وثياب خواشيه وأصحابه. وكان الشعراء مثلهم مثل المغنين يلبسون الحرز والوشى  
والثياب الحريرية<sup>(٨)</sup>. وكانوا يلبسون في الشتاء القراء والثياب الصوفية، واشتهر ثوب  
باسم المنظر كان يُصنع من القماش المشمع للوقاية من المطر، وثرى البخري  
يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه<sup>(٩)</sup>. ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية  
والحريرية والأحذية الحمراء<sup>(١٠)</sup>. ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون في اقتناء الحجارة  
الكريمة، إذ نرى نفراً منهم حين تصادر أمواله تصادرت بينها جواهر ثمينة تبلغ  
قيمتها ألاف الدنانير<sup>(١١)</sup>، وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف،

(١) مطبوع ١٩٠٩/٩، ص ١٣٠، الديارات ص ٢٠٣، الديارات ص ٢٠٣، الديارات ص ٢٠٣، الديارات ص ٢٠٣، الديارات ص ٢٠٣

(٢) الديارات ص ١٣٠، الديارات ص ١٣٠، الديارات ص ١٣٠، الديارات ص ١٣٠، الديارات ص ١٣٠

(٣) الديارات ص ٥٧، ديوان البحري (طبع دار المعارف) ١٩٢٠/٢

(٤) خروج الذهب ٩٤/٤، تاريخ بغداد ١١٠٦٦/١١ والأغانى ٨٥/٦

(٥) مروج الذهب ١٠٦٨/١٠٦٨، طبوى ١١٦١/٩، طبوى ١١٦١/٩

(٦) الديارات ص ٤٤، الديارات ص ٤٤، الديارات ص ٤٤، الديارات ص ٤٤، الديارات ص ٤٤

ويُدكَرُ أنه كان عند المستعين فصَّ ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار<sup>(١)</sup>، ويروى أن المقندر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سُبُحَةً يسبح بها وعرضت على تجار الجواهر فقوِّموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد<sup>(٢)</sup>.

وكان النساء حرائر وجوارى يبالغن في أناقتهن وزينتهن، فكان يلبسن ثياب السملن والإستبرق والوشى النفيس من كل لون وكن يتجلين بالجواهر من كل صنف: من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ، وكن يتخذن منها تيجاناً وعموداً وأقراطاً وخلائج، وكن يصنعنّها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن. ويروى أنه كان لدى أقيحة زوجة المتوكل وأم المعز ثلاثة أسفاط: سَفَطٌ مملوء زمرداً، وسَفَطٌ مملوء ياقوتاً، وسَفَطٌ مملوءاً ذُرّاً كبيراً، وقومت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير. وكان النساء يتخذن أمشاطاً من الصدف والصندل<sup>(٣)</sup>.

وكن يفتنن في أوضاع شعورهن على رؤوسهن وجباههن، وقد يلوينها على أضدادهن في هيئة حرف النون أو على هيئة العنبر، وفي ذلك يقول ابن المعز<sup>(٤)</sup>:

لوكى صدغه كالنون من تحت طره ممسكة تزهي بعاج جبين  
ويقول أيضاً<sup>(٥)</sup>:

رسم يتيه بحسن صورته عبت الفتور بلحظ مقلته  
وكان عقرباً صدغه وقف من لادننت من نار وجنته

وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعز في البيت الأول وبطيب الغالية والزعفران والعنبر. ويقال إن عتريب المغنية المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سن عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه في كل أسبوع بستين مثقالاً من المسك والعنبر<sup>(٦)</sup>. ويقول الجاحظ: إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهوى ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتعمرها

(١) مروج الذهب ٤/٨٣. (٢) ديوان ابن المعز (نشر دار صادر بيروت).

(٣) طبري ٩/٣٨٥، ١١٠٠، ص ٥٢٤، (٤) ديوان ابن المعز (نشر دار صادر بيروت).

(٥) نساء الخلفاء لابن الجاهلي، (طبع دار)، (٥) الديوان، ص ١٠١، (٦) الجاحظ، ص ٢٠٠.

(٦) المعارف، ص ٥٦٦، (٥) أغاني (طبعة العاصم)، ٨٨/٨٧، (٦) الجاحظ، ص ٢٠٠.



بالطبيب العَبَّيق<sup>(١)</sup>. وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا في المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التي ألفت حينئذ في فن الطبخ للحارث بن بُسْخَنَر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولى ولعلي بن يحيى المنجم ولجَحْظَةَ البرمكى وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست<sup>(٢)</sup>، وكان الخلفاء يأكلون في آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتفى كانت تقدّم على مائدته عشرة ألوان في كل يوم سوى صنوف الحلواء<sup>(٣)</sup>، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدر بثلاثين ديناراً<sup>(٤)</sup>، ويقال إن ثمن المسك الذي كان يُنْفَقُ يومياً في مطبخه عشرة دنانير<sup>(٥)</sup> فما بالناس بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . . وبالمثل كان الوزراء يسرفون في الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومرّبنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها في كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابى في كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جدياً غير المئات من الدجاج ، وكان الخبّازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابى مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من أصفيائه الكتاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ، ثم يُجْعَلُ في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سِكِّين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكثيرى ، ومعه طست زجاج يرْمَى فيه بالثفل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شبات الأطباق وقُدِّمَت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشاةً بدبقي فوق مكتبة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) آدم فاضلة عنها ، وحواليها مناديل . . . فإذا

(١) البخلاء (طبعة دارالكاتب المصرى) ص ٢٥ . (٢) مروج الذهب ٤/١٩١ .

(٣) الفهرست لابن النديم ( الطبعة الثانية ) (٤) عريب ص ١٨٣ .

(٥) المكتبة التجارية بمصر ) ص ٤٥٤ . كتاب الوزراء ص ٣٥٢ .

وُضعت رُفعت المَكْبَة ( غطاء الآنية ) والأغشية ، وأخذ القوم في الأكل ، وابن  
الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ  
وتُرفعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه  
ويغسلون أيديهم ، والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم  
المناديل الدبقيّة ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم<sup>(١)</sup> وكان  
العباسيين لم يتركوا للمدينة الحديثة شيئاً .

وكان في بيوت الكبراء شرابي يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح<sup>(٢)</sup> ، وكان  
بجانبه الشواء والطبخ والخبّاز والخبّاص وهو الذي يصنع الحلوى ، وفي كتاب  
البعلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السكّاج ، وهو  
لحم يُطبخُ بخلّ ويضاف إليه شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمضّيرة  
وهي لحم مزوج ببعض التوابل ، والشبارقات وهي شرائح مشوية من اللحم ، والطهاج  
وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والهريسة وهي لحم وماء وسميد إلى غير ذلك من  
أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من  
اللوز والدقيق والفسق وبيْرش<sup>٣</sup> بماء الورد ، ومنها الفالودج وهو حلوى من  
النشا وعسل النحل والسمن ، والخشّكان وهو كعك يُحشّى بالجزور والسكر .  
ثم الأشربة ومنها الجلاب وهو شراب مزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام  
المشهيّات ويسمونها النُقْل ، وكانت تتألف - كما في عصرنا - من أشياء حريفة .  
وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منشوراً في كتاب البعلاء للجاحظ وعيون  
الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء ، وفيه فصل طريف  
عن زى الظرفاء في الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، ودائماً  
نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماءه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ١١/٢ .

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

النوادر والفكاهات ومن يعرفون كيف يرضونه في مناعات صفوه وساعات سخطه ، وكانت تغمرهم الصلوات السنينة على نحو ما يروى عن علي بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديماً ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصّصت أسرق حمدون بهذه الصناعة ، وهي من سلاله حمدويه صاحب الزنادقة في عصر المهدي ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله في مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل (١) . ونجد في بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنيس الصيمري الذي قلده أمامه البحرى في إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل ، وفي مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودى بعقب ذلك : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس في أنواع من الأدب ، منها ملح النديم وذكر فضائله » (٢) ، ولا بد أن يكون كشاجم استفاد في كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائده كثيرة . وكان المعتصد يفرد حجرة للندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نويته أو دوره (٣) . واشتهر الراضى بأنه كان يوسع في مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في أى يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولى وواحد من بنى حمدون » (٤) . وكان للوزراء ندمائهم ، بل كان أيضاً لعلية القوم وكبار الموظفين في الدولة ، ويكنى أن تعرف مثلاً أن أحمد بن المدير كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينسبط إلى سواهم (٥) ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هي التي دفعت الجاحظ إلى كتابة مصنفه البخلاء للتسلية والتندير ، وكثر من حوله

(١) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١٧/٢ . (٤) مروج الذهب ٤/٢٤٤ .

(٢) مروج الذهب ٤/١٣٨ . (٥) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

(٣) تاريخ بغداد ٧/٢٨٠ . (٦) تاريخ بغداد ٧/٢٨٠ .

التأليف في المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات<sup>(١)</sup>، وكانوا يشغفون - وفي مقدمتهم الخلفاء - بضروب كثيرة من الملاحى ، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلىء باللعب والهزل<sup>(٢)</sup> ، ومن كان يعجب بهم أصحاب السهافة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلى ، الذين كانوا يقلدون الناس في حركاتهم وأصواتهم<sup>(٣)</sup> . وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرجون على نطاح الكباش والديكة<sup>(٤)</sup> وتواب السباع والفيلة . ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه ، حتى إذا كان بمجلسه أسمعته غناء شارية وزمرزنام ، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمي من نحاس يرسل فيها الماء فيسمع لها زمر السرناى (آلة من آلات الطرب) ، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها الفيل والسبع كيف يتواثبان<sup>(٥)</sup> . ومن أهم ملاحيم لعبة الشطرنج ، وكان من يحسنها تفتتح له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبي القاسم التوزي الشطرنجى ، ومثل محمد بن يحيى الصولى ، ويقال إن المكتفى استفيد منه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج ، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردى ، ولكن الصولى قهره وغلبه<sup>(٦)</sup> . ويحدثنا المسعودى بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان

يلعب على رقعة آدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلته وأنواعها واختلاف هيئاتها ، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدورة ورقعة نجمية وتسمى الفلكية . ويقول المسعودى إنه استحدثت في زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سموها كل بيت من آياتها باسم جوارح الإنسان ، ويقول إن للاعبين وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة . وكانوا يقامرون ويبراهنون في لعبة الشطرنج ، وكذلك في لعبة النرد (الطاولة) ، وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

(١) الفهرست ص ٤٤٩ .  
 (٢) مروج الذهب ٤/٤ . تسمى غير الحيوان . انظر الأغاني (طبعة

(٣) الديارات ص ٣٩ .

(٤) مروج الذهب ٤/٣٠٣ .

(٥) الديارات ص ١١٠ .

(٦) مروج الذهب ٤/٢٣٣ .

بها أربعة وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصين يجرى بهما اللعب كما هو معروف في عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغولاً به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروي صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً<sup>(١)</sup> .

واعلم ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون في تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الحيالة والفرسان ، وكانت في دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة<sup>(٢)</sup> ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويروى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميداناً في داره يوم الجمعة ليضرب الصوالة مع بعض غلمانه ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتاً<sup>(٣)</sup> . ويصور ابن قتيبة هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خلسةً من تحت مخزّم الدابة لتقاء لبنتها ، وعليه أن يحسن كفة الدابة في شدة جريانها متوقياً من الصرعة والصدمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقنص أفواجاً ، واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفاً به المعتضد « وكان كالمعتصم في أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء في محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفك من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسد ، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها باقية »<sup>(٤)</sup> وكان ابنه المكتفي مشغولاً مثله بالصيد « وكان أكثر ما يُد منه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبباً الضواري والحوارح ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتحنها فيه لشدة الشغف به

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٣٨ .

(١) كتاب الديارات ص ١١ .

(٤) المصايد والمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص ٥٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .

والارتياح إليه»<sup>(١)</sup>. ومنذ أبي نواس والشعراء يكثر من النظم فيه بجميع صورته ، ويعرض كشاحم آلاته عرضاً مفصلاً في كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطرديات . ومن طريف ملاحظتهم المهارشة بين القردة والفيلة<sup>(٢)</sup> .

وكانت العامة تجد تسليتها المحببة عند قُصَّاص كانوا منتشرين في طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لئرى المعتمد يأمر في سنة ٢٧٩ بالنداء في بغداد ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاصٌّ ولا صاحب نجوم ولا زاجر<sup>(٣)</sup> . وكان اللعب بخيال الظل معروفاً حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك<sup>(٤)</sup> . وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفنون في طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازين ببغداد من الأعراب والحراسانيين والزوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعاً ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير<sup>(٥)</sup> . ومن أشهر هؤلاء الحكَّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلي ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخباراً ونوادر ومضاحك ، وكان في نهاية الحدق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابي أو مكى أو نسجدي أو تركي أو نبطي أو زنجي أو سندي إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو مئاسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه<sup>(٦)</sup> .

(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٩ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .

(٢) الحيوان ٧/٦٢ .

(٣) طبرى ١٠/٨٠٤ والنجوم الزاهرة ٣/٨٠ .

## الريقيق والحوارى والغناء

كان الريقيق منتشراً في كل مكان ، في التصور وفي الأكواخ وفي الصناعات وفي الزراعة ، وكان كثيراً كثيرة مفرطة ، فنه السندی ومنه الإفريقي الزنجي والحبيشي والسوداني ومنه التركي والصفلي ، ومنه الصيني والحراساني والأرمني والبربري ، وكأعمال كانت تجمبع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ في الحرب أسيراً كافراً ، فقد مضى المسلمون — محايين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية ، وكانهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً ، بل لقد شاركهم فيها . ولم تلبث تجارة الريقيق في ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى أيسبى لها في كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيسم الريقيق . ويذكر اليعقوبي أن سوق سامراء في القرن الثالث الهجري كانت مربعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الحمر والغرف والحوانيت (١) .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الريقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الحنث في اليمين ، وأباح للعبد حتى التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدخره من العمل ، حتى إذا وقاه ردت إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا إلى أعظم المناصب في الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء من يثمتعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر ، غير أن جمهوراً كثيراً منهم كان يعامل معاملة سيئة ، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة في البصرة ، مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد — كما مر بنا — ثورة عارمة . ولا ريب في أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضاً من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم ، فقد دعا القرآن

(١) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٩ . (٢) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٩ . (٣) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٩ .

والحديث جميعاً إلى الإحسان للأرقاء والبرِّ بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا في آية سورة النساء: (وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى . . . وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) ، وفي الحديث النبوي: « شر الناس من أكل وحده ومنع رِفْدَه (عطاءه) وضرب عبده » ، وفيه أيضاً: « العبيد إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده ، وليس له حق بيعها ، وابنها حر مثل أبيه ، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة . وفي مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد ، ولذلك كان كثيراً ما يوصي الرسول من ملكوهم بعقبتهم بعد موتهم ، ويُرَوَى أن المعتصم أوصى بعد موته بعق ثمانية آلاف من مماليكه ، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة .

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة ، وكان أهم ما يقومون به في المدن الخدمة ، ويقول المسعودي إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالية أو الروم أو الصين<sup>(١)</sup> . ويبدو أن جمهورهم كانوا من الحصيان ، ومع أن الإسلام حرّم الخساء تحريماً باتاً نجد الحصيان منتشرين في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً . وكانوا يُخصَّصون خارج حدود الدولة الإسلامية : في بيزنطة وأواسط آسيا ، ثم يُجلبون ويباعون في أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد ، ويتردد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثاني الهجري . « وكانت انتشارهم باعثاً على أن تلبس بعض الجوارى المسمَّين بالغلأميات ملابسهم ، وترتبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رآته يستكثر من الحصيان اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رعوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ( صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهها بالفتيان ) وألبستهن الأقفية والقراطق والمناطق ( ملابس الفتيان ) فاستقلودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إلى ابنها الأمين ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس »<sup>(٢)</sup> فقنلده كثير من أهل بغداد ، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

(١) مروج الذهب ، ١٥٨/٤ .

(٢) مروج الذهب ، ٢٢٦/٤ .



سنة ٣٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى في قصره جواري يلبسن القراطئ والأقبية والطَّرّ ومناطق الذهب والفضة<sup>(١)</sup>.

وكثرة الخصيان هي التي هيّأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفي أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان في قصر المقنذر أحد عشر ألف غلام خصي<sup>(٢)</sup>. ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس - احتراماً لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك - يسمون الخصى الخادماً والأستاذ<sup>(٣)</sup>. ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفاً من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم : يا عقيق<sup>(٤)</sup>. ويروى المسعودي أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعاً يصيحون بهم : « يا عقيق صبّ ماء واطرح دقيق يا غاق (صوت الغراب) يا طويل الساق<sup>(٥)</sup> ». وكان المضحكون الهزليون في الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم<sup>(٦)</sup>.

وكانت الإماء والجواري في الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يملك ما شاء من الجواري والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللاتي يقترنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، بخلاف الجارية فإنها كانت معرّضة لهم في دور النخّاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها في أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يضطّرون لاتخاذ دلائل يصفونهن لهم ، ولما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجواري المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والحراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، فكن يستأنرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجوّاري والإماء هذا التعدد ، وأكبوا عليه إكباباً .

(٤) طبري ١٠/٥٣ .

(٥) مروج الذهب ٤/١٧١ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٦٣ ، ١٦٤ .

(١) مروج الذهب ٤/٢٢٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٧٨ ، ١٨٠ .

وكان إمامهم في ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهن أربعة آلاف جارية (١) ، وهي رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهدها عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا ووصيف ووصيفة ، وكان في الهدية محبوبة (٢) . وكانت شاعرة مغنية ف وقعت عنده أعظم موقع واقترن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويروى أن زيادة الله بن الأغلب أهدي المكنى حين ولي الخلافة مائة وخمسين جارية (٣) . ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء في العصر كُنَّ من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنَّ يتدخلن في شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم في المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهد فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الرومي المسمى غريباً في النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بني هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل - كما مر بنا في غير هذا الموضع - أن تقعد في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الحديدات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات ، حتى لقد كانت رعوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخّاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار (٤) ، ويذكر أبو الفرج الأصبهاني عن نخّاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوارهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبي عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

(١) مروج الذهب ٤٠/٤ .

(٢) أغاني (سامى) ١٣٢/١٩ ونساء

(٣) مروج الذهب ٤٠/٤ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار

المعارف) ص ٤٢٦ .

الخلفاء لابن السامى ص ٩٢ .

لقائها وصعب عليه الصبر عنها ، فأنى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبته ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكى أبو عمير قليلاً لأتيناه من طريق العيادة  
ففضينا من العيادة حقاً ونظرنا في مُقلتي عباده

فقال أبو عمير : مالى ولك يا أخى ، انظر في مُقلتي عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا في عافية لا تتمنّى لى المرض لتعودنى<sup>(١)</sup> . وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبى عمير حين أمت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحدلون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريتهم ، مما كان يكلفهم أموالاً كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ فى رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس « أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يقصدُ بها الخلفاء والعظماء فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يُحمّل على الصلة ، ويهدى إليه ولا تُقضى منه الهدية »<sup>(٢)</sup> . ويصور الجاحظ تفنن الجارية فى اللعب بألباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسّت أنه وقع فى الشراك أوهمتها أنها تعلّقت به وأنه شجّجوها فى فكرها وضميرها وليلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تبتغيه لماله وهداياها وإنما لنفسه ، ثم جمّسته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزودته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته فى بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يتسعرنّ قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفى ذلك يقول على بن الجهم متحدثاً عن جوارى نخّاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن<sup>(٣)</sup> :

أوانس ما فيهنّ للضيف حشمةٌ ولا ربهنّ بالمهيب المَبجّل

(١) أغاني (ساسى) ٤٣ / ٢٠ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .

(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمى العربى بدمشق) ص ٥٢ .

يُسْرُ إِذَا مَا الضَّيْفُ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَيَغْفُلُ عَنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَغْفُلٍ  
وَلَا يَدْفَعُ الْأَيْدِي السَّفِيهَةَ غَيْرَةً إِذَا نَالَ حِطًّا مِنْ لِبُوسٍ وَمَأْكَلٍ  
لَكَ الْبَيْتُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً وَدُمْتَ مَلِيًّا بِالشَّرَابِ الْمَعْسَلِ

وكان دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلن إلى رؤاؤه .  
وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب  
والشعراء بجمالهن وعدوية حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنن نظم الشعر مثل  
فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسي يُعنى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح  
ذلك من كثرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر في الفن الموسيقي على نحو  
ما يتضح في أوائل ترجمة إسحق الموصلي في كتاب الأغاني وكذلك ما ساقه منها  
كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية في هذا التأليف  
منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا  
التأليف في القرن الثالث ، وخاصة في بيئة المتفلسفة مثل الكندي وله في الموسيقى  
كتب مختلفة (١) ، وكذلك لتلميذه (٢) أبي الطيب السرخسي ولقسطا (٣) بن لوقا  
البلعبيكي ، فلكل هؤلاء مؤلفات في الموسيقى أحصاها ابن النديم في فهرسته .  
وخلف من بعدهم الفارابي بأخرة من العصر فأراني على كل سالف وخالف من  
اليونان والعرب جميعاً على نحو ما يتضح في مصنفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد  
استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق  
ابن النديم كتب المتفلسفة في الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفي الغناء والمغنين  
والمغنيات ، ولإسحق الموصلي في ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه في القرن  
الثالث على التأليف في هذا الفن بتدل (٤) ، وكان لها كتاب في الأغاني يشتمل  
على اثني عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد  
في الأغاني مشهور (٥) ، ومن ذكرهم ابن النديم التصني وله كتاب في الأغاني ألفه

(٤) الأغاني (سأسي) ١٥ / ١٣٨ .

(٥) الأغاني (سأسي) ١٦ / ١٣١ .

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .

(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .

(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .

على حروف المعجم للمتوكل<sup>(١)</sup>.

ومنهم جحظة وله كتاب في الطنْبُورين<sup>(٢)</sup>، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وبن بانه كتاباً في الأغاني يُعدّ من الأصول المهمة فيها<sup>(٣)</sup>، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكي كتاب سماه المجرّد في الأغاني كان يحتوي على أربعة عشر ألف صوت<sup>(٤)</sup>، وكان لمحمد بن علي بن أمية المعروف باسم أبي حشيشة كتاب في أخبار الطنْبُورين<sup>(٥)</sup>. وعمل في هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فُرساً وغير فرس، بل إن منهم من اخترع بعض الآلات مثل زُنام الزامر، فقد اخترع نايّاً نُسب إليه، فقيل ناي زُنامي<sup>(٦)</sup>. ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك في وضع أصواته مثل المنتصر<sup>(٧)</sup> والمعتز<sup>(٨)</sup> والمعتد<sup>(٩)</sup> وابن المعتز<sup>(١٠)</sup> وعبيد<sup>(١١)</sup> الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحاناً كثيرة في صوت واحد، وكانت له كتب في النغم وعلل الأغاني.

وكانت تتقابل في الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تتمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلي، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفني في الغناء أصواتاً وأنغاماً وألحاناً ويمثلها إبراهيم بن المهدي، ويحكى أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفان في مدلول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلاً أولاً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً ثانياً وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلاً ثانياً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً أولاً وخفيفه، ويقول أبو الفرج: «وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعمارهما في تنازعهما فيهما، حتى كان يمضي لهما

(٧) أغاني (دار الكتب) ٣٠٩/٩ وانظر

في أصوات أخيه أبي عيسى الأغاني ٢٠١/١٠.

(٨) أغاني ٢٠٥/٩.

(٩) أغاني ٣٢٣/٩.

(١٠) أغاني ٢٧٧/١٠.

(١١) أغاني ٤٠/٩ وما بعدها.

(١) الفهرست ص ٢١٤.

(٢) الفهرست ص ٢١٤.

(٣) أغاني (دار الكتب) ٢٦٩/١٥.

(٤) أغاني ٣١١/١٦.

(٥) الفهرست ص ٢١٤.

(٦) تاج العروس للزبيدي ٣٣٠/٨.

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهم ومكاتبتهم في قسمة وتجزئة صوت واحد<sup>(١)</sup> . وقد توزعاً المغنين والمغنيات في القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق ، ومن رأى التجديد والتغيير في الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدي . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك ، فمن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين في هذا العصر أحمد بن يحيى المكي ، وله ترجمة<sup>(٢)</sup> في كتاب الأغاني وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يخذ الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد . ومن كان ينهج منهج إسحق بنان ، وكان أخص الناس بالمتوكل والمنتصر ، وكان إذا اجتمع هو وزمام الزامر على الضرب بالعود والزمير أحسنًا وقتنا وأعجبًا . ومنهم أيضاً عبد الله<sup>(٣)</sup> بن أبي العلاء ، وقد عُمر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوم دابته وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابهين . ومن كان على نهج إسحق أيضاً القاسم بن زرور وولده وجواري آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه<sup>(٤)</sup> . ومن كان على مثاله أيضاً الزبير بن دحمان ، وكان متعصباً لإسحق ، في حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدي ، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكره ، يقول أبو الفرج : « فعلا الزبير بتقديم إسحق له » لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه<sup>(٥)</sup> ، وكان أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئاً خاصاً بالغناء ، بل كان عاماً فيه وفي الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعاً يستمسكون بالتقاليد الموروثة . ومن كان ينزع مترع إبراهيم بن المهدي ورغباته في التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيساً به ، ونال منه جوائز كثيرة « وكان يذهب بمذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدي عليه »<sup>(٦)</sup> ، ويقول أبو الفرج إنه علم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه في مذهبه محمد بن الحارث بن بسخر ،

(٤) أغاني ( دار الكتب ) ٧٠/١٠ .

(٥) أغاني ( ساسي ) ١٤٤/٢٠ .

(٦) أغاني ( دار الكتب ) ٢٦٩/١٥ .

(١) أغاني ٩٦/١٠ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣١١/١٦ .

(٣) أغاني ساسي ١١٤/٢٠ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : « أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدي ومن بحره استقى » ، وكان يُغَنَّى على المعزفة فنقله ابن المهدي إلى العود وواظب عليه حتى حدقه<sup>(١)</sup> ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكباً ، وخرَّج كثيرات من الجوارى اللاتي برعن في الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزبيين : حزباً يتبع إسحق الموصلى وحزباً يتبع إبراهيم بن المهدي كذلك كانت المغنيات ، ومن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عريب وجواريتها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ، وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها<sup>(٢)</sup> ذكر في صدرها أنها كانت نهاية في الجمال والظرف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاها المراكبي وكان عمرها سبعة عشر عاماً ونظمها في جواريه الغلاميات ، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته ، وظلت تغنى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتد ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذي صنعه فأخذ منها دفاترها وصُحُفها التي كانت سجلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جارتها بدعة<sup>(٣)</sup> بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلى ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب في شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفاً ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهرأً وضياعاً وعقارات . أما اللاتي كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدي فعلى رأسهن شارية<sup>(٤)</sup> جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذا خرَّجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعها له ضناً بها ، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتر يأنس لغنائها ، وطالت حياتها حتى لحقت المعتد ، وكان يأبى أن يلحن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمرها ذات مرة وقد غنته صوتاً بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواريتها اللاتي

١٥٠/١٠ والهمداني ص ١٥ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣/١٦ وما

بعدها .

(١) أغاني (ساسي) ٨٢/٢٠ .

(٢) أغاني ١٧٥/١٨ وما بعدها .

(٣) أغاني ١٢٥/١٩ وعريب ٣٨ والطبري .

اشتهرن بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدي : مهرجان ومطرب وقمرية وشرّة  
وقد اشترها المعتمد بعشرة آلاف دينار

ومن كنّ يحسنّ الغناء فريدة<sup>(١)</sup> زوجة المتوكل وجاريتها محبوبة<sup>(٢)</sup> وقلم<sup>(٣)</sup>  
الصالحية وشاجي<sup>(٤)</sup> جارية عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نسب  
إليها كل ما صنعه من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء  
على الطنبور في مقدمتها أبو حشيشة<sup>(٥)</sup> الطنبوري الذي عاش إلى عصر المعتمد ،  
وسليمان<sup>(٦)</sup> بن القصار الطنبوري ، وكان المعز أنيساً به ، ويقال إنه غناه يوماً  
صوتاً فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضرب لخزائنه ، وجمحة البرهكي وله  
ترجمة طويلة في معجم الأدباء ، وعمر<sup>(٧)</sup> الميّداني ولم يكن في الطنبوريين أصح غناء  
وأكثر تصرفاً منه ، وعبيدة<sup>(٨)</sup> الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور  
إتقاناً بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة  
أربعاً هي العود والحنك والقانون والمزمار ، وقد يوضع مكان القانون الطنبور<sup>(٩)</sup> .  
وكثيراً أيضاً ما كان يقترن الغناء بالرقص ، وفي مروج الذهب للمسعودي فصل<sup>(١٠)</sup>  
طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الخناجر من أشعار ،  
وفيه تسمّى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الحفيف والرمل والمزج ،  
وبالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون  
الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجوارى في هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الظرف  
والرقة واللفظ ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التي  
تملأ قلوبهم ليناً وبراءً وعطفاً ووداً ، وقد خلّبوا ألبابهم بمديثهن الساحر الذي  
يصب في القلوب تارة رحيقاً وتارة حريقاً ، حديث العشق وما يشيع فيه من

- |                                       |                                  |
|---------------------------------------|----------------------------------|
| (١) أغاني ١١٤/٤ .                     | (٦) أغاني (دار الكتب) ١١٢/١٤ .   |
| (٢) أغاني (ساسي) ١٣٢/١٩ .             | (٧) أغاني (ساسي) ٦٦/٢٠ .         |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٤٧/١٣ .        | (٨) أغاني ١٣٤/١٩ .               |
| (٤) أغاني (ساسي) ٤٢/٨ ونشوار المحاضرة | (٩) التنوخي على المستطرف ١٤٤/٢ . |
| ٦٣/١ والديارات ص ١١١ وما بعدها .      | (١٠) مروج الذهب ١٣٧/٤ .          |
| (٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥٧/٣  |                                  |



العواطف والمواجِد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادي كثير الشباك : شباك التضرع والأمل والطلب ، وحبّ أفلاطوني نقي كثير الحجب : حُجِبَ الظَّهْرُ واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعاني الرقة واللطف المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة في الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلاً خاصاً في كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل في فنون الظرف التي أشاعها الجوارى حينئذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهار الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة باباً مهماً من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء في الأزهار معاني السلوى في الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معان لا تحصى ، كأن يحس شاعر في معنى الورد الحجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص في البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعاني ، كما كان يجيئ بها بعضهم بعضاً ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت الجارية تترك على التفاحة أثر أخذها بفمها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتاً أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز<sup>(١)</sup> :

وَأثَارِ وَصَلٍ فِي هَوَاكِ حَفِظْتَهَا      تَحِيَّاتٍ رِيحَانٍ وَعَضَّاتٍ تُفَاحِ

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكام والقلائس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة<sup>(٢)</sup> ، ويرَوَى أن عريب كانت تلبس قميصاً موشحاً بالذهب ، كتبت في وشاحه :

وإني لأهواه مسيناً ومحسنأ      وأفضى على قلبي له بالذي يقضى  
فحتى متى روح الرضا لا ينالني      وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

(١) طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٥٠/٦

وما بعدها .

(١) الديوان ص ١٣٩ .

(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد

وكن يتنافسن في التهادى بالتحف الحميئة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر ، وعلمن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظاماً بديعاً .

## ٤

## الحجون والشعوبية والزندقة

رأينا في كتابنا العصر العباسي الأول كيف كانت موجة الحجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يُسمعون في شرب الخمر واحتساء كتوسها ، مدمنين عليها لا يرعون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لمجيء ذلك بنص القران ، وما كان محرّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فسكروه محرّم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهاد بعض فقهاء الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبذ التمر والعسل والتين والبسر وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء ، وتجاوزوا ما حلّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

أباح العراقُ النبيذَ وشُرْبُهُ      وقال حَرَامانُ : المَدَامَةُ والسُّكْرُ  
وقال الحجازيُّ : الشرايانَ واحدٌ      فحلّ لنا من بين قوليهما الخَمْرُ  
سأخذ من قوليهما طرفيهما      وأشربها لا فارق الوازرَ الوِزْرُ

وابن الرومي يريد بالحجازي الشافعي وبالعراق أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا في

(١) ديوان ابن الرومي (اختيار وتصنيف كامل كيلاني) ص ٧٨ .

الأنبيذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد في قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حوله الورد والرياحين<sup>(١)</sup> وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب<sup>(٢)</sup> ، وكان يشرب في قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب في البساتين<sup>(٣)</sup> . وفرغ المعتمد - كما مر بنا في غير هذا الموضع - للهو والشراب ، ويقول المسعودي : « كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع الهو والملاهي<sup>(٤)</sup> ، وديوان ابن المعتز مليء بالخمير ودنانها وكتوسها وغبوقها وصبوحها . وكان القاهر مدمناً شرب الخمر<sup>(٥)</sup> كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهم لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعيها وحده<sup>(٦)</sup> ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه بلجسائه وندمائه بالشرب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفّر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء المستكنى وكان قد ترك الشراب ، فلما ولي الخلافة دعا به تنوَّاً وعاد إلى شربه<sup>(٧)</sup> .

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة في عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب في الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق التبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دريد ، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب وقد جاوز التسعين<sup>(٨)</sup> . وأوغل الشعراء فيها لإيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً . وكانوا يعقدون لها المجالس في المساء والليل والصبح ، وآثروا ألا يقل عدد

- 
- (١) الديارات ص ١٦٠ وانظر في صبح .  
 المنتصر أغاني (سامي) ١٣٠ / ١٧ .  
 (٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .  
 (٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .  
 (٤) مروج الذهب ١٣١ / ٤ .  
 (٥) النجوم الزاهرة ٢٤٥ / ٣ .  
 (٦) ابن الأثير (طبعة أوربا) ٢٠٤ / ٨ .  
 (٧) مروج الذهب ٢٦٧ / ٤ .  
 (٨) النجوم الزاهرة ٢٤١ / ٣ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والحوارى  
وكانوا يزینون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزینون رؤسهم أحياناً  
بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبئين أيضاً في سامراء ، وتحولوا بدورهم  
إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الحواری  
الظريفات الأدبيات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات  
ومثلهم الناس من حولهم فيعبون من كثوسها ويتمتعون بالسمع ومغازلة الحواری  
والقيان .

وكانت البساتين حول سامراء وبغداد تمتلئ بجانات الخمر والسمع ، وكان  
الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلفون بأنفسهم إلى زاوية في بستان ويتمخضون  
منها لأنفسهم حانة ، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تملئ بجمال الحواری  
وآذانهم تسمع بالسمع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال  
الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى <sup>(١)</sup> :

اشرب على زهر الرياض يشوبه زهر الخدود وزهرة الصهباء  
من قهوة تنسى الهموم وتبعث ال شوق الذي قد ضل في الأحشاء

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء ، ويقول الجاحظ :  
« من تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقذار  
أو ميشا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مخنوم العنق » <sup>(٢)</sup> وتختلط في النص أسماء  
فارسية ونصرانية ويهودية . أما الحواری فكن من القيان الأجنبية غالباً ، وكانت  
تعج بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء  
يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقلما كن يشعن بشيء من الكرامة أو  
يستشعن شيئاً من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن في الحيل التي يجذب  
بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخيلان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر) ٩٢/١ .

(١) الديوان ٦/١ .

كثير من الفجر والحجون ، وكل شيء من حوطني يُغريهن على هذا السلوك الآثم ،  
وصور ذلك الجاحظ ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ،  
وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتعلّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن  
مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث . . . وبين الخلاء  
والمجان ومن لا يُسمَع منه كلمة جيد ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة  
مرودة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت ( أغنية ) فصاعداً يكون الصوت  
فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب  
بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب  
من عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق  
والصبوة والشوق والغدمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبّة عليها تأخذها  
من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة »<sup>(١)</sup> . وكان الزوار  
ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيمين هداياهم النفيسة ، وكان بدورهن  
يتخذن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن  
من حوطني الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعثرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون  
إلى قلوبهن ، وهن لا يَحْتَشمن ولا يتحرّجن ، ودائماً يُقمن حفلات الغناء والموسيقى  
والرقص .

واستحالت الأديرة في هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهياً لها ذلك  
أنها كانت تقدّم لرؤادها الخمر المعتقة . وكانت متناثرة في ضواحي بغداد  
وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوّلتها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والحجون ،  
وأكثروا من التغي بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان  
والراهبات ، حتى لتؤكّف في ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشي  
وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر لياليه بالمطيرة لإحدى متزهات  
سامراء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته<sup>(٢)</sup> :

(٢) الديارات ص ١٤٩ .

(١) انظر ثلاث رسائل الجاحظ نشر فنكل

ص ٧١ وما بعدها .

ياليسالى بالمطيرة والكرخ ودير السوسى بالله عودى  
كنت عندى أنموذجات من الجدة لكنها بغير خلود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصرارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحاً وغير مباح ويتفرجون على القصاص والحكّائين وأصحاب المسايخ الهزلين ، أما أعياد الإسلام فهى ~~المسايخ الهزلين~~ عيد الفطر وعيد الأضحى . وفى ديوانى البحرى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة<sup>(١)</sup> ، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحرى يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره<sup>(٢)</sup> :

لا تخل من عيش يكر سروره أبداً ونيروز عليك معاد

وكانو يكترون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء<sup>(٣)</sup> . وكانو يخرجون فيه إلى المنتزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء ، وفيه يقول البحرى<sup>(٤)</sup> :

وكان الأيام أوتر بالحسنه ن عليها ذو المهرجان الكبير

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون اللهو فيه<sup>(٥)</sup> ، وكان للفرس عيد يسمى عيد السدق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظنون يجمعون لها الأحطاب أياماً ، ومن أشهر ما كان فى هذا العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به ، ويقال كان فى السماط الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر<sup>(٦)</sup> .

(٥) ديوان ابن الرومى ( نشر كيلانى )

ص ٨٢ .

(٦) مسكويه ٤٧٩/٥ وأبو الفدا فى عام

٣٢٣ وابن الأثير ٢٢٢/٨ .

(١) انظر ديوان البحرى ١٠٧١/٢ ،

١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .

(٢) ديوان البحرى ٧٣٤/٢ .

(٣) الديارات ص ٥٧ .

(٤) الديوان ٨٨٧/٢ .

أمّا أعياد النصارى فكان تقريباً لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانو يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران<sup>(١)</sup> ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى في الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالاً كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به دير سماو شرقي بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهمو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمي<sup>(٢)</sup> :

ولرُبَّ يومٍ في سماو تمَّ لي      فيه السرور وعُيِّبَتْ أجزائه  
فتلاعبتُ بعقولنا نشواته      وتوقدتُ بخدودنا نيرانه  
حتى حسبتُ لنا البساط سفينةً      والديرَ ترقص حولنا حيطانه

وكان يقام في أكتوبر عيد للقديسة أشموني في قُطْرَبْل ، وهي قرية في شمالي بغداد كانت أشبه بجاعة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضاً والسفن في دجلة بجرأ ، متنافسين فيما يُظْهِرونه هناك من زيهم وزينتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم ، وكانوا يضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كتوس الخمر ، وبالمثل كانوا يصنعون في عيد دير الزندورد بالجانب الشرقي لبغداد ، وفيه يقول جحظة<sup>(٣)</sup> :

ديرٌ تدور به الأقداحُ مترعةً      من كفت ساقٍ مريض الطَّرفِ وسنانِ  
والعودُ يتبعه نايٌ يوافقه      والشَّدُّ يُحكِّمه غصنٌ من البانِ

ولا شك في أن كل ما قدمنا أعده لانتشار المجون والخلاعة في سامراء وبغداد ،

(٢) الديارات ص ١٤ .

(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

(١) ابن الأثير ٢٢٢/٨ وأبو الفدا في

عام ٣٢٣ .

إذ كانت الحمر في كل مكان وبمعها القيان والجوارى المبتذلات ، فكان طبيعياً أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط في إباحيته وفي التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما في المدينتين العراقيتين الكبيرتين المحزون وآثامه ، بل كان هناك تقي كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حماهما من السقوط . على أن هؤلاء المجان والخلعاء تورطوا في آفة مزرية ، هي آفة الشغف بالغلماان المرء ، وهي آفة ورثوها عن العصر العباسي الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزرى من ارتفعوا به عن أدراة المادة ، وجعلوه غزلاً أفلاطونياً نقياً ، وسفصل القول في ذلك في أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهاني وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلاني . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشددون الذكر على المحزون وما اتصل به من خمور ومن سماع ، ويتأثيرهم حاول - كما قدمنا - المهتدي أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع إليهن ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقي ، ولكنه لقي سريعاً المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه في عام ٣٢٣ للهجرة دبّر الحنابلة بيغدانة حملة شعواء على المحزون وفتشوا دور القواد والعامة ، وكانوا كلما وجدوا نبيذاً أراقروه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرّموا على الرجال رفقة الصبيان والغلمان<sup>(١)</sup> .

وظلت مستعرة في هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة في العصر العباسي الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بقضائل الشعوب القديمة وحضاراتها ومدنيتها ، وفي مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان ، وغيرهما ، منوهين جميعاً بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهب أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعبيون يبتغون أن يحدثوا صدعاً لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجؤوا في

(١) ابن الأثير ٢٢٩/٨ وما بعدها .



تصوير ما كان عليه الجاهليون - وعرب البوادي لعصرهم - من العيش الحشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا - ولا يزال كثيرون منهم - بدواً رعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب في إفاضة عن مثالب القبائل في القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ، وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها . ناقضين لها نقضاً .

وتصدى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة ورداً عليها ردّاً عنيفاً ، أما الجاحظ فعقد في كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلاً سماه « كتاب العصا » صور فيه طعن الشعوبية على العرب في خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمخاصر ، كما كانوا يتكثرون على القيسي ، مما يصرف - في رأى الشعوبيين - الخاطر ويشغل الذهن في أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هي في جميع الأمم حتى الزنج . وزعموا - فيما زعموا - أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم في صناعة البلاغة كتباً متوارثة . وطعنوا على العرب أيضاً في أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عرفنا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب المضخمة من مثل المجانيق والعرادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ في عنف شديد ، وأكبر يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين » ردّاً مفحماً عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كى يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى بندهم . وأما ابن قتيبة فألف في الرد عليهم مبحثاً سماه <sup>(١)</sup> « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو في مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قوماً من كتاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم ، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشرف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك في باب فسيح من الدعوى

والنشر) ص ٣٤٤ وما بعدها .

(١) انظر هذا الكتاب في رسائل البلاغ  
لمحمد كرد على ( طبع لجنة التأليف والترجمة

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجحون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم في هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية في الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريفة في كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجود مما قضى على الشعوبية قضاء مبرماً على نحو ما سنصوّر ذلك في الفصول التالية .

ومن أهم الكتاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البختكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله في الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف في الشعوبية وانصر لها . وقد أشرنا في كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل في هؤلاء الشعوبيين من يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا في الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد في الأمة عربياً وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يفضّل مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء في الذكر الحكيم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) . وأيضاً كما جاء في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وإيس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هي نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمية في الإسلام ميزة تُعلَى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواسية . وإذن فمن

الخطأ أن نحمل القائلين بالتسوية على الشعوبيين أو على القول بالشعبوية، إنما الشعوبيون هم الذين يُعلون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربي ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو نأروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . ومن كان يذهب هذا المذهب في الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلي الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول في شعبية حاقدة ذميمة (١) :

أنا ابنُ الأكارم من نسلِ جَمِّ      وحائزُ إرثِ ملوكِ العجمِ  
وطالبُ أوتارهم جَهْرَةً      فمن نام عن حقِّهم لم أنمِ  
فقلْ لبني هاشمٍ أجمعين      هلموا إلى الخلعِ قبل الندمِ  
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز      لأكل الضُّبابِ ورعى الغنمِ  
فإني سأعلو سريرَ الملوكِ      بحدِّ الحُسامِ وحرفِ القلمِ

وواضح أن قلب المتوكلي يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتى ليطن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسي القديم وأنه قد وكل إليه أخذ الثأر أو الأتار من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بني هاشم مههدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلي في الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة الفجر والفلوات ، وكأنه نسي أن بني هاشم من قريش سكان مكة في القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعبية العمياء الرعناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعبية الحمقاء الزناقة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام . ويوضح ذلك الجاحظ قائلا : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعبية والهادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك

(١) ضحى الإسلام (الطبعة السابعة) ٦٥/١ .

الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقدوة»<sup>(١)</sup> . ومراً بنا في العصر العباسي الأول أن الزندقة إنما كان يُوصمُ بها أولاً من يتابعون ماني في عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكارهم الذين كانوا يحاكون زمن المهدي وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقى والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف أو بالديانات مطلقاً وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومر بنا أيضاً في العصر العباسي الأول كيف أن المتكلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - تجردوا لخداهم ونقض أقوالهم وآرائهم الخبيثة ، وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفحّمونهم فيها إفحاماً شديداً ، على نحو ما صور ذلك الجاحظ عن النظام في كتابه الحيوان ، وألقوا أيضاً الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة في هذا العصر التالي ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك في النبوات عامة ، وكان من أشدهم نسطور<sup>(٢)</sup> بدءوا حياتهم في صفوفهم المعتزلة ، وما زالوا يُسبّطون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفي طلعتهم أبو عيسى الوراق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة<sup>(٣)</sup> وكان في أول أمره معتزلياً ، وأحسن المعتزلة فيه إلحاده فطرده عنهم ، فتحول شيعياً رافضياً ، وينعته الخياط بأنه كان مانوياً يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم<sup>(٤)</sup> ، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له في ذلك بعض الرسائل<sup>(٥)</sup> . وقد أثر تأثيراً واسعاً في تلميذه أبي الحسين أحمد بن إسحق الراوندي<sup>(٥)</sup> المولود فيما بين سنتي ٢٠٥ و ٢١٥

الإسلام لعبد الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر في ترجمة ابن الراوندي ووفاته مروج الذهب ٢٣/٤ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبعة بولات) ٧٦/١ ومرآة الجنان لليانعي ١٤٤/٢ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ١٧٥/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٣٥/٢ ومقدمة نيرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبي الفدا في عام ٢٩٣ .

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .  
 (٢) مروج الذهب ٤/٢٣ .  
 (٣) كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٢ .  
 (٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف في الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص ٨٢ .  
 (٥) انظر في ابن الراوندي وأستاذه أبي عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد في

وكان يعتنق في أول الأمر الاعتزال وصنّف عدداً من الكتب في مناصرته ونشره بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبي عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، بل لقد تهادى في ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف في ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفُريّات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة ذلك وأن يُرمَى به في غياهب السجون فاخْتَبأ في منزل أبي عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازي ، وله صنّف بعض كفرياتة ، وما زال مَخْبِئاً بمنزله حتى توفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجح التاريخ الثانى ما يذكره ابن الأنبارى في نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المتعصب وأنه لم يكتب له الرواج ، لأن ابن الراوندى المالمحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى في العصور التالية من أيدي الزمن ، فلم يصلنا منها شيء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات في كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات<sup>(١)</sup> من كتابه « الزمردة في دفع النبوات » وفيها نراه يردُّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهندود تضليلاً حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهزل كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسول ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلى الذى يُغنى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكها ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون النصاحة العربية . ويردد نفي المعجزات النبوية وأن الملائكة نصرروا رسول الله في غزوة بدر وأنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضي في لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل في كتابه المنتظم شذرات<sup>(٢)</sup> أخرى من مصنفه الزمردة ،

(١) انظر في هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ٧٤-١٨٨ .  
 (٢) راجعها في كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد في كلام أكرم بن صيني الحكيم الجاهلي أحسن من (إنا أعطيناك الكوثر) و (قل أعوذ برب الفلق) وإن الأنبياء وقعوا (اهتدوا إلى) بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب الحديد أما قواه صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية ( كان مع علي بن أبي طالب في صفين وقتله جيش معاوية ) : فإن المنجم - في رأيه - يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزي : « كان ابن الرواندي وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يتراميان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن في القرآن (١) . أما كتابه الكفري الثاني الذي خص به الرد على القرآن فهو كتاب « الدماغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودى الذى كان يؤويه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا في حديث داعى الدعاة الفاطمى : ويزعم أن في كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزي إنه بدأ فيه بالطعن في القرآن وبلاغته حتى لقد زعم - بهتاناً وزوراً كبيراً - أن به أخطاء لغوية .

ولعل في ذلك ما يصور - من بعض الوجوه - الهجمات العنيفة التى كان يصوبها الملحدون في القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر في أن الخليفة المعتمد حلف الوراقين لسنة ٢٧٩ أولاً ببيعوا كتب الكلام والجلد والفلسفة (٢) ، فقد كان من المتكلمين والمتكلمين من يبطنون الإلحاد (٣) والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهم من نقض على ابن الراوندى كثرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالحياط ، وقد نشر له المستشرق نيرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عنى بالرد عليه معاصره أبو على (٤) محمد بن عبد الوهاب

كتب له في مقدمتها الزمردة والدماغ .  
انظر من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١٦٢  
ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه في تفصيل  
وإسهاب .

(١) من كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام  
ص ١١٣ .  
(٢) طبرى ٢٨/١٠ وابن تغرى بردى ٨٠/٣ .  
(٣) الفهرست ص ٤٨٧ .  
(٤) يقول ابن الجوزي إنه نقض خمسة

الجسبائي . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندي إلخاده وزندقته وطعنه على الدين الخفيف ، بل على جميع الديانات الطيب أبو بكر محمد<sup>(١)</sup> بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيميائياً ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضللاً بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندي وأشباهه ينكر النبوات وألف في ذلك كتابه «مخاريق الأنبياء» وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازي أورد في كتابه «أعلام النبوة» اقتباسات كثيرة منه ردَّ عليها ونقضها نقضاً ، وقد حلَّلها الدكتور بدوي تحليلاً<sup>(٢)</sup> جيداً ، وأظهر أنه يتابع في حججه وأدلته ابن الراوندي ، فالعقل يكفي وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعي لإرسال الأنبياء ، وأيضاً لا معنى لأن يخص الله نقرأ (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعاً متساوون في الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعماً أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلاً بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفاً على الناس ورحمة بهم . وينتقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما ينقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زاخرة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التي استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل في هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة في العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فنتضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضاً .

٥

### الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعبوية والمجون في العصر العباسي الثاني أنه كان عصرًا ملُحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

(٢) انظر كتاب من تاريخ الإلحاد في

الإسلام ص ١٩٨ .

(١) انظر في ترجمته الفهرست ص ٥١٨

وإبن أبي أصيبعة والقفطي ص ٢٧١ ودائرة

المعارف الإسلامية .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة، أما المجون فكان يشيع في الطبقة المترفة، وأما الشعبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد. ومن الخطر أن نجعل ذلك كاه صفات عامة للمجتمع، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجير إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، إنما كانت تعرف الشطف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعبويين والملاحدين من أعداء الإسلام والعروبة.

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت في بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية، وشركتها في ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعباد والنساء وكانوا أكثر كثرة من المجان وأهل الفساد. وكان في كل مسجد حلقة، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فيما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم. واختلط الوعظ بقصص ديني كثير على، نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول، وكثر حينئذ النساء والزهاد في متاع الحياة الدنيا، وعاشوا معيشة كلها شطف وتكشف وتبتل وعبادة، وأقرأ في تراجم الفقهاء والمحدثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثيرتهم وهم يُعَدُّون في العالم الإسلامي بالثقات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا، بل لكأنما تجردوا للجهاد في سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذي لا يزول. ويكفي أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم<sup>(١)</sup> بن إسحق الحربي، وكان من كبار المحدثين، وكان لا يأخذ على محاضراته في الحديث أجراً من أحد، إذ عرّف عن كل متاع في الحياة، وعاش معيشة زاهدة مبالغة في الزهد إلى أقصى حد، حتى إنه ليرفض

(١) راجع في ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦ و١٩٠/٢ والنجوم الزاهرة ١١٦/٣ ويقال:

كان يقاس بابن حنبل في علمه وزهده.

(١) راجع في ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦

ومعجم الأدباء ١١٢/١ والأنساب للسماعني

١٦٢ وصفة الصفوة ٢٢٨/٢ وشذرات الذهب



في إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويُرْوَى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها في جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقة ، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوّلنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمسمًا وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً ، وقد أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفًا واحدًا في اليوم والليله ، إن جاءت به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقي جائعًا ظامئًا إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة في الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع في هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق الباخنى صاحب اليد الطولى في مبدأ التوكل وإشاعته<sup>(١)</sup> بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة<sup>(٢)</sup> . ويعرض القشيري في رسالته أقوالاً مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرّفقه والتنعيم ، أو هى من الصّفنساء أو هى من الصّفنة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يندلى القشيري برأى حاسم ، وذهب البيروني إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد في القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعنى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت في نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر ،

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

والنشر ص ٥ .

(٢) في التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة

(٣) ما للهند من متولة للبيروني (الطبعة

أبي العلا عفيف وطبع لجنة التأليف والترجمة

الأوربية) ص ١٦ .

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين ، عنصر مسيحي وعنصر بوذي هندي ، ويتضح العنصر الثاني - عنده - في فكرة وحدة الوجود التي تمثلها ، كما يقول ، الحلاج في أواخر القرن الثالث<sup>(١)</sup> الهجري . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لاهو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث . ومن شدد على التأثير الأجنبي جولدتسيهر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية<sup>(٢)</sup> الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبي ماسينيون في بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر في الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التي كانت منتشرة في الشرق منذ ميلاد المسيح<sup>(٣)</sup> . وبالمثل خفف من حدة القول بالتأثير الأجنبي نيكلسون ، وإن لاحظ مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى الذون وتأثره في رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة في عصره ، وأيضاً كما هو الشأن عند أبي يزيد البسطامي وتأثره في رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى في بحوثه يُعَلِّي من شأن التأثير الإسلامي في نشأة التصوف ، ويقال من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبي يزيد البسطامي والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نقاها عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التي وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هي وليده الزهد والتصوف اللذين نشأ في الإسلام وكانا إسلاميين في الصميم<sup>(٤)</sup> .

وإذن فالتصوف إسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأي العلمى الصحيح ، ولكي نتصور التصوف في دقة في أثناء هذا العصر ، يحسن أن نستعرض أتمته الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته في نفوس العصور التالية ،

(٣) راجع مقدمة عفيفي لكتاب نيكلسون السالفة .

(٤) انظر مقدمة عفيفي وكتاب في التصوف الإسلامي في مواضع مختلفة .

(١) انظر نيكلسون في مبحثه عن الحلاج ومقدمة عفيفي .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر (طبعة دار الكاتب المصري) ص ١٣٦ وما بعدها .

وأولهم الحارث<sup>(١)</sup> بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهي تدل بوضوح على أنه جَدُّ في ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة . وكان يعتقد مذهب الشافعي ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يروى أنه لما مات أبوه وكان هو في عَوَز وإملاق في حين خَلَف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهمًا ، لأن أباه كان رافضيًّا ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا في قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله - وتابعه في ذلك متصوفة العراق - من الأحوال التي لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات<sup>(٢)</sup> ، ورفض أن يفرض التوكل إلى عدم التمسك ، فلا بد من السعي في الأرض سعيًّا ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذو النون<sup>(٣)</sup> المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقي لأسس التصوف ، إذ هو - كما يقول ابن تغري بردي - أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم في التصوف ، بل أستاذ المشاركة أيضًا ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجاي حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسمًا مشتركًا بين عامة المسلمين ، وقسمًا خاصًا بالفلاسفة والعلماء ، وقسمًا خاصًا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فَصَّل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحدسية ، والثانية عقلية

ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمي ص ٢٣ ،  
وتاريخ بغداد ٣٩٣/٨ وتاريخ دمشق لابن  
عساكر ٢٧١/٥ ومرآة الجنان لليافعي ١٤٩/٢  
والنجوم الزاهرة ٣٢٠/٢ والطبقات الكبرى  
للشمراني ٥٩/١ وأخبار الحكماء للقفطي  
١٨٥ وشذرات الذهب ١٠٧/٢ ورسالة  
القشيري في ص ٩ وفي مواضع متفرقة ونيكلسون  
ص ٧ وما بعدها .

(١) نشأ في البصرة ثم انتقل في شبابه إلى  
بغداد ، انظر في ترجمته تاريخ بغداد ٢١١/٨  
والأنساب للسمعاني ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات  
الشافعية للسبكي ٢٧٥/٢ ومرآة الجنان ١٤٢/٢  
والنجوم الزاهرة ٣١٦/٢ والتهذيب لابن حجر  
١٣٤/٢ وكتاب طبقات الصوفية للسلمي  
(طبع باريس) ص ٤٦ .  
(٢) انظر باب الرضا في الرسالة القشيرية .  
(٣) راجع في ترجمة ذي النون وآرائه الفهرست

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربه؟ فقال: «عرفتُ رَبِّي بربي ولولا رَبِّي لما عرفتُ رَبِّي» ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل فى قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن . وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدعيًا » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسى . ومن قوله أيضاً : « الصوفى مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » وكان يقول إن العارف ( الصوفى ) لا يلزم ربه فى حالة واحدة وإنما يلزمه فى الحالات كلها . وكانت تجرى فى كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة حبيب الله فى أخلافه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السَّرِيّ<sup>(١)</sup> السَّقَطِيّ المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم فى وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم فى المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لذى النون تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » و : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو؟ فقال :

عساكر ٧١/٥ وطبقات الشمراني ٦٣/١ .

(١) راجع فى ترجمة السقَطِيّ طبقات الصوفية للسلمى ص ٤١ وابن خلكان وتاريخ دمشق لابن

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفى نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينفضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله»<sup>(١)</sup> ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرِف للكلمة فيما بعد وأن الله يُجْرَى على أيدي الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لَمْ يَبْتَ وَالْحَبُّ حَشْوُ فؤَادِهِ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَفْتَمُ الْأَكْبَادِ  
ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة .

وإذا كان ذوالنون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعة نحو المعرفة الإلهية ، فإن أبا يزيد طيفور<sup>(٢)</sup> بن عيسى البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله: «للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحِيت رُسُومُهُ وَفُنِيَتْ هُويَّتُهُ بِهُويَّةِ غَيْرِهِ» ، وَغُيِّبَتْ آثارُهُ بِآثارِ غَيْرِهِ» ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فى : يا مَنْ أَنْتَ أَنَا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله .» وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانى ما أعظم شأنى » وقوله : « خرجت من بايزيديتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد .» ويمكن أن يُردَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . وما نسبوه إليه أيضاً قصة معراجهِ إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ روى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قبتي بإزاء العرش .» ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه ، منها : « سبحانى » و : « ما فى الجبَّةِ إلا الله » و : « ما النار !؟ لأستندنَّ إليها غداً وأقول

مختلفة وطبقات الشعراني ٦٥/١ وميزان الاعتدال  
للذهبي ٣٤٦/٢ والنجوم الزاهرة ٣٥/٣  
ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

(١) تهذيب ابن عساكر ٧٨/٦ ونيكلسون  
ص ٢٩ .  
(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلمي  
ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للقشيري فى مواضع

اجعلني لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟ ! إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلده بسطام - في الجنوب الشرقى لبحر الخزر - أنه زعم أن له معراجاً إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام . ولعل في ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية في تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدت لأن تصيح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء في الذات الإلهية ، تلك الفكرة التي أخذت مكاناً مهماً في التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل في التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهي ، في الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفي يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس مبهة الله » فأجابه : « غيرك شرب بجور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »<sup>(١)</sup> ، وكان ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بوزن الشريعة والمحافظة على فرائضها والصدوع بأوامرها ونواهيها<sup>(٢)</sup> .

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت في الوضوح منذ أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقه تحاضر في مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفاً ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، هو أول من تكلم على رموس المناير ببغداد في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر جمع الهمة والعشق والقرب والأنس<sup>(٣)</sup> ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع في الكلام عن الفناء<sup>(٤)</sup> . ويظهر حينئذ حمدون<sup>(٥)</sup> القصار النيسابورى المدفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً في تقشفه ، إذ دعاً مريديه إلى سلوك طريق الملامة باز يتظاهروا

والنهي وحفظ حدود الشريعة .

(٣) النجوم الزاهرة ٤٦/٣ .

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٣ .

(٥) انظر السلمى ص ١١٤ وكتاب الملامية

والصوفية وأهل الفتوة لأبى الملا عفيف .

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر

شذرات الذهب ١٤٣/٢ .

(٢) انظر ترجمته في ميزان الاعتدال ، ويقول

الذهبي : ما أحل قوله : لو نظرتم إلى رجل

أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا

تفتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملاطمية بنيسابور ، إذ يُسبّدون في مظهر المذنبين دائماً ، مما أعدّ للقعود - فيما بعد - عن النهوض بفرائض الشريعة . أما في هذا العصر فنجد المتصوفة دائماً يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التستري الصوفي المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والثوبة ، وأداء الحقوق »<sup>(١)</sup> وفي رسالة القشيري أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفي ظهر بأخرة من القرن الثالث الهجري<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٢٩٧ ويُسَمَّع بالقواريري الخزاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هويبيع الخز ، وأصله من نهاوند بالقرب من همدان ، إلا أن مولده ومنشأه ، ببغداد ، وهو ابن أخت السري السقطي وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السري بدوره عن معروف الكرخي . وكان ورده في اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسيحة ، وفي طبقات الصوفية للسلمي أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القليل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » . ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلي كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقْتَدَى به » . وتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسي الثاني نظام الطرق والمريدين في التصوف ، فلإمام الصوفي طريقة ، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها في موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامي . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصبغها بصبغة جاهلية شعبية ، وإن كان قد رشح لأن يكون الارتباط في الطريقة بالإمام الصوفي نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

الشافعية للسبكي ٢/٢٦٠ ومرآة الجنان للياقبي

٢/٢٥١ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٠ وشذرات

الذهب ١/٢

(١) السلمي ص ٢٠٣ .

(٢) انظر في ترجمة الجنيدي تاريخ بغداد

٧/٢٤١ والرسالة القشيرية في مواضع مختلفة

وابن خلكان والسلمي ص ١٤١ وطبقات

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأترون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنيد يستخدم أسلوباً مليئاً بالمبالغات في الترغيب والترهيب زاخراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيجاء ، وأخذ عنه تلميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له في أقواله وأشعاره ، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات ، ولاحظ ذلك القدماء إذ نرى السراج في كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحات الجنيد ويفسرهما تفسيراً بيناً . وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث في غير هذا الموضوع .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين في العصر الحكيم<sup>(١)</sup> الترمذى محمد بن علي بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق في دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة . ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية في البيئات الصوفية وكل ما جرّت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته في خلقه ، وقد ألف فيها كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام : « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم !! وذكر في الكتاب المذكور أن عيسى يعود في آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلده « ترمذ » ففر إلى نيسابور وبها توفى . وقال السبكي : دافع عنه السلمى معتذراً عنه ببعده فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعدّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرّت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتبون بإنشاد ما حفظوه من أشعار الحميين ، وهم في أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبي الحسين النورى

ورسالة القشيري في مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٢١٨ .

(١) انظر في ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمى ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٤٥ وطبقات الشعراني ١/١٠٦



المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين بنظمون الشعر معبرين به عن التبايع قلوبهم في الحب آمليين في الشهود مستسلمين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استثنائاً مطلقاً ، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلي دُلف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيدي .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسي الثاني لم يكد ينتهي حتى تأصلت في التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسرى في موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التي يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق في حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .

## الفصل الثالث

### الحياة العقلية

١

#### الحركة العلمية

دعا الإسلام أُمَّته في قوة إلى العلم والتعلم ، فبمجرد أن اكتسح العرب العراق وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التي كانت منبثة في هذه البلدان ، وأسعفهم في ذلك أنهم عربوا شعوبها وأخذت بنفسها تعرب لهم كل مدخراتها وكنوزها الثقافية ، وتجرد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التي كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات ، وما ينتقضي القرن الثاني الهجري حتى تكون قد دخلت العربية سيول ثقافية وعلمية لا يحصر لها ، مما مكّن العرب أن يتحوّلوا سريعاً إلى أمة علمية تُعنى بكل جوانب العلم الذي كان معروفاً عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسريان واليونان ، وتشارك فيه مشاركة جادة خصبة ، وتضيف إليه علوماً جديدة تتصل بالقرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض .

ونشط التعليم حينئذ نشاطاً واسعاً فمن تعلم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد ، وكان الناشئة يبدعون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية ، ويشيدون بعض الأشعار والأمثال ، ويدرسون شيئاً من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض ، وعنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور ، على نحو ما صورنا ذلك كله في كتاب العصر العباسي الأول نقلاً عن

الجاحظ ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب ، ونراه يخصّهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للامبرد ، وفيها يصوّر نوادرهم وحماتهم المضحكة ، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكتّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى ، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥ : إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال : معلم صبيان فاصفّع ، يشير إلى حماقته ، وكان ينشد :

مَنْ عَلَّمَ الصَّبِيَانَ صَبَّوْا عَقْلَهُ حَتَّى بَنَى الخُلَفَاءَ والخُلَفَاءَ<sup>(١)</sup>  
 وَصَبَّوْا عَقْلَهُ : جعلوه مثل عقلهم : عقل الصبيان حمقاً وبلاهة ، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابسته لهم ، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فى من يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغاراً . ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيتهم من آبائهم<sup>(٢)</sup> ، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم .

وطبيعى ألا تكون حياة معلم الكتّاب على هذا النحو رافهة ، بل كان كثيراً ما يحفُّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كتّاب ، وقد شكّا شكوى مرة حينذاك من حياته<sup>(٣)</sup> البائسة . وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدعوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣ ، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة<sup>(٤)</sup> . ويخيّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعاً كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه ، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره ، ومثّلوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء ، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً . وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب ، كل على حسب قدرة أبيه

(١) معجم الأدباء لياقوت ( طبعة القاهرة )

المصرية) ٣٩/٤ .

. ١١٢/١٨

(٣) معجم الأدباء ٣/٨١٦٥٠ .

(٢) عيون الأخبار ( طبعة دار الكتب

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/٢٧٣ .

المادية ، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب ، فيضربونهم أحياناً أو يجسسونهم ، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه .

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالاً ومعاشاً من معلمى أبناء العامة ، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسى لحالهم إذ يقول : « يكون الرجل نحويّاً عروضيّاً وقسماًماً فترضيّاً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً ، ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم »<sup>(١)</sup> وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون براتب كبيرة ، فمثلاً يعقوب ابن السكيت الذى بدأ ، كما أسلفنا ، معلم كتابيب حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتباً شهريّاً خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفاً ، واتخذهُ المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء<sup>(٢)</sup> ، ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفى النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته ، وفرض له أن يأخذ يوميّاً خبزاً فاخراً ولحمّاً كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهريّاً . وقالوا إنه حين مات خلف واحداً وعشرين ألف درهم وأبى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار<sup>(٣)</sup> ، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أو لم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكُتّاب وأعطى المعلم ألف دينار .

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، بل كان الكُتّاب يحل محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، ومن يريد أن يكمل تعلمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضاً دوراً ، بل قل جامعات ، للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع

(١) البيان والتبيين ٤٠٣/١ .  
المصرية (١٤٧/١ وما بعدها ومعجم  
الأدباء ١٢٥/٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ .  
(٣) إنباه الرواة للقفطى (طبعة دار الكتب

العلم حلقة كبرى ، يتحلّق فيها طلابه من حوله . وكان عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد ، ثم يملى محاضراته والطلاب يكتبون ، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مُستَمَل كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته ، وكان العالم لا يغير مكان حلقاته الذي اختاره منذ نهض بالتدريس ، ويروى أن نَقَطَوِيَه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملى دروسه في اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزيّل مكانه منها<sup>(١)</sup> . وكانت أكثر الحلقات طلابياً حلقات المتكلمين والفقهاء ، أما المتكلمون فأكثرة ما كان يجري بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم ، وأما الفقهاء فلأن الإمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولى مناصب الحسبة والشرطة والقضاء والولاية أحياناً . وكان الطلاب يمسكون في أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابرههم ، وكانوا يُعَدُّون بالملئات في بعض الحلقات ، ويروى أن الطبري حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يُعَدُّ أو لا يُؤَبَّه له رموه بمحابرههم وكانت أوفياً<sup>(٢)</sup> .

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة ، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوي أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر ، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى ، ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم ، ففي أخبار الزجاج أنه رغب في تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه ، فسأله أى شيء صناعتك ؟ فأجابته : أخطرت الزجاج وكسبني في كل يوم درهم ونصف ، وأريد أن تهتم بتعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً ، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر ، فلزمه وعنى بتخريجه ، وطلبت منه أسرة معلماً شاباً يعلم أولادهم النحو فسمّاه لهم ، وعلم أولادهم وظل يعطى المبرد في كل شهر ثلاثين درهماً ويزيده بما يقدر عليه<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن المبرد كان شحيحاً بعلمه ، إذ في تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له في العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتباً

(٢) معجم الأدباء ١ / ١٣١ .

(١) معجم الأدباء ١ / ٢٥٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٥٨ .

شهرياً ، ويتوفى فيتابع أخوه عبيد الله الذي خلفه على بغداد لإجراء الرواتب عليه ، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهماً كل يوم .

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدواة وتفرض لهم رواتب شهرية ، وكانوا أنواعاً كثيرة ، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدثون ومفسرون ، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء . وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته ، وكان منهم من يُسَلِّكُ في جماعات كثيرة ، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذي تأخذه ، كالأزجاج تلميذ المبرد ، فقد جعل المعتضد له راتباً في الفقهاء وراتباً في العلماء وراتباً في الندماء ، فبلغ راتبه من الدواة ثلثمائة دينار شهرياً<sup>(١)</sup> . وكان الموفق يُجْرَى على ثعلب راتباً سنياً<sup>(٢)</sup> . وكان المقتدر يجرى على ابن دريد العالم اللغوي المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً في كل شهر<sup>(٣)</sup> . وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنوياً عشرين ألف درهم<sup>(٤)</sup> . وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة ، حتى ليُشْرَى بعضهم من راتبه ثراء طائلاً ، على نحو ما مرَّ بنا في الفصل الماضي عن إبراهيم بن جابر القاضي بجلب .

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزرائهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف ، فقد كان يشركهم في ذلك حكام الولايات ، وفي مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان ، إذ نرى أبا عبد الله البوشنجي شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ يذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ، ولما دالت دولتهم تحوّل عنهم إلى السامانيين ببخارى ، ففرضوا له راتباً مجزياً<sup>(٥)</sup> ، وقد بعثوا في إمارتهم بتشجيعهم للعلماء نهضة علمية عظيمة ، ويروى أن أميرهم إسماعيل بن أحمد الساماني كان يصل محمد بن نصر المروزي إمام المحدثين في دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة ، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها ، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند<sup>(٦)</sup> .

(١) الفهرست ص ٩٦ وإنباه الرواة ١/١٦١ .  
 (٢) معجم الأدباء ١٤١/٥ وإنباه الرواة  
 ١٤٢/١ .  
 (٣) انظر ترجمته في ابن خلكان .  
 (٤) كتاب الوزراء للصابي ص ٢٠١ .  
 (٥) طبقات الشافعية للسبكي ٢/١٩٢ .  
 (٦) السبكي ٢/٢٤٨ .

ولم يكن حكام الولايات يُنفقون على علماء ولايتهم وحدهم ، بل كانوا ينفقون أيضاً على كل من ينزل بها من العلماء الوافدين الذين قد يقيمون بها شهراً أو أشهراً ، ومن طريف ما يُروى من ذلك أن الرحلة في طلب الحديث إلى مصر جمعت بين محمد ابن نصر المروزي آنف الذكر ومحمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ ، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ ومحمد بن هرون الروياني المتوفى سنة ٣٠٧ ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، فاتفق رأيهم على أن يخرج أحدهم فيسأل لأصحابه الطعام ، وإذا هم بالشموع ورسول من قبل والى مصر يدقّ عليهم الباب ، وسألهم أين محمد بن نصر فقبل له هو هذا فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال لهم أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا ، فأعطاه صرة فيها خمسون ديناراً ، وكذلك صنع مع محمد بن إسحق بن خزيمة ومحمد بن هرون الروياني ، ثم قال لهم إن الأمير يقسم عليكم إذا نفذت هذه الدنانير أن تبعثوا إليه أحدكم<sup>(١)</sup> . على أنه يجب أن نعرف أنه كان هناك كثيرون وراء الولاة والوزراء والخلفاء من أعيان الأمة وأثريائها يمدّون العلماء بالملكافات والأموال الجزيلة بل ربما أمدوا الطلاب تشجيعاً وحشاً على طلب العلم ، ويروى أن ابن زرعة تاضى دمشق المتوفى سنة ٣٠٢ كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني في الفقه الشافعي مائة دينار<sup>(٢)</sup> . وكان ابن ماسي يُنفذ إلى أبي عمر اللغوي المعروف باسم غلام ثعلب من وقت إلى وقت كفايته<sup>(٣)</sup> ، وسرى في حديثنا عن علوم الأوائل القناطير المقنطرة من الأموال التي كانت تنفق على الأطباء والمترجمين . ولا بد أن نشير هنا إلى أن نقرراً من الفقهاء والمحدثين وحتى من القضاة كانوا يأبون أن يأخذوا على عملهم وتعليمهم أجراً ، كما مر بناء في الحديث عن زهاد الأمة أمثال إبراهيم الحربي ، وكان كثيرون منهم يعيشون من التجارة أو من الوراقة أو من بعض الحرف الصغيرة . غير أن الكثرة الغامرة كانت تعيش من رواتب الدولة ، ومن وضعوا أنفسهم موضع الحماة للعلوم والآداب من الوزراء والسراة ، وكان كثيراً ما يهديهم العلماء والأدباء آثارهم ، فيهدونهم بدورهم كثيراً من أموالهم وخير مثل يصور ذلك الجاحظ ، فقد أهدى كتابه « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف

(٣) السبكي ٣ / ١٩٠ .

(١) السبكي ٢ / ٢٥١ .

(٢) السبكي ٣ / ١٩٧ .

دينار ، وأهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتابه : «الزرع والنخيل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار . وكلهم كانوا من كبار رجال الدولة . وصنف للفتح ابن خاقان وزير المتوكل رسالته في فضائل الترك فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة<sup>(١)</sup> . وأمثال الجاحظ كثيرون في كل فن وفي كل علم كانوا يناولون هذه العطايا الجزيلة ويأخذون الرواتب السنية على جهودهم في المحاضرات للطلاب وفي تأليف الكتب وتصنيفها ، مما أشعل في نفوس الشباب والناس محبة العلم والعكوف عليه ، حتى يُعَدُّوا من أهله ، وفي شرفه وفضله يقول الجاحظ<sup>(٢)</sup> :

يطيب العيش إذ تَلَقَى لَبِيأً      غَدَاهُ الْعِلْمُ وَالرَّأْيُ الْمَصِيبُ  
فيكشف عنك حيرةً كلَّ جَهْلِيٍّ      وَقَفْضُ الْعِلْمِ يَعْرِفُهُ الْأَرِيبُ  
سِقَامُ الْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ      وَدَاءُ الْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طَبِيبُ

وكانت الطريقة الشائعة في المحاضرات ، وخاصة محاضرات المتكلمين والمحدثين واللغويين هي الإملاء ، ويعرض السيوطي لإملاء اللغويين حينئذ ، فيقول : «أهملى ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخيم ، وأهملى ابن دُرَيْدَ مجالس كثيرة ، وأهملى أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى ، وطريقهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء ، يكتب المستملي أول القائمة : «مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، ويورد التاريخ ، ثم يورد المُمْلِيَّ بأسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيد ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره . . . وآخر من علامته أهملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي له أمال كثيرة في مجلد ضخيم ، وكانت وفاته سنة ٣٣٩هـ<sup>(٣)</sup> . وبلغ من عناية العلماء الممليين حينئذ أن كانوا - وخاصة أهل الحديث - يراجعون ما كتبه تلاميذهم ، ويكتبون لمن يأنسون منهم القدرة على روايته عنهم شهادة بأنهم أجازوا لهم تلك الرواية ، ويسمى ذلك

(١) معجم الأدباء ٧٩/١٦ ، ٩٩

(٢) طبع إدارة الطباعة المتيرية بمصر ١/٥٨ .

(٣) المزهر (طبعة الحلبي) ٢/٣١٣ .

(١) معجم الأدباء ٧٩/١٦ ، ٩٩

وأمال المرتضى (طبعة الحلبي) ١/١٩٥ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر



عند المحدثين باسم الإجازة ، وهي شهادة قيمة على صحة الرواية<sup>(١)</sup> . وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك ، وقد يسجل أنه قرأها عليه ، وقد يسجل له ذلك الشيخ . وكان الشيخ أحياناً يملئ عملاً له في بلد ، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى ويعلمه مضيفاً إليه أو مهذباً ، وكانوا ينصون على ذلك ، مثل معجم الجوهرة لابن دُرَيْد ، إذ نصوا على أنه مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، لأنه أملاه مراراً بفارس وبيغداد ، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص ، ويقول ابن التديم أصح النسخ نسخة أبي الفتح عبد الله بن أحمد النحوي ، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه<sup>(٢)</sup> . وتلك هي أعلى مرتبة في تحقيقنا العلمي الحديث للكتب ، إذ تراجع مخطوطات الكتاب وعرضه عليها ، ونستخلص منه أصلاً صحيحاً غاية الصحة ، وقد اهتموا مبكرين إلى ذلك يرشدهم نظر علمي سديد . وكان كثير من العلماء حين يُملئ كتاباً ثم يزيد فيه ويضيف بهمل نسخته أو نسخه الأولى ، ولا يقر سوى النسخة الأخيرة ، على نحو ما يلقانا عند أبي عمرو المطرز ، فإنه أملى في سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت في اللغة ، ثم رأى الزيادة فيه فأمله على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩ ، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات ، فجمع نسخه وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣٢ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية للكتاب وأهدر ما سواها من الصور السابقة<sup>(٣)</sup> .

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء في الكلام وفي الفقه وفي اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التي كان يشتد فيها الخلاف والجدل . وكان الشباب يختلف في المساجد إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قرع الحججة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحياناً ، وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثبتت في أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كقضية العشق في مجلس المنتصر<sup>(٤)</sup> وأنواع اللهو والملاهي في مجلس المعتمد<sup>(٥)</sup> .

(٣) الفهرست ص ١١٩  
 (٤) مروج الذهب ٤ / ٥٥  
 (٥) مروج الذهب ٤ / ١٣١

(١) انظر في أقدم هذه الإجازات كتابنا  
 البحث الأدبي ص ١٥٧  
 (٢) الفهرست ص ٩٧

وكان استخدام الورق في الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملاً مهماً في ازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي وكانوا يكتبون في ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً ، فنقلوا صناعته إلى بغداد في عصر الرشيد ، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي وزيره مصنعاً للورق ، فرخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته ، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثرت الأوراقون الذين يعيشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب ، بل ليقروا فيها وينهلوا من مصنفاتها ، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيّدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل . وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يريدون أزواداً كانت أيسر وأسهل من التلقى عن الشيوخ والعلماء في المساجد ، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذي يريدونه وأصوله وفروعه ، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين ، يقول : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار ( الحديث ) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً ، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشياء أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرّى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً ( قاضياً ) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان » (١) . وأرواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد ورّاقين يقيّدون إملأاتهم ويذيعونها في الناس ، ويذكر ابن النديم ورّاقى المبرد لإسماعيل ابن أحمد الزجاجي وإبراهيم بن محمد الساسي (٢) ، ويذكر ياقوت من ورّاقى الجاحظ زكريا (٣) بن يحيى ، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين في تراجم العلماء وأخبارهم .

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١/ ٨٧ . (٢) معجم الأدباء ١٦/ ١٠٦ .

(٢) الفهرست ص ٩٥ .

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التي كانت تحلّ حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب في كل مكان ، ويشيد أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل<sup>(١)</sup> ، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول خزانة الحكمة التي شادها ببغداد هرون الرشيد ، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة ، وكيف تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً إذ ألحق بها مرصداً ضخماً ، ووظّف بها كثيرين للترجمة . وقد تأسست مكتبات كثيرة في العصر ، منها ما كان عاماً ، ومنها ما كان خاصاً ، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد ، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب ، ولقد هم في ذلك السّرة . وعنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة ، ومن أشهرها حينئذ مكتبة علي بن يحيى المنجم نديم الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد وكان أديباً مثقفاً ثقافة واسعة كما كان شاعراً ، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصرًا جليلاً جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون ، وكان الناس يؤمنونها من كل بلد ، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين ، والكتب مبدولة لهم ، والنفقة مشتملة عليهم من مال علي بن يحيى ، فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئاً ذا بال من النجوم ، فلما رآها هاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى ألد كما يقول ياقوت ، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً<sup>(٢)</sup> ، ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشافعي — من أديباء العصر وعلمائه — أسس مكتبة ملاًها بكتب من جميع العلوم والفنون ، وقفها على كل طالب للعلم ، وكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فهي مفتوحة للجميع ، وإذا ألمّ بها معسر أو بائس فقير صُرف له ورق للكتابة فيه وفضة أودراهم لمعاشه . وكانت تُفتَح في كل يوم ، وكان ابن حمدان يجلس في بعض غرفها ، ويحاضر قاصديها ملبياً عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به<sup>(٣)</sup> . ولا يكاد يكون

(٢) معجم الأديباء ٧ / ١٩١

(١) الفهرست ص ٢٤٨

(٢) معجم الأديباء ١٥ / ١٥٧

هناك عالم أو أريب نابه أو سرّى إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلدونها<sup>(١)</sup> ويتفنون في العناية بكتابتها وتجليدها ، وكان المانوية شديدي الاهتمام بزخرفة كتبهم<sup>(٢)</sup> يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية استمالة للقراء . ويتوقف الجاحظ في كتابه « الحيوان » ليعجب من مكتبة إسحق بن سليمان العباسي وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر<sup>(٣)</sup> ، وكانت لابن حنبل مكتبة قدّرت كتبها باثني عشر حملاً وعدلاً<sup>(٤)</sup> ، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له علي بن يحيى المنجم لم يرَ أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلاماء البصرة والكوفة<sup>(٥)</sup> ، وكانت لثعلب مكتبة حافلة ، قوم خيران الوراق ما يساوي عشرة دنانير منها بثلاثة ، ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار<sup>(٦)</sup> ، وكذلك كانت لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري مكتبة كبيرة ، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقاً<sup>(٧)</sup> . ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد ، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدّب ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهداها من كلام العرب واستشهد في تضاعيفها بيتين غريبين جداً ، فعرضهما القاضي أبو عمر على ابن دريد وابن الأنباري وابن مقسّم فلم يعرفهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات : وقال ابن دريد : هذا مما وضعه أبو عمر من عنده . فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضي ما قال ابن دريد . فطلب من القاضي أن يحضر له ما في داره من دواوين العرب ، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد ، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهداها ، ثم قال للقاضي : وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكاتبتهما في دفترك فطلب القاضي دفتره ، فإذا هما فيه<sup>(٨)</sup> وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب ، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئاً

(٥) معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ .

(٦) إنباه الرواة ١ / ١٤٨ .

(٧) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٧ .

(٨) السبكي ٣ / ١٩١ .

(١) رسائل الجاحظ ( طبع مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر ) ص ٧٤ .

(٢) الحيوان ١ / ٥٥ .

(٣) الحيوان ١ / ٦٠ .

(٤) السبكي ٢ / ٢٧ .

عنها ، فما بالنسبة لمكتبات المؤلفين العظام في العصر ، وكثير منهم ألف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة ، ويكفي أن نذكر مثلا الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة . وما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوي المصنفات التي جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه . ونذكر بجانبه الطبري ، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التي كتبها وألف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة ، وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة<sup>(١)</sup> .

ويحسُّ كل من يتعقب الحركة العلمية في العصر كأن سابقاً نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدون في طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعاً متصلاً يريدون أن يذلوه ويقهروه في جميع الميادين . وهو صراع كان يداخله شغف شديد به ، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجردوا له وتوفروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل في غير كلل ولا ملل ، بل في حب لا يفوقه حب ، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعبارة أخرى العلم عشقاً لا يشبهه عشق ، ويقول أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحبَّ الكتب أكثر من ثلاثة : الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كأنه ما كان حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، وانفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كفه أو خُفِّه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عَوَّده إليه ، وإسماعيل بن إسحق القاضي فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو يستنفضها<sup>(٢)</sup> » .

وهذا الشغف العلمي الشديد هو الذي دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلباً للعلم ، مهما تجشموا في ذلك من مشاق ، فكان اللغويون يرحلون إلى البوادي محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته في سبيل جمع اللغة ، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتملمذ على أئمتهم ، ومثلهم العلماء المختلفون في كل فرع من فروع العلم ، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه يا قوت عن أبي زيد البلسنجي أحمد

ابن سهل من أن نفسه دعته وهو في عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بلسخ ويدخل أرض العراق ويبحث بين أيدي العلماء ويقتبس منهم العلوم ، فتوجه إليها راحلاً مع الحاج وأقام بها ثمان سنوات ، فطوّف البلاد المتاخمة لها ، وأق الكبار والأعيان وتلامذ لأبي يوسف يعقوب بن إسحق الكندي ، وحسب من عنده علومًا جمّة ، وتعمّق في علم الفلسفة ، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة ، وبرّز في علوم الطب والطبائع وبحث في أصول الدين<sup>(١)</sup> . وأكبر من شُغفوا بالرحلة في العصر المحدثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا في أمصار العالم الإسلامي من إيران إلى المغرب ، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم ، فكان في كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى ، فرحل مصنفو الحديث وحفاظه في طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ورحلة البخارى من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة ، ومثله بتمية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث في العالم الإسلامي . وسرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم ، كما سنها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم ، وكذلك سنها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودى .

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكله أساتذتهم المتخصصين ، بل كان حظاً مشتركاً بين الطبقات العامة ، إذ كان العلم مطروحاً في المساجد مباحاً للجميع ، وكذلك في المكتبات العامة ، ولم يكن هناك كتاب طريف إلا وتعرضه دكاكين الوراقين . ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة ، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحدّاد والخزّاز والقوّاريرى والتّمّار والقوّاس والنّبّال والقلاّل والطار والمطرّز . وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ في رسالته «الرد على النصارى» يشكو من مناقشة العامة للملحددين والزنادقة في آرائهم الضالة ، لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندوها من الأدلة الساطعة ، حتى ليقول : «ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحقّ بمحاجة الملحددين من أحد» ، وكأن كل

فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظاً أو حظوظاً من مناهج المتكلمين في جدال أصحاب الملل والنحل الضالة . وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء، إذ نرى من النساء من يختلفن إلى حلقات المتكلمين<sup>(١)</sup> والفقهاء وغيرهم ، ويبدو أنه برزت حينئذ في الثقافة الدينية غير امرأة حتى انرى - كما مر بنا - قهرمانه لأم المقتدر ، هي شمائل ، تجلس في سنة ٣٠٦ لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء ، واختلف الفقهاء حينئذ في جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الطبرى<sup>(٢)</sup> ، وهي فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر ، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها<sup>(٣)</sup> :

ما للنساء وللكتبا بة والعمالة والخطابة

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ من كن يطالبن بمساواة المرأة بالرجل في الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة في المحافل العظام . ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة في العلم والثقافة ، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية ، هي محاولة أن يصبح العلم شعبياً بحيث لا يعلو على أفهام العامة ، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها ، ويتضح ذلك عند الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وعند ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » . ومررنا أن الجاحظ أراد بكتابة « البيان والتبيين » أن يرد على الشعبية رداً مفحماً ببيان ما تحمل الثقافة العربية في الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة ، ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها في أسلوب عصرى يقربها من أفهام العامة بحيث تُسَيِّغها بدون أى عسر أو مشقة . وبيون بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وعرضها عند الجاحظ في البيان والتبيين ، فهي عند الأولين جافة جفافاً شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة ، أما في البيان والتبيين فعذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط . بل أيضاً للطبقة الشعبية الدنيا . وبالمثل عرضه

(١) انظر ترجمة الأشعري في ابن خلكان . (٣) صحح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية)

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٠٧ . ٦٤/١ .

لهذه الثقافة في كتابه الثاني « الحيوان » فهو يقرب هذه الثقافة من الشعب، بحيث يجد فيها لذة ومتاعاً، وهو يمزج بينها وبين ما عُرِف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريباً ولا بعيداً عن العرب، بل لقد استظهروا منه كثيراً في أشعارهم. وهو لا يقرب هذا العلم من العامة وحده، بل يقرب أيضاً علم الكلام ونظريات أصحابه من المعتزلة أمثال النظام، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة، وكأنا كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقلياً في مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل. وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض في مجاداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضاً بسيطاً سهلاً، حتى يجعل قلوبها دانية للعامة، وحتى لا يظنوا - كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع - أن بينها تعارضاً، فتلك آداب الفرس وتقاليدهم في السياسة والحكم، وتلك وصايا العرب في القضاء وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية في الزهد، وتلك أحكام وقواعد في الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان. وكل ذلك يسوّى منه الكتاب في لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح، بحيث تتيح له أن يتغلغل في طبقة الشعب، وبحيث يتبين في وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يُظنّ من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية. وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكبّ الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صور هذه الآداب من كتب أخرى، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح، كما استطاع أن يكسبها بأساليبه البديعة ثوباً عربياً ناصعاً، بحيث أصبحت في ثوبها الجديد أنضع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم.

## ٢

## علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا في كتاب العصر العباسي الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان، وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند في مجال الفلك والرياضيات، ونقلوا عن اليونان العصر العباسي الثاني



إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التي تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون في هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة في التشريح ، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية ، وإذا محمد بن موسى الخوارزمي ينشئ عصرًا جديدًا في التاريخ العالمي للرياضيات فيكتشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذي عُرِف به في العالم كله . والدولة هي التي هيأت لذلك كله منذ أبي جعفر المنصور ، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل ، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس ، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى ، إذ ألحق بها مرصداً ومكتبة ضخمة ، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتية بالمأثورات اليونانية المختلفة ، وأخذت هذه المأثورات تستولى على معظم النشاط في النقل والترجمة ، حتى أصبحت لها نهائياً الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية .

وأشرنا في حديثنا عن الترجمة في العصر العباسي الأول إلى ما تُرجم عن اليونانية من الأصول المختلفة ، فقد ترجمت في الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التي عُنِيَ النقلة بترجمتها كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري ، كما عنوا بترجمة كتاب الأصول لأقليدس في الهندسة ، وترجموا كثيراً من المؤلفات اليونانية في العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيادلة ، وترجموا في الطب مصنفات جالينوس وبقرات . وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو ، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة . ويلاحظ أن العرب استعانوا في هذه الترجمة بالسريان ، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيراً من المأثورات اليونانية ، وتصادف أن أخذوها من علماء المذهب الأفلاطوني الجديد ، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين . وليس ذلك فحسب ، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتباً كثيرة ، ونُقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة ، مثل كتاب

الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث في النفس والإنسان تُمزَجُ بِقِصَص كثيرة وبقواعد في السياسة والصحة والتغذية . على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية . وكلاما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره ، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين ، وخاصة في علم المنطق والطبيعات ، أما في الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورس وبطليموس وأقليدس .

ويذهب العصر العباسي الأول ، ونمضي في العصر العباسي الثاني فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتذو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التي تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة . وهذا هو السر في أننا نجد كثيراً في ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذلك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمي العصر العباسي الأول . ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية . وكان الذي أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التي كان يُغدقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين ، ويكفي أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خدام من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخلاص والإقطاعات<sup>(١)</sup> . وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالاً كثيرة ، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو بعض ما ألّفوه على هدى ما قرءوه في اللغتين اليونانية والسريانية ، وفي أخبار قسطنطين بن لوقا أنه أهدى لإبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً<sup>(٢)</sup> . وفي أخبار إسحاق بن حنين أنه كان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد<sup>(٣)</sup> . وكان ثابت بن قررة لا يتقطع عن إسماعيل

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٢٣٠ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٧٤ .

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٢٧٠ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٧٠ .

ابن بلبل وزير المعتمد واه ألف مقالة في الهندسة<sup>(١)</sup> وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب ، يقول ابن أبي أصيبعة : « وكان مما نُقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يرحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وابنه بختيشوع وداود بن سراييون وسلامون بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفورى وحبيش بن الحسن<sup>(٢)</sup> . وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يَعُدُّون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين ، وكانوا يتنافسون في هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء ، ذكر منهم ابن أبي أصيبعة طائفة<sup>(٣)</sup> ، منها على<sup>(٤)</sup> بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التي سبق أن تحدثنا عنها ، وأحمد بن المدير . ومن نوه بهم القدماء طويلاً في هذا الجانب بنو موسى<sup>(٥)</sup> بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد ، وكان الأول والثاني يُشغقان بالهندسة في حين شغف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة ، وكانوا يُعَدُّون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة ، ويقال إنها كانت تبلغ في الشهر خمسمائة دينار<sup>(٦)</sup> . وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإنفاق عليها والتنافس فيها أحدث ازدهاراً عظيماً لها في العصر العباسي الثاني فقد أكب المترجمون على المآثورات الإغريقية في كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها ، وكادوا لا يبقون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تلخيص . ومن يرجع إلى ابن أبي أصيبعة والقفطى تهوله الكثرة الغامرة مما ترجموه ، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتب والرسائل ، سوى ما ألقوه وصنفوه .

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين<sup>(٧)</sup> بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٠ وانظر ترجمة الرازي ص ٤١٤ وكثرة من ألف الكتب بأسمائهم وأهداها إليهم .  
(٧) انظره في الفهرست ص ١٢٣ والقفطى ص ١٧١ وابن أبي أصيبعة ص ٢٥٧ والدومبيلي ص ١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الرابعة) ص ٣٧ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٣٠٠ .  
(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٤ .  
(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٣ .  
(٤) انظر أيضاً تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليزر) ص ١٣٢ .  
(٥) راجع في بنو موسى ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٠ والفهرست ص ٣٩٢ والقفطى ص ٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب لألدومبيلي (نشر الجامعة العربية) ص ١٣٩ .

مسيحيًا نستطوريًا من مدرسة جندبسا بور ، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يجيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية ، وهو وابنه إسحق<sup>(١)</sup> وابن أخته حبش<sup>(٢)</sup> أكثر المترجمين في العصر إنتاجًا ، وكانوا يعملون معًا ، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة ولذاك تارة أخرى . وكان يعاونهم تلاميذ كثيرون ، يدل على ذلك ما جاء في ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل « جعل له كتابًا نحرير عالمن بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا ، وفي مقدمتهم أصطظن بن بسيل<sup>(٣)</sup> » ، ويبدو من اسمه أنه يوناني الأصل . وكان حنين يُشغف بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم لجالينوس منها عشرت إلى العربية والسريانية ، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين . ويصور لنا في مقدمة بعض الكتب التي ترجمها مدى دقته العلمية في الترجمة إذ كان لا يزال يجمع للكتاب الذي يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ ، حتى إذا اجتمعت له قابل بينها وعارض عباراتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة<sup>(٤)</sup> . وكان ابنه إسحق يعنى بترجمة الكتب الحكيمة والفلسفة ، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية ، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وأفليدس وأرشميدس وبطليموس . أما حبش فعنى مثل خاله بترجمة الكتب الطبية . واشتهر أصطظن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقوريدس في النبات وكتاب أوريباسيوس في الأدوية المفردة<sup>(٥)</sup> .

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة للترجمة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر ، من أشهرهم ثابت<sup>(٦)</sup> بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لأفليدس ، ويقول ألدومبيلي إن النص العربي يصلح النص الإغريقي في

(٤) انظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجستراسر (طبع مطبعة دار الكتب المصرية) ص ٩٤ .

(٥) الففطى ص ٧٤ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٦) راجع الفهرست ص ٣٩٤ والقفطى

ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٢٩٥ ودى

بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(١) راجع الفهرست ص ٤٢٩ والقفطى ص ٨٠ وابن أبي أصيبعة ص ٢٧٤ ودى بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٢) انظر الفهرست ص ٤٢٨ والقفطى

ص ١٧٧ وابن أبي أصيبعة ص ٢٧٦

ودى بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٢ والقفطى

ص ١٧١ .

مواضع مختلفة ، وترجم كتاب أرسطو في النبات تفسير نيقولاوس ، وله كتاب قرسطون في نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية ، وكان له أثر كبير في لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدومبيلي ، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة في الطب ألفه لابنه سنان . ومن أبنه المترجمين حينئذ قسطا<sup>(١)</sup> بن لوقا البلبيكي المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحيًا من أصل يوناني ، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسي وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعي وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكتاب الحيل لهيرون المنشور في ليمزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين . وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع في الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين . وله رسالة صغيرة في الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية . وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو بشر متى<sup>(٢)</sup> ابن يونس ، وكان من أصل يوناني ، وقد عُنِيَ بترجمة جميع آثار أرسطو في المنطق وغير المنطق ، وترجم له كتاب الشعر ترجمة مضطربة ، لأنه يدور - كما هو معروف - حول المسألة اليونانية ، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها، ولذلك يكون لمتى عذره في اضطراب ترجمته لهذا الكتاب<sup>(٣)</sup> . وقد انتهت إليه رياسة المنطقين في عصره ، وله مناظرة في المنطق والنحو مع السيرافي سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت في معجمه<sup>(٤)</sup> .

ومتى بن يونس ينتهي عصر الترجمة العظيم ، ومنذ أوائل هذا العصر ، بل منذ عصر المأمون ، يشارك العرب في علوم الأوائل التي ترجموها ، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة ، ويكفي أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمي وابتكاره لعلم الجبر الذي أشرنا إليه في غير هذا

الرحمن بدوى في كتاب فن الشعر لأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .  
(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٧٦ .  
(٤) انظر معجم الأدباء ٨/ ١٨٠ .

(١) انظر الفهرست ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبي أصيبعة ص ٣٢٩ ، وألدومبيلي ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبي أصيبعة ص ٣٢٩ وألدومبيلي ص ١٥٥ ، ١٦٥ ودي بورص ص ٣٩ .  
(٢) راجع الفهرست ص ٤٢٩ وابن أبي أصيبعة ص ٣١٧ والقفطى ص ٣٢٣ وعبد

الموضع والذي ليس له سابقة عند علماء الأوائل ، وله شروح على كتاب أقليدس في الهندسة وكتاب بطليموس في الجغرافية ، وقد خلف فيها أول كتاب عربي جغرافي سماه صورة الأرض ، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسي الثاني يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسي الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح في مطالعه بأنه اعتمد في بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس . وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضوع ، تناوله أبو عبد الله الجيهاني وأبو زيد البلخي ، وأهم منهما ابن الفقيه ، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سمي كتابه « البلدان » . وأدق منه وأمهر علمياً يعقوبى أحمد بن يعقوب العباسي ، إذ نراه في كتابه الذي سماه أيضاً باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفاً لها وصف المشاهد المثبت من الأخبار . وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب . واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجد عند الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ في كتابه « صفة جزيرة العرب » .

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك ، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمي ، ومن تلاميذه في مرصد المأمون حبش الحاسب ، وله جداول فلكية مهمه . ومن نابهي الفلكيين في أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغاني وكتابه : « أصول الفلك » له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية ، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيكوس<sup>(١)</sup> ، وله كتب مختلفة في الإسطرلاب . ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر الباهلي المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع في العرب ومسيحي العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية<sup>(٢)</sup> . ومن الفلكيين النابيين في العصر الفضل<sup>(٣)</sup> بن حاتم النيرزي المتوفى سنة ٣١٠ وكان متقدماً في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصول أقليدس ترجمها جيرار دي كريمونا ونشرها كورتزه في ليزج سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضاً على كتاب بطليموس في الفلك وزيج على مذهب

في الفهرست ص ٤٠٠ والقفطي ص ١٥٢ .

(٣) انظر فيه الدومبيل ص ١٥٥ ، ١٦٢

والفهرست ص ٤٠٣ والقفطي ص ٢٥٤ .

(١) الدومبيل ص ١٦٧ وانظر في ترجمة

الفرغاني الفهرست ص ٤٠٣ والقفطي ص ٢٨٦ .

(٢) الدومبيل ص ٢٦٩ وراجع ترجمته

الهند وكتابتها « السند هند » وكتاب سمت القباة أو معرفة اتجاهها . وكان يعاصره البتاني<sup>(١)</sup> محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ « ولا يُعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها » وكان له مرصد في الرقعة على نهر الفرات ، وله زيج جليل ضمته أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما في كتاب المحسطى لبطليمرس ، وترجم زيجه إلى اللاتينية ، وقد لخص نلّينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه في دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية .

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء ، وقد أنتج العصر العباسي الأول أكبر كيميائي في تلك الحقب القديمة ، وهو جابر بن حيان ، وسبق أن ألمنا به في كتابنا عن العصر المذكور ، وكان قد تُرجم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألّف الجاحظ كتابه « الحيوان » في هذا العلم ، وحلّل بلاسيوس هذا الكتاب في مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيّناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيميائية وعلم الحيوان وعلم الإنسان<sup>(٢)</sup> . وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب ، وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع . ومرّباً بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب تُرجم باسمهم . ومن أهمهم بختيشوع<sup>(٣)</sup> ابن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثرة ثرائه أن كان يضاهي الخليفة المتوكل في الزينة والفرش والمأكل والمشرب ، ويقال إنه وصف للمتوكل دواء في بعض وعكاته فأمر له بثلاثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب ، ونقل له حنين كثيراً من كتب جالينوس الطبية . وكان يعاصره سابور<sup>(٤)</sup> بن سهل المسيحي صاحب بیمارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له في الصيدلة كان يقع في ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيدالاة يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلميد في القرن السادس .

القفطى أنه كان يلبس الحبة المثقلة بالوشى قيمتها ألف دينار .

(٤) انظر في سابور الفهرست ص ٤٢٧

والقفطى ص ٢٠٧ وابن أبي أصيبعة ص ٢٣٠ والدموييل ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

(١) انظر فيه الدموييل ص ١٥٥ ، ١٦٨ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٠ .

(٢) الدموييل ص ٩٦ .

(٣) راجع فيه الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص ٢٠١ وفي

ومن كبار الأطباء في العصر سنان<sup>(١)</sup> بن ثابت بن قرة الذي أسلم على يد الخليفة القاهر بالله ، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبني في سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين ، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتي دينار في كل شهر والثاني لأمه وكانت النفقة عليه شهرياً ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستاناً ثانياً ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهرياً ، مائتي دينار ، وبني لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستاناً رابعاً ببغداد على الشاطئ الغربي لدجلة وزوده بالأطباء والأدوات المختلفة . ومن طريف ما يروى أن نجد حامد بن العباس أحد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يومياً ومعهم الأدوية والأشربة ، وظل ذلك تقليداً مرعياً حتى نهاية العصر ، ونراه يأمره أيضاً بإرسال متطبين إلى الفلاحين في سواد العراق بحوض دجلة والفرات يطوفون به ويقيمون في كل جانب منه المدة التي تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزائن الأدوية والأشربة . ويبدو أن المتطبين كثروا في العصر ، حتى ليذكر ابن أبي أصيبعة أن عددهم في جانبي بغداد وحدها بلغ في سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفاً وستين سوى من كان في خدمة السلطان .

وطبيب المسلمين غير مدافع في العصر ، كما يقول القفطى ، هو أبو بكر محمد<sup>(٢)</sup> بن زكريا الرازي المتوفى حوالي سنة ٣٢٠ وُلد كما يتبين من اسمه بالري ، وسبق أن عرضنا له في حديثنا عن الزندقة وألمنا بكتابه «مخاريق الأنبياء» وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ، ثم اشتغل بالكيمياء والطب ، وعمل في بيمارستان موطنه وبيمارستانات بغداد وتنقل في مدن إيران وخراسان ، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوى الجاه طائفة من كتبه المهمة ، وترجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر ، وما زال المستشرقون يُعَنِّون به وبآثاره حتى اليوم وقد نُشر في باريس سنة ١٩٣٣

(٢) انظر في ترجمته المراجع المذكورة في حديثنا عنه بين الزنادقة في الفصل السابق ، وراجع دى بورص ١٤٧ والدوميليل ص ١٧١ - ١٧٨ .

(١) راجع سنان بن ثابت في الفهرست ص ٣٩٤ ، ٤٣٥ والقفطى ص ١٩٠ وابن أبي أصيبعة ص ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٢٧٩ ، ١٩٣/٣ .



فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلّف في الطب ٥٦ كتاباً وفي الطبيعيات ٣٣ وفي الفلسفة ١٧ وفي الرياضيات ١٠ وفي الميتافيزيقا ٦ وفي المنطق ٨ وفي علم الكلام ١٤ وفي الكيمياء ٢٣ وأكبر كتبه في الطب كتابه الحاوى ، وهو دائرة معارف طبية ضخمة ، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرهما . ويلى هذا الكتاب الطبي في الأهمية كتابه المنصورى الذى أهدها إلى الأمير السامانى بخراسان المنصور بن إسحق ، وهو كتاب نفيس ، تُرجم إلى اللاتينية مراراً في العصور الوسطى وعصر النهضة . وتُرجم له أيضاً إلى اللاتينية مراراً كتابه في الجُدَرى والحصبة ، وهو بحث طبي رائع في الوبائيات ، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ولم يُعَنَ بالطب الجسمى وحده فقد عنى أيضاً بالطب النفسى ، إذ ألف كتاباً في الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة ، وهو فيه يُكَبِّر من شأن العقل عارضاً النقاخص الخلقية التى تسبب الأمراض والعلل النفسية مبيّناً أن المصاب بها إذا حكّم معياره العقلى موازناً بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقتة إلى غير مآب . وكان ينصح الأطباء أن يوهمو مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم فى رأيه تابع لأخلاق النفس . وكان يهتم بالكيمياء معلناً أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً حقاً إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها ، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا . وكان يؤمن بخمسة مبادئ قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنباذوقليس وأنكساجوراس وهى : الله تعالى والنفس الكلية والهوى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق ، وكان يؤمن بقدم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم .

وكان طبيعياً وقد نُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة ، ومر بنا أن ما تُرجم إليهم من تلك الفلسفة صُيغ بالصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها ، وكان ذلك سبباً فى أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة . ولعل أول فيلسوف عربى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف نلتقى به فى هذا العصر هو الكندى<sup>(١)</sup> يعقوب بن إسحق ، وهو عربى أصيل من

الإسلامية وبعثاً للشيخ مصطفى عبد الرازق  
فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام =

(١) انظر فى الكندى الفهرست ص ٣٧١ والقفطى  
ص ٣٦٦ وابن أبى أصيبعة ص ٢٨٥ ودائرة المعارف

قبيلة كندة ، ولذلك لُقب فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكبَّ في نشأته على الاعتزال ، ولعل ذلك ماجعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل . ولا تُعرَفُ سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتى أواخر العقد السادس من القرن الثالث . وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات ، وهي تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين وأربعين وعند القفطى نحو ما تين وثلاثين وعند ابن أبي أصيبعة نحو مائتين وثمانين ، وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب . وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثر في شعوبها تأثيراً عميقاً ، ويقول ألدومبيلي إن كتابه في الهندسة أثر تأثيراً ملحوظاً في روجر بيكون . وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبي أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسيرانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما ، إنما كان يُصْلِح ويصحح بعض ما تُرجم عنهما ، وله تهذيبات لكثير مما تُرجم ، وله أيضاً شروح وتعليقات . ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتباً في التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة ، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالي ، وما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشارات بالعقل . وهو فيلسوف إسلامي بالمعنى الدقيق ، إذ له رسائل في إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعاً قوياً ، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو في زعمه أنه قديم ، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله ، وعنهما صدر عالم الأفلاك ، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية ، وهي تتصل بالحدس ، ولكنها تظل في جوهرها مستقلة عنه ، حتى إذا فارقت التذت لذة كبيرة ، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها ، لأنها إنما تؤثر في الأمور الطبيعية . وله بحوث فلسفية في الرياضة ، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة . وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفلسفة الإسلامية هي نظريته في أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله ، وعقل

فؤاد الأهواني لمجموعة أخرى من رسائله ،  
وكتاب دور العرب في تكوين الفكر الأوربي  
لعبد الرحمن بدوي (طبع دار الآداب  
بيروت) .

= ١٩٣٣ دى بورص ١٧٦ وألدومبيل  
ص ١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور  
محمد عبد الهادي أبي ريدة لرسائل  
الكندي الفلسفية ( طبع مطبعة الاعتماد  
بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد

بالقوة يكمن في داخل الإنسان ، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه ، وعقل مبين يؤدي للغير معقولاته . ومما قرره أن الحواس تُدرك الجزئيات والصور المادية في حين أن العقل يُدرك الكلِّيات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس . وذهب إلى تناهي الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة ، وهاجم الكيمياء هجومًا عنيفًا ، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضربًا خاصًا من الكيمياء شاع في عصره ، هو المتصل بالسحر والخرافة وكشف الأسرار .

وإذا كان العصر قد افتتح بفيلسوف هو الكندي فإنه اختتم أيضًا بفيلسوف له مكانة كبيرة في الفلسفة الإسلامية هو الفارابي <sup>(١)</sup> أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسي ، وأد في فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . ويبدو أنه تلقن في نشأته ما كان في خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها في بغداد ، وأكبَّ على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات واستوعب ذلك كله استيعابًا منقطع القرين ، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذي أكبره الكندي من جهة أخرى ، واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية في صورتها المبكرة ، بحيث عدَّ فيلسوف المسامحين غير مدافع . وأعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعنى بالإلهيات، فهو لا يعنى بالطبيعيات، وهو يرغب عن فيثاغورس وأضرابه من الرياضيين . ويتضح إكباره العقل في اهتمامه بالمنطق وما يؤدي إليه من استنباطات كلية مما جعله يُعنى بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسائله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظنَّ متفاوتة ، ويتعمق في بحث الكلِّيات . وفي كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلي المنطقي ، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن ، وبذلك جعل أول صفة لله هي أنه

بورص ١٩٢ ومقدمة ديتريصى لرسائله (طبعة لندن) ، وانظر مجموعة أخرى طبعت في حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢ : ١٣١ .

(١) راجع في الفارابي الفهرست ص ٣٨٢ والقفطلي ص ٢٧٧ وابن أبي أصيبعة ص ٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثًا للمرحوم الشيخ مصطفي عبد الرازق في الجزء السابع من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ودي

الموجود الواجب الوجود في حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده . وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة ، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولاجنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حده ، إذ هو لا يتحيز في مكان ، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة . وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم السارى في قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعاً . ويقبس من الفلسفة قيساً يمزجه بقبس آخر من التصوف أعصره ، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يحرك الفلك الأكبر ، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية ، وهى التى تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقول التسعة مجتمعة هى ملائكة السماء ومرتبهم في الوجود مرتبة ثانية ، وفي المرتبة الثالثة العقل الفعال في الإنسان وهو روح القدس الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى . وفي المرتبة الرابعة النفس الكلية ، ومنها روح العقل وتأثير أفراد الإنسان . وفي المرتبة الخامسة الصورة . وفي السادسة المادة . والمرتبات الثلاث الأولى : الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجساماً ، أما المراتب الأخرى فنلابس الأجسام . وواضح الأثر الإسلامى في هذا التفلسف ، فقد ذكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما . وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم ، أما كمال النفس فهو العقل . وبحث في السعادة مبحثاً متأثر فيه أيضاً بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها ، وصرح في قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسمية ، وأن السعادة لا تُطلب لغاية وراءها وإنما تُطلب لذاتها ، وأداتها في رأيه الأفعال والأخلاق الجميلة ، وهى لا تُدرك إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات . ويصرح في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغي أن يكون متحلياً بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنبياً اللذات الجسمية ، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها ، فإذا كان خيراً فاضلاً كانت المدينة فاضلة ، وإذا كان شراً فاسقاً انهارت المدينة وفسد الحكم فيها فساداً شديداً . وهو يذكر النبوة كثيراً ، وهى عنده أعلى مرتبة يبلغها الإنسان في العلم والعمل ، وهو يضعها - كى يوضحها - في مرتبة وسطى بين الإدراك الحسى

والمعرفة العقلية لخاصة . ونحن إنما لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابي ، وهي فلسفة إسلامية عقلية استمدت من روحانية الإسلام ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعاً ، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة .

## ٣

## علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول مدى التنافس الذي نشب بين علماء البصرة والكوفة في جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبوادي ومعهم قوارير المداد وأحمال الصحف ليدونوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية. وقدمضى كثيرون من علماء البلدين وتلاميذهما ببغداد في هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشاهدة الأعراب والسماع منهم لما يجرى على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعي والمفضل الضبي وأبي زيد وأضرابهم . وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم ، وسرعان ما تكون في هذا العصر السند ، إذ يقول العالم اللغوي مثل الأشناندي أبي عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨ : عن التوزي أبي محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبي نصر أحمد ابن حاتم الباهلي عن الأصمعي . ومعروف أن علم الأصمعي حمله مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن على بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيايدي أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشي العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧ . وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شيء على الإملاء ، وكان تلاميذهم يحرصون عليه مخافة دخول غلط عليهم في قراءة النصوص . ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحياناً عن الكتب ، وكانوا يميزونه من سواه ، خشية أن يكون قد صحف فيما قرأ ، واتسع التصحيف حتى ألف فيه العلماء كتباً مفردة . وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث في تجريح الرواة وتعديلهم ، وكان علماء البصرة في ذلك أشد تحرجاً من علماء الكوفة وبغداد ، وبالمثل تأثروا بهم في تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف ، ويؤثر عن ابن الأنباري

الكوفي المتوفى سنة ٣٢٨ قوله : « الكلمات قسمان : كلمات متواترة وآحاد ، فأما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنّة وكلام العرب ، وهذا قطعى يفيد العلم ، وأما الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر<sup>(١)</sup> . وكانوا يجمعون فيما يملونه أشتاتاً من بعض أقوال العرب وأشعارهم وأقاصيصهم ، ومما يصور ذلك مجالس ثعلب الكوفي المتوفى سنة ٢٩١ . وأحياناً كانوا يؤلفون الكتاب فى أقوال وأشعار وأمثال حيثما اتفق مثل مجالس ثعلب ، وأحياناً يجمعون كلمات فى موضوع واحد مثل كتاب المذكر والمؤنث ليعقوب بن السكيت الكوفي المتوفى سنة ٢٤٣ وكتاب النخل وكتاب الطير لأبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني البصرى المتوفى سنة ٢٥٠ . وكان طبيعياً أن تظهر حينئذ معاجم تحصى كلمات اللغة إحصاءً دقيقاً دالة على معانيها ، ولم يلبث أن تداول الوراقون معجم العين المنسوب إلى الخليل حتى إذا كان ابن دريد محمد بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٣٢١ وجدناه يؤلف معجمه اللغوى الكبير : الجمهرة فى اللغة ، وعلى الرغم من نقد القدماء له وقول نفظويه الكوفى معاصره المتوفى سنة ٣٢٨ إنه ليس أكثر من تحريف لمعجم العين للخليل يعدّ عملاً باهراً . ودفعتهنّ فكرة تعليم اللغة للناشئة إلى أن يجمعوا كثيراً من الألفاظ والعبارات الغربية فى طائفة من الموضوعات والمعانى ويؤلفوا فيها كتاباً مثل كتاب الألفاظ لابن السكيت ، وهو يحتوى كثيراً من أبيات الرجز المسرفة فى الغرابة ومن الألفاظ المهجورة ، وهو جانب يميز اللغويين الكوفيين إذ كانوا يكثرّون من رواية الغريب المهجور فى مصنفاتهم . وعُنوا فى هذا العصر أشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جمعاً علمياً ، عماده التوثق والتحقيق ، وهو عمل يُعدّ متمماً لما نهض به فى العصر الماضى المفضل الضبى والأصمعى وابن الأعرابى ، وكانوا يضيفون إلى الدواوين غالباً شروحاً للتوضيح ، ويشتهر فى هذا المجال محمد بن حبيب البصرى و ثعلب الكوفى والسكرى أبو سعيد الحسن بن الحسين البصرى تلميذ الرياشى وأصغر تلاميذ الأصمعى المتوفى سنة ٢٧٥ وكان شديد الطموح ، فلم يكتف بجمع دواوين طائفة كبيرة من الشعراء ، بل مضى بجمع دواوين القبائل ، ويقال إنه جمع منها نيفاً وثمانين ، لم يبقِ الزمن منها إلا قطعاً من ديوان هذيل

نُشرت في خمس مجموعات أربع منها في أوروبا وواحدة طُبعت في دار الكتب المصرية ، ودائماً نراه يذكر ما اختلف فيه أئمة البصريين والكوفيين في رواية أبيات وألفاظها المختلفة . و صنفوا كثيراً من المختارات الشعرية ، وكان مما صنفوه في العصر الماضي المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، أما في هذا العصر فن أهم ما صنفوه من كتب الاختيارات جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ولا تُعلِّمُ سنة وفاته بالضبط ، ولكن الوسائط في مقدمته لكتابه بينه وبين علماء القرن الثاني جيلان أو ثلاثة مما يؤكد أنه عاش في أواخر القرن الثالث الهجري ، ومختاراته تضم تسعاً وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وتغلب القصائد الجاهلية على المجموعة ، وتمتاز بالقصائد الطويلة . ويعُسنَى ابن الأنباري بشرح مفصل على المفضليات يسوق فيم الفروق بين الروايتين البصرية والكوفية لأبيات هذه المجموعة الكبيرة . وعنى حينئذ شاعران بعمل ديوانين للحماسة هما أبو تمام والبحترى ، وكان اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعم في جميع البيئات . وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تُقَرَّبُ بهما من أفهام الشباب والناشئين عامة ، فصنع المبرد كتابه « الكامل » وبه مختارات كثيرة ذلَّلها ويسرَّها لشُداة الأدب واللغة . وكانما أحسَّ الجاحظ وابن قتيبة ، كما مر بنا ، أن غاية اللغويين من هذا التيسير والتذليل لا تزال أبعد من أن يحققوها ، لأن فكرة التعليم اللغوي من أجل اللغة قبل كل شيء لا تزال غالبية عليهم ، فألف الجاحظ البيان والتبيين ليدخل على هذه الفكرة الأفكار الجمالية والبلاغية ، وألف ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار ليدخل بدوره عليها الأفكار الفارسية واليونانية ، مازجاً بينها مزجاً يثير رغبة الناشئة والشباب في قراءته ، وألف بجانبه مصنفه « أدب الكاتب » ليضرم في قلوبهم الحمية للنصحي وتنقية اللغة مما لابسها أو يكاد يلبسها من الشوائب الأعجمية والعامية . وألَّفت في العصر كتب كثيرة<sup>(١)</sup> تصور ما يلحن فيه العامة ، منها ما هو لأحمد بن حاتم الذي مر ذكره أو لأبي حاتم السجستاني أو للمازني أبي عثمان بكر بن محمد البصري المتوفى سنة ٢٤٩ أو للمفضل بن سلامة

(١) انظر كتاب الفهرست ص ٨٩ ،

الكوفي المتوفى سنة ٢٩٠ ونيف بقصد جذب الشباب والمتأدبين إلى دوائر الفصحى. وللغاية نفسها ألف ثعلب كتابه « الفصيح » جامعاً فيه كثيراً من الصياغات الفصيحة الناصعة ، كما ألف عبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٧<sup>(١)</sup> مصنفه « الألفاظ الكتابية » وهى عقود نظم فيها درراً من الصياغات البليغة الزاخرة بحويوة دافقة : وعلى غرارها ما جمعه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ فى كتابه « جواهر الألفاظ » وبذلك بث اللغويون فى نفوس كثيرين مشاركتهم فى تحبيب العربية للناشئة والشباب المتأدبين بوسائل كثيرة . ومنها وسيلة لم نتحدث حتى الآن عنها ، ونقصد ما حاوله بعض اللغويين من اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية ، إذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الأعراب ، مدججين فيها بعض ألفاظ غريبة كى يسهل على الناشئة حفظها ، ومن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد إذ ألف أربعين أقصوصة قصيرة - كان يسمى كلا منها حديثاً -<sup>(٢)</sup> لغرض التعليم اللغوى وتبسيطه وتيسيره ، وبذلك أوحى لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغياً بها الوجهة التعليمية نفسها .

ومن يرجع إلى كتابنا « المدارس النحوية » يطلع فى وضوح على نشاط النحاة فى العصر ، فقد كانت المدرستان البصرية والكوفية قائمتين ، وأخذت المدرسة البغدادية طريقها إلى الظهور بأخرة من العصر . وإلى المدرسة البصرية يرجع الفضل فى إقامة صرح النحو العربى بكل ما يتصل به من قواعد ، لافى هذا العصر بل فى العصر السابق له ، وخاصة منذ الخليل بن أحمد ، فهو الذى صاغه فى صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناه من سماع وتعليل وقياس قويم . وأتم سيويوه صنيعه فى مصنفه « الكتاب » الذى عدّه النحاة آية كبرى لا سابقة لها ولا لاحقة . وخلفه الأخفش الأوسط ، ففسح للغات والقراءات الشاذة محتجاً لها ومدافعاً دفاعاً سديداً . وفى هذه الأثناء استطاع الكسائى وتلميذه الفرّاء أن يشيدا فى الكوفة مدرسة نحوية ، تعتمد على صورة النحو البصرى العامة وتستقل بطابع تميزها ، من حيث بسط القياس وقبضه ومن حيث الاتساع فى الرواية ومن

(١) راجع مقدمة الألفاظ الكتابية ( طبعة (٢) زهر الآداب للحصرى ١/ ٣٠٧ .  
بيروت سنة ١٨٨٥ ) .



حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة ، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعاملات ، وعنى الفراء خاصة بإنكار بعض القراءات الشاذة .

وعلى هذه الشاكلة لا ينتهى العصر العباسى الأول ، حتى تكون المدرستان البصرية والكوفية تميّزنا تميزاً تاماً ، وكان أهم الأئمة البصريين فى هذا العصر المازنى والمبرد ، أما المازنى فهو بكر<sup>(١)</sup> بن محمد الملقب بأبى عثمان المتوفى كما مر آنفاً سنة ٢٤٩ وهو تلميذ الأخفش الأوسط ، وكان لسنياً قوى الحججة ، وله مناظرات مأثورة مع ابن السكيت وغيره من الكوفيين أفحهم فيها بأدلته القاطعة ، وعاش يلوس لطلابه وتلاميذه كتاب سيويه ، وله حوله تعليقات وشروح عدة ، منها تفاسير كتاب سيويه والديباج فى جوامعه ، وصنف فى علل النحو كتاباً ، وعنى بالتصريف عناية واسعة جعلته يخصه بكتاب التصريف ، ولابن جنى عليه شرح مبسوط سماه « المنصف » . وفى كتاب « المدارس النحوية » طائفة من آرائه فى النحو احتفظ بها النحاة فى مصنفاتهم ، وهو أول من أعطى علم التصريف صيغته النهائية فى كتابه السالف ذكره ، ويقول فى مطالعه بعد ذكره أمثلة الأسماء والأفعال المجردة والمزيدة : « إنما كتبت لك فى صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة ( الأبنية ) لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بنت من الأسماء والأفعال ، فإذا سئلت عن مسألة فانظر هل بنت العرب على مثالها ، فإن كانت بنتت فابن مثل ما بنت . . . وسأصنع لك من كل شىء من هذا الباب رسماً تقيس عليه ما كان مثله<sup>(٢)</sup> » . وهو يعدّ أول من فتح بقوة باب التمارين غير العملية فى الصرف ، إذ نراه يبنى من ضرب على مثال جعفر أو على مثال سفرجل وما إلى ذلك من أبنية غير مستعملة فى اللغة<sup>(٣)</sup> . وكان يتشدد فى الأخذ بالقياس ، مما جعله يردّ - على هدى الفراء - بعض القراءات التى تشذ على قواعد النحو ومقاييسه<sup>(٤)</sup> . وأنبه تلاميذه المبرد محمد<sup>(٥)</sup> ابن يزيد الأزدي لإمام نحاة البصرة لزمه المتوفى سنة ٢٨٥ وهو آخر أئمتهم المهمين ،

(٤) المدارس النحوية (طبع دار المعارف)

ص ١١٩ .

(٥) راجع فى ترجمة المبرد تاريخ بغداد

٣٨٠/٣ وإنباه الرواة ٢٤١/٣ ومعجم

الأدباء ١١١/١٩ .

(١) انظر فى ترجمة المازنى تاريخ بغداد

٩٣/٧ ، وإنباه الرواة ٢٤٦/١ ومعجم

الأدباء ١٠٧/٧ .

(٢) راجع المنصف على التصريف ٩٥/١ .

(٣) انظر المنصف ١٧٣/١ وما بعدها .

وفيه يقول ابن جنى : « كان يُعَدُّ جيلًا في العلم ، وإليه أفضت مقالات أصحابنا ( البصريين ) وهو الذي نقلها وحرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها <sup>(١)</sup> » وكان يشرح لتلاميذه كتاب سيبويه وكتب الأخفش والمازني وله مصنفات كثيرة ، منها كتاب الكامل في اللغة والأدب الذي أشرنا إليه فيما أسلفنا من حديث وكتاب المقتضب في النحو المطبوع في القاهرة بتحقيق محمد عبد الحلاق عزيمة ، وهو كتاب نفيس ، وطُبِعَ له كتابه « الفاضل » ونسب عدنان وقحطان ، وسقطت من يد الزمن مصنفات له كثيرة . وأهميته في تاريخ النحو البصرى إنما ترجع - كما لاحظ ابن جنى - إلى أنه حرَّرَ مسائل النحو البصرى وقواعده ، وإلى أنه اشتق من أصوله فروعاً كثيرة ، وإلى أنه بسط فيه كثيراً من العلل والمقاييس التي لم يُسَبِّقَ إليها ، وقد نفذ إلى كثير من التعريفات والآراء المبتكرة في العوامل المحذوفة والمضمرة والمفوضة ، وبالمثل في العمولات ومواقعها في الإعراب ، واستكثر من العلل كثرة مفرطة ، فكل رأى لا بد له من علة أو علل تسنده ، كما استكثر من القياس ، مع اعتداده بالسماع عن العرب ومع حس أدبى دقيق في التذوق اللغوى . وله تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم الزجاج لإبراهيم بن السرى المتوفى سنة ٣١٠ وهو امتداد له في عنايته بكتاب سيبويه وفي تصنيفه لبعض الكتب النحوية وفي محاولته النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة مع العناية بالتعليل والقياس . ومن تلاميذه المهين ابن السراج أبو بكر محمد بن السرى المتوفى سنة ٣١٦ وقد عكف على المنطق حتى أتقنه ، وعاش يقرأ لتلاميذه كتاب سيبويه وفي مقدمتهم السيرافى وأبو على الفارسى ، وله كتاب الأصول عُنِيَ فيه عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه ، انتزعه من كتاب سيبويه ، وأثّرُ دراسته للمنطق واضحة فيه وفي تقاسيمه .

وإذا تركنا المدرسة البصرية إلى المدرسة الكوفية وجدنا لها إماماً مشهوراً في هذا العصر هو ثعلب <sup>(٢)</sup> أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ وقد قرأ على شاذل أستاذيه الكسائى والفراء كتاب سيبويه وكتب الأخفش ، وأضاف إلى ذلك زاداً كبيراً حصَّله من الشعر القديم ودواوينه ومن القراءات والحديث النبوى . وذكر

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١٣٠/١ . وإنباه الرواة ١٣٨/١ ومعجم الأدباء

١٠٢/٥

(٢) انظر في ثعلب تاريخ بغداد ٢٠٤/٥

مترجموه له مصنفات كثيرة في النحو واللغة والقراءات والأمثال والمنتخبات الشعرية والنثرية ، وقد وصلنا منها « الفصيح » الذي عرض له في غير هذا الموضع والذي ابتغى به تقويم ألسنة المبتدئين. وطُبع له كتابه « المجالس » وهو إملاعات لختارات شعرية ونثرية تكتظ بالنحو والأشعار الغربية والشاذة والقراءات والأمثال والأخبار والأقوال المثورة . وصنَّع طائفة كبيرة من الدواوين القديمة . ومن يرجع إلى كتابه المجالس وما تناثر في كتب النحاة له من آراء يجده يطبق تطبيقاً دقيقاً آراء أستاذه الفراء وأستاذهما جميعاً الكسائي وكل ما أصلاه لمدرستهما الكوفية من أصول في النحو ومن مصطلحات وألقاب جديدة وما كانا يأخذان به أنفسهما من التوسع في الرواية عن العرب والاعتداد بالشواذ اللغوية . وله كتاب مطبوع يسمى قواعد الشعر ، وسنعرض له في حديثنا عن البلاغة والنقد . وله - مثل المبرد منافسه - تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى - كما مر بنا - سنة ٣٢٨ ، وتضاف إليه مصنفات كثيرة في غريب الحديث وعلوم القرآن وفي اللغة وكتابه الأضداد فيها مطبوع وأيضاً في النحو . وعنى مثل أستاذه بإخراج الدواوين الشعرية القديمة ، وسبق أن تحدثنا عن شرحه للمفضليات ، وهو مليء بمعارفه الواسعة في اللغة والأشعار والأخبار . وكان - فيما يظهر - مثقفاً ثقافة منطقية ، فدعم النحو الكوفي بكثير من العلل السديدة .

وتنشأ بأخرة من العصر المدرسة البغدادية متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع النفوذ إلى كثير من الآراء المبتكرة ، وقد تداولها جيلان : جيل مبكر كانت تغلب عليه النزعة الكوفية من أمثال ابن كيسان ، وجيل تال كانت تغلب عليه النزعة البصرية من أمثال الزجاجي . ولكي تتضح المدرسة وهاتان النزعتان نقف قليلاً عند ابن كيسان والزجاجي . أما ابن كيسان<sup>(١)</sup> فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ وهو تلميذ ثعلب والمبرد ، وأهله ذلك لكي ينتخب من آرائهما آراءه النحوية ، ولم يكتف بذلك فقد حاول النفوذ إلى بعض الآراء الجديدة ، وكان في أول أمره كوفياً ، فعنى بسط

الأدباء ١٧/١٣٧ .

(١) انظر في ابن كيسان تاريخ بغداد

١/٣٣٥ وإنباء الرواة ٢/٥٧ ومجم

العلل لآراء الأئمة الكوفيين ، تُسَعِّفه في ذلك ثقافة منطقية عميقة ، وجعله ذلك يصطبغ بصبغة كوفية ، حتى بعد استقلاله عن تلك المدرسة ، وقد أُلِّفَ فيها وفي المدرسة البصرية كتابه « اختلاف البصريين والكوفيين » واه وراءه كتب في النحو والتصريف ، وكتاب مهم في علل النحو قال القدماء إنه كان يقع في ثلاثة مجلدات ، وعلله هو الذي عرض فيه احتجاجاته لآراء المدرسة الكوفية . ويعرض كتاب المدارس النحوية ما اختاره من آراء المدرسة البصرية وكذلك من آراء المدرسة الكوفية ، ثم ما نفذ إليه من آراء اجتهادية انفرد بها من دون غيره من أئمة المدرستين . وهو بذلك مثل دقيق من أمثلة المدرسة البغدادية التي كانت تمزج بين آراء المدرستين السالفتين وتحاول أن تتخذ لنفسها آراء جديدة فريدة . والزجاجي<sup>(١)</sup> هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق المتوفى سنة ٣٣٧ تلميذ الزجاج البصري ، واه مصنفات كثيرة ، طُبِعَ منها كتاب الحمل وهو مختصر في النحو كانت له شهرة مدوية في العصور الوسطى وشُرح شروحا لا تكاد تحصى ، وطُبِعَ أيضاً له أماليه الوسطى مع تعليقات للشنقيطي ، ومجالس العلماء وهي مناظرات بينهم في مسائل لغوية ونحوية ، وكتاب الإيضاح في علل النحو ، وقد عرض فيه علل النحو عند البصريين والكوفيين ملاحظاً أن ابن كيسان وأضرابه من الجيل البغدادى الأول هم الذين وضعوا للنحو الكوفي أكثر علله واحتجاجاته ، وقد يضيف من عنده وجوهاً من العلل ، يدعم بها العلل الكوفية والبصرية جميعاً . وهو بالمثل في النحو ينتخب من آراء الطرفين ويضيف آراء جديدة ، وإذا كان ابن كيسان تتضح عنده نزعة كوفية فالزجاجي على العكس تتضح عنده نزعة بصرية ، إذ كثيراً ما يقف مع البصريين مناظلاً مدافعاً ، وكأنه كان إرهاباً لغلبة النزعة البصرية على النزعة الكوفية في المدرسة البغدادية ، على نحو ما سيتضح فيما بعد عند أبي علي الفارسي وابن جني .

ونشطت في العصر الأنظار البلاغية ، وفي كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ » ما يصور مراحل نشأتها في العصر العباسي الأول ونموها في هذا العصر ، فقد مضى كثيرون من الكتّاب مثل ابن المقفع ومن الشعراء مثل بشار يبدون بعض

ملاحظات بلاغية على ما يُكسبُ الكلامُ حسنًا وجمالًا حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد اتخذ ما اكتشفه الأدباء من محسنات مذهبيًا وأطلق عليه لأول مرة اسم البديع ، وكان يشمل وجوه حُسْنِ بيانية وبديعية ، وأخذ اللغويون من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة في هذه الأثناء يبدون بعض ملاحظات على وجوه الحسن في الكلام ، وألف الأصمعي كتابًا في التجنيس وسجل بعض ألوان هنا وهناك مثل الطباق والالتفات ، في حين عُنِيَ أبو عبيدة معاصره - وخاصة في كتابه « مجاز القرآن - ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة . وأخذ المتكلمون - وخاصة المعتزلة - يعنون بالبحث في وجوه البلاغة ، وجعلهم ذلك يحاولون التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليه كثيرًا من ملاحظاتهم . ومضى اللغويون والأدباء طوال القرن الثالث للهجرة يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة في الكلام ، ونثر ابن قتيبة في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية ، على حين ألم المبرد في كتابه « الكامل » بالكناية والتشبيه ، وفصّل القول فيهما تفصيلاً جيداً ، وانسابت من ذلك كله مسارب إلى كتاب قواعد الشعر لثعلب . غير أن هذه الجهود كلها ليست شيئًا بالقياس إلى ما نثره الجاحظ المعتزلي المتكلم المتوفى سنة ٢٥٥ في كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وهو يتحدث طويلاً عن فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي شاعت فيما بعد عند البلاغيين ، ويتسع في الحديث عن الإيجاز والإطناب ومواضعهما وعن أصوات الكلام وموسيقاه ومواقع الألفاظ ومواضعها التي لا تعدوها وعن السجع والازدواج والاقْتباس ، وحلل الاستعارة بأقسامها المختلفة تحليلًا بديعاً ، وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع واستنبط فناً جديداً منها هو المذهب الكلامي . وبذلك كان يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لمباحث البلاغة العربية .

وأخذت تتضح منذ مطالع العصر البيئات <sup>(١)</sup> ثلاث تتناول كل منها البلاغة تناولاً متميزاً ، وهي بيئة اللغويين المحافظين وبيئة المتفلسفين والمترجمين المحددين وبيئة المعتزلة المعتدلين ، أما البيئة الأولى فكانت تحاول بكل ما استطاعت

وما بعدها .

(١) انظر في هذه البيئات كتاب البلاغة

تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٦٢

أن تفرض المثال العربي القديم ، فهو النموذج الذى يحسن أن يحاكي ، وكل ما سواه غثٌ سقيم ، وأخذت تتجه إلى ملاحظات نحوية ولغوية مدرسية على نحو ما يتضح فى كتاب الموشح للمرزبانى . وأما البيئة الثانية بيئة المتفلسفة والمترجمين فكانت مجددة مسرفة فى التجديد ، إذ رأت من الواجب أن تتخذ الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولاً فى تقويم البلاغة العربية ، مما جعل البيئة اللغوية تعلن النكير عليها وكان يقف معها أصحاب البلاغة العربية الخالصة وكانوا أكثر نقرأ وأنصاراً لما قلناه فى غير هذا الموضوع من أنه سادت فى العصر نزعة محافظة غلبت فيه على كل شيء وكان طبيعياً أن تغلب على الذوق الأدبى العام . وكان المتكلمون - وفى مقدمتهم المعتزلة - يقفون موقفاً معتدلاً بين الطرفين المتعارضين ، إذ يقرعون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونها إلى أنظار العرب فى البلاغة ، بل إنهم يُخضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه على نحو ما يتضح عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وبذلك التحموا بالبيئة اللغوية المحافظة . وكان حرياً بالمتفلسفين ورفقائهم من المترجمين أن يثوبوا إلى رشدهم وينضموا إلى المتكلمين فى موقفهم السديد ، ولكن المسألة لم تكن مسألة عقلية أو منطقية يُحْتَكَمُ فيها إلى المنطق والعقل ، بل كانت مسألة شعوبية ، فهى التى أمدتْهم فى هذا الموقف بوقود جزل من الخصام والجدال والحجاج ، وكانوا لا يزالون يدعون أن كل ما شغف به الشعراء لهذا العصر من محسنات بيانية وبديعية إنما مرده إلى البلاغة اليونانية ، ولذلك تصدى لهم ابن المعتز فى كتابه « البديع » يُشَبِّت أن فنونه التى يلهجون بها فنون عربية خالصة ، إذ تتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى ، وكل ما للمحدثين من أمثال بشار وأبى تمام إنما هو الإكثار منها ، وهو إكثار جعلهم - كما يقول - يحسنون فيها تارة ، وتارة يسيئون إساءة شديدة . ومضى فى الكتاب يدرس فنونه الأساسية ، وهى عنده خمسة ، الاستعارة والتجنيس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى ، وإنما خص هذه الفنون بالدراسة لأنها كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب الفلسفة وأصحاب البلاغة العربية الخالصة . على أنه لم يلبث أن ضم إليها ثلاثة عشر فناً بسطها بسطاً ، وهى الالتفات والاعتراض والرجوع والخروج من معنى إلى معنى وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجحد وحسن التضمين والتعريض

والكناية والإفراط في الصفة أو المبالغة وإعانات الشاعر نفسه في القوافي أو ما سُمي فيما بعد باسم لزوم ما لا يلزم وحسن الابتداءات. ويمكن أن نضم إلى هذا المبحث الفصل في البديع وفنونه مبحثاً لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ في كتابه « عيار الشعر » جعل موضوعه التشبيه ، مفصلاً القول في أنواعه تفصيلاً دقيقاً .

ولم تقف البيئته الفلسفية مكتوفة الأيدي أمام ابن المعتز وكتابه البديع ، فقد تجرد منهم كثيرون لنقل كتابي الشعر والخطابة لأرسطو ، واشتهر نَقْلُ مَتَّى بن يونس لأوطما ونَقْلُ إسحق بن حنين لثانيهما . ولم يلبث قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ الذي اشتهر حينئذ بثقافته الفلسفية أن حاول صنع تشريع لبلاغة الشعر العربي مستضيئاً من حين إلى حين بما كتبه أرسطو في كتابه الشعر ، وسمّى صنيعه « نقد الشعر » . وإن نعرض الآن لما في الكتاب من نقد فسنعرض له عما قليل ، إنما نعرض لما فيه من حديث عن المحسنات البديعية ، وقد حاول جاهداً أن يبدّل ويعدل في بعض المصطلحات التي وضعها ابن المعتز معارضة له ، وكأنه إنما ألّف كتابه محادّة لكتاب البديع ، واستطاع أن يضيف إلى محسنات ابن المعتز الثمانية عشر ثلاثة عشر محسنًا جديدًا أهمها الترصيع والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيل . وبعضها يتداخل مع محسنات ابن المعتز . وكتاب ثان أنتجته بيئته المتفلسفة هو كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق ابن سليمان بن وهب ، وكان معاصراً لقدامة ، ويتضح فيه أنه يريد أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية وما كتبه فيها أرسطو عن الشعر والخطابة بأقوى مما حاول قدامة ، حتى لراه يضيف إلى انتفاعه بكتابي أرسطو السالفين كتابيه في المنطق والجدل ، مازجاً ذلك بمباحث المتكلمين وفقهاء الشيعة ، وكأنما تستعجم البلاغة عنده ، وقد حاول أن يطبق بعض ما ذكره أرسطو من وجوه البلاغة ، ولكنه فاته في كثير من الأحوال أن يُحسّن هذا التطبيق ، واقترح بعض ألقاب ومصطلحات جديدة لم يكتب لها الذبوع كما كُتِبَ لنظائرها عند قدامة وابن المعتز ، ويبدو أن أصحاب البلاغة العربية التاليين ضاقوا به وبكتابه ، فلم يذكروه ولم ينقلوا عنه . وكان ذلك سبباً فيما بعد ، لأن ينصرف الناس عن هذه البلاغة الأعجمية ، وأذواق أصحابها المتفلسفين ، وأن يستميلهم المتكلمون المعتدلون ببحوثهم البلاغية ،

حتى ليسيطروا ويبحثوهم على العصور والأجيال التالية .

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة في سبيل تحولها إلى علم في هذا العصر فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله ، ولا بد من ملاحظتين قبل الحديث فيه ، أولاهما أن أكثر الكتب التي عرضنا لها في البلاغة عرضت له ، وثانيتها أن البيئات اللغوية والاعتزالية والفاسفية التي تحدثنا عنها في البلاغة هي نفسها التي حاولت أن تشرع النقد وأن تضع له معايير ومقاييسه . وأولى هذه البيئات البيئة اللغوية المحافظة ، وقد هاجم الجاحظ ذوقها في غير موضع من كتاباته<sup>(١)</sup> ، وأعله كان يأخذ عليها اهتمامها بالغريب في الأشعار ونسيانها أو إهمالها جوانب الجمال والبلاغة فيها ، مما جعله يؤلف كتابه «البيان والتبيين» على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ومن المحقق أن روحها كانت محافظة ، ولكن من المحقق أيضاً أنها هي التي نقلت الشعر القديم لأول العهد به ، وهي التي ميزت وثيقه من منحوه ، مع كثير من الأحكام والفتنات النقدية الجديدة ، وأهل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ خير ما يصور عمل هذه البيئة المحافظة حتى عصره ، ونراه يعرض فيه قضية الانتحال في الشعر القديم عرضاً علمياً رائعاً ، موضحاً عبث القبائل والرواة المختلفين به ومدى ما دخله من فساد ، ثم تقدم يضع الشعراء في طبقات حسب جودتهم الفنية ، راوياً لكل منهم كثيراً مما صححته البصرة له وخاصة في العصر الجاهلي . ونمضي إلى العصر العباسي الثاني فنلتقي بشعلب وكتابه «قواعد الشعر» وهو كتيب مدرسي جاف وزع فيه الشعر توزيعاً نحوياً على أربعة أنواع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، وتحدث عما تجرى فيه من أغراض الشعر ومن التشبيه ، وعرض لبعض ملاحظات نقدية سطحية ، وليس في الكتاب نظرية نقدية ، إنما هي لمحات سريعة ، وقد سمي الطباقي الأضداد وسمى الجناس المطابق ، وتابعه في التسمية الأخيرة قدامة . والكتاب لا يضيف إلى النقد العربي شيئاً ذا قيمة يمكن الوقوف عنده . وفي الحق أن البيئة اللغوية أخذت تتخلف في مجال النقد ، على نحو ما تخلفت في مجال الدراسات البلاغية ، إذ لم يعد يلقتنا فيها سوى ملاحظات طائفة كأن نجد عند المبرد في كتابه «الكامل» كلمة هنا أو هناك



عن صحة المعنى أو جزالة اللفظ أو رداءته أو عوار الفكرة أو استغلاقتها أو ضرورة الشعر والموسيقى ، وشركه في مثل هذه الملاحظات كثير من اللغويين بحيث نراهم يخصصون كتباً في أخطاء الشعراء مثل كتاب أخطاء أبي تمام في الألفاظ والمعاني لأحمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى سنة ٣١٩ .

وإذا كانت البيئة اللغوية لم تستطع أن تتطور مع روح العصر في نقدها ، بل ظلت به عند نقد لغوى جاف لا يكون نظرية ولا ما يشبه نظرية فإن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل في نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة ، ومرّ بنا في الحديث عن البلاغة أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية ومعاييرها العربية وأنها لم تحاول أن تُعَلَى الأولى على الثانية ، إنما حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربي وبيانه وبلاغته . ويمكن أن يلاحظ ذلك بوضوح عند بشر بن المعتمر المعتزلى المشهور وقرينه أو معاصره الجاحظ ، أما بشر فنراه في الصحيفة التي دونها له الجاحظ في البيان <sup>(١)</sup> يدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم ، وهي فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي كانت شائعة عند اليونان في أحاديثهم عن البلاغة والنقد ، كما يدعو إلى البعد عن التكلف واستكراه المعاني والألفاظ وتجنب الغريب المتوعر في الألفاظ والتراكيب ، وينفذ إلى فكرة طريفة هي أن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معاني الخاصة أو من معاني العامة ، فكلُّ في موضعه شريف ، ومدار الشرف على الملاءمة بين الكلام ومقامه ، ويدعو في قوة إلى تبسيط الأسلوب وجعله في لغة وسطى بين لغة البلو الجافة الحشنة وبين لغة العامة المسفّفة المتبدلة . ويخلفه الجاحظ ، وتستعر نار المتفلسفة والشعوبية جميعاً ، فينادى بأن مدار الجمال في القرآن الكريم إنما يعود إلى نظمه الذي تنقطع الرقاب دون محاكاته ، ويمدُّ في قوة ملاحظة بيشر عن اللغة الوسطى ، حتى يتلاءم مع الحدائث ومع روح العصر ، فالألفاظ يجب ألا تكون ساقطة عامة ولا غريبة وحشية ، ويجب أن يلائم الخطيب بين كلامه والسامعين فلا يورد خطيب على الجماهير اصطلاحات المتكلمين ، وللإيجاز موضع وللإطناب موضع

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٥ وانظر

البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٣ .

لا في الألفاظ وحدها، بل أيضاً في الأساليب، ويلاحظ أن الأديب شاعراً أو نائراً معجمه اللغوي الخاص، وهي ملاحظة دقيقة، وعرض طويلاً للفظ وفصاحته وجزالته ورقته وتناسبه مع ما قبله وما بعده في الكلام حتى الكأن واشجة من الرحم تربط بينه وبين الأسرة اللفظية التي يسلك فيها. وأنكر الترادف ذاهباً إلى أن لكل لفظة معناها الخاص الذي يفتقر قليلاً أو كثيراً عن معنى أو معاني مرادفها، وعاب مراراً التكلف وفرق بينه وبين التنقيح. وجعله إعجابه باللفظ المونق يشيد به مضائلاً من المعاني وقيمتها، وكأنما كان يريد أن يسقط إلى الأبد ما تقواه الشعوبية عن كثرة المعاني في الآداب الأعجمية؛ وكذلك ما تقواه البيئة المتفاسفة عن المعاني الفلسفية اليونانية، إذ هي تحمل أفكاراً صحيحة، ولكن ينقصها جمال الصياغة وحسن السبك والرصف والنظم. ومع إعجابه بالشعر العربي القديم كان يعجب بالشعر الحديث، حتى ليفضل أبا نواس على كل من سبقه من الشعراء<sup>(١)</sup>. وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربي واليوناني ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربي عباسي حديث.

وأفاد ابن قتيبة من نظرات الجاحظ النقدية إفادة واسعة، مع أنه لم يكن من المعتزلة بل كان من أهل السنة، ولكنه اشترك معه كما مرّ بنا في غير هذا الموضع في الرد العنيف على الشعوبية، ونراه يكتب مقدمة طويلة لكتابه الشعر والشعراء يضمها كثيراً من آرائه النقدية، وتارة يوافق الجاحظ في بعض آرائه وتارة يخالفه، فما وافقه فيه رفض معايير القدم والحداثة في الحكم على الشعراء فلا ينظر إلى متقدم بعين الجلالة ولا إلى متأخر بعين الاحتقار، بل يوزن كل منهما بموازين الجودة الفنية الدقيقة. ووافقه في فكرة الطبع والتكلف، واستعار قبساً من فكرته عن المطابقة بين الكلام وأحوال النفس استضاء به في بيان الدوافع النفسية التي تبعث على قول الشعر كالطمع والغضب والشوق والطرب، كما استعار قبساً من فكرة

مصرعاه للنقاد، وقد أخذوا في أواخر هذا العصر يخصون بعض الشعراء بمباحث مستقلة فيها مثل كتاب سرقات أبي نواس ليموت ابن الأزرع المتوفى سنة ٣٣٤ وسرقات البحري لأحمد بن أبي طاهر المتوفى سنة ٣٥٠.

(١) الحيوان ٢/ ٢٧ وانظر في تحليلنا لآرائه كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ٤٦ وما بعدها وكتابنا «النقد» (طبع دار المعارف) وقد أشرنا فيه إلى حديثه عن السرقات، وهو أول من فتح بابها على

بشر بن المعتز عن الأديب ألا يُقبَّل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملاً ، فتحدث عن العلاقة بين الشاعر والأوقات التي يستحبُّ فيها نظم الشعر . وخالف الجاحظ في قَصْر الجمال الفني على اللفظ فجعله شركة بينه وبين المعنى ، فقد يحسن اللفظ والمعنى معاً وقد يقبحان معاً ، وقد يحسن أحدهما ويقبح الآخر . وكل ذلك كان يبشر بأن ابن قتيبة لن يترد إلى الوراء وخاصة أنه سَوَّى بين القدم والحدائث في الشعر ولكنه عاد فطلب إلى الشاعر ألا يجيد عن منهج المتقدمين في نظام القصيدة . وولتقي في أواخر العصر بناقد يتأثر بالجاحظ في كثير من آرائه النقدية ، كما يتأثر بابن قتيبة في رده الجمال الفني إلى اللفظ والمعنى معاً ، وهو ابن طباطبا صاحب عيار الشعر ، ونراه في مواضع من كتابه يشير إلى تماسك المعاني وارتباط أول الكلام بما يليه ، ويشدد في وحدة السياق وأن تتواصل أبيات القصيدة حتى تغدو بناءً محكماً بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر ، وكأنما أحس ما يردده النقاد في هذا العصر من فكرة الوحدة العضوية في القصيدة بحيث يطرد فيها التناسق والالتحام حتى تصبح كلا واحداً ، بل حتى كأنها لفظة واحدة ومعنى واحد<sup>(١)</sup> .

ولم نتحدث حتى الآن عن البيئة الثالثة بيئة المتفلسفة في النقد، وأهل خير من يمثلها قدامة في كتابه «نقد الشعر» وهو في مطالعه يصرِّح ولا يجمعم بأنه إنما سيعمِّي بعلم جسيّد الشعر ورديته وأن أحداً لم يسبقه إلى وضع هذا العلم في العربية . ويجعل الكتاب في ثلاثة فصول ، يخص أولها بتعريف الشعر وبيان أجزائه ، والثاني بنعوت الجود في الشعر ، والثالث بنعوت الرداءة . ويقف عند تعريف الشعر وفقه منطقية يستمد فيها بوضوح من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها ، ويبدو هنا أنه لم يفهم نظرية أرسطو في المحاكاة وأن المعوّل في الشعر عليها لا على الوزن ، وجاءه ذلك من سوء الترجمة لكتاب الشعر عند متى بن يونس فإن كثيراً من معاني الكتاب في الأصل طُمست طمساً ، وهو ما جعل قدامة يضطرب في الإفادة منه على صور شتى . وأجزاء الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية ،

(١) راجع في تحليل عيار الشعر كتاب

البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٢ .

ويقول إن نعوت الجردة تتصل بكل منها مفردة ومركبة ، ونراه يتأثر في هذا الفصل بنظرية الحدود الوسطى التي شُغف بها أرسطو في حديثه عن الأخلاق ، ويفيض في الفصل الثاني في الحديث عن نعوت الجردة ، ويعرض لأغراض الشعر ، ويحاول متأثراً بطريقة أرسطو أن يضع لها قواعد كلية عامة ، وهو في هذه القواعد يستمد كثيراً من كتابي الخطابة والشعر لأرسطو ، وكأنه يريد بكل ما يستطيع من قوة أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية ، وخانه التوفيق في كثير من الأحيان ، وأولا ما أضافه إلى ابن المعتز من بعض فنون البديع لتناسي النقاد التالون كتابه ولم يلتفتوا إليه أي التفات (١) .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذي كان مسيطراً على النقد والشعر جميعاً كان ذوقاً محافظاً ، وكان طبيعياً أن يُرْفَضَ نقد الميتفلسفة المفرطين في التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب مهم ، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشجع ، ولذلك سيطر المتكلمون الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولاً ورسوماً واضحة ، وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر كما أسلفنا ، وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليد الموروثة .

ونشطت في العصر الكتابات التاريخية نشاطاً عظيماً فن كتابة في تاريخ السيرة النبوية إلى كتابة في الأحداث الإسلامية والأمم والدول ، وكتابة في المدن ، وكتابة في التراجم والطبقات ، ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن ممن عنوا بالسيرة النبوية حينذاك ابن إسحاق وراوى سيرته ابن هشام والواقدي ومحمد بن سعد في كتابه الطبقات وكذلك المدائني أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٢٣٤ ، وله كتب ورسائل كثيرة في السيرة النبوية وفي تاريخ القبائل والخلفاء بلغت عند ابن النديم نحو ٢٣٠ مصنفاً . ومن أهم المؤرخين للسيرة النبوية في العصر أبو زرعة (٢) عبد الرحمن بن عمرو الحافظ شيخ الشام في وقته المتوفى سنة ٢٨٢ ، وفي مكتبة

(٢) انظر في أبي زرعة تاريخ دمشق لابن

عساكر ٧ / ٢٧٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٧ .

(١) انظر في تحليل نقد الشعر كتاب

البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٨ .

الفتاح بإستانبول مخطوطة من هذه السيرة . وكتب كثيرون في الأحداث الإسلامية وفي تاريخ الأمم والدول منهم يعقوبى الذى مر ذكره بين الجغرافيين وتاريخه فى ثلاثة أجزاء طُبِع بأوربا وبالنجف فى العراق ، ومنهم البلاذرى<sup>(١)</sup> أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ ، وله كتاب فتوح البلدان المعروف نشره دى خويه بليدن فى القرن الماضى ونشر بالقاهرة مراراً ، وله كتاب أنساب الأشراف فى التراجم والتاريخ طُبِع منه بعض أجزاء وبعض قطع ويعاد نشره كاملاً فى دار المعارف بالقاهرة . وكان يعاصره أبو حنيفة<sup>(٢)</sup> الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ صاحب كتاب الأخبار الطوال المنشور أولاً بليدن ، ثم بعد ذلك فى القاهرة ، وزاه يستهله بالحديث عن تاريخ الإسكندر والفرس ودولتهم الساسانية ، ثم يتحدث عن فتوح العراق وحروب صيفيين وتاريخ الأمويين وما كان فيه من مقتل الحسين وأحداث المختار بن أبى عبيد ، ثم يوجز فى الحديث عن الخلفاء من عبد الملك إلى المعتصم . وأتاحت ترجمة تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس فى العصر العباسى الأول والكتابات الكثيرة عن الرسل والأنبياء لمحمد<sup>(٣)</sup> بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أن يكتب تاريخه الضخم : « أخبار الرسل والملوك » ، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى عصره ، وزاه حين يصل إلى تاريخ الهجرة النبوية ينهج فى الكتاب منهج الحوليات فكل سنة مستقلة بأحداثها حتى إذا تمت أيامها انتقل إلى السنة التالية حتى يصل إلى سنة ٣٠٢ واتبع طريقة المحدثين ، فكل خبر وكل حادثة تُروى مع إسنادها ، وتتعدد الروايات ويتعدد الإسناد ليقابل المؤرخ الحصيف بين الروايات مع رواياتها ويستخلص منها الخبر الصحيح ، وله نشرات مختلفة فى ليدن وفى مصر ، وطبعته الأخيرة بدار المعارف محققة ومزودة بفهرس دقيق . ومن أهم المؤرخين فى العصر المسعودى<sup>(٤)</sup> أبو الحسن على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ وله

الحفاظ ٢ / ٢٥١ وطبقات القراء ٢ / ١٠٦  
وطبقات الشافعية ٣ / ١٢٠ .  
(٤) راجع ترجمته فى الفهرست ص ٢٢٥  
ومعجم الأدياء ١٣ / ٩٠ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٧٠  
والنجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥ .

(١) انظر معجم الأدياء ٥ / ٨٩ والنجوم  
الزاهرة ٣ / ٨٣ والفهرست ص ١٧٠ .  
(٢) راجعه فى الفهرست ص ١٢٢ ومعجم  
الأدياء ٣ / ٢٦ .  
(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد  
١٦٢ / ٢ ومعجم الأدياء ١٨ / ٤٠ وتذكرة

كتب تاريخية مختلفة ، وهي تندفق بحيوية جمّة ، إذ أخذ نفسه بالطواف في البلدان الإسلامية في الشام وإيران والهند وزنجبار ومصر والبلاد البعيدة الخارجة عن عالم الإسلام حول بحر الخزر وركب المحيط الهندي والهادى إلى الصين في رفقة التجار ، فاتسعت مداركه ، ومن أهم كتبه التاريخية مروج الذهب ، طُبع في باريس ثم في مصر ويبروت طبعات مختلفة ، وهو يبدأ فيه بتاريخ الخليقة منذ نشأتها ويتحدث عن الأمم القديمة وبلدانها ومشاهداته فيها ، ثم يوجز السيرة النبوية ، حتى إذا انتهى منها أخذ يتحدث عن الخلفاء خليفة خليفة حتى المطبع لله سنة ٣٣٦ وله كتاب التنبيه والإشراف وهو موجز تاريخي ، وطُبع له بمصر الجزء الأول من كتابه أخبار الزمان .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نجد كتباً خاصة ببعض المدن مثل أخبار أهل البصرة لأبي زيد عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٤ وتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد المتوفى سنة ٢٨٨ وتاريخ أصبهان لابن منده الأصبهاني المتوفى سنة ٣٠١ وتاريخ الموصل لأبي زكريا يزيد بن محمد الأزدي المتوفى سنة ٣٣٤ وأهم من هذه الكتب جميعاً تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر الملقب بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ وهو من مصادر تاريخ الطبرى ، وقد نشر كلر Keller الجزء السادس منه . وذكرونا في كتاب العصر العباسي الأول مدى اهتمام مؤرخي العصر بالأنساب والأيام ، وظل ذلك بعدهم مستمراً إذ نرى ابن الأنباري يعني في شرحه للمفضليات بالأيام عناية واسعة ، وللزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ كتاب ضخمة في نسب قريش وأخبارهم ، نشر منه بالقاهرة محمود أحمد شاكر مجلداً كبيراً . وألفت في العصر كتب كثيرة في رجال الحديث للبخارى وغيره ، وانتقل التأليف في الرجال إلى التأليف في الشعراء ، فألف ابن قتيبة كتابه « الشعر والشعراء » وألف ابن المعتز كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » وهما منشوران ، وألف يحيى بن علي بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ كتابين مفقودين هما البارع في أخبار الشعراء المولدين والباهر في أخبار الشعراء المخضرمين من بشار إلى مروان أبي حفصة . وألفت كتب في الوزراء وكتّاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتّاب لمحمد بن عبدوس الجهشي يارى المتوفى سنة ٣٣١ وهو مطبوع . وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم مثل كتاب

الأوراق لمحمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ وقد نشر منه المستشرق دان (Dunne) أخبار الشعراء المحدثين وهو تراجم لطائفة منهم ، ونسب منه أيضاً أخبار الراضى المتقى ، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو كتاب جدير بالتحقيق والنشر . وأخذوا يهتمون بالسيرة الفردية ، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٢ كتاباً في سيرة عمر بن عبد العزيز طبع بالقاهرة ، وألف بمصر أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ كتاباً في سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وعلى هذا النحو نشط التأليف في التاريخ لهذا العصر نشاطاً واسعاً ، فن تأليف في السير إلى تأليف في الطبقات وتأليف في الأمم والدول وتأليف في المدن ، وكادوا لا يتركون في التاريخ جانباً إلا رصده ووسجلوه ودونوه .

## ٤

## علوم القراءات والتفسير والحديث والفتوة

معروف أن القرآن الكريم حُمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوةً ومشافهةً ، واشتهر بتلاوته قراء مشهورون منذ الصدر الأول في مقدمتهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري وغيرهم من جلة الصحابة أمثال عبد الله بن عباس ، وخلفتهم أجيال من التابعين في كل بلد إسلامي ، كلهم يحافظون على تلاوته بجميع حروفه وحركاته كما أثرت عن الرسول الكريم ، وأخذوا يُعَدُّون بالعشرات ، وأخذ يتبع كل قارئ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته بأدق صورة ممكنة ، وفي الوقت نفسه أخذ قراء مؤثّقون يروون قراءات عن ابن مسعود إمام أهل الكوفة أو عن علي بن أبي طالب أو عن غيرهما من جلة الصحابة ، فتكاثرت القراءات ، حتى لنجد أبا عبيد القاسم بن سلام يؤلف كتاباً يحتوي على أكثر من عشرين قراءة .

ونمضى بعده إلى العصر العباسي الثاني ، فتستمر القراءات في كثرتها ، وتبدو الحاجة واضحة إلى عالم بالقراءات يختار منها طائفة تذيب وتنتشر في العالم الإسلامي ، ويؤكد الحاجة إلى ذلك أن بعض القُرَّاء كان لا يجد حرجاً في القراءة بشواذ منها متناهية في الشذوذ<sup>(١)</sup> ، وحينئذ تجرّد للنهوض بهذه المهمة الخطيرة أبو بكر أحمد<sup>(٢)</sup> ابن موسى بن مجاهد التميمي إمام القُرَّاء ببغداد منذ سنة ٢٩٠ فأكبَّ على القراءات وكتبها المصنفة ، واستخلص منها سبعاً هي قراءات نافع في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وعاصم وحمزة والكسائي في الكوفة وأبي عمرو بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في دمشق ، اتخذها إماماً للناس ، وألف في ذلك كتابه السبعة ، وكل من يراجعه يرى الجهد الهائل الذي أدّاه عن علماء القراءات في عصره ، فكل إمام من السبعة تُذكَرُ الطرق التي روى بها ابن مجاهد قراءته ، وينص في الكتاب على الاختلاف بين الطرق للإمام الواحد فضلاً عن الطرق مجموعة لكل الأئمة . وانبرى من بعده تلميذه أبو علي الفارسي لكتابة شرح على هذا المصنف : « السبعة » يحتاج فيه لوجوه القراءات المبثوثة به وجهاً ووجهاً ، سماه كتاب الحجّة . وألف ابن مجاهد كتاباً ثانياً في شواذ القراءات ، عُنِيَ ابن جنّي بشرحه على نحو ما عُنِيَ أستاذه أبو علي الفارسي بشرح السبعة ، سماه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . ونما تفسير القرآن الكريم في هذا العصر نمواً واسعاً ، واتضح فيه اتجاهات أربعة سيطرت على اتجاهاته في العصور التالية ، هي اتجاه التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى أو التفسير الاعتزالي ، والتفسير الشيعي ، والتفسير الصوفي ، أما التفسير بالمأثور فقد بلغ القمة المرجوة التي كانت تنتظره عند محمد بن جرير الطبري ، إذ استطاع أن يجمع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كل ما أثر

يصحّف بعض الكلمات ويستخرج لها وجوهاً ظنية . وكل منهما ناظره ابن مجاهد واعترف بخطئه وتوبته من صنيعة بخصرة القراء والفقهاء .

(٢) انظر في ترجمة ابن مجاهد طبقات القراء لابن الجزري ١/١٣٨ وطبقات الشافعية ٣/٥٧ والنجوم الزاهرة ٣/٢٥٨ .

العصر العباسي الثاني

(١) انظر في ذلك مقدمتنا لكتاب السبعة لابن مجاهد (طبع دار المعارف) حيث أوضحنا هناك موقف ابن مجاهد من معاصره ابن شنبوذ لقراءته حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، وكذلك موقفه من ابن مقسم العطار لقراءته حروفاً تخالف الإجماع وإن كانت موافقة لخط المصحف العثماني ومعروف أنه لم يكن منقوفاً ، فكان



عن التابعين والصحابة في تفسير الآي القرآنية . وكان الصحابة يحملون كل ما ذكره الرسول من تفسير لبعض آياته وبعض كلماته . وتفسير الطبرى من هذه الناحية يمكن أن يُستَخدم منه تفسير الرسول عليه السلام ، وكذلك من عرفوا بكثرة التفسير من الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وابن مسعود وتلاميذهما من مثل مجاهد وعكرمة . وما يلاحظ عنده أنه لم يتوسع في حتمل الإسرائيليات ، إذ كان يرى أنه لا غناء فيها وخاصة في التفاصيل التي لا يضر الجهل بها ، كسألة المائدة التي أنزلت على عيسى في سورة المائدة في الآيات ١١٢ إلى ١١٥ فإنه وجد عند أصحاب الإسرائيليات من يتحدثون عما كان عليها من طعام هل كان سمكاً أو خبزاً أو ثمرأ من ثمار أهل الجنة فقال إن العلم بذلك غير نافع ، وبالمثل الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف إذ باعه إخوته (بشمن بـخس دراهم معدودة) فقد وجدهم يتساءلون عن عدد الدراهم . هل كانت عشرين أو اثنين وعشرين أو أربعين ، فأضرب عن ذلك قائلاً إنه « ليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين . . . والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فوضوح عنا تكلف علمه » . ودائماً يذكر مع كل آية القراءات المختلفة فيها ، ويعرض لمعنى الكلمات من الوجهة اللغوية ويستشهد عليه بالأشعار الجاهلية والإسلامية ، وكثيراً ما يفضل شرح معنى للفظ على شرح معنى آخر . وكان يأخذ بفكرة حرية الإرادة التي أخذ بها المعتزلة ، ولكنه لم يتعصب لهم ، بل جادلهم في بعض آرائهم وردّها عليهم من مثل رأيهم في الرؤية البصرية لله وتأويلهم لها ويعلن مراراً أنه يقف مع السلف كما في الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة وأنه يحسن أن يراعى المفسر المعنى الظاهر للفظ بدون تأويل ، والأساس الذى لا محيد عنه هو عرض أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة لتبين معاني التنزيل الصحيحة الدقيقة .

ومنذ القرن الثانى يرجع المعتزلة إلى القرآن مفسرين مستشهدين ومتمثلين ، محتكمين إلى عقولهم ، ومحاولين أن يطابقوا بينه وبين آرائهم ، وأداهم ذلك إلى أن يحملوا منذ أول الأمر على أصحاب التفسير بالمأثور الذين كانوا يقفون أحياناً مع ظاهر الآيات . وكانوا أحياناً لا يحكمون عقولهم فيما يسمعون ، فيروون غرائب لا يصدقها العقل السليم ، وفي الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حملات شعواء للنظام

على أمثال هؤلاء المفسرين ، وكان طبيعياً ألا يقفوا عند تفسير آيات بعينها تخالف آراءهم الاعتزالية ، بل يحاولوا بسط هذه الآراء في تفسير القرآن جميعه ، وأول تفسير عندهم هو تفسير أبي بكر الأصم المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث وتفسيره مفقود ، وأهم منه تفسير أبي علي الجببائى محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣ ، وهو يبيد بعض المحققين بالقاهرة فى سبيل نشره ، ولا بد أنه يمتلىء بالتأويلات الاعتزالية ، ولا ريب فى أن الزمخشري انتفع به فى تفسيره انتفاعاً كبيراً .

وتأويلات المعتزلة لآى الذكر الحكيم إنما كانت تأويلات عقلية ، وكان وراءهم فريقان يؤولان القرآن تأويلات اعتقادية ، وهم الشيعة والصوفية ، وكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتزمين تأويلات بعيدة ، إذ يذهبون إلى أن لفظاً بعينه يُقصدُ به على أو غيره من أئمتهم وأن لفظاً آخر يقصد به خصم من خصومهم ، وصور ذلك ابن قتيبة عنهم ، فقال إن منهم من يزعم أن الحبس والطاغوت فى الآية رقم ٦٠ من سورة النساء معاوية وعمرو بن العاص<sup>(١)</sup> . ونسبوا لأئمتهم تفسيرات مبكرة ، فى مقدمتها تفسير نسبوه إلى جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ وتفسير ثان نسبوه إلى الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو آخر الأئمة الظاهرين عند الإمامية . وتفسيراتهم من هذه الناحية تُطَبِّعُ بطابع الرواية عن أئمتهم وآل البيت بعامة . أما تأويل المتصوفة حينئذ فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ ببعدها التفسير الشيعى ، إذ كان كل مسأربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية ، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التستري المتوفى حوالى سنة ٢٨٣ ونراه فى آية سورة النور : ( الله نور السموات والأرض - إلى قواه : والله بكل شىء عليم ) يجعل النور المحمدى فى سابق الأزل أساساً للآية . وكأن سهلاً سبق الحلّاج فى فكرة النور المحمدى الأزل .

وقد عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول لتطور منهج التأليف فى الحديث النبوى وأنه بدأ بتصنيفه على أبواب الفقه غالباً . وأن خير ما يصور هذه الطريقة

(١) انظر تفسير غلاة الشيعة فى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤ .

كتاب الموطأ لمالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ثم نشأت طريقة ثانية توزع فيها الأحاديث على روايتها من الصحابة ، فتجمع الأحاديث مثلا التي رواها أبو هريرة بدون نظر إلى اختلاف موضوعاتها الفقهية ، فالأساس وحدة الصحابي لا وحدة الموضوع ، على نحو ما هو معروف عن مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ، وظل محدثون يؤلفون على هذه الطريقة حتى نهاية هذا العصر مثل أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ وتوجد من مسنده مخطوطتان بمكتبة دار الكتب المصرية . وأخذت تقترن بهذه الطريقة سريعا طريقة ثانية هي امتداد للطريقة الأولى آنفة الذكر ، وكأنما رأوا أن الإفادة من طريقة المساند يكتنفها غير قليل من الصعوبة إذ لا بد لمن يريد الاطلاع على حديث ، لراوٍ من الصحابة في مسألة من مسائل الفقه ، من قراءة كل ما له من أحاديث ، وكانت دراسات الفقه نمت حينئذ واجتاج الفقهاء إلى الاطلاع سريعا على بعض الأحاديث للاحتجاج بها في كتبهم وضد مجاديلهم ، وأول مصنف وصلنا من هذه الطريقة هو مصنف عبد الله بن محمد بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ . ثم ألفت مصنفاتها السنة المشهورة ، وهي الجامع الصحيح للبخارى المتوفى سنة ٢٥٦ والصحيح لمسلم المتوفى سنة ٢٦١ والسنن لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ وسنن أبي داود المتوفى سنة ٢٧٥ والجامع للترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ وتعدّ أصبح كتب الحديث المؤلفة لا في هذا العصر وحده بل في جميع العصور . ولم يكن الاعتماد في هذه المصنفات وما يماثلها على دراسة الكتب ، وإنما كان الاعتماد على الرواية ولقاء الرجال ، مما جعل المحدثين يرحلون إلى الأمصار الإسلامية المختلفة يجمعون من هنا وهناك ما تفرق من الأحاديث على نحو ما هو معروف عن البخارى في تطوافه بأكثر مدن خراسان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر . وظل المحدث الكبير يعتمد على حافظته في إملائه الأحاديث ، وكانوا إذا نزلوا بلداً ربما تعرضوا لامتحان العلماء لهم كمن يعرفوا مدى حفظهم ، ويُسحكى عن البخارى أنه قدم بغداد ، فاجتمع أصحاب الحديث ورأوا اختباره فعمدوا إلى مائة حديث ، قلبوا متونها وأسانيدھا بأن جعلوا الإسناد مع غير منته ، واجتمع الناس ، فألقوها على البخارى ، فأنكرها حديثاً حديثاً ، حتى إذا فرغوا أخذ يرويها راداً كل متن إلى إسناده ، وله في

ذلك حكايات أخرى عجيبة<sup>(١)</sup>. ومن طريف ما يروى في هذا الجانب أن أبا داود صاحب السنن المذكور آنفاً كان له ابن من حفاظ الحديث هو عبد الله قدم سجستان ذات مرة ، فسأله أن يحدّثهم ، فقال لهم : ليس معي أصل ، فقالوا متعجبين : ابن أبي داود وأصول ! وأثاروه ، فأملى عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظه ، وعاد إلى بغداد فوجد المحدثين يذكرون قصته مع غير قليل من الريبة ، ولم يلبثوا أن أرسلوا إلى سجستان من يكتب لهم نسخة من الأحاديث التي أملاها ، فكتبت وجرىء بها ، وعرضت على الحفاظ ، فخطأوه في ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدّث بها كما سمعها ، وثلاثة أخطأ فيها ، وكأنه لم يخطئ في كل عشرة آلاف حديث إلا في حديث واحد<sup>(٢)</sup>.

ولا بد أن نقف قليلاً عند البخارى ومسلم لنرى مبلغ دقتهما في رواية الحديث ورفضهما لضعيفه ، أما البخارى<sup>(٣)</sup> محمد بن إسماعيل فقد أمضى ستة عشر عاماً يجمع صحيحه من أفواه الرواة الثقات في مختلف الأمصار ، وكل حديث معه سنده من زمنه إلى زمن الصحابي راويه الأول ، وهو يدرس ويفحص ، حتى لا يروى إلا الحديث الصحيح الذى لا يترقى إليه شك ، يفحص المتون ويفحص الرواة ليعرف المتهم من الوثيق عقيدة وقوة حافظته وخلوا من شوائب الكذب والغفلة ، ولذلك كان طبيعياً أن يؤلف تاريخه الكبير في الرجال ، ويروون عنه أنه كان يقول : « قتل اسم في التاريخ إلا وله عندى قصة » وكان عفاً للسان لا يشتد في تجريح المتهمين من الرواة ، بل يكتفى بمثل قوله : « فيه نظر » أو « سكتوا عنه » أو « هو منكر الحديث » . وجمع في صحيحه - كما يقول ابن حجر في مقدمته لشرحه عليه - ٧٣٩٧ حديثاً وإذا أضفنا إلى ذلك الأحاديث التي استأنس بها بلغت أحاديثه ٩٠٨٢ ، ويقال إنه انتخبها من نحو مائتي ألف حديث محكّماً في انتخابه شروطاً غاية في الشدة ، حتى يحيطها بأقوى سياج من الصحة والثقة . وأول شروطه

وكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم  
(طبع حيدر آباد) ق ٢ ج ٣ ص ١٩١  
ورفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة  
محمد محيى الدين عبد الحميد) ٣ / ٣٢٩ .

(١) طبقات الشافعية ٢ / ٢١٨ .  
(٢) السبكي ٣ / ٣٠٨ .  
(٣) انظر في ترجمته تهذيب التهذيب  
٤٧ / ٩ وشذرات الذهب ٢ / ١٣٤ وطبقات  
الحنابلة بن أبي يعلى (طبع القاهرة) ١ / ٢٧١

أن يكون الإسناد متصلًا ، فلا يسقط من رواته أحد ، وأن يكون كل راو مسلماً ، معروفاً بالصدق ، وعدم التدليس ، والتخليط ، عدلاً ، ضابطاً ، حافظاً ، سليم الذهن ، قليل الوهم ، سليم الاعتقاد ، وكان يرى أن رواة كل إمام من أئمة الحديث يختلفون في درجة الصلة به . فأصحاب الدرجة الأولى من لازموه في السفر والحضر ، ووراءهم من لم يلازموه سوى مدة قصيرة ، واشترط في رواة أسانيدهم أن يكونوا من أصحاب الدرجة الأولى ، وبذلك اشترط في الراوي المشافهة والملازمة . وقد يقال إن في الصحيح أحاديث لا يتصل فيها الرواة يريدون التي ذكرت — كما قدمنا — للاستثناس فقط ، وقد أخرجها ابن حجر في عده لأحاديث الكتاب كما مرّ آنفاً وكتاب الجامع الصحيح يبدأ بالحديث عن الوحي والإيمان وتتوالى كتب الفقه وأبوابه ، ويقم عليها أبواباً أخرى كحديثه عن بدء الخلق والجنة والنار وتراجيم الأنبياء ومناقب قريش وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازي والأطعمة والأشربة والأدب وتعبير الرؤيا . وختمه بكتاب التوحيد . وهو موزع على ٩٧ كتاباً تشتمل على ٣٤٥٠ باباً وبعضها فيه أحاديث كثيرة وبعضها فيه حديث واحد ، وقد يوضع عنوان الباب دون كتابة شيء تحته ، وكأنه كان ينوي أن يكتب فيما بعد تحته بعض الأحاديث وعاجله الموت . ومعروف أن الكتاب لم يكن قد وُضع في صورته النهائية . وهو يُعَدُّ بحق أصحّ كتب الحديث إذ تحرّى البخاري في جمعه تحريراً ليس له سابقة ولا لاحقة في تاريخ مصنفات الحديث ، باذلاً جهداً عنيفاً تقطع دونه الأمانى .

وأما مسلم فهو مسلم<sup>(١)</sup> بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ وصحيحه مثل صحيح البخاري في الثقة والمنزلة ، وقد روى أكثر أحاديث البخاري ولكن بطرق أخرى غير طرق أسانيدهم ، ورتبه على كتب الفقه وأبوابه كما صنع البخاري ، ولكنه لم يستكثر منها مثله . ونراه في مقدمة صحيحه يذهب إلى أن الأحاديث ثلاثة أقسام : قسم رواه الحفاظ المتقنون لا يترقى إليه الشك . وقسم رواه المستورون المتوسطون في الحفظ وهو يهبط درجة عن سابقه ،

١٦٧/٢ ورمّة الختان لليافى ١٧٤/٢

ومقدمة النووى بشرحه عليه .

(١) انظر في مسلم تاريخ بغداد ١٠/١٣

وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد)

وقسم رواه الضعفاء والمتروكون ، ويقول إنه إذا فرغ من رواية القسم الأول أتبعه القسم الثاني ، أما القسم الثالث فإنه يهمله ولا يعرج عليه . وتصريحه بأنه يروى من القسم الثاني جعل المحدثين من قديم يضعون صحيحه في منزلة دون منزلة صحيح البخارى ، بل إن منهم من حمل عليه مثل أبي زرعة<sup>(١)</sup> الرازى . على أن هناك من قدم على صحيح البخارى<sup>(٢)</sup> لأنه أدق منه تأليفاً ، وساد ذلك خاصة بين حفاظ المغرب فكانت كثرتهم تفضله على صحيح البخارى . والحق أنه لا يفضل من وجهة التوثيق الخالصة ، لسبب مهم ، وهو أن البخارى اشترط فى الرواة الملازمة فى السفر والحضر لمن يروون عنهم ، فى حين تخفف من ذلك مسلم ، فاكتفى بالمشافهة والمعاصرة ولم يطلب الملازمة . وما لا ريب فيه أن صحيح مسلم مع ذلك يُعَدّ فى الذروة من التوثيق ، إذ كان دقيقاً غاية الدقة ، حتى إنه ليدكر الفروق بين روايات الحديث ، ولو كانت حرفاً ، وكان على علم لا يبارى فى معرفة رجال الحديث الموثقين والمتهمين . وذكروا أن عدد أحاديثه نحو ٧٢٧٠ حديثاً . وهو مع صحيح البخارى أعلى كتب الحديث منزلة وأوفرها حظاً من الصحة والتوثيق ويليهما الكتب الأربعة التى سميها آنفاً التى يطلق عليها معهما اسم كتب الصحاح الستة ، وهى سنن أبى عبد الله محمد بن يوسف بن ماجه<sup>(٣)</sup> القزوينى وقد اشتهر برحلاته الكثيرة فى ديار الإسلام ، وتُعدُّ هذه السنن أضعف كتب الصحاح الستة لأن ابن ماجه ضمنها كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ويقال إنها لم توضع فى سلك الكتب الستة إلا منذ المائة السادسة للهجرة ، والكتاب الثانى سنن أبى داود سليمان<sup>(٤)</sup> بن الجارود بن الأشعث الأزدى السجستانى ، ولم يسلك فيها غير أحاديث الفقه والتشريع ، ولعله لذلك حظى بتقدير رفيع بين المحدثين . وثالث الكتب الجامع لأبى عيسى محمد<sup>(٥)</sup> ابن عيسى بن سهل الترمذى وقد عُنِيَ فيه بأحاديث الأحكام وذكر معها من احتج بها من أهل المذاهب . ولذلك كان الكتاب يفيد فائدة جُلِّى مَن يَعْنُون

ومرأة الجنان لليافى ١٨٩/٢ وطبقات الشافعية ٢٩٣/٢ .  
(٥) انظر تذكرة الحفاظ ١٨٧//٢ والتهديب لابن حجر ٣٨٧/٩ وميزان الاعتدال ١١٧//٣ والأنساب للسمانى الورقة ١٠٦ .

(١) تاريخ بغداد ٢٧٤/٤  
(٢) طبقات الشافعية ٢٧٦/٣ .  
(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٢  
(٤) انظر فى ترجمة أبى داود تاريخ بغداد ٥٥/٩ وتذكرة الحفاظ ١٦٧/٢

بدراسة الخلاف بين الفقهاء. ورابع الكتب سنن أبي عبد الرحمن أحمد<sup>(١)</sup> بن شعيب ابن علي النسائي ، وقد عني فيه بصيغ ونصوص في المعاملات ، كما عني برواية أحاديث الاستعاذات والأدعية التي تقال في الصلاة . وبجانب هذه الصحاح الستة ألفت كتب أحاديث مختلفة في العصر ، كما ألفت كتب مختلفة في الرجال أي رواة الحديث ، من أهمها تاريخ البخارى الذى أشرنا إليه ، ويلحقه في الأهمية كتاب التاريخ الكبير لأبى بكر أحمد ابن أبى خيثمة زهير بن حرب تلميذ ابن حنبل المتوفى سنة ٢٧٩ وفيه تحدث عن تعديل الرواة وتجريحهم . وعُنت البيئات الشيعية بأن يكون لها حظ في الاهتمام بالحديث ، ومن أهم الكتب التي صنفتها كتاب جامع لأحاديث الإمامين : جعفر الصادق وموسى الكاظم ، جمعه أبو العباس عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميرى القمى في أواخر القرن الثالث الهجرى . وواضح من ذلك كله مدى النشاط الذى نهض به المحدثون في تأليف كتب الحديث لهذا العصر ، ويكفى أنه ألفت فيه كتب الصحاح الستة التي شغلت المحدثين بالتعليق والشرح والتفسير طوال العصور الماضية .

وكان هذا العصر متمماً للعصر العباسى الأول في نشاط الدراسات الفقهية والتشريعية ، وقد رأينا هناك كيف أن المذاهب الفقهية الأربعة تكونت نهائياً ، وظل الاجتهاد نشيطاً ، فالفقهاء يجتهدون ويتناظرون ويختلفون ويكثرون من التأليف والمصنفات ، وتظهر مذاهب ثانوية لا يُكْتَسَبُ لها البقاء ، سوى مذهب داود الظاهرى ، ولكن ظهورها يحمل الدلالة الواضحة على حرية الاجتهاد الفقهي حينئذ وأن أبوابه كانت مفتوحة على مصاريعها . وكان طبيعياً أن يصبح لكل مذهب مجموعة كبيرة من أساتذته وشيوخه يذيعونه في العالم الإسلامى ، ومن أهمهم في المذهب الحنفى أبو بكر أحمد<sup>(٢)</sup> بن عمر الشيبانى الحنصاف المتوفى سنة ٢٦١ وله كتاب أحكام الوقف وهو منشور بالقاهرة وكتاب الحيل والمخارج في الفقه ، وهو منشور في هانوفر والقاهرة . ولا يقل عنه أهمية في هذا المذهب أبو جعفر

(٢) انظر في الحنصاف الجواهر المضية لابن أبى الوفاء ٨٧/١ والفوائد البهية للكنوى ١٧ .

(١) انظره في تذكرة الحفاظ ٢٧٦/٢ والتهذيب لابن حجر ٣٦/١ ومرآة الجنان لليافى ٢٤٠/٢ وشدرات الذهب ٢٣٩/٢ والسبكي ١٤/٣

أحمد<sup>(١)</sup> بن محمد بن سلامة الحَجَّجْرِي الطحَاوِي المتوفى سنة ٣٢١ وقد انتهت إليه بمصر رئاسة أصحاب أبي حنيفة ، وهو الذي نشر بها المذهب وعمل على إداعته ، وله معاني الآثار ، وهو منشور في جزأين بمدينة لخنو وكتاب مشكل الآثار وهو منشور بجيدر آباد ، ولا تزال له كتب كثيرة غير منشورة أحصاها بروكلمان . وقد حمل المذهب المالكي عن مؤسسه مالك بن أنس كثيرون في مصر والمغرب والأندلس ولع من فقهاء المذهب في هذا العصر عبد السلام<sup>(٢)</sup> بن سعيد بن حبيب التنوخي المشهور باسم سحنون القيرواني المتوفى سنة ٢٤٠ وهو الذي نشر المذهب في المغرب ودفعه إلى أن يشيع في جميع أرجائها ، وله فيه مصنفه الذي ظل اسمه يدوي هناك منذ ظهوره ، وهو المدونة الكبرى التي لا تزال تتخذ المرجع الأساسي بتلك الديار لتعليم الفقه المالكي وتدرسه ، وقد نُشرت بالقاهرة من قديم ، ونشرت لها شروح مختلفة . وقد خلف الشافعي وعمل على نشر مذهبه وعنى بالتصنيف فيه كثيرون في مقلداتهم تلاميذه المصريون : البويطي والربيع المرادي ، وأهم منهما المُرْتَنِي<sup>(٣)</sup> أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ ناصر المذهب وبدرسمائه كما يقول السبكي ، وله مختصر من علم الإمام النفيس محمد بن إدريس ظل الشافعية يتدارسونه طويلا ، وفيه يقول أبو العباس أحمد بن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ أكبر أئمة المذهب لأواخر القرن الثالث الهجري الذي انتشر منه في أكثر الآفاق<sup>(٤)</sup> :

لَصِيقُ فَوَادِي مَنْدَ عَشْرِينَ حِجَّةً وَصَيْقَلُ ذَهْنِي وَالْمَفْرَجُ عَنْ هَمِّي  
جَمُوعُ الْأَصْنَافِ الْعُلُومِ بِأَسْرَهَا فَأَخْلَقُ بِهِ أَنْ لَا يَفَارِقَهُ كُمِّي

وطبع هذا المختصر على هامش كتاب الأم للشافعي . وكان أحمد بن حنبل قد تتلمذ للشافعي ثم استقل بمذهب فقهي خاص اعتمد فيه على الحديث النبوي ، وبذلك عدَّ مذهبه مثالا لأهل السنة . ومن أهم أتباعه في هذا العصر

- |  |   |
|--|---|
| (١) راجعه في الجواهر المضية ١٠٢/١      | الحنان لليافعي ١٥١/٢ .                  |
| وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٩/٣ والأنساب     | (٣) انظره في وفيات الأعيان وشذرات الذهب |
| للسمعاني ١٥٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر    | ١٤٨/٢ والأنساب للسمعاني ٥٢٧ ومرآة       |
| ١٥٤٢/٢ والنجوم الزاهرة ٢٣٩ .           | الحنان لليافعي ١٧٧/٢ والنجوم الزاهرة    |
| (٢) انظره في الديباج المذهب لابن فرحون | ٣٩/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٢/٢ .      |
| (طبع فاس) ١٧١ وابن خلكان ومرآة         | (٤) السبكي ٣١/٣ .                       |



أبو القاسم عمر<sup>(١)</sup> بن الحسين بن عبد الله الخرق المتوفى سنة ٣٣٤ ، واه في الفقه الحنبلي كتاب المختصر في الفقه ، طُبِعَ في القاهرة بشرح عبد الله بن أحمد ابن قدامة أكبر أئمة المذهب الحنبلي في القرن السابع الهجرى .  
وهياً الاجتهاد الفقهي الواسع في هذا العصر لظهور مذاهب فقهية وراء المذاهب الأربعة الكبرى ، برز منها خاصة المذهب الظاهري نسبة إلى أبي سليمان<sup>(٢)</sup> داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠ ، وكان يتبع في أول أمره مذهب الشافعي ويتعصب له ، ثم أسس له مذهباً عُرف بمذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب يقوم على إنكار القياس في الدين ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلي والدين إلهي ، ويكفي لبيان الأحكام ما في القرآن والحديث من عموم . ومن أجل ذلك كان يرى الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة وعدم فتح الأبواب للقياس والآراء التي تنبثق عنه . وفي رأينا أن ظهور هذا المذهب يُعَدُّ إشارة واضحة في العصر إلى بروز نزعة محافظة قوية في دراسات الفقه ، وقد كُتِبَ له أن يذيع في الأندلس والمغرب فيما بعد ، وأن يتحمس له فقهاء نابهن مثل ابن حزم ، بل أحياناً دول مثل دولة الموحدين في الأندلس والمغرب .

٥

### الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعري

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف نشأ الاعتزال ونما وازدهر وكثر أعلامه وأتباعه ، وكيف أحوالوا البصرة وبغداد إلى ساحتين كبيرتين للجدال في المسائل العقيدية والدفاع عن الدين الحنيف وكل ما اتصل به من توحيد الله وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة ، ولم يكونوا يوجهون دفاعهم إلى أصحاب المال والسُّلْة الأخرى فحسب ، بل أيضاً إلى الحبيبة والمرجئة والشيعية الغالية ، ونازلوا الدهريين

والسبكي ٢٨٤/٢ ولياقي ١٨٤/٢  
والنجوم الزاهرة ٤٧/٣ وشذرات الذهب  
١٥٨/٢

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١  
والأنساب للسعدي ١٩٥ وتاريخ بغداد  
٢٣٤/١١ والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٩ .

(٢) انظره في تاريخ بغداد ٣٦٩/٨

والمناويين الشنويين نزلاً عفيفاً . وكانت مناظراتهم لهذه الفرق لا تتوقف يوماً ، والناس يتجمعون حولهم في المساجد يسمعون ويتفرجون ، وقد جذبوا الشباب إليهم ، بحيث كانت حلقاتهم أكبر الحلقات وأوفرها سامعين . وقد عكفوا على الثقافات والمعارف الأجنبية يتزودون بها ، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق ، وسرعان ما كَوَّنوا لأنفسهم مذهباً ضخماً تميز بأصوله الخمسة المعروفة ، وهي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر . وأخذوا على هدى ثقافتهم يتعمقون في مسائل الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإذا أتمتهم ينفذون إلى آراء جديدة كل الجدة في البحوث الطبيعية والفلسفية والإلهية ، بل إن منهم من استطاع أن يكون له فلسفة مستقلة ، فتلك فلسفة واصلية نسبة إلى واصل بن عطاء المتوفى لآخر العصر الأموي ، وهذه فلسفة بشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر أو ثمامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس أو هُدَيْلِيَّة نسبة إلى أبي الهذيل أو نظامية نسبة إلى النظَّام . وعلى هذا النحو لم يتكوَّن للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط بل تكوَّن له هؤلاء الفلاسفة في العصر العباسي الأول ، وهو العصر الذي بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمومة ، حتى لتصبح له السيطرة التامة على الحكم في عهد المأمون والمعتمد والواثق ، فإذا أتمته يحملون علماء الدين كرهاً على القول بخلق القرآن ، وتنشأ الحنة المعروفة ، ويُمْتَسَحَنُ كثير من الفقهاء ويسامون العذاب . وكان ذلك نذير شؤم ، إذ أسخطوا الفقهاء والمحدثين والناس عليهم ، وسرعان ما دالت دولتهم مع افتتاح العصر العباسي الثاني ، إذ ولي المتوكل الخلافة ولم يلبث أن أعلن إبطال القول بخلق القرآن ، واستقدم المحدثين إلى سامراء عاصمته وأجزل عطاياهم وأمرهم بالجلوس إلى الناس وإظهار السنة والأخذ بالتسليم . وكان من أثر ذلك أن اندحر المعتزلة على حين انتصر الفقهاء والمحدثون ، وأخذ كثير منهم يجرِّحون المعتزلة ، وقوى نفوذهم وسلطانهم على العامة ، ولم يستطع المعتزلة بعد ذلك أن يستردوا سلطانهم .

على أن الاعتزال استمر في نشاطه ، وخاصة أن كثيرين من تلاميذ فلاسفته الذين سميهاهم عاشوا في العصر العباسي الثاني ، ومنهم من طالت حياتهم فيه ،

فكان طبيعياً أن يظل له جهابذته وأن تظل له حلقاته في البصرة وبغداد ، بل إن كثيرين من المعتزلة الجدد في العصر استطاعوا أن يكوّنوا لهم فلسفة أو كما اصطلاح القدماء فرقة نسبت إليهم ، وفي مقدمتهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وهو تلميذ النظام ، وكان واسع الثقافة إذ لم يترك ثقافة أجنبية إلا اطّلع عليها وخاصة الثقافة اليونانية وما يتصل بها من الفلسفة الطبيعية والمنطق ، وقد ظل يدافع عن المعتزلة ويجادل خصومهم جدالاً عنيفاً ، وله في ذلك كتاب مستقل سماه « فضيلة المعتزلة » . ويقول ابن المرتضى في كتابه طبقات المعتزلة : « إنه أغرَى بشيئين : كون المعارف ضرورية والكلام على الرفضة <sup>(١)</sup> » والمراد الرد على الرفضة من الشيعة وبيان ما في اعتقاداتهم من فساد. ويفسر الأشعري قواه بأن المعارف ضرورية بأنه كان يذهب إلى أن « ما بعد الإرادة فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة <sup>(٢)</sup> » ويزيد الشهرستاني ذلك بياناً بقوله : « انفرد الجاحظ بمسائل منها قواه إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعاً » <sup>(٣)</sup> ويقول البغدادي في الفرق بين الفرق . « مما نسب إلى الجاحظ قوله : « إن المعارف كلها طباع ، وهي مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم ، ووافق ثمانية ابن الأشرس في أن لا فعل للعباد إلا الإرادة ، وأن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعاً وأنها وجبت بإرادتهم <sup>(٤)</sup> » . وأجل في ذلك كله ما يوضح رأيه في أن المعارف ضرورية طباعاً ، يريد أنها تحصل بلا اكتساب ، إنما كل ما هناك أن الإنسان يوجه إليها إرادته ، فتحدث اضطراراً وطبيعة ومثلها أفعال الإنسان تحدث طبيعة واضطراراً ما دامت قد اتجهت إليها إرادته ، فالمدار على الإرادة ، وما يحدث بعدها فناشئ عنها ، ويقول الشهرستاني إنه : « كان يقول بإثبات الطبائع الأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وقال باستحالة عدم الجوهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن ينفى » ، ويقول أحمد أمين : « وهي عبارة

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ( طبع مؤسسة

الجلبي ) ١ / ٧٥ .

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٧٥ .

(١) انظر كتاب طبقات المعتزلة لابن

المرتضى ( طبع بيروت ) ص ٦٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢ / ٤٠٧ .

على إيجازها تدل على معان عديدة فهو يقرر فيها القوانين الطبيعية للأشياء، فللماء وللنار ولأشياء هذا العالم كلها قوانين طبيعية لا تتخلف ، وهو يقرر المبدأ الهام الحديث وهو أن المادة لا تنعدم ، فالجوهر عنده لا يفنى وإنما تتغير الأعراض فجوهر المادة ثابت لا ينعدم ، وإنما يتحول ويتغير فيكون مرة ماء ومرة زرعاً ومرة معدناً ومرة خشبياً ، وهذه كلها أعراض طارئة على المادة ، وإن شئت فقل : إنها طارئة على العناصر الأولية التي تتكون منها المواد<sup>(١)</sup> . وذكر الشهرستاني تكملة لنظرية الجاحظ في الطباع أنه كان يقول في أهل النار « إنهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعتها » ، وأنه كان يقول : النار في الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها بدون أن يدخل أحد فيها ، فهي التي تدخلهم نفسها وتخلصهم فيها . وقد رد أبو الحسين الخياط على نسبة هذا القول إلى الجاحظ ، وقال إنه مما نسبته إليه ابن الراوندي الكذاب ، وقال إنه كذب عليه أيضاً في نسبته إليه إحالة فناء الأجساد وعدمها<sup>(٢)</sup> . وأعل في ذلك ما ينبهنا إلى أنه يجب الاحتياط في التعرف على آراء المعتزلة وأنه يحسن استقاؤها من كتبهم الخاصة .

وعاصر الجاحظ وتلاه كثير من المعتزلة في البصرة وبغداد ، وهم يكوّنون في هذا العصر الطائفت السابعة والثامنة والتاسعة من كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى ، ومن أهمهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحام من أصحاب أبي الهذيل ، وإليه انتهت رئاسة المعتزلة في البصرة في وقته<sup>(٣)</sup> ، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب ، وكانا ورعين زاهدين ، ويسوق أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار بعض آرائهما ، ويذكر أن أولهما صنّف كتباً كثيرة في الفقه ، وأن له كتاباً في الردّ على أصحاب الرأي والقياس في الشريعة<sup>(٤)</sup> .

ومن تلامذة جعفر بن مبشر أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذي عاش حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وكان من أكثر المعتزلة علماً بأقوالهم

(١) ضحى الإسلام ( طبع ونشر مكتبة

النهضة - الطبعة السابعة ) ٣ / ١٣٥ .

(٢) طبقات المعتزلة ص ٧١ .

(٣) الانتصار ص ٨١ .

(٤) الانتصار للخياط ص ٢١ - ٢٢ .

واختلافاتهم ، وكان فقيهاً مثل أستاذه ومحدثاً مرموقاً . وله كتب كثيرة في الرد على ابن الراوندى ، نُشر منها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، وهو يدل بوضوح على سعة معرفته بآراء المعتزلة ، وكان ابن الراوندى نسب إليهم آراء كثيرة غير صحيحة ، فزيّفها وبين بطلانها ، ومن عجب أن نرى البغدادى في الفرق بين الفرق والشهرستانى في الملل والنحل ينسبان إليهم بعض هذه الآراء ، كما يتضح من المقارنة بين ما جاء فيهما عن الجاحظ مثلاً وما جاء في كتاب الانتصار . ويمكن من هذا الكتاب استخلاص كثير من آراء الخياط مؤلفه ، ومن آرائه المهمة ذهابه إلى أن المعلوم يُعدّ شيئاً ، محتجاً بأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه ، وبذلك عدّ الجوهر جوهرًا في العلم والعرض عرضًا في العلم ، وأطلق على المعلوم لفظ الثبوت<sup>(١)</sup> .

وأنبه من هؤلاء المعتزلة جميعاً وأشهر أبو على<sup>(٢)</sup> محمد بن عبد الوهاب الجبائى المتوفى سنة ٣٠٣ وهو تلميذ أبى يعقوب الشحام البصرى ، وهو وابنه أبو هاشم من معتزلة البصرة . ولعل خير ما يصور آراءه كتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى تلميذه وفيه أنه كان يرى أن الله سبحانه لم يزل عالماً بالأشياء والجواهر والأعراض وأن الأشياء تُعلم أشياء قبل كونها وتسمى أشياء قبل كونها وكذلك الجواهر والحركات والسكون والألوان والطعوم والأرايبج والإرادات<sup>(٣)</sup> . وكأنه في موقفه إزاء الأشياء يلتقي بالخياط في رأيه الذى مرّ بنا آنفًا ، وقد حاول بعض خصومه أن يلزهما بأنهما يقولان بأزلية الأشياء وقدم الأجسام والجواهر والأعراض ، ومن المحقق أنهما لم يقولوا بذلك إنما يريدان أزلية العلم الإلهى . ومن تنمة رأى أبى على أنه كان يرى أن ما علم الله أنه يكون لا بد أن يكون . وكان يرى أن من الذنوب صغائر وكبائر ، وأن الصغائر تستحق غفرانها باجتتاب الكبائر ، وأن الكبائر تُحبّط الثواب على الإيمان ، وكان يذهب إلى أن العزم على الكبيرة كبيرة والعزم على الكفر كفر<sup>(٤)</sup> . وكان يقول إن الله خير بما

بدوى ، الجزء الخاص بالمعتزلة والأشعرية

ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) مقالات الإسلاميين ١ / ٢٢٢ .

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ٣٠٥ .

(١) الشهرستانى ١ / ٧٧ .

(٢) انظر في ترجمة أبى على الجبائى وآرائه

طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٨٠ ومقالات

الإسلاميين للأشعرى في مواضع مختلفة والشهرستانى

٧٨ / ١ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن

فعل من الخير ، وقال إن الأمراض والأسقام ليست بشرّ في الحقيقة وإنما هي شرّ في المجاز ، وكذلك كان قوله في جهنم إذ كان يقول إن عذابها ليس بخير ولا بشرّ في الحقيقة ، لأن الخير هو النعمة وما للإنسان فيه منفعة ، والشر هو العيب والفساد وعذاب جهنم ليس بصالح ولا بفساد وليس برحمة ولا منفعة ، ولكنه عدل وحكمة<sup>(١)</sup> . وكان يرى أن معنى قوله تعالى : ( الله نور السموات والأرض ) إنما هو على سبيل التوسع ، ومعناه أنه هادى أهل السموات والأرض ، وأنهم يهتدون به كما يهتدون بالنور والضياء وقال إنه لا يجوز أن نسميه نوراً على الحقيقة إذ هو ليس من جنس الأنوار<sup>(٢)</sup> . وكان يُجملُ العقلُ إجلالاً شديداً ، وهو إجلال كان يتابع فيه المعتزلة ، حتى ليتمكن أن نسميهم جميعاً باسم العقليين ، غير أنه مضى في الشرط إلى نهايته « فأثبت - وتابعه ابنه أبو هاشم - شريعة عقلية ، وردّ الشريعة النبوية إلى مقدرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدى إليها فكر<sup>(٣)</sup> » . ويقال إن تلاميذه حرّروا ما أملاه فوجدوه مائة وخمسين ألف ورقة ، ولم يبق من مصنفاته الكثيرة سوى تفسيره .

وأبو هاشم<sup>(٤)</sup> الجُبَّائي عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٢١ لا يقل عن أبيه على الجُبَّائي شهرة ، بل إنه يُتقدمه في الشهرة وذويوع لاسم ، بل لقد تحول المعتزلة في القرن الرابع الهجري إلى مذهبه وآرائه ، مؤمنين بأنه لم يبلغ غيره في الكلام مبلغه . وأبوه هو أستاذة الذي خرّجه في المباحث الاعتزالية ، وهو يتفق معه في كثير من آرائه ، وينفرد عنه في آراء كثيرة أيضاً ، يقول ابن المرتضى : « وقد استنكر بعض الناس خلافه على أبيه ، وليست مخالفة التابع للمتبع في دقيق الفروع بمستنكر ، وفي ذلك يقول أبو الحسن الكرخي :

يقولون بين أبي هاشم وبين أبيه خلافٌ كثيرٌ  
فقلتُ وهل ذاك من ضائيرٍ وهل كان ذلك مما يَضِيرُ

والفهرست ص ٢٦١ والملل والنحل للشهرستاني  
٧٨/١ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادى  
( طبعة محي الدين عبد الحميد ) ص ١٨٤  
ومذاهب الإسلاميين لبدي ١/ ٢٣٠ .

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٥ .  
(٢) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٢ .  
(٣) الشهرستاني ١/ ٨١ .  
(٤) انظر في ترجمة أبي هاشم تاريخ  
بغداد ١١/ ٥٥ وطبقات المعتزلة ص ٩٤

فخلُّوا عن الشيخ لا تعرضوا لبحرٍ تضايقُ عنه البحورُ  
 وإن أبا هاشمٍ تِلَّوهُ إلى حيث دار أبوه يدورُ  
 ولكن جَرَى من لطيف الكلامِ كلامٌ خفيٌّ وعالمٌ غزيرُ

فهو قد دار مع أبيه في آراء كثيرة ، واستقل عنه في أخرى استقلالاً ، لا يضيره ، فحبُّه أباه وتقديره شيء ، وحبُّه الحقيقة الاعتزالية وتقديره إياها شيء آخر . وأدرك الشهرستاني ما بين الأب والابن من الاتفاق ، فجمع بينهما في فصل واحد ، عارضاً فيه أولاً وجوه اتفاقهما ، ثم ذكر ما خالف فيه أبو هاشم أباه . ولعل أهم نظرية عُرف بها هي نظرية الأحوال ، وهي نظرية تتصل بصفات الله الأزلية ، ومعروف أن المعتزلة نفوها من قديم ذاهبين إلى أنها هي عين الذات الإلهية ، فالله عالم بذاته ، أى علامه هو ذاته ، وهكذا بقية الصفات ، وقال أبو علي الجبائي إن الله عالم لذاته وقادر لذاته ، وهلم جرأً ، وتنبّه أبو هاشم إلى فساد قول أبيه لما يترتب عليه من جعل الله علة لصفاته<sup>(١)</sup> . فحاول التفوذ إلى رأى دقيق وهداه عقله إلى أن الصفات أحوال تدرك بها الذات على نحو إدراكها للدعاني الكافية ، ويوضح ذلك الشهرستاني قائلاً : « عند أبي هاشم هو عالم ذاته أى ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً وإنما تُعَلِّمُ الصفة على الذات لا بانفرادها ، فأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة ، أى هي على حيالها لا تُعَرَّفُ كذلك بل مع الذات ، قال : والعقل يدرك فرقاً ضرورياً بين معرفة الشيء مطلقاً وبين معرفته على صفة ، فليس من عرف الذات عرف كونه عالماً ولا من عرف الجوهر عرف كونه متحيزاً قابلاً للعرض<sup>(٢)</sup> . وهي نظرية دقيقة ، إذ حاول بها أبو هاشم أن يلغى ما قد يُظنُّ من نبي المعتزلة : أبى الهديل العلاف وأضرابه للصفات الأزلية عن الله أنه ليس لها وجود مع أنها مكررة مرددة في الذكر الحكيم ، فقد ذهب إلى أنها في حال وسطى لا موجودة ولا معدومة ، وأنها تُدْرَكُ كما تدرك الكليات بدون أن تكون هي نفسها عين الذات ، وكأنه خشى أن يؤول ذلك عند بعض الناس إلى أن تكون جواهر أو أقانيم ، فأثبت أنها أحوال ، وفي الوقت

(١) أصول الدين للبغدادى (طبعة استانبول) (٢) الشهرستاني ١/٨٢ .

نفسه كان يرد على زميله الأشعري كما سيلي عما قليل في فكرته القائلة بأن الصفات الإلهية زائدة على الذات . ومن آراء أبي هاشم الطريفة تعليقه للعقاب الأخرى إذ يقول : « إن القديم تعالى خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلا بد أن يكون في مقابلته من العقوبة ما يزجرنا عن الإقدام على المقبّحات ، ويرغبنا في الإتيان بالواجبات ، وإلا كان يكون المكلف مُعْرِىً بالقبح ، والإغراء بالقبح لا يجوز على الله تعالى (١) » ، وكأنّه تنبّه بوضوح إلى أن الغرض من العقاب التريية وأن يَحْتَدِرَ الإنسان عواقب عمله الوخيم حتى يتنوّى عنه . وكان أبوه يرى أن التوبة عن الصغائر تجب سمعاً وعقلاً ، أما أبو هاشم فكان يرى أنها لا تجب إلا سمعاً ، لأن التوبة - في رأيه - إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر في الصغيرة فلا التوبة تجب عنها (٢) . وكان أبوه يرى أن التوبة عن بعض الكبائر مع الإصرار على بعض آخر تصح ، أما أبو هاشم فكان يرى أنه لا تصح التوبة عن بعض الكبائر دون بعض ، فلا بد أن يتوب المذنب من جميع الكبائر توبة نصوحاً (٣) .

وتلميذ ثان لأبي علي الجبائي انفصل عنه بأكثر مما انفصل ابنه أبو هاشم ، بل لقد استطاع أن يقيم مذهباً جديداً لا يعارض به أستاذه فحسب ، بل يعارض به المعتزلة جميعاً ، إذ أقامه على التوسط بين آرائهم وآراء أهل السنة ، حتى لقد عدّه هو نفسه مذهب أهل السنة ، ونقصه أبا الحسن (٤) . علي بن إسماعيل ، سليل أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل ، المتوفى سنة ٣٢٤ ، وقد ظل على مذهب المعتزلة أربعين عاماً كان يختلف فيها إلى حلقات أستاذه أبي علي الجبائي ، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن وعدم رؤية الله بالأبصار وأن الإنسان يفعل أعماله بقدرته وإرادته الخالصة ، وظل يلقى محاضراته بالبصرة والناس يقبلون عليه إلى أن بدا له أن يتركها إلى بغداد وظل بها إلى وفاته .

وقد نُشرت له كتب مختلفة ، منها مقالات الإسلاميين التي رجعنا إليها مراراً ،

بغداد ٣٤٦/١١ والفهرست ص ٢٧١  
والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١/٣٥٣  
وابن خلكان وطبقات الشافعية للسيبكي  
٣٤٧/٣ والنجوم الزاهرة ٣/٢٥٩ ومذاهب  
الإسلاميين لبدي ١/٤٨٧ .

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار  
ص ٦٢٠  
(٢) المصدر نفسه ص ٧٩٢  
(٣) المصدر نفسه ص ٧٩٤  
(٤) انظر في ترجمة الأشعري تاريخ



ومنها رسالته : الإبانة عن أصول الديانة واللامع ، وهما يصوران مذهبه تصويراً دقيقاً ، وهو مذهب كما قدمنا يوازن بين آراء أهل السنة ، وكل مسألة تُذكر فيها الأدلة العقلية والأدلة السمعية من الكتاب والسنة ، ونضرب مثلاً لذلك البراهين على وجود الله ، وقد اشتقها من القرآن اشتقاقاً على هذا النمط الذى ساقه الشهرستاني إذ يقول : قال الأشعري : الإنسان إذا فكر فى خلقته من أى شىء ابتداءً ، وكيف دار فى أطوار الحلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الحلقة ، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليُدبر خلقه ، ويبلغ من درجة إلى درجة ويرفاه من نقص إلى كمال - عرف بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً ، إذ لا يتصور صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار فى الفطرة وتبين آثار الإحكام والإتقان فى الحلقة<sup>(١)</sup> ، وواضح أنه يستلهم فى هذا البرهان ما جاء فيه من أطوار خلق الإنسان وتحواه من نقطة إلى علقة فضعة فعضام فكسوة من لحم ، ثم أطواره فى حياته . وإذا عرض مثلاً لبيان أن الله لا يشبهه شىء أدلى بالبرهان العقلى ثم أتبعه بالبرهان السمعى من مثل قوله تعالى : ( ليس كمثل شىء ) . وعلى هذه الشاكلة دائماً يسوق الأشعري مع الأدلة العقلية الأدلة السمعية . وقلنا آنفاً إن مذهبه وسط بين مذهبي المعتزلة والمحدثين ، وقد تابع الأوائل فى تنزيه الذات العلية عن التشبيه وكل ما يتعلق بالتجسيد ، وأخذ بقول المحدثين فى أن الله يُرى بالأبصار يوم القيامة ، مستدلاً على ذلك بأدلة سمعية أوضحها فى رسالته « الإبانة » إيضاحاً تاماً وبأدلة أخرى عقلية أوضحها فى « اللامع » . وتوسط بين المعتزلة والجبهرية فى أفعال الإنسان وخالقها ، فقد كان الجبهرية يذهبون إلى أن الله خالق أفعال الإنسان ، وقال المعتزلة ، بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله ، وتوسط الأشعري فقال إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وهى للإنسان كسباً وإرادة فهو يريد بها والله يخلقها فيه<sup>(٢)</sup> . وكان يرى أن صفات الله أزلية قائمة بذاته ، فهى ليست عين الذات الإلهية كما يقول أكثر المعتزلة ولا هى أحوال كما قال أبو هاشم الجبائى بل هى زائدة على الذات قائمة بها<sup>(٣)</sup> . وحاول التوفيق فى مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والمحدثين من أمثال ابن حنبل أى بين القائلين بأن القرآن حادث أو هو قديم ، فقال إن « العبارات

(٣) الشهرستاني ١ / ٩٥

(١) الشهرستاني ١ / ٩٤ .

(٢) اللامع ص ٤٥ وما بعدها .

والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلى ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلى<sup>(١)</sup> ، وبعبارة أخرى كان يرى أن القرآن وكلام الله القائم بذاته قديم ، أما الكتاب الذى بين أيدينا والذى نزل به الوحي فى زمن من الأزمان فحدث . وأنزل العقل من مكانته القدسية عند المعتزلة وخاصة فى الإلهيات ، إذ قال إن معرفة الله وشؤنه الإلهية ليس سبيلها ولا أدواتها العقل ، بل الوحي والشرع ونصوص القرآن والسنة ، فالعقل عنده لا يوجب شيئاً ولا يقتضى تحسيناً ولا تقبيحاً ، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد ، والواجبات كلها واجبات بالسمع ، وقد نُحَصِّل معرفة بالعقل ، ولكنها لا تجب إلا عن طريق السمع<sup>(٢)</sup> .

## الفصل الرابع

### نشاط الشعر

١

#### علم الشعراء بأسرار العربية

كل من يتابع جهود اللغويين في القرنين الثاني والثالث للهجرة يلاحظ تَوًّا  
كثرة ما أدوه للعربية وشعرائها من دراسات متنوعة ، فقد جمعوا مادتها الشعرية  
واللغوية جمعاً مستقصياً صوروه في مباحث مفردة كبحث عن الإبل أو الشجر  
أو الكلاً أو النخل و الكرم أو خلسق الإنسان أو الميسر والقلاح أو الأنواء ،  
وكبحث عن الاشتقاق أو عن علامات التأنيث أو الهمز وتحقيقه أو عن فعلت  
وأفعلت أو عن الأضداد ، أو عن الوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض .  
وكادوا لا يتركون موضوعاً ولا صيغة لغوية فيها بعض الاشتباه إلا دونوا فيها الرسائل  
القصيرة والطويلة . ثم ألفوا الكتب المجلدة . واستطاعوا منذ أواسط القرن الثاني  
لهجرة أن يضعوا قواعد النحو العربي وضعاً نهائياً وبالمثل قواعد الصرف والتصريف ،  
وأيضاً قواعد الأوزان الشعرية والقوافي ، بحيث أصبح الشعر العربي ولغته جميعاً  
مذللين منقادين للناشئة ، وفي أثناء ذلك وضعت القواعد لوضع المعجم العربي ،  
بحيث يضم بين دفتيه كل الكلمات العربية المستعملة والأخرى المهملة ، على نحو  
ما هو معروف عن معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وألف على غراره  
بأخرة من العصر ابن دريد معجمه المشهور : الجمهرة ، كما مر بنا في غير هذا  
الموضع .

وعلى هذا النمط أخذ اللغويون يجمعون للناشئة من الشعراء وغير الشعراء مادة  
اللغة ، كما أخذوا يبسطون لهم قواعد النحوية والصرفية والموسيقية ، وقد مضوا منذ  
مطلع العصر العباسي يجمعون لهم عيون الشعر العربي في مجاميع كثيرة ، غير ما جمعه

من الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية، وما أخذوا يجمعونه من دواوين العصر العباسي للشعراء النابهين، وكانوا يشرحون ما يجمعونه من أشعار تلك الدواوين حتى تفقهه الناشئة فقهاً حسناً، وشاركهم الشعراء في هذا الصنيع على نحو ما مر بنا في الفصل السالف مما صورناه عند أبي تمام والبحرئى، وقد يكون مما دفعهما إلى هذه المشاركة أنهما وجدا اللغويين يهتمون في كثير من الأمر بالشعر الغريب، ليتخذوا منه مادة للتعليم على نحو ما يلقانا في كتابات ابن السكيت وثلعب، فأرادا أن يقفا الناشئة بجانب ذلك على طرائف الشعر القديم والحديث، وكان كثير من اللغويين قد عنى بالترجمة للشعراء القدماء الجاهليين والإسلاميين، فانبرى بعض الشعراء والأدباء يترجم للشعراء العباسيين في كتب يفردونها لهم، كما يلقانا في كتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز وكتاب الورقة لمحمد بن داود بن الجراح، وجمع ابن قتيبة بين القدماء والمحدثين في كتابه «الشعر والشعراء». وكانت قد سبقته ذلك كله كتب في تراجمهم للأصمعي وأبي عبيدة ودعلبل، وكتاب طبقات الشعراء لابن سلام مشهور.

وكل ذلك مكّن الناشئة من إتقان العربية والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية، وزاد من وقوفهم على هذه الأسرار أن بيئة المتكلمين أخذت تُعنى منذ القرن الثاني الهجرى بتلقيح الناشئة بعض قواعد البيان والبلاغة، حتى يحسنوا الجدل والحوار وحتى يخلبوا أبواب سامعيهم، وإذا هذه القواعد تتفجر على ألسنتهم عند بشر بن المعتمر وأمثاله، وإذا الجاحظ يؤلف في ملاحظاتهم وملاحظاته البيانية كتابه «البيان والتبيين» مصوراً فيه كثيراً من أسرار البيان العربى تصويراً يتيح للشباب أن يقفوا في غير مشقة على خصائص العربية وأن يندوقوا هذه الخصائص تدوقاً دقيقاً. وشارك الجاحظ في هذا المجال كثير من اللغويين، على نحو ما مر بنا في الفصل السالف أمثال أبي عبيدة والبرد، ولم يلبث أن انبرى شاعرنا هو ابن المعتز لتصوير فنون البيان الشعرى الرائع في كتابه «البديع» واستطاع أن يضع لها المصطلحات التي كانت تجمعتها في عصره، وأن يتيح لها من التعريف بها ووصف أساليبها ما لم يتح لمتكلم أو لغوى أو شاعر من قبله، باتنا في ثنايا ذلك ملاحظات دقيقة في الفن الشعرى وجماله المتنوع الذي لا يتضب معينه.

ومعنى ذلك كله أن العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية والصرفية والنحوية وُضعت تحت أعين الناشئة في القرن الثالث الهجرى وضعاً علمياً دقيقاً حتى أصبح في ميسور كل ناشئ أن يتقنها ، إذ يستطيع أن يقرأ أشعارها في غير غناء ويفهمها في غير مشقة ويتذوقها في غير تكلف ، بحيث يستطيع أن يسيغها ، بل أن يتمثلها تمثلاً دقيقاً . على أنه يحسن أن نعترف بأن عربية مولدة أخذت تشيع على ألسنة العامة بجانب العربية الفصحى ، وكانت تتدأها الطبقات الدنيا وقد يشركها أفراد من الطبقات الوسطى ، وكانت تنتشر في العراق على ألسنة النبط وأهل الذمة ، وساعد على انتشارها تحول مقاليد الحكم العباسى من أيدي الفرس أصحاب الحضارة العريقة إلى أيدي الترك ، وكانوا لا يعرفون أى حضارة ولم يكن يعينهم أن يحسنوا العربية ، فاستخدموا اللغة الدارجة في أحاديثهم ، وكان ذلك عاملاً مساعداً في إشاعتها لهذا العصر بين من يعلمون معهم في الدواوين وأعمال الدولة المختلفة ، وليس ذلك فحسب ، فقد كان نفر من كتابهم يستظهرون على ألسنتهم بعض الكلمات العامية ، وعمم ذلك بعض الباحثين في الشعراء ، إذ رأوا ابن قتيبة يحيل كتابه « أدب الكاتب » إلى أسواط حامية يشوى بها وجوه الكتاب لعصره معلناً النكير عليهم لعنايتهم بالمنطق والفلسفة والهندسة وعلم الفلك ، مسجلاً قعودهم عن التثقيف ثقافة عميقة باللغة واشتقاقاتها وأبنياتها ، وكيف أنهم لا يعرفون المدلولات الدقيقة للألفاظ ولا مواضع استخدامها ، مع جهلهم بكثير من الصيغ وما بينها من الفروق ، فهم لا يعرفون فرق ما بين اسم المرة واسم الهيئة في الصيغة ، ولا كيف تتبادل الحروف أمكنتها ، وكذلك الأفعال اللازمة والمتعدية ، مع ما يلوكون من الكلمات الفارسية .

وطبيعى أن هذه الحملة التى شنّها ابن قتيبة على الكتاب لا تشمل جمهورهم ، إنما هى تشمل أفراداً منهم ، لم يكونوا من بلغاء العصر ولا من كتّابه الممتازين ، ومن أجل ذلك يجب ألا نعممها في الكتاب فضلاً عن الشعراء ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن اللغويين كانوا لهم بالمرصاد ، فمن انحرف منهم عن جادة الفصحى شتّعوا عليه وسقطوا به من حائق سقطة لا إقالة له منها أبداً ، إذ كانوا يبعدون أنفسهم حُماة النصحى ، وأن من نوّهوا به من الشعراء طار اسمه ومن أزرّوا به لم تقم له قائمة ، وكان الشعراء يسلمون لهم بهذه المنزلة ، فكانوا يعرضون عليهم أشعارهم

وخاصة في أول أمرهم ، كما يحدثنا أبو السبيل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول :  
 « لما عرض لي الشعر أتيت جاراً لي نحوياً هو المازني وأنا يومئذ حديث السن ،  
 فقلت له إن رجلاً لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشيء  
 من الشعر ، فكره أن يُظهره حتى تسمعه ، قال : هاته ، وكنت قد قلت شعراً  
 ليس بجيد ، إنما هو قول مبتدئ ، فأنشدته إياه فلما سمعه نهرني عليه وذمه<sup>(١)</sup> ،  
 ومنذ بشار بن برد في العصر العباسي الأول نجد اللغويين يتعقبون الشعراء في أساليبهم ،  
 فكلمنا بدا من أحدهم انحراف عن جادة الفصحى أعلنوا التكبر عليه ، حتى لو كان  
 في انحرافه الظاهر إنما يقيس على أمثلة الشعراء القدماء وأبنتهم أو على بعض  
 أبنية العرب المسموعة ، وما يصور ذلك عند بشار أنه رأى العرب يصوغون من الفعل  
 فعَلَى للدلالة على السرعة فيقولون حَجَلَى للدلالة على سرعة السير ، فقاس على  
 هذه الصيغة وَجَلَى من الوجَل قائلًا :

والآن أقصر عن سُمِيَّة باطلي وأشار بالوَجَلَى على مشيرٍ

فأخذ كثير من اللغويين يحمل عليه مخطئاً له<sup>(٢)</sup> ، وبشار محق ، لأن من حقه  
 القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس في شئون الدين ، كما قرّر ذلك الفقهاء  
 المعاصرون له من أمثال أبي حنيفة فأولى أن يقيس الشعراء في أبنية اللغة واشتقاقاتها  
 الصرفية ، وارتضت كثرة اللغويين منهم أن يخضعوا أحياناً لضرورات الأوزان  
 وأنغامها التي يصوغون عليها أشعارهم ، وسمّوا ذلك ضرورات شعرية ، غير أن بعض  
 المحافظين المسرفين في محافظتهم كانوا يعدّون الضرورات عيوباً ، وكانوا لا يزالون  
 يحصونها على الشعراء كما يحصون عليهم بعض أقيستهم مما لم يسمع عن العرب ، وظل  
 ذلك دأبهم في هذا العصر كما كان دأبهم في العصر العباسي الأول حين كانوا  
 يراجعون بشاراً وأضرابه . واحتفظ كتاب الموشح للمرزياني بطائفة كبيرة من مراجعاتهم  
 لمعاصريهم ، من ذلك قول علي بن الجهم :

ونحن أناسٌ أهل سَمْعٍ وطاعةٍ  
 يصحُّ لكم إسرارُها وعِلاؤها

(٢) أغاني ٣ / ٢٠٩ .

(١) الأغاني (طبع دار الكتب المصرية)

فقد ذكروا أنه أخطأ في قوله : « إعلانها » بكسر العين وإنما سُمع عن العرب : « إعلانها » وكأن ابن الجهم صاغ من كلمة العِلن عائلته كما قالوا أعلنه واشتق منها : عائلته عِلانًا . وسمعه المبرد يقول في بعض حديثه : « أظنني مأزوراً في قعودي » ، فقال : لقد نقص في عيني حين سمعت منه هذا القول ، إذ المسموع موزور لا مأزور<sup>(١)</sup> ، وكأن ابن الجهم قاس هذه الصيغة على مثال مأجور ومأثور . وهذان المثالان هما كل ما رواه اللغويون من أخطاء ابن الجهم ، وحتى على فرض خطئه فيهما وأنه لم يُصب في اجتهاده كان يحسن أن يغفروهما له وأن يشيدا بمدى معرفته للعربية وأمثلتها في البنية والصياغة ، إذ لم يحدث أن أخطأ فيها — إن سلمنا لهما بهذا الخطأ — سوى مرتين . وشاعر ثان هو علي بن محمد العلوي الكوفي المعروف بالحماني فقد أخذوا عليه خطأين : خطأ نحويًا وخطأ اشتقائيًا صرفيًا ، فأما الخطأ النحوي في قوله :

وجهٌ هو البدر إلا أن بينهما فضلاً تلالاً في حافاته النورُ  
في وجه ذاك أخاطيطٌ مسوِّدةٌ وفي مضاحك هذا الدرُّ منشورُ

فقد قالوا إن حق كلمة « منشور » في آخر البيت الثاني النصب ، لأنها في موقع الحال ، والطريف أن المرزباني حاول إخراج الحماني من هذا الخطأ وردّه عنه ، فقال إن رفع منشور جائز بمعنى هو منشور<sup>(٢)</sup> ، والمسألة لا تحتاج إلى كل هذا التأويل فإن الحماني تبادر إليه أن كلمة منشور خبر لكلمة الدر ، وكلمة « في مضاحك هذا » متعلقة بها ، ولا عيب ولا خطأ في ذلك . وأما الخطأ الاشتقائي الذي عابوه على الحماني في قوله :

أرقتُ وماليلُ المَضَامِ بنائِمٍ وقد ترقُدُ العينانُ والقابُ ساهرُ

فقد قالوا إن الصواب متّصم بفتح الميم ، إذ لا يقال أضمته وإنما يقال ضمته<sup>(٣)</sup> فهي في غير حاجة إلى التعدية بالهمزة . وربما سمع الحماني من العرب من يقول أضمام أو ربما قرأ ذلك في بعض الأشعار القديمة . وهو على كل حال خطأ واحد يشهد

(٢) الموشح ص ٥٢٠ .

(٣) الموشح ص ٥٤٤ .

(١) انظر الموشح للمرزباني (طبعة

دار نهضة مصر) ص ٥٢٨ .

بسلامة لغته . وحتى البحترى الذى اشتهر بفصاحته وإتقانه للعربية وعلمه بأسرارها وقدرته البارعة على استخدام مفاتيحها الموسيقية نجد اللغويين يتوقفون بإزاء بعض استعمالاته ليثبتوا عليه الخطأ فى هذا الموضوع أو ذاك ، وقد زعموا أن من اللحن عنده قوله فى بعض شعره :

يا علياً بل يا أبا الحسن الما لك رِقَّ الظريفَةَ الحسناء

وواضح أن المنادى العلم ، وهو على ، فى أول البيت منصوب منون ، وحقه الضم<sup>(١)</sup> ، وهى مسألة يعرفها الناشئة ومن يَشُدُّون شيئاً من النحو ، وغريب أن يخطئ فيها البحترى ، وهو فعلاً لم يخطئ ، فإن رواية الكلمة فى الديوان « يا على » وإذن لا خطأ ، وقد يكون تقوُّل عليه ذلك بعض خصومه . وأخذوا عليه قوله فى الفتح بن خاقان :

يا مَادِحَ الفَتْحِ ويا أَمَلُهُ لستَ امرأَ خابَ ولا مُثْنٍ كَذَبَ

فقد قالوا إن كلمة « مثن » فى البيت كان حقها النصب ، فيقال مثنياً ، لأنها معطوفة على منصوب هو كلمة « امرأ » وفاتهم أن البحترى رفع الكلمة على إضمار مبتدأ محذوف أى : « ولا أنت مثن كذب » ومن حقه أن يصنع ذلك حين يريد . وأخذوا عليه أيضاً قوله :

ولو أنصفَ الحَسَادُ يوماً تَأَمَّلُوا مساعيك هل كانتَ بغيرك أَلِيَقًا

فإنه سكن كلمة « مساعيك » وكان حقها النصب : « مساعيك » لأنها مفعول به ، وأنكروا عليه قوله فى مطلع رثائه للمتوكل :

محلٌّ على القاطول أخلق دائِرُهُ وعادتُ صروف الدهر جَيْشًا تغاوره<sup>(٢)</sup>

وقالوا المروى : دَائِرٌ مُخَلِّقَةٌ ، ولا يقال : « أخلق دائره » لأن الدائر لا بقية له فخلق أى تبلى وتستجد ، وهم مبالغون فى قولهم ، لأن العرب يقولون أطلال دائرة ، وهم يريدون بقاياها أو قل بقايا الديار قبل أن تُمَحَى محوً نهائياً .

(٢) المحل هنا: قصر المتوكل الذى قتل فيه وكان قد بناه على جدول القاطول بسامراء .

(١) انظر فى هذا اللحن وما يتلوه ما أخذوه على البحترى الموشح ص ٥١١ وما بعدها .



ويلاحظ الصاحب بن عباد أنه ذكر الفعل الناقص : « نسيته » بإشباع الياء وإسكانها بدلا من فتحها في قوله<sup>(١)</sup> :

أبو غالبٍ بالجودِ يذكر واجبي إذا ما غيَّبُ الباخلين نسيه

وكان ابن عباد لم يلتفت إلى أن البحترى إنما صنع ذلك لضرورة القافية التي تنتهي بها قصيدة البيت ، وأيضاً فإنه لم يلتفت إلى أن هذه لغة معروفة لطبقة قبيلة الشاعر إذ ينطقون مثل « رضى » بفتح الياء « رضى » بإسكانها وإشباعها . وما يدل دلالة واضحة على تعنت اللغويين إزاء البحترى وغيره من الشعراء أن نجد صاحب خزانة الأدب يروى عنهم أنهم أنكروا عليه تسكين اللام في كلمة « طَلَّحاته » من قوله مادحاً :

عدلتم بِطَلَّحَةٍ عن حَقِّه ونكَّبتُمُ عن مِوالاته  
وكيف يجوز لكم جَحْدُهُ وطلَّحتكم بعضُ طلَّحاته

قالوا كيف يسوِّغ لنفسه تسكين اللام والوجه أن تكون مفتوحة<sup>(٢)</sup> ، وواضح أنه صنع ذلك لضرورة الشعر ، ومعروف أنها تبيح للشاعر أن يخرج على القواعد النحوية والصرفية أحياناً ، فما بالنا بالحركة والسكون حين يتبادلان مواضعهما وفي الحق أن كل ما أنكروه على البحترى مما يحق له ولا تجوز مؤاخذته عليه ، وهي صورة من التزمُّت وضيق الأفق عند بعض اللغويين . وما يدخل في هذا الباب من التعنت القبيح أن نجد بعض اللغويين يستمع إلى ابن الرومي يمدح الموفق حين قضى على ثورة صاحب الزنج التي مرت بنا في غير هذا الموضع ، فيقول في بعض مديحه مخاطباً الموفق :

ثناك له مقداره فكأنما تقوَّض ثَهْلانٌ عليه وصنَدُدُ<sup>(٣)</sup>

فيعترض على نطقه : « صنَدُد » بفتح الدال الأولى قائلًا إنها « صنَدِد » بكسرها<sup>(٤)</sup> . وإنما أطلنا في بيان ذلك كله لندل على أن اللغويين لم يكونوا يستطيعون

(١) الكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب  
ابن عباد (طبعة القاهرة) ص ٩ .  
(٢) ثهْلان وصنَدُد : جيلان .  
(٣) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري  
(٤) خزانة الأدب للبغدادي ٣/ ٣٩٤ .  
(طبعة بغداد) ٥٦/٢ .

أن يتعلقوا في هذا العصر على الشعراء النابهين بأخطاء جوهريّة في اللغة أو في التصريف ، بل لقد كانوا لا يزالون يلتقطون بعض الضرورات الشعرية ليعدوها أخطاء ، وحتى الحركات الداخلية في الكلمات وأبنيتهما كانوا لا يزالون يتعقبونها على نحو تعقبهم لابن الرومي في كلمة « صندد » . وكل ما ذكره المرزباني وسجله عن علماء اللغة في هذا الباب لا يعدو مثل هذه الصور التي وصفناها ، ومثلها ما حاول بعض معاصريه أن يسجلوه مثل الصحاح بن عباد وأبي هلال العسكري ، فإنهم لم يتجاوزوا في الغالب الضرورات الشعرية ، مما يدل دلالة قاطعة في العصر على سلامة اللغة وسلامة الألسنة ، وحقاً كما قلنا كانت هناك لغة عامية تتداول في الحياة اليومية ، ولكنها ظلت لا تجور على العربية ، وظلت الناشئة في كل مكان تتغذى بالفصحى وتتلقنها على أساتذتها النابهين . وكان هناك كثيرون لا يزالون يستخدمونها في حياتهم اليومية العاملة ، كان ذلك يرفع منهم في أعين الناس ، حتى ليقول إسحق<sup>(١)</sup> بن خلف الطنّبوري :

النحو يبسط. من لسان الألكن والمرء تُعظمه إذا لم يَلْحَنِ  
وإذا طلبتَ من العلوم أجلّها فأجلّها عندي مقيمُ الألسنِ

وإذا كان الإعراب في رأى بعض المغنين أو الضاربيين على الطنبور يبلغ هذا المبلغ من المنزلة الرفيعة ، فأول أن تكون منزلته أرفع وأعلى شأنًا عند الشعراء الذين عاصروه ، وفي الحق أنهم ظلوا يحافظون بكل قوة على الصياغة العربية في المفردات والتراكيب وعلى قواعد الإعراب والتصريف ، بحيث نجد شاعراً ضحماً مثل البحترى أو ابن الرومي لا يكاد اللغويون يتعلقون عليه بشيء ذى بال ، بل حتى الشعراء الذين اشتهروا بأنهم كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون والذين لم يجالسوا العلماء لأخذ قواعد النحو والتصريف مثل الخبّيز أوزى ، الذى كان يخبز بالبصرة خبز الأرز ويبيعه في دكان متكسباً به ، والناس يزدحمون عليه لسماح شعره كان لا يعدو الفصحى في نظمه .

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب المصرية) ١٥٧/٢ .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه كيف كان الشعراء يتزودون بالعربية الفصيحة أزواداً مكسبتهم من الوقوف على خصائصها ودقائقها الإعرابية والصرفية، بحيث نفقوا عن أساليبهم كل الشوائب التي كان من المفروض أن تسيل من العامة المتداولة إلى الفصحى، ولم ينفوها فحسب، بل عملوا جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصيلة بدون أن يدخل عليها نبوءاً أو انحراف أو أى اعوجاج أو أى نقص في الأداء. ويكفى أن يكون همُّ جماعة كبيرة من اللغويين أن يتعقبوا سقطات شاعر مثل البحرى فيعوزهم المثال، فيلجئون إلى بعض الضرورات الشعرية عنده يسجلونها، ومعروف أن شاعراً لم يكثر في هذا العصر كما أكثر ابن الرومي، ومع ذلك لم يسعفهم الفحص في أشعاره إلا أن يسجلوا في بناء عنده حركة داخلية على تقدير صحتها إن سلم لهم ذلك. فإذا قلنا إن الشعراء في هذا العصر تمثلوا العربية وأسرارها التركيبية أقوى تمثلاً وأروع لم نكن مغالين ولا متباعدين، بل لقد تمثلوا أسرارها الجمالية كما مر بنا تمثلاً بارعاً، وهو تمثل جعل الشعراء يعنون عناية بالغة باختيار الألفاظ والملاءمة الصوتية بين اللفظة واللفظة في الجرس، بل بين الحروف نفسها، حتى يلذ الشعر الألسنة التي تنطق به والآذان التي تستمع له والأفئدة التي تصنى إليه، وما زال الشعراء مكبين على قيثاراتهم يستخرجون منها أعذب الأنغام، حتى استطاع البحرى أن يصل من ذلك إلى كل ما كان يحلم به الشاعر العربي منذُ وُجد امرؤ القيس حتى عصره، فإذا شعره يستحيل أنغاماً وألحاناً خالصة.

والبحرَى إنما هو رمز لحركة التمسك بالصياغة العربية، بل التمثل لها بحيث تجرى في نفس الشاعر سليقة الشعر العربي بكل سماتها وشاراتها وبكل معانيها وخواصها، بل بحيث يفقه ذلك كله فقهاً تاماً دقيقاً، بما أتبع له عند العلماء وأصحاب البلاغة من ملاحظات جمالية، تنبع من الثقافة بالشعر السابق قديمه وحديثه ومن الذوق المصنفي المتحضر ومن الشعور المرهف الرقيق. وإذا لغة الشعر تصبح تارة رصينة ناصعة كأنم ما تكون النصاعة والرصانة، وحيناً تصبح عذبة خفيفة تكاد تطير لخصتها ورشاققتها عن الأفواه طيراناً. ومن هنا كنا نستطيع أن نقول إن أساليب الشعر في العصر ظل لها رونقها وبهاؤها، بل لقد ازدادت بهاءً

ورونقاً ، بفضل تمثل الشعراء الفريد في العصر للصياغة العربية السليمة وبصرهم بأسرارها وحذقهم لخصائصها حذقاً جعلهم يُسَوِّونَ منها جواهر ولآلٍ كثيرة . وإذن فمن واجبتنا أن نحترس أشد الاحتراس من حديث يوهان فك في كتابه « العربية » عن اتساع الضميم الذي دخل في العصر على لغة الشعر وصياغته ، فإن هذا الضميم الذي ساقه حين يُسَبِّحُ لا يعدو ما لاحظناه آنفاً عند البحري ومعاصريه من أشياء تُعَدُّ على الأصابع ، وهي تدخل جملة في الضرورات الشعرية ، وكأن كل الضميم الذي خاله إنما هو سراب ظنه ماء ، ولا ماء هناك ولا ضميم حدث في الفصحى على ألسنة شعراء العصر ، بل لقد كانوا يتقنون المعرفة بأسرارها ورسومها وصياغاتها الباهرة كأشد ما تكون المعرفة دقة وعمقاً .

## ٢

## ذخائر عقلية خصبة

مرّ بنا نشاط الترجمة في العصر كما مر بنا النشاط العام للحياة العقلية ، حتى ليكاد يظن الإنسان أنه لم يكن هناك أحد لا تتسع قراءاته ، فتشمل جميع مواد الثقافات المعروفة حينئذ من عربية وإسلامية وأجنبية من موارد شتى : موارد هندية وفارسية ويونانية ، مع ما كان يداخل المعارف الهيلينية من موارد شرقية فارسية وغير فارسية . فكل ذلك كان تحت أبصار الناس من شباب وغير شباب ينهلون منه كما يشاءون دون حجاب ودون أية صعوبات ، فدار الحكمة مكتبة الدولة مفتوحة على مصاريعها ودور أخرى كثيرة عرضنا لها في غير هذا الموضع ، ودكاكين الوراقين بالمثل تعرض كل ما يطلبه القارئ ، وحلقات المساجد تروج بالمحاضرين في مختلف فروع المعرفة ، ولكل شخص الحق في أن يستمع إلى ما يرغب فيه من هذه المحاضرات .

وأخذ العرب حينئذ يشاركون مشاركة قوية فعالة في تاريخ الفكر الإنساني ؛ فإذا علماء وفلاسفة عظام يأخذون في الظهور بينهم ، ويكفي أن نذكر الحوارزمي العالم

الرياضي النابه واضع علم الجبر ، والكندي الفيلسوف أو أول فلاسفة العرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلاسفة ، وهما معلمان كبيران في العصر يدلان أقوى دلالة على نهضة العقل العربي وازدهاره حيثئذ ، مما عرضنا لبعض مظاهره في الفصل الماضي . وحدث في أثناء ذلك أن أخذ بعض الأدباء يتجرد للمزج بين ثقافات العصر واستخلاص ثقافة عربية لها طابعها ومشخصاتها المستقلة ، على نحو معروف عن الجاحظ المعتزلي ، وكان المعتزلة قد أكبوا منذ أوائل العصر العباسي في القرن الثاني الهجري على الثقافات الأجنبية يتزودون منها ، واستطاع كثيرون منهم أن يكونوا لأنفسهم نظريات تتصل بالطبيعة وما وراء الطبيعة مما صورناه في كتابنا العصر العباسي الأول ، ونفذ الجاحظ في العصر كما قلنا آنفاً إلى الوصل في كتاباته بين الثقافتين العربية والإسلامية والثقافات الأجنبية ، بحيث غدت كتبه تغذي العقول والقلوب ، فالأدب فيها يلتقي بالفكر والعلم التقاء خصباً مثمراً ، على نحو ما نجد في كتابه «الحيوان» . وخطا ابن قتيبة في هذا الاتجاه من المزج بين الثقافات خطوة أخرى كما أسلفنا ، فمزج في كتابه «عيون الأخبار» بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية مزجاً قوياً ، مزاجاً بين طائفة كبيرة من الآداب في الثقافة الأولى والآداب السياسية في الثقافة الثانية ، مع ما أضافه من الحكم الطريفة التي جلبها من كتاب كليله ودمنة المترجم عن الهندية ، وكذلك ما أضافه عن الثقافة اليونانية .

وكان طبيعياً لذلك كله أن تنمحي الأبعاد والفوارق بين الفكر العربي الخالص والفكر الأجنبي ، فإذا هما يمتزجان في بيئة الشعراء وغيرها من البيئات ، وإذا كثير من الشعراء يتعمقون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وحقاً ظلت طائفة لاتعنى بهذا التعمق على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي عند البحري وأضرابه ، ولكن حتى هؤلاء وحتى البحري نفسه لم يستطيعوا التخلص من معرفة بعض جوانب الفكر الأجنبي ، على حين نجد كثيرين غيره من أمثال ابن الرومي تعمقوا في هذا الفكر ، بل لقد أقبلوا عليه يلتهمونونه التهاماً ، بل لقد انقضوا عليه انقضاضاً ، وكأنما لا يريدون أن يبقوا منه بقية . على أنهم لم يفنوا في هذا الفكر ، فقد ظلوا يحتفظون للشعر العربي بشخصيته ومقوماته الأساسية . فهم لا يندبونونه في الفكر الأجنبي ، بل هم يخضعون هذا الفكر له ، أو بعبارة أدق هم يتخذون من هذا الفكر وسائل كي يتعمقوا في تصوير المشاعر

والأفكار التي طالما عرض لها الشعر العربي ، مضيفين إليها معاني وخواطر حافلة بما يملأ النفس إعجاباً .

ولا ريب في أن ذلك كان على درجات ، فمن الشعراء من كان يغرق في التثقف بالثقافات الأجنبية ، ومنهم من كان لا يشق على نفسه ، فهو إنما يلم بأطراف منها تقل وتكثر حسب ملكاته العقلية ، ومهما أسرف الشاعر في هذا الإلمام فإنه يحتفظ لأساليبه بالنصاعة والنقاء ، حتى من كان يرجع إلى أصول غير عربية ، فقد استقر في نفوس جميع الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة وأن يظل شعرهم موصولاً بماضيه ، وحقاً حاول الشعوريون أن يشككواهم في هذا الماضي وأن يقطعوا صلتهم به ، ولكنهم لم يصبخوا إليهم ولا استمعوا إلى ضجيجهم ، فقد كانت شخصية الشعر العربي في نفوسهم أقوى من أن تزغزغها أو تهزها صيحات هؤلاء الشعوريين المارقين ، فلم يزيألوا ولا انحرفوا عنها ولا عن أصولها التقليدية . بل لقد استطاعوا أن يثبتوا مرونة هذه الأصول ، وأنها تتسع لفنون البديع الحديد التي سجلها ابن المعتز اتساعاً كانت تحمل مقدماته في صدورهم من قديم ، بل لقد وجدوا في مرونة هذه الأصول ما يمكنها من أن تحمل كل صنوف الغذاء الفكري الحديد على اختلاف ألوانها ، غذاء الفلسفة والمنطق والعلوم المختلفة وغذاء الآداب الفارسية واليونانية والحكمة الهندية ، فكل سيول هذا التراث الثقافي الأجنبي من كل جنس يستوعبها الشاعر العباسي ويتمثلها ويتقنها علماً وفقهاً وتحليلاً دون أن ينحرف بشعره عن أصوله الموروثة ، بل إن هذه الأصول تونق وتزدهر ويصبح كل ما يُنْقَلُ إليها من الفكر الأجنبي عربي اللسان والصياغة المصفاة ، بل أهم من ذلك أن ذهن الشاعر العباسي يصبح ذهنًا عميقًا يتغلغل في حقائق المعاني نافذ إلى دخالها وأغوارها البعيدة ، نفوذاً يتيح له ما لا ينفد من الخواطر الشعرية المبتكرة .

وحقاً أن هذا العمق في ذهن الشاعر العباسي يلاحظ منذ بشار ومن تلاه في القرن الثاني ، غير أننا كلما تقدمنا مع الزمن ازداد هذا العمق بعداً في بواطن المعاني المستمرة ، وهو عمق رافقته صور كثيرة من دقة التحليلات والاستنباطات والتقسيمات ، فن ذلك ما يرويه ابن قتيبة من أن بعض الشعراء أنشد الكندي الفيلسوف :

وفي أربعٍ مني حَلَّتْ منك أربعٌ فما أبنا أدري أيها هاج لي كربى

أوجهك في عيني أم الطعم في فمي أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي  
فقال له الكندي : والله لقد قَسَمْتَهَا تَقْسِيمًا فِلَسْفِيًّا<sup>(١)</sup> ، وتكرر مثل هذه  
التقسيمات بين الشعراء إذ كانت تُعَدُّ من بدع العصر ومستحدثاته الطريفة ،  
ومنها قول ابن المعتز في جمال الذوائب<sup>(٢)</sup> :

سقتني في ليلٍ شبيهٍ بشعرها شبيهةً خديها بغير رقيب  
فأمسيتُ في ليلين بالشعر والدجى وخمرين من راحٍ وخدٍ حبيب  
وهو تقسيم طريف لليل والخمر جميعاً . وعلى نحو ما كانوا يغربون في التقسيم  
كانوا يغربون في الأخيلة ، وقد نقلوا منها ما أعجبهم في آداب العجم ، من مثل  
قول علي بن الجهم في وصف الورد :

أما ترى شجراتِ الوردِ مظهرَةً لنا بدائعَ قد رُكِّبَنَ في قُضْبِ  
كأنهنَّ يواقيتُ يُطيفُ بها زبرجُدٌ وسَطْها شذُرٌ من الذهبِ

والصورة من قول أردشير : « الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كراسي  
زبرجد يتوسطه شذور ذهب »<sup>(٣)</sup> . ولا تكاد تُحصَى صور الشعراء الطريفة ، بل إن  
صور شاعر واحد أكثر من أن تحصى ، غير أنه مما يلاحظ أنهم عُنُوا كثيراً بأن  
يغرقوا في الوهم والتجريد على شاكلة قول العطوى أحد متكلمي المعتزلة الخذاق<sup>(٤)</sup> :

فوحقُّ البيان يعضده البر هان في ماقطِ ألدِّ الخصامِ -  
هي تجرى مجرى الأصالة في الرؤى ومجرى الأرواح في الأجسامِ -

وواضح مدى إغرابه في الصورة إذ مثل صاحبته بجمال الأصالة في الرؤى ،  
وهي صورة فريدة ، وتوضح إحساس العطوى بما كان ينفذ إليه المعتزلة لعصره من  
تفكير أصيل منتهى الأصالة ، وهو تفكير كثيراً ما كان يدفعهم إلى صور غير

الديوان (طبعة المجمع العلمي بدمشق) ص ١١١ .

(٤) معجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي

بالقاهرة) ص ٢٧٧ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٧ .

(٢) زهر الآداب للحصري ١٦/٣ .

(٣) ديوان المعاني للمسكوي ٢٣/٢ وانظر

مألوفة من التجريد والوهم البعيد ، وكأن الحسين بن الضحاك استعار منهم قبساً حين قال في بعض غزله<sup>(١)</sup> :

إن من لا أرى وليس يراني	نُصِبَ عيني ممثلاً بالأمانى
بأبي مَنْ ضميره وضميري	أبدأ بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرت وروحا	ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ما هممتُ بالأمر أوه	م بشيء بدأته وبداني
كان وفقاً ما كان منه ومني	فكأنى حكيمه وحكائي
خطراتُ الجفون منا سواء	وسواء تحرك الأبدان

وهو يعبر عن اتحاد بالمحبوب وفناء فيه حتى كأنما هما شخص واحد وروح واحدة وإن بديا شخصين وروحين فخواطرهما واحدة ، بل حتى حركات الأجسام واحدة . وكل ذلك بعد في الخيال إلى درجة الوهم ، وعلى شاكلته قول ابن المعتز :

وشكوى لو أنَّ الدمع لم يُطفِ حَرَّها تولد منها بينهن حريق  
فلولا الدموع لاحترق العاشقان ، حرقتهما الشكوى الممضة التي لا يخمد أوارها ،  
وقد تكون الصورة حسية ، ولكن نشعر إزاءها بالبعد في الخيال والإغراق في الوهم  
كقول أبي العباس الناشي المعتزلي في وصف سحاب يهطل ولا يكف عن  
سقوطه<sup>(٢)</sup> :

خليلي هل للمزن مقلّة عاشق  
سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحد  
أم النار في أحشائه وهي لا تدرى  
فعاجت له نحو الرياض على قبر

فالزن أو السحاب مقلّة عاشق ما تزال تتساقط منها حبات الدموع ، وما بريقة  
إلا نار العشق الملتهبة في الأحشاء ، بل لكأنه ثكلى فقدت وحيدها ، فهي تبكي  
عليه بكاء مرّاً لا ينقطع . وللشاعر أشعار كثيرة في الإشادة بأصحابه من المتكلمين

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٧/ ١٨٧ .

(٢) زهر الآداب ١/ ١٧٧ .



وكيف أنهم ينيرون دياجي المشاكل المظلمة بأفكارهم الثاقبة، وكانت مناظراتهم لا تزال دائرة في العصر على الرغم من استعلاء أهل السنة عليهم، ولكنهم ظلوا يشعلون العراق بحججهم وحوارهم وجدالهم وظلوا يثيرون دفاثن المعاني بردودهم ومناقضاتهم لخصومهم، مما نرى آثاره عند الشعراء، ومعروف أن الشاعر العربي من قديم كان يشكو طول الليل حتى ليبدو عند بعض الشعراء مظلمًا لا آخر لظلامه، ويلى ابن بسام بهذا المعنى، فينفي هذا الظلم عن الليل قائلاً<sup>(١)</sup>:

لا أظلم الليل ولا أدعى أن نجوم الليل ليست تغور  
ليلي كما شاءت فإن لم تزر طال وإن زارت فليلي قصير

فالطول والقصر نسبيان، وهما معلقان بصاحبه إن هي زارت وقصر الليل وإن لم تزر طال، وبذلك نقض المعنى على من سبقه نقضاً، منصفاً لليل من الشعراء السابقين الذين طالما ظلّموه. وقد يُقال: وأين شعر المعتزلة الذي استظهروا فيه عقيدتهم الاعتزالية ومصطلحاتهم الكلامية، ويبدو أنه كان لهم شعر كثير في هذا الباب سقط من يد الزمن، فالمرزباني في معجم الشعراء يترجم لشخص منهم يسمى محمد بن دكين المتكلم ويذكر أن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد، غير أنه لا ينشد منها شيئاً<sup>(٢)</sup>.

وليست الأشعار الاعتزالية في نفسها شيئاً إلا ما قد تدل عليه من صلة أصحابها المعروفة بالفلسفة والفكر الأجنبي اليوناني وغير اليوناني، وأهم منها ما استودعه هذا الفكر في العقل العربي من خصب، ليس هو وحده مورده الوحيد، بل لعل تفاعل هذا العقل مع عناصر الفكر الأجنبي كانت أكثر خصباً، إذ استطاع أن يستوعبها ويتمثلها، ويصطنع لنفسه من خلالها مواد لا تقل عنها روعة ولا جمالا، وهي مواد يمكن رؤيتها رؤية واضحة في كثرة التوليدات العقلية. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد شاعر في هذا العصر إلا وقد نفذ إلى كثير من هذه التوليدات حتى الشعراء الشعبيون من أمثال الحمدوني إسماعيل بن إبراهيم، ويروى أن أحد ممدوحيه وهو أحمد بن حرب المهلبى وهب له طيلساناً (ثوباً فارسياً)

(٢) معجم الشعراء ص ٤٠٧ .

(١) المختار من شعر بشار للخالدين (طبع)  
لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٠ .

أخضر فلم يرضه ، فأخذ ينشد فيه مقطعات تتجاوز بها الخمسين من مثل قوله<sup>(١)</sup> :

طَيْلَسَانُ لابن حرب جاعئى      قد قضى التمزيق منه وَطَرَه  
فهو قد أدرك نوحاً فعسى      عنده من علم نوحٍ خبِره  
أبدأً يقرأ من أبصره :      (أَيْذا كُنَّا عِظَاماً نَحْرَه)

ولا شك في أن هذه قدرة بارعة ، والحمدونى لم يملكها عفواً ، وإنما ملكها واستحوذ عليها بفضل خصب ملكته وما أتاحت الثقافة المعاصرة له من محصول غذاها به ، فإذا هو حين يتناول موضوعاً مثل طيلسان ابن حرب وأنه خلسق بال يستطيع أن يعرضه في صور متعددة لا تبلغ في العدد أصابع يد ولا أصابع يدين ، بل تتجاوز ذلك إلى عشرات من المقطوعات ، ولكل مقطوعة صورتها الطريفة الخاصة .

ويكاد الإنسان يقطع بأنه لا يوجد شاعر في العصر إلا وقد أذعن للثقافات المعاصرة المتنوعة واتخذ منها غذاء لعقله وقلبه ، وكان شاعراً لا يستطيع منها فكاً كما ولا خلاصاً ، ونضرب مثلاً بالبحترى الذى رأيناه في الفصل السابق يحمل حملة شعواء على من يكلّفون الشعراء دراسة المنطق والفلسفة ، فإننا حين نتصفح أشعاره نجد فيها آثار الثقافات التى عاصرتة ، حتى لئراه يشيد بالعلم والمعرفة في بعض ممدوحيه ، إذ يقول له<sup>(٢)</sup> :

عرف العالمون فضلك بالعلم      م      وقال الجهال بالتقليد

وهو لا يشيد بالعلم فحسب ، بل ينكر أيضاً التقليد وكأنه يدعو للاجتهد واستخدام العقول ، بل إنه ليزعم أن التقليد جهل ما وراء جهل ، وحرى بمن يدعو هذه الدعوة أن يطبقها على نفسه ، وأن يأخذها بالعلم والتثقيف ، وكل ما في الأمر أنه لم يكن يسرف في ذلك إسراف بعض معاصريه من الشعراء ولا كان يفرغ له ، فقد كان يعيش في شعره مع نفسه أكثر مما كان يعيش مع الثقافة التى

المعارف) ١ / ٦٣٨ .

(١) زهر الآداب ٢ / ٢٣٥ .

(٢) ديوان البحترى (طبع دار

عاصرته ، بل إننا نحتاج إلى تقييد هذا الكلام ، فقد جمع من أشعار القدماء والمحدثين ديوان حماسة ضخماً . مما يؤكد أنه عكف على دراسة هذه الأشعار حتى استطاع أن يستخلص منها هذا الديوان ، وكأننا نعدم في العصر الشاعر الذي لا يطلب الثقافة الفنية ، بل الثقافة العامة ، وكل من يتابع البحترى في شعره يلاحظ أنه حوى لنفسه أطرافاً من تلك الثقافة أتاحت له أن يصبح من ذوى الملكات الحصية ، وثقفه بأشعار أستاذه أبي تمام ذائع مشهور ، وهي نفسها تحجب إلى من يديم النظر فيها أن يأخذ بحظ أو حظوظ من الثقافات المعاصرة ، وصور بنفسه مدى تنوع هذه الثقافات وتنوع الكلام الذي يحملها في قوله لبعض ممدوحيه (١) :

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استُجِيعتْ      يَفْنَى الزمانُ وذكراها لم يَهْرَمِ  
مثلَ الكلامِ تفرقتْ أنوعُهُ      فِرْقاً وتجمَعُها حروفُ المعجمِ

وحقاً لم يكن البحترى صاحب تعمق في معاني الشعر مثل أبي تمام أو مثل معاصره ابن الرومي ، ولكن كانت ملكته خصبة ، وكانت ما تزال تمدّه بخواطر لا تنفد ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في سينيته التي وصف فيها إيوان كسرى وصفاً لم يُسبَقْ إليه ، كما نستطيع أن نلاحظه في تنوع اعتدالاته للفتح بن خاقان تنوعاً خلب معاصريه ، كما خلبهم عنده إبداعه في وصفه لخيال المحبوبة أو طيفها حين يلم به في رؤاه وأحلامه ، وتغنى الشعراء بالخيال قديم منذ أوائل العصر الجاهلي ، ولكن الجديد عند البحترى أنه استطاع بملكته العباسية الحصية التي تقدر على التوليد والإتيان بالصور المبتكرة والإكثار منها أن يستولى على إعجاب الأسلاف بمثل قوله (٢) :

سَقَى الغَيْثُ أَجْرَاعاً عهدتُ بجوهاً      غزالا تُراعِيه الجآذِرُ أَغْيَدًا (٣)  
إذا ما الكرى أهدى إلى خياله      شفى قربه التَّبْرِيحَ أو نَقَعَ الصِّدَا (٤)  
ولم أرَ مثليْنَا ولا مثلَ شأننا      نُعَدَّبُ أيقاظاً وننعمُ هُجْدًا (٥)

(١) المنخفض الأرض . الجآذر : بقر الوحش .

(٢) (٤) نقع الصدا : سكن الظما .

(٥) هجدا : نائين .

(١) الديوان ٤/٢٦٦٦ .

(٢) الديوان ٢//٦٧٠ .

(٣) الأجرع : الرمال الطيبة . الجور :

وقوله (١) :

أَلَمْتُ بِنَا بَعْدَ الْهُدُوِّ فَسَامَحْتُ      بُوَصِلَ مَتَى نَطْلُبُهُ فِي الْعِجْدِ تَمْنَعُ (٢)  
 وَمَا بَرَحْتُ حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ وَأَنْقَضَى      وَأَعْجَاهَا دَاعَى الصَّبَاحِ الْمَلْمَعِ (٣)  
 فَوَلَّتْ كَأَنَّ الْبَيْنَ يَخْلُجُ شَخْصَهَا      أَوْ أَنَّ تَوَلَّتْ مِنْ حَشَايَ وَأَضْلَعِي (٤)

وواضح ما في الشطر الأخير بالأبيات الأولى من لفظة ذهنية واضحة ، ومثله آخر الأبيات الثانية فقد ولتت وكأنها تئنترزع من حشاه وأضلعه وروحه ، وكان يعرف البحترى كيف يمس قلب سامعه ، كما كان يعرف كيف يتأثر لنفسه ببعض الصور والمعاني ، فقد سمع أو حفظ قول القائل في وصف أحاديث بعض النسوة وما يند عن فيه من جمال وسحر :

إِذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الْأَحَادِيثَ بِالضُّحَى      سَقَاطَ حَصَى الْمَرْجَانِ مِنْ كَفِّ نَازِمٍ

فما زال يدبر البيت في نفسه وما زال يحاول أن يضيف إليه إضافة بارعة ، وإذا ملكته تسعفه بقوله في وصف لقائه بمن خلبت لُبيبه (٥) :

وَلَمَّا التَّقِينَا وَالنَّقَا مَوْعِدُ لَنَا      تَبَيَّنَ رَأْيِي الدَّرِّ مَنَا وَلَا قِطْهُ (٦)  
 فَمَنْ لَوْلُو تَعْلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا      وَمَنْ لَوْلُو عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ

ولعل أكبر شاعر في العصر يصور ذخائر الفكر حينئذ في الشعر ومدى ما أثرت الحياة العقلية فيه ابن الرومي ، ويبدو عنده بوضوح أنه عكف على جميع الثقافات التي عاصرتة ، وأنه أخذ ينهل منها حتى تحولت إلى ذهنه وقلبه ، فإذا هو يستوعبها ، وإذا هو يتقنها ، بل إذا هو يتمثلها تمثلاً نادراً ، وكان مما دفعه إلى ذلك دفعاً اعتناقه مبكراً مذهب الاعتزال ، وفي

(١) الديوان ١٢٣٧/٢

(٢) الهدو : شطر من الليل .

(٣) الملمع : المزوج سواده بياضه

إشارة إلى أوائل الصباح .

(٤) يخلج : ينتزع .

(٥) ديوان الممالي ٢٣٨/١ وانظر الديوان

١٢٣٨/٢

(٦) النقا : قطعة من الرمل .

شعره ما يدل على حرصه الشديد عليه كقوله<sup>(١)</sup> :

أُرفِضُ الاعتزالَ رَأياً كلاً لأني به ضنينٌ

فهو يؤمن به ويعتقه منحازاً إليه ، ولا يرضى به بديلاً ، وإنه ليمنحه كل حبه ، حتى ليصبح ضنيناً به ، وكأنه غدا جزءاً من جوهر نفسه ، ولعله لذلك كان يحسُّ بواشجة رحم بينه وبين نظرائه ممن يعتقدون هذا المذهب الذي كان معروفاً حينئذ بمبديئين يجادل فيهما أصحابه طويلاً ، وهما العدل على الله بحيث لا يعطل حرية الإرادة عند الإنسان حتى يكون مسئولاً عن أعماله وينال ما يستحقه من الثواب والعقاب ، فلا جبر ولا حتم ولا إلزام ، ثم التوحيد وما يُطَوَّى فيه من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا يحده زمان ولا مكان ، وإلى ذلك يشير في بيان علاقته الوثيقة ببعض معاصريه قائلًا له<sup>(٢)</sup> :

إن لا يكن بيننا قُرْبَى فَاصِرَةٌ للدين يقطع فيها الولدُ الولدا  
مقالة «العدل والتوحيد» تجمعا دون المضاهين : مَنْ نُنَى وَنْ جَحدا

وواضح أنه يجعل لُحْمَةَ الاعتزال فوق لحمة القربى ، وكأنه يؤمن بأن القربى دم أما الاعتزال فعقل وروح ، وهو لذلك فوق القربى وشائج وأواصر . ولا يهمننا أنه كان يؤمن بالاعتزال من حيث هو ، وإنما يهمننا أن الاعتزال وصله بالثقافات الأجنبية على اختلاف صنوفها وألوانها ، فقد كان المعتزلة يتصلون مباشرة بهذه الثقافات لدعم عقولهم من جهة ولتبيين ما فيها من آراء فاسدة كانوا ينقضونها نقضاً ، وكانت أهم ثقافة أكبوا عليها الثقافة اليونانية بما فيها من فلسفة ومنطق ، وأكبَّ معهم كثير من الشعراء - وخاصة من كانوا يعتقدون الاعتزال - على هذه الثقافة ينهلون منها ويعبون ، وفي مقدمتهم ابن الرومي الذي يبدو أنه كان يفرغ لها وخاصة في مطالع حياته ويسنِّق في ذلك أوقاتاً طويلة ، مما أتاح لأشعاره أن تصطبغ بأصباغ عقلية واضحة .

وأول ما يطالعنا من هذه الأصباغ صبغ يعم جميع أشعاره كما تعم الخضرة أشجار

(١) ديوان ابن الرومي (نشر كامل كيلاني) (٢) ابن الرومي: حياته من شعره (طبع المكتبة التجارية) ص ٢٢٣ .

الطبيعة في الربيع ، ونقص استقصاءه للمعاني ، فهو إذا ألمَّ بمعنى لم يكد يترك فيه بقية لأحد من بعده ، وكان لذلك تأثير مهم في قصائده إذ تبدو الأبيات فيها مترابطة ترابطاً لا يُعرَفُ لأحد غيره من شعراء العربية ، ترابطاً يجعل البيت لا يُفْهَمُ تمام الفهم إلا إذا نظر القارئ فيما يسبقه وما يتلوه ، حتى لتصبح القصيدة بناء متكامل متناسقاً ، مما يوثق الوحدة بينها لا الوحدة الموضوعية فحسب ، بل أيضاً الوحدة العضوية ، إذ تصبح كلاً واحداً مؤلفاً من أجزاء ولكل جزء أوبيت مكانه ، بحيث لو نُزِعَ منه إلى مكان آخر لنبا به المكان الحديد . ومنشأ ذلك أن الأبيات يتولد بعضها من بعض ، أو قل هي الأفكار والمعاني ما تزال تتوالد وتتشعب ، وكل شعبة تنشأ عن سابقتها وتلتحم بها لحمّة القرابة ، بل لحمّة الأعضاء في الجسد الواحد .

وتتصل بهذا الجانب عند ابن الرومي خصائص عقلية كثيرة ، لعل أولها هذا الخصب الذي لا حد له ، فقد أصبح العقل العربي يتعمق المعاني حتى يصل إلى قاعها وقرارها ، ويستخرج كل ما كان مستوراً بها من لآلئٍ كانت خافية عن الأنظار ، بل إن الشاعر يغوص في مسارب المعاني فيطالع على شعَبٍ لا تكاد تحصى وهما جانبان : جانب التشبيب والتفريع وجانب الكشف والاستقصاء ، حتى يتضح المعنى من جميع جوانبه ، وحتى نصبح كأننا نستمع إلى صور من الحوار المعروف عند المعتزلة ، فهم ما يزالون بحوارهم يثيرون دقائق المعنى حتى ينكشف من جميع أطرافه ، وإذا هو واضح أشد ما يكون الوضوح بفضل علم المنطق الذي يستهدون به في مباحثهم وبفضل ملكاتهم العقلية التي صقلها الفكر الفلسفي . وكأنما تحولت المعاني الشعرية عند ابن الرومي إلى صورة من صور حوارهم ، فهي تنفرع إلى أقصى حد ، وهي تتضح أيضاً إلى أقصى حد ، ولذلك كانت القصيدة عنده تطول طويلاً مسرفاً لا يُعرَفُ لشاعر عربي من قبله ولا من بعده ، لأن المعاني تُدْكَرُ بجميع شعبها ، وما يزال يستقصيها حتى تبدو واضحة أشد ما يكون الوضوح وهو الوضوح نفسه الذي يُشْغَفُ به أهل المنطق أو قل من يعكفون على دراسة المنطق ، حتى يستأثر بكل ما يفكرون فيه ، وحتى يمنحوه عنايتهم الكاملة .

ليس من شك إذن في أن شعر ابن الرومي يصور تعمقه في دراسة المنطق وأبسط

ذلك فحسب ، فإن المنطق بأقيسته وعلله يستحيل عنده شعراً وفناً ، فإذا بنا نتنقل في طرائف لا تحصى من المعاني ، وكأنما أصبحت هذه الطرائف حدوداً للشعر ، فهو لا يَتَصَوَّرُ بدونها ، وإلا يكون شيئاً غشياً لا قيمة له ، وصور ذلك ابن الرومي نفسه في بعض حواراه مع شاعر أنشده شعراً سليماً من العيوب مطبوعاً عارياً من دقائق المعاني ، فقال له : « نحن - أعزك الله - نطلب مع السلامة الغنيمة »<sup>(١)</sup> . فلا شعر بدون غنيمة أو بدون معنى مبتكر أو بدون قياس سديد أو تعليل لافت دقيق ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

عدوك من صديقك مستفاد      فلا تستكثرن من الصَّحَابِ  
فإن الداء أكثر ما تراه      يكون من الطعام أو الشراب

وهذا التحذير من الصديق يدور في كثير من الأقوال والأمثال ، ولكن الطريف عند ابن الرومي هو التعليل البارع ، إذ قاس الصديق على الطعام والشراب الممتعين وكيف يستحيلان أحياناً داء لا شفاء منه ، وكأنما يؤتى الحذر من مأمته ، ومن تعليقاته الطريفة تعليله لمحبة الأوطان ، إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

وحببَ أوطانَ الرجال إليهم      مآربُ قضاها الشبابُ هنالك  
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم      عهدَ الصبا فيها فحنوا لذلك  
فقد ألفتَه النفسُ حتى كأنه      لها جسدُ إن بان غودر هالك

وكان الشعراء قبله يتشوقون إلى أوطانهم ولا يعرفون العلة في ذلك حتى كشفها لهم ابن الرومي ، فكل يتعلق بوطنه ويشغف به ، لأنه ملاعب صباه وشبابه التي لا يبرح خيالها ذاكرته ، والتي طالما ألفتها النفس وأنست لها ، بل لقد التصقت بها التصاق الروح بالجسد ، بحيث لو انفصم أحدهما عن صاحبه أصبح في المالكين . وتكثر في شعر ابن الرومي كثرة مفرطة التعليقات والأدلة والأقيسة كقوله في بعض غزله<sup>(٤)</sup> :

(٣) الديوان ص ١٣ زهر الآداب  
٩٩/٣ .  
(٤) زهر الآداب ١٢/١ .

(١) ذيل زهر الآداب ( طبع المطبعة  
الرحمانية بمصر ) ص ١٩٠ .  
(٢) الديوان ص ١٣٩ .

لا تكثرنَّ ملامةَ العُشاقِ فكفاهمُ بالوجدِ والأشواقِ  
 إن البلاءَ يُطاقُ غيرَ مضاعفٍ فإذا تضاعفَ كان غيرَ مُطاقِ  
 لا تطفئنَّ جوى بلومٍ إنَّه كالريح تُغري النارَ بالإحراقِ

فهو يقيس تكرار اللوم للعشاق على تضاعف البلاء الذى لا يطاق ، ولا يكفيه هذا القياس ، وإذا هو ينفذ إلى قياس بديع ، فالهوى نار مشتعلة فى الصدور ، واللوم ربح عاصفة تفرقها يميناً وشمالاً ، حتى تأتى على كل ما تجاوره ، وكأنما لا يزال يغريها بأن تزداد تظليماً وإحراقاً واشتعالاً . ويجانب هذه القدرة لدى ابن الرومى على الأقيسة والعلل ، نحس قدرة فائقة على الجدل وكسب القضية بالحق وغير الحق ، وكأنه معتزلى كبير يناقش بعض مسائل الاعتزال ويحاول أن ينقض على خصمه حججه وأدائه ، أو قل إنه يبدل بحجج وبراهين تمحو كل براهينه وحججه ، وهى براهين وحجج شعرية ، فيها فن وفيها جمال وفيها حس الشاعر وفطنته ، من ذلك أن يجد الناس من حوله مجمعين على إثارة الورد على الرجس ، فيرد عليهم إجماعهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع يقول (١) :

خجلتْ خدودُ الوردِ من تفضيله خَجَلًا تورُّدُها عليه شاهدُ  
 أين العيونُ من الخدودِ نفاسةً ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

فاحمرار الورد الذى طالما شبهه الشعراء بالخدود إنما هو احمرار خجل من تفضيل من لا يقدرون الجمال له على الرجس الذى يشبهه الشعراء بالعيون ، وأين الخدود من العيون روعة وجمالا ، وهو بون بعيد لا يخطئ فيه إلا أصحاب القياس الفاسد الكليل . وما يتضح عنده فيه أثر الاعتزال واختلاطه بالمعتزلة أن نراه يعمد إلى ذم شيء ذمماً طبيعياً ، لأنه يستحق الذم ، ثم يعمد بعد ذلك إلى مدحه ، بياناً لقدرته فى الحجاج والجدل . وينسب إلى الجاحظ كتاب فى المحاسن والأضداد بعامية ، وهو منحول عليه ، ولكننا نجد معاصراً لابن الرومى هو إبراهيم بن محمد البيهقى يؤلف كتاب المحاسن والمساوى وهو منشور ، ويدل بوضوح على أن الناس شغفوا فى العصر — يقودهم المعتزلة من أمثال الجاحظ — بمدح الشيء وذمه ، وعلى



قبس من هذا الصنيع عمداً ابن الرومي إلى ذم الحقد البغيض ، فقال (١) :

الحقدُ داءٌ دفينٌ لا دواءَ له      يبري الصدورَ إذا ما جمره حرثاً (٢)  
فاستشف منه بصفحٍ أو معاتبَةٍ      فإنما يبرئ المصدورَ ما نفثاً (٣)

فالحقد داء لا يمكن الشفاء منه ، وما يزال جمره متقدماً في الصدور ولا يمكن إطفائه ، ويحاول ابن الرومي أن يكتشف دواء لصاحبه ، فيوصيه بالصفح والعتاب فقد ينفسان عنه بعض الشيء ، ولكن أي تنفيس ؟ إنه تنفيس المصدور الذي قد ينفس عنه لحظة ما ينفثه ، وسرعان ما ينطوي صدره ثانية على مرضه أو قل على هذا الجمر جمر الحقد الذي يشوي صدر صاحبه شيئاً . وابن الرومي في ذلك كله متفق مع الناس جميعاً في ذم الحقد الكريه ، ولكن أليس من حقه أن يغرب عليهم كما يغرب أحياناً المعتزلة أصحاب الحجاج واللسن واللدد في الخصومة ، فيمدح لهم الحقد البشع ويحمله شيئاً مستحباً لا بشاعة فيه ولا قبح ، يقول (٤) :

وما الحقدُ إلا توأمُ الشكر في الفتى      وبعضُ السجايا ينتسبنَ إلى بعضِ  
فحيث ترى حقدًا على ذى إساءةٍ      فشمَّ ترى شكرًا على حسنِ القرصِ  
ولولا الحقودُ المستكناتُ لم يكن      لينقضَ وترًا آخر الدهر ذو نقضِ

فالحقد توأم للشكر وقرين له ، وحرى بنا إذا تأملنا في حقيقته أن نعيد النظر فيه ، فإنه يُستحبّ إزاء بعض الأشخاص ممن يسيئون إلى الناس ، بينما يستحب الشكر إزاء من يحسنون القرض والتفضل على من حولهم ببعض ما أنعم الله عليهم . ويلفت ابن الرومي إلى دليل قاطع يدل على أن الحقد محمود ، فلولا لضاع الوتر أو الثأر ولم يأخذ موتور حقه من وافر . وبذلك استطاع أن يخرج الحقد الذميمة في صورة حسنة محمودة ، بفضل مهارته في الحوار والجدل ، وكأنه معترلي كبير يدافع عن قضية من قضايا المعتزلة الشائكة . وكثيرون من الشعراء وراعه أفادوا على شاكلته من حوار المعتزلة ومناظراتهم ، كما أفادوا من ثقافات العصر ما استحالت به ملكاتهم

(٣) المصدور: المريض بذات الصدر أو الرئة.

(٤) الديوان ص ١٦٣ .

(١) الديوان ص ١٣٧ .

(٢) يرى : يشمل .

العقلية خصبة إلى أبعد حدود الحصب ، بحيث أتاحت لهم ما لا يحصى من دقائق المعاني والأخيلة .

### التجديد في الموضوعات القديمة

ظلت الموضوعات القديمة المألوفة من مدح وغير مدح وهجاء تسيطر على الشعر والشعراء ، وكأنما كان هناك إصرار قوى أن تظل للشعر العربي شخصيته وموضوعاته وأن يظل حياً على الألسنة مع حياة الأمة ، فلا يضعف ولا يذوى عوده ، بل يقوى ويزدهر ، غير متحوّل عن أصوله ، مهما غدّته الثقافات الفلسفية وغير الفلسفية ومهما عبّر عن الحضارة العربية الحديثة ، فهو موصول دائماً بقديمه ، شأنه في ذلك شأن الآداب الحية التي لا تنقطع صلتها بماضيها ، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارته وثقافته ، إذ تظل متصلة بها اتصالاً يمكن لها في التاريخ وفي الخلود . وحقاً تنعكس على موضوعات الشعر حينئذ آثار حضارية وثقافية كثيرة ، ولكنها لا تُحدّثُ تعديلاً في جوهرها ، فجوهرها ثابت ، إنما تحدث بعض إضافات تكثر وتقل حسب ملكات الشعراء وحسب ما كانوا يتغنون به من الثقافات وما كان يداخلهم من إعجاب إزاء مظاهر الحضارة الجديدة .

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديحُ ، ومعروف أن الشاعر الجاهلي كان يصوّر فيه المثل الخلقى الرفيع في عصره ، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل ، حتى إذا كان العصر الإسلامي أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية مثالية الدين ، وخاصة إذا كان يمدح خليفة ، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التي لا تطيب حياة الناس بدونها ، وسجلوا أيضاً مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة . وبذلك كانت المديحة في العصرين الجاهلي والإسلامي تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمه خلقية ودينية لتربية الشباب ، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربية . وكل ذلك اضطرراً اضطراراً في المديحة عند

شعراء العصر العباسي الأول ، مع محاولاتهم الجادة في التطور بمعاني المديح عمقاً وسعة وتنوعاً ، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم في هذه الإضافة ترداد خصيباً في هذا العصر ، وهم في ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة ، فإذا مدحوا خليفة أو والياً أو قائداً تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة ، وكذلك الفضائل الإسلامية ، وتمثلوا أيضاً العدل الذي يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد. ويتردد ذلك دائماً على ألسنة الشعراء من مثل قول البحرى في المتوكل ، وكان اسمه جعفرًا (١) :

خَلَقَ اللهُ جَعْفَرًا قِيَمَ الدُّنْيَا      يَا سَدَادًا وَقِيَمَ الدِّينِ رُشْدًا  
أَظْهَرَ الْعَدْلَ فَاسْتَنَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ      ضُ وَعَمَّ الْبِلَادَ غَوْرًا وَنَجْدًا

وقد مضى الشعراء يُضَمِّنون هذه المثالية على الخلفاء في الحكم وفي التقوى وأيضاً في الخلق والشيم ، مهما كانت سيرتهم وكأنهم لم يكونوا يفكرون فيهم من حيث هم إنما كانوا يفكرون فيهم من حيث خلافتهم وقيامهم على حكم الرعية ، وهم لذلك يرفعون أمام أعينهم ما ينبغي أن يكون عليه الخليفة في خلقه وفي دينه وفي سيرته وفي حكمه ، وكأنما هو رمز ، رمز للأمة في حاكمها الرشيد ، وهم يبرزونه لها بالصورة التي تريدها ويريدونها معها ، صورة الحاكم المخلص الأمين الذي ينكر الظلم أشد الإنكار ، والذي يعمل بكل ما في وسعه على إشاعة العدالة بين أفراد رعيته حتى يتساووا في الانتفاع بالحياة تساوياً تاماً . وكان هناك من يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليضيفون عليهم صفات قلدسية ، وهي صفات خلعتها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بني أمية ، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعيرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين ، من مثل قول ابن الجهم في المتوكل (٢) :

إِمَامٌ هُدَى جَلَى عَنِ الدِّينِ بَعْدَ مَا      تَعَادَتْ عَلَى أَشْيَاعِهِ شِيَعُ الْكُفْرِ  
وقوله (٣) :

لَهُ الْمِنَّةُ الْعُظْمَى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ      وَطَاعَتُهُ فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ مُنَزَّلٌ

(٣) الديوان ص ١٦٤ .

(١) الديوان ٢ / ٧١٢ .

(٢) الديوان ص ٢٢٢ .

فهو الهادي المهدي الذي تجب طاعته على جميع المسلمين ، وكان الشعراء من وراء ابن الجهم يبالغون في بيان ذلك مبالغات شتى ، مما سنعرض له في غير هذا الموضوع . ونرى كثيرين منهم يسجلون الأعمال الكبرى في عصور الخلفاء ولناخذ مثلا المتوكل ، فجميع أعماله مثبتة في دواوين الشعراء وفي كتب التاريخ ، فمن ذلك أمره لأهل الذمة بلبس الطيالة العسلية والزنانير مما وقفنا عنده في الفصل الأول ، فقد تغنى بهذا العمل ابن الجهم في أشعاره<sup>(١)</sup> ، ومن ذلك عقده البيعة لابنيه الثلاثة : المنتصر والمعز والمؤيد ، فقد تغنى شعراؤه بهذا الصنيع طويلا<sup>(٢)</sup> .

ويكثر في عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا ، وكلما شاد قصراً نوّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة وال عمران لعصره . وليس هناك حادثة جلّتى من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات ، أو غضب على قاض وتصفية أمواله مثل ابن أبي دؤاد ، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بختيشوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك في أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية ، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أمجاد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا في حومات الوغى شمالا وشرقاً ، وهي ليست تاريخاً يسرد كما تصنع كتب التاريخ ، وإنما هي أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل في حروب الروم والترك والأرمن ، وماتى الجيوش العربية تخوض إليهم بحوراً من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التي لا تبتى ولا تذر . وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغرى ، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية ، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقاً ، وفيه وفي انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحرى<sup>(٣)</sup> :

هو الملكُ المرجوُّ للدين والعِلا      فله تقواه وللمجد سائره  
له البأسُ يُخشى والسماحة تُرتجى      فلا الغيثُ ثانيه ولا الليلُ عاشره<sup>(٤)</sup>  
كسرتهم كسر الزجاجة جده      ومن يجبر الوهى الذى أنت كاسره  
حسامٌ وعزمٌ كالحسام وجحفل      شدادٌ قواه مُحصّداتٌ مرائرُه<sup>(٥)</sup>

(٤) عاشره : يبلغ معشاه .

(٥) محصّدات : محكمات . مرائرُه : قواه ،

وأصلها طاقات الحبال .

(١) الديوان ص ١٩٢ .

(٢) الطبرى ١٨١/٩ .

(٣) الديوان ٨٧٧/٢ .

وليس هناك وقائع حربية كبيرة إلا ودون الشعراء فيها البطولات العربية ، وكان من أهم هذه الوقائع ثورة الزنج ، وقد تغنى الشعراء فيها ببطولة الموفق غناء مدنيًا ، ونرى الطبرى يسجل في تاريخه طائفة كبيرة من أشعار هذا الغناء . وبالمثل نراه يدون أغاني وأناشيد أجنبية في حروب القرامطة ، وكأنما استقر في نفوس المؤرخين أن الشعر الذى تغنى بهذه الحروب ووصفها لا يقل أهمية عن وثائق التاريخ ، فهو ليس مديحًا للبطولات وتمجيداً فحسب ، بل هو أيضًا تاريخ ، وهو تاريخ نابض بالحياة . ومن المحقق أنه حتى الآن لم يستغل هذا التاريخ الشعرى في كتابة تاريخ العصر ، إذ كثيرًا ما يحوى من التفاصيل ومن دقائق الأحداث ما لا نجدده مصورًا في كتب التاريخ ، ولذلك كان ينبغي على المؤرخين ألا يكتفوا بما يقرءون في كتب التاريخ عن الأحداث والوقائع الحربية ، بل يضموا إلى ذلك وصف تلك الوقائع والأحداث الميثوث في دواوين الشعراء ، حتى يطلعوا على كل جوانبها اطلاعًا مضبوطًا دقيقًا .

وظل شعراء المديح في كثير من مدائحهم يقلدون الأقدمين في الوقوف على الأطلال والبكاء على الدمن والآثار العافية ، وفي رأينا أن استبقاء الشاعر العربى على مدى العصور الماضية لهذا المطلع في كثير من قصائده لم يكن لبيان صلته بأسلافه ولا استبقاء لصورة من صور حياتهم الرعوية في العصر الجاهلى وما كان يتصل بها من الرحلة الدائرة حول مساقط الغيث والكلأ . وإنما كان لإحساس الشاعر إحساسًا عميقًا بتعبير هذا المطلع عن كل ما ينمحي من حياة الإنسان إلى غير مآب ، سواء في ذلك حبه وغير حبه ، فدائمًا لحظات ماضيه تذهب منه إلى غير مآب في الشباب وغير الشباب ولا يستطيع لها رجعة ولا أوبة . وكأنما تصور الأطلال نوازع الفناء التى تطبق مخالبها على كل ما يمضى من حياة الإنسان ، وعادةً تُطبَّقُ هذه المخالب عليه آخر الأمر ، فيصبح أثرًا بعد عين ، وهو لذلك يقف بالأطلال باكيًا بدموع غزار ، متمنيًا لو عادت إليها نضرة الحياة القديمة ، ولذلك قد يستسى لها السحاب حتى تعود إليها النباتات والظلال وحتى تدبّ فيها الحياة ، فن ذلك قول ابن المعتز يصف دارًا وأطلالاً<sup>(١)</sup> :

(١) الديوان (طبعة دار صادر بيروت)

ص ٣٥٤ وزهر الآداب ١ / ١٦٦ .

لا مثل مَنزلة الدَّوِيرَةِ منزلٌ  
 بُؤساً لدَهرٍ غَيْرَتِكَ صُرُوفُهُ  
 لم يَحُلْ للعِينين بَعْدِكَ منظرٌ  
 أَى المعاهد منك أُنْدبُ طيبه  
 أم بَرْدُظَلِّكَ ذى الغصون وذى الجَنَّا  
 وكأَنما سَطَعَتْ مجامرُ عَنبرٍ  
 وكأَنما حَصَبَاءُ أرضِكَ جَـوهرٌ  
 وكأَنما أَيْدى الربيعِ ضُحِيَّةٌ  
 يا دارُ جادِكَ وابلٌ وسِقَاكِ  
 لم يَمَحُ من قلبى الهوى ومحاكِ  
 ذُمُّ المنازلِ كُلِّهن سواكِ  
 مُمَسَاكِ بالأَصَالِ أم مَغْدَاكِ  
 أم أرضِكَ المِيثَاءِ أم رَبَّيَاكِ<sup>(١)</sup>  
 أَوْفَتْ فَأَرُّ المِمْسَكِ فوق ثَرَاكِ  
 وكأَن ماء الوردِ دَمْعُ نَدَاكِ  
 نَشَرْتُ ثيابَ الوَشْيِ فوق رَبَّيَاكِ

وابن المعتز يلمُّ بتلك الدار ، ويراها وقد فقدت بهجتها القديمة وغيرتها صروف الزمان حتى محت أطلالها الدوارس ، ولا يزال هواه بها ماثلاً فى قلبه ، وهو يدعو لها الغيث أن يجودها حتى تستعيد حلَّتتها الدائرة . وتتراعى له من خلال ذكرياته وعهود حبه الماضية ، فيرى كل الديار دونها ولا تقاس إلى جمالها ، ويبكيها ويندبها ، ويندب كل معهد فيها وما كان ينتشر فيه من طيب على الصباح الباكر وعلى الأصال فى المساء وعلى الغصون ذات الظلال والثمار ، وتفوح الأرض برائحتها الساطعة ، وكأَنما تفوح مجامر عنبر ، أو كأَنما تفوح فأرة مسك ، وحتى الحصى كأنه جواهر سقطت من أهل تلك الدار ، وكأن قطرات الندى ماء ورد عاطر ، والربيع ينشر بها وشيا عجيب الألوان . وهو وصف يحمل حينئذٍ ووجدلاً لا نهاية لهما للدار وما كان بها من لقاء بين الأحبة ، لقاء جعل كل ما حولهم يبدو فى هذه الصورة الفاتنة المحفورة فى ذهن ابن المعتز حفراً لا يمكن أن يطمس أو تأتى عليه الأيام .

وكان الشاعر القديم ينزع نفسه من الأطلال وما يتصل بها من ذكريات الهوى والشباب الدائرة ، مفضيلاً إلى وصف رحلة له فى الصحراء ، يتحدث فيها عن طول سُرَاه وعن الفلوات وحيواناتها الأليف والوحشى ومضى ضنماً بعيره فى رحلته

(١) الجنا : الثمر . الميثاء : السهلة . الريا :  
 الراتحة .

الطويلة الشاقة ، وكأنما يريد أن يجذب نفسه جذباً من أفكار الغناء ويتغلغل في نوازع الحياة . وتبعه الشاعر العباسي مستبقياً على كل هذه العناصر في قصيدة المديح ، وقد يفرد لوصف هذه الرحلة قصائد أو مقطوعات طريفة ، وهي متناثرة في دواوين الشعراء من مثل قول علي بن الجهم<sup>(١)</sup> :

كم قد تجهمني السرى وأزالني ليلٌ ينوءُ بصدري متطاوُلُ  
وهزرتُ أعناقَ المطىِّ أسومها قصداً ويحجبها السوادُ الشاملُ  
حتى تولى الليلُ ثانی عطفهٍ وكانَ آخره خِصَابُ ناصِلُ  
ورأيتُ أغباشَ الدجىِّ وكانها حِزَقُ النِّعامِ ذُعِرْنَ فهى جوافلُ<sup>(٢)</sup>

وهو يصور سُراه في ليل متطاوُلٍ يجثم سواده على آفاق الكون ، وما زال يقطعه حتى نتصل خضابه الأسود وبدت أغباشه وبقاياها وكأنها نعام مذعور ، فهى تفر فراراً من الضوء الذى أخذ ينتشر على قطع الظلام . وطالما وصف الشعراء نحول لإبلهم وضناها كناية عن طول سُراها ومدى ما عانته من نصب في وعشاء السفر الطويل الذى لا يكاد ينتهى . وألم شعراء العصر كثيراً بهذا المعنى كقول البحرى في وصف إبله<sup>(٣)</sup> :

يترقرقن كالسراب وقد خُضَّ نَ غِمَاراً من السَّراب الجارى  
كالفيسى المعطفات بل الأمد هم مبريةً بل الأوتار<sup>(٤)</sup>

فهى لا تكاد تبين نحولا وهزلا حتى لكأنها أصبحت سراباً ، وإنها لتشبه القسى المنحنية ، بل هى أكثر نحولا فهى كالأسهم ، بل هى أيضاً أكثر ضنّاً وهزلاً حتى غدت كالأوتار ضموراً . وكانوا في أثناء ذلك يعرضون لوصف حُمُر الوحش وأتونها التى يصادفونها في الفلاة ، وكذلك لوصف الطباء وبقر الوحش ، وكل يحاول أن ينفذ إلى صورة دقيقة من مثل قول ابن المعتز<sup>(٥)</sup> :

- (١) الديوان ص ١٦٨ .  
(٢) أغباش : بقايا . حِزَق : جماعات .  
(٣) الديوان ٢ / ٩٨٧ .  
(٤) المعطفات : المنحنيات .  
(٥) الديوان ص ١٥٩ . جوافل : منزعة .

وَجَرَتْ لَنَا سُحْحًا جَادِرُ رَمْلَةٍ      تَلُو الْمَهَا كَاللُّوْؤِ الْمُبْدِدِ<sup>(١)</sup>  
 قَدْ أَطْلَعْتُ إِبْرَ الْقُرُونِ كَأَنَّهَا      أَخَذُ الْمُرَادِ مِنْ سَحْحِ الْإِثْمِدِ<sup>(٢)</sup>

وكان ابن المعتز قد سبق بوصف إبر القرون وأطرافها المدببة بالمراد المغموسة في الكحل شديد السواد واللمعان ، فما زال يحاول النفوذ إلى صورة جديدة حتى قال يصف ثوراً وحشياً يقود إجلأ أو قطيعاً من بقر الوحش<sup>(٣)</sup> :

كَأَنَّ عَلَى طَائِرٍ مِنَ الْوَحْشِ نَاهِضٍ      تَخَالُ قُرُونِ الْإِجْلِ مِنْ خَلْفِهِ غَابَا  
 فقرون البقر تتكاثر حتى ليخالها ابن المعتز غابة نبتت في الفلاة فجأة .

وكان الشعراء يعرضون أحياناً مع الربيع ووصفه للحديث عن الخمر ، على نحو ما كان يصنع أسلافهم العباسيون ، وشاعت حينئذ التهينة بعيد النيروز ويوم المهرجان الكبير ، وكانت بغداد وضواحيها تتحول فيه إلى ساحات كرنفالات ضخمة على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان الشعراء يهشون الخلفاء والولاة به ، وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن ملامهيه ، وقد يسوقون الحديث إلى الخمر ، على نحو ما يلقانا عند ابن الرومي في قصيدة يوم المهرجان التي مدح بها عبيد الله بن طاهر محافظ بغداد حينئذ ، وفراه يصور تصويراً رائعاً ما كان بمجلسه من قيان يتغنين غناء يأسر القلوب ، يقول<sup>(٤)</sup> :

وَقِيَانٍ كَأَنَّهَا أُمَّهَاتُ      عَاطِفَاتُ عَلَى بَنِيهَا حَوَانِ  
 مُطْفَلَاتُ وَمَا حَمَلْنَ جَنِيناً      مَرْضِعَاتُ وَلَسْنَ ذَاتَ لِبَانِ<sup>(٥)</sup>  
 كُلُّ طِفْلِ يُدْعَى بِأَسْمَاءِ شَتَّى      بَيْنَ عَوْدٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانِ<sup>(٦)</sup>  
 أُمُّهُ دَهْرَهَا تَتَرَجَّمُ عَنْهُ      وَهُوَ بَادِي الْغِنَى عَنِ التَّرْجَمَانِ  
 غَيْرَ أَنْ لَيْسَ يَنْطِقُ الدَّهْرُ إِلَّا      بِالتَّرْجَمِ مِنْ أُمِّهِ وَاحْتِضَانِ<sup>(٧)</sup>

(١) سنحاً: عرضاً أو مارة من اليمن .  
 الجادر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . المهيا :  
 بقر الوحش .  
 (٢) الإثمد : الكحل .  
 (٣) الديوان ص ٣٨ وطاو : جامع .  
 (٤) الديوان ص ٨٤ .  
 (٥) لبان : لبن .  
 (٦) الكران والمزهر من آلات الطرب التورية .  
 (٧) التزام : اعتناق .



وقد مضى يتحدث عن تأثير هؤلاء القيان بغنائهن وبما كن يحملن من آلات الطرب على صدورهن ، وكأنها أطفال هن ، فهن يعانقنها وكأنما يرضعنها ، ولكن لابلن وإنما بألحان شجية تشفى الحزون من دائه ، ولكل منهن جمالها وسحرها وقتتها وصوتها الذى يدلح الحزن والفرح جميعاً ، صوت تمده وتعلو به كما أرادت أو كما يقول فى قصيدته :

ذات صوتٍ تهزّه كيف شاءتْ مثلما هزّتِ الصّبا غُصنَ بانِ  
وإنما أردنا بذلك كله أن نصور كيف أن شاعر المديح فى هذا العصر حاول أن يضيف إلى عناصره الموروثة عناصر مستمدة من بيئته الحضارية ، ممثلاً فيها كثيراً من المعانى والصور الدقيقة ، وكانوا دائماً يلائمون بين مدائحهم ومدوحهم ، فإذا مدحوا وزيراً مثلاً عرضوا لسياسته وتفننه فى الكتابة ، وإذا مدحوا قائداً عرضوا لوقائعه وأجاده الحربية ، وإذا مدحوا عالماً أشادوا بعلمه ، وكذلك إذا مدحوا مغنياً أشادوا بغنائه . واضطرم حينئذ الهجاء كما اضطرم المديح ، ولم يكد يترك الشعراء خليفة ولا وزيراً ولا قاضياً ولا عالماً ولا مغنياً إلا كالوا له الهجاء كيلاً ، وأدأهم تنافسهم إلى أن يتبادلوا الهجاء ويريشوا كثيراً من سهامه . وأقرأ فى أى ديوان من دواوين العصر فستجد دائماً هجاء كثيراً على نحو ما يلقانا فى ديوان البحرى مثلاً ، وقد اشتهر بهجائه بعض ممدوحيه حين يقرب لهم الدهر ظهر الحجن ، مثل أحمد ابن الخصيب ممدوحه ، فإنه حين نكبه المستعين أنشده قصيدة يحثه فيها على مصادرة أمواله وسفك دمه ، وظل يسألقة بلسانه طويلاً بمثل قوله<sup>(١)</sup> :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انبَرَى بِإفـكـه المُرْدَى وإبـطـالـه  
كاد أمينَ الله فى نفسه وفى موالـيه وفى ماله  
والرأى كلُّ الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله

وله قصائد كثيرة يمجده فيها المستعين وعهده ، حتى إذا خلع وولّى الترك بعده المعتز أصلاه ناراً حامية من هجائه فى ثنايا مديحه للخليفة الجديد . ولم يكن البحرى حاذقاً فى هذا الفن ، غير أنه كان هناك كثيرون يتقنونه ، مثل على

(١) الديوان ٢/١٦٣٧ .

ابن بسام ، وكان يتعرض في هجائه كثيراً للخلفاء والوزراء وقلاما سلم أحد من لسانه  
ومن قوله في العباس بن الحسن وزير المكتنى (١) :

وزارة العباس من نَحسها      تستقلع الدولة من أسها  
شبهته لما بدا مقبلا      في حُللٍ يُخجلُ من لبسها  
جارية رَعناء قد قدَّرتُ      ثيابَ مولاها على نفسها (٢)

وكان أكثر ما يعتمدون عليه في الهجاء من معانٍ التهوين والتحقير والتصغير  
وما إلى ذلك من طعنات مصممة نافذة ، بما تحمل من سموم الانتقاص  
والسخرية المريرة ، كقول إبراهيم بن العباس في صديق تنكر له ووجد  
معروفه (٣) :

ولما رأيتك لا فاسقاً      تهابُ ولا أنت بالزاهدِ  
وليس عدوك بالمتقى      وليس صديقك بالحامدِ  
أتيتُ بك السوقَ سوقَ الرقيقِ      فناديت هل فيك من زائدِ  
على رجلٍ غادرٍ بالصديقِ      كفورٍ لنعمائه جاحدِ  
فما جاءني رجلٌ واحدٌ      يزيد على درهمٍ واحدِ  
سوى رجلٍ حارٍ منه الشقا      وحلَّتْ به دعوةُ الوالدِ  
فبعثك منه بلا شاهد      مخافةً أدركُ بالشاهدِ  
وأبنتُ إلى منزلي سالماً      وحلَّ البلاءُ على الناقدِ (٤)

والمقطوعة تمسخ هذا الصديق مسخاً ، حتى لتجعله حياً كيت وموجوداً  
كعدم ، فلا هو من أهل المجون ولا من أهل الزهد ولا يخشى بأسه عدو ولا يحمده  
صديق ، إنه كنودٌ مهين ، ولذلك ذهب ببيعه الصولى في سوق الإنسان الكبيرة ،  
معلناً عيوبه من الغدر وكفر النعمة والجحود ، مما جعل الناس يكفون عن شرائه إلا

(٣) ديوان المعاني ١/ ١٨٣ .

(٤) الناقد : المشتري .

(١) زهر الآداب ٣/ ١٨٨ .

(٢) قدرت : فصلت وقطعت .

أن يكون بدرهم واحد ، إلا ما كان من رجل سيء الحظ كأنما استجيبت فيه دعوة لأبيه ، أقدم على شرائه ، فباعه منه بدراهم معدودة ، وولى الصولى على وجهه يطلب السلامة من هذا البلاء الذى كان حلَّ به . وكان مما يؤذى المهجوين حينئذ إيداء شديداً أن يوصفوا بالتقذارة ، إذ كان العرب قد تحضروا وأسرفوا فى صور النظافة وفى التطيب بالعمطور ، وكأن من يوصف بنتن الرائحة يتلطفح بعار ما بعده عار ، ويستغل ذلك الصولى فى أحد مهجويه قائلاً له<sup>(١)</sup> :

وكن كيف شئتَ وقل ما تشا وأبرقَ يميناً وأرعِدْ شِمالا  
نجايبك لُوْمُكَ مَنْجَى الذبابِ حمته مقاذيره أن يُنالَا

فليكن كما يشاء فإن أحداً لن يستطيع التعرض له لحقارته وقذارته . ومعروف أن ابن الرومى هو أكبر شعراء المهجاء فى العصر وأكثرهم سهاماً لمهجويه ، وكان يعرف كيف يصب عليهم التصغير والحقارة والضعمة ، كتمواه المشهور فى وصف بخيل<sup>(٢)</sup> :

يقتر عيسى على نفسه وليس بياقٍ ولا خالدٍ  
فلو يستطيع لتقتيره تنفّس من منخِرٍ واحدٍ

ففتحة أنف واحدة كانت تكفيه ، ولو أنه رأى فيها حقاً كفاية ما انتفع بالفتحة الأخرى ، ولا حاول ذلك حرصاً وبخلاً وشحاً جبُل عليه . وكانت لابن الرومى حاسة تلتقط العيوب الجسدية وتستطيع تكبيرها على نحو ما يصنع أصحاب الصور الكاريكاتورية الهزلية ، فإنهم يعرفون كيف يستغلون دقائق العيوب فى الوجوه والأجسام ، وتستحيل مقطوعات وقصائد كثيرة فى ديوان ابن الرومى إلى صور ساخرة من مهجويه ، حتى ليأخذوا أحياناً شكل حيوانات مجترّة وغير مجترّة ، كتمواه فى بعض مهجويه<sup>(٣)</sup> :

ما ظننت الإنسان يجترُّ حتى كنتَ ذاك الإنسان عَيْنَ اليقينِ

(١) الديوان فى مجموعة « الطرائف الأدبية » (٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة

السابعة بدار المعارف) ص ٢١٤ .

ص ١٦٣ .

(٢) الديوان ص ٣٧٥ .

أما أبو سليمان الطنبورى المغنى فقد استمع إلى غنائه التبيح يوماً ، فترأى له فى صورة بغلٍ لطحان ما يزال يحرك فكّيه فى أكل طعامه من الفول وغيره ، أو كما يقول<sup>(١)</sup> :

وتحسب العين فكّيه إذا اختلفا عند التنغم فكّي بغلٍ طحانٍ

وهو جانب طريف عند ابن الرومى سنعرض له ثانية فى ترجمته ، والمهم أن نعرف الآن أنه استطاع أن ينمى الهجاء فى هذا الجانب الساخر إلى ذروة لم يصل إليها الشعر العربى قبله ولا بعده .

وظل الفخر نشطاً فى العصر ، وكان قد ضعف الفخر القبلى منذ العصر الماضى وظل ضعيفاً فى هذا العصر لضعف الشعور بالعصبية القبلية ، وإن كنا نجد هذا الشعور من حين إلى حين . ولكنه على كل حال كان شعوراً خافتاً ، ونجده أحياناً على لسان البحترى حين يفتخر بطيئ قبيلته ، وكذلك على لسان ابن الجهم القرشى حين يفتخر بقريش وجدها فهر بن مالك قائلاً<sup>(٢)</sup> :

أبت لى قروم أنجبتنى أن أرى وإن جلّ خطبٌ خاشعاً أتضجّر  
أولئك آل الله فهر بن مالك يمّ يعجبر العظم الكسير ويكسر  
هم المنكب العالى على كل منكب سيوفهم تغنى وتغنى وتفقير

وبقيت من ذلك بقية عند ابن المعتز : إذ نراه يفخر طويلاً على بنى عمومته العلويين ، وهو فخر سياسى يدور حول الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين ، وربما كان أروع من هذا الفخر عنده فخره العام الذى يخلطه بشكواه ، والذى يتحدث فيه عن حبه مقدماً لبعض صواحيبه فضائله من الشجاعة والبأس والكرم الفياض والوفاء ، ومن طريف فخره قوله<sup>(٣)</sup> :

لا أشرب الماء إلا وهو منجرد من القذى ولغيرى الشوب والرزق<sup>(٤)</sup>  
عزى حسامٌ وقلبي لا يخالفه إذا تخاصم عزمُ المرء والفرق<sup>(٥)</sup>

(٤) الشوب : الماء المخلوط . الرزق : الكدر .  
(٥) الفرق : الحوف .

(١) الديوان ص ٣٦١ .

(٢) الديوان ص ١٣٢ .

(٣) الديوان ص ٣٣٠ .

مَيَّتُ السَّرَائِرُ ضَحَّاكَ عَلَى حَنَقٍ مَا دَامَ يَعْجِزُ عَنْ أَعْدَائِي الْعَنْقُ  
فهو يشرب الماء صفوًّا وغيره يشربه كدراً وشوياً وطينياً ، وهو قوى العزيمة ،  
يكنم سره ونيته ، أو هو بعبارة أخرى رجل كامل المروءة ، وقد تغنى الشعراء معه  
طويلاً بالكرامة والعزة والأنفة والشيم العربية الرفيعة التي ظلت لا تبرح ذاكرة العرب  
على مر العصور .

واحتدم الرثاء في العصر ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد ولا نابه مشهور  
إلا رثاه الشعراء ، وكان يحدث أن يقتل الخليفة أو يخلع ويموت في سجنه ، وكان  
من الشعراء من يتأثر لذلك تأثراً عميقاً ، فتتفجر لوعاته على لسانه رثاء حاراً ، ومما  
يصور ذلك مقتل المتوكل الذي مرَّ بنا الحديث عنه ، وكان البحري حاضراً مقتله  
فتعمق التأثر نفسه ، فبكاه بقصيدته<sup>(١)</sup> :

مَحَلٌّ عَلَى الْقَاطُولِ أَخْلَقَ دَائِرُهُ وَعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ جَيْشًا تَغَاوَرُهُ  
ويقال إنه نظمها حين ولي ابنه المعتز الخلافة وهي ليست رثاء ولا تأبيناً فحسب ،  
بل هي أيضاً ثورة على الجناة وفي مقدمتهم ولي العهد المنتصر ، إذ تحول صدره إلى  
ما يشبه بركاناً لا يزال يقذف بالحُمَمِ الملتهبة ، حتى ليحرم على نفسه كل متاع  
إلا أن يهب من يأخذ بثأر المتوكل ويسفح دماء قاتليه دمماً بدم ، ويعجب أن ابنه  
وولي عهده يشترك في دمه ، ويدعو الله ألا يمتعه بترائه ، يقول :

حَرَامٌ عَلَى الرَّاحِ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى دَمًا بَدْمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ<sup>(٢)</sup>  
أَكَانَ وَلِيُّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَةَ فَمَنْ عَجِبَ أَنْ وُلِيَ الْعَهْدَ غَادِرُهُ  
فَلَا مُلَى الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدَّعَاءَ مَنَابِرُهُ<sup>(٣)</sup>

وكان ابن المعتز صديقاً حميماً للخليفة المعتضد ، وكان لا يبارى في شجاعته  
وبأسه ، وكانت أيامه أيام أمن وسعود للخلافة ، فلما وافاه القدر جزع عليه ابن  
المعتز جزعاً شديداً ، وبكاه وبكى دولته بطائفة من المرأى الحارة ، منها مرثيته<sup>(٤)</sup> :

(٣) مل : متع .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(١) الديوان ٢ / ١٠٤٥ .

(٢) مائره : سائله .

يادهرُ وَيُحْكُ ما أَبْقَيْتَ لى أَحداً وَأَنْتِ وَالِدُ سَوْءٍ تَأْكُلُ الولدا

وقد مضى فيها يندب سكناه فى دار موحشة ، وقد خَلَفَ من ورائه الجيوش  
والكنوز التى لم تكن تُحصى عدداً ، والسريـر أو العرش الذى كان يملؤه مهابة وسؤدداً ،  
ويذكر سحقه للأعدى سحقا لا يبقى ولا يذر ، والجياد والرماح تغدو عليهم وتروح ،  
كما يذكر قصوره ووصائفه وملاهيه وأجاده الحربية ، يقول :

ثم انقضيتَ فلا عَيْنٌ ولا أَثْرٌ حتى كأنك يوماً لم تكن أحدا

وعلى نحو ما تفجعوا على الخلفاء تفجعوا على أبنائهم وعزّوهم فيهم ، وبالمثل صنعوا  
مع الوزراء وذوى النباهة والشأن ، ومرّ بنا فى حديثنا عن خزانات الكتب ما أقام على بن  
يحيى المنجم فى ضيعة له من خزانة ضخمة للكتب كان الناس يؤمنونها من كل بلد ،  
فيجدون فيها نفقتهم وما يشاءون من كتب لا تكاد تحصى ، وكان الخلفاء منذ المتوكل  
يسبغون عليه عطايا جزيلة ، فكان ينفقها على مكتبته وعلى الناس من شعراء وغير  
شعراء ، فلما توفى رثاه على بن بسام رثاء رائعاً على هذا النمط<sup>(١)</sup> :

قد زرتُ قبرك يا علىُّ مسلماً	ولك الزيارةُ من أقلِّ الواجبِ
ولو استطعت حملتُ عنك ترابه	فلطالما عنى حملتُ نوائبي
ودمى فلو أنى علمت بأنه	يروى ثراك سقاه صوبُ الصائبِ
لسكبتَه أسفاً عليك وحسرةً	وجعلتُ ذاك مكان دمعٍ ساكبِ
فلئن ذهبَ بملءِ قبرك سُودُداً	لجميلُ ما أبقيتَ ليس بذهابِ

والقطعة تفيض حسرة ولوعة ، حتى ليتنبى ابن بسام أن لو فداه بروحه  
ومات مكانه وحمل عنه ترابه ، ويقول إنه لو عرف أن دمه يروى ثراه اسكبه عليه  
ولم يسكب دموعه المنهالة . ثم يسترجع نفسه فجميل ما أسدى إلى الناس من صنْع  
لن يذهب سُدى ، بل سيظل خالداً على مر الزمان . وكانوا يعزون الآباء فى البنات  
وأن يحتسبوهن عند الله ، ولهم فيهن تعزيات طريفة ، من ذلك تعزية ابن الرومى

(١) زهر الآداب ٨٨/٣ وانظر مجمع  
الشعراء للمرزبانى ص ١٤٧ .

لابن المنجم المذكور في ابنة له على هذه الشاكلة (١) :

لا تبعدنَ كريمةً أودعتها صِهراً من الأصهار لا يُخزِيكا  
إني لأرجو أن يكون صدأها من جنة الفردوس ما يرضيكا  
لا تياسنَ لها فقد زوجتها كُفواً وضمنتَ الصداقَ مليكا

وكانوا يحاولون النفوذ إلى العزاء بأن الموت مصير لا بد منه ، وأن أحداً لن يعيش إلا إلى أجل محدود فحنن دائماً مشدودون إلى الموت ، وكل لحظة تمضي تموت ولا تعود إلى الحياة أبداً ، فالدهر لا يعيدها ولا تعيدها أيامه ، بل لكأن الأيام خلقت لكي تنزل الكوارث على الناس ، أما ما قد تجلبه لهم من حسن ونعم فهي إنما تجلبه عن غير عمد ، وفي ذلك يقول ابن المعتز في بعض مرثياته (٢) :

ألسنَ ترى موتَ العُلا والمحامد وكيف دفننا الخلق في قَبْرِ واحدٍ  
والدهر أيامٌ يُسِئَنَ عوامداً ويحسنُ إن أحسنَ غيرَ عوامدٍ  
وسعَرَ موتُ الأبناء وذوى الرحم قلوب الشعراء ، فبكوهم بدموع غزار وأنوا  
أنيناً حاراً من قلوب جريحة كوتنها نار الفراق الملتهبة ، ومضوا يتأوهون وجدوات  
الحزن الممض تلذع أفئدتهم لدعماً ، ويشتهر في هذا الجانب ابن الرومي برثائه  
لابنه الأوسط وقد مات منزوفاً وهو لم يزل في المهدي صبيّاً ، وأحسن كأن القدر  
اختطف منه فلذة كبيرة من كبده ، فامتلاّت نفسه حزناً وشقاء ، وقعها على  
قيثارتها ودموعه تنحدر على خديه ، وإنه ليخاطب عينيه أن ترسل الدموع غزيرة ،  
علّها تنفس عنه شيئاً من محنته في ابنه ، يقول (٣) :

بكاؤكما يَشْفِي وإن كان لا يُجِدِي فوجودا فقد أودى نَظِيرُكما عِنْدِي (٤)  
أريحانةَ العينين والأنف والحشَا أَلَيْتَ شعري هل تَغَيَّرَ عن عهدِي  
كأنِّي ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ولا شَمَّةٍ في ملعبٍ لك أو مَهْدٍ  
وأنت وإن أفردتَ في دار وحشةٍ فإني بدار الأُنس في وحشة الفرد

(٣) الديوان ص ٢٩ .

(٤) يجدي : يفيد . أودي : هلك .

(١) زهر الآداب ١٧٣/٢ .

(٢) الديوان ص ١٨٧ .

والتقصيدة جميعها على هذا النمط من التحسر الممض واللوعة المحرقة ، حتى  
لكأنما أصبحت الدنيا كأنها في عين ابن الرومي قبراً موحشاً كبيراً ، قبراً يصب  
عليه حزناً ثقيلاً . ومن رُزِيُّ بابنين له وبكاهما طويلاً إبراهيم بن العباس الصولي ،  
وكان الموت قد فجأه في أولهما ، ثم لم يلبث أن فجأه في الثاني ، فقال (١) :

كَلَّ لِسَانِي عَنْ وَصْفِ مَا أَجْدُ      وَذُقْتُ تُكْلًا مَا ذَاقَهُ أَحَدُ  
مَا عَالَجَ الْحُزْنَ وَالْحَرَارَةَ فِي الْأَ      حِشَاءٍ مَنْ لَمْ يَمِتْ لَهُ وَلَدُ  
فُجِعْتُ بِابْنِي لَيْسَ بَيْنَهُمَا      إِلَّا لَيْالٍ مَا بَيْنَهَا عَدَدُ  
وَكَلُّ حُزْنٍ يَبْلَى عَلَى قَدَمِ الرَّ      دَهْرٍ وَحُزْنِي يُجِدُّهُ الْكَمَدُ

وشاعرية الصولي كانت دون شاعرية ابن الرومي ، ولذلك لم يبلغ في تصوير  
حزنه وأساه على فلذتي كبده ما بلغه ابن الرومي من تصوير كاراته في ابنه  
وفاجعته فيه .

وذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعراء هذا العصر بكوا بغداد حين  
أصابتها كوارث النهب والتحريق في حروب المأمون والأمين ، وبذلك عرف الشعر  
العربي لأول مرة رثاء المدن ، ونجد في هذا العصر الحديد بقية لهذا الرثاء حين  
هجم صاحب الزنج بجموعه على البصرة وأنزل بها النهب والسلب والحرق وفتك  
بأهلها فتسكنا ذريعاً ، حتى قيل إنه قتل منهم في هذا الهجوم ثلاثمائة ألف على نحو  
ما مر بنا في هذا الموضوع ، وقد أشرنا هناك إلى مرأى الشعراء لتلك المدينة وفي مقدمتها  
مرثية ابن الرومي :

ذَادَ عَنِ مَقْلِي لِذَيْدِ الْمَنَامِ      شَغَلَهَا عَنْهُ بِالْدموعِ السُّجَامِ .

وهو يستهلها ببيان ضخامة الحادثة وخطورتها ، فقد نزل بالبصرة من ضروب  
الذل والهوان والحسف والعسف ما ملأ نفسه ألمًا وهولاً وحسرة وأوعدة ، حتى إنه  
ليبكي بكاء مرّاً طوال نهاره وطوال ليله ، فقد انتهك الزنج محارم الإسلام ، وإن

(١) الديوان في « مجموعة الطرائف الأدبية »  
ص ١٧٥ .



لطفته عليها لتدلع لهباً في قلبه كلهب النار التي حرقتها ، وإنه ليندب مجدها وأمنها ، ومن سفكوا الدم فيها ، حتى كان الأخ لا يفكر في أخيه ولا الأب في بنيه ، فالجميع مشغولون بأنفسهم كل يريد النجاة ولا منجى فالسيوف تحصدهم حصداً ، أما النساء فساقوهن سبايا حاسرات الوجوه ، وباعوهن بيع الرقيق . وخرت المدينة الكبيرة عند أقدام الزنج تترنح إعياء ، وأصبحت القصور بالتحريق تلالاً ، وأصبح الناس أشلاء مبعثرة في كل مكان ، وأصبح المسجد الجامع قفراً من عباده ونسأكه . ويتحول ابن الرومي من وصف الكارثة المروعة إلى استصراخ الناس كى يردوا سيل الزنج الكاسح عن البصرة ومدن العراق ، ويرفع لهم شعارات الجهاد الديني ، ويستحثهم بما يكون بينهم وبين الله من حوار إزاء تلك الفاجعة إن هم قعدوا عنها ، ويناديهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يردوا عدوان الزنج الأثيم ، ويستنفرهم في حماسة بالغة ارد هذا العار وللثأر والانتقام ، ويختم ابن الرومي المرثية ببيان فضل المجاهدين وما أعد لهم من الجنان والرضوان العظيم . وهي بذلك تُعدُّ مرثية من جهة واستصراخاً واستنفاراً لحرب الزنج من جهة ثانية ، وهو استنفار يكتظ بالغيظ والحق الشديد .

ومن موضوعات الرثاء التي استحدثت في العصر العباسي الماضي رثاء المدلل من الحيوانات المستأنسة ، ونرى شعراء هذا العصر يحاكون أسلافهم في هذا الباب ، ومن أروع ما نظموه فيه مرثية الحسن بن علي بن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الضرير النهرواني ، وكان من أصدقاء ابن المعتز وابن الفرات وزير المقتدر ، وكان له هر يأنس به تعود أن يدخل أبراج الحمام لدى الجيران ويأكل أفرانها ، وكثر ذلك منه ، فأمسكه بعض أربابها وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف ، فرثاه رثاء حاراً وكأنه يرثى صديقاً عزيزاً لديه نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى بالهر عن ابن المعتز وقيل عن ابن الفرات ، خوفاً على نفسه من المقتدر الذي نكبهما إن هو صرح بالاسم الحقيقي ، ويضيف ابن خلكان إلى هذين القولين قولاً ثالثاً ، هو أنه كانت لعلى بن عيسى وزير المقتدر جارية هويت غلاماً لابن العلاف ، فمطن بهما فقتلا ، وبكى ابن العلاف غلامه وكفى عنه بالهر . وفي رأينا أن روعة هذه المرثية هي التي جعلت القدماء يظنون بها هذه الظنون ، وهي خمسة وستون بيتاً ،

كلها من عيون الرثاء وغرره . وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

يا هِرُّ فارقَتنا ولم تَعُدِ      وكنْتَ مِنَّا بِمَنْزِلِ الوَلدِ  
فكيف ننفكُّ عن هواك وقد      كنت لنا عُدَّةً من العُدَدِ  
تطرُدُ عنا الأذى وتحرسنا      بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَدِ<sup>(٢)</sup>  
وتُخْرِجُ الفأرَ من مكانها      ما بين مفتوحها إلى السُدِّدِ  
حتى اعتقدتَ الأذى لجيرتنا      ولم تكن للأذى بمعتقدِ  
وحمتَ حول الردى بظلمهم      ومن يحُمُّ حول حَوْضه يَرِدِ  
صادوك غيظاً عليك وانتقموا      منك وزادوا ومن يَصِدُّ يَصِدِ  
ما كان أغناك عن تصعدك الـ      بُرَجَ ولو كان جنة الخلدِ

والمرثية كلها تفجع على هذا المنوال ، وتزخر بالحكم مع الحسرة على فقد الهرّ  
وع التأمّل في الموت وحقائق الحياة . ومن طريف ما نجد من مرثيات في العصر رثاء  
أبي الشبل البرجُميّ التميمي لقنديل حطمه كبش دخل بيته وعاث فيه<sup>(٣)</sup> وكذلك  
بكاؤه قرطاساً سُرِق منه خلسة<sup>(٤)</sup> .

وأكثر الشعراء في العصر من العتاب والاعتذار ، سواء بين المتحابين أو بين  
الأصدقاء ، وقد تفننوا في ذلك على صور شتى تسعفهم ملكاتهم العقلية الحصبة  
بمعان وخواطر لم تفد على سابقهم ، أو لعلمها وفدت ولكنهم أبرزوها إبرازاً جديداً ،  
تسعفهم في ذلك مشاعرهم المرهفة وأذواقهم المتحضرة الرقيقة وهزارتهم في الإتيان  
بالمعاني التي تروق وتروع العقول والقلوب جميعاً ، وربما كان من أجمل ما صاغوه  
في العتاب قول سعيد بن حميد<sup>(٥)</sup> :

أَقْلِلْ عتابك فالبِقَاءُ قَلِيلُ      والدهرُ يعْدلُ نارةً ويميلُ

(٢) الجرد : النار .

(٣) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية)

٢٠٤/١٤ .

(٤) الأغاني ٢٠٩/١٤ .

(٥) زهر الآداب ٢/٢٤٦ .

(١) انظر في القصيدة وترجمة ابن العلاف

ابن خلكان (طبع مطبعة الوطن) ٢٤٥/١

وانظر طبقات الشمره لابن المعتز (طبع

دار المعارف) ص ٣٥٩ وتاريخ بغداد

٣٧٩/٧ ونكت الهيمان ص ١٣٩ .

لم أبك من زمنٍ ذممتُ صروفه  
ولعل أحداث المنية والردي  
فلئن سبقت لتبكين بحسرة  
ولتفجعن بمخلص لك وامق  
ولئن سبقت ولاسبقت ليمضين  
وأراك تكلف بالعتاب وودنا  
ولعل أيام الحياة قليلة  
فعلام يكثُر عتبنا ويطول

إلا بكيت عليه حين يزول  
يوماً ستصدع بيننا وتحول  
وليكثرن عليك منك عويل  
حبْلُ الوفاء بحبائه موصول  
من لا يشاكله لدى خليل  
صاف عليه من الوفاء دليل  
فعلام يكثُر عتبنا ويطول

إنها حماقة أن يتأدى الأصدقاء في العتاب، والحياة من شأنها ألا تجرى سويةً ، وكل ما نبكى منه يوماً نبكى عليه في يوم تال ، فأولى بنا ألا نفضي إلى التشاؤم ، إذ سرعان ما يطوى بساط الحياة ، ولذلك خليق بالأصدقاء أن يعفوا عما قد يظنون بصداقتهم من كدر . ويعرض ابن حميد على صديقه الفراق الأخير الذي لا بد منه فراق الموت وكيف سيملاً صديقه عليه الفزع ويلتاع لوعة لا ينفعه إزاءها صراخ ولا عويل ، وكذلك شأنه إن سبقه صديقه ، وقيم العتاب وصداقتهم ما كالمها صفاء وبير ، وحرى بهما أن ينعمتا بتلك الصداقة قبل أن يقرع الموت الأبواب ويفترق الصديقان افتراقاً لا لقاء بعده . ولا بن الرومي في العتاب كثير من المعاني البارة ، من مثل قوله في آل وهب<sup>(١)</sup> :

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا  
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر  
فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي  
ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها

نِبالَ العِدَا عني فكنتم نِصَالِهَا  
على حين خِذلان اليمين شِئَالِهَا

وعفاء على هؤلاء الأصدقاء فقد كان يتخذهم دروعاً وترساً ، فإذا هم عون للأعداء ، وإذا هم يخذلونه خذلاناً مروعاً . خذلان اليمين للشمال ، وإنه ليتوسل إليهم إن لم يحفظوا ذمام مودته وحرمة أن يكفوه شرهم كما كفوه خيرهم ، فيكونوا

لا عليه ولاه . ولعل أشهر شعراء العصر في الاعتذار وأكثرهم تفنناً فيه البحري ، وقد أجمع القدماء على الإعجاب باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها<sup>(١)</sup> .

عَدِيرِي مِنَ الْأَيَّامِ رَنَّقَنَ مَشْرَبِي      وَلَقَيْنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشَامًا<sup>(٢)</sup>  
 وَأَكْسَبَنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتُّ مَوْهِنًا      أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا<sup>(٣)</sup>  
 وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرْتُ      رُبَاهُ وَطَلْفًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا<sup>(٤)</sup>  
 أُعِيدُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ      تَبَيَّنَ أَوْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا  
 وَلَوْ كَانَ مَا خَبَّرْتَهُ أَوْ ظَنَنْتَهُ      لَمَا كَانَ غَرَوًا أَنْ أَلُومَ وَتَكْرَمًا<sup>(٥)</sup>  
 أَقْرُ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلًا      إِلَيْكَ عَلَى أُنَى إِخَالُكَ أَلُومًا<sup>(٦)</sup>  
 لِي الذَّنْبُ مَعْرُوفًا ، وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا      بِهِ فَلَكَ الْعُتْبَى عَلَيَّ وَأَنْعَمَا<sup>(٧)</sup>  
 وَمِثْلُكَ إِنْ أَبَدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ      وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَمَا<sup>(٨)</sup>

ولم نقل الاعتذار كله في القصيدة لطوله ، وجميعه يجري على هذه الشاكلة من التلطف ورقة الحاشية ، وحسن التأتى ، ودقة التنصل ، مع التضخيم للذنب الذى لا يعرفه والذى جعل الفتح يتغير عليه ، وهو لذلك يقدم شتى المعاذير ، فقد أتى جرماً لا يغتفر ، جرماً لم يجنه ، كدَّرَ وِرْدَهُ ، وأحال أيام سعده نحساً لا يطاق ، إذ غضب عليه الفتح ، وكأنما اسودَّت الدنيا في عينه ، ومثلُ الفتح حريٌّ بالعفو لو أن هناك جريرة حقيقية ، فما بالناس ولا جريرة ولا جرم ولا ذنب ، ويسلم البحري بذنبه رقة وتلفظاً ، منوهاً بالفتح وفعاله الحميد ومعروفه الذى يواليه ، وكيف أنه من أهل الصفح الجميل .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم موضوع استغرق الشعراء واستنفد أشعارهم الغزل ، وكانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، وتلبية لحاجات الناس

- (١) الديوان ١٩٨٢/٣ .  
 (٢) رنقن : كدرن . الطير : الطير .  
 (٣) الموهن : نحو منتصف الليل .  
 (٤) التجهم : عيوس الوجه .  
 (٥) غروا : عجباً . ألوم : ألوم .  
 (٦) ألوما : أكثر لوماً .  
 (٧) وأنم هنا : وزيادة على ذلك .  
 (٨) الفعال بفتح الفاء : الصنع الجميل .

الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات والأشعار التي كانت توقع على الآلات والمعازف الموسيقية ، ولذلك تطلبها دائماً دور القيان والطرب ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماح الغناء في أشعارهم ولمغازلة الجوارى والإماء . وكان منهم من يتقن نظم الشعر ، ومنهم من كن يُطارِحُنَ الشعراء في أغاني الحب وأناشيده . ولعبن دوراً واسعاً في دفع المجتمع العباس نحو الصبابة والعشق ، وكان منهم من ينحرفن عن الطريق السوي ، كما كان من الشعراء والشباب من حولهن شياطين لا يعرفون ديناً ولا خلقاً ولا عرفاً . وكان ذلك سبباً في أن يكثر الغزل الإباحي ، الذي لا يَحْتَشِمُ فيه الشاعر ، بل الذي يعبر فيه أحياناً عن جوعه الجسدي وغرائزه الحيوانية . ومن الحق أن ذلك كان امتداداً لموجة الغزل المكشوف الذي شاع في العصر العباسي الأول ، وكأنما ظلت لتلك الموجة حِدَّتُها ، وكانت دور القيان كما قلنا آنفاً من أسباب هذه الحدة ، إذ كان بعض جواربها يتحولن أدوات للإغراء والريبة والمجون ، وساعدهن على ذلك أنهن كن يُبَعَّعنَ وَيُشْرَبِنَ ولم يكن يشعرن بشيء من الكرامة ، وكن يعشن بين الخلاء والمجان وبين كثيرين ممن لا يعرفون ديناً ولا صيانة مروءة ولا يفكرون في عقاب ولا ثواب ، إنما يفكرون في المتاع المادي وغرائزهم النوعية وآرابهم الرخيصة ، وطبيعي لذلك أن يشيع الغزل الإباحي المكشوف الذي لا يعرف لامرأة كرامة ولا للرجل مروءة ، إنما يعرف الهوان والابتذال البغيض . وعلى نحو ما ظل الغزل الماجن الخليع شائعاً في هذا العصر ظل كذلك الغزل الشاذ بالغلمان الذي يُزرى بكرامة الرجال . وأكبر الظن أن كثيراً من هذا الغزل وسالفه لم يكن يصور حقائق واقعة ، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه ، إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة في مجالس هؤلاء المجان الخليعين ، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ، وعادة يصحبه الشاعر في إنشاده بحركات ليزيد من ضحك السامعين . ونظن ظناً أنه فات مؤرخي الأدب العباسي أن يلاحظوا هذه الظاهرة ، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجري على بعض الألسنة في عصرنا من نكت جنسية . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننكر إنكاراً باتناً الغزل المكشوف وأخاه الشاذ في العصر العباسي الأول والثاني ، إنما نريد أن نلفت إلى أن كثيراً منه صُنِعَ للتندير والفكاهة ، وأنه غاب ذلك عن أرخوا للأدب العباسي ، وتاريخهم لذلك في حاجة إلى غير قليل من التصحيح . ولا بد أن نلاحظ من جهة

ثانية أن هذا الغزل المادى الماجن كانت تحفُّه دائماً وتتخلله معاني الغزل العربي العفيف الذى شاع فى العصر الأموى ، وكانت هذه المعانى تخفف من ماديته كما كانت تُشعل فيه جذوة الحب الظائم وآلامه الثقيل ، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته ، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامح الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها . وأيضاً لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حيناً لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفاً ، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدْران الحِسِّ وأعراضه ، وعاشوا فى حُبهم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهاني صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب وأشعاره . وملاحظة أخيرة هى أن الضريرين من الغزل المادى الإباحتى والعذرى العفيف استطاعت ملكات الشعراء الحصبة حينئذ أن تستثير فيهما كثيراً من خطرات الحب ودقائقه البديعة ، وابن الرومى لا يبارى فى نفوذه إلى هذه الدقائق ، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين<sup>(١)</sup> .

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقَةٌ إليها ، وهل بعد العناقِ تدانِ  
وَألثمُ فإها كى تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمانِ<sup>(٢)</sup>  
كأن فؤادى ليس يشقى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

فالعناق لا يروى ظمأه ، وفى قلبه جذوة لا تطفئها القبلات ، بل تزيدها تليظاً واشتعالاً ، ويحسُّ أن عذابه بجزب صاحبه لن يخلصه منها إلا أن تمتزج روحه بروحها ، حتى ينعم بالوصل الحقيق . وكثيراً ما يلتم بالعناق وكثيراً ما يزدع فيه صوراً طريفة ، كقوله<sup>(٣)</sup> :

طلما التفتتُ إلى الصُبِّ ح لنا ساقُ بساقِ  
فى قناعٍ من لثامٍ ولإزارٍ من غناقِ

(٣) ديوان المعاني ١ / ٢٤٤ .

(١) الديوان ص ٢٧ .  
(٢) الهيمان : المشق الشديد

فقد كانا مكسورين طوال الليل كسوة غريبة من اللثام والعناق ، ونحس دائماً عنده بطفرات الفكر العبقري وأخيلته كأن نراه يقول في الصدور<sup>(١)</sup> :

صدرورٌ فوقهنَّ حِقاقُ عَاجٍ وَحَلَى زانه حُسْنُ اتِّساقِ  
يقول الناظرون إذا رَأَوْها أَهذا الحَلَى من هَذِي الحِقاقِ

وهي صورة لا تفد بحق في ذهن شاعر من هذا العصر سوى ذهن ابن الرومي الذي كان يشبه متحفناً كبيراً ما يزال يستخرج منه الدرر والتحف النفيسة، من مثل قوله في جمال العيون ومدى تأثيرها وسحرها في العشاق<sup>(٢)</sup> :

نظرتُ فأقصدتِ الفؤادَ بسهمها ثم انثنتُ عنه فكاد يَهيمُ  
ويلاه إنْ نظرتُ وإنْ هيَ أَعرضتُ وَقَسَعُ السهامِ وَنَزَعهنَّ أَلِيمُ

وكان مَنْ حوله من الشعراء لا يزالون يحاولون بكل ما وسعهم أن يأتوا بدرة أو تحفة تحلب ألباب سامعيهم ، ولتكن خاطرة طريفة أو صورة بديعة ، ولا يهم أن يكون أصلها قد دار على ألسنة الشعراء ، فالمهم طرافة العرض وتحوير المعنى أو الصورة ، من مثل قول ابن المعتز<sup>(٣)</sup> :

يا غُصْنًا إنْ هزَّهُ مَشِيه . خَشِيتُ أَنْ يَسْقَطَ رُمَّانُهُ

وقول أبي العباس الناشي في بكاء إحدى صواحيبه وقد أحسَّت أن فراقه لها سيطول أمده ، فقال وهو محزون الفؤاد<sup>(٤)</sup> :

كَانَ الدَّموعُ على خَدِّها بَقِيَّةَ طَلٍّ على جُلَّتازِ

وينفذ أحمد بن صالح بن أبي فنن إلى معنى دقيق فإنه حين ينظر إلى صاحبتة تتورد وجنتها خجلا ، فتقتص منه في قلبه بما تصيبه به من سهام عينها المصهوية ، يقول<sup>(٥)</sup> :

أَدْمِيتُ بِاللحِظَاتِ وَجَنَّتْها فاقْتَصَّ ناظَرُها مِنَ القَلْبِ

(٤) زهر الآداب ٢/ ٢١٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٤/ ٢٠٢ .

(١) ديوان الماعني ١/ ٢٥٣ .

(٢) ديوان الماعني ١/ ٢٣٦ .

(٣) الديوان ص ٤٢٢ .

ومرّ بنا في فصل الحياة الاجتماعية أن موجة المجون ظالت على تفاقمها وحدتها في هذا العصر ، وظل معها شرب الخمر المعتقة ، وكانت حاناتها تكتظ بها الكرخ في بغداد ودور النخاسة والبساتين كما كانت تكتظ بدنانها وكتوسها الديارات . وكان سقاتها أخلاطاً من النصارى والمجوس واليهود ، وأقبل يعبثها المجنّان والفسّاق وكان منهم المتمرد على الدين الحنيف ، ومنهم المجوسى ، ومنهم من لا يؤمن بأى دين ، فأكبوا عايتها جميعاً ، دون رادع أو وازع ، ويفيض كتاب الأغاني بأخبارهم ، وكذلك كتاب الديارات للشابشتى ، حيث يتوقف مع كل دير ليترجم لماجن كبير مثل الحسين بن الضحاك وأبى الشبل البرجمى وعبد الله بن العباس الربيعى ، وغيرهم ممن كانوا يعكفون على الشراب في الأديرة وغير الأديرة ، ومن عاشوا سكارى لا يفيقون إلا لى يعودوا إلى الشراب والمجون ، وهم في أثناء ذلك يصفون الخمر والنشوة بها وكتوسها ودنانها وسقاتها مضيفين إلى ذلك غزلاً مسعوراً بالحوارى والغلمان . ويخيل إلى الإنسان كأنما تردى في حبة هذه الرذيلة أكثر شعراء العصر ، ولذلك تزخر دواوينهم وأشعارهم بنعت الخمر والنشوة بها ، وجعلوا يحاولون فيها ما حاولوه في أغراض الشعر الأخرى من النفوذ إلى معان وأخيلة تبهر السامعين ، من مثل قول ابن المعتز (١) :

شربنا بالكبير وبالصغير ولم نحفل بأحداث الدهور  
وقد ركضت بنا خيلُ الملاهي وقد طرّنا بأجنحة السرور

وهو يصور نشوته بتلك الخمر التي شربوها بالقдах الكبيرة والصغيرة ، فلااتهم مسرة وفرحة ، حتى لكأنما يحملهم الاغتباط على خيوله ، بل على جناحيه ، فهم يطيرون طيراناً ، ولم يبلغ شاعر مبلغ ابن الرومى في بيان ما تفسح الخمر من آمال السكران حتى ليمنى المستحيلات ، بقول (٢) :

ومدامة كحشاشة النفس لطفت عن الإدراك والعسّ  
لنسيمها في قلب شاربها رَوْحُ الرجاء وراحة النفس  
وقد في أمل ابن نشوتها حتى يؤمل مرجع الأمس  
وكأنها وكان شاربها قمرٌ يقبل عارضَ الشمس

(١) الديوان ص ٢٣٨ .

(٢) للديوان ص ١٠٧ .



وقد صور ابن الرومي في البيتين الأولين رقة المدامة وخفتها حتى لتكاد تلتق عن الحس، كما صور أثرها في قلب شاربها وما تمنحه من أمل بعد يأس وراحة بعد تعب، بل إنها لتمد في أمله، حتى ليظن أن ما يستحيل رجوعه سيعود ثانية وأنها تخلو من كل كدرة .

وينبغي أن نؤمن بأن حركة المجون في العصر لم تكن تعم الناس جميعاً، إنما كانت تعم في بعض قصور ذوى السلطان ومن كانوا يفيضون عليه من أموالهم من المغنين والشعراء، أما عامة الشعب فكانت تربض في مسغبة شديدة وقلاما عرفت شيئاً من الترف أو من الفراغ والثراء .

وكان الموضوع الذى يتصل بالعامه حقاً هو الزهد وما نشأ عنه من التصوف، وبدون شك كانت الحانات والأديرة لا تقاس من حيث الكثرة ولا من حيث عدد من يؤمنونها إلى المساجد، وكانت تكتظ بالفقهاء والمحدثين والعبّاد والنسّاك الذين رفضوا متاع الحياة الدنيا، وعكفوا على عبادة الله . وكان بينهم كثير من الوعاظ الذين يعظون الناس صباح مساء، وقد رفعوا نصب أعينهم ثواب الآخرة من الجنان والفراديس وعقابها من الجحيم والعذاب المقيم، وهم في أثناء ذلك يدعون إلى الزهد وازدراء المتاع الفانى والإقبال على ما عند الله من المتاع الباقى، مكررين الحديث عن الموت وأن الحياة إنما هى رحلة قصيرة والناس فيها كركب وقوف ينتظر كل منهم دوره، وسرعان ما يختطفهم الموت، فأولى لهم أن يتدبروا حياتهم وأن يتزودوا زاداً كبيراً لآخرتهم، زاداً من التقوى والصلاح والقناعة . ويكثر الشعر الزاهد في العصر حتى ليتخذ أحياناً مقدمة للمديح من مثل قول على بن الجهم<sup>(١)</sup>:

وعاقبة الصبر الجميل جميلة	وأفضل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته	رغم إذا قدمته متعجل
وللخير أهل يسعدون بفعله	وللناس أحوال بهم تنتقل
ولله فينا علم غيب وإنما	يوفق منا من يشاء ويخذل

وبلغ من شيوع شعر الزهد حينئذ أن اشترك فيه كثير من الشعراء الذين تطفح

دواوينهم بالحديث عن الحمر والمجون ، لما كانوا يتنفسون فيه من ترف بالغ مثل ابن المعتز ، فكانوا ينظمون منه مقطوعات وأحياناً قصائد طويلة ، ولا ابن الرومي فيه قصائد ، بل مواظب بديعة ، من مثل قوله (١) :

نَبْلُ الرَّدَى يَفْصِدُنِ قَصْدَكَ	فَأَجِدَّ قَبْلَ الْمَوْتِ جِدَّكَ (٢)
وَدَعِ الْبَطَالَهَ وَالْغَوَا	يَةَ جَانِبًا وَعَلَيْكَ رُشْدَكَ
فَكَأَنِّي بِكَ قَدْ نَعِي	تَ وَقَدْ بَكَى الْبَاكُونَ فَقَدَكَ
وَتَرَكْتَ مَنْزِلَكَ الْمَشِيءَ	يَدَ مَعْطَلًا وَسَكَنْتَ لَحْدَكَ
وَخَلَوْتَ فِي بَيْتِ الْبَيْلَى	وَخَلَا بِكَ الْمَلِكَانَ وَحَدَكَ
وَسَلَاكَ أَهْلُكَ كَلْهَمَ	وَنَسُوا عَلَى الْأَيَّامِ عَهْدَكَ
يَتَمَتَّعُونَ بِمَا جَمَعُوا	تَ وَلَا يَرُونَ عَلَيْهِ حَمْدَكَ
مَنْعَمِينَ وَأَنْتَ تَحْدُو	تَ الرَّمْسَ يَرْعَى الدَّوْدُ جِلْدَكَ

وهو يرفع الموت نُصْبَ أعين الناس ، وكأنه مطبق عليهم ، حتى يرتدعوا عن البطالة والغنى ، فعمّا قريب سينزل بهم ، وسيرتفع الصباح والضجيج عليهم ، وسيتركون التصور المشيدة وينزلون اللحد المقفرة ، ويسألهم الملكان عما قدمت أيديهم ، ويسألهم الأهل وينسئونهم كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، على حين يتمتعون بأموالهم التي جمعوها دون حمد لهم أو ثناء عليهم ، وعلى حين يرعى الدود جشهم وجلودهم ، فحري بالعاقل أن يتدبر أمره ، وأن يتزود للآخرة زاداً كبيراً من التقوى ، فإن الموت له بالمرصاد ، وهينئذا لمن انتفع بالموعظة وقدم من يومه وبره لغده . وقد أخذ ينمو من هذا الزهد موضوع جديد من موضوعات الشعر العربي هو التصوف وسنعرض له في غير هذا الموضع .

والتوبة إليه .

(١) الديوان ص ١٢٧ .  
(٢) أجد جديك : اجتهد في الإخلاص لله

## نحو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث في الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعاني أو من حيث التصاویر، أخذت الموضوعات الجديدة التي عرضنا لها في كتاب العصر العباسي الأول تدخلها إضافات متنوعة، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نمواً واسعاً حتى لتصبح موضوعات جديدة جلة خالصة، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها، شعر التهاني الذي تحول إليه شعر المديح في بعض جوانبه، وخاصة التهاني بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفاً، وكان أول من افتتح التهاني أحمد بن يوسف للمأمون<sup>(١)</sup>، ثم أصبح ذلك سنة عامة، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع، فأكثروا من التهنة بالمواليد، وأيضاً فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة، من مثل قول سليمان بن وهب، وقد أهدى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سلال رطب من ضيعته<sup>(٢)</sup>:

أذنَ الأميرُ بفضله      وبجوده      وبنيله  
لويله      في بره      بجنائه      سُكْرُه      نخله  
فبعثتُ منه بسلةً      تحكي حلاوة      عدله

وكثيراً ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين في أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرف النفيسة، وقد يصفون ما يهدونه نظرفاً كقول ابن الرومي في قدح أهدها إلى علي بن يحيى المنجم<sup>(٣)</sup>:

وبديع من البدائع ينسبي      كلَّ عقلٍ ويطبي كلَّ طرفٍ  
كضم الحبِّ في الملاحه بل أشه      همي وإن كان لا ينأجى بحرفٍ  
وسط. القدر لم يكبر لجرع      متوالٍ ولم يصغر لرشفٍ

(٣) الديوان ص ٣٣ .

(١) ديوان المعاني ١/٩٥ .

(٢) الأغاني (طبعة الساسي) ٧١/٢٠ .

وظل الشعراء يقدمون لمذائحهم كثيراً بوصف الأطلال كما مر بنا ، وفقد البحري من ذلك إلى موضوع جديد هو الحديث عن آثار الفرس ممثلة في إيوان كسرى على نحو ما هو معروف في قصيدته السينية التي تُعدُّ من روائع الشعر العباسي ، وفيها يصور أطلال هذا الإيوان التي لا تزال ماثلة جنوبي بغداد إلى اليوم ، وكان قد زاره بعد قتل المتوكل ، فبكى همومه وأشجانه ، وبكى الأطلال الكسروية ودواة الفرس القديمة ودولتهم الحديثة التي أдал منها الترك لعصره وأصبح لهم السلطان والصولحان ، فإذا هم يطيحون بالخليفة ، وإذا هم يسفكون دمه غير مراعين إلاّ ولا عهداً . وإنه ليذكر يد الفرس في العصر العباسي الأول وتشبيدهم لحضارته ومدنيته ، مما يجعله ينوه بمجدهم القديم حتى ليكاد يرفعهم على العرب تحسراً على ما آلت إليه شئون الملك والحضارة في عهد الترك . وهو لا يكاد يتأسك حزناً وحسرة ولوعة في مستهل قصيدته لنبوّ ابن عمه عنه ، وكأنه يرمز بذلك لقتل المتوكل ، فإن أحداً من أهل بيته أو من أبناء عمومته لم ينصره ، بل لقد اشترك ابنه وولى عهده المنتصر في مؤامرة قتله ، ويشتد بنفسه تأثير الخنة ، فيتجه إلى المدائن عاصمة الفرس القديمة وإيوان كسرى تنفيساً عن نفسه ، ويلمّ به كثير من الشجون ، ويذكر إيران القديمة واتساع ملكها في الشمال من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية ، كما يذكر رفاهة العيش التي كانت بها ، ولين الحياة ونعيمها وتملاً نفسه أطلال الإيوان وما نقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سُجِّلَ بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسي « الجرماز<sup>(١)</sup> » :

فكأن الجرمازَ من عدم الإذ      سِ وإخلاقه بِنِيَّةٍ رَمَسِ<sup>(٢)</sup>  
لو تراه علمتَ أنَّ الليالي      جعلتَ فيه مَأْتَمًا بعد عُرْسِ  
وإذا ما رأيتَ صورة أنطا      كِيَّةً ارتعتَ بين رومٍ وفُرْسِ  
والمنايا موائلٌ وأنوشُر      وأن يُزجِي الصفوف تحت الدَّرْفِسِ<sup>(٣)</sup>  
وعراكُ الرجال بين يَدَيْهِ      في خفوتٍ منهم وإغماضِ جَرَسِ<sup>(٤)</sup>

(٢) يزجي : يسوق . الدرفس : العلم الكبير .

(٤) خفوت : صمت . جرس : صوت نحس .

(١) الديوان ١١٥٥/٢ .

(٢) رسم : قبر . الإخلاق : البلى .

من مُشِجٍ يَهْوَى بِعَامِلِ رُمُحٍ      وَمُلِجٍ مِنْ السَّنَانِ بَتْرُسٍ (١)  
 تَصِفُ الْعَيْنَ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا      ءِ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةٌ خُرُسٍ  
 يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَابِي حَتَّى      تَتَقْرَاهُمْ يَدَايَ بِلَمْسٍ (٢)

والبحترى لا يبارى في تصويره الحسى ، حتى لكأنما ينقل المشهد بخدافيره ،  
 للنبصره فحسب ، بل أيضاً لنلمسه بأيدينا ، فهذا الإيوان لم يعد إيوان قصر يكتظ  
 بالترف والنعيم ، بل أصبح بناء قبر ضخم لحضارة الفرس الباذخة وحال كل ما كان  
 فيه من أعراس إلى ماتم ، غير أن صفحة منه لا تزال ناطقة بشجاعة الفرس  
 ومجدهم الحربى ، إذ تجسدت فيها صورة معركة أنطاكية بين الروم والفرس ،  
 وكسرى هاجمٌ يجموع جيشه تحت العلم الفارسى الكبير ، يمزق جموع الروم  
 تمزيقاً ، والفرسان بين مهاجم ومدافع ولا صوت فى المعركة ولا جلبة ، إنما هو  
 تصوير ولكن بلغ من نطقه وقوة تعبيره أن تظن العين أنها ترى المعركة كأنما تحدث تحت  
 بصرها ، بل إن هذا الظن ليزداد فى نفس البحترى ، حتى ليندفع إلى الصورة ،  
 يلمسها بيده ارتباعاً وانبهاراً . ويمضى فى الحديث عن الإيوان وثباته على الدهر حتى  
 لكأنما قَدْ أو نُحِتَ فى جبل عال ويصور ما يجلله من كآبة ممضة ، وكأنما هو  
 أليف غاب عنه أنسُ أليفه ، أو زوج محزون لفراق عروسه ، فانعكست أيامها  
 ولياليها ، بل لقد انعكست ليالى هذا الأيوان فغربت عنه كواكب السعد وأظلت  
 عليه كواكب النحس المقيم ، حتى ما كان يرفل فيه من بَسْطِ الديباج وستور  
 الحرير تُزْرَعُ عنه نزعاً ، ومع ذلك لا تزال له كبرياؤه ولا تزال شرفاته شامخة شموخ  
 جبال المدينة والقدس تختال فى ثيابها البيضاء الرائعة . وينقله خياله إلى ماضى هذا  
 الإيوان التليد ، فالوفود مزدحمة بأبوابه والحوارى من كل صنف تغص بها المقاصير  
 والغرف ، وكأن ذلك كان أول أمس ، كان اللقاء والفرق ، وصارت الرباع  
 التى كانت مكتظة بالسرور ومتاعه منازل للغزاة والحزن الذى لا يريم ، والبحترى يبكيها  
 بدموع غزار ، لما كان لأهلها قديماً من عون للعرب فى حروبهم من الأحباش وما كان  
 لهم حديثاً من عون فى تشييد الخلافة العباسية وما رافقها من ازدهار الحضارة العربية ،

(٢) ينتل : يتجاوز الحد ويعظم .  
 تتقراهم : تتبهم .

(١) مشج : مقبل . عامل الرمح : صدره  
 ملج : مخالف حذر .

ويبكي من خلال ذلك همومه وحزنه لمقتل المتوكل بأيدي الترك الذين صار إليهم بعد الفرس السلطان والصبولجان .

وإذا كان وصف الأطلال القديم أوحى للبحرئى بهذا الموضوع الجديد ، فإنه أوحى له ولكثيرين من حوله أن يصفوا قصور الخلفاء التى كانوا يشيدونها ويطلقون فى وصفها ووصف ما حولها من رياض وما يتقدمها من فوآرات وبرك على شاكلة قول على بن الجهم فى وصف أحد القصور الكثيرة التى كان يسكنها المتوكل بضواحي سامراء ووصف فوارتها أو نافورتها<sup>(١)</sup> :

صحونٌ تسافر فيها العيون	وتَحَسِرُّ عن بُعْدِ أَقْطَارِهَا
وَقَبَّةٌ مُدْكَ كَأَنَّ النَجْوَى	م تَفْضِي إِلَيْهَا بِأَسْرَارِهَا
لَهَا شُرْفَاتٌ كَأَنَّ الرَّبِيعِ	كَسَاهَا الرِّيَاضَ بِأَنْوَارِهَا
نَظْمَنَ الفُسَيْفِسَ نَظْمَ الحَلِيِّ	لَعُونِ النِّسَاءِ وَأَبْكَارِهَا <sup>(٢)</sup>
فَهِنَّ كَمُصْطَبِحَاتِ بَرَزَنْ	بِفِضْحِ النَّصَارَى وَإِفْطَارِهَا <sup>(٣)</sup>
فَمِنْهُنَّ عَاقِصَةٌ شَعَرَهَا	وَمِصْلِحَةٌ عَقَدَتْ زُنَارَهَا <sup>(٤)</sup>
وفوارةٌ شَارَهَا فى السَّمَاءِ	فَلَيْسَتْ تَقْصُرُ عن ثَارِهَا
تَرْدٌ عَلَى المَزْنِ مَا أَنْزَلَتْ	عَلَى الأَرْضِ من صَوْبِ مَدْرَارِهَا

وواضح أنه صور سعة أفنية هذا القصر وعظم قببته وصعودها فى السماء حتى لكأنما تفضى إليها النجوم بأخبار الغيب وأنبائه، كما صور شرفات القصر وما زينته من الفسيفساء الملونة الجميلة جمال الحلى على جيد النساء وأعناقهن، وتنوعت أشكال تلك الشرفات ، حتى لقد أشبهت الفتيات حاملات الشموع فى عيد الفصح

يريد حاملات الشموع . برزن : خرجن .

فصح النصرارى : عيد ذكرى القيامة .

(٤) تمقص شعرها : تشده على جيدها من

خلف أو من وراء . والزئار : حزام يشده

وسط الثوب على الحصر .

(١) الديوان ص ٢٩ .

(٢) الفسيفساء : قطع من الرخام الملون

الرقيق كانت تزين بها الحيطان والسقوف

والشرفات . العون : جمع عون ، وهى السيدة

النصف .

(٣) مصطبحات هنا : من أصبح أى أصرح ،

وذكرى قيامة المسيح، ومنهن من تلبّد شعرها وتشدّه وتجمّعه ، ومنهن من تنتطق بأحزمة الزنار مختلفة ، وفوارة مائى ترسل سهامها إلى السماء كأنما لها ثأر عندها ، وكأنما تردّ على المزن قطرها .

وأهم من وصف القصور وصف الطبيعة ، وكان الشعراء فى العصر العباسى الأول أكثرها من تصويرها فى مقدمات مدائحهم ، وتبعهم شعراء هذا العصر يصفونها تارة فى إيجاز وتارة فى إطباب وإسهاب رامزين بها إلى عهد الممدوح وجماله ، وكثيراً ما وصفوا فى هذه المقدمات الغيث والسحب والبروق لبيان كرم الممدوح من جهة وما شمل البلاد فى زمنه من خصب وامتد على صفحاتها من جنات وعيون وزروع ، وتصور ذلك من بعض الوجوه حائية ابن المعتز فى مديح المعتضد ، وقد استهلها بوصف البرق والسحاب الهاطل من مثل قوله<sup>(١)</sup> :

مَنْ رَأَى بَرْقًا يُضِيءُ التَّاحَا ثَقَبَ اللَّيْلِ سَنَاهُ فِلَاحَا<sup>(٢)</sup>  
وَكأن البرق مصحفُ قارٍ فانطباقاً مرّةً وانفتاحا  
فى رُكَّامٍ ضاق بالماء دَرْعاً حينما مالت به الريحُ ساحا<sup>(٣)</sup>  
لم يَدْعُ أرضاً من المَحَلِّ إِلا جَادَ أَوْ مَدَّ عَلَيْهَا جَنَاحَا<sup>(٤)</sup>  
وسقِ أَطْلَالَ هَنِدٍ فَأَضْحَتْ يَمْرَحُ القَطْرُ عَلَيْهَا مِرَاحَا

فالليل أضاءته مصابيح البروق ، وكأنها حين تشتعل وتنطفي مصاحف بأيدى قُرَّائها تنفتح وتنطبق ، وسيول المطر تندافع من كل صوب نافذة لعابها من جذب إلى جذب ومن حوض إلى حوض ، والسحب تمتد جناحها وتبسط ركابها والأرض تمرح فى نباتاتها ورياحينها وبطاحها الخضراء .

ومرّب بنا أنهم كانوا يكثرّون من وصف الربيع فى تهنئاتهم بعيد النيروز ، وأخذ حينئذ وصف الطبيعة يستقل عن المديح ويصيح فنّاً قائماً بنفسه ، له قصائده وأشعاره ، وهى تارة تُعسّنى بوصف جميع الأنوار فى الربيع ، ولا يبارى ابن المعتز

فوق بعض .

(٤) المحل: الجذب .

(١) الديوان ص ١٤١ .

(٢) التاحا: التماما .

(٣) ركّام : سحاب مركوم : متراكم بعضه

في هذا الاتجاه ، إذ يحاول في كثير من قصائده إحصاء كل نور وكل زهر من أبيض وأحمر وأصفر ، وكانت له تخيلة تشبه آلة تصويرية دقيقة ، فهي ماتبي تصور وتلتقط الدقائق وكأنها لا تريد أن تترك شيئاً ، ومن خير ما يصور ذلك عنده أرجوزته البستانية التي ذم فيها الصبوح أو خمر الصباح ، وهو يفتتحها على هذا النمط (١) :

أما ترى البُستانَ كيف نورًا ونَشَرَ المنشورُ زهراً أصفرا  
وضحكَ الوردِ إلى الشقائق واعتنق القَطْرَ اعتناقَ وامقٍ  
في روضةٍ كحُلَلِ العروسِ وخُرْمٍ كهامةِ الطاووسِ (٢)

ومضى يذكر الياسمين والخشخاش والسوسن والبهار والجلنار إلى غير ذلك من أزهار ، ولكل زهر صورته ، الحية النابضة . وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التي تأخذ بالألباب ، ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول (٣) :

لم يضحك الوردُ إلا حين أعجبه حَسُنُ الرياضِ وصوتُ الطائرِ الغرِدِ  
بدا فأبدتْ لنا الدنيا محاسنها وراحتِ الرَّاحُ في أثوابها الجُدِ  
ما عاينتُ قُصْبُ الرِيحانِ طَلْعَتَهُ إلا تبيَّنَ فيها ذِلَّةُ الحَسَدِ  
وقابنته يَدُ المشتاقِ تُسندُه إلى الترائبِ والأحشاءِ والكَبِدِ  
كَأَنَّ فيه شفاءً من صبايته أو مانعاً جَفَنَ عَيْنِيهِ مِنَ السُّهْدِ  
بين النديمين والخيلين مَضَجَهُ وَسَيَّرَهُ مِنْ يَدِ مَوْصِلَةِ بَيْدِ  
قامتْ بحجته رِيحٌ معطرةٌ تَشْفِي القلوبَ مِنَ الأوصابِ والكَمَدِ

وهو تصوير بارع لصباية الناس بالورد ، حتى إنهم ليضمونهم إلى الصدور والأحشاء والكبد يريدون أن يظنوا به نيران أشواقهم ، ويشفوا به لوعات صباياتهم

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(١) الديوان ص ٤٧٣ .

(٢) الخمر : زهر بنفسجي اللون .



وسهادهم الطويل ، وإنه لِيُسْتَرَاءَى دَائِمًا يتهاداه الأعبة وقد اتخذ مضجعه بينهم ، وهم يتبادلون كثوس الحب الصافية ، وأريجه ينتشر شذاه في كل ما حولهم بلسماً يشقى القلوب الكليمة . ولعل شاعراً لم يتعلق بالطبيعة في العصر تعلق ابن الرومي والصنوبري ، ونحس عندهما بقوة الإحساس بفتنة الرياض النضرة والفاكهة اليانعة والمياه الحاررية ، وغلب ذلك على الشعراء حينئذ ، حتى لنجد ابن قتيبة يدعو إلى نبذ وصف البساتين والورود والرياحين والعودة إلى وصف الفيافي وأزهارها ونباتاتها<sup>(١)</sup> ، ولم يقف هذا التحول الحديد عند مجرد التخفف من موضوع الطبيعة الصحراوية الجافة والعناية بطبيعة الحياة الحضرية وورودها ورياحينها ، بل لقد تحولت هذه العناية إلى فتنة شديدة يجمال الرياض والبساتين ، فتنة خلبت أبواب الشعراء وملأت عليهم حواسهم وملكت عليهم قلوبهم ، وخير من يصور ذلك ابن الرومي ، إذ نحس في وضوح شغفه بالطبيعة شغفاً يفوق كل وصف ، شغف العاشق بمعشوقته ، حتى ليحس كأنما الدنيا في الربيع تبرج له ولكل ناظر ، إذ يقول<sup>(٢)</sup> :

تبرَّجتْ بعد حياءٍ وخَفَرٌ تبرُّجُ الأنثى تصدَّتْ للذكر

بل لكأنما تحولت جوانبها تحت عينيه إلى معابد ، فهو ما نبى يقدم لها قرابينه وأدعيته وابتهالاته مصوراً جمالها المنبث في كل أجزائها وما يجري فيها من حياة ، وبدون ريب يتقدم ابن الرومي شعراء العربية عامة في الإحساس بخفقات الطبيعة وهمساتها وكل حركة فيها ، حتى ليشبه في هذا الجانب من بعض الوجوه شعراء الرومانسية الغربية الذين يفنون في الطبيعة ، ويحسون امتلاءها بالحياة ، فكل ما فيها حتى متحرك ناطق ، وكل ما فيها يخفق بالأحاسيس والمشاعر ، ومن خير ما يوضح ذلك عنده تصويره لمشهد الغروب ، يقول<sup>(٣)</sup> :

لقد رَنَقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَنَفَضَتْ      على الأفق الغربيُّ وَرَسًا مُدْعَدًا<sup>(٤)</sup>  
وودعتِ الدنيا لتقضى نَحْبَهَا      وشولَ باقي عُمْرِهَا فَتَشَعَّشَعَا<sup>(٥)</sup>

(١) الشعر والشعراء (طبع دار المعارف

١٩٦٦) ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(٣) الديوان ص ٣٠٠ .

(٤) رنقت : ضفت . الورس : نبات أصفر . مدعدا : متفرقا .

(٥) شول : ذهب . تشعشع : بق أقله .

ولاحظتِ النُّوَّارَ وهىَ مريضةٌ وقد وضعتْ خدًّا إلى الأرضِ أضرعًا<sup>(١)</sup>  
 كما لاحظتْ عَوَادَهُ عَيْنٌ مُدْنَفٍ توجع من أوصابه ما توجعا<sup>(٢)</sup>  
 وبينَ إغضاءِ الفراقِ عليهما كأنهما خِلاَّ صفاؤِ تودعًا<sup>(٣)</sup>  
 وظلتْ عيونُ النُّورِ تخضَلُ بالندى كما اغرورقتْ عَيْنُ الشَّجِيِّ لتدَمعًا<sup>(٤)</sup>  
 وأزكى نسيمِ الرُّوضِ ريعانُ ظلِّهِ وغنى مغنى الطيرِ فيه فسجعا<sup>(٥)</sup>  
 وكانت أرائينُ الذُّبابِ هناكُم على شدَّواتِ الطيرِ ضرباً موقعا<sup>(٦)</sup>

وهو يصور وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأصفر الشبيه بنبات الورس وزهره ، وأشعتها تتبدد إلا بقايا قليلة ، فهى توشك أن تلفظ أنفاسها ، وقد غلبها النزاع الأخير فهى تذلل وتستكين وتضع خدها على الأرض ليدانسا بالفراق وإعلانا لما ألم بها من شدة الأوصاب والآلام ، آلام الوداع المرير للنوار والأزهار التى تترقق عيونها بندى بل بدمع سخين كما تترقق بالدموع عيون المحبين المحزونين ، على حين كان النسيم العليل يزكو وينمو والطيور يشدو مرجعا ومردداً وحتى الذباب لا ينساه ابن الروى فقد كان زينه يخالط شدو الطير وغناه . ولم يكن الصنوبرى يبلغ هذا المبلغ من الإحساس بالطبيعة وعناصرها الحية ، ومع ذلك فهو أهم شعرائها فى العصر بعد ابن الروى ، إذ عاش مشغوقاً بالرياض بلدته حلب شمالى الشام وحدائقها وأزهارها ، وأشعاره لاتصور فتنة عميقة بتلك الرياض على نحو ما نجد عند ابن الروى ، وإنما تصور براعة فى الخيال وإبراز الصور الظاهرية أو الحية .

والطريف عند الصنوبرى وابن الروى جميعاً أنهما يعنيان بتصوير الفواكه والثمار بجانب عنايتهما بتصوير الرياحين والورود والرياض ، وما يدل على أن موضوع الطبيعة ازدهر فى العصر أن نجد حينئذ فصلاً تفرد لها فى بعض الكتب مثل كتاب

(١) أضرع : دليل .

(٢) مدنف : مريض سقيم .

(٣) إغضاء الفراق : وحشته وكآبته .

(٤) تخضل : تترقق وتندى . اغرورقت

العين بالدموع : جالت بها .

(٥) أزكى : نَمَى .

(٦) أرائين : جمع إرناى أى زنين .

الموشى ، فإن به فصلاً خاصاً لما نظم في وصف الورود ، بل قد نجد كتباً فيها مثل كتاب مفاخرة الورد على الزجاجس لابن أبي طاهر أحد شعراء العصر النابيهين .

ويدخل في وصف الطبيعة وصف حيوانها الوحشى ، ونرى البحرى يسوق مبارزة الفتح بن خاقان للأسد في بعض مدائحه وكان قد خرج إلى الصيد ، ففاجأه أسد في طريقه ، فنازله ، وقتله ، وصور ذلك البحرى في مدحة بائية للوزير نراه فيها يتحدث حديثاً مفصلاً عن حياة الأسد في الغابات والرياض وبطون الأودية وأعاليها ، وكيف يهجم على قطعان الحمر وبقر الوحش . وكيف يستلب عقائلها وينحرها لأشباهه ، ثم يصور المعركة بين الأسدين ، إلى أن خسر السبع يتصرح في دمائه ، يقول (١) :

فلم أرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا      عِرَاكًا إِذَا الْهَيَابَةُ النَّكْسُ كَذْبَا (٢)  
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْعَمًا      وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَكَ مَهْرَبًا  
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلًا      وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَّ عِنْدَكَ مُنْكَبًا  
حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَا عِزْمَكَ انْثَنَى      وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حُدَّهُ نَبَاً

ولا يكتفى البحرى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى ، فقد تصادف أن لقيه ذئب في بعض أسفاره ، فنازله وقضى عليه ، وأفاض في تصوير هذا الذئب مستمداً من ملكته البارعة في تصوير الحسيات تصويراً يجسد ما بصفه تجسيدا قوياً ؛ على شاكلة قوله (٣) :

وَأَطْلَسَ مَلءِ الْعَيْنِ يَحْمَلُ زَوْرَهُ      وَأَضْلَاعَهُ ، مِنْ جَانِبِهِ شَوَى نَهْدُ (٤)  
لَهُ ذَنْبٌ مِثْلَ الرَّشَاءِ يَجْسِرُهُ      وَمَتْنٌ كَمَتْنِ الْقَوْسِ أَعْوَجُ مِنْأَدُ (٥)  
طَوَاهِ الطَّوَى حَتَّى اسْتَمَرَ مَرِيرُهُ      فَمَا فِيهِ إِلَّا الْعِظْمُ وَالرُّوحُ وَالْجِلْدُ (٦)

(١) الشوى : اليدان والرجلان . نهدي : بارز .

(١) الديوان ١/٢٠٠ .

(٢) الرشاء : الخيل . منأد : معوج .

(٢) الضرغام : الأسد . النكس : الجبان

(٣) طواه الطوى : أضمره الجوع : استمر

الضعيف .

مريره : قوى واشتد .

(٣) الديوان ٢/٧٤٣ .

(٤) أطلس : مغير إلى سواد الزور : الصدر .

يَقْضِقُضُ عَضَلًا فِي أَسْرَتِهَا الرَّدَى      كَقَضِقْضَةِ الْمَقْرُورِ أَرْغَدَهُ الْبَرْدُ<sup>(١)</sup>  
 سَمَّى وَبِي مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ مَابَهُ      بَبَيْدَاءَ لَمْ تُعْرِفْ بِهَا عَيْشَةَ رَغْدُ<sup>(٢)</sup>  
 كَلَانَا بِهَا ذَنْبٌ يَحْدُثُ نَفْسَهُ      بِصَاحِبِهِ وَالْجَدُّ يُتَعَسَّهُ الْجَدُّ

وهو يصف لون الذئب المغبر إلى سواد، وأعضائه المكتنزة من الصدر والأضلاع واليدين والرجلين، وذنبه الرفيع ومنتنه الصلب، وكيف أضمره الجوع وهزله حتى لم يبق فيه إلا العظم والجلد، وهو يصوت بأنياب صلبة معوجة كأنها السكاكين القاطعة وكأنه مقرور تصطك أسنانه من شدة البرد وهوله. وقد التقيا في فلاة موحشة، كأنما استحال البحرى فيها لجوعه بدوره ذئباً مفترساً. ويحدثنا البحرى عقب ذلك عن استنارته للذئب ونزاله وطعناته فيه حتى خسر صريعاً. ويشتهر البحرى بوصفه للخيل وإتقانه لهذا الوصف حتى ليسبق فيه معاصريه بمثل قوله في وصف فرس<sup>(٣)</sup>:

يَهْوِي كَمَا تَهْوِي الْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ      صَيْدًا وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ<sup>(٤)</sup>  
 وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغَبَارِ لَهْيُهُ      لُونًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ<sup>(٥)</sup>  
 هَزِجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَاتِهِ      نَبْرَاتٍ مَعْبَدَ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ<sup>(٦)</sup>  
 مَلِكَ الْعَيُونَ فَإِنْ بَدَأَ أَعْطَيْنَهُ      نَظَرَ الْمَحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمَقْبَلِ

والفرس يسرع كأنه عقاب تنقض على فريسة، ويقف منتصباً انتصاباً تاماً كالصقر المترقب، وكأنه حين يجرى في الغبار المتكاثف شعله نار أو كأنه البرق الخاطف، وإن لصيهله لرئينا جميلاً جمال أنغام معبد المغنى المشهور في العصر الأموي، وإنه ليسحر العيون حين تنظر إليه حتى ليقيدها به كما يقيدها المحبوب فلا تلتفت عنه يميناً ولا يساراً. ويكثر حينئذ وصف الديك والهر، وأهم من ذلك أنه يكثر شعر الطرد والصيد.

(١) يقضقض عضلاً : يصوت بأنياب معوجة : أسرتها : خطوطها . الردى : الهلاك . المقرور : الذي يحس البرد بشدة .  
 (٢) رغد : ناعمة .  
 (٣) للديوان ١٧٤٥/٣ .  
 (٤) العقاب : من الجوارح وشلها الأجدل وهو الصقر .  
 (٥) الشد : ارتفاع النار .  
 (٦) معبد : أشهر مغن في العصر الأموي .  
 الثقليل الأول لمن كان يودع فيه أكثر أغانيه .

وكان الشعراء منذ العصر العباسي الأول يلمون بوصف الأطعمة وألوانها الحضارية الجديدة ، ونراهم في هذا العصر يكثر من وصفها ويخصونها بقصائد طويلة ، ويروي المسعودي في كتابه « مروج الذهب » مجلساً للخليفة المستكني جعله لإنشاد جلسائه وندمائهم - ما نظم الشعراء في أنواع الطعوم المختلفة ، وليس من شك في أن ابن الرومي يُعَدُّ أكبر من عُني بوصفها ، وكان منهوماً بالطعام ، فكاد لا يترك لوناً من ألوانه دون أن يخصه بقصيدة أو مقطوعة ، من مثل قوله في دجاجة مشوية وما قدّم معها من الثريد والمرققات والقطائف (١) :

وسميطة صفراء دينارية	ثمناً ولوناً زفها لك خزوراً (٢)
عظمت فكادت أن تكون إوزة	وثوت فكاد إهابها يتفطر (٣)
ظلنا نقشر جلدنا عن لحمها	وكان تيراً عن لجين يقشر
وتقدمتها قبل ذاك ثرايد	مثل الرياض يمثلهن يصدر
ومرققات كلهن مزخرف	بالبيض منها ملبس ومدثر (٤)
وأنت قطائف بعد ذاك لطائف	ترضى اللهاة بها ويرضى الحنجر

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يترك على موائد عصره طعاماً إلا وصفه وصوره مبدعاً في تصويره سواء أكان من طعام اللحوم أم طعام السمك ، وربما كان من أسباب اهتمامه بذلك عناية معاصريه بالولائم ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أنهم أكثروا حينئذ من التأليف في الأطعمة ، وأيضاً فإن أشعاره تدل على شدة نهمة بالأطعمة وحدة شراسته ، وكان السببين جميعاً جعلاه يولع بالحديث عن المآكل والمشارب ، ومن طريف قوله في الرعوس والأرغفة (٥) :

رُوسٌ وأرغفة ضخام فخمه	قد أخرجت من جاحم فوار
كوجوه أهل الجنة ابتسمت لنا	مقرونة بوجوه أهل النار

(٣) إهابها : جلدنا . يتفطر : يتشقق .

(٤) ملبس ومدثر : مغطى .

(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

(١) الديوان ص ٤٧٨ وذيل زهر الآداب

ص ٢٣٦ .

(٢) خزور : غلام فيه فتوة . دينارية :

نسبة إلى الدينار . سميطة : دجاجة مسبوطة .

ويحدثنا في بعض شعره عن تخمته وبشَمه ، كما يحدثنا عن تشوقه دائماً لكل ما على الموائد ولهفته عليه كقوله في قطائف قُدِّمَتْ إليه (١) :

قطائفٌ قد حُشِيَتْ بِاللَّوْزِ وَالسَّكَّرِ الْمَازِي حَشُو المَوْزِ (٢)  
تَسْبِحُ فِي آذَى دُهْنِ الجَوْزِ سَرَرْتُ لَمَّا وَقَعْتُ فِي حَوْزِي (٣)  
سرورَ عباسٍ بقربِ فَوْزِ

فهو يغرَم بتلك القطائف ، وكأنها معشوقته أو كأنه عباس بن الأحنف الذي اشتهر بعشقه لفوز عشقاً ملك عليه كل مشاعره وعواطفه وأهوائه . ، ولم يكن ابن الرومي يعشق القطائف وصنوف الحلوى والأطعمة فحسب ، بل كان يعشق معها أيضاً الفاكهة ، وكأنها كانت غذاء لقلبه قبل أن تكون غذاء لمعدته ، وما كان يعشقه من ألوانها الموز وكذلك العنب الرازقي ، وفيه يقول (٤) :

ورازقٌ مُخْطَفِ الخُصُورِ كَأَنه مَخَازِنُ البُلُورِ (٥)  
وفي الأعلى ماءٌ وريدِ جُورِي لَمْ يُبْقِ مِنْهُ وَهَجُ الحَرُورِ (٦)  
إلا ضياءً في ظروفِ نورِ لو أَنه يَبْقَى على الدهورِ  
قَرَطَ آذَانَ الحِسانِ الحورِ له مِذاقُ العسلِ المَشُورِ  
ونكهة المِسْكِ مع الكافورِ

ومرَّ بنا في حديثنا عن الملاحى أنه كان من أهم ملاحيهم لعبتا النرد والشطرنج ، ويسوق المسعودى في « مروج » طائفة من الأشعار التي نُظمت حيثند في اللعبتين ، ويذكر أن أصحابهما وصفوهما في أشعار كثيرة ، وما اختاره منها في الشطرنج ووصف اللعب به وما يدور على رقاعه من معاركه قول علي بن الجهم (٧) :

- (١) الديوان ص ٤٧٧ .  
(٢) الماذى : شديد الحلاوة .  
(٣) آذى : موج .  
(٤) الديوان ص ١٩٥ وزهر الآداب ٩ / ٢ .  
(٥) مخطف : ضامر .  
(٦) الورد الجورى : ورد شديد الحمرة .  
(٧) مروج الذهب ٢٣٥ / ٤ والديوان  
( طبعة المجمع العلمى العربى بدمشق ) ص ١٧٩ .

أَرْضٌ مَرَبَعَةٌ حَمْرَاءُ مِنْ أَدَمٍ مَا بَيْنَ الْفَيْنِ مَوْصُوفَيْنِ بِالكَرْمِ -  
 تَذَاكَرَا الْحَرْبَ فَاحْتَالَ لَهَا شَبَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِمَا فِيهَا بِسَفْكَ دَمٍ  
 هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَلِكَ عَلَى هَذَا يَغْيِرُ وَعَيْنُ الْحَرْبِ لَمْ تَنْمِ -  
 فَانظُرْ إِلَى الْخَيْلِ قَدْ جَاشَتْ بِمَعْرَكَةٍ فِي عَسْكَرِينَ بِلَا طَبْلٍ وَلَا عِلْمٍ -  
 وَيَدُو أَنَّهُمْ بَلَّغُوا حَيْثُذُ مَبْلَغًا بَعِيدًا مِنَ الْمَهَارَةِ فِي لَعِبِ الشُّطْرَنْجِ ، وَكَانُوا  
 يَعْقُدُونَ لَهُ مَجَالِسَ يَتَفَرَّجُونَ فِيهَا عَلَى لَاعِبِيهِ وَحَدِيقِهِمْ فِيهِ ، وَكَانُوا يَمْلِكُونَهَا بِفَنُونِ النَّوَادِرِ ،  
 وَمَنْ اشْتَهَرَ حَيْثُذَكَ بِالْبِرَاعَةِ فِي لَعِبِهِ وَإِحْسَانِهِ إِحْسَانًا يَفُوقُ كُلَّ وَصْفِ أَبِي الْقَاسِمِ  
 التَّوَزَّى الشُّطْرَنْجِي . وَوَصَفَ ابْنَ الرَّوْمِيِّ مَهَارَتَهُ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ وَصَفَانَا رَائِعًا ،  
 اسْتَهْلَهُ بَبَيَانِ نَفَازِ فِكْرِهِ وَبَصِيرَتِهِ فِي تِلْكَ اللَّعْبَةِ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ كَانَ يَهْزِمُ كُلَّ مَنْ يَلَاعِبُهُ  
 وَيَعْصَفُ بِهِ وَيَجْنُودُهُ وَرِخَاخَهُ بِتَدْبِيرِهِ اللَّطِيفِ الْخَفِيِّ ، حَتَّى لِيُوشِكَ أَنْ يَكُونَ أَخْفَى  
 مِنَ السَّرِّ فِي ضَمِيرِ مَحَبِّ أَدَبَتِهِ عَقُوبَةَ الْإِفْشَاءِ ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَخَاطِبَهُ بِقَوْلِهِ (١) :

غَلِظَ النَّاسَ لَسْتُ تَلْعَبُ بِالشُّطْرَنْجِ لَكِنْ بِأَنْفُسِ اللَّعْبَاءِ  
 لَكَ مَكْرٌ يَدْبُ فِي الْقَوْمِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ الْغَدَاءِ فِي الْأَعْضَاءِ  
 أَوْ دَيْبِ الْمَلَالِ فِي مَسْتَهَامِيهِ نَ إِلَى غَايَةِ مِنَ الْبِغْضَاءِ  
 أَوْ مَسِيرِ الْقَضَاءِ فِي ظُلْمِ الْغِيهِ بَ إِلَى مَنْ يَرِيدُهُ بِالتَّوَاءِ  
 تَقْتُلُ الشَّاهَ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الرَّقِّ عَةَ طَبًّا بِالقِتْلَةِ النِّكَرَاءِ  
 غَيْرَ مَا نَاطِرٍ بِعَيْنِيكَ فِي الدَّسِّ تَ وَلَا مَقْبِلَ عَلَى الرُّسْلَاءِ  
 بَلْ تَرَاهَا وَأَنْتَ مُسْتَدْبِرُ الظُّهِرِ رَ بِقَلْبِ مَصُورٍ مِنْ ذِكَاةِ  
 مَا رَأَيْنَا سِوَاكَ قِرْنًا يُوَلِّي وَهُوَ يُرْدِي فَوَارِسَ الْهَيْجَاءِ

وَأَبُو الْقَاسِمِ - فِي رَأْيِ ابْنِ الرَّوْمِيِّ - لَا يَلْعَبُ بِالشُّطْرَنْجِ وَلَكِنْ يَلْعَبُ بِأَنْفُسِ  
 لَاعِبِيهِ بِدِهَاءٍ أَشَدَّ خَفَاءٍ مِنْ سَرِيَانِ الْغَدَاءِ فِي الْجَسْمِ ، بَلْ سَرِيَانِ الْمَلَالِ فِي مَتَحَابِبِينَ  
 حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى حَافَةِ الْبِغْضَاءِ ، بَلْ مَسِيرِ الْقَضَاءِ فِي حَجَبِ الْغَيْبِ إِلَى مَنْ

يُرديه ، ويصوره قاتلا للشاه في كل مكان من الرقعة بفنه وطبه ، دون أن ينظر إليه وإلى مكانه من جنوده ، بل أيضاً يقتله وهو مدبر عن اللست بظهره ، وكأنما له عين يرى بها من خلفه حدة ذكاء ونفاذ بصيرة .

وذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن بعض الشعراء ، وفي مقدمتهم أبو تمام ، كانوا يضعون أحياناً في مقدمات قصائدهم شكوى مرة من الزمن وهمومه وأن منهم من أفرد للشكوى بعض قصائد ومقطوعات ، ولكن هذه الشكوى تظل في العصر السالف فردية ، أما في هذا العصر العباسي الثاني فإنها تصبح موجة عامة قل من لم تعمه ، لفساد الأحوال السياسية التي وصفناها في غير هذا الموضع ، فإذا المناصب يتولاها غير أهلها ، وإذا السعاليات تفشو ويفشو معها ارتفاع الوضيع وتعظيم المخنة ويستسلم الناس إلى غير قليل من اليأس ، ويحسون كأن لا أمل في الإصلاح ، فقد عم الظلم واضطربت القيم وكأنما لم يعد للشر والنكر غاية ينتهيان إليها أوجد يقفان عنده ، أو قل كأنما أصبحت الحياة يأساً متصلاً ، لذلك كان طبيعياً أن نجد الشكوى على كل لسان ، شكوى مريرة من الزمن وأهله ، على شاكلة قول الكندي الفيلسوف<sup>(١)</sup> :

أنافَ الذنابي على الأروس	فغمض جفونك أونكيس <sup>(٢)</sup>
وضائل سوادك واقبض يديك	وفي قعر بيتك فاستجلس
وعند مليكك فابخر العلو	وبالوحدة اليوم فاستانس
فإن الغنى في قلوب الرجال	وإن التعزز بالأنفس
وكائن ترى من أخي عسرة	غنى وذى ثروة مفلس
ومن قائم شخصه ميت	على أنه بعد لم يرمس <sup>(٣)</sup>

والكندي متشائم إلى أبعد حد ، فقد اختلت موازين الحياة ، فارتفع الوضيع وهبط الرفيع ، ولم يعد هناك مفر من هذا البلاء ولا خلاص ، فاعتزل الدنيا ، وعش وحيداً بعيداً عن هذا النكر الذي يصبطلى الناس ناره ، ولا تؤمل في أن ينقشع هذا

الراس ذلا .

(٣) يرمس : يقبر .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٨ .

(٢) أناف : أشرف : نكس : طأطى .



الظلام ، فلم يعد لك من أمل سوى الالتجاء إلى مليكك وساحات بيرة . ويزدري الكندي ما في أيدي أصحاب الجاه والسلطان من مال تعافه النفوس الكريمة ، فيقول إن الغنى غنى النفس العزيزة ، وكم من فقير هو في حقيقته غنى بقلبه وأخلاقه الرفيعة ، وكم من غنى هو في حقيقته فقير بأخلاقه الذميمة ، بل إنه ميت وإن بدا حياً ، ميت لم يُقْبَر ولم يوضع في رصه . وإذا كان الكندي قد بلغ من الشكوى هذا الحد فإن من عاصره من الشعراء ومن جاءوا بعده كانوا يشعرون بنفس المحنة ، حتى من نشأ منهم في بيوت الترف والذعة أمثال ابن المعتز ، والشكوى تكثر في ديوانه من مثل قوله<sup>(١)</sup> :

لم يبق في العيش غير البؤس والنكد      فاهرب إلى الموت من همٍّ ومن نكدٍ  
ملأت يا دهر عيني من مكارهها      يا دهر حسبك قد أسرفت فاقصد

وكان طبيعياً أن يتعمق هذا الإحساس ابن الرومي الذي لم يكن يوسع له الوزراء والكبراء في مجالسهم وعطاياهم ، بل كانوا يلقونه في كثير من الأحوال بالحرمان والنكران، وكان يعرف في دقة عبقريته الشعرية، فضايق بالناس وضايق بالحياة، وكانت كما أسلفنا شراً ونكراً خالصين ، فعاش يتجرعها غصصاً ، ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ، فكان طبيعياً أن يتحول متشائماً وأن يصبح التشاؤم فلسفة له ، فالحياة كلها سواد وكلها ظلام وكلها بلاء لا يطاق ، ويصور ذلك تصويراً بديعاً في بكاء الطفل حين ولادته ، يقول<sup>(٢)</sup> :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها      يكون بكاء الطفل ساعة يولدُ  
وإلا فما يبكيه منها وإنما      لأفسح مما كان فيه وأرغدُ  
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه      بما سوف يلقي من أذاها مهددُ  
وللنفس أحوالٌ تظل كأنها      تشاهد فيها كل غيبٍ سيشهدُ

فالدنيا آلام ثقيل وأحوال طوال ، والطفل يشعر بذلك ساعة ولادته فيبكي بكاء مرأ ، وكان من الواجب أن يفرح لأن يبكي ، لأنه أخذ حظاً من الحرية

(٢) الديوان ص ٣٩٣ .

(١) الديوان ص ١٨٦ .

بالقياس إلى المكان الذي كان فيه ، وكأنما رأى بعينه ما يتهدده في دنياه من الأذى الممض الذي سيملاً نفسه شقاء وعناء .

وصور الشعراء — على غرار أسلافهم العباسيين — كثيراً من العواطف الدقيقة ، وحلوا كثيراً من المشاعر والشيم الرفيعة والأخلاق الزرية ، فمن ذلك تصوير ابن المعتز لحساده وما يأكل قلوبهم من الحسد والضغينة ، يقول من قصيدة طويلة (١) :

يا مَنْ يِناجي ضِغْنَهُ في نَفْسِهِ وَيَدِبُّ تَحْتِي بِالْأَفَاعِي اللَّدْغِ  
وَيَبِيْتُ تَنْهَضُ زَفْرَةً في صَدْرِهِ حَسَدًا وَإِنْ دَمِيْتُ جِرَاحِي يُوَلِّغُ (٢)  
ما زال يَبْغِي لِي بِكُلِّ قَرَارَةٍ حُمَةً الْأَذَى وَيَشِيرُ إِنْ لَمْ يَلْدَغِ (٣)  
نَغَلْتُ ضَمائِرُ صَدْرِهِ مِنْ دَائِهِ نَغَلَ الْإِهَابِ مَعْطَنًا لَمْ يُدْبِعِ (٤)  
لا تَبْتَغِي مِنِّي التِّي لا أَبْتَغِي إِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا بِشَأْنِي فَافْرَغِ

وابن المعتز يصور حسوده في صورة كريمة ، فهو ما يزال يدب من تحته بأفاعيه السامة وما تزال زفراته تصعد في صدره وما يزال يلتمس جرحاً له ليولغ فيه في دمايته ، وما يزال يريد به الطامة الكبرى ، كعقرب إن لم تلدغ بحمته أشارت تريد نزول الكارثة ، وقد نغلت وفسدت طوايا صدره وكأنها إهاب معطن يتمزق . وابن الرومي لا يباري في تحليل مثل هذه المعاني وما يتصل بها من الطباع والشيم ، وله قصيدة طويلة يحلل فيها شيمة الصبر وكيف أنها تُحَمِّدُ حين لا تكون لها ضرورة فكيف بها إذا أوجبتها الضرورة والحاجة الملحة حين تنزل بالإنسان مكاره ليس له منها مهرب ، إن الصبر حينئذ يكون نعم الجسنة والدرع الواق . ويدفع ما يقال من أن من الناس من خلق جزعاً هلوغاً ، فهو لا يستطيع الصبر وكظم النفس عند الشدائد ، يقول (٥) .

وقد يتظنني الناس أن أساهمُ وصبرهم فيهم طباغُ مركبُ

- (١) الديوان ص ٣١٥ والمختار من شعر  
بشار ص ٦٨ .  
(٢) ولغته : شربه بطرف اللسان ، أو حرك  
لسانه فيه .  
(٣) الحمة : السم أو إبرة العقرب التي  
يلدغ بها .  
(٤) نغل : فسد .  
(٥) الديوان ص ٣١٥ .

وَأَنَّهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُّصْرَفٍ بِصَرْفِهِ ذُو نَكْبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ  
وَلَيْسَا كَمَا ظَنُّوهُمَا بَلْ كَلَاهُمَا لِكُلِّ لَبِيبٍ مُّسْتَطَاعٍ مُّسَبِّبُ  
يَصْرِفُهُ الْمُخْتَارُ مِنَّا فَتَارَةً يُرَادُ فَيَأْتِي أَوْ يَزَادُ فَيَذْهَبُ

فالصبر الجميل والجزع الذميم مكتسبان يكتسبهما الإنسان بمحض إرادته واختياره ، ولا جبر فيهما ولا طبع ، بل هما من عمل الإنسان وبمشيئته ، إن شاء جزع عند المصيبة وإن شاء لم يصبه جزع ولا هلع ، بل عصم نفسه منهما واحتملها صابراً جالساً شجاعاً أروع ما تكون الشجاعة والجلد والصبر .

وأخذ التصوف ينمو سريعاً منذ فاتحة هذا العصر ويستقل عن الزهد استقلالاً تاماً ، إذ مضى أصحابه يتحدثون عن الحب الإلهي ومقاماته وأحواله ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمجاهدات عنيفة في التقشف والنسك مع الانقطاع عن الدنيا والخلوص التام للمحبة الإلهية والنشوة بها إلى درجة الفناء في الذات العلمية ، ولهم أشعار كثيرة يصورون بها هذا العشق وما دلح في قلوبهم من لوعة لا يمكن إطفائها ، لوعة حب قوي حار ، استأثر بكل ما في قلوبهم من عواطف وشاعر ، وشغلهم عن كل شيء ، إذ شُغِفُوا بِمُحِبُّوهُمْ شُغْفًا عَظِيمًا ، بل لقد تحول هذا الشغف عقيدة جمعوا فيها بين محبة الله وبين تقليده وعبادته ، آمين منه في الرصال وأن يرفع ما بينه وبينهم من حجب ، ولكن أتي يكون ذلك ؟ إن الدرب دائماً يبدو طويلاً ودونه أهوال لا حصر لها ، أهوال تملأ قلوبهم حسرات ألا يستطيعوا آخر الأمر لقاء المحبوب ، ويصور ذلك من بعض الوجوه أبو الحسن النوري إذ يقول (١) :

كَمْ حَسْرَةٍ لِي وَقَدْ غَضَّتْ مَرَارَتَهَا جَعَلْتُ قَلْبِي لَهَا وَقَفًا لِبُلُوكِ  
وَحَقٌّ مَا مِنْكَ يُبْلِينِي وَيُتَلْفَنِي لِأَبْكِينِكَ أَوْ أَحْطَى بِلِقْيَاكَ

وواضح أن النوري يتجرع غُصَصَ الحسرات المرة ، بل إنه لينتظر البلي بلطف في سبيل فرحة نفسه باللقاء المنتظر ، وإنه ليحس الضنا ، بل إنه ليحس السقم والعلّة ، ولا يجد شفاء لعلته وسقمه ، بل إنه ليجد لذة لا تعد لها لذة في هذا

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٥٣ .

السقم وما يتصل به من عذاب هذا الحب الظائم وناره التي لا تخمد أبداً ، حتى ليقول (١) :

إن كنت للسقم أهلاً فانت بالشكر أولي  
عذب فلم تُبق قلباً يقول للسقم مهلاً

فهو يشكره على سقمه لأنه يجد فيه متاعاً لا يشبهه متاع ، بل إنه ليطالب عذابه لأنه لم يعد يشعر بقلبه ولا بما قد يألم من العذاب والسقم .

وكان طبيعياً أن ينمو في العصر الشعر الذي يصور حياة الشعب وما كان يجري فيها من بؤس وإقلال ومسغبة ، ومن خير الشعراء الذين يصورون هذا الجانب جحظة البرمكي ، إذ نراه يكثر من بيان الشقاء والبؤس اللذين يعيش فيهما بمثل قوله (٢) :

إني رضيت من الرحيق بشراب تمرٍ كالعقيقِ  
ورضيت من أكل السَّمِ ذبأكل مسودّ الدقيقِ  
ورضيت من سعة الصح ون بمنزل ضنكٍ وضيقِ

وكان يذهب مذهبه في الكدية واحتراف التصعلك والشحاذة الأدبية غير شاعر ، وكان لهذه الطائفة مقدمات في العصر العباسي السالف ، ولكنها اتسعت في هذا العصر ، وأصبح هناك كثيرون يتخذون الكدية حرفة لهم يبتزون بها أهوال الناس . وظلت مجالس الخلفاء وعلية القوم تُعنى بالفكاهات والنوادر المستماحة ، وأشاع ذلك روحاً هزلية في كثير من الشعراء ، وكانوا ما يزالون يتخذون الوسائل إلى ذلك ، كأن نجد شخصاً يسمى سعيد بن أحمد بن خوسنداد يهدى إلى ابن حمدون شاة هزيلة ، فينظم في وصفها كثيراً من المقطوعات ، تارة يصور هزالها وتارة يصور جوعها وحرمانها وبؤسها في أبيات كلها دعاية وكلها سخرية وفكاهة من مثل قوله (٣) :

(٣) زهر الآداب ٢ / ٢٣٤ .

(١) السلمي ص ١٥٦ .

(٢) ذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .

لسعيد شويهة سلها الضر والعجف  
 قد تغنت وأبصرت رجلا حاملا علف  
 باني من بكفه برئ ما بي من الدنف  
 فاتاهما مطمعا وأنته لتغلف  
 فتولي فاقبلت تتغني من الأسف  
 ليته لم يكن وقف عذب القلب وانصرف

فهي ليست شاة بل شويهة مصغرة من الضنا والهزال الذي أصابها لطول تعلقها بالعلف ، ولا تجده ولا تراه ، حتى إذا رأت يوماً رجلاً يحمل علفاً توسلت إليه وتضرعت أن ييرثها من سقمها ، وأطمعها الرجل ، ولكنه سرعان ما تولى عنها تاركاً لها الحسرة واللوعة ، وهي تتمنى لو أنه يقف ، فقد آلم قلبها وانصرف . ومن الموضوعات التي تندر بها كثيراً في العصر وصف الثقلام والأكلة وموائد البخلاء وما عليها من قلة الطعام ، ولابن الرومي في ذلك كله أشعار كثيرة ، وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى ابتكاره في الهجاء لونهما جديداً من التصوير الهزلي وقد تعقب فيه أصحاب العيوب الخلقية من مثل جاحظ العينين والأحذب وأصحاب اللحي الطويلة ، فعرضهم عرضاً هزلياً مضحكاً في كل رسومه وصوره .

٥

### نمو الشعر التعليمي

عرفنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الشعراء استحدثوا فيه فن الشعر التعليمي وأن أبرع من استخدمه أبان بن عبد الحميد ، فقد نظم فيه كليلية ودمنة في نحو أربعة عشر ألف بيت ، والأحكام الفقهية المتعلقة بباي الصوم والزكاة ، وسيرتي أردشير وأنوشروان كما نظم قصيدة في مبدأ الخلق ضمنها شيئاً من المنطق . وظل هذا الفن قائماً بعد أبان ، كما ظل ينمو عند بعض الشعراء ، وفي مقدمتهم علي بن الجهم وابن

المعتز وابن دريد . أما ابن الجهم فعنى بنظم مزدوجة في التاريخ تقع في أكثر من ثلثمائة بيت ، جعلها في جزئين : جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والحلفاء ، وربما تأثر في الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان والتي قال الرواة عنها إنها كانت في بدء الخلق ، أما الجزء الثاني وهو الخاص بتاريخ الحلفاء، فيعد سابقاً فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا في نظم هذا التاريخ، ونراه حريصاً في مفتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول ، وقد بدأ بقصة خلق آدم :

يا سائل عن ابتداء الخلق	مسألة القاصد قصد الحق
أخبرني قوم من الثقات	أولو علوم وأولو هيئات
تفرغوا في طلب الآثار	وعرفوا موارد الأخبار
ودرسوا التوراة والإنجيلا	وأحكموا التأويل والتنزيلا
أن الذي يفعل ما يشاء	ومن له القدرة والبقاء
أنشأ خلق آدم إنشاء	وقد منه زوجه حواء

ويستمر في قصة حواء وآدم وسوسة إبليس لهما وهبوطهما من الجنة إلى الأرض ، وواضح أنه عني بذكر ماأخذ هذه القصة وما يليها من قصص الأنبياء عن رجال الآثار والأخبار، الذين درسوا التوراة والإنجيل وأحكموا دراسة التنزيل أو القرآن الكريم ، ويعرض لابن آدم قاين ( قابيل ) وهابيل ، ويأخذ في عرض تاريخ الرسل تبعاً ، بادئنا بنوح وقصة الطوفان وخالفه من الرسل وأقوامهم ، وخاصة إبراهيم وما كان من كسره للأصنام ودعوته إلى التوحيد ، ويذكر زوجته : هاجر وسارة وسكنى هاجر في البلد الأمين مع ابنها إسماعيل في جوار القبيلة القديمة جرهم ، ويتحدث عن إسحق ويعقوب وقصة يوسف وإخوته ويصور عصيان بني إسرائيل لأنبيائهم ، ويذكر أخبارهم مع باختصر ، كما يذكر سليمان وأيوب ويونس والخضر وزكريا ويحيى وعيسى ، وبذلك ينتهي الجزء الأول من الأرجوزة . ويأخذ في التقديم للجزء الثاني فيتحدث عن أحوال الأمم بين زمن المسيح

وجيء الإسلام وما ساد من شرك وإثم إلى أن أشرقت الدنيا بطلعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

ثم أزال الظلمة الضياء وعاودت جدتها الأشياء  
أتاهم المنتجب الأواه محمد صلى الله عليه

ويتحدث عن رسالته وموقف أهل مكة منه وخصومتهم له وهجرته إلى المدينة ثم يتحدث عن خلافة أبي بكر من بعده محدداتها بالسنة والشهر ، ودائماً يحدد المدة التي وليها كل خليفة تحديداً دقيقاً ، كما يعرض لأهم الأعمال في عهده ، يقول :

وقام من بعد أبي بكر عُمرُ فبرزت أيامه تلك الغرُ  
تضعفت منه ملوك فارس وخرت الروم على المعاطس<sup>(١)</sup>

ويتحدث عن عثمان وعلى بن أبي طالب ، ثم ينتقل إلى بني أمية متعقباً لهم خليفة خليفة ، كما يتعقب أهم الأحداث في عهودهم ، ويسنحى على يزيد بن معاوية باللوم والتعنيف لمقتل الحسين في عهده ، ولا يكاد يثنى على سيرة خليفة أموي إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز فإنه خصه ببعض الثناء . ثم انتقل إلى الحديث عن الخلفاء العباسيين مهللاً لخلافتهم وتحول صولجان الملك إليهم ، منوهاً بهم . حتى إذا انتهت الخلافة إلى جعفر المتوكل أشاد بخلافته وانتظام شئون الملك والرعية لعهده ، ويأسى لقتل الفراغنة الأتراك له وماصارت إليه الخلافة من الاختلال يقول :

وبايح الناس الإمام جعفرًا خليفة الله الأغرَّ الأزهرًا  
قد سكن الله به الأطراف فما ترى في ملكه خلافا  
ثم تولى قتله الفراغنة وساعدتهم عصبة فراغنه  
لأربع خلون من شوال فأصبح الملك أختالا

(١) خرت على المعاطس : ذلت . والمعاطس : الأناف .

ويذكر بعده الخليفة المنتصر ثم المستعين الذي تلاه لسنة ٢٤٨ للهجرة ، وقد توفي لعهد سنة ٢٤٩ وكانه نظم هذه الأرجوزة بأخرة من حياته . والأرجوزة قوية النسخ مع سهولة في الصياغة ونصاعة في العبارة .

ونرى ابن المعتز يُعنى بنظم سيرة المعتضد الخليفة العباسي معاصره وكانت بينهما صداقة وثيقة ، وكان أبوه الموفق من قبله ولي عهد المعتمد ، وقد أعادا معاً للخلافة العباسية هيبتها على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع فمضيا على ثورة الزنج وهزما الصفار وأخذوا أنفاس كل ثائر ، واستقامت شئون الملك السياسية . وكانت أيام المعتضد أيام أمن ورفاهية وازدهار ، وكان لذلك وقع بعيد في نفس صديقه ابن المعتز فرأى أن ينظم في سيرته أرجوزة<sup>(١)</sup> تصور استقرار الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عم البلاد من العدل في عهده ، مقارناً بين تشعث الأمور قبله وانتظامها لزمانه ، وهي في نحو أربعين بيت ، وقد افتتحها بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ في تصوير سيرة المعتضد وكيف كانت الخلافة قبله مختلة ، فالترك يخاعون الخلفاء ويقتلونهم وينتهكون الحرمات وينهبون الأموال :

كذلك حتى أفقروا الخِلافه وعودوها الرعبَ والمخافه

وارتُكبت عظام الآثام ، وهبَّ الثوار في كل مكان ، يتقدمهم قائد الزنج قاتل الشيوخ والأطفال ومخرب البصرة والأهواز . ويذكر ابن المعتز القواد الذين هزمهم ، حتى تصدى له الموفق وابنه المعتضد . وكان الموفق صورة للبأس الذي ليس بعده بأس والحزم الذي ليس بعده حزم ، وبعد جيهاد وصراع شديدين قضى الله له بالنصر المبين - وحارب يعقوب الصفار بعد الزنج . فجزمه هزيمة ساحقة - ويذكر تنكيه بالوزير أبي الصمقر إسماعيل بن بابل انتقام طغيانه ووأذاق عماله وجنوده الشعب من ظلم لا يطاق ، حتى كان الوارث لا يرث أباه الموسر إلا إذا دفع الرشوة الباهظة ، وحتى كان التاجر الثرى تُغتصب منه أمواله قسراً ، مع مجونه وإيمانه بالمعطل واعتناقه للشرك . هكذا كان الظلم فاشياً قبل المعتضد حتى إذا ولي شئون الرعية نشر فيها العدل الذي لاتصلح حياتها بدونه ، وسارع الثوار

(١) انظر فيها الديوان ص ٤٨١ .



بالإذعان خوفاً من بطشه وانتقامه، وهرب اللصوص . وقبض الجند على أصحاب النهب والسلب وكبلوهم بالأصفاد والأغلال . وبعث برسله إلى ابن عيسى بن الشيخ ينذره ويتوعده ، فاستسلم خائفاً وأدّى أموالاً جليلاً ، واستنزل حمدان من حصنه في ماردین . وأسره هرون صاحب الشراة الخوارج ، ويطيل في ذمه وذم عقيدته وأنصاره ، كما يطيل في ثورة رافع بن هرثمة بخراسان وما كان من القضاء عليها وصلبه ببغداد . وكان المعتضد قد أخرج المطالبة بالخراج من شهر آذار إلى الحادى عشر من حزيران حتى يتم الحصاد . وكان ذلك صنفاً جميلاً بالزراع والناس ، فأشاد ابن المعتز بهذه المكرمة وصوّر في ثنایا ذلك صفوف التعذيب التي كانت تُصَبُّ على الناس صبياً لاستخراج أموال الخراج منهم بالعنف . وقد عرضنا لذلك في حديثنا عن الحياة السياسية، إذ كانوا لا يزالون يرهقونهم وينكلون بهم حتى لا تبقى فيهم قدرة على المقاومة ، وحتى يتنازلوا عن كل ما يملكون جملة . ويتحدث عن أبنية المعتضد الشائخة وخاصة قصره الرباب وبركته الكبيرة ، وهو أحد قصوره المعروفة باسم الثريا . ويعود إلى حديثه عن إخماد المعتضد للثورات وينوه بموظفيه وعلى رأسهم القاسم بن عبید الله وزيره ، ويصور كيف ختك بعض قواده بصالح بن مدرك الذي كان يعيث في الأرض فساداً قاطعاً الطريق على الحجاج سافكاً للدماء ومتهكماً للحرمات وناهياً للأموال ، كما يصور قضاء إسماعيل بن أحمد الساماني وإلى خراسان على عمرو بن الليث الصفار الذي طالما تمادى في غيه بفارس ، فعادت مذعنة إلى الطاعة . ومثلها طبرستان وقضاء السامانيين فيها على محمد بن زيد العلوى . وكذلك قضاؤه على وصيف الخادم حين نقض الطاعة في الثغور . ويتحدث ابن المعتز عن القرامطة وتمزيق قواد المعتضد لهم ولجنودهم في عهده ، ويذكر وصول وفد الروم يحملون كتاب إمبراطورهم صاغرين طالبين الهدنة والقداء . ويعود إلى القرامطة ، ويفيض في ذم الكوفة مستقر الفرق الشيعية الغالية التي نبتت منها - في رأيه - فرقة القرامطة ، وفيها يقول :

واستمع الآن حديث الكوفة مدينةً بعينها معروفه  
كثيرة الأديان والأئمة وهمها تشتت أمر الأمة

ويتحدث عن خذلان أهلها لعلى بن أبي طالب وقتله وعودهم عن نصره الحسين ومصرعه تحت أعينهم دون أن يهبوا لنجدته ويعصفوا بقتلته ، يقول :

ثم بكوا من بعده وناحوا جهلا كذاك يفعل التمساحُ

ويبالغ في ذمهم حتى يجعلهم أس كل ضلال ومنبت كل الفرق لا من الشيعة فحسب ، بل أيضاً من الخوارج . وينوه بانتصار شبل غلام الطائي على القرامطة في سواد الكوفة وأسرهم لقائدهم ابن أبي قوس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وما كان من صلبه لسنة ٢٨٩ على الجسر ببغداد ، وهي السنة التي توفي فيها المعتضد . وقد يدل ذلك على أن ابن المعتز لم يفرغ من نظمه لتلك الأرجوزة إلا في هذه السنة ، وربما فرغ منها قبل ذلك وأضاف إليها بأخرة هذا الجزء ، ولاريب في أنه ألحق بها الأبيات الثلاثة الأخيرة التي تشير إلى وفاة المعتضد وانتهاء خلافته لعام تسع وثمانين ومائتين . والأرجوزة قوية النسيج ، وهي تتفوق في هذا الجانب على أرجوزة ابن الجهم ، إذ تتناسق فيها الصياغة تناسقا بديعاً ، وتبدو فيها بوضوح عواطف ابن المعتز ومشاعره ، مما يجعلها تحف بجوية قوية . وقد استطاع أن يودع فيها سيرة المعتضد وأحوال الشعب في عهده من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويون بعيد بينها . وبين كتب التاريخ مثل الطبري من هذه الناحية ، ففي تلك الكتب إنما نعرف الثورات والحروب وبعض الأعمال الكبرى ، وقلما اطلعنا على جانب من جوانب حياة الشعب ، أما في تلك الأرجوزة فالشعب مائل أمامنا وسياط جباة الضرائب تنوشه ويترج به في السجون ظلماً وعدواناً وأمواله تُسلب منه بغيماً وطمعاً .

وأما ابن دريد فكان عالماً لغوياً كبيراً ، ينظم الشعر ويحسنه ، وله ديوان مطبوع ، وقد عني بتقسيم طائفة من أشعاره بعض المعارف ، وأشهر ماله في هذا الباب مقصودته<sup>(١)</sup> التي مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأشواز وابنه إسماعيل ، وقد بنى قافيتها على الحرف المقصور وجعلها في نحو مائتين وخمسين بيتاً ، ويقال إنه ضممتها ثلث المقصور في اللغة<sup>(٢)</sup> . وقد استهلها بالنسيب على طريقة

(٢) خزانة الأدب لبغدادى ٣/ ١٠٥ .

(١) انظر المقصورة في الديوان ، وهي مطبوعة بشرح الخطيب التبريزي في دمشق .

الشعراء القدماء مفتتحاً لها بقوله :

يا ظبية أشبه شئاً بالمها ترعى الخزاي بين أشجار النقا<sup>(١)</sup>

وقد مضى يشكو من شبيهه وحبه وسهاده لطول الفراق ، وكيف أنه يحتمل من آلام الشوق وعذابه ما لا يحتمله الصخر الأصم ، حتى لقد ذوى غصنه الرطيب وأصبحت حياته كلها غُصَصاً لا تطاق ، ويتجه إلى الدهر الذي يصب عليه الحن بالخطاب قائلاً :

يا دهرُ إن لم تك عُتْبِي فَاتَّيِدْ      فَإِنْ إِرْوَادِكَ وَالْعَتْبِي سَوَا<sup>(٢)</sup>  
 لَا تَحْسِبَنَّ يَا دَهْرُ أَنِّي جَازِعٌ      لِنَكْبَةِ تَعْرِفُنِي عَرَقُ الْمُدَى<sup>(٣)</sup>  
 مَارَسْتُ مِنْ لَوْهوتِ الْأَفْلَاقِ مِنْ      جَوَانِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَاشِكَا  
 لَكِنهَا نَفْثَةٌ مَصْدُورٍ إِذَا      جَاشَ لَغَامٌ مِنْ نَوَاحِيهَا عَمَّا<sup>(٤)</sup>

وهو يُبْئِدِي أمام حن الدهر وخطوبه صلابه وقوة لا حد لها حتى لو خرت عليه الأفلاك ما تألم ولا شكا ، وقد مضى يتعزى بمن سطا الدهر عليهم قبل أن يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب ، واستطرد يتحدث عن بعض ذوى الهمم الشاغخة أمثال سيف بن ذى يزن وعمرو بن هند ، وكأنما سرت في روحه شجاعتهم فإذا هو في عُدَّة الحرب رفيقاه السيف والفرس ، وينيض في وصفها وخاصة في أوصاف الفرس . وكأنه يكتب فيه رسالة لغوية مستتمة . ويصف رحلته إلى الأهواز بفارس ، ثم يأخذ في مديح الأميرين . حتى إذا فرغ منه وصف فتاة ساحرة خلبت إبه ، ويُعْتَب ذلك بطائفة من الحكم يحشدها حشداً من مثل قوله :

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ      فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

- (١) المها : بقر الوحش . الخزاي : المدى : السكاكين .  
 نبات زهره طيب . النقا : القطعة من الرمل .  
 (٢) اتند : تأن . الإرواد : الترفق .  
 (٣) تمرق : تفصل اللحم عن العظم .  
 (٤) اللغام : الزبد على فم البعير . عما : سقط

ويستطرد إلى وصف رحلة له في الصحراء مع بعض الفتية، مصوراً ما تجشمه في السرى من الصعاب وما كان ينزله من الآبار والذئاب تعوى حوله، ثم ينتقل فجأة إلى وصف الخمر، وكان منهوماً بها، وهو يصرح بذلك ولا يخفيه، بل إنه يتسع في تصريحه بأنه عبٌّ من كل ما كان يشتهيهِ. والطريف أن هذه الأرجوزة التي قصد بها ابن دريد إلى أخذ الناس بحفظ الألفاظ المقصورة في اللغة لا تتعمق في الإغراب اللفظي، فقد استطاع أن يسلك الكثرة من ألفاظها في أساليب سهلة يسيرة، وحتى الأساليب والصياغات الأخرى لا تتعمق في الإغراب، مما يدل على مقدرته الشعرية البارعة.

ولابن دريد وراء هذه القصيدة قصائد أخرى تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية، من ذلك قصيدته<sup>(١)</sup> في المقصور والممدود، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها، وقد بدأها بما يفتح أوله فيُقَصِّرُ ويُمَدُّ والمعنى مختلف من مثل قوله:

لا تركزنَّ إلى الهوى واحذرْ مفارقة الهواء  
يوماً تصير إلى الثرى ويفوز غيرك بالشراء

وتلا ذلك بما يكسر أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف من مثل: اللوى<sup>(٢)</sup> واللواء. ثم ما يكسر أوله فيقصر، ويفتتح فيمد، والمعنى واحد مثل: سيوى وسواء. ثم ما يضم أوله فيقصر، ويكسر فيمد والمعنى واحد، مثل: لُقماً وليقاء. ثم ما يفتح أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى واحد مثل: الغدأ والغداء. ثم ما يفتح أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى مختلف، مثل: السحأ والسحاء<sup>(٣)</sup>. ثم ما يضم أوله فيقصر، ويفتتح فيمد، والمعنى مختلف، مثل: ضحى وضحاء<sup>(٤)</sup>. وفي ديوانه قصيدة<sup>(٥)</sup> ملاًها بالغريب، نظمها تحديداً لبعض علماء اللغة مورداً عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة، وهي لذلك تُصَمِّم إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين،

ضرب من الشجر

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة

(٤) الضحى: وقت ارتفاع الشمس

ص ٢٩.

الضحاء: النهار.

(٢) اللوى: منقطع الرمل.

(٥) الديوان ص ٨٨.

(٣) السحأ: القرطاس: السحاء:

فغايتها هي الأخرى علمية أو تعليمية واضحة . وأيضاً في الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات<sup>(١)</sup> أودع في أولها ما يذكر من أعضاء الجسم ولا يؤنث ، وفي ثانیتها ما يؤنث ولا يذكّر ، وفي ثالثها ما يجوز فيه التذكير والتأنيث . وعلى هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية .

---

(١) الديوان ص ١٢٣ وما بعدها .

## الفصل الخامس

### أعلام للشعراء

١

علي بن الجهم<sup>(١)</sup>

يرجع نسب علي بن الجهم إلى بني سامة بن لؤي القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مَرَوَ بخراسان واستوطن هذا البلد الثاني مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير علي بن الجهم في إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلا<sup>(٢)</sup> :

مذهبي واضحٌ وأصلى خُراسا نٌ وعزّي بغرّكم موصولُ

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشغلاً ببعض الوظائف في الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه ، ويولّيه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولّى في عهد الواثق شرطة بغداد<sup>(٣)</sup> وفي ديوان أبي تمام أشعار في أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل — من بعض الوجوه — على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة . ولا تُعرف بالضبط السنة التي أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه ؛ وزراه في نعومة أظفاره يختلف من داره في شارع دُجَيْبِل

٢٤٩ والموشح للمرزباني ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه في المجمع العلمي العربي بدمشق خليل مردم ووضع له مقدمة قيمة .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ / ٢٤٠ .

(١) انظر في علي بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٠٣/١٠ ومجموع الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان في عل وتاريخ بغداد ١١ / ٣٦٧ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة في سنة

إلى كُتَّابِ بالحى كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثاً مجتمعين ، ولفته ذات يوم  
بُنَيْتَةٍ صغيرة بمحاسنها الدقاق فكتب إليها فى بعض الألواح (١) :

ماذا تقولين فيمن شَفَّهُ سَهْرٌ من جَهْدِ حَبِكَ حتى صار حيراناً  
وسرعان ما أجابته البُنَيْتَةُ فى نفس اللوح على البديهة :

إذا رأينا محباً قد أضرَّ به جَهْدُ الصبابة أو لينادِ إحساناً

وفى بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه ، وكان هذه البُنَيْتَةُ هى التى  
أهمته الشعر وأنظمته . وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغباً وعبثاً ولعباً ، فسأل  
معلمه فى الكُتَّاب أن يحسه تأديباً له ، وأجابه المعلم إلى حبسه ، فاغتاظ على من  
أبيه غيظاً شديداً ، ولم يلبث أن كتب إلى أمه فى شِقِّ لَوْحٍ مستغيثاً (٢) :

يا أُمَّتَا أفديكِ من أمِّ أشكو إليك فظاظَةَ الجَهْمِ  
قد سُرحَ الصبيان كلهمُ وبقيتُ محصوراً بلا جُرمِ

وتوسّطت له أمه عند أبيه وأطلت سراحه ، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاباً بما  
سيصير إليه من حدة لسانه التى سيصلى فيما بعد ناراها . والحادثان كلتاها تدل  
على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فإنه لم يكده ينهى دروسه فى الكُتَّاب حتى كان  
قد أصبح شاعراً ينظم الشعر فى يسر . وكانوا يتعلمون فى الكُتَّاب شيئاً من علم  
الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث  
النبوية . ولا ريب فى أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى  
حلقات العلماء المتكلمين فى المساجد ينهل منها ، وربما اطلع على شىء من  
علوم الأوائل صنيع لداته فى عصره . وكانت فى المسجد الجامع حلقة كثيراً ما اختلف  
إليها وكثيراً ما اجتذبت ، ونقصد حلقة الشعراء إذ « كانوا يجتمعون كل جمعة فى  
القبة المعروفة بهم فى جامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه  
ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة السابقة » . وفى هذه الحلقة تعرف

(٢) الديوان ص ١٨٠ والجزم : الذنب .

(١) الديوان ص ١٨٤ .

على كثير من شعراء عصره وفي مقدمتهم أبو تمام الذي أصفاه ودّه وصوّر ذلك  
تصويراً رائعاً في شعره بمثل قوله (١):

إن يختلف ماء الوصال فمأوئنا      عذبٌ تحدر من غمامٍ واحدٍ  
أو يفترق نسبٌ يؤلف بيننا      أدبٌ أقمناه مقام الوالد

ولم يكده على يتجاوز العشرين ربيعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين  
له في الصعود ، وإذا هو يصبح من مدّاح المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه ،  
ويُعجبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق (٢). ويفد على الواثق يمدحه ،  
غير أن ابن الزيات وزيره كان يزورُ عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه  
يصبُّ عليه جام غضبه (٣) . وفي هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين  
عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسباً في ذلك بصديقه أبي تمام ، ويتوفى سنة  
مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان ويكيه  
بكاء حاراً .

وتقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من  
أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذة جليساً ونديماً ، ويسرّ إليه بما يدور بينه  
وبين جواريه ومحظياتة من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويغدق عليه أمواله  
وجوائزه حتى ليروى الرواة أنه دخل عليه يوماً ويده درّتان نفيستان يقلبهما تعجباً  
واستحساناً ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على  
مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدرّتين ، وكانت  
في يمينه ، والأخرى لا تزال في يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

بسرّ من رآ إمامٌ عدلٍ      تعرّف من بحره البحارُ  
الملكُ فيه وفي بنيه      ما اختلف الليل والنهارُ  
يرجى ويخشى لكل أمرٍ      كأنه جنةٌ ونارُ

(٢) الديوان ص ١١٨ .

(١) ديوان أبي تمام ٤٠٧/١ .

(٢) أغاني ٢١٠/١٠ .



يداه في الجود صَرَّتَانِ عليه كِلْتَاهِمَا تَغَارُ  
لم تأتِ منه اليمينُ شيئاً إلا أتت مثله اليسارُ

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية<sup>(١)</sup>. وقد يكون في منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر. ونراه يتحول منذ اليوم الأول في خلافته داعية كبيراً من دعائه، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعوه له إن احتاج إلى دعوة، بل إنه ليبالغ في الدعوة له بمبالغة مفرطة. وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به في أشعاره ويشيد إشادة بعيدة، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتّاب والعمال رأيانه يَسْقُط عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد. وكان أول عمل عام نهض به المتوكل وقفه محنة القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة، وعسّفوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً، حتى إذا ولي المتوكل وقف هذه المحنة التي أوشكت أن تؤدي إلى فتنة خطيرة، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغَرِّون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة. ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع، إذ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى شر خطير، ونراه في أثناء ذلك يكيل هجاء ذميمة للمعتزلة، حتى ليصنفهم بالكفر على شاكلة قوله<sup>(٢)</sup>:

قَامَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ فِي رَجْفَةٍ	يَخْبِطُ فِيهَا الْمَقْبَلُ الْمَدْبِرُ
فِي فَتْنَةٍ عَمِيَاءَ لَا نَارُهَا	تَخْبُو وَلَا مَوْقِدَهَا يَفْتَرُ
فَقَالَ وَالْأَلْسُنُ مَقْبُوضَةٌ	لِيُبْلَغَ الْغَائِبَ مِنْ يَخْضُرُ
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا	أَشْرِكُ بِاللَّهِ وَلَا أَكْفُرُ
لَا أَدْعِي الْقُدْرَةَ مِنْ دُونِهِ	بِاللَّهِ حَوْلِي وَبِهِ أَقْدِرُ

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر المقدم  
الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)

٣٢١/١  
(٢) الديوان ص ٧٣

وابن الجهم يزعم في الآيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينفي عن المتوكل القول بجزئية الإرادة وأن الإنسان بصرف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سني<sup>١</sup> يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شيء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له إزاءه ولا قوة . ونراه في نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى في الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زلل منه ، وكان حرياً به ألا يرسل لسانه في المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصمهم بوصفات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامى عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط في مبالغته أكثر مما ينبغي .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب وآله ، ومبرّ بنا في غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر في سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يُحسرت موضع القبر ويُزرع ما حوله ، ونرى ابن الجهم مندوب المتوكل الخلافة يُسبئ ويعيد في أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحقاً بدأ ذلك عنده في مبادئه للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغمساً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبسيّته أحق من البيت العلوي بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذي عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له<sup>(١)</sup> :

أنت ميثاقنا الذي أخذ الله علينا وعهده المسئول  
بك تزكو الصلاة والصوم والحج ويزكو التسبيح والتهليل

وكان هذا الموقف من على يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . ويجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زين عمله للرعية ،

ومعروف أنه نكب لأول عهدده ابن الزيات وعذبه في سجنه حتى مات ، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَجِيّ وكان من عِلِيَّة الكتاب ومشاهيرهم ، وبنوّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية ، إذ كان ابن الزيات - في رأيه - ظالمًا جائرًا يُزْرَى على سنن النبي ، وكان الرخجي يمحور في أحكامه وتصرفاته<sup>(١)</sup> . ويعقد المتوكل البيعة في سنة ٢٣٥ لبيته الثلاثة محمد المنتصر وأبي عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهدًا إليهم بولاية العهد على التوالي ، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين<sup>(٢)</sup> . وأمر المتوكل كما مرّ بنا في غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعًا الطبالسة العسلية تمييزاً لهم ويشدوا في أوساطهم الزناير وكتب بذلك إلى عماله في الآفاق ، فقال ابن الجهم<sup>(٣)</sup> :

العَسَلِيَّاتُ التّي فَرَّقَتْ بَيْنَ ذَوِي الرُّشْدَةِ وَالغَيِّ  
وما على العاقل أن يكثروا فإنه أكثر للفسى

وأذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعاً ، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعية عليه وحدهما ، فقد أوغر أيضاً صدور النصارى وأهل الذمة ، ولم يقف إيقارُهُ الصدور عند هذه البيئات الثلاث ، فقد أوغر أيضاً صدور حاشية المتوكل جميعاً شعراء وغير شعراء ، وكان منهم مروان بن أبي الجنوب والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن يحيى المنجم وأبو العيساء وابن حملدون وعزّون وبختيشوع الطيب النصراني وعبادة المضحك ، وساءهم جميعاً أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده ، وتصدّى له منهم البحترى ومروان بن أبي الجنوب يهجوونه . وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل ، فتارة يقولون له إنه يجمّس غلمانك ويلاعبهم ، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإزراء عليك . وساعدهم كثيرون من حاشية المتوكل ممن لم نسّمهم ، وكان منهم المعتزلي والشيعة والنصراني ومن يودوا انتقم منه شر انتقام ، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل ، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظاً وحنقاً عليهم ، فأمر بحبس سنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن

(٣) الديوان ص ١٩٢ والنفي في البيت

الثاني : النفي وهو الغنيمة .

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ١٢٥ .

أحداً منهم لم يحام عنه في بلائيه ، بل لقد خذلوه جميعاً ، وما يلبث أن يقول (١) :

تضافرت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال على هجائى

وكانه كان يعرف في وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى ألقى به في غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشى الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والتدماء وإن لم يتعرض لهم في هذه القصيدة بالذكر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عسى بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بنى دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل » (٢) . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — والياً لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبي دؤاد رأساً من رؤوس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له في مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعة ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات في بيته السابقين وكان يكنى له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم في محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلًا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، مندداً بخصومه بل هاجياً لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقى له المتوكل فرداً إليه حرّيته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبّروا لابن الجهم مكيدة لا تُقبَلُ فيها التعلّات والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوّلت له أن يهجو هجاءً قبيحاً ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصلبَ يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحي نيسابور تسمى الشاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أخرج من محبسه وصلب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل (٣) ، وكان طاهراً رأى في ذلك فرصة

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) أغاني ١٠ / ٢٠٨ .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

أن يقتصر من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته في أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل في سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومثّل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أطاهرُ إني عن خراسان راحِلُ      ومستخبرٌ عنها فما أنا قائلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإني لا أفعل بك إلا ما تحب ، ووصله وحمله وكساه <sup>(١)</sup> ، وأخذ يبتغي إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم في جواره مدة يستمر فيها عنده ويلزمه في غدوه ورواحه إلى الصيد <sup>(٢)</sup> . وكان طبيعياً أن تترك هذه المحنة التي طالت سنواتها والتي شقى بها في بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاً كثيراً على نفسه حتى لنراه عقب ردّ حرّيته إليه يطيل المكث في القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه <sup>(٣)</sup> :

يشتاق كل غريبٍ عند غربته      ويذكر الأهلَ والجيران والوطنا

وليس لي وطنٌ أمسيت أذكره      إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولّ وجهه نحو سامراء ؛ فقد ازور عنه المتوكل وأغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغير عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعاً ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفيّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزناً شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يغرق أساه في كثوس اللهو علسها تنسيه كارثته ، وأزم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيّنين ( بخّاس ) بالكرخ يسمى المفضل ، كان منزله مكتظاً بالجوارى العابثات اللاتي يتفنّن في جذب الشعراء والشباب إليهن ، ومرت بنا في الفصل الثاني أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجوارى وكيف كن يععبّبن بقلوب الفتيان ويسعّرن أفئدتهم ناراً <sup>(٤)</sup> . ويسمى إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حاراً . وماتوا في سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

(٣) أغاني ١٠/٢٢٤ .

(٤) الديوان ص ٥٢ :

(١) أغاني ١٠/٢٠٩ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٠/٢٢٧ .

العربي المأساة التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الأول ، وهي مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمني في حروب الروم ، وبتصايح المتطوعون لتلك الحروب في كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد في سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج في قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور<sup>(١)</sup> ، ويعترضه أعراب من بني كلب ، ويقاتلونه ، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتبهة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته<sup>(٢)</sup> .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والثناء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجلُّ مدائحه في المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلاً لغيره ، ومرّ بنا آنفاً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن : بمثل قوله<sup>(٣)</sup> .

بِهِ سَلِمَ الْإِسْلَامُ مِنْ كُلِّ مَلْحِدٍ وَحَلَّ بِأَهْلِ الزَّيْغِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ

وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول<sup>(٤)</sup> :

لَنَا فِي بَنِي الْعَبَّاسِ أَكْرَمُ أَسْمَوَةٍ فَهَمَّ خَيْرٌ خَلَقَ اللَّهُ طُرّاً وَأَفْضَلُ

ويقول للمتوكل<sup>(٥)</sup> :

وَلَنْ يُقْبَلَ الْإِيمَانُ إِلَّا بِحَبِّكُمْ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ بِلَا طُهُرٍ

وكان لا يني يمدح المتوكل بحب الخير والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذي يجرر الناس من الخوف ونشر العدل الذي لا تصلح الحياة بدونه ، يقول<sup>(٦)</sup> :

(٤) الديوان ص ٧٠ .

(٥) الديوان ص ١٤٨ .

(٦) الديوان ص ٣٥ .

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩ .

(٢) الأغاني ١٠ / ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٢٢ .

ملكٌ باسطٌ اليدين إلى الخيِّ ر صفوحٌ عن الذنوب غفورٌ  
أمن الناس واستفاض به العذ لٌ فلا خائفٌ ولا مقهورٌ

وله في المتوكل وراء مدائح تهنته بعيد المهرجان ، وزراه يسوق في فاتحتها دعوة للصبوح بالخمير من أيدي الخرد الغيد ، ويشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ في مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعلن في صراحة صريحة أنه خراساني من شيعة بني العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الحرق السود ، يقول (١) :

نحن أبناء هذه الخرق السو دِ وأهل التشيع المحمود

وأروع من هذه التهنته تهنته المتوكل بقضاء قائده بغا قضاء مبرماً على إسحق ابن إسماعيل الثائر بأرمينية وهي أرجوزة أنشدها ارتجالاً ، وفيها يصور بأس الجيش العباسي في تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تحلل الاقتباس منها أبياته (٢) ، وهي تدل على طواعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نسب غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه ، وزراه في ميمية قدمها إليه يذكر سنه التي أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل يأسي لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعظماً (٣) :

أما وأمير المؤمنين لقد رمى ال عدوٌ فلا نكباً ولا متهضماً  
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخطه خسف سامنيها محتماً  
فخطه الخسف والظلم والهوان ستنقش عنه ، ولكنها لم تنقش ، فعاد إلى

(١) الديوان ص ٢١ .

(٢) الديوان ص ٣٥ .

(٣) الديوان ص ١٧٦ .

استعطفه في لامية له استهلها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل في مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعلمهم وأشدهم توحيداً للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول<sup>(١)</sup> :

يعاقب تأديباً ويعفو تطولاً وَيَجْزِي عَلَى الْحُسْنَى وَيُعْطَى وَيُجْزَلُ  
وَلَا يُتَّبَعُ الْمَعْرُوفَ مَنًّا وَلَا أَدَى وَلَا الْبُخْلُ مِنْ عَادَاتِهِ حِينَ يُسْأَلُ  
رَعَاكَ الَّذِي اسْتَرَعَاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ وَكَافَاكَ عَنَا الْمَنْعَمِ الْمُتَفَضَّلُ

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبيته ، غير أنه زلَّ زلته التي تحدثنا عنها حين أحسَّ أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهتمهم أمره ، فساهم رافضة ، وكأنما أراد من المتوكل أن يطير بهم طيرةً بطيئاً سقوطها ، وظل طاهر يسرها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه في الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَلَئِنْ حُرِّمْتُ وَالْحَقُّ لَا يُلْفَعُهُ الْبَاطِلُ  
وَحُرْمَتِي أَعْظَمُ مِنْ زَلَّتِي لَوْ نَالْتِي مِنْ عَدْلِكُمْ نَائِلُ

ولكن الزلة في رأى طاهر كانت أكبر من الحرمة ، فلم يأبه باستعطفه ، حتى أمره المتوكل برد حرите إليه . حينئذ خشي معرفة لسانه ، فقرَّبَه منه وجعله من قدمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مرات قليلة في مقدمتها مرثيته لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنه ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركننا من أركان الإسلام انقضَّ انقضاءً ، في يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول في مطلعها<sup>(٣)</sup> :

أَيُّ رَكْنٍ وَهَى مِنَ الْإِسْلَامِ - أَيُّ يَوْمٍ أَخْنَى عَلَى الْيَوْمِ -

ومضى يعزى آل الفقيد مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(١) الديوان ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ص ١٦٩ والأغاني ١٠ / ٢١٨ .



ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المرثية مرثيته لصديقه الروحي أبي تمام ،  
وهي أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدت عليها الأيام ، حتى إن الشعر  
ليبكيه بكاء مرّاً ، فقد هلك مثقفه ومرّوض قوافيه وجفّ غدِير روضته ، وجفّت  
بدائع فطنته ، يقول<sup>(١)</sup> :

غاضتْ بدائعُ فطنةِ الأوهامِ      وعدتْ عليها نكبةُ الأيامِ  
وغدا القريضُ ضئيلُ شخصٍ باكباً      يشكو رزيتَه إلى الأَقلامِ  
وتأوّهتْ غُررُ القوافي بعده      ورى الزمانُ مسحيحها بسقامِ  
أودى مثقفها ورائضُ صعبها      وغديرُ روضتها أبو تمام

ومرّاً بنا أنه رثى المتوكل رثاء حارّاً حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل  
رثاءه له بوصف سحابة أطلّت العراق وملأته أمطاراً وخصباً ، غير أن عاصفة  
هوجاء نَحَسَتْها عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعاً مريراً ،  
مزرباً على جنوده أن لم ينصروه . مندداً بمن قتلوه تنديداً شديداً<sup>(٢)</sup> .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَحْزُرُ فيه وخز الإبر ، وأحياناً يطعن طعنات  
دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هَجَبَاءَ يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول  
المسعودي : « كان في لسانه فضلٌ قَلَّ مَنْ سَلِمَ معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه  
للشيعة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أودى أو وقعت عليه  
إهانة ، ومن تعرّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله  
الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به ، حتى إذا نكبه المتوكل شمت  
به هو وابنه أبي الوايد ، وسلّ عليهما لسانه بمثل قوله<sup>(٣)</sup> :

يا أحمدُ بنَ أبي دُؤادِ دعوةٌ      بعثتُ إليك جنادلا وحديدا  
ما هذه البِدْعُ التي سميتها      بالجهل منك العدل والتوحيدا  
أفسدت أمر الدين حين وليته      ورميته ببأى الوليد وليدا

(٣) الديوان ص ١٢٥ .

(١) الديوان ص ١٨١ .

(٢) الديوان ص ٥٦ .

وكان أبو الواليد يتولى المظالم بسامراء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدئين أساسيين في الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام، حتى يثابروا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر. وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان. وكان مروان بن أبي الحنوب كثير التعرض له يذمه ويهجو، ويقال إنه هجاه يوماً في مجلس المتوكل، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المصنعيين (١) :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءٌ عداوةٌ غير ذى حسبٍ ودينٍ  
يُبِيحُكَ مِنْهُ عَرِضاً لَمْ يَصْنُهُ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عَرِضٍ مَصُونٍ

وقد جرّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير، وهو تارة يضعه في مقدمات قصائده، مديباً فيه لواعج حبه، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب في فؤاده من العواطف والمشاعر، ومن مقدماته المشهورة التي طارت على كل لسان قوله في فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل (٢) :

عيونُ المَهَابِ بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالجَسْرِ  
أَعْدَنَ لِي الشُّوقَ القَدِيمَ لَمْ أَكُنْ  
جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي  
سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدَنَّ جَمْرًا إِلَى جَمْرٍ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التي تفد من كل مكان مكشوف وخبيء من حيث يدري ابن الجهم ومن حيث لا يدري، وقد أعدن له جذوة الحب القديم التي لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة، وقلبه يلتاع لوعة شديدة. ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يُضِضْنَ من بعيد كالأهلة تنزود منها الأبصار، ولامتاع سوى متاع النظر والخيال،

وقد التهبته منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجري حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأي في وصله وصدده ، ومن طريف ما له في الغزل قوله<sup>(١)</sup> :

سَقَى اللهُ لَيْلًا ضَمَّنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ      وَأَدْنَى فَوَادًا مِنْ فَوَادٍ مَعَذِبٍ  
فَبِتْنَا جَمِيعًا لَوْ تَرَأَى زُجَاجَةً      مِنْ الرَّاحِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبِ

وكانهما أصبحا روحين في بدن .

والفخر كثير في أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبقوته التي أغرته بأن يكون صاحب هو ومجون على الأقل في فترات من حياته ، وصور حين حبس وصلب عرياناً صلابه نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى في عمق حين يفتتح إحدى قصائده التي استعطف بها المتوكل بقوله<sup>(٢)</sup> :

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلْتَهَا تَتَحَمَّلُ      وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تَجُورُ وَتَعْدُلُ  
وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحَرِّ نِعْمَةٌ      وَلَكِنَّ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجْمَلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلى منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتيع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحيبه<sup>(٣)</sup> :

فَلَا تَجْزَعِي إِمَّا رَأَيْتِ قَيْودَهُ      فَإِنَّ خِلَافَ الرِّجَالِ قَيْودُهَا

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هي حليى الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضرر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادت صلابته فوق صلابته ، إنها من جوهر كريم لا تذيبه الحن والخطوب

١. لابن المعتز ص ٣٢١ .

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ٥١ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء

ولا كل ما يسام به من ضروب الحسف والعسف، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حداً  
يفوق كل وصف حين يقول لصاحبه (١) :

قالتِ حُبِسَتْ فقلتُ ليس بضائري      حَبَسِي وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يُعْمَدُ (٢)  
أَوْ مَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلَهُ      كِبْرًا وَأَوْبَاشَ السَّبَاعِ تَرُدُّ (٣)  
وَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنهَا مَحْجُوبَةٌ      عَنْ نَاطِرِيكَ لَمَا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ  
وَالْبَدْرُ يُدْرِكُهُ السَّرَارُ فَتَنْجَلِي      أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَسِّدٌ (٤)  
وَالغَيْثُ يَحْضُرُهُ الْغَمَامُ فَمَا يُرَى      إِلَّا وَرَيْقُهُ يِرَاحُ وَيِرَعْدُ (٥)  
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ      لَا تُصْطَلِي إِنْ لَمْ تُثْرَمَا الْأَزْنَدُ  
وَالزَّاعِيَّةُ لَا يَقِيمُ كَعُوبَيْهَمَا      إِلَّا التَّقَافُ وَجُدُوهُ تَتَوَقَّدُ (٦)

وهو يمثل نفسه لصاحبه سيفاً مسلولاً وُضِعَ في غمده ، بل كأنه أسد في  
أجمته وشمس في حجابها وبلدر في سِراره ، بل كأنه غيث مضمهر في غمامه  
ونار مكنونة في زندها ورمح يتصقله مثقفه . وهي صور تعبر عن نفس صلبة قوية  
وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وهن ولا خور . ويسنفتي  
إلى خراسان ويسنجن ويصلبه أميرها يوماً عارياً وتظل له نفسه الصلبة ويزار  
منشداً (٧) :

ما عابه أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِيَأْسُهُ      فَالسَيْفُ أَهْلُ مَا يُرَى مُسْلُولًا  
فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرى حين يُجَرَّد من غمده ويصوب إلى  
الرقاب .

ولابن الجهم أشعار كثيرة في وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفي وصف  
الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها ، ومرت بنا في الفصل الماضي قطعة له بديعة

- (١) الديوان ص ٤١ والأغاني ٢١٣/١٠ .  
(٢) المهند : السيف .  
(٣) الغيل : أجمة الأسد .  
(٤) السرار : آخر أيام الشهر .  
(٥) ريق النمام : أوله . يراح : تكثر  
معه الرياح والمواصف الممطرة .  
(٦) الزاعية : ضرب من الرياح المصمية .  
(٧) الديوان ص ١٧٢ .

في وصف الورد وتهاديه ووصف شذاه العطر الذي يشفي القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة في وصف اللهو والملاهي ، ومن قوله في وصف مجلس أنس<sup>(١)</sup> :

الْوَرْدُ يَضْحَكُ وَالْأَوْتَارُ تَصْطَخِبُ . وَالنَّائِي يَنْدُبُ أَشْجَانًا وَيَتَنَجَّبُ  
وَالرَّاحُ تُعْرَضُ فِي نَوْرِ الرَّبِيعِ كَمَا تُجَلِّي العُرُوسُ عَلَيْهَا الدَّرُّ وَالذَّهَبُ

وقد مضى بصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا في الفصل الماضي قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة ، وكذلك وصفه للعبة الشطرنج وله قصيدة جيدة في وصف سفينة<sup>(٢)</sup> .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل في الحياة وفي سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً في أشعاره من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

وَمَنْ طَلَبَ المَعْرُوفَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ أَطَالَ عِنَاءً أَوْ أَطَالَ تَنْدُمًا  
وَمَنْ سَامَحَ الأَيَّامَ يَرْضَ حَيَاتِهِ وَمَنْ مَنَّ بِالمَعْرُوفِ عَادَ مَذْمَمًا

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون في أشعارهم ولا ممن يكثر من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه ، وبما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة ، وكان كثيراً ما يلجأ بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورسانتها ومع جمال الجرس والأداء .

## ٢

البحترى<sup>(٤)</sup>

هو أبو عيادة الوليد بن عبَّيد ؛ طائى الأب شيبانى الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية ببحتر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بمسبج إلى

- 
- (١) الديوان ص ١٠٥ .  
 (٢) الديوان ص ١١٤ .  
 (٣) الديوان ص ٢٠ .  
 (٤) انظر في البحترى وشعره الأغاني (طبعة الساسي) ١٨/١٦٧ ، والموشح للمرزبانى  
 والموازنة بين الطائين للآمدى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ والشريشي على مقامات الحريرى ٤٠/١ وعبث الوليد لأبي العلاء ، وأخبار البحترى للصولي (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق) =

الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل : بل وُلد بقربة تجاورها تسمى « زردفنة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرّر كثيراً في شعره « منسّج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طيبي ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائفه من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيبته وصورته إلا ما رُوِيَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والبادنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها ؛ إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حباً ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرّف أيضاً على صديق يسمى الذفانى مدحه ببعض شعره ، وهجاه فيما بعد لاقترانه بعلوة ، على شاكلة قوله (١) :

نُبِّئْتُهَا زُوِّجَتْ أَخَا خَنْثٍ أَغْنَى رَطْبَ الْأَطْرَافِ لَيْنَهَا

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى » . وقد يدل ذلك على يسار الذفانى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( الطبعة السابعة - طبع دار المعارف ) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته ( طبع دار المعارف ) .

( ١ ) الديوان ٤ / ٢٣٢٥ .

= وتاريخ بغداد ١٣ / ٤٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ / ٢٤٨ ، وابن خلكان ، ومراة الجنان لليافعى ٢ / ٢٠٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣ / ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٩٩ ، وحياة البحترى وفنه لأحمد أحمد بدوى ،

حياته . واتسع برحلاته إلى حمص ، وكأنما كان السَّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك ، فشكا إليه خَلَّة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان : « يصل كتابي مع الوليد أبي عبادة الطائي وهو على بذاذته "سوء حاله" شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسنا ووظفوا له أربعة آلاف درهم<sup>(١)</sup> . وفي رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، فقد وصله أيضاً ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصَّهم بمدحهم فيمدهم ، مثل آل حميد الطوسي في الموصل ، وخالد بن يزيد الشيباني وإلى أرمينية والثغور ، وأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي الذي ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبي تمام . وتُخرج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أفأق صَبُّ من هَوَى فافيقاً أم خان عهداً أم أطاع شفيقاً

فردّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحري<sup>(٢)</sup> . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذى حثه على مديح أبي سعيد الثغري ولقائه له وهو عنده . ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرَّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، ويصرِّح بذلك البحري معترفاً بجميل أستاذه إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

« كنت في حدائثي أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة تخيِّر الأوقات وأنت قليل الهموم صيفر من الغنوم . واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من

(١) أخبار البحري ص ٥٦ ، والأغانى (٢) أخبار البحري ص ٦٣ ، والأغانى ١٦٩/١٨ .  
(٣) زهر الآداب للحصرى ١/١٠١ .

النوم ، فإذا أردت النسب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكتابة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيد ذي أباد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معاطه ، وشرف مقامه وتفاصيل المعاني واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية .  
وكن كأنك خيَّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنته العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى .

وكأنما وضع أبو تمام نضب عيني البحرى دستوراً قوياً لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحرى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسب والمديح جميعاً ، مع العناية بدقائق المعاني وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظناً أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرفه لا على أهل معرفة النعمان فحسب ، بل أيضاً على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديماً وحروب الروم حديثاً أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنى طويلاً بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظناً أن من أوائل مدائحه لأبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته<sup>(١)</sup> التى يعزبه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامراء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبي تمام للأخيرين



هى التى فتحت له سريعاً تلك الأبواب ، وإذا هو يَمَسُّهُ بين أيديهم جميعاً مادحاً ممجداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحرى بعيداً خوفاً على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجيين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل : أكنت معتزلياً ، فأجابه : « كان هذا دينى فى أيام النواتق ثم نزعته عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! » (١) . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به النواتق ووزيره ابن الزيات ، وليس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سبى فى البحرى إذ كان متقلباً مسرفاً فى التقلب ، يلتبس المنفعة لنفسه ما وجد لى ذلك سبيلاً . على كل حال أحسَّ بآدى الأمر أن أبواب المتوكل مؤصدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذ يمدح بعض خاصته وخاصة وزيره الفتح بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذهم الصلوات السنوية منهما ، ووعده على أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره (٢) ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه (٣) وينال جوائزهم ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوِّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتمهله أن يبنى بوعدة فى غير قصيدة من مثل قوله (٤) :

وعدت فأوشك نَجَحَ وعدك إنّه  
وأنت ترى نُصَحَ الإمام فريضةً  
من المجد إجمالُ المواعيد بالنُّجَحِ  
وإخبارُهُ عنى سبيلٌ من النُّصَحِ

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله  
وأبدي الجواب الربيع عما تسأله  
انظر الديوان ٣ / ١٦١٠ .  
(٤) الديوان ١ / ٤٤٦ .

(١) أخبار البحرى للصولى ص ١٢٢ .

(٢) الديوان ٢ / ١١٣٢ .

(٣) فى أخبار البحرى للصولى ص ٨٣

لأن أول قصيدة مدح بها البحرى الفتح بن خاقان

لسنة ٢٣٣ هـ :

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمتع إليه وتتواتر صلواته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته ، فقد كان ديوان الخراج إليه . ونراه يمدح الوزير الثاني للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولم يكذب يترك أحداً من معاوني الفتح ومساعديه إلا مدحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه في دواوين الخراج وكان نصرانياً ، وكان نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلاً ، حتى بعد خروج أحمد للعمل في دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته في منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى في وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولتفحّه ، يقول (١) :

نَصَبُ إِلَى طَيْبِ الْعِرَاقِ وَحُسْنِهَا      وَيَمْنَعُ مِنْهَا قَيْظُهَا وَحَرُّوْهَا  
هِيَ الْأَرْضُ نَهَاهَا إِذَا طَابَ فَصَلُّهَا      وَهَرُبُ مِنْهَا حِينَ يَحْمَى هَجِيرُهَا

وكان لا يترك وجيهاً ولا ولياً ولا صاحب خراج في طريقه من سامراء إلى منبج إلا ويقدم إليه مدائحه ويأخذ جوائزته ، من مثل بني حميد الطوسي الطائي وأبي سعيد الثغري وابنه يوسف صاحبي أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمي ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته في الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبي مسلم الكجتي ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبي ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذي حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله في الأسرة شعر كثير . ومن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائده عبد الله بن دينار وابنه أحمد ، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله في الفتح بن خاقان تسع

وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُليل بن يعقوب النصراني<sup>(١)</sup>.  
وتحوّل إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث في عصره إلى ما يشبه آلة راصدة، فهو  
يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة: المنتصر والمعز والمؤيد قائلاً<sup>(٢)</sup>:

قُدَّامهم نورُ النبيِّ وخَلْفهم هَدْيُ الإمامِ القائمِ المحمودِ

ولا يترك نصراً على نائز إلا ويدونه، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا  
لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليد بهم، فوجه إليهم المتوكل  
جيشاً سحقهم سحقاً وألقوا عن يد وهم صاغرون، ونوه البحترى بهذا الانتصار  
طويلاً. وكانت قد حدثت في أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب  
دامية بين قبائل ربيعة: تغلب وشيبان وغيرهما، واستطاع الفتح بن خاقان أن يحقن  
الدماء بينها وأن يردّها إلى الطاعة، ومن الغريب أن لا تُعنى كتب التاريخ بهذا  
الحدث العناية المنتظرة، بينما نرى البحترى يسجلها، وقد بلغ به الأسى أقصاه  
إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغي أن يكون بينها  
من البرِّ والعطف، فإذا هي تفرع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء،  
يقول<sup>(٣)</sup>:

فُرسانٌ هيجاءٌ تجيشُ صدورُها بأحقّادها حتى تضيقُ دُرُوعُها  
تقتلُ من وِترٍ أعزُّ نفوسها عليها بأيدي ما تكادُ تطيعُها  
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكّرتِ القُرْبى ففاضت دموعُها  
شواجرُ أرماحٍ تقطعُ بينهم شواجرَ أرحامٍ ملُومٍ قَطوعُها<sup>(٤)</sup>

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه، والدماء تفيض والدموع تسيل  
والرماح تقطع علائق الأرحام. وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصايه من الأمن  
والسلم، فأغمدت السيوف وقرت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهدة. ويشب  
أهل حمص بعاملهم<sup>(٥)</sup> لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة في سنة ٢٤١ وينكل

(٤) الشواجر: المتشابكة المتداخلة.  
(٥) تاريخ الطبرى ١٩٧/٩ وما بعدها.

(١) الديوان ٣/١٦٨٩.  
(٢) الديوان ٢/٧٠١.  
(٣) الديوان ٢/١٢٩٩.

بهم المتوكل وسرعان ما يعفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوهاً بعفوه قائلاً (١) :

تداركت بالإحسان حمص وأهلها وقد قارفوا فعل الإساءة والخرق (٢)

وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد في حفل كبير يصفه البحترى ، ويطلب في وصف السباط الذي مُدَّ فيه وما علا وجوههم وسيامهم من ذهول وحيرة (٣) . وكان المتوكل قد فكَّر لسنة ٢٤٣ في أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومنَّ بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها في سنة ٢٤٣ وتنبهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطراً أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر البحترى خروجه إلى دمشق وقدمه منها في غير قصيدة (٤) . ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ في وصف قصوره التي سميت باسم المتوكلية والتي بلغت - كما مر بنا في الفصل الثاني - نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذي عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى مراراً في مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى والصبيح والمليح وشبذاز (٥) ، وما يزال ينوه بها مباهياً الأمم والشعوب . وفي قصر الجعفرى أتى المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرثى المتوكل برايته زاعماً أنه دافع عنه بيديه ، ويسجل على ابنه المنتصر - كما مرَّ بنا في الفصل الماضي - اشتراكه في المؤامرة الباغية والفتك به ، قائلاً (٦) :

أكان وليَّ العهد أضمر غدره فمن عجبٍ أن وليَّ العهد غادره

وحرى بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم في هجاء المعتزلة لإرضاء للمتوكل ولا في هجاء العلويين ولا في هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا في عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

(١) الديوان ١٥٤٦/٣ .  
 (٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحق .  
 (٣) الديوان ١٦٠٢/٣ .  
 (٤) الديوان ١٠٤٨/٢ .  
 (٥) انظر الديوان ١٠٤١/٢ ، ٢٠٠٤/٣ .  
 (٦) الديوان ١٠٤٨/٢ .

(١) الديوان ١٥٤٦/٣ .  
 (٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحق .  
 (٣) الديوان ١٦٠٢/٣ .  
 (٤) الديوان ١٠٤٨/٢ ، ٧٠٧/٢ ، ٧٠٩ ، ٩٩١٠ ، ٩٩١٠

سينيته مودعاً فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعاً وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الحصيب متوسلاً إليه بكتابته الحسن بن مخلد حتى يقربه منه ويسترضيه له ، ويجيبه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمتع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التي أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحترى منشداً (١) :

وَألُّ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ مَا أَذِيعَ بِسِرِّهِمْ فَابْدَعَرُ  
وَنَالَتْ أَدَانِيَهُمْ جَفْوَةٌ تَكَادُ السَّمَاءَ لَهَا تَنْفَطِرُ  
وَصَلَّتْ شَوَابِكَ أَرْحَامِهِمْ وَقَدْ أَوْشَكَ الْجَبَلُ أَنْ يَنْبَثِرَ

ويتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقي ابن الحصيب في الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتستصفى أمواله ويستفي إلى جزيرة إقريطش ( كريت ) وحينئذ نجد البحترى يتنكر له ، ويبالغ في تنكزه لإرضاء للمستعين وقواده ، فيؤلبهم عليه ، ويحتمهم - كما مر بنا في الفصل الماضي - على قتله قائلاً (٢) :

لَابْنِ الْخَصِيبِ الْوَيْلُ كَيْفَ انْتَبَرَى بِإِفْكِهِ الْمُرْدَى وَإِبْطَالِهِ

وهو جانب في البحترى لاحظته بعض معاصريه - كما مر في غير هذا الموضوع - إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجننه لبعض مملوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلاً من أن يثير ذلك في نفسه ضروباً من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما في أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدمات لذلك مثلاً موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائزته حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذي يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعاً بمثل قوله (٣) :

(٣) الديوان ١/٢١٥ .

(١) الديوان ٢/٨٥٠ . ابدع : تفرق .

(٢) الديوان ٢/١٦٣٧ .

بكى المنيبرُ الشرقُ إذ خَارَ فوقه على الناس ثورٌ قد تدلّت غباغِبُهُ<sup>(١)</sup>  
فكيف رأيت الحقَّ قرَّ قراره وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه  
وكان المعتر من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره  
وتسجيل الأحداث لزمه ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، وما  
سجله من الأحداث لعهدده وعهد المستعين قتل القائد التركي أتامش وكتبه شجاع<sup>(٢)</sup> .  
لسنة ٢٤٩ و قتل بُغا الشرابي<sup>(٣)</sup> قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركي  
وصيفاً<sup>(٤)</sup> الكبير وابنه صالحاً<sup>(٥)</sup> ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً  
في الإلام به . ويكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبي صالح  
محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويتضرر قواد الترك المعتر إلى خراع  
نفسه في سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدي بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه  
ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملاهي ومتاع الحياة الزائل ونشره  
للعدل في ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان  
ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم  
البحترى ، وكان الخليفة الحقيقي لعهدده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع  
التدبير ، وهو الذي قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بليزان  
هزيمة ساحقة . ويصور البحترى في مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها  
الحربية ، ويصف القصر الذي احتفل ببناؤه وسماه المشوق ونوه به ، وله قصيدة  
رائعة يهني فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقواه<sup>(٦)</sup> :

أخذت بوثر الدين مثنى وظفرتُ يداك فلم يُفلتْ عدوٌ تطالبُهُ  
ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ومدحه ويأخذ جوائزَه ، وكان  
المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فازمه  
البحترى ، وفكّر في أن يرجع منه الضياع الكثيرة التي كان المتوكل أقطعها إياه ؛  
فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته<sup>(٧)</sup> :

(٤) الديوان ١٤٠٣/٣

(٥) الديوان ٢١٧٤/٣

(٦) الديوان ٢٢٤/١

(٧) الديوان ٤٩٣/١

(١) خار : صاح . النباغب : ماتغضن

من الجلد في منبت المثنون أو اللحية حول النقن .

(٢) الديوان ٥٢٤/١

(٣) الديوان ٢٠١٩/٣

أمرتَجَعُ منى جباةِ خلائفِ توليتُ تسييرَ المديحِ لهم وحدى

تصومر جزعه المفرط ، ويتوفى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكياً ضارِعاً ، فيجعل أمره إلى كاتبه السببي ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائثته (١) :

لك الخلائقُ فينا السهلةُ السُّمُحُ والنَّيْلُ يَسْلُسُ للرَّاجي وَيَنْسِرِحُ

ولا يكاد يسمعا الحسن حتى يبلغ بالبحترى ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه (١) .  
ويترك الحسن الوزارة سريعاً ويتولاها سليمان بن وهب الذى استوزره المهتمدى من قبل ، ويقدم إليه البحترى مدائحها ، ويعصف به الموفق فى سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، والبحترى فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصقر إسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويكثر البحترى من مديح ابن بلبل ، ويهجو له فى بعض مديحه ابن شيرزاد الذى طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانياً يسمى إسرائيل ، ويلح على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله (٢) :

وأعتقت الرقابَ فمرَّ بعثى إلى بلدى وأنت به جديرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصارى ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفى أخيه عبدون الراهب وابنه أبى عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفاً ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحترى يكثر له فى إحدى مدائحها من ذكر النجوم (٣) . ومن كبار الكتّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوبة صاحب ديوان الرسائل . وفى أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكو تكين والهيم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام والى الشام وسيا الطويل والى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة والى الرى

(٢) الديوان ١١٦/٢ .

(٣) الديوان ١٢٦٨/٢ .

(١) الديوان ٤٣٨/١ وأخبار البحترى

وكتاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصرأ ليطالبهم برسومه<sup>(١)</sup> . ومن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي والى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلام ببغداد ، وعُني بمدح كثيرين من آل طاهر حكاًمها كما مرّ بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلماؤها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطرّبي والمبرد النحوي ، ومدح عبید الله بن خرداذبة الجغرافي صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحري ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة في خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلاً<sup>(٢)</sup> :

أخشي الخراجَ وقد دعوتُ لعُظمه      ملكَ الملوك      ورافدَ الرُفاد

ومضى عمال الخراج يشقلون عليه ، وهو كل يوم يمشلُ بين أيديهم شاكياً ملحاً في أن يحطّوا عن كاهله ما يطلبونه منه ، ولا يكاد يظفر بما يتغنى منهم ، فيفكر في مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرّح في مدحه له بما في نفسه قائلاً<sup>(٣)</sup> :

فأصبحتُ في بغدادَ لا الظلُّ واسعٌ      ولا العيشُ غُضٌّ في غُضارته رطبٌ  
أمدحُ عمالَ الطّساسيجِ راغباً      إليهم ولي بالشام مُستمتعٌ رغبٌ<sup>(٤)</sup>

وكل شيء يؤكد أن البحري كان قد أثرى ثراء فاحشاً منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالاً جمّة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفي مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين في دواوين الخراج والضيايع ، ويقول الصولي إنه كان يوجب على إبراهيم في كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استأحه مرة لشراء ضيعة فلاهه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

(٤) الطساسيج : الإقطاعات والضيايع ،

ويقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين

طسوجا . رغب : متسع .

(١) الديوان ١٨٥٦/٣

(٢) الديوان ٧٣٤/٢

(٣) الديوان ١٢٢/١



كثرت وعظمت ، غير أن البحترى تمادى في إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التي يقول فيها<sup>(١)</sup> :

وما زالتِ العيسُ المراسيلُ تنبِرى فيُقضى لدى آل المدبر حَاجُها<sup>(٢)</sup>  
ولم لا أعالى بالضياح وقد ذنأ على مداها واستقام اعوجاجُها  
إذا كان لي ترزيعُها واغتلاؤها وكان عليك عُشرُها وخراجُها<sup>(٣)</sup>

فأمر له بالمال الذي يشتري تلك الضيعة به<sup>(٤)</sup> . وكلما تقدمنا مع البحترى في الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياح وأموال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلح عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويُسَهديه إليه<sup>(٥)</sup> . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعاً جاوره البحترى في بعضه ، وكأنه لم يكتف بما صار في يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التي تجاوره ، وتشفع إليه بأبيه وصنع في ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحد الخلفاء غير مدافعٍ كرمأ وأحسنهم ندى وصنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلاً له : اقض حاجة البحترى ، فوهبها له<sup>(٦)</sup> . وتظل عنده شهوة تملك الضياح والإقطاعات ؛ إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعاً<sup>(٧)</sup> ومن ابنه أبي صالح ضيعة<sup>(٨)</sup> ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً<sup>(٩)</sup> . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً<sup>(١٠)</sup> وسيوفاً<sup>(١١)</sup>

أنه أمر بأن يزور بلدته على خيل البريد

الرسمى . انظر الديوان ١٥٣٦/٣ .

(٦) أخبار البحترى ص ١٠٥ والديوان

١٣٠٩/٢ .

(٧) الديوان ١٥٢٤/٣ .

(٨) الديوان ١٠٠٨/٢ .

(٩) الديوان ٢٠٤١/٣ .

(١٠) انظر الديوان ٣٩٩/١ ، ٣/

١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠٠ .

(١١) الديوان ١٧٤١/٣ .

(١) الديوان ٤٢٧/١ .

(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق

السهلة السير .

(٣) الترييع : الإنماء . والعشر : عشر

الثمار وهو الخراج المفروض .

(٤) أخبار البحترى للصوى ص ١١٩ .

(٥) انظر التحف والهدايا للخالدين نشر

سامي الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٩٧/٣ ،

وأخبار البحترى ص ١٠٨ وقد عدد في القصيدة

عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف

وشرابياً<sup>(١)</sup> وثيابياً<sup>(٢)</sup> وغلماًناً<sup>(٣)</sup>. وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحِّه وما يقال من أنه كان يمشى في موكب من غلمانته<sup>(٤)</sup>، فقد كانوا جميعاً هبات من ممدوحيه، وخصَّ نسيماً من بينهم بغزل كثير، وكان قد أهداه إليه محمد<sup>(٥)</sup> بن عيسى القمي كاتب أبي سعيد الثغرى، وفي الأغاني «أن البحترى جعله باباً من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيِّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يستنقُ عنده الأدب، فإذا حصل في ملكه شبَّب به وتشوَّقَه ومدح مولاه حتى يهبه له، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكُنِيَ الناس أمره<sup>(٦)</sup>. وقد يكون أبو الفرج مبالغاً في ذلك، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل، وقد ملحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه، فرده عليه<sup>(٧)</sup>، وأهل في ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر، وقد ظلَّ يُلْحِفُ في سؤال العطاء والضياع فكان طبيعياً أن يلفت إليه أنظار معاصريه، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينبي يَحْتال في التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر. ويفكر في الإفادة من أحمد بن طولون - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص ويونس بن بُغْغَا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلَّابى .

ويُتَوَقَّى ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ وترى البحترى في بعض قصيده<sup>(٨)</sup> يجمع بين مديحه ومديح أبي الصقر إسماعيل بن بابل وزير المعتمد .

وفي سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنيه أبي عيسى العلاء وأبي صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أهوالهم وأسبابهم<sup>(٩)</sup>، ويتوفى أبو عيسى العلاء في الحبس بعد ثلاثة عشر يوماً ويكتب البحترى، ويرثيه بقصيدة يقول فيها<sup>(١٠)</sup> :

- |                               |                                     |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| (١) الديوان ١/٤٠٧، ٤٢٧، ٤٩١،  | بالمدة لابن رشيق ٢/١٥٠ .            |
| ٥٥٩، والأغاني ١٨/١٧١ .        | (٥) الديوان ١/٥٢٧ .                 |
| (٢) الديوان ٢/٨٣٧، ٨٩٢ وأخبار | (٦) الأغاني ١٨/١٧١ .                |
| البحترى ص ١١٥ .               | (٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها . |
| (٣) انظر مثلاً ٢/٩٨٦، ١٠٦٧،   | (٨) الديوان ٢/٩٠٩ .                 |
| ١٤٨٥/٣ .                      | (٩) تاريخ الطبرى ١٠/١٠ .            |
| (٤) راجع الأغاني ١٨/١٧٠ وقابل | (١٠) الديوان ٣/١٥٥٣ .               |

ولم أرَ كالدنيا حَلِيلَةً وامتق محباً متى تحسُنْ بعينيه تَطْلُقِ  
تراها عياناً وهى صنعةٌ واحدٍ فتحسبها صُنْعِي لَطِيفٍ وأخرقِ

وحين سمع بعض خصومه البيهقيين شتتوا عليه بأنه شنوى يؤمن بالهوى والنور والظلمة ، وشاع ذلك في عامة بغداد وكانت غالبية عليها حينئذ ، فخافهم البحري على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولي أن أول ما رأى البحري سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد في مسجده ببغداد . ونظن ظناً أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سبباً في أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه<sup>(١)</sup> ، ويبدو أنه كان يلقاه في رحلاته بالشام ، ثم مدّها إلى مصر للقائه . ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت عكته كسيرة فلم يقيم بمصر طويلاً وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبى نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحري يأخذ بمحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية في عصره ، وليس معنى ذلك أنه تخصص في أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد في جميع أنحاء العالم العربي حينئذ ، ويرمز إلى ذلك في شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول في مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل<sup>(٢)</sup> :

خُلِقُ أَتَيْتَ بِفَضْلِهِ وَسَنَائِهِ طبعاً فجاء كأنه مصنوعُ  
وحديثٌ مجدٍ عنك أفرط حُسْنُهُ حتى ظننّا أنه موضوع

وفي ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوي وتفسير وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا طبيعي لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقاً ، فكان لا بد له أن يتزوّد من اللغة ومن

(٢) الديوان ١٣١٦/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٩٧/٣ .

النحو ومن التاريخ العربي الإسلامي ، ونراه في بعض شعره يعرض لعالم لغوى في عصره هو الفضل بن محمد اليزيدى ، رآه يزرى على جميل وكثير ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق في الفاعل والمفعول (١) .

وكان لا يبارى في ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلة ومشابهة لأستاذه أبى تمام في حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً في معانى الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف في تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير . وبالمثل كان يكب على دواوين الشعراء المحدثين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحرى كان مثقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقاً له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعنى أنه كان ملماً بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلم من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضّر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكوّن في النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة في المحافظة ترى أن الشعر ينبغي ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهى بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة في التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهى بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهى لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفاً وسطاً ، فهى تقرأ ما يترجم وهى تنظر فيما أثار عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس البلاغة العربية تترنّها موازين دقيقة ، وهى بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالباً إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، ولما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

(١) الديوان ٣/ ١٨١٧ وما بعدها .

لأنها كانت تجافى الذوق العربي . غير أن هذه البيئة أخذت تشنُّ حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على ممثلها البحترى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحترى وفى مقلمتهم ابن الروى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عزله عن وظيفته ، وسارع البحترى فلمسح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم ، ورداً عليه عبيد الله يمدُّه صديقه ابن الروى بأشعار ملتبهة ، ويبدو أنهما نددَا بضعف ثقافة البحترى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقاً ، مما جعله يهجو عبيد الله بيانية يقول فيها<sup>(١)</sup> :

كلّفتمونا حدودَ منطقتكم والشعرُ يغنى عن صدقه كذبُهُ  
ولم يكن ذو القُرُوحِ يلهجُ بالـ منطق ما نوعُهُ وما سببُهُ  
والشعرُ لمنحُ تكفى إشارته وليس بالهذر طوّلت خطبُهُ

وحقاً لم يكن امرؤ القيس الملقب بذى القُرُوح يعرف فلسفة ولا منطقاً لا لأنه صدّ عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحترى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الروى وأضرابه وغدّى بهما شاعريته غذاء رقيقاً . وهو يلمسح فى الشطر الأخير إلى ابن الروى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر - كما أشرنا إلى ذلك مراراً - إلى أن ترجح كفة البحترى المحافظ كفة ابن الروى المجدد، وأن يقف فى صفه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الروى يعيش لعصره فيما يشبه عزلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقاً واضحاً بملكاته الشعرية الحصبة ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحترى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبي تمام وشعر من سبقوه... أمثال مسلم وأبي نواس وبيشار، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرّات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعته معاصروه طويلاً بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفي ذلك يقول ابن الرومي لأبي عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن في ربوع بغداد<sup>(١)</sup> :

أيسرق البحترى الناس شعرهمُ      جهراً وأنت نكّال اللصّ ذى الرّيبِ

وأهم ديوان ألحّ على تمثله ديوان أستاذه أبي تمام ، ولاحظ ذلك كله القلماء فأفردوا سرقاته بالبحث ، وكان أول من عنى بذلك عنده معاصره أحمد بن أبي طاهر؛ إذ استخرج له ستمائة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبي تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه في رأى ابن أبي طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبي تمام ، وعليه اعتمد الآمدى في الفصل الذى عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفي رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعانى والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقاً أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعانى عنده وعند أبي تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره في ليقة المنطق ، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية ، فالمعانى والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القلماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع في الشعر<sup>(٢)</sup> ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع في شعره للمنطق على نحو ما صرح بذلك آنفياً . وظاهرة ثانية هي أنه جرى أستاذه في

(٢) العمدة لابن رشيق ١/١٠٩ .

(١) ديوان ابن الرومي (نشر كامل

كيلاني) ص ٣٥ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبي تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلاً ينجح إلى استخدام نوافر الأضداد في أشعاره كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول ، ولم يكن البحرى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفى بالطباق بحيث إذا ذُكر الوصل مثلاً ذُكر معه الهجر ، وإذا ذكر الدل ذكر معه الكبر ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضاً في حديثنا عن العصر العباسي الأول ، ولم يكن البحرى يتعمق هذا اللون تعمقاً من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم ، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربي<sup>(١)</sup> ، يريدون محافظته على أصوله الموروثة ، ومن تتمه ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبي تمام ، ولا كان يستطيع أن يتغلغل في دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التي لا تنضب في أشعاره ، ولذلك كان يشيع في أشعاره الغموض ، مما جعل القدماء يختلفون في فهم كثير من أبيانه وتفسيرها وتأويلها ، لكثرة ما توحى به من معان ، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء ، بل إنك تجد في أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة في أشعاره ، وهي أقواس بهيجة ، تزهى بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد .

ولكن إذا كان البحرى لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلاً لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها في الجرس بل بين حروفها وحركاتها . ملاءمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصنفى مروقاً ، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة . وقد وقفنا طويلاً عند هذا الجانب في الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلمته بين أصوات الألفاظ والقوافى في بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

(١) الموازنة للامدى (طبعة الجوائب) ص ٢ .

مدى التوافق الصوري عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحرّي ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية<sup>(١)</sup> . وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافي ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبي تمام ، وإذا النقاد يتقابلون في صفّين : صفّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق في المعاني والأخيلة ، وصف يرفع البحرّي إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرهفة الذين يُكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين ، وكان البحرّي نفسه إذا سُئل عنه وعن أبي تمام قال : جیده خير من جیدی وردیئ خیر من رديئه ، وهو يريد بجيد أبي تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التي لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يخلق في آفاقها ، أما رديئه فيريد به بعض أبياته التي يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يُعنى بألفاظه وأصواته عناية البحرّي .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحرّي ، فقد عاش ، كما مرّ بنا ، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزراءهم ولانهم وقوادهم وكتّابهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعدّ الشاعر الرسمي لها ، وكان طبيعياً لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك في أشعاره ، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف في صفوفهم مدافعاً عنهم مناضلاً بمثل قوله للمتوكل<sup>(٢)</sup> :

شرفاً بنى العباس إن أباكمُ      عمّ النبيّ وعيضة المتفرعُ  
 إن الفضيلة للذي استسقى به      عمرٌ وشفعٌ إذ غداً يستشفعُ  
 وأرى الخلافة وهي أعظم رتبة      حقاً لكم ووراثَةٌ ما تُنزعُ  
 أعطاكموها الله عن علمٍ بكم      والله يُعطي من يشاء ويمنعُ

فالعباس جلد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينما على بن أبي طالب من الفروع ، ويستدل على

(٢) الديوان ١٣١١/٢ .

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة السابعة - نشر دار المعارف) ص ٧٧ وما بعدها .



فضله بأن عمر استسقى به في عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعاً به لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بَابن أبي طالب ، ويشير إلى حكم الميراث في الإسلام وما فرضه من حَسْبِ العم لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء علي وحفدته أى حق في منازعتهم . ويكرر البحتري في مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعلمهم الذى ينشرونه في ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورفقتهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرارة . وكان ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده فيهم ، فن ذلك قصيدته في وصف موكب المتوكل في أثناء خروجه لأداء الصلاة في عيد الفطر ، وقد صور في فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة في جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول (١) :

افتنَّ فيك الناظرون فإضْبَعُ      يُومَى إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْظُرُ  
يجدون رويتك التى فازوا بها      من أنعم الله التى لا تُكْفَرُ  
ذكروا بطلعتك النبىَّ فهلَّلوا      لما طلعت من الصفوف وكَبُرُوا  
حتى انتهيتَ إلى المصلَّى لابساً      نور الهدى يبدو عليك ويظهر  
فلو أنَّ مشتاقاً تكلف فوق ما      فى وسعه لسعى إِلَيْكَ الْمُنْبِرُ

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد عاش نحو خمسة عشر عاماً يمدحه منوهاً بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته في تسديد الأمور ، وعونه للضعيف وردة للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبعُد غَوْرِهِ ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه وتواضعه ومع صيانه للثغور وحطمه بجيوشه للثوار والأعداء حطماً لا يبقى ولا يذر ، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلَّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها في الفصل الماضى . ومديحه

(١) الديوان ٢ / ١٠٧٢ .

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودّاً وحبّاً وإخلاصاً ، وكان ما يبني يتغنّى بمدحيه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيئته<sup>(١)</sup> :

إذا ما مشى بين الصفوف تقاصرتُ رءوسُ الرجالِ عن طُوالِ سَمِيدِعِ<sup>(٢)</sup>  
وإن سار كُفُّ اللحظُ عن كل منظرٍ سواه وغيَّضَ الصوتُ عن كل مَسْمَعِ  
فلست ترى إلا إفاضةً شاخصٍ إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإصبعِ<sup>(٣)</sup>

ومرّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمدحيه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبي تمام الذى كان فى مقدمة من قمعوا ثورة بابك الحرمى ، كما كان فى مقدمة جيوش المعتصم فى غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعاً ، مجسماً بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافتون على الوغى كما يتهافت الفراش على النار ، لأنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رحاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله فى تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ، ومن طريف ماله فى تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه فى الحرب قوله<sup>(٤)</sup> :

لقد كان ذاك الجأشُ جأشُ مسالمٍ على أن ذاك الزىُّ زىُّ محاربِ  
تسرَّع حتى قال من شهد الوغى لقاءً أعاد أم لقاء حبايبِ  
وصاعقة فى كفه ينكفى بها على أرويس الأقران خمس سحائبِ  
فجأشُهُ مطمئنٌ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه فى سلِّمٍ وأمنٍ ودعة  
مع أن الزى زى محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال الحب على  
حمى معشوقته هائناً مغتبطاً ، وإن السيف فى يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط  
على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب مائتة ترسل  
عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثانى فى ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد  
سجّل بطولته فى معركة بحرية دمّر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطى تدميراً ذريعاً ،  
ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

(١) الإفاضة : الاتجاه بالبصر .

(٢) الديوان ١٧٨/١ .

(٣) الديوان ١٢٣٩/٢ .

(٤) السيد الكرمى الشجاع .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل في تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعدّ في بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحرين الذين سحقوا الأسطول البيزنطي وجنوده محقماً<sup>(١)</sup> :

غدوتَ على الميمون صُبْحاً وإِنَّمَا      غدا المرْكَبُ الميمونُ تحت المظفِرِ  
وحولك رَكَّابون للهول عاقروا      كثوس الردى من دارعين وحُسْر<sup>(٢)</sup>  
صَدَمْتَ بهم صُهَبَ العثانين دونهم      ضرابُ كإيقاد اللَّظَى المتسعرِ<sup>(٣)</sup>  
يسوقون أسطولا كأن سفينه      سحائبُ صَيْفٍ من جَهَامٍ ومُمْطِرِ<sup>(٤)</sup>  
فما رِمْتَ حتى أَجَلْتَ الحربُ عن طُلَى      مقطّعةٍ فيهم وهامٍ مطيرِ<sup>(٥)</sup>

وكل شيء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد<sup>(٦)</sup> . وقد يكون في ذلك مبالغة ، على أننا نجد في الديوان رائية مرددة بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد والى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها<sup>(٧)</sup> . ويدخل في هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصاً<sup>(٨)</sup> ، وقد عرضنا لذلك في غير هذا الموضوع ، ولا شك في أن في العدد مبالغة .

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة ، وإما إلى كفران صنعة عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

(٥) رام يريم عن المكان: زال عنه وفارقه .

الطل: الأعناق . الهام : الروس .

(٦) الموشح ص ٣٣٦ .

(٧) الديوان ٢/٨٧٠ وما بعدها .

(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

(١) الديوان ٢/٩٨٢ .

(٢) الردى : الموت . الدارع : لابس

الدرع . الحاسر : عكس الدارع .

(٣) صهب العثانين : شقر اللحي ، ويريد بهم

الروم .

(٤) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .

يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويرَوَى عن ابنه أبي الغوث أن السبب في ذلك أن أباه أحرق هجاءه في الناس خوفاً من مغبة عداوتهم له ولأبنائه ، وكان هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه<sup>(١)</sup> .

وبالمثل الفخر عند البحترى ضعيف ، هو حقاً يفخر في بعض قصائده بأله وعشيرته بخر وقبيلته طيبي ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر في ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصبية القبيلة ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبته أيضاً ضعيفاً ، ومرت بنا في الفصل السالف قصيدته في إيوان كسرى وبكاؤه لأجداد الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من الإحساس العميق بالأجداد العربية في مقابل الأجداد الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل في إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا في مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلاً<sup>(٢)</sup> :

إن للمِهْرَجَانِ حَقًّا عَلَى كَلِّ كَبِيرٍ مِنْ فَارِسٍ وَصَغِيرٍ  
عِيدُ آبَائِكَ الْمَلُوكِ ذُوِي النَّبِيِّ جَانِ أَهْلِ النَّهْيِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ<sup>(٣)</sup>

ويعدّ طائفة من هؤلاء الملوك في مقدمتهم يَزْدَجَرْدُ ، وكسرى ، وأرْدَشِيرُ ، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير . وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحترى ، إذ امتدح كثيرين من النصاري على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع .

وذكرنا في الفصل السالف مرثيته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذي ناصرهم ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفرى الذي قُتِلَ به الخليفة وما حُلَّ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه ماتم كبير ،

(١) الأغاني (طبعة السامى) ١٦٧/١٨ . (٢) الخير : الكرم والشرف .

(٢) الديوان ٢/ ٨٨٦ .

ويصور فزع سيداته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرماته  
ثم يصف القتل والقتلة ووصفاً مؤثراً . وله مرثية رائعة يرثي بها طائفة من بني  
حميد الطوسي خربوا صرعى في ميادين الثغور دفاعاً عن العرين العربي ،  
وفيهم يقول<sup>(١)</sup> :

قبورٌ بأطراف الثغور كأنما      مواقعهم منها مواقعُ أنجم-  
مضوا يستلذون المنايا حفيظةً      وحفظاً لذلك السؤدد المتقدم  
وكلهم أفضى إليه حمأمه      أميراً على تدبير جيش عرمرم<sup>(٢)</sup>  
مساعٍ عظامٍ ليس يبلى جديدها      وإن بليتٍ منهم رائمٌ أعظم

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء  
لوطنهم بأرواحهم واستبسالا بعد أن أذاقوا الأعداء كثوس الموت دهاقاً .

واشتهر البحترى بإجادته للغزل ، ومرّ بنا أنه أحبّ في شبابه عذوة الحلبية  
وظلت ذكراها لا تبارحه ، وظلت تستولى على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا  
إليها وبادلته ودأ بود ، ثم تزوجها الذفاني كما أسلفنا ، فسلت عنه ، ولكنه لم يسئل  
عنها ، وفي ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابته ،  
وإن كنا نظن ظناً أنها منحولة عليه ، فقد ظل قلبه لها في سامراء وبغداد كما ارتحل  
عنها ، فهو لا يني يذكرها بمثل قوله في مقدمة ملحه للمعترز<sup>(٣)</sup> :

كم ليلةٍ فيكٍ بتُّ أسهرها      ولوعةٍ في هواكٍ أضمرها  
وحرقه والدموعُ تُطفئها      ثم يعود الجوى فيُسعِرها  
يا علوَّ علِّ الزمانَ يُعقبنا      أيامٍ وصلٍ نظلُّ نشكرها

وكان السنوات الطويلة التي مضت بين حبه لها في شبابه ومدىحه للمعترز  
وهو في نحو الخمسين من عمره لم تطفىء لوعته وحرقته ، فقد ظلت نار شوقه وحبه

(٣) الديوان ٢/ ١٠٧٤ .

(١) الديوان ٣/ ١٩٤٥ .

(٢) عرمرم : كثيف .

لها مشتعلة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها في قطع مفردة وفي مقدمات مدائح  
من مثل قول<sup>(١)</sup> ه :

وخلافُ الجميل قولك للذَّا كر عهدَ الأحبابِ صَبْرًا جميلاً  
لا تَلْمُهُ على مواصلةِ الدَّمِّ معِ فلوْمُ لَوْمُ الخليلِ الخليلاً  
عل ماءَ الدموعِ . يُخمد ناراً من جَوَى الحبِّ أو يبلُّ غليلاً

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من  
دقة في التصوير والتعبير ، ولم يكده يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو  
مسهباً ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرّ بنا وصفه الرائع  
لإيوان كسرى ، ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتز وفيه  
يقول<sup>(٢)</sup> :

ذُعِرَ الحَمَامُ وقد ترنَّم فوقه من منظرٍ خَطِرِ المزلَّةِ هائل<sup>(٣)</sup>  
رُفِعَتْ لمنخَرِقِ الرِّيحِ سموكُه وزهتْ عجائبُ حسنه المتخيل<sup>(٤)</sup>  
وكأنَّ جِيْطَانِ الزجاجِ بجوِّه لُجِجٌ يَمُجِّنَ على جُنُوبِ سواحلِ  
لبستُ من الذهبِ الصقيلِ سُقُوفُه نوراً يضيء على الظلامِ الحافل<sup>(٥)</sup>

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجرى  
فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصبأ الحاني . وكان القدماء يعجبون أشد  
الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها  
يقول البحترى<sup>(٦)</sup> :

يا مَنْ رَأَى البِرْكََةَ الحسنة رُوِّيتُها والآنساتِ إذا لاحت مغانيها<sup>(٧)</sup>  
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حَبْلٍ مُجْرِيها

(٥) الحافل : الكثير .

(٦) الديوان ٢٤١٦/٤ .

(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت

مناظرن تحف بالبركة .

(١) الديوان ١٧٦٧/٣

(٢) الديوان ١٦٤٨/٣ .

(٣) المزلّة : المزلق .

(٤) منخرق الرياح : مهجا . سموكه : أعاليه .

كأما الفضة البيضاء سائلاً من السبائك تجرى في مجاريها  
فرونق الشمس أحياناً يضاحكها ورقيق الغيث أحياناً يباكيها  
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

ويتحدث عن السمك المحصور في البركة والصحن الممتد في أسفلها والبهو الممتد في أعاليها وتمثال الدُّلْفَيْن الذي كان مقاماً عليها ، والبساتين والرياض التي تحف بها والأزهار التي تشبه ريش الطواويس في تلاوينها العجيبة . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحترى الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى بملكاته الخصبية القصور في ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

## ٣

## ابن الرومي

هو علي<sup>(١)</sup> بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي . وكان يوناني الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، ونراه في شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحياناً من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجِّي ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجمِ

شعره) للعقاد وحصاد الهشيم للمازني، ومن حديث الشعر والنثر لطف حسين ، والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٠٠ . واختيارات كامل كيلاني من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومي ولا يزال الديوان مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومي وشعره ترجمة حسين نصار .

(١) انظر ترجمته وأشعاره في مروج الذهب ١٨٢/٤ ، ١٩٤ ، وتاريخ بغداد ٢٣/١٢ والموشح للمرزباني ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٩٦/٣ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٨٨/٢ ، ومرآة الجنان لليافعي ١٩٨/٢ وابن داود في كتابه الزهرة وديوان المعاني للمسكري في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وابن الرومي (حياته من

وقوله في مواليه العباسيين :

مولاهمُ وَغَدِيُّ نِعْمَتِهِمُ وَالرُّومُ - حينَ تَنصُنِي - أَصْلِي

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وختولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهي نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوي الأصول الفارسية يدعونها ، ومن فخره بنسبه العريق - في رأيه - من قبيل أبيه وأمه قوله :

كيف أغضى على الدنية والفُرُّ سُ خُثُولِي وَالرُّومُ هُمُ أَعْمَامِي  
وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نَضُوا ضَيْلًا نَحِيلًا دَمِيمِ الْوَجْهِ  
تفتحمه العيون ، وظل طوال حياته يَسْعَى على نفسه دقة جسمه وضالته وقبحه ،  
وله في ذلك أشعار كثيرة يصرح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذي  
كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبداً ، وله مقطوعة يصور  
فيها صلعه وقبح وجهه ، ونراه يختمها بقوله<sup>(١)</sup> :

شُغِفْتُ بِالخُرْدِ الْحَسَانِ وَمَا يَصْلِحُ وَجْهِي إِلَّا لِذِي وَرَعٍ  
كَيْ يَعْبُدَ اللَّهُ فِي الْفَلَاةِ وَلَا يَشْهَدُ فِيهَا مَسَاجِدَ الْجَمْعِ

ويبدو أن أباه كان على شيء من اليسار ، وحقاً توفي في مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل في الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومي في نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن الرومي أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئاً من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبي ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء في المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التي عني

(١) الديوان (مخارات الكيلاني) ص ١ .



بها الرشيد والمأمون مدَّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضاً يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلاً نادراً<sup>(١)</sup> . وتكثر في أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . ومما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا في غير هذا الموضع — يعتنق الاعتزال . ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسرى أثر ذلك في أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجسياً لهم ، ويذكر معاصروه أيضاً أن من كان يلقاه يراه كالمتهوِّس المدعور ، وكأنما كان في أعصابه شيء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذي أعدّه لأن يصبح أكبر شاعر متطير في عصره . وكان إذا روجع في كثرة تطيره احتج بقوله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، أفتراه كان يتفاعل بالشيء ولا يتطير من ضده ، ويقول إن علياً لم يكن يغزو غزاةً والقمر في برج العقرب ، وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها<sup>(٢)</sup> . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فيرى جارا له أحذب كان نازلاً بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب<sup>(٣)</sup> . وافتهقه في مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلاماً يسمى إقبالاً ليتفاهل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكده يزعم على المضى معه حتى بدا له اسمه معكوساً هكذا : لا بقاء ، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما في نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلاماً له يسمى حسناً ، وكان حسن الوجه ، طالباً إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تسمّر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

(٢) زهر الآداب للحصري ١٧٢/٢ .

(٣) زهر الآداب ١٧٧/٢ .

(١) أشار أبو العلاء في رسالة الغفران

إلى تفسلف ابن الرومي قائلاً إنه كان يتعاطى

الفلسفة . انظر طبعة كيلاني ٧٤/٢ .

أن « لا تمرّ » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام<sup>(١)</sup>. ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختلق عليه اختلاقاً . ويتوقف القدماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوبة الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته في سامراء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد براً وبحراً بمثل قوله<sup>(٢)</sup> :

لقيتُ من البرِّ التباريحَ بعد ما لقيت من البحر ابيضاصَ الذوائبِ  
وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك في باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفي تطيره ، إنما ننفي المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومي يتطير حقاً ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لئرى الأخفش على بن سليمان النحوي ، وكان قد هجاه ، يقتصّ لنفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب في الصباح ، فإذا قال من القارح ؟ أجابه بمثل مُرّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التي تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه في بيته ، ولا يخرج يومه أجمع<sup>(٣)</sup> .

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حداثاً في الكتاب ، إذ تُروى له أبيات حينئذ في هجاء غلام عباسي يسمى جعفرأ كان زميلاً له ، وكان ذلك كان إرهافاً بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر - كدلائه - حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على عليّة أهل بغداد ، وكان طبيعياً أن يعرضه على كبار الموظفين ورجال الدولة وفي مقدمتهم أبو العباس محمد بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذي قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميراً لخراسان وخلّفه عليها ابنه طاهر . وحاول ابن الرومي الزلفي إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع في ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومي ، وغاظ الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

(١) انظر في هذه الأخبار زهر الآداب

وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيح ٤٠/١

ومعاهد التنصيص ١٤٣/١ .

(٢) انظر القصيدة في الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد

التنصيص ٤٣/١ .

الروى يوجه إليه مثل قوله (١):

مدحت أبا العباس أطلب رِفده فخيبتني من رِفده وهَجًا شعري

ويبدو أنه كان بخيلا ، وأن بخله كان السبب الحقيقي في انصرافه عن الشاعر ، متعللا بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الروى يصبّ عليه سياطمًا حامية من الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعاً من مثل قوله (٢):

إذا حسنتُ أخلاق قومٍ فبئسما خلفتم به أسلافكم آلَ طاهرٍ  
جنوا لكم أن تُمدحوا وجنيتُم لموتاكم أن يُشتموا في المقابر

وترنو عينه إلى سامراء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة ووزرائها وموظفيها العظام ، ويقدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨ ، ويمدح أحمد بن الخصيب وزيره ، ويعود سريعاً إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون السبب الحقيقي في ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيع فيه كان يضمه في نفسه ، فتركها وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوي أن ينهض بثورة عارمة في الكوفة ضد الدولة ، ويجند جيشاً كثيفاً لحرب العباسيين ، ويلتقي به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠ ، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل في ساحة المعركة ويغضب له ابن الروى غضباً شديداً ، ويرثيه بجميمة (٣) طويلة ، يندبه فيها ندباً حاراً ، مصوراً حرقه حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجَسَجُ  
ويا أسنى أن لا يردَّ تحيةً سوى أَرَجٍ من طيب نَشْرِك يَأْرَجُ  
ألا إنما ناح الحمايم بعد ما ثويتَ وكانت قبل ذلك تهزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكي العلويين جميعاً منذ شهيدهم الحسين المقتول في كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه في عِلِّين ، ويأسى أن يكون للعلويين

(٣) الديوان ص ٢٢٤ .

(١) الديوان ص ٤٣٨ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ .

دائمًا قتيلاً مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُردّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر ، يحطم العباسيين بحيشه الكثيف حطماً . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالحطاب متمنياً أن تزول دولته ودولة آلّه فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعاً ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُمنحَق محققاً فينطقُ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومى يجاهر بتشيعه ، وأهل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثول بين يدى الخلفاء مادحاً ، وبالتالى لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عتبة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام<sup>(١)</sup> . ونمضى مع ابن الرومى بعد مريته الشيعة الآنفة الذكر ، فنجدّه يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه - ومعه أهل بغداد - وبين المعتز الذى بايعه الترك والهند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرومى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الرومى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله<sup>(٢)</sup> :

إن المنية لا تُبقي على أَحَدٍ ولا تهاب أنَا عزٌ ولا حَشْدٌ

وفيهما يُشيد بكرمه وعدله فى الرعية واصفاً حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويتولى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

(١) الطبرى ٩/ ٢٨٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠ .

وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدباً ، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدوّنة . وهو أقرب ممدوحى ابن الرومى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأمّوالاً كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتدوّقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومرّ بنا تعرضه للبحترى ووقوفه ضده مع ابن الرومى ممثلاً للذوق الجليد فى الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الرومى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يجزل له فى العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحساناً ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحترى . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الرومى . وزراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرّف فى هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوبان كاتب القائل التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرّت بنا إشارة إلى ملحة له نظمها حين دعاه لزيارته فى سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة براً وبحراً ، آملاً أن تصله مكافأته فى بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوبان إلى نهاية الطريق <sup>(١)</sup> . وهكذا هو دائماً سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلّة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيل أى شىء عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقطائى كاتبه وزراه يعاتبه لتقديمه البحترى عليه <sup>(٢)</sup> . وأهم من ابن ثوبان وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنئه برياسته لهذا الديوان ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتز . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعزّل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطبرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أعطى بغداد مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الرومى فى صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعزّل ويولّى مكانه هارب ، وكأنما يُجزّى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها ببأسه وشجاعته ، وإنه

(٢) الديوان ص ٢١٧ .

(١) انظر مدحته له فى الديوان ص ٦١ .

لخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام في الحروب ، ويسخر منه في مقطوعات مختلفة من مثل قوله (١) :

هو الأسدُ الورْدُ في قَصْرِه ولكنهُ تَعَلَّبُ المعركة

ويحدث أن يُجتمِع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبياعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأما يجد ابن الرومي في ذلك نكثاً من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصليهِ بقطعة من هجائه قائلاً (٢) :

جاءَ سليمانُ بنى طاهرٍ فاجتاحَ معتزاً بنى المعتصمِ  
كانَ بغدادَ لَدُنْ أبصرتُ طلعتَه نائحةً تلتدم  
مستقبِلُ منه ومستدبرٌ وجَهٌ بخيلٍ وقفًا منهزمِ

وتتطور الظروف ، ويجيب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويُحبِس ويُقتل في محبسه بعد خلعه ستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الرومي يغيّر موقفه من المعتز فيحذّره حين حبس من أن يعاوده التفكير في الخلافة ، وينظم في ذلك قصيدة بائية يقول فيها (٣) :

دَعِ الخِلافةَ يا معتزُ من كَتَبِ فليس يكسوك منها اللهُ ما سَلَبَا

ويتغيّر تبعاً لذلك موقف ابن الرومي من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائحه ، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ، ماكرأ له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبي كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، ويسْتَعْدَى عليه سليمان (٤) بن عبد الله بكافية طريقة سبق أن أنشدنا منها في الفصل الماضي تعليقه المشهور فيها لحجة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصرّفاً على أنه لن يبيع داره :

ولى وطنٌ آليتُ أن لا أبيعَهُ وأن لا يُرى غيرى له الدهرَ مالكا

(١) الديوان ص ٣٤١ .

(٢) الديوان ص ٢٨ .

(٣) الديوان ص ٤٥١ .

(٤) انظر زهر الآداب ٩٩/٣ .

ولوَّح لسليان بأنه يريد منه عوناً مالياً يصلح به داره ، ولكن سليان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطاً شديداً وعاد إلى هجائه بالجن والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بذي اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شمالان حاز إرثهما عن ذى اليمينين شدَّ ما اختلفا  
ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذى كان يُعَدُّ الحاكم الحقيقى حينئذ ،  
إذ قسَّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرماً وهزم يعقوب الصفار  
هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مدعنين خاضعين ، وكان يتخذ  
صاعد بن مخلد كاتباً له ، ورفعته إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتدَّ يُمسُّه حينذاك  
إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد واليهما تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم  
بغداد سنة ٢٥٩ وظلَّ يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله  
ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعاً للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ .  
وأقبلت الدنيا على ابن الرومى مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات  
أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز  
والمهرجان ومع عيدى النطر والأضحى . وفى ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه  
العلاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله  
ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما  
دالية<sup>(١)</sup> طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديحٍ لم يكن في ابن صاعدٍ ولا فى أبيه صاعدٍ فهو حابطٌ  
وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحرى تمتدَّ ، وانقسم الأدباء قسمين :  
قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحرى ، وقسماً مقابلاً  
هو أنصار ابن الرومى وفى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى  
ابن الرومى يهجو خصمه ببائية طويلة<sup>(٢)</sup> يقول فيها إن الحظ أعمى وأولا ذلك ما نال  
البحرى ما نال من الشهرة بشعره الغث فى رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شىء فكله  
إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدى عليه — كما مرَّ بنا فى غير  
هذا الموضوع — العلاء بن صاعد الذى أمَّن الطرق من اللصوص قائلاً :

(٢) الديوان ص ٣٤ .

(١) الديوان ص ٣٩٠ .

أيسرقُ البحتريُّ الناسَ شعرهمُ جهراً وأنت نكال اللصِّ ذى الرِّيبِ  
يعيبُ شعري وما زالت بصيرتهُ عمياءَ عن كل نور ساطع اللهبِ

وفى البيت الثانى ما يدل على أن البحتري كان بدوره يبادلُه نقداً لشعره ،  
وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرَّ بنا ، وأصلَى البحتري أشعاراً  
حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومى  
الذى لا يُلحِقُ شأوه ، والذى تعمق الفلسفة والمنطق . وردَّ عليه البحتري كما  
أسلفنا فى حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشعارين حتى جمع بينهما  
بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطر بلّغى ،  
فتصافيا وتواداً واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومى لم يكن يستطيع أن يُسبِقَ على علاقة حسنة بوزير  
أوبابن وزير ، فقد كان يكفى كل منهما ألا يُنفذ إليه الجائزة أويقال منها ، فإذا هو  
خصم لِدُودٍ ، وإذا هو يَسْئَلُ لسانه وَيَبْئِرُ شعره سهاماً مُدْمية . وهو  
ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذوا يهملان نواله على مدائحهما  
بعض الإهمال واستشاط غضباً ، وأخذ ينزل عليهما شواظ هجائه من مثل قوله (١) :

لِيَهْنِكُمْ أَنْ لَيْسَ يَوْجِدُ مِنْكُمْ لِبُؤْسِ ثِيَابِ الْمَجْدِ لَكِنْ خَلُوعِهَا

وظل يتشتمى حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما فى غياهب السجون سنة ٢٧٢ .  
وكان يتصل ببعض كبار موظفى الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحتري فكانوا  
يردُّونه ردّاً قبيحاً ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدم إليهم من المدائح  
ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحتري وصديقه الذى ولى ديوان  
الرسائل حيناً وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك - كما مر بنا فى الحديث عن  
البحتري - فى حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومى فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلى  
خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ،  
وأصابته شجّة فى وجهه ، وأسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومى  
يشتم به ، ويسجل عليه جنبه وبخله فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، وله يقول (٢) :

(٢) الديوان ص ٦٦ .

(١) الديوان ص ٥١ .



قل لى بآية حيلة أعملتها هتفوا بآنك - لاحتفظت - جواد  
لقد استفاض لك الثناء بحيلة صعب الأمور بمثلها ينقاد

ومرّ بنا أنه تعرف على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع في سامراء ، وظل منذ هذا الحين موصولاً به ، وكان الموفق قرّبه منه واتخذته كاتباً له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون في سامراء ، أو مع الموفق في واسط في أثناء معاركه مع الزنج . ورفع الموفق إلى مرتبة الوزارة فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكّل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه المعتمد ، وفرح ابن الرومي بما ناله ، فدبّج فيه قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> ، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبه ما في الحدائق من فواكه شهية ، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أي حانوت الفواكه ، ومضى بعد ذلك في مديح أبي الصقر مدحاً رائعاً ، غير أنه لما استمع إلى قوله :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان  
ظن أنه يعرّض به ، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيبانياً حقيقة  
فقال : هجاني ، وراجع بعض الحاضرين قائلاً له : إن هذا من أحسن المدح ،  
ألا تسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرفٍ كما علت برسول الله عدنانُ  
فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بي ، وملاه الغيظ والغضب على ابن الرومي ،  
فقبل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان  
لله شيبان قوم لا يشوبهم روع إذا الرّوع شابت منه ولدان  
فاستمر في غيّه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثيبه على هذا الشعر<sup>(٢)</sup> . وواضح  
أن أبا الصقر لم يفهم معاني القصيدة ولا مراد ابن الرومي في البيت الأول وغيره من

(٢) زهر الآداب ١/ ٢٤٤ وما بعدها .

(١) الديوان ص ٢٠ .

الآيات ، فكان طبيعياً أن يجرمه الجائزة ، وكأنه أيضاً لم يفهم قوله في القصيدة مادحاً له :

فَرَدُّ جَمِيعٍ يَرَاهُ كُلُّ ذِي بَصِيرٍ      كَأَنَّهُ النَّاسُ طُرّاً وَهُوَ إِنْسَانٌ

ولم يكن هذا وبالاً على ابن الرومي بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجو ابن الرومي هجاء مرّاً ساخرّاً من ادعائه أنه شيباني حقيقة ، مثبتاً عليه أنه دعى في شيبان لصيق بها ، يقول ساخرّاً هازئاً به (١) :

تَشَيَّبَنَ حِينَ هَمَّ      بِأَنَّ يَشِيْبَا      لَقَدْ غَلَطَ الْفَتَى غَلَطاً عَجِيباً ؟

وقد مضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمي نبطي ، وينعى كيمياء الحظوظ التي أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجو حتى يزج به المعتضد في السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت في سجنه ، وابن الرومي في أثناء هذه النكبة التي حلّت به يهجو أهاجي كثيرة من مثل قوله (٢) :

فَلَنَنْ نُكَبْتَ لَطَالَمَا نُكَبْتُ      بِكَ هَمَّةٌ لَجَأْتُ إِلَى سَنَدِكَ  
يَا نِعْمَةً وُلَّتْ غَضَارَتُهَا      مَا كَانَ أَقْبَحَ حُسْنَهَا بِيَدِكَ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها - كما مرّ بنا - في سنة ٢٦٦ فكان يكتفى بالمعيشة في ظلّاله . وكانت العلاقة بينهما - كما أسلفنا مراراً - وثيقة ، ووظّف له أخوه محمد في بعض فترات حكمه لبغداد ، ومات وهو في خدمته ومات قبله بمدة أمه ، وله فيهما مرثيتان .

وكان طبيعياً أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات في بغداد وفيما حولها من المدن والضواحي ، ومن نراهم ماثلين في ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة في دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتسمّل في ديوانه أسرة بنى نوبخت الفارسية الأصل ، وهي تشتهر من قديم بثقافة

(٢) زهر الآداب ٢٤٤/١ وما بعدها .

(١) الديوان ص ٤٨ .

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهم شخص يُكثر من ملحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن علي ، وكان من رءوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الإثني عشرية ، وفي صلته به ما يؤكد تشييعه وأن من الممكن أن يكون على مثاله إمامياً يعتنق مذهب الاثني عشرية . ومن الأسر التي أكثر من ملحها أسرة بني حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضي إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يملحه في قصيدة بائنة محاولاً أن يبرئ نفسه من تهمة بالزندقة التي نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضي يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبّروا اتهماه بهذه التهمة النكراء ، ويقول لأنهم هم الذين دبّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترى دارك بالحصى والحجارة ، يقول<sup>(١)</sup> :

حملوا حملةً على الدين تحكى      حملة الروم رافعين الصليبا  
وأرادوا بك العظيمة لكن      أوسع الله سعيهم تخيبا  
وكان الغوغاء لما تغاوا      فرموا داركم قضوا تحصيبا<sup>(٢)</sup>  
زعموا أن ذاك غزوٌ وحج      تبب الله أمرهم تنبيبا

ولم ترو كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضي ، ولعل في ذلك ما يدل على أن الشعر في هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرّ بنا عند البحري وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطي وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف . وتردد في الديوان أسماء أصدقاء كثيرين في مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المرثدي وكان كاتباً في ديوان الموفق وابن عمار<sup>(٣)</sup> ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر في عصره . وأكثر قصائده التي وجه بها إلى المرثدي يطلب إليه فيها بعض السمك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

(٣) انظر توصيته لأبي سهل بن نوبخت به

في الديوان ص ١٢٣ .

(١) الديوان ص ٣٠٩ .

(٢) التصيب هنا : ربي الجمار يعني .

بهدية منه ، ولم يرسل السبت التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها (١) :

ما لحيثاننا جَفَتْنَا وَأَنْى أَخْلَفَ الزائرون منتظرهم  
قد سَبَتْنَا وما أَتْنَا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيمهم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى المنجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً وندماً ربيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد ، ولا يُعرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه (٢) :

لَتَهَنَّأُ رجالاً لا تزال تجودهم سحائبُ من كلتا يديك مواطرُ  
عُنيت بهم حتى كأنك والدُ لهم وهم - دوني - بنوك الأصاغر

ومن تدور أسماءهم فى ديوانه جَحَظَّة ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل ، وكان ينادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى المنجم ، نديم مضحك ، يتخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطدم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق ، وابن أبى طاهر وابن الحبازة وخالد القحطبي ، فقد كان يُشِبُّ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحرى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، ومن كان يعيب شعره نفظويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظَلُّه عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩ ، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

(٢) الديوان ص ٢٤٢ .

(١) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

هو السبب الأهم في أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورون عنه اضطراراً لما ذاع من تشييعه. ونرى ابن الرومي يتعرض في أشعاره له لبسالته في حروب الزنج، ولتأخيره النيروز مفتتح الخراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه النيروز المعتضدى قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - وكان عملاً جليلاً. ويذكر بسالته في صيد الأسد، ويهنئه بالأعياد وبزواجه من قَطْرَ الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول في هذه المناسبة<sup>(١)</sup>:

يا سيد العُرب الذى زُفَّتْ له      باليُمْنِ والبركات سيدة العجمِ  
اشعَدَ بها كسُعودها بك إنها      ظفرت بما فوق المطالب والهمم  
ظفرت بِمِلْمَى ناظرها بهجةً      وضميرها نبلا وكفيها كرم  
شمس الضحى زُفَّتْ إلى بدر الدجى      فتكشفتَ بهما عن الدنيا الظلمِ

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائحه لعبيد الله بن سليمان بن وهب، وكان كاتباً مجيداً، ومدبراً لشئون الدولة حصيفاً، وكان له أخ يسمى وهباً مدحه ابن الرومي في غير قصيدة كما مدح ابنه الحسن والقاسم، وهو يهمل طويلاً لحجىء دولتهم، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة، ومن قوله في مديح عبيد الله<sup>(٢)</sup>:

إذا أبو قاسمٍ جادتْ يداهُ لنا      لم يُحمد الأجدان : البحر والمطرُ  
وإن مضى رأيه أو حدَّ عزمتهُ      تأخر الماضيان : السيفُ والقدر  
وإن أضاءتْ لنا أضواءُ عُمرتهِ      تضاءل النيران : الشمسُ والقمر  
ينال بالظن ما يعنى العيانُ بهِ      والشاهدان عليه : العينُ والآثرُ

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه، ولذلك

(التجارية) ص ٢٦٥ .

(١) مروج الذهب للمسعودى ١٨٢/٤ .

(٢) ابن الرومي للمقاد (نشر المكتبة

أخذ يولييه بعض المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أُنابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومي قبل تولي أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجري عليه راتباً ، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجزل له في العطاء ، مما جعل ابن الرومي يُصنّفه مديحاً رائعاً . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومي طبيعته ، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الرشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولوا إبعاده ، وشعّر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر - فيما يبدو - سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحياناً ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعبثاً يناديهم ألا يضمنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب<sup>(١)</sup> حيثذ يفزع إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهاماً مصمية من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

تسميتُمُ فينا ملوكاً وأنتمُ عبيدُ لما تحوى بطونُ المزاوِدِ  
لكم نعمةٌ أضحتْ بضيقِ صدوركم مبرأةً من كلِّ مُثنٍ وحمادِ  
فإن هي زالت عنكمُ فزوالها يجددُ إنعاماً على كلِّ ماجدِ

ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رأيه .

وتردد في الديوان بأخرة من حياة ابن الرومي شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم في عهد المقتدر ، كما تردّد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة لعهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلاً به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثق صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذي نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحي للقاسم يسمى عمراً ، وله فيه أهاج تقطر سما زعافاً ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغويّاً .

ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا دين الصليب وعنوا بتشيد الكنائس وهدم المساجد .

(١) الديوان ص ٢١٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦-٣٩٧ وانظر مقطوعة في كتاب ابن الرومي لروفون جيست

ويغصّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار  
وبدعة وشاجي ودُريرة وغنّاء ووحيد ومظلومة وظلوم ، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمرء  
مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله ، وكان بجوارهن قينات  
وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسامعهن ، مثل شُنْطَف ، وفيها يقول (١) :

وإن سكوتها عندي لبُشرى      وإن غناءها عندي لمنعى  
فقرطها بعقرب شهر زورٍ      إذا غنّت وطوقها بأفعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً في الأكل نهماً شديداً ، ولذلك يكثر  
في أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض ، كما يكثر وصف الأشربة ،  
ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن  
القاسم بن عبيد الله دسّ إليه السم في خشكناجة ، فلما ازدردّها أحسّ بالسم  
في بطنه فقام مسرعاً ؛ فقال له القاسم إلى أين ؟ فأجابه إلى حيث أرسلتني ،  
فقال له : سلّم على والدي عبيد الله ، فأجابه : ما طريقى على النار . والصحيح  
أنه توفي عن نحو ستين عاماً نتيجة لعلله وأمراضه ، وهى على كل حال سن  
عالية .

ولابن الرومي ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن ، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف  
سليم جزعين ، ونشر منه كامل كيلافي مختارات باسم ديوان ابن الرومي ، وهو الذى  
نرجع إليه غالباً . ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ تَوّاً أنه يختلف عن دواوين  
الشعر العربى التى عاصرتة وسبقته ، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها  
وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومُتَع الحياة ،  
وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطرد والقنص وعن المسرات  
والآلام ، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية . ومع ذلك  
سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى ، مع ملاحظة ما يمتاز  
به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبية . ومرّ بنا فى الفصل  
الماضى تصويرٌ من بعض الوجوه لذخائره العقلية ، وكيف أدّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

يتمثل جميع الثقافات في عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصى المعاني استقصاء نادراً حتى لا يكاد يترك في معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل في الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فتبدو في أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير في سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية في العصر ، على حين كان البحرى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولاً مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمداخحه بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوع فيها ، فقد يختار النسب مثلاً ، ولكنه يتحوّل به كما في قصيدته النونية<sup>(١)</sup> التي مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان في المرأة ، حتى سمّى بعض معاصريه - كما أسلفنا - القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف<sup>(٢)</sup> الطبيعة والربيع ويُسند في وصفه ، إذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الوالهيين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يدمج في القصيدة وصف<sup>(٣)</sup> مجلس سماع ؛ فيصور آلات اللطرب ومن يحمّلنّها من القيان في صور بديعة على نحو ما يلقانا في نونته التي مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتي يفتتحها بقوله<sup>(٤)</sup> :

وقيان كأنها أمهاتُ عاطفاتُ على بنيتها حوانٍ

وقد أنشدنا منها قطعة في الفصل الماضي . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخمر . وقد يختار بكاء الشباب الذي طالما تغنّى به الشاعر العربي ، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى في مقدمة قصيدته البائية<sup>(٤)</sup> التي مدح بها علي بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والخضاب ودعاه حداداً كثيباً

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٢) الديوان ص ٨٤ .

(٣) الديوان ص ١٧٧ .

(٤) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل

كيلاني المقدمة وحدها دون المديح .



على الشباب من شأنه أن يبكي صاحبه بدموع غزار ، ثم أخذ يصور سخرية الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لاذعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار والوقوف عند عشرات الآيات لا عند المئات - وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً نحو مائة بيت - ويتفنن بعد ذلك في المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن الشعراء فيه يبالغون ويفرطون في مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ، مسببة لا تحمى وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : ( والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يتهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ) ويستوحى ابن الرومي الآيات قائلا (١) :

يقولون مالا يفعلون مسببةً من الله مسبوبةً بها الشعراء  
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الأُمراء  
فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضاً ما لا يفعل  
الأُمراء ، كذباً وبُهتاناً . وكأن ابن الرومي أحسَّ في قوة ما كان يحمله المديح  
لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنوع في مقدمات المديح فإننا  
نلاحظ أنه حاول التنوع في المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعاني المطروقة ،  
ويوضح ذلك مديحه لعلي بن يحيى المنجم في بائته التي أشرنا إليها ، آنفاً ، فإنه مضى  
فيها يمدحه على هذه الشاكلة :

لَوَدَعَيْ لَه فَوَادٌ ذَكِيٌّ	ماله في ذكائه من ضريب
أَلْمَعَى يَرَى بِأَوَّلِ ظَنٍّ	آخر الأمر من وراء الغيب
لَا يَرُوهُ وَلَا يَقْلِبُ كَفًّا	وأكفُّ الرجال في تقليب
حَازِمَ الرَّأْيِ لَيْسَ عَن طُولِ تَجَرِيدِ	بِ لَبِيبٍ وَلَيْسَ عَن تَلْبِيبِ
يَتَغَابَى لَهُمْ وَلَيْسَ لِمَوْقٍ	بَل لِّلْبِ يُفَوِّقُ لُبُّ اللَّيْبِ
لَيْنٌ عِظْفُهُ فَإِن رِيمٍ مِّنْهُ	مَكْسَرُ الْعُودِ كَانَ جِدًّا صَلِيبِ

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشمائل والملكات ؛

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء في الرأي أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغابى قصداً وسيد القوم المتغابى ، ويبدولين الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب في مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعاني واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضاً على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله في حسّاد صاعداً مصوراً مجده الوطيد<sup>(١)</sup> :

وضدّ لكم لا زال يسفّلُ جدّه      ولا برحتْ أنفاسُهُ تتصعدُّ  
ولو قاس باستحقاقكم ما منحتمُ      لأطفأ ناراً في العشا تتوقّد  
وأتق من عقْد العقيلةِ جيدها      وأحسن من سربالها المتجرّد

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته في مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيماً فوق ما منح من مجد الوزارة الذي أسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد في الجيد الجميل جمالا يفوقه ، بل مثل الثوب يُضفّسى على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الحلقة والأخلاق في بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة<sup>(٢)</sup> :

كلُّ الخصال التي فيكم محاسنكم      تشابهتْ منكم الأخلاق والخلقُ  
كانكم شجر الأترج طاب معاً      حملاً ونوراً وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة في مديحه كقوله في بعض ممدوحيه :

أوفى بأعلى رتبةٍ وتواضعتُ      آلاؤه فأحطن بالأعناقِ  
كالشمس في كبد السماء محلّها      وشعاعها في سائر الآفاقِ

والهجاء فنّه الذي لا يبارى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لوناً قائماً كله إقداح وسبب وهتك للأعراض وقد يُطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولوناً زاهياً ينحو

والترجمة والنشر) ص ٧٠ .  
(٢) زهر الآداب ٤/ ١٤٦ .

(١) زهر الآداب ١/ ١٨٣ وانظر المختار  
من شعر بشار للتجيب (طبع لجنة التأليف

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم في هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فقد نَسَمَّاهُ إلى أبعد حد تُسَعِّفه في ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية في مهجويته ، حتى ليصبح شبيهاً أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير لإبرازاً مضحكاً في كل صوره ، وكذلك كان ابن الرومي هَجَمَاءً ساخرًا يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكاً ، ومرَّ بنا في الفصل الماضي تصويره لشُحِّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتي أنفه بخلا وحرصاً ، وكذلك تصويره لبعض مهجويته بحيوانات مجتره ، ولم يعجبه بعض المغنين فسوره في تحرك فكَّيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكَّيه لأكل طعامه . ومرَّ بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحْدَب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه (١) :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ وَغَابَ قَدَالُهُ فَكَأَنَّهُ مَتْرَبٌصٌ أَنْ يُضْفَعَا  
وَكَأَنَّمَا صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسٌ ثَانِيَةٌ لَهَا فَتَجْمَعَا

فجعلله الدهر مصفوعاً يحاول أن يتقى صَفَعَهُ بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحي حين تخرج عن مقدارها الطبيعي فيهبجوها ويهبجو أصحابها هجاء ساخرًا مضحكاً ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله في لحية بعض مهجويته (٢) :

إِنْ تَطَّلْ لِحِيَةً عَلَيْكَ وَتَعْرُضْ فَاَلْمَخَالِي مَعْرُوفَةٌ لِلْحَمِيرِ  
عَلَّقَ اللَّهُ فِي عِنْدَارِيكَ مِخْلًا وَ لَكِنِّهَا بَغِيرِ شَعِيرِ  
أَرْعَ مِنْهَا الْمُوسَى فَإِنَّكَ مِنْهَا يَشْهَدُ اللَّهُ فِي أَثَامِ كَبِيرِ  
مَا تَلَقَّاكَ كَوْسِجٌ قَطُّ إِلَّا جَوَّرَ اللَّهُ أَيْمًا تَجْوِيرِ  
لِحِيَةً أَهْمَلْتُ فَطَالَتْ وَفَاضَتْ فَإِلَيْهَا تَشِيرُ كَفُّ الْمَشِيرِ

(٢) ديوان المعاني للمسكري ١ / ٢١٠ .

(١) الديوان ص ١٤٦ .

ما رأتها عينُ امرئٍ ما رأتها قطُّ إلا أهلٌ بالتكبيرِ  
 روعةٌ تستخفه لم يرعها من رأى وجهَ مُنكرٍ ونكير  
 فاتق الله ذا الجلال وغير مُنكرًا فيك ممكن التغيير  
 أو فقصرٌ منها فحسبك منها نصفُ شبرٍ علامة التذكير  
 لو رأى مثلها النبي لأجرى في لحيِ الناس سنةً التقصير  
 واستحب الإحفاء فيهنّ والحلّ قَ مكان الإعفاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومي المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخللة حمار ولكن بدون شعر ، ونصح صاحبها أن يجعل الموسيقى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها ، وجعل محافظته عليها إثماً كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم في قسمة الأرزاق ، وقد طالت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصيحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التي تأخذهم ، وإنها لأكثر هولاً من وجه ملكي القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتق الله ويغير هذا المنكر الذي يحمله على وجهه في ذهابه وإيابه ، أو ليقتصرهما ، فنصفُ شبرٍ منها كاف على التذكير والرجوة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنة فلم يجعلها تطويل اللحي بل جعلها تقصيرها ، بل لعله كان يجعل السنة قصها ومحوها محواً . وهو يشير في البيت الأخير إلى الحديث النبوي : « احفوا الشوارب واعفوا اللحي » . وكان كاتبٌ مسيحي للقاسم بن عبيد الله يسمى عمرّاً كثيراً ما كان يحجبه ، فأصله ناراً حامية من أهاجيه<sup>(١)</sup> . وكان لا يزل يلمح العيوب الجسدية في مهجويه ، عابثاً بهم عيباً كله مسخرية وفكاهة يتندبر .

وكان ابن الرومي يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر ، وأيضاً فإنه كان يستشعر في أعماقه حزناً ممضاً ، لأنه لا يأخذ حقوقه في عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقاً واضحاً ، فكان شعوره

بالبؤس والحمران يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحراناً ومآتم ،  
وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء، فبكاهم بكاء حاراً، ومسرّ بنا في الفصل الماضي بكاءه  
على ابنه الأوسط الذى مات منزوفاً وهو لا يزال فى المههد طفلاً صبيّاً ، وقد نصب  
بقصيدته له مأتماً كبيراً صور فيه موته ونزيفه تصويراً مخزناً ، ثم بكاه بكاء مُراً .  
ومن قوله فى رثاء ابنه الثالث (١) :

أَبْنَىٰ إِنَّكَ وَالْعِزَاءَ مَعًا بِالْأَمْسِ لُفَّ عَلَيْكُمَا كَفَنُ  
مَا فِي النَّهَارِ - وَقَدْ فَقدْتِك - مِنْ أَنَسٍ وَلَا فِي اللَّيْلِ لِي سَكَنُ  
مَا أَصْبَحْتُ دُنْيَايَ لِي وَطَنًا بَلْ حَيْثُ دَارَكَ عِنْدِي الْوَطَنُ

وله مرثية فى أمه وأخرى فى أخيه محمد ، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين  
إلى حين ، وأسلمنا فى الفصل الماضى عزاءه فى ابنة على بن يحيى المنجم ، وله عزاء  
مشابه للمسيبى الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أهدأ لن يخلد فى الدنيا، وأن  
تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته ، يقول (٢) :

أَصْبَتَ وَمَا لِلْعَبْدِ عَنْ حَكْمِ رَبِّهِ مَحِيصٌ وَأَمْرُ اللَّهِ أَعْلَىٰ وَأَقْهَرُ  
تَعَزَّيْتَ عَمَّنْ أَثْمَرْتِكُ حَيَاتُهُ وَوَشَكُّ التَّعْزَىٰ عَنْ ثَمَارِكُ أَجْدَرُ  
فَلَا تَهْلِكُنْ حَزَنًا عَلَىٰ ابْنَةِ جَنَّةٍ غَدَتْ وَهَىٰ عِنْدَ اللَّهِ تَحِيًّا وَتُحْبِرُ

وكان ما بنى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى فى الموت ، ولعله أول من حبب  
الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصاً من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين  
لا ينصفونه ، مما جعله يقول (٣) :

قَدْ قَلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا لِلْمَوْتِ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا تُعْرَفُ  
فِيهِ أَمَانٌ لِقَائِهِ بَلْقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مَعَاشِرٍ لَا يُتَصَفُّ  
وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروع بلقائه من أدق ما يمكن ،  
وهو لا يبارى فى النفوذ إلى كثير من المعانى والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا فى

(٣) ديوان المعانى ١٧٢/٣ .

(١) الديوان ص ٣١ .

(٢) الديوان ص ١٠٤ .

الفصل الماضي مرثيته المتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .  
ويكثر العتاب في ديوان ابن الرومي ، وقصيدته في عتاب أبي القاسم النوزي  
الشطرنجي مشهورة ، ومترّ بنا في الفصل السالف قطعة بديعة منها في وصف  
لعب أبي القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه في لعبه ، غير أنا نقف الآن  
عند عتابه ، وقد عرضه عرضاً طويلاً طريفاً ، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من  
صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتي هنوات غُطِّيتُ برهةً بحسن اللقاء  
تركنتني ولم أكن سيئ الظنُّ نِ أسيءُ الظنون بالأصدقاء  
قلت لما بدتُ لعيني شُنعاً رُبَّ شوهاء في حشأ حسناء

ومضى في حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتني لم  
أهتك سِرْكُنَّ وهن يقلن له بل لقد صنعت حسناً ، إذ لو لم تفعل ذلك لظلمت في  
ظلم الشك من صاحبك ضالاً حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف  
أمكنة الداء منه وتطب لها طباً يداويها دواء يشفي الصديق ، ويعتب على أبي القاسم  
أنه لم ينلُه نوالاً ولا ردّاً كريماً ، ويظل يستعطفه طويلاً . وقد أسلفنا في الفصل  
الماضي قطعة بديعة له في عتاب آل وهب .

ولابن الرومي غزل كثير يأتي به مستقلاً تارة ، وتارة في مقدمات قصائده ، ولما  
يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبي نواس أو حتى  
مثل البحري ، ومرت في الفصل الماضي قطع مختلفة له في وصف العناق وجمال العيون  
ومن بديع ماله في وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله (١) :

وفاحمٍ واردٍ يقبلُ ممَّ شاكٍ إذا اختال مسبلاً غُدْرَهُ (٢)  
أقبل كالليل من مفارقه منحدرًا لا يذمُّ مُنْحَدْرَهُ  
حتى تناهى إلى مواطئه يلثم من كل مواطئ عَفْرَهُ (٣)  
كأنه عاشقٌ دنا شغفًا حتى قضى من حببِهِ وَطْرَهُ

(٢) الغر : ظاهر التراب .

(١) زهر الآداب ١٦/٣ .  
(٢) الغدر : ذوائب الشعر وقطعه .

وهي صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء في وصف المحسوسات ،  
وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة في غزاه ، وكأنما تحول عقابه إلى ما يشبه  
كنزاً سائلاً بالدرر ، فهو لا يني يطرف قارئه بمعنى مُستحدَث أو خيال مبتكر  
من مثل قوله (١) :

لا شيء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقلُ  
فوائد العين منه طارفةً كأنما أخرياتها الأولُ

فكل شيء وكل عضو في صاحبه فتنة من الفتن حسناً وجمالاً ، فالعين  
ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت  
فكرة الأول وأعقابها ، فكل شيء من الأول ، وكل شيء لا يكاد النظر  
يفرغ منه حتى يعود إلى التملُّ به . وله قافية نظمها في جارية سوداء لممدوح له من  
البيت العباسي هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللاً علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صبغت صبغة حبِّ القلوب والحدقِ

ويبدو أن بعض الجوارى عبَّشْنَ به وغدَّرنه في حبه ومسكرنَ مكرراً خبيثاً ،  
ولذلك نراه في نونيته المسماة بدار البطيخ يُصدِّر أحكاماً قاسية على النساء عامة ،  
من مثل قوله (٢) :

ومن عجائب ما يُمنَى الرجال به مستضعفاتُ لهم منهن أقرانُ  
مناضلاتُ بنبلٍ لا تقوم له كتابُ التُّرك يُزجيهنَّ خاقانُ  
ولا يذمَّن على عهدٍ لمعتقدِ أنى وهن - كما شُبَّهنَ - بستانُ  
يميل طوراً بحمل ثم يُعَدِّمه ويكتسى ثم يُلْفَى وهو عريانُ  
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزينه للغايات وللغاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومي إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة في عصره  
شيوع دور القيان ببغداد وأن كثيرات من الجوارى لم تكن سيرتهن حسنة .

(٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

(١) ديوان الماعى للمسكى ١/٢٣٢ .

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يَكَلِّفُ بها كَسَلَفًا شديدًا ، بل لقد تَحَوَّلَ عاشقًا لها عشقًا لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب واله ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهًا فاتنة ناطقة ، وكل شيء فيها يُغزِّيه بالنظر واللمس والشم ، حتى لنحس كأنما يفنى في الطبيعة فناء أصحاب المنزِع الرومانسي الغربي ، وكأنما الحجب تُرْفَعُ بينه وبينها في كل يوم فيزداد بها وهلاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا في الفصل الماضي منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفي هنا بأن نسوق مثلاً لتصويره الربيع ، يقول<sup>(١)</sup> :

ورياض تخايلُ الأرض فيها	خَيْلَاءُ الفتاة في الأبرادِ
ذات وشي تناسجته سوارٍ	لبقاتٌ بحوْكه وغوادي <sup>(٢)</sup>
فهى تشنى على السماء ثناء	طَيْبَ النَّشْرِ شائِعاً في البلادِ
من نسيمٍ كأن مسراه في الأر	واح مسرى الأرواح في الأجسادِ
منظرٌ معجبٌ تحيةٌ أنفِ	ريحُها ريح طيب الأوالادِ
تتداعى بها حمامٌ شتّى	كالبواكى وكالقِيان الشوادي
تتغنى القِرانُ منهن في الأيّ	كُ وتبكي الفِرادُ شَجَوَ الفرادِ

فالأرض تراعى له كأنها فتاة حسناء تختال في برود الربيع البهيجة ، وشيها الذى نسجته السحب نسجاً بديعاً ، وهى تُشنى على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى في الأرواح سريان الأرواح في الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروع من عطر للطبيعة يملأ النفس حناناً وعطفاً كرائحة الأوالاد النجباء ، والحمام تتناغى بين باكيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنن لرفقائهن ، وأما الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعج بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحلب حب شاعر أُغرم بالطبيعة وملأت قلبه برأ وحناناً ومودة . ولقت هذا الجانب

السوارى والغوادي : السحب .

(١) الديوان ص ٧٥

(٢) تناسجته : اشتركت في نسجه .



عند ابن الرومي العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية، ولكن اليونان لم يُعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملأوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومي، وأوروبا نفسها في عصرها الكلاسيكي في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر، حين كانت تحاكي الآثار اليونانية، لم يُعرف عندها هذا النوع من الشعر، إنما عُرف في العصر الرومانسي في أثناء القرن التاسع عشر، حين انفكَّت من محاكاة الآثار اليونانية<sup>(١)</sup>. على كل حال كان ابن الرومي يُشغَفُ بالطبيعة ويكأفُّ بها ككأفِّها لم يعرف لشاعر قديم.

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يسرع في وصف مجالس الأُنس وما يجري فيها من خمر وسماع. وهو لا يتورط في المجون والإثم تورط أبي نواس وأمثاله، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر، فقد كان شربها شائعاً في عصره، ومرَّت بنا في غير هذا الموضوع الأبيات المشهورة التي يقول فيها إن أبا حنيفة أحلَّ النبيذ. ودعا الخمر في بعض شعره ريق الدنيا، يقول:

فتى هجر الدنيا وحرَّم ريقها وهل ريقها إلا الرحيق المبرَّد  
وقد أكثر من وصف مجالس السماع، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حاداً، فإذا لم يقع المعنى أو المغنية من أذنه موقعاً حسناً صبَّ عليهما شواظاً من هجائه، على نحو ما مرَّ بنا في هجائه لشنطف، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويبه لغناء وحيد، وكانت فتنة صوتاً وحسناً، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

من سكون الأوصال وهي تجيد	تتغنى كأنها لا تغنى
لك منها ولا يدُرُّ وريد <sup>(٣)</sup>	لا تراها هناك تجحظ عين
وسُجُوٌّ وما به تبليد <sup>(٤)</sup>	من هدوٍ وليس فيه انقطاع
فِ كَأَنفَاسِ عاشقيها مديد	مدَّ في شأو صوتها نفس كا

(٣) يدُرُّ: يتفتح ويتور. الوريد: عرق

في العنق.

(٤) الهدو: انخفاض الصوت. السجو:

مده. التبليد: التقطع.

(١) انظر في مناقشة هذه المسألة كتابنا

الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار

المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٢) الديوان ص ٩٨

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له في الفصل الماضي قطعاً مختلفة في وصف دجاج مشوى ومرققات وقطائف وعنب رازق ، وديوانه زاخر بأمثالها ، وهي أثر من آثار نهمة في الطعام ، وأيضاً من آثار براعته في وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، واه قطعة معروفة في وصف الرقاق وأخرى في وصف قالى الزلابية يقول فيها (١) :

كأنا زَيْتُهُ المقلُّ حين بدا      كالكيمياء التي قالوا ولم تصبِ  
يُلقي العجين لُجِينًا من أنامله      فيستحيل شبابيكاً من الذهب (٢)

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبياً ، ومن تنمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمّامين والشوّائين ، كما يصف الثياب البالية ، وكان قد تعلق بوصفها الشاعر المعروف باسم الحمدوني ، فنزع منزعه في هذا الجانب بمثل قواه (٣) :

معمراً قال نوحٌ حين أبصره      إنا محيوك فاسلم أيُّها الطللُ  
أميل في الطَّرْقِ خوفاً من مزاحمة      تهده فكأني شاربٌ تَسْمَلُ

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبي هو الذي جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس في حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة في الفصل الماضي ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب في وعظه وتصويره للزهاد . وحقاً أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شيء والزهد شيء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم — وخاصة عند ابن الرومي — نقمة على فقدان المتاع بالحياة ، وهي نقمة صَبَّبت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكي وحس مرهف وشعور دقيق ، فحضى في كثير من جوانب شعره بصور الحياة سوداء حالكة ، ويتخذها هي والناس وشروهم وطباعهم موضوعاً لدرسه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة ، فإذا

(٢) انظر مقطوعات أخرى في الديوان

ص ٣١٨ .

(١) الديوان ص ٣٧١ .

(٢) اللجين : الفضة .

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر<sup>(١)</sup> والأكول<sup>(٢)</sup> والثقليل<sup>(٣)</sup>، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتعجل، وقد مثلنا في الفصل الماضي لهما بقطعة من شعره .

وكان ابن الرومي لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً . فكان طبيعياً أن يكون في أشعاره ما يهبط درجات عما حوله ، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا ، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبي عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسودتها ؟ . فأجابه : هي هذه، فقال له الناجم : ما فيها حرف مصلح ، فقال : قد استوت بديهتي وفكرتي فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه . وليس معنى ذلك أنه يوجد في أشعاره غثت كثير ، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة ، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة في أشعاره وخاصة الجناس ، وكانت له أذن موسيقية رائعة . وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبي ، لشعبية كانت متأصلة في ذات نفسه . والحق أنه كان شاعراً بارعاً ، بل لا شك في أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعاني والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصلاً به وبأشعاره .

## ٤

ابن المعتز<sup>(٤)</sup>

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامراء قبل مقتل جده المتوكل في سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً ، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صرَّع جده هذا المصراع الخطير ،

للصولي ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغاني  
(طبعة دار الكتب المصرية) ٢٧٤/١٠  
والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ٩٥/١٠  
ومروج الذهب ٢٠٣/٤ والطبري ١٠/١٤٠  
وتزعة الألباء لابن الأنباري وابن خلكان =

(١) الديوان ص ٩٥ .  
(٢) الديوان ص ١٧٥ .  
(٣) الديوان ص ٧٣ .  
(٤) انظر في ابن المعتز وحياته وشعره كتاب الأوراق : أشعار أولاد الخلفاء

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فسّح لهم في الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عهداً ولا ذمّة . وسرعان ما يتوفى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة في أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعونه ويقتلونونه ، ويولّون المعتز ( ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ ) وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفى . وكان يعكف على اللهو والصيد . فجالسه لا تزال غاصة بشارية وعريب وزنّام وابن بنان وغير هؤلاء من الغنيات والغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آية من الصيد . وفي مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشى نرى قصفه وشرايه وسماحه للغناء في قصره وفي بعض الأديرة (١) ، ونطلع على جانب من ترفه في قصره « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، ومترّ بنا وصف البحرى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلى بالفرجة فيه هو وأصدقائه على السبع والفيل كيف يتوائبان (٢) .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضاً رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل الحياً ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجيا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمساً فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحرى ، وهو لا يزال في التاسعة من عمره ، فيملحه قائلا (٣) :

أبا العباس برزت على قومه      لك آداباً وأخلاقاً وتبريزا  
فأما حلبة الشعر فتستولى      على السبق بها قرصاً وتميزا

وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزوين في إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصول بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحرى ٢ / ١١١٩ .

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومرآة الجنان  
اليافى ٢ / ٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ / ٢٢١  
والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤ وفي مواضع مختلفة  
وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز  
الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة  
وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى ترجع إليها

وقد يكون في ذلك مبالغة على عادة الشعراء في الديح، لكن على كل حال في البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ في نفسه في هذه السن الصغيرة . ويبدو أن أباه كان معجباً به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير . ويسجل ذلك البحترى في مدحة (١) طويلة اه ، يصور فيها جمال طلعتة وشائله الكريمة ، ثم يقول :

وأبهجنا ضَرْبُ الدنانير بِاسْمِهِ      وتقليده من أمرنا ما تقلداً

وفي الشطر الثاني ما يصور لإرهاب البحرى للمعتز بأن يولىَّ عبد الله العهد، ومضى يصرِّح بذلك ويطلب به ويهتف في وضوح . ونراه في قصيدة (٢) ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كمن يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام ، وفي ذلك يقول في قصيدة رابعة (٣) :

وملِّيتَ عبدَ الله إنَّ سَمَاحَهُ      هو القَطْرُ في إسباله وأخو القَطْرِ  
شفعتَ إليه بالإمام وإنما      تشفَّعتُ بالشمس اقتضاءً إلى البَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المحن للمعتز وابنه ، فإن جند الأتراك طالبوه في السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال ، فاعتذر ، ولم يقبلوا عذره ، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفاً ، ولكنه لم يجدها ، فصمموا على خلعه ، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، ثم جعلوه في بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه . وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابني عميه قُصَيَّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد . وهما محنتان قاسيتان أتررتا في نفس الصبي آثاراً بعيدة : محنته التي امتحن بها في أبيه الذي منحه الحياة والذي كان يغمره ببرّه وحنانه وعطفه ، ومحنته بالنفي وعذابه ونكاله وعناثه ، وما مرَّ به في أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط ، مع ما صلَّى به من حزن عميق على أبيه ، مما ظل له أثر بعيد في نفسه ، وهو أثر يترامى بوضوح في أشعاره ، إذ يُطالِعنا

(٣) الديوان ١٠٠٧/٢ .

(١) الديوان ٦٧٠/٢ .

(٢) الديوان ١٣٠٩/٢ .

فيها دائماً الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبرها في نفسه  
 وخياله ما كان ينعم به في صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حنفت بها الدماء  
 المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حفت بها النفي والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيماً ،  
 وينتضى عهده إلى غير مآب ، وفي ذلك يقول ابن المعتز باكيّاً صباه بدموع  
 غزار (١) :

لَهْفِي عَلَى دَهْرِ الصَّبَا الْقَصِيرِ      وَغُصْنِهِ ذِي الْوَرَقِ النَّضِيرِ  
 وَسُكُورِ وَذَنْبِهِ الْمَغْفُورِ      وَمَرَحِ الْقَلَابِ فِي الصُّدُورِ  
 وَطُولِ حَبْلِ الْأَمَلِ الْمَجْرُورِ      فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَافِلٍ غَرِيرِ

ودار عام وتولّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل في طلبه وطلب جدته وابني  
 عمه وردّهم إلى سامراء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك  
 تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهي والسلطان لأخيه  
 الموفق طلحة ، وكان من أحزم بني العباس وأشجعهم وأنبعهم في إدارة السياسة والحرب  
 وهو الذي قضى على ثورة الزنج وثورة الصفّارين كما أسلفنا في غير هذا الموضع .  
 فاطمأن الغلام المروّع وأخذت جدته قبيحة تُعنى بتر بيته ، وأحضرت له المعلمين  
 في الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزي  
 الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يأتى المبرد وثلعباً في  
 أثناء زيارتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفي المختار من شعر  
 بشار أن ثلعباً كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتاً ، فكتب إليه من قصيدة طريفة (٢) :

يَا فَاتِحاً لِكُلِّ عِلْمٍ مُغْلَقٍ      وَصَيْرَافِئاً عَالِماً بِالْمَنْطِقِ  
 إِنَّا عَلَى الْبِعَادِ وَالتَّفَرُّقِ      لِنَلْتَقِي بِالذِّكْرِ إِنْ لَمْ نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم (٣) . وأهم معلميه أحمد بن سعيد  
 الدمشقي المحدث الإخباري ، ويروى أن البلاذري المؤرخ سعى عند جدته كى  
 يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

(١) ديوان المعاني ١٥٣/٢ .

. التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .

(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة

(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عاماً ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتاً يترضاه بها ، وهي تصور ثقافته تصويراً دقيقاً ، إذ يخاطبه بقوله<sup>(١)</sup> :

أصبحت يا بن سعيد حُزّت مكرمةً      عنها يقصر من يخفى رينتعل  
سرّ بآتني حكمةً قد هدبت شيمي      وأججت غربَ ذهني فهو مُشتعل  
أكون إن شئت قُسا في خطابته      أو حارثاً وهو يوم الفخر مُرتجل  
وإن أشأ فكَزَيْدٍ في فرائضه      أو مثل نعمان ما ضاقت بي الحيل  
أو الخليل عرونيّاً أنا فِظَن      أو الكسائي نحويّاً له عيل  
عُتباك شكرٌ طويلٌ لا نفاذ له      تبقي معالمة ما أظت الإبل<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن ابن سعيد خسرَّجه خطيباً فصيحاً لا يقل عن قُس في خطابه التي اشتهر بها بين الجاهليين ، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلي الحارث بن حازمة في شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت في عمله بالميراث ، ولا عن أبي حنيفة في علمه بالفقه ، ولا عن الخليل بن أحمد في علمه بالعروض ، ولا عن الكسائي في النحو واستنباط علله . وهذه هي مواد ثقافته في سن الثالثة عشرة ، ولم يذكر بينها فاسفة ولا منطقتاً ، غير أنه ينبغي أن نحذر التعميم في الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه في تلك السن المبكرة ، ومن الطبيعي — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شيء من الفاسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، ففي أشعاره إشارات لهما<sup>(٣)</sup> ، وإن كنا نظن ظناً أنه لم يلمّ بذلك في مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول<sup>(٤)</sup> :

ولا تفرعن من كل شيء مفزعٍ      فيما كل تربع النجوم بضائر

وكانه كان يتشكك في حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوابع السعد والنحس . ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ، وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما في جده المتوكل وأبيه المعز ما جعله يقرر في حزم

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .

(٢) أظت : أنتت تبتاً أو حنيناً .

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ( الطبعة

السابعة ) ص ٢٦٣ .

(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

الفراغ للحياة الأدبية ، وأتفق في ذلك أعواماً كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محملاً، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنّف كتابه « البديع » محاولاً أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعاً علمياً دقيقاً، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة في الأدب العربي وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهي منتورة في القرآن الكريم والحديث النبوي وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتباً أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التماثيل في الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسي الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقاً مهذباً صافياً . وكان يُعنى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفي ذلك يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغازة علمه وأدبه<sup>(١)</sup> . » ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل في الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعته بعض أصوات أو أدوار تدل في وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دورَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجاً ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغذونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللاتي كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء في شعره زرياب وبنيت الكُرَاعَة وخزاعي ، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج في ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة<sup>(٢)</sup> ، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هي حياة التصور المترفة التي تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء في بعض الأيام وبعض الليالي يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميري ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدي



الأصبهاني الكسروي وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات<sup>(١)</sup> وجَحَظَّة وهو الذي أعطاه لقبه الذي اشتهر به . وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغي أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصاً ، فقد كان يختلف إليه نابهن كثيرون من علماء اللغة والأدب وفي مقدمتهم المبرد ونعلب أستاذاه وصديقيه ، ويقول الصولي في ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مغائلاً لأهل الأدب وكان مجالسه منهم جماعة » .

ومرّ بنا أن أباه وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى في العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش في إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركي صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتباً كثيراً أو قليلاً من الدواة لعهد عمه المعتمد الذي امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروي الصولي قصيدتين له مدحه بهما ، وفي إحداهما يقول<sup>(٢)</sup> :

أهلاً وسهلاً بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلاً

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردَّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفاً من غضب أخيه وبطشه . وفي أخبار ابن المعتز أنه كان يروي أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهي ، فكان طبيعياً أن يتصل الود بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخبارياً ظريفاً . ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذي أبلى بلاء عظيمًا في محاربة الزنج والقضاء على أصحابهم قضاء مبرماً غير مدحة ، ويبدو أنه

الخلفاء ص ١٣١ أنها في المعتضد .

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ .  
(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفي أثمار أولاد

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله (١) :

ولما طغى أمرُ الدعيِّ رميتهُ بعزْمٍ يردُّ السيفُ وهو كليل  
وأعلمته كيف التصافح بالقتنا وكيف تروى البيض وهي مُحول (٢)

ويتوفى الموفق في سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحرماً عنه وكان عونته وظهيره في حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيباً شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا في عهد أبيه خانعين . ويتحول بالخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من من مثل قوله (٣) :

لعمري لئن أمسى الإمامُ ببلدٍ وَأنت بأخرى شائقُ القلب نازعُ  
وما أنا في الدنيا بشيءٍ أَناله سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء، ويكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتروى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات في الشعر والشعراء (٤) . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتتمسبل الدنيا عليه ، وتتعمد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهنته باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلاً (٥) :

فرحتُ بما أضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هبَّ من نومه الدهرُ  
فترجعَ فينا دولةٌ طاهريَّةٌ كما بدأتُ والأمر من بعده الأمر

وتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من ملحه وشكوه

الخلفاء ص ١٢٨ .  
(٤) أخبار الجحري للصولي ص ١٦٤ .  
(٥) أغاني ١٠ / ٢٨٦

(١) زهر الآداب للحصري ١٩٣ / ٣  
وفي أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها في المعتضد .  
(٢) البيض : السوف - محول : مجدية .  
(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوهاً بتلك الأسرة (١) :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىَّ ومعروفٍ لىَّ مُقدِّمًا  
همُ علِّموا الأيام كيف تبرئنى وهم غسلوا عن ثوب والدى اللِّدِّمًا

ويتوفى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائباً ، ويضطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ، ويسلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرابى وسرعان ما يرُدُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيكثر ابن المعتز من مدحه ، معترفاً له بصنيعه من مثل قوله (٢) :

أصلح بنى وبين دهرى وقام بنى وبين حنفي

ولا يلبث القاسم أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زكروية القرمطى المعروف بصاحب الشامة ، وينادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغظ حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحلم ، كما يقول كثيرون ينبغي خلعه . وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافق شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغظ والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تديره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى (٣) ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤

وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٣١٩ .

(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله

وقلّده ابن المعتز الوزارة وتكلم في المقتدر قائلا: إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح للباطل أن يفتضح . ولم يكدم يمر يوم على هذه البيعة حتى هبّ مؤنس الخادم في جند كثيرين فنقضها وجدّد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد في الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الحصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب . وما كان أحراره أن يبتعد عنها ، متعظاً بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التي كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربي عباسي يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد في القصر العباسي وفي كل ما انبثّ فيه من لتهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتبح لهم الفراغ ، وقد يكون في ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً مادياً ، إذ كان هذا الوصف هو الذي يلاثم مزاجه المترف ، كما كان يلاثم عقله الذي يعيش في النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف ، وقديماً أشار ابن الرومي إلى تأثير بيئته المترفة في شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقي بما قلّمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدني شيئاً من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهِلال :

انظُرْ إليه كزُورِقٍ من فِضَّةٍ      قد أثقلته حمولةٌ من عُنْبِرٍ

فقال ابن الرومي له : زدني ، فأنشده :

كَانَ      آذْرِيُونَهَا      والشمسُ فيه كَالِيَةِ (١)

مداهنٌ      من ذهبٍ      فيها بقايا غَالِيَةِ (٢)

وصاح ابن الرومي : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما

(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود .

(١) الآذريون : زهر أصفر في وسطه  
حل أسود .

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرّة وأهجو هذا كرّة . وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً<sup>(١)</sup> . وابن الرومي يلاحظ التأثير المادى المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك في تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد في عصره إلى مجددين مسرفين في التأثير بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها في الشعر العربي من جماعة المترجمين ومن التفت حولهم ، ومحافظين مسرفين في رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الحالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحترى من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية في المقاييس الأجنبية من أمثال أبي تمام وابن الرومي وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبته وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية في نفسه ، ويصرّح بذلك في كتابه البديع الذى أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً في حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة في الشعر الجاهلي والإسلامي والقرآن الكريم والحديث النبوي . ونخصّ أباً تمام برسالة احتفظ بها في ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهى تحمل كل الأسس التى كوّن منها الآمدى حملته على أبى تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحونحو المحافظين في فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسي ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخرها كما يتضح في كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشيء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربي القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليستقى منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسياً أثر فيه وفي شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

إذ يجلل شعره بأس عميق ، وحقاً كان يُكسبُ كثيراً على اللهو يُغرق فيه أحزانه ، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تمنحى من نفسه ، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته .

وتلك هى مكونات شخصيته ، بيئة مترفة ينغمس من فيها فى ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلمّ به مبكراً ، وتدلهم من حوالة الخطوب ، فيفكر فى الحياة والموت وما فى الدنيا من بؤس وآلام ، وكأنا كتب عليه ألا يشرب كنوس الترف واللهو صافية ، فداًئماً أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونكسر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم ، وابن المعتز مع ذلك كله غزّل ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء .

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحرى ، فقد روى عنه أنه قال : كان مما حبيب الشعر إلى أنى سمعت البحرى يُنشد الماضى ( يريد أباه المعتز ) شعراً تشوّقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتم ياقوت ، وهو عندى من أحسن شعره ، وهو :

بودى لو يهوى العذول ويعشق فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق<sup>(١)</sup>

والبحرى يستهل القصيدة بغزل مليء بالشوق إلى علوة صاحبتة الحلبية ، ويصف طيفها الذى ألمّ به فى حلمه ولطفته على لقائهما ، وعناقها وصبايته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خددوهما حين يلتقيان ، حتى يقول :

فلو فهم الناس التلاقى وحسنه لحبب من أجل التلاقى التفرق

ويُقَيض فى مديح المعتز وما أضنى عليه من عطايا ، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتماً . ويلفتنا لإعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحرى أباه وسنه

لا تتجاوز التاسعة ، وتدوقه لها في هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما في الشعر من جمال .  
ومرّ بنا وصف البحترى له في حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد في الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه في مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتر إذ كان شاعراً بارعاً ، ولو قدّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته في اللهو والمجون والصيد ، وينظم في ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المعنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتر عن أبيه . وبذلك كان له في أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذي كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع في متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقاً كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين في عصره وبعده يميلون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوحاً في وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رِقّة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصَبوح في مجلس شكيلٍ ظريف بين نداهى وقيان على ميادين من النورِ والبَسْفَسَج والنَّرْجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السَّبِط ( السهل ) الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووحشيته وإلى وصف البيد والمهامه والطَّيبي والطَّليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسّط في البعض وقصّر في اليسير وينسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطمى الحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحد بمن تقدّم لوجد مسامحاً<sup>(١)</sup> . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتر ، ووضع في مكانه الصحيح ، فهو في أكثر شعره محسن ، وهو في بعضه متوسط الإجابة ، وفي اليسير

منه مقصّر، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان في أثناء سمره أو في أثناء سماعه للغناء وشربه. على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته في الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التي تزن جرس الكلام، ولذلك كنا نحس عنده دائماً بأنه لا يهمل الأسماع في شعره، إذ كان يحاول أن يلدّها بأنغامه وألحانه. وظاهرة ثانية في أشعاره هي عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهي ظاهرة طبيعية، إذ كتب في هذه الفنون كتابه «البديع» ونوّه بها، غير أنه لم يفرط في الجناس والطباق إفراطاً بعيداً، وقد عاب أباتمام بذلك في كتابه، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء. والمحافظون من أمثاله وأمثال البحري كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء، فلم يكونوا يُسرفون فيه مثل أبي تمام ومسلم ابن الوليد.

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده، لتتضح لنا شاعريته، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة في مديحه لابن عمه المعتضد، أما مديحه في غيره فقاصر، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك، بل أن يقلم أظفارهم، وكأنا ما كان يشفي غليل ابن المعتز وضعفنه القديم عليهم، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه، وليس ذلك فحسب هو الذي جعل المعتضد يقرب من نفسه، فقد اتخذه نديماً وجليساً وتوالت عطاياها عليه، فكان إذا مدحه انبعث في مديحه عن عاطفة صادقة حارة، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التي يستهلّها بقوله<sup>(١)</sup>:

سلمت — أمير المؤمنين — على الدهر      ولا زلت فينا باقياً واسع العُمر  
حللت الثرياً خير دارٍ ومنزلٍ      فلا زال معموراً وبورك من قَصْرِ  
فليس له فيما بنتى الناس مشبهُ      ولا ما بناه الجنُّ في سالف الدهرِ  
والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد، ويقال — كما مر بنا في غير

(١) الديوان ص ٢١٥.



هذا الموضع - إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صورها ابن المعتز تصويراً رائعاً ، إذ يقول في نفس القصيدة :

وأَنهَارُ ماءٍ كالسلاسلِ فُجِّرَتْ لَتُرْضِعَ أولادَ الرياحين والزهر  
جِنَانٌ وأشجارٌ تلاقت غصونها فأورقنَ بالأثمار والورق الخضر  
تَرى الطير في أعصانهم هواتفاً تنقلُ من وَكْرٍ لهنَّ إلى وَكْرٍ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذي يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحش أو ذبيحاً من البشر ، والذي ما يزال يُفزع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويتقضمه قضمًا . وكان المعتضد حقاً شجاعاً شجاعة خارقة ، ويصور ابن المعتز ما بسط في البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد يمثل قوله في القصيدة :

حكمتَ بعدلٍ لم يرَ الناسُ مثلهُ وداويتَ بالرِّفقِ الجموحَ وبالقهـر

وليس في أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخبر مدائحه فيهم جميعاً ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وهو على كل حال لا يبالغ في إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هي أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله<sup>(١)</sup> :

أياموصل النعمى على كل حالةٍ إلى قريباً كنتَ أو نازحَ الدارِ  
كما يلحق الغيثُ البلادَ بسيلِهِ وإن جاد في أرضٍ سواها بأمطارِ  
لقد عمر الله الوزارةَ باسمه وردَّ إليها أهلها بعد إقفارِ  
وكانتَ زماناً لا يقَرُّ قرارُها فلاقَتَ نصابا ثابتاً غيرَ خوارِ

(١) الديوان ص ٢١٧ .

وفي ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمته في ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزناً شديداً ، إذ أحس كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحس أن أيام أنسه عادت ظلاماً ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فرعاً ، واسودت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله في حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقاً<sup>(١)</sup> :

يا ساكنَ القبر في غبراءٍ مظلمةٍ      بالطاهريةٍ مقصي الدار منفرداً<sup>(٢)</sup>  
 أين الجيوش التي قد كنت تسحبها      أين الكنوز التي لم تُحصها عدداً  
 أين السرير الذي قد كنت تملؤه      مهابةً ، من رآته عينه ارتعداً  
 أين الرماح التي غذبتّها مهجاً      مذمت ما وردت قلباً ولا كبداً  
 ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيته ، وكأنما أصبح طلالاً مهجوراً ، ولا أثر ولا عين ، كأنما لم يكن به المعتضد يوماً . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد وإنما ينظم أبياتاً قليلة يبكي فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية في الحكم والتدبير من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

هذا أبو القاسم في نعشه      قوموا انظروا كيف تسير الجبال  
 يا ناصر الملك بأرائه      بعدك للملك ليالٍ طوال  
 وطبعي ألا نجد عند ابن المعتز هجاء ، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذي يستحيل في أيدي الشعراء سهاماً يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكن لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندراً ودعابة من مثل قوله لعلي بن بسام هجاء عصره<sup>(٤)</sup> :

يا قذّي في العيون يا حرقه بي      ن التراق حزازة في الفؤاد  
 يا طلوع العذول ما بين إلفٍ      يا غرباً وافي على ميعاد

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(٢) الطاهرية : الدار التي دفن بها المعتضد غربي بغداد .

يا ركوداً في يوم غيمٍ وصيفٍ يا وجوه التجار يومَ الكسادِ  
خَلَّ عَنَا فَإِنَّمَا أَنْتُ فِينَا وَاوِ عَمْرُو أَوْ كَالْحَدِيثِ الْمَعَادِ

ويُكْرَهُ ابن المعتز في شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه في الحروب  
وفروسيته ، وهو يحاكي في ذلك القدماء في حماستهم ، فهو فخر مصطنع متكلف  
في جمهوره ، ويفخر طويلاً بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم  
وبلائه في موقعة حنين ، وبشجاعة آباءه وعمومته وبلاغتهم ، وفي ذلك يقول (١) :

إِنَّا لَنَنْتَابُ الْعُدَاةَ وَإِن نَاوَا وَنَهْزُ أَحْشَاءَ الْبِلَادِ جُمُوعَا  
وَنَقُولُ فَوْقَ أَسْرَةٍ وَمَنَابِرٍ عَجَبًا مِّنَ الْقَوْلِ الْمَصِيبِ بَدِيعَا  
قَوْمٌ إِذَا غَضِبُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ جَرُّوا الْحَدِيدَ أَرْجَةً وَدَرُوعَا  
وَكَانَ أَيْدِينَا تَنْفَرُ عَنْهُمْ طَيْرًا عَلَى الْأَبْدَانِ كَنٌّ وَقُوعَا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رموس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف  
مزايلاً لمكانه من أبدانهن . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهي شكوى مردّها  
إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألمت به محنته في مقتل أبيه ، على نحو ما مرّ  
بنا آنفًا ، فقد خلّفت هذه المحنة في نفسه ضيقًا شديدًا ولعل ذلك ما جعله يشكو  
من إخوانه أحيانًا .

وكان كثيرًا ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبيّنًا أن بيته أحق بالخلافة  
من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخدم طوال عصره ، مما جعله يكثر من  
وعيدهم وتهديدهم ، مذكّرًا لهم بأن بيته هو الذي استطاع أن يثأر لهم من  
الأمويين قنّاة الحسين وزيد حفيده (٢) ، ويحاول في مقطوعات وقصائد مختلفة أن  
يستلّ البغض والإحسان من نفوسهم على شاكلة قواه (٣) :

بَنِي عَمَّنَا عُودُوا نَعُدُّ لِمُودَةٍ فَإِنَّا إِلَى الْحَسَنِ سِرَاعُ التَّعَطُّفِ  
لَقَدْ بَلَغَ الشَّيْطَانُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ مَبَالِغَهُ مِنْ قَبْلُ فِي آلِ يَوْسُفِ

(٢) الديوان ص ٥٠ .  
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد  
الخلافة ص ١٦٥ .

فهم في رأيه بيت واحد وإخوة وينبغي أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيارة بثمن بخس دراهم معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لأمه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبي طالب ، فنظم قصيدة طويلة في مديحه والثناء عليه ، يقول في مطالعها<sup>(١)</sup> :

أأكل لحمي وأحسو دمي      فيا قوم للعجب الأعجب<sup>(٢)</sup>  
على يظنون بي بغضه      فهلاً سوى الكفر ظنوه بي

ومضى يقول إن الذي يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادة الدين باسم التشيع لعل وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوته للرسول عليه السلام وتفوذ بصيرته في الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسمّاه بحر العلوم ، وذكر مواقفه العظيمة ، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن تفصل بين شعر ابن المعتز الموجه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض ، فهو في الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما في الثاني فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا في ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقي كان يكتبه بناره ، فهي مقطوعات وقد تكون استهلاكات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالباً عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح في الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار ، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذي لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هي أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الحوارى أمثال نشر وشيرة على سبيل الدعابة من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

(٢) الديوان ص ٥٢ وأشماره أولاد الخلفاء  
ص ٢٢١ والأغاني ١٠ - ٢٧٨ .

(١) الديوان ص ٦٧ .  
(٢) أحسو: أنرب .

وابلأني من محضر ومغيبٍ وحبيبٍ مني بعيدٍ قريبٍ  
لم تَرِدْ ماءً وَجْهَ العَيْنِ إِلَّا شَرِقَتْ قَبْلَ رِيِّهَا بِرَقِيبٍ  
وقوله (١):

زاحمٌ كُمِّي كُمَّةً فَالتَوْبَا وافقَ قَلْبِي قَلْبَهُ فَاستَويا  
وطالما ذاقا الهوى فاكْتويا يا قُرَّةَ العَيْنِ وياهمي ويا

وهي أبيات لا تصور عذاباً في الحب ولا ألماً من ناره المحرقة، إنما هي أقرب ما تكون إلى الدعابة، وختم البيت الرابع بقوله: «ويا» كما يقول الناس: يا أختي ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح. وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سَمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء. وقرأ في ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب، إنما تقف على دعابات وصوروفن من مثل قوله (٢):

تقول العاذلات تعزُّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسلو  
وكيف وقُبلةٌ منها اختلاسا ألدُّ من الشماتة بالعدو

وقوله (٣):

إذا اجتنى وُرْدَةً من خدِّها فمهُ تَكُونَتْ تحتها أخرى من الخَجَلِ

وكان - كما أسلفنا - يُسْنَقُ على شاكلة أبناء القصور - كثيراً من أوقاته في اللهو والخمر، وديوانه طافح بكنوسها ودنانها وسُقَاتها وأديرتها، فهو لا يشربها في بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب، بل يشربها أيضاً في أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون، وهو يصرح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول (٤):

وليس للهَمُّ إِلَّا شُرْبُ صَافِيَةٍ كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ من عَيْنِ مَهْجُورِ

(٢) مروج الذهب / ٤ / ٢٠٥ .

(٤) الديوان ص ٢٣٠ .

(١) الأغاني / ١٠ / ٢٧٩ .

(٢) مروج الذهب / ٤ / ٢٠٣ .

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ،  
وليتسلى ويتعزى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوماً ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ،  
فهو لا يتعبدها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبح بالآلها مقدماً إليها  
قربانه من الشعر ، إنما هو يتسلى بها ويتسلى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح  
الصبوح (١) :

أَسْقِنِي الرَّاحَ فِي شَبَابِ النَّهَارِ      وَأَنْفِ هَمِّي بِالْخَنْدَرِيسِ الْعُقَارِ (٢)  
قَدْ تَوَلَّتْ زُهُرُ النُّجُومِ وَقَدْ بَشَتْ      رَ بِالصُّبْحِ طَائِرُ الْأَسْحَارِ  
مَا تَرَى نِعْمَةَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ      ضِ وَشَكَرَ الرِّيَاضِ لِلْأَمْطَارِ  
وَعِنَاءِ الطَّيُورِ كُلِّ صَبَاحٍ      وَأَنْفَتَاقِ الْأَشْجَارِ بِالْأَنْوَارِ  
فَكَأَنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عَرُوساً      وَكَأَنَّ مِنْ قَطْرِهِ فِي نِشَارِ (٣)

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً فى  
الربيع ، ولكنها لا تصور حبياً ولا تهالكاً على الخمر ، ولا عاطفة جاحدة أو متقدة ،  
لأنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويظهر مقدرته على النظم فى الخمر ،  
والذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المديح للصبوح ويضع قصيدة بل قل  
مزوجة (٤) فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتاً وفيها يقول :

فَأَيُّ فَضْلٍ لِلصُّبُوحِ يُعْرَفُ      عَلَى الْغُبُوقِ وَالظَّلَامِ مُسْدِفٌ (٥)

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذمماً قبيحاً ، كأن يعرض المصطبحين  
للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفاً . وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات  
لعصره وبيان محاسن الشيء ومساوئه ، كما مر بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد ، ولكن  
من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثاً عقلياً ، وقد

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء .

(٢) الديوان ص ٧٣ ، وأشعار أولاد الخلفاء

ص ٢٥١ .

(٣) الخندريس العقار : الخمر .

(٤) مسدف : مرعى الستور .

(٥) النثار : ما ينثر على العروس من

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان في مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ في ذُرَى الأَغْصَانِ      منتظمٌ كقطعِ العِقيَانِ  
والسُرُوِّ مثلِ قصبِ الزبرجدِ      قد استمدَّ العيشُ من تُربِ نَدَى  
على رياضٍ وثَرَى ثَرَى      وَجَدُولٍ كالمِبْرَدِ الجَلِيِّ  
وجَلَنَارٍ كاحمرارِ الخدِّ      أو مثلِ أعرافِ ديوكِ الهندِ

ويستمر في رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة في اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومي آنفًا . وقد لا يستمدها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كثرًا زاخرًا بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهي تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشي أسود والصبح يفتّر عن أسنانه ضاحكًا من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادهم يبيض أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشى في الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله<sup>(١)</sup> :

كمنجَلٍ قد صيغَ من فضةٍ      يَخْصُدُ من زهرِ الدجى نرجسًا

وتكثر في الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقد كان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهاني لم يرد في دفاعه عنه الذي مرّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره في الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم في الصحراء إذ له أشعار مختلفة في وصفها ، وقد مرت بنا في غير هذا الموضع أبيات طريفة له في وصف الأطلال والديار الحالية ، وأخرى في وصف ثور الوحش وبقرة ، ومن طريف ماله في وصف الإبل قليلة اللبن وهي تحلبُ قوله<sup>(٢)</sup> :

رأيت انهمار الدرِّ بين فروجها      كما عصرت أيدى الغوازل أثوابا

(١) الديوان ص ٢٧٨ .

(٢) الديوان ص ٣٦ .

وقوله في أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئاً ضالاً منها<sup>(١)</sup> :

فَكَانَ أَيْدِيَهُنَّ دَائِبَةً يَفْحَصْنَ لِيَلْتَهْنَ عَنْ صُبْحِ

وله في الخليل أشعار مختلفة ، وطبيعي أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفاً بالصيد ، حتى ليحتل الطَّرْدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعت به قوله في مقدمة إحدى طردياته يصف فرساً له<sup>(٢)</sup> :

قَدْ أَغْتَدَى وَالصَّبْحِ كَالْمَشِيبِ فِي أَفْقٍ مِثْلَ مَدَاكِ الطَّيْبِ<sup>(٣)</sup>

بِقَارِحِ مَسُومٍ يَعْجُوبُ ذِي أُذُنِ كَخُوصَةِ الْعَسِيبِ<sup>(٤)</sup>

أَوْ آسَةِ أَوْفَتٍ عَلَى قَضِيبِ يَسْبِقُ شَأْوُ النَّظْرِ الرَّحِيبِ<sup>(٥)</sup>

أَسْرَعُ مِنْ مَاءٍ إِلَى تَصْوِيبِ وَمِنْ رَجُوعِ لِحِظَةِ الْمَرِيبِ

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته في تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته في تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعننها مسيلاً لدمائها مزهقاً لأرواحها ، يقول :

وَأَجْدِلِ أَحْكَمِ بِالتَّأْدِيبِ سَوَاطِ عَذَابٍ وَقَعِ مَجْلُوبِ<sup>(٦)</sup>

يَهْوَى هُوَى الْمَاءِ فِي الْقَلِيبِ مَا طَارَ إِلَّا لِدَمٍ مَصْبُوبِ<sup>(٧)</sup>

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة في طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرفهة كالأسنة المُشْرَعَة ، ومن طريف ماله في تصوير عين باز قواه<sup>(٨)</sup> :

ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أجدل : صقر .

(٧) القليب : البئر .

(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان

المعاني ١٤٠ / ٢ .

(١) الديوان ص ١٤٠ .

(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣

وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .

(٣) المداك : الحجر الذي يسحق عليه الطيب .

(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم

حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى .



وله في الكلاب طرديات كثيرة يأتي فيها بأبي نواس ، بل هو في طردياته جميعاً يأتي به ويحاكيه حتى في ألفاظه التي يفتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أغتدى . وقد مضى في إثره يتحدث عن ضمورها ومتانة أعضائها وشدة سمعها وحدة برائنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله في إحدى طردياته (٢) :

ومُخَطَفٍ موثِقٍ الأَعْضاء      ذِي أذُنٍ ساقِطَةِ الأَرْجاءِ (٣)  
 كوردة السَّوسَنَةِ الشَّهلاء      وِبرثنِ كِمِثْقَبِ الحِذاءِ (٤)  
 ومقلّة قليلة الأَفذاء      صافية كقطرة من ماء  
 تنساب بين أكم الصحراء      مثل انسياب حية رَقطاء (٥)

وله طرديات أخرى في الفهد ، وفي قوس البندق ، ويكثر فيها جميعاً من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعاً في تصوير أي شيء يلم به من كوكب في السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار في الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال في الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحية وصفه لها في قوله (٦) :

كأنني ساورتني يوم بينهم      رِقشَاءُ مجدولة في لونها بَلَقُ  
 كأنها حين تبدو من مكانها      غُصْنٌ تفتَحُ فيه النورُ والورقُ  
 ينسلّ منها لسانٌ تستغيث به      كما تعودُ بالسَّبابَةِ الغَرِقُ

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهي تكثر كثرة تجعلنا نظن ظناً أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات في الشعر العربي ، وهو في طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر في شعره — كما قدمنا — من التفكير في الموت ومصير الحياة

(١) الديوان ص ١٨ وأشمار أولاد الخلفاء  
 ص ٢٠٧ .  
 (٢) مخطف : ضامر . ساقطة الأرجاء :  
 شديدة السمع .  
 (٣) السوسنة : الزنبقة  
 (٤) رقطاء : رِقشَاءُ أي بها نقط سود وبيض .  
 (٥) الديوان ص ٢٣٠ .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفياً بأنها طوابع طبعتها في نفسه نكته بأبيه ونفيه إلى مكة في صباه ، وقد ظل يحنُّ إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لقي من بعوضها ونقيق ضفادعها (١) .

وقد تحدثنا في غير هذا الموضوع عن اهتمامه بالشعر التعليمي ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوراً فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل في كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره .

○

### الصنوبري (٢)

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الصنوبري ، وفي بعض المصادر أن اسمه محمد (٣) ، وهو خطأ ، إذ ذكر اسمه في ديوانه غير مرة باسم أحمد ، من مثل قوله معزياً نفسه في بعض الظروف :

أَرْضُ حَكْمِ الزَّمَانِ يَا أَحْمَدَ أَرْضُهُ  
إِنْ تَذُقْ ضَيْمَهُ فَقَدْ ذُقْتَ مَحْضَهُ (٤)

وصحيف لقبه « الضبي » نسبة إلى قبيلة ضببة في فوات الوفيات ، فصار « الصنبي » ولا علاقة له بالصين ، وإنما هو تصحيف النساخ . أما لقبه الثاني « الصنوبري » فزعم هو نفسه أن جدّه كان يعمل في دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك في مناظرة بين يديه وأعجب به فقال له : إنك لصنوبري الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يُرد بذلك إلا سَمَمته وصورته وأن وجهه على

(١) الديوان ص ٤٠١ .  
بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة  
بيروت .

(٢) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٣) الضم : المزوج بالثواب . والحض :  
الخالص غير المشوب

(٤) انظر في ترجمته وأشعاره تهذيب تاريخ  
ابن عساكر ٤٥٦/١ وفوات الوفيات  
(طبعة محي الدين عبد الحميد) ١/١١١ والوافي  
بالوفيات للصفدي ٧/ ٣٧٩ وشذرات الذهب  
٣/ ٣٣٥ وجمع البلدان لياقوت في (حلب) وديوانه

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبري بهذا اللقب لأسرته قائلاً<sup>(١)</sup> :

إِذَا عَزِينَا إِلَى الصَّنَوْبِرِ لَمْ نُعَزَّ إِلَى خَامِلٍ مِنَ الخَشْبِ  
لَا بَلْ إِلَى بَاسِقِ الفُرُوعِ عَلَاً مَنَاسِباً فِي أرومة الحسبِ

وهو من أهل أنطاكية، ولكن منشأه ومرباه في حلب، ولا ندرى كيف تحول أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئاً من القرآن ويكسب على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى في العالم العربي تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان. وفي ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء في اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوي وإلى بعض المتطبيين ، ونراه يذكر أرسططاليس وبقرات في بعض أشعاره<sup>(٢)</sup> . وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى في ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفاً ، على الأقل ملمماً بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إماماً عميقاً ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته في حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك والياً على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهل ذلك بمدح ليدكسا<sup>(٣)</sup> بن عبد الله الأعور وإلى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبري بقصيدة في مدح ابنه المظفر<sup>(٤)</sup> يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبراني أن يسبغ عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالي يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعوناً وظهيراً ، وللصنوبري فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالي على حلب أحمد بن كَيْغَلَاغ القائد المشهور في العصر ويظل

(١) الديوان ص ٤٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

(٣) انظر في هذا الوالي ومن بعده كتاب

زبدة الجلب لابن العديم بتحقيق الدكتور

سامي الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢

وما بعدها .

(٤) الديوان ص ١٥٦ .

بها نحو سنة ويعود إليها في سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى ، وكان عونته في حكمه لحلب ابنه العباس ، ويضفي عليهما مدائح كثيرة ، ويبدو أن صلوات العباس له كانت متوالية ، ولذلك أكثر من مديحه . كما مدح محمود بن حبك الخراساني الذي حكم حلب بعد ولاية ابن كَسِيغْلَمِغْ الأولى عليها وظل يحكمها حتى سنة ٣١٢ ونمضى مع الشاعر بعد ولاية ابن كيغلمغ الثانية فنجدته يمدح طريفًا السبكري حتى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابي سنة ٣٢٤ وجه إليه مدائحه . وتدخل حلب في حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه في حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبري مهنيًا له بشهر رمضان ، وسرعان ما يستولى يانس المؤنسي من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبري بمثل قوله (١) :

هو الفارِسُ المُرَوِي من الدم سَيْفُهُ إِذالم يُطِق رِيَّ السِيوفِ الفوارِسُ

وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدي من جهة أخرى ، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصوصه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة ، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة . وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد في سنة ٣٣٣ ولكنهما يفتيان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة ، وهو في أثناء ذلك ينازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة في الأرواح . ومنذ قرع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبري يقدم له مدائحه ، وأعجب به سيف الدولة ، فلم يكتف بما أجزل إليه من صلوات إذ اتخذته أمينًا لمكتبته (٢) . ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب ، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد في ديوانه مديحًا لأخيه ناصر الدولة وآبائهما في الموصل ، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ في التآلق منذ أواخر القرن الثالث الهجري ، ومع أنها كانت أسرة شيعية ، وكان الصنوبري نفسه شيعيًا ، غير أنه ظل منحرفًا عنها ، حتى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال في بغداد واشتراك هذه الأسرة في الفتن التي كانت تتعاقب

(١) الديوان ص ١٩٢

(٢) مطالع البدر للزولي ١٧٦/٢ وآدم ميتر ص ٣٦٤ .

هناك ، وأعل هذه الفتن نفسها هي التي جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائح لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقّة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر في مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصصها بمدائحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر في شأن تشيعه ، فديوانه يمتلى بمراث لآل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعاً حقاً ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى على وأبنائه ، على نحو ما نرى في مثل قوله (١) :

جَاهَ بِالْوَصِيَّةِ إِذْ حَبَاهُ وَهُوَ ذُو دَنْفِ

ويبدو أنه لم يكن غالبياً في تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتقد مذهب الإمامية الاثني عشرية الذي كان قد أخذ ينتشر في بعض أركان العراق لعصره . وفي ديوانه قصيدة وجه بها إلى جعفر بن على صاحب الزاب في المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التي كانت قد أخذت في الذيوع بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغي ألا نفهم من ذلك أن الصنوبرى كان على صلة بتلك الدعوة لا في مقرها الحديد بالمهدية في المغرب ولا في مقرها القديم بسلمسية في الشام (٢) ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة (٣) الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقتلوهم قتلاً ذريعاً ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلّب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقّة (٤) ، وظل بها حتى توفي سنة ٣٠٤ للهجرة (٥) . وزى الصنوبرى حينئذ يمدحه بغير قصيدة (٦) واو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتاً مثنياً عليه أو مادحاً . ونجده

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) في ديوانه مديح لصديق هاشمي من سلمية هو أبو إسحق السلماني ، ولكن ليس في مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٣) الديوان ص ٩٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٦) الأندلس ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفر الطيار كما يمدح العباس<sup>(١)</sup> جد العباسيين . وهو يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة علي بن أبي طالب ، ولكنه أيضاً يكثر من مديح الهاشميين من سلالة العباسيين أمثال أبي العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول<sup>(٢)</sup> :

أبناء الخلافة من قريش وساسة أمرِ عالمنا المسوس  
النتم من حزون الدهر حتى توهمت الحزون من الوعوس<sup>(٣)</sup>

وفي ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يترحل من حلب إلى الرقة على الفرات ، حتى لتعدت كأنما كانت موطنه الثاني وخاصة في أيام شبابه وإدمانه على اللهو وخلعه للعدار . وكان لا يزال يؤم فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكبي لحمال متزهاته ، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد برّاً وبحراً . وكثيراً ما كان يلم بمدينة الرها هناك وكان بها دكان ورّاق يسمى سعداً ، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر . ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل في كل ما بينهما من البلدان ، ولم يدع جواداً أو حامياً من حماة الأدب في تلك الأثناء حتى قدم له مدائح ، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلابي من أهل حرّان بالموصل وابن كوجك في طرابلس وعلى بن سهل بن روح في حمص ، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين ، وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوي مثل الحسن بن أحمد السبيعي وله كتاب « التبصرة في فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضي أبي عبد الرحمن بن أخي الإمام ومثل علي بن محمد بن حمزة العباسي الهاشمي وكان له قصر منيف وبساتين في موضع يسمى فارث ، وله فيه قصائد رائعة ، ومثل أبي عبد الله الكرخي صاحب الخراج . وكثير هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمي وابنه أبي بكر وحفيده أبي عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين . وكان يختلط في كل البلدان التي ينزل فيها بشعرائها وأدبائها ، وكان من أقربهم إلى

الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة .

(١) انظر الديوان ص ٢٣

(٢) الديوان ص ١٨٥

(٣) الحزون : جمع حزن وهو الأرض

نفسه المعوج الرق ويقال إنه أستاذه ، وقد توفي سنة ٣٠٧ وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها<sup>(١)</sup> :

يا سماء الشعر التي لى عليها كل يوم سماء دَمَعٍ تفيضُ  
كيف تجنى الأفهام زهر المعاني بعد ماجفَ رَوْضُهُنَّ الأريضُ

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقة التي انعقدت بينه وبين كشاجم ، ونظن ظناً أنها بدأت في الرقة ، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنّاً من الصنوبري ، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده في الشعر ، فسج على منواله ، في وصف الرياض وفي الحمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعاينات واستعطافات كثيرة ، وكان الأستاذ دائماً كان حريصاً على رضا تلميذه . وتعمى التلميذ يوماً أو أصره إلى أستاذه في ابنة<sup>(٢)</sup> له ، ولعل عالماً لغوياً لم يحظ بصداقة الصنوبري كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ مولياً وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفي هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمّتها الشباب للشقف ، وكان بينهم الصنوبري ، فلك الأخفش عليه لبه ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة بصور فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم ، بمثل قوله<sup>(٣)</sup> :

كرعنا منه في أبج ر علم غير منزوفه  
وطالعتنا رياض العد م بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقاً كما يقول ، واصفاً فراقه لهذا الفردوس العالمي ، متمنياً أو ذاءت عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عاماً يقضى معظمها في اللهو ، ويفيق مرة من كئوسه في نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد في الدنيا ومتاعها الزائل

(٢) الديوان ص ٣٧٧ .

(١) الديوان ص ٢٦٢ .

(٣) الديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٧٩ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وأن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ،  
يقول (١) :

أَلَقْتُ رِداءَ اللهِ عن عاتقِ خمسٍ وخمسون مَضَّتْ واثنانِ

وفى البيت ما يدل على أنه لم يمِت وقد ناهز الحسين كما يقول ياقوت (٢) ، بل  
مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندري هل هجر اللهو فعلاً كما تمنى أو ظل  
يشرب كتوسه صافية ومزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة .  
وكان يعيش على ما يظهر في يسر دائماً ، إذ نراه يذكر — كما يذكر ذلك كشاحم —  
أن له بجلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين (٣) . وكثيراً ما نراه  
يدعو صحابه ورفاقه لمآذب عنده (٤)

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعنى أحد تلاميذه من الشعراء  
وهو أبو العباس الصفري برواية ديوانه وعنه رواه القاضي أبو عمر عثمان بن عبد الله  
الطرسوسى (٤) ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولى فجمعه ورتبه على حروف الهجاء  
في مائتى ورقة (٥) . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين  
عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) . على يد مواطن للصنوبرى ترجم له  
ابن الفرضى في تاريخ (٦) علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلبى ، وعنه  
رواه اللغوى المشهور أبو بكر الزبيدى الإشبلى ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء  
الأندلس ، ونرى ابن خير يذكر طرقها في فهرسته (٧) . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان  
إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف . أما الجزء الذى يسبقه  
والآخر الذى يلحقه ففقدان ، وحقَّق الجزء الباقى تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان  
عباس وألحق به ما وجدته فى المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبرى

(١) الديوان ص ٥٠٣ .

(٢) انظر حلب فى معجم البلدان .

(٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاحم

ص ٧٤ .

(٤) انظر مثلاً ص ١٥٥ فى الديوان .

(٥) الديوان ص ١٨٧ .

(٥) الفهرست ص ٢٤٦ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى

رقم ١٤٠٢ .

(٧) فهرسة ما رواه ابن خير عن شيخه

ص ٤٠٨ .



ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبرى ومعه فهرسه فى نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ فى شعر الصنوبرى يلاحظ تنوعاً أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكبَّ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل، وخاصة أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحياناً يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبى تمام ، وأحياناً لا يذهب بعيداً فى استخدام هذه الفنون على طريقة البحترى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال (١) :

ما حلَّ بى منك وقتَ مُنصرفى ؟ ما كنت إلا قريسةَ التَّلَفِ  
كم قال لى الشوق قِفْ لتلثمه فقال خوف الرقيب لا تقفِ  
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتُ رجلى عن الخطو شدة الكلفِ  
فكان جسمى فى زىٍّ منطلقٍ وكان قلبى فى زى منعطفِ

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حواه، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى، ومع ذلك تمَّ عن شاعرية جيدة ، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيتيه الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من الجليلين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عنى بالمديح عناية واسعة ، إذا اتخذ شعره متجراً له ومرجحاً . فهو يقدمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعدتهم ، وكثيراً ما يصرح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كسيغُلغ ، وفيه يقول (٢) :

(٢) الديوان ص ١٦٠ .

(١) الديوان ص ٣٨٨ .

وَكَيْغَلَنِيَّ الْمَجْدُ يُلْفِيَّ مَجْدُهُ      ثَبَّتَ الدَّعَائِمَ مَحْصَدَ الْأُمْرَاسِ<sup>(١)</sup>  
 فَرَدُّ الْكِيَانِ فَكَفَّهُ مِنْ رَحْمَةٍ      تَسَعُّ الْأَنْامِ وَقَلْبِهِ مِنْ بَاسِ  
 أَعْدَى عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِي الْمَعْتَدَى      وَأَلَانَ مِنْ طَبِيعِ الزَّمَانِ الْقَاسَى  
 يَوْمَاهُ ذَا عَيْدٍ وَذَا عُرْشٍ وَإِنْ      جَلًّا عَنْ الْأَعْيَادِ وَالْأَعْرَاسِ  
 يَا بِي الْحِجَابِ وَلَيْسَ بِحِجْبِ بَشْرِهِ      عَنْ أَعْيُنِ النَّدْمَاءِ وَالْجُلَاسِ

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ في أعدى والمعتدى والحجاب ويحجب، وفي الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس: وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبي تمام، وإن كان لا يبلغ مبلغه في اقتناص المقابلات والجناسات: فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه في الهاشميين من عباسيين وعلويين، وأهم هاشمي عباسي أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمي، وكانت له - كما مر بنا - ضياع يتوسطها قصر في مكان يسمى فارث، وكان الصنوبري كثيراً ما ينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم وسائده، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر. كما يصور بستاناً حافلاً بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً<sup>(٢)</sup>:

ابْتُقُوا بَنِي الْعَبَّاسِ مَا بَقِيَ الْحَصَا      لَنَدَى يُؤْمَلُّ أَوْ لِحَرْقٍ يُرْفَعُ<sup>(٣)</sup>

وبمدح كثيراً من العلويين المقيمين بحلب وغير حلب. ودائماً يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجوهر المصطفى وسراج الدنيا. ومن خير مدائحه في الهاشميين مدائحه لأبي إسحق السلداني. ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتى ليرفعه درجات على أرسططاليس وبقرات، قائلاً<sup>(٤)</sup>:

وَأَدَقُّ مِنْ رَسْطَالِيسٍ نَظْرًا إِذَا      نَاطَرْتَهُ وَأَشْفُّ مِنْ بُقْرَاتٍ

(١) محصد: قوى متين.

(٢) الديوان ص ٣٢٧.

(٣) يريد بالحرق: الفتنة.

(٤) الديوان ص ٢٧٩.

فِكْرٌ غَدَتْ أَقْصَالَ فِكْرِ كَلِّهَا لَكِنَّهِنَّ مَفَاتِحُ اسْتِنْبَاطِ

والرثاء كثير في الديوان بصورة الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه (١) بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقديماً عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزى ابن حمزة الهاشمي العباسي صديقه عن زوجته (٢) وأن طائرًا لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد في دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلًا على صديقه أبي إسحق السلماني حين وافاه القدر ، فأبته كثيراً واصفماً علمه وباكياً عليه بمثل قوله (٣) :

غَابَ أَبُو إِسْحَاقَ فِي الْأَرْضِ بَلْ غَابَ سِرَاجُ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ  
بَكَتْهُ عَيْنَايَ وَفَوْقَ الْبِكَاءِ حَتَّى بَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي

ومن أروع مراثيه نديه للنبي عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن علي واصفماً مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حديته له في غدیر خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صببه في نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصه بمراث كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه في بعضها (٤) يصور سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثم في مقتله ، كما يصور سيرة أبيه علي ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، ويبكى مقتله في كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتلق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعْمَلُ أم كلثوم ومن كان في ركبته من النساء عويلاً مُرّاً ، ويندد بقاتليه وفضاعة جريمتهم وما يزال ينُّ لمصرع الحسين وهتك حرمة بمثل قوله (٥) :

يَوْمَ الْحُسَيْنِ عَلَى الدِّينِ كُنْتُ يَوْمًا عَسِيرًا  
مَلَأْتُ وَاللَّهِ كَرْبَاءَ يَا كَرْبَلَاءَ الصَّدُورَا

(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .

(٥) الديوان ص ٩٥ .

(١) الديوان ص ١٠٦ .

(٢) الديوان ص ٣٤١ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

والفاطميون      تقرير      هم      السيوف      الطيور  
والفاطميات      ينحز      ن      بالدموع      النحوراً

وزراه في جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلام وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعه الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعه آل البيت ، تشيعاً لهم ، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ويلتقى في الذيوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليلي وحيدته كما يقول ، ويندبها في كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضاً وامتلاً قلبه حشرات ولواعظ محرقة ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشياً بعد وشى وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها في رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحول العيد بعدها لغيابها عنه مائماً ، ويبكيها في قصيدة ضادية ، ويبكي معها أختها التي ماتت منه في الرقة ، وفي ذلك يقول (١) :

لنا في الرقتين مضيضُ حزينٍ      وفي حلب المضيضُ على المضيض  
وظل جرحه في ليلي لا يرقأ ، وكانت عروساً ، فانقلبت الفرحة حزناً بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقاً يصطلي الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله (٢) :

يا ربة القبر المضيء الذي      يضيء      ضوء الكوكب الساري  
أشتاق رؤياك فآتي فلا      أرى سوى      تُربٍ وأحجارٍ  
قوى إلى دارك قد أنكرت      صبرك عنها      أي إنكارٍ  
استوحشت دارك من أهلها      واستوحش الأهل من الدار  
ومن أروع مرثيه مرثيته في أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

(٢) الديوان ص ١٠٠ .

(١) الديوان ص ٢٦٣ .

أقدمهم ، وهو في رثائه لها يصور شعوراً عميقاً بالحزن ، وقد استهله بقوله: (١)

قد صَوَّحَتْ رَوْضِيَّ المونقه وانْتزَعَتْ دَوْحِيَّ المورقه  
ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان ين لها أئيناً متصلاً . وله مرثية  
طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزته بل أثرت في نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم المكي الكبرى لسنة ٣١٧  
حين هجم القرامطة على الحجاج ، وهم يهلون ويُسَبِّون يوم التروية فأعملوا فيهم  
السيوف في طرق مكة وفي البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى يقال إنهم قتلوا  
منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبري يبكيهم بكاء حاراً ، هاتفاً (٢) :

دموعهم تُجْرِي خشوعاً وخشية وأرواحهم تجرى على البيض والسمر  
وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُطُّوا إلا من التُّرْب لا العُطْر  
ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً  
ولا وضوءاً ولا صوماً ولا حَجَّاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة في الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل  
المصرية عامة وبضبة قبيلته ، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه  
في قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بني العباس ، إذ  
يقول في عدِّ قومه لمناقبهم ومفاخرهم (٣) :

عدُّوا النبيَّ الهاشميَّ ورهطه ووزيرهُ الصديق والفراروقا  
ولهم خلائفُ من بني العباس قد أعيوا جميع العالمين لحوقا

وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالبياً في تشيعه ، إذ يرتضى خلافة  
الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجدها ويشيد بها في قوة . وله أهاج  
كثيرة يملؤها بالفحش ، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليل التي رثاها طويلاً ، ويبدو

(٣) الديوان ص ٤٠٤

(١) الديوان ص ٤٤٢

(٢) الديوان ص ٩٧

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعدّه طائر شؤم وطالع نحس بغیض ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله (١) :

ألا يابنَ الجُنَيْدِ اسمع وما أنت بذي سَمْعِ  
على التَّفْرِيقِ إِمْلَاكُ كَ هَذَا لا على الجَمْعِ (٢)  
على التَّعَسِ عَلَى الغَمِّ على النَّحْسِ على الفَجْعِ  
على تَحْرِقُ القلبِ على تَحَدُّرُ الدَّمْعِ

وله قصيدة (٣) في هجاء بعض الشامسة ، يصفه فيها بالشره في الأكل وبيعض العادات القبيحة ، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى في ثقله ، وبالشؤم حتى ليوازي اليوم في شؤمه ، ومن قوله في ثقل (٤) :

لو مَرَّ من ميلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العَيْنِ والحاجِبِ

وفي ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه في استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة في جسدين أو جسد واحد في ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر ، وثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودداً مستعظفاً (٥) :

أخ لي عاد من بعد اجتنابِ وفرَّق بين قلبي واكتئابِ  
وخاطبني فخلتُ بأن زهر الـ رَبِيِّ الموشَى يُجَنِّي من خطابِ  
فقرب بين أجفاني وعُمُضِي وباعد بين دَمْعِي وانسكابِ  
أتاني أَرَى منطقه فعَفَى على ما دُقْتُه من طَعْمِ صَابِ (٦)

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها في الغلمان ، وحاولنا — في غير هذا الموضع — أن نخفف من حِدَّة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبري وغيره ، فقلنا إن

(٥) الديوان ص ٤٥٧ .  
(٦) الأرى : الشهد أو عسل النحل .  
والصاب : العلقم .

(١) الديوان ص ٣٤٦ .  
(٢) الإملاك : الزواج .  
(٣) الديوان ص ٢٠٠ .  
(٤) الديوان ص ٤٥٩ .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جلده ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتندير  
في أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل في فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه  
التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة  
قوله<sup>(١)</sup> :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحدَّ      وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جدًّا  
وقد كنت جلدًا ثم أوهنتي الهوى      وهذا الهوى ما زال يستوهن الجلدًا  
فلا تعجبي من غلبِ ضعفك قوتي      فكم من ظباءٍ في الهوى غابت أسداً  
جرى حبكم مجرى حياتي ففقدكم      كفقد حياتي لا رأيتُ لكم فقدًا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحول الهوى من المزح إلى الحد  
وحين يصبح واهناً بعد أن كان جلدًا ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتي  
بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية<sup>(٢)</sup> :

لا النومُ أذرى بهِ ولا الأرقُ      يدري بهذين من به رَمَقُ  
إن دموعي من طول ما استبقتُ      كلتَ فما تستطيع تستبق  
ولى ملكٌ لم تبدُ صورته      مُدَّ كان إلا صلت له الحدقُ  
نويتُ تقبيلَ نارٍ وجنتيه      وخفت أذنو منها فأحترق

والقطعة مع ما يترقق فيها من جمال يتعمقها التكلف ، على نحو ما يلاحظ  
في البيت الثاني وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته  
لملكه بصلاة الحدق فيه أيضاً غير قليل من التكلف ، وواضح أن الشطر الأول في  
البيت الأخير محبوب اجتلاباً ليهي مكاناً للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها  
في فتاة مسيحية ، تمضي على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

لا ومكان الصليب في النحرِ      منك ومجرى الزنارِ في الخصرِ  
والحلقِ المستديرِ من سبجٍ      على الجبين المصوغِ من درٍّ<sup>(٤)</sup>

(٣) الديوان ص ٦٣ .

(٤) السبج : قطع الشعر المرسل على الجبين .

(١) الديوان ص ٤٧٢ .

(٢) الديوان ص ٤٣٦ .

وَسُكَّرَ أَجْفَانُكَ الَّتِي حَلَفَ الـ فَتَوَرُّ أَلَا تَفْقِيحٌ مِنْ سُكَّرٍ  
وَأَقْحَوَانٍ بِفِيكَ مُنْتَظِمٍ عَلَى شَبِيهِهِ الْغَدِيرِ مِنْ خَمَرٍ  
مَا صَبَرَ الشُّوقُ لِي فَأَصْبِرْ يَا مَنْ حُسْنُهُ فِيهِ قِلَّةُ الصَّبْرِ

ويكثر الصنوبري من الحديث عن الخمر ووصف كثوسها وسقانتها ونداماتها  
ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر في مقدمة بعض  
مدائحه ، مضيفاً إليها نعت بعض ليالي الأتس وما كان في مجالسها من غناء  
وقيان وجوار معقربات الأصداغ . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من  
أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو  
ربيع الدنيا وهي ربيع الفرح والسرور في رأيه . ويقرنها أيضاً دائماً إلى الأمطار ،  
ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره في الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه  
أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله (١) :

ذَهَبَ كَثُوسَكَ يَا غُلَا      مُمْضُضٌ مُفَضَّضٌ  
الْجَوُّ يُجَلِّي فِي الْبَيَا      ضٍ فِي حَلِيِّ الدَّرِّ يُعْرَضُ  
أَطْنَنْتَ ذَا ثَلْجاً وَذَا      وَرْدٌ عَلَى الْأَغْصَانِ يُنْفَضُ  
وَرْدُ الرَّبِيعِ مَلُونٌ      وَالْوَرْدُ فِي كَانُونٍ أَبْيَضُ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذي يكسو  
الأشجار ثياباً بيضاء ، وكأنها تُجَلَّى فيها ، فهو يوم من أيام عرسها ، وهو يعب  
فيه من كثوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحاً بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنما  
قَطَعَهُ فِي عَيْنِهِ وَرُودٌ تُنْفَضُ عَلَى الْأَغْصَانِ وَعَلَى الْأَرْضِ ، وَرُودٌ بِيضَاءُ ،  
تَكْسُو الطَّبِيعَةَ غَلَاثِلَ فُضِيَّةٍ بَهِيجَةٍ . وكان أكثر ما يفرغ لخمرة ولطوه ولذاته في  
الرقعة ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها ومنتزهاتها على جداول البلخ والهنى  
والمرى . وله رائية (٢) يصور فيها نزهة في بساتين تلك الجداول وفي دير زكي الذي  
كان يجاورها ، ذاكراً قراءها التي كان ينتقل بينها من مثل هرقلمة والصالحية

(١) الديوان ص ٢٥٥ .

(٢) الديوان ص ٥٤ .



وَبِطْيَاسِ وَالرَّافِقَةِ وَمَا كَانَ يَمْتَدُّ فِي الْمَرْجِ هُنَاكَ مِنْ أَنْوَارٍ وَأَزْهَارٍ ، وَيَصِفُ  
عَكُوفَهُ عَلَى الْحَمْرِ وَسُقَاتِهَا مِنَ الْغُلْمَانِ وَالْجَوَارِي ، كَمَا يَصِفُ صَيْدَهُ بِالْكَلابِ  
هُنَاكَ مِنَ الْغَزْلَانِ ، وَكَذَلِكَ صَيْدَهُ بِالْجَوَارِحِ مِنَ الصَّقُورِ وَالْبُرْزَاةِ لِلطَّيْرِ مِنْ مُخْتَلَفِ  
الْأَلْوَانِ ، وَيَصُورُ مِنْ مَعَهُ مِنَ الرَّفَاقِ كَمَا يَصُورُ نَهْرَ الْفَرَاتِ وَسَفْنَهُ الْمُسْرَعَةَ . وَاهِ  
وَرَاءَ ذَلِكَ أَشْعَارُ كَثِيرَةٌ فِي دِيرِ زَكِيِّ وَنَزْهَهُ فِي بَسَاتِينِهِ وَخَسَلَعِهِ مَعَ بَعْضِ رِفَاقِهِ لِلْعَدَارِ  
فِيهِ وَلَهُمْ مَعَ بَعْضِ فِتْيَانِهِ ، عَلَى نَحْوِ مَا يَحْدِثُنَا فِي قَوْلِهِ (١) :

لَوْ عَلَى الدَّيْرِ عَجَّتْ يَوْمًا لِأَلْهَتِكَ فَنُونَ وَأَطْرِبْتِكَ فَنُونَ  
كَمْ غَزَالٍ فِي كَفِّهِ الْوَرْدُ مَبْدُو لُ وَفِي الْخَدِّ مِنْهُ وَرْدٌ مَصُونٌ  
ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السن بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته  
ليلي أثر في ذلك ، فقد صحا من خمره ولهوه على موتها في سن البراعم الغضة ، ولعل  
ذلك ما جعله يعلن أنه كفَّ عن النبيذ في حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول (٢) :

كُنْتُ أَحَبَّ النَّبِيذِ جِدًّا فَصَارَ حُبِّي النَّبِيذَ بُغْضًا  
فَلَسْتُ أَرْضَاهُ لِي شَرَابًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَسْتُ أَرْضَى

وينظم بعض أشعار في الزهد ، واه فيه قصيدة (٣) طويلة ، يتحدث فيها عن  
الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقرن من الأثام أن يرعوى ويكف  
عن السير في طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد  
بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية في الحياة ، وهو الباب الذي يسمى في الشعر  
وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة ،  
من مثل قوله في إحدى قصائده التي خصها بهذا الباب (٤) :

أَضَاعَ الْحَزْمَ مَنْ أَمْسَى مُطِيعًا طَوَالَ الدَّهْرِ ذَا حَزْمٍ مَضَاعٍ  
وَأَكْثَرَ مَا اسْتَطَعْتَ الْحِلْمَ إِيَّيَ رَأَيْتَ الْحِلْمَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ  
وَلَا تَتَّبِعْ أَنْخَا سَفِيهِ وَدَعَّهِ وَكُنْ لِلْحُرِّ - دَهْرَكَ - ذَا اتِّبَاعِ

(٣) الديوان ص ٢٩٣ .

(٤) الديوان ص ٢٢٢ .

(١) الديوان ص ٤٩٥ .

(٢) الديوان ص ٢٥٨ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسي في شعره ، وهو وصف الطبيعة التي عاش لها وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع في العربية . وقد مضى معاصروه من حوله ومن خلفهم في العصور التالية لا في المشرق وحده ، بل أيضاً في المغرب والأندلس يسرون على هديه فيه ، حتى ضرب المثل بروضياته . وحقاً كان ابن الرومي مشغولاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ، ولكنه لم يعش لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهدا تعهد الحب الوامق كما صنع الصنوبري . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفاً لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل كنده من حياته ، وقديماً عاش تلك المعيشة أبو نواس ، ولكن في الصهباء وكثوسها ودنانها ، مما جعله يُعَلَى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية ، وبالمثل نجد الصنوبري يُعَلَى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، في مثل قوله (١) :

وَصَفَّ الرِّيَاضُ كِفَانِي أَنْ أَقِيمَ عَلَى      وَصَفَ الطَّلُولُ فَهَلْ فِي ذَاكَ مِنْ بَاسٍ  
يَا وَاصِفِ الرُّوضِ مَشْغُولًا بِذَلِكَ عَنْ      مَنَازِلِ أَوْحَشْتُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْنَانِسٍ  
قُلْ لِلَّذِي لَامَ فِيهِ هَلْ تَرَى كَلِيفًا      بِأَمْلَحِ الرُّوضِ إِلَّا أَمْلَحَ النَّاسِ

فهو يُعَلَى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلابية . ورأيناه في غزاه لا يهتم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بجمالها الهاجع في الكون عن كل شيء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفي كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك في قصيدة الأبيات السالفة قائلاً عن رفاق له في أحد البساتين :

مَا كَدْتُ أَكْتُمُهُمْ وَجَدِي بِرَجْسِهِ      إِلَّا اسْتَدَلُّوا عَلَيَّ وَجَدِي بِأَنْفَاسِي

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد في الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنى

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوّل الرياض في عينيه إلى أعياد وأعراس ، حتى  
ليقول<sup>(١)</sup> :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا      أنى الربيعُ أتاك النورُ والنور<sup>(٢)</sup>  
فالأرضُ ياقوتةٌ والجو لؤلؤةٌ      والنبتُ فيروزجُ والماءُ بُلُورُ<sup>(٣)</sup>  
تظلُّ تنثرُ فيه السُّحبُ لؤلؤها      فالأرضُ ضاحكةٌ والطيورُ مسرورُ  
حيثُ التفتُ فقمرىٌ وفاختةٌ      يغنيانِ وشفنينُ وزرورُ<sup>(٤)</sup>  
إذا الهزارانِ فيه صوتًا فهما السُّ      رُ نايُ والنَّايُ بلُ عودُ وطنبورُ<sup>(٥)</sup>

فالربيع كأنه دكانٌ مليءٌ بالجوهر ، والدنيا مليئةٌ بالبشر والسرور والطيور تغني  
ويشدو عندليبان بصوتيهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألباب  
بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم في الربيع ليروا مفاتنه  
ويهتف بصواحيبه من النساء أن يتأملن في جماله الذي يملأ القلوب غبطة وابتهاجاً ،  
يقول<sup>(٦)</sup> :

يا ريمُ قومي الآن ويحك فانظري      ما للربى قد أظهرت أعجابها<sup>(٧)</sup>  
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً      فلآن قد كشف الربيع حجابها  
وردُّ بدا يحكى الخدودَ ونرجسُ      يحكى العيون إذا رأت أحبها  
وكانَ خرمةُ البديعِ وقد بدا      رؤسُ الطّواوسِ إذ تدير رقابها<sup>(٨)</sup>  
والسرورُ تحسبه العيونُ غوانياً      قد شمّرتُ عن سوقها أثوابها<sup>(٩)</sup>

فهو يوقظ صاحبه لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها  
وعيونها الرانية ورعوسها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت شمسرة عن سيقانها

(٥) السرنای والنای : من آلات الطرب .

(٦) الديوان ص ٤٥٤ .

(٧) أعجاب : جمع عجب .

(٨) الحرْم : زهر بنفسجى زاه .

(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

(١) الديوان ص ٤٢

(٢) النور : الزهر .

(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم

أخضر اللون .

(٤) القمرى والفاختة : من الحمام ، والشفنين

اليمام ، والزرزور : من المصافير .

تريد الرقص في هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته اوصف بعض الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لُسبَه كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار في الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلاً على نحو ما نرى في قوله (١) :

أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ عَيْونِ النَّرْجِسِ      أَمَ مِنْ تَلَاظِهِنَّ وَسَطَ الْمَجْلِسِ  
دُرٌّ تَشَقَّقُ عَنْ يَوَاقِيَتِ عَلَى      قُضْبِ الزَّمْرُدِ فَوْقَ بُسْطِ السُّنْدِسِ  
أَجْفَانُ كَافُورٍ حُبِينٍ بِأَعْيُنِ      مِنْ زَعْفَرَانٍ نَاعِمَاتِ الْمَلْسِ

وهو في كثير من وصفه للنرجس يستهدي بابن الرومي ، إذ كان معجباً به مثله ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن ابن الرومي أدار مناظرةً في شعره بينه وبين الورد ، وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكد فضله على الورد وأنه يفوقه حسناً وجمالاً ، وكأما أراد الصنوبري أن يعارضه فنظم مقطوعة (٢) نصر فيها الورد ، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن ينتصر للنرجس ، وفيها يقول (٣) :

خَجَلُ الْوَرْدِ حِينَ لَاحَظَهُ النَّرُّ      جِسٌّ مِنْ حُسْنِهِ وَغَارَ الْبَهَارُ (٤)  
فَعَلَتْ ذَاكَ حَمْرَةٌ وَعَلَتْ ذَا      حَيْرَةٌ وَاعْتَرَى الْبَهَارَ إِصْفِرَارُ  
وَعَدَا الْأَقْحُوَانُ يَضْحَكُ عَجِبًا      عَنْ ثَنَائِي لِثَاتُهُنَّ نُضَارُ (٥)  
عِنْدَهَا أَبْرَزَ الشَّقِيقُ خَدُودًا      صَارَ فِيهَا مِنْ لَطْمِهِ آثَارُ (٦)  
وَأَضْرَّ السَّقَامُ بِالْيَاسَمِينِ      غَضُّ حَتَّى أَذَابَهُ الْإِضْرَارُ

ويعضى الصنوبري على هذا النمط واصفياً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة ، وكل منها يبوءُ بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة . وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله في دمشق والرقعة قصائد بديعة ، وأبدع منها قصيدته في موطنه حلب ، وهي أربعة أبيات ومئة استهلها

(٥) الأقحوان : زهر أبيض في وسطه اصفرار

وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .

(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(١) الديوان ص ١٨٠ .

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

(٣) الديوان ص ٧٨ .

(٤) البهار : نبت أصفر .

بالنسيب ، ثم أخذ في وصف متزهاتها وقراها ونهرها قويق وبركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول (١) :

حبذا جامعها الجا مع للنفس تُقاها  
ومراق منببر أء ظم شىء مُرتقاها  
وذرى مئذنة طا لت ذرى النجم ذراها  
قبة أبدع بانيها بناء إذ بناها  
لو رآها مبتنى قبة كسرى مابناها

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصف الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفاً رائعاً ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحاً بضحولة مياهه وأنه ليس فيه شيء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبيعياً أن يصف الفستق أعظم نُقلٍ تشتهر به حلب وفيه يقول (٢) :

زبرجدة ملفوفة في حريرة مضمنة ذراً مُغشى بياقوت

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء ، ولذلك كان يُحسِّن وصف أى شيء وصفاً دقيقاً ، وما اشتهر به وعُرف له وصفه لديك الصباح الذى ينبهه وينبه الرفاق معه لخمير الصباح التى تسمى بالصَّبوح ، وكان الشعراء قبله يلمنون به أحياناً ، أما هو فخصَّه بقطوعة طريفة وفيها يقول (٣) :

مغرّد الليل ما يألوك تغريدا  
لما تطرب هز العطف من طرب  
كلابس مطرفاً مُرخ جوانبه  
ران بغصنى عقيق يدركان له  
حالى المقلد لو قيست قلاذته  
مل الكرى فهو يدعو الصبح مجهوداً (٤)  
ومد للصوت - لما مدّه - العجيدا  
تضحك البيض من أطرافه السوداء (٥)  
من جلة فيهما ما ليس محدودا  
بالورد قصر عنها الورد توريدا

(٤) الكرى: النوم .

(٥) المطرف : ثوب من حرير مخطط .

(١) الديوان ص ٥٠٦ .

(٢) الديوان ص ٤٦٤ .

(٣) الديوان ص ٤٧٣ .

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقنص ، وخاصة في الرقة ، يصادون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالحوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك، وكل ذلك نجد وصفه في أشعاره ، وله طائفة (١) يصف فيها جواده الذي يركبه للصيد وقد جنّ جنونه من السرعة حتى لكأذنه حاقده على النضاء ، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذي سيطلقه على بَطَّ الماء أو طَيَّره ، وفيه يقول :

كَأَنَّما مِخْلَبُهُ لِأَذُنِ الطَّيْرِ قُرْطُ

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه سهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتي بصيده . ويرتبه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوراً سرعتها هي الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

مَوْكَلَاتٍ بِالْفَلَا يَطْوِينَهَا طَيَّ البُسْطُ .  
كَأَنَّما آذَانُهُ نَّ مَوْسِنٌ لَمْ يُجِنَ قَطُّ  
كَأَنَّما أَجْفَانُهَا عَنِ قِطْعِ الجَمْرِ تَعْطُ . (٢)

وساعدته حاسته التصويرية على أن يصور كل ما حواه وكل ما يقع عليه نظره ، من ذلك تصويره للجُرْدَانِ والهَيْرِ (٣) ، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالهر أحذب الظهر منتصب الرأس ، والجردان دقيقة الخراطيم والآذان والأذنان حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شيء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهير لها بالمرصاد ، يقول :

نَاصِبٌ طَرْفُهُ إِزَاءَ الزَّوَايَا وَإِزَاءَ السَّقُوفِ وَالْأَبْوَابِ  
يَسْحَبُ الصَّيْدَ فِي أَقْلٍ مِنَ اللَّمَّةِ حِجٌّ وَلَوْ كَانَ صَيْدُهُ فِي السَّحَابِ

ويصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قُرْطاً وقلادة ، وخضبه بالحناء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيساً ، تمشي بأقدامها الحمراء على عُنَّاب ، وكل ذلك

(٢) الديوان ص ٤٥١ .

(١) الديوان ص ٢٨٣ .

(٢) تعط : تشق .

فرح بهذا الليث الذى قضى له على الجرذان قضاءً مبرماً . ومن تصاويره قوله فى  
شمعة (١) :

مَجْدُولَةٌ فِي قَدِّهَا تَحْكِي لَنَا قَدَّ الْأَسْلُ  
كَأَنَّهَا عُمُرُ الْفَتَى وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ

وهى صورة طريفة ، ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبرى  
وأنه كان خيالا خالقاً ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل  
بما يملأ نفس قارئه إعجاباً ، وكان إلى ذلك شغوفاً بالرياض والطبيعة شغفاً ملك  
عليه حواسه ، حتى أصبح فيه قدوة للعصور التالية .

## الفصل السادس

### شعراء السياسة والمديح والمهجاء

١

#### شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا في كتاب العصر العباسي الأول أن حزب الخوارج الذي كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَمَدَ أَوَّارُهُ ، ولم تَسْبِقْ منه حينئذٍ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا في هذا العصر العباسي الثاني كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعدْ من يُعلن أنه خارجي أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكونوا حزباً أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هي أفكار قد تَعِنَ لشخص ، وقد يتبنّاها ، ولكن دون أن يَحْتَمِلَ من أجلها السلاح ودون أن يتغنّى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج في دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، إذ كان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغي استئصالهم ، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة النائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعة ناسباً نفسه إلى فاطمة الزهراء كذباً وافتراء . وكأما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذي جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوي .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد في هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالاً ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين في الحجاز وفي طبرستان وشرق الدوالة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمي بقذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثرتهم



الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدواة وفي أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كسيلا ، فكان طبيعيا أن يكثر مدائحهم ودُعواتهم ، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظهِرون غير ما يُبطنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسي أو ذاك لقاء ما يُستترُ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم الخليفة المعتدل الذي لا يتحمل على البيت العلوي ولا يضطغن مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبعض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرَّ بنا أمره بحرث قبر الحسين ومسح أرضه ومسح الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه في النجف ، وغدا آل أبي طالب في محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرب إليه غير شاعر من مثل علي بن الجهم بِشْتَم على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نصصا وإما تعريضا كقول الجهمَّاز أحد ندمائه (١) :

ليس لى ذنبٌ إلى الشِّعةِ إلا خلتين  
حبَّ عثمانَ . بن عَمَّا نِ حَبَّ العُمَريِّينِ

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوِّحا بأنه من أهل السنة ، وأنه على مذهب المتوكل في التسنن ومقت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كمن يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقا للخلافة ، ملوِّحين في وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلوه بتقديمهم ابن الجهم وروان بن أبي الجنوب وغيرهما كثيرين ، وأتوه من كل فجٍّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشَّيْبَلِ البُرْجُمِيِّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتا استهلها بقوله (٢) :

أَقْبَلِي فَالْحَيْرُ مَقْبِلُ واتركي قولَ المَلَلِ  
وثِقِي بالتُّجَّحِ إِذْ أَبِ صرَّتِ وَجَهَ المتوكلِ

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

(٢) الأغاني (طبع دار الكتب المصرية)

(١) معجم الشعراء للرزباني (طبعة الحاي)

درهم . وكان يَغْدُو وَيَسْرُوحُ فِي رِكَابِهِ الْبَحْتَرَى يَمْدَحُهُ فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ مُشِيداً بِأَبَائِهِ  
وَوِراثته لنور النبوة وإمامته يَهْدِيهِ وَعَدْلِهِ ، وَيَتَحَوَّلُ إِلَى مَا يَشْبَهُ دَاعِيَةً لَهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ  
مِنْ أَعْمَالِهِ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا تَقْرَأُ مِنْ مَدَائِحِ الْمُتَوَكَّلِ عِنْدَ غَيْرِهِ مَدْحَةٌ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ  
الْمَدْبَرِ وَكَانَ لَا يَزَالُ شَابِئاً يَعْمَلُ فِي دَوَائِمِهِ ، فَرَضَ الْمُتَوَكَّلُ ثَمَّ عَوْفِي ، وَدَخَلَ النَّاسُ  
عَلَى طَبَقَاتِهِمْ يَهْتَنُونَ بِالْإِبْلَالِ مِنْ مَرَضِهِ ، وَدَخَلَ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَقِفُ بَيْنَ  
يَدَيْهِ حَتَّى أَنْشَدَهُ قَصِيدَةَ يَهْنئه فِيهَا بِسَلَامَتِهِ مَهْلَلاً مُبْتَهَجِئاً مَعَ الْمُبْتَهَجِينَ الْمَهْلَلِينَ ،  
وَفِيهَا يَقُولُ (١) :

اليوم عادَ الدِّينُ غَضَّ العودِ ذَا وَرَقِي نَضِيرِ  
يا رَحْمَةً للعالمِ نَ وَيَا ضِيَاءَ الْمُسْتَنِيرِ  
يا حِجَّةَ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ لَهُ بِهَدْيِي وَنُورِ

والمبالغة واضحة وكأننا بإزاء غالٍ من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت  
فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً في المذهب الإسماعيلي الفاطمي . وكان  
طبيعياً أن يَطْرَبَ الْمُتَوَكَّلُ حِينَ سَمِعَ الْقَصِيدَةَ ، فَيَأْمُرُ لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دَرْهَمٍ  
وَيَتَقَدَّمُ إِلَى وَزِيرِهِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ نِجَاحِي أَنْ يُولِيَهُ عَمَلًا جَلِيلًا يَنْتَفِعُ بِهِ . وَكَانَ كَثِيرُونَ  
يَسِيلُ لِعُبَابِهِمْ لِمِثْلِ هَذَا الْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ، حَتَّى كَبَارِ الْكُتَّابِ مِنْ أَمْثَالِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ  
الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ ، وَكَانُوا مَا يَزَالُونَ يَنْتَهِزُونَ التَّرْصُصَ مِنَ الْأَعْيَادِ وَالْمَنَاسِبَاتِ ، وَكَانَ مِنْ  
أَكْبَرِ هَذِهِ الْمَنَاسِبَاتِ عَقْدُ الْمُتَوَكَّلِ الْبَيْعَةَ لَوْلَاةِ الْعَهْودِ أَبْنَائِهِ الثَّلَاثَةِ : الْمُنْتَصِرِ فَالْمُعْتَزِ  
فَالْمُؤَيَّدِ ، وَصَنَعَ لِذَلِكَ مَوْكِبًا ضَخْمًا ، سَارَ فِيهِ مَعَ أَوْلَادِهِ حَتَّى نَزَلَ الْقَصْرَ الَّذِي  
سَمَّاهُ الْعُرُوسَ وَأُذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا تَكَامَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَفَ الصُّوْلِيُّ بَيْنَ  
الصَّفِّينِ ، وَاسْتَأْذَنَ فِي الْإِنْشَادِ فَأُذِنَ لَهُ فَقَالَ (٢) :

أَضْحَتْ عُرَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مَنْوُطَةٌ بِالنَّصْرِ وَالْإِعْزَازِ وَالتَّسَائِيدِ  
بِخَلِيفَةٍ مِنْ هَاشِمٍ وَثَلَاثَةٌ كَنَفُوا الْخِلَافَةَ مِنْ وُلَاةِ عَهْودِ

(١) أغاني (طبعة السامى) ١١٤/١٩ .  
التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية  
أخرى ص ١٣١ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٦٤/١٠  
وانظر الطبرى ١٨١/٩ والديوان (طبع لجنة

قمرٌ توافَتْ حوله أقمارُهُ فَحَفَفْنَ مَطْلَعَ سَعْدِهِ بسعود  
كَفَفْتَهُمُ الآبَاءَ واكتنفت بهم فَسَعَوْا بِأَكْرَمِ أَنْفُسِ وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاية اليهود بمثلها . ويتولى بعده المنتصر ،  
فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويرد عليهم الأمن ، ويتغنى  
شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من  
أمثال يزيد<sup>(١)</sup> بن محمد المهلبى . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن  
يحيى البلاذرى<sup>(٢)</sup> :

ولو أَنَّ بُرْدَ المصطفى إِذ لَيْسَتْهُ يظنُّ لظنَّ البُرْدُ أَنَّكَ صاحِبُهُ  
وقال وقد أَعْطَيْتَهُ وَلَيْسَتْهُ نَعَمَ هذه أَعْطَاهُ وَمناكِبُهُ

ويتولّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة  
لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ،  
ليأخذوا جوائزهم أو ليصبحوا من ندمائه إذ كان صاحب لهو وقصف ، فلم يكذب يتسلم  
مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنتاً أبو على  
البصير قائلاً<sup>(٣)</sup> :

أَبَ أَمْرُ الإسلامِ خَيْرُ مآبِهِ وَعِدا الملكِ ثابتاً فى نِصايِهِ  
مستقراً قِرارِهِ مطمئناً أهلاً بعد نايِهِ واغترابِهِ

وتطول مدة الاعتماد نحو عشرين عاماً أو تزيد سنوات ، وكان فيه لهو وانغماس  
فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كفتها أخوه وولىّ عهده الموفق  
أشد بنى العباس شكيدة لعصره وأحزمتهم بكل معانى الحزم وأروعها . وكأما اختاره  
القدر فى عصر أخيه اينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء  
مبرماً . فكان طبيعياً أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولى عهده وأمجاده الحربية  
فى وقائعهم مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفّار من جهة ثانية . وقد صورنا هذه

(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .

الوقائع في غير هذا الموضوع ، وفي وقائعه مع الصفار يقول ابن فسيّد الطائى مصوراً  
انتصاره<sup>(١)</sup> :

ووليّ عهد المسلمين موقّقٌ بالله أمضى من شهابٍ ثاقبٍ  
يفارسُ العُربَ الذى ما مثله فى الناس يُعرفُ آخرُ لنوائبِ

وتولّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية وحزمًا ، ومرّ بنا  
أنه كان من مدّاحه ابن الروى فهو يهنئه فى الأعياد المختلفة وينتهر كل مناسبة  
لينظم فيه أشعاره مهللاً ممجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ،  
وكان قرّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التى صور فيها عهده تصويراً بارعاً ،  
وفىها أصلّى خصوم العباسيين ناراً حامية ، مصوراً بشاعة ثورقى الزنج والقرامطة ،  
وكأنما جرّد من نفسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه فى  
الخلافة ، ومرّ بنا ذلك فى حديثنا عنه . ويتولّى المكتفى بعد أبيه المعتضد ويُسبغ عليه  
ابن المعتز مدائحه ، كما يُسبغها أبو بكر الصولى وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر  
وتأخذ الدولة فى الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال  
من أمثال ابن بسّام<sup>(٢)</sup> وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر  
طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر  
الصولى .

### مروان بن أبى الجنوب أبو السمط<sup>(٣)</sup>

حفيد مروان بن أبى حفصة شاعر الخليفة المهدي ، أصل موطنهم اليمامة ،  
وقد سلك مسلك جدّه فى الطعن على آل على بن أبى طالب ، فكان طبيعياً أن  
يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حسنّته على أبناء عمه العلويين

والطبرى ٢٣٠/٩ والأغانى (طبعة السامى) ٣٤/٩  
وتاريخ بغداد ١٣/١٥٣ والفهرست لابن  
النديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزبانى  
ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان  
وخزانة الأدب للبغدادى ١/٤٤٧

(١) طبرى ٥٢٠/٩ .  
(٢) انظر أخبار الراضى والمتقى فى كتاب  
الأوراق للصولى .  
(٣) راجع فى أخبار مروان وأشعاره الشعر  
والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز  
ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤/٥٢ ، ٨٣

'سورته' في غير هذا الموضع . ويبدو أن الواثق لم يكن يُعجَبُ به ولا بشعره ففناه إلى اليمامة ، فلما ولي الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبي دؤاد مستشاره بقصيدة مدحه بها ، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمًا قبيحًا ، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذب به في تسنور من خشب ملاءه بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان :

وقيل لى الزيات لاقى حِمَامَهُ      فقلتُ أتانى الله بالفتح والنَّصْرِ  
لقد حفر الزيات بالغدر حُمْرَةً      فألقى فيها بالخيانة والغدرِ

وكان ابنُ الزيات أولَ من عمل هذا التسنور ، وعذب به نفرًا . وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبي دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين ، فأمره بإحضاره . فقال له إنه باليمامة ، كان الواثق نفاه لمودته لأمر المؤمنين ، وعليه دينٌ : ستة آلاف دينار ، فقال المتوكل : يُعْطَاها . فأعطيت له ، وحجى به إلى سامراء ، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لامية يقول فيها :

كانتُ خلافة جعفرٍ كنبوة      جاءت بلا ظلبٍ ولا بتنحلِّ  
وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مثلَمَا      وهبَ النبوةَ للنبيِّ المرسلِ

فأمر له بخمسين ألف درهم . وأخذت هباتُ المتوكل الغدقة تنثر عليه نشرًا ، فهو يغدو ويروح عليه بالمناجح . والمتوكل يُسبِّغ عليه عطاياها ، وكان مما أخذ فيه نوالا كبيراً قصيدته التالية التي أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : محمد المتنصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وفيها يقول :

ثلاثة أملاكٍ فأما محمدٌ      فنورٌ هدىً يهدى به الله من يهدى  
وأما أبو عبد الإله فإنه      شبيهك في التقوى ويُجِدِي كما تُجِدِي  
وذو الفضل إبراهيمُ الناسِ عصمةٌ      تقيُّ وفي الوعيد وبالوعدِ  
فأولهم نورٌ وثانيهم هدىً      وثالثهم رشدٌ وكلهم مهدي

فلما أتمَّ إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوباً وبغلة وفارس وخمار . فما برح حتى قال في شكوه :

تَغْيِيرَ رَبِّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا فَمَلَكَ أَمَرَ الْعِبَادِ تَغْيِيرًا

حينئذ ردَّ عليه ضياعه التي كان ابن الزيات قد صادرها ، وجعل له راتباً في الديوان ، ولعل أهم من كل هذا المديح أنه دافع بجرارة في جوانب من مديته عن حقوق العباسيين في الخلافة مؤتسباً في ذلك بجدته مروان بن أبي حفصه، وائتمس به أيضاً في الرد على العلويين ونقض ما يدعون من وراثه الرسول في الخلافة ، إذ هم أبناء السيدة فاطمة الزهراء والعمُّ مقدم على أولاد البنت في الوراثة حسب حكم الشريعة . ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته الميمية التي تمضي على هذا النمط :

مُلْكُ	الْخَلِيفَةِ	جَعْفَرٍ	لِلدِّينِ	وَالدُّنْيَا	سَلَامَةٌ
لَكُمْ	تَرَاثُ	مُحَمَّدٍ	وَبِعَدْلِكُمْ	تَنْقَى	الظُّلَامَةَ
يَرْجُو	التَّرَاثُ	بَنُو	الْبِنَا	بِ	وَمَا لِهِمْ فِيهَا
وَالصُّهْرُ	لَيْسَ	بِوَارِثٍ	وَالْبِنْتُ	لَا تَرِثُ	الإِمَامَةَ
أَخَذَ	الْوَرَاثَةَ	أَهْلُهَا	فَعَلَامٌ	لَوْكُمْ	عَلَامَةٌ

وهو يشير بوضوح في الآيات إلى أن مصاهرة علي بن أبي طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثه ، كما يشير إلى أن السيادة فاطمة بنت ، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين ولا تحق لها الإمامة ، فكيف تورث الإمامة من قبلها ؟ والشريعة واضحة في ذلك . وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجاً ، وقلده الإمامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع ، وخلع عليه ولي عهده المنتصر . وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنشرت على رأسه ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخى ياتقطانها له دون أن يلتقط هو منها شيئاً إكراماً له ، ويقال إنه حشا فمه جوهراً ، ومن طريف ماله فيه قوله :

تَخْشَى	الإِلَهَ	فَمَا	تَنَامُ	عِنَايَةَ	بِالمُسْلِمِينَ	وكلهم	بِكَ	نَائِمٌ
لَوْ	كَانَ	لَيْسَ	لِهَاشِمٍ	فِيهَا	مَعْنَى	سَلَفٌ	سَوَاكُ	لَقَامَمْتُ

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتي ألف دينار من ورق (فضة)

وذهب وكُسُوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلقوا جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجي حتى شاعرنا نابه مثل علي بن الجهم نراه يتهاجي معه ، ولم يكن مروان يصمّت بل كان يبادر أحياناً إلى الهجاء ، ويروى أن ابن الجهم قال في فاتحة قصيدة له في المتوكل :

الله أكبر والنبي محمد والحق أبلج والخليفة جعفر

ولم يكذب يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أراد ابن جهم أن يقول قصيدة بمدح أمير المؤمنين فأذنا  
فقلت له لا تعجلن بإقامة فلست على طهرٍ فقال : ولا أنا

وكان يقدم لمداخحه بنسب رقيق يحیی فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورة لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ، والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضي ، وفيها يقول :

شمس الشباب على اليوم طالعة وسوف تغرب إن الدهر ذو غير  
إذا الشباب مضت عنا بشاشته فما نبالي متى صرنا إلى الحفر  
لنا من الشوق أكباد مصدعة وأعين كجلت بالدمع والسهر  
سقياً ورعياً لأطعان مؤكبة فيها خرائد كالغزلان والبقر  
ودعتهن وداعاً زادني كمداً ما كان إلا كورد الطائر الحذر

وله شعر في المعتز رواه المسعودي في المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره . ولعل فيما قدمنا من أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جمده يعني بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

## علي<sup>(١)</sup> بن يحيى المنجم

من أصل فارسي أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخصَّ به ، ويقال إن جندَّ يحيى أبرسام البزرج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملته عناية المأمون هو وابنه علي ، وتوالى عليهما برُّه ، وأخذ نجم الأسرة في التألق ببلاط المأمون والمعتمد ، وتوثقت الصلة بين علي ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبى ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصفه له وقدَّمه إليه ، وأعجب به المتوكل وقربه منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده في ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده ، ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً ، وقدَّمه على جميع جنسائه ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وأقره المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلاص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه للمنادمة على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلَّده الأسواق والعمارات ، وقدَّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلَّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطع ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتد ، فسحَّطى في عهده حُظوة كبيرة ، ووصله صلوات سنَّية ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظرفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبة ، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضرور الثقافات ، حتى

والأغانى (طبعة السامى) ٢٢/٩ وتاريخ بغداد  
١٢١/١٢ ومرج الذهب ١٩١/٤ والنجوم  
الزاهرة ٧٣/٣ .

(١) انظر في حياة علي بن يحيى وأشعاره  
معجم الأدباء ١٤٤/١٥ ومعجم الشعراء  
المرزبانى ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١



قيل إنه طيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار ، وكان يُعبد من رعاة الأدب في عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلوات ، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدى إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلوات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فتمد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغل الأموال الكثيرة التي كانت تُنشر عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء في إقامة مكتبة ضخمة ، مرّ بنا حديث عنها في غير هذا الموضع ، وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبدولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب في عصره ، بل لعله كان أكبر رعاتهما ، ولا شك في أن ما عُرف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذي جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صنْعَ مكتبة له يباهي بها معاصريه . ومن تمة ثقافته أن يُدكّر له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين ، وكتاب أخبار إسحق الموصلي وكتاب الطليخ ، والكتابات الأخران بتصالان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوق الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت في ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعجّب بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء في سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على أشعاره في الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمه في رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت في ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة في المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله في المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لَابِسًا بُرْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	بِأَحْسَنَ مِمَّا أَقْبَلَ الْبَدْرُ طَالِعَا
سَمِيَّ النَّبِيِّ وَابْنَ وَاوْرَثَهُ الَّذِي	بِهِ اسْتَشْفَعُوا أَكْرَمَ بِذَلِكَ شَافِعَا
وَكَوْلٍ عَزِيزٍ خَشِيَّةٍ مِنْهُ خَاشِعٌ	وَأَنْتَ تَرَاهُ خَشِيَّةَ اللَّهِ خَاشِعَا

وهو شعر متوسط . شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة ، ولذلك كان يستساغ في

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادهم وفكاهاتهم . وهكذا دائماً شعرهم ، فهو  
 إنما يُعجب في لحظة قوله ، ولذلك كان يُروى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز  
 نفسه قصيدته في الفتح بن خاقان التي أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء  
 ذلك أشعار يصور بها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

سيعلم دهري إذ تنكرت أني صبوراً على نكرانه غير جازع  
 وأنى أسوس النفس في حال عُسرها سياسةً راضٍ بالمعيشة قانع  
 كما كنت في حال اليسار أسوسها سياسة عَفٌّ في الغنى متواضع  
 وأمنعها الورْدَ الذي لا يليق بي وإن كنت ظماناً بعيد الشرائع

فهو يصور نفسه صابرة لا تجزع مهما ادلهمت الخطوب ، كما يصور نفسه  
 لا تهون في حال عسر أو شدة ، بل تتقبلها راضية قانعة كما تقبلت اليسر قبلاً  
 مزدرية مغرياته في تواضع غير مسفّ دون أي إحساس باستعلاء ، وإنه ليمنع نفسه  
 الإلمام بأي وردٍ دنى مهما كان ظماناً ، كما ظمناً لظمنه ، محتملاً لحرارة عطشه .  
 وله في الطيف :

بأبي والله من طرّقا كابتسام الصبح إذ خفقا  
 زادني شوقاً برؤيته وحشاً قلبي به حرقاً  
 زارني طيفُ الحبيب فما زاد أن أغرى بي الأرقا

وكانما أراد أن يحاكي البحترى في كثرة أشعاره التي نظمها في الطيف . ولا شك  
 أنه من طراز متوسط ، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به في  
 الأفق الذي يخلق فيه البحترى . ومرت بنا آنفاً رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل  
 غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه . مصوراً كرمه الفياض من مثل قول  
 أبي هفان :

لربيع الزمان في الحول وقت وابن يحيى في كل وقت ربيع  
 رجلٌ عنده المكارم سوقٌ يشتري دهره ونحن نبيع

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن بسّام ، وقد أنشدنا في غير هذا الموضع مرثيته له ، وهي مرثية جيدة .

### أبو بكر الصولي<sup>(١)</sup>

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كاتب في دواوين المتوكل . وهما من أسرة صول تكيين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب في بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية في أوائل القرن الثاني للهجرة ثار معه عليهم محارباً في صفوفه ، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين في ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره في بغداد : أبي داود السجستاني وثلعب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحسّن لُعبة الشطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها في زمنه . وأكبَّ على معارف عصره إكباباً منقطع النظر ، وجعله هذا الإكباب يُعنى بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كوّن لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صف من الكتب لوناً ، فصنف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته في لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحهم ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدَة . وكلّفه المقتدر تعليم ولديه الراضى وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرّج أولهما شاعراً وأديباً لَسِيناً ، حتى إذا ولي الخلافة اتّخذَه نديمه ومستشاره . ويزورُ عنه الخليفة المتقي بعده فيترك بغداد إلى

الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأديباء ١٩ / ١٠٩  
وفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٦  
وله في كتابه أخبار الراضى والمتقى أشعار كثيرة .

(١) انظر في أخبار أبي بكر الصولي وأشعاره  
الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧  
ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٣١ وديوان  
المعاني للمسكوى (انظر الفهرس) وذيل زهر

بجكم التركي حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكنى عرف تشيعه لآل علي بن أبي طالب فطلبه ، وفرّ منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولي دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين في مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومي وابن المعتز ، وصنّف كتباً جليلة في أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتّاب وكتاب أخبار أبي تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه ، ولعل في ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسي ، وأنه كان يقف في دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر ولا مَن من يعيرونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه في آفاق الشعر العليا التي تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولي شاعراً ناقداً عالماً ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة في عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التي كان يُنشدها الراضى في حفلات القصر وفي المناسبات المختلفة دونّها بنفسه في أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائحه في المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودي أنه أنشدها في قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَضِدُ      بَحْرُ جُودٍ لَيْسَ يَعْدُوهُ أَحَدٌ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتفي سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر - كما يقول - إلى أن ينشدها المتقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلاً قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقى بدلا من كلمة المكتفي ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطافها ظلُّ عليه ظليلٌ  
ولولا بنو العباس عمُّ محمدٍ لأصبح نور الحق فيه خمولٌ  
لكم جبال الله اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل  
نبوته ثم الخلافةُ بعدها وما لهما حتى اللقاء حويلٌ<sup>(١)</sup>  
وكلُّ ما في التصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصولى كان يتكلف هذا  
المديح تكلفاً. حقاً هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس  
أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب  
في ذيل الطبرى من مديح للمقتدر، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطايه  
حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد في مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف.  
وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول  
طولا مسرفاً، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على  
مردويج الثائر بأصبهان :

آنس الله بالخليفة ملكاً      مؤجس الربع واهن التأسيس  
يانسيم الحياة أضحكت دهرًا      كان لولاك دائم التعبيس  
مردويج بسيف حظك مقتو      ل فاهون بذاك من مرموس<sup>(٢)</sup>  
فصفته رياح أيامك الغ      ر فأنحمدن منه نار المجوس  
وتولت بماتم الدهر أيا      م أتنا تجر ذيل العروس

والتكلف واضح في الأبيات، والصور لا تقع في مكانها، فالخلافة كانت موحشة  
وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهرًا كان عبوساً قمطيرياً ومردويج  
لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء، وخلعت الأيام سواد  
الحزن، وجاءت تجر ذيل الفرح. كلام متلاصق، وليس شعراً حسيماً نابضاً  
بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التى أنشدها فى مجلسه  
لسنة ٣٢٧ وفيها يقول :

(٢) مرموس : من الرمس وهو القبر .

(١) حويل : تحول .

خليفةُ أكمَلتَ فضائلهُ ففرعُهُ طيبٌ ومَحْتَدُهُ  
تعبَّد المجد فهو يملكه طارفه عنده ومثلده  
قد رضى الراضى الإله لإصـ الاح زمان سواه مفسده  
فهو بتفويضه الأمور إلى اللـ بحسن التوفيق يعضده

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه ، كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استدله ، والجناس بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نائية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتنافر أجزاؤها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزاؤه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستدلُّه على هذا النمط :

تَعَزَّ يا خير الوَرى عن أخٍ لم يَشِبِ الإِخلاصَ باللُّبِيسِ  
كان صديقاً وافرأ ودهُ صداقةَ الأنفسِ والجِنسِ  
تَعَزَّ عنه بنبىُّ الهدى محمدٌ إذ حلَّ فى الرَّمسِ

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزى والتسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لأن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبداً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبواً شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الودى ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضاً فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس . والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حلَّ فى الرمس فى الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جميعاً أنه كان موالياً للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يصدقون عليه من صلوات ثرة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبني العباس ونظرنا فيما روى له من غزل لقيتنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَحْبَبْتُ مِنْ أَجَلِهِ مَنْ كَانَ يَشْبَهُهُ      وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَعشُوقِ مَعشُوقٌ  
 حَتَّى حَكَيْتُ بِجَسْمِي مَا بِمَقْلَتِهِ      كَأَنَّ سَقَمِي مِنْ جَفْنِيهِ مَسْرُوقٌ  
 وَقَوَاهُ يَصِفُ الدَّمُوعَ فِي سَاعَةِ الْوَدَاعِ ، وَهِيَ تَسْقُطُ بِيضَاءً سَقُوطًا مُتَابِعًا عَلَى  
 خُدُودِ حِدْرَاءِ حَمْرَةِ الْوَرْدِ فِي الرَّبِيعِ :

لَوْ كُنْتُ يَوْمَ الْوَدَاعِ حَاضِرًا      وَهَنَّ يَطْفِئُنْ لَوْعَةَ الْوَجْدِ  
 لَمْ تَرِ إِلَّا الدَّمُوعَ جَارِيَةً      تَسْقُطُ مِنْ مَقْلَةٍ عَلَى خَدِّ  
 كَأَنَّ تِلْكَ الدَّمُوعَ قَطْرَ نَدَى      يَقْطُرُ مِنْ نَرْجَسٍ عَلَى وَرْدٍ

وَكَانَ يَنْفِذُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الصُّوَرِ النَّادِرَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَنْبِئُ عَنِ  
 شَاعِرِيَّةٍ جَيِّدَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي بَيَانِ إِعْجَابِهِ بِغَنَاءِ إِحْدَى الْقِيَانِ :

وَغَنَاءٍ أَرْقٍ مِنَ دَمْعَةِ الصَّبِّ      وَشَكْوَى الْمُتَمِيمِ الْمَهْجُورِ

وَأَنَّ فِي وَصْفِ أَرْمَدٍ وَمُحَاوَلَةِ تَعْلِيلِ رَمْدِهِ بَعْلَةَ غَرِيبَةٍ لَا تَقَعُ إِلَّا فِي عَقْلِ وَاهِمٍ بِعِيدِ  
 الْخِيَالِ بَيْتَانِ كَانَ الْقَدَمَاءُ يُعْجِبُونَ بِهِمَا إِعْجَابًا شَدِيدًا إِذْ يَقُولُ :

يَكْسِرُ لِي طَرْفًا بِهِ حَمْرَةٌ      قَدْ خَلَطَ النَّرْجَسُ فِي وَرْدِهِ  
 مَا أَحْمَرَتِ الْعَيْنَ وَلَكِنَّهُ      يَكْحَلُهَا مِنْ وَرْدَتِي خَدَّهُ

وَكَأَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ وَمَا وَرَاءَهَا مِنْ أَبْيَاتٍ فِي الْحَمْرِ لَمْ نَرَوْهَا كَانَتْ تَصْدُرُ  
 عَنِ نَفْسِهِ ، مِمَّا جَعَلَ صِيَاغَتَهَا سَوِيَّةً وَأَخِيلَتَهَا بَدِيعَةً بَعِيدَةً الْغَرَابَةِ فِي بَعْضِ  
 الْأَحْيَانِ . وَأَنَّ بِجَانِبِ ذَلِكَ حِكْمٌ يَصُورُ فِيهَا عِبْرَةَ الدَّهْرِ وَمَوَاعِظَهُ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

يَابَانِيًّا وَالِدَهُرُ فِي نَقْضِهِ      يَا رَاكِضًا يَسْرَعُ فِي رَكْضِهِ  
 يَلْهُو وَأَيْدِي الْمَوْتِ أَخَاذُهُ      مِنْ طَوْلِهِ طَوْرًا وَمِنْ عَرْضِهِ

فَالْإِنْسَانُ يَبْتَنِي ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ دَارَهُ سَتَنْقُضُ بَعْدَ أَيَّامٍ ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ  
 سَيَنْقُضُهُ الدَّهْرُ وَيَجْعَلُهُ ضَعْفًا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ، يُوَهِّنُ عَظْمَهُ وَيَنْحَلُّ جَسْمَهُ ، وَيَحْنِي

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضاً خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاثُ أحلام . والصولي في كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

## ٢

## شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خدمت دعوتهم وحرروهم منذ العصر العباسي الأول ، وعمَّ هذا الحمود في هذا العصر التالي بحيث لم يعودوا يكوّنون حزب معارضة حقيقياً للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة في أحد صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويُعلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم في وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجموشها وقلما كُتِب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخمد حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوارها وبذلك ظلت الممارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنبّه لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضاً شعراءه على النيل منهم ومن آل على عامة ، وأمر — فيما أمر — مجلس الطالبين في سامراء<sup>(١)</sup> وأخذ يُنزل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم في الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل في حديثنا عن محمد بن صالح العلوي .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التي عرفناها في العصر العباسي الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثير من يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثني عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة في ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغي أن ننحيهم عن الشيعة . وملاحظة ثانية هي أن المذهب الشيعي الذي غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

(١) أغان (سأى) ١٩ / ١٤١ .



التقية أصلاً من أصوله ، فكان يعمل سراً وقلماً عمل جهراً ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيّةً ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلباً لما في أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهماً وحسناً ، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذلك ويُقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم . وملاحظة ثالثة هي أنه قيل شعر شيعي كثير في العصر ، وهو موزع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يشدون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوي الأنف ذكره والحِمَّاني وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد<sup>(١)</sup> بن علي بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن علي بن أبي طالب ، وكان في أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردّد في أشعاره نظرية بيته العلوي في الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده علي حين نزل بغدير خم إذ قال له : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدى وزير المصطفى وابن عمه      على شهاب الحرب في كل ملحم  
وأول من صلى ووحّد ربه      وأفضل زوّار الحطيم وزمزم  
وصاحب يوم الدّوح إذ قام أحمد      فنادى برفع الصوت لا يتهمهم  
جعلتك مني يا علي بمنزل      كهرون من موسى النجى المكلم

وما فصل إلى سنة ٢٥٠ في عصر المستعين حتى تثار نائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة في الكوفة يحيى بن عمر الطالبي ، وكان قد تورّع عن أخذ أموال الناس ظلماً وأمر بحقن الدماء ، وكان ورعاً زاهداً ناسكاً ، فتبعته ألوف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبى العراق . وتمزقت جموعه ، وخرّ قتيلاً ، وحُمِل رأسه إلى بغداد . وضجّ الناس لمقتله وصلّب رأسه ، ويروى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيمهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حيناً لعزّى به ، فلم يجبه

(١) انظر فيه معجم الشعراء ص ٣٨١ .

الأمير ، فولّى وجهه خارجاً ، وهو يقول (١) :

إِنْ وَتِرًا يَكُونُ طَالِبَهُ الْإِلَهِ لِيُوتِرَ نَجَاحُهُ بِالْحَرِيِّ

ونصب له الشيعة مآتماً كبيراً ناح فيه الشعراء وبكو اطويلاً ، ومرت بنا في غير هذا الموضوع برثية ابن الرومي له ، وهي صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولاً ذميمةً ، واصفياً لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبي طاهر (٢) :

سَلَامٌ عَلَى الْإِسْلَامِ فَهُوَ مَوْدَعٌ إِذَا مَا مَضَى آلُ النَّبِيِّ فَوَدَعُوا  
فَقَدْنَا الْعُلَا وَالْمَجْدَ عِنْدَ افْتِقَادِهِمْ وَأَضْحَتْ عُرُوشَ الْمَكْرَمَاتِ تَضَعُّضُوعٌ  
لَقَدْ أَفْقَرْتُ دَارُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ مِنْ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ فَالِدَارُ بَلْقَعُ  
وَقُتِلَ آلُ الْمُصْطَفَى فِي خِلَالِهَا وَبُدِّدَ شَمْلُ مَنْهُمْ لَيْسَ يُجْمَعُ

وسرعان ما يثور في نفس السنّة بطبرستان الحسن بن زيد العلوي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلبس نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبعي أن يصبح مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه في المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله (٣) :

قَدْ رَأَيْنَا مَجَالِسًا عَطْرَاتِ هَيْئَتُ عِنْدَنَا لِقَصْدِ الْإِمَامِ  
إِنَّمَا غَيْبُ الطَّبِيبِ شَبَا الْمَبْدُ ضَعَّ عِنْدِي فِي مَهْجَةِ الْإِسْلَامِ  
سُرَّتِ الْأَرْضُ حِينَ صُبَّ عَلَيْهَا دَمُ خَيْرِ الْوَرَى وَأَعْلَى الْأَنَامِ

والترجمة الشيعية واضحة في الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشييعه ما كراً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشيء إلا لأنهم

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

(١) الطبري ٩ / ٢٧٠ والمرج ٤ / ٦٤ .

(٢) مرجع الذهب ٤ / ٦٤ .

يخاصمون آل علي ، وربما اتخذ لذلك وسائل مأكرة ، ومن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامه الدقيق الكوفي ، إذ قال الرواة إنه استنفذ شعره في هجاء رجال الجيش العباسي ، يرميهم بالأبنة ، وصنع في قُوَادِمهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنيّة ، رماهم فيها بالقبايح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلح القائد التركي في طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدللّه عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرفق ، فصر به مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خالف الحسن بن زيد على طبرستان حين توفي أخوه محمد ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الديلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهّز جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقبته جيوش إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأُشخِنَ بالجروح ، وتوفي ، فدُفن بباب جرجان ، يقول المسعودي : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبيّ القائل فيه<sup>(١)</sup> :

إن ابن زيدٍ كلُّ يومٍ زائدٌ علا علواً لا يساويه أحدٌ

لو صال بالطودِ إذنٌ أدلّه أو زجر البحرِ إذن صار زيدٌ

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحلوّاني ، نراه يغلو في مدحِه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أمتهم من هانة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

لا تقل بُشْرِي وقلْ لي بُشْرِيانِ غرّة الداعي ويوم المهرجان

ابن زيدٍ مالكُ رِقِّ الزمانِ بالعطايا والمنايا والأمانِ

خُلِقَتْ كَفَاهُ مَوْتاً وحياةً وحوّتْ أخلاقُه كُنْهَ الجنانِ

مختلفٍ فكرته في كل شيءٍ فهو في كلِّ محلٍّ ومكان

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتنأى لفظنا عنه ولكن هو بالأوصاف في الأذهان دان  
كافرٌ بالله جَهْرًا والمثاني كلُّ من قال : له في الخلق ثان

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا في الدعوة الشيعية خطوات فسمي نفسه الداعي ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يُسبِّغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر في العيان ، وهو مختلف في كل مكان ، وهو لا تحدُّه الألفاظ ، وإنما تقرببه الأوصاف وليس له ندٌّ ولا شبيه ، وكافر بالله والمثاني السبع أو القرآن من يقول له في الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوي والحِمَّاني والمفجَّع البصري .

### محمد بن صالح العلوي (١)

من فتیان البيت العلوي وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطة وغضبه ، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سُويِّفَةَ في بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسينيين أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حجَّ بالناس في نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكان البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسوِّدين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقبدهم وقتل نفراً منهم وأحرق سويقة وحرق منازلهم بها واستأصل كثيراً من نخلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامراء ، فحبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتاً جيدة يعزى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمل بالصبر قائلاً :

الطالبيين للأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ٦٠٠  
ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ .

(١) انظر في محمد بن صالح الأغاني (طبع)  
دار الكتب المصرية) ٣٦١/١٦ ومقاتل

طَرِبَ الفؤادُ وعاودتْ أحزانه      وتشعبتْ شُعباً به أشجانهُ  
وبدأ له من بعد ما اندمل الهوى      برقُ تالِقٌ موهِناً لمعانهُ  
فدنا لينظر كيف لاح فلم يُطِقْ      نظراً إليه وردّه سَجانهُ  
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضاوعه      والماء ما سحتْ به أجفانهُ  
ثم استعاذ من القبيح وردّه      نحو العزاء عن الصبا إيقانهُ  
وبدأ له أن الذي قد ناله      ما كان قدره له دِيانهُ

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يبيث في أوائله حينياً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه ، وينظر إلى البرق متطلعاً لليوم الذي تُردُّ إليه فيه حرите ، فيعنف به السجان ، ويحس كأن نار الوجد اندلعت في ضلوعه ظمئاً إلى أهله وموطنه . وتسحُّ الدموع وتنهل لا تجف ، ويرده إيمانه و يقينه ، فيستسلم للقضاء محزون الفؤاد شجيته . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتاح بن خاقان ومعنى المتوكل بنان ، ويصنع بنان فيها صوتاً يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر والالحن ويسأل عن قائله ، فيشدُّ كسرُ له ، ويكلمه الفتاح في أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه ، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتاح وفي يده وألا يبرح سامراً حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة . وتردُّ إليه حرите فيمدح المتوكل ويغمدق عليه من صلاته ، كما يمدح المنتصر . وفراه يبالغ في التقية من المتوكل فلا يكتفي بمدح له عام ، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بهديهم      ظهر الوفاء وبانَ غدرُ الغادرِ  
وابنَ الذين حووا تراثَ محمدٍ      دون الأقارب بالنصيب الوافرِ  
نطق الكتابُ لكم بذاك مصدقاً      ومضتْ به سننُ النبي الطاهرِ

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره في سورة الأنفال : ( وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ) يريد أن العباسيين مقدمون في وراثته الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام ، لأن العم يتقدمهم في الميراث كما تنصُّ

على ذلك شريعة الإسلام في القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجواري والإماء ، فقد كان يَكَلِّفُ بزوجه وحدها ، وكانت تَحْتَلُّ قلبه بجمالها ، وَيُسْغَفُ بها شغفًا شديدًا وفيها يقول :

لعمري حمدونة إني بها لمغرماً القلب طويلُ السقامِ  
مجاورٌ للقدر في حبها مباينٌ فيها لأهل الملامِ  
جشمتني ذلك وجدى بها وفضلها بين النساءِ الوسامِ  
زينها الله وما شأها وأعطيت مُنيتها من تمامِ

وكان جميل المخضر حلو الحديث رقيق الشائل ، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، في مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتّاب الديوان المجيدين وميمس كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه ودًا حقيقياً وفيه يقول :

أصاحبٌ من صاحبتِ ثمتَ أنثى إليك أبا عثمانَ عطشانَ صاديا  
وكننا إذا جئناك لم نَبغِ مشرباً سواك وروينا العظامِ الصّواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقاءه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد في الدواوين يؤليه فضلاً كثيراً ، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُمضيان كثيراً من الليالي والأيام معاً لا يفترقان ، وله رائية طويلة في مديحه ، وفيها يقول :

أخّ واساك في كلبِ الليالي وقد خذَل الأقرابُ والنصيرُ  
فإن تشكر فقد أولى جَميلاً وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها جوارى يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سيفخ هذا الجمالُ

الفاتن في العظام الهامدات ، فتعود مرة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رَأَيْتُ بِسَامِرًا صَبِيحَةً جُمُعَةً عَيُونًا يَرُوقُ النَّاطِرِينَ فَتُورُهَا  
تَزُورُ الْعِظَامَ الْبَالِيَاتِ لَدَى الثَّرَى تَجَاوَزَ عَنْ تِلْكَ الْعِظَامِ غَفُورُهَا  
فَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ أَنْ تَعْمَرَ الثَّرَى إِلَى أَنْ يَنَادَى يَوْمَ يُنْفَخُ صُورُهَا  
لَقَلْتُ عَسَاهَا أَنْ تَعِيشَ وَأَنْهَسَا سَتُنَشُرُ مِنْ جَرًّا عَيُونٍ تَزُورُهَا

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية محمد بن صالح العلوي الفذة ، ويظلمه  
عصر المنتصر فيصيبه فيه جُدْرِيٌّ ويلبي نداء ربه ، " ويريثه غير صديق باكياً  
خِصَالَهُ الْحَمِيدَةَ .

### الْحِمَانِي الْعَلَوِيّ

سُمِّي الْحِمَانِي نسبة إلى حي الكوفة نشأ وعاش فيه ؛ وهو علي بن محمد بن  
جعفر العلوي ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة في المدينة لأوائل عصر المأمون  
قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُمل  
إلى بغداد ، ونُفي منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هناك ، وسرعان ما وافاه  
الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه ، فاشترك في  
حَمَلِهِ حَتَّى نَزَلَهُ فِي لَحْدِهِ ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ مَجْفُوءَةٌ مِنْذُ مَائَتِي سَنَةٍ .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه علي ، وعُيِّنَتِ الْأُمُّ  
وَالْأُسْرَةُ بِتَثْقِيفِهِ ، فلم يُحَسِّنِ صِنْعَ الشَّعْرِ فَحَسِبَ ، بل أحسن صنوفاً من الآداب  
وعلوم الشريعة ، مما جعل العلويين في تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرسهم  
ولسانهم ، كما يقول المسعودي . ونُصِيَ إِلَى الْمُتَوَكَّلِ أَنْ فِي دَارِهِ سِلَاحًا وَأَنَّ الشَّيْعَةَ  
يَجْتَمِعُونَ عِنْدَهُ ، وِقِيْعَةٌ فِيهِ مِنْ بَعْضِ حَسَادِهِ ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ جُنْدًا اقْتَحَمُوا عَلَيْهِ دَارَهُ  
فَجَاءَتْ ، فَوَجَدُوهُ يَتَعَبَّدُ رَبَّهُ فِي غُرْفَةٍ مَغْلَقَةٍ مَرْتَدِيًّا ثَوْبًا بَسِيطًا مِنَ الصُّوفِ ،

ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار الخالدين

ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المماني ١/١٠٩ ،

٢/٥٨١

(١) انظر في الحماني وأشعاره مروج الذهب

٢٩/٤ ، ٦٥ ومقاتل الطالبين ص ٦٦٢

وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة

١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات

ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنماً بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرق له ، وسأله : ما يقول آل بيتك في العباس بن عبد المطلب ( جد العباسيين ) ، فأجابته بقوله : وما يقول آل بيتي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولان قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يُردِ الحماني في إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح في الشطر الثاني من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرَّ بنا أن الشعراء أكثروا في عصر المتوكل من ذمّ العلويين لإرضاء له ، وكان من أكثرهم قَدْحًا في علي وآله علي بن الجهم وكان ينتسب إلى بني سامة بن لؤي القرشيين ، وافتخر مراراً بهذا النسب في أشعاره ، وكان طبيعياً أن لا يسكت الحماني على هذا القَدْح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن علي بن الجهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقَدْح في خلقه وعرضه على عادة الشعراء في عصره ، وإنما بالقَدْح في نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالي ليس قرشياً ولا فيه من القرشية شيء . يقول :

وسامةٌ مِنَّا فأما بنوه فأمرهم عندنا مظلم  
 أناسٌ أتونا بأنسابهم خرافة مضطجع يحلم

وعرف علي بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينبس بينت شفة واجداً عليه ولا هاجياً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحماني حزناً شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعياً لنفسه بالخلافة ، وقتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذي نكّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدداً متوعداً ، ولم يمض الحماني للسلام عليه ، وكان الوحيد الذي تخلف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضروه حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة



وجلسدأ وأنه لا يخشى سطوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتكَ أستلينك في الكلام  
وعزَّ عليَّ أن ألقاك إلا وفيما بيننا حدُّ الحسام

وهو موقف كريم إذ لم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما في نفسه دون خوف أو وجل . وله مرث كثيرة في يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتاً كريماً ، موت البطل الشجاع الذى لا يرهب الموت بل يلقاه في قوة وصلابة مهما ادهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا في عينيه ، حتى لتنهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبه السقياً وله الرحمة ، يقول :

فإن يكُّ يحيى أدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهو كريم  
وما مات حتى قال طلابُ روحه سقى الله يحيى إنه لصميم

ويصور في مرثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفراده دائماً بين قتيل وجريح . وللحيماني مرث كثيرة - بجانب مرثيه لابن عمه يحيى - في أهله ، وفي أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضاً يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجع عليه تفجعاً شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أمى عدل الروح فى جسدى هذا ابن أمى عدل الروح فى جسدى  
مَنْ لى مثلك ياروح الحياة ويا مَنْ لى مثلك ياروح الحياة ويا  
قد ذقتُ أنواعَ تُكَلِّ أنت أبلغها قد ذقتُ أنواعَ تُكَلِّ أنت أبلغها  
فاليوم لم يبق شيء أستريح له فاليوم لم يبق شيء أستريح له  
قل للردى لا يغادر بعده أحداً قل للردى لا يغادر بعده أحداً  
إن السرور تقضى ، بعد فرقتهِ إن السرور تقضى ، بعد فرقتهِ  
شَقَّ الزمانُ به قلبى إلى كبدى شَقَّ الزمانُ به قلبى إلى كبدى  
يمنى يديَّ التى شلَّتْ من العَصْدِ يمنى يديَّ التى شلَّتْ من العَصْدِ  
على القلوب وأخناها على الجلِّدِ على القلوب وأخناها على الجلِّدِ  
إلا تفتت أحشائى من الكمدِ إلا تفتت أحشائى من الكمدِ  
وللمنية مَنْ أَحْبَبْتِ فاعمدى وللمنية مَنْ أَحْبَبْتِ فاعمدى  
وآذن العيش بالتكدير والنكدِ وآذن العيش بالتكدير والنكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجه . وللحيماني

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهي تنسّم على شعور رقيق وخيال خصب  
من مثل قوله :

مَنى أرتجى يوماً شفاءً من الضنّا إذا كان جانيه علىّ طبيبي  
وله فخر يتحدث فيه عن آبائه . ويصوّر سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ،  
كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قلبي نظير الجبل الصعبِ وهمتي أكبر من قلبي  
فاستخر اللهَ وخُذْ مُرْهَفًا وافتك بأهل الشرق والغرب  
ولا تمت إن حضرت ميتةً حتى تميمت السيف بالضرب

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصوّر ذلك في أشعار كثيرة كأن  
نراه يكره الشيب ويكره مفارقتة لأنها تعنى فقدته للحياة ، وكأنه — على بغضه له —  
يود أن لا يفارقه ، يقول :

بكي للشيب ثم بكي عليه فكان أعزّ فقدًا من شبابِ  
فقل للشيب لا تبِرخ حميدًا إذا نادى شبابك بالذهابِ

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغايات  
فقد ضل ذلك منه ، أضله الشيب ، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لقد كنت تملك الحَاطَهْنَ فصِرْنَ يُعِرْنَك لحظاً مُعَارَا  
وأصبحنَ أعقَبْنَ بعد الودادِ بَعَادًا وبعد السكون النَّفَارَا

وله وصف كثير في سرى الليل وفي اعتساف الفلوات بالإبل والحيل نجد منه  
مقتطفات في كتب الشعر ، ومن طريف نعتة لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون  
دون أى حركة قوله :

كأن نجوم الليل سارت نهارها ووافت عشاء وهي أنضاء أسفارِ  
فخيمن حتى تستريح ركابها فلا فلك جارٍ ولا كوكب سارِ

وكان يكر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قَصْرِ الخَوْرَنْقِ والسَّدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلّة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترفّ فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله في تلك القصيدة :

كم وقفه لك بالخور نقي لا توازي بالمواقف  
بين الغدير إلى السدير ر إلى ديارت الأساقف  
دمن كان رياضها يكسبن أعلام المطارف  
تلقى أوائلها أو خرّها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التي وقفنا عندها للحماني أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قمرته . وقد توفي سنة ٢٦٠ للهجرة .

### المفجع البصري<sup>(١)</sup>

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبي في البيّمة أنه حين توفي ابن دريد العالم اللغوي الإخباري المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه في التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه . وفي كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعي وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجري مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله<sup>(٢)</sup> ، وكانما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

بالوفيات (طبعة إستانبول) ١/١٢٩ .  
(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان  
فلوتن) ص ٩

(١) انظر في المفجع وأخباره وأشعاره البيّمة  
للثعالبي (طبعة محي الدين عبد الحميد) ٢/٣٦٣  
والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت  
١٧/١٩٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوقاي .

ويبدو أن المفجع كان شيعياً إمامياً ، فقد شاع مذهب الإمامية في العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه ببیت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان - على ما يظهر - يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبي الهاشمي البصري وفيه يقول :

للزينبيّ - إلى جلاله قدره - خلقُ كطعم الماء غير مرندٍ  
 وشهامةٌ تقصُّ الليث إذا سطا وندى يفرق كل بحر مزبدٍ<sup>(١)</sup>  
 يحتلُّ بيتاً في ذوابة هاشمٍ طالت دعائه محل الفرقدِ  
 بضياء سنّته المكارمُ تقتدى وبجود راحته السحائب تهتدي  
 وله قصيدة طويلة يمدح فيها علياً - رضي الله عنه - سماها « ذات الأشباه »  
 إشارة إلى أثر مسند إلى أبي هريرة ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
 قال وهو في محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم  
 في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سنّته ومحمد في هدّيه وحلمه فانظروا إلى هذا  
 المقبل . فتناول الناس فإذا هو على بن أبي طالب » . وعلى هدّى هذا الأثر نظم  
 المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب علي وهي تطرّد على هذا النمط :

أيها اللّامئى لحيّ علياً قُم ذميماً إلى الجحيم خزيّاً  
 أشبه الأنبياء كهلاً وزولاً وفطيماً وراضعاً وغدياً<sup>(٢)</sup>  
 كان في علمه كآدم إذ عدُّ م شرح الأسماء والمكتنيا  
 وكنوح نجى من الهلك من سه ير في الفلك إذ علا الجودياً<sup>(٣)</sup>  
 وحققاً في رضا الإله أباه واجتواه وعده أجنبيّاً  
 كاعتزال الخليل آزر في الل ه وهجرانه أباه مليّاً<sup>(٤)</sup>  
 ولو أنّ الوصى حاول مسّ الذّ جُم بالكف لم يجده قصيّاً

(٣) الجودي : جبل بشمال العراق .

(٤) آزر : أبو إبراهيم .

(١) تقص : تدق وتحطم .

(٢) الزول : الفنى .

وطبيعي أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمي أقرب منها إلى الشعر  
الغنائي وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال  
فالآبيات السابقة في مديح الزينبي أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط ، بل أيضاً  
فيه جزالة ورسانة . ويقول الثعالبي إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف  
من مثل قوله :

زفراءُ تعتادني عند ذكرا ك وذكراك ما تريم فؤادي  
وسروري قد غاب عني مذغبت فهل كنتما على ميعاد  
ليس لي مفرزٌ سوى عبرات من جفونٍ مكحولة بالسهاد  
وبحسبي من المصائب أني في بلاد وأنتم في بلاد

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأساً في أن يُقبل أحياناً على الشراب، إذا  
صح ما روى عنه من احتساء الخمر، وزراه يصف مجلساً من مجالسها في ليلة من  
ليالي الأانس بها ، يقول :

أداروها وليليلٍ اعتكارُ فخلتُ الليل فاجأه النهارُ  
فقلتُ لصاحبي والليل داجٍ ألاح الصبحُ أم بدت العقارُ  
فقال : هي العقار تداولوها مشعشةً يطير لها شرارُ  
ولولا أنني أمتاح منها حلفتُ بأنها في الكأس نارُ

وبين أشعاره مقطوعات في بعض الغلمان ، ومربنا ما قلناه من أن أكثر  
ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر  
بقصد التندير والضحك، ولذلك كان ينبغي ألا نصنع صنيع المستشرقين في تضخيمهم  
لهذه السورة سواء عند المجمع البصري أو عند غيره . وراه « متر » ينظم قصيدة في  
الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلًا :

ألا يا جامع البصرِ لا خربك الله  
وسقَى صحنك المزنُ من الغيث فرّواه

فكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه  
 نصبتنا الفخّ بالعلم له فيك فصدتاه  
 وكم من طالبٍ للشُّعْ رٍ بالشعر طلبناه

فظن أنه وقع على وصمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكى كيف كان يُغوى الصبيان في الجامع المذكور ويستنزل العاصي الصعب منهم<sup>(١)</sup> . والدليل على أنه لم يكن خالص النية في حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالبَ الأمرِ دِ كَذِبٌ ما ذكرناه  
 فلا يَغْرُرْكَ ما قلنا فما بالجِدِّ قلناه

فالمفجع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذباً وبهتاناً وعبثاً ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها في مجال الحديث عن التولع بالغلطان ونصب الشباك لهم وأين ؟ في المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المقام في مكان أستاذه ابن دريد يُسملى ويحاضر الطلاب ، فإلى هنا است سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

## ٣

## شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هي التي أفضت مضاجع الخلفاء في هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيغ لنفسه شعاراً علوياً حتى يجمع العامة في صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . وبهنا الوقوف

(١) انظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ٢ / ١٣١

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يُعينهم أحياناً بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهي دائماً تسوق ما قيل في انتصارات العباسيين على الثوار ولا تُعنى أى عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار في قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا في العصر محمد بن البيهت لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له في موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشعل فارسي ثورة الزنج بالبصرة متزعماً لها ، وفصلنا في الفصل الأول القول في هذه الثورة وكيف دوخت الدواة العباسية وعرضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخْطاً هائلاً على كبار الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يُسخرُونهم في كَسْح أرض البصرة وزرعها دون أى رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمع حواه الزنج واستحالوا إلى جيش لَسَجِبِ اجْتَسَاحِ جنوبيّ العراق وكاد يمتاح العراق كله في بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم ولزعيهم الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وكان بطلاً مغواراً لا يُشَقُّ غباره ، وكانت الجيوش توالى في حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شرمزق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أى نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئاً ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب في المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعي ، ولكن زعيمها لم يمتص بها في السعى إلى هذه الغايات كما كان يَعدُّ في أول ثورته ، فقد استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى رده الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاق على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هي وظلت طبقات من الناس تسترق طبقات أخرى . وكان قد رأى إنجاحاً لثورته أن يُضنى عليها مسحة دينية ، كما مر بنا في الفصل الأول ، فأشاع في الناس أن اسمه على بن محمد وأنه من سلالة زيد بن علي بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعي في الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادي بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت - بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة - بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذي ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد ، والذي كان يُسْرَفُ في القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل في البصرة في يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُسْتَهَب أصحابه الأموال ويحرق الدور والقصور . كل ذلك لا نريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب في أنصاره<sup>(١)</sup> . إنما نريد أن نقف عند ما بقى لنا من بعض أشعاره<sup>(٢)</sup> . يقول المرزباني : « تُرَوَى له أشعار كثيرة في البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قرئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُسْتَكْرَهَا ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ في أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدي الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرَزَيْنَينَ بإيران ، وكأنه تلقنَ فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً ، وله يخاطب بني العباس :

بَنِي عَمَّنَا لَا تَوَقِدُوا نَارَ فِتْنَةٍ      بَطِيءٌ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي خَمُودُهَا  
بَنِي عَمْنَا إِنَّا وَأَنْتُمْ أَنَا مَلٌّ      تَضَمَّنَهَا مِنْ رَاحَتِيهَا عَقُودُهَا  
بَنِي عَمْنَا وَلَيْتُمْ التُّرْكُ أَمْرُنَا      بَدِيئاً وَأَعْقَاباً وَنَحْنُ شُهُودُهَا  
فَأَقْسَمُ لِأَذْقَتِ الْقَرَاخِ - وَإِنْ أَدَّقُ      فَبَلُغَةُ عَيْشٍ - أَوْ يُبَارَ عَمِيدُهَا<sup>(٣)</sup>

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمهم علي بن أبي طالب أو حفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغي أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدكم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجري في قصورهم من خمر ومجون ينبغي أن تبرأ منه

(١) الطبري ٩/٤١٤ وما بعدها .

(٢) انظر في أشعار صاحب الزنج معجم الشعراء للمرزباني ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب

ص ١٥٥ وما بعدها .

(٣) الماء القراح : البارد العذب . بلغة

العيش : أقل ما يكفي . يبار : يهلك .

العصر العباسي الثاني



قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لا قصور إثم وعصيان ، وفي ذلك يقول :  
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورِ بَيْغَدَا دَ وَمَا قَدْ حَوْتَهُ مِنْ كُلِّ عَاصٍ  
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا ورجالٍ على المعاصي حِرَاصٍ  
لستُ بآبِنِ الْفُؤَاظِمِ الزُّهْرِ إِنْ لَمْ أُقْجِمِ الْخَيْلَ بَيْنَ تِلْكَ الْعِرَاصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء ، بل إلى الفواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب . ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر في جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتاً في جهاده مخلصاً له في أحلك الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضيه أكثر جنده والبقية الباقية منهم ، بل ظلّ يقاتل حتى سُفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مَنْزِلٍ خَرَجْنَا وَخَلَّفْنَاهِ غَيْرَ ذَمِيمٍ

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلَافٍ في الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونسبت ثورة القرامطة ، وكان دعواتها يَصِلُونَهَا بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا في الفصل الأول . وكان غير ناثر من هؤلاء الدعاة يَصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، مزيفاً لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسباً يصله بزيد بن علي زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى في سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ في تنظيم حركته القرمطية واضعاً لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ، فتبعه خلق كثير أخذ يُغَيِّرُ بهم على سواد الكوفة . وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجلده يختنى في ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زَكَرَوِيَّةَ الدَّندَانِي ، ويرى - كما مرَّ بنا - الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه : يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام ، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم ، ويتبعهم كثيرون ، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذي زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتسمى لهم باسم أبي عبد الله على بن محمد، وقيل بل تسمى باسم محمد، وتكهن لهم مدعيًا أنه يوحى إليه، وكشف لهم عن عَصْدُ له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته، كما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها في لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين. ومضى بجموعه في سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويبيح في الأرض فساداً. وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء، ودَحَرَ جيشاً للعباسيين، وعاد يحاصر دمشق، غير أنه قُتل على أبوابها. وكان شاعراً، ترجم له المرزبانى في معجمه<sup>(١)</sup>. ونراه في بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بنى هاشم، يقول:

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةٍ ذا العالمِ  
وطئتُ الشامَ برغم الأنامِ كوطءِ الحِمامِ بنى آدمِ

وهي نسبة كاذبة. ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج - على نحو ما مرّ بنا - عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب: المريخ والعيوق وسعد الذابحين ملوحاً للعامة التي تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه في الموصل ومدينة الرحبة التي بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما في قصورها من أموال يقول:

تقاربت النجومُ وحنَ أمرُ قرانُ قد دنا منه النذيرُ  
فمريخُ الذبائحِ مستهلُّ قوى ما لوقدته فتورُ  
معيوقُ الحروبِ له احمرارُ وسعدُ الذابحين له بدورُ  
فبشُرُ رَحْبَتِي طوقِ بيومِ من الأيامِ ليس له نظيرُ  
ورافقةُ الضلالةِ ليس يُغنى إذا ما جثتها بابُ وسورُ

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٥٣.

وبغدادٌ فليس بها اعتياضٌ على أمرى وليس لها نكيرٌ  
أصبحها فأتركها هشيماً وأخوى ما حوته بها القصور  
ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجسنابي صاحب الأحساء والبحرين ،  
وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قرمط ، وكلفه بنشر الدعوة في جنوبي إيران ، وأخفت  
مساعدته ، وعاد إلى قرمط ، فأرسله إلى البحرين والأحساء ، وسرعان ما استجابت له  
قبيلة عبد القيس . ودخلت المنطقة في سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة ، وقتله غلام  
صقلي في سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر ، وعظم أمره ، إذ وقع عساكر الخليفة  
المقتدر مراراً كما مرَّ بنا في الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه ، واتسع  
ملكه في شرق الجزيرة العربية ، وكثر أتباعه وجنوده ، ونال ما لم ينله قرمطي قبله .  
وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الإسماعيلي ، وكان شأنه قد  
أخذ يعظم في إفريقية ، ولم يكن يدعو له حقيقة ، بل كان يتخذ ستاراً لخروجه  
على الخلافة العباسية . وكان كثيراً ما يُغير على البصرة وينكّل بأهلها ، ويسفك  
دماءهم ، ويجرق دورهم كما يجرق المساجد . وكثيراً ما كان يُغير على قوافل الحجاج  
يفتك ويقتل وينهب ، وجيوشه تغدو وتروح إلى عاصمته « هجر » محملة  
بالأموال ، فكان طبيعياً أن يمتدّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد ، بل  
إلى أن يستولى على العالم الإسلامي كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم  
لها أنه سيظلّ حياً حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة ، وفي ذلك كله يقول من  
قصيدة طويلة مهدداً متوعداً (١) :

فَمَنْ مَبْلَغُ أَهْلِ الْعِرَاقِ رِسَالَةً  
بَأْنِي أَنَا الْمَرْهُوبُ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ  
فِيَا وَيْلَهُمْ مِنْ وَقَعَةٍ بَعْدَ وَقَعَةٍ  
يُسَاقُونَ سَوَاقَ الشَّاءِ لِلذَّبْحِ وَالْبَقْرِ  
سَاصِرُ خَيْلِي نَحْوَ مِصْرَ وَبَرْقَةٍ  
إِلَى قَبْرِ وَانِ التُّرْكِ وَالرُّومِ وَالخَزَرَ  
أَكِيلُهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى أَيْدِيَهُمْ  
فَلَا أَتْبَقِي مِنْهُمْ نَسْلَ أَنْتَنِي وَلَا ذَكَرُ  
أَعْمَرُ حَتَّى يَأْتِ عَيْسَى بِنِ مَرْيَمَ  
فِيحْمَدُ آثَارِي وَأَرْضِي بِمَا أَمَرُ  
وعزم في سنة ٣١٥ على غزو بغداد ، فخرج إليها في ألف فارس وخمسة

آلاف راجل، فجهزَ المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبي السَّاج ،  
 والتقى الجيشان، ودارت الدوائر على ابن أبي السَّاج وجيشه ، وأخذ أسيراً ، وأسرع  
 مؤنس بجيش كثيف في نحو أربعين ألفاً ، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب  
 العراق والموصل ، والتقى بأبي طاهر وجيشه عند الأنبار ، غير أن أبا طاهر انصرف  
 راجعاً إلى بلاده ، ولم يواقع مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه ، وكأنما خشى  
 على نفسه مغبة الحرب، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخرًا منه  
 سخرية شديدة (١) :

قُولُوا لِمُؤْنِسِكُمْ بِالرَّاحِ كُنْ أَنْسًا      واستتبع الرَّاحَ سُرنِيَاً ومزمارا  
 وقد تَمَثَلْتُ عن شوقٍ تَقَاذِفُ بِي      بيتاً من الشعر للماضين قد سارا  
 نَزورَكُمُ لم نؤَاخذَكُم بِجَفوتِكُم      إنَّ الكَرِيمَ إِذَا لم يُسْتَزَرَ زارا

وهو يهزأ به وبشجاعته التي عُرِفَ بها ، ويقول له إنك لست من أهل الحرب  
 والبأس ، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرنای وغير  
 السرنای ، ويستمر في هزؤه ، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده .

وتُطغى أبا طاهر الجنابي انتصاراته على جند الخلافة ، ويغرُّه بالله الغرور ،  
 ويشتهر عنه أنه لا يصلي ولا يصوم ولا يعرف حدود الله . وما يوافي شهر ذى الحجة  
 في سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجَّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام ، وإذا  
 السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّروِيَةِ ، وهم يهللون لربهم ويُسَبِّحُونَ ،  
 وهو وأنصاره يَنسَحرون فيهم ، كأنهم كباشٌ أُعِدَّتْ للذبح ، دون أى شفقة أو  
 رحمة . ولم يكتفوا بمن ذبحوهم في فجاج مكة ، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون  
 ويلذجون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم ،  
 ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم . وبلغ من سفهه وخرقه أن أمر  
 بطرح القتلى في بئر ززم ، واقتلع الحجر الأسود من موضعه ، وأخذ معه إلى هجر  
 وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخشية  
 من بأسه وبأس البويهيين . وجرد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهدانى ص ٥٥ .

أهداها الخلفاء على مرّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان في أثناء هذا العمل الوحشي الفظيخ يترنم بأشعار له مبتهجاً ؛ وكأنما كان يشقى غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنشده من هذه الأشعار التي يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله<sup>(١)</sup> :

ولو كان هذا البيتُ بيتاً لرَبُّنا لصبَّ علينا النارَ من فوقنا صبّاً  
لأنّا حَجَجْنَا حِجَّةً جاهليَّةً محلَّلَةً لم تبق شرقاً ولا غرباً  
ولكنَّ ربَّ العرشِ جَلَّ جلالُه ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجْباً  
وكانه بذلك يعلن كفره ، صريحاً غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت  
الله ، التي تُعدّ ركناً أساسياً من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر  
لم يكن ثائراً عنيفاً فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه  
يتقدمها خطوات في الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع  
الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويلذّبهم ذبحاً حيث  
لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرّات بيت الله المقدس  
انتهاكاً ليس له سابقة ولا لاحقة في التاريخ . ولعل من الخير أن نيسط القول  
قليلاً في شاعرين ثارا على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري ، وهما محمد بن  
البيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دُؤف .

### محمد<sup>(٢)</sup> بن البيث

من فتيان بني أسد نزلت عشيرته في أذربيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من  
الفُتاك الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك في تلك الديار قلعتين : قلعة تسمى  
شاهي وأخرى تسمى بكدر ، وكانت شاهي أشد مناعة فكان يقيم فيها كثيراً .  
واشتهر أمره في عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين  
الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو في  
أثناء ذلك يراوغ ، وقد يتقل للجيش العباسي وقواده أخبار بابك ، وقد ينقل إلى بابك

١٧٠ ، ١٧١ ، مروج الذهب ٤١ / ٤  
ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

(١) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٦٢ .  
(٢) انظر في ثورة محمد بن البيث وأخباره  
الطبري ٩ / ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

أخبار الجيش العباسي . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجاً دون أن يُقحم نفسه في تلك الحروب وينصر العباسيين جعل إسحق بن إبراهيم المصعبي أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقَى به في غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد ، فيُفْرَج عنه ، على ألا يبرح سامراً حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرْتَد ، فجمع فيه عُدَّه وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمَّ ما كان وَهَى من سورها ، وكان في داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجهه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجهه إليه بُغَا الشرائي ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويثس ابن البعيث من مطاولة الحصار ، ففرَّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أموراً كان أهملها      غيري وقد أخذ الإبلأس بالكظم<sup>(١)</sup>  
لا تعذليني فيما ليس ينفعني      إليك عني جَرَى المقدارُ بالقلم  
سأتلف المال في عُسرٍ وفي يُسرٍ      إن الجواد الذي يعطى على العدم

وتبعه نَقَرٌ من الجيش العباسي ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفاً يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحَى ليستخفي في الرَحَى ، وأخذوه أسيراً ذليلاً ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأتتْ بابن البعيث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطُرح على نِطْع ، وجاء السِّيفون فلوَّحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقاً غاضباً : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابته : الشَّقْوَةُ وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنَّين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أبى الناسُ إلا أنك اليوم قاتلي      إمام الهدى والصَّفْحُ بالحرِّ أجملُ  
وهل أنا إلا جُبِلَةٌ من خطيئة      وعفوك من نور النبوة يُجبلُ<sup>(٢)</sup>  
تضاعل ذنبي عند عفوك قِلَّةً      فمَنْ بعفوك منك والعفو أفضلُ  
فإنك خير السابقين إلى العُلا      ولا شك أن خيرُ الفعّالين تَفَعَّلُ

(٢) الحجة : الحلقة والطبيعة .

(١) الكظم : مخرج النفس من الحاق . الإبلأس : انقطاع الحجة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمنٌ عليك ، ارجع إلى منزلك ، وخفف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفي الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم في عطائه ، ومن ذكر منهم المرزبانى فى معجمه يحيى<sup>(١)</sup> بن أحمد من أهل مدينة الرّحبة فى الموصل ، وفيه يقول : « كان فى ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحاً كثيراً » منه قصيدة أولها :

لا زال محسوداً على أفعاله وحسوده فى الناس غير محسدٍ  
شطراه بين معاقبٍ أو غافرٍ أو عائدٍ متفضّلٍ أو مُبتدئٍ  
شفعاً ووترًا كلّ ذاك فعاله كالدهر إلا أنه لا يعتدئ  
فالناس تحت لوائه من راغبٍ أو راهبٍ أو رائحٍ أو مُغتدئٍ

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى فى الدعاية له ، وهو يصوره فارساً رائحاً غادياً على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب فى كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقاباً أليماً ، وتارة يعفو عفواً رحيماً ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنماً لدروة المجد الرفيعة . ومن قوله فيه :

متى ألق من آل البعيث محمداً أحلّ رياضاً للعلّاء بمحمدٍ  
وتضحك أم البشير عني بنيليه فأرجع محسوداً بنيلٍ محسدٍ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطع والسياف شاهر سيفه يريد أن ينقض عليه وأن يحز رأسه ويُرْهق روحه ، وسرر الغضب يتطاير من عيني المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفاً ولا هلعاً ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة فى اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

(١) انظر فى ترجمته وأشعاره معجم الشعراء  
س ٤٩١ .

الذي يستلُّ الغضب من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغاً خطيراً ، حتى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرماً . وهي قدرة نفسية كانت تمتاز بقدرته البينانية .

### بكر<sup>(١)</sup> بن عبد العزيز بن أبي دلف

حفيد أبي دُلْف القاسم بن عيسى العجلى الشيباني البطل المغوار الذي أبلى بلاء عظيمًا في حروب بابك لعهد المأمون والمعتمد ، وكان هرون الرشيد ولأه — وهو حدث السن — أعمال الجبل في إيران ، ولم يزل عليها إلى أن توفى سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديبًا شاعرًا وله مقطوعات تردّد في كتب الأدب ، وهو ممدوح أبي تمام وعلي بن جبلة الذي قال فيه :

إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضرة  
فإذا ولّى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره

وقد تولّى إقليم الجبل ابنه عبد<sup>(٢)</sup> العزيز وكان شاعرًا ، وشجاعًا باسلا ، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا ، فثارت نائرة عبد العزيز وفرّ إلى قلعة له ولعشيرته في الكرج بين همدان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه في سنة ٢٥٤ يجبى همدان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمدّ سلطانه إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتمّ لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتى لا يثور بكر ، غير أنه عاد فولّى في سنة ٢٨٣ عيسى النوشريّ على أصبهان ، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج في طلبه القائد التركي وصيف حتى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كلُّ واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلا ولم يتبّع وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعترته .

وكان بكر شاعرًا انحدر إليه الشعر من أبيه وجدّه ، وله ديوان صغير نُشر في

(٢) انظر في عبد العزيز وولايته على الجبل الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

(١) انظر في بكر وأشماره ديوانه وتاريخ الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣ .



دهلي باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى في أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدمراً غلامه أن يتعقبه ، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله :

أَلَمَى الْأَحِبَّةُ بِالْعِرَاقِ عِصِيَّهُمْ      وَبَقِيَتْ نُضْبَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ  
وَتَشَعَّبَ الْعَرَبَ الَّذِينَ تَصَدَّعُوا      فَذَبِيتُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ بِحُسَامِي  
فَلَأَقْرَعَنَّ صَفَاةَ دَهْرٍ نَابِهِمْ      قَرَعًا يَهْدُ رَوَاسِيَ الْأَعْلَامِ  
وَلَأَتْرُكَنَّ الْوَارِدِينَ حِيَاضَهُمْ      بِقَرَارَةٍ لِمَوَاطِي الْأَقْدَامِ

يا بَدْرُ إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ مَوَاقِفِي      وَالْمَوْتَ يَلْحَظُ وَالصَّفَاحُ دَوَامِي  
لذَمَّتْ رَأْيِكَ فِي إِضَاعَةِ حُرْمَتِي      وَلِضَاقِ ذَرْعِكَ فِي اطْرَاحِ ذِمَامِي  
حَرَّكَتِي بَعْدَ السُّكُونِ وَإِنَّمَا      حَرَّكَتَ مِنْ حِصْنِي جِبَالَ تِهَامِي

وواضح من حديثه في مطالع هذه الأبيات أنه يأسي للعرب في عصره ، فقد تشعبوا وتفرقوا شيعاً وطرائق شتى ، فعصمهم اندهر بنايه وأصبحت حياضهم مباحة يردُّها الأعاجم وغير الأعاجم ، وها هو وحده يقف للدفاع عن عترتهم ، ولا معين له غير عزيمة الماضي وسيفه القاطعة . وإنه ليتهدد الدهر أن ينزل به أشد النكال كما يتهدد من استباحوا حيمي العرب والعروبة بالذل والهوان حتى ليصبحون موطناً للأقدام ، ويتحول إلى بدر المعتضدي واصفاً له مواقفه البطولية حين تُسَلَّ السيف وتسدِّد الرماح ويلتقم الموت الأبطال ، حتى يستشعر الندم على تضييعه لذمامه وتحريكه للحرب المبيرة بعد سكونها . ويبدو أن بدرأ رأى أن يسكيل أمره إلى غيره ، فكلف عيسى النوشري بمهاجمته ، وصدع لتكليفه ، ولكنه لم ينجح سريعاً في مهمته ، واضطر في بعض المواقف أن ينسحب بجيشه ، فقال بكر يذكر فراره من بين يديه ، ويتهدد بدرأ صاحبه ، من قصيدة طويلة :

لَيْسَ كَالسَّيْفِ مَوْئِسٌ حِينَ يَغْرُو      حَادِثٌ مَعْضَلٌ وَيَفْدَحُ أَمْرُ  
أَوْقَدُوا الْحَرْبَ بَيْنَنَا فَاصْطَلَوْهَا      ثُمَّ حَاصُوا فَايُنْ مِنْهَا الْمَفْرُ(١)  
وَيَغْوُوا شَرَّنَا فَهَذَا أَوَانٌ      قَدْ بَدَأَ شَرُّهُ وَيَتْلُوهُ شَرُّ

(١) حاصوا : حادوا .

قد رأى النُوشريُّ لما التقينا مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ  
جاءَ في قَسْطَلٍ لَهُامٍ فَصَلْنَا صَوْلَةً دُونَهَا الكِماةُ تَهَرُّ  
غَرَّ بَدْرًا حَلْمِي وَفَضْلُ أَنانِي واحتمالي وذاك مما يَغُرُّ

على أنه سرعان ما اضطرَّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشري في حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأفلت في نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهاً إلى محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقرَّبه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسموماً في طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

## ٤

## شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولاته وقواده داروا على ألسنة الشعراء بمدحونهم طلباً للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَشْراً على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسان سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الوالي والقائد حين يُطْرِبُه شاعر ويثني عليه يطير اسمه في الناس ، ولذلك كان كثيرون يَسْجَمُونَ الشعراء من حولهم ، لكي يعدّوا مناقبهم ، ويصوّروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان في مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلهم من نواله<sup>(١)</sup> ، وهو من ممدوحى البحرى كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان شاعراً مرهف الذوق ، وله البيت المشهور<sup>(٢)</sup> :

ليس يُسْتَحْسَنُ في شَرَعِ الهوى عاشقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الحُجَجِ

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

(١) انظر مثلا ترجمة ابن أبي فنن الشاعر

في تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .

ومثله من وزراء المتوكل في كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضاً ، من ممدوحى البحرى ، ومن مادحيه (١) محمد بن غالب الأصبهاني والقنبري (٢) ، وفيه يقول أبو هفان يوم النسيروز وفيه تقدّم هدايا كثيرة (٣) :

إذا نحن مدحناك رَعَيْنَا حُرْمَةَ المجدِ  
وما استطرفتُ للإهدا ءِ إِلَّا طُرْفَ الحَمْدِ

وكان يَزِرُ المنتصر أحمد بن الحبيب ولم تكن له رصانة صاحبيه ، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلباً للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه (٤) :

سَمَوُهُ أحمد فالإسلامُ يحمدهُ      والدهر كاسم أبيه ممرعُ خَصِبُ  
فلا فضائلُ إِلَّا منه أولُّها      ولا مواهبُ إِلَّا دون ما يهبُ

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردّد البحرى في ديوانه مدبج ، وتلقانا مدائح في وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخان شاه وجعفر بن محمود الإسكافي . ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخرى أحد كتّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يُحسّن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحرى ، وفي كتاب الأغاني ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قدّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالى (٥) :

أسفرَ الشَّرْقُ منك والغربُ عن ضو  
أنشرَ الناسَ غيثُكم بعدما كا  
من العَدْلُ فاق ضوَّهَ البدورِ  
نوا رُفَاتاً من قبل يومِ التُّشورِ (٦)

ووزر للمعتد الحسن بن متخلد ، وكان ماهراً في الكتابة ، وهو أيضاً من ممدوحى البحرى ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

- (١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .  
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .  
(٣) طبقات الشعراء لأبن المعتز ص ٤٠٩ .  
(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .  
(٥) أغاني (سأى) ٦٧/٢٠ ومعجم  
الشعراء ص ٤٦٤ .  
(٦) أنشر : أحي .

من ممدوحى البحرى ، ومدائح ابن الرومى وأهاجيه فيه مشهورة . ويكثر البحرى وابن الرومى معاً من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الرومى من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفى ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتدر أسماء وزراء المكتفى والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفى ابن القرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف (١) :

يَتَلَقَّى النَّدَى بِوَجْهِ حَيِّىْ      وَصَدُورَ الْقَنَا بِوَجْهِ وَقَاحِ  
هَكَذَا هَكَذَا تَكُونُ الْمَعَالَى      طُرُقُ الْجِدِّ غَيْرَ طُرُقِ الْمِزَاحِ

ولأبى بكر يحيى بن محمد الصولى أشعار ومدائح كثيرة فى وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر ، وكان يدمج مديحهم فى مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم مدحاً مستقلاً من مثل قوله فى أبى عبد الله البريدى وزير الخليفة المتقى (٢) :

مَا رَأَى النَّاسُ بِالْوَزِيرِ الْبَرِيدِ      كَذَا الْيَوْمِ مِنْهُ حُسْنًا وَفَخْرًا  
الَّذِى يَعْشَقُ الْمَكَارِمَ وَالْمَجْدَ      وَيَشْرِي بِالْمَالِ حَمْدًا وَشُكْرًا

ولعل أكثر الولاة مديحاً فى هذا العصر آل طاهر ، وفى مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والى خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحرى وابن الرومى فيهم ، ومن كان منقطعاً إليهم أبو الأشعث المروزى (٣) . وفى طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفرى من قصيدة (٤) :

حَمَى طَاهِرٌ شَرْقَ الْبِلَادِ بِيَمِينِهِ      وَشَعَثُ النَّوَاصِي لَا تَجْفُ لِبُودِهَا (٥)  
يُنْبِخُ بِهَا أَرْضَ الْعَدُوِّ وَبَيْتِنِي      مَسَائِرُ مَجْدٍ كَانَتْ قَدَمًا يَشِيدُهَا

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٣٣٤ .

(٥) شعث النواصي : الخيل .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩

مقابلة على ص ٤٥٤ .

(٢) أخبار الراضى والمتقى بالله للصولى

ص ٢٠٢ .

ومن كان يخصّ محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبي فسنن ،  
وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الحراج والعشور يلحُّ  
عليه في طلب عُشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من  
قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> :

أبني حُسَيْنِ إِنْني أَصْبَحْتُ في كَنفِ الأَمِيرِ  
ولنا معاشُ في قَطِيهِ عَتِه على الماءِ النَّمِيرِ  
لولا تَرُدُّ عَامِلِ كالكلبِ في يومِ مَطِيرِ  
فهل الأَمِيرُ بجوده من قَبْحِ طَلَعته مجيرِ

فلما قرأ محمد القصيدة وَقَعَ تحتها قد أجرتك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال  
خراجهك — وكان في كل سنة ستة آلاف درهم — وحمل إليه ألف دينار ، وحلف  
عليه أن يقبلها . قال ابن أبي فنن : وصرت منذ هذا الحين أمدحه في كل عام  
بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي  
والى الكوفة ، وهو من ممدوحى البحرى وابن الرومى ، ومثله إبراهيم بن المدبر الذى  
ولى الدواوين فى سامراء وبغداد وولى فى بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله  
وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحرى . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمدحيه  
وخاصة طوال مقامه فى البصرة ، وهو أبو شُرَاعَةَ شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام  
تقلده لها ولا يمنعها حاجة ولا شفاعاة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

إنما لَدَّتْكَ فى المِمالِ شَتَّى صَوْنُكَ العِرْضِ وإبتدالِ المِمالِ  
ما نبالى إذا بقيتَ سليماً من تولَّتْ به صُرُوفُ اللِبالِ

ومرَّ بنا فى حديثنا عن البحرى أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه  
خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل  
وسيا الطويل والى حلب ورافع بن هرثمة والى الرى ، كما مدح بعض قواد الترك مثل  
وصيف الصغير وأذكوتهكين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظِّمَ فى مدح القواد ، إذ تشير

(٢) أغاني (طبع الساسى) ٣٦/٢٠ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦

والديارات ص ١٢٥ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذي يصور بطولة قواد العصر إلا ما نُظِم في الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحترى وابن الروى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولي لبعض القواد في عصره وخاصة في مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد في عصر الراضى ، وكان يتحكم في شؤون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة (١) . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين - وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا في الدواوين أولاً - ومن كان ممدّحاً منهم آل ثوابة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتضد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرمًا أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة ، وهو ممدوح البحترى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دبّجوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبي هيفان (٢) :

الثوابي فقي ليس له في سوى السؤدد والمجد وطّر  
وقوله (٣) :

نفسى فدائى أبى العباس من رجل لم ينسنى قط في نأى ولا كئيب  
يقرى وبالرقة البيضاء منزله من بالعراقين من عجم ومن عرب  
ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم في أضواء أكثر وضوحاً ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبي طاهر وابن درّيد .

### أبو على (٤) البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأنبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت في حى النخع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريباً

- (١) أخبار الراضى والمتق للصول ص ١٠ .  
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠ .  
(٣) ديوان المغانى ١ / ٦٥ .  
(٤) انظر في أخبار أبى على البصير وأشعاره كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨  
ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٦٢ ، ٨٤ .  
ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٨٥ ونكت  
الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣  
٩٥ / ١٩٣ ، والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨  
والفهرست ص ١٨٤

ولُقِّبَ البصير على العادة في التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعياً الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إمامياً يؤمن بالثقيفة ، ولذلك لم ير بأساً في أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامراً . ونزل الأخيرة في خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان بمدحهما وينال جوائزهما ، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بنا في غير هذا الموضوع . ولم يكن شاعراً فحسب ، بل كان أيضاً صاحب رسائل نثرية بارعة ، وفي الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت قطعة منها بديعة . ويقول المسعودي : « كان من أطبع الناس في زمانه لا يزال يأتي بالبيت النادر والمثل السائر الذي لا يأتي به غيره ، وله في الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع - ما نخشى - به - وبه - نُصلح منا ما فسَدُ  
ينجز الناس إذا ما وعدوا وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة في البيت الثاني ، فالفضل لا يزال يؤدي وعوده وكلما أدّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فسبضه ، ومن طريف ماله في الفتح بن خاقان قوله واصفاً بلاغته وشعره :

سمعنا بأشعار الملوك فكلُّها إذا عَصَّ مَتْنِيهِ الثُّقَافُ تَأَوَّدَا  
سوى ما رأينا لامرئ القيس إننا نراه متى لم يشعر الفتحُ أوحدا  
أقام زماناً يسمع القول صامتاً ونحسبه إن رام أكْدَى وأصلدا<sup>(١)</sup>  
فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه وسار فأضحى قد أغار وأنجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوَّد وتثنى إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبي الشعر العربي كله . وصوره يطيل إرهاف سمعه لمادحيه ، حتى ليظن الرائي أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع في طول البلاد وعرضها وفي حزنها وسهولها ونجادها وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له في ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شيء ولعل كثيراً منها كان في مدح آل البيت .

(١) أكدي وأصلد : أعطى قليلا .

وروى له الحصرى تهنئة بمولود ، نظن ظناً أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ،  
وفيهما يقول :

أتانى البشير بأن قد رُزقتَ      غلاماً فأبهجنى ما ذكرُ  
فعمركَ اللهُ حتى ترا      ه قد قارب الخطو منه الكبرُ  
وحتى ترى حوله من بنيه      وإخوته وبينهم زُمُرُ  
وأوزعك اللهُ شكرَ العطاء      فإنَّ الزيدَ لعبدٍ شكر  
وصلىَّ على السلف الصالح      ين منكم وبارك فيمن غبرُ

وكان يؤذى نفسه إيذاءً شديداً أن يقدم شعره أحياناً لبعض الرؤساء أو بعض  
رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا  
منه هذا الموقف فى صور مختلفة ، فعزَّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وإنى قد بلوتكمُ جميعاً      فما منكم على شكرى حريضُ  
وأرخصتُ الثناءَ فعفتموه      وربَّما غلا الشئىءُ الرخيصُ  
فعففتُ نوالكم ورجبتُ عنه      وشرُّ الزاد ما عاف الخَصيصُ<sup>(١)</sup>

ولعل شخصاً لم يؤذ نفسه وكبريائه كما آذاه الملقى بن أيوب أحد قواد الجيش ،  
ولعل ذلك ما جعله يخصه ببيتين كأنهما سَهَمَان مُصْمِيَان ، إذ يقول فيه :

لعمُرُ أبىك ، ما نُسب الملقى      إلى كرمٍ وفى الدنيا كريمُ  
ولكن البلاد إذا اقسعرتُ      وصَوَّح نَبْتُها رُعى الهَشِيمُ<sup>(٢)</sup>

وكان يحسَّ فقدته لبصره إحساساً عميقاً ، ولكن ذلك لم يسكسر نفسه ولا  
أصابه بهوان ، إذ نراه يُبدلُ بأن غيره من المبصرين يستمدُّون علمهم من الكتب  
المخلدة ، أما علمه فدَفْتَرَهُ القلب وحِبرُهُ السمع ، ويعتذر اعتذارات طريفة  
عن أنه لا يستطيع شيئاً إلا بغيره كما نرى فى مثل قوله :

(١) الخصيص : من الحصاصة ؛ وهى الفقر  
(٢) اقسعرت : أجدبت . وصوَّح : يبس .  
والاحتياج .



لئن كان يهديني الغلام لِيُوجِّهني  
ويقتادني في السير إذ أنا راكبٌ  
لقد يستضيء القومُ بي في أمورهم  
ويخبو ضياءُ العين والرأى ثاقب

وهو كثير السخرية في أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة  
حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبي العيناء الضرير  
ويُرَوَى أنه قال له : إنني وُلدت وقت طلوع الشمس ، فقال له تَوّاً : لذلك خرجت  
مُكْندياً (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

أَلتُ بنا يومَ الرَّحيلِ اختلاسةً      فأضرمَ نيرانَ الهوى النَّظْرُ الخَلْسُ (١)  
تأبَّتْ قليلاً وهى تُرعدُ خيفةً      كما تتأبَّى حين تعتدل الشمسُ  
فخاطبها صمَّتِي بما أنا مضمِرٌ      وأنبستُ حتى ليس يُسمعُ في حِسِّ (٢)  
وولتُ كما ولَّى الشبابُ لِطِيَّةٍ      طوت-دونها كَشْحاً على نفسها-النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوصية التفكير ،  
وكأن البصير روى لنا قصة لا مجرد خطرات في الحب والوجد . وكان يشارك أحياناً في  
الحمز والمجون واللهو ، وله دعاية نظمها وهو يريد الحج ، صور فيها نفسه ألمً بالكوفة  
والأديرة القائمة حولها في الحيرة ، فنازعته نفسه أن يشرب في أحد الأديرة ويتزوّد  
من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حطُّ أثقالنا ، وسار الناس  
وأقاما ، يقول :

خرجنا نبتغي مكا      حُجَّاجاً وزُواراً  
فلما شارف الجيرَ      حادِي جَملي حاراً  
فقلت : احططْ بها رَحلي      ولا تحفِلْ بمن سارا  
فقضينا      لُباناتِ لنا كانتْ وأوطاراً  
وما ظنك بالحلفا      ء إن أشعلتها ناراً

(٢) أنبس : هس بكلامه .

(١) الخلس : الخنلس .

ويقال إنه تغيّر عقل أبي علي البصير قبل موته بقليل ، وكان يثوب إليه عقله ،  
فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفي ذلك يقول :

خبّاً مصباحُ عقلِ أبي عليٍّ وكانتُ تستضيءُ به العقولُ  
إذا الإنسان مات الفهم منه فإن الموت بالباقي قليل  
ولعل في كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذفه حقاً وأنه كان خصب  
الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجاباً وبشعره  
استحساناً .

### أحمد<sup>(١)</sup> بن أبي طاهر

اسم أبي طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزق به في بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل  
الأسرة من مَرَو، ويقال إنها من سلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ،  
حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم في بعض الكتابيب ، ثم ترك التعليم واحترف  
الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما  
تحوّل إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد في أخبار الخلفاء  
والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الطبري في تأليف  
كتابه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخي للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع  
الهجري . وله بجانب ذلك كتاب المشور والمنظوم الذي يشتمل على أبرع الرسائل  
المدوّنة في العصر . وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه ردّاً على ابن  
الرومي وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد . وكان يتشيع ، ولكن ليس  
لدينا من شعره الشيعي سوى القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع والتي  
رثى بها يحيى بن عمر الطالبي المقتول بالكوفة في زمن المستعين . ويبدو أنه  
كان إمامياً يأخذ بالتقيّة، ولا يجد بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ،

٢١١ / ٤ ومعجم الأدباء ٨٧ / ٣ وكتاب  
الزهرة لابن داود (انظر الفهرس) وديوان  
المعاني ٤٨ / ١ ، ٩٤ والموشح للمعزبان  
ص ٣٥١ .

(١) انظر في أخبار أحمد بن أبي طاهر  
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج  
الذهب ٦٤ / ٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث  
ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد

وفتحوا له جميعاً أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب في فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذي أرخ فيه للدولة وخلفائها . وفتح له كتاب المشور والمنظوم أبواب الأدباء لا في بغداد وحدها ، بل أيضاً في سامراء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة . ويجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مؤدّب ككتّاب عامياً ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي ببغداد ، وليس فيمن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن ، قال : ولقد أنشدني شعراً يعرضه عليّ في إسحق بن أيوب لحن في بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لي البحترى فيه » . وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبي طاهر — كما في كتاب الموشح للمرزباني — يصف البحترى باللحن في شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس في شعره الذي بين أيدينا ما يصور لهذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادي — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسبغون عليه جوائزهم من مثل قوله في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أبا الصَّقْرِ لا زالت من الله نعمةٌ      تجدُّها الأيامُ عندك والدَّهرُ  
ولا زالت الأعيادُ تمضي وتنقضي      وتبقى لنا أيامك الغرُّ الزهرُ  
فإنك للدنيا جمالٌ وزينةٌ      وإنك للأحرار دُخْرٌ هو الدُّخْرُ  
رأيت الهدايا كلها دون قدركم      وليس بشيءٍ عند مقداركم قدرُ  
فأهديتُ من حليّ المديحِ جواهرًا      مفصَّلةٌ يزهي بها النظم والنثرُ

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم في أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبي طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر والآلىء . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يندّ شاعر صنّاع هي التي كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة، قصيدته في أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد في حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهي تلتقى بقصيدة تُروى لابن الرومي سبق أن أنشدنا منها في ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا في أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبي طاهر في مديح أبي أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لَمْ يَكُنْ حَذِرًا مِنْ حَدِّ صَوْلَتِهِ      لَمْ يَدْرِ مَا الْمَزْعِجَانُ : الْعُخُوفُ وَالْحَذَرُ  
حُلُوٌّ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَبْعَثْ مَرَاتِهِ      فَإِنَّ أَمْرًا فَحُلُوٌّ عِنْدَهُ الصَّبِيرُ  
سَهْلُ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنَّهُ خَشِينٌ      لَيْنُ الْمَهْزَةِ إِلَّا أَنَّهُ حَجْرٌ  
إِذَا الرِّجَالُ دَجَّتْ آرَاوَهُمْ وَعَمُّوا      بِالْأَمْرِ رُدًّا إِلَيْهِ الرَّأْيُ وَالنَّظَرُ  
الْجُودُ مِنْهُ عِيَانٌ لَا ارْتِيَابَ بِهِ      إِذْ جُودٌ كُلُّ جَوَادٍ عِنْدَهُ خَيْرٌ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهي أبيات - إن صحَّ أنها لابن أبي طاهر - تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة في سرقات البحري تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربي على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والنثور . وقد مضى يُحكّم في القصيدة التقسيم كما في الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعاني والألفاظ على نحو ما يتضح في الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحكّم - بجانب المديح - الهجاء اللاذع الذي يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله في أبي العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّا نَخَافُ مِنَ الزَّمَا      نَ عَلَيْكَ إِذْ عَمِيَ الْبَصَرُ  
لَمْ نَدْرِ أَنَّكَ بِالْعَمَى      تَغْنَى وَيَفْتَقِرُ الْبَشَرُ  
وكان يتعرض أحياناً للمبرّد ، فيخشى معرفة لسانه ، ويقال إنه استقبله في

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ في إكرامه ، فأطعمه غذاء طيباً ، وسقاه بارداً ، وأخذ يبسطه في الحديث ، مؤملاً أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويومٍ كحَرِّ الشَّقِيقِ فِي صَدْرِ عَاشِقٍ عَلَى أَنَّهُ مِنْهُ أَحْرُ وَأَرْمَدُ  
ظَلَلَتْ بِهِ عِنْدَ الْمَبْرَدِ قَائِلًا فَمَا زَلْتُ فِي أَلْفَاظِهِ أَتَبَرَّدُ<sup>(١)</sup>  
فقال له المبرد : قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تدم ، ومالك عندي جزاء إلا أن تغرب عن عيني . ففكره وهو يضحك من أثر دعابته في نفس المبرد شيخ العربية لعصره . وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته ، من مثل قوله :

حَبِيبِي حَبِيبٌ يَكْتُمُ النَّاسَ أَنَّهُ لَنَا - حِينَ تَرْمِينَا الْعَيُونَ - حَبِيبٌ  
يِبَاعِدُنِي فِي الْمَلْتَقَى وَفَوَّأْدُهُ - وَإِنْ هُوَ أَبْدَى لِي الْبَعَادَ - قَرِيبٌ  
وَيُعْرَضُ عَنِّي وَالْهَوَى مِنْهُ مَقْبَلٌ إِذَا خَافَ عَيْنًا أَوْ أَشَارَ رَقِيبٌ  
فَتَحْرَسُ مِنَّا أَلْسُنٌ حِينَ نَلْتَقِي وَتَنْطِقُ مِنَّا أَعْيُنٌ وَقَاوِبٌ  
فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما شديد الكسلف والولع ، يتجرع غصص الهوى وآلامه ، ولا يستطيع البوح بما في ضميره ، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام ، وقلوبهما تحترق وهدماً ، وقد خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير . وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ويجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون ، يقول :

إِذَا مَا التَّقِينَا وَالْمَوْشَاةُ بِمَجْلِسٍ فَلَيْسَ لَنَا رُسُلٌ سِوَى الطَّرْفِ بِالطَّرْفِ  
فَإِنْ غَفَلَ الْوَاشُونَ فُزْتُ بِنَظْرَةٍ وَإِنْ نَظَرُوا نَحْوِي نَظَرْتُ إِلَى السَّقْفِ  
فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة في الحين بعد الحين ، حتى لا يفتضح أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبها له وأنها لا تفرط فيه ، بل شديدة الحرص عليه . ومع ذلك يجري بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر

(١) قائلا : مستر بما رقت القيلولة ؛ وهي

عن عذابهما في الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ،  
يقول :

عرفتُ بالسَّلامِ عَيْنَ الرَّقِيبِ وَأشارتُ بلحظِ طَرْفِ مُرِيبِ  
وشكتُ لوعةَ النَّوَى بجفونِ أعربتُ عن ضميرِ قلبِ كَثِيبِ  
رُبَّ طَرْفٍ يكونُ أَفصحَ من لَفِّ ظِ وَأَبْدَى لِمُضْمَرَاتِ القلوبِ

فهي تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النَّوَى وحرقة الحب  
بعيونها ، واصلة نظرها الشَّرَرَ إلى الرقيب بنظرها اللين إليه مُعْرَبَةً عن ضميرها  
وما يخنى في صدرها من الحب له والكلف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيضهم  
قلبه عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادله بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ،  
يقول :

ألاحظُها خَوْفَ المراقبِ لحظةً فأشكو بطَرْفِ ما بقلبي من الوجْدِ  
فتفهمُهُ عن لَحْظِ عيني بقلبه فتومى بِطَرْفِ العينِ أنى على العَهْدِ  
فهما دائماً يتكلمان بلغة الطرف ، لغة يصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب  
بما تضمنت من الوجد ولوعاته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان ، وكأنما  
لا يتكلمان بتلك اللغة الصامته الفصيحة فقط بل يرسلان بها ويتكاتبان  
مكاتبات حارة ، يقول :

كتبتُ إلى الحبيبِ بكسرِ عيني كتاباً ليس يَقْرُوهُ سِوَاهُ  
فأخبرني توردُ وَجَنَّتِيهِ وَكَسْرُ جفونه أن قد قرأهُ

ولعل في كثرة رسوم ابن أبي طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسه من طرف  
وثراء خواتمه وأفكاره من طرف آخر ، وفي كثير من هذه الرسوم براعة في التصوير  
كما نرى في البيت الأخير ، ومن بديع تصويره قوله في إحدى المحجبات اللاتي  
شغف بهن :

حجابٌ فإن تبدو فللدمعِ جولةٌ يكون له من دون رؤيتها سِتْراً

فهو دائماً منها في حجابين ، حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائماً ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن أحد الرواة أنه كان يلمُّ ببعض الأديرة أحياناً في طريقه إلى سامراء أو بعد رجوعه منها ، ويُسشد له خميرية ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا في بعض أحوال عارضة . وما زال يُعنى بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفي سنة ٢٨٠ للهجرة .

ابن<sup>(١)</sup> دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، من أزد عُمَان ، كانت أسرته على شيء من اليسار ، وقد استوطن أبوه البصرة ، وفيها وُلد له سنة ٢٢٣ وعُنى عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بملقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شيء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين في عصره . وقد أكبَّ على محاضرات الرياشي وأبي عثمان الأشنئاندي وأبي حاتم السجستاني وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلاً شديداً فرَّ مع عمه الحسين إلى عُمَان ووطن قبيلته الأزد ، وظل بها اثني عشر عاماً إلى أن قضى الموقف على ثورة الزنج قضاء نهائياً ، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل وثقيفه . ويلبّي الدعوة ، ويرحب به الوالي ترحيباً عظيماً ، ويقبله ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم في الوالي وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التي عرضنا لها في حديثنا عن الشعر التعليمي وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها ، وتُطبعُ في عصرنا بشرح التبريزي وبشروح

تاريخ الطبري للهمداني ص ٧٦ والواق بالوفيات  
للصفي ٢ / ٣٣٨ وروج الذهب للسمودي  
٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم  
الزاهرة ٣ / ٢٤٠ وروضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع  
ديوانه في القاهرة .

(١) انظر في ترجمة ابن دريد وأشعاره  
معجم الشعراء ص ٢٥٥ وتاريخ بغداد ٢ / ١٩٥  
وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨ / ١٢٧ ونزهة  
الألباء . والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب  
٢ / ٢٨٩ ولسان الميزان ٥ / ١٣٢ وتكملة

أخرى وتكثر تخميساتها على مرّ القرون . وفي أثناء عمله عند ابن ميكال ألفَ الجمهرة لابنه لإسماعيل ، وهي معجم لغوى بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل بالثنائي ثم بالثلاثي ثم بالرباعي ثم بملحقه ثم بالحماسي والسداسي وملحقاتهما ، وجمعَ النوادر في باب منفرد . أملاها أولاً في فارس ، ثم أملاها في البصرة ثم في بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل ، كى يحسن العربية ، كتاب الأربعين حديثاً ، قصّ فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالباً كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرَى عن هذه الأحاديث إنها هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته<sup>(١)</sup> . ويبدو أنه ألفَ عند ابني ميكال كثيراً من مصنفاته ، وما نُشر له منها في عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب السَّرْج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية . وما زال يعيش في رحاب ابني ميكال حتى عزّلاً عن فارس ، فانتقل إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه ، فاستقبلته بغداد استقبالاً حافلاً ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى أن توفي سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عاماً . وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التي ذكرناها آنفاً ، وقدم حملنا لها في حديثنا عن الشعر التعليمي ، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس لإسماعيل ، وفيهما يقول :

تلافيا العيش الذي رنقَهُ      صَرَفُ الزمان فاستساغ وَصَفَا<sup>(٢)</sup>  
 وأجريا ماء الحيا لي رَغَدَا      فاهتزَّ غُصْنِي بعد ما كان ذَوَى<sup>(٣)</sup>  
 إن ابن ميكال الأمير انتاشني      من بعد ما قد كنت كالشيءِ اللَّقَا<sup>(٤)</sup>  
 ومدَّ ضَبْعِيَّ أبو العباس من      بعد انقباض الذَّرْعِ والباع الوَزَى<sup>(٥)</sup>

(٤) انتاشني : تناولني . واللقا : المرى في عرض الطريق لا يعبأ به .

(٥) الضبع : وسط العضد . ومد ضبعيه :

بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض

الذرع والباع كناية عن ضيق الحال .

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف - الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .

(٢) رنقه : كدره .

(٣) الحيا : النيث والخصب .



ذاك الذى ما زال يسمو للعلا  
لو كان يرقى أحدٌ بجوده  
مفعله حتى علا فوق العلا  
ومجده إلى السماء لا رتقى  
ما إن أتى بحر نداءه مُعتفٍ  
على أوارى علمٍ إلا ارتوى<sup>(١)</sup>  
نفسى الفداء لأميرى ، ومن  
تحت السماء لأميرى الفدا

وطبيعى أن يعنى ابن دريد في هذا المديح بإدماج شئ فيه من الألفاظ الغريبة ، لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متنساً لغويّاً ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضاً بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ، فاختار لها أسلوباً وسطاً بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضوع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك . فهى لا تتعمق في الإغراب ، بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها في الغريب وألفاظه من مثل قوله في أبى أحمد حُجْر الجومى أحد رجالات فارس النابيين :

حُجْرُ بن أحمد فارغُ الشرف السدى  
انظرُ أنامله فلسنَ أناملاً  
خضعتُ لعزته طلى الأعناق<sup>(٢)</sup>  
لكنهن مفاتحُ الأرزاقِ  
للبدر لم يُطبعَ برينَ محاقِ<sup>(٣)</sup>  
إلى النور الذى لو أنه

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مرثية بديعة في عمه الحسين بن دريد الذى تعهد تربيته ، ومن خير مرثيه مرثية في محمد بن جرير الطبرى علمت الدراسات الدينية والكتابات التاريخية في عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتلف به رجلاً  
كان الزمان به تصفو شاربه  
بل أتلفتُ علماً للدين منصوباً  
والآن أصبح بالتكدير مَقْطوباً<sup>(٤)</sup>  
للعلم نوراً وللتقوى محاربيساً  
كلا وأيامه العرُّ التى جعلتُ

(١) الندى : الكرم . المعتق : طالب النوال .

(٢) الرين : الأذى . يطبع : يندس .

(٣) الأوارى : النار . العلم : الجبل .

(٤) طلى : جمع طلية ، وهى أصل العنق .

وتُنسب له قصيدة في ذكرى الرسول عليه السلام نشك في نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت في عصر متأخر . وله قصيدة طويلة في رثاء الإمام الشافعي ، أو بعبارة أدق في بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأى ابن إدريس ابن عم محمدٍ ضياءً - إذا ما أظلم الخطبُ - صادعُ  
إذا المعضلاتُ المشكلاتُ تشابهتُ سما منه نور في دُجَاهنَّ ساطع  
أبى الله إلا رَفَعَهُ وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهي قصيدة بديعة . وبحقَّ يقول المسعودي إنه كان يذهب في الشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرق ، وطوراً يصبح بدويّاً متعمقاً في الفلوات وفي وصف الإبل والخيل ، وطوراً يصبح حضريّاً يصف الرياض والزهور ، ومن قوله في الرجس :

عيونٌ ما يلمّ بها الرُقَادُ ولا يحو محاسنها السُّهَادُ  
لها حَدَقٌ من الذهب المصنُوقِ صياغةً من يدين له العباد  
وأجفانٌ من الدرِّ استفادتُ ضياءً مثله لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضاري عنده أن نجده يتغزل أحياناً غزلاً رقيقاً ، من مثل قوله واصفياً مدى فتنه الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعاً شركاء له في الحب وضمناؤه :

أعاد من أجلك لا من ضنّي وسائر العوَادِ أشراكي  
ولست أشكوك إلى عائدٍ أخاف أن أشكو إلى شاكي

فالناس يزورونه من ضمناؤه في حب صاحبه لا من ضمنا مرضٍ ألمَّ به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه في حبها ولا من وصبته فيه ، لأنه يراهم جميعاً مثله ، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط في الخمر وإثمها ، كما كان يتملق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه في شبخوخته إنه كان يستحي مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمرأ قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبى نرجس وشقائق  
حكّت وجنة المشوق صرّفاً فسَلَطُوا عليها مزاجاً فاكتست لوناً عاشق  
ويقال إنه عرض له في أواخر عمره فالج (شلل) وسقى الدرياق فبرئ ،  
ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته . ثم مرض به ثانية ، وظل سنتين  
توفى في نهايتهما ، وتصادف أن كانت وفاته في نفس اليوم الذى توفى فيه أبوهاشم  
الجيبّائى المتكلم المعتزلى المشهور ، ودُفنا معاً ببغداد في مقبرة الخيزران .

٥

### شعراء الهجاء

مرّ بنا في كتاب العصر العباسى الأول أن شعر العصبية القبيلة خبت ناره  
فيه وخبت معه نار النقائص ، وحل محله شعر شعوبى أحياناً . ولكن الكثرة الكثيرة  
كانت هجاءً شخصياً يتعرض للأعراض مزرباً بالمهجوّين محقّراً لهم ومهوّناً . ونستطيع  
أن نطرد هذا الحكم في العصر العباسى الثانى ، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبى خبت  
ناره بدوره . ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل ، فلما  
ضعف شأنهم في العصر وحل الترك محلهم في السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفّت  
حدة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً ، وحتى هذا النادر لم تحتفظ  
به المصادر إلا قليلاً جداً ، لأنه لم يكن لشعراء نابيين إنما كان لشعراء مغمورين قلما  
عنى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذى كان يكثر من الافتخار بالعجم<sup>(١)</sup> ، ولم يبق  
من افتخاره شيء . وبذلك كان الهجاء الشخصى هو اللون العام في العصر ، وسبق  
أن لاحظنا في كتاب العصر العباسى الأول أن شعراء أكثروا في هجائهم من  
القول الفاحش المقذع في الأمهات والأخوات وظل ذلك في هذا العصر وظل معه  
ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بداءة ، لن نقف عندها ،  
إنما نقف عند الهجاء غير البدىء ، وكانت نيرانه مضطربة طوال العصر ، فالشعراء

(١) معجم الشعراء ص ٣٧٩ .

يسارعون إليه كلما حجبتهم وزير أو قصر في عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجربتهم المنافسة إلى الدخول في معارك هجاء حامية الوطيس . ومراً بنا في غير هذا الموضوع ، ما قيل عن البحترى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن ملدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء<sup>(١)</sup> . وإذا صحح هذا عن البحترى الذى كانت تفتتح له الأبواب الموصدة ، وكان يمشى — بفضل جوائزته الكثيرة — في موكب من عبيده فضلاً عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا في الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومراً في حديثنا عن ابن الرومى إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلى الساخر يكبر فيه عيوب المهجويين الجسدية والمعنوية . وابن الرومى والبحترى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يسئهمون في هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصصون به الوزراء حين يسحرمونهم بالجائزة ، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدوحاً ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دندن في عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكتابه ابن يزداد<sup>(٢)</sup> :

وإن ابن يزداد لأحولُ حَوْلُ  
ولكنه يقرأ (إذا الشمس كورت)  
فقل لعبيد الله أحبيت دولتى  
مكاسير زمنى (عطلت) فتحييت  
وأنت — إذا مئزت — أبلداً منهم  
فصوتكم : حى المنازل أقفرت

ومجئته بالآية القرآنية وكلمة (عطلت) الواردين في سورة التكوير يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة في وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم<sup>(٣)</sup> :

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(١) الموضع للمرزبانى ص ٣٣٦ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .

إِنْ زَمَانًا أَنْتِ مُسْتَوِزٌ فِيهِ زَمَانٌ عَسِيرٌ أَنْكَدُ  
يَذَمُّكَ النَّاسُ جَمِيعًا فَمَا يَلْقَاكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة في عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد في الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثاً، وكل وزير يصادر الذي قبله ويعمل كل ما في وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم في هجاء الخاقاني الوزير (١):

للدواوين - مذ وليت - عويلٌ ولمال الخراج سقمٌ طويلٌ  
يتلقى الخطوبَ حين أَلَمَّتْ منك رأى غثٌ وعقلٌ ضئيلٌ  
إِنْ سَمَنْتُمْ مِنَ الْخِيَانَةِ وَالْجَوْرِ فِلِلْإِرْتِفَاعِ جِسْمٌ نَحِيلٌ

وكان الخاقاني معروفاً بسوء السيرة والتدبير، وأخذ الرشوة ممن يولّيهم الأعمال، ولذلك كثرت في أيامه الولاية والعزل، وكان الدولة أصبحت دولة لصوص وقطّاع طرق. ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدي الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني من قصيدة طويلة (٢):

يَا سَمَاءُ اسْقُطِي وَيَا أَرْضُ مِيدِي قَدْ تَوَلَّى الْوِزَارَةَ ابْنُ الْبَرِيدِي  
هَدَّ رُكْنَ الْإِسْلَامِ وَانْتَهَكَ الْمَلَكَ وَمَحَّتْ (٣) آثَارَهُ فَهُوَ مُودِي  
فَاسْتَهَلَّى يَاعَيْنُ بِالْذَّمِّ سَحًّا وَقَلِيلٌ أَنْ تَذُرْفِي وَتَجُودِي

ومرّ بنا آنفاً أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجي، ومن تعرّضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبي الجنوب شاعر المتوكل، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التي كان يخصه بها المتوكل، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة، على نحو ما حدث بينه وبين علي بن

(٣) محت : درست .

(١) الفخرى ص ١٩٨ .

(٢) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ١١٣ .

الجهم ، وكان أكثر توقراً منه في هجائه ، إذ لم يكن يُسِفُّ فيه إلى ذكر الأعراض .  
ويتهاجى مع أبي نعامه الدقيقي ، ويكويه بمثل قوله في نعت شعره (١) :

رَأَيْنَا الْبَرْدَ مُشْتَدًّا فَسَاءَ لَنَا عَنْ الْقِصَّةِ  
فَقَالُوا مُنْشِدٌ يُنْشِدُ شِعْرَ ابْنِ أَبِي حَفْصَةَ

وكان أبو نعامه كما مرَّ بنا شيعياً وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة في أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية . وكانوا ربما يهجون بالترندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجسمَّاز في الجاحظ (٢) :

يَا فَتَى نَفْسُهُ إِلَى مِلَّةِ الْكُفْرِ تَائِقَةٌ  
لَكَ فِي الْفَضْلِ وَالنَّزْهِ دِ وَالشُّكِّ سَابِقَةٌ  
فَدَعِ الْكُفْرَ جَانِباً يَا دَعِيَّ الزِّنَادِقَةَ

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام في عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُّ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتاناً . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر في محمد بن يزيد المبرِّد العالم النحوى المشهور (٣) :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فَقَالَ الْقَائِلُونَ وَمَنْ ثُمَالَةَ  
فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ مِنْهُمْ فَقَالُوا زِدْنَا بِهِمْ جَهَالَةَ

وثُمالة هي عشيرة المبرِّد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهويماً بعيداً للمبرِّد وأنه حامل الذكر، وكان قد طبَّقَ آفاق البلاد العربية شهرة في عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره في كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة في رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة في الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة في الهجاء من

(٣) ديوان المعاني ١/١٧٨ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف في أبي الشبل الشاعر الماجن ، تهوّن من رجولته طاعةً له في الصميم<sup>(١)</sup> :

ما ينقضى عجبى ولا فكرى      من نعبجةٍ تكنى أبا الشَّبلِ  
لما اكتنيتَ لنا أبا الشَّبلِ      ووصفتَ ذا النقصان بالفضل  
كادتُ تميد الأرضُ من جَزَعٍ      وترى السماءَ تذوب كالمُهْلِ

وهي تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعاً ، وكأن يوم القيامة حل مواعده ، فالسماء تذوب كالمُهْل أو الزيت المغلى . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائين في العصرهم الصيِّمى والحَمْدونى وابن بسَّام .

### الصيِّمى<sup>(٢)</sup>

هو أبو العنَبَس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصيِّميرة فنُسب إليها ، وهي نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامراً في عصر المتوكل فقرَّبَه منه واتخذَه نديماً له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتندير ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم في الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، حاجي أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله في إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الداوين ، في سامراء وبغداد :

ومروج الذهب ٩ / ٤ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨  
والنجوم الزاهرة ٧٤ / ٣ والوقاي بالوفيات  
١٩١ / ٢

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .  
(٢) انظر في الصيِّمى وأخباره وأشعاره  
كتاب الأغاني (طبعة السامى) ١٧٣ / ١٨  
والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١ / ٢٣٨

أَسَلُ الذِي عَطَفَ المُوا كَبَ بِالْأَعْنَةَ نَحُو بَابِكُ  
وَأَذَلَّ مَوْقِيَّ العَزِيدِ زَعَى وَقَوِيَّ فِي رِحَابِكُ  
وَأَرَاكَ نَفْسَكَ مَالِكَا مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي حِسَابِكُ  
أَلَّا يُطِيلَ تَجْرُعِي غُصَصَ المَنِيَّةِ مِنْ حِجَابِكُ

وله خبر طويل مع البحرى هجاء فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدثت الرواة أنه كان من عادة البحرى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور في مشيه مرة متقدماً ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المتوكل ومن في مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضحك من ذلك ، فأقبل على الصيمرى والبحرى ينشد مدحته فيه :

عَنْ أَيْ ثَغْرِ تَبْتَسِمُ وَيَأَى طَرْفٍ تَحْتَكُمُ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بئس . فمررت فيه بما أحببت . فقال : اهتجته على هذا الروى ، فحضرته على البديهة قصيدة هجاء طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يَا بُحْرِي حَذَارُ وَيْ لِمَكْ مِنْ قُضَاقِضَةٍ ضَعْمُ (١)  
فِيَأَى عِرْضٍ تَعْتَصِمُ وَبِهْتَكِهِ جَفَّ الْقَلَمُ  
وَلَقَدْ أَسَلْتَ بِوَالِدِي لِمَكْ مِنَ الْهَجَا سَيْلِ الْعَرَمِ  
يَا بِنِ الثَّقِيلَةِ وَالثَّقِي لِي عَلَى قَدَوْبِ ذَوِي النَّعَمِ

ومضى يُفْحَشُ فِي الْقَصِيدَةِ وَيُقْنَعُ فِيهَا إِقْدَاعًا قَبِيحًا . ولا ريب في أن نَظْمَهُ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ بِهَذَا النَّمَطِ عَلَى الْبَدِيهَةِ يَدُلُّ عَلَى شَاعِرِيَّةٍ قَوِيَّةٍ . وظلَّ خَفِيضًا عَلَى قُلُوبِ الْخُلَفَاءِ . يسلكونه في ندمائهم حتى عصر المعتمد ، أو بعبارة أخرى حتى توفي في عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥ . وله يهجو طبأخه المسمى صالحًا :

(١) القضاقة : الأسد . ضم : مفترس .



يا طيبَ أياي بمعشوقِ ونحن في بُعدٍ من السُّوقِ  
إذا طلبت الخبز من فارسِ ينفخ لي صالحٌ بالبوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين ، وما احتفظت له المصادر به قطعة في مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهي تطرد على هذا النمط :

زارني بدرٌ على غُصْنٍ قابلاً وَصَلِيَّ يَقْبَلُنِي  
خلته لما أتى حُلُمًا وهو روجي رُدٌّ في بدني  
إن لي عن مثله شُغْلًا بمقال الشعر في الحسنِ  
وأبيه مخلدٌ فَبِهٍ قد لبسنا سابغ المِنَنِ  
كاتبٌ قَلَّ النَّظِيرُ له فاضلٌ في العلم واللِّسَنِ

وشعره يسيل غدوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالاً : فلا تكلف فيه ولا تعمّل ، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة في النسيج ، إنما نجد المتانة التي تجعله سائغاً في الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأسٍ بعد موت الطبيب والعوادي  
قد يُصاد القَطَلُ فينجو سليماً ويحلُّ القضاء بالصيادِ

وهي فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميتوس من شفائه المبكى عليه من محبيه وأودائه ، ويموت الطبيب الصحيح المعافي . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويخطف الموت صائده ، بينما تُردّ له حرثته ويعود إلى رفرفته في الهواء طليقاً .

## (١) الحمدوني

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني ، جده حمند وبه صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذي كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم ، ونجد أبنائه وأحفاده في أواخر العصر العباسي الأول وفي هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرف إبراهيم أبو إسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديماً للمتوكل ثم للمستعين . ولا نشك في أن إسماعيل كان على شاكله أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شيء فيه كان يُعده لهذه المنادمة ، إذ كان فكهاً خفيف الروح ، وكان شاعراً ، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أي هجاء ؟ الهجاء الذي يَلْسَعُ لَسْعُ الإبر من مثل قوله في سعيد بن حميد حين ولي رياسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخرأً منه ومن ملابسه اللديوانية الجديدة :

لبس السيفَ سعيدٌ بعد ما عاش ذا طميرين لا نوبة له  
إن لله لآياتٍ وذا آية لله فينا مُنزلة

فقد جرّده من كل استحقاق للوظيفة وزينها والسيف الذي كان يتقلده من يشغلها لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله في بغيض :

سألتك بالله إلا صدقتَ وعلمي بأنك لا تصدقُ  
أتبغيض نفسك من بغيضها وإلا فأنت إذن أحمقُ

لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة  
٢/٢٩٨ و ٣/٢٤ ، ٥٥ / ٣٤٣ و ٧ / ٢٨٧  
وديوان المغانق ١ / ٢٧٨ وزهر الآداب  
٢٣٣ م وما بعدها

(١) انظر في الحمدوني وأخباره وأشعاره  
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧١ وفوات  
الوفيات ١ / ٢٤ والأغانى ١٢ / ٦١ وترجمة  
أخيه أحمد في معجم الأدباء ٢ / ٢١٧ وتاريخ  
الطبرى ٩ / ٢٦٤ والمقد الفريد ( طبعة

فهو خليق بأن يشترك مع مبغضيه في بغض نفسه ، وكأنما أصبح تمثالا للبغض الكريه ، لا عند الناس فحسب ، بل أهم من ذلك عند نفسه . ويا ويل من كان يسلط عليه سهام هجائه ، فإنه كان ما ينسى يرسلها عليه . وحدث أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبى الذى طالما دبج فيه مدائح وهب له طيلساناً أخضر لم يرضه ، فضى ينظم فى طيلسانه مقطوعات ، وكلما فرغ من مقطوعة نظم مقطوعة جديدة حتى أكملها خمسين مقطوعة طارت على ألسنة الأدباء والناس فى عصره كل مطار منها :

يا بن حربٍ كسوتنى طيلساناً      ملّ من صحبة الزمان وصداً  
 إن تنفستُ فيه ينشقُّ شقاً      أو تنحنحتُ فيه ينقدُّ قدأ  
 طال ترداده إلى الرفو حتى      لو بعثناه وحده لتهدى

وألذع الأبيات البيت الأخير . بل كلنا لاذعة . فالطيلسان أكل الدهر عليه وشرب ، حتى لكأنما ملّ صحبة الدهر ، فقد آن له أن يبلى ويستريح ، وإن أى حركة فيه لتمزقه إرباً ، وكل يوم ينخرق فيه خرق ويذهب به إلى دكان الرِّفءاء ، حتى لو بعث به إليه لعرف الطريق من طول ترداد سيره فيه . وتنوع هجائه لهذا الطيلسان القديم البالى ، فهو تارة يضمه بعض ألفاظ قرآنية من مثل قوله :

طيلسان لابن حربٍ جاعنى      خلعةً فى يوم نحسٍ مستمر  
 فإذا ما الريحُ هبَّتْ نحوه      طيرته كالجراد المنتشر

وقوله :

فما كسانيه ابن حربٍ مُعتَبِر      فانظر إليه فإنه إحدى الكبر  
 قد كان أبيض ثم ما زلنا به      نرفود حتى اسودَّ من صدأ الإبر

وتتوالى ألفاظ القرآن في الأبيات كما هو واضح في ألفاظ: (في يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر) ، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية في مكانها السوي. وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبت لنا ابن حرب طيلساناً      يزيد المرء ذا الضعة اتضاعاً  
ولست أشك أن قد كان قدماً      لنوح في سفينته شراعاً  
وقد غنيت إذ أبصرت منه      جوانبه على بدني تداعي  
« قفي قبل التفرق يا ضباعاً      ولا يك موقفك منك الوداعا »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعاً لسفينة نوح في أعتق الأزمنة ، وصور نفسه ملتاعاً إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامي التي اشتعلت في صدره عند فراقه لصاحبه « ضباعاً » . وقطع كثيرة كان يتغنى في نهايتها بأبيات على شاكلة بيت القطامي تصور أساه ، ودائمًا يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين في شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرر بنا في غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة ففضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة في تلك الشاة مصوراً هزأها وبؤسها ، صانعاً نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة في الغزل والحب ، من مثل قوله :

مررت على علفٍ فقامت لم تيسر      عنه وغنت والمدامع تسجم  
« وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي      متأخرٌ عنه ولا متقدمٌ »

والبيت الثاني من قطعة في الغزل مشهورة لأبي الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجاباً شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتّر عليه في الرزق ، واه يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسّع له في الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ فَنَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا  
نَرْمَقُهَا مِنْ كَتَبِ حَسْرَةٍ كَأَنَّهَا لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط  
شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من  
مثل قوله :

هُوَ سَيْفٌ غِمْدُهُ بُرْدَتَاهُ يَنْتَضِيهِ الْحَزْمُ حِينَ يُسَلُّ  
لَا يَشْكُ السَّمْعَ حِينَ يَرَاهُ أَنَّهُ بِالْيَدِ سَمْعٌ أَزَلُّ (١)

وألفاظه في القصيدة وقوافيه تلتقي مع قوافي تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى  
ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . واه في الغزل قطع تصور حبه  
ولوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، واه في  
وصف طروق طيف الخيال في المنام قطعة جيدة يقول في تضاعيفها :

وَصَلَ الْحَلْمُ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ فَاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مَفْتَرِقَانِ  
وَكَأَنَّ الْأَرْوَاحَ خَافَتْ رَقِيْبًا فَطَوَتْ سِرَّهَا عَنِ الْأَبْدَانِ

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك  
القطع الكثيرة التي أنشدها في هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان  
يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

(١) السمع : الذئب . الأزل : المتولد بين  
ذئب وضع

هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمة في أيام المعتصم وهو من ممدوحى أبي تمام ، بينما كان أبوه محمد من ممدوحى البحترى ، ويقول المسعودى إنه كان مترفاً حسن الزى ظاهر المروءة مشغولاً بالبناء ، ويروى عن بعض معاصريه ما يصور بذخه في بناء داره وفي ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمانة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بنى حمدون في المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً ، ومنها أنجب ابنه علياً ، وقد عني بتربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لحاله الحمد وفي أثر في ذلك . وكان شيعياً ، وربما كان لتشيعه أثر في ذلك أيضاً ، فقد كان الشيعة ناقمين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نقتهم على الدولة أشد وأدهى ، للزج بهم في السجون وتقتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والجمتمع ويبدو أن أباه كان مولياً للعباسيين ، ولعل هذا هو السر في كثرة أهاجيه له ، حتى عدّ في العققة الذين لا يبرون آباءهم بل يمحذون فضلهم ، وله في أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشَيْدَهَا      وَمِثْلُهُ لَخِيَارِ الدُّورِ بِنَاءً  
فَالجُوعَ دَاخِلَهَا      وَالذُّلَّ خَارِجَهَا      وَفِي جَوَانِبِهَا بُؤْسٌ وَضَرَاءُ

وكانت قصرًا عظيمًا يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغلزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتأدى في هجائه له حتى ليقول فيه وفي داره أيضاً :

وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان  
المعاني ٢٣ / ٢ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة  
١٨٩ / ٣

(١) انظر في ابن بسام وأخباره وأشعاره  
الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤  
وتاريخ بغداد ٢ / ٦٣ ومروج الذهب للمسعودى  
٣٠٦ / ٤ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٨٧

شَدَّتْ دَارًا خِلْتَهَا مَكْرُمَةً سَلَطَ اللهُ عَلَيْهَا الْعَرَقَا  
وَأَرَانِيكَ صَرِيحًا وَسَطَهَا وَأَرَانِيهَا صَعِيدًا زَلَقًا<sup>(١)</sup>

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه دينا إذ منحه الوجود وقام على تربيته ، بل لكأنما جَنَنِي عليه جنابة لا تغتفر ، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أضرارها عن جسده إلا اللعنات يصبها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتّاب وكبار رجال الدولة غير هيّاب ولا وجل ، بل لكأنما كان يبحث عن من ينتقم منه ويطيّر به طيرة بطيئا سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالمهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم في حروب الزنج والصفار ، ونراه ينظم فيه وفي ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلها بقوله :

أَبِرْجُو الْمَوْقُ نَصَرَ الْإِلَهَ وَأَمْرُ الْعَبَادِ إِلَى دَانِيَسَهُ

ويأخذ في هجاء ولاته من مثل الطائي أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانياً وأسلم واستوزره الموفق ، ويصيح :

فَحَلُّ الزَّمَانِ لِأَوْغَادِهِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْهَاسِوِيهِ

ويُظَلِّهُ عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحْفَمَر له حَقْفِيرَةٌ وَيُلْدَقَمِي فِيهَا وَتُطَمَّ عَلَيْهِ ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه ، إذ نراه يتعرض له بالمهجاء ، وتارة يقذع فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قواه في احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرف الناس من ختَانٍ يَرْعُونَ مِنْ جُوعِهِمْ خَزَايَ<sup>(١)</sup>  
فقلت لا تعجبوا لهذا فهكذا تُخْتَنُ الْيَتَايِ

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائساً ، حتى لكأنما هو خِتَانٌ بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالا عظيماً بختانهم .

(١) صعيداً زلقاً : أرضاً ملساء . (٢) الخزاي : من أزهار البادية .

وزراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقروود رجاء دنيا حوتها دوننا أيدي القروود  
فما نالت أناملنا لشيء عملناه سوى ذل السجود

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بخلط الرأى ، وتارة يهدده بسوء المصير . وزراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول :

قل لأبي القاسم المرجى قابلك الدهر بالعجائب  
مات لك ابنٌ وكان زيناً وعاش ذو الشين والمعائب  
حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه في عمل وأن يبره ويصله حتى يكف عن هجائه ، فولاه بريد الصيامة وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنسرين والعواصم ، وبقى في عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفي رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومر بنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تحمل أوزار البرية كلها وزيرٌ بظلم العالمين يُجاهرُ

واتخذ من شعره سياطاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والحاقاني وزيرى المقتدر وله في الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة في كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن فساد الحكم حينئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة ، ومر بنا في حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله ، ونرى ابن بسام يرد عليه بقوله على نفس طريقتة :



فقدتكَ يا قَدَاةً في شرابِ      دخلتَ من الدنائةِ كلَّ بابِ  
وأثقلَ — حينَ تبدو — من رقيبِ      وأكذبَ — حينَ تنطقُ — من سرابِ  
وأغدرَ للصديقِ من الليلاني      وأنكى للقلوبِ من العتابِ

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً . وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح الخلقه تقتحمه العيون ، وصور ذلك ابن بسام عابثاً به وبقبحه ، إذ يشكره على إقباله عليه بدابته وانصرافه عنه بوجهه النميم ، يقول :

لِجَحْظَةِ المحسنِ عندى يَدُ      أشكرها منه إلى المحشرِ  
لما أَرانى وجهه      برذونه      وصالني عن وجهه المنكرِ

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مقلته ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس ، وله في الزهد وفناء الحياة أبيات طريفة تجرى على هذا النمط :

أفصرتُ عن طلبِ البَطالةِ والصِّبا      لما علاني للمشيبِ قِناعُ  
لِللهِ أيامُ الشبابِ ولهوهِ      لو أن أيامَ الشبابِ تُباعُ  
فدعِ الصِّبا يا قلبُ واسألُ عن الهوى      ما فيك بعدَ مشيبك استمتاعُ  
وانظرُ إلى الدنيا بعينِ مودعٍ      فلقد دنا سَفَرُ وِهانِ وداعُ  
والحادثاتُ موكِّلاتُ بالفتى      والناسُ بعدَ الحادثاتِ سماعُ

والأبيات تصوّره قد وخطّتهُ الشيب وأخذ يفكر في غنّده ويستعدّ لمصيره ، بعد تلك الرحلة الطويلة التي كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة . ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر في صورة أدق من تلك التي بصورها المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قائمة ، اختلّست فيها الموازين والقيم اختلالاً شديداً .

## الفضل السابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل وشاعرائه

ظل تسيّر الغزل حاداً في العصر ، وظل الشعراء ومن كان ينسطق به من الجوارى ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعاني ، ويخيّل إلى الإنسان كأن كل من شدّأ بالشعر نظم فيه ، مصوراً ألواناً من هذا الحب الذي كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كل شيء . وكانوا ينظمونه في نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما في العصر العباسي الأول ، وقصدت اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثرة الإماء ودور النخاسين التي كانت تزخر بالجوارى من كل جنس : روميات وفارسيات وغير فارسيات وروميات . ويصور الجاحظ في رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنّ يُشعِن في جَوّ بغداد من التحلل الخلقى ، فكان طبيعياً أن تنشق سوق الغزل المادى ، وخاصة أن القيان والجوارى كنّ يُكثرن من التغنى به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فسعرت قلوب الشعراء شباناً وكهولاً ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردّوا أنفسهم إلى شيء من القصد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور في نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حراً ، بل حاراً له حرارة الحمى . وظل اتجاه الغزل العفيف النقي الطاهر حسيّاً بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمدّه أسراب كثيرة من غزل العذريين في العصر الأموي ومن غزل من ساروا في دروبهم من شعراء العصر العباسي الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حممته ولكن بشوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادى ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرّع الغصص واحتمال الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف ، يَحْيِيَّ معه هذه الحياة التي تضيف إليه خصباً فوق خصب ، إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائماً من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعاني التي تصور لوعات الحب وعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين . فقد مرت من ذلك لحظة ، إنما يكفي أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعاً من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وإيلة — هو ابن المعتز . ومرّ بنا حديث مفصّل عنه . وكان عمه المنتصر شاعراً . وله قطع مختلفة في الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب . وفي مقدمتهم مغنيه بستان . ومما غنّاه به قوله (١) :

رأيتك في المنام أقلُّ بُخلاً وأطوعَ منك في غير المنامِ  
ولو أن النعاس يُباعُ بيئاً لأغليتُ النعاسَ على الأنامِ

وكان أشعر منه الخليفة الراضى ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولي في كتابه : « أخبار الراضى بالله والمتى بالله » طائفة كبيرة من أشعاره . وله قطعة تداولتها الكتب في ترجمته وهي في وصف جارية مغنية كان يُفْتِنُ بها ، وتجرى على هذا النمط (٢) :

قد أفصحتُ بالوترِ الأعجمِ وأفهمتُ مَنْ كان لم يفهمِ  
جاريةٌ تحبُّ من لُطْفِها مخاطباً ينطق لا من فمِ  
جَسَّتْ من العودِ مجارى الهوى جَسَّ الأطباءُ مجارى الدَّمِ

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُخْتَارُونَ من صفوة كتّاب الدواوين . وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه ، فيعبر به عن عواطفه

الوفيات ٣٧٦/٢ .

(١) مروج الذهب / ٤ / ٤٨ .  
(٢) معجم الشعراء ص ٤٣١ وفوات

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعي أن يوقد الحب في نفوسهم الجذوة التي طالما أوقدها في نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعاً من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل (١) :

أيها العاشقُ المَعْدَبُ صَبِراً فخطايا أخى الهوى مغفورة  
زفرةٌ في الهوى أحطُ للذنبِ من غزاةٍ وججَةٍ مَبْرُورَةٍ

وكان سليمان بن وهب وزير المهدي يحسن الشعر ونظمه ، وله في الأغاني ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً ، وروى له المرزباني مقطوعات متعددة في الحب من مثل قوله (٢) :

كثيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمعِ هامِلَةٌ نخوته من آجلِ البَيْنِ عاجِلَةٌ  
جريحٌ صدودٍ قد أضربَ به الهوى ورقاً له عوَّادُهُ وعوَّاذِلُهُ

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يختل أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفي مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم - كما مرّ بنا - ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التي كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عريب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته لكل منهما (٣) . كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها (٤) :

زعموا أني أحب عريباً صدقوا والله حُباً عجيباً  
حلّ من قلبي هواها محلاً لم تدع فيه لخلق نصيباً  
هي شمسُ والنساءِ نجومٌ فإذا لاحتْ أفلنَ غيوباً

وهو في هذه الأبيات يصرّح بأنه لا يشرك معها جارية في حبه وهيامه ، ولكن

١١٤ / ١٩  
(٤) أغاني / ١٩ ، ١٢٤

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .  
(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .  
(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٨ / ١٧٥ ،

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأسرنه بجمالهن وفتنتهن  
وما يزرعن في القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتا ، كانت من الجوارى القيان ،  
وفيها يقول (١) :

نَبْتُ إِذَا سَكْتَتْ كَانَ السُّكُوتُ لَهَا زَيْنًا وَإِنْ نَطَقَتْ فَالِدَرُّ يَنْتَشِرُ  
وَإِنَّمَا أَقْصَدْتُ قَلْبِي بِمَقْلَتِهَا مَا كَانَ سَهْمٌ وَلَا قَوْسٌ وَلَا وَتَرٌ

وكان سعيد بن حميد يعمل في الدواوين ، وأسندت إليه رئاسة ديوان الإنشاء  
في عهد المستعين ، واشتهر بتبادله الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض في ترجمتها  
لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله  
يشكو السهاد وطول الليل (٢) :

يا ليل بل يا أَبَدُ أَنَائِمٌ عَنْكَ غَدُ  
يا ليل لو تَلَقَى الَّذِي أَلْتَقَى بِهَا أَوْ تَجِدُ  
قَصْرٌ مِنْ طَوْلِكَ أَوْ ضَعْفٌ مِنْكَ الْجَلْدُ  
أَشْكُو إِلَى ظَالِمَةٍ تَشْكُو الَّذِي لَا تَجِدُ  
وَقَفْتُ عَلَيْهَا نَاطِرِي وَقَفْتُ عَلَيْهِ السُّهْدُ

وعُرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجي  
شغفت قلبه حباً ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها  
بحبه وعطفه وحنانه ويكلف بها كلفاً شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفي  
شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله (٣) :

زَرَعْتُ وَشَاجِي بَيْنَنَا فِي شَبِيبَتِي غِرَاسَ الْهَوَى فَاعْتَمَّ بِالثَّمْرِ الْعَذْبِ  
وَمَاتَ قَبْلَهُ ، فَظَلَّ يَبْكِيهَا بَكَاءَ مَرًّا ، جَازِعًا عَلَيْهَا جَزَعًا لَمْ يَرَ مِثْلَهُ ، وَظَلَّ  
يَزُورُ قَبْرَهَا وَهُوَ يَنْوَحُ عَلَيْهَا وَيَتَفَجَّعُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ (٤) :

(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .  
(٤) الأغاني (طبعة السامى) ٤٣/٨

(١) أغاني ١١٧/١٩ وأقصدت : جرحت .  
(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .

يَمِيناً بَأْنَى لَوْ بُلَيْتُ بِفَقْدِهَا وَبِى نَبْضُ عِرْقٍ لِلْحَيَاةِ وَاللنْكَسِ  
لَأَوْشَكْتُ قَتْلَ النَّفْسِ عِنْدَ فِرَاقِهَا وَلَكِنَّهَا مَاتَتْ وَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي

وكثير من الجوارى فى العصر كن ينظمن الشعر ويحسن نظمها ، وكُنَّ -  
كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضوع - يكتبن أبياتاً منه على طُرْهَن وعصائبهن وجوانب  
ثيابهن ، فيوقدن الحب فى قلوب الرجال ويشعلنه إشعالاً . ونرى ابن المعتز يفرد  
لمجموعة منهن صحفياً فى كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب  
وفضلاً الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللاتى  
كن يحسن الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أدبت  
وثقفت ، وتمرت على قول الشعر حتى أحسنته . وكانت تلحسها وتغنى به على العود .  
وكانت تحلُّ من قلب المتوكل محلاً رفيعاً ، ويروى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم  
يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقرب من حجرتها ، فإذا هى تضرب على عود وتغنى  
على ضربها مصورة لوعتها من خصامه ومغاضبته وأنها لا تطيق الصبر عن  
لِقائه (١) :

أدور فى القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمنى  
حتى كأتى أتيت معصيةً ليس لها توبةً تخلصنى  
فمن شفيح لنا إلى ملكٍ قد زارنى فى الكرى وصالحنى  
حتى إذا ما الصباح عادلنا عاد إلى هجره وقاطعنى

فصفتُ المتوكل طرباً ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويروى أنه رأى ذات يوم  
جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه : « جعفرأ » . فأعجبه ذلك وتمنى  
لو صور ذلك شاعر من شعرائه : البحترى أو على بن الجهم أو مروان بن  
أبى الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنَّت (٢) :

وكتابةً فى الخدِّ بالمسك جعفرأ بنفسى محطُّ المسك من حيث أثرأ

(٢) مروج الذهب ٤٢/٤ .

(١) مروج الذهب ٤٣/٤ والأغانى (طبعة  
السامى) ١٩/١٣٤ .

لئن أودعت خطأ من المسك خدّها لقد أودعت قلبي من الوجد أسطراً  
 فيا من لملوك يظلُّ مليكته مطيعاً له فيما أسرَّ وأظهرها  
 وهي من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة  
 وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرن الرقيقة ، وليس من ريب في أنهم علمن  
 على أن يعبر الشعراء في الحب عن حس دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتنصیل  
 ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل في العصر ، وهم خالد  
 ابن يزيد الكاتب ، ومحمد بن داود ، وفضل .

خالد<sup>(١)</sup> بن يزيد الكاتب

كان أحد كتّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار  
 كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات في الجيش الذي  
 خرج بقيادة علي بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية  
 وفي الطريق بلغ علياً أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذة في ندمائه . ولما وزر  
 الفضل بن خالد للمعتصم قَرَّبَه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم في بناء سامراً بادر  
 خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالحليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل  
 إلى المعتصم فسُرَّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفي المدينة  
 أشعاراً أخرى ويغني المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريباً  
 منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً في مديح الخلفاء في  
 العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ،  
 إذ يقال إنه توفي سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه  
 على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه ، ولا يُعَسِّنِي بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له  
 بعض الهجاء القليل في بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه  
 فأنصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

( انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ٤٧/١١  
 والنجوم الزاهرة ٣/٣٦ وله ديوان مخطوط  
 بالمكتبة العمومية بدمشق

(١) انظر في ترجمة خالد وأشعاره الأغاني (طبعة  
 السامى) ٢١/٣١ وطبقات الشعراء لابن المعتز  
 ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٨/٣٠٨ والديارات

في أواخر حياته . ويُجمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز في الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وَضَعَ الدَّمْعَ مواضعَ الحُزْنِ حَيَّ السَّهَادَ ومَيَّتَ الجَفْنَ  
عَبْرَاتِهِ نُطْقُ مَا ضَمِنَتْ أَحْشَاؤُهُ ولسانُهُ يَكْنِي  
في كل جَارِحَةٍ له مُثَلُّ تَبْكِي على قلبٍ له رَهْنِ  
لم يَدْرٍ إِلَّا حينَ أسلمه قَدْرٌ للحظةٍ واحدِ الحُسْنِ

والأبيات فيهادقة في التفكير وفيها خيال بعيد ، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب ، ومثله في الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكي على قلبه الذي رهنته منه صاحبه ، وأيضاً تعبيره عن صاحبه بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتي بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كيف خانتُ عَيْنَ الرقيبِ الرقيبا أخطأتني لما رأيتُ الحبيبا  
رحمتي فساعدتني فقبلاً تُ بعيني مع الحبيبِ الرقيبا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلب الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء ألموا بالليل ووصف استطائه شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائماً طويل لسهادهم المستمر ، يقول :

رقدتَ ولم تَرْتِ للسَّاهِرِ وليلُ المحبِ بلا آخرِ  
ولم تَدْرِ بعدَ ذهابِ الرقا دِ ما صنعَ الدمعُ بالناظرِ

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهي ، وصاحبه بجانبه ولا تدري ما يعاني من عذاب الحب المبرح ، وهو يتجرع غصص حبه محتماً مقاوماً ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :



قد استعار الحسنُ من وجههِ والغصنُ الناعمُ من قَدِهِ  
وقد تعاتبنا بأبصارنا فيما جناه الخلفُ من وعده  
حتى تجارحنا بتكرارنا للخطِّ في قلبى وفى خدِّهِ  
فأدرك الثَّارُ وأدركته وسرَّنى بالصدِّ عن صدِّهِ

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قده وقوامه ، وهما يتعتابان عتاباً رقيقاً ،  
ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خدَّ صاحبه ويترك فيه أثراً من طول تكراره ،  
أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التى تجرحه فى الصميم . وكأنما كل منهما  
ظفر من صاحبه بثأره ، ولكن شتان ما بين الثَّارين : ثار يجرح الحدود وثأر يجرح  
القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدَّت عن الصد وانصرفت  
عن الهجر . وكان يلمّ أحياناً ببعض الأديرة أو يفضى إلى تعاطى بعض كنوس  
الخمير ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث  
بغزله على عادته ، فالغزل دائماً مبتغاه من شعره على نحو ما نرى فى قوله :

رأتُ منه عيني منظرين كما رأتُ من البدر والشمس المضيفة بالأرضِ  
عشيّة حيّاتي بوردٍ كأنّه خدودٌ أضيفتُ بعضهن إلى بعضِ  
وناولنى كأساً كأنَّ رُضابها دموعى لما صدَّ عن مقلتى غمضى  
وولّى وفعلُ السُّكرِ فى حركاتهِ من الراح نعلُ الرِّيحِ بالغصنِ الغصِّ

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الخجل ،  
نوّه به القدماء طويلاً ، وهذه الكأس التىناولها صاحبه كأس المحبين التى طالما شربوا  
منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التى لا تجف والى ماتنى تسقط فتمتلئ  
منها كنوسهم التى لا يعرف الناس أتمتلى شراباً أم ناراً . وله :

إذا كنت فى كُلِّ بكلك مُفرغاً فأى مكانٍ من مكانك أَلطفُ  
فمنى إذا ما غبتَ فى كلِّ مفصلٍ من الشوقِ داعٍ كلما غبتَ يهتفُ  
فهما روحان فى جسد ، وهو يحس فراغاً لا حدَّ له إذا غابت عنه ، وكأن كل

جزء فيه يفقد تمامه ، فهو ما يني يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه وهويتبه ، ويتبعه قلبه من ورائه ؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ، ومثل كبده الجريح ، يقول :

كبدٌ شفَّها غليلُ التَّصَابِي      بين عَتَبٍ وَسَخَطَةٍ وَعَذَابِ  
كلُّ يومٍ تَدْمَى بجرحٍ من الشو      قِ ونوعٍ مجدِّدٍ من عذابِ  
ياسقِي الجفونَ أسقمتَ جسمي      فاشفِنِي كيف شئت ، لابلِك ما بي

فهو يَصَلِّي نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا في جفونه وإنما في جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضنأ . ومن أرق الدعاء قوله في آخر الأبيات : « لابلِك ما بي » . وتدور له في كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله :

كيف تُرَجِّي لذاعة الإغماض      لمريضٍ من العيون المراضِ  
وقوله :

ليت ما أصبح من رَقَّة      خَدِّيك بقلبك  
وقوله :

وبكى العاذلُ من رَحْمَتِي      لبُكا العاذلِ

ولهل في كل ما أسلفنا ما يدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغاية في رقة الغزل . وجعله ذلك مألفاً لكثير من معاصريه أمثال علي بن المعتصم . وكان كثيرون يدعون به إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه على المغنين والمغنيات ، ليكتمل الأنس والطرب ، ونحس دائماً أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ، ويقال إنه فعلاً أحب جارية في مطالع حياته ، ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئاً إلى هذا اللقاء حتى مماته .

محمد<sup>(١)</sup> بن داود الظاهري

أبوه داود بن علي بن خلف الأصفهاني مؤسس المذهب الظاهري في الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعي ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له في الفقه مذهباً مستقلاً عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي . وقد أقامه على رفض القياس والرأي والتقليد للأئمة المذكورين واشتقَّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة . ولذلك سُمي مذهبه باسم المذهب الظاهري . وعُني بتربية ابنه محمد . وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآن ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأدب على ثعلب الإمام اللغوي والنحوي المشهور ، وهو يروي في كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثَّل مذهبه ولما توفي سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فخلفه على رياسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعي في عصره . وكانت حلقة تدريسه تغصُّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة في المذهب الظاهري . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذي عُني نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول . والكتاب كله مائة باب جعلها في جزئين خصَّ الأول منهما بالحلب العذري العفيف ، وهو يتضمن خمسين باباً في كل باب مائة بيت من الشعر . وبالمثل أبواب الجزء الثاني الخمسون . فكل منها يشتمل على مائة بيت . وأهمها ما دار في تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمة وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمننا في حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو في الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتاوها بأحواله من الفراق والشوق ويخصُّ الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنواناً مسجوعاً مثل « من كثرت لحظاته دامت حسراته » و « ليس بلبيب من لم يصف ما به لطيب » و « التذلل للحبيب من شيم الأديب » . وهي عناوين غير مضبوطة ،

وطبقات الشافعية للسبكي في ترجمة ابن سريج ٢٣/٣ وما بعدها ، وطبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة بيروت .

(١) انظر في حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٢٥٦/٥ وروج الذهب للمسعودي ٢٠٥/٤ وابن خلكان والواقى بالوفيات للصفدي ٥٨/٣ ومرآة الجنان لليافعي ٢٢٨/٢

وبالمثل ما يليها من الأشعار، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطرب لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتاً أخرى حتى لا يكون مبتوراً. والأبيات أو قل الشواهد في الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلي حتى عصره. وقد بدأ بتأليف الكتاب في حياة أبيه وهو لا يزال حدثاً، وفي ذلك يقول: «بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكتّاب ونظر في أكثره». وكان فطناً ذكياً نافذ البصيرة كما كان شاعراً. ويروى أن شخصاً سأله في حلقته عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران؟ فأجابته: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم. وفي هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفاً. ويروى أيضاً أن رجلاً جاء إلى حلقته فدفع إليه ورقة، فأخذها وتأمّلها طويلاً، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية، وقلبها وكتب في ظهرها الإجابة، فراجعوها. وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومي الشاعر المشهور، وإذا في الرقعة مكتوب:

يا بن داودَ يا فقيهَ العراقِ      أفْتِنَا في قِوَاتِلِ الْأَحْدَاقِ  
هل عليهن في الجروحِ قصاصٌ      أم مباحٌ لها دمُ العِشَاقِ

وإذا الجواب:

كيف يفتيكم قتيلاً صريعٌ      بسهامِ الفراقِ والإشتِياقِ  
وقتيلاً التلاقِ أحسنُ حالا      عند داودَ من قتيْلِ الفراقِ

ويقال إنه كان يهوى فتى من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلاني العطار وكان طاهراً في هواه. فهو إن صح كان هوى نقيّاً. أو قل إنه كان تعلقاً أوشك أن يكون هوى أو ظنه الناس هوى. وكان ترجماناً للهوى العذرى في عصره كما كان مؤلفاً فيه، إذ صنّف في أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا. وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودي. من مثل قوله:

ع كبدى من خيفة البينِ لوعةٌ      يكاد لها قايِ أسمى يتصدّغُ  
يخاف وقوعَ البينِ والشملُ جامعٌ      فييكي بعينِ دمُعها متسرّعُ

فلو كان مسروراً بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقع  
لكان سواءَ برؤءه وسقامه ولكنَّ وشكَّ البين أدهى وأوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التي تكاد تمزق قلبه حسرات . وهو يخاف  
البين قبل وقوعه ، فيبكي بدموع غزار ، فما باله والبين يوشك أن يقع ؟ إنه يضمن في  
البكاء ويعمن في الابتياح ويعمن في الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتّع من حبيبك بالوداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ  
فكم جربتُ من وصلٍ وهجرٍ ومن حال ارتفاعِ وانخفاضِ  
وكم كأسٍ أمرّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عنها ذراعِي  
ولم أرَ في الذي لاقيتُ شيئاً أمرّ من الفراق بلا وداعِ  
تعالى الله كلّ مواصلاتٍ وإن طالت توؤل إلى انقطاعِ

وهو يدعو إلى ألا يشكو المحب من الفراق لحظة الوداع التي طالما عصرت قلوب المحبين ،  
ويقول إنها ليست آخر لحظة يلقي فيها الحبيب ، فستأتي بعدها لحظات لقاء ،  
وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب  
كنوساً مرة أمر من الموت ، فتحملها صابراً . وليس أمر من الفراق بلا وداع  
ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم .  
ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شيء الزوال والفتاء . ومن تنمة ذلك  
عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم ، كأن يقول في بعض  
غزله :

أفوض أسبابي إلى الله كلّها وأقنعُ بالمقدور فيها وأرئضي

فهو دائماً يسلم - في عذابه بالحب وآلامه فيه وما يتصلّمي من هجر وبعد  
وفراق - بما أرادته له المقادير . وتشيع في شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال  
والحرام والتوبة ، ويعلم غير مرة أن حبه عفيف نقي ظاهر لا تشوبه أدنى شائبة ،  
يقول :

لا تُلْزِمْنِي فِي رَغْمِي الْهَوَى سَرَفًا وَمَا أَوْفِيهِ إِلَّا دُونَ مَا يَجِبُ  
فِي عِفَّةٍ نَتَحَامِي أَنْ يُلْمَ بِهَا سُوءُ الظَّنُونِ وَأَنْ تَغْتَالِهَا الرَّيْبُ  
وَيُكْثِرَ فِي غَزَلِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَنَازِلِ وَالِدِيَارِ وَالْفِيَاثِي وَالْقِيَعَانِ وَالرُّكْبَانِ وَالْمَطَايَا ،  
وهو يتساءل والمنازل لا تجيب ، فقد رحل الأحبة وخلفوا له وجداً ما مثله وجد ،  
وعشياً يخفيه فكل ما حوله يبصره ، يقول :

يُخْفِي هَوَاهُ وَمَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ حَتَّى عَلَى الْعَيْسِ وَالرُّكْبَانِ وَالْحَادِي  
وَيَتَدَبَّعُ شَعْرَهُ فِي بَغْدَادٍ وَيَغْنَى فِيهِ الْمَغْنُونِ وَالْمَغْنِيَاتِ ، وهو لا يدري من أمره  
شيئاً فقد كان منكباً دائماً على حلقات الدرس وعلى التصنيف والتأليف . ويساير  
ذات يوم القاضي محمد بن يوسف فيسمع جارية تغني بقوله :

أَشْكُو غَلِيلَ فَوَادٍ أَنْتَ مَتَلْفُهُ شَكْوَى عَلِيلٍ إِلَى إِلْفٍ يَعْطَلُهُ  
سَقَمِي تَزِيدَ عَلَى الْأَيَّامِ كَثْرَتُهُ وَأَنْتَ فِي عُظْمٍ مَا أَلْقَى تَقَلُّلُهُ  
اللَّهُ حَرَّمَ قَتْلِي فِي الْهَوَى سَلْفًا وَأَنْتَ يَا قَاتِلِي ظَلَمًا تَحَلُّلُهُ

ويلتفت إلى صاحبه قائلاً : كيف السبيل إلى ارتجاع مثل هذا الشعر الذي  
تلوكه أفواه المغنين والمغنيات ، فيؤثسه من رذاه قائلاً : هيئات سارت به الركبان .  
ومن طريف ما يروى له :

فَلَا تُطْفِئِ نَارَ الشُّوقِ بِالشُّوقِ طَالِبًا سَأُوا فَإِنَّ الْجَمْرَ يُسْعَرُ بِالْجَمْرِ

ولم تمتد حياته طويلاً . فقد توفي سنة ٢٩٧ وهو في الثانية والأربعين من عمره ،  
ويقال إنه لما مات جلس ابن سريج مناظره المذكور آنفاً في مجلسه وبكى وجلس على  
التراب . وقال : ما آسى إلا على لسان أكله التراب من ابن داود . وحزن عليه  
تلاميذه حزناً شديداً . ويقال إن نبطويه جزع عليه جزعاً عظيماً . ولم يجلس في  
حلقاته للناس يحاضرهم سنة كاملة .

(١) فضل

كانت أمها من مولدات اليمامة ، وكانت هي من مولدات البصرة ، نشأت في دار رجل من قبيلة عبد القيس أدبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت لرجل من النخاسين في الكرخ ببغداد يقال له حسنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّحجِّي ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى في زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت في نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعني واشتراني ، فضحك ، وقال لها : أنشدنا شيئاً من شعرك ، فأنشده  
تملحه :

استقبل الملكُ إمامَ الهدى عامَ ثلاثٍ وثلاثينا  
إنا لنترجو يا إمامَ الهدى أن تملك الناس ثمانينا  
لا قدس الله امرءاً لم يقلُّ عند دعائي لك آمينا

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عريب أن تغنيه بها ، فغنت وطرب طرباً شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يُلقونها عليها ، فتجيزها في سرعة شديدة ، وكان المتوكل نفسه يلقي عليها أحياناً بعض الأبيات فتُسرع في إجازتها ببديعتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أسبابَ الرضا خوفَ عتبها وعلمها حُبِّي لها كيف تغضبُ  
ولم يكد يلفظ بالبيت حتى قالت :

تصدُّ وأدنو بالمودةً جاهداً وتبعد عني بالوصال وأقربُ

المعز ص ٤٢٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨ وزهر  
الآداب للحصري ٤ / ١٦٥

(١) انظر في فضل وأخبارها وأشعارها  
الأغاني (طبعة الساسي) ٢١ / ١١٤ ، ٢ / ١٧٠  
وقواف الوفيات للكاتب وطبقات الشعراء لابن

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصت به معاصرتها الخساء ، ولكن جمهور  
أشعارها كان في الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلَّمُ الجمالَ تركنتني في الحب أشهرَ من عَلَّمُ  
ونصبتني يا مُنْتَبِي غرضَ المظنة والتَّهْمِ  
فارتنتني بعد الذذ و فصرت عندي كالحلم  
ما كان ضَرْكُ لو وصلا تَ فحففَ عن قلبي الأَلَمِ

وهي تقول لصاحبها إنك وصلتني وشهرتني بحبك ثم هجرتني وأنزلتني هذه  
المنزلة الخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخیال ،  
وهي تود لو ظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرحة . وأكثر  
غزلها في معشوقها سعيد بن حُصَيْنَيدَ رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله  
فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة ، من ذلك أنه  
عتب عليها يوماً أنها لا تقبل عليه في مجلسها ولا تذكره باسمه في غزلها ،  
فكتبت إليه :

وعيشك لو صرحت باسمك في الهوى  
ولكنني أبدي لهذا مودتي  
لأقصرت عن أشياء في الهزل والجِدِّ  
وذاك وأخلو فيك بالبت والوجد  
فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلي وأسهره وحدي  
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته  
وأنهي جفوني أن تبثك ما عندي  
بنا فانظري ماذا على قاتل العمد  
وكان لا يقل عنها كسفاً ولا غراماً ، وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويمودان  
إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة ، وكانت لاتي  
الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة ، وما كتبه له في إحدى الرقاق :

الصبرُ ينقصُ والسقامُ يزيدُ والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ  
أشكوك أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود



وكان حريئاً بصاحب الأغاني أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التي اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعدُّ من طرائف الشعر العباسي . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القيان وملأت قلبه فتوناً ، فكتبت إليه غاضبة ساخطة :

يا عالي السنَّ سيِّءَ الأدبِ شِبتَ وأنت الغلامُ في الأدبِ  
ويحك إن القيانَ كالشركِ المنصوبِ بين الغرورِ والعطبِ  
لا يتصدِّينَ للفقيرِ ولا يتبعنَ إلا مواضعَ الذهبِ

فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تتمتع بأوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير في تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت في الغاية والنهاية من التشيع . فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفّس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمانَ يدخُلُ كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأسهانا<sup>(١)</sup>  
مالى وللدهرِ قد أصبحتُ همته مالى وللدهرِ . مالى للدهرِ ، لا كانا  
والبيتان راعان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعري غزير ،  
واختلف في زمن وفاتها ، فقيل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن  
حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائل المدونة عند الناس إلا من إنشائها تجلّة لها  
ولأدبها وملكتها الشعرية .

## ٢

## شعراء اللهو والحجون

ظل كثيرون من الشعراء يندسسون في اللهو والحجون كما انغمس أسلافهم في العصر الماضي ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل في الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال في الموازين

وفساد في القيم شاعا في حياة الدولة وفي حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكفر مخملياً بالخانات وبدور النحاسين ، والشعراء المجان يغدون ويروحون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكن يعرف حشمة ولا وقاراً إنما كن يعرفن اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوباً والموصل شمالاً ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائماً لا في الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحاب الخلاعة والمجون في أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلاً شاذاً بالغلمان ، وضممة ظلت في هذا العصر كما كانت في العصر الماضي ، وكثير من هذا الغزل كان ينظم في أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصور الفساد الخلقي في أشنع صورته . وحقاً لا نجد خليفة تورط في حب غلام ، ولكن أيضاً كان كثير من منهم يعكفون على الملاهي والملاذات ، وكانت قصورهم تفتح بجماعات المجان في صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مجاناً محترفين . وفي كل مكان نلتقي بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة في الديارات وتارة في دور النحاسين أو في الخانات أو في بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أو عصابة أبي هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبي علي البصير وأبي العيشاء ، وفيهم يقول المرزبانى : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر في الظرف والمجون<sup>(١)</sup> ، ومنهم جماعة أبي السفاح الأنصارى وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا في صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا<sup>(٢)</sup> . وكان لشيوع مجالس الخمر حينئذ أثرها في ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم ، وما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمساحة في الشرب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا وإطراح ما مضى وإسقاط التكليف وسر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيشاء الضرير ، وكان ظريفاً لسناً سريع الجواب ، واتخذ

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

المتوكل في ندمائه . وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد يبق  
فيها أياماً لا يفيق من سكره ، وله في دير باشهراً ، وكان بين سامراً وبغداد قوله<sup>(١)</sup> :

نزلنا ديراً باشهراً على قسيه ظهراً  
وسقانا وروانا من الصافية العسدا  
وطاب الوقت في الدير فربطنا به عشراً  
ونلنا كل ما نهوا ه من لذاتنا جهراً

ومن كبار الشياطين في العصر مصعب الوراق . وكان من أشد المجان نهتكاً وأكثرهم  
خلاعة وتطرحاً في الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات  
الموصل ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

عمرت بقاع دبر الزعفران بفتيان غطارفة هجان<sup>(٣)</sup>  
بكل فتى يحن إلى التصابي ويهوى شرب عاتقة الدنان  
بكل فتى يميل إلى الملاهي وأصوات المثلث والمثاني<sup>(٤)</sup>  
ظلمنا نعمل الكاسات فيه على روض كنعش الخسرواني  
وأغصان تميل بها ثمار قريبات من الجاني دواني

ومن كانوا يتورطون حينئذ في الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومي ،  
إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعاني الدقيقة  
في الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذه ، وفيها يقول<sup>(٥)</sup> :

مشمولة كشعاع الشمس في قدح مثل السراب يرى من رقة شبحا  
إذا تعاطيتها لم تدر من لطف راحاً بلا قدح عاطتك أم قدحاً

وكثيراً ما كان يلم بدير الخوات ، وهو دير كبير شمالي سامراً وسط البساتين  
والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القاصف ومواطن اللهوه .

(٤) المثلث والمثاني : من أوتار العويد .

(٥) المختار من شعر بشار ص ١٢٧ وانظر

الديارات ص ٩٣ .

(١) الديارات للشابتي ص ٨٠ .

(٢) الديارات ص ١٩٢ .

غطارفة هجان : سادة كرام .

وذكره كثيراً في أشعاره . ومثله دبير العذارى وكان قريباً من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان يتزله جوار متبتلات عذارى ، ونزل به عبید الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه ، وله مقطوعة بصورٍ فيها ما امتد حول الدَيْر من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله (١) :

ورِياضِ كَأَنَّهم بُرودُ      كلُّ يومٍ لهنَّ صِبْغٌ جَدِيدُ  
وَكأنَّ الشَّقِيقَ فيها عَشِيقُ      وَكَأنَّ البَهارَ صَبَّ عَمِيدُ (٢)  
وَكَأنَّ الثَّارَ والورقَ الخُضُّ      رَ ثيابٌ من تحتهنَّ نَهْدُ  
فاسقنيها راحاً تريح من الهَمِّ      وتُبْدِي سرورنا وتُعِيدُ  
وانتهز فرصة اللذازات في دَيْرٍ      ر العَذاري فعلها لا تعود

وكان كثيرون لا يتغلبون في المجون ولا يغرقون في اللذات ، وإنما يلمون بالحرم من حين إلى حين ، وقد يكون في حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية ، وإما شك واستهانة بكل شيء ، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحياناً أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها بحجارة للشعراء في عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبي العباس الناشئ إذ يقول (٣) :

ومُدَامَة يَخْفَى النَهارُ لنورها      وتَدَلِّ أكنافُ الدُّجَى لضياها  
صَبَّتْ فأحْدق نورها بزجاجها      فكأنها جُعِلَتْ إناءً إنائها  
وتكاد إن مزجت لرقَّة لونها      تتماز عند مزاجها من مائها  
صفراء تَضْحَى الشمسُ إن قِيسَتْ بها      في ضوئها كالليل في أضوائها  
وإذا تصفحت الهواء رأيتَه      كدِر الأديمَة عند حُسن صفائها  
لا شيء أعجب من تولد بُرْنِها      من سُقمها ودوائها من دائها

زهر أصفر ، والكناية واضحة .

(٣) زهر الآداب ١٤٩/٢ .

(١) الديارات ص ١٠٩ .

(٢) الشقيق : ورد أحمر . والبهار :

وهي خميرية بديعة لعب فيها خيال الناشئُ بفكرة ضوء الخمر ، فهي تارة تحيل الشمس ظلاماً ، وتارة تُرعى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجي . وهي متناهية في الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يُسزجُ بها ، وهي أيضاً متناهية في الصفاء حتى ليرى الجو الصافي كدرأً بالقياس إليها ، وهي داء ودواء وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون في العصر . وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البرجمي وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع .

### الحسين<sup>(١)</sup> بن الضحاك

من كبار الخلاء الحجان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهرأً طويلاً ، وكان ظريفاً ، فاتخذه الأمين نديماً له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه . وقد جزع جزعاً شديداً حين توفي الأمين ، ورثاه مرثى كثيرة ، وكان مما قال فيه باكبياً متفجعاً .

هلا بقيتَ لسدِّ فاقتنا فينا وكان لغيرك التلّفُ  
قد كان فيك لمن مضى خلفُ فاليوم أعوزُ بعدك الخلفُ

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده في حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكي بها بغداد حين ضربها طاهر بالمجانيق ، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف ، فلما ذُكر له في الشعراء قال : لا حاجة لي به ولا يرى وجهي إلا على قارعة الطريق أي في مواكبه العامة . وظل لا يتقرب القصر طوال خلافة المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقربه منه . ففضى يمدحه وينال جوائزهِ ، وقد أقطعهُ كما أقطع رجال

١٥٦ / ٢ وشذرات الذهب ١٢٣ / ٢ وأشعار الخليل الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة بيروت) .

(١) انظر في ترجمة الحسين بن الضحاك وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وتاريخ بغداد ٥٤ / ٨ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤٣ / ٧ ومعجم الأدباء وابن خلكان ومراة الجنان

حاشيته داراً في سامراء ، واتخذته الواثق نديماً له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه في ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله في تهنته له بالخلافة :

هَتَّكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خِلاَفَةً جَمَعَتْ بِهَا أَهْوَاءَ أُمَّةٍ أَحْمَدَ

وأعجب المنتصر بالقصيدة ، فقال له : إن في بقائك بهاءً للملك ، ولحق بعده عصر المستعين ، وفيه توفي سنة ٢٥١ للهجرة .

وكان يُعْرَفُ بِاسْمِ الْخَلِيعِ لِكثْرَةِ مَجُونِهِ وَعَكُوفِهِ عَلَى الْخَمْرِ ، حَتَّى أَصْبَحَ اسْمُهُ مَقْرُونًا بِاسْمِ أَبِي نَوَاسٍ أَكْبَرَ مَا جُنَّ فِي الْعَصْرِ السَّابِقِ ، وَهُوَ مِثْلُهُ فَارْسِي الْأَصْلِ ، وَكَانَ يَصْحَبُهُ فِي شَبَابِهِ ، وَيَبْدُو أَنَّهُ تَمَثَّلَ أَشْعَارُهُ تَمَثُّلاً نَادِراً وَخَاصَةً أَشْعَارَ الْخَمْرِ وَالْمَجُونِ ، حَتَّى اخْتَلَطَ الْأَمْرُ عَلَى الْقَدَمَاءِ فَنَسَبُوا كَثِيراً مِنْ أَشْعَارِهِ إِلَى أَبِي نَوَاسٍ ، وَزَعَمَ نَفَرٌ مِنْهُمْ أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ كَانَ يَحَاكِيهِ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحُسَيْنَ هُوَ الَّذِي كَانَ يَحَاكِي أَسْتَاذَهُ وَأَسْتَاذَ الْخَمْرِ وَالْمَجُونِ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَامَةً . وَيَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ إِنَّهُ كَانَ أَتَى مِنْ أَبِي نَوَاسٍ شِعْراً وَأَقْلَ تَخْلِيْطاً مِنْهُ ، وَهِيَ مَلَاخِظَةٌ صَحِيحَةٌ غَايَةُ الصَّحَّةِ ، فَإِنَّ أَبَا نَوَاسٍ كَانَ يَخْتَلِطُ بِأَبْنَاءِ الشَّعْبِ الْبَغْدَادِيِّ مِنَ الْمَجَّانِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْحَانَاتِ بِالْكَرْخِ وَغَيْرِ الْكَرْخِ وَفِي الْأَدِيرَةِ ، وَكَانَ لَا يَرْتَفِعُ بَلِغَتَهُ وَأَلْفَاظَهُ عَنْهُمْ ، بَلْ كَانَ يَدْنُو مِنْهُمْ دُنُوّاً شَدِيداً . وَكَانَ يَنْظُمُ كَثِيراً مِنْ خَمْرِيَّاتِهِ فِي أَثْنَاءِ سَكْرِهِ ، فَبَدَأَ فِي أَشْعَارِهِ تَخْلِيْطاً كَمَا لَاحِظَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ ، فَهُوَ تَارَةٌ يَرْتَفِعُ حِينَ يَنْظُمُ فِي مَجْلِسِ الْأَمِينِ أَوْ فِي مَجْلِسِ بَعْضِ الْوُزَرَاءِ وَالنَّابِيَّيْنِ . وَتَارَةٌ يُسَيِّفُ حِينَ يَنْظُمُ فِي مَجَالِسِ الْعَامَةِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَخَاطِبُ غُلَمَانَ الْحَانَاتِ وَكَانُوا أَخْلَاطاً مِنَ الْفَرَسِ مِمَّنْ لَا يَحْسِنُونَ الْعَرَبِيَّةَ الْفَصِيحَةَ . أَمَّا الْحُسَيْنُ فَكَانَ فِي جَمْهُورِ حَيَاتِهِ يَعِيشُ فِي قُصُورِ الْخُلَفَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَأَبْنَائِهِمْ ، فَكَانَ يُعْنَى أَشَدَّ الْعَنَابَةِ بَلِغَتَهُ وَأَلْفَاظَهُ ، وَلَا يَكْتَفِي فِيهَا بِالْفَصَاحَةِ بَلْ يَطْلُبُ أَيْضاً الرِّصَانَةَ وَالْجَزَالََّةَ حِيناً ، وَحِيناً الْعَذُوبَةَ وَالنَّعُومَةَ وَمَا يَلَامُ الْأَذْوَاقَ الرَّفِيعَةَ فِي الْمَجْتَمَعِ ، لِذَلِكَ قَلَّ التَّخْلِيْطُ عِنْدَهُ كَمَا يَلَاخِظُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ ، بَلْ كَادَ يَنْعَلِمُ انْعِدَاماً ، وَذَلِكَ أَيْضاً شَاعَ فِي أَشْعَارِهِ النِّقَاءَ وَالصَّفَاءَ إِذْ كَانَ يَطْلُبُ فِيهَا دُمًّا أَنْ تَلَذَّ الْأَسْمَاعُ وَالْأَفْتَدَةُ . وَظَاهِرَةٌ ثَانِيَةٌ يَخْتَلِفُ فِيهَا عَنْ أَسْتَاذِ الْمَجُونِ وَالْخَمْرِ فِي عَصْرِهِ هِيَ شَيْءٌ مِنَ الْحَشْمَةِ الْمَصْطَنَعَةِ فِي مَجُونِهِ ، فَهُوَ لَا يَذِيعُ فِيهِ مَا يَذِيعُهُ

أبو نواس من الفحش ، لأنه كان يعيش في أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترف إثمًا منكرًا ، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئًا من الحشمة ولا كان يخفى شيئًا من آثامه . وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبي نواس مجونًا وشغفًا بالخمير ، فقد كان مثله مفتونًا بها فتنة شديدة ، وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها ، ومن طريف ما نظم في دير سابر بقرب بغداد وخميره المعتقة قوله :

وعواتي باشرتُ بين حدائقِ ففضضتُهُنَّ وقد حَسُنَّ صِحَاحًا<sup>(١)</sup>  
 أتبعْتُ وَخَزَةَ تلكَ وَخَزَةَ هذه حتى شربتُ دماءَهنَّ جِرَاحًا  
 أبرزهنَّ من الخدورِ حَوَاسِرًا وتركتُ صَوْنَ حريمهنَّ مُبَاحًا

وهو بصورفتته بزقاق الخمر المثلثة التي لم يمسسها أحد قبله ، وقد ضحككت الطبيعة في دير سابر من حواه ، وهو يفتح الرقاق ويشرب من دمائها أرتالا . وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ، وله في دير سَرَجِس بالقرب من الكوفة قصيدة بدیعة ، يقول فيها :

أخوى حَيَّ على الصُّبوح صَبَاحًا هُبَا وَلَا تَعِدَا النَّدِيم رَوَاحَا  
 مهما أقام على الصُّبوح مساعدٌ وعلى الغُبوق فلن أريد بَرَاحَا<sup>(٢)</sup>  
 عودًا لعادتنا صبيحةً أَمِينَا فالعودُ أحمدُ مُغْتَدِي ومَرَاحَا  
 هل تَعذِرَانِ بَدِيرِ سَرَجِسِ صَاحِبَا بالصُّحُو أو تَريانِ ذاك جُنَاحَا  
 إني أَعِيدُكُمَا بِأَلْفَةِ بَيْنِنَا أَنْ تَشربَا بقرى الفُرَاتِ قَرَاحَا<sup>(٣)</sup>  
 عَجَّتْ قَوَاقِرُنَا وَقَدَسَ قَسْنَا هَزَجًا وَأَصْخَبْنَا الدَّجَاجِ صِبَاحَا<sup>(٤)</sup>

وهو يتلطف إلى صاحبيه في آخر الليل ويدعوهما أن يتناولاه معه الصبوح كما تناولاه بالأمس ، ويعذراه ولا يريا في ذلك جُنَاحًا ولا إثمًا ، ويستحلفهما بما

(٣) الماء القراح : الماء الصافي .

(١) العواتق : زقاق الخمر .

(٤) القواقز : القداح . وقدس القس : رتل

(٢) الصبوح : شرب الصباح ، والنديق :

بعض التراتيل .

شرب الماء .

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النмир ، بل يشربا معه صبوحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يسرا » إلى معايشته فكان ينظم فيه بعض غزاه ، وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شفيعاً » إلى العبت به ، وكان وضئ الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل ، وواضح أنه غزل كان يراد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبي عيسى . واه في الغزل عامة شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَ الْبَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى      خَلْتُ أَنِي - وَمَا أَرَاكَ - أَرَاكَ  
وَإِذَا مَا تَنْفَسُ النَّرْجِسُ الْعَ      ضُ تَوَهَّمَتْهُ نَسِيمَ شَدَاكَ  
خُدْعُ لِلْمَنَى تَعَلَّنِي فِي      كَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَهَجَةِ ذَاكَ  
لَأَدُومَنَّ يَا حَبِيبِي عَلَى الْو      دُ لِهَذَا وَذَاكَ إِذْ حَكَاكَ

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهي عذوبة تشيع في كثير من أشعاره الغزلية والخمرية ، وهي طبيعية اشاعر كان يعيش في قصور الخلفاء ومجالسهم ، ويسمع في كل ليلة أوتار العيذان والطناير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه الموسيقية ترهف إرهافاً شديداً ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحاناً وأنغاماً خالصة على شاكلة قوله :

عَالَمٌ بِحَبِيبِهِ      مُطْرَقٌ مِنَ التَّيِّهِ  
يُوسُفُ الْجَمَالِ وَفَر      عَوْنُ فِي تَعْدِيهِ  
وَهُوَ غَيْرُ مَكْتَرِثٍ      لِلذِّي أَلَاقِيهِ  
لَا وَحَقُّ مَا أَنَا مِنْ      عَطْفِهِ أَرْجِيهِ  
مَا الْحَيَاةُ نَافِعَةٌ      لِي عَلَى تَابِيهِ  
النَّعِيمُ يَشْغَاهُ      وَالْجَمَالَ يُطْفِيهِ

والقطعة من وزن عباسي حديث هو وزن المقتضب ، وهي تطير عن الفم بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره في شعره عند الملاءمة بين العصر العباسي الثاني



جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفرع إلى مجزوماتها كثيراً  
إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات في شعره الفرص كفى يمجروا  
بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

### أبو الشبل<sup>(١)</sup> البرجمي

اسمه عاصم بن وهب ، وُلد بالكوفة ونشأ وتادَّب بالبصرة ، يقول أبو الفرج :  
«قدم إلى سامراء في أيام المتوكل ومدحه ، وكان طَبَباً نادراً ، كثير الغزل ، ماجناً  
فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث ، ونادمه وخصَّ به فأثرى» ثم يذكر بعض مديحه  
للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفاً  
خفيف الروح ، ويقصَّ ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكاه  
المحضر . وكان خليعاً مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه في المحجون  
ويتهاك على اللذات ، ويطلبها في الحانات وفي الديارات ، ويقول من ترجموا له  
إنه كان عاكفاً على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر  
مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو ،  
لا يُغيبها ولا يتأخر عنها ، بل دائماً في حانة أو في دَيْر أو في بستان أو متنزه وقد  
شرب وأغرق في الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع  
حراكاً . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشموني بقرية قَطْرَبُل شمالي بغداد  
وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمحجون . وكان عيد  
هذا الدير في اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل  
الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ،  
ومن يركب الخيل المطهمة ، وينزلون في أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين  
خيامهم وفساطيطهم ، وكلُّ قد أعدَّ ما استطاع لقمصنفة ولهو ، والقيان تعزف  
عليهم ، وآلات الطرب تُسمَع في كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد  
يرقصون طرباً واستحساناً لما يسمعون . وطبيعي أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

ومعجم الشعراء للمرزباني ص ١٢٣ والديارات  
للشاذلي ص ٥٠ وما بعدها .

(١) انظر في أبي الشبل وأخباره وأشعاره  
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغاني  
(طبع دار الكتب المصرية) ١٩٣/١٤

بمناظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنّى بمثل قوله :

شهِدْتُ مَوَاطِنَ اللَّذَاتِ طُرّاً وَجُبْتُ بِقَاعِهَا بَحْرًا وَبَرّاً  
فَلَمْ أَرْ مِثْلَ أَشْمُونِ مَحَلّاً أَلَدُّ لِحَاضِرِيهِ وَلَا أَسْرّاً  
بِهِ جَيْشَانِ مِنْ خَيْلٍ وَسُفْنٍ أَنَاخَا فِي ذُرَاهِ وَاسْتَسْرّاً  
كَأَهُمَا زُحُوفٌ وَغَىٌّ وَلَكِنْ إِلَى اللَّذَاتِ مَاكِرّاً وَفِرّاً  
سَلَاحُهُمَا الْقَوَاقِزُ وَالْقَنَانِي وَأَكْوَاسٌ تَدُورُ هَلُمَّ جَرّاً<sup>(١)</sup>  
وَضَرْبُهُمَا الْمَثَلُثُ وَالْمَثَانِي إِذَا مَا الضَّرْبُ فِي الْحَرْبِ اسْتَحْرّاً

وكان مثل الحسين وعامة مجّان عصره يُكثّر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحياناً ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفهاً في شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجّان من أمثاله مُشيعاً فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلاً آخر لا يسف فيه هذا الإسفاف ، بل يُبقي فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجّان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بَأَيِّ رَيْمٍ رَى قَدْ بِي بِالْحَاطِ. مِرَاضٍ<sup>(٢)</sup>  
وَحَمَى عَيْنِي أَنْ تَدَّ تَدَّ طَيْبَ الْإِعْتِاضِ  
كَلِمَا رُمْتُ انبِساطاً كَفَّ بَسْطِي بَانْقِبَاضِ  
أَوْ تَعَالَى أَمَلِي فِيهِ رَمَاهُ بَانْخِفَاضِ  
فَمَتَى يَنْتَصِفُ الْمَظْ لَوْمُ وَالظَّالِمُ قَاضِي

والأبيات خفيفة ، ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحّاك في عدوثة نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لساناً إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه ، وقد عمّر عمراً طويلاً حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيئاً وبلغ من الكبر عتياً . وكان طبيعياً أن ينصرف عنه حينئذ الجراي . وفي ذلك يقول :

عَذِيرِي مِنْ جِسْوَارِي الْحَسَى إِذْ يَرْعَبُنْ عَنِ وَصَلِي

(١) القواقرز : القداح كما مر . والأكواس : (٢) الرّيم : الظبي خالص البياض .

رَأَيْنَ الشَّيْبَ قَدْ أَلْبَسَنِي أُبْهَةً الْكَهْلِ  
فَأَعْرَضَنَ وَقَدْ كُنَّ إِذَا قِيلَ أَبُو شَيْبَلٍ  
تَسَاعَيْنَ فَرَقْنِ الْكُؤَى بِالْأَعْيُنِ النَّجْلِ<sup>(١)</sup>

ومرّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء مسف إسفافاً شديداً ، وهو في هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذي الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشاً لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمّنه ، وأفلت يوماً منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفرشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة في رثاء قنديله يقول فيها :

يَا عَيْنُ بَكِّي لَفَقْدِ مَسْرَجَةٍ كَانَتْ عَمُودَ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ  
صَيْنِيَّةِ الصَّيْنِ حِينَ أَبْدَعَهَا مَصُورُ الْحَسَنِ بِالتَّصَاوِيرِ  
مَسْرَجَتِي كَمْ كَشَفْتَ مِنْ ظُلْمٍ جَلَّيْتَ ظِلْمَاءَهَا بِتَنْوِيرِ  
إِنْ كَانَ أَوْدَى بِكَ الزَّمَانُ فَقَدْ أَبْقَيْتَ مِنْكَ الْحَدِيثَ فِي الدُّورِ

ومضى بصور كيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمدى وألقى به في القدور وكيف أن السنانير والحداة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عرساً لها جميعاً بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغي ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعيب به ، ولفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يُعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكْرٌ تَعْتَرِي وَحُزْنٌ طَوِيلٌ وَسَقِيمٌ أَنْحَى عَلَيْهِ النَّحُولُ  
لَيْسَ يَبْكِي رَسْمًا وَلَا طَلَاءَ حَّ كَمَا تُنْدَبُ الرَّبِّي وَالطَّأُولُ<sup>(٢)</sup>  
إِنَّمَا حَزَنَهُ عَلَى ثُلْثِ كَا نَ لِحَاجَاتِهِ فَعَالَتْهُ غَوْلُ<sup>(٣)</sup>

(٣) غالت : أهلكته .

(١) الكوي : الخروق في الأبواب والنوافذ .

(٢) مح : عفا ودرس .

كان للسرِّ والأمانة والكَيْدِ مان إن باحَّ بالحديث الرسول

وضحك صديقه طويلاً ، واعترف له بأخذه ، وردّه عليه . وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع ، يسرف في الخلاعة والمجون ، بل في الاستهتار والتهتك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

عبد الله<sup>(١)</sup> بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نشئ في الحلية والترف والنعم ، وقد عنى أبوه بتعليمه وتنقيفه حتى أحسن الشعر ، وكان يقواه على الطبيعة مُرسلاً نفسه على سجيتهما ، لا يتكلف فيه ولا يتعمّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنياً محسناً جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجمارية لعمته رقية كانت تنقن الغناء ، تسمى عَسَّاليج ، شغفت قلبه حباً ، فكان يلزمها بعلة الغناء ، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنه من الأصوات والأدوار ، حتى أقرن له بالحدق . وصار يلزم من يختلفون إلى بيته من المغنين أهثال إسحق الموصلي ، وكاد لا يترك لهم صوتاً دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخسر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترفع شهرته في إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه اسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنائه فيها فلاًه طرباً ، من ذلك ما يروى من أن الواثق عوفى من مرض ألمَّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريباً من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنياً بيتين قالهما في طريقه إليه على هذا النمط :

١٠ / ٣٦ والديارات ص ٦٣ وما بعدها  
وذيل زهر الآداب ص ١١٥ .

(١) انظر في عبد الله وحياته وأشعاره الأغاني  
(طبعة الساسي) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد

اسلمَ وعمرَكَ الإلهَ لأمةٍ بك أصبحت قهرت ذوى الإلحادِ  
لو تستطيع وقتك كلَّ أذيةٍ بالنفس والأموال والأولادِ

وكان الواثق يغمره بجوائزهِ وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقصُّ<sup>٥</sup>  
صاحب الأغانى من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضاً مدائح قصيرة كان يغنيه بها  
فيهتز طرباً ، وفيه يقول :

أكرمَ اللهُ الإمامَ المرتضى وأطال اللهُ فينا عمرةً  
سره اللهُ وأبقاه لنا ألفَ عامٍ وكفانا الفجره

وكان يغنى الخليفين والمنتصر من بعدهما فى غزل كثير من أشعار السابقين  
وفى كثير من غزله الذى نظمه فى عساليج وفى غيرها من الجوارى اللاتى فتنَّ قلبه  
وفى مقدمتهن مصابيح جارية الأحذب المقيمين وكانت تغنى فى كثير من شعره .  
وهى جارية نصرانية هام بها قلبه هياماً شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بيعَ النصرى  
فى أعيادهم من أجلها شغفاً بها ، وفيها يقول :

تثنى بحسنِ جيدِ غزالِ وصليبِ مفضضِ آبنوسِ  
كم رأيتُ الصليبَ فى الجيدِ منها كهلالِ مكدلِ بشموسِ

وتردد فى غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل  
دير سرجس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أياماً مع بعض رفاقه ،  
يشربون ويقصفون ويسمجنون ، وله بصور ما كان من هذا المجون والقصف والشراب  
مع بعض صحبه فى دير قوطا ، إذ يقول :

يا دَيْرَ قُوطا لقد هيجتَ لى طرباً أزاح عن قلبى الأحزانَ والكُربا  
كم ليلةٍ فىك واصلتُ السرورَ بها لما وصلتُ لها الأدوارَ والنُخبَا  
فى فتيةٍ بذلوا فى القصفِ ما ملكوا وأنفقوا فى التَّصانِي المَالِ والنَّشْبَا<sup>(١)</sup>

(١) النشَب : المال والمغار .

وهو يكثر من الحديث عن صاحبه النصرانية وعن جوارى البيع والأديرة ،  
وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعاً ويتمنى لو استطاع أن يجنح معهن زهرات الحب ،  
أو لو أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله في إحدى جوارى الدير  
السالف :

وشادنٍ ما رأْتُ عيني له شَبها في الناس لا عَجماً منهم ولا عَرَباً  
إذا بدا مقبلاً ناديتُ واطرباً وإن مضى مُعْرضاً ناديتُ : واخرَباً

ويصرح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقد ، لما كان يخامره فيها من  
سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن  
هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قرأهن تسمى كركين  
وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحي الذي يقع في يوم الأحد قبل عيد  
الفصح :

ألا أصبحاني يومَ الشعانين من قهوةٍ عتقت بكَركينِ  
عند أناسٍ قلبي بهم كلفُ وإن تولوا ديناً سوى ديني

ومن الحق أنه لم يكن يُبقي لنفسه شيئاً من الحشمة في مجونه، وهو من هذه  
الناحية شبيه بأبي الشبل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر  
الخلفاء والأمراء ، وكان هذه العشرة كانت شيئاً سطحياً ، وهو نفسه كان حفيد  
وزير ومن أسرة ربيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من  
الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبُّوح كل يوم من دهره ما عدا أيام  
الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسف ويهبط  
إلى الدنسات ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابشي يقول عنه : « كان صاحب غزل  
ومجون كثير التطرح في الديارات والحانات والاتباع لأهل اللهو والخلاعة » . ومع  
ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويروى أن ابن الزيات وزير  
الواثق وكان أديباً بارعاً في الشعر والنثر قال له : أنشأني شيئاً من شعرك ، فقال  
إنما أعبت ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا  
وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذمَ رَ في الشعانيين قتلى  
تقول لي كيف أصبَحُ ت كيف يُصْبِحُ مثلي

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولولم تقل غير البيت الأخير لكفالك  
ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغاني أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعساييح  
ومصاييح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التي طرب لها الواثق  
طرباً شديداً حين غنَّاه بها قوله :

بأن زورُ أتاني بالغلَسِ      قمت إجلالاً له حتى جلَسِ  
فتعانقنا جميعاً ساعة      كادت الأرواحُ فيها تُختَلَسِ  
قلتُ يا سُولى ويا بَدْرَ الدَجى      في ظلام الليل ما خفت العَسَسِ  
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى      آخذُ بالروح منى والنَّفَسِ  
زارنى يَخطِرُ فى مِشيتِه      حوله من نور خديهِ قَبَسِ

والقطعة بديعة في خواطرها وفي تصويرها للهيام بالمعشوق ، وللمعشوق نفسه وجماله  
الساحر الوضي ، وأيضاً في صياغتها وموسيقاها . وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ،  
وهو شيء طبيعي لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون  
من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه في نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن  
الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقى ، شركة تصفيه من كل الأدران ، فإذا ألفاظ الشعر  
متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا في  
لفظ بل لا عوج ولا انحراف في حرف ولا في حركة ، إذ يعم الانسجام والإحكام .  
وهذا الأثر الموسيقى في الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر في الأوزان  
إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل  
لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

## شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التي أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلاً من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس في الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجد فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ في المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقهاء والتفسير. وكانت دائماً تدوى في آذانهم كلمات الوعاظ والنسائك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير في مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب في الآخرة. وكان هؤلاء النسائك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات في المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفي كل مكان نجد بينهم قصصاً يقصون على الناس من سير الأنبياء والأمم الدائرة، ما يدفونهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيماناً صادقاً وورعاً مخلصاً، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملاً أو منصباً رفضه في إصرار، مؤثراً حياته الحشنة على اللباس اللين والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا في جانب ما أمّل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش في الثغور واعظاً وقاصاً ومذكراً بما أعد الله للمجاهدين والمستشهادين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبي العباس الطبري المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلباً إذا قص، ويروى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدرسته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته فخر مغشياً عليه من الموت<sup>(١)</sup>.

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٥٩/٣.



ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعاً كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لآفي الطبقة العامة وحدها ، بل أيضاً في الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظاً يقف بين يدي هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعياً إلى الإقبال على ما عند الله ونسبئذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفاً منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعيم المقيم . وطبيعي — والزهد قوت العامة في حين كان المحجون قوت الخاصة — أن يتعلق بالنظم فيه أكثر الشعراء ، حتى شعراء المحجون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبي نواس في العصر الماضي فقد كان الشعر الذي تتطلبه العامة والذي تجد فيه غذاءً ومشاعراً وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئاً غلبهم التأثير حتى لو كانوا في مجلس شراب على نحو ما يروى عن المتوكل فإن الحِمَّاني نقيب العلويين في الكوفة الذي ترجمنا له في الفصل الماضي دخل عليه وهو في مجلس شراب ، فأنشدته (١) :

باتوا على قُللِ الأَجبال تحرسهم	غُلِبُ الرِّجال فما أَعَنَّتَهُمُ القُللُ
واستنزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم	فأودِعُوا حُقرًا يابِئسَ ما نزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا	أين الأَسرةُ والتَّيجانُ والحُللُ
وأفصح القَبيرُ عنهم حين ساءَ لهم	تلك الوجوه عليها الدودُ يَمْتَتِلُ
قد طالما عَمروا دورًا لَتُحصنهم	ففارَقوا الدورَ والأهلين وانتقلوا

ومضى في موعظته وبكى المتوكل بكاءً طويلاً حتى بَلَّتْ دموعه لحيةً وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . ومن كان يكثر في العصر من الوعظ في شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة . ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب التَّنَوُّبية ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعاً وولى القضاء برهة ، ويروى له موعظة حاثية يستهلها بقوله (٢) :

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

(١) مروج الذهب ٤ / ١١ .

## أراك شيب في السواد يلوخُ بيث بأسباب البلا وينوخُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت . وقد بدأ يدق بقوة ، فعمما قليل ستزهق الروح . ويذكر المرزباني شاعراً معاصراً للمعتر من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدئين المعروفين في الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً<sup>(١)</sup> كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى ، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا في الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفي ديوان ابن المعتز والصنوبري وابن الرومي زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد في هذا العصر كما رسمها ابن الرومي في قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفي منها بالأبيات التالية<sup>(٢)</sup> :

بات يدعو الواحد الصمدا	في ظلام الليل منفردا
في حشاه من مخافته	حُرقات تُلذع الكا
كلما مرَّ الوعيد به	سَحَّ دَمْعُ العَيْنِ فاطردا
قائلٌ : يا منتهى أُملى	نَجَّني مما أخاف غدا
وخطيئاتي التي سَلَفَتْ	لستُ أحصى بعضها عددا
ويَحَ عيني ساء ما نظرتُ	ويَحَ قلبي ساء ما اعتقدنا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقي بها منذ أواخر القرن الثاني الهجري موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرّ بنا في الفصل الثاني حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلًا خالصًا . ونمضى في العصر ويلقانا ذو النون المصري الذي يُعَدُّ الأب الحقيقي للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقاً بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التي تقوم على

ص ٧٦ وانظر ٤٩ .

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨

(٢) ديوان ابن الرومي (نشر كامل كيلاني)

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهي معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدسي ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله يخاطب ربه<sup>(١)</sup> :

أَموتُ وما ماتتُ إليك صَبَابِي ولا قُضِيَتْ من صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي  
تَحَمَّلْ قلبي فيك ما لا أبثُّ وإن طال سَقَمِي فيك أوطالِ إضْرَارِي

ويخلفه أبو يزيد البسطامي فيذيع فكرة الفناء في الذات الإلهية ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقسمعها لشهواتها وانمحاء إرادتها في الإرادة الإلهية . ونمضى حتى نلتقى بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبر عن فئاته في الذات الربانية بمثل قوله<sup>(٢)</sup> :

أَفَنَيْتَنِي عن جَمِيعِي فكيف أَرَعِي المحلَّ

وهو الذي عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين في التصوف ، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة في مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النوري ، وكان شاعراً ، ويكثر في أشعاره من التعبير عن الحب الإلهي وفكرة الفناء في الذات العلية بمثل قوله<sup>(٣)</sup> :

تَأَمَّلْ بعين الحق إن كنت ناظراً إلى صِفَةٍ فيها بدائعُ فاطِرِ  
ولا تُعْطِ حَظَّ النفس منها لما بها وكنْ ناظراً بالحق قدرةَ قادرِ

ويلقانا أبو الحسين سَحْنُونِ الخِوَّاصِ ، وله شعر كثير في المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك في فكرة الفناء المطلق في الله بحيث لا يصبح في المتصوف أي فضل لإحساس أي شيء من حوله ، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هي رغبة الانمحاء في الذات الربانية التي تملك عليه كل شيء من أمره ، يقول<sup>(٤)</sup> :

(٣) السلمى ص ١٥٥

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .

(٤) السلمى ص ١٨٩

(٢) السلمى ص ١٥٦

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم  
 فلما دعا قلبي هواك أجابه  
 وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح  
 فلميتُ ببين منك إن كنتُ كاذباً  
 وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح  
 وإذا غبتَ عن عيني بعيني يَعْلُحُ  
 وإن كل شيء في البلاد بأسرها

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو علي الروذباري ، وكان يقول : المرید الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، يريد أنه هو الذي تفي إرادته في الإرادة الإلهية ، بحيث لا يحس المرید أو المتصوف شيئاً في الكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره في فكرة الفناء وغياب روحه عن حيسٍ أي شيء من أشياء الكون<sup>(١)</sup> :

روحي إليك بكلها قد أجمعتُ  
 لو أن فيها هلكها ما أقلمتُ  
 تبكي عليك بكلها عن كلها  
 حتى يُقال من البكاء تقطعتُ

والبيتان يحدان فكرة الفناء وفكرة المحبة التي تخلص النفس لربها. والفكرتان تتداخلان في التصوف ، فالمحبة التي ننكر الذات تنتهي إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حيسٍ وكل خاطرة إلا الذوبان في الذات العلية . ونعرض لاثنتين من كبار المتصوفة بشيء من التفصيل وهما الحلاج والشبلي .

### الحلاج (٢)

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاج ويقال إن أباه هو الذي كان حلالاً جماً يخلج الصوف أو القطن أما جدّه فكان مجوسياً أسلم ودخل في الدين الحنيف ، وقد نشأ في مدينة تُسَمَّر ، فلزم سهلاً التسترى

والنجوم الزاهرة ٢٠٢/٣ وشذرات الذهب  
 ٢٥٣/٢ وكتاب أخبار الحلاج (طبع  
 باريس) وكتاب في التصوف الإسلامي  
 لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)  
 وكتابه الطواسين نشر ماسينيون بباريس  
 وكتاب ماسينيون عنه .

(١) السلمى ص ٣٦٧  
 (٢) راجع في ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره  
 السلمى ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١/٧٦  
 والفهرست ص ٢٨٣ والفخرى في الآداب  
 السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨/١١٢  
 والطبرى ١٠/١٤٧ وابن الأثير وتكملة  
 تاريخ الطبرى ص ٢٣ وابن خلكان

الصوفي ، الذي أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذي أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين ، وكأن الله يتجاسى فيهم منذ البدء .

وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة ، وبالغ فيها وأسرف إسرافاً شديداً ، ووقع في نفسه أنه أعلى من الجنيد في عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التي طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقة متجهماً إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف في البلدان وتعرّف في طوافه على أبي بكر الرازي أشهر أطباء العصر وتخرج عليه في الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق في طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعبذة والثيرنجيات . وفي عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه في أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصنّف نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التي يبتغيها إذ يتمثّل في نفسه حقيقة الصورة الإلهية التي سَوّأها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجادله أستاذه الجنيد في هذه الفكرة طويلاً ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يُكثّر من الشطحات ومن الكلام الموهّم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلي قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيد قال له : بل أنت بالحق . ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبذات والمخلوطات الكيمائية التي تعلمها على الرازي والثيرنجيات التي تعلمها في الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثماني سنوات ، كان يُسمّح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يراسل مع من يشاء . وحاولت «شعب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاة المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أدائها شرعاً . ولعل هذه التهمة هي التي دفعت الفقهاء إلى الفتوى بـ«بصلبِهِ» ، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحِيلُ المتصوف الذي بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلُّه من جميع الفرائض رافعاً عنه التكليف إذ أصبح مساوياً للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سراً للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب في سجنه وصلبه . وقد نُفِّدَ الحكم عليه في الثاني عشر من ذي القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يده ورجلاه ، وحزَّ رأسه ونُصب يمين على اليسر ، ثم حُمِلَ إلى خراسان فطيف به هناك ، أما جنته فأُحرقت وأُتِيَ برمادها في دجلة . وهرب مریدوه إلى خراسان وأخذوا يُحْيُونَ بها ذكراه ، وظلت خالدة على مرِّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترک .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس في عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته في الخالق وخصمته فقد كان يظهر أنه يؤمن في الخالق بتزيهه كما يبدو ذلك في كلمات كثيرة له مثل : «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصور في الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُسَمَّع بالشرح والوصف » وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بالمخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أُقبل على تحمل المشاق والآلام انطبقت في نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرَى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شيء ، وهذا هو معنى قوله : أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأما الأثر القديم : «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذي جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلَّى فيه ، كما يتجلَّى في خلقه ومن هنا أثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدّها أيضاً من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي ، وبذلك يظهر الله بصورته في الإنسان ، فنراه يصرح بذلك إذ يقول في الطَّوَّاسِين :

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ      سِرّاً سَنَّا لَاهُوتَهُ      الشَّاقِبِ  
ثم بدا لخلقهِ ظاهراً      في صورة الأكل والشارب  
حتى لقد عاينَهُ خَلْقُهُ      كَلْحَظَّةِ الْحَاجِبِ بِالْحَاجِبِ

وهو يشير في البيت الأول إلى آدم وفي البيتين الثاني والثالث إلى ذريته ، فهم جميعاً ناسوت يُظهِر أسرار اللاهوت ، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحيين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثّل ذلك في عبارات طنانة ، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنهما لا تمتزجان في مثل قوله : « اللهم إنك المتجلى من كل جهة المتخلى من كل جهة ، بحق قيامك بحق وبحق قيامي بحقك ، وقيامك بحق وقيامك بحقك ، فإن قيامي بحقك ناسوتية وقيامك بحق لاهوتية » ، وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجان امتزاجاً تاماً ، يقول مخاطباً ربه :

مُزِجَتْ رَوْحُكَ فِي رَوْحِي كَمَا تُمَزَجُ الْخَمْرُ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ  
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ  
وكانه يشاهد الله في ذاته ، أو كأنما حبل اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون في المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحل فيه حتى لتشع أنواره في كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حَوَيْتِ بِكُلِّي كُلَّ كَلِّكَ يَا قُدْسِي تَكَاشَفْنِي حَتَّى كَأَنَّكَ فِي نَفْسِي  
وقوله :

أَنْتَ بَيْنَ الشُّغَافِ وَالْقَلْبِ تَجْرِي مِثْلَ جَرِي الدَّمْعِ مِنْ أَجْفَانِي  
وَتَحُلُّ الضَّمِيرَ جَوْفَ فَوَادِي كَحُلُولِ الأَرْوَاحِ فِي الأَبْدَانِ  
وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تتقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيّنة واستقر في نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهد جهاداً عفيفاً في الاتصال بربه ومحبه محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس في قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أَنَا مَنْ أَهْوَى ، وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رَوْحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا  
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

وقد رفع الرسول صلى الله عليه وسلم مراتب فوق جميع الخلق ، ويبدو أنه أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعَدُّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذي تَفَجَّرت من ينابيعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله وتَبَعُهُ الفَيَاض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود .

وتكثر عنده كلمات الوجد ولهيبة المشتعل في القلب والسكر ونشوته التي تفقده وعيهِ والفتاء الذي تفتى فيه جميع حواسه، حتى لا يرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفي ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهوى      وغاب عن المذكور في سطوة الذكر  
فشاهدَ حَقًّا حين يشهده الهوى      بأن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفي عنده أن يجاهد المتصوف ويعانى ويلقى الأمرين في حبه بمدامه ذكر محبوبه وتسبيحه حتى لا يغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذي أعد للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائماً بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتق فقه القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري . ويُسَبِّدُ ويُعِيدُ في تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله في بعض مناجاته للذات العلية : « أنت نَعْلَمُ ولا تُعْلَمُ ، وتَسْرَى ولا تُسْرَى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك أستحقق الراسيات . وأستخف الأراضين والسموات ، وبحقك لو بيعت مني الجنة بلمحة من وقتي أو بطرفة من أحر أناسي لما اشتريتها . ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهوتن في مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عني » . ومن قوله في وصف مجاهداته :

لقد ركبتُ على التغير واعجبا      ممن يريد النجا في المسلك الخطير  
كأنى بين أمواج تقلبني      مقلبٌ بين إصعادٍ ومنحدر



الْحَزْنَ فِي مَهْجَتِي وَالنَّارُ فِي كِبْدِي وَالذَّمُّعُ يَشْهَدُ لِي فَاسْتَشْهَدُوا بِصَمْرِي

ولعلنا لا نُسَبِّعُ إِذَا قَلْنَا إِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِي فِكْرَةَ أَنَّ الْأَدِيَانَ جَمِيعًا تُوَدِّي إِلَى اللَّهِ . وَفَقَط تَخْتَلِفُ شِعَائِرُهَا ، وَلَكِنَّهَا تَتَّحِدُ فِي الْغَايَةِ . وَبِذَلِكَ تَخْطِئِي حُدُودَ الْإِسْلَامِ إِلَى حُدُودِ الدِّيَانَاتِ جَمِيعًا ، مِمَّا جَعَلَهُ يَقُولُ :

أَلَا أَبْلَغُ أَحْبَابًا بَأَى رَكِبْتُ الْبَحْرَ وَانْكَسَرَ السَّفِينَةَ

فَفِي دِينِ الصَّلِيبِ يَكُونُ مَوْتِي وَلَا الْبَطْحَا أُرِيدُ وَلَا الْمَدِينَةَ

وهو لا يريد أن يقول إنه انسلخ عن الإسلام وأصبح لا يريد الموت في بطحاء مكة ولا في المدينة المقدسة. إنما يريد أن يقول إنه يرى الله في المسجد وفي الدَيْرِ وَفِي كُلِّ مَعْبَدٍ مِنْ مَعَابِدِ الدِّيَانَاتِ . فَالْدِّيَانَاتُ جَمِيعًا عِنْدَهُ سَوَاءٌ . وَفِي الْحَقِّ أَنَّ أَشْعَارَهُ وَأَقْوَالَهُ تَحْمَلُ كَثِيرًا مِنَ الْإِيهَامِ وَالْغَمُوضِ حَتَّى لَتَصْبِحَ أَحْيَانًا - كَمَا فِي كِتَابِهِ الطَّوَّاسِينَ - أَلْغَاظًا خَالِصَةً .

### الشبلي<sup>(١)</sup>

كنيته أبو بكر . واسمه دُكَيْفُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ يُونُسَ ، وَقِيلَ : جَعْفَرُ بْنُ يُونُسَ ، وَقِيلَ جَعْفَرُ بْنُ دَلْفٍ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ . وَأَصْلُ أَهْلِهِ مِنْ أَشْرُوسَةَ جَنُوبِي طَشْتَشْمَسْتَنْدِ الْحَالِيَةِ . فَهُوَ تَرَكِي الْعَرِيقُ . رَقِيَ أَبُوهُ فِي قَصْرِ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَصْبَحَ حَاجِبَ الْحَجَّابِ ، وَكَانَ خَالَهُ يَلِي إِمْرَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بِمِصْرَ . وَيَبْدُو أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِهِ فِي عَمَلِهِ لِعِدَّةِ سِنِينَ إِذْ يَزْعَمُ بَعْضُ مَنْ تَحَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مِصْرِيًّا وَأَنَّهُ وَرَدَ بَغْدَادَ مِنْ مِصْرَ . وَفَدَّ تَرَكْتَ مِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فِيهِ بَعْضُ طَوَّابِعِهِمَا . إِذْ نَرَاهُ يَعْتَنِقُ مَذْهَبَ

وحلية الأولياء لأبي نعيم ٣٦٧/١٠ وبإبليس إبليس لابن الجوزي ٣٤٧ وشذرات الذهب ٣٣٨/٢ وروضات الجنات ص ١٦٠ وديوانه (طبع المجمع العلمي العراقي) بتحقيق كامل مصطلح الشبلي وما ذكر فيه وفي تقديمه من مراجع

(١) انظر في الشبلي وحياته وأشعاره السلمي ص ٣٤٠ وتاريخ بغداد ٣٨٩/١٤ وابن خلكان ونشوار المحاضرة للنوحي ١٧٢ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١١٦ وصفة الصفوة ١٦١/٢ والأنساب للسماقي الورقة ٣٢٩ وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ١٢٧/٢

المالكية الذي كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرَّبَه منه الموفقُ - ولى عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه في خلافته - واتخذَه حاجبًا له ، ثم ولَّاه دُنْبَاوَنَدَ . بالقرب من الرِّيّ وَيَحْدُثُ منه ما يجعل أمير الرى التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النسَّاج تلميذ السَّرِيِّ السَّقَطِي ، وأبى حمزة البغدادي وعلى يديه تاب وأتاب . ولم يلبث أن لحق بالجنسِيَدِ أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرَّق أهواله في الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويذكرون أنه قال له في أول سلوكه الطريق : « لقد حدثوني أن عندك جوهرة العلم الربَّاني . فإذا أن تمنحنيها ، وإما أن تبغينيها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمناها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها ، أَلتُحِ بنفسك غير هَيَّابٍ في عُبَابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعَلَمَك - إن صبرت - أن تظفر بها » . ومضى الشبلي يجاهد وَيَضُنِّي في جهاده وَيَشْتَمِي طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفي سنة ٢٩٧ صحب الخلاج ، وكان يزوره في سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذي صورناه آنفًا وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكالييف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشرعية متابعًا أستاذه الجنيد في اتباع الكتاب والسنة ، بل في التفقه ورواية الحديث النبوي ، وبذلك لم يترك الخلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعيًا ، وقد عرفنا آنفًا أنه كان مالكي المذهب ، وهو لذلك يُسَلِّسُكَ مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتِل الخلاج خشى على نفسه لتردده عليه ، فتظاهر بالخجل لئلا يُمْتَسَحَن ، وأُدْخِل المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرَّغَ للوعظ ، فكان يعتقد له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فَحْج . وما زال يحتل ببغداد هذه المكانة العلية حتى توفي سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عامًا .

وكان الشبلي في تصوفه دائماً سُنِّيًّا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعاد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سُئِلَ مَنْ أَسْعَدُ أَصْحَابِكَ بِصَحْبَتِكَ ؟ فقال : أَعْظَمُهُمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَأَهْجَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَقْوَمُهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ وَأَسْرَعُهُمْ بِإِدَارَةٍ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ وَأَعْرَفُهُمْ بِقَضَائِهِ وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لِمَا عَظَّمَهُ مِنْ حُرْمَةِ عِبَادِهِ . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين في صُنْعِهِ مَفْقُودٌ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِي ذَاتِهِ ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةَ      فَإِنِّي مِنْ لَيْلَى لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ  
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتُهُ مِنْ نَوَالِهَا      أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةَ بَارِقِ  
فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلا عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلي الله في عبيده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود ونخالق العالم شيء والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شيء آخر ، وهو يخاطب ولكن لا يُسرى ولا يشاهد ، يقول :

وِخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ      وَوَلَحِظْتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانِ  
وكان يقول : « تعززت به وما افترقنا وكيف نفترق ولم يسجّر علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويُبَدِّئُ وَيُعِيدُ في الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أَدْخَلْتُ الْمَارِسْتَانَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً ، وَأَسْقَيْتُ الدَّوَاءَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً ، فَلَمْ أَزِدْ إِلَّا جُنُونًا » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جَرَى حَبِّكَ فِي قَلْبِي      كَجَرَى الْمَاءِ فِي الْعُودِ

وقوله :

هَذِهِ دَارِهِمْ وَأَنْتَ مَحَبٌّ      مَا بَقَاءُ الدَّمُوعِ فِي الْأَمَاقِ

ويطيلُ الحديث عن عذابه في حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى في العيد ، فالناس فيه يفرحون ويُعِدُّون الرِّيحَانَ وَالرَّيْحَانَ وَالْأَلَاتِ الطَّرْبِ ، أما هو فيُنْفِضِي إِلَى حُزْنٍ شَدِيدٍ وَنُوحٍ وَتَعْدِيدٍ ، حتى لكَأَنَّمَا يَحْمَلُ تَحْتَ

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قبورُ الوَرَى تحت الترابِ وللهوى رجالٌ لهم تحت الثيابِ قبورُ  
وعندي دموعٌ لو بكيْتُ ببعضها لفاضتُ بحورُ بعدهن بحورُ

وكان يؤمن بالفناء في الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يقنن في  
فيه عن نفسه الواعية ، فتصوفه دائماً تصوف صححو لا تصوف غيب ، وإن بدا في  
كلامه أحياناً أن فناءه إنما يكون في حال غيبة من مثل قوله وقد سُئِلَ : متى  
يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت  
الحواس واضمحلت الإحساس ، وذُكِرَ عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بنى  
عامر كان إذا سُئِلَ عن ليلي يقول : أنا ليلي ، فكان بغيث بليلي عن ليل حتى يبق  
بمشهد ليلي ويغيبه عن كل معنى سوى ليلي ، ويشهد الأشياء كلها بليلي . » ولكن  
ينبغي ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود  
مثل الحلاج ، إنما يريد الإحساس بالفناء في الذات العلية ، ومن طريف ماله من  
ذلك قوله :

تَسْرَمَدَ وَقِي فَيْكَ فَهُوَ مُسْرَمَدٌ وَأَفْنَيْتَنِي عَنِّي فَعُدْتُ مُحَدِّدًا  
وَكُلِّي بِكُلِّ الْكَلِّ وَصَلُّ مُحَقَّقٌ حَقَائِقُ حَقٌّ فِي دَوَامٍ تَخَلِّدًا  
وقوله :

تَغْنَى الْعُودُ فَاشْتَقْنَا إِلَى الْأَحْبَابِ إِذْ غَنَّى  
وَكُنَّا حَيْثَا كَانُوا وَكَانُوا حَيْثَا كُنَّا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوزات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض  
مريديه ، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد الله أحد  
بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانى وحسبان .

## شعراء الطرد والصيد

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الخلفاء والوزراء وعالية القوم شغفوا بالصيد والطرد حينذاك وأن الشعراء وفي مقدمتهم أبو نواس نظموا طرد يّات كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبي نواس نحو خمسين طرد يّة أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناؤهم وكثير من الناس في هذا العصر يولّعون بالصيد، ومن كان يولع به من الخلفاء ولعمراً شديداً المتوكل، إذ كان يولّع بالفهود والصيد بها كما كان يولّع بالشباك. ولعل خليفة في العصر لم يشغف بالصيد كما شغف المعتضد ومرّ بنا في الفصل الثاني أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتمدّم لها وحده، وفي ذلك يقول له بعض معاصريه<sup>(١)</sup>:

يا صائد الأسد إن صيدكها لجامعٌ خلتين من رشدٍ  
فلذةٌ تجتني ومنفعةٌ للسالكين السبيل والقعد<sup>(٢)</sup>

ويذكر الصابى أنه كان يُسفق يومياً سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازيريين والفهّادين والكلّابيين<sup>(٣)</sup>. وورث ابنه المكتفي عنه هذه الهواية، فكان يولّع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد في مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشاراً واسعاً. مما أهّل لازدهار شعر الطرد في العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طرد يّة بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها في بحور وأوزان مختلفة غير مكتفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكاً بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا الاتساع بها، بحيث تُنظّم في أى وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضارياً من ضواري الصيد إلا وصفوه ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٣ . (٣) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها .

(٢) القعد : جمع قاعد .

والفهود والبزاة والشواهين والصقور والعقبان ، ونعتوا الصيد من حُسر الوحش وأتسئه  
 وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وكذلك من الأرناب والثعالب والذئاب والآساد والطير  
 والإوز ، وألما بآلاته من النبيل والسهام والنشاب والفيخاخ والشباك والحبال المسماة  
 بالأوهاق التي تُجْعَلُ في أطرافها أنشوطة وتُرْمَى على الحيوان فتمسك به بتمه ،  
 والجسلاهق وهو بندق مدور من طين يُرْمَى به . وكان لهذا النشاط الواسع في الصيد وما  
 يتصل به من الشعر أثر في أن أخذت تُولَّف كتب مختلفة في البيسزرة وفي المصايد  
 والمطارد . تفصّل القول في الصيد وآلاته وضواربه وجوارحه . وقد نُظِّمَتْ حينئذ  
 طرديات كثيرة . لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصى شعراها أكثرتهم  
 المعرطة ، ونكتفي بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ،  
 وكان قد خرج يوماً مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق  
 لهما في مَرَجٍ للزعفران كثيرٌ من الطير والوحش . فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة  
 والصقور والشواهين والكلاب . وفي ذلك يقول (١) :

وَطَيْئْنَا رِيَاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ      عَلَيْنَا الْبَزَاةَ الْبَيْضَ حُمَرَ الدَّرَاجِ (٢)  
 وَلَمْ تَحْصِيهَا الْأَدْعَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا      أَبْحَنَّا حِمَاها بِالْكَلابِ النَّوَابِجِ (٣)  
 بِمُسْتَرْوِحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطُونِهَا      عَلَى الْأَرْضِ أَهْثَالَ السِّهَامِ الزَّوَالِجِ (٤)  
 وَمُسْتَشْرِفَاتٍ بِالْهُوَادِي كَأَنَّهَا      وَمَا عَقَفَتْ مِنْهَا رُءُوسَ الصَّوَالِجِ (٥)  
 وَمِنْ دَالَعَاتٍ أَلْسِنًا فَكَأَنَّهَا      لِحَى مِنْ رِجَالٍ خَاضِعِينَ كَوَاسِجِ (٦)  
 فَلَيْتَنَا بِهَا الْغِيْطَانَ فَلَيْتًا كَأَنَّهَا      أَنَامِلُ إِحْدَى الْغَانِيَاتِ الْحَوَالِجِ (٧)  
 قَرْنَا بَزَاةً بِالصَّقُورِ وَحَوْمَتُ      شَوَاهِينَنَا مِنْ بَعْدِ صَيْدِ الزَّمَامِجِ (٨)

وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة . فننقل الصقر كأنه صولجان ،

الصوالج : جمع صولجان .  
 (٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .  
 (٧) فليتنا : فحطنا . الحوالج : اللأى يخلص البذور من القطن .  
 (٨) الزمامج : جمع زمج : طير جارح أصغر من العقاب

(١) ديوان على بن الجهم ص ١٢٠ .  
 (٢) الدرارج : جمع دراج وهو طير ملون الريش .  
 (٣) النوابج : النوابج .  
 (٤) مستروحات : تسم آثار الصيد .  
 سابحات : مسرعات . الزوالج : التي تنزل بسرعة .  
 (٥) الهوادي : الأعناق . عقلت : تعوجت .

والكلاب حين تَدَلَّعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لِحْيَى مرساة على الذقون ، وقد فحصت المرج البُرْزاة والكلاب فحصاً دقيقاً حتى لكانها أنامل دقيقة لسيدة تفلئ القطن وتخلِّص الحبَّ منه ، فلا تبقى حبة محتبئة ، بل كل الحب يُسْتَخْلَصُ ، تستخلصه أنامل مرهفة . ومرَّ بنا في الفصل الرابع تصوير البحريّ اصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه في فلاة موحشة ، وهما لوجتان رائعتان . ولا بن الرومي غير قصيدة في الطَّرْدِ والصيد ، ونكتفي من طردياته بالقطعة التالية التي يصور فيها صَيْدَ صِحَابِهِ للطير ، وقد تقلدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُسْدُقِ الذي يُرْمَى بِهِ . وأشرعوا أقواسهم مسددين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول (١) :

وَجَدَّتْ قِسِيَّ الْقَوْمِ فِي الطَّيْرِ جِدِّهَا	فَظَلَّتْ سَجُودًا لِلرُّمَاءِ وَرُكْعًا
طَرَانِحَ مِنْ بَيْضٍ وَسُودٍ نَوَاصِعٍ	تَخَالِ أَدِيمَ الْأَرْضِ مِنْهُنَّ أَبْقَعًا (٢)
فَكَمْ ظَاعِنٍ مِنْهُنَّ مُزْمَعٍ رِحْلَةَ	قَصْرْنَا نَوَاهِ دُونَ مَا كَانَ أَزْمَعًا (٣)
وَكَمْ قَادِمٍ مِنْهُنَّ مُرْتَادٍ مَنْزِلِ	أَنَاخَ بِهِ مِنْهُنَّ مُنِيخٍ فَجَعَجَعًا (٤)
هِنَاكَ تَغْدُو الطَّيْرُ تَرْتَادُ مَضْرَعًا	وَحُسْبَانَهَا الْمَكْدُوبُ تَرْتَادُ مَرْتَعًا
مَبَاحٍ لِرَامِيهَا الرَّمَايَا كَأَنَّمَا	دَعَاها لَهُ دَاعِي الْمَنَايَا فَأَسْمَعَا
لَهَا عَوْلَةٌ أَوْلَى بِهَا مَا تُصَيِّبُهُ	وَأَجْدُرُ بِالْإِعْوَالِ مَنْ كَانَ مَوْجَعًا
وَمَا ذَاكَ إِلَّا زَجْرُهَا لِبِنَاتِهَا	مَخَافَةَ أَنْ يَذْهَبْنَ فِي الْجَوْضُوعَا
وَوَظَلُّ صِحَابِي نَاعِمِينَ بَبُوسِهَا	وَوَظَلَّتْ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَّةِ شُرْعًا (٥)

وبيثُ ابن الرومي في وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راكعة ، منها ما هبط إلى الأرض جُشَّةً هامدة ، ومنها ما هو في سبيله إلى الهبوط ، وهي مطروحة في الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديمًا مخطَّطًا ،

(١) الديوان ص ٣٠٠ .

(٢) الأبقع : ما به سواد وبياض .

(٣) يريد بالنوى وجهته في الارتحال .

(٤) الجمجمة : صوت البعير ورغاؤه عند

إناخته .

(٥) شرعاً : واردة الماء .

مزعم : عازم .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الحصب فإذا هو يجد المصرع الذي لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعي الموت فأسمع وأصمى ، والطير تُعْزَل غير متنبهة للرمي والرماة ، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق في الجو ، على حين تتراعى على حياض الموت ، يؤس ما بعده يؤس والصائدون ناعمون نعيمًا ما بعده نعيم . وقد عرضنا في غير هذا الموضوع بعض طرديات لابن المعتز . وعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات في العصر . ويذكر مترجموه أنه صنّف كتابًا في جوارح الصيد وضواربه ، ولا يكاد ضار أو جراح يُفْلِت منه في شعره أو قل في طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بزّاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائمًا تجرى الكلاب وراء الطباء والأرانب حتى تصيدها وقلما أفلتت منها ، ومن قوله في كلبة ماهرة في الصيد<sup>(١)</sup> :

قد أَعْتَدِي والليلُ كالغُرابِ دَاجِي القِنَاعِ حالكِ الخِضابِ  
بكلبةٍ تاهتْ على الكلابِ تفوت سبِقاً لَحْظَةَ المرتابِ  
تنساب مثل الأرقم المنسابِ كأنما تنظر من شهاب  
بمقلةٍ وَقَفِ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال في دُجَاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تسيّاهة على الكلاب بسرعتها حتى لتسبق لحظة من وقعت في نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفي سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبِهِ ، وهي تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين لدسّاحة ، وإنما بشهاب قيس ، مقلة لا تخطئ الصيد ، بل دائماً تصيب وتصيد . ومن قوله في وصف باز من بزّاته<sup>(٢)</sup> :

والمصايد والمطارد الكشاجم ص ٦٧ .

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٢٠٩ .



ذو مقلة تَهْتِكُ أَسْتَارَ الْحُجُبِ كَأَنَّهَا فِي الرَّأْسِ مَسَامِرُ ذَهَبٌ  
 يعلو الشمالَ كالأمير المنتصبِ أمكنه الجودُ فأعطى ووهبُ  
 ذو منسِرٍ مثل السنانِ المُختضبِ وذنبُ كالذيلِ رِيَّانُ القَصَبِ<sup>(١)</sup>  
 كأنَّ فوقِ ساقه إذا انتصبُ من حُللِ الكَتَّانِ رَانًا ذَا هُدُبِ<sup>(٢)</sup>

وتشبيه مقلة البازي الصفراء بمسامر الذهب تشبيه بديع ، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرق عطاياه ويهب ما يصيد ، ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهي بريشه ، وكان فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهله به ، وله في باز آخر<sup>(٣)</sup> :

فأرُسُ كَفِّ مائلٌ كالإسوارِ ذُو جُوجُوجٍ مثل الرخامِ المرمرِ<sup>(٤)</sup>  
 أو مصحفٍ مُنَمَّمٍ ذِي أسطارِ ومقلاةٍ صفراءِ مثل الدينارِ  
 ترفعُ جفناً مثل حرفِ الزنارِ ومخلبٍ كمثل عطفِ المسامِرِ

وهو فارس كف لأنه يُحتملُ على الكف عادة . ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلته فصفراء مثل الدينار ، وأما جفنه فكحرف الزنار الذي يضعه النصراني في أوساطهم تمييزاً لهم ، وأما المخلب فكعطفة المسامير . وله يصف فهدة<sup>(٥)</sup> :

ولا صَيْدٌ إِلَّا بوثابةٍ تطيرُ على أربعٍ كالعَدَبِ<sup>(٦)</sup>  
 فَإِن أُطْلِقَتْ من قِلَادَاتِهَا وطار الغبارُ وجدَّ الطَلَبُ  
 فزوبعةٌ من بناتِ الرياحِ تُريكِ على الأرضِ شيئاً عَجَبُ  
 تضمُّ الطريدَ إلى نَحْرِهَا كضمِّ المحبَّةِ من لا يحبُّ

فأرجلها كالحيوط من خفتها ، وحين تطلق من قلائدها ويجدُّ طلبها لطرائدها

- (١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المتقار لغيرها .  
 (٢) رانا: ثوباً .  
 (٣) الديوان وديوان المعاني ٢ / ١٤٠ .  
 (٤) الخوجو: الصدر . المرمر : الناعم .  
 (٥) المصايد والمطارذ ص ١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢١ .  
 (٦) العذب : خيوط ترفع بها الموازين .

ويعلوها الغبار لسرعة عدوها تصيح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ،  
 مما يملؤك عجباً ، وإذا هي قد صادت الطريد وضمته إلى نحرها وصدرها لا ضم  
 حنان ولكن ضم عدوان ، كضم الحبة من لا يجبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبري  
 طرديات مختلفة ، منها قوله في باز<sup>(١)</sup> :

ذو منسِرٍ أَقْنَى ورُسْعٍ كَرٌّ ومخَلَبٍ لم يَعدُ إِشْفَاً<sup>(٢)</sup> الخَرْزِ  
 مُسْرَبِلٌ مثل حَبِيكَ القَرْزِ أو مثل جَزَعِ اليمَنِ الأَرزَى<sup>(٣)</sup>  
 لما لَزَزْنَا الطير بعد اللزِّ بِأسْفَلِ القَاعِ وأَعلى النَّشْرِ<sup>(٤)</sup>  
 آبَ لَنَا بالقَبَجِ والإوزِ من جَبَلٍ صَلَدٍ ومَرَجٍ نَزٍّ<sup>(٥)</sup>

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التي يستقصُّ بها على الطير انقضاضاً فلا  
 تستطيع منه خلاصاً ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجزَع أو  
 الخرز اليماني الذي تغنى به امرؤ القيس ، والطير مبثوثة في القيعان وعلى المرتفعات  
 وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قوله في الطردِ ووصف كلابه وما  
 صادت من الوحش<sup>(٦)</sup> :

يا روضةً من حُلَلٍ ما خاطها خيَّاطُ  
 الوحشُ في أرجائها قبائلُ  
 غاديتها ولم يُقِمِ أعلامها  
 بأكلبٍ لو لم تطرُ أطارها  
 فجئنَ والطلُّ على آذانها  
 انبسطتْ كالشُّهْبِ لا يعجزها انبساطُ

(١) ديوان الصنوبري ص ١٣٣ .

(٤) النشز : المرتفعات .

(٥) القيج : الحجل . نز : به بعض

المياه .

(٦) الديوان ص ٢٨٧ .

(٧) الغطاط : القطا .

(٢) إشفا : مخرز .

(٣) حبيك : محبوك . القز : الحرير .

والجزع اليماني : خرز . أرزى : أبيض

كالأرز .

وظفتُ والوحشُ في مجالها بساطُ  
صَرَغِي تُشَقُّ قُمْصُهَا عنها ولا تُخَاطُ

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلَلِ الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القمطاً وغيره من الطير مُرسلاً عليها كلابه المسرعة التي تكاد تطير طيراناً ، غير آبهة ببرودة الطَّمَسِ وما قرَّط به آذانها من النَّدَى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزقه وتمزقاً لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البئر يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفي ذلك يقول (١) :

أَفْضَلُ ما أَعَدَّتُهُ من العَدَدِ وما حَوَى صَحْبِي بِهِ غِنَى الأَبَدِ  
بِناتُ قَيْنِ حاز في الحذق الأَمَدِ على مقاديرِ مَخالِبِ الصُّرَدِ (٢)  
لها رَعُوسٌ في أَعاليها أَوَدُ كمثل أنيابِ الأَفاعي وَأَحَدَ (٣)  
عُجْنًا بها من حيث ما عاج أحدُ في ظلِ صَفْصَافِ عَلينا قد بَرَدَ (٤)  
شاطِئُ نَهْرٍ لا بيسِ دِرْعَ زَبَدٍ ولم تزل تُرْسَلُ طَوْرًا وتُمدُّ  
ثم بعثنا أَلْفَ عَيْنٍ في جَسَدِ فَجثننا بمثلهنَّ في العَدَدِ  
أَلْفٍ من الحِيتانِ بيضِ كالْبَرَدِ

وواضح أنه صَوَّرَ الصنانيير والصيد ثم الشبكة وما صور أفاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفي بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طَرَدِ يَاته في العصر هو أبو العباس الناشي فقد كان مولعاً بالطَرَدِ والصيد ، وله طرديات كثيرة .

(٣) أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .

(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

(١) الديوان ص ٤٧٥ .

(٢) القين : الحداد صانها . الصرد :

طائر ضخم الرأس والمتقار وهو من الجوارح .

## أبو العباس (١) الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها وُلد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلاً ، وفيها تلقن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم ، وكان ذكياً ذكاء حاداً ، وصرف ذكائه في مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجي ، إذ ألف كتاباً ينقض به منطق أرسطو وكتاباً ثانياً ينقض به آراء الخليل ابن أحمد في العروض ومثّل لقواعده بغير أمثله . وحاول أن ينقض علل النحويين . ونظم قصيدة طويلة في فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت في روى واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التي أنشدها الحصري له في موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعياً ، وربما شيعيته هي التي جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب في تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالماً فقط بل كان أيضاً ناقداً ، ولعل هذا الكتاب هو الذي جعل أبا حيان التوحيدي يعجب به وينقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم في نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه أيزيد على كلام قدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتمال عجيب » ، وينقل أبو حيان في تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعي الشعر وبواعثه ، وهو يجري على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دِمَن ، أو تأسفًا على زمن ، أو نزوعًا لفراق ، أو تلوعًا لاشتياق ، أو تطلعًا لتلاق ، أو إعذاراً إلى سفيه ، أو تغمدًا لهفوة ، أو تنصلاً من زلّة ، أو تخضيباً على أخذ بثأر ، أو تحريضاً على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتاباً على طويّة أو متاباً من مقارفة ذنب ، أو تعهداً لمعاهد أحباب ، أو تحسراً على مشاهد أطراب ، أو

ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ . وزهر الآداب ١ / ١٧٧ ، ٣ / ٥٠ ، والمصايد والمطارد لكشاجم ( انظر الفهرس ) والعمدة لابن رشيق ٧ / ١ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص ٢٥٥ وديوان المعاني ١ / ٢٥٤ و ٢ / ٢٢٨ .

(١) انظر في الناشئ وحياته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد ١٠ / ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٨ وشذرات الذهب ٢ / ٢١٤ والبصائر والذخائر لأبي حيان ٢ / ١١٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩ .

ضرباً لأمثال سائرة ، أو قمرعاً لقوارع زاجرة ، أو نظماً لحكم بالغة ، أو تهيداً في حقير عاجل ، أو ترغيباً في جليل آجل ، أو حفظاً لقديم نسب أو تدويناً لبارع أدب . والقطعة تلم في دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصرى قطعة في وصفه لشعره يقول فيها :

يتحير الشعراء إن سمعوا به في حُسن صنعتِهِ وفي تَأليفِهِ  
شَجْرٌ بدا للعين حُسنُ نباتِهِ ونَأى عن الأيدي جَنّاً مَقطُوفِهِ

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعاً غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان في طبقة ابن الرومي والبحتري ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم في موضوعات شتى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالعُ الحق ما من شُبْهَةٍ غَسَقَتْ إِلَّا ومنهم لديمها كوكبٌ يَقْدُ (١)  
ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأنس ، وصبب أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومصيداته وآلاته . ويكفي لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاحم » يجعل أشعاره ركناً أساسياً صنع « كتابه المصايد والمطارد » فقد اعتمد فيه على طرد ياتيه اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده في هذا الكتاب طردية له في صيد أحد الكلاب يستهلها على هذا النمط :

قد أَغْتَدَى وَالْفَجْرُ فِي حِجَابِهِ لَمْ يَحُلِّلِ الْعُقْدَةَ مِنْ نِقَابِهِ  
بِأَغْضَفٍ عَيْشُهُ مِنْ عَذَابِهِ مِنْ صَوْلَةٍ بِظُفْرِهِ وَنَابِهِ (٢)  
يَرَّاحُ أَنْ يُدْعَى لِيُغْتَدَى بِهِ رَوْحَةَ ذِي النَّشْوَةِ مِنْ شِرَابِهِ (٣)  
يَحُطُّ بِالْبُرْتَنِ فِي تَرَابِهِ خَطًّا يَدِ الْكَاتِبِ فِي كِتَابِهِ (٤)

والطريف في هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحاً لا يقيم أوده إلا بعرق جيئته وصولاته بظفره ونابه ، وأيضاً فإنه جعله يشمر بنشوة ما بعدها نشوة حين

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقد : يشتمل . (٢) يراح : يجد خفة ونشاطا .

(٢) أغضف : سترخى الأذن . (٤) البرتن : الخلب .

يندبه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشْتَقٌ أو صحيفة وهو يخطّ فيها  
ببرائته ، وَيُتَّبِعُ كَشَاجِمَ هَذِهِ الطَّرْدِ يَهْ بِطَرْدِيَةِ أُخْرَى تَطَّرَدُ عَلَى هَذَا السِّيَاقِ :

يَا رَبَّ كَلْبٍ رَبُّهُ فِي رِزْقِهِ      يَرَى حَقُوقَ النَّفْسِ دُونَ حَقِّهِ  
مَتَّبِعًا بِخُلُقِهِ لِحُلُقِهِ      كَأَنَّمَا يَمْلِكُ عَقْدَ رِقِّهِ  
يَصُونُهُ بِجُلَّةِ وَدِقِّهِ      كَأَمَلٍ مِنْ مَالِكٍ لِعِتْقِهِ (١)  
تَرَاهُ فِي تَسْرِيحِهِ وَرَبِّيهِ      كَعَاشِقٍ أَضْنَادَ طَوْلٍ عَشَقَهُ (٢)  
أَصْفَرُ يُلْهِى الْعَيْنَ حَسَنُ خُلُقِهِ      كَزَهَابٍ أَبْرَزْتَهُ مِنْ حُقِّهِ  
ذُو غُرَّةٍ فَارِقَةٍ لَفَرْقِهِ      وَذُو حُجُولٍ بَيَّنَّتْ عَنْ سَبْقِهِ (٣)

وقد جعل الناشئُ رَبَّ هذا الكلب وصاحبه يقدمه على نفسه في غذائه ،  
ويأتسى به ، حتى لكأنما يشتق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع  
الذي يملك رقه ، وإنه ليرعاه في كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب للمالكه بكل  
ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حرّيته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب  
للصيد ، فيجعله حين يكون في ربقتة وحبله كعاشق طال عليه البسِينُ والهجران ،  
حتى أصابه ضننى شديد ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغرّته في جبهته  
وحجواه في سيقانه ، وبياضها يلمع في أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله في البازي  
طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلغ عليه الخالق من ريشه وجماله ،  
وفيه يقول :

أَلْبَسَهُ الْخَالِقُ مِنْ دَيْبِجِهِ      ثَوْبًا كَفِي الصَّانِعِ مِنْ نِسَاجِهِ  
حَالٍ مِنَ السَّاقِ إِلَى أَوْدَاجِهِ      وَشَيْئًا يَحَارُ الطَّرْفُ فِي أَنْدَرَاغِهِ (٤)  
فِي نَسَقٍ مِنْهُ وَفِي أَنْعَرَاغِهِ      وَزَانَ فَوَدَّيْهِ إِلَى حِجَاغِهِ (٥)  
بَزِينَةٍ كَفْتَهُ عَزَّ تَاجِهِ      وَظَفْرُهُ يَخْبِرُ عَنْ عِلَاجِهِ  
لَوْ اسْتِضَاءَ الْمَرْءُ فِي إِدْلَاجِهِ      بَعَيْنِهِ كَفْتَهُ عَنْ سِرَاجِهِ  
فَالْخَالِقُ جَلَّ شَأْنُهُ كَسَاهُ ثَوْبًا مِنْ الدِّيَبِاجِ يَمَلَأُ النَّفْسَ إِعْجَابًا بِوَشِيهِ وَخَطُوطِهِ

(٤) الأوداج : عروق في العنق .

(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

(١) الجل والذق : الكثير والقليل .

(٢) الربق : من الربقة وهي حبل يشد منه الكلب .

(٣) الخجول : بياض في سيقان الكلب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حنّاه بتاج كتاج الملوك المتألق بحليه وزينته ، ويذكر مخالبه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضئئة ضياء السراج في الليالي الداجية . وينظم في الصقر غير طردية ، وفي إحداها يقول :

سباه مَنْ كان به خليقا فرخاً صغيراً ما أقلّ موقا  
زينه برأيه شفيقا كما يصون العاشق المعشوقا  
حتى انتهى وحملَ الحقوقا ونفعَ الصاحبَ والصديقا

وهو بصور تدريب صاحبه له ، وكيف أنه ربّاه صغيراً وما زال يرعاه محبباً له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يثقفه ويدربه على الصيد ، حتى مهر فيه . وحتى أصبح يجلب من الإوز وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحبّاءه . ومن قواه في وصف شاهين :

يَظَلُّ من جناحه المَزينِ في قُرْطِ من خَزَه الشَّمينِ<sup>(١)</sup>  
يشبه في طرازه المصونِ بُرد أنو شروانٍ أو شيرينِ  
ذو منسِرٍ محدّدٍ مَسنونِ وافٍ كشطِ الحاجبِ المقرونِ

منعطفٍ مثل انعطافِ النونِ

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التي تجعله يلبس قرطفاً أو قباء مفوفاً من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز . وإن منسره أو مخلبه المنحني كحرف الراء ليشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة في وصف صيد الطير بالجتلا هو أو البندق . تحدث فيها عن صيد الكراكي . وهي طير طويل المقار والرجلين . مفردة كركي . ويسمى الغريق وجمعه غرائق . ويطرد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

وَوَرِدِ يُجَدِلُ قلبَ الوامِقِ منظمٌ بالغُمرِّ والغرائقِ<sup>(٢)</sup>

(١) القرطق: قباء ذو طابق واحد . الغر: طير .

(٢) يجدل: يسر . الوامق: مديم النظر .

الغرائق: الكراكي .

وكلّ طيرٍ صافِرٍ أو ناعقٍ مكتهلٍ وبالغٍ ولاحقٍ  
 مَوْشِيَّةٍ الصدور والعواتقِ بكلِ وَشِيٍّ فاخرٍ وفائقٍ (١)  
 تختال في أجنحةٍ خوافقٍ كأنما تختال في قرَاطِقِ  
 يِرْفُزَانَ في قُمْصٍ وفي يَلامقِ كأنهن زَهْرُ الحَدائِقِ (٢)  
 حُمْرِ الحِدَاقِ كُحْلِ الحَمَاقِ كأنما يَجْلُنَ في مَخَانِقِ (٣)

وهو بصورٍ مورداً عذباً يسر قلب الناظر إليه رُصِعَ بالطير والكرامى من صافرةٍ وناعقةٍ وكبيرةٍ وصغيرةٍ، إذ وُشِيَّت في صدورها وكواهلها بوشى بديعٍ، وقد اكتست أجنحتها بقراطقٍ وأقبيةٍ أنيقةٍ، بل إنها لترفل في كُسُوةٍ ذات تلاوين حتى لكانها زهر حدائقٍ مختلفٍ الأصباغِ والنقوشِ. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوق أعناقها القلائدُ الباهرة. وفي كتاب المصايد والمطارِدِ بجانب الطرديات السابقة طرديتان في صيد الأسد، ونرى الناشئُ يصوره في إحداهما بهذه الصورة الفذة :

رُبَّ ذِي سِبْلَيْنِ قَسُورَةٍ قد أَحْمَّ العَيْنُ في أَجْمَةٍ (٤)  
 لا ترى حَيًّا يُطِيفُ به لا ، ولا يَدْنُو إلى حَرَمِهِ  
 كَمِجَنٍّ الحربِ هَامَتُهُ وَكَعُورِ الغارِ رَحْبُ قَمَةٍ (٥)  
 وكَأَنَّ البرقِ ما قدحَتْ عَيْنُهُ بِاللَحْظِ من ضَرَمِهِ  
 وكَأَنَّ الموتَ مُعْتَرِضٌ بينَ لَحْيَيْهِ ومُلْتَشِمِهِ

وهو يقول إن هذا الأسد القسورة هبط به القضاء في عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمون بحرمه مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفرع والهلع، ويقول إن هامته كانت مثل تُرْسٍ حربٍ صلابةٍ وقوةٍ، وكان فه كالغار

(١) العواتق : الكواهل .

(٢) اليلامق : جمع يلمق وهو نوع من القباء .

(٣) الحماق : جمع حماق ، وهو باطن

جفن العين . الخائق : القلائد .

(٤) أحم : نزل . العين : الموت . الأجم : بيت الأسد

(٥) المجن : الترس .



يسقط فيه كل ما يتضممه ، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف ،  
وكأن الموت كان يجم على فمه بين لحييه وملتشمه .

وللناشيء وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقاً كان صاحب شاعرية  
خصبة ، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التي أعدته ليحاور ويداور أرسطو  
والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب في أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة  
في عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول في خلاف كل  
معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئاً من هذا القول ، إنما أوردوا له  
هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما في الفصل الرابع  
وهما في وصف سحاب هاطل .

وفي الحق أنه كان يعرف كيف يولد الصور وكيف يستخرجها من مكانها  
وكيف ينظمها شعراً عذباً ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجاباً به على شاكلة  
قوله :

متعاشقان مُكَّامان هواهما      قد نام بينهما العتابُ فطابا  
يتناقلان اللحظَ من جفنيهما      فكأنما يتدارسان كتابا

وقوله :

يلوح في خده وَرْدٌ على زهرٍ      يعود من حسنه غَضًّا إذا قُطفا

والزهر في البيت طبعاً هو زهر النرجس الذي تشبه به العيون ، وعبر عن  
القبلة بأنها اقتطاف لورد الحدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً  
إلى أول مُجسَّتها وباكورته . وله :

ليس شيء أحرُّ في مُهجة العا      شق من هذه العيون المراضِ  
والخدودِ المضرجات اللواتي      شيب جريالها بحسن البياضِ  
وطروق الحبيب والليلِ داجٍ      حين همَّ السَّمارُ بالإغماضِ

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تندلّع في قلب العاشق قطعاً من النار ، وتدلّع فيه نفس القطع الحدودُ المشربة بالحمرة ، ويشعلّه إشعالاً ، زيارةُ المحبوبة ليلاً ، وقد همَّ السُّمَّارُ بالنوم . والقطعة جيدة ، ويبدو أنه كان قريباً من نفوس الجوارى في بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب في بعض المتزهات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت ، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدتها مقطوعة له ختمها بقواه :

وقد آذنوننا بوقت الرحيلِ      فإن كنت تهويني فارحلي

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت في قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيقة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، موجهاً حديثه إلى تلك الرقيقة :

فديتكِ لو أنهم أنصفوكِ      لردوا النواظرَ عن ناظريكِ  
تردِّينَ أعيننا عن سواكِ      وهل تنظر العينُ إلا إليكِ  
وهم جعلوكِ رقيباً علينا      فمن ذا يكون رقيباً عليكِ  
ألم يقرءوا - ويحهم - ما يرو      ن من وحي حُسنكِ في وجنتيكِ

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهي ملكة استطاع أن يتغنّدَها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هي تُصنّفُ وإذا هي تزداد خصباً ، وإذا الناشئ لا يزال يُطرف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

### شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربي دائماً كان موصولاً بالشعب ، اتصل به في العصر الجاهلي ، فقد كان الشاعر وشعره صورةً لقبيلته ، وظلت له هذه الصلة

في العصر الأموي، وإن تحولت أحياناً من الشعور القبلي إلى الشعور الجماعي، أما منذ العصر العباسي الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقلّ الشعور بالروح القبلية، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جداً بينما ظلّ الشعور بالروح الجماعية حياً مشتتاً. وكان من أهم العوامل في ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى من عاش من هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفي قصورهم ظلّ موصولاً بروح الشعب، فهو يتغنّى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التي لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية. وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى غيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى. وحتى حياة المحزون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسّسها الشعب وتعيشها على الأقل في تلك الأعياد أسراب منه. أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلقي على العامة وكان من وحي حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار. وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبي الذي نتحدث عنه، فنحن نريد منه نوعاً خاصاً، هو النوع الذي يصور ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومن لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون في النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أي جهد ودون أن يهتموا بأي عناء، على حين ترزح عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضّة جائعة ظامئة، غير آمنة من العيب والطغيان اللذين صورناهما في فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرّعون ويتجرّعه الشعب من الفقر والإمعان في البؤس والتعاسة. ومن المؤكد أن جُلّ ما نظموا ضاع، لأنهم من أبناء الشعب، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف، وحتى ما سجّل من هذا الشعر لم يسجّل معه اسم صاحبه إلا نادراً<sup>(١)</sup>.

وقد هَيَّأَ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعَرِّفُ بِالمُكُنْدِينَ ، وأولُ من تحدّث عنهم الجاحظُ في مطالع كتابه البخلاء ، وهو يورد فيه أسماءهم وحيثياتهم في اقتناص الدراهم من الناس ويصوّر البيهقي أعمالهم ونواديرهم<sup>(١)</sup> ، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء ، وهم يكوّنون في العصر طبقة كبيرة ، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس .

وخير من يصوّر طائفة الشعراء المكديين حينئذ أبو العبير<sup>(٢)</sup> العباسي الذي عاش في هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عاماً يَحْيِيًا حياة جادّة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدَّ وعدل إلى الحمق والشهرة به ، ويقال إنه لم يكن في عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخبز وفي بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداث الهزل ، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عرّف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه : أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وإذا قال لي : تعال ، تأخرت إلى الخلف . ويقال إنه حاول أن يَلْمُفَت المتوكل إليه فقلب زيّه إذ جعل في رجليه قنسوتين وعلى رأسه خُفًّا (حذاء) وجعل سراويله قميصاً وقميصه سراويل . فلما لمح المتوكل قال على بهذا المشئلة ودخل عليه فقال له : أنت شارب إني أضع الأدهم (القييد) في رجليك وأنفيك إلى فارس ، فقال توّاً : ضَعْ في رجلي الأشهب وانفني إلى راجل ، فقال المتوكل أتراني في قتلك مأثوم ؟ فقال : بل ماء بصل ، فضحك المتوكل . ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أي شاعر بالجدّ ، وقد اتخذه في مجلسه أضحوكة ، فكان يرمى به في البركة التي وصفها البحترى في بعض مدائحه ، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويُصَاد ، ويخرج وهو يقول :

ويأمر بي ذا الملك فيطرحني في البرك  
ويصطادني بالشبك كافي بعض السمك

الخلفاء للصولي ص ٣٢٣ والأغاني (طبع الساسي) ٢٠ / ٨٩ والفهرست ص ٢٢٣ والواقى بالوفيات (طبع إستانبول) ٢ / ٤١ .

(١) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣  
(٢) انظر في أبي العبر وحياته وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور: الظَّبْبِيُّ معرفة أو نكرة؟ فأجابه: إن كان مشويئاً على المائدة فعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة، فقال ثعلب له: ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو. وكان يجلس الغلمان «الأدبائية» إليه ليسجلوا كلامه، مما جعله يصنّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة، ويُروى أن غلاماً سأله: لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكُمَّة (ثمرّة صحراوية أرضية) فأجابه: لأن الشاة ليس لها منقار وذنّب الطاووس أربعة أشبار. وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكندِين من الأدبائية وغير المكدين، وسُئل عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحالات أى شىء أصلها؟ فقال: إننى أبكرُّ فأجلس على الجِسرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعُه من كلام الناهب والجائى والملاحين والمُكارين حتى أملاً القرطاس من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحقق منه. وكان ما يزال يُعرب فى كل ما ينظم من شعر، ملتزماً للغة العامّة وما يشبهها، ومن قوله فى بعض غزله:

وباضَ الحبُّ فى قلبى فواوَيْلى إذا فرخَ

ويستمر فى مثل هذا الهزل، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله:

أنا أنا أنت أنا أيا أبو العبرنة  
أنا الفتى الحمقوقو أنا أخو المجنّه  
أنا أحرر شعرى وقد يجى برذنة

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلاً وطلباً لإضحاك من حوله. وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة، وقد اتخذ الشعراء «الأدبائية» الذين خلفوه إماماً لهم فى مثل هذا الهزل وما كان يسلكه فى أشعاره من ألفاظ العامّة وأساليبهم الركيكة.

ومن شعراء الكُندية الذين ذهبوا مذهب أبي العبر في التحامق والهزل أبو العجل (١) وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأى حرفة ، لقد درت عليه خيراً كثيراً وأموالاً وبيغالا وغلماًناً . يقول :

أيا عاذلى فى الحُمَّق دَعْنى من العَدَلِ      فإنى رَخِيُّ البَالِ من كَثرة الشُّغْلِ  
ومُرئى بما أَحْبَبتَ آتِ خِلافَه      فإن جِئْتَنى بالجدِّ جِئْتُكَ بالهزلِ  
وإن قلتَ لى : لِمَ كان ذاك؟ جوابه      لأننى قد استكثرت من قِلَّةِ العقلِ  
فأصبحتُ فى الحَمَقى أميراً مؤمراً      وما أحدٌ فى الناس يملكه عَزْلِ  
وصير لى حُمَّتى بَعالاً وِغِلْمَةً      وكنت زمانَ العقلِ ممتطياً رِجلى

فلا داعى للعدل واللوم فإن حرفة الكُندية جعلته سيداً مطاعاً وأثرتة نساءً واسعاً ، وأصبح الناس لا يضحون به ، بل يرحبون به فى كل مكان . وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون فى بلدان العراق وغير العراق ، جَوَّالين مكثرين من الأسفار فى الاحتيال لطلب الأموال ، وفى ذلك يقول أبو العجل لبعض من عدلوه على كُديته وحرفته :

أَعلى الحماقة لُمْتَنى      قد كنت مثلك أولا  
فدخلت مصرَ وأرضها      والشامَ ثم الموصلا  
وقرى الجزيرة لم أدعُ      فيها لِيحى منزلا  
إلا حللتُ فِناؤه      بالعقل كى أتمولا

ومن اتخذ الكُندية حرفةً فى العصر أبو عبد الله اليعقوبى وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل ، وروى له المرزبانى أشعاراً (٢) تدخل فى الزهد . ونقف قليلا عند جمحظة والخبز أرزى وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

(١) انظر فيه وفى أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٩ .

## حجظة (١)

اسمه أحمد بن جعفر من نَسَل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطنبُور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبخ والنجوم ، وله في الطنبُوريين كتاب غير كتب أخرى في عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومناذمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذي لقبه بحجظة لقبه الذي اشتهر به إذ كان في عينه نتوء شديد ، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

وَأَرْحَمَتَا لِمَنَادِيهِ تَحْمَلُوا أَلَمَ الْعَيْنِ لِلذَّةِ الْآذَانَ  
وكان الخليفة المعتمد يقرّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تفتَح له بعده ، وفتحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتفي وابن مقلة وزير المقتدر . وكان لا يُبْتَقَى على شيء يصمله من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، وأولاً صنعته الطنبورية لعاش معدماً . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التسعة ، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورون عنه لا لدمامته فقط ، بل أيضاً لما قيل من أنه كان دائماً وسخ الثياب ، وكان شيعياً ، فانصرف عنه كثيرون وأغلَقوا أبوابهم في وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعاً للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور في بغداد وحتى تناقله المجالس ويرويه الشباب وغير الشباب ، حدث هو نفسه ، قال : كنت يوماً عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِي فلم أجده ، فجعلت أقول :

يَا قَوْمُ مَنْ لِي بِنَعْلِي أَوْ فِي مَصْحَفٍ نَعْلِي

يقصد بنَعْلَا يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضاً ، وكثير منها يحكى قصة يؤسه من مثل قوله :

الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبرى ص ٨ ، ١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

(١) راجع في حجة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢ / ٢٤١ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر

أنا الذي دينه إسعافُ سائله والضُّرُّ يعرفه والبؤسُ والعدمُ  
أنا الذي حُبُّ أهلِ البيتِ أفقره فالعدلُ مستعيرٌ والجورُ مُبتسمُ

وهو يعللُ لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنما عملت عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثر جوانبها ضيقٌ وإقلال في الرزق ، وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يصدر عنها بمثل قوله :

أحمدُ الله لم أقل قط . يا بدُّ يا مُنصفاً ويا كافوراً  
لا ، ولا قلت أين أين الشواهِـينُ ووزاننا وأين البذور<sup>(١)</sup>  
لا ، ولا قيل : قد أتاك من الضيِّمة بُرٌّ موفرٌ وشعير  
أنا خلُّو من الممالك والآة . لك جلدٌ على البلاء وصبور  
ليس إلا كُسيرةٌ وقُدَيْحٌ وخَلَيْقٌ أتت عليه الدهورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكثفُ بهم داره من مثل بددٍ ومُنصفٍ وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزان يزن الحصاد ، لأنه ليس من أصحاب الضياع الذين يجنون من ضياعهم البرِّ والشعير . ليس عنده أملاك ولا ممالك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما يقوته من كِسرةٍ وقلح ماء وثوب خَلَقَ أكل الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلئُ حسرةً ولوعةً ، فغيره يتقلب في أعطاف النعيم وهو يتقلب في أشواك الحسرات والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لي كاتبٌ ولا على باب منزلي حاجبٌ  
ولا حمارٌ إذا عزمتُ على ركوبه قيلَ جحظةٌ راكبٌ  
ولا قميصٌ يكون لي بدلا مخافةً من قميصِ الناهبِ  
وأجرةُ البيتِ فهي مُقرحةٌ أجفانَ عيني بالوابلِ الساكبِ

(١) الشاهين هنا : عمود الميزان .



إن زارني صاحبٌ عزمتُ عليَّ بَيْعِ كتابٍ لَشَبْعَةِ الصاحبِ

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهمّاته كسبي كسوة حسنة ، ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالي ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن سدادها ينغصانه ، بل يُبْكِيانه ، حتى لقد تقرّحت أجماعه لكثرة بكائه ، ولا من رحيم يرق قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشتري له به بعض ما يقيم أودّه . فيا للبؤس وباللظلم الصارخ الذي جعل أبناء الشعب يتكدّحون ويضنّون والحكام يسجّسون ويقطفون ثمار أعمالهم ولا يُسَبِّقون لهم منها إلا النذلّ والهوان . وينتابه مراراً الشك في حرفته الأدبية وتأليفه وما ينظم من أشعار ، فيقول :

حسبي ضَجِرْتُ من الأدبُ ورأيتُه سببَ العَطَبِ  
وهجرتُ إعرابَ الكلا مِ وما حفظت من الخُطَبِ  
ورهنْتُ ديوانَ النِّقا نُصِ واسترحتُ من التعبِ

فهو قد صمم على أن يهجر حِرْفَةَ الأدب التي لم يكن منها سوى الشقاء والعناء أما كتاب النقائص بين جرير والفرزدق فعن نفاسته رهنته ليسدّ به رمقه ، وكأنما أحسّ فيه وفي غيره من كتب الأدب التي صنم على هجرانها أعباء ثقلا كانت تبسّط كتفيه ، فهو يتخلص منها ليربح ويستريح .

وكان طبيعياً أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية في عصر المقتدر وأن يصبّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد في النعيم ، ولا ضيّرَ من أن يعيش الشعب في الجحيم ، لذلك كان طبيعياً أن يتمنى للوزراء أن تحريق بهم الكوارث حتى يتخلص الشعب من ظلمهم وفساد حكمهم . ويروي أن بعض أصدقائه دخل عليه في عصر المقتدر ، فقال له : ما تتمنى ؟ فقال تَوّاً : لم يبق لي مُنّى غير نكبات الوزراء ، فقال له : قد نُكِب ابن الفرات ، فقال جحظة على البديهة :

أحسنُ من قهوة معتقة تخالها في إنائها ذهباً

من كَفِّ مَقْدُودَةٍ مَنَعَةٍ تَقْسِمُ فِينَا أَلْحَاطِهَا الْوَصْبَا<sup>(١)</sup>  
 نَعْمَةٌ قَوْمٍ أَزَالَهَا قَدْرٌ لَمْ يَحْظَ حُرٌّ فِيهَا بِمَا طَلِبَا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمير  
 نشوة لا تَعُدُّ لها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصَب شيئاً مما كان فيه من  
 نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلماً وشرّاً  
 ونُكْرًا ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التي حرمت الأحرار كل بئرٍ وكل خير .  
 وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ،  
 وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء في قالب فكه من مثل قوله في صديق :

دعاني صديقٌ لي لأَكُلَ القَطَائِفِ فَأَمَعْتُ فِيهَا آمِنًا غَيْرَ خَائِفِ  
 فقال وقد أوجعتُ بالأكل قلبه رُوَيْدَكَ مَهْلًا فَهِيَ إِحْدَى المتالفِ  
 فقلت له : ما إن سمعنا بهالكِ ينادى عليه : يا قَتِيلَ القَطَائِفِ

وكانت القَطَائِفِ صادفت منه مسغبة وجوعاً شديداً ، فأكل منها أكل النَّهْمِ  
 وصديقه ينظر إليه شزراً ، فقال له : إني أخاف عليك التخمّة ، بل التلف والهلاك ،  
 فردّ عليه هذا الرد الظريف . وله في قوم بخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائدة

وتُروى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على  
 الرغم من قبح وجهه وراثته ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع  
 الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجّاب وغير  
 الحجّاب والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع  
 شعره على ألسنة الصبيان في الشوارع والأرقة . ومن قوله في ثقبيل :

يا لفظَةَ النَّعْيِ بموت الخليلِ يا وَقْفَةَ التَّوْدِيْعِ بين الحُمُولِ

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب :

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلاً أقفَرَ من بعد الأنيَسِ الحلوِ  
يا نعمةً قد آذنتُ بالرحيلِ ونكسةً من بعد بُرءِ العليلِ

ويستمر طويلاً في وصف التقييل بمثل هذه الصفات التي تجعله تماثلاً لكل شر ، وكأنما تجمعت له شرور الحياة في أسوأ صورها ، لكي يصممه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور في أبشع هيئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشابشي له بعض أشعار في الخمر كان يغنيها على طُنْبُورِهِ من مثل قوله في دَيْرِ أَشْمُونِي وهو فيه :

سَقِيًّا لِأَشْمُونِي وَلذَاتِهَا وَالعَيْشِ فِيهَا بَيْنَ جَنَاتِهَا  
سَقِيًّا لِأَيَّامٍ مَضَتْ لِي بِهَا مَا بَيْنَ سَطِئِهَا وَحَانَاتِهَا

ويبدو أن إمامه بالأديرة كان قليلاً لقلّة أشعاره فيها ، وربما كان الذي أقعده عنها بؤسه الذي كثيراً ما كان يرافقه . وله في الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فقلتُ لها : بَخِلْتِ عَلَيَّ يَقْظَى فَجُودِي فِي المَنَامِ لِمَسْتَهَامِ  
فَقالتُ لي : وَصرتَ تَنامَ أَيضاً وَتَطْمَعُ أَنْ أَزوركَ فِي المَنَامِ

وقد توفي سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصور شاعريته الحسنة . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامية ، وهي أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامية في بغداد .

الخبزُ أرزى<sup>(١)</sup>

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصرى ، كان أميناً لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يَحْخَبُزُ خَبْزَ الأَرزِ فِي دُكَّانِهِ بِمِـرْبَدِ البَصْرَةِ يَتَكَسَّبُ بِذَلِكَ مَعاشَهُ ، وَفِي أثناءِ عَمَلِهِ كان يُنْشِدُ أشعارَهُ المَقْصُورَةَ عَلى الغَزَلِ ، والشِّبَابِ والنَّاسِ يَزِدْحَمُونَ عَليه لاسْتِماعِ شِعْرِهِ ، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ حالِهِ وأَمْرِهِ ، وشِعْرُهُ يذِيعُ فِي النَّاسِ لِقَرَبِ ماأخِذَهُ وَسُهولَتِهِ . وَعَنى بَعْضِ مَعاصِرِيهِ مِمَّنْ كانُوا يَتَنابَوْنَ دُكَّانَهُ بِجَمْعِ أشعارِهِ ، وَجَمَعُوا لِهِ دِيواناً ، وَفِي مَعهَدِ المَخْطُوطاتِ بِالجامِعةِ العَرَبِيَّةِ نَسْخَةُ مَـصْـوُورَةٍ مِنْهُ ، وَيَقولُ المَسْعُودِي فِيهِ : « أَحَدُ المَطْبُوعِينَ المِجُودِينَ فِي البَدِيهَةِ المَعروفِينَ بِالغَزَلِ » . وَيَقولُ أَيْضاً : « أَكْثَرُ الغَناءِ المَحْدَثِ فِي وَقْتِنا هَذا مِنْ شِعْرِهِ » . وَالخبزُ أرزى بِكُلِّ ما قَدَمْنا شاعِرَ شَعْبِيٍّ بِالمَعْنى الكامِلِ ، فَهُوَ مِنْ بِيئَةِ شَعْبِيَّةِ ، صابِحِ صِناعَةِ وَحِرفَةِ ، وَهُوَ أَمَى لا يَعْرِفُ القِراءَةَ وَلا الكِتابَةَ ، وشِعْرُهُ يَدورُ عَلى كَلِّ لِسانِ فِي بِلَدَتِهِ والشِّبَابِ وَالصَّبَبِيَّةِ يَنْشُدُونَهُ فِي كَلِّ مَكانٍ وَالْمَغْنُونُ يَغْنُونُ فِيهِ عَلى جَمِيعِ آلاتِ الطَّرَبِ . وَقَدَمَ بَغدادَ فَاسْتَقْبَلَهُ أَدباؤُها وَشِبابُها اسْتِقبالاً حَسَناً لَمَّا كانَ قَدِ سَبِقَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ أشعارِهِ الخَفِيفَةِ السَّهْلَةِ العَذْبَةِ . وَمَنْ الغَرِيبُ أَنْ نَجِدَ الثَّعالِبيَّ فِي اليَتِيمَةِ يَقولُ إِنَّهُ كانَ عَلى وَشَكِ إِهْمالِهِ وَطَىَّ أشعارَهُ لِسَفْسَفَةِ كِلامِهِ ، لَولا أَنَّ وَجَدَ مِنْ مَعاصِرِيهِ مَنْ اهتمَّ بِجَمْعِ دِيوانِهِ ، فَراى أَنَّ يَضْمَنُ كِتابَهُ « اليَتِيمَةَ » لُـمَعَّاً مِنْ شِعْرِهِ عَلقتْ بِحَفْظِهِ ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسَهُ رَأى الإِعْراضَ عَنِ التَّصْفِيحِ لِباقيِ شِعْرِهِ وَتَرَكَ الفَحْصَ فِيهِ عَمَّا لا يَصْلِحُ لِإِلاحاقِهِ بِالْيَتِيمَةِ مِنْ مُلَحَّحِهِ . وَبِذَلِكَ فَوَّتَّ عَلى نَفْسِهِ عَمَلاً أَدبِيّاً وَنَقْدِيّاً جَلِيلاً كانَ يَمْكِنُ أَنْ يَضِيفَهُ لِكِتابِهِ وَلا يَنْقُصُ مِنْهُ ، بَلْ لَعَلَّهُ يَرْفَعُهُ دَرَجاتٍ ، إِذْ يَحْتَوِي مادَةَ شَعْرِيَّةَ شَعْبِيَّةَ كانَ جَلِديراً أَنْ تُعْرَضَ كَاملَةً ، حَتَّى يُرَى مَدى ما حَـدَثَ مِنْ تَطوُّرٍ فِي اللِغَةِ الشَّعبِيَّةِ البَصْرِيَّةِ بِالقِياسِ إِلى الفِصْحى ، سِواءَ فِي جِوانِبِها اللِغويَّةِ أَوْ الأَسْلوبيَّةِ ، وَيُرَى أَيْضاً مَدى ما ظَلَّ بَيْنَهُما مِنْ تِواصُلِ . وَلَكِنْ هَذا غابَ عَنِ

٢٧٦ / ٣ وديوان المغانى ١ / ٢٧٢ ، ٢٩٧  
 وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ ، وذيل زهر الآداب  
 ص ١٤٩ .

(١) انظر في الخبز أرزى وحياته وأشعاره  
 اليتمة ٢ / ٢٦٧ وروج الذهب ٤ / ٢٥٩  
 وابن خلكان في نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن ملاحه التي رواها له قوله :

خَلِيلِيْ هَلْ أَبْصَرْتَمَا أَوْ سَمِعْتَمَا      بِأَكْرَمٍ مِنْ مَوْلَى تَمْشَى إِلَى عَبْدِ  
أَنْى زَائِرًا مِنْ غَيْرِ وَعَدِّ وَقَالَ لِي      أَصُونُكَ عَنْ تَعْلِيْقِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ  
فَمَا زَالَ كَأْسُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ      يَدُوْرُ بِأَفْلَاكِ السَّعَادَةِ وَالسَّعْدِ  
فَطَوْرًا عَلَى تَقْبِيْلِ نَرْجِسٍ نَاطِرٍ      وَطَوْرًا عَلَى تَعْضِيْضِ تَفَاحَةِ الْخَدِّ

وفي كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رقته وأنه يبخشني عليه من تعلق قلبه بالانتظار ، والبيتان الثالث والرابع جيدان في التصوير . وما روى له الثعالبي أيضاً من ملاحه قوله :

كَمْ أَنْاسٍ وَقَفُوا لَنَا حِينَ غَابُوا      وَأَنْاسٍ جَفَوْا وَهُمْ حُضَارُ  
عَرَضُوا ثُمَّ أَعْرَضُوا وَاسْتَأَلُوا      ثُمَّ مَالُوا وَجَاوَرُوا ثُمَّ جَارُوا  
لَا تَلْمَهُمْ عَلَى التَّجَنُّى فُلُوْا لَمْ      يَتَجَنُّوْا لَمْ يَحْسِنِ الْإِعْتَادُ

والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يتفقه صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيها فقهها حسناً . فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حضار» وبين كل كلمتين متعاقبتين في البيت الثاني جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل واضح في البيت الأخير . والكلمات عذبة حلوة خفيفة . ومن ملاحه قوله :

رَأَيْتَ الْهَلَالَ وَوَجَهَ الْحَبِيْبِ      فَكَانَا هَلَالِيْنَ عِنْدَ النَّظْرِ  
فَلَمْ أَدْرِ مِنْ حَيْرَتِيْ فِيهِمَا      هَلَالَ الدُّجَى مِنْ هَلَالِ الْبَشْرِ  
وَلَوْلَا التَّوْرُدُ فِي الْوَجْنَتَيْنِ      وَمَا رَاعِنِيْ مِنْ سَوَادِ الشَّعْرِ  
لَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَلَالَ الْحَبِيْبَ      وَكُنْتُ أَظُنُّ الْحَبِيْبَ الْقَمَرَ

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقاً بتلك الخيرة التي انتابته ، فلم يدّر أين هلال الدجى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

تورّد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقاً في  
حيرته . ومن مأسحة :

قد كان لي فيما مضى خاتمٌ فاليوم لو شئتُ تمنطقتُ بهِ  
وذبتُ حتى صرتُ لو زجّ بي في مُقلّة النائم لم ينتبهِ

وهي مبالغة واضحة فيما أصابه من ضنّاً بسبب حبه وشفائه فيه وعذابه .  
فحتى المبالغة التي كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدها عنده ، وكأنه  
توفّر على الشعر في عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثّله  
بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهنّاً مما جعله محبوباً عند أهل  
البصرة في حياته وبعد مماته . ومن طريف ماله قوله في قلة الطعام على مائدة أحد  
أصدقائه :

ولعمري كان الخوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخوانِ  
وجفانٍ مثل الجوابي ولكنْ ليس فيهن ما يرى بالعيان<sup>(١)</sup>  
فإذا ما أدرتُ فيها بناني لم أجد ما أمسه بينانِ  
إنني ما ضغُ على غير شيء غير صكّ الأسنان بالأسنانِ  
ترجع الكفّ وهي أفرغ منها عند مدّي لها قدأبي وشاني

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة  
خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصري خاصة مما جعلهم  
يتعلقون به تعلقاً شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التي كان ينشدها في  
خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة  
استهلّها بقوله :

بات الحبيبُ منادمي والسكرُ يصبغُ وجنتيه

وواضح مما أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبي بالمعنى  
الدقيق ، فقد نظمته صانع من صناع الشعب ، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

به وعرضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس  
 ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدم أشعاره للجمهور ،  
 متبغياً لإرضاءه بتصويره لأحاسيسه في الغزل ، وبتأخذه لغتته السهلة التي لا تجد  
 في فهمها أي عسر أو مشقة . وقد لبى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول  
 المسعودي أشيع أن الوزير البريدي غرقه لأنه كان هجاء ، وقيل : بل فرّ من  
 البصرة إلى هجر والبحرين وتوفي هناك ، ومهما يكن فقد حزن البصرة وشبابها  
 لوفاة ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلاً .

## الفصل الثامن

### نشاط النثر

١

#### تطور النثر

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن النثر العربي تطوّر تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمَلًا لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مستكنة لكي تحمل في يُسَر هذه الثقافات ولا تتأبى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع . ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمّى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر في كثير مما تُرجم في العصر الماضي ، وكانت عامة الترجمة فيه حرفية ، فالفقرة من الفقر في كتاب تُترجم حرفياً ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشيء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب في التعبير . وكان ذلك دافعاً للمترجمين أن يعيدوا النظر في كثير مما تُرجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعاني لا الترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم في ذهنه دون التقيد الحرفي حتى يطرّد نسق الكلام ولا يظهر فيه شيء من الاختلال الذي كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية . وحقاً من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذّاً وعُدَّ في الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافاً من شأنه إفساد التعبير ،



إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدى النساخ على مر العصور في كتاباته ، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جداً ، وبين أيدينا ترجمته لكليلة ودمنة ، وهى من أروع الترجمات القديمة ، وتُدلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعدُّ شخصية نادرة بين مترجمى العصر العباسى الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحسَّ المترجمون في العصر العباسى الثانى عندهم غير قليل من الانحراف في التعبير ، وتنبهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كسبباً للنثر العربى فإن الضميمة الذى كان يداخل الترجمات أخذ يزيئها . واتبع حنين بن إسحاق - أكبر مترجمى العصر - منهجاً في ترجمته أن يجمع للكاتب المترجم كل ما يمكنه من مخطوطاته ، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلاً بين عباراتها ، محاولاً أن يستخلص منها المعانى بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة في العصر العباسى الثانى الذى وضع بقوة فكرة ترجمة المعانى لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يعمل بين يديه كثير من الشباب في مقدمتهم ابنه إسحاق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويصّح لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقته الجديدة . وكان من الكتب التى أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتاب الخطابة لأرسططاليس ، ترجمه إسحاق بن حنين وينصُّ ابن النديم في الفهرست على أنه كان قد نُقل قبل ذلك نقلاً آخر ، ولا يعين صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة في هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبدت في أسلوب عربى مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد في ترجمة متى بن يونس لكتاب أرسططاليس عن الشعر؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصى لم يرتسما في ذهن متى رسماً بيئياً ، إذ كان السريان - مثل العرب - لا يعرفون شيئاً عن الشعر اليونانى وفنونه التى ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية ، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند متى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والعثر موجودين في الأصل السريانى الذى نُقل عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة في هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يمثّلون المعاني التي ينقلونها ويُسَيِّغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذي لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم ، إذ ذلّلها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألفت كتب كثيرة في بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع ، فطبيعي أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحَظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسي الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذت يزيّلها الالتواء ، بل أخذ يجري فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية في التنقّف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤماً وتوازنًا دقيقين بين الألفاظ والمعاني التي تؤدّيها ، بل إن منهم من شارك في الشعر والنثر مثل الكندي أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب ، فقد أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة ، سنعرض لها في موضع آخر ، فهو قد أتقن العربية وفقه أسرارها وخصائصها فقهياً جيداً ، ونضرب لذلك مثلاً من أسلوبه الفلسفي ، وفيه يتحدث عن صنائع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده ، يقول (١) :

« إن في الظاهرات للحواس ، أظهر الله لك الخفيات ، لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول ، أعني مدبراً لكل مدبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوّناً لكل مكوّن ، وأولاً لكل أولاً ، وعلّة لكل علّة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدان الحق وخواصه (معرفة) الحق وغرضه الإسناد للحق واستنباطه والحكم عليه . والمزكّي عنده - في كل أمر شجر بينه وبين نفسه - العقل . فإن من كان كذلك انتهكت عن أبصار نفسه سُجُوف (٢) سدّف الجهل ، وعافت نفسه مشارب عكس العجب ، وأنفست من ركابة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولّج (٣) ظلّم الشبهات ، وخرجت من الرّيب على غير تبين ، واستحيت من الحرص على

(٢) سجوف : أسرار . سدّف : ظلمات .

(٣) تولّج : دخول .

(١) رسائل الكندي الفلسفية تحقيق الدكتور

عبد الهادي أبي ريذة (طبع مطبعة الاعتماد بمصر)

اقتناء ما لا تجدد ، وتضييع ما تجدد ، فلم تضاد ذاتهما ولم تتعصب لأضدادها .  
 فكُنْ كذلك ، كان الله لك ظهيراً ، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح  
 لك أن الله ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وهو الإنيَّة (الموجود) الحقّ التي لم تكن لَيْسًا  
 أبداً ، لم يَزَلْ - ولا يزال - أَيْسُ أبداً ، وأنه هو الحى الذى  
 لا يتكثَّرُ بَتَّةً ، وأنه هو العلة الأولى التى لا علة لها ، الفاعلة التى لا فاعل لها ،  
 المتممة ، التى لا متمم لها . . . وإن فى نظْم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل  
 بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته  
 على الأمر الأصلى فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل  
 ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير .

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية ، وأنها لا تقف عند فصاحة  
 التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية ، وما المعنى  
 الذى يريد أن يوضحه الكندى ؟ إنه يريد أن يقول إن ما يبصره الإنسان من ظواهر الكون  
 ويحسه من مشاهدته ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون ،  
 وضع له قوانينه ، التى تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب ، كما يشهد بذلك نظامه  
 الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد ، ولكنه أخرج هذه الفكرة فى صورة فلسفية  
 مُطَنَّبَةً ، وهو فى إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو  
 ما نرى فى قوله : « أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوِّناً لكل  
 مكوّن ، وأولاً لكل أول ، وعلة لكل علة » ، فقد عبّر عن معنى واحد بخمس  
 كلمات متوالية ، ليقوى المعنى ، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذى يلاحظ فى  
 التكرار الصوتى . وهو لا ينسى أيضاً ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التى  
 تخلب ألباب السامعين ، على نحو ما نقرأ فى قوله : « فإن من كان كذلك انتهكت  
 عن أبصار نفسه سُجُوف سُدُف الجهل ، وعافَت نفسه مشارب عسكر  
 العُجُوب ، وأنفت من ركافة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولُّج ظلِّهم  
 الشبهات » ، والصور متلاحقة فى هذه العبارات ، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب  
 فلسفى . وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما ،  
 فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من  
 الروعة البيانية . وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح ( الإنيَّة ) بمعنى

(الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعلوم و (أيس) بمعنى الموجود. وهذه الاصطلاحات لا تجور على العبارات في الأسلوب ، بل يندمج فيها لقدرة الكندي كما قلنا آنفاً على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقاً لم يكن من وراء الكندي من المتفلسفين يبلغون مبلغه في العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعاً عنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدر ما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البياني في النثر. ومراً بنا في غير هذا الموضوع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق: ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية، وكان يمثلها المترجمون السريان ومن التف حوهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر في علم النجوم وفي المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائماً عن الكون والفساد ، وسمّح الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه في الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب ». وكان يقابل هذا الذوق المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقاً كان يرتضى هذه المقاييس ، بل كان يرى ختطال الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربي له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفّاة . وينبغي ألا نعدّل عن معايير الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوق علماء اللغة المحافظون ومن سار في فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين في رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين في رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتدّ بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر في المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربي . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحظ في كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو فيه يعرض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربي إلا ويسجلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التي استطاع الحصول عليها — في البلاغة دون أن يُعَلّي فريقاً على فريق أو ينصر فريقاً ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الأخرين في وضع قواعد البلاغة الثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسي الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة في الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم في حجاجه وجدله . وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحياناً فيما بين أفرادها ، فكثير كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يتقنع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضاً . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربي ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغي في ألفاظ العبارات أحياناً من رشاقة وعذوبة وأحياناً أخرى من جزالة ورسالة ، وما ينبغي للمعاني من وضوح مهما دقت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هي التي فترقت بين الحقيقة والحجاز وأعدت لمباحث البيان العربي المعروفة<sup>(١)</sup> . ويلقانا في هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذي ذكرناه آنفاً ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التي أوصى بها المتكلمون الأدباء ، حتى يجوزوا لأنفسهم بياناً ناصعاً رائعاً . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ، لأنه هو الذي عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه ، ومن أهم ما رددته طويلاً فكرة مطابقة الكلام للسامعين ، فلا يصح لتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب الممتلي\* بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول : « قبيح بالتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو في مخاطبة أهله . . . أو في حديثه إذا حدث أو في خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام في صناعة الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل<sup>(٢)</sup> . » ولا يميل الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح ، وألا يوجز كاتب ولا عالم في كلامه حتى يصبح الغازاً ، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ، يقول : « متى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، والمثل القدر

(٢) الحيوان ٣/٣٦٨ والبيان والتبيين ١/١٤٤ .

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤ .

لِفُسْفًا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع»<sup>(١)</sup> . وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها في مكان وسوته في مكان آخر ، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات ، يقول : « قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السَّغْب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة لا يَفْقُصُونَ بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»<sup>(٢)</sup> . ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرِّصْف والنظم ، ونراه ينوّه بالسجع وأثره في نفوس السامعين<sup>(٣)</sup> ، كما ينوّه بالازدواج وما فيه من جمال<sup>(٤)</sup> صوتي ، وكأنه هو الذي أعدّ لهذين الأسلوبين كمن يشيعا على السنة الأدباء منذ عصره ، وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً في أسلوبه ، واستخدم السجع قليلاً ، وتردّدت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة ، مثل : الأسلوب الحكيم والاحتراس ، وكان يسميه إصابة المقدار ، والاعتراض ، والكناية والحقيقة والحجاز والاستعارة والتشبيه والتشليل . وبذلك هيئاً فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسنات محسناً عقلياً هو « المذهب الكلامي » ويريد به الجاحظ دقة حَيْبَلِ المتكلمين في الغوص على الحجج والعلل والمعاذير . وظلت كتابات الجاحظ في البيان والتبيين وكذلك في الحيوان مخازن لا تنفذ للبلاغيين المتأخرين ، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية .

وقدّمت بيئة اللغويين كتباً مختلفة ، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغربية وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها ما يُعْنَى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه «الفصيح» ، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد ، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر ، لا تبلغ في الغرابة مبلغ نماذج ثعلب في

(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤، ٢٩٧، ٤٠٨ .

(٤) البيان والتبيين ٢/١١٦ .

(١) البيان والتبيين ٢/٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠ .

مجالسه ، ولذلك شُغف الأدباء في عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزعها على ثلاثة أنواع ، فهي إما للتعمية وإما لتحاشي اللفظ الحسيس وإما للتفخيم<sup>(١)</sup> ، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد<sup>(٢)</sup> . والكتاب يمثل ذوقاً محافظاً ، فليس فيه أى شيء يتصل بآراء الأجانب في البيان والبلاغة ، وليس فيه أى استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعر في موضع آخر أنه كان مثقفاً بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، ينجح في ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة في كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرف الكتُّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطَّرب يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفةٌ تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع<sup>(٣)</sup> ، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا في مأتم ، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر ، والجمع مأتم ، والصواب أن يقولوا كنا في مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء<sup>(٤)</sup> . ويظل يفتح نحو خمسين باباً لتعليم الكتُّاب ألفاظاً يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعرَّف واحدُه ويُشكَّل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصباً فيها على ما يسببه الدماغ للعامة من الوقوع في الخطأ كأفعال تُهْمَزُ والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحاً وهم يكسرونه إلى جسمٍ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفي أثناء ذلك يعقد باباً طريفاً<sup>(٥)</sup> لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجمي ، سواء

(١) ليدن (ص ٢٢ .

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .

(٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .

(٢) الكامل ص ٥٠٦ .

(٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة

أكان أصله روميًّا أم نبطيًّا أم فارسيًّا أم سريانيًّا . والدوق العام في الكتاب ذوق لغوى محافظ شديد المحافظة .

وعلى ضوء الدوقين اللذين وصفناهما للبيتين السالفتين صنّف معاصر لابن قتيبة هو إبراهيم بن المدبر المتوفى سنة ٢٧٨ رسالة<sup>(١)</sup> بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سماها الرسالة العذراء ، وهي أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يستهلها بأن شخصاً طلب إليه أن يعرفه بجوامع أسباب البلاغة وآداب الكتابة ، ويشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حينئذٍ طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه . وابن المدبر بذلك كله يلتقي بدوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاها من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقي بعلماء اللغة والتصريف ، فهو ينصّئ بهم جميعاً . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر في نزع آي القرآن الكريم ووضعها في مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لا تستحسب في مخاطبة الخلفاء ، وهو في هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة<sup>(٢)</sup> وقد استمد منه كثيراً في رسالته . والمهم أنه يشيد في تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنباً إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر بيئة المتكلمين تأثراً عميقاً . ويتحدث عن زِي الكاتب وحسن هندامه ، ويطلب - في إلحاح - كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكتّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظرف . ويقول إن لكل طبقة من هذه ما يناسبها من الألفاظ والمعاني ، حتى لا يُجسرى الأديب شعاع بلاغته في غير مساربه ولا ينظّم جوهر كلامه في غير سلكه . ولا بد - كما قال الجاحظ مراراً وتكراراً - من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعاني ، حتى توضع الألفاظ في مواضعها وتنزل

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

(١) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي



مواطنها . ثم يتوقف - مهتدياً بابن قتيبة - إزاء أبنية ينبغي تركها واستعمال أبنية أخرى ، فمثل الدعاء : « أبقاك الله طويلاً » ليس مُسْتَحَبّاً ، إنما المسنحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لا فرق في المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزناً وأنبه قدرأ . وكذلك الدعاء : « جعلت فداك » يرى أنه قد اُبتدل حتى مَجِّتَهُ الأَفْوَاحُ ، إلى غير ذلك من أدعية كانت تنبوع ذوق الأُدباء من أمثاله .

ويقول إن مديح الخلفاء والوزراء في الرسائل ينبغي ألا يكون بالفروض الواجبة مثل : يصدق في وعده وبنى بعهدته ، لأن ذلك من الواجبات التي ينبغي أن تكون في كل شخص . ولا بد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها ، ويضرب مثلاً لذلك أن شخصاً كتب إلى داود بن خلف الأصبهاني معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : « وإن قال كذا فقد خرج عن الملة » ، والحمد لله « ورد عليه داود متعجباً عن وضع الحمد في هذا المكان قائلاً : « تحمد الله على أن تُعْزَجَ امرءاً مسلماً من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ، وإنما يقال في المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . وَيَطْلُبُ ابن المدبّر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البكوى : « نسأل الله دفع المخذور ، ونسأل الله صَرْفَ السوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجباً » . ويمضى في إثر الجاحظ ، فيقول إنه لا يجوز في الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجري فيه من حذف أو ضرورات . ويحذّر من استعمال كلمة « إياك » ويحسّ ثقلها في مثل « كلمت إياك » . وَيُسَدِّئُ وَيُعِيدُ - على ضوء الجاحظ - في أن الألفاظ ينبغي أن توضع في مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث تشير في صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات في الكتابة ، ويقول إنها ينبغي ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُفَيِّضُ في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة برّيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . وَيَسْتَفْتِي إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف قال : لكذا ليلة بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطبيعتها . ويشير - على هدى ابن قتيبة - إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ في أماكنها ، ويسنّهى - كما نهى المتكلمون من قبل - منّ ايست له موهبة أدبية عن محاولة الانتظام في هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العتّابى ، رأيه في اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بعرض ما يكتبه في باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة . ويسنّهى - على هدى الجاحظ - عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابه بالكتّاب إذ قال : « ما رأيت قومًا أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية . وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله في النصبّة التي تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح ، وينقل أيضاً عنه حدّه للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقرب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون الذوبان فيه . ويبين أهمية الكتب المحبّرة تحبيراً جيداً في استنزال الجلبارة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللّجبية . ثم يسوق صفحات جليتها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفى بذلك بل ينقل أيضاً الصحيفة التي دوّنها الجاحظ عن الهنود في البلاغة ، ويتأوها بما دوّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن ابن المدبر وضع نُصب عينه في كتابته لرسالته العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعق أثراً .

وحى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم في الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة في مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذي نُشر باسم نقل النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سايان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل في دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدي والمعتمد ، وتوفى سنة ٢٧٢ فيبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . ونراه في مستهل كتابه يُزرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعي لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمتربصين التي كانت تعارض المتكلمين في مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا في رأيه كتابات أرسطو في المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتح كتابه بمباحث في العقل تدل على أنه شيعي إمامي ، ويعقد فصلاً للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جعل عماداً وعياراً على العقل كما جعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض في مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير في كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعماله أفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والالفاظ وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المنشور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذي حذرّ الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وأوقليدس كانا شديدي الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوى . ويعقد فصلاً في نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسّع في تشريعه للنثر العربي ووضّعه لمعايير في الأخذ عن كتابي أرسطو في المنطق والجدل . وهو أخذٌ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربي ، ولذلك لم يسلّق هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين . وكان لذلك أثره في أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً في كتاباتهم عن الخطابة والنثر . إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هي التي سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء في العصر ، وظل ذلك حقبةً متطاولة ، وهي كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوماتها حيّة ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يجسني على العربية ، بل تجني منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبي العام ، وكان لذلك أثره في أن ازدهر النثر العربي وأخذت موضوعاته تتنوع تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهار الجاحظ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعنى بتصوير الطبقات في مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالى والعرب والنصارى واليهود ، ويتسحّح

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والسُكندِين وحييَلِهِم والقيان والمرأة .  
وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السَّمَر التي كانت تُفَرَّأ في كل مكان .  
وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية  
وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية  
قائماً ، وكان أهم ما تُرجم في هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية  
هزار أفسان أى ألف حكاية . ويُفهم من كلام المسعودى عنه أن حكايات  
السندباد لم تكن جزءاً منه في عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم  
هندي يسمى السندباد ، وهي تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ،  
وامرأة الملك . ويذكر المسعودى أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرجمت عن  
الرومية<sup>(١)</sup> . وما تُرجم حينئذ أو قل مما استمدَّ من أصول فارسية كتاب التاج  
المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألّفه أحد معاصريه وقدّمه إلى الفتح بن خاقان وزير  
المتوكل ، وهو يصور نُظْمَ الساسانيين حُكَّام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم .  
ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدماً في هذا العصر ، ولكن أخذت  
الشخصية العربية تُشَبَّ وجودها في قوة ، فبمجرد أن تُرجم كتاب ألف ليلة وليلة  
ألف محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً على نسقه به ألف  
حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت في العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت  
تتلهف عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن  
أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التي تصوّر أحوال الحمقى  
وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التي تصوّر أخلاق العامة  
مثل كتابات مساوى العوام وأخبار السفلة والأغتام للصيّمري .

وكثرت كتب الأدب التهذيبي ، ومن أكثر منها ابن أبي الدنيا المتوفى  
سنة ٢٨١ وقد نُشر في القاهرة مختصر صنعه السيوطي لكتابه الفرج بعد الشدة ،  
وكانت له كتب مختلفة في مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

(١) انظر في ذلك كله مروج الذهب

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان في الأخلاق وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » ، ومثلهما أبو بكر الخرائطي السامري المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومراضيتها ، نُشر بالقاهرة .

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعاً جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ ألّف كتاباً فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها<sup>(١)</sup> . ويبدو أنه اعتمد في وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ في جوانب من كلامه على نحو ما لاحظ المسعودي إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، وأست أدري كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . . إنما كان ينقل من كتب الـورّاقين<sup>(٢)</sup> . » وملاحظة المسعودي صحيحة ، ولكنها لا تغضُّ من أهمية هذا الكتاب الذي فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعاً جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره يعقوب بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقت بعد ذلك الكتب في هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار في كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها في السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبي البارِع .

## ٢

## الخطابة والمواعظ والنثر الصوفي

ضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئاً نادراً ، وحتى ما بقي منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

(٢) انظر مروج الذهب ١/١١٤ .

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجري (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

التي حكاها الطبري عن صاحب الزنج، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه<sup>(١)</sup> بحيث لا تكاد نثينها في وضوح. وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة في المساجد وفي خطب الجمع والعيد، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدى الورع الذي ظل في الحكم نحو عام، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامراء في كل جمعة ويخطب الناس ويؤمهم<sup>(٢)</sup>، ويروى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأعياد، فأرتج عليه ولم تُسمع خطبته<sup>(٣)</sup>، ولم يخطب خليفة بعده في العصر سوى الراضي، ولم تُؤثر خطبه.

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطاً عظيماً في المساجد فقد كانت تُعقد حلقات للوعاظ والقصاص وكان الناس يتحلّقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعيّنهم الدولة للخطابة في أيام الجمع ومنهم غير الرسميين، وهم الجمهور الأكبر. وكانوا يستمدون في وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوي وقصص الأنبياء والمرسلين، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره، وكانوا يُعسّون بعون الضعفاء والمساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين في ذلك بأعمال البر. وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين من مثل أبي العباس الطبري الذي مرّ ذكره والذي كان يعظ ويقص على المجاهدين في طرسوس. ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاص بعد الصلاة. وكانت العامة تشغف بهم شغفاً شديداً، حتى ليحكى عن الطبري أنه تعرّض لقاص ببغداد يُنكر عليه بعض ما يقوله، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة. ولا بد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قصاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والعلماء في الطرقات ببغداد ويقصون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية، وكانوا يُسلّكون في المشعوذين، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصاص الوعاظ،

(٢) طبري ١٠/٣١.

(١) الطبري ٩/٤١٤ وما بعدها.

(٢) مروج الذهب ٤/٩٦.

ولا صلة بين الطرفين إلا في الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحياناً كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أما قُصَّاصُ المساجد الوعَّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بني أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسند إليهم القصص في المساجد يُسندُ إليهم القضاء<sup>(١)</sup> . أما الوعَّاظ فكان منهم دائماً خطباء المساجد في الجمع والأعياد وأُثْمِنها في الصلاة ، وكان منهم كثيرون فُصَحَّاءَ بُلغَاءَ ، فكان الناس يَحْتَشِدون حولهم ، مُكْتَبِرِينَ لهم لإكباراً عظيماً .

وكانت المساجد دائماً مفتوحة ليلاً ونهاراً ، ودائماً يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختار أى وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعَّاظ الذين شهدتهم بغداد في العصر أبو الحسن علي بن محمد الواعظ المصري المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعَّاظ ، كانوا يسمون بالمدكِّرين ، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسيحجه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعَّاظهم الممثلين صلاحاً وتقوى وورعاً ، وكانوا يعظون الناس في المساجد وفي الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آي القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التي تأسرُ العقول والقلوب . ومن وعَّاظهم في العصر يحيى بن معاذ الرازي المتوفى عام ٢٥٨ ويروى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مَوعَظُ. الواعِظِ لَنْ تُقْبَلَ حَتَّى يَعْجِبَهَا قَلْبُهُ أَوْلَا

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهياراً . ومن أكبر وعَّاظهم في العصر أبو حمزة الصوفي المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مرَّ بنا في الفصل الثاني — أول من تكلم على رموس المنابر ببغداد خالطاً موعظه باصطلاحات

(١) الولة والقضاة للكندي (طبعة جيبست) ص ٤٢٧ .

الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمم والمحبة والعشق والأنس . وكان هؤلاء الوعّاظ يجذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعّاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورفقّص كل متاع .

وتكوّنت حول هؤلاء الوعّاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصوّر جهادهم العنيف في قسّمع شهوات النفس واذاتها وكيف كان الصوفيّ يقرّض على نفسه عتاءً شاقاً مضنياً لا يطيقه إلا أولو العزم . وعادة تحتوى القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفي إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالاً ثقلاً ، فن ذلك ما يروى عن بشر الحافي المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مرّ ببعض الناس فسمعهم يقولون : هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يفسّط إلا في كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى حين سمعهم يرددون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يبكيك ؟ فقال : إني لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صحت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يأتي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه<sup>(١)</sup> وكرماً . ويحكى عن السريّ السقّطى المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم انتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدّد) فامتعت العصفورة من أكل اللقمة التي تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام<sup>(٢)</sup> ! . ويروى ابن أخته الجسّيد أنه دخل عليه يوماً ، فوجده يبكى ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلّقه ههنا ، ثم إني نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرّد في الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطمته<sup>(٣)</sup> . وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السريّ نفسه من الشظف في العيش والحرمان الشديد . ويحكى عن رُويم بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣ ، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعاً ، أنه اجتاز في بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت

(٢) القشيري ص ١٠ .

(١) رسالة القشيري (طبعة سنة ١٣٤٦ هـ)

(٣) القشيري ص ١١ .

بمصر) ص ٢٠ .



الباب صبيته ومعها كوز ماء ، فأخذها منها وشرب ، فاستدارت له قائلة : صوفى يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط<sup>(١)</sup> .

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية ، إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساءً وشيباً وشباناً ، وكأن التصوف كان عاملاً قوياً في ظهور تلك الآداب وطبعها بطوايع الشعب ولغته وأفاظه . وتتصل بها الحكايات التي أخذت تؤثّر عن كرامات المتصوفة ، ومرّ بنا في الفصل الثالث أن الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٣٢٠ صنّف في تلك الكرامات كتاباً سمّاه « ختم الولاية » يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله في أرضه ، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة . ومن تكثّر إضافة الكرامات إليه في هذا العصر بنان الحمّال المصرى المتوفى سنة ٣١٦ ، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يُطرح بين يدي سبع ، فطرح وبقى ليلته ، وجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسبع بين يديه . وعجب خمارويه ، فأطلقه واعتذر إليه<sup>(٢)</sup> . وحكى أنه كان لرجل على آخر دين : مائة دينار ، بوثيقة ، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها ، فجاء إلى بنان ليدعو له ، لعله يجد الوثيقة الضائعة ، فقال له بنان : أنا رجل قد كبرت وأحب الحلواء ، اذهب إلى قريح ( حلوانى ) فاشتر رطل حلواء واثنى به ، أدعوك ، ففعل الرجل ، وجاءه . فقال له بنان : افتح ورقة الحلواء ، ففتحتها ، فإذا هى الوثيقة ، فقال : هذه وثيقتى ، فقال بنان : خذها ، وأطعم الحلواء صبيانك . ولم يكن يؤمن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوام المتصوفة ، وهو ما يعيننا ، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على السنة العامة ، وبذلك كان التصوف عاملاً قوياً في العصر على ذبوع لون شعبي جديد من الأدب ، وهو لون قصصى ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنّفات مثل كتاب « ختم الولاية » الآنف ذكره ، وكانت بدورها مصنّفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدي . ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم في العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتاً ، فيُحكى عن أبي يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلاناً يمشى في ليلة إلى مكة ، فقال :

الزاهرة ٢٢١ / ٣ .

(١) القشيري ص ٢١ .

(٢) انظر في هذه الحكاية وتاليها النجوم

الشیطان یمشی فی ساعة من المشرق إلى المغرب فی لعنة الله . وقیل له : فلان یمشی على الماء ویطیر فی الهواء ، فقال : الطیر یطیر فی الهواء والسّمک یمر على الماء<sup>(١)</sup> . وجاء رجل إلى سهل التستری المتوفى سنة ٢٧٣ ، فقال له : إن الناس یقولون إنک تمشی على الماء ، فقال له : سلّ مؤذّن الحِلّة ، فإنه رجل صالح لا یکذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذّن : لا أدری هذا ، ولكنه نزل حوض الماء فی بعض الأيام لیتطهر ، فوقع فی الماء ، فلولم أکن أنا لبقی فیهِ<sup>(٢)</sup> . ویروى عن بعض الصوفیة أنه قال : کان فی نفسی شیء من هذه الکرامات ، فأخذت قصبة من الصبیان وقمت بین زورقین ، ثم قلت : وعزّیک لئن لم تخرج لی سمكة قدرها ثلاثة أرطال لأغرقت نفسی ، قال : فخرجت لی سمكة قدرها ثلاثة أرطال ، فبلغ كلامه الجنّیّد ، فقال : کان حقّه أن تخرج له أفعی تلدغه .

والمهم أن التصوف نشرَ بهذه الحكایات المتصاة باحتمال المتصوفة لأثقال الشظف وما اعتقدته العامة فیما جرى على أيديهم من الکرامات أدباً شعبيّاً قصصياً کان يدور بین الناس . ولون ثالث من هذه الحكایات کان یقص أخبار المتصوفة لعل خیر ما یصوره کتاب أخبار الحلاج ، وهو أخبار وحکایات عنه بألسنة تلاميذه . تحمل أحواله وآراءه ومعتقده ، فن ذلك ما رواه تلميذه إبراهيم الحلوانی . قال<sup>(٣)</sup> :

« دخلت على الحلاج بین المغرب والعشاء . فوجدته یصلى . فجلست فی زاوية البيت . كأنه لم یحسّ بى لاشتغاله بالصلاة ، فقرأ سورة البقرة فی الركعة الأولى ، وفی الركعة الثانية آل عمران ، فلما سلّم سجّد وتکلّم بأشیاء لم أسمع بمثلها ، فلما خاض فی الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذٌ عن نفسه . ثم قال : یا إله الآلهة ویا ربّ الأرباب ویا من ( لا تأخذه سنة ولا نوم ) ردّ إلىّ نفسی لتلا یفتن بى عبادک . یا هو أنا : وأنا هو . لافرق بین إنسیّ ( وجودی ) وهویتک إلا الحدوث والقیدم . ثم رفع رأسه ونظر إلىّ وضحك فی وجهی ضحکات . ثم قال : یا أبا إسحق أما ترى أن ربی ضرب قیدمه فی حدوثی حتى استهلك حدوثی فی قیدمه ، فلم

(٣) أخبار الحلاج ص ٢٠ .

(١) القشیری ص ١٦٣ .

(٢) القشیری ص ١٦٤ .

يبقى لى صفة إلا صفة القديم ، ونُطقتى فى تلك الصفة . والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقتُ عن القدم ينكرون على ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى ، وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون بى مأجورون .

والحكاية تصور عقيدة الحلاج فى أنه يتحملة الآلام الثقال أصبح - كما يزعم - فى مرتبة عليا ، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه ، إذ ظهر فيه اللاهوت ، وأصبح لا يفرق بين نفسه وربّه : فقد امتزج الحدث أو الحدائث فيه بالقدم ، بل إنه لم تبق فيه صفة إلا صفة القدم ، بخلاف من حوله من الناس ، فهم جميعاً يستشعرون الحدوث ، أو قل كلهم حادثون ، وهو وحده الذى أصبح يستشعر القدم ، فلماذا ينكرون عليه التكلم عن القدم . مع أنه هو - كما يزعم - والقديم شىء واحد ! . وله عبارات تدل على أنه كان فى بعض أحواله يؤمن بتنزیه الذات العلية عن التشبيه بالمخلوقات وفى أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبىجاني قال (١) :

سمعت الحلاج يقول : ألزم (الله) الكلّ الحدوث لأن القدم له . والذى بالجسم ظهوره العرض يُلزمه . والذى بالإرادة اجتماعه قواها تُمسكه . والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت . والذى يقيمه غيره الضرورة تمسّه . والذى الوهم يظفر به التصوير يرتقى إليه . ومن آواه محل أدركه أين . ومن كان له جنس طالبه كسيف . إنه تعالى لا يظله فوق ولا يقله (يحملة) تحت . ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ولا يحدّه أمام . ولا يظهره قسبل ولا يفنيه بعند . ولا يوجد له كان ، ولا يفقده ليس (عدم) . وصمّه لا صفة له . وفعله لا علته له . وكونه لا أمده له . تنزّه عن أحوال خلقه . ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم .

ويستمر الحلاج فى مثل هذا التنزيه لله ، فهو لا يشبه الكائنات فى شىء ولا يشبهونه فى شىء ، تفرّد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم ، لا يلزمه شىء ولا يمسكه شىء ، كل واحد لا أجزاء له ، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم ، ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة ، لا شىء فوقه ولا آخر تحته ، لا يحدّه حد ولا جهة من الجهات ، موجود قبل كل وجود ، ولا يلحقه عدم

ولا فناء ، ولا يصفه وصف لا يُسأل عما يفعل ، أزلى أبدي ، ليس كمثل شيء ،  
قديم والخلق جميعاً حادثون . ومرّ بنا أنه ربما كان أول صوفي دعاً للانقسام بين  
الحقيقة (التصوف) والشريعة ، وفي أخباره أنه . قال في رسالة له أرسل بها إلى  
بعض تلامذته (١) :

« اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ،  
فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ،  
فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوابع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة  
عنده هوساً ، فبقى بلاعين ولا أثر . إن استعمل الشريعة استعمالها رسمياً . وإن  
نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً » .

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين ، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يسقطون  
الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ،  
بل إن المتصوف إذا ظل راقياً في مراقى الحقيقة العليا ، سقطت عنده لا الشريعة وحدها ،  
بل كل شيء حتى التوحيد ! . ولعل في الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع  
من ألوان النثر الصوفي ، هو تصوير الصوفية لاعتقاداتهم في مصنفات خاصة ،  
على نحو ما يلقانا في كتاب الطواسين له ، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة  
تصور كتابته الصوفية ، واتكن القطعة التي كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه  
وسلم في مستهل الفصل الأول من كتابه ، وهي تجرى على هذا النمط (٢) :

« طس سراج من نور الغيب بدآ وعاد . وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى  
من بين الأقمار ، برُجُه في فلك الأسرار ، سمّاه الحق أمياً لجمع همته ،  
وحرمياً لعظم نعمته ، ومكياً لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ،  
وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليامة ، وأشرق شمسه من  
ناحية تهامة . . . (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً  
منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) . أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره  
ظهرت ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان  
قبل الأمم . . . وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد ، ونعمته أوحد ، كان مشهوراً

(١) أخبار الحلاج ص ٧٣ .

(٢) الطواسين ص ٩ - ١٤ .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل ، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو الذى جنّالاً الصّدأ عن الصدر المغلول ، وهو الذى أتى بكلام قديم لا مُحَدَث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غنّامة برقت ، وتحتة برقة لمعت وأشرفت وأمطرت وأثمرت . العلوم كلها قطرة من بحره ، والحكم كلُّها غرقة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، والآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة .»

«وطس» تبتدئ بهاسور معروفة فى القرآن الكريم ، وقد اختار جمعها اسماً لكتابه! وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلاً فيه فكرة اللاهوت ، بل إنه ليجعل نوره المحمدي أول شىء خلقه الله . وقد ظل يظهر فى نبوات الأنبياء منذ آدم ، وليس ذلك فحسب ، فهو مبدأ الوجود وروحه ، وهو منبع العلم والعرفان والحكمة ، أو هو الأول السابق فى الوجود لكل وجود ، وهو الآخر فى النبوات وبين الأنبياء ، وكأنه الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود كله . فمنها يستمد الكون وجوده وكل نبي نوره . بل إنه هو المشاهد فى كل نور . وذكر أن الرسول عليه السلام أتى بكلام قديم ، وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة فى قوهم بأن القرآن كلام الله ليس قديماً بل هو مخلوق وحادث .

وواضح أن الحلاج كان يستخدم فى كتابه الطواسين السجع ، وبذلك لاعم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم فى الكتابات الأدبية . وربما كان فى اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة شامولاً أن يؤثر فيها بما حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية ، وكأنه كان يعرف قبل غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة . فقدمها إلى الطبقة الخاصة مؤدِعاً فيها من السجع والشعر ما يتنسّح للرمز والتأويل .

## المنظرات

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيباً لظهور كثير من كبار المناظرين في شئون الدين والعقل كما هيأ لبسط المعاني ومدّها بلخائز جديدة من توليد الأفكار وتشعيبها والتعديق في مساربها الخفية ، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط في هذا العصر منذ وقف المتوكل قوهم القائل بخلق القرآن وقسح آراء أهل السنة ، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة في بلاط المعتصم والوائق من قبله ، ونقصه أحمد بن أبي دواد .

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم ، ولكنهم لم يراجعوا عن الوظيفة التي ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل ، فكانوا بالمرصاد للملاحدة ، ومرّ بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلي الذي ردّ ردّاً مفحماً على ابن الراوندي الملحد . وظل الجدل عنيفاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ في كتاباته وخاصة في كتابه « فضيلة المعتزلة » وتلاه في رياسة المعتزلة بالبصرة أبو يعقوب الشَّحَّام ، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن حرب المعتزلي ، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السَّكَّاك الرافضي في علم الله جلّ جلاله وحدوثه وقدمه وإثباته ونفيه<sup>(١)</sup> ، وفي موضع آخر يحكى المناظرات التي انعقدت بين هذا الرافضي وأبي جعفر الإسكافي المعتزلي قائلاً : « وهذه مجالسة مع أبي جعفر الإسكافي معروفة يعلم قارئها والناظر فيهما مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبين<sup>(٢)</sup> » . وكانت تدور في مجالس أبي علي الجببائي المتوفى سنة ٣٠٣ مناظرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ ، وكانت ترجح كفة الأشعري غالباً . من ذلك مناظرتيهما في الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو علي الجببائي يوجبون على الله فعل الأصلح ، وقد سأله الأشعري في أثناء احتدام

(١) الانتصار للخياط ص ١١٠ .

(٢) الانتصار ص ١٤٢ .

المناظرة عن عاقبة ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ماتوا جميعاً ، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبي من أهل النجاة . وأخذ الأشعري يراجعته إلى أن قال له : فلو قال الكافر : يا رب علمت حال الصبي وأنه لو بقي لعصتي وعوقب فراغت مصلحته ، وعلمت حالى مثله ، فهلاً راعيت مصلحتي . حينئذ انقطع الجسبائي وألزمه الأشعري أن الله يخص من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معلّلة<sup>(١)</sup> .

وكان الخلاف واسعاً بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية ، فكثرت المناظرات بينهم ، وفي طبقات الشافعية للسبكي أطراف من هذه المناظرات ، وما يذكره أن أبا العباس بن سريج القاضي رئيس الشافعية ببغداد كان مشغولاً بمناظرة داود الظاهري ، حتى إذا توفي داود مضى يناظر ابنه محمداً في المذهب الظاهري ، يقول : ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية ، ويحكى أن ابن داود قال لابن سريج يوماً : أبلغني ربي ، فقال له : أبلغتك نهر دجلة ، وقال له يوماً : أمهلني ساعة ، فقال له : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة<sup>(٢)</sup> . وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعة معروفة مناظرات المبرد مع ثعلب بدار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد في مسائل اللغة والنحو<sup>(٣)</sup> . وكان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحياناً للمبرد في محاضراته بالمسجد ، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويحاورهم حتى ينزعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلامذته وحلقته<sup>(٤)</sup> .

ومن المناظرات التي اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافي ومتمي بن يونس المترجم المتفلسف في مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافي من علماء النحو النابيين ، وله كتاب كبير في شرح كتاب سيوييه . وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعاً في معرفة صحيح الكلام من سقيميه . وقد روى المناظرة أبو حيان التوحيدي ونقلها عنه ياقوت في معجمه<sup>(٥)</sup> ، والطريف أنه يذكر في فاتحتها من كان في المجلس من العلماء والفضلاء ، ويذكر

١ / ١٤١ ومعجم الأدباء ٥ / ١٣٧ .

(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١١٧ .

(٥) معجم الأدباء ٨ / ١٩٠ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣ / ٣٥٦

وما بعدها .

(٢) السبكي ٣ / ٢٣ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٨ وإنباء الرواة

أنهم كتبوا المناظرة في ألواح وبمحابر كانت معهم ، مما يعطى صورة عن مجلس المناظرات حينئذ . وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافي لمتى بن يونس عن المنطق ما يعنى به ، حتى يكون كلامه معه في قبول صوابه ورّد خطئه على سستن مرضى وطريقة معروفة ، ويحييه متى : أعنى به أنه آلة من الآلات يُعرّفُ بها صحيح الكلام من سقيمه وفساد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يُعرّفُ به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . ويقول السيرافي :

« أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل . هبّكَ عرفتَ الراجح من الناقص . ن طريق الوزن منّ لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه ( نحاس ) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان اجتهادك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيتُ عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : « حفظت شيئاً وضاعت منك أشياء » وبعد فقد ذهب عليك شيء ههنا ، ليس كل ما في الدنيا يُوزنُ ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُسكال ، وفيها ما يُذرع ( يقاس بالذراع ) وفيها ما يُمسح ، وفيها ما يُحزّر . وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك في المعقولات المقروءة ، والإحساس ظلال العقول ، وهى تحكيها بالتبديد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة . ودعّ هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكروه رفضوه . قال متّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المُدرّكة ويتصفّح الحواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس في المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه » . قال السيرافي :

« لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتبانية إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف



وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، واقد موهت بهذا المثال ، ولكم عادة في مثل هذا التدويه . ولكن ندع هذا . إذا كانت الأغراض المعقوة والمعاني لا يوصلُ إليها إلا باللغة الجمامة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد ازهدت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ » .

ويناقش السيراني مَسْتَى في ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حَيْفٌ على المنطق في أثناء هذا الطريق الطويل الذي سلكه إلى الفصحى ، ويقول له : كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وصفه . ويقول مَسْتَى إنهم أصحاب عناية بالحكمة وأولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات . وهو تعميم أكثر مما ينبغي . وَيَحْتَمِدُ الجدل ، ويسأله السيراني عن حرف واحد من الحروف التي يهتم بها النحو يدور في كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزة عند النحاة ، ويقول له استنبطتها من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تُدَلِّ به وتباهى بتفخيمه وعرفنا ما أحكامه وكيف موقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه . وَيُبْهَتُ مَسْتَى ، ويقول : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطق إلى النحو ، أما النحو فيحتاج إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مرَّ المنطق باللفظ فبالعرض وإن عبَّر النحو بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى . وينكر عليه السيراني قواه ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعاني ويسأله عن معاني الواو وكيف أنه يجهلها ، وهي حرف واحد ، فما باله لو سأله عن معاني جميع الحروف ، ويصور له معانيها وأن المنطق الذي يزُهي به مَسْتَى لا يستطيع بيانها . ثم يعرض عليه قولهم : « زيد أفضل الإخوة » ، ويسأله أيحوز أن يقال : زيد أفضل إخوته ، ولا يستطيع مَسْتَى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح في الكلام لأن إخوة زيد هم غير زيد ، وزيداً خارج عن جملتهم ، وَيُقْسِمُ في مشابهات نحوية وعبارات موهمة لا يحلها سوى النحو . ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة ، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة لعقل السليم به . وفي الحق أن لَسَنَ السيراني وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذي أتاح له الظفر بخصمه في تلك المناظرة الطويلة التي امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة ،

وقد أردنا بعرضها أن نصور احتدام المناظرات في العصر وأنها تناوأت كل جوانب المعرفة .

وحقّ الكتب المؤلفة في العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة ، حتى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تُعَسَّنُون بكلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلّف رداً أو نقضاً لكتاب آخر ، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات في المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات . ويوضح ذلك الجاحظ في بعض كتبه ورسائله . فقد بُنيت في جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى « الحيوان » يُبَسِّئُ على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل ؟ . وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصاين ، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم ، وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتاب فخر القحطانية والعدنانية وهو مناظرة بين اليمينية والمضرية . وقد يمدح الشيء في رسالة ثم يذمه في أخرى ، وكأنه يكتب مناظرة في رسالتين مثل رسالته في مدح النبيذ ورسالته في ذم النبيذ ومثل رسالته في مدح الكتّاب ورسالته في ذم الكتّاب ، ومثل رسالته في مدح الوراق ( بائع الكتب ) ورسالته في ذم الوراق . وله كتب مختلفة يجعل عنواناتها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبهة وكتاب الرد على النصارى وكتاب الرد على اليهود ، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية ، وله كتاب نقض الطب . ومن رسائله التي أدارها على المناظرة رسالته « فخر السودان على البيضان » ورسالته « مفاخرة الجوارى والغلمان » . وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة ، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان شكل مناظرة كبيرة مثل كتاب الترياق والتدوير ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين .

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائماً مناظرات ومجادلات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفي أو أدبي ، والمناظر ينتصر تارة ، وتارة ينهزم في تلك الساحة الفكرية الكبيرة : بغداد ، وهم لا يكلّون ولا يملّون ولا يتوقفون فدائماً جدل وحوار وتشعيب للدقائق المعاني وغوص على خفيّاتها وكوامنها

المستورة ، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحفز للحوار في يوم ثان أو لقاء ثان ، بل قد ينهزم المناظر وينتصر في المجلس الواحد مراراً ، وفي هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومي مشيراً إلى المتناظرين وجدالهم العنيف :

لنوى الجدال إذا غدوا لجدالهم حُجِّجٌ تَضِلُّ عن الهدى وتجورُ  
وهمُ كآنية الزجاج تصادمتُ فهوتُ وكلُّ كاسيرٍ مكسورُ

ويبدو ابن الرومي نفسه في شعره مناظراً كبيراً ، إذ تُطَبِّعُ جوانب من شعره - كما أسلفنا - بطوابع الجدال وما يُطَوِّى فيه من قدرة وبراعة على نَسْجِ الأدلة تارة وتمضها تارة أخرى . ومرَّ بنا ذمه للورد ونقضه لمحاسنه وقلبها مساوئ ذميمة في قصيدته «الرجس والورد» وهي مناظرة شعرية طريفة .

وتسرى هذه الروح في قصصه وحكايات وأخبار جُمعت ونُسِّت في الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ . لأنه يُفْتَتِحُ بكلمة : « قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » وتتوالى نقول عنه في فضائل الكتب ووصف فوائدها ، نجدها مبثوثة في كتاب الحيوان . ولعل هذا الاستهلال هو الذى جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، وأيضاً فإنه ينقل عنه في بعض فصوله نقولاً مختلفة . ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطرد في كتبه يعرف تَوّاً أن الكتاب ليس له ، والطريف أن صاحبه ذكر في مستهله عن الجاحظ قوله في بعض رسائله : « إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والحراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسى فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه المقدره على التقديم والتأخير والخط والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يحتاجون عند ذلك احتياج الإبل المغتلمة . . . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلى وموسوماً بي . وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلّم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن

خالد والعنّابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فثبت لهم به رياسة . ويأتى بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمى ولم يُنسب إلى تأليفى . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكى الجاحظ فى إنكاره لاسمه أحياناً على بعض آثاره . فنسبه إليه . ليرى رأى الناس فيه وحكمهم عليه . وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوى الذى سنعرض له عما قليل . وما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال عصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز<sup>(١)</sup> ، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ .

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشئام ، فكل خلق أو كل شىء تُعرضُ محاسنه ثم تعرضُ معاييه ، وتصورُ المعايير والمحسنين فى أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر . وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية ، وهى تتضح فى الاقتباس أحياناً من الذكر الحكيم<sup>(٢)</sup> والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية<sup>(٣)</sup> . وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل : « اشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت ولا إقامة لها إذا كُفرت . والشكر زيادة فى النعم وأمان من الغير »<sup>(٤)</sup> وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية فى مقدمتها الأمثال<sup>(٥)</sup> ، والأشعار وهى أكثر من أن ندرِّج عليها فى موضع معين من الكتاب . وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصورة لمكارم أخلاقهم أو مذامها . وبالمثل أخبار حكّام العرب وحكاياتهم على توالى الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكّام بنى أمية والرشيد والمأمون ، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلعب فيها اسم الأصمعى .

(٣) انظر مثلا ص ٣٢ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٣١ .

(٥) انظر مثلا ص ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٧٥ .

(١) المحاسن والأضداد (طبع دار مكتبة

العرفان بيروت) ص ١٣٨ ، ١٦٩ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢ .

وتلقانا حكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل : « ليس لكذب مروءة ولا لصجور رياسة ولا للملوك وفاء ولا لبخيل صديق »<sup>(١)</sup> ، وبالمثل تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل : « كالم رجل سقراط عند قتله بكلام أطلاله ، فقال أنساني أول كلامك طول عهده وفارق آخره فهى لتفاوته ، ولما قدّم بكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : تفتتل ظلماً قال : وكنت تحيين أن أقتل مظلوماً أو أقتل ظالماً »<sup>(٢)</sup> . وللملوك الفرس ووزرائهم شطر كبير من الأقاصيص والأخبار . ونختار باباً من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه الثقافات ، وهو باب محاسن السخاء ، وبما جاء فيه<sup>(٣)</sup> :

« روى عن نافع قال : لقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم ، قال : أحبهم إلى كل مؤمن بخيل وأبغضهم إلى كل منافق سخى قال : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : السخى قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخى أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل ، وأدوا الدواء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يُسْمَعَانِ الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمنفق خلفاً ولمسك تلفاً ، وملكان يناديان : أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبي قال : قالت أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصاً ما لبسته أو طريقاً ما سلكتها ، وكانت تعتق في كل يوم رقبة (عبداً) ونحمل على فرس مجاهداً في سبيل الله . . . وقال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلي نظر إلى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة . . . وقال الموبدان لأبرويز (ملك فارس) : أكنتم تَمَسُونُ أنتم وآباؤكم بالمعروف وترصدون عليه المكافأة؟ قال : ولا نستحسن ذلك لعبيدنا ، فكيف

(٣) المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٨ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢ .

نرى ذلك في كتاب ديننا ( كتاب زرادشت : الأستا ) من فعل معروفًا خفيًا وأظهره ليتطوّل به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب الأعداء من الأبرار ولا نذكره في الأتقياء والصالحين . وسئل الإسكندر : ما أكبر ما شيدت به ملكك ؟ قال : ابتدأرى إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . وكتب أرسططاليس في رسالته إلى الإسكندر : اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتسخره ( فتبليه ) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس ، فأودع قلوبهم محبةً بأثره تُبقي بها حُسْنُ ذكرك وكرامتك وشراف آثارك . ولما قدّم بزرجمهر ( وزير فارسي ) إلى القتل قيل له : إنك في آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تُدكرُ به ، فقال : أي شيء أقول ، الكلام كثير ولكن إن أمكنت أن تكون حديثًا حسنةً فافعل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي : نحن أقرى للضيف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدهما ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حمل به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمي : فنحن أحسن مذهباً في القرى ( الضيافة ) منكم ، قال : وما ذلك ، قال : نحن نسمى الضيف : مِهْمَان ، ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا له . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية ( قاضي البصرة المشهور في العصر الأموي ) كثرة ما يهب ويصل وينفق ، فقال : إن النفقة داعية إلى الرزق ، وكان جالساً بين بايين فقال للرجل : أغلق هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل تدخل الريح البيت قال : لا ، قال : فافتحه ، ففتحه ، فجعلت الريح تخترق البيت ، فقال : هكذا الرزق أغلقت البيت فلم تدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه ، وقال له : إنك أقرضتني ناقتك فاحتكم عليّ ، قال الرجل : راحلتين قال حاتم : لك عشرون أراضيت ؟ قال : نعم وفوق الرضا . . . وقيل في المثل هو أجود من كعب بن مامة الإيادي ، وبلغ من جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر في شهر قيظ . فذلوا وتصافوا ( تقاسموا بالحصص ) ماءهم ، فجعل النمر يشرب نصيبه ويظهر أنه عطشان ، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساق : آثر أخاك النمر حتى أضرب به العطش فلما رأى ذلك استحث راحلته وبادر حتى وصل

إلى وِرْدٍ ماء ، وقيل له : رِدْ كعب ، إنك وارد ، ولكن العطش غلبه فمات . . .  
ومن قول أبي تمام :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائله »

وإنما سقنا ذلك كله لندل على المزيج الثقافي الذي يتكوّن منه كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مزيج به عناصر قصصية عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوي وعناصر عربية من أخبار العرب رجالا ونساء ، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدوني وكلام أرسططاليس . وبين السطور نحسُّ شعوبية المؤلف حين يُعَلِّي ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عُرف عنهم من خصلة الكرم والجود . ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتمًا يذبح ناقة ضيفه ليقدم له الغداء والعشاء ، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلا منها عشرين ناقة ، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته . ولعل هذا الجانب في الكتاب هو الذي جعل المؤلف لا يُظهر اسمه ، حتى لا يؤخذ به . وفي هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قصص . ودائمًا نلتقي في الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار ، على نحو ما جاء في محاسن حفظ اللسان إذ قيل : إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميت عن قوس واحد ، قال كسرى : أنا على رِدِّ ما لم أقل أقدر مني على رِدِّ ما قلت . وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملككتني وإن كنت أملكها . وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت . وقال ملك الصّين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول<sup>(١)</sup> . وفي الكتاب قصص كثير متنوع في موضوعاته وفي مصادره وموارده ، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية ، وكذلك عن المرأة الفارسية ، فما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العُتبي على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« قال العتبي : كنت كثير التزوج ففرتُ بامرأة فأعجبتني ، فأرسلتُ إليها ألك زوج ؟ قالت : لا فصرت إليها ، فوصفت لها نفسي ، وعرفتها موضعي فقالت : حسّسبك قد عرفناك ، فقلت لها : زوجيني نفسك ، قالت نعم :

(٢) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

(١) المحاسن والأضداد ص ٢١ .

ولكن ههنا شيء هل تحتمله ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : بياض في مفرق رأسي .  
قال : فانصرفت ، فصاحت بي ارجع ، فرجعت إليها ، فأسفرت عن رأسها :  
فنظرتُ إلى وجه حسن وشعر أسود ، فقالت : إنا كرهنا منك ، عافاك الله ،  
ما كرهت منا ، وأنشدت :

أرى شَيْبَ الرجال من الغَوَايِ بموضع شَيْبهنَّ من الرجالِ »

وهي قصة طريفة ، وفي الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن ، تكثر  
فيها عناصر التشويق ، مما يجعلها قصصاً بديعة من ذلك قصة أضيفت إلى شيرين  
الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أتاه صياد بسمكة كبيرة<sup>(١)</sup>  
فأعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت لصياد بأربعة  
آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال : إنما أمر لي بمثل ما أمر  
به للصياد . فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت ؟ قالت إذا أتاك فقل له :  
أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ فإن قال : أنثى فقل : لا تقع عيني  
عليك حتى تأتيني بالذكر ، وإن قال : ذكر ، فقل له : لا تقع عيني عليك  
حتى تأتيني بالأنثى ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرني عن السمكة  
أذكر هي أم أنثى ؟ قال : بل أنثى قال : فتأتيني بذكرها ، قال : عمر الله الملك  
إنها كانت بكرأ لم تتزوج بعد ، فقال له الملك : حسناً ، حسناً ، وأمر له بأربعة  
آلاف درهم ، وأمر أن يُكْتَبَ في ديوان الحكمة : إن الغدر ومطاعة النساء  
يورثان العُرْم . وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش ، وقد تذكر أشياء  
غريزية تنبو عن الأذواق<sup>(٢)</sup> على نحو ما يجري في بعض قصص ألف ليلة وليلة ،  
وكانت قد تُرجمت ، وربما تأثر المؤلف بها ، وربما تأثر المؤلف في ذلك بالشعر  
المفحش الكثير الذي كان موجوداً في العصر . وقد يكون ذلك من أسباب تنكر  
المؤلف وإخفائه لاسمه . ويلقانا قصص ديني عن بعض الزهاد ، وقد نلتقي  
بمحكايات صوفية ، بل قد نلتقي بما يصور كرامات المتصوفة التي سبق أن  
تحدثنا عنها التي كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء ، فمن ذلك ما رواه الكتاب ،

(٢) انظر مثلاً القصة في ص ١٩٣ و ص ٢١٤ .

(١) المحسن والأضداد ص ٢٠١ .



قال<sup>(١)</sup> : « عن أبي مسلم الخولاني قال : إنه خرج إلى السوق بدرهم يشترى لأهله دقيقتاً ، فعرض له سائل ، فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي ، فأتى درب النَجَّارين ، فلأُ جرابه أو ميزوده من نشارة الخشب ، لتنتفع بها امرأته في إيقاد التَّنُورِ وأتى منزله ، فألقاه ، وخرج هارباً من زوجته . وأخذته فإذا هو دقيق أبيض حُوَارَى (فاخر) لم تر مثله ، فعمجنته وخبزته ، فلما جاء ووجد الخبز سألتها : من أين لك هذا الخبز ، قالت له : من الدقيق الذي جئتنا به ! . ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثوري لا تقل غرابة عن الكرامة السابقة . ولا نريد أن نسترسل في نقل هذا القصص الكثير الذي يزخر به كتاب المحاسن والأضداد ، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحتوى على عناصر مشوقة كثيرة ، وأنه كان يدخل في الأدب الشعبي العام ، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة ، والطريف أنه عُرِضَ ليجسم وجهين متقابلين في كل خُلُقٍ وكل خصلة ، فثلا الصدق له محاسنه ، ولهذا المحاسن أقاصيصها وله معاييه ، ولهذا المعايير أقاصيصها . وبالمثل كل فضيلة ، فوفاء النساء لمحاسنه أقاصيصها ولعاييه أقاصيص تقابها وتناقضها أشد المناقضة . وبذلك يأخذ عرض هذه الأقاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية ، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية .

ويلتقى بهذا الكتاب في موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البيهقي ، وقد أغفلت الحديث عنه كتب التراجم ، غير أنه يُفهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر في آخر حديثه<sup>(٢)</sup> عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه في زمنه . وهو يستهل كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووصف محاسنها مثل المحاسن والأضداد ، ويمثله أيضاً في النقل كثيراً عن الجاحظ . ثم يفتح طائفة من الفصول لم ترد في الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم

مصر ومطبعها) ٢ / ٢٣٨ .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٤١ .  
(٢) انظر المحاسن والمساوي (نشر مكتبة نهضة

وفضائله ومساوئ المتنبيين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبتهم ومساوئ من عادى على بن أبي طالب ومحاسن ابنه الحسن والحسين ومساوئ قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوئ المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن علي وعبد الله بن العباس وفضائل بنى هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول . وكل هذه المقدمات ينفرد بها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد ، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتائين يلتحمان ، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوئ كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأضداد ، مما يؤكد أن مؤلفيهما واحد ، وكأن البيهقي ألّف الكتاب الأول ، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش في القصص ، ثم رأى أن يخرجها إخراجاً جديداً وينسبه إلى نفسه ، مُنَحِّياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأدواق السليمة من القصص المفحش مع وضع المقدمات آتفة الذكر . ويبدو منها أنه كان يُكِنُّ نزعة شيعية ، وإن لم يُبَسِّرْها بقوة خوفاً على نفسه من المقندر وحواشيه . وهو في هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز<sup>(١)</sup> على نحو ذكره له في النسخة القديمة أو بعبارة أخرى في المحاسن والأضداد .

وطبيعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هي نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجدّدة له ، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير ، وإذن فكل ما قلناه عن المزيج الثقافي في المحاسن والأضداد ينطبق بخدافيه على هذا الكتاب ، وفيه بعض آي القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد ، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحوارييه ، ومن طريف ما نقله عنه ، قواه<sup>(٢)</sup> :

« إن ابن آدم خلُق في الدنيا في أربع منازل ، هو في ثلاثة منها واثقٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وهو في الرابعة سيّئٌ الظن ، يخاف خذلان الله عزَّ وجلَّ إياه ، فأما المنزلة الأولى فإنه خلُق في بطن أمه خَلْقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرّحيم وظلمة المشيمة ، يُنزل الله جَلَّ وعزَّ عليه رزقه في جوف ظلمة البطن . فإذا خرج من ظلمة البطن وقع في اللب لا يخطو إليه بقدم

(١) راجع المحاسن والمساوئ ص ٢٧٦/١ ، (٢) المحاسن والمساوئ ١/٥٩ .

ولا ساق ولا يتناولها بيد ولا ينهض بقوة ويكرهه عليه إكراهًا ، حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه . فإذا ارتفع من اللبن وقع في المنزلة الثالثة في الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام ، فإن مات أبواه من غير شيء عطف عليه الناس ، هذا يُطعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يُؤويه . فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلا خشى ألا يُرزق ، فيثب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ويكاثروهم على ( يغصبهم ) أموالهم مخافة خذلان الله عزَّ وجلَّ .  
إياه .

والنص موجود في المحاسن والأضداد<sup>(١)</sup> ، ولكن العبارة هنا نُقِحت وهُدِّبَت بصور مختلفة ، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائماً هذا التنقيح ، مما يشهد بأن يداً واحدة هي التي كتبتهما ، وأن أولهما كان أشبه بمسودة واتخذ الثاني شكل نسخة مهذبة منقحة قد صُنِّيت وأُخْلِيت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية ، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأقاصيص ، كهذه الأقصوصة التي تلتقنا في الحديث عن محاسن الولايات ، وهي تمضي على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« دخل محمد بن واضح دار المأمون ، وختلته أكثر من خمسمائة راكب ، كانهم راغب إليه وراهب منه ، وهو إذ ذاك يلي عملاً من أعمال السَّواد ( الأرض المزروعة ) في العراق . فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه قال : يا أمير المؤمنين أعفني من عمل كذا وكذا ، فإنه لا قوة لي عليه ، فقال له المأمون : قد أعفيتك . واستعني من عمل آخر . وهو يظن أنه لا يُعفِيه . فأعفناه ، حتى خَرَجَ من كل عمل في يده في أقل من ساعة ، وهو قائم على قدميه . فخرج وما في يده شيء من عمله . فقال المأمون لسالم الحوائجي : إذا خرج فانظر إلى موكبه وأحص من بقى معه - وكان المأمون قد رآه من مستشرق له حين أقبل - فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله . فنظر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية<sup>(٣)</sup> . فرجع سالم إلى المأمون فأخبره ، فقال : ويلهم

(٣) غاشية : غطاء .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٢٨ .

(٢) المحاسن والمساوي ١ / ٢٧٣ .

أو تجملوا له ريثما يرجع إلى بيته كما خرج منه ، ثم تمثل فيهم :  
 وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يِلَاقِ الَّذِي لَاقَى مَجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ (١)  
 ثم قال : صدق رسول الله وكان للصدق أهلا حين قال : لا تنفع الصنعة  
 إلا عند ذي حسَبٍ أو دين .

ويُفيض هذا الكتاب كما نفيض مسودته : « المحاسن والأضداد » بكثير من  
 أحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية ، وخاصة العصر العباسي ،  
 ونرى البيهقي يفتح فيه — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع — فصلا طويلا عن  
 أصناف (٢) المكدين وأفعالهم وهو فيه ينقل عن الجاحظ وما كتبه عنهم في مصنفه  
 البخلاء ، وقد عرض فيه حيلهم وتجرؤهم في البلدان ونواذرهم ، فمن ذلك (٣) :

« أنه أتى سائل داراً يسأل منها ، فأشرفت عليه امرأة من غرفة ، فقال لها :  
 يا أمة الله بالله أن تصدقني على بشيء ، قالت : أي شيء تريد ؟ قال : درهماً ،  
 قالت : ليس عندي ، قال : فدائماً (جزءاً من درهم) ، قالت : ليس عندي ،  
 قال : ففلساً (جزءاً من دنانير) ، قالت : ليس عندي ، قال : فكسوة ،  
 قالت : ليس عندي ، قال : فكفناً من دقيق ، قالت : ليس عندي ، قال :  
 فزيتاً . . . حتى عد كل شيء يكون في البيوت ، وهي تقول ليس عندي ، فقال  
 لها : فما يجلسك عندك ، مَرَّتِي ، أسألي همي . »

وواضح أننا لا نعثر في المادة الأدبية التي يحتويها هذا الكتاب وسالفه على شيء  
 من السجع أو التكلف لألوان البديع أو لأي زخرف أو تنميق ، فهي مادة سهلة ،  
 ليس فيها أي حليات لفظية ولا غير لفظية ، وليس فيها أي صعوبات لغوية ،  
 وهي لذلك تُعدُّ مادة شعبية ، أو قل إن الكتابين مصنفان كبيران من الأدب  
 الشعبي في العصر ، وضعهما أديب ممتاز في شكل مناظرات ومحاورات ، حتى  
 يشوق إلى قراءتهما . ولم يكتف بهذا التشويق العام ، فقد أدخل في الأخبار  
 والأقاصيص عناصر كثيرة منه تدفع العامة والخاصة إلى الشغف بقراءة  
 الكتابين .

(٣) المحاسن والمساي ٢ / ٤١٧ .

(١) أم عامر : الضعيف .  
 (٢) المحاسن والمساي ٢ / ٤١٣ .

## الرسائل الديوانية

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياح وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرق الدولة وغربها ، ولكل ولاية ديوان وأحياناً دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذي يُشرف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين في سامراء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى في حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان هن دواوين يقوم عليها كُتّاب ينظرون في الدخّل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملاً قوياً في نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب في دواوين الدولة إذا أظهر نبوغاً ارتقى سريعاً ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح والياً لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولي - فيما ولي - البصرة . وكثير من الولاة كانوا يُستقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمي بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين في سامراء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، ينفد عليها الشباب ، ويختبرون اختباراً دقيقاً ، فمن نجح في الاختبار وُظّف فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبج بعض الرسائل ، فإذا نالت رسالة حُظوة من رئيس الديوان تمّ له سَعْدُه . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب في أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الدرّة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألف لهم في ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه في شئون الحجاج ، وأيضاً لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكَيِّفُون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلاسفة مما جعل ابن قتيبة يظن بهم الظنون وأنهم يعرفون إلى آذانهم في علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفروا على ما تُرجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوّدون به ، حتى يستمدوا منه في معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجه إلى العامة ولا بد أن تفهّم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئاً من التنديق حتى تنال استحسان مَنْ يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدواة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة خليفة أو خاسع أو دعوة إلى الجهاد في سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاينة بعض الجناة . وتفنّسوا في المقدمات وخاصة في التحميدات وما اتصل منها برسالة الخميس التي كانت تُكْتَبُ إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتّبين على عهود الخلفاء لتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور في الكتابة الديوانية وأساليبها في العصر . ومعروف أن أول كاتب نابّه يلقانا في العصر هو إبراهيم بن العباس الصولي الذي حرّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل في الفتوح ، وإن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل في الفصل التالي . ومن كتّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره ولبحترى فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبرى برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألف سوط لِمَا صحّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمه لأبي بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

حفصة زوجي الرسول ، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التنميق<sup>(١)</sup> .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستورز أحمد بن الحصب ، وكان كاتباً أديباً ، مما جعله يعهد إليه بكتابة الكتب التي تصدر عنه ، وكان من أوائلها كتاب في الجهاد كتبه لسبع ليال خلسون من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتجه وصيف إلى الغزو في أرض الروم ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

« قال عز وجل أمرأ بالجهاد مفترضاً له : ( انفسروا خيفاً وثيقاً ) وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ) . وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حال لا يكابد في الله نصيباً ولا أذى ، ولا يسئق نفقة ولا يقارع عدواً ، ولا يقطع بلداً ، ولا يبطأ أرضاً ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجر مأمول ، قال الله عز وجل : ( ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصيب ولا مسخمة حصّة<sup>(٣)</sup> في سبيل الله ولا يبطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يسئقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ) . . . وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم ، ويستسعون به في حط أوزارهم وفكك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلة ، وأعلى لديه رتبة ، وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا الله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وممحوها بها دون من وراءهم من إخوانهم وحریم المسلمين وبسيفهم ووقتهم ( قمعوا ) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة في التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا بسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الحصب بأنه كان كاتباً مجيداً . واحتفظ الطبري له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد<sup>(٤)</sup> ، نحا فيه منحى الكتاب السابق في الصياغة . ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحد الكتاب البلغاء على

(٣) غمضة : جوع شديد .

(٤) طبري ٩ / ٢٤٧ .

(١) طبري ٩ / ٢٠٠ .

(٢) طبري ٩ / ٢٤١ .

ديوان رسائله ، وسنخضه بحديث مستقل في الفصل التالي . وسرعان ما يتولّى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخري إنه أحد الكتاب الحذّاق الأذكياء (١) . وكان من كبار ولاته وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديباً بارعاً ، وفي الطبرى رسالة له وجهه بها إلى عمّال النواحي حين أعطاهم المعتز الحق في التنكيل بأعدائه ، وهى تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط (٢) :

« أما بعد فإن زيغ الهوى صدّف بكم عن حزم الرأى ، فأقحمكم حبال الخلل الخطأ ، ولو ملّكتكم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البصيرة ونفّتى غيابة (٣) الحسيّرة ، والآن فإن تجنّحوا للسلم تحقّقنوا دماءكم وترغّدوا عيشكم ويصنّح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم (٤) ، ويسنّح النعمة عليكم ، وإن مضيم على غلّوا أنكم وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم فمأذّنوا بحرب من الله ورسوله بعد نبيّد المعذرة إليكم وإقامة الحجّة عليكم . ولئن شنت الغارات وشبّ ضرام (٥) الحرب ، ودارت رحاها على قطنبها وحسّمت (٦) الصوارم أوصال حماها ، واستجرت (٧) العوالى من نهمها ، ودعيت نزال (٨) ، والتحم الأبطال ، وكسّحت (٩) الحرب عن أنيابها أشداقها ، وألقت للتجرّد عنها قناعها . واختلفت أعتاق الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البغنى لتعلمنّ أىّ الفريقين أسمح بالموت نفساً ، وأشدّد عند التمام بطشاً ، ولات حين معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) » .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاضل واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : (فإن تجنّحوا للسلم) ومثل : (فمأذّنوا بحرب من الله ورسوله) و (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) ، مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية : وقد استخدم كلمة :

- (١) الفخري ص ١٨٢ .  
 (٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ .  
 (٣) غيابة : غشاة .  
 (٤) جريرة جارمكم : جريمة مذنبكم .  
 (٥) ضرام : وقود .  
 (٦) حسمت : تطلعت .  
 (٧) استجرت : اجترت .  
 (٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب .  
 (٩) كسّحت : كشرت .



« واستجرت » بدلا من كلمة : « واجترت » دلالة على قدرته في القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزال » وهو مثل يضرب لاحتمام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أندر » . وشيء أهم من ذلك كله واضح في الرسالة وضوحاً بيئناً ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسنت الصوارم أوصال حمايتها واستجرت العوالى من نهمها . . . وكلمت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها » . صور متراكمة ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حملة وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض .

ويخلف المعتز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرّ بنا يخطب في الناس كل جمعة يعظهم ويدكرهم الآخرة ، وكان يعمل في دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك<sup>(١)</sup> ، وله كتاب في التنويه بخليفة وخطابته في عيد الفطر . ولا نرتاب في أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرّ بنا ما أصاب المعتضد من حصر حينما حاول الخطابة في أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالت في كنف السلامة بسلامته ، وظلّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبت إلى أمير المؤمنين فيما وليه الله به في منخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وقته له من التقرب إليه بوسائل التذلل في طاعته والاجتهاد في شكره والمناصحة في مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . منّا من الله خصّ به

خليفته وأعطاه فضل مزيته بما وفقه له من العدل والنصفمة ، والبر والمرحمه ،  
والعطف والرأفة .»

وفى هذه الفقرة ما يصور كيف أخذ كتّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن  
الثالث الهجرى يصطنعون السجع في جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن  
عند سعيد بن عبد الملك ، وحقاً أخذ السجع يدخل في الرسائل الشخصية منذ  
القرن الثاني كما صور ذلك كتابنا العصر العباسي الأول على نحو ما يلقانا في رسالة  
ابن سيبأة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تُكتَب بأسلوب مرسل ، يشيع  
فيه أحياناً الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به في تلك الرسائل ، وكأن الأذواق  
أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره في الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدى المعتمد ، ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه ، سليمان بن  
وهب ، ويقول الفخرى (١) عنه : أحد كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة  
وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويسرى عنه أنه كان يكتب ، في أول عهده  
بالعمل ، بدواوين الدولة بين يدي محمد بن يزيد وزير المأمون . وكان إذا انصرف في  
الليل إلى داره ناب عنه في دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهم عساه  
يعرض في الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه في إحدى الليالي إذ طلبني  
المأمون ، فقال لي : اعمل نسخة في المعنى الفلاني ، ووسّع بين سطورها وأحضرها  
لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب وبسببته وأحضرته إليه ،  
فلما رأني قال : كتبت مسودة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب ، فقال : بسببته ؟  
قلت : نعم ، فزاد في نظره إلى كالمعجب مني ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على  
وجهه ، وقال : يا صبي لا أدري من أى شيء أعجب أمن سرعة فهمك أم من  
من حسن خطك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل في  
الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له  
كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ  
منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته في الأغاني ، وإلا فقرة  
نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو (٢) :

« أنا مقرّم معترف ، فما تُرَاك صانعاً بمن أعلّمتك زِمَامَه ، وأمكنتك من قياده ، وحكمتك في أمره ، معاقباً له أو متفضلاً عليه بالعمو عنه ؟ لكنني أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير خسلاً في جنبها ، فالأيام بما تحبُّ أمامك » .

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصوّر صياغةً جزلةً رصينة ، كما تصوّر ذوقاً مهذباً في الاعتذار والاستعطاف ، حتى يجعل زِمَامَه وقياده بيد صديقه ويحكّمه في أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعمو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتضد أبو العباس أحمد بن ثوبان ، وهو من أعلام الكتاب في العصر ، وسنخسه في الفصل التالي بحديث مستقل .

وكان يلي وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى (١) :  
 « من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلاً ، ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك - يا أمير المؤمنين - تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عِرضاً ، ولا يجد أحد منك عوضاً ، وكان الشاعر عَسَاك بقوله :

يُبَكِّي علينا ولا نَبْكِي على أحدٍ  
 لنحن أغلظُ أكباداً من الإبلِ »

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها في لَعْنِ معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهلّها عبيد الله بالتحميد قائلاً (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله العلي العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذي يعلم أسرار الصدور وضماير القلوب لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات العلّيا ، ولا في الأرضين السفلى ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . وضرب لكل شيء أمداً ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذي برأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفة ، على سابق علمه في

طاعة مطيعهم ، وماضى أمره في عصيان عاصيهم ، فبين لهم ما يأتون وما يتقون ، ونهتج لهم سبل النجاة ، وحذّروهم مسالك الهلكة ، وظاهر عليهم الحجة ، وقدّم إليهم المعذرة ، واختار لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأكرمهم به . وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعروته أولياءه وأهل طاعته ، والعائدين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته ( ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم ) . والحمد لله الذي اصطفى محمداً رسوله من جميع بريته ، واختاره لرسالته ، وابتعنه بالهدى والدين المرتضى إلى عبادته أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذّن له بالنصر والتمكين ، وأيدّه بالعرز والبرهان المتين ، فاهتدى به من اهتدى ، واستنقذ به من استجاب له من العمى ، وأضلّ من ( أصبر وتولّى ) حتى أظهر الله أمره ، وأعزّ نصره ، وقهر من خالفه ، وأنجز له وعده ، وختم به رسله ، وقبضه مؤدياً لأمره ، مبلغاً لرسالته ، ناصحاً لأمته ، مرضياً مهتدياً إلى أكرم مآب المنقلين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلّى الله عليه أفضل صلاة وأتمّها ، وأجلّها وأعظمتها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين .

ويكثر السجع في مقدمة هذه الرسالة التي كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شيء طبيعي ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقاً لم يطرد فيها بعد ، حتى في هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه في الرسالة . وقد مضى يصور استجابة نبي هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من نبي أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً في ذم أبي سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً وأقدمهم إليه سبقاً وأحسنهم فيه أثراً وذكراً على بن أبي طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبياً نقرأ من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرّة وسقّمه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجترأ على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لعترته واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بني مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه وتصيبهم المجانيقَ على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهى كما ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بيننا هداكم الله ، ونحن المستحفظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله : فقفوا عند ما نطقكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله في هدايتكم لرشدكم وفي حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مستحقين طاعته مستحقين ( حاملين ) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكتابُ قلوبَ العامة حول العلويين ، لما كان لجدِّهم علي بن أبي طالب من بلاء عظيم في إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يده وهم صاغرون . وفي الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . وواضح من الفقرة الأخيرة أن عبید الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع في جوانب من كتابته في الحين بعد الحين . وخاصة في توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكره بأمره وأنه من زرعه وغرس يده ، فوقع في رقعته<sup>(١)</sup> :

« أنا - أسعدك الله - على الحال التي عهدت ، وميسل إليك كما علمت ، وليس من أنسيناه أهملناه . ولا من أخرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حتمك علينا أن تذكرنا بنفسك ، وتعلمنا أمرنا ، وقد وقعت لك برزق ( راتب ) شهرين لتزريح علتك وتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقى أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع - كما هو واضح - سجع خالص . وسرى عما قليل أن سريان السجع في الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجري كان أقوى منه في الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) أخذ السجع يعم في جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً خالصاً . وبذلك

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشى بالسجع<sup>(١)</sup>، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفي مقدمتهم ابن الفرات. وكان علي بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة: ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقاني، فقد كان شغوفاً بالسجع شغفاً شديداً، وتروى له في ذلك نوادر كثيرة، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار في العراق تأخر في حمل غلّة إليه، فكتب إليه هذه العبارات: «احمل الغلّة، وأزح العليّة، ولا تجلس متودّعاً في الكليّة (الستر)» ولاحظ أنه قد حشّر الكليّة في الكلام لاستكمال السجع، فالتفت إلى الكاتب وقال له: أفي النيل بتّ يحتاج إلى كلل؟ فقال له الكاتب مداحياً مرثياً: إي والله وأي بتّ، ومن أجله يلزم الناس الكليل ليلاً ونهاراً<sup>(٢)</sup>. ووقّع في رسالة وجه بها إلى بعض عمّاله: «الزم - وفقك الله المنهاج، واحذر عواقب الاعوجاج، واحمل ما أمكن من الدجاج، إن شاء الله»، وكان أن حمل العامل إليه دجاجاً كثيراً، فقال: هذا دجاج وفترته بركة السجع<sup>(٣)</sup>. وكان الولاة يقلدون الوزراء في هذا البدع الجديد فقد ذكر الرواة أن الولاة على كور الأهواز كتب إلى علي بن عيسى كتاباً سجع فيه، فكتب إليه وقد صمّم على عزله: «عولت بنا على كلام ألفتة، وخطاب سجعته أوجب صرّفك عما توليته<sup>(٤)</sup>».

وكان كتاب الدواوين على شاكلة الوزراء يتسجعون في كتاباتهم، وفي مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوبان القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمذوف سنة ٣١٢، وكان في باكورة حياته يكتب بين يدي عبيد الله بن سليمان بن وهب، وكلّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد، فقال في الفصل الذي احتاج فيه إلى ذكرها:

«وأما الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك، عناية بها، وحياطة عليها، ورعاية لمودتك فيها»، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات،

(١) تاريخ الوزراء للهلال بن الحسن ص ٣٣٧ (٢) نفس المصدر والصفحة.

(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥.

(٢) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧.

فأخذ ينقدها له قائلاً : « تفاعلتَ لامرأة زُفَّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردَّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حسُنَ موقعها منا ، وجعلَ خطرنا عندنا ، وهي وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفتقدنا لها ، وأنسنا بها ، وأسرورها بما وردت عليه واغبتاها بما صارت إليه » لكان أحسن<sup>(١)</sup> .

وواضح ما حمل نقد عبید الله بن سليمان إلى الشاب في مطالع عمه بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذي حمّله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد . ومعروف أن عبید الله توفي سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب في دواوينه ، وحتى يعهد إليه بتولى ديوان الرسائل ، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع في كل ما يصدر عنه ، على نحو ما يصور ذلك منشورٌ وجهته باسم الخليفة المقتدر إلى العمّال في البلدان المختلفة ينوه فيه بابن الفرات في وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غِنَى عنه ، ولا للملك بُدّاً منه . وكان كتاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرّين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مدعنين بأنه الحوّل القلّيب ، الحنك المجرب ، العالم بيدرة المال كيف نُحلب ، ووجهه كيف تُطلب ، انتضاه<sup>(٣)</sup> من غمّده ، فعاود ما عُرف من حدّه ، فنفد الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودبّر الأمور كأن لم يسخل منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة في الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مُقنّلة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائماً ففي الحين بعد الحين ، وكان كاتباً بليغاً ، وفيه يقول الصولي : « ما رأيت وزيراً منذ توفى القاسم بن عبید الله

أخرى له مسجوعة في الهدايا ص ٢٠ .

(٣) انتضاه : سلّه .

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر

الأدب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٩٧ وانظر رسالة

ابن سليمان بن وهب (وزير المكتنفي) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطأ ، ولا أكثر حفظاً ، ولا أسلط قلماً ، ولا أقصد بلاغة ولا آخذَ بقلوب الخلفاء من ابن مُقَمَّلَة<sup>(١)</sup> وهو صاحب الخط الذي تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفي إلى الوضع الذي شاع في العالم العربي ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة في وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعمرُضَ جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلص من المحنة ، واستوزره المقنن ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة ، تجرى على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« أمسكتُ — أطال الله بقاء الوزير — عن الشكوى ، حتى تناهت البسْوى ، في النفس والمال ، والجسم والحال ، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحيرة والتلبّد ، وعيالي إلى الهتكة والتشرد . وما أبداه الوزير — أيده الله — في أمرى إلا بحق واجب ، وظنُّ غير كاذب . وعلى كل حال فلي ذِمامٌ وحرمةٌ ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعتها فرعاية الوزير ، أيده الله تعالى بحفظه ، ولا مفرع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى — أطال الله بقاءه — أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنعم بإحياء مهجته ، وتخايصها من العذاب الشديد ، والجهد الجهد ، ويجعل له من معرفته نصيباً ، ومن البلوى فرجا قريباً » .

وكأن السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع في مكان من رسالته عاد إليه في الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابة ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفي سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب في أن أحمد مضى في إثر أبيه يسجع في رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله في وصف فتح<sup>(٣)</sup> :

(٢) الهداني: تكلمة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .



« فلم يُسفر العجاج<sup>(١)</sup> إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجّل ، أو جريح معطل ، أو أسير مكبّل ، أو مستأمنٍ محصّل ، أو حقيبة ملاءها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نصّب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه وآلئه . إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه في الكلام .

٥

### الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم في الحرف والرجاء والرغبة والرغبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناع . وبذلك نافس النثر الشعري في مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتاب في ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة في الفن الكتابي ، وأيضاً فإن الشعراء أنفسهم أدنوا بدلائهم في تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير في نفوس من توجّه إليهم . وبذلك توفّر للرسائل الإخوانية كثير من الكتاب والشعراء النابهين ، الذين استطاعوا أن يبثوا في النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لرى قوماً إذا سُئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودي عن أبي العباس المكي نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة في سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل ، فقال له : أيكون ذلك منشوراً أو منظوماً ؟ قال : لا ، بل منشوراً<sup>(٢)</sup> . فالنثر أصبح له القيد المعلن على

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤ / ٧٠ .

(١) العجاج : غبار الحرب .

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا في الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر في التأثير في وجدان القارئ ، بما وفّر له كتّابه العظام من جزالة الألفاظ ورسائنها ومن حسن تلاؤمها في الجرس . فالكتّاب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحياناً بين حَرْفٍ وحرف ، حتى يأسرِ العقول والألباب . وكان أكثر من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يسرّ تعابيره وما يجرى فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه في بعض الأحوال أداة لتصوير خواطهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفاً . وتحمّل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل في عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاءً وابتهاًل ، يقول (١) :

« أسعدك الله - يا أمير المؤمنين - بكرّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك في إقبال الزمان ، وبسسطِ بيسمنِ خلافتك الآمال ، وخصّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشدّ بك أزر التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الحريف المغدقِ ( كثير المياه ) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة ليلها نهاية ضارب المثل ، وعمرّ ببلاتك الإسلام ، وفسح لك في القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسرّبلك ( ألبسك ) العافية ، وردّك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدية ، والأزمة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفي رأينا أنه لم يعش طويلاً في عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً في العصر العباسي الأول أن يتهدوا التحف والطرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر في هذا الموضوع ، فمن ذلك أن نرى الكندي الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفاً ويكتب معه (٢) :

(٢) غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧ .

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٨٥ .

« الحمد لله الذى خَصَّكَ بمَنافع ما أهدى لآمالك ، فجعلك تهتزُّ للمكارم ، اهتزاز الصارم (السيف) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور (المتأثر اللامع) وتصون عِرْضَكَ بالإرفاد (الإعطاء) كما تُصان السيوف فى الأغمداء ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خَدِّكَ المَشْوَف (المجلو) كما يَشِفُّ الرونق فى صفحات السيوف ، وتَصْفَلُ شرفك بالعطيات ، كما تُصَفَّلُ متون المَشْرِفِيَّات (السيوف) » .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطْوَةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبه بالسجع ، وكأنما لحق عصرًا كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومَرَّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعتز كان كاتباً رسالياً (صاحب رسائل) ليس له فى زمانه ثان . . . وقد قلنا فى أخبار العتّابى (وكان شاعراً كاتباً) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتّاب ضعيف جداً ، فإذا اجتمعوا فى الواحد فهو المنقطع القرين «<sup>(١)</sup> . وقد أثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحاً له معددا فضائله ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وائتمنك على رعيته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصدّر عن رأيك . . . ولم يزد — أكرمك الله — رفعة وتشريفًا إلا ازددت له هبةً وتعظيمًا ، ولا تسليطًا وتمكينًا إلا زدّت نفسك عن الدنيا عزًّا وفنًا وتنزيهاً ، ولا تقريبًا واختصاصاً إلا ازددت بالعامّة رأفةً وعليها حدًّا بئس ، لا يُخرجك فرطُ النصيح له عن النظر لرعيته ، ولا إثارة حقه عن الأخذ بحقها عنده . . . ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها . . . تمضى ما كان الرشد فى إمضائه ، وتُرْجى ما كان الحزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعمُّ فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان وليًّا . . . وكافّة الرعية — إلا من غمط (بَطِر) منهم النعمة — مُشنون عليك بحسن السيرة ، ويُسمن النقيبة » .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٤١ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ .

وقدرة أبي على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقد كان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفاً حسناً ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يسجّر في هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يسق في مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معاني سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حديد عليه ، وحق كل فرد فوق حق الخليفة نفسه ، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، في تواضع لا يسف به إلى الدنيات دون تكلف . لا يؤذى محقاً وإن كان عدواً ، ولا يسر مبطلاً وإن كان صديقاً . والرعية جميعها تحبه وتُشنى عليه لسيرته وفصائله الطيبة . وله رسالة مسجوعة تدخل في العتاب أو بعبارة أدق في الهجاء كتب بها إلى أبي العيناء منافسه في منادمة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول (١) :

« من أبي على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبلغ في التحذير ، المَعْدِر في النكير ، إلى أبي العيناء الضَّير ، ذى الرأى القصير ، والخَطَل الكثير ، والإقدام بالنعير ، سلامٌ على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإني أحمد الله إلى نفسه وأوابائه من خَلَقَهُ ، على ما هداني من دينه ، وعرفني من حقه ، وامتَن عليَّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حَسْبُهُ ، الرَّدِيء مذهبه ، الدَّنيء مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذِيء لسانه ، المُبْتَلَى به إخوانه . . . قد صَيَّرت الفححة (الوقاحة) جُنَّةً (وقاية) وشَتَمَ الأعراض سُنَّةً . . . صديقك على وجَلٍ منك إن شاهدته عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وتُرْهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تُعذره ، وإن استنظرك لم تُسنظره (تمهله) وإن أنعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السن إلا نقصاً ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك في ماله حرَبْتَهُ (سلبته) ، ومن منعك بعدر واضح سَبَبْتَهُ . . . ومن أكرمك أهنته وتناولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولينت في يديه . . . إرثك عن أبيك السعاية ، ونقلُ الأخبار والوشاية . »

والرسالة كلها - على هذا النحو - هجاء وإقذاع في الهجاء ، وقد استهلها لمصححاً إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجاً له من الملة حامداً لنفسه هداة وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه في حسبه وفي مذهبه ومكسبه واصفياً له بالخسة والذناة ، وأنه لا يحترم صديقاً مهما أكرمه ، مع الشح والتعرض للناس. بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له في نهاية رسالته : « قد ملئتُ إلى السجع على علمي بخساسة حظه وركاكة معانيه واقفله ، إذ كنت تسلوي به لسانك ، وتشتني إليه عينانك ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك . » وكان أبو العيناء على شاكلة أبي علي البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد في رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهدها فرساً غير فاره ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« أعلم الوزير - أيده الله - أن أبا علي محمداً أراد أن يبرئني فعقنتي ، وأن يرُكبنِي فأرجلني ، أمر لي بفرس كالقضيب اليابس عَجَفْتاً (هزلاً) وكالعاشق المنهجور دَنَفْتاً (سقمًا). قد أذكر الرواة عُرُوة العُدْرِيَّ ، والمجنون العامري ... قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء في الأمصار ... وإنما أتيت من كاتبه الأعور ، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أَخْبِثَ وَأَنْزَرَ (قليل) » .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر في بعض الرسائل ، فإن لأبي العيناء نفسه رسائل أخرى في الاستمناح<sup>(٢)</sup> وطلب النوال وفي الشكر<sup>(٣)</sup> ، يكتفي فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المتخبة المختارة دون أن يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب ابلاغ المعاصرين لأبي العيناء وأبي علي البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كاتب بليغ مترسل ، وله كتاب رسائل »<sup>(٤)</sup> ، وتدور له في الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة في الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة<sup>(٥)</sup> :

(٤) الفهرست ص ١٨٥ .

(٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر

الآداب ٣ / ٣٨٢ .

(١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

(٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .

« نَبَّتْ بِي عَنْكَ غِرَّةَ (غفلة) الحَدَاثَةِ ، فَرَدَّتْ بِي إِلَيْكَ التَّجْرِبَةَ ، وَبَاعَدَتْ بِي عَنْكَ الثِّقَةَ بِالْأَيَّامِ ، فَأَدْنَيْتِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةَ ثِقَةً بِإِسْرَاعِكَ إِلَيَّ ، وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ ، وَبِقَبُولِكَ لِعَذْرِي وَإِنْ قَصَّرْتُ عَنْ وَاجِبِكَ . وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي قَدْ سَدَّتْ مَسَالِكَ الصَّفْحِ عَنِّي ، فَرَاجِعْ فِي مَجْدِكَ وَسُؤْدَدِكَ . وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ مَوْقِفًا أَذِلَّ مِنْ مَوْقِفِي ، لَوْلَا أَنَّ الْمَخَاطَبَةَ فِيهِ لَكَ ، وَلَا خُطْبَةَ أَدْنَى مِنْ خُطْبَتِي ، لَوْلَا أَنَّهَا فِي طَلَبِ رِضَاكَ . »

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صببناها في قلبها يد صناعاً وحقاً لم يُحَلِّ الرِّسَالَةَ بالسَّجْعِ ، وَلَكِنَّ الْعِبَارَاتِ كُلَّهَا كَأَنَّهَا حَلِي مَخْتَارَةٌ ، سِوَاءٍ فِي إِصْطِفَاءِ الْأَلْفَاظِ ، أَوْ فِي تَوْشِيئِهَا بِالْأَوَانِ الْبَدِيعِ ، فَالغَرَّةُ أَمَامَ التَّجْرِبَةِ ، وَالبَعْدُ أَمَامَ الدَّنْوِ ، وَالسَّرْعَةُ أَمَامَ البَطْءِ . ثُمَّ تَتَعَاقَبُ الْإِسْتِعَارَاتُ وَالصُّوَرُ ، فَالذَّنُوبُ قَدْ سَدَّتْ بِحِجَابِ غَلِيظِ دُرُوبِ الصَّفْحِ وَمَسَالِكِهِ ، وَهُوَ يَتَوَسَّلُ أَنْ يَرَا جَعِ فِيهِ مَجْدَهُ وَسُؤْدَدَهُ . ثُمَّ يَأْتِي التَّلَطُّفُ وَقَبُولُ الذَّلِّ وَكَأَنَّهُ يَقْبَلُهُ مِنْ حَبِيبٍ . وَهِيَ رِسَالَةٌ جَيِّدَةٌ فِي تَعْزِيَةِ سَلِيمَانَ بْنِ وَهْبٍ عَنْ أَخِيهِ الْحَسَنِ حِينَ لَبَّيْ نِدَاءَ رَبِّهِ ، وَنَكْتَفِي مِنْهَا بِهَذِهِ الْفَقْرَةِ (١) :

« إِنْ الرَّمَضُ (حرقه الغيظ) وَالْمَلْعُ إِذَا كَانَ يَكُونَانِ لِلْمَصِيبَةِ الْخَاصَةِ الَّتِي لَا تَعْدُوُ صَاحِبِهَا ، وَلَا يَجِدُ مُسْعِدًا (معيناً) عَلَيْهَا ، وَلَا شَرِيكًا فِيهَا ، وَقَدْ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى مَصِيبَتِكَ بِالْوَأَشِيحِ (المتشكك) رَحِمًا بِكَ وَالبَعِيدِ نَسَبًا مِنْكَ ، وَجَمِيعِ فِي ثِقَلِ مَسْحَمَلِهَا وَأَلْمِ فَتَجْعَلُهَا صَدِيقَتَكَ وَعَدُوَّكَ ، وَكُلُّ مُكْتَسَسٍ مِنْهَا سِرِّبَالٌ وَحِشَّةٌ ، وَمَنْظُورٌ عَلَى دَخِيلِ حَزْنٍ ، وَنَاطِرٌ مِنْ أَعْقَابِهَا فِي مَنْظَرٍ وَعَرٌّ ، فَجَمِيعِهِمْ فِيهَا مُشْتَرِكٌ ، وَأَنْتَ بِالتَّعْزِيَةِ حَقِيقٌ قَسَمِينَ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، أَلْفَاظُهَا مُحْكَمَةٌ ، وَيَجْرِي فِيهَا الطَّبَاقُ وَالتَّقَابِلُ وَالِاسْتِعَارَاتُ وَالصُّوَرُ وَالرِّصْفُ الدَّقِيقُ لِلْعِبَارَاتِ ، فَالنَّسِجُ مَتِينٌ ، وَعَلَيْهِ أَلْوَانٌ وَصُورٌ تَلَفَّتْ الْأَذْهَانَ . وَمِنَ الْكُتُبِ الْبَلْغَاءِ أَحْمَدُ بْنُ سَلِيمَانَ بْنِ وَهْبٍ ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ كِتَابَةِ ، كَانَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ الْحَسَنُ مِنَ الْبَلْغَاءِ الْمَفْهُومِينَ ، وَهُوَ فِي الصَّدَاقَةِ رِسَالَةٌ كُتِبَتْ بِهَا إِلَى بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ ، وَفِيهَا يَقُولُ (٢) :

(٢) مجمع الأدباء ٣ / ٦٢ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٤٨ .

« ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك في الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للوائق به مطلب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك والحوادث جَمَّةٌ حَدَّثُ حَدَاكُ إِلَى أَخِيكَ الْأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والولىّ المُشْفِق ، والصديق الوَصُول ، والمشارك في المكروه والمحجوب ، قد عرفنى الله من صدق صفتك وكرم وفائك ، على الأحوال المتصرفة ، والأزمنة المتقلبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يوم يأتي على إلا وثقتى بك تزداد استحكاماً ، واعتمادى عليك يزداد تأكيداً والتتاماً ... وأعينك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القادحة ، وأسأله أن يجعلك في حِرْزِهِ الذى لا يُرام ، وكسَنَفِهِ الذى لا يُضَام ، وأن يحرسك بعينه التى لا تنام ، إنه ذو المَنِّ والإِنعام .»

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعاً متكلفاً ، مما يدل على أنه خلق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلاً طبيعياً ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستومتناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا في كتابة النثر والشعر أحمد بن أبى طاهر طيفور ، وممرت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة فى شكر على بن يحيى المنجم على بير<sup>١</sup> واسع أعده عليه ، تمضى على هذا النحو<sup>(١)</sup> :

« إن أحقَّ معروف بأن يُشكَّرَ ، وبدَ بارةً بأن لا تُكْفَرَ ، وأحق وأجب بأن يؤدَّى ، وإحسان وير<sup>٢</sup> بأن يُجْازَى معروفك - أعزك الله - عندى ، ويدك قبلى ، وحقك على ، وإحسانك إلى ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعه ، ويجب عليهم شكره ونشره والإشادة بذكره . تتطوع مبتدئاً ، وتشفع ما تقدم معقباً ، وتحسن ربَّ ما أسديته متفضلاً ، لا أخلاك الله من بير<sup>٣</sup> وإحسان ، ولا أخلاننا منك فى حال .»

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٤٤ .

كثير الهجاء للكُتَّاب ، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه ، ومن هجاءهم وأقذع في هجائهم ابن ثوابة وابن مكرم ، ومن قوله في رسالة كتب بها إلى أبي علي البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه<sup>(١)</sup> :

« المَقْلِيّ المذمّم ، المهين ابن مكرم . . . العاكف على ذنبه ، الصادف عن ربه ، الوضيع في خلائقه ، العاقى على خالقه . . . عدوّه آمنٌ من غائلته ، وصديقه خائف من بائفته . . . من استخفّ به أكرمه . ومن وصله صرّمه (قطعه) . . . يخلف ليحنت ، ويعهد لينكت ، إسناده عن المذمومين ، وبلاغته في ذم الصالحين ، وطرفه قنّذف المحصّنات ، وسعيه في كسب السيئات » .  
ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة في التهاني والتعازي والاعتذار والشوق والفرق وفي السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي في ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقال<sup>٢</sup> السجع في رسائله الإخوانية ، ولكنه يُعنى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى في الرسالة التالية ، وهي في تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد في يوم عيد<sup>(٢)</sup> :

« آخرتني العلة عن الوزير - أعزّه الله - فحضرتُ بالدعاء في كتابي لينوب عني ، ويعسّر ما أخلته العوائق مني ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحسب ويُحسب له ، ويقبل ما توسّل به إلى مرّضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه في مسرة نقصاً ، ولا يقطع عنه مزيداً ، ويجعلني من كل سوء فداءه ، ويصرف عيون الغير (حوادث الدهر) عنه وعن حظّي منه » .

والرسالة أدعية للوزير الصديق ، وهو يُعنى فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها ، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع . ويحتفظ له كتاب الأوراق بفضول كثيرة من بعض رسائله ، فمن ذلك فصل في الشوق يقول فيه : « إني لأسف على كل يوم فارغ منك ، وكل لحظة لا تؤنسها رؤيتك ، وسقسياً لدهر كان موسماً



بالاجتماع معك ، معموراً بلباقائك ، جمع الله شمل سرورى بك ، وعسر بقائى بالنظر إليك»<sup>(١)</sup> . ومن ذلك فصل فى شفاعة : « موصل كتابى فلان ، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك ، فلا تُنْضِئِها (تهزئها) بِمِطْطَلِكْ ، وأسرع ردها بسابق إنجازك ، وتصديق الأمل فيك والظن بك »<sup>(٢)</sup> ، ولا ريب فى أنه كان يسجع أحياناً فى بعض فصواه : « قدمت إليك فما أعتدل ، ونزلتُ بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل »<sup>(٣)</sup> وفى فصل آخر : « تولّى الله عنى مكافأتك ، وأعان على فعل الخير نيتك ، وأصبح بقاءك عزيزاً يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك ، وكلاءة (حراسة) تذبُّ عن ودائع منتهه عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظمت ، وبلغتْ آمالك وإن انفسحتْ »<sup>(٤)</sup> . واه فى وصف الكتاب والقلم<sup>(٥)</sup> :

« الكتاب والنج الأبواب ، جرىء على الحجاب ، مُفْهَم لا يفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يشخصخص (يخضر) المشتاق ، ومنه يد آوى الفراق . والقلم مجهزٌ لحيوش الكلام يخدم الإرادة ، ولا يمل الاستزادة ، يسكت واقفياً ، وينطق سائراً ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضىء ، وكأنه يقبل بساط سلطان ، أو يفتح دُوراً بسُستان » .

والوصف يكثر فيه السجع ، كما يكثر التصوير ، فقد شخص الكتاب وجسّمه فى صور كثيرة ، وبالمثل صنع بالقلم ، وأخرجه مع الصحف التى يكتبها فى صور بديعة :

وكان الكتّاب يكثر من الدعوة للزيارة واقضاء بعض الوقت فى اللهو وسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد وفى الزواج وفى إنجاب الأولاد وفى ختانهم ، وفى الحج وقضاء مناسكه ، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع . . . وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر ، لندل على أن ذوقاً عاماً أخذ يُعْنِى به ، وهى عناية جعلته يعمُّ فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعمُّ — منذ أواسطه — عند أبى على

(٤) الصولى ص ٢٩٤ .

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٩٢ .

(٥) الصولى ص ٢٩٢ وزهر الآداب .

(٢) الصولى ص ٢٩٠ .

٣٢/٢ .

(٣) الصولى ص ٢٩١ .

البصير وأبي العيناء في بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا في بعض رسائل ابن مكرم ، وكان الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ درراً ، مما هيئاً لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر المقتدر، بل لقد هيا ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التي ألف فيها عبدالرحمن ابن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذي وقفنا عنده في موضع آخر ، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج في الكتابة : في التهاني والتعازي والبشارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً في كتابة الرسائل الديوانية ، ففي كل ذلك درر من السجع والصور تُحْنَط وتصبح مادة للكتّاب ، تُعِينهم في كتابة الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمداني نذيراً بجمود النثر العربي وأن يصبح صيغاً برّاقاً ، تخلب بما فيها من أسجاع قبل أن تخلب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع في الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع في تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تَلَوَهُ في القرن الثالث الهجري أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثر من منه ، على نحو ما تصوّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراً ويأسى لخرابها ويذم بغداد وأهلها ، وهي أشبه بمناظرة بين البلديتين : العاصمة القديمة سامراء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . ولعل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهي تمضي على هذه الصورة<sup>(١)</sup> :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض<sup>(٢)</sup> الدهر سُكَّانها ، فشاهدُ البأس فيها ينطق وحسبُ الرجاء فيها يتقصر ، فكأن عُمرانها يُطوى وكان خرابها يُنسُز ، وقد وُكِّلت إلى الهجر نواحيها ، واستُحِثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقُّ جوار ، فالظاعن منها محمؤ الأثر ، والمقيم بها على طَرْف سفر ، نهاره لإرجاف ، وسروره أحلام . . . فحالها تصف

(٢) أنهض هنا : بث على الرحيل .

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ،  
 وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارها ، عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد ،  
 كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض  
 بجوافرها ، وتدل بالنتقع (الغبار) سرادقها ، قد نُشِرت في وجوهها غرر كأنها  
 صحائف البرق ، وأمسكها تحججبل كأنه أسورة اللجيين ، وقرطت عدراً<sup>(١)</sup>  
 كالشنوف ، في جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليه  
 وقار الصبر ، وهبت له روائح النصر ، يصرفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب  
 جلالا ... قبل أن تسخب (تعدو) مطايا الغير ، وتُسْفِر وجوه الحذر ، وما زال  
 الدهر مليئاً بالنوائب ، طارقاً بالعجائب ، يؤمن يومه ، ويغد رُغدُه . على  
 أنها - وإن جفيت - معشوقة السكى ، حبيبة المشوى (المنزل) كوكبها يقظان ،  
 وجوها عريان (صحو) وحصباؤها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك<sup>٢</sup>  
 أذفر (ذكي) ويومها غداة (لطيف الطقس) وأيلها سحر ، وطعامها هسيء ،  
 وشرابها مريء ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فانك (غير محتاج) لا كبغدادكم  
 الوسخة السماء ، الوميدة (الراكدة) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خبثار (ابنة)  
 وحيطانها نروز (تتر بالماء) وتشرينها (أكتوبر) تحوز (بواية) فكم في شمسها  
 من محترق ، وفي ظلها من غرق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ،  
 قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم  
 مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يحل خيناقه (كيسه) وحيطانهم خصاص  
 (أكواخ) وبيوتهم أفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُول ، والدهر  
 يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم .

والسجع زاخر في الرسالة كما يرى القارى ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها  
 رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذى أخذ يشيع في عصره أسلوب  
 دُرر السجع ولآله التي أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والتي كانت تروقهم  
 إلى أقصى حد ، مما هيأ الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

(١) العذر : جمع عذار وهو من اللجام ما سأل  
 على خد الفرس. الشنوف: جمع شنف وهو القرط .

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجواهر ، وبالقلب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجى للمعاني لا بالبريق الداخلى . وعمّ ذلك حتى طغى فى كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر ( ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وَصَفَ الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيّب عنى شيئاً ، ولا تحسّن القصة ولا تسجع فيها »<sup>(١)</sup> ، فهو لا يريد فى وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجور اللفظ على المعنى . وكأنا أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطّرد ذلك فى العصر التالى ، وظل آماداً متطاوأة .

وابن المعتز لا يكتفى فى هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها تَوّاً الطباقات . فانهوض أوالرحيل يقابل القعود ، واليأس يقابل الرجاء ، والحرب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطي ، والباقي يقابل الفانى ، والظاعن يقابل المقيم . وبجانب الطباقات ما اشتهر به فى شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالحيل تأكل الأرض بجوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الحيش ، والغرر فى وجوهها كأنها صحائف البرق ، والتعجيل فى سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على حدودها من اللجم كأنه أقرط فى آذانها ، والحصباء جواهر ، والتراب مسك أذفر . وتتوالى الصور واتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفذ ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الركب ، ركب العناية بالوشى . ويُطيل القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما يُطوى فيه من زخارف البديع .

## الفضل السابع

### أعلام الكتاب

١

إبراهيم<sup>(١)</sup> بن العباس بن محمد المولى

كان جده صول حاكماً لجرجان مع أخيه فيروز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبهان بالفرس ، ودخل صول الإسلام على يد يزيد بن المهلب ولى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصته ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى مطالع القرن الثانى الهجرى حارب تحت لوائه حتى قُتل معه فى موقعة العتقر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها ، ونشأ له ابنه العباس فى ظلال تلك الدولة ، ورزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنّاً من أخيه . وقد وُلد لإبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدباً عليه فى باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور فى عصر المأمون . ومن المؤكد أن إبراهيم لزم - على عادة ليدانه - حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة فى دواوين الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان فى مَرَوْ قبل تحول المأمون

دارالمعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان فى إبراهيم وتاريخ الطبرى فى ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمنى فى كتاب الطرائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١) انظر فى ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ٤٣/١٠ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ١١٧/٦ ومعجم الأدباء لياقوت ١٦٤/١ ومروج الذهب ٢٣/٤ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصواه أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى علي بن موسى الرضا . ويمدح إبراهيم ولي العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضُربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بَعُدُ وجهمازه إلى قبره<sup>(١)</sup> . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظلَّ يعمل في الدواوين إلى أن توفي سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياح للمتوكل ، ويقول صاحب الفهرست : « كان إليه ديوان الرسائل في مدة جماعة من الخلفاء »<sup>(٢)</sup> .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرّت عليه بلاء عظيماً ، ذلك أن ابن الزيات الوزير - وكان صديقاً له - ولأه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكّر له ، فوجه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملاً شديداً ، وقال إن أموالاً كثيرة لم تُؤدَّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله في ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يسبَلُ فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بسلاً فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قَلَسَبَت له منهم جماعة ظهر المَجَسَنُ مثل أحمد بن المدبر ، الذي كان يدُرغر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهد فيما بعد في صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئِلَ في ذلك قال : « ما مَسَّسُ الإخوان إلا كمثل النار قليلها مقنعٌ وكثيرها محرقٌ أو قليلها متاعٌ وكثيرها بَـوَارٌ » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة في الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماضٍ في النكابة به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة<sup>(٣)</sup> :

« كتبتُ إليك وقد بلغت المُدِيَةَ المَحَرَّ ، وعدت الأيام بك على بعد  
عَدْوِي بك عليها ، وكان أسوأ ظني وأكثرُ خوفي أن تسكن في وقت حركتها ،

(٣) الأغاني ١٠/٥٦ ومعجم الأدباء ١/١٧٠ :

(١) الأغاني ١٠/٥٢ .

(٢) الفهرست ص ١٨٢ .

وتكفَّ عند أذاها، فصرتَ على أضرَّ منها، وكفَّ الصديق عن نصرتي  
وبادر إلى العدوُّ تقرُّباً إليك . وكتب تحت ذلك :

أخُّ بني وبين الدهرِ صاحبَ آينا غلبا  
صديق ما استقام فإن نبا دهرٌ على نبا  
وثبتُ على الزمان به فعاد به وقد وثبنا  
ولو عاد الزمان لنا لعاد به أخاً حديبا

والرسالة توضح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المسعودي : « كان  
كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً ، لا يُعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتَّاب أشعر منه »<sup>(١)</sup> .  
ويقول ابن الجراح في كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتَّاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره  
قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعتُ الناس للزمان وأهله غير مدافع »<sup>(٢)</sup>  
ويقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويسقط رذله ،  
ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سبق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ،  
وربما لم يدع منها إلا بيتاً أو بيتين »<sup>(٣)</sup> . وشعره مقطوعاتٌ حقاً ، ولكنها  
مقطوعات ترقى إلى مرتبة رفيعة في البلاغة ، مثلها مثل هذه الرسالة القصيرة  
التي كتب بها لابن الزيات راجياً أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها  
ذوق أدبي مصفى ، وكل عبارة قد أحكمت ، أحكمتها يد صناع ، فالمدية قد  
بلغت الحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه  
بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هي تقهره به ، وما أدق  
قوله له في رسالة أخرى<sup>(٤)</sup> :

وكنت أعدك للنائباتِ فما أنا أطلب منك الأمانا

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق في الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة  
والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ،  
حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبه إليه

(٣) الأغاني ٤٣ / ١٠ .

(١) مرجع الذهب ٤ / ٢٣ .

(٤) الأغاني ٥٧ / ١٠ ومعجم الأدباء ١٧١ / ١ .

(٢) كتاب الورقة ص ١٣٦ .

أبو الجهم ، فأمر ابن الزيات بردّ حربته إليه وانتظامه في حاشيته وبلاطه مصوناً ، فبسط لسانه في غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة ذاماً هاجياً . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذى جعل المتوكل يقرّبه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكد يتقلّد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه في تنّور ملئ بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حظيياً عند المتوكل ، فقلّده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التى تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عنوداً لأولياء العهد أم فتوحاً أم تهنئات بالأعياد أم تعازى باسم الخليفة ، وأحياناً ينصّ الطبرى أن هذا الكتاب أو ذلك من إنشائه ، وأحياناً لا ينصّ . ومن أوائل ما كتب له المنشور الموجه إلى عمّاله فى الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطيب السستة والزّنّانير ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التى لا تحاول وقدوته على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرضيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسلاً ، وأبّد به أولياءه ، وكفّه بالبير ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظنّره على الأديان ، مبرّأ من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محبواً بمناب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأظنّرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدّها ، وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سعّة جزائه وثوابه ، فقال فى كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . »

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يردّ على ذهنه عنصراً ،



بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحدّثا بينها ضرورياً من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطّعاً ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذي يوازن بين العبارات دون أن يُحِيلها سجعاً وتنميقاً خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل في شباليّ أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمته هزيمة ساحقة ، وأُخِذَ أسيراً ، فضربت عنقه وصُلِبَت جثته وحُمِلَ رأسه إلى سامراء . ولإبراهيم بن العباس رسالة في هذا الفتح نوّه بها القدماء ، وفيها يقول (١) :

« قَسَمَ اللهُ عَدُوَّهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً : رُوحًا مَعْجَلَةً إِلَى عَذَابِ اللهِ ، وَجِثَّةً مَنْصُوبَةً لِأَوْلِيَاءِ اللهِ ، وَرَأْسًا مَنْقُولًا إِلَى دَارِ خِلافةِ اللهِ ، اسْتَنْزَلُوهُ مِنْ مَعْقَلِ إِلَى عِقَالِ (أَعْلَالِ) وَبَدَّلُوهُ آجَالًا مِنْ آمَالِ ، وَقَدِيمًا غَدَّتْ الْمَعْصِيَةَ أَبْنَاءَهَا ، فَحَلَبَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ دَرَّهَا (ابْنِيهَا) مُرْضِعَةً ، وَبَسَطَتْ لَهْمٍ مِنْ أَمَانِيهَا مَطْمَعَةً ، وَرَكِبَتْ بِهِمْ مَخَاطِرَهَا مُوَضِعَةً (مُسْرَعَةً) حَتَّى إِذَا وَثِقُوا فَأَمْنُوا ، وَرَكَبُوا فَاطْمَأَنُوا ، وَانْقَضَى رَضَاعُ وَأَنْ فِطَامُ ، سَقَتَهُمْ سُمًّا ، فَفُجِّرَتْ بِجَارِيِ أَلْبَانِيهَا مِنْهَا دَمًّا ، وَأَعْقَبْتَهُمْ مِنْ حُلْدُو غَدَائِهَا مُرًّا ، وَنَقَلْتَهُمْ مِنْ عَزِ إِلَى ذَلِّ ، وَمَنْ فَرِحَ إِلَى تَرَحُّحٍ ، وَمَنْ مَسَّرَ إِلَى حَسْرَةٍ ، قَتَلًا وَأَسْرًا ، وَغَلْبَةً وَقَسْرًا ، وَقَتْلَ مَنْ أَوْضَعَ (أَسْرَعَ) فِي الْفِتْنَةِ مُرْهِجًا (مَثِيرًا) وَاقْتَحَمَ لَهْبَهَا مُؤَجَّجًا ، إِلَّا اسْتَلْسَلَتْ حَسْبَتَهُ (تَبَعْتَهُ) آخِذَةً بِمَخْتَنَقِهِ (بِحَلْقِهِ) وَمَوْهِنَةً بِالْحَقِّ كَيْدَهُ حَتَّى جَعَلْتَهُ لِعَاجِلِهِ جَنْزَرًا ، وَلَا جَلَّ حَطْبِيًّا ، وَلِلْحَقِّ مَوْعِظَةً ، وَعَنْ الْبَاطِلِ مَزْجَرَةً ، أَوْلَاكَ لَمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٌ لِلْعَبِيدِ » .

وبلاغة الصولى التى اشتهر بها واضحة فى هذه الرسالة ، فهو يُعنى بكلامه محملاً له معانى غزيرة ، وسُطُرفاً فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه النقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعانى تنتهى إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل فى معقل فأصبح فى عقال ، وكان فى آمال وحياة رغبة فأصبح فى آجال وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أرضعتهم

المعصية من لبنها وأطمعتهم باسطة لهم في الأمانى العذاب ، وأسرعت بهم مخاطرها . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انفضى رضاع وأن فظام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفظام والمر مع الحلو والذل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعم حتى لتأخذ بمخنق كل شخص ، وحتى تجعله في دنياه جزراً وقطعاً من اللحم تنوشها السباع ، أما في الآخرة فتجعله حطباً ووقوداً للنار . ويختم الفقرة بأى من القرآن . والطباق اللون البديعى العقى الذى كان يروع العباسيين يكثر فيها ، كما يكثر التصوير ، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التى كانت تخلب معاصريه ، فهو يبدؤها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح فى مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل فى الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفى بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً فى التلاؤم وفى الجرس ، فليس يكتفى أن تتقابل العبارات وتوازن ، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإرنااناتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمشى فيه على هذا النحو<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله معز الحق ومُديله (ناصره) وقامع الباطل ومُزيهه ، الطالب فلا يفوته من طلب ، والغالب فلا يعجزه من غلب ، مؤيد خليفته وعبده ، وناصر أوليائه وحزبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأثار بهم سبيله ، حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقب نصره ، وسوايق نعمائه . »

والتحميد يحمل نفس الخصائص الماثورة فى الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يسلط كلامه الأسماع والآذان ، كما يسلط العقول والأذهان ، بملااماته بين الكلمة والكلمة فى الجرس ، وبما يستخدم من طباقات

وجناسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التي كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولى المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذي وضعه في صدرها على هذا النحو (١) :

« أما بعد فالحمد لله الذي جعلت نعمه ، وتظاهرت منسئه ، وتتابعت أياديه ، وعمم إحسانه ، إله كل شيء وخالقهم ، وبارئهم ومصوره ، والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : ( كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) العالی فی مشیتته والقاهر فوق عباده المتعالی عن شبه خلقه : ( ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل إلى معرفته ، بما نصّب لهم من دلائله ، وأراهم من عبثه ، وصرّفهم فيه من صنعه ، كما قال جلّ جلاله : ( الذي أحسن كلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ) . وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسرّ لهم خواطرهم وفكرهم ، والهيئة التي هيئها لهم ، ليقع الأمر والنهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يجشدهم ما يقصّر عنه وسعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحققوا به رحمته ورضوانه والجاود في النعم المقيم والظلّ المديد والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : ( إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ ) . وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هداه ، ويوضحون لهم سبيله ، وينهّدونهم إلى رحمته ، ويعلمونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويبسّطون لهم توبته ، ويحذرونهم سخطه ، ويبينون لهم سنّته وشرائعه ، ويكشّون لهم مواعظه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ( لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البَيِّنَة ، والشواهد الناطقة التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عمل سواهم ليكون أدعى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأكد للحجة على من أبى ذلك منهم .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب في الهدى والرشاد ، ونعمه أيضاً وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه في مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزّه عن التحيز في جوهر وعرض ، لا يدركه حيس ولا يحيط به خيال ، منزّه عن كل شبه بالآدميين في خصائصهم وصفاتهم . وليس من الضروري أن يكون من المعتزلة ، فيكفي أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالى كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله في صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل في النظام الكونى وما بتّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصوّر القرآن كما في آيات خلق الإنسان التي اقتبسها الصولى كيف أنشأ الله الخلق إنشاءً بديعاً وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكما لايتهم ، وإذنه لحرى بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر في نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبث الصولى هذه الفكرة في الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التي طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثاً ولا دون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتبعوا هداه ، وليقع الأمر والنزى عليهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينظرهم في الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التي تكفل لهم السعادة في الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب لإلّا من تاب وأتاب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعاني في ألفاظ جزاة رصينة ، يجرى فيها التقطيع الصوقى الذى ذكرناه آنفاً ، وإن لم يبلغ مداه في الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التي شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولاً هنا عن السجع بالمعاني التي أثارها في تحميده والتي جعلته يتدثل ببعض

آى الذكر الحكيم . وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا ما جاء في النادر وعفو الخاطر . ومن تحميداته في أحد الفتوح (١) :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العِزَّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً في موطن من مواطن التحاكم بين عباده إلا جعل أولياء الحق منهم حِزبه وجُنُده ، وجعل الباطل بهم فتلاً (هزيمياً) منكوباً ، ودَحِيضاً (باطلاً) زهوقاً إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرقةً ماجمِيع ، ومبترةً (مستأصلة) ما أعدت ، وقائدة بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين ، حتى يكون الحق الطالب الأعزُّ والباطلُ المطلوب الأذلُّ ، وأولياء الحق الأعلِّين يَدُأً وأيداً (قوة) وأشيعُ الضلال الأُخسرين أعمالاً وكيداً ، قضاءُ الله وسنته ، وعادةُ الله وإرادته ، في الفئمة المنصورة أن تعزَّ فلا تُترَام ، وأن يمكِّن لها في الأرض كما مكَّن للذين من قبلها ، وفي الفئمة الناكبة عنه أن تذللَّ ، فتكُنْ كلمتها السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

ونحسُّ قدرته على اصطفاء الكلمات في هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فتلاً منكوباً ودَحِيضاً زهوقاً » ، حتى يتجسَّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعنى بالموازنة الدقيقة بين العبارات . ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحق الطالب الأعزُّ ، والباطلُ المطلوب الأذلُّ ، وأولياءُ الحق الأعلِّين يَدُأً وأيداً ، وأشيع الضلال الأُخسرين أعمالاً وكيداً » وكأن العبارات توضع في صفوف لا في سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا في مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تمسك بيد أختها في العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى في العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعلين يَدُأً وكلمة الأُخسرين أعمالاً . فالكلمات في العبارات تتجاذب تتجاذباً شديداً ، في الصوت والجرس والأداء وفي المعاني المتقابلة المتناقضة ، فقد عمَّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعاً من صلة القرْبى وشائج الرحم . وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة « يَدُأً »

بجانب كلمة «أبدأ» طلباً للتلاؤم في الجرس الذي قد يخفى أحياناً ، وأحياناً يتضح وضوح الشمس في كبد السماء . وفي ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصنعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والحنان . ويُسْمَى الرسالة باقتباس من القرآن الكريم ، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه الموثقة كقوله في هذا التحميد : «الأخسرين أعمالاً» . ودائمًا نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُطْبِئَة والأخرى الجملة الموجزة ، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفًا . ومن خير ما يَصوِّر ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، والرسالة تمضى على هذا النمط (١) :

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ، مما قوم به من أود (عروج) وعدل به من زيغ ، ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث ، يقدم بعضهن على بعض ، أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقع حسمُ الداء بغيرها :

أناة فإن لم تُغنِ عَقَبَ بعدها وعيدًا فإن لم يُغنِ أَعْنَتَ عَزَائِمَهُ

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فلأت نفسه إعجابًا ، وأوأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وكان حاضرًا — أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ نحباها الله لك ، وذخيرةٌ ذخَرها على دولتك . ويقال إن البيت في هذه الرسالة أول شعر نفذ في كتاب عن الخلفاء العباسيين . والمتوكل إنما أُعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدَّى الغرض الذي كانت تُكَلِّبُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال ، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد . وكأننا لا نقرأ صيغًا متعاقبة في رسالة ، وإنما نقرأ حكمًا وأمثالا ، لدقة المعاني ودقة أدائها وصياغتها ، وقد أجرى فيها ضربًا من التقطيعات الصوتية ، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح في أوائلها ، ولم يابث أن أضاف فيها سجعًا طريفةً ، كما أضاف صورة بديعة إذ عبَّر عن الحرب بحسم الداء . والكتاب بحق

يصور مراناً طويلاً على استخدام الكلام ووضعه في مواضعه ، بل قل إنه يصور خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها قِصراً كتب بها في شفاة إلى أحد أصدقائه يزكّي رجلاً يستحق العناية به<sup>(١)</sup> :

« فلانٌ ممن يزكو ( ينمو ) شكره ، ويحسن ذكره ، ويعينني أمره ، والصنعة عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدين والحجى إصابةٌ شكرٍ لم يضع معه أجرٌ »

والرسالة موجزة ولكنها تؤدّي الغرض منها أداء واضحاً ، وقد استخدم فيها إبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تديقه في المعنى أن أخرج البيت الذي ضمّته الرسالة مخرج الأمثال . وكان كُتّاب الرسائل يكتبون في عيدي النظر والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكّروهم واجبههم ، من ذلك قوله في رسالة<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد فإن لكل فرع أصلاً ، عنه مـورده ومُسْتَنبَطُهُ ، وإليه مـرجعه ومـوئله ، ومتى رُجع من أصول الأمور إلى تأصيلها ( تأصلها ) وتمكّنها ، رُجع من فروعها إلى استنباطها واستقامتها . وأفضل ما تدبّره أمور دين الله وخلافته ، وحقوق الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه ( نماؤه ) ما جمع بإذن الله سكون الدنساء ( العامة ) وصلاح البيضة ( الولاية ) وأمن السرب ( الجماعة ) وتظاهر النعم فيما قُربَ وبعُدَ ، ودنا ونأى ... فافعلْ ذلك مُعَانَةً على أمرِك » .

والترادف والازدواج واضحان في السطور الأولى من الرسالة ، فورده يلينها مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها موئله ، وتأثيلها يلينها تمكّنها ، واستنباطها يلينها استقامتها . وفي ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفي كلامه عن الأصول والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفاً ثقافة فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على حسن الحكم وتدبيره في أربعة : سكون الناس دون إحداث أي فتن أو ثغرات مما يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية في شؤونها السياسية والاقتصادية

(١) الأغاني ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ / ١٧٨ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون البؤس والضنك في الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة ، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول (١) :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أَرْضَى اللهُ فِي نِعْمَتِهِ بِشُكْرِهِ فِي مَصَائِبِهِ بِالتَّسْلِيمِ لَهُ ، مَنْ فَهَّمَهُ مَا فِي شُكْرِ النِّعْمِ مِنْ اسْتِدْعَاءِ تَمَامِهَا ، وَمَا فِي التَّدَلُّلِ لِلْمُقَادِيرِ مِنْ اسْتِحْقَاقِ رِضْوَانِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ مَحَلَّكَ مِنَ الْحَالَتَيْنِ جَمِيعًا مَحَلَّ الْمَتَّقِمِ بِنَيْتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ . وَاللَّهُ يُسْمِعُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكَ بِصَالِحِ قَسَمِهِ فِيمَنْ مَضَى ، وَالْجَارِيَّ عَلَى مَنْ بَتَّقِيَّ وَيَبْقَى ، حَتَّى يُؤَدِّيَ الْفَنَاءُ الَّذِي لَا بَقَاءَ مَعَهُ إِلَى الْبَقَاءِ الَّذِي لَا فَنَاءَ بَعْدَهُ . وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَعْظُكَ بِاللَّهِ ، وَهُوَ أَحَقُّ مَنْ وَعَظَ بِهِ ، وَيُرْشِدُكَ مِنْ إِثَارِ اللهِ لَمَّا نَسَدَ بَكَ لَهُ مِنْهُ . . . فَقَدْ مَّ حَقَّ اللهُ عَلَيْكَ بِطَاعَتِكَ لَهُ فِيمَا أَمَرَكَ بِهِ ، وَاتَّقِ اللهُ فِي مَوَاقِعِ أَقْدَارِهِ بِكَ ، تَسْتَقْتَضِ بِذَلِكَ مِنْ ثَوَابِ اللهِ أَفْضَلَ عَوَاضِ الصَّالِحِينَ » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعاني ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه . والله يمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذي لا بقاء معه ، والذي ينتقل به إلى البقاء الذي لا فناء بعده . ويقول له : قدّم حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك تستحق ثوابه ، هو خير عوض للراضين المقرّبين . وفي كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخدمه أحياناً في جوانب من رسائله مُسْتَهْبِئاً فِيهِ ، عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي الْقِطْعَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي احْتَفِظَ بِهَا يَاقُوتٌ فِي مَعْجَمِ الْأَدْبَاءِ إِذْ يَقُولُ :

« وَوَجَدَ أَعْدَاءُ اللهِ زُخْرُفَ بَاطِلِهِمْ ، وَتَمَوَّيَهُ كَذِبُهُمْ سَرَابًا بِتَقْيِينَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ) وَكَوَمِيضٍ بَرَقَ عَرَضٌ فَأَسْرَعَ ، وَلَعَّ فَاطَمِعَ ، حَتَّى إِذَا انْحَسَرَتْ ( انْكَشَفَتْ ) مَغَارِبُهُ ، وَتَشَعَّبَتْ مَوَائِبُهُ مَذَاهِبُهُ ، وَأَيَقُنُ رَاجِيهِ وَطَالِبِهِ ، أَنْ لَا مَلَاذَ وَلَا وَزَرَ ، وَلَا مَوْرِدَ وَلَا صَدَرَ ( صَدُورِ ) وَلَا مِنْ الْحَرْبِ مَفْرًا ، هُنَالِكَ ظَهَرَتْ عَوَاقِبُ الْحَقِّ مَنْجِيَّةٌ ، وَخَوَاتِمُ الْبَاطِلِ مُرْدِيَةٌ ،



سِنَّةُ اللَّهِ فِيما أزاله وأداله (هزمه) (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) ولا عن قضائه تحويلاً .

والقطعة سجع خالص ، وتحمل اقتباسات من آى القرآن ، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف ، وتجري فيها الخصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس ، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل : « زخرف باطلهم وتمويه كذبهم » ، ومثل « أزاله وأداله » ، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص . وتلقانا بعض طباقات مثل : « ولا مورد ولا صدر » ومثل « عواقب الحق وخواتم الباطل » ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب . وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج ، كما مر بنا ، يكتب ثم يختار ، وما يزال يُصْلِح ويُسْقِط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة . وإه توقيعات بديعة تدور فى الكتب الأدبية ، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصاً ويمدح آخر ، فوقع فى الرسالة<sup>(١)</sup> :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْسِنُه ، وللمسئء من النكال ما يُقْسِمُه ؛  
بذل المحسن الواجب على رَغْبَةٍ ، وانقاد المسئء للحق رهبة » .

والسجع واضح فى التوقيع ، ولكن المهم طرافة التقسيم . ويقول المسعودى :  
« وإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت » .  
ويروى عنه أنه كان يقول : « مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلاً ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء »<sup>(٢)</sup> . ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل ، وفى الحق أنه كان كاتباً بليغاً بلاغة رائعة .

## الملاحظ (١)

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حنك قَسَيْبِهِ وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بجر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولاء وإن جَدَّه فزارة كان عبداً أسود جسمًا لعمرو بن قلع الكنانى . واختلف في السنة التي وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفي سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويروى عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج ( الشلل ) والقرص ( الروماتزم ) : « أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة » (٢) . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مسقط رأسه ، وفي مطالع الجزء الثاني من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصَّبِيَّة ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئًا من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شَبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون في كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتمهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومخاورات بين المتكلمين من كل الفرق . وكان يختلف إلى المربد إلى المربد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المربد سوقًا تجارية وأدبية كبيرة منذ

الاعتدال ٢٤٧/٣ وضحي الإسلام لأحمد أمين  
١ / ٣٨٦ وكتابتنا الفن ومذاهبه في التراث العربي  
ص ٤٥ وبالحفظ لطلحة الحاجر (طبع دار المعارف)  
وإحاطة لشارل بلات (طبع دار اليقظة العربية  
للتأليف والترجمة والنشر) .  
(٢) تاريخ بغداد ٢١٩/١٢ ومعجم الأدباء  
١١٣ / ١٦

(١) انظر في الملاحظ وحياته وأخباره  
وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد  
١٢ / ٢١٢ ومرجع الذهب ٤ / ١٠٩ ومعجم  
الأدباء ١٦ / ٧٤ وزهرة الألباء لابن  
الأنباري وابن خلكان في عمرو ووراة الجنان  
للياقبي ٢ / ١٥٦ وأمال المرتضى ١ / ١٩٤  
ولسان الميزان ٤ / ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان

العصر الأموي . وفي أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان<sup>(١)</sup> أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان في حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويروى أن أمه ضاقت بانهماكه في الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق مليء بكراريس أودعها البيت ، وقالت له : ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكبس . فذهب إلى الجامع مغتماً ، ولقيه مؤسس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء في الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمائلون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التي قد منيتها إلى<sup>(٢)</sup> . وكان مؤسس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمربد وما كان يأخذه عن جليّة العلماء أمثال الأصمعي وأبي زيد والأخفش وأبي عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبي الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والحدّثين في عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلّف أو يترجم في البصرة أو في بغداد تتكاثر نسخه في أيدي الوراقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلية ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسططاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التي حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر في الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقرّرة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا في بغداد<sup>(٣)</sup> بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره في دكاكين

(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفي

مواضع متفرقة .

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر<sup>(١)</sup> . ويقول أبو هيفان : « لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »<sup>(٢)</sup> . وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم في ذهنه ، ويظل في ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدمة الطويلة التي وضعها بين يدي كتابه الحيوان ، وهي نحو مائة صفحة في تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التي صنّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شُغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته في عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئاً بأبي الهذيل العلاف ، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقتهم ، وكان من أهم من لزمهم النظام<sup>(٣)</sup> ، وكان لا يبارى في المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقن ذلك عنه ، وسراه يطبقه في كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) هلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلًا وفق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »<sup>(٤)</sup> وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذي دفع الجاحظ دفعاً للتزود من جداولها بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذي غرس في نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه في كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهدهاء طول تفكيره في آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء ارتنت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الجياط المعتزلي في كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلاً<sup>(٥)</sup> . ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر في آراء

الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق

للبيدادي ص ١٧٥ .

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .

ويبدو أنه كان يتلقى كثيراً من الإهمال في أول أمره ، حتى كان يضطر حين يولف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابيين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتّابي أو سلتّم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته<sup>(١)</sup> عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفي مقدمتهم بشر بن المعتمر وثُمّامة بن أشرس ، حتى إذا سُغِل المأمون بمقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مرو إلى بغداد أشار عليه ثُمّامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة في هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حدّاً له بما كتب<sup>(٢)</sup> ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظناً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام<sup>(٣)</sup> ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكثفاً - فيما يبدو - براتبه . وربما كان قبّحه الذى عُرف به هو السبب الحقيقى فى أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفى بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية فى النوادى والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامراء فى عهد المعتصم ، ويتحوّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامراء دار مقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثل أبي العيّناء والجسمّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صالته بابن الزيات يقف فى صفه ضد خصمه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يضطّغين على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذبه فى تسنور حمى بالنار حتى يموت . ويقرب المتوكل فى هذه الأثناء ابن أبى دؤاد ، ويرسل فى طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيّداً ، ويأخذ فى تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨ .

« خَفَضَ عَلَيْكَ - أَيَّدَكَ اللَّهُ - فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَكُونَ لَكَ الْأَمْرُ عَلَى خَيْرٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي عَلَيْكَ ، وَلَأَنْ أَسَىءَ وَتَحَسَّنَ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ أَحْسَنَ فَتَسَىءَ ، وَأَنْ تَعْفُو عَنِّي فِي حَالِ قَدْرَتِكَ أَجْدَلُ مِنْ الْإِنْتِقَامِ مِنِّي » . وعفا عنه ابن أبي دؤاد<sup>(١)</sup> . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفاً به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة في الرد على النصارى<sup>(٢)</sup> ، ويغلب أن يكون هذا التكليف في سنة ٢٣٥ ، وهي السنة التي أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع . وكان مهمته كاتباً رسمياً للدواة ظلت قائمة منذ مطلع القرن الثالث الهجري حتى هذا العام . ولا بد أن الدواة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفي كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدَى الوزير والقواد وكبار الكتاب بعض كتبه يُهْدُونَهُ بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدَّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبي دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولي حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ما هناك . ويظهر أن مرض الفالج ( الشلل ) ألمَّ به مبكراً ولكنه لم يقْعُدْهُ عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألَّف كتاب الحيوان الذي قدَّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج<sup>(٣)</sup> ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان في زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظاً بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ في آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمنشير ما شَعَرَ به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه » . ووجه إليه المتوكل في سنة ٢٤٧ شخصاً يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شِقِّ مائل ، وأُعَاب سائل ، وعَقَل حائل<sup>(٤)</sup> ! » .

(٣) ذيل زهر الآداب للحصري ص ١٦٥ .

(٤) انظر في الخبرين السابقين معجم

الآداب ١٦ / ١١٣ .

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٩٩ وما بعدها

ونراه في كتابه إليه يشير إلى راتب شهري

معلوم كان يجري على الجاحظ .

ويُعدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي ، وهو في الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الحصبة التي نهض بها المعنزة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوايد للدعوى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفذ ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامي في كتاباته<sup>(١)</sup> ، ويريدون به قوة الحججة المنطقية والقدرة على التسبب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لا يزال يجلب منه الحججة وتقيضها ، تُسَعِّفه في ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » بما يستنبطه من خفيات المعاني وما يثيره من دقائق الفكر في الروح والجسم والحواس والخير والشر والجره والعرض ، بل أيضاً من خفايا المجتمع الذي عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكذِّبين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين في الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهمل الذمة من الخجوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفصائل الشعوب ، وكأنك تدور في كتاباته بمتحف لاتزال تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية في البصرة أو في بغداد أو في سامراء ، ومرة يطوف بك في ردهات الفكر العميق أو في بعض آي القرآن ، ومرة يطوف بك في شوارع المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو في هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق في البحث وفي الوصف وفي الرواية الذي يتقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما في مدن العراق الكبيرة من صور الحياة في أشدها ترفاً ونعيماً وأشدها بؤساً وضنكاً ، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من قنله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أي شيء حتى

(١) كتاب البديع لابن المنز (طبعة

العورات أحياناً ، ويعلم ذلك في صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التفزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .<sup>(١)</sup>»

ويجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطفافك بالنوادير المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى : «كتب الجاحظ مع انحرافه المشهور ( يريد خصومته للشيعه ، وكان المسعودى متشيعاً ) تجلو صدى الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورففها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف مال القارى وسامة السامع خرج من جيد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»<sup>(٢)</sup> ويصور ذلك الجاحظ نفسه فيقول : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يُحتمل أصحابها على الجدل الصرّف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ الجهود ، وللصبر غاية والاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل»<sup>(٣)</sup> . وخصّ الهزل والنوادير بكتابه المشهور «البخلاء» وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكاهة عن الأشحاء البخلاء في عصره . وبسّى رسالة له في هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهي رسالة التريبع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً ، فجعل يصفه في رسالته وصفا مضحكاً ، ثم حوّله إلى دراسة واسعة في الجمال ، وهل يكون في القصر أو يكون في الطول أو يكون في النحافة أو يكون في الامتلاء أو يكون في التريبع والتدوير ، وهي تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلي بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح : « وأو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجد في كل مقال . . . لكان السفه الصرّاح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم . . . ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه كالالبكاء في موضعه»<sup>(٤)</sup> .

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .

(٣) رسالة في النساء مجموعة رسائل الجاحظ .

نشر السند وبني ص ٢٦٦ .

(٤) رسالة التريبع والتدوير ( طبعة شارل

بيلات بدمشق ) ص ٥٣ .

المصر العباسي الثاني



وجسرت رغبةُ الجاحظ في أن يتخلَّل كتاباته بالنوادر وما يُطَرْف القارئ رغبةً مماثلة في أن يورد في تضايف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع في رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إياه قصداً ويتخذ مذهباً في كتابته ، حتى لا يملَّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً في كتبه ، كقوله في كتاب الحيوان : « قد عزمتُ - والله الموفِّقُ - أنى أرسِّح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أو رثت الغفلة »<sup>(١)</sup>. ويقول في موضع آخر : « ومتى خرج ( القارئ ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سيداد ... حتى يُفضى إلى مَرَحٍ وذكاهة ، وإلى سُخْفٍ وخرافة »<sup>(٢)</sup>.

وإدماً يُعنى الجاحظ بصياغته ، بادئاً بموادها من الألفاظ ، فهى تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظه موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدِّيه ، وهو يصيح في البيان والتبيين وغيره من كتاباته : اللاؤم - اللاؤم - ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لساومه ، يقول : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغى أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدويّاً أعرابياً ، فإن الوحش من الكلام يفهمه الوحش من الناس ، كما يفهم السوقيُّ رطانة السوقيِّ »<sup>(٣)</sup> . وإدماً يبئدى ويعيد في أن الأسلوب ينبغى أن يكون وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشف الألفاظ عن المعانى حتى تلتد الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغنى عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه . . . وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . . . صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة »<sup>(٤)</sup> . وأكثر من

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

(١) الحيوان (طبعة الحلبي) ٣ / ٧ .

(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .

الحديث في البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحق الذي أعدَّ في قوة لشيوع أسلوب جديد في الكتابة، هو أسلوب الازدواج، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق في صفوف متقابلة ، دون أن تتحد نهاياتها على نحو ما هو معروف في السجع . هي تتقابل وتتبادل صوتياً ، ولكن دون أن تحقق التوازن الصرقي المألوف في السجع ، ومع ذلك تحقق ضرورياً من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتبادل ، ودأن كل كلمة في عبارة تقابلها كلمة في العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ، ولا أخف مثونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرة » ، ولا أقرب مُجْتَسَنِي ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجند في كل لبأن من كتاب ، ولا أعلم نِتاجاً في حدائث سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمه وإمكان وجوده ، يجمع من التداير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويعة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة . ما يجمع لك الكتاب « (١) . وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذي ينف به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتب الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبى عليه كلفة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة في لسانه وعلى قلبه إلى أقصى حد ، لغة شفافة يشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصنّف الذي يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

وداعماً تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ، إذ يعننى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاعنتها لمعانيها وموضوعاتها وقرآنها ، كما يعننى يسريان روح الدعاة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سيمّة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يحصى من المعارف

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدباً واقعياً يصور مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائماً تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعاني والأفكار خائضاً بك في أعماق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو في المعرفة أو في الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجري فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل في كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام في الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلاً عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصي ونوادر ، ومرّبنا أنه طبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار في مدح الشيء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومعبّد في الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدييره في الكلب والديك ، يقول : « إنما تنتظر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيها من الدلالة عليه وعلى إتقان صنّعه وعلى عجيبة تدييره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التديير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك في جوانب من المناظرة ليبيّن الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله معبّد في ذمه وما قاله النظام في مدّحه ، وأخصّ ذلك يقول<sup>(١)</sup> :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعاييرها ومطالبها من لؤمها وجبئتها ، وضعفها وشرّها ، وغدرها وبتدائها ، وجهلها وتسرعها ، ونسئتها وقدرها ، وما جاء في الآثار من النهي عن اتخاذها وإسكانها ومن الأمر بقتلها وطردّها ، ومن كثرة جنائياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونمالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها ، وتقذّر المسلمين

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس ، وأنها كالخَلْتِ المركب ، والحيوان الملقق :  
 كالبغل في الدوابّ وكالراعيّ في الحمام ، وأنها لا سبع ولا بهيمة ، ولا إنسيّة  
 ولا جنسيّة ، وأنها من الجينِ دون الجينِ ، وأنها مطايا الجينِ ونوع من المسخ  
 وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعترها الكسبُ من أكل لحوم الناس .  
 فإذا حكينا ذلك حكينا قول منّ عدّد محاسنها ، وصنّف مناقبها ، وأخذنا في  
 ذكر أسمائها وأنسابها وأعرافها ، وتفدية الرجال إيّاها ، واستهتارهم بها ، وذكر  
 كسبها وحراستها ، ووفائها وإفها وجميع منافعها ، والمرافق التي فيها ، وما أودعت  
 من المعرفة الصحيحة ، والفطن العجيبة ، والحسّ اللطيف ، والأدب الحود .  
 وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذها وأهندائها ،  
 وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصبرها ، ومعرفتها بحق الكرام ، وإهانتها  
 اللئام ، وذكر صبرها على الجفّاء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة  
 مسّنها معاقدة الدمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبُعد أصواتها ،  
 وكثرة نسلها وسرعة قبورها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّها في  
 أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لقننها وحكايتها ، وجودة  
 ثقافتها ومهنتها وخِدْمَتها ، وجِدّها وإعسبها في جميع أمورها ، بالأشعار  
 المشهورة والأحاديث الماثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة  
 الناس لها وفراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها  
 وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جرائنها ، ومدة حملها  
 وعن سِماتها وشيائها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتي لا تَلْقُنُ منها ،  
 وعن أعرافها والخارجيِّ منها ، وعن أصول موالدها ومخارج بلدنها .

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التي تُدَمُّ بها الكلاب ،  
 فيذكرها على لسان معبّد وينقضها على لسان النظام ، ثم يأتي بمحاسنها ومحاولات  
 معبّد في نقضها ، وفي أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآي القرآن والحديث ومعارف  
 العرب ، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادهم ونوادير اليونان . مع الرجوع دائماً إلى  
 التجربة . وهو في تضاعيف ذلك يستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضاً من عادات العرب . والمناظرة في رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذي يُرى في قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذي لا يفارقهم في منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته ، أما في حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التي تستقدر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد في حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والثيل<sup>(١)</sup> ، فدائماً الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رسداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذي أهده إلى إبراهيم بن العباس الصولي ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، في كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلاً وفي كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته وردت صاحب الكلب عليه ، وهي تجرى على هذه الصورة<sup>(٢)</sup> :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصُّ بالنهار كسيرة خبيزٍ ختلاه ، ودار حواه ليلاً ، فهو في هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلٌ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أسمعُ الخلق صوتاً ، وأحدق الخلق يقظة ونوماً ، ينام النهار كله على نفس الجادة (الطريق) وعلى مدقِّ الخوافر ، وفي كل سوقٍ وملتقى طريق . . . وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب ، والنصب والتعب ، والغيط والغضب ، وبالجمب والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وطمته دابة فأسوأ الخلق جزعاً ، وألأمه لؤماً ، وأكثره نباحاً وعدواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وطمته إنسان فليست تتم له السلامة ، لأنه في حال متوقع للبلية ، ومتوقع البلية في بليته ، فإن سلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه ، لأنه أسوأهم جزعاً وأقلهم صبراً ، لأنه الجاني ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خلقتُ فارق أخلاق الناس فإنه

(٢) الحيوان ١/ ٢٨٢ وما بعدها .

(١) الحيوان ٧/ ١٩٣ .

مدموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتثرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكية لقلنا . واو كان خلاف ذلك ألدَّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعبثتوه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأنه ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتَّاب من رَضَّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائمًا فى طريق خال ليس بحضرتة رجالٌ يهابون ، ولا مشيخة يرحبون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتربه فى مجامع الأسواق لقلَّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحرَّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبَحَثُهُ فَن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباع أخلاق الناس وعادات البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلمس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللص الذى أطمعه أيامًا ، وأحسن إليه مرارًا ، وإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدتهم له . فإذا كان عهدته بى اللص أحدث من عهدته بى أهله لم يكلف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضسر اللص من البيئات غيبٌ قد ستر عنه ، وهو لا يدري أجاى ليأخذ أم جاء ليعطى . . . وأهل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة ، وبالسب والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمعُ صوتًا منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من التمارى والدَّباسى وأصناف الشمانين ( ضرب من العصانير ) فأما الأسد والثوب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تدم الكلب فى الشيء الذى لا يعم . . . وربما كان من الناس - بل كثيرًا ما تجده - مَنْ صوته أقرب من صوت الكلب ، فلم تَخْصُون الكلب بشئ ، عامة الخلق فيه أسوأ حالا من الكلب . وأما عواؤه من وطء الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَدَبَة ( طرف ) السوط أسوأ من جزعه .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلّب الكلب مثالب مختلفة في وفائه لأصحابه وفي غلظ صوته وفي نومه بالنهار على الطرق وفي الأسواق ، وفي كثرة نباحه وعُوانته حين تطؤه دابّة . وينتفضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفي الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد في الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعي لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يبق لأصحابه حين يُلقي له لِيصّ بكسرة خبز ، فإن محاسبه على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدري أجاأ ليأخذ أوجاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة ، فالبغل أسمع صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجحيل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته في القبح درجات عن صوت الكلب ، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التي وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها في يده شيء . وهي براعة فائقة في الحوار وفي الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتياط له بالعقل الثاقب ، مع التأني والتمكين للحجج ، وهي توضع في صورة أدبية بديعة ، هي صورة الأسلوب المزدوج الذي تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتبادل إيقاعاتها تعادلاً محكماً . وتمتد المناظرة في الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ في الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثاني فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة في مساوي الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثاني . وبما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل في الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذي يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه الحمدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه في الأسحار ، يقول (١) :

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم ، ولو وجد ذلك مقسوماً على ساعات الليل ، وكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت : ليس تجاوباً إنما ذلك شيء يَسْتَوِي معاً ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغي للديك أن يُقَضَى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه في يسير علمه . »

وعلى هذا النحو لا يُدْنِي صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه النظام نقضاً، وبالمثل ينقض معبد محامد الكلب. ويشتد الحوار بين المتناظرين، ونُصِبِح وكأننا بإزاء بائنين لحصون من الأدلة والبراهين لا تلبث حين تقوم أن تنقض . وكما قلنا ليس البائنان والناقضان سوى الجاحظ نفسه ، فهو الذي أقام تلك المناظرة التي ظاهرها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية ، وكان يتعصب للعروبة في أعماقه ، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامته ومثالبه ويضفي عليه كثيراً من المحامد والمحسن في حماسة بالغة .

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهي تموج بطرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلون له وتنكّر فترةً إذ أحسّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية (١) :  
« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجّح في قلبك إيثار الأناة (الحلم) فقد خفتُ — أيديك الله — أن أكون عندك من المنسويين إلى نترق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنّ امرأً أمسى وأصبح سالماً  
من الناس إلا ماجنى لسعيد  
وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمّه  
ذمّوه بالحق وبالباطل



فإن كنتُ اجترأتُ عليك - أصلحك الله - فلم أجترئُ إلا لأن دوام تغافلِكَ  
عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَمَوُ المتتابع يُؤمّن من المكافأة  
(المجازاة) واذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعُمانَ رَحِمَهُ اللهُ : عمر كان  
خيراً لى منك : أرهبني فأنتقاني ، وأعطاني فأغفاني . فإن كنت لا تهيب عقابي  
- أَيْدِكَ اللهُ - لِحُرْمَةِ ، فهَيْبَهُ لَأَيَادِيكَ عِنْدِي ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ،  
وإلاّ تفعل ذلك لذلك فَعُدْ لِحَسَنِ الْعَادَةِ ، وإلا فافعل ذلك لِحَسَنِ الْأَحْدُوْثَةِ ،  
وإلا فآت ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان  
مَنْ جَوَلَكَ تَعْفُوَ عَنِ الْمُتَعَمِّدِ ، وَتَتَجَانَى عَنِ عِقَابِ الْمُسْرِئِ ، حَتَّى إِذَا صرَتْ  
إِلَى مَنْ هَمُوْتَهُ بِكُفْرٍ (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا  
الإِنْعَامَ إلا منك هجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أَيْدِكَ اللهُ - أن شَيْنَ غَضَبِكَ  
عَلَى كَرِيْمٍ صَفَحَكَ عَنِي ، وَأَن مَوْتَ ذَكَرِي مَعَ انْقِطَاعِ سَبَبِي مِنْكَ ، كَحَيَاةِ  
ذَكَرِي مَعَ اتِّصَالِي سَبَبِي بِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِطْنَةَ عَلِيمٍ ، وَغَفْلَةَ كَرِيمٍ ، وَالسَّلَامَ .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، فنيها شعر وخبر ،  
وفيها المهارة العقلية على التدايل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذى طال  
تغافله عن الجاحظ ويشبهه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ،  
ويسوق دليلاً ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفو عنه آمناً من  
المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يلزمه الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما  
لمنزلة حرمة منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النعمة ، برهاناً  
ساطعاً ، وإما لِحَسَنِ الْعَادَةِ ، وإما لِحَسَنِ الْأَحْدُوْثَةِ ، وإما لأنه أهل للعفو عن  
المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطف له قائلًا إنه أول ذنب لى وأيس ذنبى إلا  
النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإِنْعَامَ إلا منك . فإذا يملك ابن الزيات  
إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى  
صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قرينتها فى العبارة اللاحقة ، دون  
محاوة لسجع أو نغم مماثل فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً  
يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج . وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات  
الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سببي» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببي». وتكامل مثل هذا التوازن في أسلوبه يتيح له وفرة في النغم ، مع ما يتسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة .

واون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية ، وهي تُعدُّ بالعشرات ، ويكفي أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمخنن غير ماله من رسائل في حجاج النبوة واستحقاق الإمامة وخلائق القرآن . وكثير منها مكتوب بأسلوب الجندل والمناظرة ، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفي بعرض رسالة منها ولتكن رسالته<sup>(١)</sup> في فخر السودان على البيضان ، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة في شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذي قتله الحجاج وبلال الحبشي والمقداد الصحابي الجليل أول من عمداً به فرسه في الإسلام ، ومثل مكحول الفقيه والحسيقطان الشاعر الذي يفخر بقومه ، ويذكر قصيدة له تحتج بها العمجم والحبش على العرب ، ويشرح أبياتها ، ومثل سُنَيْح بن رباح المعاصر لجرير ويروى قصيدته في الفخر بالزنج ، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس . ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تباينة) حمير ، ويذكر مشاركتهم في بعض الأحداث والحركات السياسية في العصرين الأموي والعباسي ، ثم يقول :

« الناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم وعابها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم . وليس في الأرض أحسن حُلُوقاً منهم ، وليس في الأرض أخف على اللسان من لغتهم ، ولا في الأرض قوم أذرب (أفصح) السنة ، ولا أقل تمطيماً منهم . . . والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، فلا يستعين بلمتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه . وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهما ، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه

(١) انظر الرسالة في مجموعة رسائل الجاحظ .

(نشر مكتبة الخانجي) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦ .

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف . والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السن حسن الظن ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالية أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولاً . ويقول لخصومهم إنكم أقررتهم لهم بالسخاء وادعيتهم عليهم ما لا يعرف من ضعف العقل ، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشي الذي أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ في الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار ... ودُهْم الخليل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أتمن وأنفع وأبقى ، والحُمُر (ج حمار) السود أتمن وأحسن وأقوى ، وسودَ الشَّاء أدسمُ ألباناً وأكثر زبداً ... وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشد بيوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سودَ الجذوع ... وأحسن الحضرة ما ضارح السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جنتان) ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما : (سُدَّ هَامَتَان) قال ابن عباس : خضراوان من الرى سوداوان ، وليس في الأرض عودٌ أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً ... ولا أجدر أن ينشب فيه الخطُّ من الآبنوس ... والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم في الجنة ، وأكرم ما في الإنسان حدقتاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإثمد ، وهو أسود ... وأنفع ما في الإنسان له كبده » .

ونحس كأن الكلام سيول تندافع ، وهي سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية إحصاء دقيقة موقعة في الطبيعة وفي الحيوان وفي الجماد وفي الثمار والأشجار وفي الزروع والأعواد والأخشاب وفي الإنسان وفي الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوّى في أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للأذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدّة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ في جوهره من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرين من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشبوهيهاً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئته ، ويسلك فيهم من العرب بنى سليم بن منصور وكل من نزل الحرّة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرّة (حرّة بنى سليم) أن ظباءها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس في حرارةٍ دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صحّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان في عصره ، وكأنما أصبح لهم شيء من الخطر في الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضوع .

ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصي ، إذ كان بارعاً في تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلي لأسعفته ملكته في المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارى في وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصور هذه النزعة القصصية عنده أقصوصته في كتابه الحيوان عن «القاضي والذباب» وهي تجرى على هذه الصورة الرائعة (١) :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زميماً (٢) ولا ركيناً (٣) ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك . كان يصلّي الغداة (٤) في منزله ، وهو قريب

(١) الحيوان ٣/٣٤٣ .

(٢) ركيناً : رزيناً .

(٣) زينياً : وقوراً .

(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيحتبي ، ولا يتكى ، فلا يزال  
مُتَّصِباً ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبُوتَه<sup>(١)</sup> ، ولا يحول رجلا  
عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيقه ، حتى كأنه بناء منبئ أو صخرة منصوبة  
فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه . فلا يزال  
كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه في طيِّوال الأيام وفي  
قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه ،  
وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة . فبينما هو كذلك  
ذات يوم وأصحابه حواليه وفي السباطين<sup>(٢)</sup> بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ،  
فأطال المُسْكَنُ ، ثم تحول إلى مُؤَقِّ<sup>(٣)</sup> عينه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق  
وعلى عَصَّه ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك  
أرنبته<sup>(٤)</sup> أو يفضن وجهه أو يذب بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب  
وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى  
على جفنه الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق  
والفتح ، فتنحى ريثما سسكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ،  
فغمس خُرْطومه في مكان كان قد أواهاه قبل ذلك ، فكان احتمال له أضعف  
وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى . فحرك أجنانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين  
وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ،  
فما زال يلدح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدًّا من أن يذب عن  
عينيه بيده ، ففعل ، وعين القوم إليه ترمقه . فتنحى عنه بقدر ما رده بيده وسكنت  
حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كُمه ، ثم  
ألجأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين من حضره من  
أمتائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألحج من الخنفساء  
وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبتنه نفسه ، فأراد الله عز وجل  
أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا . وقد علمت أني عند الناس من أزميت

(٣) المؤق : طرف العين مائل الأنف .

(٤) أرنبته : طرف أنفه .

(١) يحتبي : من الحبو ، وهي أن يجمع

الرجل بين ظهره وساقيه بمائة ونحوها .

(٢) السباطين ؛ مثنى سباط وهو الصف .

الناس ، فقد غلبني وفضخني أضعف خلقه ، ثم تلا قواه تعالى : ( وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ  
الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ) .

والأفصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه  
الجاحظ وقار القاضي عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة — التي  
لم يبلغها أحد — على نفسه وحركته . وهي سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من  
الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس  
مُحْتَبِيئًا غير متكى في المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمدته ،  
لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يغيّر وضعًا له في جلسته ،  
حتى لكأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا في يوم  
من أيام السنة ، بل في جميع أيامها طوالها وقصارها ، وشيء منه لا يتحرك ،  
لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له في سماطين وعظهم وعظًا بليغًا .  
وهذا هو الجزء الأول في القصة أو الأفصوصة ، ويليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ الإلحاح  
الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانه وهو يسترسل في  
العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه في الوهن شيئًا فشيئًا ،  
والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصورًا أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف  
تحول من أنف القاضي إلى مؤقّه ، والقاضي يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيماً  
على عَضِّ الذباب لمؤقّه ونفاذ خرطوميه فيه دون أن يُغْمِض طرفه أو يَغْضُن  
وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجهه الذباب ويحرقه ، حتى  
إذا نفذ صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل في  
إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحى الذباب  
قليلاً ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتمال له أضعف ،  
فحرك أجنفانه وزاد في شدة الحركة وفي تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن  
المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضي حتى نفذ صبره ،  
فذبّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر ماردّ يده  
وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه . حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بداً  
أن يذبّ عن عينيه بطرف كفه . وعادوه مراراً ، وهو يتابع ذبّه بطرف الكم . وتنتقل  
مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأفصوصة وفيه يصور تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة .  
ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّخ  
بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة  
الآية القرآنية الكريمة . والأقصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الحاحظ من  
دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشاهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلاً واعياً ،  
أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شيء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الحاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نودار  
ترويحاً عن نفس القارئ وتشيطاً له ، على نحو ما صور ذلك بنفسه فيما أسلفنا  
من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغير ولا تبدل  
صورتها اللفظية ، سواء جرّت على السنة البدوية أو السنة العامة ، يقول<sup>(١)</sup> :

« وتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن  
تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها  
وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل  
كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نودار العوامّ وملّحة من ملّح الحشونة والطغام  
فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تنخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك  
مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى  
أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحتهم لها » .

وطبق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُروى بألفاظها كما  
نَدّت من السنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً فى البداوة  
ظلت كما اجتلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عدلت مُسخت وأصبحت مشوّهة  
الخلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النودار فى البخلاء بل كل  
الكتاب نودار إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الفذة  
الفلسفية والكلامية ومخركاته من شعبية وغير شعبية وكثيراً من تقاليد ومطامع  
وملاپسه ، فكل ما فى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقاً بكل  
شيائه وسماته . وله فى المعلمين كتاب ملاء بنوادرهم ، ونسوق له هذه النادرة  
التي صور فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصبيبية ، قال :

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

« كنت ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من الغنلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً قرية ، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسألت عليه فردَّ عليَّ أحسن ردِّ ، ورحَّب بي ، فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجمت يوماً لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إليَّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيِّدك . فدخلتُ وخرجتُ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيباً ، فقلت : عظَّم الله أجرك ( لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ) ، ( كلُّ نفس ذائقة الموت ) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذي توفى ولديك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أني رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت من لم ترَّ ؟ فقال : اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق ( النافذة ) إذ رأيت رجلاً عليه بُرْدٌ ( ثوب ) وهو يقول :

يا أمَّ عمرو جزاك الله مكرمةً رُدِّي عليَّ فوادي أيما كانا  
لا تأخذين فوادي تلعبين به فكيف يلعبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ في نفسي : اولاً أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرَّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأُمِّ عمرو فلا رجعتُ ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقتُ المكتب ، وجلست في الدار ، فقلت : يا هذا : إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويتُ عزى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله .



والنادرة طريقة منتهى الطرافة ، والمعلم فيها يأخذ سمياً جاداً ، يزينه في أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألتمه في نوادر المعلمين وغفلتهم وحقهم . ويصحبه فترة ، ويلاحظ أنه أغلق كتابه فيزوره في داره ، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب ، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنا أطلّ حمقه على الجاحظ ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها ، وتتوالى غفلته في هذا الحب الأحمق الذى تهوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأنا في مسرح هزل نفى فيه إلى الضحك ، وكلما مضينا في النادرة أغربنا فيه ، لا نتوقف ، وكأنا اختلّ توازننا ، أو كأنما نندفع في انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغنلة المحسمة وما يُطوى فيها من حمق فظيع ، حمق يدفعنا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندّر على كل شيء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويروى عنه أنه قال : « ما أخجلنى إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيتُ مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن تعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدري كيف أصوره ، فأنت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية في كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت في الجاحظ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسدها فيه من طواع عقلية ومن جيد وهزل ومن نقل لكل صور الحياة في مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطُرف والنوادر ومن أسلوب مليء بالنغم ، يجرى فيه دائماً الازدواج الذى يروع القارئ بجرسه ، إذ يُمتنع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تُصغى إليه ، كما يُمتنع بمضامينه العقول والأفئدة .

## ابن قتيبة (١)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ولد سنة ٢١٣ للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسي أو تركي من مرو بخراسان ، ومن ثم نسب إليها ، فقيل المروزي ، اختلَفَ في صباه إلى الكتاب ، فحفظ شيئاً من القرآن الكريم والحديث النبوي والأشعار وشدا شيئاً من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكذب يشبَّ عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرجم عن الفارسية ، ولع اسمه في بيئة الفقهاء ، فتولَّى القضاء بدِينُورَ ، ولذلك يقال له الدينوري . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفي سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكتب على كتب الجاحظ يدورها ويتمثلها ، مع أنهما كانا على طرفي نقيض ، فقد كان الجاحظ معتزلياً كما مرَّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنيّاً ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة في الثاني يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب في الفقه وكتاب في دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرها كثيرة في مختلف الميادين سقطت من يد الزمن . ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلا عن ترجمة للتوراة ، ويُعقب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء في كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب الميسر والقيداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبّهة وهو منشور أيضاً بالقاهرة ونُشر

وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والديباج  
لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب  
٢ / ١٦٩ ومراة الجنان لياقبي ٢ / ١٩١ .

(١) انظر في ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١  
والأنساب للسعدي الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد  
١٠ / ١٧٠ وإنباء الرواة للقفطي ٢ / ١٤٣  
وزنه الألباء (نشر دار فضة مصر) ص ٢٠٩

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحول<sup>١</sup> عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ، وهو منشور مراراً . وله كتاب معاني الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتّاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذي عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو يمدُّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمدُّ الكاتب فيه بكنوز الثقافات التي تُسَعِّفه في مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدُّ أكبر مؤلف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ ، وهو سني محافظ ولذلك يكون من المنطق أن تتضح محافظته في آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجدّدة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك في مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ بها قوماً دون قوم . وهي نظرة مُنصِّفة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العاقى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصنفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يردّ على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت الرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشَّيخ والحسنوة<sup>(١)</sup> والعرارة » وهي لا شك نظرة محافظة تستمد من الجوسني في العصر الذي حل محل جوسن الاعترال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقي مع النظرة السابقة التي لا تضع في موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومرّبنا في غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثانياً اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنّفه : « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك في نفس الموضوع كتب مختلفة .

(١) الحنة والعرارة : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية، ويعمل على تكوين مزيج موحد منها جميعاً، بحيث لا يُشغَلُ أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذي طال عليه الأمد منذ عهد المهدي حتى عصره. وحقاً حاول ذلك الجاحظ من قبله، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شيء يشغله، حتى ليقول: «لا يكون المتكلم جامعاً لأفطار الكلام متمكناً في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة»<sup>(١)</sup> وأشار غير مرة إلى أن كتابه «أخذ من طُرفِ الفلسفة». ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية في العصر، فقد كان الفرس هم الذين يحملون علمها ويبذلون قصارى جهدهم في الدعوة لها مشيرين دائماً إلى كتب الآداب الفارسية. فكان لا بد كى يُقضى على هذه النزعة الحادة من أن تلتقى - على يد كاتب عظيم - ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وتدخل جميعها في مجرى النهر العربي الإسلامي بحيث تتلاشى فيه نهائياً، ولا يصبح لها وجود مستقل، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة.

وهو ما نهض به ابن قتيبة في أروع صورة، إذ مضى ينسّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألقت كتابه «عيون الأخبار»، وقد وزعه على عشرة كتب، أولها كتاب السلطان، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحْبته واختياره للعمال والقضاة والحجّاب والكتّاب، ويبدوه بأحاديث نبوية، ثم يذكّر بعض وصايا لشخصيات عربية في الحكم وسياسة السلطان، ولا يلبث أن يقول: «وقرأت في كتاب من كتب الهند: «شر المال ما لا يُسْتَفَقُ منه، وشرُّ الإخوان الخاذل، وشرُّ السلطان من خافته البريء، وشرُّ البلاد ما ليس فيه خِصْبٌ ولا أمن... وخير سلطان من أشبه النَّسْر»

حواله الجيفُ لا مَنَ أشبه الجيفة حولها النسورُ» ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلاً من كتاب التيممة لابن المقفع وما يصور من الأدب الأخلاقي في عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « وقرأت في التاج (وهو في سيرة أنوشروان) لبعض الملوك : هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء يتجلى ، وألباب السُّوق مشغولة بأيسر الشيء . » ويعود إلى النقل عن بعض النابيهين من العرب ، ثم يقول : « وقرأت في بعض كتب العجم كتاباً لأردشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسططاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعية بالإحسان إليها تظهر بالحببة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك ، هو أدوم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان ، فتخطها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل . » ويتلو ذلك بقوله : « وقرأت في كتاب الآيين (في أنظمة الملك والدولة الساسانية) أن بعض ملوك العجم قال في خطبة له : « إني إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج في رعيته ، ثم يقول : « وقرأت في كتاب التاج : قال أبرويز لابنه شيرويه وهو في حبسه : « لا توسعنَّ على جنك فيستغزوا عنك ، ولا تضيقنَّ عليهم فيضجوا منك ، أعطيهم عطاء قَصِداً ، وامنعهم منعاً جميلاً ، ووسعْ عليهم في الرجاء ، ولا توسعْ عليهم في العطاء . » ويروي عن عمر بن الخطاب « إن للناس نَفْرَةَ عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجذولة وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعةً من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرت بواد خِصْب فلم يكن لها همٌّ إلا السَّمَن ، وإنما حتفها في السَّمَن . » ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير في الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفي كتاب من كتب العجم أن أردشير قال لابنه : « يا بُنَيَّ إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أسُّ والملك حارس ، وما لم يكن له أسُّ فهودوم ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون في السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت في كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه وأطرحه مخافة ضرره ، فعِلَّ الذي تلسع الحية لإصبعه ، فيقطعها لثلاث ينشر سُمِّها في جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغَسَاء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه» . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغيير السلطان وتلونه ، ويقول : « قرأت في كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطار ، وإنما تُشَبَّه بالجيل الوعر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير في الشيء الذي في سلامته مال وجاه ، وفي نكته الجائحة والتلف» . وينقل عن بعض العرب ورجالاتهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعاظ وعن بعض كتبه التي كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبرويز في بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامي وبشار وغيرهما ، ويعرض لخبايا العُمَمال ، وينقل من كتاب التاج : أن أبرويز قال لصاحب بيت المال : « إني لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحديك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتعمَّرُ به أمانتك ، فإنك إن خُستَ قلباً خنت كثيراً » . ويكثر في فصل القضاء المعقود في هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروي كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، وهو دستور عظيم في عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يكثر من النقل عن العرب نثراً وشعراً ، ويعود في الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثاني كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحييئيتها وعُدَّها وسلاحها ، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وبعض وصايا أبي بكر وعمر للجيش وقوادها عند عقد الألوية ، ويتدكَّر بعض ما قرأ في كتب العجم والهند ، ومما قرأه في الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه في كل حال ، يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولَّى ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدّاً ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة في

غيره من المال». ويذكر بعض حجيل الفرس والعرب في الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُتميّض في الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسي .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لجوانب كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط في الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق ، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسططاليس . ويُفرد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : وقرأت في كتاب للهند : « فلما يُسْمَع القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أضرّ فيه ، وقد تُقَطَّعُ الشجرة بالفئوس فَتَسْتَنْبِتُ ، ويُقَطَّعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب في الجوف فَتُسْتَرْعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُسْتَرْع ، ولكل حريق مطفي : للنار الماء ، وللسم الدواء ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرقة ، ونار الحقن لا تخبو » . ويذكر أن أشيئاً وشئاً برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلت فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكفّ عن الشرّ يكفّ عنك الشر » ، وينقل في هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً بالجاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقب الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستقبله بحديث عن الرسول ويقول : في كتاب للهند : العالم إذا اغترب فعنه من علمه كاف كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجه ، ويذكر عن بُزُرُ جِمْهَر أنه قيل له : بِمِمْ أدركت ما أدركت من العلم ؟ فقال بيكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن في قول لا أعلم سبباً لأنى أعلم لقلت إنى أعلم » . ويروى بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصلاً للقرآن الكريم والحديث الشريف والفرق والأهواء في الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواضع كبار النسّاك والوعاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضاً ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عزّ وجلّ إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت في الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يُفسدُها السوسُ والدود وحيث يَسْتَقْب السَّرّاقُ وكنم اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلاً من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لي أن أدفن أبي ؟ فقال له : دع المرقى يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلاً حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاءً لداود وتحميداً طويلاً ودعاء ليوسف ، ويسرّوي عن المسيح أنه قال : حبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة ، والمال فيها داء ؛ قيل : ما دأؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلاة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد في البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغي أن يكون بينهم من الوشائج والصلوات والاشترار في السَّرّاء والضَّرّاء . ، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين . والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بزرجمهر : « إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تفسني ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب في ما كلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأواني الأكل والحميمية وشرب الدواء والتشخّصة والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول . وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرّح بأنه ينقل في هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء وأصح فيه ، ويذكر في الحميمية عن الطبيب اليوناني جالينوس أنه قيل له : إنك تُقيلُ من الطعام ؟ قال : غرضي من



الطعام أن آكل لأحياناً وغرض غيرى من الطعام أن يحسباً لياكل. وبالمثل ينقل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ، وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يقبَلُ منهن وما يُكْرَهُ والجحمال والقيح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والجوارى والقيان ومساوى النساء ، ويحكى هنا قصة حصار أردشير لمدينة الحضرة الأبطورية التى يقال إنها كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات ، وكيف أن فتاة ملك الحضرة رأتة فعشمتة ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتح منه المدينة إن هو وعددها الاقتران بها ، ووعددها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قلنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرؤها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خفت صوت الشعبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحوات إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لبسه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشق لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صببت فى نهر العروبة الكبير وذابت فيه ، أذابتها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لاتساؤل صوت الشعبية تضاهلاً شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لانعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيد الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دون الفردوسى فى الشاهنامه من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى . وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعبية والزندقة معاً ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري، مصورين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب في أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوب ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التي نسقتها سببها في أسلوب أدبي رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحياناً ، وأحياناً يسترسل دون محاولة الازدواج ، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملازمة بينها بحيث لا تجد فيها أى نشاز ولا أى اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة في يده ، وكان لا يتأبى عليه أى لفظ ، ولا تستعصى عليه أى كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجرى فيه من استواء صنّف كتابه عيون الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب في قوالب متماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعاً لا ينفد ، وقرأ سطوره الأولى في المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذى يُعجز بلاؤه صفة الواصفين ، وتفوت آلاؤه عدد العادين ، وتسع رحمته ذنوب المسرفين ، والحمد لله الذى لا تُحسب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طلبية ، ولا يضل عنده سعى ، الذى رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر ، وغفر بعقود الندم كبير الذنوب ، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذى ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هادياً إلى رضاه وداعياً إلى محبته ، ودالاً على سبيل جنّته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله في كل نعمة أنعمَ بها حقاً ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، زكاة المال الصدقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بذله ، وزكاة العلم نشره ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحملها مغيبةً ، وأحملها مغيبةً ما تعلم وعالم لله وأريد به وجه الله تعالى . »

وهذه القطعة في مستهل الكتاب تصور ضرباً من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجرى السجع على لسانه في غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التي ردّها فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقّب فيها الكلمة الأخيرة وردّها

كما في كلمة « أنفعها » و « أحملها » هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ، وكان ابن قتيبة تمثل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضى معه في المقدمة ، فنراه يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمها لمغتمل التأدب تبصرةً ، ولأهل العلم تذكرةً ، ولسان الناس ومسوسهم مؤدباً ، وللملوك مستترأحاً ، وصنفتها أبواباً ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ، وهي لتمام عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وزبدة المأخض ، وحليمة الأدب ، وثمار طول النظر ، والمتخير من كلام البلغاء ، وفيطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف » .

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذي كتب هذا الكلام ، وسئلنا عن صاحبه لأجبنا توًّا الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فصل من أسلوبه بخواصه من الموازنات والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات في صفوف ، وكل كلمة كأنما تمسك بمثلتها في العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهي على وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يحدث تماسكاً شديداً في أسلوب الجاحظ ، لولا ما يداخله أحياناً من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد ولا خروج من دائرة الفكرة التي يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتبة مبرورة في أدق نَسَق . ويكفي أن ننظر في فهرس عيون الأخبار فسرى الكتاب من كنه العشرة يُفتَح ، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه ، وكأنها حلقات في سلسلة متتابعة وليس في داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل كأنما الكتاب خيط ممتد أحكمت فصوله ونُسِقت موادّه تنسيقاً دقيقاً . وابن قتيبة يخطو بالتأليف الأدبي من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأي فصل داخل في كتاب فضلاً عن الكتاب نفسه بأي استطراد يُخلخل الكلام أو يُفقد سياقه . ولكن إذا كان قد تفوّق على الجاحظ من حيث نَسَق التأليف فإن الجاحظ يتفوق عليه في وصله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صورنا من صنيعه في هذا الجانب . وحقاً نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يتحك أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصروهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتباً واقعياً على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحياناً أن يقتنى أثره . ومَرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شىء يخجل منه المتزمتون ، حتى العَوَرَات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلاً : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عَوْرَةٍ أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التواضع على أن تصعَّرَ خَدَّكَ ، وتُعَرِّضَ بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤثِّمُ ، وإنما المآثِمُ فى شتَم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب » . ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متزمتاً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجلد بالهزل خاصة قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنَّة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول : « ولم أخله من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة . . لأروح بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاَب الحق ، فإن الأذن مَسْجَاجَةٌ ، وللنفس حَمَضَةٌ ، والمَرَّح إذا كان حقاً أو مقارِباً ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبه مُشَاكِلًا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا تَوَّأً أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فنراها كثير لا يثير ابتساماً ، وما يثير الابتسام قليل جداً ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدماً أنها نوادير وفكاهات يسمح عليها الوقار وأنه يستلزم أن ترتسم معها ابتسامته على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادر عن الشَّعْبِيِّ ( من علماء الكوفة ) لتُعَرِّفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه في البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبي ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعمش زميله يعوده في مرض ، ونظر من حواه إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتُعَرَّف في منزلك أنك لست من أهل القمريتين ( مكة والطائف ) عظيماً .

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التي رويناها آنفًا ، والتي مَثَّل فيها الجاحظ حُصْمُقه تمثيلاً هزلياً مضحكاً ؟ . ولا ريب في أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكاه بطبعه متحرر من كل قيد ، يُضْحِك وتستهغرق في الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتسترد نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استشعار الجدل ، وكأنه إذا هزَلَ أو تندَّر خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبُّه عنده في باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم في تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكى النوادر العامية بلفظها وبما فيها من لحن ، ومرَّ بنا كلام الجاحظ في هذا الموضوع وأنه ينبغي أن تظل النادرة العامية بصيغتها واحسنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامية إلى الفصحى وتبدلت صورتها الفكاهية ، ويقول ابن قتيبة محتجاً لذلك : « اللّسَّحْنُ إن مرَّ بك في حديث من النوادر فلا يذهب عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلسب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها ، وسأمثل لك مثالا ، قيل لمزبَّد المدني ( المضحك ) - وقد أكل دُعاماً كظَّه ( أتخذه ) - في ( قبيء ) فقال : ما أقي ، أقي نَقَمًا ( مخًا ) ولحم جدِّى ! مرَّتى طالق لو وجدت هذا قياً لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ، ولاستبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التي تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدلُّ - هي وما سبقها بوضوح - على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ في الواقع قمة بعيدة المنال في الأدب العربي كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريداً في عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفي ابن قتيبة مجداً أدبياً أسلوبه الواضح الناصع الذي وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشعوبية بما سوى للعربية في عيون الأخبار من هذا الأدب العربي الرفيع الذي وسع مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

## ٤

سعيد بن حميد (١)

أبوه حُمَيْد بن سعيد فارسي الأصل ، كان من أهل النباهة في بغداد ووجهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحسِّن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنِيَ به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحمته بكتّاب حفظ فيه شيئًا من القرآن والنقمة والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات في العقد الثاني من عمره دفعه إلى حلقات الدرس في المساجد ، ويُرَوَى أنه عُنِيَ خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة في نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكتف سعيد بحلقة هذا العالم اللغوي الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكَيِّبًا عليها ناهلا منها متمثلا لما يقدّم فيها من غذاء أدبي وفكري ، مما جعل المسعودي يقول عنه : « كان سعيد حافظًا لما يُسْتَحْسَن من الأخبار ويستجد من الأشعار متصرفًا في فنون العلم ، مُسْتَعِمًّا إذا حدث ، مُفِيدًا إذا جواس . ولعل ذلك ما جعل فضلا الشاعرة تُعْجَبُ به ، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة ، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية ، على نحو ما مرّ بنا في حديثنا عن فضل . وكان قدملاه الطموح بالنجاح في سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب في أن حلاوة محضره وعدوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرّب أعناقهم إلى صحبته ، وكانت فيه دُعابة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا علي البصير وأبا العيّناء نديمي المتوكل بألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتدور بينهما وبينه مداعبات ومعاتبات ومكاتبات ، كما قال الرواة . ويبدو

رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس  
أحمد السمراني (طبع بغداد) وجمهرة  
رسائل العرب لأحمد زكي صفوت .

(١) انظر في ترجمة سعيد ورسائله الفهرست  
ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسي) ١٧ / ٢  
ومرجع الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي ما اشتهر به من تعصبه على آل علي بن أبي طالب تعصباً شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس نَصَباً (عداء) لعلي وانحرافاً عن آل الرسول عليه السلام »<sup>(١)</sup> ويقول المسعودي : « كان يتنصَّب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . ومَرَّ بنا في غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين في كربلاء وانحرافه عن علي وآله ، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نظن في هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معاً أنه كان يعمل في ظله ، وأنه استحال بوقاً من أبواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويعرَّف بالتسوية ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندري هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافاً شديداً أو انحرافاً خفيفاً ، على أن في كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعرَّف بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مرَّ بنا في هذا الكتاب وكتاب العصر العباسي الأول لا تدخل في العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفي أشعاره ما يدل على أنه كان معتزلياً مثل أبيه على نحو ما نرى في قواه<sup>(٢)</sup> :

قد قلتُ بالعدل ولكنني عدلتُ في الحبِّ عن العدلِ  
فقلتُ بالإجبار مستغفراً لله من قولي ومن فعلي

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتي تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكن ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شيء بقضاء وقدر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل في ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهياً له ذلك أن يصبح من كُتَّاب الدواوين

(٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها ترمقه وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعاً وكاتباً نابغاً .

وكانت أولُ حادثة لمع فيها اسمه البيعةَ للمتصرف بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ، فقد ذكر أن أحمد بن الحصيب وزير المنتصر قال له : ويلك يا سعيد ! أمعك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البيعةِ . وهو كتاب طويل استهلّه بقوله<sup>(١)</sup> :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تباعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضاً ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق من نيئاتكم لامُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة ، ولِسْمِ الشَّعْثِ ، وسكون الدِّهْماءِ ، وأمن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقَمْعِ الملّحين . . . لا تشكّون ولا تُدْهِنون (تمالّتون) ولا تميّلون ، ولا تترابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسالمة ، والنصرة والوفاء والاستقامة والنصيحة في السر والعلانية ، والخُفوف والوقوف عند كل ما يأمر به . »

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح في هذه السطور القليلة ، فهو يُعْنَى أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتى لتصبح كلمة مثل : « طوع واعتقاد ورضاً » ، ومثل « اجتماع الكلمة ، ولِسْمِ الشَّعْثِ ، وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقمع الملّحين » فالكلمات تتعاقب ، جزلة حقاً ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاة ، إذ لا تلبث أن تحملها حتى ترسلها . ويظل كاتباً لأحمد بن الحصيب طوال خلافة المنتصر ، حتى إذا ولي الخلافة بعده المستعين لسنة ٢٤٨ عزل ابن الحصيب من الوزارة ، واستوزر مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل الجرجاني ، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد<sup>(٢)</sup> ، وبذلك أصبح الكاتب الأول في الدولة الذي تصدّر عنه جميع رسائلها الديوانية ، ومما كتبه حينئذ رسالة خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

(١) انظر الطبري ٢٣٥ / ٩ وما بعدها .

(٢) طبري ٢٦٤ / ٩ .



نزلها سنة ٢٥١ بُعْدَءَ عن سامراء مدينة الترك وبَغْيِهِمْ ، فبايعوا المعتز ، ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزموهم ، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الواقعة حتى تُتَمَرَّأَ على أهل بغداد في مسجد جامعها ، وهي رسالة طويلة طولاً شديداً نقتطف منها بعض الفقر التالية :

« ساروا نحو مدينة السلام (بغداد) معلنين للبغي والافتقار ، مظهرين للغنى والإصرار ، فأناناهم أمير المؤمنين (المستعين) وفسح لهم في النّظيرة ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد . . . وأن يبين لهم ما سلف من بلائه عندهم من أسننى المواهب ، وأرفع الرغائب ، والاختصاص بسنى المراتب ، والتقدم في المحافل ، فأبوا إلا تمادياً ونفاراً ، وتمسكاً بالغي وإصراراً . . . وقابلوا الموعدة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار في الباطل . . . وصدقتهم أولياء الله (جنود المستعين وابن طاهر) في لقاءهم بقلوب مستجيعة لهم ، وعلم بأن الله لا يُخلف وعده فيهم ، فجالت الخيل بهم جواة ، وعاودت كربة بعد كربة ، طعننا بالرواح ، وضربنا بالسيوف ، ورشقنا بالسهام ، فلما مسهم ألم جراحها وكسرتهم (جرحتهم) الحرب بأنيابها ، ودارت عليهم رحمتها ، وصمد لهم أبنائها ظمناً إلى دمائهم ، ولتوا أديبارهم ، ومنح الله أكتافهم ، وأوقع بأسه بهم ، فقتلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصنوا من عقابه بإذابة . . . فن قنيل غودرت جنته بمصرعه ، ونقلت هامته إلى مصير فيه معتبر لغيره ، ومن لاجيء من السيف إلى الغرق لم يجره الله من حذاره ، ومن أسير مصفود (موثق بالأغلال) يقاد إلى دار أولياء الله وحزبه ، ومن هارب بحشاشة نفسه . . . فرفقاً أربعاً تجمعها النار ، ويشملها عاجل النكال عظة ومعتبراً لأولى الأبصار . »

وواضح تقطيع العبارات وتقابل الكلم في الرسالة ، وكأننا بلازاء حائك ، يقيس ثياباً مماثلة مقدرة على معانيها . وقد يتكامل التقطيع ، فيظهر السجع ، ولكنه ليس سجعاً متكلفاً ، فليس مردّه إلى محاولة صنعة ، وإنما مردّه إلى دقة التقطيع ، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعيات متوالية . وما نزال نتقل بين تقاطيع طريفة ، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذي دارت عليه الدوائر أقساماً أربعة :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يارى .  
ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدي رسائله الديوانية ، فن ذلك  
تحميد كتب به في فتح نهض به القائد التركي وصيف ، يستهله بقوله (١) :

« أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد ، الفعّال لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته  
وأفضاه على مشيئته ، ودبره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى  
عرفته ، وتشهد لذوى الألباب بربوبيته ، وتدلّ على وحدانيته ، لم يكن له شريك  
في ملكه فينازعه ، ولا مُعين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرف  
عباده في حال إلا كانت دليلاً عليه ، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهداً له  
بما رسم فيه من آثار صنّعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إغذاراً بحجّته ، وتطويلاً  
بنعمته ، وهداية إلى حقّه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز  
القهار ، الملك الجبار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهره ،  
وأعلاه وأظهره ، فجعله حُجّةً أهله على مَنْ شاقّهم (خالقهم) ووسيلتهم إلى  
النصر على مَنْ عَسَدَ (مال) في حقهم ، وابتغى غير سبيلهم . »

والسجع كثير في هذا التحميد ، وهو دليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع في  
العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن  
لا على أساس الجور على المعانى ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى في أول  
تحميده صفات الله جلّ شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة في تدبير الكون ، مما  
يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلمُّ بالوحدانية إذ يقول :  
لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضاً فإن هذا يؤول  
إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه في الخلق وتساعده ، ولو صحَّ ذلك لأصبح الله  
محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يمسه الضعف والعجز من بعض الوجوه ،  
ويعرض حجة على ربوبيته التأمل في خلق الإنسان وفي نظام الكون مما يهدى إلى  
طريق الرّشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التى كان يكتبها في أثناء عمله بالدواوين  
رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النيّروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

مجالس الأُنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونعم  
طائفة منها بادئين بتهنئاته في عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبي صالح  
يزداد وزير المستعين<sup>(١)</sup> :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصروفٌ إليك ،  
فما عسانا أن نُهندي لك في هذا اليوم ، وهو يوم سهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا  
للسادة ، وكرهتُ أن نخليه من سنَّته فنكون من المقصرين ، أو نندَّعي أن في وسعنا  
ما يتقضى بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقصرنا على هدية تقضى بعض الحق ،  
وتقوم عندك مقام أجمل البير ، وهى الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلت  
أيها الأمير دائم السرور والغبطة في أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ،  
تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخلِّقها وأنت جديد ، وتستقبل  
أمثالها ، فتلقاك ببهائها وجمالها . وقد بعثت الرسول بالسكر لطيبه وحلاوته ،  
والسفرجل لفأله وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلت حلَّو المذاق  
على أوليائك ، مرّاً على أعدائك ، متقدِّماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك  
وتحسن أفئدتهم (ساحاتهم) بمثلك » .

والرسالة تحمل أسلوب سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعاني المتقابلة ،  
فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطاً طبيعياً ،  
كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به  
أهلها من دقة الحسِّ ورهافة النوق ، على نحو ما يتضح في المعاني التي تحملها  
الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير في عِزِّه .  
ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال<sup>(٢)</sup> :

« أيها السيد الشريف ! عشت أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها  
من الشكر ، لا يتقضى حق نعمة ، حتى تجلِّد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم  
إلا كان مقصراً عما بعده ، موفياً على ما قبله . إنى تصفحت أحوال الأتباع الذين  
تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتمست التأسى بهم في الإهداء ، وإنى إن

(٢) عين الأخبار ٣/ ٣٩ ، والمقد  
الفريد ٦/ ٢٨١ وديوان المعاني ١/ ٩٤ .

(١) المقد الفريد ٦/ ٢٨٢ وديوان المعاني  
١/ ٩٥ .

أهديت نفسي فهي ملك لك ، لاحظتُ فيها لغيرك ، وإن رميتُ بطرفي إلى كرائمِ مالي وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتي فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة فرأيتُ إن أنا جعلتها هديتي لم أجدد لهذا اليوم الحديد يراً ولا لطفاً (هدية) ولم أفسد منزلة من شكري بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقلك هدية إليك ، والإقرار بما يجب لك يراً أتوصل به .

والرسالة تحمل في جوهرها معاني الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن كان قد ازداد رقة في الدعاء وفي التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قد مهما من قبل ، ولم يبق في طاقته سوى الحمد والثناء والشكر الذي لا يماثله شكر ، وتتوافر التقطيعات في الرسالة ويظهر السجع أحياناً في خفة وبدون أي تكلف بل جهد أو عناء . ويكتب لصديق عزل عن عمله ، مسلياً له (١) :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سروري بصرفك أكثر من سرور أهل عملك بما خصوا به من ولايتك . وقد كنت - أعزك الله - فيما يُربأ بك عنه بما أنت عليه في قدرك واستهالك ، ولكننا رجونا أن يكون سبباً لك إلى ما تستحق ، فطبنا نفوساً بالذي رجونا . فالحمد لله الذي سلمك منه ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشفع (قرن) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خصك الله بجميل الصنع ، وبلغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الولي - حفظك الله - وأعظم ما يُخص به في عمله ولايته السلامة من بوائق (دواهي) الإثم ، وفوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خصك الله منها - بيمته وطوله (إنعامه) ما نرجو أن يكون سبباً لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعك (إلهامك) شكر ما من به عليك ، وتبليغك غاية أملك في جميع أمورك ، برحمته وفضله .»

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ لا عكس سعيد العزاء عن العمل ، وجعله تهنئة

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٧ .

خليفةً بأن تُنصب لها أعلام السرور . ومضى يصوّر سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفساً ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعدُّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التي كانت تدور في المجالس ، والتي كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه . فقد يكون حسناً وينقلب سيئاً ، وقد يكون سيئاً وينقلب حسناً ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل الذخائر العقلية التي حازها لنفسه العصر العباسي . وله من رسالة تعزية (١) :

« إذا استوى المعزى والمعزى في النائية استغنى عن الإكثار في الوصف لموقع الرزية... وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافاً بالمرجع إليه ، وتسليماً لقضائه ، ورضياً بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّيَ على محمد صلاة متصلة بركاتها ، وأن يُوفِّقك لما يُرضيه عنك قولاً وفعلاً ، حتى يُكَمِّلَ لك ثواب الصابر المحتسب وجزاء المطيع المنتجز للوعد ، ويرحم فلاناً ويُحِلِّه أعلى منازل أوليائه الذين رضى سعيهم ، وتطول بفضله عليهم ، إنه وليٌ قدير » .

والحيلة أيضاً في هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزى ، فهو أيضاً حري بأن يُعزَى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يمتال على أن يسألوا عنه صاحبه ، تسليماً للقضاء ، واعترافاً بأن كل من عليها فان ، ورضاً بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصابر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفيائه في الدرجات العلية . وله يهنئ بعض إخوانه بولاية (٢) :

« أنا أهني بك العمل الذي وكّيته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويصدره مصادر الحجّة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . قرّن الله لك كل نعمة بشكرها ،

(٢) جبهة رسائل العرب ٤ / ٢٨٩ .

(١) جبهة رسائل العرب ٤ / ٢٩٢ .

وأوجب لك بطوّله المزيد منها، وأوزَعَكَ (أهملك) من المعرفة بها ما يصونها من الفن ويحوطها من النقص .

والرسالة مع إيجازها تبدأ بجيلة من حيل الفكر العباسي الحصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه ، وهي أن العمل هو الذى يهنأ بهذا الوالى ، لا أن الوالى هو الذى يهنأ به ، إمعاناً فى المدح والإطراء ، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن فى الإيراد والإصدار ، ومن يصونه ويحفظه من أى خلل أو تقصير ، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة . ويدعوله بالأمن فى عمله والسلامة من الفتن والثورات ، وهو خطاب مقتضب ، ولكنه جامع شامل ، مع اللفظ المتنى والأسلوب المصنّى . وله من رسالة فى ذم بعض الأشخاص وهجائه<sup>(١)</sup> :  
 « رجلٌ يَعْنِفُ بالنعم عُنْفَ من قد ساءته بمجاورتها ، ويستخفُّ بحقها استخفافاً من لا يخفُّ عليه حملها ، ويقصّر فى الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها . فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف القوة فهو يُسْمِله ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جَلَّ وعزَّ إلى سلطان غيره فيعاجله . »

وهذه الكلمات على قصرها من أذع الهجاء ، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذى لا يعرف قدرها ، بل إنه يعنف بها عنف عدوِّ غاشم ، وإنه ليستخفُّ بحقوقها استخفافاً مَنْ ثقل عليه النهوض بها وحملها ، وهو لذلك كله يطرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذى يكفل لها البقاء ، وهو لا يدري أنه مع طغيانه وبغيه على نعمة ربه سيلقى جزاءه ، إنه يُسْمِله ، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه . والكلمات والعبارات مختارة بدقة . وله فى الدعوة إلى يوم أنس من رسالة<sup>(٢)</sup> :

« لا عُدْرَ فى التخلف عنك ، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك ، فإن كنت ساءت على العُدْرَ قبل الاعتذار ، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلت على كل خير دليلاً ، وإليه داعياً ، وبه آمراً ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قَطْرًا (دموعاً منهجرة) وهاج شوقاً ، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام ، فننال حظاً من محادثتك والأنس بك . »

(٢) زهر الآداب ٣ / ٣٦١ .

(١) صبح الأعشى للقلشندى ٩ / ٢١٩ .

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعله قَسِيلَ عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبّر عن مدى تأثيرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطْرًا . ودائمًا لانفوته الكلمة الموجزة المعبرة أدق تعبير وأقواه . ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعشّرت في حبال غيره<sup>(١)</sup> :

« أصبحتُ - والله - من أمر فضل في غرور ، أخادع نفسى بتكذيب العيان ، وأمنيتها ما قد حيل دونه . والله إن إرسالي إليها - بعد ما قد لاح من تغييرها - لذلٌّ ، وإن عدلى عنها - وفي أمرها شُبُهَةٌ - لعجز ، وإن تصسرى عنها لمن دواعى التلف » .

والقطعة محبوبكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية إزاء تغيير فضل عليه ، متصورًا ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلًّا له وهوانًا ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهًا في أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزًا منه وتقصيرًا ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدّى به إلى التلف والهلاك . ودائمًا نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور في كتب الأدب من مثل قوله في رسالة لصديق مصورًا مودته<sup>(٢)</sup> :

« إني أهديت مودتي إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرت بقبولها قاضيًا لحق ، ومالكًا لرق ، وصرتُ - بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة - مرتهنًا للسان بالرضا ، واليدين بالوفا » .

وانظر تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائمًا تُردُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها ردًّا ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضًا بحق ومالكًا لعبد ، جعل رِقَّهُ في يديك وحريرته طوع مشيتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه في أخوته وصداقته . وهو يصور نفسه ، وقد قدّم الهدية وتخير جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها ، قد أصبح لسانه مرتهنًا بجرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعرّف بالضبط السنة التي توفي فيها سعيد ، وأكبر

(١) الأغاني (طبعة الساسي) ١١٩ / ٢١ . (٢) جهرة رسائل العرب ٢٩٧ / ٤ .

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد (٢٥٦-٢٧٨ هـ) . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية في الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعنى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهي التقطيع أحياناً إلى السجع ، كما كان يُعنى بمعانيه وجسب ما يروق منها بدقته وطرافته .

٥

### أبو العباس بن ثوابة (١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوابة وكان يعمل في دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحرى ، وكان ابنه جعفر يتولّى ديوان الرسائل في أيام عميد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رئاسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، وسبق أن عرضنا له في الفصل الماضى وقلنا إنه كان يسجع في رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رئاسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدي هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره في الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبي العباس بن ثوابة ، ولكن لا بد أن أباه وكان يشتغل في الدواوين أخذه مبكراً بالدرس والتحصيل ، بادئاً معه من الكتاب ، ومنتهياً به إلى حلقات العلماء في المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقاً فيها منذ عصر المهتدى (٢٥٥-٢٥٦ هـ) ، وما زال نجمه في صعود حتى اختير لرئاسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لانتعاشه لإلمن أثبت كفاءته وعُرفت بلاغته . وكان طبيعياً أن تكثر الصلات والمودات بينه وبين سعيد

رسائل العرب ٤/ ٣٢٣ وما بعدها .  
(٢) الأغاني (طبعة السامى) ٢٠/ ٦٩ .

(١) انظر في أبي العباس بن ثوابة الفهرست  
ص ١٩٣ ويعم الأدياب ٤/ ١٤٤ وجمهرة



ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولا بن الرومي فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحرّي ويروى له توقيع وقّع به في قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضية ولو أتلفت المال ، وأذهبت الحال ، فقل - رعاك الله - ما شئت منبسطاً ، وثيق بما أنا عليه لك مغتبطاً ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : ( لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ) ، فقال له ابن بلبل : ( لا تريب عليكم ) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحي بابل وسواد بغداد الغربي ، فضايف - وزاد - في الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحي حتى وفاته .

وأبو العباس أحد كتّاب العصر وبلغائه ، وفي أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلاً بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يوماً وقد استمع إلى حاجم : على بماء الورد أغمس في من كلام الحاجم . وأثر له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولي عهد المعتمد ، ومرّبنا أنه كان الخليفة الحقيقي طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت الجهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتدىء على هذا النمط (١) :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفق بالله ولي عهد المسلمين إلى فلان حين ولاه الصلاة بأهل كورة الرّي ودُنباوند ونواحيها ، والحرب والأحداث فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، في سرّهِ وعلانيته ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتهاض عما نهى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فإنه من يتق الله يتق الله ، ومن يعتصم به يهنده ، ومن يطعنه يتوانه ويسكفه (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويض إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إماماً ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مثلاً ، فإن فيهما دلالةً وتبييناً ، وضياءً ونوراً وشفاءً لما في الصدور وهُدًى ورحمةً للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٣٤ .

ما يُعْنَى به ويقدمه، ويراعيه ويؤثره، إقامة الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداء فَرَضِ اللَّهِ فِيهَا ، إذ كانت عماد الدين ، وأفضل ما تقرب به المؤمنون ، وكان مَنْ أَضَاعَهَا وَقَصَّرَ فِي وَاجِبِهَا ، أَشَدَّ تَضْيِيعًا لِمَا سِوَاهَا مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفَرَائِضِهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ (وإنها لكبيرة" إلا على الحاشعين) . وأمره أن يُلْهِمُ نفسه في كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره ، ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَأَلَّا يُمْنِئِيَّ أَمْرًا إِلَّا بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ، وَاسْتِغْفَارِهِ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَرْضَى ، وَعِنْدَهُ أَزْكَى ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى ، وَإِنْ أَفْضَلَ الْأُمُورِ خَيْرُهَا عَاقِبَةً ، وَأَحْمَدُهَا مَغْشَبَةً ، وَمَا التَّوْفِيقُ إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ .

وقد استهلَّ أبو العباس بن ثوابة العهد - كما يلاحظ القارىء - بالسجع ، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات ، فانصرف عنه مكتئباً بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التي تتألف منها . وقد حاول أن يُنْهِى كُلَّ أَمْرٍ بِآيَةٍ أَوْ كَلِمَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ تَنَاسِبِهِ . وَهُوَ يَمْنِئِيَّ فِي الْعَهْدِ ، فَيَأْمُرُ الْوَالِيَّ بِحَسَنِ سِيَاسَتِهِ لِأَهْلِ عَمَلِهِ وَأَخَذَهُ لِمَنْ بِالْعَدْلِ وَالنَّصِيفَةِ وَإِحْقَاقِ الْحَقُوقِ ، وَأَنْ يَتَّخِذَ مَسَاعِدِيهِ فِي إِدَارَةِ الْحُكْمِ مِنْ أَهْلِ الْعِفَافِ وَالْكَفَايَةِ ، وَأَنْ يَدْعُمَ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ وَالْمَشَايِعِ لِلدَّوْلَةِ وَيَتَّخِذَ مِنْهُمْ مَسْتَشَارِيهِ ، وَأَنْ يَقِيمَ الْحُدُودَ مُتَبَعًا لِمَا جَاءَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ ، وَأَنْ يَجْعَلَ دَبْرَ أَذْنِهِ مَا قَدْ يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ الرَّعِيَةِ مِنْ حَقْدٍ وَضَغِينَةٍ ، وَأَنْ يَقْمَعَ أَهْلَ الدَّعَاةِ وَالْفَسَادِ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ دُونَ إِفْرَاطٍ ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، وَأَنْ يَصْرِفَ عَنَّا يَتِهِ إِلَى أَطْرَافِ وِلَايَتِهِ ، وَنَخَاصَةِ الَّتِي تَقَابِلُ الْأَعْدَاءَ فَيَسُدُّ خَلْلَهَا وَيُرْتَقِ فَتَنَتِهَا ، وَيَعَاجِلُ أَى مَتَسَرِّعٍ لِلْفِتْنَةِ أَوْ الثُّورَةِ بِهَا . وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَرِاقِبَ التَّجَارَ وَلَا يَدْعُهُمْ يَنْقَلُونَ زَادًا وَلَا عَسَادًا مِنَ الْأَسْلِحَةِ إِلَى دِيَارِ الْعَدُوِّ ، وَيُنْزِلُ الْعِقَابَ بِمَنْ يَخَالَفُ مِنْهُمْ هَذَا الْأَمْرَ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى يَقْظَةِ الدَّوْلَةِ . وَيَأْمُرُهُ أَنْ يَحْسِنَ التَّعَاوُنَ مَعَ صَاحِبِ الْخِرَاجِ وَأَنْ يَقْدِمَ لَهُ مَا يَرِيدُ مِنَ الْمَسَاعِدِينَ ، حَتَّى يَسُدَّ الْخِرَاجَ وَيَكْثُرَ حِيَلُهُ ، كَمَا يَأْمُرُهُ أَنْ يَتَفَقَّدَ مَنْ فِي السُّجُونِ ، وَيَكْثُرَ عَرَضُهُمْ وَالنَّظْرُ فِي أُمُورِهِمُ وَالْأَسْبَابُ الَّتِي حُسِبُوا بِهَا ، آخِذًا بِمَشَاوِرَةِ أَهْلِ الْفِقْهِ فِيهِمْ . وَمَنْ أَطْرَفَ مَا فِي الْعَهْدِ أَنْ نَرَاهُ يَأْمُرُ الْوَالِيَّ بِالْأَمَانَةِ فِي

ولايته ، وألا يأخذ أى ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأى حجة أخرى . ومرّ بنا فى الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصاً وقطّاع طرق يختلسون الأموال من الناس . إن أى رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوابه يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالى إنه :

« أمره ألا يتقسّم على أهل عمله قسمةً بسبب نزل ( ضيافة ) ولا غيره ، مما كان شرار العمال يُوظّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنّب الطعمم (وجوه المكاسب) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشيء منها ، أو يطلقه لأحد من كفّاته ( معاونيه ) فيردّ عليه من النكير ما هو حرى بتوقيه والتصون عنه . ويعرض فى العهد لوظيفة الحسبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار فى الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضى معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشريعة . فهو يحقّق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكايل والموازن ، ويعاقب الغاشّ الخادع ، وفى ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن ينخسر للحسبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات ( السلع ) فى عمله من يعرّف بالقصد فى مذهبه ، والستر فى نفسه ، والعفاف فى طعمته (وجه مكسبه) واستيفاء الحق فيما يقلّده ويستكفى القيام به ، ويتقدّم إليه فى أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التى يقع عمله فى الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورفع الغش ، وتجنب كل ما عاد بمضرة على المسلمين أو تحيّف (تنقص) لهم ، وتعبير ( قياس ) المكايل والموازن فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، ونحسبها بالرصاص ، وحسب المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسمه ، ويتقدم بامثاله فى سائر جوه الحسبة ، حتى لا يخالف شيء منه إلى غيره ، ومعاينة من عسى أن يردّعه ، ويعظ من سواه ، فإن الله عزّ وجلّ أوفوا الكييل الناس أشياءهم ولا تكونوا من المخسرين ورنوا بالقسط المسته ولا تعشوا فى الأرض مفسدين ) » .

وهى قطعة طريفة فى العهد ، إذ تصوّر أعمال رجال

يُسْتَرَطُّ فِيهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَحُدُودِهَا وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ التَّقَاةِ أَهْلَ السُّتْرِ وَالْعَفَافِ حَتَّى لَا يَتَحَوَّلُوا إِلَى ذُنُوبٍ فِي الْأَسْوَاقِ فَارْضِينَ عَلَى التَّجَارِ وَأَصْحَابِ الصَّنَاعَاتِ هَدَايَا وَرِشَاوَى ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَفْسُدَ الذَّمُّ فَسَادًا لَا حَدَّ لَهُ ، وَبِالتَّالِي تَفْسُدُ الْأَسْعَارُ وَالبَيْعُ وَالشَّرَاءُ . وَيَصَوِّرُ مَهْمَةَ الْمُحْتَسِبِ بِأَنَّهَا تَصْحِيحُ الْمَعَامَلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَرَفْعُ الْغِشِّ وَالْحُدَاعِ وَالمِرَاجَعَةُ الدَّائِمَةُ لِعِيَارِ الْمَكَايِيلِ وَالمَوَازِينِ وَخَمِّ الدَّقِيقِ مِنْهَا خَتْمًا يَدُلُّ عَلَى صِلَاحِهِ ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَعْمَلُ سِوَى الْمَوَازِينِ وَالمَكَايِيلِ الْمُخْتَوِمَةِ الَّتِي أَقْرَهَا الْمُحْتَسِبُ ، وَكُلُّ مَنْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِمُخَالَفَةِ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُنْزَلَ بِهِ الْمُحْتَسِبُ عِقَابًا رَادِعًا . وَقَدْ كُتِبَ الْعَهْدُ بِدُونِ سَجْعٍ ، وَكَانَ ابْنُ ثَوَابَةِ يَفْزَعُ إِلَى السَّجْعِ كَثِيرًا ، وَلَعَلَّهُ لَاحِظٌ أَنَّهُ مُوجَّهٌ لِلرَّعِيَةِ كَمَا جَاءَ فِي نِهَآئِتهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلذَّكَاءِ أَنْ يَكُونَ فِي لُغَةٍ وَاضِحَةٍ لَا يَحْتَجِبُ السَّجْعُ بَعْضَ مَعَانِيهَا ، وَلَا يَحْوِلُ بَيْنَ الْعَوَامِ وَتَبِينِ مَافِيهَا .

وَأَثَرَتْ لَهُ رِسَائِلُ إِخْوَانِيَّةِ كُتِبَ بِبَعْضِهَا إِلَى نَفَرٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ ، وَهُوَ فِيهَا تَارَةً يُكْتَرُ مِنَ السَّجْعِ وَتَارَةً يَتَخَفَّفُ مِنْهُ بَلْ قَدْ يَهْمَلُهُ تَمَامًا عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدُ فِي الرِّسَالَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا إِلَى الْوَزِيرِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ بُلْبُلٍ يَهْنَتْهُ بِمَصَاهِرَةِ الْمَوْفِقِ وَلى عَهْدِ الْمُعْتَمَدِ وَفِيهَا يَقُولُ (١) :

« بَلِّغْنِي لِلْوَزِيرِ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - نِعْمَةً زَادَ شُكْرُهَا عَلَى مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، كَمَا أُرَبِّي مَقْدَارُهَا عَلَى مَقَادِيرِ النِّعْمَةِ ، فَكَانَ مَثَلُهَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصَّوْلِيِّ :

بَنُوكَ - غَدًا - آلُ النَّبِيِّ وَوَارِثُوهُ الْخِلَافَةُ وَالْحَاوُونَ كِسْرَى وَهَاشِمًا

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا مَوْهَبَةً تَرْتَبِطُ مَا قَبْلَهَا ، وَتَنْتَظِمُ مَا بَعْدَهَا ، وَتَصِلُ جَلَالَ الشَّرْفِ ، حَتَّى يَكُونَ الْوَزِيرُ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - عَلَى سَادَةِ الْوُزَرَاءِ مَوْفِيًا ، وَبِجَمِيلِ الْعَادَةِ مُسْتَحَقًّا ، وَبِحَمْدِ الْعَاقِبَةِ مُسْتَوْجِبًا ، وَأَنْ يُلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ هَذِهِ الْحُلُلِ الْغَالِيَةِ مَا يَكُونُ لَهُمْ ذِكْرًا بَاقِيًا وَشَرَفًا مُخْلَدًا . »

وَالرِّسَالَةُ تَخْلُو مِنَ السَّجْعِ ، وَلَكِنَّهَا تَحْوِي الْكَثِيرَ مِنَ الْمَهَارَةِ الْفَنِيَّةِ ، وَخَاصَّةً فِي تَقْطِيعِ الْجَمَلِ وَتَقَابُلِهَا وَاسْتِيفَاءِ مَعَانِيهَا ، عَلَى نَحْوِ مَا يَنْضَحُ فِي الْعِبَارَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ

منها ، واقتبس فيها بيتاً لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلّة بما تريد الرسالة أن تؤدّيّه من معان . ويُعقّبه بعبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنّما الكلمات تتشابه بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تتماثل الكلمات وكأنّها فى بناء متراس . وأشرفنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء الّتى وجّه بها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جعلتُ فداك » وإنّما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر (الجيش) وعوامهم أوعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنّما صدر أبو العباس بن ثوبة عن روح هذا النقد ، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم : « جعلتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكذب يسمعه عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، بصور فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول (١) :

« الله يعلم — وكفى به عليمًا — لقد أردت مكاتبتك بالتفدية ، فرأيت عيبًا أن أفديتك بنفس لا بد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومن أظهر لك شيئًا يُضنر خلافه فقد غشّ ، والأمر إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملك لا يتحقّق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقًا من طرق التقرب . »

وقد التمس أبو العباس بن ثوبة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، لعلها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتّاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسّ والشعور والرقة والدمائة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىّ بماء الورد أغسل فى من كلام الحاجم ، وكان سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

(١) زهر الآداب ١٦ / ٣ وجمهرة رسائل

الدمائة والحسّ المفرط والشعور الحاد . وله من فصّل في رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه <sup>(١)</sup> :

« لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوت من عدم وسيلة ، وغلّة (حرارة) الصّادى (العطشان) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعجّل عن تأمل ما بين الغدير والوادي ، ولم أزل أترقب أن يُخطرنى بباله ، ترقب الصائم لظفره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن برح (انكشف) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشمت الأعداء ، وإن في تخلفي وتقدّم المقصرين لآية للمتوسمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصلُ مكتوبٌ بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصاً فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يؤت من نقص ، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصى والدانى ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة في صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعجّله عن النظر فيما بين الغدير والوادي من خيرات ومياه وطيبات . ويمضى فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لظفره والسارى بالليل الداجى لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفلّمت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته ، وشمت الأعداء . وكأنا يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتاباً رقيقاً وهو يختمه بقوله إنه أصبح في عداد المتخلفين ، بينما تقدّمت في رحاب الوزير كثرة من المقصرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن في ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذى لا يُحمّدُ في مكروهه سواه . والعبارات في الفصل متسقة اتساقاً وثيقاً ، إذ لاعم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحسّ انسجاماً بين الكلمات منذ العبارتين الأولىين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجتين . ويضيف إلى ذلك في العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سَوَّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معاً . وبذلك يسبّغ أبو العباس بن ثوابه صاحب الدمائة المفرطة والرقّة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تأنق في التعبير الأدبى ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وشى السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تعزية <sup>(٢)</sup> :

« وصل كتابك بالتعزية عن أخي ، وقد جلستُ مصيبتى به وعظمت ، فنسكات ( جرحت ) القلب ، وهتت الركن ، وأذهبت القوة ، ونغصت العيش ، وأزرت بالأمل . فعند الله أحسنه ، وإياه أسأل تفضلاً عليه ، وصفحاً عنه ، وتغمداً ( غفراناً ) لذنوبه ، وصبراً على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهباً له ، فإنه مصرعٌ لا بد منه ، وموردٌ لا مَحْيِصَ عنه . »

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صورَّ حزنه على أخيه بجمل متناسقة ، ولا شك في أنه بذل جهداً عنيفاً في اجتلابها ووضعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خطاً إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبارةٌ تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تنغص العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضاً : الصبر على حادث القضاء ، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها في عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحترى هجا بنى ثوابه في قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يترضاه بهدية نفيسة فردّها وقال لحاملها قل لأبي العباس : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فمغفورة ، والمعذرة مشكورة ، والحسنة يُذهبن السيئات ، وما بأسو ( يداوى ) جراحك مثل يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددته عليّ ، وأضعفته ، فإن تلافيت ما فرط منك أثبتنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احتسبنا وصبرنا . »

فتقبل البحترى ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه . والكلمات التي كتب بها إلى البحترى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجعله القسطاس هذه المرة يلازم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هي تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعدوثة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة في القرن الثالث الهجري لشيوع السجع وانتشاره .

## حاتمة

هذا الجزء خاصٌ بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، وقد بدأته بالحدث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بلدوا رُحَلَاءَ ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بأداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم في أواخر العصر السابق ، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعبثًا حاول المتوكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، ولوا مكانه المنتصر ، ومضوا يولّون ويعزلون ويقتلون في الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعي أن تتدهور الخلافة ، وزاد في تدهورها انغماس الخلفاء في اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين في خزائن الدولة ولا فيما ينبغي أن تُسْفَقَ فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادى والحربي . وفسد الحكم فساداً لا حدَّ له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتتخذ منهم الملايين ويصادرون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسى كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبَّ ثورة الزنج في البصرة وتظل أربعة عشر عاماً ، وتشبَّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويُقْتَضَى عليها في العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة في البحرين ، تهدد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آية ، وتكاثرت ثورات العلويين في الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون في سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكان ذلك كان إيداناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء



الحكم التركي معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصوبلخان .

وكان المجتمع العباسي يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهي طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة وأصحاب الإقطاعات ورعوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشظف وهي طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطى الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهي الطبقة العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطالع على ما كان يُسَنَقُّ حينئذ في قصور الخلفاء والوزراء يُخَيَّلُ إليه أنه يقرأ في أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُسَنَقُّ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهرياً ، أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحياناً مليونين ونصفاً ، والقصور الباذخة تشيّد ، والشعب يكدح ويتصبّب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذي يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبْتَرُ منها الأموال بكل الطرق ، واضطُرَّ كثير من أهلها إلى أن يصبحوا قسراً دين وحوادثين ومسؤولين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعاملون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون في البيمارستانات أطباء وفي الدواوين كُتَّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعاً يبالغون في الأناقة : الأناقة في الملابس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفننوا في المطاعم إلى غير حد كما تفننوا في الحلواء وفي الشراب . وعُشُوا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهي . وكان الرقيق - وخاصة رقيق الجوارى - يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها في الكرخ وغير الكرخ تكتظ بالقيان . ولم يُعَنَّ المجتمع العباسي بفن كما عُني بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثّر الجوارى حينئذ آثاراً كبيرة في شيوع الظرف والرقّة واللطف . وظلت موجة المجون

والشعوبية والزندقة حادثة في العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلئ  
 بحانات الخمر ، وكان الناس يتقصفون ويمرحون في أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس .  
 وكانت نار الشعوبية لا تزال مُتَّقِدَةً ، وصَبَّ عليها الجاحظ وابن قتيبة مياهاً كادت  
 تطفئها إلا قليلاً ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد  
 والزندقة ، ومن رموس الزنادقة الملحدين في العصر ابن الرأوندى ومحمد بن زكريا  
 الرازى . ولم يكن هذا كله الصوت القوي في الأمة ، إنما كان الصوت القوي هو  
 الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع  
 لوعاظه والانتفاف حول عباده ونسأكه . وهياً ذلك لاتساع حركة التصوف ،  
 وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثاني الهجرى ولكنها تأخذ حتماً في الازدهار بهذا  
 العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً ، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة ،  
 والطلاب يقدون عليها من كل صوب متحوين من حلقة إلى حلقة ناهلين ما يشاءون  
 من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين  
 التي كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل  
 وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان  
 عاماً مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصاً لبعض الأفراد .  
 وتُرَوَّى أفاضل كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم في سبيله  
 وانقضاضهم - حتى العامة منهم - عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك  
 ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزود منها  
 بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتمداً ،  
 ويتطور النقل من النقل الحرفى إلى نقل معانى الفِقْرِ بحيث تصبح صياغة الكتب  
 المترجمة ناصعة شديدة النضوج . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نفضة  
 واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهن مثل الكندى  
 في أوائل العصر والفارابى في أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتشترح  
 النصوص القديمة شروحاً موسعة ، وتوضع بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين  
 البصرية والكوفية في النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

في بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البديع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويصُدر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية في السيرة النبوية وفي تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القراءَ السبعة المشهورين على العالم العربي الذي ارتضى ما أدى في ذلك من جهد علمي خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصفوية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهري الذي كُتب له الذبوع في الأندلس والمغرب وخاصة في عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو علي الجببائي وابنه أبو هاشم ، وتفرَّع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعري الذي يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذي كُتب له الانتشار في العالم الإسلامي .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعّمَ هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربي . وأخذت تنشأ عربية مولّدة ولكنها لم تتجرّ على السنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئاً من الضميمة ، إذ كانوا يتمثلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعث في الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحترى الذي اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربي يمسّه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومي وافرأ ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشيء وذمه . وظل الشعراء يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجّلوا في مدائحهم البطولات الحربية ،

واحتفظوا فيها أحياناً بوصف الأطلال نافذين إلى أخواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا في وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها . ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقير ، ونفذ فيه ابن الرومي إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطاً ، واحتدم الرثاء ، وتفجعوا على أبنائهم تفجعاً مريراً ، كما تفجعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العتّاف مرثية في هيرت تُعَدُّ من عيون الرثاء ودُرّره . وصوّروا في عتابهم واعتباراتهم رقة أهل الحضر ودمائتهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادى الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعاني والأخيلة ، ولكن كثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطاً واسعاً . وأكثروا من التهاني والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحتري وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة في وصف قصور الخلفاء وبذخهم في البناء ، وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهي ، وفَسَّحُوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمي على نحو ما يلاحظ عند ابن الجهم وابن المعتز في نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دريد في نظمه للمعارف اللغوية . وأعلام الشعراء في العصر على بن الجهم والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري ، فأما ابن الجهم فقرشي الأصل وكُد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فمدح المعتصم والوائق ويتخذ المتوكل جليساً ونديماً بينما يدبج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل في الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عاماً ، ثم نفاه إلى خراسان . وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك في نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتِل دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمه في الاستعطاف وليالي الأُنس بالكَرَّخ ، وأكثرها توهجاً تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصلّى نار النَّفْثَى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والحن أن تمس نفسه .

وكان البحتري عربياً شامياً من طيء ، سال الشعر على لسانه مبكراً ، وفي حلب تعرف بفتاة سمى عسوة ، ظلت لا تَبْرَحُ ذاكرته ، ولقي في حمص أبا تمام حامل لواء الشعر في عصره غير مدافع ، واستمع إلى شعر الفتي الناشئ ،

فشجّعهُ ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد في شعره . وقد عكف البحري على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتثله . وقدّمه أبو تمام إلى ممدوحيه ، ونزل سامراء وأصبح شاعر البلاط الرسمي من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفًا كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة في عصره ، ويعدُّ بحق أستاذ الفن الموسيقي في الشعر العربي ، وكأنما وقف على جميع أسراره ودقائقه ، وأكثر شعره في المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صورٌ معركة بحرية بقيادته دُمر فيها الأسطول البيزنطي . ولم يكن بارعاً في الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومرثيته قوية ، وله غزل يترقق فيه الوجد كما يترقق الماء في الغصن ، وكان ماهراً في وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومي يوناني الأصل وُلد ونشأ ببغداد ، وكانت ملكاته خصبه أروع ما يكون الحصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتروى عنه فيه أفاصيص كثيرة . وكان يتشيع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورون عنه ، كما جعل أبواب الخلاء والوزراء تُغلقُ دونه ، ويَبلُ لمن كان يهجوهُ . وتردد في ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بماكاته الخصبه أن ينفذ إلى لون ساخر جديد في الهجاء كما أسلفنا ، وله مرث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعتابه لأبي القاسم التوزي وسواره مع هساته من أطرف ما نظمهُ شعراء العربية ، وله في الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشغفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكثّر من وصف مجالس الأُنس وألوان الطعام ، وله أشعار بديعة في الزهد .

وكلُّ الشعراء السالنين من أبناء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل في الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقبلة الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة ، وأعادهما المعتمد إلى سامراء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهدمها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة في عميه المعتمد والموفق وفي المعتضد وابنه المكتفي . وكانت مأساته في أبيه وجدّه تصرفه عن التفكير في الخلافة ، ولكن حدث أن تولاهما المقدر وهو

غلام ، وتُجمَع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خِلسه والبيعة لابن المعتز ، ويكون في ذلك حَسَنَةً . وآثار بيئته المترفة واضحة في أشعاره ، وخير مدائحه ومراثيه ما نظمه في ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوح من حين إلى حين في وجوه العلويين ، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة . وله أشعار كثيرة في الغزل واللهمو والخمر وذم الصَّبوح ، وتكثر في شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلاجه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبُورِي من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربى في حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعياً ، وهو لا يَغْلُو في تشييعه ، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذي ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفي أشعاره عناية واضحة بصناعاتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكأوه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليلي ، وله غزل في فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الخمر ، وله أشعار في الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضرب المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعدُّ فاتح هذا الباب في العربية ، وله أشعار بديعة في وصف الديك والصيد والنهر والجُرْدان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكثر شعراء السياسة والمديح والهجاء في العصر ، وفي مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثر مدائحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعراؤه الذين أشادوا به وبأحقية بيته في ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبي الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي ، أما مروان فكان يسير سيرة جدّه مروان بن أبي حفصة في الطعن على البيت العلوي ، مما جعل المتوكل يغمره بعطاياه ، وكان يُعَسِّي مثل جدّه بصقل أشعاره . وكان علي بن يحيى المنجم من أصل فارسي ، وهو مثال للنديم المثقّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير في مديح الخلفاء والوزراء وفي تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولي التركي الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته في لُعبة الشطرنج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحه ما نظمه في الخليفة الراضي ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوي يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

في العصر محمد بن صالح العلوي والحِمَّاني والمفجَّع البصري ، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز ، وزجَّ به المتوكل في غياهب السجون ، ثم عفا عنه وعاش في سامراء يمدحه ، وله أشعار طريفة في زوجه وفي بعض أصدقائه . وكان الحِمَّاني نقيب العلويين في الكوفة وله مرث كثيرة ليحيى بن عمر العلوي يبكيه فيها بكاء حاراً . وكان المفجَّع شيعياً إمامياً ، وكان يُكثَّر من مديح علي وأبنائه . وكثرت الثورات السياسية في العصر ، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور في كتب التاريخ والأدب ، ومثله يحيى بن زَكَرَوِيَّة القرمطي النائر بالشام وأبو طاهر الجنَّابي صاحب الأحساء والبحرين . وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دُلْف ، أما ابن البعيث فنثار بأذربيجان ، واستطاع حين أتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلَّ غضبه بشعره فيعفو عنه . وأما حفيد أبي دلف فنثار بأعمال الجبل بين همدان وأصفهان ، وله أشعار مختلفة يتهدَّد بها قواد المعتضد وينذرهم - إن هاجموه - إنذارات خطيرة . ويكثُر كثرة مفرطة شعراء الوزراء والولاة والقواد ، وفي مقدمتهم أبو علي البصير وابن أبي طاهر وابن دريد ، ولأولهم مدائح كثيرة في الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة في الغزل وفقد بصره وشيخوخته . ولابن أبي طاهر مدائح كثيرة في الوزراء ، وله أهاج لاذعة . واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال وإلى الأهواز ، وخاصة بمقصودته فيه وقد شرحت مراراً وتكراراً . وخمد في العصر الهجاء القبلي ، وظل الهجاء الشخصي محتدماً ، ومن أكبر الهجائيين في العصر الصَّيمري ، وخبره مع المتوكل والبحثري مشهور . وأشد إيلاماً ووخزاً منه في الهجاء الحمدوني ، وقد دارت على كل لسان في عصره أهاجيه في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد . وهجاء العصر غير منازع ابن بسَّام ، وله في أبيه أهاج كثيرة ، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً في عصره دون أن يتكويبه بميسم هجائه .

ويكثُر شعراء الغزل وشاعراته ، ويظل الغزل العفيف حياً حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح ، ويكثُر الناظمون للغزل من كل الأوساط ، وكثيرات من الجوارى في العصر كن ينظمنه ويتقن نظمه ، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهري وفضل الشاعرة وكان خالد كاتباً في الدواوين ، وله رقائغ غزلية كثيرة يصور فيها حباً ظامناً لا يروى أبداً ، أما

محمد بن داود فكان فقيهاً ظاهرياً وغزله أفلاطوني نقي طاهر ، وكانت فضل من مولدات البصرة ، وهي أشعر الجوارى في عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس في اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون في الديارات وفي الحانات وفي دور النخّاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجوناً الحسين بن الضحّاك وأبو الشَّيْبَلِ البُرْجَمِيّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسي الأصل ، وتَشْبِيحُ في غزلياته ونحمرياته عدوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشَّيْبَلِ في تلك العدوبة ولا في خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسْرَفُ في الخلاعة والمجون ، وله أشعار في نصرانية هام بها هياماً شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحّاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الخمر والمجون شعراء الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التي كانت تعيش على شظف العيش وتعرف ربّها وتقيه في السر والعلن ، ويتغنّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثرون المتصوفة ويتكاثرون شعرهم في المحبة الإلهية والفناء في الذات العلية . ويظهر الحلاج الذي تمثل في نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتتزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي على نحو ما يصور ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أعدّ لفكرة الحقيقة الحمديّة وأن الأديان جميعاً تؤدّي إلى الله جلّ جلاله . وكان الشَّيْبَلِيّ الصوفي لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنيّاً ، مما جعله ينحى عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء في الذات الإلهية . ويلقانا في العصر شعراء كثيرون ينظمون في الطرد والصيد ، وكان لهواً ومتاعاً للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه في مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يركون ضارياً من ضواري الصيد ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُسْمُرِ الوحش وأتته وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وأرانبه والطيور والإوز ، وبالمثل نعتوا آلاته من النَّسْبَلِ والسَّهَامِ والفِخَاخِ والشبّاكِ والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقنص أبو العباس الناشئ ، وكان من المعتزلة ، وكان عالماً وناقداً كما كان شاعراً بارعاً ، وقد اعتمد كشاحم على أشعاره في صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه في الطرد والصيد ، وله أشعار



بديعة في وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطيور وأيضاً في وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلاً بصيده. ويكثر في العصر شعراء النزعات الشعبية، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوروا ضيق الحياة وما يجرى فيها من ضنك شديد، وصوروا كثيرون التحامق في صور هزلية. ولا يبارى جحظة البرمكى - الضارب على الطنبور - في تصوير تعاسة الطبقة العامة، وكثيراً ما صبَّ سياطه على الحكام الفاسدين. ويمثل الخبزر أرزى هذه الطبقة فقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولغته حلوة خفيفة، وكان مواطنوه في البصرة يشغفون بأشعاره شغفاً شديداً.

وازدهر في العصر النثر ازدهاراً عظيماً، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرجم من آثار، وظهر الكندي أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلاً بارعاً. وأخذت بيئات مختلفة تتجادل في معايير البلاغة العربية، فكانت هناك بيئة محافظة مثلها للغويون، وبيئة تفرط في التجديد مثلها المترجمون، وبيئة محتدلة مثلها المتكلمون، وهي التي كُتبت لها السداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وضع للبلاغة والبيان العربي من مقاييس فنية. وأبلى اللغويون بلاء حسناً في تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة في كتابه «أدب الكاتب» الذي وضعه نبراساً للكتاب يهتدون به. ويصنف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة. وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعاً لمقاييس البلاغة العربية في النثر على ضوء المقاييس اليونانية، ويكتب في ذلك ابن وهب كتابه: «البرهان في وجوه البيان» ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو، بل يحتكم أيضاً إلى كتابيه في المنطق والجدل. غير أن الأدباء في عصره وبعد عصره ازوروا عن كتابه ومنهجه، وساد بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبي العام الذي مثله الجاحظ في كتاباته خير تمثيل. وضعفت الخطابة في العصر، ولكن المواعظ لم تضعف، بل ازدادت اضطراراً على أيدي المتصوفة، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم في قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضرباً من ضروب الأدب الشعبي حينئذ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم. وليس ذلك فحسب، فإن

بعض المتصوفة كتب في تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحظ في كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات في العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهاء ، ومناظرة الحسن بن عبد الله السيرافي ومتي بن يونس في النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنا أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى ليعننون كثير من الكتب باسم الرد أو التناقض ، وشاعت هذه الروح في قصص وأخبار جمعت ونُسقت في كتابي المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفسيان، تلتقي فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعي أن تظلم الرسائل الديوانية ناشطة في العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتّاب العصر البارعين من أمثال عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الحصبب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة في كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابيهين لعهد المهتدي سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة في عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب ، وكان ابنه عبيد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابيهي الكتّاب . ويشيع السجع في الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وشيه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً ، منها رسالة طويلة لأبي علي البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العيّناء يسجع في رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يشيع السجع في رسائله ، ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء في اصطفاء اللفظ أو فيما يوشيهها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع في رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبي طاهر ، ومثله ابن المعتز . وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الأزواج ، على حين نجد ابن المعتز في رسالة طريفة يمدح فيها سامراً ويلزم بغداد بملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكأن ذلك كله كان إرهاباً بأن السجع سيعم مع أواخر القرن في جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتاب في العصر إبراهيم بن العباس الصولي والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حميد وأبو العباس بن ثوبة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل في دواوين الدولة وللاياتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه ، وعفا عنه الواثق ، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتمت له الدنيا، فقلده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبرى ، وهو يصور عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحياناً اجتلاب بعض الأسجاع . وفي تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة في الصوت والجرس والأداء ، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه ، حتى تروق كتاباته اللسان والحنان ، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعاً خالصاً .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربية قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهو معتزلى كبير بل صاحب مذهب اعتزالى قائم بنفسه سُمّي الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارى في وضوح كتاباته وقدرته على التوليد في المعاني ، واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صور في أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعنى بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذى ابتكره ، ونقصد أسلوب الازدواج ، وحقاً نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذى استمسك به وأشاعه في جميع آثاره ، مع روح الدعابة التى يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمل القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التى وضعها في أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف ، وهى لاشك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه . واللون الثانى رسائله الشخصية وهى حافلة بمهارته في استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللون الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصاصاً ممتازاً كما كان بارعاً في سرد النوادر .

وأكبر مؤلف أدبى ظهر في العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظاً في بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التي ألهم بها ظهور الشعبويين، وأهم أسلحته الحربية التي اتخذها ضدهم في رأينا أنه حاول في كتابه « عيون الأخبار » المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجاً أسقط به الصراع العنيف بين الشعبويين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسيّاً مستقلاً أو هنديّاً أو يونانيّاً أو إسلاميّاً أو عربيّاً ، بل هي ثقافة واحدة ، وهي ثقافة تشمل أيضاً ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجديدة التي صاغها ابن قتيبة ، بحيث خفّت صوت الشعبوية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك في أسلوب أدبي ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحياناً والاسترسال أحياناً أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبهه بالجاحظ أحياناً في نقل الواقع وفي خلط الجدل بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيد بن حميد من أصل فارسي ، عني أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألّق نجمه فيها حتى أصبح رئيساً لديوان الرسائل في عصر المستعدين ، وينص الطبري على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعاً ، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذي وصفناه ، ونحس عنده دائماً رغبة قوية في النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضرباً من الخيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوبة من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين السدولة العباسية ، وتميّز هو من بين أفرادها في منتصف القرن الثالث الهجري إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد في مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموقف ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل إخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيئاً إليه مادة تصويرية بديعة .



## فهرس الموضوعات

صفحة	
٧-٥	مقدمة
٥٢-٩	الفصل الأول : الحياة السياسية
٩	١- استيلاء الترك على مقاليد الحكم
١٧	٢- تدهور الخلافة
٢٦	٣- ثورة الزنج
٣٣	٤- ثورة القرامطة
٤٣	٥- أحداث مختلفة
١١٤-٥٣	الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية
٥٣	١- طبقات المجتمع
٦٧	٢- الحضارة والترف والملاهي
٨٠	٣- الرقيق والحواري والغناء
٩١	٤- المجون والشعبية والزندقة
١٠٤	٥- الزهد والتصوف
١٧٩-١١٥	الفصل الثالث : الحياة العقلية
١١٥	١- الحركة العلمية
١٢٩	٢- علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف
١٤٢	٣- علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ
١٦٠	٤- علوم القراءات والتفسير والحديث والفقہ
١٧٠	٥- الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعري
٢٥٤-١٨٠	الفصل الرابع : نشاط الشعر
١٨٠	١- علم الشعراء بأسرار العربية
١٨٩	٢- ذخائر عقلية خصبة

صفحة

٢٠٣	٣ - التجديد في الموضوعات القديمة
٢٢٨	٤ - نمو الموضوعات الجديدة
٢٤٦	٥ - نمو الشعر التعليمي
٣٦٨ - ٢٥٥	الفصل الخامس : أعلام الشعراء
٢٥٥	١ - علي بن الجهم
٢٧٠	٢ - البحري
٢٩٦	٣ - ابن الرومي
٢٢٤	٤ - ابن المعتز
٣٤٧	٥ - الصنوبري

#### الفصل السادس : شعراء السياسة والمدح والهجاء ٣٦٩ - ٤٤٢

	١ - شعراء الخلفاء العباسيين : مروان بن أبي الجنوب أبو السمط ،
٣٦٩	علي بن يحيى المنجم ، أبو بكر الصولي
	٢ - شعراء الشيعة : محمد بن صالح العلوي ، الحيماني العلوي ،
٣٨٥	المنفج البصري
	٣ - شعراء الثورات السياسية : محمد بن البعيث ، بكر بن
٣٩٩	عبد العزيز بن أبي دلف
	٤ - شعراء الوزراء والولاة والقواد : أبو علي البصير ، أحمد بن
٤١١	أبي طاهر ، ابن دريد
٤٢٨	٥ - شعراء الهجاء : الصيمري ، الحمدوني ، ابن بسام

#### الفصل السابع : طوائف من الشعراء ٤٤٣ - ٥١٢

	١ - شعراء الغزل وشاعراته : خالد بن يزيد الكاتب ، محمد بن
٤٤٣	داود الظاهري ، فضل
	٢ - شعراء اللهو والمجون : الحسين بن الضحاك ، أبو الشبل
٤٥٨	البرجمي ، عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع

- ٤٧٣ . . . ٣ - شعراء الزهد والتصوف : الحلاج ، الشبلي  
 ٤٨٦ . . . ٤ - شعراء الطرد والصيد : أبو العباس الناشيء الأكبر  
 ٤٩٩ . . . ٥ - شعراء شعبيون : جحظة ، الحيز أرزي

### الفصل الثامن : نشاط النثر . . . . . ٥١٣ - ٥٧٣

- ٥١٣ . . . . . ١ - تطور النثر . . . . .  
 ٥٢٦ . . . . . ٢ - الخطابة والمواعظ والنثر الصوفي  
 ٥٣٥ . . . . . ٣ - المناظرات . . . . .  
 ٥٥٠ . . . . . ٤ - الرسائل الديوانية . . . . .  
 ٥٦٢ . . . . . ٥ - الرسائل الإخوانية والأدبية . . . . .

### الفصل التاسع : أعلام الكتّاب . . . . . ٥٧٤ - ٦٤٠

- ٥٧٤ . . . . . ١ - إبراهيم بن العباس بن محمد الصولي  
 ٥٨٧ . . . . . ٢ - الجاحظ . . . . .  
 ٦١١ . . . . . ٣ - ابن قتيبة . . . . .  
 ٦٢٣ . . . . . ٤ - سعيد بن حميد . . . . .  
 ٦٣٣ . . . . . ٥ - أبو العباس بن ثوبة . . . . .

### خاتمة . . . . . ٦٤١ - ٦٥٣



## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- في الدراسات القرآنية
- سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة  
الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
- العصر الجاهلي  
الطبعة السادسة ٤٣٦ صفحة
  - العصر الإسلامي  
الطبعة السادسة ٤٦١ صفحة
  - العصر العباسي الأول  
الطبعة الخامسة ٥٧٦ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي  
الطبعة الثامنة ٥٢٤ صفحة
  - الفن ومذاهبه في النثر العربي  
الطبعة السابعة ٤٠٠ صفحة
  - التطور والتجديد في الشعر الأموي  
الطبعة الخامسة ٣٤٠ صفحة
  - دراسات في الشعر العربي المعاصر  
الطبعة الرابعة ٢٩٢ صفحة
  - شوقي شاعر العصر الحديث  
الطبعة السادسة ٢٨٦ صفحة
  - الأدب العربي المعاصر في مصر  
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات
  - البارودي رائد الشعر الحديث  
الطبعة الثانية ٢٣٢ صفحة
  - البحث الأدبي : طبيعته ، مناهجه ،  
أصوله ، مصادر  
الطبعة الأولى ٢٧٨ صفحة
- في مجموعة فنون الأدب العربي
- الرثاء  
الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
  - المقامة  
الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
  - النقد  
الطبعة الثالثة ١١٢ صفحة
  - الترجمة الشخصية  
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة
  - الرحلات  
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة
- في التراث المحقق
- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد  
الجزء الأول - الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
  - الجزء الثاني - الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة
  - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد  
الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة
- في سلسلة اقرأ
- العقاد  
الطبعة الثالثة ٢٥٠ صفحة
  - البطولة في الشعر العربي

تاريخ  
الأدب  
العربي  
٥

دكتور شوقي ضيف

عصر

الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران



دار المعارف

تاريخ  
الأدب العربي  
٥

عصر  
الدول والإمارات  
الجزيرة العربية - العراق - إيران

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع. ٠

عصر

# الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

هذا هو الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وكان المؤرخون للأدب العربي يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغارَ قُطعان التتار على بغداد وقوّضوا ما كان فيها من مدينة وحضارة . وكان هؤلاء المؤرخون يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولي ، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثماني . وكل ذلك تصور مخطئ ، لأن سلطان الخلافة العباسية تنقلص ظلالة منذ سنة ٣٣٤ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوى بغداد ، فقد كانت إيران بيد بنى بويه ونفس العراق أظله سلطانهم ، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة ، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر . وتعاقبت دول كثيرة في اليمن وفي أنحاء الجزيرة العربية ، وبالمثل في كل البلدان والأقاليم المذكورة ، بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون : الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية ، وحتى ما بقي لها من اعتراف بالولاء في بعض الدول والإمارات إنما كان اعترافاً اسمياً ، لا يدل على أي سلطان وراءه . ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون الثلاثة التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولي ، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربي ، وتلك البقية هي الشطر الأكبر منه : الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب والأندلس ، لذلك رأينا أن ندمج العصر المغولي في عصر الدول والإمارات ، لأن هذه التسمية هي الألتصق بالعصر ، وهي أكثر دقة ومطابقة للواقع . وبالمثل أدمجنا فيه ما سُمي بالعصر العثماني ، لأنه لم يكن عصرًا بالمعنى الحقيقي ، وإنما كان حقبة مظلمة ، تنتم لعصر الدول والإمارات ، وثمرة مرة لما أصاب العرب فيه من انقسام وتفكك .

وحقاً يكون عصر الدول والإمارات في تاريخ الأدب العربي بذلك عصراً طويلاً ، غير أن طوله لايعنى أى تفاصيل روحى أو فكرى بين دوله وإماراته ، فقد كان هناك دائماً شعور عام في كل مكان بأن هذه الإمارات والدول جميعاً إنما هى وطن عربى واحد ، وطن لا تُحدث فيه الانقسامات أى تقاطع علمى أو أى تنازُد أدبى ، وطن تتواصل أجزاءه ووحداته تتواصل الأفراد في أسرة واحدة. ولذلك مظاهر شتى ، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عاماً يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين في هذا الوطن الكبير ، وكانوا إذا ألفوا كتاباً في تراجم علم كالقراءات أو التفسير أو النحو أو حتى في فرع كفقهِ الشافعية أو المالكية أو الأحناف أو الحنابلة جمعوا فيه علماء في جميع البلدان العربية ، وبالمثل حين يؤلفون أحياناً في تراجم الشعراء يجمعون في مؤلفاتهم كل الشعراء في جميع الأقاليم العربية ، متناسين ، بل مهملين ، الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان ، وكأنها في رأيهم أقواس وهمية في المخططات السياسية والجغرافية ، لاتدل أى دلالة على فوارق علمية أو أدبية . ومظهر ثان ، هو أن الكتاب حين كان يؤلّف يصبح ملكاً لعلماء العالم العربى جميعهم ، فهم يشرحونه أو يشرحون شرحه أو يكتبون تقارير عليه ، يشترك في ذلك قاصيهم ودانيهم ومنّ في أقصى المشرق ومنّ في أقصى المغرب ، ونضرب لذلك مثلاً كتاب أو متن التلخيص في علوم البلاغة للقرظوبىيىi

وإذا كنا قد أفردنا للجزيرة العربية والعراق وإيران جزءاً في هذا العصر ، فسنفرد لمصر

والشام جزءاً ثانياً وللأندلس والمغرب جزءاً ثالثاً ، وقد بدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض الحياة السياسية لأقاليمها الأساسية في هذا العصر ، وهي الحجاز ونَجْد واليمن وحَضْرَمَوْت وظَفَّار وعُمان والبحرين ، وعرضنا مجتمعها البدوي والحضري وما كان فيها من نخل شيعية وخارجية وما شاع في نجد من الدعوة الوهابية ، وما حَفَّ بذلك من زهد ونسك . وصوّرنا جداول الثقافة التي كانت تجري في كل مكان ومآرقها من نشاط العلوم اللغوية والإسلامية . كما صورنا نشاط الشعر في الأقاليم المختلفة للجزيرة وطوائفه المتقابلة من شعراء مديح ورتاء وفخر وهجاء وأهم شعراء الدعوات المختلفة من إسماعيليين وزيديين وخوارج ووهابيين ، وبالمثل شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية . وأوضحنا ما كان من نشاط للكتابة في نجد وغيرها من أقاليم الجزيرة وما كان من نمو كتابة الرسائل الديوانية والشخصية ، ونمو الوعظ والمحاورات والرسائل الأدبية .

وبالمثل تحدثنا عن العراق وحياتها السياسية وما تعاقب عليها من دول وكيف أن مجتمعها كان يتألف من ثلاث طبقات : عليا مترفّة ، ووسطى على شيء من اليسار ، ودنيا بائسة ، وشيوع المذهب الإمامي الاثني عشرى بها وشيوع الزهد والتصوف وطرقه ، وما كان من نشاط الحركة العلمية بها وتأسيس جامعي النظامية والمستنصرية ببغداد ، وكثرة المدارس هناك مع ما كان في المساجد من نشاط علمي واسع ، بحيث أصبحت الثقافة - حتى الثقافة الفلسفية - غذاء شعبيّاً عاماً . وتكاثر ببغداد الندوات الفكرية ، وتكاثر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية ، كما تكاثر البحوث اللغوية والنحوية والنقدية ، وتنشط الدراسات الإسلامية والتاريخية . ويكثر الشعراء في العراق كثرة مفرطة وينظمون في الرباعيات والموشحات . وتقابل طوائفهم من شعراء مديح على رأسهم المتنبي إلى شعراء رثاء وهجاء وشكوى ، وشعراء غزل وقد نفذوا إلى ضرب جديد من الشعر الوجداني . وبجانبهم شعراء لهُو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ومدائح نبوية ، وشعراء فلسفة وشعر تعليمي ، وشعراء شعبيون . ويتنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فمن نثر فلسفي إلى نثر علمي ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل شخصية وديوانية ، وتتألق أسماء طائفة من الكتاب النابهين . وتحدثنا عن إيران وأحوالها السياسية والدول المتقابلة بها والمتعاقبة ، وعن مجتمعها والطبقات التي كانت تكوّنه : العليا والوسطى والدنيا ، وعن نشاط الشيعة بها : الزيدية والإمامية والإسماعيلية وما كان يسرى فيها من زهد وتصوف . وعرضنا الحركة العلمية بها والعناية بالمدارس والمكتبات وما حدث هناك من نشاط في دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، وفي وضع المعاجم والبحوث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، وفي الدراسات



الإسلامية والكتابة التاريخية . ويزدهر الشعر بإيران في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ويظل حياً نامياً حتى القرن التاسع ، ويتكاثر شعراء المديح والرثاء والفخر والمهجاء والشكوى والغزل واللهو والمجون والزهد والتصوف والفلسفة والحكمة والأمثال وأصحاب الشعر الشعبي . ويتنوع النثر ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ويتكاثر كُتّاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ويلمع فى كل دولة وإمارة غير كاتب بارع . وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى فى الجزيرة العربية والعراق وإيران طوال حقب ممتدة من العصر العباسى الثانى إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من كتب التاريخ والجغرافية والثقافة والأدب شعرا ونثرا لأجمع منها المادة العلمية التى تتطلبها الدراسة . ورجعت إلى طائفة من كتب المحدثين من العرب والمستشرقين . وأعترف بأن عقبات كثيرة صادفتني وخاصة فى المصادر والحصول عليها ، وقتلتها أحيانا فى بعض الجوانب . وقد حاولت جهدى أن أرسم المعالم الأساسية لتاريخ الأدب فى تلك الأقاليم أثناء هذه الحقب المتطاولة ، ولا أزعم أنني استطعت أن أوفى هذا الرسم حقه كاملا من الدقة والاستقصاء . والله وليُّ الهدى والتوفيق .

شوقى ضيف

القاهرة فى أول يونية سنة ١٩٨٠ م .

القسم الأول

الجزيرة العربية



## الفصل الأول

### السياسة والمجتمع

١

#### أقاليم ودول وإمارات

تعدد الأقاليم في الجزيرة العربية لاتساع رقعتها ، ففي الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة ، هي تهامة التي تفصل بينها وبين بحر القلزم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نجد الفسيحة التي تظل تنحدر نحو الشرق ، حتى تصاقب أرض العرّوض : اليمامة والبحرين ، وتظل تنبطح شمالاً في إقليم القصيم حتى جبل أجا وسلمى ، وتلتقي بصحراء النفود الممتدة من تيماء إلى الشرق ، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعاً لها نحو الجنوب تسمى الدهناء أو رملة عالج ، وتستدير حول اليمامة منبطقة في الربع الخالي ، وهو صحراء مجدبة تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين حَضْرَمَوْت وظَفَّار وعُمان من جهة ثانية ، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التي تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز . وتستقل اليمن بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وتتوسط حَضْرَمَوْت ومعها ظفار بينها وبين عُمان التي تشرف على المحيط الهندي من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وكانت تشمل قديماً طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج ، وهي رأس الخيمة والشارقة ودُبيّ وأبو ظبيّ . وشمالاً هذه الإمارات البحرين ، وكانت تشمل إمارة قطر الحالية وإمارة الكُوَيْت الحديثة ، وكذلك الأحساء . والأقاليم الأساسية في الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هي الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْت وعُمان والبحرين ، وسنخصص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته .

الحجاز<sup>(١)</sup> وإماراته

كانت في الحجاز لهذا العصر إمارتان : إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبتن نَحْل وَعُسْفَان ومُرَّ الظَّهْرَان . وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خَيْبَر وفَدَك وَيَنْبَع والقرع ووادي القُرَى ومَدِين . وكانت إمارة مكة للحسينيين من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب في حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان الأولون يعتقدون المذهب الزيدي الشيعي ، بينما كان الثانون يعتقدون المذهب الإسماعيلي على الأقل في عصر الدولة الفاطمية . وكان لإمارة مكة المكانة الأولى ، إذ كان المسلمون - ولا يزالون - يؤمنونها سنويا من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج ، وكان مَنْ يُدْعَى له من الخلفاء على منابرها سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أسرة حسنية حكمت مكة لهذا العصر هي أسرة بني سليمان أو بني موسى ، وكان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين لسنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدى ، وراسله الخليفة المعز الفاطمي كي يقيم باسمه الخطبة في موسم الحج ، فأبى ، مما جعله يجهر له عسكرياً لخرجه سنة ٣٦٠ وساعد العسكر بنو الحسين أمراء المدينة ، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر . وتولى بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأذن للعزير الفاطمي ، وأقام الخطبة باسمه ، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة ، وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة ، ومضت تدين لهم بالولاء بعد وفاة عيسى وولاية أخيه أبي الفتوح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي أن يحملوه على أن يقرأ سجلا في المسجد الحرام بالبراءة من أبي بكر وعمر وسب بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول ﷺ ، فرفض ذلك وقطع

الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودي (طبع مطبعة المؤيد) وخلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام لابن زيني دحلان وماضى الحجاز وحاضره للشيخ حسن محمد نصيف وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث - الجزء الأول - للدكتور عبد الكريم غرابية ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزمامبور (الترجمة العربية - طبع القاهرة) .

(١) انظر في أمراء مكة والمدينة تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء الرابع والقاسي في كتابيه : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) وصبح الأعشى للقلقشندي في مواضع متفرقة والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ومعجم البلدان لياقوت في مكة والمدينة ووفاء

صلته بمصر . ودفعه - فيما بعد - أبو القاسم المغربي حين فرّ من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه ، فخطب باسمه ، وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وعاهده أميرها وأمير طيبى حسان بن مفرج على نصرته . وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مفرج بالأموال ، فنفض يده من أبي الفتوح وأسلمه إلى المصريين ، وفرّ أبو القاسم المغربي إلى العراق . واضطرّ أبو الفتوح أن يعلن طاعته للحاكم ، فعفا عنه وعاد إلى إمارته . وحدث بعد عودته في سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين في أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس ، فصدعه وهو يقول : إلى متى تُعبدُ ؟ إلى كم تقبل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه هو ونفرًا من أصحابه . وما زال أبو الفتوح يلي مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته ، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفي سنة ٤٥٣ وكان فارساً وأديباً شاعراً ، وله قصة ترويحاً كتب التاريخ عن زواجه من جارية هلالية تسمى الجازية ، وهى نواة قصص أبي زيد الهلالي . وبشكر انقضت سلالته وحكّمها في مكة إذ لم يعقب ولداً ، وصار أمرها بعده إلى عبد له ، غير أن فرعاً من الأسرة الحسينية من بنى هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بنى سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شمالي اليمن ، فأسسوا لهم إمارة هناك في الخلف السليمانى المنسوب إليهم . وكان أحد الهاشميين ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة الصليحي أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة في الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين ، تبعاً لما كان يُغدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة ، إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه . واستطاع أن يجمع في ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقراهما ، وبذلك اجتمع له الحجاز . وولى بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٨ وكانت الخطبة في عهده تارة تكون باسم الفاطميين ، وتارة باسم العباسيين . ويخلفه ابنه أبو فليته ، فيجعل الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة ٥٢٧ . واتصلت الخطبة باسم بنى العباس في عهد ابنه القاسم حتى قُتل سنة ٥٥٦ . وخلفه ابنه عيسى ، وفي عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه : مكة والمدينة ، ثم استولى على اليمن . ويظل أبناء عيسى يلون مكة ، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفي عهده يبطل صلاح الدين المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ، ويعوّض عنها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحاً ، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين . ويدخل سيف الدين طغتكين الأيوبي مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحى على خير العمل ، عملاً بأذان أهل السنة أو الجماعة .

ويخلف داود أخوه مكثرسنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود . ومنه انتزع مكة قتادة الحسنى سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها في أبنائه إلى العصر الحديث .

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه ، وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر ، وللكامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه ، وكان يؤذن في الحرم بحجى على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، وأيضاً على قاعدة الزيدية من آبائه . وخلفه ابنه الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبي أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز ، وولّى عليهما على بن رسول ثم طغتكين التركي . وعادت مكة إلى بني قتادة ، وليها راجح ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تنتقل بينه وبين أخيه على وجاز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجح حتى سنة ٦٥٢ . وفي كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولّون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ . وكانت مصر بعد ذلك في عهد السلاطين الماليك هي التي توليهم ، وكانوا يعيّنون بجانهم حكاماً لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية . ومن أهم أمراء الأسرة أبو نعيم الأول الذى ولى مكة سنة ٦٥٢ وثبته عليها السلطان بيبرس ، وظل يلى شؤونها خمسين عاماً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان يقال لولاً أنه زيدى النحلة لصلح للخلافة لحسن صفاته . وروى له الفاسى بترجمته في كتابه العقد الثمين ميمناً أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أشبه بعهد موثق : أن يحمى الحجاج ويؤمنهم ، وأن يظل على طاعته واطاعة ابنه الصالح . وكان شاعراً جواداً ، ومدحه شعراء كثيرون في مقدمتهم الحنيدى . ويخلفه في سنة ٧٠١ ولداه : رُمَيْثَة وَعُطَيْفَة ، ويرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة في سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قمحاً تفرّق في أهلها . ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويُقبض عليه في سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر ، ويتولّاها أخوه حُمَيْصَة . وتردّ مكة إلى رميثة . ويبلغ الناصر في سنة ٧٣١ أنه يجهر بمذهب الزيدية ، فينكر ذلك عليه ، ويرسل إليه عسكرياً . ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة في الإمارة ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولديه : ثَقَبَة وعجلان . ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمر الأخوان على مكة ، ويجعلها المصريون لعجلان إذ كان ثقبه يعلن نصرته للمذهب الزيدية وأقام له خطيباً زيدياً يخطب الناس أيام الحج ، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم ، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفى سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان . وكان بخلاف آبائه يجب أهل السنة ، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم ، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالمحمل على العادة . وكان

ممدحاً ، مدحه النّشو شاعر مكة وغيره ، وأشرك معه ابنه أحمد في الحكم ، وما زال يلي الإمارة حتى توفي سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفي سنة ٧٨٨ . ووليها بعده أخوه علي وشركه في الإمارة أخوه مغامس لمدة سنتين ، وما زال عليها حتى توفي سنة ٧٩٧ فخلفه أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩ . ويتولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ ويخلفه ابنه محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات ، وأهم منه ابنه أبو نُميّ الثاني الذي سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثماني سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلن تسليم الحرمين إليه . وكانت إمارة مكة في العهد العثماني تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليها ثلاث أسر من أبناء نُميّ : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية في الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد في القرن الحادي عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركاتي إلى زيدى حتى استقل بها بنو زيد ، وظلوا يلونها إلى زمن فتح محمد علي للحجاز في عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصري الشريف محمد بن عون عليه . وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء أبي نُميّ ، ونقصد أسرة عون . وحين انسحب جيش محمد علي من الحجاز سنة ١٨٤٠ عينت الدولة العثمانية عليه والياً لها ، واستبقت الشريف محمد بن عون ، فكانت السلطة ثنائية بينه وبين الوالي العثماني ، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م . وما زالت الإمارة في أبنائه حتى استخلصها سعود الثاني من حسين بن علي آخرهم لافي هذا العصر ، وإنما في العصر الحديث \*

وكانت إمارة المدينة أقل شأنًا من إمارة مكة ، وكانت الرياسة فيها لبني المهنا أحفاد الحسين ، ويروى أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر ، فأكرمه وأقطعه ما يُغَلّ كل سنة مائة ألف دينار ، وتوفي سنة ٣٢٩ وانعدت مودة وثيقة بين ابنه مسلم وكافور ، ويقال إن مسلماً كان يدعو للمعز صاحب إفريقية وفي هذا ما يشير إلى أن هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى ، ويقال أيضاً إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنته لأحد أبنائه ، فردّه ، فحتم عليه ونكبه ، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة ، فأمره الحسينيون هناك عليهم ، واستقلّ بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن ، واختلف المؤرخون هل الأمراء بعده من سلالته أوهم من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذي يقال إنه وليها بعده . ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر الحسن بن جعفر السليمانى أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بني المهنا ، غير أنها لم تلبث أن عادت إليهم ، وظلت في أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة .



وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، الواحد تلو الآخر ، إذ كانوا من شيعتهم . ومن أهمهم منظور بن عمارة المتوفى سنة ٤٩٥ . وتنتهى الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز في طاعته ، ويُنْبِئ على بنى مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها في العهد الأيوبي من قِبَل الخلفاء العباسيين ، ومن أشهرهم حينئذ أبو فُلَيْتَةَ الذى حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة ٥٨٤ وولى بعده ابنه سالم ، وكان شاعراً ، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذي الحليفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة ، وفى ذلك يقول ملتاعاً :

مصارعُ آلِ المصطفى عُدُنَ مثلاً      بَدَأَنَ ولكنَّ صِرْنَ بين الأقاربِ

ويقال إن سالماً حضر إلى مصر فى سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة ، ومات فى طريق عودته قبل وصوله إلى المدينة ، وولى بعده ابنه شيحة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى ، وقبض عليه أخوه جَمَاز سنة ٦٤٩ وملك مكانه ، وهو الذى ظلت الإمرة بعده فى بيته ، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعمى فى آخر أيامه ، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه ، وقبل شفاعته فى أمير ينبع وفى أبى نُمى أمير مكة وكان قد غاب عن لقاء الركب المصرى . وخلفه ابنه منصور ، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس ( هكذا فى ابن خلدون وصبح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير ) فأشرك بينهما فى الإمرة وفيما عيَّنه من إقطاع لأمير المدينة ، وغاب منصور عن المدينة لأمير واستخلف ابنه كبيشة ، فلحقها مقبل من يده ، ولحق كبيشة بأحياء العرب ، فنصروه على عمه وسقط قتيلاً سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته ، وظل بها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقضَّ عليه آخر . ويكفى أن نذكر من تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كبيشة بن منصور ، وودى بن ججاز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب ججاز ، ثم ججاز بن منصور وهبة ابنه ، وهبة آخر من عقب ودى وعُطيفة بن منصور بن ججاز وهبة بن ججاز وججاز بن هبة بن ججاز ونُعَيْر بن منصور وثابت بن نعير . وكثيراً ما كان يثب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر والياً حتى سنة ٧٩٩ . ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهباز بن هبة الله المتوفى بالسجن فى الإسكندرية سنة ٧٨٩ . وحقاً كانت تتبع المماليك وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء ، ولكن الأمر أفلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد ، فإيكادون يولون شخصاً حتى تقيم الأسرة شخصاً آخر وتطلب توليته ، ويفزع إلى القاهرة كى تلحق عليه وتنصبه أميراً . على كل حال

ساء الحكم في هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجري ، وكلما قطعنا شوطاً في الزمن اشتد سوءه ، حتى لزمى أحد أمراءها من أحفاد نَعِير المسمى الحسن بن الزبير يعتدى في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوي وينهب ما في الحجرة النبوية الطاهرة من تحف ونفائس . وتدهور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز في حكم الدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت الحسيني عليها إمارة اسمية . ويؤكد ابن خلدون والقلقشندي أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة ، بينما كان أمراء مكة زيدية ، ومرربنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية ، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في العهد الفاطمي حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحولوا فيما بعد لإمامية اثني عشرية .

### نجد وقبائلها وشيوخها<sup>(١)</sup> وإماراتها .

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم في عصر الفتح ، ولا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن هذه القبائل منذ أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كوّنته هناك من إمارات ، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب ، وأيضاً ما يتصل بقبيلة طيبي التي كانت تحتل منطقة جبلي أجا وسلمى وتنتشر في بوادي الشام والعراق ، وقد جعلتها مواطنها في هذه الأنحاء تتصل بدول العراق ومصر والشام .

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية في هذا العصر يتصل ببني هلال بن عامر وأبناء عمومتهم عقيل وربيعة ، وكذلك ببني سليم . وكان العامريون ينزلون في جبل غزوان ، بينما كان بنو سليم ينزلون شرقي المدينة ، وكانوا جميعاً يطوفون بأطراف الجزيرة في العراق والشام ويغيرون على القرى هناك ، وكان بنو سليم يغيرون أحياناً على الحجاج في مواسم الحج ، وكانت البعوث تجهز لهم من بغداد للإيقاع بهم . ولما ظهر القرامطة بالبحرين تحيّر كثيرون من العامريين وبني سليم إليهم ، وصاروا جنداً لهم في البحرين وعُمان ، وحين أغار الأعصم القرمطي سنة ٣٦٠ على الشام ، وهزمته جيوش

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والجزء الرابع من صحح الأعشى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى في مواضع متفرقة والخريدة للعماد الأصبهاني وابن خلكان في أمراء بني عقيل وبني أسد وروضة الأفكار

لحسين بن غنام وعنوان نجد في تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث - الجزء الأول (١٥٠٠ - ١٩١٨ م) للدكتور عبد الكريم غرابية .

الفاطميين نقل الخليفة الفاطمي العزيز جنده من بني هلال وبني سليم إلى صعيد مصر ، وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب ، فخربوا مدن تونس وملكك سلم شرق البلاد وبنو هلال غريبها . وكان قد انضم إلى الأعصم في حربه للفاطميين شيخ طيبي : حسان بن الجراح ، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه ، وتظل لبني الجراح رياستهم لطبيي وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمي ، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دغفل المفرج ويستولى على الرملة بفلسطين ، ويتولى زعامة طيبي بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطميين في حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلى أفامية سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكراً بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قرواش صاحب الموصل .

✖ وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بني خفاجة من عقيل بن عامر وقد توغلوا نحو اليمامة ، وزحزحتهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق ، فلكوا ضواحيه ، وأصبحوا سادة الكوفة في ظل أميرهم عليان بن ثمال الخفاجي الذي أسس هناك إمارة بني ثمال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبناؤه ، ونظل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بني المنتفق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجري وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة ، وكانوا لا يزالون يتزلون في هذه الأثناء في بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متقلبين بخيامهم من مكان إلى مكان .

ونزحت قبائل وعشائر كثيرة لبني عقيل بن عامر إلى الموصل في الشمال الشرقي من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أول أمرائها ومؤسسها أبا الزهَّار محمد ابن المسيب العقيلي الذي تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخلفه أخوه المقلد العقيلي الذي اتسعت مملكته ، وقد حارب بني خفاجة واضطروهم إلى الدخول في طاعته ، وكان شاعراً ومحباً لأهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشريف الرضي بقصيدتين وجماعة من الشعراء . وخلفه ابنه قرواش ، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسيفي الفرات ، وأدب بني خفاجة مراراً ، وكان كريماً وهاباً نهاباً ، كما كان شاعراً مجيداً . ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وحبسه في إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولى مكانه . وتوفى بعد سنتين ، فخلفه ابن أخ له يسمى قريش بن بدران ، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفى سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلاً ، كما كان ممدحاً ، مدحه ابن حيوس شاعر

الشام وغيره ، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجرى حتى ينحسر ملك بنى عقيل ابن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادي ، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره في الأجام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح .

✽ وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها في أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد في أنحاء الحلة ، وكان أول من تصدى منهم لذلك على بن مزيد المتوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة ديبس ، ويحالف بنى خفاجة على حرب قرواش العقيلي ويحرقان الأنبار انتقاماً منه . وينعقد صلح بين قرواش وديبس وهزمان جموعاً للغز ويمدح ابن الشبل البغدادى قرواشاً بهذا النصر المبين . وكان ديبس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة ، مثله في ذلك مثل قرواش . ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكتب بين يديه على بن أفلح الكاتب المشهور ، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة ، ويفتك أسرى بنى عقيل حين استولى العسكر السلطاني على حلهم ويجهزهم ويردهم إلى ديارهم ، وقد تغنى الشعراء بهذه المأثرة طويلاً وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ مخلفاً ذكرى طيبة ، غير شعر جيد كان ينظمه . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة ، وكان ذا بأس وسطوة ، وكان يقال له ملك العرب . وكان يسكن هو وآبأوه قبله في البيوت العربية ( الحيام ) فبنى الحلة سنة ٤٩٥ وسكنها ، وله قدم ابن الهبارية كتاب الصادح والباغم ، وتوفى سنة ٥٠١ وخلفه ابنه ديبس وكان أديباً وجواداً كريماً ، وهو الذى عناه الحريرى بقوله في إحدى مقاماته - وهى المقامة العمانية - والناس يحيطون بأبى زيد يثنون عليه ويقبلون يديه حتى : « خيّل إلى أنه القرنى أويس (واعظ أموى) أو الأسدى ديبس » وقد اشترك في مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد ، مما دفع السلطان مسعوداً السلجوقى إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩. وولى بعده ابنه صدقة ، وسرعان ما ضعفت الأسرة ، وزايلت الحلة ، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية . ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية .

وَنَوَلَّى وَجوهنا في العصرين الأيوبي والمملوكى نحو بوادى الشام ومنازل طيى في جبل شمر أو جبلى أجاً وسلّمى ، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائيين كانا يقومان على أحياء العرب في بوادى الشام والعراق ، وهما آل فضل وآل مرأ ، وكانت منازل الأخيرين بوادى حوران ، وكانوا يسقطون منها جنوباً في الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم ، وأهم شعبيهم آل أحمد بن حجى المتوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسينى يؤدى له الخفر وكذلك أطراف الحجاز ، وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون . ويقول صاحب صبح الأعشى : آل مرأ أبطال

مناجيد ، ورجال صناديد ، وكثيراً ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل . ويريى القلقشندى عن الشهاب محمود الحلبي أنه حين غزا التتار الشام في أيامه وكان بمحص أقبيل من أهل مِرَازْهَاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسومة والحياد المطهمة مقلدين بالسيوف وفي أيديهم الرماح ومعهم الطعائن والحمول ومعهم مغنية تعرف بالخرمية طائفة السمعة سافرة في الهودج تغنى أبياتاً حساسة .

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبير الثاني من طيئ تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يساراً إلى البصرة وتستدير نحو منازل بني تميم واليمامة ، وتشمل منازل غطفان مما يلي وادي القرى ، كما تشمل منازل بني أسد ، وكان ينضم إليهم لقيف من قبائل العرب : من مدحج وعامر وزبيد وغيرهم . وكان شيوخ هذا الفخذ يولون على إمرة العرب بتقليد من السلطان ، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب ، إذ أقام على العرب أميراً منهم هو حديثه بن عقبة بن فضل ، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثه المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذي حضر مع المظفر قطز قتال التتار في عين جالوت . وولّى بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى . وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولّى تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوةً بالنواب إن كان حاضراً ويجهز إليه إن كان غائباً ، وتصدر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة ، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مِرَا . وكانوا يوفرون لهم الإقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميراً على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهد المنصور قلاوون ابنه المهنا ، وفي الجزء الثاني عشر من صبح الأعشى مرسوم شريف بإمرته . ويخلفه في سنة ٧١٢ فضل أخوه ، ويقال إن ابنه حجّ في اثني عشر ألف راحلة ، وظلت الإمارة في طيئ طويلا .

ونسمع في داخل نجد عن إمارات كثيرة بأنحائها وقراها المختلفة في اليمامة والعارض والوشم والقصيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم ، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدرعية التي تأسست في منتصف القرن التاسع الهجري ولا تخضع طويلا في القرن الثاني عشر حتى نرى أميرها سعوداً يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه ، وتوفى سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م . وخلفه ابنه محمد ، وهو الذي تآزر مع محمد بن عبد الوهاب في سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م على نشر العقيدة السلفية ووقع البدع ، وأخذاً يتعاونان في ذلك حتى دان له أكثر نجد . وتوفى سنة ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م ، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضى في نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادي السرحان ، وفتح بلدة الرياض . ولم يلبث أن قُتل بيد شيعي سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م وولى بعده ابنه سعود ، وقد استطاع أن يمد لواء

سلطانه من أطراف عُمان ونجران واليمن إلى بادية الشام في أقصى الشمال من الجزيرة ، ومن الخليج العربي ونهر الفُرات إلى بحر القلزم ( البحر الأحمر ) واستولى على الطائف ومكة ، مما جعل الدولة العُمانيّة تستعين بمحمد علي واليها في مصر ، كى يستخلص الحجاز منه ، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وسرعان ما توفي سعود في الدرعية سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وتولى بعده ابنه عبد الله ، وفي عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى في يد إبراهيم باشا ، واستسلم عبد الله بن سعود ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نَجبه سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م . ويتولى حكم الدرعية تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود . وبذلك ينتقل الحكم في آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد ، ويبقى فيه إلى اليوم . وينشط تركي ، ويفتح الحسا والقطيف ، ويعقد صلحا مع صالح بن علي أمير حائل وزعيم منطقة شمر أو جبل أجأ وسلمى ويغتنال سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ويخلفه ابنه فيصل وكان ضعيفا ، فأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وهو عام وفاته . وتعبه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع في خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يبسط سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين ، لولا أن هبَّ لا في هذا العصر بل في العصر الحديث التالى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فقد من إمارة آبائه .

### اليمن ودولها<sup>(١)</sup>

توزعت اليمن في هذا العصر دول كثيرة ، لعل أقدمها دولة بنى زياد في زبيد (٢٠٣-٤١٢ هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢-٥٥٤ هـ) ثم دولة بنى مهدي

لبا مخزومي (طبع ليدن) والمقتطف من تاريخ اليمن للجغرافى (طبع القاهرة) والمخلاف السنيانى للعقبلى (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب في معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ، الجزء الأول للدكتور عبد الكرم غرايبة ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزمامبور .

(١) راجع في اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصحح الأعشى في جزءيه الرابع والخامس وابن خلكان في التراجم المشهورة وتاريخ المستنصر لابن الجاور وتاريخ اليمن لعارة (نشرة كاي) وبلوغ المرام في شرح مسك الحتام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام للقاضى العرشى والعهود اللؤلؤية للخزرجى (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن لعبد الواسع الجنابى (طبع القاهرة) وأبناء الزمن في أخبار اليمن ليحيى بن الحسين وتاريخ ثغر عدن

الخوارج (٥٥٤-٥٦٩ هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلى اليمن دولة آل رسول . ولصنعاء دولها هي الأخرى وأولها بنويعفر (٢٥٢-٣٩٣ هـ) وتلتها دولة الصُّلَّيْحِيِّين الإسماعيليين (٤٣٩-٥٣٢ هـ) . ثم دولة الهمدانيين (٤٩٢-٥٦٩ هـ) . وفي صعدة مستقر الزيدية دولة الرِّسِيِّين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم الهواشم بمكة ونزلوا المخلاف السليمانى سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدي دولتهم منه . ثم عادوا إليه ، وقد ظل أئمة الرِّسِيِّين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث . وفي عدن دولة بنى زُرَيْعِ الإسماعيلية (٤٦٧-٥٦٩ هـ) . ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصعدة عاصمة الرِّسِيِّين . ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ، ثم نتنقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبنى طاهر والعصر العثماني ومقاومة الرِّسِيِّين فى صَعْدَةَ للعثمانيين ، حتى استخلصوا منهم البلاد .

وينبدأ بدول زَيْدِ قَبْلِ الفتح الأيوبي ، وأولها دولة بنى زياد ، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد ، ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على تهامة وحَضْرَمَوْت ، ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجيوش إسحق بن إبراهيم (٢٩١-٣١٧ هـ) . وفي عهده استولى القرامطة على زييد سنة ٣٠٣ ثم تركوها . ودانت له اليمن : عدن وصنعاء وحكامها بنويعفر وصَعْدَةَ وحكامها الرِّسِيِّون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلاثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير ، سوى ما كان يجنيه من مراكب السند ومن العنبر المجلوب إلى عدن وباب المندب ومن العَوَص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك . وما زال الحكم فى أسرته حتى تشاجر حَجَبَتُهُمْ على الحكم ، وتغلب عليهم نجاح الحبشى سنة ٤١٢ وأسس دولة بنى نجاح ، وما زال يحكمها حتى دس له بعض أنصار على بن الصُّلَّيْحِي صاحب صنعاء السم ففتك به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحي على زييد ، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دَهْلَك ، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يغتالوا الصليحي فى طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جيش بن نجاح أن يستعيد زييد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتباً بليغا ، وصنّف المفيد فى أخبار زييد ، وبعث هو وأسرته ووزراؤهم نهضة فى زييد أدبية وعلمية ، ومن وزراءهم من الله الفاتكى وسرور وكانا ممدحين عاليي الهمة . وتوارث أبناء جيش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدي وزال ملك بنى نجاح . وقد نشأ مؤسس دولة بنى مهدي - وهو على بن مهدي الحميرى - فى سواحل زييد على النسك والدين ، ولما شبَّ أخذ فى الوعظ فأجبه الناس والتفوا حوله ، وفكر فى إقامة دولة لنفسه فاستولى على زييد وتسمى الإمام المهدي أمير

المؤمنين وقامع الكفرة والملحددين . وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلى ، وكان يكفر بالمعاصي ، ويقتل من يقترف كبيرة ، وكذلك من خالف اعتقاده من أهل السنة ، وكان يستبيح نساءهم ويسترق أبناءهم وذريتهم ، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة ، ولم يلبث أن توفي بعد استيلائه على زييد بنحو ثلاثة أشهر ، وحين استولى عليها قتل قاضيها محمد بن أبي عقامة وابنه وكانا فاضلين . وخلفه ابنه مهدي ثم أخوه عبد النبي . وقد أغار في سنة ٥٦١ على المخلاف السلياني وقتل في الغارة أميره وهاس ابن غانم ، وأنشد في ذلك قصيدة رواها صاحب كتاب المخلاف السلياني ، ومازال على زييد حتى تسلمها منه توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ للهجرة .

الدولة  
اليعفرية

وأول دول صنعاء دولة بني يعفر التي أنشأها يعفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبناءه ، وحدث في سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة علي ابن الفضل على صنعاء . ولم يلبث أن ادعى النبوة ، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات ، وخط عن الناس - بزعمه - أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والصيام والحج . وفي سنة ٣٠٣ هلك على يد حسني حجّام ، جعل له السم في الموضع . وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واسترد صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولى بعده ابنه أسعد ، وبوفاته سنة ٣٩٣ انتهى دولة آل يعفر .

وتخلف دولة اليعفرين بصنعاء دولة الصليحيين ، أسسها على بن محمد الصليحي ، وقد نشأ فقها صالحاً بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو في مقره بجبله منذ سنة ٤٣٩ ورمما قبل ذلك بسنوات غير قليلة . وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يستأذنه في الدعوة للمذهب الإسماعيلي ، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زييد ، كما أسلفنا ، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرتة ، وعظم ملكه . واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسينية الزيدية ثم تركها . وكانت زوجته أسماء من فضليات النساء ، وكانت ممدحة كريمة ، مدحها كثير من الشعراء . وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جبله عاصمته ، وأصيب بمرض الفالج ، فقوض شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرّة أروى بنت أحمد الصليحي إلى أن توفي سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور ، وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحي بأمر المستنصر الفاطمي ، وتوفي سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان ، واستولى بنوحاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشيم الهمداني حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبناءه



عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبي . وظل نجم الملكة الحرة يزداد أفولاً والدولة الصليحية تنفكك أوصالها ، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة ، وقد خرجت أكثر الحصون في الجنوب إلى بني زُرَيْع أصحاب عدن . وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليحية الإسماعيلية .

وحرى بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرُّسَّيْن الزيدية بصَعْدَة في اليمن ، ومؤسسها هناك الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرُّسّ بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ في زمن جده القاسم الإمام الزيدى المعروف بمؤلفاته في المذهب الزيدى وفي الفقه . وقد خرج من موطنه إلى اليمن في سنة ٢٨٤ واستولى على صَعْدَة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن ، وتوفى سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثم أخوه أحمد ، فالإمام الهادي إلى الحق وهو المؤسس الحقيقي للدولة . وما تزال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حتى يفد عليها أبو الفتح الديلمي سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته ، ويخلفه عليها بنو سليمان أصحاب الخلاف السليمانى الزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك . وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعدة ، وتدخل صنعاء في حوزتهم مرارا . ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢-٥٦٦ هـ) . وكان شاعرا محسنا ، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميرى . ومن أئمتهم في العهد الأيوبي الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤ . ومن مشهورهم في عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهّاس ، والموطئ الرسى الذى بويع بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما عالما فقيها ، وظل الحكم بعده في أبنائه وتتوالى أئمتهم في عهد الدولتين : الرسولية والظاهرية ، وسنعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر .

أما عدن فكانت قديما داراً لبني معن بن زائدة منذ ولايته عليها في عهد المأمون ، وقد امتنعوا على بني زياد أصحاب زَيد ، ولما استولى عليها الصُّلَيْحِي داعية الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها ، ثم عزلهم عنها ابنه المكرم ، وجعلها للهمدانيين ، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بني زُرَيْع أن استخلصها لنفسه ، وكانوا إسماعيلية ، ومن أهم أمراءهم محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠ هـ) . وكان يتلقب بالداعى المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين ، وقد اشترى حصن جبلة من الصليحيين ، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبى بكر العيذى (٥٥٠-٥٦٥ هـ) . وكان يدبر دولته ودولة ابنه ياسر بن بلال ممدوح ابن قلاقس الشاعر المصرى وغيره من الشعراء . وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بني زريع . ويقال إن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت في عهد الأيوبيين إلى

ستمائة ألف . وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ أقام لنفسه فيها نوابا في مدنها وحصونها ، وعادت إلى أحسن أحوالها من الخصب والعمارة والأمن ، غير أن الحكم فيها لم ينتظم تماماً لصالح الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كما مر بنا سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحجاً على خير العمل » وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرهما من الشيعة ، وتوفى سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان ، وظلم الناس ، فولى السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه الملك المسعود سنة ٦١٢ وأتاب عنه في بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن علي بن رسول أحد قواده ، فكُنَّ لنفسه فيها ، ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة .

وتظل اليمن في قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعزّ بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسي سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت . وكانت الحرب كثيراً ما تنشب بين الرسوليين وبين الأئمة في صعّدة . وقتله مماليكه سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتعزّ ، وبنى جوامع ومدارس كثيرة في مدن اليمن ، وفتح ظفار في أقصى بلاد حضرموت ونشبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ، وتوفى سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة في العلوم والفنون ، فالملك المجاهد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأشرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخرجي كتابه العقود اللؤلؤية ، ويصف حفل ختان أبنائه وصفاً رائعاً . وتضعف الدولة بعده وتأخذ في التدهور ، وينتهز بنو طاهر ولايتهم وأمنائهم في عدن وغيرها الفرصة ، ويؤسسون دولتهم .

وقد اتخذ بنو طاهر «زيد» حاضرة لهم ، وأول أمراءهم عامر بن طاهر الذي استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفى سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك المجاهد إلى وفاته سنة ٨٨٣ وولى بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولى البرتغاليون على جزيرة كمران في البحر الأحمر ، وحينئذ يرسل قانصوه الغوري صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطردون من الجزيرة وتنزل الحملة اليمن وتستولى على زيد وتعز وتقضي على دولة بني طاهر

وتدخل اليمن في حوزة الدولة العثمانية ، وتنشب مناقشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة

الزيديين وبين العثمانيين ، وترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى في أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم ( ١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ ) وقد ظلت الإمامة في عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن في ثورتها الأخيرة ، وكان المتوكل مظفراً استولى على عدن وحضرموت وظفار وجمع بلاد اليمن وتولى الأئمة من بعده . وحدث في عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدي أن زاره القبطان الإنجليزي ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر ، ونزل له طائعا عن جزيرة ميون المسماة ببريم في مضيق باب المندب بالبحر الأحمر ! وهي تقسم البحر عندها قسمين . وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليزي سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحج ، وأصبحت مستعمرة إنجليزية . ورأى الأتراك طمع الدول الأوروبية في اليمن ، وأحس أممتها بحاجتهم إليهم ، فعادوا إلى احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م بينما مضى الإنجليزي يضمون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت . وأخذت المناوشات تعود ثانية بين الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولى مناهضتهم لا في هذا العصر ولا في أواخره بل في العصر الحديث الإمام الزيدى يحيى بن محمد حميد الدين

### حَضْرَمَوْتٌ (١) وظفار وتاريخها

تقع حضرموت في جنوبي الجزيرة على بحر العرب ، وهي إقليم جبلي يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتتفرع منه أودية كثيرة وكانت تشتهر قديماً باسم أرض اللبان ، وأهم مدنها في الداخل شبوة وشبام وتريم وسيون وعلى الساحل الشحر والمكلا ، وكانت تسكنها قديماً قبيلة كندة ، وما زال الولاة يتتابعون عليها من قبل الخلفاء في صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية . ولما تولى محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه ، وظل لبنينه نفوذ فيها ، حتى ولي بنو يعفر صنعاء وأقاموا دولتهم بها ، فإنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تتبعهم ، وحاول الحضارمة الثورة عليهم ، ولكن ثورتهم أخفقت ، وقدمها في أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى ، منتسبا نسباً شريفاً إلى الحسين بن علي ، ونزل بتريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم ، وهي زعامة أتاحت للشيعنة

(١) انظر في حضرموت وظفار وتاريخها ابن الأثير وابن الكلبي لمحمد بن هاشم وصفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض باوزير ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من حضرموت السياسي لصالح البكري وتاريخ الدولة مراجع .

أن يتنسوا هناك وكانت النحلة الغالبة في حضرموت نخلة الخوارج. ولذلك كان أهلها دائماً يثورون ثورات متعاقبة . ونزلها القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجرى مدة ثم تركوها ، ويلمع بها في القرن الخامس أبو إسحق الحضرمى الخارجى ، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوارج في عمان على أن يستقل بها بعد حروب دامية ، واستطاع أن يرد الصليحي عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولى شئونها واستقل بها . والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبي قحطان الكندى المولود بتريم سنة ٥٥٣ وقد حكمها سنه دون الثلاثين ، واهتم بالعلم والعلماء . ولما فتح صلاح الدين اليمن وولى على عدن عثمان الزنجبلى فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله ، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره ، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولى من آل النعمان على شبام ، وتمضى البلاد في أمن حتى يغزوها عمر بن مهدي اليمنى بجيش أيوبي سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعا : على الشَّحْر وشبام وتريم ، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهى بذلك عهد الأيوبيين في حضرموت ، وتحلفهم دولة الرسوليين ، فيعملون على أن تظل حضرموت تابعة لهم ، وكان يليها بعض أبنائها نوابا عنهم . وحين دانت ظفار شرقى حضرموت لسالم بن إدريس الجبوظى استولى بجموعه على حضرموت سنة ٦٧٣ غير أن الرسوليين قضوا عليه . ولا يزال شيوخ القبائل في البلاد وفي مقدمتهم بنوراشد وبنو نهد يتناحرون على حكم المدن ، ويشتهر آل باكثير باستيلائهم على الشَّحْر سنة ٧٨٦ وتكون الغلبة لهم في كثير من البلاد . وكان ينافسهم آل بادجانة وآل باوزير والكنديين ولكن آل باكثير ظفروا بهم وبغيرهم من العشائر أو قتل ظهوروا عليهم . وخلف الرسوليين بنو طاهر على اليمن ، وكانت حضرموت تستشعر الولاء لهم ، وقد ردوا عن الشحر محمد بن سعيد بن فارس المهدي سنة ٨٦٧ وعهدوا بها إلى آل باكثير ، واشتهر من بينهم بوطوريق المولود سنة ٩٠٢ وقد استولى على شبام سنة ٩٢٦ واحتل تريم سنة ٩٢٧ واتخذها مركزا لدولته وكان يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستولى العثمانيون على اليمن سنة ٩٤٥ ويعترف لهم بوطوريق بالطاعة سنة ٩٧٠ غير أن ابنه عبد الله رفض حكم الترك واستقل ببلاده ، وخلفه أخوه عمر وكان نصيره ومعاونه وكتابه الشاعر الكبير عبد الصمد بن عبد الله باكثير . ويتولى ابنه عبد الله شئون حضرموت حتى سنة ١٠٢٤ ويخلفه أخوه بدر ويظهر ولاءه للزيدية وأتمهم بصنعاء وينشب خلاف بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبد الله بسبب ذلك ، ويقبض عليه ويعتقل ، فيغضب الإمام الزيدى المتوكل على الله إسماعيل ، ويرسل في سنة ١٠٦٩ جيشاً إلى حضرموت يستولى عليها ، ويسلمها إلى بدر بن عمر ويظل يليها حتى وفاته سنة ١٠٧٣ ويتولاها ابنه محمد .

ويضعف شأن آل باكثير، ويصبح ليافع وعشاثرها الكلمة العليا في البلاد، ويتحول الحكم والسلطان إليها حتى سنة ١٢٦٣ إذ يعيد غالب بن محسن الكثيرى دولة آله ويستولى على تريم، غير أن الشحر وأكثر البلاد تظل في قبضة اليافعيين، ويشتهر من بينهم عمر بن عوض القعيطى اليافعى ثم ابنه عوض الذى أخطأ خطأ فاحشاً في حق بلده وأتمته بتوقيع معاهدة مع الإنجليز سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م أصبحت بها حضر موت إحدى حامياتهم على بحر العرب، وصمة في جبينه ما بعدها وصمة.

وظفار هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم، وفوق جبالها تنمو أشجار الكُنْدُر (اللُّبَان) الذى يستعمله الهنود في معابدهم، وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوى، وخلفه سالم بن إدريس الحبوظى الذى مر بنا غزوه لحضر موت وقضاء الرسولين عليه، وكانوا يولون عليها نائباً لهم. وفي القرن السادس عشر الميلادى حكم البلاد سيف الإسلام الغسانى وهو من صنعاء، وكانت قلعة بَلْد مقر حكمه، وفي القرن السابع عشر الميلادى استولى عليها بنوكثير الحضرميون، ولا يعرف عنها شىء في القرن الثامن عشر، وحكمها علوى في القرن التاسع عشر، وقتله بنوقرا، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن في هذا القرن فرض سيادتهم عليها. وفزعوا إلى سعيد بن تركى بن سعيد جد أمراء عمان، وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم.

### عُمان وأمراؤها<sup>(١)</sup>

تمتد عُمان على الشاطئ الجنوبي الشرقى لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندى وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية، وقد ثار بها الخوارج منذ زمن الحجاج في عصر بنى أمية، وكانوا يتخذون مدينة نزوى في الداخل جنوبى الجبل الأخضر مركزاً لهم، وكانوا يستولون عليها في أكثر سنوات القرن الثالث الهجرى، وتغلب على عمان أبوطاهر القرمطى عند اقتلعه الحجر الأسود من الكعبة سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله المهدي، وترددت عليها ولاة القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الخوارج سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين عليها حقبة من الزمن. يدل على ذلك أننا نجد نفراً من أعيانها هم

ابن عبد الله السالى وعمان قديماً وحديثاً لمحمد على الزرقا والإمارات السبع لأحمد البورينى ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرابية.

(١) انظر في عمان وتاريخها وأمرائها ودولها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصبح الأعشى ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة ونخفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالى وعمان تاريخ بتكلم محمد

بنو مكرم وكانوا شيعة إمامية يسرون إلى بغداد ويتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربي. ويملكونها فعلا في عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختار منهم أبا محمد بن مكرم، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جبالهم في نزوى وحولها، ويخطب لبنى العباس. وظل الخوارج في عهد بني مكرم يولون عليهم أئمة منهم، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومر ذكره في حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمي على غزوها والاستيلاء عليها. وتوارث بنو مكرم ملك عمان، ومن أهم أمراءهم ناصر الدولة علي بن الحسين بن مكرم، وكان جوادا ممدحا، ومدحه مهيار الديلمي وغيره وتوفي سنة ٤٢٨ بعد استنثاره بالإمارة مدة طويلة.

وفي سنة ٤٤٢ ضعف ملك بني مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد، فزحف إليها الخوارج من نزوى وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد، وله حروب مع قبيلتي نهد وعقيل سحقها فيها، وامتدحه بذلك أبو إسحق الحضرمي منوها ببسالته وبطولة جنوده. ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذي تملكها بعد أبيه وتظل في أيدي خلفائه.

وفي القرن السادس الهجري تملك عمان من أيدي الخوارج بنو نيهان سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣ م وهم عشيرة من العتيك من الأزد استولوا عليها بعد شيوع الفوضى فيها، وكانوا سنين، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع، وقد غزا الفرس عمان في عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها في عهد عمر بن نيهان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا في الغزوتين مدحورين، كما يصور ذلك شاعر النبهانيين أحمد بن سعيد الستالي الخروصي، ويشن المؤرخ نور الدين السلمي حملة على هذه الدولة النبهانية قائلا كانت دولة بني نيهان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكرا اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالي. وقد زار ابن بطوطة عمان في عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة، وأشاد بأميرها النبهاني وحسن ضيافته ثم ذكر نزوى عاصمة الخوارج، وقال إنهم أهل نجدة وشجاعة. ومن أئمة الخوارج المهمين في القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذي بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النبهاني أمير عمان، وهزمه واضطره أن يفر إلى هرمز وتوفي عمر، فعاد سليمان ونازل الإمام الثالث للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام، وباء بهزيمة منكرة، فرحل ثانية إلى هرمز، وتوفي أبو الحسن فاسترد سلطانه، ونازل خليفته الإمام الخارجي محمد بن

إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ وهُزم هزيمة لم تقم له بعدها قائمة . وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر .

وتصبح عمان تابعة للخوارج ، ويستردها سلطان بن محسن النهاني سنة ٩٦٤ ويتوالى عليها حكام نبهانيون ، حتى يستولى عليها منهم الإمام الخارجي ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها ، فأخذ يناوشهم ، وظلت مدينتنا صحار ومسقط في أيديهم وقيل بل سقطت في يده صحار ، وخلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) وهو أهم اليعربيين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهر البلاد منهم . وبني لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطئ إفريقيا والهند ، وكانت تتبعه مُمباسة في كينيا على ساحل إفريقيا الشرقي وجزيرة زنجبار<sup>(١)</sup> وجزيرة سقطرة في بحر العرب ، غير أن أسرته ضعفت بعده .

وتخلف أسره اليعربيين في حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذي جمع زمام الحكم في عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م ورد الفرس على أعقابهم سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م حين جاولوا غزو بلاده . ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذي ولي عمان سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م وظل في الحكم خمسين عاما . وقبيل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة في مدخل الخليج العربي بزعامة القواسم ، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر فتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم . وأخذ الأسطول الإنجليزي يظهر في هذه الأنحاء ، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة . وسرعان ما تزعم «دُبَيّ» آل بوفلاس سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م كما تزعم «أبوظبي» آل فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتخلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان ، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا .

### البحرين ودوها<sup>(١)</sup>

يقول ياقوت : « البحرين » اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة

(١) زنجبار : جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا  
 (٢) انظر في البحرين ودوها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة وصيح الأعشى والقصود اللامع في تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي .

العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدّهْءاء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا . وهى بذلك كانت تشمل إقليم قَطْر والإقليم الشرقى للمملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقُطيف وهجر ، ومجموعة من الجزر (البحرين الحالية) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولاً ونحو عشرة أميال عرضاً .

وقد سيطر القرامطة على هذا الإقليم مدة متطاوله من الزمن ، إذ غلب عليها بنو الجُتّاني بقيادة أبي سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القُطيف . وفى سنة ٢٨٧ غلب على هجر ، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية. وقد تحدثنا فى العصر العباسى الثانى عن هذه العقيدة وعن أبى سعيد وابنه أبى طاهر وإغاراته على مكة واستباحته دمء الحجاج ، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده ، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف . ولما رجع إلى البحرين رماه الله فى جسده ، حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . وفى سنة ٣٣٩ رُدَّ الحجر الكرم إلى موضعه . وفى عقيدتهم - كما صورناها فى كتاب العصر العباسى الثانى - ضلال كثير . ويبدو أن علاقتهم بالفاطميين - وكانوا لا يزالون فى المهديّة بجوار تونس - أخذت فى الفتور . حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقتهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية . ومن أهم أمراءهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبى طاهر ، وكان فارسا وشاعرا مجيدا تولى بعد أبيه سنة ٣٥٩ واتفق فى السنة التالية مع الخليفة العباسى المطيع لله على محاربة الفاطميين ، فأمدّه بالمال والسلاح ، وزحف على الشام تحت الرايات السود شعار الدولة العباسية ، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلى الفاطمى أساس عقيدته القرمطية ، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة ، واتجه بجيشه نحو مصر ، والتقى بالفاطميين وعساكرهم المغاربة فى عين شمس ، وكاد ينتصر عليهم لولا خروج بعض قواده عليه وانضمامهم إلى الفاطميين ، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين . ومر بنا فى حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمى لجنده من بنى سليم وبنى هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب . وفى سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكين الرومى مولى البويهيين ضد جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦ .

= أعيان القرن التاسع للسخاوى وديوان ابن مقرب  
 وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم (نشر دار مكتبة  
 الحياة ببيروت) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١/ ٢٤٩  
 وما بعدها .

العيون وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد  
 للشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض)



وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر ، وأخذت دولتهم في الاضمحلال . ولانصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمى الأحيفر من بنى المتفق بن عامر بن عُقيل جمعا كبيرا ، وينازل به القرامطة ، ويستولى منهم على القطيف ، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة . وعمت الفوضى في البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفر بن أبي الحسن الثعلبي سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائع العباسي ، واستقرت الدولة له . واختلفت في أيامه قبيلة بنو ثعلب مع بنى عُقيل ، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق ، وطالت أيام الأصفر ، واتسع به طموحه ، فحاول التغلب على الجزيرة والموصل ، ونازله بنو عقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله . وبقى الملك في البحرين بعده متوارثا في بيته إلى أن ضعفوا وتلاشوا .

وتخلفهم دولة بنى العيونى بزعامة مؤسسها عبد الله بن علي . إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملكشاه السلجوق سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة ، وكان لا يزال لها في البحرين أتباع كثيرون . وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة ، فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ وولياها بعده ابنه محمد المكنى بأبى سنان حتى مقتله سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة . وولياها بعده ابنه أبو فراس غرير ، وولى الأحساء في أيامه عمه عبد الله بن علي وولى ابنه أبو الحسن القطيف . والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذى يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن ولاية البحرين العامين من العيونيين وولاية مدنها المختلفين . ويختلط بعضهم ببعض في الديوان ، ومن أهمهم محمد بن أبى الحسين الذى تولى زمام الأمور في البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخليفة الناصر ( ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ ) يعهد إليه بجفارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتى ثوب أكثرها من الإبريسم . وسمع في سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تتجمع في طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج ، فنكل بهم تنكيلا شديدا . وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة ، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن يعم الجزيرة . ويغتال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر ، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبى الحسين ويفتك به ثارا لأبيه . وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة ، وتأخذ في الضعف تدريجا ، ويستولى أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال ( البحرين الحالية ) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذانا بانتهاء دولة العيونيين .

ويغلب على البحرين بعد هذه الدولة دولة بنى عصفور من بنى عامر بن عوف العقيليين ، وتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المماليك بعد هزيمتهم للتتار ، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فيكرم وفادته ، ويظلون يقدون على المماليك . وعلى رأس سنة سبعمائة للهجرة ينتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مغامس من بنى جبر ، وابتزعا منه بنو جروان من بنى عامر بن عوف العقيليين ويظلون يحكمونها حتى سنة ٨٢١ وفى عهدهم استولى المغول على جزيرة أوال وظلت فى أيديهم مدة .

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين ، إذ خصصها من بنى جروان سيف بن زامل ، واتسع نفوذه فى نجد ، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أجود . ودب الشقاق بين أبناء الأسرة ، فأخذها منهم راشد بن مغامس . وفى هذه الأثناء وفى غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون فى سنة ٩٢٢ على جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقطيف وقطر ، وظلوا بتلك الديار حتى طردتهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣ . وقد انفصلت قطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجرى بزعامه آل ثانى ، وكانوا من يبرين ، فزاحموا قبيلة عبد القيس وتغلبوا عليها . أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرقى من المملكة العربية السعودية ، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوى على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧ م ١٧٨٢ هـ / م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزبارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم ، ووقع أحدها وهو الشيخ محمد بن خليفة معاهدة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م دخلت أوال (البحرين الحالية) بمقتضاها فى حمايتهم إلى أن استقلت أخيرا .

وظل يلى الأحساء والقطيف بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا ، وكان أول من وليها منهم براك بن غرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣ ، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف فى الروايات ، فسعدون بن محمد ، فسليمان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليها بعده عرعر ، فابنه بطين ، فأخوه دجين ، فأخوهما سعدون ، فأخوهم دويحس وقد اشتبك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م فى حروب رجحت فيها كفة سعود . وتتطور الظروف وتنشب الحرب بين محمد على والسعوديين . ويعود بنو خالد إلى حكم الأحساء والقطيف ، غير أن الحاكم السعودى تركى بن عبد الله يضطرهم إلى تسليمها سنة

١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م وتعودان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصها منها في العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف في حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م وظل آل ثاني رؤساءها إلى أن نفض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم في العصر الحديث ، واستقل ببلادها سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م وتظل أسرته متولية أمرها ومدبرة شئونها إلى اليوم .

## ٢

### المجتمع (١)

يتقابل في الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر ، والأولون عرب خُلص ، وقد دخل علي الثانين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية ، والغلبة للعنصر العربي فهو قوام الحواضر . وربما كانت مكة بالذات من الحواضر التي كثر إليها نزوح الأجانب ، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله ، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامي ، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن . والعلاقة بين اليمن والحبشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين ينزلون بها ، ومرت بنا دولة آل نجاح في زبيد ، وهم أحباش أو من أصل حبشى . ومن قديم كان الفرس ينزلون في عمان ومدن الخليج ، وكان كثير منهم يستوطنها ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . وبالمثل كان ينزل في مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون ، وثورة الزنج بالبصرة في القرن الثالث الهجرى مشهورة ، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا في البحرين ، وكانوا كثيرين في عُمان منذ أخذت تستولى في القرن الثالث على سُقطرة وبعض الجزر ، ونراها بعد ذلك تستولى على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية .

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والأغنام ، ومحققها غير

عبد غانم (نشر وطبع دار الكاتب العربي بيروت) ورحلة ابن بطوطة وديوان ابن مقرب العموني وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالمى وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

(١) انظر في مجتمع الجزيرة صبح الأعشى والنجوم الزاهرة في مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعارة ومروج الذهب للمسعودى : الفصل الخاص بالغناء والموسيقى في الجزء الرابع والعقود اللؤلؤية للخزرجي وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر وشعر الغناء الصناعى للدكتور محمد

قليل من شظف العيش ، مما جعلهم أذق بعبارة أدق جعل منهم عشائر تتعرض أحيانا للحجاج وتنهبهم ، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومانهم بصور كثيرة ، منها إرسال الحجاج في قوافل مع حاميات ، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبني عُقَيْل أو لبني أسد أن يحموا الحجاج ، وكانت القاهرة بدورها تعهد لآل الجراح في العهد الفاطمي وآل فضل في العهدين الأيوبي والمملوكي بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين .

وكان وراء مكة والمدينة في الحجاز مدن وقرى كثيرة على شىء من التحضر ، نجد ذلك في الطائف وفي جدة وفي يَنْبَع وفي خَيْبَر وفي وادى القرى ، حيث يقيم الناس في دور شيدوها ويستقرون بها . وهذا الاستقرار أساس التحضر وال عمران إذ يتجه الناس إلى عمل يُقيمون به أود حياتهم ، وكان الزراعة ، إذ نجدها في كل هذه المدن . وطبعي أن ينشأ في المدن بجانب الزراعة صناعات ينهضون بالحرف المختلفة من عبارة ونجارة وحياكة ، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفيض عن حاجة مدنهم كالتمر مثلا ، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل . وتشتهر المدينة بكثرة زروعها ، وكانت مصر منذ العصر الفاطمي ترسل إليها وإلى مكة بكميات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك في زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم في زمن المماليك . وكان ينزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا ، فيشيعون فيها الرخاء ، وأهل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسينيين في مكة وإمارة أخرى للحسينيين في المدينة .

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جَنَّاتٍ عن يمين وشمال) . ومعروف أنه تهب عليها الرياح الموسمية صيفا ، فتهطل بها أمطار غزيرة تغذى المروج والزروع والأشجار المتكاثفة ، ويزرع أهلها في الأودية والسهول الحنطة والشعير والذرة والأرز والسمسم ، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخوخ والموز والليمون والبطيخ والسفرجل ، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقرة والغنم والغزلان والقرود . ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين . وعدن ميناؤها ، ويقول القدماء إنه «لم يكن يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار وارين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة ، والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجارة مربحة» . ومر بنا في حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن ، هي زَبِيد وصنعاء وصَعْدَة وتَعَزَّ ، وزبید بتهامة اليمن في سهل من الأرض وبها نخيل كثير ، وكانت مسورة وبها قلعة ، وصنعاء في منطقة الجبال بوسط اليمن ، وهي كثيرة الزروع والفواكه ، وصعدة في منطقة جبلية وعرة شمالا ، أما تعزَّ فحصن في الجبال جنوبي اليمن مطل على تهامة وأراضي زبید . وكان الرسوليون يقيمون بها

صيفا وبزيبيد شتاء . واليمن بها قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم ، وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة ، فلا غرابة أن كان أهلها في هذا العصر يتمتعون بغير قليل من نعم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار ، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله : « لأكابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل : يُطَبِّخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان .. وتطَيَّب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفي بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والحصيان من الهند والحبوش ، ولهم الدور الجليلة والمباني الأنيقة ، إلا الرُخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا » . ويدل من بعض الوجوه على ما كان في اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بني نجاح في زيبيد من أنه كان جوادا وأن نفقة مطبخه في شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار . ويبدو أن مجتمع اليمن كان يكتظ بكثير من الجوارى والإماء ، ويذكر عمارة اليمنى أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة ، وقد أشاع الإماء والجوارى في قصور آل نجاح وغيرهم الغناء والطرب . والغناء قديم في اليمن ، وأشار المسعودى إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء حميرى وحنفى ، ولعله يريد صنفا قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفا إسلاميا حنفياً أو حنيفياً . ولا نسمع بعد زمن المسعودى المتطابق مع أول هذا العصر عن مغنين أو مغنيات إلا ما ذكره عمارة في زمن آل نجاح كما أسلفنا . ويبدو أن الأئمة الزيديين في صَعْدَة لم يفسحوا للغناء بل حاربوه طوال عصورهم ، أما الدول الأخرى فلعلها فسحت له ، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص في بعض الاحتفالات ، ومن أهمها احتفال السلطان الرسولى الأشرف لسنة ٧٩٤ بختان أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة ، ولا بأس من أن نوجزه نقلا عن الخزرجى في كتابه العقود اللؤلؤية إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ في شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى . ويُعدُّ الخزرجى أسماء الآنية وأنواعها الكثيرة ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية ، وكان كل من يقدم هدية يجعل معها المغانى والرياحين والبواقين يزفونها إلى باب الدار . وأقيمت للناس أربعة سباطات : سباط الطعام وسباط الحلوى وسباط المكسرات من اللوز والجوز والفسق والبندق وسباط رابع خاص بالعمود والمباخر ، ويشمل المسك والصندل والعود والبنفسج والعنبر والغالية وماء الورد . ويذكر الخزرجى أنه كان هناك من المغانى والراقصات ما أدهش الحاضرين ، وفي ذلك ما قد يدل

على أن الرسولين لم يحاربوا الغناء في دولتهم ، بل لعلهم شجعوا عليه . ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصنعاني العربي التي اشتهرت به صنعاء واليمن ربما بدأ في أواسط العصر الرسولي أوفى وأواخره . وفي رأبي أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية في صنعاء وغيرها من مدن اليمن ، على الأقل منذ العهد الرسولي ، كما تدل على ذلك المغاني والراقصات في الاحتفال السابق ، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزم من النجاحيين في القرن السادس ، إذ نجد لابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النبيه المصري المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمنيون بألحان غنائهم الصنعاني ، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم في كتابه ، وأيضا فإننا نجد للشاعر اليمني ابن هُتَيْمَل شاعر القرن السابع الهجري أشعارا ملحنة بهذا الغناء ، وكذلك للبرعي الشاعر اليمني الصوفي المشهور في القرن الثامن ، وتتوالى بعد ذلك الأغاني في شعر القاضي موسى بن يحيى بهران والأمير الزيدى محمد بن إسحق . وتكثر الأغاني الشعبية الصنعانية ، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن .

وأشار الخزرجي في الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء المُحَصَّنات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء المُقَدَّمين. ولعل في ذلك ما يدل من بعض الوجوه على أن المرأة كانت تحظى في اليمن بغير قليل من الحرية . ومررنا أن أسماء زوجة على ابن محمد الصُّلَيْحِي كانت من فضليات النساء ، وكان الناس من شعراء وغير شعراء يقصدونها فتبرُّهم ، وكان ابنها المُكْرَم يجلُّها إجلالا عظيما ، وكانت لا تستر وجهها من الحاضرين ، وكان زوجها يكل إليها تدبير بعض شئون الدولة .

وحين مرض ابنها المُكْرَم بالفالج فَوَّض شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحي سنة ٤٦٧ فأحسنَت القيام عليها وتديبرها إلى أن توفى سنة ٤٨٤ وتولَّت بعده شئون الحكم ، كما مررنا ، إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهي التي أمرت ببناء جامع جبلة والجناح الشرقي في جامع صنعاء .

وكانت حَضْرَ مَوْتٍ من قديم متصلة باليمن ، بل كانت أحيانا تعد جزءاً منها ، وكان واليها في القديم هو نفس والي اليمن . وقد يعين عليها نائبا له ، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مررنا في تاريخها السياسي . ومما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أشواطاً في الحصب وكثرة الزروع . وهي بلاد جبلية يشقها واد عظيم تتفرع منه أودية مختلفة ، كما مررنا . وأهم حاصلاتها اللُّبَان (الكُنْدُر) والحنطة والذرة والقمح ، وأهلها يهبطون في التحضر

درجات كثيرة عن أهل اليمن ، لشطف العيش بديارهم ، وهم ملاحون ممتازون وجعلت الملاحه شرطاً كبيراً منهم تجاراً ، وإليهم يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام بشرق إفريقيا وبالملايو واندونيسيا والهند . وهم بحق أبناء المحيط الهندي ، جابوه شرقاً وغرباً ، ونزلوا في أقاليمه ، وعاشوا سكانها ، وهم في كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة . وبجانب حَصْرَ مَوْتِ ظَفَار ، وطبيعتها واحدة ، فهي الأخرى جبلية ، وأهلها يزرعون الموز والخنطة والذرة معتمدين في ذلك على مياه الأمطار ، وهم يرعون الأنعام والأغنام ، ويشتهرون بتربية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعي أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندي أو بحر العرب . وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة ، التي رأيناها في اليمن ، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمرائهم بعد صلاة العصر من كل يوم .

وعُمان إقليم كبير في الجنوب الشرقي من الجزيرة ، وهي تطل على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وترسو بها السفن من الزنج والهند واندونيسيا ، ويتزها إيريانيون كثيرون من قديم ، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة : عربية وإفريقية وإيرانية وهندية ، والغلبة للعنصر العربي . وبدخلها جبل عظيم الارتفاع تشعب منه تسعة أودية جميعها لبني رثام وبنجوييه مدينة تزوى عاصمة الخوارج . ومن أهم موانئ عُمان صُحَار وكانت عاصمتها قديماً ، ومسقط وهي عاصمتها الآن . وتكثر على سواحلها مغاصات اللؤلؤ ، وهي كثيرة التمور والفواكه والزروع من الخنطة والذرة والشعير . وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥ : إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة ، ويصف تزوى عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت في سفح جبل ، تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة ويذكر أن من عادات أهلها الأكل في صحون المساجد ، يأتي كل إنسان بما لديه من الأكل ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ويثنى على أهلها قائلاً : « لهم نجدة وشجاعة » . ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبي محمد بن نيهان ، ويقول إنه يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه ، ولا يمنع أحداً من الدخول عليه سواء أكان مواطناً أم غريباً ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعين له مدة الضيافة ويعطيه حسب قدره . ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة ، هي نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ في تصويره وملاحظته . وكل شيء يؤكد أن هذا الإقليم كان على شيء غير قليل من الثراء ، وهو ثراء مكّن سلطان بن سيف اليعربي في القرن الحادي

عشر من بناء أسطول ضخم سحق به أسطول البرتغاليين واستولى على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندي وبعض شواطئ الهند .

والبحرين شديدة الخصب ، وهي كثيرة العيون والفواكه والنخيل وبها من التمور أنواع لا تُحصى ومن زروعها الحنطة والأرز ، وكان يرد إلى موانئها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالعروض التجارية . وأخبار كثيرة تصور ما كان فيها من رواج وانتعاش اقتصادي ، من ذلك ما يروى من أن تجاراً غرقت سفينتهم بين جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقُطيف ، وسقط في الخليج كل ما كان معهم ، وعلم بذلك أمير البحرين العيوني الفضل بن عبد الله (٥٠٠-٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ما كان يحمله وقيمته نقداً ، وأعطى كلا منهم ما فقدته كاملاً ، وكان بينهم جوهرى ، قال إنه كان يحمل عقوداً من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف ، فأعطاهها له . وهي مأثرة جليلة وتدل على حال الإمارة حينئذ ، وأنها كانت في يسر . ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصة بأمرير البحرين وحده ، بل كانت تشمل حكام مدنها ، ويروى أنه في عهد أميرها غرير الذي تولى إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدبة ، فأمر حاكمها على بن عبد الله العيوني بفتح خزائن الغلال والتمر وأن يأخذ منها الناس كل حسب حاجته ، وأمر بحط الزكاة والضرائب عنهم ، وما زال يوالى فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم . وكان يحكم القُطيف في نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن علي ، فلجأ إليه سبعون فارساً من قبيلة عبد القيس ، فأكرمهم ، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم ، سوى إقطاعات مختلفة .

وفي كل البلدان السالفة كانوا يفتنون في المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعاً بكثرة الأسماك ، ويكثر السردين في حضرموت ، ووراءه في شواطئ الشحر واليمن وعمان والبحرين أنواع سمك لا تكاد تحصى ، ويكثر في الخليج الآمور (الوقار) والرُبيان (الجنبرى) . وكانت المرأة تتفنن في زينتها وثيابها وفيما تتخذ من حلى . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بعيدى الفطر والأضحى . وكان الغناء منتشرًا وخاصة في اليمن كما أسلفنا ، وكانوا يخرجون للصيد والطرود في الصحراء من حوهم فرادى وجماعات .



التشيع<sup>(١)</sup>

عرفت الجزيرة العربية كل نحل التشيع الأساسية ، وهي الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية ، وأطولها عمراً وأكثرها بقاءً وأوسعها انتشاراً نخلة الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الذي ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ و قتل وصُلب ، وكان يرى أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك جَوَّزَ إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي بن أبي طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها . وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة ونحلهم ، فكانت نحلته معتدلة ، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام ، ولا بأن وحياً نزل يعين الأئمة . وكان يشترط في الإمام أربعة شروط : العلم والزهد والشجاعة والسخاء ، وهو لا يكون إماماً إلا إذا ثار على الخليفة في عصره وطالب بالخلافة ، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المستور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المحتفى مثل الاثني عشرية والكيسانية .

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم في القرنين الثاني والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة ، وفي مقدمتهم محمد بن عبد الله « النفس الزكية » الذي أعلن ثورته في المدينة على المنصور العباسي سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فاستثار أهلها ، وهبوا معه ثائرين ، وقضى المنصور على هذه الثورة . وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن علي الحسني في مكة والحجاز ، ويُهزَم هو ومن معه لعصر الهادي سنة ١٦٩ في مكان يقال له « فَخَّ » ويفرّ خاله إدريس بن عبد الله إلى فاس ويؤسس بها دولة الأدارسة . ويفرّ أخوه يحيى إلى خراسان ويُقبض عليه ، ويلقى به في غياهب السجون حتى موته . ويثور محمد بن إبراهيم الحسني المعروف بابن طباطبا في الكوفة لعهد المأمون ، ويُقبض على ثورته . وينشط الزيديون في طبرستان

للغزالي ورسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد تحقيق د. وداد القاضي (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشرعية في الإسلام لجولد تسيهر .

(١) انظر في التشيع ونحله مقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبيهقي والملل والنحل للشهرستاني وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي و فرق الشيعة للنوحي والتصير في الدين للإسفرائيني وفضائح الباطنية

بالنصف الثاني من القرن الثالث ، وقد صورنا نشاطهم هناك في الجزء الرابع من هذه السلسلة الخاص بالعصر العباسي الثاني .

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان في اليمن والحجاز ، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادي إلى الحق ، واتخذ مقراً له - كما مرّ بنا - «صَعْدَةَ» في الجبال الشمالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالى بعده في صعدة الأئمة من أبنائه ، حتى سنة ٤٣٧ إذ تولى الإمارة أبو الفتح الديلمي الحسني كما مرّ بنا ، ووليها بعده أصحاب المخلاف السليمانى ، وتعود إلى الأسرة الرّسّية : أسرة الإمام الهادي إلى الحق وتظل في أبناء المتوكل على الله الرّسى ، كما أسلفنا . وتمرّ أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية ، فتسع رقعتها وتستولى على صنعاء أحياناً ، ولا يزال أمّتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والظاهرين ، ثم يصبحون وحدهم وجها لوجه أمام العثمانيين ، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مرّ بنا . أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة ، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحديث ، وإن أخذت تلك الإمارة في التضعف والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدينتيه في القرن العاشر الهجرى .

ومرّ بنا في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني حديث مفصل عن نخلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النخلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانت قد أدركته المنية في حياة أبيه ، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه ، لأنها - في رأيهم - توارث في الابن الأكبر حتى لو توفى قبل أبيه كما حدث لإسماعيل . ويخلفه - في عقيدتهم - ابنه محمد ، ويخلف محمدًا ثلاثة أئمة مستورون جاء في إثرهم عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم ، وتلقيبه بالمهدي يشير إلى عقيدتهم في المهدي المنتظر . وعرضنا في العصر العباسي الثاني تفصيلاً لتلك النخلة وأهم مبادئها وأن الذي نظّمها وكون حولها جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح ، وكان ينزل في سَكْمِيَّة بقرب اللاذقية ، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمى حمدانا ويلقّب بقرمط ، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها ، وإليه ينسب القرامطة ، وكان يدعو في جماعته إلى الأخذ بنظام الألفة ، وهي الشركة في الأموال . وزعم ، وزعم معه القرامطة ، كما يقول البغدادي «أن الأنبياء كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعهم بنيرانجات (ضروب من السحر) واستعبدهم بشرائعهم» وقالوا : «هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج

والجهاد». ومن هنا كانوا يَحُلُّونَ أنفسهم من الفرائض ، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم . والقرامطة - بهذا التصوير للبغدادى - كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية ، وكان من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنَّابى أرسل به إلى منطقة البحرين ، فاستجابت له هناك قبيلة عبد القيس ، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التى ظلت نحو تسعين عاما . وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريراً كبيراً ، وكثيراً ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم ، وكثيراً ما أغار على البصرة والكوفة وأحرق مساجدهما وأعمل فيها السلب والنهب . وفى سنة ٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشى على الحجاج فى موسم الحج يوم التروية وسفكه لدماء الآلاف منهم ورَمَى كثير من جثثهم فى بئر زمزم واقتلعه الحجر الأسود ونقله إلى البحرين على نحو ما مرَّ بنا ، وهو فى أثناء ذلك ينشد أشعاراً كافرة مارقة . ونرى القرامطة فى سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ومر بنا كيف أن الأعصم (٣٥٩ - ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت ألوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠ وظلت دولة القرامطة قائمة بعده - كما مرَّ بنا - حتى سنة ٣٧٨ . وعلى الرغم من انتهاء دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة فى البحرين إلى أن قامت الدولة العيونية سنة ٤٦٦ وقد عنى مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هى عادة المشوش ، إذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ، ويشعلون الشموع والمصابيح ويغنون ويرقصون ، ثم يطفئون الشموع ويختلطون . ويبدو أن عبد الله العيونى لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائياً ، فقد ظلت منها بقايا بعده ، بل يقول فؤاد حمزة فى كتابه « قلب جزيرة العرب » ! إنها لا تعدم فى الأحساء - إن صح ما يقول - من يعتنقونها إلى اليوم . وعُرفت الدعوة القرمطية فى اليمن ، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعائه ، هما المنصور بن حوشب وعلى ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة ، ونزلا على حافة اليمن النجدية ، غير أن دعوتها اختلفت ، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحولهم من إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، وكأنما نفص يده من القرامطة ، وانتشرت دعوته فى بعض الجبال وبعض القبائل ، ويسميه الفاطميون منصور اليمن ، وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم ، إذ توفى سنة ٣٣١ وخلفه ابنه فى الدعوة وشركه فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحي ، كما سزى عما قليل . ونفَّصَ على بن الفضل يده ولسانه من الدعوة الفاطمية ، فلم يدعُ للفاطميين ، بل أخذ يدعو لنفسه ، واستطاع الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادَّعى أنه من بنى يعرَّب أو قحطان ، كما مرَّ بنا ،

واستحلَّ الحرام ، ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم وانتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا . وظل دعاة الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استألوا على بن محمد الصليحي للدعوة الإسماعيلية ، واستطاع - كما رأينا في غير هذا الموضع - أن يؤسس الدولة الصُّلَيْحِيَّة ، وأن يستولى على زَبِيد وصنعاء وعدن ، واتخذ صنعاء عاصمة له . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً للحديث عن المذهب الفاطمي الإسماعيلي الذي كان يدين به هو وكثيرون من أهل إمارته . وقد ذكرنا آنفاً أن القرامطة كانوا فرعاً من المذهب الإسماعيلي ضلَّ هداه . وقد اتخذ هذا المذهب في أول أمره شكل جمعية سرية كَوَّن مبادئها عبد الله بن ميمون القدَّاح ، وهي مبادئ غُمست غمساً في نظرية الفيض الأفلاطونية التي سكبوها في نظرية الأدوار عندهم ، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون في أدوار ، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلي الناطق عن القوى الحارقة ، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره . والإمام له نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ، ونسبة إلى عالم الطبيعة . وفي مبادئهم أن قدرة الله تنتقل إلى العقل الكلي أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع في كل دور ، ولذلك يوصف - عندهم - بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفي عقيدتهم أن آيات القرآن الكريم ينبغي أن تفهم فهماً باطنياً مجازياً ، ولا تفهم فهماً ظاهراً أو ظاهرياً ، حتى يؤوِّلوها كما يشاءون . والمتنظم في سلك الدعوة - عندهم - يتدرج في سبع مراتب وبلغت تسعاً . وظلت الدولة الصليحية قائمة - كما أسلفنا - حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زُرَّيْع حكام عدن إسماعيليين فاطميين ، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩ . وتلاشت بذلك الدعوة نهائياً بقضاء الأيوبيين عليها في اليمن ومصر ، وبقيت فترة حية في المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية ، ونظن ظناً أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر في اعتناق هذه العقيدة طويلاً وأنها اعتنقت نحلة الشيعة الإمامية الاثني عشرية .

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرقي الجزيرة ، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالى في اثني عشر إماماً . ولذلك يسمى أصحابها باسم الاثني عشرية ، وآخرهم المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمت وإنما غاب وسيعود ليملأ الأرض عدلاً . ولم تقم للإمامية دولة في الجزيرة العربية ، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسر في الخليج العربي ، وقد مر بنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولاة كانوا يدينون

بالولاء للخليفة العباسي وبالتالي للبوهيين ، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثني عشرية ، وفي نفس التاريخ يحدثنا المؤرخون أنه كان في عُمان بيت إمامي اثنا عشرى هو بيت بنى المكرم ، وأنهم ، كما مر بنا ، دفعوا البوهيين إلى غزو عمان واستخلاصها من أيدي خوارج نَزَوَى ، وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عمان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين في التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثاني عشر الخنفي كما أسلفنا . ولا يزال يوجد إماميون في الخليج العربي وإماراته إلى اليوم .

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ، وهو أخ ربيب للحسن والحسين ، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ وبالرجعة وكان ابن الحنفية يتبرأ منها أشد التبرؤ ، ويتوفى ، فيقول أتباعه إنه لم يمّت ، بل غاب في جبل رَضَوَى ، ويقول فؤاد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » يوجد في الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية يقيمون في جبل رَضَوَى بالقرب من يَنْبَع وهم على شيء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن .

## ٤

### الخوارج : الإباضية<sup>(١)</sup>

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض التيمي أحد أربعة كانوا رءوس الخوارج في منتصف القرن الأول الهجرى وحوطهم تكونت فرقههم الأساسية : الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية ، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان ، والنجدات أتباع نجدة بن عامر الخنفي وكان مسرح نشاطهم اليبامة والبحرين ، والصفرية أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة . وكان مسرح نشاط الإباضية عمان وحضر موت واليمن ، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أو كادت بانتهاء العصر الأموى ، أما فرقة الإباضية فظلت حية لافى بيئتها الأصلية عمان وحضر موت فحسب ، بل أيضا في بلاد المغرب ، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون في

(١) انظر في الإباضية الكتب المذكورة في تاريخ عمان وأمراتها والملل والنحل للشهرستاني ومقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبغدادى وفجر الإسلام لشاربوني (طبع المطبعة السلفية بالقاهرة) .

العصر الأموي أو بعبارة أدق في أواخره ، وما زالت الدعوة تنمو في المغرب ، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية في تيهرت . ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة في جنوبي الجزائر وليبيا .

أما في عُمان وحضرموت فقد اتخذ الإباضية نزوى جنوبي الجبل الأخضر في داخل إقليم عمان مركزا وحاضرة لهم وتوالى أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسي ، وكثيراً ما كانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدي العباسيين . وقد تغلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى سنة ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بني مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ ويضعف بنو مكرم فيعود إليها الإباضية من نزوى قبيل منتصف القرن الخامس . وتخرج من أيديهم في القرن السادس ويتملكها بنو نهران ، وتعود إلى الإباضية فترة في أول القرن العاشر الهجري ، ثم تعود إليهم نهائياً ويتولاها أئمة الإباضية البعاربة منذ سنة ١٠٢٤ . وتختلفهم أسرة إباضية أخرى هي أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وتظل عليها إلى اليوم ، وتترك السلطة الدينية لأئمة نزوى وتكتفي بالسلطة الزمنية . ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية ، ومررنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوي وقد نشر فيها مذهب الشافعي ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلا مع دعوة الخوارج ، ولأسرته نشاط علمي وأدبي كبير في حضرموت ، ومررنا أن أبا إسحق الخارجي الحضرمي استقل بها في القرن الخامس ، وكان خارجياً يدين بالولاء للإباضية نزوى وإمامهم الخليل ابن شاذان ، وكثيراً ما كانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية في نزوى أو فيها وفي عُمان . وقد نشر العمانيون المذهب الإباضي في زنجبار والبلاد التي كانت تتبعهم في شرق إفريقيا مثل دار السلام ، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري .

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قرباً إلى أهل السنة ، وهم يذهبون إلى أن دار مخالفهم من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصي كافراً ، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله ، بل يقصدون بكفره أنه كافر بالنعمة ، والكفر بذلك عندهم نوعان : كفر نعمة وكفر شرك بالله . وأحلوا التزوج من مخالفهم المسلمين وأن يتوارث الإباضي معهم . ولم يستحلوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب ، وحرّموا قتل المسلمين غيلةً وكذلك سبهم سراً . وقالوا إنه لا يجوز قتالهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضي وإقامة الحجة عليهم وإعلان الحرب . وأجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم وأتباعهم ، وقالوا في مرتكبي

الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون ، وهم كفار نعمة لا كفار ملة . وعندهم أن الإيمان لا يكفي فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق ، بل لا بد من العمل وأداء فروض الدين . ويتفقون مع المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة ويتزهون الذات العلية عن الشبه بالمخلوقات ، ويقولون إن القرآن مخلوق حادث ، وإذا صح ما يقوله الشهرستاني كانوا يتفقون مع الأشعرية في رأيهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحدائاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً . ولا يتسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين ، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين .

وهذا الاعتدال في مذهب الإباضية يجعلنا ننفي عنهم نفياً باتأدولة بنى مهدي الخارجية التي استولت على زبيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا ، فقد تسمى مؤسسها بأمر المؤمنين كما تسمى بالمهدي ، وكأنه جمع بين فكرتي الشيعة الإسماعيلية والخوارج الغالين معاً مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية ، إذ كان - كما أسلفنا - يكفر بالمعاصي ويقتل من اقترف كبيرة وبالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نساءهم وسمى دارهم دار حرب . وهو في ذلك كله غال غلوا شديداً حتى ليتقدم الأزارقة خطوة في الغلو ، ثم هو يدعى العصمة ويدعيها له أتباعه وهو في ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية ، بل إنه ليعد نفسه المهدي المنتظر ، ولم يلبث توران شاه - كما مر بنا - أن قضى على من خلفه ودولتهم الخارجية الشيعية .

## ٥

### الدعوة الوهابية السلفية<sup>(١)</sup>

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبذ البدع التي شابت العقيدة الإسلامية ونبذ تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم إلى قضاء الحاجات ، كالبركة في الزروع أو في الأغنام والأنعام أو في براء المرضى وشفائهم ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حمل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار

محمد بن عبد الوهاب للربكي وعنوان المجد في تاريخ نجد  
لعثمان بن بشر وروضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء  
الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة والشريعة في الإسلام  
لجولد نسير

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة  
جليلة في التوسل والوسيلة ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع  
القاهرة) وكتاب التوحيد وكشف الشبهات في التوحيد  
لمحمد بن عبد الوهاب طبع القاهرة ولمع الشهاب في سيرة

والأحجار ، وكان حنبلياً يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية ، وقد مضى يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم ، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم . وكان الغزالي قد وصل بين التصوف والشريعة محاولاً تحليله من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفاً سنياً ، وقد شنَّ ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة ، وناهض المذهب الأشعري وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدعاً جديدة .

وعلى هدى من هذه الدعوة التي وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبرى محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م بالعُيَنة في إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه ، وكان أبوه قاضياً للعينة وعليه تلقى دروسه الأولى وكذلك على علماءها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة ، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكبَّ على قراءته ، وعاد إلى موطنه ، يدعو إلى مذهبه الحنبلي وإلى كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولي أو شفيع وببذ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقبورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية ، والرجوع إلى السنة والعمل على إحيائها ، واتباع السلف في ذلك كله ، ولذلك يسمي الوهابيون أنفسهم سلفية . وكتب لهذه الدعوة أن تعم وتتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدرعية ( ١١٣٧ - ١١٧٩ هـ ) . يده في يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية ، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية ، بحيث ينبذ النجديون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث .

وأخذ محمد بن سعود وخلفاؤه يعملون على نشر الدعوة ، وأداهم ذلك إلى حروب طاحنة في الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التي تظلُّ نجد والأحساء والحجاز اليوم . وفي الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م في الدرعية يث تعاليمه وينشرها في أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة ، وفي مقدمتها كتاب التوحيد ومجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادى بعبادة الله وحده وأن زيارة قبور الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك . وبالغ أتباعه في هذا المبدأ فبنعوا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين ، وتشددوا في قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتختم بالذهب . والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى ، كما كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك دعت إلى نبذ كل



ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف في العهد الإسلامي الأول ، ونادت بأنه يجب إزالته ، حتى لو كانت بعض المذاهب السنية الأخرى أباخته ، بل حتى لو جحدته . وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقاً في الوقت نفسه للمذهب الحنبلي ، وتوثقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأسرة محمد ابن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة ، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية ، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية ، فلأولين الحكم والسياسة وللثانين الإفتاء والتعليم والقضاء .

## ٦

الزهد والتصوف<sup>(١)</sup> :

لم تكن نجد تعرف شيئاً عن الترف والنعيم ، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف ، فطبيعي أن لا يتعلق الناس بمتاع الحياة الدنيا ، وحقاً كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج في بعض السنوات طلباً لما في أيديهم من مال ومتاع ، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون في متاع الحياة العاجل انتظاراً لما عند الله من الثواب الآجل . ومعروف أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج ، كما منعوا التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية .

وكانت المدينتان المقدستان في الحجاز ، ولا تزالان ، موثلاً للنسك والعباد ، ومن قديم كان يجاور فيها وخاصة في مكة كبار الزهاد والمتصوفة ، فيقيمون فيها بضع سنوات ، وقد ينفقون فيها العمر كله . ومعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن قواد كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعياً أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور في العالم الإسلامي دون أن يفد على مكة ، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية . ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألما بمكة وجاوروا فيها الحلاج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة ، جاور فيها سنة كاملة . ومرّ بنا في العصر العباسي الثاني ترجمة له وعرض لشعره الصوفي وبيان لتصوفه وأنه كان تصوفاً فلسفياً ، إذ جرت على لسانه كلمات الاتحاد

(١) انظر العقد الثمين في مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للمجدي (طبع القاهرة) والعقود اللؤلؤية ، وتاريخ الشعراء الحضرميين لعبد الله السقاف وسلافة العصر لابن معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلو (نشر مكتبة دار العروبة) .

والحلول . ومن جاور في مكة بعده القشيري المتصوف السني المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث ، وهو الذي رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة ، فنحى عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والفناء ، وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية ، وجاور بمكة بعده شهاب الدين السُّهروردي شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقي ابن الفارض المتصوف المصري المشهور الذي كان يجاور هناك ، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طويلا ، وهو يطوف المشاعر مبهلا إلى الله متغنيا بالحب الصوفي الإلهي ناظما أشعاره الرائعة . وإنشاد البوصيري لميمته أمام قبر الرسول ﷺ ذائع مشهور . ومن متفلسفة المتصوفة الذين جاوروا بمكة ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفي «ترجمان الأشواق» سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمى : «الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق» وجاور بها أيضا من متفلسفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسي المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة . ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورين بمكة إنما هم قليل من كثير ، وأكثر منهم من جاوروا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة . وكان يتعبد الله معهم أهل المدينتين ومن كان بهما من النساك وإنهم ليفوتون الحضر والاستقصاء ، ولناخذ مثلا كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين «مكة» فإن من يتصفح تراجمه في مجلداته الثمانية لا يزال يتنقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد .

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدى لا يزال يتحدث عن زهد كثير من هؤلاء الفقهاء وإعراضهم عن متاع الدنيا الفاني ، وحقاً أكثرهم من فقهاء زبيد الشافعية ، ولكن الزهد كان يحيى في كل البيئات وفي كل المدن . وكان كثير من أئمة الزيدية في صعدة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره في إمارتهم ، فأكب فيها كثيرون على النسك والعبادة ، وبالمثل كان الرسوليون أو كانت كثرة حكاهم . ولم تكتف اليمن بالزهد ، فقد عرفت التصوف السني وطرقه من شاذلية وجيلانية ورفاعية ، واشتهر عندهم صوفي كبير يسمى أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم في اليمن المجاذيب ، وهم يطوفون في البلدان اليمنية مرددين أغاني وأناشيد في مديح قطبهم الرباني ، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التي شاعت منذ أواسط القرن السادس ، يدل على ذلك ما يرى عند أتباعه إلى اليوم من احتمال الآلام الجسدية ، مصورين بذلك مقدرتهم الحارقة . ومرربنا في حديثنا عن المجتمع اليمني والغناء فيه أنهم كانوا يتغنون هناك بمقطوعة

لابن الفارض ، ولعل في ذلك ما يدل على صلة التصوف اليمنى بالتصوف السني المصري عند ابن الفارض وأمثاله ، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيري في مدائح الرسول ﷺ وصلتهم ، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجري حتى يلقانا عندهم شاعر صوفي سني هو عبد الرحيم البرعي المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة ، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهي والمدائح النبوية . وعلى غراره محمد بن إبراهيم الوزير ، وله ديوان شعر كله ابتهالات وزهد وتصوف . ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميناهم عبد الله بن أسعد اليافعي صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين ، وزار مصر ، وكان ابنه عبد الرحمن زاهداً صوفياً على شاكلته وصحب الصالحين ببلاذ كثيرة . وما زالت موجتا الزهد والتصوف تنتشران في اليمن ، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت في عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن في مواجهة العثمانيين ، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها ، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة في البلاد ، حتى نهاية هذا العصر .

وعلى نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين في اليمن كانا أيضاً منتشرين في حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف في كتابه عن شعرائها يقول في مقدمته : إنك ترى في شعرهم جميعاً طلاء صوفياً . وفي الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفي كثير في محبة الله ومحبة رسوله ومدحيه . ويكثر عند السقاف وصف الشاعر بقلب الصوفي الزاهد التقي الورع . ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العيّدروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمر باخمزة المتوفى سنة ٩٥٢ وكان كلما سار حفاً به مريدون يذكرون الله وقد يتغنون ويرقصون ، وكان له مجلس ذكر وسماع وغناء . ومن ترجم لهم أيضاً السقاف عبد الله الحداد العلوي المتوفى سنة ١١٣٢ وعبد الرحمن بن مصطفي العيّدروس المتوفى سنة ١١٩٢ ويفيض كتاب السقاف بسبيل من شعر الزهد والتصوف .

ولم تكن عُمان وإقليمها يوماً بيئة تصوف لعلبة الخوارج الإباضية عليها ، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف ، وقد وصف أبو حمزة الخارجي شباهم قديماً بأنهم « غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح (أنضاء) سهر » وطبيعي أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الزائلة ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل . ونجد عند شعراء بني نيهان لمعة من الزهد والمدح النبوي .

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف في عصر القرامطة ، وفي ديوان ابن مقرب العيوني بعض أشعار قليلة زاهدة ، وهي تشيع في كتابي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبي ، وتشيع معها أو تكثر ابتهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات فيها روح الغزل الصوفي وما يشيع فيه من وجد . وتلقانا في كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة .

### الحالة العربية

١- الحيا زور راحة ، سنة والشم

٢- كعب واما راحة

٣- الصم ورواح

٤- هورقة رطبا -

٥- عمارة ، ٦- العجرب رماها وراحة

الحال لإعتقائهم في الجزيرة

الحالة العربية في جزيرة العرب

١- التبع ،

٢- الحوارق لإباض

٣- الرعية الوهاج للصم

٤- برهية ورواح

# الفصل الثاني

## الثقافة

١

### الحركة العلمية<sup>(١)</sup>

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول ﷺ معلمين إلى القبائل والقرى في الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الخفيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تندفق في كل ركن من أركان الجزيرة ، وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة وكل مدن العالم الإسلامي . ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية في جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الأقاليم الأخرى ، وسرعان ما تتعهده وتضيف إليه إضافات كثيرة .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية في الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدى ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة ، فقد كانت حركتها العلمية فرعا من فروع الشجرة الكبرى ، شجرة الحركة العلمية العربية العامة ، إذ نلتقى في كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا في بغداد وغير بغداد ، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كانت جداوله ونهراته تجري في كل مكان وفي كل دار من أقصى الشرق في خراسان إلى أقصى الغرب في الأندلس .

وتتغلغل جداول هذه الثقافة حتى في نجد : البيئة التي يُظن أنها كانت بعيدة عن الحركة

الحضريين للسقاف وصفحات من التاريخ الحضري لسعيد عوض باوزير وتحفة الأعيان لنور الدين السالمى وعان تاريخ يتكلم لمحمد السالمى وعساف وشعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم .

(١) انظر في الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيرافي في ابن خلكان والعقد الثمين وتاريخ عمارة اليمن والعقود اللؤلؤية وسلافة العصر لابن معصوم ونشر العرف لزبارة والبدر الطالع للشوكاني والنور السافر للعيدروس وتاريخ مكة لأحمد السباعي (مطابع دار قريش بمكة) وثرعردن لباعزمة والمقتطف من تاريخ اليمن للجراقي وتاريخ الشعراء

العلمية لما يحيط بها من أسوار الصحراء ، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ ، وكانت تُتلى فيها كتب الشريعة وأيضاً كتب العربية بأخرة . وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلاً أو كثيراً من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة ، على نحو ما حدث في بني مزَيد وقبيلتهم بني أسد حين أسسوا مدينة الحِجْلة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار ، وأيضاً على نحو ما حدث في بني عَقِيل حين اتخذوا لهم إمارة في الموصل ، فإن القبيلتين جميعاً قادتا حركة علمية في ديارهما ، وقد عادتاً جميعاً إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجري . ومن المؤكد أن قرى نجد مثل اليمامة (الرياض فيما بعد) وبريدة وحائل والعيينة والدَّرْعِيَّة لم تخلُ في أي عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقى كتب الفقه والتفسير والحديث النبوي . ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استحالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية ولمدرسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية .

وإذا تركنا نجداً إلى المدينتين المقدستين في الحجاز : مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكى والمدنى يتحولان في عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين ، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية في البلاد العربية ، لسبب مهم سبق أن عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء الناهبين بالأقطار العربية في كل عصر كانوا ينزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طويلاً ، وقد يمضون فيها بقية حياتهم ، وبالمثل كانوا ينزلون المدينة ، غير من كان فيها وفي مكة من علماء الشريعة والعربية . وتفويض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء ، ويكفي أن تصفح مثلاً كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين : مكة لترى مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف ، وكان لكل عالم حلقة ، فلمقرئ القرآن الكريم حلقة وكذلك للمفسر والحديث والفقيه وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف . وتتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى لتعد بالعشرات . وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس ، فقد بنى بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة ، رتب لها مدرسين وإماماً ومؤذناً وطلاباً يتعلمون ، ووقف عليها أوقافاً دارّة . وتعاقب بعده بناء المدارس في مكة والمدينة ، بينها بعض السلاطين الرسوليين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباي التي بناها بجوار الحرم المكى ورصد لها أوقافاً كثيرة . وعُنى العثمانيون بعد استيلائهم على الحرمين ببناء المدارس ، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه ، وتتكاثر المدارس في المدينتين المقدستين وتتكاثر الكتابات وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجري .

ونشطت الحركة العلمية في اليمن من قديم ، بسبب توزعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علميا وأديبا مما جعل كلا منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء ، فالأمير علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية كان عالما ، ويقول عنه عمارة : « كان عالما وفقهيا مستبصرا في علم التأويل وخطيبا بليغا » وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أرونى بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية ، ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخارى مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة . وكان جياش من آل نجاح أمراء زبيد مؤرخا وصنف « المقيد في أخبار زبيد » واختصره عمارة اليمنى ونشر مختصره ، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكى ، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب . ويقول عمارة اليمنى إنه رأى جريدة هذه الرواتب التى كانت تُدْفَعُ إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة ، فوجدها اثني عشر ألف دينار فى كل سنة . وبالمثل عُرف بنوزرّيع أمراء عدن بإكرام العلماء والشعراء وإسباغ العطايا والجوائز عليهم . وحين تسلم الرسوليون زمام الأمور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يتقدمهم فى ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بنى فى تعز عاصمته الصيفية مدرستين وفى عدن مدرسة وفى زبيد عاصمته الشتوية ثلاث مدارس : مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية ومدرسة للحديث النبوى ، ورتب فى كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا ، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفائها وتسد حاجتها . وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية فى تعز وجوامع أخرى فى أنحاء إمارته وبنى مدرسة بتعز ، وأخرى بظفار وكانت تتبعه . وابتنى أحد رجاله المسمى بداراً المظفرى بزبيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوى ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة . وخلفه ابنه السلطان الأشرف ، وكان عالما فى فنون مختلفة وله عدة مصنفات ، منها كتاب بطفرة الأصحاب فى معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب فى التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان ، وتعمق فى علوم الأوائل ، وله كتاب فى الأسطرلاب وكتاب الجامع فى الطب ، وولى بعده أخوه المؤيد ، وكان عالما أديبا ، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحوى المصرى وكتاب الجمل فى النحو للزجاجى وكفاية المتحفظ فى اللغة ، ودرس كتاب التنبيه فى الفقه الشافعى لأبى إسحق الشيرازى وسمع الحديث النبوى من حفاظه الأعلام وأجازته منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبرى شيخ السنة بالحرم المكى وأذن له فى رواية البخارى والترمذى عنه وناولوه صحيح مسلم ، وجمع من الكتب ما لا يكاد يُحصى ، واختصر كتاب الجمهرة فى البيزرة وألف فى الطب كتاب

العمدة . وأشهر بعده حفيده السلطان الأشرف إسماعيل بتشجيعه الحركة العلمية ، وحين علم في سنة ٧٨٨ بتأليف القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي كتابه « التفقيه في شرح التنبيه » في أربعة وعشرين جزءاً أمر بحمل هذا الكتاب على رءوس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلسه ، مزفوقاً بالطبلخانة ، وحين وصل الكتاب ومصنفه منحة مكافأة لجهد العلمى : ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم والعلماء ، ورُفِعاً لدرجة الشيخ . ويقول الخزرجى إنه طرّز كتبه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته ، ويذكر عنه أنه رتب في سنة ٧٩١ بمجامع الملاح ستة مدرسين ومقرئاً للقراءات السبع ومحدثاً ومدرّسين : شافعيّاً وحنفيّاً ومدرسين : في النحو والفرائض ، ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقِمين وخطيباً ومعلمّاً وأيتاماً يحفظون القرآن وشيخاً صوفيّاً . وكان الخزرجى نفسه أحد المرتبين لإقراء القرآن . وأمر السلطان الأشرف بعد المساجد والمدارس في سنة ٧٩٥ بزييد فكانت مائتين وبضعا وثلاثين . ومعروف أن المساجد في العالم الإسلامى كانت مدارس تُعقَد فيها دائماً حلقات للطلاب والعلماء . ولعل في هذا ما يدل على مدى النهضة العلمية باليمن في عهد الرسوليين ، وبلغ من عنايتهم بذلك أن أشترك معهم نساؤهم في بناء المدارس والجمامع والمساجد . وقصد اليمن حينئذ كثير من العلماء ، ومن أهمهم الفيروزابادى صاحب كتاب القاموس المحيط ، ألفه في زَيد ، ونوّه في مقدمته بالسلطان الأشرف ، وقد أنزله منزلة رفيعة ، ويقال إنه لما ألف كتابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يُحمَل الكتاب إلى بابه مزفوقاً بالطبول في موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة ، وأمر للفيروزابادى ثواب ثلاثة آلاف دينار ، إذ كان الكتاب في ثلاثة أجزاء ، فجعل لكل جزء ألفاً . ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة في تعز . وفي الحق أن دولة الرسوليين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة في اليمن ، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتي ألف مجلد ، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتباً نفيسة أو نادرة . وأهتم بنوطاها الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم في العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء .

ومنذ اتخذ الرُسُيون صَعْدَةَ مركزاً لدعوتهم في أواخر القرن الثالث الهجرى ، وهم يبعثون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها ، فكثيرون منهم ألفوا في الفقه الزيدى وفي علم الكلام وفي غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية في اليمن . وللإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبي الفتح الديلمى المتوفى سنة ٤٤٤ وللإمام المنصور بالله المتوفى



سنة ٥٩٨ وللإمام المهدي أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٧٠ . وعلى هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن في النهضة العلمية . ويشتهر الإمام شرف الدين يحيى المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس في صنعاء ودمار وكوكبان . ومَرَّبنا أن الإمارة الزيدية اتسعت في العصر العثماني وشملت صنعاء وغيرها من المدن ، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين .

ويلقانا في حَضْرَمَوْت كثير من العلماء النابهن ، وهم منبشون في كتب التراجم ، ولهم دلائلهم على ما كان وراءهم من حركة علمية ، وفي كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك في كتاب العقد الثمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاؤوا في مكة . وفي كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمي ما يصور من بعض الوجوه النشاط العلمي وازدهاره بحضرموت ومدنها : تريم وغير تريم . وكانت عُمان من قديم مركزاً لحركة علمية نشطة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دُرَيْد أكبر علماء اللغة في عصره أزدى عُمانى وقد أمضى بعان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر في تكوينه اللغوى ، ومن آثارها في معجمه « الجمهرة » أنه يحمل كثيراً من لغة الأزديين وخصائص لهجتهم ، ومعروف أنه توفى قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤ . وشهرة عُمان العلمية في القرن الرابع الهجرى هي التي جعلت أبا سعيد السيرافى ، كما قال الرواة ، يخرج من بلدته سيراف في طلب العلم إلى عُمان ، ويتفقه بها ويتعلم العربية ، ثم يدخل بغداد بعد ذلك ، ويروى أنه تتلمذ لابن دُرَيْد . وقد عُنى حكام عُمان من بنى مكرم وخلفائهم من بنى نهبان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم ، فكثرت في عُمان الأدباء والعلماء والشعراء . وكان للخوارج في عاصمتهم نَزْوَى ثم في عان حين استولوا عليها نهائياً في العصور المتأخرة نشاطهم الخاص في مذهبهم الإباضى والتأليف فيه مع العناية بالعربية .

ومنطقة البحرين هي منطقة قبائل عبد القيس وتميم قديماً ، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق دارين ، وأنجبت عبد القيس في الجاهلية والعصر الإسلامى غير شاعر وخطيب ، وأشاد بخطبائها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ونوه بهم طويلاً . ونشعرحين استولى القرامطة على البحرين بجمود الحركة العلمية فيها ، غير أنها أخذت تنتعش سريعاً في زمن العيونيين وبنى عصفور وبنى جبر ، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وقفوا أنفسهم على تلقين الشريعة والعلوم اللغوية للناشئة وتفقيه

الناس بأمور دينهم ووعظهم . وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة ، على نحو ما يصور ذلك مثلاً كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم في القرن الحادى عشر والثانى عشر مثل الشيخ سلمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة فى المنطق وعلم الكلام . ومن يطلع على كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر يرى نشاطاً علمياً وأديباً واسعاً فى أواخر هذا العصر كان يعم البحرين ، بمعناها العام : فى الأحساء وقطر والقَظيف وجزيرة أوال (البحرين الحالية) .

## ٢

### علوم الأوائل<sup>(١)</sup>

من مفاخر جزيرة العرب وحضرموت خاصة أنها قدّمت إلى الفكر العربى فى نهاية العصر العباسى الأول ومفتتح العصر العباسى الثانى أول فيلسوف بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف ، وهو يعقوب بن إسحق الكندى الذى تمثّل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلاً رائعاً ، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقهاً حسناً ، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة ، سواء فى العلوم الطبيعية أو الرياضية أو فى المنطق والسياسة والأخلاق والطب . وقد أحصى ابن النديم فى الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتاباً ، وكثير منها ترجم إلى اللاتينية ، ويقول الأندومبيلى إن كتابه فى الهندسة أثر أثراً بعيداً فى روجر بيكون . والكندى ثمرة الحركة العلمية فى البصرة التى نشأ بها وفى بغداد التى عاش فيها ، وطبيعى أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية ، غير أن مراكز أخرى أخذت تتكون فى هذا العصر بإيران ومصر والشام ، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز ينافس هذه المراكز ، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعداداً للمشاركة فى علوم الأوائل أو على الأقل فى تعلّمها تعليماً حسناً . ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى حتى نجد أبا محمد الحسن الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل ، ويتقنها فهماً وتحليلاً ، بل لقد ألف فيها مصنفاً جيدة ، ومن أهمها كتابه « سرائر الحكمة » وفيه

(١) المعارف - المقدمة) وترجمة ابن سينا فى ابن أبى أصيبعة  
وترجمة زيد بن عطية فى إنباه الرواة وكتاب العقود  
الؤلؤية للخزرجى وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة  
العصر لابن معصوم .

(١) انظر العلم عند العرب لألدومبيلى وترجمة الهمداني  
فى مختصر الزوزنى لكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء  
للقفطى (طبعة لبيزح) ص ١٦٣ ودويوان السلطان  
الخطاب تحقيق إسماعيل قربان حسين (طبع دار

عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب ، وبيّن علم أحكام النجوم واستوفى ضروبه ، وكذلك كتابه « القوى » في الطب ، وكتابه « الإكليل » الذى ألفه فى ملوك حمير وأنسابها وهو فى عشرة أجزاء كبار ، وفيه مما يتصل بعلوم الأوائل « جُمَل من القرانات » فى النجوم وأوقاتها - كما يقول القفطى - ونُبذ من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل فى قدم العالم وحدوثه واختلافهم فى أدواره . ثم يقول القفطى : وله زيج المعروف ، وعليه اعتماد أهل اليمن .

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية فى عصر الدولة الصليحية (٤٣٩ - ٥٣٢ هـ) هيأت من بعض الوجوه للناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، إذ كانت تتركز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية ، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعاية لها ، وهى من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها فى الأفلاطونية الحديثة وأيضاً عرض لعلوم الأوائل . ونجد أحد دعاة الفاطميين فى اليمن المسمى الداعى الذؤيب وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منهما رسالة فى النفس ، ومعروف أنها من المباحث الفلسفية ، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته الفاطمية ، وهى تصطبغ بصبغة فلسفية واضحة كالبحث فى الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعقولات والمحسوسات .

وفى ترجمة ابن سينا ذكر شخص همدانى يشدو بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألهم فيها الإنصاف بينه وبين ابن سينا ولم تقع على اسم هذا الهمدانى . وفى الجزء الثانى من كتاب إنباه الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصّعدى اللغوى ، وفيها أنه « كان لغويا شاعرا منجما حاسبا هندسيا ، يسلم إليه المنجمون فى ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب ، وله تصانيف فى ذلك ، منها زيجان : كبير وصغير ، ومنها « أحكام نجومية » و « فصول » .

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت فى اليمن اهتماما بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة فى عهد سلطانها المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) . وولديه السلطانين الأشرف والمؤيد ، ولكل منهما فى الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة فى الطب ، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر يطلب منه طبييا قائلا : « ولا يظن المقام العالى أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا ، وقد اشتغلنا به من أيام الشيبية ، وولدنا عمر - يقصد السلطان الأشرف - من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله » . ومربنا أن للسلطان المؤيد فيه كتابا سماه « العمدة » . ويذكر

صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن في القرن الحادى عشر طبيبا شيرازيا ، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره .

ويلقانا دائماً اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم ، ونقرأ عن ذلك أخباراً متناثرة هنا وهناك ، من ذلك ما نقرؤه في تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين : إحداهما في الطب والثانية في علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر باخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة في علم الجبر والمقابلة . ونستطيع أن نعمم هذه النزعة في عمان والبحرين وفي مكة والمدينة . ومما يدل على رغبة المثقفين في الجزيرة العربية على الاطلاع على علوم الأوائل أننا نجد في كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عنى بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس في الهندسة وكتاب المجسطى في الهيئة ، كما قرأ الحكمة الإشرافية . وتؤمن بأن المنطق ظل يدرس في كل أنحاء الجزيرة ، لاقتناع العلماء في كل مكان بضرورة درسه .

ونترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية ، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني المتوفى مع أول هذا العصر ، كما مر بنا آنفاً ، ولأبى على الهجرى كتاب النوادر والتعليقات وهو زاخر بأماكن الجزيرة ، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية ، ومعروف أن الأمم القديمة في أفريقيا وآسيا وأوروبا اخترقت البحار والمحيطات من حولها ، وبنت سفناً حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو ، حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القلزم أو البحر الأحمر ، كما اقتحموا المحيط الهندي إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غرباً وإلى الهند شرقاً . وكان اقتحامهم له في أواخر القرن الأول الهجرى سبباً في أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونيسيا ، بل لقد اقتحموا المحيط الهادى ونزلوا على شواطئ الصين ، واشتهر أحد تجارهم المسمى سليمان بكتابة رحلة له قام بها في سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميمًا ديار الصين ، وقد تحدث فيها عما ركبته وخاضه من بحار بادئاً بالخليج العربى . وتوالى رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية .

### علم الملاحة البحرية (١)

كان ربابة السفن في البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول

(١) انظر في هذا العلم وفي ابن ماجد وسليمان المهري الأنجلو) بالقاهرة . وراجع قران في مادتي شهاب الدين أحمد بن ماجد والمهري في دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثة أزهار في معرفة البحار لأحمد بن ماجد =

حوراني ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة

فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر في المحيط الهندي وما يتصل به من المحيط الهادى ، مما كان سبباً مباشراً في نشوء علم الملاحة عند العرب وازدهاره على مر السنين . وكان يشترك في هذه الملاحة سكان الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية ، ونهض بها منهم ربانة كثيرون .

وأشهر ربانة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود في عُمان حوالى سنة ٨٣٠ للهجرة ، وقد نشر له المستشرق جبريل قران في باريس سنة ١٩٢١ - ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله الثرية والشعرية أنشأها في نحو ثلاثين عاماً بين سنتى ٨٦٥ و ٨٩٥ ولقران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره في دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين . ونشر المستشرق الروسى تيودور شوموفسكى في موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لأحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بـهذه الأراجيز الثلاث ونشرها في القاهرة بعنوان : « ثلاث أزهار في معرفة البحار » ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكى ، وردَّ الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها المطبوعة والمخطوطة ، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد وبذل في ذلك كله جهداً محموداً .

والأعمال التى نشرها قران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة في باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين ، تتناول أصول علم البحار والفلك والملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب . وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب . ويجانب هذه الأشعار في المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس : « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة ، وهو في اثني عشر فصلاً ، ويتحدث ابن ماجد في الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحة والإبرة والبوصلة والإسطرلاب . ويعرض للكتابات في الملاحة قبله ويشيد بثلاثة من الربانة ، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان ، معتمداً في ذلك على دفتر كتبه حفيد لسهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية ، وليس

= تحقيق تيودور شوموفسكى ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى والملاحة وعلوم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد العليم (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدومبيلى ص ٥٣٢ وما بعدها ومقالاً للأستاذ حسن الصيرفى في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان « علماء البحار العرب واصطلاحاتهم البحرية » .

بصحيح ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كاتب النسخة وأنه كتبها - كما يظن - سنة ٣١٥ للهجرة وكان هؤلاء الربابنة الثلاثة - في رأيه - كانوا يعيشون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ، وهو ما نستعبده ونظن أنهم عاشوا في النصف الأول من القرن السادس . ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابنة الثلاثة ويقول إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم البحرية لم تتجاوز الخليج العربى ، ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم . ويؤكد أن كتابه ليس كتاباً نظرياً كالكتب السابقة له ، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر ، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجدته ، فقد كانا ربّابين كبيرين ، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية في ألف بيت تُعدّ دليلاً ومرشداً هادياً للملاحة في البحر الأحمر . ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهل بن أبان عن جده وصاحبيه من معارف في الملاحة يسميهم الليوث ، ويسمى نفسه رابع الليوث أو رابع الثلاثة . ويذكر في الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التى تطابق تقاسيم البوصلة الاثني والثلاثين والطرق البحرية في المحيط الهندى وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانى في المحيطين : الهندى والهادى والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندى والخليج العربى والرياح الموسمية المواتية للرحلات والبحر الأحمر ومراسيه وشطّانه وشعبه المرجانية ورياحه وأغواره . ويقول قرّان إن وصفه لكل ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف لكاتب آخر فى الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية . وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط . فكل ربان لا بد أن تكون معه خريطة وبوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه ( واسمها عند ابن ماجد بُلد ) ومزاوِل لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبى .

ومن سوء طالع هذا العالم العربى الفذ فى علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاماً ونيفاً أن تعرّف عليه فى « مالندى » بشرقى إفريقيا فأسكودى جاما البرتغالى ، وكان قد يئس من الوصول إلى الهند عن طريق البحر ، إذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحرى إليها ، وكانت سفنهم كلما خرجت فى المحيط الهندى واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينبج منها أحد . ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشداً يهديه الطريق فى سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا فى الهند . وبذلك يكون - لغفلته - أداة للاستعمار البغيض : البرتغالى أولاً ، ثم الإنجليزى والفرنسى والهولندى ، من شاطئ إفريقيا الشرقى إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين . وسرعان ما شعر بسوء فعله ، وصوّر ذلك مراراً

في ألم ومرارة عن قاسكودي جاما وأصحابه البرتغاليين في الأرجوزة الأولى من « ثلاث أزهار في معرفة البحار » :

وجا لكاليكوت خُذْ ذى الفائدة لعام تسعاًية وست زائده  
وسار فيها مبغضُ الإسلام والناسُ في خَوْفٍ وفي اهتمام  
واشترُوا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر ركنوا

وهو يريد بالسوامر البرتغاليين نسبة إلى السامرى الذى صنع العجل وعبده بنو إسرائيل يريد أنهم كفار ، ومع ذلك صاحبهم حكام ثغر كاليكوت في الهند . وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان . ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضاً يختل الوزن عنده أحياناً .

وخلف ابن ماجد ربان من سدنة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهري من مهرة في الشَّحْر بين حضرموت وعمان ، عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ، وله في الملاحة كتب لا تقل أهمية عن كتب ابن ماجد ، بل لعلها أوفى وأشمل في بيانها لأحوال الملاحة في المحيطين الهندي والهادى حتى بحر الصين ، ومن كتبه « تحفة الفحول » و « العمدة المهريّة في ضبط العلوم البحرية » و « المنهج الفاخر في علم البحر الزاخر » وتاريخها جميعاً يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر، وقد درس قران أعمال سليمان المهري البحرية دراسة وافية .

### ٣

#### علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة في التراث اللغوى والنحوى والبلاغى والنقدى ، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم في بيئة من البيئات العربية إلا ونجده قد نُقل إلى البيئات الأخرى ، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات ، بل عن طريق الطيارات ، لا نبلغ مبلغ أسلافنا في سرعة التواصل بينهم في الكتب ، لا في مجالات الفقه والحديث وما إليهما من الدراسات الدينية فحسب بل أيضاً في جميع المجالات لغوية وغير لغوية . وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء ، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتابا ، ولم يستطع

الحصول عليه رغم تطوافه في البلدان لجأ إلى النداء عليه في الحج ، ليخبره عنه بعض من رآه في مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند . وكان العالم في أي علم أوفن يرى أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد في رحلته ليلقي العلماء ويقرا كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذي يريد التعمق فيه . ونقلوا في أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كتبه الأسلاف ومعاصروهم ، وفتحت المكتبات في كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجزى حَمَلَتها خير الجزاء .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط في علم بأى بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخذهم رموزا للحركة العلمية الكبيرة ، وهي أكبر جدا من أسمائهم ، لأنها تعنى النشاط العلمى في العالم العربى جميعه ، إذ كانت كتبه ومصنفاته تُصَبُّ في كل البلدان العربية ، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب . وقد يضيفون إليها في كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عيداً لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم من البلاد العربية ، إذ كانت معرفتهم بكتبه ومصنفاته تسبقه ، فكان بمجرد نزوله في بلد يتحول في التو محاضرا ويتحلق حوله الطلاب يفيدون من علمه .

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية ، أشبه ما تكون بالدورة الدموية ، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر ، ويدور العلماء أنفسهم . وكانت الجزيرة العربية تدخل في هذه الدورة ، تدخل فيها نجد بقراها التي أخذت تعنى بتعلم العربية منذ أن هَجَرَتْ أو كادت الإعراب في القرن السابع الهجرى وما بعده . أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم ، كما كانا يعنيان بالنحو ، وكان يوجد لهما دائما مدرسون ينهضون بهما سوى من كان ينزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية ، ويكفى أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة (١) الأندلسى المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيبويه على الطلاب في الحرم المكى ، مما جعل الزمخشري (٢) يرحل في شببته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذه عنه ، وقد جاور بمكة - بدوره - مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كتبه ، وكان لا يبارى في اللغة والنحو وألف فيها مؤلفات دَوَّتْ شهرتها في العالم العربى ، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذى رتب موادّه بحسب الحرف الأول ، وأدخل فيها كثيرا

(١) انظره في التكملة لابن الأبار ٢/٨١٥ والعقد القين بيروت) ٥/١٦٨ وانظر بقية مصادر ترجمته في الفصل

١٨٢/٥ وبغية الوعاة والبحر المحيط لأبى حيان ٤/٣٧٢ ، الثانى من القسم الخاص بإيران .

(٢) راجع في الزمخشري ابن خلكان (طبعة دار صادر



من الشواهد والأساليب الأدبية ، ويغلب أن يقول في ختام المادة : « ومن الجاز » فيقرن الأساليب المجازية إلى الأساليب الحقيقية . وألف في غرب الحديث النبوي كتابه « الفائق » وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ الغربية ، وصنف في تفسير القرآن الكريم وألفاظه « الكشاف » وشهرته تملأ الخافقين . ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيبويه والمستقصى في أمثال العرب والقسطاس في العروض . ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل ، جعله في أقسام أربعة : قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشارك وأراد به الإمالة والوقف والإبدال والإعلال ، ولا ين يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور . وللزمخشري بجانبه في النحو كتاب سماه الفودج . ولا ريب في أن هذا العالم النحوي اللغوي العظيم بعث في مكة حركة علمية مباركة في فنون اللغة والنحو والتفسير ولا بد أن كثيرين شدوا الرحال إليه في مكة ليتلقوا عنه مصنفاته ، ولتحملوا عنه الإجازات بروايتها سماعاً وإلقاء . ومن نزل بمكة وجاور بها سنين من كبار اللغويين الصغاني الحسن<sup>(١)</sup> بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ وحياته تقص ما قلناه من وحدة الثقافة في العالمين العربي والإسلامي ، فقد ولد سنة ٥٧٧ في لاهور عاصمة إقليم بنجاب في الهند ، ونشأ في إقليم صغان كورة من بلاد السغد ، ويذكر مترجموه شيخين له في الهند ، فالشيخ ومعلمو العربية والشريعة منشون في أنحاء العالم الإسلامي ، حتى في أبعد دياره . ورحل في طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها سنتين ، ودخل اليمن ، واستطاع بمن لقيهم من الشيوخ في موطنه وغير موطنه ، وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث ، أن يصبح إماماً من أئمة اللغة العربية ، مما جعله مؤثلاً للطلاب في كل مكان نزل به وخاصة في مكة . وعنى بوضع المعاجم والكتب في اللغة ، ومن أهمها : مجمع البحرين في اثني عشر مجلداً ويقول في مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهري ومعجم له سماه « التكملة والذيل والصلة » . وعادة يفصل في مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكملة وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة . ونشر مجمع اللغة العربية معجم « التكملة والذيل والصلة » المذكور في ستة مجلدات ، وقد ضمنه ما فات الجوهري في صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام . وله كتاب في الأضداد ، وكتاب سماه النوادر في اللغة روى فيه غرائب اللغة التي نص عليها علماء اللغة الأقدمون ، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة . وحاول بأخرة من عمره أن

(١) انظره في العقد الثمين ١٧٦/٤ والجواهر المضية لابن تغرى بردى ٢٦/٧ .

٢٠١/١ وشدرات الذهب ٢٥٠/٥ والنجوم الزاهرة

يؤلف في اللغة معجماً كبيراً سماه العباب الزاخر ، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه . ولا شك في أن هذا الإنتاج الغزير يصور عالماً لغوياً كبيراً ، وهو لم ينشأ في الجزيرة ولا في بلد عربي ، وإنما نشأ في الهند ، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأفاضل في العربية على مر العصور ، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربي كان ملتبساً بكل مكان في العالم العربي والعالم الإسلامي الكبير . ومن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد (١) المعطى أحمد بن محمد الملقب بنحويّ الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربي مصري تتلمذ في العربية على أبي حيان الغرناطي عالمها المشهور ، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحوي المعروف ، ثم جاور بمكة إلى أن توفي بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض . ومن النحاة بعده محمد (٢) بن أبي بكر المرجاني المكي المتوفى سنة ٨٢٧ . ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية . ولا ريب في أن دراستها ظلت نشطة في العصر العثماني وحتى نهايته ، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية في مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة .

وتنشط اليمن طوال هذا العصر في الدراسات اللغوية والنحوية ، وهو يفتتح في سنة ٣٣٤ للهجرة بوفاة عالم لغوي يعني مهم ، هو الهمداني (٣) المذكور فيما مر ، وفيه يقول القفطي في إنباه الرواة « هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها » . وسبق أن نوهنا بكتابه الإكليل وهو في سير الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين ، طبع منه الأجزاء : الأول والثاني والثامن ، وكذلك الجزء العاشر وهو في أنساب همدان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة . وله كتاب يسمى « البعسب في فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعار » يقول القفطي عنه : إنه جيد جداً ومفيد للمتأدبين ، ومرّبنا ذكر كتابه صفة جزيرة العرب ، وهو يحمل مقداراً كبيراً من اللغة والشعر . وله القصيدة الدامعة افتخرفها باليمن على مضر ، طبعت مشروحة بالقاهرة . وكان يكتاب ابن الأنباري وغيره من لغويي بغداد ويعترفون بفضلهم ، ومن أجله رحل العالم النحوي المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعنى بجمع ديوانه وتخرجه ، إذ كان شاعراً مجيداً . وتمضى اليمن في نشاطها اللغوي والنحوي طوال أزمته الدول التي مرت بنا في زيبه وصنعاء وعدن وصعدة إذ كان أمراؤها يتنافسون في جمع العلماء بإماراتهم ومن حولهم : علماء العربية وغيرهم ، ويلقانا

(١) انظره في العقد الثمين ٣/١٤٩ والدرر الكامنة (٣) إنباه الرواة ١/٢٧٩ وأخبار الحكماء ص ١٦٣

لابن حجر ١/٢٧٧ . ومعجم الأدباء ٧/٢٣٠ وروضات الجنات ٢٣٨ .

(٢) العقد الثمين ١/٤٢٩ .

منهم في زيديبلاط جيش بن نجاح زيد بن عطية الذي سبق أن تحدثنا عن حذقه لعلوم الأوائل ، وكان يعاصره في بلاط الصليحيين إسماعيل (١) بن إبراهيم الربيعي النحوي اللغوي الشاعر ، من أهل صنعاء ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء الصليحيين ، وله قصيدة في غريب اللغة جعل ترتيبها على ترتيب معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد وسماها « قَيْد الأوابد » وجعل لها شرحاً ضمنه نوادر وطرائف من الأخبار والأشعار . ومن نخاة اليمن القاضي أبو بكر اليافعي المتوفى سنة ٥٥٢ وله في النحو مختصر سماه المفتاح ، وسرعان ما تنجب اليمن نشوان (٢) بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ وله في اللغة كتب مختلفة ، أهمها « شمس (٣) العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم » في ثمانية مجلدات ، رتبها على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا أواخرها متابعا في ذلك الزمخشري في معجمه أساس البلاغة ، وحرص فيه على دقة الضبط بالنقط والحركات ، وقسم كل باب فيه أو حروف قسمين : قسما للأسماء وقسما للأفعال ، وعنى بأن يذكر فيه كثيرا من الكلمات الينية التي لم تسجلها المعاجم قبله ، وأكثر فيه من شواهد القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر والأمثال . وكان يعاصره الحسن (٤) بن أبي عباد المتوفى سنة ٥٩٠ ويقول القفطي إن له مختصراً في النحو مشهوراً في اليمن يقرؤه المبتدئون ، ويقول السيوطي في البغية عنه : « إمام النحاة في قطر اليمن كانت الرحلة في علم النحو إليه وإلى ابن أخيه إبراهيم » . وكان يعاصرها علي (٥) بن سليمان اليمنى النحوي المتوفى سنة ٥٩٩ وله مصنف في النحو سماه كشف المشكل في مجلدين ، وروى له ياقوت أبيتاً يحصر فيها جموع التفسير .

وتهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ، وكانوا يجزلون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج ومربنا أن الفيروز ابادى (٦) مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ بزييد وفد على السلطان الأشرف ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيراً ما عاد إليها ، وجعلها في سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين : في الحديث وفقه مالك وفقه الشافعي ، وزار المدينة المنورة وقرر بها ما قرر بمكة ، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضي

مصنفات .

(١) إنباه الرواة ١/١٩١ .

- (٢) انظر مصادره في ترجمته بالفصل الثالث .  
 (٣) طبع الجزء الأول منه في بريل ثم طبع بالقاهرة .  
 (٤) انظره في معجم الأدباء ٨/٥٣ وإنباه الرواة  
 (٥) ٢٩٠/١ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٢٢٢ وانظر في  
 (٦) ابن أخيه الآتي ذكره معجم الأدباء ١/١٦٤ وله في النحو
- (٥) راجعه في معجم الأدباء ١٣/٢٤٣ .  
 (٦) راجعه في الضوء اللامع للسخاوي ١٠/٧٩ وفي العقد الثمين ٢/٣٩٢ وبغية الوعاة والروض العاطر للنعماني ٢/٢٤٩ والبدرد الطالع للشوكاني ٢/٢٨٠ والشقائق النعمانية على هامش ابن خلكان ١/٣٢ .

القضاة باليمن ، وظل يلبها أكثر من عشرين سنة في عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدرسته الوفاة . وكانت أكثر إقامته بزييد ، وأقام مدة بتعز ، لما كان فوّض إليه من التدريس بمدارس البلدتين . وله مصنفات كثيرة في الحديث وفي الفقه ، وممرت بنا المنحة التي أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف في الفقه كتابه الإسعاد ، وله في النحو كتاب سماه « مقصود ذوى الألباب في علم الإعراب » . أما اللغة فكان فيها بحر لا يسبر غوره ، ومن مصنفاته فيها مصنف في الترادف سماه : « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف » . وله كتاب في غريب الذكر الحكيم سماه « بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز » وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عدة مجلدات . ومن أروع أعماله معجمه النفيس « القاموس المحيط » الذى ألفه في زييد ، ولا نغلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو فى أربعة مجلدات فقط ، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حولها إلى ما يشبه بحثاً قصيراً ، وقد اتبع فى ترتيب مواد . طريقة الصحاح للجوهري فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزمخشري فى أساس البلاغة ، لأن الحرف الأخير فى المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة . وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاته من بعض المواد أو ما سبق خطأ إلى وهمه ، وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق فى كتابه الجاسوس على القاموس ، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادى ، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية العربية ، وهى جديرة بأن تجمع ويخرج فيها كتاب مستقل ، ولنفاسة المعجم تعهده مبنى بصنع شرح مطول له هو السيد مرتضى<sup>(١)</sup> الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م وقد اتخذ القاهرة مهاجراً له وموطناً منذ سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م وفيها ألف هذا الشرح الذى سماه « تاج العروس فى شرح جواهر القاموس » وهو مطبوع فى عشرة مجلدات ، ويتلافى نواقص القاموس فى المادة اللغوية مستعيناً بلسان العرب لابن منظور وغيره من المعاجم المطولة ، ويتوسع فى الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية ، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية .

وهذه النهضة بلوم العربية فى اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين فى صعدة وفيما يتبعهم أحياناً من البلدان مثل صنعاء وزييد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين

(١) انظره فى فهرس الكتانى ١٩٨/١ والجربى ١٩٦/٢ المكتبة السلفية) ٢١/٢ .

والخطوط التوفيقية ٩٤/٣ ونشر العرف لزبارة (طبع

نشروا هذه النهضة في كل مكان . وكان العثمانيون في أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وبتعليم العربية ، وكان الزيدون ينافسونهم في هذا المضمار والزيدى نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر في اليمن وهو رمز قوى لما كانت تحظى به العربية حينئذ من نشاط خصب . ولم يكن هذا النشاط قاصراً على اليمن والحجاز بل كان عاماً في حضرموت وعمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولاً بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأشعار ، ثم يأخذ المتعلمون قسطاً من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية ، وهل من شك في أن كل ما نقرأ من شعر وأدب في هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية ، وتتخذ لهذه العناية مثلاً هو الشيخ عبد الله البيتوشى <sup>(١)</sup> ، وأصله شهرزورى تتقف ببغداد واستوطن الأحساء حتى توفى سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهى لقطر الندى تأليف ابن هشام ، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة ، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة في اللغة والنحو والدين . وكان في كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية حتى نجد وقراها المتوغلة في الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين . ويدل على ذلك ما نجد في كتاب « لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب » من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمى عبد الرحمن بن أحمد من أهل بريدة إحدى القرى المتعمقة في بوادى نجد . وإنه ليكنى من نشاط الجزيرة العربية في هذا العصر فيما يخص الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجمهرة لابن دريد ، ثم أهدت مجموعة المعاجم التي خلفها الصغاني والقاموس المحيط للفيروزابادى وتاج العروس للزيدى فنشاطها اللغوى كان نشاطاً جياً مشمراً

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغي أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تنتجه بيئة عربية في علم من العلوم يصبح حقاً مشاعاً لكل البيئات الأخرى ، ولذلك كنا نفاجاً من حين إلى حين بكتاب في بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة في شرح نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، تلك التى قدم بها كمال الدين ميثم <sup>(٢)</sup> بن على بن ميثم البحرانى المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بتبريز إذ له وراءه شرحان ، وفيه تحدث عن البيان في النهج ووزع

(١) انظر فيه كتاب البيتوشى محمد الخال قاضى السلطانية (٢) راجع في ميثم كتاب سليمان البحرانى عنه باسم (طبع ببغداد) وكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلوى السلافة البهية في الترجمة الميثمية . ص ١٧ وما بعدها .

حديثه على ثلاث قواعد ، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعاني ، والثالثة لدراسة الخطابة ، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة .

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغي في الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدى اليمنى يحيى<sup>(١)</sup> بن حمزة العلوي ، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول في مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هي ، المثل السائر لابن الأثير والتبيان في علم البيان لابن الزمكاني ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمصباح في البيان والبديع لبدر الدين بن مالك ، ويشيد بعبد القاهر وكتابه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول : « أول من أسس في هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانيه الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين عبد القاهر الجرجاني » غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتابيه المذكورين آنفاً ، إنما اطلع على شذرات منها في كتابات البلاغيين . وقد ذكر السكاكي مراراً ، مما يدل على أنه اطلع على كتابه « المفتاح » ويقول إن الحافظ الذي دفعه إلى تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم في البلاغة كتاباً ، فاستجاب لهم ، وأثر ابن الأثير والفخر الرازي والسكاكي بين في الكتاب ، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات ، وسمى كل فرع من هذه الفروع فناً ، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز ، وسلك في الفصاحة والبلاغة علمي المعاني والبيان . ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإتقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن . ونصوص الشعر والنثر ، ويستوحى الفخر الرازي فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالتزامية ، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير . ويطلب في الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية ، ويتضح هنا تأثيره بعلم أصول الفقه . ويعرض للمجاز وماهيته ويتحدث عن المجاز اللغوي أو المرسل وعلاقاته ويسمى المجاز العقلي باسم المجاز المركب وينقل عن الرازي بعض أحكام المجاز . وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد ويطلب مستضيئاً بابن الأثير في بيان وجوه الحسن في أفراد الحروف والكلمات . ويتحدث عن البلاغة مهتدياً بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازي من جمال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوطة وبعضها غير منقوطة ويذكر آراءه في معنى

(١) انظره في البدر الطالع للشوكاني ٣٣١/٢ وكتابه ١٩١٤ وراجع كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع «الطراز» نشرته دار الكتب المصرية في ثلاثة مجلدات سنة ٣٢٠ . دار المعارف) ص ٣٢٠ .

الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى للأخيرة هو الإعجاز . ويخرج إلى بيان مواقع الغلط في اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه . ويترك الفن الأول وهو المقدمات إلى الفن الثاني في الكتاب ، وهو المقاصد ، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الالتزامية ، ويعرض أبواب البيان مبتدئاً بالمجاز وأنواعه من الاستعارة والكتابة والتمثيل ، ويفصل القول في الاستعارة وتعريفاتها عند الرماني والفخر الرازي وابن الأثير ، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لها بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر ، ويتحدث عن أقسامها على هدى الرازي وبدر الدين بن مالك ، ويجعلها عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، أما باعتبار ذاتها فتتقسم إلى حقيقية وخيالية ، وباعتبار لازمتها تنقسم إلى مجردة ومرشحة ، وباعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقبيحة ، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس لمحسوس أو معقول لمعقول . ويخرج إلى التشبيه ، ويذكر أن ابن الأثير أدخله في المجاز ، ويفصل القول فيه ، متأثراً بالرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك ، ويجعله أقساماً : قسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به في الأوصاف المحسوسة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به في الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام واللينة والصلابة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به في الأوصاف العقلية . ويؤكد أن مدار الجمال في التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المؤلف . ويعود إلى تقسيمات أخرى في التشبيه باعتبارات مختلفة ، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام : مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب ، وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طرداً وعكساً وباعتبار أدواته إلى مظهر ومضمر . ويعرض الكناية وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها ، ويقف مع ابن الأثير في عدّها ضرباً من المجاز قائلاً إنها «اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح» ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل . وينتقل إلى الكلام عن علم المعاني ، مازجاً فيه بين مباحث الرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزملاكاني ، وقد ذكر فيه - على هدى الأخير - المعرفة والتكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفي ، وأيضاً ذكر على هداه وهدى ابن الأثير صور الالتفات . وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان : قسم بالقصر وقسم بالتقرير يريد به المساواة .

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصوراً من المبالغة ، وهو في كل ذلك يستلهم

ابن الأثير. وفصل القول في علم البديع \* على هدى بدر الدين بن مالك ، وجعله نوعين : نوعاً يتعلق بالفصاحة اللفظية ، ويتنظم عشرين محسناً بلاغياً من مثل الجناس والترصيع والألغاز ، وعدّ من هذا النوع الطباق ومردّه إلى المعنى ، ونوعاً ثانياً يتعلق بالفصاحة المعنوية ويتنظم خمسة وثلاثين محسناً بلاغياً . ويتنقل إلى التكميلات الملحقة بالكتاب ، وهي الفن الثالث من فنونه ، وهو فن خاص ببيان البلاغة في القرآن الكريم وآياته ، وهو يوضح روعة فصاحته في حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبّق على تعبيراته ومواطن الجمال فيها علوم المعاني والبيان البديع ، ويتحدث في إفاضة عن إعجازه البلاغي وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية .

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوي البديعيات وهي قصائد في مديح الرسول ﷺ تتضمن أبياتها كل ألوان البديع ومحسناته ، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح ، وتوزع على المحسنات البديعية في أبواب متلاحقة ، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صفي الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات في جميع الأقطار العربية . ومن شارك في هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم<sup>(١)</sup> الحسيني من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعيته :

حُسْنُ ابتدائي بذكري جيرة الحرم له براعة شوق تستهلّ دمي  
وألف عليها شرحا سماه « أنوار الربيع في أنواع البديع » وتتضمن ألفاظ الأبيات أسماء المحسنات البديعية ، وذكر في مقدمة شرحه أسماء من سبقوه إلى نظم البديعيات والتأليف محاكيا بذلك أصحاب البديعيات وشروحها قبله .

وعلى نحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة في الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب لعبد<sup>(٢)</sup> الرحمن بن عبد الله باكثر الحضرمي المكي قاضي جدة المتوفى حوالي سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح بابا لعرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنبي مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة ثم يعرض الأبيات المستهجنة فيها والمستحسنة ، ويعقد بابا ثانيا يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتنبي من الشعراء وسرقات الشعراء منه . ثم يسوق خاتمة في

(١) انظره في البدر الطالع ٤٢٨/١ وأمل (٢) راجع مقدمة محقق الكتاب : الدكتور رشيد الأمل ص ٥٢ .  
عبد الرحمن صالح ، وما بها من مصادر عن المؤلف .



بيان وجوه من محاسن المتنبي في إرسال الأمثال والحكم وبنه بالثناء عليه وعلى شعره .  
والكتاب يدل على بصر جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحضرمي  
المكي وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبي قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة في  
بيان محاسن شعره ومعانيه ، وهو يشيد به في فواتح كتابه إشادة بالغة وكذلك في تضاعيفه  
وفي خاتمته ونهايته . ومن أطرف صحفه الصحف التي تحدث فيها عن السرقات إذ عرض  
فيها أسماء شعراء متأخرين نابهين كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتى  
زمنه .

## ٤

### علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام .

ما قلناه عن التراث اللغوي والنحوي والبلاغي وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على  
اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم  
الكلام ، فهو تراث مشترك يدرس في كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس في كل أنحاء العالم  
العربي ، لا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن . ولم يكن طلاب العلم حينئذ يكتفون  
بأخذهم عن علماء بلدهم ، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النلهين في كل بلد وخاصة في  
العراق والشام ومصر ، ليتلقوا العلم عنهم شفاها . ولا يكتفي الطالب بالرحلة مثلا إلى بغداد  
ولقاء علماءها ، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا في أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد  
المعرفة في علم بعينه أو في مجموعة من العلوم .

وجعل الحجُّ والزيارةُ النبوية مكةَ والمدينةَ قبلتين للطلاب والعلماء جميعا ، على نحو  
ما مرَّ بنا في علوم العربية فكان يقد عليها أنه العلماء في العالم الإسلامي ، وكثيرا ما يتزلون  
بهما سنة أو سنوات ، وطلاب البلدتين يهلون من ينابيع علومهم الغزيرة . ونضرب مثلا في  
الفقه بالجويني<sup>(١)</sup> عبد الملك بن عبد الله النيسابوري شيخ الإسلام العلامة الأصولي الفقيه  
المتكلم المتوفى سنة ٤٧٨ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا في المدينة ولذلك  
سمى إمام الحرمين ، وكان يدرس هناك ويفتي ويجهتد في نشر العلم بفقه الشافعي ، وكان  
علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا لاسمه في موطنه وحين نزل بغداد ولقي علماءها  
وناظروه ، ويقولون عنه : وقف علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه ، ويقول

(١) انظر مصادر ترجمته في الفصل الثاني من القسم

الخاص بآيران .

السبكي : « لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقه والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقاً . . وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً ، مما جعل اسمه يطير في الأقطار وذكره يملأ الديار » . ومن تصانيفه في الفقه الشافعي النهاية في الفقه ويقول السبكي : « لم يصنف في مذهب الشافعي مثلها فيما أجزم به » ويذكر له في أصول الدين أو علم الكلام كتاب الشامل وكتاب الإرشاد كما يذكر له في أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى . ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه والأصول والكلام في مكة والمدينة فحسب ، بل كان يحضره أيضاً الوافدون على البلدتين من أقطار العالم الإسلامي ، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال . وعاد إلى نيسابور ، فبنى له نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي مدرسة ليلقى بها محاضراته من مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقتها تضم نحواً من أربعمئة طالب ، وحين توفي طافوا ببلده ينوحون عليه وكسروا الخبايا والأقلام حزناً وجزعاً . والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين ، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله ، يسمى مثلاً إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للنفاسي طائفة كبيرة . وكذلك غيره من كتب <sup>(١)</sup> التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله شرح كبير على المهاج للنووي ومصنفات كثيرة .

ونلتقي في مكة بمحدث من كبار المحدثين في العالم الإسلامي هو محب <sup>(٢)</sup> الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه المولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة . وهي مسقط رأسه وموطنه ، نشأ بها ، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبي الحسن علي بن المقيّر ، ومما قرأه عليه سنن أبي داود عن أبي الفضل بن سهل الإسفراييني وعن الخطيب البغدادي وسنن النسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي عن البرزدي عن عبد الرحمن بن محمد الدونني . وكانوا يدققون فيمن يذكرونهم من الحفاظ فلا بد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ ناهيين على نحو ما حمل ابن المقيّر سنن أبي داود

(١) راجع مثلاً في إمام للحفصية بالمسجد الحرام المنهل الصافي ٤٠٤/١ هو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن يوسف ، وفي إمام للمالكية العقد الثمين ٣٢٤/٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلاني المكي ، وفي إمام للشافعية العقد الثمين ٢٨٠/١ وهو الرضي الطبري المكي ، وفي إمام للحنابلة العقد الثمين ١١٩/٧ وهو ابن

(٢) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٨/٨ والمنهل الصافي ٣٢٠/١ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٤/٤ وشذرات الذهب ٤٢٦/٥ ومراة الجنان ٢٢٤/٤ والنجوم الزاهرة ٧٤/٨ .

عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفراييني والبغدادي ، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عن من أخذ له لصحة السند ولثقة الرواية ، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة ، وقد يقولون سمعه من شيخه ، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفي أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة . وقد يجمعون الحسينيين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة ، فيقولون : سماعاً وقراءة .

وقرأ محب الدين الطبري صحيح البخاري على عبد الرحمن بن حرمي سبط السلفي الحافظ المشهور ، وقرأه أيضاً على عمين لأبيه وأخ له . وقرأ جامع الترمذي على يعقوب بن أبي بكر الطبري وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبي الفضل المرسى ، وقرأ الأربعين للحافظ الثقي على أبي الحسن بن الجُمَيْزِي وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلفي ، وقرأ الأربعين البلدانية على شعيب الزعفراني ، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحميدى عن ابن البَطِّي ، وقرأ على ابن العديم وريحان السُّكِينِي وشيخ الحرم نجم الدين التبريزي جزء الأنصاري . وكان يعنى بالفقه ، وقرأ كتاب التنبيه المشهور في الفقه الشافعي والذي ألفه أبو إسحق الشيرازي على ابن سكينه وتفقه عليه . وسمع بعض كتاب الغريب لأبي عبيدة عن شهدة ، وهي إحدى المحدثات الكبيرات . وكأنما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التي أخذها عن العلماء ، فيعقبون على ما سبق بقولهم : وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها . والحرم المكي بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية . ونقف قليلاً عند المشايخ والأعيان الذين تتلمذوا له فمنهم القاضي جمال الدين الطبري قاضي مكة قرأ عليه في سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوي . وهذا يعنى أنه كان يدرس في المدينة أحياناً .

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدي والقطب القسطلاني المصري ثم المكي ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضي المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطي المصري المشهور وعلم الدين البرزالي الدمشقي المصري وقاضي مكة نجم الدين الطبري وقطب الدين الحلبي وأبو حيان الغرناطي وخلق كثير ، كما يقول مترجموه ، آخرهم وفاة عثمان بن الصفي الطبري ، وآخر أصحابه بالإجازة الشهاب الحنفي . وأساتذته وتلاميذته هم أعلام الحديث في عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة ، غير من انتفع به في الفقه الشافعي ، واستدعاه المظفر السلطان الرسولي مراراً ، وسمع عليه بعض مروياته وتأليفه ولا بد أنه كان يلقي في أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بزييد . ونقف مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة ، منها في الحديث كتاب الأحكام

الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها ، وهو في خمسة أجزاء ، وكتاب الأحكام الوسطى مجلد كبير ، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر ، وكتاب المحرر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين ، واختصره في كتاب سماه العمدة ، وكتاب الرياض الضرّة في فضائل العشرة المبشرين بجنة الرضوان مجلدان وهو مطبوع ، وكتاب ذخائر العقبي في مناقب ذوى القربى ، وكتاب السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، وتقرب المرام في غريب القاسم بن سلام ، وكتاب القرى من ساكن أم القرى جرد فيه أحاديث المناسك من الكتب الستة وغيرها ، وغاية بغية الناسك من أحكام المناسك ، وصفة حجة النبي ﷺ على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها ، غير كتب أخرى .

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبيه لأبي إسحق الشيرازى في عشرة أجزاء ونكت كبرى عليه في أربعة أجزاء وكتاب المسلك النبيه في تلخيص التنبيه ، وكتاب مختصر المهذب ، مجلدان . ومما يتصل بالقرآن الكريم : القبس الأسنى في كشف الغريب والمعنى ، والكافى في غريب القرآن ، وكتاب التحفة المدنية ، وكتاب مرسوم المصحف العثمانى المدنى . وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهروردى . ومحب الدين الطبرى ، بهذا كله رمز كبير لتلك الحركة العلمية التى كانت منبثة فى الحجاز والتى كان شررها يتطاير إلى جميع البيئات فى الجزيرة العربية . ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها ، وخاصة فى رواية الحديث ، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيوخ ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سيرى عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها يروى جلة العلماء عنهن الحديث النبوى .

وطبيعى أن تنشط دراسة التفسير فى مكة مع دراسة الحديث ، وقد رأينا محب الدين الطبرى بجانب عمله فى الحديث يخدم التفسير خدمات كبيرة ، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفى قبل إتمامه . وقد صُنّف بمكة تفسير من أعظم التفاسير ، صنّفه الزمخشرى فى أثناء مجاورته بها وهو « الكشاف » ومع أنه ضمنه آراء الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعته ، ويلقبه الفاسى المالكى بأنه « الإمام الكبير فى التفسير . . كان إمام عصره غير مدافع » ويقول ابن خلكان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله . وكان يلميه فى مكة على الطلاب ، ومن رواه عنه قاضيا أبو المعالى يحيى ابن عبدالرحمن الشيبانى ، أخذه عنه بالحرم المكى الشريف ، وظل العلماء بعد الزمخشرى يعنون بالكشاف فى التفسير ، كما يعنون برواية كتب الزمخشرى المشهورة وإلقائها على

الطلاب والطالبات بالحرم المكي ، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشعْرية خاتمة الرواة عن الرمخسرى وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه ، ويقول الفاسي في العقد الثمين من طريقها وقع لنا حديثه .

ومنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته في الحرمين المكي والمدني ، ويختار ابن مجاهد في القرن الرابع قراءة ابن كثير التي كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره ، وظلت قراءة كل منهما تتداول في بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل ، وتلقانا في كتاب طبقات القراء لابن الجزري أسماء طائفة منهم مثل أبي يحيى المكي المتوفى سنة ٣٤٤ وأبي عبد الله البلخي المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكتظ كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء في مكة والمدينة . وكانتا دارين للقراءات وعلوم الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن له بهما كبير شأن .

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقهاء فيها نشاطاً من قديم منذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثوري وابن عيينة ، وخلفه تلميذه عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روى الحديث أحمد بن حنبل وغيره ، وخلفه أبو قرعة موسى بن طارق . وكان الغالب في اليمن حتى القرن الثالث مذهبي أبي حنيفة ومالك ، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعي ، وفي مقدمتهم موسى بن عمران المعافري وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقهاء الشافعي . ويقول الجعدى في كتابه « طبقات فقهاء اليمن » : وخلف هذا الجيل إمام أئمة الشافعية في صنعاء وعدن والقاسم بن محمد القرشي المتوفى سنة ٤٣٧ وهو الذي نشر مذهب الشافعي في مخلاف الجند وفي صنعاء وعدن وزيد ، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقه علم القراءات . وكان يعاصره الصعبي أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر المزني المصري صاحب الشافعي - كما يقول الجعدى - في أربع سنوات مقابلاً للكعبة الشريفة . ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعي وبيان مذهبه . ولما ألف أبو إسحاق الشيرازي كتابيه : المهذب والتنبيه في الفقه الشافعي ، وأخذهما عنه حسين بن علي الطبري وأبو نصر البندنجي وسكننا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنها الكتابين ، كما حملوهما عن تلميذه محمد بن عبدويه الذي سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زيد ، وكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدى . وينشط الفقه الشافعي أو المذهب الشافعي في الفقه بتأمة وزيد نشاطاً واسعاً ،

ويكثر فقهاؤه ، ومن أهمهم يحيى<sup>(١)</sup> بن أبي الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ ، وقد تفقه على جماعة ، منهم خاله أبو الفتوح بن عثمان العمراني وزيد بن عبد الله اليفاعي ، وقد قرأ كتاب التنبيه للشيرازي على موسى بن علي الصعبي ، وحفظ كتاب الشيرازي : «المهذب» على عبد الله بن أحمد الهمداني ، وكذلك كتابه «اللمع» وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايثي تعليق الشيخ الشيرازي في أصول الفقة مع ملخصه ، وحضر دروس فقهاء كثيرين ، وقرأ على القاضي مسلم بن أبي بكر الصعبي كتاب الحروف السبعة في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفة الحسين بن جعفر المراغبي ، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذي ، ومما قرأه ونصَّ عليه الجعدي شروح المزمي والمجموع للمحاملي والشامل لابن الصباغ والفروع لسليم وشروح المولدات لأبي الطيب والعدة للقاضي حسين بن علي الطبري تلميذ الشيرازي كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبي علي السنجي وكتاب البصرة لأبي الفتوح على مذهب السلف الصالح .

وكان الفقهاء في اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية ، وكان يحيى بن أبي الخير يختار مذهب أهل السنة ويناظر الفقهاء في مذهب الأشعري المتكلم . وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبي حنيفة ، وله مصنفات مختلفة ، من أهمها في الفقه الشافعي كتابه الزوائد ألفه في أربع سنوات وكتابته البيان ألفه في ست ، وكتابته استخراج المسائل المشككة في المهذب .

ومن الطريف أن الجعدي في كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالى ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا في بيت بعينه ، من ذلك أسرة بني أبي عقامة ، ويقول عنهم الجعدي : «وفضائل بني أبي عقامة مشهورة ، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي في تهامة» ومن أهمهم أبو الفتوح<sup>(٢)</sup> عبد الله بن محمد بن علي بن أبي عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ تفقه على جده علي وعلى أبي الغنائم الفارقي ، وله مصنفات جيدة منها كتاب الخنثائي وفيه نفائس حسنة ، قال النووي : لم يسبق إلى تصنيف مثله . وعقد العماد الأصبهاني لهذه الأسرة فصلاً في الخريدة ، ويقول الجعدي في كتابه السلوك عن أحدهم ، وهو القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة : «له كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التي يستشعنها أصحاب الشافعية» وقد صار هذا الكتاب في اليمن قليل الوجود ، لأن الحنيفة

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدي (طبع القاهرة) (٢) انظره في طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والسبكي  
ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية) ١٣٠/٧ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٦٢ وقسم الشام  
٣٣٦/٧ وشذرات الذهب ١٨٥/٤ .  
من كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني ٣/٢٤٦ .

اجتهدت بتحصيله وإذهابه (١) .

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم في القرن الخامس في اليمن القاضي محمد بن أبي عوف، ويعقد لهم الجعدى فصلاً قصيراً في كتابه يذكر أسماء طائفة منهم ، ويقف عند القاضي المذكور ، ويقول إنه صنف كتاباً بعنوان « القاضي » وهو مشهور في اليمن والعراق عند الحنفية . واشتهر منهم في القرن السابع أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاش (٢) المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رئاسة الحنفية في اليمن ، ويقال : لو لم يوجد لمات مذهب أبي حنيفة هناك ، إذ حمل السلطان نور الدين الرسولى على بناء مدرسة للحنفية بزيد وكان قد بنى بها مدرسة للشافعية .

وكان يقابل فقه الشافعية في تهامة وزيد فقه الزيدية في صعدة من قديم ، وكان الأئمة الرسيون كلما غلبوا على بلد في اليمن حاولوا أن يشبعوا فيه مذهبهم ، حتى إذا تمت لهم الغلبة في العصر العثماني أشاعوا مذهب الزيدية ، غير أن مركز الشافعية في زيد وتهامة ظل ثابتاً إلى اليوم . ومعروف أن الفقه الزيدى نشأ مبكراً . فإن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين المقتول سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذى أرسى قواعده في كتاب فقهى له اشتهر باسم المجموع الفقهى (٣) ، وهو أساس الفتوى والأحكام القضائية عند الزيدية ، وقد طُبع في القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم الروض النصير للحسين الخيمى في أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضاً بشرح شرف الدين السباعى ، والشرحان مطبوعان في القاهرة . وعُنى أئمة الزيدية في اليمن - منذ تأسيس الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين دعوتهم - بهذا الكتاب فهو عمدتهم في الفقه والتأليف فيه ، ولالإمام الهادى كتاب يسمى كتاب جامع (٤) الأحكام في الحلال والحرام . ويتكاثر تأليف أئمة الزيدية لكتب الفقه في اليمن ، ونذكر من كتبهم أطرافاً ، فن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، له فتاوى كثيرة مجموعة . ومن ذلك الإمام محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المنهاج الجلى شرح مجموع الإمام زيد بن علي . ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة صاحب الطراز الذى تحدثناعنه في النشاط البلاغى له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار فى ثمانية عشر جزءاً . ومن ذلك الإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طُبع مع تخرىج أحاديثه فى خمسة أجزاء ، وله أيضاً كتاب

(١) كتاب (السلوك - النكت) للجندي ص ٦٣٢ . العربية) ٣/٣٢٣ .

(٢) العقود الزلوتية للخزرجى ١/١٥٥ . (٤) بروكلمان ٣/٣٢٨ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الطبعة

الأزهار في فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحا سماه « الغيث المدرار » . وهناك كثيرون من علماء الزيدية ، من الأمراء وغيرهم ، تعمقوا في الفقه الزيدى وألّفوا فيه وحوله كتباً ومصنفات مختلفة ، ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية في القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حينئذ ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » في أربعة مجلدات ، واختصره في كتابه « الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم » وهو مطبوع .

ويجانب هذا النشاط الفقهي في اليمن كان هناك نشاط واسع في علم الحديث ، وهو يبدأ في الحديث كما بدأ في الفقه بمعمر بن راشد فله الجامع المشهور في السنن ، وتمضى بعده في كتاب طبقات فقهاء اليمن فنجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعاني كتاب المتقى في السنن ، وقلما يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حُمل عنه الحديث ، وكثيرا ما يقول الجعدي عن هذا أو ذلك إنه سمع صحيح البخارى ، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذى أو صحيح مسلم أو سنن أبي داود أو سنن النسائى . ومن حين لآخر نجد الجعدي ينعت الفقيه الذى يترجم له بأنه الحافظ المحدث ، أو يقول سيف السنة . وبفلس النشاط في هذه الرواية للحديث كانت بيئة الزيديين تنشط في روايته ولالإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب في الحديث يسمى الشفاء ، ولالإمام القاسم المتوفى سنة ١٠٢٩ في الحديث كتاب الاعتصام .

وعُتيت اليمن بالتفسير والقراءات كما عُتيت بالحديث والفقه ، وكان فيها من المفسرين قديما طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس . وهو باب هذه الحركة ، ومضى اليمنيون بعده يعنون بكتب التفسير ، حتى إذا ظهر تفسير الطبرى أقبلوا على تداوله ، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه . ومر بنا نشاط الفيروزابادى لعهد الرسوليين في هذا الاتجاه . ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به ، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غريب القرآن المجيد ، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه ، وذكر للإمام الهادى مؤسس العقيدة في اليمن تفسيرا لبعض سور الذكر الحكيم . ولأبى الفتح الديلمى المتوفى سنة ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد ، ولالإمام المهدي محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان في الناسخ والمنسوخ من القرآن . ولعل أروع تفسير صنفته اليمن في عصورها جميعا على الإطلاق تفسير محمد (١)

الثالث عشر» وقال إنه أستاذه .

(١) انظره في كتابه البدر الطالع ٢/٢١٤ وترجم له ابن

زبارة في كتابه (نيل الوطر من تراجم اليمن في القرن



ابن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م سماه «فتح القدير الجامع بين الرواية والدرابة في التفسير» وكان قد بدأ حياته زديدا ونزع إلى الدعوة الوهابية ، وهو يعد إماما مجتهدا ، وله عشرات المصنفات في الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة .

واهتمت اليمن من قديم القراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرة موسى بن طارق الذي حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التي كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها في اليمن ، ومن أعلام القراء هناك زيد<sup>(١)</sup> بن الحسن الفايشي المتوفى سنة ٤٥٨هـ وكان عالما بعلوم كثيرة ، منها التفسير ، ومنها القراءات أخذها عن أبي معشر الطبري بمكة ، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن ، وعليه تفقه يحيى بن أبي الخير المار ذكره . ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزري في طبقاته ابن شداد البرعي علي بن أبي بكر الزبيدي شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزيد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث ، توفي سنة ٧٧٠هـ وخلفه أحمد بن محمد الأشعري العبدلي شيخ زيد في القراءات ، ويقول ابن الجزري : لما دخلت اليمن لازمني كثيرا وسمع مني نصف كتاب النشر وكتبا أخرى ، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر<sup>(٢)</sup> . ومعروف نشاط ابن الجزري في القراءات ، ولاشك أن اليمن أفادت منه كثيرا . وهذا النشاط في القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية .

وعنيت اليمن في هذا العصر بالمباحث الكلامية ، وظلت عنايتها بها متصلة ، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين مترعان : مترع أشعري ومترع أهل السنة ، وكانت الكثرة تنزع المترع السني ، ونجد ذلك واضحا في تأليف الكتب التي تعنى بنقض آراء المعتزلة ، مثل «كتاب الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة» للمراغي<sup>(٣)</sup> ومثل كتاب يحيى بن أبي الخير الذي تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء ، وقد جعل عنوانه : «الانتصار في الرد على المعتزلة القدريّة الأشرار» وفي مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، أحد علماء الزيدية ، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأى المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم ، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم . وحاول يحيى بن أبي الخير تفنيد آرائه الاعتزالية ، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول ﷺ في التحذير من القدريّة . ولم يكده يقرأ رسالته شمس

(١) راجع ترجمته في طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ ١٠٣/١ .

(٢) السبكي ٨٥/٧ . (٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣ .

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري

الدين حتى نقضها بكتاب سماه «الدامغ للباطل من مذهب الحنابل» فأثار حفيظة يحيى ابن أبي الخير، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا، وأضاف إلى المعتزلة في الكتاب الأشعرية وأجحف بهم، مما جعل الشريف العثماني الأشعري يناظره ويجادله في مذهب الحنابلة أهل السنة<sup>(١)</sup>.

ومعروف أن زيد بن علي زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسه تتلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا ينتظمون في المعتزلة، مما جعل الاعتزال يستقر في مباحثهم، كما جعلهم يكثر من هذه المباحث، ومن يرجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسي جد الإمام الهادي مؤسس مذهب الزيدية في اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونفي الجبر والتشبيه، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضي عبد الجبار أكبر معتزلي في نهاية القرن الرابع الهجري شرحا مطولا، وللإمام الهادي كتاب المسترشد في التوحيد، وللإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر في التوحيد. وتوالى كتب كلامية كثيرة في بيئة الزيدية، من ذلك شرح القلائد في علم الكلام للإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس في علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩. ولم تُولف هذه البيئة في الاعتزال وحده، بل ألفت أيضا كتبًا في رجاله، وكتاب ابن المرتضى في المعتزلة مشهور.

ولم تكن حَضْرَمَوْتُ بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية في اليمن والحجاز، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يفتدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقيه، ويلقانا منهم كثيرون في كتب التراجم، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم في تريم وشيخام وغيرهما من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت في تلقيه للشباب. وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين، بل منهم من كان يرحل في طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد، ويعود محملا بالكتب وبالإجازات العلمية التي تتيح له روايتها ونشرها. ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي اليمنى المتوفى سنة ٥١٤ كان يغص بالفقهاء من حضرموت<sup>(٢)</sup>، ويذكر الجعدي من تلاميذ الفقيه يحيى بن أبي الخير الذي مر بنا في الحديث عن فقهاء اليمن محمد<sup>(٣)</sup> بن عبد الله الحضرمي من تريم حاضرة حَضْرَمَوْتُ وأيضا محمد بن مفلح الحضرمي وهو الذي طلب إليه تأليف كتابه

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ - ١٨٠. (٣) نفس المصدر ص ٢٠٣.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢.

« استخراج المسائل المشكّلة في المذهب » لأبي إسحق الشيرازي وأجابه إلى طلبه<sup>(١)</sup> .  
 ويذكر الجعدي من فقهاء حضرموت أبا زُنَيْج وأبا جحوش وأبا ألكدر قاضي تريم وقد جمع  
 بين الفقه والقراءات السبع<sup>(٢)</sup> ، وفي كتاب الجعدي فقيهان من شُبوّة بحضرموت هما عيسى بن  
 مفلح وأحمد بن سليمان . ويقول المؤرخون إنه قُتل كثير من فقهاء حضرموت وقُرأها في  
 الحملة التي وجهها نائب توران شاه من عدن إلى حضرموت . ويشيد السبكي بقطب<sup>(٣)</sup>  
 الدين الحضرمي شارح المذهب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول « تفقه به خلائق » وله مصنفات  
 كثيرة . وفي ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك . وكانوا يعنون إلى جانب ذلك  
 بالحديث والتفسير . ومحدثنا السقاف في كتابة تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيرين  
 ترجم لهم ، نذكر منهم ابن عقبة المتوفى في عدن سنة ٦٩٥ وعلى بن أبي بكر السقاف  
 المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر باخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلى بن عبد الرحيم باكثير  
 المتوفى سنة ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢ . ومن ذكرهم السقاف  
 من المحدثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتعزّ في سنة ٨٨٩ وقد رحل إلى اليمن ومكة وكان  
 يقرأ للناس الصحيحين ، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧ . وكثيرا  
 ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون . ومن نعتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن  
 ابن علي السقاف المتوفى سنة ٩٢٣ . ومن مقرئها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبي مشريح  
 الحضرمي المجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد في القراءات الثمان ، وقد أشاد  
 به ويكتابه ابن الجزري ، وقال إنه توفي في سنة ٥٦٠ وإنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ  
 المصريين<sup>(٤)</sup> . ومن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢  
 وقال : له مختصر نهاية الناشرى في القراءات وشرح الجزرية . ويذكر السقاف ممن عنوا بعلم  
 الكلام شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٩٠ ويذكر له مصنفات في علم التوحيد ،  
 وكان المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة .  
 وهذه الصورة من النشاط العلمى لحضرموت هي صورة ظفّار وعُمان والبحرين ، ويُجد  
 لظفّار فقيها ينسب إلى مينائها مرباط هو مفتيها محمد بن علي القلعي ، ويقول الجعدي : له  
 مصنفات حسنة ، منها قواعد المذهب وغيره<sup>(٥)</sup> . ولا ريب في أن النشاط العلمى في دراسة

(١) انظر طبقات القراء لابن الجزري ٤٦/٢ وكتابه :

« النشر في القراءات العشر ٩٣/١ .

(٢) الجعدي ص ٢٢٠ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ٢٠٢ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ١٣٠/٨ .

(٥) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ .

(٦) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدماً في عُمان لزمان بنى مكرم وبنى نيهان ، أما في نزوى عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عمان في العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره ، وقد عنوا طويلاً بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي الإباضي المتوفى سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المساند المعروفة في الحديث النبوى ، وانصبت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف في عقيدتهم الإباضية . وفرقتهم ، كما قدمنا ، أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربها إلى الجماعة ، ونصّب إمام المسلمين عندهم واجب ، وتجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره ، فإن جار ولم يتب وجبت الثورة عليه ، ومر بنا حديث عن عقيدتهم في الفصل الماضى .

وكانت البحرين مثل عُمان نشطة في دراسة علوم الدين الحنيف ، وكانت تدخل في دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة ، فكان طلابها وعلمائها لا يزالون ذاهبين آيين من العراق وإليه . وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين ، ويتخذها مقاما له وموطنا ، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر . وكانت علوم الشريعة مطروحة في كل مسجد ، وظلت حلقاتها قائمة ، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغوية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك ، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصر وله مصنفات مختلفة في المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للتفتازانى وكتاب إيساغوجى<sup>(١)</sup> وشاع هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلى مع الوهابيين ، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة . ومنذ دخلت الأحساء في المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمّت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف ، غير أن هذا لا يدخل في عصرنا إنما يدخل في العصر الحديث .

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة في البلاد العربية ، فقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس في قرى نجد ، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة ، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد في قرينته تريم ست عشرة سنة ، وأنه قرأ عليه فيها صحيحى البخارى ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التميمى في قرى القصيم حيث تلمذ عليه في علم الفقه والتفسير سبع سنوات . ورحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى العراق

(١) ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص

وتلمذ على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود ، كما مر في الفصل الماضي ، على نشر عقيدته . وهي ليست عقيدة جديدة بل هي عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية . وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته في محاضراته ومؤلفاته ، ومراً بنا كتاب التوحيد ، ومجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكباثر ومعرفة العبد ربه ودينه ونبيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكتاب المسائل وكتاب الثلاثة الأصول في معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية . وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها : جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية لعبد الله ابنه ، ولسليمان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد . واتسع التأليف في الدعوة مبكراً وراء نجد ، إذ نجد محمد بن علي الشوكاني اليمنى يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار متقى الأخيار .

## ٥

### التاريخ

نشطت كتابة التاريخ في الجزيرة العربية كما نشطت في كل بلد عربي ، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط في الحجاز ، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرقى « أخبار مكة » وهو كتاب مبكر . وأهم المصنفات التي تلقانا عنها في هذا العصر مصنفات الفاسى<sup>(١)</sup> أبي الطيب محمد بن أحمد الحسنى المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكوّن علمياً حتى أصبح من علماء الأفاذ ، وسرعان ما تحول مدرساً يفتد الطلاب من علمه . وتقلد منصب شيخ الحرم المكي إلى أن توفي سنة ٨٣٢ وعنى بتاريخ مكة ، فصنف فيها كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » في مجلدين ، وهو مطبوع ، وأهم منه كتابه « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » الذى نرجع إليه ، وهو فى ثمان مجلدات ، افتتحها بالحديث عن مكة تاريخياً وجغرافياً ثم أجمل السيرة النبوية ، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئاً بالمحمدين ، ولم يترك حاكماً ولا عالماً ولا مؤذناً ولا مجاوراً بمكة ولا شاعراً إلا أسهب فى الترجمة له ،

(١) انظره فى الضوء اللامع ١٨/٧ والشذرات  
١٩٩/٧ ومقدمة كتابه « العقد الثمين » وقد ترجم لنفسه  
فيه انظر ١/٣٣١

وهو بذلك تاريخ كامل لمكة : سياسى وثقافى وأدبى وحضارى . وللديار (١) بكرى المكى المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان «الخميس فى أحوال أنفس نفيس» فى مجلدين كبيرين ، طبعت مراراً ، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة . وكان يعاصره قطب الدين (٢) النهروالى المكى ، وكان مفتياً ومدرساً ، إلى أن توفى سنة ٩٩٠ وله «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه فى عهد العثمانيين ، طبع مراراً . ولمكة مؤرخ عام هو عبد الحى (٣) بن العماد الحنبلى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة . ومن مؤرخى مكة المتأخرين أحمد زينى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م وله : «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» .

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفى مقدمتهم محمد بن الحسين بن زباله الذى ألف كتاباً فى تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخى العصر الذى نحن بصددده ، بل قل من أشهرهم نور الدين السهمودى (٤) المصرى المجاور بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، والكتاب دائرة معارف كبيرة فى جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طبع بمصر فى مجلدين وطبع مختصر له باسم «خلاصة الوفا» . ومن مؤرخى المدينة ابن خضر المدنى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وله مخطوطة فى طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية . وجاء بعده جعفر البرزنجى (٥) المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوى ، طبعت بمصر مراراً منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل .

وتكتظ اليمن بالمؤرخين ومصنفاتهم التاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوى الذى صنف كتاباً فى سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتاباً فى أخبار المنصور بالله القاسم الرسى المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة . وتنشط الكتابة التاريخية باليمن ، ويلقانا من مؤرخيها جيش بن نجاح أمير زيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب «المفيد فى أخبار زيد» فقد ولم يصل إلينا ، غير أن عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ اختصره فى

- (١) راجعه فى الشذرات ٤١٩/٨ ودائرة المعارف عشر للمجى ٣٤٠/٢ .  
 (٢) انظره فى الشذرات ٤٢٠/٨ والنور السافر ص ٥٧/٢ .  
 (٣) راجعه فى سلك الدرر ٩/٢ والجبرقى ٣٦٣/١ .  
 (٤) انظره فى الضوء اللامع ٢٤٥/٥ والشذرات الإسلامية .  
 (٥) راجعه فى سلك الدرر ٩/٢ والجبرقى ٣٦٣/١ .

كتاب سماه « مختصر المفيد في أخبار زبيد » وقد طبع في القاهرة . ويشتهر عمارة <sup>(١)</sup> بكتاب له في تاريخ اليمن نشره كاي ثم نشر في القاهرة ، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره ، وله كتاب سماه « النكت العصرية في أخبار الوزراء 'عصرية' » تحدث فيه عن الوزراء في آخر العهد بالفاطميين ، وهم طلائع بن رزيك رشاور والكامل ابنه ، وطُبع هذا الكتاب بشالون في آخر القرن الماضي وطبع معه ديوانه . ومربنا ذكر طبقات فقهاء اليمن مراراً ، وهو لعمر <sup>(٢)</sup> بن علي بن سمرة الجعدي المتوفى لآخر القرن السادس الهجري . وللقاضي حميد <sup>(٣)</sup> بن أحمد المحلى المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما « الحدائق الوردية في سير الأئمة الزيدية » و « محاسن الأزهار في فضائل العترة الأخيار » ومن مؤرخي اليمن الجندى <sup>(٤)</sup> بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله « السلوك في طبقات العلماء والملوك » ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف ، ومربنا ذكر السلطان الأشرف الرسولى وكتبه ، وللسلطان الأفضل عباس <sup>(٥)</sup> الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب « العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية » . ومن مؤرخي اليمن الياغى عبد الله بن أسعد بن عفيف نزيل مكة المجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان في التراجم العامة وهو مطبوع . وبلقانا مؤرخ كبير هو أبو الحسن الخزرجي <sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدثين في عصره وقد رتب كتابه ترتيباً زمنياً محكماً ، وترجم للسلطين الرسولين ترجمات دقيقة . وهو لا يعرض في الكتاب التاريخ السياسى فحسب بل يعرض أيضاً التاريخ الثقافى والحضارى عرضاً مفصلاً ، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين . وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن الديبع <sup>(٧)</sup> أبو عبد الله عبد الرحمن الزبيدى ، وكان محدثاً كبيراً درس الحديث في الجامع الأعظم بزبيد وتوفى سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة ، منها قررة العيون بأخبار اليمن الميمون

- 
- (١) انظره في ابن خلكان ٤٣١/٣ والخريدة قسم الشام ١٠١/٣ وستأق مصادر ترجمته بين الشعراء . ٨٨
- (٢) انظر ترجمته في الضوء اللامع ٥/٢١٠ والشذرات ٩٧/٧ .
- (٣) انظر في ابن الديبع ترجمته لنفسه في آخر كتابه بغية المستفيد والنور السافر ص ٢١٢ والشذرات ٢٥٥/٨ والبدر الطالع ٣٣٦/١ والكواكب السائرة ١٥٨/٢ .
- (٤) انظره في ابن خلكان ٤٣١/٣ والخريدة قسم الشام ١٠١/٣ وستأق مصادر ترجمته بين الشعراء .
- (٥) انظره في التعريف به وكتاباه مقدمة المحقق له : فؤاد السيد .
- (٦) تاريخ اليمن للجراقي ص ١٢١ .
- (٧) انظره في إعلان التويخ للسحاوى ص ١٢٤ ويعتمد عليه الخزرجي في كتابه العقود اللؤلؤية .
- (٨) راجعه في العقود اللؤلؤية للخزرجي وفي الشذرات

حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخزرجي في دولة الرسولين ، ثم أضاف إليه دولة بني طاهر التي خلفتهم ويعد أول من عُني بالتاريخ لها . ومن كتبه التاريخية بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد وهو يعرض تاريخها مفصلاً حتى المائة التاسعة للهجرة . ومن الكتب الجيدة التي ألفت في القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبأ مخزمة ( طبع ليدن ) . وتلقانا بعده كتب كثيرة في أئمة اليمن وفي الحكام العثمانيين ، من ذلك ما كتبه الجرهمزي المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم ، وقد سماه « الجوهرة المضية في تاريخ الخلافة المؤيدية » وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتاباً سماه « النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة » . وصنّف يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمني في أواخر القرن الحادى عشر تاريخاً لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أبناء الزمن في أخبار اليمن . وليوسف بن يحيى الصنعاني المتوفى حوالى سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب « نسمة السحر فيمن تشعّ وشعر » ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره . ولمحمد بن علي الشوكاني العالم النابه كتاب في التراجم لمن بعد القرن السابع حتى عصره في القرن الثالث عشر سماه « البدر الطالع » وهو أحد المراجع التي يتكرر ذكرها في هذا الجزء . وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل منتخبات في أخبار اليمن للهمداني ، ومثل النور السافر في تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذيل عليه جبال الدين الشلى الحضرمي بكتاب سماه « السناء الباهر بتكميل النور السافر » .

ولنجد كتب تاريخية مختلفة في الحقب المتأخرة منها « روضة الأفكار والأفهام لمرئاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام » لحسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال في سبيل الدعوة ، وهو يكثر من السجع في كتابه . ويليه في الأهمية كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م وهو تاريخ على السنوات يتبدئ بسنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وينتهى بسنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م أى من حين نزول محمد بن عبد الوهاب في « الدرعية » ووضع الأمير محمد بن سعود يده في يده لخصرته حتى وفاة فيصل بن تركي . وضمن الكتاب أحداثاً سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم في الدرعية بمنتصف القرن التاسع للهجرة ، وأسلوب الكتاب مرسل خال من السجع . ويلى الكتابين السالفين في الأهمية كتاب « عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو يتبدئ من حين انتهى ابن بشر سنة ١٢٦٨ هـ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ موزعاً حديثه التاريخي على السنوات .



## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### الشعر على كل لسان

ظل الشعر حياً يجرى على الألسنة في الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نبع قديماً وأن ينايعة كانت تمتد في شمالي الجزيرة وشرقيها وغربيها ، أو قل في الجزيرة جميعها ، باستثناء اليمن في العصر الجاهلي أو بعبارة أدق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت في التعرب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر في اليمن بإزاء الحجاز وفي نجران وفي حضرموت وبين أزد عمان . وتم تعرب اليمن سريعاً بعد الإسلام أو قل تم تعرب ما كان قد بقي منها يتحدث الحميرية .

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذي نؤرخ له والذي يتدئ بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء في كل أنحاء الجزيرة ، وكانت الحجاز - وخاصة مكة - داراً كبيرة للشعر والشعراء ، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها وأمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواماً طويلة فحسب فإن ذلك أكثر من أن يحصى أو يستقصى ، بل أيضاً أشعار الشعراء من أهلها الذين ولدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها . وكانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ويقم فيها بين ظهرانيهم ، فكان ذلك غذاء سائغاً لشاعرياتهم . وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة . ولا بد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هي نفس لغتهم اليومية ، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لتزول كثير من الموالى بها ومعيشتهم فيها ، وقد ذكرنا في كتاب العصر الإسلامي أن عدد القتلى من الموالى في موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا

من الأعاجم . ولابد أن الأعاجم بمكة كانوا أكثر من سكانها الأصليين في هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاماً ، فما بالنا في هذا العصر؟ إن المعقول الذي يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب في المدينتين المقدستين زادت زيادة كبيرة ، وهي زيادة أعدت في هذا العصر لشيوخ لغة عامية متداولة على ألسنة العامة ، لغة تكثر فيها الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، ويكثر فيها التحريف في مقاطع الكلمات ونبراتهما . وعلى الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره ، وكان هناك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس ، وكان الحرمان جامعتين كبيرتين تدرس فيهما جميع مواد الثقافتين الإسلامية والعربية ، وكان وراءهما مدارس وكتاتيب ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة ، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربي الفصيح .

ولم تكن العناصر الأجنبية في اليمن كثيرة . ومع ذلك كان يتزها الأبحاش والإفريقيون بكثرة ، ومرّبنا أن الأبحاش كونوا لأنفسهم في حقبة إمارة في زبيد ، وكان ينزل في عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين ، ويبدو أن العناصر الإفريقية - وهي الكثيرة - كانت تتعرب سريعاً . وليس معنى ذلك أنه لم تتكون في اليمن على مر الزمن لغة عامية ، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة ، حتى القرن السادس الهجري على الأقل في بعض أنحاءها ، فعارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ للهجرة يحكى في كتاب المفيد في أخبار زبيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زبيد في سنة ٥٣٠ ليطلب الفقه وهو دون العشرين من عمره تعجب الفقهاء في جميع المدارس التي ألمّ بها في تلك البلدة من أنه لا يلحن في شيء من الكلام ، ومن قوله : « وجبلا عكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم . . . ولما زارني والدي وسبعة من إخوتي في زبيد تحدّثوا مع الفقهاء فلا والله ما لحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتوها عليه» (١) . ويتضح من كلام عمارة أن المدن اليمنية مثل زبيد كان أهلها يلحنون في لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجري ، أما تهامة والبوادي وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقاً سليماً . ويبدو أن أنحاء كثيرة من اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظاً صحيحاً ، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها في بعض تلك الأنحاء حديثاً غير ملحون ، إذ يقول صاحب المخلاف السليمانى إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير في هذا المخلاف الذي يطلق عليه الآن اسم عسير ، وقد ضمّ إلى

المملكة العربية السعودية بأخرة ، ويصور ذلك تصويراً مسهباً فؤاد حمزة إذ يقول :  
 « أفصح اللهجات ( في الجزيرة ) وأقربها إلى الفصحى فيما نعتقد اللهجات الواقعة ما بين  
 جنوبي الحجاز وشمالى اليمن ( عسير ) وكثيراً ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من  
 مخارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصحى من سواه . وبعض البدو من أهل  
 هذه المنطقة يخرجون جُملاً يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على  
 ذلك النحو بينما أن الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ،  
 فيجئء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظنها في الأقطار العربية  
 المتمدنة مهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البديهة » (١) .

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية  
 الأخرى ، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة ، ولكنها على كل حال أخذت في  
 إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجرى ، كما يدل كلام عمارة السابق فقد عجب فقهاء  
 زييد من أنه يوجد في بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يخطئهم السداد فيها ، مما  
 يدل بوضوح على أن اللحن كان قد فشا على ألسنة أهل المدن ، وأخذت تتكوّن بسرعة  
 هناك لغة يمنية عامية . وكان ثراء اليمن عاملاً مهماً في أن يعنى حكامها بالعربية وبالعلوم  
 الإسلامية ومربنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم في اليمن ،  
 وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة في زييد وتعز وصنعاء وعدن ، وكل ذلك  
 عمل على أن تظل العربية مزدهرة في اليمن وأن تظل الأشعار تجرى على الألسنة . غير أنه  
 يلاحظ أنه أخذت تُنظّم هناك ، كما كان الشأن في البلاد العربية الأخرى أشعار عامية .  
 ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط ، وإذا احتكنا إلى تاريخ أول أغنية  
 عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم في كتابه النفيس : « شعر الغناء الصناعى » وجدنا  
 هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وهى للشاعر شهاب الدين أبى  
 محمد أحمد بن فليته ، وقد اشتهر زمن السلطان الرسولى المجاهد على الذى حكم من سنة  
 ٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ ويسهب الدكتور غانم في بيان خصائص هذه الأغاني اليمنية العامية  
 من زمن ابن فليته إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى . ويقول إنها جميعاً  
 من الشعر الحمينى وهو اسم خاص بالشعر العامى اليمنى الذى لا يلتزم قواعد الفصحى  
 النحوية والاشتقاقية ، كما لا يلتزم عروضها . وتكثر فيه المسمّطات والموشحات ، وتبدو  
 المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية . ويوضح الدكتور غانم

توضيحاً مفصلاً كيف أن هذا الشعر الحميني أو العامي اليمني يرتفع في لهجته عن اللغة اليمنية العامية ويهبط في الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصحى . وهو بذلك يُعدّ فرعاً كبيراً من شجرة الشعر النبطي الذي أخذ يشيع في الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجري ، بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد . وهو شعر يلقانا في كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر ، نلقاه في الحجاز وحضرموت وفي عان والبحرين ونجده جنوباً وشمالاً . وجميعه شعر يعلو درجات فوق العامية لكل تلك الأقاليم ويهبط درجات عن الفصحى ، شعر بلغة بين العامية والفصحى ، ويسمونه باسم الشعر النبطي ، وهو كله غير معرب ، وكأنه يحلّ في الجزيرة محل الشعر الجاهلي فيها قديماً ، فقد كان شعر جميع القبائل تُشارك فيه ، وكانت لها لهجاتها المحلية الخاصة ، وكان الموقف في هذا الشعر يتعكس مع ما كان في الجاهلية ، فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى والحنان عروضها وانغامه ولم يكونوا ينفكون عنها أبداً ، مع انها ليست لغتهم اليومية تماماً . وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطي يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية ، فيترك نفر منهم النظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دنواً من قبيلته ولغتها العامية ، ومع ذلك يظنون يرفدون بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصحى ، وكأنما في دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغي أن يظل مرتفعاً قليلاً أو كثيراً عن اللغة العامية اليومية ، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة . ومهما يكن فإن هذا الشعر العامي أو قل الحميني اليمني لم تغل كفته يوماً على الشعر الفصحى الذي ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره في اليمن إلى اليوم . وما يصدق على اليمن يصدق على حضرموت ، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحميني العامي ، ولكن ظلت للشعر الفصحى السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحميني وتمثل لذلك بأبي بكر العيدروس الحضرمي المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعراً وأغاني حمينية عامية ولكن شعره الفصحى هو الذي ذاع وشاع أو قل هو الذي غلب عليه ، كما يصور ذلك ديوانه : « محجة السالك وحجة الناسك » . على أن شعره الحميني يقترب من الفصحى اقتراباً شديداً .

وكانت تنزل عُمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية ، وبما هيأ للأخيرة النزول كثيراً أن حاكم هرمز الإيرانية أو قل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عان ، وكانت أحياناً تتبعهم ، فكثر نزول الإيرانيين بها ، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخيلة في لغة العمانيين اليومية ، وطبعي أن يتبع ذلك تغيرات في الألفاظ العربية ذاتها في بعض مقاطعها وبعض ضغوطها ونبراتها ، لذلك كان ابن بطوطة محقاً حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن « كلامهم ليس بالفصحى مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً لا تأكل ،

لا تمش ، لا تفعل كذا» . فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم ، أما لا التي ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائماً حين يطلبون من شخص شيئاً فأكبر الظن أنها لام الأمر حُرِّفَتْ ومُدَّت قليلاً أولعها لام التوكيد . وينبغي أن لا نظن من ذلك أن العمانيين كانوا قد هجروا الفصحى في عهد ابن بطوطة ، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية ، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعاً ، يتخذونها لغة للعلم وللشعر ، وكثيراً ما نقرأ في ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها في عُمان ، وقل ذلك نفسه في نَزْوَى وفي صُحَار وغيرهما من المدن .

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تنزلها ، وكان لذلك بعض التأثير في اللغة العامية التي نشأت هناك ، وإن كان لا يصل إلى تأثير الإيرانية في عامية عمان لأن الإيرانيين كثيراً ما نزلوا هناك وحكموها . وقد ظل البحرانيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما أعد لظهور شعراء مختلفين على مر الزمن طوال هذا العصر ، وكان سيل الشعركان لا يمكن رده ولا صدّه في أى إقليم عرني ، فهو دليماً زاد للعرب وعدة وعتاد .

ومعرفتنا بالحركة الشعرية في نجد قليلة ، ومع ذلك نستطيع أن نتعرف على أطراف منها من خلال من كانوا يرحلون عنها إلى الأفطار المجاورة ، إذ لم تكن وسائل حفظ الشعر عندهم مهياًة ، ونقصد وسائله الأولى من الأقلام والخبر والورق . وهؤلاء المهاجرون يدُلُّوننا على ما كان من نشاط شعري وراءهم ، وقد نشط الشعر في عهد بنى مزيد الأسديين الذين شادوا الحِلَّة على حدود العراق وكذلك في عهد بنى عُقَيْل العامريين حين هاجروا إلى الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ونفاجأ بنشاط واسع للشعر في نجد مع دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري .

## ٢

### كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التي تحدثنا عنها في أقاليمها المختلفة نشاطاً واسعاً في الشعر ، فقد كان الحكام دائماً يعنون بأن تحفَّ بهم جمهرة من الشعراء ، وخاصة في اليمن التي قامت فيها دويلات صغيرة تنافست في جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم . غير أن أخبار هؤلاء الشعراء في القرن الرابع الهجري قليلة ، وكان المظنون أن يترجم الثعالبي في اليتيمة وتمتمها لطائفة

منهم ، غير أنه لم يُعَنَّ بهم ، وإن كان قد ذكر أبا الحسن التهامي ، وستترجم له في غير هذا  
الموضع ، وجاء عنده ذكر شعراء قليلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق أو إلى إيران  
مثل ابن أبي مرةٍ المكي وينشد له قوله في أبي الفتوح أمير مكة الآتي ذكره<sup>(١)</sup>:

يَا سَيِّدًا فَدَيْتُهُ بِرُوحِي خَوَّلَكَ اللَّهُ أبا الفتوح

مُلْكَ سَلِيمَانَ وَعُمَرَ نُوْحَ

وإذا كان الثعالبي قصرَّ في الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخري  
المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عُني بهم في فاتحة كتابه «دُمِيَّة الْقَصْرِ وَعُصْرَةَ أَهْلِ الْعَصْرِ» إذ ترجم  
لطائفة كبيرة منهم ، مقدما لهم بقوله :

«إن أحسن أبيات الأشعار ما طلعت من أبيات الأشعار<sup>(٢)</sup> ، ورعت مع الطِّبَاءِ  
الشَّيْخِ ، وتزوَّدت مع الضُّبَابِ<sup>(٣)</sup> الريح ، مستغنية بحسنها عن التصنع والتعمل ، حلوة  
إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل . . وقد وقع لي من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء  
الرُّزَالِ ، وأرقُّ من الشَّمُولِ صُفِّقت بالشمال» .

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخري من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى في  
الجزيرة العربية ، فمنهم المكي والمدني والطائفي الثقفي واليمني ، ومنهم العامري والأسدي  
والبكري والطائي والغساني والرَّبَعي والشيباني والهمداني . وهم بذلك يمثلون الجزيرة في  
جميع أنحاءها غَرْبًا وشرقًا ووسطًا وشمالًا وجنوبًا\* وفي ذلك ما يؤكد أن الفصحى كانت  
لا تزال مسيطرة على الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولا تزال حية ناضرة  
على ألسنة العرب في نجد والحجاز واليمن ، كما توضح ذلك تراجم الباخري وما ساقه  
لأصحابها من أشعار ، وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحلاته إلى ما وراء البصرة وبغداد ،  
ومنهم من لقيه في هاتين المدينتين أو في مدينة الرِّيّ حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم نظام  
الملك الذي وفد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم . وجمهورهم لم  
يلقهم الباخري ، وقد روى أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأدباء المكيين والمدنيين الذين  
ذكرهم له أو عن بعض الأدباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل التيمي  
الجرجاني ، وهو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمى «قلائد  
الشرف» . وأول من ترجم له أبو الفتوح<sup>(٤)</sup> الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة المتوفى سنة

(١) تمة الينمة للثعالبي ٨٣/١ .

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخري الخيام العقد .

(٣) الضب : من الزواحف في نجد وذنبه كثير

(٤) انظره في العقد الثمين ٦٩/٤ .

المتخذة من أوبار الإبل رمزاً للبادية .

٤٣٠ للهجرة ، وقد أنشد له قوله :

وَصَلَّتْنِي الهمومُ وَصَلَ هَوَاكِ وَجَفَانِي الرَّقَادُ مِثْلَ جَفَاكِ  
وحكى لى الرسولُ أنكِ غَضَبِي يَا كَفَى اللهُ شَرًّا مَا هُوَ حَاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة ، وقد نسبها العماد فى الخريدة لابن أبى الفتوح شكر (١)

الذى خلفه على إمارة مكة إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وهو الذى حاك بعض بنى هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا ، كما مرّ بنا ، أنه تزوج الجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالي ، ثم حدثت بينه وبين عشيرتها مغاضبة ، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزيارة أبويها ، وذهب معهم إلى نجوعهم فى نجد ، فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهى معهم ، ومضوا فى رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا ، على نحو ما هو معروف عن رحلة بنى هلال المشهورة ، وظل لها بين جوانحه حب دفين ، وظلت تكلف به إلى أن ماتت وهى هائمة بحبه عاشقة . ويبدو أن بنى هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة ، إذ يجرى فيها خلل الإعراب كما يجرى فى بقية أقاصيص الهلالية ، وإنما نزع هذا الزعم ، لما رواه الباخري من أشعار النجديين فى هذا التاريخ ، وهى تدل على أن الخلل الإعرابى لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وفى تقديرنا أن ذلك إنما حدث فى القرون التالية مباشرة . ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله (٢) :

قَوْضُ خِيَامِكَ عَنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا وَجَانِبُ الدَّلِّ إِنْ الدَّلُّ يُجْتَنَّبُ  
وَارْحَلْ إِذَا كَانَ فِي الأوطانِ منقصةً فالمنْدَلُ الرُّطْبُ فِي أوطانِهِ حَطْبُ

والبيتان يصوران إباء العربى وشعوره بالكرامة ورفضه للضمم مها احتمل فى هذا الرفض من العناء الشاق . ويترجم الباخري لشاعر يسمى الجاشعى ويلقبه بشاعر الحرمين ، ويسوق له مدحة فى نظام الملك ، ويتلوه بأبى الحسن العبشمى المكى ثم بأبى الفضل جعفر بن الحسين الشيبى ، ويسوق له أبياتاً سمعها منه فى مديح بعض الوزراء ، كما يسوق له أبياتاً فى النسيب ، ويترجم لعم له يسمى جعفر بن يحيى الحكّاك وشعره متوسط . ويترجم الباخري بجانب هؤلاء الشعراء المكين لشاعرين من المدينة : خزرجى وأوسى ، ثم لشاعر من الطائف يسمى سليمان بن خضر ، وينشد له غزلاً رقيقاً . ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحجازيين شاعراً يمتدح يسلكه فيهم هو على بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن ، وكان فارساً ، وله أشعار جيدة فى تصوير فروسيته وفتكه بأعدائه فى القتال من مثل قوله (٣) .

(١) الخريدة (قسم شعراء الشام) نشر المجمع العلمى (٢) العقد الغين ١٦/٥ . والمندل : عود الطيب .

العربى بدمشق ١٩/٣ وانظر العقد الغين ١٥/٥ (٣) الخريدة (قسم شعراء الشام) ٢٢٥/٣ .

زَوَّجْتُ بِيضَ الْهِنْدِ سُمَّرَ رِمَاحِهِمْ فَرَعَوْهُمْ عَوَّضَ النَّثَارِ نِثَارُ  
وَكَذَا الْعَلَا لَا يُسْتَبَاحُ زَوْجُهَا إِلَّا بِحَيْثُ تَطَلَّقَ الْأَعَارُ

والنثار ما ينثر على العروسين في الزفاف من الدراهم والدنانير والورود ، وهو يتصور معاركه مع أعدائه أفرحاً ، نثارها رموس خصومه التي تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده ، ويقول إن هذا دائماً مهر العلا وصدقتها .

ويترك الباخري شعراء غربي الجزيرة إلى شرقها مصعداً إلى أقصى الشمال حيث إمارة بني عقيل العامرين الذين أسسوها في الموصل وبوادي نجد العراقية في القرن الرابع الهجري ، وترجم الباخري لأمر منهم هو قرواش بن المقلد الذي ولي الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميراً نحو خمسين عاماً إلى أن غلبه على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفي في سجنه ، كما مر بنا ، سنة ٤٤٤ ويقول المؤرخون : « كان كريماً وهاباً نهاباً » وكان يحسن صوغ الشعر وحوكه ، من مثل قوله الذي أنشده الباخري :

لِي أَشْقُرُ سَمْحَ الْعِنَانِ مَغَاوِرُ يُعْطِيكَ مَا يُرْضِيكَ مِنْ مَجْهُودِهِ  
وَمَهْنَدٌ عَضْبٌ إِذَا جَرَّدَتْهُ خَلَّتْ الْبُرُوقُ تَمُوجٌ فِي تَجْرِيدِهِ  
وَمَثَقَفٌ لَدُنُّ السَّنَانِ كَأَنَّمَا أُمَّ الْمَنَايَا رُكِبَتْ فِي عَوْدِهِ  
وَبَذَا حَوَيْتُ الْمَالَ إِلَّا أَنِّي سَلَّطْتُ جُودَ يَدِي عَلَى تَبْدِيدِهِ

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثاً عن آبائه ، وإنما هو ما أنعم به عليه فرسه الذي لا يُشَقُّ غباره في الغارات ، وسيفه القاطع المسلول دائماً للترال ورمحه الذي يفتك بالرجال ، وتلك أدوات جلبه للمال وسرعان ما تبده يده في الناس . وترجم الباخري لابن عم له يسمى أباجوثة ، ثم يهبط من الموصل وبواديها إلى بوادي الحلة بالقرب من الكوفة حيث إمارة بني مزيد الأسديين التي أسستها قبيلتهم بنو أسد في أواخر القرن الرابع الهجري ، وترجم لدئيس بن علي بن مزيد الذي ولي إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بني خفاجة ، واستنجد به قرواش ضد الغزحين أغاروا على بلاده ، فنجدته . وينشد له الباخري بيتين يدلان على شاعرية متوسطة بل على شاعرية ضعيفة

ويأخذ الباخري بعد ذلك في الترجمة لطائفة من شعراء نجد ، يتقدمهم بمحمد بن الجراح من قبيلة بكر ، وما أنشده له في كرم الضيافة الذي يشتهر به العرب من قديم قوله :  
لَا يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْنًا فِي مَنَازِلِنَا إِلَّا إِلَى ضَاحِكٍ مِنَّا وَمُبْتَسِمٍ  
ويطيل الباخري في الوقوف عند شاعر طائي ، هو أبو كامل تميم بن المفرج ، وفيه يقول :  
« كامل » وبالكمال قد كُنِّي ، وَإِذَا وُصِفَ تَمَامُ الْفَضْلِ فَتَمِيمٌ عُنِي ، وَنَاهِيكَ بِذَاكَ الْأَمْعَى .



ويذكر الباخري أنه مدح الوزراء في إيران ونال جوائزهم ، وأنه أبعد في الرحلة حتى غزنة . ولم  
بعض مدائحه وخمرياته ، وينشد له أشعاراً في الغزل تذوب رقة ، من مثل قوله :  
ودّعينا - إن كنت أزمعت - جاره  
زودى وامقاً أجداً ارتحالاً  
ما قصى في مقامه أوطاره  
لم يزل يحذر التفرق حتى  
حققوا يوم رامتين حذاره  
كان يكفيه - والحب فنوع -  
وقفه أو تحية أو إشارة  
كاعب في الحجال يمنعها الزو  
ر حياءً يصونها وغرارة  
ذات نعر كأنه حين يبدو  
عقد دُرّ أو أفحوان قراره

والأبيات تسيل عدوبة ورشاقة ، والألفاظ فيها ملتحة أوثق التحام ، وكلما قرأنا بيتاً فيها ،  
بل شطراً ، أحسنا بجمال اتساقه ، وأنه يتصل بسابقه اتصال ذوى الرحم والقرابة ، وما أجمل  
قوله : «الحب فنوع» فأى شيء يقنعه : وقفة أو تحية أو إشارة من بعيد . وقد عبّر عن حجابها  
وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيراً ظريفاً ، إذ ذكر أنها في الحجال والأستار داخل بيتها ، ولا يصونها  
الحجاب وحده ، بل يصونها أيضاً حياؤها وحجلها . والمعاني رقيقة رقة بالغة ، والصور جميلة  
وطبيعية ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، بل شاعر وامق يعبر عن حبه وهيامه تعبيراً حافلاً بالوجد  
والصباية دون أى أثر للحب الحسى المادى وأذرائه ، بل هو حب عذرى طاهر يخلو من كل إثم  
ووزر ، سوى اللوعة . ويترجم الباخري لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدوى ، ثم لشاعر ثالث  
همداني يسمى المنيع ، وينشد له قطعة غزلية في ابنة عم له تسمى ذؤابة شغفت قلبه حبا ،  
وفيها يقول :

كأن ذؤابة في القرّ تمشي ريب مَهَّا تَرْتَدِي بِالظَّلَالِ

وهي صورة بديعة ، إذ يصور صاحبتة وثوبها المفهفاه بمهارة في يوم قيظ شديد الحرارة ،  
وقد أوت إلى ظلال شجرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حمارة القيظ . ويمضى  
الباخري ، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم لشاعر عامري يسمى قيساً ، وكأما يعيد لنا ذكرى قيس  
مجنون ليلي ، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبتة ومعاهدتها من مثل قوله :

قفا صاحبي قليلاً علياً ولا تُعجلاني يا صاحبي  
وعوجاً على ظلل دائر لرياً وأين من العين رياً  
معهده لم يُبق صرف الزمان منها ومنى إلا شوبياً

«شوبياً» تصغير شيء بمعنى بقية قليلة ، بالضبط كما نستعملها في عامتنا المصرية ، وكأن لها  
أصلاً صحيحاً في العربية ، والأبيات تفيض بالوجد والحنين . ويترجم الباخري لشاعر شيباني

من مدّاح نظام الملك الوزير السلجوقي ولشاعر من بني عجل من شبان من مدّاحه أيضاً ،  
ويبدأ مدحته فيه بوصف الخمر . ويتبعها الباخري بثلاثة من الشعراء النجديين ، ويقف  
وقفة طويلة عند شاعر من اليمامة يسمى علي بن الأزهر ، ويقول : «مما سحر لبي من لب  
كلامه قوله :

ديارهم بالرقمتين سقيت	سحاباً من الوسمى ثم وليت <sup>(١)</sup>
وما لك في رى السحاب حاجة	فقد طالما من مقلتي رويت
وكم قد سبتني فيك من ذات برقع	بأحسن عين للمهاة وليت <sup>(٢)</sup>
أيا بأبي الفوران طنبت فيها	وأرض من الفورين كنت وطيت <sup>(٣)</sup>
وماء حللتيه وإن كان آجناً	وروض رعيت العشب فيه رعيت

والصورة في البيت الثاني بدیعة ، إذ ذكر ، بعد أن دعا للديار بالسقيا ، أنها ليست في حاجة  
إلى رى السحاب فقد طالما رويت من مقلتيه ، وقد سبته صاحبه بعينها وصفحة جيدها .  
ويذكر في البيت الرابع الفورين ، وهما موضعان باليمامة كثيراً ما التقيا فيهما ، وهتف مفديا  
الأرض التي وطئها قدماها وكل ما مرت به أو نزلت عنده من مياه ورياض . وفي البيت الخامس  
يشبع الكسرة في كلمة «حللتيه» فتمتد تاء التأنيث على نحو ما تمتد في عاميتنا المصرية . والكلمات  
محبوكة ، وكل بيت يستدعي ما يليه في سلاسة وعدوبة ، ويستطيب الماء الذي حلت به وإن  
كان آجناً متغيراً ، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها ، ويقول الباخري :  
« ما أحسن ما جمع بين قوله : «رعيت العشب» على الإخبار و «رعيت» على الدعاء » .  
ويستعجل الشاعر الركب معه في السير ، وينشأ بينه وبين صاحبه حوار طريف على هذا  
النظ :

فقلت لهم سيروا ولا تتروحو	فليس لنا وادي الغضا بميت
فقلت : ولم أمسيت تطوى بلادنا	فقلت أمرتيني غداة نهيت
وقد كنت لا ترضين منهم بما أرى	من الضيم لي فاليوم كيف رضيت
وأقسمت أن لا تقبل قول كاشح	كذوب فكم أقسمت ثم نسيت

والحوار مع صاحبه طبيعي ، ولكل بيت رفته وعدووته ودقته ، فلم يعد الغضا ميئاً صالحاً  
لها ، وقد أمرته بالمسير غداة نهته ، ولم تكن ترضى له بالضم والهوان فرضيت ، وكم أقسمت  
له وعاهدته أن لا تقبل فيه قول كاشح كاذب ، ولم يقل لها - كما لاحظ الباخري - نقضت

(٢) الليت : صفحة العنق .

(١) الرقة : جانب الوادي والروضة . الوسمى : أول

(٣) طنبت : أفت . وطيت : سرت فيها .

مطر الربيع .

العهد وحشت في يمينك ، بل قال لها متلطفاً « نسيت » القسم والعهد بل الأقسام والعهود . وهو لطف ورقة حسٌ ما بعدها رقة ، وترجم الباخري بعده لشاعر بدوى نجدى يسمى علي بن حسان ، وينشد له قوله :

سَقِيًّا لَأَيَّامِ التَّصَابِيِ      مَعَ كُلِّ خَرَعَبَةٍ كَعَابِ (١)  
إِذْ نَحْنُ نَرْتَعُ فِي الْهَوَى      وَنَجْرُ أَرْدِيَةَ الشَّبَابِ  
وَالدَّهْرُ عَنَا غَافِلٌ      كَالسَّيْفِ يَوْمُنُ فِي الْقِرَابِ

والأبيات سلسلة سائفة ، والصور والأخيلة فيها طريفة ، وخاصة الصورة الأخيرة التي صور فيها الدهر وكأنه سيف احتواه غمده ، فلم يعد يخيفهم ولا يرههم ، فالسيف في غمده ، والدهر بهمومه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين . وينشد له الباخري من قصيدة قافية :

وَحَقٌّ لِي وَجَدِي عَلَى شَادِنِ      أَدَقَّ جِسْمِي مِنْهُ خَصْرٌ دَقِيقٌ  
وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ فِي خَدِّهِ      أَنْ لَيْسَ فِي الْحَسَنِ لِهَذَا رَفِيقٌ  
فَكَلِمًا عَزَّيْبِي هَجْرُهُ      صَحَّتْ مِنَ الْوَجْدِ الْحَرِيقَ الْحَرِيقُ

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه ، وكأنما أعداه نحولاً وضئياً ، وما أجمل البيت الثاني الذي جعل فيه من الخد شاهداً يشهد بحسنه وجماله بل بتفوقه على كل حسن وجمال . والحب يكوى قواده ويلدعه ، وكأنه جمرات نار يصلى بها قلبه بل يحترق ، وهو ينادى ، الحريق الحريق . وترجم الباخري بعده لشاعر أسدى من شعراء المديح ولغنية بدوية تسمى أم كلثوم . وإنما أطلنا عرض شعراء البدو في الدمية لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة في الحقب الأولى من هذا العصر ، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو في القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادي كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء . ومن الغريب أن العباد الأصهباني وزير صلاح الدين الأيوبي وشاعره الذي عُني مثل الباخري بالترجمة لشعر العالم العربي جميعه لم يعن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفاً في خريدته إلا ما ذكره عن شعراء عُمَيْل أصحاب إمارة الموصل وبواديه ، أودعهم في قسم الشام والجزيرة ، وكذلك ما ذكره من شعراء بني مزيد الأسديين أصحاب الحلة وبواديها أودعهم قسم العراق ، وبالمثل أودع شعراء الحجاز واليمن في القسم الخاص بالشام ، أو قل أحقهم به ، ولم يعن أى عناية بشعراء عُمان والبحرين . وكتابه يُعدُّ المصدر العام الثاني بعد الدمية لشعراء الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الهجريين . وقد صنّفه في مطالع العقد الثامن من القرن السادس ، وهو يصرّح بذلك مراراً في تضاعيفه .

ولم يذكر العماد لبني عُقَيْل أصحاب الموصل وبوادي الجزيرة سوى مسلم<sup>(١)</sup> بن قريش ابن أخي قُرَواش الذي مر ذكره ، وهو أعظم أمراء هذه الأسرة سلطاناً ، إذ كان يستولى على ديار ربيعة ومصر في نجد . وملك حلب من بني مرداس ، وبذلك قضى على إمارتهم فيها نهائياً ، وأخذ الإتاوة من الروم . وكانت سيرته منذ ولى سنة ٤٥٣ من أحسن السير وأعددها ، وعمّ الأمن دياره ، وكان يصرف الجزية في جميع بلاده إلى الطالبين من أبناء علي بن أبي طالب . وكان هو وأهله شيعة إسماعيلية على مذهب الفاطميين ، ومما يدل على ذلك أن قرواشاً عمه خطب في بلاده للحاكم صاحب مصر ، كما يقول المؤرخون ، ثم رجع عن ذلك خوفاً من حُكَّام بغداد السلاجقة . وعنى هو وأفراد أسرته بنثر الأموال على الشعراء فأتوهم من بغداد وغير بغداد . وكان مسلم يجزل العطايا للشعراء ، وحين قصده ابن حيوس شاعر الشام وأنشده مدائح فيه بالغ في إكرامه . ويقول العماد الأصبهاني إنه أقطعه الموصل ، غير أن ابن حيوس لم يلبث أن توفى ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحُمِّل ذلك إلى خزانة مسلم فردّه ، وقال : لا يتحدّث الناس عني أنني أعطيت شاعراً مالاً ، ثم شرهت فيه وأخذته ، ويروى أنه لما ملك حلب هجاه بعض شعرائها ، فسأل عنه ، فقبل له : إنه من أهل قرية المعرة رعيتك ، فقال : أوصوا به الوالي ليحسن إليه ، وحذّروه أن يجني عليه ، فهذا لا يعرفنا ، ولو لم تكن له شكايه من والينا ما قال هذا القول<sup>(٢)</sup> . وفي ذلك ما يدل على حصافته وبعد نظره وحسن سياسته وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر ورفضه ، وله مكاتبات شعرية مع منصور بن دُبَيْس المزيدي أمير بوادي الحِجَّة وأنشد له العماد إحدى هذه المكاتبات ، كما أنشده شعراً شيعياً ، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية ، ويروى له<sup>(٣)</sup> :

وما كنتُ مِجْزَاعَ الفُؤَادِ وإنما فؤادى على يَبْنِ الحَبِيبِ جَزُوعُ  
وكانتُ سُلَيْمَى للمُحِينِ رَوْضَةً ووَصْلُ سُلَيْمَى رَوْضَةً وِربيعُ

والصورة في البيت الثاني بديعة وتدلّ على شاعرية جيدة . وكان طموحاً كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظاً ، وله في ذلك مهوياً من أهل عصره ومصرغاً :  
وإني لأَحْقِرُ هذا الزمانَ ولا سَيِّمًا أهلَ هذا الزَّمنِ  
يريدون نَيْلَ العلا بالمُنَى ونَيْلُ العُلا برغيبِ الثَّمَنِ  
وكانت وقفة العماد عند بني مزيدي الأُسديين أكثر طولاً ، وأول من ترجم له منهم بهاء الدولة

(١) انظر في ترجمة مسلم الخريدة (قسم الشام) (٢) الخريدة قسم الشام ١٢٨/٢ .

٢٥٥/٢ وابن خلكان ٢٦٧/٥ والنجوم الزاهرة (٣) انظر في هذين البيتين وما بعدهما هامش الخريدة في

ترجمة مسلم نقلا عن الوافي للصفدي .

منصور<sup>(١)</sup> بن دُبَيْس الذى خلف أباه على رياسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيلياً رافضياً مثل آبائه ، وله - كما ذكرنا آنفاً - مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه ، وظل على رياسة قبيلته الأسدية حتى توفى سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطاً أدبياً فى بيئتهما ، فقصدهما الشعراء بالمديح . وكان منصور يجيد الشعر وله فى رثاء صاحب له يُكنى أبا مالك :

فإن كان أودى خدُننا ونديمينا أبو مالك فالنائباتُ تنوبُ  
وكلُّ ابنِ أنثى لا محالة ميتٌ وفى كلِّ حىٍّ للمنون نصيبُ  
ولو ردَّ حُزنٌ أوبكاءُ لهالكٍ بكيناه ما هبتُ صباً وجُوبُ

وله فخر جيد . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة<sup>(٢)</sup> ، وهو الذى بنى مدينة الحِجْلَة لقبيلته ، كى تنتقل من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، وفيه يقول العباد : « كان جليل القدر ، جميل الذكر . له دار الضيافة التى يتفق عليها الأموال الألوْف . المعروف بإسداء المعروف ، وإغاثة الملهوف » وقد قصده الشعراء من كل فج ، وله قدم ابن الهبَّارية - كما مرَّ بنا - كتابه الصادح والباغم » الذى نظمته فى عشر سنوات على غرار كليله ودمنة . ونازل محمد بن ملكشاه السلجوقى سنة ٥٠١ وقتل فى المعركة ، ولما سمع نظام الملك وزير السلجوقيين فى الرىِّ خبر موته قال : مات أجلُّ صاحب عمامة . وكان فارساً شجاعاً عادلاً فى رعيته ، كما كان محسناً للأدب حافظاً أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين . ويقول العباد : كان يقبل على الشعراء ، ويمدهم بحسن الإيصاء وجزيل العطاء » وكان يرتب لهم سنوياً مكافآت ، كل حسب طبقتة . واستطاع ابنه دُبَيْس<sup>(٣)</sup> أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته ، غير أنه خرج على المسترشد مراراً وتفرَّق عنه جنده تكراراً إلى أن قتله السلطان المسعودى السلجوقى صبوا سنة ٥٢٩ وهو الذى يشير إليه الحريرى - كما مرَّ بنا - فى مقامته « العُمانية » واصفاً كيف أقبل الناس يشنون على أبى زيد ، حين سمعوا فصاحته ، يقول : « حتى كأنه الأسدى دُبَيْس » فى إقبال الناس وتراحمهم على رؤيته لشجاعته ، وكان شاعراً ، وأنشد له العباد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد :

حُبُّ علىِّ بنِ أبى طالبٍ للناس مقياسٌ ومعيارُ  
يُخرِجُ ما فى أصلهم مثلاً تُخرِجُ غِشَّ الذهبِ النارُ

(١) ترجمته فى الخريدة (قسم العراق) ١٥٧/١/٤ . ١٩٦/٥ .

وابن خلكان ٤٩١/٢ والنجوم الزاهرة ١٢٢/٥ . (٣) راجعه فى الخريدة ١٧٠/١/٤ والمنتظم ١٠/٥٢ .

(٢) انظر فى صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) وابن خلكان ١٦٣/١/٤ والنجوم الزاهرة ٢٦٣/٢ . ٢٥٦/٥ .

وابن خلكان ٤٩٠/٢ والنجوم الزاهرة

ولم يستقم لآل يزيد بعد دُبَيْس سلطان ، وأبدلت العزة بالدلة ، كما يقول العباد . ويترجم لأخيه بدران (١) ، ويقول إنه تغرب عن الحِلَّة ، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفي سنة ٥٣٠ . وروى له العباد أشعاراً يحنُّ فيها إلى الحِلَّةِ باكياً مجد آبائه ، وأخرى غزلية ، أو شيعية ، أو يذيب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله :

لا والذي قَصَدَ الحَجِيجُ عَلَى بُزْلِ وَمَا يَقْطَعَنَّ مِنْ جَدَدِ (٢)  
 لا كُنْتُ بِالرَّاضِي بِمَنْقَصَةٍ يَوْمًا وَإِلَّا لَسْتُ مِنْ أَسَدِ  
 لِأَقْلَقَانَ العَيْسَ دَامِيَةَ الِ أَحْضَافٍ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدِ (٣)

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارة آبائه . ولا يلقانا بعده شاعر لبني يزيد في الحلة ، وأغلب الظن أن قبيلة بني أسد عادت أو عادت معظمها إلى البوادي ، وكأنما كان ذلك كله دوراً نهضت به وانتهى بانتهاء بني يزيد وانتقاض سلطانهم .

ويترجم العباد لشعراء الحجاز وتهامة ويريد بها مكة ، إذ يطلق عليها اسم تهامة أحياناً ، وأول من يترجم لهم شكر بن أبي الفتوح ، وقد مرت بنا ترجمته عند الباخري . وتلاه بترجمة لجعفر (٤) بن محمد بن إسماعيل الحسني ، وقال إنه كان عارفاً بالنحو واللغة ، شاعراً يمدح الأكابر طلباً لرفدهم وعطائهم ، وقال نقلاً عن السمعاني إنه كانت في رأسه دعاوى عريضة خارجة عن الحد ، لا يرى أحداً في علم اللغة فوقه . رحل من الحجاز إلى العراق ، ثم دخل خراسان وأقام بها ، ثم عاد إلى بغداد وألمَّ بواسط والبصرة في سنة نيف وثلاثين وخمسمائة على عزم المسير إلى بلاد فارس ، وأنشد له العباد قطعتين : حائية ولامية ، ومن قوله في أولهما :

أما لظلام لَيْلِي مِنْ صَبَاحٍ      أما للنجم فيه مِنْ بَرَاكِ  
 كَانَ الْأَفْقُ سُدًّا فَلَيْسَ يُرْجَى لَهُ      نَهْجٌ إِلَى كُلِّ النَّوَاحِي  
 كَانَ الصَّبْحُ مَنْفَى طَرِيدٌ      كَانَ اللَّيْلُ بَاتٍ صَرِيحٌ رَاحٍ

ويتلوه العباد بأبي عبد الله (٥) محمد بن إبراهيم الأسدي الحجازي ، ويقول إن مولده بمكة ومنشأه بالحجاز ، وإنه لقي أبا الحسن التهامي شاعر مكة المشهور في صباه ، ويبدو أنه عمّر طويلاً ، إذ يقال إنه ولد سنة ٤٠١ وتوفي سنة ٥٠٠ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غزّنه ، وينسب له البيتان المشهوران :

(١) الخريدة ١٧٧/١/٤ وابن خلكان ٢/٢٦٤ . والعقد الثمين ٣/٤٢٨ وإنباه الرواة للقفطي ١/٢٦٦ .

(٢) البزل : جمع بازل وهو البعير القوي المتين ، (٥) انظره في الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣ والوافي

والجدد : الأرض المستوية . بالوفيات للصفدي ١/٣٥٦ والعقد الثمين ٣/٣٩٨ .

(٣) العيس : الإبل . والمتظم لابن الجوزي ٩/١٥٣ .

(٤) انظر ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٠ .

✠ قلت: ثَقَلْتُ إِذْ أُتِيتُ مَرَّارًا قَالَ: ثَقَلَتْ كَاهِلِي بِالْأَيَادِي

✠ قلت: طَوَّلْتُ قَالَ: لِأَبْلِ تَطَوَّلُ سَتَ ، وَأَبْرَمْتُ قَالَ: حَبْلَ الْوُدَادِ

وتداول البيتين كتب البلاغة ، إذ يصوران لوناً من ألوان البديع وهو القول بالموجب ٥ - وهو توجيه الكلام في الحوار وجهة طريفة ، تنفي ظاهره المراد . ويرجم العماذ عقبه لشاعر يسمى أبا بكر (١) محمد بن عتيق السوارقي الذي توفي بطوس سنة ٥٣٨ وأنشد له العماذ أشعاراً منها قوله :

✠ أَيَا سَاكِنِي نَجِدِ سَلَامًا عَلَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرْجُو إِيَابَا إِلَيْكُمْ  
✠ وَإِنْ كَانَ جِسْمِي فِي خُرَّاسَانَ تَأْوِيًا فَقَلْبِي بِنَجْدٍ لَا يَزَالُ لَدَيْكُمْ

ويرجم العماذ بعده لشاعر من خُدَّامِ سُدَّةِ الْمُصْطَفِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسمى كافوراً النبوي ، ويقول إنه رحل أيضاً عن المدينة ، وأوغل في رحلته حتى بُخَّارَى ، وينشد له العماذ بعض شعره ، ثم يترجم لشريف سليمان هو علي (٢) بن عيسى كان أبوه عيسى أميراً على الخلفاء السليمانى وقتله أخوه أبو غانم يحيى ، ففرَّ ابنه على إلى مكة ، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول العماذ : «وله تصانيف مفيدة وقريحته في النظم والنثر مجيدة» ويقول الففطى : «لما نزل الزمخشري مكة وجد بها الشريف على بن عيسى بن حمزة الحسنى فعرف قدره ، ورفع أمره وتلمذ عليه ، ونشَّطه لتصنيف ما صنَّف» وقد أُلِّفَ له تفسيره الكشاف المشهور ، وفيه يقول على مادحاً ومنوِّهاً :

جَمِيعُ قُرَى الدُّنْيَا سِوَى الْقَرْيَةِ الَّتِي تَبَوَّأَهَا دَارًا فِدَاءً زَمَخْشَرًا  
وَأَحْرَ بَانَ تَزَهَّى زَمَخْشَرٌ بِأَمْرِي إِذَا عُدَّ فِي أَسَدِ الشَّرِّ زَمَخَ الشَّرِّ (٣)

وينشد له العماذ طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة ويعرف أساليبها السوية الموثقة ، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإبائه الضميم ومروءته ، ومن قوله في رثاء بعض آبائه :

غَاضَ النَّمِيرُ الْعَدْبُ يَا وَارِدًا وَحَالَ عَنْ عَهْدِكَ ذَاكَ الزَّلَالُ  
وَيَرْجَمُ الْعَمَادُ عَقْبَهُ لِأَبْنِ عَمٍّ لَهُ يَسْمَى دَهْمَشَ (٤) بِنِ وَهَّاسَ ، يَظْهَرُ أَنَّهُ فَارِقُ الْخَلْفَاءِ السَّلِيمَانِي مِثْلَهُ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ ، فَتَرْجَمُ لَهُ الْعَمَادُ بَيْنَ أَبْنَائِهِمْ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ وَفَدَ عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ فِي

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٦/٣ .

(٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣٢/٣

والعقد الثمين ٢١٧/٦ . ومادة زمخشري في معجم البلدان

الثلثين ٣٦١/٤ .

لياقوت .

ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وهو على باب حلب ، ثم يتلوه بابن الریحاني (١) على بن الحسن المكي الذي وفد على صلاح الدين في سنة سبعين ، ويذكر له قطعة في مدح أمير المدينة قاسم الحسيني ، وفيه يقول :

سما بكرامٍ من ذؤابةِ هاشمٍ غطاريفَ صيدٍ ماجدين جحاجح  
 وبقانا بعد ذلك في مكة القائد سالم بن أبي سليمان ، وهو مغربي الأصل ، وينشد له العباد قصيدة في المديح لعيسى بن فليئة أمير مكة ، تزخر بالعقيدة الزيدية ، وسنعرض لها في موضع آخر ، حين نتحدث في الفصل التالي عن شعر العقيدة الزيدية . ويتنقل العباد من شعراء الحجاز إلى شعراء اليمن ، وترجم لأكثر من أربعين شاعراً منهم ، وهم يصورون ما بُتت دولات اليمن من نهضة شعرية في بلدانها ، وكان كثير من أمراء هذه الدولات شاعراً ، وترجم العباد لأربعة منهم ، هم علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ، وجياش أمير آل نجاح حكام زبيد وحاتم بن أحمد الحمداني أمير صنعاء والمهدى بن علي بن مهدي أمير زبيد الذي قضى على دولة آل نجاح . ومر بنا حديث عن الصليحي عند الباخريزي ، وكان جياش شاعراً مجيداً ، ويروى أن ابن القيم شاعر اليمن في عصره أرسل إليه عاتباً (٢) .

يأبها الملكُ الذي خَرَّتْ له غَلْبُ الملوكِ نواكسَ الأذقانِ  
 أترى الذي وسِعَ الخلائقَ كلَّها يابنَ النصيرِ يضيقُ عن إنسانِ

فأجابه جياش :

لا ، والذي أَرَسَى الجبالَ قَواعداً ذى القوَّةِ الباقي ، وكلُّ فانٍ  
 ما إن يضيقُ بِرَحْبِنَا لك منزلٌ ولو أَنَّهُ في باطنِ الأَجفانِ  
 ويشيد الشعراء طويلاً بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بني زريع والأمراء الزيديين وأئمتهم . ومن ترجم له العباد من شعراء الصليحيين ابن القيم وعمارة اليمنى وسنخص كلا منهما بكلمة في حديثنا عن شعراء الإسماعيلية . وبالمثل ترجم لشاعر إسماعيلي ثالث من شعراء الصليحيين هو عمرو بن يحيى الهيشمي شاعر الداعي علي بن محمد الصليحي . ومعروف أن آل زريع حكام عدن خلفوا الصليحيين حين انتهت دولتهم بموت الملكة الحرة أروى سنة ٥٣٢ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلمهم وأموالهم ، كما صاروا هم القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، وترجم العباد لشاعرهم أبي بكر العيذي وسنخصه بكلمة بين شعراء المديح . وشعراء زبيد ودولة آل نجاح كثيرون ، وعلى رأسهم جياش كما

(١) انظره في الخريدة (قسم الشام) ٣/٣٢ والعقد .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٢٤ .



أسلفنا ، وله فضل تخليد أسمائهم في كتابه « المفيد في أخبار زبيد » والكتاب مفقود ، غير أن عمارة اليمنى كتب له مختصراً كما مرّ بنا وهو الذي رجع إليه العماد في الترجمة لجمهور شعراء اليمن ، وأول شاعر بارع يلقانا منهم زكريّ<sup>(١)</sup> بن شكيل وله مدائح بديعة في جيش ، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة ، وفيه يقول :

اسْقِي الرِّاحَ إِنِّهَا تَجْلِبُ الرُّوحَ حَ وَرِيحَانَهَا إِلَى الأرواحِ  
بَزَلُوهَا فامتدَّتْ مِنْهَا لِحْوُ اللِّ يَلُ نُورٌ أغْنَى عَنِ المصباحِ<sup>(٢)</sup>  
ما يُزِيلُ الهمومَ مِثْلُ اصطباحِ فِي صَباحِ لَدَى وَجوهِ صَباحِ  
إِذ تَرى الدَّيْكَ كالبَعيرِ ، وَكالأرِّ ضِ السَّمواتِ ، أَوْ فَإِنَّكَ صَاحِ  
وَأَرَعَ عَيْنِكَ فِي عَيونِ مِنَ الزَّهرِ بِرِ جِلاها نُورٌ كَنُورِ الأَفاحِ  
شَفْتاها نُفْلَى وَماءِ ثَنابِيا هَا عُقارى وَخَدُّها تُفَاحِ<sup>(٣)</sup>  
هذه الجَنَّةُ التي وَعَدَ اللّهُ هُ وما عَن نعيمها مِنْ بَراحِ

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة وخفة وتكاد تطير عن الأفواه طيراناً ، والألفاظ تتداخل فيما بينها تتداخل أفراد الأسرة المتشابهين في الرحم ، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرهما أى الوجوه المشرقة المضيئة . وصور خدر الخمر في البيت الرابع تصويراً جيداً ، وأحكم مراعاة النظر في البيتين الخامس والسادس ، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأفاحى ، كما قرن الشفاه والرضاب والخدود إلى النفل من الفستق وغيره والخمر والتفاح ، وسمى ذلك كله الجنة ، مبعداً في الخيال . ولقانا بعده من شعراء آل نجاح القاضي العثماني<sup>(٤)</sup> ، وله في الصليحي حين فتك به سعيد بن نجاح هجاء مرير ، وساق له العماد خمريتين ، يتاجن فيها ، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أرنبا ، وأما الثانية فيستوفي فيها ما سبقه إليه أبو نواس من فكرة العفو الإلهي عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة ، يقول متاجناً :

قَمِ فَاسْقِنِي بِالكأسِ مِنْ تلكِ التي أَهلُ النُّهى فِي وَصَفِها قَدِ حاروا  
واشربْ ولا يَلْحَقُكَ خَوْفُ عَقوبَةٍ فِيها فَرَبُّ حِسابِها غَفَّارُ

ويترجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جيش ، وأهم من ترجمته ترجمته لبنى أبي عقامة قضاة زبيد في عهد آل نجاح ، وفي مقدمتهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي عقامة

المشهيات .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٨/٣ .

(٤) انظر الخريدة (قسم الشام) ٢٣١/٣ ولعله

(٢) بزل الدن : ثقبه .

(٣) العقار : الخمر . النقل : ما يرافق الشراب من

الشريف العثماني المذكور في طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٧

الحفائلي (١) الذي قتله علي بن مهدي حين دانت له زبيد سنة ٥٥٤ وينشد له العباد أشعاراً رائعة ، منها قوله في مديح قوم راحلين :

وللُعلا نحوكم حَاجٌ وأوطارُ	للمجدِ عنكم رواياتٌ وأخبارُ
كأنكم لبقاع الأرض أمطارُ	تشاققكم كلُّ أرضٍ تنزلون بها
وأين سِرِّمٌ فدَمَعُ المُنْزِ مِدرارُ	فحيث كنتم ففُغِرَ الرُّوضُ مبتسماً
حلَّ النَّدى ويسير الجود إن ساروا	لله قومٌ إذا حلُّوا بِمِثْلَةٍ
كذلك الفلكُ العُلويُّ دَوَّارُ	لا يُعْجِبُ النَّاسَ منكم في مسيركمُ
فيها يَحِيْمُ فَهوَ الدَّهْرُ سَيَّارُ	والبدرُ مذ صَبِيحٌ لا يَرْضَى بِمِثْلَةٍ

وهو مديح رائع ، فالجد لا يزال يروى أخبارهم ، ولا يزال للعلا منهم أمانى موصولة ، وكل أرض تشاققهم وتتلهم عليهم ، كأنهم غيث جدُّها المُمُحَل ، وكل مكان ينزلون يصبح روضاً مشرقاً ، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون ، بكوا شائلهم وكرمهم الذي يتبعهم أينما حلوا وساروا . وتصويره في البيتين الأخيرين لهم في رحيلهم بالفلك الدوار والبدر السيار تصوير دقيق يارع . ومن شعره في الحداثة قوله يصف روضة :

كأنا سُرِقْتُ سِيراً من الزَمَنِ	وروضةٍ مارأى الرءاون مُشْبَهَهَا
يجرى من الروح مَجْرَى الروح في البدَنِ	عَيْمٌ وظِلٌّ وروضٌ موقنٌ وهوى
رَقْصُ الغصون على إيقاعها الحَسَنِ	عَنَّتْ بها الطَّيْرُ أَلحاناً وساعدها
فيها ولا نغامت العود في أذني	لقد سكرتُ وما الصهباءُ دائرةٌ

وتصوير فنتته بالروضة تصوير جيد ، فقد تصور كأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدري لما يرى فيها من اجتماع جبال الطبيعة وجبال صاحبتها التي تأسر لبه ، ويتخيل الروض كله من حوله يتغنى ويرقص ، تتغنى فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانقة مرة ومنفرجة مرة ، وهو مسلوب الحس فنتة وجالاً ، حتى لكأتما هو في مشهد غناء ورقص حقيقى . وكل شيء من حوله يأخذ بعقله . ويترجم العباد لابن مكرمان ، وهو شاعر زيدى ، سنعرض له في حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها ، كما يترجم لشاعر خارجى من شعراء علي بن مهدي هو ابن الهبيني ، وسنلم به في حديثنا عن شعراء الخوارج ، ويترجم أيضاً لنشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عنيف بأصوله اليمينية ، وستحدث عنه بين شعراء الفخر والهجاء . ووراء من سميناهم من شعراء اليمن في الخريدة كثيرون لم نعرض لهم ، لأن شعرهم متوسط

والنجوم الزاهرة ٣٣٠/٥ .

(١) راجع في ترجمة محمد بن أبى عقامة الخريدة

(قسم الشام) ٢٤٠/٣ . وطبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠

أودون المتوسط . ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالخريدة عن عرض المختصر في أخبار زيد لعمارة اليمنى الذى أشرنا إليه آنفاً ، لأن الخريدة تستغرقه .

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائها حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منتصف هذا القرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى وبه شعراء ممن جاؤوا بمكة كثيرون ، وبه مكِّيون ، ولدوا فى مكة ونشئوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها ، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية فى حكام مكة وأمراءها الزيديين . وتكثر المدائح النبوية فى هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو فى المدينة ، ولهم غزل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفى . ولى هذا المصدر فى الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم فى مكة لأكثر من ثلاثين شاعراً من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، وأكثر أشعارهم مدائح لأمرء مكة ، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السالفين الناشرين ويلاحظ ذلك ابن معصوم فى غير موضع من كتابه ، كما يلاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع وللتعبير عن التواريخ . وتكثر فى أشعارهم المدائح النبوية (والمناجيات) الإلهية . ومثلهم شعراء المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم ، وهم أربعة عشر شاعراً وتجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوييت . ويلقانا بعض شعراء الحجاز فى كتاب ريحانة الألبا للخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة ، وألف ذيل له المحبى سماه نفحة الريحانة ، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبى أيضاً كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى وكتاب تاريخ الجبرتى ، ففيهما بعض تراجم لمكيين ومدنيين .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بعد من ترجم لهم العماد فى خريدته وجدنا توران شاه الأيوبى يفتتحها سنة ٥٦٩ ويزيل منها الدويلات التى تحدثنا عنها آنفاً ، ويتحول شعراء اليمن إلى مديحه وفى مقدمتهم أبو بكر العيلى شاعر دولة الزُرَّيعيين . ويتولاها بعده أمراء من أسرته ، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر ، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفى مقدمتهم أبو الغنائم الشيزرى ، ولخزانه وباسمه ألف فى اليمن كتاب «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب ، وختم كل كتاب ببعض أشعاره فى مديح المسعود . وكان قد حج الأمير المسعود فى سنة ٦٢٥ وأتاب عنه عمر بن على بن رسول ، وتوفى بمكة ، فانتهاز الفرصة عمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بنى رسول التى ظل

لواؤها مرفوعاً على اليمن من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أرخ على بن الحسن الخزرجي تاريخاً بديعاً لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهى السنة التى توفى فيها السلطان الأشرف ، وتاريخه فى مجلدين ، وهو كما قلنا فى غير هذا الموضع تاريخ حضارى وسياسى وأدبى ، إذ عُنِيَ بوصف احتفالات الرسوليين وأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نُظِمَ فيها من أشعار ، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدائه ، فعمر بن على بن رسول الذى تلقب بالملك المنصور معه شاعره محمد بن حمير الذى لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائح ، ومع ابنه المظفر شعراؤه : ابن حمير وابن هُتَيْمِلْ وأضرابهما ، وبالمثل من خلفهما من السلاطين . ويلقانا بعد الخزرجي وكتابه العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ابن الدَّبِيعِ وكتابه قرة العيون ، وفيه حديث مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم ، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغورى ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الأول ، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامراً وقتلوه وقتلوا أخاه ، وفى رثائهما يقول عبد الرحمن الدَّبِيعِ :

أخلاقى ضاع الدين من بعد عامر وبعد أخيه أعدل الناس بالناس  
وينزها العثمانيون سنة ٩٤٥ ويظنون بها نحو قرن. وتتحول اليمن إلى الرسيين أصحاب  
صعدة ، وينزها العثمانيون ثانية سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م ويظنون بها حتى سنة ١٣٣٦ هـ /  
١٩١٧ م . وكل المصادر العامة التى ذكرناها للشعراء فى الحجاز تفرد فصولاً طويلة لشعراء  
اليمن ، ومرّ بنا ذكر كتاب «نسمة السحر فيمن تشيع وشعر» وهو كتاب نفيس غير أنه لم  
يطبع . ومن الكتب التى تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء فى اليمن كتاب سلافة  
العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الريحانة للمحجى وكتاب البدر الطالع للشوكاني وكتاب  
نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الألف حتى سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م لابن زبارة الصنعاني  
وكتاب الخلاف السلياني لمحمد بن أحمد العقيلي ، وشعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ،  
غير الدواوين المطبوعة مثل ديوان ابن هُتَيْمِلْ وديوان البرعى وديوان مدائح الهية لمحمد بن  
إبراهيم الوزير وديوان الأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل .

والمحضرموت نشاط شعري غزير . وقد استطاع السيد عبد الله السقاف أن يؤلف  
كتاباً من ثلاثة أجزاء فى تاريخ الشعراء الحضرميين ، وهو يشتمل من شعراء هذا العصر  
الذى تؤرخ له على نحو مائة وعشرين شاعراً ، ويقول فى مقدمته : «لا أكتف أن شعراء  
حضرموت ليسوا فى رتبة المجيدين من الشعراء ولا المفلحين . . ولما كانت حضرموت تسودها  
الروح الصوفية والترعة الفقهية فإنك ترى على شعرهم طلاء صوفيا ومسحة فقهية ، ومع هذا

الطلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء ، وإن لم يكونوا من المجيدين غالباً .  
ولعل السيد السقاف بالغ في حكمه حين جعله عاماً ، ومما لا ريب فيه أن بين من ترجم لهم شعراء نابهين يمكن أن يُعدّوا في رتبة المجيدين ، مثل أبي بكر العيدروس وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتصوفين ، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من الشعراء الممتازين في الجزيرة العربية لهذا العصر بعامة وستترجم له بين شعراء المديح . ولم يترجم السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضي الخارجي في حضرموت ، ومن أهمهم أبو اسحق الهمداني وستترجم له في الحديث عن شعراء الإباضية .

ولم يكن للشعر في عمان هذا النشاط جميعه الذي رأيناه في حضرموت ، ولكن لا ريب في أن الشعراء كانوا كثيرين في هذا الإقليم كثرتهم في الأقاليم الأخرى ، ومن يلقانا منهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري أبو علي أبنون الجوسى الملقب بالكافي العماني ، وقد ترجم له الباخري في دمية القصر (١) ، وأشد طائفة جيدة من شعره ، ويذكر من ترجمته عن الفارسية قوله :

وصَحْرَاءَ رَدَّتْهَا الطُّبَاءُ حَفَائِرًا      بِأُظْلَافِهَا أَحْبَبَ بِهَا مِنْ حَفَائِرِ  
فَهَيْتُ رِيَّاحُ لِلصَّبَا فِلَانَهَا      بِمَسْكِ فَعَادَتْ نُزْهَةً لِلنَّوَاطِرِ

وقد عني نور الدين السالمي في كتابه تحفة الأعيان سيرة أهل عمان بعرض نماذج من أشعارهم على مر الحقب ، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر . وكان للخوارج في نزوى شعراؤهم وأيضاً للدول السنية حين كانت قائمة في عمان ومسقط شعراؤهم ، فقد شجع بنو مكرم وبنو نهبان الذين خلفوهم الشعراء ، واشتهر للأخيرين شاعر عني بمدحهم هو أحمد بن سعيد الخروصي الستالي وستترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأخرة من زمنها شاعر هو سليمان النبهاني ، وستترجم له بين شعراء الفخر ، ومن شعراء الخوارج الحبسي شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضي (١١٠٤ - ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذي خلف الإمام السابق ، ومن شعره (٢) :

ولما بلوتُ الناسَ لم أرَ صاحباً      أخوا ثقةً في النائبات العظام

وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيديين إذ خلصوها من أيدي اليعاربة سنة ١١٥٤ هـ وظلوا في دست الحكم إلى اليوم ، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان ، وكان شاعراً مجيداً ، وله يتغزل (٣) :

(١) دمية القصر ٩٨/١ .

إطفيش الجزائري ٩٣/٢ .

(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بعناية إبراهيم (٣) التحفة ١٦٦/٢ .

يامن هواه أعزه وأذلني  
وتركتني حيراناً صباً هائماً  
عاهدتني أن لا تميل عن الهوى  
جاء الزمان وأنت ما واصلتني  
واصلتني حتى ملكت حشاشتي  
لما ملكت قياد سري بالهوى  
كيف السبيل إلى وصالك دلتني  
أرعى النجوم وأنت في نوم هني  
وحلفت لي يا غصن أن لا تنثني  
يا باخلاً بالوصل أنت قتلتني  
ورجعت من بعد الوصال هجرتني  
وعلمت أني عاشق لك خنتني

والآيات جيدة والألفاظ فيها تتعاقب في خفة والمقابلات بارعة ، والصور دقيقة ، وقد أكمل صورة العُصْنِ بانشائه كناية عن جفاء صاحبه وإقبالها على غيره . وهو يأسي لنفسه أنها هجرته بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه ، وإنه ليتعثر في شباك حبها ، بينما انصرفت عنه إلى غير مآب ، وعلى هذا النحو كان الشعر ناشطاً في عهد البوسعيديين ويلقانا من شعرائهم بأخرة من العصر أبو الصوفي سعيد بن مسلم .

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشراء طوال حقب هذا العصر ، ومن أوائل من تلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذي ولي أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومربنا حديث عنه وكيف أنه حارب الفاطميين تحت ألوية الخلافة العباسية ، وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره قوله :

إني امرؤ ليس من شأني ولا أدبي  
ولا اعتكافٌ على خميرٍ ومخمرةٍ  
وتوفي بالرملة في فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر (٢) بن أبي الفتح كشاجم كاتباً بين يديه ، وكان شاعراً حسناً ، وأنشد له الثعالبي في اليتيمة طائفة من أشعاره في الأطعمة وألوانها المختلفة لعصره ، ومن قوله في وصف كتاب :

وصاحب مؤنيس إذا حَضراً جالسني بالملوك والكبرا  
جسمٌ مواتٌ تحياً النفوس به  
يَجِلُّ معنى وإن دنا خطراً  
أظلل منه في مجلسٍ حَفَلٍ بالناس طراً ولا أرى بشراً  
وسرعان ما انتهى عصر القرامطة وخلقهم بنو الأصفر ، ولا يظنون طويلاً ، ويعقبهم بنو العيونى منذ سنة ٤٦٦ ويعملون على النهوض بالبحرين علمياً وأديباً ، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو علي بن مقرب العيونى ، وستترجم له بين شعراء المديح . ويختلف

(١) تأويد : انعطاف . وانظر في الأعصم وشعره ابن (٢) انظر ترجمته في اليتيمة ٢٨٥/١ .

الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٦١٤/٨ وما بعدها .

العيونيين - كما مر بنا - بنو عصفور وبنو جبر العقيليين ، وتظل النهضة الشعرية مستمرة ويستولى البرتغاليون بأخرة على البلاد في سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون في سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر في كتب التراجم الأدبية التي ذكرناها في حديثنا عن شعراء الحجاز ، وخاصة في «سلافة العصر» و«نفحة الرحمان» . ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظنون يحكمون الأحساء حتى يستولى عليها السعوديون في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، ومن الكتب التي تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو ، وقد أنشد شعراً كثيراً من منظومات لهم نحوية وفقهية . ومن الشعراء في أواخر العصر على نقي الأحسائي وهو شعبي إمامي وله ديوان مطبوع ومؤلفات مختلفة في العقيدة الإمامية .

## ٣

## شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة في جميع أقاليم الجزيرة ، وقد عرض الباخريزي في دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد في الوزير نظام الملك السلجوقي ، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلباً للنوال ، وخاصة من هذا الوزير الذي غمر الشعراء بجوائزهم وعطاياهم ، وللهدّاب بن دَهْمَم الشيباني من قصيدة في مديحه (١) :

ما خلق الله تعالى وجلُّ مثلَ وزيرِ الوزراء الأجلِّ  
أروغ كالنَّصل ولكنَّهُ أمضى من النَّصل إذا ما يُسلِّ

وقد بعث بنو عقيل في الموصل وبواديه حركة أدبية ظلت مزدهرة طوال حكمهم ، مما جعل شعراء إقليمهم يديجون القصائد في مديحهم ، وقصدهم الشعراء من العراق والشام ، وفي مقدمتهم أبو علي بن الشبل البغدادي مادح قرواش والمشيد بنصره على الغرّ بمثل قوله (٢) :

نَزَّهْتَ أَرْضَكَ عن قبورِ جُسومهم فغدتُ قبورهم بطونَ الأنسرِ  
ومن شعراء قرواش الطاهر (٣) الجزري . وكان مسلم بن قريش - ابن أخيه - ينثر الأموال نثراً على الشعراء فجاءوه من كل فجٍّ وفي مقدمتهم ابن حيوس شاعر الشام ، وبلغ من إعجابه بمدائحه فيه أن أقطعهم - فيما قيل - الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وله يقول من قصيدة طويلة (٤) :

(٣) انظره في دمية القصر ١/١٢٦ .

(١) دمية القصر ١/٦٠ .

(٤) خريدة القصر للهاد (قسم الشام) ٢/٢٥٧ .

(٢) ابن خلكان ٥/٢٦٣ - ٢٦٤ .

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استجمعتُ يَفْنَى الزمانُ وذَكَرْها لم يَهْرَمِ  
 كراماً يُبِيحُ حِمَى الغنَى ومَأْتِراً وَضُحاً تَبِيحُ بلاغَةً للمُفْحَمِ  
 ولم يكن بنو مزيد الأسيديون في الحلة وبواديهما أقل اهتماماً بالأدب والأدباء من بنى عقيل في  
 الموصل وبواديه ، وكانوا قريين من بغداد ، فكثرت إلام الشعراء بديارهم لأخذ جوائزهم ، غير  
 من كانوا يَنشِثون بينهم وفي مقدمتهم علي<sup>(١)</sup> بن أفلح العَبَسى الشاعر ، ويقال إنه  
 كتب بين يدي دُيس بن مزيد في شببته . وكان ابنه منصور ممدحاً ، ومن مدّاحه  
 البندنجي<sup>(٢)</sup> الشاعر البغدادي ، ومحمد<sup>(٣)</sup> بن خليفة أبو عبد الله السَنبسى ، وكان  
 ابنه سيف الدولة صدقة مفرغاً للشعراء . وكان السنسبى شاعره الأثير وله فيه مدائح مختلفة ،  
 ومن مدّاحه أيضاً المطاميرى<sup>(٤)</sup> وأبو طاهر<sup>(٥)</sup> البغدادي وابن أبي الجبر<sup>(٦)</sup> . ومن زار الحلة عاصمة  
 الزبيديين ومدح أمراءها الأبيوردى الشاعر الإيراني المشهور . ويغمر نجداء وراء دولتي المزديدين  
 والعقيليين الظل ، فلانكاذ نبيّن شيئاً من أخبار شعرائها ، حتى تلقانا دعوة محمد بن  
 عبد الوهاب وأصدائها في الشعر والشعراء .

ومن يرجع إلى كتاب العقد الثمين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة  
 والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح في سلافة العصر لابن معصوم و«نفحة الريحانة» وفي  
 كتب التراجم المتأخرة ، وكانت الإمارة في مكة زيدية شيعية وفي المدينة إسماعيلية على  
 الأقل في الحقب الأولى وسنفرد لشعراء هاتين النحلتين في الجزيرة دراسة خاصة في الفصل  
 التالي :

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر ، وكان لتنافس الإمارات والدويلات  
 الكثيرة في أوائله أثر بعيد في ذلك ، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء ليكونوا  
 دعاء لها ، وفي سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم في العطاء ، وتلقانا فيه إمارة الزبيديين في  
 صعّدة ، وستحدث عن شعرائها في الفصل التالي . وبالمثل إمارة الصُلَيْحيين الإسماعيلية  
 كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم في الفصل التالي أيضاً . وقل ذلك نفسه في إمارة بنى  
 مهدي الخوارج فستحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم . وربما كانت أهم إمارة عُتبت  
 بالشعر في القرن الخامس إمارة آل نجاح في زبيد ، وكان جياش (٤٨٢ - ٤٩٨ هـ) أهم  
 أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنّف فيهم كتابه «المفيد» الذي مرّ بنا

(٤) الخريدة ، القسم العراقي ١٩٥/٢ .

(١) انظره في الخريدة القسم العراقي ٥٢/٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٢) الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .

(٦) نفس المصدر ٥٢٥/٢/٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٩ .



ذكره ، ويذكر عمارة في المختصر الذي صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخيم  
وعدة مجلدات تجمع نثراً ونظماً ، ومن أهم شعرائه زكري بن شكيل المازّ ذكره ، وفيه  
يقول من مدحة طويلة (١) :

المُشْتَرَى حُلَّ النَّاءِ بما حوتْ كَفَّاهِ والحامى لها أن تُشْتَرَى  
والموقدُ النَّارينِ : ناراً للوغي لا تَنْطَفئُ أبداً وناراً لِلْقِرَا

وكان بنورزُبع في عدن مورداً عذبا للشعراء ، وكانوا إسماعيلية ، وكان كل من تولى منهم يسمى  
نفسه الداعي أى للمذهب الفاطمي ، ولذلك سنوخر شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء  
المذهب الإسماعيلي في اليمن . وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى  
توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ على اليمن إلى أن تخلوا عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن  
علي بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية ، ومن طريف ما تقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبي  
بكر العيَدي يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول (٢) .

أعساكراً سَيَّرْتَهَا وجنوداً أم أنجماً أَطْلَعْتَهُنَّ سَعُوداً  
أم تلك ماضية العزائم أُرْهَفَتْ بالرأى منك وجُرِّدَتْ تجريداً  
أم تلك أقدارُ الإله ونصره رفعتُ عليك لواءها المعقودا

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود ، وهو آخر من حكمها منهم ، وكان يصحبه  
أمين الدولة أبو الغنائم الشيرزي وصنف له كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» كما مرّ ،  
وهو منتخبات شعرية ونثرية ، وكان شاعراً . ويؤسس نور الدين عمر بن علي بن رسول منذ سنة  
٦٢٦ دولة أسرته الرسولية ، ويبعث هو وأسرته في اليمن نهضة شعرية ، بجانب ما بعثوا من  
النهضة العلمية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع . ويكثر مادحوه من الشعراء في الأعياد وفي  
المناسبات المختلفة حين ينتصر في بعض المعارك ، وحين يفضى إلى بعض مجالس أنسه وشرابه ،  
ولأبي الغنائم الشيرزي فيه مديح (٣) يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير  
عنده محمد (٤) بن حمير ، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين يديه بعض مدائحه من  
مثل قوله (٥) :

قد قيل جاورُ - لَغَنَى - البَحْرُ أو ملكا أنت المليكُ وأنت البحرُ يا عمرُ  
ما حلز ما حَزَّتْ لا عَرَبٌ ولا عَجَمٌ ماشاد ماشِدَتْ لا جِنَّ ولا بَشَرٌ

(٤) الخزرجي ١١٠/١ وفي مواضع متفرقة .

(٥) الخزرجي ٨٧/١ .

(١) الخريدة قسم الشام ٢١٩/٣ .

(٢) تاريخ نغر عدن لباخرمة ٣٧/٢ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٣٦/١ .

إذا الجدودُ بهم أبناؤهم شرفوا أوفأخروا فبك الأجداد تفتخر  
عزوا بعزك أولاهم وآخروهم كما بأحمد عزت كلها مضر  
ويقول الخزرجي : كان ابن حمير أوجد شعراء عصره وقد توفى سنة ٦٥١ وبذلك لحق  
عصر المظفر الرسولي (٦٤٧-٦٩٤ هـ). وشاعره غير مدافع القاسم بن هيثم ، وسنخسه  
بكلمة ، وتكثر تهنئات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم بعد أبيه ، وكان كلما أهلَّ  
عليه عيد أو انتصر في موقعة حربية أكثروا من مديحه وتهنئاته ، ومن المحقق أن كثيرين منهم  
كانوا يرددون معاني الشعراء العباسيين النابيين من أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبي ، ومن  
الطريف في هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين - وهو ابن دَعَّاس - كان معاصروه من  
أهل زيد يرمونه بسرقة الشعر ، ويقولون - متندررين عليه - إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى  
بابن دعاس للحساب ، فيعترف بسرقاته من سابقه ، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر  
لفلان وهذا العجز لفلان ، وبذلك يخرج بريئاً . ويذكر له الخزرجي مدحة في المظفر يصفها  
بأنها باهرة ، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه افتتحها بقوله :

ليس في قدرة ولا إمكان نيل ما نلت يامليك الزمان  
ويقول إنه لابن الحجاج البغدادي (١) ، ويعرض الخزرجي في أثناء حديثه عن السلطان المؤيد  
(٦٩٦-٧٢١ هـ) أسماء جماعة من شعرائه ومدائحهم فيه ، وفي مقدمتهم العنسي والعمري  
عبد الله بن جعفر من مثل قول الأخير (٢) :

ساد الملوك فلا تكون مثاله أبد الزمان ولا يكون مثاله  
وحوى الخلافة لم تكن إلا له طول الزمان ولم يكن إلا ها  
ومن الرسوليين الممدحين الأشرف إسماعيل (٧٧٨-٨٠٣ هـ) . ومن مدائحه الخزرجي  
صاحب العقود اللؤلؤية ، وله فيه مدحتان أولاهما في بيان (٣) ازدهار الدراسات الدينية التي  
أقامها السلطان الأشرف في الجامع المبارك الأشرفي ، وقد مضى الخزرجي يسمي  
القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب  
والجبر ، والثانية (٤) في وصف الاحتفال بختان أبناء الأشرف وتهنئته والإشادة بملكه وفتوحاته  
وأبجاده . ونمضى إلى عصريني طاهر غير أنهم لا يُعنون بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعني  
الرسوليون ، وبانتهاء دولتهم ، يُظللُ اليمن حكم الزيديين أصحاب صعدة ، وسنخسهم بحديث  
مستقل .

(٣) الخزرجي ٢/٢٠٢ .

(١) الخزرجي ١/٢٨٣ .

(٤) الخزرجي ٢/٢٣٦ .

(٢) الخزرجي ١/٣٣٤ .

وتكثر في حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبيعي لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء ، ويمتلئ كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوي في شيخه محمد بن عبد الرحمن الأسقع (١) :

فقيهٌ شريفٌ حاز فضلاً ورفعةً له نسبةٌ تعلو على كل نسبة

وأكبر الشعراء المدّاحين في حضرموت عبد الصمد بن عبد الله باكثر، وسنخصه بكلمة . ويكثر شعراء المديح أيضاً في عمان ودائماً يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين ، وسنقف قليلاً عند شاعرهم السّالي . وبالمثل كان الشعراء في البحرين لا يزالون يمدحون أمراءها من العيونيين وغيرهم وفي مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع علي بن مقرب العيوني :

وواضح مما سبق أننا سنقف قليلاً عند أربعة من شعراء المديح في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين يصورون لنا ازدهار هذا الفن في بلدانهم في حقب مختلفة ، وهم القاسم بن هتيميل اليمنى وأحمد بن سعيد الخروصي السّالي العُماني وعلي بن مقرب العيوني البَحْراني وعبد الصمد بن عبد الله باكثر الحضرمي .

### القاسم بن هتيميل (٢)

هو القاسم بن علي بن هتيميل أكبر شعراء اليمن في القرن السابع الهجري ، وهو من نجران بوادي ضِمْد في الخلاف السلياني وهي غير نجران المشهورة وبها نشأ . وقد تيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجّه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء الخلاف السلياني وكانوا يتبعون الدولة الرّسولية ، كما وجهه إلى الرسولين وأمراءهم وولاتهم وإلى الأمراء الزيديين في جهة صنّعاء وصعدة . ولا تُعرّف سنة ميلاده ، والمظنون أنه ولد في العقد الثاني أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع ، وإن كان هناك من يظن أنه ولد في أوائل هذا القرن ، غير أننا لا نجد له شعراً في السلطان عمر بن علي بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ بينا يُعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) . ويبدو أنه توفي لزمته إذ لا نجد له مديحاً في أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢١ هـ) الذي استولى على صولجان الحكم بعده . وكان يتخذ شعره

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/٤٤ .

(٢) راجع في ترجمة ابن هتيميل مقدمة تحقيق ديوانه

لمحمد بن أحمد عيسى العقيلي ، وانظر العقود اللؤلؤية

للخزرجي في مواضع متفرقة (راجع الفهرس) والديوان مطبوع بدار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

متجرأً ، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعماله ، كما يمدح أمراء المخلاف السليمانى وأعيانه ، والأئمة الزيديين وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين ، وأمراء ظفار ، وأمراء قبائل حلى بن يعقوب ، ويروى أنه قال فى أميرهم أحمد بن على الحرامى الكتافى من مدحة طويلة :

إن الملك بنو يعقوب قاطبة قطعاً وكلُّ ملوكٍ بعدهم سوقُ  
والسوق جمع سوقة وهى الرعية وبلغت المدحة سَمْعَ المظفر الرسولى ، فاستشاط غضباً حين سمع  
هذا البيت وطلب ابن هتميل ليطير به طيرة بطيئاً سقوطها حتى إذا مثل بين يديه وأنشده  
البيت حقيقاً ، تخلص تخلصاً لطيفاً ، قائلاً : أطال الله عمر السلطان ! إنما قلت :  
« وكل ملوك غيرهم سبق » فاستحسن تخلصه (١) ، وله فيه كثير من المدائح البديعة من  
مثل قوله

أغرُّ رسولى يُزرُّ قيصه على القمر التَّمَّ الخِصَمَّ العَصَنُفِرِ  
أعمُّ سماحاً من سماحة حاتم وأعظم بأساً من بسالة عتتر  
وقوله (٢) :

هدى كهدى رسول الله متبع ما سار آل رسول الله فى السير  
وعزمة كلُّ حدٍّ من صرامتها أمضى من الموت أو أمضى من القدر  
لو أن هيبته أو بعض هيبته تلقى على الفلك الدوار لم يدُر

ونسيجه اللفظى متين قوى ، وكلماته تروق السمع بجوسها وبجسنتها ، إذ كان  
يعرف كيف يصطنى لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها وتلذ  
اللسان حين ينطق بها وهو بحق صائغ ماهر . ومدوحه الثانى بعد المظفر فى ديوانه الإمام  
الزيدى أحمد بن الحسين ، وفيه يقول فى إحدى مدائحه (٣)

حفظ الله أحماً حيثما كا نَ وجادته ديمةٌ مِدْرارُ  
الشريفُ الشريفُ والجوهرُ الجوهرُ هر والخالصُ النَّصارِ النَّصارُ  
سيدُّ أمه البتولُ وجدًا هُ المثنى وأحمد المختارُ

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، والمثنى : الحسن بن الحسن بن على جد المدوح  
وأحمد المختار الرسول ﷺ ، وواضح ما فى لفظ ابن هتميل من سهولة وعذوبة ، وهو  
عادة يقدم لمدائحه بغزليات تسيل رقة وخفة ، كقوله فى مقدمة هذه القصيدة :

(١) انظر فى هذا الخبر مقدمة الديوان .  
(٢) الخزرجى ١/١٥٩ .  
(٣) الديوان ص ١٥٥ وشعر الغناء الصناعى للدكتور محمد عبده غانم ص ١٧٩ .

يَاقُضِيًّا مِنْ فِضَّةٍ يُقَطِّفُ النَّرَّ جِسٌّ مِنْ وَجْتِيهِ وَالْجُنَّارُ  
قَمْرٌ طَوْقُهُ الْهَلَالُ وَمِنْ شَمْسِ الدِّيَاجِي فِي سَاعِدِيهِ سِوَارُ  
عَجَبًا مِنْكَ تَحْتَ بَرْقَعِكَ النَّارُ وَفِيهِ الْجَنَّاتُ وَالْأَزْهَارُ  
وَاللَّيَالِي الطَّوَالُ تَنْحُتُ مِنْ جَسَدِي مَا أَبْقَتِ اللَّيَالِي الْقِصَارُ

وَبَيْنَ مَا يَتَضَمَّنُ هَذَا الْغَزَلَ مِنْ رُوعَةِ التَّصَاوِيرِ ، فَالْقَدِ الرَّشِيقِ لِصَاحِبَتِهِ قُضِيبِ  
أَوْغِصَنِ مِنْ فِضَّةٍ يُقَطِّفُ مِنْهُ النَّجْمُ وَالْجُنَّارُ إِشَارَةٌ إِلَى جِوَالِ عَيْنَيْهَا وَخُدُودِهَا ، وَقِلَادَةُ الْفِضَّةِ  
تَطَوَّقُ جِيدَهَا ، بَيْنَمَا نُورُ الشَّمْسِ يَلْتَفُّ حَوْلَ سَاعِدَيْهَا سِوَارًا ، وَيَعْجَبُ أَنْ تَتَوَهَّجَ النَّارُ نَارًا  
وَجْتِيًّا تَحْتَ بَرْقَعِهَا بَيْنَمَا يَجَانِبُهَا الْجَنَّاتُ مِنَ النَّجْمِ وَالْجُنَّارُ وَالْأَزْهَارُ . وَتَطَوَّلُ بِهِ اللَّيَالِي سَهْرًا  
وَسَهَادًا ، حَتَّى لُتْضِيهِ ، بَلْ حَتَّى كَأَنَّمَا تَنْحُتُ جَسْمَهُ ، مَخْلَفَةٌ لَهُ الْأَلْمُ وَالشُّحُوبُ . وَدَائِمًا يَلْقَانَا  
هَذَا الْغَزَلَ وَالنَّسِيبَ الرَّائِعَ فِي مَقْدَمَاتِهِ لِمُدَائِحِهِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ فِي اسْتِهْلَالِ مَدْحَةِ ثَانِيَةِ  
لَأَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ :

إِذَا جِئْتَ الْغَضَا - وَلَكَ السَّلَامَةُ فَصَارِحُ بِالتَّحِيَّةِ رِيْمَ رَامَهُ (١)  
وَقُلْ لِلْوَالِيَّةِ هَلْ لِرُوحِي وَمَا أَتْلَفْتِ مِنْ جَسَدِي غَرَامَهُ  
حَلَلْتِ تِهَامَةً وَحَلَلْتُ نَجْدًا فَأَيْنَ وَأَيْنَ نَجْدُ مِنْ تِهَامَةٍ

وَسَارَتْ الْقَصِيدَةُ مَسِيرَةَ أُخْتِهَا السَّابِقَةِ وَعَارِضُهَا كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَانَ  
يَعْنِي بِهَا كَمَا كَانَ يَعْني بِأَخْتِهَا الرَّائِيَةِ السَّالِفَةِ . وَمِنْ طَرِيفِ نَسِيهِ :

أَرَاكَ تَرُوحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا أَحْدَثْتَ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا  
وَلَا صَافَحْتَ أَهْلَ الرَّمْلِ كَفًّا فَكَفًّا فِيهِ أَوْ خَدًّا فَخَدًّا  
ضَلَالًا مَا أَتَيْتَ مِنَ التَّجَافِي الْأَبْعَدًا لِمَا أَضْمَرْتَ بُعْدًا  
وَكَيْفَ سَلَوْتَ عَنْ أَرْضٍ بِأَرْضٍ يَفُوحُ تَرَابُهَا مِسْكًَا وَنَدًّا (٢)

وَالْأَبْيَاتُ تَسِيلُ رِقَّةً وَعَذُوبَةً ، وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضَ الْوُجْهَاءِ فِي الْيَمَنِ جَاءَهُ طَلِبٌ عَاجِلٌ مِنْ  
أَحَدِ الْأَمْرَاءِ بِأَنْ يَفِدَ عَلَيْهِ لِأَمْرٍ مَهْمٍ ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ اخْتَذَتْ زِينَتَهَا لَهُ أَوْشِيئًا مِنْ زِينَتِهَا ، فَلَمَّا  
رَأَتْهُ يَهْمُ بِالْخُرُوجِ تَعَرَّضَتْ لَهُ مَنشَدَةَ قَوْلِ ابْنِ هَتِيمَلٍ .

أَرَاكَ تَرُوحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا جَدَّدْتَ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا  
فَابْتَسِمَ الزَّوْجُ وَأَجَّلَ زِيَارَةَ الْأَمِيرِ (٣) . وَفِي هَذَا الْخَيْرِ مَا يَشِيرُ بِوَضُوحٍ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ  
رِجَالًا وَنِسَاءً كَانُوا يَتَدَاوَلُونَ شُعْرَابِنَ هَتِيمَلٍ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ . وَكَانَ الْمَغْنُونُ يَتَغَنُّونَ فِي بَعْضِ

(١) الغضا : من شجر نجد وبواديه . الريم : الظباء . (٢) الند : عود يتطيب به ، طيب الرائحة .

وزامة : موضع بنجد . (٣) مقدمة الديوان ص ٨ .

أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسيب وما تذييع من ثناء ومدائح .  
وله مراتٍ لزوجته وبعض أهله تفيض بالأسى واللوعة الممضتة كقوله في أخ وأخت له ماتا في  
أسبوع واحد :

مضتُ ما ابيضتِ الضَّفِيرَاتُ منها ومات وما بدا شَعْرُ العِدَارِ  
فأيُّهَا على الخَلَوَاتِ أبكى أبدرُ التَّمِّ أم شمسُ النهارِ

وفي الحق أن ابن هتيميل كان شاعراً مجيداً سواء في مراثيه أو في غزله ونسيبه أو في مدائحه ،  
وهو في المدائح يسجل أحداث عصره وما كان فيه من وقائع حرية ، وخاصة حروب السلطان  
المظفر ، مما جعل الخزرجي ينشد كثيراً من أشعاره في العقود اللؤلؤية .

#### أحمد بن سعيد الخروصي الستالي<sup>(١)</sup>

عُمانِي من وادي خروص ، ومن قرية منه تسمى ستال ، وفيها ولد سنة ٥٨٤ وبها نشأ وتلقن  
الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفي هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كانت  
منتشرة في كل ركن من أركان الجزيرة ، بل في كل قرية ، ومثلها الثقافة الإسلامية ، فقد كان  
الناشئة يبدءون بحفظ القرآن ، ويقعدون في حلقات بعض الشيوخ لسماع العظات وشيء من  
التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية . ولما شب الستالي عن الطوق غادر قريته إلى  
عُمان ، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء في عصره . وحين أنس من نفسه تدييب المدائح  
قصد بها حكام عمان السنين من بني نيهان ، ويسجل شعره كثيراً من أحداث زمنه ، وخاصة  
ما كان بين بني نيهان وبين الفرس من حروب ، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم ،  
غير أنهم كانوا يعودون دائماً مدحورين على نحو ما يصور ذلك الستالي في مديحه للأمير النبهاني  
كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك في مديحه للأمير النبهاني عُمر بن نيهان بن عمر بن محمد بن عمر بن  
نيهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه نيهان وعمه أبو القاسم على وكذلك عمه محمد تتردد أسماءهم في  
مدائحه ومراثيه في الديوان ، من ذلك قوله في أبي القاسم على مادحاً ومهنئاً بالعيد :

أبا القاسم الميمونَ أوتيتَ في الدُّنْيَا من الفضل ما لم يُوتَ عَجْمٌ ولا عَرَبٌ<sup>(٢)</sup>  
لك الشِّيمُ الغرَاءُ والهممُ العلاءُ وأنتَ السَّنَانُ الصِّدْقُ والمرهفُ العَضْبُ<sup>(٣)</sup>  
أبا القاسم اسلِّمْ وأبقَ للمجدِ وادعاً وحلَّ بشانِكِ المخافةُ والرُّعبُ

(٢) اللُّنَى : جمع دنيا .

(١) انظره في تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين

(٣) المرهف : السيف . العضب : القاطع .

السالي ٣٠٣/١ وراجع مقدمة ديوانه .

وعَيْدٌ سَعِيداً فِي عِلَاءٍ وَرَفَعَةٍ وَطُولِ يَدٍ مَالِحَةٍ السَّبْعَةُ الشُّهُبُ (١)  
 وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة ، وفيه استواء وتناسق  
 وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكَمُ كلمه ويصوغها صياغة جيدة دون أى نبُو والتواء ، وله  
 يمدح نهبان بن عمر من قصيدة طويلة :

أَنْبِهَانُ إِنَّكَ مِنْ عَصِيَةٍ نَهَاها إِلَى المجدِ قَحْطَانُهَا  
 هُمُ العَيْنِ فِي يَعْرَبٍ كُلِّهَا وَأَنْتِ مِنَ العَيْنِ إِنْسَانُهَا  
 إِذَا طَلَيْتَ مَكْرَمَاتِ العِلاِ بَدَا فِي جَبِينِكَ عُنْوَانُهَا  
 فَعَشْتِ وَبُلَّغْتَ مِنْ سَيِّدٍ مُنَاكَ وَسَرَّكَ لُقْيَانُهَا  
 وَلَا زَالَ يَغْدُوكَ فِي نِعْمَةٍ شَبَابُ الحَيَاةِ وَرَعِيَانُهَا

والأبيات تصافح الآذان في خفة ، وهي تموج بالحركة ، وكأنما أعدّها لكي تغنى وتملأ  
 الخلقو مجلاوة رناتها ، وانظر إلى تكملة البيت الرابع : « وسرّك لقيانها » فإنك تحس القدرة  
 على تكملة البيت بقافية تروعك ، إذ لم تكن تتوقعها ، وكنت تحار كيف يأتي بها .  
 ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق ، ففي أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل  
 تكريت وهيت والجزيرة ، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرق تنزانيا ، ونراه يمدح  
 سبّخت وغيره من أعيانها ، وفيه يقول :

إِذَا أَنْتِ أَبْصَرْتَ فِي الدَّسْتِ سَبَّخٌ سَتَ كَالشَّمْسِ أَنْكَرْتَ خَلْقَ العِبَادِ  
 سَمَا بِمَعَالٍ وَفَضْلٍ كَمَا لِي وَحُسْنِ فِعَالٍ وَصَفْوِ اعْتِقَادِ  
 جَرِيءُ القِتَالِ غَدَاةَ النَّزَالِ بِيضِ النَّصَالِ وَسُمْرِ الصَّعَادِ (٢)

ويكثر من تقديمه لمداخحه بالنسيب ، وهو - كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من  
 التغزل بالأعرابيات ووصف جمالهن وسحرهن وكيف يشغفن القلوب ، وخاصة حين  
 يرحلن ، فتتبعهن الأفئدة ، من مثل قوله :

لَمَنْ الطَّعَائِنُ ظَلَعُ الأَحْدَاجِ وَقَفْتُ لِشَانٍ وَأَنْتِ لِمَعَاجِ (٣)  
 رَفَعُوا هَوَادِجَ كَالسَّفِينِ وَكَلَّةٌ مَحْفُوفَةٌ بِالوَشِيِّ وَالدِّيَابِجِ (٤)  
 فَيَهِنُ كُلُّ مَعِيْدَةٍ عُلِقَ الهَوَى بِجَاهِلِهَا وَدَلَالِهَا الخَلَاجِ (٥)

وهو يبدئ ويعيد في وصف هذا الترحال الذي يقف أسباب المودة والحب ، والذي

(١) السبعة الشهب : الكواكب السبعة السيارة .

(٢) الصعاد : جمع صعدة وهي القناة .

(٣) الأحداج : الهوداج . معاج : انعطاف .

(٤) الكلة : ستارة الهودج .

(٥) علق : جمع علقة وهي التعلق . الخلاج : الخلاب .

يملاً قلوبَ العشاق في البوادي فتنة وإغراء وصبابة ، ويذيتها أسي وحسرة ، فذكر العهود والأطلال والربوع وأكناف الحمى ، وقد غابت الأبقار وأظلمت الدنيا ، وعم المحبين

اليأس وتعمقهم الحزن . وقد يجعل الستلى المقدمة لقاء بهيجاً على شاكلة قوله :

قَصْرُنَ الحُطَا وهَزْرَنَ العُصُونَا      وَرَقْرَقْنَ تحتَ النَّقَابِ العُيُونَا  
ووشَّيْنَ بالتَّبَرِ بِيضَ التَّرَاقِي      وَعَشَّيْنَ سَوْدَ الفُرُوعِ المَتُونَا  
وأقبلنَ يَحْطِرْنَ مَشَى الهُوَيْتِي      وَيُبدِينَ من كلِّ حَسَنِ فنُونَا  
فلما عَرَضْنَ لَنَا سَافِرَاتٍ      أَعَدْنَ الهَوَى وَبَعَثْنَ الشُّجُونَا

والأبيات تصور فرحة الستلى باللقاء وبرؤية صاحبته تسير وسط صواحبيها ، وقد ترققت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن ليبيدين زينتهن ، ويخطرن دلالاتاً ، ويسفرن عن وجوههن ، فتتلاً الدنيا بجهلن من حول الستلى ، ويعود الحب كما كان فتنة لا يستطيع إفلتاً منه ولا خلاصاً . وللستلى خمريات ، يجمع فيها بين وصف الرياض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله :

هَاتِ اسقِي الرِّاحَ فِي رَاوِقِهَا عَنَّا      وَعَاطِنِي فِي الحَدِيثِ اللِّهْوِ والغَزَلَا  
أَمَا تَرَى نَفْحَاتِ الصَّيْفِ قَدْ نَشَرَتْ      من النَّبَاتِ عَلى وَجْهِ النَّثْرِ حُلَلَا  
وَالرُّوضُ يَجْتَالُ فِي زَهْرِ البَهَاءِ وَقَدْ      غَدَا النَّثْرَى بِنُفُونِ الوَشَى مُشْتَمَلَا  
وَشَادِنِ يَتَهَادَى فِي الصَّبَا غَيْدَاً      مَيْسَ القَضِيبِ تَتَّى ثُمَّتْ اعْتَدَلَا (١)  
يَسْعَى عَلَيْنَا بِنُورٍ فِي زَجَاجَتِهِ      لَوْلَا حُدُوثُ مَزَاجِ المَاءِ لِاسْتِعَلَا  
وَقِينَةَ أَنْطَقَتْ صَوْتَ الكِرَانَ وَقَدْ      غَنَّتْ بِسَيْطَاً عَلى الأوتَارِ أَوْرَمَلَا (٢)  
وَالشَّرْبُ قَدْ مَزَجُوا صَفْوَاً خَلَاقَتَهُمْ      كَمَا مَزَجَتْ بِمَاءِ المُرْنَةِ العَسَلَا

ونحس بروح أبي نواس تطل علينا من خلال هذه الخمرية التي تصور مجلس أنس في بستان وساقية تتنى جلالاً ، تسعى على الشرب بدن الخمر أو دنانها ، وقينة تشد أوتار العود وتعنى عليه ألواناً من الغناء ، وكأننا في مجلس من مجالس أبي نواس التي كانت تزخر باللهو والقصف . وهذا الجانب في ديوان الشاعر يلتقي بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، ويتضح ذلك في مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء ، وله ميمية كلها ثناء على الله وآلائه ، وقد ختمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل .

والصنح . والبسيط والرمل من أوزان الشعر .

(١) غيدا : لبنا وتثنيا . ميس : تمايل .

(٢) الكران : من أدوات الطرب ويسمى به العود



وتكثر في أشعاره الحكم وربما كان يأتسى فيها وفي غزله بالأعرايبات البدويات بالمتنبى .  
 وربما كان يأتسى به أيضاً في شكواه الكثيرة من الدهر وما يبصُّه عليه وعلى الناس من  
 فواجع وكوارث . وفي ديوانه بعض محمسات طريفة ، وله لامية كلامية كثيرٌ يلتزم في نهايتها  
 أوقافيتها اللام قبل التاء ، ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعاً في أشعاره ولا متكلفاً ،  
 وكان ما وهبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعاً إلى أن  
 تكون أشعاره سلسلة سائغة .

### علي بن المقرب العيوني<sup>(١)</sup>

شاعر من أسرة العيويين حكام الأحساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد  
 ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عاماً إذ توفي سنة ٦٣١ وديوانه يصور ثقافة لغوية وأدبية  
 وإسلامية ، وهو يمتلئ بإشارات تاريخية ، إذ كثيراً ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم  
 وملوكهم وملوك الفرس الأولين . ومما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته  
 لقصائد المتنبى والشريف الرضى ومهيار ، مما يؤكد أنه أكب على دواوين الشعراء النابيين  
 وخاصة هؤلاء الثلاثة يتروذ منها ويتخلق فيها . ويبدو أن الشعر جرى على لسانه في باكورة  
 حياته ، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبي الحسين (٥٨٤ - ٦٠٣) وهو أهم  
 أمراء الأسرة العيونية جميعاً ، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء  
 وجزرها مثل أوال التي يطلق عليها الآن اسم البحرين . ودانت له قبائل نجد الشرقية ،  
 ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحجاج  
 من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مع رسم سنِّي فرضه له . وفيه يقول علي بن المقرب :  
 رِمَاحُ الأَعَادِي عَن حِمَاكُ قِصَارُ      وَفِي حَدِّهَا عَمَّا تَرُومُ عِثَارُ  
 وَكُلُّ أَمْرِي لَيْسَتْ لَهُ مِنْكَ ذِمَّةٌ      عَلَي رَعْمٍ لَهُ وَيُضَارُ  
 فَعَيْشٌ فِي عَظِيمِ الْمَلِكِ مَالِحٌ كَوَكْبٌ      وَأَظْلَمُ لَيْلٍ أَوْ أَضَاءَ نَهَارُ  
 ويحدث أن تفكر طيبي في قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً  
 شديداً ، ويشيد ابن المقرب ببسالته في الحرب وانتصاره . وتضع بعض قبائل الشام يدها  
 في يد طيبي وتحاول الإغارة على الحجاج ، فيمزقهم محمد بن أبي الحسين شرمزق . ويعم  
 الأمن ربوع البحرين ونجد الشرقية جميعاً ، غير أن يداً آتمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع ،

(١) انظر ترجمته في ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ والقاهرة . وراجع مقالنا عنه في مجلة مجمع اللغة العربية  
 بالقاهرة ، الجزء الثامن والثلاثين .  
 وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد  
 ومقدمات طبقات ديوانه وقد طبع في الهند ودمشق

فتغتاله ، وبيكيه شاعره ويندبه ندباً حاراً بمثل قوله :

لَيْتَكَ الْعُلاَ والمجد والبأسُ والنَّدَى      لقد صَلَّى وادبها وَجَعَتْ مسأله (١)  
وتندبه البيض الصوارمُ والقَنَا      لما أنهلتها كفه وأنامله  
لقد مُنيتُ منه الأعادي بثائرٍ هُمَامٍ      أبى أن يحمل الضَّيْمَ كاهله

وطبيعي أن لا تفتح أبواب قاتليه الذين خلفوه في دست الحكم لابن المقرب ، بل لقد زَجُّوا به في السجن وصادروا أمواله ، ورُدَّت إليه حريته وخرج من السجن فرحل إلى العراق ، ونزل البصرة ومدح حاكمها باتكين بن عبد الله الرومي في سنة ٦٠٥ ودخل بغداد ومدح الخليفة الناصر ، وتعرَّف على بعض علمائها وأدبائها . ورأى العودة إلى موطنه وأن يحمل معه طائفة من أعمدة الحديد للاتجار فيها . وألمَّ بواسطة في طريقه فطالبه ابن الديبشي ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته ، فصبَّ عليه جام هجائه بمثل قوله :

يا بن الديبشيُّ اللعين لقد رمتَ المحالَ فغُصتَ في بحرٍ  
خُنتَ الخليفةَ في رعيتِهِ وعَصَيْتَهُ في السرِّ والجَهْرِ

ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب ، أو بالضريبة المقررة ، فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة ، وينشده مدحة طويلة يقول فيها :

يا شمسَ دينِ الله كم لك من يدٍ يُثني بها بادٍ ويشهد حاضرٌ  
ادْفَعْ بجاهك أو بمالك مُنعمًا عني فمالك للعفاة ذخائر

ويعود إلى موطنه ويقدم مداحه إلى أمير الأحساء محمد بن علي بن عبد الله الذي ردَّ إليه حريته ، ويأمل أن يرد عليه أمواله وبساتينه ، ولكنه لا يرد عليه شيئاً . ويحدث أن ينهض الفضل بن الأمير محمد بن أبي الحسين بأخذ الثار لأبيه من قتلته ، ويصبح الحاكم العام للبحرين ، ويقدم إليه علي بن المقرب مدائح كثيرة ، ولا يحظى منه بشيء أو بما كان يأمله . وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه علي بن ماجد ، وتثور معه البحرين لتوقيعه معاهدة بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين ، مع تقديم خمسمائة دينار له سنوياً ، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويديج في علي بن ماجد مدائح كثيرة من مثل قوله :

أضحى بك الأحساء ساكنةً وقد رجفتُ بمن فيها وكادت تُقلَبُ  
وملاَّتْها عدلاً وكانت عُممتُ جوراً تغورُ به الديار وتخرَّبُ

ويثور مقدم بن غرير العيوني ، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية . ويثس ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم ، فأبناء الأسرة يتحاربون ، والحكم يفسد ويضعف . ويولّى وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين والى البصرة والخليفة ببغداد فى سنتى ٦١٣ و ٦١٤ . ويعود إلى موطنه ، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود ، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذى تحولت إليه مقاليد الأمور بعده ، بمثل قوله :

رَفَعْتَ عِمَادَ الْمَجْدِ مِنْ بَعْدِ مَا وَهَى      وَرَثًا وَأَضْحَى رُكْنَهُ وَهُوَ مَائِلٌ  
وَقَتًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ فَاسْتَوَتْ      لَدَيْكَ ذُؤُوبُ الْأَجْبَالِ : طَىُّ وَوَائِلٌ

ويترك البحرين إلى العراق فى سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين فى طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر ، ويوغل فى رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤا مدير الحكم فيها لسلطانها القاهر بن نور الدين أرسلان شاه ، وفيه يقول :

أَرْسَى قَوَاعِدَ مَلِكٍ لَوْ يَدْبِرُهُ      كَسْرَى وَإِسْكَندَرُ أَعَيْتَهَا الْحَيْلُ

ويمد رحلاته إلى الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي صاحب حرّان وديار الجزيرة ، ويشيد ببلائه مع أخيه سلطان مصر الكامل فى قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم سحقاً ذريعاً حين أغاروا عليها فى السنوات ٦١٥ - ٦١٨ وفيه يقول من مدحة طويلة :

سَلِ الْكُفْرُ مِنْ أَوْهَى بَدْمِيَاطَ كَفْرُهُ      وَقَصَّرَ أَعْلَى فِرْعَوَ وَهُوَ بَاسِقُ  
وَقَدْ جَاءَتِ الْإِفْرَنْجُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ      كَأَنَّ تَدَاعِيَهَا السُّيُوفُ الدَّوَاغِقُ  
فَوَلَّوْا فَمَكْبُوبٌ عَلَى أُمَّ رَأْسِهِ      لَدُنْ ذَاكَ لَمْ يَنْفُقْ وَأَخْرَ نَافِقُ (١)

ويعود ابن المقرب إلى موطنه ، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده ، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بنى عَقِيل ، فأفسدوا زروعها وثمارها ، حتى أصبح البستان الذى تبلغ قيمته مائتى دينار يباع بدينار واحد أو يثوب أو بشاة ، ويأسى لذلك فى شعره أسى عميقاً . وشعر ابن المقرب يعدُّ بحق سجلاً تاريخياً لأسرته وحكمها البحرين ، فكل من عاصرهم صور حكمهم وأحوال البلاد فى أيامهم ، وله قصيدة ميمية سجل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه ، مفخرة مباحياً ، وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن على قضى على القرامطة وما أذاعوا فى البلاد من عقيدتهم الفاسدة ، يقول :

سَلِّ الْقَرَامِطَ مِنْ شَطْطَى جَمَاعِمِهِمْ      فَلَقَّا وَغَادِرِهِمْ بَعْدَ الْعُلَا خَدَمَا (٢)

(١) بنفق : يهلك .

(٢) شطى : حطم .

ويسترسل مبيناً أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد ، فطهر البلاد منهم ، ويمضى في القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان . والديوان يمتلىء بفخر عنيف . وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأعمالهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضاً جوانب من أعمال الخليفة الناصر ، وكذلك واليه باتكين حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله :

بني بالبصرة الفيحاء سُوراً يُضاهي السدَّ سبِكاً وانعقادا  
وزيتها بأسواقِ أراننا بها كلَّ البلاد لها سوادا<sup>(١)</sup>  
وكم من مشهدٍ ورباطٍ زُهدٍ ومدرسةٍ بنى وهُدَى أفادا

ويردد في مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة ، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة في تاريخ عصره ، ولا نبعد إذا قلنا إنها هي الوثائق الوحيدة في تاريخ الدولة العيونية ، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون .

### عبد الصمد بن عبد الله باكثير<sup>(٢)</sup>

الشعراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجري ، أما عبد الصمد بن عبد الله باكثير فن شعراء القرن الحادى عشر وهو حضرمى ، ولد في تَريس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفى بحَضْرَموت في سنة ١٠٢٥ . تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه ، واختلف إلى العلماء في المدن الحضرمية . وحين سال الشعر على لسانه اتجه به أولاً اتجاهها صوفياً على عادة أهل إقليمه ، وأخذ يستغله في مديح بعض الحكام والأعيان ، حتى إذا تحول صولجان الحكم في حضرموت إلى عمر بن بدر أبى طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل ، وليس ذلك فقط ؛ بل أصبح أيضاً منشئ الرسائل في عهده ، وكذلك في عهد ابنه عبد الله (١٠٢١ - ١٠٢٤) . حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاه من العمل بديوان الرسائل ، ولم يكد يدور العام حتى لبي نداء ربه . وجمهور مدائحه في عمر بن بدر من مثل قوله :

(١) السواد : الريف بزروعة وقراه . الطالع ص ١٢١ وسلافة العصر ص ٤٦١ وتاريخ

(٢) انظر في ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبي

٤١٨/٢ وكتابه نضحة الرحانة ٣/٥٤٦ وملحق البدر الشعراء الحضرميين ١/١٩٠ وله ديوان كبير لما يطبع .

عُمَرُ الَّذِي أَحْيَا الْمَكَارِمَ وَابْتَنَى  
فِيهِ الزَّمَانُ تَفَاخَرَتْ أَيَامُهُ  
وَتَعَطَّرَتْ بِوُجُودِهِ الْأَحْيَاءُ  
مَلِكٌ تَفَجَّرَ مِنْ مَنَابِعِ مَجْدِهِ  
كَرْمٌ وَحَلْمٌ وَاسِعٌ وَوَفَاءٌ

وكان لا يزال يروح ويغدو عليه بمدائحها وخاصة في أعياده وفي الاحتفال بانتصاراته ،  
مردداً دائماً دائماً الثناء على خصاله وشجاعته وكرمه ، ومن مدحة له فيه :

إِذَا نَابَنِي خَطَبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي  
إِلَى عُمَرِ الْخَيْرَاتِ بِي يَنْتَهِي السَّيْرُ  
مَوَاهِبُهُ مَوْصُولَةٌ بِمَوَاهِبِ  
إِذَا ضَنَّتِ الْأَنْوَاءُ وَاحْتَبَسَ الْقَطْرُ (١)  
لَهُ فِي النَّدَا أَيْدٍ تَسُحُّ بِنَانِهَا  
لُجَيْنًا وَإِبْرِيزًا وَنَائِلُهُ عَمْرُ (٢)

ومن مدحه الرصين في عمر بن بدر تهنته له بانتصاره على بعض أعدائه من رجال القبائل الثائرين عليه وعلى حكمه ، وفيها يقول مهنتاً :

نَصْرٌ عَزِيزٌ مِنَ الرَّحْمَنِ قَارَنَهُ  
فَتَحُّ وَطَالَعُهُ بِالسَّعْدِ يَبْتَدِرُ  
مَنْ كَانَ مَعْتَصِماً بِاللَّهِ كَانَ لَهُ  
عَوْنًا وَسَارَ بِمَا يَخْتَارُهُ الْقَدْرُ  
لَمَّا تَلَبَّتِ الْأَعْدَاءُ وَاعْتَصَمُوا  
بِحَبْلِ غَدْرِهِمْ بَاءُوا بِمَا غَدَرُوا  
فَأَمَكَّنَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَاتَّشَوْا هَرَبًا  
كَمِثْلَ مَا نَفَرْتُ مِنْ قَسْوَرِ حُمُرٍ (٣)

وكان يخلص للسلطان عمر بن بدر إخلاصاً مصني ، ولذلك أكثر من مديحه ، حتى إذا توفى أحسن بحزن بالغ ولوعة ممضة ، مما جعله يرثيه مرثي حارة يبكي فيها خصاله الكريمة وما فقدته رعيته فيه ومحبه من جود وعون وعفو عند المقدرة من مثل قوله :

هُوَى مِنْ سَمَاءِ الْمَجْدِ كَوَكْبِهَا الْقُطْبُ  
فَأَظْلَمَ فِي أَقْطَارِنَا الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ  
تَضَعَّضَ طَوْدُ الْمَجْدِ وَانْهَدَّ رُكْنُهُ  
فِيَالِكَ رُكْنًا قَدْ تَضَمَّنَهُ التُّرْبُ  
ثَوَى عُمَرُ الْخَيْرَاتِ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيِ  
إِلَى سَاحِهِ تَطْوِي سَبَاسِيهَا التُّجْبُ (٤)  
لَقَدْ كَانَ لِلْعَافِينَ ظِلًّا وَمَلْجَأً  
وَلِلْجَاهِلِ الْإِغْضَاءُ وَالصَّفْحُ وَالْعُتْبُ (٥)

وله مرثية ثانية فيه تكتظ بزفراته ولوعاته . وله غزل رقيق يزخر بمشاعر فياضة ، تدل على أنه كان يجد أحياناً وجداً شديداً ، حتى ليقع في شباك بعض النساء ،

(١) الأنواء : الأمطار .

(٢) تسح : تهطل . اللجين : الفضة ويريد الدرهم .

الإبريز : الذهب ، ويريد الدنانير . والنائل : العطاء .

عمر : كثير .

(٣) قسور : أسد . الحمر : حمر الوحش .

(٤) ساح : جمع ساحة . السباب : المقاور .

التجب : الإبل الكريمة .

(٥) العافون : طلاب المعروف .

ويطول تعثره فيها ، وقد انقطعت به الحيل في الخلاص فيفزع إلى دموعه ، على شاكلة قوله :

يا ظَبْيَ وادى الأَجْرَعِ رِفْقاً بصبٌ مولعٌ  
بيكى أَسَىً وصَبَابَةً بكآبةً وتوجُّعٌ  
ودموعه فوق المحَا جِر كالغيوث الهُمَّعُ (١)  
ويقول من وجدٍ ومن كمدٍ بقلبٍ موجعٍ  
حيّاً المربعَ والرُّبَا غيثٌ كفائض أدمعى  
يَهْمَى على تلك الدِّيَا ر بوابلٍ لا يُقْلَعُ

فهو يبكي بدموع غزار لا تزال تنهم كأنها أمطار ، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة ، كلها أوجاع وأوصاب وآلام . ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله :

ولى من العُربِ ظَبْيٌ مارأى بصرى شِبها له فى الورى بَدَوًا ولا حَصْرًا  
الوردُ فى خَدِّه المحمَّرُ من خَجَلٍ يدعو إلى حُسْنه الفتانِ من نظراً  
كم ليلةً زارنى فيها على وَجَلٍ مستعجلاً خائفاً مستوفزاً حَذِراً (٢)

وتصويره لخوف المحبوبة فى البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع ، فهى عجلة حذرة لا تكاد تطمئن ، واختار بدقة شاعريته كلمة « مستوفزاً » ليصور فيها هذه الحركة النفسية ، فكأنها دائماً مستوفزة تهباً لفراقه وتأهب لوداعه . وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصَّحْب ، مصوراً بذلك بعض مجالس أنسه كقوله :

تلاعبتُ مَرَحاً فى روضها القُضْبُ كشاربى خندريس هزهم طَرَبٌ (٣)  
قُمْ يا ندىمى فقد نادى الهَزَّازُ إلى صَهبا مُشعَّعة تُجَلِّى بها الكُربُ (٤)  
يديرها رشاً كالشمس طلعتُ وكفه بدم الصَّهبا محتضبُ  
فى روضةٍ أخذتُ بالزهر زُخرفها وأزيتُ وتجلتُ كلها عجبُ

ولم يكن اللهو غالباً على حياته ، فمثل هذه الخمرية وميضٌ كان يلمع حيناً فى سمائها وسرعان ما يخبو ، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته بائساً يشكو الفاقة قبل اتصاله بعمر بن بدر أميره ، ولذلك نجد عنده قطعاً يشكو فيها من حظه العاثر ، نذكر منها قوله :

(٤) الهزار : طائر صغير الحجم حسن الصوت .

الصهبا : الخمر . المشععة : المزوجة بالماء .

(١) الهمع : الهاطلة السائلة .

(٢) مستوفزاً : متحفزاً للقيام .

(٣) القضب : الأغصان . الخندريس : الخمر .

أراني إذا ما الليلُ جاشتُ كتابتهُ  
 تبيتُ أفاعي الهمم في غيبِ الدجى  
 وأمالى فيما قد دهانى حيلةُ  
 فيارب يا ذا المنِّ والفضل والعطاء  
 أبيتُ وقلبي حائرُ الفكر ذاهبةُ  
 تُساورُ قلبي بالعنا وتوأثيه (١)  
 أدارى بها دهري إذا ازورَّ جانبه (٢)  
 أغنى فوجُ الهمم فاضتْ غواربه (٣)

وتصوير عبد الصمد الهمم بأفاع لا تزال توأثيه طوال الليل تصوير طريف ، وشعره فيه سهولة وعدوبة ويمنح كثيراً إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية ، ولعل ذلك ما جعله ينظم بعامية موطنه بعض أشعاره ، وكان يستخدم الموشحات أحياناً فيجيد فيها لسلاسة ألفاظه وكلماته .

## ٤

### شعراء المراثى

بجانب مجرى المديح الذى كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفق مجرى الرثاء ، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا وال ولا قاض فى أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأبيناً يفيض بالأسى والحزن ، وكثُر فى هذا العصر تأبين الشيوخ والفقهاء والمعلمين ، يؤنبهم تلاميذهم وزملائهم ويكون فيهم خصالهم وخسارة العلم والعلماء فيهم ، من ذلك تأبين شهاب الدين محمود بن مسكّن القرشى الفهرى لشيخه نجم الدين الطبرى قاضى مكة ، وفيه يقول (٤) :

ما للجفون بها التَّسْهِيدُ قد نزلا  
 ما بال قَلْبِي بَتْدُكارِ الهموم له  
 نجمٌ أضاء علينا صُبْحُ طَرَّتِهِ  
 مفتاحٌ كثرِ علومِ الدين كم فُتِحَتْ  
 وما لطيب الكرى عن مُقَلَّتِي رَحِلا  
 شُغْلٌ ودَمْعِي إن كَفَفْتَهُ هَمَلا  
 حتى إذا ما انجَلَتْ أيامه أَفْلا  
 به بصائرُ قومٍ للورى دُلْلا

ووراء مراثى الشيوخ والعلماء فى الحجاز مراث كثيرة فى أمراء مكة الزيديين حين يلبون نداء ربهم ، وبالمثل تلقانا مراث كثيرة للأئمة الزيديين فى اليمن ، كما تلقانا مراث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليحيين وآل زريع ، وسنعرض لها فى حديثنا عن

(٣) غواربه: أعاليه .

(١) تساور: توأثب .

(٤) العقد الثمين ٣/ ٣٢ .

(٢) ازور: مال وانحرف .

شعراء الدعوة الإسماعيلية .

وفي كل زمن وكل دولة تلقانا مرأى الشعراء ، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مرأى كثيرة على نحو ما نجد في ديوان ابن هُتَيْمَل فيه باب خاص بالمرأى ، وهي تتردد عنده بين الندب والتأبين ، أما الندب فعلى أبنائه وإخوته ، وزوجته وقد بكاهها في مرثيتين ، يقول في إحداهما (١) :

يعزّ على أن عَظُمَ المصابُ      ولا صَبْرٌ لَدَى ولا احتسابُ  
بنفسى عَصَرَ يَوْمَ السَّبْتِ نَعَشُ      تداولُهُ المناكبُ والرَّقَابُ  
من الحَقَرَاتِ يُخْفِي اللَيْلُ منها      إذا ما جَنَّ مالا يُسْتَرَابُ  
تَكْفَنُ في الثيابِ فليت جلدى      لها كَفَنٌ وليت دمي خِصَابُ

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة ، مشاعر شخص اكتوى قلبه بالحزن على زوجته ، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعاراً تعبر عن لوعته وما يكتظ به فؤاده لها من وجد وصباية . وله تأبين لبعض أمراء الخلفاء السليمانى وحكام مسقط رأسه «نجران» بوادى «ضيمد» من ذلك تأبينه لحاكمها «سلطان» صاحب ضيمد جميعها بمثل قوله (٢) :

الرُّزْءُ أكبر أن يقوم بيومه      جَزَعُ الرجالِ ورنةَ النسوانِ  
ويلُ لأمّ الأرضِ ماذا ضُمَّتْ      من أعْظَمِ أدرجِنَ في الأكفانِ  
ذاك الندى والبأسُ بين حَفِيرَةٍ      أطباقها طَوِيَتْ على نَهْلانِ  
إن التمسكُ بالساحِ وبالوفا      من بعده ضَرْبٌ من الهديانِ

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرسوليين إلا ويكثر الشعراء من تأبينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به في دولته ، وربما بالغوا في بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تنكيه ، على شاكلة افتتاح الخزرجى لراثه السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول (٣) :

بكتِ الخِلافةُ والمقامُ الأعْظَمُ      والمُلْكُ والدينُ الحنيفُ القِيمُ  
والشمسُ والقمرُ المنيرُ كلاهما      والأرضُ تنكى والسما والأُنجمُ  
والبيتُ والحرمُ الشريفُ بمكة      والحِجْرُ والحجرُ اليماني الأسْحَمُ (٤)

(٤) الحجر بكسر الحاء : ماواه الحطم بالكعبة .

الأسحم : الأسود .

(١) الديوان ص ٨٣ .

(٢) الديوان ص ٩٧ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٢ / ١٦٠ .



ومدارسُ العلم الشريف وأهلُه والمسلمون فصيحهم والأعجمُ  
 فالعالم كله يبكي الأفضل والحرم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء  
 والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه . ومضى يصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه  
 وانصياع أمراء اليمن له وعدله الذي عمَّ به رعيته . ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة  
 تنوح وتلطم والأرض راجفة تميد وتهتز والجو مغبراً مظلماً وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل  
 بيت مأمم . وكل هذا إسراف في التأبين ومبالغات مفرطة . ويتولى الحكم بعده ابنه  
 الأشرف ، وله مآثر كثيرة ، وتوفى زوجه في سنة ٧٩٦ فيريثها جماعة من الشعراء ، وهي  
 ظاهرة كانت تشيع في اليمن منذ عصر الصليحيين ، إذ تُوِّين سيدات الأمراء ، وتُعقد لتأبينها  
 الاحتفالات ، ويتبارى الشعراء في وصف فضائلها وبكائها ونديها ندباً حاراً ، بمثل قول  
 الخرجي (١) :

بكنَّها السما والأرضُ يومَ وفاتها      وأمسى سحابُ الأفق أدمعه تَسْرَى  
 على وجهك الميمون حياً وميتاً      سلامٌ يزيد العطر عطراً إلى العطرِ  
 سلامٌ على ذاك الجبينِ ورحمةٌ      على شخصك المدفون في ذلك القبرِ

وتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبي بكر المقرئ فيه مرثية بديعة (٢) .  
 ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة ، وهي تتردد بين الندب والتأبين  
 والعزاء ، أما الندب فإننا نجد في الكتاب شعراء كثيرين يبكون آباءهم مشيدين بتقواهم  
 وعلمهم الفياض ، كقول محمد بن عبد العليم الخولاني في رثاء والده (٣) :

تبكى عليه منابرٌ ومحابرٌ      تبكى عليه محاجرٌ بدماء  
 فالله يُسكنه الجنانَ بفضلِهِ      ويعمُّه بسوايغ النعماء

وقد أطلال في وصف خسارة العلم والعلماء بفقده ، إذ يجعله مفسراً كالواحدى وقتادة  
 وعطاء بن أبي رباح ، ومتصوفاً كمكي والغزالي ، ومحدثاً يدرس لطلابه صحيحي  
 البخاري ومسلم وموطأ مالك ، وفقياً شافعيًا يتقن درس أمهات الفقه الشافعي من مثل  
 الوسيط في المذهب للغزالي والمهذب للشيرازي والروضة للنووي . ويكثر تأبين التلاميذ  
 لشيخوهم من الفقهاء والمتصوفة ، وقد يخلطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوي في  
 شيخه عبد الله بن أبي بكر باحسن (٤) :

(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٤٤ / ٢

(١) العقود اللؤلؤية ٢ / ٢٥٤ .

(٤) نفس المصدر ١١٣ / ٢ .

(٢) نفس المصدر ٢ / ٣١٨ .

خطبُ ألمَّ وهولٌ هائلٌ وردا  
وقد شُغفنا بدارٍ لا وفاء لها  
والمرء فيها كظلٍّ زائلٍ نَسَحَتْ  
والظُّرفُ باكِ وإن الأرض تبكى أسي  
تاجُ الكرام شريفٌ طاب عُنصره  
نَسَلُ الأفاضل ينبوعُ الفضائل بل  
وللشاعر نفسه مرثية ثانية في شيخٍ آخر جعلها عزاء ودعوة إلى الإذعان للقضاء فالدنيا  
دار زوال وانتقال ، والأيام تمضي بالناس جميعاً إلى وادي الفناء والعدم ، والسعيد من  
سارع إلى المتاب واعتبر بمن يموتون كل يوم ، واتجه إلى ربه وعمل لآخرته . وهذه الصورة  
من المراثي كانت تعم في كل مكان : في عمان والبحرين ونجد ، فالمرثي دائماً نذب أو تأبين  
أو عزاء ، وقد تمتزج الصور الثلاثة ، ومن طريف ما نقرؤه للستالي شاعر عمان من رثاء قوله  
في أبي محمد بن نهبان المتوفى سنة ٦٧٤ للهجرة يؤبنه :

رُزئنا هماماً يَعْلَمُ الأزدُ أنه إذا خطرْتُ صيدُ الملوِكِ خَطِيرُها (٣)  
تَبَوُّاً من قحطانٍ بَيْتاً تُقْلُهُ قواعدُ بنيانِ العَيْكِ وسورُها (٤)  
فطال به أَصلُ المعالي وفَرَعها وطاب له خَيْرُ المساعي وخَيْرُها (٥)

ولابن المقرب العيوني مراتٍ مختلفة في بعض القضاة وبعض أهله ، ولعل من الخير أن  
نخص بالحديث شاعرين من شعراء المراثي هما : محمد بن علي التهامي وجعفر الخَطِّي  
البحراني .

### التَّهامي (٦)

هو أبو الحسن علي بن محمد الشاعر المشهور بلقبه التهامي أي المكي ، إذ تسمى مكة  
باسم تهامة ، ولذلك يقال الرسول ﷺ تهامي ، لأنه من مكة . وتطلق تهامة على الساحل  
الممتد على طول الجزيرة شرقى الحجاز بين مكة واليمن ، ولكن نسبة الشاعر إنما هي إلى مكة

(١) بددا : متفرقاً .  
(٢) أفياءه : ظلاله .  
(٣) الصيد : السادة .  
(٤) العتيك : عشيرة ابن نهبان الأزدية .  
(٥) خيرها بكسر الخاء : خيارها .  
(٦) انظر ترجمة التهامي في تمة اليثيمة ١ / ٣٧ ودمية  
القصر ١ / ١١٠ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٦٣ وشذرات  
الذهب ٣ / ٢٠٤ وابن خلكان ٣ / ٣٧٨ وعبر الذهبي  
٣ / ١٢٢ ودبوانه مطبوع بمطبعة الأهرام بالإسكندرية  
سنة ١٨٩٣ .

إذ ينسب نفسه إليها في بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن في آخر حياته كما سيأتي قائلاً  
عن نفسه :

وهذا التهاميُّ من مكةٍ برجليه يَسْعَى إلى حَتْفِهِ

ولا يُعْرَفُ زمن مولده ، وتدل مدائحه في الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق  
والموصل وديار بكر ، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد وميًّا فارقين وأمِدُونَصِيِّين ،  
وأيضاً بينهم قُرَواش (٣٩١ - ٤٤١ هـ) صاحب الموصل وبواديه . ويلاحظ أن ديوانه  
يخلو من مدائح أمراء مكة ، مما يدل على أنه غادرها مبكراً . ويبدو أنه بارح كل تلك  
الأثناء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر ، وبها ألقى عصاه في الرملة عند آل الجراح  
أمراء طيبى ، وقد عينوه خطيباً لبلدتهم . وفي ديوانه مدائح مختلفة لأمرهم المَرَج  
دَغْل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين ، وعاش  
في رحابه ورحاب ابنه حسان (٤٠٤ - ٤٦٧ هـ) . وكانت نفسه حدثته بالشغب على  
الفاطميين - على عادة آبائه - فرأى أن يرسل التهامي إلى بني قُرّة في صعيد مصر كي يحدثوا  
شغباً عليهم ، وأرسل معه كتباً كثيرة إليهم . فقدم القاهرة مستخفياً في سنة ٤١٦ غير أن  
الفاطميين ظفروا به ، فاعتقلوه في سجن خزانة البنود في السادس والعشرين من شهر ربيع  
الآخر ، وظل به إلى أن توفى - أو قُتل - في تاسع جمادى الأولى من نفس السنة .  
والتهامي يُعَدُّ في الذروة من شعراء الجزيرة في هذا العصر ، وفيه يقول صاحب  
الدمية : « له شعر أدقُّ من دين الفاسق ، وأرقُّ من دمع العاشق ، كأتما رُوح بالشَّال  
(الريح) أو عُلِّلَ بالشَّمول (الخمير) فجاء كئيل البغية ودرك المأمول » وقال ابن تغرى  
بردى : « كان من الشعراء المجيدين وشعره في غاية الحسن » ونقل ابن خلكان عن ابن بسام  
قوله عنه في كتابه الذخيرة : « كان مشتهراً بالإحسان ، ذرب اللسان ، مخلي بينه وبين  
ضروب البيان ، يدل شعره على فوز القِدْح ، دلالة بَرْدِ النسيم على الصبح ، ويُعْرَبُ عن  
مكانه من العلوم ، إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم » . وقد اشتهر بمرثيات له في ابنه أبي  
الفضل الذي هصرت المنون غصنه النضير تحت عينه ، وأهم تلك المرثيات رائيته ، وهو  
يستهلها واعظاً ، بقوله :

حَكْمُ النِّيَّةِ فِي البَرِّيَّةِ جَارِي	ما هذه الدنيا بدارٍ قَرَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا	صَفْوًا مِنَ الأَفْدَاءِ والأَكْدَارِ
وَمَكْلَفُ الأَيَّامِ ضِدٌّ طَبَاعِهَا	مَتَطَلَّبٌ فِي المَاءِ جِدْوَةَ نَارِ
وَالعَيْشُ نَوْمٌ وَالنِّيَّةُ يَقْظَةٌ	والمِرءُ بَيْنَهَا خِيَالٌ سَارِي

فأقضوا مآربكم عَجَلاً إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ  
 لَيْسَ الزَّمَانُ وَإِنْ حَرَصْتَ مَسَالماً خُلِقَ الزَّمَانُ عِدْوَةً الْأَحْرَارِ  
 وبمثل هذه العظمت التي تمس دخائل القلوب وأعناق النفوس يفتتح التهامي مرثيته  
 لفلذة كبده ، مصوراً الدنيا وكتوسها المليئة بالأقذاء وأيامها التي تدنى الآجال وتقطع  
 الآمال ، وتجعل الإنسان دائماً بين يومين : يوم مضى بنكده وبؤسه ويوم بقى لا يدري  
 الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه ستنتقطع دون غايته ، فتخرج منه النَّفْسُ ويحل  
 في الرُّمْسِ ويتجه بعد هذا العزاء الذي يذيب فؤاده حسرات إلى بكاء ابنه الذي اختطفه  
 الموت منه وهو لا يزال غَضًّا في كِمِّهِ :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمره وكذاك عُمُرُ كواكبِ الأسْحَارِ  
 وهلالَ أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ بَدْرًا ولم يَمَهِّلْ لوقتِ سِرَارِ (١)  
 جاورتُ أعدائي وجاور ربّه شتآنَ بين جواره وجواري  
 أُخِنِّي من الرُّقْبَاءِ ناراً مثلما يُخْنِي من النارِ الرِّنَادُ الواري  
 وتلهبُ الأحشاءَ شيبَ مَفْرِقِي هذا الضياءُ شعاعُ تلك النارِ

ويمضي في وصف زفراته وعبراته ونيران الأسى تلذع فؤاده ، وقلبه يمتلئ حسرة وشقاء  
 ونفسه تمتلئ لوعة وعناء ممضاً ، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته  
 كل ما أمكن من أذى وآلام ، وإن ذكرى ابنه لهى نفس هذه الآلام الثقيل ، وإنه ليحس  
 إزاءها بحريق لا يزال يأخذ بسويداء فؤاده . والمرثية تمتد إلى مائة بيت ، ومثلها في الطول  
 مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتاً وفيها يقول محزوناً :

محاك الرَّدَى من رأيِ عيني وما محا خيالك من قلبي وذكرك من ذكرى  
 وهو من شعراء المديح المبدعين ، ويكاد المديح يستنفد شعره جميعه ، وهو فيه طويل  
 النفس ، ومن خير مدائح ما قدمه للمفْرَجِ الطائي وابنه حسان ، وفيه يقول :  
 فَنِي جُبِلَتْ يَدَاهُ عَلَى الْعَطَايَا كَمَا جُبِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْكَلَامِ  
 وَيُسْرَاهُ لَنِيْلٍ أَوْ عِنَانٍ وَيُمْنَاهُ لُرْمَحٍ أَوْ حُسَامٍ (٢)  
 لقد أحيَا المكارمَ بعد موتِ وشادَ بناءها بعد انهدامِ  
 بصَفْحَةِ خَدِّهِ لِلبِشْرِ مَاءً كَمَثَلِ الْمَاءِ فِي صَفْحِ الْحُسَامِ (٣)

(١) السرار : ليلالي آخر الشهر التي لا يظهر فيها القمر . (٣) الماء هنا : الروث .

(٢) النيل : العطاء . والعنان : عنان القرس .

سواءً عنده قولُ المنادي هَلُمَّ إلى الطَّعَانِ أو الطَّعَامِ  
 وواضح في مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطلق نفسه على سجيته ، فيأتي بكثير من  
 المعاني الطريفة والصور البديعة ، على نحو ما يلاحظ في صورة البيت الأول ، فهي صورة  
 بسيطة ، فالعطايا في يد مفرج كالكلام في لسانه لا يزال يرسلها ، ومثل هذه الصورة في  
 الطرافة صورة البيت الأخير ، فمدوحه لا يزال في حشد من جوده وبأسه على طعامه  
 وطعانه . وفيه يقول في مدحة ثانية :

هو السالِبُ الأعداء في ساحة الوَعَى وَيَسْلُبُهُ في ساعة السَّلْمِ زائرُهُ  
 يَجْبُرُنَا عن جوده بِشَرِّ وجهِهِ وقبَل انصداع الفَجْرِ تبدو بشائره  
 وَيَصْدُقُ فيه المَدْحُ حتى كأنما يَسْبَحُ مِنْ صِدْقِ المقالة شاعِرُهُ  
 والبيتان الأخيران تتضح فيهما الفكرة التي أشرنا إليها آنفاً وهي سهولة كلمه مع طرافة  
 صورهِ ، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر ، ومن قوله في مديح حسان بن المرحج  
 من مدحة طويلة :

هو المَلِكُ يُبْلَى بُسْطَهُ قَبْلَ وقتها سَجُودُ ملوكٍ فوقها وقيامُها  
 بعيدُ مداه ليس تَأَلَّفَ كَفُّهُ من المكرمات العُرِّ إلا جسامُها  
 ولو أن للأقمار ضوئَ جبينه لما زال عنها نُورها . وتأمُها  
 وليس بمشغولِ البنانِ عن النَّدى إذا شَغَلَ الكَفَّ اليمينَ حُسامُها  
 وواضح تخلصه في البيت الأخير من أن تكون بنان الممدوح مشغولة دائماً بالسيف ،  
 فُتَشَغَلَ عن العطايا والكرم ، وتكثر في أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة . وله  
 نسيب بالديار وغزل رقيقان ، وكثير منها يقدم به مدائحه ، على شاكلة قوله في إحدى  
 مقدمات مدحة دالية :

أترومُ تَغْطِيَةَ الهوى بِجِحوذِهِ ونحولُ جسمك من أدلِّ شهودِهِ  
 كم قلتُ إياك الحجازَ فَإِنَّهُ ضَرِيَتْ جَاذِرُهُ بِصَيْدِ أسودِهِ  
 وأردتُ صَيْدَ مَهَا الحجازِ فلم يَسَا عدك القضاء فصرتَ بعضُ صِيودِهِ  
 أُخْفِي هِوَاهُ وهو نارٌ مثلاً يُخْفِي الزنادُ ضيراهُ في عودِهِ  
 والصورة في البيت الثاني بديعة فظباء الحجاز أو جاذره تصيد أسوده ، ومحاول صيد  
 المها فيصبح من صيودها ، ونار الحب كامنة في فؤاده كمون نار الزناد في عوده . ونحس  
 دائماً بأن الصور والمعاني طبيعية ، وكذلك الألفاظ فهي سلسلة سائغة عذبة . وفي أشعاره  
 حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعها ، ومن طريف حكمه قوله :

وإذا جفاك الدهر وهو أبو الورى طراً فلا تَعْتَبْ على أولاده  
 فمن جفاه الدهر أو قلب له ظهر المجن ينبغي أن لا ينزل جام غضبه على الناس ، لأن  
 ما أصابه إنما هو من أبيهم الدهر وليس منهم ، وما كان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه .  
 والحق أنه كان شاعراً مبدعاً ، وكان الشعر طوع لسانه ومدَّ خيالاته ومشاعره .

### جعفر الخطّط<sup>٦</sup> (١)

من قبيلة عبد القيس التي نزلت في الأحساء والقَظيف وبواديها منذ العصر الجاهلي ،  
 والخطّط نسبة إلى الخطّ وكان يطلق على مدينة القَظيف وعلى ساحل الإقليم كله ،  
 ولا يُعرفُ زمن مولده ، ويبدو أنه نشأ في القَظيف ، وفيها حفظ القرآن وتلقن على الشيوخ  
 مبادئ الكتابة والقراءة والعربية ، وسال ينبوع الشعر على لسانه ، واتخذة - مثل لداته -  
 حرفة يتكسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجري ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة  
 أوال التي تسمى في عصرنا باسم البحرين ، حاملاً مدائحها إلى بعض أمرائها وقضاتها  
 وعلمائها ، واستقبلوه استقبالاً حسناً ، وأسبغوا عليه بعض عطاياهم ، وخاصة وزير أمير  
 البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيهما عبد الرؤوف البحراني . ولا توافي سنة  
 ١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلى إيران وينزل شيراز ، ويرتد بينها وبين أصفهان ، ويلتقي في  
 الأخيرة بهاء الدين العاملي صاحب كتاب الكشكول ، ويعارض بعض قصائده ويعجب  
 بهاء الدين به وبشعره ، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له في العطاء مما جعله  
 يفضل الإقامة في إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة . وقد أشاد به وبشعره ابن معصوم  
 في كتابه «سلافة العصر» قائلاً في نعته : «البدیع الأثر والعيان ، الحكيم الشعر الساحر  
 البيان ، أتى بكل مبتدع مطرب ، ومخترع في حسنه مغرب . وقد وقفت على فرائده التي  
 لمعت ، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت» . ومن محاسن مراثيه مرثيته في الشيخ  
 أبي محمد حسين البحراني سنة إحدى وألف ، وفيها يقول :

جَدَّ الرَّدَى سببَ الإسلام فأنجذما      وهَدَّ شامخَ دين الله فانهدما  
 نيكى فتي لم يحلَّ الضَّيْمُ ساحتَه      ولا أباَحَ له غيرَ الحِجَامِ حِمِي  
 ذا منظرٍ يُبصرُ الأعمى برويته      هُدَى وذا منطِقٍ يستنطقُ البُكْمَا

(١) انظر في ترجمة جعفر الخطط سلافة العصر لابن معصوم ص ٥٣٢ وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحي ١/ ٤٨٣ ونفحة الرحانة ٣/ ٢٠٤

وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٥ ودويوانه طبع في إيران سنة ١٣٧٣ هـ .

لو علمَ الوحشَ ما يُنشيه من حكمٍ لراحتِ الوحشُ من تعليمه علماً  
 ما راح حتى حشاً أسعانا دُرراً من لفظه وسقى أذهاننا حكماً  
 والتكلف في هذا الرثاء واضح ، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى في  
 البيت الأول والثالث والرابع ، وكان يكفي الشاعر أن يعلم صاحبه الناس فيصيحوا  
 علماء ، أما أن يعلم الوحش فتتحول علماء على يديه ، فهذه مبالغة مفرطة . ويتوفى في نفس  
 السنة الشيخ أبو علي عبد الله بن ناصر الخطي ، فيشيِّعه بمرثية ، يقول في تضاعيفها :

فتى كرمتُ أبأوه وجدوده وطابت مساعيه فتمَّ له الفخرُ  
 جوادٌ له في كلِّ أنملةٍ مجدٌ بصيرٌ له في كلِّ جارحةٍ فكرٌ  
 ويا بلدَ الخطِّ اعتراكٌ لفقده مدى الدهر كسرٌ لا يُرامُ له جبرٌ  
 من الآن بدءُ الشرِّ فيك وإنه لمتصلٌ باقٍ وآخره الحشرُ  
 ولو خلَّدَ المعروفُ في الناس واحداً خلَّدَ عبدَ الله نائله العُمُرُ

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من  
 معان وصور ، فهنا طواعية ومرونة في التعبير ، فالألفاظ يشيع فيها التناسق كما يشيع في  
 الأفكار والأخيلة . وقد يكون السبب في ذلك أن الشاعر لم يصدر في المرثية الأولى عن تأثر  
 حقيقي بخلاف الثانية التي رثى فيها مواطنه الخطي . وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره مدائح ،  
 مثله في ذلك مثل معاصريه ومن سلفوا قبلهم ، من ذلك قوله في وزير أمير البحرين ركن  
 الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها في سنة إحدى وألف للهجرة .

ملكٌ رقى دَرَجَ الفخار فلم يدعُ فيها لراق بعده من مَطْمَعٍ  
 وتناولتُ كَفَاهَ أشرفَ رتبةٍ لو قام يلمسُها الشها لم يسْطَعِ (١)  
 أُندي من الغيثِ الملتُّ إذا اجتدي أحمى من الليثِ الهزبر إذا دُعِيَ (٢)  
 حَيْتَ يا كسرى الملوك نحيَّةً تُربى على كسرى الملوك وتبع

والتكلف واضح في هذا المديح ، وتبدو في الأسلوب رقع غير ملائمة ، ككلمة « قام  
 يلمسها » وكلمة « اجتدي » أى طلبت جداوه وفائدته ، بالإضافة إلى كلمة « كسرى »  
 المكررة في البيت الأخير . وهو يستهل هذا المديح بنغمة أي نواس المعروفة من الدعوة إلى  
 الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الخمر ، وله بعض خمريات . لعل أطرفها خمرية  
 حاثية يقول فيها :

(١) السها : كوكب صغير من نبات نعش الصغرى . القوى .

(٢) الملت : الدائم الملح . الهزبر : الأسد الضخم

عاطنِها قبل ابتسام الصباح فَهِيَ تُغْنِيكَ عن سَنَا المِصباحِ  
 أنت تدرى أن المدامة نارٌ فاقتدحها بالصبِّ في الأفداح  
 فَهِيَ تمحو بضوئها صِبْغَةَ اللَّيلِ مل فيغدو وَجْهُ الدُّجى وهو ضاح  
 أرسلتها وَرِدِيَّةً كدمِ الكَبِّ شئ أسألته مُدِيَّةُ الذَّبَّاحِ

وواضح أن التكلف يسرى في هذه الأبيات ، وأن كلمة : « أنت تدرى » في البيت الثاني أفسدت النَّسَقَ فيه . والشطر الثاني في البيت الثالث تكرر للشطر الأول ، وكان يكفيه أن يشبه الخمر بدم الكبش ولا يضيف كلمة « أسألته مدية الذباح » . ومع ذلك كله يعد جعفر الحظيُّ أهم شاعر ظهر في زمنه بالقطيف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين ، وهو بلاريب أشعر من ترجم له ابن معصوم في سلافة العصر والمجبي في نفحة الريحانة بالقياس إلى مواطنه .

## ٥

## شعراء الفخر والهجاء

ظل الفخر والهجاء نشطين في هذا العصر نشاطهما في العصور السابقة ، ولكن يلاحظ أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر الهجاء ، ومررنا أن الطاهر الجزري كان من شعراء قرواش صاحب الموصل وبواديه ، وله ثلاث أبيات يصف في أولها وثانيها الليل وظلماته وفي الثالث فرسه ، واستطرد من وصفه في كل بيت إلى هجاء شخص يقول (١) :

وليلٍ كوجه البرقعيدى ظلمةً وبردٍ أغانيه وطولٍ قرونه (٢)  
 قطعتُ دياجيه بنومٍ مشردٍ كعقل سليمان بن فهدي ودينه  
 على أولقٍ فيه التفاتٌ كأنه أبو جابرٍ في خبطه وجنونه (٣)

ويبدو أن البرقعيدى كان مغنياً ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذ كان قواداً ، والهجاء في البيتين التاليين مقذع كما هو واضح . ومن الهجائين المقذعين القاضي العثماني الينبي وله مدائح في أمراء زيد آل نجاح وفي غيرهم من أمراء الدول الينبية ، ومن أقذع هجائه قصيدته في الداعي علي بن محمد الصليحي حين قتله سعيد بن نجاح أمير زيد ، وفيها

(٣) الفرس الأولق : شديد السرعة إلى درجة الجنون .

(١) الدمية ١ / ١٢٨ .

(٢) البرقعيدى : نسبة إلى برقعيد قرية بالموصل .



يصف مظلته التي كان يحتفى بها من حرارة الشمس ، وكيف أن سعيداً رفع على عمودها رأسه ، يقول (١) :

بكرت مِظْلَتُهُ عليه فلم تُرْحُ إلا على الملك الأجلِّ سعيدها  
ما كان أقبحَ شخصه في ظلِّها ما كان أحسنَ رأسه في عودها  
وأرادَ مُلكَ الأرضِ قاطبةً فلم يَظْفِرَ بغيرِ الباعِ من مَلْحودها  
سودُ الأرقامِ قاتلتُ أسدَ الشَّرى يا رحمةً لأسودها من سُودها

وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا ، ولذلك كنى عنهم بسود الأرقام أي الأفاعى ، والقصيدة مليئة بالتشفي من الصليحي وبهجاء مرير . وللشيخ محمد بن سعيد المكي في هجاء بعض أهل عصره (٢) :

اترك العُجْبَ فما أنت سوى رجلٍ إما لضحك أو لغمٍّ  
كغرابِ السوءِ يمشى مرحاً مُعجَباً وهو أخو الشُّومِ الأدمِ  
يَغسِلُ التُّوبَ وفي أكتافِهِ وسخُ العِرْضِ وآلاتُ التَّهَمِ

ويلقانا الفخر في كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء ، ومر بنا فخر عارم لِقرواش أمير الموصل وبواديه . ولهباء الدولة منصور بن ديبس المزبدي (٤٧٤ - ٤٧٩ هـ) أمير بوادي الحيلة قصيدة يفتخر فيها بمثل قوله (٣) :

أولئك قومي إن أعدَّ الذي لهم أكرمٌ وإن أفخر بهم لا أكذب  
هم ملجأ الجاني إذا كان خائفاً ومأوى الضريك والفقير المعصب (٤)  
بطاءً عن الفحشاء لا يحضرونها سراعٌ إلى داعي الصباح المثوب (٥)  
مناعشٍ للمولى مساميحُ بالقرى مصاليتٌ تحت العارض المتلهب (٦)

وهو يفتخر بقومه ، ويقول إنهم ملجأ الجاني يلوذ بحاهم ، فلا تمتد إليه يد ، ومأوى الفقراء والبؤساء ، مع اجتناب للمحرمات لا يقترفونها ، ومع مسارعة إلى الصلاة في الفجر وطوال النهار ، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ في الشدائد . ومن طريف ما للرسولين من فخرٍ موشحٍ للسلطان المجاهد الرسولي يستهله بقوله (٧) :

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٣٣/٣ ، ٣٧٧ .

(٢) سلاقة العصر ص ٢٢٥ .

(٣) الخريدة (قسم العراق) ١٥٨/١/٤ .

(٤) الضريك : المصعب : الذي لا يجد قوته .

(٥) داعي الصباح : المؤذن . المثوب : الداعي إلى الفرائض والنوافل .

(٦) مناعش : بمنعون من الهلاك . القرى : الضيافة .

(٧) نافعون في الأمور .

(٨) الخرجي ١٢٤/٢ .

نلت أنا العزَّ بأطراف القنا

ليس بالعجز المعالي تُجَنِّي

نحن بالسيف ملكنا اليمنا

كلُّ فخر تدعى الناسُ لنا أعرق العالمُ في الملكِ أنا  
وهو يفاخر بأسرته فخراً شديداً ، ويمضى فيسمى آباءه متحدثاً أو مفاخرأً بشجاعته  
وجوده وبذله للمال وانتجاع العفاة السائلين له وصَفحه الجميل وعفوه . والفخر كثير في  
اليمن ، غير أننا نتركها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره يمجج  
بالفخر من مثل قوله (١) :

إني امرؤ عَفُّ الإزار عن الحنَّا      لم أَغشَ مُنْذُ نَشَأْتُ بابَ المنكرِ  
إني على كَسْبِ العلومِ مخيمٌ      ويُكَايَ في طلبِ العلا وتُحسرى  
إني من العربِ الذينِ نجارُهُم      من خالصِ العقيانِ لبَّ الجواهرِ  
وتخذتُ أصحاباً إذا نادتهم      لم أَحشَ منهم من يئُمُّ ويفتري  
علمي وحلمي والحِصانُ وصارمي      ونَدَى يميني والعفافُ ودفتري

وابن عقبة يفتخر بسجاياه الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلّي بالعلم فهو  
حيه الذي يقف نفسه عليه ويكيه بكاء المحيين لصواحبهم ، ويفاخر بأصله العربي ،  
ويحدثنا عن صحابه وندمائه من العلم والحلم والفروسية والبأس والجود والعفاف ودقاتر  
الدراسة ، ويظيل في الفخر بقومه من حَوْلان وكَهْلان وكندة وملوكها الأقدمين . ويكتظ  
ديوان ابن مقرب العيوني بالفخر بأبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من  
أبجاد ومآثر ، ويفخر كثيراً بنفسه وبشعره ، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر ، على  
شاكلة قوله :

تجاهلَ هذا الدهرُ بي فتكثبتُ      علىَّ بأنواعِ البَلايا كِتابُهُ  
وَإني وإن أبدو أضمراراً بخدِّهِ      وَأوجفَ بي وازورَّ للبغيضِ جانبهِ (٢)  
لأغضي على بغضائِهِ وازورارِهِ      وأعجبُ من حرِّ كريمٍ يعاتبهِ  
وأستقبلُ الخطبَ الجليلَ بثاقبِ      من العزمِ يعلو لاهبَ النارِ لاهبُهُ  
وكانه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مها ألح عليه بيلاياه أن ينال منه  
شيئاً ، مها أبدو من تكبر واستعلاء ومها عدا عليه بكوارثه ، ومها انحرف عنه وأظهر من

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٦٧/١ وتاريخ  
حضرموت السياسي ١٦٩/٢ .  
(٢) اصعرا بخده : ميلا ، كناية عن الكبر . أوجف  
بالخيل : عدا بها للقتال . ازور : مال وانحرف .

بغضائه . وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تعلق نارُه على نيرانه وتحمدها فلا تشتعل ضده أبداً . ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والهجاء ، هما نَشْوان بن سعيد الحميري وسليمان التَّبَّهاني العُماني .

### نشوان بن سعيد الحميري<sup>(١)</sup>

من أهل جبلِ شامخٍ مطَّلَّ على «تَعِزَّ» اسمه صَبْرٌ ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها ، وكان ملوكها يسمون بالأقبال والأذواء ، ونراه ينسب نفسه في قصيدته الحميرية إلى قَبِيلٍ يُدْعَى ذَا سَحْرٍ ، يقول :

أَوْ ذُو مَرَاشِدَ جَدُّنَا الْقَبِيلِ ابْنِ ذِي سَحْرٍ أَبُو الْأَذْوَاءِ رَحْبُ السَّاحِرِ

ويبدو أنه أكْبٌ منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها ، حتى أصبح علماً في اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام ، وينص من ترجموا له على أنه كان معتزلياً . وذكروا أنه اشتغل بالقضاء في بعض مخاليف اليمن وأنه كانت له في الفرائض (الموارث) وقسمتها يد . وله مصنفات مختلفة ، أشهرها «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» في نحو ثمانية مجلدات ، وذكرنا في الفصل الثاني أنه معجم لغوي ، وهو فيه لا يكتفي بالحديث عن اللغة بل يتسع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة . وبذلك حوَّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف التاء في ليدن ، ثم طبع منه جزآن في القاهرة إلى آخر حرف الشين ، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين . وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة . وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمى «خلاصة» السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة ، وهي في أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، استهلها بقوله :

الْأَمْرُ جِدٌّ وَهُوَ غَيْرُ مَزَاحٍ فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحاً يَا صَاحِ  
وَمَضَى قَلِيلاً فِي الْوَعْظِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى تَعْدَادِ مَلُوكِ التَّبَاعَةِ وَالْأَقْبَالِ وَالْأَذْوَاءِ ، وَالْقَصِيدَةَ  
بِذَلِكَ مِنَ الشَّعْرِ التَّعْلِيمِيِّ التَّارِيخِيِّ . وَقَدْ نَالَ شَهْرَةَ مَدْوِيَّةٍ فِي وَطَنِهِ

(١) انظر في ترجمة نشوان معجم الأدباء ١٩/ ٢١٧ كنه ومقالة المستشرق سترستين عنه في الجزء الأول من كتاب المتقى من دراسات المستشرقين (طبع القاهرة) ٣/ ٣٤٢ والخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٦٨ و ٣٨٥ وبغية الوعاة للسيوطي ومقدمات محقق ص ٧٥ .

لعصره ، لمعارفه الواسعة ، ويبدو أنه لم يكتف بالجد العلمى فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان ، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صَبْرٍ موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل ممسكاً بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة . وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعتزازه واعتزازاً لا حدَّ له بقمطانيته . وهو يسوق أشعاره جميعها في هذه العصيبة المعروفة لقحطان من مثل قوله :

ملكوا البسيطة ، سلٌ بذلك تُخَبِّرُ	منا التَّبايعَةُ اليمانون الألى
بالتاج غازٍ بالجيوش مظفَّرٌ	من كلِّ مرهوبٍ اللقاء مُعَصَّبِ
بعد السجود لتاجه والمغفِرُ (١)	تَعْنُو الوجوهُ لسيفه ولرمحه
فالناس من صدَفٍ وهم من جَوْهَرِ	فافخَّرْ بقمطانٍ على كلِّ الورى
قطرت صَوَارِمُنَا بموتِ أحمرِ	وإذا غَضَبْنَا غَضِبَةً يَمِينَةً
وغدتُ شيباعاً جَائِعَاتُ الأَنْسَرِ	فَعَدَّتْ وَهَادُ الأَرْضِ مُتْرَعَةً دَمًا

والآيات تحمل عصيبة عنيفة ، وهى عصيبة لا يشيد فيها بالملوك والتبايعه الأولين من قومه ، بل أيضاً لا تزال الحامسة تشدد به وتتأجج في صدره ، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعاً ، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم ، فهم من جوهر والناس من صدف ، ولا كغضبهم ، فغضبهم يملاً الوهاد دماً وأشلاء ما تزال تحط عليها النور والصقور ، تملأ بطونها الجائعة . ولم يكتف بهذه العصيبة الجاحمة لقومه ضد مضر والعالم جميعه ، فقد اندفع في نقائض مع الأشراف الرسيين أصحاب صعده ، وشاع أنه قال :

أما الحسينُ فقد حواه المُلحدُ واغتاله الزمنُ الخثونُ الأُنكدُ  
فتبصَّروا يا غافلين فإنه فى ذى عرارٍ ويحكُمُ مُستشهدُ (٢)

وحين وصل البيتان إلى أسماع الرسيين غضبوا غضباً شديداً ، وعظم هياجهم ، وردوا عليه بعنف ، مهددين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدى :

أما الصحيحُ فإن أصلك فاسدٌ وجزاك منا ذابِلٌ ومَهْنَدُ (٣)

في قصيدة طويلة . ووصلت أسماع نشوان ، فلم يخلد إلى الصمت والسكوت ، بل مضى يردُّ بقصيدة دالية يقول فيها :

من أين يأتينى الفسادُ وليس لى	نسبٌ خبيثٌ فى الأعاجم يوجدُ
لا فى علوج الرومِ جدُّ أزرقُ	أبدأً ولا فى السُودِ خالٌ أسودُ

(١) تمنو: نقاد المغفر: زرد يضعه الحارث تحت القلنسة.

(٢) العرار: زهر بدوى ويقصد بذى العرار أن الحسين

استشهد بالفلاة قرب الكوفة مكان النجف الحالية .

(٣) ذابِل: رمح . مهندا: سيف .

ومضى يتنصّل من البيتين السابقين . غير أنه ساق تنصّله في تهكم وسخرية لاذعة من تهديده بسفك دمه ، قائلاً :

فدَعِ التَهْدُدَ بالحِسامِ جهالةً فحُسامُكَ القَطَاعُ ليس له يَدُ  
من قد تركتَ به قتيلاً؟! أنبِيءِ ممن توعدُهُ ومن تتهدّدُ  
إن لم أمتْ إلا بسيفك إنني لقريرٌ عينٍ بالبقاء محلّدُ  
وكل هذا يمكن أن يحتمل من نشوان في سبيل دفاعه عن نفسه ، ولكنه لم يلبث أن  
وصم جيئه وسمه لا تحمى بالأبيات التالية :

مُوتِي قريشُ فكلُّ حَيٍّ مَيِّتٌ للموتِ منا كلُّ حَيٍّ يولّدُ  
قلتم لكم إرثُ النبوّةِ دوننا أزعمتُم أن النبوّةَ سرمدُ  
منكم نبيٌّ قد مضى لسبيله قدما فهل منكم نبيٌّ يعبدُ

وهذه سفاهة وخرق وحقاقة ، ويقول العماد الأصبهاني تعليقا على هذه الأبيات : « قاتله الله ولعنه وأخزاه ، ما أشد افتراه على الله وأجراه ، وأية فضيحة فوق هذا ولولا النبي المصطفى الذي اختاره الله واجتباها ، وجعله الوسيلة إلى نيل رضا ، صلوات الله عليه وسلامه ، ما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا » وحقاً إنها كلمات خبيثة كلها نكد وخزى وبور ، ولو أن الشاعر وجّه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصية الخرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى .

### سليمان النبهاني<sup>(١)</sup>

آخر سلاطين بني نيهان العُمانيين ولا يُعرف تاريخ مولده ، وقد عاش حتى سنة ٩١٥ للهجرة وكانت حياته في الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبينه وبين خوارج نَزَوِي ، منها وقعة « حَمَت » بينه وبين خوارج نَزَوِي لعهد إمامهم عمر بن الخطاب ، وفيها انهزم عمر ، ودارت الأيام وانتصر عمر عليه ، وسرعان ما توفي فتنفس سليمان الصعداء وعاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخوارج المقيمين بها . وحراره الخوارج في « واقعة أركي » ودارت الدوائر عليه . وما زال به أبو الحسن بن عبد السلام الذي ولى أمر الخوارج بعد عمر بن الخطاب ، حتى غادر الديار إلى هُرْمُز في أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد واسترد سلطانه ، غير أن العانيين بايعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦

(١) انظر في ترجمة سليمان النبهاني تحفة الأعيان ديوانه عز الدين التنوخي ، وهي مقدمة بديعة . والديوان لنور الدين السالمي ٣٢١/١ وما بعدها ومقدمة محقق مطوع بدمشق .

ونشبت بينها موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة . وبذلك ضعفت دولة النبهانيين وكاد يقضى عليها قضاء نهائياً . وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة ، وهي ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء ، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين من أمثال امرئ القيس وطرفة وعترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والنابعة والأعشى وأشعار الإسلاميين من أمثال جرير والفرزدق وذى الرمة وكثيرٍ وقطري بن الفجاءة وأشعار العباسيين من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحترى وابن دريد والمتنبي وأبي العلاء . وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التنوخى ذكره للمواطن والأماكن التي نثرها امرؤ القيس في أشعاره ، كما تتبع أخذه من عترة ومعارضته لطرفة في معلقته وعمرو بن معد يكرب في داليته وابن دريد في مقصورته وأبي نواس في خمرياته وما تطوى من معان وصور وأوزان وقواف ، ولاحظ معارضته لأبي العلاء في قصيدته ( ألا في سبيل المجد) وأنه استعار منه المعاني وكثيراً من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية ، على شاكلة قوله :

ألا في سبيل المجد ما أنا صانعُ نَفُوعٍ وَضَرَّارٍ وَمُعْطٍ وَمَانِعٍ  
وإني لذو طَعْمينَ شَهِدُ يشوبه رَحِيقٌ وَسَمٌّ دونه السُّمُّ نَاقِعٌ

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة في ديوانه وإغاراته على معاني الأسلاف وأخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رصف الكلم . والموضوع الأساسي في ديوانه هو الفخر ، وهو شىء طبيعي ، لأنه كان سلطاناً وصاحب دولة ومن فخره الذى يصور فيه بسالته وشجاعته :

يَمِيناً بِالصَّوَارِمِ وَالْحِرَابِ وَبِالْحَيْلِ الْمَسُومَةِ الْعَرَابِ (١)  
وَكُلٌّ مُفَاضَةٌ كَالنَّهْيِ سَرْدٍ تَرَدُّ الْعَضْبَ مَقْلُولَ الذُّبَابِ (٢)  
أنا ابنُ السابقينِ إني المعالي وَرَغْمُ الصَّيْدِ وَالشُّوشِ الْعِضَابِ (٣)  
أنا الملكُ الذى ساد البرايا مَقَرُّ الْفَخْرِ وَالْحَسْبِ اللَّبَابِ  
ولى يومان من نَعْمَى وَبُؤْسَى ولى طعمان من أَرَى وَصَابِ (٤)

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته في الفخر ، فهو يُقَسِّمُ بأدوات الحرب والبأس أنه

(١) المسومة : المعلمة . العراب : الحيدة .  
(٢) المفاضة : الدرع . النهى : الغدير . والشعراء يشبون الدرع وعضونها بجاه الآبار حين تمر بها الريح فتحدث فيها حركات وعضونها . سرد . منسوجة .  
(٣) الصيد : السادة . الشوش : جمع أشوش وهو التعاطم الذى يتبه بنفسه زهواً .  
(٤) الأرى : غسل النحل . الصاب : المر .

سليل السابقين إلى الشرف : شرف النسب وشرف الفعال ، ويتمدح بأنه كالمنذر بن ماء السماء الذي كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعمى ويوم بؤسى وأن له طعمين حلواً ومراً . وهو يلتقى مع نشوان بن سعيد في الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقباؤها بمثل قوله :

ونحن ملكنا الجتتين بمأربِ ودُسنا برغمِ أنفِ كِسرى وقِصِرِ  
ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقبال والملوك ، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان ، وإن كنا نحس عنده أيضاً نغمة الفخر على نزار حين يردّد ما قدمه الأنصار للرسول ﷺ وما أدوه من جهاد في سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والأموال ، على نحو ما نرى في قوله :

ولولا الملوك الصّيدُ قوميَ لم يُقِمْ لعمريَ قومٌ قبيلةَ الصّلواتِ  
ضربنا على الإسلام أبناءَ هاجرِ فدانوا وأدّوا واجبَ الزّكواتِ  
ويقصد بأبناء هاجر قريشاً ، وهي أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف . وكثيراً ما يبالغ مبالغات مفرطة في فخره تتجاوز الحدود كقوله :

وهبَ الإلهُ لى الفضائلَ مثلها أعطى الكليمَ الصّحفَ والألواحِ  
والكليم هو موسى عليه السلام ، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة . ويكثر في ديوانه من ذكر الأطلال والغزل ، وهو فيها مقلد يحتذى على معاني الأسلاف وصورهم . ويتعرض كثيراً لوصف الناقة ، وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحرابه ، غير أنه لا يأتي في الوصفين بجديد ، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبعي لأمر يجد فراغاً كثيراً . وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتته ومسيرته معها في الصحراء بحثاً عن ماء حتى إذا ألمّ به أرسل عليه وعلى الأتّن صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه ، فأخطأت الصيد ومضى الحمار وأتته عبر الصحراء . ويتلو هذا المشهد بمشهد ثانٍ للمعركة بين ثور وكلاب صائد ، ويذكر لنا لون الثور ومبيته بين أشجار تقيه صوب الغمام ، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كِناسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب ، فقتل منها اثنين ، ومضى يشق طريقه في القلوات مثيراً للغبار من حوله . والمشهدان منقولان حرفياً من بائنة ذى الرمة المشهورة التي عرضنا لها في كتابنا « التطور والتجديد في الشعر الأموي » ولم يلمس الشاعر منه المشهدين فحسب ، بل التمس أيضاً بعض عباراته ومعانيه ، حتى وصف ذى الرمة لثوره بأنفته من الفرار من المعركة نجده عند النهائي إذ يقول :

واعتاده أنفُ الكريدِ سمِ فكرٌ كالبطلِ المحامى

وللخمر حيز كبير في الديوان ، ويستظهر الأستاذ عز الدين التنوخي أنه كان يطلق  
 لنفسه العنان في مطالع حياته ، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرية لأبي نواس ، وبين  
 مدى إغارته على معانيها وصورها وعلى الوزن والقافية ، ومن شعره في الخمر قوله :  
 وكَم جَنَّةٍ فِي الْأَرْضِ دَانٍ قَطُوفُهَا بِهَا غُرْفَاتُ أَيَّامِ غُرْفَاتِ  
 قُضِينَا بِهَا أَيَّامَنَا بِمُدَامَةٍ لَدَى قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ بَيْنَ سُقَاةِ  
 وَحُورٍ كَأَمْثَالِ الدَّمِيِّ وَبِرَاغِزٍ يُطَرَّبُنَنَا بِالنَّايِ وَالنَّغَمَاتِ  
 وواضح أنه لكي يجمل صورة الجنة جاء بقاصرات الطرف اللاتي يقصرن عيونهن على  
 صواحيهن ولا يلتفتن إلى غيرهم ، كما جاء بالخور العين وأضاف إليهن أولادهن من البراغز  
 وهن يطربنهم بالضرب والعزف والغناء على الآلات الموسيقية . ويبدو أنه كثيراً ما كان يفكر  
 في الدنيا ونوائبها إذ نرى له بعض مواعظ في ديوانه - وله رثاء حار لأخ ثار عليه وقتله -  
 ولعل من الطريف أن نجده يختم بعض قصائده بالصلاة على الرسول ﷺ ، على شاكلة  
 قوله في خاتمة إحدى قصائده :

وَأخْتَمُّ شِعْرِي بِذِكْرِ الرَّسُولِ نَبِيِّ الْبَرِيَّةِ نَوْرِ الظَّلَامِ  
 وَفِي الْحَقِّ أَنَّهُ كَانَ شَاعِراً مَجِيداً ، وتكثر معارضاته واقتباساته من الشعراء السابقين ، غير  
 أن ملكته الشعرية كانت ملكة خصبة .



## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية في الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذي ينسب إليه القرامطة ، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة في سواد الكوفة والبصرة . وأرسل أحد دعائه المسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي إلى البحرين ، فنشر الدعوة فيها واستطاع في سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبنائه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائياً - ودخلوا في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر ، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين - كما مر بنا - تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠ . وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعائه إلى اليمن أحدهما يميني هو علي بن الفضل والثاني كوفي هو منصور بن حوشب ، واستطاع علي أن يستولى على صنعاء ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر المحجن ، فأخذ يدعو لنفسه ، وزعم لأتباعه أنه نبي وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحلّ لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج ، ويروى أنه صعد يوماً المنبر وأنشد له أو لبعض شعرائه (١) .

خُذِي الْعُودَ يَا هَذِهِ وَاضْرِبِي	تُقِيمُ شَرَائِعَ هَذَا النَّبِيِّ
تَوَلَّى نَبِيٌّ بَنِي هَاشِمٍ	وَجَاءَ نَبِيٌّ بَنِي يَعْرَبٍ
أَحَلَّ الْبِنَاتِ مَعَ الْأَمَهَاتِ	وَمَنْ فَضَلَهُ زَادَ حِلَّ الصَّبِيِّ
وَقَدْ حَطَّ عَنَا فَرُوضَ الصَّلَاةِ	وَحَطَّ الصِّيَامَ فَلَمْ نَتَعِبْ

(١) الخلاف السلجوقي ١/١٤٢ .

ولاتطلب السَّعَى عند الصَّفا ولا زورة القَبْرِ في يَثْرِبِ  
 فهو نَبِيُّ يَعْرَبُ أو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا . ولم يلبث عدو الله  
 والإسلام أن لقي حتفه - كما مر بنا - في سنة ٣٠٣ بمشروط حَسَنِيٍّ مطَّيَّبٍ ظلَّ يترصده حتى  
 وجد الفرصة سانحة . أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة  
 بالفاطميين حين كانوا لا يزالون في المهديَّة بالقرب من تونس ، واتخذوه داعية لهم في اليمن  
 فاستولى على بعض الحصون ، وتوفي سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة . وتوفي  
 وظلت الدعوة قائمة وظل لها دعاة مختلفون ، وتولاها الداعي الكبير على بن محمد الصُّليحي  
 (٤٣٩ - ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مر بنا ، وكان قد تتلمذ على داع  
 فاطمي يَمْنِي يسمي سليمان بن عبد الله الزواحي ، حتى إذا مات خلفه عليها ، وكان يستغل  
 الحج إلى بيت الله الحرام وسيلة لنشر دعوته في اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء  
 مختلفة . وبايعه رؤساء قبيلة هَمْدَانَ على نصرته ، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم  
 على صنعاء وعدن وزبيد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت ، وكان شاعرا ، وتنسب  
 إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين في مستهل حديثنا عن كثرة الشعراء في الفصل الماضي ،  
 ويشك بعض القدماء فيما ينسب إليه من شعر أحيانا ، ويقولون إنه كان ينظمه بعض  
 الشعراء على لسانه <sup>(١)</sup> . ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر  
 الفاطمي من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديداً ووعيداً ، وكان مما  
 أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذر فيها بحرب مُبيرة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي  
 أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضاً ، فردَّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه <sup>(٢)</sup> :

دَمُ الأبطالِ في اليومِ العَبَوسِ      مُدَامِي لِأَشْرَابِ الخَنْدَرِيسِ  
 وَكَمِ مَلِكٍ أُسْرَتْ وَكَمِ خَمِيسٍ      أَبَادِ سَرَاتَهُ قِتْلًا خَمِيسِي <sup>(٣)</sup>

وكان الهيثمي ماينى يشيد بعلي الصليحي وحروبه وماسجَلٍ فيها من انتصارات . وكان  
 لا ينهض بعمل دون أن ينشده بعض مدائحه ، من ذلك أنه لما عزم على الحج في سنة ٤٥٩  
 وأتاب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيثمي ينشد <sup>(٤)</sup> :

إِنَّ سَيْفَ الإِمَامِ كالبَحْرِ ذِي المَوْجِ      جِجْ لَه فِي البِلَادِ مَدٌّ وَجَزْرُ  
 وَلَنْ سَاعَنَا فِرَاقُ عَلِيٍّ      فِجْمَدِ ابْنِهِ لَنَا مَا يَسْرُ

ولم تكن لعلي الصليحي العودة إلى عاصمته ودياره من الحج ، إذ كان قد استولى من

(٣) الحميس : الجيش . السراة : السادة .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٦ .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٧ .

(٢) الخلاف السلباني ٢ / ٢٧ .

آل نجاح على زبيد ، فرصده سعيد بن نجاح - وكان معه أخوه جياش - في عودته ، وكانت برفقته زوجته أسماء ، فاغتاله ، واقتاد زوجته أسيرة ، وأخذ الشعراء يعزّون فيه ابنه المكرّم ويرثونه ، من ذلك قول الهيثمي <sup>(١)</sup> :

وأنشأ الحجَّ إلى مَكَّةَ يبغي رضا الله وأجرًا جزيلًا  
وارتجّت الأرضُ له هيبَةً بمن بها بين فُراتٍ ونيلٍ  
فإن يكن نيلَ على غِرَّةٍ فالبدرُ لأبدٍ له من أفولٍ

وظلت السيدة أسماء في الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرّم في سنة ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها . وفي العام التالي فنك بسعيد وهرب أخوه جياش إلى الهند . وكانت للسيدة أسماء أعمالٌ كثيرة ، وكان يُخطبُ لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصُّليحي <sup>(٢)</sup> ، وفيها يقول الهيثمي <sup>(٣)</sup> :

رسمتُ في السَماحِ سَنَةَ جودٍ لم تَدَعُ من معالمِ الحُخلِ رَسَمًا  
قلتُ إذ عَظُموا لبلقيسَ عَرشًا دَسَتْ أسماءُ من ذُرَى النَّجمِ أَسْمَى

وكانت السيدة أروى بنت أحمد زوجة السلطان المكرم لاتقلّ عنها فضلًا ، وقد نشأت في حجر السيدة أسماء وعُيّت بتربيتها وأحضرت لها الدعاة كي يعلموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية . وتوفّي زوجها سنة ٤٧٧ فأسند الفاطميون إليها الدعوة وتدير شؤون الدولة الصليحية ، فكان يُخطبُ لها على منابر اليمن . واستطاع جياش بن نجاح أن يسترد زبيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانته على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليهما الصليحي ووزيره على بن القيم ، ويقال ان ابن القيم أحسن استقبال جياش حين دخل زبيد ، وتزوجت السيدة أروى بالداعي سبأ بن أحمد الصليحي وأشركته معها في الحكم وكان شاعرا جوادًا ، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة <sup>(٤)</sup>

ولما مدحتُ الهَبْرِيَّ ابنَ أحمدٍ أجاز وكافاني على المدحِ بالمدحِ  
فَعَوَّضَنِي شعرا بشعرٍ وزادني عطاءً فهذا رأسُ مالي وذا رِبحي

وتوفّي سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمّة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ . وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية ، وترعّم الدعوة في اليمن بعدها آل زُرّيع أصحاب عدن وكانوا يُجزّلون العطايا للشعراء حتى عُذّوا عند بعض أمراءهم بالعشرات ، وأكبر

(١) الهمداني ص ١٠٣ والخلاف السلياني ٣٢/٢ . خطأ أسعد بن يحيى . انظر الهمداني ص ٦٧ .

(٢) الهمداني ص ٦٧ . (٤) ابن خلكان (طبع دار الثقافة بيروت) ٣٣٧/٢ .

(٣) تاريخ اليمن لعارة طبعة كاي ١٦ والشاعر يسمى فيه والهبري : الأسد .

شعرائهم غير منازع أبو بكر العيذى . وله مدائح طنانة فى الداعى الزرىعى عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله (١) :

ما إن تَحُطُّ يَدُ الْعَلَى أَوْصَافَهُ      إلا بِسْمِ الْخَطِّ لا بِيَرَاعِ (٢)  
لو أن تَبِعَ كان أدرك عَصْرَهُ      أضْحى له من جُمْلَةِ الْأَتْبَاعِ  
خضعت له غَلْبُ الْمُلُوكِ وإنما      خضعت لَضَرَّارٍ لها نَفَّاعِ  
وعنت لعالى القَدَرِ منه مؤيِّدٍ      ماضى الأوامر فى الزمان مطاعِ  
والمالُ مَقْتَسَمٌ مُشاعٌ عنده      بيدِ التَّدَى والمجدُ غيرُ مشاعِ

وروى له العماد فى الخريدة مدائح كثيرة مُعجَباً بها ، وذكر أنه كان وزير الدولة الزرىعية وصاحب ديوان الإنشاء بها ، وينقل عن عمارة اليمنى إشادة قوية ببيانه وبلاغته . ومع كثرة ما أنشده العماد من مدائحه للداعى الزرىعى لانجد فيها إشارات للمذهب الإسماعيلى ، وبالمثل ما أنشده لشعراء الصليحيين ، والعماد فى خريدته يتحاشى مثل هذه الإشارات إلا ماجاء عفوا على نحو ما يلاحظ فى القسم الخاص بشعراء الدولة الفاطمية فى مصر ، واتخذت موقفه أكثر كتب التراجم فى عصره وبعد عصره ، وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الإسماعيليين اليمنيين فى العصر ، وهم ابن القم ، والسلطان الخطاب ، وعمارة اليمنى .

### ابن القم (٣)

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن القم ، ولد بزَيد ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، واستيقظت موهبته الأدبية مبكرة على ما يظهر ، وكان أبوه على من أنصار على بن محمد الصليحي وشيعته ، فحين ولَّى الأسعد بن شهاب على زيد وتهامة بعد استيلائه عليهما سنة ٤٥٢ جعله وزيره . ويبدو أن الأب ألقى ابنه بدواوين على الصليحي فى صنعاء منذ سنة ٤٥٨ على الأقل إذ نجده يهنئ المكرم ابنه بزواجه من السيدة أروى الملقبة بالملكة الحرّة فى هذه السنة منشداً :

وكريمةِ الْحَسِينِ تَكْفُفُ قَصْرَهَا      أَسَدٌ تَخَافُ الْأَسَدُ مِنْ صَوْلَاتِنَهَا  
ظفرتْ يداك بها فَبِخٌّ إِنَّمَا      لك تَذَخَّرُ الْعِلْيَاءُ مَصْنُونَاتِنَهَا

أشيخ وكتاب «الصليحيون» للهمدانى فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والخلاف السليمانى ٤١/٢ . وراجع أيضاً فى ترجمته وشعره المفيد فى أخبار صنعاء وزيد لعمارة اليمنى تحقيق محمد بن على الأكوخ .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ١٨٢ .

(٢) سمر الخط : الرماح . اليراع : القلم .

(٣) انظر ترجمته وأشعاره فى الخريدة (قسم الشام)

٣/ ٧٤ ومعجم الأدباء ١٠/ ١٣٢ وفوات الوفيات (نشر

مكتبة النهضة المصرية) ١/ ٢٧٨ ومعجم البلدان : مادة

ولما توفي على الصليحي رثاه على لسان أخته السيدة تحفة . وسرعان ما أخذ الشعراء يحرضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حُبشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا . وانبرى الحسين بن علي بن القم يحثه هو وقومه على الانتقام لعلي الصليحي بمثل قوله :

أَقْحَطَانُ هَزَى الْبَيْضَ وَاعْتَقَلَ السُّمْرَا      وَرَدَّى الْعَوَالِي مِنْ دِمَاءِ الْعِدَا حُمْرَا (١)  
وَلَا تُهْدِرِي ثَارَ الْمَظْفَرِ إِنَّهُ      بَنَى لَكُمْ مَجْدًا وَشَادَ لَكُمْ فَخْرًا (٢)

وليس في المصادر التي بين أيدينا مدائح له في المكرم ، ولكن أثرت له بعض رسائل وجَّهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمي ، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء في عهده ، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب في زييد ، كما أسلفنا ، ويبدو أنه استقبل جيَّاش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زييد ، وربما كان من أسباب استيلائه على زييد . وأكبر الظن أن الحسين لم يَشْرِكْ أباه في خروجه على الصليحيين ، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أروى وزوجها سبأ ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول في تضاعيفها :

أَعْلَمْتُ أَنَّ مِنَ الرِّمَاحِ قُدُودًا      وَمِنَ الصِّفَاحِ مَاجِرًا وَنُهُودًا  
أَعْلَى الْأَنَامِ أَبَاً وَأَكْرَمُ طِينَةً      وَأَتَمَّ أَعْرَاقًا وَأَصْلَبُ عُودًا  
لَوْ كَانَ يُعْبَدُ لِلْجَلَالَةِ فِي الْوَرَى      بَشَّرَ لَكَانَتْ ذَلِكَ الْمَعْبُودَا  
هِيَ نِعْمَةُ اللَّهِ الَّتِي مَاؤُهَا      تَمْدًا وَلَا مَعْرُوفُهَا مَجْهُودَا (٣)

والبيت الأول رائع في تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب ، إنها ذات بأس وجلال وجمال ، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لها بعد وفاة السلطان المكرم (٤) وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفي سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه في حصن أشيخ حتى وفاته ، وفيه يقول من مدحة بائية :

إِنْ ضَامَكَ الدَّهْرُ فَاسْتَعَصِمْ بِأَشِيخٍ أَوْ      أَزْرَى بِكَ الْفَقْرُ فَاسْتَمْطِرْ بِنَانَ سَبَا  
تَخَالُ صَارِمَهُ يَوْمَ الْوَعْيِ نَهْرًا      تَضَرَّمَتْ حَافَتَاهُ مِنْ دَمٍ لَهَا

والصورة في البيت الثاني طريفة ، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعاني ، مع جزالة

الأسلوب ونصاعته ، وفي سبأ يقول من قصيدة ثانية :

(١) البيض : السيوف . السمر : الرماح . العوالي : (٣) تمداً : قليلاً .  
أسنة السيوف والرماح . (٤) في المفيد لعارة أنه (كان شاعراً ومترسلاً يكتب عن  
(٢) المظفر : لقب علي الصليحي .  
السيدة الحرة إلى الديار المصرية) .

كريمٌ إذا جادت فواضلُ كفه  
وما كنت أدري قبل قطعِ هباته  
تيفنت أن البُحْلَ ما تفعلُ السُّحْبُ  
إلى الفياقِ أنْ أنعمهُ ركبُ

والصورتان طريفتان ، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجي معاصره ابتكر معناه كما يقول العماد - نقلا عن نجم الدين بن مَصال - وقد أحسن صياغة مغزاه ، وهو :

طويتُ إليك الباخلين كأنني سريتُ إلى شمس الضُّحى في العيَّاهبِ

وهو بيت من قصيدة له في ناصر الدولة أبي علي بن ناصر الدولة بن حمدان ، فأعجب به إعجابا شديدا وقال : والله لآخذن هذا البيت منه ، وما هي إلا أن مدح سبأ ابن أحمد فقال فيه :

لفظتُ ملوكَ الأرضِ حتى رأتهُ فكنتُ كمن شقَّ الظلامَ إلى الصُّبحِ

يقول العماد : « ولم يقصِّر في هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه ». وربما لم تعجبه كلمة « لفظت » عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى في بيت ابن سنان على الصبح في بيت ابن القم ، ولكن هذا تشريح أكثر مما ينبغي ، ومن المؤكد أن بيت ابن القم بديع . ولاحظ الدكتور شكرى فيصل في تعليقاته على أبياته في الخريدة أنه كان يتأثر غير شاعر ، من ذلك أنه ردَّ قوله في جِيَّاش بن نجاح :

وما أنت إلا البدرُ أظلمَ منزلي وكلُّ مكانٍ نورُهُ فيه ساطعُ

إلى قول البحرى في مديح الفتح بن خاقان :

وبدرُ أضواء الأرضِ شرقاً ومغرباً وموضعُ رجلى منه أسودُ مظلمُ

والصلة بين البيتين واضحة ، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا في الصورة بحيث تُنسب إليه ، ويدل هذا البيت من قصيدة في عتاب جياش وقصائد أخرى في عتابه على أنه حاول الاتصال - أو اتصل - به فعلا مما جعل سبأ بن أحمد يسخط عليه ، وكأما أنضم ذلك إلى صنيع أبيه الذى أسلفناه مما جعله يكتب إلى سبأ بن أحمد معتذرا مستعطفنا . ويرد الدكتور شكرى فيصل أيضاً أبياتا مختلفة له في مدحة ميمية إلى المتنبى ، من ذلك قوله فيها :

كأن مواضيه طُبِعَ من الشَّجَا فَهَنَّ من الأعداءِ بين الغَلاصِمِ

فقد ردَّه إلى قول المتنبى في مديح على بن إبراهيم التنوخى :

وقد صُغَّتْ الأسنَةُ من هومٍ فما يَحْطُرُنْ إلا في الفؤادِ

وبيت المتنبي أروع إذ أين الشجا والهموم من الغلاصم التي تصل بين الرأس والعنق .  
بينما موضعها القلب والفؤاد . وردَّ قوله في نفس القصيدة يصف الإبل التي ركبوها إلى  
المدوح :

قَصْدُنْ بِنَا مَنْ لَوْ تَجَبَّنَ قَصْدُهُ سَرَّتْ نَحُونَا جَدَّوَاهُ مَسْرَى الْعَمَامِ  
إلى قول أبي تمام :

كالغيث إن جتته وافاك ريقه وإن ترحلت عنه ليج في الطلب  
وأيضاً بيت أبي تمام أكثر روعة . وقد ردَّ العباد قديماً قوله في تصوير بأس البطل  
المحارب الذي يبلغ من شجاعته أن يُشغف بسيفه شغفَ المحبين فيقبله ، ولا يزال يعانقه :  
يظن هنديه هنداً فيلثمه فما يزال بليلٍ مُعْرِسِ الضَّرْبِ (١)

إلى قول أبي العلاء في تصويره البطولة :

يَقْبَلُ الرُّمَحَ حَبًّا لِلطَّعَانِ بِهِ كَأَنَّمَا هُوَ مَجْمُوعٌ مِنَ اللَّعْسِ (٢)

وبيت أبي العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعاً وهو فرق ما بين كبار الشعراء وشاعر مثل  
ابن القم : وبدون شك يُشكر ابن القم لمحاولته منافسة الشعراء السالفين البارعين ونفوذ  
إلى صور إن لم تكن لها روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة . وله أشعار  
مختلفة في الهجاء والثناء والغزل ، ونسب إليه ياقوت البيتين التاليتين في تحمل مشقات الحب  
والمتاع بلذاته :

تَشَكَّى المحبون الصباية ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدي  
فكانت لنفسى لذة الحب كلها فلم يدرها قبلي محب ولا بعدى

ولأي عرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ، وزعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفى سنة  
٥٨١ وهو خطأ واضح ، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجري لالقرن السادس ، وقد  
أنشدنا له أشعاراً نظمها في سنة ٤٥٨ وفيما تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد  
الصليحي سنة ٤٩١ ، وربما رجع إلى مسقط رأسه زبيد بعد وفاة سبأ ، وقد حاول أن ينال  
شيئاً من صلوات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره في الخريدة . والجزء الأخير من  
حياته أو قل نهايته أوبعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح ، وربما أدرك أوائل القرن  
السادس .

(٢) اللعس : سمة في الشفة .

(١) هندية : سيفه . الضرب : عسل النحل .

## السلطان الخطّاب<sup>(١)</sup> :

هو الخطّاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحَجَّوْبِرِيُّ الهَمْدَانِي ، كان أبوه الحسن حاكما لوادى الجُرب ومدينته في إقليم الحِجور ، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطّاب كان أخوا في الرضاة للملكة الحرة أروى . وتوفى الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان في حكم الجرب ، ودان له أخوه الخطّاب بالطاعة ، ثم لم يلبث النزاع أن دبَّ بين الأخوين ، ونشبت بينهما حروب انتهت في سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه ، بفضل مساعدة الملكة أروى له . وظل الخطّاب يستدرج أخاه ، حتى أمن جانبه وعاد إليه ، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يمهل القدر طويلا ، فقد عاجلته المنية في سنة ٥٣٣ . وكان الأخوان شاعرين ، ولكل منهما ديوان ، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثاني وهو الخطّاب فاطميا إسماعيليا ، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعي اليمن الفاطمي في عصره الذُّؤيب بن إسماعيل ، وكان من مرديه وتلاميذه القريبين من نفسه ، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا في نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن . وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أو كما يقولون علم الحقائق . وحدث أن قتل الأمر الخليفة الفاطمي في سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد ، أحد أبناء الأسرة ، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ ، وأحدث ذلك انقساما ، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة في إمامته وخلافته ابنه الأكبر ، وكانت زوجة الأمر حاملا ، فرأى بعض المتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الأمر . وأعلنت الملكة الحرة أروى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور ، وبذلك انفصلت الدعوة الفاطمية في اليمن عن مركزها في مصر ، وانفصل معها داعيها الذُّؤيب ونائبه السلطان الخطّاب حاكم الجرب .

وقد نشر إسماعيل قربان حسين ديوان السلطان الخطّاب وألحقه بتعليقات تفسر إشاراتة للعقيدة الفاطمية ، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا ، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطّاب وابن هانئ شاعر المعز الفاطمي وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية في أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر . وستقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية في الديوان من خلال مديح السلطان

(١) انظر في ترجمة السلطان الخطّاب الخريدة (قسم إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف الشام) ٢٠٧/٣ وكتاب «الصليحيون» للهمداني ومقدمة بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية فاطمية .



الخطاب للآمر الخليفة الفاطمي ، من ذلك قوله في قصيدته الأولى التي يمدح بها الأمر :  
يَا مَنْ أَسْمِيهِ بِالْأَلْفَاظِ مَعْتَرِفًا أَنْ الْمَعَانِيَ فِيهَا عَنْهُ تَقْصِيرُ  
وَمَا ظَهَرَتْ مِنَ النَّاسُوتِ أَنْتَ بِهِ تَجَلِيًّا لِهْدَانَا فَهُوَ مَشْكُورُ  
صَفْوٌ مِنَ الصَّفْوِ شَفَافٌ تَقَدَّسَ أَنْ يَشُوبَ جَوْهَرَهُ الشَّفَافَ تَكْدِيرُ  
وهو يصرح في الآيات بأن الأمر فوق الحدود المعروفة لعقول البشر ، ويقول إنه في  
الظاهر ناسوتٌ أى جسم ويشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس  
جسماً مادياً ، هو شبح يكمن فيه اللاهوت وهو الجانب النوراني . وفكرة  
الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين في المسيح . ويقول الخطاب عن الأمر  
إنه صفو شفاف لاتشوبه الأكدار أى أنه نوراني خالص . ونمضى معه إلى القصيدة  
الثالثة ، وهى أيضا فى الأمر :

يَا مَنْ نَسَمِيهِ تَعْرِيفًا نَقَرُّهُ بِشَخْصِهِ فِي نَفُوسِ الْقَوْمِ تَقْرِيرًا  
وَلَوْ نَشَاءُ لَقَلْنَا فِي النِّدَاءِ لَهُ بِالصِّدْقِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ مَشْهُورًا  
يَا عَالِمَ الْغَيْبِ مِنَّا وَالشَّهَادَةِ يَا بَارِي الْبَرِيَّةِ تَرْكِيبًا وَتَصْوِيرًا  
شَهِدْتُ أَنْكَ فَرْدٌ وَاحِدٌ صَمَدٌ شَهَادَةٌ لَمْ تَكُنْ مَيْنًا وَلَا زُورًا

والخطاب يشير في الآيات إلى مازعمه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لا يجوز أن يسمى  
باسم لأنه أسمى من كل اسم ، ومن ثم يُصْفُونَ أسماءه الحسنى فى القرآن الكريم على أمتهم ،  
غلوا مذمومًا ، زاعمين أنهم ربانيون لهم ألقاب الله وصفاته ، على نحو ما نرى الآن عند  
الخطاب ، إذ لا يجد بأسًا من أن ينادى على الأمر بأنه الحى القيوم وأنه الفرد الواحد  
الصمد ، كبرت كلمات تخرج من فمه وفم أضرابه من دعاة الفاطميين المارقين ، ويزعم أنه  
عالم الغيب والشهادة ، ويمضى فى هذا الغلو الشنيع قائلاً للأمر :

أَنْتَ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ نَحْنُ نَعْلَمُهُ فَإِنَّ سَوَى وَجْهِهِ عَكْسًا وَتَغْيِيرًا  
أَنْتَ الَّذِي فَطَرَ الْأَشْيَاءَ قَاطِبَةً خَلَقًا وَأَمْرًا وَإِجْمَارًا وَمَأْمُورًا  
أَنْتَ الَّذِي سَمَّكَ السَّبْعَ الشَّدَادِ عَلَى عِلْمٍ أَدَارَ بِهَا الْأَفْلَاكَ تَدْوِيرًا  
أَنْتَ الَّذِي سَطَحَ الْأَرْضَ الْمِهَادَ لَنَا فَرَشًا وَقَدَّرَ فِيهَا الرِّزْقَ تَقْدِيرًا

وهو يزعم أن الأمر سرمدى الحياة ، لا يلحقه فناء ، وكأنه إلهى الذات ، ويشير فى  
البيت الثانى إلى وصف القرآن للذات العلية فى مثل قوله : ( فاطر السموات والأرض )  
وقوله : ( ألاله الخالق والأمر ) . ويجعله فى البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبر الأفلak  
فيها . والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى : ( والأرض فرسناها فينعم الماهدون )

وقوله : ( قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْتَطِيعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ) . ويقول أيضا في مديح الأمر :  
يا عِلَّةَ لوجود الشيء من عَدَمٍ وكاشفًا عنه بالأنوار للظلمِ  
وعالماً بِخَفِيَّاتِ الأمور غَدًا للناس أشهر من نارٍ على علمِ  
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ نطقتُ بفضله سُورُ القرآنِ عن أممِ  
وجَّهتُ وجهيَ في سِرِّي وفي علني إليك إذ أنتَ مَعْنَى البَيْتِ والحَرَمِ

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام ممثل العقل الأول الفعال وأن قدرة الله تحلُّ فيه ، بحيث يصبح العقل الكلي وجوهر الملكوت وعنه تصدر جميع المخلوقات ، فهو العلة الأولى ، علة لوجود كل ماسواه . ويزعم الخطاب أنه : ( يعلم السر وأخفى ) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضله من أمم أى قريب ، يشير إلى مثل قوله تعالى : ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ) . وكلمة « البيت والحرم » مصطلحان إسماعيليان ، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله ومستقر التوحيد وحقيقته . وأما الحرم فهو حمى الإمام وعقيدته الفاطمية . وللخطاب رثاء في الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدور فيه عن عقيدته الفاطمية منشدا مثل قوله :

أمولاتنا يا مَنْ بياهرِ نورها تَجَلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ  
ويا حُجَّةَ المولَى التي بيّانها هَدَى الله مَنْ حَيْرَتُهُ الشبهاتُ  
أُجَلِّكُ عن موتٍ بروحكِ نازلٍ وأنتَ لأرواح الأنام حياةُ

وهو يصفها في البيت الثاني بأنها حُجَّةُ الإمام ، والحجة في الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مرتبة تلي مرتبة داعي الدعوة في المركز الأم مصر ، وصاحبها يتولى الدعوة في إقليمه والنيابة عن الإمام . وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والأمر في اليمن وزعيمة الدعوة الفاطمية فيها . ويزعم الخطاب في البيت الأخير أنها لم تمت ، وكان حياتها سرمدية كحياة الأئمة ، وكل ما قدمنا غلو ومروق واضح . ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله ، وفيه كثير من المديح والهجاء والفخر ، وأجود مدائحها فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى . وجعله تعمقه في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة في بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكلية ، وعرض إسماعيل قربان حسين لطائفة منها بالتحليل والتعريف .

عمارة اليمن<sup>(١)</sup>

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمني ، من أهل الجبال في تهامة . من قرية يقال لها مرطان في وادي وساع ، وهو قحطاني مدحجي من سلالة الحكم بن سعد العشيرة . ولد في سنة ٥١٥ في أسرة تهتم بالعلم والثقافة ، ولم تكد توافي سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زيد فثقف فيها الفقه الشافعي ، وقرأ عليه مدة ، وله في الفرائض مصنف مشهور في اليمن . واتصل بآل نجاح حكام زيد ووزرائهم ، كما اتصل بآل زريع حكام عدن وبعلي بن مهدي الذي خلف آل نجاح على زيد ، وكان الأولون سنين والثانون إسماعيليين والثالث كان خارجيا . حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن فليته الزيدي ، وكلفه بحمل رسالة إلى الخليفة الفاتح الفاطمي ، فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رزيك وزير الفاتح في قاعة الذهب بقصر الخلافة ، وأنشده عمارة ميمية طويلة يقول في تضاعيفها :

قد رُحْتُ من كَعْبَةِ البَطْحَاءِ والحَرَمِ وَفَدَاً إلى كَعْبَةِ المعروف والكرمِ  
فهل دَرَى البيت أنى بعد فُرْقته ماسِرْتُ من حَرَمِ إلّا إلى حَرَمِ  
ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة حتى أفيضت عليه الخلع ، وأغدق عليه طلائع خمسمائة دينار . وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ . وتهاداه أمراء الدولة وموظفوها الكبار . وقفل راجعا إلى مكة ، فإلى زيد . وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر ، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته . وبالغ طلائع وبنوه في إكرامه ، وله فيهم مدائح كثيرة . وقُتِل طلائع بعد قدومه الثاني بأربع سنوات سنة ٥٥٦ . وحظى بعده بجوائز الوزيرين شاور وضرغام ، وله في شاور وطلائع مرث بدعية ، وكان قريبا من نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه ، فلما وزر أعرض عنه ، فعاتبه عتابا رقيقا . ومازالت العطايا تُسبغ عليه ، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته ، وخاصة توران شاه الأيوبي ، وله ميمية حرَّضه فيها على أخذ اليمن أولا :

(١) انظر في عمارة وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ١٠١/٣ وابن خلكان ٤٣١/٣ والروستين ٥٧٢/٢/١ ومفرج الكروب ٢١٢/١ ، ٢٣٨ والسلوك للمقريزي ٥٣/١/١ والنجوم الزاهرة ٧٠/٦ والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي وتاريخ نغر

عدن لباعزمة والشدرات ٢٣٤/٤ وتاريخ ابن الأثير ٣٩٨/١١ وصبح الأعشى ٥٢٦/٣ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ص ٩٤ وكتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، وذيل النكت وبه ديوانه .

العَلْمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلْمِ وَشَفْرَةُ السيفِ تَسْتغْنِي عن القَلَمِ

ويقول ابن خلكان إنه كان فقيها شافعيًا شديد التعصب للسنّة ، ويبدو أن ذلك إنما يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعي في زيّد . أما بعد ذلك فإننا نراه يتصل بال زُرَيْعِ الإسماعيليين وبأمير مكة الزيدي . ولعل السبب في أن ابن خلكان أطلق كلامه عليه وعمّمه أنه وجده في كتابه « النكت العصرية » يتبرأ من التشيع ويذكر أن طلائع بن زريك عرض عليه أن يدخل في العقيدة الإسماعيلية ، فأجابته بأن يمنّ عليه بسدّ هذا الباب . ولكن كتاب النكت - فيما يبدو - ألّف في عصر الأيوبيين ، فكان طبعياً أن يُخْفَى إسماعيليته أو تشيعه ، وأن يعلن براءته في تصانيفه وقصائده من التشيع وآله . ونراه في قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين سماها « شكايّة المتظلم ونكايّة المتألم » يصف كثرة ما كان يصله من عطايا الفاتر والعاضد ووزرائها بمثل قوله :

مذاهبهم في الجود مذهبُ سنّةٍ وإن خالفوني في اعتقاد التشيعِ

وهذا وأمثاله كان - في رأينا - سبب ضلال ابن خلكان في الحكم عليه ، فإن من يرجع إلى ديوانه ومدائح في الخليفة الفاطمي العاضد وطلائع وزيره وابنه العادل لا يشك في أنه اعتنق المذهب الفاطمي الإسماعيلي ، من ذلك قوله من قصيدة في مديح العاضد وطلائع :

لا يبلغ البلغاء وَصَفَ مناقِبِ أَثْنِي على إحسانها التنزيلُ  
شِيمٌ لكم عُرِّي أُنِي بمدحها الـ فَرْقَانِ وَالتَّوْرَةُ وَالإِنْجِيلُ  
سِيرٌ نَسَخْنَاها من السُّورِ التي ما شأنها نَسَخٌ ولا تَبْدِيلُ

وهو يشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجسَ أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيهما من ذكر الرسول على لسان موسى وعيسى ، وكأن ذكره يتضمن ذكر ذريته ، وقد جاء في سورة الصفّ على لسان عيسى : (ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد) وهذه الفكرة التي تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين في التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم من مثل قول السلطان الخطاب في الخليفة الأمر :

هو الذي كَتَبَ التَّوْرَةَ عَنْهُ وفي الإنجيل ما ضُمِّنَتْ فيه المزاميرُ  
ودائماً يقرّر عمارة حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول في نفس اللامية السالفة ، ونراه يقول في دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلائع بن زريك :

أغنى عن التَّقْلِيدِ نَصُّ إِمَامَةٍ وَالنَّصُّ يَبْطُلُ عنده التَّقْلِيدُ

لا شيء من حلٍّ وعَقْدٍ في الْوَرَى إلا إلى تدبيره مردودٌ  
ملكٌ أغاثَ المسلمين وحاطَهُمْ منه وجودٌ في الزمان وجودٌ

وهو يردُّ ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة في الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق ، فهي ليست مفوضة للأمة ، بل هي من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف . ويشير عمارة في البيت الثاني إلى نظرية العقل الفعال التي يمثّلها الإمام والتي تجعله - كما مر بنا عند السلطان الخطاب - يدبّر الكون وشئون الورى وكل ما يتصل بها من حلٍّ وعَقْد . أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة الفِضِّ الأفلاطوني المعروفة عند الإسماعيليين والتي تجعل الأئمة مائلين في كل وجود إنساني . ويقول في مديح العاضد من قصيدة طويلة :

كم آيةٍ رُوِيَتْ لكم أسرارها آلَ الوصيِّ وللورى إعلانها  
فكأنما تأويلكم أرواحها وكأنما تفسيركم أبدأنها  
وكانَّ عِلْمَ الكائنات وديعةً مخزونةً وصدوركم خزائنها

وهو هنا يردُّ ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا ، والباطن لا يعلمه إلا الأئمة ، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم ، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا . وليس ذلك فحسب ، بل هم يعلمون كل علم ، وما صدورهم إلا خزانات لهذا العلم : علم الحاضر وعلم الغيب . وكل هذه شواهد بينة على أن عمارة تحول في مصر فاطميا إسماعيليا . وكان حزنه لا يُحدِّ ولا يوصف حين دالت دولة الفاطميين ، وبثَّ هذا الحزن الغاضب غضبا عنيفا في لامية له مشهورة استهّلها بقوله :

رَمِيَتْ - يا دهرٌ - كَفَّ المجدِ بالشللِ وجيده بعد حُسنِ الحلَى بالعطلِ  
هدمتَ قاعدةَ المعروف عن عَجَلٍ سَقَيْتَ مُهْلاً أما تمشى على مهلِ  
يا عاذلِ في هوى أبناءِ فاطمةٍ لك الملامةُ إن قصرتَ في عدلِ

وهو في هذا الاستهلال ملتاح لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية ، وإنه ليسبُّ الدهر الذي أطاح بها ويدعو عليه أن يُسقى المهل شراب أهل الجحيم . ويدعو عدّاله على حب الأئمة الفاطميين أن يظلوا في عذلم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لغيل نفسه . ويمضى فيدعو رفيقه أن يبكي معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الحمل ، وكان النكبة هنا أكثر أسى وفجيعة ، ويقول إن الجرح الذي أصاب فؤاده بزوال الدولة الفاطمية لا يتدمل ، وما يلبث أن يقول عجبا ينزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوانهم في الدين ، ويقول :

لربما عادت الدنيا لمعقلها منكم وأضحت بكم محلولة العُقل<sup>(١)</sup> والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب النار غير ولي وهو في البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا لمعقلها ، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم في هذا المعقل كانت قد فسدت فساداً لا حد له ، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على القاهرة . وأراد الله لمصر بل للعرب أن تُردّ القوس إلى بارئها ، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه بالقضاء على هذا المعقل الفاطمي إلى الأبد . وكأنما أصابت العقيدة بصَر عمارة بغشاوة ، فلم ير الحقيقة ، وقد مضى يتوعد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير ، وتمادى في هذا الغي والضلال ملوحاً بيده في وجه صلاح الدين زاعماً أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن حبه أصل الدين ، يقول :

أئمة خلقتوا نورا فنورهم من نور خالص نور الله لم يقل<sup>(٢)</sup>  
والله لأزلت عن حبي لهم أبدا ما أحر الله لي في مدة الأجل

فالأئمة الفاطميون نور خالص ، نور شفاف ، وهو فيض من نور الله ، لا تشوبه أي مادة ، وهو غلو واضح في تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم . وكُتب لعامة أن يظل يردده حتى بعد زوال دولتهم ، بل إنه ليعلن أنه سيظل على حبه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسؤل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان الفاطميين ، في مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكتبوا الفرنج الصليبيين طالبين منهم مددا ، وعرفت نيته ومؤامرتهم ، فأحيط بهم ، وأعدموا في يوم السبت ثاني شهر رمضان سنة ٥٦٩ بالقاهرة . وكان لابد لعامة أن ينتهي هذه النهاية المفجعة بعد أن كاد لدولة صلاح الدين بلسانه وهم أن يكيد بيده ، وكأنما غطى القدر - كما يقول العباد - على بصره . وقد طبعت له مصنفات مختلفة ، منها أخبار اليمن نشركاى ، ومنها مختصر المفيد في أخبار صنعاء وزيد ، ومنها النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية .

## ٢

## شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا في الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا ،

(٢) يقل : بأقل : يغرب .

(١) العقل : جمع عقال .

وهي تُنسَبُ إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الذي ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه ، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده ، ومر بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين في القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا زيديين ، إذ لا تعرف نحلتهم التستر والتخفي للإمام في الدعوة ، وهي لا تشارك نحلتي الإسماعيلية والإمامية في العلم الباطني ، ولا تغلغل في فكرة العقل الفعال التي مرت بنا عند الإسماعيلية والتي تعطي الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتي تسند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو فيض منه . وهي لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة ، بل يكفي أن يكون الإمام الكفء الداعي لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلا عالما بالشريعة ورعا شجاعا جوادا ، وتجوّز هذه النحلة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صحّحت خلافة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، ولم تجوّز القدحَ فيها كما تصنع الإسماعيلية والشيعنة الغالية . وارتبطت نحلة الزيدية ارتباطا وثيقا بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وقوى هذا الارتباط مع الزمن . وإذا كانت ثورات الزيديين في الحجاز والعراق وإيران أخفقت في القرن الثاني للهجرة فإنها نجحت في المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله الحسني بفاس في عهد الرشيد ، وظلت نحو مائة وأربعين عاما . ونجحت كذلك في طبرستان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، فقامت هناك دولة زيدية ظلت نحو سبعين عاما . واستطاعت أسرة بني سليمان أو بني موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم في مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وظلت فيهم حتى اضطرتهم الهواشم من أسرته أن يغادروا مكة إلى المخلاف السليماني ، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب في دولة الرسوليين ، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسني عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسنية .

وقامت في صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين ، إذ أسسها هناك الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم في سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على صنعاء في حقب كثيرة ، حتى إذا كان القرن العاشر الهجري انضوى اليمن جميعه تحت لوائها ، وإذن كانت للزيدية في الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز ، هي مكة والمخلاف السليماني وصعدة وكان المركز الأخير كثيرا ما يتسع ، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها . وعنى الأمراء والأئمة في كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه ، لأنهم أقلام

الدعاية للدولة ، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعياً أن يعنوا بالشعر والشعراء . وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتوح وقد أنشدنا له أبياتاً طريفة في غير هذا الموضع ، وكان عيسى بن فُلَيْتَةَ أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ يجزل العطايا لشعرائه وفي مقدمتهم قائده النوبى الأصل سالم بن أبى سليمان ، وفيه يقول من مدحة طويلة (١) :

هو نورُ ربِّ العرش بين عبادِهِ فليعلموا والحجَّةُ البيضاءُ  
لله يا أمرُ باطنا أو ظاهراً فتصرفُ الأقدار كيف يشاءُ  
يوماه يومٌ للتَّوَالِ وآخرٌ تُردَى بسَطْوَةِ بأسِهِ الأعداءُ  
إن الثناء عليك من ربِّ السَّما غناك عما قالت الشعراءُ

وهو يغلو في مديحه لهذا الإمام الزيدى ، وكأننا نقرأ عنده ما نقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو في مديح الأمر الخليفة الفاطمى ، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله ، وهو الحجة القائم على رعيته ، وتجرى الأقدار بما يشاء وكيف يشاء ، أما ثناء الله عليه فيريد به ثناءه على أهل البيت فى القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعرا ، ومن قوله (٢) :

وأذنتُ حين تجلَّى الصباحُ بجىِّ على خيرِ هذا العملِ

وكان الزيدية فى الجزيرة بمكة وفى اليمن والمخلاف السلماني ينادون فى الأذان : بجىِّ على خير العمل . ويمتلى كتاب العقد الثمين بمدائح أمراء مكة ، ويكفى أن نستشهد ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قول موفق الدين على بن محمد الحنديدى فى حُمَيْضَةَ أمير مكة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة (٣) :

خليفةٌ لا يُخلف الوعدَ ولا يَصْنُ عن سائله بما اقتنى  
إمام حقٌّ جدُّ فى الله فما فى الله مُدًّا جدَّ وهى ولا وئى  
أخاف فى الله تعالى من بَعَى وأمن الخائف حتى أمنا  
هو ابن من أسرى به الله ومن من قاب قوسين تدلَّى ودنا

وليس فى مديحه غلو ، بل هو مديح لإمام زيدى بالكرم والتقوى والعدل ورفع البغى والظلم ونشر الأمن ، ويشير فى البيت الأخير إلى الإسراء بالرسول ومعراجه إلى السموات وما جاء فى سورة النجم : ( ثم دنا فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنى ) . وللحنديدى فى مديح

(٣) العقد الثمين ٤ / ٢٤٨ .

(١) الحريرة (قسم الشام) ٣ / ٤٦ .

(٢) العقد الثمين ٤ / ١٦٢ .



أخيه رُمَيْثَةَ أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة<sup>(١)</sup> :

نَسَبُ كَمَشْتَقُ الشَّمْسِ وَمَفْخَرُ  
بَاعُ الكَوَاكِبِ قَاصِرٌ عَن طَوْلِهِ  
أَمَّا الفُرُوعُ فَلَيْسَ مِثْلُ فُرُوعِهِ  
وَكَذَا الأَصُولُ فَلَيْسَ مِثْلُ أَسْوَلِهِ  
يَابِنَ المَظَلِّ بِالعَمامَةِ والَّذِي  
قَد أُنزِلَ القُرآنُ فِي تَفْضِيلِهِ  
مَازَا عَسَى مَدْحِي وَقَد نَزَلَ الثَّنَا  
فِيكُم مِّن الرِّحْمَنِ فِي تَنْزِيلِهِ

ووراء الحنديدي كثيرون من الشعراء كانوا يمدحون أمراء مكة الزيديين لا في زمنه فحسب ، بل في جميع الأزمنة ، وفي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الرحانة للمحبي طائفة كبيرة من مدائح الشعراء لهؤلاء الأمراء في القرن العاشر الهجري ، من ذلك قول عبد الرحمن بن وجيه الدين المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة في حسن بن أبي تَمَى أمير مكة من مدحة طويلة ، عارض بها رائية ابن هانئ المشهورة<sup>(٢)</sup> :

مَلِكٌ إِذَا مَا جَالَ يَوْمَ كَرِيهَةٍ  
لَمْ تَلَقَ غَيْرَ مُجَدَّلٍ وَمُعَرَّرٍ  
مَلِكٌ نَدَاهُ البَحْرُ إِلا أَنَّهُ  
عَذَبُ أَهْذَا البَحْرِ نَهْرُ الكَوْنِ  
ذُو الهِمَّةِ العَلِيَّا الَّذِي قَد نَالَ مَا  
عَنهُ تَقَصَّرَ هِمَّةُ الإسْكَندَرِ  
أَعْظَمَ بِهَا مَن نِسْبَةَ نَبَوِيَّةٍ  
عَلَوِيَّةٍ تَنْمِي لأَصْلِ أَطْهَرِ

وكثيرون من أمراء المخلاف السليمانى وأشرفه كانوا شعراء مثل ابن وهَّاس ودَهْمَش وهما شاعران مجيدان ، ومن أمرائهم الممدحين غانم بن يحيى بن حمزة السليمانى المتوفى سنة ٥٦٠ وىروى أن ابن مكرمان مدحه بقصيدة لامية أعطاها عليها ألف دينار ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

عَلَوِيٌّ مَتَوَجَّحٌ هَاشِمِيٌّ  
حَسَنِيٌّ نَوَالُهُ مَبْدُولُ  
يَا سَلِيلَ البَطِينِ والحِرَّةِ الزَّهْدِ  
رَا هِيَ الطُّهْرُ والحِصَانُ البَتُولُ<sup>(٤)</sup>  
خَمْسَةٌ حَصَّهْمُ بِتَخْصِيصِهِ الحَا  
لِقُ رَبِّي وَهُوَ اللطيفُ الجَلِيلُ  
مَالَهُمُ سَادِسٌ غَدَاةَ الَّذِي مَدَّ  
عَلَيْهِمُ كَسَاءَهُ جَبْرِيْلُ

وهو يشير في البيتين الثالث والرابع إلى ما تذكره الشيعة من أن الرسول ﷺ ألقى عليه وعلى عليٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساء وقال : نحن أهل البيت إيماء إلى قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا). ومعروف

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٢٦٢/٣ وما بعدها .

(١) العقد الثمين ٤/٤١٩ .

(٤) الحصان البتول : العفيفة الطاهرة .

(٢) سلافة العصر ص ٧٩ .

أن الخلاف السلماني أصبح جزءاً من أرض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسليمانيين، وكانوا يصلون الشعراء، ويقدمون لهم مداخلهم، على نحو ما نجد عند ابن هتيميل في مديحه للأمير قاسم بن علي صاحب صيبا، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله (١):

حسنيُّ للسائلين وللمحْمَدِ روم فيما حوت يدها نصيبُ  
ساحةٌ لا يزال فيها رئيسُ مستجيرٍ وسائلٌ لا يخيبُ  
عزٌّ في ظلِّ رحك القاسميِّ نَ ومنهم قبائلٌ وشُعوبُ  
وسنانُ القناة لولاه في طَ حى العوالى لم ينفع الأنبوبُ (٢)

والمركز الثالث للزيدية في الجزيرة أهم مراكزهم، وكانت صعدة نقطة الدائرة فيه، فمنها انبعثت النحلة، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها يتسع، حتى انضوت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجري تحت رايته. ومؤسس هذه الإمامة الزيدية - كما أسلفنا - يحيى بن الحسين بن القاسم، وله مصنفات مختلفة في الفقه والعقيدة والتفسير، ويقول فيه ابن حزم: «له رأى في الفقه وقد رأيت، ولم يبعد فيه عن الجماعة» وكان شاعراً، وله وصية شعرية ذكرها في كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد، ومن شعره (٣):

بني حسنٍ إني نهضتُ بثاركم وثأرِ كتابِ الله والحقِّ والسُننِ  
وصيرتُ نفسي للحوادثِ عُرْضةً وغبتُ عن الإخوان والأهل والوطنِ

ويتوالى أبنائه على صعدة من بعده، حتى يقدم أبو الفتح الديلمي الحسني في القرن الخامس فينتزعها منهم، وينسحبون إلى جبل قطابة، وتتوالى أمتهم هناك، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة. ومن أهم أمتهم وأشهرهم في القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢ - ٥٦٦ هـ) وكان شاعراً مجيداً وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميري الذي مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها (٤):

دعيني أطفئ عيرتي ما بدا ليا وأبكي ذنوبي اليوم إن كنت باكياً  
واستطرد فيها يتحدث عن الملوك ومآثرهم ومصيرهم، ولم يكذب يقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردَّ عليه بقصيدة وعظيمة مماثلة مطلعها:

ذكرت دياراً دارساتٍ حواليا رُسوماً عفت عن أهلها ومغانيا

(٣) صبح الأعشى ٤٧/٥.

(٤) انظر في هذا البيت والبيتين التاليين الجراقي

(١) ديوان ابن هتيميل ص ٣٥.

(٢) العوالى: جمع عالية وهي النصف الذي يلي السنان

من القناة. الأنبوب ما بين الكعبين من القناة.

وهي قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية ، ومما كتبه إلى المتوكل قوله في أبيات :

وأنت تصلح للرايات تَعَقِدُهَا      وفي المواكب تُحْيِي الدِّينَ والسُّننَا  
ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بني أيوب في اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة . أما في عهد الرسولين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدي أحمد بن الحسين المكنى بأبي طير (٦٤٦ - ٦٥٦) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولي ، انتهت بمقتله في معركة الحُصَبَات . وكان أحمد بن الحسين جوادا ، مدحه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن هُتَيْمِل ، ويقال إنه أجازته على إحدى قصائده خمسين فرسا ، وقد عرضنا في ترجمته طرفا من مدائحه الرائعة فيه ، ومن أشهر الأئمة الزيدية في عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ) ، وهو ممدوح موسى بن يحيى بهران ، وسترجم له . أما أئمتهم في عهد الاحتلال العثماني الأول (٩٤٥ - ١٠٤٥ هـ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩ - ١٠٥٤) وهو الذي قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد ، ولشاعره محمد بن علي بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته ، مطلعها (١) :

بلغتْ بنو الزَّهْرَا بك المأمولا      وبطولِ سَيْفِ عَلاك زادوا طولا

وخلفه المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) وقد استولى على عدن وحضرموت وظفار ودانت له جميع الديار اليمنية ، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهدي من ميمية طويلة (٢) :

إمامٌ عَظِيمُ السَّرِّ أَمَّا نَهَارُهُ      فَصَوْمٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فَقِيَامٌ  
رياضُ الأمانِ في حِجَاهِ نَضِيرَةٌ      وَسُحْبُ النَّدى من راحَتِهِ سِجَامٌ (٣)  
تَحْمَلُ سِرِّ المِصْطَفَى بِسِرِيرَةٍ      وَسِيرَةٌ عَدَلٍ لا تَكَادُ تُرَامُ  
تَدْفِقُ بَحْرَ العِلمِ في طَيِّ صَدْرِهِ      أَوادِي لُجٍّ دُرُهْنٍ تُؤَامُ (٤)

ويموج كتاب « نشر العرف لتبلاء اليمن بعد الألف » وهو في مجلدين ضخمين بشعر زيدى كثير . واشتهرت قصيدة تاريخية في نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسنى اليمنى المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمى البسامة ، عرض فيها لأئمة العلويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه ، ومع مر الأزمنة أخذت تضاف

(١) الجرافى ص ١٤٨ .

(٢) سجام : سائلة كثيرة والانصياب .

(٣) سجام : سائلة كثيرة والانصياب .

(٤) أواذى : أمواج . تؤام : مزدوج .

لها ذبول كثيرة تشير إلى الأمة التالين في اليمن<sup>(١)</sup> . وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية ، أحدهم مكى هو يحيى بن يوسف الملقب بالنشؤ ، والآخران يمينان ، هما موسى ابن يحيى بهران وعلى بن محمد العنسى الصنعاني .

### يحيى بن يوسف النَّشُؤ<sup>(٢)</sup>

مكى مولدا ومنشأ وحياة ، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبي العباس النحوى وأخذ كل ما عنده ، واستمع إلى غير محدث ، ونال في الحديث إجازات مختلفة . وعنى بالشعر والرسائل ، فكتب الإنشاء لأمرء مكة في زمنه : عَطِيفَة وابنيه مبارك ومحمد وابن عمها عَجْلَان بن رُمَيْثَة . وكانت ملكته الشعرية خصبة ، ويقول مترجموه : « له شعر كثير سائر مدح وهجابه جماعة من الأعيان » . وتوفى سنة ٧٨٢ . ونجده يكثر من مدائح أمرء مكة الزيديين وفي مقدمتهم من سميناهم آنفا ، وفي عَطِيفَة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول في بعض مدائحه له :

له هِمَّةٌ تَسْمُو إلى كُلِّ غَايَةٍ      هو الطَّاهِرُ الأَنْسَابِ والعَلَمُ الفَرْدُ  
هو المَلِكُ المَاحِي لمن كان قَبْلَهُ      فما في مَلُوكِ الأَرْضِ طُرًّا لَهُ نَدُّ  
هو المَنعَمُ المُوَلَّى الجَمِيلَ تَفْضالًا      فَمَنْ سَبَّه قَد أَوْرَقَ الحَجَرُ الصَّلْدُ<sup>(٣)</sup>  
تَحَرَّجٌ لَهُ كُلُّ المَلُوكِ مَهَابَةً      وَتَحَرَّسُ مِنْ إِجْلالِهِ الأَلْسُنُ اللُّدُّ<sup>(٤)</sup>

وواضح أنه يبالغ في مديح عطيفة ، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجرى بما يشاء ، وينعته بالكرم والعدل ، ويشيد بنسبه من الرسول ﷺ ، وهو فخر ما وراءه فخر ، ويمدح ابنه مباركا المتوفى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة ، وفيه يقول :

ورث الفخرَ عن جدودِ كرامٍ      قد بَنَى فوق ما بَنَى أمثالُهُ  
شَرَفٌ ما استفادَهُ من بعيدٍ      مَلِكٌ أَرَفَعُ المَلُوكِ جَلالَهُ  
نَسَبٌ بينَ أحمدٍ وعليٍّ      فَهُوَ من خَيرِ [ آلِ ] تلكِ السُّلالَةِ  
وهو كالشمسِ مُدْرِكُ آمالِهِ      وجميعُ البلادِ تَهوى وصالَهُ

(١) انظر في السَّلْمَة وذيولها نشر العرف لزيارة ١١٣/٢

وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمة يحيى وأشعاره العقد الثمين ٤٥٢/٧

وكذلك ترجمة عطيفة في ١٠٢/٦ وابنه مبارك في

(٣) السيب : العطاء . الصلد : الصلب .

(٤) اللد : شديدة العداوة .

وواضح أنه سلس اللغة ، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان ، وهى شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا ، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا ، جمالا يلد الألسنة والآذان والقلوب ، وله من قصيدة فى محمد بن عطفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة :

إمامٌ له فَضْلٌ عَظِيمٌ عَلَى الْوَرَى      كَرِيمٌ الْيَادَى بِالسَّاحَةِ أَوْحَدٌ  
يَجُودُ بِمَا تَحْوَى يَدَاهُ تَكْرُمًا      وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَالَ لَيْسَ يُخَلَّدُ  
فَتَى لَمْ يَرِ الرَّاءُونَ مِثْلَ صِفَاتِهِ      إِذَا قِيلَ هَذَا حَاتِمٌ فَهَوَ أَجُودُ  
أَجَلُّ الْوَرَى جَاهًا وَقَدْرًا وَرَفْعَةً      وَأَكْرَمٌ مَنْ يُرَجَى عَطَاهُ وَيُقْصَدُ

وعلى هذا النحو يشيع الانسجام فى كلماته ، إذ يلائم بينها موسيقيا ملاءمات دقيقة ، بحيث لا تجد فيها قصورا ولا انحرافا ، وإنما تجد صفاء فى الجرس ، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما فى هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما فى الأبيات السالفة . ومن قوله فى مديح عجلان بن ربيعة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة :

ماذا يقولُ المدحُ فيه وما عسى      إذ كان يخدم جدَّهُ جبريلُهُ  
أما الملوكُ فكُلُّهم من دونه      كالبدر فى أفق السماء حُلُولُهُ  
سلطانُ مكةَ والمشاعرِ والصفَا      من لا يخاف من الزمان نزيلُهُ  
لو حاول النَّجْمَ العَظِيمَ لَنالَهُ      تُنبئك عنه رماحُهُ ونُصُولُهُ  
سكنتُ محبَّتُهُ القلوبَ جميعَها      لما تقارنَ سَعْدُهُ وَقَبُولُهُ

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسينيين من آباءه وأقاربه يجبُ أهل السنة وينصرهم على الشيعة ، ويقال إنه كان شافعى المذهب (١) . وقصيدة التثوية فيه بديعة ، وقد افتتحها بغزل رائع ، إذ يقول :

لولا الغرامُ ووجدُهُ ونحوهُ      ما كنت تَرَحِّمُهُ وَأنتِ عَدُوُّهُ  
إن كنت تنكره فسل عن حاله      فالحبُّ دائٌ لا يُفِيقُ عليه  
يا من يلوُمُ على الهوى أهلَ الهوى      دَعُ لَوْمَهُمُ فالصِّبرُ مات جميلُهُ

وأشده صاحب العقد الثمين فى ترجمته للنشو مدائح له جيدة فى الشريف طفيل بن منصور الحسينى أمير المدينة ، استهلها بغزل بديع ، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد بمحبوبته وجدا لا يشبهه وجد ، إذ نزلت مع صواحبها بالمنحنى لا من الأودية والتلال ، ولكن من أضلعه ، ومن غزله الرقيق :

أَيْنَ الْمَفْرُ لِمَنْ هَوَاكَ طَلِيْبُهُ  
يَشْكُو وَلَا أَحَدٌ يَرْقُ لِمَا بِهِ  
وَجَمِيعُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْكَ عَرَفْتَهُ  
حَنَّ الْعَدُوْلُ عَلَيْهِ حِينَ هَجَرْتَهُ  
يَا وَيْحَ مَنْ يَرِيْ لَهُ أَعْدَاؤُهُ  
وَسِهَامٌ لِحِطِّكَ بِالسَّقَامِ تُصِيْبُهُ  
وَارْحَمَتَاهُ لِمَنْ جَفَاهُ حَبِيْبُهُ  
أَتَكُونُ سَاكِنَهُ وَأَنْتَ تُذْيِبُهُ  
وَرَنَا لَهُ الْوَاشِي رِقٌّ رَقِيْبُهُ  
فَشُجُونُهُ لَا تَنْقُضِي وَنَحِيْبُهُ

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام ، غزل يتفرق فيه الشوق والمهفة والحنان ، حتى ليحن على الحب العدول والواشي الرقيب ، فكلهم يأسي له ، وهو يلتاع بحبه وشجونه ، ولا يكف عن النحيب ، إذ يجب صاحبته كما لم يجب فتاة قط ، ويحتمل في ذلك الآما ثقالا . وله مدائح نبوية كثيرة بديعة ، يستهلها بنسيب رائع ، من مثل قوله :

عَرَّجَ بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى وَالْمُنْحَنَى  
أَهْوَاهُمْ وَهَوَاهُمْ لَا يَنْقُضِي  
فَلَنْ ظَفِرَتْ بِزُورَةٍ أَحْيَا بِهَا  
يَا أَهْلَ طَيْبَةٍ إِنَّ لِي فِي حَيْكِمِ  
أَنْوَارُهُ مِنْهَا الدِّيَابِجِي أَشْرَقَتْ  
وَلَهُ الْفَضَائِلُ وَالْمَائِثُ وَالْعَلَا  
فَعَسَاكَ تَنْظُرُ مِنْ لِقَاهُمْ بِالْمَنَى  
أَبْدَاءً وَإِنْ شَطَّ التَّبَاعُدُ بَيْنَنَا  
فَلِي السَّعَادَةُ وَالْمَسْرَةُ وَالْهَنَا  
قِرَاءً لَهُ كُلُّ الْحَاسِنِ وَالسَّنَا  
بَدْرٌ بِهِ قَدْ نَوَّرَتْ كُلُّ الدُّنَا  
وَلَهُ الْمَفَاخِرُ وَالْحَامِدُ وَالسَّنَا

والنسيب كالمديح النبوي يذوب رقة وخفة ورشاقة ، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهافة الحس بحيث تحسن اختيار القوافي واصطفاء الألفاظ إحسانا بعيدا .

### موسى بن يحيى بهران<sup>(١)</sup>

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ .) وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن زمن مولده ووفاته . وكان شرف الدين مدّ يده إلى المصريين مُعِينًا حين أرسل قانصوه الغوري طائفة من الجراكسة في سنة ٩٢١ إلى جنوبي البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت في جزيرة كمران ، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بني طاهر أن يعينها ضدهم ، ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة ، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من

(١) انظر في ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب شعر الفناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ص ١٨٤ - ١٨٧ ،

السلفية (ص ٤٩ . وللشاعر ديوان نظم في مديح الإمام شرف الدين .

١٩٩ - ٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة

العون والمؤن ، وشكا من السلطان عامر ، فتعاون قائدها معه على حربه ، وقضيا عليه وعلى حكم أسرته سنة ٩٢٢ . ودخل شرف الدين صنعاء ، ودخلت البلاد جميعها في طاعته وأكثرت الشعراء من تهنته بهذا النصر المبين ، وفي مقدمتهم موسى بن يحيى بهران إذ هناه بقصيدة رائعة ، فيها بقول :

خليفةُ الرحمن في أرضه مباركُ الوجه كريمُ الجدودُ  
 برّ كريمٍ من بنى المصطفى إمامٌ حقٌّ ساعدته الجدودُ  
 قالت له الأيام إذ أقبلت ما أحسن الوصلَ عقيب الصدودُ  
 وأهلك الباغين حتى ثووا واستبدلوا بعد القصور اللُهودُ  
 واستبشر العدلُ بأيامه فامتلاً الغورُ به والتُّجودُ  
 وأصبحت صنعاء من عجبها ترفلُ في مُستحسِنات البرودُ

وقد ورى الشاعر في البيت الثاني بكلمة الجدود وهو لا يريد بها الآباء كما في البيت الأول - وكما قد يتبادر - وإنما يريد بها الحظوظ . وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول ﷺ ، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء . ولا يلبث أن يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله في كل مكان للعدل الذي لا تصلح حياة الأمم بدونه ، ويشير في البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا . ويسترسل في القصيدة منشدا :

يا شرف الدين وقيت الردى ودمت تحمى بالحداد الحدود  
 لا غرو أن سدت جميع الورى مثلك يا بحر الندى من يسود  
 علمك بحر ماله ساحل زندك أورى من جميع الزنود<sup>(١)</sup>  
 وجودك كفيك إذا ما همى غيثٌ مُغيثٌ ما له من رعود

وفي البيت الأول جناس واضح بين الحداد أى السيوف والحدود . ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس في شعر اليمنيين ، وقد مضوا أيضا يكثرون من التورية محاكاة للمصريين . والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشرعية . وفي الأبيات السالفة مدحه بالعدل . وكل هذه مبادئ أساسية في الإمامة الزيدية كما مر بنا في صدر هذا الكلام . ومضى في القصيدة مبالغا في مديحه خاتما لها بالدعاء له : ولموسى قصيدة بائنة بديعة يهنئ فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر ، وفيها يقول :

حوى شرف الهدى والدين مجدداً رفيعاً وابتنى شرفاً علياً

(١) أورى : من ورى الزند إذا خرجت ناره .

بَرَاهِ الْهِنَا بَرًّا صَفِيًّا      ولم يخلقه جِبَارًا عَصِيًّا  
 سَرَى سِرُّ النُّبُوَّةِ فِيهِ حَتَّى      حكى عن جَدِّهِ خَلْقًا سَيِّئًا  
 حَوَى عِلْمَ الَّذِينَ مَضَوْا جَمِيعًا      وأصبح وارثًا لَهُمْ وَلِيًّا  
 تَأَزَّرَ وَارْتَدَى بِالْحُكْمِ كَهَلَا      وَأُوتِيَ حُكْمَ خَالِقِهِ صَيِّئًا

وواضح أن قوافي الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم ، وأن الشاعر لم يكتب بذلك ، بل حاول أن يسبغ على شرف الدين بعض ما جاء في السورة من نعوت للنبي يحيى ، وقارن بين البيت الثاني وقوله تعالى في نعت يحيى بن زكريا : (وبراً بالديه ولم يكن جباراً عصياً) . ويشير الشاعر في البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التي جاءت في السورة على لسان زكريا إذ يدعوره أن يهبه غلاما : ( فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي وَيُورِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبًّا رَضِيًّا ) . ويكمل الفكرة في البيت الرابع . ولا يلبث أن يسلك في البيت الأخيرة نهاية الآية الكريمة : ( يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا ) . وهو غلو واضح . ويمضى في القصيدة قائلاً :

وَقُلْ يَا بَنِي الْأَكْرَامِ مِنْ قَرِيشٍ      وَأَحْسَنَهُمْ - إِذَا ذُكِرُوا - نَدِيًّا  
 وَمَنْ دَنَتْ الْمُلُوكُ لَهُ وَذَلَّتْ      وَخَرَّتْ مِنْ مَهَابَتِهِ جَيْئًا  
 بِفَضْلِكَ تَتَمَّى نُوبُ اللَّيَالِي      فَكُنْ فِي النَّائِبَاتِ بِنَا حَيًّا

والشطر الثاني في البيت الأول مستمد من قوله تعالى في السورة : (أى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديًّا) أى مجلسا وجعاعة . والبيت الثاني يستضىء بالفاصلة (جئًا) الواردة في السورة أى تحرُّ الملوك على ركبها ولا تستطيع الحراك هيبة له وإجلالا . وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم في السورة لأبيه : (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) أى رعوفاً يرعاني . ويحتم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله ﷺ ، يقول :

عَلَيْكَ سَلَامٌ رَبِّكَ مَا تَعَنَّتْ      حَامُ الْأَيْكِ صُحَا أَوْ عَشِيًّا  
 وَصَلَّى اللَّهُ خَالِقُنَا عَلَى مَنْ      تَحْيِرُهُ نَبِيًّا هَاشِمِيًّا  
 مُحَمَّدٍ الْمَشْفَعِ فِي الْبَرَايَا      صَلَاةٌ تُبَلِّغُ الْأَمَدَ الْقَصِيًّا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة في القرون الأخيرة من هذا العصر ، وكثيرا ما يضمنونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعة رسول الله لأمته يوم القيامة . ولهذا القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان ، ومن قوله في مقدمة القصيدة الأولى :

لَمَلَقْتِي فِي خَدِّهِ جَنَّةٌ      مَحْفُوفَةٌ بِالنَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ



له سيوفٌ طالما سلَّها من لَحْظِه يَحْمِي ورودَ الخدودِ  
سبحانَ من صَوَّره فتنةً لخلقه وهو الرحيمُ الودودُ  
لم أدِرْ أين الثَّغْرُ من عِقْدِه لما تساوى نَعْرُه والعقودُ  
وفي المَهَا ضِدَّانَ لم يَبْرَحَا قساوةُ القَلْبِ ولينُ القُدودِ

والآيات تكتظ بالصور ويعنصر المفاجأة الذي يجعلها طريفة كل الطرافة ، فالورود في خدِّ صاحبه جنة محفوفة بحمرة شديدة كأنها النار الحامية ، وما لحظها إلا حام بسيفه لورود الخدود ، وإنما لفتنة لا تُحاكيها فتنة . ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة ، فلا يدرى أين ثغرها ولآلي أسنانها وأين العقود ولآلئها فقد اختلط عليه الأمر . ويخالها تحمل من المَهَا قساوة قلبه ولين قدِّه وقامته . أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حوارا بينه وبين محبوبته نقطتف منه هذه الآيات :

فقلتُ له ونحن ببحيرِ حالٍ أتفقدُ من جنانِ الخُلْدِ شيئاً  
فقال وقد تعجَّب من مقالِي جنانُ الخُلْدِ قد جُمِعَتْ لدياً  
فقلت : فسِحْرُ بابلَ أين أَضْحَى فقال : أما تراه بِمُقْلَتِيَا  
فقلتُ : الوردُ أين يكون ؟ قل لي فقال : أما تراه بوجْهَتِيَا  
فقلت الشَّهْدُ أين ؟ فقال : هَدِي شِفاهِي قد حوتْ شَهْداً جَنِيَا

ويستمر في حوارهِ مع صاحبتِه سائلاً عن البرق ، فتذكر له أنه يطلُّ من ميسمها الوضيء ويسألها عن المرأة وجيد الغزال والثريا فتبدي له خدَّها الباهي وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة . ولولا خوف الإطالة لقلنا الحوار جميعه ، وفي الحق أن شعره يحفل بما يملأ النفس إعجاباً بتصاويره وأخيلته ولفظه العذب السائغ ونغمه الموسيقى المصنَّي ، ولعل ذلك ما دفع المعنين في اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين ، وخاصة بمقدمتيهما الغزليتين البديعتين .

### علي بن محمد العنسي<sup>(١)</sup>

يمني صنعاني ، نشأ بمدينة صنعاء في بيت علم وفضل ، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق ، حتى إذا تزود من كل ذلك

(١) انظر في ترجمة العنسي وأشعاره البدر الطالع للحسني والسيد عبد الله بن علي الوزير ومصطفى الحموي للشوكاني ١/ ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزيارة ٢/ ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم والمتوكل القاسم بن

الحسين والسيد عبد الله بن علي الوزير ومصطفى الحموي

وأحمد بن عبد الله الجري وصلاح بن الحسين .

زادا كافياً قُلِّدَ القضاء ببلاد العدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدى محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧ - ١١٢٨ هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدى التالى المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) بالقضاء فى بلاده وفى وصاب غربى زَيد . وفى سنة ١١٣٦ وُشئ إلى القاسم أنه يسعى ضده مع بعض الناشرين وأنه صاحب القصيدة : «سماعا عبادَ الله أهلَ البصائرِ» وهى قصيدة تصور ظلمه وتدعو للثورة عليه . فقبض عليه القاسم وألقى به فى غياهب السجون ، وأخذ العنسى يرسل إليه قصائد مستعظفا بمثل قوله :

إمامَ الوَرَى عَظْفًا على خائفٍ عَظْفًا      بحق الذى أبقاك فى خَلْقِهِ كَهْفًا  
فو الله مالى قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتَهُ      وهذا الذى أُبْدَى ولله ما ينجى  
إمامَ الهدى هَبْنِي جِنِيًّا جنائياً      فهبنى لأطفالٍ كطير القَطَا ضَعْفًا

وتحقق القاسم من براءته ، فردَّ إليه حريته ، وعينه حاكما بالحِيمَةَ من بلاد صنعاء ، وظل بها إلى أن لَبىَّ نداء ربه سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م . ويكتظ كتاب نشر العرف بأشعار إخوانية متبادلة بينه وبين بعض الأمراء والأدباء فى ترجمته وتراجمهم . وله قصائد مختلفة تتصل بالأحداث فى عهد المتوكل القاسم بن الحسين ، من ذلك أنه لما أكمل بناء السور على بستان باب السبحة فى صنعاء سنة ١١٣٤ مدحه بنونية يقول فيها :

أما قيل فى البستان وهو بأهله      وبالمُلكِ سامٍ لا يدانيه عُمدانُ<sup>(١)</sup>  
ويَعْمُرُهُ من يَعْمُرُ الدينَ عدله      ويَحْيى بِهِ معنى الفخار ويزدانُ

ومن ذلك إيقاع المتوكل القاسم فى صنعاء بقبائل أرحب سنة ١١٣٨ حين اعتدوا على بعض فرسانه ، ففتك بهم فتكا ذريعا . وصوّر ذلك العنسى فى ميمية عارض بها ميمية المتنبي فى سيف الدولة التى وصف فيها واقعة الحدّث وهزيمته للروم هزيمة ساحقة . وقد استعار منها كثيرا من قوافيه ومعانيه وصوره وألفاظه ، من مثل قوله :

نثرتَ دنانيرَ الوجوهِ على الثرى      كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدراهمُ  
هنيئًا لَصْرَبِ الهامِ والمجدِ والندى      وراجيك والإسلامَ أنكِ سالمِ  
وقوفُك ما بين الخميسينِ باسمًا      وموجُ المنايا حولك المتلاطمِ  
ولستَ مليكا هازما نظيره      ولكنك الإسلامُ للشركِ هازمِ

والأبيات شديدة الصلة بقصيدة المتنبي : «على قدر أهل العزم تأتي العزائم» . وهى ظاهرة تلاحظ فى شعراء اليمن المتأخرين إذ يكثرون من معارضة الشعراء النابهن لا فى المديح

(١) عُمدان : قصر عتيق باليمن .

فحسب ، بل في كل الأغراض الشعرية . ونرى العنسي يقول في افتتاح قصيدة روضية :

يا سَمِيرى وللفتوة قومٌ خَلَقُوا من سَلالةِ الإنسجامِ  
بطرازِ الرِّفَاءِ بتشبيبِ مَهْيَا رِبْلُطْفِ البَها بِطبعِ السَّلامِ

وهو يصرح في البيتين بأنه من قوم يعنون في شعرهم بالانسجام الموسيقي على شاكلة السرى الرفاء المشهور بعذوبة ألفاظه ومهيار الذي يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالرقعة والسلامى المعروف بجمال نغمه . وطبعا هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العنسي وحاكاهم وعارضهم في شعره . وله قصيدة تاريخية شيعية في نحو سبعين بيتا استعرض فيها نحو أربعين إماما بادئا بعلی بن أبی طالب الذى اقتلع باب الحصن في خيبر، فاستوصلت شأفة الكفر، ويذكر قتله لعمر بن ودّ فارس قريش يوم الخندق ويُشيد بفاطمة الزهراء وبابنينا الحسن والحسين ريحانتى أهل الجنة وبعلى زين العابدين ، ثم بإمامهم زيد منشدا :

ويا خير من سلّ الحُسامَ وقد طعنى لثيمُ بنى مروانَ أشقى بنى الدهرِ  
فأصبح منه الجذعُ قد عانق العلأ ولكنها في الدين قاصمةُ الظَّهرِ

وهو يشير إلى ثورة زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك في الكوفة ومقتله هناك وصلبه ، ويذكر أخاه محمداً الباقر وابنه جعفرأ الصادق . ويذكر ثورات الحسين مبتدئا بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه ، ويذكر ثورة الحسين بن على الحسى على الخليفة العباسى الهادى فى الحجاز ومقتله بفتح بالقرب من مكة ، كما يذكر وقوع يحيى أخى النفس الزكية فى يد الرشيد والقائه به فى غياهب السجون حتى مات . ويذكر الزيدية فى طبرستان وآمل . ثم يتحدث عن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن ، ويستعرض الأئمة التالين له منوها بهم ومشيدا بأجداهم ، حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذى تغلب على العثمانيين ورددهم عن البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول :

ويا حُجَّةَ الله الذى قام داعياً إلى الله فرداً لا بزیدٍ ولا عمرو  
وبشَّرتِ الناسَ الهوائفُ باسمه كما بَشَّرتُ بالمصطفى مبدأ الأمرِ  
فأخلا علوجَ الترك عن يَمَنِ الهدى بِضَرْبِ كما هاجَ الوهيجُ من الجمرِ

ويلاحظ أن العنسى لا يقف عند مبادئ الزيدية فى مديحه ، إذ يضيف إليها بعض اعتقادات الشيعة الغالية فى أئمتهم . وقد ساق فى أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الحقى من علم الحفر ، وهو كتابات تكشف طلاسمها عن أبناء المستقبل وأحداثه ، ويقولون إن الرسول أودعها عليا وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل ،

والزيدية لا يؤمنون في إمامهم بمعرفته لهذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة ، ومع ذلك نرى العنسى يشيد بمعرفة جعفر الصادق له ، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به . وقد يكون في هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا تعرفها نخلتهم ، ومن ذلك وصفه لمحمد بن القاسم بأنه حجة الله . ومربنا أنه اصطلاح إسماعيلي وأن المراد به أنه الداعي للمذهب في بلاده . ويزعم أن الهواتف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفى ، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدى الشيعى المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ في تصوّر الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم ، كما يفعل الإسماعيلية . وربما كتب العنسى هذه القصيدة في سجنه تقريبا إلى القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله ، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة . وقبل أن نختم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن على الوزير الذى التزم في جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر . ودفع ذلك العنسى إلى التماس التورية بدوره في كثير من أبيات قصيدته . وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثيرا من أشعارهم . والقصيدتان من وزن الطويل ، وقد ضمن العنسى قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلي مثل : (قضاها لغيرى وابتلانى بجها) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبي في كافور مثل : (كفى بك داء أن ترى الموت شافيا) وكان هذا التضمن في الحقب المتأخرة من ذلك العصر يُعدّ من الطُرف البديعة .

## ٣

## شعراء الخوارج

مربنا في الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والنجدات والصفورية ، وكان نشاط الأزارقة في فارس وكرمان والصفورية في الموصل والنجدات في اليمامة ، وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموى . أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التميمي فقد ظلت حية طوال عصر بنى أمية والعصور التالية ، واتخذت مركز نشاطها في مدينة نزوى داخل إقليم عُمان جنوبي الجبل الأخضر ، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مر بنا في غير هذا الموضع ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى أظلت البلاد جميعها

راية الخوارج إلى اليوم . وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان ، وكانت تقع أحيانا في أيديهم ، واستطاعوا في حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت ، ومن أهم أئمتهم القدامى الخليل بن شاذان ، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجي الإياضي على حضرموت ، واتخذ عاملا له عليها أبا إسحق الحضرمي ، وكان شاعرا ، وله في الخليل إمامه أشعار كثيرة يصور فيها عونه المالى والحربي ضد خصومه ، وفيه يقول (١) .

هذا الخليلُ إمامُ المسلمين حَكَتْ أنوارُ سيرته في العَدْلِ نيرانا  
ويكتنُظُّ ديوانه بمدائحُه ، ولا تكاد تمرُّ حادثةٌ أو يمرُّ له انتصارٌ حربيٌ إلا ويرسلُ إليه  
القصاصد مهنتا . وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبقى على أبي إسحق عاملا له  
على حضرموت ، ويُعدُّ راشد أهم إمام خارجي في الحقب الأولى لهذا العصر ، إذ استولى  
على عُمان ، وأصبحت البلاد جميعها يُظَلُّها لواء الإياضية إلى أن استطاع بنونيهان في القرن  
السادس أن يستخلصوا منهم عمان . وتستمر الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج  
سلطانهم على البلاد جميعها ، وتعود عمان إلى النهانيين فترة في القرن العاشر ، ثم يستولى  
عليها نهائيا ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وتظل منذ هذا التاريخ في أيدي  
الخوارج ، وكان البرتغاليون قد نزلوا في شواطئها ، فأخذ ينازهم وظلت مدينتنا صُحار  
ومسقط في أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) أن  
يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطوله ينكُل بهم وبأسطولهم في شرق إفريقيا وغربي  
الهند . وفي ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافري مجدداً (٢) .

ثُمَّ أَوْرَى لِمَسْقَطٍ سَقَطَ عَزْمٍ أَسْقَطَ الظالمين منه ضرامُ (٣)  
وَعَدَتْ من عُمان كَفُّ بنى الأَصْدِ فَرَ صِفْرًا قد هَزَّها الانهزامُ (٤)  
وَبِمِمْبَاسَةٍ أذاقَهُمْ بَأُ سَاءَ بَيْسًا سَيِّتَ بهِ الأَصْنَامِ  
وَلدى زَنْجِبَارَ زَمْجَرَ فِيهِمْ وَعَدُّ زَجْرٍ لم يَنْجِ منه اعتصام  
وَبِمِمْبَاسٍ نَابَهُمْ منه نَابٌ لم يَشْبُهُ عن المَصْيِّ انهتامُ (٥)  
وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان على الأسطول البرتغالي في ممباسه  
وزنجبار وفي بمبي بالهند . وهي انتصارات جديدة بكل تمجيد وإشادة . وخلفه ابنه

(١) تحفة الأعيان ١ / ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) التحفة ٢ / ٦٠ .

(٣) أورى : أوقد . سقط النار : شرارة أو شعلة منه .

(٤) يريد بيني الأصفر البرتغاليين .

(٥) انهتام : تكسر ثانيا الأسنان من أصولها .

بِالعَرَبِ ، وكان شاعرا . وقد تربي في كنفه شاعر خارجي مهم يسمى الجُبْسِي ، وله ديوان استهله بمدائح نبوية على عدد حروف المعجم ، وفيه مدائح كثيرة في بلعرب بن سلطان ، وفيه يقول (١) :

يا مَنْ إِذَا نَارَ فِي الهَيْجَاءِ يَفْعَلُ فِي أَعْدَائِهِ فِعْلَةَ الجَزَارِ فِي البُدُنِ (٢)  
 وَمَنْ إِذَا فَاخِرَ الأَشْرَافِ فِي مَلَأٍ شَاعَتْ مَفَاخِرُهُ فِي الشَّامِ وَالْبَحْنِ  
 هَذَا الكَرِيمِ الَّذِي تَشْفِيكَ رُؤْيَتُهُ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَمِنْ هَمٍّ وَمِنْ حَزَنِ  
 بِلَعْرَبٍ نَجَلٌ لِسُلْطَانَ الَّذِي حَسُنَتْ أَخْلَاقُهُ وَهُوَ رَبُّ المَنْظَرِ الحَسَنِ  
 وواضح أن شعره متوسط . وأجود شعراء عُمان في أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرّواحيّ العُمانيّ ، وهو شاعر بارع ، توفي سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م ولذلك نرى أن تؤخّره إلى العصر الحديث في عمان .

ولابد أن نعرض لدولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زبيد من يد بني نجاح ، وقد ظلت نحو خمسة عشر عاما ، وكان مؤسسها على بن مهدي الحميري يعتقد مذهب الأزارقة من الخوارج ، وهو أكثر مذاهبهم تشددا ، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفيه ، ويسترقّ ذراريهم . ولم يقف عند مبادئ الأزارقة ، فقد استباح نساء المسلمين . وخلط آراءه بشيء من مبادئ الإسماعيلية ، فادّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدي . واستطاع الاستيلاء على زبيد سنة ٥٥٤ ، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر ، وتولى بعده ابنه المهدي ، وسار سيرة أبيه في سفك الدماء وسبّ المسلمين ، واستولى على تعزّ والجند ، ويقول العماد الأصبهاني إنه ادعى الإمامة وأقبل على شرب الخمر . توفي سنة ٥٥٩ ، وخلفه أخوه عبد النبي ، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء ، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩ . ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسيح (٣) وعبد الله (٤) بن أبي الفتوح الحرازي ومحمد بن عمر العمراني وله من قصيدة يمدح بها عبد النبي (٥) :

وَضَحَتْ شَمْسُ الحَقِّ بَعْدَ أَقْوَلِهِ وَرَسَتْ هُنَالِكَ قَاعِدَاتُ أَصُولِهِ  
 وَنَقَفَ قَلِيلًا عِنْدَ شَاعِرٍ مِنْ شِعْرَاءِ الإِبَاضِيَّةِ ، هُوَ أَبُو إِسْحَاقِ الحَضْرَمِيِّ ، وَشَاعِرٌ مِنْ شِعْرَاءِ  
 كدولة بني مهدي الخارجية ، هو ابن الهبّيني .

(٤) نفس المصدر ٣ / ٢٧٣ .

(٥) طبقات فقهاء اليمن للجمعي ص ١٩٣ .

(١) الصفحة ٢ / ٨٧ .

(٢) البدن : النوق والبرق المهيا للذبح .

(٣) الخريدة قسم للشام ٣ / ٢٧٢ .

أبو إسحق الحضرمي<sup>(١)</sup>

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهمداني الحضرمي ، وُلد بحضر موت ولا يُعرف بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد في مستهل القرن الخامس الهجري أو في أواخر القرن الرابع . وهو من بيت علم وفضل ، كان أبوه - كما يقول مقدم ديوانه - عالما ورعا زاهدا متقشفا . ويبدو أنه كان يعتنق عقيدة الإباضية مثله ، ومثل كثيرين من أهل حضر موت ، ونشأ ابنه على عقيدته ، حتى إذا شبَّ أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها في الناس من حوله ، وفي نسبه وإباضيته يقول :

فإن تَسألني عني وعن أهل مذهبي      ومن أين دارى أنت يا أمَّ حازمٍ  
فإني من همدانٍ أصلي وقُدوتي      فرداسُ والأوطان أرضُ الحضارمِ  
أنا الرجلُ الداعي إلى الحقِّ والذي      أبتُ نفسه شتمَ الطُّعَاةَ الأشائمِ  
أنا الرجلُ الشاري الذي باع نفسه      وأصبح يرجو الموتَ عند التصادمِ

وهو في الأبيات يصرح بأنه حضرمي من همدان ، وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية ، ويصف نفسه بأنه من الشُّراة ، وقد سمي الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى : ( ومن الناس من يَشري نفسه ابتغاءَ مرضاة الله ) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته ، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد في سبيلها حتى يفوز برضوان الله ، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكرا ، مما جعله يخلف ديوانا ، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويرا تاما ، وهي حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية في تزوي إذ نراه على رأس حملة للخليل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضر موت إلى سلطانه وقد ظل واليا له عليها إلى وفاته ثم خلفه راشد بن سعيد الذي مدَّ جناح سلطانه إلى عُمان ، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان في قصائد كثيرة ، بمثل قوله :

يا أيها العَلَمُ العَدْلُ الذي كملتَ له الخصالُ مُروءاتٍ وإيماناً  
إني أحبُّك والرَّحمن يعلمُه حبَّ احتسابٍ إلى ذى الطَّوْلِ قُرباناً  
ويطلب في القصيدة منه معونة ليحطم الغواة الضالين . وكانت لاتزال تأتيه المعونات ولايزال يحارب أعداء عقيدته في حضر موت ، ويبدو أن كثيرين كانوا ينقضون طاعته بين

(١) انظر في ترجمة أبي إسحق الحضرمي وأشعاره كتاب صفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض باوزير ص ٦٦ ونخبة الأعيان ٢٥١/١ وفي مواضع متفرقة ، وقد طبع ديوانه مع مقدمة لسليمان الباروني .

البدو وفي المدن الحضرية ، فكان لايزال يرسل إليهم الحملات ، ولا يزال بهم حتى يُلقوا له عن يدٍ وهم صاغرون ، وصوّر ذلك في قصائد كثيرة ذاكرا نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه في كل مكان بحضر موت ، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مدعنة مستسلمة ، يقول للخليل في إحدى قصائده :

سَلِ الْخُطْبَا لِمَا دَعَوْا لَكَ جَهْرَةً      عَلَى رَعْمِ أَهْلِ الْجَوْرِ بَعْدَ التَّصَادِمِ  
وَسَلِّ عَرَبَ الْبَيْدَاءِ لِمَا أَذَقْتَهُمْ      عَشِيَّةَ خَانُوا الْعَهْدِ سَمَّ الْأَرَاقِمِ  
وَأَمَّا نَوَاحِي حَضْرَمَوْتَ فَإِنهَا      بِحَوْلِ إلهي طَوْعُ أَمْرِي كَخَاتَمِي  
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا الصُّلَيْحِيُّ قَائِمًا      وَهِيَ هِيَ أَيْضًا سَعْدُهُ غَيْرُ قَائِمِ  
وَنَحْنُ إِلَيْهِ وَارِدُونَ بِجَيْشِنَا      فَهَا هُوَ أَذْهَى مِنْ مَلُوكِ الدِّيَالِمِ

وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى أنه عازم على حرب الصليحي مؤسس الدولة الصليحية في اليمن وكان قد أخذ يدعو لنفسه ويبدو أن كلا منهما كان يتحرش بصاحبه ، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه ، وكان الصليحي يهدده بالخليفة الفاطمي وجنوده ، وإلى ذلك يشير أبو إسحق بقوله :

يُخَوِّفُنِي أَنَّ الْمَعَزَّ مَلَاذُهُ      بِمَصْرٍ وَمَا خَوْفِي لِأَهْلِ الْمَظَالِمِ  
إِذَا وَفَدَهُ وَلَّى إِلَى مَصْرٍ رَائِدًا      مَضَى وَقَدْنَا قَصْدًا لِخَيْرِ الْعَالَمِ  
لِيَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبِ أَسْبَقُ نُصْرَةً      وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِفِعْلِ الْمَكَارِمِ

وواضح أنه سمي المستنصر خليفة مصر حينئذ المعز لأنه لا يعرف لقبه الحقيقي ، وخرج هو وخصمه الصليحي من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب ، ونرى أبا إسحق يوجه قصيدة أشبه ببناء إلى إمامه الخليل بن شاذان كي يعيئه وينصره ضد الصليحي ، قبل أن تتفاقم المعارك وتقع الكارثة ، يقول له من قصيدته نونية :

انصُرْ أَخَاكَ فَإِنَّ الْحَرْبَ قَائِمَةٌ      وَالْحَقُّ يَطْلُبُ مِنْ أَهْلِيهِ أَرْكَانَا  
اجْعَلْهُ أَوَّلَ مَا تَحِيَا الْبِلَادُ بِهِ      إِنَّا نَوْمِلُ جَيْشًا مِنْكَ يَعْشَانَا  
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ قَدْ أَثْرْتَ مَائِرَةً      فَارْفَعْ لَهَا شَرْفًا فَلَا مَرُّ قَدْ هَانَا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية ، وهو يريد معونة حربية . واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحي وأن ينزل بها خسائر فادحة ، ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد ، ويقيه والياً له على حضر موت ، ويظل يرسل له بقصائد المديح ، وكان قد استولى على عُمان كما أسلفنا ، وله يقول :

أَبَا رَاشِدُ إِنَّا لَعَمْرُكَ نَزَدْهَى      بِذِكْرَاكُمْ فِي حَضْرَمَوْتَ تَعَاظَا



إذا ما عُمَانِيَّ أَلَمَّ بِأَرْضِنَا أَحَطْنَا بِهِ نَسَأَلُهُ عَنْكُمْ تَرَاحِمَا  
 وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية ، وأخلاقهم الفاضلة ، ومناقبهم الكريمة ،  
 وكيف أنه أصبح إماما لهم وقيِّما عليهم ، يصلح أمرهم ، ويدفع عنهم الخطوب ، يقول :  
 إباضِيَّةٌ زَهْرٌ كَرَامٌ أَفْضَلُ مُنَاقِبِهِمْ فِي كُلِّ سَامِيٍّ عَلَا تَبْدُو  
 وَأَنْتَ لَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ صِرْتَ قِيَمًا حَمُولًا لِثِقَلِ الْخَطْبِ يُورِي بِكَ الزُّنْدَ (١)

ونراه في نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يعث إليه بنجدة تعينه في حربه مع  
 قبيلتي نَهْدٍ وَعَقِيلٍ إِنْ هُمَا لَمْ تَسْتَكِينَا نِهَائِيَا ، ولم تلقيا السلاح وهما صاغرتان ، يقول :  
 وَإِنْ عَدَلُوا عَنْ بَعْغِهِمْ وَتَرَاجَعُوا إِلَى عَسْكَرِ الْإِسْلَامِ وَالْحَقِّ وَارْتَدُّوا  
 فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْعَشِيرَةِ إِنَّهُمْ إِلَيْكُمْ بِإِخْلَاصٍ لِرَبِّ السَّمَا أَدُّوا  
 وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَصْرِحُونَا فَإِنَّا قَرِيبٌ وَمَا لِلْقَوْمِ مِنْ صَحْبِهِمْ بُدُّ  
 وَمَا بَيْنَ وَادِي حَضْرَمَوْتٍ وَبَيْنَكُمْ إِذَا سَرَّكُمُ إِيْتَانُنَا نَحُوكُمْ بَعْدُ

وهو يسمى عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق ، ومن قديم كانوا يقولون إن  
 معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده ، ويصفون خصومهم بالبغي والجور وأنهم خرجوا  
 على حدود الدين . ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل  
 توحيد ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وليس في الديوان ما يدل على أنه  
 ظل عاملا لأئمة نَزَوِي بعد راشد ، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه  
 بالإمامة ونستبعد ذلك ، ونظن أنه ظل على ولائه لأئمة الإباضية في نَزَوِي ، وحقانراه في  
 بعض شعره يصرِّح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه في كل مكان ، على شاكلة قوله :

عَلِقَ الْفَوَادُ بِأَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِي يُحْيِي الْهُدَى بِقَوَاضِبِ وَرَمَاحِ  
 وَعَلَى السُّيُوفِ يَمُوتُ كُلُّ مَكْرَمٍ وَعَلَى السُّيُوفِ قِيَادُ كُلِّ فَلَاحِ  
 وَعَلَى السُّيُوفِ يَنَالُ مِنْ طَلَبِ الْعَلَا غُرَفَ الْجِنَانِ وَقَصْدُهُنَّ كِفَاحِي

وهو يقصد بالهدى نخلته الإباضية ، ويقول إنه يشعر في أعماقه أن عليه نشر دعوتها  
 وإشاعتها في كل بقعة ، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديما من محبتهم للاستشهاد في  
 سبيل الله ، وكأنه أصبح شعارا لهم ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم  
 ونعيمه . ولسنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفي حوالي منتصف القرن الخامس  
 الهجري .

(١) يورى هنا : يتقد .

## ابن الهَيْبِي (١)

من شعراء تهامة في القرن السادس الهجري ، تبعَ علي بن مهدي حين استولى على زبيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده . وكان يجعل شعره شركة بينه وبين علي بن مهدي وولديه المهدي وعبد النبي ، فتارة ينظمه مستقلا ، وتارة ينظمه بلسانهم ، ونصَّ على ذلك القدماء . وقد وصفه عمارة اليمنى فقال : « هو أمتن كلاما ، وأقوى نظاما من كثير ممن سمعت به من شعراء اليمن » . وشعره على لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون ، من ذلك قوله على لسان ابن مهدي يهدد قبائل خَوْلان وجَبَّ وسِنحان وهمدان :

ما بالُ خَوْلانَ لا توفى بما تَعِدُ يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ  
وما لِيَجَنَّبِ وسِنحانٍ وأختها هَمدان تلك الأعرابُ التي حشدوا  
وتسميته لهم بالأعراب كأنه يشير إلى شطر في خميرية لأبي نواس يهزأ فيها بالأعراب  
قائلاً : « ليس الأعراب عند الله من أحد » . وابن الهيبني يحمّل الكلمة نفس المعنى . وله  
قصيدة ميمية طويلة على لسان علي بن مهدي وجّه بها إلى أهل حصن تَعَكْر وقبيلة خَوْلان  
مندرا لها نذيرا شديدا ، وهو يفتتحها بقوله :

أبلغُ قُرَى تَعَكْرٍ ولا جَرَمًا	أن الذي تكَرهُون قد دَهَمًا
وَقُلْ لِحَنَاتِهَا سَابِدُهَا	سَيِّلاً كَأَيامِ مَأْرِبِ عَرَمًا
ظَنَنْتُ خَوْلانَ أَنْ سَتَشغَلَنِي	عَمَى لما ظَنَنْتِ اللَّثامُ عَمَى
هل تَنْقُصُ البحرُ كَفُّ غارِفِهِ	أو يُخَمِدُ النارَ قايِسُ ضَرَمًا
تَعَسًا لِحَوْلانَ لا أباَ لَهُمُ	أَمَسُوا وُجودًا وأصبحوا عَدَمًا
إذ نَفَخُوا من صَوارِمِي ضَرَمًا	واستَسَمِنُوا من ظَنونِهِم وَرَمًا
وشمَّرتُ ساقِها الحروبُ وما	ألفَها الليلُ سائقًا حُطَمًا

وهو يهدد في أول قصيدته قري تَعَكْر بأنه سيتزل بها ما أنزله الله بقري سباً ومدنها من سبيل عَرَم ، يقول جلَّ شأنه : ( لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةً جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبيل العَرَم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكلٍ حَمِطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سبذرٍ قليل ) والآيات تدل على براعة شعرية حقيقية في الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب . وهو يتأثر في البيت الأخير

(١) انظر في ترجمة ابن الهيبني وشعره الخزريدة (قسم الشام) ٦٥/٣ وما بعدها و ٢٨٤/٣ وما بعدها .

بشطين وردا في خطبة الحجاج المشهورة التي خطبها في الكوفة أول قدمه واليا على العراق ، وقد حملها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا : « إني لأنظر إلى الدماء تفرق بين العمائم واللحى » ثم أنشد هذا الشطر في وصف الحرب وشدتها : « قد شمرت عن ساقها فشمروا » وتلاه بيت عاصف من الشعر :

هذا أو أن الشد فاشتد زيم قد لفها الليل بسواق حطم

والشد : العدو . وزيم : اسم فرس أو ناقة . واللف : الجمع . والحطم : الظالم للماشية . وواضح أن ابن الهيثمي كَوّن بيته من الشطر السالف ، ثم من الشطر الثاني في البيت ، ليصور ما سينزله بجولان من معارك مدمرة ساحقة . ويستمر في وصف جنوده ووعيده .

إنّ نـورَ الوغى إذا وقعتْ بأرض قومٍ أطارت الرّخما<sup>(١)</sup>  
ترمي ببنائها قرى عدنٍ صُبحاً فيمسى شرأها الحرما  
أيشربُ الحمرُ في ذرى عدنٍ والمشرقياتُ بالحصيبِ ظها  
ويُلجَمُ الدينُ في محافلها والخيل من حولى تملُكُ اللُّجما

وما جنوده إلا نسور أما جنود خصومه فرخم وطير ما كول ، ويضيف إلى تهديد جولان تهديد عدن وأمرائها من آل زريع ، وكانت تعز والجند وتعاكر في حوزتهم ، فكان طبيعيا أن يصطدم بهم . والشاعر يزعم على لسان ابن مهدي أن أهل عدن غارقون في الخمر إلى آذانهم ، ويقول إن السيوف في الحصيب وادى زيد ظامئة إلى دمائهم وأن الخيل من حوله تملُكُ اللجم ، تريد أن تهم بالمسير إليهم وقتالهم . وكان طبيعيا والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدي وولديه من جهة وعدن وأمرائها بنى زريع من جهة ثانية أن يصطدم ابن الهيثمي شاعر بنى مهدي بأبي بكر العيذى شاعر الزريعيين ، وأن يأخذا في التهاجي وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر ، وقد احتفظ العباد في خريدته للشاعرين بنقيضتين من هذا الطراز ، أولاها لابن الهيثمي ونراه يستهلها بالإشادة بجنود علي بن مهدي إمامه ، يقول :

أسدُ إذا ما أبصرتْ أسدَ الشرى ورأت حياضَ الموت لم تتجهجه<sup>(٢)</sup>  
تعدو أمام متوج متبلج متيقظ متوقد متنبه  
متفقه في الدين لكن لم يكن من عند غير الله بالمتفقه  
ملك إذا اشتبه الملوك فما له في ملكه وصلاحه من مشبه

(١) الرخم : طائر غزير الريش كبير الجناح طويل (٢) تتجهجه : ترد .

ومرّة الدين الحنيفي الذي لولا الإمام القطب لم يمتزّه بصوارمٍ ولهاذمٍ وضراغمٍ وملاحمٍ بلغت به ما يشتهى<sup>(١)</sup> وواضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام في رأيه وشدة بأسهم ، ويسبغ عليه صفات التفقه في الدين وحياته بسيفٍ قاطعة وأسود ضارية وملاحمٍ ساحقة . ويمجد انتصارات على بن مهدي على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشي ، ويعود إلى الإشادة به ، قائلًا :

أخبارُ أيامِ الإمامِ فواكهٌ فأصخُ بسَمْعِكَ نحوها وتفكّه  
سيرُ الإمامِ قديمُها وحديثُها فَرَحُ القلوبِ وروضةُ المتنزّه  
أشهى من الماءِ الزلالِ على الظّمَا وألذُّ من عَصْرِ الشَّبَابِ الأمّوه<sup>(٢)</sup>

ولا شك أن ابن الهبيني يجور جورا فظيعا على الحقيقة ، فقد عرضنا لابن مهدي ومبادئه ، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج ، ويكفي وصمة لا تفارق جبينه أنه استباح نساء المسلمين واسترقّ الذراري ، فكان ينبغي على ابن الهبيني أن لا يسخر شعره في مدحيه هذا المدح المفرط في الثناء . وتُنسب لابن مهدي دالية لا شك أنها من نظم ابن الهبيني ، وفيها يقول على لسانه :

قسمتُ الرّدَى والجودَ قسَمينِ في الوَرَى فللمعتدى حدّى وللمُجتدِي رَفدى<sup>(٣)</sup>  
ومالِي من مالِي الذي كسبتُ يدي تُراثٌ أبقيهُ سوى الشكرِ والحمدِ  
تخوّفني جَنبٌ يكثرُ عديدها وما لجنودِ الله حولِي من عدّ  
تَقَعّقُ نحوى بالشنانِ وهل ترى عوا الكلبِ يُخفي زارةَ الأسدِ الورْدِ<sup>(٤)</sup>

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهبيني ، إذ جلب فيه عبارة من عبارات الحجاج في خطبته التي أشرنا إليها آنفا فقد قال في تضاعيفها : إنني لا أغمز تغماز التين ولا يقعقع لي بالشنان ، وهي القرب البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحوا الإبل على السير لتفزع فتسرع . وابن الهبيني مثل أبي إسحق الحضرمي لا يُعرفُ زمن مولده ولا زمن وفاته ، ولكن من المؤكد أنه عاش في زمن دولة بني مهدي ، وربما لم تمتد به الحياة بعدها أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها في نهاية العقد السابع من القرن السادس .

(٣) رَفدى : عطائي .

(١) الصوارم واللهاذم : السيوف . الضراغم : جمع

(٤) الورد : الشجاع الجريء .

ضراغم :

(٢) الأموه هنا : الناظر .

## ٤

## شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مربنا أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالإسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتخليصه من كل ما دخل عليه من شوائب، كتفديس الأولياء، والاعتقاد فيهم أنهم - كما يقولون - ينفعون الناس حتى في قوتهم، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا بزروعهم وإبلهم وأنعامهم وشاءهم. وينبغي - في رأى ابن عبد الوهاب - أن يكف المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، فهما المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه، والمدار في الدين إنما هو على النقل، أما العقل فيتخذ شاهدا ولا يستخدم حكما. وهذه الدعوة - كما قدمنا - تستضيء بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذي كان يقدم المنقول على المعقول، فالمنقول من الكتاب والسنة أولا، والمعقول يليه ويأتي ثانيا، ولا يصح التقرب إلى الله بزيارة الولي الصالح، فضلا عن زيارة جدته ورفاته. وتشدد ابن عبد الوهاب قائلا إن ذلك يعنى الشرك بالله أن يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها، طالبا جلب منفعة أو دفع أذى، إذ يظن أن الولي من شأنه أن يُعينه على ذلك، والله يقول لرسوله ﷺ في كتابه: (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله). وعلى هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يجوز إشراك غير الله معه في الدعاء، كأن يقول القائل المتوجه إلى ربه: أسألك بحق فلان من الصالحين، بينما الله عز وجل يقول: (فلا تدعوا مع الله أحدا). وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولي أو غيره، لمثل قوله تعالى: (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه). وينبغي أن تُلغى الندور للأولياء جملة، إذ الندور إنما تكون لله ولا يصح إشراك أحد معه فيها، ومن أكبر صور الشرك - في رأى محمد بن عبد الوهاب - الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من المنجمين أو أصحاب السحر والشعوذة، والله يقول: (ولله غيب السموات والأرض) ويقول: (فلا يُظهر على غيبه أحدا) فمن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلا في صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه. ومدَّ حملته إلى المتصوفة والطرق الصوفية، فأنكرها ودعا إلى إلغائها إلغاء باتا وإلغاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأوراد ودلائل خيرات، فكل هذه - في رأيه - بدعٌ لم يعرفها الإسلام في عهد الرسول ﷺ وعهود أصحابه، وينبغي أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة

وإحيائها والافتداء بالسلف الصالح . ولذلك يسمى الوهابيون سلفية . ومما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفرغ أحد إلى التأويل في آيات القرآن الكريم . وإنما عرضنا ذلك كله لتبين الأسس التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب والتي صدر عنها بالتالي شعراء الدعوة الوهابية ، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصدوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يمني من الأسرة الزيدية ، هو محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعاني ، وأن أبرع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه في هذا العصر هو ابن مشرف الأحسائي . ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفي مقدمتهم سليمان بن سحَّان وابن عُثَيْمِين ، ولن نعرض لها لأنها يدخلان في العصر الحديث ، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وله مرثية في ابن عبد الوهاب حين لبي نداء ربه افتتحها بقوله (١) :

إلى الله في كَشَفِ الشدائد نَفْرَعُ      وليس إلى غير المهيمن مَفْرَعُ

وقصائد كثيرة نظمت في الإشادة بابن عبد الوهاب ومبادئه ، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن علي الشوكاني اليمنى المار ذكره . ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف .

### محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعاني (٢)

ولد بحصن كَحْلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م فأتم بها حفظ القرآن ، وسرعان ما أخذ يختلف إلى العلماء ينهل من حلقاتهم ودروسهم ، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول ، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس في الفقه وفي النحو وفي غيرها ، وأخذ يدرس كتب الحديث الكبرى على كبار الحفاظ المحدثين من مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وسُنن أبي داود ، ونال في ذلك إجازات مختلفة لا في صنعاء فحسب ، بل أيضا على كبار المحدثين في مكة والمدينة ، وعنى بالتبحُّر في فقه الشافعى وفي الأصول . ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة ، وله فيه على الجامع الصغير شرح في أربعة مجلدات ، وله في الفقه كتاب العدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وله شرح في علوم الحديث

و ٢ / ٧٦٤ وفي مواضع مختلفة. وديوانه طبع بمطبعة المدنى

(١) شعراء هجر ص ٥٠ .

بالقاهرة سنة ١٩٦٤ باسم ديوان الأمير الصنعاني . وراجع

(٢) انظر في ترجمة محمد بن إسماعيل وأشعاره البدر

مقدمة على السيد صبح المدنى للديوان .

الطالع للشوكاني ١٣٣ / ٢ ونشر العرف لزيارة ٥٠٥ / ٢

والآثار في مجلدين ، غير كتب كثيرة في الأصول وفي النحو وفي بعض الفتاوى . ومن كتبه « يفاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » ويبدو أنه كتبه في الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجح أدلة السنة والكتاب . وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحياناً الخطابة . ويُجمع كل من كتبوا عنه أنه كان مجتهداً ينفر من التقليد ومن كل رأى فقهي لا دليل عليه ، ويقول الشوكاني إنه كان « من الأئمة المجددين لمعالم الدين » وكان الشوكاني مثله يعجب بالدعوة الوهابية ، ومربنا أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده في يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته ، على أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية وللثاني وذريته السلطة الروحية . وما تقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين ، حتى نجد صوتاً مدوياً ينطلق من صنعاء باليمن ، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيداً وممجداً لدعوته استهلها بقوله :

سَلَامٌ عَلَى نَجْدٍ وَمَنْ حَلَّ فِي نَجْدٍ وَإِنْ كَانَ تَسْلِيمِي عَلَى الْبُعْدِ لَا يُجْدِي

وقد مضى فيها يعلن إعجابيه بمبادئ الدعوة الوهابية ، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحلول ، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأرادها ، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين للدلائل الخيرات ، يقول مبرراً صنيعهم :

غَلَوُ نَهْيٍ عَنْهُ الرُّسُولُ وَفِرْيَةٌ بِلَا مَرِيَّةٍ فَاتْرَكُهُ إِنْ كُنْتَ تَسْتَهْدِي

أَحَادِيثُ لَا تُعْزَى إِلَى عَالَمٍ وَلَا تُسَاوَى لِفُلْسٍ إِنْ رَجَعْتَ إِلَى التَّقْدِ

وهو يضع بذلك دليلين يحوزان حرقها في رأيه : ما بها من غلو ومن أحاديث ضعيفة

واهية ، ويقول إنها من البدع المستحدثة . وكان ماينى ينصح قومه بالانصراف عن مثل

هذه الأوراد . وكان يؤذيه أشد الأيذاء تصديقهم للمنجمين وإيمانهم بأنهم يطلعون على

الغيب . ويكتب إلى الإمام المهدي العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهاه عن الاستماع إلى

المنجمين وافتراءاتهم الكاذبة ، وفيها يقول :

وَلَا تَسْتَمِعْ مِنْ عَابِدٍ لِنَجْمِهِ تَقَاوِمُ زُورٍ لَيْسَ تُعْنَى وَلَا تُجْدَى

أَكَاذِبُ يُمَلِّهَا لِكُلِّ مَغْفَلٍ يَصَدِّقُهَا مِنْ ضَلٍّ عَنْ طُرُقِ الرُّشْدِ

ووالله ما عند النجوم دلالة على نحس يوم في الزمان ولا سعد

ووالله ما غير الإله بعالم بما في غدٍ مما يُسِرُّ وما يُبْدِي

وصدق رسول الله ﷺ في قوله : « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وله قصيدة جعل

مقدمتها في ديوانه على هذا النمط : « هذه نفثة مصدر ، وكلمة صادرة عن قلب

من ضياع الشريعة محرور ، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويُحْيِي شريعة سيد المرسلين ، وفيها يقاظ للهمم لو كانت نائمة ، ولكنها ميتة لا تُرْجَى لها قائمة . والجهاد باللسان أحد الأقسام . نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام . « وفيها يصور جهاد المصلح الديني المنتظر هو وأنصاره في سبيل دعوته ، وكيف يخوضون إليها غار الحروب ، حتى تبسط سلطانها على الناس ، يقول :

يَحْفُ به قومٌ على كلِّ سابعٍ      تُعَدُّ المنايا في الحروب مُناها  
ولا جمعوا مالاً ولا كسبوا لهم      قُصوراً ولا باهوا برفعِ بُناها  
وما ادّخروا إلا حُساماً وذابلاً      ومُهراً يبارى الرِّيحَ عند سُرّها  
وما قصدوا من سَفْكَهم لدمِ العدا      وتَطْوِيهم بالسيفِ بيضَ طَلاها (١)  
سوى أنهم يُحيون شِرْعَةَ أحمدٍ      ويَنفون عنها داءها يدَواها  
سيغسل عنها السيفُ أدْرانَ بَدْعَةٍ      فيُشرقُ في الآفاق نورُ سَناها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة في سن مبكرة ، ولكن مقدمتها وما ترسمه من الجهاد لمصلح ديني وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدْران البدع المستحدثة في الحياة اليومية ، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة ، إنما يريدون درء المنكرات ، وإنهم ليحملون في سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا الغي والضلال . كل ذلك يشهد بأن المقصود في القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره بزعامة محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل الناس في الجزيرة العربية على الدعوة الوهابية . وفي الديوان دالية يعلن فيها تبرئه من ابن عبد الوهاب ودعوته ، وأكبر الظن أنها موضوعة على لسانه أقحمت من قديم على الديوان تقرباً للأمراء الزيديين من بيته ، وفي الحق أنه كان يحمل نفساً نائرة تحب الحق وتؤثره ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُون به لأئمتهم مما أدى أحيانا إلى سجنه على نحو ما نرى في قوله سنة ١١٦٦ للهجرة :

وما حسبوني أنني جئتُ مُنْكَراً      ولا أنني نافستُ في الملك والكُرْسِي  
ولكنني أَحْبَبْتُ سَنَةَ أحمدٍ      وأبرزْتُها شمساً على العُربِ والفُرسِ  
وكان أهل بيته من الأئمة يتلقبون ألقابا كثيرة ، وقد لا يكتفي الإمام بلقب واحد بل يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدي لدين

(١) الطلي : جمع طلية وهي أصل العنق .



، وكأنما كان ذلك يؤذى نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يرى لأصحابها أعمالاً حميدة ، بل يرى أعمالاً ذميمة فقال :

تسمى بنور الدين وهو ظلامه وهذا بشمس الدين وهو له خسف  
 وذا شرف الإسلام يدعوه قومه وقد نالهم من جورهم كلهم عسف  
 رؤيدك يا مسكين سوف ترى غداً إذا نصب الميزان وانتشر الصُحفُ  
 بماذا تُسمى هل سعيدٌ فحبداً أو اسمٌ شقيٌّ ينسُ ذا ذلك الوصفُ

وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة من بيته في عصره وقبل عصره . وكان لا يخشى في الله لومة لائم. وديوانه يحتفظ بالمواعظ والأدعية والابتهالات إلى الذات العلية ، وله قصيدة في التقوى ختم جميع أبياتها بشهادة : لا إله إلا الله ، وله غير مدحة نبوية وأيضاً له قصيدة في مديح علي سماها «التحفة العلوية» وكتب عليها شرحاً سماها «الروضة النديّة» . وله أشعار في فنون البديع المختلفة وخاصة في التورية وهو يكثر من التضمين في أشعاره وخاصة من شعر المتنبي . وظالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب في الوفاة بنحو ربع قرن تقريباً .

### ابن مشرف الأحسائي<sup>(١)</sup>

هو أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهبي التيمي الأحسائي ، وُلد وعاش في الأحساء ولا يُعرف تاريخ مولده . وبدأ في نعومة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء في موطنه ، والتهم كل ما وجد في هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية ، واعتنق المذهب المالكي مثل آبائه . وليس في ديوانه ما ينبئنا عن أحواله في فواتح حياته أو في شبابه المبكر ، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات ، وهي تمتد من سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وأكثرها أو قبل جمهورها في مديح فيصل بن تركي ، والسنة الأولى هي نفس السنة التي استولى فيها السعوديون على الأحساء ، وكان شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفي سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م . وهو في ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها ، فهي كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية إلى الأحساء في سنة ١٢٤٥ أو أنه يقترن بتلك السنة ، على كل حال الديوان كله

(١) انظر في ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء هجر ص ٧٧ ومقدمة الناشر لديوانه (طبع الرياض) .

مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها ، أو قل إنها مادته سواء تغنى بـ ابن عبد الوهاب وأفكاره أو تغنى بـ فيصل وأعماله أو بغيره من قواده . فالدعوة الوهابية مادة الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب ، بل هو أداة من أدواتها يذيعها ويناضل عنها خصومه ويؤيدها بكل ما استطاع من حجة وبرهان . وقد سمي أول قصيدة في الديوان باسم جوهرة التوحيد وهو يستضيء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد ، ويستهلها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول :

الخيرُ والشُّرُّ جميعُهُ صَدَرَ من أمرِ ربنا وذا هُوَ القَدَرُ  
ومرَّبنا أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل شيء مقدر على الإنسان منذ الأزل ولا صحة لما يقوله المعتزلة من أن الإنسان كامل الحرية في تصرفاته يأتي ويترك من الأفعال ما يريد فهو خالق أفعاله باختياره . ويرد على ذلك ابن مشرف بعبارة أوضح في موضع آخر منشدا :

وكلُّ شيءٍ قضاءُ الله في أزلٍ طرًّا وفي لوحه المحفوظ قد سُطِّرا  
والله خالقُ أفعالِ العبادِ وما يجرى عليهم فعن أمرِ الإله جرى  
فليس في ملكه شيءٌ يكون سِوى ما شاءه الله نفعاً كان أو ضرراً  
ويعقد فصلا لأنواع التوحيد . ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب ، إن أضرب  
الوحدانية ثلاثة ويعدُّها على هذا النمط :

توحيدُ ربِّ الناس في الملك وفي صفاته وفي العبادة اقتف  
فالأولى وحدانية الربوبية وهي اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له ، فهو المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت . والثانية وحدانية الأسماء والصفات ، من مثل الحى الباقي القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم البصير المرید القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه .

ويشير ابن مشرف تبعاً لمحمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتمد والواثق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه ، وهى المشكلة التى ورط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء وجعلوهم يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفي مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية . ويقول ابن مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظاً ومعنى والمخلوق إنما هو نطق الناس به يقول :

الصوتُ للقارئ والكلامُ لله ذا به قد استقاموا  
 فاللفظ والمعنى من القرآنِ قد نزلَا من ربنا الرحمنِ  
 ومن يُقَلُّ بخلقه أو سَطَره فهو مُضَلٌّ فاستَعِذْ من شرِّه  
 وكان المعتزلة يزهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسماً ولا عرضاً  
 ولا مادة ولا جوهرًا ولا يحيط به مكان ولا زمان ، وأولوا الآيات التي قد تفيد مشابهة مثل  
 ( ثم استوى على العرش ) بأن الاستواء في الآية بمعنى الاستيلاء ومثل ( يدُ الله فوق أيديهم )  
 أولوا اليد في الآية بمعنى القدرة . ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام في  
 رأيهم وقالوا إنها عين الذات . وكل ذلك ردّه محمد بن عبد الوهاب متابعاً ابن تيمية وابن  
 حنبل ، وأخذ مثلها في الآيات التي تفيد التشبيه بفكرة التنزيه مع الإيمان بما جاء منها في  
 القرآن ، وعلى ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرف :

اللهُ ذو العرشِ على العرشِ استوى وعلمهُ لكلِّ شيءٍ قد حوى  
 وما اقتضى التشبيهُ مثلَ العينِ والوجهِ والإصبعِ واليدِ  
 تؤمنُ به لكن مع التنزيهِ له عن التمثيلِ والتشبيهِ  
 من شبهَ الله بخلقه كفرٌ ومن نفى صفاته أصلي سقرٌ  
 وهو في البيت الأخير يحكم على من ينفي الصفات وهم المعتزلة كما أسلفنا بالكفر ويقول  
 إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسبا وكل امرئ يحاسب على ما كسبت يده ،  
 ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبي ﷺ ومعجزاته من القرآن كالعراج ويشيد  
 بأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وباقي العشرة المبشرين بالجنة وأصحاب المذاهب الأربعة  
 وسفيان الثوري وداود الظاهري . ويطلق في الحديث عن البعث والمعاد والحساب .  
 وبذلك يختم الحديث عن النوع الثاني من أنواع الوجدانية وهي وجدانية الأسماء والصفات  
 ويأخذ في الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوجدانية وهو وجدانية العبادة ، فالله وحده  
 هو الذي يُعبَدُ دون سواه ، وهو وحده الذي تقدّم إليه النذور ، ومن الشرك تقديمها لسواه  
 وأيضاً من الشرك القَسَمُ بغيره يقول :

الحلفُ مطلقٌ بغيرِ اللهِ شركٌ بلاشكٍّ ولا اشتباهِ  
 ويهاجم زيارة القبور : قبور الأولياء والصالحين وما بُني عليها وشيّد من قبب والطواف  
 حول تلك القبور تقرباً ، وسؤال الناس أصحابها أن يدفَعوا عنهم الأذى ويحلبوا لهم  
 النفع ، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء ، كلما أحاط بهم كرب ، طلباً للنجاة ، يقول :  
 ألم تنظر الشرك الذي فيهم فشا فكّم قبيّة قد شيّدوها على قَبْرِ

وطافوا عليها خاضعين تقرباً إلى ذلك المقبور بالدَّبْحِ والنَّذْرِ  
 وكم سألوا الأموات كَشَفَ كروبهم ولا سباً في الفُلْكِ في لُججِ البَحْرِ  
 فزادوا على شِرْكِ الأوائل إذ دعوا سِوَى الله في حالِ الرِّخاءِ وفي العُسْرِ  
 وعلى هدى من الدعوة الوهاية مضى يهاجم كل ما هاجمته ، وكان مما استحدث في  
 الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة ، وعَنَتِ الدعوة الوهاية المؤذنين على هذا التذكير ،  
 ورأت منعه منعاً باتاً ، واصفة له بأنه بدعة وينبغي الكف عنها ، وفي إثرها يقول ابن  
 مشرف :

وسلَّ فاعَلَ التذكير عند أذانهِ أهذا هُدَى أم أنت بالدين تلعبُ  
 وهل سنَّ هذا المصطَفَى في زمانهِ أو الخلفا أو بعضُ من كان يصحبُ  
 واستمر يتساءل هل سنَّ التابعون أو سنَّ أحد أصحاب المذاهب الفقهية ، وانتهى إلى  
 أنه من الأمور المحدثات التي ينبغي أن تجتنب ، قائلاً إن العلم ينبغي أن لا يؤخذ إلا من  
 الكتاب والسنة . ويخص هذه الفكرة بقصيدة بحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث  
 النبوي وآيات الذكر الحكيم ، ويسميها وحيين ، وتسميته الذكر الحكيم وحيًا واضحة ،  
 أما تسميته الحديث بالوحي فلأنه إلهام وهدى رباني ، يقول :

وقدَّمَ أحاديثَ الرِّسُولِ ونَصَّه على كلِّ قولٍ قد أتى بإزائه  
 وإن جاء رأياً للحديث معارضُ فللرأى فاطرحُ واسترح من عنائه  
 ومن يكنِ الوحيَ المطهرَ علمه فلاريب في توفيقه واهتدائه  
 وكلُّ فقيهٍ في الحقيقة مُدَّعٍ ويثبت بالوحيين صدقُ ادِّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى ، فما يرسمه القرآن ويبينه الحديث هو الدين  
 الخنيف ، وعلى العقل أن يسير وراءهما شارحاً ومفسراً ومبيناً ، لا موجهاً ولا متحكماً  
 ولا مؤولاً . . وعلى هذا النحو تتجلى في شعر ابن مشرف دائماً الدعوة الوهاية بكل ما  
 اتصل بها من مبادئ وتعاليم .

## ٥

### شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هي بيئة مكة  
 والمدينة ، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا وبحج البيت الحرام ولم يكن

هناك مادمح للرسول ﷺ . إلا ويسعى إلى زيارة ضريحه العطر وإنشاده مديحه ، غير من كان يقيم في البلدين المقدستين من أهلها النساك . وقد ذكرنا في غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتفلسفة منذ الحلاج كانوا يتزلون في مكة ويجاورون فيها ، وقلنا إنه نزلها ابن عربي وجاور فيها سنوات ، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفي «ترجمان الأشواق» وفيه يقول :

مَرَضِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ عَلَّلَانِي بِذِكْرهَا عَلَّلَانِي  
هَفَّتِ الْوُرُقُ بِالرِّيَاضِ وَنَاحَتْ شَجَوْ هَذَا الْحَمَامِ مِمَّا شَجَانِي (١)

وشاع الديوان في مكة والمدينة وفي اليمن وتناقله الحجاج . ومن متفلسفة المتصوفة وشعرائهم الذين جاؤوا في مكة ابن سبعين ، أقام بها سنوات طويلة حتى توفي سنة ٦٦٩ وكان يقول بالاتحاد والحلول ، ومن شعره (٢) :

مَنْ كَانَ يُبْصِرُ شَأْنَ اللَّهِ فِي الصُّورِ فَإِنَّهُ شَاخِصٌ فِي أَكْمَلِ الصُّورِ  
بَلْ شَأْنُهُ كَوْنُهُ بَلْ كَوْنُهُ كُنْهُهُ فَإِنَّهُ جَمَلَةٌ مِنْ بَعْضِهَا وَطَرَى

وراء ابن سبعين وابن عربي والحلاج كان ينزل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفي مقدمتهم القشيري الذي لم يثقل الفرقة بين الصوفية وأهل السنة كما مر بنا في غير هذا الموضع . ونزلها الغزالي وشهاب الدين السهروردي العراق وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله :

هُوَ الْحَبُّ فَاسْلَمْ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ فَمَا اخْتَارَهُ مُضَيَّئِي بِهِ وَلَهُ عَقْلٌ  
وَعِشْ خَالِيَا فَالْحَبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سَقْمٌ وَآخِرُهُ قَتْلٌ  
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا فَمُتْ بِهِ شَهِيدًا وَإِلَّا فَالْغَرَامُ لَهُ أَهْلٌ

ولم يبق مادمح للرسول ﷺ إلا زار المدينة ، لتأرجح روحه بعطر قبره ، وقد زارها البوصيري أكبر مدامح الرسول ، وفيه نظم همزيته في نحو أربعائة وخمسين بيتا ، وسماها «أم القرى في مدح خير الورى» وكذلك ميميته المشهورة باسم البردة ، وقد تناقلها الناس في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه إعجاباً وافتتانا . ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد في مطلع القرن الرابع الهجري . ولكن لم تنل قصيدة في مديح الرسول حُظوة هاتين القصيدتين .

وبجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليهما أشعار زهد كثيرة ، كان يرددها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة ، على نحو ما نجد في

(١) هفت الورق : خفق الحمام بأجنحته . (٢) العقد الثمين ٥ / ٣٣٩ .

ديوان الزمخشري الذي جاور في مكة طويلا ، حتى لُقِّبَ «جار الله» . وكان هؤلاء المجاورين الكثيرون يضمنون الزهديات مصنفاتهم التي يؤلفونها في مكة أو المدينة ، ومن يقرأ تفسير الزمخشري الذي ألف بمكة والذي سماه الكشاف يجده عند تفسير الآية الكريمة : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فافوقها) <sup>(١)</sup> ينشد توسلاً لطيفاً لشاعر على هذه الصورة :

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل <sup>(٢)</sup>  
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل  
اغفر لعبدٍ تاب من قُرطاته ما كان منه في الزمان الأول

ولترك المجاورين بالحرمين الشريفين إلى سكان البلدين ، ومن أهم من تلقاه ابن ظفر <sup>(٣)</sup> المولود بمكة في شعبان سنة ٤٩٧ وبها نشأ ، واختلف إلى حلقات العلماء فيها ينهل عنهم ، وكان ذكياً ذكاء شديداً ، وحُبِّبَ إليه الرحلة ، فارتحل إلى صقلية ، وبها ألف لحاكمها في سنة ٥٥٤ كتابه «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية ، ويمتلى بأشعاره ، وهي تصور زهده وتقشفه مع براعة في نسج الشعر ونظمه من مثل قوله <sup>(٤)</sup> :

يا مُتعباً كدَّه الحِرُّ صُ في الفضول وكادَه  
لو حَزَّتْ ما حاز كسرى وما حوى وأفاده  
ما كنت إلا مُعنى ومُغرمًا بالزيادة  
لم يَصِفُ في الأرض عيشٌ إلا لأهل الزَّهادَه

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلاً ولكن كان يقوله عن اقتناع ، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين ، تكفيهم الكسرة . وكان يتحول واعظاً كلما نزل بلدة ، ونزل بلادا كثيرة ، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق ، فألم ببغداد ودمشق ثم نزل حماة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ ومن زهدياته <sup>(٥)</sup> :

راقك الزهد إنما الزهد رقصٌ لفضولٍ تلهي وتطغى وتُردي <sup>(٦)</sup>  
مرحبا بالكفاف عيشا هنيئا ثم لا مرحبا بجرصٍ وكدِّ  
لا يزال الحريصُ يستامه الحِرُّ صُ يُنصبُ من الشقاء ونكدٍ <sup>(٧)</sup>

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٦ .

(٢) الأليل : شديد السواد .

(٣) انظر في ابن ظفر الخريدة (قسم الشام) ٤٩/٣ وابن

خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدياء ٤٨/١٩ والوافي

١٤١/١ والمقد الثمين ٣٤٤/٢ .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٥٥/٣ .

(٥) نفس المصدر ٥٦/٣ .

(٦) زدى : تهلك .

(٧) يستامه : يذله ويصرفه .

ثم لا يستطيع أن يتعدى قدرا ما لحكمه من مردّ  
فهو ينصح بعيش الكفاف وبالزهد في كل ما وراء ذلك من فضول ومتع لا نفيد إلا  
اللهو والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحدا . ولا يزال الخريص  
يدفعه حرصه إلى غير قليل من الشقاء والنكد والتعب ، ومع ذلك لن يعدوا ما كتبه له  
القضاء .

ولشعراء مكة والمدينة مدائح نبوية كثيرة ، على نحو ما نجد عند النشو ، وقد سقنا  
له في ترجمته مثلا ، ولحب الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استهلها  
بقوله : « رحلت إلى المختار خير البرية » ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة ، ولابنه محمد  
مدحة نبوية بارعة يقول في أولها (١) :

أَنْخِ أَيُّهَا الصَّادِي الشَّدِيدُ ظَاهُوهُ      وَرِدْ مَنَهَلًا أَحَلِّي مِنَ الشَّهْدِ مَاؤُهُ  
وَسَلِّ عِنْدَ بَابِ الْمُصْطَفَى أَيَّ حَاجَةٍ      أَرَدْتَ وَمَا تَهْوَى فَرَحْبُ فِنَاؤُهُ  
ووراء هاتين المدحتين عشرات من المدائح يكفي أن نشير إليها ، ولشاعر متأخر يسمى  
عبد العزيز الزمزمي المكي ديوان مديح في الرسول والصحابه .

وكثر بجانب ذلك الغزل الصوفي في مكة والمدينة ، من مثل قول أبي إسحق المكي  
المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة (٢) :

مُعَدَّبَتِي كَمْ ذَا الصُّدُودُ إِلَى مَتَى      مَضَى عُمْرِي وَالْوَصْلُ مِنْكَ أَرُومُ  
فَجُودِي وَرِقِّي أَوْ فَجُورِي وَعَدْبِي      فَمَا الْقَلْبُ إِلَّا فِي هَوَاكَ مُقِيمُ  
وفي كتابي سلافة العصر ونفحة الريحانة لشعراء مكة والمدينة في القرن الحادي عشر  
المهجري مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة (٣) .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبي بكر العيذي ابتدأها بوصف غرام  
له بالحجاز ليس يدفعه ، وينقاد له قلبه ويتبعه ، ويأخذ في وصف مكة ويذكر مناسك  
الحج منسكا منسكا ، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله (٤) :

وَفِي رُبِّي يَثْرِبُ غَايَاتُ كُلِّ هَوَى      يَجِلُّ عَنِ مَوْقِعِ الْأَشْوَاقِ مَوْقِعُهُ  
حَيْثُ النَّبُوَّةُ مَضْرُوبٌ سُرَادِقُهَا      وَالْفَضْلُ شَامِخٌ طَوْدِ الْفَخْرِ أَفْرَعُهُ  
وَحَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُصْطَفَى شَرَفًا      مُحَمَّدٌ بَاهِرُ الْإِشْرَاقِ مَضْجَعُهُ  
صَلَى الْإِلَهَ عَلَيْهِ مَا تَكَرَّرَ بِالصِّدِّ      لَإِلَهِ قَرَضُ مُصَلٍّ أَوْ تَطْوَعُهُ

(٣) انظر مثلاً سلافة العصر ص ١٤٧ ، ٢٥٤ .

(١) العقد الثمين ١ / ٢٩٥ .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٤ .

(٢) العقد الثمين ٣ / ٢٤٥ .

والقصيدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، حيننا يشمل كل المواضيع هناك ، وكأنما يريد أن يعانقها ، فهي هواه ووجهه وأما كن افتتانه وصبابته . وتكثر في اليمن كما كثرت في مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفي والمديح النبوى ، ومن اشتهر بهما عبد الله <sup>(١)</sup> بن أسعد اليافعى اليمنى نزيل مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بعدن واختلف إلى العلماء فيها ، وحج في سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والانقطاع عن الناس والسياحة في الجبال ، ولزم شيخا صوفيا يسمى الشيخ الطواشى ، فسلكه في الطريق . وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات ، ورحل إلى الشام ، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها في القرافة في مشهد ذى النون المصرى . وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة ، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشى . وألقى عصاه بمكة وتوفى بها سنة ٧٦٨ وله في الصوفية وتراجمهم كما مررنا كتاب «روض الرياحين وحكايات الصالحين» ومن غزله الصوفى قوله <sup>(٢)</sup> :

قَفَا حَدَّثَانِي فَالْفَوَادُ عَلِيلُ عَسَى مِنْهُ يُشْفَى بِالْحَدِيثِ غَلِيلُ  
أَحَادِيثُ نَجْدٍ عَلَّلَانِي بِذِكْرهَا فَقَلْبِي إِلَى نَجْدٍ أَرَاهُ يَمِيلُ  
وَلَا تَدْكُرَانِي الْعَامِرِيَّةُ إِنَّمَا يَوْلَاهُ عَقْلِي ذِكْرُهَا وَيُزِيلُ  
وَلَكِنْ بِذِكْرِي عَرْضًا عِنْدَهَا فَإِنْ تَقُلْ كَيْفَ هُوَ قَوْلًا بِذَلِكَ غَلِيلُ  
فَإِنْ تَعْطِنِي يُشْفَى وَإِنْ تُعْرِضْنِي فِي هَوَاكِ الْمَعْنَى الْمَسْتَهَامُ قَتِيلُ

وهو يصور حبه ووجده وهيامه بليلي العامرية رامزا بها إلى الذات الإلهية دون تغلغل في حلول أو اتحاد أو فناء ، فتصوفه تصوف سنى ، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها ، فهو محب مولاه ، وحسبه أن يصور وله وجهه . وله بجانب هذا الغزل الصوفى مدائح نبوية كثيرة ، من مثل قوله في إحدى مدائحه <sup>(٣)</sup> :

نَبِيٌّ عَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ مَنصِبًا بَدَأَ نُورُهُ مِنْ قَبْلِ نَشْأَةِ آدَمَ  
بِهِ الدَّهْرُ أَضْحَى ضَاحِكًا مَتَسِيمًا عَبَّوسًا عَلَى أَعْدَائِهِ غَيْرَ بِاسْمِ  
عَلَا فَوْقَ كُلِّ الْمُصْطَفَيْنِ مُقْرَبًا بِأَعْلَى مَقَامٍ مَالَهُ مِنْ مُزَاحِمِ

وهو في البيت الأول يستلهم فكرة الحقيقة الحمديدية المعروفة عند الصوفيين وما يتصل بها من فكرة أزلية النور الحمديدى . وابنه عبد الرحمن يحاكيه في الجانبين من شعر التصوف

(١) انظره في العقد الثمين ١٠٤/٥ والنجوم الزاهرة

٩٣/١١ والدرر لابن حجر (طبع دار الكتب الحديثة)

(٢) العقد الثمين ١١١/٥

(٣) العقد الثمين ١١٤/٥ والبيرد الطالع ١/٣٧٨ وتاريخ ثغر عدن



ثم المديح النبوى . ومن شعراء التصوف اليمنيين محمد بن إبراهيم بن الوزير<sup>(١)</sup> ، وله ديوان سماه «مجمع الحقائق والرفائق في ممدوح رب الخلائق» . وقد نشر في القاهرة باسم مدائح إلهية ، وعُنى محمد بن إسماعيل الصنعاني الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسمى الشرح : «فتح الخالق في شرح مجمع الحقائق» . وقد ترجم له الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عُنى بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته ، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م . والديوان جميعه شعر صوفى سنى ، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة في التعبير ، بل يسلك إلى ذلك مسالك العباد النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب الله وطلب العفو منه والغفران ، على شاكلة قوله في التضرع والرجاء والتوكل :

أرجيك إذ كنتَ أهلَ الرِّجَا	وأخشاك إني من الظالمينا
وأسألك العفو إذ كنت قد	علمتُ بجبِّك للسائلينا
وفوّضتُ أمرى بعد الدُّعَا	بحقٍّ إلى أحكم الحاكمينا
إذا شئتَ أعفيتنى من ذنوبى	وسأحت يا أرحمَ الرَّاحمينا
وهذا الذى أنتَ أهلُّ له	وأنتَ تحثُّ به المُحْسِنينا
وأنتَ الذى قلتَ لا تَقْنطوا	حِطَابًا خصّصتَ بهِ المُسرِّفينا

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) . وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية في الديوان ، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوبا . وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مركوم بعضه فوق بعض . وربما كان الذى دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة في شعر التصوف معاصره إسماعيل<sup>(٢)</sup> بن أبى بكر المعروف بالمقرئ الشافعى شيخ الفقهاء فى زَيد وتهامة ، فإنه حين رأى جماعة من صوفية زَيد أوهموا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربى ونفى العيب عن كلامه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء فى الله جل شأنه ومن حلول واتحاد ، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوى بعيد فى اليمن فانصرف الشعراء أو كثير منهم فى عصره - كما يبدو - عن الشعر الصوفى القائم على تصوير

(١) انظر البدر الطالع ٨١ / ٢ وراجع ديوانه «مدائح (٢) انظر فى ترجمته البدر الطالع ١ / ١٤٢ .

إلهية» طبع المطبعة السلفية بالقاهرة .

الحجة الإلهية ، تصويرا ينتهى إلى الإيمان بالاتحاد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المتزج الصوفى الفلسفى .

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير فى الحقب المتأخرة على أنه ينبغي أن نذكر أنه شاع فى اليمن شعر صوفى متجول بأخرة من العصر كان المداحون يغنونه على نقر الطار والطلبل ، وأكثره فى المديح النبوى لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعى ، وسنخصه بكلمة مفردة .

ويكثر المديح النبوى والشعر الصوفى فى حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهما وبزهديات كثيرة ، حتى ليظن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمدح الرسول ﷺ . وبعض غزليات صوفية وأشعار زهدية ، ولأبى بكر العيدروس (١) المتوفى سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ديوان صوفى سماه محجة السالك وحجة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفى ، وكثير منه بالعامية اليمنية ، فهو - كما يسمونه - شعر حُمينى . وهو صوفى سنى وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله :

نعم لو صحَّ تحقيقى شهودى لأشغلنى الشَّهودُ عن المقالِ  
ولوحلَّ اليقينُ صميمَ قلبى لكنت هجرتُ فى المؤلَّى الموالى  
ولو كان الحضورُ نزيلَ صدرى لما بالغيرُ لذَّ لى اتصالى  
وهو يصرح بأنه لم يصل إلى مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن الفناء فى الذات العلية وانفصاله عن وجوده البشرى ، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوى الله . وهو بذلك صوفى سنى ، ويناجى ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا ، ويمدح الرسول ﷺ وهو يعد من كبار الصوفية الحضارمة . ولعمر (٢) باخرمة المتوفى سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م شعر صوفى تكثر فيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدايح النبوية ومن قوله فى أحد توسلاته :

اللهُ يا من لا إلهَ نوَّمُهُ إلا هو انظرُنِي بِعَيْنِ تَفَضُّلِ  
يامنْ هو الله العظيمُ ومن له ال عرشُ العظيمُ ومن عليه توكلِ  
يامن يُغيثُ المستغيثَ بغيثِهِ غوثاه أدركنى عدمتُ تحيلى  
ومن متصوفة حضرموت عبد الله (٣) الحداد العلوى . وقد أنشد له الثقاف أشعارا كثيرة فى التصوف والزهد والمديح النبوى والرجاء والصبر على الشدائد وفى الأشواق والمواعظ وفى

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٠٥ وما بعدها . (٣) نفس المصدر ٢/ ٢٤ .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٣٠ .

المنجاة والاستغاثة بالله ، ومن قوله في استغاثة نبوية :

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا يا عظيمَ الخلق يا بحرَ الصِّفا  
أنتَ بعدَ اللهِ نعمَ المرْتَجَى واللِّجا يا مُجْتَبَى يا مصطفي  
يا ختامَ الرُّسُلِ يا خيرَ الوَرَى يا سَريعَ العَوثِ أدركَ من هَفا

وفي كتاب السقاف ما لا يكاد يحصى من أشعار صوفية وزهدية ونبوية ، وسنخص أحد من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفي العيدروس بكلمة مجملة .

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظنا ما ذكرناه في غير هذا الموضع من أن الشعر الصوفي لم يشع في هذه البيئة لغلبة الخوارج عليها ، إذ المعقول أن يشيع هناك شعر الزهد والتكشف لا شعر التصوف بفرعيه السني والفلسفي . ونفس مدينة عُمان الإمامية حيناً والسنية حيناً آخر لم تعن بالشعر الصوفي الخالص . ونجد لشاعر النبهانيين السنين حكام عُمان أحمد ابن سعيد الستالي الذي ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلى آلائه ، ويحتملها بدعوة حارة إلى الزهد والتكشف . ومن متأخري الشعراء هناك الحبسي وقد ذكرنا أن له ديواناً افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء .

وتتحول إلى البحرين وطبيعي أن تسهم في شعر الزهد ، ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناجيات ربانية ، ومواعظ مؤثرة ، وبعض أشعار صوفية من مثل قول أبي عبد الله محمد بن أبي شَبَابَةَ البحراني (١) :

لعمري لقد ضلّ الدليلُ عن القَصْدِ وما لاح لي برقٌ يدلُّ على نَجْدِ  
فبتُّ بلبيلٍ لا ينامُ ومهجةٌ تقلّب في نارٍ من الهَمِّ والوَجْدِ  
وقلتُ عسى أن أهدى لسيلها بِنَفْحَةِ طيبٍ من عَرارٍ ومن رَنَدِ (٢)  
وكم طامعٍ في حُبِّهم مات غُصَّةً وقد كان يرضى بالمحال من الوَعْدِ

ولابن مشرف الأحسائي الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية أشعار في الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، إذ تُضحكُ وسرعان ما تُبكي ، وما سرورها إلا أضغاث أحلام ، وحرى بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله ، وأن يظل رافعاً له بيديه نصب عينيه ، فكل من عليها فان ، ولن ينفع المرء إلا ما قدمت يداه . وله مدحة نبوية يشيد فيها بالرسول ورسالته الربانية . وحرى بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعي اليمنى وعبد الرحيم بن مصطفي العيدروس الحضرمي .

(١) سلافة العصر ص ٥١٣ . ونفحة الرحانة ٣ / ١٨٩ . (٢) العرار والرند : من أزهار البادية .

## عبد الرحيم البرعى (١)

شاعر صوفي سنيّ مبنى ، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته ، ويقول ابن زبارة : « هو عبد الرحيم بن علي البرعى الهاجرى اليمنى سكن فى النيابتين من جبل برع باليمن ، حيث اشتهر بالعلم والشعر ، وتوفى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م . وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجرى وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثانى عشر الميلادى . والديوان فى جمهوره مقسوم بين تسيحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول ﷺ والاستغاثه به والتوسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته . وهو فى القسم الأول يعبر تعبيراً حاراً عن تعلقه بربه ، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفى بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية فى المحبة الصوفية ونشوته بشهود الجمال الربانى وما يبعث فيه من لوعة ووجد وهيام على نحو ما نجد عند ابن الفارض مثلاً ، إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التخلص من عالمه المادى ليستغرق فى العالم الربانى بل ليُمحى فيه محواً وليفنى فيه فناءً مطلقاً . وكأما فنيت فيه أو مُحيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحس شيئاً إلا الذات العلية وجهاً الذى تفيض أشعته على الوجود .

عبد الرحيم البرعى إذن ليس شاعراً صوفياً بهذا المعنى وإنما بمعنى آخر هو تمجيد الذات العلية دون اتخاذ رموز الحب الصوفى ، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهى وعلم الله الذى وسع كل شىء وقدرته التى تسيطر على كل ذرة فى الكون ، مع حمده على آلائه ، ومع بسط بعض ما جاء فى القرآن من صفاته الربانية ، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل والحض على التوبة والعمل الصالح ، ومن بديع ماله قوله :

قِفْ بالخضوع وناهِ رَبَّكَ يَا هُوَ      إِنْ الْكَرِيمُ يُجِيبُ مِنْ نَادَاهُ  
واقصده منقطعاً إليه فكل مَنْ      يرجوه منقطعاً إليه كفاهُ  
هو أَوْلُ هو آخِرُ هو ظَاهِرُ      هو باطنٌ ليس العيونُ تراهُ  
سَلُّ عنه ذَرَّاتُ الوجودِ فإنها      تدعوه مَعْبُوداً لها رَبَّاهُ

وهو يستخدم كلمة « هو » فى التعبير عن الذات الإلهية ، وهو استعمال مألوف عند

(١) انظر فى البرعى وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان . (طبع دار المعارف) ٥ / ٥٨ وقد أخطأ فى اسمه واسم أبيه فسماه عبد الرحمن بن أحمد وانظر : « فى التصوف الإسلامى »

لنيكلسون (ترجمة غفنى) ص ١٦٥ وشعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ص ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مراراً بالقاهرة .

الصوفية وخاصة في شعر الذكر ، إذ يهتفون : « هو هو » بسكون الواو وكأن كل ما في الوجود يغيب عنهم ما عدا الله ، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تعينه وحده دون سواه مع عرفانهم به وبربوبيته . والقصيدة من أهم قصائد الغناء في اليمن <sup>(١)</sup> . ويستمر البرعى في القصيدة بمثل قوله :

أَبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ مِنْ نُظْفَةِ بَشَرًا سَوِيًّا جَلًّا مَنْ سَوَاهُ  
وَبِنَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ ثُمَّ عَلَا الْجَمِيعَ عُلَاهُ  
وَدَحَا بَسِيطَ الْأَرْضِ فَرَشًا مُثَبَّتًا بِالرَّاسِيَاتِ وَبِالنَّبَاتِ حَلَاهُ <sup>(٢)</sup>  
تَجْرَى الرِّيحُ عَلَى اخْتِلَافِ هُبُوبِهَا عَنْ إِذْنِهِ وَالْفُلُكُ وَالْأَمْوَاهُ  
وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلقه للإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض

وتثبيتها برواسٍ من الجبال وتزينها بنبات بهيج ، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء الفلك في البحر بريح طيبة ، وكل هذا يستمد من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم كما قال جَلًّا شَأْنَهُ : (وسع كرسية السموات والأرض) فقدرته لا تحدُّها حدود . ويختم القصيدة بالتوسل إلى الله برسوله أن يشمل برحمته وكرمه وغفرانه ورعايته ورضاه ، يقول :

يَا إِذَا الْجَلَالَ وَذَا الْجَبَالَ وَذَا الْكَرَّمَ  
يَأْمُنْعَا عَمَّ الْأَنَامِ نَدَاهُ  
أَقْبَلْ تَوَسَّلْنَا بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ  
وَمِنْ لَهُ فَضْلٌ لَدَيْكَ وَجَاهُ  
وَاشْدُدْ عُرَى عَبْدِ الرَّحِيمِ بِرَحْمَةٍ  
إِنْ الْحَوَاثِ قَدْ فَصَّصْنَ عَرَاهُ  
وَأَنْثَلُهُ فِي دُنْيَاهُ كُلِّ كِرَامَةٍ  
وَقِهِ الَّذِي يَخْشَاهُ فِي أُخْرَاهُ  
وَأَذْفَهُ بَرْدَ رِضَاكَ عَنْهُ فَلَمْ يَخِبْ  
مَنْ كَانَ عَيْنِكَ بِالرِّضَا تَرَعَاهُ

وتكثر هذه التوسلات في الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذلل لرب العالمين تذلل النفوس المخلصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرها وعواطفها فلا تستطيع عن تمجيد ربها انصرافا ولا حولا . ويقابل هذا القسم في الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوى ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتولة وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة . ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه ، فيشمله بعفوه ويرعاه في دنياه وأخراه ، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له :

وَاللَّهُ مَا حَمَلَتْ أَنْثَى وَلَا رَضَعَتْ كَمَثَلِ أَحْمَدَ مِنْ قَاصٍ وَلَا دَانِي

(٢) دحا : بسط ووسع . الراسيات : الجبال .

(١) انظر شعر الغناء الصنعاني ص ١٨١ .

مهذبٌ شرفَ اللهُ الوجودَ به وخصَّه بِدلالاتٍ وبرهانٍ ومعجزاتٍ بعدَ الرَّمْلِ لو كُتِبَتْ لم يُخصَّها ماءٌ سِيحانٍ وجيحانٍ محمدٌ سيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَّقَلَيْنِ من والفريقين من عَجْمٍ وعُرْبَانٍ وسيحانٍ وجيحانٍ نهران في آسيا الصغرى . والأبيات عذبة ، ومدائح البرعى للرسول ﷺ من أسلس المدائح النبوية وأخفها وقعاً على الآذان ، بل إنها لتمتع الأسماع حين تُصغى إليها كما تتمتع الألسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية . ومن روائع توسلاته قوله في خواتيم هذه المدحة :

ياسيِّدى يارسولَ اللهُ يا أملى ياموئلى ياملادى يومَ يلقانى  
هَبْنِي بِجاهك ماقدِّمتُ من زَللي جوداً ورجَّحْ بفضلي منك ميزانى  
واسمِّعْ دعائى واكشفْ ما يُساورنى من الخطوبِ ونفْسُ كلِّ أحرانى  
وامنعْ حِماى وأكرمنى وصلِّ نَسبى برحمةٍ وكراماتٍ وغُفرانٍ  
وكل أمله في هذا التوسل برسول الله ﷺ أن يتقبله في ساحته وأن يكون ملاذه وأن يغفر له زلله وعثراته ، وأن يجعله ممن ثقلت موازين حسناته ، حتى يستحق رضوان ربه ونعيمه وفردوسه ، وأن يكشف عنه كل ما يوائبه من الخطوب وينزله ، وأن يدفع عنه كل أحرانه وهمومه ، وأن يحمى حماه . وأن يسبغ عليه كرمه ورحمته وغفرانه . والرسول ﷺ بذلك هو الشفيع المشفع لأفراد أمته ، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز بالجنان ، كما يمنحهم العون في الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم الهموم ، إنه الإنسان الكامل الذى يتقبل الله منه شفاعاته ، وهو كمال في الخلق والشيم لا يزال البرعى يتغنى به وبما أجرى الله على يديه من معجزات ، بل إنه يقول :

كانتْ نَبوئُهُ وآدمُ صورةٌ في الماءِ والطَّينِ المصوَّرِ منها  
وبه وجودُ الكونِ من عَدَمٍ فقد ملأَ الزمانَ تفضُّلاً وتكرُّماً  
ونحس في البيتين إيمانه بالحقيقة الحمادية التى تغنى بها البوصيرى وغيره ، إذ يستلهمون الأثر المشهور : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من خلق آدم ، وإن الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرعى في البيت الثانى ، وكأنه مبدأ الحياة ، الذى يسرى في كيان الوجود كله . ويقول فيه مادحاً :

من نور ذى العرش معناه وصورتهُ ومنشأُ النورِ من نورٍ يحسِّسه  
فهو من نور الله ، وكل نور في الوجود ناشئ من نوره ، فنوره يشاهد في كل نور . ويردد البرعى دائماً فضائل الرسول المثالية الرفيعة . وله مخمسان بديعان في وصف تلك

الفضائل ، استهل أولها بقوله :

بمحمّدٍ خَطَرَ الحامِدِ يَعْظُمُ وَعُقُودُ تيجانِ العقودِ تنظّمُ  
وله الشفاعةُ والمقامُ الأعظمُ يومَ القلوبِ لدى الحناجرِ كُظْمُ  
فبحقّه صلّوا عليه وسلّموا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تالين ، وبذلك جعل الخمس صالحا لأن ينشده  
مشد وترد عليه جماعة بالشرط الخامس . وعلى شاكلة هذا الخمس مخمسه الثاني ، وقد  
جعل الشطر المكرر فيه : « صلوا عليه وسلّموا تسليما » . ونبوياته بحق رائعة وقد شُغف بها  
المغنون الجوّالون في اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطّارات أزمنة متطاولة .



### عبد الرحمن العيّدروس<sup>(١)</sup>

حَضْرَمِيٌّ من بيت علم وفضل ، ولد بمدينة تريم في سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م ، وبها  
نشأ في رعاية أبيه وجده فحفظ القرآن الكريم وشدأ العربية ، وتفقه على الشيخ  
عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه . وسافر مع أبيه إلى الهند ، وكثرت رحلاته بعد ذلك ،  
فقد عاد منها ، بعد أن تزوّد من علمائها زاداً حسناً ، وذهب إلى مكة للحج وأخذ عن  
شيوخ الحجاز ، وزار مصر سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م وعاد إلى مكة وسكن الطائف ، ثم  
زار مصر سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ م فكث بها عاما واحداً وعاد إلى الطائف ، ثم رأى أخيراً  
أن يستوطن مصر فترها بأسرته سنة ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م وفي أثناء استيظانه مصر زار دمشق  
سنة ١١٨٢ وزار الآستانة سنة ١١٩١ وعاد إلى مصر وتوفى بها سنة ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م  
ودُفن في مقام العتريس إلى جانب مسجد السيدة زينب . وكانت قد طارت شهرته  
بالصلاح والنسك في حياته . وتعلق به شيوخ الطرق الصوفية . وله مصنفات كثيرة ، تغلب  
عليه فيها النزعة الصوفية ، ويذكرون له شرحا على بيتي ابن العربي :

إنما الكونُ خيالٌ وهو حقٌّ في الحقيقة  
كلُّ مَنْ يفهم هذا حازَ أسرارَ الطريقة

وهو لا يغلو غلوه في التصوف الفلسفي ، فليس في أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات  
العلية ولا شعور بأن فيه قبسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينعم برؤية النور الرباني . وحقا نجد

(١) انظر في عبد الرحمن العيّدروس وشعره تاريخ  
الجبرق ٢٧/٢ وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الشعراء  
الغناء الصنعاني ص ١٩١ وديوانه تميم الأسفار مطبوع  
بالقاهرة .  
الحضرميين ٢/١٨٩ ونشر العرف لزبارة ٢/٥٠ وشعر

عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْوِ والصَّحْوِ ، ولكن لا تظن أنه يستغرق في ذلك استغراق ابن عربي ، أو حتى استغراق ابن الفارض ، كأنه يلمُّ بظاهر من ذلك دون توغل فيه ، كما يلم بالخمر ونشوتها على طريقة الصوفيين ، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله :

أَنْعَشْتَنِي خَمْرَةَ لِلغَيْرِ تَمَحَّوْ      فَاغْتَلَالِي بِالهُوِي الْقُدْسِي شَطْحُ  
عَاذَلِي كُنْ عَاذِرِي أَوْ عَاذَلِي      أَنَا مِنْ خَمَرِ التَّجَلِّي لَسْتُ أَصْحُو  
أَنَا فَاِنْ وَالْفَنَّا عَيْنُ الْبِقَا      فِي رَشَاءٍ مِنْ دُونِهِ سَيْفٌ وَرُمَحُ  
هَامَ شَخْصُ الْقَلْبِ مِنْ خَمَرِ الْفَنَّا      فَهَوَ مِنْ تَلْكَ الْحُمِيَّا لَيْسَ يَصْحُو  
أَنَا فِي مَحْوٍ وَصَحْوٍ دَائِمًا      حَيْثُ لِي فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ سَبْحُ

وكل ما يمكن أن يقال عن تصوفه هو أن فكرة الفناء الصوفية وما يتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول في المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه ، وأيضاً فكرة الصحو وأنه يظل له القرب والشهود للذات العلية دون سكر ، كل ذلك نجد ظاهراً منه عند العيدروس ، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقاً في لذة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة ، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها اليمنيون ويتغنون بها إلى اليوم يستهلها بقوله :

شَرَحَ الدَّمْعُ عَلَى مَتْنِ الْخُدُودِ      مَا الْأَقِيهِ مِنَ الطَّبِي الشُّرُودِ  
يَالْقَوْمِي مِنْ غَزَالٍ صَادِنِي      وَعَجِيبُ رَشَاءُ صَادِ الْأَسُودِ  
أَهَيْفُ الْقَامَةِ فِي وَجَّتِيهِ      جَنَّةُ الْخُلْدِ وَنِيرَانُ الْخُلُودِ  
غُضْنُ حُسْنٍ قَدْ سَقَى مَاءَ الْبَهَا      مُثْمَرًا - أَضْحَى - بِرِمَّانِ التُّهُودِ

وواضح أن هذا الغزل الإلهي لا يفترق في شيء عن غزل الحب الإنساني ، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل في فتاة حقيقية صَبَتْ قلب العيدروس بجبالها المغرى . وكأنى به يتأثر في هذا الغزل المادى بديوان ابن عربي : «ترجمان الأشواق» الذي يكتظ بالوصف الحسى للجبال محبوبته ، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلاً إنسانياً ، وهو إنما يرمز به إلى حبه الرباني . ويمضي العيدروس منشداً :

أَيُّهَا الطَّبِي التُّفَيْتْ نَحْوِ الْحَشَا      أَيُّهَا الشَّمْسُ أَزَلْ نَارَ الصَّدُودِ  
عَطْفَةً بِالْقَدِّ مِنْ هَذَا الْجَفَا      وَأَيُّكَ الْعَطْفُ مِنْ شَأْنِ الْقُدُودِ  
كَمْ أَرَى بَارِقَ وَعَدِيدٍ أَوْمَضَا      قَدْ مَضَى وَقْتُ الْمَعْنَى فِي وَعُودِ  
وَصَلَاةُ اللَّهِ تَغْشَى الْمَصْطَفِي      مَا تَلَالَا الْبَرْقُ مِنْ أَقْصَى التُّجُودِ

وهو يتمنى لفته من الطبي الشرود أو قبسا من الشمس الهادية يطفئ غليل ظمته ،



ويأمل في عطفة نحوه أو في وصل طالما رأى بُروق وعوده ، وكأنه دائماً في هجر وفراق ومطلّ وبيّن وإنه ليتوسل إلى ربه ضارعاً أن يمنحه القرب والشهود ، وإنه ليشكو دائماً من الصّنّ بالوصال ، يقول :

أُتَسألُ عن عَيْني لما هِيَ تَدَمَعُ      وَجِسمي نَحيلُ والحِشأُ يَتَقَطَعُ  
وَلُوني كَثيبُ والفؤادُ بِحَسرةٍ      ومالي سَهيرَ الطَّرْفِ والقلبُ مَوْجِعُ  
فما نالني هذا سوى مِنْ فراقِ مَنْ      له التُّورُ يَبْدُو في البقاعِ وَيَلْمَعُ

فهو دائم البكاء ، حتى لقد شحب جسمه وضؤل ، وحتى لقد تقطعت أحشائه واکتأب لونه والتاع فؤاده ، ودائماً مسهد الطرف ساهره ، وقلبه مكتظ بالأوجاع واللوعات لهجر محبوبه الذي يملأ العالم بنوره ، وهو ما يني يذكره ويرسل دموعه ، لعل محبوبه - كما يقول - يعطف عليه ويخلصه من عذاب الهجر وأوصابه ومن قوله :

أَلْهَيْتِي      عن جِهاتي      يا راحتي      يا حياتي  
ما ضَرَّ يا مَنْ سَباني      لَوِجِدْتَ لي      بالثِقَاتِ  
بالله      يا مَنْ رَماني      بِأَسْهُمِ      صائِبَاتِ  
عَطْفًا على الصَّبِّ عَطْفًا      من قَبْلِ كَأْسِ الماتِ

وهو يصرح في الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا بما حول مكانه ، وكأنما غاب عن وجوده ، وتأهب لكي يتحدث لنا عن وجوده الإنساني وفنائه في الوجود الرباني ، وكأنما لم يعد له وجود ذاتي ، أو كأنه يدخل عالم الفناء الصوفي أو عالم الشهود الإلهي ، ولكنه لا يستمر في بيان ذلك ، وكأنه استعار الشطر من ابن عربي وأمثاله ، ولم يفكر في الشهود ولا في الفناء . ولا نريد أن ننفي بذلك عنه صفة التصوف ، فهو متصوف سني ، لا يتعمق في تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن وجوده ومن كيانه المادى . وله يائية يعارض بها يائية ابن الفارض يقول في فواتحها :  
صاحي عَرَجُ على نَجْدٍ وَحَيُّ      أهلَ حَيِّ لم يكن يحكيه حَيُّ  
وهو إنما يعارض بيائته ظاهرا من يائية ابن الفارض ، فليس عند وجده ولا التباعه ولا مجاهداته في الوصول إلى مرتبة الشهود ولا شغفه بالجمال المطلق وفيوضاته الإلهية . لم يكن العيدروس يتعمق في تصوفه هذا التعمق ، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ودون وله جارف .

# الفصل الخامس

## النثر وأنواعه

١

### تنوع الكتابة

كانت نجد أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والحبر وغيرهما من وسائلها المادية ، وأغلب الظن أن الإماراتين اللتين تأسستا في شرقها لأوائل هذا العصر : إمارة بني مزيد في الحِجْلَه وبني عَقِيل في الموصل كانتا تعنيان بالكتابة ، فابن خلكان يذكر أن علي بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدي أمير من أمراء بني مزيد في شببته <sup>(١)</sup> ونظن أنه كان لأمرء بني عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بني مزيد . غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعاً ، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابي فيها كان محدوداً . ومرّ بنا في غير هذا الموضوع أنه نشأت في الشمال الغربي للجزيرة إمارات بدوية لآل فضل وآل مرا وآل علي ، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك ، وفي صبح الأعشى مراسم كثيرة صادرة من مصر بإمرة أمراءهم ، وكذلك لآل مهدي في البلقاء ، غير أننا لا نعثر برّد من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين ، وبالمثل لا نجد كتابات أو كتباً موجهة من أواسط نجد إلى خارجها ، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بدواة من أطرافها الشرقية والغربية ، ولعل ذلك ما جعل القلقشندى يقول : «إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة ، وإنما يكتبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يعول <sup>(٢)</sup> » . وهو قول دقيق وصحيح .

وإذا تركنا نجداً إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كتاباً للإنشاء ، أو بعبارة أدق يكتبوا ما يريدون من رسائل في مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق .

(٢) صبح الأعشى ٧٦/٨ .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٩١/٢ .

وفي صبح الأعشى عهد في صورة يمين لأبي نُمَيٍّْ أمير مكة حلف بها لقلاوون ، وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين المالِك في هذا التنصيب <sup>(١)</sup> ، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزهم ، فقد كانتا تتبعان مصر منذ عصر الأيوبيين ، بل في حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين . وكانت مصر في أثناء ذلك هي التي تعيّن أصحاب الوظائف الكبرى في البلديتين ، وخاصة في القضاء وفي مشيخة الحرم النبوي ، وفي صبح الأعشى نماذج مختلفة لهذا التعيين ، تُذكر فيها واجبات الوظيفة <sup>(٢)</sup> . ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء في مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا في كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وتلقانا فيه خُطْبَ زواج طريفة إذ ظلوا يحتفظون في عَقْد الزواج بهذا التقليد القديم ، وهي خطبة منمقة يشيع فيها السجع ، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة ، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله في خطبة زواج : « إن الزواج جنة تُتَّقَى بها الفتنة ، وجنةٌ يُتَلَى على متفيسئٍ ظلّالها : ( اسْكُنْ أنتَ وزوجك الجنة ) تُثْمِر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد ، وتطلع زينة الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسه ثمرة الفؤاد ، وتُسْفِر ليلته عن طرّة صبح تحت أذيال الدُّجَى ، ويتبلّج يومه عن شمس توارى بحجاب الحِجَال <sup>(٣)</sup> والحِجَا ، وهو الغرض الذي لا يخطئ قاصده الإصابة ، والعرض الذي لا يقوم إلا بجوهر أفخر عصابة ، والحصن الذي يُعْتَصَمُ به عن الوقوع في حمى الحرج ، ويُحْتَمَى به من مصارع الرجال التي هي ما بين معترك الأحداق والمهج ، والوسيلة التي يتوسّل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه ، ويُثْشِده بليل الأفرح هنيئاً لمن أسمى سمير حبيبه ، وناهيك في فضله ما ورد فيه من الآيات ، والأحاديث الثابتة في صحيح الروايات <sup>(٤)</sup> » والتنميق في الخطبة واضح .

ومرّبنا في الحديث عن الثقافة كيف تحول الحرمان : المكي والمدني إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف في البلديتين المقدستين ولكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامي . وشاعت منذ القرن الخامس الهجري كتابة الإجازات العلمية ، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمروياته ومصنفاته ، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه ، ويكتب في صدر الإجازة تنويها بالعلم وفضله وبالتمليذ ونبأته ، ثم يسرد المؤلفات والمرويات . ويجانب هذه الإجازات أخذ يتكاثر تقرير

(١) صبح الأعشى ١٢ / ٢٣٣ ، ٢٤٢ وما بعدها . البيت . الحجا : العقل .

(٢) صبح الأعشى ١٢ / ٢٤٠ ، ٢٥٨ وما بعدها . (٤) سلافة العصر ص ١٤٢ .

(٣) الحجال : ستر أو أستر تضرب للعروس في جوف

الكتب المصنفة ، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين . وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين طائفة من التقریظات لمصنفاته في ترجمته بالجزء الأول من كتابه<sup>(١)</sup> ، وهي تصور مدى ما كان يأخذ به المقرطون لكتاب أنفسهم بتنسيق كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جمال في الجرس والأداء .

ولعل قطراً في الجزيرة العربية لم تزد به الكتابة كما ازدهرت في اليمن ، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩ - ٥٣٢هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديواناً للإنشاء ، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن علي بن القيم الشاعر النابه الذي ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر ، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية . وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمداني كتابه «الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن» بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين ، وهي رسائل نفيسة لا لما تصور من شؤون السياسة فحسب ، بل أيضاً لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها في اليمن منذ القرن الخامس الهجري . وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح في زيد ، ونجد بين أمرائها أديبا نابها هو جياش بن نجاح صاحب كتاب المفيد في أخبار زيد الذي اختصره عمارة اليمنى ، وكان يضم شعراء زيد وأدباءها ، وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها . وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد بعيد من الكلفة وإنه رأى منه عدة مجلدات ، ويقول إنه عمل ممتع ، مقدماً بذلك لترجمته في المختصر . ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبي عقامة كما مر بنا ، وكان شاعراً قتله جياش بن نجاح ، ويقول الجندی عنه «إليه تنسب الخطب العقامية ، وله شعر فائق ، وترسل رائع»<sup>(٢)</sup> . وبالمثل بعث بنوزر بعن ٤٧٦ - ٥٦٩هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبي بكر العيذى ، وفيه يقول عمارة اليمنى في صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد : «سمعت الشيخ الموقر أبا الخلال في الأيام الفاترية (أيام الخليفة الفاتر الفاطمي) والقاضي الجليس أبا المعالي عبد العزيز ، وهما يومئذ صاحبا ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منها إلا من يقول : لم يصل إلينا من الآفاق ، ولا رأينا لكاتب الشام والعراق ، أحسن من مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبي العتيق أبي بكر بن محمد العيذى بعدن فإن له بلاغة تشهد عدوبة مطبوعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل معانيها على فضل معانيها» وكان شاعراً

(٢) انظر الجندی في السلوك - النكت ٦٣٢ .

(١) العقد الثمين ١/٣٤٧ وما بعدها .

بارعاً ، ومربنا بعض شعره . ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذة كاتباً له ، فامتنع . وليس بين أيدينا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش ، ولكن على كل حال فيما قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن . وندخل في عهد جديد هو عهد الأيوبيين ، وسرعان ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ) وتُعنى بالكتابة الديوانية ، ويحفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهدهم وبعض رسائل سياسية ، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين الممالك ، وفي صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسوليين<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الكتابة كانت نشطة في بيئة الأئمة الزيدية ، وفي صبح الأعشى ما يدل على كثرة الكتابة بينهم وبين سلاطين الممالك ، إذ ينص على رسم المكاتب إليهم وأنها كانت ، «أدام الله تعالى - أو ضاعف الله تعالى - نعمة - أو جلال - الجانب الكريم العالی السيدى الإمامى الشريفى النسيبى الحسنى العلامى سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوى ، فخر النسب العلوى ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلياء ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، ذخر المسلمين ، منجد الملوك والسلاطين ، ولا زال زمانه مربعاً ، وغيله مُسبِعاً ، وقراه مُشْبِعاً ، وكرمه لفيض نداءه منبعاً ، وهُداه حيث أم بالصفوف متبعاً<sup>(٢)</sup> . . .» وفي ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع .

وطبيعى أن تكثر الإجازات في اليمن كما كثرت في المدينتين المقدستين بالحجاز . وتكثر تقارير الكتب ، من مثل تقرير القاضى شرف الدين إسماعيل بن أبى بكر المعروف بالمقرئ اليمنى لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول : «وقفت على هذا التأليف التالى فوائده العبر ، والآتى بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر ، فله در مصنفه من إمام حافظ ، وبجر بجواهر العلوم لافظ ، ولا حق ، برز على السابق ، وبذل في علو مرتبة الأعلام الحفاظ موافق ، بلغة الله غاية الأمانة ، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية» .

وطبيعى أن تكثر المواعظ باليمن ، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله في الوعظ كتاب نحى فيه نحو ابن الجوزى ، وله في التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة<sup>(٣)</sup> . وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر

(١) انظر صبح الأعشى ٧/٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، (٢) صبح الأعشى ٧/٣٣٤

(٣) العقود اللؤلؤية ١/١٦٠ - ١٦٢ . ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

بكتابات أدبية فكهة سنعتقد لها حديثاً مستقلاً في غير هذا الموضع .

وكل ما لقيناه في اليمن من نشاط كتابي نلتقى به في حضرموت . فهناك الرسائل السياسية والشخصية وهناك الإجازات ، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه السيد عيدروس بن عمر ، وقد جاء في صدرها : « الحمد لله جامع الظواهر والسرائر ، على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر ، حتى ترتفع عنها الستائر ، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار البصائر ، وتقبل بكليتها على من هو الباطن والظاهر ، لترتقى بعين عنايته ورعايته إلى تلك الحظائر ، ولم تزل تعتل بعمارة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر ، وتتجلى وراء ما هو آفل وغابر ، حتى تشاهد الجبال المطلق بقيومية من هو فوق عباده قاهر ، حتى يأتيها النداء : إن هذا جمال لا أول له ولا آخر <sup>(١)</sup> » . ويظل طويلاً في هذه النعمة الروحية الصوفية ، وكأنه يريد أن يصل تلميذه مع أخذه عنه لمصنفاته بنور الذات العلية المطلق الذي تعم الوجود أضواؤه .

وظلت عُمان تحتفظ بنشاط كتابي طوال العصر ، وقد عُنى نور الدين السالمى بعرضه في كتابه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » . وفي طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد ابن سعيد الإباضي الذي دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على ملك بني مكرم الشيعة الإماميين ولاية البويهيين هناك . والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو يستهله على هذا النمط : « إني أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء عما حرم الله عليك في زواجه ، والعمل بما أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، ونفعلك أو ضرك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتكف [ الناس ] عن فعله ، وتتحذر من خدائع الشيطان ، ومن يؤازره على ذلك من الأعوان <sup>(٢)</sup> » . وواضح أن الكتاب يحفل بالسجع . ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضي راشد بن علي المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة ، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السري يكتب له شروطاً بها أسجع <sup>(٣)</sup> . ويخلفه محمد بن أبي غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتاباً مسجوعاً من مثل قولهم : « الله تعالى يحرس علينا شريف بقائه ، ويزيد في رفعة وارتقائه ، ويديم عليه ما اتسع من نعمائه ، وينعم علينا عاجلاً بكرم لقائه <sup>(٤)</sup> » : ويتولى بعده موسى بن أبي المعالي بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتاباً إلى بعض من تحدثهم أنفسهم بالخروج وهو كتاب

(٣) تحفة الأعيان ١ / ٢٧٥ .

(٤) تحفة الأعيان ١ / ٢٩٢ .

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٥٤ .

(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٦٤ وما بعدها .

مسجوع<sup>(١)</sup>. وقلما يورد نور الدين السالمى فى كتابه «تحفة الأعيان» شيئاً من رسائل بنى مكرم الشيعة الإماميين الذين حكموا مدينة عمان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ وكذلك قلما يورد شيئاً من رسائل بنى نهبان السنين الذين حكموها من القرن السادس الهجرى إلى القرن التاسع . حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم ، وهى رسائل منمقة إذ يغلب عليها السجع والترصيع . ويشيع هذا الترصيع والسجع فى رسائل موجهة من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم فى شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعمو عند المقدرة . وليس بين أيدينا نشاط كتابى كثير لأهل البحرين ، غير أننا نجد فى صبح الأعشى فى رسم المكاتبه إليهم فصلاً<sup>(٢)</sup> طريفاً مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة فى عهد المماليك . ودون ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» بعض رسائل شخصية لأدبائها . وفى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى . وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها تصنع شديد .

## ٢

## رسائل ديوانية

مرّ بنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة فى العصرين الأيوبي والمملوكى بل لا شك فى أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك فى العصر الفاطمى ، غير أن ما بقى من هذه الرسائل فى المصادر التاريخية وغيرها قليل جداً من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبى نُمى أمير مكة سنة ٦٧٥ يزجره عن الظلم<sup>(٣)</sup> :  
« من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبى نُمى محمد بن أبى سعد :  
أما بعد فإن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أو حش . وقد بلغنى عنك أيها السيد : أنك آويت الحرم ، واستحللت دم المحرم ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، فإن لم تقف عند حدك ، وإلا أغمدنا فىك سيف جدك ، والسلام . فكتب إليه أبو نُمى :  
« من محمد بن أبى سعد إلى بيبرس سلطان مصر : أما بعد فإن المملوك معترف بذنبه ،

(٣) العقد الثمين ١ / ٤٦٥ .

(١) التحفة ١ / ٢٩٥ .

(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٧٠ .

تائب إلى ربه ، فإن تأخذ فيدك الأقوى ، وإن تَعَفُّ فهو أقرب للتقوى . والسلام .  
 وكان سلاطين المالِك حين يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعوجاجا في حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والأيمان أن يسير مسيرة قويمة ملتزما فيها بما عاهدهم عليه من شأن رعية بلدته وشأن الحجيج ، مع ذكرهم في الخطبة ، ومع ضرب السكة أو النقود بأسمائهم ، وفيما يلي عهد أبي نُمَيْ للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينفذ السياسة المرسومة له وهو يمضى على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

«أخلصت يقينى وأصفيت طويتى وساويت بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما . . وإنى عدو لمن عاداهم ، صديق لمن صادقهم ، حرب لمن حاربهم ، سلّم لمن سالمهم . . وإنى ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان وولده فى أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرفة فى كل موسم وأن لا يتقدم علمه علم غيره ، وإنى أسبّل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين اللاتذنين بحرمه والحاجّين والواقفين ، وإنى أجتهد فى حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ، وإنى أوّمنهم فى شربهم ، وأعذب لهم مناهل شربهم ، وأنى أؤتمر - والله - بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى ، وأفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى . وإنى - والله - أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب ، وأكون لداعى أمره أول سميع مجيب .»

وواضح أن أبانمى لم يستخدم فى هذا العهد السجع كما استخدمه فى الخطاب الذى رد به على بيبرس ، وكأنه عنى هنا بالمضمون أكثر من عنائته بالأسلوب ، ولذلك لم يستخدم السجع ، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعهد ، أما العهد فمن صنعه هو وإملائه ، ولذلك جاء خاليا من التنميق .

والرسائل الديوانية فى اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية ، ومن أبلغها بياناً رسالة الحسين ابن على بن القيم كاتب الإنشاء للدولة الصليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن على الصليحي سنة ٤٦٠ وهى موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يخبره فيها باغتيال سعيد بن نجاح وأخيه جياش لعلى بن محمد الصليحي فى طريقه إلى الحج فى ذى القعدة لسنة ٤٥٩ وما كان من استردادهما لزيد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه ، مما مكنته أن ينقض على آل نجاح فى السنة التالية ، ويسحق جموعهم . ويفتك بسعيد ويهرب أخوه جياش إلى الهند ، وتدخل زيد فى طاعته . ويصور ابن القيم فى الرسالة انتصارات الملك



المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محققاً . والرسالة تفتتح بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله ، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغمسه أو صبغه بالعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ونحن نسوق منها أطرافاً تصور روعتها البيانية (١) :

« المملوك يناجى حضرة الإمامة ، ويناهى سُدَّة الخِلافة ، جعل الله عزهما باقيا على الأيام ، ومجدهما غير منقطع الدوام ، عالماً أنه يلبسُ بذلك شرف الدارين ، ويستولى به على الحُسَيْنين ، شامئاً (متطلعاً) من مولاه بَرَقاً مُضِيئاً ، ومستظلاً من سحب الإكرام وَدَقاً (غيثاً) رَوِيّاً ، ومتوئناً من رُتَب الاختصاص مكاناً عَلِيّاً ، ومتعرضاً منزلةً من أدناه وقرّبه نَجِيّاً . إنه قد كان قدّم خدمة يطالع بها بأنباء جزيرته ، وينهى أخبار دعوته ، وما جرى عليه أمرها من الفتن ، ودارت فيه من دوائر المحن ، التي ملأت قلوب أعداء الدين سروراً ، وازداد بها الكافر طغياناً وكفوراً ، وأظهر كل منافق ما كان من الغدر كما منا مستورا ، وقال الذين في قلوبهم مرض (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . . . وجمّد عزم المملوك (الملك المكرم) بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأبحاش قتلة أبيه) إلى مدينة زبيد . . . فوردها في التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق النذير إلى العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زبيد) وألفاه المملوك صافاً على أحد أبواب المدينة ، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان في أنفه ، وأراه الحياة في حتفه ، قد عصب برأسه من الكبر تاجاً ظن أن الله لا يستطيع له نزعاً ، وتجلّبب من الجبروت بثوب لا يروم له ما عاش خلعا . . . (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جمعا) . فدكف إليه المملوك في جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصاراً ، واتخذوا الصبر شعاراً ، والله - عز وجل - جارُّ المتمسكين بسبب الله الذي لا ينقطع من تمسك بسببه ، جائدين بأنفسهم في ابتغاء رضاه وطلبه ، وخوف سخطه وغضبه . . . فلما تراءى الجمعان وتدانى الفريقان ، ماجت الصفوف ، وسالت الزحوف ، ولعت السيوف ، ووكفت (سالت) الختوف ، وترزلت الأقدام ، وصال الحجام ، واغبرّ القتام (الغبار) وتداعت الأبطال ، وتدانت الآجال ، واكتأبت الرجال ، وانقطعت الآمال . . . وشخصت الأبصار ، والتحمت الشُّفار (السيوف) وطُلبت الأوتار ، وأعوز الفرار . . . وطفقت سيوف الحق تلتهمهم ، وأيدى المؤمنين تقتسمهم ، فتركوهم بين ضريح بدمه ، وهاو ليديه وفه ، وشاردٍ لم ينجح سعى قدمه ، ونادم لم يتفجع بدمه . . . ومعفور نطيح ، ومطعون جريح ، قد عادوا فرصةً لكل واثب ، وأكلة لكل ناهب ، مصرعين

(١) انظر الرسالة في كتاب «الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن» للدكتور حسين الهمداني ص ٣٠٨ .

مصارع أمثالهم الكافرين ، وواردين موارد أعمالهم خاسرين ، قد قطع الله أوصالهم ، وبتَّ من حبله حبالهم .

والرسالة طويلة وابن القم يلتزم فيها السجع ، وواضح أنه يعني باصطفاء ألفاظه ، والملاءمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجرس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبواً ولا نشازاً في عبارة من عباراته . ومما يصور عنايته بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التي يقتبسها تلتقى فواصلها مع قوافيه التقاء طبعياً ، وهو التقاء كان يقصد إليه قصداً حتى يلتحم جرس النغم في الرسالة التحاماً تاماً .

وكأن ابن القم كان استهلالاً قوياً لأن تأخذ اليمن منذ عصره في العناية برسائلها الديوانية عناية يعم فيها غير قليل من التنيق ورصف السجع وتديبجه . ويلاحظ ذلك بوضوح في الرسائل والعهود المكتوبة في الدولة الرسولية ، على نحو ما يلاحظ في العهد الذي فوّض فيه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر ، وهو يستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء<sup>(١)</sup> : «أما بعد فقد ملكنا عليكم من لا تؤثر فيه - والله - داعي التقريب ، على باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص ، على آجل التخصيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار ، على مداومة البلوى والاختبار . وهو سليلنا الخطير ، وشهابنا المنير ، وذخيرتنا على المراد ، وبصيرنا الذي نرجو به صلاح البلاد والعباد ، ونؤمل فيه من الله الفوز والنجاة في المعاد ، وقد رسمنا له من وجوب الذب والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده . والمسئول في إعانته من لا عون إلا من عنده . ولن نعرفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله إلا بما قد بدا للعيان ، وزكا مع الامتحان ، وفشا من قبلكم في كل لسان » وواضح ما في العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلساً سلاسة الماء النير ، وواضح أيضاً ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته ، فكلمة «داعي التقريب» توضع على وزنها كلمة «باعث التجريب» وكلمة «عاجل التخصيص» تليها موازنة لها كلمة «آجل التخصيص» وكلمة «ملازمة الهوى والإيثار» توازنها كلمة «مداومة البلوى والاختبار» وكل ذلك إرضاء لأذن السامع . ومثله محاولة الإتيان بالمترادفات في نهاية السجعة مثل «الذب والحماية» و«الرفق والرعاية» و«حميد خصاله» و«سديد فعاله» مما يدل بوضوح على الرغبة في إكتمال نغم الكلام .

وتلقانا في عهد السلطان الأشرف وربما كان في عهد أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢٠ هـ)

رسالة موجهة من الأمير الزيدى محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكى . الناصر محمد بن قلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسولى الذى طالت بينهما الحروب ، معددا قبائحہ ، مؤملاً أن يسعفه بجيش لإجلائه عن دياره ، وإجرائه مجرى الذين ظلموا فى تعجيل دماره . وقال فى رسالته : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيَّدة قام معها ، وقاد الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه ، وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه ، ثم قال : « وكتبت إلى السلطان مؤذناً بالإجابة ، مؤدياً إليه ما يقتضى إعجابه . . ولا رغبة لنا فى السلب ، وأن النصرة تكون لله خالصةً وله كل البلاد لا قدر ما طلب » .

واقطف القلقشندى قطعة من الرسالة مسجوعة (١) ، وكان السجع أصبح منذ ابن القم صفة علامة فى الرسائل والعهود اليمنية . ونمضى إلى زمن السلطان الرسولى الأشراف إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣ هـ) فيرسل السلطان المملوكى برقوق إليه برسالة معها هدية ، يحملها القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من عرُوض التجارة ، ويبادلہ الأشراف إسماعيل هدية بهدية ، وكتاباً بكتاب أو رسالة برسالة . ويطلب فى رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يفد على مصر من رعيته اليمنية تاجراً وغير تاجر ، وأن يأذن له فى حج البيت الحرام ، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام . ويشكو من ارتفاع النفقات فى مكة على حاج اليمن لعله يتوسط لدى أميرها كى يخفضها ، لأنه تابعه . وإن كان لم يصرح بذلك . ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها الأشراف إسماعيل عن هديته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته ، يقول (٢) :

« لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهرى ، أعزَّ الله أنصاره ، بمقدار همته الشريفة العالية ، ورتبته المنيفة السامية ، لاستصغرت الأفلاك الدائرة ، والشهب السائرة ، واستقلَّت السبعة الأقاليم تحفة ، والأرض وما أفلته طُرقة ، ولم نرض أن نبعث إليه الأنام ممالك وخولا (عبيدا) ، ونجى إليه ثمرات كل شئ قبلاً ، ولورام محب المقام (يقصد نفسه) هذه القضية لقصر عنها حوُّه ، ولم يصل إليها طوُّه (قدرته) ولكنه يرجع إلى المشهور ، بين الجمهور ، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد ، وليس على المستمر على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلص فى الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد » .

وللسلابة كلها من هذا الأسلوب الذى يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع فى عباراته ، حتى يروق الأسماع ، بل حتى يبرها ، بحسن تنسيقه وجمال رصفه ونسجه . وكان كتاب الإنشاء فى كل دولة عربية يتبارون فى تلك الحقب بما يصوغون من هذا الأسلوب

الموسيقى ، حتى تلد ألفاظه الألسنة ، وحتى تقع موقعا حسنا من القارئ لها والسامعين .  
ومرنا في عُمان أن الأئمة الإباضيين كانوا يوجهون بكتب إلى عالمهم ، يأمرونهم فيها  
بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسيروا في الرعية سيرة عادلة ، وكانت الرعية كثيراً  
ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح . ومضوا على ذلك طويلاً حتى  
إذا كنا في القرن الحادى عشر الهجرى وجدنا الإمام الإباضى ناصر بن مرشد (١٠٢٤ -  
١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهودا كثيرة يشيع فيها السجع من مثل قوله لأحد عماله في  
«الباطنة»<sup>(١)</sup> :

«إني قد وليتكَ على قرية لوى من الباطنة . . على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف ،  
وتنهاهم عن المنكر المحوف ، وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين ، وتُحَيِّ فيهم سنة النبي  
الأمين ، وآثار الأئمة المهتدين ، وسيرة القادة المخلصين ، الذين جعلهم الله منار الهدى ،  
وقادة الناس إلى التقوى ، وأورثهم الكتاب والسنة ، يدعون إلى طريق الجنة . . ولا تحفُ  
في الله لومة لأثم ، ولا عدلٌ مجرم آثم ، وأن تخلط الشدة باللين ، وأن تخفض جناحك لمن  
اتبعتك من المؤمنين . . فالله ! الله يا أبا الحسن في اكتساب الحسنات ، وإنكار المنكرات ،  
بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجهه الله في الجدِّ والتشمير ، وترك التهاون والتقصير» .  
ولا يطرد السجع دائماً في عهود ناصر بن مرشد ، وحتى في العهد الواحد يستعمله حيناً  
وحيناً لا يستعمله . ويغلب في سجعه وسجع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون  
متكلفاً ، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شيء من الرئث في اختيارها إلا قليلاً ، وكأنهم  
يقبلون ما يفد عليهم عفو الخاطر . وولى سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) ويفتح  
ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستهله بهذه الصورة<sup>(٢)</sup> :

«الحمد لله العزيز عزَّ أن تعوم في بحور صفاته جوارى (سفن) الفكر ، وأن تروم تنظر  
كواكب تكيِّفه بصائر أولى البصر ، أو أن تشاهده بمخارق العيان والنظر ، العالم بديب  
النملة والذر . . الذى (لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات ولا في الأرض) ولا (في  
ظلمات البر والبحر) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر ، أو أن يدرك الأشياء بالسمع  
والخبر ، أو أن تجرى عليه أحداث القضاء والقدر . أحمدته على ما صبَّ برياض قلوبنا من  
سلسال العبر ، وحسَم عنا من أوصاب الكدر . وأشكره على ما حوَّلنا من يانع نعمه وقدر ،  
وسقانا من عصير كرمه وعزِّ وتكبير . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة  
أعدها جنة ليوم المحشر ، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وزر . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

(٢) التحفة ٤٧/٢ .

(١) تحفة الأعيان ٢٦/٢ .

دعا إلى الله وأنذر ، وقاد الناس إلى الخيرات وبشّر ، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكره .

وأكبر الظن أن كاتب هذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه ، بل هو كاتب أديب من الإباضية كان يكتب بين يديه ، بل لقد كان أديباً عالماً ، فهو يصدر في أول العهد عن عقيدة الإباضية التي تحدثنا عنها في الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفي التجسيم عن الله بكل صورة من صورته وتنزيهه تنزيهاً مطلقاً عن الشبه بال مخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كيف أو جهة أو أى صفة من صفات البشر . والكاتب أديب بارع ، فقد التزم في نحو صحيفة كبيرة صدر بها الرسالة قافية الراء ، وطاوعته دون أى عسر أو التواء ، مما يدل على تملكه لناصية الكلام . وهو يعنى بالتنميق في عباراته ، إذ يضيف إليها وشى الجناس والتصاوير والاقتراس من الذكر الحكيم ، على نحو ما يتضح في اقتباسه لقوله جلّ شأنه : ( لا يُعزَّبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض ) وقوله ( في ظلمات البر والبحر ) . وتكثر الاقتباسات والجناسات في العهد بعد تلك المقدمة . وقد ذكرنا في الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين يعربيين الإباضيين قبض على صولجان الحكم في دياره ومدينتا صحار ومسقط في أيدي البرتغاليين ، فطردهم كما مر بنا منها ومن سواحل بلاده شر طردة مستعينا في ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية ، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتعقب أسطولهم في كل موقع ، ويبدو أن سفنا منه حاولت الإلمام باليمن ، فدمرها تدميراً . ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدى إسماعيل بن القاسم ( ١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب ، ويتبادلان رسالتين ، في أولهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه (١) :

«إنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ، لأجل قطع جنودنا في العام الماضي رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم . ولعمري إنا لندرى أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائد محض المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم ، وانتهاك المحارم . ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً ، ولا نجد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ محالبتنا ، لمشاركة (لخاصمة) رعيتك ، ولا لاستباحة دم أهل حُكْمك وأقضيّتك (أقالملك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددتنا للهازم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديان

تَعْزُضاً منا لرضا رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة في إدراك أجر الصابرين  
المجاهدين . وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام ، وأعداء الله والإسلام ، ألسنت  
من سلالة علي بن أبي طالب ، الساقى المشركين وبنيء المشارب ، وأنت تدرى ما جرى  
بيننا وإياهم من قبل في سواحل عُمان ، وفي سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة  
الصَّيَال ، وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لنأخذهم في كل موضع تحلّ به مراكبهم  
وتغشاه ، حتى من كنج وجيرون بَنَدْرَى الشاه (ملك فارس) ولم يُظْهَر لنا من  
أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً ، وإن كنت في شك من ذلك فاستلّ به خبيراً »

ويذكر سيف بن سلطان لإسماعيل بن القاسم أنه ترك في تعقب البرتغاليين مدافع في  
ظفار التابعة له وأنه حرى أن يردها عليه . وتمتلئ قلوبنا أسى حين نقرأ رسالة إسماعيل بن  
القاسم التي ردّ بها على سيف بن سلطان إذ بدلا من أن يطلب منه الصّفح عن كبوته وعثرته  
المردية ، ويرجع إليه مدافعه وأسلحته ، يُبرق له ويرعد ، ويتهدد ويتوعد ، إذ تمضى  
رسالته على هذه الشاكلة (١) .

« وصل كتابك الذي شحنته بالإبراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب ، إلى  
تحسين الخطاب ، ظنا منك أن هذيان وعيدك ، وطنين ذباب تهديدك ، يزعزع من بأسنا  
صخرة صماء ، أو يحرك من وقارنا جبلاً شماء ، وكيف يكون ذلك :

وأسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ بها من قراع الدارعين فلول  
أين ذهب حِجَاك حتى طلبت منا المدافع ، بهذه الأراجيف والفقاقع ، وإنما تقطع  
أعناق الرجال المطامع . أما علمت أن الليث إذا هيج على فريسة كان أشد إقداماً ، وأعظم  
جرأة واعتزماً ، لا جرم أنها لما نأت بنا وبك الديار ، وحالت دوننا ودونك الأمصار ،  
استرسلت في لفظك ، وجاوزت في سوء المقدار حدك ، وانفردت بأرضك ، فطلبت  
الطعن والتزل وحدهك :

يا سالكا بين الصوارم والقنا إني أشمُّ عليك رائحةَ الدّم  
فاقطع عرى آمالك عن هذه المدافع ، فهي أول غنيمته - إن شاء الله - من قطرك  
الشاسع »

والكتاب حقاً مخزن ، إذ كان المنتظر أن يضع إسماعيل بن القاسم يده في يد سلطان بن  
سيف حين جاءه كتابه ، ويعود إليه صوابه ، ويعلن نصرته له ضد البرتغاليين الآثمين .  
وعلى العكس من ذلك مضى في غيّه يتوعد سلطان بن سيف بمعركة كمعركة النهروان التي

تعقب فيها على بن أبي طالب الخوارج ومزق جموعهم ، وكان حرباً أن يحیی في جهاده للبرتغاليين ويشد أزره ، لا برد المدافع والأسلحة التي تركها في ظفار فحسب بل أيضا بإمداده بالأموال ، إن لم يستطع أن يمدد بالقرسان والرجال ! . والرسالتان تتخذان السجع قرارا لها ، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مها شرقنا أو غربنا في الجزيرة العربية .

### ٣

#### رسائل شخصية

طبعی أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة ، إذ كان يلم بها كثير من العلماء والأدباء ، وكانوا يتكاتبون ويتراسلون مع علماء البلديتين وأدبائها ، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم ، من ذلك رسالة كتب بها مفتي مكة الحنفي وأحد أعلامها العلماء في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمرى إلى أبي المواهب البكرى مفتي الديار المصرية ، وذلك في سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج في السنة المذكورة ، وهو يستهل رسالته على هذا النمط (١) :

« إن أشرف ما تتوج به المفارق والرؤوس ، وأبهر ما تتهج به المهارق والطرُوس ، وأبهى ما يُنظَّم في سلك السطور ، من الدرر الباهرة لدرر النحور ، وأنهى ما يُرقم (يكتب) في صكوك الصدور ، من العُر المصاهية للآئى البحور ، تحيات نُظمت بأنامل الإخلاص عقودها ، وتسليات رُقت بطراز الاختصاص برودها ، تشفعها الأدعية التي على ألسن المقربين تُتلى . . صادرة من قلب منيب أوّاه ، ناظرة أن ليس في الوجود إلا الله ، فيها ملائكة الإجابة ، تحفُّها بالقبول والإنابة ، بأن يديم الله للعلم وأهله ، ويُبق للفرع وأصله ، بقاء مولانا الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأعصم ، والجهذ النقاد ، والكوكب الوقاد ، والبحر الزخار ، والليث الزّءار ، عالم الإسلام على الحقيقة ، الجامع للشرعة والطريقة ، كشاف مشكلات العلوم ، حلال معضلات الفهوم :

عَلَامَةُ العلماء واللُّجُّ الذى لا ينتهى ولكلُّ لُجِّ ساحلُ  
الإمام العلامة ، الهام الفهامة ، شيخ الإسلام ، ملجأ الأنام ، مفتي المسلمين ، صدر المدرسين ، الحبر النحرير ، إمام الفقه والتفسير . . مفتي السلطنة الشريفة (يريد السلطنة

العمانية) بالقاهرة الزاهرة المنيفة». وإذا تساءلنا ماذا قرأنا في الرسالة حتى الآن لاحظنا تواتر أننا لم نقرأ إلا إسلاماً وتحية ودعاء وثناء. وهذه المعاني البسيطة تتحول إلى ما يشبه خيطاً تنتشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة، صيغت في أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع، ولكنها سرعان ما تتلاشى دون أن تترك وراءها مضموناً واضحاً، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين المكي من رسالة كتب بها إلى صديق له في الطائف رداً على رسالة كان بعث بها إليه، وهو يمضى فيها على هذا النحو<sup>(١)</sup>:

«ما روضة غنّاء تدفقت أنهارها، وما حديقة حسناء تصادحت أطيارها، وما دوحه أمال أغصانها النسيم، وما سرحة (شجرة) غرّدت بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم، وما هيفاء قد برزت متلثمة بالجمال، وطلعت بأفق الحسن كالهلال، وما الخزامى والمندل (العود) الرطب، وما العنبر والعبير إذا فاح وشب (سطق). وما الدر المكنون في الصدف، وما ساعات السرور المعدومة من الصدف، بأجل من كتاب ورد فبرّد بوروده غليل مشتاق، وأخجل بورده وعوده روائح النرجس الغضّ وما يُنثر في الأطباق، قد نظمت قلائد عقيانه أنامل مولى تسنّم ذروة المجد، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد، تحتال في رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تلحق جواده، وترشف حياضه العذبة أرباب الفصاحة والبراعة مقتفية آثاره كي لا تضل جادة الإصابة والإجادة، قد هبّ من خلال سطوره نسيمة الرطب فأشفي العليل، وجرى من بحر مثوره شهده العذب، فبرّد اللوعة وأظفأ الغليل»

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة، وكأن ليس الغرض أن تؤدى الرسالة طائفة من المعاني، إنما هي تؤدى طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب الاستعارات والمجازات وألوان الجناس. وحاول الشيخ أن يظهر تفننه في صنع العبارة المسجوعة، فأطالها في آخر هذه القطعة، ولكن بعد أن جعلها تتوازن داخلياً، فكلمة «فرسان البلاغة» في عبارة يقابلها «أرباب الفصاحة والبراعة» في العبارة التالية، وكذلك كلمة «نسيمة الرطب» في عبارة يتلوها في العبارة التالية «شهده العذب» وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد.

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا فيه رسالة استعطاف بديعة للحسين بن علي بن القيم وجه بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصليحي (٤٨٦ - ٤٩١ هـ) يستعطفه،



ولا ندري بالضبط ما سبب هذا الاستعطف وخاصة أنه كان - كما مر بنا في ترجمته بين الشعراء - القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكتب رسائلها . وتذكر المصادر أن أباه وضع يده في يد جيش بن نجاح حين استولى على زبيد من الدولة الصليحية . وربما حدثت نبوة بينه وبين سبأ فألم بزبيد فأغضبه ذلك منه ، والرسالة تَمْضَى على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

« كتب عَبْدُ حَضْرَةَ السُّلْطَانَ الْأَجَلِّ مَوْلَايَ رَيْبِعَ الْمُجْدِينَ ، وَقَرِيعَ الْمُتَأَدِّبِينَ ، جَلْوَةَ الْمَلْتَبِسِ ، وَجَدْوَةَ الْمُقْتَبِسِ ، شَهَابَ الْمَجْدِ الثَّاقِبِ ، وَنَقِيبَ ذَوِي الرِّشْدِ وَالْمُنَاقِبِ ، أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عُلُوَّهُ وَارْتِقَاءَهُ ، مَا قُدِّمَتِ الْعَارِيَةُ لِلْمُسْتَعِيرِ ، وَلِزِمَتِ الْبِئَاءُ لِلتَّصْغِيرِ ، وَجَعَلَ رَتْبَتَهُ فِي الْأَوَّلِيَّةِ عَالِيَةَ الْمَقَامِ كَحَرْفِ الْإِسْتِهَامِ ، وَكَالْمَبْتَدَأِ إِنْ تَأَخَّرَ فِي الْبَيْتَةِ ، فَإِنَّهُ مُقَدَّمٌ فِي النَّبِيَّةِ . وَلَا زَالَتْ حَضْرَتُهُ مِنَ الْحَادِثَاتِ حِمَى ، وَلِلْوُفُودِ مُزْدَحَمًا وَمَلْتَزِمًا ، حَتَّى يَكُونَ فِي الْعُلَا ، بِمَنْزِلَةِ حَرْفِ الْإِسْتِعْلَا . . . وَلَا زَالَ عَدُوُّهُ كَالْأَلْفِ ، حَالَهَا يَخْتَلَفُ ، تَسْقُطُ فِي صِلَةِ الْكَلَامِ ، وَلَا سِيَّامَا مَعَ اللَّامِ ، فَإِنَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ - أَحْسَنَ إِلَى ابْتِدَاءِ ، وَنَشَرَ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِهِ رِذَاءً ، أَرَادَ أَنْ يَخْفَى ، وَكَيْفَ يَخْفَى ؟ لِأَنَّ مِنْ شَرَفِ الْإِحْسَانِ ، سَقُوطُ ذِكْرِهِ عَنِ اللِّسَانِ - كَالْمَفْعُولِ رُفِعَ رُفْعَ الْفَاعِلِ الْكَامِلِ لِمَا حُذِفَ مِنَ الْكَلَامِ ذِكْرُ الْفَاعِلِ - وَأَنَا أُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا مَا الرُّوْحُ ضَاكِحُهُ النَّوْضُ <sup>(٢)</sup> ، غُرْسٌ ، وَحُرْسٌ ، وَسُقَى ، وَوُقَى ، وَغَيْبٌ ، وَصَيْبٌ <sup>(٣)</sup> ، فَأَخَذَ مِنْ كُلِّ نَوْءٍ <sup>(٤)</sup> بِنَصِيبٍ ، زَهَاهُ الزَّهْرُ ، وَسَقَاهُ النَّهْرُ ، جَاوَرَ الْأَضَا <sup>(٥)</sup> فَحَسَّنَ وَأَضَا ، رَتَعَ فِيهِ الشُّحُورُ <sup>(٦)</sup> ، وَمَرَحَ الْعَصْفُورُ ، فَنَظَرَ إِلَى أَقَاحِيهِ ، تَفَتَّرُ فِي نَوَاحِيهِ ، وَإِلَى الْبَهَارِ ، يَضَاحِكُ شَمْسَ النَّهَارِ ، فَجَعَلَ يَلْتَمُّ مِنْ وَرْدِهِ خُدُودًا ، وَيَضُمُّ مِنْ أَعْصَانِهِ قُدُودًا ، وَيَقْتَبِسُ النَّارَ ، مِنَ الْجَلْنَارِ <sup>(٧)</sup> ، وَيَلْتَمِسُ الْعَقِيقَ مِنَ الشَّقِيقِ <sup>(٨)</sup> فَتَشْتَى ثِمْلًا ، وَغَنَى خَفِيفًا وَرَمْلًا ، بِأَطْيَبِ مِنْ نَفْحَتِهِ الْمَسْكِيَّةِ ، وَأَعْطَرَ مِنْ رَائِحَتِهِ الذِّكِّيَّةِ ، وَإِنِّي وَإِنْ أَهْدَيْتَهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، مِنْ أَدَاءِ مَا يَجِبُ غَيْرَ وَاوٍ ، أَعُدُّ نَفْسِي السُّكَيْتِ <sup>(٩)</sup> فِي السَّبْقِ ، لِتَقْصِيرِي لِمَا وَجِبَ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ » .

وكل من يقرأ رسائل أبي العلاء المعري يحس بوضوح صلة هذه الرسالة بها ، ومررنا في حديثنا عن شعره أنه كان يستوحيه في بعض أبياته ، ومعروف أن أبا العلاء كان يتصنع في

(١) معجم الأدياء ١٠/١٣٢ .

(٢) النوض : مجرى الماء ، ويريد الماء نفسه .

(٣) غيب : غاب بذره في الأرض . وصيب : أمطر .

(٤) النوء : المطر .

(٥) الأضا : الغدير .

(٦) الشحور : طائر كالعصفور رخم الصوت .

(٧) الجلنار : زهر الرمان .

(٨) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(٩) السكيت : آخر خيل الحلبة .

رسائله تصنعاً واسعاً جلب مصطلحات العلوم اللغوية ، وهو أول من نهج بقوة هذه السبيل ومهدّها لمن جاءوا بعده <sup>(١)</sup> ، وتأثره فيها شرقاً وغرباً الكتاب ، وما هو ابن القم اليمنى الذى يوشك أن يكون معاصراً له يتأثره فى هذا الأسلوب الجديد ، فإذا هو يدعو لسبب ابن أحمد بدوام علوه وارتقائه دوام لزوم الياء عند الصرفين للتصغير ، ويدعو له بدوام تقدم رتبته على الأمراء والسلاطين من حوله كدوام تقدم حرف الاستفهام على جملته أو عبارته ، وكدوام تقدم المبتدأ على الخبر ، وحتى إن هو تأخر عنه كان متقدماً عليه فى النية . وإنه ليرضى له أن يظل دائماً متسماً ذروة العلا ، مثله مثل حروف الاستعلاء عند أصحاب التجويد والقراءات وهى سبعة : ق ، ظ ، خ ، ص ، ض ، غ ، ط ، وهى دائماً تفخم فى النطق ، فلا يدخل عليها ترقيق . ويجعل عدوه كالألف ، حاله دائماً مختلفة ، إذ هى تأتى للوصل وللقطع ، ولا ينطق بها فى مثل الشمس والنور والصلاة .

ولا ريب فى أن ذلك تعقيد وتصنع شديد ، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات . وظاهرة ثانية فى الرسالة اندفع فيها ابن القم وراء أبى العلاء وإن لم يبعد إبعاده ، وهى ظاهرة التصنع للفظ الغريب ، فقد وشّاهها به ، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يجلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم ، حتى يثبتوا مهارتهم ، وهى مهارة لغوية خالصة . ونحمد لابن القم أنه لم يسرف فى هذه المهارة . والرسالة تصور براعة حقيقية فى استخدام السجع ، فقد كان يستطيع أن يأتي به قصيراً ، بل مفرطاً فى القصر ، حتى لتكون السجعة أحياناً كلمة واحدة . والجناس كثير فى العبارات ، من مثل قوله : «جَلْوَةُ الملتبس» و«جَدْوَةُ المقتبس» و«البهار» و«النهار» إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة ، وهو يعضى فيها مستعظفاً محاولاً بكل ما فى وسعه أن يستل الضغينة من صدر سبأ بمثل قوله :

«وأما حال عبده ، بعد فراقه فى الجلد ، فحال أم تسعة من الولد ، ذكور ، كأنهم عقبان وصقور ، كنوا<sup>(٢)</sup> فى وكور ، اخترم<sup>(٣)</sup> منهم ثمانية ، وهى على التاسع حانية . نادى النذير ، العُربان فى البادية ، للعادية ، ياللُعادية<sup>(٤)</sup> ، فلما سمعت الداعى ، ورأت الخيل وهى سراع ، جعلت تنادى ولدها : الأناة ! الأناة ! وهى نادى العُداة ! العُداة :

(١) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (نشر دار

المعارف - الطبعة الثامنة) ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٢) كنوا : استنروا وأقاموا .

(٣) اخترم : مات .

(٤) العادية الأولى : الداهية ، والثانية : الخيل .

بَطْلٌ كَانَ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْدَى نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بَتَوْءٍ (١)  
 فَحِينَ رَأَتْهُ يَجْتَالُ فِي غَضُونِ الزَّرْدِ الْمَصُونِ (٢) أَنْشَأَتْ تَقُولُ :  
 نَشَدْتُ أَضْبَطًا يَمِيحُ بَيْنَ طَرْفَيْهِ وَغَيْلٍ (٣)  
 لِبَاسِهِ مِنْ نَسِجِ دَا وَدَ كَضَحَضَاحِ يَسِيلٍ (٤)  
 فَعَرَضَ لَهُ فِي الْبَادِيَةِ أَسَدٌ هَضُورٌ ، كَانَ ذَرَعُهُ مَسْدٌ (٥) مَضْفُورٌ :  
 فَتَطَاعَنَا وَتَوَاقَفَتْ خَيْلَاهُمَا وَكَلَاهُمَا بَطْلُ الْلِقَاءِ مَقْنَعٌ  
 فَلَمَّا سَمِعَتْ صِيَاحَ الرَّعِيلِ (٦) ، بَرَزَتْ مِنَ الْخَدْرِ بِصَبْرٍ قَدْ عِيلَ (٧) . فَسَأَلْتُ عَنْ  
 الْوَاحِدِ ، فَقِيلَ لَهَا : لِحَدِّهِ الْإِلَاحِدُ :

فَكَرَّرْتُ تَبْتِغِيهِ فَصَادَفْتُهُ عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّبَاعَا  
 عَيْنٌ بِهِ فَلَمْ يَتْرِكْ إِلَّا أَدِيمًا قَدْ تَمَزَّقَ أَوْ كُرَاعًا (٨)

وَمَا هَذِهِ الْأُمُّ التُّكْلَى بِأَشَدِّ مِنْ عَبْدِكَ تَأْسَفًا ، وَلَا أَعْظَمُ كَمْدًا وَتَلْهَفًا ، وَإِنَّهُ لِيَعْنِفُ  
 نَفْسَهُ دَائِمًا ، وَيَقُولُ لَهَا لَائِمًا : لَوْ فَطِنْتِ لَقَطِنْتِ (٩) وَلَوْ عَقَلْتِ لَمَا انْتَقَلْتِ ، وَلَوْ قِينْتِ  
 لَرَجَعْتِ ، وَمَا هَجَعْتِ :

يُقِيمُ الرِّجَالَ الْمَوِيسِرُونَ بِأَرْضِهِمْ وَتَرْمِي النَّوَى بِالْمُقْتَرِينَ الْمَرَامِيَا (١٠)  
 وَمَا تَرَكُوا أَوْطَانَهُمْ عَنْ مَلَالَةٍ وَلَكِنْ حَذَارًا مِنْ شِمَاتِ الْأَعَادِيَا

أَيُّهَا السَّيِّدُ ! أَمِنْ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ، وَمَحَاسِنِ الشِّيمِ وَالْأَوْصَافِ ، إِكْرَامُ الْمَهَانَ ،  
 وَإِذْلَالُ جَوَادِ الرَّهَانَ ، يَشْبَعُ فِي سَاجُورَةِ كَلْبِ الزُّبَيْلِ ، وَيَسْعَبُ فِي خَيْسِهِ أَبُو الشُّبْلِ (١١) :  
 إِذَا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مَكَانَةَ فَاضِلٍ وَأَصْبَحَ رَبُّ الْجَاهِ غَيْرَ وَجِيهِ  
 فَإِنْ حَيَاةَ الْحَرِّ غَيْرُ شَهِيَّةٍ إِلَيْهِ وَطَعْمُ الْمَوْتِ غَيْرُ كَرِيهِ

(١) البيت لعنزة والسرحة : شجرة طويلة . يصف عليها .

خصمه بالطولة والطول كأنه سرحة أو شجرة سامقة (٥) هضور : شديد . ذرع : طول . مسد : حبل .

ويصفه بالترف إذ يتعل بنعال السبت الجيدة ، كما يصفه (٦) الرعيل : القطعة من الخيل .

بالقوة إذ ليس توأما شركه غيره في بطن أمه . (٧) عيل : نقد .

(٢) غضون : ثنابا . ويريد بالزرد المصون الدرع . (٨) الكراع : الساق .

(٣) الأضبیط : العامل أو المقاتل يمينه ويساره . (٩) قطنت : أفت .

والطرفاء : شجر . الغيل : الغابة . (١٠) المقترن : أصحاب العيش الضيق .

(٤) تصف درعه وأنه متين من نسج داود ، ويشبهون (١١) الساجور : خشبة صغيرة تعلق في عنق الكلب .

كثيراً الدرور وثناباها بغدران المياه حين هبوب الرياح (١٢) يسغب : يجوع . الخيس : غيل الأسد .

أقول لنفسى الدنيَّة هبى طال نَوْمُكَ ، واستيقظى لاعزَّ قومك ، أرضيتِ بالعبء المتزور<sup>(١)</sup> وقتعتِ بالمواعيدِ الزور ، يقظةً فإن الجِدَّ قد هَجَّع ، ونُجْمَةٌ فمن أُجْدَب انتجع .

ويتشبه ابن القم في هذه القطعة بأبي العلاء من ناحية وبيديع الزمان الهمداني من ناحية أخرى ، أما تشبُّه بأبي العلاء أو محاكاته له فتتضح في الألفاظ الغريبة التي يحشدها في نثره ، وحتى الشعر يرى أن يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب ، على الأقل إلى حد ما . وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار ، وقد حاكاه في ذلك وفي تضمين رسائله بعض الحكايات القصصية ، حين شبَّه نفسه وتحسره على ما فقده من قرب سبأ وقيامه على ديوانه بأم لتسعة فقدت ثمانية منهم ، وبقي لها ولد واحد ، هو كل أملها في الحياة ، فإذا غارة على الحى ، وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحرم . وهي تصيح به من ورائه خائفة جزعة تريد أن ترده ، ويتراءى لها في بطولته وبأسه وسلاحه ، وعبثاً تحاول رده . ويلقاه من الأعداء فارس ، بل أسد هصور ، وتدور عليه الدوائر ، وتسمع صياح الخيل حين عودتها ، فتبرز من بيتها تسأل عن فلذة كبدها ، وتعرف أنه سُفِكَ دمه ، فتخرج إلى العراء باحثة عنه ، وتجده أشلاء ممزقة . فياللهول ويا للكارثة المقصَّة للمضاجع . ويقول إنه ليس أشد أسفاً منها ولا كمداً وتلهفا على فقده لعمله عند سبأ ولعطفه ورعايته . ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سبأ عتاباً رقيقاً ، كله لطف ، ملوِّحاً له بحقه عليه ، وأنه قَرَّب إليه واصطفي من هم دونه في المنزلة الأدبية ، وكأنه يعرض عليه الصفح عنه والعتو ، أملاً في العودة ، إلى سابق مكانته ، وإنه ليصرح بأنه أُجْدَب ، وخليق به أن ينتجع ، وأن يجد الوادى ممرعاً كعهده .

وإذا كنا قد وجدنا في اليمن كاتباً مبكراً يحاكي أبا العلاء وبيديع الزمان في بعض رسائلها فإننا نجد في حضرموت كاتباً يحاكي الحريري لا في مقاماته ، ولكن في بعض رسائله ، وكان الحريري قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب فيها صديقاً أُخِلَّ به في دعوة دعا غيره إليها . وعلى غرار هذه الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمي رسالة سينية طويلة تقتطف من مطلعها قوله<sup>(٢)</sup> :

« باسم السلام<sup>(٣)</sup> أستبدي ، وبأسعافه أستهدى ، وبأسمائه أستنجد ، ولنفتات سره

(٣) السلام : من أسماء الله .

(١) المتزور : القليل .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٤/٣ .

أستنشد، وبإسبال ستره أستظل، وبإسدال أستاره أستقل... تقدرس سبحانه، وسما إحسانه، واستطال سلطانه، وأستعينه وأستنصره، وأستقبله وأستغفره، وأستعيذه من دسائس إبليس، وسائر التلايس، وسطوة النفوس، وسؤال المنحوس... وأسأله التيسير، وسكون الفردوس لا السعير، وأسلم سلاما مستمرا، يتلمس سيد السادات سني السيرة، حسن السريرة، المحرس بلسنه الملسنين، السالك سبيل أسلافه السائدين». وتمضي الرسالة في ألفاظ معدة في الغرابة، كى يدل الكاتب على مهارته، وهي ليست مهارة أدبية، ولكنها مهارة لغوية، وكانوا يعدونها زحرفا وتميقا، ونحس كأن الكلمات يرض بعضها بجوار بعض في الرسالة، فهي صفوف سينية، أو هي صناديق سينية، نقرأ فيها سينية، ولكن لا نقرأ فكرا ولا شعورا، وقد كثر فيها الجنس كثره مفرطة. وكل ذلك محاكاة للحريري ومحاولة للدنو من طريقته في رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين، مع ما يطوى في ذلك من التصعب والتعقيد. ويقول من ترجموا له وكتبوا عن هذه الرسالة إنه كان لها دوى بعيد في الأوساط الأدبية الحضرية، إذ عدوها طرفة غريبة وظلوا يتداولونها طويلا. على أن الكثرة من رسائل الأدباء الحضريين لم تكن تُعرب هذا الإغراب، بل كانت تكتفي بالسجع، وقلمنا اصطنعت الألفاظ الغريبة الآبدة.

ونترك حضرموت إلى البحرين، ونلتقي في كتاب سلافة العصر ببعض رسائل لأدبائها، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبي شباة البحراني إلى ابن معصوم صاحب الكتاب، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها، يقول (١):

«أنهى أبهى سلام، شدت بنغات السرور أطياره، وبدت على صفحات الدهور أنواره، وأصلح دعاء تعاضدت شرائط إجابته، وترادفت وسائط إصابته، وسمت مصاعد قبوله، ونمت فوائده فروع وأصوله، وأنفس ثناء ثنيت بالوفاء وسائده ومسائده، وثبتت على الولاء قواعد ومقاعده، وخالص إخلاص حديث خلوصه قديم، وحظ خصوصه مستقيم، أخدم به. شمس سماء المحامد والفضائل، وغرة سماء الأماجد والأفاضل، ديباجة صفحتي الشرف والفتوة، ونتيجة مقدمتي الولاية والنبوة، صاحب ذيول العز الشامخ، وصاحب أصول المحمد الباذخ، مربع الكرم والجود، ومرتع الآمال والمقصود، الذي نيطت أعمدة فضائل أحسابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة، وأصبحت كعوب أعراقه في الكرم متناسقة، وشعوب أخلاقه في المهمم متوافقة».

وتطرد الرسالة على هذه الصورة من الجناسات المتلاحقة ، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وشي الجناس ، إن صح أن يسمى هذا وشياً ، وما هو بوشى ، بل هو ألفاظ مترصّة ، قد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها ، والعدد ليس كافياً ، بل لابد أن تكون موازنة لها موازنة تامة ، فكلمة « شدت بنغمت السرور أطيّاره » توازنها كلمة « بدت على صفحات الدهور أنواره » وكلمة « تغاضدت شرائط إجابته » توازنها كلمة « ترادفت وسائط إصابته » وفي أثناء ذلك تُرصّ الجناسات رصّاً ، فالوسائد تليها المساند ، والقواعد تليها المقاعد ، ويلى ذلك خالص وإخلاص وخلوص وخصوص . وكلمة « شمس سماء المحامد والفضائل » توازنها كلمة « غرة سماء الأماجد والأفاضل » وكلمة « ديباجة صفحتى الشرف والفتوة » توازنها كلمة « نتيجة مقدمتى الولاية والنبوة » . وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى فى الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم . ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه طبيعية ، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفرجار ، وقد حُشد الجناس بجميع صوره : جناس الاشتقاق والجناس الناقص ، وحُشد كثير من الاستعارات ، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحظ فى وسائد الثناء ومسائده وكعوب الأعراق وشعوب الأخلاق . وهذه الصورة التى يسودها التصنع كانت شائعة فى البلاد العربية وخاصة فى حقب هذا العصر المتأخرة .

## ٤

### مواعظ وخطب دينية

لا ريب فى أن المواعظ كانت مزدهرة فى مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخاطبون الناس ، أو يلقون عليهم المحاضرات ، واعظين مذكّرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر ، فالناس كأنهم سَفَرٌ وقوف ، وكل منهم ينتظر أجله ، ولن ينفع أحداً إلا ما قدمت يداه . وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامى ، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم الإلمام بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يؤدى فريضة الحج ، وكان كثير منهم يجاور بها أو بالمدينة ، ويتحول واعظاً فى الحرم المكى أو الحرم المدنى . وكم كان الأدب العربى بشرى ويغنى لو أن الوعظ فى المدينتين سُجِّلَ فى الكتب وعنى به من يحفظ عيونته . ولعله من الطبيعى أن نجد ابن ظفر المكى الذى

مر بنا ذكره بين شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية يتحول بكتابه «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» واعظا ، وعادة يذكر المعنى ثم يتلوه بموعظة مسجوعة ، تعقبها أحيانا أبيات حكيمة .

والمعنى الذى يلم به «سلوانة» أو سلوة ومن هنا جاء اسم الكتاب . وكثيرا ما تجرى سلواناته في شكل حكم ، كقوله في سلوانة التأسى : «التأسى جنة البلاء ، وسنة النبلاء . التأسى درج الاضطراب ، كما أن الجزع درك التبار (الهلاك) . ومن قوله في سلوانة الرضا : من رضى ، حظى . من ترك الاقتراح ، أفلح واستراح . كن بالرضا عاملا قبل أن تكون له معمولا ، سير إليه عادلا وإلا صرت نحوه معدولا» . والكتاب يفيض بالحكم الواعظة من مثل قوله : « ما أحرى الملول ، بأن يُحرم المأمول . من لزم الرقاد ، حرم المراد . التنعم في الدنيا يضاعف حسرة زيالها (مفارقتها) ويؤكد غصة اغتيالها . الهوى طاغية فمن ملكه ، أهلكه . الهوى كالنار إذا استحكمت أبقاها عسر إخمادها . الغريب ميت الأحياء قد أعاده البين ، أترا بعد عين» .

وتتحول من الحجاز إلى اليمن ، وتلقانا فيها المواعظ في كل مكان وزمان ونجدها في الرسائل وفي الوصايا على شاكله ما نقرأ في وصية الملكة الحرة الصليحية أروى بنت أحمد ، وهى لاشك من عمل بعض الوعاظ ، وقد جاء في فواتحها (١) :

« لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات ، وخالق المخلوقات ، جلّ وعلا أن تناله صفة ، أو تدركه معرفة ، الخلائق في قبضته ، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته ، لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لأمره ، إنه العدل الذى لا يجور ، والحكم الذى لا يحيف ، والصادق الذى لا يخلف ، والعمو الذى لا يؤاخذ ، خالق السموات والأرضين ، وإله الأولين والآخرين ، ذو الأسماء الحسنى ، والكلمات التامة صدقا وعدلا . له ملائكة انتخبهم من بريته ، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته ( يسبحون الليل والنهار لا يفترون ) ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) . وإن الجنة حق ، خلقها الله للمطيعين من بريته ، الخائفين من سطوته ، المؤمنين به ، المصدقين لوعده ، الموفين بعهده ، المتبعين لرسله ، العاملين بمقتضى آياته وكتبه . وإن النار حق أعداها الله لمن جحد أنبياءه ، وخالف أوليائه . . وتمادى في غيّه وأسرف في أمره ، وأصرّ على كفره» .

وهذه الموعظة في مطلع الوصية كان وراءها مواعظ كثيرة ، لا في بيئة الدولة الصليحية

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٣٢٣ .

وحدها ، بل في بيئات كل الدول والإمارات التي كانت تعاصرها ، وأيضا في الدول التي جاءت بعد ذلك ، ونقصد إمارة الزيديين ودولتي الرسوليين والظاهرين ، حتى إذا أصبح الصولجان في اليمن بيد الزيديين ظل الوعظ مزدهراً . وكانت ترفده دائماً خطابة الجمعة في المساجد والجوامع أسبوعياً ، كما كان يرفده المتصوفة ، ومن أشهرهم في عهد الرسوليين أبو الغيث<sup>(١)</sup> بن جميل الملقب بشمس الشمس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة ، وسُئل عن الصوفي من هو؟ فقال : « هو مَنْ صَفَّاسِرُهُ مِنَ الْكُدْرِ ، وَامْتَلَأَ قَلْبَهُ مِنَ الْعَيْبِ ، وَانْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَنِ الْبَشَرِ ، وَاسْتَوَى عِنْدَهُ الذَّهَبُ وَالْمَدْرُ<sup>(٢)</sup> » . ومن دعائه : « اللهم إني أسألك يا روح روح الروح ، ويا لبُّ لبِّ اللبِّ ، ويا قلب قلب القلب ، هب لي قلباً أعيش به معك ، فقد خلقت كل ما هو دونك لأجلك ، فاجعلني ممن شئت من هذه الجملة » . وكان يعاصره أحمد بن علوان الذي مر ذكره وله في الوعظ كتاب نحى فيه منحى ابن الجوزي فلذلك يقال له جَوَزَى اليمن وله في التصوف فصول كثيرة<sup>(٣)</sup> ، وله أتباع من الدراويش المعروفين في اليمن بالمجاذيب ، كانوا ينشرون هناك كلامه ومواعظه . ومر بنا في غير هذا الموضوع حديث عن عبد الله بن أسعد اليافعي نزيل مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفي ومواعظ كثيرة . وصنف في الصوفية وتراجمهم - كما مر بنا - كتاباً سماه « روض الرياضين وحكايات الصالحين » .

وكان الوعظ مزدهراً في حضرموت ، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم ، غير من كانوا يعظون الناس وراءهم في المساجد وفي خطابة الجمع ، ومن أشهر متصوفها أبو بكر العيدروس ، ومر بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وله نثر صوفي ووعظ كثير ، ومن قوله في الفرق بين الشريعة والحقيقة<sup>(٤)</sup> :

« الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه انبعاث القصد للقاصدين وهو المقصود ، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبته ، حتى أقام عليه حجته ، وبإثباته له قام عليه أمره ونهيه وجازاه ، على مقتضى سعيه فناده : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) وتارة أقام نفسه وأخفاه ، فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فحصلت الحيرة ، وعميت الأبصار والبصيرة . فوق من شاء من عباده للوقوف عند مكنون علمه ، فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه ، فالعلم المتجلى على الجسم علم ظاهر ، وهو علم

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ .

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ١٠٧ .

(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١١٨ .

(٢) المدر : القطعة من الطين .



الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن ، وهو علم الحقيقة . فأقام ظاهر الإسلام على أركان ، القائم بها جوارح الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان ، القائم بها صميم الجنان ، ولكن لما خفي عن الأسماع الحسية ما بالقلب جعل له ترجان وهو اللسان ، فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة » .

وأبو بكر العيدروس يشير في أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شيء قدر مقدور ولا مفر منه ، ولا حول ولا قوة للإنسان إزاءه ، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحريته وأن كل شيء إنما هو بمشيئته . ويقول إنها جميعاً حائران ، ويضع فوقها أهل الحقيقة من الصوفية القائلين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمى ذلك عمل الجوارح ، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذي لا ينضب معينه إذ يستمد من الحجة الإلهية ورحيقها الصافي . وتصفوه بذلك تصوف سني كتصوف الغزالي وأضرابه ، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن .

وطبيعي أن يكثر الوعظ في خطابة الخوارج الإباضية بعمان ، وقد وقف الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مراراً عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم ، ونوّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبي حمزة قائد عبد الله بن يحيى الكندي ، وروى بعض خطبه ، وهي تمتاز بألفاظها الطليقة ومعانيها القوية . ولا شك في أنه ظلت شعاعات من خطابته وخطابة عبد الله بن يحيى وعبد الله بن إياض تدور في السنة خطباء الإباضيين بعدهم ، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة في عصر إمامهم ناصر بن مرشد ( ١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ ) وهي تمضي على هذا النمط (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، وجعلهم أغراضاً لسهام الأقدار ، ووكل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ، وتجري منهم مجرى الدماء في الأبدان ، لا يعتصم منهم معتصم بالحذر ، ولا يختص بها الفقراء دون ذوى اليسار ، بل هي آيات عدلٍ عدل الله بها في البادين والحضار ، أحمده على نعمه المسبلة الغزار ، وأعوذ به من العتوّ والاستكبار ، وأستغفره للذنوب والأوزار ، من الكبائر والإصرار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، ميوّنة من شهد بها دار القرار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المختار ، أرسله بأيمن شعار ، وأبين فخار ، وأنور منار ، وأطهر إعلان وإسرار ، وأظهر

برهان وإنذار ، من صميم العرب في النصار (١) ، وأكرمها في الفخار ، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار ، منصوراً بالملائكة الأبرار ، وعلى آله الأطهار ، آناء الليل وأطراف النهار : أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظمتها واعية ، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبها مراعية ، وإن مطاعم الآمال كاذبة فهل همة إلى التتره عنها داعية ، وإن طوابع الآجال واجبة فهل قدم إلى التزود من الدنيا ساعية .

وتستمر الخطبة في الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع بترت أعمارهم الدهور الغواير ، وابتلعهم الحفر والمقابر . ومثل السلف الخلف ، فهم دائماً هدف للتلف . عظة ينبغى أن يتعظ بها العاقل ، فينفق ساعاته في التقوى والعمل الصالح . وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول ﷺ وعلى آله قائلة : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما ذرَّ شارق (٢) ، وأومض بارق ، وفاه ناطق ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد بعدد أنفاس الخلائق ، وبعدد ما في السموات السبع الطرائق ، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق . ثم تستنزل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول في الغار ورفيقه في الأسفار ، معدن الجود- والفخار ، وسيد المهاجرين والأنصار . أول ساع إلى شرف التصديق ، أبي بكر الصديق ، وأيضاً على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين . والخطبة مبنية على السجع ، وليس ذلك فحسب ، فإن منشئها تكلف في الأسجاع الأولى أن يلتزم فيها الرأء دلالة على مقدرته البلاغية ، حتى إذا انتهى من التحميد والشهادة والتمجيد لله ولرسوله وأخذ في الوعظ بنى قوافي أسجاعه على الألف والعين والتاء ، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية ، ورأى أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية في العبارات أو السجعات ، فكلمة خاطبة في السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها في السجعات التالية كلمات صائبة وكاذبة وواجبة ، فكان السجعات المتوالية لا تتوازن خارجياً في القوافي النهائية فحسب ، بل تتوازن أيضاً داخلياً ، إذ تتقابل فيها قواف تتوسط العبارات ، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها في العبارة أو العبارات التالية .

وإذا كانت المصادر لم تسعفنا بمواعظ أو خطب دينية في البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين في ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية في الجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائماً قائماً ، كما كانت الخطابة في المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت في جملتها مواعظ خالصة .

(١) النصار : الذهب والخالص من كل شيء . (٢) الشارق : الشمس .

### محاورات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا في الحقب المتأخرة من هذا العصر باليمن محاورات ورسائل فكاهية متنوعة ، من ذلك محاورة لعل بن صالح بن أبي الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية <sup>(١)</sup> ، وكان المسجد قد بناه العثمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح في حال رثة فلا فراش ولا سراج ، فشكا حاله لمسجد جناح ، فأشار عليه من باب النصيحة ، لما بينهما من المودة الصحيحة ، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك ، إذ النساء مصايح البيوت ، وفوض له مسجد المذهب اختيار المدرسة التي يراها كفوًّا له ، وأشار عليه بإحدى مدرستين : البكيرية فريدة العصر ، أو المرادية خريدة القصر . وذهب معه إلى البكيرية ، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدَّةً ، وقالت له : اخرج يا جناح أنت والمذهب ، قبل أن تُصَفَّعَ وتُضْرَبَ . وخرجا ، وجناح يتمثل بقول ذي الرمة :  
على وجه مَيِّ مسحَّةٌ من ملاحيةٍ      وتحت الثياب الخزيُّ لو كان باديا  
ونهما إلى المدرسة المرادية ، وأفهمها جناح أن المذهب جاء معه لخطبتها ، وأنه نعم الرجل الصالح ، العاقل الراجح ، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستر بهما وتجميل ، وقنديلاً تتنفع به ليلة تتأهل . ويمضي على بن صالح قائلا :  
« فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر ، فلست على تحصيلهما بقادر ، فالمفارش غالية ، وليس عندي غير بُسُطٍ بالية . فقال له جناح : أشهد أنك رجل وقاح . أما علمت أن المفارش كسوة أمثالها ، وأنه لا يخطر البساط بياها ، وسأشير عليك بما بأسو جراحك ، ويريش جناحك ، فقال : سَمَعًا لأمرك ، وطوعاً لحكمك . فأمرني بما تراه ، فإني لا أتعداه ، فقال : قد علمت أن البكيرية طردتك ، وتهددتك بالضرب وتوعدتكَ ، فإذا كان جُنْحُ الظلام ، وقد هجع التَّوَام ، انسلت انسلال الخائف الذليل ، وأخذت منها مفرشتين وقنديل <sup>(٢)</sup> فقال : قد أشرت بما في النفس ، فإني مُهَمَّهٌ به من أمس . فلما نشر الظلام ثيابه ، ومدَّ على الأنام جلبابه ، خرج من محلِّه وانسلَّ ، وسقط عليها سقوط الطَّلِّ ، فأخذ المفرشتين والقنديل ، وعاد إلى منزله فرحاً بالتحصيل ، ولما أسفر ضوء

(١) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة (٢) الكلمة منصوبة وترك نصبها للسمع .

الصباح أشار إلى مسجد جناح ، بأن المطلوب قد حصل ، فانهض بنا لتقام العمل . فحملا إلى المرادية ما اشترطته . . . »

وتعصى المحاورة ، فتذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توصل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهب له مفرشةً وقنديلاً . يقول علي بن صالح : « فقال له جناح : عاودُ ذلك المحل ، فلعلك تظفر بالأمل . وقد كانت البكيرية جمعت من حولها من المساجد القريبة ، وطلبت منها الرأى في دفع هذه المصيبة ، فأجمع رأى المساجد والمدارس ، على أن يستأجروا لها حارس<sup>(١)</sup> فقالت : علىّ تحصيل الأجرة ، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة ، فاختراروا لها مسجد عقيل ، وقالوا لها : هذا نعم الحارس والتزليل . فلما جنَّ الظلام وهجع النوام ، أقبل مسجد المذهب ، وهو خائف يترقب ، فخرج عقيل ومن حوله من المساجد ، وحمّلوا عليه حملة رجل واحد ، فهرب من بينهم وفرّ ، فما قعد في مجلسه ولا استقرّ ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عُقيلاً ومن معه يغيرون عليه ، فأقبلوا يُهرعون إليه ، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزحام ، فقال : اعلموا يا جيرانى ، أنى راقد بمكانى ، فأنت المساجد فى جنح الدياجى ، تريد<sup>(٢)</sup> تسرق بساطى وسراجى ، فأعينونى على الحق ، وأدركونى ولما أمزق ، فرجع كل مسجد إلى مكانه . واجتمعت المساجد عند البكيرية فى الليلة الثانية ، ليتفاوضوا فى دفع هذه الداهية ، فأجمعوا على أن يحفروا للمذهب حفرة فى أرض ، بقدر طولها والعرض ، وأن يربطوا الشباك إلى جانب المئذنة والشباك . فسكت عنهم أيام<sup>(٣)</sup> ، ثم أقبل على حين غفلة من الأنام . . . فوقع فى تلك الشباك ، وكاد أن يشرف على الهلاك . »

ويمضى على بن صالح فى المحاورة ذاكرا أن المساجد تجمعت من حوله ، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة ، منتظرا انقضاء المدة ، وأخذت المساجد تضربه وتركله ، وافدة عليه رعيلا فى إثر رعييل ، وهو بينهم كالأسير ، قد غلبه البكاء والزفير . وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه ، ويدعو له المدرسة المرادية فى الحال . وأقبلت تبختر فى ثيابها تائمة على أترابها . ويهجم عليها فى غير حياء . فتغضب المساجد ، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه . ويعزم على الرحيل ، ويأسى مسجد الإمام له . لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبرز وطلحة والأبهر أن تتوسط له

(٣) ترك النصب للسمع .

(١) لم ينصب كلمة حارس للسمع .

(٢) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة .

لدى المرادية ، فنهضوا إليها . وعرضوا الكلام عليها ، فرفعت النقاب ، وقالت : ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب ، وتقول : « على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندي ، وكاد الهوى أن يخرجني عن جلدي . . وإني كنت لا أصلح للمثله ، ولم أكن قد تزوجت من قبله ، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشيء خير من جهله ، واشهدوا بأني قد وكلت مسجد الإمام ، يعقد لي بالمذهب ، قبل أن يتبع هواه أو يترهب . . وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال : بالرفاء والبنين » .

والمحاورة طريفة في فكائها خفيفة في ألفاظها وأسجاعها ، وهي تمتد إلى نحو اثنتي عشرة صحيفة ، ولها قيمة تاريخية ، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء في عصر الكاتب من عدم العناية بفرشها ومصاييحها وتخصيصها أو طلائها بالحصص وترميم جدرانها وما تأكل من حيطانها ، ولعلي بن محمد العنسي المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة ، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدى القاسم بن الحسين ( ١١٢٨ - ١١٣٩ هـ ) الملقب بالمتوكل أمر به الفقيه الزهوانى أن يعطيه عشرين قدحاً من الشعر ، وقد سماها : الروض الأفيوانى فى الشعر الزهوانى . وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يطله ويؤجله فى البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكها (١) :

« مولاي حامى حمى الدين ، وحافظ بيضة المسلمين ، خلد الله إقباله ، وضاعف جلاله ، حوّلتم للمملوك بعشرين قدحاً على الفقيه الزهوانى ، الذى لا تقبض الحوالة منه إلا بالأمانى ، فسلم للمملوك منها أربعة أقداح شعر كان قدسها عنها خازن الإمام صلاح الدين فى ذلك العصر ، فتركها فى زاوية من زوايا القصر ، ثم مرّت عليها الأعوام والدهور . . وغمرها التراب إلى كعب الشراك (٢) . لما استولت على اليمن علوج الأتراك . ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التى لبس الدهر بها شبابها ، وزان جبينه بأشرف عصابه . وقد صار ذلك الشعر دفيناً تحت ترابه . وقد ذهب لُبُّه لطول المدة فلم يبق غير إهابه . ثم تعاقبت على الخزن أيدي الخزان ولكنهم لم يبلغوا فى التحرى والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح ، ذو الطبع المرصى والخلق الشحيح ، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا ، ولا أهمل المثل السائر : كم فى الزوايا من الخبايا ، فعثر فى بعض لفتاته على تلك الزاوية التى اشتد ظلامها ، وخفيت أعلامها ، فرأى شيئاً مجموعاً ، وتلاً مرفوعاً . . فلاحته له منه شعيرة بغير شعوره ، أسرف لأجلها فى حُبوره ، وتصحيف سروره (٣) ، فأمر بإثارة ذلك الكثر

(٣) تصحيف سروره : يقصد سروره .

(١) نشر العرف ٢ / ٢٩٥ .

(٢) الشراك : الخداء .

المدفون ، والدفين الخزون . ثم عيّر<sup>(١)</sup> ، فحصل منه أربعة أقداح ، فجاءت وفق الاقتراح ، واتفق لسوء الحظ حضور الرسول الغرير<sup>(٢)</sup> ، حال بُعث من مرقدته ذلك الشعير ، فكيّل له في الغرائر<sup>(٣)</sup> على غرّة ، وقيل له : خُذها ، واحذر العوّد بعد هذه المرّة .»

والفكاهة واضحة في الرسالة ، وهي تلسع ولا تجرح ولا تدمى ، فكاهة تحمل حيناً دعابة وحيناً سخرية خفيفة ، دون أن تؤذى ، وقد أنهاها بقطعة شعرية بديعة . وكانوا يُلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قضية طريفة كأن نجد يحيى بن إبراهيم الجحّاف يسوق سؤالاً<sup>(٤)</sup> عن صديق عاهده على التعاون ، وخاصة حين تبسم له هو الدنيا ، وتبسم في وجه صديقه ، فإنه حينئذ يمد له يد العون ولا يتركه لحن الدهر تعصف به ، غير أن هذا الصديق لم يف بعهده ، وإنه ليسأل علماء العدل وقضاة الإحسان وحكام الإنصاف ومشايخ المروءة ما يقولون في صديقين تغذّيا بلبان المحبة واستظلا بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التي هي أوثق من أخوة النسب ، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه ، فتناساه وأهمله ، فما حكمه ؟ يقول : « فهبت لأحدهما ريح الإقبال ، ولعت له لمعة سعد ، وأمطرته سحابة خير . . . وبقي الثاني في ظل العفو وروض العافية . . . يسبح من حسن الظن في غير ماء ، ويطير مع طول الأمل بغير جناح . . . إن التفت يمينه وجد محنة . أو نظر يسرة رأى حسرة ، أو حاول به اللحاق ، احتاج إلى البراق . وقد كان يقسم بالله الذي وسعت العباد رحمته ، وشملتهم نعمته أنه إذا أثبت له الوسادة ، ولاحظته عين السعادة ، وخرج من زاوية الخمول ، وطلع نجمه بعد الأفول . . . ليُبلغنّه من الخيرات ما لا قلبٌ فكّر فيه ، ولا لسان نطق به ، ولا جارحة تكلفته ولا عين رأته ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر قط . فافتونا ماجورين مثابين إن شاء الله تعالى : ما الذي يجب في شريعة المودة ، ويُسنُّ في دين الفتوة ، ويُندب في ملة الوفاء ، ويباح في فقه العرف . . . وهل من توبة تعلمونها لهذا الصاحب . . .»

والقضية طريفة ، وهي قضية اجتماعية ، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون ، وخاصة حين يرزق السعادة ، فإنه لن يترك صديقه يعاني بؤس الحياة ومرارتها ،

(١) عيّر : كال من الكيل .

(٢) الغرير : الفر الذي لا تجرّه له .

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهي وعاء من الخيش يجعل

(٤) نشر العرف ٨١٣/٢ .

بل سيأخذ بيده ، ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن . حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه ، وكأن لم يكن بينها عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة .

وتلقانا - من حين إلى حين - مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التي تركها الحريري وإنما بالصورة التي تطورت إليها فيما بعد من المناظرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف والشتاء ، قصداً لبيان القدرة الأدبية ، وفي الجزء الرابع من نفحة الريحانة مقامة طريفة للسيد محمد بن حيدر على لسان الفقر والغنى جعل فيها الفقر يتفوق على الغنى في العلم وتحصيله .

القسم الثاني

العراق





## الفصل الأول

### السياسة والمجتمع

١

البويهون والسلاجقة والخلفاء العباسيون .

البويهون <sup>(١)</sup> أسرة فارسية تُنسب إلى بويه ، وهو فارسي ديلمى ، ويقال إنه كان صياداً على بحر قزوين ، وكان أبناؤه على والحسن وأحمد من حوله يَحْتَطِبُونَ . ونزاهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون - ملقأهم فيما يبدو - إلى الملك الساساني بهرام جور . ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة ما كان بن كاكى ، حتى إذا انتصر عليه مرداويج الزيارى صاحب جرجان تحولوا إليه ، وأيدوه في حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطبرستان ، فولَّى علياً الكرج في الجنوب الشرقى من همدان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأرجان واتخذ شيراز مقراً له . وقُتل مرداويج في سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصفهان والرَّيِّ اللتين كانتا تابعتين له وتولى الحسن شئونهما وشئون بلاد الجبل ، واستولى أخوهما أحمد على كرمان ، وظل يتقدم تدريجاً نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط ، وفي هذه الأثناء كانت الجماعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم ، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ . ورحَّب به الخليفة المستكنى منقداً ومخلصاً ، ومنحه إمرة الأمراء ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه علياً صاحب فارس وشيراز عماد الدولة والحسن صاحب بلاد

القرن الرابع الهجرى لآدم ميتر (طبعة القاهرة) ص ٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٤٤ وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشوارى ومادة بنى بويه في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الدولة البويهية تجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبى شجاع والمتنظم لابن الجوزى وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وأحسن التقاسيم للمقدسى في مواضع متفرقة وابن خلكان في تراجم أمرائها وكذلك الجزء الثانى من كتاب التيممة للنعلى . وابن طحلط (الفخرى في الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية في

الجيل ركن الدولة ، وضربت ألقابهم على السكّة ، ودُكرت أسماءهم وألقابهم مع الخليفة في خطبة الجمعة . ومن حينئذ بالغ البويهيون في الألقاب الفخمة يُضفونها على أنفسهم وعلى وزراءهم . . ولم يكد الشهر التالي لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خُلع المستكفي وسُملت عيناه ، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله ، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين في عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْل ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم في خطبة الجمعة وعلى السكّة المضروبة . وكأنما أصبحوا مجرد صنائع في أيدي البويهيين يسبغون عليهم الرواتب بالمقدار الذى يريدون .

وظل معز الدولة يلى شئون بغداد والعراق والأهواز وكرّمان إلى أن توفى سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بختيار ، وكان شديد البأس شجاعاً يمكسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان في سنة ٣٦٤ على صداق قدره مائة ألف دينار . وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً . فألت ولاية إلى أخيه ركن الدولة ، فنجح ابنه عضد الدولة . وتوفى ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان وشيراز ، ولأخيه مؤيد الدولة الرى وأصفهان ، ولأخيها فخر الدولة همذان والدينور ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، ولم تلبث الأمور أن ساءت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة ، فاشتبكا في حروب ، قُتل فيها بختيار في شوال سنة ٣٦٧ . وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق في حوزة عضد الدولة منذ هذا

### التاريخ .

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بني بويه ، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته وهو أول من خُطب له - فيما يقال - على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقّب بشاهنشا (ملك الملوك) في الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقّبون بهذا اللقب ، وكانت فيه قسوة شديدة ، وما يصور ذلك رمية بابن بقية الوزير تحت أرجل القبلة حين سلّمه إليه بختيار لأمر ساءته ، فقتلته بأرجلها شرقتلة . وقد قضى على لصوص الطرق قضاء مبرماً وأعاد الأمن إلى نصابه في صحراء كرمّان وصحراء جزيرة العرب ، ورفع عن قوافل الحجاج الحباية واحتفر لهم الآبار في سبلهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصينا ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد ، وألزم أصحاب العقارات تشييد بيوتهم وأقرض من قصرته يدها من بيت المال وخاصة من كانت بيوتهم تقع على شاطئ دجلة ، وعنى بالبساتين فامتلت خرابات بغداد بالزهر والخضرة ، وجلب

إلى بغداد الغروس في سائر البلاد، وعنى بجداؤها وجسورها، وأنشأ سوقاً للبرازين. وبنى مارستاناً كبيراً ببغداد، وأجرى الرواتب على العلماء من كل صنف، وكان عادلاً سيوساً يحسن اختيار ولاته وعماله، وكانت جريباته متصلة على الفقراء والمساكين. غير أن مدة حكمه لبغداد والعراق لم تطل، فقد توفى سنة ٣٧٢، وكأنها لم تنعما بحكمه إلا خمس سنوات متصلة. وكان قد قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة: شرف الدولة وضمصام الدولة وبهاء الدولة، وهو تقسيم أثبتت الأيام دائماً أنه نذير بضياع الدولة واختلال شئونها، وتولى شئون بغداد والعراق ضمصام الدولة يعاونه وزيره أبو عبد الله بن سعدان صاحب أبي حيان، ولم ينجح أمر ضمصام الدولة وغلب عليه أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٦ وقهره وحجسه وأخذ بغداد منه، ويتوفى شرف الدولة سنة ٣٧٩ بعد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة وضيء الملة الذى ظل حاكماً لبغداد والعراق حتى وفاته سنة ٤٠٣ وكان - كما يقول المؤرخون - ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء، وقد قبض على الخليفة الطائع سنة ٣٨١ وخلعه من الخلافة، وولاه القادر بالله، ولم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقيح سيرة، ويقال إنه جمع من المال ما لم يجمعه أحد. وتوزعت الدولة بعده بين أبنائه الأربعة: مشرف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبى شجاع سلطان الدولة وهو الذى ولى بغداد بعد أبيه بعهد منه، وظل يلى شئون ولايته حتى سنة ٤١٢ حين عظم أمر أخيه مشرف الدولة وعلت كفتته، فخطب له ببغداد فى الحرم وخطب بشاهنشاه. ويدور العام، فيتم الصلح بين الأخوين، ويعود ذكر سلطان الدولة إلى الخطبة، ويتوفى سلطان الدولة فى سنة ٤١٥ ولا يلبث أخوه مشرف الدولة أن يتوفى بعده فى سنة ٤١٦ وتصبح بغداد خالصة هى والعراق لأخيهما جلال الدولة، ويستوزر أباسعيد بن ماكولا، ويلقبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك، مما يصور مدى تغالى البويهيين فى الألقاب، ويطول حكم جلال الدولة حتى وفاته سنة ٤٣٥ ويختل الحكم فى أيامه ويختل السلطان حتى يبلغ من ذلك أن يستولى العيارون واللصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون بها أفعالاً قبيحة، واختلت الشئون المالية، وبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال الدولة ثيابه وماعون بيته وآلاته فى الأسواق، وختل داره - كما يقول ابن الجوزى - من الحجاب والفراشين والبوابين. وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز، وكان شجاعاً فاتكاً مشغولاً باللهو، وفى عهده أخذ المد السلجوقى يزداد حتى شمل أكثر إيران، مما جعله يموت غماً سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم، وبلغ من ضعفه أن جرّده أحد قواده الأتراك، ويسمى البساسيرى، من سلطانه

كله ، وأحسن الخليفة العباسي القائم بأمر الله بخطره ، وعرف أنه يكتب سراً الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر ، وأنه يدبر أمرا خطيرا . وكانت الدولة السلجوقية قد أخذ يعظم شأنها في خراسان بقيادة طغرل بك ودانت لها خراسان وشطر كبير من إيران ، فكتب إليه الخليفة يستنهضه إلى المسير إلى بغداد سنة ٤٤٦ ، وأمر أن يذكر اسم طغرل في الخطبة وعلى النفود قبل اسم الملك الرحم . ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البيهية .  
والسلاجقة (١) شعبة من الأتراك العز الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سلجوق منذ

سنة ٤٢٠ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية ، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يقضون مشتاهم بالقرب من بخارى ومصيفهم بالقرب من سمرقند . وقد اعتنق سلجوق الإسلام السني وتبعته قبيلته . ويقال إن السلطان محمود الغزنوي دعاهم إلى الإقامة في الأقاليم المحيطة ببخارى ، غير أنه عاد فتوجس منهم شراً ، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق ، وحسبه في قلعة ببلاد الهند ، ظل بها حتى مات . وتوفى محمود . وفكر السلاجقة في الثأر فانقضوا على بخارى . وهزموا جيوش مسعود بن محمود . وأعلن طغرل بك نفسه ملكاً على خراسان في صيف سنة ٤٣٠ للهجرة ، ودانت له مرو ونيسابور ، ولم يلبث مسعود أن توفي سنة ٤٣٢ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طبرستان وسجستان وهرآة وبُست وأخذ طغرل يولّي أبناء أسرته وعمومته على البلاد ، واتخذ الرئى حاضرة له . واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كى يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا ، فدخلها في سنة ٤٤٧ وهرب منها البساسيري ، وخلع عليه الخليفة خلعاً سنياً وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة فاخرة ، وكان البساسيري قد فرّ إلى الشمال فتعقبه طغرل بك حتى الموصل ، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن ينال خرج عليه في همدان ، وعرف البساسيري كيف يستغل الفرصة ، فوضع يده في يد أحد أمراء بنى عقيل ، وهو قريش بن بدران ، واستوليا على بغداد وأمر الخنطاء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة ، وكذلك صنعا بما استوليا عليه من

(١) انظر في السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تغرى بردى في مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى . ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي والدكتور عبدالنعم حسن (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر في السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تغرى بردى في مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى . ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي والدكتور عبدالنعم حسن (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر هوتسا بليدن وتاريخ دولة آل سلجوق للعقاد الأصبهاني (مختصر البنداري) ووفيات الأعيان

المدن . وأخرج البساسيري الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة ، ولكن طغرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً ، مما جعل الخليفة يلقبه بلقب ملك الشرق والغرب .

وطغرل هو أول ملوك الدولة السلجوقية العظام ، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية ، وتوفى بمدينة الرى سنة ٤٥٥ ف خلفه ابن أخيه ألب أرسلان بن جُغرى بك ، كان اسمه بالعربية محمداً ، ولُقّب بالملك العادل ، ويقال إنه أول من لُقّب بالسلطان من بنى سلجوق ، ودُكر على منابر بغداد ، وكان شجاعاً مطاعاً ، وهو أعدل بنى سلجوق في الرعية ~~لقد~~ وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً ، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق ، وقاد حملات مظفرة ضد

دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ في موقعة دمر فيها الجيش الرومى تدميراً . ويقال إن جيشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومى في تلك الموقعة يتألف من مائتي ألف رجل من يونان وأرمن وقوقاز وروس وغيرهم . وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة ، على أن تلبية جنود الروم إذا طلبها ، وأن تُردّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم . وكان مدبر مملكته وزيره نظام الملك ، وكان حصيفاً وافر العقل ، وسياسياً حكيماً بصيراً بتدبير الأمور ، محباً للعلم ، وقد بعث في دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية ، أقامها في كثير من البلدان ، وعنى خاصة بمدرسه النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نيسابور وغيرها وفي مقدمتهم أبو إسحق الشيرازى والغزالي وغيرهما من كبار العلماء . وخلف ألب أرسلان حين توفى سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه ، وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وفرّق البلاد على أولاده ، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه . وكان مظفراً ، استولت جيوشه على كثير من البلاد ، حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين ، فكانت مملكته تشمل على جميع بلاد ماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتد من مدينة كاشغر - وهي أقصى مدينة للترك - إلى بيت المقدس طولاً - كما يقول ابن تغرى بردى - ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سيرة ، وبالمثل كان وزيره نظام الملك ، ويروى أنه لما تسلطن خرج عليه عمه « قاورد بك » صاحب كرمان ، فحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له : أمراؤك كاتبون وأبرز له مكاتبات ، فأخذها ملكشاه وأعطاهما إلى وزيره نظام

الملك ، فتناولها منه وألقاها في موقد نار كان بين يدي ملكشاه فاحترقت . فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة ، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك . وكان ملكشاه مولعاً بالعائر ، فعمّر الأسوار والقناطر وحضر الأنهار ، وأبطل المكوس في جميع بلاده ، وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة ، وهو الذي عمّر جامع السلطان ببغداد سنة ٤٨٥ وكانت الطرق في أيامه آمنة ، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في مملكته وليس معها خفير .

وتزوج الخليفة المقتدى بابته سنة ٤٨٠ . ويقول ابن خلكان : كان اليمن والبركة مقرونين بناصيته ، وكان إذا دخل بغداد أو أصهبان أو أى بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرتة ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله . ويتكسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير . وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات . وتوفي ببغداد في شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصهبان ودفن في مدرسة موقوفة على الشافعية والخنفية . وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام ، وخلفه ابنه بركياروق ، وكان أخوه السلطان سنجر نائبه على خراسان ، ودخل في حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان ، وكانت كفته دائماً الراجحة ، وحاربه عمه تثنش صاحب دمشق ، وقتل في بعض المعارك : ودوخ الإسماعيلية الباطنية في إيران ، وقتل منهم كثيرين ، وكان على الهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفي سنة ٤٩٨ . وخلفه أخوه محمد ، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم ، ويقول ابن خلكان : « له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للظائفة الملحدة ( يريد الإسماعيلية ) والنظر في أمور الرعية » . وتوفي سنة ٥١١ . وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يومئذ في سن الحلم ، وكان قوى المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسيرة شديد الميل إلى أهل العلم والخير ، وهو ممدوح حيص بيص الشاعر المشهور ، ويقول ابن خلكان إن السلطنة ضعفت في أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعى أو الشرائى ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته .

وتوفي سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير في المهدي ، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طغرل ، وتوفي سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود . وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل : مودود ثم آق سنقر ثم جوش بك ، وكان شجاعاً ، غير أنه أقبل على

الاشتغال بالذات ، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ و قتل من الأمراء خلقاً كثيراً ، ومن قتلهم الخليفتان لعهد المسترشد بالله والراشد . وفي هذا ما يدل على أن السلاجقة استهانوا بخلفاء بني العباس ولم يدعوا لهم حوّلاً ولا طوّلاً ، إذ استخلصوا منهم كل شيء حتى حق الحياة . ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية ، وكأنه يختم دولتهم في العراق ، أو قل كأن قتله للخليفتين المسترشد والراشد كان إيذاناً بانتها الدولة السلجوقية ، وأقيم بعده في الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولم يلبث أن توفي بعد خمسة أشهر من حكمه .

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ أخذ البيت السلجوقي يضعف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث . وابتدع السلاجقة نظام الأتابكة ، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم ، وكانوا يجعلونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيصبحون هم الحكام الحقيقيين ، وليس ذلك فحسب ، فكثيراً ما تنافسوا فيما بينهم ، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأمره الذي في رعايته بالسلطنة ، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهروا بعضهم في وجوه بعض ، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة ، وبذلك ضعفت الدولة أو أخذت في الضعف سريعاً .

وكانت تُمنح لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطعها الدولة لهم ، حتى يساعدها بما تحتاج إليه من مال وجُند . وانتزح بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثية في أسرهم . نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية في ديار بكر والجزيرة وبلدانها ميافارقين وآمد وحصن كيفا وحرّان وماردين ، كما نذكر منهم بني زنكي في الموصل وهم الفضل الأكبر في القضاء على الصليبيين فإن « زنكي » الملقب بعماد الدين هو الذي افتتح سلسلة دحرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على « الرها » من جوسلين الصليبي ، وبذلك سقطت أولى ممالكهم ، وتبعه ابنه نور الدين يحققهم محققاً في الشام ، وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سنجار وغيرها .

على كل حال كان طبيعياً أن تهبط الدولة السلجوقية بعد صعود وبأفل نجمها ، وقد حاول محمد شاه بن محمود السلجوقي في سنة ٥٥٢ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار ، أرغمه الخليفة المقتني وجنوده ، ولم يستطع السلاجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد ، بل انحازوا إلى همدان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حين . وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوبي الموصل استقلالها ، ورُدّت إلى الخلفاء حرياتهم وسلطانهم



وللمقتنى<sup>(١)</sup> (٥٣٢ - ٥٥٥ هـ) الفضل في عودة صولجان الحكم إلى أيدي الخلفاء العباسيين . وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولي أو التتارى سنة ٦٥٦ وكان المتنى عالماً أديباً دمث الأخلاق .

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وكان عادلاً محبوباً في الرعية أزال المظالم والمكوس . وولى الخلافة بعده ابنه المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته . وفي أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه في مصر والثغور الشامية ، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها ، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد . وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وفي عهده سحق صلاح الدين الصليبيين في الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون . واستطاع عبد الجبار البغدادي في أيامه أن يجول جماعة الفتاك الذين كانوا يرهبون الناس في بغداد وينهبون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة ، واتخذ لهم سراويل مخصوصة ، وبذلك أحلهم إلى جماعة حربية ، واستنفر فئات منهم كثيرة للجهاد الصليبيين في الشام مع الأيوبيين ، ورعى الناصر الجماعة خير رعاية ، وانضم إليها ولبس سراويلها ، وأرسل بها إلى ولاته كي يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين . ومن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناؤه ، فلبسوها ، ولبسها شهاب الدين صاحب غزنه والهند .

وتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر ، ولا يدور العام حتى يتوفى ، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة . ونشر السنن وكفّ الفتن . وأخذ سيل المغول أو التتار يتعاضم في عهده ويكتسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة . وولى الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) وكان ضعيفاً جاهلاً بتدبير الملك ، استوزر مؤيد الدين بن العلقمي ، وكان رافضياً حربياً على زوال الدولة ، فكاتب هولاء وأرسل إليه أخاه وغلामه ، وسهّل عليه فتح العراق وأخذ بغداد .

وسارع هولاء ، وهاجم بغداد ، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد ،

الخلفاء للسيوطي (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هندواي وفؤاد عبد المعطي الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) .

(١) انظر في مقتنى والخلفاء العباسيين التالين تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن تغرى بردى وابن خلدون والبداية والنهاية لابن كثير والعبر في خبر من غير للذهبي (طبع الكوكيت) وخلاصة الذهب المسووك للإربلي (طبع بغداد) ومآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندى وتاريخ

وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم أن يخرج للقاء هولاءكو ومفاوضته ، فقتله خنقاً ، ودخل التتار بغداد وظلوا يعملون السيف في أهلها أربعة وثلاثين يوماً ، حتى بلغ عدد القتلى نحو ثمانمائة ألف ، وخربت بغداد خراباً لا حد له ، وأحرقت بها كتب العلم والأدب ، وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها ، وراثها الشعراء مرثى كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقي الدين التنوخي ، وفيها يقول :

يا زائرين إلى الزوّراء لا تَفِدُوا فما بذاك الحمى والدارِ ديارُ  
 وذاق ابن العلقمي الذل والهوان من التتار ، كما ذاقها أيضاً من مآلها من حكام الموصل والجزيرة ، وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ . وكان الأمير الزنكي أستاذه الملقب بالملك القاهر صاحب الموصل قد توفي سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين وسنه عشر سنوات ، وكان قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتاكبا له ، ولم يلبث نور الدين أن توفي ، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين ، وله من العمر ثلاث سنوات ، وما زال يعمل على تثبيت سلطانه ، حتى ملك الموصل في سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية . وما إن تدافعت أمواج التتار نحو أذربيجان حتى أخذ يمدهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم بتقدم هولاءكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر قليلاً ، فما كان من هولاءكو إلا أن حَزَّ رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه ، فذهب إليه هلعاً فرعاً يحمل الهدايا ، وتوفي بدر الدين في سنة ٦٥٧ . ولم يلبث هولاءكو أن اجتاحت الموصل بجيوشه ، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتهما المتكررة ، وأصبحت العراق كلها في حوزة التتار .

## ٢

## الدول : المغولية والتركانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التتار قبائل رُحَّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين ، واستطاع أحد أبناءها وهو جنكيز خان أن يجمعها تحت لوائه ، وأن يفتح بها الصين وبكين ، حتى إذا تم له ذلك وجه جموعه نحو فارس فاستولت على بخارى ومملكة خوارزم وزحفت سيولها إلى الرِّيِّ وهذان ، مستولية على شمالي فارس فيما بين سنتي ٦١٦ و ٦٢٥ للهجرة وتوفي في السنة الأخيرة بالصين . وخلفه ابنه أوكدي (٦٢٥ - ٦٣٩) الذي استطاع أن يُخضع روسيا وبولندا لحكمه ، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولى بعده ابن عمه منكو ، وهو

الذى أرسل بأخيه هولاكو إلى إيران ، ففضى فيها على الإسماعيلية الحشاشين ، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه ، ولم يكف بها ، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد ، ولم يلبث أن خرَّب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦ ، واتخذ هولاكو لقب ( إيل خان ) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل دولتهم تسمى الدولة الإيلخانية ، بينما انتسب المد المغولى الثانى فى إيران والعراق إلى تيمورلنك ، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية ، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين : الدولة الإيلخانية والدولة التيمورية .

### الدولة المغولية الإيلخانية<sup>(١)</sup>

تنسب هذه الدولة إلى هولاكو ( إيلخان ) الذى أطبقت جموعه على بغداد والعراق فى سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية . ومضوا فى سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام ، وسلمت لهم دمشق ، وسقطوا إلى فلسطين فى الجنوب ، فلقبهم الجيش المصرى بقيادة قُطر والظاهر بيبرس فى عين جالوت بالقرب من نابلس ، ففرق جموعهم تمزيقا ، وقتل قائدهم ، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار ، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام فى الشمال . وبذلك رُدَّ سيلهم عن الشام ومصر إلى غير مآب . ولم يملك هولاكو - كما قدمنا - ملكاً مستقلا فقد كان نائباً عن أخيه منكو ، ولم يضرب باسمه مستقلا سكة درهم ولا دينار ، بل كانت تضرب باسم أخيه . وكان وثنيا كأجداده وقومه ، غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجته النصرانية : « دُفوز خاتون » ومات سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه « أبغا » . ولما ملك أضاف اسمه إلى اسم الخان الأكبر فى بكين ووجه أخاه منكو تَمَّر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص « بقيادة فلاوون وهُزم هزيمة منكرة فلما بلغت الهزيمة أبغا سنة ٦٨٠ رجع إلى همدان فمات بها عمًا وكمدًا . وخلفه منكو تَمَّر ، وكان نصرانيا ، ولم يلبث أن مات بنفس الكمد والغم . وملك بعدهما

الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ( ترجمة الشواربى ) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالد ويلز ص ٦٥ والعراق فى عهد المغول الإيلخانيين لمعفر خصباك ( طبع بغداد ) .

(١) انظر فى هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة والجزء الثانى من دول الإسلام للذهبي ( طبع حيدرآباد ) وجامع التواريخ لرشيد الدين المهدانى ( الترجمة العربية ) ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري والجزء الرابع من صبح الأعشى وتاريخ

أخوهما بوكدار بن هولاء سنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه ، وتسمى أحمد ، وبنى بمالكة الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذي فرح بإسلامه . وحاول أن يحمل عسكره على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه « أرغون بن أبغا » حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة ، وولى الملك بعده أخوه « كيختو » فأفحش في الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمه بيبدو بن طرغاي بن هولاء وقتله سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره في أواخر هذه السنة ، وملك بعده غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاء ، وأسلم في سنة أربع وتسعين ، وتسمى محموداً ، واحتفل بإسلامه ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس ، وأسلم غالب جنده وعساكره ، وفشا الدين الحنيف بإسلامه في ممالك التتار ، وقد اختار المذهب السنّي .

وهو أجل ملوك المغول من بيت هولاء ، ودخلت جيوشه الشام في سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون ، وملك الشام ، ولا نمضي إلى سنة ٧٠٢ حتى يكيل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين ، إذ تنشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق ، ويدمر فيها جيش المغول أو التتار تدميراً ، وظلت الصرخات والنياحات في ديارهم - حين بلغهم الخبر - شهرين . واغم غازان غماً عظيماً ، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب . وكان من قبله منذ هولاء كويكمون باسم الخان الكبير في بكين ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله ، وكان الخراج يُفرض قبله حسب أهواء الجباة من حكام المغول فأمر بأن تُمسح الأراضي وأن يتخذ ذلك أساساً في فرض الضرائب حتى لا يُظلم أحد ، وأصلح النظام النقدي في الدولة وجعله نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة ، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها .

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينها بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلجياً عظيماً . وتوفي سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه « خدابندا » والعامّة تسمية « خربندا » وكان سنياً ثم أصبح شيعياً غالباً وأظهر الرفض في بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا في خطبهم إلا علي بن أبي طالب وولديه وأهل البيت ، وتوفي سنة ٧١٦ .

وخلفه بو سعيد ابنه ، وكان يعتنق المذهب الحنفي وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً ، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصنّف في ذلك ، وكان حسن السيرة ، أبطل عدة مكوس في مملكته وأراق الخمر في بلاده ومنع الناس من شرها وهدم الكنائس . وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة ، ومكاتبات ومراسلات ، توفي سنة ٧٣٦ . وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاء ، وبوفاته تفرقت المملكة بأيدي حكام

مختلفين ، وأصبحوا شبيهاً بمملوك الطوائف من الفرس . وفي مسالك الأبصار بعد ذكر بوسعيد : « ثم هم (أى التتار في إيران والعراق) بعده في دهياء مظلمة وعمياء مقتمة ، لا يُفَضَّى ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولا فسادهم إلى صلاح ، وفي كل ناحية هاتف ، يُدعى باسمه ، وخائف أخذ جانباً إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الخان أو القان ، وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ، ولا تتحقق دعوته حتى يُدعى فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب » . وفي سنة ٧٤٠ صارت بغداد والعراق بيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أقبا ، كان جده رقيقاً لهولاكو . وتوفي سنة ٧٥٧ .

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس ، وهو سبط أرغسون بن أبغا أو ابن ابنته ، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفي سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين ، وكان قد ولاه مكانه في أواخر أيامه ، وكانت العراق في عهده مطمئنة معمورة ، وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده ، وتلقب بالسلطان غياث الدين ، وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف في قتل أمرائه وبالغ في ظلم الرعية وأنهمك في الفجور والفساد ، فكتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد ، فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار الشامية ، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقه فأعانه على استردادها في السنة التالية ، وسرى في حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره .

### الدولتان : المغولية التيمورية<sup>(١)</sup> والتركانية

قاد الموجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود في «كش» من بلدان ما وراء النهر ، وهو ينحدر من سلالة جنكز خان ، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان أبوه والياً لكش وأعمالها ، وكان طموحه واسعاً ، فعمل على جمع زمام الأمور في يده لا في كش وحدها ، بل في كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧١ جميعاً في قبضته ، ثم أخذ يعدُّ العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة ٧٨٢ ومضى في سنة ٧٨٤ يستولى على مازندران وسجستان وجرجان ، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذربيجان سنة

ترجمة في المنهل الصافي ٢٣٢/١ ، وراجع تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية في تيمور وأوزون حسن التركياني ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولير .

(١) انظر في تيمور وحكام بغداد بعده احمد بن أويس والتركان ابن عريشاه في كتابه «عجائب المقدور في نواب تيمور» وابن تغرى بردى في الجزء من الثاني عشر والثالث عشر وخاصة في ٢٥٤/١٢ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس

٧٨٨ وأخذ يفتح البلدان في شمالي العراق ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد ، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق في الشام وخرَّب تيمور غالب العراق ومدنه : بغداد والبصرة والكوفة ، وقصد الشام في سنة ٧٩٨ ورجع خائفاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلغت في روسيا واستولت على موسكو ، وسار إلى الهند في سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهي بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفاً ، وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين ، ومثله قرأ يوسف عاد إلى نيابته على الرُّها في الجزيرة . وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر برقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربي من آسيا الصغرى ، فرأى أن الظفر بمملكتهما أصبح قريباً ، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً ، فاستناب بالهند من يثق به من أمرائه ، وعاد إلى سمرقند . ثم خرج منها مسرعاً في أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه . وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة ، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرا يوسف التركماني صاحب تبريز والرُّها وديار بكر ، وعاد معه إلى بغداد . وصيَّف تيمور في بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخرَّبها ومحا رسومها . ثم قصد الديار الشامية ، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف في جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى ، وعمل تيمور - فيما يقال - من رءوس القتلى منائر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديداً ووعيداً . ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأيسها ، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حماة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات ، واتجه إلى دمشق وواقعه جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلاً ، ولم يلبث أن وقَّع مع أهل دمشق صلحاً ، ودخلها هو وجنوده وغدر بهم فأشعل جنوده بها النار ، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموي ، وصارت أطلالا بالية ورسوماً دائرة كما يقول المؤرخون . وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً ، ثم رحل عنها في شعبان سنة ٨٠٣ وظل في انسحابه مع جنوده من الشام ، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد ، وكان أحمد بن أويس قد استناب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً ، واتجه هو وقرايوسف صاحب الرُّها نحو آسيا الصغرى ، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد ، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة ، ووضع السيف في البغداديين ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، ويقال إنه قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان ، وبني من رءوسهم - على عادته كلما دخل

مدينة عنوة - مآذن كثيرة .

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى آسيا الصغرى وحرب بايزيد العثماني ، وانضم إلى جيشه التركان في قيسارية وسواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب من مع بايزيد من التار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته ، فوعده أن ينضموا إليه حين تدور رحى الحرب بينه وبين بايزيد ، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم ، فانضموا إلى تيمورلنك . والتقى الجيشان في الشمال الشرق من أنقرة في التاسع عشر من ذى الحجة عام ٨٠٤ وانفض عن بايزيد جنوده التار منضمين إلى تيمور كما وعده وكانوا معظم عسكره ، وتلاههم ولده عثمان الذي عاد بجنده إلى مدينة بروسة ، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فثبت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار ، وأكرمه تيمور ، وأسف لموته في شعبان سنة ٨٠٥ وأذن بدفنه تكريماً له في جامع بروسة .

وعاد تيمور إلى سمرقند عاصمته ، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قشتالة . وزين عاصمته بالقصور الفخمة مستعيناً بمن جلبهم إليها من تائي الفرس وغيرهم ، وكان يعطف بوصفه مسلماً على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النقشبندية وقد استطاع فعلاً أن يستعيد مملكة جنكيزخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين ، فأرسل إليها حملة في سنة ٨٠٧ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفي في شعبان من نفس السنة بإحدى المدن فيما وراء النهر ، ونُقل إلى عاصمته ودفن بها في ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم .

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه : شاه رخ وميران شاه ، وكان للأول النصيب الأكبر فحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران ، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكرج أو جورجيا ، وكان يخضع لسُلطان أخيه ، ولم يلبث أن قُتل في حربه مع قرايوسف التركماني صاحب تبريز سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م فدخلت بلاده في حوزة أخيه ، فأصبح يحكم كل مملكة أبيه تيمورلنك ما عدا الشام والعراق وعربستان ، وقد بسط سلطانه على الصين والهند ، وعاش طويلاً حتى سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٧ م وكان يرعى العلوم والآداب في مملكته الواسعة .

وخلفه ابنه أُلغ بك وكان عالماً فلكياً واهتم برعاية الأديب الفارسي والتركي غير أنه قتل بعد سنتين بيد ابنه عبد اللطيف . ويتتاب الدولة التيمورية اضمحلال سريع ، ويتقاتل

الإخوة وأبناء العم ، ويستولى على صولجان الحكم بوسعيد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ويستقر زمام الحكم في يده ويقتل في حرب طاحنة مع أوزون حسن صاحب ديار بكر وأرمينية في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م وتعود المملكة إلى الاضطراب . وقد استطاع شيباني زعيم الأوزبك في سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م خلع بابر حفيد أبي سعيد عن عرشه في سمرقند ، فهاجر إلى الهند وأسس بها دولة المغول العظام .

وأما العراق وبغداد فعادتا بعد وفاة تيمور إلى أحمد بن أويس وتنشب حرب بينه وبين قرايوسف التركاني صاحب تبريز ويختر في ميدانها صريعا سنة ٨١٣ وتقع العراق وبغداد في قبضة التركانيين بزعامة قرايوسف حتى وفاته سنة ٨٢٣ ويتوارثها عنه أبناؤه وأحفاده ، وفي أيامهم ودولتهم عممها الخراب لفساد حكمهم حتى ليقول ابن تغري بردي : لا أعلم في طوائف التركان أقبح طريقة ولا أسوأ أسيرة من أولاد قرايوسف ويتزعجها منهم في سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م أوزون حسن المار ذكره وكان تركانيا واسع الطموح ، فوضع نصب عينيه إنشاء دولة قوية لا يكتفى فيها بمقر حكمه وهو ديار بكر ، بل تتسع لتشمل أرمينية وإيران والعراق ، ودخل في حروب طويلة مع العثمانيين . وفي هذه الأثناء كانت أسرة صوفية في أردبيل قد أخذ نفوذها يتسع منذ عهد مؤسسها الشيخ إسحق صبي الدين ، وبلغ حفيده خوجا على من الشهرة بالتقوى ما جعل تيمورلنك بعد انتصاره على بايزيد العثماني يقف أردبيل وضواحيها عليه وعلى عقبه . وسرعان ما تحولت إلى ما يشبه إقطاعاً لهم ، وعقد أحد أحفاده المسمى حيدراً صلة وثيقة بينه وبين أوزون حسن ، وزوجه أوزون ابنته مارثا وأنجب منها ابنه إسماعيل الذي أتيح له أن ينشئ لأسرته الصفوية دولة وطيدة في إيران .

### الدولة الصفوية<sup>(١)</sup>

كان حيدر بعيد النظر ، فأعاد تنظيم طريقة آباءه الصوفية الشيعية على أسس جديدة ، متخذاً لها شعاراً للرأس ، أو بعبارة أخرى عمامة سُميت تاج حيدر الأحمر ، وهي عمامة ذات اثنتي عشرة ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعي إمامي اثني عشري . وما وافت سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م حتى بدأ حملاته الحربية ، فقاتل الجراكسة واشتبك في سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م في حرب مع صهره يعقوب بن أوزون حسن وسقط قتيلاً في المعركة ،

(١) انظر في الدولة الصفوية تاريخ الموصل لصايف وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة الفارسية في العراق لنعمان الأعظمي وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولير .



وتوفى يعقوب بعده بنحو سنتين وتصارع أولاده واشتبكوا في حروب دامية ، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كى يعود لهم نفوذهم من جديد .

وتطورت الظروف سريعاً ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن العاشر الهجرى حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بثار أبيه ، ويمد سلطانه تدريجياً على شيروان وأذربيجان ويأخذ في تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تبريز في سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ويتوج فيها ملكاً (شاه) على إيران . وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الاثني عشرية مذهب الدولة الرسمي . ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبى بكر وعمر وعثمان . وأخذ يُعدّ العدة لمنازلة مراد خان التركمانى صاحب بغداد والعراق ، وكان قد هزم أخاه ألؤند هزيمة ساحقة في أذربيجان واستولى منه على فارس ، وما توفى سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق ، ويفر مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثمانى . ومضى في سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ إلى الشرق لمحاربة شيبانى زعيم الأوزبك والتقى قرب مرو ، ودارت الدوائر على شيبانى وجنده وسقط صريعاً في الحرب ، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل ، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً ، ووضح للعيان أنه لا بد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعى الإمامى وبين دولة السلطان سليم العثمانى السنى ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان قد بالغ في اضطهاد أهل السنة ، مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعية . والتقى الجيشان الصفوى والعثمانى بالقرب من تبريز بوادى جالداران في المحرم سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ومنى الشاه بهزيمة منكرة ، وفتحت عاصمته «تبريز» أبوابها للسلطان سليم ، واضطرّ الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً ، ولم يفكر بعد ذلك في حرب العثمانيين إلى أن توفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م وخلفه ابنه طهاسب وهو في العاشرة من عمره ، وطالت مدته في الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين في الشرق والعثمانيين في الغرب . واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهاسب سنة ٩٣٠ وتظل في حوزته حتى سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م إذ استعادها طهاسب ومضى في اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثمانى يوجّه في أواخر سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م حملة إلى تبريز ، فستولى عليها ، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها في أول المحرم سنة ٩٤١ . وبذلك ينتهى عهد الدولة الصفوية في العراق .

## الدولة العثمانية (١)

تم للسلطان سليمان العثماني الاستيلاء على العراق وبغداد في سنة ٩٤١ ورفرف العلم العثماني على البصرة في سنة ٩٤٦ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية ، بل قل ولايات عثمانية ، إذ قُسم إلى أربع ولايات . ولاية البصرة ، وولاية بغداد ، وولاية شَهْرزور ، وولاية الموصل . وفي حقب متفاوتة عُدَّت الأحساء والبحرين ولاية خامسة ، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر . وقسمت كل ولاية إلى ألوية ، على رأس كل لواء سنجق أو أمير لواء . وكان الوالي يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشؤون الإدارية ، وكان يعاونه عدد من الموظفين ، في مقدمتهم « الكتخدا » وهو مدير مكتبه الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته ، و « الدفتر دار » وهو مدير الخزانة ومدبّر الشؤون المالية . وكانت هناك دواوين مختلفة ، أهمها ديوان الروزنامه أي ديوان الدفتر اليومي ، وكان به كثير من الكتّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأرقام .

وكان يوجد بجانب الوالي قاض كبير يتبع قاضي القضاة في الأناضول ، وكان للقاضي نواب كثيرون في كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء . ويشرف القاضي على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية .

وكانت توجد بجانب الوالي قوة عسكرية أساسية تحمي المدن والقلاع ، وتُعدّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأسرهم في حروبها بأوروبا ، وهم لا يزالون غلماناً وتربيتهم تربية عسكرية ، وكانوا يُمنحون إقطاعات ، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها ، فلم تُرد إلى الدولة . وكانوا كثيراً ما يؤذون الناس في بغداد والعراق ويتعدّون عليهم . وكان يوجد بجانبهم للولاة جند يحصلون عليهم بطريق الأسر أو الشراء .

ويعرّك الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أدوار : الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١ هـ /

١٥٣٤ م إلى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وأهم الأحداث في هذا العهد فتن الحند كل حدث

في عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م فقد ثاروا على والي بغداد بزعامة ضابط يسمى بكرّاً برتبة

على الصوفي ( طبع الموصل ) والعراق : دراسة في تطوره السياسي لقيليب إيرلند ترجمة جعفر خياط ( طبع بيروت ) وإمارة العاقبة للدملوجي ( طبع الموصل ) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ - ١٩١٨ الجزء الأول - للدكتور عبد الكريم محمود نغرابية ( طبع دمشق ) .

( ١ ) انظر في الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ البصرة لنعمان الأعظمي وعشائر العراق لعباس الغزالي ( طبع بغداد ) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصري ( طبع القاهرة ) وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط ( طبع بيروت ) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ، والماليك في العراق لأحمد

سوباشي وقتلوا الوالي يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربه الدولة ، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوى ، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وقتل بكراً ونكل بأهل السنة واعتقل الألوف منهم ، وحاول شيعة بغداد مخلصين إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة .

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق ، غير أن البصرة استعصت عليه ، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالاً ذاتياً عن العثمانيين من ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٧ م إلى ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوى دفاعاً مجيداً فارتدت عنها .

وظلت بغداد وبقية العراق مع الإيرانيين نحو خمسة عشر عاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م وفي هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرتغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م وبالمثل سمحوا للإنجليز في سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م بتأسيس وكالة تجارية لهم ، وأغلقت سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ . وينتهى الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م كما مر بنا ، ويتبدى دور ثان سُمى دور المماليك ، وفيه تعرّضت العراق لخطر إيراني كبير ، أدّى إلى أن يتسلّم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكها الذين أخذوهما بضرب من التربة يشبه صنيع الدولة في إستانبول بالإنكشارية ، وكان حسن باشا قد تدرّج في مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً ، وولى بعض الولايات ، ثم نُقل إلى بغداد في سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتخاذ هؤلاء المماليك سنداً له . وكانت الدولة حينئذ مشغولة بجربوها في أوروبا مع الروس والبلقان ، فتركت لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكها إدارة بغداد والعراق .

وطبيعى أن تصبح المناصب العليا فيهما وقفاً على المماليك . وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه ، وكان الوالي منهم إذا وثق بأحد المماليك زوجه ابنته واتخذها « كتحذا » أو أميراً للأمرء ، حتى إذا توفى خلفه في الحكم . وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاية كان سبعة منهم من هؤلاء المماليك عرفنا أنه جدٍر بهذا الدور حقاً أن يسمى دور المماليك ، وآخرهم داود باشا . وكانوا في سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكثرون من التآمر ، مما زاد الأمن في بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد . ولما ساءت الأمور وتفاقم سوءها رأى الباب العالى في سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أنه لابد من ردّ الأمور إلى نصابها في العراق ، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت

على حكم هؤلاء المالك قضاء نهائياً . وبذلك تدخل بغداد والعراق في الدور الثالث من أدوار الحكم العثماني الذي أطلّ البلاد حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م . ويمكن أن تدخل الشطر الأكبر من هذا الدور في حقب العصر الحديث في العراق ، إذ هبّ جماعة من المصلحين في تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة ، واضطر السلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة . وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد في تركيا والولايات التابعة لها في العراق وغير العراق ، غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م لم يصدروا عن ذلك في حكمهم ، فظل الظلام والفساد محيّمين عليها إلى أن وليها مدحت باشا في السنة آتفة الذكر ، وكان معروفاً بنزعتة الإصلاحية وما قام به من خدمات عظيمة في ولايته على بلغاريا . ولم يكد يستلم مقاليد الولاية في العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة في إدارة الحكم ، فألغى نظام الالتزام وردّ الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة ، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب ، كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية ، وبنى مستشفى كبيراً ، ومدّها بخط للبرق ، وأصلح نظام الموازين والتقود بحيث تعد ولايته بحق البدء الحقيقي للعصر الحديث في العراق . وقد ظل العثمانيون في العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعنوا فيها أي عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية .

### الحالة الإجتماعية

#### ٣

#### المجتمع

كان المجتمع في بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أروستقراطية ، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم ويتلوها حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين ، ويدخل في هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين . وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحسبة ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة من الزراع والخدم والرقيق وأصحاب الحرف . ويسلك أهل الدمة في الطبقتين الأخيرتين عادة ، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة ، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث في عهد عضد الدولة ، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، الذي ترك له تدبير شؤون فارس بينما كان وزيره المدير لشؤون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله .

وكانت الطبقة الأولى تعيش في رخاء بل في ترف ، لكثرة ما كان يُصَبُّ في حجورها من الأموال ، عن طريق الضرائب التي كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة ، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع ، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التي تجبي على البضائع المنقولة وتسمى المكوس ، وهناك ضرائب على الأسواق والحوانيت . وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التي كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البويهيون ثم من خلفهم من السلاجقة والمسئولين على البلاد ، إذ منحوها لكبار القواد ، حتى قد يمنحونهم قرى برمتها . وهذه الإقطاعات العسكرية هي التي كانت شائعة ، وإحدى اثنتين إما أن تكون إقطاع تملك يورث وعلى أصحابه دفع العُشْر للدولة ، وإما إقطاع يُسْتَعْلَى طالما كان صاحبه حيا ، وكأنه كان منحة تُعْطَى للقواد بدلاً من رواتبهم . وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العُشْر ويلزُمون بإصلاح القنوات التي تمرُّ بأرضهم . وطبيعي أن كانت هناك ضياعٌ سلطانية للخليفة وللأمير البويهى وللحاكم لبغداد . وكانت هناك أراض موقوفة لأغراض دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين . وكان القاضي هو الذى يشرف على إدارة الأراضى الموقوفة . وحدث أن صادر عضد الدولة أراضى السواد الموقوفة <sup>(١)</sup> ، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف . وكان الوزراء كثيراً ما تصادر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبى <sup>(٢)</sup> وزير معز الدولة البويهى . وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوى الثراء . ويروى أنه في سنة ٣٥١ توفى رجل اسمه دَعْلُج تاركاً ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة ، ولم يمسّ أى مسٍّ ما خلفه من أوقاف .

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة ، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التي يُخزَنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع ، وديوان الخراج ، وديوان الأوقاف ، وديوان الجوالى أو الجزية التي كانت مفروضة على أهل الذمة ، وديوان الخلافة الذى كان يُنْفَق على القصر وماليكه وحجابه وخدمه وحرصه وكانوا يُعَدُّون بالمئات ، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة ، ومن ليس له وارث كانت الدولة تستولى على تركته . ثم ديوان الزمام وهو الذى يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيوش . وكان الخلفاء العباسيون ينثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفي أعراسهم ، كما حدث في زواج الخليفة الطائع لابنة بختيار ، وكان صداقها مائة ألف <sup>(٣)</sup> ألف

(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر بيروت) ١/٢٦٧ .

(١) أبو شعاع ص ٧١ .

(٢) مسكويه ٦/٢٥٨ .

دينار . واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة ، ويروى أنه حين تزوج الخليفة المقتدى بنتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً في موكب كبير كانت تُدقّ فيه الطبول والبوقات وتثرّ الأموال على الرعية<sup>(١)</sup> . وبالمثل حين زُفّت الخاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيّنَتْ بغداد ، وقد حَمَل جهازها ١٦٢ بعيراً و ٢٧ بغلاً<sup>(٢)</sup> سارت في شوارع بغداد بينا جواهر الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبتهجين . وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحف وأواني الذهب والفضة ، ويروى أنه حدث حريق في أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة ، فاستُخرج بعد إطفائه من تلك الأواني ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار ، وسبقه حريق في سنة ٦٠١ فبلغ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار<sup>(٣)</sup> .

وكانت نساء الخلفاء وجواريمهم يبالغن في زينتهن ، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضيء كانت تزين نعالها بالآلئ الكبار<sup>(٤)</sup> ، فما بالناس بما كانت تتخذه وراء ذلك من الحلى والجواهر . ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بثيابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته في شهر للزراكية والصاغة والبرّازين (تجار الملابس) والجوهرين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم<sup>(٥)</sup> . ويروى عن هذا الخليفة أنه نفح كبير حرسه علاء الدين الطبرسي ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهدها إليه<sup>(٦)</sup> ، ويقال إنه أُحصيت في عهد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التي وهبها الطبرسي للمليكة وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة<sup>(٧)</sup> . فقصرُ الخلافة بل كل حواشي القصر كانوا يعيشون في ترف شديد . وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، وكانت الأموال تُصبّ في حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم . ويقال إن ميزانية الدولة بلغت في عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير . وكان يُعنى ببناء القصور وعمارتها ، ويروى أن ميزانية الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي بلغت عشرين مليوناً من الدنانير<sup>(٨)</sup> ، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول في قصورهم إلى ترف ما بعده ترف ،

(١) المنتظم لابن الجوزي ٣٦/٩ وانظر كتاب العامة البدرى فهد ص ٢١٣ .

(٢) المنتظم ١٦٥/٩ .

(٣) دول الإسلام للذهبي (طبع حيدرآباد) ٨٠/٢ .

(٤) انظر مضار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تقي

(٥) بدرى فهد ص ٣٨٣ .

(٦) المنتظم ٧/٩ .

العباسي الأخير للدكتور بدرى فهد (طبع بغداد) ص ٣٨٢ .

(٧) مضار الحقائق ١٨٣ وبدرى فهد ص ٣٨٢ .

(٨) بدرى فهد ص ٢٥٢ .

(٩) بدرى فهد ص ٣٨٣ .

(١٠) المنتظم ٧/٩ .

الدين الأيوبي ١٢٣- وراجع تاريخ العراق في العصر

وظل ذلك بقصور الخلفاء في العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آنفاً . ولا شك في أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولي ، إذ أصبحت مع ما يتبعها من العراق ولاية ضمن ولايات متعددة يدبّر شؤونها الإيلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم . ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم ، بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية ، وعاد حقاً إلى بغداد شيء من النشاط في عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه ، بل قبل ذلك في عهد بوسعيد ، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم ، بل سرعان ما تردت في هوة من فساد الحكم . وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبناؤه ثم أوزون حسن كما أسلفنا ، وأصبحت إحدى الولايات في الدولتين الصفوية والعثمانية . وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ وقال إنه ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها وإنها أصبحت كالطلل الدارس والأثر الطامس<sup>(١)</sup> فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ في عهد بوسعيد الإيلخاني أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير ، وعلق عليه بقول أبي تمام . قائلاً كأنه اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بَغْدَادَ ناعِماً فليبيكها الخراب الدهر باكيها<sup>(٢)</sup>

وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذي أصابها مع غزو هولوكو ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقها ، وظلت منزلًا للعلم والعلماء ، بفضل ما كان يجيئه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار . وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة ، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيون والوزراء . وكان الأخيرون خاصة يدبرون شؤون الدولة وتصير إليهم أموالها ، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً ، وغرقوا في الترف والنعيم ويلقانا في أول العصر المهلبي وزير البويهيين ، وكان يشتهر بمآذبه وكثرة ما كان يقدم فيها من أصناف الطعام والحلوى ، وقالوا إنه كان « إذا أراد أن يأكل شيئاً بمعلقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لثلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة

١/ ١٣٩ .

(١) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) ص ٢١٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ثانية» (١). وفي هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد في الوسائل ، فاللون من الطعام لا يؤكل بملقعة واحدة وإنما يؤكل بملاقق كثيرة . وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذي غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروى عن المهلبى أيضاً من أنه «ابتاع له في ثلاثة أيام وردُّ بألف دينار فُرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها قَوَّارات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه» (٢) وإذا كان يشتري من الورد وحده في ثلاثة أيام بألف دينار كى يزين به مجلسه وبركة قصره ، فماذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائد والديباج والتحف . لا بد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف . ولم يكن هذا شأنه وحده ، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار . واشتهر بمجالس أنسه التي كان يعقدها بقصره ليلتين في كل أسبوع ، ويقول ابن خلكان : «كان يجتمع فيها عنده ندماءؤه من الفقهاء والقضاة على اطراح الحشمة والتبسُّط في القصف والخلاعة ، وهم القاضي أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولدَّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للفقار وتقلبوا في أعطاف العيش ، بين الحفنة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شراباً قَطْرِيلاً أو عَكْبَرِيَا ، فيغمس لحيته فيه ، بل يَنْقَعها حتى تشرب أكثره ويرش بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم الثياب المصبَّغات ومخاتق المنثور ، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء» (٣).

وظل هذا الترف طويلاً في مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء ، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنسه في بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجوارى والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب ، ويقال إنه عُتِيَ يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان قد لحنها ، فلم يعجبه لحنه (٤) وكان الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضعون الألحان لبعض الأغاني كما مر بنا في العصر العباسى الأول . وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفة التي لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيين وكبار التجار والموظفون . ويعرض محمد بن أحمد أبى المطهر الأزدرى - في حكايته الطريفة عن

(١) معجم الأدباء ١٥٣/٥ وانظر الفن ومذاهبه في (٣) ابن خلكان ٣/٣٦٦ .

(٤) معجم الأدباء ١٧/١٠١ وما بعدها .

الشعر العربي ص ٢٧٩ .

(٢) معجم الأدباء ٩/١٣٨ .



أبي القاسم البغدادي التي نقص حياة شيخ طفيل بغدادى في يوم ببغداد في القرن الخامس للهجرة - ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة ببدياج الذهب المنسوج وكأما نسجت من أزهار الربيع ، كما يقول ، يفوح منها العنبر والطيب . ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقوفها غشيت بالساج وزينت تعاريجها بالآبنوس والعاج ، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فُرشت بالطنافس والمخادّ المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارح المحشوة بريش العصافير الهندية والدبياج التستريّ المقصّب الذهبي . ثم يُفيض في القول في الأطعمة من كل صنف والأفواه والعطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيبّ وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط . ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الخشنة ، واصفاً أطمعتها ودورها . ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطيبّ وماء الورد والتفاح وحبّ الرمان والزعفران ، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى ، وطبيعي أن تكثر فيها العطور . ويقول إنه حين يُرْفَعُ الطعام يأتي فراش مهلل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خلال سلطاني مطيبّ ، ويغسل الضيوف أيديهم ، ويناولهم الفراش مناديل ألين من القزّ وأنعم من الحرّ . ويطلق الوصف للوز والجوز المشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزيّن به الموائد من الأزهار والأنوار ، ويتحدث عن الخمور وكنسها ودنانها مطبناً مطيلاً . ويذكر ما في مجالس السّرة من المعتين الذين يأخذون بمجامع القلوب ، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدحون في القلوب نوراً<sup>(١)</sup>

وكانت المغنيات يغنين في مجالس السلاطين والخلفاء من وراء ستارة ، أما في مجالس السّرة وعلية القوم والنوادي فكن يغنين دون ستارة غالباً ، ويطلق ابن أبي المطهر الأزدي في الإشادة بمغنيات بغداد وزمّاراتها وطبّالاتها وصنّاجاتها ورقاصاتها وضاربات العود بها ، ويصف إحداهن ممن يضرين على العود قائلاً : تدخل المجلس تعطره من نسيمها بالمسك والكافور والعنبر وتجري عليها غلالة جريّ الماء ورداء قصب مزين مرصع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفي عنقها سُبحة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجواري يحملن ذبول ثوبها . وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق ، وتبدو متنقبة لا يرى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب ، وتلقى بجدith كزهر الجنان أوصوب الغمام أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر

(١) حكاية أبي القاسم البغدادي (نشر ميتر في

النقاب وتتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج وتجسّ أوتاره وتفتتح غناء - كما يقول أبو القاسم - أعذب من تيار الفرات وتفتتته في مجارى الخلق وتكسره في مجارى النَّفس . يقول : وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية ، ومقلّة باكية ، وجيّباً مشقوقاً ، وفؤاداً يطير خفوقاً<sup>(١)</sup> .

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبي القاسم لهذه الجارية المغنية ، لندل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس ، ونظن ظنا أن هذا الازدهار ظل له طويلاً ، وغاية ما في الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهاني كتابه الأغاني عن المغنين والمغنيات في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي في أوائل هذا العصر نص طويل<sup>(٢)</sup> يصور ازدهاراً عظيماً للغناء في زمنه ومدى تأثر الناس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين ، ويحكى لنا كيف كان شخص يسمى البرداني يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى علوة جارية ابن علوية ، وهي تغنى بأبيات للسروى يقول فيها :

بِالْوَرْدِ فِي وَجَّتَيْكَ مَنْ لَطَمَكَ      وَمَنْ سَقَاكَ الْأُمْدَامَ لِمَ ظَلَمَكَ

ويسترسل أبو حيان في وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد في عصره ، من مثل ابن فهم ، وكان يطرب إذا اندفعت « نهاية » جارية ابن السلمى بشدوها :

أستودعُ الله في بغدادَ لي قَمَرًا      بالكَرْخِ من فَلَكَ الأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ  
ودَعْتُهُ وبُودِي لو يودّعني      صَفْوُ الحَيَاةِ وأنى لا أودّعُهُ

والبيتان من قصيدة أبي محمد على بن زريق وسننشدُ منها أبياتاً أخرى في الفصل الثالث . ولما سمعها منها ضرب بنفسه الأرض وتمرغ في التراب وهاج وأزبد وتغفر شعره ، وهيئات من الرجال من يضبطه ويمسكه ومن يجسر على الدنو منه ، فإنه يعصّ بنابه ، ويخمش بظفره ، ويركّل برجله ويحرق المرقعة (رداء الصوفية) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لكمة ، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق . وكثيرون كانوا يطربون طرب هذا الصوفي ، فتنقلب حاليق عيونهم ، ويسقطون مغشياً عليهم ، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد - كما يقول أبو حيان - ويقراءون في آذانهم آية الكرسي والمعوذتين ، ويرقونهم رُقياً مختلفة ، حتى يفيقوا من سكرتهم ، منهم أبو الحسن الجراحي قاضي الكرخ ، فإنه كان إذا سمع الجارية « شعلّة » وهي تغنى أغنيها :

لابد للمشتاقِ من ذكرِ الوطنِ      واليأسِ والسلوةِ من بعد الحزنِ

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٦٥-١٨٣ .

(١) حكاية أبي القاسم ص ٥٠ وما بعدها .

ابتلت شيبته بالدموع ، مع شجن قد ثقب القلب وأوهن الروح وقتت الصخر وأذاب الحديد ، يقول أبو حيان : «وهناك ترى - والله - أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدرة ، وشهيقهم قد علا رحمة له ، ورقة عليه ، ومساعدة لحاله . وهذه صورة إذا استولت على أهل المجلس وجدت لها عدوى لا تمكك ، وغاية لا تُدرِكُ ، لأنه قلما يخلو إنسان من صبوة أو صباية ، أو حسرة على فائت ، أو فكر في متمنى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاءٍ لمنتظرٍ ، أو حزنٍ على حال .» ويسوق أبو حيان لنا صوراً من طرب الشعراء حين سماع بعض الجوارى أو المغنين ، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية تسمى «خاطف» وهذا ابن حجاج يطرب على غناء فتوة البصرية ، وهي جارتة وعشيقته . ويذكر أبو حيان أن الطرب كان يأخذ بابن صُبر القاضى كل مأخذ ، حين يستمع إلى «درة» جارية أبي بكر الجراحى وهي تغنى :

لست أنسى تلك الزيارة لما طرفتنا وأقبلت تتثنى  
 كم ليالٍ بيتنا نلذ ونلهو ونسقى شرابنا ونغتنى  
 هجرتنا فما إليها سبيلٌ غير أنا نقول : كانت وكنا

يقول أبو حيان : «وإذا بلغت : «كانت وكنا» رأيت الجيب مشقوقاً ، والذئيل مخروقاً ، والدمع منهماً ، والبال منخذلاً ، ومكتوم السرفى الهوى بادياً ، ودليل العشق على صاحبه منادياً» . ويعرض علينا أبو حيان صوراً مختلفة من طرب الصوفية مثل المعلم غلام الحُصرى شيخ الصوفية ، ومثل ابن سمعون أكبر واعظ شهدته بغداد في زمنه ، فإن الطرب كان يقيمه ويقعه حين يستمع إلى ابن بهلول ، وهو يزلزل الدنيا بصوته الناعم وغنته الرخيمة وظرفه البارع ودماثته الحلوة . ويذكر أبو حيان جارية كانت تنوح تسمى حبابه كانت في التَّوح واحدة لا أخت لها وقد تهالك الناس بالعراق على نوحها ، يقول : ورأيت لها أختا يقال لها «صباية» كانت في الحسن والجمال فوقها . . وزلزلت هذه بغداد في وقتها ، ولم يكن للناس غير حديثها لنوادرها وحاضر جوابها . ثم يقول أبو حيان في ختام هذا الفصل الطريف .

«ولو ذكرت هذه الأطراب من المستمعين والأغاني من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لأطلت وأمليت وزاحمت كل من صنف كتاباً في الأغاني والألحان . وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصيت - أنا وجماعة في الكرخ - أربعائة وستين جارية في الجانبين (جانبى بغداد الغربى والشرقى) ومائة وعشرين حرة يجمعن بين الحسن والحذق والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرصه

ورقبائه ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو تَمِيل (سَكِرَ) في حال ، وخلع العِذار في هوى قد حالفه وأضناه .

ولا ريب في أنه كان بجوار أولئك المئات من المغنيات مئات من المغنين ، وكم كنا نتمنى لو أن أبا حيان أطال وأملَّ وصنف في أغاني عصره كتاباً ككتاب أبي الفرج الأصبهاني ، ولكنه لم يُعِنَ بذلك فحَسَرَ الشعر والغناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف في الأغاني والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهاني . وأكبر الظن أن هذا الازدهار للغناء ظل حتى غزو التتار لبغداد ، وبقيت منه أسراب في الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الإيلخاني بوسعيد في سفينة بدجلة يتنزه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء ، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان في أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكريه وطبولة ، وكان يتقدم الموكب الحجاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل ، كانوا يغنون في مجموعات بالتناوب ، ولا يزالون يتداولون الغناء بينهم ، حتى ينزل بوسعيد ، فإذا ركب عادت المجموع إلى الطرب والغناء<sup>(١)</sup> .

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية ، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تنعم به بعض الشيء ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعمون به في الأعياد العامة ، وعادة كانت بغداد تزين بالأعلام ذات الألوان الزاهية في عيدي الفطر والأضحى ، ومع مواكب الحج في رحيلها وقدمها ، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر ، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمتزهات وسماع المغنين والمغنيات ، وأهمها عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر ، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر ، ويأتي بعده عيد السَّدَق ، وهو يوافق عيد الميلاد ، وفيه تُشعلُ النار في السفن والزوارق بدجلة ، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع ، وبلى هذا العيد عيد النيروز في أول الربيع ، ويتبدئ في الحادى والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان . وبجانب ذلك كانوا يحتفلون بأعياد النصراري ويخرجون فيها للمتزهات والأديرة ، وكان لكل دير عيده .

ومن المحقق أن العامة كانت تعاني كثيراً من الضنك والضيق لكثرة الضرائب التي كانت تُجَبَى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن

(١) ابن بطوطة ١٤٣/١ وما بعدها .

الطبيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم<sup>(١)</sup> ، ويذكر التنوخي أن رجلاً كان يستأجر حانوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم<sup>(٢)</sup> . والخبران من أخبار أوائل العصر في القرن الرابع الهجري ، فما بالنا بما صارت إليه العامة بعد ذلك من بؤس وتعاسة ، وهذا هو السبب في كثرة العيَّارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون فكرة العدالة الاجتماعية ، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتمرغون في الترف والتَّعيم وهم محرومون يتجرعون البؤس والمسغبة ، وقد أشعلوا في شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً ، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق<sup>(٣)</sup> ، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزَّبد<sup>(٤)</sup> . وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فنهوها وعينوا عريقاً لهم في كل محلة<sup>(٥)</sup> . وأخذ ينتظم مع الزمن في صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث في فتنهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم ، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية . ونمضى في القرن السادس الهجري فنجد فتنهم تشتعل ببغداد من حين إلى حين ، ويعظم شأنهم في عهد السلطان مسعود السلجوقي (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ) وفيهون بغداد مراراً . وما زالت فتنهم تنشب فيها طوال القرن السادس ، حتى إذا كنا في عصر الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وجدناه في سنة ٥٧٨ يستدعى شيخاً من بينهم عُرف بأن له أتباعاً كثيرين ، فعرض عليه أن ينتظم معه ومع أتباعه في الفتوة ، على أن تتجه وجهة صالحة ، فلا تكون للإفساد ولا للنهب ولا للفتن ، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس . وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح ، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ في تنظيم هذه الفتوة الشريفة ، فدخل فيها أهل بغداد أفواجاً ، وعمد إلى نشرها في الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها ، ودخل كثير منهم ، على هدى منشور فيها ، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام في سلوكها ، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغوري سلطان غزنة والهند ، كما ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان

(١) مسكويه ١٩٨/٢ .

وابن تغري بردى .

(٢) الفرج بعد الشدة للتوخي ١٥٥/٢ .

(٤) الإمتاع والمؤاساة ١٦٠/٣ .

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ في المتظم وابن الأثير (٥) راجع في السنة المذكورة المتظم وابن الأثير .

العادل الأيوبي وأبناؤه كما مرّ بنا. وكان هذا عملاً جليلاً ، لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المستمر فحسب ، بل لأنه وجّه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى اتخاذ الفتوة الفاضلة درعاً في حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين ، وقد تحولت إلى نظام عظيم ، كتب فيه العلماء كتباً ، من أهمها كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومزلتها من الشريعة الإسلامية وشرائطها ومصطلحاتها على السنة الفتيان النبيلة <sup>(١)</sup> . غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحتها أمواج التتار هي والعراق ، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والتركمان والصفويين والعمانيين ، وأخذت أحوال أهلها هي والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر ، لكثرة ما كان يفرض على الناس في المدن والريف من الضرائب الفادحة .

ولم نتحدث عن أهل الذمة من الجوس والنصارى والصابئة واليهود ، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية ، وكانت لا تتجاوز ديناراً للعامّة ودينارين للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء ، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطني ، إذ لم يكن يؤديها إلاّ من يقدر على حمل السلاح ، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات . وكانت الدولة وخاصة في الحقبة البويهية تستخدم بعض النصارى في الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيراً - كما مرّ بنا - وكان منهم أطباء كثيرون في مختلف الحقب ، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن ، فكان منهم الصّباغون والحزّارون وأمثالها كالأسكفة .

وكان الرقيق كثيراً كثيرة مفرطة ، وكان من أجناس مختلفة ، فنه الإفريقي ومنه التركي الآسيوي ومنه الأوربي وخاصة الصقلي والرومي . وكانت له سوق رائجة في بغداد من قديم ، وكانت التجارة فيه تدرّ أرباحاً طائلة على النحاسين ، وكانت لهم حيل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجوارى والرقيق بعامّة ، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها «شراء الرقيق وتقليب العبيد» وفيها يصور حيل النحاسين في تحسين الجوارى وطرق خداعهم في إزالة آثار الجدري والوشم والتمش من أجسادهم وصيغهن بألوان تحفى ما قد يكون من آثار البرص أو البهق وصيغ عيونهن بألوان تجعلها كحلاء أو زرقاء ، ويصور بعض مقاييس الحسن في الجارية من أخصص قدمها إلى

المستشرق الألماني فرانز تيشنر في كتاب المتقى من دراسات المستشرقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(١) انظر في الفتوة وتنظيم الناصر لها كتاب الفتوة لابن المعمار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التي كتبها الدكتور مصطفى جواد لهذا الكتاب . وانظر الفتوة والحليفة الناصر

مفروق شعرها<sup>(١)</sup> وكانت المخطوطات منهن تُجَلَّبُ إلى دور الخلفاء والسلاطين ، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن ، فالقائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية<sup>(٢)</sup> ، وابنه المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) كانت أمه جارية أرمنية<sup>(٣)</sup> ، وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) من الجوارى<sup>(٤)</sup> . وكان منهن كثيرات في قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكنن وصيفات لهن<sup>(٥)</sup> .

وكانت الجارية المغنية تباع بأعلى الأثمان ، وكان في بغداد بعض نوادٍ بها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهمو<sup>(٦)</sup> . واشتهر كثيرات منهن باللفظ والظرف والبديهة الحاضرة ونظم الشعر<sup>(٧)</sup> وحب الأزهار ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكمام والعصائب والمناديل ، وكان لذلك تأثير في رقى الأذواق ببغداد من قديم . وكان شرب الخمر معتاداً في كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسرأة القوم ، على نحو ما مرَّ بنا عن المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه « كان يحب أن يقضى أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهم واللعب بالزرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاخ (العقبان)<sup>(٨)</sup> . ومرَّ حديثنا عن عضد الدولة البويهى ومجالس أنسه وطربه وشربه . وكان السلطان مسعود السلجوقى منهمكاً في اللذات والانعكاف على الخمر والراحات<sup>(٩)</sup> . ويكثر وصف الخمر على السنة الشعراء وفي حكاية أبى القاسم البغدادى وصف كثير لها في غير موضع ، وفيه تُساق بعض أشعار الماجنين الكبيرين ببغداد في القرن الرابع الهجرى : ابن حجاج وابن سكرة ، وهما أكبر مجان بغداد - إن لم يكن كل البلدان العربية - على مرِّ التاريخ .

وكان الصيد لهواً عاماً للسلاطين والناس ، وكان من أكبر هواه ملكشاه السلجوقى ، ويقول ابن خلكان : « كان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدَّق بعشرة آلاف دينار . وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدَّق بدينار . . وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج . . وصاد في طريقه وحشاً كثيراً ، وبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء مما صاده<sup>(١٠)</sup> » . وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع

- |  |  |
|--|--|
| (١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد بين الرسائل التي نشرها عبد السلام هرون باسم نوادر المخطوطات . | (٦) أخبار الظراف والمجانين لابن الجوزى (طبع دمشق) ص ٩٧ . |
| (٢) المنتظم ٥٨/٨ .   | (٧) نفس المصدر ص ٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣١/٨ .  |
| (٣) المنتظم ٢٩١/٨ و ٢٠٠/٩ .  | (٨) مسكويه ٣٨٦/٦ .                                       |
| (٤) المنتظم ٨١/٩ .   | (٩) ابن خلكان ٢٠٢/٥ .                                    |
| (٥) المنتظم ٢٣٠/٨ والمستجد من فعلات الأجواد للتوخي ٢٣ .  | (١٠) ابن خلكان ٢٨٤/٥ .                                   |

الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة ، إذ اشترط فيها إحسان المنتسب إليها الرمي بالبندق ، وكأنه كان يريد أن يبرهن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام ، ولعاصره الفتى عمر بن السفت مخمس طويل في وصف قوس البندق وإحكام الصيد (١) .

واستمر من هواياتهم في هذا العصر اللعب بالرُّد وكذلك اللعب بالشطرنج وفي حكاية أبي القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به . وكان من تسلّياتهم القديمة مهارشة الديكة ولُعبة خيال الظل ، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة ، وكانوا يقامرون عليه ، فيرسل كل حمامه ، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان ، ومن أهم أنواعه الزاجل ، وكانت الحكومات تستخدمه في البريد أو التراسل . وكان من ألعابهم سباق الخيل . وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب ، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يتمنون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل . وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالختان وبختم القرآن وبالزواج وكان الفقراء يستعيرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحلى للظهور بالمظهر الكريم في حفل الزفاف . ومن المؤكد أنه ظل يحتم على صدر بغداد حزن كئيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث .

### اطالة الدين

#### ٤

### التشيع

يقوم التشيع على أساس نظرية في إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً ، وهي نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية في علي بن أبي طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية . ولذلك لا يسمون الحاكم الأعلى للمسلمين في رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة ، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية . والإمام الأول عندهم هو علي الذي اختاره الرسول ﷺ في اعتقادهم ، ليكون إمام المسلمين بعده ، ويسمون ذلك وصية ، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعل بالإمامة بجوار غدير خم بين مكة والمدينة . فهو وصي النبي وكل إمام بعده وصي لسلفه ، عينه بعده صراحة وفقاً لترتيب إلهي . ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول ﷺ بثَّ علياً علماً خاصه بها ، وهي علوم تجعل له - في عقيدتهم - قدسية وصفات روحية خاصة ،

(١) مقدمة كتاب الفتوة لابن المعاصر ص ٧٥ .



وهي صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه .

والشيعة فرق كثيرة ، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عُرِفَت بالعراق لهذا العصر ، هي الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والتَّصَوُّبِيَّة . والأولى (١) هي التي يدين بها جمهور الشيعة في العراق حتى اليوم ، أما الفرقتان الثانية والثالثة فَعُرِفَتَا في بعض البيئات والمدن ، ولم تُعَمَّا في العراق إنما التي عَمَّت الإمامية الاثنا عشرية ، ولذلك ينبغي أن نَفْصَل القول فيها بعض التفصيل . وعندهم أن إمامة علي وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية ، يقول الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ في كتابه الأصول من الجامع الكافي : « ليس بمسلم حقاً من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ومن لا يفوض أمره للإمام ويبدل نفسه في سبيله » والإمامية بذلك يجعلون من أركان الإسلام الأساسية - في عقيدتهم - الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام العصر (٢) ويضفي الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أودع من العلوم ، وهي صفات يعلو بها على المستوى البشري للناس ، بها يكون هادياً لهم وموجِّهاً ، إذ ورثها عن الأئمة قبله ، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية ، وكلُّ ما يَجِدُّ يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشيتة الإلهية . فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله (٣) . وطاعة الأئمة لذلك واجبة ، إذ هم أبواب الله والسبل إليه والإدلاء عليه ، وهم ذخيرة علمه وتراجمته وحيه وأركان توحيده وخزَّان معرفته . أمرهم أمر الله ، ونهيهم نهيهِ ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته (٤) . ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ) وأولو الأمر ليسوا هم - كما يدل ظاهر الآية - علماء الأمة المجتهدين ، وإنما هم الأئمة . ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله . وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأئمتهم عن الطبيعة البشرية إذ يجعلونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام . وتعدُّ هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية في العقيدة الإمامية ، ويستدلون عليها باختيار الله لهم - على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم - والله لا يختار لعباده

(١) انظر في الإمامية الملل والنحل للشهرستاني وعقائد

الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيبر والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) راجع الكليني ص ١٠٥ و٣٦٨ وجولدتسيبر

ص ١٨١ وفي مواضع مختلفة

(٣) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر

(طبع القاهرة) ص ٧٢ والكليني ص ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٤) انظر المظفر ص ٧٤ .

في رأيهم إلا المعصومين<sup>(١)</sup> .

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر ، ولذلك يسمون الاثني عشرية ، وهم - على الترتيب - علي بن أبي طالب ، فابنه الحسن ، فأخوه الحسين ، فابنه علي زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، فابنه موسى الكاظم ، فابنه علي الرضا ، فابنه محمد الجواد ، فابنه علي الهادي ، فابنه الحسن العسكري ، فابنه محمد المهدي المولود سنة ٢٥٦ للهجرة ، وقد اختفى عندما كان طفلاً . ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حي وأنه سيعود ليملاً الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً ، ويعيد سنن الرسول ﷺ ويسترد حق أسرته في الولاية على الأمة في يوم موعود به من الله ، هو سر من الأسرار الإلهية . ويقولون إن هذا حقاً مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حياً ، ولكنها - كما يعتقدون - معجزة سَحَقَّ ، إذ يعود إليهم هذا المهدي المنتظر الذي يُحرَّر - في عقيدتهم - العالم من مفسده وشروره ، ويُشيع في الناس العدالة . وهو بذلك حَيٌّ ، وكل ما في الأمر أنه غائب خفي عن الأعين<sup>(٢)</sup> . وهو عندهم في أثناء غيابه واختفائه «قائم الزمان» يسير بين الأحياء ولا يروونه ، ويرعى شئونهم ، ويدبر مصالحهم<sup>(٣)</sup> .

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرجعة ، إذ يعيد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقروا بين البشر نواميس العدالة الإلهية ، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموت ، وكأنها بعث موقوت في الدنيا ، وهي طبعاً غير التناسخ ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن ، أما الرجعة فعباد جسماني في الدنيا بنفس الصورة والشخصية ، ويستدلون على هذه الرجعة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام في الذكر الحكيم : (وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) وما جاء عن قصة أهل الكهف في القرآن الكريم ، وأيضاً عن صاحب القصة في قوله تعالى : (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) . غير أن فكرة الرجعة اختلطت بفكرة المهدي الذي سيأتي آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول ، ويقول الشيخ المظفر : «على كل حال الرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها ، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام<sup>(٤)</sup>» . وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية

(١) انظر في عصمة الإمام لدى الاثني عشرية (٣) انظر جولدسيهر ص ١٩٦ .

جولدسيهر ص ١٨٨ .

(٢) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع

(٣) انظر في نظرية المهدي الكتب الشيعية السابقة

وجولدسيهر ص ١٩١ وما بعدها وراجع في الغيبة عقائد

الإمامية للمظفر ص ٨٠ .

(٤) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع

الروايات المنسوبة إلى الأئمة في البيئة الإمامية فهي أقوى عندهم من كل برهان لأنهم في رأيهم معصومون منزهون عن الخطأ .

وتلتقى العقيدة الإمامية مع الاعتزال في كثير من الأصول ، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته ، فهو عالم بذاته لا يعلم ، وكذلك بقية صفاته ، ويروون عن جعفر الصادق : « العلم ذات الله ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور<sup>(١)</sup> » . وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله ، فهو منزه عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات ، إذ ليس جسماً ولا عرضاً ولا جوهرًا ، وقد سلكوا مسلك المعتزلة في تأويل الآيات القرآنية التي قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات في مثل (يد الله فوق أيديهم) فعنى اليد القدرة . وهم كالمعتزلة في إثبات العدل على الله ، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفاً وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر ، فهي بين بين ، أو هي بين الاستطاعة والجبر . وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر .

وقد أخذ المذهب الإمامي الاثنا عشرى ينتشر في العراق منذ أوائل هذا العصر ، إذ تحول صولجان الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية ، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر في سنة ٣٥١ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكتب بعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فحما الكتابة أهل السنة<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوراء في سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغلق الأسواق ويعطل البيع والشراء ولا يذبح القصابون ولا يطبخ الطبّاخون وأصحاب الحلوى ، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب ويُدْرَن في بغداد نائحات لاطمات وجوههن على الحسين<sup>(٣)</sup> . وفي هذا اليوم يُزار قبر الحسين بكربلاء ، ويقام فيها عليه مأتم كبير كما تم بغداد ، ويقام أيضاً في المدن العراقية الأخرى . ولا يزال يقام هذا المأتم إلى اليوم . وفيه يقام موكب كبير للنائحين ببغداد ، وتتلّى سيرة الحسين في البيوت والنوادي وتنشد مرث كثيرة فيه وفي أبيه وفي الأئمة المستشهدين ، يصوّر فيها الشعراء محن آل البيت على مر التاريخ . ويجانب هذا العيد الحزين عيد فرح

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة للعامل (طبع) (٣) المتظم ١٥/٧ وابن الأثير وابن تغرى بردى في النجف) ص ٥٣ وانظر جولدتسيهر ص ١٩٨ وما بعدها . حوادث عام ٣٥٢ .  
(٢) انظر ابن الأثير وأبا الفدا في حوادث عام ٣٥١ .

وسرور فرضه أيضاً معز الدولة البويهى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير : غدِير خُمّ الذى يذهب الشيعة - كما أسلفنا - إلى أن الرسول ﷺ عهد إلى على بالخلافة قريباً منه وأنه قال : مَنْ كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال منْ وَالاه وعادِ مَنْ عاداه . وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ونصب القباب وتعليق الثياب ، وأشعلت النيران ليلاً وضربت الدباب والبوقات <sup>(١)</sup> . ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين بإزاء العيدين السالفين ، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى دخل فيه النبي ﷺ وأبو بكر الصديق فى غار حراء ، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى قُتل فيه مصعب بن الزبير <sup>(٢)</sup> .

واشتهر الكرخ فى غربى بغداد بأنه كان حىّ الشيعة الإمامية <sup>(٣)</sup> ، ويقول هلال الصابى إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى <sup>(٤)</sup> ، وكان يقابلهم فى القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الحنابلة ، وهم فتن كثيرة مع الشيعة تقصها كتب التاريخ . ويذكر ابن بطوطة فى رحلته مدينة الحلة ويقول إن أهلها لزمه فى القرن الثامن إمامية اثنا عشرية <sup>(٥)</sup> ، ومرّ بنا فى حديثنا عن بنى مزيد فى الجزيرة العربية أنهم كانوا لعهدهم بالحلة فى القرن الخامس رافضة ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على اكتساح مذهب الإمامية لمذهب الإسماعيلية فى العراق . ووصف ابن بطوطة كربلاء ومشهد الحسين بها ، وقال إن «الروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحجّاب والقومة ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة وهى من الفضة ، وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير» <sup>(٦)</sup> . وهى أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله . وهو تحفة من التحف النفسية بما يغطى الضريح ومثدنة المشهد من صفائح الذهب ، وبالمثل مشهد أبيه على فى الكوفة . وتحضّر العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران . وقد أتيج لتلك العقيدة فى عهد إسماعيل الصفوى ودولته أن تصبح المذهب الرسمى للدولة فى العراق وإيران . غير أن تلك الدولة لم تدم فى العراق طويلاً .

(١) ابن الأثير والمتظم فى حوادث عام ٣٥٢ . (٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر للمتظم فى حوادث

(٢) كتاب الوزراء للهلال بن الحسن الصابى ص ٣٨٩ .

(٣) ٣٧١ . (٥) رحلة ابن بطوطة ١ / ١٣٨ .

(٦) ابن بطوطة ١ / ١٣٩ . (٦) انظر مادة كرخ فى معجم البلدان لياقوت .

وكان بجانب العقيدة الاثني عشرية في العراق عقيدتان أخريان شيعيتان، إحداهما متطرفة غاية التطرف حتى ليعتبر منها الشيعة الاثنا عشرية ، والثانية معتدلة غاية الاعتدال ، أما المتطرفة ففرقة النُّصيرية كان لها أتباع في مدينتي عانة والحديثة ، وهم في الحق مسلمون اسماً فحسب ، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عدّوا على بن أبي طالب وأبناءه آلهة وعبودهم من دون الله ، واتخذوا لأنفسهم كتاباً عدّوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه . وطبيعي ، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية ، وقد أنزلوا الرسول ﷺ منزلة دون منزلة على ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآثمة ، ويقول جولدتسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة <sup>(١)</sup> . وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندس بين الإمامية بعض النُّصيرية وبعض الشيعة الغالين أو بعبارة أدق الرافضة ، وخاصة من يرفعون عليا إلى مرتبة ربّانية . ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام ٤٢٠ للهجرة يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي ﷺ فيقول : «وعلى أخيه أمير المؤمنين على ابن أبي طالب مكلم الجمجمة ، ومحبي الأموات ، البشري ، الإلهي ، مكلم فتية أصحاب الكهف <sup>(٢)</sup>» . وكأنه يؤمن بأن عليا صورة جديدة لعيسى عليه السلام ، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت مما يتيح له في رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان . وهي نفس عقيدة النُّصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهياً وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه <sup>(٣)</sup> إلى غير ذلك من كفرٍ ما وراءه كفر .

وعلى عكس النُّصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال ، هي فرقة الزيدية التي نشأت في الكوفة على يد زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وقد ظل لها في هذا العصر أنصار عديدون في تلك المدينة ، وكانوا لا يقصرون الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب الإمامية ، بل يرونها حق كل علوي فاطمي ما دام له من الاستعداد الروحي ما يؤهله للإمامة ، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التي آمنت بها الإمامية وما يطوى فيها من نظرية الرجعة وأيضا فكرة العصمة ، وأيضا لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطني المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تُصَفَى على الإمام ، فيكفي

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر الإسلامية لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/٨٢ .

ص ١٨٤ ، ٢٢١ . (٣) الملل والنحل للشهرستاني بتحقيق محمد سيد

(٢) المنتظم في حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الحضارة كيلاني (نشر مكتبة مصطفى الحلبي) ١/١٨٨ وما بعدها .

فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقيهاً ، ولكن دون تصور علم لدني يهبط عليه ، واشتروا في الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً . ونهوا عن ذم الصحابة وأبي بكر وعمر ، لأنهم لم يبايعوا علياً بالخلافة ، وجوّزوا إمامة الفضول من غير ذرية علي بن أبي طالب على الأفضل من ذريته . وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً<sup>(١)</sup> .

## ٥

### الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد في هذا العصر لا تقل حدة واتساعاً عنها في العصور السابقة ، ومعروف أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول في أحاديثه النبوية إلى الزهد في عرض الحياة الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة ، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة في الأمة . وأخذت تتكون منذ عهد الرسول ﷺ طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين ينبذون وراء ظهورهم مباحح الحياة ويتجردون لعبادة ربهم . ونراهم في هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامي يُعدّون بالعشرات بل بالمئات ، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء ، فمن يقرأ في طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمأنينه النفس القانعة مع ما يُدكّر من أن هذا الفقيه أو ذاك اعتكف في بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة . وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المنتظم لابن الجوزي وابن الأثير وابن تغري بردى سيراهم يذكرون في وفيات السنوات أسماء كثيرة من الزهاد ، فمثلاً في سنة ٣٤٨ توفى جعفر بن حرب وكان في نعمة كبيرة ، فاجتاز يوماً بموكبه ، فسمع قارئاً يقرأ : ( ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ) فصاح : بلى والله قد آن ، ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات . وفي نفس السنة توفى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويُفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التي استفضلها . وفي سنة ٣٨٤ توفى

أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً عابداً لا يستند إلى حائط ولا إلى وسادة أو غيرها . وكانوا يكرهون في الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالا<sup>(١)</sup> ، وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله<sup>(٢)</sup> . وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً ما نقرأ عن هذا الخليفة أو ذاك أنه كان زاهداً ، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم ، ويقال عن الأخير إنه كان في وجهه أثر صُفرة من قيام الليل<sup>(٣)</sup> . وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فيصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل ، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى المدرسة النظامية التي بناها أبوه ببغداد ، كما مر بنا ، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزي واعظ بغداد المشهور ، فأخذه الوجد يوماً . فقام وأشهد ابن الجوزي والناس من حوله أنه قد أعتق جميع ما يملك من الرقيق ، ووقف ما يملك على أعمال البر<sup>(٤)</sup> . ويبدو أن كثيرين كانوا يبالغون في الزهد ، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار ، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها . وكل ذلك مغالاة في الزهد لا يرضاها الإسلام ، الذي لا يريد للزاهد أن يفصل عن المجتمع والحياة ، وقد روى أن جماعة من الصحابة كانوا في سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال داعياً ربه في ركوبه مصلياً له في نزوله فقال لهم «فن كان يكفيه علف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلكم خير منه<sup>(٥)</sup>» . فالزهد الإسلامي ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية ، كما ينكر بقوة فكرة العزوبة المعروفة عند رهبان النصارى<sup>(٦)</sup> . ونرى ابن الجوزي يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمشون الليل والنهار في العبادة والتسك وقد نخلت أجسامهم وشجبت ألوانهم ودقت عظامهم ، حتى إنهم لا يستطيعون الصلاة واقفين ، بل يصلون من قعود . ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة<sup>(٧)</sup> .

وراجع طبقات ابن سعد ج ١ ق ٣ ص ٢٨٧ وج

٢ ق ٤ ص ٩ .

(٦) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب

المصرية) ١٨/٤ وروض الرياحين للياقبي (طبع

القاهرة) ص ٣٨ .

(٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (طبع القاهرة) ص

١٣٨ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٧/٥ .

(٢) النجوم ٥٧/٥ .

(٣) النجوم ٩٨/٥ .

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة

السابعة (طبع بغداد) ص ١٢٤ وانظر تاريخ العراق في

العصر العباسي الأخير لبدرى فهد ص ٣٩٧ .

(٥) أعلام النبوة للهاوردي (طبع القاهرة) ص ١٥٣ .

وكان طبيعياً أن يتحوّل كثير من الزهاد إلى متصوفة ، لا يكتفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكسرة ومن الثياب بالخرقة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد . وقد أخذت تُبنى لهم الرِّباطات والخانقاهات في العالم الإسلامي ، تبنيها الدولة أحياناً ، وبينها ذوو اليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى . وكان ما بها من طعام يأتي عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يُحبسُ عليها من الأوقاف ، ولم يكن يُسمحُ بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد الناسك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إلا إذا أصبح من الشيخوخة بحيث تُفَعده عن العمل ، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعام . وكان في الأربطة والخانقاهات مجاميع من الشيوخ والشباب أصحاب الخلوة . وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل من فيه من أتباعه . والمحور الأساسي للتصوف هو محبة الله محبة الله ففيها الصوفي المحب في الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهي ، وقد أخذ يتداخل غلو كثير في هذه العقيدة . ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه بلغ من غلو الحلاج في هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرّح بفكرة الحلول من مثل قوله : « أنا الله وأنا الحق » مما جعل الفقهاء يفتون بزندقته وقلته . غير أن هذا الغلو لم يمت بموت الحلاج ، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عنثاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغي أن يُظهروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً ، وهم المسمون بالملامية أي المستحقين للوم ، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدنيا . وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح ، إنما العبرة بعمل القلب . وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح . وكان ذلك سبباً في أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيرون من أفكار الحلول وما يتصل بها وبما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الحنيف . وتفاقت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورة أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه ، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة . وسرعان ما ظهر أبو نصر السراج الصوفي الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه «اللمع» وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفي وسطح صوفي يؤدي إلى نظرية الحلول ، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف ، فبدونها لا يتحقق له وجود . وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد



الرحمن السُّلَمِيُّ صاحب طبقات الصوفية ، ولقَّنها بدوره تلميذه عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رآبَ بها هذا الصدع الذي حدث بين الفقهاء والمتصوفة . ودَوَّت الرسالة منذ عصره في العالم الإسلامي ، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيِّناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه في وثام ، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أقوالهم التي تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يستخفُّون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميِّزون بين الحلال والحرام مدَّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين . وخلفه أبو حامد الغزالي حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشريعة وصلاً وثيقاً لم يصبه وهنُّ بعده ، بحيث أصبح التصوف في صورته العامة سُنِّياً ، وحقا انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول ، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربي وابن سبعين الأندلسيين . أما بعد ذلك فقد عم التصوف السني على نحو ما رسمه الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» وهو في النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والنوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتجهد والأدعية . ويبدأ الحديث في النصف الثاني بما ينبغي من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملاذها . ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحي الذي يتطلبه الصوفي وما ينبغي له من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكير وتذكر الموت وما وراءه . وسنعود إلى الكتابة عن الغزالي والقشيري وأبي نصر السراج الطوسي في القسم الخاص بإيران . وسرعان ما أصبح هذا التصوف السني القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلب كثر من الناس في العالم الإسلامي جميعه . والغزالي لا يضع أصوله فحسب ، بل يُعَدُّ العدة لكى تشيع الطرق الصوفية فيه ، فقد تحدث في الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفي وتلميذه أو مريده ، وقال إنه ينبغي أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشي على شاطئ النهر لمن يقوده ، ويقول : على الشيخ أن يدفعه إلى الخلوَّة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات . وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية في الظهور ، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين أبي محمد عبد القادر<sup>(١)</sup> الجيلاني مولداً الحسيني نسباً المتوفى سنة ٥٦١ وقد ولد بجيلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد في شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدثين ، ثم أخذ يعظ

(١) انظر في الجيلاني الذيل على طبقات الخنابلة لابن لابن القوطي (طبع لاهور) ٣٨١/٥ .  
رجب والنجوم الزاهرة ٣٧١/٥ وتلخيص مجمع الآداب

الناس بعد سنة ٥٢٠ وبُنيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لَبَّى نداء ربه ، ويقول عنه ابن تَعْرَى بَرْدَى : « كان ممن جمع بين العلم والعمل أفتى ودرّس ووعظ سنين ، وكان محققاً صاحب لسان في التحقيق وبيان في الطريق ، وهو أحد المشايخ الذين طنَّ ذكرهم في الشرق والغرب » . وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغنية لطالبي طريق الحق ، وهو فيها يدعو إلى التمسك بالشريعة الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية . وقد وُضعت في مناقبه كتب كثيرة ، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني سيدي محيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني ، وهو مطبوع بالقاهرة .

ومن الطرق الصوفية العراقية التي ذاعت في العالم الإسلامي الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربي الأصل أبي العباس أحمد<sup>(١)</sup> بن أبي الحسن على المعروف بالرفاعي «إمام وقته في الزهد والصلاح والعبادة» وقد شاعت طريقته في عصره وكثر أتباعه . ويُقال إن شخصاً زاره في ليلة النصف من شعبان ، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان « وكان متواضعاً مجرّداً من الدنيا » . وكان مولده سنة ٥٠٠ ووفاته سنة ٥٧٨ . ومن قوله : « سلكت كل طريق ، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والافتداء بسنة سيدي رسول الله ﷺ » . وله كتاب سماه « حالة أهل الحقيقة مع الله » حققه وقدم له محمد نجيب خياطة ، وهو مطبوع بجلب ، وقد بناه الرفاعي على أحاديث نبوية ، وكثير منها يتصل بالمحبة الربانية ومعرفة الله ووصف المتصوفة أهل الحقيقة ، وقد سئل أحد أتباعه عن وِردِهِ ، فقال : كان يصلي أربع ركعات بالف (قل هو الله أحد) ويستغفر كل يوم ألف مرة ، واستغفاره أن يقول : (لا إله إلا أنت سُبْحانَكَ إني كنت من الظالمين) عملت سوءاً وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي ، وتُبَّ عليّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، يا حيّ ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت » - ويقول ابن خلكان : لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية والنزول في التناير وهي تتصرَّم ناراً فيطفئونها ، ومثل هذا وأشباهه .

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين : الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية

(١) راجع في الرفاعي مرآة الزمان ٣٧٠/٨ والشذرات (طبعة عيسى الباني الحلبي) ٢٣/٦ ؛ وابن خلكان ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ٩٢/٦ وطبقات السبكي ١٧١/١ وطبقات الشعرائي ١٤٠/١ .

كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزورى ، وشهاب الدين أبو حفص <sup>(١)</sup> عمر السهروردى البغدادى ، وهو تلميذ عبد القادر الجيلانى ، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية ، ومن أطرف ما فيه الحديث عن المريد وشيخه وأنه ينزل منه منزلة الولد من أبيه . ويتحدث عن المدة التى يقطعها المريد حتى يتبها لانتظامه فى طريقة شيخه ويصبح مُعداً أو مهياً لأن يجلج عليه « الخِرقة » شعار الصوفية وهى ترمز رمزين : رمزاً إلى أن المريد تلاشت إرادته فى إرادة شيخه ، ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلّم منه الخِرقة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه فى الطريقة . ويقول السهروردى إن « المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتآدب بأدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلحق بباطن المريد . . . . . وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال » <sup>(٢)</sup> . ويتحدث السهروردى عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف ، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام ، تُقضى فى الصلاة والصيام ، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية ، ولذلك ينبغى على المريد إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه ، ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ويبكى ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته <sup>(٣)</sup> . وكان على المريد أن ينشر طريقة شيخه فى المدن والقرى بكل ما يستطيع ، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن ينتشرا لافى العراق فحسب بل أيضاً فى كل العالم الإسلامى .

ومنذ القرن الخامس الهجرى أخذ يشيع فى التصوف وبين المتصوفة ما سُمى بالذكر ، وهو أن يتقابل الصوفية فى صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً ، ويقوم بين الصنفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التى تدلح المحبة الإلهية فى القلوب ، وقد عمّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعدها من طرق صوفية . ولابد أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ فى الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قبل منذ أواسطه جماعات الدراويش ، وهم صوفيون متجوّلون كانوا يطوفون العالم الإسلامى ، وأخذت تظهر بينهم

(١) انظر فى ترجمته ابن خلكان ٤٤٦/٣ وعبر الذهبى ١٢٩/٥ وطبقات الشافعية ٣٣٨/٨ ومراة الزمان ٦٧٩/٨ والنجوم الزاهرة ٢٨٤/٦ .  
 (٢) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب العربى ببيروت) ص ٩٦ ، وينسب الكتاب خطأ إلى عمه عبد القاهر بن عبد الله السهروردى .  
 (٣) عوارف المعارف ص ٢٢١ .

في القرن الثامن الهجري وما بعده فرقتان اشتهرتا ، هما النَّقْشَبَنْدِيَّةُ ، وقد رعاها تيمورلنك في دولته ، والبكطاشية ، وقد نشأت في جو الشيعة الإمامية ، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين ، وهي تعتنق إلى حد ما نظرية الحلول ، ويقال إن بعض معتنقيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية ، ولكن مما لاشك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف ، واشتهر عنها تقديس الأولياء .

وفرق صوفية كثيرة أو قل طرق صوفية كثيرة أخذت تتفرع عن الرفاعية والقادرية بجانب طرق جديدة نشأت بدورها ، وكان لهذه الطرق وأتباعها من الدراويش السائحين أو الجوالين أثر بعيد في نشر الإسلام بشرق إفريقيا وغربها ووسطها ، وأيضاً بالهند والملايو وجزر الهند الشرقية ، وكان لهم دور عظيم في أن تظل للعالم الإسلامي وحدته على الرغم من توزعه بين دول شتى ، وكذلك كان لهم دور عظيم في بث الروح الدينية في نفوس العامة على مر الحقب حتى اليوم .

## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وخاصة في أوائل العصر وقبل الغزو التتارى ، فكانت هناك الكتابيب للصبية يتعلمون فيها القراءة وشيئا من القرآن الكريم والشعر والحساب ، وكان الصبي لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان الهمدانى ، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريرى . وكان يستظهر أيضا بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحترى والمتنبى . وكان الناشئة يتحولون من الكتابيب إلى المساجد ، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومن يشدون بعض علوم الأوائل ، فكانت المساجد في بغداد تحل محل التعليم الثانوى والجامعات في عصرنا ، وبالمثل في البصرة والموصل وغيرها من بلدان العراق . وكان الأستاذ عادة يستند في المسجد إلى أسطوانة ، ويقعد الطلاب من حوله ، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله . وكان يملئ على الطلاب محاضراته ، وهم يكتبون ، وإذا تكاثروا اتخذ مستمليا يردد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية . وكان المؤلف أو المحاضر يعيد أحيانا ما ألفه على طلابه ، وهم يعارضون نسخهم على قراءته . وقد يعنُّ له أن يدخل في القراءة الثانية شيئا من التصحيح أو التهذيب على ما صنَّفه ، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم ، ومن خير ما يصور ذلك ما يُروى عن عالم لغوى يسمى أبا عمر المطرِّز من أنه أملى كتابه الياقوت في اللغة على الطلاب بمسجد المنصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقرأه على طلابه مضيفا بعض التصحيحات والزيادات . وعاد مرة ثانية ، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة ، واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١ - وبها نشره تلاميذه<sup>(١)</sup> . وكان جامع

(١) الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة) ص ١١٩

وراجع إنباه الرواة ١٧٥/٣ .

المنصور ببغداد يشبه جامعة كبيرة ، وكان كل أستاذ ناخب يتمنى أن تكون له فيه حلقة ، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه ما يُروى عن الخطيب البغدادي حافظ بغداد - المتوفى سنة ٤٦٣ - من أنه حين حجّ شرب من ماء زمزم ثلاث مرات ، وسأل الله ثلاث حاجات : الأولى أن يحدث بكتابه « تاريخ بغداد » والثانية أن يُملئ على الطلاب بجامع المنصور ، والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي . وتحققت له الأمنيات الثلاث<sup>(١)</sup> . وكان الأساتذة والشيوخ في المساجد أحيانا لا يُملون مؤلفات لهم ، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات . واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجري بحيث نستطيع أن نسمى القرون التالية في العصر قرون الشروح ، وقد تُشرح الشروح بما يسمى حاشية ، وقد توضع على الحواشي ملاحظات تسمى تقارير .

وأخذت تظهر منذ أواخر القرن الرابع الهجري بجانب المساجد دور للعلم ، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب ، وقد يحاضرهم العلماء ، وتُلقَى بها مكاتبات ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم ، أسسها الوزير سابور بن أردشير في سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرخ غربي بغداد ، ووقفها على العلماء واشترى لها كتبا كثيرة ، بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثقة التي كان يملكها علماء وثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس<sup>(٢)</sup> . وأسس الشريف الرضي الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه<sup>(٣)</sup> .

وحين خلفت الدولة السلجوقية دولة بني بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبّر لحكم في زمن ألب أرسلان السلجوقي عُني ببناء طائفة من المدارس في بلدان مختلفة في العراق وإيران ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعي في الفقه ومذهب الأشعري في علم الكلام ، وكان منها ثلاث بناها في بغداد والموصل والبصرة<sup>(٤)</sup> وقف عليها أوقافا كثيرة ، وبنى فيها للأساتذة مساكن ، وجعل لهم رواتب ثابتة ، كما جعل لطلابها نفقات معيشة ، وألحق بها مكاتبات نفيسة . وكان في هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون - بجانب

مشهورة له وانظر شروح سقط الرند ص ١٢٣٩ .

(٣) ديوان الشريف الرضي طبعة سنة ١٣٠٧ بيروت

ص ٣ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ٣١٣/٤ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية بتحقيق

عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي) ٣٥/٤ .

(٢) المنتظم وابن الأثير والنجوم الزاهرة في حوادث

سنة ٣٨٣ وأشار أبو العلاء إلى هذه الدار في قصيدة

أساتذة علم الكلام والفقه - في علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب . وأخذ الوزراء بعد نظام الملك بينون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد ، فبنى أبو الغنائم الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ باباً أبرز إحدى محالِّ بغداد وأحياناً مدرسة سميت التاجية ضاهى بها النظامية<sup>(١)</sup> ، وأخذ بعض المؤسرين يعنون ببناء المدارس ببغداد ، فابتنى المستوفى الخوارزمي - وكان متعصباً لأبي حنيفة - المدرسة الكبيرة بباب الطاق<sup>(٢)</sup> وأخذت المدارس تتكاثر في بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة ، وكلها بالجانب الشرقي «وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وقد جُدِّدت سنة أربع وخمسمائة ، وهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويُجرون منها على الطلبة ما يقوم بهم . وهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مَحْمَد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح<sup>(٣)</sup> »

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة ، ويتوقف ابن خلكان في وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مرارا ، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دَرَسَ في النظامية . وقل مثل ذلك في نظامية البصرة ونظامية الموصل . وذكر ابن خلكان أنه بُني بجوار النظامية الأخيرة في الموصل تسع مدارس ، هي : القاهرية والأتابكية والعتيقة والنورية والعزّية والبشّشية والعلائية والكمالية والبدرية<sup>(٤)</sup> . وبُنيت مدارس كثيرة في المدن العراقية الأخرى ، ذكر ابن خلكان منها في إربل ثلاثا هي المظفرية والقلعة والعقيلية<sup>(٥)</sup> . وبني الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة ، هي المستنصرية ، وقد كتب فيها الأستاذ ناجي معروف كتابا ، عرض فيه أساتذتها ونشاطها العلمي وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب ، وقد كان بها للفقهاء وحده عشرون فقيها ، يتقاضى كل منهم اثني عشر دينارا في كل شهر ، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنانير شهريا . وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها ، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهريا . وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخزّنة وفراشين من كل لون . وكانت تقدّم للشيوخ والطلاب يوميا جرايات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير

(١) النجوم الزاهرة ١٢٥/٥ . (٤) انظر ابن خلكان ١٠٨/١ ، ١٩٣ ، ٤/٤ ،

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٧/٥ . ٣١٣ ، ٣١١/٥ ، ٢٥٣

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ . (٥) ابن خلكان ١٠٨/١ ، ٨٧/٧ ، ٣٣٨

ما يقدم للطلاب من الخبر والورق والأقلام<sup>(١)</sup>. وعاد إلى هذه المدرسة، أو قل الجامعة، نشاطها بعد الغزو التتارى، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله: «بها المذاهب الأربعة - يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية - ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد، معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة، وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الضوء<sup>(٢)</sup>».

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية في بغداد خمدت خموداً تاماً بعد الغزو التتارى غير صحيح، يمكن أن يصدق ذلك على العهد التتارى الوثنى أما منذ دخول غازان والتتار في الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمى، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها في العصر العباسى والمعروف أن هولاء كودم كثيراً من مدارسها وقد أعيد بناء بعض هذه المدارس، وعنى غازان - كما أشرنا - وخلفاؤه الإيلخانيون بها.

ولاشك في أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام في العهدين التركمانى والعمانى، غير أن النشاط أخذ يدب فيها وأواخر الحقبة العثمانية منذ ولى العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد في نهضة العراق وأسس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية.

ولا بد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمى بعد الغزو التتارى، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء، ويقول إنه سمع فيه على مُسند العراق - سراج الدين أبى حفص عمر القزوينى - جميع مسند الدرهمى<sup>(٣)</sup>. وكانت الدراسة في مساجد بغداد ومدارسها بالمجان، بل كان الطلاب في المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مر بنا. وربما كانت المساجد أهم من المدارس في نشر العلم، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائماً لكل قاصد، وكان الناس من مختلف المهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها ينهلون ما شاء لهم أن ينهلوا، مما جعل العلم بحق شعبياً لجميع أفراد الشعب، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم. وكثيراً ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره في علم من العلوم، فإذا هو يترك مهنته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذى يريده حتى يصبح من أقطابه، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة في ابن خلكان وغيره.

(١) انظر تاريخ علماء المستنصرية لتاجى معروف

(٢) ابن بطوطة ١/١٤١.

(٣) ابن بطوطة ١/١٤٢.

٥٧/١، ٧١-٨٢ وفي مواضع متفرقة.



وعلى هذا النحو لم يكن العلم في بغداد احتكاراً لطبقة بعينها ، بل كان مباحاً للجميع الناس ، ويخيّل إلى الإنسان كأنما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير ، ومن خير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة في كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ذُكر فيها أنه قال لشاب بغدادى في تضاعيف حديث وجهه إليه : « قدمنَّ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيماء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفقه والحديث والتفسير . . . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها ، ودبرت جميع الأشياء وركبتها » . ولم تكن العامة من الرجال فقط هى التى تحسن هذه الثقافة وحدها ، فقد كانت تحسنها أيضاً الجوارى على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد فى ألف ليلة وليلة وفيها تُناظر جلة العلماء فى مختلف العلوم والفنون وتُظهر براعة فائقة فى ليال كثيرة ماتزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة . وكانت النساء تُحضر مع الرجال مجالس العلماء ، وتحمل عنهم كثيراً من كتب الحديث ، وعنه يحملها كثير من الحفاظ المشهورين ، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادي وحمله أو أخذه صحيح البخارى عن كريمة المروزية (١) .

وطبعي أن تنشط الوراثة فى هذا العصر الذى كان مكتظاً بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون ، وقد بلغ من ازدهار نسخ الكتب والأجور التى كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذونه وسيلة لعيشه هو وأسرته ، مثل يحيى بن عدى المتفلسف المتوفى سنة ٣٦٤ ويروى عنه أنه كتب بخطه نسختين من تفسير الطبرى (٢) ، ومثل أبى حيان التوحيدى أكبر أدباء عصره ، فقد اشتهر بنسخ الكتب ودقته فى هذا النسخ ، مما جعله صاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية (٣) . وكان للوراقين سوق معروفة فى بغداد تباع فيها الكتب ، وكانوا يقومون فى هذا العصر مقام أصحاب المطابع فى عصرنا ، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويجلدها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها فى كل فن . ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير فى كتابه « الفهرست » وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجماً لأصحابها ، ولم يترك كتاباً إلا ذكره ، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفاً كثيرة . والكتاب طرفة من أروع الطرف ، وهو يوج

(٣) معجم الأدباء ٢٦/١٥ .

(١) السبكي ٣٠/٤ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة لبيزج) ص ٣٦١ .

بآلاف الكتب ، مما يدل بقوة على النهضة العلمية في هذا العصر .  
 وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء في كل علم وفن كثرة مفرطة ، أهلت  
 فيما بعد لتأليف كتب في تراجم كل مجموعة على حدة ، فكتب للفقهاء وكتب للمفسرين  
 وكتب للقراء وكتب للنحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف . ووُضعت كتب  
 عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن  
 شخص في بغداد - مددا متطاولة من هذا العصر الذي امتدَّ قرونا متعاقبة - إلا وهو يلمُّ بعلم  
 أو بطائفة من العلوم . وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين في عصرنا ، فهم يستطيعون أن  
 يتحدثوا في كل موضوع ويناقشوا كل فكرة ، وهياً ذلك لندوات كثيرة كانت تُعقد أحيانا  
 في قصور السلاطين والوزراء وعلية القوم ، وكثيرا ما دارت في هذه الندوات مناظرات  
 خصبة ، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بختيار وما أثير فيه من مناظرات في مسائل  
 كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم<sup>(١)</sup> . ولعل مجلسا لم تحدثم فيه المناظرات كما  
 احتدمت في مجلس الوزير ابن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ وقد قصَّ علينا منها أطرافا كثيرة أبو  
 حيان في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة  
 وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض  
 الكتاب والأدباء . كان مجلسا حافلا ، وكانت تُعرضُ فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر  
 وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية ، ويتحاور هؤلاء المفكرون في كل ذلك محاورات بديعة .  
 وكانت تثار مناظرات كثيرة في المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض ، وكذلك بين  
 المتكلمين واللغويين . وبلغ من اتساع المناظرات حينئذ أنهم نقلوها أحيانا إلى الأسواق ،  
 فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت في سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتفلسفين  
 وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسي ، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسي وزملائه من  
 الصلة بين الفلسفة والدين<sup>(٢)</sup> . ومن الندوات المشهورة في القرن الرابع ندوة أبي سليمان  
 المنطقي السجستاني صاحب صوان الحكمة المتوفى بعد سنة تسعين وثلاثمائة وهو من تلامذة  
 الفارابي وامتاز بعقل خصب نادر ، وقد سجل أبو حيان في كتابه «المقاسبات» كثيرا مما  
 كان يدور في ندوته من شعب الفكر في الإلهيات والطبيعيات والنفس والروح والأخلاق .  
 ونذهل حين نقرأ الحوار في المسائل الكثيرة التي كانت تدار في هذه الندوة وكذلك في ندوة  
 ابن سعدان ، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تصنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدى (طبع) (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وما بعدها .

عجبية ، مما أتاح بحق لبغداد أن تعظم منزلتها العلمية وأن يحج إليها العلماء وخاصة في أوائل هذا العصر ، يريدون أن يتزودوا منها زادا علميا رفيعا .

## ٢

### علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

رأينا في كتاب العصر العباسي الثاني كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية ، وكيف تحوّل المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلي للفقر ترجمة أكثر دقة ، وكادوا لا يتركون كتابا يونانيا مهما في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية ، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغداقا واسعا ، ومن يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطي أو طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة يبره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية في الفلسفة والعلوم . ومنذ العصر العباسي الأول لا يكتفي النقلة بما يترجمون ، بل يضيفون إليه ، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى في كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرءوه وجرّبوه بأنفسهم ونفذوا إليه بفطنهم . وقد افتتح العصر العباسي الثاني بعالم رياضى عظيم هو الخوارزمى مؤسس علم الجبر وبفيلسوف عربي هو الكندي . ومضت الترجمة في النشاط والازدهار ، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤتي ثمارها حتى ظهر الفارابي الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثاني .

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أوجها في القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيروني في إيران وابن الهيثم في العراق ، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه ، وانصبَّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى <sup>(١)</sup> بن عدى النضرائي يعقوبى المتوفى سنة ٣٦٤ وهو من تكريت على نهر دجلة ، تتلمذ على الفارابي ومثى بن يونس ، ويقول القفطي : «إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه» ويذكر له كتباً عدة ترجمها لأرسططاليس وشراحه اليونانيين ، ويقول أبو حيان التوحيدى «تخرج

(١) انظره في صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقى (١) السجستاني (طبع طهران) ص ٣٢٧ والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى (طبع القاهرة) ٣٧/١ والفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية بالقاهرة) ص ٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطي (طبعة لبيزج) ص ٣٦١ وطبقات

الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣١٧ والعلم عند العرب لألدومبيل (الترجمة العربية طبع القاهرة) ص ١٨٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٢٠/٤

عليه كثير من المترجمين والمفلسفة» مثل عيسى<sup>(١)</sup> بن علي بن عيسى المتوفى سنة ٣٩١ وكان حاذقاً في الترجمة فيما بعلم الأوائل ، ويقول القفطي : رأيت نسخته من السماع الطبيعي التي قرأها علي يحيى بن عدى بشرح يحيى النحوى وهى فى غاية الجودة والحسن والتحقيق . ومن تلامذة يحيى بن عدى عيسى<sup>(٢)</sup> بن زُرعة ، وكان نصرانياً يعقوبياً مثله توفى سنة ٣٩٨ يقول القفطي عنه : «أحد المتقدمين فى علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجودين» ويشيد به أبو سليمان المنطقى السجستانى وينوه بما ينقله إلى العربية تنويهاً كبيراً ومن تلامذة يحيى بن عدى أيضاً أبو الخير الحسن<sup>(٣)</sup> بن سوار النصرانى المعروف بابن الخمار البغدادى وقد نقل عدة مؤلفات يونانية من السريانية إلى العربية ، وكان متفلسفاً وطيباً ومن علماء الطبيعة ، وكان فصيحاً متمكناً فى العربية ، وهناك مترجمون مختلفون سوى يحيى بن عدى وتلاميذه ، منهم من شطت به الدار فى إيران ، ومنهم من نزل بغداد مثل نظيف<sup>(٤)</sup> الرومى الشيرازى الفرس ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأقليدس ، وكان طبيباً حاذقاً .

ويجئ إلى الإنسان أنه لم تبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ظهور إخوان الصفا فى البصرة أوائل هذا العصر ، وهى جماعة سرية متفلسفة ، دانت بالمذهب الإسماعيلى الشيعى ورأت أن تدعو له دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية ، وهى عصابة - كما وصفها أبو حيان - تألفت بالعبادة وتصافت بالصدقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنَّته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة : علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها «رسائل إخوان الصفا

١٦٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٢٨ وبروكلمان ١٥٨/٤ .  
(٤) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٨ وفى الإمتاع  
والمؤانسة ٣٧/١ والمقاييس لأبى حيان التوحيدى (طبع  
بغداد) ص ٤٢٤ والفهرست ص ٣٨٥ وابن أبى أصيبعة  
ص ٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانية إلى العربية  
وراجع القفطي ص ٣٣٧ وبروكلمان ١٨٣/٤ .

(١) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٢ والإمتاع  
والمؤانسة ٣٦/١ والقفطي ص ٢٤٤ .  
(٢) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٣ والإمتاع  
والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٣٨٣ والقفطي ص  
٢٤٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٨ وبروكلمان ١٢٢/٤ .  
(٣) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٥ ، ٣٥٣ والإمتاع  
والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٤٨٤ والقفطي ص

وخلان الوفا ، وكتبوا أسماءهم وبثوها في الوراقين<sup>(١)</sup> . ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفي هذه الرسائل هم زيد بن رفاعة وأبو سليمان المقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الريحاني وأبو أحمد المهرجاني والعمري ، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن هؤلاء المتفلسفة الكثيرين كانوا يُعدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسي هو الذي أخرجها وأعطاهها صورتها النهائية ، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطقي السجستاني أكبر متفلسفة بغداد حينئذ ، إذ يقول عنه : « له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا<sup>(٣)</sup> » . والمظنون أنه أضيفت إليها فيما بعد رسالة ، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة ، منها ١٤ رسالة في الرياضيات والمنطق و١٧ في العلوم الطبيعية وعلم النفس و١٠ في الميتافيزيقا والإلهيات و١١ في التصوف والتنجيم والسحر . وهي مغموسة في الأفلاطونية ، وتشوبها نزعات أرسططاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية ، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم المعاصرين لها ، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها تُنفّ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنابات وتلفيقات وتلزيقات ، وقد عرَّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، وردّها عليه قائلاً : « تعبوا وما أغنوا . . وحاموا وما وردوا » . ويردّ أبو سليمان على نظريتهم في وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة ردا طويلاً سنلخصه في الفصل الخامس ومن قوله : إن الدين وحى من السماء والفلسفة من عمل العقل ، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعات ومنطق وموسيقى<sup>(٤)</sup> .

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة في كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها . وظن بعض المعاصرين حين رأوا في هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدي المحتفي أن العصاة التي اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن مخطيء حقا يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدي المحتفي ، ولكنهم كانوا أكثر إغلا في التشيع إذ كانوا يعتقدون المذهب الإسماعيلي ، يدل على ذلك مثل قولهم في أهل البيت : « هذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على أسرارهم . . إن هو إلا علم إلهي وتزليل رباني ، تنزل به

(٣) صوان الحكمة ص ٣٦١ .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٦ / ٢ .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٥ / ٢ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٤ / ٢ .

ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يُلقونه بأمر الله على من اصطفاه من خلقه وارتضاه لخلافته في أرضه»<sup>(١)</sup> . والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم في طبقات ، ونرى أبا سليمان المنطقي السجستاني حين يقتبس نصًّا من الرسائل لأبي سليمان المقدسي يقتبس له النص الذي رتب فيه جماعتهم ، وقد جعلهم في أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم ، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية . المرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤساء ذوو السياسة . المرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة الناموسية أولو الأمر والنهي . المرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهي مرتبة التسليم ومشاهدة الحق عيانا . ونراهم يطلبون إلى إخوانهم في كل قطر أن يعقدوا اجتماعات دورية يتذاكرون فيها العلم وشئون الإخوان . وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية ، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون في العراق وسط أصحاب المذهب الإمامي الاثني عشري ، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعي كما قدمنا . ومع ذلك فيبدو أنهم حاولوا نشر مذهبهم في بغداد ، إذ يحدثنا أبو حيان عن لقائه المتكرر لاحدهم ، وهو زيد بن رفاعة . وينقل مناقشة طويلة بين أبي سليمان المقدسي والحريري في وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين . ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هـ ألهم هذه الفرصة ، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه ، وكان يتخذ أحيانا لنفسه منهم وزيرا أو نائبا ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يتشيع ويكرم جانب الراضية<sup>(٢)</sup> . على كل حال يبدو أن دعوة المقدسي وزيد بن رفاعة باءت بالإخفاق والخذلان في بغداد خذلانا إلى أقصى حد .

وتشير هذه الرسائل - كما مر بنا - إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة في مطالع هذا العصر ، عصر الدول والإمارات ، وخاصة في بغداد . ولعل أكبر شخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبي سليمان<sup>(٣)</sup> المنطقي السجستاني ، الذي نشأ بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل ، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر ، فرحل إلى بغداد في شبابه ، ولزم يحيى بن عدي وأخذ عنه كل ما عنده ، وسرعان

(١) رسائل إخوان الصفا ١٠٣/٤ وما بعدها . وكذلك المقابسات ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٢٧

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٢/٤ .

(٣) انظر في أبي سليمان المنطقي القفطي ص ٢٨٢

والإمتاع والمؤانسة في مواضع متفرقة (انظر الفهرس)

الفهرست ص ٣٨٣ وبروكلمان ص ١٥١ ومقدمة

عبد الرحمن بدوي لصوان الحكمة .

ما عُرف فضله وتألّق نجمه ، وكان دميم الخلقه وبه وَصَحُّ ظاهر فلزم داره ، وتحوّلت هذه الدار إلى منتدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمتقفون من حوله ، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم . وكانوا مختلفي المشارب ، فمنهم المسلم وغير المسلم ومنهم المتفلسف ، مثل الطبيب الجوسى المعروف بفيروز<sup>(١)</sup> وأبى إسحق<sup>(٢)</sup> الصائى الكاتب وابن زرعه<sup>(٣)</sup> النصرانى ومثل أبى زكريا الصيمرى وأبى الفتح النوشجاني وأبى محمد العروضى المتفلسفين ، ومثل أبى القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل المنجم ، ومثل على بن عيسى الرمانى مفلسف النحو ومباحثه ومثل القومسى الكاتب والمقدسى صاحب رسائل إخوان الصفا وقد ترجم له أبو سليمان فى نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آنفا . يقول أبو حيان : « وكل واحد من هؤلاء إمام فى شأنه وفرد فى صناعته ، سوى طائفة دون هؤلاء فى الرتبة<sup>(٤)</sup> » . وهذا المنتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب . ويُلقَى كل فيلسوف بدلوه ، ثم يردُّ الرأى النهائى إلى أبى سليمان ، فيسمعه الجميع خاشعين مُكْرِبِينَ ، ولبسانهم يقول له فيروز : « عَيْنُ الله عليك أيها السيد ، فوالله ما نجد شفاء لداء الجهل إلا عندك ، ولا نظفر بقوت النفس إلا على لسانك ، ولا نعلم يقينا أنا لا نحسن شيئا إلا إذا فاتحناك ، ولا يجمل ظننا بأنفسنا إلا إذا بعدنا عن مجلسك ، ولو كانت هذه الفائدة (يريد ما سمعه منه فى المسألة المطروحة) بعينها عندنا متى كنا نأتى بها على هذه الطلاوة والحسن ، أمتع الله الأرواح برؤيتك ، والعقول بهدايتك<sup>(٥)</sup> » . ولأبى حيان التوحيدى يدٌ لا تجحد ، لتسجيله ما كان يدور فى مجالس أبى سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف فى عصره ، على نحو ما صنع فى كتابه النفيس « المقابسات » وهى تعنى مجالس أبى سليمان وما كان يُقْبَسُ منها من أضواء المعرفة . ويصرِّح أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذى أخرجها فى صورتها المكتوبة<sup>(٦)</sup> ، وينبغى أن لا نبالغ فى هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبى سليمان وإن قال إنه كان مصاباً « بلكنة ناشئة من العجمة<sup>(٧)</sup> » واللكنة شىء والتعبير الفصيح شىء

- (١) المقابسات (طبع بغداد) ص ٤٢٧ .  
 (٢) المقابسات ص ٢٧٢ .  
 (٣) المقابسات ص ٢٤٢ وهنا أيضا يذكر أن عيسى  
 (٤) المقابسات ص ٤٢٩ .  
 (٥) المقابسات ص ٤٢٩ .  
 (٦) انظر المقابستين : الثانية والرابعة .  
 (٧) المقابسات ص ٥٧ وقد توقف أبو حيان فى هذا

الكتاب وفى الإمتاع والمؤانسة ليعرف بهم (انظر فهرسها) .

آخر ، ومرت بنا آنفأ كلمة فيروز الطيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن ، وقد نقل أبو حيان بعض المقابسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يجرم حرفاً من كلام أبي سليمان ! <sup>(١)</sup> . على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتفلسفة من ندوة أبي سليمان مثل عيسى بن علي بن عيسى وأبي الحسن العامري وغيرهما .

ومنتدى ثان ببغداد لم يكن عاما مثل المنتدى السابق ، فقد كان خاصا بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلا بداره ، هو ابن سعدان الذي وزر لاصمصام الدولة في سنة ٣٧٣ ولم يكد يدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥ . وكانتا ستين غنيتين بالفكر والفلسفة والأدب ، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتفلسفة المفكرين مثل ابن زُرعة النصراني المتفلسف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبي الوفاء الرياضي الفلكي المهندس وبهرام بن أردشير الجوسى وابن عبيد وأبي بكر القومسى الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزيد بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطى يسمى ابن شاهويه <sup>(٢)</sup> . وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلا : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل » <sup>(٣)</sup> . وكان أبو الوفاء قريبا من ابن سعدان فوصله بأبي حيان التوحيدى ، يعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة في عصره ، واستقبله ابن سعدان استقبالا حسنا ، وأخذ يُلقى عليه في ليال متصلة أسئلة في مختلف فروع الفكر واللغة والأدب ، ويتلقى من أبي حيان إجاباته ، ويتشقق الحوار والحديث في مسائل فلسفية وإلهية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية . وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السيرافى ومتى بن يونس في النحو والمنطق وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسى الثانى ، ويروى له أحيانا أخبار بعض المتصوفة ، ويذكر له بعض جوانب الحياة في بغداد . وبحق يقول القفطى عن الكتاب إنه « كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم فإنه خاض كل بحر وغاص في كل لُجَّة » <sup>(٤)</sup> . ولم يرو أبو حيان في الكتاب الذى يقع في ثلاث مجلدات كبل اللبالي التى قضاهما محاورا مناقشا في منتدى ابن سعدان ، فقد اقتصر منها على سبع وثلاثين ليلة وزع عليها الكتاب وقد ألفه لأبي الوفاء المهندس ، ذكرى عزيزة لابن سعدان . وربما صنفه لأبي الوفاء في

١/٢ ٣/٢ وراجع النجوم الزاهرة ٤/١٢٥ .

(٣) الصداقة والصديق ص ٨٣ .

(٤) القفطى ص ٢٨٣ .

(١) قارن للمقايسة السابعة والثلاثين بصوان الحكمة ص ٣٣٣ وما بعدها .

(٢) انظر في هؤلاء الجلساء الصداقة والصديق

لأبي حيان (طبع القاهرة) ص ٧٧ والإمتاع والمؤانسة



حياة صديقه ، ويبدو أنه كان قد كتب مسودات هذه اللبالي ، حتى إذا رأى إهداءها لأبي الوفاء عني أحياناً بتقوم بعض عباراتها مع شرح الغامض وصلة المحذوف وإتمام المقنوص ، ومع سبكها بناصع اللفظ<sup>(١)</sup> وما عُرف من ميله في كتابته إلى الأزواج .

وكان وراء هذين المتديين الفيلسفين العلميين منتديات كثيرة في دور العلماء والمتفلسفة مثل دار يحيى بن عدى وفي المكتبات الكبيرة مثل مكتبة سابور بن أردشير . ونذكر نفراً من الرياضيين والفلكيين في القرن الرابع الهجرى لندل على النهضة العلمية حينئذ ، وأول من نقف عنده أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن الأعلم<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٣٧٥ وكان عضد الدولة يرعاه واشتهر بزيجته الذى ظل به العمل حتى زمن القفطى . وكان يعاصره وَيَجَنُّ (٣) بن رُسْتَم الكوهي وكان رئيساً للمرصد الذى أسسه شرف الدولة البويهى فى حديقة القصر ببغداد ، وقد أمره فى سنة ٣٧٨ برصد الكواكب السبعة وعاونه فى ذلك فلكيون ورياضيون أهمهم أبو الوفاء<sup>(٤)</sup> محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني صديق أبي حيان التوحيدى الذى توفى سنة ٣٨٨ وفيه يقول ابن خلكان : أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ، تغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يباليغ فى وصف كتبه ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تواليفه عدة كتب وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع . ويقول عنه ألدومبيل : « كان أحد المترجمين العظام الأواخر من اليونانية ، وشارح أقليدس وديوفانتوس وبطليموس وهو كذلك عالم أصيل رفيع المنزلة ، ويقترن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات ، والمسائل الهندسية التى عاجلها بخبرة جد كبيرة ، وكان له تأثير قوى فى الفلكيين المحدثين » . وبالمثل كانت العلوم الطبيعية ناهضة ناشطة ، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبي على الحسن<sup>(٥)</sup> بن الهيثم البصرى المتوفى حوالى سنة ٤٣٢ للهجرة ، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة ثلاثة وأربعين كتاباً فى الفلسفة والعلم الطبيعى وخمسة وعشرين كتاباً فى الرياضيات

- (١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢ .  
 (٢) انظر فى ابن الأعلم القفطى ص ٢٣٥ .  
 (٣) راجعه فى الفهرست ص ٤٠٩ والقفطى ص ٣٥١ وبروكلمان ٢١٩/٤ وألدومبيل ص ٢١٢ .  
 (٤) انظره فى الفهرست ص ٤٠٨ والقفطى ص ٢٨٧ وابن خلكان ١٦٧/٥ والواقى بالوفيات للصفدى .  
 (٥) راجع فى ابن الهيثم القفطى ص ١٦٥ وابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدومبيل ص ٢٠٦ وما به من مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

١/٢٠٩ وتممة البيهقي ٧٦ وبروكلمان ٤/٢٢٢ وألدومبيل ص ٢١١ ، ٢١٥ .

والهندسة ، وهو يُعدّ بحق من علماء الطبيعة العالميين ، يشهد له بذلك كتابه « المناظير » في البصريات وانعكاس الضوء والعدسات فقد ترك تأثيرا عميقا في كل من روجر بيكون ووايتلو عن طريق ترجمته قديما إلى اللاتينية ، واتسع تأثيره في كثيرين من علماء الغرب كما يحدثنا بذلك الإدومبيلي . وسمع الخليفة الحاكم الفاطمي بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعا ينظم المياه في النيل ، واستقدمه الحاكم ، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعه . ويقول ابن أبي أصيبعة : إنه لخص كثيرا من كتب أرسططاليس وشرحها وكثيرا من كتب جالينوس في الطب . وحين نزل مصر أقام بقبة على باب الجامع الأزهر . وكان يقتات من نسخته سنوياً أقلدسَ والجسطنى ، ويضيف إليهما القفطى كتابا ثالثا ، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا مصريا ، وصار ذلك كالرسم المعتاد له .

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين ، وساعد على ذلك منذ العصر العباسي إنشاء البيمارستانات في بغداد ، ومن البيمارستانات المهمة التي أنشئت في القرن الرابع الهجرى البيمارستان العضدى نسبة إلى عضد الدولة ، أنشأه في الجانب الغربى لبغداد وأنفق عليه أموالا عظيمة ، ويقول ابن خلكان : « ليس في الدنيا مثل ترتيبه وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيّن به أربعة وعشرين طبيا ربّهم فيه لمعالجة المرضى ، منهم نظيف القس الرومى وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجراحى وأبو يعقوب الأهوازى وابن مندويه<sup>(١)</sup> .

وهذه النهضة العلمية الفلسفية في القرن الرابع اطردت في القرنين التاليين إذ يلقانا بهما متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون في كتابى القفطى وابن أبى أصيبعة ، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله<sup>(٢)</sup> بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ وفيه يقول القفطى « فيلسوف فاضل . . اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسططاليس وبشرح كتب جالينوس في الطب ، ويقال إنه بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة . وأهم تلاميذه ابن بطلان<sup>(٣)</sup> النصرانى المتوفى بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقا في الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقي الفيلسوف المصرى ابن رضوان ، ونشبت بينهما مناظرات حادة ، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة ، ولا يوجد منه إلا

(١) انظر القفطى ص ٣٣٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، (٣) القفطى ص ٢٩٤ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ . وراجع ابن خلكان ٥٤/٤ . وألدومبيلي ص ٢٤١ ، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) القفطى ص ٢٢٣ .

ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية في عصر النهضة . ومن الأطباء الناهين بعده أبو الحسن سعيد<sup>(١)</sup> بن هبة الله طبيب الخليفين المقتدى والمستظهر ، وكان لا يزال على قيد الحياة في سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفي سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير في الطب صنفه للمقتدى ، سماه المغنى في تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض . وكان يعاصره يحيى بن عيسى<sup>(٢)</sup> بن جزلة المتوفى سنة ٤٧٣ وكان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام ، وصنف كثيرا من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان في تدبير الإنسان ، وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية ، ويشتمل على ٤٤ لوحة ، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضا . وأنبه الأطباء في القرن السادس هبة<sup>(٣)</sup> الله بن التلميذ النصراني المتوفى سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتنى ، ويقول الدومبيلي إن كتبه خالية من كل أصالة ، وهي صفة تشمل أطباء العراق بعامه بعده . وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيارستان وأطبائه ، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيارستان ووصفه بقوله : إنه « على دجلة وتتفقد الأبطال كل يوم اثنين وخميس ويطلبون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية »<sup>(٤)</sup> .

وتمضى الحركة العلمية والفلسفية في نشاطها بالعراق إلى أن يكتسحه قُطعان المغول في منتصف القرن السابع الهجرى ، إذ قوّضوا صرحها في بغداد وغير بغداد ، وربما كان أنبه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانهيار الفظيع أثير الدين الأبهري<sup>(٥)</sup> الموصلى المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر في علم الهيئة ورسالة في الإسطرلاب وشرح لإيساغوجى وكتاب هداية الحكمة في المنطق والطبيعات والإلهيات . ويضعف الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ في الضعف ، ومن المؤكد أنه ظل ، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة ، ويلقانا من حين إلى آخر بعض المتفلسفين أو العلماء مثل أبي القاسم محمد بن أحمد السيامى<sup>(٦)</sup> العراقى الذى عاش في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب ، وممن نلتقى بهم في القرن التاسع الهجرى بدر

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٢ والدومبيلي ص (٤) ابن جبير ص ٢٢٥ .

(٢) راجع فيه ابن خلكان ٣١٣/٥ في ترجمة كمال ٢٤٢ ، ٢٥٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٣ والقفطى ٣٦٥ الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من

مراجع وبروكلمان (في الطبعة الألمانية) ٤٦٤/١ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ والقفطى ص ٣٤٠ (٦) انظر الدومبيلي ص ٣٠٨ .

والدومبيلي ص ٣٢١ .

الدين محمد سبط المازديني<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة في الحساب والهندسة . وتأخذ المعرفة بعلوم الأوائل في الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعاية لها .

ولابد أن نقف قليلا عند مصنفاتهم في السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحُكم والسياسة ، وقد افتتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم ، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي المتوفى سنة ٤١٨ فإنه ألف في السياسة رسالة طريفة . ومن خير الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للموردى<sup>(٢)</sup> أبي الحسن علي بن محمد البصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة ، وكان فقيها شافعيًا ، وتولى القضاء في بلدان كثيرة بالعراق ، وهو في كتابه يصل بين السياسة والمسائل الشرعية في النظم الإسلامية ، وبذلك يصبح الكتاب في سياسة الحكم الإسلامى ، وهو يستلهم بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقيادة الجيوش المجاهدة في سبيل الله ، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام الفئء والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال .

وقد نشط العراقيون لهذا العصر في الكتابات الجغرافية ، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسي الإصطخرى<sup>(٣)</sup> الكرخى المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ويبدو أنه عاش طويلاً في بغداد ، كما يدل على ذلك لقبه الكرخى ، وله كتاب جغرافى سماه « المسالك والممالك » تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها وسُهوبها وجبالها ، وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التى بنها أبو زيد البلخى في كتابه المعروف بهذا الاسم ، ولابن حوقل البغدادى<sup>(٤)</sup> معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخرى . وكان شيعياً إسماعيلياً ، واستغله الفاطميون في الدعوة لهم على ما يظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزء من الهند .

(١) راجع فيه بروكلمان ( الطبعة الألمانية ) ٣٥٧/٢ . (٣) انظره في إصطخر بمعجم ياقوت وفى دائرة المعارف الإسلامية . وتاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٩/٨ والمتنظم ٢٨٢/٣ .  
 وطبقات الشافعية ٢٦٧/٥ وتاريخ بغداد ١٠٢/١٢ .  
 ومعجم الأدباء ٥٢/١٥ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها  
 (٤) راجعه فى ألدومبيل ص ٢٢٧ وفى دائرة المعارف الإسلامية . وفى كراتشكوفسكى ٢٠٠/١ .

وأهم جغرافي ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموي البغدادي <sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية ، وهو في ست مجلدات ضخام ، ونراه يذكر في مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لا يترك كتابا في المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه اطلع عليه ونقل عنه ، ولم يكتف بتلك الكتب التي كَوَّن منها مادة كتابه ، فقد رجع إلى دواوين الشعراء ينقل عنها ، وألمَّ في كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتاباً وشعراء ، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدرا من مصادر العلم والأدب ورجالها حتى عصره . وله أيضا في الجغرافيا كتاب ثان بعنوان «المشترك وضعا المختلف صقعا» . ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات ، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار لعبد اللطيف <sup>(٢)</sup> البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفا بديعا آثار مصر ، وصوّر كثيرا من شئونها الاجتماعية . وتُرجم الكتاب إلى اللاتينية ، كما تُرجم إلى الفرنسية ، وطُبع مرارا .

## ٣

## علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة في المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، ومن الصعب أن نفصل بين اللغويين والنحويين ، وبالتالي أن نفصل بين مباحثها ، إذ يكثر أن ينهض اللغوي بمباحث نحوية ، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوي بمباحث لغوية . وبلغنا ابن <sup>(٣)</sup> دُرستويه المتوفى سنة ٣٤٧ معنا بشرح فصيح ثعلب ، وبالمثل ابن نايقا والعكبري وغيرهما كثيرون ، ويضع له عبد اللطيف البغدادي بعدهما ذيلًا . وتكثر العناية بكتاب لغوي ثان ، هو إصلاح المنطق لابن السكيت ، فيضع السيرافي <sup>(٤)</sup> الحسن بن عبد الله

(١) انظره في النجوم الزاهرة ٦/٢٨٣ وشذرات الذهب ٥/١٢١ وابن خلكان ٦/١٢٧ ومرآة الجنان ٤/٥٩ وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/٣٣٥ .

(٢) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقاته ص ٦٨٣ ترجمة ضافية نقلها عن كتاب له ، تحدث فيه عن سيرته ، وقد لخصته هذه السيرة في كتابنا الترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص ٣٢ .

(٣) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٩/٤٢٨ وإنباه الرواة ٢/١١٣ وابن خلكان ٣/٤٤ .

(٤) راجعه في تاريخ بغداد ٧/٣٤١ ومعجم الأدباء ٨/١٤٥ وإنباه الرواة ١/٣١٣ ونزهة الألباء لابن الأثير (طبعة أبي الفضل إبراهيم) ص ٣٠٧ والفهرست ص ٩٩ واللباب ١/٥٨٦ وشذرات الذهب ٣/٦٥ ومرآة الجنان ٢/٣٩٠ . وابن خلكان ٢/٧٨ .

المتوفى سنة ٣٦٨ شرحا لشواهد ، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهذيباته ، منها مختصر يسمى المنخل لأبي القاسم الوزير المغربي المار ذكره ، ومنها تهذيب للخطيب التبريزي<sup>(١)</sup> يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة .

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبهات على أغلاط الرواة لعل<sup>(٢)</sup> بن حمزة البصرى المتوفى بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بنزول المتنبي عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة ، وهو في كتابه يصحح الأغلاط التي وردت في طائفة من كتب لغوية مهمة ، هي نوادر أبي زياد الأعرابي ، ونوادر أبي عمرو الشيباني ، وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب فصيح ثعلب ، وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم ابن سلام ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب خلق الإنسان لأبي ثابت ، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبي عليه من نقد بالفسطاط . وتكثر الكتابة في الأسماء المقصورة والممدودة ، منذ ابن دستورية وابن جنى في القرن الرابع .

وتتكاثر شروح الشعر والنثر في العصر منذ أوائله ، وشرح ابن جنى لديوان المتنبي مشهور وقد سماه الفسّر ، ويعد التبريزي المذكور آنفاً - وكان يدرس الأدب في المدرسة النظامية - من أكثر شارح الشعر آثارا ، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المسماة بالمفضليات للمفضل الضبي ، وعلى المعلقات أو القصائد العشر ، وعلى حاسة أبي تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبي العلاء المعرى . وله شروح موجزة على لامية العرب للشَّفَرَى ، وقصيدة «بانة سعاد» لكعب بن زهير ، ومقصورة ابن دريد . وإذا كان التبريزي وضع شرحا مطولا لديوان أبي تمام فإن العكبري أبا البقاء في القرن السادس الهجري وضع شرحا مطولا بدوره للمتنبي . وعنى ابن المستوفى الإربلي<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ٦٣٧ بوضع شرح مطول لديوان أبي تمام والمنتبي سماه النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات . ومنذ وضع الحريري مقاماته أخذت شروحها تتكاثر . ومن شروحها في القرن السادس بالعراق شرح القاسم<sup>(٤)</sup> بن القاسم الواسطي ، وشرح العكبري النحوى شارح المتنبي ، ولابن

(١) انظره في معجم الأدباء ٢٨٦/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسمعاني الورقة ١٠٣ ونزهة الألباء ص ٣٧٢ والمتنظم ١٦١/٩ ومراة الجنان ١٧٣/٣ والشذرات ٥/٤ وابن خلكان ١٩١/٦ ودمية القصر ٢٣٧/١ .  
 (٢) راجعه في بغية الوعاة ومعجم الأدباء ٢٠٨/١٣ .  
 (٣) انظره في ابن خلكان ١٤٧/٤ وبغية الوعاة والشذرات ١٨٦/٥ . وعبر الذهبي ١٥٥/٥ .  
 (٤) راجعه في إنباه الرواة ٣١/٣ وقد ذكر القفطى أنه صنف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبي اختاره من شرح الواحدى وأضاف إليه من كتاب المصنف لابن وكيع .

الخشاب<sup>(١)</sup> البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧ مبحث لغوى فى أغلاط الحريرى فى مقاماته ورد عليه ابن برى العالم المصرى اللغوى المتوفى سنة ٥٨٢ مبحث لغوى دقيق انتصر فيه للحريرى ، والمبحثان ملحقان بطبعة مقامات الحريرى نشر مكتبة ومطبعة الحلبي بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضى خطب الإمام على بن أبى طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها ، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع ، ولابن الساعى<sup>(٢)</sup> على بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب ، وثلاثة شروح لمقامات الحريرى : كبير ومتوسط وصغير ، والمتوسط فى خمس مجلدات . وقد عنى محمود<sup>(٣)</sup> بن أحمد الزنجاني المتوفى سنة ٦٥٦ بوضع مختصر لصحاح الجوهري سماه «ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح» . ومنذ السيراني تكثر الشروح لشواهد الشعر فى كتب النحو على غرار كتابه فى شرح شواهد سيبويه ، بل إننا نجد عبد القادر<sup>(٤)</sup> البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ يحول شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية ، وبحق سماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» وقد ذكر فى مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب . ومما ذكره من كتب اللغة : الجمهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهري والعباب للصّاغاني والقاموس المحيط للفيروزابادي واليواقيت للمطرز وكتاب ليس لابن خالويه ، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأنبارى وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحها وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغير مؤلف والفروق لأبى هلال العسكري وخلق الإنسان للزجاج والمعرّب للجواليقي والمثلثات لابن السيد البطلبوسى والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطى .

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية ، لندل على أن ما كان يكتب فى اللغة بأى بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربى واحد ، وكل ما ينتجه بلد

- (١) انظره فى معجم الأدباء ٤٧/١٢ وإنباه الرواة (٣) انظره فى الحوادث الجامعة لابن الفوطى (طبع ٩٩/٢ وبقية الوعاة والمنظم ٢٣٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ وابن خلكان ١٠٢/٣ . والنجوم الزاهرة ٦٨/٧ وتاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف . (٢) انظره فى تذكرة الحفاظ ٢٥٠/٤ وشذرات الذهب ٣٤٣/٥ ومقدمة مصطفى جواد لكتاب نساء الخلفاء (٤) انظره فى خلاصة الأثر للمحى ٤٥١/٢ ودائرة المعارف دار المعارف) وما ذكره من مصادر .
- (٣) انظره فى الحوادث الجامعة لابن الفوطى (طبع ٩٩/٢ وبقية الوعاة والمنظم ٢٣٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ وابن خلكان ١٠٢/٣ . والنجوم الزاهرة ٦٨/٧ وتاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف . (٢) انظره فى خلاصة الأثر للمحى ٤٥١/٢ ودائرة المعارف دار المعارف) وما ذكره من مصادر .

في علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى ، وهؤلاء الذين رجع إليهم عبد القادر البغدادي منهم من عاش في أقصى الشرق من العالم العربي ، ومنهم من عاش في أقصى الغرب منه أوفى وأواسطه ، ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أي بلد إنتاجاً مستقلاً هو مدار الحكم عليه ، فقد كان يَوجِبُ إنتاج البلدان الأخرى في كل علم وكل فن ، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح المأثورة فقط ، بل تضاف إليها شروح كثيرة ، ولعله لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تُشْرَحَ شروحاً عدة ، نذكر من ذلك رَشَفَ الضَّرْبِ في شرح لامية العرب للشيخ عبدالله <sup>(١)</sup> السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ للهجرة وشرح بانث سعاد للسيد <sup>(٢)</sup> عبد الله الفخري المتوفى سنة ١١٨٨ . وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض . وعنى الشيخ حسن <sup>(٣)</sup> القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح في رسائل مختلفة ، ولشهاب الدين الألوسي <sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريري باسم كشف الطُّرَّة عن الغرة وللشيخ إبراهيم <sup>(٥)</sup> الحيدري المتوفى سنة ١٣٠٠ شروح مختلفة على ديوان أبي تمام ومقامات الحريري وسقط الزند لأبي العلاء . وكان النشاط اللغوي لم يتوقف بالعراق في حقبة من حقب هذا العصر حتى أواخره وقد عنى العلماء بجانب مجتهدهم في لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة ، حتى ينقووها من أضرار العامية التي أخذت تنتشر بقوة منذ مطالع العصر ، ونجد القاضي أبا الحسن عليا المؤيدي يضع سنة ٤٢٠ كتاباً في الأمثال البغدادية العامية <sup>(٦)</sup> وأهم من ذلك كتاب الحريري : « دُرَّةُ الغواص في أوام الخواص » وهو في أغلاط المثقفين ، ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجوالقي <sup>(٧)</sup> المتوفى سنة ٥٣٩ تكملة أو تمة سماها « التكملة فيما تلحن فيه العامة » . وأهم من هذا الصنيع كتابه « المعرب »

- (١) راجعه في المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر لحمود شكرى الألوسي (طبع بغداد) ص ٦٠ .
- (٢) راجعه في تاريخ الأدب العربي في العراق للعزاوي ٣٨/٢ .
- (٣) العزاوي ٥٧/٢ وماضى التنجف وحاضرها ج ٣ ق ٢ ص ١٠٩ .
- (٤) انظر في الشهاب أعلام العراق لمحمد بهجت الأثرى والآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٨٩/١ ونهضة العراق لمحمد مهدي البصير ٢١٩ ومقدمة تفسيره
- والعزاوي ٥٢/٢ وفي مواضع مختلفة .
- (٥) العزاوي ٥٨/٢ .
- (٦) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ١٦٠/٥ وقد نشر ماسينيون كتابه في القاهرة سنة ١٩١١ .
- (٧) انظر ترجمته في إنباه الرواة ٣/٣٣٥ ومعجم الأدباء ٢٠٥/١٩ والأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ١/٢٤٤ وابن خلكان ٣٤٢/٥ ومرآة الجنان ٣/٢٧١ وبغية الوعاة وشذرات الذهب ١٢٧/٤ .



وهو معجم نفيس للألفاظ الأعجمية الدخيلة على العربية ، ولم يؤلف في موضوعه أكبر منه ، وفيه يقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد .

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية ، ولابن الشجري <sup>(١)</sup> هبة الله بن علي المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبي تمام ، وهو مطبوع في حيدر آباد ، وله كتاب الأملى وهو أيضاً مطبوع في حيدر آباد ، وهو أكثر تأليفه إفادة ، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة . ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن ميمون <sup>(٢)</sup> ، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين ، وقد جمعه أو صنّفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو في الستين من عمره ، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية . وصنّف علي بن أبي الفرج البصرى في القرن السابع الهجرى الحماسة البصرية ، وقد حُققت وأعدت للطبع . .

ولعل نشاط بغداد في النحول هذا العصر كان أكبر من نشاطها في اللغة ، فقد استحدثت فيه المذهب النحوى البغدادى على نحو ماصورنا ذلك في كتابنا المدارس النحوية ، وهو مذهب كان أصحابه ينتخبون من المذهبين البصرى والكوفى آراءهم ، ويضيفون إلى ما ينتخبون آراء جديدة ينفذون إليها . وأهم نحوى بغدادى تلقاه في القرن الرابع الهجرى هو ابن جنى <sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيماً ، فصنع فيه شرحاً نفيساً لكتاب التصريف للمازنى سماه المنصف ، وهو في ثلاثة أجزاء ، شرح فيه مادة الكتاب شرحاً وافياً ، وأضاف إليها كثيراً من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف . وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها ، وله أيضاً في الصرف كتاب التصريف الملوكى ، وأهم كتبه فيه كتاب الخصائص ، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء ، وفيه وضع للصرف قضاياها الكلية ، وذكر فيه مآسما الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة ، هي أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك في معنى واحد ، فكلمة قول . ومتقلباتها : قلو ، ووقل ، وولق ، ولوق ، ولوق ، جميعها تفيد أوتعنى الخفة والحركة . وبجانب وضعه لأصول علم الصرف نراه في النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعاً ، ويضيف باجتهاده آراء جديدة ، وكان يكثر من متابعتة لأستاذه

(١) نظره في تزهة الألباء ص ٤٠٤ ومعجم الأدياء (٣) انظر في ترجمة ابن جنى تزهة الألباء ص ٣٣٢  
 ١٩/٢٨٢ وإنباه الرواة ٣/٣٥٦ وبغية الوعاة وابن  
 خلكان ٤٥/٦ ومرآة الجنان ٣/٢٧٥ وشذرات  
 الذهب ٤/١٣٢ .  
 ومرآة الجنان ٢/٤٤٥ والشذرات ٣/١٤٠ وروضات  
 الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .  
 (٢) انظر بركلمان ٥/١٦٩ .  
 (٣) انظر في ترجمة ابن جنى تزهة الألباء ص ٣٣٢ وتاريخ بغداد ١١/٣١١ ومعجم الأدياء ١٢/٨١ وإنباه  
 الرواة ٢/٣٣٥ وابن خلكان ٣/٢٤٦ وبتيمة الدهر ١/١٠٨  
 ومرآة الجنان ٢/٤٤٥ والشذرات ٣/١٤٠ وروضات  
 الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .

أبي على الفارسي ، وهو من طرازه بغدادى فى مذهبه النحوى ، وكل ذلك مصور فى كتابنا المدارس النحوية . وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافى شارح كتاب سيويه والرماني وهو مثله شرح الكتاب ، غير أنهما لا ينتظان فى المدرسة النحوية البغدادية الجديدة ، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصرى ، فعدادهما فى المدرسة البصرية لا البغدادية ، وفى كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافى وكثرة تعليلاته وتخرجاته النحوية . ويُعنى النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبي على الفارسي ، ويشرحه ابن جنى ، ويشرحه غير واحد من بعده مثل العكبرى ، ويعنون بشرح اللمع فى النحو لابن جنى ، ومن شرحوه عمر بن ثابت الثمانينى <sup>(١)</sup> تلميذه ، وشرحه مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومن شرّحه العكبرى ، وهم كثيرون . ومن نحاة مدرسة بغداد المهمين أبو البركات بن الأنبارى <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٥٧٧ وهو تلميذ ابن الشجرى الذى تتلمذ بدوره لأبي على الفارسي ، وبذلك يتصل به . وكان يدرس كتبه لتلاميذه فى المدرسة النظامية ، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح . وقد عني بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فى مسائل النحو ، وألف فى ذلك كتابين هما : الإنصاف المطبوع بمصر ، وقد طبعه فايل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة ، والكتاب الثانى أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فايل أنه رجح آراء الكوفيين بكتابه الإنصاف فى سبع مسائل ، وكان ينتخب آراءه من المدرستين البصرية والكوفية جميعا . وكان يقف مع الفارسي أستاذ شيخه ابن الشجرى فى كثير من المسائل فهو بغدادى المذهب . وله فى أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب فى جدل الأعراب ، وله فى تراجم النحاة كتاب نزهة الألباء . وكان يجرى على غراره فى اتباع المذهب البغدادى فى النحو أبو البقاء العكبرى <sup>(٣)</sup> الضرير ، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبي على الفارسي وابن جنى وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع ، وأيضا « الإفصاح عن معانى أبيات الإيضاح » و « تلخيص أبيات الشعر لأبي على الفارسي » وتلخيص التنبيه لابن جنى و « المنتخب من كتاب المحتسب فى

- (١) راجع فى الثمانينى معجم الأدباء ٥٧/١٦ وابن خلكان ٤٤٣/٣ ونزهة الألباء ص ٣٥٠ ونكت الهميان ص ٢٢٠ والشذرات ٢٦٩/٣ .  
 (٢) انظر فى ابن الأنبارى إنباه الرواة ١٦٩/٢ وبغية الوعاة وابن خلكان ١٠٠/٣ والشذرات ٦٧/٥ وابن الديبشى ص ١٤٠ ونكت الهميان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٩ .  
 (٣) راجعه فى إنباه الرواة ١١٦/٢ وبغية الوعاة وابن خلكان ١٠٠/٣ والشذرات ١٠٠/٣ ونكت الهميان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٩ .

شواذ القراءات» لابن جنى أيضا، ومن كتبه «إملاء مأمَنَ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن». وله كتاب الباب في علل البناء والإعراب. وقد حققه بعض الطلاب وأعدّه للنشر. وله أيضاً إعراب مشكل الحديث. ذُيِّلَ به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزى. ومن كتبه المسائل الخلافية في النحو وعُنِيَ بنشره بعض المستشرقين. وقد صورنا في كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعوَّل على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين. ومن نخاة بغداد في القرن السابع الهجرى عز الدين عبد الوهاب<sup>(١)</sup> ابن إبراهيم الزنجاني وله كتاب باسم تصريف الزنجاني أو العزى أومبادئ التصريف، وقد طارت شهرته في الآفاق وصُنعت له شروح وحواش كثيرة، عددها بروكلمان في تاريخه، ومنها طائفة كبيرة في دار الكتب المصرية. وقد طُبِعَ في روما مع ترجمته إلى اللاتينية، وطُبِعَ في الآستانة والقاهرة ودلّهي بالهند ومع ترجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوى في لكنو. ومن نخاة القرن السابع أيضا جمال الدين الحسين بن بدر الدين بن أياز<sup>(٢)</sup> البغدادي المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو في المدرسة المستنصرية، وله كتاب القواعد في النحو، ولا توجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ في حياته، وله أيضا المحصول شرح الفصول لابن معطى وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف في النحو. ومن النخاة المهمين ببغداد بدر الدين<sup>(٣)</sup> الإربلي المتوفى سنة ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية. وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب إتخاف الحبيب على مغنى اللبيب<sup>(٤)</sup>. ويكثر الشارحون للألفية ولقَطْرَ ابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنعون الحواشى. ونكتفى بذكر مثال هو إبراهيم الحيدرى المار ذكره في النشاط اللغوى، فله حاشية على كتاب سيبويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطى وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجار بردى وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندى على حاشية عبد الغفور اللارى على شرح الجامى لكافية ابن الحاجب، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطى<sup>(٥)</sup>.

وكان للنشاط في الدراسات البلاغية دوره في العصر، ومن خير هذه الدراسات كتاب

- (١) انظره في بغية الوعاة للسيوطى وفي تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٩/٥.  
 (٢) راجعه في بغية الوعاة للسيوطى وبروكلمان ١٨٥/٥ والجزاوى ١٦١/١.  
 (٣) هدية العارفين ١٣٥/٢ والجزاوى ١٧١/١.  
 (٤) المسلك الأذفر ص ٦٠ والجزاوى ١٢٨/٢.  
 (٥) هدية العارفين ٤٢/١ والجزاوى ١٤٢/٢.

النكت في إعجاز القرآن للرماني<sup>(١)</sup> شارح كتاب سيبويه ، كما أسلفنا ، وقد توفي سنة ٣٨٤ للهجرة ، ويهمننا من الكتاب حديثه عن البلاغة وقد جعلها في ثلاث طبقات<sup>(٢)</sup> : عليا ووسطى ودنيا ، والعليا بلاغة القرآن المعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم في البلاغة . ويوزعها على عشرة أقسام هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمن والمبالغة وحسن البيان ، ويفصل القول في كل قسم من هذه الأقسام بادئاً بتعريفه ثم باسطةً تفريعاته . وللحاتمي<sup>(٣)</sup> أبي علي محمد بن الحسن البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب في البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، وقد اعتمد عليه ابن رشيقي اعتماداً واسعاً في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع ، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحي والتصدير والتسهم والترصيع والتوشيح والمائلة والمبالغة والاتلفات والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته . ويكتب الباقلافي الذي ستتحدث عنه في علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه « إعجاز القرآن » ويهمننا فيه حديثه عن وجوه البديع ، وهو يستهلها بالكلام عن الاستعارة ، ويتلوها بالإرداف ثم المائلة فالمطابقة فالجناس فالموازنة ، فالمساواة ، فالإشارة ، فالمبالغة ، فالغلو ، فالإيغال ، فالتوشيح ، فصحة التقسيم ، فصحة التفسير ، فالترصيع والتتميم ، فالتكافؤ والتعطف إلى غير ذلك<sup>(٤)</sup> . وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصنائع في كثير من مصطلحاته ، وملتقى بالشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان : أحدهما في مجازات القرآن ، والثاني في المجازات النبوية ، وهو يعرض في الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقاً لترتيبها في آياتها مبيناً ما فيها من استعارة أو مجاز أو كناية . وبالمثل علّق في الكتاب الثاني على نحو ثلاثمائة وستين حديثاً ، والكتابان بحث تطبيقي عام ، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة ، لأنها لم تكن قد حرّرت حتى زمنه<sup>(٥)</sup> .

وعُني طائفة من البلاغيين بالكتابة في بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون المتوفى سنة ٣٢٢ وقد نشره عبد المعيد خان في سلسلة جب التذكارية

- (١) انظر في علي بن عيسى الرماني تاريخ بغداد ١٠٣/٣ والأنساب ١٤٨ وابن خلكان ٣٦٢/٤ ومعجم الأدباء ١٦/١٢ ومعجم الأدباء ٧٣/١٤ وإنباه الرواة ٢٩٤/٢ والأنساب الورقة ٢٥٨ وشذرات الذهب ١٠٩/٣ .  
 (٢) انظر تحليل هذا الكتاب في كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٣ .  
 (٣) انظر في الحاتمي تاريخ بغداد ٢١٤/٢ وإنباه الرواة ١٠٣/٣ والأنساب ١٥٤/١٨ والوفائي بالوفيات ٣٤٣/٢ والشذرات ١٢٩/٣ . واليئيمة ١٠٣/٣ .  
 (٤) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ .  
 (٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .

بلندن ، وهو في التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم . وأهم منه كتاب « الجمان في تشبيهات القرآن » لابن نايقا<sup>(١)</sup> البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥ والعناية بالتشبيه قديمة نجدها في كتابات الجاحظ وابن المعتز<sup>(٢)</sup> . وقد نُشر كتاب الجمان في دمشق تحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة في تضاعيفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز ، ثم يذكر ما فيها من تشبيه ، وإذا كان له نظير في القرآن ذكره ، وداثماً يذكر الأشعار التي اقتبسته ، وكثيراً ما يعرض المحسنين لهذا الاقتباس والمقصرين ، موضحاً بلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر . يقول : « وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن ، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازاً وإبداعاً وإباء وامتناعاً » .

ويُعنى بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة في الجناس ، مثل شميم<sup>(٣)</sup> الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس في التجنيس كما جاء في معجم الأدياء ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس في غرر التجنيس .

ولأنث أن نستقبل كتاب المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولا من لدن صاحب الموصل ، وكان كاتب إنشائه . وقد بنى كتابه على مقدمة<sup>(٤)</sup> ومقالتين ، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعاني والبديع ، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة ، ويعرض لأدواته التي لا بد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعاني يتحدث في أولها عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يُفهم البيت أفهاما كثيرة . وفي الفصل الثاني يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين . وتحسُّ صلته في هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات ومايدخلها من الاحتمالات . ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة

معجم الأدياء ٥٠/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٣/٢ وبغية الوعاة والشذرات ٤/٥ وميزان الاعتدال ٨٢/٢ والجواهر المضية في طبقات الخفيا ٢٨٣/١ وابن خلكان ٣٣٩/٣ .

(٤) راجع في تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٣ .

(١) راجع في عبد الله بن محمد بن نايقا إنباه الرواة ١٣٣/٢ وابن خلكان ٩٨/٣ والجواهر المضية ٢٨٣/١ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ ولسان الميزان ٣٨٤/٣ والحريفة (قسم العراق) ١٤٢/١ ومقدمة المحققين لكتابه .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٥ ، ٧٣ .

(٣) انظر في علي بن الحسن بن عنتر الملقب بشميم الحلبي

وأدوات الكتابة وأركانها . ويخرج إلى المقالة الأولى ، وقد جعلها للصناعة اللفظية وقسمها قسمين : قسما خاصا باللفظة المفردة ، وقسما خاصا بالألفاظ المركبة ، ويُطَنَّب في بيان حسن الألفاظ وصفاته ، متأثرا في وضوح بابن سنان الخفاجي في كتابه « سر الفصاحة » . وبالمثل يثأثر به في حديثه عن صفات الحسن في الألفاظ المركبة مفصلا القول في السجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم ما يلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف . وينتقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، ويعرض للسقرات ، ثم يتحدث عن الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل ، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية ، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض ، ولجَّ في بعض مسائل نقدية ، ثم تناول الجناس والاقْتِباس ، وفتح فصلا للسقرات ، وختَم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر .

ونلتقي في أواخر القرن السابع بكتاب « الأقصى القريب في علم البيان » المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخي <sup>(١)</sup> سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم « أقصى القرب في صناعة الأدب » ويقول إن مؤلفه توفي سنة ٧٤٩ للهجرة ، ولعله أخطأ في سنة وفاته ولا يُعرف موطنه ، وقد ضممناه إلى العراق لغلبة النزعة المنطقية عليه وأصدائها الواضحة في مباحثه . ووضح من عنوان الكتاب <sup>(٢)</sup> أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعا في ذلك ابن الأثير ، وهو يفتح الكتاب ببحث منطقي في التصور والتصديق وفي القضية المنطقية وصورها المختلفة ، ثم يتحدث عن الجملة النحوية ويفيض في مباحث الحروف والأسماء والأفعال . ثم ينتقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والمجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها . ويخرج إلى الحديث عن المعاني ويتبدى حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة ، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنفي والاعتراض والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض والتقديم والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع ، وهو شديد التأثر في كل ذلك بابن الأثير في كتابه المثل السائر . ويلقانا جلال الدين القزويني صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل ، ويبدو أنه غادره في مطالع شبابه ، وأنه أتم ثقافته في بلاد الروم وديار الشام ، ولذلك سترجىء الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر .

(١) انظر في التنوخي بروكلمان ١٨٥/٥ وكشف  
الظنون لحاجي خليفة (طبع إستانبول) ١/١٣٧ وكتابه  
نشرته مكتبة الحاجي بالقاهرة .  
(٢) راجع في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور  
وتاريخ ص ٣١٦ .

وُسِّمَ العراق في نظم القصائد المعروفة بالبديعيات. وعلى<sup>(١)</sup> بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هو أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه ، فقد نظم قصيدة في مديح بعض معاصريه وضمّن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع ، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذي يُطوَى فيه ، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً . وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصنى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة وأبناه ينظم قصيدة في مديح الرسول ﷺ على شاكلة بردة البوصيري مفتتحاً لها بقوله :

إن جئتَ سَلْعاً فَسَلِّ عن جيرة العَلَمِ وأقرّ السلامَ على عُرْبِ بَدِي سَلَمِ

وهي مائة وخمسة وأربعون بيتاً من وزن البسيط ، وكل بيت فيها يحمل محسناً من محسنات البديع ، وهي تضم نحو مائة وخمسين محسناً ، إذ جعل للجناس فيها اثني عشر لونا صورها في الأبيات الخمسة الأولى ، وواضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براعة الاستهلال ، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَمِ وسلم . وقد سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية . ويذكر في مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتاباً قبل تأليفه لبديعته وأنه زاد على ما قرأ محسنات جديدة . وتلقانا بعد صنى الدين بديعيات أخرى وشروح وتلخيصات لكتب البلاغة ، ويستمر العلماء في صنع هذه التلخيصات والشروح لافي أزمان المغول والتركمان فحسب ، بل أيضاً في زمن العثمانيين ، وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب في الاستعارة ومحمد أمين الخطيب العمري بديعية وشرح لها ، وللشيخ إبراهيم الحيدري كتاب في البديع ولشهاب الدين الألوسي أبي الثناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عَصَامِ .

وإذا تركنا النشاط البلاغي إلى النشاط النقدي وجدناه على أتمه في مطالع هذا العصر ، وأول ما يلقانا منه كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى للآمدى<sup>(٢)</sup> الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب<sup>(٣)</sup> بالحديث عن مذهبين مختلفين في فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله ، وهما مذهب المجددين من أنصار أبي تمام أصحاب المعاني والفلسفة والبديع ، ومذهب المحافظين من أنصار البحترى الذين يتمسكون بعمود الشعر العربي

(١) انظر في ترجمة علي بن عثمان كتاب فوات الوفيات (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ١١٨/٢ والنجوم المعارف) ص ٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ الزاهرة ٢٣٦/٧ .

(٢) انظر في الآمدى معجم الأدباء ٧٥/٨ وإنباه الرواة ص ١٢٨ .

(٣) راجع في تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار

وتقاليد مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وجمال أنغامه . ويمضى الآمدى فيصور جدلا بين أصحاب المذهبين في فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه ، عارضا احتجاجات أصحاب أبي تمام وردود أصحاب البحترى عليهم ، ومن أطرف ما احتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة . ويتحدث الآمدى بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائها ، وهو يتحيز في الموازنة للبحترى تحيزاً واضحاً .

وكان يعاصره المرزباني<sup>(١)</sup> محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراساني الأصل بغدادي المولد والموطن ، وله كتاب الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، وهو سجل لتقد اللغويين من القرن الثاني حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث ، متخللاً ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقه . ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبي نواس ، وكذلك الفصل الخاص بأبي تمام ، وقد دوّن فيه رسالة ابن المعتز في بيان محاسن شعر أبي تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده ، مثل ابن عمار القطر بلي المتوفى سنة ٣١٩ في رسالته التي كتبها في أخطاء أبي تمام ، وكذلك الآمدى في موازنته السالفة . وفي رأينا أن هذه الرسالة هي التي دفعت الصولى للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبي تمام . وحيثما يتحدث الآمدى عن أنصار أبي تمام إنما يريده . وملتقى بناقد مهم للمتنبي سبق أن عرضنا له في حديثنا عن النشاط البلاغي وهو أبو علي الحاتمي البغدادي الذي تصدى للشاعر الكبير ينقده نقداً مجحفاً في كثير من الأحوال ، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبي كلام أرسطو . حاول فيها أن يرد كثيراً من حكمه إلى أقوال الفيلسوف ، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبي على فرض أنه استعار بعض حكمه من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة ، وفي الحق أن جمهور حكمه إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية . وللحاتمي فيه رسالة ثانية أو كتاب ثان هو الموضحة<sup>(٢)</sup> وفيها يذكر أن الوزير المهلبى هو الذى دفعه إلى نقد المتنبي ، ويقول إن معارك نشبت بينه وبين المتنبي حين لقيه ، ويصور في الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت في عدة مجالس ، كان أولها في الدار التي نزل فيها المتنبي ، أمام طائفة من العلماء الأدباء . وقد أخرج الحاتمي الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تزيد فيه ، وهو

(١) انظر في المرزباني تاريخ بغداد ١٣٥/٣ ومعجم

٢٣/٤ وعبر الذهبي ٢٧/٣ ولسان الميزان ٢٣٦/٥ .

الأدباء ٢٦٨/١٨ وابن خلكان ٣٥٤/٤ والشذرات

(٢) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره

١١١/٣ وميزان الاعتدال ٦٧٢/٣ والوفى بالوفيات

في بيروت .



يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعيوبه ويوازن بين معانيه ومعاني أبي تمام والبحترى . والتجنى على المتنبي واضح في الكتاب ، فلم يكن يمسك في يده بمعايير نقدية منصفة . ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه في كتبهم ودراساتهم . ويُشغَل كثيرون بالمتنبي في جميع البلدان العربية ، وسنرى في إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره .

ويلقانا في العراق ابن الدهان <sup>(١)</sup> سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة في سرقات المتنبي سماها « الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية » وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أب تمام الطائي ، وعنى ببيان سرقاته من البحترى الطائي أيضاً ، ولذلك قد تسمى في بعض المصادر باسم « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه « الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية ، عني فيها بالرد على ابن الدهان في مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما : مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبي تمام ، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبي تمام . وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان في مبحثه ، ذاكراً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبي تمام مثلاً أخذ ، وأنه قد يعدُّ بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه ، ويتأمله يلاحظ أنه غير مسروق ، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبي تمام والبحترى آياتاً ليست لهم ، وأنه أطل مقدمته كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضها شبراً ، على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله . ولابن الأثير في الكتاب - شأنه في كتاب المثل السائر - نظرات نقدية كثيرة جيدة . ولابن أبي الحديد رسالة في نقد المثل السائر لابن الأثير سماها « الفلك الدائر على المثل السائر » وهي إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أي نقد آخر ، ورد عليه كثيرون منتصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجاري المتوفى سنة ٦٤٠ في كتابه « نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر » .

ولصنى الدين الحلبي المار ذكره في البديعيات كتاب نفيس في الأشعار العامية الشعبية سماه « العاقل الحلبي والمرخص الغالي في الأزجال والموالى » عرض فيه فنون الشعر العامي من الزجل والمواليا والقوما والكان وكان موضعاً نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز . ويلاحظ أنه سبقت الأزجال في الأندلس قصائد عامية ذات قافية واحدة

(١) انظر في ابن الدهان معجم الأدباء ٢١٩/١١ خلكان ٣٨٢/٢ والشذرات ٤/٢٢٣ .

ونكت الهميان ص ١٥٨ وإنباه الرواة ٤٧/٢ وابن

كقصائد « الشعر الفصيح » كانت تسمى بالقصائد الزجلية ، ثم نوعوا فيها الأوزان والقوافي على شاكلة الموشح . وهو يقوم في ضبط أوزان الأشعار العامية مقام ابن سناء الملك المصرى في ضبطه للموشحات بكتابه المعروف « دار الطراز » . وتعرض صفي الدين الحلبي لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوى ذاهبا إلى أنه لما قلد الأندلسيين في موشحاته وجعل خرجاتها عامية كثر في نظمه استخدام اللفظ العامى ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة - في رأيه - من شعره . وقد صحح هذه الأمثلة وردّها الصفدى في شرحه للامية العجم الذى سماه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » . ولانعود نسمع عن كتاب مهم فى النقد بالعراق بعد كتاب العاطل الحالى ، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة .

## ٤

### علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى نشاط العراق فى روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعا ، هى قراءات الأئمة : نافع فى المدينة وعبد الله ابن كثير فى مكة وعاصم وحمزة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق ، وشاعت فى العالم الإسلامى إلى اليوم مدوّنة بكتابه السبعة الذى مضى العلماء منذ عصره يتدارسونه<sup>(١)</sup> وألّف كتابا ثانيا فى شواذ القراءات عنى بالتعليق عليه ابن جنى مسميا تعليقه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لا تقل عن القراءات السبع التى دَوَّنَهَا بكتابه قراءة أبى جعفر يزيد ابن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمى البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادى المتوفى سنة ٢٢٩ . وبضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبح القراءات عشرا وتؤلف فيها الكتب . ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هى قراءة ابن مُحَيِّصِينِ المكى معاصرا بن كثير وقراءة الأعمش الكوفى وقراءة اليزيدى البصرى تلميذ أبى عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصرى . وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة . وتنشط العراق فى التأليف فيها ، تارة يؤلف العلماء فى السبع وتارة يؤلفون فى العشر أو فى الأربع عشرة . فمن ذلك كتاب الجامع فى القراءات العشر لعلى بن محمد الخياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادى فى إحدى عشرة قراءة وقد توفى

(١) حققتُ ونشرتُ فى دار المعاف هذا الكتاب .

سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد في القراءات العشر لأبي نصر البغدادي المتوفى سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار في القراءات العشر لابن شيطا البغدادي المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد ابن علي بن سوار البغدادي المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضا في القراءات العشر وكتاب المهذب في القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الحياط البغدادي المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد في العشر للواسطي المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح في القراءات العشر لابن خيرون البغدادي المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبهج في القراءات الثمان لسبط الحياط البغدادي المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية في القراءات الست ، وكتاب المصباح في القراءات العشر لأبي الكرم البغدادي المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكثر في القراءات العشر لأبي محمد عبد الله الواسطي المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهي قصيدة في القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية وروياها ، وكذلك لمعاصره أبي الحسن علي الديواني الواسطي المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة ماثلة للشاطبية . وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزري في كتابه « النشر <sup>(١)</sup> في القراءات العشر » وترجم لأصحابها في كتابه غاية النهاية في طبقات القراء .

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط في التفسير الفقهي والاعتزالي والسني والشيعي ، وقلما عنيت بالتفسير الصوفي ، وكأنما تركته لمتصوفة خراسان وإيران من أمثال أبي عبد الرحمن السلمى والقشيري ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربي . وقد عنيت مبكرة بالتفسير الفقهي ، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص <sup>(٢)</sup> أحمد بن علي المتوفى سنة ٣٧٠ في كتابه أحكام القرآن ، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء بالقاهرة ، ومثله كتاب أحكام القرآن للكيّا <sup>(٣)</sup> الهراسي المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إیراني ، ولكنها نزلت ببغداد ، واستقر فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم ، ثم أصبح مدرسا للفقهاء الحنفي وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفي فيها ، وأما الكيّا الهراسي فقد درس في نيسابور وعلم في إحدى قرأها المسماة بيهق . ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد حتى توفي ، وكان في خدمته بها الشاعر العزّي المشهور . وألّف في أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكتابين السابقين . وقد ذكرنا في العصر

(١) انظر في الكتب السالفة وأصحابها النشر في

القراءات العشر لابن الجزري (طبع القاهرة)

(٢) انظر في الكيّا الهراسي المنتظم ١٦٧/٩ وتبيين

(٣) راجع في ترجمة ابن الجصاص الجواهر المضية

٨٤/١ وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا

رقم ١١ وبستان المحدثين لعبد العزيز الدهلوي ١٢٦

و«النجوم الزاهرة» ١٣٨/٤ والفوائد البهية ص ٢٧

كذب المفترى ٢٨٨ والسبكي ٢٣١/٧ وعبر الذهبي ٨/٤

والشذرات ٨/٤ وابن خلكان ٢٨٦/٣

العباسي الثاني تفسيرات المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، ويستمر نشاط المعتزلة في تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة في أوائله ، ويلقانا فيه تفسير لعلي بن عيسى الرماني المعتزلي ، ومر بنا أنه توفي سنة ٣٨٤ وكان يقول : تفسيري بستان يُجتنى منه ما يشتهي ، وقيل للصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيراً ؟ فقال : وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً<sup>(١)</sup> ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه »<sup>(٢)</sup> . ومن هذا الاتجاه الاعتزالي كتاب التفسير الكبير لعبد السلام<sup>(٣)</sup> بن محمد القزويني نزيل بغداد وشيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعاني إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات في سورة الفاتحة ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفاً في مشهد أبي حنيفة ببغداد . ويبدو أن المعتزلة اكتفوا فيما بعد بتفسير الزمخشري المسمى بالكشاف ، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف في تفسير القرآن .

ويظل التفسير السني مزدهراً بعد تفسير الطبري الذي عرضنا له في العصر العباسي الثاني ، ومن التفسيرات السنية المهمة في العصر تفسير النقاش<sup>(٤)</sup> البغدادي محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير ، وقد سمي تفسيره شفاء الصدور ، وطُوف من مصر إلى ما وراء النهر في لقاء المشايخ ولكنهم ضعّفوا أحاديثه ، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالته ونبهه . ولأبي الحسن الماوردي إمام الشافعية في عصره المتوفى كما مر بنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل التفاسير . ويلقانا تفسير سني لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية وهو لأحمد<sup>(٥)</sup> بن محمد الغزالي أخى الإمام الغزالي مدرس النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠ . واشتهر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذي سماه « زاد المسير في علم التفسير » . ومن أصحاب التفاسير السنية الرَّسَعِي<sup>(٦)</sup> عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطي : « صنّف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيدِهِ » . ومنهم علاء الدين علي بن محمد البغدادي صاحب التفسير المعروف بتفسير الحازن<sup>(٧)</sup> المتوفى سنة ٧٤١ ، وهو ملهى

- (١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١١٥  
 (٢) النجوم الزاهرة ١٦٨/٤  
 (٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة  
 (٤) ١٥٦/٥ وتذكرة الحفاظ ٨/٤ ولسان الميزان ١١/٤  
 والسبكي ١٢١/٥ والشذرات ٣/٣٨٥ .  
 (٥) راجعه في تاريخ بغداد ٢٠١/٢ ومعجم الأديب  
 (٦) ١٤٦/١٨ وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدرآباد)  
 (٧) ١١٥/٣ وطبقات القراء لابن الجزرى ١١٩/٢ وميزان  
 الاعتدال ٥٢١/٣ وابن خلكان ٢٩٨/٤ والسبكي  
 ١٤٥/٣  
 (٥) انظره في المنتظم ٢٦٠/٩ وميزان الاعتدال  
 ١٥٠/١ وابن خلكان ٩٧/١ والسبكي ٦٠/٦ والشذرات  
 ٦٠/٤ ومرآة الجنان ٢٢٤/٣ ولسان الميزان ٢٩٣/١ .  
 (٦) راجعه في طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٥٦  
 (٧) انظره في طبقات المفسرين للدردراكامة  
 ١٧١/٣

بالإسرائيليات . ومن خير التفاسير السننية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه في القرن الماضي ، وهو كتاب «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لشهاب الدين محمود الألوسي الذي مر ذكره والمتوفى سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م ، وهو يعنى في تفسيره ببيان أسباب النزول وبتفسير آى القرآن بعضها ببعض ، وتفسيرها بالحديث النبوى ، ويعنى باللغة ومسائل النحو والبلاغة ، وقد اعتمد على كثير من مصادر التفسير فى القديم ، وخاصة على الكشاف والبيضاوى والفخر الرازى ، وهو يخوض مثل الفخر فى مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة . وقد عنى عناية واسعة بالرد على الطبرسى الشيعى فى تفسيره ، وخاصة فى مسائل الإمامية الاعتقادية . ونراه يعنى بالرد فى مسائل كثيرة على حجج الشافعية ، وخاصة تلك التى يثيرها المفسر الشافعى الكبير الفخر الرازى فى تفسيره . ومع أنه كان حنفياً ، والحنفية غالباً كانوا معتزلة أو ماتريدية ، نراه فى تفسيره أشعرياً ، وهو بذلك يلتقى مع الفخر الرازى فى نصرته للمذهب الأشعرى . ويذكر ابن عربى مراراً فى تفسيره ، ويتضح تأثره به وبتفاسير الصوفية عامة حين نراه فى كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها يتغلغل فى معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أى دلالة ، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْر مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً يتمادى فيها ، وكان حرياً أن يحلّى تفسيره منها ومن شوائبها إخلاء تاماً .

وقد ذكرنا فى العصر العباسى الثانى للتفسير الشيعى بعض التفاسير التى نسبها الشيعة إلى أئمتهم ، مثل تفسير الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادى عشر فى ترتيب الإمامية ، وبمجرد اطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقاً لركاكة أساليبه ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة . ويأتى بعده تفسير القمى<sup>(١)</sup> على بن إبراهيم المتوفى لأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو فى جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآنى ومراده ، مما يدل على أن نسبتها إليهم غير صحيحة . وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقى بالشرىف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ . وبتفسيره الذى سماه «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» وقد نشر منه فى بيروت الجزء الخامس ، ومن يطلع عليه يجد له فيه عملين كبيرين : أولهما البعد عن التفسير الباطنى الشيعى لآيات الذكر الحكيم ، وثانيهما ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل ، وهو احتكام وصلّ تفسيره بتفاسير المعتزلة ،

(١) انظره فى طبقات المفسرين للدوادى ٣٨٥/١ مطبوع بالنجف .

والدرية إلى تصانيف الشيعة لأغابزرك ٣٠٢/٤ وتفسيره

والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة ، وتتردد في التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أبي علي الجبائي وعلي بن عيسى الرماني والقاضي عبد الجبار . واتجه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى<sup>(١)</sup> في كتابه «الأمالي» إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التي قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العلية أو الجبر ليؤولها على طريقة المعتزلة ، وفي الوقت نفسه لا يروى فيها نقولاً عن الأئمة . وبذلك يُعدّان للتفسير بالرأى والعقل في بيئة الإمامية ، واستضاء بعملهما في هذا الاتجاه الطوسي<sup>(٢)</sup> . أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذ الشريف المرتضى ، وقد توفي سنة ٤٦٠ واشتهر بتفسيره للذكر الحكيم سماه «التيبان في تفسير القرآن» وهو مطبوع بالنجف في عشرة أجزاء ، وقد عُني في تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة . إذ روى في تفسيره عن الصحابة من أمثال أبي بكر الصديق وعمر ، وكذلك عن التابعين دون تعصب مذهبي ، ووضع بجانبهم ما نقله عن الأئمة في عقيدته الإمامية ، واتخذ تفسير الطبري السني هادياً له في تفسيره ، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعية مثل الأمالي لابن بابويه القمي وأمالي ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح الستة . وعلى ضوء دراسات الشريفيين المرتضى والرضي عُني بالتفسير العقلي وفسح للتأثر بالمعتزلة في نفي التشبيه عن الذات العلية . وليس معنى ذلك كله أنه تخلص في تفسيره من عقيدته الإمامية ، بل لقد نصرها في مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم في الإمام وأنه معصوم وحجة الله في أرضه وصاحب علم باطني متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية ، وقد تأثر به الطبرسي في تفسيره تأثراً واسعاً .

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث ، وظلت شديدة العناية به وبحفظه طوال هذا العصر ، وأول من نقلها من أعلامه البرزاز محمد<sup>(٣)</sup> بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالي في الحديث وهي مجموعة يمتاز سندها بقلة رواه ، وكان يعاصره الآجري<sup>(٤)</sup> أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة ،

(١) راجع في الشريف المرتضى تاريخ بغداد دائرة المعارف الإسلامية .  
 (٢) ٤٠٢/١٢ وتممة اليتيمة ٥٣/١ وابن خلكان ٣/٣١٣ (٣) انظره في تذكرة الحفاظ ٩٠٦/٣ وطبقات الحفاظ للسيوطي ١٢١ . وبروكلمان ٢٠٧/٣ .  
 (٤) راجعه في تذكرة الحفاظ ١٣٩/٣ وتاريخ بغداد من مراجع  
 (٢) انظر في الطوسي المنتظم ٢٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ٨٢/٥ ولسان الميزان ١٣٥/٥ وروضات الجنات ٥٨٠ والشذرات ٣٥/٣ والمنتظم ٥٥/٧ والوافي ٣٧٣/٢ .

ومخلفها الدارقطني<sup>(١)</sup> على بن عمر المتوفى سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دارقطن ، وله كتاب السنن « وقد نُشر قديماً في دلهي ، واشتهر الدارقطني بأنه تعقب في كتابه الاستدراكات وجوه الضعف في بعض أحاديث رواها الشيخان : البخاري ومسلم ، وله كتاب في الضعفاء والمتروكين من الرواة « وكتاب في العلل ، وآخر في غريب الحديث . وكان يعاصره الكلاباذي<sup>(٢)</sup> أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٩٨ وله كتاب في رجال البخاري ، وجاء بعده اللالكائي<sup>(٣)</sup> هبة الله بن الحسن محدث بغداد المتوفى سنة ٤١٨ وله كتاب في رجال الصحيحين وكتاب في السنن ، وكان يعاصره البرقاني<sup>(٤)</sup> أحمد بن محمد شيخ بغداد المتوفى سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة في الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم . ثم يلقانا الخطيب<sup>(٥)</sup> البغدادي أحمد بن علي بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ وكان في وقته حافظ المشرق الذي لا يدافع ، وله مصنفات كثيرة في الحديث ورجاله ، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم ، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونه . وكان يعاصره ابن ماكولا<sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشتبهة في أسماء رواة الحديث ، يقول ابن خلكان : هوفي غاية الإفادة في رفع الالتباس والضبط والتقييد وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان . ومن محدثي القرن السادس ابن الجوزي عبد الرحمن ابن علي المتوفى سنة ٥٩٧ ، وله عدة مصنفات في الحديث من أهمها كتابه «الموضوعات» في أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديث الموضوعية . وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن<sup>(٧)</sup> الأثير الجزري الموصلی المتوفى سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول في أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة ، وله أيضاً كتاب النهاية في

- (١) انظره في تاريخ بغداد ٣٤/١٢ والمتنظم ١٨٣/٧  
أو الأنساب ٢١٧ وطبقات القراء ٥٥٨/١ والسبكي  
٤٦٢/٣ وتذكرة الحفاظ ١٨٦/٣ وابن خلكان ٢٩٧/٣  
وعبر الذهبي ٢٨/٣ واللباب ٤٠٤/١ .
- (٢) انظره في تذكرة الحفاظ ٢١٦/٣ وتاريخ بغداد  
٤٣٤/٤ وبروكلمان ٢٢٨/٣ .
- (٣) تذكرة الحفاظ ٢٦٧/٣ وتاريخ بغداد ٧٠/١٤
- (٤) تذكرة الحفاظ ٢٥٩/٣ وتاريخ بغداد ٣٧٣/٤  
والسبكي ٤٧/٤ والمتنظم ٧٩/٨ .
- (٥) انظره في تذكرة الحفاظ ٣١٢/٣ وتهذيب ابن  
عساكر ٣٩٨/١ ومعجم الأدباء ١٣/٤ والمتنظم ٢٦٥/٨
- والعبر ٢٥٣/٣ والشذرات ٣١١/٣ والسبكي ٢٩/٤ وابن  
خلكان ٩٢/١ وكتاب الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد  
ومحدثها ليوسف العث .
- (٦) راجعه في تذكرة الحفاظ ١/٤ والمتنظم ٥/٩  
ومعجم الأدباء ١٠٢/١٥ وابن خلكان ٣٠٥/٣ وعبر  
الذهبي ٣١٧/٣ والشذرات ٣١٨/٢ وفوات الوفيات  
١٨٥/٢ .
- (٧) انظره في تذكرة الحفاظ ١٨٥/٤ وابن خلكان  
١٤١/٤ ومعجم الأدباء ٧١/١٧ وإنباه الرواة ٢٥٧/٣  
ومرأة الجنان ١١/٤ والسبكي ٣٦٦/٨ والعبر ١٩/٥  
وروضات الجنات ٥٨٥ .

غريب الحديث . وجاء بعده ابن نقطة <sup>(١)</sup> محمد بن عبد الغنى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن ماكولا في مجلدين ، وله كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد . وكان يعاصره ابن الدُبَيْبِي وابن النجار وسنعرض لهما في حديثنا عن علم التاريخ . وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن الفُوطِيّ المتوفى سنة ٧٢٣ وسنذكره معها . وجاء بعده صفى الدين الحسين <sup>(٢)</sup> بن بدران مدرس الحديث بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٤٩ وخلفه الكرمانى شمس الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٨٦ وله الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع بالقاهرة . وتلاه ابنه تقي الدين <sup>(٣)</sup> يحيى البغدادي المتوفى سنة ٨٣٣ وله شرح على صحيحى البخارى ومسلم .

وحتى الآن لم نعرض لكاتب الحديث عند الشيعة الإمامية ، ومن أهمها عندهم كتاب الأملى لابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأملى للمفيد <sup>(٤)</sup> محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسى المفسر الذى مر ذكره ، وأماليه مطبوعة بالنجف ، وهى تشمل على اثنين وأربعين مجلداً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وآل بيته . وللطوسى كتب مختلفة فى الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيما اختلف من الأخبار ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية فى العقيدة الإمامية . ودائماً كتب الشيعة الإمامية فى العقيدة مشحونة بالأحاديث ، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المطهر <sup>(٥)</sup> الحلى الحسين بن يوسف المتوفى سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثني عشرية بالحلة ، ولازم النصير الطوسى مدة واشتغل فى العلوم العقلية - كما يقول ابن حجر - فمهر فيها ، وله مصنفات كثيرة فى الإمامة والشريعة ، ردد عليه فيها ابن تيمية وأظهر - كما يقول ابن حجر - أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة .

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقهاء والفقهاء ، وأول مذهب فقهي نقف عنده مذهب أبى حنيفة ، ولعل أول فقيه حنفى جدير بالوقوف عنده فى هذا العصر القُدورى <sup>(٦)</sup> أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور فى الفقه الحنفى لا يزال

- (١) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٩٧/٤ والعبر ١١٧/٥  
وابن خلكان ٣٩٢/٤ والشذرات ١٣٢/٥ .  
(٢) انظره فى الدرر الكامنة ١٣٩/٢ والشذرات ١٦٣/٢ .  
(٣) راجعه فى الضوء اللامع ٢٥/١٠ والعزوى ٦٧/١  
(٤) انظره فى كتاب الرجال للنجاشى ٢٨٣ ومنهج  
المقال للاسترأبازى ٣١٧ وروضات الجنات ٥٦٣  
وبروكليان ٣/٣٤٩ .  
(٥) راجعه فى الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار  
الكتب الحديثة) ١٥٨/٢ والعزوى ١٦٦/١ .  
(٦) انظره فى تاريخ بغداد ٣٧٧/٤ وابن خلكان  
٧٨/١ والعبر ١٦٤/٣ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر  
المضية ٩٣/١ والفوائد البية للكتوبى ١٧ وبروكليان  
٢٦٩/٣ .



يدرس إلى اليوم وقد طُبِعَ طبعات مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاً مطولة وموجزة . وكان يعاصره أبو زيد الدبوسى <sup>(١)</sup> عبد الله بن عمر المتوفى سنة : ٤٣٠ وله تأسيس النظر في الخلاف ، وهو مطبوع في القاهرة ، ويقال إنه أول من أسس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة . ومنذ أبي يوسف في عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف في بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفى في العراق ، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التى بناها المستوفى الخوارزمى في عهد السلطان ملكشاه السلجوقى للحنفية <sup>(٢)</sup> عند مشهد الإمام أبى حنيفة . وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الحنفى والمالكي والشافعى والحنبلى إيواءً فيه المسجد وموضع التدريس . وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم . ومنهم مظفر <sup>(٣)</sup> الدين بن الساعاتى المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه في مجلدين . ومنهم أبو البركات <sup>(٤)</sup> النسفى ، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصنفات مختلفة في الفقه الحنفى ، من أهمها الكتر وله شهرة كبيرة في تدريس المذهب ، وعليه شروح كثيرة وولتقى منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة في الفقه الحنفى . وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكى ، وأكثر من كانوا يعتقدون هذا المذهب وفدوا على بغداد ، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكياً كبيراً ببغداديا أو عراقياً مثل الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائى مالكياً مثله <sup>(٥)</sup> . ومن وفدوا على العراق أبو العباس المالكى أحمد <sup>(٦)</sup> بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧ . وكانت حلقة المذهب في المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً في أن يظل حياً بالعراق ، ويظل له شيوخه وفقهاؤه .

وكان الفقه الشافعى أكثر نشاطاً من فقه المذهبين المالكى والحنفى ، ومن أهم فقهاءه أبو <sup>(٧)</sup> حامد المروروذى أستاذ أبى حيان التوحيدى ، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة ، وقد توفى سنة ٣٦٢ ويلقانا بعده في بغداد أبو حامد الإسفرائينى <sup>(٨)</sup> المتوفى سنة ٤٠٦ وله في

(١) راجع في الدبوسى الفوائد البيهية ٢٥ والجواهر المضية (٥) السبكى ٣٦٨/٣

(٢) وابن خلكان ٤٨/٣ وتاج التراجم رقم ١٠٧ (٦) المنتظم ١٧٥/٩

(٧) انظره في السبكى ١٢/٣ وابن خلكان ٦٩/١ وبيروكلان ٢٧٣/٣ .

(٢) ابن خلكان ٤١٤/٥ . والعبر ٣٢٦/٢ والشذرات ٤٠/٣

(٣) انظره في تاج التراجم ص ٦ والجواهر المضية ٨٠/١ (٨) راجعه في السبكى ٦١/٤ وتاريخ بغداد ٣٦٨/٤

والفوائد البيهية ١٦ . وبيروكلان ٣٥٧/٦ . وابن خلكان ٧٢/١ والعبر ٩٢/٣ والشذرات ١٧٨/٣

(٤) سذكر مصادر ترجمته في القسم الخاص بإيران

المذهب التعليقة الكبرى ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه . ومن نابهى فقهاء المذهب ببغداد المحاملي<sup>(١)</sup> الضبي المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب في الفقه الشافعي واختصره أبو زرعة العراقي المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصري زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦ . ومربنا حديث عن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية ، وقد درّس المذهب في البصرة وبغداد ، وله في الفقه كتابان هما الحاوي والإقناع ونشرله في العراق كتاب أدب القاضي في مجلدين ، وقد ذكرنا له كتاباً في التفسير . ويزدهر المذهب الشافعي في العراق منذ تأسيس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين في البصرة والموصل ، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة ، وجعل التدريس فيها خاصاً بفقهاء الشافعية لا في الفقه وحده بل في مختلف العلوم ، وقد أسند تدريس المذهب في نظامية بغداد لأبي إسحق الشيرازي أحد أئمة المشهورين ، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء في المذهب ، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقياً لا في بغداد وحدها بل أيضاً في البصرة والموصل ، ويُعنى السبكي في طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية في العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه ، ونكتفي بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشهرزوري<sup>(٢)</sup> قاضي القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فضلان<sup>(٣)</sup> محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس<sup>(٤)</sup> الموصلية عبد الرحيم ابن محمد المتوفى سنة ٦٧١ ، وله التعجيز: مختصر الوجيز والنيب في اختصار التنبيه ومختصر الحصول في أصول الفقه ، ويقول السبكي : « كان آية في القدرة على الاختصار ، ومن أحسن مختصراته في الفقه كتاب سماه « نهاية النفاسة » قل أن رأيت مثله في عذوبة منطقته وكثرة المعنى وصغر الحجم ، وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدوري » أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً . وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعي ناشطاً في العراق بفضل مدارسه وفقهائه . وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية في ذلك حظ موفور .

ولعل المذهب الحنبلي كان أكثر المذاهب الفقهية شياعاً وأنصاراً في بغداد ، منذ التف الناس حول مؤسسه أحمد بن حنبل ، وقد جعله موقفه من الدولة في إنكار الفكرة القائلة

- (١) انظره في السبكي ٤/٤٨ وتاريخ بغداد ٤/٣٧٢ (٣) انظره في السبكي ٨/١٠٧ والشذرات ٥/١٤٦  
والعبر ٣/١١٩ والمتنظم ٨/١٧ وابن خلكان ١/٧٤ والعبر ٥/١٢٦  
(٤) راجعه في السبكي ٨/١٩١ والشذرات ٥/٣٣٢  
(٢) راجعه في السبكي ٦/١٨٥ والعبر ٤/٢٥٩ ومراة الجنان ٤/١٧١ وذبل مراة الزمان ٣/١٤ .

بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبياً ، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر ، ويكنى أن تمثل بطائفة من فقهاءه ، ومن يلقانا منهم في مطالع العصر ابن<sup>(١)</sup> بطة عبيد الله بن محمد العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة ، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية . ومن ناهيهم في القرن الخامس الشريف أبو<sup>(٢)</sup> جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الحنابلة في عصره ، وله رءوس المسائل وشرح المذهب ، وجزء في أدب الفقه . ومنهم في القرن السادس أبو الخطاب محفوظ<sup>(٣)</sup> الكلواذاني المتوفى سنة ٥١٠ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية في الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار في المسائل الكبار ، والخلاف الصغير المسمى برءوس المسائل ، وكان يعاصره يحيى<sup>(٤)</sup> بن منده المتوفى سنة ٥١٢ صنّف مناقب الإمام أحمد بن حنبل في مجلد كبير ، وكان يعاصرها أبو<sup>(٥)</sup> الوفاء ابن عقيل ، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢ ، وله في الفقه الحنبلي كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتي ، في عشرة مجلدات وكتاب عمدة الأدلة ، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جداً ، يقال إنه كان في مائتي مجلد ، وهو في الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالسه ، وقال الحافظ الذهبي في تاريخه : لم يصنّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب . وكان يعاصره ابن أبي يعلى الفراء<sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٥٢٦ وله تصانيف كثيرة في الفقه والأصول ، منها المجموع في الفقه ، ورءوس المسائل ، والمفردات في الفقه ، وأيضاً المفردات في أصول الفقه . وتلت في أواخر القرن السادس بعلم حنبلي كبير هو ابن الجوزي . وظل الفقه الحنبلي مزدهراً في العراق طوال العصر ، ومن فقهاء ابن<sup>(٧)</sup> البرزالي الحنبلي المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفي<sup>(٨)</sup> الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه في المستنصرية ، ومن درسوا فيها ابن العاقولي<sup>(٩)</sup> محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧ . ويجانب هذه المدرسة كان

- (١) انظره في تاريخ بغداد ٣٧١/١٠ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٤٦ .  
(٢) راجعه في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة المعهد الفرنسي بدمشق) ٢٠/١  
(٣) انظره في ابن رجب ١٤٣/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٥  
(٤) راجعه في ابن رجب ١٥٤/١ وابن خلكان ١٦٨/٦ والشذرات ٣٢/٤ والعبر ٢٥/٤ ومرآة الجنان ٢٠٢/٣ .  
(٥) انظره في ابن رجب ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٢١٩/٥ .  
(٦) راجعه في ابن رجب ١١١/٦ .  
(٧) ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة ٣٢/٣ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق ، وعد له مصنفات كثيرة وقال : أخذ عنه عمر بن علي معيد الحنابلة  
(٨) انظره في الشذرات ٣٥١/٦ والدرر الكامنة ٣١٤/٤ وراجع ابن حجر في إنباء الغمر بأبناء العمر (طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ٥٠٤/١ حيث يقول إنه انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي ببغداد ، ويذكر له كتاب شرح المصابيح وأربعين حديثاً عن أربعين شخصاً .

كثير من الحنابلة يدرسون في جامع المنصور وفي بعض مدارس بغداد المتفرقة .

وكان مذهب داود الظاهري في الفقه الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني لا يزال له أنصار في القرنين الأولين من هذا العصر ، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأى في الفقه ، وتبعه كثيرون في المائتين الرابعة والخامسة في الأندلس ، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إذاعته ، وألف كتباً كثيرة لنصرته ، ونجد أحد تلاميذه وهو الحميدى<sup>(١)</sup> محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم . ولا تزال نسمع في العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهري حتى أوائل القرن السابع الهجري ، إذ نجد من معتنقيه أبا سليمان<sup>(٢)</sup> الداودي الضرير المتوفى سنة ٦١٥ . وكان الطبري مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهيًا يقوم على الاجتهاد ، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهري ، ومع ذلك نجد من أتباعه في أواخر القرن الرابع الهجري المعافى<sup>(٣)</sup> بن زكريا النهرواني المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد ، ويقول ابن خلكان في ترجمته : إنه كان للطبري أتباع وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم المعافى المذكور . وعلى كل حال لم يعيش هذا المذهب الفقهي طويلاً ، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهري في بغداد ، غير أننا لا نعود نسمع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية ، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة : مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل .

وكان الفقه الشيعي يقابل كل هذه المذاهب ، وكان هناك فقهاء : فقه الزيدية وفقه الإمامية ، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول في القرن الرابع الهجري ، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع<sup>(٤)</sup> الكافي في فقه الزيدية لأبي عبد الله محمد بن علي الحسيني المتوفى سنة ٤٤٥ . ويبدو أن نشاط الفقه الزيدي هناك توقف منذ القرن الخامس ، إذ استغرق الكوفة وبغداد المذهب الإمامي عند الشيعة ، وكان نشاط الفقه الزيدي انسحب إلى اليمن : أما الفقه الإمامي فيأخذ في النشاط طوال العصر ، منذ ألف الكليني<sup>(٥)</sup> الرازي محمد بن يعقوب كتابه الكافي في علم الدين ، وقد توفي ببغداد

(٤) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ( طبع دار

المعارف ) ٣/٣٣٤

(٥) راجعه في الأنساب ٤٨٦ والرجال للنجاشي ٢٦٦

وروضات الجنات ٥٥٠ ولؤلؤة البحرين ليوسف البحراني

٣١٤ وبروكلمان ٣/٣٣٩

(١) انظره في ابن خلكان ٤/٢٨٢ وتذكرة الحفاظ

٤/١٧ والمتنظم ٩/٩٦ والصلة لابن بشكوال ( طبع

القاهرة ) ٥٣٠ والوقاي ٤/٣١٧ .

(٢) راجعه في طبقات القراء ١/٢٧٨ .

(٣) انظره في ابن خلكان ٥/٢٢١ وما به من مراجع

سنة ٣٢٨ وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية . وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسسها وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث . وجاء بعده ابن (١) بابويه القمي نزيل بغداد الذي ذكرناه في غير هذا الموضوع وله كتاب من لا يحضره الفقيه في تطبيق أحكام الفقه ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية ، وهو مطبوع ، وللشيخ المفيد الرسالة المقنعة في أسس التشريع ، وهي مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسي في تبريز . وللطوسي كما مر بنا في الحديث كتاب الاستبصار ، وهو كتاب فقهي ويعتمدون عليه اعتماداً كلياً في استنباط الأحكام الشرعية ، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام ، وهو أيضاً من المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية ، وأحدثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية . ومن كتبه في الفقه «المبسوط» وهو مطبوع بإيران ، وكتاب النهاية في مجرد الفقه والفتاوى ، وهو مطبوع ، وقد اتخذته الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره ، وله في العبادات كتاب مصباح المتهجد جعله في عشرة أبواب ، وزاد عليه في القرن الثامن المظهر الحلي المار ذكره بابا سماه الباب الحادي عشر ، جعله مكملاً له ، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلبي .

ومررنا في العصر العباسي الثاني حديث مفصل عن الاعتزال وأئمنه وانبثاق مذهب الأشعري منه مع بيان وجوه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجوه الصلة بينه وبين أهل السنة ، وقد طار مذهبه في هذا العصر كل مطار ، فكان الشافعية في خراسان وبغداد وأكثر بلدان العالم الإسلامي يعتنقونه طوال العصر . وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قيل إنهم أحص الفقهاء به . واعتنقه أكثر الحنفية في بغداد ، أما في خراسان فقد اعتنقت كثيرتهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدي السمرقندي المتوفى سنة ٣٣٣ وهو يقرب في عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعري معاصره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار في خلق الناس لأفعالهم ، بينما كان الأشعري يقول - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني - إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة ، فهو يريد ما والله يخلقها فيه . ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعري فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأى الماتريدي ، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعري . ويروى السبكي أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة ، إلا من جنح منهم إلى تشبيه (٢) أخذاً

(١) انظره عند النجاشي ٢٧٦ وفي لؤلؤة البحرين

٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وبروكلمان ٣/٣٤٣ وما به

من مراجع

(٢) السبكي ٣/٣٦٥ - ٣٧٤ وما بعدها .

بظاهر القرآن . ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجرى ، حقا نسمع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزمخشري ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعرى . ومن كبار الأشعرية فى القرن الرابع أبو بكر الباقلانى <sup>(١)</sup> محمد بن الطيب البصرى المتوفى سنة ٤٠٣ يقول ابن خلكان : كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى ومؤيدا اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء ووصف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهبه ، وكان كثير التطويل فى المناظرة والجدل قوى الحججة والبرهنة على آرائه <sup>(٢)</sup> ، ومن مصنفاته فى عقيدته البيان والتمهيد فى الرد على الملحدين وأضرابهم ، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار ، وخالف الأشعرى فى مسائل ، منها ما ذهب إليه الأشعرى من أن الكافر لا تُسبغ عليه نعمة ، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج ، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسبغ عليه ووافق الباقلانى <sup>(٣)</sup> . وكان الأشعرى كما مر بنا آنفاً يبنى الاختيار عن أعمال الإنسان ويجعله كسباً ، بينما كان الماترىدى يجعله اختياراً ، ويفهم من كلام الباقلانى أنه يأخذ برأى الماترىدى أو يتقدم نحوه خطوة ، ويقول السبكى : « لإمام الحرمين والغزالى فى ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلانى والأشعرى ويدنوكل الدنو من الاعتزال » أو عبارة أدق من رأى الماترىدى <sup>(٤)</sup> . وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى من أنه لا بد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلانى ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه : « يجب شكر المنعم عقلاً » <sup>(٥)</sup> إذ كان ينبغى أن يقولوا : يجب شكر المنعم عقلاً وشرعاً . ويكثر علماء العقيدة الأشعرية فى القرن الخامس وما بعده ، ويكفى أن نعد منهم أبا حامد الإسفراينى وإمام الحرمين الجوينى والقشيرى والغزالى ، وعد منهم السبكى فى ترجمته للأشعرى خمس طبقات ، وكل طبقة تكتظ بأئمة العقيدة وأعلامها فى الوطن الإسلامى <sup>(٦)</sup> . وألف أهل السنة من الحنابلة كتباً كثيرة فى

(١) راجع فى ترجمة الباقلانى تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض (مقدمة ابن

خلدون : فصل علم الكلام) وانظر فى بقية آراء الباقلانى

الملل والنحل للشهرستانى : الفصل الخاص بالأشعرية .

(٣) السبكى ٣ / ٣٨٤ .

(٤) السبكى ٣ / ٣٨٦ وانظر الملل والنحل للشهرستانى

(تحقيق محمد سيد كيلانى نشر مكتبة مصطفى الحلبي)

٩٧/١

(٥) السبكى ٣ / ٢٠٢

(٦) السبكى ٣ / ٣٦٨ وما بعدها

(١) راجع فى ترجمة الباقلانى تاريخ بغداد ٣٧٩/٥

وابن خلكان ٢٦٩/٤ والأنساب للسمعانى ٦١ وتبيين

كذب المفترى لابن عساكر ٢١٧ والمنتظم ٢٦٥/٧

والوفى ١٧٧/٣ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٦٧

والشذرات ١٦٨/٣ وترجمة القاضى عياض له الملحقه

بكتابه « التمهيد فى الرد على الملحده المعطله والرافضة

والخوارج والمعتزله » تحقيق الدكتور أبو ريده (نشر دار

الفكر العربى بالقاهرة)

(٢) مما كان يذهب إليه الباقلانى إثبات الجوهر الفرد

عقيدتهم السنية ، وهى منبئة فى تراجم فقهاءهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبى الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد فى أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفى التشبيه ، ومرّبنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبى يعلى الفراء ، وله إيضاح الأدلة فى الرد على الفرق الضالة المضلة ، وشرف الاتباع وسرف الابتداع .

وكان للشيعنة مباحثهم فى العقيدة وعلم الكلام ، وكتبهم الأساسية التى يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هى - كما أسلفنا - كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى وكتاب الاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسى .

## ٥

### التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة فى بغداد على نحو ما رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وقد مضت تتناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال فى الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو سير رجال بذاتهم . وكتب التاريخ العام منها ما هو ذيل على كتب سابقة ، ومنها ما هو مستقل ويشتهر فى أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام ، وسنقف عنده فى حديثنا فى الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو<sup>(١)</sup> شجاع وزير الخليفة المقتدى المتوفى سنة ٤٨٨ بذيلى له على هذا الكتاب وهو مطبوع . ويلقانا فى القرن السادس كتاب المنتظم فى تاريخ الأمم لابن<sup>(٢)</sup> الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يتبدئ بأول الخليفة حتى آخر أيام المستضىء بالله العباسى ، وهو مرتب على السنوات مثل الطبرى ، وعادة يذكر فى كل سنة أحداثها ثم منّ قضى نجبه فيها مرتبين على حروف الهجاء ، وهو يُعنى خاصة ببغداد وأخبارها ، مما يتيح لتصور تاريخها السياسى والاجتماعى تصوراً بيّناً . وجاء بعده كتاب الكامل فى التاريخ لعز<sup>(٣)</sup> الدين بن الأثير على

(١) انظره فى المنتظم ٩٠/٩ والخريدة قسم العراق  
٧٧/١ والوفى ٣/٣ والسبكى ١٣٦/٤ وابن خلكان  
١٣٤/٥ .  
الترجمة الشخصية ص ٤٥ .

(٢) ترجم ابن الجوزى لنفسه فى سياق رسالة نصح فيها  
ابنه سماها : «لفتة الكيد إلى نصيحة الولد» وهى  
مطبوعة ، وانظر فيه ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب  
(٣) راجعه فى ابن خلكان ٣٤٨/٣ وغير الذهبى  
١٢٠/٥ والشذرات ١٣٧/٥ والسبكى ٢٩٩/٨  
والنجوم الزاهرة ٢٨١/٦ .

بن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب في التاريخ الإسلامي حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات ، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وعرب الجاهلية ، وتحدث حديثاً مُسهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام . وجرّدو من السند ، ودعا ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد في تاريخ الطبرى ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية منها استخلاصاً رائعاً . ومضى بحسّه التاريخي الدقيق يعرض أحداث التاريخ إلى منتهى الكتاب ، وبذلك أدّى خدمة جليلة للتاريخ الإسلامي ، بل خدمة رائعة . وله كتاب تاريخ دولة أتابكة الموصل وهو مطبوع . وخلفه سبط <sup>(١)</sup> ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ صاحب كتاب « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » وهو كتاب ضخّم كان يقع في أربعين مجلداً ، واشتهر بذكره لمناكير الأخبار ، ويقول الذهبي إنه يترفض في تاريخه وقد نشر منه مجيّد آباد قسماً من الجزء الثامن طبعاً بمطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ومن كتب التاريخ العام تاريخ مختصر الدول لابن العبري <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦٨٥ كتبه بالسريانية ثم ترجمه إلى العربية وهو مطبوع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذه الكتب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي <sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ٧٠٩ وقد سماه الفخرى نسبة إلى لقبه ، جعل له مقدمة في السياسة والسلطان ، ثم أخذ يتابع تاريخ الدولة الإسلامية حتى غزو التتار لبغداد ، ويعنى فيه عناية خاصة بوزراء كل خليفة وهو مطبوع مراراً .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نلتقى في أواسط القرن الرابع الهجرى بكتاب التاجى في تاريخ الدولة البويهية ، وقد بُنى على السجع ، وبذلك سنّ مؤلفه أبو إسحق الصائى المتوفى سنة ٣٨٤ لبعض المؤرخين سنة سيئة أن يهتموا بتنميق العبارات لا بالتحليل التاريخى كما صنع معاصره ابن مسكويه . ويصنف بعده العباد الأصبهاني كتاباً في تاريخ السلاجقة يسميه نصرة الفطرة وسنترجم له في مصر . ويعنى ابن الساعى المار ذكره المتوفى سنة ٦٧٤ بكتابة تاريخ الدولة العباسية ويؤلف في ذلك تاريخاً جامعاً ثم يجعل له ملخصاً باسم الجامع المختصر وقد نشره الدكتور مصطفى جواد ببغداد الجزء التاسع من هذا الجامع المختصر ، ونشر له بدار المعارف بالقاهرة كتابه « نساء الخلفاء » ويمكن أن نلحق بهذه

(١) انظره في ابن خلكان في ترجمة جده ١٤٢/٣ والنجوم الزاهرة ٣٩/٧ والشذرات ٢٦٦/٥ والجواهر المضية ٢/٢٣٠ والقوائد البهية ٩٦ .

(٢) انظر فيه كتاباً مطبوعاً باسمه في بيروت وبروكلمان

(٣) انظر فيه العزوى ٢٦٤/١ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها مصادر .



الكتب الخاصة بالتاريخ السياسي كتاب الوزراء لهلال<sup>(١)</sup> بن المحسن الصائبي المتوفى سنة ٤٤٨ وقد طُبعت منه قطعة في مجلد كبير خاصة بوزارة المقتدر ، وهي حافلة بالأخبار السياسية والأجتماعية والاقتصادية . وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسي ترجمة بهاء<sup>(٢)</sup> الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حطّين وقد سماها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو موصل تعلم في بغداد وعين معيداً بها في المدرسة النظامية ، ثم تركها إلى نظامية الموصل ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وظل يتولى القضاء في بعض مدن الشام حتى توفي سنة ٦٣٢ . وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين .

وعُني بعض المؤرخين بتاريخ المدن ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي السابق ذكره والمتوفى سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة ، وقد جعل مقدمتها في مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفرد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء . كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن . ولا بن النجار<sup>(٣)</sup> المؤرخ المتوفى سنة ٦٤٣ ذيل عليه في ٣٠ مجلداً واختصره ابن الهمداني باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفي دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه . ويذكر ابن خلكان أن لابن<sup>(٤)</sup> الديبشي المتوفى سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط ، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعاني ترجم فيه للمتوفين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه . وللذهبي انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الديبشي نشره الدكتور مصطفى جواد جزءين ببغداد . ولا بن المستوفي المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتنبي تاريخ إربل . وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث ، من أهمها أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري المار ذكره ، وهو معجم أيجدى لتراجمهم ، وهو مطبوع في خمسة مجلدات . وله كتاب اللباب مختصر كتاب الأنساب للسمعاني وهو مطبوع . وألف الدارقطني كتاباً سماه «المختلف والمؤتلف» وقد جمع بينه الخطيب البغدادي

(١) راجعه في تاريخ بغداد ٧٦/١٤ والمنتظم  
١٧٦/٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٩ وابن خلكان  
١٠١/٦ .  
(٢) انظره في ابن خلكان ٨٤/٧ وعبر الذهبي ١٣٢/٥  
ومرأة الجنان ٨٢/٤ والشذرات ١٥٨/٥ والسبكي  
١٤٥/٢ والشذرات ١٨٥/٥ ومرأة الجنان ٩٥/٤ .  
(٣) راجعه في تذكرة الحفاظ ٢١٢/٤ ومعجم الأدباء  
٤٩/١٩ والشذرات ٢٢٦/٥ والسبكي ٩٨/٨ والفوات  
٥٢٢/٢ .  
(٤) انظره في ابن خلكان ٣٩٤/٤ وعبر الذهبي  
١٥٤/٥ والسبكي ٦١/٨ والوافي ١٠٢/٣ وطبقات الفراء

وبين مشتببه النسبة لعبد الغنى بن سعيد ، وزاد عليها وسمى كتابه «المؤتلف تكلمة المختلف» .  
ثم جاء بعده أبو نصر بن ماكولا - كما مر بنا - وزاد على هذا الكتاب زيادات في كتاب  
مستقل سماه الإكمال ، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذيلاً  
لم يقصّر فيه . ولابن النجار كتب مختلفة في الرجال ، منها : المؤتلف والمختلف ؛ والمتفق  
والمفترق في نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنة الناظرين في معرفة التابعين .  
وللزبن العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبي في الرجال .

وهناك كتب كثيرة وُضعت في تراجم العلماء والأدباء من كل صنف . ومن الكتب  
الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمأثورات المترجمة عن الهند والفرس  
واليونان كتاب الفهرست لابن النديم وسبق أن تحدثنا عنه في غير هذا الموضع ، وتحدث  
الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع في الفقهاء بعامة مثل كتاب  
أبي إسحق الشيرازي أول المدرسين في نظامية بغداد المتوفى سنة ٤٧٦ وقد ضم في كتابه إلى  
فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهري . وأول من وضع كتاباً في طبقات الشافعية  
أبو حفص عمر المطوعي المتوفى سنة ٤٤٠ سماه «المذهب في فقهاء المذهب» ، ووضع  
فيهم أبو النجيب السهروردي البغدادي المتوفى سنة ٦٣٢ مختصراً ، ثم ألف فيهم  
إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن باطيش<sup>(١)</sup> الموصلي المتوفى سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر  
السبكي في طبقات الشافعية . واهتم الحنابلة بالكتابة في تراجم فقهاءهم ، من ذلك كتاب  
طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الفراء الذي مر ذكره ، ووضع له ابن رجب<sup>(٢)</sup> البغدادي  
ذيلاً طويلاً في مجلدين ، وقد توفي سنة ٧٩٥ . وعنى الشيعة بالكتابة في رجالهم ، وكتاب  
الرجال للنجاشي أحمد بن علي المتوفى سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع .

ووضع أحمد بن بختيار الواسطي المتوفى سنة ٥٥٢ كتاباً<sup>(٣)</sup> في القضاة . ومما وضع في  
اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافي وكتاب نزهة الألباء لابن  
الأنباري وهما منشوران . ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبي سلمان  
المنطقي السجستاني المار ذكره وهو في تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر منتخب له في طهران  
حققه الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وهو موزع على قسمين : قسم خاص بفلاسفة اليونان  
وأطبائهم وقسم خاص بالمشغليين بالفلسفة في الإسلام ، وهو كتاب نفيس .  
ووضعت في الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء

(٢) راجعه في الدرر لابن حجر ٤٢٨/٢

(١) انظره في السبكي ١٣١/٨ والشذرات ٢٦٧/٥

(٣) انظره في معجم الأدباء ٢/٢٣١ والسبكي ١٤/٦

والعبر ٢٢١/٥

للآمدي المارّ ذكره ، وكتاب معجم الشعراء للمرزباني معاصره صاحب كتاب الموشح ، وقد نشرت منه قطعة ، ووضع أبو المعالي (١) الحظيري المتوفى سنة ٥٦٨ كتاباً في الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزي وبتيمة الدهر للثعالبي سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر في ذكر لطائف الشعراء ، ووضع بعده العماد الأصهباني دائرة معارف كبرى في شعراء العالم العربي سماها خريدة القصر وجريدة العصر». ويشتهر ابن الجوزي بكتابه في الصوفية «صفة الصفة» وهو مطبوع في أربع مجلدات وله كتاب في الأذكياء وكتاب في الظرفاء وكتاب في أخبار المغفلين . ولياقوت الحموي البغدادي المارّ ذكره كتاب معجم الأدباء وهو مطبوع في عشرين جزءاً ذكر فيه أخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار (٢) الموصلي المتوفى سنة ٦٥٤ كتاب في شعراء القرن السابع سماه «عقود الجنان في شعراء الزمان . ولابن الفوطي المارّ ذكره (٣) المتوفى سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وله معجم رثبه حسب الألقاب ، نشر منه مصطفى جواد الجزء الرابع الأقسام (١ - ٤) ونشر القاسمي في لاهور الجزء الخامس . واشتهر ابن (٤) خلكان الموصلي المتوفى سنة ٦٨١ بكتابه «وفيات الأعيان» وهو غاية في الدقة والتحرى .

- 
- (١) راجعه في معجم الأدباء ١٩٤/١١ وابن خلكان ٣٦٦/٢ وخريدة القصر (قسم العراق) ٢٨/١/٤ .  
 (٢) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .  
 (٣) انظره في تذكرة الحفاظ ٤/٢٧٤ والدرر الكامنة ٤٧٤/٢ .  
 (٤) انظر في ابن خلكان العبر ٣٣٤/٥ وفوات الوفيات ١٠٠/١ والسبكي ٣٣/٨ والشذرات ٣٧١/٥ ومرآة الجنان ١٩٣/٤ والنجوم الزاهرة ٣٥٣/٧ والوفيات بالوفيات ٣٠٨/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي (طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم) ٥٥٥/١ والمدارس في تاريخ المدارس للتميمي (طبع دمشق) ١٩١/١ وروضات الجنات ٨٧ وراجع ترجمته في أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان .

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التي مرت بنا في العصرين العباسي الأول والثاني حادة طوال القرن الرابع الهجري ، بل لعلها ازدادت حدة ، ويكفي للدلالة على ذلك أن يبرز في مستهل المتنبي وفي أواخره الشريف الرضي ومهيار ، غير شعراء كثيرين ، فتح لهم الثعالبى في كتابة البيمة ثم في تمة البيمة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم في العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ ، وهو ازدهار هيأت له عوامل مختلفة ، من رعاية الخلفاء وأمرأى بنى بويه ولائهم ووزرائهم للشعراء ، فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز ، وليس ذلك فحسب . فقد استقبلوهم في مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهى إلى نواد أدبية .

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية ، فقد روى أن معز الدولة أول حاكم منهم لبغداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى<sup>(١)</sup> ، غير أن الجيل التالى له أكب على الثقافة العربية والقرين على نظم الشعر ، حتى لنجد صاحب البيمة يسلك في الشعراء ابنه بختيار ، غير أمراء آخرين من بيته<sup>(٢)</sup> . وكان وزراء بنى بويه يتنافسون في جذب الأدباء والشعراء إليهم ، حتى غدت مجالسهم نوادى شعرية حقيقية ، وأول من اشتهر بذلك من وزراءهم في العراق المهلبى وزير معز الدولة ، وكان غيثاً مدراراً للشعراء ، فأكبوا على مجالسه يمدحونه ، ويفيض كتاب البيمة بمدائحهم . وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وقد عقد صاحب البيمة لمدائحه باباً مستقلاً عرض فيه خمس عشرة مدحة لناجيههم<sup>(٣)</sup> . وكان يرعى

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم (٢) البيمة ٢١٦/٢

(٣) البيمة ١٢٤/٣

ميتز (طبعة القاهرة) ٢٨/١

الشعراء بجانب ذلك كثير من ذوى البيوتات ، وفي مقدمتهم الشريف الرضى ورعايته لمهيار مشهورة . ولا بد أن نلاحظ أن الثعالبي فاته الوقوف عند بعض الشعراء ، في عصر البويهيين مثل مُدرك بن محمد الشيباني ، وهو بدوى قدم بغداد في شبابه وتولى بها القضاء وتوفى سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجنة نظمها في غلام نصراني في نحو خمسين دوراً ذكر فيها شعائر الديانة المسيحية وطقوسها وحواريها ذكراً مفصلاً<sup>(١)</sup> ، ومثل أبى الحسن محمد بن عمر الأنباري ، وكان صديقاً للوزير ابن بقية ، فلما صلبه عضد الدولة البويهى رثاه بمرثية رائعة . وتلقانا بعد اليتيمة وتتمتها موجه ثانية من الشعراء في كتاب دمية القصر للباخرزى ، وقد توفى بعد الثعالبي بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة ، مما جعلها يتواردان أحياناً في الحديث عن بعض الشعراء . وفي الحق أن شعراء الدمية مخضرمون لحقوا عصر بنى بويه وامتد بهم الأجل في عصر السلاجقة .

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية في العصر السلجوقي ، لسبب طبيعى ، وهو أنها إنما ألمت بأوائله . ومرّ بنا في الفصل الثانى ما دفع إليه وزير ألب أرسلان نظام الملك (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة ، فقد فتح أبوابه للشعراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً ، فجاءوه يمدحونه من كل أنحاء العراق ، وينشد الباخرزى في مواضع كثيرة بعض مدائحه . وتلقانا بعد الباخرزى ثغرة أو فجوة نحو خمسين عاماً ، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعُصرة أهل العصر للحظيرى نُشر لسدّ هذه الثغرة ، فإن الحظيرى توفى سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره ومن تقدمهم ، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره . وحري بنا أن نذكر صُرْدَر (على بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد في أواسط القرن الخامس ، وقد توفى سنة ٤٦٥ وله ترجمة في ابن خلكان ، وبالمثل ابن السراج البغدادي (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفى سنة ٥٠٠ وله ترجمة في ابن خلكان وغيره . وقد تلا الحظيرى مباشرة العباد الأصبهاني بكتابه الخريدة التى ترجم فيها لشعراء العالم العربى على طريقة الدمية واليتيمة ، غير أن ترجماته مستفيضة ، وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيرى ، مما يدل على أنه يتلافى كثيرين ممن سقطوا في الثغرة التى تحدثنا عنها آنفاً . والمنشور حتى الآن من قسم العراق في الخريدة أربعة مجلدات ضخمة . وهى تتناول في العراق ، كما في الأقاليم الأخرى ، شعراء القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ ، وقد تعرضت لبعض شعراء

(١) معجم الأدباء ١٣٥/١٩ وانظر تاريخ بغداد

القرن الخامس . والعماد فيها يجمع بين فترتين : فترة سلجوقية بتبديء من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُذِّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة في بغداد والعراق . والعماد يفتتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) حتى المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار . ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستضيء ، منشداً ما عرفه من أشعارهم ، وقد يذكر بعض ما قيل من مدائح ، ويُمضَى في ذلك كله نحو مائتي صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول ، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيْصُ بيص ترجمة ضافية ، يعرض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف في نحو مائة وخمسين صحيفة ، ويُتبعه في المجلد الثاني بالترجمة لستة وثلاثين شاعراً ، لعل أهمهم علي بن أفلح وابن الهبارية وابن جليّنا . وتلتقي في المجلد الثالث بجماعة من أعمال سواد بغداد شرقاً وغرباً ، لعل أهمهم الحظيرى والبندنجى ، ثم يذكر جماعة من شعراء الحلة والكوفة وهيت والأنبار . وقد عرضنا لشعراء الحلة عند العماد في القسم الأول من هذا الكتاب في تضاعيف حديثنا عن شعراء البدو ، وينتهي المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط ، وربما كان أهمهم ابن السوادى ، وهو ماجن من طراز ابن سُكَّرَة وابن حجاج . ويستمر المجلد الرابع في عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم ، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها ، أهمهم الحريرى ويحيى بن سعيد بن ماري النصرانى ، وله ستون مقامة حاكى فيها الحريرى ولكنها دون مقاماته . ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد ، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدياء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد ، مما يكاد يشغل المائة التالية للخريدة . ولو أن كتاب عقود الجان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ نُشر لسدَّ الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى في العراق وغير العراق ، ولكنه لما ينشر . وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصوِّرة منه ، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية واليتيمة ، وإنما على حروف المعجم ، كترتيب المعاجم ، وهو كتاب نفيس . على كل حال يسدُّ ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التي تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦ . ونستطيع أن نتعرَّف على بعض الشعراء النابهين في تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفى سنة ٥٦٠ وسبط ابن التعاوىذى المتوفى سنة ٥٨٣ ولعل العماد الأصبهاني ترجم لها في المجلدين اللذين لما ينشرا من القسم العراقى بالخريدة ، ومثلها الأبله الشاعر المتوفى سنة

٥٧٩ . وتلقانا في النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء ، من أهمهم أبو حفص عمر السُّهْرَوْرْدِيُّ البَغْدَادِيُّ الصُّوفِيُّ والحاجري المتوفيان سنة ٦٣٢ ، والصَّرْصَرِيُّ وابن أبي الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦ .

ويكتسح التتار بغداد والعراق ، ويحذف كثير من ينابيع الفكر والحضارة والعلم والأدب ، ويظل للشعر شيئاً من نشاطه في زمن المغول الإيلخانيين ، ويلقانا ابن رشيد البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢ والشهاب التُّلَعْفَرِيُّ والواعظ الكوفي البغدادي المتوفيان سنة ٦٧٥ . ونغضى إلى القرن الثامن وثلثي بشعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر في الدرر الكامنة ، ويظهر كوكب شعري كبير وسط الدياجي التي أخذت تطبق على الحياة الأدبية في العراق ونقصد صفي الدين الحَلِّيَّ المتوفى سنة ٧٥٠ وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث . وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليحي الواسطي المتوفى سنة ٧٤٤ وله ترجمة في الدرر الكامنة ، ومثله علي بن التُّرْدَةِ المتوفى سنة ٧٥٠ . ولا نكاد نلتقي بشاعر مهم في زمن التُّرْكَانِ ، بين من ترجم لهم السخاوي في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » وبالمثل لا يلقانا شاعرٌ نابِه في زمن العثمانيين سواء في دورة حكمهم الأولى أو في دورة المماليك . وحقاً يوجد بعض شعراء عراقيين في كتب التراجم مثل « سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر » لابن معصوم و« خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحمي وكتابة « نفحة الرحانة » ومثل « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمراذلي . ومن لمع اسمه في الدوريتين المذكورتين شهاب الدين الموسوي المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط ، ومثله الشيخ محمد كاظم الأزري المتوفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وقد طبع ديوانه في بومباي . وقد يكون من الطريف أن نفرا من الشعراء كانوا يقدِّمون لدواوينهم <sup>(١)</sup> ، ولكن على كل حال كانوا جميعاً نظاميين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيقي لكلمة شعراء .

## ٢

### رُبَاعِيَّاتٌ وَتَعْقِيدَاتٌ وَمَوْشِحَاتٌ

مرَّبَّنَا في كتاب العصر العباسي الأول ما نهض به الشعراء من تجديد في الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر في القوافي <sup>(٢)</sup> ، ولعل أول ما شاع من صورهِ اللونُ

(١) راجع تاريخ الأدب العربي في العراق لعباس (٢) انظر في ألوان هذا التجديد كتاب العصر العباسي العزاوي (طبع بغداد) ٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها .

المسمى بالمزدوج ، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتسع في الشعر التعليمي منذ أبان بن عبد الحميد ، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة . وهو الذي سماه الفرس فيما بعد باسم المثنوى مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطري كل بيت مع غيرها من بيت إلى بيت . وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت ، وإنما الشطر ، وأكبر الظن أن ذلك هو الذي ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة في موشحاتهم على الشطر لا على البيت . وقد اتسع استخدام هذا اللون المزدوج في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه في أرجوزة مزدوجة ، وتزوج المكتبات العربية بهذه المزدوجات في كل علم وكل فن .

وقد ظهرت المسمطات منذ فواتح العصر العباسي الأول ، وهي قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر في جميع الشطور الأخيرة من الأدوار . والمسمط مشتق من السمط ، وهو قلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقي عند جوهرة كبيرة ، وكأن كل دور في المسمط الشعري سلك يلتقي مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى في قافية الشطر الأخير . وقد مثلنا في كتاب العصر العباسي الأول بمسمطين لأبي نواس يتألف الدور في أحدهما من أربعة شطور وفي الثاني من خمسة . وتظل المسمطات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة ، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة ، وعنى كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخفها على اللسان ورشاقها على نحو ما نجد في هذه الأدوار من مسمط (١) أنشده العماد الأصبهاني في الخريدة لأبي المعالي بن مسلم :

ياريمُ كم تجنِّي ؟	لِمَ قد صددتَ عَنَّا	صِلْ عاشقاً معنَى
	بالوَصْلِ ما تَهَنَّا	
السَّلْسَبِيلُ رِيْقُ	والشَّهْدُ والرَّحِيقُ	والوَرْدُ والشَّقِيقُ
	مِنْ وَجَّتِيهِ يُجَنَّا	
قد غَيَّرُوا ولا مَوا	مِنْ شَقَّةِ السَّقَامُ	ما يَنفَعُ الملامُ
	مَنْ فِي هَواكَ جَنَّا	

والدور في هذا المسمط يتألف من أربعة شطور ، والرابع قطبها الذي تدور عليه ، ومثله المسمطات ذات الشطور الخمسة وتسمى الخمسات ، ومثلها ذات الشطور الستة



والسبعة وتيسمى المسدسات والمسعات . وشاع في الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل همزية البوصيري وُبردته

وتظهر الرباعيات مع المسمطات والشعر المزدوج ، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول أنها بدأت مع بشار وحامد عجرد وأنها كثرت عند أبي نواس وأبي العتاهية ، وضر بنا لها بعض الأمثلة ، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، ولأنها تتكوّن من أربعة شطور سميت رباعية ، وعادة يتحد الشطر الأول والثاني والرابع في القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد يختلف . وتلقانا هذه الرباعيات كثيراً في اليتيمة والدمية والخريدة ، وفي كتب الأدب مثل معجم الأدباء ، ومرّبنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن علي الشيباني ، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة . وبذلك أعد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدوري في العربية . ولم يكن شعراء العصرين : العباسي الأول والثاني يَحْصُونَ الرباعية بوزن معين ، بل كانوا ينظمونها في جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرِكُونَ العرب في استخدامها متخذين لها اسم « دوبيت » و « دو » عندهم اثنان . وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو : « فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعُولُنْ فَعْلُنْ » وهو الذي ضبطه العروضيون ، وأهم منه وزن ثان هو « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفَعِلُنْ مُسْتَفَعِلُنْ » . وتصور ذلك رسالتان <sup>(١)</sup> فريدتان في عروض الدوبيت « نشرهما هلال ناجي ببغداد ، وهما لمالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدوبيت ، والثانية تعنى بالوزن الثاني ، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجي أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك . ويبدو أن الفرس في القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيات من العرب على نحو ما هو معروف عن الخيام في رباعياته ، وتلقانا في الخريدة رباعيات كثيرة ، ويترجم العماد فيها لشاعر من موظفي الخلافة العباسية وعمالها في الستينيات من القرن السادس الهجري ، يسمى أبا المحاسن <sup>(٢)</sup> بن البوشنجي ، ويقول إنه كان لهجاً بنظم الرباعيات ، ويسوق له طائفة منها في الغزليات والخمريات من مثل قوله متغزلاً :

ما أطيّب ما زارَ بلا ميعادٍ      يَحْتَالُ كَغُصْنٍ بَانَةٍ مَيَّادٍ

(١) انظر الرسالتين في العدد الرابع من المجلد الثالث من (٢) انظر ترجمته في الخريدة ٢/٢٥٧ .  
مجلة المورد ببغداد .

ماطلَّ ، ولا بَلَّ غَلِيلَ الصَّادِي حَتَّى قُرِبَ الْبَيْنُ وَنَادَى الْحَادِي  
فصاحبتَه زارته دون موعد ، مختالة بجماها كغصن ممتائل ، ويقول إنها ماطلَّت  
وزارت ، ولا بَلَّت غليله المتقد الظامئ للقاء ، حتى كان الفراق ونادى حادي الركب ،  
فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال : ما سلَّمت حتى ودَّعت . ومن رباعياته الخمرية  
قوله :

رَقَّتْ وَصَفَتْ وَاسْتَرَقَتْ أَلْبَابَا رَاحَ لَبَسَتْ مِنَ الضَّنَا جَلْبَابَا  
يَا بَدْرُ أَدِرْ وَعَدَّ عَمَّنْ يَأْبَى كَأَسَا ، طُرِدَ الِهْمُ بِهَا فَانْجَابَا

والرباعية فيها شيء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى العكوف على شرب  
الخمر ، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم ، حتى تنتعش النفس ، كما يقول ، وتطرح  
عنها بؤس الحياة بما تعبُّ من دنان الخمر وما تجد في مجلسها من أنس وطرب . ويسوق  
صاحب رسالة الدوييت الثانية تسع رباعيات قائلًا إنه مما أنشده أبو عبد الله محمد بن حامد  
الأصبهاني صاحب الخريدة ، ويستهلها بالرباعية التالية :

الْوَرْدُ عَلَى خَدِّكَ مَنْ أَنْبَتُهُ وَالْمَسْكُ عَلَى وَرْدِكَ مَنْ فَتَّتَهُ  
وَالْقَلْبُ عَلَى نَائِكَ مَنْ ثَبَّتَهُ اجْمَعُ شَمْلًا هَوَاكَ قَدْ شَتَّتَهُ

وهي رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من المفاجأة ، حين  
يجعل صاحبها الخند ورداً حقيقياً ، ويعود فيجعله ناشراً لأريجٍ عطرٍ حوله ، وكأن  
مسكاً ذرَّ عليه وُثْرَ ، ويعجب أن تنأى صاحبتَه وقلبه لا يزال في صدره . وإن فؤاده  
ليتوزع فرقاً ، ويضرع لصاحبتَه أن تجمع شمله المشتت ، لعل صوابه يردُّ إليه . ويسوق  
صاحب رسالة الدوييت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزي يُفِّت على  
عشر ، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفي ، فقد كان ابن الجوزي من كبار الوعاظ وكان  
سني التصوف ، ومما أنشده :

الْحَبُّ يَقُولُ لَا تُشِعْ أَسْرَارِي وَالدمعُ يَسِيلُ هَاتِكَا أَسْتَارِي  
وَالشُّوقُ يَزِيدُ ، لَا عَلَى الْمَقْدَارِ وَأَنَارِي ! مِنْ هَذَا الْهَوَى وَأَنَارِي

فحببيه يطلب إليه أن يكتُم حبه ، وهو لا يستطيع له كتماناً ، إذ دائماً يبكي طالباً  
الوصال ، ملحاً في طلبه وفي بكائه ، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة ، والشوق  
يلذعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه . إنه حب الذات العلية الذي يُضِنِّي ويسقم  
والمحب يتألم آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصال الذات الربانية . ومما أنشده

ابن الجوزى فى تلك الرباعيات :

ما أصنع؟ هكذا جرى المقدورُ  
الجبرُ لغيرى وأنا المكسورُ  
مأسورٌ هوىً متيمٌ مهجورٌ  
هل يمكن أن يغيرَ المسطورُ

والرباعية تفيض بياس حب مهجور ، يقول ما أصنع والحجاب يقوم بينى وبين محبوبى ، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمتثل ويدعن ، وإنه لياسى أسى عميقاً لنفسه ، فغيره يُجبرُ ويوصلُ وهو يُحرّمُ ويُبعدُ ويُكسرُ كزجاج مصدوع لا يُشعبُ ، وإنه لأسير هذا الهوى الذى يبرّح به والذى يتعثرُ فى شبابه ، قدرُ أزلَى كُتب عليه ، لا مفرّ منه ولا مهرب . وابن الجوزى توفى سنة ٥٩٧ وتوفى العباد فى نفس السنة ، وفى كثرة إنشادهما للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت فى عصرهما وانتشرت انتشاراً واسعاً . وهى تلقانا عند الحاجرى وغيره من شعراء القرن السابع . ويقول مالك بن المرحّل إنها تستعذب فى الغناء ، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب فى الغناء فحسب بل كانت تستعذب أيضاً فى أناشيد المتصوفة بملقات الذكر ، وقد جمع كامل الشيبى طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدويبت .

وأخذ يعم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذى صورناه بالتفصيل فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البديعية فى مذهب التصنيع والتنميق السابق له كأنما أخذت تزايلها أو تفارقها بعض أصباغها عند العراقيين وغيرهم من شعراء العصر ، ومثلنا لذلك باستخدام المتنبى للطباق والاستعارة واستخدام غيره للجناس . وقد أولع الشعراء فى هذا العصر باللون الأخير ، وأخذوا يطلبون فيه صعوبات مختلفة ، ومن أخف صورها قول أبى الجوازى الواسطى<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٤٦٢ :

واحزنى من قولها خانَ عهدى ولها  
وحق من صيرنى وقفاً عليها ولها  
ما خطرتُ بخاطرى إلا كستنى ولها

ولها فى نهاية البيت الأول من اللهو ، وقد جنس بينها وبين الجار والمجرور فى نهاية البيت الثانى ثم جنس بينها وبين كلمة « وله » أى شدة الوجد فى نهاية البيت الثالث . وقد يقبل هذا الجناس المعقد فى تلك الأبيات لحفته ، غير أننا لا نكاد نمضى بعد

(١) انظر فى أبى الجوازى ابن خلكان ١١١/٢ وتاريخ

بغداد ٣٩٣/٧ والدمية ٣٤٢/١ والحريدة ٤/١/٣٤٣

والمتنظم ٢٥٨/٨ وميزان الاعتدال ١/٢٣٨ .

صاحبه حتى نلتقى بالحسن<sup>(١)</sup> بن أسد الفارقي المتوفى سنة ٤٨٧ وكان يكثر من التجنيس ، كما لاحظ العماد الأصبهاني وياقوت ، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً ، وكل بيت فيها محتوم بكلمة «عين» طلباً للجناس الكامل ، فهي تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها . وهو تكلف شديد . ونظن ظناً أنه أحد من أشاعوا فكرة تكوّن الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً في مثل قوله :

تُرَاك يا متلفَ جسمي ويا مُكثِرَ إعلاي وأمرأضي  
من بعد ما أضحيتني ساخطا على في حبك أم راضي

وواضح أن كلمتي «أم راضي» في البيت الثاني تقابلان أو تجانسان كلمة «أمرأضي» في البيت الأول . ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات في نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب ، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم في القوافي إذ تصبح القافية أكثر من حرف أو روى ، ولذلك يقول العماد إنه كان يلتزم ما لا يلزم في قوافيه . وفي الحق أن أبا العلاء هو الذي فتح في لزومياته لمثل هذه الكلف في الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين في البيت وآخر كلمة ، مما جعل الحريري يستلهم صنيعه في المقامة الحلبية قائلاً :

سِمَ سِمَةً تَحْسُنُ آثَارَهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِمْسِمَةً  
والمكْرُ مِمَّا اسْطَعَّتْ لَا تَأْتِي لَتَقْنِي السُّوْدَدَ وَالْمَكْرُمَةَ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو في البيت الثاني جانس بين اللفظة الأولى وجزء من تاليها وبين اللفظة الأخيرة . وكل ذلك تصعب وتعقيد في التماس الجناس . ويخلف الحريري يحيى بن سلامة الحَصْكَفِي نزيل مِيَاْفَارِقِينَ المتوفى سنة ٥٥٣ فزاه ينظم بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص افتتحها بقوله<sup>(٢)</sup> :

أَطْعِ الْهُوَى فَالْعَقْلُ خَازٍ خَازِمٌ وَالْجَهْلُ يُغْرِى وَهُوَ هَازٍ هَازِمٌ

وخاز : قاهر . وهاز : ساخر . ويمضى في القصيدة مجانساً بين كلمتين متواليتين على هذه الصورة المتكلفة وكأنه لم تعد هناك حاجة وجدانية لنظم الشعر ، إذ حلت محلها

(١) ٢٢٩/١ .

(١) راجع في الحسن بن أسد الفارقي الحريفة (قسم

(٢) الحريفة (قسم الشام) ٥٠٨/٢ .

الشام) ٤١٦/٢ ومعجم الأدياء ٥٤/٨ وإنباه الرواة

٢٩٤/١ وشذرات الذهب ٣٨/٣ وفوات الوفيات

حاجة إلى التعقيد في الشعر وتصعيب ممراته التي يسلكها الشاعر إلى صناعته .  
 وإذا رجعنا إلى البديعيات منذ بديعية صفي الدين الخلي وجدنا الشعراء دائماً يعقدون  
 فيها ، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرونق والبهاء . وقد أكثروا من  
 الاقتباس ، وحسن أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ  
 النفس ، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمنونها قصائدهم ،  
 مما يعطل الحركة الوجدانية في أشعارهم ، وبلغ من تكلفهم في هذا اللون أن نجد شاعراً  
 يسمى الشيخ أحمد النجفي الحلبي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/ ١٧٦٩ م يضمن إحدى مدائحه  
 شطوراً من ألفية ابن مالك المشهورة في النحو ، فله شطر ولابن مالك شطر<sup>(١)</sup> .  
 ودفع المتنبي الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة ، وقد  
 أوضحنا ذلك في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » فصورنا تصنعه لبعض  
 مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللأفكار والصيغ الفلسفية ولألفاظ  
 اللغة الغربية وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليبها النحوية الكوفية الشاذة . وتبعه أبو  
 العلاء يكثر في لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية . ومضى الشعراء  
 في العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد في الأساليب  
 بما يطوى فيها من مصطلحات علمية . وكل ذلك كان تعقيداً وقيوداً ، حتى يصعب  
 الشعراء عملهم ، وحتى يظهروا مهارتهم في السلوك إليه من أضييق الممرات والدروب .  
 وأخذت تظهر سريعاً صور من التمارين الهندسية في الشعر ، وكأن الشاعرية لم تعد  
 تقاس بالأثر الوجداني الذي يحدثه الكلام في نفوس الناس ، بل غدت تقاس بما يمكن  
 أن يستحدثه الشاعر من عقده ، وربما كان الحريري أهم من فتح هذه الأبواب ، إذ  
 نراه في مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة ، فمن ذلك أن تُقرأ الأبيات طرداً  
 وعكساً كما جاء في المقامة المغربية من مثل قوله :

اسلُ جنابَ غاشمٍ مشاغِبٍ إن جلسا

فإن البيت يُقرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أي اختلاف في لفظ أو حرف ،  
 ومن الغريب أن من جاءوا بعده جعلوا ذلك لوناً من المحسنات البديعية وسموه  
 « ما لا يستحيل بالانعكاس » . وتمرين هندسي ثان عرضه في المقامة الشعرية ، وهي  
 أبيات التزم في داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة :

يا خاطبَ الدنيا الدنيَّةِ إنها شركُ الرَّدَى وقرارةُ الأكَدارِ

دارُ متى ما أضحكْتُ في يومها أبكتُ غداً بُعداً لها من دارِ  
فإننا إذ أوقفنا عند الكلمة الدالية في الشطر الثاني أصبح البيتان من مجزوء الكامل  
على هذا النحو :

يا خاطب الدنيا الدنيَّة لَمَّا إنها شرك الردي  
دارُ متى ما أضحكْتُ في يومها أبكتُ غدا

وبجانب هذا التمرين الهندسي الذي لا يضيف معنى نجده في مقامته التي سماها  
بالرُقطاء يتكرر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله :  
مخلفٌ متلفٌ أغرُّ فريدٌ نابهٌ فاضلٌ ذكيٌّ أنوفٌ  
ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل في نفس المقامة ، وكرر ذلك في المقامتين المروية  
والبكرية . ونراه في المقامة الحلبية يتبدع تمريناً شعرياً من طراز خطيٍّ آخر ، هو طراز  
الحروف الخالية من النقط في مثل قوله :

أعدِدْ لحسادِكْ حدَّ السِّلَاحِ وأوردِ الآملِ وردَ السَّاحِ

ولا يكتفي بهذا التمرين ، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خطياً ثانياً ، كل كلماته مؤلفة  
من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله :

فَتَنَّنِي فَجَنَّنِي (تَجَنِّي) بَتَجَنُّ يَفْتَنُّ غِبُّ تَجَنِّي

وكان هذين التمرين الهندسيين في تلك المقامة لم يُقْتَعاه ، أو كأنه أحسن أنه من  
الممكن محاكاتها فجاء بتمرين خطي ثالث ، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه ، بل  
يتعلق بشكل الحروف ، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها متماثلة مثل :  
زَيْنَتْ زَيْنْبُ بِقَدُّ يَقْدُ وتلاه - وَيلاه - نَهْدُ يَهْدُ

وواضح أن بين كل لفظين متوالين تجنيساً خطياً واضحاً . وكل ذلك ليس شعراً  
وإنما هو تمارين أو لعبٌ هندسية (١) ، غير أنهم كانوا يعجبون بها ، ولذلك نرى  
الشعراء - وخاصة المتأخرين - ينظمون منها كثيراً . ومن تنمة هذه التمارين الهندسية في  
العصر كثرة الألفاظ والأحاجي في الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها ، من ذلك  
كتاب الإعجاز في الأحاجي والألفاظ للحظري وعنه ينقل العماد في الخريدة (٢) ، ولا  
يلبث أن يترجم لشاعر شغف بها هو الحكيم (٣) النيل الطيب ، ويذكر له طائفة من

٥٤٦/٢

(١) من هذه اللعب مارواه العماد من قصائد أولها تاه

(٢) الخريدة (قسم العراق) ٤/٢/٤٧٥

وآخرها تاه أو أولها جيم وآخرها جيم أو أولها دال وآخرها

(٣) نفس المصدر ص ٤٩٨ ومابعدها

دال انظر الخريدة (قسم العراق) ٤/٢/٤٩٧ وقسم الشام

الغازه الشعرية في العقل والرمانه وكيزان الفخار والنأى وفيه يقول :

له رأسٌ يخالف منه جسماً      بلا رجلٍ فقيسٌ فيما تقيسُ  
يثنُّ أنينَ صبِّ مستهامٍ      مشوقٍ قد نأى عنه أنيسُ  
وليس بذي صباياتٍ فيهِوى      ولكنَّ الهوى فيه حبيسُ

غير الغاز آخرى ذكرها العماد ، والغازه طريفة ، غير أن من جاء وابعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً . وقد أكثر الشعراء في الحقب المتأخرة من التواريخ في الشعر ، إذ يحسبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمل مؤرخين للسنة التي نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العرس الذي هتأوا به أو للسنة التي ولد فيها غلام إلى غير ذلك مما لا يفيد معنى . ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً ، كانوا أعلاماً ناهين ، وسنفرد لهم بعض الصحف التالية .

ومن أهم ما تمتاز به أقالمتنا في العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها في الأدب وفي العلم وحدة ، جعلت كل شاعر نابه في إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها ، كما جعلت كل لون جديد يظهر في إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى ، ومن خير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات ، إذ نجدتها تظهر في الأندلس ويضع لها قوانينها في القرن السادس شاعر مصري هو ابن سناء الملك ، ونراها على السنة الشعراء في الشام والعراق وغيرها من البلدان العربية ، ومن أمثلتها في الخريدة موشحة <sup>(١)</sup> لشاعر موصلى هو التاج البلطى المتوفى سنة ٥٩٩ . ويلقانا في القرن السابع وشاح عراقي كبير ترجم له ابن تغرى بردى في المنهل الصافي باسم شهاب الدين الموصلى <sup>(٢)</sup> أحمد بن الحسن صاحب الموشحات ، وكان يستخدمها في المديح وغير المديح ، وينشد ابن تغرى بردى موشحة له عارض بها موشحة للقاضى الفاضل عبد الرحيم ، تجرى على هذا النحو :

بى مَنْ حَوَى الحسْنَ كَلَّهُ	وفاق	غَيْدَ الأَكِلَّةِ <sup>(٣)</sup>
بَدْرُ تَمَامٍ مَصَوَّر	ما	فيه نَقْصُ الأَهْلَةِ
فشعرُهُ لليبالى	وفرقُهُ	للصباح
وجفنهُ للنِّصَالِ	وقدُهُ	للرِّمَاحِ
وريقُهُ للزُّلالِ	وتغرُهُ	للأقَاحِ

(٣) الأكلة هنا : جمع كلة وهى السر أولعها جمع

(١) الخريدة ( قسم الشام ) ٣٨٩/٢

(٢) انظر ترجمته في المنهل الصافي لابن تغرى بردى

إكليل وهى عصابة تزدان بالجواهر

( طبع دار الكتب المصرية ) ٢٥١/١

وقد بدأ موشحته بالقفل وتلاه بالدور ، ثم تتابعت الأقفال والأدوار ، وكان يعرف كيف ينتخب كلماته عذبة رشيقة ، كما كان يعرف أنه لكي تتكامل رشاقة الموشح يحسن أن تكون الشطور في الأدوار قصيرة وأن يسرى فيها صفاء موسيقى بديع . وأنشد له ابن تغرى بردى موشحة يعارض بها موشحة مظفر الأعمى المصرى :

كَلِّمِي يَا سُحْبُ تَيْجَانَ الرَّبِّي بِالْحُلِيِّ

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك ، لروعة موسيقاه ، وهو ظن مخطيء وكان مظفر يعاصره تقريباً ، فقد توفى بعده بنحو خمس عشرة سنة . وتمضى موشحة الموصلي في هذه الصورة :

جَلِّمِي	يَارَاحُ كَأْسِي	وَلَهَا كَلِّمِي
بِالْحُلِيِّ	سِوَارَهَا	ثُمَّ لَهَا خَلِّمِي
	مِنْ غُرُرِ	حَبَابِكَ الْمَنْظُومِ مِثْلَ الدَّرِّ
	بِالْخَمْرِ	كَأَنَّهُ الْيَاقُوتُ فَوْقَ الْجَمْرِ
	وَالزُّهْرِ	فِي الرُّوضِ أَمْثَالُ النُّجُومِ الزُّهْرِ

ومهارته واضحة في انتخاب الألفاظ والملاءمة بينها في الجرس والنغمة ، وبحق يصف ابن تغرى بردى موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائع . ويقول إن له موشحات كثيرة . وربما كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صفي الدين الحلبي ، وولتقى في ديوانه باثنتي عشرة موشحة منها ست في مديح الملوك والأمراء وخمس في الغزل وموشحة صوفية . ومع أنه أجمل صوت يلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط في موشحاته درجة أو درجات عن الموصلي وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله في فاتحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بقي الأندلسي المشهور في موشحة بديعة له :

صَاحِبَ السِّيفِ الصَّقِيلِ الْمُحَلِّي	جَرَّدَ اللَّحْظَ وَالنِّي السَّلَاحِ
لَكَ يَا رَبَّ الْعَيُونِ	الْقَوَاتِلِ
مَا كُنِي عَنْ حَمَلِ سَيْفٍ	وَذَابِلِ (١)
أَعْيُنٌ تَبْدُو لَدِيهَا	الْمُقَاتِلِ
مَا سَرِي فِي جَفْنِهَا الْحَسَنِ إِلَّا	أَوْثَقْتُ مِنَّا قُلُوبًا جِرَاحِ

وربما كانت المعارضة هي التي جعلته يتفوق في هذه المرشحة ، كما جعلته يصفى لفظه تصفية ، شديدة بحيث أصبح يشبه الماء العذب السلسيل ، وخاصة في هذا المطلع البديع .



## شعراء المديح

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من تلقاهم من عشرات الشعراء - إلا من ندر - عند أصحاب اليتيمة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح ، ونبغى أن لا نقلل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع من يذهبون إلى أن هذا الشعر كان في مجموعه نفاقاً وملقاً ، وهى فكرة مخطئة ، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلى وهم يتغنون بمدح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأجداد الحربية لقبائلهم ومثالياتهم الخلقية الكريمة ، مُذْكين بذلك الحاسة فى نفوس الشباب . وبذلك كان الشعر ديوان مفاخرهم أو عبارة أدق كان المديح هو هذا الديوان ، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة . وانضمت إلى ذلك إشاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف ، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدثون عن العدل أو العدالة التى لا تصلح حياة الناس بدونها ، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم فى الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه . ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجّلوا مجدنا الحربى فيها ليدفعوا الشباب إلى سلّ السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحققهم محققاً . وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية ، يحد فيها الشباب القدوة الحسنة فى العمل المجيد وفى الخلق الحميد . وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات ، فالشعراء يصوّرون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلّون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإماراتهم من أعمال حربية ، وكأنهم يريدون أن يرفعوهم نُصَبَ عيون الشباب شعارات تعبّر عن آمال الأمة التى حققوها والأخرى التى تأمل منهم أن يحققوها ، مما جعلهم أحياناً يبالغون فى تصويرهم كأنما يريدون أن يحملوهم على النهج الصحيح الذى تريده الأمة ، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم فى صورهم الحقيقية ، بل يصوروهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة .

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح فى العصر شعراء اليتيمة وتتمتها الذين عاصروا الدولة البويهية ، وفى الحق أن البويهيين ووزاءهم - كما مرّ بنا - بعثوا فى هذا العصر نهضة شعرية قوية ، بما أسبغوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم ، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً ، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم ، هم أبو الحسن محمد

بن عبد الله السَّلامى وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم الببغاء وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نبأة المعروف باسم ابن نبأة السعدى . والثلاثة من مداح سيف الدولة بجلب وحكام العراق جميعاً . وقد ولد السَّلامى بكرَّخ بغداد (١) وتوفى سنة ٣٩٣ وله مديح رائع في عضد الدولة البويهى يقول فيه من قصيدة طويلة :

إليك طوى عَرْضَ البَسِيطَةِ جاعلاً قُصَارَى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ  
فكنت وعزى في الظلام وصارمى ثلاثة أشباه كما اجتمع النَّسْرُ  
وبشَّرتُ آملى بملكٍ هو الورى ودارٍ هى الدنيا ويومٍ هو الدهرُ  
وأبو الفرج الببغاء (٢) من نصيبين فى الموصل ، توفى سنة ٣٩٨ وذكره الثعالبي طائفة من أشعاره كان يُتَعَنَّى بها فى عصره ، وله مدائح مختلفة فى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان :

لا غَيْثُ نُعْمَاهُ فى الورى خَلْبُ الـ بَرْقٍ ولا وِرْدُ جُودِهِ وَشَلُّ (٣)  
جاد إلى أن لم يُبقَ نائِلُهُ مالا ولم يُبقَ للورى أملُ

وابن نبأة السَّعدى (٤) من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين ، توفى سنة ٤٠٥ وهو من مداح عضد الدولة ، وله فيه قصائد مختلفة يصف فى إحداها نار السَّدق ، وكان عبدا مشهورا للنار عند الفرس فى الإسلام كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وله فى سيف الدولة قصائد بديعة ، منها قصيدة فى وصف فرس أعر محجل أهدها إليه ، وفيها يقول :

نَحْتالُ منه على أعرٍ محجلٍ ماءً الدياتجى قَطْرَةٌ من مائه  
فكأنا لَطَمَ الصبأح جبينُهُ فاقتصَّ منه فحأصَّ فى أحشائه

وهو تعليل بديع لبياض العرَّة والساقين معاً ، وكنى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الدياتجى قطرة من سواده ، وله فى سيف الدولة بيته المشهور :

لم يُبقَ جودك لى شيئاً أوْمَلُهُ تركنتى أصحبُ الدنيا بلا أملٍ

وكان يحدو حدو المتنبي فى كثرة الفخر والحاسة والشكوى من الدهر والزمن ، وايضاً كان يحاكيه فى نثر الحكم بشعره من مثل قوله :

(١) انظر فى ترجمة السَّلامى البيهية ٣٩٥/٢ . وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(٢) ابن خلكان ٤٠٣/٤ وتاريخ بغداد ٣٣٥/٢ (٣) وشل : ضحل

(٤) انظر فى ترجمة ابن نبأة السعدى البيهية ٣٧٩/٢ والمتنظم ٢٢٥/٧ والوافى ٣١٧/٣

(٢) راجع فى ترجمة الببغاء البيهية ٢٣٦/١ وتاريخ بغداد ٤٦٦/١٠ وابن خلكان ١٩٠/٣ وعبر

بغداد ١١/١١ والمتنظم ٢٤١/٧ والشذرات ١٥٢/٣ الذهبى ٩١/٣ والشذرات ١٧٥/٣ .

وَمَنْ لَمْ يَمْتِ بِالسَّيْفِ مَاتَ بغيرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهى بين شعراء التشيع هما الشريف الرضى ومهيار . ولا يلقانا في الدمية شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء القرن الخامس : على <sup>(١)</sup> بن الحسن الرئيس أبى منصور المشهور بلقبه صُرْدُرُ المتوفى سنة ٤٦٥ وديوانه مطبوع بدار الكتب المصرية ، ويقول ابن خلكان : جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى ، وعليه طلاوة رائعة وهجته فائقة . وديوانه يموج بالمدائح البديعة ، ومن قوله فى الخليفة القائم :

كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَلْقَى رِداءَهُ من « القائم » الهادى على جبلٍ راسى  
 زَمَانُ الْوَرَى فى ظِلِّهِ وَجَنَابِهِ كَأَيامِ تَشْرِيقِ وِليَلاتِ أعراسِ  
 هو المصطفى التَّقْوَى متاعاً لِنَفْسِهِ بجوهرها حالٍ بِسُنْدُسِها كاسِ  
 من الخلفاء الرافعين بِناءهم بأطولِ أَعْمَارٍ وَأَثْبَتِ أساسِ  
 وواضح أن لغته رصينة وصوره بديعة ، وقد جعل زمان الناس فى أيام القائم أعراسا  
 وأيام تشرىق وهى أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر ، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أشاع  
 فيها من عدل وأمن . وله فى فخر الدولة محمد بن محمد بن جهمير حين تولى الوزارة سنة  
 ٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان فى ترجمة ابن جهمير ، وسننشد  
 بعض غزلها فى حديثنا عن شعراء الغزل ، وفيها يقول له :

أعدتِ إلى جسم الوزارة رُوحَهُ وما كان يُرْجَى بَعَثُها ونُشُورها  
 وهى قصيدة بديعة ، ولا يقل عنها إبداعا قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهمير حين  
 أعاده الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله ، وفيها يقول :

قد رجع الحقُّ إلى نِصابِهِ وأنت من كلِّ الْوَرَى أولى بِهِ  
 ما كنتِ إلا السيفَ سَلَّتْهُ يَدُ ثُمَّ أَعادَتْهُ إلى قِرابِهِ  
 أكرمُ بها وزارةً ما سَلَّمْتُ ما استودِعْتُ إلا إلى أربابِهِ  
 مشوقةً إليك مذ فارقتها شوقَ أخى الشيبِ إلى شبابه  
 وقراب السيف : غمده . والقصيدة كأختها رائعة . ويموج كتاب الخريدة بشعراء

كثيرين ومدائحهم ، نذكر من بينهم الحَيْصَ <sup>(٢)</sup> بِيصَ أبا الفوارس سعد بن محمد التميمي

(١) انظر فى صُرْدُرُ المنتظم ٢٨١/٨ وابن خلكان ٣٨٥/٣ ، ١٢٩/٥ وعبر الذهبى ٢٥٩/٣ والشذرات ٣٢٢/٣ والنجوم الزاهرة ٩٤/٥ .  
 (٢) راجع ترجمة الحيص بيص فى الخريدة (قسم والسبكي ٩١/٧ وقد نشر ديوانه ببغداد .  
 العراق) ٢٠٢/١ ومعجم الأدياء ١٩٩/١١ والمنتظم ٢٨٨/١٠ وابن خلكان ٣٦٢/٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبع مكتبة الحياة ببيروت) ، ص ٣٨٠ .

المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ عُرف باسم الحَيِّصَ بَيِّصَ لأنه رأى الناس يوماً في حركة شديدة فقال : ما للناس في حَيِّصَ بَيِّصَ ، فلصقت به الكلمة لقباً له ، وهو يشغل في المجلد الأول من القسم العراقي في الخريدة نحو مائة وستين صحيفة ، استهلها العماد بأنه من سلالة أكرم ابن صبيح الحكيم الجاهلي ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل فيها الشعر على النثر ، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله في أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه ، ثم اتجه إلى الشعر فبرع في نظمه . ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف في الافتخار والمديح ، ويذكر له ثلاثة أبيات هنا بها الخليفة المستضيء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ تجرى على هذا النمط :

سألنا الله أن نُعْطَى إماماً نَعِيشُ به فأعطانا نَجِيًّا  
 بَلَّغْنَا فوق ما كنا نرجى هِنِيًّا يا بني الدنيا هِنِيًّا  
 وقد كُشِفَ الظلامُ بمستضيءٍ عَدَاً بالناس كلَّهم حَقِيًّا

وسرَّ المستضيء حين سمع منه ذلك فأعطاه ثلاثمائة دينار وخلعة وداراً ، وأقطعته ضيعة كبيرة . ولعل في ذلك مايدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد . وخلف المستضيء الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ماوسعه ، حتى لقد أنشأه ديواناً خاصاً وسمى الشعراء المدونة أسماءهم فيه باسم شعراء الديوان <sup>(١)</sup> ، وأكبر الظن أنه كان يُجرى عليهم رواتب ، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولى خليفة وحين يُقبل عيد أو يُولد ولد أو يُحْتَنُّ ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألمَّ به . وبالمثل كان للوزراء وذوى البيوتات شعراؤهم ، وشاعر الناصر الفذ سبط ابن التَّعاوِذي ، وسنترجم له . ويقال إن محي الدين بن الجوزي كان ينظم في كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر <sup>(٢)</sup> ، فما بالناس بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتزمون المناسبات لنظم مدائحهم . ومنذ احتدمت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين وأخذت انتصاراته تتوالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه ، من مثل العلم الشاتاني <sup>(٣)</sup> الموصلي المتوفى سنة ٥٧٩ وله فيه مدحة استهلها بقوله :

(١) انظر نساء الخلفاء لابن الساعي تحقيق د. مصطفى جواد (طبع دار المعارف) ص ٩ وراجع الجامع المنحصر لابن الساعي (طبع بغداد) ٦٩/٩ ، ١٥٣ ، والواق ١٠١/٢ و ٣٧٩/٤ .

(٢) ذبل مرآة الزمان لليونيني (طبع حيدر آباد)

٣٣٧/١

(٣) انظر في ترجمة الشاتاني الخريدة (قسم الشام)

٣٦١/٢ وابن خلكان ١١٣/٢ وتهذيب ابن عساكر

١٧٧/٤ والسبكي ٦١/٧

أرى النَّصْرَ معقوداً برايتك الصَّفْراً فسرِّ وافتح الدنيا فأنت بها أحرى  
ونؤه صاحب النجوم الزاهرة بابن الشَّحْنَةَ الموصلى أبا حفص عمر بن محمد لمُدْحَةَ  
قافية له في صلاح الدين (١). ومن مداحه بالموصل أيضاً ابن الدهان (٢) أبو الفرج عبد الله  
ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، وقد نشر ديوانه ببغداد أخيراً ، وقصد مصر زمن الوزير  
الفاطمي طلائع بن رُزَيْك وأنشده في مديحه قصيدة كافية بديعة ، ويقال : بل أرسلها إليه  
فكافأه عليها بجائزة سنّية وفي تخلصه بها من الغزل إلى المديح يقول :

لأنتُ وصلك إن كان الذي زعموا ولاسقى ظمئى جودُ ابنِ رُزَيْكا  
القاتلُ الألف يلقاهم فيغلبهم والواهبُ الألف تلقاه فيغنيكا

ونمضى في القرن السابع الهجرى ، فتلتقى براجح (٣) الحليّ المتوفى سنة ٦٢٧ هـ وتهنئة أنشدها  
الكامل سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ هـ وردّهم مدحورين إلى  
البحر المتوسط وما وراءه ، وكان قد عاونه في دحرهم أخواه المعظم عيسى والأشرف  
موسى ، وإلى ذلك يشير راجح في قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول :

تهلّل وجهُ الدهر بعد قُطوبه وأصبح وجهُ الشُّرك بالظلم أسوداً  
أعبادَ عيسى إنَّ عيسى وحزبه وموسى جميعا يخدمون محمداً  
وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشرف موسى يقفان في خدمة  
أخيها الكامل محمد ، وهى تورية بديعة . ويتوفى الخليفة الناصر ، ويخلفه ابنه الظاهر  
لنحو سنة ، ويتوفى ، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبى  
الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ هـ وقد نظم فيه مجموعة من المدايح طبعت باسم المستنصرينات ،  
وسنعرض له بين شعراء الشيعة ، ومن شعرائه أيضاً مجد الدين النشائي (٤) أسعد بن إبراهيم  
الإربلى المتوفى سنة ٦٥٧ هـ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله :

وَرثَ النبوةَ طاهراً عن طاهرٍ إرثاً ينزهه عن مقالة مُفترى  
وإذا رأى الراعون نورَ جلاله لم تلقَ غير مهلِّ ومكبرٍ

شاعر الكعبة ٣١٨/١ والشذرات ١٢٣/٥ .

(٤) راجعه في فوات الوفيات ١٧/١ وقد روى له  
مواليا وانظره في ذيل مرآة الزمان ١١١/١ - ١٢٣  
وتلخيص مجمع الآداب لابن القوطى (طبعة الهند)  
١٠٢/٥ .

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦

(٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٢٧٩/٢ وابن خلكان ٥٧/٣ والسبكي ١٢٠/٧ وتهذيب ابن  
عساكر ٢٩٢/٧ والشذرات ٢٧٠/٤

(٣) انظر ترجمة راجح وشعره في ابن خلكان ٧/٤ والنجوم الزاهرة ٦/٢٤٢ ، ٢٧٣ وفوات الوفيات لابن

ويكثر مثل هذا الغلو في المديح منذ أوائل العصر ، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأنتمهم وما أحاطوهم به من هالة قدسية ومن مبالغات مفرطة . وطبعاً ألغى ديوان الشعراء بعد الغزو التتارى وركدت سوق الشعر . ونمضى في القرن السابع فنلتقى بفخر الدين مظفر بن الطراح المتوفى سنة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة في علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان بغداد (١) . وكان يعاصره ابن نعيم الحلبي ، وله ديوان (٢) سماه « شرف المزية في المدائح العزبية » مدح به صدر الحلة عز الدين أبامحمد حسن بن الحسين الأسدى الحلبي ، ويكفي القرن الثامن فخرا ظهور صني الدين الحلبي فيه . ومر بنا في فواتح الفصل اسم شهاب الدين الموسوى في العصر العثماني الأول واسم محمد كاظم الأزرى في العهد العثماني الأوسط أو عهد المماليك ، ولهما ديوانان يطفحان بالمديح ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح في العصر : المتنبى ، وسبط ابن التعاويذى ، وصفي الدين الحلبي .

### المتنبى (٣)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جُعْفَى المذحجية اليمنية ، ولد سنة ٣٠٣ بحى كِنْدَةَ في الكوفة ، ولذلك قد يقال له الكندى . أما أمه فكانت هَمْدَانِيَّة ، فهو يبنى أباً وأماً . وذكر بعض خصومه وهجائه أن أباه كان سَقَاء ، وأضاف بعضهم أن اسمه

- (١) الغزوى ١/٣١٦ .  
 (٢) الغزوى ١/٣١٧ .  
 (٣) انظر في ترجمة المتنبى اليتيمة للثعالبي ١١٠/١ وتاريخ بغداد ١٠٢/٢ ونزهة الألبا لابن الأنبارى (طبعة دار نهضة مصر) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٩٤ والأنساب للسمعاني ورقة ٥٠٦ ووفيات الأعيان ١٢٠/١ . وألفت قديماً كتب كثيرة حول شعره ، منها الموضحة للحاتمي (نشر د . محمد يوسف نجم ببيروت) والرسالة الحاتمية فيما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو ورسالة الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد والواضح في مشكلات شعر المتنبى للاصفهاني (طبع تونس) والفتح الوهبي على مشكلات المتنبى لابن جني تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أبي الفتح لابن فورجه تحقيق د . محسن غياض (طبع
- بغداد) والوساطة بين المتنبى وخصومه لعل بن عبد العزيز الجرجاني (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصبح المنبي في الكشف عن حثية المتنبى للبديعي (طبع دار المعارف) وذكرى أبي الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ومع المتنبى لطف حسن والمتنبى لمحمود محمد شاكر وكتابتنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٠٣ وكتابتنا فصول في الشعر ونقده : ما كتب فيه بعنوان العروبة في شعر المتنبى وكتاب بلاشير عن أبي الطيب المتنبى . ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه ، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جني وبينه وبين المتنبى مراجعات كثيرة وشرحه نفيس ، ومن شروحه شرح العكبري وشرح الواحدى وهما مطبوعان . وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد ، يقصد ديوانه .

«عبدان» . ولم يُعْرَبِ خلكان هذه الدعوى اهتماما ، وهي دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفذَّ وحسداً . وكل شيء في سيرة الشاعر يؤكد بطلانها ، فقد ذكروا أن أباه الحقه بكتّاب أبناء الأشراف ، ويبيدُ أن ينتظم في سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقاءً يحمل الماء لأهل الحى القاطن به . وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكّرة ، وهو في نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصّبية : ما أحسن وَفَرْتِكَ وَشَعْرَكَ ، وفوجئ الصّبيُّ برده :

لَا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى      منشورة الصّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ  
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً      يُعْلِمُهَا مِنْ كُلِّ وَاقِي السَّبَالِ

فالوفرة - أو الشعر المجتمع على الرأس - لا يحسن منظره إلا يوم القتال حين تشعث ذوائبه على رأس فتى باسل يعتقل صعدة أو ربحا يُعلّمها أو يرويه من دماء الرجال ، فتى لا يبرح ميادين النضال والقتال . وفي ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفسا كبيرة بين جنبيه ، نفسا ستعيش للفتوة والإقدام ، ولن يجذبها أى جمال حسى أو متاع مادی في الحياة ، مما جعله ينصرف عن الخمر بل ينهى عن احتسائها ، أما ما قيل من حبه للعبة الشطرنج فلأنها تمثل مواقع الحرب والعراك . وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء ويسبوا النساء ، ويفرُّ الناس منها جزعا وفرعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ويظل المنتبى نحو عامين أو ثلاثة يتردد في القبائل ويتغذى بلعنها ، وتتغذى فتوته الجائمة بين ضلوعه . ويعود إلى الكوفة في مستهل سنته الثانية عشرة ، ولا ندرى هل كان أبوه لا يزال حيا أو أنه توفى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فأرقتها وهو لا يزال رضيعا . وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكرا في ديوانه ، بينما نجده يرثى جدته وهو في نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلاً :

ولو لم تكوني بنتَ أكرمٍ والدٍ      لكان أباك الضَّحْمَ كَوْنِكَ لى أُمًّا

وفي تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه في باكورة حياته وأن جدته هي التي قامت على تربيته . وحاول بعض المعاصرين أن يُلْقَى شيئا من ظلال الشك على نسبه ، لأنه لم يذكر في شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضعة من ناحية أسرته وأهله الأذنين ، وجعله ذلك يبغض الناس . والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيرا من شعراء العرب لم يذكروا في أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس في ذلك أى دليل على

أن أسرهم كانت وضيفة ، بل إننا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وما سوّدنى عامرٌ عن وِراثةٍ أبى الله أن أسمو بأُمَّ ولا أب

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثة عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلا ، ويريد أن يقول إنه ساد بنى عامر بياسه وأعماله الجيدة ، بالضبط كما قال المتنبي :

لا بقومى شَرَفْتُ بل شَرَّفوا بى وبفسى فخرتُ لا بجدودى  
وهم فخرُ كلِّ من نطق الضَّاءَ دَ وعودُ الجاني وَعَوْتُ الطَّريدِ

على أن المتنبي يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقا . ولعل فى ذلك ما يدل على أن كل ما رتبه بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبي وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسبه غير صحيح . ومن المؤكد الذى لا يرقى إليه شك أن المتنبي كان عربيا صميا وأن العرب لم يثبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالا لكان المتنبي هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعاً ، وشدَّ فى وسطه منطقة وسيفاً ، وفى إحدى يديه رمح مصوّب وفى الأخرى ريشة الشاعر ، وهو يمتطى حصانا وكأنه يطلب القتال والزوال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوى الحكم والسلطان وصباحهم فى وجوه أعدائهم ، وإنه ليصبح بكل قوته هادرا عاصفا ، يريد أن يوقظ من حوله من العرب ويستنقذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ وإن كانت لهم جُثٌّ ضِخامٌ

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم

من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخنعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عسرا .

وستضح شخصية المتنبي حين نتابعه فى حياته ، وقد رأيناه يخرج إلى البادية فى سن التاسعة ويعود فى الثانية عشرة من سنّه ، ويكبُّ على كل ماكان فى الكوفة من ثقافات ، فإذا هويلتهم كتب اللغة التهاما ويلتهم أيضا كتب النحو . ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفى له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف . وبكل ما قدمنا نستطيع أن نعرف العناصر التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، فهو عربى لحاودما ، وتستأثر



به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجعله لسانها الناطق بها طوال حياته . وهو قد تغذى بلبان البادية ، وأفادته صقلا في لغته ووقفا على الغريب والشواذ اللغوية ، كما أفادته صقلا في فتوته وإحساسه بعروبه ، ثم هو قد ثقف كل أنواع الثقافات في عصره ، واقترض منها في شعره صيغا من النحو الكوفي الشاذ ومن الغرائب اللغوية ومن الأفكار والألفاظ والعبارات الفلسفية ، ومن مصطلحات التصوف وشارات عباراته . وكل ذلك فصلنا الحديث عنه في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة في سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمى هرون بن علي الأوراجي ، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمي ولا أحداً من ذوى السلطان ، وكأنما وقف حائلاً بينه وبينهم ما رآه بأمر عينه من فساد الحكم وتسلسل الحكام الأعاجم على العرب ، ويتألم لما أصابهم من ذل وهوان ، ويُقَمِّم صدره بمشاعر العروبة ، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه :

إلى أى حين أنت في زى مُحْرَمٍ      وحتى متى في شِقْوَةٍ وإلى كم ؟  
وإلا تَمَتُّ تحت السيوف مَكْرَمًا      تَمَتُّ وتُقاسِ الذلَّ غير مَكْرَمٍ  
فَثَبٌ واثقاً في الله وثبةً ماجدٍ      يرى الموت في الهيجَا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِّ

وهو يستحثُّ نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زِيَّ المحرمين بالحج ، يريد زِيَّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين ، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلهم منزلة لا تبقى منهم ولا تَدْرُ . ويئس ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولّو وجهه نحو بوادى الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب في طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكف عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يراعون للعرب حرمة ولا عهداً ولا ذمة ، ويصيح في قومه :

وإنما الناسُ بالملوك وما      تُفْلِحُ عَرَبٌ ملوكها عَجَمٌ  
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ      ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمٌ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذلين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العسف والقهر . ويمضى في دعوته وثورته في بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك ، ويحسُّ في أهل « نخلة » بالقرب من بعلبك تواكلاً وتحاذلاً وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهذرة ، فيستثيرهم بقصيدة ملتبة يقول فيها :

ما مُقامى بأرض نَحْلَةَ إلا كمُقام المسيح بين اليهود  
عِشْ عَزِيزاً أَوْمَتْ وَأَنْتِ كَرِيمٌ بين طَعْنِ القَنَا وَخَفَقِ البَنُودِ  
وَاطلِبِ العِزَّ في لَطْيِ ودَعِ الذِّ لَ ولو كان في جِنانِ الخُلُودِ  
أنا تَرَبُّ النَّدا وربُّ القوافي وسِهامُ العِدا وَغِظُ الحِسودِ  
أنا في أمةٍ تداركها اللدُّ هُ غَرِيبٌ كِصالِحٍ في تَمُودِ

وكان تشبيهه لنفسه في القصيدة بالمسيح وبالنبي صالح سببا في أن يهتم به بعض معاصريه بادعائه النبوة ، وبالغوا فزعوا أنه ادعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فقر منه ، وكل ذلك غير صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين . أما لقبه المتنبي فهو الذى لقب نفسه به ، أولعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به ، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتي في أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة . وهو يضع في البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مر التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم في ساحة الشرف والنضال ، ولا حياة بدون العزة والكرامة . وإن العربى الحرَّ ليفضِّل العز في الجحيم على الذل في الفرديس . ويترك قرية نَحْلَةَ إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لا يزال في العشرين من عمره . ويقضى لؤلؤ والى حمص من قبل الإخشيد على ثورته ويزج به في غياهب السجن . ويظل به نحو سنتين ، وتُرَدُّ إليه حريته ، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته في مديح ولاة البلدان الشامية ، وخاصة بدرين عمار الأسدى صاحب دمشق من قبل بغداد ، ووجد فيه المتنبي أمينته في فارس عربى ، فدحه ونوه بفروسيته في تصويره الرائع لفتكه بأسد ، مستهلا له بقوله :

أَمَعْفَرُ اللَّيْثِ الهَزْبِرِ بِسَوَطِهِ لَمِنْ أَدْحَرَتِ الصَّارِمِ المَصْقُولَا  
يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلمن أبقيت سيفك ، ومضى يشيد بآسه ومضائه . وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستنهضا هم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله :

لا يُعْجِبُنِي مَصِيماً حَسُنُ بَزَّتِهِ وهل يروقُ دَفِيناً جودَةُ الكَفَنِ  
وقوله :

ذَلَّ مَنْ يَغْبُطُ الذَّلِيلَ بَعِيشِ رَبِّ عَيْشٍ أَخْفُ مِنْهُ الحِجَامُ  
مَنْ يَهْنُ يَسْهُلُ الهِوانُ عَلَيْهِ ما لَجُرحِ بِيْمَتِ إِيلامُ  
وفي أواخر هذا الاضطراب بين ولاة الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

نعى جدته ، فحزن عليها حزنا شديدا ورثاها رثاء حارا بميميته التي يقول فيها مفاخرا بقومه وأهله :

وإني لمن قومٍ كان نفوسهم بها أنفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظْمَ  
فلا عبرتُ بي ساعةٌ لا تُعزِّي ولا صَحْبِي مهجةٌ تقبلُ الظلْمَ

وهما بيتان رائعان يصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد ، وهو جانب في شعر المتنبي جعله محببا لكل عربي ، إذ توهج أشعاره بنخصال العربي الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة والإباء والشعور بالكرامة والترفع عن الدنيا إلى أقصى حد ، وكأنه ترجان العرب عن فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر . وهذه النفس العاتية كان المتنبي ينظم شعره منذ سال على لسانه في الكتاب معبرا عن الروح العربية التي لا تُقهَّر ، مها نزل بها من الكوارث والخطوب . وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إخفاق ثورته ، ومع ذلك لا يزال يهدر ويزجر ويزأر ، ولا يجذ سميعا ولا مجيبا . وتحذثه نفسه في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن يقدم مدامحه لولاة سيف الدولة الحمداني ، وكان أميرا لحلب واتسع بإمارته إلى حمص وأنطاكية منتزعا لهما من يد الإخشيديين ، فقدم المتنبي مدامحه إلى واليه على أنطاكية أبي العشائر الحمداني ابن عمه ، فأجزل له في العطاء . ومضى في مديحه ، ويقدم سيف الدولة إلى أنطاكية في جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين ، فيمدحه المتنبي ، ويعجب كل منها بصاحبه . ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حلب وينزل عنده ، ويقول الرواة إن المتنبي اشترط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه وأن لا ينشده مدامحه إلا قاعدا ، ويحييه سيف الدولة إلى شرطيه ، ولعل فيها ما يشير إلى شعور المتنبي بالعزة والكرامة شأن العربي الأصيل . ويظل المتنبي عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعارا في أمره ، تؤلف ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربي ، لا من حيث كثرة قصائده فحسب ، بل أيضا من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة ، واستقر حينئذ في نفسه أنه لقي أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذي يمزق جموع الروم شر ممزق في الشمال ، وغدا يمزق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين في بغداد ، ويرد للعرب دولتهم المفقودة . وكان سيف الدولة بحق بطلا مغوارا وشجاعا مقداما ، حطم جيوش الروم مرارا واستنقذ منهم غير ثغر وحصن ، وكان المتنبي يصحبه في غزواته ، حتى إذا عاد معه أنشده بلبل ما نظم في بطولته وبطولة جنوده . وكانت أول موقعة حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحداث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن ، فرأى سيف الدولة أن يسترده ويعيد بناءه ، وأعد جيشا جرارا

زحف به من حلب ، ولقيه الروم وهزموها هزيمة ساحقة ، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره ، وأسر منهم آلاف ، وُضعت في أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبنى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ، وسجل المتنبي الواقعة في ميمية رائعة خاطبه فيها مبهجا بقوله :

وقفتَ وما في الموت شكُّ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ  
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ ونعركُ باسمٍ  
ضممتَ جناحيهم على القلبِ ضمةً تموتُ الخوافى تحتها والقوادمُ  
بضربِ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللبآتِ والنصرُ قادمٌ  
نثرتهمُ فوق الأحيذبِ نثرةً كما نُثرتُ فوق العروسِ الدراهمُ

وهو يصور سيف الدولة في المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرعوس تتطاير والأشلاء تتناثر ، والموت يحدق من كل جانب ، وكأنه في جفنه وهو نائم عنه ، مهابة ليس وراءها مهابة . وتمر به جنود الروم جرحى مهزومة هولاء ورعبا ، ولم يلبث أن لفَّ جناحى جيشهم على القلب لفةً سريعة وحطم رعوسهم حطاً إلى اللبآت والنحور . وولوا الأدبار مندحرين وسيف الدولة وجنوده ينثرونهم على جبل الأحيذب كما تُنثر الدراهم على العروس ابتهاجا ، وكأنه لم يكن يوم حرب ، إنما كان يوم زفاف لنصر عظيم . والمتنبي لا يبارى في وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم ، حتى لكأنما نسجم في قصائده السيفية قعقة السلاح ، وهى لاشك القطع الأرجوانية الرائعة في ديوانه ، وبحق قال ابن الأثير : « اختص المتنبي بالإبداع في مواقع القتال . . وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يُظن أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا » . وتوفيت في نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أم سيف الدولة فرثاها بقصيدة بدیعة ، وفيها يقول بيتيه المشهورين :

رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتى - قوادى فى غشاءٍ من نبالٍ  
فصرتُ إذا أصابتنى سهامُ تكسرتِ النَّصالُ على النَّصالِ  
ونفس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة - وفي مقدمتهم أبو فراس الحمدانى الشاعر - منزلته ، فأخذوا يكيدون له عنده ، وأحسَّ المتنبي بكيدهم ، وأن سيف الدولة يُرهف سمعه إليهم ، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتاباً مرّاً بمثل قوله :

يا عدلَ الناسِ إلا فى معاملتى فيم الخِصامُ وأنت الخِصمُ والحكمُ  
إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له ، وعجيب أمر الناس فإنهم يظنون يحسدون الأديب ، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبي ، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه . ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبي ، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب ، بل مدائح المحب المفتون ، وإنه ليعلن ذلك في غير قصيدة من مثل قوله :

مالي أكتُمُ حبًّا قد برى جسدى وتدعى حبَّ سيفِ الدولة الأُممُ  
ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع ، إذ يسوق فيه ألفاظ النسب والتشبيب والغزل كقوله :

أعلى المالك ما يُبني على الأسَلِ والطعنُ عند مُحِبِّينَ كالقُبَلِ  
ويصمم على الرحيل ، ويرحل إلى دمشق ، ويلتقي فيها بأصحاب كافور وأولياءه ، فيُغرونه بلفائه في الفسطاط وأنه لا بد أن سيقممه واليا على « صيداء » أو ما يماثلها من بلدان الشام ، وكأنما زينت نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة في إقامة الدولة العربية المنشودة . وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه بمثل قوله :

وما رغبتى فى عَسَجِدِ أَسْتَفِيدُهُ ولكنها فى مَفْخَرِ أَسْتَجِدُهُ  
ويلوِّح في غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن دون جدوى ، فيستقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته في الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هى في ظاهرها ثناء ولكنها فى باطنها هجاء مرٌّ من مثل قوله :

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَنْ بات حاسدا لمن بات فى نَعْمائِهِ يتقلَّبُ  
والبيت يمكن أن يُحمَل على من يُسبغُ عليه العطاء فلا يعترف بالجميل ، وبذلك يكون من الظلم بمكان . ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسدى إليه العطاء ، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانها دناءة . ويقول بعض الباحثين إن المتنبي استدلل نفسه حين رضى بمدح كافور الأعجمى الحبشى ، وهو الذى طالما هجا الأعاجم ، ويستطردون فيقولون إنه تحلَّى عن مسئوليته الأدبية . وليس هناك تخل من المتنبي ولا ما يشبه التخل ، فقد مدح كافورا فى سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان ، فلما ماطله ، سلَّ عليه لسانه ، وظل له عنده شعوره الجامح بكرامته وفتوة نفسه ، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس ، فهى لا تضعف ولا تهزم ، مها تقدمت بالمتنبي السن ومها اشتعل عذاره شيئا ، بل لكأن شعرات شبيهه البيضاء حراب مشرعة لتزال أعدائه ، حراب من

ورائها نفس تزجر ، لها أنياب الأسد ومخالبه ، ويصور ذلك تصويرا رائعا في قصيدة مدح بها كافورا ستة تسع وأربعين إذ يقول :

وفي الجسمِ نفسٌ لا تشبُّ بشيِّهٍ ولو أنَّ ما في الوجهِ منه حِرَابٌ  
لها ظُفْرٌ إنَّ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ونابٌ إذا لم يبقِ في الفمِ نابٌ

فاليأس المرير الذي ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه ، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار . وفي أواخر مقامه بمصر أَلَمَّتْ به حُمَى ، فوصف نزولها به في الظلام وميبتها في عظامه وأثرها في جسمه وصفا رائعا ، ولها يقول بيته البدیع :

أَبْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الرِّجَامِ  
وعرَّضَ في القصيدة برحيله ، فقد أحسَّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل ، وهو يرمى كافورا بشواظ من هجائه على نحو ما نرى في داليتيه ، وقد مرَّق فيها أديمه تمريقا بمثل قوله :

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إِلَّا والعَصَا مَعَهُ إنَّ العَبِيدَ لِأَنْجَاسٌ مَنَّا كَيْدُ  
وسقط بعض شرر من هجائه على مصر ، ولكنه لم يكن يقصدها لنفسها ، إنما كان يقصد كافورا بهجائه وذمه . وقد بارحها في أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين ، واتجه إلى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها في الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعل في ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطيا يوما . ويرسل إليه سيف الدولة هدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلامية بديعة يستحثه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد وينزلها في سنة إحدى وخمسين ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرض له الحاتمي - بإيعاز من الوزير المهلبى - ينقد بعض أشعاره ، وتكون في ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ابن العميد في سنة ثلاث وخمسين متوددا إليه آملا في زيارته ويقدم عليه في « أَرْجَان » سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا في وصفه :

عَرَبِيٌّ لِسَانُهُ فِلَسْفِيٌّ رَأْيُهُ فَارِسِيَّةٌ أَعْيَادُهُ  
ففخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه ، ويستقدمه عضد الدولة إلى « شيراز » ويمرُّ ببستان يسمى « شَعْبَ بَوَّان » ويروعه جلاله ، غير أنه مع روعته كدَّر نفسه أن لا يرى أثراً للعروبة فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَبِيباً فِي المَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ  
ولكنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبٌ الوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

وأروع مدائح في عضد الدولة هائيته ، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العرييات في الشام ، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يحسّمه في فتاة عربية شامية خلبت له ، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله :

كلُّ جريحٍ تُرَجَى سَلَامَتُهُ إِلَّا فَوَادًا دَهْتَهُ عَيْنَاهَا  
فِي بَلَدٍ تُضْرَبُ الْحِجَالُ بِهِ عَلَى حِسَانٍ وَلَسْنَ أَشْبَاهَا  
فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرَ السُّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمَحَبِّ سَمَّاهَا

إنهن عرييات دونهن الموت الرُّؤَام . وعلى هذا النحو ظلت العروبة تحتلط بدمائه ، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا ، وفي طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه في أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبي جهل في بعض الشذاذ من قطاع الطرق ، وصرعه هو وابنه وغلمانه ، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقري : مآتم حداد وسواد . وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً .

ولعل فيما قدمنا ما يصور الموضوعات الاساسية التي تغنى بها المتنبي ، وهي المديح والهجاء والفخر والثناء ، وأروع مدائح كما قدمنا ما نظمه في سيف الدولة وتصوير معاركه ، وهجاؤه ينبث في مدائح ونقصد هجاءه لأعاجم بغداد ، وفيهم يقول :  
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتَهَا أُمَّمٌ تُرْعَى بَعْبِدِ كَأَنَّهُمْ كَأَنَّهُمْ غَنَمٌ  
يَسْتَحْشِنُ الْخَزْرَ حِينَ يَلْبَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ  
والبيت الثاني يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا - كما يقول - عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة ، وقد طالت أظفارهم ، وإذا هم يعيشون في النعيم ، يلبسون الإستربق بل يستخشونهم ، ويملئون ديار العرب بغيًا وظلما ، ومرت بنا أبيات أخرى في هجائهم ، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير . ويكثر الفخر في شعر المتنبي ، وهو طبيعي لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة الزمن حتى ليقول :

أَمْثَلِي تَأْخُذُ النِّكَابُ مِنْهُ وَيَجْزَعُ مِنْ مَلَاقَاةِ الْحَمَامِ  
وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصًا لِحْضَبِ شَعْرٍ مَفْرَقِهِ حُسَامِي

وفي ديوانه مرات مختلفة ، ولكن أهمها مرتبته في جدته والأخرى التي نظمها في أم سيف الدولة ، وقد مرت الإشارة إليها ، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير في الحياة والموت ، وفيها يقول :

يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

وفي رأينا أن هذا البيت هو الذي ألهم أبا العلاء قصيدته : « غير مجد في ملتي واعتقادي » . وسرّى فيه روح تشاؤم جعلته ناثراً على الزمن والدهر والناس ، وهي روح تحبّ أشعاره إلى قارئه ، من مثل قوله :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانِ وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَا  
وَتَوَلَّوْا بَعْضَةَ كُلِّهِمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانًا  
وتكثر في شعره الحكم والأمثال ، حتى ليصبح جُلُّ ما يدور من خواطر في أذهان الناس أمثالاً أو حكماً ينطق بها في شعره ، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو فيه ، ولكن من المؤكد أن حكمه وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فيما مرّ من الحديث . وإله غزل طريف ، وهو فيه مفتون دائماً بالبدويات للجاهن الفطرى وفي ذلك يقول :

حَسَنُ الْحِضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ      وفي البداوة حَسَنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبٍ  
أَفْدَى ظِيَاءَ فَلَاقٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا      مَضَّغَ الْكَلَامَ وَلَا صَبَّغَ الْحَوَاجِبِ  
وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يحلو بعض الجلاء شخصية المنبئى الفذة ويرد عنها جملة التّهم التي نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته ، وهو قد فرّمع أبيه من وجه القرامطة حدّاً ورحل بسببهم عن الكوفة في باكورة شبابه ، وحاربهم بأخرة من عمره ، ومع ذلك يقال إنه قرمطي ، ويُلقَى ظل من الشك على عروبه ، مع أن العروبة لم تجد من يفضّله لتختاره تُرجاناً لها أروع ما يكون الترجان .

### سِبْطُ (١) ابْنِ التَّعَاوِيذِيِّ

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، كان أبوه مولى لبني المظفر واسمه نُشْتَكِين ، فسماه ابنه عبيد الله وسمى جده عبد الله ، وقد وُلد لأبيه ببغداد سنة ٥١٩ ويبدو أنه توفي وابنه لا يزال صغيراً ، فكفله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذي وكان صالحاً ، فقام على تربيته خير قيام ، إذ ألحقه بكتاب ، ثم بملقات العلماء

(١) التعاويذي : حياته وشعره لنورى شاكر الألوسى ( طبع بغداد ) وديوانه طبع قديماً بالقاهرة في مطبعة المقتطف بتحقيق مرجليوث .

(١) انظر في ترجمة سبط ابن التعاويذي معجم الأدباء ٢٣٥/١٨ وابن خلكان ٤٦٦/٤ ونكت الهميان ص ٢٥٩ والوافى بالوفيات ١١/٤ وعبر الذهبي ٢٥٣/٤ والشذرات ٢٨١/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٥/٦ وسبط ابن



في المساجد ، ولم يلبث أن استيقظت موهبته الشعرية ، ولم تشمله عناية جده فحسب ، فقد عُني به أيضاً بنو المظفر مواليه ، إذ أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثير ، وكان لهم شأن كبير في الدولة ، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون ، فألحقوه بدواوين الخلافة ، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع ، وجعلته وظيفته في هذا الديوان يتصل بكبار رجال الدولة وموظفيها المختلفين من غير بني المظفر ، وله مدائح في الخلفاء وفي غير وزير ، وخاصة ابن هبيرة . ويظهر أنه كان من جملة من فصلهم وزير الديوان أبو جعفر أحمد بن محمد التيمي المعروف بابن البلدي لعهد الخليفة المستنجد ( ٥٥٥ - ٥٦٦ هـ ) إذ نراه يهجو هجاء مرا ، وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وحسبهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكّل بهم ، وفيه يقول :

يا قاصدا بغداد حِدْ عن بلدةٍ للجور فيها زَخْرَةٌ وَعُبابُ  
 إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد سُدَّتْ على الرَّاجي بها الأبوابُ  
 بادتْ وأهلواها معاً فبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خرابُ  
 وارثهم الأجداتُ أحياءُ تُها لُ جنادلُ من فوقهم وترابُ

ونراه في قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدي ومن ضائقته وعطلته مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان قد فصل مع من فصلهم . ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته ، وأكبر الظن أن الخليفة المستنجد هو الذي أعاده ، وكان جده لأمه ابن التعاويذي قد توفى ورثاه مرثية جيدة ، استهلها بقوله :

لكلِّ ما طال به الدهرُ أمدٌ لا والدًا يُبقي الرِّدَى ولا وِلْدَ

وليس في الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به . وقد ظل في ديوان الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ إذ كُفِّ بصره ، ولم يعد يستطيع العمل فيه ، ويلتمس حينئذ من الخليفة الناصر ( ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ ) أن ينقل راتبه في الديوان إلى أبنائه ، وكانوا كثيرين كما يبدو من إحدى قصائده . ويحييه إلى ملتسمه ، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجدِّد له راتباً خاصاً به مدة حياته ، ويحقق له طلبه ، ويكثر حينئذ من ندب بصره بمثل قوله :

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جنائيةٍ يُعدُّ من الموتى وما حانَ يومُهُ  
 يُروِّعُهُ عند الصباح انتباهُهُ فطوبى له لو طالَ وامتدَّ نومه

ولم يعيش طويلاً وهو مكفوف ، فقد توفى بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ وقيل بل سنة ٥٨٤ . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كُفِّ بصره ، وعمل له خطبة طريفة ، كما يقول ابن خلكان ، ورتبه في أربعة فصول ، وكل ما نظمته بعد هذا الترتيب سماه الزيادات ،

والفصل الأول في مدائح الخلفاء ، والفصل الثاني في مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول في مقدمته ، والفصل الثالث في مدائح بني المظفر ، يقول : « لأنني نشأت فيهم ، وصحبتهم أنا وجدى لأمى ، وكنت منقطعاً إليهم لا أشيم (أنظر) غير سمائهم ، فنظمت فيهم جُلَّ شعري ، وأنفقت معهم طائفة من عمري » والفصل الرابع متنوعات من مرث وزهد وغزل وعتاب وهجاء . والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً . وواضح أن جمهور الشعر في الديوان مدائح ، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أن يهجروا المديح إلى الهجاء ، ويبدو أنه قالها في لحظة عارضة في حياته . وقد توه به وبشاعريته ابن خلكان تنويهاً عظيماً قائلاً : « كان شاعروقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها ، وهو في غاية الحسن والحلاوة ، وفيما اعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاويه » .

وأول خليفة مدحه سبط ابن التعاويذى الخليفة المستنجد ( ٥٥٥ - ٥٦٦ هـ ) وليس لأبيه المقتنى ذكر في الديوان ، وليس له في المستنجد نفسه سوى قصيدة ، وكأنه كان بعيداً عنه لعهد وزير الديوان ابن البلدى . حتى إذا ولي المستضىء ( ٥٦٦ - ٥٧٥ هـ ) رأيناه يكثر من مدائحه ، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر ، وظاهرة مهمة تلاحظ في هذه المدائح ، هي أن الشاعر يقترض من بيئة الإمامية الشيعية وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التي يصفون بها أئمتهم ، ويصف بها المستضىء وابنه الناصر ، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بني العباس ، وأقرأ هذا الاستهلال لمدحة لسبط ابن التعاويذى في المستضىء :

لك اللهم بعد الله في الخلق والأمر	وفي يدك المبسوطة النفع والضّر
وطاعتك الإيمان بالله والهدى	وعصيانك الإلحاد في الدين والكفر
ولولاك ما صحّت عقيدة مؤمن	تقى ولم يقبل دعاء ولا نذر
مر الدهر يفعل ما تشاء فإنه	بأمرك يجرى في تصرفه الدهر

والغلو واضح في البيتين الأخيرين ، بل في الأبيات كلها ، حتى ليجعله بصرف الدهر كما يشاء . ويمضى في القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبي وإمام هدى عم عدله الرعية ، وقد نطقت بفضل آى الذكر الحكيم بقصد قوله تعالى : ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ) . ودائماً يردّد في مدائحه له أنه جار على سنن الرسول ﷺ ، وأن مديحه له سيعدّ يوم القيامة من حسناته . ويخطو الشاعر في مديحه للناصر خطوات أكثر غلواً على شاكلة قوله :

أنت الإمام المهديُّ ليس لنا  
يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومن  
ومنَ له الليلُ والنهارُ وما  
والبرُّ والبحرُ والشواهُقُ والدُّ  
إمامٌ حقٌّ سِواكَ يُنتظَرُ  
في يده النَّعْمُ بعدُ والضَّررُ  
كراً عليه والشمسُ والقمرُ  
عُرُّ العِوَادِي والنَّجْمُ والشَّجَرُ

ولو لم نعرف اسم الممدوح لظنناه إماماً شيعياً فهو المهدي الذي تنتظره الشيعة لينقذ العالم من مفاسده وشروبه ، وهو صاحب العصر والزمان الذي يجتنب عن الأعين ومع ذلك يرمى أمور رعيته ويدبر شئونها ، بل إنه ليدير الكون كله بلبه ونهاره وأفلاكه وكواكبه وأرضه وسمائه وبره وبحره . وعلى نحو ما يضيف الشيعة إلى أئمتهم العلم وأنهم خزنته وذخائره كذلك يكرر الشاعر بأن العباسيين علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى ، ولا يملُّ من تكرار نشرهم للعدل . وكان الشيعة يرددون أن أئمتهم حجج الله في أرضه على عبادته ، ويقبض الشاعر هذه الفكرة في مدحه للناصر قائلاً :

حُجَّةُ اللَّهِ أَنْتَ وَالسَّبَبُ الْمَمَّ - دَوْدُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ

ولعل في ذلك كله ما يدل على أن من الخطأ أن يُسلِّك سَيْطُ ابنِ التعاويذِي بين شعراء الشيعة كما ظن بعض المعاصرين ، فهو شاعر عباسي ، متعصب لخلفاء بني العباس أشد التعصب ، ولذلك أمثلة كثيرة في شعره ، وهو يقرر دائماً أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، ولذلك كنت أشك في أنه نظم مرثية الحسين .

أرقتُ لِلْمَعْرِيقِ حَاجِرِيَّ تَأَلَّقَ كَالْيَمَانِي الْمَشْرِفِيَّ  
ويغلب أن تكون المرثية أضيفت إلى الديوان في زمن مبكر .

وحيث كاد العماد الأصبهاني يعمل في دواوين الخلافة ببيغداد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة ، فلما بارح العماد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يرأسله ، ويقول يا قوت إن العماد ذكر في ترجمته بعض ما كان بينها من مراسلات ، وفي ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العماد يطلب منه قُرُوءة . ويبدو أن العماد عمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضي من جهة ثانية ، وفي ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتي ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأه عليها مكافآت سنوية ، لعل أهمها النونية ، وفيها يقول :

قَادَ الْجِيَادَ مَعَاقِلًا وَإِنْ أَكْتَفَى بِمَعَاقِلٍ مِنْ رَأْيِهِ وَحِصُونِ  
سَهَرَتْ جَفُونُ عِدَاهُ خَيْفَةً مَاجِدٍ خُلِقَتْ صَوَارِمُهُ بِغَيْرِ جَفُونِ

لو أن لَيْثَ الهَزْبِ سَطَاهُ لم يَلْجَأْ إلى غَابٍ له وَعَرِينِ  
وَعَزَلَه في مَفْتَحِ هَذِهِ المَدْحَةِ رَائِعٌ ، وَلَه في القَاضِي الفَاضِلِ ثَلَاثَ مَدَائِحِ أروَعِهَا رَائِيَةٌ  
يَشْكُو فِيهَا فُقِدَ بَصَرُهُ شَكْوَى مَرَّةً ، إِذ يَقُولُ :

نَاءٍ عَنِ الأَحْيَاءِ فِي بَرْزَخٍ مَنقَطَعٍ مِنْ بَيْنِهِمْ ذِكْرِي  
لَيْلٌ حِجَابٍ لَا أَرَى فَجْرَهُ يَا مَنْ رَأَى لَيْلًا بَلَا فِجْرٍ  
وَفِي الحَقِّ أَنَّهُ كَانَ شَاعِرًا بَارِعًا ، وَقَدْ وَفَّاهُ ابنُ خَلْكَانٍ حَقَّهُ مِنَ الثَّنَاءِ ، وَنَحَسَ  
عِنْدَهُ كَأَنَّ نَبْعًا سَائِعًا شَرَابَهُ يَتَدَقَّقُ عَذْبًا عَذْوِيَّةً حُلْوَةً .

### صَفِيَّ الدِّينِ الحَلِّيِّ (١)

هُوَ عَبدُ العَزِيزِ بنِ سَرايَا الحَلِّيِّ الطَّائِي ، وَلَدَ بِالحِجَّةِ القَرِيبَةِ مِنَ الكُوفَةِ سَنَةَ ٦٧٧ لِأَسْرَةِ  
عَلَى شَيْءٍ مِنَ اليَسَارِ وَسَعَةِ الحَالِ ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَن تُلَحِّقَهُ بِكُتَابِ يَتَعَلَّمُ فِيهَا القِرَاءَةَ وَحِفْظَ  
القُرْآنِ الكَرِيمِ وَبَعْضِ الأَشْعَارِ . وَكَانَ العِلْمَانُ مِنَ لِدَاتِهِ يَتَدَرَّبُونَ عَلَى رُكُوبِ الخَيْلِ  
فَحَاكَاهُمْ فِي هَذَا التَّدْرِبِ . وَأَحْسَنَ فِي نَفْسِهِ مِيلًا شَدِيدًا إِلَى الشَّعْرِ ، فَأَكْبَرَ عَلَى حِفْظِ  
نُصُوصِ العَبَّاسِيَّةِ وَالإِسْلَامِيَّةِ وَالجَاهِلِيَّةِ ، مِمَّا جَعَلَهُ فِيهَا بَعْدَ يُعْنَى بِتَضَمِينِ كَثِيرٍ مِنَ هَذِهِ النُّصُوصِ  
فِي شِعْرِهِ وَبَعْضِ مَوْشِحَاتِهِ . وَيَبْدُو أَن مَوْهَبَتَهُ الشَّعْرِيَّةَ اسْتَيْقِظَتْ فِيهِ مَبْكَرَةً ، إِذ يَقُولُ فِي  
المَقْدِمَةِ الَّتِي صَنَعَهَا لِديوانِهِ : « إِنِّي كُنْتُ قَبْلَ أَنْ أَشْبَّ عَنِ الطُّوقِ ، وَأَعْلَمُ مَا دَوَاعِي  
الشُّوقِ ، لَهْجًا بِالشَّعْرِ نَظْمًا وَحِفْظًا ، مُتَقَنًّا عُلُومَهُ مَعْنَى وَلَفْظًا » . وَهُوَ يَقْصِدُ بِالعُلُومِ عِلْمَ  
العَرَبِيَّةِ وَعِلْمَ البَيَانِ وَالمَعَانِي وَالبَدِيعِ ، وَنَرَاهُ فِيهَا بَعْدَ يُؤَلَّفُ فِي الجِنَاسِ كِتَابًا سَمَاهُ « الدَّر  
النَّفِيسِ فِي أَجْنَاسِ التَّجْنِيسِ » . وَمَرَّبْنَا فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ أَنَّهُ أَلَّفَ قَصِيدَةَ بَدِيعِيَّةً هِيَ  
مَدْحَةٌ نَبْوِيَّةٌ تَضُمُّ آيَاتَهَا نَحْوَ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ مَحْسِنًا مِنْ مَحْسِنَاتِ البَدِيعِ . وَمِنْ مَوْأَلَفَاتِهِ كِتَابُ  
الأَوْزَانِ المُسْتَحْدَثَةِ مِثْلَ الدُّوَيْتِ وَغَيْرِهِ ، وَأَيْضًا كِتَابُ العَاطِلِ الحَالِي ، وَهُوَ - كَمَا مَرَّ  
بِنَا - فِي فَنُونِ الأَشْعَارِ العَامِيَّةِ . وَيُصْرِحُ فِي مَقْدِمَةِ دِيوانِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْكَرْ فِي بَدءِ حَيَاتِهِ أَنْ يَمْدَحَ  
أَحَدًا أَوْ يَهْجُو أَحَدًا ، بَلْ لَقَدْ كَانَ يَرَى أَن يَتَعَدَّ بِأشْعَارِهِ عَنِ هَذَيْنِ الجَدُولَيْنِ ، وَجَعَلَهُ  
ذَلِكَ لَا يَنْظُمُ إِلَّا فِي مَوْضُوعَيْنِ هُمَا مَدْحُ الرُّسُولِ ﷺ وَآلِهِ ، وَالفَخْرُ بِآبَائِهِ . وَلَمْ يَكِدْ

(١) انظر في ترجمة صفي الدين الدرر الكامنة لابن حجر ٤٧٩/٢ وفوات الوفيات لابن شاعر الكوفي ٥٧٩/١ والبير الطالع للشوكاني ٣٥٨/١ والنجم الزاهرة ٢٣٨/١٠ وكتاب شعر صفي الدين الحلبي للدكتور جواد  
احمد علوش (طبع بغداد). وديوانه طبع في القرن  
الماضي طبعتين : طبعة في دمشق وطبعة في بيروت وكلتاها  
مليئة بالأخطاء وفي دار الكتب المصرية منه أربع  
مخطوطات

يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاظمت الحزازات والثارات بين عشيرته وأسرته وبعض الأسر أو العشائر في الحجة ، وقُتل خاله ، وبكاه في غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له ، فنشبت معارك وسفكت دماء . وهاله أن يرى ذلك تحت بصره ، فلم تدخل سنة سبعمائة حتى خرج عن الحجة ، ولم يكتف بالبعد عنها في بغداد ، فقد أبعده في ارتحاله حتى نزل عند ملوك ماردين في الموصل من آل أرتق أصحابها وأحسن لقاءه واستقبله ملكها المنصور نجم الدين غازي بن أرتق ، وهو يشيد به وبعطاياه وعطايا ابنه الملك الصالح في مقدمته للديوان ، وفي استقبال المنصور له يقول :

لَا قَيْتَنَا مَلَقَى الْكَرِيمِ لَضِيْفِهِ      وَصَمَمْتَنَا ضَمَّ الْكَمَى لِسَيْفِهِ

وقد أنزله في دار فخمة نوه بها في شعره ، وظل يصحبه في حله وترحاله ونزهاته ، وفيه نظم مدائح كثيرة في الأعياد وفي بعض انتصاراته . ولم يكتف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلاً سماه « دُرر النُحور في مدائح الملك المنصور » وهو ملحق بديوانه المطبوع في دمشق ، ويحتوى على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها على حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين ، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين ، وأن يبدأ في كل بيت منها ، ويختتمه بنفس الحرف ، وفي إحداها يقول :

رَبُّ النَّوَالِ وَمَحْمُودُ الْخِصَالِ وَمَقْدُ      سِدَامُ النَّزَالِ وَأَمْنُ الْخَائِفِ الْحَذِرِ  
رَاعَى الْأَنَامَ بَعِينٍ غَيْرِ رَاقِدَةٍ      قَدْ وُكِّلَتْ فِي أُمُورِ الْمَلِكِ بِالسَّهْرِ  
رَاضٍ مَعَ السَّخَطِ يُبْدِي عَزْمَ مَنْتَقِمٍ      لِلْمَذْنِبِينَ وَيَعْفُو عَقْوَ مَقْتَدِرِ  
رَاحَاتُهُ مُذْنَشَأَى الْمَلِكِ قَدْ عَاهَدَتْ      يَوْمَ النَّدَى وَالرَّدَى بِالنَّفْعِ وَالضَّرْرِ

ولا ريب في أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد ، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمي الذي يراد به إظهار المهارة اللغوية . ويتوفى الملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له منزلته ، ويظل له راتبه الذي كان يأخذه في عهد أبيه ، ويصحبه في نزهاته وخروجه للصيد ، ويتخذة أنيساً له في مجالس شرابه . ونراه في أواخر العقد الثاني من هذا القرن الثامن وقد مرَّ به نحو عشرين عاماً في ظلال الدولة الأرتقية يفكر في زيارة الشام بحجة رغبته في التجارة ، وكانت تجارته الدارة شعره ، فنزل بحجة ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل ، وفي أثناء مقامه عندهما يُرسل بمدائح إلى الملك الصالح . ويفكر في قضاء فريضة الحج ، ويحج إلى بيت الله الحرام في سنة ٧٢٣ ويزور قبر الرسول ﷺ ، ويفكر في العودة ولا يعود إلى الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد ، إذ يتجه إلى القاهرة وينزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون ،

ويستقبله أدياء مصر استقبالاً حافلاً ، ويمدح الناصر بقصيدتين ، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً ، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا اللابساتُ من الحريرِ جلابيا  
واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوى على ثقته بنفسه ، وقد أظهر في معارضته براعة فائقة ، وهو يستهل معارضته بقوله :

أَسْبَلَنَ من فوقِ التُّهُودِ ذَوَاتِبا فجعلن حَبَاتِ القلوبِ ذَوَاتِبا  
والجناس في كلمتي ذواتب بديع ، فالأولى بمعنى الضفائر ، والثانية من الذوبان ، والجناس كثير في شعره ، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائغاً . ويمضى في مديح الناصر قائلاً :

الناصرُ الملكُ الذي خضعتُ له صيدُ الملوكِ مشارقاً ومغاربا  
لم تَحُلْ أرضٌ من نَناه وإنْ خلتُ من ذكره مُلِكتُ قَنَّا وقَوَاصِبا  
تُرَجِّي مواهبه وُزُهْبُ بَطْشُهُ مثل الزمانِ مسالما ومحاربا  
فإذا سَطَا مَلَأَ القلوبَ مهابَةً وإذا سَخَا مَلَأَ العيونَ مواهباً  
ولم يفتتح القصيدة الثانية بالنسيب أو الغزل . وكأنما سحر الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملاً عينيه وقلبه ، فرأى أن يعدل عن النسيب إلى وصف الجمال الهاجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله :

خَلَعَ الرَّبيعُ على غُصُونِ البانِ حُللاً فَوَاضِلُها على الكُتبانِ  
والظَّلُّ يَسْرِقُ في الخِمالِ خَطْوَهُ والغُصْنُ يَحْطِرُ خَطَرَةَ النَّشْوَانِ  
وكأما الأغصانُ سوقُ رواقصِ قد قَيَّدتْ بسلاسلِ الرَّيحانِ  
والشمسُ تنظرُ من خلالِ فُروعِها نحو الحدائقِ نظرةَ الغَيرانِ  
والطَّلُعُ في حَلَلِ الكِيامِ كأنه حُلٌّ تَفْتَقُ عن نُحورِ غواني

وصفى الدين يحيل الطبيعة المصرية نشوى بما يترأى له فيها من غناء ورقص وغوان وجمال فاتن يأخذ بالألباب . ويمضى محفوظاً بهذا الجمال من كل جانب ، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله :

ملكٌ إذا اكتحلَ الملوكُ بنوره خروا لهيبته إلى الأذقانِ  
شاهدته فشهدتُ القمانَ الحجِي ونظرتُ كسرى العَدَلِ في الإيوانِ  
وإني وقد عاد السباحُ وأهلُهُ مؤتى فكان له المسيحُ الثاني  
لا عيبَ في نِعْماءِ إلا أنَّها يَسْلُو الغربُ بها عن الأوطانِ

ويُشيد بإنعام الناصر عليه في مقدمة ديوانه ، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته في أن يجمع شعره في ديوان ويوبه ويرتبه . ولبيّ صفي الدين رغبة الناصر ، فجمع ديوانه ، وجعله في اثني عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً ، والأبواب في الفخر والحجاسة والمدح والطرديات والإخوانيات والمراثي والغزل والخمريات والشكوى والهدايا والألغاز والزهد والهجاء ومعه الملح والأحماض . وكأنما أريد لديوان صفي الدين أن يشيع من مصر ، على نحو ما تطبع في عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية . وفي الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعياً إمامياً ، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته في بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِعَدِيرِ حُمٍّ بين مكة والمدينة ، يقول في مديح علي :

إمامٌ له عَقْدُ يَوْمِ العَدِيرِ بنصِّ النبيِّ وأقوالِهِ  
 وذكرُ صَفِيِّ الدِّينِ لهذا العَهدِ لا يَثْبُتُ أَنَّهُ شِيعِيٌّ إمامِيٌّ ، إذ لا نجد في شعره شيئاً من عقيدة الإمامية ، ومعروف أن الزيدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد ، ونجده في نفس باب مديحه للرسول ولعلي يبرئ نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض ، يقول :  
 ولأني لآلِ المصطفى عَقْدُ مَذْهَبِي وَقَلْبِي مِنْ حُبِّ الصَّابَةِ مُفَعَّمٌ  
 وما أَنَا مِمَّنْ يَسْتَجِيزُ بِحَبِّهِمْ مَسَبَّةَ أَقْوَامٍ عَلَيْهِمْ تَقَدَّمُوا  
 ولكنني أُعْطِيَ الفَرِيقَيْنِ حَقَّهُمْ وَرَبِّي بِحَالِ الأفضليَّةِ أَعْلَمُ  
 والبيتان الثاني والثالث يخرجه من العقيدة الإمامية التي تُضفي على عليٍّ وأبنائه من الأئمة صفات روحية قدسية لا توجد في غيرهم من أفراد الأمة ، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية ، هم حقاً يصححون خلافة أبي بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن علياً أفضل منهما وأنه تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وإذن فصفي الدين لا إمامي ولا زيدي ، ومن قوله :

قيل لي : تعشقت الصحابة طراً أم تفرّدتَ منهمُ بفريقِ  
 فألي من تَمِيلُ ؟ قلتُ إلى الأُرْبَعِ لا سَبِيلُ إلى الفاروقِ  
 ويكنى أن يقول إنه يميل إلى الفاروق عمر أكثر من علي ، ليخرج من كل أبواب التشيع ، أما ورود عهد العَدِيرِ في بعض شعره فلعله قال ذلك عفواً في حديثه ، وخاصة أنه نشأ في الحِلَّةِ ، وهي بيئة قديمة من بيئات التشيع ، وهو نفسه يقول في مقدمة الديوان إن شعره في الرسول وآله نظمه في باكورة حياته .

وفى الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها ، ففيه اثنتا عشرة موشحة وفيه ثلاثة مسمطات وسبعة محمّسات وبعض رباعيات كقوله :

لا تحسب زورة الكرى أجفاني من بعدك من شواهد السلوان  
ما أرسلت الرقاد إلا شركاً تصطاد به شوارد الغزلان

وتكثر فى شعره المحسنات البديعية ، وخاصة الجناس بجميع صوره الممكنة ، ومر بنا أن له كتاباً مستقلاً فيه ، وفى شعره كل ألوانه : التام والناقص والمقلوب والملفلح ، وله قصيدة بنى كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل :

سَلْ سَلْسَلِ الرِّيقِ لِمَ لَمْ يَرَوْ حَرَّ ظَا بِلْ بَلْبَلِ الْقَلْبِ لِمَا زَادَ آلَامَا

وواضح أن حرفى « سَلْ » كرر ثلاث مرات فى الشطر الأول وكرّر حرفا « بِل » فى الشطر الثانى ثلاث مرات . وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامى الشطرين فى قصيدة على هذه الصورة :

شَدِيدُ الْبَاسِ ذُو أَمْرِ مَطَاعٍ مُضَارِبُ كُلِّ قَرَمٍ أَوْ مَطَاعِنُ

ومضى فى القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة فى آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف . وأكثر من التضمن فى قصائده ، بحيث يصبح له فى القصيدة شطر ولبعض السابقين من مثل امرئ القيس والمتنبى وغيرهما شطران . وليس هذا فحسب فقد تبع الحريرى فى نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة . وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول ، وله قصيدة كل كلماتها مصغرة ، إلى غير ذلك من هذه الترميزات الهندسية التى لا تحوى شعراً ، وإنما تحوى مهارات لغوية . وصفى الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريعها لشعراء العراق بعده كى تحمد شاعريتهم وتجف ينابيعها ، مع أن ملكاته الشعرية كانت من الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يجيده لأضاف إضافات رائعة إلى الشعر العربى .

## ٤

### شعراء المراثى والهجاء والشكوى

لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما وجد شاعر من الشعراء ، وخاصة شعراء المديح ، إلا وقد نظم مراثى مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار ممدوحيه أو من أهله أو من أصدقائه ، ونكتفى



بالإشارة إلى بعض المراثى البديعة ، فمن ذلك مرثية أبي الحسن محمد بن عمر الأنباري الصوفي الواعظ لصديقه الوزير ابن بقية حين قتله عضد الدولة البويهى وصلبه في بغداد لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله (١) :

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لِحَقِّ أَنْتِ إِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ  
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَقُوْدُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ  
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيْبًا وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ  
مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً كَمَدَّهَا إِلَيْهِمْ بِالْهَيْبَاتِ

ويشبهه صلبه بصلب زيد بن علي زين العابدين في أواخر العصر الأموي ، ويتصور الجذع المصلوب إليه كأنه يعانق المكرمات ، ويظن كأن الكوارث التي طالما رَدَّها عن الناس تأثرت لنفسها منه ، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم عملاه جعلوا الجوقبره كما جعلوا أكفانه غبار الرياح ، ويستنزل عليه أويستمطر شآبيب الرحمة والرضوان . ويكثر في العصر رثاء الشعراء ، وفي مقدمتهم المتنبى ، وفي كتاب الدمية للباخرزي مرثى مختلفة له ، ومن رثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطَّبَّسي ، وفيه يقول (٢) :

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ  
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ الْمُتَنَبِّئِ أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِيَكْرَ الزَّمَانِ  
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْدٍ شَيْءٍ وَفِي كِبْرِيَاءِ ذِي سُلْطَانِ  
هُوَ فِي شَعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

وكان الشريف الرضي يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء ، وقد رثى أبا إسحق الصائبي بقصيدته الدالية مفتتحا لها بقوله :

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي  
وَعَابَتِ النَّاسَ فِي ذَلِكَ لِكَوْنِهِ شَرِيفًا مِنْ سَلَالَةِ الرَّسُولِ وَرَثَى صَابِنًا ، فَقَالَ : إِنَّمَا رَثَيْتُ  
فَضْلَهُ . وَتَوَفَّى الرَّضِي فِرْنَاهُ مَهْيَارَ بِلَامِيَّةٍ تَأْتِرُ فِي مَطْلَعِهَا بِمَطْلَعِ دَالِيَّتِهِ آفَةِ الذِّكْرِ إِذْ يَقُولُ :

حَمَلُوكَ لَوْ عَلِمُوا مِنَ الْمَحْمُولِ فَارْتَاضَ مَعْتَاصٌ وَخَفَّ تَقِيلٌ

وهذا باب يطول . ونكتني بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكم إلا وأكثر الشعراء من رثائه . وأهم من هذه المراثى لأشخاص رثاه بغداد حين اكتسحها التتار وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكاهها الشعراء بكاء حاراً ، بكوا أهلها الذين سُفِكَتْ

(١) انظر النجوم الزاهرة ١٣٠/٤ وابن خلكان (٢) ابن خلكان ١٢٤/١ وانظر الدمية ١٠٥/١ ،

دماؤهم وقتلوا تقتيلا ، وبكوا تاريخها ومدنيتها وما كان بها من علوم وعلماء ، وقد أشرنا في الفصل الأول إلى مرثية الشيخ تقي الدين التنوخي لها ، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفي الواعظ المتوفى سنة ٦٧٥ واحتفظ ابن شاكرفي كتابه فوات الوفيات بطائفة من مرثيته في ترجمته للخليفة المستعصم ، وفي إحداها يقول (١) :

أين الذين عهدتهم ولعزهم ذللاً تخرُّ معاقدُ التَّيجانِ  
كانوا نجوم من اقتدى فعلهم يبكي الهدى وشعائرُ الإيمانِ  
لما رأيتُ الدارَ بعد فراقهم أضحتْ معطلةً من السكَّانِ  
مازلتُ أبكيهم وألثمُ وحشةً لجالهم مُستهدِم الأركانِ

وكان لهذه النكبة صداها المدوي في جميع البلدان العربية وفي إيران ، حتى لنرى الشيخ سعدى الشيرازي وغيره من شعرائها يندبونها ندباً كله لوعة وحسرة على ما أصابها من دمار ونكال .

ولعل الهجاء كان أكثر ذبوعاً وانتشاراً من الرثاء ، ومرّبنا أن المتنبي هجا كثيراً الأعاجم كما هجا كافوراً الإخشيدى ، وتلقانا في البيّمة والدمية والخريدة أهاج كثيرة ، بل يلقانا شعراء وقفوا حياتهم أو كادوا على الهجاء مثل محمد بن محمد بن جعفر البصرى المعروف باسم ابن (٢) لنكك المتوفى سنة ٣٦٠ وكان قد قصّره جهده عن بلوغ الغاية أو المنزلة التي يأملها لنفسه ، فسلّ لسانه على معاصره من الشعراء حتى المتنبي فإنه هجاه ، وهو الذى زعم أنه ابن سقّاء بالكوفة ، كما لاحظ ياقوت في ترجمته له . وكان يتهاجى مع شاعر معاصر له يسمى أبارياش ، وفيه يقول :

على القُبْحِ الفُطَيْحِ أبو رياشٍ يُعاشِرنا بأخلاقٍ ملاحٍ  
يُبِيحُ أكفنا أبداً قفاهُ فَنصْفَعُه على جهة المراحِ

وهما من أنظف ما قال فيه ، وكأنه كان يريد أن يتشفّى من الزمن بهجوه وهجو غيره من الشعراء لكساد شعره وهوان شأنه على الناس . ومن كبار الهجائين في العصر ابن الهبّارية المتوفى سنة ٥٠٤ وسنترجم له في غير هذا الموضوع ، وقد ذكر العماد في الخريدة أن له قصيدة (٣) في هجو أرباب الدولة في عهد ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ - ٤٨٥) وساق منها قطعتين طويلتين ، وفيهم يقول :

(١) فوات الوفيات ١/ ٥٠٠ . وفوات الوفيات ١/ ٥٤١ وشعر ابن لنكك البصرى بتحقيق

(٢) انظر في ابن لنكك البيّمة ٣٤٨/٢ وتاريخ بغداد زهير غازى زاهد (طبع البصرة)

(٣) ومعجم الأدباء ٧٨/٧ والوفى بالوفيات ١/ ١٥٦ (٣) الخريدة (قسم العراق) ١/ ٢٨١ .

لى ماتم من سوء فعلهم ولهم بحسن مدائى عرس  
ولقد غرست المدح عندهم طمعا فحفظ ذلك العرس

ويمضى فى ثلهم واحداً واحداً أقبح ثلب وأشنع . وعلى شاكلة هذه القصيدة  
سنية<sup>(١)</sup> للشريف أبى نزار عبد الله بن محمد الكوفى ذم فيها سادات بنى عمه من الكوفة  
والحيلة . ومربنا تعرض سبط ابن التعاوىذى للوزير ابن البلدى ، وفيه يقول ابن لنكك :  
يبدو لراجيه على وجهه غلظة ليث بالشرى مخدر<sup>(٢)</sup>  
لو أنها بالأرض ما أخصبت أو بالسحاب الجون لم يمطر  
وفى ديوان صنى الدين الحلى باب للهجاء كما أسلفنا ، وإنما تمثل فقط ببعض  
النصوص .

وطبيعى أن تكثر فى العصر الشكوى من الزمان ، ونكاد نلتقى بها بعد المتنبى على  
لسان كل شاعر ، ولا يختلف اثنان فى أن أروع قصيدة فى الشكوى من الدهر وتصاريفه  
قيلت فى العصر قصيدة أبى محمد<sup>(٣)</sup> على بن زريق الكاتب الكوفى وهو من شعراء  
اليتيمة ، ويقال إنه ألت به أيام عسيرة ، فرأى الارتحال إلى الغرب ، وارتحل تاركاً وراءه  
فى بغداد زوجة كان صباً بها مغرماً ، غير أن الأيام لم تسعفه ، وبيالغ بعض الرواة  
فيزعمون أنه ظل راحلاً حتى وصل إلى الأندلس وامتدح أحد أمرائها ، فلم يعطه ماكان  
يتمناه ، فبكى أمله الضائع فى هذه القصيدة ، وفيها يقول مخاطباً زوجته وبأكياً نفسه :  
لا تعذليه فإن العذل يؤلعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه  
فاستعملى الرفق فى تانيه بدلاً من عنقه فهو مضمنى القلب موجعه  
تأبى المطالب إلا أن تكلفه للرزق سعياً ولكن ليس يجمعه  
والحرص فى المرء والأرزاق قد قسمت - بغي ألا إن بغي المرء يصرعه  
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه  
ويصور فى القصيدة لوعة الفراق وسوء الحظ وأنه لا يزال فى حل وترحال وراء  
الرزق ، وهو يلتمس له كسراب يحسبه الظمان ماء ، حتى إذا انتهى إليه لم يجده شيئاً .  
والقصيدة كلها شكوى وأنين ولوعة ممضة . وستقف قليلاً عند شاعرين من شعراء الهجاء ،  
أحدهما من شعراء اليتيمة والثانى من شعراء الخريدة ، وهما السرى الرقاء الموصلى وابن  
القطان البغدادى .

(٣) انظر فى ابن زريق اليتيمة ٣٧٦/٢ وابن خلكان

(١) الخريدة ٢٦٢/١/٤ .

(٢) الشرى : الغيل . مخدر : فى خدره أو غيله . ٣٣٨/٥ ويسميه محمداً ، وراجع بروكلمان ٦٦/٢ .

## السرى (١) الرفاء

هو أبو الحسن السرى بن أحمد الكندى الموصلى ، وُلد لأسرة متواضعة ، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبياً للرفائين ، فكان يرفو ويطرز ، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة في صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر ، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رفاءً في باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويجيده . ويبدو أنه أخذ يُكَبَّ على دواوين الشعراء ، وخاصة شعراء العصر العباسى المشهورين من أمثال أبي تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومى والمتنبى ، يدل على ذلك بوضوح الفصل الذى عقده الثعالبي لسرقاته . وكأنه أحسَّ أنه إنما خُلِقَ لكي يكون شاعراً لا لكي يكون رفاءً ، ولم تكن حرفته تدرُّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

قد كانت الإبرة فيما مضى صائنةً وجْهِي وأشعاري  
فأصبح الرزقُ بها ضيقاً كأنه من نُقبها جارِي

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرّفو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر ، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شعر كُشاجم ، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً ، ويعيش بما يأخذ من أجرة نسّخه .

وكان معه في الموصل فتیان أخوان ينظان الشعر ويجيدانه ، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة ، وكانا يحسنان الشعر ، فرأى أن يكيد لهما بإضافة أجود ما ينظانه إلى ديوان كُشاجم ، ليزيد حجمه ويثُق سوقه من جهة ، وليشعَّ عليها بأنها يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية ، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما ، وظلت لا تخمد أبداً . ويسمع بما ينثره سيف الدولة الحمدانى في حلب من عطايا وأموال على الشعراء ، فيشدُّ رحاله إليه ، وقد أكرم وفادته عليه ، فأقام بحضرته ، فاشتهر وطلع سعده بعد الأقول ، وبعدَ صيته بعد الخمول ، وله فيه مدائح بديعة كقوله في تصوير فرار الروم بين يديه ومقتلته فيهم مقتلة عظيمة :

تركهم بين مصوغ ترائيه من الدماء ومخضوب ذوائيه  
فحائدٌ وشهابُ الرُمحِ لاحقه وهاربٌ وذبابُ السيفِ طالبه

ذباب السيف : طرفه الحاد . ولما توفى سيف الدولة انتقل السرى إلى بغداد ومدح

(١) انظر في ترجمة السرى الرفاء اليتيمة ١١٧/٢ الأديباء ١١/١٨٢ وابن خلكان ٢/٣٥٩ والنجوم الزاهرة وتاريخ بغداد ٩/١٩٤ والأنساب للسمعاني ٢٥٥ ومعجم ٤/٦٧ وديوانه مطبوع بالقاهرة .

الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسنت حاله ، إذ نفق شعره وراج وسار في الآفاق ،  
وتهاداه الأدباء في خراسان وسائر البلدان . ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته في  
نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه ، ويذكر من تصانيفه كتاب الديرة وكتاب المحب والمحبوب  
والمشموم والمشروب . وقد أنشد الثعالبي من شعره في اليتيمة نحو ستين صحيفة وزعها على  
سرقاته وما تكرر من معانيه وأهاجيه ومديحه ولهوه ومجونه وربيعياته وأوصافه وغزلياته  
وما يتعنى به من أشعاره . ويسوق له الثعالبي طائفة من أهاجيه في الخالدين مدعياً عليهما  
أنهما يسرقان أشعاره ، من ذلك قوله :

أفئ كل يومٍ للغيبين غارةً      ترؤع ألفاظي المحجّلة الغرّاً  
فمهلاً أبا عثمان مهلاً فإنما      يغار على الأشعار من عشيق الشعرا  
لأطفأتما تلك النجوم بأسرهما      ودنستما تلك المطارف والأزرا  
فويحكما هلاً بشطر قنعتما      وأبقيتما لي من محاسنه شطرا

ويكثر من اتهام الخالدين بتلك السرقة ، ويردد ذلك في مدائحه وأنهما يبيعان أشعاره  
في العراق ، وليتها يبيعانها لمن يستحقها ، فإنها يبيعانها بثمان بنحس لكل من لقياه ، غير  
مقدرين لقيمتها ، ولا واعيين لقدرها ، ويزعم أن غارتها على شعره غارة عامة للمديح  
وغير المديح ، يقول :

ذئبان لو ظفرا بالشعر في حرمٍ      لمزقاه بأنيابٍ وأظفارٍ  
باعا عرائس شعري بالعراق فلا      تبعذ سباياه من عونٍ وأبكارٍ  
وما رأى الناس سبياً مثل سببها      بيعت نفيسته ظلماً بدينارٍ  
والله ما مدحا حياً ولا رثياً      ميتاً ولا افتخرا إلا بأشعارى

ولا يزال يصف هذا السبى الشعري من عون أو ثيبات وأبكار ، وكيف أن من هذا  
السبى جرحى لم تضرب بحد سيف ، وأسرى لم تحمل على ظهور خيل . ويبكى تعبته في  
نظم أشعاره ويشبهها بالرياض ويصور إشفاقها على أنفسها من هذين اللصين وسيوفها  
التي تفتك بها فتكاً ذريعاً . ويعقد الثعالبي فصلاً لأهاجيه لابن العصب الملحى الشاعر  
وكان يتعصب للخالدين عليه ، وهو في هجائه له يقذف إقذاً شديداً زاعماً مشاهدة  
أهل الرّيب في منزله بين اللهو والخمر والقصف ، وكأنه لا يعيش في منزل إنما يعيش في  
حانة ، يقول في وصف دعوة دعاه فيها ساخراً :

وطاف الشيخ بالذنّ إلى أن زف الدنا  
فأذنى كدر العيش بها لا كان ما أذنى

مُدَامٌ تَجْلِبُ الِهْمُّ وَلَا تَطْرُدُهُ عَنَّا  
فَلَا النَّفْسُ بِهَا سَرَّتْ وَلَا الْقَلْبُ لَهَا حَنَّا

وهي سخريه قاتلة من الشيخ ، ولم نسق ما أضافه إلى الخمر من التبذل والتهتك واطراح الحشمة في صراحة ، لأن الهجاء بذلك يتحول سباً يؤذى النفوس . وفي رأينا أن هجاءه ينزل درجات عن بقية فنونه الشعرية ، وخاصة في فني المديح والغزل ، وكان يتغنى بشعره في بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً :

بِنَفْسِي مَنُ أَجُودُ لَهُ بِنَفْسِي وَيَبْخُلُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ  
وَحَتَّى كَامِنٌ فِي مُقْلَتِهِ كُمُونَ المَوْتِ فِي حَدِّ الحَسَامِ

والصورة في البيت الثاني بديعة . ولا يُعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت في بغداد سنة ٣٦٠ وقبل سنة ٣٦٢ وقيل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له في أخريات حياته .

### ابن القَطَّان (١) البغدادي

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان ، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على دراسة الحديث النبوي في نشأته ، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأقتنها ، حتى عدَّ من أطباء بغداد ، وكان كثير النوادير ، وغلب عليه الشعر ، وكان خبيث اللسان هجاء ، كما كان غاية في المجون والخلاعة وكثرة المزاح والدعابة ، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال الدولة ، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره ، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضي القضاة الزينبي بقصيدة كافية أولها :

يَا أَخِي الشَّرْطُ أَمَلِكُ لَسْتُ لِلسُّلْبِ أَثْرُكُ

وهي طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً ، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها الألسنة ، فبلغ ذلك القاضي الزينبي ، فأحضر ابن القطان وصفعه وحبسه مدة ، ثم ردَّ إليه حريته . وكان يعرف كيف يمزح في هجائه وخز الإبر ، من مثل قوله في الوزير أنوشروان ذاماً له بالتواضع :

هَذَا تَوَاضَعْتُكَ المَشْهُورُ عَنْ ضَعْفِ  
قَعَدْتُ عَنْ أَمَلِ الرَّاجِي وَقَمْتُ لَهُ  
فَصَرْتُ مِنْ أَجْلِهِ بِالْكَبِيرِ تَتَهَمُ  
فَذَا وَثُوبٌ عَلَى الطَّلَّابِ لَا لَهُمُ

(١) انظر في ترجمة ابن القطان المنتظم ٢٠٧/١٠ و١٨٩/٦ ومرآة الجنان ٣/٣١٥ والخريدة (قسم العراق)

٢٧٠ / ٢ وفوات الوفيات ٢ / ٦١٧ .

وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٣٨٠ وابن خلكان ٥٣/٦ ولسان الميزان

ويكثر مثل هذا الوخز وما يحمل من سخرية في هجوه ، مما يدل على قدرة حقيقية في الهجاء ، إذ لم يكن يعتمد إلى السب والشتم ، إنما يعتمد إلى سبوم تفتك بمن تسلط عليه كقوله في ابن المرخّم قاضي القضاة ببغداد :

يا ابن المرخّم صرتَ فينا قاضياً خَرَفَ الزمانُ تراه أم جُنَّ الفلّكُ  
إن كنتَ تحكّمُ بالنجومِ فربما أماً بشّرِعَ محمدٍ من أين لكُ  
وهو بُعدٌ في الهجاء وهزه ما بعده هزه بقاضي القضاة في عصره . وله قصيدة طويلة في هجاء كتاب الديوان لزمته ، وكان بينهم عباسيون ، فعرض لأحدهم يغمزه في نسبه إلى العباس بن عبد المطلب جدّه ، قائلاً :

نسبٌ إلى العباس ليس نظيرُهُ في الضّعفِ غيرَ الباقلاءِ الأخضرِ  
وضعفِ عودِ الباقلاءِ الأخضرِ معروفٍ . وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهى عنه نفسه ، وله يقول :

وأنتَ تَنهَى الناسَ عن غيبَةٍ في مثلها تَأْمُرُ بالرَّدِّ  
إما بتخويفٍ من النارِ أو بنوعٍ تشويقٍ إلى الخُلْدِ  
وبعدَ ذا تفعلُ بي هكذا زِنهَارُ من سالوسك السردِ  
وهذه العجمةُ مِنْ عندك أقدَ تَبسُّها ما هيَ من عِنْدِي  
ارجعْ إلى اللهِ ودَعني ولا تَرْمِ بِسَهْمِ الطَّيْشِ من بُعدِ  
فهو ينهى الناس عن الغيبة ويعتابه ، مع أنه كثيراً ما يلوح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس ، والشطر الثاني في البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الواعظ الأعجمي ، وكلمة زنهارة كلمة استغاثة بالفارسية . والسالوس السرد : الكلام المعسول البارد . وهو يستغيث بذلك من وعظه ، ويقول له ساخرًا إنما اقتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأنت أعجمي اللسان لا تكاد تفصح في البيان ، ويناديه هازئًا به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك . وتكثر في القصيدة الألفاظ والعبارات الفارسية ، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة . وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخريات لاذعة بمن حوله ، كقوله في وزير كان يستقل وزارته وظلّه :

يا معشر الناسِ النفيرِ النفيرِ قد جلس الهَرْدَبُ فوق السَّرِيرِ  
وصار فينا أماً ناهياً وكنت أرجو أنه لا يصير  
فكلما قلتُ قَدَى يَنْجلى وظلمةُ عما قليلٍ تُبِيرُ

فتحتُ عيني فإذا الدولة الـ سدولةُ والشيخُ الوزيرُ الوزيرُ  
والهرذب : العجوز الغليظ ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة ، وإنه  
ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير ، ويرأها غُمَّةً على صدر الأمة  
لا تنجلي ، ويفتح عينه في كل يوم أو في كل صباح فيراها جاثمة لا تريم . ولعله كان  
يريد القاضي الزينبي الذي زَجَّ به في السجن كما مر بنا ، فإنه تولى الوزارة ، ويقال إنه  
لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس غاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتهنته ،  
فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ، ورقص . فلما رآه الزينبي يرقص أسرَّ  
إلى بعض خواصه : قَبَّحَ الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في  
أمثاله : « ارقص للقرء في زمانه » . وبحق ما قاله الزينبي إذ نراه يقول في هجائه لبعض  
الرؤساء :

كُلُّ من صَفَّقَ الزما نٌ له فِتُّ أرقصُ  
وكان بينه وبين الحَيِّصَ بَيِّصَ الشاعر بُغْضَ ومهاترة ، وكانا يصطلحان وقتاً ثم  
يعودان إلى ما كانا فيه من التناوب والتهاجي تماجنا وتظرفا ودعابة ، فمن ذلك أن الحَيِّصَ  
بَيِّصَ خرج ليلة من دار الوزير الزينبي ، فنبح عليه جَرُّو كلبيةً ، وكان متقلداً سيفاً ،  
فوكزه بعقب السيف ، فأت . وعلم بذلك ابن القطان ، فنظم أبياتاً ، وأضاف إليها  
بيتين من أبيات ديوان الحماسة لأعرابي قتل أخوه ابناً له ، ففدَّم إليه ليثار منه وكان بيده  
سيف ، فألقاه من يده وأنشد البيتين . وكتب ابن القطان الأبيات في ورقة وعلَّقها في  
عنق كلبه لها جِراء ، ورَتَّبَ معها مَنْ طردها هي وجِراءها أو أولادها إلى باب دار  
الوزير كالمستغيثة ، فأخِذت الورقة من عنقها ، وعُرِضت على الوزير ، فإذا فيها :  
يا أهل بغدادَ إن الحَيِّصَ بَيِّصَ أتى      بفعلةً أكسبته الخِزْيَ في البَلَدِ  
هو الجبانُ الذي أبدى شجاعتهُ      على جَرِيٍّ ضعيفِ البَطْشِ والجَلْدِ  
فأنشدتُ أمُّه من بعد ما احتسبتُ :      دَمُ الأَبْيَلِيقِ عند الواحدِ الصَّمدِ  
« أقول للنفس تأساءً وتعزيةً      إحدى يدي أصابتنِي ولم تُردِ  
كلاهما خَلَفُ من فَعَدُ صاحبه      هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي »

وجَلَّبُ ابن القطان البيتين الأخيرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين ،  
فقد بلغ بهما كل ما أراد من سخرية بالحَيِّصِ بَيِّصِ ، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها  
إن أخي الحَيِّصَ بَيِّصَ الذي موقعه مني موقع إحدى يدي جَنَى عليَّ سهواً وخطأً  
لا عمدًا ولا قَصْدًا لسوء ، وإن كلا من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود يعوِّض عن



فقدان صاحبه ، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب ، متسللاً إليه من تضمين البيتين في مقطوعته ، فضلاً عما صورّه به من الجبن والهلع إزاء جرّو مستضعف لا حول له ولا قوة . وكانت في ابن القطان دعاية وميل شديد إلى النادرة ، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره ، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب للأشراف يشتهر ببخله وكان دخوله عليه في يوم حر شديد في شهر رمضان ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال على البديهة : في مطبخ سيدى النقيب أتبرد ، يريد أنه ليس فيه نار ولا طبخ في رمضان ، فضحك الحاضرون وخجل النقيب . وما زال يُطْرَفُ البغداديين بنوادره حتى توفّي عن سن عالية ببغداد في عيد الفطر سنة ٥٥٨

## ٥

### شعراء التشيع

مر بنا في الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية أخذ يعم في العراق منذ فواتح هذا العصر إذ كان البويهيون شيعة إمامية ، فأخذ المذهب ينتشر في عصرهم ، وأخذ أتباعه يتكاثرون ، وتكاثر معهم الشعراء ، ومضوا ينظمون في موضوعين أساسيين هما : مناقب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، متحدثين عن سيرته وانتصاراته على مشركي قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خيبر ، مضيفين إلى ذلك كل ما يروى له من فضائل منذ اعتنق الدين الحنيف وجاهد في سبيله إلى وفاته . أما الموضوع الثاني فهو بكاء الحسين وندبه ، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عاماً في كربلاء وبغداد ، وهياً لذلك أن حاكم بغداد البويهى معز الدولة ألزم الناس - كما أسلفنا - في سنة ٣٥٢ بخلق الأسواق في يوم عاشوراء ، يوم مقتل الحسين ، وأن ينصبوا القباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء ، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمن على الحسين . وأقيم مأتم مماثل في كربلاء . ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام . وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين في أيام أخرى طوال العام ، وإن لم يأخذ ندبهم فيها شكل هذا المأتم الكبير . على كل حال أعدت هذه المأتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسياً في شعر الشيعة الإمامية ، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بكربى مصرعه ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية في العصر ،

إنما حسبنا أن نشير إلى بعض مشاهيرهم ، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطَّفِّ (كربلاء) لجواد شبر المطبوع في بيروت ، ويقرأ فيه الجزء الثاني الخاص بشعراء القرنين الرابع والخامس فسيري كثيرين من شعراء الشيعة الإمامية ، وفي مقدمتهم الزاهي<sup>(١)</sup> الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٦١ وقد أنشد له المؤلف مجموعة من القصائد في بيان مناقب الإمام علي بن أبي طالب ، واستهل إحدى قصائده بقوله :

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الْخَلْقِ بَدْءًا وَآخِرًا وَأَلْقَيْتُ رَحْلِي فِي حِجَاهِمُ مُجَاوِرًا  
أُمَّةً حَقَّ خَاتَمُ الرُّسُلِ جَدُّهُمْ وَوَالِدُهُمْ مِنْ كَانَ لِلْحَقِّ نَاصِرًا

ومضى يذكر الأئمة الاثني عشر واحداً واحداً مشيداً بهم - إلى أن انتهى إلى مهديهم ، وبيكهم ، وبمعي نفسه بظهور المهدي قائم الزمان ، حتى ينشر بين الناس العدل الذي لا تصلح حياتهم بدونه . ويبدو أنه كانت في السريِّ الرفاء نزعة شيعية ، وقد أنشد له صاحب أدب الطَّفِّ قصيدة موجودة في ديوانه يمدح فيها آل البيت وبيكي الحسين قائلاً :

كَأَنَّ أَحْشَاءَنَا مِنْ ذِكْرِهِ أَبَدًا تُطَوِّي عَلَى الْجَمْرِ أَوْ تُحْشَى السَّكَاكِينَا

ومثله أبو بكر محمد الخالدي الموصلی ، ومرَّبنا أنه كانت بينه وبين السريِّ منازعة في الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعياً إمامياً مثله ، فقد ترجم له صاحب أدب الطَّفِّ ، ونرى الثعالبي في اليتيمة ينشد له قطعة في نذب الحسين يقول فيها<sup>(٢)</sup> :

عَفَرْتُمْ بِاللَّيْثِيِّ جَبِينِ فَتَى جَبْرِيلُ بَعْدَ النَّبِيِّ مَاسِحُهُ  
سَيَانَ عِنْدَ الْأَنَامِ كُلَّهُمْ خَاذِلُهُ مِنْكُمْ وَذَاجِحُهُ

وهو يسوي في الإثم بين من خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه ، فجنائيتهم واحدة في رأيه . وكان طبيعياً أن تتكون مع هذا الندب والنواح في بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من النَّاحَةِ ، ينوحون على الحسين في يوم عاشوراء وغيره من الأيام<sup>(٣)</sup> ، واشتهر من بينهم ببغداد حوالي منتصف القرن الرابع الهجري أحمد المزوق ، وكان يجد أكبر

(١) انظر في ترجمة الزاهي اليتيمة ٢٣٣/١ وابن خلكان ٣٧١/٣ والنجوم الزاهرة ٦٣/٤ وتاريخ بغداد ١١/٣٥٠ والمتنظم ٧/٥٩ وأدب الطَّفِّ ٥٠/٢ .  
مرجليوث ١/٢١٩ أن رجلاً يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى خُلب كانا من الناحة على الحسين ، وبما كانا يتوحان به قصيدة لشاعر كوفي أولها :

أَيُّهَا الْعَيْنَانِ فَيضًا وَاسْتَهْلًا لَا تَغِيضَا  
(٢) اليتيمة ٢/١٨٧

(٣) في نشوار المحاضرة للتوحي (طبعة هندية) بتحقيق

مدد لنواجه في شعر الناشئ<sup>(١)</sup> الأصغر على بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦  
ويقول ابن خلكان : هو من الشعراء المحسنين ، وكان متكلماً بارعاً وله في أهل البيت  
قصائد كثيرة ، ويقول ياقوت : « كان يعتقد الإمامية وينظر عليها بأجود عبارة واستنفد  
عمره في مديح أهل البيت حتى عُرف بهم » وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة . وكثير من هذه  
الأشعار كان يناح بها في مساجد بغداد ، ينوح بها أحمد المزوق وغيره ، ويُروى أنه ناح  
يوماً في أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشي الأصغر ، وفيها يقول :

بني أحمدِ قلبي لكم يتقطعُ بمثل مصابي فيكمُ ليس يُسمعُ  
عجبتُ لكم تَفنُّون قتلاً بسيفكم ويسطو عليكم من لكم كان يخضعُ  
كأنَّ رسولَ اللهِ أوصى بقتلكم فأجسامكم في كل أرضٍ توزعُ  
فما بُقِّعَ في الأرضِ شرقاً ومغرباً وليس لكم فيها قتيلٌ ومصرعُ  
وكان الشاعر حاضراً ، فظل يلطم وجهه ، وتبعه النائح والحاضرون يلطمون وجوههم

وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر . وللناشي قصيدة بائنة يدعو فيها  
للأخذ بثأر الحسين كان الناس ينوحون بها في أيامه ببغداد وفي مشهد الحسين بكربلاء ،  
وفيها يقول :

متى تأخذون الثأرَ ممن تآلبوا عليكم وشبوا الحربَ وهى ضروبُ  
شهيدٍ توزَّعنَ الصوارمُ جسمه فخرٌ بأرض الطَّفِّ وهو تريبُ  
قتيلٌ على نهرِ الفراتِ على ظمًا تطوف به الأعداءُ وهو غريبُ  
وأرض الطف : كربلاء . وتريب : معفر بالتراب . والناشي الأصغر يشير إلى سفك دم

الحسين بكربلاء ، ويمضى فيشيد بالأئمة الأولين : على والحسن والحسين الذين حووا - في  
رأيه - علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول :

حووا علمَ ما قد كان أو هو كائنٌ وكلُّ رشادٍ بينغيه طلبُ  
وقد حفظتُ غيبَ العلومِ صدورهم فما الغيبُ عن تلك الصدور يغيبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين ، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن  
التعاويذى ، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين في القرن السادس ، حتى إنه ليخلع عليهم  
صفات أئمة الشيعة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ومع ذلك رأينا له مرثية يائية للحسين ،  
إن صح أنها له كما مر بنا . وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة ،

لعظم المحنة فيه . ولعل فيما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعي في فواتح العصر ، وظل ذلك سارياً طوال حقبه ، وهو جانب يطول عرضه ، ولذلك نكتفي بالحديث عن ثلاثة ، لعل أولهم وثانيهم يعدان أنه شعراء العراق بعد المنتبي ، وهم الشريف الرضي ومهيار وابن أبي الحديد .

### الشريف الرضي <sup>(١)</sup>

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبي أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوي ، كان أبوه أبو أحمد عظيم المنزلة عند خلفاء بني العباس والبهيين ، وتولى نقابة الطالبين مرات ، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات ، وقد وُلد له أولا الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثم وُلد له الشريف الرضي سنة ٣٥٩ ولما شبَّ كانا ينوبان عن أبيهما في النقابة ، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر في المظالم وأمور المساجد والحج بالناس ، وكتب أبو إسحق الصائغ عهداً بذلك . وكانت تربط الشريف الرضي بالخليفة الطائع مودة وثيقة . ويُقبض على الخليفة في سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر ، ويعني والد الشريف الرضي من وظائفه في سنة ٣٨٤ وتُرد إلى الشريف الرضي تلك الوظائف جميعاً سنة ٣٨٨ وأبوه حي .

وقد تتلمذ الشريف لعلماء عصره في بغداد من رجال الشيعة وغيرهم ، مثل أبي علي الفارسي وابن جني والمرزباني في اللغة والنحو ، والقاضي عبد الجبار في الاعتزال ، والشيخ المفيد في الفقه وأصول العقيدة الإمامية . وأكبر الظن أنه لم يترك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه ، بل لقد أُقبل على كتب التفسير السابقة يعبُّ منها ، يدل على ذلك كتابه في التفسير الذي ذكرناه في غير هذا الموضع والذي سماه حقائق التأويل في مشابه التتزيل ، وبالمثل أُقبل على كتب الحديث النبوي ينهلُ منها ، على نحو ما يتضح في كتابه المجازات النبوية . ومعروف أنه هو الذي جمع خطب الإمام علي في الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة ، وعرضنا في كتابنا « العصر الإسلامي » لما داخله من وضع .

ص ٥٧٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣ وراجع فيه عبقرية الشريف الرضي لركي مبارك والشريف الرضي لإحسان عباس . والديوان مطبوع طبعات مختلفة في بىبى والقاهرة وبيروت .

(١) انظر في ترجمة الشريف الرضي البيهية ١٣١/٣ وابن خلكان ٤١٤/٤ والدمية ٢٧٣/١ وتاريخ بغداد ٢٤٦/٢ وإنباء الرواة ١١٤/٣ والمتنظم ٢٧٩/٧ والوافي بالوفيات ٣٧٤/٢ ولسان الميزان ١٤١/٥ والشذرات ١٨٢/٣ ومرة الجنان ١٨/٣ وروضات الجنات

وكان ذكياً ذكاء نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس ، ويروى أنه أحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السيرافي النحوى وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقنه النحو ، وقعد معه يوماً فى حلقة - كما يقول مترجموه - فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « ضرب زيداً عمراً » فاعلامه النصب فى عمرو؟ فقال : بغض على (يشير إلى عمرو بن العاص). فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره . وهو زعيم شعراء العراق فى عصره غير مدفع ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عمره بقليل كما يقول الثعالبي ، ويمضى مشيداً به وبشعره قائلاً : « هو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحلّى مع محنّده الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع المحاسن وافر ، ثم هو أشعر الطالبين : من مضى منهم ومن غير ، ولو قلت إنه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق ، وسيشهد بما أجره من ذكره شاهد عدل من شعره العالى القِدْح ، الممتنع عن القَدْح ، الذى يجمع إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جناها ، ويبعد مداها . » ويقول صاحب الدمية : « أنا إذا مدحته كنت كمن قال للشمس : ما أنورك . . وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه . » وقد توفى ببغداد ودفن فى الكرخ سنة ٤٠٦ وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، ويقال إن رفاته نُقل إلى مشهد الحسين فى كربلاء . ويدل شعر الشريف الرضى على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبى فقد أكبَّ عليه يقرؤه المرة والمرة ، محباً له متعاطفاً معه ، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه ما يستحقه ، وكان المتنبى كما مرّ بنا يريد أن يكون دولة عربية ، والدهر يناهضه ، وكان الرضى يشعر فى أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين ، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر - مثل مديح المتنبى - بالفخر والشكوى من الأيام التى لا تنيله مبتغاه ، حتى ليقول للقادر :

عظفاً أمير المؤمنين فإننا فى دَوْحةِ العُلياء لا ننفركُ  
 ما بيننا يومَ الفَخارِ تفاوتٌ أبداً كِلانا فى المعالى مُعرقُ  
 إلا الخِلافةَ مِيرثكُ فإننى أنا عاطلٌ منها وأنت مطوّقُ

وظل شعوره بأحقيقته فى الخلافة لا يفارقه طوال حياته ، مما جعل أشعاره تُطبع - كما طبعت أشعار المتنبى - بالتدزم من الدهر ، بل بالثورة عليه دون أن يلم به شيء من يأس أو قنوط . وليس هذا ما يجمعه بالمتنبى فقط ، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالفتوة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأنفة والعزة ، ولذلك كان شعرهما من خير ما يُربى به

الشباب ، إذ يدلع في أنفسهم الشعور الطاغى بالقوة وتمثل الأخلاق الرفيعة ، على نحو ما نرى في هذه الأبيات من قصيدة :

لعيز العُلا منى القلبي والتجئبُ  
ولولا العُلا ما كنت في الحبِّ أُرغبُ  
وإن تكُ سنِّي ما تطاول بأعها  
فلى من وراء المجدِّ قلبٌ مدرَّبُ  
وحسبي أني في الأعادي مبعَّضُ  
وأنى إلى عرِّ المعالي محبَّبُ  
وللحلم أوقاتٌ وللجهل مثلها  
ولكنَّ أوقاتي إلى الحلم أقربُ (١)  
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها  
ولا أنطق العوراء والقلب مُعصَّبُ (٢)

وتموج أشعاره بمثل هذا الفخر الذي يُضرم جذوة النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعاً إلى النهوض بجلائل الأعمال . وجامعة ثالثة تجمعه بالمتنبي هي استشعار البادية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربي أصيل ، نفس إحساس المتنبي الذي دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيه ، كذلك صنع صنيعه الرضى ، فهو دائم التغزل بالبدويات ، دائم الافتتان بهن والتغنى بجاهن وحسنهن الطبيعي ، وله في ذلك أشعار بدوية من مثل قوله :

يا ظبيَّة البانِ ترعى في خِماله  
ليهنك اليومَ أنَّ القلبَ مرعاكِ  
الماءُ عندكِ مبدولٌ لشاربه  
وليس يرويك إلا مدمعُ الباكي  
سَهْمٌ أصاب وراميه بذي سلمٍ  
منَ بالعراق لقد أبعدت مرماكِ (٣)  
حكَّ لحاظك ما في الرِّيم من ملحٍ  
يومَ اللقاء فكان الفضلُ للحاكي  
أنتِ النعيمُ لقلبي والجحيمُ له  
فما أمرُك في قلبي وأحلاكِ

وهو نسيب رقيق كنسب العذريين ، بل ربما كان أكثر رقة ، إذ تجرى فيه نغمة من لأسى والحزن واللوعة وكأنما يبتُّ فيه يأسه من آماله في الخلافة ، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللاتي يتعرّفن في شباك هوهن ، دون أن يقطف شيئاً من أزهار حبه . وإنما استطردنا كل هذا الاستطراد في الشريف الرضى ليطلع القارئ على روعة أشعاره ، قبل أن نعرض لراثه جده الحسين ، وفي الديوان مرث كثيرة لأم الرضى وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جنى وأبي إسحق الصائبي ، وله في جده الحسين خمس مرث ، وهو يتسع أحياناً في بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت ، ونكتفي بأن نعرض أهمها في رأينا ، وهي آخر مرثيته لجده ، وأعتقد أنه أراد بها النوح عليه وأن يتشدها الناحة في بغداد وكرّ بلاء ، وهو يستهلها بقوله :

(٣) ذوسلم : موضع بالحجاز . والسلم : شجر من العضاة .

(١) الجهل هنا : الغضب  
(٢) العوراء : الكلمة القبيحة

كَرْبَلَا لَزَلتِ كَرْبَاً وَبَلَا مَا لَقِيَ عِنْدِكَ آلَ الْمُصْطَفَى  
ويصوّر الموقعة وما سال فيها من دماء طاهرة ودموع جارية ، والنساء اللاتي كن مع  
الحسين يمسحن الرمل عن نحره الملطخ بالدماء ، ولم تلبث الوحوش أن طعمت من أشلاء  
القتلى أرجلاً طالما قامت إلى الصلاة وأيماناً طالما رُفِعَتْ إلى السماء ووجوها طالما تَبَتَّتْ إلى  
الله ، ويشد :

يا رسولَ الله لو عايتهم وهم ما بين قتلى وسباً  
لرأت عينك منهم منظراً للِحْشَا شَجْواً وللعين قذى  
ليس هذا لرسول الله يا أمة الطغيان والبغى جزاً  
غارسٌ لم يألُ في العرس لهم فأذاقوا أهله مرَّ الجنّا  
جزروا - جزر الأضحى - نسله ثم ساقوا أهله سوق الإما<sup>(١)</sup>

وهو يصوّر ركب الحسين ، أما الرجال فسفكت دماؤهم الذكية ، وأما النساء  
فسيقوا سيئات محمولات على ظهور الإبل دون مهاد أو كساء يسترحن عليه ، فيا للظلم  
وباللقسوة ، وهن مشعثات الشعور مكشوفات الوجوه والأعناق يهتفن باسم رسول الله ،  
ولا من يُشْفِقُ عليهن أو يرحم . ويقول الرضى : أهكذا يكون جزاء رسول الله في سبطه  
وآله ؟ يَفرَسُ وتُفْتَحُ لدينه الحنيف الأرض ولا يذوق أهله سوى الحنظل ، بل إنهم  
ليُدْبِحُونَ ذبِح الأضحى ، يُدْبِح الرجال ، وتساق النساء سيئات ، ويتجه الرضى إلى جده  
الحسين منشداً :

يا قتيلاً قوّض الدهرُ به عمَدَ الدينِ وأعلامَ الهدى  
قتلوه بعد علم منهم أنه خامسُ أصحابِ الكِساءِ<sup>(٢)</sup>  
مرهقا يدعو ولا عوثَ له بأبٍ برٍّ وجدٍّ مُصْطَفَى  
وبأمّ رفَع اللهُ لها علماً ما بين نِسوانِ الورى  
ميتٌ تبكى له فاطمةٌ وأبوها وعلى ذو العُلاء  
لو رسولُ الله يحيى بعده قعدَ اليومَ عليه لِلْعِزَا

والقصيدة كلها لوعات وأنات على هذا النحو ، وعنى الرضى برصف كلماتها بحيث  
لا تعلق على أفهام العامة ، ولتكون صالحة لكي يردّها الناحة . وجعلت هذه السهولة

(١) الأضحى : ذبائح عيد الأضحى . الإما : الرسول ﷺ ألقى كساء عليه وعلى السيدة فاطمة الزهراء  
الإماء . وعلى وابنيه الحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عترتى وأهل

(٢) يشير إلى حديث ترويه الشيعة الإمامية : يقولون إن بيتي ، وبذلك سمو أصحاب الكساء .

في ألفاظها بعض الباحثين يظن أنها منحولة على الرضى ، وليست من الانتحال في قليل ولا كثير ، إذ هي سهولة مقصودة لتخف على السنة الناحية والناس .

### مهيار<sup>(١)</sup>

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوَيْهِ الدَّيْلَمِيُّ الفَارِسِيُّ الأَصْل ، وُلِدَ عَلَى مَا يَظْهَرُ حِوَالَى سَنَةِ ٣٦٠ لِلهَجْرَةِ وَيُغَلَبُ أَنْ يَكُونَ مِيلَادُهُ بَعْدَهَا بِقَلِيلٍ ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا مَعْلُومَاتٌ دَقِيقَةٌ عَنِ مَسْقَطِ رَأْسِهِ وَنَشَأَتِهِ ، فَهَلْ وُلِدَ بِبَغْدَادٍ وَبِهَا نَشَأَ ، وَكَانَ بِهَا بِمَجُوسٍ كَثِيرِينَ ، أَوْ وُلِدَ فِي بِلَادِ الدَّيْلَمِ ، وَهَاجَرَ مِنْهَا وَحْدَهُ أَوْ مَعَ أَبِيهِ ؟ . وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ وُلِدَ بِبَغْدَادٍ وَتَرَبَّى بِهَا وَتَتَقَفَّ . وَلَا نَعْرِفُ مِنْ كَانُوا أَسَاتِذَتَهُ وَتَخَرَّجَ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ فِيهِ ذِكَاءٌ حَادٌّ جَعَلَهُ يَحْسَنُ الْعَرَبِيَّةَ سَرِيعاً ، وَيُرَوَّى أَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ فِي الْكَرْخِ مُسْتَقَرِّ شِيعَةِ بَغْدَادِ الْإِمَامِيَّةِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَعْطَاهُ الْفُرْصَةَ لِكَيْ يَدْرُسَ عَقِيدَتَهُمْ ، حَتَّى إِذَا أَسْلَمَ انْتَضَمَ فِي سَلْكِهَا .

ونظن ظناً أنه كان يحضر قبل اعتناقه الإسلام دروس رأس الإمامية في زمانه محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وكان يُلقَى دروسه في الكرخ . ويقول بعض مترجميه إنه أسلم على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ ونظن ظناً أن إسلامه يسبق هذه السنة بشهادة كثير من قصائده المؤرخة في ديوانه ، ونراه يذكر فضل أبي العباس الضبي عليه في إرشاده وهدايته إلى الإسلام ، إذ يقول في إحدى مدائحه له :

هو المُتَّقِذِي مِنْ شِرْكَ قَوْمِي وَبَاعَثِي عَلَى الرَّشْدِ أَنْ أَصْفِي هَوَايَ مُحَمَّدَا  
وَأَتْرُكُ بَيْتَ النَّارِ يَبْكِي شَرَاهُ عَلَىَّ دَمَا إِذْ صَارَ بَيْتِي مَسْجِدَا

والمظنون أنه زار أبا العباس الضبي حين كان وزيراً بمدينة الرى . على كل حال من الممكن أن يكون أسلم على يد الشريف الرضى . ولكن ليس من الضروري أن يكون تاريخ إسلامه صحيحاً . ويقال إن الرضى أعانه في أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة ، ولا نعرف متى كان ذلك بالضبط ، وأغلب الظن أن ذلك يسبق إسلامه ، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب الكاتب .

وإذا كنا ترددنا في أن يكون إسلامه على يد الرضى في سنة ٣٩٤ فما لا يقبل شكاً أنه

(١) انظر في ترجمة مهيار تاريخ بغداد ١٣/ ٢٧٦ والزهرة ٥/ ٢٦ والفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة  
والدمية ١/ ٢٨٤ والمتنظم ٨/ ٩٤ وابن خلكان ٥/ ٣٥٩  
وعبر الذهبي ٣/ ١٦٧ والشذرات ٣/ ٢٤٢ والنجوم  
العاشره) ص ٣٥٥ .



هو الذى رعاه أدبيا ، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً ، فضى معه يتقّفه ويدرّبه ، حتى خرّجه شاعراً بارعاً . والرضى بذلك يُعدُّ استاذه الفنى ، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو نسيج بلاحظ من جهتين : جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن والقافية ، وينظم على غراره . وجهة ثانية لعلها أهم هي تمثّل اتجاهاته الشعرية ، ونقصد اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والتزوع إلى التبدى أو النسب والغزل بالبدويات ، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى ، بل يقف حجر عثرة دون أمانيه .

وكان الرضى يفخر بمحتده الشريف وعروبه العريقة ، فماذا يفخر مهيّار؟ لقد اتجه بفخره في بواكير حياته نحو قومه ، وبذلك استحال فخره شعوبياً دميماً ، على نحو ما يلقانا في مثل قوله :

أُعجبتُ بي بين نادى قومها	أم سعدٍ فضتُ تسألُ بى
قومى استولوا على الدهرِ فتى	ومشوا فوق رعوسِ الحقبِ
عمّموا بالشمسِ هاماتهمُ	وبنوا أبياتهم بالسهبِ
قد قبستُ المجد من خيرِ أبٍ	وقبستُ الدين من خيرِ نبى
وضممتُ الفخر من أطرافه	سوّدَدَ الفُرسِ ودينَ العربِ

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر في كتاب العصر العباسى الأول عند بشار ، وأخذ يخفت غير أنه كان يظهر من حين إلى حين ، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة الإسلامية العربية - كما أشرنا إلى ذلك في كتاب العصر العباسى الثانى - وبين الثقافات الأجنبية ، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات ، وحتى يقطع الطريق على الشعوبيين وما يدعونه من تفوق الفرس والروم على العرب فى الحضارة والمدنية . ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين ، كصوت أبى عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيّهانى وزير السامانيين وكان يُظهر الإسلام ويبطن الزندقة ، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبديهم حملات شعواء ، صورها أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ناقضاً لها نقضاً شديداً . وكأنما وجد الجيّهانى الفارسى فى مهيّار مستجيباً له ، لا فى هذه الياثية وحدها ، بل أيضاً فى قصائد أخرى . ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية ، ويملأ شعره بالحنين إلى نجد وبدوياتها الفاتنات ، مستلهماً فى ذلك أستاذه الرضى ، بمثل قوله :

يا نسيم الصُّبح من كاظمة  
 الصِّبا! إن كان لأبد الصِّبا  
 يا ندامى سلِّع هل أرى  
 ذلك المعبق والمُصطبحا (١)  
 اذكرونا مثل ذِكرانا لكم  
 ربِّ ذِكرى قُربت من نرِّحا  
 واذكروا صِبا إذا غنى بكم  
 شرب الدَّمع وعاف القَدحا  
 قد عرفتُ الهَمَّ من بعدكم  
 فكأنى ما عرفتُ الفرِّحا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار في البناء اللفظي ، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التي تحدثت عنها بالتفصيل في كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية في شعره وأن اللفظة الحادة كانت تصل منه ، فكان يدور حول الفكرة دورانياً يصيب شعره أحياناً بغير قليل من الركافة والإسفاف ، وكان مع ذلك يطيل قصائده طويلاً مسرفاً ، مما جعل رُفَعَتَا تتسع أو قل رُفَعَمَا ، فيتضح فيها التلفيق وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل في ذلك من الحشو والاعتراض . وحين أسلم أخذ يُكثر في شعره من ذكر مناقب أهل البيت ورتاء الحسين ، ولم يكتف بذلك ، كما كان يصنع أستاذه ، بل أكثر أيضاً من سب الصحابة رضوان الله عليهم ، ويروى أن أبا القاسم بن برهان النحوي قال له : يا أبا الحسن ! انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية ، فقال له : وكيف ذلك ؟ قال أبو القاسم : لأنك كنت مجوسياً وصيرت تسب أصحاب رسول الله ﷺ ، والمجوسى والرافضى في النار . وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت ، وقد بث في مطلعها شكواه من الزمن :

لئن نامَ دهرى دون المنى  
 فأكرم حى على الأرض قام  
 فلى أسوة بينى أحمد  
 وميت توسد في ملحد  
 أتاكم على فترة فاستقام  
 بكم جائر من المقصد  
 وولى حميداً إلى ربِّه  
 ومن سن ما سنه يحمده  
 وقد جعل الأمر من بعده  
 لِحيدر بالخبر المسند  
 وسماه مولى ياقرار من  
 لو أتبع الحق لم يجحد

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق ، وهو تعبير فاتر إن صح هذا التعبير ، والأبيات الأربعة التالية في مديح الرسول عليه السلام ، وهى تخلو

(١) كاظمة : موضع على الخليج العربي جنوب العراق (٢) سلع : جبل متصل بالمدينة .

من أي حرارة ، وكأنها نثر لُفِّت ألفاظه وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى ما تذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعلى أو كما يسميه حَيِّدراً بالخلافة يوم غدِيرْحَمٍّ ، إذ آخاه قائلاً - كما يروون - : علىُّ منى كهرون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . والأبيات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحدة ، ولذلك لا تكاد تؤثر في قارئها أى تأثير . وله في رثاء على والحسين قصائد أخرى من أروعها لاميته ، وفيها يقول :

وشهيدٍ بالطفِّ أبكى السَّمَوَاتِ وكادتْ له تزولُ الجبالُ  
يا غليلي له وقد حَرَّمَ المَاءُ عليه وهو الشرابُ الحلالُ  
قُطِعَتْ وَصْلَةُ النَّبِيِّ بَأَن تُقَدَّ طَعَمَ من آل بيتِهِ الأوصالُ  
لم تُنَجِّ الكهولَ سنٌّ ولا الشُّدُّ بَبَانَ زُهْدٌ ولا نجا الأطفالُ  
لهفَ نفسى يا آل طَهَ عليكم لَهْفَةً كُلُّهَا جَوَى وَخَبَالَ

وهو رثاء حار يمتلئ باللوعة والحسرة والنواح على الحسين ومن قُتل معه من آل بيته . ولمهيار مرات أخرى في الحسين وآله تَجْمَدُ فيها العاطفة فلا نار تنقد في الأحشاء ولا هب يستعر في الأفئدة . وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية ، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على ضالته من التعبير اللاذع أحياناً ، وأحياناً يضل منه هذا التعبير ، لأنه لم ينشأ في مهد عربى يمكِّنه دائماً من تملك السليقة العربية في التعبير والصياغة .

### ابن أبى الحديد (١)

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبى الحديد ، ولد في « المدائن » سنة ٥٨٦ لقاضيا وأحد العدول فيها ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنهما كانا فقيهين أدبيين ، لهما أشعار مليحة » . ويبدو أنه شبَّ على الاعتزال والتشيع جميعاً ، وكان لا يزال يغدو ويروح إلى بغداد وإلى حى الكرخ الشيعي

طُبعت قصائده السبع العلويات في إيران وطُبعت مشروحة في صيدا بلبنان وطُبعت قصائده المستصريات ببغداد ، وله مؤلفات مختلفة ، من أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام على والفلك الدائر على المثل السائر

(١) انظر في ترجمة ابن أبى الحديد وفيات الأعيان ٣٩١/٥ وفيات الوفيات لابن شاعر الكوفي ٥١٩/١ ومعجم الألقاب لابن القوطي ج ٤ ص ١ و١٩٠ وذيل مرآة الزمان (طبع حيدر آباد) ٦٢/١ والتكلمة لوفيات النقلة للمنزدرى (طبع النجف) ٢٤٥/٤ وقد

خاصة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع العلويات ، وهى فى مديح على بن أبى طالب وبيان فضائله ، وفيها لا يبدو شيعياً إمامياً فى هذه الحقبة من حياته ، بل يبدو رافضياً غالباً فى الرفض ، إذ يخلج على الإمام على صفات الله جل شأنه ، وكأنه حلَّ فيه وامتزج بذاته ، تعالى الله علواً كبيراً عما يُلجَّ فيه من مثل قوله فى على أو كما يسميه حيدراً<sup>(١)</sup> :

والله لولا حيدرٌ ما كانت الـ دُنْيَا ولا جَمَعَ البرَّةَ مَجْمَعٌ  
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضوءتْ شُهْبٌ كَسَنَ وجَنَّ ليلٌ أَدْرَعُ<sup>(٢)</sup>  
عِلْمُ الغيوبِ إليه غيرَ مدافعِ والصُّبحُ أبيضُ مُسْفِرٌ لا يُدْفَعُ  
وإليه فى يومِ المعادِ حساباً وهو الملائدُ لنا غداً والمفزعُ

فعلى علة الوجود من أجله خُلِقَ الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دُجنته ، وهو علام الغيوب أو عالمها ، وهو - يوم البعث - الذى سيحاسبُ الناس على ما قدمت أيديهم من خير أو شر . وكل هذا تجديف فى حق الذات العلية ، فعلى ليس علة الكون والوجود ، فثله مثل البشر جميعاً ، حقا هو صحابى جليل ، ولكن ذلك لا يرفعه على بشرته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له ، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب ، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : ( قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ) وقوله : ( عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً ) . وبالمثل زعم ابن أبى الحديد أن الناس يعرضون على الإمام على ابن أبى طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ، والحساب إنما هو لله وحده جلَّ شأنه .

ويتأدى فى علوياته الرافضة ، فيتعرض بالبهتان على أول من صدق بالرسول ﷺ من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه فى الهجرة ، على الصديق أبى بكر ، ومعروف أن الرسول ﷺ ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم فى السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم فى مرضه ونرى ابن أبى الحديد يزعم افتراءً وبهتاناً أن الرسول أناب أبابكر كى يقيم للناس الحج ثم عزله<sup>(٣)</sup> ، وهو لم يُعزلْ إذ أقام الحج فعلاً للناس . ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول ﷺ قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبابكر أن يصلى بالناس ، فصلى بهم سبع

(١) القصائد السبع العلويات مع شرحها (طبع صيدا (٢) كَسَنَ : سرن ، جن : دجا . أدرع : مظلم .  
(٣) القصائد السبع العلويات مع شرحها ص ٤٦ .  
بلبنان) ص ١٠١ .

عشرة صلاة ، وصلى الرسول عليه السلام مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الباقية وقال : « لم يُبْضِ نَبِيُّ حَتَّى يَوْمَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ » . ومع تواتر هذه الولاية من الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق على أمور المسلمين في الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبي الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة<sup>(١)</sup> . كما عزله عن الحج . وكل هذا غلو في البهتان والرفض . ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً في تاريخ غير معروف تماماً ، ويبدو أنه تخلى عن رفضه ورجع إلى صوابه ، إذ نراه يمدح الناصر ، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسي ويديج فيه مدائح عُرفت بالمستنصريات ، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها في السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان ألحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها ، وإنه لينقلب عباسياً ضد العلويين يحطّب في حبل العباسيين ويدعو لهم ، بمثل قوله في المستنصر :

يا بني هاشمٍ بكم يغفرُ اللّهُ الخُطابا وَيُقْبِلُ الأَعْمالا  
أنتمُ بالنبيِّ أُولى فإنَّ شَأْكَ جهولٌ فليقرأ الأَنْفالا  
وإليكم إرثُ النبيِّ تناهى وإليكم سرُّ الإلهِ تعالَى

وقد يقال إن البيت الأول عام في بني هاشم جميعاً علويين وعباسيين ، غير أنه لا يلبث في البيت الثاني أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول ﷺ لقوله تعالى في سورة الأنفال : ( وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام في الميراث وأن العم وهو العباس يجب ابن العم وهو علي بن أبي طالب كما يجب أبناء بنت الرسول ، والعباسيون كما يقول في البيت الأخير الورثة الحقيقيون للخلافة . وبمثل هذه الآيات ، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه ، بل تشيعه عامة ، حتى نراه يقول في المستنصر :

وأنت الدهرُ يخفضُ كلَّ عالٍ بقوّته وَيُمْسِكُ كلَّ هارِيٍّ (٢)  
ويُرْمُ ما يشاءُ بلا اعتسافٍ وينقضُ ما يشاءُ بلا اقتسارٍ  
وكانه تمثل فيه ثانية غلوه السالف في علي بن أبي طالب ، فجعله الدهر يخفض ويرفع ويعصم من السقوط ويرم الأمور وينقضها نقضاً .

ولا يزال يعمل في دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم ( ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ ) . ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أعمالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توثقت صلته بابن العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً فيستحثه على

(٢) هارِي : متصدع يوشك أن ينهدم .

(١) نفس المصدر والصفحة .

شرح نهج البلاغة ويصدع لرأيه ، وهو في هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى ليقول إنه ليس هناك أى نص صريح على خلافة علي للرسول عليه السلام <sup>(١)</sup> ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل <sup>(٢)</sup> ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغصّ من الشيخين العظيمين أبي بكر وعمر <sup>(٣)</sup> . ومعروف أن لها عند الله الدرجة العظمى بما أدّيا للدين الحنيف من خدمات جلّلى ، كُتبت - ولا تزال تكتب - فيها المجلدات الضخام .

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥٦/١ .  
 (٣) انظر شرح نهج البلاغة ٢٢٦/١٠

(١) راجع شرح نهج البلاغة طبعة أبو الفضل إبراهيم  
 بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) ٥٩/٢ .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### ٦ شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يخلُ شاعر من شعراء اليتيمة والذميمة والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تَعْنَى فيها بالحب ، مصورا هذه العاطفة الإنسانية التي تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها . ويمتلى تاريخ الشعر العربي بأبطال لهذه العاطفة ، يعيشون للحب وآماله وآلامه ، يتجرعون غصصه في صبر ، مها ألمَّ بهم اليأس وما يُطوى فيه من حزن . ومن أطرف الأشياء حقا أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال وما يعانون من وجْد لا يشبه وجد وخطوب لا تدانها خطوب . وهم دائما من العشاق العذريين الذين يتعمقهم الحب ويستأثر بقلوبهم ، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخلاص منها ، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة ، فهم يحبونها ، بل يقدسونها ، ويقدمون لها الأشعار ، بل التراتيل التي يتغنون فيها بسحرها سِحْرًا يشغلهم عن كل شيء وعن كل متاع في الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف . وهذا اللون من الحب العذرى العفيف الذي يتحول في قلب صاحبه إلى ما يشبه جدوة من النار لا تنطفئ أبدا قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، وأصبح ظاهرة عامة في بوادي نجد والحجاز طوال العصر الأموي ، وظل حيا بقوة في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني ، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادى اتسعت مع العصر العباسي الأول وما كان به من فنون اللهو والمجون على نحو ما يصور ذلك بشارو أبونواس . غير أن الشعراء التاليين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا المجون والعبث ، بما أشاعوا في غزلهم من عفة ومن نقاء وطهارة ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام والبحرئى وابن الرومى وأضرابهم ، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر في بغداد وغير بغداد جماعات من الغزلين الماجنين . ولعل ذلك هو الذى دفع المتنبي في أوائل هذا

العصر إلى أن يهجر في غزله المرأة المتحضرة ، وكأنه رآها أو رأى كثيرات من الجوارى ببغداد في أوائل شبابه يتهالكن على اللهو ويُسرفن فيه ، فصمم - كما مرّ بنا - أن يتخذ البدويات الأعرايبات موضوعاً لغزله ، حتى يردّ إلى الغزل في أيامه العفة والسمو والنبل والارتفاع عن الجسد والغريزة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان ، وحتى يذيع فيه أريج الوجدان النقي الأفلاطوني البريء ، كما يذيع فيه شدّاً الحنان الذي يكتظ به الغزل العذرى عند العرب وما يُطوّى فيه من حرارة ولوعة . وهذا الوتر من الغزل البدوى الطاهر الملتاع الذي شدّه المتنبي إلى قيثارته ، تبعه فيه الشريف الرضى يشده بدوره إلى قيثارة شعره مستخرجاً منه ما لا يكاد يحصى من الأنغام كما أشرنا إلى ذلك في ترجمته ، على شاكلة قوله :

خُذِي نَفْسِي يَارَيْحُ مِنْ جَانِبِ الْحَمِيِّ      وَلَا تَقِي بِهِ لَيْلًا نَسِيمَ رَبِّي نَجْدِي  
فَإِنَّ بِذَلِكَ الْجَوَّ حَيًّا عَهْدَتُهُ      وبالرغم مني أن يطولَ به عَهْدِي  
وَلَوْلَا تَدَاوِي الْقَلْبِ مِنْ أَلْمِ الْحَوِيِّ      بِذِكْرِ تَلَاقِنَا قَضَيْتُ مِنَ الْوَجْدِ  
وَمَا شَرِبَ الْعُشَّاقُ إِلَّا بِقَيْتِي      وَلَا وَرَدُوا فِي الْحَبِّ إِلَّا عَلَى وَرْدِي

فقد انقطعت الأسباب بينه وبين محبوبته النجدية ، ولم يبق من أمل إلا أن تلتقي نفسه من جانب الحمى بقطع من النسيم المعطر بشدّاً صاحبته ، نسيم ربي نجد الذكيّ ، وإنه ليشعر بالآم ثقال بقلبه من أثر الحب وعذابه وأوصابه ، آلام ليس لها من دواء إلا دواء ذكريات لقاءها ، ولولا هذا الدواء لمات أسي والتباعا . وباله من عاشق شرب كأس الحب ، حتى لم يبق لغيره منها سوى المثالة ، وكأنه أبُ العشاق أو كبيرهم ، فجميعهم إنما يردّ على ورده وينهل من بقية شربه . وتبعه تلميذه مهيار يشدّ إلى قيثارته نفس هذا الوتر ، كما مرّ بنا في ترجمته ، صاباً في أشعاره منه ألحانا كثيرة من مثل قوله .

قُلْ لَجِيرَانِ الْغَضَا آهِ عَلِي      طِيبَ عَيْشٍ بِالْغَضَا لَوْ كَانَ دَامَا  
نَصِلُ الْعَامَ وَلَا نَسَاكُمُ      وَقَصَارَى الْوَجْدِ أَنْ نَسْلُخَ عَامَا  
حَمَلُوا رِيحَ الصَّبَا نَشْرُكُمُ      قَبْلَ أَنْ تَحْمَلَ شَيْحاً وَثَامَا  
وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُم لِي فِي الْكُرَى      إِنْ أَذْنَتُمْ لِحَفُونِي أَنْ تَنَامَا

والغضا من أشجار نجد ، وكذلك الشيح والثام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة . والقطعة تفيض بالحنين لصاحبته وأهلها من جيران الغضا أو أهل نجد ، فإنه لا ينسأهم ولا يسلوهم ، ولا يزال يأمل في أن تحمل ريح الصبا نَشْرُكُمُ العطر حتى يردّ إليه روحه ،



وَيَمْنَى أَنْ يَرَى صَاحِبَتَهُ وَلَوْ خَيْالًا أَوْ شَبَحًا فِي النَّوْمِ حَتَّى تَمَلَأَ نَفْسَهُ بِهَجَّةٍ وَغَبْطَةٍ . وَلِصَّرْدُرٍ  
أَشْعَارَ نَجْدِيَّةٍ أَوْ فِي نَجْدٍ وَمَحْبُوبَاتِهِ بِهَا بَدِيعَةٌ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ الْهَائِثَةِ الَّتِي  
أَشْرَنَا إِلَيْهَا فِي حَدِيثِنَا عَنْ شِعْرَاءِ الْمَدِيحِ :

وَقَفْنَا صَفْوَفًا فِي الدِّيَارِ كَأَنَّهَا	صَحَائِفُ مَلَقَاةٌ وَنَحْنُ سَطُورُهَا
يَقُولُ خَلِيلِي وَالظُّبَاءُ سَوَائِحُ	أَهْدَى الَّتِي تَهَوَّى ؟ فَقَلْتُ نَظِيرُهَا
وَيَاعَجِبِي مِنْهَا يَصُدُّ أُنَيْسُهَا	وَيَدْنُو عَلَي دُغْرٍ إِلَيْنَا نَفُورُهَا
وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي غَدَاةَ نَظَرْنَا	أَتَلَّكَ سَهَامٌ أَمْ كَثُوسٌ تُدِيرُهَا
فَإِنْ كُنَّ مِنْ نَبَلٍ فَأَيْنَ حَقِيفُهَا	وَإِنْ كُنَّ مِنْ خَمْرٍ فَأَيْنَ سُرُورُهَا
أَرَاكَ الْجَمِيَّ قُلِّ لِي بَأَىٍّ وَسِيلَةَ	وَصَلَّتْ إِلَى أَنْ قَبَّلَتْكَ ثَغُورُهَا

وَتَصْوِيرِ صَّرْدُرٍ نَفْسَهُ وَصَحْبِهِ وَهَمَّ وَقُوفٍ بِأَطْلَالِ الدِّيَارِ كَأَنَّهَا سَطُورٌ بَدِيعٌ ، وَلَا نَكَادُ  
نَمْنَى مَعَهُ حَتَّى نَشْعُرَ بِرُوعَةِ التَّصْوِيرِ وَدَقَّةِ الْمَشَاعِرِ . فَصَوَّاحِبُهُ وَالظُّبَاءُ جِنْسٌ وَاحِدٌ يَدْنُو  
وَحَشِيئُهُ مَذْعُورًا وَيَصُدُّ أُنَيْسُهُ نَفُورًا ، وَلَا يَدْرِي مَا الَّذِي أَوْدَعْتَهُ ظُبَاءَ الْإِنْسِ - حِينَ نَظَرَ  
الْبِيهَمَ - قُلُوبَهُمْ وَأَفْنَدْتَهُمْ ، هَلْ أَوْدَعْتَهَا نُبَلًا قَاتِلًا ، أَوْ كَثُوسًا مِنْ خَمْرٍ تَلْدُ الشَّارِبِينَ .  
وَيُظَلُّ فِي حَيْرَتِهِ وَيَتَسَاءَلُ إِنَّهَا إِنْ كَانَتْ نَبَلًا فَأَيْنَ حَقِيفُهَا وَدَوِيئُهَا ؟ وَإِنْ كَانَتْ كَثُوسًا فَأَيْنَ  
سُرُورُهَا وَمَتَاعُهَا . وَيَلْتَفِتُ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَيَبْرَاهَنَ يَتَخَذَنَّ مِنْهُ الْمَسْوَاكَ ، فَيَسْأَلُهُ مَذْهُولًا  
كَيْفَ وَصَلَ إِلَى ثَغُورِهَا . وَكُلُّهَا حَيْرَاتٌ تَصُورُ لَوَاعَاتِ هَذَا الْعَاشِقِ الْمُغْتُونِ ، وَمِنْ بَدِيعِ  
غَزَلِيَّاتِهِ قَوْلُهُ :

نُسَائِلُ عَنْ ثُمَامَاتٍ بِحَزْوِيٍّ	وَبِأَنَّ الرَّمْلَ يَعْلَمُ مَنْ عَيْنِنَا
وَقَدْ كُشِفَ الْغَطَاءُ فَمَا نُبَالِي	أَصْرَحْنَا بِذِكْرِكَ أَمْ كُنِينَا
بِنَفْسِي رَامِيَاتٌ لَيْسَ تَفْنَى	نُصُولُ سَهَامَهُنَّ إِذَا رَمِينَا
وَأَمْسِينَا كَأَنَّا مَا افْتَرَقْنَا	وَأَصْبَحْنَا كَأَنَّا مَا التَّقِينَا

إِنَّهُ يَمْنَى عَلَى اسْتِحْيَاءِ فِي دِيَارِ صَوَّاحِبِهِ بِحَزْوِيٍّ يَسْأَلُ عَنْ نَبَاتِ الثَّمَامِ ، وَكُلِّ شَيْءٍ فِي  
الدِّيَارِ حَتَّى مَا بِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْبَلْبَانِ تَعْلَمُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ وَخَبِيئَةَ سِرِّهِ ، فَقَدْ كُشِفَ الْغَطَاءُ وَذَاعَ  
السَّرَّاجُوبُ . وَإِنَّهُ لَيَفْدَى بِرُوحِهِ مِنْ رَمْتِهِ بِسَهَامِهَا ، وَيَقُولُ إِنَّ سَهَامَهَا لَا تَفْنَى أَبَدًا ، فَهِيَ  
مَا تَتْنِي تَرْسَلُهَا عَلَى الْمُعْجِبِينَ وَالْمُحِبِّينَ . وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ حِكْمَةٌ بَدِيعَةٌ تَصَدِّقُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي  
الدُّنْيَا وَكُلِّ أَمَلٍ ضَائِعٍ أَوْ سَيَضِيعٍ .

وهذا الوجد في شعر الغزل البدوي وما يثير في النفس من حنين ومن ظمأ لا يرتوى إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبه للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات ، لوعات تلذع في الفؤاد كأنها نيران محرقة ، فإنهم وجدوا فيه خير معبر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية ، وأنى لهم ! ، فضوا يتغنون به في حفلات الذكر المعروفة حين ينعقد الذاكرون لله في صفيين متقابلين ، ويقف منشداً بينهما ، يرتل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمه الصوفية وتارة مما نظمه الشريف الرضى ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتهما البدوية النجدية في الغزل ، لما أحسوا في هذه الطريقة من الوجد والصبابة ، بل من سعة النداء فيها . وهي سعة تلاحظ أيضاً في الغزل الصوفي ، وكأن هذين الضربين من الغزل يلتقيان ، وهو التقاء هياً لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفي ، وأن يتيح ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجداني الصافي ، على نحو ما سنرى عند الحاجري والتلعفري .

ولا بد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوي الذي شدّه المنبئ إلى فينارته ظل الشعراء بعده لافي العراق وحده بل في جميع الأقاليم العربية يشدونه إلى قيثاراتهم حتى العصر الحديث ، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبهم ووجدهم وما يثيران في القلوب من العواطف والأهواء . وقد تفجرت ينابيعه تفجراً في مقدمات المدائح النبوية التي أخذت تجرى على كل لسان منذ القرن السابع الهجري . ومرّ بنا في الفصل الأول من هذا القسم حديث طويل عن تغنى الجوارى والحرائر في بغداد لزمان أبي حيان التوحيدى ، وما ذكره من أنه كان ببغداد أربعمائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنين بأشعار غزلية تدلّع الوجد والحنين واللوعة في قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فتفتت قلوبهم وتحدرد دموعهم ويعلو نحيبهم ، ومنهم من يسقط مغشياً عليه ، ومن يَلْطَم وجهه ويحرق ثيابه أو يمزقها ، ومن يضرب الأرض بقدمه أو بجسده ويُرغى ويُرَبد . وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يُعدّون أو قل لا شك أنهم كانوا يُعدّون بالعشرات إن لم يكن بالمئات ، كانوا يزلزلون الأرض - كما يقول أبو حيان - بأصواتهم الناعمة وألحانهم الرخيمة ودماثهم الحلوة . وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه .

وطبيعي أن يتكاثر شعراء الغزل في هذا العصر كما تكاثروا في العصور السابقة ، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعدّاهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومن جاء بعدهم ، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة في القرن

السادس الشاعر الملقب بالأبله <sup>(١)</sup> لُقِّبَ بذلك لأنه كان فيه طَرَفٌ بلهٍ ، وقيل بل لأنه كان غاية في الذكاء فلُقِّبَ بذلك على طريقة الأضداد ، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار ابن عبد الله المولاهُ أى الهائمُ صبابةً وعشقا ، وحُرِّفَت الكلمة في بعض الكتب فقيل المولد بدلا من الموله ، وهو تحريف واضح . وذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة ، فقال : « هو شاب ظريف يتزنى بزى الجند ، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم . وكل ما ينظمه ، ولو أنه يسير ، يسير ، والمغنون يغنون برائعات أبياته ( مؤثرين لها ) عن أصوات ( أغاني ) القدماء ، فهم يتهاوتون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحوَم على عَدَبِ المشرب » . ثم قال أنشدني لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد :

زارَ مَنْ أَحْيَا بزورتهِ      والدُّجَى في لَوْنِ طُرْتِه  
يا لها من زورةٍ قَصْرَتْ      فأماتتْ طولَ جَفْوَتِه  
آه من خَصْرِ له وعلى      رَشْفَةٍ من بَرْدِ رِيقَتِه  
ياله في الحسن من صَنَمٍ      كلُّنا من جاهليَّتِه

والكلمات محكمة ، وتكاد تطير عن الشفاه طيراناً لحنفها ، والدقة واضحة في تشبيهاته وطباقاته ، وأيضا في مراعاته للنظائر في الكلمات كما في البيتين الأخيرين : وقد جعل محبوبته صنما يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جاهها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية ، فكلمهم عابدها مسحور . والكلمات والأبيات معدة حقا للغناء ، إذ كان أستاذا في زمنه من أساتذة الأغاني ، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته . ويقول ابن خلكان : « جمع الأبله البغدادي في شعره بين الصناعة والرقة وله ديوان شعر بأيدي الناس » وقال ابن الجوزي في المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنة ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله في مطالع إحدى قصائده :

يا بَرِّقُ إن تجفُ العقيقَ فطالما      أغتته عنك سحائبُ الأَجْفانِ  
هيات أن أنسى رُبَاكَ ووقفَةً      فيها أُغِيرُ بها على الغَيْرانِ  
ومُهْفَهْفٍ ساجي اللِّحَاظِ حفظتهُ      فأضاعني وأطعتهُ فعصاني  
يُصمِّي قلوبَ العاشقين بمقلةٍ      طَرَفُ السَّنَانِ وطَرَفُها سِيَّانِ

(١) أنظر في ترجمة الأبله المنتظم والنجوم الزاهرة في سنة ٥٧٩ وابن خلكان ٤/٤٦٣ والوافي للصفدي ٢٤٤/٢ وعبر الذهبي ٤/٢٣٨ والشذرات ٤/٢٦٦ .

ما قام معتدلاً يهزّ قوامه إلا وبانت خجلة في البان  
 وفي الأبيات انسياب مع جمال التصوير ، بل مع التصوير المفاجئ ، إذ نراه يخاطب  
 البرق المخنفي مع السحاب عن ديار صاحبه بأن سحائب الأجناف ودموع العيون حرية أن  
 تروياها ويقول إنه حفظ صاحبه فأضاعته ، وأطاعها فعصته ، ويعقد صلة بين طرفها  
 وطرف السنان ، فكلاهما يصمى ويقتل ، ويذكر أن قوام صاحبه لا يشبه قوام شجر البان  
 في اعتداله فحسب ، بل إنه حين يبصره شجر البان يسرى فيه خجل وحياء شديد لحسن  
 قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة :  
 لا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يُكابدُهُ ولا الصَّبابةَ إلا مَنْ يُعانيها

ولن نستطيع أن نمضي في عرض أشعار الغزلين لكثرتهم ونكتفي بالحديث عن ابن المعلم  
 والحاجري والتلعفري ، إذ هم أهم من نظم الغزل في العصر ، وقد استطاعوا النفوذ فيه إلى  
 ضرب جديد من الشعر الوجداني يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرح الذي يستأثر بالقلوب  
 والأفئدة .

### ابن المعلم<sup>(١)</sup>

هو أبو الغنائم نجم الدين محمد بن علي المعروف بابن المعلم ، ولد بقرية الهُرث من  
 أعمال واسط جنوبي العراق سنة ٥٠١ وتوفي بها سنة ٥٩٢ واستيقظت موهبته الشعرية  
 مبكرة ، فقصده بشعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعرها سيّط ابن التعاويذي بعامل التنافس .  
 وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه ، وفيه يقول العماد الأصبهاني في  
 الخريدة : « متقدم الهُرث شعره الديباج الملمع المعلم ، طرازه المعنى الممتع المحكم ، فلفظه  
 السوّار ومعناه المعصم . . كلامه حلّو حال ، عالٍ غالٍ ، صَفو من الرنق خالٍ . . فأين  
 مهيار من أسلوبه ! لو عاش شرب من كوبه . » ويقول ابن خلكان : « كان شاعرا رقيق  
 الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رفته . . وأكثر القول في الغزل والمدح  
 وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني ، يغلب على شعره وصف الشوق  
 والحب وذكر الصبابة والغرام ، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلاه  
 السامعون . » وأتاحت له رقة شعره الوجداني صلة وتقى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد

(١) انظر في ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة (قسم بالوفيات ١٦٥/٤ وعبر الذهبي ٢٧٩/٤ والشذرات العراق ٤٣٠/٢/٤ وابن خلكان ٥/٥ والوفى ٣١٠/٤ والنجوم الزاهرة ١٤٠/٦ وانظر ص ١٠٢ .

الرفاعي ، فكانوا يتغنون بغزلياته ، ويرونها معينا لا ينضب لاستثارة حبه الصوفي ، ويقول ابن خلكان : « سمعت جماعة من مشايخ البطائح ( يريد أصحاب الرفاعي ) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء ( المتصوفة ) المنتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعي وغنوا بها في سماعتهم ( يريد أذكارهم ) وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة أنفاسهم . . وبالجملة فشعره يشبه النَّوْح ، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه » . وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه النَّوْح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقي في تعلق طائفة الرفاعيين به ، لما يحمل من كثرة الوجد ولوعاته وحرارته التي لا تنطفئ في فؤاده أبدا ، فهو دائما يريد الوصال ، ولا وصال على طريقة الصوفية ، بل فراق متصل ، يشق به الحب ويبكى وينوح ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ولا أمل في لقاء أو ما يشبه اللقاء ، يقول :

لو قَصَى من أهل نَجْدٍ أَرَبَهُ	لم يَهْجُ نَشْرُ الخَزَامِي طَرَبَهُ
عَلَّوْا الصَّبَّ بِأَنفَاسِ الصَّبَا	إِنهَا تَشْفِي النُّفُوسَ الوَصْبَهُ
فَهِيَ إِنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ نَشَرَتْ	مَا انطوى عنه وَجَلَّتْ كُرْبَهُ
كَلْفِي فِيكُمْ قَدِيمٌ عَهْدُهُ	مَا صَبَابَاتِي بِكُمْ مُكْتَسَبُهُ
عَنْ جَفَوِي النَّوْمِ مِنْ بَعْدِهِ	وَإِلَى جِسْمِي الضَّنَا مِنْ قَرْبِهِ
فَصَلُّوا الطَّيْفَ إِذَا لم تَصِلُوا	مُسْتَهَامًا قَدْ قَطَعْتُمْ سَبَبَهُ

فهو لم يقض أربا من صاحبه ، وذلك هو مصدر لهفته ولوعته ، وإنه ليرتجى أن تمر به أنفاس الصبا محملة بنشرها علها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم ، وإنه ليكلفُ بها أشد الكلف ، كلفاً كأنما فطر عليه ، فهو يعذبه ويشقيه ويسهده ويؤضيه ، وإنه ليرتجى أقل التمتي : أن يرى طيف المحبوبة ولكن أتى له ، وهو لا ينام ، بل يظل ليله - مثل نهاره - يحتمل مالا يستطيع تحمله من آلام الحب الذي أصبح محنة ، لا يستطيع قلبه أن يجد إلى التخلص منه سبيلا . ويشد له العناد قطعة من كلمة له سارت وأنجذت وغارت حتى شدا بها الشادى ، وحدًا بها الحادى ، ووجد بها أرباب الغناء الغنى والوجد<sup>(١)</sup> وأصحاب القلوب الهوى والوجد ، وهي مطلع لإحدى مدائحها وفيها يقول :

تَبَّهِي يَا عَذَبَاتِ الرَّنْدِ	كَمْ ذَا الكَرَى ؟ هَبَّ نَسِيمُ نَجْدِ
مَرَّ عَلَى الرُّوضِ وَجَاءَ سَحْرًا	يَسْحَبُ بُرْدِي الرَّجِ وَبُرْدِ

حتى إذا عانقتُ منه نَفْحَهُ عاد سَمُومًا والغرامُ يُعِدِّي  
واعجباً مني ! أستشفى الصِّبا وما تزيد النارَ غيرَ وَقَدِ  
أَعْلَلُ القَلْبَ بِبِائِنِ رَامَةٍ وما ينوب غُصْنٌ عن قَدِّ  
وَأَسْأَلُ الرَّبِيعَ وَمَنْ لِي لو وَعَى رَجَعَ الكَلَامُ أو سَخَا بِرِدِّ  
أَقْتَضَى النُّوحَ حَامَاتِ اللُّوى هِيَّهَاتَ ما عند اللُّوى ما عِنْدِي  
بانوا فلا دارُ العقيقِ بعدهم دارُ ولا عَهْدُ الحِمَى بعَهْدِ

والقطعة تكتظ ببح محروم يلذع فؤاد صاحبه لذعا بنيرانه ، وبينما هو في آلامه وغصصه التي يتجرعها محزوناً إذا نسيم نجد يهبُّ محملاً بشذى عطر ، يرد الروح ، وكأنه رحيق الحياة ، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحةً حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد ولطف وعاد سَمُوماً ، بل سَمًا . ويا للهول نسيم أرج بارد يصبح ريحاً سموماً ساخناً ، وإنه ليزيد نار حبه وَقَدًا واشتعالًا . ويتلفت يسأل الربيع عن محبوبته ، وليس عند الربيع من جواب ، وإنه ليئن وينوح ويطلب من حمامات اللوى أن تنوح وتئن معه ، فهو أولى من اللوى بالأنين والنواح ، إنه ليس عندها ما عنده من تباريح الغرام ، فقد رحلت صاحبته ، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها . لقد ذهب منه كل شيء ولم يعد له إلا النواح والبكاء . وله من أخرى في فَنِّها وحلاوتها وحسنها كما يقول العماد الأصبهاني :

أرُقِيَّ وهو الحبُّ المستهَامُ ما يُداوَى بالتعاويد الغرامُ  
قَصُرْتُ عن بُرْثِهِ أَيْدِي الأَسَا كيف حَسَمُ الداءِ والداءُ عُقَامُ (١)  
يا لَدَيْغِ الحَدَقِ النَّجْلِ متى تجدُ البرءَ وحاميه الحُسَامُ  
ودواءُ الحبِّ في شوكِ القَنَا مُتٌ لَدَيْغًا كلُّ دِرْيَاقٍ سِهامُ  
قل لُنُومِ الغَضَا عن ساهرٍ مَنْ تَجَافَاهِ الهوى كيف ينَامُ  
غَنِمْتُ بالشَّمْسِ عن ناظرِهِ والضُّحَى مثلُ الدُّجَى كلُّ ظلامِ

فحبه مرض عضال لا يداوى بالتعاويد والرُقَى ، وقد عجزت عن برثه وشفائه أيدى الأَسَا والطب والعلاج ، إنه داء لا يمكن الخلاص منه ، وإنه للديغ الحدق النجل الساحرة ، وكل درياق له أو دواء إنما هو سم فلا يدرى المصاب به أيشرب رحيقاً شافياً أم سَمًا قاتلاً . ويتجه إلى أهل الغضا يشكو سهاده وجفاء محبوبه ، فقد غابوا بشمسهم عن

(١) الأَسَا : المداواة والعلاج . عقام : لا يشفى منه .

بصره ، وأصبح ضحاه مثل دجَاه ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، وأصبح كل شئٍ قِطْعاً من الظلام بعضها فوق بعض ، وعبثاً يرى نور محبوبته فقد أرخى الظلام من حوله سُدُوله ولم يعد هناك أمل في انفراجه ، وهو يئنُّ وينوح نواحاً لا ينقطع كما يقول ابن خلكان . ولعل في ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجداني كان خليقاً أن تتداوله طائفة الرفاعية الصوفية ، لتعبر به عما يختلج في حنايا صدورها وقلوبها من الحب الإلهي وكل ما يطوى فيه من وجد ولهفة ولوعة وظماً لا ينتهى إلى رؤية الذات العلية ، وكأنما مسته - كما تصوّر شيوخهم - بركة أنفاسهم ، أو كما نقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الرباني الحار ، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه ، وينشده معهم الوعاظ في وعظهم . ويروى ابن خلكان أن الشاعر مرَّ يوماً على ابن الجوزي وهو يعظ الناس وهم مزدحمون في مجلسه ، وكان عجبه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشاراته ببيت من شعره منها به .

### الحاجري (١)

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سِنَجَر بن بَهْرَام بن جَبْرِيل بن حُجْر تَكِين بن طاشْتِكِين الإربلي المعروف بلقبه الحاجري نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها في شعره ، فُنسب إليها . وهو إربلي الأصل والمولد والمنشأ ، ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه ، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئاً عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته ، وكل ما يقول إنه جندي من أولاد الأجناد الأتراك ، ويبدو أنه كان على شيء من اليسار ، إذ لا نراه في ديوانه مشغولاً بممدوحين مختلفين يُهدِيهم أشعاره ، إلا ما كان من مدحة يستهل بها ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطايا ياربيل ، ولعله أراد أن يستل من نفسه ضغينة عليه ، إذ جاء في مقدمة مدحته إنه كان السبب في مقتله ، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربيل في سنة ٦٢٦ بينا كان الحاجري معتقلاً في قلعته لأمر يطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذي دبر له هذا الاعتقال ، وله في ذلك أشعار يشكو فيها من حبسه مثل قوله :

قَيْدٌ أَكْبَادُهُ وَسِجْنٌ ضَيْقٌ يَا رَبِّ شَابَ مِنَ الِهْمُومِ الْمَفْرُقُ  
ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك

(١) انظر في ترجمة الحاجري ابن خلكان ٥٠١/٣ والنجم الزاهرة ٢٩٠/٦ والشذرات ١٥٦/٥ وديوانه طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان (١٧/٥) منه مخطوطات كثيرة ، وهو حري بأن يحقق تحقيقاً علمياً .

المعظم مظفر الدين كوكبوريّ والى إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦م وتقدم عنده وتزيّياً بزى الصوفية . وتوفى مظفر الدين سنة ٦٣٠م فغادر الحاجرى إربل ، وكأنه كان لا يزال يخشى بأس غريمه المذكور آنفاً ، غير أنه سرعان ما عاد إليها حين صارت فى مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين ، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدري أن وراءه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهر ، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفى على إثرها فى شوال سنة ٦٣٢م ويقدر ابن خلكان عمره بخمسين سنة . ويقول : « له ديوان شعر تغلب عليه الرقة ، وفيه معان جيدة ، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والموايا ، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قلّ من يجيد فى مجموع هذه الثلاثة ، بل من غلب عليه واحد منها قصر فى الباقي ، وله أيضاً « كان وكان » واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامى ، سنعرض له فى غير هذا الموضع . وأول ما تقرأ فى ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا ، وفيه يقول :

ما للدموع تسيلُ سَيْلَ الوادى	أحدًا بِرِكبِ العامريّة حادى
نعم استقلّوا ظاعنين وخلفوا	ناراً لها فى القلب قدحُ زناد (١)
ما كان أطيبَ للوداع عناقنا	لو لم يكن منا عناقَ بعاد
يا سائقَ الوجناء غيرَ مقصّر	يطوى المفاوز من ربّى ووهاد (٢)
مالى إليك سوى التحية حاجة	تلقى سعادَ بها ودارَ سعاد
عرجُ برامة إن رامة منتهى	أملى وغاية بُعيتى ومرادى (٣)
يأيها الرشا الذى بلحاظه	دعجُ يصلو به على الآساد (٤)
الله فى كبدى التى أحرقتها	عبثاً بجمرة خدك الوقاد

وبلى هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستنفد الديوان جميعه بما فيه من خمسمات ودوبيتات أو رباعيات ، وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالبدويات الذى قرأناه عند المتنبي والشريف الرضى ومهيار ، وكان الحاجرى استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً ، فإذا هو ينفذ مثل ابن المعلم إلى هذا الغزل الجديد الذى سميناه بحق شعراً وجدانياً ، شعراً ينساب من معين تُرلاً يزال يتدفق حاراً دون أى تكلف أو تصنع . وإن نار الحب لتتقد فى قلبه وتسيل دموعه أنهاراً فقد فارقتة صاحبتة إلى رامة ، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها

(١) قدح الزناد : استخراج النار منه بضرب حجرين . (٣) رامة : موضع بالبادية .

(٢) الوجناء : الناقة الشديدة . (٤) الدعج : اشتداد السواد والبياض فى العين .



بتحية رقيقة ، وإنه ليدكر سهام عينيها الفاتنتين ويتضرع إليها مستعطفاً لكبده التي أحرقتها  
بجمرة خذها الوقاد ، ونحس دائماً كأنما يتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبتة  
يلهب صدره وقلبه بنار لا تخمد أبداً حتى الرضاب أو الريق ، يقول :

ويلاه من بَرْدِ رُضَابِ لَهَا أَشْكَو إِلَى الْعُدَالِ مِنْهُ الْحَرِيقُ

وهو في أثناء هذا الحريق الذي يأخذ قواده من كل جانب يلتاع لوعات ممضة ، كان  
يرُوع منها دائماً ، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التي تكتظ بالحنين إلى رؤية صاحبتة في  
رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز ، مثل قوله :

إِنَّ الْأَلَى رَحَلُوا غَدَاةَ مُحَجَّرٍ مَلثُوا الْقُلُوبَ لَوَاعِجَ الْأَحْزَانِ  
نَزَلُوا بِرَامَةَ قَاطِنِينَ فَلَا تَسَلُّ مَا حَلَّ بِالْأَغْصَانِ وَالْغِزْلَانِ  
فَلَأَبْعَثَنَّ مَعَ النَّسِيمِ إِلَيْهِمْ شَكْوَى تَمِيلُ لَهَا غُصُونُ الْبَانِ  
يَا عَاذِلِي فِيمَنْ أَحَبُّ جِهَالَةً عَنَى إِلَيْكَ فَلَيْسَ شَأْنُكَ شَانِي  
لَمْ لَا أَحِنُّ إِلَى الْحِجَازِ صَبَابَةً وَيَجُودُ دَمْعُ الْعَيْنِ بِالْهَمْلَانِ

فقد رحلت صاحبتة عنه وتركته بجاجر يشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه ، ونزلت  
رامة فأخجلت بقدّها وجمال عينيها الأغصان والغزلان ، ولم يعد له إلا أن يبعث إليها  
بالسلام مع النسيم ، لعلها ترقُّ له وتذكره ، ويلتفت إلى عدوله ينهيه أن يتعرض له فليس  
من دربه ، وليس ذلك من شأنه ، ويتساءل إن كل محب ليصوب قلبه إلى الحجاز ونازليه ،  
ويذرف الدمع مدراراً . لغة سهلة هي لغة الشعر الوجداني الذي ينساب في النفس  
انسياباً . وله قصيدة تفيض بحنين رائع صوّر فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبتة كأقوى  
ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قائلاً :

أَحِبَابُنَا بِيْتَمُّ عَنِ الْحَيْفِ فَاشْتَكْتُمْ لُبْعُدْكُمْ أَصَالُهَا وَضُحَاهَا  
كَأَنْكُمْ يَوْمَ الرَّحِيلِ رَحَلْتُمْ بَنُومِي فَعِنِّي لَا تُصِيبُ كَرَاهَا (١)  
رَعَى اللَّهُ لِيَلَاتِ بِطِيبِ حَدِيثِكُمْ تَقَضَّتْ وَحْيَاهَا الْحَيَا وَسَقَاهَا  
فَمَا قَلْتُ إِيَّاهُ بَعْدَهَا لِمَسَامِرٍ مِنْ النَّاسِ إِلَّا قَالَ قَلْبِي آهَا  
مَتَى تَقْضِي أَيَّامَ ذَلِّي وَأَجْتِنِي ثَمَارَ وَصَالٍ قَدْ حُرْمْتُ جَنَّاها  
وَأَسْتَصْحَبُ الْقَوْمَ الَّذِينَ بِمَهْجَتِي لَفَقَدَهُمْ نَارٌ يَشِبُّ لَطَاها

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه معه الطبيعة ، وإنه ليشكو من سهاده ، فالنوم لا يلمُّ ليلاً بطرفه ، وهو يذكر ليلاً سمره مع صاحبتة ويدعو لها مديها في دعائه حيننا حارا ، ويصور نفسه ، فهو مع سمره أحيانا لا يزال قلبه يتوجع ، وهو مع ابتساماته تملأ الهموم أحشاءه ، وإنه ليتمنى أن يجتمع بصاحبتة ويقتطف ثمار وصاله ويطفئ النار التي تستعر بفؤاده .

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة محمسات بنفس الروح ونفس المعاني والوجد والصبابة كقوله في فاتحة خمس :

خَلِيلِي عَوْجًا بِالغَوِيرِ وَكُتْبِهِ      وَلَا تَمْنَعَا الْمَشْتَاقَ مِنْ لَثْمِ تُرْبِهِ  
هُوَ الصَّبُّ يُصْبِيهِ الْهَوَى دُونَ صَحْبِهِ      خَذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ  
فَقَدْ كَادَ رِيَّاهَا يَطِيرُ بَلْبُهُ

والغوير : ماء في بادية الشام ، والديوان يفتح بأسماء المواضع والمنازل في نجد والحجاز . وفي ديوانه رباعية يُذِيبُ فِيهَا وَجْدَهُ وَحَبَّهُ قَائِلًا :

حَيًّا وَسَقَى الْجَمِيَّ سَحَابٌ هَامِي      مَا كَانَ أَلَدَّ عَامَهُ مِنْ عَامِ  
يَا عَلْوَةَ مَا ذَكَرْتُ أَيَامَكُمْ      إِلَّا وَتَظَلَّمْتُ عَلَى الْأَيَامِ

وقد نوه القدماء طويلاً بما في شعره من انسياب موسيقى رائع ، وبلغ من إعجابهم به أن سموا ديوانه « بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام » وفي دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم : « القصائد الحجازيات في مدح خير البريات » وهي مجموعة من المدائح النبوية ، لم يضمن ديوانه منها شيئاً .

### التَّلَعْفَرِيُّ (١)

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتَّلَعْفَرِيُّ نسبة إلى « تلّ أعفر » بين سنجار والموصل ، وروى ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرأى أن يمدح الحكّام والأمراء على عادة الشعراء في عصره ، ولم يكتف بأمرء موطنه ، فقد اتجه بمدحيه أيضاً إلى أمراء الشام ،

(١) انظر في ترجمة التلعفري ابن خلكان ٤٠/٧ ، ٤٥ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٥/٣٤٩ وديوانه طبع قديماً

وفوات الوفيات لابن شاکر ٥٤٦/٢ ، والنجوم الزاهرة في القاهرة وبيروت .

٢٥٥/٧ ، ٣٧٢ ، والفلاكة والفلكون ص ٢٦٥

ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبي الذي ظل مستولياً على صولجان الحكم في دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبغ عليه كثيراً من العطاء الجزل ، غير أن التلعفري كان مغرّياً بشرب الخمر والقمار ، وكان الأشرف موسى يراجعه في ذلك كثيراً ، ولم يكن يصبر عليهما أو يستطيع شيئاً من الصبر ، وفي ذلك يقول :

أقلعتُ إلا عن العقارِ وتبّتُ إلا من القمارِ  
فالكأسُ والقمرُ ليس يخلو منها يميني ولا يساري

ولما أعتت الحيل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق ، فتركها إلى حلب وصاحبها الملك الناصر الأيوبي ، فقرّبه منه ، وجعله من جلسائه ، وقرّر له راتباً ، راجياً أن ينوب ويتوب ، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة في دمشق ، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال ، حتى قيل إنه قامر بشيابه ونعليه . وعرف ذلك الملك الناصر ، فأمر أن ينادى في حلب من قبل السلطان : « مَنْ قامر مع الشهاب التلعفري قطعنا يده » فضاقت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق ، وكان الملك الأشرف موسى قد توفى ، وظل بها يستجدي ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديداً ، ورحل إلى مصر في هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب ، بل إلى حماة وصاحبها الملك المنصور ، فاحتفى به وأضفى عليه عطاء وفيرا أتاح له بأخرة من حياته عيشاً كريماً . وظل بجماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته .

إذا ما باتَ من تُربِّ فراشي      وبتُّ مجاورَ الربِّ الكريمِ  
فَهَنُّونِي أَصِيحَابِي وَقَوْلُوا      لك البُشْرَى قَدِمْتَ عَلَى رَحِيمِ

وليس في الديوان مدحة من مدائحها ، إلا ما قد يشير إلى بعضها في الأبيات التي نختتم بها ما احتفظ به من بعض مطالعها ، وبذلك يصبح الديوان كله غزلاً ، وهو غزل طراز غزل الحاجري ، أو هو بعبارة أدق شعر وجداني يسيل رقة وعدوية وسلاسة ، وكأنه الماء النмир حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما أبلى به من القمار ، وهو فيه يجري على هذا النمط الوجداني الرائع :

أَيَّ دَمْعٍ مِنَ الْجَفُونِ أَسْأَلُهُ      إِذْ أَتَيْتُهُ مَعَ النَّسِيمِ رِسَالَةً  
سَلِّ عَقِيقَ الْحِمَى وَقُلْ إِذْ تَرَاهُ      خَالِياً مِنْ ظِلَائِهِ الْمُخْتَالَةَ

أين تلك المراشفُ العسليًّا      تٌ وتلك المعاطفُ العسَّالَه (١)  
وليالٍ قضيتها كلالٍ      بغزالٍ تغارُ منه الغزَّالَه (٢)  
بابليُّ الأخطابِ والرَّيقِ والألِّ      ففاظٍ كلُّ مُدَمَّهٍ سلسَّالَه  
وسقمِ الجفونِ والخصرِ والعَهِّ      يدِ فكلُّ تراه يشكو اعتلالَه  
أوقعَ الوهمَ حينَ يرمى فلمَ ندُّ      رِ يداهُ أم عينُه النَّبالَه

والقصيدة كلها توجع بهذه الرقة والعذوبة مع الانسياب والتدفق ، وكأننا بإزاء جدول يسيل شعرا ووجدا وهياما ، مع جمال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر ، وكأن كلا منها تجذب صاحبها تريد أن تعانقها عنق ذوى الرحم والقرابة . وتلك الأخطاب والريق والألفاظ لصاحبته جميعا كأنها رحيق مسكر ، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفتورها وهو جمال وحسن فيها ، وبين الخصر وسقمه أو نحوله وهو يستحب فيه ، وأخيرا بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبته فهي تُدِلُّ عليه ولا تنفي بوعداها ، وهكذا يشكو كلُّ سقمه واعتلاله . ودائما يذكر الشعراء سهام العيون وكيف تصمى الأفئدة ، وهو يضم إليها سهام الأيدي الفاتنة ، فلا يدري أحد من أين يأتي النبل أمن الأيدي أم من العيون ، ويكرر كثيرا أن حاجبي صاحبته قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوبانها إلى العاشقين المفتونين . وله بصور ألم الفراق .

إني لأعجبُ من محبِّ مُشَعَفٍ      عَيْشًا له من بعد حَثِّ الأَيْثِقِ  
يأيُّها الحادى بعودك سالماً      ألا رثيتَ لشمَلنا المتمرِّقِ  
أرحِ المطيَّ وها فؤادى فاقبِسْ      وامننْ علىَّ وها دموعى فاستقِ  
ليسَ التعجبُ من رقادى - إذ مضى -      فيه ولكنْ من جميعى إذ بَقِيَ  
لدلاله ذلُّى به ولجبه      وهواه ما يلقىَ الفؤادُ وما لقي

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الولهان بعد فراق صاحبته ، وإنه ليهتف بالحادى أن يريح مطيه ، وإذا كان يريد نارا فليقتبسها من فؤاده ، أو ماء فليستق من دموعه التى تتدافع سيلاً مدراراً . ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبته ولا يعجب من سهاده فيها ، بل يعجب من أن يظل جميعه حيا يتنفس ، وإنه ليتذلل ويضرع أسى ووجدا . وكل ذلك شعر وجدانى وقف عليه التلعفري - مثل أستاذه الحاجرى مواطنه - حياته وشعره ، وله موشحة وحيدة مدح بها العزَّازى الشاعر الوشاح المصرى احتفظ الديوان بها تامة وهى من

(١) العسليات : النسوبة إلى العسل ، وأراد بالمعاطف (٢) الغزَّالَه : الشمس .

القوام . العسالة : اللبنة .

نفس المعين الذى يستمد منه شعره الوجدانى ، على نحو ما يتضح من قوله فى مطلعها :  
 ليس يُرَوَى ما بقلبي من ظمًا غيرُ بَرَقٍ لائحٍ من إضمٍ (١)  
 إن تبدى لك بانُ الأجرع (٢)  
 وأثيلاتُ النَّقا من لَعَلع (٣)  
 يا خليلي قِفْ على الدارِ معي  
 وتأمّلْ كم بها من مَصْرَعٍ  
 واحترزْ واحذرْ فأحداقُ الدُمى كم أراقتُ فى رُباها من دمٍ

وللحاجرى موشح فى ديوانه ، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح فى موسيقاه وورصف ألفاظه . وليس معنى ذلك أن التلعفري يتفوق على الحاجرى فى روعة شعره ، فالحاجرى هو الأستاذ وهو الذى مهد الطريق وعبدها للتلعفري ، وهما جميعا يجلبان فى غزلها تجلية بديعة . ويقول ابن تغرى بردى عن التلعفري إنه كان يتشبع ، ولكنه لم يفسح لنحلته فى شعره .

## ٢

## ٦

## شعراء اللهو والمجون

مرّ بنا فى حديثنا عن المجتمع فى الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس فى الترف ، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهو واحتساء الخمر فى مجالس أنس كانت لا تزال تنعقد فى بغداد ، وذكرنا من بين هذه المجالس مجلس الوزير المهلبى ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والخلاعة والرقص ، وفى يد كل منهم طاس مملوء خمرا يعبُّ منه عبًّا . ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبى ، ولكن كثيرين منهم كانوا يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله فى اللهو والعبث ، ويصور محمد بن أبى المطهر الأزدى فى كتابه «حكاية أبى القاسم البغدادى» - الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع - بعض هذه المجالس فى القرن الخامس الهجرى وكيف كانت تعبق بالطيب على بساط الرياحين

(١) إضم : الوادى الذى فيه المدينة المنورة . (٢) أثيلات : شجر . النقا : القطعة من الرمل .

(٣) البان : شجر . والأجرع : الرملة الطيبة المنبت لعلع : ماء بالبادية .

والورود وكيف كانت تهبّ للأنس رياح ، سحابها الأفداح ، وبرّقها الراح ، وقد نطقت السنة العيدان والنايات تسند غناء الجوارى والمغنين بألحانها الشجية ، ويطنل في وصف الخمر وأن منها ما كأنه عُصر من خَدَّ الشمس ، وما هو أصفى من الماء ، وأرق من دَمعة العاشق المهجور<sup>(١)</sup> . والكتاب إنما كتب في وصف المجون ببغداد لعصر مؤلفه ، وينبغي أن لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة ، إنما هي صورة حياة طبقة خاصة هي الطبقة المترفة ، وكان وراءها الشعب يكدح ويتصبّب جبينه عرقاً كي تملأ هذه الطبقة بطونها وتملاً مجالسها بالشرب من الطاس والكاس . وحقا كانت للشعب مواسم للهو والعبث ، غير أنها قلما تعدّت أعياد الجوس والنصارى مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

على كل حال ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان ببغداد من اللهو والمجون ، وأن نقصر ذلك على الفئة الأرستقراطية أما الشعب فحسبه منها ما كان يستمتع به من هو في بعض الأعياد وخاصة أعياد الربيع ، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهير الدين الكازروني المتوفى سنة ٦٩٧ عرض فيها لهذا الجانب من هو البغداديين وخروجهم إلى الرياض وتزهرهم في الحدائق والأنهار قائلا : « أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم كانوا يصطحبون ويتجمعون وينتالون (كأنهم إلى نُصْب يُوفضون) فينزولون الجوارى ( السفن ) في رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قَصده . . ويخترقون أشجاره ويقطفون ثماره ونوّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره وينزلون غيطانه وأنهاره ، ثم تعزف القيان وتصطحب العيدان ، وتصفّق العُدران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان ، وكلما دَسَع (امتلاً) الرَّأووقُ (دَنّ الخمر وطاسه) طاب المشوق . . وكلما طرب العود ، زججرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك أياما لا يطعمون مناما»<sup>(٢)</sup> ولم تكن حانات بغداد في الكرخ ولا حانات المنتزهات وحدها هما اللتان يجد فيها عشاق المجون ما يصبون إليه من الخمر بل كانوا يجدونها أيضا في الأديرة .

وبذلك كله ظلت الخمرية تتردد على السنة الشعراء ، وظلوا يصوغونها ، وكل منهم يحاول أن يأتي فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة ، وقد نُظمت كثير من الخمريات في مجالس الوزير المهلبى ، ولعل جليسه القاضي أبا القاسم التنوحي كان المجلى بين ناظميها بمثل قوله في

(١) حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٤٥ وما بعدها . ص ٢٧ .

(٢) انظر مقامة ظهير الدين الكازروني (طبع بغداد)

إحدى خمرياته (١) .

وراحٍ من الشمس مخلوقةٌ بدتْ لك في قدحٍ من نهارِ  
هواءٍ ولكنه جامدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارٍ  
وهو تصويرٌ بديعٌ أن يجعل الخمر شمسا أو قطعةً منها وماء غير جارٍ والكأس نهارا وهواء  
جامدا . وكان كثيرون من أهل بغداد رجلا ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها ، يدل  
على ذلك ما حكاه ابن خلكان - في ترجمة صاحبها - عن الحسن بن عسكر الصوفي  
الواسطي قال : كنت ببغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالسا على دكة بباب أبرز  
للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبي ، فأشدتُ متمثلا :

هواءٌ ولكنه جامدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارٍ  
وسكتٌ ، فقالت إحداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماما ؟ فقلت : ما أحفظ سواه ،  
فقلت : إن أنشدك أحداً تمامه وما قبله ماذا تعطيه ؟ فقلت ليس لي شيء أعطيه ،  
فأنشدتني الخمرية وزادت بعد البيت السابق :

إذا ما تأملتها وهى فيه تأملت نورا مُحيطاً بنارٍ  
فهذا النهايةُ في الايضاضِ وهذا النهايةُ في الاحمرارِ

فحفظت البيتين منها . وإنما روينا ذلك لندل على ظرف الجوارى في بغداد وأن سوق  
الخمرات كانت رائجة ، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإتيان بالمعاني المبتكرة  
الطريفة كقول البيهقي في عتق الخمر (٢) :

وعريقة الأنسابِ والشيمِ موجودةٌ والخلقُ في العدمِ  
هى آدمُ الكرمِ المولدِ فى الـ دُنيا وحوًا الخمرِ فى القدمِ  
ظهرتْ ونور الشمسِ فى فلكِ من قبل خلقِ الصبحِ والظلمِ  
واشتقَّ معنى اسمِ السُّلافِ لها من كونها فى سالفِ الأممِ

وبون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخى في بعد الخيال والتصوير . ومن قديم يمزج  
الشعراء في الخمرية بين الحب ونشوة الخمر . ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد  
أبي حيان التوحيدى غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وهى تشاجى  
وتتدلل وتتمايل وتتكسّر متغنية بهذه الخمرية (٣) .

(١) انظر ترجمة القاضى التنوخى فى ابن خلكان (٢) البيهقي ٢٦٢/١ .

(٣) ٣٦٦/٣ والجواهر المضية ومعجم الأدياء ١٦٢/١٤ . (٣) الإمتاع والمؤانسة ١٧٣/٢ .

مجلسُ صَبَّينَ عَمِيدَيْنِ لَيْسَا مِنَ الْحَبِّ بِخُلُوبَيْنِ  
 قَدْ صَبَّرَا رُوحَيْهَا وَاحِدًا وَأَقْتَسَاهَا بَيْنَ جِسْمَيْنِ  
 تَنَازَعَا كَأَسَا عَلَى لَذَّةٍ قَدْ مَرَّجَاهَا بَيْنَ دَمْعَيْنِ  
 وَالكَأْسُ لَا تَحْسُنُ إِلَّا إِذَا أَدْرَتْهَا بَيْنَ مُحِبِّينِ

ومن قديم أيضا يمزج الشعراء بين الشوة بالخمير والشوة بالطبيعة ، إذ كانوا فعلا كما مر بنا يشربونها على أبسطه الربيع وبين آسه وورده وزهره ، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها ، حتى تعبق بروائحها أو قل نقلوا الربيع بكل ما فيه نقلا يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس . فكان طبيعيا أن يتحدث الشعراء في خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورود والرياحين في الربيع ، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج في الشتاء كقول الوزير المهلب في إحدى خمرياته (١) :

الوردُ بين مضمخٍ ومضرجٍ والزهرُ بين مكلَّلٍ ومترجٍ (٢)  
 والثلجُ يهبطُ كالنثارِ فقمُ بنا نلتدُّ بابنةِ كرمٍ لم تترج (٣)

وكان الغناء يرافق الخمر ، كما أشرنا إلى ذلك ، فعرضت خمريات كثيرة للغناء والخمر معا ، كما عرضت أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان ، وكثير منه كان يقصد به إلى التندر والدعابة في أثناء السكر . وكان الغزل بالغلمان لونا من ألوان التماجن في العصر ، وهو - لاشك - وصمة معيبة في جبين أصحابه .

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحي أصحابها من ذكر العورات والإسراف في الفحش ، ونعجب الآن أن يتخذ ذلك ضربا من الهزل والتسرية عن الناس ، وكأنما أعيامهم أن يسروا عن أنفسهم ، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التي تؤذى النفوس الكريمة . وكان شعراء هذا الهزل الماجن يمزجونه بفكاهات ونوادير ودعابات كثيرة ، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدته ، وأنى لهم ؟ ! فقد كان يمتلئ بسخف كثير ، وسخفه ليس ناشئا عن التورط في الخمر فحسب وإنما أيضا عن التورط في وصف الفواحش والتصريح بالآثام في غير استحياء . وكان الذي دفع إلى ذلك ابن سكرة وابن الحجَّاج في القرن الرابع ، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولها ومن بعدها كانوا يترفعون عن هذا الدرك

(٣) النثار : ما ينثر في حفلات العرس والسرور من

(١) البيمة ٢ / ٢٣٧ .

(٢) مضمخ : ملطخ بالطيب ، مضرج : ملطخ نقود أو حلوى .

بالحمرة .



الأسفل من التصريح بالآثم على نحو ما نرى في خمريات عبد الصمد<sup>(١)</sup> بن بابك المتوفى بعدهما سنة ٤١٠ وله من خمرية :

عُقَارٌ عَلَيْهَا مِنْ دَمِ الصَّبِّ نَفْضَةٌ      وَمِنْ عِبْرَاتِ الْمُسْتَهَامِ فَوَاقِعُ  
مَعُودَةٌ غَضَبَ الْعُقُولِ كَأَنَّمَا      لَهَا عِنْدَ أَبَابِ الرِّجَالِ وَدَائِعُ  
تَحْيِرٌ دَمَعُ الْمُرْنِ فِي كَأْسِهَا كَمَا      تَحْيِرٌ فِي وَرْدِ الْخُدُودِ الْمَدَامِعُ

وقد أبدع في تصوير فواقعها في كأسها بأنها عبرات شاربها العاشق الوطان ، ويقول إنها استردت منه وديعتها ، ففارقه عقله . ويصل بين امتزاج الماء بالخمير المحمرة في كأسها وبين الدموع وتحدرها على حدود المحبوبة الموردة ، وله من أخرى :

يَا صَاحِبِيَّ امزُجَا كَأْسَ الْمُدَامِ لَنَا      كَمَا يُضِيءُ لَنَا مِنْ نُورِهَا الْعَسَقُ  
خَمْرًا إِذَا مَا نَدِيمِي هَمَّ بِشَرْبِهَا      أَخَشِي عَلَيْهِ مِنَ اللَّأَلَاءِ يَحْتَرِقُ  
لَوْ رَامَ يَحْلِفُ أَنَّ الشَّمْسَ مَا غَرَبَتْ      فِي فِيهِ كَذَّبَهُ فِي وَجْهِهِ الشَّقَقُ

وخوفه على نديمه من الاحتراق في لألاء الخمر غريب ، وأغرب منه دعواه أن الشمس غربت في فمه بدليل ما تتضرج به خدوده من حرمتها ، وكأنها تركت عليها شفقها أو بصاتها الحمراء . ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون في الخمر متفننين في معانيها ومحاولين بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة ، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن التعاويذي والحاجري والتلعفري وصفى الدين الحلبي . وانحصرت موجة الجون والفحش بذلك عند ابن سكرة وابن الحجاج وتراجعت عند خالفهم وكادت تنحصر في شعر هزلي مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع<sup>(٢)</sup> الدلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل قوله :

مَنْ مَضَعِ الْأَحْجَارَ أَدَمَتْ فَكَّهُ      فَالضَّرْسُ لَمْ تُخَلِّقْ لِتَلِينِ الْحَصَى  
مِنْ قَطْعِ النَّخْلِ وَظِلِّ رَاجِيًا      ثَمَارَهَا فَذَكَ مَقْطُوعُ الرَّجَا

وقد يحاول شاعر من باب الدعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة ، غير أنه يخفف جدا من تماجنه وتعايشه بحيث لا يستخدم شيئا من ألفاظ الفحش ، إنما يكتب بيان عكوفه على الخمر وأنها كل لذته في دنياه ، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها في ليالي رمضان

(١) انظر في ترجمة عبد الصمد اليتيمة ٣/٣٧٤ (٢) انظر في ترجمة صريع الدلاء تمة اليتيمة للتعالي

وابن خلكان ٣/١٩٦ وعبر الذهبي ٣/١٠٢ والنجوم ١٤/١ وابن خلكان ٣/٣٨٣ وعبر الذهبي ٣/١١٠

والشذرات ٣/١٩٧ وله ديوان مخطوط . انظر بروكلان

قبل سحوره ، وفي ذلك يقول ابن السَّوَادِي (١) من شعراء القرن السادس مَماجنا .  
 الصُّبُوحَ الصُّبُوحَ فِي شَعْبَانٍ لَا تُخْلُوا بِهِ مَعَ الْإِمْكَانِ  
 وَأَسْقِنِيهَا يَوْمَ الثَّلَاثِينَ فِي الشَّدِّ لَكُ وَبَعْدَ السُّحُورِ قَبْلَ الْأَذَانِ

وبعد أن تماجن طويلا في القصيدة راجع نفسه وعاد يعلن حسن إسلامه وطاعة ربه  
 وأنه براء من كل ما يصف به نفسه ، قائلا :

يُنَيِّئِي غَيْرَ مَا سَمِعْتَ وَمَا كَانَتْ لِسَانِي عَنْ يُنَيِّئِي تُرْجَمَانِي

ومضى يذكر أن عُدَّتَه في معاده شفاعة الرسول عليه السلام وعلى وفاطمة الزهراء  
 والحسين ، وبذلك محا كل ما جاء به في قصيدته من تماجن ، مصرحا بعقيدته الشيعة  
 وما يعتقدُه الشيعة في شفاعة على والسيدة فاطمة والحسن والحسين . وما دنا بصدد التماجن  
 فحرى بنا أن نتوقف قليلا عند علميه في العصر : ابن سكرة وابن الحجاج .

### ابن سَكْرَةَ (٢)

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادي الهاشمي ، وهو من  
 سلالة علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي المشهور ، ويبدو أنه كان في  
 يسار وسعة من المال وأنه عاش للمجون والخلاعة . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وتربيته  
 وحياته إلا ما يصفه به الثعالبي في اليتيمة من قوله : « هو شاعر متمسح الباع ، في أنواع  
 الإبداع ، فائق في قول الملح والطُرف ، أحد الفحول الأفراد ، جارٍ في ميدان المجون  
 والسخف ما أراد . . . ويقال إن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت ، منها في قينة سوداء  
 يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عُرْضة نوادره ومُلْحِه . وحكى بعض  
 معاصريه أنه حلف بطلاق امرأته - وهي ابنة عمه - أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره  
 في هجاء خمرة ، ولما علمت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صلاة  
 الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم ، فلا تفارقه تامم  
 يقرض ولو بيتا في ذكرها وهجائها . وتدل الأشعار التي أنشدها له الثعالبي على شاعرية  
 خصبة في الغزل وغير الغزل من مثل قوله :

(١) راجع في ترجمة ابن السوادى وشعره الخريدة (قسم العراق) ٣٦٩/١/٤ وابن خلكان ٤٨١/٣ .  
 وتاريخ بغداد ٤٦٥/٥ والمتنظم ١٨٦/٧ وعبر الذهبي  
 ٣٠/٣ وابن خلكان ٤١٠/٤ والشذرات ١١٧/٣ ومراة  
 الجنان للياقنى ٤٢٧/٢ والوفى ٢٠٨/٣ .  
 (٢) انظر في ترجمة ابن سكرة وأشعاره اليتيمة ٣/٣

حَذَارٍ مِنْ وَصَلٍ مَنْ بَلِيَتْ بِهِ      فَقَدْ لَقِيَتْ الرَّدَى بِجَفْوَتِهِ  
دَنُوتٌ مِنْهُ كَمَا أَقْبَلَهُ      فَلَمْ تَدْعُنِي نِيرَانٌ وَجَنَّتِي

فقد جعل النيران المشتعلة في وجنات محبوبته وخطودها تدفعه دفعا وترده ردا عنيفا ،

ومن هذا النمط قوله متغزلا :

مَنْعَتْنِي مِنْ مُقَبَّلِهِ      حِينَ أَدْنُو مِنْهُ عَقْرَبُهُ  
وَاسْتَدَارَتْ فَهِيَ تَحْرُسُهُ      مِنْ فِي بُخْلًا وَتَرْفَهُ

وكانت النساء تلوي على أصدائها خصلة من شعرها في شكل عقرب تزينا وتجملا ، فاستغل ذلك حتى النهاية ، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع في طرفها ، وكأنها تراقب صاحبها وتستعد للدغ من يقرب من حدودها . ولن نستطيع أن نروى شيئا من فحشه في الغزل ، ونكتفي بذكر بعض أبيات تصور مجونه دون أن تؤذى الذوق ، من ذلك قوله :

وَيَوْمٍ لَا يِقَاسُ إِلَيْهِ يَوْمٌ      يَلُوحُ ضِيَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ نَارِ  
أَقْنَا فِيهِ لِلذَّاتِ سَوْقًا      نَبِيحَ الْعَقْلِ فِيهَا بِالْعُقَارِ

فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهاك في المجون والعب من الخمر وإنه ليقم للمجون سوقا يبيع فيه عقله ببيع وكس يدن زهيد من الخمر يفقده رشده ، ومن قوله : اشرب فليلوم فضل لو علمت به بادرت باللهو واستعجلت بالطرب ورد الحدود وورد الروض قد جمعا والغيم مبتسم والشمس في الحجب لاتحبس الكأس واشربها مشعشة حتى تموت بها موتا بلا سبب

وقد جعل كل شيء في الزمان والمكان يحث على اللهو والطرب ، فقد اجتمعت الخمر وورد الحدود كما يقول وورود الرياض في يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة . ويذكر أن ذلك كله يدعو لاحتساء الخمر حتى الموت موتا بلا سبب ، دعابة مقصودة ، ومن قوله : قد بدا الصبح مؤذنا بسفور وقرى الفجر حلة الديجور<sup>(١)</sup> فاسقتني قهوة تترجم بالرقة عن دمع عاشق مهجور

فالخمر رقيقة رقة دمع العاشق لكثرة حباته المتساقطة من مآقيه . ولو عرف قيمة الملكة الشعرية التي رزقها لحفظ لها حقها ولم يسقط في شعر الفحش والمآثم ، ولا طلع أشعاره بهذا الدنس . وله هجاء كله سخرية ووخز كوخز الإبر . وكان واسع الخيال إلى درجة الوهم على نحو ما نرى في قوله :

(١) فرى : شق . الديجور : الظلمة .

قيل : ما أعددتَ للبرِّ دِ فقد جاء بشدّه  
قلت : دُرَاعَةٌ عُرِيَّ تحتها جُبَّةٌ رِعْدَه

والدراعة : ثوب من صوف ، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعرى دراعة وللرعدة من برد الشتاء جُبَّةً . وما أظنه كان يصور شيئاً من حقيقة حياته ، فقد كان على غير قليل من اليسار . وكأنه في البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفاعر وإظهار الخِصاصة ، وكان لها شعراء معروفون هم شعراء الكُديّة ، فجاراهما في بيته تظرفاً ودعابة . وقد توفى سنة ٣٨٥ للهجرة .

### ابن الحجاج<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نسب إلى جدِّ له يسمى الحجاج ، ويبدو أن أباه كان من العمال ، وعُني بترية ابنه ، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلاً عن مجالس الأدب ، والتحق بالدواوين كاتباً ثم أصبح ضامناً لفرائض الصدقات بسقي الفرات مدة ، ثم تولى حِسبة بغداد فترة إلى أن عُزل بأبي سعيد الإصطخرى الفقيه الشافعي . وكان أكبر شعراء زمانه في التهاجن والتعابث ، وهو يخطو فيها خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة ، حتى زعم الرواة والنقاد أنه « فرد زمانه في فنّه الذي شُهر به وأنه لم يُسبق إلى طريقته ، ولم يُلحق شأوه في نمطه » وفيه يقول أبو حيان : « سخيف الطريقة بعيد من الجدِّ ، قريع ( فحل ) في الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له في قرّضه مثال ، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشائله نائية بالوقار ، عن عادته الجارية في الخسار ، وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة ، وإذا جدَّ أقمي<sup>(٢)</sup> ، وإذا هزل حكى الأفعى » ويقول صاحب اليتيمة : « هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسخف<sup>(٣)</sup> ، ولا يبنى جُلَّ قوله إلا على سُخْف ، فإنه من سَحرة الشعر ، وعجائب العصر . وأشعاره مشوبة بلغات الخُلديين ( أصحاب الحرف ) والمكّدين ( أدبانية العامة ) والشطار . وكلامه يمدُّ يد المجون فيعرك بها أذن الحرِّم ، ويفتح جراب السخف فيصفع قفا العقل ، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه . . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . . . وهو عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور

(١) انظر في ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣٠/٣ والشذرات ١٣٦/٣ .

وتاريخ بغداد ١٤/٨ ومعجم الأدياء ٢٠٦/٩ والإمتاع (٢) أقمي هنا : قعد ولم يتم جده .

والمؤانسة لأبي حيان ١٣٧/١ وابن خلكان ١٦٨/٢ (٣) سخف : ستر .

الحظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصَّلَاتِ الجِسام . . وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر . تحكّم الصبي على أهله ، ويعيش في أكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية . « وإلى ذلك يشير في شعره مرارا ، وأنه بناه على التماجن والفحش للتفكه والدعابة طلبا للكسب به ، يقول :

لوجدتُ شعري رأيتَ فيه كواكبَ الليلِ كيف تَسرى  
وإنما هَزَلُهُ مجونٌ يمشي به في المعاش أمرى

وقد عاش عيشة رفاهٍ ويسارٍ حتى توفي سنة ٣٩١ . وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات ، وكان يباع في حياته بخمسين دينارا إلى سبعين ، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقادير قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن « قيمته بربخ » أي بالوعدة تحمل القاذورات وما ينضاف إليها . وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالناس بحكم الناس وراه في عصره وبعد عصره : وقد دعا بعض أصحاب الحسبة في كتبهم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك . وينبغي أن نشير إلى ما ذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق في التماجن ، وكأنه كان تماجنا مقصودا به إلى الإضحاك : إضحاك الرؤساء والكبراء ، غير أنه تجاوز فيه حده . وكان حسبه ما لديه من القدرة على الفكاهة ليضحك الناس دون التردى في بالوعات الفحش وقاذوراته ، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله في مديحه لبختيار الحاكم البويهى لبغداد في عصره :

فديتُ وجهَ الأميرِ من قمرٍ يجلو القَدَى نورُهُ عن البصرِ  
فديتُ مَنْ وَجْهَهُ يُشكِّكُنِي في أَنَّهُ من سُلالةِ البَشْرِ  
إن زُلَيْخا لو أبصرتك لما ملَّتْ إلى الحشرِ لذةَ النظرِ

ويستمر في مثل هذا التماجن . وهو لا يطيق الصبر حتى مع بختيار في تماجنه ، إذ يمضى فيلطح المدحة في أواخرها بشيء من قاذوراته . وكان شيعا إماميا ، وكان يشوب تشيعه أحيانا بشيء من الغلو ، وكان قريبا من نفس الشريف الرضى ، فاختر من شعره قطعة تخلو من قدره وسخفه . ورثاه حين توفي رثاء حارا ، ومن خمرياته التي تخلو من فحشه وبذائه قوله :

يا صاحبي استيقظا من رقدةٍ تُزرى على عقل اللبيب الأكيْسِ

هذى المجرّة والنجوم كأنها نهرٌ تدفق في حديقة نرجس  
 قوما اسقياني قهوةً روميّةً من عهد قيصر دُنّها لم يُمسَسِ  
 صرفاً تُضيف إذا تسلّط حكمها موتَ العقول إلى حياة الأَنفُسِ

والصورة في البيت الثاني جيدة إذ جعل نهر المجرّة يتدفق في حديقة نرجس ، وجعل  
 الخمر في البيت الأخير تमित العقول في رأيه ، ولكنها تحبى النفوس . وله خمرة قالها في  
 عيد المهرجان ، وهي تخلو من مقادير غير أن فيها تبجحا شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه  
 الخمر مع ما جاء من تحريمها في الذكر الحكيم .

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك ، وقد عاد في هذه القصيدة أو  
 الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه  
 السلام والإمام علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين ، وتكثر في أشعاره الكذبة أو  
 الشحاذة الأدبية ، فهو يكثر من بيان فقره وحاجته ، وأنه لا يجد المرق فضلا عن اللحم ،  
 وأنه دائماً يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقة من خشوته ، ودائماً لا يجد صوفاً يقيه  
 برد الشتاء ولا خيشاً يقيه حر الصيف . وكل ذلك دعابة وفكاهة ، فقد كانت الدنانير  
 والدراهم تنسكب عليه من كل جانب .

### ٣

#### شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام يُعدّ الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم ، زهد في طيبات الحياة  
 ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة ، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه  
 وتعبد لربه وبين السعي لرزقه ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخريته كأنه  
 يموت غداً . وهو يضع ثقته في الله ويتوكل عليه حق التوكل ، ولا يرى في سعيه لكسب  
 قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة . وتلقانا في العراق مع العصر الأموي طوائف  
 من التماسك والعباد الزهاد ، فالزهد والنسك قديمان في هذه البيئة ، وأخذت تتسع موجة  
 الزهد مع العصرين العباسي الأول والثاني . وظلت حادة في هذا العصر ، ولا شك في أنها  
 كانت أحدً وأكثر اتساعاً وجمهوراً بل جماهير من موجة اللهو والمجون ، فقد كانت هذه

تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة في الأمة ومن حَفَّ بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبت. وكان الشعب لا يشترك في اللهو إلا في مواسم خاصة كأعياد الجوس والنصارى. أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أو جماهير الأمة، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلاً ونهاراً. وكان يغذى هذه الروح في المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم.

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٣٨٧ ويقول ابن خلكان: كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة» ومن قوله: «سبحان من أنطق باللحم، وبصّر بالشحم، وأسمع بالعظم» إشارة إلى اللسان والعين والأذن، وإياه عَنَى الحريري في المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله في أوائلها: «رأيت بالرّى ذات بُكرة، زمرة في إثر زمرة، وهم منتشرون انتشار الجراد، ومستنون<sup>(٢)</sup> استنان الجياد، ومتواصفون واعظا يقصدونه، ويحلّون ابن سمعون دونه» ولم يكن له نظير في زمنه. وكانت تعاصره ميمونة<sup>(٣)</sup> بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة سنة ٣٩٣ وكان لها لسان حلو في الوعظ. وكان قبلها وبعدها كثيرات زاهدات، وكان بعضهن يعظن وبعضهن يُحمَل عنهن الحديث وقد ترجم ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» لطائفة كبيرة منهن. وفي سنة ٤٩٦ توفى ببغداد واعظ كبير هو أردشير بن منصور «وبوعظه حلقَ أكثر الصبيان رءوسهم ولزموا المساجد وبدّدوا الخمر وكسروا الملاهي»<sup>(٤)</sup> ومن كبار الوعاظ الزهاد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي المارّ ذكره ويقول ابن رجب: «من معاني كلامه يستمد أبو الفرج بن الجوزي». وفي كل بلدان العراق تلتقى بأخبار هؤلاء الوعاظ مثل محمد بن عبد الملك الفارقي<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٥٦٤ وقد ترجم له العماد ترجمة ضافية، ذكر فيها مواعظه ومناجياته لربه، وكان يضمها أشعارا في الزهد والوجد مثل قوله:

(١) انظر في ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٣٠٤/٤  
 وتاريخ بغداد ٢٧٤/١ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى  
 ١٥٥/٢ وصفة الصفوة ٢٦٦/٢ والوفى ٥١/٢.  
 (٢) مستنون من استن: جرى.  
 (٣) النجوم الزاهرة ٢٠٩/٤.  
 (٤) النجوم الزاهرة ١٨٦/٥.  
 (٥) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك في الحزبية  
 (قسم الشام) ٤٣١/٢ وبعدها والمنتظم ٢٢٩/١٠  
 والوفى ٤٤/٤.

مَنْ كَانَ فِي ظِلْمَاءٍ لَيْلٍ سَارِيًّا  
رَصَدَ النُّجُومَ وَأَوْقَدَ الْمِصْبَاحَا  
حَتَّى إِذَا مَا الْبَدْرُ أَشْرَقَ نَوْرُهُ  
تَرَكَ السَّرَّاجَ وَرَاقِبَ الْإِصْبَاحَا  
حَتَّى إِذَا انْجَابَ الظَّلَامُ جَمِيعَهُ  
وَرَأَى الضِّيَاءَ بِأُفُقِهِ قَدْ لَاحَا  
هَجَرَ الْمَسَاجِحَ وَالْكُوكَبَ كُلَّهَا  
وَالْبَدْرَ وَارْتَقَبَ السَّنَا الْوَضَّاحَا

وهي قطعة صوفية رمزية إذ يشير إلى أن من أظلمت عليه الدنيا في مطلبه الأسنى من الاتصال بربه ، يلجأ إلى نجوم فهمه ومصباح قريحته وسراجها ، حتى إذا بدر الدرية والمعرفة أشرق على نفسه هجر ذلك السراج وتلك النجوم وانتظر الإصباح والسنا الواضح فرأى عين اليقين ونهل من معين الحب الإلهي وريحته المصنئ . وربما كان أكبر واعظ عرفته العراق في هذا العصر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ وقد وصف مجلس وعظه ابن جبير سنة ٥٨٠ وصفا مسهباً قائلاً « شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحده جمال الدين أبي الفضائل عبد الرحمن بن علي الجوزي بإزاء داره على الشطِّ بالجانب الشرقي في آخره على اتصال من قصور الخليفة . . وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشهدنا مجلس رجل . . آية الزمان وقره عين الإيمان رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العليا إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ( يريد الوعظ ) والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر ، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضى الطباع مهيارى الانطباع ، وأما نثره فيصعد بسحر البيان ، ويعطل المثل بقسِّ وسحبان ، ومن أهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئاً ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات . . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلاً مبتدراً ، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقرأ . . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . . وحديث ولا حرج عن البحر ، وهيات ليس الخبر عنه كالخبر . ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برفائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقا ، إلى أن علا الضجيج وتردد الشيع ، وأعلن التائبون بالصباح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يُعشى عليه ، فيرفع في الأذرع إليه ، فشهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويدكرها هول يوم القيامة ،



فلو لم نركب نَبَجَ (وسط) البحر، ونعتسف مفازات الفقر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الراجحة، والوجهة المفلحة الناجحة. فالحمد لله على أن مَنْ بقاء مَنْ تشهد الحجادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله (١) .

وطبيعي أن يَنْهَى هذا الوعظ الذي كانت تتدفق جداوله في المساجد الناس عن ارتكاب المعاصي وأن يدفع كثيرين دفعا إلى الزهد في متاع الحياة وخيراتها فضلا عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم. وكما كان للوعاظ فضل كبير في سريان هذه الروح كذلك كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل، فقد كانوا يؤلفون جمهورا كبيرا ببغداد، وكثيرا ما كانوا يثورون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسدين ومن يبيع النيذ. وكثيرا ما نهضوا بأنفسهم فكسبوا الدور وأراقوا الأنبذة (٢) وكانت الدولة لا ترى بدا من النزول على إرادتهم، وسيرهم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائما بشذى الزهد والتكشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تفيض بوجد ملتاع. وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مرَّ بنا آنفا في مقطوعة واعظ مياقارين وزاهدا محمد بن عبد الملك. وتمتلى كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التي يصورون فيها عشقهم الإلهي ومكابدتهم معطلين لحواسهم وعقولهم بينا يتجلى الله في كل الموجودات، وهم ساجدون في بحار الوجد وبين أمواجه، غارقون في آلام حبهيم وأشجانه ودموعه، على نحو ما يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة في قوله: (٣)

إذا جنَّ ليلي هامَ قلبي بذكركم أنوحُ كما نوحَ الحمامِ المطوقِ  
وفوقى سحابٌ يُمطرُ هممَ والأسى وتحتي بحارٌ بالأسى تتدفقُ

وسبق أن عرضنا لشهاب الدين السُّهْرَوْرْدِيّ البغدادي في الفصل الأول. وهو إمام صوفية بغداد ومقدمهم في القرن السابع الهجري، وولِّي عدة رُبط للصوفية، وكان فقيها عالما واعظا، عقد مجلس الوعظ سنين، ويروى أنه أنشد يوما في تضاعيف وعظه (٤) :

لا تسقني وحدي فما عودتني أني أشيحُ بها على جُلَّاسِي  
أنت الكريمُ ولا يليقُ تكْرُمًا أنْ يعبرَ التَّدْمَاءُ دَوْرَ الكاسِ

(١) انظر رحلة ابن جبیر وزيارته فيها لبغداد (طبع)

ليدن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزي مذكرة

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٤/١ .

(٣) ابن خلكان ١٧٢/١ .

(٤) ابن خلكان ٤٤٦/٣ .

فتواجد الناس بذلك ، وقُطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير ، وواضح أنه عبر بالخمر عن النشوة بالعشق الإلهي ، ومن غزله الصوفي :

تَصَرَّمَتْ وَحَشَّةُ اللَّيَالِي وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ الْوِصَالِ  
تَقَاصَرَتْ عَنْكُمْ قُلُوبٌ فَيَالَهُ مُورِداً حَلَّالاً لِي

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه ، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء ، فانجذب عنه الحجاب ، وأضاعت مشكاة قلبه بنور ربه . وانبثقت من الشعر الصوفي منذ ابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية ، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر ، ونظن ظنا أنه كان للحروب الصليبية أثر في ذلك ، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين لعيسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحربهم للدين الحنيف وصاحبه ، وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنُّها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم ، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم ، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامي محاولين - بكل ما وسعهم - أن يجيلوهم شعلا آدمية تشوى وجوه الصليبيين وتأتي عليهم كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . وفي الوقت نفسه مضوا يمدحون النبي الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات ، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مبرما . ولم يكنف بعض الشعراء بمدحتين أو مدائح معدودة للرسول ، بل نظم في ذلك ديوانا مثل محمد بن أبي بكر بن رشيد الواعظ البغدادي فقد نظم في مديح الرسول عليه السلام ديوانا سماه القصائد الوترية في مدح خير البرية وهي تسع وعشرون قصيدة مقفاة على حروف المعجم ، وختار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام ، وهم على الترتيب ابن السراج البغدادي والمرتضى الشهرزوري والصَّرَصْرِيّ .

### ابن السراج البغدادي<sup>(١)</sup>

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي الملقب بالحدث الأديب ، ولد ببغداد سنة ٤١٧ هـ في أول سنة ٤١٨ هـ وقرأ القرآن وتلقن قراءته وأقرأه سنين ، وعنى بالحديث النبوي ورحل في طلبه إلى مكة والشام ومصر ، وخرَّج له الخطيب البغدادي خمسة أجزاء تسمى

ومعجم الأدباء ١٥٣/٧ وابن خلكان ٣٥٧/١ .

(١) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الذيل على

طبقات الحنابلة لابن رجب ١٢٣/١ والمتنظم ١١١/٩

السراجيات ، وله مصنفات مختلفة وكان شاعرا مطبوعا ، واستغلَّ موهبته الشعرية في نظم كتب الفقه مثل كتاب المبتدى وكتاب مناسك الحج وكتاب الخِزْق وكتاب التنبيه . وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق ، وهو في أخبار العباد والنسك ، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرح . وكان حنبليا حُمل عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزي « حدثنا عنه أباينا ، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإبريِّ ، قال : وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماعتها منه » ويقول ابن خلكان عن شهدة : « بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء ، وسمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها<sup>(١)</sup> . وقد جعل السراج كتابه « مصارع العشاق أجزاء ، وكتب على كل جزء آياتا ، من ذلك قوله على الجزء الأول :

هذا كتابُ مصارعِ العشاقِ صرَعَتْهُمُ أَيْدِي نَوَى وَفراقِ  
تصنيفُ مَنْ لدَغَ الفراقُ فَوادَهُ وتطلَّبَ الراقِ فَعَزَّ الراقِي

وكان تقيا ورعا يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق . وأكثر أشعاره في نظم كتب الفقه كما مرَّ بنا وفي الزهد ، والتخلص من درك الهوى إلى ذرى الهدى ، والترفع عن اللذات البدنية ، والشهوات الدنيَّة ، ومن قوله :

أفلحَ عبدٌ عصى هواهُ وفاقَ في دينِهِ وكاسا<sup>(٢)</sup>  
ولم يَرِحْ مُدْمِنًا لخمِرٍ يَنْهَلُ طاسًا يعلُّ كاسا<sup>(٣)</sup>

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كيِّسا فلا يقع في الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقي في درجات الهدى بقمعه لشیطانه وأمانه من غائلته . وله شعر وجداني من مثل قوله يصوِّرُ حنين ناقتة لمنازلها في نجد والحجاز :

قضتُ وطراً من أرضِ نجدٍ وأمتِ عقيقَ الحمى مُرْحَى لها في الأزْمَةِ<sup>(٤)</sup>  
وخبرها الروادُ أنَّ لحاجر حياً نورَتْ منه الرياضُ فحنتِ<sup>(٥)</sup>  
ولاح لها بَرَقٌ من الغورِ موهِنًا كشعلةٍ نارٍ للطوارقِ شبتِ<sup>(٦)</sup>

(١) ابن خلكان ٤٧٧/٢ .

(٤) أمت : قصدت .

(٢) كاس : أصبح كيِّسا حكيماً حصيفاً .

(٥) حاجر : من منازل الحجاز . حيا : غيئا .

(٣) النهل : الشرب الأول . الطاس : إناء

(٦) الغور : غورتهامة وهو ما انحدر منها غرباً . موهناً :

بعد نصف الليل . الطوارق : الضيوف .

الخمر ومثله الكاس . العلل : الشرب الثاني .

وغيَّ لها الحادى فأذكرها الحمى وأيامها فيه وساعاتٍ وجرةٍ (١)  
وقد شَرِكْتَنِي فِي الحنين ركائبي وزدَّن علينا رنةً بعد رنةٍ (٢)  
ألا ليت شعري هل تعود رواجعاً ليلى الصِّبا من بعد ما قد تولَّتْ

والحنين يجرى في الأبيات كما يجرى الماء والخضرة في الأغصان النضرة ، وقد جعل ناقته أودابته نفسها نحنُ حيننا لا يتقطع إلى منازلها ، وهو حنين يضاعفه في نفسها ما يلوح لها من برق ليلا صادرا من جانب القُور ، وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد . كما يضاعف هذا الحنين شدو الحادى وغناؤه ، فتذكر أيامها في وجرة وغير وجرة . ويصرِّح بأن ناقته وركائبه تشركه في الحنين ، بل تزيد عليه رنة بعد رنة ، فيأسى لها ولنفسه ، ويتمنى لو عادت ليلالى الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب ، ولم يبق إلا الوجد والحنين الذى يتقد في فؤاده بمثل قوله :

حبَّذا نجدُ بلاداً لم نجدُ راحةً للقلب في أرضٍ سواها  
فإذا مالملاحٌ منها بارقٌ هاج أشواقى أو هبت صباها  
لستُ أنسى إذ سلَّمتى جارةً تبذل الودَّ وتُصفيها هَواها  
أرسلتُ طيفَ كرىٍ لكنَّه زارنا والعين قد زال كراها (٣)

فَنَجِدُ راحة نفسه ومسرة قلبه ، وإنه ليذكر أيامها وما كان يغمره فيها من متاع وسعادة ، حتى إذا لاح برق أو هب نسيم صباً هاجت به أشواقه ، وأعدت إليه ذكرى حبه لسلمي حين كانت تبادل الهوى والود . وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجدده ويحتمل آلامه ، باكيا ذارفا دموعه كما يقول :

بأن الخليطُ فأدمعى وَجداً عليهم تَسَهَّلُ (٤)  
وحداً بهم حادى الفِرا قِ عن المنازل فاستقلُّوا (٥)  
قُلْ للذين تَرَحَّلُوا عن ناظرى والقلب حلُّوا  
ما ضرَّهم لو أَنهَلُوا من ماء وَصلهمُ وعَلُّوا

فأحبابه رحلوا وحبَّات دموعه لا تزال تتساقط على خدوده ، وهل يملك سوى البكاء

(٤) تسهَّل : تنصب .

(٥) استقلُّوا : ارتحلوا .

(١) وجرة : موضع بنجد .

(٢) الركائب : الإبل .

(٣) الكرى : النوم .

والدموع الغزيرة ، لقد كان في حلمٍ غمره وملاً عليه فؤاده ، وأفاق منه على فراق أحبائه ، وإنه ليعلم إن كانوا قد رحلوا وبعثوا عن مرأى عينه فسيظل وفيا للعهد ، وسيظلون يحلُّون في سويداء قلبه . ويفضى إلى اليأس قائلاً : ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم به مرارا . ومع ذلك فسيظل يذكرهم بل سيظل حبيهم في قلبه قويا حارا . وله وراء ذلك أشعار مختلفة في مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه . توفي ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة .

### المرضى الشَّهْرُ زُورِيَّ (١)

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر الشهرزوري الملقب بالمرضى ، وُلد بالموصل سنة ٤٦٥ وتوفي بها سنة ٥١١ في أرجح الأقوال ، أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ورجع إلى الموصل وتولى بها القضاء بجانب ما كان ينهض به من الوعظ والتذكير . وكان صالحا تقيا ناسكا متعبدا ، ولم يلبس خرقة الصوفية ولا لزم رباطا من رُبَطهم ، ومع ذلك كان صوفيا كبيرا ، صوفيا سنيا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما تبقى من أشعاره واحتفظت به الخريدة للعماد ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وروى له الأخير قصيدة صوفية رائعة ، يقول في تضاعيفها :

لمتْ نارهم وقد عَسَسَ اللَّيْدُ لُ ومَلَّ الحادى وحرَّ الدليلُ (٢)  
فتأملتها وقلتُ لصحبي هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا  
وهي تعلو ونحن ندنوُّ إلى أن حجزتُ دونها طولُ مُحولُ (٣)  
فدوننا من الطلول فحالتُ زفراتُ من دونها وغليلُ  
قلت : من بالديار؟ قالوا جريحُ وأسيرُ مكبَّلُ وقَتِيلُ (٤)  
فحططنا إلى منازل قومٍ صرعتهم قبل المذاق الشمولُ (٥)  
قلت : أهلَ الهوى سلامٌ عليكم لى فؤادُ عنكم بكم مشغولُ  
جئتُ كى أصطلى فهل لى إلى نا رِكْمُ هذه الغداة سبيلُ

إنه لا يزال ساريا طوال الليالى يبحث عن نار الذات الإلهية ، أو قل إنه يتخذ النار رمزا للمنازل على عادة الشعراء الغزلين ، ويراهما من بعيد في الظلام الدامس وقد كلَّ الحادى

(١) انظر في ترجمة المرضى وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٣٠٨/٢ وابن خلكان ٤٩/٣ والشذرات ١٢٤/٤ (٤) مكبل : مقيد . ومرة الزمان ١٢١/٨ والنجوم الزاهرة ٢٣١/٥ . (٥) الشمول : الحصر . (٢) عسس : أظلم .

لطول السرى وحر الدليل المرشد ، وإذا النار أوقبَسُ منها يظهر فجأة ، فينادى صحبه : رأيت نار ليلي فيلوا ، وكلما جد في السرى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طول محول ، ويحاول الدنو من الطول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة . ولا يجد في الديار سوى العشاق ، وهم كثيرون بين جريح ومغلول في القيود وقتيل . وينزل بين قوم شغفهم الحب الرباني ، بل لقد صرعهم قبل أن يتشوا به ويدوقوا خمرة . ويسلم ، ويقول إنه جاء يصطلي بالنار : نار الحب المشتعل ، ويقولون له إن أحدا لا يبلغها ولا يصل إليها ، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طولها . إنها نار تضيء للسارى بالليل ولا تنال ، ومنتهى الحظ أن يتزود اللحظ منها ، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحا ناحلة وأنفاسا متلاشية ، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمعت لهم كأس رجاء حلوة ، فيقولون : صبر جميل .

والقصيدة من أروع ما خلف الصوفية على مر الحقب ، وقد أشدها بكلماتها ابن خلكان ، وقال إنما أثبتتها كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهى مطلوبة ، ويقول العباد في الخريدة : « وجدت من كلام القاضى المرتضى أبى محمد الشهرزورى رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات فى رقة السلسال والشمول » وكأنه لم ينظم فى التصوف فحسب ، بل كتب أيضا ، غير أن العباد لم يُعَنَّ بأن يروى شيئا مما كتبه ، إنما عني بما جاء فى الرسالة من رقائق الغزل الصوفى من مثل قوله :

وعاودتُ قلبى أسأل الصبرَ وقفةً عليها فلا قلبى وجدتُ ولا صبرى  
وغابتُ شمسُ الوصل عني وأظلمتُ مسالكهُ حتى تحيرتُ فى أمرى

والبيتان طريفان ، فقد وقف بالديار فضاغ منه قلبه وعزَّ صبره ، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة ، وهو حائر لا يهتدى ولا يجد من ينقذه . إنه محب مهجور قد حُرِم وصله وحُطِف منه أو أُسر قلبه ، ويقول :

يالليلُ ما جئتكم زائراً إلا وجدتُ الأرض تُطوى لى  
ولا ثنيتُ العزم عن بابكم إلا تعثرتُ بأذيالى

فهو دائماً على عتبات الباب لا يدخل ولا ينعم بوصول ولا لقاء ، ويميل الوقوف والانتظار ، ولكنه لا يستطيع الإياب ، كأنما شئء يمسك بتلابيه ، فكلما حاول الانصراف وأعياه الانتظار ورغب فى الرجوع تعثرت فى أذياله فتسمر فى مكانه ، ومن قوله : شكوتُ إليها ما بقلبي من الجوى فقالت : وهل أبقي الفراق له قلباً

فقلت : فهل لي في وصالك مطمعٌ  
فقلت : فهل من زورةٍ يَحْتَنِي بها  
فقلت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ  
وأصبحَ فينا حائراً ذا ضلالةٍ  
فقلت : إذا ما شَمَسْنَا طلعتُ غَرباً  
ثمَّارَ المني ظمَّانٌ قد مُنِعَ الشُّرباً  
وخاضَ حياضَ الموتِ واستسهلَ الصَّعباً  
يُواصلنا بُعداً ونهجره قُرباً  
وهي محاوره بديعة بينه وبين محبوبته رمز بها إلى حبه الرباني ، فمن يجب الذات العلية يفقد قلبه ولا يصبح له مطمع حقيقي في وصال ولا في زورة يقتطف فيها ثمار المني وينهل معها من الماء ما يطفئ ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد في الوجود واقحم حياض الردى لايبالي ، وحتى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريق يواصل من بعيد ويهجر من قريب .  
ومن قوله يشكو آلامه وعذابه في حبه الإلهي .

بقلبي منهم حرقٌ لها الأحشاء تحترقُ  
ولا وصلٌ ولا هجرٌ ولا نومٌ ولا أرقُ  
فليتيمُّ وقد قطعوا ولم يُبقوا علىَّ بقوا  
فأفنى في محبتهم وريحُ محبتي عبقُ  
كمثل الشمع يُمتع من ينادمه ويمحقُ

فأحشاؤه تحترق ، ولا وصل ولا هجر ، ولا يأس ولا طمع ، ولا نوم ولا أرق ،  
ولا صبر ولا جزع ، وإنه ليكونى بنيران هذا الحب مؤملاً - على طريقه الصوفيين - أن  
تتمحى حواسه وأحاسيسه ، حتى يفنى فناء مطلقاً في الذات العلية ، فناء يعدم فيه وجوده  
البشرى انعداماً تاماً ، كما يعدم الشمع المضيء ، وينمحق انمحاقاً خالصاً .

### الصَّرْصَرِيُّ (١)

هو جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصَّرْصَرِيُّ ، نسبة إلى صَرَّصَر : قرية قريبة  
من بغداد ، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين ،  
وكان حنبلياً ، ويصفه ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الرباني ،  
ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العبَّاد ، كانت له اليد الطولى في النظم وشعره في  
غاية الجودة ، ويقول الصفدي عنه « صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق ، ولا أعلم

(١) انظر في ترجمة الصرصرى ومدائحه النبوية ذيل مرآة  
الزمان للقطب اليونى (طبع حيدر آباد) ٢٥٧/١ -  
٦٦/٧ والذيل على طبقات الخنابلة لابن رجب  
والشذرات ٢٨٤/٥ .  
٣٣٢ ونكت الهميان للصفدى ص ٣٠٨ والنجوم الزاهرة

شاعرا أكثر من مدائح النبي ﷺ أشعر منه ، وشعره طيقة عليا . . يدخل شعره في ثمان مجلدات وكله جيد» ويقول القطب اليونيني وابن تغري بردي : إن مدائح في النبي ﷺ تقارب عشرين مجلدا . ولا يزال الديوان غير منشور وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه . ويذكر الصفدي أن بين مدائح النبوية قصيدة التزم في كل حرف منها ظاءً وثانية التزم في كل حرف منها ضادا وثالثة التزم في كل حرف منها زايا ، وبالمثل بقية الحروف الصعبة ، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو بعبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدي : وهذا دليل القدرة والاطلاع والتمكن .

والصرصرى في المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية العطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وبنوه بزوجاته أمهات المؤمنين وفي مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة . وهو يتراعى في نبوياته سنياً حنبلياً حتى ليعرض في بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه ، ويروى له ابن تغري بردي أبياتا من هزمية نبوية يقول فيها :

يا هلال السرور يا قرّ الأنس  
سـ ونجم الهدى وشمس البهاء  
يا ربيع القلوب يا قرّة العيـ  
نـ وباب الإحسان والتعماء

وهو يصدر في القصيدة عن محبة للرسول عليه السلام شغفت قلبه ، حتى ليراه كل جمال في الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والربيع وقرّة العيون ومسرة النفوس وباب الإحسان والعطاء وكل نعماء ، ويروى له الصفدي قطعة طويلة من مدحة خائية يقول في تضاعيفها :

يا خاتم الرُّسل الكرامِ وفاتح الـ  
خيراتِ يا مُتواضعا شَمَاحا  
يا مَنْ رَسَتْ وسمتْ قواعدُ دينه  
وبه هوى أسُّ الضلالِ وسَاحا  
يا خيرَ مَنْ شَدَّ الرِّحالَ لقصدهِ  
حادي المطىِّ وفي هواه أناخا  
عَطْفًا على عبْدٍ تعلقَ حبِّكم  
طفلا وفي صدقِ الحُبَّةِ شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعظفا ومتشفعا به . ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التي رواها القطب اليونيني أنه كان يصدر أحيانا عن نظرية الحقيقة الحمديه المعروفة ، إذ ذهب إلى أظمية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه . وليس في يدنا الديوان لنحكم على الصرصرى حكما دقيقا في هذا الجانب غير أن هناك بعض إشعاعات من الفكرة نلتقي بها عند اليونيني مثل قول الصرصرى عن الرسول :



هو سابقُ الأعيانِ إذ كُتِبَ اسْمُهُ بِالْعَرْشِ ثُمَّ اسْتُوْدِعَ الْأُلُوْحَا  
فَإِذَا كَانَ قَدْ أَرَادَ بِسِقِهِ الْأَعْيَانَ أَنْ نُوْرَهُ يَسْبِقُ الْمَوْجُوْدَاتِ جَمِيعاً مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْلُقَ  
أَوْ تَخْرُجَ إِلَى الْوُجُوْدِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُسْتَمَدّاً حَيْثُ مِنْ نَظَرِيَةِ الْحَقِيْقَةِ الْحَمْدِيَّةِ ، وَبِالْمَثَلِ مَا نَجِدُ  
عِنْدَهُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ قَدَمِ نُوْرِ الرَّسُوْلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَنَّهُ تَنَقَّلَ فِي صَلْبِ آدَمَ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنْ  
بَعْدِهِ ، إِذْ يَقُوْلُ :

حَلَّتْ صُلْبَ أَيْنَا عِنْدَ مَهْبَطِهِ وَصُلْبَ نُوحٍ وَقَدْ غَشَى الْوَرَى الرَّيْدُ (١)  
وَكُنْتُ فِي صَلْبِ إِبْرَاهِيمَ مُسْتَرَاً وَنَارُ نُرُوْدٍ أَشَقَى الْخَلْقِ تَبَعْدُ (٢)  
وَحَازَ نُورَكَ إِسْمَاعِيلُ يُودِعُهُ أَبْنَاءُهُ الْعُرَّ حَتَّى حَازَهُ أُودُ (٣)

وَيَمِضِي الصَّرْصَرِي فَيَذْكُرُ أَنَّ عِدْنَانَ نَالَ بِهَذَا النُّوْرِ الْمُنْتَزِلَةَ الرَّفِيْعَةَ ، وَمَا زَالَ النُّوْرُ يَتَنَقَّلُ  
حَتَّى انْعَقَدَ بِهِ عَلَى رَأْسِ هَاشِمِ إِكْلِيلِ فَخَرٍ لَا يَشْبَهُهُ إِكْلِيلٌ . وَاتَّصَلَ النُّوْرُ بَعْدَ الْمَطْلَبِ  
وَابْنَهُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ أَضْوَاءُ النُّوْرِ أَنْ انْبَثَقَتْ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ . .  
وَكَانَتْ وَفَاةُ الصَّرْصَرِي سَنَةَ ٦٥٦ دَخَلَ عَلَيْهِ التَّنَارِفِيُّ اِكْتِسَاحَهُمْ لِبَغْدَادِ ، وَكَانَ  
ضَرِيحاً ، فَطَعَنَ بِعَكَازِهِ يَطْنُ وَاحِدَ مِنْهُمْ فَقَتَلَهُ ، وَقُتِلَ شَهِيداً .

٤

٥

### شعراء الفلسفة والشعر التعليمي .

يكثر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكندي، وفي الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك  
أسراب غير قليلة، وكثيراً ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية. وتلقانا في  
كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة بعض وصايا طبية طريفة (٤) ،  
وكثيراً ما كانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما في الحياة وبعد الممات ، على شاكلة  
ما أنشده أبو النفيس (٥) أحد متفلسفة القرن الرابع الهجري :

فِي النَّفْسِ وَالْجِسْمِ إِنْ فَكَّرْتَ مَعْتَبِرٌ بَلْ دُونَ ذَلِكَ ضَلَّ الرَّأْيُ وَالْفِكْرُ  
وَحَارَ كُلُّ لَيْبٍ فِي اتِّحَادِهِمَا وَتَلَّكَ عَيْنٌ وَهَذَا حِكْمَةُ الْأَثَرِ

(١) غشى الوري الزيد : يشير إلى الطوفان المشهور

زمن نوح عليه السلام .

(٢) التروود : الملك الوثني الذي ألقى بإبراهيم الخليل

في النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

(٣) أود : أبو قبيلة عربية ، رمزبه إلى العرب .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٣٩٠ .

(٥) صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني

(بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي - طبع طهران)

ص ٣٥٩ .

يَالَيْتَ شِعْرِي إِذَا الْأَيْدَانُ أَضْمَرَهَا      يَدُ الْبَلْبَى وَحَوَاهَا التُّرْبُ وَالْمَدْرُ  
 هَلْ لِلنَّفُوسِ التَّفَاتُ نَحْوَ عَالِمَهَا      كَمَا تَلَفَّتْ نَحْوَ الْمَرْكَزِ الْحَجْرُ  
 لِيَحْصَلَ الْفَوْزُ فِي دَارِ الْخُلُودِ لَهَا      وَتَنْتَفِي دُونَهَا الْآفَاتُ وَالغَيْرُ  
 أَمْ تَضْمَحَلُّ كَمَا قَدْ بَانَ هَيْكَلُهَا      وَلَا يُحَسُّ لَهَا وَرْدٌ وَلَا صَدْرُ  
 هَذَا الَّذِي صَدَيْتَ مِنْهُ خَوَاطِرُنَا      وَلَيْسَ يَجْلُو صَدَاهَا الْعِلْمُ وَالْحَيْرُ

والأبيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت ، فهل تنفى كما يفنى الجسد ، أو تنفصل عنه إلى عالمها : عالم الخلود ، وهي مشكلة حارت فيها من قديم العقول ، فهذا الجسم مادي محسوس يفنى بموت صاحبه ، وهذه لا تُحَسُّ ولا تُرَى إلا بأثرها وبيث الحياة في الجسم ، حتى إذا فارقت خالدة في الملأ الأعلى . إنها مشكلة محيرة في رأى أبي النفيس يطبق عليها ظلام غامر لا يرفعه عِلْمٌ ولا خبرة ، والأبيات تمضى فتجعل علم الحقيقة بذلك للواحد الأحد . وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وجدنا به متفلسفين عراقيين كثيرين يجيدون نظم الشعر ، مثل ابن التلميذ<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره في ابنه سعيد :

حُبِّي سَعِيداً جَوْهَرٌ ثَابِتٌ      وَحُبُّهُ لِي عَرَضٌ زَائِلٌ  
 بِرِجَاهَاتِي السَّتُّ مَشْغُولَةٌ      وَهُوَ إِلَى غَيْرِي بِهَا مَائِلٌ

والجهات الست هي اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل ، يريد أنه مشغوله بابنه بكل كيانه وكل عواطفه ومشاعره ، وقد جعل حبه له جوهرًا ثابتًا بينما حبه سعيد ابنه له عرض زائل ، ومن قوله :

كَانَتْ بُلْهَيْتُهُ الشَّيْبَةَ سَكْرَةً      فَصَحُوتُ وَاسْتَأْنَفْتُ سِيرَةَ مُجْمِلٍ  
 وَقَعَدْتُ أَرْتَقِبُ الْفَنَاءَ كِرَاكِبٍ      عَرَفَ الْمَحَلَّ فَبَاتَ دُونَ الْمَنْزِلِ

والصورة في البيتين بدیعة ، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنف سيرة معتدل فاضل ، وقعد ينتظر دوره وماتته ، وكأنما هو راكب يعرف منزله وبيته دونه بقليل ، ولا بد من الوصول . وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطرابي وهبة الله ابن الفضل ومحمد بن الجملی المعروف بالعتري وابن هبل .

(١) انظر في ابن التلميذ وشعره معجم الأدياء ٦٩/٦ .

٢٧٦/١٩ وابن أبي أصيبعة ص ٣٤٩ وابن خلكان

ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عنوا باستحداث نط شعري جديد هو الشعر التعليمي ، في مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم كليله ودمته شعرا ونظم قصائد طويلة في الفقه والمنطق والتاريخ ومبدأ الخلق . ويستمر هذا النمط الجديد في العصر العباسي الثاني على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن دُرَيْد ، حتى إذا كنا في هذا العصر اتسعت موجهه وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم . ومرّ بنا في ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية . ويذكر ابن الجزري في كتابه طبقات القراء أن أبا الخطاب بن الجراح على بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٤٩٧ نظم كتابا في القراءات <sup>(١)</sup> ، ونظم الحريري صاحب المقامات ملحّة الإعراب في النحو وأبوابه وقواعده وهي مطبوعة . ونظم ابن أبي الحديد فصيح ثعلب وهو مطبوع ، ونظم فخر الدين بن الفصيح مدرس العربية في المستنصرية المتوفى سنة ٧٥٥ كتاب الكنز في الفقه والسراجية في الفرائض وقصيدة طويلة في القراءات <sup>(٢)</sup> ، وهو باب يطول ويتسع إن نحن حاولنا حصر ما نظم من العلوم والمعارف على مرّ الحقب لهذا العصر ، ونقف قليلاً عند شاعر متفلسف وشاعر تعليمي ، وهما على الترتيب ابن الشَّيْب البغدادي وابن الهَبَّارية .

### ابن الشَّيْب البغدادي <sup>(٣)</sup>

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الشَّيْب ، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفي سنة ٤٧٤ ومن المؤكد أنه اختلف إلى مجالس المتفلسفين في زمنه ، من أمثال يحيى ابن عدى ، وأخذ عنهم كل ما كانوا يعرفونه من فلسفة وطب وفلك وتنجيم ، ويقول ياقوت : « كان متميزا بالحكمة والفلسفة خبيرا بصناعة الطب أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا . وهو صاحب القصيدة الرائية التي نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وقد دلت على علو كعبه في الحكمة والاطلاع على مكنوناتها وقد سارت بها الركبان ، وتداولتها الرواة » وهو يستلها بقوله :

بِرَبِّكَ أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَّارُ      أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرِ أَمْ اضْطَرَّارُ  
مَدَارُكَ قُلْنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ      فَبِأَفْهَامِنَا مِنْكَ أَنْهَارُ

الوفيات ٣٩٣/٢ وسماه محمد بن الحسن بن عبد الله  
ابن الشَّيْب وذكر أن وفاته كانت في سنة ٤٧٣ وراجع  
الوافي بالوفيات ١١/٣ .

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ٥٤٨/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٧/١٠ والعزوى ٣٢٧/١

(٣) انظر في ترجمة ابن الشَّيْب وشعره الدمية ٣٥٢/١

ومعجم الأديباء ٢٣/١٠ وابن أبي أصيبعة ٣٣٣ . وفوات

وفيك نرى الفضاء وهل فضاءً      سوى هذا الفضاء به تُدارُ  
وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل      مع الأجساد يُدْرِكُهَا البوارُ  
وموجٌ ذى المجرَّة أم فِرْنْدُ      على لُجَجِ الدروع له مدارُ  
وَطَوْقٌ للنجوم إذا تبدَّى      هلائِكَ أم يدٌ فيها سوارُ  
وأفلاذٌ نجومك أم حَبَابٌ      تَوْلَفُ بينه لُجَجٌ غَزَارُ  
وتُنشَرُ فى الفضا ليلا وتُطْوَى      نهرا مثلما يُطْوَى الإزارُ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم يديره الفلك دورة مقصودة له ، وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيرا بعيدا في حياة الناس وكل أحوال العالم . وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الفلك وحركته ، فهل هي اضطرارية من قبل الذات العلية أو هي اختيارية ، ويتساءل في أى شيء مداره وحركته . وهل تُرْفَعُ الأرواح إلى عالمه العلوى أو تنفى مع الأجساد فى العالم السفلى ، وهذه المجرّة التى تتدفق ليلا فى السماء بالنور هل هى موج من الأضواء كموج البحر أو هى أثر توججات ضوئية تُلمَحُ كما يلمح توج الضوء فى صفحة الفرند أو السيف ، وهل الهلال طوق معلق للنجوم أو سوار يلمع فى يد على صفحة السماء ، والنجوم هل هى أفلاذ وأرواح أو هى حَبَابٌ طاف على سطح السماء كحباب الماء ، إنها تُنشَرُ ليلا وتُطْوَى نهرا . فما أعظم ذلك من لغز كبير ، بل ألغاز كبيرة ، يقف الإنسان إزاءها مبهوتا يتملكه الدهشُ وتتملكه الحيرة ، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ ، لأن أحدا لا يملك الجواب ولا يعرفه ، ويمضى ابن الشبل فى عرض هذه الألغاز :

ودهرٌ يثُرُ الأعمارَ نثرًا      كما للوردِ فى الروضِ انتشارُ  
ودنيا كلما وضعتُ جَنِينًا      غَدَتُهُ من نوائها ظَوَارُ (١)  
هى العَشَوَاءُ ما حَبَطَتْ هَشِيمٌ      هى العَجَمَاءُ ما جَرَحَتْ جَبَارُ (٢)  
فمن يومٍ بلا أَمْسٍ ويومٍ      بغيرِ غَدٍ إليه بنا يُسَارُ

فهذا الدهر . يُسْقَطُ الأعمارَ كما تَسْقَطُ الوردُ فى الروض وتذبل وتفارقها النضرة والحياة ، وهذه الدنيا كلما وضعتُ جنينا لم تُرْضِعْهُ ، بل تركته لظوار أو مرضعة ترضعه النوائب والخطوب ، وما الدنيا ؟ إنها عَشَوَاءٌ لا تبصر ، وكل ما نخبطه من الأنفس يصبح هشيما ، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يُهْدَرُ ولا يُصْلِحُ أبداً . وما الحياة فى رأى ابن الشبل إلا يوم بدون أمس يسبقه ويوم بدون غد يلحقه ، إنها مأساة كبرى ، سببها ذنب آدم

(٢) جبار : هدر لاقصاص فيه ولا غرم .

(١) ظوار : المرضعة لابن غيرها .

وعصيانه ربه وأكله من الشجرة . فأخرج من الفردوس ثم أهبط إلى الأرض ، ويصور ذلك ابن الشبل قائلا :

لقد بلغ العدو بنا مناهُ وحلَّ بآدمِ وبنا الصغارُ (١)  
فإلك أكلةً ما زال منها علينا نعمةٌ وعليه عارُ  
نُعاقبُ في الظهور وما ولدنا ويُدبِحُ في حشَا الأمِّ الحوارُ (٢)  
ونخرجُ كارهين كما دخلنا خروجَ الضبِّ أخرجهُ الوجارُ (٣)  
وكان وجودنا خيراً لو أنا نُخَيِّرُ قبله أو نستشارُ  
أهذا الداء ليس له دواءٌ وهذا الكسر ليس له انجبارُ

وهو يقصد بالعدو إبليس وأنه بلغ في بني الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فحلَّ بآدم وبهم الهوان والصغار ، فيالها أكلة إثمٍ وباله ذنب جرمٍ ! . ويعود ابن الشبل إلى أساه وحزنه على أبناء جنسه ، فقد يعاقبون وهم أجنة في أحشاء أمهاتهم فيموتون ، ومن يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرها خروج الضب من جحره . وهكذا نجى ونخرج دون اختيار ، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وأغازها لداء يعز دواؤه ، وهذا الموت إنه لكسر لا يمكن انجباره . ويمضى فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتحطمها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتذهل كل مرضعة عن ابنها وتسير الجبال وتسجر البحار ، ويقول إن في ذلك كلة لعبرة وعظة لأولى الأبواب . وله مرثية بديعة في أخيه أحمد يقول في تضاعيفها :

يا أخى عاد بعدك الماء سماً وسَموماً ذاك النسيم الرُخاءُ  
كيف أرجو شفاء ما بي وما بي دون سُكنائى في تراك شفاء  
شَطَرُ نفسى دفتُ والشَطَرُ باقى يتمنى ومن مناه الفناء  
إن تكن قدَّمته أيدى المنايا فإلى السابقين تمضى البطاء  
إنما الناس قادمٌ إثر ماضٍ بدء قومٍ للآخرين انتهاء

والمرثية كلها بكاء وأنين ، وتفكير في الموت ، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبيكاء ، مع ما يخلفون من غصص تعترض بالشجى في الحلوق . ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوب كأنها سباع ضارية ، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها في المساء ما وهبته في الصباح ، وكأن الإنسان يعيش في حلم أو كأنما يعيش بدون عقل ،

(١) الصغار: الذل والهوان . (٢) الحوار: ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين . (٣) الوجار: جحر الضب وغيره . والضب: من

جنس الزواحف ، يكثر في صحراء الجزيرة العربية .

فليست تُعَقِّل الدنيا إزاء هذا الفساد الذى يعم كل شىء فى الكون من أحياء وغير أحياء .  
وفى الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره ، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحساً دقيقاً مرهفاً .

### ابن الهَبَّارِيَّة (١)

هو أبو يَعْلَى محمد بن محمد بن صالح بن الهَبَّارِيَّة العباسى ، نسب إلى هَبَّار جده  
لأمه ، ولد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وكان خييب اللسان ، فلم  
يكذ يسلم من هجائه أحد ، وفيه يقول العماد الأصبهاني : « من شعراء نظام الملك ( وزير  
أَبْ أَرْسلان وابنه ملكشاه ) غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبَّك فى قالب ابن  
الحجاج وسلك أسلوبه وفاقه فى الخلاعة والمجون ، والنظيف من شعره فى نهاية الحسن »  
ويقول ابن تغرى بردى : « كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب » . ومرت بنا فى  
حديثنا عن الهجاء فى الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له فى هجاء أرباب الدولة فى عهد  
ملكشاه السلجوقى . وحتى راعيه نظام الملك لم يسلم من لسانه ، ويقال إنه حين سمع هجاءه  
له أمر بأن يُصرف رسمه أو راتبه مضاعفاً ، وعُدَّتْ تلك مئةً من نظام الملك دالةً على مكارم  
أخلاقه وسعة حلمه . وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع ، حتى ليهجو الإنسانية جميعاً  
قائلاً :

خُذْ جملةَ البُلُوى ودَعْ تفصيلها ما فى البرية كلُّها إنسانُ

وجعلته صلته بنظام الملك يقيم بجواره مدة طويلة فى أصبهان عاصمة ألب أرسلان  
وملكشاه ، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلاً بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ . ولم يعد إلى  
بغداد ، بل اتجه إلى كَرْمَان وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٠٤ .

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومدىحه ، وإنما نريد الحديث عن شعره  
التعليمى فقد نهض بعملين كبيرين فيه : أوَّلها نظمه لقصص كليلة ودمنة ، وقد سماه  
« نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » وهو على غرار نظم أبان من وزن الرجز المزدوج ،  
فكل بيت فيه يتفق شطراهما فى قافية واحدة . وفى فواتحه ما يدل على أنه نظمه فى كَرْمَان ،  
وقد نوه بنظم أبان للقصص ، وأبان يتفوق عليه فى جودة شعره وإن كان عمله سقط من  
يد الزمن إلا ما رواه منه الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق . ونتائج الفطنة مطبوع فى  
بومباى من قديم .

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة  
القصر (تقسيم المعراق) ٧٠/٢ وابن خلكان ٤٥٣/٤  
والنجوم الزاهرة ٢١٠/٥ والوافى ١٣٠/١ ولسان الميزان  
٣٦٧/٥ والشذرات ٢٤/٤ .

والعمل الثاني من شعره التعليمي ديوان الصادح والباغم ، والصادح : رافع صوته بالظرب والباغم خافض الصوت في لين . والديوان أراجيز قصصية مزدوجة ، أو قل أكثرته قَصَصٌ ثم يليها وعظ خلق وحكم متعاقبة . وقد طُبِعَ الديوان في القاهرة وبيروت ولكن في الهند . وهو يستهله بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ ، ويقول :

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبٌ      يفوق أنواع القريض والخُطْبِ  
عملته لسيّد الملوكِ      وموئل الملهوف والصُّعْلوكِ  
فجاء مثل الذهب المسبوكِ      سلكتُ نَهْجًا ليس بالمسبوكِ  
وضعته مخترعاً معناه      للملكِ ماخاب مَنْ رجاه

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدي صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ . وقد مضى يمدحه طويلا ، حتى إذا تمّ الديوان سيره إليه من كَرَمَانٍ مع ولده فأجزل صلته وأسنى جائزته . ويمضى ابن الهبّارية في الديوان بعد تقدّمه لصدقة ومدحها فيذكر مناظرة بين هندي وفارسي استمع إليها في أحد أسفاره ، وفيها يفتخر كل منهما لوطنه ، أما الهندي فافتخر باختراع بلاده للشطرنج ووضعها لكليلة ودمنة ، وأما الفارسي فافتخر باختراع بلاده للترّد . وتتوالى القصص ، وقليل منها الذي يشبه كليلة ودمنة في جريانه على ألسنة الحيوانات والطيور . ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك ، والبعير والجمال والتاجر ، وامرأة الراعي ، وامرأة التاجر ، والذئب والغزالة ، إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبّارية العظة والعبرة . غير أن هذا الصوت القصصي في الديوان لا يلبث أن يتقطع ، ويحل محله صوت آخر ، ليس فيه شيء من القصص ، إذ يتحول ابن الهبّارية مريّا يقدم النصائح في السياسة ومعاملة الناس وفي الزهد وعلو الهمة والنهي عن الظلم والأمر بالعدل ، وكان ابن الهبّارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصي الأدبي ، ولعل ذلك ما جعل الأديباء بعده ينصرفون عن مجاراته في هذا العمل الفني ، وكان حريا أن تأخذ القصص مجرى كبيرا في الشعر العربي ، غير أن النموذج الذي وضعه ابن الهبّارية كان من الضعف - في رأيي - بحيث لم يمهد تمهيدا حسنا لهذا الاتجاه الكبير . ونراه يختم الديوان بقوله :

هذا كتابٌ حَسَنٌ      تحار فيه القِطْنُ  
أنفقتُ فيه مُدَّةَ      عشرَ سنينَ عِدَّةَ  
بيوتّه ألفانِ      جميعها معاني

ولعل ابن الهبّارية بالغ في قصة السنوات العشر ، ومع ذلك كله لا بد أن نبقى له على

شيء من الإحسان ، فقد كانت ملكته الشعرية خصبة ، وساق له العباد وابن خلكان كثيرا من الأشعار البديعة ، وحقا ليست من الأشعار التعليمية . ولكنها تدل على براعته الشعرية .

## ٥

### شعراء شعبيون

قد يُظنُّ من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين ، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء ، أما فنون الشعر فإنها جميعا كانت تصوِّر حياة الشعب ، فالمدح يصوِّر انتصاراته ويصور مطامحه في الحاكم العادل ، ويصور الهجاء الأخلاق الذميمة التي يرى الشعب تنحيها عن المجتمع وأفراده . وشعر الغزل كان يصوِّر في كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان ، وحتى شعر اللهو كان يصور أيضا من بعض جوانبه قُصْف الشعب في أعياده .

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربي والشعب ، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب ، فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا ، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها ، ويصدرون عنها في أشعارهم . ولا بد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربي بشعوبه في بغداد وغير بغداد وفي مقدمتها أن الثقافة كانت عامة ، وكانت حقا للجميع ، إذ كانت تُلقَى في المساجد يوميا ، يلقيها كبار العلماء ، والناس يتحلّقون من حولهم ، وكلُّ ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوي ومن دروس أدبية يُروى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد .

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أي فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعرا وغير شعر . وقد أتاح ذلك لكثيرين في مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء في هذا الفن أو ذاك . ولم يكن يُشترطُ فيمن يحضّر حلقات العلماء والأدباء أي شرط ، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين ، وأتاح ذلك لفر منهم أن يصبحوا شعراء . ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمي أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات ، نذكر منهم الخباز الموصلی ، وله ترجمة في كتاب



اليتيمة<sup>(١)</sup> للثعالبي ، وفيه يقول : « من عجيب شأنه أنه كان أميا ، وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف » . وانتظامه في اليتيمة يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقد أشار إلى أميته في بعض شعره قائلا لبعض خصومه :

بالغت في شتمى وفي ذمى وما خشيت الشاعر الأمي  
جربت في نفسك سماً فما أحمدت تجريك للسم

وكان يحفظ القرآن الكريم ، فلقببس من آياته مرارا وتكرارا ، وكأنما جعل ذلك خاصة فنية له تميزه من نظرائه ، كقوله متغزلا :

كأن يميني حين حاولت بسطها لتوديع إلى والهوى يذرف الدمعا  
يمين ابن عمران وقد حالت العصا وقد جعلت تلك العصا حية تسعى  
وقائلة هل تملك الصبر بعدهم فقلت لها : لا (والذي أخرج المرعى)

وهو في البيت الثاني يقتبس قوله تعالى في سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألقاها فحالت أو تحولت : « فإذا هي حية تسعى » واقتبس في البيت الثالث آية سورة الأعلى : ( والذي أخرج المرعى ) . ويقول الثعالبي إنه « كان يتشعب ويتمثل في شعره بما يدل على مذهبه » وينشد طائفة من أشعاره الشيعية . ويلقانا في الخريدة شاعر أمي ثان هو نباته<sup>(٢)</sup> الأعور الأبري ، وكان هجاء خبيث اللسان شغوفاً بهجو أحد العلويين وفيه يقول :

شريف أصله أصل حميد ولكن فعله غير الحميد  
ولم يخلفه رب العرش إلا لتنعطف القلوب على يزيد

وهو يريد يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعية . ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعرائه النابهن مثل السرى الرفاء الذي تقدمت ترجمته في الفصل الماضي ، ومثل الزاهي أبي القاسم علي بن إسحق بن خلف البغدادي وكان قطناً وكانت دكانه في قطعة الربيع ، وقد عرضنا له بين شعراء التشيع في الفصل الماضي ، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين المعروفين في كتب البلاغة وفيها يصف البنفسج<sup>(٣)</sup> :

ولا زورديّة تزهو بزرقها  
بين الرياض على زرق اليواقيت

(١) انظر ترجمة الخياط البلدي وأشعاره في اليتيمة (قسم الشام) ٣٠٦/٢ .  
(٢) وقد حقق شعره ونشره ببغداد صبيح رديف . (٣) ابن خلكان ٣٧٢/٣ .  
(٢) راجع ترجمة نباتة الأعور وأشعاره في الخريدة

كأنها فوق قاماتٍ ضَعْفُنَ بها أوائلُ النارِ في أطرافِ كِبْرِيتِ  
 وَقَرْنُ البنفسجِ الذي ترفُّ أوراقه الرطبة ويترقق الماء في غصنه بلهب نار في أعواد  
 كبريت جافة يدل على قدرة خيالية بديعة . وما أنشده له ابن خلكان قوله :  
 وَيَبِيضُ بِالْحَاظِ العيونَ كأنما هَزَزْنَ سِوفاً وَاسْتَلَلْنَ خَنَاجِرا  
 سَفَرْنَ بِدوراً وَأَنْتَقِبْنَ أهلاً وَمَسْنَ غصونا وَالتَفَتْنَ جَآذِرا (١)  
 وَأَطْلَعْنَ فِي الأَجْيادِ بالدرِّ أنجماً جَعَلْنَ لِحَبَّاتِ القلوبِ ضَرائِرا

والتقسيم في البيت الثاني بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدورا وحين  
 انتقبن وظهرت جباههن أهلة ، وحين تبخرن غصونا وحين التفتن جآذر ، وبذلك ومثله  
 عدُّ شاعراً مبدعاً . ولا ريب في أن مشاركة ذوى الحرف والأمين في شعر العصر دليل قوى  
 على صلته بالشعب ، فأبناؤه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون  
 ولا يكتبون .

ولم تقف مشاركة العامة في الشعر عند هذا الحد ، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء  
 لا ينظمون شعرا فصيحاً ، وإنما ينظمون شعرا ملحونا بلغتهم العامية ، وأخذ ذلك يظهر  
 بوضوح منذ القرن السادس الهجري ، وخير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاطل الحالى  
 والمرخص الغالى لصنى الدين الحلى ، وفيه يتحدث صنى الدين بالتفصيل عن الفنون  
 العامية ، المواليا والزجل والقوما والكان وكان ، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبداً ،  
 أما الموالياً فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة ، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط  
 اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله ، ومعروف أن وزنها «مستفعلن فاعلن  
 مستفعلن فعُلن» وهى أربعة شطور بقافية واحدة ، ويقول صنى الدين إن أهل واسط  
 تغزلوا بها ومدحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغاددة فلطّفوه ولحنوه  
 وسلكوا فيه غاية لا تدرى ، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الخباز البغدادي في مديح  
 الصحاب بن الدّباهي (أحد متولّي الخراج فيما يبدو) :

يَكُم قُرَى نَهْرِ عَيْسى أَصْبَحَتْ كَالْمُدُنِ أَيْ بِأَذِلينِ الْقِرَى أَيْ عَاقِرِينِ الْبُدُنِ (٢)  
 وَلَوْ تَشَاءُوا بِأَطْرَافِ الرِّماحِ اللَّدُنِ صَيْرْتُمُ الأَسَدِ تَحْرُثُ فِي مَكانِ الْفُدُنِ (٣)

(١) سفرن : كشفن عن وجوههن - انتقبن : لبسن  
 ولفقناب . مسن : تبخرن . الجآذر جمع جؤذر وهو ولد  
 بقرة الوحشية .  
 (٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : النوق  
 الثيران

والبقر التي تذيب قرباناً أو للضيوف .

(٣) اللدن : اللينة : كناية عن حدة قطعها . الفدن .

الثيران

(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : النوق

ومع أن صنى الدين يعدّ هذه المواليا من الجزل العرب إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح في جزم الفعلين المضارعين « تشاءوا وتحوث ». ويتحدث صنى الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره في الأندلس وكبار أعلامه ويطيل في بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة ، ويقول لأهل بغداد خاصة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجارى ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم ، ويذكر طائفة من زجالي بغداد على رأسها على بن المرغى ، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط :

لما أسرتم فؤادى أطلقتُ دمعى المصُونُ  
وصرتُ فيكم أغالى جهدى ولي تُرخصونُ

وواضح أن المطلع غير ملحون . والفن العامى الثالث الذى تحدث عنه صنى الدين فن الكان وكان ، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور ، وتشترك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور في قافية واحدة مُردّقة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ودائماً الشطر الأول في كل بيت أطول من الثانى . اخترعه البغداديون كما يقول صنى الدين ثم تداوله الناس في البلاد . ويذكر أنه سُمى بذلك لأن البغداديين أول ما اخترعوه لم ينظمو فيه سوى الحكايات والخرافات ، فكان قائله يحكى ما كان وكان . واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزى في أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبى بكر بن رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفى في القرن السابع . ويقول صنى الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرفائق والزهديات والأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تُستَحْضَرُ في المذاكرات ويذاكر بها في المحاضرات ، ويُنبِذ من الكان وكان غزلية موجّهة في الطيور ، وفي تضاعيفها :

طَيْرِى الذى كانُ الفِى لو رِدَتْ مِثْلُو ما حَصَلُ  
وهو علىَّ معوِّدُ وانا عليه معتادُ  
إذا قلعُ من عندى فما تزال عيني معوِّ  
واعْرِفْ مطارو واقعدُ فى البُرْج بالمرصادُ

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزا : طيراً نصب له شبكا فصاده وفرح واتخذهُ الفأله . ويمضى فيصور كيف أن طيره أو طائره إذا حطَّ فى بُرْجٍ لغيره لا يزال يرقبه ، ومع أنه يعرف من يتزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يساعده ، وحين يأتيه يرضى عنه وينسى خصاله ، ويقول إن الماضى : ماضى الناس جميعا لا يعود . وربما شرد منه أسبوعا بطوله ، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خيرا استقبالا . والمنظومة طريفة كما هو واضح .

والفن العامى الرابع القُوما ، ويقول صنى الدين إن له وزنًا مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور ، يتحد أولها وثانيها ورابعها فى القافية ويختلف الثالث ، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط ، وأن الشطر فيه إما مستفعلن فَعْلَن وإما مستفعلن فاعلن . أما الوزن الثانى فيقول صنى الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية ، والشطر الأول أقصر من الثانى ، والثانى أقصر من الثالث ، ويذكر أن البغداديين اخترعوه فى دولة العباسيين برسم السحور فى شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحرين فى آخر كل دور منه : « قوما للسحور » ينهون بذلك ربَّ المنزل ويمدحونه ويدعون له ، فأطلق عليه اسم « قوما » وصار علما له . ويذكر صنى الدين إنه قيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ( ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ ) ويعود فيقول : الصحيح أنه اخترع من قبله وكان الناصر يطرب له وجعل لابن نقطة رسما فى كل سنة وحدث أن توفى وكان له ابن يحسن القوما ، فأخذ أتباع والده فى أول ليلة من ليالى رمضان وتغنّى على مسمع من الناصر :

ياسيد السادات لَكَ بالكرم عادات  
أنا بُنى ابن نُقْطَةَ وابتغى عيش انت مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار واستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفى ما كان لأبيه . والقوما هنا من الوزن الأول الذى ذكره صنى الدين ، وقد ذكر منه منظومات تحتوى أكثر من عشرين دورا . ومثل للنوع الثانى من القوما بقوله .  
داوى عَضالِكَ<sup>(١)</sup> بَعْدنا واترُكْ نضالِكَ بالرَّغمِ كانَ تركَكَ لنا لا بالرِّضا لَكَ  
دام العنا لَكَ إِشْ تُرى فى العشق نالِكَ ما نال احدٌ من بَعْد أحبَّو متالك

وينبغى أن نعرف أن هذه الفنون الأربعة العامية لم يكتب لها أن تكون الترجان الدقيق عن مشاعر الشعوب العربية فى بغداد وغير بغداد ، فقد ظلت فى مرتبة دانية ، وظل يُنظَرُ إليها على أنها إنما تصلح للهزل أكثر منها للجد ، وبذلك ظل الصولجان للشعر الفصيح وظل مهوى أفئدة العرب فى كل مكان ، كما ظل ترجانا صادقا عن كل ما يأملون ويألمون وكل ما يلم بهم من ابتهاج وابتئاس ، حتى لنجد أصحاب الكُذبة والشحاذة الأدبية يؤثرونه على الشعر العامى ، لما له من تأثير بعيد فى نفوس السامعين ، وتقف قليلا عند الأحنف العكبرى كبيرهم فى بغداد .

(١) الداء العضال : الذى لا طب له ولا دواء .

الأحنف العكبري<sup>(١)</sup>

هو أبو الحسن عقيل بن محمد الملقب بالأحنف العكبري ، ظريف الشعراء المكدين ببغداد وهم شعراء كانوا ينسبون أنفسهم إلى بني ساسان الفارسيين تظرفاً ، ويعيشون على الكدّية أو الشحاذة الأدبية ، يطوفون من بلدة إلى بلدة . وفيه يقول الصاحب بن عباد : « لو أنشدتك ما أنشدني الأحنف العكبري لنفسه ، وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام (بغداد) لامتلات عجباً من ظرفه وإعجاباً بنظمه » . ومن قوله يفتخر بمهنته وما اختاره لنفسه من الكدية والشحاذة :

ألا إني بحمد اللد ه في بيتٍ من المجد  
 بإخواني بني ساسا ن أهل الجدّ والجدّ<sup>(٢)</sup>  
 لهم أرض خراسان فقاشان إلى الهند  
 إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند  
 قطعنا ذلك التهج بلا سيفٍ ولا عمد  
 ومن خاف أعاديهِ بنا في الرّوع يستعدّ

وهو يفتخر بانتسابه إلى هذا البيت الكبير بيت بني ساسان أو بيت الشحاذة الأدبية ويصوّر تطوافه وتطواف إخوانه الساسانيين ، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان في إيران إلى الهند ، ومن أرض الروم والبلغار إلى أرض الزنج والسند ، كل ذلك بدون أى عدا حربية ، لأن أحداً لا يعترضهم ، إذ هم شحاذون لا يملكون شيئاً . وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما يشير إليه البيت الأخير ، فقال : لهذا البيت معنى بديع : يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم في أيدي قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مكدي (أى لا يملك شروى نقيز) فانظر كيف غاص ، وأبرز هذا المعنى المعتاص . ويشكو الأحنف الفقر وتطوافه في الأرض مراراً في شعره بمثل قوله :

عشتُ في ذلّةٍ وقلةٍ مالٍ واغترابٍ في معشرٍ أنذالٍ  
 بالأمانى أقول لا بالمعاني فغداً حلاوة الآمال

وطبيعى أن تمر عليه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حين يقلّ ماله ولا يجد حوله من يسعفه فيشعر بالغرابة ونكدّها ومرارتها وما يداخلها من حرمان ، ويحس كأنه يعيش ويتغذى

(١) انظر في ترجمة الأحنف وأشعاره تاريخ بغداد (٢) الجّد بفتح الجيم : الحظ .

واليتيمة ١١٧/٣ والنجوم الزاهرة ١٧٣/٤ .

بالآمال ، وقد ضيق عليه الخناق . وكثيرا ما يشكو همهم وبؤسه وتعاسته حتى يقول :  
العنكبوتُ بنتٌ بيتاً على وهنٍ      تأوى إليه ومالى مثلهُ وطنُ  
والخنفساءُ لها من جنسها سكنُ      وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنُ

فليس له بيتٌ حتى ولا بيتٌ واه كبيت العنكبوت ، بيت يجعله يشعر أن له وطناً يأوى إليه ، فهو شريد ، وحتى الخنفساء لها سكنٌ ولها إلفٌ ، وهو لا إلف له ولا سكن . وهذه الأبيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لترقى له القلوب وتمد إليه الأيدي بالعطاء . وشعره كشعر أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التنميق والمحسنات البديعية ، إذ هو شعر الطبيعة والفطرة ولذلك لا يلقانا فيه أى حلية أو زينة . وقد توفى سنة ٣٨٥ . وفى رأى أن شعر الكُديّة والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه ، إذ شغلت مكانه المقاماتُ عند بديع الزمان والحريرى .

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

٢  
تنوع النثر:

رأينا في العصرين العباسي الأول والثاني كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فكان هناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر الأدبي ، وكانت هناك المناظرات والمواظع والقصص وكتب الأدب التهذيبي ، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية ، وكل هذه الأنواع مضت تزدهر في عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة في القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولا نبالغ إذا قلنا إنها كانت أزهى القرون في العصر بالقياس إلى النثر وفنونه ، فقد بلغ العقل العربي كل ما كان يرجى له من نصج ، إذ ظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف ، وظل يتغذى بها وينمو ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماءهم ومفلسفهم ، وظل يقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة في مطالع هذا العصر .

وكانت قد بقيت للترجمة بقية ، وهي تدل بوضوح على ما نقوله ، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني ، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها في هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصياغة ، حتى لكأن المترجمات توضع في العربية ابتداء ، فلا عوج ولا أمت في صيغة ، بل مع الرويق وحسن الأداء ، ونضرب مثلاً للمترجمين عيسى بن زُرعة البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقي السجستاني :  
« هو آخر من يُرْتَضَى نقله لكتب الحكيم أرسططاليس : البسائط والجوامع . . وكتاب جالينوس « منافع الأعضاء وغيره من الكتب » . ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسططاليس على هذا النمط (١) :

(١) انظر في الفقرة التالية المترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني (طبع طهران) ص ٣٣٣

«الإنسانية أرق ، والإنسان متحرك إلى أفضه بالطبع ، ودائر إلى مركزه ، إلا أن يكون مؤوقاً (معلولاً) في طبيعته ، مخلوقاً بأخلاق بهيمية . ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسبب هواه في مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته ، وكان لئن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج عن أفضه ، وصار أزدل من البهيمة بسوء إيثاره» .

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسططاليس ما تنهنا إلى ذلك لصياغتها العربية المحكمة ، وما يجري فيها من روتق الصياغة الأدبية كما هو واضح في مثل قوله : «ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسبب هواه في مرعاه» . وهي استعارات وكنائيات بيانية . وأرسططاليس في الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكوّن من طبيعة هي البدن وما يتصل به من الملذات ، وهي تصلح وتفسد ، وأيضاً من النفس التي لا تبلى والتي يترقى بها الإنسان ويكمل . وابن زرعة يترجم حقل ، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداء ، ولذلك تصحح الفقرة ، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ - كما لاحظ أبو سليمان المنطقي السجستاني - يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمانة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية . ولم ينقلها مترجم يعرف العربية فحسب ، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية . ويشيد ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء ببلاغة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعات ، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة .

وشملت هذه الصياغة المحكمة الفلسفة ، ويخيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت في القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاء عاماً للشعب ، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى في المثقفين ، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا ، وذكرنا في الفصل الثاني دليلاً قوياً على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السريّة التي كانت تدعو في البصرة إلى المذهب الإسماعيلي لجأت إلى الفلسفة والعلوم في صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب ، ولو أنه استقر في نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعرفت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفّت عنها ، أما وقد تمادى إخوان الصفا فيها ومضوا يدسّون رسائلهم في دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن ذلك دليل حي على تعلق العامة بمعرفة الفلسفة ، وسنرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسي والحريري في دكان حمزة الوراق بشارع الوراقين في بغداد ، تتناول الأسس



والغايات التي من أجلها كُتبت رسائل إخوان الصفا ، وقد عمل المقدسي ورفيقه زيد بن رفاعه على إذاعتها ونشرها ببغداد .

وأخرى ألمنا بها في فصل الثقافة وهي تدل على أن الفلسفة أصبحت في القرن الرابع الهجري شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين ، وهي كثرة المنتديات التي كانت تثار فيها مسائلها ، ومثلنا لذلك بندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني ، وذكرنا من كان يؤمها من عليّة المتفلسفة ، وكان وراءهم آخرون دونهم في الرتبة ، يؤمون داره كل يوم . وكان كثيراً ما يُلقَى سؤال وتدور حوله محاوره كبيرة ، كل متفلسف يرى فيها رأياً يُدلى به ، ثم يكون الرأي الأخير لأبي سليمان ، وكأنه المنارة الهادية . وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدى - كما مرّ بنا - أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية ، وسماها المقابسات أى المحاورات ، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابسة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ويحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه . وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفى إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته . وقد بلغت المقابسات مائة وستا في نحو أربعائة صفحة كبيرة ، وهي أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة في الإلهيات والطبيعيات والنفوس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة . ويمكن أن ندخل متفلسفة القرن الرابع في هذه الندوة وغيرها في دائرة الفارابى وتلاميذه ، فقد مضوا جميعاً في إثره يُعَوِّنونَ بالإلهيات وبمنطق أرسطو وبالنفوس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التي بثّها الأفلاطونية الحديثة ، وهي ماثوثة في كلام أبي سليمان وتلميذه التّوشجاني ، وقد عرض لها الأخير في المقابسة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعها مما يدل على إيمانهم بها جميعاً . وفي مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين ، وقد حاول هو وبعض مريديه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التي قامت عليها رسائل إخوان الصفا ، وهي الوصل بين الفلسفة والشريعة ، كما مر بنا في فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً ، وضوّر أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة ردّ أبي سليمان عليهم<sup>(١)</sup> ، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشريعة إلى الله والوحي ومرد الفلسفة إلى الرأي والعقل ، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البيانية ، يقول :

« الشريعة مأخوذة عن الله عزّ وجلّ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، على ما يوجبه العقل تارة ، ويجوّزه

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/٦ - ١٨ وانظر في أبي سليمان ص ٢٨٥ السابقة .

تارة ، لمصالح عامة متقنة ، ومرشد تامة مبيّنة ، وفي أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبحث) ولا بد من التسليم للداعى إليه والمنبه عليه ، وهناك يسقط لِمَ؟ ويبتل كيف؟ ويزول : هلاً ، ويذهب لو وليت في الريح ، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتباب المرتابين فيها ضار ، وسكون الساكنين إليها نافع .. وأساسها على الورع والتقوى ، ومنهاها إلى العبادة وطلب الزلنى . ليس فيها حديث المنجم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك . . ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر في آثارها . . ولا فيها حديث المهندس . . ولا فيها حديث المنطقى . . فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة . . وكما لم نجد في هذه الأمة من يفرع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها ، كذلك أمة عيسى عليه السلام ، وهى النصارى ، وكذلك المجوس . . فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؟ . . وبالجملة النبى فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النبى ، وعلى الفيلسوف أن يتبع النبى وليس على النبى أن يتبع الفيلسوف ، لأن النبى مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه . ولو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء ، على أن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصاءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحي بالعقل كيف كنا نصنع ؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس . . والنبى يقول أمّرت وعُلمت وقيل لى وما أقول شيئاً من تلقاء نفسى ، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت ، والنبى يقول : معى نور خالق الخلق أمشى بضياءه ، وهذا يقول معى نور العقل أهدى به ، والنبى يقول : قال الله تعالى وقال الملكُ ، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط . . .»

وواضح أن أسلحة أبى سليمان من المنطق والتفلسف أسلحة حادة ، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة ، فالدين مرجعه الوحي والفلسفة مرجعها العقل ، والدين مرجعه الله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة ، وهى تتفاوت وتختلف باختلافهم ، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها . والنبى فوق الفيلسوف ، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك . ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذى دفع أبى سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين ، لأنهم صدروا فى مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق ، وكان أبى سليمان أحسنّ أنهم هم المسئولون عن هذا العمل المغرض الذى يراد به الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى الشيعى الغالى غلواً شديداً ، ولذلك مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة - كما نقل عنه أبو حيان

في المقابسات - قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكات الخصم والإيهام مع قلة تألهِ وسوء ديانته . ومن المؤكد أن وصفهم بقله التألهِ وسوء الديانة فيه مبالغة ، وقد يكون اتفق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين ، وكان ينبغي أن لا يعمم حكمه . على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتفلسفة في العصر صُيغت بأصباغ أدبية واضحة ، إذ يعرف أبو سليمان كيف يصطنع ألفاظه ، وكيف يجري فيها ترادفاً بديعاً يجعل لوقعها على الآذان جلالاً ، وكيف ينسق عباراته ويأتي بها قصيرة متلاحقة . ونقرأ في المقابسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل النوشجاني الذي نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

« إذا كان صنف من أصناف الموجود في حكم المعدم لحساسته ، ونقصه وتهافته ، وفساد طبيعته ، وطموس ضيائه ، وقبح صورته ، وانحفاء بهجته ، وخمود شعاعه ، وفقد تمامه ، وتقطع نظامه ، واستيلاء رذيلته ، وبطلان فضيلته ، فلا تنكر أن يكون في مقابلته وبيازاته صنف آخر من المعدم في حكم الموجود لصحة صورته ، ونفاسه جوهره ، وكإل فضيلته ، وظاهر عفته ، وبهاء هيئته ، وغلبة عدالته ، ونقاء سنخه ، وصفاء سوسه <sup>(٢)</sup> ، وطهارة ذاته ، وظاهر زيتته ، ودوام نضرتة ، وتناسب جملته وتفصيله ، وسائر ما لا يحيط القول به . . فإنك متى حويت هذه المعاني . . اكتفتك الخيرات عاجلاً ، والسعادات آجلاً . فتكون حينئذ موجوداً وإن عدمت ، وباقياً وإن فנית ، وحاصلاً وإن فقدت ، وثابتاً وإن نُفيت ، وحياً وإن مت ، وظاهراً وإن بطنت ، وجلياً وإن خفيت ، وواضحاً وإن أشكلت ، وشاهداً وإن غبت ، وقادراً وإن عجزت . . هنالك تصل إلى غنى بلا قنية <sup>(٣)</sup> ، وتنطق بلا عبارة ، وتفعل بلا آلة ، وتصيب بلا مشورة ، وتعقل بلا مقدمة ، وتبقى بلا آفة . . وتسعد بلا شوب . إلهية ورثتها من البشرية ، وربوبية وصلت إليها بالعبودية . »

ويمضي النوشجاني فيقول لمنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص في إفسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والعكوف على الشهوات المهلكة ، فتقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت ؟ وكان حرياً به أن يبين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذ أن تكون السعادة غايته ، والأبد نعتة ونهايته . وصياغة النوشجاني رائعة بما فيها من

(١) المقابسات (طبعة بغداد) : المقابلة السادسة (٢) السوس والسنخ : الأصل .  
والأربعون وانظر في النوشجاني المقابسات ٢٩ ، ٣٦ ، (٣) القنية : ما يكتسب من المال ويقتنى .

جمال الجرس في الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجري فيها من ترادف بديع وقدرة على التناسق في الكلمات والصيغ وسيلانها ، بل تدفقها ، بالفكر الصافي الخالي من الشوائب . وهو ما نقوله إن النثر الفلسفي في هذا العصر التي بالأدب والتمتع في أثنائه وعلى حواشيه ، فغدا يروع السمع كما يروع الفكر والذهن .

وطبيعي في هذه الأثناء أن ترددهر المناظرات ، وأن تشيع في كل مجلس وبين العلماء والأدباء ، وقد اشتهر مجلس المهلبي ببعض مناظرات بين الحاتمي والتمتبي على نحو ما يوضح ذلك الحاتمي في رسالته « الموضحة » واشتهر عضد الدولة البويهى بما كان يُعقد من مناظرات بين العلماء في مجالسه ، ويحدثنا القاضي عياض في ترجمته <sup>(١)</sup> للباقلاني عن مناظرته بحضرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف مالا يطاق ، ومناظرته بحضرة أيضاً لأبي إسحق التَّصِينِيّ رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية . وكانت المناظرات لاتزال ناشبة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طبيباً بغدادياً في القرن الخامس الهجري هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطيب المصري والحوار معه <sup>(٢)</sup> . ومالنا نذهب بعيداً ومتمدنى أو ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني في القرن الرابع الهجري كانت تعج بالحوار والجدال في كل فروع الفلسفة ومسائلها الدقيقة . ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد ، بل كانت أيضاً تجرى في الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقي أصحاب المذاهب والآراء ، فتنشب بينهم معارك الجدل والمناظرة ، من ذلك المناظرة الطريفة التي حكاها أبو حيان بين شخص يسمى الحريري كان يأخذ بشيء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسى أبي سليمان محمد بن معشر البيهقي الرازى مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا في فصل الثقافة ، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقي السجستاني كما مرّ بنا ، وكان لا يزال يرى ببغداد في ندوته ، وفي شارع الوراقين . وكان الرأي العام السائد هناك يعارض نظريته في التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، ولعلمهم كانوا يعرفون مقصده الذي نهى إليه مراراً ، وكانوا يتعرّضون له فلا يراهم أهلاً للجواب ، حتى كان يوم - وهو يتجول في الوراقين - تعرّض له فيه الحريري غلام ابن طرارة وهيجّه بما أورد عليه من أدلة ، مما جعله يندفع قائلاً <sup>(٣)</sup>

الشريعة طبّ المرضى والفلسفة طبّ الأصحاء ، فالأنبياء يُطَبِّون للمرضى حتى

(١) انظر هذه الترجمة في نهاية كتاب التمهيد للباقلاني

(نشر دار الفكر العربي بالقاهرة) ص ٢٤٦ .

(٢) راجع الفقه ص ٢٩٨ ، ٤٤٤ ، وابن أبي أصيبعة

ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١١/٢ وما بعدها .

لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شيء وراء العافية ، وأما الفلاسفة فيطؤون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كَسَبَ الفضائل التي تؤهلهم للحياة الإلهية . وإن كَسَبَ المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح ، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية ، والأولى مظنونة والثانية مستيقنة ، والأولى جسمية والثانية روحانية ، والأولى دهرية والثانية زمانية . وقال إننا جمعنا بينهما لأن الشريعة لا تعترف بالفلسفة بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينهما لأن العامة قوامها بالخاصة ، كما أن الخاصة تمامها بالعامة .

وأخذ الحريري ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد ، فقال له إن كلامك يخالف الواقع ، إذ لا يوجد طبيبان : طبيب للمرض وطبيب للصحة ، بل ذلك شيء خارج عن العادة ، فدائماً الطبيب يُعنى بحفظ الصحة ودفع المرض ، وإذن سقطت تلك الفكرة المضللة . ونقض عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفة برهانية ، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحي ولذلك تستقيم مع أى برهان ، أما الفضيلة الفلسفية فهي التقليدية ، لأن مدارها على رأى الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر ، فهي لا تثبت ولا تستقر بحال . ويعجب الحريري أشد العجب من جعل المقدسى الشريعة من باب الظن وهي بالوحي ، والفلسفة من باب اليقين وهي من الرأى . ويقول له : إنك غالطت وموهت إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية ، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحى من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام ، وهي تناقش الأجسام والأعراض . ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها ، بينما تقولون الشريعة للعامة ، فلم تجمعون بين متفرقين ؟ إنه لجهل أى جهل . وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجحد الفلسفة ، فلماذا تريدون حملها عليها قسراً . وبذلك أخرسه . وقد عاد يسأله أى شريعة تريدون وصلها بالفلسفة ، ولماذا تعنون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف ، بينما فى المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود . ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة ؟ ويعلن إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هى كيد للدين القويم ، حاوله من قبلهم كثيرون فباءوا بالخذلان والخسران المبين . ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل ، ويدعو المقدسى وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس .

والحريري إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة ، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسي لندل على مدى ما حظي به العقل العربي في القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتعليل وتحليل الأفكار وتشيبيها ونقضها من أساسها نقضاً . واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس ، ثم أخذت تتراجع موجاتها إلى الوراء ، أو قل أخذت جددتها تحف ، بسببين : أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به ، وخاصة بعد أن وجهه أبو نصر السراج الطوسي والقشيري نحو التصوف السني ، ويعم هذا التصوف منذ القرن السادس الهجري بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ الرفاعي ، ولا يلبث الدراويش أن ينتشروا في العراق وغير العراق . وثانياً لأنه أتيح للسنة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو الغزالي الذي كان لحملاته العنيفة على الفلسفة والمفلسفة أكبر الأثر في انصراف الناس عنها ، وكان هو نفسه صوفياً سنياً ، فدعم التصوف السني إلى أقصى حد ، وأصبحت كفته هي الراجحة طوال قرون متطاولة .

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر في العصر على نحو ما مررنا في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمذائح النبوية ، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية ، ويكفي أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ، وهو مطبوع ، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد . وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بديعة ، من ذلك دعاء<sup>(١)</sup> محمد بن عبد الملك الفارقي المار ذكره في الفصل الماضي . وأخذت توضع كتب كثيرة في التصوف وفي القصص والحكايات عن أصحابه ، من أهمها كتاب اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الملقب بطاوس الفقراء المذكور آنفاً المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأعطى رئاسة الدراويش ، وكتاب قوت القلوب لأبي طالب<sup>(٢)</sup> المكي الوافد على بغداد المتوفى بها سنة ٣٨٦ . ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر<sup>(٣)</sup> الخلدی المتوفى سنة ٣٤٨ ومررنا في حديثنا عن ابن السراج البغدادي بين شعراء الصوفية كتابه « مصارع العشاق » وهو يزخر بأخبار وأقاصيص عن العباد والنسك .

(١) خريدة القصر (قسم الشام) ٤٣٣/٢ . الجنان ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع في أبي طالب تاريخ بغداد ٨٩/٣ وابن خلكان ٣٠٣/٤ والوافي ١١٦/٤ وميزان الاعتدال ٧٥/٤ .

٦٥٥/٣ والشذرات ١٣٠/٣ ولسان الميزان ٣٠/٥ ومراة

وأخذت تؤلف كتب قصص عامة ، على نحو ما نرى عند أبي علي المحسن<sup>(١)</sup> التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية ، هي : كتاب « المستجاد من فعلات الأجواد » وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين ، وهو مطبوع ، و« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » وهو أقاصيص وأخبار عن معاصريه وهو أيضاً مطبوع ، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع ، وهو أقاصيص ونوادير وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه « أنس الفريد » سقط من يد الزمن . وأخذ بعض الكتاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمداني في مقاماته ، وفي مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقياً الذي ذكرناه في فصل الثقافة بين علماء البلاغة في القرن الخامس الهجري ، وهو سابق للحريري ، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو اليشكري ، ورواها متعددون ، وتدور على الكدية أو الشحاذاة الأدبية ، وهي مطبوعة من قديم في إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبي العلاء أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريري وأهداها إلى أبي حامد الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦ ، وكان يعاصره ابن الجوزي الذي مر ذكره في غير موضع ، وله خمسون مقامة ، غير أنه لم يجعل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، وإنما نحا بها نحو الوعظ ، على طريقة الزمخشري في مقاماته الوعظية . وربما كانت أهم المقامات التي ألفت في القرن السادس بعد مقامات الحريري مقامات يحيى بن سعيد بن ماري النصراني البغدادي المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته ، وهي ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريري . وولتقى في أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله ابن رجب الجزري المعروف بابن الصيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهي خمسون مقامة ، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢ . ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة . وتظل مقامات الحريري في الذروة ، لا يبلغ شأوه فيها أي أديب بعده ، وسنفرد له كلمة نعرض فيها لمقاماته .

وتكثر في العصر كتب الأدب التهذيبي ، وتتخذ مجرّبين : مجرى فلسفياً فكرياً على نحو ما نرى في كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه ، ومجرى عملياً تربوياً مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب : باب في فضل العقل وذم الهوى ، وباب في أدب العلم ، وباب في أدب الدين . وباب في

(١) راجع ترجمته في البيّمة ٣٤٥/٢ وتاريخ بغداد وابن خلكان ١٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ١٦٨/٤  
١٥٥/١٣ ومعجم الأدباء ٩٢/١٧ والمتنظم ١٧٨/٧ والشذرات ١١٢/٣ .

أدب الدنيا ، وباب في أدب النفس ، وكل باب ينقسم إلى فصول ، وفي كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التي تحت على الفضائل وتنبى عن الرذائل . وكان هذا الكتاب مقراً للمطالعة في المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة . وتكثر كتب الأدب الهديبي بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه في النفع والفائدة .

وتموج اليتيمة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية ، وتتكاثر كثرة مفرطة ، في الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادى والتعزية ، وعادة تدور حول معان محدودة ، ولكن الكتاب يتفننون في تطويلها ، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل النحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حبلاً تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدّس فيها أكداً ، وتكدّس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة يجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده ، وتارة يتخاذ حرف واحد تُبنى عليه الرسالة . وللحريري رسالتان إحداهما سينية كل كلماتها من ذوات السين ، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين ، وقد قلده الحصكفي<sup>(١)</sup> يحيى بن سلامة خطيب مياً فارقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سينية ، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة وخطبة ليس في حروفها حرف منقوط ، وكان شغوفاً بالجناس وصنع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة :

« النفس بعقود التدرُّع حالية ، ولقعود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعى المزعجة مائلة ، وفي بحار الحمد راسية ، وفي رحاب المدح سارية » . ويستمر بهذه الصورة ، فكل كلمة في السجعة الأولى تعود في السجعة الثانية مقلوقة معكوسة في هيئتها وبنيتها وصورتها ، فعقود تتحول إلى قعود والتدرُّع إلى التعذر وحالية إلى حائلة . وهى مهارة تُحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبعى الذى يؤدِّيه عمال المطابع من جمع الحروف بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة ، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب . وتلتقى بمعايير للحصكفي ، هو الحيصّ ييُصّ البغدادى المارّ ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهاني : « له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف » يقول : وهى كثيرة ، وسأورد

(١) انظر فى الحصكفي الخريدة (قسم الشام) ٤٧١ / ٢ وما بعدها والمتنظم ١٨٣ / ١٠ والسبكي ٣٣٠ / ٧ وابن خلكان ٢٠٥ / ٦ ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠ وكتابتنا الفن ومذاهب فى النثر العربى (الطبعة الثامنة بدار المعارف) ص ٣٠٤ وبارد الكتب المصرية نسخة مخطوطة من رسالته .



منها نبذاً يستدلّ بها على الباقيات . وتدلُّ التُّبْدُ على أنه كان يحشد فيها أوابد اللغة وشواردها وشواذها متقراً فيها أبعد تقعر ، وهو تقعر لا يفيد حسناً ولا جمالاً ، وإنما يضيف صعوبات لغوية ، وكان الرسالة مجموعة من الألفاظ ، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد ، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً . وقد استطاع أبو السَّمْح<sup>(١)</sup> سعيد بن سَمْرَةَ أن يؤلف على نمط الحريري لا رسالة سينية أو شينية ، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم . ونصبح منذ القرن السادس حقا بإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد ، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بدورها عقداً ، وكأنما فارقت كل ما كانت تزدان به من حسن وجمال . وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كتاب الرسائل الديوانية .

## ٢

## كتاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة ، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالى أو الجزية الخاص بأهل الذمة وديوان السلّة الذى تحفظ فيه الكتابات الديوانية ، وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بغداد العام ، وعنى البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فاتخذوا له بعض النابهين من الأدباء ، وكثيراً ما كان يقوم عليه وزيرهم ، وأول من نهض بأعبائه فى عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلبى<sup>(٢)</sup> الذى وُزِّر لمعز الدولة البويهى منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأنشد الثعالبي فى يتيمة طائفة من شعره ، أما نثره فاكتفى فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجع فى كتاباته ، والسجع فى ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وقد مضى كتاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون . ويظل المهلبى ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢ . وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو الفاسم عبد العزيز<sup>(٣)</sup> بن يوسف ،

(١) انظر فى ترجمته الخريدة (قسم العراق) ٩/٧ ومعجم الأدباء ١١٨/٩ والشذرات ٩/٣ وكتب

التاريخ العامة فى سنة وفاته . ٢٦٣/٢ .

(٢) انظر فى المهلبى وترجمته اليتيمة ٢/٢٢٣ والمتنظم (٣) راجعه فى اليتيمة ٢/٣١٢ .

وفيه يقول الثعالبي : « كان أحد المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده » . ويورد الثعالبي مقاطع من رسائله السلطانية يشيع فيها السجع على عادة كتاب الدواوين في عصره . وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصائبي وسنخسه بكلمة عما قليل . وعنى السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء ابن الموصلي يافتقد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه ، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه ، وسنخسه هو الآخر بكلمة مفردة . وأهم من تولوا الديوان بعده في العصر السلجوقي سديد الدولة أبو عبد الله محمد <sup>(١)</sup> بن عبد الكريم الأنباري منشى ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتنى والمستجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهى سنة وفاة سديد الدولة ، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيفاً وخمسين سنة ويقال إنه عمّر حتى قارب التسعين ، ولم يسجل العماد ولاصبح الأعشى للقلقشندي شيئاً من نثره . وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد <sup>(٢)</sup> بن محمد بن عبد الكريم ، وظل قائماً عليه حتى توفي بدوره سنة ٥٧٥ . وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان في عهد الخليفة الناصر لدين الله يحيى <sup>(٣)</sup> بن زبادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونوّه طويلاً قائلاً : « انتهت إليه المعرفة بأمر الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك . . . وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات ، وكان مليح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة » . وقد احتفظ القلقشندي برسالة <sup>(٤)</sup> له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشي طغرل صاحب إقطاع البصرة ، وقد بلغ الخليفة أنه نزع عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال ، وهو في الرسالة يحاول إثناءه عن خلع الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول ، وفيها يقول :

- (١) انظر الحريدة (قسم العراق) ١٤٠/١ والمتنظم  
٢٠٦/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٥ والشذرات  
١٨٤/٤ .
- (٢) انظره في الحريدة (قسم العراق) ١٤١/١ وابن  
الأثير في وفيات سنة ٥٧٥ .
- (٣) انظر ترجمة ابن زبادة في معجم الأدباء ١٦/٢٠  
وابن خلكان ٢٤٤/٦ ومراة الجنان ٢٤٤/٦ والشذرات  
٣١٨/٤ .
- (٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب المصرية)  
٢٦٩/٨ .

«ولولا أن الأيام صحائفُ العجائب ، ولا يأنس بمتجدداتها إلا من حنَّته التجارب ، لم أصدِّق هذه الحركة ، وإني ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله ، وإلا فن أين يدخل الزلل على ذلك الرأى السديد والعقل الراجح والفكر الصائب . . والفائتُ لا كلام فيه ، غير أن العقل يقضى باستدراك الممكن وتلافيه ، بالانحراف عن الهوى إلى الرأى الصادق ، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج» .

وتمضى الرسالة على هذا النحو ، لا يدخل السجع فيها عن تكلف أو تعمل ، بل لا بأس بما يأتي منه عفواً دون تعمد الإتيان به ومحاولة جَلِّبه مع كل عبارة وصيغة . وأكبر الظن أن ابن زبادة كان شذوذاً بين كتاب الإنشاء قبله وبعده ، فقد كانوا غرقى في السجع ومحسنات البديع إلى آذانهم . ولم نعرض للعقاد الأصهبانى ، وكان كاتباً بليغاً ، لأن حياته الأدبية إنما تتكامل له في ظل نور الدين وصلاح الدين ، إذ عمل في دواوينها ، فحرى أن يوضع بين كتاب الرسائل الديوانية في الشام ومصر ، مع من عاشوا في ظل هذين البطلين العظيمين . وتمضى إلى أيام المغول وبلغنا عطا ملك الجوينى المتوفى سنة ٦٨١ وكان رئيس الديوان ببغداد ، وقد اهتم به ، فوظف فيه طائفة من الكتاب المجيدين ، منهم بهاء<sup>(١)</sup> الدين الإربلى المتوفى سنة ٦٩٢ وشرف<sup>(٢)</sup> الدين على بن أميران المتوفى سنة ٦٩٣ . وبلغنا في صبح الأعشى كاتبان يكتب كل منهما رسالة باسم بوكدار بن هولكو الذى مرَّ بنا في الفصل الأول أنه أسلم في سنة ٦٨١ وحسُن إسلامه ، وتسمَّى باسم أحمد . أما الرسالة الأولى فكتبها الفخر بن عيسى الموصلى عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية في جمادى الأولى سنة ٦٨١ يخبره فيها بما أتمَّ الله عليه من نعمة الإسلام ، وهو يفتتحها على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

«إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عُنْفوان الصِّبا ورِيَّعان الحدائث إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريَّته (فمن يُردِّ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صدره للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبيننا الجليل وأخينا الكبير نوبةُ الملك ، فأضنى علينا من جلايبب أطفاه ولطائفه ،

(١) انظر ترجمته في فوات الوفيات ١٣٤/٢ وعند جواد - طبع ببغداد ص ٤٨٠ وعند الغزوى ١/٢٦٠ .

(٢) صبح الأعشى ١/٢٥٩ .

(٣) راجعه في الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى

ما حَقَّق به آمالنا في جزيلى آلائه وعوارفه» .  
 وتمضى الرسالة بهذه الصورة من السجع والصياغة الجيدة . والرسالة مؤرَّخة بأواسط  
 جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستائة وكتب الرد في رمضان سنة ٦٨١ ناصر<sup>(١)</sup> الدين  
 شافع بن على بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون . وقد ذكر السلطان  
 أحمد بن هولاء كوفي رسالته - كما هو واضح - إسلامه وأيضاً أنه حرَّم على عساكره الغارات  
 على البلاد ، وتقول الرسالة إن في اتفاق السلاطين صلاح العالم . ومن كُتاب  
 الإنشاء في القرن الثامن يمجى<sup>(٢)</sup> بن عبد الرحمن الجعبري الملقَّب بنظام الدين المتوفى سنة  
 ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . ويبدو أنه رحل إلى مصر  
 ودمشق بعد وفاة السلطان ، ثم عاد إلى بغداد ، وأُعيد إلى وظيفته في كتابة الإنشاء عن  
 حكامها إلى وفاته . ويلقانا في أواخر القرن التاسع الغياث<sup>(٣)</sup> البغدادي عبد الله بن فتح الله  
 كاتب الإنشاء ببغداد ، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم في هذا العصر ، فسرعان ما دخلت  
 العراق في حكم الدولة العثمانية ، وكانت لاتهم بديوان الإنشاء في بغداد ، فضعف شأنه  
 إلى أبعد حد . ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين في العصر : أبي  
 إسحاق الصائبي والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير .

### أبو إسحاق<sup>(٤)</sup> الصائبي

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصائبي المكنى بأبي إسحاق ، أصل آبائه من  
 حرَّان ، وُلد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وبها نشأ وتثقف وتأدب ، ولزم فيها  
 مواطنيه الحرَّانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك ، ويقول  
 القفطي : له مؤلف في المثلثات . ويبدو أنه أحسن في نفسه مبكراً بنزوع شديد نحو الأدب  
 وأن يصبح من كتاب الدواوين ، فأخذ يكتب على النصوص الشعرية والنثرية ، وحفظ  
 القرآن الكريم ، وكان شاعراً ففتحت له الأبواب وتعرَّف عليه الوزير المهلبى ، وأعجب  
 به ، فاصطنعه لنفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، ولم يلبث أن قلَّده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩

(١) صبح الأعشى ٧/٢٣٧ .  
 (٢) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر ١٩٢/٥ .  
 (٣) العراوى ١/٢٧٧ .  
 (٤) انظر في ترجمة الصائبي البيهقي ٢/٢٤١ وما بعدها .  
 وصوان الحكمة ص ٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطي  
 ص ٧٥ والشذرات ٣/١٠٦ والإمتاع والمؤانسة ١/٦٨  
 والمقابس لأبي حيان (انظر الفهرس) وصبح الأعشى  
 ٤٨٣/٦ و١٤/٣٦٠ (راجع الفهرس) وكتابتنا الفن  
 ومعجم الأدياء ٢/٢٠ وابن خلكان ١/٥٢١ ، ٤٤٥ .  
 ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة) ص ٢١٧ .

حتى إذا توفى المهلب سنة ٣٥٢ وصادر معز الدولة البويهى أمواله قبض على أبى إسحاق الصائى فيمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه . واستعطف معز الدولة بقصائده جعلته يعفو عنه ويعيده إلى عمله فى ديوان الرسائل . وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بختيار ، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البويهى ، وكان الصائى فى أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤله ، وحدث أن تقرّر الصلح بينهما ذات مرة ، فطلب بختيار إلى الصائى أن يكتب نسخة يمين يستوفى فيه الشروط على عضد الدولة حتى الاستيفاء ، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بدءاً من حلف اليمين ، وعرف أن أبى إسحاق الصائى كاتبه ، فحقد ذلك عليه . وتطورت الظروف ، ونشبت حرب بين بختيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار فى ميدانها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق ، وسرعان ما اعتقل الصائى وزجّ به فى غياهب السجون . ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له ، فقال عضد الدولة : ليصنف كتاباً فى أخبار آل بويه ، فأخذ فى تصنيف كتاب «التاجى» وهو فى السجن، ونُقل إلى عضد الدولة أنه سُئل عما يصنع ، فقال : أباطيل أنمّتها وأكاذيب ألقّتها ، فحقت عليه حقناً شديداً ، وصمم أن يرميه تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتلة ، وعاد كبار رجال الدولة يتشفعون له ، فعفا عنه إلا أنه ظل مبعداً فى أيامه . حتى إذا توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولى ديوان الإنشاء وظل يليه إلى وفاته سنة ٣٨٤ . وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصابئة فى بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثنى ، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله فى الدين الخفيف فكان يعتذر . وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين . وظل الحكام البويهيون ووزرائهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصابئة عبدة الكواكب والنجوم ، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه فى الكتابة ، يقول الثعالبى إنه «أوحد العراق فى البلاغة ومن به تُثنى الخناصر فى الكتابة ، وتفوق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة» ويقول أبو حيان التوحيدى : «نظمه مثوره ، ومثوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبِك فهو واحد . وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما مائله فيها إنسان» وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبنان فى مجلدين ، وهى مطبوعة بطوابع السجع والمحسنات البديعية ، وفيها يقتبس كثيراً من آى القرآن الكريم ، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة ، وكان يطيل فى التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارئه أنه من جلة المسلمين ، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :

«الحمد لله العلى العظيم ، الأزل القديم ، المتفرد بالكبرياء والملكوت ، المتوحد

بالعظمة والجبروت ، الذى لا تحده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تتمثله العيون بناظرها ، ولا تتخيَّله القلوب بنواظرها ، فاطر السموات وما تظلل ، وخالق الأرض وما تُقيل .

وهو يستمر فى هذا التحميد طويلاً ، ولولم نعرف أن الصائى كاتبه لظنناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعتزال ، المؤمنين بوحداية الله وتزبيته عن الشبه بالمخلوقات ، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات ، إذ ليس يجسم ولا عرض ، فالعيون لا تتمثله والخواطر لا تتخيله ، مبدع السموات والأرض . وفى هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع ، وهو لا يكتفى فيه بالروى الذى يجمع بين نهايتى السجعتين ، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجعتين فى عدد حروفها وحركاتها وسكناتها ، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة ، فكلمة «العلی العظيم» يليها «الأزلى القديم» وكلمة «المتفرد بالكبرياء والملكوت» يليها «المتوحد بالعظمة والجبروت» وتتوالى السجعات ، فكل سجعة تسمع فى تاليتها جرسها الموسيقى ، مع المهارة فى اصطفاء الألفاظ . وقرأ له هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة . . حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينهما من صلة الرّحم :

« إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن تُوتى مراسى أوتاده من ذوائب عروشه ، وأن تدبّ بينهم عقارب المشاحنة ، وتسرى إليهم أرقام المناقشة ، وتنبث الدواهى فيهم من ذاتهم ، وقد كانت محسومة من أصدادهم وعداتهم . وإنما تمثلنا بهذه القطعة لنشير إلى أنه كان فى أحيان قليلة لا يلتزم السجع بين كل عبارة وتاليتها ، ومع ذلك كان يلتزم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات الصيغتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصهما من تماثل الروى فى نهايتهما . ومرّبنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد ، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له ، وهى ليست رسائل سلطانية ولا إخوانية جادة ، إنما هى رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شىء من السرور والسعادة على قارئه ، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتبها رداً على رقعة وصلت إليه من شخص ، كان أهدى إليه جملاً ، وذكر ذلك فى رقعته ، وفيها يقول : « ذكرت حملاً (كبشاً) جعلته جملاً ، . . فلما أن حضر رأيت كبشاً متقادماً الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفنته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور . . فبان دمامته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيباً ، بادىء الأسقام ، عارى العظام . . لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلق يدك منه إلا خشباً ، قد طال للكلاّ فقده ، وبعُد بالمرعى عهده ،

لم ير القتَّ إلا نائماً ، ولا الشعير إلا حالماً . . . وقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال . . . فأنشدني وقد أضرمت النار ، وحُدَّت الشُّفار :

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمٌ<sup>(١)</sup>  
ثم قال : وما الفائدة من ذبحي ، ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي ، ولا ذى جلد يصلح للدَّبَاغ لأن الأيام قد مزقت أدمي ، ولا ذى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حَصَّصت (أذهبت) وَبَرَى . . .

ولست الفكاهة شيئاً سهلاً ، فقليلون هم الذين يحملون هذه الروح ، وهي تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المحضر حلو الحديث ، ولذلك قرب من نفوس معاصريه . وسجعه في هذه الرسالة التي يجدر بنا أن ندخلها في حيز الرسائل الأدبية مكتمل الأداء الموسيقي ، وهو قصير قصراً تَسْرَى فيه العذوبة والرشاقة . وقد تطول السجعة كما في السجعات الثلاث الأخيرة ، ولكنه يحتال عليها باكتمال الملاءمة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتآليتها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة . وللصائب رسالة أدبية هزلية أخرى تحتل في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ست<sup>(٢)</sup> صفحات كبيرة ، وهي صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادى كبير في عصره كان يسمى عليكا إلى متطفل ناشئ ، يسمى على بن عرس الموصلى ، وهو يستهله بأن عليكا عهد إلى تلميذه بإحياء سنته وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أرباضها (ضواحيها) وأكنافها في سوادها وأطرافها لما توسَّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقْم ، وجودة الهضم ، ويأخذ في سرد وصاياها في شكل أوامر وفرائض يجب أن يتبَّعها ابن عرس ، من ذلك أنه :

«أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزايها ، وسُمِّطَ الأمراء والوزراء بسرَّايها . . . وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجَّار ، ومجهَّزى الأمصار ، من بنیان الدار ، والعُرس والإعذار (الختان) . . . وربما صَبَرُوا على تطفيل المتطفلين ، وأَغْضَوْا على تهجم الواغلين (الممعنين في التطفل) ليتحدَّثوا بذلك في محافلهم الرَّذْلة ، ويعدُّوه في مكارم أخلاقهم التَّذْلة . . . وأمره أن يصادق قَهَّارمة الدور ومدبَّريها ، ويرافق وكلاء المطايخ وحمَّالها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمَّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم . . . وأمره أن يتعهد أسواق المسوّقين ، ومواسم المتبايعين ، فإذا رأى

(١) البيت للمتنبي من قصيدته التي عاتب فيها سيف الدولة الحمداني . والضمير في أعيذها يعود إلى نظرات يقول له : أعيذ نظراتك البصيرة أن تحدك فلا تفرق بين شاعرك وغيره من حاسديه الذين يتظاهرون لك بمثل مودته تمويهاً وخداعاً .

(٢) صبح الأعشى ٣٦٠/١٤ .

وظيفةً قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، أتبعها إلى المقصد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقات الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ومأدبة تغمهم . . حمل عليها حملة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، واللئث الهاصر ، والعقاب الكاسر . . وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً ، ويطوى دونه كشحاً ، فإن أتته اللكزة في حلقة ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصفعة في راسه ، صبر عليها لموقع أضراره ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء . .

والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكعين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكُدية ، وقد تحدثنا عنهم في غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم ويؤسهم تصويراً يعث السرور في نفوس سامعيهم . ولا ريب في أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبي إسحق الصائبي السالف أو تذكروه ، وسجعه فيه مكتمل الأداء الموسيقى ، سواء قصره أو طوّله ، إذ يبغى به دائماً أن يلد الآذان ، حين تنصت إليه لذة موسيقية بديعة .

### العلاء<sup>(١)</sup> بن الموصلياً

هو أمين الدولة أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلياً البغدادى ، ولد سنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه ، ونشأ نصرانياً ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر ، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعد نفسه مثل أبي إسحاق الصائبي ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢-٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة في عهد المقتدى (٤٦٧-٤٨٧ هـ) والمستظهر (٤٨٧-٥١٢ هـ) حتى توفي سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه في أثناء ذلك نعمته ، فأسلم وحسن إسلامه ، واختلف من ترجموا له في زمن إسلامه ، فالعماد الأصبهاني يقول إنه كان في زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان في زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

(١) انظر في ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه  
الخريدة (قسم العراق) ١٢٣/١ وللتنظيم ١٤١/٩  
ونكت الهميان ص ٢٠١ والنجوم الزاهرة ١٨٩/٥ وابن  
خلكان ٤٨٠/٣ وصبح الأعشى ٤٠٤/٦ ، ٤١٥ ،  
٤٥٣ ، ٣١/١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .



ونميل إلى الأخذ برأى العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُفَّ بصر العماد في آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى ضَمَّ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة في الوزارة وظل يضمهما في عهد المستظهر . ويقول العماد عنه : « كان بليغ الإنشاء ، سديد الآراء ، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه » ويقول الصفدى : « أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَبُ بهم المثل » .

وقد احتفظ كتابُ صبح الأعشى للعماد في جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على البساسيرى في منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُكُوكُ ، وهى موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غزنة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عينه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أتمز . وبالمثل احتفظ صبح الأعشى في جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، وأولاهما عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس في سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطنته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذى تسلطن يوسف على الأندلس في عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه في الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع في نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلابا للقرآن وأنه كان يقبس من أضوائه في رسائله مثل الصائى . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرَّخ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل في الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرَّخ به القلقشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق .

والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين في صورة عهد بجياطته هو وأهل ملته في نفوسهم وأموالهم وبيعهم وديارهم ومقارَّ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية - وكانت أشبه بضريبة دفاع - من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومن لم يبلغ الحلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة في السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة في بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بطرك النصارى العام . ويلفتنا في العهد لابن تاشفين وفي الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك في الرسالة التى تبشر بالنصر على البساسيرى أن ابن الموصلابا يطيل

في الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجري الصلاة في رسالة البساسيري على هذا النمط :

« الحمد لله الذي اختص محمداً ﷺ برسالته وحيّاه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضل وحوّاه ، وبعثه على حين فترة من الرسل ، وخلاء من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه من عصاه ، وبلغ في الإرشاد أقصى غايته ومداه . . إلى أن دخل الناس في الدين أفواجا ، وسلكوا في نصرتة جدداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدت أنوار الشرع ضاحكة المباسم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومناهل الهدى عذبة صافية ، فصلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلّم تسليماً .

ولعل لا أخطئ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل في منتصف القرن الخامس حين كتبت هذه الصلاة في رسالة البساسيري لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ . وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء أفاضه وأن تروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى في الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل في الرعايا قبله ، ويُجلّهم من الأمان هضابه وقلله ، ويمنحهم من الاشتغال ، ما يحمى به أمورهم من الاختلال . . ويُضفى على المسلم منهم والمعاهد (الذمى) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويُلق التليد منهم بالترفيف ، ليكون الكل وادعين في كنف الصّون ، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعون ، وأن ينظر في مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر علم العدل في مطاويه . . مُليناً لهم في ذلك جانبه ، ومُبيناً ما يظل به كاسب الأجر وجالبه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك متلقياً بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو في رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفى أفاضه من الشوائب ، ويخلصها من جميع الأدران حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستتم تأثيره بما يتختم به فقره في هذا العهد وفي غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التي تضىء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء الدين بن الأثير<sup>(١)</sup>

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، ولد بجزيرة ابن عمر شمالي العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعنى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وفرَّغه للدراسة كما فرَّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل في التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمَّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبَّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبي تمام والبحترى والمتنبي . ولما أحسَّ أنه كملت له أدواته في الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ ووصله به القاضي الفاضل وزيره ، فعمل في دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولبَّى طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذ لنفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكلف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى همُّوا بقتله . وتتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطاناً على مصر ، فيلحق به سرّاً في صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين في مصر عاماً يأخذها منه عمه العادل ويعوّضه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة ، ويقم عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مأب في سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقي عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله في سنة ٦٣٧ إلى بغداد في بعض المهام ، فيدرکه بها الموت .

وحظيَّ ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه في رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، والمختار منها - كما يقول - مجلد واحد . وربما كان أهم منها في سبب شهرته كتابه : «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» وفيه صور الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية ، والصناعة المعنوية وما يتصل بها من

(١) انظر في ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٣٨٩/٥ والشذرات ١٨٧/٥ وانظر كتابنا : البلاغة : تطور والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبي ١٥٦/٥ ومرآة الجنان ٩٧/٤ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٦

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تاماً ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : « إن المثل السائر للنظم والنثر بمثالة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام » . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشى المرقوم في حلّ المنظوم ، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوي في الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه في رسائله الديوانية ، وهو يُعنى فيها قبل كل شيء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البيديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن للكريم والحديث النبوي فيها وحلّ آيات الشعر . وعادة يسوق في الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته في رسائله ، من ذلك استيحاءه آيات سور الرعد والذاريات والصفافات ، وهي : (الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها) (وفي السماء رزقكم وماتعدون) (وحفظاً من كل شيطان ماردٍ لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويُقدفون من كل جانب) إذ يقول في إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب :

« وعقد العجاج<sup>(١)</sup> شفقاً فانعد ، وأرانا كيف رُفِعَ السماء بغير عمد ، غير أنها سماء بُنيت بسنابك الجياد ، وزُيِّنت بنجوم الصُّعَاد<sup>(٢)</sup> ، ففيها ما يُوعَدُ من المنايا لا ما يُوعد من الأرزاق ، ومنها تُقدَفَ شياطين الحرب لا شياطين الاستراق » .

ويعرض علينا أمثلة من اقتباسه للحديث النبوي وألفاظه في رسائله ، فمن ذلك ما روى عن الرسول عليه السلام من أنه في غزوة حنين أخذ قبضة من التراب وألقاها في وجه الكفار قائلاً : « شامت الوجوه » . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً : « أخذنا بسنة رسول الله ﷺ في النصر الذي نرجوه ، ونبدنا في وجه العدو كفاً من التراب ، وقلنا : شامت الوجوه » . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبي الذي يصف فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحداث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شر ممزق ، إذ يقول :

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتُ ومن جثثِ القتلى عليها تمائمٌ

وقد نثره ضياء الدين في وصف معركة ماثلة قائلاً : « وكأنما كان بالبلدة جنون ، فبعث لها من عزائمها عزائم ، وعلّق عليها من رءوس القتلى تمائم » . ومن ذلك بيت البحترى :

(٢) الصعاد : الرماح .

(١) العجاج : الغبار .

سُلبوا وأُشْرِقتِ الدماءُ عليهمُ حمرةً فكأنهم لم يُسلبوا  
فقد نثره في فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار ومحققهم محققاً لم يبق  
منهم ولم يدر. والفصل يجري على هذا النمط :

«سلبوا وعاضتهم الدماءُ عن اللباس ، فهم في صورة عار وزئهم زئ كاس ،  
وما أسرع ما حيط لهم لباسها المحمر ، غير أنه لم يُجيب<sup>(١)</sup> عليهم ولم يُزرر ، وما لبسوه حتى  
لبس الإسلام شعار النصر ، الباقي على الدهر ، وهو شعار نسجه السنان الحارق ،  
لا الصنع الحاذق ، ولم يغب عن لابسها إلا ريثما غابت البيض<sup>(٢)</sup> في الطلي والهام<sup>(٣)</sup> ،  
وَأَلَّفَ الطَّعْنَ بين ألف الخط واللام .»

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين في السجع ، وهي مهارة كتب بها مجلدات ، كما  
أسلفنا من الرسائل الديوانية . ونراه في المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التي تحيل  
الكلام رصفاً لألفاظ وحشداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعاني الطريفة المبتكرة ،  
بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صورته واستعاراته في أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض  
الأمثلة ، منها قوله في وصف النيل وقت زيادته وفيضانه في رسالة من رسائله : «وَعَدَبَ  
رُضَابُهُ فِضَاهِي جَنَّا النَّحْلَ<sup>(٤)</sup> ، واحمرَّ صَفِيحُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَتَلَ الْمَحْلَ<sup>(٥)</sup> .» . ويقول ابن  
خلكان : «وهذا بديع غريب نهاية في الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه .» . وضياء الدين  
يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه في رأيه دماء الجذب ، وهي حقاً صورة رائعة . وجعلته  
عنايته بالمعاني والصور المبتكرة يؤلف كتابه «المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء» كما جعلته  
عنايته بجل الشعر والاقتباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : «الوشى  
المرقوم» .

وفي الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده  
بكتابت ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى  
أدباء العصر النابهن : أبى حيان التوحيدى ، وابن مسكويه ، والحريرى .

(١) جيب الثوب : جعل له جيباً وهو فتحته العليا . (٤) الرضاب : الريق ورغوة العسل . جنا النحل :  
(٢) البيض : السيوف .  
(٣) الطلي : الأعتاق ، والهام : الرءوس .  
(٥) المحل : الجذب .

أبو حيان<sup>(١)</sup> التَّوْحِيدِيّ

هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التَّوْحِيدِيّ ، وقد اختلف في مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، ف قيل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان ، وقيل واسط بجنوبي العراق ، وقيل بغداد ، وهو القول الراجح في رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيد ، وعليه حمل شرح المتنبي قوله :

يترشّفن من فني رشفاتٍ هنّ فيه أّحلى من التوحيد  
وكانه هو وأباه نُسبا إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبه إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القدماء لا يُسبُون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذلك غير معتزلى ، وسرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفي هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه في عشر التسعين ، وإذن فيغلب أن يكون مولده في العقد الثاني من القرن الرابع بين سنتي ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه في السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه في شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس في المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسي ، ومن قائل إنه عربي ، ويرجح عروبه اعترافه - كما جاء في ترجمه ياقوت له - بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرّر ما يشير

وزكريا إبراهيم ومحمد كرد علي في الجزء الثامن من مجلة  
الجمع العلمي العربي بدمشق وأحمد أمين في تقديمه  
لكتاب الهوامل والشوامل وزكي مبارك في كتابه النثر الفني  
وإبراهيم الكيلاني في مقدمته لثلاث رسائل ولكتاب  
مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين في تقديمه لكتاب  
المقاييسات وبيروكلمان ٣٣٥/٤ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في أبي حيان أو ترجمته معجم الأدباء ٥/١٥  
وابن خلكان ١١٢/٥ وشد الإزار لمعين الدين الشيرازي  
٥٣ والمنتظم ١٨٥/٨ والسبكي ٢٨٦/٥ وتهذيب الأسماء  
واللغات ٢٢٣/٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٣٥٥ ،  
٥١٨/٤ ولسان الميزان لابن حجر ٣٦٩/٦ وروضات  
الجنات ٧١٤ وكتبت عنه في العصر الحاضر مؤلفات  
وبحوث كثيرة لعبد الرزاق محيي الدين وإحسان عباس

إلى ذلك في المقابلة الثانية من كتابه «المقاسبات» وفي المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل». وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة - دفاع العربي الأصيل - ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجيهاني، ويرفعهم مكاناً عالياً، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا في الليلة السادسة من ليالي كتاب الإمتاع والمؤانسة. وليس بين أيدينا شيء واضح عن طفولة أبي حيان ومرباه ومنشئه، وطبيعي أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء في المساجد، وكانت مفتوحة ومهيأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة. ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته في كتاباته، منهم في النحو واللغة أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ وفي البلاغة والبيان علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦ وفي الفقه أبو حامد المروزي المتوفى سنة ٣٦٢ وفي الحديث أبو بكر الشافعي صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤، وفي التصوف جعفر الخُلدي تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفي الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ الفارابي المتوفى سنة ٣٦٣ وأبوسليمان المنطقي السجستاني الذي مر ذكره، وقد تعرّف به في مجلس يحيى بن عدى وانعقدت بينها صداقة وثيقة، حتى إذا استقل أبوسليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من رواده، بل من ملازميه ومسجلي ما يدور بمحضرتة. وكان من أكبر الأسباب في اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نسخ الكتب بالأجرة للناس، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب في كل فن وفي كل علم، وانطبع كثير مما كتبه في ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً. واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان، فكان ما يكتبه منه يُعدّ نسخاً نفيسة في عصره ويُدّرُّ عليه مكافأة جزيلة، كما جاء في مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، بل لاشك في أن كل ما كان يكتبه كان يُجزى عليه الجزاء الحسن.

وتظل حياة أبي حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورّاقاً، يعيش من نسخ الكتب، ونراه يذهب إلى الحج في سنة ٣٥٣ ويتعرف في مكة على جماعة من الصوفية، منهم ابن الجلاء والحراّني، وفي كتاباته روايات وأخبار نسبها إليهما. وعاد إلى بغداد في سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة. ويبدو أنه أنس في نفسه شيئاً من القدرة الأدبية، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد في السريّ لعله يجد لنفسه عملاً عنده، أو لعله يوصى به أولى الأمر في خراسان. ويظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة ٣٥٨ إذ عاد إليها خالي الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان تعرف في هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه وبعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعي أن يعود أبو حيان إلى عمله في الوراقة ونسخ الكتب . ويحدث في سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن تنور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نهبوه دار التوحيدى ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه في الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيارين لا في هذا الكتاب وحده ، بل أيضا في كتاب الصداقة والصديق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول في الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضعة والتشبه بهم نقيصة » . وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أسرته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجميا لهذه المهنة أشد الهجاء ثالها أشد الثلب حتى لسميها « حرقة الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه في هذا العصر يرثون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها في عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكتفى بالقليل مما ينسخ في حدود حاجته على نحو ما يروى ياقوت في ترجمته للسيرافي أستاذ أبي حيان في النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه في القضاء بين الناس أو في محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم بقدر مئوته يوميا . وطبعا لم يكن أبو حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتفى بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحيى بن عدى أستاذه في علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطى في ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوّره المعاصرون من شكوى أبي حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفى رأينا أن بؤسه كان بؤسا نفسياً أكثر منه بؤسا ماديا ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا في الحياة وهم دونه في الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملاً قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلزمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهدبها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب



الكبرى ، وأيضاً فإن ذلك لم يُعدّ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالتعاسة والقلق المضمّن . . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والذخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء ، ويقول التوحيدى فى مقدمته إنه ابتداءً فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النسك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسخه للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار والإلمام بمقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعة كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعد ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تتعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرىِّ وأرجان وافداً على أبى الفضل بن العميد ، ويرجع بخنجر حنين . ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطايه للعلماء وفى مقدمتهم السيرافى وأبوسليمان المنطقى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىِّ سنة ٣٦٦ راجياً أن يعوضه ما نهبه منه العيارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب النوال ، حتى لكأنه من أهل الكُدىة والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائماً إلى الهجاء والذم ، فربما بلغه عنه شيء منها على الأقل يتصل بأبيه أبى الفضل بن العميد الذى ازورَّ عنه . وتتطور الحوادث سريعاً ، ويفتك مؤيد الدولة البويهى بأبى الفتح ويخلفه الصاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخاً له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يُحضره مجالسه وعلى مواعده ، فيتدخل فيما يكون من حديث ببجاجة وزهو وتعلم مما ملأ نفس الصاحب عليه حَقّاً وموجدة ، فبرم به الصاحب برما شديداً ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسأل عليه لسانه ، وأن شيئاً من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينها فساداً من الصعب إصلاحه أورتقه . وأخذ الصاحب يحفوه ويصدّه عن مجالسه صدائيقها . وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافآته على ما ينسخ ، إذ حبس عنه أجرته ، وكلما لقيه تجهّم له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبي الفضل بن العميد شر انتقام بتأليفه فيها كتابه « مثالب الوزيرين » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليها تحاملا مسرفا وتجنى عليها تجنيا قبيحا ، محاولا بكل ما استطاع أن يسلبها ما اشتراها به فى الناس من الفضائل . ونصيب الصاحب فى هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبي الفضل بن العميد ، لأن جرح أبي حيان منه كان أبعد غوراً وأشدَّ إيلاما .

ويعود أبو حيان جريحا كسيرا إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراقه ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرَّع من حرمان مرير ، ومدَّ إليه يد العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الهوامل والشوامل » والهوامل أسئلة لأبى حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلا بد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائبا فى الرىّ ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديما حين نزل الرىّ زمن أبي الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجيء أبى حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرِّج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس باليأس والمرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مسارب ذلك فى حنايا نفسه وجوانب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين معك وتسلّ ، فلعمر أبىك إنما تشكو إلى شاك وتبكي على باك ، ففى كل حلق شجى وفى كل عين قدى » . فالناس كلهم شاكون باكون مثل أبى حيان ، وكلهم يعترض فى حلقة ما يكاد يغصُّ به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبى حيان ، ينسيه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبى حيان نجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعته به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شحاً شديدا ، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرَّعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبى حيان ، وكان قد تعرف عليه قديما ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أراحه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بیمارستان بغداد ، فعينوه راعيا لبعض شئونه . وأهم من ذلك أنه قرَّبه من ابن سعدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعه في سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر في صنع رسالة عن الصداقة والصدق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها توا ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمئة ، وهي أقوال وأشعار مجموعة على طريقته في كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التي كوَّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . ويتسم الزمن لابن سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيرا لضمصام الدولة البويهى ويتخذ له مجلسا علميا فلسفيا أديبا للحوار ليلا في كل ما يتصل بالإلهيات والطبيعات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون في هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين في ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سعدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكآبة التي كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل في كتاب أطرف المسائل التي تناوَلها حواراه مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرًا فيه على مادار في سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالًا ويأخذ أبو حيان في الإجابة ، وقد يطلب إليه في موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت في سوق الوراقين أو دارت في عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافي ومتى بن يونس في النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلثمائة ، وقد رواها أبو حيان كاملة في الليلة الثامنة . وعرض الحوار جوانب من حياة البغداديين كجانب الغناء واللهو . وليس في الكتاب ما يدل على أنه أُلّف بعد فتنك ضمصام الدولة البويهى بابن سعدان سنة ٣٧٥ ويغلب أن يكون أبو حيان ابتداءً تأليفه في حياة الوزير ، وأتمه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ومجلسه العلمى الفلسفى الرائع الذى لم يبلغ مبلغه مجلس أى وزير أو حاكم بويهى فى زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حواراه مع ابن سعدان فى الإمتاع والمؤانسة سجّل فى كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار فى ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضوع حديث طويل عن المقابسات وعن أبى سليمان ، ونرى أبا حيان يصرّح

في المقابلة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر في المقابلة الحادية والستين أنه قرأ على أبي سليمان كتاب النفس ببغداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث في المقابلة الثانية والخمسين عن شخص توفي سنة ٣٨٦ وهناك مقابلة هي المقابلة الثانية والثمانون اختلفت المخطوطات في تاريخ إملاء أبي سليمان لها على تلاميذه ، هل هي سنة إحدى وسبعين أو هي سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابلات وإلقائها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد امتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ . وليست المقابلات جميعها من إملاء أبي سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان في المقابلات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرر كلام أبي سليمان وغيره من أهل الندوة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزيج التأليف ، ويقول إنه استفد الطاقة في تنقية الألفاظ من الشوائب ، حتى يسلم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع في الظن ، فيقول إن صياغة المقابلات وغيرها من النصوص التي يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هي من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكد ذلك بالقياس إلى أبي سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان في الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن في لسانه لُكْنَةٌ ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن في عبارته تقطعا في السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبي حيان من أن أحدا لم يسلم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعل لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابلات في جملتها من كلام أبي سلمان ورفاقه نصًّا ولفظًا . ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابلة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الخمار المتفلسف يجدها بنصّها ولفظها في كتاب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي ص ٣٣٥ ومثلها المقابلة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص في صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابلة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجاني موجودة بلفظها ونصها في صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبي سليمان في كتابه صوان الحكمة وفي رسائله التي ألحقها به الدكتور بدوى يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفي عن أبي حيان جهده في تنسيق المقابلات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعني ما قيل من أن اللفظ أو الصياغة في المقابلات له ، والمعنى لأبي سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان في بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحيانا . وقد طبع كتاب المقابلات طبعت مختلفة في بومباي والقاهرة وبغداد .

ونمضى مع أبي حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقه وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع في القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب في صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة : وتتخلل ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوّر استشرافه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملوكوت إلى تصوير ما استشعره سنوات طوالاً من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه في رسالته رقم « به » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل بي منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك ، فقد - وحقك - شددت الوثاق ، وضيقت الخناق ، وأقت الحرب بيني وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساساً بالحرب كما يقول ، في عهد وقوفه بأبواب الوزراء : أبي الفضل بن العميد وابنه أبي الفتح والصاحب بن عباد . ولذلك نطن أننا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم تؤولف في عام واحد ولا في أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينيات ، وبعضها متأخر في السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجري في كلامه من هجر للدنيا وترهاها وتعلق بالله ووقوف طويل ببابه في طلب العفو والرجاء في نعيه ، وعيناه تعصرها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى في تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبي حيان في الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأنجيل وأولى من ذلك في رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبنوثة في عيون الأخبار لابن قتيبة ، فصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف في فؤاده وصفاء جوهره الروحى . أما ما رده ابن الجوزى والذهبي وغيرهما - ونقله عنهم السبكي في طبقاته - من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بهتان عليه أى بهتان ، وقد دافع عنه السبكي ، وقال إن الذهبي حمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة في الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : « لم أرتكلماً في مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً أو أقلع عن كبيرة رغبة . . . جدّ الله عروقهم واستأصل شأفتهم » ويفضّل الأمين عليهم ويقول إنهم أتقى لله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويسلّق الباقلانى الأشعري العظيم

بلسان حاد . وهي طبيعة أبي حيان حين يهجو يُسِفُّ في هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لئراه يصف الباقلاني بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين - بجانب أنه سني - ما أشرنا إليه في غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرَّ بنا ، إلى مذاهبهم ونحلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يجاهرهم بالهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التي سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أبي بكر وعمر زاعماً أنها وجهها بها إلى علي بن أبي طالب لبيان أنه دون أبي بكر منزلة في استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلاني مع رسالتين أخريين : أولاهما في علم الكتابة والثانية في بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة في عصر أبي حيان . وله رسالة في بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصديق المطبوع في القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

ووراء كل ما قدمنا لأبي حيان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها « الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي » وأكبر الظن أنه يقصد بها - إن صححت نسبتها إليه - النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلاً . وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصديق والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظناً أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها في الناس ، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسخُها في الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها - إن كان قد أحرقها - شيئاً . وكان هذا الإحراق كان معلماً قوياً على طريق حياته التي أخذ يفضيها في شيراز منذ هذا التاريخ متجهاً بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذه لنفسه حلقة بروى فيها الناسُ عنه - كما ذكر السبكي - الحديث النبوي حتى وفاته .

وأبو حيان يُعدُّ أكبر أدباء العراق في هذا العصر من القرن الرابع الهجري إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه - كما في كتابه الإمتاع والمؤانسة - كثيراً من جوانب التفلسف والفكر العميق في الإلهيات والطبيعات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظياً ، قَعَقَعَةً ولا طِحْن ، بل هو أدب يحمل زادا كبيراً من المعاني ، وقد أشار مراراً في الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعاني كما يُعنى بالألفاظ ، وهو شيء طبيعي لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً، وصدر عنها في كتاباته صدوراً طبيعياً ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وأداه ذلك إلى أن ينفصل عن موجة السجع التي سادت الكتابات الأدبية في أيامه ، إذ رأى فيها طلباً للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعاني ، بل قل تحيُّفاً وانتقاصاً ، فازورَّ عنها . وكانت المكتبة العربية قد أَلقت بكنوزها بين يديه في أثناء وراقته ونسخه ، فراحه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني ، مستخدماً أسلوب الازدواج الذي عُرف به ، وقد يتخلله في الحين البعيد بعد الحين السجعُ ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقر هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته . ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتي لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتسع اتساعاً واضحاً في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي ، ولنقرأ هذه الفقرة في فاتحة الرسالة التي توصل بها إلى أبي الفتح بن العميد .

« اللهم هبِّي لي من أمرى رشداً ، ووقفني لمرضاتك أبداً ، ولا تجعل الحرمان عليَّ رَصداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق » .

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج ، معادلاً بين كل عبارة وتاليها معادلة صوتية دقيقة ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يستغل قدرته الفكرية في تفریع الجمل بعضها من بعض ، إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهي بالتوفيق . ونحس كثيراً إزاء ازدواجات أبي حيان وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارته اكتساحاً ، دون أن يستطيع تخلصاً أو إفلاتاً . وكان عجباً له أن هذه الرسالة التي كتبها لأبي الفتح لقيت منه إعراضاً ، وعرف أن السبب في ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصره ، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة في تقييد الجاحظ يشيد فيها به وبفنه . ولا يروعننا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحياناً إنما يروعننا فيه أيضاً ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل في جميع أوعيته الصوتية ، ونقصد الشراب السائع الذي تحمله هذه الأوعية من المعاني الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات ، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه ، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة . ويكفي لبيان ذلك كتابه « مثالب الوزيرين » الذي

يقع في نحو ثلثائه وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانبا فيها إلا مزقه تمزيقا ، وخاصة  
الصاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلثه وذمه بمثل قوله في الكتاب :

« رماني عن قوسه مُعْتَرَقاً <sup>(١)</sup> فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيظا ، وحرمني  
فازدريته ، وحقرتني فأخزيتني ، وخصّصني بالحيية التي نالت مني ، فخصصته بالغيبة التي  
أحرقته ، والبادي أظلم ، والمتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لساني شهده يُشْتَفَى به أَجَلٌ وعلى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلَقَمٌ  
ولئن كان منغني ماله الذي لم يبق له ، فما حَظَر على عِرْضه الذي بقي بعده ، ولئن كنت  
انصرفتُ عنه بِحُقْفَى حُنَيْنٍ ، لقد لصق به من لساني وقلمي كل عار وشنار <sup>(٢)</sup> وشنين ،  
ولئن لم يريني أهلاً لنائله <sup>(٣)</sup> وبرّه ، إني لأراه أهلاً بقول الحق فيه ، ونث <sup>(٤)</sup> ما كان اشتمل  
عليه من مخازيه ، ولئن كان ظن أن ما يصير إليّ من ماله ضائع ، إني لأوقن الآن أن ما  
يتصل بعرضه من قولي شائع . والمتصف في الحكم يَعُدُّ المظلوم ، ويلوم الظالم .

وواضح في الفقرة أن أبا حيان يعتمد في أسلوبه المزوج على المقابلات ، فهو يقابل  
بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب في كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع في ذلك  
هنا وفي كثير من جوانب كتاباته ، يرفده في ذلك ذهن خصب حافل بالمعاني المتقابلة فلا يكاد  
المعنى يدونه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشيء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه  
في حديثنا عنه بكتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ  
الذي نجده عند أبي حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم  
العصر ، فغزر فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأبى عليه شيء من التعبير ،  
فاتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعاني بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رفده ولا مدده .  
ونراه في الإشارات يصور إحساسه في أواخر حياته بالغرابة التي طالما أمضته والتي  
وصفها في مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب  
ولا مشفق إلا الوحشة والوحدة ، وكادت شمس الحياة تغرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه  
ليطيل في الإشارات في وصفه للغريب إذ يمتد في ست صفحات لُكِّتَ فيها الألفاظ ولُكِّتَ  
المعاني بمثل قوله :

« قد قيل الغريب من جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

(١) معترقا : أى حتى نفذ السهم من اللحم إلى العظم .  
(٢) نائل : نائل : عطاء .  
(٣) نث : نشر .

(٤) شنار : شنة .



بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشَّريب<sup>(١)</sup> ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو في غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جلاله ، واغترب عن حبيبه وعدَّاله . . والغريب مَنْ إن حَضَرَ كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجر ، وإذا قعد لم يُزْر . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أُقبل لم يوسَّع له ، وإذا مرض لم يُسأل عنه . . الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب . . الغريب ليله أَسْف ، ونهاره لَهْف ، وغداؤه حَزَن ، وعشاؤه شَجَن ، وسره عَنَن ، وخوفه وطن . .

وهي كلمات من سيل الغربة الذي تدفق في صفحات الإشارات ، وكأنما هو سيل ليس له آخر من المعاني التي صيغت في أسلوب الازدواج . وغلبَ السجع في هذه الكلمات ، وهو يكثر في الإشارات كثرة لا نراها في كتبه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التي لا تغيب أبدا عن كتابات أبي حيان لا في شبابه ولا في هرمه . وارجع إلى فكر أبي حيان الخصب في هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله . وبذلك بثَّ في كلامه معاني إنسانية عميقة ، وهي تجرى في كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله : « دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه » . فحتى الصوفي غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أدعيته ومناجياته لربه في الإشارات من مثل قوله :

« اللهم رُوِّحْ صدورنا بنسيمِ وُدِّكَ ، واغمرْ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدِكَ ، وأذِقْنَا حلاوة بَرِّكَ ، وجدِّ علينا بك ، واخلِّ بيننا وبينك ، وجلِّ أبصارنا إليك . . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألستتنا قواطف وصفك ونعتك ، في قدرتك وحكمتك ، وإذا عطشنا فَرِّونا ، وإذا ضعفنا فقوِّنا ، وإذا اعوججنا فسوِّنا ، وإذا اعتلنا فداونا ، وإذا كدرنا فصفِّنا ، وإذا دنسنا فتقِّنا . . وإذا بنا منك فصلنا بك » .

وخصائصه التي صورناها واضحة في هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

(١) الشريب : المشارك في الشرب .

ومغادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفريعات في المعاني والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يتسع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

## ٤

### ابن<sup>(١)</sup> مسكويه

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطربت المصادر القديمة في مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت في ترجمته وكذلك القفطى في تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان في ترجمة ظهير الدين الروذراورى إنه أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذى يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسياً وأسلم وكان عارفاً بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومرباه فضلاً عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالى سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث في مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعقول أن يلتحق بالعمل في دواوينه وهو في نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرى ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتاحت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزلها في شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولا بد أنه اختلف في بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظناً أنه

الإسلام لدى بورص ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والترات اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة د . بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة ابن مسكويه وكتاب ابن مسكويه : فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت ( طبع القاهرة ) ومقدمة د . عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الخالدة .

(١) انظر فى ابن مسكويه وترجمته تنمة اليتيمة ٩٦/١ ومعجم الأدياء ٥/٥ وابن خلكان ١٣٧/٥ وروضات الجنات للخوانسارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطى ٣٣١ وابن أبى أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوازمى وصوان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ٣٥/١ ومقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل وتاريخ الفلسفة فى

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدى ومجالسه التي كان يحاضر فيها تلاميذه في تلك العلوم ، كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين في اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى ، ونراه في كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال في اللذات إنما كان في عهد المهلبى الذى مررنا أنهاكه في الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين في كل أسبوع . ولابد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولّى ابن مسكويه وجهه نحو الرىّ ووزير ركن الدولة هناك أبى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان في ذلك ما يدل على أنه عُرِف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذ ابن العميد مشرفاً على مكتبته ينظّمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمه في مختلف العلوم والفنون . وتعرّف عليه أبو حيان التوحيدى حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ في قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد في الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرتة » وطبيعى وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحوّلت مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكتبه وأعلى منزلته . ويُقبَضُ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهى ، مؤملا العمل عنده فيتخذه خازنا لكتبه ، ويجعله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحوّل معه إليها . وأخذ يُعنى - منذ هذا التاريخ على الأقل - بمجالس المتفلسفة ومصاحبهم ، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الحّمّار المتفلسف الذى مرر ذكره ، كما كان يلم أحيانا بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجى وقاطيغورياس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته في الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

في السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثاني بهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذكرُ أنها خدماه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويغلب أن يكون ذلك في أوائل القرن الخامس الهجري . وحدث بينه وبين ابن سينا شيء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطي أن ابن سينا قال إنه حضره في مسألة فاستعادها كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفي رأينا أن ابن سينا تجنّى عليه ، كما تجنّى عليه أيضاً أبو حيان في كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه «عيسى بين أئنياء» . وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عتياً ، فقد توفي عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعياً إمامياً يعتقد بعصمة الإمام علي نحو ما ذكر ذلك في خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعدّ في الصفوة من فضلاء عصره وأجلّائه ، يقول الثعالبي في وصفه : «إنه في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه في صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وكدّه وهمّه . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من ترأسله مع الخوارزمي وبديع الزمان . وفي رسائل الخوارزمي رسالة يعزّيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينهما ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفي ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتنصّل البديع في أولاهما من شيء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردّ عليه ابن مسكويه فاسحاً في تنصّله ومشيداً ببلاغته . ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبي صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف ورسالة خلقية كبرى جرّد نفسه لها في معظم كتاباته وتأليفاته ، ويذكر له القفطي من كتبه المتصلة بالطب كتاباً في الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً في الأطعمة .

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه «تجارب الأمم» وهو في التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذة الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فقصده مقصد أخلاقي ، وهو المقصد الأسمى الذي ابتغاه في تأليفه على نحو ما سنرى عما قليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجري وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم في

دولتهم عرضاً عادلاً منصفاً دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبي الفضل ابن العميد حين كفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان في حاسة بالغة حين جاءهم النبأ المشئوم باستيلاء الروم على ثغرى المصيصة وطرسوس في شمالي الشام ، إذ وفدوا على أبي الفضل بن العميد في الرى سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح ، فردَّهم ردّاً منكراً ، وكأنه خشي منهم مكيدة فسلب عليهم جنوده ، ففرَّقوا جمعهم ، وبأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم - وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً - أعطاهم ابن العميد المال الذي طلبوه لانضمت إليهم في الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكَلُوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن لله أمراً هو بالغه » . فصداقته لأبي الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوصمة في تاريخه ، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخي الذي كان يقع في ست مجلدات إما في حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاقي من العبرة والعظة الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخي الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أى العقل الأزلى ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال في الرى بخدمة أبي الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى باسم الحكمة الخالدة ، وهو يصوّر في ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنساني وما ينتج من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه في الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنساني واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها في ثلاثة كتب ، هى الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة في عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهى في إثبات الصانع وأنه واحد أزلى ليس بجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكثر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يُعرفُ بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبداع الأشياء لا من شيء . والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست بجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست بالحياة بل هى التى تعطى الحياة ، وهى لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التي تحصل بها الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنى في حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، إذ لم يخلق خَلْقَ مَنْ يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، فكلها تتم لها حياتها خَلْقَةً وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاقد في كل ما يتعلق به من المطعوم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يجرِّمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس في ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشيء ، وهم بذلك - في رأيه - جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة في النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات في العالم التي تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهي النبات والحيوان والإنسان . وكل نوع في هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذي يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يرى في أشجار النخيل ففيها الذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسِّفاد في الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان في القرود وما يماثلها في الحلقة الإنسانية . وهي تقرب في التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنساني وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو في هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخصَّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندي والفارابي وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينا الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هي تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة . ويلاحظ - كما لاحظ الفلاسفة قبله - أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلق الشريف الذاتي لا العرضي عن طريق المال أو السلطان أو المكائفة والمغالبة . ويمضى فيما وضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طهرت نفسه من الشهوات الجسمانية والتزوات الهيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعة وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً لأن كلامهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويأخذ في بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهي أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أختيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أختياراً وهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أختياراً بالتأديب أو أشراراً أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأختيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشرعية وأنها هي التي تقوم الناشئة وتعودهم الأفعال الحيرة ، ويقول إن كمال الإنسان في اللذات المعنوية لا في اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تُربى الناشئة على أحكام الشريعة ثم تنظر في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب في أنفسها . ويبدئ بفصل طويل في تأديب الناشئة والصبيان يقبس أكثره من بروسن ويتحدث عن طائفة من الآداب في المطاعم وغيرها ، ويطلب في الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينها مما أشار إليه . ويفيض في بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفي رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه في الجماعة ، وبها تفسر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلف مذهباً خلقياً يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ما هو معروف عن الندب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس في أداء فريضة الحج . وهكذا تقوم شريعتنا على الأُنس والمحبة ، وفي الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان في حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدرَسُ للناشئة في كثير من البلدان العربية في هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم في المدارس الثانوية ، حتى نمدّهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن في العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها في أسجاع قلما تحوى غذاء فكرياً ، بل تمتد في أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوى رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التي أجاب عنها في الهوامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بخني حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح في هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح في الفوز الأصغر ، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره في بعض صحفه .

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التي تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسا وسبعين مسألة ، وجهها إلى الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهي موزعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية . وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين في تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبي حيان هل تأتى الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً ؟ فقد ردّ على هذا السؤال قائلاً :

« ليس يجوز أن تردّ الشريعة من قبل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاك في [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبدأً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأتى الطباع من شيء هو مخالفة للعقل . والعقل إذا أبقى شيئاً فهو أبدى الإبقاء له لا يجوز أن يتغير في وقت . . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التي يأباه العقل وينكرها بل هو من الأشياء التي تأباه بعض الطباع والعادة » .

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له



في الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجماع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق في الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . ونذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سأها أبو حيان ، وهي إذاعة الأسرار مها ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

« قد تبين في المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداهما معطية والأخرى آخذة . فهي بالقوة الآخذة تستيب (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبين لسماع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هي انفعال وشوق إلى الكمال الذي يخصُّ النفس . وهي بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيد العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوته على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعي إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاق بإحدى قوتها إلى الاستعلام ، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكمس سرٌّ بتةً . وهذا تدبير إلهي عجيب ، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحُفظت قصص الأمم ، وعنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته » .

ويمضي ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السرينغى أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لزوجاتها ، وأن إخراجها من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج بمجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها في أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت في ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

## ٥

### الحريرى (١)

هو أبو محمد القاسم بن علي الحريرى ، كان أبوه من أثرياء « المشان » ، وهي قرية قريبة

(١) انظر في الحريرى وترجمته الأنساب للسماعى ١٦٥ ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٥٩٩/٢ والعرفى خير من عبر ٣٨/٤ والنجوم الزاهرة . ومعجم الأدياء ٢٦١/١٦ وابن خلكان ٦٣/٤ وإنباه الرواة ٢٣/٣ وتذكرة الحفاظ والسبكي ٢٦٦/٧ والأنبارى ص ٣٧٩ وشرح الشريشى على المقامات =

وشذرات الذهب ٤/٥٠ واللباب ١/٢٩٥ ومراة الجنان

٢١٣/٣ والعرفى خير من عبر ٣٨/٤ والنجوم الزاهرة .

٢٢٥/٥ وروضات الجنات ٥٢٧ ونزهة الألباء لابن

الأنبارى ص ٣٧٩ وشرح الشريشى على المقامات =

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومرباه . ثم سكن البصرة في حى بنى حرام الفزاريين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب ، ويسميه ، ويعددهم ، السبكي في طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبر في ديوان الخلافة بالبصرة ، وهي وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات في عصرنا ، ولا يعرف بالضبط متى تقلدها ولا متى عهد إليه بها ، وظل في هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ وظلت بعده في أبنائه حتى آخر عهد المتقي بالله (٥٣٠-٥٥٥ هـ) . ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لها ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآيته الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين ، ويؤلف كتابه المعروف «درة العوَّاص في أوهام الخواص» وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة ، وإن كان قد بالغ في ذلك حتى عدَّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجي شرح عليه طبع في إستانبول ، ومرَّبنا في غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقي تكلمة ألحقها بالكتاب وهي مطبوعة . ويؤلف الحريري أيضاً ملحة الإعراب ، وهي منظومة في النحو شرحها شرحاً جيداً ، وهي مطبوعة في القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله في البصرة وضياعه في المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العماد الأصبهاني في مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلجوقي الذي صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكي إنه حدث في بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريري لا يبارى في الأدب والبلاغة والفصاحة ، وتعدُّ مقاماته آية براعته التي ليس لها لاحقة ماثلة وكأنما أغلق الأبواب بكلماته بعده ، فلم يستطع أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه في تلك المقامات ، ويشهد بذلك الزمخشري قائلاً :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته  
إن الحريري حريٌّ بأن نكتب بالتبُّر مقاماته

ويقول السمعاني عنه : «لم يكن له في فنه نظير في عصره ، ولو قلت إن مفتاح الإحسان في شعره كما أن محتتم الإبداع في نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

= الحريرية ، وهو مطبوع في مصر مراراً ، وهو شرح نفيس المعارف ص ٤٤ والفن ومذاهبه في النثر العربي وتكتظ رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال ص ٢٩٢ . مخطوطة . وراجع فيه وفي مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار

مخيم السحر عند أقلامه ، لما زلقتُ من شاقق الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف» .  
ويقول العباد الأصهباني : « طلعت ذكاء<sup>(١)</sup> ذكائه في المغرب والمشرق ، وامتلاّت ببضائع  
فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائب المشيم والمعرق . . حريرى الوشى ، عراقى  
الوشم<sup>(٢)</sup> ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتيمة النحر ، وذرة الصدف ، وذرى  
السدف<sup>(٣)</sup> . . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبر<sup>(٤)</sup> على البلغاء ببراعته » . ويقول الرواة  
إنه كان بخيلاً دميم الخلقه والهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد نتف لحيته ، والناس على  
الرغم من ذلك يزدحمون عليه لسباع مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعائة  
طالب أن يرووها عنه ، وفي ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته في عصره من  
منزلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يخال بيانه وفصاحة  
لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدرهم والدنانير . وهى تزخر بحركة تمثيلية ، غير أنها  
لا تتسع لتصوير حياة مجتمعا ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بلاغية فحسب ،  
واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صوغه لها ما حكاه  
عن نفسه من أنه كان جالساً فى مسجد بنى حرام فى البصرة فدخل شيخ رث الهيئة ، كان  
شحاذاً أديباً فسلم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحته وحسن بيانه ، فسألوه عن كنيته  
فقال أبو زيد ، وسألوه عن موطنه ، فقال من سروج ، وهى بلدة قرب حران شمالي  
العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ،  
ونسبها إلى أبى زيد السروجى المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها - فيما يقال - أنوشروان  
ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ،  
فأتمها خمسين مقامة . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى  
بغداد ، فأعجب بها الأدياء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل  
أربعين يوماً لا يفتحُ عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى  
بغداد فعرف الأدياء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ،  
فأت عنده . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً مغربى من بعض القوافل كانت به  
هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه !

وكل ما قدمنا قصص غير صحيحة ، وفى مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

(٣) السدف : الظلم .

(١) ذكاء : شمس .

(٤) أبر : غلب .

(٢) الوشم : النقش .

وبعثه على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، وكذبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريري نفسه كتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له في أول خلافته سنة ٥١٢ وكانه هو الذى أشار إليه فى مقدمة المقدمات بقوله : « فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع » يريد البديع الهمداني ومقاماته . وتوقف الشريشى فى شرحه إزاء هذه العبارة ، وكانه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألقت فى عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريه : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألقت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وبدأ الحريري تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤ .

واتسعت الأسطورة بأبى زيد ، أديب المقامات الشحاذ ، فقبل إنه نحوى يسمى المطهر ابن سَلار ، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكرة أنه صاحب الحريري الذى أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته « ملحة الإعراب » وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السروجي . ومن المؤكد أن أباً زيد فى المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريري ليحوك من حولها حيل أديب متسول . وقد سمي راويته الحارث بن همّام يعنى به نفسه أخذنا من الحديث النبوى : « كلكم حارث وكلكم همّام » أى كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يعد مجزأ ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريري فى عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها لتعريف أبى زيد براويته ، بينما جعل الأخيرة ، وهى ذات الرقم الخمسين ، لتوبة أبى زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه ، ويغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده فى بلدته سروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً فى عبادة ربه . وسمى المقامات فيما عدا ثلاثاً منها باسم البلدان التى تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه . ونرى الحريري يذكر فى مقدمتها مقصده منها إذ يقول : « أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ، وريق اللفظ وجزله ، وغر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشحها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ورسعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المتبكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية ، والأصاحيك الملهمية . ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عمّ فى الكتابة ، فلم يقف الكتاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عُقدًا غريبة يصعبون بها المرور إلى السجع ، حتى يثبتوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلمُّ بالمقامة السادسة ، حتى نراه يخلج ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعبة غاية في العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . « لُمُّ أَخَا مَلِّ » فإن العبارة تُقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفي المقامة الفهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقرأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل « مع اللجاجة تُلغى الحاجة » فإنها يمكن أن تُقرأ « الحاجة تلغى مع اللجاجة » . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرِّقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل « نائل يديه فاض ، وشحُّ قلبه غاض » . وفي المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة في المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخنق المقامات خنقاً لولا ما امتاز به نسج الحريري من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعبة الألفاظ شاعت في العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصَّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتي عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقهاء مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعنى بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنايا وألفاظ اللغة الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تُصكُّ الأسماع ولا تستثقلها الأفواه . وهو يكثر في مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعي أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بجرأ أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله :

« ابن آدم ما أغراك بما يعرك ، وأضرارك (أجراك) بما يضرُّك ، وأهلكك بما يُطغيك ، وأبهلك بمن يُطريك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعضات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أتظن أن سَتَّرَكُ سُدى ، وأن لا نحاسب غداً . . كلا والله لن يدفع النون ، مالٌ ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور ، سوى العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى (ونهى النفس عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعوى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى) » .

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة في المقامات ، ودائماً تُعرض في مثل هذه الأسجاع الخفيفة التي تطير عن الأفواه في عدوبة ورشاقة . وبيننا يلقانا أبو زيد في بعض النوادي واعظاً إذا هويتحول من حين إلى حين ماجنا مع ندامى يحسنى العُقار ويحلج الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل في المقامات ، وقد أراد به الحريري إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده في مقامات عدّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكّام على نحو ما نرى في المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكّر في زى شيخ هرم خبيث تجرّه بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضي وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

«أيد الله القاضي ، وأدام به التراضي ، إني امرأة من أكرم جرثومة ، وأظهر أرومة ، ميسمى الصّون . . . وخلقى نعم العوّن ، وبينى و بين جارأتى بؤن ، وكان أبى إذا خطبني بُناة المجد ، وأرباب الجدّ ، سكّتهم وبكّتهم ، وعاف وُصّلتهم وُصّلتهم ، واحتجّ بأنه عاهد الله تعالى بحلّفة ، أن لا يباهر غير ذى حِرْفة ، فقيّض القدر لنصّبي ووصّبي ، أن حضر هذا الخُدعة نادى أبى ، فأقسم بين رهطه ، أنه وفّق شرطه ، وادّعى أنه طالما نظم دُرّة إلى دُرّة ، فباعها ببُدرة (مال كثير) فاغترّ أبى بزخرفة مِحاله (كيدِه) وزوّجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجني من كِناسي (بيتي) ورَحّلني عن أناسي ، ونقلني إلى كِسره (بيته) وحصلّني تحت أسره ، وجدته قُعدة جُثمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضُجعة (عاجزاً) نُومة . . . ومزّق مالى بأسره ، وأنفق مالى في عسره . . . ولى منه سُلالة ، كأنه خلالة ، وكلانا ما ينال منه شُبعة ، ولا ترقأ له من الطوى (الجوع) دَمعة ، وقد قُدّته إليك ، وأحضرته لديك ، لتعجم (لتختبر) عودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله .»

وتمضى المقامة على هذا النمط الفكّه ، ويردّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشوقُ غُبارة في العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جيل الكرام ، مما اضطره إلى بيع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع - كارهاً والدموع تترقق في عينيه - جهّازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بعطف القاضي على الشيخ وزوجته وفرضه لها في الصدقات حصّة .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العدوبة ، ويخيل إلى قارئ الحريري في مقاماته كأنما جمع العربية كلها في كِنانة أو حقيبة ثم نثر ألفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها ويتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة ، وكأنما كان يعزفها على قيثارة عَزَفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثري الذي لا يجارى في عَرَس ذوق العربية في نفوس الناشئة وكل ما يُطَوَّى في هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية النثرية . ومررنا في الفصل الثاني من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريري في مقاماته وأن لابن بَرِّى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ رداً عليه انتصر فيه للحريري .

وكان للحريري بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن العماد في خريدته وياقوت في معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال العماد الأصبهاني في قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه في ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا في عصر الحريري وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيها واضح لالتزام كلمات بعينها ، وكأنه فيها يحجل في قيود ثقيلة . غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجعه وحسن رصفه في رسائله شأنه في مقاماته ، كقوله في وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

«وصل الجواب . . وخلته كتاب الأمان ، من الزمان ، فتلقته كما تتلقى يد الإنسان ، صحفَ الإحسان ، وصكأك العطايا الحسان . لا : بل كما تتلقى أناملُ الرَّاح (الكف) كاسات الرَّاح (الخمير) من أيدي الصُّباح (الفاتنات) في نسائم الصُّباح ، ومازلت أتمتع بحُلِيِّ ودُرر ، ووَشْيٍ وجِبَر (حرير) ومُلَحٍ وزَهَر . . فله ما جمع فيه من أنوار ونُوار (زهر) ونضير (جميل) ونُضَار (ذهب) وتحسين وإحسان ، ومَعِين (ماء عذب) ومَعَان .»

وواضح مافي هذا السجع من خفة ورشاقة بما يحتويه من مهارة في انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يمتع الألسنة كلامه حين يجرى عليها متدفقاً في عذوبة ، كما يمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى ليشعر قارئه أن متاعاً موسيقياً خلافاً يصبُّ في حنايا سجعه ، متاعاً يلد الآذان والقلوب والأفئدة .

القسم الثالث

إيران





## الفصل الأول

### السياسة والمجتمع

١

#### دول متقابلة

أخذت تنشأ في إيران منذ القرن الثالث الهجري دول متقابلة ، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التي أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وخلفه عليها أبنائه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة ، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد ، فكانوا يرسلون لها بالجبايات والضرائب . وفي سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في إقليم بلوخستان شرقي إيران ، ومدَّ حدودها حتى شملت كرمان جنوبي إيران ، وأفغانستان ، واستولى على خراسان التي كانت بيد الطاهريين . وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً . ويغلب الحسن بن زيد العلوي على طبرستان منذ سنة ٢٥٠ ويقم بها دولة علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان ، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية ، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصفارية . وكتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسي الثاني إذ بدأت في سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة في عصر الدول والإمارات ، متقابلة مع الدولة البويهية التي سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران ، ومدَّت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق ، وكانت تقابلها الدولة الزيارية التي سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها ، وقد مدَّت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل . ولا يكاد القرن الرابع ينتهي حتى يبرز نجم الدولة الغزنوية . وبذلك كانت تتقابل في أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزياريين والغزنويين .

الدولة السامانية<sup>(١)</sup>

يرجع نسب السامانيين - فيما يذكر البيروني وغيره - إلى بهرام جوبين الذي كان مَرزُبَانًا لِخِشْرُو أَبْرُويز (٥٩٠ - ٦٢٧ م) على ولاية أَذْرَبِيْجَان الفارسية ، وقد أسلم جدهم سامان خوداه أي سيد قرية سامان الواقعة في إقليم بَلْخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) . ولم يلبث اسمه أن لمع بين أصحاب أبي مسلم الخراساني حين نهض بالدعوة للعباسيين في أواخر العصر الأموي ، وتوفّي ، وحلّ ابنه أسد مكانه في خدمة العباسيين حتى توفّي لعصر الرشيد . ويصطنع المأمون أبناءه ، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر ، فيولّي أحمد فرغانة ونوحا سمرقند ويحيى الشّاش وأشروسنة ، كما يولي أخاهم إلياس هراة في أفغانستان . ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه . ويتوفّي سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده ، ويفزع إليه أهل بُخارى ، فيُرسل إليهم أخاه إسماعيل ، ويصبح نائباً له عليها . وتفسد الأمور بين الأخوين ، وتكون الغلبة لإسماعيل ، فيجرد أخاه من كل سلطان . وهو يُعدّ المؤسس الحقيقي للدولة السامانية .

وتلتقى جيوش إسماعيل في سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كَرْمان والرّيّ وبلوخرستان ، وتدور الدوائر على عمرو ، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل ، ويُرسَل إليه الخليفة المعتضد بخلعة السلطنة . ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة ، ويموت متأثراً بجراحه ، ويستولى إسماعيل على إمارته . وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة ، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نواباً عديدين ، وبينما كانوا يقيمون في بُخارى حاضرتهم كان قائد جيشهم يقيم في نيسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة . وتكَلَّل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا في جيش جرار ، فنادى إسماعيل في خراسان وبقية إمارته

(١) انظر في الدولة السامانية الآثار الباقية للبيروني ونجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تغري بردى في مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار الكتاب اللبناني) ٧١٢/٤ وكتاب تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدوليز (الترجمة بيروت) ص ٢٦٢ .

بالنفير ، وجاءت الجنود من كل فجٍّ ، وهجم بهم على الترك في السَّحَر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقرَّ الباقر لا يَلُون . وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة ، فهو الذى نَظَمَ علاقتها بالخلافة العباسية في بغداد ، فلم يكن يؤدَّى لها ضرائب مالية ، بل كان يكتفى بإرسال بعض الهدايا ، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفًا كثيرة . وقد منحه الخليفة حقَّ ذكر اسمه معه في خطبة الجمعة وحقَّ نَقْش اسمه على الدنانير . وظل ذلك تقليدًا للأمرء السامانيين ، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسى عن الخلافة ، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكون حكمهم شرعيًا ، وكانوا تبعاً لذلك سنين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة .

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١ هـ) . وكان شجاعا ، فاستولى على سجستان ، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه ، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١-٣٣٢ هـ) . ومنه اقتطع مرداويج الزيارى طبرستان سنة ٣١٦ وأتهم باعتناقه للمذهب الإسماعيلى الشيعى ، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣ هـ) . وهو أول سلاطين الدولة في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت فيه شدة وعنف ، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سَمَلَ عيونهم جميعا . وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣-٣٥٠ هـ) . وكان ضعيفا . وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠-٣٦٦ هـ) . وأرسل إليه الخليفة المطيع لله بالخلع والتقليد . وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقتطعون من السامانيين كثيرا من أطراف دولتهم في إيران ، فاستولوا على كرمان . غير أن خراسان ظلت في أيدي السامانيين هي وما وراء النهر ، وظل سلطانهم قويا فيها حتى عهد منصور . وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن في ربوع بلادهم . ويحكى ذلك ابن حوقل قائلاً : « ليس بأرض المشرق ملك أمتع جانبا ، ولا أوفر عِدَّة ، ولا أكمل عِدَّة ، ولا أنظم أسبابا ، ولا أكثر أعطية ، ولا أدرُّ طعاما ، ولا أدومُ حسن نيات من السامانيين ، مع قلة جباياتهم ونزور أخرجتهم ، وقلة الأموال في خزائنتهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبى صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا ، لكل خراج يُقبَض وضمان يُحمَل في كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعمة في كل ستة دارة ، غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طعم منها في رأس تسعين يوما ، يُخرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرفين خمسة آلاف ألف درهم ، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكورة ، وهى عشرون ألف ألف درهم ، عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وغبطة بقيام المعدلة فيها تامة . . ولهذا الحال أعمالهم مشحونة

بالقضاة والجُباة والكفاة والولاية متزئين على أرزاق تتساوى ، وأحوال في المراتب تتداني ، وذلك أن رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرية (المدن) ووالي الصلاة والمعونة وراتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض . وهى شهادة قيمة من شاهد عيان غير متحيز ، إذ كان ابن حوقل شيعيا إسماعيليا ، وكان السامانيون سنين ، خصوصا لشيعته ، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها فى الأرزاق والرواتب ، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفانى فى خدمتهم .

وخلف منصور ابنه نوح الثانى (٣٦٦-٣٨٧ هـ) . وكان صغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة ، وكأما كان ذلك نذيرا بتضعف شئون الدولة ، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فرغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فيما وراء النهر ، وكانوا قد أبلوا فى حربهم قبل ذاك طويلا ، وبنوا على حدودهم معهم رُبطا كثيرة ، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرون من الإغارة على السامانيين ، وكان عبد الملك أبوه قد ولى البتكين قائد جيوشه أمر غزنة ، فاستعان بمملوكه سُبُكْتِكِين ، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة ، فولّى نوح الثانى ابنه محمود الغزنوى خراسان ، وتوفى نوح ، واضطربت الأمور بعد وفاته ، بين ابنه منصور وعبد الملك ، وعلت كفة الأخير ، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيرا ، فخلا الجو لمحمود الغزنوى ، وضم خراسان إلى مملكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية .

### الدولة البُوَيْهِيَّة (١)

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبى بحر قزوين موطنهم فقط ، بل تغلغلوا فى إيران ، وكان فى مقدمة من خرجوا على بن بُوَيْه وأخواه الحسن وأحمد ، وعملوا أولا - كما مر بنا فى قسم العراق - مع القائد الديلمى ماكان بن كاكى ، حتى إذا هزمه مرداويج الزيارى حاكم طَبْرِسْتَان وجرجان تركوه إلى خصمه قائلين له - كما روى ابن مسكويه - «الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفف عنك مثوننا ، ويقع كلنا (عبثنا) على غيرك ، فإذا تمكنت عاودناك» . ووقع على بن بويه من مرداويج موقعا حسنا

(١) انظر فى الدولة البويهية المصاحف المذكورة فى الفصل

الأول من قسم العراق

فولاه على الكرج إلى الجنوب الشرقى من همدان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث أن استولى في السنة التالية على أَرَجَان وفي تاليها على فارس . وقُتِل مرداويح في سنة ٣٢٣ فانتَهز على وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والرّي اللتين كانتا بيده . وكان أخوهما - كما مرَّ بنا في قسم العراق - قد استولى على كَرَمَان جنوبي إيران في سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد ، وكانت تعاني من فوضى شديدة ، فدخل أحمد - كما مر بنا في قسم العراق - بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكفي ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه عليا صاحب فارس عماد الدولة ولقب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والرّي ركن الدولة .

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق في قبضة البويهيين ، وأخذوا يزعمون أنهم من سلالة الملوك الساسانيين ، ويذكر البيروني أنهم انتسبوا إلى الملك الساساني بهرام جور ، بينما ينسبهم ابن الجوزي في كتابه المنتظم إلى سابور بن أردشير . ويُروى أن بُوَيَه أباهم كان صَيَّادا بائسا على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتبلَّغ به . ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتلمقين من المؤرخين إرضاء لهم . وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغا عظيما ، حتى كانت السكَّة تُضْرَبُ بأسمائهم ، وحتى كانت أسماءهم تُدَكَّرُ مع الخليفة في خطبة الجمعة .

وكانوا شيعة ويذهب ابن حَسول إلى أنهم كانوا يعتقدون المذهب الزيدي<sup>(١)</sup> ، ولعله تأثر في هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدي قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد في أواسط القرن الثالث بتلك الديار ، ونمى المذهب بعده هناك أخوه محمد ، ثم الحسن الأطروش . والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثني عشرية على نحو ما سنوضح ذلك في حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر في نقل الخلافة إلى العلويين ، فخوِّفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلا له : « متى أجلس بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » فانصرف عما كان عزم عليه . وظل الخلفاء العباسيون في يده وأيدي البويهيين بعده كأنهم أسرى .

وكانت رئاسة البيت البويهي للأخ الأكبر عماد الدولة ، فلما توفي سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقباً انتقلت الرئاسة إلى أخيه ركن الدولة ، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس ، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة ، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم

(١) تفضيل الأتراك على سائر الأجناد لابن حَسول (طبعة إستانبول) ص ٣٢ .

ملكه بين أولاده، فجعل - كما مرّ بنا في قسم العراق - لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان ولأخيه مؤيد الدولة الرى وأصفهان ولأخيها فخر الدولة همدان والديّنور. وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه، وصدعاً لأمره، فكانا لا يجلسان في حضرته ويقبلان الأرض بين يديه على عادة الديلمة، ويخدمانه بالريحان. ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بختيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميادينها بختيار، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧. ووضع في سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده في يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده، فوجه إليها أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادها.

ومرّ بنا في قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويهيين، فقد اتسعت دولته حتى شملت كرمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان، وأنه أول من خوطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام. وبلغ من شعوره بأجماده واعتداده بنفسه أن فكر يوماً في أن يتقلد خلافة المسلمين، فقد ذكر ابن حزم في كتابه «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» أنه أمر لذلك الحسن بن علي البصرى المعروف باسم الجعل أن يؤلف كتاباً في تقليد الخلافة في غير قريش أملاً منه في أن يتسمّى بها، وألف الجعل الكتاب، وانتشر الخبر إلى خراسان، فصاح الناس في مجالس الفقهاء: وإسلاماه! وإحمداه!. وبلغ ذلك عضد الدولة، فخشى الثورة عليه، وسَمَّ الجعل، ووقع الناس بموته وسكن الأمر<sup>(١)</sup>. وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفاً ورعباً، وبلغ من قسوته أنه خشى على ملكه من تدلّيه بفتاة، فأمر بتغريقها في غير شفقة ولا رحمة. وكان يضبط أمور دولته ضبطاً دقيقاً، فطهر الطرق من اللصوص - كما مرّ بنا في قسم العراق - ورفع الجباية عن قوافل الحجاج، واحترف لهم الآبار في الطريق إلى الحرمين، وبنى كثيراً من المساجد الجامعة في مملكته وعنى بالعمران وزرع البساتين عناية واسعة.

ويتوفى ويخلفه - كما مرّ بنا في قسم العراق - ابنه صمصام الدولة، وتتوالى الأحداث، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب، فيستدعى وزيره صاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلادها. ويخرج في سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة، ويصبح له الأمر

(١) انظر نشرتنا لنقط العروس في مجلة كلية الآداب  
بجامعة القاهرة الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر، عدد

من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فيخلفه أخوه أبو نصر الملقب بهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ). وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب ، ولم يكتفوا بتلقيب أنفسهم ، فقد أكثروا من تلقيب وزرائهم بمثل كافي الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك . ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقيب أنفسهم ، ولكنهم تفتنوا في تلقيب قواد جيوشهم . وبلغ من شيوخ ذلك بين حكام إيران أن نجد بغراخان التركي حين يثور على الدولة في سنة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة .

وكان بهاء الدولة - كما مر بنا في قسم العراق - ظالماً سفاكاً للدماء ، وهو أقبح ملوك بني بويه سيرة ، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣ - ٤١٥ هـ) . وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كرمان إلى أن توفى سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦ - ٤٣٥ هـ) . ولا يلبث محمود الغزنوي أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة على الرى وأصفهان وبلاد الجبل . وتعظم الفوضى في عهد جلال الدولة ، ويخلفه أبو كاليجار محي الدولة (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ) . ويعظم في عصره شأن السلاجقة ، ويستولون على كثير من إيران ، ويتوفى أبو كاليجار غمّاً ، ويخلفه الملك الرحيم ، ويدخل طغرلبيك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة ، كما مر بنا في قسم العراق ، وبذلك يتقوض سلطان البويهيين في العراق وإيران نهائياً .

### الدولة الزيارية<sup>(١)</sup>

زعم البيروني في كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنسب إلى الملك الساساني قباد الذي حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد ، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أو غير صحيح ، فإنها ترجع إلى أصل إيراني ، وكان مؤسسها مرداويج بن زيار الديلمي (٣١٦ - ٣٢٣ هـ) أحد قواد الجبل الذين ظهروا في شمالي إيران لذلك العهد ، وقد انتظم في سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسفار بن شيرويه الديلمي المتغلب على قزوين وديارها ، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله ، وملك البلاد ، مؤسساً لأسرته إمارة في طبرستان وجرجان جنوبي بحر قزوين أو كما يسمى بحر الخزر ، ومدّاً أطراف إمارته

(١) راجع في الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيروني والأندلس ببيروت (٨٢/٤) وما بعدها ، وإيران ماضيها وتكلمة تاريخ الطبري للهمداني (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي متفرقة من كتابه : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ترجمة الشواربي . (طبعة دار



جنوباً وغرباً ، حتى الرىّ وأصفهان وهمدان وأرمينية وأذربيجان وخوزستان ، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته ، وكان فيه عتو شديد ، وكان شعوبياً شديداً الكراهية للعروبة ، فزعم - فيما زعم - أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة ، ووعد شيعته بالمسير إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليتهم ديار الإسلام ومدنه . وسأل عن تيجان الفرس فثقلت له هيئتها ، فاخترت هيئة تاج كسرى أنوشروان ، وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلىّ بالجواهر ، وصنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وكان يبطن الجوسية ، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة ، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السّدق ، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة . وقد أمر في تلك الليلة بأن تُجمَع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حضرته أصفهان ، ونصّبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعا عظيمة أتخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة . وتمادى في بغيه وعتوه تمادياً شديداً ، حتى أوغر صدور بعض غلامه ، ففتكوا به في الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة ، ونهبوا خزائنه وأمواله . ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزناً شديداً ، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته .

ومرّ بنا في حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده على بن بويه استولى عقب وفاته على أصبهان والرى وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط في يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجرّجان ، فإنها ظلتا في يد خلفاء مرداويج الزياريين ، وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣ - ٣٥٦ هـ) . ويقال إنه ركب فرسا وشبّ وهو غافل عنه ، فسقط ميتا . وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦ - ٤٠٣ هـ) . وكان كاتباً وشاعراً ، ومازال البويهيون يُغيرون عليه حتى فرّ من إمارته عام ٣٧١ إلى السامانيين ، وعاش عندهم مكرماً حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه . ويقال إنه عتّا وبغى ، واشتد بغيه وعتوه ، فأجمعت حاشيته على خلعه ، واضطرت ابنه منوْجهر (٤٠٣ - ٤٢٦ هـ) أن ينزل على إرادتها ، وحُبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد . وظل منوْجهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوي استرضاء له ، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل في البلاد متحصناً منه بجبال وعرة ، وتركه محمود ولم يلبث أن توفي فخلفه ابنه أنوشروان (٤٢٦ - ٤٣٠ هـ) . ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوي على الإمارة ، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً .

الدولة الغزنوية<sup>(١)</sup>

كانت الدولة السامانية تستعين في جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم - كما هيأ العباسيون من قبل - أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم ، وأن يصلوا إلى رتب القيادة في الجيش ، وأن يقوّضوها نهائيا بحيث تصبح أثرا بعد عين . وكان من آثار ذلك قيام الدولة الغزنوية ، فإن عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠ هـ) كان قد عين مملوكه التركي : البتكين قائدا عاما ، حتى إذا توفي عبد الملك مضى إلى غزنة بأفغانستان ، وأعلن نفسه أميرا عليها ، وعاجلته المنية ، فخلفه ابنه إسحق ، غير أنه لم يلبث أن توفي فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكِين (٣٦٦-٣٨٧ هـ) . وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية ، وقد بدأ أعماله بالاستيلاء على مدينة بُسْت في أفغانستان بمنطقة سِجِسْتَان القديمة ، وغنم فيما غنم منها الكاتب الفذُّ أبا الفتح البستي ، وكان يكتب لأمرها المغلوب ، فأصبح كاتباً للدولة الجديدة . وأخذ سُبُكْتِكِين يغزو الهند . وسقط كثير من قلاعها في يده ، وجرّد حملتين كبيرتين لحرب ملك البُنجاب المسمى جِييَال ، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة ، وأن يتخلّى له عن إقليم كَابُل في شرقي أفغانستان ، وكان يُشرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندي الحصب . واستغاث به نوح بن منصور في سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه ، فنكّل بهم ، مما جعله يلقبُه بناصر الدولة ، ويولى ابنه محمودا على خراسان ويلقبه بسيف الدولة .

وتوفي سُبُكْتِكِين ، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه ، وكان ضعيفا ، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف ، وكان محمود لا يزال واليا للسامانيين على خراسان ، وأبى إسماعيل ذلك إباء شديدا ، فسار محمود على رأس جيش إلى غزنة وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله . ومحمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١ هـ) أكبر أمراء هذه الدولة وأبعدهم صيتا لمدّه أطناها شرقا وغربا وشمالا ، ولنهضته بالعلوم والآداب في عصره نهضة واسعة . وكان مثل أبيه وأسرته والأتراك جميعا سنيّا ، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة ، وخاصة الغلاة منهم ، واضطهد أيضا المعتزلة لأنه كان

(١) انظر في الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيروني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي وكتاب تاريخ اليميني للعتبي مع شرح المنيني (طبعة القاهرة) ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

(١) انظر في الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيروني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي وكتاب تاريخ اليميني للعتبي مع شرح المنيني (طبعة القاهرة) ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

على مذهب أهل السنة<sup>(١)</sup> . وكان الأمير منصور بن نوح الثاني الساماني قد انتهز فرصة مبارحته لخراسان لحرب أخيه ، فولئياً عليها أحد أتباعه ، وتطورت الأمور ، كما مرَّ بنا في حديثنا عن السامانيين ، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم ، واعترف محمود اعترافاً كاملاً بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، مما جعله يخلع عليه لقب : « يمين الدولة وأمين الملة » . ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب « ظل الله في أرضه » وكان يتلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب في الإسلام . واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خوارزم الصغيرة والكرج ( جورجيا ) وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية غير مبق للبوهميين سوى كرمان وفارس .

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه في الهند وتمكينه للدين الحنيف في ديارها . وهو يُعدُّ فاتحها الحقيقي ، أما فتح محمد بن القاسم الثقفي لها في عهد الوليد بن عبد الملك فيعدُّ غزواً أكثر منه فتحاً حقيقياً ، ومما فتحه في الهند المثلثان وكشمير والبُنجاب . وكان يتغنى بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغانم ، كما يزعم بعض المستشرقين . واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة في عمارة غزنة ومدن سلطنته وبناء المساجد الفخمة وفي إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية ، وفيه يقول الفردوسي مصوراً استنثاره بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه : « عند ما يُقَطَّم الصبي ويتوقف جريان لبن أمه على شفثيه يكون أول ما ينطق به ويجرى على الشفتين لفظ محمود . إنه كالقيل بجسده ومثل جبريل بروحه ، أما كفه فزن هائل ، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته . إنه السلطان والملك الكبير الشأن ، الذي جعل الشاة تنهل مع الذئب من حوض واحد في أمان » .

وعهد محمود من بعده لابنه محمد . وكان ابنه الأكبر مسعود غائباً بأصفهان ، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه ، واشتبك مع أخيه في حروب كُتب له فيها النصر ، وأصبح هو صاحب الدولة ( ٤٢١ - ٤٣٢ هـ ) . وفتح - كما مر بنا - جرجان وطبرستان ، وقضى على الدولة الزيارية . وكانت أمواج السلاجقة بدأت في مدّها ، ولم يستطع وقفها ، فقد هُزم أمامها في عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمداً مكانه ثانية ، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعوداً مكانه ، وقتلوه بدوره ، وولوا مكانه ابنه مودوداً . ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه في إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم « طغرُلبك » . وأخذ نجم هذه الدولة في الأفول ، فانسحب سلاطينها من إيران مكتفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهند ، ومن أهمهم إبراهيم المتوفى سنة ٤٩٣ وكان حازماً

(١) في المنتظم ٤٠/٨ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والرافض .

عادلا بعيد الهمة ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣ - ٥٠٨ هـ .) وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ و بهرامشاه (٥١٢ - ٥٤٧ هـ .) واضطره السلطان السلجوقي سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول في طاعته ، ودفع إتاوة له صاغرا . وفي سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغوري قطب الدين محمد ، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغورين والدولة الغزنوية ، وما زالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم في سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائيا إلى عاصمتهم في الهند «لاهور» وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار سنة ٥٨٢ للهجرة .

## ٢

### دول متعاقبة

انتهى حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتعاقبة في إيران التي كانت توزعها فيما بينها والتي كثيرا ما تحاربت وعاشت في خصام ، وقد أخذت تحل محلها دول متعاقبة ، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنشر على بلدانها لواءً واحداً ، وكان لكل دولة من هذه الدول عصرها التاريخي ، وجدير بنا أن نلم بها في إيجاز .

### دولة السلاجقة<sup>(١)</sup>

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز ، ويسميهم مؤرخو العرب القزّ تحفيقا ، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، وهم ينسبون إلى رئيسهم سلجوق وقد نزل بهم قريبا من بحر الخزر (بحر قزوين) في الهضاب المتصلة بنهرى سيحون وجيحون متخذاً مدينة «جند» حاضرة له . وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى في خراسان . وكانوا يعتنقون المذهب السنّي ، وكانوا بدؤوا فاعتمدوا على الوزراء في حكمهم ، وأخذ شأنهم يعظم ، مما جعل محمودا الغزنوي يتنبه لهم ، خوفا من استيلائهم على بعض دياره في خراسان . وكان سلجوق قد توفى وخلفه ابنه إسماعيل ، فكاتبه محمود وزير له أن يقدم عليه ، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزجّ به في غياهب السجون ، وظل سجينا بإحدى قلاع الهند حتى

(١) انظر في السلاجقة المصادر المذكورة في الفصل

الأول من قسم العراق .

توفى سنة ٤٢٢. وكان محمود قد توفى قبله ، وصمم السلاجقة بقيادة طغرلبيك على الانتقام ، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوي في سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان في سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها ، ولكنه هُزم هُزمًا متوالية في الستين التاليتين ، وأعلن طغرلبيك نفسه ملكا على البلاد ، كما مرَّ في قسم العراق . ومضى يستولى على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية ، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل . واعترف الخليفة « القائم بأمر الله » بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طغرلبيك في الخطبة وأن يُضرب اسمه على النقود . وقضى طغرلبيك على البويهيين نهائيًا - كما مر بنا في قسم العراق - ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ في موكب رسمي ، وأجلسه الخليفة معه على العرش - كما مر بنا - وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينهما وزير طغرلبيك محمد بن منصور الكُندري . واتخذ طغرلبيك مدينة الري حاضرة له ، وولى على البلدان إخوته وأبناءهم ، ودانت له العراق كما دانت له إيران ، وكان وزيره الكندري هو الذي يصرف الأمور في دولته الواسعة وكان أدبياً شاعراً ، وكان يظهر التسنن غير أنه كان في حقيقته مُعتزلياً .

وتوفى طغرلبيك سنة ٤٥٥ وخلفه - كما مر بنا في قسم العراق - ابن أخيه « ألب أرسلان » وكان له أخ يسمى سليمان ، حاول الوزير الكندري أن ينصبه على العرش من دونه ، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندري ، وأرسل به إلى مرو ، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله . وكان ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) بطلامغوار قضى على كل من ثاروا عليه ، سواء في هراة أو فيما وراء النهر أو في فارس وكرمان . وحضد شوكة الفاطميين مستولياً منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة . وأعد الروم له جيشاً كثيفاً قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطي « ديوجينس رومانوس » فأسرع إليهم في خمسة عشر ألفاً من صفوة جنوده ، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلط في أرمينية ، وعصفت جنوده - كما مرَّ بنا في قسم العراق - بهذا الجيش الضخم منزلة به هزيمة ساحقة ، استسلم على إثرها الإمبراطور خاسناً ذليلاً ، ونزل على الشروط التي طلبها ألب أرسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعقد معاهدة لمدة خمسين عاماً يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألب أرسلان وأن يحرق جميع أسرى المسلمين . وبينما كان يحارب الترك عند نهريجون منزلاً بهم هزائم متوالية وافاه القدر . وكان يدبر له هذه السلطنة المترامية الأطراف ووزيره نظام الملك ، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة ، وكان عدواً للرافضة والإسماعيلية سني العقيدة ، واشتهر - كما مرَّ

بنا في قسم العراق - بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التي أحدثت بها نهضة علمية واسعة ، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها في أصفهان ومرو ونيسابور وبلخ وهراة وطبرستان ، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيرا من الضرائب التي كانت ترهق الشعب ، وكان أشعريا شافعيا ، فازدهر المذهبان الشافعي والأشعري لعهد .

وخلف ألب أرسلان - كما مرَّ في قسم العراق - ابنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وكان في الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة ، وكان ملكشاه يُعجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه ، وخرج عليه بعض أقربائه ، ولكنه انتصر عليهم جميعا . وأمر في سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذي وضع فيه عمر الخيام وجماعة من العلماء التقويم الجلالى ويرجع تاريخه إلى عيد النيروز في سنة ٤٧٢ . وكانت جيوشه ماتى غادية راحة ، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفي مقدمتها سمرقند ، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو في مدينة « كاشغر » النائية الجزية المفروضة على بلاده . ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبجيشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهري جيحون أخذوا أجرتهم صكوكا تدفع لهم في أنطاكية بديار الشام حتى يروا مدى اتساع السلطنة . ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية ، وخاض به البحر شاكراً ربّه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذي امتدَّ من بلاد التتار والصين إلى ديار الشام على البحر المتوسط ، وعُني بحفر الآبار في طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم . ودسَّ خصوم نظام الملك له عنده ، فأعفاه من الوزارة ، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه في الظلام ، فطعنته طعنة نجلاء كانت سببا في وفاته سنة ٤٨٥ . ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعده بشهر واحد . وبذلك ينتهى - كما مرَّ بنا في قسم العراق - عهد السلاجقة العظام .

وفام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بركياروق أكبر أولاده (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ) . ولُقِّب بركن الدولة ، وخالفه عمه تُتُش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذربيجان ، وله معها وقائع كُتِبَ له فيها النصر ، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية - كما أسلفنا في قسم العراق - وقتل منهم في بعض السنوات مئآت ، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨ - ٥١١ هـ) . ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولى على حصونهم ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١ - ٥٢٥ هـ) . وكان شديد الحمق ، فحارب عمه سنجر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر ، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق . وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣ - ٥٥١ هـ) . واستقل عنه في سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أُنسِر ، وحاربه الترك في سنة

٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وسرخس ، وحرابه الغز في سنة ٥٤٨ وأسرره ، وظل في أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قصى نجه . واشتهر في هذه الدولة أربعة من سلاجقة كرمهم هم ثوران شاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيران شاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلان شاه المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية في سرعة شديدة ، حتى فقد الأمراء سلطانهم ، وحتى استبد بهم في كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة .

### الدولة الخوارزمية<sup>(١)</sup>

مؤسس هذه الدولة أحد ممالك السلطان ملكشاه ، وهو أنوشتكين ، حين جعله هذا السلطان واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه ، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة ، ومن أهم ملوكهم أئمز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) . وله وقائع مع سنجر السلجوقي ، وتمكن أحيانا من الاستيلاء على مرو ونيسابور ، ويقترن باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوطواط . وقد تمكن من جلاء بعده من القضاء على سلطان السلاجقة في إيران وفرض سيطرتهم عليها ، وخاصة الأجزاء الشمالية ، وكان آخرهم جلال الدين منكبرتي الذي صمد صمودا باهرا للغزو التتاري من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم .

### الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تنزل في قلب آسيا على حدود الصين في الإقليم المسمى منغوليا ، وكانت تعيش على الرعي والصيد ، واستطاع جنكيزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتح بها بلاد الصين - كما مرفى القسم الخاص بالعراق - ثم يغيرها على مملكة خوارزم ويقوض هذه المملكة ، كما أغار بها على خراسان ، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الرى وهمدان ، منزلة فظائع وحشية ، وبحق يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار في بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلت بالعالم . وامتدت أيام جنكيزخان في إيران

العصر العباسي الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى لحافظ حمدى (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون .

(١) انظر في الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وزبدة النصرة للبندارى (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني) وذيل الروضتين لأبى شامة في مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للنسوى . وراجع تاريخ العراق في

من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ هـ هي السنة التي قضى نجبه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاماً . واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التي افتتحوها في الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوارزم ، واتفقوا جميعاً على أن يتولى بعده ابنه أوكدي (أوكتاي) (٦٢٥ - ٦٣٩ هـ) . واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه - كما مرّ بنا في قسم العراق - أوروبا الشرقية : روسيا وبولندا ، ونكلت جيوشه بالناس فيها تنكيلاً شديداً على نحو ما نكلت جيوش أبيه بالإيرانيين والصينيين ، ويقال إن آذان ضحاياها في بولنده بلغت مائتين وسبعين ألفاً . وحين توفي خلفه ابن عمه منكوس سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكوكو إلى الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكوس سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكوكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه ، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئاً باستنزال الإسماعيلية الملقّبين بالحشاشين من معاقلمهم في «الموت» وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائياً . ولم يلبث أن أرسل إنذاراً إلى الخليفة «المستعصم بالله» أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد . وتقدم إليها في سنة ٦٥٦ فاكسحها كما مر بنا في الحديث عن العراق ، بعد حصار دام نحو شهر وقتل فيه هو وجنوده - كما يقول المؤرخون - نحو مليون من سكانها ، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله - كما مر بنا في قسم العراق - وحرقوا قصوره ، ونهبوا البلدة وما كان بها من الكتب ، وكان ذلك إيذاناً بدمار الحركة العلمية فيها وأقول نَجْمُهَا .

### الدلة المغولية<sup>(١)</sup> الإيلخانية

اتخذ هولاكوكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذي ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيها - تسمى دولة الإيلخانيين ، وأرسل في سنة ٦٥٨ جيشاً كثيفاً للاستيلاء على سوريا ومصر - كما مر بنا في قسم العراق - واستولى على أكثر البلاد السورية ، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطز والظاهر بيبرس تصدى للمغول في عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة ، وتعقبهم في سوريا حتى ردهم عنها إلى العراق وما وراءه . وتوفي هولاكوكو في عام ٦٦٤ للهجرة ، فخلفه ابنه أبقا (٦٦٦ - ٦٨٠ هـ) . وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية ، إذ كانت دائماً تنزل بها ضربات قاصمة . وأخذت من حينئذ تنفصم الصلات التي كانت تربط الإيلخانيين في إيران بأباطرة المغول في (قراقورم) . وبموت أبقا ينتهي العهد الوثني للمغول

(١) راجع في الدولة المغولية الإيلخانية المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق .



وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف ، ولم يُمضَ في الحكم سوى عام واحد ، إذ قتلته يد آئمة . وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١ - ٦٩٢) وفي عهده حظى المسيحيون النسطوريون بعطف واسع ، وخلفه أخوه كيخْتُولْمُدَة سنتين ، ثم بيْدُو وقُتِلَ سريعا . وولى بعده - كما مرَّ في قسم العراق - غازان (٦٩٣ - ٧٠٣) الذي أتاح لدولة الإيلخانيين في إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرا واسعا ، وعُني بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية ، وقد بنى فيها رباطا وبهارستانا ومدارس دينية ومرصدا كبيرا ومكتبة فخمة ، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراء والأساتذة والطلاب . وخلفه أخوه خُدَابَنْدَا سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون ، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوین سماها السلطانية ، واحتفل في بنائها والاهتمام بها احتفالا واسعا . وتوفي سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، وكونوا دويلات صغيرة ، كان من أقواها الدولة المظفرية في كرمان التي استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبي من إيران . وتظل البلاد في فوضى نحو نصف قرن من الزمان ، إلى أن يغزو تيمورلنك إيران والبلاد العربية .

### الدولة المغولية التيمورية<sup>(١)</sup> وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود - كما مر في قسم العراق - في كَش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سَمَرْقَنْد سنة ٧٣٦ للهجرة ، وهو من سلالة جنكيزخان ، كان أبوه واليا لكش ونواحيها ، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر ، فيقربوه منهم ويستوزروه في بعض الأحيان . وما زال يعمل على أن يجمع زمام السلطة في يده - كما مر في قسم العراق - حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ما وراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة ، ومدَّ سلطانه إلى خراسان في سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسجستان وجرجان في سنة ٧٨٤ ولم يلبث في سنة ٧٨٨ - كما مر في قسم العراق - أن استولى على فارس وأذربيجان . وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس ، فأغار على

٧٦ / ٢ / ٨٢٥ وإيران ماضيها وحاضرها لدونالد ولبر ص ٧٦ وما بعدها .

(١) انظر في الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق . وانظر في الدول التالية تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وفيليب حتى

أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرُّها وتكرت وآمد وحاصر بغداد - كما مر في قسم العراق - سنة ٧٩٥ ، وسار في سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دلهي . ثم اتجه شرقاً في سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس وملطية في آسية الصغرى ، ودخل ديار الشام ، واستولى على حلب وحمص وبعلبك ودمشق . ولم يفكر في متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر ، وكان ذكرى هزيمة أسلافه التتار في عين جالوت أمام المصريين كانت لا تزال ماثلة نصب عينيه ، ويستولى على بغداد . ويتجه إلى آسية الصغرى في سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويهزمون هزيمة ساحقة . ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعدّ حملة كبيرة على الصين ، وتسير الحملة في وجهتها ، غير أن أجله يوافيه ، فيتوفى عن واحد وسبعين عاماً بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة ستاً وثلاثين سنة . وقد ملأ سمرقند بالمعائر الفخمة ، وضريحه فيها آية من آيات العمارة الرائعة . وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمراً من فتوحات جنكيزخان وخلفائه ، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين .

وتوزع ابناه : شاه رخ وميران شاه إمبراطوريته - كما مر في قسم العراق - فكان شطرها الشرقى الشامل لإيران من نصيب شاه رخ ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه . وتوفى سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه ، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفى سنة ٨٥١ للهجرة . وخلفه ابنه ألغ بك ( ٨٥١ - ٨٥٣ هـ ) وكان راعياً كبيراً للفن والأدب الفارسيين . وولى بعده بوسعيد ( ٨٥٤ - ٨٧٤ هـ ) وكان سلطانه وطيداً في دياره إلى حدود الهند . وأعقبه حسين بايقرا ( ٨٧٤ - ٩٠٢ هـ ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزاً مهماً من مراكز الثقافة الإسلامية . ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيباني قضت على التيموريين في الشرق ، وفرّ آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام . وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربي إيران ، واتخذت تبريز عاصمة لها . ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربي إيران كما مر بنا في قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوى ( ٩٠٧ - ٩٣٠ هـ ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هي الدولة الصفوية . وفي قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً ، وكانت تمتد شرقاً إلى هراة وغرباً حتى شملت العراق جميعه . وجعل دولته دولة إيرانية قومية ، متخذة العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية ، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك في حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين . وظل حكم الدولة

الصفوية في إيران نحو مائة وأربعين عاما ، وخلفهم عليها الأفغانيون ، وجاء في إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون ، وخلفهم القاجاريون في أواخر القرن الثاني عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاما وفي كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبي العربي في إيران خموداً تاماً .

### ٣

#### المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيراني في هذا العصر من ثلاث طبقات : طبقة عليا ، تتضمن الأمراء الحكّام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين ، وطبقة وسطى تتضمن موظفي الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء ، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراعة والخدم والرقيق ، ويدخل أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم .

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفاً واسعاً ، وكان في أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد ، وصُيِّبَت الأموال التي تُعَدُّ بالملايين في خزائهم ، وكانت مصادرها متعددة ، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس ، ضرائب الأرض ، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامي ، وكان لها في كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج ، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة ، وكانت أعطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه ، ويُحْمَلُ ما يتبَقَّى إلى ديوان الخراج أو بيت المال في حاضرة الدولة ، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة . وما بقى منه يصبح رهن حياته المترفة في القصر دون رقيب . ويجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة . ولا بد أن نلاحظ كثرة الحروب في العصر وأن إمارات بحالها كانت تكتسح أحياناً وتدخل في سلطان هذا الحاكم البويهي مثلاً أو الحاكم الغزنوي أو الساماني أو السلجوقي ، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة . وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم في عهد التتار ومن تلاهم . وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه . وكثرت في تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يُعزَلون أو يموتون ، وكذلك الكتاب والعمال ، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أن الأموال في خزائن الأمراء أو على الأقل في خزائن

بعضهم كانت تُكالم كيبلاً ، وأيضاً ما يوضح النصوص التي نقرأها في كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً في أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفي بناء قصورهم ، فمن ذلك ما يُروى عن فخر الدولة البويهى صاحب همدان والجليل والديينور وجرجان من أنه خلف حين مات مليونى دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين ، كما خلف من الجواهر واليواقيت واللآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين دينار ، ومن الفضة ما وزنه ثلاثة ملايين ، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل<sup>(١)</sup> . أما أخوه مؤيد الدولة فيروى أنه أنفق في عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار<sup>(٢)</sup> . أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية في الرى وأصفهان لا يعرف لها قيمة ، ولذلك يبذرها ويتلفها حسب هواه . وعظم شأن أخيها عضد الدولة ، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبى إيران وحتى العراق وعمان مما جعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام ، وكان دخله - فيما يُروى - ثلثمائة وخمسة وعشرين مليوناً من الدراهم ، وقيل بل كان اثنين وثلثين مليوناً من الدينانير ومائة ألف درهم<sup>(٣)</sup> . وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بذخه ، وخير ما يصور ذلك قصره الذى بناه بشيراز ، فقد رآه المقدسى بعد موته بفترة قليلة ، وُهِت حين رآه ، وفى ذلك يقول : «بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر فى شرق ولا غرب مثلاً ، ما دخلها عامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . شقَّ فيها الأنهار ونصب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعُدد . وسمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلثمائة وستون حجرة ، كان مجلسه كل يوم فى واحدة إلى الحول . . وطُفَّتُ فيها ورأيت الأنهار تطرد فى البيوت والأروقة . وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ، وبان بوناً بعيداً وضللاً ضلالاً مبيناً»<sup>(٤)</sup> .

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط ، فالأمير لا يريد أن يجلس بيته فى حجرة مهتأة جلوسه كل يوم ، بل يريد أن تتغير ، بحيث لا يعود إليها إلا فى عام تال ، وكان الحُجر فى القصر أصبحت كآزائه ، فهو يبذلها كل يوم ، وطبعاً لا يهيمه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمة مصالحه ، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام فى ربوع إمارته الواسعة ، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء ، ولكن لاشك أنه كان

(١) النجوم الزاهرة ١٩٧/٤ والمتنظم ١٩٨/٧ . (٤) أحسن التقاسيم للمقدسى (طبع ليدن) ص ٤٤٩

(٢) المتنظم ١٢٢/٧ . وانظر فى قصر بناه فخر الدولة بمرجان البيمة ٢٧١/٣ .

(٣) المتنظم ١١٦/٧ .

يُغْرِق نفسه في الترف والنعم .

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون ، فقد كان الأمير دائماً يَعُدُّ الإمارة ضَيْعَةً له ، ولعل أميراً لم يَحْزُ من الأموال ما حازه محمود الغزنوي من غنائه في الهند ، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة ، وهو يمدّ حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربي من الهند ، وفي أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى . ويكفي أن نذكر من غنائه ما أخذه من معبد سومنات الذي كان يحج إليه الهنود الوثنيون ، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفايحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة ، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية . ويُحْصَى العُتْبَى في كتابه اليمنى هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال <sup>(١)</sup> . وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعه العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية في إمارته النائية ، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثها الأجيال ، غير ما كان يُجَبِّى لهم سنويا من تلك الديار .

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون في خزائنهم الأموال الطائلة ، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً ، حتى لقد كانت تمتد في عهد ألب أرسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام ، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغام شتى ، من أهمها حروبه مع البيزنطيين في آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك في أسره إمبراطورهم «ديوجينيس رومانوس» واقتدى نفسه بمليون دينار - كما مر بنا - ودفع له الجزية صاغراً . ويذكر ابن الأثير أنه زوّج ابنته من الخليفة المتقي وهو لا يزال ولي عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها في دهشة وعجب كبير <sup>(٢)</sup> ، ويقال إن خراج خلفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار <sup>(٣)</sup> . ويروى أنه حين غلب سنجر السلجوقي صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت في أيديه وأيدي أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان في جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير ، واستولى أيضاً على ألف وثلثمائة قطعة مصاغ مرصعة وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة <sup>(٤)</sup> . وكان السلطان محمود السلجوقي مبدراً متلفاً ، وأتلف فيما أتلفه ما ورثه من

(١) اليمنى للعتى ٩٩/٢ وانظر في غنائه من البويهيين البويهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ١٠٥/٩ ، المنتظم ٤٠/٨ .

(٢) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس - طبع دار صادر ٧/٩ .

(٣) المنتظم ٥٠٧/١٠ .

(٤) ابن الأثير ٧٠-٧١ وكان صدق الأميرات بيرواوت .

أموال كانت محفوظة بخزائن الدولة ، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدينانير<sup>(١)</sup> . واحترقت له دار في سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته «ملاحد له من الجواهر والحلي والفرش والثياب ، وأقيم الغسالون يخلصون الذهب ما أمكن تخليصه ، وهلك الجواهر جميعه إلا الياقوت الأحمر<sup>(٢)</sup>» .

وهذه أخبار متناثرة في كتب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يغرقون إلى آذانهم في الترف والنعم ، غير حاسبين للشعب حساباً . ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا في هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة<sup>(٣)</sup> . وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جمعها وإنفاقها ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، على نحو ما كان وزيراً يني بويه : ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك ، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانياً هو نصر بن هرون وكان له النظر في شئون فارس . وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً ، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة ، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يعدُّ بالعشرات وأحياناً بالآلاف<sup>(٤)</sup> ، فكان إذا سار برز للناس في موكب باهر من الحراس . وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات ، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش في ترف بالغ . وهياهم ذلك لينسوا القصور الباذخة ، على نحو ما يحدثنا الثعالبي في كتابه اليتيمة عن قصر بناه ابن العميد<sup>(٥)</sup> ، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد في أصبهان تبارى شعراؤه في وصفه بالقصائد الطوال<sup>(٦)</sup> ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تُفطّر فيها ، وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يُطلقُ منها في جميع شهور السنة<sup>(٧)</sup> . وكان الوزراء يتأنقون في ملابسهم ، ولم يقف تأنقهم عند أنفسهم ، فقد كانوا يطلبونه في خدمتهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم ، ومن طريف ما يُروى من ذلك ما ذكره الثعالبي عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخُرّ (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه في داره ، وألمَّ به

- (١) زبدة النصرة للبندارى مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني (طبع ليدن) ص ١٤١ .  
 (٢) ابن الأثير ٥٩٤/١٠ .  
 (٣) اليتيمة للثعالبي (طبعة محمد محي الدين جرجان اليتيمة ٣٦/٤ .  
 (٤) ابن الأثير ١٣١/١٠ .  
 (٥) اليتيمة ١٥٨/٣ .  
 (٦) اليتيمة ٢٠٣/٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له في جرجان اليتيمة ٣٦/٤ .  
 (٧) اليتيمة ١٩٣/٣ .  
 عبد الحميد ٢٣٠/٤ .

أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوماً ، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون  
الخزوز الفاخرة الملونة ، فأنشده على البديهة (١) .

كسوتَ المقيمين والزائرين كَسَى لم يُخَلِّ مثلها ممكنا  
وحاشيةُ الدار يمشون في ضروبٍ من الخنزِ إلا أنا

وكان الصاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره ، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع  
بقوله ، حتى أمر له من الخنزِ بيجبة وقيص ودُرَاعَة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطْرَف (ثوب)  
ورداء وجورب . وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف ، فكانوا يبنون  
القصور ذات الأواوين الضخمة ، ويروى أن أبا جعفر والى سجستان تأتق في قصر بناه  
لنفسه كان مكتوباً في صدر إيوانه (٢) :

من سرّه أن يرى الفردوس عاجلةً فليُنظِرِ اليوم في بُنيان إيواني  
أوسرّه أن يرى رِضْوَانٍ عن كَثْبٍ بملء عينيه فليُنظِرُ إلى الباني

وبالمثل كان كبار الموظفين في الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة  
وأناقة ، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين . ويبدو أن  
الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناقتهم ، ويلاحظ ذلك على كتاب السامانيين  
العبدونيُّ الشاعر فينشد (٣) :

أَكْتَابَ دِيوَانِ الرِّسَالِ مَا لَكُمْ تَجَمَّلْتُمْ بِلِ مَتَّمُ بِالْتَجْمَلِ

وكان كبار القضاة يدخلون في هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم  
أصحاب المظالم . وكان للقواد مكانة كبيرة ، وكأما كانوا يشركون الأمراء في إماراتهم  
فأوسعوا عليهم في الرواتب والأرزاق . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين في  
أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح ، فلهم القصور  
ولديهم الأموال والخلع التي يهبونها للشعراء والناس ، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على  
أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم ، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض  
قائلاً (٤) :

أَكُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ نِعْمَةٌ أَوْسَعُ مِنْ نِعْمَةِ إِخْوَانِهِ  
أَمْ كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ جَوْسَقٌ مَشْرَفٌ شِيدَ بَارَكَانِهِ (٥)

(٤) بئمة ١٩١/٤ .

(٥) الجوسق : القصر .

(١) بئمة ١٩١/٣ .

(٢) بئمة ٣٣٨/٤ .

(٣) بئمة ٧٧/٤ .

أم كلُّ من كان له كسوةٌ  
يُرَى بها مستكبراً تائهاً  
بينها في بعض أحيانه  
على أدانيه وخِلانته

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتي في مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التي كان يُغدقها الأمراء على الحواشي من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة . وكان النظام الإقطاعي معروفاً في إيران قبل الإسلام ، ومما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول ، وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كنا في هذا العصر تفاقم أمره ، حتى ليقول المقدسي في القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقطّعة <sup>(١)</sup> ، وظل ذلك بعد عصر بني بويه ، بل لقد اتسع في عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم ، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين : قرية أو أكثر أو أقل ، كل على قدر إقطاعه <sup>(٢)</sup> . وعُرف بجانب الإقطاع في هذا العصر نظام الضمان ، وأعدّ بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين ، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القرى ، بل أحياناً الولايات ، شخص يفرض على نفسه ما لا يؤديه عنها ، ويأخذ لنفسه أضعافه . وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم ، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة . وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معصرة دماء الشعب ، وكان حسبُ الشخص ضيعة واحدة ليكون ثريا ، وصور ذلك المعافى بن هزيم شاعر أبيورد قائلاً <sup>(٣)</sup> .

كفّنتي ضيعتي مدح العبادِ      وطمعنا في البلاد بغير زادِ  
غدتُ سكني وخادمي وظئري      وفيها أسرتي وبها تِلادِي  
صديقُ المرء ضيعتُهُ وكَم من      صديقٍ في الصداقة مستزادِ  
يخونك في المودّة مَنْ تَواخَى      ومالك لا يخونك في الودادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات ، مما أعدّ لنشوء طبقة أرسقراطية واسعة ، كانت تنفق عن سعة ، وكان كثير منها جواداً ممدحاً ، وبلغنا ذلك

السلطان محمد السلجوق سبعمائة ألف دينار دون أن يبيع

من أجلها ملكاً أويستدين ديناراً (ابن الأثير

١٠/٤٧٤) .

(٣) بيتمة ١٣٢/٤ والظئر: المرصعة .

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (طبعة محمود الطناحي

وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي)

٣١٧/٤ . وبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين في العصر

السلجوقي أن نرى في همدان زيدا الحسني العلوي يدفع إلى



بوضوح في كتب تراجم الشعراء مثل اليتيمة ودمية القصر والخريفة ، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تُمدَّحُ أمداحاً كثيرة ، وحقا قال بشار :

يسقط الطيرُ حيث يَبْثُرُ الحُبُّ      وَتُعْشَى منازلُ الكرماءِ

وكان ذلك سبباً في أن نلتقي بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء في كل بلدة .

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة ، في مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يُقدِّرها الأمراء أو وزراءهم . ويدخل في هذه الطبقة عمال الحِسْبَةِ والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين ، وكانوا دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الخوزي <sup>(١)</sup> :

وَيْلٌ لِمَنْ عَدَلَهُ القاضِي      واللهُ عنه ليس بالراضِي  
تَمْضَى القضايا بشهاداته      وهو إلى النار عَدَاً ماضِي

ويتنظم في هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموالٍ ضخمة ، وعدادهم لذلك في الطبقة السابقة . ومن العناصر المهمة في هذه الطبقة الشعراء الذين كان يُعَدَّقُ عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا ، ومثلهم المغنون والمغنيات ، وداًئماً تلقاهم في كل بلاط وفي كل قصر ، فقد كان الشعب من كبره إلى صغيره مولعاً بالغناء .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهي التي كانت تعمل في الصناعات والتجارات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور ، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل في فلاحه الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسدُّه رمقه ، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن . وكانت حياتها كلها عرقاً وعتناً ومشقة لكي تملأ الطبقة العليا في الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب .

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وكان المجوس في أوائل هذا العصر كثيرين في إيران وخاصة في قلاعها البعيدة ، ويروى أنه وقعت في شيراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين <sup>(٢)</sup> ، ولم تكن الحكومات تتدخل في شعائرهم ولا في شعائر النصارى واليهود ، وكان لهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوماتهم ، وكانوا يدفعون ، نظير ما يتمتعون به من تسامح واسع ، الجزية ، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطني إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، ولم تكن تؤديها

(٢) ابن الأثير في سنة ٣٦٩ .

(١) يتيمة ٤٢١/٣ .

النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس . وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم ودينارين لمتوسطى الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل ، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثني عشر درهماً . وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة ، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى ، وكان على بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانياً<sup>(١)</sup> ، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانياً ، وكان اليهود يعملون في أحقر المهن ، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخزازون . وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى في الملبس والمطعم ، فكانوا يلبسون الدراريح وهي ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقبية والسراويل والحلل المطرزة . وكانوا يلبسون الخبز صيفاً والفراء والصفوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية والصفوية والحريرية . وكانت النساء حرائر وجوارى أكثر تفنناً في أناقتهن ، فكن يلبسن الإستبرق والسندس والوشى ، وكن يتحلين بالجواهر النفيسة من كل صنف ، وكن يتعطرن بأنواع الطبب والمسك والغالية .

ومضوا يتفنون في المطاعم ، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة في بيوت الأمراء والوزراء ، مما جعل كثيرين يُعْتَوْنَ بالتأليف في كتب الأطعمة ، مثل ابن مسكويه ، الذى أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن<sup>(٢)</sup> ، ومثل ابن خلاد القاضى الذى أهدى إلى ابن العميد كتاباً في الأطعمة ، فأجابه بقصيدة طويلة عدّد فيها كثيراً من أنواعها التى ذكرها فى كتابه<sup>(٣)</sup> . وعرفوا حينئذ توالى ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع . وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعده الفاكهة والحلوى من كل صنف . وكانوا يمشون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء ، وكانوا يستطيعون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة فى أثناء سمرهم ومنادمهم على الشراب . ومن قديم تقترن الخمر بالغناء فى إيران ، حتى ليروى صاحب الشهنامة فى تربية قورش الملك الإيرانى القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه سابقاً ، وكأنما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور<sup>(٤)</sup> ، وطبيعى أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر ، بحيث يشترك فى المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة<sup>(٥)</sup>

فارس (الترجمة العربية) ص ٢٦٣ .

(٥) ابن مسكويه ٣٨٦/٦ وانظر فى عضد الدولة

ومجالس شرابه اليتيمة ٢١٨/١ وابن الأثير (طبعة دار

صادر- بيروت) ٢٠/٩ .

(١) ابن مسكويه ٤٦٤/٥ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٣٢ .

(٣) يتيمة ١٦٨/٣ .

(٤) انظر الشاهنامه نشر د . عزام ٣١٣/١ وثرث

والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد<sup>(١)</sup> والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور الهروي<sup>(٢)</sup>. وكانوا ينثرون الورود في قاعات الشراب<sup>(٣)</sup>. وكان يجيئ بعضهم بعضاً بالورود والرياحين والفواكه في أثناء الشرب، يقول عبّان الأصبهاني<sup>(٤)</sup>:  
سُقِيْتُ وفي كَفِّ الحَبِيْبَةِ وِرْدَةٌ وَأُتْرَجَةٌ تُغْرِى النُّفُوسَ بِصَوْنِهَا  
مُدَاماً فَلَمَّا قَابَلْتَنِي بِوَجْهِهَا شَرِبْتُ فَحَيْتَنِي بِلُونِي وَلُونِهَا

وبلغ من تفشى الغناء والرقص في فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيها على المغنيات والراقصات<sup>(٥)</sup>. وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصور مختلفة، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كي يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هي الاحتفالات بالأعياد<sup>(٦)</sup> المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتونة وعيد الشعانين، وفي العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ما كان فيه من لهو وموسيقى وغناء<sup>(٧)</sup>:  
سَقِيّاً لِدَهْرٍ مَضَى إِذْ نَحْنُ فِي شُغْلٍ بِالْعَرَفِ وَالْقَصْفِ عَنِ شُغْلِ السَّلَاطِينِ  
إِذْ يَوْمُنَا يَوْمٌ عِيدٍ طَوَّلَ مُدَّتَنَا وَلَيْلُنَا كُلَّهُ كَيْلُ الشَّعَانِينِ

وكانوا يُطلقون لأنفسهم العنان في الأعياد المجوسية من مثل عيد السّدق، وهو عيد لاشتعال النيران، وكان يقع في شهر يناير من كل عام، ويصور البيهقي في تاريخه الاحتفال به في سنة ٤٢٦، فيقول: «اقترب عيد السّدق، فأخذوا يجمعون له الطّرفاء وعيدان الحطب، حتى تراكمت وأصبحت كالقلعة، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجلجل ارتفاعاً، وأتوا بكثير من المعدّات والطيور ومايلزم هذا العيد من الحاجيات، وحلّ العيد وجلس السلطان في مخيم له، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران، وكانت تُرى على بعد عشرة فراسخ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش، فكانت تجرى وقد علق بها النيران»<sup>(٨)</sup>. وكان أهم من هذا العيد عيد الثّيروز في أول الربيع، وكان موسماً كبيراً للمجون والشراب. ومثله عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر كل عام. ويقول البيهقي: «كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة. . . ويجتمع أعيان الدولة

- (١) ابن الأثير ٦٧٦/٨. للبيروني ص ٢٧٩.  
(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة) للبيروني ص ٢١٥.  
(٣) بيتيمة ٢٤٤/٣. للبيروني ص ٢١٥.  
(٤) بيتيمة ٢٤٤/٣. بيتيمة ١٤٩/٤.  
(٥) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية - نشر مكتبة بيتيمة ٣/٣٠٠).  
(٦) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية - نشر مكتبة بيتيمة ٣/٣٠٠).  
(٧) بيتيمة ٣/٣٠٠.  
(٨) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية - نشر مكتبة بيتيمة ٣/٣٠٠).  
(٩) المقدسي ص ٤٤١ وتحقيق ماللهند من مقولة الأنجلو ص ٤٧٠ - ٤٧١.

والأمراء ومجلس الندماء ، ويبادرون إلى اللهو ، وتدور أقداح الشراب ، وتعرف آلات الطرب ، ويأخذ المغنون في الغناء»<sup>(١)</sup> .

وكانوا يخرجون مواكب وفرادى للصيد والطرْد ، وكان فخر الدولة البويهى مولعاً بالصيد<sup>(٢)</sup> . ومثله ملكشاه السلجوقي ، ويقال إن صيده بلغ في بعض الأيام سبعين غزالاً<sup>(٣)</sup> . وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالترْد والشطرنج ، وكانوا يشغفون بلعب الصولجان والكرة وبسماع الغناء . ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهي في خراسان وإيران عامة أن نجد كيكائوس في القرن الخامس الهجري يقر في كتابه : « قابوسنامه »<sup>(٤)</sup> فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهي ، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية .

## ٤

### التشيع<sup>(٥)</sup>

يقوم التشيع - كما مر بنا في قسم العراق - على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أو بعبارة أخرى للخلافة ، فهى ليست مفوضة للأمة ، بل هى خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت ، من الأئمة ، ويسمى كل منهم إماماً تفرقه بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية . وتتفق الشيعة على أن الرسول ﷺ أوصى لعلي بن أبي طالب بالخلافة بالقرب من غدِيرْحَمَّ بين مكة والمدينة ، وهم فرق كثيرة ، أهمها ثلاثة : الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية .

والزيدية - كما مر بنا في قسم العراق - أقربهم إلى أهل السنة ، وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين ، وكانوا يُقرُّون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود العلوى الأفضل ، وبذلك لم يطعنوا في الصحابين الجليلين : أبي بكر وعمر ولا في ولايتها أمور الأمة . وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام الختفى مثل الإمامية الاثني عشرية ، ولا بنظرية

(١) البيهقي في سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩ .

(٢) ابن مسكويه ٣٨٦/٦ .

(٣) براون (ترجمة الشواربى) ص ٢٢٨ .

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية .

(٥) بجانب مصادر التشيع المذكورة في الفصل الأول من

الإمام المستور مثل الإسماعيلية ، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة في الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن . وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة .

ومرّ بنا في قسم العراق حديث مفصّل عن فرقة الإمامية الاثني عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين ، وترى أنها تتابعت بعد علي في الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه علي زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، وتفرقت بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مرّ بنا في العراق ، إذ ترى أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، وتوالت بعده في أبنائه وأحفاده : علي الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلي الهادي ، فالحسن العسكري ، فمحمد المهدي الذي اختفى ، وهو الإمام الثاني عشر ولذلك يسمون الاثني عشرية ، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملا الأرض عدلاً وعلماً ، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان .

وعنصر أساسي ثان في عقيدة الإمامية عرضنا له في قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم ، وهي عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية في اعتقادهم إذ يجعله نقياً من الذنوب بريئاً من العيوب ، لا يعتره خطأ . وعنصر أساسي ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب ، كما يؤمن الزيدية ، بل العلم الباطني الإلهي الذي يتوارثه الأئمة عن النبي والذي ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعاني الحقيقية للقرآن الكريم ، وهو ما فسخ عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع في آيات الذكر الحكيم .

والإسماعيلية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير ، بل يرثه عنه ابنه الأكبر ، حتى لو توفي في حياة أبيه كما توفي إسماعيل ، وتبعه خلفاؤه في سلسلة متصلة ، وهم مستترون مخفون ، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها ، فظهر الإمام في شخص عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا .

وتسمى هذه الفرقة باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثني عشرية ، لأنها تجعل أئمتها يتوالون في حلقات أو أدوار سبعة ، والسابع أعلاهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها ، حتى رسالة الرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وعندهم أن الإمام هو التجلي الأعظم للعقل الكلي ، وفي ذلك ما يؤكد نفوذ

الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة في الفيض ، وهي النظرية التي بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية في موسوعتهم المشهورة . ومن تنمة نظريتهم أن العقل الكلي الذي يتجلى في أئمتهم تجلّى منذ آدم في الأنبياء ، وهو الذي يسير الكون ويدبره ، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمي الإسماعيلي يعتقد أن التجسد الإلهي تمثّل فيه وأنه خليق بعبادته . ومات مقتولاً ، فادّعى بعض الإسماعيلية حين ذلك أنه يعيش متخفياً ، وأنه سيرجع . وكان نظرية الرجعة عند الإمامية الاثني عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية في شخص الحاكم . وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته ، وأنه الإمام الغائب المنتظر . وواضح أن الإسماعيلية غلت في تشيعها غلواً بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة ، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكره يسمونهم دهرية زنادقة ، وقد حمل عليهم الغزالي حملات عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » الذي سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادة الإسلام ، ولا بد أن نشير إلى أن تابعي هذه الفرقة كانوا يصعدون في سبع مراتب : مرتبة للعامة ، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة ، وصاحبها خليق عندهم بأن يكون من الدعاة . ومن حق الإسماعيلي والإمامي جميعاً أن يُخفيا عقيدتهما في البلد الذي يسود فيه خصومهما وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية ، وقد طبع دعوتهما في حقب وأماكن كثيرة بطابع السرية .

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة ، فقد كان زيد بن علي مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . وتعاقت منذ العصر العباسي الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال في أثناء الجدل الذي كان دائراً بين أعلامها حتى لنجد النظم المعتزلي المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام ، وكان يعاصره ثمامة بن أشرس الذي لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون في حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وجميع الصحابة . ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة في عقيدتهم يجدهم يفردون فصولاً طوالاً للحديث عن التوحيد والعدالة ، على غرار ما يصنع المعتزلة . وفي رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هي التي جعلت أهل السنة في العصر ينفرون منه ، ويعتقون المذهب الأشعري .

وكانت إيران في هذا العصر تُعدّ أكبر مركز للتشيع ، وقد مرّت بنا في كتاب العصر العباسي الثاني حركة زيدية قوية غلبت على طبرستان وبلاد الديلم ، وعلى الرغم من إجهاز

الدولة السامانية عليها كما مر بنا في أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية ، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني المتوفى سنة ٤١١ للهجرة . وكان تقلدُ البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة في إيران إيذاناً بأن يأخذ المذهب الإمامي طريقة إلى الانتشار ، واشتهرت مدينة « قم » باعتناقها وقد ظل منتشرها بها واعتنقها كثيرون في الحقب التالية ، وقِيضَ له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة في مدينة « قم » وخلفه في مشيخته ، وألّف كتباً كثيرة في المذهب ، محتجّاله ، داعياً إليه ، ومن كتبه المطبوعة في طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية .

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية في إيران منذ أوائل هذا العصر ، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا في عقيدتهم نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ) . مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح ، ويقال أيضاً إن أبا علي بن سيمجور أحد رجالات الدولة في خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيلياً ، مما جعل السلطان محموداً الغزنوي يفتك به . ويبدو أن الإسماعيليين جدّوا حينئذ في نشر دعوتهم بإيران ، حتى لنجد محموداً الغزنوي حين يستولى على الريّ من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسي ببغداد خطاباً طويلاً ، يقول فيه <sup>(١)</sup> :

« قد أزال الله عن هذه البقعة أيدي الظلمة ، وطهرها من دعوة الباطنية الكفرة ، والمبتدعة الفجرة . وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والضلال وقمع من نبغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار . . . وطلعت الرايات بسواد الرّى . . . وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجعنا إلى الفقهاء في تعرّف أحوالهم ، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون في أهل الفساد ، فيجب عليهم القتل والقطع والنفي على مراتب جنائياتهم . واعتقادهم في مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجه تسودّ بها الوجوه يوم القيامة : التشيع والرفض والباطن . وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام ، ولا يميزون بين الحلال والحرام ، بل يجاهرون بالقذف وشتم الصحابة ، ويعتقدون ذلك ديانة . . . ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء ، ويعتقدون مذهب الإباحة في الأموال والفروج والدماء . »

والخطاب طويل ، وهو يصور مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية في إيران من فساد ،

حتى كان أصحابها لا يؤدُّون شعائر الإسلام ، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة . وليس ذلك فحسب ، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التي أحلَّ صاحبها «مزدك» النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات<sup>(١)</sup> . ونمضى بعد عهد محمود الغزنوي ، فوجد الدعوة الإسماعيلية تنشط في إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ تعهدا هناك دعاة مختلفون ، كان يؤيدهم تأييداً قويا الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً ، واستطاع أن ييسط سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية في منتصف القرن الخامس . وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة ، ولكن دعاتها ظلوا منبئين في أنحاء إيران ، مثل ناصر خسرو الأديب الرحالة ، الذي لقبه أتباعه بلقب «حجة خراسان» وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات ، وعاد إلى وطنه خراسان ، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر ، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات «سيمنجان» . وكان أخطر منه في الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذي نهض بالدعوة في أذربيجان وأصفهان ، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى «شاه دز» جعله وكرّاً لأتباعه ودعوته . وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصباح ، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر ، وتلقن الدعوة عن بعض دعاتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم في مدينة الريّ ، ويقال إنه لقي بها في رمضان سنة ٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدمين . ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوائزه . ويقال إنه سأله من الخليفة بعده ؟ فأجابه ابنى نزار الأكبر ، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار ، وولّى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعلى ، مما كان سبباً في انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين : شعبة غربية تدعو إلى المستعلى وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار .

واتسعت دعوة الحسن بن الصباح ، حتى ضمت بين جناحيها كرمّان وطبرستان والدأماغان وقزوین ، واستطاع الاستيلاء على حصن في غاية المناعة ، هو قلعة «الموت» سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العقاب ، كأنها ، لعلوها الشاهق ، وكرّله . وجعله استيلاؤه على هذه القلعة يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثلها في إيران ،

(١) انظر كتابنا العصر العباسي الأول ص ٨٠ .



فاستولوا على «خالنجان» بالقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من «شاه دز» واستولوا على «طَبَس» و«قايِن» و«تون» و«رَوَزَن» و«خور» و«خوسَف» في قُهْسْتَان وعلى «شَمْكَوه» بجوار أبهر ، وعلى «أَسْتُونَاوَنَد» في مازَنْدَرَان ، وعلى «أَرَدَهْن» و«كُرْدكوه» وقلعة الناظر في خوزستان ، وعلى «قلعة الطنبور» بجوار أَرْجَان ، وعلى قلعة «خَلَاذخان» في فارس . وكان تملك الحسن بن الصَّبَّاح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً في أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسياً ، حتى إذا توفى المستنصر ظلوا يدينون لتزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر ، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين . وفي الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم - على الأقل - كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش . ومضوا يدعون سرّاً لعقيدتهم ، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف في سبيل دعوتها ، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقي المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلعته «الموت» على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع . ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويثرونه من رعب على مر السنين ، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامي الوزير السلجوقي وللفقيه عبد الواحد الروياني في طبرستان والقاضي سعد الهروي في همدان . وكان السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم ، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصفهان سنة ٤٩٩ ، وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ رداً على قتلهم لوزيره معين الملك . وكان الحسن بن الصباح حياً في أيام هذا السلطان ، غير أنه لم يكن يبارح قلعة «الموت» وبها توفى سنة ٥١٨ للهجرة . وخلفه في رئاسة الطائفة كيابزررك حميد ثم ابنه محمد ، وتبعها دورُ ظهور الأئمة من أحفاد نزار ، إذ ظلت في أيديهم مقاليد السلطان والدعوة ، وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين ، حتى استطاع المغول في منتصف القرن السابع الهجري دكَّ حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣ - ٦٥٥ هـ) . وبقتله وتخطيط حصون أتباعه ينتهي عهد الإسماعيلية بإيران ، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها ، ويعود هذا الفرع الإسماعيلي الشرقي إلى الظهور في الهند ، ويتخذ أصحابه «آغاخان» رئيساً روحياً لهم ، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذي كان آخر أمراء قلعة «الموت» .

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجاً إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السنّي ، وينعكس ذلك على العلماء

والفقهاء والصفوية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب ، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم ، مثل الشيخ سعدى الصفوى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربى قليل . ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامى الاثنى عشرى عاما فى إيران إذ أعلنه مذهباً رسمياً للدولة . وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم .

ويحتفل الشيعة وفى مقدمتهم الإمامية من قديم - كما مر فى العراق - بعيدين : عيد الغدير ، يريدون غدیر خم ، وموعده الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو الغدير الذى يروون أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعلى بالخلافة من بعده قائلاً له . أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة ، وكان أول احتفال لهم به فى عهد البويهيين ، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين . أما العيد الثانى فكان مأتماً كبيراً ، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر الحرم) من كل عام حداداً على قتل الحسين وآله فيه بكرىلاء ، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة . وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير ، حتى ليرجع البيرونى إلى زمن بنى أمية ، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السرور والفرح ، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأواني والثياب <sup>(١)</sup> . وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير ، يترأى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاه ظامئة وعيون ساهمة باكية ، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حاراً مصوراً بؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد فى أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف البؤس والعذاب والشقاء ، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء . وصيغ ذلك الحزن العميق فى تلك الذكرى الرهيبية شعر الشيعة بسواد لا آخر له ، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنات .

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم فى العراق سنة متبعة ، وأصبح للأماكن والأضرحة التى دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم ، مما جعل البويهيين يهتمون بها ، ولعل فى هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانوا إمامية دلالة قاطعة ، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر على بن أبى طالب بالنجف ، ونقل إليه جثمانه بعد وفاته فدفن به ، كما دفن به أيضاً ابناه شرف الدولة وبهاء الدولة <sup>(٢)</sup> . واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين ، وبنى حوله حضرة

(١) الآثار الباقية للبيرونى (طبعة أوربا) ص ٣٢٩ . بيروت) ١٨/٩ ، ٦١ ، ٢٤١ .

(٢) انظر المنتظم ٧/ ١٢٠ وابن الأثير (طبعة دار صادر

جليلة<sup>(١)</sup>. ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأثماً كبيراً يقام في كل عام ، يقيمه إمامية إيران والعراق .

## ٥

### الزهد والتصوف<sup>(٢)</sup>

ظلت نزعة الزهد التي تحدثنا عنها في كتابي العصر العباسي الأول والثاني متغلغلة في نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدثيهم ، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك ، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناس إلى الزهد في متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة . وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك ، وقرأ في كتاب للمحدثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبي أو في كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسبكي فستجد صوراً قوية للزهد ، وسترى من ظل صائماً طول حياته ، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً ، ومن يدقق في أحكام الشريعة مبالغاً تخرجاً وخوفاً من الله مثل أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السبكي في ترجمته أنه بلغ من ورعه وتجرجه أنه لم يكن يستند في داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدقّ فيه وتداً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبنا وهو في المهد ، فقلبه ، ليرده ، حتى لم يدع في باطنه شيئاً ، قائلاً : هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف في شيء من لبنها . ولا ريب في أن كثرة الوعاظ هي التي أعدت - من بعض الوجوه - لسريان هذه الروح المتحرّجة الورعة ، ويتوقف السبكي مراراً في طبقاته ليصور لنا وعظ الوعاظ في نيسابور وغيرها ومدى تأثيره في نفوس السامعين كقوله عن أحدهم : « صار مجلسه روضة الحقائق والدقائق ، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب ، ومواجيده مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع ، ومفطرة الصدور

(١) المنتظم ١٤٩/٧ .

الغافلين للسمرقندي وطبقات الشعرائي ، وانظر جولد تسيهر في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » ونيكلسون في كتابه « في التصوف الإسلامي وتاريخه » ترجمة أبو العلا عفيفي والملايمنة والصوفية وأهل الفتوة لعفيفي وآدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

(٢) راجع في الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكي في مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمي وحلية الأولياء لأبي نعيم والفصل في الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيري وإحياء علوم الدين للغزالي وصفة الصفة لابن الجوزي وقوت القلوب للمكي ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتنبيه

بالتخويف والتفريع»<sup>(١)</sup> .

وأخذت موجة التصوف في العصر تزداد حدة وقوة ، وكان من مظاهر ذلك كثرة الرُّبُط المنظمة منذ القرن الرابع الهجري ، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب ، وكان زوايا المتصوفة كانت تُبَنَى لهم في هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام . واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة ، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أيّنا وجدت . ويقول المقدسي في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان في إسبانيا فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعائة رباط ، بينما كان في بيكند ألف رباط<sup>(٢)</sup> ، وهي ثغر جليل بين بخارى ونهر جيحون . وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات في ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان ببقية الثغور . ويذكر الحجویری الأفغانی أنه لقي ثلثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته<sup>(٣)</sup> .

ويشير المقدسي إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر ، وهي بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة ، وهيات هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده ، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها ، وكانوا يمنحون مريديهم خرقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة ، بل كل الحياة وزخارفها ، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله ، وفي مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباحجها وتبذُّ متعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد ، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون ، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج ، ويحثُّ أبو الليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل أعزب<sup>(٤)</sup> حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً . وحتى المرض ينبغي أن لا يهتم به الصوفي فيعرض نفسه على الأطباء للتداوى ، فالطبيب هو الله ، وهو جانب من عقيدتهم في التوكل على الله حق التوكل ، حتى ليهمل الصوفي كل تصرف شخصي ، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه ، فلا يفكر في رزقه ولا في قوته ولا في غده ثقة في الله . ودائماً يرددون ذكر الله ، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعتقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم في صفين متقابلين ، وهي تذكر الله ، متحركة بجسدها دون أقدامها ميمناً

العربية - للدكتورة إسعاد عبد الهادي (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/٣٩١ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦٩/٥ .

(٢) أحسن التقاسم للمقدسي ٢٧٣ ، ٢٨٢ .

(٣) انظر كشف المحجوب للهجویری - الترجمة (٤) انظر كتابه بستان العارفين ص ١٩٧ - ١٩٨ .

ويسارا، ومنشد ينشد في أعلى الصفيين، وفي أثناء ذلك يهيم نفر منهم وينتشي، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يرَوَى رِيًّا مسكراً بجمال الذات الإلهية، إذ تمتلئ بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية، فتشعر كأنما تتجرد، عن كل إرادة، لمحبوها الرباني، وهو ما يسمونه بالحبّة الإلهية، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذي يذيب الصوفي في الجمال الرباني ويجعله يفنى فيه في وجد لا يماثله وجد. ومنذ الحلاج الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله، معتقدين أنه يتجلّى فيهم كما يتجلّى في خلقه، وكأنهم يشاهدونه في أنفسهم، أو كأنما يحلّ فيهم، مما هيأ لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة، وكانت هذه الأفكار سبباً في أن يحدث شيء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسّع الهوة بين الطرفين أمثال أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧ - ٤٤١ هـ). أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين في عصره، وكان يُعَلَى عمل الصوفي بقلبه على أداء فرائض الإسلام وأحكامه، وفي ذلك يقول ابن حزم: «إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع. . . وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض، ونعوذ بالله من الضلال»<sup>(١)</sup>. وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة، فقد أوغل بعضهم في آراء ضالة، حتى ليعتق بعض آراء المزدكية في العكوف على الحمر واستحلال المحرّم، وغلا بعضهم في تقدير شيوخ الصوفية حتى قدّمهم على الرسل والأنبياء، يقول ابن حزم: وطائفة من الصوفية زعمت أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلّت له المحرمات كلها. . . وقالوا إننا نرى الله ونكلمه، وكل ما قُذِفَ في نفوسنا فهو حق»<sup>(٢)</sup>.

ولم تقف المسألة عند أفراد، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية في إيران يضعف عندها الوازع الديني ويشيع عنها اهمال فرائض الإسلام، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين، نذكر منهم جماعة الكرامية بخراسان وماوراء النهر، وكانوا، أو قل تحولوا، دراويش يطوفون في البلدان لابسين أردية من الصوف، ومدلّين فوطا على رءوسهم تحيط

(١) الفصل لابن حزم ٤/١٨٨.

(٢) الفصل ٤/٢٢٦.

بها فلانس طويلة ، ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى والعصبية والذل والكُذبة أى التسول<sup>(١)</sup> . ومثلهم الملامتية ، وكان مبدؤهم الأساسى الملامة ، فالصوفى الكامل فى رأيهم من يرتكب أشياء يلومه عليها الناس ، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع ، وقد ينتهكون فيها حرمة ، حتى يتم لهم مبدؤهم ، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحل الذين يعيشون على التسول ، ويتخذونه ذريعة للبطالة ، وكأما أصبح الصوفى هو المتسول ، ولا بأس من أن يسقط عنه الفروض الدينية أحياناً .

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ما كان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه ، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء ، متهمين لهم بالزندقة والكفر ، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجدوه يتردد على ألسنة المتصوفة وفى كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفى بالذات الإلهية ، ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله ، ويرون أن الصوفى لا يبلغ مرتبة الكمال إلا إذا أدى الفرائض والسنن ، مخلصاً صادقاً . غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة إنما كان موضعها دراويش الملامتية والكرامية وأمثال أبى سعيد بن أبى الخير ، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره .

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم ، وكان لا بد أن يربأ ، حتى لا تنتشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة ، فقيض الله لها صوفيين عظاما ، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السراج<sup>(٢)</sup> عبد الله بن على الطوسى الزاهد صاحب كتاب التلمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السلمى تلميذه فى كتابه «طبقات الصوفية» : «كان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة» . فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفياً يتغلغل فى الحلول وما إليه ، بل كان تصوفاً سنياً يرتبط بأداء الفرائض الدينية . وكان رحالة تجول فى العالم الإسلامى من نيسابور إلى القاهرة ، ووفد على بغداد فأفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأعطى رئاسة الدراويش . ولا نغلو إذا ذهبنا إلى أنه يُعدّ مؤسس مدرسة التصوف السننى فى عصره ، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة ، وليس فيه حلول ولا شطحات .

٩١/٣ وكتابه التلمع (نشره نيكلسون فى سلسلة جب

(١) احسن التقاسيم ص ٤١ .

(٢) انظر فى أبى نصر السراج الطوسى طبقات الصوفية

السلمى وكشف المحجوب للهجويرى وشذرات الذهب

التذكارية) .

ويوضح مذهبه الصوفي كتابه اللمع الذي أشرنا إليه ، وفيه يفيض في الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم . وتلقن عنه المذهب في نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمى ، ولقنه بدوره عبد الكريم <sup>(١)</sup> القشيري النيسابوري ، وتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبي علي الدقاق ، وكان متصوفاً سنياً ، فوصل تلميذه بهذا التصوف ، بل ملأ قلبه به حاسةً كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفي وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة ، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول . وما توفي سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التي طوّفت الآفاق غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية في البلدان الإسلامية ، ليصحح لهم أفكارهم عن التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السني الحقيقي وما سجله من سير أعلام التصوف وأقوالهم ، مما يصل التصوف وصللاً وثيقاً بالشريعة ، وهو يستهلها بقوله :

« اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ، وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسننهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعَدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات . ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادّعوا أنهم تحرّروا من رِقِّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه ، وهم محو ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

وبهذه الرسالة العظيمة التي شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيري الحواجز التي كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمة ، فالتصوف ليس خصماً للشريعة ، بل هي قوامه وصراطه الموصل إليه وأساسه وعماده . ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكاماً وثيقاً ، وهو أيضاً نيسابوري ، أصله طوسي حقا ولكنه تلقن التصوف السني في نيسابور حيث مدرسته الكبرى : مدرسة أبي نصر السراج والقشيري ، ونقصد أبا حامد <sup>(٢)</sup> الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ وقد لزم فقهاء

(١) انظر مصادر ترجمة القشيري في الفصل الرابع من (٢) انظر في الغزالي المنتظم ١٦٨/٩ واللباب ١٧٠/٢ والوفى بالوفيات ١/٢٧٤ وابن خلكان (طبعة دار هذا القسم .

نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم ، وسرعان ما أصبح شيخاً يُشار إليه بالبنان ، وأكْبَّ الطلاب على دروسه . وأخذت شهرته تطبّق الآفاق . وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، فعينه أستاذاً للفقهِ الشافعي في مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ هـ فبارح بغداد إلى أداء فريضة الحج ، وولّى وجهه نحو الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغراً في تأمل الفرق الإسلامية ، واستقر في نفسه أنه ينبغي تخليص الأمة من الدقائق التي يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل ، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة ، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين في شيء ، وأن من شأنه أن يزعر العقيدة العامة ويحدث بلبلة في العقول . وبالمثل حمل على الفلسفة وأعلن عليها حرباً شعواء في كتابه «تهافت الفلاسفة» وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية ، ووجّه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية في كتابه «فضائح الباطنية» . وهدته تأملاته في عزله إلى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والسنة كي ينمو الشعور الديني ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعاقب عمل القلب وعمل الجوارح في أداء الشعائر والفروض والنوافل حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص ويصدق الشعور الباطني ، وحتى تكون محبة الله الدافع الأساسي لكل ما يصدر عنه من قول وفعل . وألّف على هذا الهدى كتابه «إحياء علوم الدين» محللاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحه ، وتقصد التصوف السني الذي أقام هو والقشيريّ والسراج بنيانه ، والذي يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول . وقد جعل القلب أساس السعي إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه ، وحقاً لا بد أن تؤدّي الفرائض والسنن ، ولكن لا بد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الديني وصدقه ، إذ هو جوهر الحياة الدينية . وبذلك وصل الغزالي وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لحاج في اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر في شبك الحلول ، ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعمة بالإخلاص . ومن أهم ما نفذ إليه الغزالي في

لجولدتسير القسم الرابع وفي التصوف الإسلامي لنيكلسون ترجمة عفيق ص ١٣٩ وسيرة الغزالي لعبد الكريم العثمان (طبع دمشق) والحقيقة في نظر الغزالي لسليمان دنيا (طبع دار المعارف بمصر) .

= (صادر) ٤ / ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي (١٩١/٦) ومقدمة بويج لنشرته لكتابه التهافت طبع بيروت ومؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي ومحاضرات مهرجانه في دمشق سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورض ١٩٦ وبراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشريعة في الإسلام



أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية ، وهي تبدو واضحة - كما يقول نيكلسون<sup>(١)</sup> - في كتابه «مشكاة الأنوار» وكأن الرسول صورة للأمر الإلهي أو الكلمة الإلهية . وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد في متصوفة الأجيال التالية ، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذي يتمثل في الرسول ﷺ . وقد تكاملت للغزالي هذه النزعة الصوفية في أثناء عزلته وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بغداد ، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقهاء أو علم الكلام ، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدث فيها بكتابه «الإحياء» . وراجع إلى موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة سيرة وتركها إلى طوس مسقط رأسه . وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء «وخانقاه» للمتصوفة ، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبى نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشريعة مزاجية بقيت على مر العصور التالية ، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوما عنيفا جعلها تسقط أمام التصوف ووصولها . وقد ازدهر التصوف السني في إيران وغير إيران من العالم الإسلامي ، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالي ، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفي انتهى ، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السهروردي<sup>(٢)</sup> الإيراني المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكب على كتب التصوف والفلسفة . واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه في الفصل الرابع . ومن أصحاب التصوف الفلسفي بعد السهروردي صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده في التصوف الإشراقي على نحو ما يتضح في كتابه «الأسفار الأربعة» .

ومنذ الغزالي بل قبله منذ السراج والقشيري ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السني في إيران ؛ وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون ، من أهمها طريقة النقشبندية ، وكان تيمورلنك يرعى أهلها ، كما مر بنا في القسم الخاص بالعراق ، وعاصرتها طريقة البكطاشية ، وقد غمست في التشيع وفي شيء من التصوف الفلسفي . وبدون شك أنتجت إيران في هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف في الفارسية في مقدمتهم جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ .) والشيخ سعدى الشيرازي المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية ، وخلفه الصوفي الكبير حافظ الشيرازي المتوفى سنة ٧٩١ وفي الحق أن التصوف ظل مزدهراً في إيران قروناً متطاولة .

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٤٦ وما بعدها . الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردي في ترجمته في

## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني نشاطا عظيما ، فن تعليم للناشئة في الكتاتيب إلى تعليم للشباب في المساجد ، ومضت على هذا النحو في أوائل عصر الدول والإمارات في إيران وغير إيران ، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئا من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار . أما المساجد فتحولت بجانب ما كان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى ، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم . وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد ، ويتحلق الطلاب حوله ، وهو يمل عليهم محاضراته . وكانوا يتكاثرون في بعض الحلقات ، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ ، فينهض مُسْتَمَلِي بترديده ، حتى تسمعه تلك الصفوف . وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات الفقهاء والمحدثين . ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء ، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجرا على دروسه ، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يُعدّان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر ، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذي نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ ، فقد مضى كل منهم يجهد جهدا بالغا في أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكى يبعثوا في شباب الدولة الطموح إلى تحقيق مالم يحققه العلماء قبلهم . ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين ، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجرى الرواتب والأرزاق على الفقهاء والأدباء والقراء ، فرغب الناس في العلم ، وكان هو نفسه يتشغل بالعلم ، ووجد في تذكرة له : إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبي

على الفارسي النحوى تصدقت بنجسين ألف درهم<sup>(١)</sup> . ويقول ابن الأثير : « كان يجلس مع العلماء يعارضهم في المسائل ، فقصدته العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح في النحو والحجة في القراءات لأبي على الفارسي ، والكناش الملكي في الطب لعلی ابن العباس الجوسي ، وكتاب التاجي في التاريخ لأبي إسحق الصائبي إلى غير ذلك » . وكان خلفاؤه من البويهيين يُعَوَّنون بالعلم وأهله . وكذلك كان السامانيون ، حتى قالوا إن خراسان جنة العلماء ، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران في العصر ، وسيتردد اسمها كثيرا فيما يلي من كلام . وبالمثل كانت الدولة الزيارية تُعنى في طبرستان بالعلم والعلماء . ولم تكن تقل عنها عناية الدولة الخوارزمية بأمرائها الثلاثة في مدينة خيوه المعروف كل منهم باسم « مأمون خوارزم » ويكنى أن يعرف أنه كان يعيش في رعاية ثالثهم الذي استولى محمود الغزنوي على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم في مقدمتهم البيروني وابن سينا وأبو سهل المسيحي والطبيب ابن الحمار والرياضي أبو نصر بن العراق ، وكان محمود الغزنوي قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته ، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته ، ولبأها ابن العراق وابن الحمار والبيروني ، ورفضها أبو سهل وابن سينا ، وولى الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزيارى صاحب طبرستان<sup>(٢)</sup> . وفي هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوي<sup>(٣)</sup> بجمع الفلاسفة والعلماء في عاصمته « غزنة » التي جعلها مركزا من أهم مراكز العلوم والآداب في الشرق الإسلامي وعمت النهضة في دولته مدنا أخرى مثل هراة . وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمرء ، وكانوا أحيانا لا يخصون بها أميرا واحدا ، بل يتجعون بها أمرء الدول والإمارات المختلفة ، على نحو ما كان يصنع الثعالبي ، فقد أهدى كتابيه : « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه : « النهاية في الكناية » و « نثر النظم » و « اللطائف والظرائف » لمأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وكتابه « لطائف المعارف » للصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وكتابه « سحر البلاغة » و « فقه اللغة » للأمير أبي الفضل الميكالي راعي العلم والأدب في نيسابور . وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية في العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه ، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها ، إذ تأسست بها في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة أبي حفص الفقيه ، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١

(١) انظر المنتظم ١١٥/٧ وابن الأثير ٢١/٧ . ١١١ .

(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربي) ص (٣) انظر في ثقافته ابن تغري بردى ٢٧٣/٤ .

للهجرة<sup>(١)</sup> ، وفي أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدث الكبير ابن فُورك<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة<sup>(٣)</sup> . وكثر بها بناء المدارس في النصف الأول من القرن الخامس ، إذ بنيت بها مدرسة<sup>(٤)</sup> لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس<sup>(٥)</sup> : هي المدرسة البيهقية ، ومدرسة الإستراباذي المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعي ، والمدرسة السَّعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين ، والرابعة مدرسة بُنيت لأبي إسحق الإسفرائيني .

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الريَّ حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية ، ولم يلبث أن وزر لهم في عهد سلطانهم ألب أرسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين في سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى ألب أرسلان العرش جعله كبير وزراءه ، وكان سياسيا بارعا وله في السياسة كتاب باللغة الفارسية سَمَّاه «سياسة نامه» . وكان شافعي المذهب أشعريا عدوا للإسماعيلية الباطنية ، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس ، عُرفت كل واحدة منها باسم النظامية ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نخلة الحشاشين ، ولنشر المذهب الشافعي والنحلة الأشعرية . فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهرارة ومرو وأصفهان وآمل في طبرستان وبالموصل وبغداد . وجميعها تأسست حوالي سنة ٤٥٧ للهجرة ، وكان يُدرَّس فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعري علومُ التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يختار لكل منها أستاذا كبيرا . وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة ، ورصد لطلابها نفقات مقدَّرة ، ووقف عليها جميعا أوقافا كثيرة . وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تَعَصُّ بالكتب في كل علم وفن ، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين . والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبيننا اهتمام الدولة والأفراد به ، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب ، وظل الاهتمام بها في هذا العصر ، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية ، فكانت هناك مكتبات الوراقين التي تُعَرَّض فيها الكتب للبيع ، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقا مستقلا . وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التي ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية . وكانت في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يقفه العلماء على طلاب العلم في الجوامع . وكان هناك رعاية للعلم بينون

(١) طبقات الشيرازي (طبع بغداد) ١٢١ . (٤) السبكي ٢٩٠/٤ .

(٢) السبكي ١٢٨/٤ . (٥) السبكي ٣١٤/٤ .

(٣) السبكي ١٥٩/٤ .

المكتبات لطلابه ، مثل ابن حبان البستي صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤ فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب . ويروى أن أبا علي بن سوار الكاتب في دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب في مدينة رامهرمز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها<sup>(١)</sup> .

وكان طبيعياً منذ أوائل هذا العصر أن يُشغف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم ، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة ، أولاها مكتبة عضد الدولة ، وقد رآها المقدسي ووصفها بقوله : «حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها ، وهي أزج (بناء) طويل في صُفّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد أُصق إلى جميع حيطان الأرج والخزائن بيوت طولها قائمة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منصّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجبه<sup>(٢)</sup> » . والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد ، وكانت أكبر من السابقة ، ويقال إنها لو حُمّلت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير<sup>(٣)</sup> ، واتخذ خازنها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة ، ويبدو أنه اتخذه خازناً - كما مرّ في ترجمته - بعد وفاة ابن العميد وابنه أبي الفتح . والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالرّي ، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد ، إذ كان بها من كتب العلم ما يُحمّل على أربعمائة بعير أو أكثر . ويقال : كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الرّي عشرة مجلدات<sup>(٤)</sup> .

ولعل في ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والرّياريين والخورزميين ، بل امتد أيضاً كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذي كانت مجالسه تزدان بالعلماء ، وكان يحضر سماطه القشيري وإمام الحرمين وأبو إسحق الشيرازي ، وكثرت تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبي المظفر طاهر بن محمد الإسفرايني المتوفى سنة ٤٧١ . وقدّم له إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني كثيراً من كتبه ، وله بنى المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرّس فيها عشرين عاماً إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعمائة طالب

(١) المقدسي ص ٤١٣ . (٣) ابن مسكويه ٢٨٦/٦ وما بعدها .

(٢) المقدسي ص ٤٤٩ . (٤) معجم الأدباء لياقوت ٢٥٩/٦ .

وأستاذ<sup>(١)</sup>. وكان الطلاب دائماً كثيرين في حلقات العلماء ، فيروى أنه كان يحضر دروس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور أكثر من خمسمائة طالب<sup>(٢)</sup>. وفي هذا ما يدل على إقبال الشباب في نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالا منقطع النظير ، ولم يكن ذلك في نيسابور وحدها ، فقد كان عاما في مدن إيران وما وراء النهر من أرض الشاش وفرغانة ، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحا للجميع ، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها ، لا أوساط المثقفين فحسب ، بل أيضا أوساط العامة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما رواه السبكي في طبقاته من أن فقهاء الشاش « كتبوا إلى ابن سريج إمام الشافعية ببغداد يُعلمونه أن الناس في ناحيتهم : أرض الشاش وفرغانة مختلفون في فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفُتيا ، ويسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه (محمد وأبي يوسف) وداود بن علي الأصفهاني (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي ، فكتب القاضي لهم الرسالة »<sup>(٣)</sup>.

فالثقافة الفقهية لم تكن وفقا على الفقهاء وتلاميذهم ، بل كانت العامة تشارك فيها وفي دقائقها وتفريعاتها الكثيرة لا التي اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى : الشافعي ومالك وأبو حنيفة فحسب ، بل أيضا تلك التي اختلف فيها معهم سفيان الثوري وداود بن علي الأصفهاني . ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفي من خلاف مثل ما حدث بين أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وقفت عليه العامة فيما وراء النهر . وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية في إيران وأنها كانت عامة بين الناس ، ولا تخص الرجال بل تعم النساء ، وهي تتصل بالحديث النبوي وروايته ، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علماء الأئبات ، ويُذكرن في تراجم بعض المحدثين ويُنصُّ على أنهم حملوا الحديث عنهن ، منهن كريمة المروزية ، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادي المحدث المشهور صحيح البخاري ، وسمع منها أيضا بمكة سعد الأسد آبادي<sup>(٤)</sup> ، فهي لم تحدث في موطنها فحسب ، بل حدثت أيضا في مجمع العلماء بالحرم المكي ، وبأى كتاب ؟ بأعظم كتب الحديث إسنادا : صحيح البخاري . ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة<sup>(٥)</sup> بنت عبد الله البوشنجية ، وهي من محدثات القرن

(١) طبقات السبكي ١٨٤/٥ .

(٢) السبكي ٣٠/٤ ، ٣٨٣ .

(٣) التهذيب للنوري (طبعة وستفولد) ص ٣٠٧ .

(٤) السبكي ١١٨/٥ .

(٥) السبكي ٤٥٧/٣ .

الخامس الهجرى ، ومثلها فاطمة بنت أبي على الدقاق شيخ القشيري في التصوف ، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون<sup>(١)</sup> . ومن محدثات القرن الخامس أيضا كريمة<sup>(٢)</sup> بنت محمد ، وشهدة<sup>(٣)</sup> بنت أحمد . وهن جميعا أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران . ومن تمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية ، موزعين الكتب على علومها المختلفة ، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم ، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمي أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتابا موسوعيا هو «مفاتيح العلوم» ويهديه إلى أبي الحسن العتبي وزير الأمير نوح الساماني الثاني (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) . وكان يعيش في رعايته بنيسابور . والكتاب يشمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها ، وهو مقالتان : المقالة الأولى في علوم الشريعة وما يتصل بها ، والمقالة الثانية في الفلسفة وعلوم الأوائل .

## ٢

### علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

تحدثنا في كتابي العصر العباسي : الأول والثاني عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان ، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات في الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات في الرياضيات والطبيعات . وسرعان ما شارك العرب في كل ما ترجموه ، سواء في النظريات الفلكية أو في العلوم الطبيعية ، وقد سارعوا في نقل كتاب الجسطى لبطليموس الإسكندري وهو في الفلك والجغرافية ونقل كتاب الأصول لأقليدس في الهندسة وكتب أرسطو في علمي الحيوان والطبيعة وفي المنطق وكتب جالينوس وبقراط في الطب ، وترجموا أيضا لأفلاطون وغير أفلاطون كتبًا مختلفة . وقد ذكرنا في كتابي العصر العباسي أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه ، وعرضنا ذلك كله عرضا مستفيضا . وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة في جميع الميادين العلمية ، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ في الرياضيات دوت شهرتهم فيما بعد في عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمي الذي يفتتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب ، ومثل جابر بن حيان الكيميائي المشهور ، ومثل محمد بن زكريا الرازي ذائع الصيت في عالم

(٣) السبكي ٧١/٦ ، ٧٣ .

(١) السبكي ١١/٥ .

(٢) السبكي ٩٥/٥ .

الطب الذى اكتشف فى وضوح فرق ما بين مرضى الجُدْرَى والحَصْبَة ووضع أُسُساً واضحة للطب النفسى . وكان طبيعياً بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهون . ويلمع اسم الكندى فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون ، ويلمع بأخرة من العصر العباسى الثانى اسم فيلسوف كبير هو الفارابى الذى مزج فى فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجاً رائعاً ، مصطفياً لأتمته نظريات فلسفية جديدة .

وبانتهاء العصر العباسى الثانى ينتهى عصر المترجمين العظام ، وندخل فى عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الخصبية ، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة .

وابن<sup>(١)</sup> سينا أكبر فلاسفة الإسلام ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه ، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين ، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولّى التصرف للسامانيين بقرية خرميثن ، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخارى وعُنى بتربيته فأحضر له معلماً للقرآن ومعلماً للأدب ، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن ، وأقبل على دراسة الفقه . ويذكر أن أباه كان إسماعيلياً ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلى ، وكان يقرأ معه إيساغوجى وكتاب أقليدس والمجسطى ، ويراه لا يفهمها حق الفهم فكان يشرحها لأستاذه . وأكبَّ على علوم الأوائل والطب ، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاماً فى السابعة عشرة من عمره . واستغلت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتاباً للفارابى ، حلَّ له مستغلقاتها . وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ويغدق عليه

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقى ص ٥٢ والقفطى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ١٥٧/٢ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢٩١/٢ وكتاب لكارادى فوعنه (طبع باريس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشر هيستنجر (أدنبرة ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ وبراون (ترجمة د . إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ

الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدومبيلى ص ١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقنوائى . وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها فى كتابنا «الترجمة الشخصية» طبع دار المعارف ومقالاً لنا عن لغة ابن سينا فى العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة ، وهو عدد خاص بعيده الأئلى .



من أمواله . ويستأذنه ابن سينا في دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز في علوم الأوائل . ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم ، ونزل بعاصمتها «حبيوة» عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيروني . وسمع محمود الغزنوي بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء في بلاط أمير خوارزم ، فأرسل إليه في طلبهم ، كما مر بنا ، وأبى ابن سينا أن يذهب إليه ، وأخذ يتنقل في بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير ، فأكرمه وأنزله منزلة عليا ، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه . وظل هناك إلى أن أدرسته الوفاة بهمدان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م وقبره معروف بها إلى اليوم .

وعند ابن سينا تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية ، ويلقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي ، وأكثر مؤلفاته بالعربية ، وله مؤلفات بالفارسية ، وأيضا له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفي ، وله قصص فلسفية كقصة سلمان وأبسال وقصة حتى بن يقظان ورسالة الطير . ومصنفاته تُعدّ بالمئات ، وأشهرها كتاب القانون في الطب وكتاب الشفاء في الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات . وكان الكتاب الأول عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بجامعةهم حتى القرون القريبة ، وقد ترجموه إلى اللاتينية ، ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر الميلادي وعشرين مرة في القرن السادس عشر . وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة .

وابن سينا يتأثر بأرسططاليس ، وحاول جاهدا أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام . ونحّا في كثير من أفكاره نحو الفارابي ، وهو يتفق معه في تفاريع المنطق وفي الإلهيات وماذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله ، لأنه متره عن كل مادة وكل جسم ، والله واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة ، وإلا اختلفت الجهات في ذاته . وهو - لذلك - لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول . وعن هذا العقل يصدر عقل يدبّر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هي جرم الفلك ، وأخيرا العقل الفعّال الذي تصدر عنه مادة الكائنات في الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية . وطبعي أن لا يرتضى أهل السنة والمعتزلة منه هذه الآراء . وإذا نحيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء ، فيقول إن كل ما في الوجود خيرا كان أم شرا بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته في القدر . وكان يرى أن من الموجودات ما هو خير محض كالأمور العقلية والسمائية ، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود

الأرضى والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد .

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاها النفوس الكاملة التي تتمسك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعدّ الموت بطلانا للجسم ، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلى ، وسعادتها وشقوتها حينئذ ترجعان إلى اتحادهما به قوة وضعفا . وفي ذلك يكون الثواب والعقاب .

ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة ، فيمزجها بالتصوف الذى تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى فى الكون سوى مبدعه وجماله على نحو ما تصور ذلك قصته «حى ابن يقظان» و«سلامان وأبسال» وسلمّ بهما فى الفصل الأخير. وفى الأولى يعود حى بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية ، بينما يتخلص أفسال فى الثانية من أغلال اللذات الحسية موعلا فى اللذات العقلية وما يُطوى فيها من لذات الصوفية الروحية . ويوضح ذلك فى كتابه الإشارات ، فيقول عن الصوفى ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس الله مستديما لإشراق نور الحق على نفسه ، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لارغبة من عقابه ولا رغبة فى ثوابه .

والبيرونى<sup>(١)</sup> هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحي خيوه عاصمة خوارزم تسمى بيرون ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، ويبدو أنه تلقن معارفه الأولى بخيوه ، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقها حذقا رائعا ، وشغف فى أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم ، ولم يكد يتدرج فى العقد الثالث من عمره حتى بارح موطنه إلى طبرستان حيث عاش فى رعاية أميرها قابوس ، وإليه قدم أول كتبه : «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذى فرغ من تأليفه حوالى سنة ٣٩٠ وقد صور فيه المناهج التاريخية والتقويم الحسائية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة ، وقد طبعه سخاو فى ليزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيرونى وأعماله ومكانته . وكان قابوس متقلبا ، فخشى البيرونى على نفسه منه ، وتركه إلى موطنه وأميره فيه «مأمون خوارزم». وسمع به وبعلمه محمود الغزنوى ، فطلبه من أميره ، وأبدى البيرونى - فيما

(١) وكتاب العلم عند العرب لألدومبيلي ص ١٨٨ وما بعدها ومقاتلى بروكلان وفيدمان عن البيرونى فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٤٥/١ وما بعدها.

(١) انظر فى البيرونى تمة صوان الحكمة للبيهقي ومعجم الأدباء ١٧/١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٥٩ ومقدمتى سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من مقولة وبراون ١١١ ، ١٢١ وكاجورى فى تاريخ الرياضيات ومادة بيرونى فى دائرة المعارف البريطانية

يُروى - رغبته في الذهاب إليه ، ويقال : بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوي على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة . وكان البيروني شيعيا ومحمود سنيا يضطهد الشيعة ، فتحول البيروني إلى مذهبه ، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته لمحمود . وكان محمود ماينى يغزو الهند على نحو ما مر بنا في الفصل السابق ، فكان يسير معه ، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكنته من دراستها دراسة علمية خصبة ، تعلم في أثناءها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماءها ، ودرس في عمق فلسفاتهما ورياضياتهما وعقائدهما وتقاليدهما وجملة معارفها في التنجيم والتاريخ والفلك ، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردوذة » وقد أتمه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوي بعامين . وفي الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود ، وفيه وصف جغرافي مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارتهم في الفلك والتنجيم . ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس . ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق . ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق في الديانات وفلسفاتهما ، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس . وفي كل ذلك ينثر آراءه الأصيلة التي تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة . ونراه يبين في قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية .

ومن مصنفات البيروني كتابه القانون المسعودي في الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف في الفلك والهندسة والتنجيم ، وقد وصفه ياقوت بأنه يعفى أثر كل كتاب ، صُنّف في تنجيم أو حساب ، ويقول البيهقي إنه غرة في وجوه تصانيفه . وفي مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذي قدم إليه الكتاب وقد نشر في حيدرآباد سنة ١٩٥٣ . وللبيروني كتب أخرى ، منها كتاب في المعادن سماه الجواهر في معرفة الجواهر ، أهدها إلى السلطان مودود الغزنوي ، ومنها كتب في الطب وكتاب في الصيدلة نشره ماكس مايرهوف في برلين وكتب أخرى في الطبيعيات . وفي الحق أنه شخصية فريدة في تاريخ إيران العربية .

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر<sup>(١)</sup> ستاني أبو الفتح محمد بن أبي القاسم

(١) انظر في الشهرستاني وترجمته ابن خلكان ٢٧٣/٤ بالوفيات ٢٧٨/٣ وشذرات الذهب ١٤٩/٤ ومرآة وتذكرة الحفاظ ١٣١٣/٤ والسبكي ١٢٨/٦ والوافي الجنان ٢٨٩/٣ ولسان الميزان ٢٦٣/٥ وعبر الذهبي

المتوفى سنة ٥٤٨ وهو من شهرستان في شمالي خوارزم ، واشتهر بكتابه الفريد «الملل والنحل» الذي ألفه في سنة ٥٢١ وهو في علم مقارنة الملل والأديان . وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سببا في نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب ، فنذ القرن الثالث الهجري وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيروني وألف كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» الذي تحدثنا عنه آنفا ، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة في الديانات ، وجاء بعده ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ وألف كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وخلفه الشهرستاني ، فألف كتابه سالف الذكر عارضا فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك في اعتدال وإنصاف وبصر نافذ ، وهو لا يبارى في دقته ودكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامي أو عن عالم الفرس للمقدم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان .

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفي مقدمتها الرياضيات والفلك ، وقد تقدم العرب بهما في مطالع هذا العصر خطوات على نحو ما يصور ذلك ألدومبيلي في كتابه العلم<sup>(١)</sup> عند العرب ، ومن نابيهم في القرن الرابع الهجري ممن تحدث عنهم أبو الفتح محمود بن محمد الأصفهاني الذي نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس ، وأبو جعفر الخازن الخراساني ، وله كتاب في الفلك وصف فيه عددا من آلات الرصد الفلكية ، وأبو الحسين الصوفي مؤلف كتاب الكواكب الثابتة ، وهو محلى بالرسوم ، ويقول ألدومبيلي إنه صحح فيه كثيرا من أخطاء بطليموس ، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون . واطرد هذا النشاط العلمي في القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن علي بن أحمد النسوي يؤلف بالفارسية كتابا في اللوغارتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع في الحساب الهندي . ويشمل نظام الملك في الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين ، وفي مقدمتهم<sup>(٢)</sup> عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، وله كتاب فذ في علم الجبر رتب فيه - كما يقول ألدومبيلي - الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيبا منظما ، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم ، وبنى له مرصدا سنة ٤٧١ ويظن أنه إما كان في مرو وإما في أصفهان وإما في نيسابور ، وعين له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم

وأثار البلاد للقرظيني (طبعة وستفولد) ص ٣١٨ وبراون ص ٣٠٤ ، وألدومبيلي ص ٢١٤ ، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية .

١٣٢/٤ = وروضات الجنات ١٨٦ وبراون ص ٤٥٩ دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر العلم عند العرب ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) راجع في عمر الخيام وترجمته القفطي ص ٢٤٣ .

وألف فيه كتابه « التاريخ الجلالى » نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى . ومن أشهر الرياضيين بعده نصير<sup>(١)</sup> الدين الطوسى المولود بطوس سنة ٥٩٧ وقد تلقفه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه ، فأرسلوه إلى عاصمتهم « ألموت » وهناك وجد مكتبة نفيسة أكبَّ على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات ، حتى إذا استولى هولاءكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته ، وكرَّمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم ، وصحبه في هجومه على بغداد ، وانتَهز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة ، وكوّن منها مكتبة ضمت أكثر من أربعمئة ألف مجلد ، كما يقول ابن شاكِر في كتابه فوات الوفيات . وساعده هولاءكو في بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعيّن معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين ، وظل نصير الدين قائماً على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣ وقد أَلف زيجاً أو قل تقويماً أصلح به تقويم الخيام ، وألف كتباً كثيرة في التنجيم والفلسفة والرياضيات والطبيعات . ومن أشهر تلاميذه قطب<sup>(٢)</sup> الدين محمود بن مسعود الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضياً فلكياً ، ومن كتبه : « نهاية الإدراك في دراية الأفلاك » . ومنهم نجم<sup>(٣)</sup> الدين على بن عمر الكاتبى المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفاً في مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب في المنطق سماه « الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية » وهى مشروحة مراراً . وظل مرصد المراغة مجهزاً بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجرى ، وكانت العربية لا تزال في إيران اللغة الأولى للعلوم ، وإن أخذت تراجحها الفارسية حتى ظفرت بها في الحقب للتأخرة .

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية ، وكانت البيمارستانات تُعدُّ مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به ، ومن أهم الأطباء في القرن الرابع الهجرى على<sup>(٤)</sup> بن العباس المجوسى صاحب الكناش الملكى في الطب ، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهى ، وكان يعاصره أبو<sup>(٥)</sup> سهل المسيحى الذى أَلف ما يشبه دائرة

(١) انظر في نصير الدين الطوسى وترجمته فوات

الوفيات لابن شاكِر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٣٠٧/٢

وروضات الجنات ص ٥٠٦ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥

وبراون ص ٦١٥ وألدومبيللى ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ودائرة

المعارف الإسلامية ، وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية

بجيدر آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته .

(٢) راجع في قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن

حجر ٣٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٩ وألدومبيللى ص

٢٩٨ .

(٣) انظر في فوات الوفيات ١٣٤/٢ و ألدومبيللى ص

٢٧١ .

(٤) راجع ألدومبيللى ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يعرض

مجموعة من الأطباء بينها على بن العباس وانظر القفطى

ص ٢٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤

(٥) انظر فيه القفطى ص ٤٠٨ وبروكلمان ٢٩٤/٤ .

معارف طبية في مائة مقالة . ولزين <sup>(١)</sup> الدين الجرجاني الطبيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها «ذخيرة خوارزم شاه» وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمي قطب الدين محمد . ويظل الاهتمام بالطب على توالى الحقب ، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير ، ويشتهر في هذا العلم موفق <sup>(٢)</sup> بن علي الهروي في القرن الرابع الهجري ، كما يشتهر في الكيمياء الطغرائي الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقي مسعود ، وله كتب كثيرة في الكيمياء <sup>(٣)</sup> ، منها الجوهر النضير في صناعة الإكسير . وللقزويني <sup>(٤)</sup> زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف في التاريخ الطبيعي سماه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

ومررنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن كتاب بطليموس الجغرافي وجّه العرب منذ الخوارزمي الرياضي محمد بن موسى إلى التأليف في علم الجغرافيا أو تقويم البلدان ، ونشط فيه التأليف نشاطا واسعا واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهاجا طريفا في وصف البلدان أن يُعْتَوُوا بالحديث عن عادات الشعوب ، ويَقْصُؤُوا بعض ماسمعه من الأعاجيب ، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ماسمعه الجغرافي بأذنه ورآه تحت بصره ، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات . ويلقانا في القرن الرابع رحالة مشهور هو أبو دلف الخزرجي مسعر بن مهلهل شاعر الكدبية الذي سنترجم له بين الشعراء الشعبيين ، وعِداده في شعراء أصفهان ، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة ، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة ، حققها المستشرق مينورسكي ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتي في الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربي لإيران . وجاء بعده في القرن الخامس الهجري رحالة إسماعيلي ، هو ناصر خسرو ، وقد كتب رحلته بالفارسية في كتابه المسمى «سفرنامه» واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧ - ٤٤٤ هـ) . طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهي تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربي . وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون في المحيطين الهندي والهادي ،

(١) راجع فيه ألدومبيلي ص ٣٢٠ .

(٢) ألدومبيلي ص ٢٣٩ .

(٣) انظر في نشاط الطغرائي الكيميائي ألدومبيلي ص

لكراشكوفسكي ٣٦٠/١ .

ووصفوا رحلاتهم فيها وفي المحيطين وجزرهما وشواطئها في آسيا وإفريقيا وكل ما رأوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور . ومن أهم ما كتبوا من هذه الرحلات كتاب «عجائب<sup>(١)</sup> الهند برّه وبحره وجزره وشطآنه» لبزرگ بن شهریار الناخذاه أى الربان . ويدل اسمه على أنه إیرانى ، وتدل حکایاته على أنه كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى ، وهو يقص فى كتابه قَصَصًا بديعا ما سمعه من الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندى والهادى ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنه من عواصف هوجاء ، وما شاهدوه من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها . وهو كتاب جغرافى وأدبى وقصصى نفيس .

وربما كان القزوينى زکريا بن محمد المذكور آنفا أكبر جغرافى أنتجته الحقب التالية فى العصر ، واسم كتابه الجغرافى : «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض ، ويذكر ما فيها من البلدان والجزر والأنهار ، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم فى آسيا وإفريقيا وأوربا وخاصة شعوب الهند والصين ، ويقص حکایات عن شعراء الفرس والزهاد فى البلدان الإسلامية ، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكى كثيرا من الأساطير والحرافات مما يجعل كتابه فى بعض جوانبه شبيها بكتب الأدب الخيالية المسلية .

ولعل فى كل ما سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل فى إيران حتى القرن الثامن الهجرى ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم فى حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفا دقيقا ، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ بتجرد لوضع كتاب يبنى بهذه الحاجة ، على نحو ما يلقانا عنده فى كتابه التعريفات الذى أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتبا لها على حروف المعجم ترتيبا دقيقا .

### ٣

#### علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث فى اللغة نشاطا واسعا لهذا العصر ، إذ كثرت العلماء الإیرانيون الذين تصدوا للمباحث اللغوية ، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم ، واهتمامهم به قديم ، ولذلك

(١) انظر فى هذا الكتاب كراتشكوفسكى ١٤٣/١ وكتابنا «الرحلات» طبع دار المعارف ص ٣٣ .

لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخليل بن أحمد ، وهو أول معجم وضع في العربية ، إنما تنشر - كما ذكر صاحب الفهرست - من خراسان . ومعروف أن المعجم الثاني في العربية الذي ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دُرَيْد المتوفى سنة ٣٢١ هـ وهو أيضاً نُشر لأول مرة في إيران ، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس ابن دُرَيْد من البصرة لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل ، وهناك وضع الجمهرة ، وكان ترتيب الكلمات في هذا المعجم - كترتيبها في معجم العين - على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي أى من الحلق واللسان والفم والشفتين . وأول معجم عام وضع في عصر الدول والإمارات الذي نحن بصدد معجم تهذيب اللغة الذي وضعه أبو منصور محمد (١) بن أحمد الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون في خدمة اللغة وغير اللغة ، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران .

ورتب الأزهرى معجمه على ترتيب معجم العين أى حسب مخارج الحروف ، وعرض في مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضعاً مدى الثقة والتهمة في أعمالهم . وكان يعاصر الأزهرى عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع في اللغة معجمه ديوان الأدب الذى نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واتبع فيه طريقة جديدة هى ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة ، ووضع الصحاح بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم يتبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال مخطوطة . وخلفها أبو الحسين أحمد (٢) بن فارس القزوينى معلم العربية بهمدان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله معجمان : المعجم ومقاييس اللغة ، أما المعجم فمعجم عام رتبته حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم ، غير أنه قسم المواد في كل حرف إلى ثنائى ويشمل المضاعف والمطابق ، ثم ثلاثى ، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية ، والتزم أن يفتح حديثه في كل حرف به مع مايليه . ومعجمه مقاييس اللغة على غرار المعجم ، عنى فيه بأن يجعل لألفاظ كل مادة لغوية أصلاً تُرد إليه أو أصليين . وهو فيه أكثر منه في المعجم

(١) انظر في الأزهرى ابن خلكان (طبعة دار صادر

بيروت) ٣٣٤/٤ ومعجم الأدباء ١٦٤/١٧ وشذرات

الذهب ٧٢/٣ والسبكي في طبقاته ٦٣/٣ .

القصر وابن خلكان ١١٨/١ ومعجم الأدباء ٨٠/٤

وإنباه الرواة ٩٢/١ وما به من مراجع والنجوم الزاهرة

٢١٢/٤ .

(٢) انظر في أحمد بن فارس اليتيمة ٤٠٠/٣ ودمية



عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية ، بينما هو في المجمل أكثر منه في المقاييس عناية بذكر الأعلام .

ولأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري<sup>(١)</sup> معاصره المتوفى سنة ٣٩٥ معجمه المشهور : تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح ، وأصل موطن الجوهري فاراب شرقي خراسان ، رحل في طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومضر ، ورجع إلى خراسان فنزل في الدامغان ثم ألقى عصاه في نيسابور ، وظل بها يدرس ويصنّف إلى وفاته ، ومعجمه مرتب على الحروف الهجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذي اتبعه خاله الفارابي في معجمه ديوان الأدب ، وأوفى المعجم من الشهرة والذيع ماجعل مؤلفات كثيرة تعنى به عند العلماء في موطنه وفي غيره . ووضع محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من أهل القرن الثامن الهجري مختصراً له سماه «مختار الصحاح» ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها ، وهو مطبوع في عصرنا مراراً وتكراراً . وللزخشي<sup>(٢)</sup> محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ معجم عام سماه «أساس البلاغة» وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامها ، ويعنى ببيان ما جاء في كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة . وتمضى إلى القرن الثامن فالتقى بالفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى المتوفى سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه في الفصل الثاني من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية .

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون في الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف . منها معجم أبي عبيد الهروي المتوفى سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهرى ، ولم يُعَنَّ مثل أستاذه بمعجم عام إنما عُني بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين ، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين في لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما ، ووضع الزوزنى<sup>(٣)</sup> الحسين بن علي بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه

(١) راجع في الجوهري إنباه الرواة ١٩٤/١ ومعجم الأدباء ١٥١/٦ وشذرات الذهب ١٤٢/٣ واليتمية للثعالبي ٤٠٦/٤ ودمية القصر للباخرزى وكتب تراجم النحاة والنجوم الزاهرة ٢٠٧/٤ .

(٢) انظر في الزخشي ابن خلكان ١٦٨/٥ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٧٧ وروضات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٢٦٥/٣ واللباب ٥٠٦/٢ ومعجم الأدباء

١٢٦/١٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ٤١ وشذرات الذهب ١١٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ وأزهار الرياض ٢٨٢/٣ ونزهة الألباء ص ٣٩١ والجواهر المضية ١٦٠/٢ وكتب التاريخ في سنة وفاته وبراون في تاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى ص ٤٥٨ .

(٣) راجع في الزوزنى إنباه الرواة ١/٣٢٠ وبراون ص ٤٤٩ وبروكلمان ٥/٢٠٧ .

ترجمان القرآن . وجاء بعده الراغب (١) الأصبهاني الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٠٢ و وضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن ، وهو معجم لا نظير له في بيان دلالات ألفاظ القرآن ، ولا يستغنى عنه ناظر في آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم . ووضع الزمخشري المذكور آنفاً معجماً لألفاظ الحديث النبوي سماه الفائق في غريب الحديث .

وبجانب هذا النشاط اللغوي نشط علماء اللغة في إيران في دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تتضمن شرحها ، ويمكن أن ندخلها في المعاجم الخاصة ، ولعل أول من يصادفنا في هذا الباب حمزة (٢) الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يتهم بشعوبيته لافتخاره بنسبة إلى الفرس ، ولأنه فيما يقال وضع كتاباً لعضد الدولة البويهى في الموازنة بين العرب والفرس ، وينبئ عنه بروكلمان هذه التهمة ، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكركم ! . وله في الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم « أحلم من الأحنف » وسماه الدررة الفاخرة ، وصنع الصاحب المذكور آنفاً أمثال المتنبي ، استخرج من شعره الأبيات التي تجرى مجرى المثل .

وكان يعاصره أبو هلال (٣) العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ وقد ولد بعسكر مكرم في إقليم خوزستان وإليها ينسب ، وتعلم بها ، واحترف التجارة ، ولم تشغله عن التصنيف والتأليف ، وله في الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبته على حروف المعجم ، ذكر فيه منها نحو ألقى مثل . وشرحها شرحاً وافياً مبيناً مضاربيها ومواردها ، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهاني فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل . وجاء بعده الميداني (٤) أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال . حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية ، وهو استقصاء لم يسبق إليه ، مع شرحها شرحاً مستفيضاً . وخلفه الزمخشري الذي ذكرناه آنفاً فألف معجمه « المستقصى في الأمثال » ، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميداني . ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة

(١) معجم البلدان في عسكر مكرم وإنباه الرواة للقطبي باب الكنى وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٢١ وخزانة الأدب ١١٢/١ .

(٢) راجع في الميداني كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٤٥/٥ والإنباه ١٢١/١ وابن خلكان ١٤٨/١ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص ٨٠ .

(١) انظر في الراغب بغية الوعاة وطبقات المفسرين وتمتة البيهقي ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٢٠٩/٥ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) راجع في حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٦٠/٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر في أبي هلال معجم الأدباء ٢٥٨/٨ - ٢٦٧

والدقة . ويُدخل في هذا النشاط المعجمي بعض اللغويين وضع معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب في ترتيب العرب لناصر<sup>(١)</sup> المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشري في وطنه خوارزم . ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التي يستخدمها الفقهاء .

وحاول اللغويون في إيران أن يضعوا كتباً تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المار ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية ، وأهم منه كتاب الصاحي في فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد ، وهو أول كتاب منهجي في موضوع أصل اللغة العربية وخصائصها . واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء ، وتجرد لذلك أبو أحمد<sup>(٢)</sup> العسكري خال أبي هلال ، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب في هذا الموضوع .

ولم يقتصر نشاط اللغويون في إيران على كل ما قدمنا . فقد بذلوا جهوداً خصبة في شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدى لديوان المتنبي وشرح الزوزنى المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مرارا ويتداوله الطلاب في الجامعات العربية . واشتهر التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح ، تناول في بعضها الشعر القديم وفي بعضها الشعر المولد ، وقد تحدثنا عن نشاطه في هذا الاتجاه بين اللغويين في العراق ، وشرح الزمخشري بعده لامية العرب للشنفرى ، وشرح المطرزي خليفته مقامات الحريري .

ونفض اللغويون بمحاولة أخرى هي جمع الأشعار والكلم البليغة ، وأفوا في ذلك مصنفات مختلفة ، منها ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، وكتاب نثر الدرر لأبي سعيد منصور بن الحسن الآبي<sup>(٣)</sup> من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني المذكور آنفاً وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة كتابيه الكشكول والمحلة ، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر . ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة ، وكثير منهم لهم كتب

(١) انظر في المطرزي معجم الأدباء ٢١٢/١٩ وإنباه الرواة ٣/٣٣٩ وروضات الجنات ص ٢٢٣ والجواهر ١٩١/٧ .  
 (٢) راجع في أبي الحسن الآبي دمية القصر ١/٤٦٧ وابن قطلوبغا ص ٧٩ .  
 (٣) راجع في أبي الحسن الآبي دمية القصر ١/٤٦٧ وابن قطلوبغا ص ٧٩ .  
 (٤) انظر في أبي أحمد العسكري ابن خلكان ٨٣/٢ أصبهان .

نحوية متنوعة غير أننا سنكتفي بذكر الأمهات وأصحابها ، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مر ذكره بين اللغويين في العراق ، وأهم منه إمام النحاة عامة في القرن الرابع الهجري أبو علي الفارسي <sup>(١)</sup> المولود بالقرب من شيراز سنة ٢٨٨ وكان رحلة في تدرسه ، فأيام في شيراز وأيام في عسكر مُكرّم بخوزستان وأيام في كرمان ، وأيام أخرى في بغداد أو في حلب أو في الكوفة أو في دمشق ، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبيّة ، وهكذا . وبجانب ذلك له كتب مستقلة عنى القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكلمة وقد صنفها باسم عضد الدولة . وهو أستاذ ابن جنّي ، وفي كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة في الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية ، حتى ليخيّل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التي سجلّها ابن جنّي في كتبه إنما استمدّها من إملءات أبي علي الفارسي . وهو في آرائه النحوية ينتصر مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين ، ومرة ثانية ينتصر للكوفيين ، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يسبق إليها ، نافذاً بذلك إلى المذهب <sup>(٢)</sup> البغدادى الجديد في النحو الذى كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستى الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة .

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذى مر بنا ذكره ، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين ، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجى في المنطق ، سماها مقدمة في النحو . ومن نخبة إيران في القرن الخامس عبد القاهر الجرجاني وسنفضل الحديث فيه بين البلاغيين ، غير أننا نشير إلى أن له كتابا في النحو سماه العوامل المائة ، عنى به الشراح طويلاً .

ويأتى بعده الزمخشري ، وله كتب نحوية مختلفة ، أشهرها المفصل ، وقد جعله في أربعة أقسام : قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات ، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة ، وقسم للمشارك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام ، وقد شرح هذا الكتاب مرارا ، وأهم شروحه شرح ابن يعيش في عشر مجلدات . وهو في الكتاب

(١) انظر في ترجمة أبي علي الفهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ٢٧٣/١ وطبقات القراء لابن الجزرى ٢٠٦/١ وتاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ومعجم الأدباء ٢٣٢/٧ ولسان الميزان ١٩٥/٢ وشذرات الذهب ٨٨/٣ وابن خلكان (٢) شلبي : أبو علي الفارسي . راجع في ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها .

بغدادى ينتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة ، فهو ينتخب آراءه من المدارس السابقة عليه ، وينفرد بآراء جديدة<sup>(١)</sup> . وتلك هى أصول المذهب البغدادى فى النحو الذى استحدثه ابن كيسان والزجاجى وثبته بعدهما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . ويؤلف المطرّزى كتابا فى النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون . وإمام النحاة بعد ذلك فى إيران الرضى<sup>(٢)</sup> الإستراباذى نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالى سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه فى إستراباذ من أعمال طبرستان ، وقد عُنى بعملين لابن الحاجب المصرى ، هما الكافية فى النحو والشافية فى الصرف ، فشرحها شرحاً واسعاً ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره ، وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية فى إيران حتى أواخر القرن السابع الهجرى وهو فى شرحه للكتابين بغدادى المذهب ، فهو ينتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصلاً القول فى اختلاف النحاة ، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة .

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة ، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران ، وأول من نقف عنده فيها أبو أحمد العسكري الذى عرضنا له آنفاً ، فقد ألف فيها كتابا فى صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان ، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكري احتفظ منها بكثير من بحوثها فى كتابه الصناعتين ، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلانى فى كتابه إعجاز<sup>(٣)</sup> القرآن . وكتاب الصناعتين لأبى هلال مطبوع مرارا ، وهو يريد بالصناعتين صناعتى الكتابة والشعر ، وقد جعل الكتاب فى عشرة<sup>(٤)</sup> أبواب : باب لموضوع البلاغة وحدودها ، وباب ثان تمييز جيد الكلام من رديئه ، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام ، وباب رابع لحسن النظم ، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب ، وباب سادس للسرقات الشعرية ، وباب سابع للتشبيه ، وباب ثامن للسنجج والازدواج ، وباب تاسع لفنون البديع وهو أطول الأبواب ، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافى ودقة الخروج من النسب إلى المديح .

وخلف أبا هلال القاضى عبد الجبار<sup>(٥)</sup> قاضى قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥

- (١) انظر فى ذلك كتابنا المدارس النحوية ص ٢٨٣ . (٤) راجع فى تحليل هذا الكتاب : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٠ وما بعدها .  
 (٢) راجع فى الرضا كتابنا المذكور ص ٢٨١ .  
 (٣) انظر كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١١١ وما بعدها وص ٤١٣ وما بعدها .  
 (٥) انظر فى عبد الجبار تاريخ بغداد ١١٣/١١ ولسان الميزان ٣/٣٨٦ والشذرات ٣/٢٠٢ ومرآة الجنان ٣/٢٩ =

وقد عرض في موسوعته الكلامية « المعنى في أبواب التوحيد والعدل » لإعجاز القرآن في الجزء السادس عشر منها . وأداه الحديث في الإعجاز إلى عرض كلام أبي هاشم الجبائي في أن المدار في الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته . ويأخذ عبد الجبار في توضيح معنى الفصاحة ، فيقول - كما قال عبد القاهر الجرجاني من بعده - إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، فالكلمة في نفسها لا تُعدّ فصيحة ، بل لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها وحركاتها في الإعراب ومواقعها في التقديم والتأخير . وبذلك يقترّب بوضوح من عبد القاهر في تفسيره للنظم في كتابه دلائل الإعجاز ، إذ يشير في صراحة إلى الخصائص النحوية وما ترسم من فروق في الكلام ، أو بعبارة أدق يريد - كما أراد عبد القاهر - النظام النحوي للكلام . ويمنع عبد الجبار - كما منع عبد القاهر فيما بعد - أن يكون للفظه صفة أدبية في الكلام من حيث هي لفظة مفردة ، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها . ويقول عبد الجبار إن حسن النغم وجمال اللفظ لا وزن له في الفصاحة ، مع أنها يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء .

وهذه النظرية <sup>(١)</sup> الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجاني <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا ، فبسطها أعظم بسط وفسرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعاني المعروف بين علوم البلاغة العربية ، فالأصل من لدن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التي يصورها كتاب دلائل <sup>(٣)</sup> الإعجاز من لدن عبد القاهر . وكما وضع علم المعاني وضع علم البيان وضعاً نهائياً في كتابه <sup>(٤)</sup> أسرار البلاغة ، وضعه بتشبيهاًه وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكنية والتمثيلية وبمجازاته اللغوية والعقلية ، مع روعة العرض وطرافته ، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية . ويخلفه الزمخشري فيطبق في تفسيره الكشاف مباحثه في علمي المعاني والبيان تطبيقاً حياً خصباً مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات <sup>(٥)</sup> بارعة ، سواء في

- = وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى  
٦٦ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ والسبكي ٩٧/٥ وكتابتنا  
البلاغة : تطور وتاريخ ص ١١٤ .  
(١) راجع في تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا  
البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها .  
(٢) انظر في عبد القاهر إنباه الرواة ١٨٨/٢ ودمية  
القطر ١٧/٢ والسبكي ١٤٩/٥ وروضات الجنات ١٤٣  
وشذرات الذهب ٣/٣٤٠ ومرآة الجنان ٣/١٠١ وفوات
- الوفيات ٦١٢/١ .  
(٣) انظر في عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة  
تطور وتاريخ ص ١٦٠ - ١٨٩ .  
(٤) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور  
وتاريخ ص ١٩٠ - ٢١٨ .  
(٥) راجع في هذه الإضافات الكتاب السالف ص  
٢١٩ - ٢٧٠ .

المعاني الإضافية التي يصورها علم المعاني عند عبد القاهر أو في فنون البيان التي يصورها أيضاً عبد القاهر. وعُني ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظر والتقسيم والاستطراد والتجريد.

وتحول البلاغة بعد الزمخشري وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة، وأهم من دفعها نحو هذا الاتجاه عاجلا الفخر<sup>(١)</sup> الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وقد أوغل في دراسة الفلسفة والعلوم الدينية، وطاف بكثير من البلدان الإيرانية واستقر بمدينة هراة حتى وافاه أجله وهو يمتاز في تأليفه الكثيرة بالقدرة على تشعب الأفكار وتقسيمها وتفريعها، يمد في ذلك عقل متفلسف، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة، وله كتب مختلفة في التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام. ويهمننا كتابه في البلاغة الذي سماه: «كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» وهو يعلن في مقدمته<sup>(٢)</sup> أنه سينظّم ما كتبه عبد القاهر في مصنفه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وبنوه بصنيعة قائلاً: «ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاهد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعت الترتيب مع التهذيب، والتحرير في التقرير، وضبطت أوابد الإيجالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل». وكأنه يعرفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد أحالتها هيكلًا لا حياة فيه فقد ألفت فيها السموم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة. ولم تنفعه إضافات الزمخشري فقد بث فيها نفس السموم. وبالمثل ما نقله عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذي وضعه بالفارسية وسماه «حدائق السحر في دقائق الشعر». ما ذكره فيه من ألوان البديع، وأسعفه في هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعر في كتابه من الأدبين الفارسي والعربي. ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازي من الجفاف الشديد.

ويخلفه السكاكي<sup>(٣)</sup> سراج الدين يوسف بن محمد بن علي المولود في خوارزم سنة

- (١) انظر في الفخر الرازي ابن خلكان ٤/٢٤٨ تطور وتاريخ ص ٢٧٥.  
 وطبقات السبكي (طبعة عيسى الحلبي) ٨/٨١ وطبقات  
 المفسرين ٣٩ والوفاي للصفدي ٤/٢٤٨ وتاريخ الحكماء  
 للقفطي (طبعة لبيزج) ص ٢١٩ وابن أبي أصيبعة  
 ص ٤٦٢ وشذرات الذهب ٥/٢١.  
 (٢) راجع في تحليل الكتاب ومواده كتابنا البلاغة:  
 (٣) انظر في السكاكي معجم الأدباء ٢٠/٥٩ والجواهر  
 المضية ٢/٢٢٥ والفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي  
 ص ٣٠١ وتاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٨١ وشذرات  
 الذهب ٥/١٢٢.

٥٥٥ وقد مضى يعبُّ في موطنه من جداول الفلسفة والمنطق ، وأكبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب ، وظلَّ يعلم ويلقِّ محاضراته إلى أن توفي سنة ٦٢٧ . ويشتهر السكاكي بتأليفه في البلاغة كتابه «الفتاح» وقد جعله في ثلاثة أقسام<sup>(١)</sup> : قسم لعلم الصرف ، وقسم ثانٍ لعلم النحو ، أما القسم الثالث فقصره على علمي المعاني والبيان ، وألحق بهما ذيلًا تناول فيه مبحثًا عن الفصاحة والبلاغة ومبحثًا ثانيًا لألوان البديع اللفظية والمعنوية . وقدمَّ لعلوم البلاغة بمبحث واسع في علم المنطق ، وتلاه بمبحث في علمي العروض والقوافي ، وبذلك تضمنَّ المقتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي . وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كتب فيه عن علوم البلاغة ملخصاً ، إذ الكتاب أشبه بمن في كل ما خاض فيه من مباحث ، وهو ممن استضاء فيه بالفخر الرازي قبله ، مع تفوقه عليه في الدقة وضبط الأقسام ، غير أنه يخلو خلواً تاماً من تحليلات عبد القاهر والزحمرى ، ويصبح الكتاب متناً لعلوم البلاغة يُحصي قوانينها وقواعدها ، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس ، إذ وضعت تلك القواعد والقوانين في قوالب منطقية شديدة الجفاف ، وهي قوالب يداخلها غير قليل من الالتواء بسبب كثرة التقسيمات ، مما جعل الكتاب أوقل المتن في حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وتوالت الشروح ، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي وقد تقدّم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم ، وشرحه كثيرون من مواطنيه ، من أشهرهم سعد<sup>(٢)</sup> الدين مسعود بن عمر التفتازاني المولود في تفتازان شرق إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند ، وبها توفي سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة في المنطق والنحو . ومن شرح «الفتاح» السيد الشريف<sup>(٣)</sup> الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذي مر بنا ذكره ، وله أيضاً تأليفات كثيرة في المنطق وقواعد البحث . وصنع الخطيب القزويني خطيب جامع دمشق في سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المتن موجزاً أشد الإيجاز . فتصدى له سعد الدين مسعود التفتازاني بالشرح ، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجاني بعمل حاشية عليه . ويتوقف عمل علماء البلاغة في إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التي يعوّدون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشي عليه .

(١) انظر في تحليل المقتاح كتاب البلاغة : تطور

وتاريخ ص ٢٨٧ .

(٢) راجع في ترجمة السعد التفتازاني روضات الجنات

ص ٣٠٩ والبدر الطالع للشوكاني ٢/٣٠٣ والفوائد

الوعاة ودائرة المعارف الإسلامية .

البيهة ص ١٢٨ وحيب السير لخواندمير ٣/٢٣ . ٨٧ .

(٣) انظر في ترجمة السيد الشريف حبيب السير

لخواندمير ٣/٣ ، ٨٧ والبدر الطالع ١/٤٨٨ وبغية



وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغية في إيران نشطت المباحث النقدية في هذا العصر ، وأول ما يلقانا منها رسالة الصحاب بن عباد في الكشف عن مساوى المتنبي ، وهو فيها ساخط عليه سخطا شديدا ، وقد يُردّ سخطه إلى عامل شخصي هو أن المتنبي أبي أن يمدحه ، وأهم مساوى المتنبي في رأيه الغموض في أشعاره على طريقة الصوفيين في عباراتهم الموهمة ، وأنه استخدم الألفاظ الممعنة في الغرابة ، ورداءة المطالع كما يقول ، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة ، والنظم على القوافي الصعبة . ويلقانا في خراسان لعصر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) . راوية للمتنبي يسمى المتيّم<sup>(١)</sup> وله فيه وفي شعره كتاب الانتصار المنبي عن فضل المتنبي وهو من الكتب المفقودة . وكان المتنبي قد شغل الناس في إيران وغير إيران وأكثروا من التخاصم والجدل في شعره ، فألف علي<sup>(٢)</sup> بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وكان من قضاة الدولة البويهية في إيران ، فرأى أن يعرض شعر المتنبي على موازين القضاء العادل ، وهدته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أنه ينبغي أن لا يُحكّم على الشاعر بما أساء فيه ، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته ، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جود فيه ، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والحديثين في معانيهم وألفاظهم ، ليين أن شاعرا ممتازا من السابقين لم يحلّ شعره من هذه الأغلاط ، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره ، ويفيض في بيان الحسن والقبیح عند الشعراء وخاصة عند أبي نواس وأبي تمام . ويلمّ بطائفة من أبيات المتنبي التي أخذت عليه لبعده في الاستعارة أو غرابة في اللفظ أو تعقيد في الكلام . ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبي قليل . ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تخلصه ومعانيه الدقيقة ، ويتحدث عن سرقاته حديثا مستفيضا مبينا أن السرقات شركة بين الشعراء جميعا . ولعلي بن عبد العزيز في ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة ، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة في الشعر ، ومنها ما يتصل بأثر البيئة في الشعر والشعراء ، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات<sup>(٢)</sup> . ويأتى بعده الثعالبي<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد في كتابه اليتيمة فصلا طويلا عن المتنبي فيما له وما عليه ، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة ، وقد استهله بقوله عنه : « نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر في صناعة

(١) انظر في المتيّم اليتيمة ١٥٧/٤ ومعجم الأدياء  
٢٤٤/٤ وفوات الوفيات ١/١٣٣ .  
(٢) انظر في تحليل الوساطة كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ  
ص ١٣٢ وسنترجم للمؤلف بين الشعراء .  
(٣) راجع في الثعالبي دمية القصر وابن خلكان ٣/١٧٨  
وعبر الذهبي ٣/١٧٢ وشذرات الذهب ٣/٢٤٦ ونزهة  
الألباء ص ٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ ومراة الجنان  
٥٣/٣ ومعاهد التنصيص ٣/٢٦٦ .

الشعر» ويبدأ بنيد عن ابتداء أمر المتنبي، ويورد بعض أخباره، ثم يعرض طائفة من معانيه التي استظهرها عليه الكتاب في عصره برسائلهم من أمثال الصاحب بن عباد وأبي إسحق الصائبي وأبي العباس الضبي والحوارزمي، كما يعرض طائفة من المعاني التي سرقها الشعراء منه من أمثال أبي الفرج البغواء والمهلي الوزير والصاحب بن عباد والسري الرفاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبي، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الحوارزمي وأبا الفتح البستي وأبا الحسن السلمي وأبا القاسم الزعفراني. ويعرض لبعض سرقات المتنبي من غيره وما تكرر من معانيه، ثم يسترسل في بيان مساوي شعره مستضيئاً في ذلك بما كتبه الصاحب بن عباد في رسالته آفة الذكر، ثم يفيض في بيان محاسن شعره، مشيداً بنسبته بالأعرابيات، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصديق، واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعاني. وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم<sup>(١)</sup> عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني عاش في النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس، وقد ألف كتاباً نُشر أخيراً في تونس سماه الواضح في مشكلات شعر المتنبي، ذكر في مقدمته نبذة عن المتنبي عرض فيها لنشأته في الكوفة ولبعض أخباره عن معاصره من البغداديين والشاميين والشيرازيين، ورماه في هذه المقدمة بنجث الاعتقاد، وقال إنه وقع في صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوَّسه وأضله. ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخيل والحرب من خصائصه، وأن له النادر البدع، وفي بعض ألفاظه تعقيد وتعويض. ثم أخذ يناقش ابن جني في كثير من تفسير شعره مرتباً الأبيات التي ناقشها على الحروف الهجائية، وهو يدل في نقاشه على قدرة في فهم الشعر وتحليل معانيه. وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبي:

أحبه وأحبُّ فيه ملامةً إن الملامةً فيه من أعدائه

وذكر أن ابن جني زعم أنه ناقض بذلك أبا الشَّيْص في قوله:

أجد الملامةً في هواك لذيدةً حباً لذكرك فليدني اللوم

ويعلق على ذلك بقوله: معنى المتنبي بخلاف قول أبي الشَّيْص، وإتقاناً يريد المتنبي: إنني أحب حبيبي واللوم ينهون عنه فكيف تأتلف، وأبو الشَّيْص يريد يقوله: أحب اللوم لأنني عن هواك بل لتكرر ذكرك في تضاعيف الكلام وأثناء الملام. ومضى الأصفهاني على هذا النحو يرد على ابن جني بعض تفسيراته لشعر المتنبي حتى نهاية الكتاب. وعنى بالرد

على تفسيرات ابن جني إیراني<sup>١</sup> ثان هو أبو علي بن فورجة<sup>(١)</sup> البروجردی المتوفى سنة ٤٣٧ وقد كتب في ذلك كتابين : كتاب الفتح على فتح أبي الفتح لابن جني يقصد كتابه الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجه كتاب ثان في الرد على ابن جني سماه كتاب التجني على ابن جني ، والأبيات في كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية ، وعماده الرد على ابن جني ، وفيه أيضاً ردود على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته وأبي علي الحاتمي في رسالته الحامية والصاحب بن عباد في كشفه عن مساوي المتنبي ، وهو يغفل - كما لاحظ الدكتور غياض - في ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنباً ! وفيه يقول :

« ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوى العقول يذم المتنبي غير هذا الظالم » . ويبدو من ملاحظات ابن فورجة في الكتاب وسوقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطلع على كثير من خصائصه ، من ذلك ملاحظته على البيت :

وإني لمن قومٍ كأنّ نفوسنا بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظماً

فقد لاحظ أن المتنبي في فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم ، وهو ضرب من الالتفات ، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما في البيت أو ضمير المخاطب . ثم قال إن ابن جني سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله : « وقد استقرت شعره كله فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به ، فإذا أورد ضميراً في ذمّ رده إلى الكلام الأول فتادياً أن يخاطب به مواجهاً أو يرده إلى نفسه مخبراً (أى أنه يرد الضمير إلى الغيبة) . ومع أنه يبدو دائماً مدافعاً عن المتنبي وخاصة أمام الصاحب كما قدمنا فإنه ينصُّ على بعض سيئاته ، فيقول في قصيدته « مُلِتَ القطر أعطشها ربوعاً » هذه القصيدة كلها من الشعر الرذل الذي لا يُنتفع به ولا بتفسيره . وحرى بنا أن نذكر تمة لهذا النشاط النقدي الذي عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبي شرح علي بن أحمد الواحدى الذى مرّ ذكره<sup>(٢)</sup> لديوان المتنبي ، وقد ألّفت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا ، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له ، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخياً على حياة المتنبي وأيامه ، وهو ما لم يتح لديوان

(١) انظر في ابن فورجة تمة البيتة ١ / ١٢٣ ومعجم الأدياء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣

(٢) راجع في الواحدى دمية القصر ومعجم الأدياء الأدياء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣

آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة ، بحيث أصبح الديوان مُعداً لكي يستغله الباحثون في كتابة ترجمة حياة المتنبي على نحو ما صنع بلاشيو وطه حسين . وفي الشرح نظرات نقدية كثيرة ، وخاصة في الآيات الغامضة التي يختلف فيها الشراح ، فإن الواحدى يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً ، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبي جيد .

## ٤

### علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران في تفسير القرآن الكريم ، واتضح فيه اتجاهات ثلاثة : اتجاه التفسير بالرأى ، واتجاه شيعى ، واتجاه صوفى ، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشري ، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالي فالآيات الكريمة توجه مع فكرة الحرية والاختيار في أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد في السحر والكهانة<sup>(١)</sup> . ويقف الفخر الرازى المار ذكره آنفاً بعده في الصف المقابل فيدفع في تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » آراء المعتزلة بطريقة فلسفية ، إذ كان عقله متفلسفاً إلى أبعد حد ، وهى فلسفة تظهر في تفسيره بصور كثيرة ، حين يخوض في المباحث العقلية ، وحين نرى المسألة عنده تتشعب شعباً كثيرة . وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة ، تتفرع منها فروع ، وتتفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية . وكان أشعري العقيدة ، فأشاع مذهب الأشاعرة في تفسيره ، وتعقب المعتزلة كما قلنا مُعلِّياً عليهم وعلى أفكارهم مذهبه الأشعري السنّى . ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازى تفسير البيضاوى<sup>(٢)</sup> عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو يعتمد فيه على الزمخشري وتفسيره ، كما يعتمد على الرازى وغيره من المفسرين ، وهو لا يُنحى في تفسيره باللائمة - كما يصنع الزمخشري - على أهل السنة ، وجاء بعده في هذا الاتجاه أبو البركات النسفى<sup>(٣)</sup> المذكور بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد سُمى تفسيره « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

الجنان ٢٢٠/٤ .

(٣) انظر في النسفى الدرر الكامنة ٣٥٢/٢ وتاج التراجم رقم ٨٦ والكنوزى ١٠١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في تأثر الزمخشري بالاعتزال في تفسيره كتاب المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن لجولد تسيير ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

(٢) راجع في البيضاوى السبكي ١٥٧/٨ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٣٩٢/٥ ومراة

وهذا الاتجاه في التفسير كان يرافقه اتجاه شيعي في بيئات الشيعة المختلفة بإيران ، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن علي العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم ، ومن مفسريهم في أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السلمى رأس الإمامية بخراسان ، ومن أشهر تفاسيرهم في هذا العصر تفسير الطوسي أبي جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ في طوس ، ثم رحل إلى العراق في الثالثة والعشرين من عمره ، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتياها ومن أجل ذلك وضعناه في القسم الخاص بالعراق . وولتقى بتفسير الطبرسي<sup>(١)</sup> أبي علي الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسي نسبة إلى طبرستان ، وقد سمي تفسيره بجمع البيان . وهو في ثلاثين مجلدا .

أما الاتجاه الصوفي فمن التفاسير فيه تفسير أبي عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ وسماه « حقائق التفسير » وأهم منه تفسير القشيري الذي مر ذكره في حديثنا عن التصوف ، وهو في تفسيره كعقيدته صوفي سني ، بعيد عن متهاتات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلج فيه بعض متفلسفة الصوفية ، وتغلب عليه روح الوعظ ، ومثله في هذا الاتجاه الغزالي في بعض ما يعرض له من آي الذكر الحكيم ، ولأخيه أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ المذكور بين المفسرين في العراق ، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف ، لا يزال مخطوطاً .

ومن التفاسير العامة تفسير أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ وسماه « بحر العلوم » وتفسير الثعلبي<sup>(٢)</sup> النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدى المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبي ثلاثة تفاسير : البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب « أسباب النزول » واختصر الفراء البغوي الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ تفسير الثعلبي وسمّى مختصره « معالم التنزيل » . ولنظام<sup>(٣)</sup> الدين بن الحسن النيسابوري المتوفى في أواسط القرن التاسع الهجري تفسير سماه « غرائب القرآن ورجائب الفرقان » ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازي ويهتم فيه بذكر القراءات .

وظل علم الحديث ناهضاً في إيران لهذا العصر ، ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني ما يصور مدى نهضته في هذا الإقليم ، فقد كان من إنتاجه صحيح البخاري وصحيح مسلم

(١) انظر في الطبرسي روضات الجنات ص ٥١٢ ومقدمة  
تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع .  
(٢) راجع في الثعلبي معجم الادباء ٣٦/٥ وطبقات  
المفسرين ص ٥ وطبقات القراء ١٠٠/١ وابن خلكان  
٧٩/١ وإنباه الرواة ١/١١٩ وروضات الجنات ٦٨  
والسيكي ٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٤/٢٨٣  
(٣) انظره في روضات الجنات ص ٢٢٥ .

وسنن النسائي وابن ماجه القزويني وجامع الترمذي ، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبي داود السجستاني ، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوي من صنْع إيرانيين . ومضى هذا النشاط يوتئ ثمارا جديدة في القرون التالية . وأول من تلقاه من كبار المحدثين في العصر محمد<sup>(١)</sup> بن أحمد بن حبان البُستي السجستاني قاضي سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه « الجرح والتعديل » في نقد حملة الحديث ورواته ، وكان يُملى مصنفاته في الحديث وتُقرأ عليه أو تؤخذ عنه . وكان يعاصره ابن القطان<sup>(٢)</sup> الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل في الجرح والتعديل أو كتاب الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين . وخلفها ابن منده<sup>(٣)</sup> الأصبهاني محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلا في طلب الحديث وله مسند أبي حنيفة وكتب في الحديث مختلفة . وكان يعاصره أبو سليمان حمد<sup>(٤)</sup> بن محمد الخطّابي البُستي المتوفى سنة ٣٨٦ وألف في نقد الحديث كتبها منها إصلاح غلط المحدثين ، وله شرح على صحيح البخاري ، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي : الصحيح والحسن والضعيف . وعاصره الحاكم النيسابوري<sup>(٥)</sup> المعروف باسم ابن البيع المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذي جعل أصول الحديث النبوي علما مستقلا ، وكان بنو سامان أصحاب بخاري يوفدونه في سفاراتهم إلى بني بويه ، وله كتاب المستدرک على الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم ، جمع فيه كثيرا من الأحاديث التي لم يُدخلها في صحيحيهما مستدلا ببراهين قوية على أنها مستكملة لشروطها ، والكتاب مطبوع في حيدرآباد ، مع تعليقات في الرد على مؤلفه للذهبي . وكان يعاصره ابن فورک<sup>(٦)</sup> محمد بن الحسن الأصبهاني محدث نيسابور ونزيل غزّنه المتوفى بها

- (١) انظر في ابن حبان الأنساب ٨١ والوفاء بالوفيات ٣١٧/٢ وتذكرة الحفاظ ١٢٥/٣ والسبكي ١٣١/٣  
 وميزان الاعتدال ٥٠٧/٣ وشذرات الذهب ١٦/٣  
 ولسان الميزان ١١٢/٥
- (٢) راجع في ابن القطان تذكرة الحفاظ ١٤٣/٣  
 وميزان الاعتدال ٢/١ ولسان الميزان لابن حجر ٦/١  
 وشذرات الذهب ٥١/٣
- (٣) راجع في ابن منده أخبار أصبهان لأبي نعم ٣٠٦/٢  
 وتذكرة الحفاظ ٣٣٨/٣ ولسان الميزان ٧٠/٥
- (٤) انظر في الخطّابي السبكي ٢٨٢/٣ وإنباه الرواة ١٢٥/١ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ب ومعجم الأديباء
- ١٠/٢٦٨ وابن خلكان ٢/٢١٤ وتذكرة الحفاظ وبتيمة  
 الدهر ٤/٣٣٤
- (٥) راجع في الحاكم النيسابوري الأنساب ٩٩ ب  
 والسبكي ٤/١٥٥ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٢٧ وطبقات  
 القراء ٢/١٨٤ ولسان الميزان ٥/٢٣٢ والمتنظم ٧/٢٧٤  
 وتاريخ بغداد ٥/٤٧٣ واللباب ٢/٩٥ وابن خلكان  
 ٤/٢٨٠
- (٦) انظر في ابن فورک السبكي ٤/١٢٧ والوفاء  
 ٢/٣٤٤ وابن خلكان ٤/٢٧٢ والشذرات ٣/١٨١  
 والنجوم الزاهرة ٤/٢٤٠ .

سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكرامية وله كتب كثيرة في الحديث والفقه الحنفي ، منها بيان مشكل الحديث ، ورد على الملحدة والمعطلة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، وكتب مصنفات أخرى في نفس الموضوع ردا على المشبهة والمجسمة . ومن كبار المحدثين التاليين أبو إسحق الإسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة « حلية الأولياء » والبيهقي<sup>(١)</sup> أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور ، وبها كان يميل كتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير ، وكتاب معرفة الآثار . وازدهرت دراسات الحديث في عصر السلاجقة ازدهارا عظيما ، كان من ثمارها ظهور الفراء البغوي<sup>(٢)</sup> المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة في الحديث والفقه الشافعي وتفسير القرآن الكريم ، وأهمها كتابه المصابيح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوبه وقسم الأحاديث في كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيح البخاري ومسلم وإلى حسنة ، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه . وجاء بعده في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي فرتبه ترتيبا جديدا وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح ، وألف بجانب المشكاة كتابا في رجالها سماه أسماء المشكاة ، وهو تراجم للرواة المذكورين في المشكاة أتمه سنة ٧٤٠ . وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران في القرون التالية .

ولم يكن النشاط في علم الفقه أقل منه في علم الحديث ، بل ربما كان أوسع وأعظم ، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل ، ولم يكن المذهب الحنبلي شائعا في إيران ولا في أى إقليم من أقاليمها ، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة في هراة وهمدان<sup>(٣)</sup> من مثل أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري صاحب كتاب ذم (علم) الكلام ، وكان محدثا يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من الأشاعرة<sup>(٤)</sup> وربما كان المذهب المالكي أقل أتباعا حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوي الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وكان شافعيًا كان ينزل الرّي ، فصار مالكيًا ، كما يقول ياقوت في ترجمته بمعجم الأدباء ، فسئل في

(١) راجع في البيهقي تذكرة الحفاظ ٣/٣٠٩ واللباب ١٢٥٧/٤ وشذرات الذهب ٤/٤٨ والنجوم الزاهرة ٢٢٣/٥  
 (٢) ١٦٥/١ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١/٧٥ والسبكي ٨/٤  
 (٣) أحسن التقاسيم للمقدسي ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١  
 (٤) السبكي ٤/٢٧٢

ذلك ، فقال : دخلتني الحمية لهذه البلدة ، يقصد مدينة الري ، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة . وكان مذهب داود الظاهري أكثر اتباعا في إيران أثناء القرن الرابع ، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين . مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة .

وكان للمذهب الشافعي الغلبة وخاصة في شرق إيران وما وراء النهر ، ويقال إن الفقيه أبا بكر<sup>(١)</sup> القفال المعروف بالشاشي والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذي نشر مذهب الشافعي في تلك الأصقاع ، ويذكر المقدسي أنه كان غالبا أيضا في كرمان<sup>(٢)</sup> ، وعملت مؤثرات سياسية في نشره بل في ازدهاره لعهد السلاجقة ، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعيًا أشعريًا عدوًا للحشاشين الإسماعيلية ، فأسس ، كما مر بنا ، مدارس في جميع المدن الإيرانية الكبيرة سنة ٤٥٧ ، ورصد لها مبالغ طائلة ، لإلحاق مكبات بها ولساكن الأساتذة ورواتهم ، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة في عصره ، وظل ذلك من بعده . فكان طبيعيا أن يزدهر المذهب الشافعي في إيران ازدهارا عظيما وأن يتألق في دراساته الفقهية فقهاء كثيرون ، يُعدون في الذروة من الإمامة والقدرة على الفُتيا ، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه ، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد في الفروع ، لتطوروا بالفقه الشافعي تطورا عظيما . ومن أهم من تلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو<sup>(٣)</sup> إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعي بنظامية بغداد كما مر في قسم العراق ، وكان يقابله في نظامية نيسابور إمام الحرمين الجَوْنِيُّ<sup>(٤)</sup> عبد الملك أبو المعالي إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨ . وقلنا في غير هذا الموضوع إنه كان يحضر دروسه أربعائة تلميذ ، ورُزق من التوسع في العبارة وعلوها ما لم يُعهد من غيره ، وله بُنيت المدرسة النظامية بنيسابور ، وظل فيها ثلاثين سنة يلقي محاضراته ، وسُلم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية في الفقه الشافعي والشامل ؛ والبرهان في أصول الفقه . ومن تلاميذه الغزالي وأجل تلاميذه بعده إلكيا الهَرَّاسِي<sup>(٥)</sup>

- (١) انظر في ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٤٣٥ ب وشذرات الذهب ٣/٤٩٩ وابن خلكان ٤٦٣/٣ وعبر الذهبي ٢/٣٣٨ والواق ٤/١١٢ وشذرات الذهب ٣/٢٠٧ والسبكي ٣/٢٠٠  
 (٢) المقدسي ص ٤٦٨  
 (٣) انظر في ترجمة أبي إسحق الشيرازي السبكي  
 (٤) راجع في الجوبى الأنساب الورقة ١٤٤ والمتنظم ١٨/٩ وابن خلكان ٣/١٦٧ والسبكي ٥/١٦٥ والعقد الثمين ٥/٥٠٧ وشذرات الذهب ٣/٣٥٨ .  
 (٥) مرّت مصادر ترجمته بين المفسرين في العراق واللباب ٧/٩ والمتنظم ٢١٥/٤ واللباب ٢/٢٣٢ والأنساب



على بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته . وكان يعاصره أبو المحاسن الرويانى <sup>(١)</sup> عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيدا على أيدي الباطنية الملاحدة ، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب البحر في الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافي ، وصنف في الأصول والخلاف . ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن السادس فخر الدين الرازى محمد بن عمر الطبرستانى الأصل الرازى المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره ، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له في البلاغة ، وله كتب كثيرة في علم الكلام وفي الحكمة وفي الطب ، يقول ابن خلكان : « انتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وله في الفقه وأصوله كتب مختلفة ، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربى والفارسى ، ونزل بأخرة من عمره في هراة . وبها توفي ، وله مواعظ طريفة . وكان قريبا من عصره الرافعى <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً في التفسير والحديث والأصول ، أما الفقه فكان فيه - كما يقول السبكي - عمدة المحققين وأستاذ المصنفين ، وهو قزوينى ، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه ، وله الشرح الصغير والمحزر وشرح مسند الشافعى والشرح الكبير المسمى بالعزير في شرح كتاب الوجيز للغزالي ، واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعى وحواشيه التى ألفت بعده في مصر وغير مصر .

وكان مركز المذهب الحنفى مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم ، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البهية للكنوى والجواهر المضية لابن أبى الوفاء وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ، ومن مشاهيرهم في القرن الرابع أبو بكر أحمد بن على الجصاص الرازى الذى سبق ذكره في قسم العراق ومثله مرهناك أبو زيد الدبوسى البخارى المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية ، وله تقويم الأدلة في أصول الفقه . ومنهم البرذوى <sup>(٣)</sup> على بن محمد بن عبد الكريم السمرقندى المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط في الفقه وكتب مختلفة في علم

(١) انظر في الرويانى كتاب الأنساب ٢٦٣ أ والمتنظم والسبكي ٢٨١/٨ ومراة الجنان ٥٦/٤ .

(٢) ابن خلكان ١٩٨/٣ والسبكي ١٩٣/٧ (٣) انظر البرذوى في الفوائد البهية (طبعة القاهرة) ص

١٢٤ والجواهر المضية وابن قطلوبغا ص ٤١ والأنساب والنجوم الزاهرة ١٩٧/٥

(٢) انظر في الرافعى تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٦٤ ٧٨

وشذرات الذهب ١٠٨/٥ وفوات الوفيات ٧/٢

الأصول والتفسير . ومنهم السرخسي <sup>(١)</sup> محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماما علامة متكلمنا مناظرا أصوليا مجتهدا وله كتاب المسوط في أحد عشر مجلدا ، وهو أشبه بدائرة معارف في الفقه الحنفي ، ومنهم برهان <sup>(٢)</sup> الدين أبو الحسن الفرغاني المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداية شرح البداية في مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفي ، وعليه حواشٍ عدة . ومنهم العميدي <sup>(٣)</sup> السمرقندي أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦١٥ كان إماما في فن الخلاف ، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدى الفقهاء ، ومن مصنفاته الإرشاد ، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن . ومنهم حافظ الدين النسفي المذكور بين المفسرين والذي مر ذكره بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذي يتداوله علماء المذهب الحنفي والذي سماه كثر الدقائق ، وله طبعات كثيرة في الهند ومصر ، وعنى به كثيرون فشرحوه ، ويكثر الشراح للكتب في القرون التالية . ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا في علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافا ولهم مشاركة في تأليف مصنفات الفقه الحنفي مثل الزمخشري وناصر المطرزي ونصير الدين الطوسي .

وكان للشيعة بإيران فقهاؤهم ، ونذكر للزيدية منهم الإمام الماروني <sup>(٤)</sup> أحمد بن الحسين البطحاني المتوفى سنة ٤١١ وكان إماما للزيدية بجيلان وبلاد الديلم . وقد أخذ المذهب الزيدي في التضاؤل أمام المذهب الإمامي الاثني عشرى حتى انحسر عن إيران ، وتبعه المذهب الإسماعيلي ، وخاصة بعد القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية في منتصف القرن السابع الهجري قضاء نهائيا ، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلي كانوا يتركون - في عهد الدولة الفاطمية - موطنهم في إيران وينزلون القاهرة وتذبح منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن يُنسبوا إلى موطنهم الجديد ، على نحو ما صنع حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازى المتوفى حوالى سنة ٤٧٠ . أما المذهب الإمامي فهو الذى كتب له أن يذيع ويتشرف في إيران ، حتى إذا كانت الدولة الصفوية جعلته المذهب الرسمى للدولة ، ومن فقهاءه المبكرين الذين عملوا على تأسيسه في إيران أبو جعفر القمى المتوفى سنة ٢٩٠ والكليني الرازى المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتاباه الكافي

- (١) راجع في السرخسى الجواهر المضية والفوائد البية ص ١٥٨ وابن قطلو بنا رقم ١٥٧  
 (٢) انظر في الفرغاني الفوائد البية ص ٤١ والجواهر المضية ٣٨٣/١ وابن قطلو بنا ص ٤٢ وبروكلمان ٣٠٩/٦  
 (٣) راجع ترجمة العميدى في الفوائد البية والجواهر المضية ١٢٨/٢ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٢٥٧/٤ والوافى ٢٨٠/١ والشذرات ٦٤/٥  
 (٤) انظره في بروكلمان (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ٣٣٣/٣ .

أهمية كبيرة ، وبعد - كما مرّ بنا في قسم العراق - رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية ، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث ، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده . وأشهر فقهاء الإمامية في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات ابن بابويه القمي نزيل بغداد المذكور في قسم العراق والمتوفى بالرى سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مرّ بنا رئيس الشيعة في مدينة قم مركز المذهب الإمامي ، وابن بابويه استعان ركن الدولة بن بويه في استخدام تعاليم الإمامية في تدبير سياسته ، وفي ذلك دليل يُضَمُّ إلى ماقدمناه من أدلة في غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية . ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأملّى واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يخضره الفقيه ، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة ، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وقد تحدّثنا عنه في القسم الثاني الخاص بالعراق .

ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة ، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم ، ومن أهم رجالهم القاضي عبد الجبار قاضي قضاة البويهيين في الرى المار ذكره في المباحث البلاغية ، وله كتاب المعنى في أبواب التوحيد والعدل ، وهو دائرة معارف واسعة في الاعتزال وأصوله ، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه . ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشري ومرّ بنا أنه أخذ نفسه في تفسيره بتوجيه آى الذكر الحكيم توجيهها اعتزاليا ، أساسه تأويل كل الآيات التي قد يفيد ظاهرها تشبيها ، وكذلك توجيه الأخرى التي قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة في أفعال العباد . وقد عُني الشيعة دائما بالاعتزال وعدّوه مؤيدا لهم في دعواتهم الشيعية ، ولعل ذلك مساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجرى ، ولكن على كل حال ضعف شأنه . ومنذ أحمد ابن حنبل وقتنة القول بخلق القرآن وأهل السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة ، حتى ليصمّونهم بالإلحاد أحيانا . ولانصل إلى أوائل القرن الرابع الهجرى حتى يفصل - كما مرّ بنا في العصر العباسي الثاني - أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة ، وكان قد تلمذ لهم ، ويكوّن لنفسه مذهبا جديدا يسمى المذهب الأشعري ، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وكان المعتزلة يقدمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوي . وبذلك أصبحت كل مسألة تُقرن فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن الكريم والسنة ، ونضرب لذلك مثلا تنزيه الله عن التشبيه الذى كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به ، كما أخذ يقول أهل السنة في أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة ، واستدل على ذلك بأدلة سمعية في كتابه الإبانة وبأدلة عقلية في كتابه الملمع . وكان

المعتزلة يمتحنون دائماً في الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة . وتوسط بين المحدثين والمعتزلة في فكرة خلق الإنسان لأفعاله ، فقال إن هذه الأفعال لله صنعا وللإنسان كسبا وإرادة ، فالإنسان يريد ما والله يخلقها . وقال ، في مسألة خلق القرآن التي أحدثت فتنة بين المحدثين والمعتزلة في زمن المأمون والمعتمد والواثق ، إن الألفاظ المتزلة بالوحي دلالات على الكلام الأزلي والدلالة مخلوقة محدثة ، وقال إن صفات الله ليست هي عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولا هي أحوال كما قال أبو هاشم الجبائي المعتزلي وإنما هي زائدة على الذات قائمة بها .

وإنما أطلنا في الحديث عن مذهب الأشعري لأنه المذهب الذي ساد طوال هذا العصر في أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية ، وكان المذهب الشافعي - كما مر بنا - منتشرًا في شرق إيران ، وكان أصحابه جميعًا أشاعرة ، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامي وبالمثل لقريته المذهب الشافعي كراسي في جميع المدارس التي أنشأها - كما مر بنا - في إيران والعراق ، فازدهر المذهب ازدهارًا عظيمًا ، وانتصر فعلا على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعًا ، إذ أصبح المذهب الرسمي آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجويني الذي ذكرناه بين الفقهاء ، وكان أعلم أهل زمانه بعلمى الكلام والفقاه الشافعي وبنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا ، ونرى الشهرستاني يشرح على لسانه رأيه المتوسط في أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول : إن نبي هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يبابه العقل والحس ، وأيضاً إثبات قدرة لا أثر لها بوجه كنفى القدرة أصلاً . فلا بد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق ، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب ، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغنى على الإطلاق ، فإن كل سبب منها استغنى من وجه محتاج من وجه ، والبارئ تعالى هو الغنى المطلق الذي لا حاجة له <sup>(١)</sup> . وخلف الجويني تلميذه الغزالي ، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم ، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر .

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا في إيران وغير إيران ، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني (طبعة مصطفى البابي الحلبي وتحقيق الكيلاني) ١/٩٨

مذهب الأشعري مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعلم من أعلامهم ، وهو مذهب الماتريدي<sup>(١)</sup> محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية ، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة ، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التي توجهه هي العقل ، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هي الشرع الذي يحتم علينا الإيمان بالله ، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة ، ولكن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه . ومثلاً في مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية ، وقال الأشعري إنها زائدة على الذات قائمة بها ، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزلي . وبينما كان المذهب الأشعري يسود في نيسابور كان المذهب الماتريدي يسود في بخارى وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفي في الفقه . وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعري ، ومعروف أنهم كانوا يغفلون في التشبيه . وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعري تملو حتى في بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة في عهد وزيرهم نظام الملك . وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر ، حتى في نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قل قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندري حسن لسلطانه طغرلبيك السلجوقي أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزله عن الخطابة ، ونشبت بذلك فتنة<sup>(٢)</sup> في نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولم يلبث الوزير أن قتل وخلفه نظام الملك فازدهر المذهب الأشعري منذ هذا الحين كما ذكرنا .

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية في الأخذ بفكرة التأويل المجازي للآيات والأحاديث التي قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية ، دون إثباتها ، ومعروف أن الأشعري كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما في قوله تعالى ( بل يدها مبسوطتان ) إن ذلك يفهم ولكن بلا كيف ، حتى لا يأخذ بفكرة التشبيه ، وكان أهل السنة الحنابلة يأخذون مثله بظاهر الآيات مع الإيمان بتنزیه الله عن التشبيه والتمثيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق ، بينما توسط الأشعرية ، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن

(١) انظر في ترجمة الماتريدي الأنساب للسمعاني ٤٩٨  
والفوائد البهية ص ٩٥ والجواهر المضية لابن أبي الوفا  
١٣٠/٢ وابن قطلوبغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدي  
٣٨٩/٣ وترجمات عبد الكريم القشيري والجنيني وأبي سهل بن الموفق .  
الذي يصور مذهبه الكلامي ، وهو كتاب نفيس .  
(٢) راجع في هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكي  
عبد الكريم القشيري والجنيني وأبي سهل بن الموفق .

ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة ، فهى ليست كلام الله ولكنها تبليغ له . وأيضا توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان . وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة الحنابلة والأشاعرة ، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية ، وكاد يخفى في القرون المتأخرة أنصار الاعتزال ، وألّفت في ذلك كلّ كتب كثيرة ، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك ، وتارة تحكى جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهرستانى المؤلف في القرن السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين<sup>(١)</sup> الإيجى المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى وغيرهما ، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه

## ٥

### التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية في إيران كما تنوعت في كل بلد عربى ، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول ، وهناك المؤرخون للمدن ، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة . ومرينا في كتاب العصر العباسى الثانى أن أكبر مؤرخى الأمم والدول في الإسلام كان مؤرخا إيرانيا هو الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ . وأول من يلقانا في هذا العصر من هؤلاء المؤرخين المطهر<sup>(٢)</sup> بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانيا كما يشهد اسمه ، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ في مدينة بُست شرقى إيران ، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين ، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان . وبه كثير من الأخبار التاريخية . وكان يعاصره مؤرخ إيرانى هو حمزة الأصفهانى المتوفى سنة ٣٦٠ ومرينا حديث عنه في عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية ، وله تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام . وبلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه « تجارب الأمم » وقد ترجمنا له في القسم الثانى الخاص بالعراق .

وكان في عصره المرعشى المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوى كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم ، عُنى فيه بسير ملوك الفرس ، ومضى فيه حتى عصره .

(١) انظر في عضد الدين السبكى ٤٦/١٠ والدرر لابن

حجر ٤٢٩/٢ واليدر الطالع ٣٢٦/١ والشذرات

(٢) انظره في بروكلمان ٦٢/٣

١٧٤/٦ والنجوم الزاهرة ٢٨٨/١٠ ودائرة المعارف

ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتاب « الآثار الباقية من القرون الخالية » للبيروني كما مر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والنزعات الدينية ، وكان حرَّ الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيّف العرب في أحكامه ، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية . وهو يدعو في هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المعرّقة في القدم لما يشوبها من أساطير . ويفوق هذا الكتاب في التاريخ العام أهمية كتابه تحقيق ما للهند من مقولة الذي سبق أن تحدثنا عنه والذي يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبيها . وكان يعاصره العتبي<sup>(١)</sup> محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذي ألفه في الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمود الغزنوي وقد فصل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سُبُكْتِكِين وحروبها ، وخاصة حروب محمود في الهند ، وسماه اليميني نسبة إلى لقبه : يمين الدولة الذي منحه له الخليفة تكريما ، وألفه في لغة مسجوعة منمقة ، حتى عدّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية ، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم ، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم « الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي » . وعنى محمد بن حسين البيهقي المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين ، غير أن الكتاب فُقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودي ، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثا إلى العربية وطبع في مصر باسم تاريخ البيهقي . وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتابا في تاريخ الدولة السلجوقية ، وعليه اعتمد العماد<sup>(٢)</sup> الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ في كتابه عن السلاجقة الذي سماه « نُصرة الفِطْرَة وعصرة القَطْرَة » . ويدخل في هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلاطين كتاب ابن عربشاه<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ٨٥٤ : « عجائب المقدور في نواب تيمور » وهو تاريخ مفصل لتيمور لنك طبع مرارا بمصر وفي أوروبا ، وحقا ابن عربشاه ولد في دمشق ، غير أنه رحل عنها إلى بلاد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول في التركستان ، وتلقى العلم على الشيوخ هناك ، فرباه بایران ، وتولى ديوان الإنشاء هناك ، وكانت تصدر

(١) انظر مصادر ترجمة العتبي في الفصل الأخير من هذا

شامة ص ٢٧ والوفى ١٣٣/١ والسبكي ١٧٨/٦ .

القسم .

(٣) انظر في ابن عربشاه الضوء اللامع ١٢٦/٢

(٢) راجع في العماد معجم الأدباء ١٨ / ١١ والشذرات

والشذرات ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١

٤ / ٣٣٢ وابن خلكان ٥ / ١٤٧ وذيل الروضتين لأبي

عنه الرسائل بالعربية والفارسية والتركية .

وللمؤرخين في إيران كتب كثيرة خصّصوا بها البلدان عارضين علماءها عرضاً واسعاً ،  
فهى من جهة تاريخ علمى لبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمى لعلمائها النابهن ، ومن  
السابقين إلى صنع ذلك في العصر العباسى الثانى ابن منده محمد<sup>(١)</sup> بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١ ،  
فله تاريخ أصبهان ، ومن أوائل ما يلقانا في هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول  
والإمارات كتاب تاريخ بخارى حتى سنة ٣٣١ لأبى بكر محمد بن جعفر الزرشخى المتوفى  
سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر السامانى ، واختصره بعده محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤  
وأكمّله مؤلف مجهول إلى عهد المغول ، ونشره شيفر في باريس . وجاء بعد الزرشخى  
الحاكم النيسابورى الذى مر بنا ذكره بين الحدّثين ، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ  
علماء نيسابور ، ويقول السبكي في طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد . ويؤلف  
الحسن<sup>(٢)</sup> بن محمد القمى المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم : مدينة الشيعة ، باسم  
الصاحب بن عباد ، وهو مطبوع في طهران . ويؤلف أبو نعيم<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ  
أصبهان ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه . ومن كتب  
القرن الخامس تاريخ الرى لأبى سعد الآبى صاحب نثر الدرر الذى عرضنا له في غير هذا  
الموضع . وولتقى في القرن السادس بتاريخ مرو للسمعانى<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسا  
وأبيورد للأبيوردى الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥ .

وعُنتت طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم ، ومنها العامة ، ومنها  
الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين ، ونذكر في مقدمة  
تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن<sup>(٥)</sup> السلمى النيسابورى المذكور  
بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدّم معلومات دقيقة في عبارات موجزة عن  
الصوفى الذى يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار . وأوسع منه

- |   |  |
|---|--|
| (١) ابن خلكان ٢٨٩/٤ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١              | ٢٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٠٥/٤ ومرآة الجنان        |
| والشذرات ٢٣٤/٢                                      | ٣٧١/٤ والسبكي ١٨٠/٧ وتذكرة الحفاظ للسّهى     |
| (٢) انظر في القمى بروكلمان ( الترجمة العربية ) ٢٩/٣ | ١٣١٦/٤                                       |
| (٣) انظر في أبى نعيم السبكي ١٨/٤ وتذكرة الحفاظ      | (٥) انظر في السلمى السبكي ١٤٣/٤ وتاريخ بغداد |
| ٢٧٥/٣ وشذرات الذهب ٢٤٥/٣ والمتنظم ١٠٠/٨             | ٢٤٨/٢ واللباب ٥٥٤/١ والمتنظم ٦/٨ وتذكرة      |
| وميزان الاعتدال ١١١/١ وطبقات القراء ٧١/١ وابن       | الحفاظ وشذرات الذهب ١٩٦/٣ وميزان الاعتدال    |
| خلكان ٩١/١ والعبّر ١٧٠/٣ .                          | ٥٢٣/٣  |
| (٤) راجع في السمعى المتنظم ٢٢٤/١٠ وابن خلكان        |  |



في طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبي نُعَيْمٍ صاحب تاريخ أصبهان الذي ذكرناه آنفاً ، وترجماته أوسع وأخصب . ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمّى تنمة صوان الحكمة ، ونشر في مصر بالاسم الأول وفي لاهور بالاسم الثاني .

واهم كتب التراجم التي عنيت بالشعراء كتاب الأغاني لأبي الفرج<sup>(٢)</sup> الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع في نحو ٢٥ مجلداً ، ترجم فيه أبو الفرج للناهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ولم يترجم لأبنة الشعراء فحسب ، بل ترجم أيضاً لأبنة المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وعادة يذكر صوتاً أو كما نقول الآن أغنية ، ولذلك سماه الأغاني ، ويتلو الأغنية دائماً بريقمها الموسيقى قائلاً مثلاً إنها من الثقيل الأول ونحو ذلك ، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها ، ويترجم إما للشاعر وإما للمغنى أو المغنية ترجمة مفصلة ، قد تمتد أحياناً إلى مائة صفحة ، وقد تزيد كثيراً ، وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه ، مورداً ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف ، يعرف كيف يروى وكيف يقص وكيف يسوق الأخبار سَوْقاً مشوّقاً ، وفي أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء ، ويخيل إليك أحياناً أنك تراهم في قصورهم وفي مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون ، رؤية مجسمة ، تجعل الماضي أمامك حاضراً بخدافيره .

ويُعنى الثعالبي بعده بعمل موسوعته الشعرية التي أشرنا إليها والتي سماها اليتيمة أو «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» وهي تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه ، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفاضل ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر ، فبعض الشعراء الناهين المقيمين ببخارى وبغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور . وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس ، ويقول في مقدمته إنه أورد فيه لبَّ اللب ، وحبَّ القلب ،

وغير الذهبي ٣٠٥/٢ وميزان الاعتدال ١٢٣/٣ ولسان

الميزان ٢٢١/٤ ومرآة الجنان ٣٥٩/٢ والشذرات ١٩/٣

والنجوم الزاهرة ١٥/٤ وروضات الجنات ٤٨٧ .

(١) راجع في البيهقي معجم الأدباء ٢١٩/١٣

(٢) انظر في أبي الفرج تاريخ بغداد ٣٩٨/١١ وتاريخ

أصبهان لأبي نُعَيْمٍ ١١/٢ والمتنظم ٤٠/٧ ومعجم الأدباء

٩٤/١٣ وإنباه الرواة ٢٥١/٢ وابن خلكان ٣٠٧/٣

ونَظَر العَين ، ونَكتة الكَلِمة ، ووَاسِطَة العَقْد ، ونَقَش الفَصِّ ، مَعَ كَلَام في الإِشَارَة إلى النَظَائِر والأَحَاسِن والسَّرَقَات ، غَير أَنه عُنِيَ بِأَشْعَار الشِعْرَاء ، وَالإِخْتِيَار مِنهَا ، وَلَمْ يُعْنِ ، مِثْل أَبِي الفَرَج في كِتَابِهِ الأَغَانِي ، عَنَايَة وَاسِعَة بِأَخْبَار الشِعْرَاء إِقْلِيلاً جَدّاً لِأَيكَادِ يَشْفِي غَلَّةً . وَأَتَبَعَ الثَعَالِي الِيتِيمَة بِذِيلِ لَهَا سَمَاء «تَمَمَة الِيتِيمَة» وَزَع فِيهِ الشِعْرَاء عَلَى نَفْسِ الأَقْسَامِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي الِيتِيمَة ، وَبَينَا تَقَع الِيتِيمَة فِي أَرْبَعِ مَجَلدَاتِ كَبَارِ تَقَع التَمَمَة فِي جِزءِين ، وَهِيَ مَطْبُوعَة فِي طَهْرَان . وَالتَمَمَة وَالِيتِيمَة تُؤرِخَان لَشِعْرَاءِ الدَوْلَتَيْنِ البُويهيَّةِ وَالسَامَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ لَشِعْرَاءِ الزِيَارِيِّينَ فِي طَبْرِسْتَانِ وَالعَرْنَوِيِّينَ فِي غَزْنَة . وَيَلِيهَا كِتَاب «دُمِيَّة القَصْرِ وَعُصْرَة أَهْلِ العَصْرِ» لِلْبَاخِرْزِي عَلِي بنِ الحَسَنِ المَتوفَى سَنَة ٤٦٧ هـ وَهُوَ يُؤرِخُ لَشِعْرَاءِ زَمَنِهِ ، وَيَجْرِي عَلَى نَفْسِ نِظَامِ الِيتِيمَة ، فَيُؤرِخُ لَشِعْرَاءِ العَالَمِ العَرَبِيِّ ، وَيُعْنِي خَاصَّةً بِشِعْرَاءِ إِيرَانَ وَأَقَالِيمِهَا كَمَا عُنِيَ الثَعَالِي . وَقَدْ سَارَ عَلَى غِرَارِهِ فِي العَنَايَة بِشِعْرِ الشِعْرَاءِ أَكْثَرَ مِن أَخْبَارِهِمْ ، وَكَأَنَّ الثَعَالِي هُوَ المَسْئُولُ عَن هَذَا الإِتْجَاهِ فِي التَّرْجَمَة لِشِعْرَاءِ ، إِذ عَمَّ وَشَاعَ لِأَيِّ إِيرَانَ وَحَدَهَا بَل فِي أَقْطَارِ العَالَمِ العَرَبِيِّ جَمِيعِهَا . وَيَأْتِي بَعْدَ البَاخِرْزِي فِي الأَهْمِيَّةِ كِتَابُ خَرِيدَةِ القَصْرِ وَجَرِيدَةِ العَصْرِ لِلْعَمَادِ الأَصْبَهَانِي الَّذِي سَبَقَ أَن ذَكَرْنَاهُ بَيْنَ المُؤرِّخِينَ وَهُوَ أَيضاً يَتَرْجَمُ لَشِعْرَاءِ الأَقْطَارِ العَرَبِيَّةِ لِعَصْرِه أَى فِي القَرْنِ السَّادِسِ المَهْجَرِيِّ حَتَّى نَحْوِ سَنَةِ ٥٧٠ هـ لِلْمَهْجَرَةِ ، وَتَرَاجَمَهُ أَوْسَعُ ، غَيرَ أَنهَا تَصْطَبِغُ بِصِبْغَةِ الِيتِيمَة ، وَخَصَّ إِيرَانَ بِقِسْمِ كَبِيرٍ مِّن كِتَابِهِ لَمْ يَنْشُرْ حَتَّى الآنَ ، وَنَشَرَتْ مِنْهُ الأَجْزَاءُ الخَاصَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامَ وَالعِرَاقَ وَالمَغْرِبَ وَالأَنْدَلُسَ .

وَلَعَلَّ أَهْمَ كِتَابِ فِي التَّرَاجِمِ العَامَةِ هُوَ كِتَابُ الأَنْسَابِ لِلسَّمْعَانِيِّ عَبْدِ الكَرِيمِ بنِ مُحَمَّدِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ بَيْنَ المُؤرِّخِينَ لِلْمَدِينِ وَهُوَ مَطْبُوعٌ فِي مَجَلدِ ضَخْمٍ بِالزَّنْكَوْغِرَافِ ، وَهُوَ لَيْسَ فِي الأَنْسَابِ بِمَعْنَى نَسَبِ الشَّخْصِ فِي آبَائِهِ ، بَلْ هُوَ أَعَمُّ مِمَّنْ ذَكَرَ ، إِذْ يَعْنِي بِأَنْسَابِ العُلَمَاءِ وَالأَدْبَاءِ إِلَى بِلْدَانِهِمْ أَوْ قَبَائِلِهِمْ أَوْ أَسْرِهِمْ أَوْ صِنَاعَاتِهِمْ أَوْ تِجَارَاتِهِمْ . وَيَعْرِفُ أَوَّلًا بِمَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ الشَّخْصُ ، وَإِذَا كَانَ بِلْدَةِ ذِكْرِ مَكَانِهَا ، وَكَذَلِكَ الأَنْسَابِ الأُخْرَى ثُمَّ يَتَرْجَمُ تَرْجَمَةً دَقِيقَةً لِصَاحِبِ النِّسْبَةِ ، وَقَدْ يَشْتَرِكُ فِي النِّسْبِ أَوْ اللِّقَبِ الوَاحِدُ عِدَّةُ أَشْخَاصٍ ، فَيَتَحَدَّثُ عَن كُلِّ مِنْهُمْ ، أَوْ قَلَّ يَتَرْجَمُ لِكُلِّ مِنْهُمْ ذَاكِرًا مَوْلَدَهُ وَوَفَاتِهِ . وَاخْتَصَرَ الكِتَابُ عِزَّ الدِّينِ ابْنَ الأَثِيرِ فِي مِصْنَفِهِ البَلْبَابِ فِي مَحْتَضِرِ الأَنْسَابِ ، وَإِلَى الكِتَابَيْنِ نَرْجِعُ فِي كَثِيرٍ مِّنَ التَّرَاجِمِ ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ فِي الهَوَامِشِ .

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### الشعر العربي على كل لسان

رأينا في حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجري نزعة قومية قوية كان من آثارها في أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رقعة إيران الفسيحة ، فكان البويهيون في الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق . وكان الزياريون في الشمال بطبرستان وجرجان ، وكان السامانيون في خراسان ، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية : بغداد ، وتليها إمارة الزياريين في البعد . وهياً ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملتا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية . وكان السامانيون أسبق إلى ذلك ، لأن إمارتهم أسبق في التاريخ ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التي سبقتهم منذ عصر المأمون ، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُعمَةً له ولبنيه ، فاستقلوا بها مبكرين ، وكانت أول الإمارات الفارسية في الظهور والنشأة ، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين في استشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسي لهم ينافسون به الشعر العربي . وكذلك الشأن في إمارة الصفاريين التي عاصرتها ، ويذكر مؤرخو الشعر الإيراني عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجري ، واتخذوا الفارسية لساناً لهم ، يعبرون بها عن مشاعرهم ، وغير قليل منهم يلقه ضباب الأساطير ، وأول شاعر معروف حقاً هو الرودكي السمرقندي جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمدح السامانيين ووزيرهم البلّعي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية ، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسياً ، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن . وخلفه الدقيق الطوسي المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بلوره من شعراء الدولة السامانية ، واشتهر بأنه اعترم نظم الشاهنامه في تاريخ ملوك الفرس وأبطلهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها

ألف بيت ، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها ، فأكملها من بعده الفردوسى فى عهد محمود الغزنوى .

ولم يهتم البويهيون أى اهتمام بهذا الاتجاه القومى فى إحياء الآداب الفارسية ، فقد آثروا الانصواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة ، وكثير منهم أتقنوا العربية ، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم ، مما جعل الثعالبى يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية فى إيران . وكان وزراءهم من كبار الأدباء وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتاباتها فى العربية . ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قدما له مدائحها بالفارسية ، وهما منصور بن على الرازى الملقب بالمنطقى ومحمد بن على السرخسى الملقب بالكيسرى ، غير أن ذلك يعدُّ شذوذاً فى بيئة البويهيين ، فقد كانت بيئة عربية خالصة ، وكان مثل هذين الشاعرين يعدان طارئى عليها . وبالعكس عُيّنت الدولة الغزنوية ، وخاصة فى عهد محمود الغزنوى ( ٣٨٨ - ٤٢١ هـ ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية ، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية . وفى عهد محمود أنجز الفردوسى نظم الشاهنامه فى نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسى<sup>(١)</sup> ، وكان الفُرخى والعنصرى والعسجدى ومنوچهرى يتبارون فى تمجيد فتوحه ومديح أبنائه . وخلقت كل هذه الإمارات السالفة فى إيران الدولة السلجوقية ، وفى عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبى سعيد بن أبى الخير وسنائى وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنورى يتجهون نحو التصوف . وتعم هذه الموجة شعراء إيران فى القرون التالية من أمثال الشيخ سعدى الشيرازى وجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

وينبغى أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسى وأصحابه لم يكن يُقاس فى شىء إلى نشاط الشعر العربى فى إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية : الرابع والخامس والسادس . وأكبر دليل على ذلك أنه بينما أُلِّفت المجلدات الضخام عن الشعر العربى فى تلك القرون على نحو ما تُصوّر ذلك مجلدات اليتيمة ودُمّية القصر والخريذة لم يؤلف عن الشعر الفارسى كتاب يضم بين دفتيه شعراؤه ، وأول كتاب عُنِيَ بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفى المؤلف فى أوائل القرن السابع الهجرى . ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية ، ولو أن الفتح المغولى لم يحدث فى هذا القرن لظل الشعر العربى هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية ، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن ، على الرغم

(١) ترجمت الشاهنامه بمصر فى العصر الأيوبى ، ترجمها عبد الوهاب عزام .

أبو الفتح البندارى ، ونشر ترجمته فى القاهرة الدكتور

من الخراب الذى رافق المغول والذى عمَّ إيران ، فقد حرقوا ودمروا كل ما صادفهم من حضارة ، وكانت الحضارة العربية هى التى تسود فى كل تلك الديار ، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان ، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكيزخان وهولاكو من تدمير ، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات . أما المدن فقد أنزلا بها خرابا لا مثيل له فى التاريخ ،

وما أنزل هولاكو ببغداد من دمار معروف مشهور . وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية فى إيران وبالتالي للشعر والعلم العربيين ، ومع ذلك فقد ظل العلم العربى حيا وبالمثل الشعر ، وإن فقدنا كثيراً من نشاطها الهائل القديم . ولا بد أن نعرف أن لغة العلم فى إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجرى هى العربية ، فيها كان يكتب علماءهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس والزمخشري والفخر الرازى فى القرن السادس ونصير الدين الطوسى والكاتبى الفزوينى المعروف بديبران فى القرن السابع . وسعد الدين التفتازانى وعضد الدين الإيجى فى القرن الثامن والسيد الشريف الجرجانى فى القرن التاسع . وفى كل هذه القرون - وخاصة حتى القرن السابع - لم تستطع الفارسية أن تستولى تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين ، حقا قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله ، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبيرونى ، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التى يذيع بها كتبه ومعارفه ، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية فى القدرة على التعبير العلمى بفضل ما تتسم به من مرونة فى الاشتقاقات ، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية ، تزخر بمصطلحات العلم ، فكان من الصعب أن تحل الفارسية محلها ، ويصوّر ذلك البيرونى قائلاً : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم ، فازدانت وَحَلَّتْ إلى الأفتدة ، وسرّت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . . والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية . ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية . [ فسيرى أنه ] قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة [ الفارسية ] إلا للأخبار الكسروية والأسحار الليلية (١) » .

وظل هذا الشعور ماثلاً فى نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجرى ، فكانوا يشبّون فى مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية ، بل إننا نجد ذلك نفسه عاما بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لسانا لهم منذ الرودكى ، ولذلك مظهر عام

(١) انظر كتاب الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى كتاب الصيدلة للبيرونى .

للدكتور على الشايبى (طبع تونس) ص ٣٣٨ نقلاً عن

عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية ، فإن الألفاظ العربية تكثرت في أشعارهم ، بل لذلك مظهر أبعدهم عمقاً وعموراً ، فإن ضروب النظم التي صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية ، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربي ومادة تفاعيله وأوزانه .

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربي وأنماطه أولها المثنوي ، وهو نفس الضرب المعروف في العربية باسم المزدوج الذي أخذ يشيع - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول - منذ بشار ، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد في ترجمة كليلية ودمنة وما نظم من الشعر التعليمي<sup>(١)</sup> ، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت في حين تتحد في الشطرين المتقابلين ، وقد اختاره الفردوسي لشاهنامته والتزم فيه وزن المتقارب .

والضرب الثاني القصيدة ، وموضوعها ونسقها لا يختلف في شيء عن موضوع القصيدة العربية ، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو ديناً أو فلسفة .

والضرب الثالث الغزل ، وموضوعه غزلي أو صوفي وأبياته لا تزيد عن اثني عشر بيتاً إلا في النادر ، وهو بذلك المعروف في العربية باسم المقطعات الغزلية .

والضرب الرابع الرباعيات ، وهي تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نمط عربي ظهر عند بشار وأبي نواس وأبي العتاهية<sup>(٢)</sup> ، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنهما في قسم العراق .

والضرب الخامس المسمط ، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكوّن من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة . وقد أخذ هذا الضرب يشيع في العربية منذ أبي نواس قبل نشأة الشعر الفارسي الحديث .

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسي الذي أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجري فصل عن الشعر العربي كما يفصل الرضيع عن أمه ، بل لقد ظل الشعر العربي يعذبّه طوال القرون التالية ، ولذلك مظاهر مختلفة فيه ، فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هي نفس موضوعات الشعر العربي ، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه يُنظم بنفس الصورة العربية ، فللمدحة مقدمة من النسب ومن وصف الطبيعة ، وكأننا نقرأ مدحة

(١) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ (٢) العصر العباسي الأول ص ١٩٧ .

عربية مترجمة على نحو ما يتضح عند شعراء الدولة الغزنوية: منو جهرى والعسجدى والعنصرى والفرخى. ونما عندهم - على نحو ما هو معروف - شعر التصوف، ولكنه يتغذى في نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربى عند الحلاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربى وابن الفارض والسُّهرورديين. ولا يوجد شاعر صوفى من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامى إلا وهو يحسن العربية ويترى ثقافياً في مهادهما، ولذلك دائماً نجد لشعراءهم الصوفيين شعراً عربياً، وهو يقل عند بعضهم حقاً، ولكنه على كل حال يرمز في قوة إلى هذا التواصل الوثيق<sup>(١)</sup> بين شعراء الفارسية وشعراء العربية. وشاعت بينهم طريقة هى أن يقتبسوا في بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية، ويسمون ذلك الملمع، فالشطر أو البيت العربى يلمع في المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق. ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معاني أبيات عربية، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحداث النبوية. وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان «متنبى وسعدى» طبعه في طهران، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم في شعر سعدى الشيرازى، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة، ويتلوها ما استظهره سعدى من الأحاديث النبوية في نحو ثلاثين صحيفة، ويعرض تضمينه لمعاني أبيات الشعر العربى في أشعاره في نحو خمسين صحيفة، وهى أبيات تمتد من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى مصورة بقوة ثقافة سعدى الشيرازى بالشعر العربى على مر العصور، ويلي ذلك تضمين سعدى أشعاره معاني أبيات المتنبى في نحو خمسين صحيفة. ويجانب ذلك يذكر أشعار سعدى العربية الخالصة. وسعدى أو الشيخ سعدى هو أحد ثلاثة يُعدون أئمة شعراء الفرس في تلك الحقبة، والاثنتان الآخران جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه. فإذا قلنا إن الشعر الفارسى كان دائماً الاتجاه إلى الشعر العربى، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه في قوة لم تكن مغالين.

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسى للشعر العربى في تلك القرون، فإننا نجد أصحابه يُعنون منذ نشأته بمصطلحات البديع التى أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية في إيران وغير إيران، وأكبر مثل يوضح ذلك «كتاب حدائق السحر في دقائق الشعر» لرشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة، وقد أورد فيه ستة وخمسين فناً

(١) من يرجع إلى كتابات الثعالبي والباخرزى يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن

اللسانين وينظم بها. انظر التيممة ٤/ ٨٨ ودمية القصر ٢/ ٢٦٠، ٢٨٠، ٣٤٤، ٣٦٢.

من فنون البديع ، ونراه في كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربي وأمثلة أخرى من الشعر الفارسي تحاكيها جرت على ألسنة الرودكي والعنصرى والفرخى والعسجدى ومنوجهرى والمنطقي وأضرابهم ، وكان شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فنا إلا حاكوه فيه ، مها يكن معقداً أو شديد التكلف ، فمن ذلك تقليدهم « لزوم ما لا يلزم » في القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفاً قبل حرف الروى ، وتقليدهم الأبيات التي يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين ، ومن ذلك المقطع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل حروف كلماته في الكتابة ، والموصل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع في الكتابة ، والأرقط وهو البيت الذي يتوالى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب ، والأخيف وهو الذي تتوالى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة . وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة في قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيرا للغز ، والتضمين ، والتقسم ، وحسن التعليل ، والمثل .

ولعل في هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسي كان يتبع خطوات الشعر العربي الماضي والمعاصر له خطوة خطوة ، يتبعه في الصياغة والسمات ويحاكيه محاكاة دقيقة . وكان الشعر العربي هو الأكثر شيوعاً ، وهو الذي يدور على كل لسان ، أما في القرون الرابع والخامس والسادس فليس في ذلك شك ، حتى لرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربي ، مثل بديع الزمان الهمداني إذ تُروى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية ، وبالمثل أبو الفتح البستي ، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية . ولكن هذا النظم ضاع ، وبقى له ديوانه العربي ، ومثلها الباخري ضاع شعره الفارسي إلا ما احتفظ به محمد عوفى في كتابه اللباب ، وظل ديوانه العربي تتناقله الأجيال حيناً من الدهر . ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال ، فكثر من ينظمون بالفارسية ، وأصبح الموعول في شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة ، كما هو الشأن في سعدى الشيرازى الذى مرَّ بنا حديث عنه ، أما قبل ذلك فكان الشعر العربي هو الأكثر ذبوعاً ، وكأنه العملة الشعبية المتداولة في بيئات المثقفين جميعاً ، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب ، غير من كان ينظمه من الشعراء ، ويعُدُّون بالمئات .



## كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربي بإيران في القرن الرابع الهجري رواجاً عظيماً ، وكان من العوامل التي أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه ، وفي مقدمتهم عضد الدولة ، وكان ينظم شعراً حسناً ، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، كما يقول صاحب اليتيمة ، وقد أنشد له أبياتاً طريفة في الشراب والطرب من مثل قوله (١) :

ليس شُرْبُ الكَأْسِ إِلَّا فِي المَطَرِ وَغِنَاءٍ مِنْ جَوَارِ فِي السَّحَرِ  
 وكان الشعراء يقدون عليه ويُجزل لهم في صلاتهم ومكافأاتهم ، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة . وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة ، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه ، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يُلقيه ، أو يصفوا شيئاً عرض لهم ، ونضرب لذلك مثلاً : أن بعض الوافدين حيّاه بأترجة حسنة ، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها (٢) ، وابتدأ بقوله : « وأترجة فيها طبايع أربع » فقال أبو محمد بن هندو : « وفيها فنون اللهو للشرب أجمع » فقال أبو القاسم : « يشبهها الرائي سبيكة عسجد » فقال أبو الحسين بن فارس : « على أنها من فارة المسك أضوع » فقال أبو عبد الله الطبري : « وما اصفر منها اللون للعشق والهوى » فقال أبو الحسن البديهي : « ولكن أراها للمحبين تجمع » . وبذلك تكونت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً . وكانت تكثر هذه المقارضات في مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدبين ، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس صاحب بن عباد إذ يقول الثعالبي في كتابه اليتيمة : « احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، من يُربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وأبي الشيبان ومروان بن أبي حفصة ومحمد بن

(٢) اليتيمة ١٧٦/٣ وما بعدها .

(١) اليتيمة ٢١٨/٢ .

مناذر ، وجمعتُ حضرةَ الصاحب بأصهبان وبالرّيّ وجُرْجان مثل أبي الحسين السّلاميّ وأبي بكر الحُوَارِزْمِيّ وأبي طالب المأمونيّ وأبي الحسن البديهيّ وأبي سعيد الرُّسْتَمِيّ وأبي القاسم الرُّعْفَرَانِيّ وأبي العباس الضُّبِّيّ وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجانيّ وأبي القاسم بن أبي العلاء وأبي محمد الخازن وأبي هاشم العلويّ وأبي الحسن الجوهريّ وبنو المنجم وابن بابك وابن القاشانيّ وأبي الفضل الهمدانيّ وإسماعيل الشاشيّ وأبي العلاء الأسدّيّ وأبي الحسن العُوَيْرِيّ وأبي دُلْف الخرجيّ وأبي حفص الشّهْرزُوزِيّ وأبي معمر الإسماعيليّ وأبي الفياض الطبريّ وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدّم أو متأخّر . ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تُحصَى ، ومع كل مدحة كان يأمر بصلة . وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته ، وكثيراً ما كان يعرض موضوعاً ، فيتنافس فيه الشعراء ، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه ، من ذلك أنه بنى قصراً بأصهبان ، فتبارى نحو عشرين شاعراً في وصفه<sup>(١)</sup> ، منهم أبو سعيد الرُّسْتَمِيّ ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

وسامية الأعلام تلحظ دونها	سنا النجم في آفاقها مُتضائلا
نسختَ بها إيوانَ كسرى بن هُرْمُز	فأصبحَ في أرض المدائن عاطلا
متى ترها خلت السماء سراداقاً	عليها وأعلامَ النجوم موائلا
وما على الرُّضراض يجرى كأنه	صفائحُ تيرٍ قد سُبكنَ جداولاً <sup>(٣)</sup>

ولما حصل الصاحب ، وهو بجُرْجان ، على فيل ضخم كان في عسكر السامانيين أمر من بحضرتة من الشعراء أن يصفوه في تشبيب قصيدة على وزن قافية قول عمرو ابن معد يكرب الرُّبَيْدِيّ :

أعددتُ للحدّثان سا بغةً وعداءً علنّدى<sup>(٤)</sup>

وأُشدّ أبو الحسن الجوهريّ في هذه المباراة قصيدة استهلّها بمدح الصاحب ، ثم أخذ في وصف الفيل وصفاً مَرِحاً بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

يُزْهَى بِخُطُومٍ كَمَث	لِ الصَّوْلجان يردّ ردّاً
أو كمّ راقصةٍ تشد	يُرُّ به إلى التُّدْمان وَجَدّاً

(١) البيّمة ٢٠٣/٣ . (٤) البيّمة ٢٢٩/٣ والسابعة الدرع . والعلندي :

الغليظ ، وأراد به الفرس .

(٥) البيّمة ٢٣١/٣ .

(٢) البيّمة ٢٠٦/٣ .

(٣) الرضراض : الحصى الصغار في مجارى المياه .

وكانه بوقٌ تُحَـ  
رَّكهُ لَتَنفِخَ فِيهِ جِداً  
أذناه مِرْوَحَتانِ أَسَدُ  
سندنا إلى الفُؤَدِين عَقْداً

ونفق بَرْدُونُ (بَعْلُ) أبا عيسى بن المنجم ، بعد أن طالت صحبته له ، فأوعز  
الصاحب إلى من حوله من الشعراء الندماء أن يُعزّوا أبا عيسى فيه ويكوه له ،  
ونظم منهم عشرة قصائد فكاهية سُمّيت بالبرذونيات منها برذونية أبي القاسم  
ابن أبي العلاء وفيها يقول <sup>(١)</sup> :

لقد أنصفته الخيلُ ماذُقنَ بَعْدَهُ شَعيراً ولا تَبْنَأُ ومُتَنَ غَلِيلاً  
وفي كلِّ إِصْطَبَلٍ أنينٌ وزفرةٌ تردُّدٌ فيه بُكْرَةٌ وأصيلاً  
ولو وَفَتَ الجُرْدُ الجِيادَ حَقوقَهُ لما رَجَعْتُ حتى الماتِ صَهِيلاً

وفي هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربي في أصهبان والرّي  
لعهد بني بويه ، وبالمثل كان الزّياريون وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير يشجعون  
الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، ويذكر البخارزي في دُميته أبا بكر الخُسروى الذى  
كان ينظم باللسانين العربي والفارسي ، ويقول : « كانت له وظائف كل سنة من  
الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير والصاحب أبي القاسم بن عباد تُدرّر عليه ،  
وتسابق إليه <sup>(٢)</sup> » . وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين ،  
وكذلك من الدولة السامانية ، وفي عاصمتها بخارى يقول الثعالبي : « كانت بخارى  
في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدياء  
الأرض ومؤسم فضلاء الدهر <sup>(٣)</sup> » ويذكر مجلساً من مجالسها ضمّ أبا الحسن اللّحّام  
وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبي الثياب وأبا  
النصر الهَرثمى وأبا نصر الطريفي ورجاء بن الوليد الأصبهاني وعلى بن هرون الشيباني  
وأبا إسحق الفارسي وأبا القاسم الدينوري وأبا علي الرّوزنّي إلى غيرهم ممن ينتظم في  
سلوكهم من الشعراء . وليست الحواضر وحدها هي التي اختصت بالنشاط الشعري ،  
فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجرجان وطبرستان وخوارزم  
وفارس والأهواز ونيسابور وهراة . وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي في  
يتمته من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً ، وزادوا عن المائتين  
في الدمية إلى من ترجم لهم العماد الأصفهاني في الخريدة وترجمات ضافية ،

(١) البيهقي ٢١٨/٣ .

(٢) البيهقي ١٠١/٤ .

(٣) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي) ٢٥٩/٢ .

وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حماة الأدب والشعر في كل بلدة كبيرة ، منهم آل ميكال في نيسابور ، وفيهم يقول الثعالبي : « القول في آل ميكال وقدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أقرامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وجمعهم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريفه يستغرق الكتب ويملا الأدرج ويحوى الأقلام ، وما ظنك بقوم مدحهم البحرى وخدمهم ابن دريد وألف لهم معجم الجمهرة وسير فيهم المقصورة التي لا يبليها الجديان ، وانخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر<sup>(١)</sup> ». ويدل أكبر الدلالة على ما كان ببلدان إيران من نشاط أدبي وشعري أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم ، بل يفد عليها كثيرون غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة في العراق وغير العراق ، على نحو ما يلقانا في نيسابور ، فقد ترجم الثعالبي لطائفة من الشعراء الطائرين عليها من بلدان شتى ، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم .

ونيسابور من بلدان الدولة السامانية ، وهي صالحة لأن تكتب في شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا في عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً في الحقب التالية ، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصهبان والرئى والبجرجانية عاصمة الزياريين وخوارزم وهراة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بديع الزمان الهمداني وغزنة عاصمة الغزنويين ، فكل هذه البلدان وما يماثلها ، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها في اليتيمة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكي ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان . ومن يرجع إلى هذه الكتب يتجلى إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان ، وكان الأمراء ورعاته في كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد ، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير ، وكانوا يعينون لهم مرتبات ، كما مر بنا ويُعقدون عليهم إغداقاً كثيراً ، حتى ليقال إنه حصل للأبيوردى الشاعر السلجوقي من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبي في عصره ولا بن هاني في مصره . فلا عجب أن يتكاثر الشعراء ، فقد كان الشعر وسيلة حياة رغبة ، ولذلك قلما ترى شاعراً من المئات التي ترجم لها الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدمية والعماد الأصهباني في الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعيم .

وليس هذا وحده كل مادعا الشعر إلى النشاط في إيران ، فقد كان يُعدّ جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية التي كان الناس يعكفون عليها في شغف ، وهذا هو السر في أنك قلما تجد فقيهاً أو فيلسوفاً في تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر ، ويتخذ أداة في التعبير عن مشاعره ، تجد ذلك عند البيروني في ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا ، ويتسع ذلك عند الفقهاء ، وكأنهم كانوا يُعدّون الشعر من آلات عملهم ، وارجع إلى السبكي في طبقاته فإنك تجده من وقت إلى آخر حين يترجم لفقيه يذكر له أشعاراً مختلفة في الغزل وغير الغزل ، من ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النَّبيلي أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ فيذكر له أشعاراً منها هذه الأبيات الغزلية البديعة (١) :

ما حالُ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابَهُ      ما حالُ من كَسَرَ التصابى بابَهُ  
نادى الهوى أسماعَهُ فأجابهُ      حتى إذا ما جازَ أعلق بابَهُ  
أهوى لتزيق الفؤاد فلم يجد      في صدره قلباً فشقَّ ثيابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية في العصر القفال الشاشي ناشر مذهب الشافعي فيما وراء النهر ، وكان أكبر من صاح في قومه لغزو الروم عام النَّفير ، وذلك أن يُقفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيدة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله (٢) :

ثغوركُم لم يبقَ فيها لوهنكم      وضعفكم إلا رُسومُ المعالم

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه في كريت (إقريطش) وسروج وعلى أبواب سُميساط والحَدث ومرعش والمصيصة وطرسوس. وردَّ عليه فخره ونقَّضه نقضاً الشيخ القفال بقصيدة طنانة يذكر له فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاوله وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وما سبوا من آلاف الجوارى الروميات ، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين ، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به وبجنوده ، ترسلها عليهم زحوف الخراسانيين جنود الملك الساماني منصور بن نوح (٣٥٠-٣٦٦ هـ) التي ترحف بقضها وقضيضها وعودها وبروقها المميته ، يقول :

أنتك خراسانُ تجرُّ خيولها      مُسومةً مثلَ الجرادِ السَّوامِ

كهلٌ وشبانٌ حاةٌ أحامِسُ  
 ونرجو بفضلِ الله فتحاً معجلاً  
 هناك نرى نَقْفورَ والله قادرٌ  
 وينجى لنا في الرومِ طراً وأهلها  
 فيضحك منا سنٌ جدلانٌ باسمِ  
 ووراء القفال أمةٌ في الفقه الشافعي كثيرون أنشد لهم السبكي أشعاراً في  
 الزهد، وسنترجم منهم للقشيري بين شعراء الزهد والتصوف. وأنشد  
 السبكي أيضاً أشعاراً لقاضيين هما علي بن عبد العزيز الجرجاني والأرجاني وسنترجم  
 لهما بين شعراء المديح، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقهاء الأبيوردى وسنترجم له بين  
 شعراء الفخر، وله ديوان كبير مثل الأرجاني، وكان لعل بن عبد العزيز ديوان سقط  
 من يد الزمن. وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدثون ينظمونه أيضاً،  
 مثل حمد بن محمد الخطابي البستي الذي مرَّ حديثنا عنه بين المحدثين، وقد ترجم له  
 صاحب اليتيمة في جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره، وكان ينظمه أيضاً  
 المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشري، وله ديوان شعر لما ينشر، وهو زاخر  
 بالأدعية والابتهالات. وتروى كتب التراجم للفخر الرازي أشعاراً مختلفة، وكان  
 كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر، منهم الجوهرى إسماعيل بن حماد  
 صاحب معجم الصحاح، وله ترجمة في الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبي  
 طائفة من أشعاره، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمي الجمل  
 ومقاييس اللغة، وقد ترجم له الثعالبي في الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من  
 شعره من مثل قوله (٢) :

مَرَّتْ بنا هَيْفَاءُ مَقْدُودَةٌ تَرْكِيَّةٌ تُنَمِّي لَتُرْكِيَّ  
 تَرنو بِطَرْفِ فَاتِنِ فَاتِرٍ أضعفَ من حُجَّةِ نَحْوِي  
 ومنهم ابن فورجة البروجردى، وله ترجمة في الجزء الأول من تيمة اليتيمة  
 وكذلك في الجزء الأول من دمية القصر، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذي أنشده  
 الثعالبي (٣)

ألم تطرب لهذا اليوم صاحٍ إلى نغمٍ وأوتارٍ فصاحٍ

(٣) تيمة اليتيمة ١/٦٢٤.

(١) أحامس: أنشده

(٢) اليتيمة ٣/٤٠٢

كَأَنَّ الْأَيْكَةَ يوسعنا نِثَاراً من الورق المكسّر والصّحاح  
 تَمِيدُ كأنها عَلَتْ بِرَاحٍ وما شربتْ سوى الماء القَرَّاحِ  
 كَانَ غُصُونُهَا شَرِبُ نَشَاوِي تصفّقُ كلُّها زاحاً بِرَاحِ  
 ومربنا أنه كان ناقداً بصيراً ، كما كان شاعراً فذاً ، وذكر له الثعالبي معنى نقله عن شاعر  
 فارسي معاصر له يسمّى المعروف على هذا النمط .

يظنون ما تَدْرِي جفوني أدمعاً بل الدم منها يستحيلُ فيقطرُ  
 تُعيدُ بياضاً حمرةَ الدمِ لوعتي كما ابيضُ ماءُ الوردِ والوردُ أحمرُ  
 ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال  
 العسكري صاحب كتاب الصناعتين ، وقد ضمّنه كما ضمّن كتابه ديوان المعاني طائفة  
 من أشعاره ، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره . ومثله الثعالبي صاحب اليتيمة  
 ومربنا حديث عن بعض نظرات نقدية له ، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها في  
 كتاب لطائف المعارف وفي كتبه الأخرى . ومثلها عبد القاهر الجرجاني صاحب  
 دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وفي ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره . وهو  
 باب يطول إذا أخذنا نحصى شعراء العلماء من كل صنف ، إنما هي أمثلة فحسب ،  
 أردنا بها أن نُصوِّرَ تفتح ينباع الشعر العربي على السنة المثقفين من كل لون . وكان  
 من أقربهم إلى هذه ينباع كُتّاب الدواوين ، ولا تكاد تجد كاتباً كبيراً يترجم له  
 الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدمية والعماد في الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب  
 نثره . بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على ما لهم من أشعار ، حتى إنه يكاد  
 يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتّابها وآثارهم النثرية عند السامانيين  
 والخورزميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتي عفواً . وكثير من كُتّاب هذه الدول  
 والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبي بكر الخوارزمي الكاتب المشهور ومثل  
 بديع الزمان وأبي الفتح البُستِي والباخرزي وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم ،  
 ومثلهم الصاحب بن عباد والعماد الأصبهاني ، وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن  
 الشعر هو العملة العربية المتداولة التي تحوز لصاحبها الشهرة الأدبية .

## شعراء المديح

يكثُر شعر المديح في هذا العصر كثرة مفرطة ، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة . ومن يقرأ اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم ، وكأن عمل الشاعر الأساسي أن ينظم في المديح ، وهو شيء طبيعي إذ كان أداة للكسب ورفاهة العيش ، ومَرَّت بنا كثرة الأعطيات التي كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا - أو كان كثير منهم - يأخذ رواتب من الوزراء والحكام ، وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدمون لأصحابها المدائح والتهاني في المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يروحون عليه ويغدنون بالمدائح الرائعة ، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نُظِم في عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلاً ، إذ لم يكذب شاعر في إيران إلا قصده ، وقدم له مدائحه ، وقصده المتنبي بشيراز في سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة ، كما قصده شعراء العراق وفي مقدمتهم السَّلامِيُّ الشاعر ، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخوارزمي <sup>(١)</sup> :

غريبٌ على الأيام وجدانٌ مثله وأغربٌ منه بعد رويته الفقر  
عجبتُ له لم يلبس الكبر حُلَّةً وفينا لأنْ جُزنا على بابهِ كِبْرٌ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال في مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمي في البيت الأول ، ونُظِمَت في مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة ، ولأبي سعيد الرُّسْتَمي مدائح بديعة في أولها من مثل قوله <sup>(٢)</sup> :

بقيتَ مدى الدنيا ومُلْكك راسخٌ وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرٌ  
يَرُدُّ سَنَّاكَ البدرُ والبدرُ زاهرٌ ويقفو نَدَاكَ البحرُ والبحرُ زاهرٌ

وبالمثل كان وزراء بني بويه ممدَّحين ، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد ، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران ، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبي الذي وفد عليه بمدينة أَرَّجان ومدحه بقصائد

(٢) اليتيمة ٣/٣٠٣ .

(١) اليتيمة ٤/٢٢٢ .



رائعة ، ومثل ابن نباتة السَّعْدِي الشاعر العراقي ، وله فيه مدائح جيدة ، وكذلك  
للصاحب بن عباد من مثل قوله في قدومه إلى أصبهان (١) :

قَدِمَ الرَّئِيسُ مَقْدَمًا فِي سَبْقِهِ فَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا جَرَّتْ فِي طَرْقِهِ  
وَكأَنَّمَا الأَفلاكُ طَوَّعُ يَمِينِهِ كالعبد منقاداً لملك رَقِّهِ  
قد قاسمته نجومها فنحوسها لعدوه وسعودها في أفقه

ولعل وزيراً بُوَيَّهياً لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد ، ومرت بنا  
أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه . وكان وراءهم كثيرون يفدون  
عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية ، وعقد لهم الثعالبي في بيتته الباب السادس من  
جزئها الثالث ، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه ، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمي ،  
وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله (٢) :

وَرِثَ الوِزارَةَ كَابِراً عَن كَابِرٍ مَوصُولَةً الإِسنادِ بالإِسنادِ  
يَرَوِي عَن العِباسِ عِبادُ وَزَا رتَه وإِسماعيلَ عَن عِبادِ

وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة في حجرها ودرج إلى الناس من وكَّرها إذ ورثها  
عن آبائه ، وكان أبو سعيد يببالغ بمبالغة مفرطة في مديحه أحياناً على عادة الشعراء في  
العصر ، من مثل قوله فيه (٣) :

لو كان غير الله يُعَبِّدُ ما انثنتُ إلا إِلَيْكَ أَعِنَّةُ العِبَادِ  
وهي مبالغة تمجُّها الآذان . ونراه في نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجبر  
ومن يقولون بأن كل شيء قدر مقدور مُلغين حرية الإرادة في الإنسان ، يقول :

وَنصبتَ للإِسلامَ أَكْرَمَ رَايةٍ وَقصمتَ أَهلَ الجَبْرِ والإِحَادِ

وكان الصاحب إمامياً معتزلياً ، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين  
المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم ، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر  
بالنكال إن صحَّ ما يقول أبو سعيد الرستمي ، ويقول له أبو بكر الخوارزمي من قصيدة  
فيه (٤) :

وَمَنْ نَصَرَ التَّوْحِيدَ والعَدَلَ فَعَلَهُ وَأيقظَ نَوَامَ المعالي شَمائِلُهُ

وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المدائح لم تكن ثناء فحسب ، بل كانت أيضاً  
تسجيلاً لأعمال الأمراء والوزراء ، وهي لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة ، وهي قيمة

(١) البيهقي ١٥٨/٣ .

(٢) بيهقي ٣٠٧/٣ .

(٢) بيهقي ٣٠٧ ، ١٩٠/٣ .

(٤) بيهقي ٢١٤/٤ .

تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان في العصور السابقة ملقاً ونفاقاً ، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات . وعلى نحو ما نجد في كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بنى بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البَلْعَمَى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية كما أسلفنا ، وفيه يقول أبو محمد المطرانى الشاشى<sup>(١)</sup> :

بلوناك حين يرحى الولد سى عُرْفَا وَيَحْشَى العدو النكير  
فلم تك إلا اختياراً نَفوعاً ولم تك إلا اضطراراً ضَروراً

وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدحاً ، وللمأمونى الشاعر فيه مدائح مختلفة . وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذى لقبه الخليفة بلقبه : شمس المعالى ، فقد مدحه كثير من الشعراء ، وكان غيثاً مدراراً ، فأكثرُوا من مديحه .

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التى عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبويهيين تضمنت وصف ما بنى القوم من قصور مشيدة ، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمته الشعراء فى دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان . وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين . وأكثرُوا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً فى مقدمات المدائح بعيد النيرُوز . واطَّرد ذلك فى مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها . وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية فى مديح محمود الغزنوى الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه فى إيران وما وراء النهر وفى الهند ، ومن رائع ما مدح به قصيدة لبديع الزمان الهمداني يقول فيها<sup>(٢)</sup> :

تعالى	الله	ما	شاء	وزاد	الله	إيماني
أَفْرِيدُونُ	فى	التاج	أم	الإسكندر	الثانى	
أم	الرجعة	قد	عادت	إلينا	بسليمان	
أطلت	شمس	محمود	على	أنجم	سامان	
وأمسى	آل	بَهْرَامِ	عبيداً	لابن	خاقان	
إذا	ما	ركب	الفيل	لحرب	أو	مليدان
رأت	عيناك	سلطاناً	على	منكب	شيطان	

(٢) اليتيمة ٤/٢٩٦ .

(١) بيتية ٤/١١٦ وضروراً : مضراً .

فن واسطة الهند إلى ساحة جرجان  
ومن قاصية السند إلى أقصى خراسان

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين ، وآل بهرام هم السامانيون الذي قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم ، ويسميه ابن خاقان لأنه تركى ، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ماعدا إقليمى فارس وكرمان ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . ويكثر بعده مديح السلاجقة ووزرائهم ، وخاصة نظام الملك ، ومدّاحه يتعاقبون في كتاب دُمِيّة القصر بالعشرات ، مع أن مؤلفها البخارزى توفى قبله بنحو سبعة عشر عاماً ، ومن ذكرهم بين مدّاحه الفيّاض الهروى ، وله فيه وفي فتوح سلطانه ألب أرسلان في آسية الصغرى وأسرّه لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة ، يذكر فيها جيش رومانوس الجرار ومناه في احتلال ديار السلطان السلجوقى ، وكيف ردّ الله كيدَه في نحره ، فسحق جيشه سحقاً ، وقتل منه ما لا يُحصى ، وأسر الإمبراطور ووقف بين يدي ألب أرسلان ذليلاً خانعاً ، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه . ويصوّر ذلك كله الفيّاض الهروى مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً<sup>(١)</sup> :

إذا ما ملوكُ الأرض عُدُّوا فإنما لكم كاهلُ المجدِ الأشمِّ وغارِبُهُ  
أحاسدُهُ مهلاً فهذى سيوفُهُ وهاتيكِ يومَ المكرّماتِ مواهبُهُ  
ويتوالى سلاطين الدولة السلجوقية ووزراؤهم ويتوالى مديحهم عند الطغرأى والأرجاني وغيرهما من معاصريهما . وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من عليّة القوم يُخصِّمُ الشعراء بمدائحهم ، وقد دُبجت فيهم قصائد كثيرة . وكانوا يهتّون كثيراً بالأعياد فحسب ، بل أيضاً بالمواليد ، وفي اليتيمة والدُمِيّة من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة . وكثّر في العصر مديح الفقهاء والعلماء بمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم ، من ذلك ما أنشده البخارزى لأبي المطهر الأصفهاني في أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية في نيسابور ، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة<sup>(٢)</sup> :

يا أيها المولى الأجلُّ ومنْ به أصبحت آمن من تحصن في الدرّي  
أنبتى ورعتى وسموت بي غصناً بأبكار البيان منوراً

ولابن عتّين قصيدة رائعة سيرها من نيسابور إلى الفخر الرازى بهراة ، وفيها يشيد بقضائه على البدع في عصره ، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات

(٢) الدمية ٤٣٤/١ .

(١) الدمية ٢٨٦/٢ وما بعدها .

في الفلسفة والطب ، غير أن ابن عنين دمشق . وعلى كل حال هو تكلمة لهذه الظاهرة التي رآها في إيران ، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشييوخهم وأساتذتهم من العلماء والفقهاء . وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح في تلك البيئة لتتضح لنا صورته ، وهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطُّغرائي والأرَّجاني .

### علي (١) بن عبد العزيز الجرجاني

من جرجان ، وفد على نيسابور في صباه ، وسمع على شيوخها ، وتخرَّج بهم فقيهاً شافعيًا ناهياً ، وولى قضاء موطنه جرجان ثم ولّاه الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الرِّيِّ ، ثم جعله قاضي القضاة بها ، وظل في هذه الوظيفة إلى أن توفي سنة ٣٩٢ وحُمل تابوته إلى جرجان فدفن بها ، وترجم له الثعالبي في يتيمته فقال : « هو فرد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حدقة العلم ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . ومربنا حديث عن كتابه « الوساطة بين المتنبئ وخصومه » وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتاز ، بل لعله أهم ناقد ظهر في عصره . وهو في الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربي قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقاً شعرياً مصني . وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره في المديح وغير المديح ، وقد روى له الثعالبي طائفة من مدائحه في قوادٍ عصره وولاية جرجان وفي شمس المعالي قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ، وللصاحب بن عباد القِدْح المعلي من مدائحه من مثل قوله :

يا أيها القمرُ الذي بعلوه نال العلاء من الزمانِ السؤلا  
قسمتُ يداك على الوري أرزاقها فكنوك قاسمَ رزقها المسئولاً

وهي مبالغة أن يجعل الصاحب يقسم على الناس أرزاقهم ، ولكنها كانت تُستحب في عصره ، وكان كل شاعر يحاول أن يأتي منها بمعنى طريف ، وكان الصاحب بجرأً فياضاً أغدق الصلوات على زواره وقاصديه ، وله يصف بلاغته التي عُرف بها في النثر والشعر جميعاً :

سبقت بأفراد المعاني وألفت خواطرك الألفاظ بعد شرايدها

(١) انظر في ترجمة علي بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/١٤ واليتمية ٣/٤ وما بعدها وابن خلكان ٢٧٨/٣ والسبكي ٤٥٩/٣ والمتنظم ٢٢١/٧ وشذرات الذهب ٥٦/٣ ومرآة الجنان ٣٨٦/٢ والنجوم الزاهرة ٢٠٥/٤

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ حَصَلْنَا على مسروقتها ومُعَادِهَا وهو معنى طريف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمدّه بالمعاني الغريبة النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها في مداخه من مثل قوله للصاحب :

لا وجفونٍ يَغْضُهَا العَدَلُ عن وجناتٍ تذيها القَبْلُ  
ما عاش من غاب عن ذرّك وإن آخرَ ميقاتٍ يومه الأجلُ<sup>(١)</sup>  
وله في عياداته حين يمرض قصائد بديعة ، وأخرى في تهنته حين يُبَلِّ من مرض ألمَّ به أو حُمَّى نزلت بجسده ، وكان يتخيلها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه ، ومن قوله في تهنته له بالشفاء :

بك الدهرُ يَنْدَى ظَلُّهُ وَيَطِيبُ وَيُقْلَعُ عما ساءنا ويتوبُ  
وأشدد له الثعالبى قصيدة طويلة في وصف دار الصاحب التي بناها بأصهبان وتبارى الشعراء في وصفها على نحو ما مر في حديثنا ، كما أشدد له أيضاً قصيدة فكهة في رثاء برذون أبي عيسى بن المنجم ، استهلها بقوله :

جَلَّ وَاللَّهِ مادهاك وعزّاً فِعْزَاءَ إن الكَرِيمَ مُعْزَى  
هِيَ ما قد علمتُ أحداثُ دهرٍ لم تدعُ عِدَّةً تُصَانُ وَكَتْرًا  
وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفى فيه بأن يجعل الطبيعة مقدّمة للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله ، بل يجعلها جزءاً من المدوح ومن عمله وشيمه وفكره ، وكأنها صورة منه ، أو كأنها مرآة له ، يقول في وصف بعض الرياض الجميلة الساحرة مادحاً لأبي مضر محمد بن منصور والى جرجان :

أبَاتتْ يَدُ الأَسْتَاذِ بين رياضها تدفُقُ أمْ أهدتْ إليها سَحَابِيا  
أَلْبَسَهَا أخلاقه العُرَّ فاغتندتْ كواكبها تجلُّو علينا كواكبا  
أَوْشَتْ حواشيتها خواطرُ فكره فأبدتْ من الزَّهْرِ الأنيقِ غرائبها  
أخالته يَصْبُو نحوها فَتَرَيْتِ تَوَمَّلُ أن يَخْتارَ منها ملاعبا  
ولعل في ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية ، وهي قدرة تلقانا في غزله كما تلقانا

في مديحه ، على نحو ما نقرأ في قوله يصف بعض ليالى أنسه مع منى قلبه :

ولِيالٍ كأنهن أمانٌ من زمانٍ كأنه أحلامٌ  
وكان الأوقات فيها كئوسٌ دائراتٌ وأنسهنَّ مُدَامٌ

(١) الذُّرَّاءُ : الكنف والظل .

زمنٌ مُسْعِدٌ وإِلْفٌ وَصُولٌ وَمُنَى تَسَلَّدَهَا الأوهام  
وواضح ما في الأبيات من خيال دقيق ، فكأنه كان يعيش في حلم ، يتعاطى خمر  
الأنس المسكرة ، ومن قوله في الغزل :

قد بَرَّحَ الشوقُ بِمَشْتَاكِكَ فَأَوْلِهِ أَحْسَنَ أَخْلَاقِكَ  
لا تَجْفُهُ وَارَعَ لَهُ حَقَّهُ فَإِنَّهُ آخِرَ عَشَائِكَ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً ، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم ، يراه متعة  
لا تعدلها متعة ، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة في منزله ، وفي ذلك يقول :  
ما تطعمتُ لذةَ العيشِ حتى صرتُ للبيتِ والكتابِ جليسا  
ليس شيءٌ أعزُّ عندي من العِلْمِ سم فما أبتغي سواه أنيسا  
فلذة القراءة لا تعدلها عنده لذة . وكانت نفسه أبية شديدة الإباء ، لا يهينها ولا يُدبها  
فدون الذل والهوان الموت ، وفيه يذل الإنسان ويهون أفي سبيل المال والغنى ؟ بؤساً لها وله  
إن هو اقترب في نفسه هذه الجناية الكبرى ، وفي ذلك يقول :

كأني ألقى كلَّ يومٍ يَتُونِي بِذَنْبٍ وما ذَنْبِي سوى أنني حرٌّ  
وقالوا تَوَصَّلْ بِالخُضُوعِ إِلَى الغِنَى وما علموا أن الخُضُوعَ هو الفقرُ  
وبيني وبين المالِ شَيْئَانِ حَرَمًا عَلَى الغِنَى : نَفْسِي الأَيِّئَةُ والدَّهْرُ  
إن مثل هذا الغنى الذي يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقي الذي يدمر حياة  
الإنسان ، فتعسأ لمن يطلبه عن هذه الطريق وتباً له . وله أبيات رائعة في عزة النفس ،  
وخاصة عزة نفس العلماء ، اشتهرت في عصره وبعد عصره ، وهو يمضي فيها على هذا  
النمط :

يقولون لي : فيك انقباضٌ وإنما  
إذا قيل : هذا منهلٌ قلتُ : قد أرى  
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كان كلما  
ولم أبتذلُ في خدمة العلمِ مُهَجِّي  
أَشْقَى به غَرَسًا وَأَجْيِهَ ذِلَّةً  
ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صانهم  
ولكنْ أهانوه فَهَانَ ودنَّسوا  
رأوا رجلا عن موقفِ الذلِّ أَحْجَا  
ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتملُ الظَّمَا  
بدا طمعٌ صَيَّرْتَهُ لِي سُلْمًا  
لأخدُمَ من لاقيتُ لكنْ لأخدَمَا  
إِذْ فَاتَّبَاعُ الجَهْلِ قد كان أَحْرَمَا  
ولو عَظَمَوه في النفوسِ العُظْمَا  
محيَّاهُ بالأطَاعِ حتى تجهَّهَا

وهو يصور في الأبيات نفس العالم الحر الذي يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى  
حد ، وإنه ليأبى في شمم ما بعده شمم أن يروى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ،

وإنه ليزدرى الطمع في الدنيا الذي يتحول بالعالم إلى ما يشبه دَوَّارة الريح فهو يدور مع نفعه المهين ، ناسياً أن من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً ، وإلا كان الجهل خيراً منه وأكثر عائداً على صاحبه . ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنَّسوه ولطخوه بهوان أليم .

### الطُّغْرَائِيُّ (١)

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي بن محمد ، الكاتب الشاعر الذي غلب عليه لقب الطُّغْرَائِيُّ لعمله في دواوين الطُّغْرَاءِ ، وهي الطُّرَّة التي يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء في أعلى الكتب فوق البسملة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذي يصدر الكتاب باسمه . وقد وُلِدَ بأصفهان سنة ٤٥٣ لأسرة عربية تنتسب إلى أبي الأسود الدؤلي ، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه تثقف على أيدي جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة ( الكيمياء ) وله فيها مصنفات مختلفة (٢) . ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة ، فسأل الشعر على لسانه ، ووفد به على الرؤساء ، وكان من أوائل من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألب أرسلان ، وأعجب به وبشعره ، فعينه كاتباً في الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائح فيه ، ورحب به ، وحدث أن اشترك الفضل في مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة ، وألقى به في غياهب السجون ، وظل الطُّغْرَائِيُّ يحفظ له صنيعه معه ويواسيه في محتته ببعض أشعار يديبجها في مديحه . وكان نظام الملك حَصِيْفاً ، فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه ، وظل الطُّغْرَائِيُّ يعمل في دواوينه ، كما ظل على صلته به يمدحه في المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه بائيتان ، يشيد فيهما به وبانتصارات جيوش الدولة في الشرق وفي الغرب على شاكلة قوله :

(١) انظر في ترجمة الطُّغْرَائِيُّ وشعره معجم الأدياء ٥٦/١٠ وابن خلكان ١٨٥/٢ والأنساب للسمعاني ٥٤٣ والشذرات ٤١/٤ ومقدمة الصفدي لشرحه على قصيدة الطُّغْرَائِيُّ : لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطُّغْرَائِيُّ للدكتور علي جواد الطاهر ( طبع بغداد ) وكتابه الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي . وديوان الطُّغْرَائِيُّ مطبوع قديماً بإستانبول وطبع لاميته مع شروح لها وأهم شروحها شرح الصفدي ( طبع القاهرة ) .

(٢) العلم عند العرب لألدومبيلي ص ٣٠٧ - ٣١٠ وكتاب الشعر العربي السالف للدكتور علي جواد الطاهر ١٥٥/٢ .

خَمِيسٌ أَقاصى الشَّرْقِ تَرَزُّمٌ تَحْتَهُ  
يَلْفَهُمُ بِالرُّعْبِ قَبْلَ طَرادِهِمْ وَيَهْزِمُهُمُ  
وَفِي هَذِهِ الْأَثْناءِ يَتَزَوَّجُ ، وَمَا تَلَبَّثَ زَوْجَتُهُ لَه رَضِيْعاً لَا يَزَالُ يَجِدُ فِي

نَفْسِهِ مِنْهُ شَجَى عَميقاً عَلَيْها ، وَمَراثِيهِ فِيها تَفِيضُ بِالْحَزَنِ المَريرِ عَلى شاكِلَةِ قَوْلِهِ :  
بِنَفْسِي مِنْ غالِيَتْ فِيها بِمَجْهَتِي وَجاهِي وَمَا حازَتْ يَدائِي مِنَ الوَفْرِ  
وَفُزْتُ بِها مِنْ بَيْنِ يَأْسٍ وَخِيبَةٍ كَما اسْتَخْرَجَ العَواصُ لؤلؤَةَ البَحْرِ  
فَجاءَتْ كَما جاءَ المُنَى واشْتَهَى الهوى كَلاًّ وَنُبلاًّ فِي عَفافٍ وَفِي سِتْرِ  
فِيا مَوْتَ الحَقْنِي بِها غَيرَ غادِرٍ فَإِنَّ بَقائِي بَعْدَها غايَةُ العَدْرِ  
وهي مَراثِيهٌ بَدِيعَةٌ ، فَقد أَظْلَمَتِ الدُنيا فِي عَيني الطُغْرائِي بَعْدَ زَواجِهِ الشابَةِ الجمِيلةِ .

وَلَمْ يَعدْ لَه مِنْها سَوى الأَنبِنِ وَالدَموعِ وَالزَفْراتِ ، وَإِنه ليشيخُ بِوَجْهِهِ عَنِ الصَبْرِ وَأَجْرِهِ وَثوابِهِ  
مَفْضِيّاً إِلى لَوعاتِ قَلْبِهِ وَحسراتِ نَفْسِهِ ، إِذْ تَرَكَتْ بَيْنَ جَوانِحِهِ ناراً لَا تَنطَفِئُ ، وَيَتَوجَّهُ  
إِليها بِالخُطابِ نادِياً لِحَظِهِ العائِرِ ، مَنشِداً :

لَأَنسِنَا حَتَّى إِذا ما يَهْرَتْنَا سَنًا وَسَناءً غَيبَتِ غَيبِيةَ البَدْرِ  
وَقد كانَ رَبِيعِي أَهْلاً بِكَ مُدَّةً أَحْبَبْتُ إِليه حَنَّةَ الطَّيْرِ لِلوَكْرِ  
وَأَوى إِليه وَهُوَ رَوضَةٌ جَنَّةٌ بِدائِعِها يَحْتَنَنُ فِي حُلَلِ حُمُرٍ  
فَإِذْ بَنَتْ عَنهُ صارَ أَوْ حَسَّ مِنْ لَطِيٍّ وَأَضيقُ مِنْ قَبْرِ وَأَجْدَبُ مِنْ قَفْرِ

لَقَدْ غابَ عَنهُ بَدْرُهُ وانْقَضَ وَكَرِهَ وَدُمِّرَتِ جَنَّتُهُ وَعادَ يَتَقَلَّبُ بَعْدَ أَعطافِ النَيمِ فِي  
لَطِيِّ الجَحيمِ ، وَحَتَّى مَسَكَنَهُ أَصْبَحَ قَبِراً مَظْلاماً وَقَفِراً مَجْداً . وَيَظَلُّ يَبْكِيها وَتَمْرِبُهُ الأَيامُ ،  
فَيَسْلُو عَنا وَيَتَزَوَّجُ وَيُرْزَقُ الوَلدُ ، وَهُوَ فِي أَثناءِ ذَلِكَ يَعمَلُ فِي دَواوِينِ السَلاجِقَةِ ، وَيَتَوقَّى  
نَظامَ المَلِكِ ، وَتَضطربُ بِه الحَياةُ ، فَيَتَعرَضُ لِبَعضِ الوِزراءِ بِالهَجاءِ وَلبَعضِهِمُ بِالمدحِ  
وَالثَنا ، وَتَتَوثقُ صِلَتُهُ بِالسُلطانِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكِشاهِ ( ٤٩٩ - ٥١٢ هـ ) وَيَصبِحُ فِي عَهْدِهِ  
نائباً فِي دِيوانِ الطُغْراءِ أَوْ بِعَبارَةِ أُخْرى وَزيراً لِلقَلَمِ وَالإِنشاءِ . وَنَراهُ فِي مَدْحَةٍ لَه يَتَحدِثُ

عَنِ جِوشِهِ وَواقِعِها مَعَ الرُومِ وَمَا تَلَقَّى فِي قَلْبِهِمُ مِنْ فِرْعَ بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

خَيْلٌ بِأَرْضِ الرُّقَّتَيْنِ وَراءِها نَقَعٌ كَمُرْتَكِمِ العَلامِ مُتَّارٌ  
رَبِيعَ العَدُوِّ وَقد أَحسَّ بِقُرْبِها فَالْجَنبُ نَابِ وَالرِقادُ غِرارٌ<sup>(٢)</sup>  
وَعلَى خَلِيجِ الرُومِ مِنْكَ مَهابَةٌ مِنْ خَوفِها يَتَظامُنُ التَّيارُ  
وَلَقَدْ دَرَى الرُومِيُّ أَنَّ وَراءَهُ خَطِراً تَقاصَّرُ دُونَهُ الأَخطارُ

(٢) غرار: قليل

(١) ترمز : تسقط إعياء .



ويتحدث في نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عطاش في حصن « شاه دز » بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ويتولى السميروى الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغرائى والوزير ، ويرحل إلى بغداد وينبوه المقام فيذم في بائية مقامه في العراق مستهلاً ذمه بقوله :

ملتتُ ثَوَائِي بِالْعِرَاقِ وَمَلَّنِي رِفَاقِي وَكَانُوا بِالْعِرَاقِ طِرَابَا  
وينظم حينئذ لاميته التى اشتهرت خطأ باسم لامية العجم ، وقائلها عربى كما مر بنا فى نسبه ، وليس فيها أى تعصب للعجم ضد العرب ، ولعلها سميت بذلك لأن قائلها كان يعيش فى بلاد العجم وجعلها على روى لامية العرب للشنفرى وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدى ، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله ، شكوى لا تنكسر فيها نفسه ، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته ، وتظل له فضائله التى يفخر بها ، وهو يستهّلها بقوله :

أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الْخَطَلِ وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى الْعَطَلِ  
وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حينئذ ، أوربما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف :

فِيمَ الْإِقَامَةِ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنِي بَهَا وَلَا نَاقِي فِيهَا وَلَا جَمِيلِ  
ويشكو طويلاً الغربية بالزوراء ( بغداد ) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار ، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال . ويرحل مع صديق ، ويقتربان من حى إضمم بالقرب من المدينة ، حى الحبيبة التى ضرب إليها أكباد الإيل ، ولكن دونها الحجة بالسهم والبيض والسمر ، أو السيوف والرماح ، والأسد رابضة حول الكناس . ويتمنى الإمامة بالحى تبرئه من عله ، بل ليتمنى الموت فى سبيل نظرة ، وكل هذا رمز عن مطامحه التى لا يستطيع تحقيقها ، وإنه ليصرح بأن طالب المجد لا بد له أن يغامر وأن يركب الأخطار ، فإن لم يتحقق له فى بلدة طلبه فى أخرى ، ويصبح :

إِن الْعُلَا حَدَّثَنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ فِيمَا تَحَدَّثُ أَنَّ الْعِزَّ فِي الثُّقَلِ  
ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال فى أن تقبل عليه الأيام ثانية . ويشكو من الدهر ومن الناس ، مع شعور غير قليل بالكرامة ، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأعداء قبل الأعداء . ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل

زائل ، وسنشد قطعة من هذه اللامية في حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة . ولا ندرى كيف رغب ثانية في العمل لدى السلاجقة ، إذ نراه يقصد إمارة السلطان مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعيّنه وزيراً له ، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان محمود وتدور الدوائر في سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطُّغْرَائِي ويقتل بتهمة الزندقة . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء ، فاتهموه بالسحر والإلحاد ، واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله . والشكوى كثيرة في أشعار الطُّغْرَائِي وتكفي منها لاميته السالفة . وفي ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف الرضى ومهيار ، ومن طرائف غزله :

يا قلبُ مالكَ والهوى من بعدما      طابَ السلوُ وأقصرَ العُشاقُ  
أو ما بدا لك في الإفاقة والألى      نازعتهم كأسَ الغرامِ أفاقوا  
يا حَبِداً نَجِدُ وأعراقَ الثرى      لُدُنْ وأنفاسُ النعيمِ رِفاقُ

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثلث والمثنائي والانتشاء بالخمر في مباحج الربيع . وطبيعي أن يتردد الفخر في أشعاره ، على نحو ما ترددت منه رنات في لاميته ، وله يفتخر بثقافته الواسعة والمامة بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرَتْ بِيُعْتِي      منها فما أحتاجُ أَنْ أنْعَمَ  
وعرقتُ أسرارَ الخَلِيقَةِ كُلِّهَا      عِلْماً أنارَ لِي البَهِيمَ المَظْلَمَ

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصناعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء ، وله فيها أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصايح الحكمة ، ونقل منها الدكتور على جواد الطاهر طائفة<sup>(١)</sup> تصور هذا الضرب من شعره العلمى أو التعليمى . ويكثر عند الطغرائى ومعاصره جميعاً معارضته الشريف الرضى ومهيار فى بعض قصائدهما ، بل أيضاً معارضته من سبقها من الشعراء ، وربما كانت لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة ، ومع ذلك حاول الصفدى فى شرحه لها جاهداً أن يرد معانى أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقه . وكان الطغرائى كشعراء عصره يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف ، وفى الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن غارضها منهم كثيرون ، كان آخرهم البارودى فى لامية له مشهورة .

(١) - انظر الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر

## الأرجاني (١)

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني نسبة إلى أرجان من كور الأهواز من بلاد إقليم خوزستان ، وُلد سنة ٤٦٠ ويقول العماد الأصفهاني فيه : « منبت شجرته أرجان ، وموطن أسرته تُسْتَر وعسكر مُكْرَم من خوزستان ، وهو وإن كان في العجم مولده فمن العرب محته ، سلفه القديم من الأنصار » فهو عربي النجار ، فارسي الموطن . وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق ، فظل بها ، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعيًا ، يُحسِّن الحكم بين الخصوم والمفتيًا . وتفجر الشعر على لسانه ، فقصد به الوزير السلجوقي المشهور نظام الملك . منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة ، وظل ينظمه إلى وفاته بتسرسنة ٥٤٤ وكان مات عن سن عالية ، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفي ذلك يقول :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافعٍ في العصر ، بل أنا أفتقهُ الشعراءُ  
وأعدته معرفته العميقة بالفقه لكي يشتغل بالقضاء في موطنه ببلاد خوزستان ، تارة بتسْتَر ، وتارة بعسكر مُكْرَم عن قاضيها ناصر الدين أبي محمد ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء ، وفي ذلك يقول :

ومن النوائبِ أني في مثل هذا الشغل نائِبُ  
ومن العجائبِ أن لي صبراً على هذي العجائبِ  
وكان يُحسِّن الفارسية وترجم منها عدداً من الرباعيات ، وأكثر شعره في المديح ، ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها :  
كم موقفٍ دون العلاءِ وقفته والخيلُ بالأسلِ الطَّوالِ تصُولُ  
ونراه يمدح وزراء بركياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه ، وفي مقدمتهم الوزير الدهقاني وفيه يقول :

فأقَى به العصرُ الأخيرُ وقصرتُ عن شأوه وزراء كلِّ الأعْصُرِ  
ويظلُّ على صلة وطيدة بسلاطين السلاجقة ، يروح إليهم ويعدو بالمدايح ، وله في السلطان محمود مدائح مختلفة ، من مثل قوله :

(١) راجع في ترجمة الأرجاني ابن خلكان ١٥١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان والسبكي ٥٢/٦ وشذرات الذهب ١٣٧/٤ ومرآة الزمان ٢٨١/٣ وتذكرة الحفاظ ١٣٠٦/٤ والمتنظم ١٣٩/١٠ .

أعلى السلاطين في يَوْمِي نَدَى ووَغَى رَأْيَا وَأَفْضَلُهُمْ سِرًّا لِإِعْلَانِ  
ويمدح وزيره السميّمي الذي يقول فيه ابن الأثير كان ظالماً كثير المصادرة للناس  
سبىء السيرة ، ولعله اضطرَّ إلى مديحه خوفاً من بطشه به كما بطش بالطغراني ، وله يقول  
في بعض مديحه .

وَأَنْقَدَتَ دِينَ اللَّهِ مِنْ شَرِّ مَارِقٍ وَكَانَ كِشْلُو بَيْنَ نَابِيهِ نَاشِبِ  
وخصَّ معين الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة ، وصلته به قديمة  
منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد ، وله يقول :

أَحْلَكُ سُلْطَانُ السُّلْطَانِ رَتْبَةً يَصْبِقُ بِهَا دَرْعُ الْحَسُودِ الْمَسَاجِلِ  
وكان يزور بغداد كثيراً ويمدح خلفاءها ووزراءها ، وله في الخليفة المستظهر (٤٨٥ -  
٥١٢ هـ) غير مدحة ، ونراه يلجج فيما يلجج فيه قديماً مروان بن أبي حفصة وغيره من شعراء  
العصر العباسي الأول حين كانوا يتحدثون عن شرعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من  
العلويين لأن العم يرث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم ، ويزعم الأرجاني أن الرسول عليه  
السلام بشر بها عمه وأنها تكون في أبنائه ، يقول :

بِكُمْ قَدِيمًا رَسُولُ اللَّهِ بَشَرْنَا كَمَا بِهِ بَشَرْنَا سَالِفُ التُّنُورِ  
وقال مِنْ بَعْدِ الْعَبَّاسِ فِي مَلَأٍ افخَرْنَا أَبُو الْأَمْلَاقِ فِي مُضَرِ  
وولي المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه ، واصفاً له بالبأس  
والشجاعة والإقدام محذراً أعداءه من جيوشه وما تدمر وتحطم وتَسْحَقُ كُلُّ مَنْ يَقِفُ فِي  
طريقها سَحَقًا . وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفي مقدمتهم بنو جهير ، وفيهم يقول :

لِلَّهِ دَرٌّ بَنِي جَهِيرٍ إِنَّهُمْ جَهَرُوا بِدِينِ الْمَجْدِ حَتَّى أُعْلِنَا  
ونوه طويلاً بجلال الدين بن صدقة وبأنوشروان بن خالد ، وله فيه نحو عشرين مدحة  
يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواكبه . كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد  
الدولة محمد بن عبد الكريم ، وله يقول في بعض مدائحه :

أَمِينَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي اصْطَفَى وَسَهَمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَسْدَدَا  
وله غزليات رقيقة ، وهي مطبوعة مثل غزليات الطغراني بطوابع الشريف الرضي  
ومهيار ، ونقصد الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته :

أَحْبَبِي الشَّاكِينَ طَوَّلَ تَغْيِي وَالذَّاهِبِينَ عَلَى الْهَوَى فِي مَذْهِي  
مَا جُبْتُ آفَاقَ الْبِلَادِ مَطُوفًا إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي الْوَرَى مُتَطَلِّبِي  
سَعْيِي إِلَيْكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَالَّذِي تَجِدُونَ مِنِّي فَهُوَ سَعْيُ الدَّهْرِ بِي

أنحوكم ويرد وجهي الفهقرى سيري ، فسيري مثل سير الكوكب  
فالقصد نحو المشرق الأقصى له والسير رأى العين نحو المغرب  
تالله ما صدق الوشاة بما حكوا أنى نسيت العهد عند تغريبي  
والأبيات تحمل معاني وصوراً دقيقة تصور شاعرية الأرجاني وأنه كان يعرف كيف  
يُطرف بصوره ومعانيه ، مما جعل القدماء يشيدون به ، ومن معانيه الغريبة :  
رثي لى وقد ساويته في نُحوله خيالي لما لم يكن لى راحم  
فدلس بي حتى طرقت مكانه وأوهمت إلى أنه بي حالم  
ويتنا ولم يشعر بنا الناس ليلة أنا ساهر في جفنه وهو نائم  
وهو بعد في الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم ، وكان مثل الطغرائي  
يشكو من الزمن ومن الناس ، وقلما نجد شاعراً في هذا العصر لا يشكو ، ومن شكواه  
قوله :

ولما بلوت الناس أطلب عندهم أخوا ثقة عند اعتراض الشدائد  
تطلعت في حالي رخاء وشدّة وناديت في الأحياء هل من مساعد  
فلم أر فيما ساءني غير شامت ولم أر فيما سرني غير حاسد  
تمتعنا يا ناظري بنظرة وأوردتما قلبي أمر الموارد  
أعيني كفاً عن فؤادي فإنه من البغي سعى اثنين في قتل واحد

فحتى عيناه لا ترحانه بما تدلعان في قلبه من جحيم الفتنة بالجمال . وله رباعيات  
كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف ، وقد نظم في مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على  
ثمانين رباعية . ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته في نظم بيت يُقرأ  
طرداً وعكساً مثل قوله :

أحب المرء ظاهراً جميلاً لصاحبه وباطنه سليم  
مودته تدوم لكل هولٍ وهل كل مودته تدوم

فالبيت الثاني يُقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يُقرأ من أوله إلى آخره ، ونجد عند  
الأرجاني أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب ، بل على أربع قواف ، وهي تدل  
على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة . ولعل في كل ما أسلفنا ما يوضح  
شخصية الأرجاني الشعرية .

## شعراء المراثي

نشط الرثاء طوال هذا العصر، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة، وانضم إلى ذلك كرم فياض، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذي كان غنياً مدراراً للشعر والشعراء، فأتوه من كل فجٍّ، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات، ونرى الثعالبي في يتيمة يتوقف مراراً ليدكر لنا بعض الأشعار التي قيلت في مدحيه، وبالمثل الأخرى التي قيلت في رثائه، من ذلك قول أبي سعيد الرستمي<sup>(١)</sup>.

أَبْعَدُ ابْنَ عَبَّادٍ يَهْشُ إِلَى السُّرَى      أَخُو أَمَلٍ أَوْ يُسْمَاحُ جَوَادُ  
أَبَى اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَا بِمَوْتِهِ      فَمَا لَهَا حَتَّى الْمَعَادِ مَعَادُ

وحمل تابوته من الرِّيِّ إلى أصفهان، ودُفن في محلة تُعرَف بباب دُزبه، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه، وتقدّم أبو منصور أحمد بن محمد اللُّجَيْمِيُّ يُثشد معبراً عنه بلقبه: «كافي الكفاة»<sup>(٢)</sup> :

تَوَى الْجُودَ وَالْكَافِيَ مَعَاً فِي حُفْرَةٍ      لِيَأْنَسَ كُلٌّ مِنْهَا بِأَخِيهِ  
هُمَا اصْطَحَبَا حَيِّينَ ثُمَّ تَعَانَقَا      ضَجِيعِينَ فِي قَبْرِ بِيَابِ دُزْبِهِ

ومرّ بنا الحديث عن محمود الغزنوي وفتوحه في إيران والهند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام، وكان مثقفاً وطلب - كما مر بنا - إلى بلاطه العلماء والأدباء، وأقبلوا عليه يصنّفون له كثيراً من الكتب في فنون العلوم، وقصده الشعراء من جميع البلدان في إيران، فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطايه، فلما توفي بكاه غير شاعر، وفي مقدمتهم أبو علي الحسن بن محمد الدَّامَغَانِي، وفيه يقول<sup>(٣)</sup> :

مَضَى الْأَفْعَوَانُ الصَّلُّ وَالْأَسَدُ الْوَرْدُ      وَتَاجُ مَلُوكِ الْأَرْضِ وَالْفَارَسُ النَّجْدُ  
وَلَمْ أَدْرِ أَنْ الشَّمْسَ يَسْتَرُهَا ثَرَى      وَلَا الْفَلَكَ الْأَعْلَى يُغَيِّبُهُ لَحْدُ

وأحسن الشعراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور، الذي عمّ العلماء والشعراء ببرّه، وألّفت باسمه مصنفات كثيرة، وكان مجلسه

(٣) تنمة اليتيمة ١٥٣/١ والأفغوان الصل: الذي لا

تفيد معه الرقية، والورد: الفاتك

(١) اليتيمة ٢٨٠/٣

(٢) اليتيمة ٤٠٩/٤

يَعَصُّ دَائماً بالفقهاء والقراء والأدباء ، فلما توفى أكثر الشعراء من رثائه ، ومن جيد ما قيل فيه قول ختنه شَيْبَل الدولة مقاتل بن عطية (١) :

كان الوزير نظامُ الملك لؤلؤةً      يتيمَةً صاغها الرحمنُ من شرفِ  
عزّتْ فلم تعرف الأيامُ قيمتها      فردّها ، غيرَةً منه ، إلى الصّدْفِ

وظاهرة جديدة في الرثاء لهذا العصر ، قد تكون لها مقدمات في العصر العباسي ، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء في كل فن ، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه في رثائه ، فن ذلك رثاء أبي الحسن عبد الرحمن البوشنجي لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ، وفيه يقول (٢) :

أودى الإمامُ الحَبْرُ إسماعيلُ      كهني عليه فليس منه بديلُ  
بكتِ السما والأرضُ يومَ وفاته      وبكى عليه الوحيُّ والتّنزِيلُ  
والشمسُ والقمرُ المنيرُ تناوحا      حَزناً عليه وللنجومِ عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكي سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدثين وآئمة الإسلام كثيراً ، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل اليتيمة ودُمية القصر وكتب التراجم مثل وفیات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدياء لياقوت ، من ذلك قول أبي الفرج حمد بن محمد الهمداني في رثاء الشيخ الإمام أبي محمد الجويني (٣) :

علومُ علتْ أعلامها غبراتها      وأعينُ أعيانٍ طغتْ عبراتها  
وأفلاذُ أكبادٍ من الفضلِ فُتتتْ      فدلّتْ على تفتيتها زفرتها  
تداعتْ مباني الدين وانهدَّ رُكنه      وهُدِّمَ من أطواده صححراتها

ويبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مادةٍ وتفننا في العلوم من الأصول والفروع . ولما توفى أُغلقت الأسواق في نيسابور إجلالاً له وتكرمة ، وكُسِرَ منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه ، كما يقول ابن خلكان ، وأكثروا فيه من المرثي ، كقول بعض تلاميذه (٤) :

قلوبُ العالمين على المقالِ      وأيامُ الورى شيةُ الليالي  
أثميرُ غُصنِ أهلِ العلمِ يوماً      وقد مات الإمامُ أبو المعالي  
ونجد بين أساتذة الزمخشري أستاذاً مغموراً درس عليه النحو ، يسمى أبا مضر

(٣) الدمية ١/٥٥٧

(٤) ابن خلكان ٣/١٧٠

(١) ابن الأثير ١٠/٢٠٦

(٢) السبكي ٤/٢٨٣

منصوراً ، ومع ذلك نراه - حين يلبى نداء ربه - يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً ،  
فيرثيه بقوله <sup>(١)</sup> :

وقائلة : ما هذه الدررُ التي تساقطُ من عينيكَ سِمَطينَ سِمَطينَ  
فقلتُ هو الدرُّ الذى كان قد حشأ أبو مُضَرٍّ أذنى تساقطُ من عيني

وهى صورة بديعة ، فدرر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه ، أودعها الزمخشري فى سمعِهِ  
فجرت من مدمعه .

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوههم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم  
وآبائهم وللباخريزى رثاء لأبويه ، ولأبى الحسن الحسينى البلخى رثاء جيد لأمه <sup>(٢)</sup> ،  
ومر بنا عند الطغرأتى رثاؤه لزوجه التى ماتت فى ريعان الشباب ، وفى ديوانه مرثية لها  
قافية ، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مطرقتان ، وقد  
أخذ الحزن منه كل مأخذ ، يقول :

ولم أنسها والموتُ يقبضُ كفَّها ويسطُّها والعينُ تزنو وتُطرقُ  
هلالُ نوى من قبل أن تمَّ نوره وغُصنُ ذوى فينانه وهو مورقُ

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به ، وهو لا يكاد  
يصدِّق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً ، والدموع تنهلُّ على خديه ، وكلُّه  
حسرات ولوعات .

ومر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بكاء الشعراء للمدن ، حين تنزل بها  
صواعق النهب والحريق ، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون ، وبكوا البصرة حين  
هجم عليها الزنج فى أواسط القرن الثالث ودمروا مساكنها وفتكوا بأهلها . وكانت كارثة  
هذا العصر أعظم وأطم ، ونقصد تدمير المغول لبغداد فى سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها  
نحو مليون أو يزيدون ، وأشعلوا بها الحرائق وأعملوا النهب حتى فى الكتب  
والمكتبات ، وكان ذلك دماراً فظيعاً لما كان بها من حضارة عربية وحرارة علمية ، أو قل  
كان ذلك أفولاً لنجمها الذى طالما تألقت فى سماء البلاد العربية جميعاً ، وطبيعى أن نجد من  
شعراء إيران من يبكون المدينة العظيمة ، وفى مقدمة من بكأها منهم الشيخ سعدى  
الشيرازى المتصوف الفارسى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة ، وهو يشهر  
بكتاباتهِ الصوفية الفارسية التى يمثلها كتاباه : جُستَّان وبوستان ، غير أشعار فارسية وعربية



كثيرة ، وقصيدته <sup>(١)</sup> في دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلها بقوله :  
 حبستُ بجفني المدامعَ لا تجرِي فلما طغى الماء استطال على السكر <sup>(٢)</sup>  
 ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه ، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على  
 علماءها الراسخين في العلم وكيف تبكى المخابر أتمتها وجهابذتها ، وهو يندب ويبكى  
 ويذرف الدموع ، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلاً :  
 أيا ناصحي بالصبرِ دَعْنِي وَزَفَرْتِي أوضاعُ صَبْرٍ والكِبُودُ على الجَمْرِ  
 ويقول تحولت دجلة دماً قانياً ، ويرثي الخليفة الشهيد : المستعصم والشهداء الأبرار  
 ويهتهم بالفردوس ، ويتحدث عن سبايا المسلمين ، والمغول يسوقونهم في الصحراء .  
 والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربي المجيد وكيف وقعت  
 فريسة لذئاب المغول الكاسرة .

ولم نتحدث حتى الآن عن مرثي الشيعة للإمام علي بن أبي طالب والحسين ،  
 ولا ريب في أنها كانت كثيرة ، إذ انتشر التشيع في إيران منذ عصر بني بويه ، واعتاد  
 الشيعة أن يعقدوا سنوياً مأمناً كبيراً في يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينة  
 لاستشهاده ، وكان الشعراء يرثون الحسين في تلك الذكرى القائمة مرثي كلها أنين  
 وزفرات . ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة في رثاء الحسين ،  
 ونراه يألّم المأشديداً لهذه الجريمة البشعة ، التي مثل فيها بحفيد رسول الله ﷺ ، وهو يكرر  
 في مرثيه الأنين والبكاء والدمع المردار . وله شعر كثير في فضائل علي بن أبي طالب يدخل  
 في الشعر الشيعي بعامة ، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلي بن أبي طالب  
 المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته في الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه في الخلافة .  
 ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدي المحتفي ورجعته ليرد حق أسرته الضائع  
 ويعيد سنن الشريعة . والأشعار المتصلة به تغرق لا في الرثاء ، بل في المديح ، مثل الأشعار  
 المتصلة بالإمام علي ، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان ، وخير قصيدة تصوره  
 قصيدة بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة ، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته  
 وظله <sup>(٣)</sup> . وتوقف قليلاً عند شاعر شيعي من شعراء الرثاء .

(١) متني وسعدى للدكتور حسين محفوظ  
 (٢) السكر : ما سُدَّ به النهر .  
 (٣) انظر الكشكول للعاملي (طبعة الحلبي) ١/١٧٦ .  
 (طبع طهران) ص ٧٣

### أبو الحسن<sup>(١)</sup> علي بن أحمد الجوهري الجرجاني

نشأ بجرجان ، واجتذبه الصاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبه من أدياء عصره وشعرائه ، ونراه يقرّبه منه ويرفع مكانته عنده . ويتخذة في ندمائه . وتستهل ترجمته في اليتيمة برسالة كتبها إلى أبي العباس الضبي نائب الصاحب في أصبهان يُشيد فيها به ، ويقول إنه يحسن الشعر في اللسانين العربي والفارسي كما يحسن النثر . ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام ، كما يقول الثعالبي ، حتى يلبي نداء ربه ، ويقول من ترجموا له إنه توفي سنة ٣٨٠ . ولا يذكر له الثعالبي شيئاً من شعره الشيعي ولا من رثائه للحسين ، ومما يُروى له في بكاء الحسن قوله :

أهل الكساء صلاة الله نازلةً عليكم الدهر من مثنى ووحدان  
أتم نجوم بني حواء ما طلعت شمسُ النهار وما لاح السَّكانِ

ويشير الجوهري بفكرة الكساء إلى ما يُروى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام علي والحسن والحسين كساء ، وقال : نحن أهل البيت . . ويشير الجوهري في القصيدة إلى مقتل الحسين وسياء كل من كانوا معه من أهله ، وله مرثية أخرى للحسين يبدوها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكيةً نادياً قائلاً :

يا أهل عاشورَ يالهي على الدين خذوا حدادكم يا آل ياسين  
اليوم قام بأعلى الطفّ نادبهم يقول من ليتيمٍ أو لمسكين  
يا عينُ لا تدعى شيئاً لغادية تَهْجِي ولا تدعى دمعاً لمخزون  
يا آل أحمد إن الجوهريّ لكم سيفٌ يقطع عنكم كلّ مؤذون<sup>(٣)</sup>

والأبيات تصور المأساة تصويراً مخزناً ملثاعاً . والطف هو الموضع الذي استشهد فيه الحسين ، والجوهري لا يرقأ دمه ، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكف ولا تجفّ ، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوي الطاهر .

وينشد الثعالبي للجوهري أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبي العباس الضبي ولبعض الوجهاء ، كما تتصل بالغزل وتتصوير بعض الأطعمة وبهجاء بعض الأشخاص ، وله خمريات طريفة يمزجها بالحديث عن الطبيعة ، كقوله في

(١) انظر في الجوهري اليتيمة ٢٧/٤ وأعيان الشيعة ج ٤١ ص ٤١ وأدب الطف أو شعر الحسين لجواد شير (طبع)  
(٢) الموضوع : الدرع المشوج .  
بيروت) ١٣٠/٢ وما بعدها

دعوة بعض أصدقائه إلى الصُّبوح :

شجرٌ مُدَنَّفٌ وجوٌّ عليلٌ      وصباحٌ يميل كالنَّشوانِ  
صاحٍ إن الزمان أقصرُ عمراً      أن يُراعِ المني بصرفِ الزمانِ  
رقٌّ عنى ملاحفُ الليل فانهضُ      برقيقٍ من صوبِ تلك الدَّنانِ  
كعصيرِ الحدود في يققِ الأو      جه أو كالدموع في الأجفان<sup>(١)</sup>

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة في التصوير ، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته ، وأن يأتي بصور مبتكرة ، على شاكلة قوله :

صكَّ النسيمُ فراحَ الغيثُ فانزعجتُ      ينفُضنَ أجنحةً من عنبرِ الرِّغَبِ  
ويقول الثعالبي : لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس ، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كمشعيرات الريش المتطايرة .

## ٥

### شعراء المهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعراء يريشون سهام المهجاء في هذا العصر كما كانوا يريشونها في العصور السابقة ، تارة يسددها بعضهم إلى صدور بعض ، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم . وقد تُسَدَّد إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً ، مجرد أنه تأخر في جائزة شاعر ، أو لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر ، أو لأنه أسخطه لأي سبب من الأسباب . ومربنا أن الصاحب بن عباد وزير بني بويه كان ينال عليه المديح انهبالاً لكثرة ما كان يُعَدِّقه على الشعراء ، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مئات ، ومع ذلك كان لا يسلم من ألسنة بعضهم مثل أبي العلاء الأسدی ، وكان كما يقول الثعالبي قديم الصحبة له ، شديد الاختصاص به ، ممتد العرة والتنجيل في شعرائه وصنائعه وندمائه . وكان يودّه ويأنس به ويكاتبه نثراً ونظماً . وإليه كتب : « أبا العلاء شيخى أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتها العهاد (الأمطار) . . وأين كتبك التي هي ألد من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين في إغفائها » . ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً ، فأسرع يهجوه بقوله<sup>(٢)</sup> :

(٢) البيمة ٢٧٧/٣

(١) اليقق : شدة البياض .

إذا رأيتَ مُسَجِّيَ في مَرَقَعَةٍ يَأوِي المَسَاجِدَ حَرًّا ضُرَّهُ بَادِي  
 فَاعْلَمْ بِأَنَّ الفَتَى المَسْكِينِ قَدْ قَدَفَتْ بِهِ الخُطُوبُ إِلَى لُؤْمِ ابْنِ عِبَادِ  
 وهو يصفه باللؤم ، ويصغر من جوده الذي شاع عنه في سخرية مرة . وانتقم  
 للصابح من أبي العلاء الأسدي زميل له من الشعراء يسميَّ عبدان الأصبهاني جعله عُرْضَةً  
 وهدفاً لأهاجيه ، ومن قوله فيه (١) :

أبا العلاء اسكتْ ولا تُؤذِنَا بِشَيْنِ هَذَا النَسْبِ البَارِدِ  
 وَتَدَّعَى فِي أَسَدٍ نَسَبَةً لَا تَثْبُتُ الدَّعْوَى بِلا شَاهِدِ  
 أقم لنا والدَّةَ أَوْلَا وَأنتَ في حِلٍّ من الوالدِ

وهي سخرية لاذعة . ومن كبار الهجائين في أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن  
 اللِّحَام ، وفيه يقول الثعالبي : لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه ،  
 وكان لا يهجو إلا الصدور ، وفي مقدمتهم البلعمي وزير السامانيين وفيه يقول (٢) :

وزارةُ البلعميِّ متقلبهٌ وهو كَقَفَلِ غدا على خريَّة  
 لم يَرِّعَ للأولياءِ حُرْمَتَهُمَ فيها ولا للوجوه والكتبة  
 فهو أحقُّ الوريِّ بداهيةً تضحى لها رأسه على حَسَبِ

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مثله للناظرين ، وكان عبدان آف الذكر يستثيره كثيراً  
 فما زال يفكر في أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام ، وهداه طول تفكيره إلى قوله فيه (٣) :

عبدانُ هامتهُ للصفعِ معتادهُ لاسيَّما من أكفِّ السادةِ القادةِ  
 كأنَّ أيدى النَّداميِّ في تناولها أيدى صِيامٍ إلى كيزانِ برَّادهِ  
 والبرَّادةُ : إناء يبرد الماء . وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً  
 عند بعض الشعراء حدًّا يجعلهم يعتمونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد ، فإذا هم  
 يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودي الرازي في قوله (٤) :

لا يصحبنَّ ملوكنا إلا امرؤٌ لِيصَّ مغنٌّ مُفلسٌ قَوادٌ  
 فلهُ لديهمُ زُلْفَةٌ ومنالَةٌ ولن تخرَّجَ واستعفَّ كسادٌ

والبيتان بمسخان الملوك حيثئذ مسخاً . وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها ، ويخيل  
 إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلطوا عليها سهام هجائهم ، وقد يتعرضون لصفة في

(٣) البيمة ١١٢/٤

(١) البيمة ٢٩٨/٣

(٤) تمة البيمة ١٢٣/١

(٢) البيمة ١٠٨/٤

الشخص ذميمة ، فيهجونه بها ، كصفة الحمق ، ولا بن حَسُول يهجو المتكبرين عليه (١) :  
 دخلتُ على الشيخ فيمن دَخَلُ فغربَلُ عَصَصُهُ وانتَحَلُ (٢)  
 وأظهر من نخوة الكبرياء مالم أقدرُ ومالم أخلُ  
 فقلتُ له مؤثراً نُصَحَهُ وقد يُقْبَلُ التُّصَحُّ ممن نَحَلُ  
 إذا كنتَ سيدنا سُدَّتْنَا وإن كنتَ للخال فاذهبُ فَخَلُ  
 أخلَّ بحقَّ دُهَاهِ الرَّجَالِ فإزال يُصَفَعُ حتى أخلَّ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف ، وقد دخل عليه فلم يقم له ، وكأنما هم أن يرفع نفسه وعصصه أو مؤخرته ، ثم تخلى عن ذلك وتمكّن من مجلسه ، فعرف أنه متكبر متعظم ، وهو مالا يكاد يظنه ، فحاول أن ينصحه نصيحة من نخل القول وعرف صوابه وخطأه ، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقاً سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخلّ عنك ، غير أنه لم يستمع نصحه فإزال يُصَفَعُ ، حتى أصابه الخلل .

وكان الفخر في هذا العصر يرافق الهجاء كما رافقه في العصور السابقة ، وقلما يحسن الشعراء أميراً أو وزيراً أو قائداً إلا وهو يفتخر بنفسه ، وفي كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بني بويه ، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر . ويلقانا فخر كثير للشعراء ، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها ، من مثل قول علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المديح (٣) :

ألا إنني أرمى بكلِّ بديعةٍ يَبْتَنُ بِالْبَابِ الرَّجَالِ لواعبا  
 تسيروا ولم ترحلوا ، وتدنوا وقد نأتْ وتُكْسَبُ حُفَاظَ الرَّجَالِ المراتبا  
 ترى الناسَ إما مُسْتَهَامَا بذكرها ولُوعًا وإما مُسْتَعِيرَا وغاصبا

فأشعاره كلها - في رأيه - بدائع وطرائف ، تنتشر في الناس حتى أقاصى الأرض ، لكثرة روايتها والمعجبين بها ، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة . وكثر الفخر في العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة الحصول والتعمق في الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة .

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ، وهي شكوى قديمة ، غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة ، لما شاع فيه من كثرة البؤس والضنك في حياة

١) ما ليس له .

(١) ذميمة القصر ١/٤١٥ .

(٢) العصص : نهاية العمود الفقاري ، وغريلة

(٣) اليتيمة ٤/٢٠

العصص : تمكته في الجلوس . انتحل : ادعى لنفسه

الشعب ، فضلاً عن الشعراء . ودائماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا يتصله الجوائز الكبيرة ، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره ، فتظلم الدنيا في عينيه ، ويرأها سواداً في سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له . ومثله العالم الفاضل الذي يرى علمه كاسداً ، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقبّل الأبواب ، فبؤساً للعلم يكون هذا جزاءه ، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه . ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وهما أروع ما صنّف في البيان العربي ، وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فحج ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه في نعم الحياة محلّفين له البؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله (١) :

هذا زمانٌ ليس فيه سوى النذالة والجهالة  
لم يرق فيه صاعداً إلا وسلمه النذالة

وأقرأ في اليتيمة ودُمية القصر والخريدة فستجد سيول هذه الشكوى تتدافع من كل جانب . وكثيراً ما كان يحدث لأمر أن يُسَلَب سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء ، فكان منهم من ينظم الشعر يُودعه شجونه ، ومرت بنا مأساة قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان إذ عزلته عن سلطانه حاشيته وألقت به في غياهب السجون بإحدى القلاع حتى مات لوعة من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، فمضى يشكو شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه ، بل مع غير قليل من الصلابة ، على شاكلة قوله (٢) :

قُلْ للذي بِصُروفِ الدَّهْرِ عَيْرِنَا      هل حاربَ الدهرُ إلا مَنْ له خَطَرُ  
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جِيفُ      وتَسْتَقِرُّ بأقصى قَعْرِهِ الدُّرُورُ  
فإن تكن عبثتْ أيدي الزمان بنا      ومسنًا من تَمادى بؤسه ضَرُورُ  
ففي السماء نجومٌ مالها عدَدٌ      وليس يُكسَفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد ، فالزمان كله بؤس وتعاسة ، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم ، بل كلهم أحساء أذال ، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التيمي الجرجاني (٣) :

ما في زمانك ماجدٌ لو قد تأملتَ الشواهدُ  
فاشهدْ بِصِدْقِ مقالتي أولاً فكذبني بواحدُ

(٣) الدمية ٢/٢٨

(١) الدمية ٢/١٨

(٢) اليتيمة ٤/٦١ وابن خلكان ٤/٨٠

فهو لا يرى في الدنيا ما جدا واحدا ، وكأنما الناس كلهم أشرار ، ليس فيهم من تجد عنده شيئاً من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة ، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة . ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمي والأبيوردى .

### أبو بكر<sup>(١)</sup> الخوارزمي

أصله من طبرستان ومولده ومنتشؤه خوارزم ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف ، وقد فارق موطنه في ريعان شبابه ، وأقام بالشام مدة . وهو أحد الشعراء والكتاب المجيدين في عصره ، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته ، رحل إلى الشام والعراق وبخارى ونيسابور وسجستان ، ثم قصد صاحب بن عباد ، فأكرمه وأعلى منزلته ، وغمره بما كان سبباً لثرائه وارتياشه ، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عقاراً وضياعاً ، وكان لا يزال يأتيه رسم أوراتب من قبل صاحب منذ انصرافه عن حضرته . وكان ذلك سبباً في أن يتعصب تعصباً شديداً للبويهيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى ، وناله من ذلك بعض السوء ، لولا توسط صاحب بن عباد له عند بعض وزرائهم . وكان شيعياً وكانت نيسابور سنية ، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الهمداني على بلدتهم ، فعقدوا مناظرة بينها انتصروا فيها للبديع ، وتصادف أن توفي الخوارزمي عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه . وقد خلف الخوارزمي ديوان رسائل كبير وهو مطبوع ، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن ، غير أن في كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره في النسب والغزل والمديح والمرثي وفي فنون مختلفة في مقدمتها الهجاء ، وكان طبيعياً أن يصبه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه ، أو صادروا ، بعض ماله وزجوا به في سجونهم ، وأفرجوا عنه ، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله :

جَزَى اللهُ عَنِ أَهْلِ سَامَانَ مَا أَتَوْا      وَفِي اللهِ لِلثَّارِ الْمُضَيِّعِ طَالِبُ  
هُمْ زَوْجُونِي الِهِمِّ بَعْدَ طَلَاقِهِ      وَذَلِكَ عُرْسٌ لِلْمَاتَمِ جَالِبُ  
وَأَنْحُوا لِزَّرَعِي بِالْحِصَادِ وَأَنْضَبُوا      مِيَاهاً لَهَا أَيْدِي سِيَوَاهِمِ مَذَانِبُ  
أَمْحُصِدُ أَيْدِيكُمْ وَزَيْرِعَ غَيْرِكُمْ      فَأَنْتُمْ جَرَادُ وَالْمَلُوكُ سَحَابُ  
فهم يحصدون ما زرعه آل بويه ووزرائهم ، ويأكلونه ناراً ، وكأنهم جراد منتشر

(١) انظر في الخوارزمي وشعره اليتيمة ١٩٤/٤ وابن خلكان ٤٠٠/٤ والوفاء بالوفيات ١٩١/٣ والشذرات دارالمعارف) ص ٢٣٠ وما بعدها

يصيب البلاد بالخراب والوبال بينما البويهيون سحائب غيث منهلة ، تروى من يعيشون في بقاعهم القريبة وفي بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين . وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنين ، غير أنه اكتفى في هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ في توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق ، يقول :

ملى رأيتُ بنى العباسِ قد فتحوا من الكُنى ومن الألقاب أبوابا  
 قلَّ الدراهمُ في كَفَى خَلِيفَتِنَا هذا فأنفقَ في الأقوام ألقابا

ولا شك في أنها تدل على ما أصاب المجتمع في إيران وغير إيران من تدهور ، وكان يغيظ الخوارزمي الشيعي المتعصب لتشييعه الغالى في تعصبه أن يرى أحياناً فقيها يلحق ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المشيعة ناصية فيدعى عليه أنه من القائلين بالمجبر ويهتف .

مُجْبِرٌ صَبِرَ ابنه ناصياً مجبراً مثله وتلك عجيبة  
 والمجبر الذى يقول بالمجبر وأن الإنسان لا حرية له في فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة في يد القدر يوجهه كيف شاء . وأسخطه طاهر بن شار الطبرستانی ، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله :

لله في كل ما قضاه لطائفٌ تحتها بدائعُ  
 سُبْحَانَ من يُطْعَم ابن شارٍ ويترك الكلبَ وهو جائعُ

وهو إقذاع مرير ، فقد جعله دون الكلب وأقل منه ، وحتى يد الصاحب بن عباد الذى طالما أسبغ عليه من نواله ، بل لقد جعل له راتباً معلوماً ، كما قدمنا ، يصلة في نيسابور ، نجده يحدشها بل يعضها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه ، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له ، فإذا هو يذمه ذمّاً قبيحاً قائلاً :

لا تحمدنَّ ابنَ عبادٍ وإن هَظَلتْ يَداه بالجود حتى أَخَجَلَ الدنْيَا  
 فإنها خطراتٌ من وسأوسِهِ يُعْطَى ويمنع لا بُحْلاً ولا كَرَمًا

فعطاياه التى طَبَّقَت الشعراءُ في إيران وغير إيران إنما هى وسأوس وهو اجس تلمُّ به أحياناً . وهو كفران شديد للمعروف ، وكأنها طبيعة للخوارزمي أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلمه وشعره ، ويحمله سوط عذاب ينزل به حتى على ولئى نعمته . ونراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله في رثاء صديق ، حدث بينها ما يوجب شيئاً من العتاب ، فإذا هو يضحك عتابه ويحمله هجاء قائلاً :

بكيتُ عليك بالعين التى لم تنزل من سوء فعلك بي تجودُ



فها أنا ذا المهتأ والمعزى وها أنا ذا الشقى بك السعيد  
وما أصبحت إلا مثل ضرس تاكل فهو موجود فقيد  
ففي تركي له داء دوى وفي قلعي له ألم شديد  
وطبعي لمثل الخوارزمي الذي كان ينشب أظفاره في الحكام والأصدقاء والناس أن  
يتبرم بهم جميعاً وبدنياه وبالدهر ، حتى ليقول :

لا تشكر الدهرَ لخيرِ سببه فإنه لم يتعمد في الهبة  
وإنما أخطأ فيك مذهبهُ كالسَّيلِ إذ يسقى مكانا خربة

وله وراء ذلك كله مدائح في البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات  
ووصف للطبيعة وورودها ورياحينها . وفتح الثعالي له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته  
أشعار غيره في شعره ، وهم يمتدّون على الحقب من العصر الجاهلي حتى عصره .

### الأيوردي<sup>(١)</sup>

هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، من أبناء معاوية بن محمد حفيد عنبسة بن  
أبي سفيان بن صخر بن حرب الأموي ، مولده ومنشؤه بأيورّد في خراسان ، وقد تفقه على  
إمام الحرمين الجويني بنيسابور ، وله فيه مدائح بديعة . وسمع عبد القاهر الجرجاني ، ولعل  
له أثر في رهافة ذوقه الأدبي . وأكب على المعارف يحصلها ، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد  
يصنف كتباً مختلفة في الأنساب وغيرها . وفتح له الشعر والأدب العمل في دواوين  
السلاجقة في بغداد وأصفهان وغيرها من بلدانهم . ويبدو أنه ظل في بغداد طويلاً ، إذ  
يروى عنه أنه قال : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعي على العربية ، وبعد أن  
أرتضخ لكمة أعجمية . وفي بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك ، فلما عادى  
هذا الوزير عميد الدولة بن منوچهر هجاء الأيوردي ، فدرس عليه عند الخليفة أنه هجاء  
ومدح صاحب مصر الفاطمي . وخشى الأيوردي على نفسه فترك بغداد إلى همدان حتى  
سكن جأشه وهدأ روعه . وتدل على الحقبة التي أمضاها ببغداد قصائده في الخليفة المقتدى  
(٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة . ويقول بعض الرواة إنه إنما هجر بغداد

(١) انظر في الأيوردي وشعره معجم الأدباء ١٩٦/٣ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ١٢٤١/٤  
وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ١٨/٤ وإنباه ٢٣٤/١٧ وابن خلكان ٤٤٤/٤ والوفاء بالوفيات ٩١/٢  
والسبكي ٨١/٦ والمتنظم ١٧٦/٩ والنجوم الزاهرة ١٥١/١٠ ، وابن الأثير ٢٨٤/١٠ ومرآة الجنان

لأنه كان يَرشَحُ من كلامه نوع تشييب بالخلافة التي كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة . فاضطرَّ إلى مفارقتة بغداد إلى همدان ، وبقى فيها مدة يدرس ويفيد ويصنّف . وقال العماد في الحرّيدة : تولى في آخر عمره أشرف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١ هـ) ، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانتة قدماه وتوفى على الأثر ، فحُمِلَ إلى منزله بأصفهان ، ويقال : بل لم يُسَقَ السم ، وكل ما في الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابه الفزع فارتعد وسقط ميتاً .

ويعُدُّ الأبيوردي من أشهر شعراء هذا العصر ، وديوانه كبير ، وقد وزعه على أقسام ، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات . وله شعر كثير في الفخر بنسبه الأموي وبيان فضله وحقه في الخلافة ، ويقولون إنه كان إذا صلى قال : اللهم ملّكني مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل لهذا الهوس فيه هو سبب حتفه على يد السلطان محمد ، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله :

يا مَنْ يُسَاجِلُنِي وَلَيْسَ بِمَدْرِكٍ	شَاوِي وَأَيْنَ لَهُ جَلَالَةٌ مَنصِبِي
لَا تَتَعَيَّنُ فَدُونَ مَا أَمَلْتَهُ	خَرَطُ الْقَتَادَةِ وَامْتِطَاءُ الْكُوكَبِ (١)
وَالْمَجْدُ يَعْلَمُ أَنَّنَا خَيْرٌ أَبَا	فَاسْأَلُهُ تَعْلَمُ أَيَّ ذِي حَسَبٍ أَبِي
جَدِّي مَعَاوِيَةَ الْأَغْرَ سَمَتْ بِهِ	جُرْثُومَةٌ مِنْ طِينِهَا خُلِقَ النَّبِيُّ
وَوَرِثْتُهُ شَرَفًا رَفَعَتْ مَنَارَهُ	فَبِنُو أُمِّيَّةٍ يَفْخَرُونَ بِهِ وَبِي

وهي صورة جامحة من الاعتداد بالآباء ، وأين بنو أمية في القرن الأول الهجري منه في القرن الخامس ؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول ﷺ من بني هاشم ؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو . وهو لا يتوقف عند هذا الحد في فخره العريض ، إذ يسوقه في شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول :

النَّاسُ مِنْ خَوَلِيٍّ وَالدهْرُ مِنْ خَدَمِي	وَقِمَّةُ الْمَجْدِ عِنْدِي مَوْطِئُ الْقَدَمِ
وَالنَّسْرُ يَتَّبِعُ سَبِيحِي حِينَ يَلْحَظُهُ	وَالدهْرُ يُنْشِدُ مَا يَهْمِي بِهِ قَلْمِي
لَوْ صِيغَتِ الْأَرْضُ لِي دُونَ الْوَرَى ذَهَبًا	لَمْ تَرْضَها لِمَرْجِي نَائِلِي هِمَمِي
وَعَنْ قَلِيلٍ أَرَى فِي مَازِقِ حَرَجِ	بِهِ تُشَامُ السَّرِيحِيَّاتِ فِي الْقِمَمِ (٢)
وَالْبَيْضُ مُرْدَقَةٌ تَبْدُو خِلَاحِهَا	فِي مَسْلِكِ وَحَلِيٍّ مِنْ عَبْرَةِ وِدَمِ

(١) القتادة : نبات له شوكة كالإبر ، وفي المثل : « من شديدة .

دونه خرط القتادة » يضرب للشيء لا ينال إلا بمسحة (٢) تشام : ترى . السريحيات : ضرب من السيوف

فالجُدُّ في صهوات الخيل مطلبه والعزُّ في ظبة الصمصامة الخدم<sup>(١)</sup> وهو يحلم حلماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تُسبى فيها النساء النادبات لأزواجهن وأبنائهن وأهلهن، وتجوّل وتصول فيها الخيل مردية للأقران، ونسور الفلا تتبعه لتأكل من أشلاء قتلاه، والدهر ينشد مجده الحربي شعراً حاسياً ملتهباً. وطبيعي أن يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذي لا ينيله مطامحه، وهي

شكوى تتمتج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلته قوله :

تتكر لي دهري ولم يدّر أنني أعزُّ وأحداثُ الزمان تهونُ  
فبات يُرِينِي الخطبَ كيف اعتداؤه وَبِتُّ أُرِيهِ الصَّبْرَ كيف يكونُ

وهذا الجانب في الأبيوردي واعترازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجرة على بيت المقدس، وهو استشعار يُحمدُ له، فإنه أحسن الكارثة التي نزلت بالإسلام وأهله، حين دنس الصليبيون بأقدامهم الحرم القدسي، فصاح بأعلى صوته يهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حياهم المستباح في قصيدة طويلة يقول فيها :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم  
وكيف تنام العين ملء جفونها  
وإخوانكم بالشام يضحى مقليلهم  
وكم من دماء قد أبيضت ومن دمي  
أترضى صنائيد الأعراب بالأذى  
فليتهم إذ لم يذودوا حمية  
فلم يبق منا عرضة للمراجم<sup>(٢)</sup>  
على هفوات أيقظت كل نائم  
ظهور المذاكي أوبطون القشاعم<sup>(٣)</sup>  
توارى حياء حسنها بالمعاصم  
ويغضبي على ذل كرامة الأعاجم  
عن الدين صنوا غيرة بالمحارم

والقصيدة استفار قوي للمسلمين من العرب والأعاجم كي يقفوا سداً منيعاً دون حياهم وحمى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يذيقوا الصليبيين وبال حربهم ويردوا كيدهم إلى نحرهم، وهي أولى القصائد التي أخذت طوال قرن تصوب آياتها، بل سهامها، إلى صدور أعداء الإسلام، حتى استطاع صلاح الدين أن يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم، وكان حقاً على الله نصر المؤمنين.

وللأبيوردي وراء ذلك مدائح كثيرة في الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها،

(٣) المذاكي : الخيل . القشاعم : النسور .

(١) الصمصامة : السيف . الخدم : القاطع

(٢) المراجم : القبيح من الكلام .

وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها في مطالع الفصل التالي ، وكانت له مرثية بديعة للحسين تحدث عنها ياقوت ، غير أن ديوانه خلا منها ، كما خلا من مرثيته للغزالي ، التي أشار إليها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان . وله بيتان طريفان في هجاء أبي النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي ، وكان شاعراً ، ويستعمل في شعره لزوم ما لا يلزم الذي اشتهر به أبو العلاء في لزومياته ، فقال فيه :

شعر المِراغِيَّ - وَحُوشِيَّتِمُ - كَعَقَلِهِ أَسَلَمَهُ أَسَقَمَهُ  
يَلْزِمُ ما ليس له لازماً لكنّه يترك ما يَلْزِمه

والسخرية واضحة ، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر والأخيلة وفنون البديع ، بينما يُعْرِفه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء في الشعر بروى واحد ، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً في صنع الشعر ونظمه .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حاراً متدفقا طوال هذا العصر ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يَشُدُّ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه ، لا يشدُّ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد . وظل للغزل لونه المتقابلان على مر العصور : الغزل المادى والغزل العُدْرى العفيف ، وكان طبيعياً أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجوارى وكان كثيرات منهن يحسنّ الغناء ، فلأن قلوب الرجال شغفا وهياما . وقرأ في تراجم الشعراء لهذا العصر فستجد دائماً مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جمال معنى وجمال صورة وجمال صوت ، على شاكلة قول ابن العميد <sup>(١)</sup> .

ظَلَّتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي  
فَأَقُولُ وَاعْجَباً وَمِنْ عَجَبِ شَمْسٍ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

وهى صورة بديعة لما فيها من لفت قوى إلى جمال صاحبتة ، وكان خليفته فى وزارته الصاحب بن عباد أشعر منه ، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبي طائفه من المقطوعات ، من ذلك قوله <sup>(٢)</sup> :

قَالَ لِي إِنَّ رَقِيبِي سَيِّئُ الْخُلُقِ فَدَارِهِ  
قَلْتُ دَعْنِي وَجْهَكَ الْجَنَّةُ حَقَّتْ بِالْمَكَارِهِ

وواضح أنه عمد فى البيت الثانى إلى الاقتباس من الحديث النبوى : « حَقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله . وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية .

وكانوا يتورطون أحيانا فى الغزل بالغلان ، وهو وصمة فى جبين العصر ، تضاف إلى

(٢) البيمة ٢٥٤/٣

(١) البيمة ١٧٨/٣

مثلتها في العصر العباسي ، وربما كانوا ينظمونه تندراً ودعابة ، أو تقليداً لأسلافهم ، وهو تقليد بغیض . ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نحو هذا النوع المقيت عن غزلم ، مؤثرین أن یطبعوا أشعارهم بطوابع الغزل العفیف الطاهر الذی لا يعرف المتاع المادی للحب ولا اجتناء ثمراته من العناق و غیر العناق ، إنما يعرف نیرانه المحرقة كما يعرف الحب الظامی الذی لا یروى صاحبه أبداً ، فداًماً فراق وداًماً حنین واشتیاق ، ودعاء كما قال أبو العلاء الأسدی (١) :

شئتوا بالفراق شئلي ولكن جمع الله شملهم أين كانوا  
وكثيراً من هذا الغزل العذري كان يصوغه العلماء والفقهاء صورةً لظاهرة نفوسهم  
ونقائهم وما يتجشمون في الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شيء من الغريزة  
النوعية ، فقد تساموا عن الحس وكل ما يتصل بالحس . ويكثر في هذا الغزل الحنين  
المستمد من حنين العذريين ، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحشرات من الفراق والشوق  
إلى اللقاء . وربما لم يكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبيوردی ، فقد جعل للنجديات  
أو الغزل النجدی العذري قسماً مستقلاً من أقسام ديوانه الكبير ، ومن نجدياته :

نزلنا بَنَعْمَانَ الأراكِ ، وللندى سَقِيطٌ به ابتلت علينا المَطَارِفُ (٢)  
فبتُّ أَعَانِي الوَجْدَ والركبُ نُومٌ وقد أخذتُ مني السرى والتنائفُ (٣)  
وأذكر حَوداً إن دعاني على النوى هواها أجابته الدموعُ الذوارفُ  
لها في مغاني ذلك الشَّعبِ منزلٌ لئن أنكرته العينُ فالقلبُ عارفُ  
وقفتُ به والدمعُ أكثره دمٌ كأنِّي من جَفْنِي بَنَعْمَانَ راعفُ (٤)  
وعلى نحو ما يجعلون محبوبتهم نجدية يجعلونها ممنعة ، فحولها أسدً يجمونها ، بحيث  
لا يستطيع الحب الوهوان أن يلقاها أو يقرب من حياها ، فدونها الموت الزُّوم ، وفي ذلك  
يقول الطُّغْرَائِي في لاميته (٥) :

إني أريد طُروقَ الحَيِّ من إضْمٍ وقد حَاهُ رُمَاةُ الحَيِّ من تُعَلِّ  
يجمون بالبيض والسُّمر اللداني به سود الغدائر حُمَر الحَلِّي والحَلِّ  
فالحبُّ حيث العِدا والأسدُ رابضةٌ حول الكِناسِ لها غابٌ من الأسَلِ  
فهو يريد الإلمام بحى معشوقته في إضم ، فيرى دون ذلك أهوالاً ، فقد حياه رماة من

(٣) التنائف : المفازات . السرى : السير ليلاً .

(٢) نَعْمَان : واد بين عرفات والطائف . الأراك : من

(٤) راعف : من الرعاف وهو الدم السائل من الأنف .

أشجار البادية ، المطارف : الثياب .

(٥) ديوان الطُّغْرَائِي ص ٥٤ .

عشيرة تُعل المشهورون منذ امرئ القيس مجذقهم في رمى السهام ، وهم مسلحون بالسيوف والرماح ، يحمون نساءهم الفاتنات ، الرابضات في الحدور وكأنهن ظباء في كِناس تحوطه غابة ضخمة من الرماح ، والأسد جُثومٌ ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب .  
وتقف عند شاعرين من شعراء الغزل في العصر .

### أبو الفرج<sup>(١)</sup> بن هندو

هو علي بن الحسين بن هندو ، وسقطت كلمة علي من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبي في تتمها . وكان من النابهين في الطب والفلسفة والأدب والشعر ، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة في المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة . وقد تتلمذ في الفلسفة والطب على يد أبي الخير بن الحمّار وكان من أجل تلاميذه ، ووفد على الصاحب بن عباد ، فقرّب به إليه ، وكان أحد كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة البويهى ، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بمرجان سنة ٤٢٠ . وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا ، ويقول الثعالبي : « هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رِقّ البلاغة والبراعة ، فردّ الدهر في الشعر وأوحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد ، ونظم القلائد والفرائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى : ( أفسِحِرْ هذا أم أنتم لا تبصرون ) » . ويُشَد له كثيراً من غزلياته وخاصة في التتمة ، من ذلك قوله :

تقول : لو كان عاشقاً دَنَفًا إِذْ نَ بَدَتْ صُفْرَةٌ بِخَدَيْهِ  
لَأَتُنْكَرِيهِ فَإِنْ صُفَّرْتَهُ غَطَّتْ عَلَيْهَا دَمَاءَ عَيْنَيْهِ

وهو برهان بديع ، وطبيعي لمن درس الفلسفة أن يحسن التعليل ، فصفرته متوارية في خَدَيْهِ ، تُوارِيها دَمَاءُ عَيْنَيْهِ . وتكثر هذه العلل الطريفة في غزله على شاكلة قوله :

عارضَ وَرْدُ الغصونِ وَجَنَّتَهُ فَاتَفَقَا فِي الجِمالِ واخْتَلَفَا  
يزدادُ بِالْقُطْفِ وَرْدُ وَجَنَّتِهِ وَيَنْقُصُ الوردُ كَلِمًا قُطْفًا  
فوجنة صاحبته وردها غريب ، ورد يزيده القطف ، إذ يزداد خدها به خجلا واحمرارا ، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبدا ولا تغيض حمرته ، بل لا يزال يولّد فيه

(١) انظر في ترجمة أبي الفرج بن هندو اليتيمة ٣/٣٩٤ أبي أصيبعة (طبعة مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٢٩  
وتتمة اليتيمة ١/١٣٤ والدمية ٢/٥٧ ومعجم الأدياء وفوات الوفيات ٢/٩٥ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي  
١٣٦/١٣ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن ٩٣-٩٥ .

القطف وردا لا ينتهى ، ويتلطف لصاحبة له قائلا :

أيا بدرا بلا كَلَفٍ به دونَ الوَرَى كلفى  
أَبْنُ لى دُرٌّ تُعْرِكُ ما بهاءُ الدرِّ فى الصَّدَفِ  
وواضح أنه يطلب إليها فى رقة أن تبسم له ، حتى تفتح له أبواب النعيم على  
مصاريعها ، وعلى مثال هذا التلطف قوله :

قُولاً لهذا القمر البادى مالِكَ إصلاحى وإفسادى  
زَوْدٌ قَوَاداً راحلاً قُبلةً لأبَدَ للراحِلِ من زادِ  
فكل مسافر لابد له من زاد ، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه : قبة من محبوبته ، تظلُّ  
تغذِّى مشاعره ، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة . ويحاول فى غزله دائماً أن يأتي بصور  
مبتكرة ، فيجلب كثيراً من الصور الغريبة كقوله :

ليس لى من أذى الفراق اكتئابٌ قد كَفَتْنى عيني جميعَ اكتئابى  
كلما شئتُ أسبَلْتُ دمَ قلبى فأرى فيه صورةَ الأحبابِ (١)  
فهو لا يكتب للفراق غيره من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتبوا ، إذ تردُّ عينه  
عنه اكتتابه بدموعها التى تنزف فيها دماء قلبه ، تلك التى يرى من خلالها صورة  
الأحباب ، فصورتهم لا تغادر دموعه . وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل  
وظلامه الداجى فإنه يناقضهم قائلاً :

ليت أن الليلَ دامتْ ظلمتهُ فلقد جَلَّتْ لدينا نِعْمَةٌ  
مَثَلَتْ صُدُغَيْكَ لى ظلمتهُ وأرتَ خَدَيْكَ عيني أَنجمَةٌ  
فهو يتمثل فى الليل محبوبته ، إذ يرى فى ظلمته حُصَلَ شعرها المنسدلة على خديها ،  
ويرى خديها فى نجومه المتألقة ، وهو بُعدٌ فى الوهم والتخيل ، وله :

قالوا اشتغلُ عنهمُ يوماً بغيرهمُ وخادعِ النفسَ إن النفسَ تنخدعُ  
قد صيغَ قلبى على مقدارِ حبِّهمُ فما لُبُّ سواهمُ فيه مَتَّعُ  
وهو ردُّ طريف على من يطلبون إليه السلوى عن بعض أحبابه بحبِّ سواهم ، فقلبه  
مشغول دائماً بهم وليس فيه مكان لغيرهم . وله معانٍ طريفة كثيرة فى موضوعات الشعر  
المختلفة ، من ذلك قوله فى بخيل :

لو ماتَ لم يأكلِ الطعامَ إذا ما كان ذاكَ الطعامُ من كيسِهِ  
ان لم نشاهد دُخانَ مطبخِهِ فقد شهدنا دخانَ تعبِيسِهِ

(١) أسبَلت : أسالت .



فهو لا يأكل من كيسه ، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا في خزنه ، ولم يشاهد أحد  
لدخانا يعلو مطبخه ، فدخانه دائماً يعلو وجهه ، تعبيس ما بعده تعبيس . ويقول في  
النهي عن اتخاذ الأولاد والافتناع بالوحدة :

ما لِلْمُعِيلِ وللمعالِ إنما يسعى إِلَيْهِنَّ الْوَحِيدُ الْفَارِدُ  
فَالشَّمْسُ تُجْتَابُ السَّمَاءَ وَحِيدَةً وَأَبُو بَنَاتِ النَّعْشِ فِيهَا رَاكِدٌ

وبنات النعش نجوم معروفة في السماء لا تكاد تريم ، تشاهد بالقرب من القطب  
الشمالي ويدعوه أباه . وله في الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرِّيِّ  
دون طائل :

ضِعْتُ بِأَرْضِ الرِّيِّ فِي أَهْلِهَا ضِياعَ حَرْفِ الرِّاءِ فِي اللُّغَةِ  
صِرْتُ بِهَا بَعْدَ بُلُوغِ المَنَى يَعجِبُنِي أَنْ أَبْلَغَ الْبُلُغَةَ<sup>(١)</sup>

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبي الفرج بن هندو وبراعته في نظم الشعر  
والإتيان فيه ، وخاصة في الغزل ، بالصور والمعاني الطريفة المتبكرة .

### أبو الفضل<sup>(٢)</sup> الميكالي

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وُجَّهَاء نيسابور ، وطالما عملوا مع السامانيين في  
دواوينهم وولاءة لهم على بعض البلدان ، ومرَّبنا تنويه الثعالبي بهم ، وفي أبي الفضل يقول :  
« الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة  
الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه  
كتابة وأتم بلاغة . ثم يورد الثعالبي قول بعض الشعراء في وصف بلاغته وحسن بيانه على  
هذا النمط :

لَكَ فِي الْحَاسِنِ مَعْجَزَاتٌ جَمَّةٌ أَبَدًا لَغَيْرِكَ فِي الْوَرَى لَمْ تُجْمَعِ  
بِحِرَانٍ : بِحِرِّ فِي الْبَلَاغَةِ زَانَهُ شِعْرُ الْوَلِيدِ وَحُسْنُ حِفْظِ الْأَصْمَعِيِّ<sup>(٢)</sup>  
وَإِذَا تَفَتَّقَ نَوَّرَ شِعْرَكَ نَاضِرًا فَالْحُسْنُ بَيْنَ مَرْصَعٍ وَمَرْصَعٍ  
أَرْجَلَتْ فَرْسَانَ الْقَرِيضِ وَرُضَّتْ أَفَّ رَلَسَ الْبَدِيعِ وَأَنْتَ أَمْجَدُ مَبْدِعِ<sup>(٣)</sup>

وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبي الفضل ، ويدكر ابن خلكان أنه دخل

(١) البلغة : ما يكتفي لسد الحاجة .

(٢) الوليد : البحرى

(٣) أنظر في أبي الفضل البيهقي ٣٥٤/٤ وفوات (٤) أفراس : ج فرس ، فرسان : ج فارس .

الوفيات ٥٢/٢ وابن خلكان ٢٠٢/٣ ، ١٠٩/٥

بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفاً يسمى المتخزل جمع فيه مختارات شعرية . ويروى الثعالبي له شعراً قاله في نكبة ، ويبدو أنه حُبس في عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين . وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره منها بُد في الغزل من مثل قوله :

لقد راعني بَدْرُ الدُّجَى بِصدودهِ      ووَكَّلَ أَجفاني بِرِغْمِي كواكِبِه  
فياجَزَعِي مَهلاً عساه يعود لي      ويا كبدِي صَبِراً على ما كواكِبُه

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصداً في قافيتي البيتين ، فكلمه «كواكبه» في البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمه «كواكبه» . وهذا هو البديع الذي يشير إليه مادحه . إذ شُغف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصنعة الجناس ، حتى ليروى الثعالبي في يتيمة أن شاعرا يسمى أبا حفص عمر بن علي المطوعي ألف في أجناس التجنيس كتابا ، ويقول الميكالي :

أُنكِرْتِ من أدمعِي      تَتَرَى سواكِبُها  
سَلِي جُفُونِي هل أَبْكِي      سواكِبُها

والبيتان خفيفان في موسيقاهما ، ولكنه أثقلها بهذا الجناس المتعمد في القافيتين : «سواكِبها» و «سواكِبها» . وقد يجعل الجناس بين كلمتين في البيت الواحد كقوله :  
وأصداعُهُ يَلْسَعُنِي كالعُقاربِ      وألحاظُهُ يَفْعَلُنَ فِعْلَ العُقارِ بي  
وقوله :

ألا ليت الجوابَ يكونَ خيراً      فَيَشْفِي ما أحاط من الجوى بي  
والعقاربِ الأولى في البيت الأول : جمع عقرب ، والعقار في نهاية البيت : الخمر ، والجوى في نهاية البيت الثاني : حُرقة الوجد ولوعته ، وقد أضاف إليها كلمة « بي » ليم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب في أوائله ، ويقول :

ظَبِي يَحارُ البَرِقُ في بَريقِهِ      غَنِيْتُ عن إبريقِهِ بِريقِهِ  
فلم أزل أَرشُفُ من رَحيقِهِ      حتى شَفِيْتُ القلبَ من حَريقِهِ

وقد أدخل على كلمة « ريقه » وهو رُضاب الفم الباء ليم له الجناس بين نهايتي الشطرين المتقابلين ، والجناس في البيت الثاني أكثر قبولاً إذ جناس بين « رَحيقه » و « حريقه » لتداخل الصورة معه ولأن الجناس ليس تاماً ، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلاً ، ويقول :

شافَهُ كَفِي رَشاً      بقبلةِ ما شَفَتِ  
فقلتُ إذ قَبَلُها      يا ليت كَفِي شَقَتِي

والجناس مقبول في البيت الثاني ، وربما الذي جعله مقبولا أن كلمة « كفى » هيأت له واستدعته ، فحفف التكلف فيه ، ولم تمجّه النفس ، ومثله قوله :  
 ماذا عليه لو أباح ريقه لقلب صب يشتكى حريقه  
 والجناس هنا بين « ريقه » و « حريقه » مقبول لأنه ليس جناسا تاما يبدو فيه القصد والتكلف ، وكأنه جناس طبيعي استدعاه الكلام ، وقارن ذلك بقوله :

صَدَفَ الحَبِيبُ بَوْضَلِهِ فَجَفَا رُقَادَى إِذْ صَدَفَ  
 وَنَثَرْتُ لَوْلُوَ أَدْمَعَ أَضْحَى لَهَا جَفْنَى صَدَفَ

فقد جنس بين قافيتي البيتين باستخدامه كلمة « صدف » الأولى بمعنى أعرض ، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة ، والتكلف شديد الوضوح . وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه في هذا الجناس الثقيل الذي كثيرا ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة ، ويقرب منه في هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأربى أبو الحسن أحمد<sup>(١)</sup> بن المؤمل ، وقد روى له منه الثعالبي أبياتا كثيرة في الغزل وغير الغزل . وللميكالي وراء غزله أشعار في وصف الطبيعة وفي الإخوان ، وله مداعبات ، ولا يخلوها أيضا من تصنعه ، كقوله :  
 فَتَى سَخَطَ النَّصَبَ فِي قَدْرِهِ كَمَا رَضِيَ الخَفْضَ فِي قَدْرِهِ  
 وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين في النحو ، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئا يطبخ ، كما رضى بالدون في قدره فلا كرم له ولا همة . ومن طريف ما روى له الثعالبي قوله :

كَمْ وَالِدٍ يَحْرِمُ أَوْلَادَهُ وَخَيْرُهُ يَحْطَى بِهِ الأَبْعَدُ  
 كَالعَيْنِ لَا تَبْصِرُ مَا حَوْطَهَا وَلَحْظُهَا يُدْرِكُ مَا يَبْعَدُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبي الفضل الميكالي ، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدا خصبها واضحا ، إذ كان غزير المعاني والصور . وليس من ريب في أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذي جعله يبالغ في ذلك ويغلو فيه .

## ٢

## شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشرا في إيران طوال العصر ، إذ كان هناك من ينغمسون في الملاهى والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروبا من مآسى الحياة وما فيها من اضطراب

(١) انظر ترجمته في البيمة ٤/١٤٨ .

القيم ، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة : سلاطينها ووزرائها . ومرت بنا أبيات لعضد الدولة في غير هذا الموضوع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب في المطر وغناء الجوارى في السحر . وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها في أشعارهم من مثل قول الصاحب بن عباد في وصف كأس مملوءة بالخمر<sup>(١)</sup> .

رَقَّ الزَّجَاجُ وِرَاقَتِ الخَمْرِ وتَشَابَهَا ، فَتَشَاكَلَّ الأَمْرُ  
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدْحٌ وَكَأَنَّمَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرٌ  
وكان كثيرا ما يحاكي الصنوبري في ثلجيته أو بعبارة أخرى في ذكره الخمر مع الثلج ونزوله في الشتاء القارس وفي ذلك يقول<sup>(٢)</sup> :

أقبلَ الثلجُ فانبسطَ للسرورِ ولشربِ الكبيرِ بعدَ الصغيرِ  
أقبلَ الجوُّ في غلائلِ نُورِ وتهادى بلؤلؤٍ منشورِ  
فكانَ السماءَ صاهرتِ الأَرَضَ فصارَ الثَّارُ من كافرِ

وكأنما يتصور الدنيا تجلو عروسا . وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيره من شعراء العصر ، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسائها في أيام الثلج وزمهريره ، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم في إيران منذ أعتق عصورها ، وظل ذلك طوال الحقب ، ويقول أبو عبد الله الروزباري<sup>(٣)</sup> :

ما لابنِ هَمٍّ سوى شربِ ابنةِ العنَبِ فهاتها قهوةً فَرَّاجَةً الكُربِ  
أدهقُ كئوسكُ منها وأسقي طرباً على الغيومِ فقد جاءتكُ بالطَّربِ<sup>(٤)</sup>  
نثارُ غيثٍ حكى لونَ العجانِ لنا فاشربْ على منظرٍ مستحسنٍ عَجَبِ  
جاد الغمامُ بدمعٍ كاللجينِ جرى فجدُّ لنا بالتي في اللونِ كالذهبِ

فهى فرحتهم ومسررتهم في دنياهم ، وهم يعبون منها أرطالا تلو إرطال حين يكفهر الجو بالسحب ، لما تبعث في النفوس من طرب في أيام الشتاء المفضضة ، التي تنتثر فيها الأمطار ، وكأنها نثار عرس مفرح ، نثار فضي مهيج ، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البستي المعروف بالغزال<sup>(٥)</sup> :

وإذا الهومُ تناولتْ فاطلبُ لها عيشاً هنيئاً بانتراعٍ مُدَامِ  
صَهْبَاءُ تَسْطَعُ في الكئوسِ كأنها نارٌ تجيشُ بوقدةٍ وضمَامِ  
من كَفِّ سَاقٍ لو سفاك بكفه سَمَاءٌ لكان شِفَاءً لكل سَقَامِ

(٤) أدهق : املا .

(٥) الدمية ٣٥٨/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٤/١٧١ .

(٢) البيهية ٣/٢٦١ .

(٣) البيهية ٣/٤١٦ .

وكانها معصورةً من خدِّه إذ ظَلَّتْ تَرْمَقُهُ بِلَحْظِ سامِ .  
 وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التي تلهب فؤاده ، من كف ساق  
 يقدم له بها ما يشفي سقامه ، ويتخيلها كأنما عصرت من خدود جميلة ، وهو يكبّ عليها  
 غير محتشم ولا مفكر في رشاد ، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها ، وليكن من الإثم ما  
 يكون ! ودأماً تلقانا هذه الخمريات في تراجم الشعراء ، إذ كان يتورط فيها كثيرون من  
 مثل عمر الهرندي القائل (١) :

لا أحبُّ المُدَّامَ إلا العَتيقَا      ويكونُ المزاجُ من فيكِ ريقا  
 إنَّ بين الصلوعِ منيَ ناراً      تتلظى فكيف لي أن أُطيقا  
 بجياقِ عليكِ يا مَنْ سقاني      أرحيقاً سقيتني أم حريقا

فبين صلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها ، ولا يدري أحرىق هي أم  
 رحيق لأنها تدفعه دائماً إلى المزيد ، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها ، إذ تأخذ عليه  
 طريقه . وإنها لتظل تمؤّه حباً لها وشوقاً لارتشافها ، وهو يرتشف ولا يدري أيرتشف رحيقاً  
 أو ناراً أو قل أيرتشف شراباً هنئياً أو سماً زعافاً ، وهو ممن في الشرب متعلق به ، لا  
 يستطيع فكاً منه ولا خلاصاً . وكانت للخمر مواسم عندهم هي الأعياد الفارسية  
 والمسيحية ، ففي عيد الشّعانيين وفي أعياد النيروز والمهرجان والسّدق أو النار المحوسية  
 يشربون منها ويعبّون في احتفالات صاخبة . وكانوا يشربونها كثيراً وسط الرياض ، ولذلك  
 يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البهيج . وتلقانا في أثناء ذلك أبيات طريفة من  
 مثل قول أبي منصور قَسم بن إبراهيم ، وكان ينظم باللسانين العربي والفارسي (٢) :

وَحُجِّبَ في الثلجِ الربيعُ وحُسْنُهُ      كما اكتنَّ في بَيْضِ فراخِ الطَّواوسِ

وكانوا يخرجون أحياناً للصيد والطرْد ، ولأحمد بن عضد الدولة طردية بديعة (٣) .  
 ونعجب لألفاظ الفحش والمقاذر التي نجدها عند بعض الشعراء ، وهو جانب أشاعه في  
 العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٩١ وموطنه ابن سكرة . ويلاحظ ذلك  
 صاحب الدمية حين يترجم للمشطّب الهمداني ، فيقول : « له أشعار سخيفة نسج فيها  
 على منوال ابن الحجاج (٤) » ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش ، وحتى الصحاب بن  
 عباد الوزير الوقور تجرى أمثلة من هذا الفحش على لسانه في أشعاره (٥) ، وهي وصمة لا

(٤) الدمية ٥٧٢/١

(١) البيّمة ٤١١/٣

(٥) البيّمة ٢٧٢/٣-٢٧٥

(٢) تمة البيّمة ٤٥/٢

(٣) البيّمة ٢٢١/٢

شك فيها . وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون في العصر هما أبو بكر القهستاني وأبو الحسن الباخري .

### أبو بكر<sup>(١)</sup> القهستاني

هو علي بن الحسن القهستاني من قرية رُحَج من قرى كابل ، بزغ نجمه في دولة السلطان محمود الغزنوي ، إذ سلكه بين ندماثه ووظفه في دواوينه ، واتصل بابنه محمد ، وأصبح رئيساً لديوانه في أثناء ولايته لأبيه على خوزستان ، وكان ممدحا ، مدحه كثيرون منهم الباخري والفرخي السجستاني الشاعر الفارسي المشهور ، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوي ، بمثل قوله :

محمدُ بنُ محمودٍ أبو أحـ      حمدٍ مولى أمير المؤمنين  
جلالُ الدولة العلياء دنيا      جمالُ الملة العلباء دينا  
ولى العهد عهد الملك طوبى      لنا إذ ظلَّ ظلُّ الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية العهد من بعده دون أخيه مسعود . وتعدُّ الفترة التي قضاها معه أزهى فترات حياته ، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه ، وخاصة حين كان يتولى قيادة جيوشه . وقد تحول بمجلسه في ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما ينشأ فيها وفي مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعجزة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله :

دقيقةُ الساقِ لا عروقَ لها      تدوسُ رزقَ الورى بهامتها  
وهو لغز أراد به مغرقة الباقلي أن يغرفُ بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الورى . وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر ، ونراها مبثوثة في كتاب اليتيمة في أشعار ابن العميد وغيره ، وكأنها دعابات كانت تطفو في مجالس الأدباء والوزراء . ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعودا يسلبه منه كما مر بنا في غير هذا الموضوع . ونرى القهستاني يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد ، فيمدح الخليفة القادر بالله ( ٣٨٢ - ٤٢٤ هـ ) قائلا :

ولم يرني ذو مئةٍ غير خالقي      وغير أمير المؤمنين ببابه  
ويمدح وزيره وكتابه أبا طالب بن أيوب ، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه

(١) انظر في القهستاني تمة اليتيمة ٧٣/٢ ودمية القصر ٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحدائق السحر في دقائق الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠ .

ظل يبغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوي على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده في أيديهم إلى أن توفي . ولا تُعرف بالضبط سنة وفاته . وكان مثقفا ثقافة واسعة ، إذ يقول القدماء إنه عُني بتحصيل علوم الأوائل حتى اتهمه بعض معاصريه بالمروق من الدين . ويقول ياقوت إنه كان كثير المزاج ، راغبا في اللهو والمزاح ، وله في ذلك خاطرٌ وقادٌ وحكايات متداولة . وله خمريات بديعة . ، كان يتغنى فيها المغنون بحضرة الأمير محمد الغزنوي من مثل قوله :

قُمْ يَا خَلِيلِ فَاسْقِنِي كَشْعَاعَ خَدِّكَ مِنْ شَرَابِ  
فَلَقَدْ يَمُرُّ الْعَيْشُ مِنْ قَرَضٍ وَلَا مَرَّ السَّحَابِ  
فَانَعَمَ بَعِيثُكَ مَا اسْتَطَعْتُ وَلَا تَضِعْ شَرْحَ الشَّبَابِ  
فَلَكُمْ أَضَعَتْ مِنَ الشَّبَابِ بَ وَمَا اسْتَفَدَتْ سِوَى اِكْتَابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب ، قبل أن يفنى عمره الذي يمر مُسرِعاً مرَّ السحاب ، وقبل أن تذبل زهرة شبابه ، وكَم أضع من أيام الشباب ، ولم يفد - كما يقول - سوى الاكثاب والغم والحسرات ، ويهتف به ثانية :

تَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا فَأَوْقَاتُهَا خُلِسَ وَعُمُرُ الْفَتَى - مَلَّتْ - أَطْوَلُهُ نَفْسُ  
وَسَارِعُ إِلَى سَهْمٍ مِنَ الْعَيْشِ فَاتَرَ فَمَا ارْتَدَّ سَهْمٌ قَطُّ يَوْمًا وَلَا احْتَبَسَ  
وَلَا تَتَقَاصَرُ الْيَوْمَ هَمٌّ غَدٍ وَدَعَّ حَدِيثَ غَدٍ فَالِإِسْتِغَالُ بِهِ هَوَسُ  
هِيَ الرُّوحُ كَالْمَصْبَاحِ وَالرَّاحُ زَيْتُهَا فَدُونِكَ عَنِّي إِنَّمَا الرَّأْيُ يُقْتَبَسُ

وهي دعوة ملتهبة لانتهاز فرصة الشراب ، فليس في الدنيا وراءه - في رأيه - نعم ولا متاع ، ودَعَكُ من الهموم كما يقول ، ودع التفكير في الغد . وهي نفس النغمة التي نجدها في رباعيات الحيام الفارسية ، فالحياة فانية ، وهي سريعة الفناء ، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه ، بل اللحظة التي هو فيها ، ليشرب وينعم بالشراب ، إذ هو زيت الروح ، بدونه تنطفئ وتظلم ، وبه تضيئ ضوء الفرح والبهجة والمرح . ودأماً تلقانا هذه الخمريات البهيجة عند القهستاني وأنداده من شعراء إيران ، وإنه ليعلم دائماً أنه سيظل ما عاش يشرب الخمر صفوا . وله وراءها غزليات وأهاج في الوزير الميمندي كاتب السلطان محمود الغزنوي وبعض معاصريه ، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته :

تَمَتَّعَ يَوْمٍ مُسَعِدِ التُّجِّحِ مُسَعِفِ وَدَعَّ قَوْلَ لَاحٍ مُعْنَتِ التُّصْحِ مُعْنِفِ  
وهي مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات ، وأيضاً كان يقتبس كثيراً بعض

الآيات القرآنية كقوله في بعض مديحه :  
 سما بك من فوق السموات رُبَّةً      أبُّ لك يدعو الله في السرِّ والجهرِ  
 كما قد دعا موسى لهرون رَبَّهُ      أن (أشدُّدُ به أزرِي وأشركُهُ في أمرِي)  
 ولا ريب في أنه كان شاعرا بارعا ، كما كان كاتباً نابها دُونت رسائله كما دُونت  
 أشعاره ، ويقول ياقوت : « له أشعار فائقة ، ورسائل رائقة » .

### أبو الحسن <sup>(١)</sup> الباخريزي

له كنيستان أبو الحسن وأبو القاسم ، واسمه علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب ، من  
 باخرز ، من نواحي نيسابور ، ونراه يُعنى في شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء  
 بنيسابور ، ويكبُّ على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ويختص بملازمة  
 دروس الفقيه المشهور لعصره أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين . ويتجه إلى فن  
 الكتابة . ويوظف في ديوان الرسائل لدى الغزنويين ، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه  
 يرحل إليهم ويشغل في دواوينهم ، إذ يصبح كاتباً للسلطان « طغرل » وله فيه مدائح بديعة  
 من مثل قوله :

سرنا ورمأة الزمان بحالها      فالآن قد مُحقت وصارت منجلاً  
 تخذُ الركبُ فلا تعوجُّ بنا على      طلل الحبيب ولا تُحبي المتزلاً <sup>(٢)</sup>  
 وتحرك الأعطاف تسميراً بنا      تسمم الملك المظفر طغراً  
 وقربه منه الوزير الكندري ، وكانا يتعارفان في شبابهما ، ويبدو أنه هو الذي وصله  
 بطغرل ، وكان يلازمه في حله وترحاله ، فلما ورد بغداد صحبه معه ، وفيها مدح الخليفة  
 القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التي صدر بها ديوانه مفتتحاً لها بقوله :  
 عشنا إلى أن رأينا في الهوى عجباً      كلَّ الشهور وفي الأمثال عِشَّ رَجَباً  
 ليس من عجبٍ أني ضحى ارتحلوا      أو قدت من ماء دمعى في الحشا لُها  
 وأنَّ أجفان عيني أمطرت ورقاً      وأن ساحة خدَى أنبت دهباً  
 وإن تلهب بريق من جوانبهم      توقد الشوق في جنبى والتهبا  
 ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم ، لما لاحظوا فيه من تكلف

(١) انظر في الباخريزي كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم  
 الأدباء ٣٣/١٣ وابن خلكان ٣٨٧/٣ والنجوم الزاهرة  
 الشواربي) ص ٤٥١ .

(٢) تخذ : تسرع . تعوج : تميل

(١) انظر في الباخريزي كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم  
 الأدباء ٣٣/١٣ وابن خلكان ٣٨٧/٣ والنجوم الزاهرة  
 ٩٩/٥ والسبكي ٢٥٦/٥ واللباب ٨٣/١ ومرأة الجنان



وتصنع ، على نحو ما نرى في البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل : «عش رَجَبًا تَرَّ عَجَبًا» فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة ، ومضى في تصنعه ، فماء دموعه يوقد جحيا في حشاه وأجفان عينه تمطر ورقا أو دموعا كالفضة الصافية ، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذهبا ، وحين رأى البغداديين يستبدون أشعاره انتقل إلى الكرخ وسكنها وخالط فضلاءها وسوقها مدة ، واقتبس من لغتهم وظرفهم ، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله : هَبَّتْ عَلَيَّ صَبَابًا تَكَادُ تَقُولُ إِنِّي إِلَيْكَ مِنَ الْحَبِيبِ رَسُولُ سَكَّرِي تَجَشَّمَتِ الرَّبِّي لِتُرَوِّرِي مِنْ عِلَّتِي وَهَبُوبِهَا تَغْلِيلُ فاستحسنها البغداديون ، وقالوا تغير شعره ورق طبعه . وظل ملازما الكندري في مدينة الرِّي عاصمة طغرل عاملا في دواوين الدولة ، ومقدما له مدائح كثيرة ، إلى أن قبض السلطان ألب أرسلان على الكندري وأمر بقتله ، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله ، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء . ويبدو أنه أخذ يُعنى منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذي نرجع إليه كثيرا ، مذيلا به على يتيمة الدهر للعالبي ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . واستقال من عمله في دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله في إحدى ليالي أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة . وكان ينظم ، باللسانين العربي والفارسي ، وله في الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها «طرب نامه» أو رسالة الطرب ، وهي مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائي للحروف . وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة ، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهيره .

كم مؤمنٍ قَرَصَتْهُ أَظْفَارُ الشُّتَا	فغدا لسُكَّانِ الْجَحِيمِ حَسُودَا
وترى طيورَ الماءِ في وُكْنَاتِهَا	تختار حَرَّ النَّارِ وَالسُّفُودَا
وإذا رميتَ بفضلِ كأسك في الهوى	عادتُ عليك من العقيقِ عُقُودَا
ياصاحبَ العودينِ لا تُهْمِلِهَا	حَرِّقْ لَنَا عودَا وَحَرِّكْ عودَا

والصور في الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة ، فالؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تُشوى على السفود . ولو رميت في الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر وأصبحت عقودا . وينادى على المعنى أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصلاء . وله غزليات رقيقة من مثل قوله :

قالتُ وقد ساءلتُ عنها كلَّ مَنْ لاقيتُهُ من حاضرٍ أو بادِي  
أنا في فؤادك فارمٍ طَرَفكُ نحوه تَرَنِي فَقلتُ لها وأين فؤادِي  
ففؤاده ليس عنده ، بل هو عندها ، إذ ضاع منه ، وهي التي تعرف مكانه ، وماذا

عليها لوردته إليه ، وله من جملة أبيات :  
 بصورة الوثن استعبدتني وبها فتننتي وقديما هجبت لي شجنا  
 لا غرو أن أحرقت نار الهوى كبدي فالنار حق على من يعبد الوثنا  
 والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيء من التكلف ، إذ حاول أن يعلل لحرق نار  
 الهوى لكبده بأن صاحبه استعبدته بصورة الوثن ، وكأنه عبد وثنا وحق عليه النار ، ولم  
 يكن في حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو ، فنار الهوى تحرق أكباد  
 الشعراء من قديم ، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفا إذ يقول في غزله :

زكاة رعوس الناس في عيد فطرهم يقول رسول الله -صاع من البر  
 وأسك أغلى قيمة فتصدق بفيك علينا فهو صاع من الدر  
 فقد وضع صورة الزكاة في عيد الفطر وما يجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البر  
 أو القمح في هذا العيد ، ليصل إلى أن صاحبه ينبغي أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من  
 البر وإنما بصاع من الدر ، يريد ثغرها وما فيه من در الأسنان . والصورة في غاية التكلف .  
 وتكثر مثل هذه الصور منذ مطلع هذا العصر ، وكأنما أخذ يعي الشعراء أن يأتوا بصور  
 طبيعية أو كأنما أحسوا أن أسلافهم استفدوها ، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغربية  
 المبعدة في الغرابة من مثل قول الباخري أيضا لبعض صواحيبه :

وأبكي لدر الثغر منك ولي أب فكيف يُديم الضحك وهو يتيم  
 فهو يبكي لأنها لا تبليه شيئا ، ويعجب أن يبكي وله أب ، بينما ثغرها يضحك ، وهو  
 يتيم . والتورية واضحة ، فالعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر ، وهو يريد أنه منقطع النظير  
 حسنا . والتكلف في البيت أو قل في الصورة شديد الواضح .

## ٣

## شعراء الزهد والتصوف

لا شك في أن موجة المجون وما اتصل بها من لهو وخمر كانت موجة محدودة ، حتى  
 لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة ، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا  
 ما يستتبعه من الخمر والمجون ، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى  
 الله والاستماع إلى الوعاظ في المساجد بئسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد في  
 الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم في الدار الآخرة . وكان هؤلاء  
 الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة ، وكانوا يسمون مجالس وعظهم مجالس التذكير ، يذكرون

الناس بالمحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان ، موردين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيمانا وتقوى وورعا . وكانت العامة تُشغفُ بهم ، وتستدير حول مجالسهم منيية إلى الله مغدبةً مشاعرهما وعواطفها بما تسمعه من مواعظهم . وكان نفر من كبارهم مثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية<sup>(١)</sup> ، وطبيعى أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على السنة الوعاظ والفقهاء والنسك ، فهو الشعر الذى تهوى إليه أفئدة الشعب ، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولى على ألباب سامعيه ، وتلقانا فى العصر مواعظ كثيرة ، من مثل موعظة أبي الفرج الساوى حين توفى السلطان فخر الدولة البويهى ، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استهلها بقوله<sup>(٢)</sup> :

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بَمَلءِ فِيهَا      حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِ  
فَلَا يَغْرِكُمْ حُسْنُ ابْتِسَامِي      فَقُولِي مَضْحَكُ وَالْفِعْلُ مُبْكِي  
يَفْخَرُ الدَّوْلَةَ اعْتَبِرُوا فَإِنِّي      أَخَذْتُ الْمَلِكُ مِنْهُ بِسَيْفِ هُلْكِ  
وَقَدْ كَانَ اسْتِطَالَ عَلَى الْبِرَايَا      وَنَظَّمْ جَمْعَهُمْ فِي سَيْلِكَ مُلْكِ  
فَلَوْ شَمْسُ الضُّحَى جَاءَتْهُ يَوْمًا      لَقَالَ لَهَا عَتَوَا : أَفْ مِنْكَ  
وَلَوْ زَهَرَ النُّجُومُ أَبَتْ رِضَاهُ      تَأَبَّى أَنْ يَقُولَ : رَضِيتُ عَنْكَ  
فَأَمْسَى بَعْدَ مَا قَرَعَ الْبِرَايَا      أَسِيرَ الْقَبْرِ فِي ضَيْقِ وَصْنِكَ  
وَظَنِّي أَنَّهُ لَوْ عَادَ يَوْمًا      إِلَى الدُّنْيَا تَسْرِبَلِ تَوْبَ نُسْكَ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغى عبرة وعظة ، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبرياته وعتوه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهدا فيها مؤثرا أن يعيش عيشة النَّسكِ . وفى كتاب اليتيمة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان ، كان يشغل نفسه حقبة بمدح الأعيان والوجهاء ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، ويورد الثعالبي أطرافا من شعره الزاهد<sup>(٣)</sup> من مثل قوله :

عَبْدٌ عَصَى رَبَّهُ وَلَكِنْ      لَيْسَ سِوَى وَاحِدٍ يَقُولُ  
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ جَمِيلًا      فَإِنَّمَا ظَنُّهُ جَمِيلٌ

(١) انظر ترجمته فى الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين  
السيوطى وتتمه اليتيمة ١١٥/٢ والسبكي ٢٧١/٤ .

(٢) اليتيمة ٣٩٣/٣ .  
(٣) اليتيمة ٤٣٢/٤ .

وهو يصورُ فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه في لطفه ، ويذكرُ التعالى أنه لما أزمع الحج وزياره قبر الرسول ﷺ ظل ينشد :

أَتَيْتُكَ رَاجِلاً وَوَدِدْتُ أَنْى مَلَكَتُ سِوَادَ عَيْنِي أَمْتِطِيهِ  
وَمَالِي لَا أَسِيرُ عَلَى الْمَآئِي إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ فِيهِ

ومن شعراء كتاب اليتيمة الذين شاركوا في هذا الشعر الزاهد الذى يفوح بالتقوى أبو جعفر البحات الرّوزنى أحد القضاة بخراسان ، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله ، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كثوس شراب هنئى وشراب بغيض مرير ، ويفيض في الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان ، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم ، وكل منهم يصبح في شغل بميراثه ، يقول (١) :

سِبَاعٌ حَوَالِيهِ زُرُقُ الْعَيُونِ كَلَابٌ وَأُسْدٌ وَذئْبٌ أَزَلُّ (٢)  
فَهَذَا يَجَادِبُ مَا قَدْ حَوَاهُ وَهَذَا يُخَالِسُهُ مَا فَضَلُ  
إِذَا وَضَعُوهُ عَلَى نَعْشِهِ أَشَاعُوا الْبُكَ وَأَسْرُوا الْجَدَلَ (٣)  
وَإِنْ دَفَنُوهُ نَسُوهُ مَعاً وَكُلُّ بَمِيرَاتِهِ مُشْتَغَلٌ

ويبكى أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إليه من وهن العظم واشتعال الشيب في رأسه ، ويتوب إلى ربه منيباً مستغفراً . ويلقانا هذا الشعر الزاهد على السنة كثير من الشعراء في كتاب دمية القصر ، وخاصة منهم القصاص الوعاظ ، وكان طبيعياً أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام ، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدثين والفقهاء . وللزحشرى ديوان لا يزال محفوظاً بدار الكتب المصرية وهو مليء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام . وللغزالي بدوره أشعار زهدية كثيرة وقد ينزع بها منزع المتصوفة السنيين على شاكلة قوله (٤) :

سَقَمِي فِي الْحَبِّ عَافِيَتِي وَوَجُودِي فِي الْهَوَى عَدَمِي  
وَعَذَابٌ يَرْتَضُونَ بِهِ فِي فَمِي أَحْلَى مِنْ النَّعْمِ  
مَالِضَرٌّ فِي مَحَبَّتِكُمْ عِنْدَنَا وَاللَّهِ مِنْ أَلَمِ

(١) اليتيمة ٤/ ٤٤٥ .

(٣) الجدل : الفرح .

(٢) ذئب أزَل : ذئب يتولد بين الضبع والذئب . (٤) انظر ترجمة الغزالي في السبكي ٦/ ٢٢٢ .

وللفخر الرازي المار ذكره أشعار زهدية طريفة ، وكان علامة في علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل ، وله في جميعها مؤلفات كثيرة . وكان في الوعظ آية ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات في هراة ، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في الوعظ ويكثر من البكاء ، ويشتهر له قوله (١) :

نَهْيَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ  
وَأُرُوْحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَدَى وَوَبَالُ  
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا  
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ فَبَادُوا جَمِيعًا مَسْرِعِينَ وَزَالُوا  
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عُلَتْ شُرُفَاتِهَا رِجَالٌ فَرَالُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ

فكل ما في الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلالٌ ، وما الدنيا ؟ إننا لانجني منها سوى الأذى والوبال ، وسوى العدم والفناء الذي يحيط بالناس جميعاً وبالذول مها عظم سلطانها ، فألها إلى زوال . ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعي القزويني الفقيه الشافعي المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس في قزوین لسماع الفقه والتفسير والحديث النبوي ، ومن قوله في الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله في اليسر والعسر دائماً أبداً (٢) :

إِنْ كُنْتَ فِي الْيُسْرِ فَاحْمَدْ مَنْ حَبَاكَ بِهِ فَلَيْسَ حَقًّا قَضَى لَكِنَّهُ الْجُودُ  
أَوْ كُنْتَ فِي الْعُسْرِ فَاحْمَدْهُ كَذَلِكَ إِذْ مَا فَوْقَ ذَلِكَ مَصْرُوفٌ وَمَرْدُودُ  
وَكَيْفَمَا دَارَتْ الْأَيَّامُ مَقْبَلَةً وَغَيْرَ مَقْبَلَةٍ فَالْحَمْدُ مَحْمُودُ

وكان يقول : « اعلم أن الناس في الرضا ثلاثة أقسام : قوم يحسون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتروكون تديبرهم ونظرهم بحاله تعالى ، لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى . وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة ، وإن أتى البلاء على أنفسهم :

يَسْتَعْدِبُونَ بَلَايَاهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَبَاسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا  
تُسْرَهُمُ الْبَلِيَّةُ كَمَا تُسْرَهُمُ النِّعْمَةُ ، وَقَوْمٌ يَتْرَكُونَ الْاِخْتِيَارَ ، وَيُؤَافِقُونَ الْأَقْدَارَ ، فَلَا يَبْقَى  
لَهُمْ تَلَذُّذٌ وَلَا اسْتَعْدَابٌ وَلَا رَاحَةٌ وَلَا عَذَابٌ . وفي ذكر الرافعي لكلمة المحبة ما يدل على أنه  
كان يتزع بزهد نزع صوفية . والتصوف كثير في العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على

(١) ابن خلكان ٢٥٠/٤ والسبكي ٩٦/٨ . وما بعدها

(٢) انظر في الأبيات وكلام الرافعي التالى السبكي

شعراء اللسان العربي ، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسي ، على شاكلة الشيخ سعدى الشيرازي ، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله (١) .

يا نديبي قم بليلٍ واسقني واسقني الندامي  
 خلني أسهر ليلي ودع الناس نيماً  
 في أوانٍ كشف الورِّ دُ عن الوجه اللثاماً  
 قل لمن عير أهل الـ حبُّ بالحبِّ ولا ما  
 لا عرفت الحبَّ هيها تَ ولا دُقتَ الغراماً

وهي خمرة صوفية طريفة . ومررنا في الفصل الأول أن المتصوفة في إيران كانوا يمثلون اتجاهين : اتجاهاً سنياً واتجاهاً فلسفياً ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان النزعتين ، هما عبد الكريم القشيري ويحيى السهروردي .

### عبد الكريم (٢) القشيري

ولد في قرية أستوا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه ، ثم انتقل إلى نيسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره ، واتفق أن حضر مجلس الصوفي الكبير أبي علي الدقاق ، فأعجب به وسلكه بين مرديه ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه ، فأقبل على دروس أبي بكر الطوسي الفقيه الشافعي ، ثم اختلف إلى دروس ابن فورك حتى أتقن علم الأصول ، كما اختلف إلى دروس أبي إسحق الإسفرايني الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي ، ونظر في كتب القاضي الأشعري أبي بكر بن الطيب الباقلاني . وسرعان ما أصبح علامة في الفقه الشافعي وفي التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعري . وزوجه الدقاق ابنته حباً له ، حتى إذا توفي خلفه في مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد ، وأخذ في التصنيف ، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمئة وسماه «التيسير في علم التفسير» وهو - كما يقول ابن خلكان - من أجود التفاسير . وخرج إلى الحج في رفقة ، فيها الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين وأحمد

٢٨٠/٨ وإنباه الرواة للقفطى ١٩٣/٢ وشذرات الذهب  
 للعام ٣١٩/٣ واللباب ٢١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٩١/٥  
 وتبين كذب المفترى لابن عساكر ٢٧١ وعبر الذهبي  
 ٢٥٩/٣ .

(١) الكشكول لبهاء الدين العامل (طبعة الحلبي)

٢٦٣/١

(٢) انظر في ترجمة القشيري كتاب الأنساب للسمعاني

٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ٨٣/١١ وابن خلكان ٢٠٥/٣

ودمية القصر والسبكي ١٥٣/٥ والمتنظم لابن الجوزي

ابن الحسين البيهقي وجماعة من المشاهير ، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز . وعقد لنفسه في نيسابور مجلس الإملاء في الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صَوْب . وذكره الخطيب البغدادي ، فقال : « قدم علينا بغداد في سنة ٤٤٨ وحدث ببغداد وكتبنا عنه ، وكان ثقة ، وكان يقص ، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة » ويقول الباخرزي واصفاً وعظه : « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب » .

وكان يعتق مذهب الشافعي في الفقه والفروع ومذهب الأشعري في علم الكلام والأصول . وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو - كما مر بنا في الفصل الأول - من أوائل من رأوا الصدع الذي كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة ، وذلك في رسالته المشهورة التي نقلنا عنها فقرة طويلة في الفصل المذكور ، والتي وجهها إلى الصوفية وأهل السنة ، وخلفه في هذا الصنيع الغزالي السني . ولا ريب في أن له فضلاً كبيراً في الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينها من خلاف ، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف ، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهي إلى النسك والحببة الإلهية ، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية . وتلك هي صورة التصوف السني الذي رفع عماده القشيري ، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة ، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله :

وإذا سقيتُ من الحِجَّةِ جُرْعَةً أَلْقَيْتُ مِنْ فَرْطِ الْخُمَارِ خُمَارِي  
كَمْ تَبْتُ قَصْداً ثُمَّ لَاحَ عِذارُهُ فَخَلَعْتُ - مِنْ ذَاكَ الْعِذارِ - عِذارِي  
والخُمَارِ بضم الحاء بقية السكر والخُمَارِ بكسر الحاء الحجاب . يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهي ، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه . وإنه ليتوب ثم تراءى له شواهدة . فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه ، أو كما يقول يخلع عذاره كناية عن أنه يتهمك فيه ويقول :

وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهُوى ذَاقَ سَلْوةً فَإِنِّي مِنْ لَيْلِي لَهَا غَيْرُ دَائِقُ  
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتُهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَحَطْفَةِ بَارِقٍ  
فهو لا يسلو هواه ولا يكف عنه ، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطيع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه ، هوى لا يزال يتعثر في شبابه ، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانى تبدو له كما يبدو البرق الخاطف في السحاب . ويقول :

سَقَى اللهُ وقتاً كنت أخلو بوجهكم ونَعَرَ الهَوَى في رَوْضَةِ الأُنس ضاحكُ  
أَقْمَنَا زماناً والعيونُ قريرةٌ وأصبحتُ يوماً والجفونُ سوافكُ

وهو يتحدث عن الوصال الذي يذكره المتصوفة هذا الحديث الرمزي ، فقد كان  
ينعم به زماناً أو قل كان يُحِيلُ إليه أنه ينعم به ، وكانت تمتلئُ نفسه بهجة وفرحة ، غير أنه  
أصبح يوماً ، فإذا الوصال كان حلاماً ، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع ، بكاء كله  
جزع ، وكله لوعة وحسرة . وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله :

يا مَنْ تقاصر شُكْرِي عن أياديه وكلُّ كَلِّ لِسَانٍ عن معاليه  
وجوده لم يزل فرداً بلا شبه عَلاَ عن الوقت ماضيه وآتیه  
لا دَهْرٌ يُخْلِقُهُ لا قَهْرٌ يَلْحَقُهُ لا كَشَفَ يُظْهَرُهُ لا سِتْرٌ يُخْفِيهِ  
لا عَدَّ يَجْمَعُهُ لا ضِدَّ يَمْنَعُهُ لا حَدَّ يَقْطَعُهُ لا قَطْرٌ يَحْوِيهِ  
لا كَوْنٌ يَحْصُرُهُ لا عَوْنٌ يَنْصُرُهُ وليس في الوهم معلومٌ يُضَاهِيهِ  
جلاله أزلُّ لا زوالَ له ومُلْكُهُ دائمٌ لا شَيْءٌ يُفْنِيهِ

والتبُّلُ يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية ، وأنه فرد لا شبه له ، سما عن كل زمن  
ماضٍ وحاضر ، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه ، وهو القاهر فوق عباده ، موجود في  
كل زمان ومكان ، دون انكشاف ودون حجاب ، ودون حصر ، ودون حدٍ يطيف به أو  
مكان يحويه ، ليس كمثلته شيء ، أزلُّ لا زوالَ لجلاله ولا فناء للملكه . وهو تجريد قوَى  
للذات العلية يفصل به القُشَيْرِيُّ وأصحاب التصوف السني عن أصحاب التصوف الفلسفي  
وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية . ويقول :

جَنَّبَانِي الجونُ يا صاحِبِيَا واثَلُوا سُورَةَ الصَّلَاحِ عَلِيَا  
قد أَجَبْنَا لزاجرِ العقلِ طَوْعاً وتركنا حديثَ سَلْمَى ومِيَا  
ومنَحْنَا لموجبِ الشَّرْعِ نَشْراً وشرعنا لموجبِ اللُّهُوِ طِيَا  
ووجدنا إلى القناعة باباً فوضَعْنَا على المطامع كِيَا  
كنتُ في حرٍّ وحَشْتِي لا اختياري فتعوضتُ بالرِّضَا منه فَيَا (١)  
والذين ارتَوَوْا بِكَاسِ مُنَاهِمِ فعلى الصَّدِّ سوف يَلْقَوْنَ غِيَا

وهو يعلن في الايات سلوكه في الطريق ، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجوناً  
أو يشبه الجون ، وقد لبي عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه ، فهو يعيش للشريعة المحمدية  
قانعاً ، زاجراً مطامعه في متاع الحياة . ويتصور كأنه كان يقضى أيامه قبل تصوفه في فيافي



وحشة شديدة الحرارة ، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة ، ظلال نهل فيها كثوس المني ، ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرة أو يصد عنها ، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد . ومازال القشيري غارقاً في هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفي سنة ٤٦٥ هـ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق .

### يحيى (١) السهروردي

وُلد يحيى بن حبش حوالي سنة ٥٤٥ هـ للهجرة بسهرورد في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال ، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى ، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة ، ثم إلى أصفهان حيث درس الفقه وأكب في أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة . وأعجب بالصوفية فصحيحهم وأخذ نفسه بطرقهم في الرياضة والمجاهدة . وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمفلسفة والمتصوفة . ومدَّ تجواله وترحاله إلى ديار الشام . وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفي ، فكان يجادل الفقهاء . واستوت له فلسفة تصوفية إشرافية تعتمد - كما يقول دارسوه - على غنوصية آسيوية ، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التي بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنفة : « حكمة الإشراق » وهو قسمان : قسم خص به المنطق الذي يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً ، وقسم ثان قصره على الأنوار الإلهية ، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه ، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات . وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً ، غير أنه يراها ضروريين للمتصوف ، حتى يتعاقق في داخله العقل والقلب أو الذوق . ولجَّ السهروردي في نظرية النور وما يقابلها من الظلمة ، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها في ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور . وفي رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية ، ومن ثمَّ كان يقول بوحدة الوجود وباللحلول الإلهي في الكون والكائنات . وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي المتوغل في تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء . وكان طبيعياً أن يكفره الفقهاء في « حلب » وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ هـ للهجرة . ولما تحقق القتل كان يُنشد :

والنجوم الزاهرة ١١٤/٦ و دائرة المعارف الإسلامية وتعليق  
الدكتور محمد مصطفي حلمي على ترجمته فيها وفتاوى ابن  
نيمية ٩٣/٥ والفلسفة الصوفية في الإسلام لعبد القادر  
محمد ( طبع دار الفكر العربي ) ص ٤٤٠ وما بعدها .

(١) انظر في ترجمة يحيى السهروردي معجم الادباء  
لياقوت ٣١٤/١٩ وابن خلكان ٢٦٨/٦ وعبون الأنبياء في  
طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أصيبعة بينه وبين  
الشهاب عمر السهروردي المتصوف البغدادي السني ،  
وانظر مرآة الجنان ٤٣٤/٣ ولسان الميزان ١٥٦/٣

أرى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي وَهَانَ دَمِي فَهِيَ نَدَمِي  
ولكنه ندم ولات حين مندم . ومن كلامه : حرام على الأجساد المظلمة أن تلج  
ملكوت السموات ، فوحّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان  
عربان ، ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان ، فأبى النظام أن يكون غير  
ما كان :

وَحْفِيْتُ حَتَّى قَلْتُ لَسْتُ بِظَاهِرٍ وَظَهَرْتُ مِنْ سَعَتِي عَلَى الْأَكْوَانِ  
والبيت يشير بقوة إلى فكرتي الحلول والاتحاد في الذات العلية وكان يكثر من ترداد  
قوله :

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّنَا مَا نَلْتَقِي مَا قَضَيْنَا مِنْ سُلَيْمَى وَطَرَا  
والشّهووردي يشير في وضوح إلى فكرة الشهود المعروفة عند المتصوفة وله شعر صوفي  
كثير من مثل قوله :

أَقُولُ لِحَارَتِي وَالِدَمْعُ جَارِي      وَبِ عَزْمِ الرَّحِيلِ عَنِ الدِّيَارِ  
ذَرِينِي أَنْ أُسِيرَ وَلَا تَنْوَحِي      فَإِنَّ الشُّهْبَ أَشْرَفُهَا السَّوَارِي  
وَإِنِّي فِي الظَّلَامِ رَأَيْتُ ضَوْءًا      كَأَنَّ اللَّيْلَ بُدِّلَ بِالنَّهَارِ  
وَيَبْدُو لِي مِنَ الزُّورِاءِ بَرْقٌ      يَذْكُرُنِي بِهَا قُرْبَ المَزَارِ  
إِذَا أَبْصَرْتُ ذَاكَ النُّورِ أَفْنَى      فَمَا أُدْرِي يَمِينِي مِنْ يَسَارِي

وهو يذكر في الآيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف ، كما يذكر فكرة  
الفناء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بإلهه وما  
أنعم عليه - كما يتصور - بنعمة الوصال ، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره . وله حائية  
رائعة يسّهلها بقوله :

أَبْدَأُ تَحْنُ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحُ      وَوِصَالِكُمْ رِيحَانُهَا وَالرَّاحُ  
وَقُلُوبُ أَهْلِ وَدَادِكُمْ تَشْتَاكُمُ      وَإِلَى لِذِيْدِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاحُ  
وَارْحَمْنَا لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا      سَتَرَ الحُبَّةِ وَالهُوَى فَضَّاحُ

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلاً إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تمنى وصالها لتجد فيه  
ريحانها وراحها ونشوتها التي لا تماثلها نشوة ، وإن القلوب لتحن إليها دائماً مشتاقة مولعة  
شاعرة بنعيم ما بعده نعيم ، ويأسى لعاشق الذات الإلهية ، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم  
ولا كتمانهم ، لدموعهم التي تقطر دائماً على خدودهم سحاً وتسكاباً ، ويتضرّع إلى المحبوب  
قائلاً :

عودوا بنور الوصل من غسق الجفأ فالهجر ليل والوصل صباح  
صافاهم فصفوا له فقلوبهم في نورها المشكاة والمصباح  
وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم راق الشراب ودارت الأقداح

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام  
داج ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة : ( الله نور السموات والأرض مثل  
نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة  
مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي  
الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ) وكان في قلوب  
الصوفية نور الله ، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية ، وهو اتحاد يعنى السكر  
والنعيم بنشوة هذه الخمر الربانية التي راقق وأخذت كئوسها وأقداحها تدور على المحبين كما  
يقول ، أقداح من شرابٍ روحى مصفى ، ويقول مصورا لهم في حال سكرهم :

لا يطربون بغير ذكر حبيبهم أبداً فكل زمانهم أفرح  
حضرُوا وقد غابت شواهد ذاتهم فتمتلكوا لما رأوه وصاحوا  
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم ، وهم حاضرون غائبون ، وكأنما يفنون عن ذاتهم  
وأجسادهم بل هم فانون فعلا ، لا يدركون حساً منهم ولا ما يشبه الحس ، إذ أصبحوا في  
الحضرة الإلهية ، وأصبحوا لا يحسُّون ولا يبصرون سواها ، وإنهم ليصبحون ويعلو  
صياحهم فرحا وابتهاجا بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله ، وبما كشف عنهم من  
الحجب والأستار . وواضح ما يداخل هذه الأبيات من أفكار صوفية فلسفية كان  
ينكرها - كما قدمنا - أصحاب التصوف السني ، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحادا ،  
ولا يدعون غيبة وهم حضور ، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيري آنفاً  
لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد ، ليس كمثلته شيء ،  
ولا كم له ولا كيف (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وليحيى  
السهروردي قصيدة في النفس حاكي فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التي صور فيها  
النفس سابقة للجسد ، وهي تحل فيه ودائماً متشوقة إلى عالمها المثالي الأول ، وفي ذلك  
يقول السهروردي :

خلعتْ هياكلها بجرعاء الحمى وصبتْ لَمغناها القديم تشوقاً

فهي تشاق علمها القديم ، ولذلك تفارق الجسد الذي حلت فيه راضية مرضية ، ولعل في هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردي بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلا عن صلته بالفلسفة عامة .

## ٤

## شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، ونجدها مترابطة في مطوِّلة زهير وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطرون خبراتهم شعرا ، لينتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم ، وتظل ماثلة في الشعر العربي طوال العصر الإسلامي ، وتكثر في العصر العباسي وتتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التي عرفها العرب والتي نقلت عنها لهم الحكم والأمثال . ومربنا في كتاب العصر العباسي الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليله ودمنة وما فيه من أمثال وحكم في نحو أربعة عشر ألف بيت ، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال ، وكلها حكم ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى أبو الفرج في ترجمته بكتابه الأغاني منها قطعة طويلة ، وأكبر الظن أن كثيرا من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسي التي ترجمها ابن المقفع وغيره ، وفي شعر أبي نواس بعض أمثال فارسية نصَّ عليها القدماء . وقد مضى شعراء العصرين العباسي الأول والعباسي الثاني يسلكون في أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية ، حتى إذا كنا في هذا العصر بإيران وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيرا من الأمثال المعروفة في لغتهم إلى أشعارهم العربية ، بل لقد تصدَّى نفر منهم إلى صنع قصائد حكيمية ، هي ترجحات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبي عبد الله الضرير الأبيوردي ، فقد ذكر له الثعالبي قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس ، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله (١) :

صيامي إذا أفطرتُ بالسُّحْتِ ضَلَّةٌ	وعلمي إذا لم يُجِدِ ضَرْبٌ من الجَهْلِ (٢)
وتركيبي مالا جمعتُ من الرِّبَا	رياءٌ وبعض الجود أخزى من البُحْلِ
كسارقة الرُّمَانِ من كَرَمِ جارها	تعود به المرصَى وتطمع في الفُضْلِ
الأرْبُ ذَنْبٌ مرٌّ بالقومِ خاويًا	فقالوا علاه البُهرُّ من كثرة الأكل (٣)

(٣) البهر: تتابع النفس

(١) اليتيمة ٩٠/٤

(٢) السحت: الكسب الحرام .

وكان الشعراء يضمنون قصائدهم وأشعارهم كثيرا من الحكم ، ومن خير من يمثل ذلك الطُّغْرَائِي فِي لَامِيَتِهِ الْمَسَاءَةَ لِأَمِيَةِ الْعَجْمِ ، وَهِيَ تَعْنَصُ بِالْحُكْمِ وَالْأَمْثَالِ مِنْذِ مَطَالَعِهَا ، وَنَكْتَفِي بِسَرْدِ طَائِفَةٍ مِنْ طَرَائِفِهَا عَلَى هَذَا النَّمْطِ :

حُبُّ السَّلَامَةِ يَشْتِي هَمَّ صَاحِبِهِ      عَنِ الْمَعَالِي وَيُعْرِى الْمَرْءَ بِالْكَسَلِ  
أَعْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبُهَا      مَا أَصْبَقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الْأَمَلِ  
تَقَدَّمْتَنِي أَنَاسٌ كَانَ شَوَّطُهُمْ      وَرَاءَ خَطْوَيَ إِذْ أَمْشَى عَلَى مَهَلٍ  
وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي فَلَا عَجَبٌ      لِي أَسْوَةٌ بِأَخْطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلٍ  
أَعْدَى عَدُوَّكَ أَدْنَى مَنْ وَثِقَتْ بِهِ      فَحَازِرِ النَّاسِ وَأَصْحَبِهِمْ عَلَى دَخَلِ (١)  
وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا      مَنْ لَا يَعْوَلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ  
وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ الطُّغْرَائِي لَمْ يَنْقُلْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحُكْمِ عَنِ الْفَرَسِ إِنَّمَا هِيَ ثَمْرَةٌ تَجَارِبُهُ وَخَبْرَتُهُ بِالْدُّنْيَا وَبِالنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ .

ونمت الفلسفة في هذا العصر نمواً واسعاً ، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مرَّ بنا في الفصل الثاني ، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تشعشع بشيء من تفلسفه قليلاً أو كثيراً وأثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية في الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية ، وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن النفس ، وهي تصوِّرها في عالمها العلوي الذي كانت تحي فيهِ قبل اتصالها بالبدن حين يتخلَّق في الرحم ، وفي عالمها السفلي حين تمَّ هذا الاتصال بالجسد . وهو اتصال تُقَدِّمُ عليه وهي كارهة ، وتظل في أثناءه متشوقة إلى عالمها العلوي ، مع ما حدث لها فيه من ألفة ، ولذلك تنفصل عنه كارهة كما اتصلت به كارهة ، يقول (٢) :

هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ      وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمْتَعِ  
مُحْجَبِيَّةٌ عَنِ كُلِّ مُقَلَّةٍ نَاطِرٍ      وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ فَلَمْ تَتَبَرَّعِ  
وَصَلْتُ عَلَى كُرْهِهِ إِلَيْكَ وَرَبَّمَا      كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ نَفْعِ  
أَنْفَتْ وَمَا أَلْفَتْ فَلِمَا وَاصَلْتُ      أَلْفَتْ بِمَجَاوِرَةِ الْخِرَابِ الْبَلْقَعِ  
وَأَظْنُهَا نَسِيَتْ عَهوداً بِالْحِمَى      وَمِنَازِلاً بِفِرَاقِهَا لَمْ تَنْفَعِ  
حَتَّى إِذَا اتَّصَلْتُ بِهَا هُبُوطُهَا      مِنْ مِمِّ مَرَكْرَاهَا بِذَاتِ الْأَجْرَعِ  
عَلَقْتُ بِهَا ثَاءً الثَّقِيلِ فَأَصْبَحْتُ      بَيْنَ الْمَعَالِمِ وَالطُّلُولِ الْخُضْعِ

(١) نشر دار مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٤٦ وقارن بابين

خلكان ١٦٠/٢

(٢) دخل : خبت ومكر

(٣) انظر العينية في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

والورقاء : الحمامة كنى بها عن النفس . وهو يصورها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع ، عالم العقول المجردة أو العقول الكلية ، الذى يجد فيه سعادتها وكاملها ، ولذلك هى تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف ، محجوبة عن كل حس ، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها ، وتنزل فى البدن كارهة لأنه ليس من جنسها ، غير أنها تأنس له مع الأيام ، حتى إذا فارقت توجعت له وتفجعت عليه ، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر ، وكأنما نسيت عهودها بعالمها العلوى لأنسها لهذا الجسد الفانى الذى هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقتها ، عشقت مشخصاته الأرضية التى عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع ، وغدت تحن إلى دياره ومعالمه وطولوه حين الشعراء لمعشوقاتهم ، ويمضى قائلا :

تبكى وقد نسيت عهوداً بالجمي	بدماع تهمي ولما	تُفْلِعِ
وتظل ساجعةً على الدمن التي	درست بتكرار الرياح	الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الجمي	ودنا الرحيل إلى الفضاء	الأوسع
وغدت مفارقة لكل مخلف	عنها حليف التراب	غير مشيع
هجعت وقد كشف الغطاء وأبصرت	ما ليس يدرك بالعيون	الهجج
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق	والعلم يرفع كل من لم	يرفع

فهى تحن إلى عهودها القديمة وتبكى بدموع غزار الدمن أو أجزاء البدن التى توشك على الفساد والانحلال ، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى ، بل حتى فارقت فعلا ، فارقت البدن الفانى ، عادت إليها سكينتها واستراحت ، إذ كشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التى ألم بها النوم ، وغدت تغرد فرحة ، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء ، العلم الكلى الشامل الذى كانت قد نسيت في سكونها البدن ، ويستمر سائلا متحيرا :

فلأى شيء أهبطت من شاهق	سام إلى قعر الحضيض	الأوضع
إن كان أهبطها إلهة لحكمة	طويت عن الفطن اللبيب	اللودعى
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّها	قفص عن الأوج الفسيح	الأربع
فهبوطها - لاشك - ضربة لازب	لتكون سامعة لما لم	تسمع
وتعود عالمة بكل خفية	فى العالمين فخرقها لم	يرفع
وهى التى قطع الزمان طريقها	حتى لقد غربت بغير	المطلع
فكانها برق تالت بالجمي	ثم انطوى فكانه لم	يلمع

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوى إلى العالم السفلى ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت؟ ويجيب إن كان في ذلك حكمة لله جلَّ شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضى وتقف على أسراره، بجانب ما كانت تعلم من العالم العلوى، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوى. عادت وقد نَمَّتْ رحلتها في الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى إليه هذا الشروق من غروب، وكأنها في هذه الرحلة القصيرة برق لمع، ثم طَوَّتْه السحب طياً. وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها، متصلة في الحالين بالعقل الكلى إلا ما كان من رحلتها القصيرة في الأرض وخلال البدن، ومع ذلك فهي في هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ما تضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوى. وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد. ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال، كان أحدهما يعنى بنقلها عن الفارسية وكان الثانى يعنى بوضعها ونظمها في أشعاره، وهما أبو الفضل السكرى المروزى وأبو الفتح البُستى.

### أبو الفضل<sup>(١)</sup> السكرى المروزى

هو أحمد بن محمد بن زيد، يقول فيه الثعالبي: «شاعر مَرَّ وظريفها، وله شعر مليح خفيف الروح كثير المُلح والأمثال» ويورد بعض أشعاره، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذى خصَّ به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمى لوفرة ألحانه وأنغامه، حتى يتلافوا ما في هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر، وظل ذلك ثابتا طوال العصور التالية إلا ما ندر. فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول في الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت، مع الاحتفاظ بها في كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر في واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة، فهي تتألف من شطرين شطرين، وكل شطرين يتحدان في قافيتها. ويقف الثعالبي عند مزدوجة لأبي الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس، ويورد منها ثلاثة عشر بيتا من مثل قوله:

(١) انظر في ترجمة أبى الفضل السكرى البتيمة ٨٧/٤

من مُثَلِّ القُرْس ذوى الأَبْصارِ      الثوبُ رَهْنٌ في يَدِ القَصَّارِ (١)  
نال الحِجارُ بالسَّقُوطِ في الوَحْلِ      ما كان يَهْوَى ونجا من العَمَلِ  
والعَنْزُ لا يَسْمَنُ إلا بِالْعَلْفِ      لا يَسْمَنُ العَنْزُ بقولِ ذى لَطْفِ (٢)  
البحرُ عَمْرُ الماءِ في العِيانِ      والكلبُ يَرَوَى منه باللِسانِ (٣)  
من لم يكن في بيته طعامٌ      فاله في مَحْفِلِ مقامِ  
كان يقال: من أتى خَوَّانا      من غير أن يُدْعَى إليه هانا (٤)

ويعلّق الثعالبي بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله: « وكان أبو الفضل السكري مولعا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية » وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجمته الأخرى غير مزدوجة ، من ذلك قوله :  
إذا لم تُطِقْ أن تَرْتَقِيَ ذِرْوَةَ الجَبَلِ      لعَجْزِ قِفْفِ في سَفْحِه هَكَذا المَثَلُ  
وقوله :

في كلِّ مُستَحْسِنٍ عَيْبٌ بلا رَيْبٍ      ما يَسْلَمُ الذَّهَبُ الإِبْرِيْزُ من عَيْبِ  
وقوله :  
ادَّعَى الثَّعْلَبُ شَيْثًا وَطَلَّبَ      قِيلَ هَلْ من شَاهِدٍ؟ قال : الذَّنْبُ  
وقوله :

تَبَحَّثَرُ إِخْفَاءً لما فيه من عَرَجٍ      وليس له فيما تَكَلَّفَه فَرَجٌ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال ، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان في عصور طويلة ، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التي تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل ، وهي لذلك تدخل في باب الآداب الشعبية ، لأنها تُتداول على ألسنة الشعب ، وكأنها عُمَلات لغوية عامة ، كلُّ يستخدمها ، وكل يلفظ بها عند مناسبتها . وكأنما يُلقَى بها الكلمة التي لا تُرد ، ولذلك سميت حكمة ، فهي حكمة الشعوب وخبرتها مركزة في قطرات أو كلمات .

(٣) الماء الغمر : الكثير العميق .

(٤) الخوان : مائدة الطعام .

(١) القصار : صانع الثياب

(٢) لطف : رفق .



أبو الفتح <sup>(١)</sup> البُستى

هو على بن محمد ، ويُعدّ من كبار الأدباء الإيرانيين في زمنه ، وكان يُحسّن الكتابة والشعر باللسانين العربي والفارسي وعرف له أمير بُست مكانته ، فاتخذه كاتباً له ، حتى إذا فتح بلدته الأمير سُبُكْتِكِين قُرْبَه منه وقلّده الكتابة في ديوانه ، وحلّ عنده محلّ الثقة الأمين في مهمات شتونه . ونعم بجواره ، واشتهر بما صوّر في كتبه وأشعاره من فتوحه ، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوى ، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخارى وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعي المذهب معتزلي العقيدة .

ويُعرف به الثعالبي فيقول : «صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ويأتى فيه بكل طريفة لطيفة» . ولم يكن يستخدم الجناس استخداما واسعا في أشعاره فحسب ، بل كان أيضا يستخدمه في كتاباته ونثره . ويورد الثعالبي طائفة من جناساته وسجعاته في رسائله ، يدل بها على قدرته في التجنيس البديع الصيغة ، فمن ذلك قوله :

«مَنْ أصلح فاسده ، أرغم حاسده . مَنْ أطاع غضبه ، أضع أده . عادات السادات ، سادات العادات . مِنْ سعادة جدك ، وقوفك عند حدك . الحية ، تهتك الهية . الدعة ، رائدة الضعة . أجهلُ الناس مَنْ كان للإخوان مُدْلا ، وعلى السلطان مُدْلا . إذا بقي ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . المنية ، تضحك من الأمانة . حدُّ العفاف ، الرضا بالكفاف . ظلُّ الجفاء ، يكسف شمس الصفاء» .

ويأخذ الثعالبي في عرض أغراض شعره بادئا بملحه في الغزل والخمر ، وهى ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعاني بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس ، وكأنما أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صنع أشعاره ، على نحو ما نجد في قوله متغزلا :

وغزالٍ كلُّ مَنْ شَبَّهَهُ      بهلالٍ أو ببدرٍ ظَلَمَهُ  
قال إذ قَبِلْتُ بالوهم فَمَهُ      قد تعدّيت وأسرفت فَمَهُ

(١) خلکان ٣/٣٧٦ وشذرات الذهب ٣/١٥٩ وعبر الذهبي ٤/٣٠٢ وما بعدها والمنظّم ٧/٧٢ وتاريخ الحكماء للبيهقي : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/٢٩٣ وابن

خلکان ٣/٣٧٦ وشذرات الذهب ٣/١٥٩ وعبر الذهبي ٤/٣٠٢ وما بعدها والمنظّم ٧/٧٢ وتاريخ الحكماء للبيهقي : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/٢٩٣ وابن

ومَه في آخر البيت الثاني اسم فعل أمر بمعنى اكفف. وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناسا تاما بينها ومعها الفاء وبين كلمة «فه» في آخر الشطر الأول. وعلى نفس الشاكلة قوله في الخمر لصاحبه :

أوانٍ أنت في هذا الأوانِ عن الرَّاحِ المروِّقِ في الأوانِي  
فقد جناس بين «وان» في أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليم له جناس كامل بينها وبين كلمة «الأوان» في آخر الشطر الأول بمعنى الزمان، ثم بينها وبين كلمة «الأوانِي» في آخر البيت جمعا لإناء. وبالمثل معاتباته وأهاجيه ومدائح كقوله في مديح كاتب وكتابه :

لم تَرَ عيني مثله كاتباً لكل شىء شاء وشاء  
يُبدع في الكُتُب وفي غيرها بدائعا إن شاء إنشاء  
والجناس الناقص واضح بين «شىء» و«شاء» و«وشاء» أو منمق، وأتى بجناس تام في البيت الثاني بين كلمتي «إن شاء» و«إنشاء». ويعترف بأنه سمع وهو صبي شاعرا من موطنه «بُست» يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته<sup>(١)</sup>. وكان هو نفسه عاملا مها في إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين في زمنه<sup>(٢)</sup> وبعد زمنه. وعنى غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوعى الذى مر بنا ذكره. وكان أبو الفتح يتصنع كثيرا في شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظها مصطلح اللازم والمتعدى :

قال لى لما رأى طالبا مالا ورَفدًا  
إن مالى يا حبيبى لازم لا يتعدى

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع في زمنه، وما لا شك فيه أن البُستى كان من عوامل إذاعته وانتشاره في الأوساط الأدبية الإيرانية. على أنه ينبغي أن لا نحمل على تصنع أبى الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجناس بصوره التامة والناقصة، فقد كان ينفذ في أحيان كثيرة إلى استخدام رشيق للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه، وكان يدعى سعة الفكر والمنطق العميق :

يبنى على الفكرة أعالَه وذاك فى التحقيق أعمى له  
فقيض الرحمن أفعى له تريه فى الخلوة أفعاله

(١) البيهية ٣٣٧/٤ واسم الشاعر شعبة بن عبد الملك (٢) البيهية ١٥١/٤.

وواضح جناسه التام بين « أعماله » و « أعمى له » في البيت الأول ، وبين « أفعى له » و « أفعاله » في البيت الثاني . ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال في أشعاره ، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة ، ومن أروع ماله في هذا الجانب نوبته ، وهي طويلة ، وفيها يقول :

زيادةُ المرءِ في دنياه نُقصانُ  
ياعامراً لخرابِ الدَّارِ مجتهداً  
وياحريصاً على الأموالِ يجمعُها  
أحسنُ إلى الناسِ تستعبدُ قلوبهمُ  
وكنُ على الدهرِ معواناً لذي أملٍ  
وأشدُّ يدَيْكَ بحبلِ اللهِ معتصماً  
منْ جادِ بالمالِ مالَ الناسِ قاطبةً  
والناسُ أعوانُ منْ وأتتهِ دولتهُ  
وربحُهُ غيرَ محضِ الخيرِ خسراً  
باللهِ هل لخرابِ العمْرِ عمراً  
أقصرُ فإنْ سرورُ المالِ أحرانُ  
فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ  
يرجوُ نَدَاكَ فإنِ الحرَّ معوانُ  
فإنه الرُّكنُ إنِ خانتك أركانُ  
إليه والمالُ للإنسانِ فتانُ  
وهم عليه إذا عادتهِ أعوانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكيمة منذ حياته وانتشرت في العالم العربي ، وأخذت الاجيال العربية ترددها في كل بلد ، حتى لتصبح قصيدة شعبية ، ينشدها الناس في كل مكان ، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها في مقاهي القاهرة . ولعل في هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على ما يمتاز به الشعر العربي الفصيح من شعبيته ، فقصيدة تنظم في أقصى بيئاته في الشرق في « بُست » بأفغانستان الحالية تُشَدُّ في قلب العالم العربي بالقاهرة ، ويحفظها الشباب ويستظهِرونها في المغرب كما يستظهِرونها في المشرق . ويعقد الثعالبي فصلاً طويلاً لحكم البُستى ، ووراءها حكم وأمثال كثيرة في ديوانه ، ومن طرائفه الحكيمة قوله :

لا تحقرِ المرءَ إن رأيت به  
فالنحلُ شيءٌ على ضوولتهِ  
دمامةٌ أو رثانةُ الحللِ  
يشتارُ منه الفتى جنا العسلِ (١)

وقوله :

لا يستخفنَّ الفتى بعدوه  
إن القذى يؤذى العيونَ قلبه  
أبداً وإن كان العدو ضئيلاً  
ولربما جرح البعوضُ الفيلاً

وقوله :

ألم ترَّ أنَّ المرءَ طولَ حياته  
معنىً بأمرٍ لا يزالُ يعالجهُ

(١) يشتار : يحنى

يدور كدودِ القَزِّ يَنْسُجُ دائماً ويهلك غمّاً وَسَطَ ما هو نَاسِجُهُ  
وعلى هذا التحول انزال نقرأ عند أبي الفتح البُسْتِي حكماً طريفة . مما يدل على بعد نظره  
واتساع خبرته . وكان يخلجها من الجناس عادة ، حتى تحفّ على ألسنة الناس وتدور في  
أفواههم ، ومن الحق أنه كان شاعراً خصب القريحة ، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ  
بديعة .

### ٥

#### شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربي انفصل في عصر من عصوره عن شعوبه ، إذ  
كان دائماً ترجانا عن عواطفها ومشاعرها ، حتى في المديح ، فإن الشعراء كانوا يمدحون  
الحكام بالمثل العليا التي تتطلبها شعوبهم فيهم ، ولم يتركوا لهم عملاً قدّموه لشعوبهم دون أن  
يحمدوه لهم حمداً كثير ، سواء أكان في الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم في  
الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها . وكثرة الشعراء كانت من  
عامة الشعوب العربية ، فكان طبيعياً أن تتضح في أشعارهم روحها ومشاعرها وكل  
ما يجرى في خواطرها . وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد  
الذي يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها . وكانت تعيش كادحة كدحا مريراً ، لكي تثرى  
وتتم بثار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين . ولم يكن أمام هذه  
الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطبّياتها ، وهي لذلك تُقبل على شعر الزهد ،  
ويصبح هذا الشعر غذاءها . ولا شك في أن شعبية هذا الشعر هي التي جعلته يسهل في لغته  
سهولة شديدة ، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوي ، بل تحب الأساليب السهلة المبسطة  
الخفيفة التي تفهمها بمجرد أن تقرأ أسماعها . وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبياً في  
لغته الشعرية ، وكان مما أكد شعبيته ذبوعه على السنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقصاص  
والفقهاء وأصحاب الحديث ، فكان الناس يسمعونه في كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا  
يسمعون منه على ألسنة الشعراء ، وحتى شعر المحبون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب  
ونقص أصحاب الثراء واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق في بعض منه آثاراً شعبية ، غير أنها  
هذه المرة لا تأتي من سهولة الألفاظ وإنما تأتي مما كان يقترن به أحياناً من دعابة ، مما يجعله  
أقرب إلى النوادر المضحكة ، وتأتي أيضاً من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية  
التي تشيع على ألسنة العامة ، ويلقانا منهم كثيرون في البيتمة وتمتمتها وفي دمية القصر

والخريدة . وطبيعي أن يشيع شعر شعبي كثير على السنة الشيعية ، يرويه خالف لهم عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثي الحسين ، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية ، مما تزخر به كتب الطبقات .

ونجد في البيتة شاعرا من الأهواز يسمى محمد<sup>(١)</sup> بن عبد العزيز السوسي ، يقول فيه الثعالبي إنه كان أحد شياطين الإنس ، ويذكر أن له قصيدة كانت تُرَبَّى على أربعمائة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات ، أولها :

الحمدُ لله ليس لي بَحْتُ ولا ثيابٌ يضمُّها تَحْتُ<sup>(٢)</sup>  
سَيَّانٌ بَيْتِي لمن تَأَمَّلَهُ والمَهْمَةُ الصَّحْصَحَانُ والمَرَّتُ<sup>(٣)</sup>  
أَمَنْتُ في بَيْتِي اللُّصُوصَ فما لِلصُّ فِيهِ فَوْقُ وَلَا تَحْتُ

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صوان ، فكل ما يملكه فوق جلده ، وبيته فارغ من الأثاث ومن أي شيء يكون في البيوت عادة ، وكأنه فلاة مقفرة ، وطبيعي أن يأمن اللصوص ، فليس في بيته ما يسرقونه ، وكأنه سجن ولا حرس له . ويمضى فيما رواه الثعالبي من القصيدة ، فيذكر أنه اضطرَّ إلى أن يتخذ مظهرَ مُتَسَوِّلَةِ الصوفية فقصرَ ثيابه ، وأخفى شاربه مستقصياً ، وحَمَلَ سَجَّادَةً ، وذهب إلى الحجِّ دون أن ينويه ، ودخل المسجد الحرام وصلَّى في مقام الخليل ليوهم الناس أنه صوفي حقا ، حتى يعطفوا عليه ويحسِنوا إليه . والقصيدة كانت كلها هزلا على هذا النمط .

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكُذْبِيَّة أو التسول الأدبي ، ويعرفون أيضا باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسي يسمى ساسان حرمه أبوه من الملك ، فهام على وجهه محترفا للكُذْبِيَّة ، وتُشَبَّه هذه الجماعة طائفة الأدبائية التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضي والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه . ونجد مقدمات هذه الجماعة الساسانية في أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حيلها وخدعها ، ويتلوه البيهقي فيصور في كتابه المحاسن والمساوي ألوانا من هذه الخدع والحيل . وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها في العصر : أبي دلف الخزرجي .

(٣) المهمة : الفلاة . الصحصحان : المستوى

(١) البيتة ٤٢٦/٣ .

الواسع . المرث : القفرلانبات فيه .

(٢) التخت : الصوان .

## أبو دُلْف الخَزرجي : مِسر بن مَهْلَهْل (١)

شيخ هذه الجماعة بيران في العصر ومقدمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجري وقد عاش في بلاط نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١ هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية في عودتها إلى الصين ، وفي عودته طاف بالهند . وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهى كما يوضح ذلك الثعالبي ونراه يعقد له ترجمة طويلة في اليتيمة ، ويعرف به على هذا النحو : « شاعر كثير المَلح والطرف ، مشحوذ المُدبية في الكُدبية ، خنق التسعين في الإطراب والاعتراب وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب ، في خدمة العلوم والآداب . . . وكان ينتاب حضرة الصاحب [ بن عباد ] ويكثر المقام عنده ، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته ، ويرتفق بخدمته ، ويرتق في جملته ، ويتزود كتبه (رسائله إلى الولاة برعايته) في أسفاره فتجرى مجرى السَّفَاح (الحوالات المالية) في قضاء أوطاره . وكان الصاحب يحفظ مناكاة (كلام ومصطلحات) بنى ساسان حفظا عجيبا ، ويُعجبه من أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجادبان أهدابها ، ومن قول أبى دُلْف :

وَيَحْكُ هذا الزمانُ زورُ فلا يَغِرَّنكَ العَرورُ (٢)  
 زَوْقٌ وَمَحْرَقٌ وَكُلٌّ وَأَطْبِقُ واسْرِقُ وَطَلْبِقُ لمن يزور  
 لاتلتزمُ حالةً ولكنْ دُرُّ بالليالي كما تدورُ

والأبيات تصور حياة أبى دلف وأنها تقوم على المحرقة والتحامق والخطف والسلب والنهب . وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية ، أو هكذا أسماها الثعالبي ، وهي في ذكر المُكْدِين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، استلهاها بالتعريف ببني ساسان الأدبانية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعُسْر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات ، ثم يقول :

فنحن الناسُ كلُّ النا س في البرِّ وفي البَحْرِ  
 أخذنا جِزِيَةَ الخلقِ من الصَّينِ إلى مِصرِ

ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى (نشر عالم الكتب بالقاهرة).

(٢) العرور : كل ما غر الإنسان من شيطان أوحاه أو مال أو متاع .

(١) انظر أبا دلف في اليتيمة ٣/٣٥٢ وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكى ١٨٨/١ وفي دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبى دلف نشر مينورسكى بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمستشرقين روسيين

إِلَى طَنْجَةَ بِلْ فِي كَلِّ أَرْضِ خَيْلَنَا تَسْرِي  
 إِذَا ضَاقَ بِنَا قُطْرُ نَزَلْنَا عَنْهُ إِلَى قُطْرِ  
 لَنَا الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ  
 فَصُطَافُ عَلَى الثَّلْجِ وَنَشْتُو بِلْدَ التَّمْرِ

وطريف أن يعدُّ أبودلف ما يأخذه الساسانيون من الناس بتفاصحهم وخذعهم وحيلهم الأدبية جزية . ويصوِّر الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها دارا لهم من الصين على المحيط الهادى إلى طنجة والمحيط الأطلسى ، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر ، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم ، يصطافون في أقاليمها الباردة ، ويشتون في أقاليمها الحارة الدافئة . ثم يأخذ أبودلف في وصف حيلهم وصفا مسهبا ، وكيف أنهم كانوا يحتالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويد وأحراز ، وكيف أن القاصِّ منهم كان يتفق مع صاحب له ، ليفد على مجلس قصصه ، فيأمر السامعين بإعطائه ما يجودون به ، ثم إذا تفرَّقوا عنه تقاسما ما أعطوه . ويصورهم يتباكون في البرد القارس خداعا للناس ، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم دراهمهم وكيف أنهم حين يلبثون بجوانيت الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرة أو تينة من هناك ، وكيف يدهنون وجوههم بماء البيض الأصفر ، لتبدو شديدة الصفرة ، وكيف يعصبون جباههم ليوهوا الناس أنهم مرضى ، وكيف يعقرون أو يجرحون أنفسهم بالأمواس ، وكيف يطلون أجسادهم بالزيت حتى تسودَّ جلودهم ، وكيف يدارون ألسنتهم موهين الناس أن الروم قطعوها في جهادهم ، محاولين أن يبتزوا منهم الثياب والسلاح للغزو ، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به ، وكيف يحتالون على مرضى الأسنان بوضع دود الجبِّ بين أسنانهم ثم استخراجها ، وكيف يروون للناس كذبا الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالا ، وكيف يوهمون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى في ديار الروم فداء لهم ، وكيف يخفون إحدى أيديهم إياها بأنها مقطوعة ، وكيف يخيِّلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا ، وكيف يوهمونهم بأنهم عمى لا يبصرون ، وكيف يدورون بين العشائين منادين : رحم الله من عشى الغريب الجائع ، آخذين من كل دار كِسرة ، وكيف يحتالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم ، وكيف يحتالون على الشيعة خاضعين لحاهم بالحِناء مع حملهم الألواح والسُّبح من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين ، مع نواحهم عليه ورواية الأشعار في فضائله ومقتله ، وكيف أنهم يحتالون لذرف الدموع بغمس قطنة في الزيت وإمرارها على عيونهم ، وكيف يستأجرون

الصبيان والنساء ويكُدون أو يشحذون عليهم ، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت السُّبُحات وأقراص الحلوى ، وكيف يرقون المجانين وأصحاب العاهات ، وكيف يمُوهون بأنهم صائمون وأنهم سيحجُّون عن الناس ، وكيف يعبرون للناس رؤاهم ، وكيف يستأجرون الصبيان ، وكيف يحملون السُّلال فيها الحيات وقد قلعوا أنيابها ، وكيف يدعون الطبَّ ومداواة المرضى ، وكيف يشحذون أو يكُدون على الدببة والسباع والقردة ، وكيف يرعدون رعدات شديدة تهتر لها مفاصلهم وتصطك أسنانهم ، وكيف أنهم يشدُّون أيديهم بمجموعة الأصابع حتى يُظنَّ أنها مقطوعة ، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقعات حتى يُظنَّ أنهم من الصوفية . وما يزال أبودلف في وصف خُدع القوم وحيلهم ، حتى يُوفى على نهاية القصيدة قائلا :

رَ من شَطْرٍ إلى شَطْرٍ	ألا إني حَلَبْتُ الدَّه
تُ في التَّطَوِّفِ كَالخَضْرِ	وَجِبْتُ الأَرْضَ حَتَّى صر
تَشَقَّتْ غَلَّةُ الصَّدْرِ	فإنَّ أَظْفَرَ بآمَالِي
قَوِيَّ النَّهْيِ والأَمْرِ	وَأَمَمْتُ بِأَوْطَانِي
زَرَّةٌ أَلْوِيَةُ النَّصْرِ	وقد تَخَفَقَ فَوْقَ ع
وعِزُّ جَائِزُ الكَسْرِ	وإِما تَكُن الأَخْرَى
غَدَاً في أَوْبَةِ السَّفْرِ	فلا أُبْتُ مَعَ السَّفْرِ
بِلا عِزِّ ولا وَفْرِ	ولا عُدْتُ مَتَى عُدْتُ

ويقول إن له أسوة في غربته بالسادة الطُّهْر آل البيت كما تشهد قبورهم في الكوفة وكربلاء وبغداد وسامراً وطوس وباخمرًا بالقرب من الكوفة . وفي ذلك مايدل على أنه كان شيعياً ، وأكبر الظن أنه كان إمامياً مثل صاحب بن عباد . وقد صوِّر في قصيدته كل أفانين المكدين وحيلهم مستخدماً مصطلحاتهم في هذه الحيل ، مما جعله يُعنى بشرح القصيدة بيتا بيتا ، وعنه نقل الثعالبي الشرح ، ولخصناه في إيجاز . والمصطلحات كلها شيعية ، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شيعية ، ولاشك في أن أبادلف بعدَّ خير شاعر في عصره عبَّر عن نفسه وعن هذه الجماعة .

ولأبي دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دون اقتباسات كثيرة منها ياقوت في «معجم البلدان» والقزويني في كتابه «آثار البلاد» ووجدت له رسالتان حلل أولاهما المستشرق الألماني رور صوير موضحاً أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين ، ونشر الرسالة الثانية المستشرق مينورسكى (طبع وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان



روسيان وعنى الدكتور محمد منير مرسى بترجمة ما بذلاه فى نشرتها والتعليق على الرسالة تعليقات علمية نافعة ، تدلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارىء . وفيها يصف أبو دلف رحلته فى أواسط آسيا من جنوبي أذربيجان إلى مدينة باكو فتفليس فأردبيل فهمدان فالريّ فطبرستان فقومس فطوس فنيسابور ، فهراة ، فأصفهان ، فمدن خوزستان . ويعنى بوصف المدن والقلاع التى شاهدها وصفاً دقيقاً ذا كراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة .

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

تنوع الكتابة

رأينا في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني كيف تطور النثر العربي حتى وعى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية ، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الحصبة المثمرة في ميادين العلم والفلسفة . ونحن لا نصل إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، حتى يصبح في أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حية في الفلسفة وعلوم الأوائل ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضوع . وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر : نوع علمي ونوع فلسفي ، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب في مصطلحات العلوم ، كما أسلفنا ، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة . ولم يتركوا علما دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام ، ويحدثنا المطهر المقدس المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمى وما يبدلون من عناء ليس وراءه عناء قائلا<sup>(١)</sup> :

\* « يابى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتمجّد له بكليته ، ومتوفّر عليه بأنبيته ، مُعانٍ له بالقرينة الثابتة ، والرؤية الصافية ، مقترن به التأييد والتسديد ، قد شمرّ ذنبه ، وأسهر ليله ، حليف النصب ، ضجيج التعب ، يأخذ مأخذه متدرّجا ، ويتلقاه متطرّفا ، لا يظلم العلم بالتعسف والافتحام ، ولا يجنط فيه خبّط العشواء في الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والتروع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ، وبند الماحكة واللّجاجة ، وإجالة الرأى عند غموض الحق ، والتأنى بلطيف المأتى ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التموه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرتاد » .

وبهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلا رائعا ، وكان

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسى ٤/١ .

لذلك آثار كثيرة في تنوع فنون الكتابة والنثر، مما نراه واضحا لا في الكتابات العلمية والفلسفية فحسب، بل أيضا في الكتابات الأدبية، ولنأخذ جانبا واحدا هو جانب القصص، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبي الخالص قصص صوفى وقصص فلسفى. ومعروف أن المترجمين عُنوا في القرنين الثانى والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسى والهندى وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة. ومحاكاة له ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابا قصصيا مماثلا يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم. ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى ليذكر حمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة في أيامه بلغت سبعين كتابا<sup>(١)</sup>، وكانت العامة تلهف منها على ما يدور حول الحب وحكاياته أو حول الجن. وطبيعى أن تكثر كتب النوادر، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين، وتكثر أيضا كتب الندماء وأخبارهم.

ومرّينا في كتاب العصر العباسى الثانى أنه أخذت تتكوّن منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة، تصوّر جهادهم في نسكهم جهادا مضنيا، وحكايات أخرى بجانبها تصور كراماتهم. وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبى وألفاظه ولغته<sup>(٢)</sup>. وكلما مضينا في عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة، لما كانت تلقى من رواج عند العامة، ويكفى أن نعرض أطرافا من هذه الحكايات عند القشبرى مؤسس التصوف السنى، فقد فتح في رسالته بابا لكرامات الأولياء، وقصّ حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة في إيران والعراق ومصر والحضر عليه السلام. ومما حكاه أنه كان في قصر سهل التسترى المتصوف بيت يسمى بيت السباع، يقول: فسألنا عن ذلك؟ فقالوا كانت السباع تجيء إلى سهل، وكان يدخلهم هذا البيت ويضيفهم ويطعمهم اللحم ثم يخلبهم! وحكى عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التسترى صومعته، فوجد فيها سقّطاً (وعاءً) فيه قارورتان، في واحدة منها شيء أحمر، وفي الأخرى شيء أبيض، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة، فرمى بالشوشقتين في دجلة، وخطط ما في القارورتين بالتراب! وكان على إسحق دين، قال ابن سالم: قلت لسهل إيش كان في القارورتين، قال: إحداهما لو طرّح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة (٢) انظر العصر العباسى الثانى (طبع دار المعارف) ص الأصفهاني (نشر دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٠ . ٢٥٩ .

صارت ذهباً ، والأخرى لو طُرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة . فقال  
سامع لابن سالم : وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق؟ فقال له : إى دوست  
(يا صاحبي) خاف على إيمانه . وحكى عن الحَوَاص أنه قال : كنت في البادية مرة ،  
فسرت في وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء ، فنزلت ، فإذا أنا بسبع  
عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب مني ، إذا هو يعرج ، فحَمَّحُم وبرك بين يدي ،  
ووضع يده في حجرى ، فنظرت ، فإذا يده منتفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة  
وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشدت على يده خرقة ، ومضى ، وإذا أنا به بعد  
ساعة ومعه شبلان يبصبسان لى وحملا إلى رغيفا ! . وحكى عن ذى النون في رواية أبي  
بكر بن عبد الرحمن قال : كنا مع ذى النون المصرى في البادية ، فنزلنا تحت شجرة أم  
غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رُطْب ، فتبسم ذو النون ، وقال :  
أتشتهون الرطب ، وحرَّك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرة  
إلا نثرت علينا رُطْباً جَيِّناً ، ثم حرَّكها ، فنثرت رطباً جَيِّناً ، فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا ،  
وانتهبنا وحررنا الشجرة ، فنثرت علينا شوكا ! . ومما حكاه عن الحضرمي رواية أبي عمران  
الواسطي قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت في تلك الحالة  
صبية ، فصاحت بى ، وقالت لى : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، ورفعت  
رأسى ، فإذا رجل في الهواء ومعه كوز ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من  
المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت ؟ رحمك الله ، فقال :  
عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا؟ فقال : تركت عواري الدنيا لمرضاته ،  
فأجلستى في الهواء ، ثم غاب عني ولم أره :

وتكثر أمثال هذه الحكايات في كتب المتصوفة ، وواضح ما فيها من إبطال قانون  
السببية ، وإنما رويناهما لندل على ذبوع حكايات وأقاويص صوفية شعبية بين العامة ،  
وكانت تُروى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحي قريبة من أفهام  
العامة ، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع في أوساطهم وتنتشر ، عاملة - إلى حد -  
في الإبقاء على الفصحى ، لغةً متداولة على ألسنة الإيرانيين في ذلك العصر ، خاصة أنهم  
كانوا يُشعِّفُون بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاويص ، لا تتناول الكرامات فحسب ،  
بل أيضاً تتناول جوانب أخرى كروايات الرسول ﷺ في الحلم ورؤيا الصحابة والصوفية ورؤيا  
الخور العين . وفي رسالة القشيري من ذلك حكايات مختلفة ، وبالمثل في كتب المتصوفة  
ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبي الليث السمرقندى المطبوع على هامش

الروض الفائق في المواعظ والرقائق .

ويلقانا بجانب القصص الصوفى قصص فلسفى رمزى عند ابن سينا ويحيى السُّهُرُورْدِيّ ، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص ، هى حَيّ بن يقظان وسلامان وأبسال ، ورسالة الطير . وتستهل أقصوصة حَيّ بن يقظان بأن رفقاء (هى شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتزهون ، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخاً بهياً هو حَيّ بن يقظان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال . ويدور حوار بين حَيّ بن يقظان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة ، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التى توقع الإنسان فى الشر ، وأن الإنسان تحفّه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القدرة ولا نجاة منها إلا بالموت ، مثلها فى ذلك مثل الرفقاء السوء من الغرائز ، وأن على الإنسان أن يقمعها بالمجاهدة . ويقول حَيّ بن يقظان إن حدود الأرض ثلاثة ، حد يجوزه الخافقان ، ويقصد به المركبات المحسوسة ، وحد المغرب ويقصد به الهبولى ، وحد المشرق ويقصد به الصورة . وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المغتسلون فى عين فوّارة لعلها علم المنطق تطهرهم وتركبهم ، إذ تضيئ لهم الحقائق . ويشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة التى تسلط على الأرض والكون ، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهى الذات الإلهية . ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رُتّب على سلك خمس كسكك البريد ، ويريد بها الحواس الخمس ، ويقول إن فى الأرض أمة برّرة رامزا بها إلى القوى العاقلة . وبذلك تنتهى الأقصوصة .

وأقصوصة سلامان وأبسال لها أصول يونانية ، وهما أخوان كان أبسال أصغرهما سناً وتربى فى كنف أخيه ، ونشأ جميلاً عفيفاً ، شجاعاً عالماً أديباً . وسلامان فى الأقصوصة هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان ، وكانت لسلامان زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة ، عشقت أبسال ، فقالت لزوجها أخلطه بأسرتك . ولما خلعت به أظهرت له عشقتها ، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية . ومكرت به فزوجته بأختها ، وقالت لها إننى لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك ، وإنما ليكون لنا معا . وفى ليلة الزفاف جاءت بدلا من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها ، فلاح برق فى السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها . ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق ، وينكشف الشُّركُ لعين أبسال ، ويتخلص

من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض . ويتنظم جنديا في الجيش ويفتح كثيرا من البلاد رمزا إلى الاطلاع على الملكوت الأعلى . وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسّان لأبسال السم ويموت . ويثار الأخ لأخيه ، فيقتل الزوجة والطاعم ( رمزى القوة الشهوانية ) والطابخ ( رمز القوة الغضبية ) . وسلامان نفسه فى قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية .

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزا للحرية ، ويستهلها بدعوة إخوانه الفلاسفة الى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال ، ويتصور نفسه طائرا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فنصبوا لها الشباك ، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبث بأجنحته وأرجله ، فاستسلم للهلاك ، وشغل كل طائر عن أخيه بأمره وكربه ناسيا حرته الضائعة كما نسيت الأرواح الإنسانية عالمها الذى هبطت منه ، وأصبحت سجينة البدن . وتحلّص بعض الطيور روعسها وأجنحتها من الشباك ، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها . ويجمع الطير قوته والشباك عالقة به ، ويسمّ جبل الملك رجاء أن يفكها عنه ، ويرى من دونه سبعة جبال مايزال يقطع وديانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك فى مدينة وراه فينفذ إليه ويبره جماله ، ويتضرع إليه أن يفك عنه الشباك ، ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها ، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه ، وانصرف الطير مسرورا . وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان فى سبيل تحلّص الأرواح من أجسادها ، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى محبة الله المعروفة فى بيئات المتصوفة ، بينما يرمز الرسول الذى يفك الشباك عن الطير إلى ملك الموت .

ويُعيد يحيى بن حبّش السهروردى كتابة أقصوصة حى بن يقظان متخذها لها اسما جديدا هو الغريبة الغريبة ، وحى بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنسانى كما رأينا عند ابن سينا ، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه . ويستهل الأقصوصة السهروردى بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ماوراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أسيرا وقيدا فى السلاسل وألقى بهم فى بئر عميقة . ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبئر إلى الشهوات التى تحول بين الإنسان وبين حياة الإشراق . ورأى هو وأخوه ( رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم ) هدهدا فى ليلة قراء فى منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادى الأيمن من البقعة المباركة . وهو كتاب حُمل إليهما من الذات العلية يدعوها إلى السفر ( رمز الجهاد الصوفى ) بغية الوصول ، ويأمرهما بركوب سفينة تجرى بهما فى موج كالجبال صاعدة بهما إلى طور سيناء ، ليريا صومعة ( الله ) . ولعله رمز بالموج إلى

الشهوات . ورأيا في الطريق جاجم عاد وعود ( رمز الضالين ) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق لجماله وجلاله . وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله . ويطلب إلى ربه أن يخلصه من سجن القيروان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلا إنه يمكنه الخي إلى كلبا شاء . وهو بالعودة إلى سجن القيروان يرمز إلى أن الصوفي لا يستطيع التخلص نهائيا من علائق الأرض . ويقول الله إنك ستخلص يوما ( يوم الموت ) من سجن القيروان ولا تعود إليه . ويلقاه في الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيثان ربما كانت رمزا للشهوات . وكانت الرحلة شاقة . واتخذ السهروردي من مشاقها رمزا للعناء الصوفي في الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية ، وقد ختمها بقوله « نجانا الله من قيد الهيوالى والطبيعة » .

وإذا كان القصص نما في العصر هذا النمو على أيدي الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها ، وفي مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ . أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية ، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهي أكثر وأوسع من أن نقف عندها ، وخاصة أنها كانت علمية الطابع . وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس في المساجد بعد صلاة الجمعة وطوال شهر رمضان . ويصور السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ ما ينبغي أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه ، فيقول (١) : إن أول ما يحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحا في نفسه ورعا متواضعا ، وأن لا يكون متكبرا ولا فظا غليظا ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأحاديث وأقوال الفقهاء ، وأن لا يحدث الناس إلا بماصح عند من الأحاديث النبوية والأخبار ، وأن لا يسأل إنسانا هدية ، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس من أن يقبل هديته ، وينبغي أن يمزج في مجلسه بين الخوف والرجاء ، فلا يجعله كله خوفا ولا كله رجاء ، وإن كان الواعظ محتاجا إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطا وإقبالا على سماعه . ومن آداب المستمعين أن يصلوا على الرسول ﷺ عند سماع اسمه وأن لا يناموا في أثناء الوعظ ، بل يظلوا ناشطين متنبهين

ونلم على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ ، فمنهم أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل - كما مر بنا - يعظ الناس في مجالس تذكيره ستين سنة ، وإنه كان

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢٥ وما بعدها .

يعظمهم بالعربية والفارسية<sup>(١)</sup> ، ومنهم إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور - كما أسلفنا - وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورُزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان لا يتلثم في كلمة<sup>(٢)</sup> . ومنهم القشيري الإمام الصوفي الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومرَّبنا ما قيل في وعظه من أنه « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس في مجلسه لتاب » . ومنهم الغزالي الإمام المشهور وأخوه أحمد الذي قيل فيه : « كان واعظا تنفلق الصخور الصمّ عند سماع تحذيره ، وترعدُ فرائض الحاضرين في مجالس تذكيره<sup>(٣)</sup> » . ومنهم فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وكان واعظا كبيرا وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء . وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوي ، فصاح به وهو على المنبر ، ياسلطان العالم ! لا سلطانك يبق ، ولا تلييسُ الرازي يبق ، وإن مردنا إلى الله<sup>(٤)</sup> .

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية في العصر عاملا مهما في كثرة الرسائل الديوانية ، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدّره كتّاب اشتهروا بحسن البيان ، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون في كتاباتهم صورا من التأنق حتى يُرضوا أمراءهم ، وكانت كتبهم لا تخلو من حلية السجع ، فهي حلية مشتركة في الرسائل جميعها وتضاف لها حليّ مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة ، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحليّات والتنميقات . وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيُحْتَبَرُونَ ، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها ، وحينئذ يُلزَمُ كاتبها من كتابها ، يعمل بين يديه ، حتى يُخرّجه كاتبا ماهرا . وكان بعضهم يظل في حضرة الدولة أو عاصمتها ، وبعضهم يُرسل إلى الولايات للعمل بين أيدي الولاة . وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم ، تنافسا أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية . وكان من يُظهر منهم نبوغا يرتقى سريعا وقد يصبح رئيسا للديوان ، وقد يصبح وزيرا يدبر أمور الدولة كلها ، وربما أصبح واليا لمدينة كبيرة . وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية ، وخاصة في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، حين كانت العربية لاتزال هالبة ولايزال سلطانها نافذا في الأعمال الرسمية . وبالمثل ظلت في

(٤) السبكي ١٩/٨ وما بعدها وابن خلكان

(١) السبكي ٤/٢٧١

٢٤٩/٤ .

(٢) ابن خلكان ٣/١٦٨

(٣) السبكي ٦/١٩١



تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة ، فالأدباء يصورون في رسائلهم الشخصية عواطفهم في التهادى والاستمناح والثناء والذم والتهاني والعتاب والاستعطف والتعزية ، مظهرين في هذا المجال براعة في طراقة التفكير وجمال التعبير ، وسُنْعَتِي في الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ونقف قليلا عند قابوس بن وشمكير ومحمد بن عبد الجبار العتبي ورشيد الدين الطواط من كُتَّاب الدول والإمارات ثم نلمُّ بآبن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل في العصر وتلميذه الصاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة .

## ٢

## كُتَّاب الرسائل

من أهم ما يلاحظ في مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية ، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا في جمع الأدباء من حولهم ، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادي مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة ، ولعلنا لم ننسَ مامرِّبنا من كثرة الإمارات الفارسية في القرن الرابع الهجري ، فقد كان السامانيون في بخارى بخراسان والبويهيون بالرَّيِّ والزياريون في طبرستان وجرجان ، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا في هراة بأفغانستان . وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء ، وكانوا دائما يختارون كتابا كبيرا ليتولى شئون دواوينهم ، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونته ، فلا تعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة . ولم يكن أصحاب الإمارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم ، بل كان أيضا يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة ، ولذلك تعددت مراكز الأدب في الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبي في كتابه اليتيمة ، فإنه عرض في حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبي واسع ، وبالمثل عرض في حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى في الرِّيِّ لأصبهان والجليل وفارس والأهواز .

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتاب الدول والإمارات الإيرانية في القرن الرابع فضلا عما وراءه من قرون ، ولذلك سنكتفي ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولي أو التتاري في القرن السابع الهجري . وأول من نقف عندهم كتاب الدولة السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبي الفضل بن العميد

كبير كتاب القرن الرابع وعلى بن محمد <sup>(١)</sup> الإسكافي النيسابوري وأسرة بني ميكال من أهل نيسابور وفي مقدمتهم أبو الفضل الميكالي الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل ، ويقطف الثعالي فصولا طريفة من رسائله . وأكثر المجلد الرابع من اليتيمة إنما هو في الترجمة لأدباء بخارى ونيسابور ومن طراً عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان ، وسنفرده له حديثاً ، ومثل أبي بكر الخوارزمي ، وقد ترجمنا له في شعراء المهجاء ، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية في العصر ورسائله مطبوعة ، وقد تحدثنا عن فنه الكتابي وبراعته الأدبية في كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » .

ويُفيض المجلد الثالث من كتاب اليتيمة في ذكر كتّاب الدولة البويهية في الريِّ وأصهبان والجليل وفارس والأهواز وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد ، وسنخص كلامها بحديث ، ويشيد الثعالي بأبي العباس <sup>(٢)</sup> الضبي المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجدوة من ناره ، ويجرى في طريقه ، ترسماً وترسلاً . وكان لرجان وطبرستان حظهما من الكتاب والشعراء ، ولعل كاتباً فيها لم ينبغ نبوغ قابوس بن وشمكير في الترسل والكتابة ، وسلم به وبكتابه عما قليل . وولتقى في الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفي مقدمتهم أبو الفتح البُستي ، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة ، وكان يعاونه في الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العُتبي ، وسنقف عنده بعد قليل . ومن كتّاب الدولة الغزنوية أبو بكر القُهستاني الذي ترجمنا له بين شعراء اللهو والجون وكان على رأس كتّاب الأمير محمد بن محمود الغزنوي . ويذكر الثعالي في تنمة اليتيمة بعض أسجاعة في رسائله . ومن كتاب هذه الدولة أيضاً القاضي أبو أحمد منصور <sup>(٣)</sup> بن محمد الأزدي الهروي المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتابات وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء .

ونمضي إلى الدولة السلجوقية في القرن الخامس الهجري ونجد على رأس كتّابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكُندريّ المارّ ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية : « لعميد الملك الكُندريّ طريقة في الترسل محمودة ، وموافقة في البلاغة مشهودة » <sup>(٤)</sup> ويذكر نموذجاً من كتاباته . ومن كتّاب هذه الدولة أبو الحسن <sup>(٥)</sup> الحسيني

(١) انظر في الإسكافي اليتيمة ٩٥/٤ ومعجم الأدباء ١٩١/١٩ وبروكلمان ١٢٢/٢ .

(٢) راجع الكندري في الدمية ٢٣٠/٢ وابن خلكان ١٤/٢٥٧ .

(٣) راجع في الضبي اليتيمة ٢٨٧/٣ ومعجم الأدباء ١٠٥/٢ .

(٤) انظر القاضي منصور الهروي في تنمة اليتيمة ٤٦/٢ .

(٥) انظره في الدمية ١٧٧/٢ .

والدمية ١٥٣/٢ والسبكي ٣٤٦/٥ ومعجم الأدباء

البلخي ، وكان ألب أرسلان يرسله في مهامه إلى بغداد ، ويسوق البخارزي في الدمية نموذجاً من سلطانياته . ومن كتاب هذه الدولة أيضاً البخارزي صاحب الدمية ، ومترجّمته بين شعراء اللهو والمجون ، والطغرائي ومترجّمته بين شعراء المديح ، والأبيوردي وعمل في دواوين السلاجقة ببغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان ، ومترجّمته بين شعراء الفخر والهجاء والشكوى .

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطاً أدبياً وعلمياً عظيماً استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة ، ويكفي أن هذا النشاط أنتج العالم المعترى الكبير الرّمخشي المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتباً كبيراً يُعدّ آخر كتاب الدواوين الناهيين في إيران ، وهو رشيد الدين الوطواط ، وسنخصه بكلمة ، بعد إمامنا بقابوس بن وشمكير وأبي النصر العُتبي .

### قابوس<sup>(١)</sup> بن وشمكير

هو أحد أمراء الدولة الزيارية في طبرستان وجرّجان وبلاد الجبل ، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى « آل قارن » إحدى الأسر السبع الرفيعة - فيما يُقال - لعهد الساسانيين . وينسبه البيروني هو وأسرته إلى « قباد » الملك الساساني . ولى الحكم في إمارته بعد أبيه وشمكير ابن زيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسي بلقب « شمس المعالي » واشتبك مع البويهيين في سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرماً ، حتى استردّ ملكه سنة ٣٨٨ . وكان أميراً جليل القدر بعيد الهمة ، غير انه كان - كما يقول ابن خلكان - على ما خصّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، مراً السياسة لا يساغ كأسه ، ولا تُؤمّن بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلّة القدم ، بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب ، فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه ، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته ، وحاصروه بإحدى القلاع في جرجان . وكان ابنه منوچهر بطبرستان فاستحثّوه على السير إليهم لعقد البيعة له ، فأسرع في الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه ، ونزل على إرادتهم ، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع ، ولم يزل في سجنه حتى توفي سنة ٤٠٣ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٤ وابن الأثير في مواضع متفرقة وديوان المعاني للعسكري ٨٦/١ والفن ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة) ص ٢٥٥ .

(١) راجع ترجمة قابوس في اليتيمة ٥٩/٤ واليمني للعتبي مع شرح المنيني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) .  
١٤/٢ - ١٧ ، ١٧٢/٢ - ١٧٨ ومعجم الأدباء .  
٢١٩/١٦ وابن خلكان ٧٩/٤ والمتمم ٢٦٤/٧

وكان قابوس مكرما للعلماء والشعراء يجزل الصلوات لهم ، وقدم له البيروني كتابه « الآثار الباقية » وقدم له الثعالبي كتابيه : « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » . وكان مثقفا ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل ، ويقال إنه كتب في الإسطرلاب كتابا كان يعجب به صاحب . وكان أديبا بارعا ، وهو يُعَدُّ من كبار الكتاب في عصره ، وفيه يقول الثعالبي : « جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم ، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم ، وإني أتوِّج هذا الكتاب (اليتيمة) بلمع من ثمار بلاغته . . وأكتب فصولا من على نثره » . ويقول العتبي في كتابه العيني : « إن رسائله موجودة في البلاد عند الأفراد ، لكنني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » . ويعلق أبو هلال العسكري على رسالة له اقتبسها في كتابه « ديوان المعاني » بأنها لانظير لها في الافتخار والعتاب . وقد جمع رسائله في عصر قريب منه عبدالرحمن بن علي اليزدادي باسم « كمال البلاغة » ونُشرت في القاهرة ، ونراه يحلل في مقدمته لها بلاغته ، وقد ردّها إلى أربعة عشر نوعا في طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به ، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقدا شديدا ، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته ، وكأنه اتخذ منه أداة للهوه وتسليته على نحو ما يتضح في المطلع التالي لإحدى رسائله :

« الإنسان خلق ألوفا ، وطُبع عطوفا ، فما لسيدى لأُحِنِّي عُوْدَه ، ولا يُرَجِّي عُوْدَه ، ولا يُخال لفئته مَخِيلَة ، ولا يُحال تنكره بِجِيلَة ، أَمِنْ صَحْرٍ تَدْمُرُ قَلْبَه ، فليس يُلِينَه العتاب ، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب » .

وواضح تصنعه المعقد للجناس في سجعانه إذ يجانس بين « عُوْدَه » و « عُوْدَه » ملتصقا جناسه في اختلاف حركة العين في الكلمتين ، وقد يلتمس الجناس عن طريق الاشتقاق كما في « يخال » و « مخيلة » وفي « يخال » و « بجيلة » . وقد يلتمسه في تغاير بعض الحروف في الكلمة كما في « مخيلة » و « بجيلة » . وكل ذلك ليظهر مهارته في تضيق ممراته إلى أسجاعه . وفي كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » بيان واف لهذا الجانب عنده .

### أبو النصر<sup>(١)</sup> العُتْبِي

هو محمد بن عبد الجبار العُتْبِي ، مولده ومرباه في الرِّيِّ ، وقد فارقتها في شبابه ، وقدم خراسان على خاله أبي نصر العتبي وكان من وجوه العمال بها ، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز

(١) انظر في ترجمة العتبي اليتيمة ٣٩٧/٤ والسبكي في

ترجمة محمود بن سبكتكين الفزنوي ٣١٩/٤ وبروكليان

(الترجمة العربية) ١/٦ .

عند الوالد الحاني إلى أن وافاه القدر . وتتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال في الدواوين إلى أن استقر أمره في العمل مع أبي الفتح البستي في ديوان أبي منصور سُبُكْتِكِين مؤسس الدولة الغزنوية ، وظل يعمل بعد وفاة سُبُكْتِكِين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم ، وكان محمود يعترف - كما مر بنا - بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة . واتسع ملكه - كما أسلفنا - حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبُنجَاب في الهند . وعُني أبو النصر العتبي بكتابة تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه اليميني نسبة إلى لقب محمود الذي خلعه عليه الخليفة : « يمين الدولة » وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧ . وربما كان في ذلك ما يدل على أنه صنفه في وقت متأخر ، وأنه لم تتح له الفرصة لتكلمته . ويقول السبكي : « وأهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري » وهو مطبوع في القاهرة مع شرح المنبئي له في القرن الماضي ، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوي ، يقول :

« الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سُبُكْتِكِين ، ملك الشَّرْقِ بِجَنْبِيهِ ، والصدر من العالم وبديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس في حوزة ملكه ، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة في قبضته ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظامها تحت حمايته ، وجبايته ، واستدراهمهم « دفعهم » من آفات الزمان بظل ولايته ، ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياحهم بفنائض هيئته ، واحتراسهم - على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار - من فاجئ رُكُضته . »

والعتبي بكتابه تاريخ محمود الغزنوي بهذه اللغة المسجوعة يحاكي الصائغ في كتابه « التاجي في ملوك بني بويه » الذي كتبه قبله بنفس اللغة ، وقد سقط « التاجي » من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العملين . ويبدو أن كتاب العتبي كان أخف ، فتعلقت به القلوب والأفئدة ، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم في البلاغة . وعلى شاكلته في خفة السجع وعذوبته رسائله ، فإن الفصول التي حكاها الثعالبي منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله في رقعة كتبها في الإنكار على من يدم الدهر :

« عَتَبَكَ عَلَى الدَّهْرِ دَاعٍ إِلَى العَتَبِ عَلَيْكَ ، واستبطاؤك إياه صارفٌ عِنَانَ اللُّومِ إِلَيْكَ ، فَالدَّهْرُ سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ اللَّهِ مَرْتَعُهُ عَنْ مَقَابِضِ أَحْكَامِهِ ، ومطلعه من جانب

ما حرّرتّه مجارى أقلامه ، والوقية فيه ، تمرد بحكم خالقه وباريه ، ومجارى الأشياء على قدر طباعها ، وبحسب ما فى قواها وأوضاعها ، ومنّ ذا الذى يلوم الأرقام على النهش بالأنثياب ، والعقارب على اللسع بالأذنان ، وأنّى لها أن تُذمّ ، وقد أُشربتْ خِلقتها السم وحكم الله فى كل حال مطاع ، وبأمره رضاً واقتناع .

ولغة العتبي سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة ، وسجعه ينزلق عن الألسنة فى يسر ، وليس فى الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس ، مما يتعثر فى الأفواه .

### رشيد الدين<sup>(١)</sup> الوطواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضالة جسمه . من سلالة عمر بن الخطاب ، ولد ببلخ وبها نشأ وترى فى المدرسة النظامية ، وكان شاعرا كما كان كاتباً ، وله مصنفات عدة ، منها : «غرر الخصائص الواضحة» وهو من كتب الأدب التهذيبى ، ومنها : «حدائق السحر فى دقائق الشعر» وهو فى علم البديع والصناعة الشعرية ، وضعه بالفارسية ، وأمثله فيه موزعة . بين الفارسية والعربية ، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين . ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق فى سنة ٥٢٢ للهجرة بدواوين الدولة الخوارزمية فى عهد أميرها الطموح الباسل أئسز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) ويظل بعد وفاته يعمل فى دواوين الدولة ، إلى أن يبلغ من الكبر عتياً ويهين عظمه ، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أئسز حين تولى مقاليد الأمور فى خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه فى محفة ، فلما مثل بين يديه نظم رباعية فى مدحيه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية . وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات ، واختلف مؤرخوه ، فقبل توفى سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨ .

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلاً : « كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشئ فى حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا » ويقول ياقوت : من مؤلفاته

ذكر مراجعه فى الفارسية . وانظر بروكلمان ١٤٢/٥ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠ .

(١) راجع فى الوطواط وترجمته معجم الأدباء ٢٩/١٩ وروضات الجنات ٧٧ وبغية الوعاة للسيوطي ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر ، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع

تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصديق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأنس اللفهان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب . ويقول أيضا : له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، وشعره دون نثره جودة . ورسائله العربية مطبوعة بمصر في جزءين ، وهي موزعة بين رسائل شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية . ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خوارزم ، وفيه يقول :

« أن أولى الأمور بأن تُصَرَّفَ أَعْتَهُ العناية إلى ترتيب نظامه ، وتُقَصَّرَ الهمم على مهمته إتمامه ، أمرٌ يتعلَّقُ به ثباتُ الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فإنَّ فيه تثبيت الزائعين عن الحق ، وتأديب المنهمكين في الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها . وينبغي أن يكون متقلداً لهذا الأمر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد (أماكن) الرِّبِّ (التهمة) بعيداً عن مواقف التَّهم والعيب ، لابساً مدارع السُّداد ، سالكاً مناهج الرشاد . والشيخ الإمام - أدام الله فضله - متحلُّ بهذه الخصائص المذكورة ، والفضائل المشهورة ، ومستظهر في دولتنا للحقوق الفرضية ، ومستشعر للصفات المرضية ، فقلدناه هذا الأمر . . وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره ، والرُّهد دثاره ، والعلم معلّمه والدين مناره . ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار . . وأمرناه أن يبالغ في تعديل المكييل والموازن ، على وفق أحكام الشرع والدين ، فإن وجد تفاوتاً في شيء منها سواه وعدلّه ، وغيره وبدلّه ، وأدب صاحبه على رعوس الأَشهاد ، ليتزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد .

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة ، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشرطي ، بل كان أيضاً ينظر في كل ما يقع بها من الجنایات والخصومات كما ينظر القاضي ، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطي والقاضي في وقت معاً ، فهو ينظر في الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام . وهو لذلك كان يختار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء في التقليد ، إذ لا بد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة في الحدود وغيرها من أحكام . وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطي ، فيراقب المكييل والموازن ، فإن وجد في مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بدله على رعوس الأَشهاد ، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً ، وحتى ينزجر غيرهم فلا تحدّتهم نفوسهم بخيانة في ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة .

والتقليد جميعه مسجوع ، وليس فيه ألفاظ غريبة ، فالوطواط ينطلق في سجعه ، وكأنه ينسأب من معين زاخر دون أى عائق أو حائل . وبمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهى تجرى سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشري يستأذنه فى حضور دروسه ومجالسه :

«أنا منذ لفظتني الأقدار من أوطاني ، ومعاهد أهلى وجيراني ، إلى هذه الخطة (خوارزم) التى هى اليوم بمكان جار الله - أدام الله دولته - جنة للكرام ، وجنة (سئرا) من نكبات الأيام ، كانت قصى منى ، وقصارى بغيى ، أن أكون أحد الملازمين لسدته الشريفة التى هى مخيم السيادة ، ومقبل أفواه السادة ، من التى فيها عصاه ، حاز فى الدارين مناه ، ونال فى المحللين مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، حرمنى تلك الخدمة ، وحرّم علىّ هذه النعمة . والآن أظن - وظنّ المؤمن لا يخطئ - أن آفل جدّى (حظى) همّ بالإشراق ، وذابل إقبالى أقبلى على الإبراق ، فقد أجد فى نفسى نوراً مجدداً يهدينى إلى جنته ، ومن شوقى داعياً موقفاً يدعونى إلى حضرته .»

وتمضى الرسالة على هذا النمط من السجع الطبعى . وكان يفسح فى شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع . ونتركه للحديث عن ثلاثة هم فى الذروة من أدباء العصر فى مختلف حقبة الماضية : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان .

### ٣

#### ابن العميد<sup>(١)</sup>

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، فارسى الأصل ، من مدينة قم الشيعية الإمامية ، فيها منشؤه ومرياه ، مما أعدّه ليكون شيعياً إمامياً مثل أمرائه البويهيين . وكان أبوه كاتباً فذاً ، كتب لما كان بن كاكى ثم للسامانيين ، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل . ولم يلحق ابنه معه بديوانهم ، بل ألحقه بدواوين البويهيين . وخدم ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الرى ، ولم يزل يترقى عنده ، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠ .

(١) انظر فى ابن العميد وترجمته البيهيمية ١٥٤/٣ وما بعدها وتجارب الأمم لابن مسكويه فى مواضع متفرقة وابن لأثير ٥١١/٨ ، ٥١٦ ، ٦٠٦ ، وابن خلكان ١٠٣/٥ الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٠٥ والشذرات ٣١/٣ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ٦٦/١ وكتابه «مثالب الوزيرين» وفيه تحامل شديد عليه وانظر



وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور: «كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة، حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام. فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة. أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرتة إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم». ويقول ابن الأثير: «كان عالماً في عدة فنون، منها الأدب، فإنه كان من العلماء به، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل، ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه، وشجاعة تامة، ومعرفة بأمر الحرب والمحاصرات، وبه تخرّج عضد الدولة، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء». ويقول ابن خلكان: «كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم».

وكان - كما لاحظ ابن الأثير - يحسن قيادة الجيوش، وحقق للدولة انتصارات عظيمة، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراساني سنة ٣٤٤ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها، فقد اعترضه في طريقه إلى الري وهزمه هزيمة ساحقة. ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥. وخرج في سنة ٣٦٠ لقتال حسنويه الكردي، ولكن المنية أدركته دون غايته، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً. وظل وزيراً ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان مقصد الشعراء والأدباء يجزل لهم الصلوات، وقصده أبو الطيب المتنبي بأرجان، فاستقبله استقبالاً حافلاً، وفيه يقول:

عربيٌّ لسانه فلسفيٌّ رأيه فارسيٌّ أعبادهُ

ويشيد كل من ترجموا له ببلاغته، وفي ذلك يقول الثعالبي: «أوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة، والضارب في الآداب بالسهم الفائزة، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية، يُدعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس، يُضرب به المثل في البلاغة، ويُنتهى إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاستها. وكان يقال: بُدِئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتِمت بآبِن العميد». ومن يقرأ ما اقتبسه الثعالبي من كتاباته يؤمن بأنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها، وهي صيغة قامت على أساسين كبيرين: أولهما السجع، وكان السجع معروفاً من قبله في

الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجرى ، على نحو ما مرَّ بنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وسنراه يُدخل عليه ضروباً من الموازنة فى السجعتين المتواليتين ، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه . والأساس الثانى لم يكن متبعاً قبله ، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفى ، بل لابد أن تُضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه . ونسوق مثلاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه ، مفتتحاً كتابه بقوله :

« كتابى إليك ، وأنا مُتأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدلُّ بسابق حرمة ، وتمتُّ بسالف خدمة ، أيسرها يوجب حقاً ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعها بجادث غلُول<sup>(١)</sup> وخيانة ، وتتبعها بآئف<sup>(٢)</sup> خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحبط أعمالك ، ويُسقط كلَّ ما يُرعى لك » .

وهذه النغمت الأولى فى الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذى التزمه ابن العميد فى كتابته ، فهو يلتزم السجع ، وليس ذلك فحسب ، بل هو يوازن بين السجعات ، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين ، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة ، فسجعة « تدلُّ بسابق حرمة » توازنها فى دقة السجعة التالية لها : « تمتُّ بسالف خدمة » . ومثلها السجعتان : « ثم تشفعها بجادث غلُول وخيانة ، وتتبعها بآئف خلاف ومعصية » . وهو لا يلتزم السجع فحسب ، بل يكثر من الطباق مثل « طمع ويأس » و « إقبال وإعراض » كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف ، والكتاب زاخر به وبالطباق ويتصاوير كثيرة كقوله فيه معانياً صاحبه :

« ألم تكن فى ظلِّ ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عذى<sup>(٣)</sup> وماء روى ، ومهادٍ وطى (لين) وكن<sup>(٤)</sup> كنين<sup>(٥)</sup> ، ومكان مكين ، وحصن حصين » .

وكل هذه كنايات واستعارات لما كان فيه هذا العاصى لركن الدولة حين كان يضع يده فى يده ، فقد كان فى سعادة ما وراءها سعادة ، فإذا كل نعيم كان فيه يتحول بؤساً وشقاء . وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً : « قد يعدُّ أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مُدَّها ، وانتقاض مِرِّها

(٤) الكن : ما يردُّ الحر والبرد من الأبنية .

(٥) كنين : مستور

(١) غلُول : خيانة

(٢) آئف : أشد

(٣) عذى : خالص

(قواها) . . الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من عموم الأوباء، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء . . وليس عندى الخطبُ في جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتوسع قدرته . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذى أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهى نُورٌ<sup>(١)</sup> نوافر من لاقى حتى تصير إليه ، وشُرد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفت الواثق ، وتشوف نحوه تشوف الصبِّ العاشق» .

والفصل طريف في دلالة على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله ، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه . والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقصيره ، وإحداث الموازونات بين السجعات حين تطول ، وفي أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بمحسنات البديع وسلاسة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى . وهى كلها جوانب أساسية في بلاغته وبيانه .

#### ٤

#### الصاحب<sup>(٢)</sup> بن عباد

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد ، من أهل الطالقان : ولاية بين قزوين وأبهر ، وُلد عام ٣٢٦ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني ، وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالرى ، وعُنى به ، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوى ، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب أحلقه بابن العميد ، فكان يصحبه دائماً ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد ، وظل هذا اللقب علماً عليه ، وقيل بل صحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب ، فاستمر عليه اللقب واشتهر به .

يزيد ابن العميد والصاحب وقد بالغ في الغرض منها كما أشرنا إلى ذلك . ورسائل الصاحب منشورة في دار الفكر العربى بالقاهرة بتحقيقى وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها في النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب ، وكذلك للدكتور بدوى طبانة (طبع القاهرة) . وانظر المدخل بين يدى الرسائل وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربى ص ٢١٢ وما بعدها .

(١) نور : جمع نوار : شاردة  
(٢) انظر في الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله القيمة ١٨٨/٣ والمتنظم ١٧٩/٧ ومعجم الأدباء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ وإنباه الرواة ٢٠١/١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومراة الجنان ٤٢١/٢ والشذرات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير في مواضع متفرقة وفي سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩/٤ ، ومثالب الوزيرين لأبى حيان ،

ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاء وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفى سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقره علي وزارته ، وكان مبعلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر . وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل : كان « مَنْ يُؤَدُّنُ له في الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرّة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل في الدار وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره عليه . . ولم يكن يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير إلى القيام ، ولا يطمع أحد منه في ذلك » . وما زال وزيراً لفخر الدولة حتى توفى سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفى أغلقت له مدينة الري ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيروا لباسهم . ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للجزاء أياماً . وفيه يقول الثعالبي : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتقدره بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ؛ وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ولكنى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، ونبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحلهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروقة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهيمته في مجد يشيده ، وإنعام يجده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . . وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصبوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . واحتفّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يرئى عددهم على شعراء الرشيد ؛ ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، ومملك رق المعاني » . ويذكر ياقوت أن عطايها للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد . وكان يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، بل ربما كان يتقنها إذ روى أنه اختبر قدرة بديع الزمان الهمداني ، حين مرّ ببابه ، في الترجمة من الفارسية إلى العربية .

وكان شاعراً مجيداً ، كما كان كاتباً مجيداً ، وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدى الشيعى والمعتزلى ، فقد كان شيعياً إمامياً كما مر بنا في حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة ، وقد نشر محمد حسن آل ياسين

ديوانه كما مرَّ بنا ، وهو يموح بأشعاره الشيعية وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله :  
 قالت : فما اخترت من دينٍ تفوز به فقلت إني شيعيٌّ ومُعترليٌّ  
 وقوله :

ومن كان بالتَّشبيهِ والجَبْرِ دائنًا فإني في التوحيد والعدْلِ أوحدٌ  
 وهو يحمل على المشبَّهة والمجبرة حملات شعواء ، كما يحمل نفس الحملات على من  
 يقولون بأن القرآن قديمٌ وغير مخلوق يقول :

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنه كلامٌ له فانظرُ إلى أين صعدوا  
 وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها - فيما مرَّ - أطرافاً . وصنَّف في  
 اللغة معجماً سماه المحيط كما صنَّف كتباً ورسائل مختلفة في الإمامة وفي فضائل علي  
 ابن أبي طالب وفي أسماء الله وصفاته وله رسالة في الكشف عن مساوي المنتبي وكتاب في  
 المقصور والمددود . وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع في عشر  
 مجلدات ، وأنها كانت حِمْلُ أربعائة بعير .

ورسائله منشورة ، وهي في عشرين باباً وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا  
 البابين السابع عشر والثامن عشر ، وأولها في الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل ، والثاني  
 فصول قصيرة وتوقعات موجزة . وقد ذُكرت في مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها .  
 وجميعها ديوانية ، أو الكثرة الكثيرة منها ، ولذلك كانت تُعدُّ وثائق قيمة عن الدولة  
 البويهية ، وخاصة أن الصاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقضاتهم كما يعرض  
 معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة . والباب  
 الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير  
 ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وهسودان . وفي كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها  
 الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين . وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب  
 التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء في معاهدة لهم مع السامانيين من أنه  
 « لا يُقبَلُ في جهة من الجهتين أباق العساكر ، ولا يمهَّد في جنبه من الجنبين للخالغ  
 والنافر ، ولا يُحَامَى على مَنْ عصا فشرد ، وشق العِصْبَا وانفرد » . ومن الطريف أن نتعقب  
 ما جاء في الباب الثاني من العهود للقضاة والولاة والمحسبين ، وخاصة عهود القضاة ،  
 لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة ، وهي الكتاب والسنة والإجماع  
 والقياس ، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حيثُذ في القضاء ومصادره ؟ . وفعلاً  
 يؤكد ذلك ما جاء في الرسالة الأولى من الباب الثاني الخاصة بعهد القاضي عبد الجبار .

وفيه أيضاً أن التركة لا تُرَدُّ إلى بيت المال بل يأخذها الأبعد من ذوى الأرحام ، وهو ما أشار إليه المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات . وبلغنا عهد في الحسبة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئوليته . وتلقانا عهد في معاملة الرعية وفي قسمة الماء في بعض الأودية ، كما بلغنا باب عن الحجيج والمصالح والثغور . وفي الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كتبتا بمناسبة نشوب ثورة في قزوين بين الشيعة والسنة ، ونرى صاحب يدعو فيها إلى أن تحل الألفة والوثام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى . وفي ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيزوا إلى مذهبهم الشيعي في أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له . وطبعي أن نحسّ في بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة ، فقد كان صاحب كما قدمنا معتزلياً ، وفي الباب السابع عشر رسالتان صريحتان في أن صاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول في نحلة الاعتزال . ومن قوله في إحداهما : « كان هذا البلد من البلاد المستغلبة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعدده ووعيده ، هذا وفي فقهاؤه وفور ، وفي الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بثّ كلمة الحق ، وسمع الأكثر على لين ورفق » . وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع ، وكانا متأخين حينئذ ، فعمل على نشره ليشتر من ورائه التشيع مبتغاه . وفي الرسائل - من حين إلى آخر - ما يدل على نزعة الشيعة وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين . وتلقانا في الباب التاسع عشر رسالة هي عهد لعلوى ولّى النقابة بين الذرية الطيبة ، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذي كان يحكم بين العلويين ، وأنه كان لهم قضاء مستقل في الدولة ، وأنه كان ينتسب إليهم دخلاء ينتحلون النسبة ، ويأمر النقيب بتعقبهم وإشهار أمرهم ، وفي الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التي كان يقدمها البويهيون للعلويين .

وعلى هذا النحو لرسائل صاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة ، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة ، لأنها المجموعة الوحيدة التي وصلتنا عن كتاب البويهيين في القرن الرابع الهجري ، وهي دائماً تبتدئ بالتحميد والتمجيد للنبي ﷺ أو بالدعاء . ويُعقب صاحب هذا البدء بذكر أميره الذي يكتب عنه مكتفياً بلقبه المشهور الذي خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة في فتح عظيم أطال في الدعاء تنوياً بالفتح . والرسائل كلها مكتوبة بأسلوب ابن العميد الذي يقوم على السجع والبديع ، ويروي معاصروه طُرْفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره ، حتى زعموا أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين :

فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا شيء إلا ليكتب إلينا : « كتابي هذا من التوبهار ، يوم السبت في نصف النهار » . وقالوا إن سجة اضطرته إلى عزّل قاضي مدينة قُم ، فقد كان في حضرته ، فقال له : أيها القاضي بقم ، وأراد أن يكمل السجة ، فأعياه إكالمها ، فقال : قد عزلناك قُم . ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبي حيان ، وفي تكلفه للسجع يقول : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد . . قلت لابن المسيبي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غُرمٍ ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشّم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفرج عنها ويخليها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها » . وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد صاحب يترك نفسه على سجيّتها ، فإن واتاه السجع مضى فيه ، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج ، وإن كان ذلك لا يأتي إلا نادراً ، فالصورة العامة لرسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامها تفننا يدل على مهارة واسعة ، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه وسجية من سجاياه . وأول ما يلقانا في رسائله رسالته التي وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير ، ومقطعها الأول يجري على هذا النمط :

« أحسنُ نعم الله تعالى غُرراً وأَوْضاحاً ، وأَبْيُنُها فَلَاقاً وصباحاً ، وأَولَها إذا تُصَفِّحَتِ المواهب أخذًا بحظ السابق ، وأَولَها إذا اتَّسَعَتِ المَنائِحُ فوزاً بالغر الشاهق ، وأحراها بأن تُثني عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتُثني إليها أعناق الحماد والمعالي ، نعمة صادفتُ حمداً وشكراً . وجمعت فتحةً ونصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً ، واستدلّت متمطياً للوجود لاهياً عن غوره ، مُسْتَشْرِباً في الغموط عادياً لطوره . وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عَصَدَ الدولة ، وتَوَجَّ المَلَّةُ ، وحرس الأُمَّة ، وزحزح العُمَّة ، ورَفَدَ الخِلافةَ ، وبَسَطَ العدل والرِّافةَ ، وطَهَّرَ البلادَ ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدَّ الثغور ، فشهدتْ فتوحه بأنه مؤيدٌ من عند الله ، ومحوِّطُ الملك بيد الله ، لا ينزاع رأيه منازعٌ إلا تُلَّ لجبيته <sup>(١)</sup> ، وعوجل بقطع وتينه <sup>(٢)</sup> : ولا يمانع رأيته ممانع إلا غلَّتْ يده دون مطلبه ، واقْتَطَعَ أمده عن مَهْرَبه ، ولم يِعِزَّ بالتحصن عليه مارق ، والتَمَتَّعَ دونه مشاقٌّ مفارق ،

(١) تل لجبيته : صرع على وجهه

(٢) الوتين : الشريان الرئيسي للقلب

إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكَّن منه القضاء سَمْحاً فاستنزل عن معاقله وصياصيه<sup>(١)</sup> .

وواضح أنه تمثّل طريقة أستاذه ابن العميد ، فهو يُعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه ، حتى يكون بناء رسالته في هذا الفتح قوياً سامقاً . ويُعنى بأسجاعه ، فهي تتقابل وتتوازن مها طالت ، كقوله : « وأولاها إذا تُصَفِّحت المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأولاها إذا تُتَبَّعت المنائح فوزاً بالعرز الشاهق » وكل كلمة في العبارة الثانية تكاد تتشابك بالأیدی مع قرينتها في العبارة الأولى . ومثلها السجعة التالية : « وأحراها بأن تُثْنَى عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتُثْنَى إليها أعناق الحامد والمعالى » وكأن الكلمات في العبارتين تتعاقق . واستمر في قراءة الأسجاع الطويلة في هذا الفصل وفي رسائله صاحب ، فستجد دائماً هذا التعاقق والتشابك بين كلمات السجعات ، وحقاً ابن العميد بدأ ذلك ولكن صاحب اتسع فيه سعة شديدة . ولا بد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع ، فالنعم ذات غُرر وأوصاح كخَيْلِ الحرب الظافرة ، بل هي كالصباح الجميل البهيج ، وتتوالى الأخيلة والصور في المقطع . ويكثر فيه الجناس مثل غَوْره وطوره ، والأُمَّة والعُمَّة ، وبنازع وبنازع ، ويمانع ومانع ، ويحاول أن يأتي بغرائب في الجناس تحلب ألباب السامعين ، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا في بعض الحروف ولكن في بعض الحركات كما في « وأولاها ، وأولاها » و« تُثْنَى وتُثْنَى » . وجعلته قدرته على حشد السجعات يُكثّر من الجمل الاعتراضية في رسائله على نحو ما يتضح في مطلع هذا المقطع ، فقد بدأه بمتداً هو « أحسن نعم الله » وفصل بينه وبين خبره ، وهو « نعمة صادفت حمداً وشكراً » بنحو ثلاثة أسطر ، ونقده أبوحيان ، وقال إن هذا يُحدث تعاضلاً في أساليبه<sup>(٢)</sup> . وفي رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طولاً شديداً ، وهو نادر عنده . على أن هذا الجانب في أساليبه شاع فيما بعد بين كتّاب العصور التالية وخاصة عند العباد الأصفهاني والقاضي الفاضل . وليس معنى ذلك أن صاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع ، بل هي تطول أحياناً ، وأحياناً تقصر كما في هذا المقطع نفسه إذ يقول : « نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً » . وتكثر هذه السجعات القصيرة في رسائله الإخوانية ، كقوله في عزاء ابن عن أبيه ، وكان عالماً نحرياً : « للفتائع اختلاف مواقع ، وللمصائب تباين مراتب ، ومن أشدها لدعاً ، وأعظمها



وقعاً ، فجيفة أخرجت صدور قومٍ مؤمنين ، ومصيبة خصّصت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبي عثمان - رحمه الله ، وأكرم مأواه ، ومثواه فقد كان للإسلام جلالاً ممتداً ، وللدين ركناً مشدداً ، وللعلم شهاباً لا يخبو ، وللأدب سهماً لا يئبو ، يذب عن حق الله القائم ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، عاش عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر ، التقوى شعاره ، واليقين دثاره ، وحجج الله مفرّعه ، وآيات الله مرجعه ، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحدّين ، وأسره إلى الملحدّين ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار .

ويمضى في مثل هذا السجع القصير موشياً له بالجناس ، أهم لون من ألوان البديع كان يستخدمه ، كما نرى في مثل «مأواه ومثواه» ، و«ممتداً ومشدداً» و«لا يخبو ولا يئبو» و«لومة لائم» . وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى في مثل «الموحدّين والملحدّين» . وله تهنئة طريفة بينت ولدت لبعض أصحابه تمضى على هذه الشاكلة :

«أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأضرار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة ياخوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون :

فلو كان النساء كمثل هذى لفصّلت النساء على الرجال  
وما التأنيثُ لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ<sup>(١)</sup>

فادِرْعُ ياسيدى اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب ، وحلّيت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عُرف الأنام ، واللجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، ولها بُعث المرسلون . فهنيئاً هنيئاً ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقاءك ما عُرف النسل والولد ، وما بقى الأمد ، وكما عُمر بُدِ<sup>(٢)</sup>

والرسالة مؤلفة من السجع القصير ، ويحلّيها الصاحب بالجناس من مثل «الأصهار والأطهار» وهو قليل فيها ، وكأنه لم يكن يتأنق في الرسائل الإخوانية تأنفه في الرسائل الديوانية الطويلة . وفي الرسالة ظاهرة ينبغي الالتفات إليها ، ونقصد ظاهرة الاحتجاج ، فقد احتج للتهنئة بالنبت - وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها - بست

(٢) بُد : نسر ، وفي الأساطير العربية أنه عمر أربعمئة عام

(١) البيان للمتنبي .

حجج أوستة أدلة ، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه ، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء في القرآن « ومنها خلقناكم » والسماء مؤنثة وروعها في كواكبها ونجومها فوق التصوير ، والنفس مؤنثة وهي قوام الإنسان ، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته ، واللجنة مؤنثة ولها بُعث المرسلون وبها وُعد المتقون . أدلة لا تُنقُص . وكأننا بإزاء مناظرة كلامية في تفضيل البنت الأُنثى على الابن الذكر . يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين ، ولا شك أن ذلك جاء من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ في أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة ، مما جعل كتابته تتشح بطرائقهم وجدالهم وتفننهم في التعليل والتدليل . وهي تتضح في جدال المنحرفين عن الدولة وفي تعليه العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة . ومن قوله في إهداء أُترجة :

« ما زلت ياسيدي أفكر في تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ، وتُنظّم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت بأُترجة كأن لونها لوني وقد مُنيت ببعذك ، وبُليت بصدك ، وكان عَرفها <sup>(١)</sup> مستعار من عَرفك ، وظَرفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا أسمىه ، وأنا أفديه ، فأنفذتها وقلت :

مولايَ قد جاءتك أُترجةٌ من بعض أخلاقِكَ مخلوقةً  
ألبسها صانعها حلةً من سرقٍ أصفرٍ مسروقه <sup>(٢)</sup>

والرسالة تصور أناقته في اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين في قوله : « معشوق وعاشق » و « مشوق وشائق » . وهي تصور ظرفه ورقة مشاعره . ولم نتوقف عند تصاويره وهي كثيرة في رسائله الإخوانية والديوانية كقوله في وصف الورود السوداء في احمرار ، المعروفة باسم الشقائق ، ووصف الأشجار الخضراء والنارنجيات الصفراء :

« قابلتني شقائق كالزئوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقي دماؤها <sup>(٣)</sup> ، وسامتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكسبها أبرادها ، وحضرتني نارنجيات ككُرات ذهبٍ أوئدي أبكار خلقت <sup>(٤)</sup> » .

وله رسالة لم يُعنَ فيها بالسجع ، وإنما عُني بالتصوير وحده ، وهي في استدعاء صديق لبعض مجالس أسسه ، وتطرّد على هذا النمط :

« نحن ياسيدي في مجلس غنيٍّ إلا عنك ، شاكرٍ إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون

(٣) اللذماء : بقية الروح .

(١) العرف : الرائحة الطيبة .

(٤) خلقت : طيبت .

(٢) السرق : شقق الحرير .

الزرجس ، وتوردت فيه حدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فأرات (١) النارنج ، وأنظقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبت رياح الأقداح ، ونفتت (٢) سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندد (٣) فبحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الوسطة بالعقد .

والرسالة مغموسة غمساً في صور وأخيلة متعاقبة ، وكأنما ترك الصاحب نفسه على سجيته ، فلم يعمد فيها إلى سجع . ولعل في ذلك ما يرد على من اتهموه بتكلفه للسجع وغرامه به ، حتى لوكلفه ذلك خلاً في الملك والدولة أو لوكلفه أهوالاً ثقلاً ما بعدها أهوال ، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً ، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما في هذه الرسالة . وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة . وكانت بديته حاضرة ، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فن ذلك أن ضرابين للفقود من دار الضرب رفعوا إليه رقعة في مظلمة ووقعوا عليها باسمهم : الضرابين ، فوقع تحتها « في حديد بارد » . واستمع إلى ابن سمعون الواعظ ببغداد في أثناء درس له فسأله متحاثاً عن قدسكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام ، ولم ينقطع فلما سكت قال له الصاحب : « هذا الذي تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله » !

## ٥

### بديع (٤) الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمدان ، ولذلك يقال له الهمداني ، ولقبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبه . وهو من أسرة عربية ، نزلت مسقط رأسه ، وهي أسرة تغلبية مصرية ، ومن قوله في بعض رسائله : « همدان المولد ، وتغلب المورد ، ومُضَر المحتد » فهو ليس فارسي الأصل ، بل هو عربي مصري تغلبي . وعنى به أبوه ، فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره ، وألحقه بملقات العلماء ، وخاصة حلقة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي المشهور صاحب كتاب المجمل ، وله يقول في بعض رسائله متلطفاً :

- (١) فأرة المسك : وعأوه .  
 (٢) نفتت : راجت .  
 (٣) الند : الطيب .  
 (٤) انظر في بديع الزمان وترجمته وأخباره البيهية ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ ودمية القصر ٣٤٦/٢

واين خلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديماً ببيروت ومقاماته طبع مرارا ، وديوانه مطبوع بمصر قديماً وانظر فيه كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٢٣٨ وأيضا كتابنا (المقامة) طبع دارالمعارف ص ١٣ وما بعدها

لَا تَلْمُنِي عَلَى رِكَائِكَ عَقْلِي أَنْ تَيَقَّنْتَ أَنِّي هَمْدَانِي

وكان محباً للرحلة ، فلم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد ، وكان - كما مر بنا في ترجمته - راعياً كبيراً من رعاة الأدب في عصره ، بل كان أكبر رعاته ، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدحه ببعض أشعاره ، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه ، ويقال إنه كان يُلقَى عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية ، فينقلها في سرعة عجيبة . ويرحل عن حضرة الصاحب مولئاً وجهه شَطْرَ جُرْجَان ، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء ، وهي أسرة الإسماعيلية ، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلي ، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلي الشيعي ، وهو اتفاق في الاسم جرَّ إلى هذا الخطأ<sup>(١)</sup> . ويؤكد ذلك أن ياقوت في ترجمته له يقول : « إنه كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة » فلم يكن إسماعيلياً ، ولا كان أيضاً إمامياً شيعياً ، بل كان سُنِّيًّا أشعريًّا .

ولا يمكث في جُرْجَان طويلاً ، بل يتركها إلى نيسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي ، وهو اصطدام طبيعي ، فقد كان الخوارزمي شيعياً إمامياً ، وكان يدعو لبني بويه الشيعة الإماميين في نيسابور معقل الدولة السامانية السنية ، فانتزح الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي انتصروا فيها للبديع ، فعلا صيته ، وتألقت نجمه ، إذ كان الخوارزمي يُعدُّ في الذروة من الكتاب والشعراء لعصره . وتصادف أن توفي سريعاً ، فخلا الجو للبديع ، وطارت شهرته ، ورعاه حينئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها الناهيون . وسرعان ما فارقتها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد في خراسان بينا الجوائز والمكافآت تُغدقُ عليه ، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين ولَّى وجهه نحو سِجِسْتَان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤ - ٣٩٩ هـ) . وكان أديباً فأعجب بديع الزمان ، ويقول البخارزي إنه وصله بألف دينار . وذكر ذلك في إحدى رسائله ، وله فيه خمس مقامات أنشأها في مديحه وقصائده ورسائل مختلفة .

ويترك سِجِسْتَان إلى هَرَاة بأفغانستان ، مُمِنياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوي ويلقاه ، وقد أنشدنا له قصيدة في مديحه على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ،

(١) راجع كتاب بديع الزمان الهمداني لمارون عبود وعروبه دون دليل .  
(طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك في اسمه واسم إبيه

ويُضهر إلى سَرَى من سَرَاة هَرَاة يَسْمَى الحُشْنَامَى ، وينجب أولاداً ، ويقتنى عَقَاراً وضياعاً . ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء . ويبدو أنه غدت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر ، يقول في بعض رسائله : «وهؤلاء الصدور ، يرون أن الشمس من قبلي تدور» غير أنه لم يلبث أن توفي وهو لا يزال في الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة . وللبديع رسائل كثيرة ، وهي رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهجاء والتفريع ، ومنها ما هو موجه إلى الأمراء أو الوزراء أو كبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوى الوجاهة واليسار . وله من كتاب إلى الأمير أبي نصر الميكالي النيسابورى :

«كتابي - أطال الله بقاء الأمير - وبودى أن أكونه ، فأسعد به دونه ، ولكن الحرير محروم لو بلغ الرزق فاه . لولاه قفاه ، وبعد فإني في مفاخته بين ثقة تعد ، ويد ترتعد ، ولم لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ؟ ومن رأى من السيف أثره ؛ فقد رأى أكثره ، وإذ لم ألقه ، فلم أجهل إلا خلقه ، وما وراء ذلك من تالد أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فعلوم تشيد به الدفاتر ، والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار ، كما تختلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس إدراكاً ، والآذان أكثرها استمساكاً .

وفي هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجعته ، وأنه يعنى فيه بتقصير العبارات ، تواتيه في ذلك ملكة فياضة ، فلا يكاد يمسك بالقلم ويكتب ، حتى تنثال عليه العبارات ، وحتى يخيل إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجري ولا ينقطع إلا أن يتوقف البديع عامداً لينهى الكلام . وتأمل في سجع هذه الرسالة فستجده موشى بالجناس الناقص في مثل : «تعد وترتعد» و «أره وخبره» و «أثره وأكثره» و «ألقه وخلقته» . وهو دائماً يعمس رسائله في الجناس غمساً ، تارة يأتي به كاملاً ، وتارة يأتي به ناقصاً ، وهو الأغلب الأكثر ، كقوله في الأمير خلف بن أحمد في إحدى رسائله : «لو أن البحر عدده ، والسحاب يده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه . بينما المرء في سنة من نومه ، وقصاره قوت يومه ، إذ يُقرع الباب عليه قرعاً حفيماً ، ويُسأل به سؤالاً حقيقياً ، ويُعطى ألفاً خلقياً» . والجناس الناقص واضح في هذه العبارات المتعاقبة ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ضامماً دائماً النظير في الألفاظ إلى نظيره ، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظير كقوله من فصل في إحدى رسائله :

«أراني أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أو هبت الريح أو نجم النجم أو لمع البرق

أوعرض الغيث أوضحك الروض . إن للشمس محيآه ، وللريح ريآه ، وللنجم حلاه  
وعلاه ، وللبرق سناؤه وسناه ، وللغيث يداه ونده ، وللروض سجاياه .

وواضح أنه لما ذكر عنصراً من الطبيعة وهو الشمس أرفده بالريح والنجم والبرق  
والغيث والروض . والجناسات كثيرة فى القطعة . ويجانب ذلك نراه يكثر من الاقتباس من  
القرآن ، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور فى تضاعيف رسائله . ونراه يحنج كثيراً إلى  
سرّد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة :

« فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلاً عن جملة ففقدته ، فلما طلع القمر  
وجده ، فرفع إلى الله يده ، فقال : أشهد لقد أعليته ، وجعلت السماء بيته . ثم نظر إلى  
القمر فقال : إن الله صورك وتورك ، وعلى البروج دورك ، . . ولئن أهديت إلى قلبى  
سروراً ، لقد أهدى إليك نوراً . والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره ، وأنفذ بين  
الجلود واللحوم أمره ، ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه ، فجعله فوقهم وجعلهم دونه .  
ويضرب مثلاً لمن يذهب فى البحث بعيداً عن أمنيته ، وهى مدّ يده ، بالببخارى الذى  
ضاع حماره فذهب يبحث عنه فى البلاد النائية ، بينما هو فى مربيضه ، يقول :

« لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه ، حتى عبر نهر  
جیحون بسببه ، يطلبه فى كل متهلة ، وينشده فى كل مرحلة ، وهو لا يجده حتى جاوز  
خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده وأيس عاد  
وقد طالت أسفاره ، ولم يحصل حماره ، حتى إذا وصل إلى بلده ، بين أهله وولده ، أحب  
الله أن يلفظ به لطفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى إصطبله ، فإذا الحمار بسرجه  
ولجامه ، وحزامه ، قائماً على المغلف ينش . »

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة ، بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره  
وبعد عصره . وجعلته موهبته القصصية التى رأيناها فى رسائله يتتبع فتأجديداً ، هو فن  
المقامة ، وهى حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته : أبى الفتح الإسكندرى  
ورواية حكاياته وأقاصيله عيسى بن هشام . والمعروف أنه أمله أربعين مقامة فى أثناء  
مقامه بنيسابور ، وأضاف إليها خمساً ، كما أسلفنا ، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير  
سجستان ، ثم أضاف إليها ستاً أخرى . والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً  
أحاديث ابن دُرَيْد الأربعة التى احتفظ بها كتاب الأملى لأبى على القالى ، وهى  
حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب ، وبعد أن أنهاها رأى أن يعرض على طلابه ثانياً  
أربعين مقامة له . ومعنى كلمة مقامة حديث . ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة

الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكُديّة أو الشحاذة الأدبية ، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المُكدين في أوائل كتابه «البخلاء» وكذلك حديث البيهقي عنهم في كتابه «الحاسن والمساوي» ويعرض الجاحظ والبيهقي لأساليبهم وحيلهم في استخلاص الطعام والدراهم والدنانير من الناس . وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسماءهم في عصر بديع الزمان ، ومرّ بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم في هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً في القسم الخاص بالعراق . وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته ، ونراه في أولها يتمثل بأبيات كبير المُكدين أبي دلف الخزرجي ، وقد أنشدناها في حديثنا السابق عنه ، إذ يقول :

وَيَحْكُ هذا الزمانُ زورُ      فلا يغرُنكُ الغرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكدين أو الأدباء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو - كما أسلفنا - أمير فارسي هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكُديّة .

وتنقل بديع الزمان بأبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته في بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التي ألمّ بها وأكثرها بلدان فارسية . وفي أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذي وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد ، أو باسم الأكلة التي طعمها أبو الفتح مثل المقامة المَضيرية نسبة إلى طعام المَضيرة ، وهي لحم يطبخ باللبن المضير أي الحامض . وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء . وسمي مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع ، ولعله يقصد الكلام المسجوع المليء بالجناس وما إليه من الحسنات البديعية . وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكُديّة ، إذ هي مديح خالص له . أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكُديّة أو الشحاذة الأدبية عن طريق التفاسح البياني وما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس . وفي تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارستانات وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأواني في بيوت الأغنياء والفقراء . ويعرض في المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء في بعض البلدان . وقد حمل في المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة ، لأنه كما قدمنا كان أشعرياً ، وكانت

الخصومة مستعرة في زمنه بين الأشعرية والمعتزلة . ونحن نسوق له إحدى مقاماته ، ولتكن  
المقامة البصرية نسبة إلى البصرة في العراق ، وهي تجرى على هذا النمط :

« حدّثنا عيسى بن هشام قال : دخلت البصرة وأنا من سنّتي في فتاء (شباب) ومن  
الرّزى في حير ووشاء (ثوب مطرز) ومن الغنى في بقر وشاء (غنم) فأتيت المرّبد (سوق  
البصرة) في رفقة تأخذهم العيون ومشينا غير بعيد إلى بعض تلك المتزّهات ، في تلك  
المتوجّهات ، وملكتنا أرضٌ فحللناها ، وعمدنا لِقِداح اللّهُو فأجلّناها ، مطرّحين للحمشة  
إذ لم يكن فينا ، إلا مِنّا ، فما كان بأسرع من ارتداد الطّرف ، حتّى عنّا (ظهر) لنا سواد  
(رجل) تحفّضه وهاد ، وترفعه نجاد (مرتفعات) وعلمنا أنه بهمُّ بنا ، فأتلّعنا (مددنا  
أعناقنا) له حتى أدّاه إلينا سيره ولقينا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ، ثم  
أجال طّرفه فينا وقال : يا قوم ما منكم إلا من يلحظني شزراً (بمؤخر عينه) ويوسعني حزراً  
(تحميناً) وما يبنثكم عنى ، أصدق منى . أنا رجل من أهل الإسكندرية ، من الثغور  
الأموية ، قد وطأ (مهد) لى الفضل كنفه ، ورحب بي عيش ، ونماني بيت ثم جمع بي  
(أهانني) الدهر ، وأتلاني (أتبعني) زغاليل حُمُر الحواصل . . . ونشرت علينا البيض  
(الدراهم) وشمسّت (نفرت) منا الصّففر (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالي) وحطّمتنا  
الحُمُر (السنوات المجدبة) . . وهذه البصرة ماؤها هَضُوم (مهضم) وفقيرها مهضوم :

فكيف بمن :

يطوّف ما يطوّف ثم يأوى إلى زُعبٍ محدّدة العيون<sup>(١)</sup>

كسَاهنَّ البلى شعناً فتمسى جِباعَ النَّابِ ضامرة البطون<sup>(٢)</sup>

ولقد أصبحن اليوم وسرّحن (أجلن) الطّرف في حى كميّت (يقصد نفسه) وبيت  
كلا بيت ، وقلبن الأكفّ على لبت ، ففضّضن عقْد الضلوع ، وأفضن ماء الدموع ،  
وتداعين باسم الجوع :

والفقْرُ في زمن اللثا م لكل ذى كرمٍ علامة  
رَغِبَ الكرامُ إلى اللثا م وتلك أشرطُ القيامة<sup>(٣)</sup>

ولقد اخترتكم يا سادة ، ودلّتى عليكم السعادة ، وقلت : قسماً ، إن فيهم لدماء ،  
فهل من فتى يُعشّين ، أو يُعشّين (يكسوهم) وهل من حرّ يُعدّين أو يُردّين (يلبسهن

(١) زغب : من الزغب : صغار الريش والشعر (٢) شعنا : مغبرة ، كناية عن أن أحدا لا يراعيهم .

(٣) أشرط : علامات

والكتابة واضحة .



ثياباً). قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على حجاب سمعى كلامٌ رائع أبرع ؛ وأرفع ، وأبدع ، مما سمعت منه . لا جرم أنا استمحننا الأوساط ( يريد الأحزمة وما فيها من نقد ) ونفضنا الأكام ، ونحّينا الجيوب ونُلتّه ( أعطيته ) أنا مطرفي ( ثوبى ) وأخذت الجماعة إخذى ، وقلنا له : الحقُّ بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاءه ، ونشر ( ثناء ) ملاً به فاه .  
 وواضح ما يمتاز به البديع فى مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة ، حتى يدخل السرور على سامعيه وترسم البسمات على شفاههم . ويكثر من إنشاد الشعر فى المقامات ، ومن حلِّ بعض الأبيات المشهورة ، على نحو ما صنع بقوله : « وأتلانى زغاليل حمر الحواصل » يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قريية عهد بالولادة ، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش ، والصورة استعارها من الخطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب ، فتوجه إليه يستعطفه لأولاده قائلاً :

ماذا تقول لأفراخِ بدي مرخ زُغبِ الحواصل لا ماءً ولا شجر<sup>(١)</sup>

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها فى مقاماته بالمقدار الذى كان يُظنّ ، إذ لم يضع فى ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذى وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبى الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة . وجاراه الحريرى وغيره فى صنع هذه الأفاصيص القصيرة البلاغية ، وعدّوها أروع صور النثر وأبلغه ، غير حافلين بعمل قصص طويلة أوحى قصص قصيرة متنوعة . وبدأ البديع فوضع هذه الأفاصيص القصيرة أو هذه المقامات فى إطار السجع ، وتبعه خالفوه . وهو يضيف إلى السجع - كما رأينا فى رسائله - ألوان البديع من الأخيلة والتصاوير ومن الجناس ومراعاة النظر ، وألماه الحوار القصصى عن المبالغة فى ذلك . ولا ريب فى أن سجعه فى مقاماته - كرسائله - سجع رشيق ، لما يمتاز به من قصر ومن حسن انتخاب لألفاظه . وقد يتخلل بعض مقاماته بالشعر ، كما قد يحشد فيها ببعض ألفاظ غريبة ، على نحو ما نقرأ فى المقامات : الحمدانية والموصلية والقردية . وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمى ، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة فى الغرابة . غير أن ذلك إنما يأتى فى المقامات التى سميناها وفى الحين البعيد بعد الحين ، بحيث لا تُعدُّ عيباً فى أساليبه التى تطبعها - كما قلنا - الرشاقة ، وأيضاً الخفة والعذوبة وروح الفكاهة المرحة المحببة لكل إنسان .

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه في كتابنا المقامة من أن المقامة الإبلية لبديع الزمان هي التي أوحى لابن شهيد الأندلسي وأبي العلاء المعري رحلتها فيما وراء الطبيعة ، فإن بديع الزمان تصور في مقامته عيسى بن هشام يلتقي بإبليس في واد من وديان الجن ، إذ ضلّت منه إبل فخرج يطلبها ، حتى نزل في واد حافل بالأشجار والأنهار ، وبينما هو ينظر من حوالبه إذ رأى شيخاً جالساً فسلم عليه وردّ السلام ، وسأله ابن هشام هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم ، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهشّ له ابن هشام ، فأنشده قصيدة لجرير ، وعجب ابن هشام من انتحاله لها ، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس « ما أحدٌ من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مروة ». ويغيب عنه ، ويحد عيسى بن هشام نفسه وحيداً . وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة في رسالته «التوابع والزوابع» أي الجن والشياطين ، وهو فيها يلقى شياطين الشعراء في وادي الجن ، وكلما لقي شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه ، ثم أنشده من شعره ، فيبدى إعجابه به ويحيزه اعترافاً بروعة شعره ، ولقى شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء ، وعرض عليهم بعض رسائله ، ولقى شيطان بديع الزمان الذي سمّاه « زبدة الحقب » ، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التي يحاكيه فيها ، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته ، ويحيزه على إبداعه . والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبلية ، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء في وادي الجن موضوعاً لهما ، ويلقى ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره ، وأنه يعارض مقامته الإبلية بتوابعه وزوابعه . وتجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذي ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صوّر فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفي الجنة ، أو أن أبا العلاء هو الذي ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة في وادي الجن ؟ . ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال ، فإن بديع الزمان هو الذي استغلّ لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء في مقامته الإبلية ، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري ، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة ، ويتضح أثر البديع بقوة في ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع في وادي الجن ، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادي ، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع .

## خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي العراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسي لأقاليمها حينئذ ، وهي الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْت وظَفَّار وعُمان والبحرين ، وفصلنا القول في إمارتي مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز في حكم الدولة العثمانية . وصورنا تحركات القبائل في نجد وتكوينها لإمارات متعددة في شرق الجزيرة وظهور آل فضل وآل مرا في بوادي الشام ثم ظهور آل سعود في نجد . وعرضنا دول اليمن المتعاصرة في زَيد وصَنعاء وصَعْدَة وعدن ودخولها في حكم الأيوبيين ثم الرسولين فالطاهريين ، فغلبة الدولة الزيدية عليها . وتتداول الدول اليمنية حَضْرَمَوْت ، وكذلك ظفار إلى أن تبعث عُمان نهائيا . وكان الخوارج في عمان يتخذون « نَزْوَى » في الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عمان والثغور على الخليج العربي قرونا متطاولة حتى غلبوا عليها في القرن العاشر الهجري . وسيطر القرامطة على البحرين في أوائل العصر ، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العيونية ودولة بني عصفور ، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقُطيف منذ أكثر من قرن .

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحضر ، وظلت نجد بدوية إلا قليلا في بعض القرى وبعض العواصم التي اتخذتها إماراتهم . وكان ينزل اليمن أحباش كثيرون ، بينما نزل في مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا . وعرفت اليمن وعمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهل لشيء بها من الحضارة ، واشتهرت اليمن بكثرة الجوارى والغناء . وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مذاهب الشيعة : الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت « نَزْوَى » بعمان مركزا للخوارج الإباضية من قديم ومنها شاع مذهبهم في حَضْرَمَوْت . وما ينتصف القرن الثاني عشر الهجري حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدرعية

الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده في يد محمد ابن عبد الوهاب لنشرها في الجزيرة ، وهي نداء يدعو إلى اتباع الحنابلة من أهل السنة . ويلقانا كثير من كبار المتصوفة في مكة واليمن وحضرموت ، وكان النساك متشردين في كل مكان .

وكان يجري في كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها ، حتى في قرى نجد وقد تحولت - منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب - إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين ، بما كان فيهما من العلماء والأدباء ، وبما كان يفد عليهما سنويا من أدباء العالم العربي وعلمائه ، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طويلاً . وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، ونشط معها البحث في علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العماني . وفي كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية ، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء في كل الأقاليم ، وكثر ما أتجه من الكتب والمصنفات .

وكان الشعر يجري على كل لسان في أقاليم الجزيرة ، وأخذت العامية تراحم الفصحى في نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجري ، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حُمَينِي في اليمن وحضرموت وشعر نبطي في بقية الأقاليم ، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قويا فيها جميعا . وقد ترجم الباخريزى لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن في القرن الخامس الهجري وترجم العباد الأصهباني لطائفة من شعراء بني عَقِيل في الموصل وشعراء بني مَزِيد في الحِلَّة وأيضاً لطائفة من شعراء الحجاز واليمن في القرن السادس . وتلقانا بعده في كتب مختلفة تراجم لشعر الجزيرة في حقب العصر التالية ، غير ما طُبِع ونشر من دواوين الناهبين من الشعراء . ويكثر شعراء المديح وفي مقدمتهم القاسم بن هُتَيْمِلَ البِنِي وأحمد بن سعيد الخُروصِي السُّتَالِي العُمَانِي وعلي بن مَقْرَب العُبُونِي البَحْرَانِي وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحَضْرَمِي ، كما يكثر شعراء المراثي من أمثال التهامي المكي وجعفر الخطي البَحْرَانِي ، وشعراء الفخر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميري البِنِي وسليمان النهباني العُمَانِي .

وتتكاثر في الجزيرة طوائف الشعراء ، ونلتقى منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفي طليعتهم ابن القمّ والسلطان الخطّاب وعُجْرَة البِنِي ، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى

ابن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيى بهران وعلى بن محمد العنسى فى اليمن ، وبشعراء الخوارج من أمثال أبى إسحق الحضرمى الإباضى وابن الهببى اليمنى . وملتقى بشعراء الدعوة الوهابية السلفية ، وفى مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعائى اليمنى وابن مشرف الأحسائى ، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البرعى اليمنى وعبد الرحمن العبدروس الحضرمى . وجميعهم رُسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية . ولم تكن نجد تعنى بالكتابة قبل ظهور محمد بن عبد الوهاب ، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نمواً واسعاً . وكان فى مكة والمدينة كتاب إنشاء من قديم ، وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريط الكتب . وكانت الكتابة مزدهرة فى اليمن طوال العصر ، وظلت ناشطة فى حضرموت وعمان والبحرين . وتحتفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر الماليك . وكانت الرسائل الديوانية ناشطة فى اليمن منذ زمن الدولة الصليحية فى القرن الخامس . وتحتفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين الماليك فى مصر ، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخوارج فى عمان ، وبالمثل بين الأئمة الأخيرين وعمالهم . وتكثر الرسائل الشخصية ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة . ويكثر الوعظ . وتلقانا محاورات ورسائل فكاهية ومقامات أدبية متنوعة .

## ٢

وفى القسم الثانى من هذا الجزء تحدثنا عن العراق ، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسى وبيان الدول التى تعاقبت على حكمه ، وهى الدولة البويهية ، ويليها الدولة السلجوقية ، ويسترد الخلفاء منها فى منتصف القرن السادس الهجرى صولجان الحكم ، ويقضى التتار بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم فى منتصف القرن السابع . وتعاقب على العراق وبغداد دولتان تتاريتان : دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركان ، وبطل العراق فى قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية ، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية . وكان المجتمع فى بغداد يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة . وطبقة وسطى تحظى بشيء من سعة العيش ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة ، وكانت تتجرع الضنك والبؤس ، فتحوّل كثيرون منها إلى عيارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة إلى أخرى مستشعرين - فيما يبدو - فكرة العدالة الاجتماعية . وشاع فى العراق المذهب الشيعى الإمامى الاثنا عشرى ، وكان بجواره مذهب شيعى مارق هو مذهب النصيرية ،

ومذهب شيعي معتدل هو مذهب الزيدية . وكانت موجة الزهد والتصوف حادة طوال العصر ، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتي الجيلاني والرفاعي وما شاع بعدهما من طريقتي النقشبندية والبكطاشية .

وظلت الحركة العلمية في بغداد ناشطة وكذلك الشأن في العراق عامة إذ عني بها البويهيون والسلاجقة ، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد ، وتتكاثر المدارس ، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية . وكانت المساجد مدارس كبرى يستمع فيها الناس للعلماء في كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبيا عاما ، مما أحدث « الفهرست » . وتظل هناك بقية لحركة الترجمة ، وتنشط الحركتان الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة ، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا . وتتكاثر الندوات الفكرية في بغداد ويتكاثر المتفلسفة ، وخاصة قبل الغزو التتاري ، وتظل منهم بقية في الحقب التالية . وتنشط في العصر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية والجغرافية ، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر ، وتنفذ بغداد في النحو إلى مدرسة جديدة هي المدرسة البغدادية . ويتسع النشاط في الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات ، وبالمثل في الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبي وشعره . ويُعنى صفي الدين الحلّي بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامي . وتنشط بغداد والعراق في دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام ، كما تنشط الكتابة في التاريخ العام والخاص وفي تراجم العلماء من كل صنف . ويتكاثر الشعراء في العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما يلقانا في اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم ، وينظمون في الرباعيات والموشحات ، ويفسحون في أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى في المحسنات البديعية . ويلقانا مع كل دولة بل في كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفيذاذ المتنبي أكبر شعراء العصر ، وسبط ابن التعاويذي ، وصفي الدين الحلّي . وملتقى بكثيرين من شعراء المراثي والهجاء والشكوى من أمثال السريّ الرّفاء ، وابن القطان . ويكثر شعراء الشيعة ، وفي مقدمتهم الشريف الرضي ، ومهيار ، وابن أبي الحديد .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلتقى بهم شعراء الغزل ، وقد أذاعوا فيه حيننا وشوقا وظما للقاء محبوباتهم لا ينتهى ، مما أعدّ لظهور ضرب من الشعر الوجداني عند ابن المعلم والحاجري والتلعفريّ . ويتغنّى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال

ابن سُكَّرَة ، وابن الحجاج ، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادي ، والمرتضى الشَّهْرُزُورِيّ ، والصَّرْصَرِيّ . وبلغنا أصحاب الشعر الفلسفي والتعليمي من أمثال ابن الشَّيْبِ البغدادي وابن الهَبَّارِيَّة ، كما بلغنا شعر شعبي عامي كثير وقفنا عند فنونه ، وأيضا شعراء شعبيون من أمثال أبي الأحنف العُكْبَرِيّ .

ويتنوع النثر في العصر ، فكان هناك النثر الفلسفي والنثر العلمي والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبي والرسائل الشخصية . وتكثر الكتابات الديوانية وولتقى بأبي إسحق الصائبي والعلاء بن الموصلياً وضياء الدين بن الأثير . وبلغنا من أعلام النثر أبوحيان التوحيدى بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر ، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبي بالفكر الإسلامي العربي مع حسن الأداء ، والحريري بمقاماته الرائعة التي خلبت ألباب معاصريه وخالفه حتى العصر الحديث .

### ٣

وفي القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران ، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتقابلة بها ، وهي الدولة السامانية ، والدولة البويهية ، والدولة الزيارية ، والدولة الغزنوية ، ثم تحدثنا عن الدول التي تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجري ، وهي دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة التتارية الإيلخانية ، والدولة التيمورية ، والدولة الصفوية ، وما تلاها من الدول . وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة ، وطبقة متوسطة تعيش في غير قليل من اليسار ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة . ونشط الشيعة في نشر عقيدتهم ، وفي مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم في القرن الثالث دولة في طبرستان غير أنها لم تمكث طويلا . ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون في نشر عقيدتهم ، وما زالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم في أواخر القرن التاسع الهجري فجعلوا المذهب الإمامي المذهب الرسمي لإيران . وكان نشاط الإسماعيليين كبيرا طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائيا في منتصف القرن السابع الهجري . وكانت تعم في إيران موجة زهد وتصوف ، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء ، وسرعان ما رآب الصدع أبو نصر السراج ، والقشيري ، والغزالي .

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة ، وخاصة في القرون الأولى ، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها ، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب ، وعنوا بالمكتبات . وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم ، حتى النساء ، وأخذوا يقدرون كتباً لشرح المصطلحات في العلوم والفنون . ونشطت نشاطاً عظيماً دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، ويكفي مثلاً لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيروني ، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية . وتكاثر وضع المعاجم ، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية . ونشط التأليف في التفسير كما نشط التأليف في الحديث النبوي ، وفي الفقه ، وفي علم الكلام وخاصة في المذهبين : الأشعري والماتريدي . وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تناول التراجم : تراجم الشعراء والعلماء في كل فن .

ويزدهر الشعر العربي بإيران في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، بدليل المجلدات الضخمة التي شغلها في اليتيمة وتمتها وفي الدمية والخريدة . ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسي وشعرائه كتاب عوفى في القرن السابع الهجري . ونفس الشعر الإيراني صيغ صياغة على أنماط الشعر العربي ، وتناول نفس موضوعاته ، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته . وقد ظل الشعر العربي حياً في إيران حتى القرن التاسع على الأقل . ويتكاثر شعراء المديح وفي مقدمتهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والظفراني والأرجاني ، وبالمثل شعراء المراثي من أمثال أبي الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني ، وشعراء الفخر والهجاء والشكوى من أمثال أبي بكر الخوارزمي ، والأبيوردي .

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من تلقاهم شعراء الغزل وفي مقدمتهم أبو الفرج بن هندو ، وأبو الفضل الميكالي . ويليه شعراء اللهو والمجون من أمثال أبي بكر القهستاني ، وأبي الحسن الباخري ، وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القشيري ، ويحيى السهروردي ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفي مقدمتهم أبو الفضل السكري المروزي ، وأبو الفتح البستي ، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبي دلف الخزرجي .

وينشط النثر ، ويظهر فيه قصص صوفي كثير وقصص فلسفي بديع ، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان ، ويشتهر في كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وشمكير والعتبي ورشيد الدين الوطواط ، ومن أنه كتاب إيران في العصر على توالي حقه ابن العميد الذي أرسى قواعد الكتابة على ركنين



أساسيين من السجع والمحسنات البديعية ، وأوفى الصاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التي كانت تنتظرها من التجويد والتنميق . وينشئ بديع الزمان الهمداني لأول مرة في تاريخ الأدب العربي مقاماته المشهورة . وهو بحق يُعدُّ أرفع كتاب إيران الذين ظهروا في عصر الدول والإمارات غير منازع ولا مدافع .

## فهرس الموضوعات

صفحة	
٨ - ٥	..... مقدمة
٢٣٠ - ٩	..... القسم الأول : الجزيرة العربية
٥١ - ١١	..... الفصل الأول : السياسة والمجتمع
	١ - أقاليم ودول وإمارات : الحجاز ، نجد ،
١١	اليمن ، حضرموت و ظفار ، عمان ، البحرين
٣٤	٢ - المجتمع
٤٠	٣ - الشيع
٤٤	٤ - الخوارج : الإباضية
٤٦	٥ - الدعوة الوهاية السلفية
٤٨	٦ - الزهد والتصوف
٨٧ - ٥٢	..... الفصل الثاني : الثقافة
٥٢	١ - الحركة العلمية
٥٧	٢ - علوم الأوائل ، علم الملاحة البحرية
٦٢	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والتقد
٧٢	٤ - علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام
٨٤	٥ - التاريخ
١٤٣ - ٨٨	..... الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٨٨	١ - الشعر على كل لسان
٩٢	٢ - كثرة الشعراء
	٣ - شعراء المديح : القاسم بن هتميل ، أحمد بن سعيد الخروصي
١١٠	الستالى ، على بن المقرب العيونى ، عبد الصمد بن عبد الله باكثر
١٢٦	٤ - شعراء المرأى : التهامى ، جعفر الخطى
١٣٥	٥ - شعراء الفخر والهجاء : نشوان بن سعيد الحميرى ، سليمان النبهانى

صفحة

## الفصل الرابع : ..... ١٤٤ - ٢٠٠

١ - شعراء الدعوة الإسماعيلية :

١٤٤ ..... ابن القمّ ، السلطان الخطاب ، عمارة اليمنى

٢ - شعراء الدعوة الزيدية :

١٥٧ ..... يحيى بن يوسف النّشو ، موسى بن يحيى بهران ، علي بن محمد العنسى

١٧١ ..... ٣ - شعراء الخوارج : أبو إسحق الحضرمي ، ابن الهيثبي

٤ - شعراء الدعوة الوهابية السلفية :

١٨٠ ..... محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى ، ابن مشرف الأحسانى

٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية :

١٨٧ ..... عبد الرحيم البرعى ، عبد الرحمن العيدروس

## الفصل الخامس : النثر وأنواعه ..... ٢٠١ - ٢٣٠

٢٠١ ..... ١ - تنوع الكتابة

٢٠٦ ..... ٢ - رسائل ديوانية

٢١٤ ..... ٣ - رسائل شخصية

٢٢١ ..... ٤ - مواعظ وخطب دينية

٢٢٦ ..... ٥ - محاورات ورسائل فكاكية ومقامات

## القسم الثانى : العراق ..... ٢٣١ - ٤٧٨

## الفصل الأول : السياسة والمجتمع ..... ٢٣٣ - ٢٧٥

٢٣٣ ..... ١ - البويهون والسلاجقة والخلفاء العباسيون

٢٤١ ..... ٢ - الدول : المغولية ، والتركانية ، والصفوية ، والعثمانية

٢٥١ ..... ٣ - المجتمع

٢٦٣ ..... ٤ - التشيع

٢٦٩ ..... ٥ - الزهد والتصوف

## الفصل الثانى : الثقافة ..... ٢٧٦ - ٣٢٢

٢٧٦ ..... ١ - الحركة العلمية

٢٨٢ ..... ٢ - علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

٢٩٢ ..... ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والتقد

٣٠٥ ..... ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

٣١٨	.....	٥- التاريخ
٣٨١ - ٣٢٣	.....	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٣٢٣	.....	١- كثرة الشعراء
٣٢٦	.....	٢- رباعيات وتعقيدات وموشحات
٣٣٦	.....	٣- شعراء المديح : المتنبي ، سبط ابن التعاويذي ، صفي الدين الحلي
٣٥٩	.....	٤- شعراء المرثي والمهجع والشكوى : السري الرفاء ، ابن القطان البغدادي
٣٦٨	.....	٥- شعراء التشيع : الشريف الرضي ، مهيار ، ابن أبي الحديد
٤٢٩ - ٣٨٢	.....	الفصل الرابع : طوائف من الشعراء
٣٨٢	.....	١- شعراء الغزل : ابن المعلم ، الحاجري ، التلعفري
٣٩٦	.....	٢- شعراء اللهو والمجون : ابن سكرة ، ابن الحجاج
	.....	٣- شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية : ابن السراج البغدادي ، المرتضى الشهرزوري ، الصرصري
٤١٦	.....	٤- شعراء الفلسفة والشعر التعليمي : ابن الشبل البغدادي ، ابن الهبارية
٤٢٣	.....	٥- شعراء شعبيون : الأحنف العكبري
٤٧٨ - ٤٣٠	.....	الفصل الخامس : النثر وكتابه
٤٣٠	.....	١- تنوع النثر
	.....	٢- كتاب الرسائل الديوانية : أبو إسحاق الصائغ ، العلاء بن الموصلايا ضياء الدين بن الأثير
٤٤٠	.....	٣- أبو حيان التوحيدى
٤٥٣	.....	٤- ابن مسكويه
٤٦٥	.....	٥- الحريري
٤٧٢	.....	
٦٧٣ - ٤٧٩	.....	القسم الثالث : إيران
٥٢٠ - ٤٨١	.....	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
	.....	١- دول : متقابلة : الدولة السامانية ، الدولة البويهية ، الدولة الزيارية ، الدولة الغزنوية
٤٨١	.....	٢- دول متعاقبة : دولة السلاجقة ، الدولة الخوارزمية ، الدولة المغولية
٤٩١	.....	الإيلخانية ، الدولة المغولية التيمورية وماتلاها من الدول
٤٩٨	.....	٣- المجتمع
٥٠٧	.....	٤- التشيع

صفحة

٥١٤	.....	٥ - الزهد والتصوف
٥٦١ - ٥٢١	.....	الفصل الثاني : الثقافة
٥٢١	.....	١ - الحركة العلمية
٥٢٦	.....	٢ - علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة
٥٣٤	.....	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد
٥٤٧	.....	٤ - علوم التفسير والحديث والفقه والكلام
٥٥٧	.....	٥ - التاريخ
٦٠٣ - ٥٦٢	.....	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٥٦٢	.....	١ - الشعر العربي على كل لسان
٥٦٨	.....	٢ - كثرة الشعراء
٥٧٥	.....	٣ - شعراء المديح : علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الطغراني ، الأرجاني
٥٨٩	.....	٤ - شعراء المرثي : أبو الحسن علي بن أحمد الجوهرى الجرجاني
٥٩٤	.....	٥ - شعراء الهجاء والفخر والشكوى : أبو بكر الخوارزمي ، الأبيوردى
٦٤٠ - ٦٠٤	.....	الفصل الرابع : طوائف من الشعراء
٦٠٤	.....	١ - شعراء الغزل : أبو الفرج بن هندو ، أبو الفضل الميكالى
٦١٠	.....	٢ - شعراء اللهو والمجون : أبو بكر القهستاني ، أبو الحسن الباخري
٦١٧	.....	٣ - شعراء الزهد والتصوف ، عبد الكريم القشيري ، يحيى السهروردي
٦٢٧	.....	٤ - شعراء الحكمة والفلسفة : أبو الفضل السكري المروزي . أبو الفتح البستي
٦٣٥	.....	٥ - شعراء شعبيون : أبو دلف الخزرجي : مسعر بن مهلهل
٦٧٣ - ٦٤١	.....	الفصل الخامس : النثر وكتابه
٦٤١	.....	١ - تنوع الكتابة
٦٤٨	.....	٢ - كتاب الرسائل : قابوس بن وشمكير ، أبو النصر العتبي ، رشيد الدين اللوطواط
٦٥٥	.....	٣ - ابن العميد
٦٥٨	.....	٤ - الصحاح بن عباد
٦٦٦	.....	٥ - بديع الزمان ومقاماته
٦٨٠ - ٦٧٤	.....	خاتمة

تاريخ  
الأدب العربي

٦

عصر  
الدول والإمارات  
مصر - الشام

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف



عصر  
الدول والإمارات  
مصر - الشام





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذا هو الجزء السادس من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بمصر والشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . ومعروف أن المؤرخين للأدب العربي كانوا يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي بسنة ٦٥٦ حين أغار المغول من الشرق على بغداد حاملين إليها معهم الجهل والوحشية مدمرين ما كان فيها من حضارة ومدنية . وسُمِّي هؤلاء المؤرخون القرون الثلاثة التالية باسم العصر المغولي ، وسموا فترة حكم العثمانيين لمصر والشام والبلدان العربية باسم العصر العثماني .

وكل ذلك - كما ذكرنا في الجزء الخامس السابق من تاريخ الأدب العربي - خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية تداعت أركانها كما هو معروف منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها ، بل إن سلطانها في بغداد نفسها كان سلطاناً منقوصاً ، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد حكامها من البويهيين ومن خلفهم من السلاجقة . وبذلك يكون خطأ بيئاً الإبقاء على إدماج تلك القرون الثلاثة في العصر العباسي ، ويكون واجباً أن نبحت لها عن اسم لعصر جديد يظللها جميعاً ، ولا أدق - في رأينا - من الاسم الذي اقترناه وهو عصر الدول والإمارات ، إذ كانت العراق وإيران في مطلعها بيد البويهيين ، وخراسان في يد السامانيين ، وطبرستان وجرجان في يد الزياريين ، والبحرين والأحساء واليمامة في يد القرامطة ، وأكثر عُمان بيد الخوارج ، وصنعاء وحضرموت بيد بني يعفر وزيد بيد بني زياد وصعدة بيد الزيدية وعدن بيد بني معن بن زائدة ، والموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر ، فقد تفككت الدولة العربية وأصبحت في عصر جديد ، تقطعت فيه دولاً وإمارات شتى .

وأضفت إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات القرون الثلاثة التالية بعد غزو المغول

لبيداده ، إذ ظل العالم العربي حينذاك موزعا بين دول وإمارات متعددة . وكان المؤرخون للأدب العربي يسمون تلك القرون - كما أسلفنا - باسم العصر المغولي ، بينما سلطان المغول فيها لم يكن يتجاوز العراق وإيران ، ومن الخطأ الواضح أن نقول حينئذ إن مصر والشام والمغرب والأندلس كانت تعيش في العصر المغولي ، بينما لم يكن لهم في تلك الديار جميعا أى ظل . والصحيح أنها كانت تعيش في عصر الدول والإمارات الذي بدأ سنة ٣٣٤ للهجرة وظل جناحاه مبسوطين على العالم العربي جميعه في آسيا وإفريقيا والأندلس وامتد الجناحان حتى شمالا العصر العثماني ، ولم يكن عصرًا بالمعنى الصحيح إنما كان فترة مظلمة أطبقت دياجيرها على العالم العربي .

وينبغي أن لا يتبادر إلى الأذهان - كما قلنا في مقدمة الجزء الخامس السابق - أن طول هذا العصر وكثرة الدول والإمارات فيه دفعا إلى تقاطع روحى أو وجدانى أو ذهني بين إماراته ودوله ، فقد كان بين شعوبها تواصل لا يتقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام ، تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين ، بل اتحاد فيها جميعا ، اتحاد في الشعور واتحاد في الفكر . وقرأ في شعر أى دولة أو إمارة واقرنه إلى شعر أى إمارة أو دولة أخرى فإنك ستشعر أنك لم تنتقل من بلد إلى بلد ولا من دار إلى دار ، وإن وجدت بعض الفروق فهي فروق طفيفة لاتحدث فواصل بين شعر الدارين أو البلدين . واستشعر أسلافنا ذلك في عمق ، فكانوا إذا ألفوا كتابا في الشعر ساقوا فيه شعراء العالم العربي جميعا ، فقطعة شعرية عراقية بجانب قطعة إيرانية أو موصلية أو شامية أو مصرية أو مغربية ، وظلوا يصنعون ذلك حتى أواخر هذا العصر على نحو ما نجد عند الحموى في « خزنة الأدب » وبهاء الدين العاملى في « الكشكول » والخفاجى في « ربحانة الألبا » وكأنه جميعا شعر بلد واحد لم تختلف عليه أوطان ولا أزمان . وحتى إن سبق وطن إلى ضرب من التجديد سرعان ما تحاكيه فيه الأوطان الأخرى ، ونضرب مثلا بالأندلس في سبقها إلى ابتكار الموشحات فإن الأوطان العربية الأخرى حاكتها فيها سريعا ، ولم تعد فنا خاصا بها . وأكثر من ذلك نجد الأندلس تبتكرها ولا تفتخ عروضها .. إنما تضعه مصر ، إذ يتجرد ابن سناء الملك لدراستها واستنباط قوانينها العروضية في كتابه « دار الطراز » على نحو ما استنبط الخليل بن أحمد للشعر العربي قوانينه العروضية .

وهذا نفسه نلاحظه في كل ما يتصل بالدراسات الدينية واللغوية ، فليس هناك كتاب من الأمهات في تلك الدراسات إلا تعاور عليه علماء البلدان العربية من هرة في أفغانستان إلى قرطبة في الأندلس يشرحون ويستنبطون ويعلقون عليه مرارا وتكرارا ، واستشعر العلماء ذلك في كل

دولة وإمارة أو قل في كل بلد إلى أقصى حد ، فالعالم في أي فرع من فروع العلم لا يؤلف فيه إلا بعد أن يقرأ كل ماسبقه علماء البلدان العربية فيه على اختلاف أمصارهم وأزمانهم ، وحتى إن هو عمد إلى التلخيص وكتابة متن موجز ، فإنه لا يزال يوميئ إلى آراء سابقيه ، ويتبعه الشارح لمتنه فيفسر ذلك تفسيراً كافياً ، ويتبعه بدوره شارح الشرح ، فيناقش المسائل في أضواء غامرة لسابقيه . وبالمثل أفردوا كتباً لتراجم كل علم ، ورتبوه على حروف المعجم لافرق بين علماء وطن وعلماء وطن آخر ، إذ استقر في أذهانهم أنهم علماء وطن واحد لافرق بين إيراني ومغربي ولا بين شامي وأندلسي . وعمدوا في القرون المتأخرة لهذا العصر إلى جمع علماء العالم العربي وأدبائه في كتب خاصة بكل قرن مرتبة ترتيباً أبجدياً ، بحيث نستطيع أن نعرف في كل قرن الحركتين الأدبية والعلمية في كل بلد عربي . وكل ذلك معناه أن هذا العصر الطويل رغم أنه توزع بين دول وإمارات منفصلة سياسياً كانت تربط بين بلدانه وحدة فكرية وشعورية وروحية ، وحدة عريضة وعميقة إلى أبعد الحدود ، بحيث يصح الشاعر في قطر شاعراً لجميع الأقطار ، والعالم في قطر عالماً لكل الأقطار مهما تباعدت الأقطار وتفاوتت الأزمان .

وقد بدأنا في هذا الجزء بمصر وعرضنا حياتها السياسية على مر الحقب في العصر وكيف تطورت من ولاية أموية وعباسية إلى دولة ذات كيان قوى إلى عاصمة للخلافة الفاطمية إلى حاضرة للأيوبيين والمماليك وما حققت في زمنيهما من مجد حربي بدقها لأعناق الصليبيين والتتار . وظلت مصر تنعم بالرخاء والثراء إلى أن دهمتها كارثة الغزو العثماني . وقد أوضحنا ما حمل إليها الفاطميون من المذهب الإسماعيلي الشيعي المتطرف وعزوفها عنه وإقبالها منذ القرن السابع الهجري على التصوف .. وكانت الروح العلمية متقدمة فيها من قديم ، وأخذت تزداد اتقاداً واشتعالاً منذ دخولها في دين الله ، ومضت تنهض بدور علمي خصب ، مما جعل المغرب منذ القرن الثاني الهجري يحمل عنها قراءة ورش للذكر الحكيم إلى اليوم ، وبالمثل يحمل عنها مذهب مالك في الفقه ، ويحمل أبناؤها عن الشافعي مذهبه الفقهي وينشرونه في الحجاز والشام والمشرق جميعه ، وتكتب السيرة النبوية الزكية وتشيّعها في العالم العربي ، وتُنجب ذا النون مؤسس التصوف الإسلامي . وتنشط بها - منذ زمن الدولة الطولونية - حركة أدبية وعلمية واسعة ، حتى ليؤلف الصولي كتاباً عن شعرائها ، ويؤلف ابن الداية كتاباً عن أطبائها ، ويؤلف ابن يونس الصديفي كتاباً عن علمائها . وعنهم يحمل الأندلسيون في النصف الأول من القرن الرابع الهجري معجم العين للخليل بن أحمد في اللغة وكتاب سيبويه في النحو ، وأعد ذلك الأندلسيين مبكرين لهضة كبرى في الدراسات

النحوية واللغوية . وينزل الفاطميون مصر ، وينون الجامع الأزهر بها ويؤسسون بها جامعة كبرى سميت دار العلم . ويؤسس بها صلاح الدين وأسرته الأيوبيية والمالليك كثيرًا من المدارس ، وقد أصبحت مصر منذ أواخر أيام الفاطميين وفي عهد الأيوبيين والمالليك موثلا لعلماء صقلية حين غزاها النورمان وعلماء الأندلس حين أخذ الأاسبان يغزونها وعلماء بغداد وغيرها من بلدان العراق وإيران حين غزاها التتار . ويظل لمصر بقية من هذه المترلة بين البلاد العربية في أيام العثمانيين بحيث لانغلو إذا قلنا إنها كانت طوال تلك الحقب ملاذا للحضارة العربية وحامية لكل ما اتصل بها من فكر وعلوم وآداب .

ومنذ أوائل هذا العصر - كما أسلفنا - يتكاثر علماءها ، ويبرز من بينهم أعلام في علوم الأوائل والجغرافيا وفي علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وعلوم القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه والكلام والتاريخ . وينهض بها الشعر منذ الدولة الطولونية - كما أسلفنا - ويتكاثر أعلامه في الشعر الدورى والرباعيات والموشحات ، وفي المديح ، وفي المراثى والشكوى ، وفي الدعوة الإسماعيلية ، وفي الغزل ، وفي الفخر ، والهجاء ، وفي وصف الطبيعة ومجالس اللهو في المنتزهات والأندية ، وفي الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وفي الفكاهة ومايتصل بها من شعر شعبي .. وينهض النثر ويزدهر منذ العصر الفاطمى وتتكاثر أعلامه في الرسائل الديوانية والشخصية ، وفي المقامات ، وفي المواعظ والابتهالات ، وفي كتب النوادر ، وفي كتب السير والقصص الشعبية . وكل ذلك عرضناه ، في القسم الأول من هذا الجزء .

وفي القسم الثانى نحدثنا عن فتح العرب للشام ، واستعرضنا حياتها السياسية زمن الأمويين واتخاذهم دمشق عاصمة لهم ، وتحويلها بعدهم إلى ولاية عباسية ، وانصواءها تحت لواء الدولتين الطولونية والإنخشيديية ، وتبعيتها للدولة الفاطمية ماعدا حلب أيام الحمدانيين والمرداسيين ، وماحدث من استيلاء السلاجقة على دمشق وتراجع الفاطميين إلى فلسطين . ثم ماكان من نزول حملة الصليب بالشام وتأسيسهم للماللك بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية ، وكانوا قد أسسوا مملكة في الرها فاستنقذها منهم عاد الدين زنكى وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأخذ يسحق جموعهم سحقا في غير معركة ، وضم إليه دمشق . وسرعان ما استولى صلاح الدين على الشام بعد وفاته وأخذ يوجه إلى الصليبيين ضربات قاصمة ، واستخلص منهم بيت المقدس وبلدانا شامية كثيرة . وأتمت أسرته والمالليك بعدها دفعهم عن ديار الشام إلى البحر المتوسط وماوراءه . وقهر المالليك التتار وملثوا الأرض عليهم هولاء ورعبا ، وتظل الشام ومصر في أيامهم دولة واحدة ، وتنتش

حياة الشام الاقتصادية حتى إذا غزاها العثمانيون انتكست تلك الحياة . وكانت الفرق الشيعية تكثر بها من قديم ، وكان يكثر بها الزهاد والمتصوفة .

وكان بالشام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وأخذت تنشط فيها بعد الفتح الإسلامي حركة علمية خصبة وكانت المدارس تكثر بها منذ أيام السلاجقة . وكان لها من قديم مشاركة في حركة الترجمة وفي علوم الأوائل والجغرافيا ، وأخذ أعلامها يتكاثرون في علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة وفي القراءات والتفسير والفقه والكلام والتاريخ والتراجم . وقد تعربت سريعا وأخذ الشعر ينشط فيها لزمين بنى أمية وبعدهم . وأخذ شعراؤها النابهن يتكاثرون في الشعر الدورى والموشحات ، وفي المديح وفي الحكمة والفلسفة ، وفي التشيع ، وفي الغزل ، وفي الفخر والهجاء ، وفي الرثاء والشكوى ، وفي وصف الطبيعة ومجالس اللهو ، وفي الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وعنى غير شاعر بالزجل والشعر الشعبي . وتنشط الكتابة الديوانية بالشام أيام الأيوبيين والمماليك ، ويشتهر بها غير كاتب ، وبالمثل الرسائل الشخصية والمقامات ، والمواعظ والابتهالات . وتتكاثر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل من مثل رسالة الغفران وكتاب الاعتبار لابن منقذ . وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربى فى مصر والشام أثناء حقبة طويلة تمتد من العصر العباسى الثانى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وعلوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية فى مصر والشام ، وكذلك رجعت إلى كل ما استطعت من الشعر ودواوينه ومن الكتابات الأدبية فى القطرين . ورجعت إلى طائفة من كتب المحدثين والمستشرقين . وأعترف بأن كتب الأسلاف غنية غنى وافرا بالنصوص التى تصور حياة الأدب فى مصر والشام ، ولا أزعم أنى صورت تلك الحياة تصويرا كاملا ، إنما حاولت ذلك جهدى وأرجو أن لا أكون قصرْتُ . والله أسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل وهو حسبي ونعم الوكيل .



القسم الأول

مصر





# الفصل الأول

## السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى<sup>(١)</sup>

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلتقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشاهقة . كما تلتقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعدّها التّيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهي أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنت والثّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطالمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، وثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، ففارقوها سريعاً ، وتسوّء أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد من لا يعتنقون مذهبه الملكاني المسيحي ، وكان المصريون يعاقبه ، يقولون بأن الله والمسيح

للمسعودي وحسن المحاضرة السيوطي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ١٠٦/١ وفتح العرب لمصر لبتلر (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لبيوكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١/٩٩ .

(١) انظر في فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري وابن الأثير والمغرب لابن سعيد قسم القسطنطينية (طبع جامعة القاهرة) وخطط المقرئ (طبعة دار التحرير) ٥٥١/١ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

اتحدًا في طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قيرس ( المقوقس ) بطريقا للإسكندرية جامعا إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهبه الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى العُلل الدينية غلًا اقتصاديا .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرّون في زحفهم حتى حصن بابليون ( بالقرب من ممفيس القديمة ) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون ، ويضطر قيرس ( المقوقس ) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابليون والإسكندرية جميعا سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصا لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولايس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني .

ودائما الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليعقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الديني وحرّيتهم الدينية ، حتى لقد قرَّ البطريق القبطي بنيامين وظل محتبثا حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبيعيا أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفصوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييدا منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥ هـ ومن بقي منهم ولّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية<sup>(١)</sup>

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجدته الذي يحمل اسمه والذي بناه في القسطنطينية : موضع معسكره في حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إيذانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . وبنى مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم في البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة ما اجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعلى رضى الله عنه ، ووليها عمرو بن العاص معاوية حتى توفي سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يوليّه معاوية قيادة الفتوح في المغرب جولات أكثر عمقا ، يخطط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولّى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشهرًا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني ، وأخذ الولاية في أيام بني أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ أتبع الأمويون في ولاية مصر سنة تغيير الولاية ، وهي سنة سيئة ، إذ كان الوالي يقدّم وهو يعلم أنه معزول عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموي تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا ، وإليه شدّ الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جفنة (قدر) تُنصب كل يوم حول داره لإطعام

خلدون وخطط المقرئى ٥٦١/١ وما بعدها وحسن المحاضرة  
٥٧٨/١ ما بعدها .

(١) انظر في ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب  
الولاية والقضاء للكندي (طبعة جيست) والجزء الأول  
والثاني من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبري وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جفنة يطاف بها على القبائل . ولاريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، ومايؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضجّ منها في كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لايزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كلّ هذا الظلم ومايجرّ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ماكتب به إلى حيّان بن شريح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر : « ضَعِ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : ( فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ) ويقول ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ) . ويبدو أن حيّان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضررك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قَبِّحَ الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يعنه جابيا » (١) .

واضطر حيّان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ماتوفى لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاية بنى أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتقاض القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يراعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرمة من الظلم والعسف . وظلت الفسطاط حاضرة الولاة الأموي منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولاتزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسي إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار الفسطاط ، وكان يتزها ولاية بنى العباس ، وتلقانا بعض انتقاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتقاضات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط المقرئى ١٤٢/١

للعرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتفاض يلقانا - للعرب - انتفاض دحية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلي فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلب من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فتارت عليه قيس واليمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظلم نسمع عن انتفاضات في الحوف الشرقى ، ويستغل الفرصة الجروى في تئيس وبنو السرى الذين استولوا حينما على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى الأمير الأموى وأمرهم بمغادرة البلاد ، فيتلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتفض أهل الحوف مرارا ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على مابها من فتن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائيا في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان ما يرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ما خلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذي تعقب مروان بن محمد ، وُئى له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتفاضات والفتن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر قُرسا ، وبالمثل من كان يُسند إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمانيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة حينئذ للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمانيين في رحلاتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون<sup>(١)</sup>

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا ، وحقاً كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقريين منه ، ورزق بآبائه أحمد سنة ٢٢٠ هـ فغنى بترتيته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكسب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفي في عهد المتوكل ، فقروض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أقطعت لزواج أمه بايبك ، فأنابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ هـ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية ، واتخذ جيشا ضخما بلغ عداده مائة ألف ، وفي أثناء ذلك ضُمَّت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ هـ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئا بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولحواشيه من القواد وكبار الموظفين . وعُنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميدانا كبيرا يُلقبُ فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يظنم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليوني دينار ، وبني مارستانا ضخما ، واتخذ لنفسه ديوانا كبيرا على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعُنى في دولته بأن ينقل إليها الأفضلة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

المقريزي ١/ ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلوي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وختارويه والطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبري واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندي (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها وخطط

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما انعقد بينهما صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخم الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحول الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساقى والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع إصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وبنوه المؤرخون بجهازا وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا قرشًا أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدي غلمانه في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولا يدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشعب جيوشهم في الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يغيبهم بجنده ويلى استغاثتهم . ويُقتال هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكم اثني عشر يومًا إذ سرعان ما يُقدِّم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبيحهم الشعراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولاية مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهديّة بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيد وأبناؤه .

### (د) الإخشيدون<sup>(١)</sup>

الإخشيد هو محمد بن طُغج بن جُفّ الفرغاني التركي خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى وُلّوه

تراجم الإخشيد وكافور وخطط المقرئى ٦١٧/١ ومروج الذهب للمسعودى ومصر في عصر الإخشيديين للدكتور سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاية للكندي ص ٣٠٤ وما بعدها والجزين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم القسطنطينية) ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلكان (طبعة دار صادر) في



الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاة الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينها الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان مايتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتديبر شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمئة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصياً ، واختلف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشتره الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يدنى الشعراء ويكثر من عطاهم ، وزار مصر حينئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المعز الفاطمى صاحب المهديّة والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صبياً فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيّنهم

في الأرض فساداً ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

## ٢

## الفاطيون - الأيوبيون

(١) الفاطميون<sup>(١)</sup>

تنسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سراً لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملماً بالفلسفة والملل والأديان ، فنظّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سَكْمِيَّة بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية في العراق وغير العراق ، مما هياً لظهور القرامطة في البحرين وجنوبي العراق ، كما هياً لظهور داع إسماعيلي من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمره عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشاً قضى به على الأغلبة حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سَكْمِيَّة عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدى ويعلن نفسه خليفة شرعياً ، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانبهم مستودعين هم رعوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماماً

الزاهرة لابن تَغْرِي بَرْدِي وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقلي والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي والنكت العصرية لعارة اليمنى وصبح الأعشى في مواضع متفرقة والفاطيون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز .

(١) انظر في الفاطميين المنتظم لابن الجوزي وتاريخ مصر لابن مسير وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دارالكتب واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء للمقرئزي وكتابه المخطوط ٢١/٢ ومابعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقي والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . ومما شكك في هذا النسب المحض الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطعن في نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله في المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشن عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتتحهما قائده جوهر الصقلى ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سبتة ، فإنها ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كافور وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكذب يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل القسطنطينية والبر الشرقى بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ توطأ يختط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يبشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس وتبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال في الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيئطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر في بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه في أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطت

كل قبيلة - رُحطة عُرِفَتْ بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسينية والحُرشتف . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذنوا بحَيٍّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلاً بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوماً إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلاً حازماً أدبياً ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أُقيمت فيه دعوته وخطب له في جمعته وجماعته إلا «سبَّته» فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلكِّين بن زيري الصُّنهاجى . واستمر جوهر في علو منزلته إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطَّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتى عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريماً شجاعاً ، يعفو عند المقدرة محباً للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشيْز وحلب ، وخطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلِّس وكان يهودياً وأسلم . وبنى قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقاً ولا غرباً ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزى إنه ولَّى عيسى بن نسطوروس النصرانى ومنشا اليهودى فكتبت إليه سيدة مصرية بالذى أعزَّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلَّ المسلمين بك إلا نظرت في أمرى ، فقبض عليهما . وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى » .

وما زال العزيز رقيقاً برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سوىَّ العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحيناً يحب العلماء والصلحاء ، وحيناً يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَبَ على المساجد والجوامع سبُّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

وتارة يبيحها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والتمرس والجرجير والسلك لاقشر له والزبيب . وحَرَّمَ الخمر وشدَّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جرة عسل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والحفاف لمن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحَرَّمَ - فيما حَرَّمَ - الغناء ولعب الشطرنج والترهه على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشدوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لا يزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأفلاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعائه ، وفي مقدمتهم داع دُرزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمي دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانساب من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التَّصِيرِيَّة في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية علي بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر مترع حيكت مؤامرة لقتله وتخليس البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبَّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وماست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التَّصِيرِيَّة والتَّزْيِيَّة جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلابي واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المفرج البدوي وإلى مدينة الرملة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتها جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادًا سمحا حليفا محبًّا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبِّر له الدولة أبوسعده التستري اليهودى ، وقتلا في سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن علي الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلن ولاءه للمستنصر ، ويدعوله على المنابر هناك ، وتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان في المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لبني العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توفى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان البساسيري في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسي في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَصَى عليه وعلى فتنته أو دعوته السلطان طُغْرُبُك السُلْجُوقِي . ويحدث في أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانیه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف يبع بمخمين ديناراً وإن البيضة يبع بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بَلَّةً نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبقي في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا يبع بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر في سنة ٤٦٨ بيدر الجمالي ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وقَوَّض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالي كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخوارج بعد وفاة المستنصر حَبَّبه في أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلي . وأحدث ذلك انقساماً بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلي كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالة هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فنار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلي مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالي ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولا نهى إلا أن يخرجوا في مواكب أول العام الهجري ولصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثي لم يتضح شره ولا عواقبه الوخيمة كما اتضح في عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنوناً أو مخبولاً ، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرَّ بنا ، وكأنا جيء بالخلافة أرجوحة للصبي ، وتوفى المستعلي سريعا سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو في الخامسة من عمره ، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طامة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جمعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلدوين إلى الرها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . ويأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستولى جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر في غفلته والجيش المصرى غائب عن جبهه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئا . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستورز أحمد بن الأفضل الجمالى وكان هو وأبوه وجده سنين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حتى على خير العمل » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيا وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظافر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه الفائز وهو في الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو في الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصيبة والغلمان ، ونظلم نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه ، مُتقلا في أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتفسد في أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم في مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرأ للرماد في العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتتل ضرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجداً به ويهجم حينئذ أميرك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بلبس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شريكه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور في الوزارة ، وسرعان ما يقلب ظهر المجن لشريكه وجنوده .

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصليبيين ، ومحاصرون شيركوه في بلبس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغيانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، ويليئه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تيبس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكرياً بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستقذان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مراراً يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

### ( ب ) الأيوبيون <sup>(١)</sup> ( صلاح الدين )

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوين في آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكرياً بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفتح القسى في الفتح القدسى والبرق الشامى للهاد الأصهانى وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ماكتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العربية واللغات الأجنبية .

( ١ ) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذييل الروضتين لأبى شامة وخطط المقرئى والسلوك الجزء الأول ومراة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إمام وسيرة صلاح



وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب، وتطورت الظروف كما مررنا، ففضى صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية، وردَّ مصر إلى الخلافة العباسية، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز. وجدَّ في إصلاح أحوال مصر، فحطَّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها، وبذل الأموال، وملك قلوب الرجال، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر، إذ نراه يلمح في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد، ينبئه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية، إلى ما يدور بخلداه قائلاً عن نفسه: «إنه مفتقر إلى أن.. يقلد ما فتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدم حقه ولا يُطرح، ويقرب مكانه وإن نزع، وتأتيه التشريفات الشريفة». ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأرمنية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين.

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرق، ويحاصر الشوبك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشى لقاءه، ومع ذلك كان يعدُّ نفسه تابعا له، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين. وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوبك والكرك، ثم رفع الحصار، وإن كان قد استولى على أيلة (العقبة). وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين، ويذهب إليها ويستولى عليها. وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعارة اليمنى الشاعر، وقتل داعي الدعاة وصُلب عمارة.

وفي هذه السنة توفي نور الدين، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان في الحادية عشرة من عمره، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين. واعترف صلاح الدين بسلطانه، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وسك النقود باسمه. ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لتورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة، وأيضاً لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موالٍ للفاطميين يسمى الكنز ودارت عليه الدوائر. ومرَّبنا آنفاً أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر، ونراه يسير عسكراً بعد عسكراً إلى بلاد المغرب الأفريقي ودانت له بالطاعة برقة وقسطيلية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكراً في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين. وما هو مبكراً قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقي المغربي والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصلبيين ، فاستقر في نفسه أنه لا بد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسد للصلبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ويُكْتَبُ له النصر ، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يُبْقِي له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخيم حول القاهرة والفسطاط حياية لها ، ويُنْطَلِ المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدّة ويعوّض صاحب مكة عنها آلاف الأرداب قمحا تفرّق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجح كفته رجحانا واضحا ، ويمضي إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوّل لرايچنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب ، وعانوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقبه العادل نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فُيْعِدَ صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حدب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقى إحدى سراياه في شرق حيفا بجماعة من الداوية والإسبترارية الطائفتين اللتين نذرنا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقْتَلُ قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حِطِّين المشهورة في غربي طبرية ، ويُمْتَحَقُ جيشهم محقا ، ويولى هاربا ريموند صاحب طرابلس ورينالد صاحب صيداء ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويقع في الأسر قاداتهم وزعمائهم جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهو صاحب جبيل شمالي بيروت وهمفري صاحب تبنين إلى الجنوب الشرقي من صور وجيرار مقدم الداوية ورايچنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال

أبو شامة في كتابه الروضتين : « من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايخالد صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك لمحمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسئلَ خنجره وضره ضربة فاتلة ورُميت جثته على باب الخيمة . وطمان بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوية والإستبارية لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الواقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل ( بئر سبع ) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوبك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنيقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونكس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزيّن المسجد بالفُسْفُساء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوبك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمالي أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليبَ لحرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجاً عزَّلاً من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لبَّى بها نداء ربه في صفر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزارة . وسنقف في غير هذا الموضع عند عنايته بالعارة والبيمارستانات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب ينوِّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكاً له ( مدبِّراً لدولته ) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمالي الشام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان باراً بالريعية عادلا منصفاً ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهز لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غمِّها ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقى بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صرَّخند سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيداً حتى توفى سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بجنوده إلى مصر ، فتبعه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية ، وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحده . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسير السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلكها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلمها لواء صلاح الدين ، وكان محكمًا محسنًا لتدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارسًا مجاهدًا أبلى بلاء حسنًا مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجز إلى الفسق والاثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويردون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائيًا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيشون فسادًا ، وتسول لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في قمة فيضانه ، فسלט المصريون مياهه عليهم ، وأبقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يومًا مشهودًا ، تفتى به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقا حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدءًا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء الممالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجًا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسرًا ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقاءهم والمرض يتقل عليه وحُمِل إلى مصر في محفة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمهله المرض بها ، فمات ميتة الشهداء مجاهدًا في سبيل الله . وأخفت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مَرَّقهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دمياط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرُّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاء مبرما على أكبر حملة صليبية وُجِّهت إلى مصر باغتيال ممالك أيبه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فافتدى نفسه وقلول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسئاً ذليلاً .

واجتمع رأى المماليك على تولية شجرة الدر المُلْكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق المماليك على أن تلى شئون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقراض الحكم الفاطمي ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوماً ، وأحسَّت بحرج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتاكب العسكر وأن تتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خداعاً للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صبيّاً أيوبيّاً هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى المماليك وقائدهم أيبك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزجحهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن تَراها وجماعها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

## الممالك - العثمانيون

### (١) الممالك<sup>(١)</sup>

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء الممالك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيين لم يتعضوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيديين التركيين . وما إن توفي السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى الممالك علي صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مر بنا آنفاً - إلى عز الدين أيك قاندهم . وظل الممالك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما الممالك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء الممالك ويتزولونهم في أبراج القلعة حيث يربون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم الممالك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت الممالك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حيث رأى أن يتخلص من الأشرف موسى . وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

(القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن القرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص ورودس للسيوطي (طبع فينا) والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لجمال الدين سرور والعصر المماليكي لسعيد عبدالفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعدها .

(١) انظر في الممالك السلوك والخطط للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ومجالس السلطان الغوري وآخرة الممالك لابن زنبيل وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (طبع

شكَّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطر أتابكاً له فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زحوفهم بل سيوهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعهد قُطر إلى مملوك عظيم من ممالك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بيسان ونابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطر ، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مؤلِّين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدُّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدَّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام المماليك لا في حكم مصر وحدها ، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقسم شرفها بحق قُطر وبيبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قُطر سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطر لقصر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء المماليك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما على الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتهاز ظهور أمير عباسي بدمشق فر من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بني العباس بايعه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلَّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه . وبذلك ثبتَّ عرشه ووطدَّ سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آباؤه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالتها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من المماليك أن يعدُّوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأفادوا



من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع بيبرس تقليدًا أن يسافر محملاً إلى مكة سنويًا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائماً إلى اليوم . وعُني بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام . وظل طوال حكمه يُعِدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصدف وثبثين والرملة وباقا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفاء والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . وما زال الظاهر بيبرس ذاهبا آيبا من الفرات لحرب التتار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضيا ، وظل العمل بذلك جاريا في عصر المماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودًا ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجداً كبيراً بالقاهرة لاتزال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعدّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وألفت حولها قصة مشهورة ، وما زالت الأجيال تزيد فيها إيمانا بفروسيته الخارقة . وقد توفي سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنه لا تتجاوز السابعة ، وجعلوا قلاوون أتابعًا له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور ، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزما وعزما وتديباً وبأسا ، وقد اتبع سياسة الظاهر بيبرس في الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مراراً وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهراً بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جبل وبيروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورّم ما بها من شغب . وتوفى سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعا وبطلا مغوارا ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسّر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وانحلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيداء وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خليلا على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيتآمروا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعيّن كُتّبا نائبا له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويغتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تار العراق ، وترجح كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فسادا . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشا كثيفا سنة ٧٠١ وينازهم في مرج الصُفّر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقا ، وتولّى فلوهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار الممالك في التنافس حول السلطة ويخشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوبي الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حبّا شديدا ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قدمنا ، على الصليبيين نهائيا ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية على مصر انتصارا حاسما . وعقدوا معه صلحا سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أو يعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكفي أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعياً أن يفسد الحكم في عهدهم فساداً شديداً . وفي سنة ٧٦٦ سوّلت لحاكم قبرص بطرس لوزينجان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولّى بمن معه هارباً حين علم باقتراب الجيش المملوكى .

وطبيعى وقد فسد حكم آل قلاوون فساداً لاصلاح له بعده ، أن يحاول المالك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المالك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، وما زال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المالك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أديباً يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المالك البرجية مثل شيخ وبرسباى وجقمق وقابتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفي سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعدها عن الحكم وهى سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكثر في زمن هذه الدولة البرجية المنافسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . وهببُ بأخرة من حكم برقوق لإعصار تتارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيناً ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولى ، ويكتب له برقوق تقليداً أومرسوما بنيابته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعاً ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبعليك ، وكان ممالك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة ينهبون ويسلبون ويأتون من الفطائع ما صوره ابن عريشاه في كتابه عجائب المقدور في نواب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله الماليك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء الماليك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامعهم المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبَنَّ في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبويع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبيعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومرَّبنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزيجنان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحاءها ، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين وبحكم قبرص مقيداً في الأغلال ، وقبَل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهَّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدي لمصر سنويا عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجداً حربياً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات بين أمراء الماليك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان شديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، متنقلاً فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف في جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء الماليك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين الماليك البرجية ، وكان شاعراً واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً في السن ، بينما كان يتراءى في الأفق شيخ عدوين كبيرين يهددان مصر والماليك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما أذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين ، وضياح ماكانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوروبا وثغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب في جنوى الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدعوا بهذه المناوشات ، ووقف الغورى معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المنذب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغورى نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدد مصر خطراً أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود ، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوى بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغورى كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائبا عن قانصوه فجند جيشا كثيفا ومضى به إلى شمالى سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمالى حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار ، ولم تكن تنقص جيش المالك الشجاعة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعياً أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمالك مصر ويكتفى بممتلكاتهم في آسيا ، فكاتب خليفة قانصوه في مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمالك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحسن بتخاذل المالك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفر طومان باى . ودخل سليم القاهرة في اليوم التالى وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسلّم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففرّ إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلّم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشنقه على باب زويلة . وبذلك انتهى حكم المالك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون<sup>(١)</sup>

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والخن ومصادرة الأموال وأيضاً مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور الممالك حتى الرخام كانوا ينزعونه . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لاتزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جرّدت مصر من علمائها وفنّانها وتراثها الفكري والفني ، وعاشت حقاً سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاماً ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيح لها زعامة أو شيئاً من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائباً له أو والياً ، كان يلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقراً له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك سارياً بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضاً أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه ، وقد اختارهم سليم جميعاً من الممالك ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار ( مدير الخزانة ) والروزنامجي ( حافظ السجلات ) وأمير الحج وقاضي القضاة ورئيسهم ونقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء الممالك أو كبيرهم . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتبخدا ( نائب الوالي ) والدفتردار والروزنامجي ومندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

شكري والجزء الأول من تاريخ الحركة القومية في مصر وظهر محمد على لعبد الرحمن الرافي ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرايبة والخطط التوفيقية لعلي مبارك ( طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ) ١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٤٨ .

(١) انظر في العثمانيين آخرة الممالك لابن زنبيل وبدائع الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من الدول للإسحاق والجزء الأول من الخطط التوفيقية لعلي مبارك وتاريخ الجبرق والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري والحملة الفرنسية وظهر محمد على محمد فؤاد

وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبَّلع إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يمثلون في البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطى الجند والوالى ، إذ جعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسمى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسناجة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من التاحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكشَّاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشَّاف المترمون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للمترمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعصرونهم اعتصاراً دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصبَّبون عرقا لكى ينعم المترم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويرهبونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوربا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجيئون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن نعرف أنه حكم مصر حتى مجيء نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفاً شديداً فأخذ سلطان السناجق المالك يقسوى ، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمة الشئون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعيما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقسوى ، حتى غدا مناظراً أو مائلا للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد وماليكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنئته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بدأ من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعياً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المالك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالى العثماني لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينها الحرب وسقط في ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يُردَّ لها استقلالها وحريتها ، وظل شيخا للبلد ، يوَلَّى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد سنتين في عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما ولإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهاداً عنيفاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر في الضرائب وشئون الحكم .

لم يَعْرِ هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مطامعه الاستعمارية ، وما زالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أدت في المصريين الشعور القومي . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثماني رأوا أن من واجبه التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدءوا بقوة نهضتهم الحديثة .



المجتمع<sup>(١)</sup>

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا يخالطون سكانها لا في مدنها فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصرى . وكانت تتوزع - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالى وصاحب الخراج والقاضى وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . ويجوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرر ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فاتك الرومى وكافور الحبشى القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط . ويمد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربى كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضى على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدونها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالج لها أو زراع . وترك للقبط الإشراف

شداد ورحلة ابن جبير ومعيد النعم ومبيد النعم للسيكى والمدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين لعطية مصطفي مشرفة والمجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في العصور الوسطى لستانلى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

(١) انظر في المجتمع الولاة والقضاة للكندى والمغرب لابن سعيد بقسميه عن القسطنطين والقاهرة ومروج الذهب للمسعودى ومصر عند المقدسى وابن حوقل وناصر خسرو والإشارة إلى من تال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجبالى فى ابن حلكان والخطط للمقرئزى والجزءين الثالث والرابع من صبح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تفرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وكتاب قوانين الدواوين لابن ممانى وسيرة صلاح الدين لابن

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب . وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جداً حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والنياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتينيس وديبى والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الدبىق مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تينيس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشبّ والنظرون ، وأيضاً على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . وما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء الغل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فتعرضت له تسأله أن يتزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديدا ، وتأمّل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه رجحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شئ كثير . فأخذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطها من قريبها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن الدولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضى موضع الزهد والتقصيف إذ يذ كر الكندى فى كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون فى سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقاً كان يحدث أحياناً قحط أو أوبئة أو تدمرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التى يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك فى الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص فى رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء فى مصر ، فهى تروج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأفاويه . ويبدو أن المساكن بها والغرف والحوانيت كانت توجر ، ويؤجر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهى من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندى أن الولى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يجارشون أحياناً بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولابد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى المعتمض بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضاً أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضى لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غنائها ، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف فى لحنه . وكان الناس يخرجون للترهة فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاء النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضاً بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسى لأول الربيع .

ويتولى مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكوثنا بها الدولة الطولونية ، وتلقى مصر فى حجره وحجر ابنه خنارويه بكنوزها ، وكان حازماً بعيد النظر رءوفا بالرعية ، فألقى عن كواهلها كثيراً من الضرائب التى كان قد فرضها عليها ابن المدير عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقلَّ بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأغدقت عليه من طبياتها ، فكوّن جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج القسطنطينية وقطائع لعساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطنية وفتحت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامعته الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدينار ، وبنى يمارستاناً وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعمَلُ سَمَطٌ عظيم ، وينادى : من أحب أن يحضر سَمَطَ الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخلف فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدينار .

واستقر السلطان بعده لابنه خارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خارويه يغرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاساً تخرج من عيون المياه وتنحدر إلى فساقى يفيض الماء منها إلى مجار تسمى سائر البستان ، وسرح فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلاً حيطانه بالذهب واللازورد وجعل فيه تماثيل أو صوراً بارزة لحظاياهم ومغنياتهم وعلى رؤسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجعلت فى هذا البستان بين يدي القصر فسقية من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يرى لها فى الليل المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق . واتخذ خمارويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ التَّدَى حين زوّجها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملة ذكته تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خارويه - كما مرَّ بنا - قصر فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعا أن أبا بكر محمد بن الماذرائى عامل الخراج ووزير خارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعمئة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤدّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكت دولتهم بدموع غزار . وتخلّفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاها ، وبفضل ثرائها استطاع أن يعدّ لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، وما زال سعه بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والشعر وخطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تنعم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرّض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدبر الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن خيزابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قيم وحايٍ من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكي ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من نصب السماط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأسرج من شاطئ الفسطاط وشاطئ الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقمار .

وتلقى مصر بكنوزها للفاطميين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخّل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم ،  
وينعم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقلي  
القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلي . وكانت المكوس تُفرضُ على  
كل شيء حتى قال المقرئزي إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسي أنه كان يُجبى من  
تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئزي إنه بلغ المتأخر على تنيس في  
ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من  
الثياب في شطا ودمياط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمياط والأشمونين في  
يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . وبما كانت تجبى عليه المكوس الشبُّ والنطرون . وكانت تُفرضُ  
مكوس على الحمامات ، وكانت تُعدُّ بالمئات في الفسطاط والقاهرة ، وعلى الخوانيت ، ويذكر  
ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيها نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الخانوت يتراوح بين دينارين  
وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التي يدفعها أهل الذمة .  
وكانت - كما يقول ابن ممتى في كتابه قوانين الدواوين - تُفرضُ مكوس على المتاجر الصادرة  
والواردة تبلغ نحو عشرين في المائة من العرّوض أو البضائع . وكانت هناك جبوس كثيرة أو عبارة  
أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط في  
القرن الثاني - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ في خزائن الدولة الفاطمية ، حتى  
لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربي ، وفيها يقول المقدسي : « هي الإقليم الذي افتخر به  
فرعون على الورى .. أحد جناحي الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره ( يريد الفسطاط ) قبة  
الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراتُه تُعمرُّ الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاج ، وبرّه يعمّ الشرق  
والغرب ، قد وضعه الله بين البحرين ( الأحمر والمتوسط ) وأعلى ذكره في الخاقين ، حسبك أن  
الشام - على جلالها - رُستاقه ( قرأه ) والحجاز - مع أهلها - عياله » .  
وطبيعي أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل في مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية  
ووزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشرف العلويين وكبار إقطاعييها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون  
من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تملك يورث وإقطاع  
استغلال يُمْنَح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويروى أن يعقوب بن كلس أول وزراءهم  
بمصر كان راتبه في العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفي ترك من الجواهر ما قيمته أربع مائة ألف  
دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم في أوائل القرن

السادس المهجى الأفضل بن بدر الجمالى ترك ستائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاك ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة محابس فى كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والجماميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حول كل أموال مصر فى عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكى فى عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وخمما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص التيل والقحط ، كما مر بنا فى عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تفتض عنها ذلك دائما وتعود سرىعا إلى رخائها الذى أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء .

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالناس بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف ، ويكفى لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كُشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمى ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يحظر ببال ، حتى ليقول المقرئى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يبي به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق فى الآخرة » .

ولعل فى كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبذخ فى أيام الدولة الفاطمية ، ويزخر حديث المقرئى وغيره بملابس الخلفاء وعائمتهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة فى أثابهم وأوانى طعامهم وفى قصورهم وبيساتينها وأروقها وأفنيها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو فى القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور فى نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقننا فى كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار فى سطوح منازلهم حتى لثرى كأنها حدائق ، ومما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قدر ، تؤجر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضا الزراعة . وكل شىء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا فى النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجنابى

والأجبر والأعوان وعاصر النيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف في الغناء والمغنين كتابا . وشاع النيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان في الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهي - كما يقول المقرئى - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الحتم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير ( الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب ) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ( وفاء النيل ) وعيد النيروز ( أول الربيع ) وهو عيد فارسى كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الغطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتونة وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزيّن فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئى : « كان الناس بمصر يخرجون في بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون في صور منكورة مضحكة ، وقد يحاكي نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات في العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلّون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاحى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد في أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفي عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تباشر النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، ورُدَّت الديار



إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن ينقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإفناق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خفف الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُنْفَقُ في الحرب دون أن يختزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تغرى بردى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين لَبَّى نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهابا صوريا ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضيعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد دينارين ، وتعذر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخلفه ابنه توران شاه - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظفروا بجهادون الصليبيين حتى الأنفاس الأخيرة من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات ، وظل خلفاؤه يعنون بالعمران ، مما أنعش الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتيسر وغيرها . وقد عنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الرى عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلى بها الإمام فى مجمع حفيل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد أتخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمع اللهو والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى فى عهد صلاح الدين وحرابه وجهاده هوهم ومرحهم ، وحقا لم يُعَنَّ

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عيداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدّ فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعي أن يُشغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية مجرّوبهم مع الصليبيين وما كانت تُستفدُ منهم من أموال ضخمة . ويبدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرِف في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبي إنه طهّر جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والخواطئ والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاه المصريين في أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن ممانى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، وكان قد عيّن قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمّي في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبعروضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين الماليك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطردون نهائياً الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتمتزق دولته . وتُعدّ أيام الماليك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مربنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فآرئين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأدباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موثلاً العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن الماليك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامّة . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن الماليك البحرية والبُرجية ، وقد ظلّوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدربونهم في القلعة على الفروسية ، ويُعدّون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوي ، حتى إذا شَبَّوا

توزعهم أمراء المالك ، مكوّنين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تملك كما مر بنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المالك تكاثرا شديدا ، حتى اضطرت بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المالك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئ . ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يد لآدمي عليه . وكاننا حُرْم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها المالك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذي يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المالك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجنسور بنظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المالك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزيتة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التي يجلبها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، وما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشرط الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المالك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والحوالى ، وأيضا فإن الحبوس أو أراضى الأوقاف التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضوع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُصَمُّ إليها ضريبة أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الأقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المالك كانت ثرية ثراء طائلا ، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبائها الشاخنة الرائعة .

وعادت إلى مصر فى أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة فى العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المالك عيد محملى الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة فى هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المسخر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للترهة فى أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأربكية وكان يمر بها قديما ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للترهه بها فى النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم فى كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه فى فن الغناء و« حوى » أعجوبة أيامها فى الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم فى كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحائية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثرون من يتورطون فى تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر فى كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاحهم حينئذ النرد والشطرنج وتطير الحمام وتهازش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا تاما ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها فى عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك فى المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاحهم سماع سيرة عنتره وذات الهمة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس . وكأنما كُتِبَ على الشعب المصرى أن يؤدي ثمنا باهظا لمرحه وهوه فى زمن المالك ، فإذا العثمانيون يجتاحون دياره . وتُعمَّم مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلا ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان ووصولان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جرَّدها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من تحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حينئذ مواردها التجارية وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعثمانيون والمماليك يعتصرون خيراتها وطيباتها من الرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والظنك وشظف الحياة . وربما كان خيرا ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ليويسف الشربيني وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرقق به العثمانيون والمماليك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جَرَّ أفضع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفخر طعام الفلاح خبز الشعير والحجن القريش (الحللى من الدهن) والبصل والعدس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكه يحمل كثيرا من السموم .



### التشيع : الدعوة<sup>(١)</sup> الفاطمية الإسماعيلية

مرّ بنا - في غير هذا الموضع - أن مصر دخلت في بيعة على بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاة من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ،

الإسلام لجولدسيهر (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المثنى) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف .

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس المستنصرية (طبع دار الفكر العربى) وكذلك الهمة في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشريعة في

إذ لم تكن تعدو أن تكون نصره لعلوى بعينه . وتمضى مصر بعيدة عن العقيدة الشيعية ، حتى يتزها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يفلح أحد منهم في حملها على الثورة ضد العباسيين ، وكان دعوتهم لم تكن تلبث أن ترتد معهم إلى المغرب .

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم ، ويقيمون بها دولة شيعية إسماعيلية ، ومرّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر الختفي منذ سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لومات في عهد أبيه ، ومرّ بنا كيف أن عبد الله بن ميمون القدّاح نظم الدعوة الإسماعيلية ، وأن أحد دعاةها هيا لعبد الله الفاطمي حكم تونس فترها وأعلن دعوته بها سنة ٢٩٨ ، وخلفه القائم بالمنصور فالعز الذي اتسع بالدولة ومدّ حدودها شرقا إلى الشام .

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعلی وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء ، وكل إمام منهم وصيٌ لسلفه طبقا للترتيب الإلهي في خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة . وقد بدأ الرسول ﷺ - في اعتقادهم - فأوصى بخلافة علي وإمامته من بعده ، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل : « على مني بمنزلة هرون من موسى » كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تتابع الإمامة في آل البيت ، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى : ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ) .

ومبدأ ثان قرووه هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرا أو علانية وجمعا ، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية ، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويذبلون أنفسهم من دونه . فريضة مقدسة ، ينضون تحت لوائه ويبرءون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء .

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم ، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنساني بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهّرين من الآثام ، لا يتورطون في معصية ، ولا يقعون في أي خطيئة مها كانت صغيرة ، لما ينتقل في أصلابهم - حسب اعتقادهم - من نور إلهي ينقى أرواحهم

ويُخْلِئها من دواعي الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع ما يزال ينتقل في الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : ( وكذلك يَجْتَبِيكَ رِبْكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خصّوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والمثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذي يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها . وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسيين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فضلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكونى ، وكل دور يدعى عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهى في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعلا وأن عليا وصيه - فى اعتقادهم - كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح عليا عقلا فعلا . وما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مثله عقولا كلية مديرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم يبدعون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى فى المسيح . وزعموا أن الله - جلّ جلاله - ينبغى أن يتزّه عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا - بزعمهم - إن أسماءه الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

يسمى باسم أو يوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه « مطالع الشموس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يُتَّأَسَّس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للخلق إلى معرفته وصول » وكان أبو فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدى الوجود الذي لا يحدُّه الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يُعْرَفُ إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سَوَّلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعائه إلى عبادته . ولما طُفِح الكيل قُتِل في ضواحي القاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوماً إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبي ، إذ كانوا يُلغون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكمُ إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقلي في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناداة في الأذان بحمى على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أبيها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُعَنَّ بالدعاية كما عُنى الفاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعاتها ، وللدعاة جميعاً رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب ، ويليه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأبى وراء ذلك الدعاة والنقباء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ تواترهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني ، وكان مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت مبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثراً . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد ، أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفه عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل المزاج لا يتطرف يمينا



ولا يساراً ، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويبيئها أشد الميابة . وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي ، فعثر على أسماء أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك ، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة ، إنما كانوا محبين لأهل البيت ، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم ، ولكن دون أن تعتنق مذهبا من مذاهب الشيعة ، فضلا عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط .

## ٦

الزهد <sup>(١)</sup> والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ؛ وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لديها الوثني في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد في حطام الدنيا ومتاعها الفاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهينة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتنقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تنبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسراباً من الجون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعدو زبداً أو قشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوي المادى وتعلق بما عند الله من المتاع الأخروي الروحي .

وابن خلكان وابن شاكر في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغري بردى وبدايع الزهور لابن إياس وتاريخ الجبري وكتاب في التصوف الإسلامي لنيكلسون والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة وإبراهيم الدسوقي وأحمد البدوي في دائرة المعارف الإسلامية والتصوف في مصر إبان العصر العثماني والشعراني للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاية والقضاة للكندي ، والمغرب ، وحسن الحضارة للسيوطي ، والطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشعراني وكذلك كتاب لواقع الأنوار ، والخطوط للمقرئ في الخانقاهات والرباطات والزوايا ، والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجویری ترجمة الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل وأخبار الحكماء للقفطي وتهذيب ابن عساكر

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتبذ طبياتها ، وقرأ في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنيفة من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبي ، وهو أول من قصَّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان يختم القرآن في كل ليلة زلفى وتعبداً لربه . ومنهم المزي صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتياظه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فليل له في ذلك ؟ فقال : بلغني أنهم يستعملون السرجين ( روث البهائم ) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفضيلة الجماعة ، مستندا في ذلك إلى قوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة . » ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسطاط : « كان أحد البكائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي ثبناً طويلاً بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدها اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهي في مُصلَّأها بغير قرأش .

وطبيعي ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعاً التصوف ، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السرى بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرهم بالمعروف ويعارضون السلطان في أمره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبياً لظهور التصوف في مصر . ويروي الكندي أنه كان في القاهرة جماعة مائة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضي عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكأن التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفي ، وهل هي من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هي من الصُفَّة وأهلها الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجح القشيري رأياً على آخر ، وذهب البيروني إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفيا بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طئناً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما نغضى طويلاً في القرن الثالث الهجرى حتى نسمع بأبي حاتم العطار المصرى أستاذ أبي تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذوالنون المصرى المتوفى مع أبي تراب في نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخميمي . كان أوحد وقته زهداً وورعاً وعبادة ونسكاً ، طلب الفقه في أول حياته فتتلمذ لليث بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتتلمذ لشُقْران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامى مستنداً في ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير منازع - في العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائماً كان يفرق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقه عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله ( أى رسوله ) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته » . وفي هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أي انفصام وأن ما ذكره الهجویری في كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمر الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنن الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردّه مكرّما ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكي ويقول : حَيَّ هَلَا بَدَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشيري في رسالته والهجویری في كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازي شيخ مشايخ إيران والجنيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخراز وهو أول صوفي تكلم في الفناء وسهل بن عبد الله الثستري شيخ الحلاج الصوفي المشهور . وفي ذلك ما يشهد بأن أثر ذی النون ومصر في التصوف وتاريخه كان أثرا بعيدا وعميقا إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفي بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيّتها وهو بنان الحمّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيّتها أبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد في المغرب قسم الفسطاط : كان الإنخشيدي يجب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيرا ما كان يلم بأبي سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء في خشوع متبركا به .

وتدخل مصر في أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطني ، وزعم الفاطميون لأنتمهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شيء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفي هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة في المشرق : في العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم في الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشيري والغزالي إلى خطورة هذا الصدع في بنیان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملا بقوة على رأيه ، بحيث لا يكون المتصوف متصوفا حقا إلا إذا

أدّى الفرائض والسنن الدينية ، ولا بد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوفقت الأمة جميعها بنيانا مرصوصا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقا . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة دارا كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دارعبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ هـ وهي أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخا سُمي شيخ الشيوخ ، ورُتّب للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبني لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسما : أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لمتصوفها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حينئذ يزدهر في مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردي فلسفي ، واتجاه جماعي سني ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجدّه وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانع به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقد رفع حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسددوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المترع الصوفي الفلسفي الفردي المترع الصوفي الجمعي ، وقد هيات له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نخصي في القرن السابع طويلا حتى ينزل

بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التي دُمّرت في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حماسة ملتهبة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتحلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتنبى لهم كثيراً من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويعدُّ المقرئ من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيبرسية ، ويقول المقرئ : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعائة صوفى ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوى وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفى وبنى لها مسجدا وحاما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقاً بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشیخة لسماع صحيح البخارى وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثني عشر رباطا ، وكانت ترتب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر في دار الحرب ، ولعل في إطلاقه على زوايا المتصوفة حينئذ ما يدل على صلتهم المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولهن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والنسك وكانت ترتب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعياً أن تكثر الطرق الصوفية في زمن هذه الدولة التي اتسعت في رعاية المتصوفة وولت في أوائلها بأبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقة الخلوتية . وقد تفرعت بدورها إلى أربعة فروع ، كما نلتقى بإبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوى المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر في أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ، ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القلندرية وهم أتباع

قلندر يوسف ، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم وقلَّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقرئى إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة ، وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المماليك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوئية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفى مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحفى ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأفراد ، فلكل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعائم القادرية بيضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمريديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلًّا له ، إذ تتلاشى إرادته فى شيخه تلاحيا تاما وفى ذلك يقول الشعراى فى كتابه : « لواقع الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم الدسوقى : « المرید مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال يعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المرید شيخا ، وكانوا يرسلون بالمریدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون فى وطنه وفى الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة فى نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخانقاهاتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون فى معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحيانا فى وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة فى الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة فى كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديداً ، كما جعل الحكام من الماليك وغيرهم يخشونهم ويحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام الماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين الماليك يرهبونهم وينفذون لهم ما يريدون . ومما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين الماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوفى ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السننى وطرقه في أيام الماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفى إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششتى الأندلسى ، وعفيف الدين التلمسانى نزيل دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصرى الوحيد الذى اعتنق التصوف الفلسفى ومذهب ابن عربى فيه عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى من الأسرة الحسنية بينبع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر فى ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربى ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه فى دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربى فى الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مَسْرَبًا إلى مصر .

على أنه ينبغى أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام الماليك وفى أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السورى القديم ، بسبب تحول خانقاهاته ورباطاته وزواياه الى تكايا وَسِعَتْ كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سَمُوا بالمجازيب والدراويش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغى ان لا يبالغ الباحثون فى الحملة على المتصوفة فى الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السننية حتى فى زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفى مصرى ظهر فى زمنهم هو الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفى والسننى ، إذ قرأ ابن العربى وابن الفارض كما قرأ الغزالى والقشبرى وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السننى وانتظم فى سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة



الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعدُّ بالعشرات ، أكثرها فى التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والحوارق لاغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه تَوًّا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينس بينت شفة . ويقول الجبرتى فى الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفنى قطب رضى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ويأذنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا فى أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا فى الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحى والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع في الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرق بفن الزراعة وشقّ الترع وتديير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والحزف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التي اشتقت منها الحروف الفينيقية ، وأيضاً ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة في نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها في الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجدوة المتقدة لا تخمد مها تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شرراً كثيراً من هذه الجدوة في عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفاً ضخماً ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضاً مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمائة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم فى تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرقُ المكتبة فى أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعاً وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرايوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويدمرُوا معه المكتبة . ولا يُعنى الرومان بالحركة العلمية فى مصر أى عناية ، فقد عدّوها مخزناً يمدهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة فى لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع ( للميلاد ) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس في الإسكندرية »<sup>(١)</sup> .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قبيل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينيا ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلصين لهم من زير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتاحها ، فقد دحضَ هذا القول بتلر وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحرقَت تاريخيا في عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحرقَت مكتبتها الصغرى قبل أن تحرق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف<sup>(٢)</sup> ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أي أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمتة في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجرّدون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليقفوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جاءوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء

(١) العلمى حتى الفتح العربي .

(٢) بتلر ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كتبه في الفصل الثامن وبمقال ماكس مايرهوف في التراث اليوناني .

(١) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بتلر ( الترجمة العربية ) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة

والوعاظ ممن اضطلعوا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية . وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفتِّه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر<sup>(١)</sup> بن الخطاب . وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللقتوى فيما يجدُّ لهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدِّثين ، وكان يُسندُ إليهم الوعظ . وداًئماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعني بإرسال بعض المحدِّثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً<sup>(٢)</sup> مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد<sup>(٣)</sup> بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفي وكونَ بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكني بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدِّثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدْركه الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذا سعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجرية الخولاني القاضي ألف<sup>(٤)</sup> دينار كل عام ، ومرَّبنا في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي القسطنطين سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثريا ثراء طلائلا ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدِّثين والفقهاء<sup>(٥)</sup> . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفا ثانية ومن رجلين آخرين ألفا<sup>(٦)</sup> . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء

(٤) حسن المحاضرة / ١ / ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان / ٤ / ١٣٠ .

(٦) ابن خلكان / ٣ / ٣٤ .

(١) حسن المحاضرة / ١ / ١٩٠ .

(٢) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٧ .

(٣) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٩ .

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس<sup>(١)</sup> (أوقاف) . وكان طيبات مصر وخيراتنا صبّت في حجور العلماء . فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هياً للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه .

وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامى العربى ، وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينمّيها ، وغلب عليها حينئذ التلقى والتلمذة ، فهي تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوى والفقهاء واللغة والأخبار والتاريخ العربى الإسلامى ، وتُسبغ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسطت القرن الثانى للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تتزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هى تعدهما لقراءة ورّش ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هى التى كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصرى إلى وضع أسس التصوف ، كما مرّ بنا فى الفصل الماضى . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعى وحملت عنه مذهبه ونشرته فى بلدان العالم الإسلامى ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوعا وانتشارا .

وعلى هذ النحو أصبحت مصر فى زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علماءها المختلفين . ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فترى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدوّنة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية فى كتاب حسن المحاضرة . ويئنى أحمد بن طولون جامعهم المشهور ويرتّب لإملاء الحديث النبوى فيه الربيع بن سليمان المرادى ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء<sup>(٢)</sup> . وليس بين أيدينا نصوص توضح إعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُروى أنه كان يعطى القاضى بكّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة<sup>(٣)</sup> . ولا بد أن عطايا مقارنة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمحدّثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون ( ٢٥٤ -

(٣) ابن خلكان ١ / ٢٧٩

(١) ابن خلكان ٣ / ٢٥٠

(٢) خطط القرزى ٣ / ١٤٦ وما بعدها

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصيح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوي عن علمائها ، وهم البخارى وأبوداود ومسلم وابن ماجة والنسائي<sup>(١)</sup> وأقام فيها الأشعر واتخذها مسكنا ودارا له ، وكان يتزل في زقاق القناديل ، وأملى بها سنَّته ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاية مصر وحقَّامها يبرون من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يُروى من أن ابن جرير الطبري المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو في نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبي بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعي عن تلميذه : المزني والربيع بن سليمان المرادي إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضا محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعي إلى سمرقند عن المزني وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الروياني المحدث وله مسند . جاءوا جميعا إلى القسطنطينية يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يمونهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار<sup>(٢)</sup> . وإذا كان طلاب العلم تُغدق عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُغدق على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعي في خراسان عن طريق أبي بكر بن إسحق النيسابوري ومحمد بن نصر وأيضا عن طريق عبدان المروزي الذي تفقه على المزني والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطي إنه هو الذي أظهر مذهب الشافعي في خراسان<sup>(٣)</sup> ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعي المصريين أبو القاسم الأنماطي عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكي : هو الذي اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه في بغداد والعراق

(١) حسن المحاضرة ١/٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية

للسبكي (طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة) ٧/٢ ، ٣١٠/١ .

(٢) حسن المحاضرة ١/٣٤٩ .

١٧١ ، ١٥/٣ .

أبو العباس بن سُرَيْج<sup>(١)</sup> . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده لا في الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup> . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تبرح منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة<sup>(٣)</sup> . ويمضي السبكي قائلاً إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

وتغضى مضر في العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات<sup>(٤)</sup> . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقسم مصر مذهبه والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائياً إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي . وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصري كبير من أئمتهم هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهي التي أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التي يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية في النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويومها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطرداً في زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إتمام الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حِزَابَة وكان يُعَدَّق على العلماء ويجزل صلاتهم ، فقصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوي وكان له مجلس في المسجد يلمح فيه على الناس ، وعُني بتأليف مسند

(٣) السبكي ١/٣٢٧ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم القساطر) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن المحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارُطُنِيُّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره ، وأعاناه في تأليف مسنده مع من كان يُعيّنه فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالغ ابن حِزْبَاة في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير<sup>(١)</sup> .

وظل ابن حِزْبَاة يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعي ومثله يقوم على ذلك أن تمضى في الفرو والنشاط . ومن نزل مصر حينئذ المسعودى على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كتبه التاريخية وفي مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقما بها حتى لَبِيَ نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .

وترداد الحركة العلمية نموا ونشاطا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تمضى سنوات في عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبني لهم دارا بجوار الجامع الأزهر<sup>(٢)</sup> الذي كانوا يتخذونه مقرا لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أو كان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى فقيهين مالكيين التدريس في هذا الجامع<sup>(٣)</sup> ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفي أخبار وزير العزيز ابن كلّس أنه كان يُجرى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين<sup>(٤)</sup> ، مما يدل على أنه نشأت حركة علمية كبرى للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات في مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يُروى من أن العزيز عُنِيَ بإنشاء مكتبة في القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفي رواية على مائتي ألف<sup>(٥)</sup> ، وكان أمينه القائم عليها الشابشي<sup>(٦)</sup> على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبري ، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد . وما زال العزيز يُعنى بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز

٢٥٠/١ نقلا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٥) النجوم الزاهرة ١٠١/٤ والخطط ١٢٨/٢ .

(٦) ابن خلكان ٣١٩/٣ .

(١) ابن خلكان ١/٣٤٧ ، ٣/٢٩٨ .

(٢) صح الأعمش ٣/٣٦٣ والخطط ٣/١٥٧ ،

٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٧٨ .



إنها أصبحت أربعين خزانة مملأى بنقائس المجلدات في الحديث النبوى والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة الهائلة لزمن المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضى الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلائل الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين<sup>(١)</sup> . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلحقُ بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفا وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب<sup>(٢)</sup> . وإنما نَصَّوا على إنزال المصاحف لجلالها ، ولا بد أنهم أنزلوا معها كثيرا من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وَتُؤَسَّسُ فِي سَنَةِ ٣٩٥ جَامِعَةٌ كَبْرَى تَسْمَى دَارَ الْعِلْمِ ، حُمِلَ إِلَيْهَا مِنْ خَزَائِنِ الْقَصْرِ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ تَحْتَوِي عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْآدَابِ وَالْفَلَسَفَاتِ وَعُلُومِ الْأَوَائِلِ ، يَقُولُ الْمُقْرِزِيُّ « حَضَرَهَا النَّاسُ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ ، فَفَهُمْ مِنْ يَحْضُرُ لِقِرَاءَةِ الْكُتُبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْضُرُ لِلنَّسْخِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْضُرُ لِلتَّلْعَمِ ، وَجُعِلَ فِيهَا مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَبْرِ وَالْوَرَقِ وَالْأَقْلَامِ وَالْمَخَابِرِ » . وَكَانَتْ بِهَا دُرُوسٌ لِلْمُحَدِّثِينَ وَالْقُرَّاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَأَصْحَابِ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالْمُنْجِمِينَ وَالْأَطْبَاءِ وَالتَّفَلِّسِفَةَ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ كَانَتْ تَجْرَى عَلَيْهِمْ وَعَلَى الطُّلَّابِ الرُّوَاتِبِ . وَمَا تَدْخُلُ سَنَةٌ ٤٠٠ حَتَّى يَكْتُبَ الْحَاكِمُ وَقْفِيَّةً كَبِيرَةً لِلإِنْفَاقِ مِنْهَا عَلَى دَارِ الْعِلْمِ وَعَلَى الْجَوَامِعِ الْكَبْرَى ، وَخَصَّ الْفِرَاشِينَ وَالْحُضْرَ وَالْحَبْرَ وَالْوَرَقَ وَالْأَقْلَامَ فِي دَارِ الْعِلْمِ بِمِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ دِينَارًا سَنَوِيًّا . وَمَنْ الْمُتَوَكَّدُ أَنَّ الْحَاكِمَ كَانَ يَتَعْنَى بِهَذِهِ الْجَامِعَةِ أَنْ تَكُونَ مَرْكَزًا لِلدَّعْوَةِ لِلْعَقِيدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِدَلِيلِ أَنَّهُ جَعَلَ رَئِيسًا لَهَا أَحَدَ دَعَاةَاتِهَا مِنْ بَيْتِ النِّعْمَانِ وَهُوَ عَبْدِ الْعَزِيزِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ النِّعْمَانِ ، وَبَدِوَانُهُ وَجَدَ فِي ذَلِكَ مَا يَهْدِدُ بِثَوْرَةِ أَهْلِ السَّنَةِ الْمَصْرِيِّينَ ، فَأَضَافَ إِلَى عُلَمَائِهَا الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ مِنْ أَصْحَابِ نَحْلَتِهِ طَائِفَةٌ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ السَّنَةِ وَمُحَدِّثِيهَا وَعَلَى رَأْسِهِمْ عَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ سَعِيدِ الْفَقِيهِ الشَّافِعِيِّ الْمَشْهُورِ وَأَكْبَرَ حُقَّاقِ

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها المخطوط (٢) الخطط ٣/١٤٦ ، ١٦٣ .

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجمالي إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جعل المستعلي بالله الخليفة الفاطمي بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذي كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن التزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمرين المستعلي . غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية<sup>(١)</sup> .

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في الفسطاط ظل مركزاً لدراسات أهل السنة . ولا بد أن نلاحظ أن القاهرة حين أُسِّت إنما كانت مسكناً للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت الفسطاط حينئذ مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجدُها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بها بين العشاءين مائة مجلس وعشرة<sup>(٢)</sup> للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحياناً<sup>(٣)</sup> ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بدأً - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة وبحارِبوهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ أي لعهد العزيز على رجل وجد عنده موطأ الإمام مالك<sup>(٤)</sup> ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسبب والثلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخبل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضاً دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغربية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته ، ووُلِّي بعده ابن عمه عبد العزيز الذي أقامه رئيساً لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة الخطط

ص ٢٠٥

(٣) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر الخطط ٣١/٣ .

٢١٨ ، ١٩٤/٢ .

(٤) الخطط ٣/٢٧٥ .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبع ليدن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارق ، ولم يلبث أن سفك دمه <sup>(١)</sup> . وإذن فقتل الحاكم لجاعة من أهل السنة ليس دليلاً كافياً على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يتيق ولا يذر من كبار دعاة وقضاته ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ) أمر بطرد <sup>(٢)</sup> الفقهاء المالكية من مصر أى القسطنطينية سنة ٤١٦ . وينقض هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلّهون علياً وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا في آباءنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفقع إلى ما لا يلبق بنا ذكره ، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال » <sup>(٣)</sup> . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينفيهم من البلاد . وكان لا يزال بمصر في عهده عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطي : « أكرم بمصر وتمول وسعد جداً ، ومرض فكان يقول في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا <sup>(٤)</sup> » . فصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لا تزال مركزاً كبيراً للإشعاع العلمي والدراسات الدينية ، يتزها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية ، ويتزها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلاً بمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس <sup>(٥)</sup> . ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره <sup>(٦)</sup> . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزها في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ

(٥) ابن خلكان ٥/٢٧٤ .

(٦) معجم الأدياء ١٢/١٢٦ وكان أستاذ الداني في

القراءات هو نفسه أستاذ مكي : عبد المنعم بن غلبون الحلبي

نزىل مصر .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٢) الخطط ٣/٣١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١/٣١٤ .

الحديث في عصره الإمام السُّلُي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الدَّبِيل المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادي المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسي المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسي<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبنائها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعدُّون بالعشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قولته السالفة : « عندما عشنا متنا . » ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه السائعين حينئذ في مصر : المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندى يشهد لهم بذلك شهادة بيّنة إذ يقول عنهم : « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألم الحكم به أجابوه<sup>(٢)</sup> . » وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حينئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوماً .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترصّون أهل السنة ، وحقاً حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان فقيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيّنوا على رأس القضاة فقيها شافعيًا هو أبو عبد الله محمد<sup>(٣)</sup> بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ١/٤٠٤ وما بعدها .

(١) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطي وما به من إثبات خاصة بهم في جزئه الأول .  
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٣/٥٢٠ .

شافعيين أو مالكيين . ويتولى الوزارة بدر الجمالي (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ، ويصبحان ولي الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل<sup>(١)</sup> السنة ولا يتعصبان ضدهم . وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة : شيعيا لإسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا<sup>(٢)</sup> . ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥ .

ويتزل في الإسكندرية السلفي أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه ، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر ، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلار في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعي المذهب مثل السلفي فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى له مدرسة فوّض تدريسها إليه ، يقول ابن خلكان : وهي معروفة باسمه إلى الآن أي في زمنه<sup>(٣)</sup> . وفي صبح الأعشى سجلٌ بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفي والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة ، مع بيان أنه أُعدّ لهم جميعا فيها المثوى والمسكن . وبذلك يكون ما ذكره المقرئ وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح<sup>(٤)</sup> ، فقد كانت بها مدرسة السلفي المذكورة ، وكانت مدرسة سنية شافعية . ونفس دار العلم يمكن أن نعدها مدرسة بالمعنى الكبير الذي كان لنظامية بغداد ، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى .

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام. وفي غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي ، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب ، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعا ، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم ، ويكاد يقضى على الصليبيين في الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته ، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب . وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة ، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوفًا بها وخاصة بالحديث النبوي مما جعله ينزل الإسكندرية ليتلقاه على

(٣) ابن خلكان ١/١٠٥ .

(١) المغرب ص ٢١٦ .

(٤) الخطط ٣/٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢/٢٥٦ .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥ .

السلفى أكبر حفاظه في عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُرَوَى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشى المالكى<sup>(١)</sup> ، بينما كان السلفى شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذهبين ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء المذهب الحنفي ، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها في أثناء وزارته للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى قُوِّض إليه تدريس الفقه الشافعي بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضيعة بالقيوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعي والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية<sup>(٢)</sup> . والمهم أنه رتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدين ، فقد كان نظام الإعادة معروفاً حينئذ ، ورتب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها في حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكان كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات في عصرنا ، فع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة في عهد الدولة الأيوبية لا في عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا في عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا في جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراءهم وأمرائهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها في الفسطاط والقاهرة عددها المقرئى - والطريف أنه اشترك معهم في إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وفتحة توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقه الشافعي وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداهما أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العزوه واسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٢٠٦/٧ وقارن بحديث المقرئى عن المدارس في الجزء الثالث من المخطوط .

(٣) انظر حديث المقرئى في ذلك بالمخطوط ٣١٣/٣ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك ابن واصل في كتاب مفرج الكرب في تاريخ بنى أيوب ١٩٥/١ وما بعدها وكان يرحل بولديه : العزيز والأفضل سلطانى مصر ودمشق بعده للسباع من السلفى وبقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ١٩/٢ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقهاء المالكي بجانب المدرسة القمحية التي أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التي بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقهاء الحنفي بجانب المدرسة السيفية التي أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأركشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعي والمالكي مثل مدرسة القاضي الفاضل ، وأخرى بنيت للفقهاء الشافعي والحنفي مثل المدرسة القطبية التي أنشأتها السيدة مؤنسة ابنة السلطان العادل . وبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وهي أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلي . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوي تسمى دار الحديث الكاملية نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تغرى بردى أن جميع المدارس التي أنشأها صلاح الدين لم تُسمَّ منها مدرسة باسمه ، مع ما رُتَّب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة<sup>(١)</sup> .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه في أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين يتفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان يتفق على مدارسه السالفة ، وفي ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والقسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال<sup>(٢)</sup> . »

وكانت الإسكندرية في عهد الفاطميين مثل القسطاط مركزاً لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السُّلُقى الشافعي ، ويبدو أن

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجم الزاهرة ٥٥/٦ . (٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدس) ص ٥٢ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد ( الإسكندرية ) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه ( صلاح الدين ) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله <sup>(١)</sup> . وأخذت المدارس تعم مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضا أمراء بيته ، من ذلك أن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية <sup>(٢)</sup> ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة <sup>(٣)</sup> ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية <sup>(٤)</sup> بها . ويبدو أنه لم تكد تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمي بجامع العطارين الذي بناه بدر الجمالي ، وظل به نشاط علمي وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والمحلة وطنطا والنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعددها المقرئ ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التي رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحيانا بعض نساءهم وأمهاتهم ، وقد عدَّ للشافعية منها أربعة : المدرسة <sup>(٥)</sup> الطيرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثا : الغزنوية والجلالية والمهمندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذاهب مثل المدرسة الأقباقوية والجلابية ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتيرية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذي زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٢) ابن خلكان ٣/٤٥٦ .

(٥) انظر فيما يلي من حديث عن هذه المدارس خطط

(٣) الطالع السعيد للإدقوي (طبع مطبعة الجلالية)

المقرئ ٣/٣٤٠ وما بعدها .



« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ». وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية <sup>(١)</sup> فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرُّبْع أو الحى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوئا بالدور والحوانيت . أما المدرسة المنصورية <sup>(٢)</sup> فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرِّسا وثلاثة من المعيدين ومقرئا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشيها الرواتب ، وبنى بجوارها مكتبا لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقيهييں القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة في الشتاء والصيف . وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرئا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أميئا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب <sup>(٣)</sup> الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلمائها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم .

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرِكها الجوامع والمساجد . وفي مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلبي نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعي ومحدثا لإملاء الحديث النبوي وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة <sup>(٤)</sup> . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخي العظيم ، فعدا أكبر جامعة

(١) انظر في هذه المدرسة الخطوط ٣/٣٤٠ . وما بعدها .

(٢) انظر في هذه المدرسة الخطوط ٣/٣٤٢ والسلوك (٣) الخطوط ٣/٣٤٦ .

للمقريزي (طبعة القاهرة) ١/٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠ (٤) الخطوط ٣/١٦٠ والسلوك ١/٥٥٦ وما بعدها .

للدراستات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأئس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره<sup>(١)</sup> . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فُرُصدت له أوقاف كثيرة على مرالسنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين<sup>(٢)</sup> سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى ببيرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب<sup>(٣)</sup> فيه دروسا لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يَشْرِك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحميها إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسد إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصهبانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصهبانى المولد . وأيضا فقد نزلها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يجئ إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(٣) الخطط ٣/١٦٥ ويقول المقرئى إنه رصد له أوقافا

(١) الخطط ٣/١٦٣ .

كثيرة فى الجزيرة والصعيد والإسكندرية .

(٢) الخطط ٣/١٤٨ وحسن المحاضرة ٢/٢٤٩ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونفضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حرروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعاً عن الشيوخ الثقات ويروىها جيل عن جيل بمنتهى الدقة ولا يروىها إلا من شهد له شيخ بأنه جدير بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرأها الآن حتى يروى أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دونه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشيا إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تناوله ، إذ تُعرض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُسببه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبهى<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٨٩٨ ، والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجد والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبهى الضوء اللامع ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنفضه الحقائق السابقة نقضا ، وسيوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمي ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المماليك ، وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما أحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف وبصيها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجرداها السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علماءها وقضاةها وحشدهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرى بعض المدارس من أعمدها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توافى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضي العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تتقد في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أوزاك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الحنفية التي أنشأها صلاح الدين أوفى المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أوفى المدرسة الأقبغاوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئ في خطه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغوري ، ومثل المدرسة السنانية<sup>(١)</sup> ، ويردد ذكر القبطانية والجنبلابية والأشرفية<sup>(٢)</sup> ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذاً للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتحلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أوفى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون الدمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادي صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ١/١٦٢ و ٢٢٠ . (٢) الجبرتي ١/٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمساني أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العاملى صاحب الكشكول . وعَرِّتْ مصر بعض الولاة العثمانيين وأحالته مؤلفاً أديباً مثل راغب باشا وبها سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدي اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثماني المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها وراعية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصاييح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيساً من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدُّ الجبرتي شيوخه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشراوى معاصر الحملة الفرنسية .

## ٢

## علوم الأوائل - علم الجغرافيا

## (١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى<sup>(١)</sup> برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشأ فى ديارها ورقياً رقيقاً بعيداً<sup>(٢)</sup> . وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تمصر البطالمة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لساناً لها ، فهضمت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكوناً بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرَسُ كُتبه فى العربية وفى أوروبا حتى القرن الماضى<sup>(٣)</sup> ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشرىحه

(٢) ألدومبيل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) ألدومبيل ص ٤٣ وقصة الحضارة لولدبورانت

(نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

(١) انظر العلم عند العرب لألدومبيل (ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم)

ص ٣٣ وما بعدها .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية<sup>(١)</sup>. وغزا مصر الرومان ، كما أسلفنا ، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النمو ، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهيليني في العلوم . ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد ، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية ، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي ، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه « النظام الرياضى للنجوم » وقد سماه العرب « المجسطى » أى الأعظم بنفس اللقب الذى وضعه له اليونان . وله كتب أخرى منها موجز جغرافى ، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب<sup>(٢)</sup> . وبلغنا هيرون ، وهو أرشميدس صغير كما يقال ، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية ، وتاريخه غير معروف فن العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد<sup>(٣)</sup> . ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب فلسفى كان تجديدياً لفلسفة أفلاطون ، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة . وظل نشاط مصر في الطب عظيماً ، وقد نزلها جالينوس ( ١٣١ - ٢٠١ م ) ولم يكن بمقامه فيها بالإسكندرية . فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبها والنوبة وبواديها<sup>(٤)</sup> . ومما لا ريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر ، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها ، وقد عقد ابن أبى أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً<sup>(٥)</sup> . وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرَع إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وكان حَسْبُ الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية<sup>(٦)</sup> . ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من « رأس عين » بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً ، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السريانى الذى أمر

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) للقفطى (طبع

لندن) ص ١٣٢ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقفطى ص ٧١ .

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ وما بعدها وقصة الحضارة

١١٠/١١ .

(١) قصة الحضارة ١٥٦/٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليونانى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٥ .

(٢) قصة الحضارة ١٠٦/١١ والدومبيل ص ٤٥

وما بعدها .

(٣) ألدومبيل ص ٤٥ ، ٤٧ وقصة الحضارة

١٠٨/١١ .

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يحيى النحوي شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأباي<sup>(١)</sup> . ومما لا شك فيه أن القبطية شَرِكَت اليونانية لزمان الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومَرَّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربي بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب في أي بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومَرَّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران<sup>(٢)</sup> فعليه من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطبائها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون بمصر وتفصصوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي<sup>(٣)</sup> . فكان الطبيعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرود القس الإسكندري في الطب وكلف بذلك ما سرجويه البصرى كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطوقا أن يقال إن كثيرين من علماء

(١) انظر مقالة ما يرهوف في كتاب التراث اليوناني ص ٣٧ وما بعدها .  
 (٢) الفهرست ص ٣٥٢ .  
 (٣) ص ١٧١ .  
 (٤) راجع مقالة ما يرهوف السالفة وابن أبي أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتبا كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح للحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيرا من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفا والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبحر طيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه واليا على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) ويقال إنه أسلم على يده (١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحتفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالا .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) يستدعى منها طبيبا مشهورا لعلاج إحدى جواربه هو بليطيان (٢) بطريك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر الدومبيلي كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط (٣) . ومن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي .

وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧ هـ) باتخاذ المارستانات (٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مارستانا جديدا أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه (٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زريك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف (٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتها ظل يؤلفه في نحو أربعين عاما من سنة

(٤) خطط القرظي : مارستان المغافر ٣/٣٨٦ .

(٥) المخطط ٣/٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١

وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبحر الإسكندري وابن أبحر آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) الدومبيلي ص ٢٦٩ .



٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريك الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات<sup>(١)</sup> مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس<sup>(٢)</sup> بن جريج ، وبنشئ كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيبا متميزا في معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور<sup>(٣)</sup> .

وفي ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة في مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نفّح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى . ويذكر ألدومبيللى أن له رسالة في المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكارينسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل<sup>(٤)</sup> . ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما حاذقا فى الرياضيات والهندسة . وكان مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنقلتها إلى العربية ، وكل ذلك تحوّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمم فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثّل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثّل القاهرة لما كان بها من مصنّفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتتقيح جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتتقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم ألدومبيللى ٢١١ ، ٢١٦

وبروكلمان ١٩٣/٤ والقفطى ٢١١ ، ٢٣٣ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

وتفسيره لهذا التنقيح في كتاب مستقل نُوّه به وأصله القدماء .

وظل النشاط محتدما في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد<sup>(١)</sup> بن عبد الله العتقي وأبي<sup>(٢)</sup> عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي المصري ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ في تنقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وأنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول<sup>(٣)</sup> منه ، وقد سماه الزيج الحاكمي الكبير ولم يلبث أن توفي سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أبو علي الحسن بن الهيثم البصري<sup>(٤)</sup> ، وفرح الحاكم يقدموه وخرج لقاؤه على باب القاهرة . ولما وقف على خيل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب المجسطي في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبيعهها جميعاً بمائة وخمسين ديناراً . ويبدو أن نبوغه الفلسفي والرياضي والفيزيقي إنما تحقق في مصر التي اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » في العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمي عالمي بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده في الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعني فيما تعني بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء في كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة في عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . ومما يدل على النشاط في الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السَّبَّيْدي من أنه رأى<sup>(٥)</sup> في خزانة القصر الفاطمي سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطي ص ٢٨٥ .

(٢) القفطي ص ٤١٠ .

(٣) انظر في علي بن عبد الرحمن الصدفي الدوميلي

٢١٣ ، ٢١٩ وبيروكلان ٤ / ٢٢٤ وابن خلكان ٣ / ٤٢٩

والقفطي ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لثليو ١٨٦ ،

٢٨١ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم في الجزء الخامس من

تاريخ الأدب العربي ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠

وألدوميلي ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٥) القفطي ص ٤٤٠ .

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعهد الدولة البويهية .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضى متفلسف هو مبشر<sup>(١)</sup> بن فاتك ، ويقول القفطى قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجرى لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئى : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمى وغيرهم يُطلقُ لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم فى كل سنة<sup>(٢)</sup> » ثم يذكر أنه فكر فى عمل مرصد ضخيم فنشط فى إقامته ، ويذكر المقرئى أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبي العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندرانى المهندس وأبو محمد عبد الكرم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحسّاب الرياضيين والمنجمين ويعدّد من ذكرناهم أولاً ويضيف إليهم ابن دياب والقلعى وأبانصر تلميذ سهلون . وينزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبي الصلت المتفلسف والأديب الأندلسى ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصرى وعلى بن النصر ، وقد ترجم لها القفطى<sup>(٣)</sup> ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، ولم أيضاً ترجمة فى القفطى<sup>(٤)</sup> .

وتنوج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى<sup>(٥)</sup> بن العازار الجراح اليهودى ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمى المقدسى<sup>(٦)</sup> وأحمد<sup>(٧)</sup> بن محمد البلدى وأبوسهل كيسان<sup>(٨)</sup> بن عثمان وأعين<sup>(٩)</sup> بن أعين ومنصور<sup>(١٠)</sup> بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء فى عهده من مثل إسحق<sup>(١١)</sup> بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه<sup>(١٢)</sup> وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبى القاسم

وبروكلمان . ٢٩٠/٤

(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤ .

(٨) القفطى ص ٢٦٧ وانظر ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٨ .

(٩) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ .

(١٠) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٩ .

(١١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(١٢) الدوميل ص ٢٤٠ .

(١) القفطى ص ٢٦٩ وابن أبى أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٢) خطط المقرئى فى ذكر الرصد ٢٣٣/١

وما بعدها .

(٣) القفطى ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .

(٤) القفطى ص ٤١٠ .

(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطى ص ١٠٥ .

عمار<sup>(١)</sup> بن علي وله المنتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثئذ ابن<sup>(٢)</sup> رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوّت شهرته في العالم العربي مما جعل علماء يكتاتونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طبيبا ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينها : « كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطباً وأعلم بالعلوم الحكيمية وما يتعلق بها » . وقد تُرجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه<sup>(٣)</sup> . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان علي<sup>(٤)</sup> بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم<sup>(٥)</sup> بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة ، وكان شغوقا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نُسَخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمَّ بجمعها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراق عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر . ويقولون إنه حوّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة<sup>(٦)</sup> بن رحمون الطيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظّل نسمع عن أطباء في العهد الفاطمي لافي القاهرة

- 
- (١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ وألدوميلي ص ٥٤٨ وبيروكلان ٣٠٣/٤ .  
 (٢) القفطي ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ٥٦١ وألدوميلي ص ٢٤١ وما بعدها .  
 (٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .  
 (٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .  
 (٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .  
 (٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والقفطي ص ٢٠٩ .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين<sup>(١)</sup> بن منصور طيب إسنا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن<sup>(٢)</sup> العين زري وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبي أصيبعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر<sup>(٣)</sup> بن المعرف . ولحقت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتقدوا هذه الدعوة ، وكان دعواتها يلتفتون لتلاميذهم الفلسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعواتها كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من إيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم في ابن أبي أصيبعة والقفطي سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الآمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل<sup>(٤)</sup> الدين الخونجي المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطي - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧١ .

(١) حسن المحاضرة ١/٥٤٠ والطالع السعيد للإدغوي

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١/٥٤١

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٠ .

في ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويرجع في عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر<sup>(١)</sup> بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد . كان فقيهاً حنفيًا عالماً بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمير حماة نواير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علوشايق إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظرًا بالغ الروعة . وكان فلكيا مبدعا ، فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن في المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين ، وقد بدأ هذا الاهتمام باتخاذ مارستانا ضخما في القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا<sup>(٢)</sup> » و يذكر أنه عين له قيما وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن بالمارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم ، وقسما خاصا بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستانا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولا بد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة وبغداد جميعا كان دائما مدرسة للطب . كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثا كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد<sup>(٣)</sup> أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيسا على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته ، وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن<sup>(٤)</sup> جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحال طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده

٥٤٠ / ١ .

(١) انظر في قيصر حسن المخاضرة ١ / ٥٤٢ والطالع

السعيد ص ٢٥٩ وألدومبيل ص ٣٠٥ .

(٤) انظر في ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى

أصيعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدومبيل ص ٣٢٠ وما بعدها

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

وص ٥٦٦ .

(٣) ابن أبى أصيعة ص ٥٧٢ وحسن المخاضرة

مثل أبي (١) البركات بن القضاعي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجمال (٢) الدين ابن أبي الحوافر القيسي وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح (٣) الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون . ويقول ألدوميلي إنه ألف كتابا يحتوي على ١٥ فصلا في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحيانا رئاسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس (٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ وبقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل و متميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويحتم تراجمهم بترجمة لابن (٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات ، وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين ، وهو بحق إمام النباتين لزمته ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدل قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المعنى في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحت لابن البيطار المالقي الأندلسي بجمها العلمي الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فلها أتاحت لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ أن يتزل بها في أواخر القرن السادس الهجري ، وهو لا يزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا ، ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكرا بدراسة التاريخ الطبيعى واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا في خمسة وعشرين فصلا (٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة

٥٤٢/١ وألدوميلي ص ٤١٤ وما بعدها .

(٦) نشر كتابه « أزهار الأفكار » في القاهرة الدكتوران

محمد يوسف ومحمود بسيوني خفاجي بالهيئة المصرية العامة

للكتاب ، وراجح فيه مقلتها وما بها من مراجع .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ وألدوميلي ص ٣٢٢ ،

٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكونه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المتقد من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور<sup>(١)</sup> بن بكرة الذهبي الكامل وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيتها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات من بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل يتزها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة<sup>(٢)</sup> ، ويذكر السيوطي حشدا<sup>(٣)</sup> من متفلسفها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصبهاني المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارباري المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبي الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين علي بن أحمد المدرس بمدرسة بروق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافيجي محيي الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، ومن أهم بالتاريخ الطبيعي بيلك القبيجي الذي صنف حوالي سنة ٦٨٠ كتابه « كثر التجار في معرفة الأحجار » ويقول الدوميلي : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها<sup>(٤)</sup> » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجري المقابل للثاني عشر الميلادي ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي المقابل للقرن الخامس الهجري . والمهم أن مصر هي التي سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هي التي أعدت لصنعها ، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحة في البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها في عصر المماليك يغدون ويروحون في البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع موانئ إيطاليا وغزوهم لقبصر وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطي ١/٥٣٩ ومابعدها .

(٤) الدوميلي ص ٣١٤ ومابعدها .

(١) انظر فيه الدوميلي ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٢) راجع البحر المحيط لأبي حيان ٥/١٤٨ - ١٥٠ في

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .



مصر للبوصلة إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . وبلغنا بها محمد<sup>(١)</sup> بن موسى الديميرى المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته في علم الحيوان التي سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرف من الحديث النبوى والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حيثئذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين المماليك منذ الظاهر بيبرس ، وفي مبانیه يقول ابن تغرى بردى : « بُنى في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبنى في أيام الخلفاء المصريين ( القاطمين ) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات<sup>(٢)</sup> » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكتثون من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لاتزال نرى آثاره في مساجدهم الباقية . وينوّه السخاوى بمهندس مصرى بارع لعهد السلطان برقوق ( ٧٨٤ - ٨٠١ هـ ) هو شمس الدين الطولونى ، ويقول : « كان الموعّل عليه وعلى أبيه في العمائر السلطانية »<sup>(٣)</sup> . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم<sup>(٤)</sup> الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسى الطالب ، كان واسع الانتشار . وفي دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المماليك في دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعدّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تخرّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

(٤) انظر ابن الهائم في الشذرات ١٠٩/٧ والضوء اللامع .. رقم ٢ رقم ٤٤٩ وألدومبيلى ٥٠٦ ، ٥١٣ ، وبروكلمان ( الطبعة الألمانية ) ١٢٥/٢ .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة في النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ والشذرات ٥/٣٢٧ وأيضا ألدومبيلى ( انظر الفهرس ) ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع في الديميرى حسن المحاضرة ١/٤٣٩ والضوء اللامع .. رقم ٢٠٤ وشذرات الذهب ٧/٧٩ والبدر الطالع ٢/٢٧٢ وألدومبيلى ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٩٦

(٣) الضوء اللامع ١/٢٢١ .

على ترجمة نحو أربعائة طبيب عربى ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُتَفَيِّنَ بالظاهر ببيرس مثل شهاب<sup>(١)</sup> الدين بن فتح الدين القيسى ورشيد<sup>(٢)</sup> الدين أبى حليقة النصرانى . وما يلبث أن يلى السلطنة بعد ببيرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا البهارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا<sup>(٣)</sup> » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمد ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدّها بكل ما تحتاج إليه من فرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب<sup>(٤)</sup> . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذكَرُ أن مجباه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم<sup>(٥)</sup> . وتلقانا فى عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة<sup>(٦)</sup> المهدية نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره فى عهد ببيرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم فى أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية<sup>(٧)</sup> « .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس فى المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى ، وبجانب ذلك يرتب فيه درسا للطب<sup>(٨)</sup> ، ومن درسوا فيه بعد زمنه فى القرن الثامن الطبيب شمس<sup>(٩)</sup> الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠ / ١ .

(٦) خطط المقرئى ٣ / ٣٧١ .

(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٨) خطط المقرئى ٣ / ١٤٨ .

(٩) حسن المحاضرة ١ / ٥٤٦ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٧ .

(٤) راجع فى هذا المارستان خطط المقرئى ٣ / ٣٨٦ .

وما بعدها .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ويكفي لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمه علاء الدين على بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس<sup>(١)</sup> العلامة في فنه الذي لم يكن في زمنه من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدومبيلي وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طبياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المهذب في الكحل » وشرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفي سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء بعده مهذب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن<sup>(٢)</sup> المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء في القرن الثامن الهجري . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد<sup>(٣)</sup> بن الأَكفاني المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمد « كشف الغين في أحوال العين » وله كتاب في الطب المنزلي سماه « غنية اللبيب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً نشره شبرنجرف في المكتبة الهندية . واشتهر بعده في طب العيون صدقة<sup>(٤)</sup> بن إبراهيم الشاذلي ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثاني من القرن الثامن الهجري المقابل للقرن الرابع عشر الميلادي . ومما يدل على شهرة مصر لأيام المماليك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العماني أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج<sup>(٥)</sup> . ويظل هذا النشاط الطبي في مصر حتى نهاية زمن المماليك إذ نلتقي في زمن قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصي ، وإليه قدّم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/٥٤٣ وما بعدها .  
 (٣) البدر الطالع للشوكاني ٢/٧٩ وانظر ألدومبيلي ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .  
 (٤) ألدومبيلي ص ٥١٠ .  
 (٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/٣٧٧ والسبكي ٨/٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/٥٤٢ والشذرات ٥/٤٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/٢٣٤ وروضات الجنات ٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/١٣١ وألدومبيلي ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجي عنه .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام المماليك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما أُلّف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خَيْل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر<sup>(١)</sup> بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين : الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثاً فرونر . ولأيدمر<sup>(٢)</sup> الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها . المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المنوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الديمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرقى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعتهم رضوان<sup>(٣)</sup> الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرقى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م . وينوّه الجبرقى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن<sup>(٤)</sup> أفندى قطة . فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرقى بأبيه في الرياضيات والفلك ، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف<sup>(٥)</sup> الكلاجرى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه أُلّف كتابا في الظلال ورسم المنحرفات والبساط والمزاو والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كتر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(١) ألدوميل ص ٥٠٥ .

(٢) ألدوميل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٣) تاريخ الجبرقى (طبعة يولاى) ٧٤/١ .

(٤) الجبرقى ٧٠/٢ .

(٥) الجبرقى ١٦٤/١ .

وينوه طويلا بحسين<sup>(١)</sup> المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد<sup>(٢)</sup> بن موسى الجناحي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبري في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيتة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبري وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادي عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكرونه عفوا مثل شهاب الدين بن سلامة<sup>(٣)</sup> القليوبى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكي<sup>(٤)</sup> داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبري وتراجمه في القرن الثاني عشر الهجرى يراه يذكر طبيبا يسمى قاسم<sup>(٥)</sup> بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثماني ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبري يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصوري ، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذى مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المماليك .

### (ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية . ولمعاصره محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط<sup>(١)</sup> سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودى على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباتة التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

(٥) الجبري ٢/٥٤ .

(١) الجبري ١/٢١٩ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ترجمة

(٢) الجبري ٢/١٢٥ .

صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .

والنشر) ١/١٦٨ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكي في قسم الشام

الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في الفسطاط نَقَّح كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي الفسطاط ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو ملء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابن سليم<sup>(١)</sup> الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمُقرَّة وعلوة والبجَّة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقرئزي وابن إياس مرارا ، وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصري هو الحسن المهلبى في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهدها إلى العزيز الفاطمي سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان<sup>(٢)</sup> .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعي<sup>(٣)</sup> كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر<sup>(٤)</sup> بن عبد الرحمن الإسكندراني المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اختلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ أسما ولاحظ وستفولد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب<sup>(٥)</sup> . ويتزل مصر في أواخر القرن السادس الهجرى عبد<sup>(٦)</sup> اللطيف البغدادى ويُعنى بتأليف كُتِّب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . والكتيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعمَّا أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مروعين .

للعماد الأصبهاني (قسم مصر) ٢٢٥/٢ وبنية الوعاة  
للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ٣٢٢/١ .  
(٥) انظر كراتشكوفسكى ٣٢٣/١ ومقدمة وستفولد  
للجزء الخامس من معجم البلدان .  
(٦) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ٣٤٥/١

(١) كراتشكوفسكى ١٩٢/١ وبيروكلان ٢٥٣/٤ .  
(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز  
ترجمة د. أبى ريدة ٧/٢ - ٨ .  
(٣) كراتشكوفسكى ١٦٩/١ وابن خلكان ٢١٢/٤ .  
(٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وغريدة القصر

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجري ويتكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن<sup>(١)</sup> المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعائة . وكان في زمنه النويرى<sup>(٢)</sup> شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التي مر ذكرها في الحركة العلمية والتي أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهي مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعي وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل<sup>(٣)</sup> الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها في الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافي عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية في الغرب والشرق . وتهم الدولة في هذا القرن الثامن بعمل روكلات أو بعبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضي المصرية ، ومن أهمها الروك<sup>(٤)</sup> الناصري سنة ٧١٥ في عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافي بمصر في القرن التاسع الهجري ، ونلتقى في أوائله بابن دقاق<sup>(٥)</sup> والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر في كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيها يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندي<sup>(٦)</sup> شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافي متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقرئى<sup>(٧)</sup> تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

(٥) الشذرات ٨٠/٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١/٢

ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندي في ترجمته بالفصل

الخامس .

(٧) الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٦٦ والمنهل

الصابى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية)

٣٩٤/١ والسيوطى ٥٥٧/١ والشوكانى ٧٩/١

والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣ .

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب

الحديثة) ١٥٥/٤ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٥٥/١

وكراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

(٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط

الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨/١ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله في ترجمته بالفصل

الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .  
 ويعنى خليل<sup>(١)</sup> بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة الممالك في كشف الطرق  
 والمسالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضي دولة المالك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع  
 الهجري بابن الجيعان<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف  
 لرحلة السلطان قايتباي في سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف في سفر مولانا  
 الأشرف » . وينتهي الجغرافيون في العهد المملوكي بابن<sup>(٣)</sup> إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠  
 وله كتاب « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية  
 الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر  
 السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافي بمصر في عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم  
 يعد أبنائها يشعرون بمكانتهم التي كانت لهم زمن المالك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد  
 العربية بالطاعة وفي مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا  
 إذ نجد ابن<sup>(٤)</sup> زنبيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف في الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرغائب لما في  
 البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . وتلت في القرن الحادي عشر بالسهنوري<sup>(٥)</sup>  
 محمد بن أحمد وله كتاب في منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبي  
 المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافي في مناسك الحج ومنازله ورسالة في معرفة  
 أسماء البلاد : أطوالها وأنحرفاتها ، وتبدو الرسالة كأنها زيح صغير ، وهي بذلك تدخل في الجغرافية  
 الفلكية ، كما يدخل النشاط في الفلك والهيئة الذي عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكي والرياضي  
 الكبير رضوان وأمثاله من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل  
 بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى<sup>(٦)</sup> أسعد اللقيمي الدمياطي  
 المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانع الأوس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

- (١) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .  
 وكراتشكوفسكى ٤٧٢/٢ .  
 (٢) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى  
 ٤٧٥/٢ .  
 (٣) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة  
 المعارف الإسلامية .  
 (٤) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافي العربي  
 لكراتشكوفسكى ٦٨٣/٢ .  
 (٥) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .  
 (٦) انظر فيه تاريخ الجغرى ١/٢٢١ - ٢٤٢ وراجع  
 كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .



سته أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل ولأبي اليمن مجير الدين الحنبلي ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحايف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني بجغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز .

### ٣

#### علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستي البصرة والكوفة بها . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة . فكانت تلقن الشباب في الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربية . وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن هرمز الأعرج تلميذ أبي الأسود الدؤلي . نزول الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطرداً طوال القرن الثاني للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجم في هذه الميادين . ولم تُعن كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لاشك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطي في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذي لحق زمن الإمام الشافعي حين نزل الفسطاط سنة ١٩٩ وكان عالما باللغة ولم يكن أحد بالفسطاط يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعي في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعي . ومن كان يجتمع به الشافعي في الفسطاط من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطي عنه إنه كان إماما في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعي كثيرا من أشعار العرب<sup>(٢)</sup> .

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار السير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته في ص ١٥١ .

(١) راجع ابن هرمز في أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزري ٣٨١/٤ وإنباه الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر في العقد الثاني من القرن الثالث في صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته<sup>(١)</sup> ويُحدث بها ضرباً من الثراء في حياتها اللغوية إذ كان لغويا كبيراً مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « النوار في اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم في اللغة الذى سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم - كما يقول ابن خلكان - المفترقة أو المختلفة في المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبرى في العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه<sup>(٢)</sup> .

ونلتقى في الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد<sup>(٣)</sup> التيمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شىء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التى تكتظ بالغريب مثل ديوان رؤبة . وملتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على<sup>(٤)</sup> بن الحسن الهنأى الأزدي المعروف باسم كراع النمل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغوياً لا يُشَقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم . ويقول القفطى في ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المنضد في اللغة ، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه المجرد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعاجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه المنجد، قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر في القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما في معجم العين للخليل . ولم تُردِّد في ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف في المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى في معجمه تهذيب اللغة - في

(١) انظر إنباه الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥٣/١٨ .

(٣) انظر ترجمة ولاد في إنباه الرواة ٣٥٤/٣ .

(٤) راجع ترجمة الهنأى في إنباه الرواة ٢٤٠/٢  
ومعجم الأدباء ١٢/١٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزخمشري في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزخمشري أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كُراع التمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتحمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد<sup>(١)</sup> بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرَّجه أبوه محمد نحويا ولغويا ماهرا ، ولم يكتف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به ويزميلة أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليها يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه داووين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤية رواية لى عن أبي عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في الفسطاط أصعب ديوانين عربيين لغويا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضى الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والمدود ، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكُراع التمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيراً للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علماءها علما كثيرا ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم . إذ فسّر عشرة داووين منه كان يملها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهى أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية ، ونشر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبى ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجوع وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبى الأدياء وأصحابه العلماء وممن تمهر في لغات العرب<sup>(٣)</sup> » ومثل صالح بن

١٠١/١ ومعجم الأدياء ٤/٢٢٤ وابن خلكان ١/٩٩ .

(٣) البيهقي ١/٣٩٥ .

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأدياء ٤/٢٠١ .

وأبناه الرواة ١/٩٩ وما به من مراجع .

(٢) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباه الرواة

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب ، صحب المتنبى وروى شعره <sup>(١)</sup> ». وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبى وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلّق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين علي <sup>(٢)</sup> بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصرى فى كتابه « الرد على ما فى المقصور والمدود لابن ولاد » .

ويقول ياقوت فى ترجمة المهلبى إنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم التّجيمى كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان زاوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفاً ، وتلميذ ثان له يسمى جنادة <sup>(٣)</sup> اللغوى ، وسرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة فى رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفى المهلبى يقول الففطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا ( أى فى القرن السابع الهجرى ) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى <sup>(٤)</sup> تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلقات والمفضليات وديوان الحامسة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجمّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم المعز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لهما كتابا ، وعاد بعد خلافتهما إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبه على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والطاء وكتاب معان فى شعر المتنبى وكتاب فى المآخذ عليه .

(١) تلميذا للأزهري صاحب معجم التهذيب وروى عن أبى أحمد العسكري كتبه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .

(٢) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ١٩٣/٦ .

(١) اليثيمة ٣٩٩/١ وأخبار مصر فى سنى ٤١٤ ، ٤١٥ للمسيحى ( نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ) ص ٩٦ .

(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأوباء ١٢ / ٢٢٤ وإنباه الرواة ٢ / ٢٣٢ .

(٣) انظر ترجمة جنادة فى معجم الأوباء ٧ / ٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف<sup>(١)</sup> النجيمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبدالقدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صنعته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . اما الرواية الأولى فعن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر<sup>(٢)</sup> بن شاذان اللغوى البصرى نزىل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضَبْعان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيمى عن إبراهيم النجيمى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعها إحكاما لا يكاد يفوقه إحكام ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويتردد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على<sup>(٣)</sup> بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البرِّ اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

٢٦٥/١ .

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيمى ابن خلكان

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٢/٢٧٩ وابن

٧٥/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسماعى فى النجيمى

خلكان ٣/٣٢٢ وإنباه الرواة ٢/٢٣٦ وما به من مراجع .

والشفرات ٣/٧٥ وعبر الذهبي ٢/٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة

واتخذها دار مقام له وتصدّر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذ الأفضل بن بدر الجمال وزير الخليفة الأمر الفاطمي معلماً لولده ، ومن طريقه اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البرّ في صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء في اللغة ، وكتاب الأفعال عُني بنشره مجمع اللغة العربية في القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برّي<sup>(١)</sup> عبد الله المصري المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشي على درة الغواص في أوهام الخواص » للحريري ، وأن له كتاباً لطيفاً في أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردّاً على أبي محمد بن الحشاب ، ردّ فيه على كتابه الذي عدّد فيه غلط الحريري في المقامات ، وطُبع هذا الرد ملحقاً بمقامات الحريري مع نقد ابن الحشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشي على معجم الصحاح للجوهري سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع في كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهي حواشي فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهي ذالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهي من الكتب الخمسة التي ذكر ابن منظور في مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها في تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه في جزءين بجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولا ين برّي أيضاً حواشي على كتاب العرب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، ومن آرائه الطريفة أنه ينبغي المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها في العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة في زمن الدولة الأيوبية إذ توفي سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان<sup>(٢)</sup> بن بنين الدقيقي المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح في شرح أبيات الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب إغراب العمل في شرح أبيات كتاب الجمل للزجاجي ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المباني وافتراق المعاني في اللغة »

(٢) انظر ابن بنين في معجم الأدباء ١١/٢٤٤ وفي بنية الوعاة ٢٦١ .

(١) راجع في ابن برّي معجم الأدباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشذرات الذهب

٢٧٣/٤ وبغية الوعاة ص ٢٧٨ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض ، والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن<sup>(١)</sup> منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلدا ، وهو أكبر معجم لغوي عرني ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة ، وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشي الصحاح لابن برى والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير ، وهو معجم تنوع به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المثوبة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهى الكبير للرافعي صنفه أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألقاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألقاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن<sup>(٣)</sup> السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفا وتصنيفا في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مرارا بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة ( ١ / ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص

٤٥٥ .

(١) راجع ابن منظور في نكت الهميان ص ٢٧٥ والدرر

الكامنة ٣١ / ٥ وحسن المحاضرة ١ / ٥٣٤ والبنية ص ١٠٦

وفوات الوفيات ٢ / ٥٢٤ والوافي ٥ / ٥٤ والشذرات ٦ / ٢٦ .

(٢) انظر الفيومي في الدرر الكامنة لابن حجر ( نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي أفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرود وشاذ . ويتحدث عن تَقْبُلِ روايته ومن تُرُدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المتحل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابه ومباحثه . ونمضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم ، ومن خير من يمثلهم شهاب<sup>(١)</sup> الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص في أوهام الخواص للحريري . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة ، ويزورها كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزلها - كما مرينا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمني المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى لبي نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلماؤها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروزابادي . وما زال عاكفا على عمله حتى أمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرتي تقاريط كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتبع لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن الماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين ، كما أتبع لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهرة للسيوطي .

ومرنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدبين أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نحاتها من أبنائها ونزلائها في مقدمتهم ولاد التيمي الذي مر ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد<sup>(٢)</sup> بن جعفر الدينوري نزيل القسطنطينية المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقر بها صنف لطلابها كتابا في النحو سماه المهذب ، وعنه حملة المصريون . ويلقانا في زمنه محمد<sup>(٣)</sup> بن ولاد آنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/ ٣٢٢

ومعجم الأديباء ١٩/ ١٠٥ وإنباه الرواة ٣/ ٢٢٤ وما به من مراجع .

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينوري في معجم الأديباء ٢/ ٢٣٩ وإنباه

الرواة ١/ ٣٣ وما به من مراجع .



وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى القسطنطينية يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنطق . ونزل القسطنطينية في سنة ٢٨٧ الأخصش<sup>(١)</sup> الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى في القرن الرابع الهجري فإلحقنا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحوياً كبيراً كما كان لغوياً كبيراً وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقده به سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء<sup>(٢)</sup> نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحياناً ينفذ إلى آراء اجتهادية جديدة مما يجعله بحق طليعة<sup>(٣)</sup> المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليها كثيرون من الطلاب يأخذون عنها ، ومر بنا أن منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فصره في أذاعته في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرباحي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه<sup>(٤)</sup> لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين المحوفي<sup>(٥)</sup> على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدّر لإقراء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادياً<sup>(٦)</sup> - التزعة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول التفرد إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره الدناكر<sup>(٧)</sup> النحوي

(٥) انظر المحوفي في الأسباب للسماعى الورقة ١٨١ ومعجم الأوباء ١٢ / ٢٢١ وابن خلكان ٣ / ٣٠٠ وإنباه الرواة ٢ / ٢١٩ والشلزات ٣ / ٢٤٧ .  
(٦) المدارس النحوية ص ٣٣٤ .  
(٧) إنباه الرواة ٢ / ٨ .

(١) انظر الأخصش الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣ / ١٢ وابن خلكان ٣ / ٣٠١ ومعجم الأوباء ١٣ / ٤٦١ وإنباه الرواة ٢ / ٢٧٦ .  
(٢) انظر كتابنا المدارس النحوية ص ٣٣٠ .  
(٣) المدارس النحوية ص ٣٣٢ .  
(٤) إنباه الرواة ٣ / ٢٣٠ .

المصرى تلميذ ابن جنى المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جنى فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ<sup>(١)</sup> طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجامع عمرو بن العاص في القسطنطينية وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإيثار الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - مسير الشمس ، منها المقدمة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو بالبغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان ينزع منزع البغداديين<sup>(٢)</sup> في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدّر لإقراء النحو تلميذه محمد<sup>(٣)</sup> بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإيثار الفاطمي . وأكبر نخاة مصر في أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن برّي الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته في الآفاق ، فقصده الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولي نحويّ المغرب والأندلس ، وقد دُون عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برّي وتلاميذه ، واهتم بها النخاة وشرحوها مرارا ، وهو ببغدادى<sup>(٤)</sup> النزعة في النحو مثل أستاذه ابن برّي وغيره من نخاة المصريين لزمه . وخلف ابن برّي في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين ، ومرّ بنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيويه سماه « لباب الألباب في شرح الكتاب » . ونزل مصر يحيى<sup>(٥)</sup> بن معطى المغربي الدمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كالفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإنباه الرواة ٧٨/٣ والشذرات ٦٢/٤ ومراة الحنان ٢٢٥/٣ والبقية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن تيمطى في معجم الأدياء ٣٥/٢٠

والبقية ٤١٦ والشذرات ٢٩/٥ وتاج التراجم ٨٣ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدياء ١٧/١٢ وإنباه

الرواة ٩٥/٢ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشذرات ٣٣٣/٣

ومراة الحنان ٩٨/٣ والبقية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدياء ٣٩/١٨

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على <sup>(١)</sup> بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وولتقى بعلي <sup>(٢)</sup> بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزمخشري ، واسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حيثئذ بلا منازع ابن الحاجب <sup>(٣)</sup> عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمل ، وكتابه الكافية في النحو والتشافية في الصرف طارت شهرتها في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسها للطلاب في كل مكان ، وكثرت عليهما الحواشي والشروح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضي الإسترابادي . ويتزعم ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية <sup>(٤)</sup> ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وولتقى في أوائله بأمين الدين الحلبي <sup>(٥)</sup> محمد بن علي المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين <sup>(٦)</sup> بن النحاس الحلبي الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان <sup>(٧)</sup> هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أي غسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين <sup>(٨)</sup> ويتصدى

(١) راجع ابن الرماح في البغية ص ٣٤١ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٥) حسن المحاضرة ١/٥٣٣ .

(٦) بغية الوعاة ص ٦ .

(٧) انظر أباحيان في الدرر الكامنة لابن حجر

٣٠٢/٤ والبغية ص ١٢٦ ونكت الهيمان ص ٢٨٠

وطبقات الشافعية للسبكي ١/٢٧٦٩ وطبقات القراء ٢/٢٨٥

وفوات الوفيات ٢/٥٥٥ والشذرات ١٤٥/٦ ونفع الطيب

(طبعة دوزي) ١/٨٢٣ .

(٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

(٢) انظر العلم السخاوي في معجم الأدياء ١٥/٦٥

وابن خلكان ٣/٣٤٠ وإنباه الرواة ٢/٣١١ والبغية

ص ٣٤٩ وطبقات القراء ١/٥٦٨ والسبكي ٨/٢٩٧ وحسن

المحاضرة ١/٤١٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان

٣/٢٤٨ وطبقات القراء ١/٥٠٨ وطبقات الذهبي ٢/٢٠١

والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٥/٢٣٤ والبغية

ص ٣٢٣ وبر وكلان ٥/٣٠٨ .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمانه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم <sup>(١)</sup> الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الرمخشري وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حيثئذ أكبر نحاتها ابن هشام <sup>(٢)</sup> جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فجّ ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « معنى اللبيب عن كتب الأعراب » وهو في جزءين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجميل ، بثّ فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر الندى » وكل هذه الكتب مطبوعة مرارا وتكرارا . وهو يتهج في النحو مهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وولتقى في القرن التاسع الهجري بالدماميني <sup>(٤)</sup> الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغني لابن هشام ، وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمْنِي الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغني ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وولتقى بعدهما <sup>(٥)</sup> بالكافيجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حيثئذ الشيخ خالد <sup>(٦)</sup> الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُنسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية في علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كلييات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » في أربعة مجلدات . وفيه طبق

والشذرات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ والبدر الطالع

١٥٠/٢ .

(٥) انظر الكافيجي في الضوء اللامع ج٧ رقم ٦٥٥ والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٣٢٦/٧ .

(٦) راجع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج٢ رقم ٦٦١ وشذرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة ١٨٨/١ والحلظ الجديدة لعل مبارك ١٠/٥٣ .

(١) البغية ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ابن هشام في البدر الكامنة ٣٠٨/٧

والشذرات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ والبدر الطالع ٤٠١/١ وكتابتنا « المدرس النحوية » ص ٣٤٦ .

(٣) راجع ابن عقيل في الدرر الكامنة ٣٧٢/٢

والبغية ص ٢٨٤ والشذرات ٢٠٤/٦ والبدر الطالع ٣٨٦/١ وكتابتنا « المدارس النحوية » ص ٣٥٥ .

(٤) انظر الدماميني في الضوء اللامع ج٧ رقم ٤٤٥

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس . وقد طبع بجيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جنى كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب جمع الهوامع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلاصات النحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بديعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني<sup>(١)</sup> على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم في القرن الحادى عشر الشنوائى المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشرى المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر<sup>(٢)</sup> البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزانة الأدب » وهى شرح لشواهد شرح الكافية في أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويرجم لهم ، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهلية وصدر الإسلام ، ونمضى إلى القرن الثانى عشر فيلقانا الحنفى المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغنى . وهى مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوى<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . وملتقى بالصبان<sup>(٤)</sup> محمد بن على المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهى أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوى بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمى النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر في أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب مجده يعنى بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣ سماء المنصف<sup>(٥)</sup> في بيان سرقات المتنبى . وهو بذلك أدخل في مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجبرقى ١٦٥/٢ .

(٤) تاريخ الجبرقى ٢/٢٢٧ والخطط التوفيقية ٣/٣٠٦

(٥) انظر في هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبى عند

العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بدمشق

الدكتور محمد رضوان الداية .

(١) انظر الأشموني في الضوء اللامع ٥/٦

وشفوات الذهب ١٦٥/٨ والبدر الطالع ١/٤٩١ وفيه

أنه توفى سنة ٩١٨ .

(٢) انظر في عبدالقادر البغدادى خلاصة الأثر

٢/٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

غير أنه جعل بين يديه مبشرين : مبحثاً في السرقات الشعرية عامة ، ومبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي . والكتب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكان مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين . تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفنى الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغي ألف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التنبهات على عجائب التشبيهات لعل<sup>(١)</sup> بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفي سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ في حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في ستة أبواب : أولها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الخمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دارت على السنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس . واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل اليتيمة للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُتداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . ويلقانا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم<sup>(١)</sup> بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه « معالم الكتابة ومعانم الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العزيز عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب في علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز في الذكر الحكيم ، عُنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان . وأهم من العزيز عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضوع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالماً لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أديبا وعُنى بالتأليف في البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدي الزمن . أما ابن أبي الإصبع فبعد أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري ، وله كتابان : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآي القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها تبيين أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدماء وحلية المحاضرة للحاتمي والمنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرماني وإعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضي والموازنة للآمدى والوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيق وسرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزحشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فيها وفقها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

١٩١٣ . كتابه : « معالم الكتابة » طبع بيروت سنة ١٩١٣ .

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١ / ٥٦٠

وشذرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السعيد للإدغوي ١٦٠

تحرير التحبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجدائي ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه <sup>(١)</sup> . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كال تكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتشغل مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تُسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي ، وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصرى هو أحمد <sup>(٢)</sup> بن على بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ ويسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فوائحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من النوق السليم الذي أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، ويصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أئى مزجت قواعد هذا العلم ( علم البلاغة ) بقواعد الأصول والعربية .. وضمنته شيئا من القواعد المنطقية والمعاهد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشركين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافية ١٠/١٣٩ وراجع في الدرر الكامنة ١/٢١٠  
 وشرحات الذهب ٦/٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١/١٢١  
 وإنباء القمر بأبناء العمر لابن حجر ١/٢١ .

(١) نفحات الأزهار على نemat الاسحار (طبع دمشق) ص ٣ .

(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات



يضم كل بيت محسنا من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المالك وجدنا السيوطي ينظم بديعية يسميها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد التفتازاني .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّ بنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنزابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده <sup>(١)</sup> . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً . وتحدث حديثاً مجملاً - عرضنا له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعباً لها في قصائده مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوا ببيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفوظه وقطته ودقته في الفهم . وقدما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحوا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفني ، ويحاولوا أن يتيقنوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه اللغوي لبيت وقع عليه عفواً هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يؤلف كتاباً في النقص على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته <sup>(٢)</sup> كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه » <sup>(٣)</sup> . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدِّ كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمزلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشيعهم له ، مما جعل العميدى <sup>(٤)</sup> محمد بن أحمد كاتب

(٣) العمدة لابن رشيق ٢/٢١٦ .

(٤) انظر العميدى في معجم الأدباء ١٧/٢١٢ وإنباه

الرواة ٣/٢٤٦ وبغية الوعاة للسيوطي ١٩ .

(١) انظر أبو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم

الكيلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

(٢) معجم الأدباء ١٢/١٣٣ .

الإشياء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم « الإبانة عن سرقات المتنبي » وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تراءى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير ، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية .

وماتزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله ، و ماتزال معنية بالمتنبي ، بل إنها لتمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي . ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول<sup>(١)</sup> لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل ، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي . ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان ، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار ، يقصد حكمه البديعة . وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه « ليس من أهل اختياره ، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره ، لأن بحاره زخّارة ، وأسوده زّارة ، ومعدن يثّره مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة ، يطمع ويؤنس ، ويوحش ويؤنس ، وينير ويظلم ، ويصبح ويعتم ، شذرة وبدره ، ودره وآجره ، وقبله بجانبها لسعة » ، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي ، وهو نقد دقيق ، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيق ، فصنعه ، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي ، يقول : « ولو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه ، وهو ينهب أشعار هذين الرجلين نهباً قبيحاً ولا سيما ابن المعتز » . وينوّه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بآبن المعتز والبحتري . وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك ، وأورد القلقشندی في صبحه نموذجا<sup>(٢)</sup> من هذه الرسائل المتبادلة بين الأدبيين الكبيرين ، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل بيت ابن سناء الملك :

صليبي وهذا الحسنُ باقٍ فربما يُعزّل يبتُّ الحسنُ منه ويُكنسُ

لذكره فيه كلمة « يكنس » المبتذلة ، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز

في قوله :

(١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) انظر صبح الأعشى ٢/٢٤٩ - ٢٥٢ .

وقوامي مثلُ القنّاة من الحنّاط وخدّى من ليحيى مكنوسُ  
وكانه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة  
شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصرى في العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسى ،  
فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من  
عروض الموشحات الأندلسية محلّ الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربى ، وستحدث بشيء  
من التفصيل عن ذلك فى الفصل التالى .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد فى زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات  
فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أبه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا  
بأشعاره ، وفيه وضع ابن جبارة<sup>(١)</sup> على بن إسماعيل مواظنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدر فى  
نقد الشعر » وهو فى نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدى فى كتابه  
« الغيث المسجّم » الذى وضعه فى شرح لامية العجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن  
سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدى فى نكت الهميان « متعتنا  
تعتنا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بِشَوْكِ الْقَنَا يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَابِهَا      وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

يصف فى البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقرب من حياها لبأس قومها وخشية  
من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقّف ابن جبارة بإزاء البيت<sup>(٢)</sup> وقال إنه أراد أن يمدح قوم  
صاحبه فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذى جعله كفن مئته لأنه جعل طعن رماحهم كإبر  
النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدى قائلا :  
أما كونه يدعى أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزناير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس فى  
إبر النحل والزناير سُمُّ يمنع القرب منه والدنوإليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ،  
وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح  
القوم بإبر النحل فهو لم يعقد فى البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر فى ابن جبارة نكت الهميان ص ٢٠٨ وبغية  
الوعاة ص ٣٢٩ .  
(٢) الغيث المسجّم شرح لامية المعجم (طبع مطبعة  
بولاق) ١ / ٢٢٤ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شهما فيهما القنا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بإزاء<sup>(١)</sup> بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضي الفاضل ، إذ يقول :

يقرى الضيوف شعاعٌ يثيرُ أحمرٍ فشعاعُ ذلك التبرُّ نيرانُ القرى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . التبر لا يكون إلا كذاك ( أى أحمر ) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على اليفاع ليتهدى بها الحيران . وتهدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبرا مجازا ، ولولا ان هذا لازم لما قيل فى بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولاشك فى أن النقد الأدبى المصرى فى هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدى من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع فى نقله . ولعلنا لا نبتعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر فى زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفى مقدمته<sup>(٢)</sup> يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مشكاتها . ومضى يذكر الأصل<sup>(٣)</sup> من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفى صبح الأعشى دراسة<sup>(٤)</sup> نقدية

(١) الغيث المسجم ١/ ٢٦٤ وانظر ١/ ١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ فى

خزائنه ( طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة ) بمقلمة الكتاب

ص ١٥ .

(٣) فى الخزانة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر

الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأعشى ٢/ ١٩٢ - ٣٣٨ .

طريقة للمعاني والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وولتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجي وكتابه « ریحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشعراء زمنه فى الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثَّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

#### ٤

### علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم فى هذا الصنيع التابعون من مثل عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى نزىل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة فى القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته فى القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش<sup>(٢)</sup> عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا فى العربية ، وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضوع ، ولا يزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد<sup>(٣)</sup> الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش فى الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء ، كما تعنى بما يؤلف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة فى القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحمزة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصرىا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا فى اختلاف السبعة<sup>(٤)</sup>

وطبقات القراء ١/٣٨٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١/٤٨٨ وانظر طبقات القراء

٣٠١/٢ حيث يذكر تلميذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر فى ورش . حسن المحاضرة ١/٤٨٥ وطبقات

القراء ١/٥٠٢ .

(٣) انظر فى عبد الصمد حسن المحاضرة ١/٤٨٦

المذكورين ، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً وإنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي . وأول من نقف عنده عبد<sup>(١)</sup> المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونمضى في القرن الخامس فنلتني بعد<sup>(٣)</sup> الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتني بالحسن<sup>(٤)</sup> بن محمد البغدادي المالكي نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، ونلتني بإسماعيل<sup>(٥)</sup> بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه « العنوان » . ونلتني بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصري وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر<sup>(٦)</sup> ، ونلتني في القرن السادس بابن الفحام<sup>(٧)</sup> شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتني بابن<sup>(٨)</sup> بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

وإلحاقاً أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي<sup>(٩)</sup> الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته « حِرْز الأمانى » المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم<sup>(١٠)</sup> السخاوي المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل المصري طبقات القراء ٣١٨/٢

والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .

(٧) راجع في ابن الفحام حسن المحاضرة ٤٩٥/١

وطبقات القراء ٣٧٤/١ والنشر ٧٥/١ .

(٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات

القراء ٢١١/١ والنشر ٧٢/١ .

(٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ٤٩٦/١ وطبقات

القراء ٢٠/٢ وطبقات الشافعية ٢٧٠/٧ ونكت الهميان

ص ٢٢٨ ومعجم الأديب ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .

(١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨

(١) راجع في عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة

٤٩٠/١ وطبقات القراء ٤٧٠/١ والنشر في القراءات

العشر ٧٩/١ .

(٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ٤٩١/١ وطبقات

القراء ٣٥٦/١ والنشر في القراءات العشر ٧٣/١ .

(٣) انظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ٤٩٢/١

وطبقات القراء ٣٥٧/١ والنشر ٧١/١ .

(٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ٤٩٣/١

وطبقات القراء ١٣٠/١ والنشر ٧٤/١ .

(٥) انظر في ابن خلف حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات

القراء ١٦٤/١ والنشر ٦٤/١ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جلال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن<sup>(١)</sup> بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلان . ويتوالى التأليف فى القراءات وتلقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطى على الشاطبية . ويختم الإمام شهاب<sup>(٢)</sup> الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ زمن المماليك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكملين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيىصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأعشى الكوفى إلى ما ذكرناه آنفا من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف فى القراءات لزمن العثمانيين ناشطا ومن أهم ما ألف فى زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يعنى بعرض القراءات الأربع عشرة ألفه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف فى جوانب منها ، فقد ألف كتابا فى الناسخ والمنسوخ وكتابا فى الوقف والابتداء وألف كتابا - كما مر بنا - فى إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة فى هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنّفات مختلفة تتصل بتجويده وبتناسخه ومنسوخه ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان فى علوم القرآن لبدر<sup>(٣)</sup> الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما ألف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير ، وطبيعى أن تُعنى به مصر منذ دخلت فى الإسلام حتى تفهم

(٣) انظر فى الزركشى الدرر الكامنة ١٧/٤ وشنترات الذهب ٣٣٥/٦ وحسن المحاضرة ٤٣٧/١ وأبناء القمر بأبناء العمر ٤٤٦/١ .

(١) انظر فى الصفراوى حسن المحاضرة ٤٥٦/١ وشنترات الذهب ١٨/٥ .

(٢) راجع فى القسطلانى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ وشنترات ١٢١/٨ والبدر الطالع ١٠٢/١ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفَاطَهَا يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس (١) . وكأنها بعض ما حملة البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلة رواته فيها . وتظل مصر معنيةً بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدوفى (٢) محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، ومن نلتقى به فى زمن الأيوبيين المرسى (٣) السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمان فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزيز عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجوه البيانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن الماليك ونلتقى بالقرطبى (٤) محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الخصب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والبيان لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن (٥) المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نخب التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

(١) فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨  
وشذرات الذهب ٥ / ٣٣٥ .  
(٥) راجع ابن المنير فى الديباج المذهب ص ٧٨  
وشذرات الذهب ٥ / ٣٨١ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٦١  
وفوات الوفيات ١ / ١٣٢ .

(١) الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ٢٢٣ .  
(٢) انظر الإدوفى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن  
المحاضرة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ٢ / ١٩٨ .  
(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥  
ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠٩ وشذرات الذهب ٥ / ٢٦٩ .  
(٤) انظر القرطبى فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع)



آراء الزمخشري الاعتزالية التي بثها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن<sup>(١)</sup> النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد<sup>(٢)</sup> العزيز الديريني المتصوف المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير ، وأيضا كان يعاصره العلم<sup>(٣)</sup> العراقي المصري المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراقي نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجده مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذي انتقل إلى حفيده ، وله كتاب في الانتصار للزمخشري من ابن المنير وله مختصر في التفسير .

وأكبر المفسرين في القرن الثامن أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداده في الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطي وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور في التفسير بالماثور » مطبوع في ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسّر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإمراء ، وتفسيرهما مطبوع في جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب<sup>(٤)</sup> الشريفي المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتموج مصر بحفاظ الحديث النبوي منذ نزها الصحابة وفي مقدمتهم أبو ذر الذي سكنها مدة وعقبه بن عامر العجني وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفي مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبي هريرة ويزيد بن أبي حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواته في القرن الثاني الهجري ، ومن أهمهم أبو زرعة

(٣) انظر في العلم العراقي حسن المحاضرة ٤٢١/١

ونكت الهميان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ١٣/٣ .

(٤) راجع في الخطيب الشريفي شذرات الذهب

(١) انظر ابن النقيب في طبقات المفسرين ص ٣٢

وشذرات الذهب ٤٤٢/٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع الديريني في حسن المحاضرة ٤٢١/١

المتوفى سنة ١٥٨ وابن هبة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبدالله<sup>(١)</sup> بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : البُوَيْطِيُّ وحرَمَلَةُ والمَزْنِيُّ والرَّبِيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشهر مصر بحفاظ الحديث نزها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفي وله فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار ، وابن حِزْبَانَة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث فى وزارته ، وسمع الدارقطنى حافظ العراق فى زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فجعاء مصر ليعينه ، تمَّول ، وكان فيها يروى الحديث ويمليه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد<sup>(٢)</sup> الغنى بن سعيد الحافظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله فى الحديث المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال وكتاب مشتببه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر فى القرن الخامس تلميذه الحبال<sup>(٣)</sup> الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السُّلْتَنِي<sup>(٤)</sup> أكبر الحفاظ فى القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج ، على نحو ما يصور ذلك معجمه ، وهو مطبوع ، وبنى له العادل بن السلار وزير الظافر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مر بنا ، وفوض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

١٨٨/٣ .

(٣) راجع فى الحبال حسن المحاضرة ١/٣٥٣ .

(٤) انظر فى السلقى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥٦ وطبقات الحفاظ له ٣٩/٢ وابن خلكان ١/١٥٠ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣/١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١/٤٤٩ والسبكي ٦/٣٢ والأنساب ٣٠٢ وشذرات الذهب ٤/٢٥٥ وطبقات القراء ١/١٠٢ وميزان الاعتدال ١/١٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيرا فى ورق بردى بمدينة إدفو فى جنوبى مصر واسمه الجامع فى الحديث ، وهو مكتوب فى القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب فى المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر فى ابن وهب حسن المحاضرة ١/٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠/٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٨٦ وبيروكلمان ٣/١٥٥ .

(٢) انظر فى عبد الغنى المنتظم ٧/٢٩٠ وابن خلكان ٣/٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٥٠ وشذرات الذهب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي<sup>(١)</sup> بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثا عن أربعين شيئا .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث<sup>(٢)</sup> الكاملية حتى توفي في سنة ٦٣٣ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكي الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد<sup>(٣)</sup> العظيم بن عبد القوي المصري الشافعي المتوفى سنة ٦٥٦ يقول السيوطي إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة ، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحرا في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قِيما بمعرفة غريبه ، إماما حجة بارعا في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طبع مرارا . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الديماطي<sup>(٤)</sup> شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذة معيدا له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن<sup>(٥)</sup> جماعة الشافعي المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء، واشتهريا كثاره من سماع الحديث ودرس في المدرسة الخشائية، صنّف تخريج أحاديث الإمام الرافعي الشافعي وغير ذلك . ويعنى بشرح البخاري غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مغلطاي<sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطي له أكثر

وطبقات الحفاظ ٦٥/٢ والسبكي ١٠٢/١٠ وطبقات  
القراء ٤٧٢/١ وتذكرة الحفاظ ٢٦٨/٤ والدرر الكامنة  
٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبدية والنهاية  
٤٠/١٤ والبدر الطالع ٤٠٣/١ .  
(٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١  
وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكي ٧٩/١٠ والدرر الكامنة  
٤٨٩/٢ .  
(٦) راجع في مغلطاي حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر  
الكامنة ١٢٢/٥ .

(١) راجع في ابن المفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١  
وشذرات الذهب ٤٧/٥ .  
(٢) ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثنا بمن  
تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .  
(٣) انظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطي  
٥٩/٢ والسبكي ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١  
وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي  
٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .  
(٤) راجع في الحافظ الديماطي حسن المحاضرة ٣٥٧/١

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجه ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . وبلغنا بعده الحافظ <sup>(١)</sup> العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخرىج أحاديث كتاب الإحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى « وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجه إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخرجاته تعد بالعشرات <sup>(٢)</sup> . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومر بنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وولتقى فى أيام العثمانيين بعبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرقى بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحنفى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرقى أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجه وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرک للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك <sup>(٣)</sup> . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلَّ حفاظه النابهون يُعدّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكي فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

المحاضرة ١ / ٣٤٠ .

(٣) تاريخ الجبرقى ١ / ٢٨٩ .

(١) انظر فى العراق الضوء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٤٥٢

وحسن المحاضرة ١ / ٣٦٠ والشنرات ٧ / ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن

أبي حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وكان مقرَّباً لهارون الرشيد ؛ أن يكون القضاء في الدولة العباسية أحنافاً . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار<sup>(١)</sup> بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي<sup>(٢)</sup> أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعدّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي ، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق<sup>(٣)</sup> بن إبراهيم الشاشي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطي<sup>(٤)</sup> بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي ، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد<sup>(٥)</sup> الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد<sup>(٦)</sup> الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالبدر بن الحنن ، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩ . ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن<sup>(٧)</sup> الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطي المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو<sup>(٨)</sup> القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن المالكي إذ جعل الظاهر يبصر القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

- (١) انظر في بكار حسن المحاضرة ٤٦٣/١ وابن خلكان ٢٧٩/١ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١٦٨/١ وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩ .  
 (٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن عساكر ٥٤/٢ .  
 (٣) والمنتظم ٢٥٠/٦ وحسن المحاضرة ٣٥٠/١ وابن خلكان ٧١/١ وطبقات القراء ١١٦/١ والجواهر المضية ١٠٢/١ وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢٨٨/٢ .  
 (٤) انظر في إسحق الجواهر المضية ١٣٦/١ والفوائد البية ٢٢ .  
 (٥) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ٤٦٤/١ .  
 (٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ٤٦٤/١ وشذرات الذهب ٣٤١/٤ .  
 (٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المضية ٣٥٢/١ .  
 (٨) انظر القوصي في حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المضية ٣٠٤/١ .

قاضيهِ ، وأيضاً فإنه جعل للحنفية نصيباً في مدرسته الظاهرية وأول حنفي دَرَسَ المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسلفية لؤلؤ<sup>(١)</sup> بن أحمد وأبو بكر<sup>(٢)</sup> بن محمد الإسوي . ومن قضاتهم النعمان<sup>(٣)</sup> بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري . ويُحْتَمُّ القرن السابع بابن التقيب الذي مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن الناهين أحمد<sup>(٤)</sup> بن إبراهيم السروجي المدرس بالسلفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولي القضاء ، وله شرح في كتاب الهداية للمرغيناني . وابن<sup>(٥)</sup> يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني . وكان يعاصره ابن<sup>(٦)</sup> التركماني المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحاً له على الجامع الكبير أملاه دروساً على الطلاب . وأنجب فقيهين : أحمد<sup>(٧)</sup> المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى<sup>(٨)</sup> المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعي<sup>(٩)</sup> المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كثر الدقائق في الفروع للحافظ النسفي سماه تبيين الحقائق على كثر الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء . ويلقانا السراج<sup>(١٠)</sup> الهندي قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن<sup>(١١)</sup> أبي الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضية في طبقات الحنفية

(٧) راجع أحمد في حسن المحاضرة ١/٤٦٩ والجواهر المضية ١/٧٧ .

(٨) انظر في علي حسن المحاضرة ١/٤٦٩ والجواهر المضية ١/٣٦٦ .

(٩) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ١/٤٧٠ والجواهر المضية ١/٣٤٥ والدرر الكامنة ٣/٦١ .

(١٠) انظر في السراج حسن المحاضرة ١/٤٧٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٣/٢٣٠ والفوائد البية ١٤٩ وإنباء الغمر ١/٢٧ .

(١١) راجع في ابن أبي الوفا حسن المحاضرة ١/٤٧١ والدرر الكامنة ٣/٦١ والفوائد البية ٩٩ وإنباء الغمر ١/٦٦ .

(١) انظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ١/٤٦٦ والجواهر المضية ١/٤١٦ .

(٢) انظر في أبي بكر حسن المحاضرة ١/٤٦٧ .

(٣) راجع في النعمان حسن المحاضرة ١/٤٦٧ والجواهر المضية ٢/٢٠١ .

(٤) انظر في السروجي حسن المحاضرة ١/٤٦٨ والجواهر المضية ١/٥٣ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع في ابن يلبان حسن المحاضرة ١/٤٦٨ والجواهر المضية ١/٣٥٤ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر في ابن التركماني حسن المحاضرة ١/٤٦٩ والجواهر المضية ١/٣٤٥ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر

الكامنة ٣/٤٩ .

المثبوت في الهوامش . وولتقى بأكمل<sup>(١)</sup> الدين البائري المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطى فى حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاةهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى<sup>(٢)</sup> ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة فى مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمريغينانى ، طبع بمصر فى ثمانية أجزاء . ولتلقى بالقاسم<sup>(٣)</sup> بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم فى طبقات الحنفية المذكور فى الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان القضاء فى الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف فى أيامهم زين العابدين<sup>(٤)</sup> بن نجم المصرى المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر فى الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كتر الدقائق وهو مطبوع أيضا فى عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمر تاشى الغزى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله فى الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلوى المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة فى فقه الأحناف لاتزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموى وله تصانيف عدة ، منها شرح الكتر وحاشية الدرر والغرر ، توفى سنة ١١٤٢ . ويخصى الجبرتي فى تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي فى مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصرى كبير هو الليث<sup>(٥)</sup> بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعى : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر فى البائري حسن المحاضرة ١/٤٧١ والقوائد المبية ١٩٥ وإبناء العمر ١/٢٩٨ .

(٥) راجع فى الليث تاريخ بغداد ١٣/٣ وابن خلكان ٤/١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢/٨٢ وصفة الصفوة ٤/٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣/٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨/٤٥٩ وعبر الذهبى ١/٢٦٦ .

(١) انظر فى البائري حسن المحاضرة ١/٤٧١ والقوائد المبية ١٩٥ وإبناء العمر ١/٢٩٨ .

(٢) انظر فى ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشذرات ٧/٢٩٨ والبدر الطالع ٢/٢٠١ وحسن المحاضرة ١/٤٧٤ .

(٣) راجع فى ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦/٦٣٥ والشذرات ٨/٣٢٦ والبدر الطالع ٢/٤٥٠ .

لأصبح مذهباً مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة ( دار الهجرة ) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبهم عنه عبد الله بن وهب ، جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً ، وعبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرغ على أصول مذهبهم فروعا كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم .

ومن تتلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين<sup>(٢)</sup> ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد<sup>(٣)</sup> الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث<sup>(٥)</sup> بن مسكين ، وقد حمّله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقهم ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعتد السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيها مالكيًا اشتهروا بمصر . ومن نلتقى به في أوائل القرن الرابع أحمد<sup>(٦)</sup> بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو يدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حيثئذ يُنسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن<sup>(٧)</sup> المعافري قاضيها

المذهب ٢٣١ والسبكي ٦٧/٢ والوفائي بالوقيات ٣/٣٣٨ والشفرات ١٥٤/٢ وميزان الاعتدال ٦١١/٣ .  
 (٥) انظر في الحارث رفع الإصر عن قضاء مصر ١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .  
 (٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ١/٤٤٩ والديباج المذهب ٣٧ .  
 (٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ١/٤٤٩ والغفر المذهب ٢٥٠/٢ .

(١) انظر في ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتهذيب لابن حجر ٢٥٢/٦ والشفرات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١ .

(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١/١٦٣ .  
 (٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ١/٣٠٥ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبي ١/٣٦٦ وابن خلكان ٣٤/٣ وتهذيب التهذيب ٥/٢٨٩ والشفرات ٣٤/٢ .

(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ١/٣٠٩ والديباج



المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر<sup>(١)</sup> الأسواني قاضي مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونمضى إلى زمن الفاطميين، وقد عدَّ السيوطي من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها، منهم أبو بكر النعالى إمام المالكية بمصر في وقته، وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر، وكانت حلقتة في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها. توفى سنة ٣٨٠. ومنهم أبو القاسم<sup>(٣)</sup> الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك. ونزل بالقاهرة القاضي عبد<sup>(٤)</sup> الوهاب فقيه بغداد المالكي وكان شاعراً بارعاً، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محاربا جملة وافرة وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمانة، واجتاز بمعة النعمان بلدة أبي العلاء فأضافه، وله في الإشادة بفقهاء وبشعره:

إذا تفقّه أحيا مالكا جدلا وَيُنشُرُ الملك الضِّلِيلَ إن شعرا

والمالك الضليل: امرؤ القيس. وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانتالت في يديه الرغائب. ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول- كما مرينا- لا إله إلا الله عندما عشنا متنا. ومن كبار فقهاء المالكية حيثنذ أبو<sup>(٥)</sup> بكر الطرطوشي نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له في السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائحي هما سراج الملوك وسراج الهدى. ومن تلاميذه سند<sup>(٦)</sup> بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه في حلقتة وانتفع به الناس وله شرح المدونة. وكان يعاصره أبو القاسم<sup>(٧)</sup> بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار من المالكية، تفقه به أهل الثغر زمانا.

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر<sup>(٨)</sup> إسماعيل بن مكى تلميذ الطرطوشي المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته في المذهب، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع

(١) راجع في أبي الذكر حسن المحاضرة ٤٤٩/١  
والطالع السعيد للإدغوى ٣٦٤.

(٢) انظر في النعالى حسن المحاضرة ٤٥٠/١ والديباج المذهب ٢٥٨.

(٣) راجع في الجوهري حسن المحاضرة ٤٥١/١ والمعر ١٧/٣.

(٤) انظر في عبد الوهاب حسن المحاضرة ٣١٤/١ والمعر ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢١٩/٣ والديباج المذهب وفوات الوفيات ٤٤/٢ والشذرات ٢٢٣/٣.

(٥) راجع في الطرطوشي حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والصلوة لابن بشكوال: ٥٤٥ والمغرب ٢٤٢/٢ وابن خلكان ٢٦٢/٤ والمعر ٤٨/٤ وأزهار الرياض ١٦٢/٣.

(٦) انظر في سند حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ١٢٦.

(٧) راجع في ابن مخلوف حسن المحاضرة ٤٥٣/١.

(٨) انظر في أبي الطاهر حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ٩٥.

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومربنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقهاء المالكيين بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاء حينئذ ابن شاس<sup>(١)</sup> عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الغنية في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهداً الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسي هذه المدرسة الحسين<sup>(٢)</sup> بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفتيا في وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوي الذي مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم<sup>(٣)</sup> بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل .

وغضى في زمن المماليك ، وتلقى بابي حفص عمر<sup>(٤)</sup> بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس<sup>(٥)</sup> الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي<sup>(٦)</sup> شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصالحية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/٤٥٧ والديباج المذهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ١/٤٥٨ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/٣١٦ والديباج

المذهب ٦٢ والنهل الصافي لابن تغري بردى (طبع

دار الكتب) ١/٢١٥ .

(١) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ١٣/٨٦ وحسن المحاضرة ١/٤٥٤ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/٤٥٥ والديباج المذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكريم حسن المحاضرة

١/٤٥٦ والديباج المذهب ١٦٧ .

المثير أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إمامًا فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج<sup>(١)</sup> الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي<sup>(٢)</sup> بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ ولى قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن<sup>(٣)</sup> الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد تزيه ومع بيان للعلاج الشرعي للملائم . وكان يعاصره الزواوي<sup>(٤)</sup> عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رئاسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل<sup>(٥)</sup> بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدى خليل . وأهم تلاميذه<sup>(٦)</sup> بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . وتلقى بالبساطي<sup>(٧)</sup> محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولى القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن المالك وفي أيام العثمانيين . ومن أعلامهم في القرن الحادى عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهورى ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

- |  |   |
|--|---|
| (٤) راجع في الزواوي حسن المحاضرة ١/٤٥٩ والدرر الكامنة .  | (١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ١/٤٢٤ وطبقات الشعرا ١٩/٢ والسبكي ٢٣/٩ والمخطوط الجديدة لعل مبارك ٧٠/٧ والبدر الطالع ١/١٠٧ والديباج المذهب ١١٧ ونيل الابتهاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ١٧٥/٢ ونفع الطيب (طبع بولاق) ٢/١٢٠ . |
| (٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ١/٤٦٠ والديباج المذهب ١١٧ ونيل الابتهاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ١٧٥/٢ ونفع الطيب (طبع بولاق) ٢/١٢٠ . | (٢) راجع في ابن مخلوف النويري حسن المحاضرة ١/٤٥٨ والدرر الكامنة .   |
| (٦) راجع في بهرام حسن المحاضرة ١/٤٦١ والقصوه اللامع ٣/٢٠ .   | (٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ١/٤٥٩ والديباج المذهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٤/٣٥٥ .   |
| (٧) انظر في البساطي حسن المحاضرة ١/٤٦٢ والقصوه اللامع ٥/٧ .  |   |

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . وولتقى بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرتي ومن أهمهم الزرقاني <sup>(١)</sup> أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضاً من أهمهم على <sup>(٢)</sup> بن أحمد بن مكرم العدوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهى بمصر كذلك كان مذهب الشافعى <sup>(٣)</sup> مزدهراً ، بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ مصر . واكتمل له فيها مذهبه الفقهى . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامى ، كما مربنا في غير هذا الموضوع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعاً . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى ، والمذهب المالكى مذهب أهل الحديث ، وهو الذى أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذى سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختصروه وشرحوه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البويطى والمزنى ، أما البويطى فهو يوسف <sup>(٤)</sup> بن يحيى القرشى الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطى عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعى في حلقة بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى ، وحُمل إلى بغداد في محنة القول بخلق القرآن ، فأصرَّ على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفى . والمزنى <sup>(٥)</sup> هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

- 
- (١) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ٦٩/١ .  
(٢) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ٤١٤/١ .  
(٣) انظر الإمام الشافعى في الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٥٦/٢ ومعجم الأدياء ١٧/٢٨١ وابن خلكان ٤/١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١ تهذيب التهذيب ٩/٢٥ وصفة الصفة ٢/١٤٠ وحلية الأولياء ٩/٦٣ وألف كتبه في سيرته ومذهبه قديما وحديثا .  
(٤) راجع في البويطى السبكي ٢/١٦٢ وتاريخ بغداد ١٤/٢٩٩ وعبر الذهبى ١/٤١١ وتهذيب التهذيب ١١/٤٢٣ وابن خلكان ٧/٦١ وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٣٠٦ .  
(٥) انظر في المزنى السبكي ٢/٩٣ والعبر ٢/٢٨ واللباب ٣/١٣٣ وابن خلكان ١/٢١٧ والنجوم الزاهرة ٣/٣٩ والسيوطى ١/٣٠٧ وشذرات الذهب ٢/١٤٨ .

أخذ عنه خلافت من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب في بلدانهم ، وله في الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمثبور والمسائل المتبررة وكتاب الوثائق وكتاب العقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات اللهافية للسبكي غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة <sup>(١)</sup> محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثماني سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور <sup>(٢)</sup> بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق <sup>(٣)</sup> المروزي إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزىل الفسطاط وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر المزني ، وانتقل إلى الفسطاط وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضربوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر <sup>(٤)</sup> بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضي الفسطاط ، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع المولدات الذي شرحه كثيرون . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطي عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعي <sup>(٥)</sup> أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطي في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الخلعي <sup>(٦)</sup> علي بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغني بين البسط والاختصار .

١/٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣/١٠٨ والعبر ٢/٢٦٤ وابن  
خلكان ٤/١٩٧ والواقف ٢/٦٩ والشذرات ٢/٣١٧ .  
(٥) راجع في القضاعي السبكي ٤/١٥٠ وابن خلكان  
٤/٢١٢ والواقف ٣/١١٦ والسيوطي ١/٤٠٣ والشذرات  
٣/٢٩٣ .  
(٦) انظر في الخلعي السبكي ٥/٢٥٣ والعبر ٣/٣٣٤  
والسيوطي ١/٤٠٤ والشذرات ٣/٣٩٨ وابن خلكان  
٣/٣١٧ .

(١) راجع في أبي زرعة السبكي ٣/١٩٦ والسيوطي  
١/٣٩٩ والعبر ٢/١٢٣ والشذرات ٢/٢٣٩ .  
(٢) انظر في منصور السبكي ٣/٤٧٨ والسيوطي  
١/٤٠٠ والمغرب في حل المغرب (قسم الفسطاط)  
ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/٢٨٩ ونكت الهيمان ٢٩٧  
ومعجم الأدباء ١٩/١٨٥ والمنظوم ٦/١٥٢ .  
(٣) راجع في المروزي تاريخ بغداد ٦/١١٦ وابن خلكان  
١/٢٦ والسيوطي ١/٣١٢ .  
(٤) انظر في ابن الحداد السبكي ٣/٧٩ والسيوطي

وربما كان أهم منه مجلى<sup>(١)</sup> بن جميع قاضي القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله في الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعي ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبي يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وقوض القضاء بمصر للشافعية ، فانتع نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخبوشاني<sup>(٢)</sup> محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله في الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية في عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقي المصري المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقي ، وله شرح على كتاب المهذب لأبي إسحق الشيرازي أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا في عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد<sup>(٣)</sup> الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضي قضاة الشافعية في عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان<sup>(٤)</sup> في قضاء القاهرة وله شرح على المهذب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبي إسحق الشيرازي ، توفى سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد<sup>(٥)</sup> بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضي القضاة بالقاهرة والوجه البحري ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت نحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده في زمن الأيوبيين العز<sup>(٦)</sup> بن عبد السلام وقد مررنا في الفصل السابق حديث عنه مع الماليك ، ولي خطابة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلي . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوّض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن الماليك إذ توفى سنة ٦٦٠ وله في الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيرا وكتابا في مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطي من فقهاء الشافعية زمن الماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر في عثمان السبكي ٣٣٧/٨ والسيوطي

٤٠٨/١ والشذرات ٧/٥ وابن خلكان ٢٤٢/٢ .

(٥) راجع في ابن عين الدولة السبكي ٦٣/٨ والسيوطي

٤١٢/١ والعبر ١٦٢/٥ والشذرات ٢٠٥/٥ .

(٦) انظر في العز السبكي ٢٠٩/٨ والسيوطي ٣١٤/١

والشذرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ومرآة الجنان

١٥٣/٤ وفوات الوفيات ٥٩٤/١ والنجوم الزاهرة

٢٠٨/٧ .

(١) راجع في مجلى السبكي ٢٧٧/٧ والسيوطي

٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشذرات ١٥٧/٤ وابن

خلكان ١٥٤/٤ .

(٢) انظر في الخبوشاني السبكي ١٤/٧ والسيوطي

٤٠٦/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤

والشذرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦ .

(٣) راجع في ابن درباس السيوطي ٤٠٨/١ ورفع

الإصر : ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي ، ومن أهمهم ابن<sup>(١)</sup> دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيوخين : الرافعي القزويني والنووي الدمشقي في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في مذهب الشافعي ، درّس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية في عشرين مجلدا والمطلب في ستين مجلدا . ومن كبار الفقهاء الشافعية القمولى<sup>(٣)</sup> أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فاعوى . وكان يعاصره بدر<sup>(٤)</sup> الدين بن جماعة قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات في فنون كثيرة . وولتقى بالزنكلوني<sup>(٥)</sup> أبي بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبي إسحق الشيرازي عم النفع به وشرح ثان على المنهاج للنووي . وكان يعاصره سليمان<sup>(٦)</sup> بن جعفر الإسنوي المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع . وولتقى بتقى<sup>(٧)</sup> الدين السبكي على بن عبد الكافي المتوفى في نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة في الفقه وشرح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكي الذي مرّ ذكره بين البلاغيين ، وله في الفقه شرح على كتاب الحاوي للشيخ نجم الدين القزويني المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد<sup>(٨)</sup> الرحيم بن الحسن الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية في زمانه .

١/٤٢٥ والدرر الكامنة ٣/٣٦٧ وفوات الوفيات  
٢/٣٥٣ ونكت الهيمان ٢٣٥ ومراة الجنان ٤/٢٨٧  
والنجوم الزاهرة ٩/٢٩٨ .  
(٥) انظر في الزنكلوني السيوطي ١/٤٢٦ والشفرات  
١٢٥/٦ .  
(٦) راجع في سليمان السيوطي ١/٤٢٩ .  
(٧) السبكي ترجم له ابنه بهاء الدين في طبقات الشافعية  
١٠/١٣٩ وانظر في ترجمته السيوطي ١/٣٢١ والدرر  
الكامنة ٣/١٣٤ .  
(٨) انظر في الإسنوي السيوطي ١/٤٢٩ والدرر الكامنة  
٢/٤٦٣ .

(١) راجع في ابن دقيق العيد السبكي ٩/٢٠٧  
والسيوطي ١/٣١٧ والشفرات ٦/٥ والبدر الطالع  
٢/٢٢٩ ومراة الجنان ٤/٢٣٦ والواقى ٤/١٩٣ والطالع  
السعيد للإدقوى ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/٤٨٤ والدرر  
الكامنة ٤/٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .  
(٢) انظر في ابن الرفعة السبكي ٩/٢٤ والسيوطي  
١/٣٢٠ والشفرات ٦/٢٢ ومراة الجنان ٤/٢٤٩ والبدر  
الطالع ١/١١٥ والدرر الكامنة ١/٣٠٣ .  
(٣) راجع في القمولى السبكي ٩/٣٠ والسيوطي  
١/٤٢٤ والدرر الكامنة ١/٣٢٤ والشفرات ٦/٧٥  
والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/٢٧٩ .  
(٤) راجع في ابن جماعة السبكي ٩/١٣٩ والسيوطي

ويلقانا ابن<sup>(١)</sup> الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمنه تصنيفاً ، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني<sup>(٢)</sup> عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطى . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوى وبهما ختم السيوطى حديثه عن فقهاء الشافعية . وبعد السيوطى نفسه خاتمهم الحقيقى إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا فى الحديث عن اللغويين وله فى الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنوى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبوارق فى الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها فى ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . وولتقى بالشيخ زكريا<sup>(٣)</sup> الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله فى الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف فى الفقه الشافعى ناشطاً ، ومن كبار الفقهاء فى القرن العاشر ابن حجر<sup>(٤)</sup> الهيئى المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيئىة طبعت بمصر فى أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربىنى الخطيب الذى مر ذكره بين المفسرين ، وله فى الفقه شرح منهاج النوى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسليمان البجيرمى حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرتى بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملى<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعى بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلى طويلاً ، ويعلل السيوطى ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا فى أول أمرهم المذاهب الثلاثة التى كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والمليكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلى ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى<sup>(٦)</sup> الجماعى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام فى معالم

(٤) راجع فى ابن الملقن السيوطى ٤٣٨/١ والضوء اللامع ١٠٠/٦ وشذرات الذهب ٤٤/٧ .

(٥) انظر فى الرملى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ١١٩/٢ والخطط التوفيقية (طبعة بولاق) ١١٩/٤ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسى فى قسم الشام ص ٥٨٤ .

(١) راجع فى ابن الملقن السيوطى ٤٣٨/١ والضوء اللامع ١٠٠/٦ وشذرات الذهب ٤٤/٧ .

(٢) انظر فى البلقينى السيوطى ٣٢٩/١ والضوء اللامع ٦ رقم ٢٨٦ والشذرات ٥١/٧ .

(٣) انظر فى الشيخ زكريا الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ والكواكب السائرة ١٩٦/١ والبدر الطالع ٢٥٢/١ والنور



الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولؤلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيباً المزي جمال الدين يوسف بن الزكي وأكمل التهذيب مُعَلِّطاً الذي مرَّ ذكره . وأخذ المذهب الحنبلي يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلي ودرسته فيها إيواناً بجانب أوابين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهر بيبرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضي الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، في تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلي وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل . ويتّرجم السيوطي في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم<sup>(١)</sup> الدين أحمد بن حمدان الحراني المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر<sup>(٢)</sup> بن عبدالله المقدسي قاضي الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق<sup>(٣)</sup> الدين عبدالله بن عبدالله الملك المقدسي قاضي الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر<sup>(٤)</sup> الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به ستّاً وعشرين سنة ، وعهاد<sup>(٥)</sup> الدين الحنبلي أبو بكر بن أبي المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صَنَّف تجريد الألوهر والنواهي من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزّي . ويختم السيوطي فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد<sup>(٦)</sup> بن إبراهيم الكنانى العسقلاني الأصل المصري المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعي توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلي ناشطاً بمصر زمن العثمانيين ، وفي كتاب تاريخ الجبرقى أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى<sup>(٧)</sup> بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة في المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهري ظل معروفاً بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، وولتقى في كتب التراجم من حين إلى آخر

٦/٣٤٣ والدرر الكامنة ٥/١٦٣ وإنباء الغمر ١/٤٦٦ .  
 (٥) راجع في عماد الدين السيوطي ١/٤٨٢ والضوء  
 اللامع ١١/٦٦ والشذرات ٧/٤٢ .  
 (٦) انظر في الكنانى السيوطي ١/٤٨٤ والضوء اللامع  
 ١/٢٠٥ والشذرات ٧/٣٢١ .  
 (٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

(١) انظر في نجم الدين السيوطي ١/٤٨٠ والشذرات  
 ٤/٤٢٨ والمنهل الصافي ١/٢٧٢ .  
 (٢) انظر في عمر المقدسي السيوطي ١/٤٨٠ والشذرات  
 ٥/٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/١١١ .  
 (٣) راجع في موفق الدين السيوطي ١/٤٨١ والشذرات  
 ٦/٢١٥ .  
 (٤) انظر في ناصر الدين السيوطي ١/٤٨١ والشذرات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشكني المتوفى سنة ٨٣١.

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومرَّبنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضاتهم بمصر النعمان<sup>(١)</sup> بن منصور التيمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيًا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأُسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد<sup>(٢)</sup> الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يوزع بمسائل فلسفية وعقيدية متشابهة . وينزل مصر بعده المؤيد<sup>(٣)</sup> في الدين هبة الله الشيرازي أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم في القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس في العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر في القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه في الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة في مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .

(٣) راجع في المؤيد في الدين السيرة المؤيدية بتحقيق د. محمد كامل حسين وكتابه في آداب مصر الفاطمية ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع في النعمان ابن خلكان ٤١٥/٥ ولسان الميزان ١٦٧/٦ والشذرات ٤٧/٣ ومرآة الجنان ٣٧٩/٢ والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) انظر في حميد الدين بر وكلمان ٣/٣٥٥ ومقدمة

ومررنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعياً أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضاً إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرتة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف<sup>(١)</sup> الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شرح مرارا وتكرارا ، ولشمس<sup>(٢)</sup> الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولهباء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائماً على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعري الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري .. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً لإدخال ابن تومرت رأى الأشعري إليها<sup>(٣)</sup> . ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبقار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفاً وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام العلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطاً حتى نهاية زمن العثمانيين .

١٠٠/٨ والسيوطي ٥٤٢/١ والعبير ٣٥٩/٥ والشذرات  
٤٠٦/٥ وفوات الوفيات ٥٢٣/٢ ومراة الجنان  
٢٠٨/٤  
(٣) خطط المقرئ ٢٧٩/٣ .

(١) أنظر في الآمدي ابن خلكان ٢٩٣/٣ والسيبكي  
٣٠٦/٨ والسيوطي ٥٤١/١ والعبير ١٢٤/٥ والشذرات  
١٤٤/٥ ولسان الميزان ١٣٤/٣ وميزان الاعتدال  
٢٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ .  
(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

## التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبت في جميع ألوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين ، وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُنت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد<sup>(١)</sup> الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنما لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد<sup>(٢)</sup> الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبطي هو سعيد<sup>(٣)</sup> بن البطريق الذي تقلد منصب بطريك الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفى سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن النصراري وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للذهبي ٣ / ٨٦ .

(٣) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٣ / ٧٧ وما جسا من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر ذيله ووزن في ليننجراد في القرن الماضي .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ٣ / ١٧٧ وشرح سيرته للسهيلى المسمى الروض الألف : مقدمته ، وعبر الذهبي ١ / ٣٧٤ والسيوطي ١ / ٥٣١ وإنباه الرواة ٢ / ٢١١ .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣ / ٣٥ والسيوطي ١ / ٤٤٦ ، ٥٥٣ والديباج لابن فرحون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذُيِّل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكملة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد<sup>(١)</sup> بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن<sup>(٢)</sup> بن أحمد بن يونس الصديقي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . وولتقى بمحمد<sup>(٣)</sup> بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . وولتقى في أوائل زمن الفاطميين بابن<sup>(٤)</sup> زولاق الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طعج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا - وفُقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكملة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سيويه المصري . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى<sup>(٥)</sup> بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصديقي ، كما يلقانا الروذباري أحمد<sup>(٦)</sup> بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماه « بلشكر الأدياء » وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مزارا ،

(٤) انظر ابن زولاق في السيوطي ١/ ٥٥٣ وابن خلكان

٩١/٢ ولسان الميزان ١٩١/٢ .

(٥) انظر الطحان في ابن خلكان ٣/ ٢٢٣ وانظر

بروكلمان ٨٤/٦ .

(٦) راجع الروذباري في المغرب لابن سعيد (قسم

القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصادر ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل

الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس في السيوطي ١/ ٣٥١ ، ٥٥٣

وابن خلكان ٣/ ١٣٧ وفوات الوفيات ١/ ٥٢٦

والشتران ٢/ ٣٧٥ وعبر الذهبي ٢/ ٢٧٦ .

(٣) انظر في الكندي السيوطي ١/ ٥٥٣ ودائرة المعارف

الإسلامية . وبروكلمان ٣/ ٨٢ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسيحي <sup>(١)</sup> الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرانقها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلَّها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتي ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيران إيام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ . ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على <sup>(٢)</sup> بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطاحي . وللرشيد <sup>(٣)</sup> بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأذهان » ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى الفسطاط والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه . وبجانب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبد العزيز الأندلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعداده في الأندلسيين . ومن ذلك مصنف للقاضي الجليس في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مدائح بني أسامة سنة ٥٢٥ . وولتقى بالقرطبي محمد <sup>(٤)</sup> بن سعد الذي ألف لشاور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي الفسطاط والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبي السرور الرُّوحى وله تحفة الظرفاء في أخبار الأئبياء والخلفاء إلى الظاهر لإمهراز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويُنظَرُ أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١/١٦٠ ومجمع الأدباء ٤/٥١ والطالع السعيد ٥٢ والخريدة قسم مصر ١/٢٠٠ والشدرات ٤/١٩٧ والسويطي ١/٥٤٠ .  
(٤) انظر في القرطبي المغرب قسم الفسطاط ص ٢٦٧ .

(١) انظر في المسيحي المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٤/٣٧٧ والسويطي ١/٥٤٤ والوفى للصفدى ٤/٧ والعبر ٣/١٣٩ والشدرات ٣/٢١٥ والنجوم الزاهرة ٤/٢٧١ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٠٥ .

سنة ٥٦٧. وطُبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠.

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأرميني ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداءً تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥. ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلِّي المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم. وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثرت ترجمة العلماء لشييوخهم ، مما يُلقى أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعهودهم. وكان يعاصره الشريف النسابة محمد<sup>(١)</sup> بن أسعد الجَوَانِي الحسيني ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبيين وتاج الأُنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعلي بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المنقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . وممَّا بنا ذكر الحافظ عبد الغني بين الخنابلة وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي<sup>(٢)</sup> على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النجاة وكتاب المحمدين من الشعراء ، وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في ليزنج والقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونخصي إلى زمن الماليك وفي عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير ، ويلقانا المكين<sup>(٣)</sup> بن العميد ، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبي اليسرين أبي المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأهمل العربي في ليدن سنة ١٦٢٥ للميلاد وترجم إلى الإنجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر<sup>(٤)</sup> تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتاب المسبُحي

- (١) انظر في الجواني الخريدة (قسم مصر) ١١٧/١  
ولسان الميزان ٧٤/٥ .  
(٢) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٧٥/١٥ والطلاع  
السعيد ص ٢٣٧ والشرحات ٢٣٧/٥ وقوات الرويات  
١٩١/٢ والسيوطي ٥٥٤/١ .  
(٣) انظر المكين في بروكلمان ١٤٤/٦ ودائرة المعارف  
الإسلامية .  
(٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

أنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولا بن<sup>(١)</sup> الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشره سنة ١٩٠٣ . وحري بنا أن نذكر هنا ابن<sup>(٢)</sup> خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا محي<sup>(٣)</sup> الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون « باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقي في القرن الثامن بالدوادار<sup>(٤)</sup> ركن الدين بيبرس المنصوري المتوفى سنة ٧٢٥ وله زيادة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا ، وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزاءه . وكان يعاصره النويري الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية . وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسالك الأبصار . وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونلتقي بالحافظ ابن<sup>(٥)</sup> سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازي والشاغل والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفي بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام . بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخاري . ويلقانا الإدقوي<sup>(٦)</sup> جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(٥) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ٣٥٨/١ ،

٤٢٥ والبدر الطالع ٢٤٩/٢ والنجوم ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والدرر الكامنة ٣٣٠/٤ والسبكي ٤٦٨/٩ .

(٦) راجع في الإدقوي السيوطي ٥٥٦/١ والشذرات

١٥٣/٦ والدرر الكامنة ٧٢/٢ والبدر الطالع ١٨٢/١

(١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ١٤٦/٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة محي الدين بن عبد الظاهر في ص ٤١٥ .

(٤) انظر في اللوادار الدرر الكامنة ٤٣/٢ والشذرات

٦٦/٦ ودائرة المعارف الإسلامية .



السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطى وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين الماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطاركة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين<sup>(١)</sup> الماليك . وولتقى بالحافظ مُغلطاي المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم » ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكي الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . وتراه يصل التاريخ بالاجتمع في كتابه « معيد النعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا ، والسبكي يتجه في « معيد النعم » نفس الوجة في المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكى يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل معايبه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا في مطالع القرن التاسع ابن<sup>(٢)</sup> الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان في عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق<sup>(٣)</sup> صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولرز منه الجزء بين الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب في تراجم الصوفية ، وله في تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام في اثني عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان برقوق وله فيه سيرة

(٣) انظر ابن دقاق في السيوطى ١/ ٥٥٦ والشذرات

(١) بروكلمان ٦/ ١٤٦ .

٧/ ٨٠ والوضوء اللامع ١/ ١٤٥ .

(٢) انظر ابن الفرات في السيوطى ١/ ٥٥٦ والوضوء

اللامع ٨/ ٥١ .

سماها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برقوق » وتكثر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلتقي بالمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارساتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلتها ، وبذلك يلتقي في الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوّل المقريزي التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والخفدة والمتاع » وله اتعاط الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقتى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر<sup>(١)</sup> الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف فى التراجم ، وله كتاب الإصابة فى تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب فى اثنى عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وكل هذه الكتب مطبوعة ، وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى<sup>(٢)</sup> بَرْدَى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تغرى بردى فى الضوء اللامع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية فى أبى المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر فى السيوطى ٣٦٣/١ والشذرات ٢٧٠/٧ والضوء اللامع ج ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البية للكتنى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لمحمد مصطفى زيادة

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشؤون الاجتماعية مع الاهتمام بالتواحي العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأمراء والعلماء والأدباء في العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سؤق كثير من الطوائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو ميثوث في هوامش هذا الجزء . وملتقى بشمس<sup>(١)</sup> الدين السخاوى محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئى ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثاني ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة لحياته .

ويتوج السخاوى هذا النشاط التاريخي العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوخيخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامى العربى . واسم الكتاب يوحي بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده في التربية الدينية والحلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشؤون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشؤون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغي أن يتوفر في

والشذرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر  
لليدروسى ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩ .

(١) أنظر في السخاوى مقدمة كتابه الضوء اللامع  
وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للغزى ٥٣/١

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطلق في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم . ويُنجى باللائمة على الذم في تراجمه لامتطائه على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي . ويفيض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويسط الحديث في نقد المؤرخين وكتابتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاسة .

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات المفسرين وبنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو ميثوث في الهوامش ، وتاريخ الحلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي ، ومسالك الحنفا في والدى المصطفى ، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووي . ويُحتمُّ زمن المالِك بَابن إِيَّاس محمد بن أحمد الذي عرضنا له بين الجغرافيين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور في وقائع الدهور ، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي ( ٨٧٤ - ٩٠٣ هـ ) أفاض في التاريخ إفاضة واسعة ، حتى ليذكر وفيات كل شهر ، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر مبينا ما أحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلماؤها وصناعاتها المهرة ، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقي به في عهدهم ابن زنبل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة في شمالي الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشعراي المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي ، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه ، وهي مطبوعة مرارا . ويلقانا في القرن الحادي عشر الهجري زين الدين بن أبي السرور الكبرى محمد الصديقي وابنه شمس الدين محمد ولها كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد<sup>(١)</sup> الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاقى محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول « وهو مطبوع . وولتقى بنور<sup>(٢)</sup> الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهى مطبوعة مراراً. ويلقبنا شهاب<sup>(٣)</sup> الدين الحفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ربحانة الألقاب ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موثلا للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابي نصح الطبيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

١٢٢/٣ .

(١) راجع المناوى في خلاصة الأثر ٤١٢/٢ والبدر

الطالع ٣٥٧/١ .

(٢) انظر مصادر ترجمة الحفاجى في ص ٤٥٩

(٢) راجع نور الدين الحلبي في خلاصة الأثر

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربي الإسلامي لغات وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفي عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان في الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب في الطب لأهرون القس . وكان بها رومان ، وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الروماني ، وطبيعي أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة في الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعاً جماهير مصر من القبط ، وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوت بتفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للآتينية أى شأن ، فقد طُردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطي الذي غادر البلاد مدحوراً مهزوماً . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت في الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية في الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفي كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية<sup>(١)</sup> ، وسرعان ما هجرت ونُبتت إلا كلمات قليلة سقطت في العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان في البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة - نشر دار الفكر العربي) للدكتور محمد كامل حسين ص ٣٠ .

(١) خطط المقرئى ١/ ١٨١ وفيه أن نقل الدواوين بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التي نشرها جروهمان في مواضع متفرقة وهي صادرة عن الوالى

التخاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبتناور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة<sup>(١)</sup> ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كتبت في العهد الروماني أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكياً لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكتسحها وتظفر بألسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذوا يعملان بسرعة على تعرب مصر ، أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله مالمسلمين وعليه ماعليهم ، يقول بتلر : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم ( الأرثوذكسية ) طحنا »<sup>(٣)</sup> . ومعروف أن الرومان أو قائل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا ينهون طيبات مصر منها ، ويعتصرون خيراتها اعتصارا ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا . وعدّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأخذوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضى بتلر قائلا : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا راهب ، وقلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف<sup>(٤)</sup> ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم تكن مغالين . وظل عدد من

(١) انظر فتح العرب لمصر لتلر ترجمة محمد فريد

أبي حديد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط الملحق برسالة

مارميثا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بتلر ص ٢٤٣ .

(٤) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان للياقوت ص ٣٣٩ .

يسلمون في ازدياد مع السنين حتى إذا ولي حيّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزية ، حتى اضطرتت إلى اقتراض عشرين ألف دينار أتممتُ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وأقد وليتكَ جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضربك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عمن أسلم قَبَّحَ اللهُ رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جاييا يجمع الأموال <sup>(١)</sup> . وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوى وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعريب مصر . هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بخصبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية في عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال في العهد الأموى يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قريبة من الجزيرة العربية فنزلها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُنعى كتبٌ ببيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقرئى . وطبيعى أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لافى مدتهم فحسب . بل أيضا فى ريفهم . فقد سنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سنَّ لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع فى ريف مصر ثم يعودوا إلى الفسطاط . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات <sup>(٢)</sup> . من بينهم عون بن خارجة القرشى وعبد الرحمن بن معاوية بن حُدَيج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولا بد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكى يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت



تصلهم رسائل من الدواوين ويضطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حاجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلائل مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان ينزل في قرى مصر وضياعاها ويستمع إلى القبط وما قد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية<sup>(١)</sup> . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كئيدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان<sup>(٢)</sup> . وكان ذلك بدءا حقيقيا لعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقي في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُد من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيذانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من ألسنة القبط في الريف والقرى وتحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقي على دينه »<sup>(٣)</sup> . وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مر بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الحنيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون تُترجم لهم كتب التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

والمقريزي ١/ ١٧٣ .

(١) خطط المقريزي ١/ ١٤١ .

(٣) بتلر ص ٤٢٥ .

(٢) الولاة والقضاة الكندي (طبعة جيست) ص ١٩٣

يزيد بن أبي حبيب الذي أقامه عمر بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجري للفتيا بين الناس ، وقد ذكرناه في الفصل الماضي . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورشاً . وهو أيضاً من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلث أن نلتقى بعد ورش بندي النون المصري الإخميمي وله فضل تأسيس التصوف في العالم الإسلامي . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هي رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفاض العلماء في كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا في الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على السنة كثيرين من القبط أنفسهم ، ويبدو أن كثيرين من الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماساً يسمى بنيامين كان يلزم الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته أبيه على مصر يترجم له فصولاً من الإنجيل ويشرحها<sup>(١)</sup> . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا في الفصل الماضي - يطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبحر ، وأسلم على يده . وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية . ومر بنا أيضاً أن الدومبيلي ذكر كتابين في الكيمياء ألفها عالم مصري أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجري ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية . كما تدل على ذلك ترجمته<sup>(٢)</sup> في طبقات ابن أبي أصيبعة . وملتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨ هـ) وقد ذكرنا في الفصل الماضي له كتاباً بالعربية في تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبي أصيبعة كتاباً في الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت في القرن الثالث الهجري ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطي واليوناني في مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائياً من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت في الزوال وحلت محلها في السنة القبط العربية وخاصة في لغة التخاطب اليومي ، أما هي فالتحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة في الصحراء والصحيد . من ذلك ما يذكره المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(٢) راجع عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٤١ .

(١) انظر سير الآباء البطارقة لأسقف الأشمونين ساويرس

ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة<sup>(١)</sup> بالقرب من أسويط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية ، أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قدمنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

## ٢

## كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على ألسنة اليمنيين نشاطه على ألسنة المصريين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حيثئذ أن ما نظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندي في كتاب الولاية والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقرئى في الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملته متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزمة ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ( ٦٥ - ٨٦ هـ ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بثينة وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأيمن بن خريم . ومن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بديعة<sup>(٢)</sup> ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نصيب وكان مسترقا لكنانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، ورد إليه حريته مما أثر في نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله العمر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العصر<sup>(٣)</sup> الإسلامى . وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضنى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

(١) الخطط ٣ / ٥٦١ . كتابنا العصر الإسلامى ( الطبعة التابعة ) ص ٢٩٩ .

(٢) العصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

(٣) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة

لعصر بنى أمية ( طبع دار المعارف ) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونمضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، ويصور ذلك إسحاق بن معاذ في مديحه للمفضل بن فضالة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاه<sup>(١)</sup> . كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمري الذى ولى قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط في العرب ، وهجاه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة<sup>(٢)</sup> . وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصب بن عبد الحميد متولى الخراج<sup>(٣)</sup> بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائحة ، ومدحته الرائية له : ( أجارة بيتنا أبوك غيور ) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُفَيْر والمعلّى الطائي ، ولسعيد أشعار في الولاية والقضاة للكندی تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و٢٠٩ . والمعلّى الطائي - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندی تتردد بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا في هجاء القاضي العمري يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مرثية رائعة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفًا » وفيها يقول<sup>(٤)</sup> :

ياموت كيف سلبتني وَصْفًا      قدَّمَتَهَا وتركتني خَلْفًا  
وأخذت شِقَّ النفس من بدني      فقَبَرَتُهُ وتركت لي النَّصْفًا

ونراه يتصل بالولاية ومدحهم واحدا تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة<sup>(٥)</sup>

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرة      وأظلم الناس عند الجود للمالِ  
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبًا      لما أشرتَ إلى خزَنِ بمثالِ

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصدا عباس بن طهية الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليتها المطلب الخراعى بأخرة من القرن الثاني ، ومرة ثانية

(١) الولاية والقضاة للكندی ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .

(٢) الكندی ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ ،

(٣) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٩/٣ .

(٤) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٠٢/١٢ .

(٥) خطط المقرئى ٣٨٥/١ وانظر ترجمته في كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدها الكندي في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالي بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعلى الطائي وابنه حِطَّان . إذ تجده ينشد في ديوان الحماسة قطعة بديعة لحِطَّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة لإزاء البنات والأولاد بمثل قوله <sup>(١)</sup> :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية سنتلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ذو النون المصري الإخميمي مؤسس التصوف الإسلامي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثاني الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : « كان شاعراً مقلماً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرّبنا أن أحمد بن طولون ولي إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرائها فأنشأ قصراً ضخماً . كما مرّبنا في غير هذا الموضوع ، وألحق به ميدانا فسيحا للعب الكرة . وأنشأ خجارويه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرّبنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خجارويه بالشعر والشعراء فأسبغ عليهم العطايا وأسبغ عليهما الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبي هاشم وسعيد القاضي الملقب بقاضي البقر ومحمد بن طشويه وأحمد بن إسحق <sup>(٢)</sup> ، ويقول المقرئى : رأيت كتابا قدر اثنتي عشرة كراسة مضمنة فهرستاً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية « ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكيف يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » <sup>(٣)</sup> . وفي هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، ومما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر <sup>(٤)</sup> . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(٣) الحطط ١/٦١٢

(٤) معجم الأدباء ٢/٤١٥

(١) الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوق (طبع لجنة

التأليف) ١/٢٨٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وما بعدها

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المرّمي شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والحيل والصيد . وللبحتري مدائح مختلفة في خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغري بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه <sup>(١)</sup> وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما في الشام ، فقد كانت تتبعهما ، وكانا ينزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غلّانه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المحيدين ، ويقول ابن خلكان إنه بُعِد في طبقة ابن الرومي والبحتري ونظرائها <sup>(٢)</sup> ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بديعة كثيرة ، وأنشدنا أيضًا أشعارًا له رائعة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدى في الشعر وفضله . وبدون شك التفّ حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور <sup>(٣)</sup> بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظَلّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويُظَلّ الشعر ناشطا في أيامها ، وترجم الثعالبي في كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكتمي وعبيد الله بن أبي الجوع والحسن بن محمد الشهاجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسيني الرّسي <sup>(٤)</sup> . ونزل مصر في عهد كافور المتنبّي ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجوع من كبار المعجبين به فعُنيا برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . وممن نزلها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أدبها شعر كثير . ونزلها أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جُرّابة <sup>(٥)</sup> .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وبرفته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانئ الأندلسي ، ومعه ابنه تميم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المعز نفسه شاعراً ، روى ابن تغرى بردى بعض شعره<sup>(١)</sup> ، وكان ابنه العزيز نزار الذى ولى الخلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً<sup>(٢)</sup> وكذلك كان الحاكم<sup>(٣)</sup> والمستنصر<sup>(٤)</sup> ، فطبعي أن يبعثوا نهضة شعرية فى البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصدتهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا . وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز : يعقوب بن كلس ، وكان يهوديا وأسلم ، ودبر دولتها تدبيراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه ينشدونه المدائح ، ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبى وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفى سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر<sup>(٥)</sup> . ولا بد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين ، فضلا عن كانوا ينثرون عليها أشعار المديح . غير أنه ينبغي أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقيد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المقرطة فى التشيع المنحرف ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياسا لمدى نشاط الشعر فى مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمى الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا خبرا مها يسوقه المقرئى عنه إذ يذكر أنه بنى ببركة الحبش منظره بها طاقات صور فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقة قطعة قماش كُتِبَ عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رفّ مذهب . فلما دخل المنظره وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صُرة محتومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صُرتَه بيده<sup>(٦)</sup> وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالى شاعراً ، وروى ابن ميسرّ فى أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فدحه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية أسماء طائفة من مدّاحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم . ويسمى العماد الأصبهاني فى القسم المصرى من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رزّيك بأخرة من العصر الفاطمى شاعراً ، والتف حوله كثير من الشعراء ، وخصّهم شاعره الجليس بن العباب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(٥) النجوم الزاهرة ٤/١٥٨

(٦) الخطط ٢/٢٦٨

(١) النجوم الزاهرة ٤/٧٩

(٢) النجوم الزاهرة ٤/١١٣

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٩٦

نقل منه العماد الأصبهاني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه « جَنَّانُ الْجَنَانِ وَرِيَاضُ الْأَنْهَارِ » وهو مفقود ، غير أن العماد الأصبهاني انتفع بتراجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابيين في البلاد العربية أمثال أبي الرعمق الأقطاكي وصریح الدلاء البغدادي والتهامي المكي وابن حيّوس الدمشقي وأمّية بن أبي الصلت الأندلسي المار ذكره آنفاً .

ويظل نشاط الشعر المصري في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطاً على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائه لعلی بن ظافر الأزدي ، وهو يسجّل الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . وتلقّى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعاً طريفاً لنظم أشعار على البديهة دون بُطء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور بـرمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعراء كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد في خريدته يخصّ مصر بمجلدين ترجم فيها مائة وأربعين شاعراً . وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رزّيك والأفضل بن بدر الجمالي في الدولة الفاطمية ممدّحاً ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعراً كبيراً . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين أسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذب شاعرنا به إلا قصده مادحاً كما يقول ابن خلكان <sup>(١)</sup> . ونرى فاضل بن راجي الله العطار المصري يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز ( ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ ) كتاباً في شعراء مصر لزمه سماه « الشعراء العصرية بالديار المصرية » <sup>(٢)</sup> . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسي كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلداتها في الوجهين البحري والقبلي ، وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونُشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضاً شعراء أيوبيون كثيرون .

وتُعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاكر الكتبي والوفاء بالوفيات للصفدي وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

(٢) المغرب: قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص ٣٢٤

(١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة بيروت) ٢١١/٧



للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتاى السلوك والخطط للمقرزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمالِك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلى والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلّاح بن رزىك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألبا» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المحبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قسما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز بترجمه القرن العاشر . ونلتقى بطائفة منهم عند المحبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرى ، وهو يعنى فى الجزء بين الأولين بترجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

### ٣

## شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات

### (١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج ، وقد خصّصوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان تتحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور<sup>(١)</sup> :

رسالةً من كَلَفٍ عميدٍ حياتُهُ في قبضة الصدودِ  
بَلَّغَهُ الشوقُ مدى المجهودِ ما فوقَ ما يلقاه من مزيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دوراً . وقد كثرت هذا النظام الدوري المكون من بيتين بيتين . وشاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دوري ثان هو المسمَّطات شاع مبكراً وعرضنا له في كتاب العصر العباسي الاول واستشهدنا له بمسمطين لأبي نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثاني من خمسة . والمسمَّط مشتق من السَّمَط وهو قلادة تلتقي فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقي مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التي تتجمَّع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمي وكان شاعراً مجيداً . ومن مسمطاته محمَّس مدح به أخاه العزيز استهله على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

دَمُ العُشاقِ مطلولٌ ودَيْنُ الصَّبِّ ممطولٌ<sup>(٣)</sup>  
وسَيْفُ اللحظِ مسلولٌ ومُبْدِي الحَبِّ معدولٌ

وإن لم يُصغِرِ للائم

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دوراً على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية ، وهي عمود المسمط وقطبه الذي يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأنشد العماد الأصبهاني مسمطاً سباعياً<sup>(٤)</sup> لشاعر إسكندري يسمى موسى بن علي . وأخذ الشعراء المصريون في العصور المتأخرة يكثرون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيري وهزيتة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحصى بروكلمان من تحميسات البردة وتسبيعاتها وتسبيعاتها عشرات أكثرها لمصريين<sup>(٥)</sup> .

(٣) مطلول : مهدر ولادية له .

(١) البيتة ٣٥٦/١

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (طبع ونشر

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

دار الكعب المصرية) ص ٣٦٨

وتظل المسمطات وخاصة الحمسات تلقانا أيام العثمانيين في كتب التراجم من مثل ربحانة الألبا  
ونفحة الربحانة وتاريخ الحيرى . ولأبى السعود الشعرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من مَحْمَسِ نبوى (١) :

ياحادى العيس إن حَفَّتْ بك الكَرْبُ الحَقَّ - هُدَيْتَ - بركبِ ساقه الطَّرْبُ  
وَقُلْ لصبِّ غدا بالشوق يَتَّجِبُ لمهبطِ الوَحْيِ حَقًّا تَرَحَّلُ الثَّجِبُ  
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر في الخمس قافية الشطر الخامس في الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو  
ما قدمنا في قاعدة نظمه .

### (ب) الرباعيات

مرَّبنا في كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى الغناحية ، والرباعية  
أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية ، أما الشطر  
الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى  
الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا في هذا العصر : عصر الدول  
والإمارات وجدنا الفرس يكثرون من استخدامها مع تسميتها باسم « دوبيت » أى بيتين .  
ويشركهم شعراء العرب في ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعَلُنْ  
مُسْتَفْعَلُنْ » و « فَعْلُنْ مُتَفَاعَلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ » على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عن الرباعيات في  
قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نمضى في زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء  
يكثرون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّانِ (٢) :

ياغُضُّنْ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السَّوَّكِ يحتاج سِوَّكِ  
قُلْ لى أنْهَكَ عَنْ مجيئك نُهَكَ لو تَمَّ وَفَاكِ بُسْتُ حَذِّكَ وَفَاكِ

ومن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأفلدلى الذى  
زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول الدَّوَيْتِ »

السواك ، وفاك أى فك ، وسمى صاحبه غصنا لامتواء  
قامتها . والنهى : العقل .

(١) نفحة الربحانة للمجى (طبعة الحلبي - تحقيق

عبدالفتاح الحلوى) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأدباء ١٧٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه

أوالرباعيات . . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبي الإصيح :

قَبَلْتُ ثَنَايَا كُجَّانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُضَارِ الْخَدِّ  
نَادَى مَاذَا؟ قَلْتُ: طَبِيعُ عَرَبِي يَشْتَقُ أَقَاخَ الرُّوضِ دُونَ الْوَرْدِ» (١)

ويُسهم في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرِّح من مثل قوله :

رُوحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَا يَا مُؤَنَسَ وَحَشْتِي إِذَا اللَّيْلِ هَدَا  
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا لَا أَسْفَرُ بَعْدَ ذَلِكَ صُبْحُ أَبَدَا

فهو يبذل روحه لمحبة الرباني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجَاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تفتل أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحيانا في المديح النبوي كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألبا (٢) :

مَا جَرَّ لَظْلُ أَحْمَدِ أذْيَالُ فِي الْأَرْضِ كِرَامَةً كَمَا قَالُوا  
هَذَا عَجَبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ وَالنَّاسُ بِظَلِّهِ جَمِيعًا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والنور لا يظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

### (ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسلمات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه :

(٢) ربحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق<sup>(١)</sup> وفي رأى أنها فعلا تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسمطات والمخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلا . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة<sup>(٢)</sup> ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها واتسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفلاً ، ومن خَرَجَة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسمط المشرق المشرق ، وهي لعل بن عياد الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العماد موشحة على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

يا مَنْ أُوذِ بِظُلْمِهِ فِي كُلِّ خَطْبٍ مَعْضَلٍ  
لَاؤَلْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَتَمَسِّكًا يَدَ السَّلَامِ  
آمَنَا مِنْ كُلِّ بَاسٍ فِي الْخَوَاطِثِ وَالصَّرُوفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منهما ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحدون قوافي الشطور في الأقفال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسمطات . وعادة يتبدئ الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يتبدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

الأول ص ١٩٩ وقسم الشام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الخريدة للعماد (قسم شعراء مصر - طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ٤٤/٢

(١) فن التوشيح للذكور مصطفى عوض الكريم (طبع

ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسي

المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريفة يحتفظ بها ديوانه<sup>(١)</sup> .

وكان طبيعياً أن يتعرف المشاركة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس ، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا يتشدونهم موشحات مختلفة ، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين : إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وفيه يقول ابن سعيد : « كان منشأ للمنثور والمنظوم » وأقام بمصر عشرين سنة ، وصتف في الأطلان وعنه أخذها أهل إفريقية<sup>(٢)</sup> ، ولا بد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم ، وقد توفي سنة ٥٢٩ . ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب<sup>(٣)</sup> ، ولا بد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات . ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجليلاني الأندلسي<sup>(٤)</sup> ، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة ، وكان له عشرة دواوين ثامنها يشتمل على موشحاته . ومررنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشده من الموشحات الأندلسية .

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ومحدثنا العباد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له<sup>(٥)</sup> . وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً ، بل لما هو أبعد من ذلك : ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه ، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس : « دار الطراز » وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأقفاها وعدد شطورها وأنها قلما تجاوزت خمسة<sup>(٦)</sup> وعدد أدوارها أو غصونها أو سموطها وأنها قد تصل إلى أحد عشر غصناً<sup>(٧)</sup> .

ويقول عن الخرجة ، وهي القفل الأخير في الموشحة ، هي « أبحار الموشح وملحه وسكره

أبي أصيبعة ص ٦٣٠

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

مصر) ص ٣٣٧

(٥) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

(٦) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك

٢٦١/١ وما بعدها .

تحقيق الدكتور جودة الزكابي (طبع دمشق) ص ٢٦

(٧) انظر دار الطراز ص ٩٧

(٣) نفس المصدر ٨٨/٢

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن

ومسكه وعبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة<sup>(١)</sup>، ويقول أيضا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجنة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له<sup>(٢)</sup>، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذي دار على ألسنة العلماء والشعراء واختار ابن سناء الملك في كتابه للأندلسيين أربعة وثلاثين موشحا، واختار لنفسه خمسة وثلاثين، وقد استظهرنا في مقال<sup>(٣)</sup> لنا عن الكتاب حين صدوره أن ابن سناء الملك ألفه في عهد السلطان الأفضل بن صلاح الدين (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ).

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاقها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغما خالصا يلد الأسماع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله في مطلع موشحة رواها ابن سعيد<sup>(٤)</sup>

البَدْرُ يَحْكِيكَ      لولا      تَكُنُّكَ  
وَأنتَ جَنَّةٌ<sup>(٥)</sup> الصديق      لولا      تَجُنُّكَ  
لم يلق نُعْمَى ونعيم      مَنْ كَمْ يَلِيقُكَ  
حملتني كلَّ عظيم      يوم      فَرَاكَ  
وإن لي ذنبا قديم      على      عِنَاكَ  
بالضَّمِّ أجنيك      لَصُدْر      أذُنِكَ  
لأني لي قلبًا رقيق<sup>(٦)</sup>      عساه      يُعْدِيكَ

والكلمات تطير بحفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها في النطق والسمع وجمال وقعها في النفوس والأفئدة، وموشحاته في دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو الغصن في إحدى موشحاته:

وجهك يا أحسن البرية      قد جمع المِليح والملاحه

(٤) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

(٥) جَنَّةٌ: وقاية.

(٦) في الأصل رقيقا.

(١) دار الطراز ص ٣٢

(٢) دار الطراز ص ٣٣

(٣) راجع مجلة الثقافة، العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١

نرجسةً فيه مستحيه ووردةً تحتها أقاحه  
والحال في الوجنة المضيه في الماء لا يحسن السباحه

وقد جمع في الدور أروع صورة للملاحه ، فالعين ملأى بالخفر والحياء ، والوجنة ورد ناصر ، تحتها أقحوان الثغر المتلائي والحال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يبرم . وبذلك أعد ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر<sup>(١)</sup> الأعمى العيلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلَّلِي يَا سَحْبُ تيجان الرُّبَى بالحلى  
واجعللى سيوارها مُنْعَطَفَ الجَدُولِ

والموشحة تفيض بكتوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبوب ، بهجة ما بعدها بهجة . وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها<sup>(٢)</sup> :

قل لمن يلوم في مهفف أسمر  
ثغره النظيم مسكر وسكر

أو لو سقاني اطفأت نيران دُرَّة ثمينه في الباقوت مكنونه  
وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفى نيران قلبه وأن باقوت الشفتين يحمل درة بل درراً ثمينه وهى كناية بديعة . ونمضى إلى زمن الماليك فلتقى بكثير من الوشاحين ، وفي مقدمتهم العزازى وابن الوكيل وظلت الموشحات مزدهرة في أيام الماليك على لسان ابن نباتة وغيره<sup>(٣)</sup> ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة .

### العزازى<sup>(٤)</sup>

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجراً بقيسارية جهاركس في القاهرة

والأزجال للتواجي بتحقيق عبد اللطيف الشهاوى ولاين نباتة

فيه تسع موشحات .

(٤) انظر في العزازى المنهل الصافي ١/٣٤٠ وما بعدها

والنجوم الزاهرة ٩/٢١٤ وفوات الوفيات لابن شاعر الكنى

١/٨٨ والوفى ٧/١٥٢ والدرر لابن حجر ١/٢٠٥ .

(١) انظر في مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص

٣٤٨ ، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الادباء ١٩/١٤٨ وفوات

الوفيات ٢/١١١ ونكت الهيمان ٢٩٠ والشعرات ٥/١١٠

(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبدالله فكرى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود الآل في الموشحات



قرب حى الغوريّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديباً مطبوعاً ظريفاً له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية في ذلك . ويقول ابن حجر : له في الموشحات يد طولى توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفي دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان في خمسة أقسام : في مدائح الرسول وأهل بيته وفي مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفي النكت والملح والألغاز والأسحاجى ، وفي الغزل والتهانى والتعازى ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعراء زمانه ، وفي غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة منتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاکر في فوات الوفيات والنواجى في عقود اللآل في الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمير وبالحب وبجمال الطبيعة استهلها بقوله :

يا لهلة الوصل وكأس العُقارِ      دون استتارِ      علمتاني كيف خلَعُ العِذارِ<sup>(١)</sup>  
اغتم اللذاتِ قبلَ الذهبِ  
وجرَّ أذيالَ الصِّبا والشبابِ  
وأشربُ فقد طابت كنوسُ الشَّرابِ

واختتمها بقوله :

يا ليلة أنعمَ فيها وزارُ      شمسُ النَّهارِ      حَيَّيتِ من بين الليالى القِصارُ  
وله في مطلع موشحة بدیعة :

ماسلتِ الأعمینُ الفواترُ      من غمِّدِ أجفانها الصِّفاحِ<sup>(٢)</sup>  
إلا أسالتِ دِما      المهاجرُ      من غيرِ حربٍ ولا كِفاحِ<sup>(٣)</sup>

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاکر ، وهى فى الحقيقة خمس رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، مع الخلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

(٣) المهاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلَع العذار : كتابة عن الانهالك فى المجون  
(٢) الصِّفاح : السيوف

ابن الوكيل<sup>(١)</sup>

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطى ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس فى غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها فى زاوية الشافعى والمشهد الحسينى والمدرسة الناصرية إلى أن توفى سنة ٧١٦ . ويقول السبكى : كان إماما كبيرا بارعا فى مشهد الشافعى يضرب به المثل فى البحث نظاراً مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوى كان يحفظ مقامات الحريرى وديوان المتنبى ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة فى الشعر الشعبى : الزجل والبلايق التى تدور فى الهزل . ومن قوله فى إحدى موشحاته :

ما أخجلَ قَدَّهُ غصونَ البانِ بين الورقِ  
إلا وسبًا المها مع العُزْلاَنِ حُسْنُ الحَدِيقِ  
الصحة والسقام فى مقلتهِ  
والجئة والجحيم فى وجنته  
ما أبدع معنىً لآخ فى صورته  
كالورد حواه ناعم الرِّيحانِ بِالطَّلِّ سُنِّي  
والقدُّ يميل ميلة الأخصانِ للمعتنقِ  
أحيا وأموت فى هواه كمدًا  
من مات جوى فى حبه قد سَعدا  
ياعاذلُ لا أترك وَجدى أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل فى هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته فى ضبط النغم واللحن ، وأنه لا يقل عن المخار الحلبي معاصره الذى حاكاه فيها وفى وزنها إبداعاً واقتنائاً .

المحاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية  
للسبكى ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود الآل فى  
الموشحات والأزجال للنواجى ( انظر الفهرس ) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل فى الفوات ٥٠٠/٢ والواى  
بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشذرات  
الذهب ٤٠/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفاها كقوله في المطلع :

غدا مُنادينا محكمًا فينا يَقْضَى علينا الأسي لولا تأسينا  
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزazy ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الخفاجي وغيره ، وتلقانا عند المحبي موشحة بديعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها<sup>(١)</sup> :

اعجبوا من حُسن تلوينِ العيونِ      تلکمُ حانهُ  
بأبي مرَّ الجفَا بالدرِّ حالي  
قَدْرُهُ قد حطَّ من قدرِ العوالی  
مطلبی من نَعْرهُ كثرُ اللالی

والموشح يسيل عدوبة ، وأنشد الجبرتي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً<sup>(٢)</sup> عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

### البديعيات

إذا تركنا الموشحات إلى البديعيات وجدناها قديمة في الشعر المصري ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع في قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) النساء في الاستواء والاعتدال .

(٢) تاريخ الجبرتي ١/١٩٨

(١) نغمة الریحانة ٤/٥١٩ والكثانة : جمة السهام أشار

بها إلى سهام العيون . والعوالى : الرماح وتشبه بها قلدود

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله<sup>(١)</sup> :

وشاعِرٍ شعره فنونٌ لكل بيتٍ له طنينٌ  
تُسَخِنُ عَيْنَ العدوِّ منه قصائدٌ كلها عيونٌ

فقد ورى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها آيات الشاعر النفيسة . وللتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة<sup>(٢)</sup> . ومن يرجع إلى القسم المصري من كتاب الخريدة للعماد الأصمهباني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجري يلاحظ شيوع محسنات البديع على السنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاقس في وصف مغن<sup>(٣)</sup> :

لا أشربُ الرَّاحَ إلا ما بين شادٍ وشادنٍ  
قُمَ بانديمي فأنصتُ والليلَ داجٍ للداجنِ  
طاوُغَ على القُصْفِ والعزِّ فِ كلِّ حاسٍ مُحاسِنِ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون في أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف<sup>(٤)</sup> :

ومَهتِدٍ سَبَحَ الفَرْنَدُ بِصَفْحِهِ وَطَفًا فَيَحْسَبُ مُعْمَدًا مَسْلُولًا

والفرند ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ديب اللؤلؤ أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكور الحكم وتضمنين بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

١٦١/١

(٤) الخريدة ٢٧٨/١

(١) المغرب (قسم القسطاط) ص ٢٤٤

(٢) الخزانة للحوى (طبعة بولاق) ص ٣٣٧ وما بعدها

(٣) الخريدة للعماد الأصمهباني (قسم شعراء مصر)

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس<sup>(١)</sup> :

لام العواذُلُ مغرماً في حبِّ مُلهيةٍ وقينه  
ولو أنهم رأينَ تأثيرَ الغرام به وقينه

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهي موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجد لها مبنوثة في أشعارهم ، ويذكر العباد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة<sup>(٢)</sup> .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذي نشأ وتربى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حجة الحموى والصفدى إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه<sup>(٣)</sup> في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحبي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحماصي المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سميانهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكائس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذي تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبي الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحرير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مدح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطي أو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفيع » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر نخزاة الأدب للحموى ( طبع مطبعة بولاق )

الباغونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمح ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوي عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجرى بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقد يما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد<sup>(١)</sup> :

أيا ساكني مصرِ عَدَا النَّيْلُ جَارَكُم فَأكسبكم تلك الحلاوةَ في الشَّعْرِ  
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى سوى أثرٍ يبدو على النظمِ والأثرِ  
وسند كرفنثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

#### ٤

#### شعراء المديح

يكنتظ الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جوادا ممدحا ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجرى على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لمدح والى الخراج بها : الخصب ، ويضفي عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن طبيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مر بنا ، كما يمدح واليها عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ العللي الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر والى مصر للأمين . ويظلها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن<sup>(٢)</sup> بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله في كتاب الولاة والقضاة للكندي أشعار متفرقة .

(١) فوات الوفيات ١/٢٣٦

(٢) انظر في ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت

١٠/١٢١ والمغرب لابن سعيد ( قسم الفسطاط ) ص ٢٧٠

له يَدٌ كَمِ خَلَّدَتْ مِنْ يَدِ سَحَابَةٍ عَمَّتْ بِأَنْوَانِهَا  
انظُرْ إِلَى مِصْرٍ بِسُلْطَانِهِ تَرَى الْهَدْيَ فَاضًا بِأَرْجَائِهَا

ومن شعراء الطولونيين المرمي<sup>(١)</sup> القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيش خنارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيرًا من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلِكَ دَائِمًا بِمِصْرٍ وَإِنِّي لَسْتُ عَنْ غَيْرِهَا أَرْضَى  
وكيف رحيلي عن بلادِ غدا بها أَبُو الْجَيْشِ وَالنَّيْلُ الَّذِي مَلَأَ الْأَوْضَا

وتوفى المرمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . واطَّرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام وثور الروم وخطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد<sup>(٢)</sup> بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

يا مَلِكَ الشَّامِ وَمِصْرَ إِلَى أَقْصَى ثُغُورِ الرُّومِ وَالشَّامِ  
وَاليَمَنِ الْأَجْعَدِ لِأَوَالِ [مُدَّ كُكُومَ] رَفِيحًا قَادِرًا حَامِي

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوجور وعلى ، ويتوفى أولها سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن في حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن حنزابه . وكان كافور ممدحا ، فقصده الشعراء من كل فجٍّ وفي مقدمتهم كُشاجم شاعر الشام ، والمتنبى إمام الشعراء لزمه وبعد زمنه وكان أول ما أنشده يائته ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيدا (قاضى البقر) في المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و ٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاص المذكور في النجوم الزاهرة ١٤١/٣ بين من رثوا الدولة الطولونية

(١) راجع في المرمي المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعارًا مخرقة له في الولاية والقضاء للكندى في أخبار خنارويه وفي مقالات عنه بمجلة المجلة : العدد ١٤٢ وبمجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ في عددي آب وتشرين الثانى

قواصدُ كافرٍ تواركُ غيرهَ  
ومَنْ قَصَدَ البحرَ استقلَّ السَّواقيا  
وغيرَ كثيرٍ أن يزوركُ راجلٌ  
فيرجعُ ملكا للعراقين واليا

وظل المتنبى نحو أربع سنوات ينتظر أن يولِّيه كافر على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق لبلي و هجاه هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعا عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقلي ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلس وزيراً له ، وكانا يجزلان العطاء للشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحهما ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجوع في إحدى مدائحه <sup>(١)</sup> :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معا  
تخيَّفنا خطوبُ تشعبُ الأما

ولعيم بن المعز في أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرِّقعمق الأفظاكى : أحمد بن محمد ، وأقام بها زمانا طويلا حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهر والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيانها » <sup>(٢)</sup> وينشد له قصيدة في مديح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنَّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدثت بمصر من قصيدة في مديحه <sup>(٣)</sup> :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتليا  
نَجَلُ العُلا وسليل السادةِ الصلِّحا  
مازلتُ مصرُ من كيدٍ يُراد بها  
لكنها رقصتُ من عدله فرِّحا

ويلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر في أول عهده صريع <sup>(٤)</sup> الدلاء البغدادي ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنَّاجة الدوح حسن المحاضرة ١/٥٦٢

(٤) انظر صريع الدلاء في تمة اليتيمة ١/١٤ وفي ابن

خلكان ٣/٣٨٣ والعبر ٣/١١٠ والشذرات ٣/١٩٧

(١) راجع خطط المقرئ ٢/٢٩٦ وانظر في ابن أبي الجوع اليتيمة ١/٣٩٥ ومر بنا حديث عنه . تشعب : تفرَّق وتفسد .

(٢) ابن خلكان ١/١٣١ وما بعدها وانظر في أبي الرقعمق اليتيمة ١/٣٢٦ والعبر ٣/٧٠ والشذرات



ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالي سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان ممدحا ، فبعث نهضة قوية في الشعر ، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا ، ومن كبار مدّاحه ظافر الحداد وسترجم له بين شعراء التشيع ، وحسن بن زيد الأنصارى وسترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله <sup>(١)</sup> .

أَيامُكَ العُرْمُ مصقولٌ عوارضُها كأنَّ آصاها من رِقَّةٍ بُكَّرَ  
أخملتَ ذَكَرَ ملوكٍ كنتَ خاتمهم وأنجمُ الليل في الإصباح تَسْتَرُّ  
بعضُ الوَرَى أنتَ لكن فقتهم شرفاً إن الحجارة منها الدرُّ والمدرُّ  
تخال راحتَه والمشرقيُّ بها سحابةٌ ظلَّ فيها البرقُ يستعُرُّ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن رزّيك ، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضي الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وترتخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع . .

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء بمدائحهم للخلفاء . في مقدمتها الأعياد وموالت الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيهما الحسن والحسين والخليفة الذي بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليالي رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصرى وليلة الغطاس وليلة التّيروز ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة ، وكان الشعراء يهتنون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه . ويصور لنا ذلك المقرئى من بعض الوجوه في احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لهعد الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التي أنشِدَتْ وما كان يصحبها من نقد بيديه بعض المستمعين ، من ذلك <sup>(٢)</sup> أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله :

(١) الخريدة للعماد الأصبهاني (قسم شعراء مصر) (٢) خطط المقرئى ٢/٢٥٣ .

فُتِحَ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ المَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرِّايَةُ البِيضَاءُ  
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَهُ كَفِّ الإِمَامِ فَعَرَفُوهَا الإِعْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شىء يخرج من النهر غير الماء ، وبذلك ضيِّعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمَنْ اجْتَمَعَ الخَلِيقُ فِي ذَا المَشْهَدِ لِلنَّبِيلِ أُمِّ لَكَ يَا بِنْتَ بنتِ مُحَمَّدٍ

فهلّل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وخُلع عليه وزيد في جاريه . ومرّ بنا حديث المنطرة التي بناها الأمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُررٍ للشعراء وفي كل صُرّة خمسون ديناراً جزاءً وفاقاً لمديحهم ، وكان ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتادون أيامه في تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرّج ينشده في إحدى مدائحه (١) :

أمرتنا أن نصوصَ المدحِ مختصراً لِمَ لا أمرتَ نَدَى كَفَيْكَ يُحْتَصِرُ  
والله لأبَدُ أن نُجْرِي سوابِقنا حتى يبينَ لها في مَدْحِكَ الأَفْر

فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة في طرابلس وثالثة في أنطاكية ورابعة في الرها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة في عهد وزيرها طلائع بن رزّيك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس يجيم على الناس إذا بعاد الدين زنكى يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرماً ، ويتابع جهاده ابنه نور الدين ، ويستغيث به شاور في مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعاً ، فينبى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ في الانقراض على الصليبيين ، وكلما اتقى بهم دمرّ جموعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حِطّين التي

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/٢ .

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصَّلْبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم في القتل والأسر حتى كأن من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العماد الأصبهاني صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها (١) :

حططت على حِطِينَ قَدَرَ ملوكهم ولم تُثَبِّقْ من أجناسِ كفرهمُ حِجْسًا  
 بطونُ ذئاب الأَرْضِ صارتُ قبورهم ولم تُرَضَّ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسًا (٢)  
 سبَايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شَرِيتْ بِحِجْسًا وقد عُرِضَتْ نَحْسًا (٣)  
 يُطَافُ بها الأسواقُ لاراعِبٌ لها لكثرتها كم كثرةِ توجب الوَكْسًا (٤)

وَفُتِحَتْ لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (يرسبع) وقيسارية وحيفا وصَيْدَاء وبيروت . وتغنى الشعراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنى به الشعراء طويلاً من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر (٥) :

أَثَرِي مَنَامًا مَا بَعَيْتِي أَبْصُرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ  
 قَدْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ الَّذِي وَعَدَ الرَّسُولَ فَسَبَّحُوا وَاسْتَغْفَرُوا  
 فَتُحَ الشَّامُ وَطَهَّرَ الْقُدْسُ الَّذِي هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ الْحَشْرُ

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُنشدُ في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أمجاد حربية مظفرة . وتبَّه لذلك أبو شامة في الروضتين فأتبع المواقع الحربية بما نظم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربي بالفتوة والقوة والمضاء ويدفعه دفعا إلى أن يَكِيلَ لأهداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة .

(٤) الرُكْسُ : البيع بالخسارة .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٢) رسا : قبرا .

(٣) نحسا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة (١) :

أَهْدَى كَفَّهُ أَمْ غَيْثُ غَوْتِ	وَلَا بَلَغَ السَّحَابُ وَلَا كِرَامَةَ
وَهَذَا بَشْرُهُ أَمْ لَمَعُ بَرْقِ	وَمَنْ لِلْبَرْقِ فِينَا بِالْإِقَامَةِ
وَهَذَا الْجَيْشُ أَمْ صَرَفُ اللَّيَالِ	وَلَا سَبَقَتْ حَوَادِثُهَا زِحَامَةَ
وَهَذَا الدَّهْرُ أَمْ عَبْدُ لَدِيهِ	يَصْرَفُ عَنْ عَزِيمَتِهِ زِمَامَةَ
وَهَذَا التُّرْبُ أَمْ خَدُّ لَكُنْمَا	فَأَثَارُ الشِّفَاهِ عَلَيْهِ شَامَةَ

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف مبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذي يتلأأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فقيم لا يريم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيئته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على خلود يرى عليها آثار الشفاه التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقيلها ، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الخلود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بجملة الصليب هزائم ساحقة ولأعلى إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول (٢) :

بِكَ اهْتَرَّ عَطْفُ الدِّينِ فِي حُلِّي التَّضَرِّ	وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلَّةُ الكُفْرِ
وَمَا فَرِحَتْ مِصْرٌ بِذَلِكَ وَحَدَّهَا	لَقَدْ فَرِحَتْ بَغْدَادُ أَكْثَرَ مِنْ مِصْرٍ
فَن مِبلغُ هَذَا الهِنَاءِ لِمَكَّةِ	وَيُثْرَبَ يُنْبِئُهُ إِلَى صَاحِبِ القَبْرِ

(٢) البهاء زهير للشَّيخ مصطفى عبد الرزاق (طبعة سنة

(١) خزائن الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

والبهاء زهير يصوّر تهلل الدين الخفيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإنه لحرى أن تهتأ به منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهتأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكره نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتتطور الظروف سريعا، فيقتل توران شاه وتحلّفه شجرة الدر فالسلطان أليك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد السنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد.

وتظلّ مصر وشعراءها دولة المماليك، وما تُوفى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المماليك فيكبح جماحها في عين جالوت، ويردها قُطر والظاهر بيبرس إلى غير مآب. ويُصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على الهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المماليك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحرابه المستمرة مع الصليبيين والتتار، وكيف قوّض للأولين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقّب الدائم للتتار في الموصل. وسمع يوما بجموع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكنانى - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة (١) :

ولما ترامينا الفراتَ بِحَيْلِنَا سَكْرَنَاهُ مِنَّا بِالْقَوَى وَالْقَوَائِمِ (٢)  
فَأَوْقَفَتِ التِّيَّارَ عَن جَرِيَانِهِ إِلَى حَيْثُ عُدْنَا بِالْغَنَى وَالْغَنَائِمِ

وكان الشعراء ينثرون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية

يقول السراج الوراق من مدحة بديعة<sup>(١)</sup> :

وشيدها للعلم مدرسة غدا عراق إليها شيق وشام  
ولا تذكر يوما نظامية لها فليس يضاها ذا النظام نظام

فهى فى رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التى أنشأها نظام الملك فى بغداد .  
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بييرس السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) . ومربنا  
بناؤه لمارستان ضخمة وإحاطه به مدرسته المنصورية ، وفى ذلك يقول معين الدين عثمان بن  
سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلا قصيدة فى مدحجه بقوله<sup>(٢)</sup> :

أنشأت مدرسة ومارستانا لتصحح الأديان والأبدانا

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان  
خليل (٦٨٩ - ٦٩٣) وكان بطلا مغوارا فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع فى أقل من  
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم تبق لهم  
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون  
يهنون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة فى تهنته  
بانتصاراته المجيدة أولها :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل وقت شأو ملوك الأعصر الأول

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعارا مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية  
المشهور<sup>(٣)</sup> :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكّا  
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدكّ الجبال دكّا

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط فى غير رجعة ولا مأب ، فقد سقطت  
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفى ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص

(١) الخطط للمقرئى ٣/٣٤١

(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

بن عبد الدائم الشَّارِمَسَاحِي (١) :

لا تعجبوا للمجانيقِ التي رَشَقَتْ  
بل اعجبوا للسانِ النارِ قائلةً  
عكاً بنارٍ وهَدَّتْهَا بأحجارٍ  
هذى منازلُ أهلِ النارِ في النارِ

وتتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ .) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طَلَعَةُ سلطاننا تبدتْ  
فأعجبْ لهاتيك كيف أبدتْ  
بكمال السَّعدِ في الطلوعِ  
هلالَ شعبانَ في ربيعِ

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٢) :

للملك الأشرف المنصور سيِّدنا  
له خلأتقُ بيضُ لا يغيِّرها  
مناقِبُ بعضها يبدو به العجبُ  
صَرَفُ الزمانِ كما لا يَصُدُّ الذهبُ

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظهورُ يومِ الأربعاء ابتدا  
وبالشُّرِّ قد نَمَّ وكل امرئٍ  
بالظاهر المعتزُّ بالقاهرِ  
منشُحُ الباطنِ بالظاهرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موثلاً لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيشون فساداً في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فساداً في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثاً انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

(٢) النجوم الزاهرة ٨٣/١١ .

(١) فوات الوفيات ٨٦/١ .

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد كتاب الدست ، وفيها يقول (١) :

بُشْرَاكَ يَا مُلْكُ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ بِفَتْوحِ قَبْرَسَ بِالْحَسَامِ الْمَشْرِفِ (٢)  
فَتَحُّ تَفْتَحُ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا مِنْ أَجْلِهِ بِالْتَّصْرِ وَاللُّطْفِ الْحَفِيِّ

ولا نعود نسمع عن انتصارات حربية مجيدة أيام المالك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلطين في توليهم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم ويكثف تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الوالي العثماني رضوان كتحدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والأراجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم عبد الله الإيكاوي ، وقد صنف في مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمي الدمياطي ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة في مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها (٣) :

مَلِكٌ سَعِدَ قَدْ سَمَا فِي عَصْرِهِ مَوْيِدٌ مَعْظَمٌ فِي مِصْرِهِ  
مَعْرُزٌ كَيْسُفٍ فِي قَصْرِهِ عَلَيْهِ مَنْشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِهِ

ومن مداح رضوان قاسم (٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كَفَّهُ الْغَيْثُ عَلَى النَّاسِ هَمًّا فَأَعَادَ الْخِصْبَ بَعْدَ الْبَيْسِ  
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْتَسِمًا وَهُوَ فِي فِيهِ مَحَلُّ اللَّعْسِ

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهر الأجلاء ، ويلقانا ابن الصلاحى (٥) السيوطي كلفا بأستاذه الشمس الحففي ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرتي ١٩٣/١ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتي ٢٦٥/١ وما بعدها

(١) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .

(٢) المشرقي : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ،  
والسيوف المشرقية : سيوف حادة قاطعة .

(٣) الجبرتي ٢٣٢/١ .



إمام الهدى الراقى إلى ذروة العُلا إلى رتبة عنها الثوابتُ تقعدُ  
وماشتتَ قل فيه فأنت مصدِّقٌ مزاياه تقضى والمحسنُ تشهدُ

وأكثرُوا حينئذ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والٍ أو مناسبة من المناسبات في آخر شرط  
بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ،  
ويحسن أن نستعرض شعراء المديح النابهين على مر الحقب .

### المهذب<sup>(١)</sup> بن الزبير

هو الحسن بن علي الغساني ، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجري ، وبها ثقف علوم  
العربية ، وأوى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى  
نراه يتصل ببني الكثر سراً ببلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بدیعة يقول فيها :

لئن جهل المدائحُ طُرُقَ مديحكُم فإني بها من سائر الناسِ أعلمُ  
وهل ليَ حمدٌ في الذي قلتَ فيكمُ ونُعماكمُ عندي التي تتكلمُ

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبي إلى الزواج عن بلدته إلى  
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولخشي وزير الخليفة  
الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ ) ولعله هو الذي أنفذه في مهمة إلى اليمن ، فأكبَّ على كتب  
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع في أكثر من عشرين مجلدا . ولم  
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولخشي طلّاح بن  
رزيك ( ٥٤٩ - ٥٥٦ هـ ) . وكان يعد أكبر شاعر في زمنه ، وقد ترجم له العماد الأصبهاني ترجمة  
ضافية استهلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، لم يكن في زمانه أحد أشعر  
منه ، وله شعر كثير ومحل في الفضل أثير » . والغالب على شعر المهذب المديح .

ومن يدرس الشعر العربي يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهي تقوى

الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ ، وابن خلكان ١/١٦٦ في ترجمة  
أخيه الرشيد وفوات الوفيات ١/٢٤٣ والنجوم الزاهرة  
٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسيوطي ١/٥٦٣ .

(١) انظر في ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر ( قسم  
شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ١/٢٠٤  
ومعجم الأدباء ٩/٤٧ والنكت المصرية لعارة الجني ص  
٣٥ والطاق السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديدة بأن يسجلها الشعراء ويتغنّوها ، وهي تضعف حين تعبر عن زُلْفَى وما يتصل بالزلفى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروبهم في خراسان وفي آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبى في سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائعة من الغناء والشعر ، أما في الضرب الثاني فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حريبا أو غير حربي ، إنما يقرءون ملقا وتزلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن رزّيك في الضرب الأول ، لأنه ملاً أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته ماتى تنازل الصليبيين في العريش وغزّة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفزعهم في « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانئ الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبهجا بمثل قوله :

لما أبوا ما في الجفان قرئتهم	بصوارمٍ سلّت من الأجنان <sup>(١)</sup>
وثلّلت في يوم العريش عروشهم	بشبا ضرابٍ صادقٍ وطعان <sup>(٢)</sup>
ألجأتهم للبحر لما أن جرى	منه ومن دمهم معاً بحرّان
ولأنت تحضب كل بحر زاجر	ممن تحارب بالتنجيع القاني <sup>(٣)</sup>
حتى ترى دمهم وخصرة مائه	كشقاتي نثرت على الرّيحان
وكان بحر الروم خلق وجهه	وظفت عليه منابت المرجان <sup>(٤)</sup>

(١) الجفان : جمع جفنة وهي قطعة الطعام :

(٣) النجيع : الدم . القاني : شديد الحمرة .

والأجنان : جمع جفن وهو غمد السيف .

(٤) خلق وجهه : طيب بالخلق وهو الزعفران .

(٢) شبا : جمع شباة ، وهي حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح مبتهج بما أفاء الله من نصر على ابن رزّيك في العريش ، فقد دقّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منزهة . ولا ريب في أن تصوير المهذب يدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الریحان ، وكأن المتوسط قد خلّق وجهه وطبّب بالزعفران وطفّت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بدیع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصرى لقي فلول الصليبيين المنزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شُبُهَنَ بِالغُرَبَانِ فِي أَلْوَانِهَا وَفَعَلَنَ فَعَلَ كَوَاسِرِ الْعِقْبَانِ  
وَأَتَتَكَ مُوقِرَةٌ بِسَبِيٍّ بَيْنَهُ أَسْرَاهُمُ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانُ<sup>(١)</sup>

وهو يصف الأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لرءوسهم عطفًا ولا حركة ، ويؤه بقتل أحد أمرائهم ، قائلاً :

قَتَلَ الْبِرْنَسَ وَمَنْ عَسَاهُ أَعَانَهُ لَمَّا عَتَا فِي الْبَحْيِ وَالْعِدْوَانِ  
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مَرَّ الْجَنَّا يَبْدُو عَلَى الْمَرَانِ<sup>(٢)</sup>

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزّيك :

مَا زُلْزِلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بِلِذَاكَ مَا بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وله في ابن رزّيك مدائح كثيرة وراء هذه النونية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمّ بقتله ، وسجّنه ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لطفة على أخيه ، إذ يقول :

يَارَبِّعُ أَيْنَ تَرَى الْأَحَبَّةَ يَمَّمُوا هَلْ أَنْجَدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَوْ أَنْهَمُوا<sup>(٣)</sup>  
نَزَلُوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا وَمِنَ الْفَوَادِ مَكَانًا مَا أَنَا أَكْتَمُ

(٣) أنجدوا : دخلوا نجدا . أنهموا : دخلوا تامة .

(١) موقرة : محملة .

(٢) الجننا : الشعر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم  
وتعوضت بالأنسِ رُوحِي وَحِشَةً  
وَجَدْتُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مَحِيْمٌ  
لا أوحش الله المنازلَ منهم  
إني لأذكركم إذا ما أشرفتُ  
شمسُ الضحى من نَحْوِكُمْ فَأَسْلَمُ  
لا تبعثوا لي في النسيم تَحِيَّةً  
إني أغارُ من النسيم عليكم

والآيات تعبر عن عاطفة الحب اللطاعة وأنه لن ينسى أعباءه أبداً نزلوا نجداً أو نزلوا تهامة ، فهم في سويداء فؤاده والوجد يبرِّح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر في البيت الأخير عن رقة ورهافة حسّ بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وبألى إلى ماءِ سوي التَّيْلِ غَلَّةٌ  
ولو أنه - أستغفر الله - زمزمُ

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهي محبة تملك دائماً على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المهذب وأخوه الرشيد - وكان شاعراً مثله - وثقاً صلتهما بشيركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر المجن لصلاح الدين وعمه شيركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاور الرشيد ويسجن المهذب فينظم شعراً كثيراً في استعطافه ، ويرد إليه حريته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

### ابن قلايس (١)

هو نصر الله بن عبد الله بن قلايس الإسكندري ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبي طاهر السلفي أكبر المحدثين في عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولي الأمر المشرفين على الإسكندرية . وكان في أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفي وله فيه مدائح بديعة مثبتة في ديوانه من مثل قوله :

تفيضُ بحارُ العلم من كلماته  
فيأياها المحمودُ من كلِّ ناطقٍ  
فإن كنت ظمآنًا فردُ خَيْرٍ مِنْهُلٍ  
على كلِّ معنى في فِتْنَةٍ كلِّ منزلٍ

الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديماً بمطبعة الجوائب وراجعه وضبطه خليل مطران .

(١) انظر في ترجمة ابن قلايس الخزريدة (قسم شعراء مصر) ١٤٥/١ ومعجم الأدباء ٢٣٦/١٩ وابن خلكان ٣٨٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٢/١ والشذرات ٢٢٤/٤ ومراة

تَحَاسَدَتِ الْأَيَّامُ فِيكَ فَلَمْ تَرَلْ مَتَى الْقَادِمِ الْجَذَلَانِ وَالْمَتَرَحِّلِ

وهو يشير إلى علم أستاذه وأنه كان مقصدًا للراجلين في طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامي. وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاوّر وزير العاضد (٥٥٧ - ٥٦٤ هـ). واتصل بكتّاب الديوان لعهد ومدهم ، وفي مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرالمدائح ، ومن قوله فى إحداهما متخلصًا من الغزل إلى مديحه :

يَارِبِّ خَمْرٍ فَمَةُ كَأْسُهَا لَمْ أَقْتَنِعْ مِنْ شَرِبِهَا بِالشَّمِيمِ  
 أَتَبِعْتُ رَشْفًا قُبْلًا عِنْدَهَا وَقَلْتُ : هَذَا زَمَزَمٌ وَالْحَطِيمِ  
 فَافْتَرَّ إِمَّا عَنْ أَقَاحِي الرَّبِيِّ تَضْحَكُ أَوْ دُرُّ الْعُقُودِ النَّظِيمِ  
 أَوْ كَانَ قَدْ قَبِلَ مُسْتَحْسِنًا مَا حَبَّرَ الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ  
 مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتِلْكَ الدَّارُ دَارُ النَّعِيمِ

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، فقم صاحبتة كأس خمر ، وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحطيم المقدس . وضحكت فخال أقاحى الربى تضحك ، بل عقد در نظيم ، بل درر القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لفظه خمر وأخلاقه فَرَحٌ وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .

وليس فى شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاوّر عهدًا مضطربًا أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فسادًا شديدًا ، مما جعل شاوور يصطرع مع ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، فيعيدانه إلى كرسي الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر فى مبارحة مصر إلى صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع فى أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الذاهبين إلى الحج تنويها كثيرا بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت فى أيدي النورماندين ولكن أمراءهم منذ روجار كانوا لا يزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى . على كل حال نفاجاً برحيل ابن قلاقس إلى صقلية فى شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكذب ينزل بها حتى أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفًا بديعًا ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها الطبيعية فأنشد :

بلدٌ أعارته الحمامة طَوْقَهَا وكساه حَلَّةَ ريشه الطاووسُ  
فكأنما الأزهارُ منه سُلَافَةٌ وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كثوسُ

وتنقل في بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يلزم ، وتعرف على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهي فيهم ، وفيه ديج مدائح كثيرة ، مشيداً ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدبيره ، بمثل قوله :

وبيمناك طَيْرٌ يُمنِ وسَعْدٍ أَصْفَرُ الظهرِ أسودُ المنقارِ  
قلمٌ دَبَّرَ الأقاليمَ فالكتُّ بٌ به من كتابِ الأقدارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاقس كتابا سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائح فيه ، واحتفظ العماد الأصبهاني في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هي شخصية القاضي علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي ، ويقول العماد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حذقة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك في الفصاحة من أيادٍ ملكتَ بها الفَخارَ على الإيادي<sup>(١)</sup>  
تَحَدَّتْكَ من صَقْلِيَّةٍ خليلاً فكنتَ الوردَ يَقْطِفُ من قَتَادِ  
وشيمتكَ بين أهلها صَفِيًّا فكنتَ الجمرَ يُقْسُ من زنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زناد صلد وهو وحده الجمر ، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالغ في مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر ممدوحه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جردنا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجردنا المدائح فاستقرتْ على أوصافِ جردنا الوزيرِ

وهو يشير مراراً إلى مجالس الشراب في صقلية ، وأنه قضى بها أياماً وليالي هنيئة ، كان يستمتع

(١) هوقس بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور .

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يتثنين في نسق بديع من الحركات يقول :

ومُعْنٌ تناولتْ يدهُ العو دَ فَعَادَتْ بنا إلى الأفراح  
بين رِيحٍ من المزاميرِ أُسْرَى بين أجسامنا من الأرواح  
وصباحٍ قد عقدوا طُرّاً اللِيءَ لهُ جمالا على الوجوه الصُّباح  
يبعثُ الروضُ منهمُ حركاتٍ سرقتْ بعضَهَا طِوالُ الرِّمَاحِ

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لا تزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبي السعود ابني عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلِك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَرْنَا وقد نادى السَاحُ بنا رِدُوا فَعُدْنَا إلى مَعْنَاك والعودُ أحمدُ  
وجاذبنا للأهل شوقٌ يقيمنا وشوقٌ لمُعِينَا عن الأهل يقعد  
وما فاحَ فينا غيرَ ذكراكِ روضةٌ ولا ساحَ فينا غيرَ نَعْمَاكِ موردُ  
فيأياسرًا نلنا به الفضلَ ياسرًا ويامنَ وجدنا منه ما ليس يُوجدُ  
دعوتَ بصوتِ الجودِ حَيَّ على النَّدى لأنك تَرَوِي عن بلالٍ وتُسَيِّدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسرًا يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتدى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صورته وتعليلاته قوله في جارية سوداء :

رُبَّ سوداءٍ وهىَ بيضاءُ معنَى نافسَ المسكَ عندها الكافورُ  
مثلَ حَبِّ العيونِ يحسبه النا سٌ سِوَاذًا وإنما هو نورُ  
وهى صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشعر وأن منه ما يذبل سريعاً

ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشَّعْرُ منه قصيرٌ عمره زَهْرٌ يَدْوِي ومنه طويلٌ عمره زُهْرٌ<sup>(١)</sup>

أو كالعيون فهذى حَظُّهَا حَوْلُ يُعَصُّ مِنْهَا وَهَذَى حَظُّهَا حَوْرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو سنتين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عيذاب ثغر قوص على بحر القلزم ، وكأن الموت كان في انتظاره ، فلم يكذب يترها حتى لَبَّى نداء ربه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره .

### ابن سناء <sup>(١)</sup> الملك

هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كتّاب الإنشاء في الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقبها بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب ، وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قُرب الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة بينهما حتى كان ينيبه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بتربية ابنه هبة الله منذ نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّي أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ يقرأ كتب الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمى إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث على السنِّي الكبير الحافظ السلفيِّ أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً  
إلى أحمد المحي شريعة أحمد  
إلى كعبة الإسلام أو علم العلم  
فلا عدمتُ منه أباً أمة الأمي

للحموى في مواضع متفرقة ومقالنا : « الروح المصرية في شعر ابن سناء الملك » بكاتبنا : « فصول في الشعر ونقده وابن سناء الملك : حياته وشعره لمحمد إبراهيم نصر » ومقدمة محمد عبدالحق لنشرته للديوان في الهند ، ونشره وحققه في القاهرة محمد إبراهيم نصر .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدباء ٢٦٥/١٩ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان ٦١/٦ وعبر الذهبي ٢٩/٥ والشذرات ٣٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البدائع لعل بن ظافر وخزانة الأدب



وقد أكبَّ على دواوين الشعراء يلتمها كما أكبَّ على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعًا نهائيًا بدكاء خارق .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكرًا تفتحًا راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه في أن يتخذة كاتبًا بين يديه ، وأذن له ، وأضفى عليه من إعجابه بشعره وودّه ما أصبح به أبًا روحياً له ولفته . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتابُ ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضي الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكاتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائح في أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضا ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتوج رسائل الفاضل فيها بثناء غديقٍ عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسنها وبختها ، وقلما يُجمعُ بين الحسن والبِخْتِ » ويفضّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله دَرٌّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبقي للآباء ذكرا ، وللأبناء فخرا ، وأرسلها مقلّدات ، فأرهفها مجرّدات ، وأثارها أوابد ، فنظمتها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وبهنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدا كما كان شاعرا .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتابا ثانيا باسم مصايد الشوارد . وكان ناثرا بارعا كما كان شاعرا مبدعًا ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصا ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نصبت مشارعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود ( عمود المقياس ) لصلاة الاستسقاء ، وهمّ المقياس من الضعف بالاستلقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالباً في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكراً مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمٌ يَسَاءُ بِهِ وَفِيهِ كَلُّ شَيْعِي وَسُنِّي

ولم يكن القاضي الفاضل شيعياً ، بل كان سُنِّيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشيعه معاً . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أصحابه إلى نوم الخلق عن ثأر الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنته ، فإن مصرع الحسين يأسي له الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعه جميعاً ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم حبه وتشيعه له يقول :

وَعَدَوْتُ فِي حَبِي لَهُ مَشِيْعًا مِنْ ذَا رَأْيٍ مَشِيْعًا مَتَسِنًّا

وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعرٌ شيعي غالبٍ في تشيعه . ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه لبعضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتَ بِالطَّبِيعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُحِبِّ أَبَاهَا فَجَاءَتْ وَقَعَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وله فيه أهاج مختلفة كما يشهد ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيداً له . وقد أشاد في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعاً ، ولم يخص على بن أبي طالب بتويبه . ومر بنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره . وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة بستاناً ومرة فندقاً . وظل موظفاً في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مدائحه وكانوا يجزلون له في العطاء ، وبالمثل كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُغَدَّقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفا منعا . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات ، وكانت تمتدى للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثيله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشع منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهولة وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة في السنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جدا ، ومثل « وديني هو على أكثر » ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدمائة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُحَجِّبِ      وفي سوى العَيْنِين لم تُكْسِفِ  
مُعَمَّدةُ المُرْهَفِ لَكِنها      تَفْتِكُ بِالْغَمْدِ بلا مُرْهَفِ<sup>(١)</sup>

فهى شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينها كسوف ، ونورها يغمركل ما حولها وإن جفونها لتطبق على عينها لإطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعا - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى ليقول :

ووالله ما أَشْرَى الشَّامَ وَمُلْكُهُ      وَغُوطَتَهُ الحَخْصْرَا بِشَبْرَيْنِ من شُبْرَا  
فغوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتره بشبرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصيفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هى حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلا في مراثيه لأمه وأبيه وجدته وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن معاليه ليشهرها      البدرُ في الأفقُ يستغنى بشهرته

ذاك الذى يُبسم الدهرُ العبوسُ بهِ وَيَسْهَى وتَسْهَج الدنيا بيهجته  
ونحسُّ في مدحِه لأبيه بسعادته سعادة غامرة وهو يتحدث عن منزلته وأدبه وعلمه وشيمه في  
إجلال وإكبار يفوقان الوصف . وأيضاً ما تمتاز به مصر من تعلق بالدين نجده مصوراً في أشعاره .

وأهم من استنفد مدائح صلاح الدين والقاضى الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى  
على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسسوه في الشام من ممالكهم فقد مزق  
جموعهم تمزيقاً ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه  
مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدَّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه  
للعرب تحت لوائه ، حتى ينقضَّ بهم على حملة الصليب ، وله يقول :

بدولةِ التُّركِ عَزَّتْ مَلَّةُ العَرَبِ وبابنِ أَيوبَ ذَلَّتْ شِيعَةُ الصُّلْبِ  
وفي زمانِ ابنِ أَيوبِ غَدَتْ حَلْبٌ من أرضِ مصرٍ وعادتْ مصرٌ من حَلْبِ

وكانه كان يستشعر في عمق أمنية توحيد العالم العربي . وله في صلاح الدين مدائح كثيرة يصور  
فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . وما زال صلاح الدين يتزل بهم الدمار ويأخذ  
منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى في موقعة حطين ، وفيها جرت دماؤهم أنهاراً  
وتعمَّ الفرحة الديار العربية ، ويهني ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلاً :

لستُ أدرى بأىُّ فَتْحٍ تُهَنِّئُ	يا مُنْبِلَ الإسلامِ ما قد تَمَنَّى
أهنِّيك إذ تَمَلَّكَتْ شاماً	أم تُهَنِّيك إذ تَمَلَّكَتْ عَدَناً
قد ملكت الجنان قَصراً فقصرنا	إذ فتحت الشام حِصْناً فحِصْناً
لك مدحٌ فوق السموات ينشأ	ومحلٌّ فوق الأسنَّة يَبْنَى
حَمَلُوا كالجبال عَظْماً ولكن	جَعَلَتْهَا حَمَلاتُ حَيْلِكَ عَيْناً <sup>(١)</sup>
لم تلاق الجيوش منهم ولكن	ك لاقيتهم بلاداً ومُدناً
وتصيَّدتهم بحلقة صَيْدٍ	تجمع اللَّيْثَ والغزالِ الأَعْنانُ <sup>(٢)</sup>

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . والعهن : الصوف .  
(٢) الغزال الأغن : الذى يخرج صوته من خياشيمه .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها يصور أخذ صلاح الدين لصليب الصليب الذي يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتبنين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفاً به بالرسول عليه السلام .

ومدائحه في القاضي الفاضل كثيرة حتى تُتعدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له في الأعياد وفي القدوم من الشام ومن الحج وفي انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوّه بها في مدائحه له ، وهو فيها يبالغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صَوَّرَ اللهُ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَوْرًا وَجَمِيعُ الْأَنْامِ مَاءٌ وَطِينٌ

وقوله :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا خَادِمٌ أَنْتَ رَبُّهُ وَمَا الخَلْقُ إِلَّا عَالَمٌ أَنْتَ فَاضِلُهُ

وقوله :

الدَّهْرُ مَدٌّ إِلَيْهِ كَفٌّ مَفْتَقِرٌ فَدَّ لِلدَّهْرِ مِنْهُ لِحْظٌ مُحْتَقِرٌ  
فِي كَفِّهِ قَلَمٌ إِنْ شِئْتَ أَوْ قَدْرٌ يَصْرِفُ الخَلْقَ بَيْنَ النِّفْعِ وَالضَّرْرِ

وهو يكرر معنى البيت الثاني وبطيل فيه ، وله يقول :

بِمَيْمُونِ رَأَيْكَ كَانَ الفَتْوحُ وَمَنْصُورِ عَزَمِكَ كَانَ القَلْبُ

وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قولة صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء

بسيفي وإنما انتصرت بقلم القاضي الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لَا يَسْتَقِرُّ المَالُ فَوْقَ بِنَانِهِ حَتَّى كَأَنَّ بِنَانَهُ مَخْرُوقٌ  
يَاطَلِبِينَ ذُرَى عُلَاهُ تَوَقَّفُوا وَمُؤْمَلِينَ نَدَى يَدَيْهِ أَفِيقُوا

وهما بيتان رائعان في وصف الجود ، وبحق كان القاضي الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل

تكرم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية وبحق ، يقول له :

شَكَرِي لِنِعْمِكَ شَكَرَ الأَرْضُ للمَطَرِ أَوْلا فَشَكَرَ سَوَادِ العَيْنِ للنَّظَرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجذبة للغيث المدرار الذي يحيى مواتها ، بل شكر سواد العين لنور  
 البصر الذي يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله في جوده المنهر على  
 الناس :

وقصّر البحرُ عنه فهو مكتئبٌ      أما تراه بكفى موجِه التّطمبا  
 وولّت السحبُ - إذ جارته - باكيةً      أما ترى الدمع من أجفانها انسجما

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجِه ، وإن الغيث  
 ليكي بدموع غزار لا تزال تنهمل . ونحسُّ بفرحة تسرى في كثير من مدائحُه للفاضل كما نحسُّ خفة  
 الظل التي يشتهر بها المصريون وخاصة في تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

ضنّت بطرفِ ظلِّ يُعدي سقمه      رأيتمُ من ضنِّ حتى بالضنا  
 إلى رأيتُ الشمس ثم رأيتها      ماذا على إذا هويتُ الأحسنا  
 وسألتُ من أيّ المعادن تُغرّها      فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا  
 أبصرتُ جوهرَ تُغرّها وكلامه      فعلمتُ حقاً أن هذا من هنا

وضنَّ صاحبه بالطرف وعدواه وضنّها حتى بالسقم أو بالضنا غريب ، وتلطّف في التخلص  
 من الغزل إلى مديح القاضي الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعدوية  
 الكلم . وله في غزله كثير من هذه التصاوير المبتكرة ، كقوله :

أقتِ على عاشقك القيامة      بورِدٍ لخدِّ وغُصنٍ لِقامة  
 فحين وَرِدٍ خدك كيف النّجاة ؟!      ومن غُصنٍ قدك كيف السلامة

وقوله :

وأشكو إلى ليل العُدائرِ غدرها      وأملى عليه وهو في الأرض يكتب

وقوله :

ألقىَ حَبائِلَ صَيِّدٍ من ذوائبه      فصادَ قلبي بأشراكٍ من الشّعِرِ

وقوله :

لا تُحشَ مني فإني كالنسيم ضنّاً      وما التّسيمُ بمخشى على الغُصنِ

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعِقْدُ وَحَدَّهُ فَيَا عَجَبًا يَا قَوْمُ هَلْ يَبَلِّغُ الْعِقْدُ

وقوله :

سَأَلْتَنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رِيَّةَ الْبَيْتِ أَنْتِ بِالْبَيْتِ أَخْبِرِي

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

### ابن نبأته<sup>(١)</sup>

هو جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نبأته خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبه إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه في الأدب ، ويذكر من بينهم محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحونها إلى دمشق والشام في تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويرجع أبوه مصر إلى الشام

(١) انظر في ابن نبأته وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٣/٩ والوفى بالوفى للصفدى ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والنجوم الزاهرة ٩٥/١١ وشذرات الذهب ٢١٢/٦ والبدرد الطالع ١٥٢/٢ وخزانة الأدب للحموى في

مواضع متفرقة وكتاب ابن نبأته المصرى لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب في العصر المملوكى لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ وطبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه مخطوطات كثيرة في مكبات العالم العربى والقرى

حوالى سنة ٧١٠ وينزل دمشق ، يأخذ الطلاب عنه الحديث <sup>(١)</sup> ، ويستقر بها ويتولى فيما بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حَبَّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حيننا متصلا بمثل قوله :

أَوِ الْمَصْرَ وَأَرْضَ مِصْرَ وَكَيْفَ لِي بِدِيَارِ مِصْرَ مَرَاتِعَا وَمَلَاعِبَا  
حَيْثُ الشَّيْبَةُ وَالْحَبِيبَةُ وَالْوَفَا فِي الْأَقْرَبِينَ مَشَارِبَا وَأَصْحَابَا  
وَالدَّهْرُ سَلْمٌ كَيْفَمَا حَاوَلْتُهُ لَا مِثْلُ دَهْرِي فِي دِمَشْقٍ مَحَارِبَا

وقواده يهفو إلى مصروترب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وحبه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفي أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبي الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتباً سنوياً : ستائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحه ، وظل يفد عليه حتى توفي سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفي دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر في زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهدياها له مثل كتابه « سَرَحَ العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدباها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجماً لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً . ونراه في هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزمِّلَكَانِي وابن صَصْرَى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمري ، وله فيهم جميعاً مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السرى في دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٧٠/١ والدرر



طبيعياً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُعزل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقِّعاً للدسِّت وكانت قد تقدمت سنة ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدسِّت ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخٍ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أمره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفي ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان تبعُ الشعر عند ابن نباتة فياضاً ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النباتي » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يكتظ بالمدائح ، وعُني كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدي بكثرة إغارته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرماً بصنعها ، وألف في سرقات الصفدي منه كتاباً سماه « خبز الشعير » يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المذموم ، واستهملَ خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : ( ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولن دخل بيتي مؤمناً ) ويورد دائماً أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدي مثل قوله في الغزل مورياً .

ومولع بفخاخٍ بمدَّها وشبَّاكٍ  
قالت لي العين ماذا يصيدُ قلت كراكي

ويقول الصفدي :

أغار على سرح الكرى عند ما رمى الـ كراكي غزالاً للبدور يحاكي  
فقلت ارجعي يا عينُ عن وردِ حسنه ألم تنظره كيف صادَ كراكي  
والكرى : النوم ، والكراكي طير مفردة كركي . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة  
رشيقة وقد أحالها الصفدي ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة  
متغزلاً :

فديتكَ أيها الرامي بقوسٍ ولحظٍ يا ضناً قلبي عليه  
لقوسك نحو حاجبك المجذاب وشيئه الشيء منجذبٌ إليه

ويقول الصفدي :

تَشْرَطُ مَنْ أَحَبُّ فذُبْتُ وَجَدًا      فقال وقد رأى جَزَعِي عليه  
عَقِيْقُ دَمِي جَرِي فَأَصَابَ خَدِّي      وشيْهُ الشَّيْءِ مَنْجَذِبٌ إِلَيْهِ  
وتشبيهه الحاجب بالقوس وانجذابه إليه طبيعي ، أما انجذاب الدم إلى الخد وتشبيهه به فنافر منه بعيد .

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الخفة والرشاقة . ويذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزمكاني بتائية رائعة بدأها بالغزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه»<sup>(١)</sup> . وأروع مدائحه ما نظمه في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن ، وقد دَبَّحَ في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لو أنَّ للبحر جَدَوَاهُ لفاض على      وَجَهَ الثَّرَى بنفيس الدرِّ منصودٍ  
ولو أمرٌ على صَلْدِ الصِّفا يده      لأنبت العُشْبَ منها كلُّ جُلُودٍ  
ياحبذا الملكُ السارى على شِيمٍ      تُرَوَى وتُنْقَلُ عن آبائه الصِّيدِ  
أغنى العُفاة فلولا ناهياتُ تَقَى      - أستغفر الله - سَمَوْه بمعبودٍ

وهو دائم الإشادة بمجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار مدّوه في أعلى السموات ولايزال يتألق ويضيء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :

العالمُ الملكُ السيارُ سوُدُّه      في الأرض سِيرَ الدَّرارى بين أفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفٌ بدتْ فعدتْ      نعم السوارُ على الإسلامِ والسورُ  
وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحه للمؤيد ، وورى كثيرا باسم مدينته حاة عن الحماة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أقسمتُ ما الملك المؤيدُ في الورى إلا الحقيقةُ والكرامُ مجازُ  
هو كعبةٌ للفضل ، ما بين التدي منها وبين الطالبين حِجازُ

وواضح أنه ورى في كلمة « مجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المعبرُ ، وورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذي تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز لإقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المؤيد :

يذكرنا أخبارَ معنٍ بجوده ونشئ له لفظاً فينشئ لنا معناً

ومعن بن أوس المزني مشهور بجوده في مفتتح العصر العباسي شهرة حاتم في الجاهلية ، وقد ورى آخر البيت في مدلول كلمة معن ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معنًا المزني .

وممدوحه الثاني في الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حاة بعد أبيه تهنئة بسلطنته وتعزية له عن أبيه ، تُعدُّ من فرائد الشعر العربي ، وفيها يقول :

هناك محاذك العزاء المقدما فما عبسَ الحزونُ حتى تبسما  
ثغورُ ابتسامٍ في ثغورِ مدامعٍ شيبان لا يمتاز ذو السبق منها  
مليكان هذا قد هوى لضريحه برغمي وهذا للأسرة قد سما  
كانَ ديار الملك غابُ إذا انقضى به ضيعمُ أنسا به الدهرُ ضيعما  
فإن يكُ من أيوبَ نجمٍ قد انقضى فقد أطلعتْ أوصافك الغرَّ أنجما  
وإن تك أيامُ المؤيد قد مضتْ فقد جددتْ عليك وقتًا وموسما  
هو الغيثُ ولي بالثناء مشيعا وأبقاك بحرًا بالمواهب مُنعمًا

وعلى هذا النحو تمضي تهنئة الأفضل جامعة بين التقيضين في كل بيت : بين المدح والثناء ، وفي ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحده ذهنه ودكائه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهي سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعدوبة ، وكأنها نفس عدوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قطر نبات . وله في مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قومٌ لذكراهم على صُحف العُلا  
 الملكُ بعضُ ديارهم فليزلوا  
 إن يبقَ ماضيهم على سننِ الوفا  
 ملأتُ مواهبهُ القلوبَ مهابةً  
 وكأنما أقلامهُ بسوادها  
 لا عيبَ فيه سوى العزائمِ قصرتُ  
 أصلُ الفخارِ وكلُّ ذكِرٍ مُلحقُ  
 والنجمُ بعضُ جدودهم فليرتقوا  
 فلأنهم ببقاء أفضلهم بقوا  
 فالقلبُ قبل الطرفِ فيها مُطرقُ  
 غربانُ بيني في الخزائنِ تتعقُ  
 عنها الكواكبُ وهى بعدُ تخلقُ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعى بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هيبة ، والأقلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير ماتزال تنعق في أموالها بالبين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتتى محلقة في السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب في تخليقها المتغلغل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب في وصف الفئص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وكلُّ شاهينٍ شهى المرتمى  
 بينا تراه ذاهبا لصيدو  
 حتى تراه عائدا من أفاقه  
 وكلُّ صقيرٍ مسبل الجناح  
 ذو مقلّة لها ضرامٌ واقِدُ  
 كأنما الخلبُ منه منجلُ  
 وكل منسوبٍ إلى سلوقِ  
 طاوى الفؤاد ناشر الأظافرِ  
 يعضّ بالبيض ويخطو بالقنا  
 كبارقٍ طار وصبوبٍ قد هَمَا (١)  
 معتصما بأيده وكيدو (٢)  
 ملتزما طائرته في عنقه  
 مواصلُ الغدو والرواح (٣)  
 يكاد يشوي ما يصيد الصائد  
 لحصد أعمار الطيور مرسل  
 أهرت وثاب الحُطا ممشوق (٤)  
 ياعجبا منه لطاوٍ ناشرِ  
 ويسبق الوهم لإدراك المنى

(٤) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الشدق .

(١) الصوب : المطر . هما : سال

(٢) الأيد : القوة

(٣) مسبل : مرسل

وإنما تمثلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لندل على أن أرجوزة الطرد والصيد المليئة بالألغاز الغريبة عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محمّله بصور بديعة ، فقلّة الصقر كأنها شلعة نار ومخبله كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحادّة ويخطو بسيفان كأنها القنا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمدح الأفضّل وبحق سماها : « نظم السلوك في مصايد الملوك » .

ومدوحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مدح له الحرارة التي ألفناها في مدح الأفضّل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله بقول :

ياناصر الدين والدنيا لقد نفذت أقلام مدحك في الدنيا بسلطان  
دانت لك الخلق من بدو ومن حضر وفاض جودك في قاص وفي داني  
هذي المدائن من أقصى مشارقها لمنتهى الغرب في طوع وإذعان

وله وراء مدح السلاطين والأمراء والعلماء والكتّاب مدح نبوي رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدي محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدي قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحاها بقوله :

أفي كل يوم منك عتب يسوءني كجلمود صخر حطه السيل من عل

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « خبز الشعير » السالف . وصنع ابن نباتة صنيعه فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استهلها بقوله :

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلا بعض هذا التدلل  
وابن نباتة كثير الشكوى في شعره من بؤسه ورقة حاله ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذي غمره بنواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله :

لقد أصبحت ذا عمر عجب عجب أقضى فيه بالأنكاد ووقى  
من الأولاد خمس حول أم فواحرابه من خمس وسيت

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسمى سته أو سيدته . وكان مرزاً ، حتى ليقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمنهل الصافى إن كثيرين من أولاده توفوا فى سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثيهم مرثى كثيرة ، وله رثاء حار فى السلطان المؤيد وابنه الأفضل . ويقول الشوكافى : هو أشعر المتأخرين ولاسما فى الغزليات .

### عبد الله<sup>(١)</sup> الشبراوى

من بيت علم وجمالة ، كما يقول الجبرى ، ولد فى سنة ١٠٩٢ ومضى فى نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأملى وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق فى الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر فى سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومنزلة عظيمة عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم فى مدة مشيخته للأزهر مقام على وهيبه وتجلته عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان فى الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاف فى مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرى : « وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع مشهور بأيدى الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح فى ولاية مصر العثمانين ، وأهم وال دُبَّج فيه مدائح عبد الله الكبورى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحيه له ، إذ يقول الجبرى عنه : « كان خيراً صالحاً منقاداً إلى الشريعة أبطل الخفارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلُ المكرمات ابنُ الكبورى كريمُ الطبع والأصلِ الشَّهيرِ  
أقام العدلَ فى مصرٍ وأحياناً معاملةً بها بعدَ الدُّثورِ

وإن لمعت صوارمه بأرضٍ      تسارعت العصاة إلى القبور  
وإن حادثته في العلم تلقى      بجوراً موجهاً درُّ التحور  
وإن ساومته شعراً فحدثت      عن ابن أبي ربيعة أو جرير  
وإن تسمع تلاوته تجده      حكى داود يلهج بالزبور  
أدام الله دولته بمصر      ومتعنا به دهر الدهور  
وأنقذنا به من كل كرب      وكف بعزمه أهل الفجور

ونسبح القصيدة جيد ، والشبراوى يمدح الكبورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، ويتوه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره . وقد مضى فى القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسى ونوابغ الكتاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن المالك تقاريط الكتب والمصنفات الأدبية والبلاغية ، وللشبراوى من تقريظ لبديعية وشرحها على بن تاج الدين :

أذاك نغر تسمم      أم ذاك لطف تجسم  
أم روضة قد تغنى      شحورورها وترنم  
أم الصبا حين هبت      أزال الهمة والغم  
قد كنت أعتب دهرى      وأحب الدهر أعقم  
حتى رأيت عجيباً      من فضلك الباهر الجم  
فكل لفظك لطف      وكل معنك محكم

والتقريظ طويل إذ تحوّل به الشبراوى إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكائه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أمير أو يتوفى هو أو بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتا فى تلك المناسبة ، إذا حسبت حروف الكلمات فى شطرها الأخير بحساب الجمّل أرخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوى يشارك فى هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألت الشعر هل لك من صديق      وقد سكن الدلنجاوى لحدّه  
فصاح وخر مغشياً عليه      وأصبح ساكناً فى القبر عنده  
فقلت لمن أراد الشعر أقصر      فقد أرخت : مات الشعر بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائح على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أعدّ خبِرَ العُدَيْبِ وساكنيه وكرّرَ طيبَ ذكْرهمُ عليّا  
فإنهمُ - وإن هجروا وصدّوا أحبُّ الناس كلَّهمُ إليّا

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .

## ٥

### شعراء المراثى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، وولتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاء الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرّ بنا - ممدّحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصبغ بنحو شهر ، فبكاها الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارس بمصر وجيش العباسيين يطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكأنا عزّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونخصى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مراثٍ مختلفة لنفر منهم ول بعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مراثية خلفتها تلك الحقبة مراثية المعلّى الطائى لجاريته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتظلّ الدولة الطولونية مصر ، ومرّ بنا ما كفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانه صور بارزة له ولحظاياه وعلى رؤسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأعدت الدولة على الشعراء إغداقا واسعا ، فلما قضى عليها جيش الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكأها الشعراء وبكوا آثارها



بدموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم (١) :

قِفْ وَقْفَةً يَفْنَاءَ بَابِ السَّاجِ وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ (٢)  
 وَرَبِيعِ قَوْمِ أَزْعَجُوا عَنْ دَارِهِمْ بَعْدَ الْإِقَامَةِ أَيْمًا لِمَزْعَاجِ  
 فَانظُرْ إِلَى آثَارِهِمْ تَلَقَى لَهُمْ عُلَمَاءُ بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَفِجَاجِ (٣)

ولسعيد القاص مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي (٤) في كتابه الولاية والقضاة ،  
 واقطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مرثى الشعراء للدولة وما كانت  
 أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا  
 من سكانه :

بِاللَّهِ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ أَحْبَبْتَنَا أَمْ هَلْ سَمِعْتَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِنَا خَبْرًا

وتكاثر الشعراء - كما مررنا في غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم ييكونوا  
 حين دخل جوهر الصقلي مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك  
 إلى أن مدة الإخشيد لم تطل ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان  
 كافور مدبر مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفى  
 فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا  
 شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسي ببغداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمي بقيادة  
 جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة  
 فلم ييكنها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مرثى مختلفة لعيم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر  
 أولاده ، وكان المظنون أن يتخذه ولي عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرف ولاية العهد  
 عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفى مبكرا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذي تلقب بلقب  
 العزيز ، ولعيم مرثية في أخيه عبد الله مطلعها (٥) :

كُلُّ حَيٍّ إِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ وَاللَّيَالَى تَعْلَةٌ وَغُرُورٌ

وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(١) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وانظر الولاية والقضاة ص

(٤) الولاية والقضاة ص ٢٥٣ .

(٥) ديوان عيم بن المعز لدين الله الفاطمي (طبع دار

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٣) الثنية : الطريق في الجبل ، والفجاج : الطرق .

الكتب المصرية) ص ١٤٧ .

ويكى شابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلمَّ بأبيه المعز سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقدته ، وهو شيء طبيعي لتنتحيت له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويكى فيه الحسين الشهيد وآبائه الفاطميين . ويكى جارية له بكاء فيه غير قليل من اللفظة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويكى بالمثل قينة امغنية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو يكيه بكاءً مؤثرا قائلا<sup>(١)</sup> .

نَحَرُوهُ غَيْرَ مَذْمُومٍ نَحَرَ الْهَدَايَا لِلضَّحِيَّةِ

ويصور موقعة كربلاء وما سُفك فيها من دماء البيت العلوي ، ويصف موكب النساء اللاتي كنَّ مع الحسين وهنَّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمنهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالآثات واللوعات الممضتة . وملتقى بالمسبحي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> .

وباليتنى للموت قُدمتُ قبلها وإلا فليتَ الموت أذهبنا معا

وتكثر مرأى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي للمستنصر ، إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَدَى ولا أمرُه أمرٌ يقاسُ به أمرٌ  
وقد بكت الخنساء صخرًا وإنه ليكيه من قَرَطِ المصاب به الصَّحْرُ

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الدمياطي في مرثية<sup>(٤)</sup> :

يا فجعَةً هي في الجنان مسرَّةً لقدومه تخال في عُرفاتها  
إن كان في الدنيا عليه ماتمُّ فأراه عرسَ الحورِ في جَنَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم ييكها المصريون ولا ودَّعوها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣١/١ .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضوع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عمارة البغلي الذي ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربي . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية ، وراثه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العماد الأصبهاني في رثائه (١) :

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً ، قد عمّ كلّ العالمين مماتُهُ  
لو كان في عصر النبي لأُنزِلَتْ في ذِكْرِهِ من ذِكْرِهِ آيَاتُهُ  
ياراعيا للدين حين تمكنت من كل قلب مؤمن روعاتُهُ  
فعلى صلاح الدين يوسف دائما رضوان ربّ العرش بل صلواتُهُ

وهي مرثية طويلة في مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده في الدين واستبساله في حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم في الشام ما حقاً لهم محققاً ذريعا . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تغية آثار العزيز ويبكى القاضي الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطبا القصر (٢) :

وكم قد حَجَجْنَا فيك للمجدِ كعبةً وكم قد أفننا فيك للحجّ مؤسماً  
وكم قد وجدنا فيك رافةً راحةً تقبلُ إذ تُعطي حطيماً وزمماً

ولابن سناء الملك مرثيات مختلفة في أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله نذب رائع في أبيه ، تنهر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى مفضة ، وما يزال يندبه ويبكيه قائلاً (٣) :

ويا أرضه إن ينكسف بكِ بَدْرُهُ فما برحتُ في الأرض تُكسِفُ أقمارُ

وبنفس اللوعة والحرقه لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا في عينه ، ومحس كأنما كان في فردوس معها من فراديس الجنان وأُخرج منه إلى غير أوبة يقول (٤) :

لهفَ نفسي عليك ياما بقلبي منك ياطول حسرتي وعنائِي  
كنتُ في جنةٍ فأخرجتُ منها واستعادَ العطاءَ ربُّ العطاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدر آباد) ص ٣٢٣ .

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خاتمة كتابه البرق الشامي .

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(٢) ديوان القاضي الفاضل (نشر بدوي) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللفظة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أورحمة ، ويظل يئن ويسكب دموعه إلى أن يقول (١) :

وآنسى من بعدها طولُ وحشتي وضاجعني في مضجعي بعدها كزني  
أيا تُرْبُ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِهَا أَهَذَا صَنِيعُ التُّرْبِ بِالْغُصْنِ الرَّطْبِ

ويشتهر ابن النبيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهي من بدائع المراثي ، إذ يعزى الناصر عن ابنه في أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله (٢) :

الموتُ نَقَادٌ عَلَى كَفِّهِ جَوَاهِرٌ يَخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادُ  
والمَرءُ كَالظِّلِّ وَلَا بَدَّ أَنْ يَزُولَ ذَاكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدَادِ

ولا يموت سلطان أيوب بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعاً ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح (٣) :

يَابَعِدَ اللَّيْلُ مِنْ سَحْرَةِ دَائِمًا يَبْكِي عَلَى قَمْرِهِ  
خَلَّ ذَا وَاَنْدَبَ مَعِيَ مَلِكًا وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

وحقاً ولَّت دنیا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الورا حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع في حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيي الدين (٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور  
قلاوون لمحيي الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة  
والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .  
(٢) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسعد) ص ١٠٤  
وما بعدها .

(٣) فوات الوفيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزمَ التتارَ فأصبحوا تغتالم عند الكرى الأحلام  
هذا الذى قهر الفرنج فكلمهم تُرديهم من رُعبه الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .

ومر بنا الحديث عن ابن نباتة ومدوحه السلطان المؤيد الذى دَبَّج فيه غرر المدائح ، حتى إذا مات رثاه بمرث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مرثيه :

نعى المؤيد ناعيه فوا أسفا للغيث كيف غدت عنا عَواديه  
واروَعنا لصباح من رزيتيه أظن أن صباح الحشر ثانيه  
ليت الحجام حبا الأيام موهبة فكان يُفنى بنى الدنيا وبقية  
ليت الأصاغر يُفدى الأكبور بها فكانت الشهبُ فى الآفاق تُفديه

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتمنى لومات الناس جميعا فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تفديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولاتهم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ للهجرة<sup>(١)</sup> :

أفى أمانٍ وسيفُ الأمن قد غمدا وبدرُ أفق سماء العدل قد فُدا  
وشمسُ نصرٍ عباد الله قد كُسفت ودولة العز ماتت بالذى لُحدا  
كم قد أغات فقيرا من ظلامته وأبدل الجور عدلا والفسوق هدى

وتكثر مرثى العلماء الأعلام وتكنظ بمرثيهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ، من ذلك قول<sup>(٢)</sup> عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين توفى سنة ٩١١ :

مات جلال الدين غوثُ الورى مجتهدُ العصر إمامُ الوجود  
فيا عيونُ انهملى بعده ويا قلوبُ انفطرى بالوقود

ويروى الجبرتي أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وه

(٢) بدائع الزهور لابن لياس ٦٣/٣ .

(١) الجبرتي ١/١٢١ .

السيد حسين الإدكاوى قصيدة أشدت وقت الصلاة عليه مطلعها<sup>(١)</sup> :

ما بين حرقة أدمعى وتولهي نَارٌ يُوجِّجها لهيبُ تولهي  
يا أرضُ ميدى ياسماءُ تشقُّقُ ياشمسُ نوحى يانجومُ تأوهى

والمبالغة واضحة في البيت الثاني

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيئارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوظ التي كتبت عليهم فيها ، ومن نزول المصائب التي تعصف بهم ، من مثل قول تميم بن المعز<sup>(٢)</sup> :

أما والذي لا يملك الأمر غيرهُ ومن هو بالسرِّ المكنم أعلمُ  
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا لإعلانها عندي أشدُّ وآلمُ  
صبرتُ عن الشكوى حياءً وعفةً وهل يشتكى لدغ الأرقام أرقم<sup>(٣)</sup>  
وبى كلُّ ما يُيكى العيونَ أقله وإن كنت منه دائمًا أتيسمُ

وكان تميم يعيش في نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزير الفاطمي . وعاش تميم يتجرع مرارة هذه الغصة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التي كان ينفس بها عما يجثم في دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد<sup>(٤)</sup> :

ولى هممةً تبغى النجومَ وحالةً تصحف ماتبعيه فهو لنا ضدُّ  
إذا رفعتنى تلك تخفضُ هذه فكلُّ تناوٍ فى إرادته الحد<sup>(٥)</sup>  
فما حالُ شخصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ وليس له عن واحد منها بُدُّ  
تولتنى الأرزاءُ حتى كأنما فوادى لكفى كلُّ لاطمةٍ خدُّ

فهتمته ماتزال تصعد به حتى يصفح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدرك

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٢ .

(٥) الحد : المنح .

(١) تاريخ الجبقي ١٨٩/١ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الأرقام : الأفعوان .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة مايزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمال طنطا ويقول العماد :  
كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له <sup>(١)</sup> :

لقد بكرتُ تلومُ على خمولى كأن الرزقَ يجلبهُ احتيالي  
وكم أدليتُ من ذلِّو ولكنْ بلا بللٍ يردُّ على قذالي <sup>(٢)</sup>  
وكم علقتُ أطاعى رجاءً بخلِّبِ بارقي ووميضِ آل  
ولا أنا بالكفافِ النَّزْرِ راضٍ ولا أنا عن طِلابِ الكُثْرِ سالو

فصاحبه تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس في يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلاؤهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حريًّا به أن يرضى بالنزر القليل .

وتحفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا في بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك <sup>(٣)</sup> .

ياخَيْبَةَ الحُرِّ الذى لم يلق فوق الأرض حراً  
وإذا اشتكى فقراً أسا ل الدمع من عينه تيراً  
والخلقُ تُذرى الدمعَ ما وهو يُذرى الدمعَ جَمراً  
وإذا تملكتِ اللثا مُمُ فإن موتَ الحُرِّ أحرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوماً ، فقد كان يعيش في مجبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه ، وهي فعلا أبيات عارضة في ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بنحفة الظل التي عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضرباً من الفكاهة أحياناً على

(٣) الديوان ص ٣٢٨

(١) الخريدة ٤٦/٢ .

(٢) القذال : القفا .

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وسترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفلكاهة .  
ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر  
- كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

ياسيدي دعوة ذى حالة أحالها الدهر وعدوانه  
تفليس في الشام بعد الغنى يقضى بأن القلب حرأته  
فارق أولادًا وأهلا وما تحملت للبين أظعانه

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضعف وضيق العيش ، وقد فارق  
أولاده وأهله بيتغى أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوتى بسطة من الرزق . ويردد ابن  
نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن المماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة  
الحياة وعيشها البائس المضحى . وساعد على ذلك أن المماليك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية  
الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبقون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان  
نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبوا  
نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إغلا في البؤس واليأس والشكوى  
المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا  
العصر .

### على بن النضر<sup>(١)</sup>

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن برى وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب  
سبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابيين ، تولى قضاء الصعيد  
وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويبدو أن موهبته الشعرية  
استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان  
الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكثر أعيان أسوان . ثم قصد بمديحه الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا  
للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(مصر) للهاد الأصهباني ٩٠/٢ والطالع السعيد ص ٢٢٠  
والبيغة للسيوطي ص ٣٥٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت  
أمية في نوادر المحفوظات لعبد السلام هرون (المجموعة  
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء



افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذقوي صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خدمة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الحية والحمران :

بين التعزُّزِ والتذللِ مسلِّكٌ      بادى المنارِ لِعَيْنِ كلِّ موفِّقٍ  
فاسلِّكهُ في كلِّ المواطنِ واجتنبُ      كِبرَ الأبيِّ وذِلَّةَ المتملِّقِ  
ولقد جلبتُ من البضائعِ خيرها      لأجلِّ مختارٍ وأكرمِ مُتَّقِ  
ورجوتُ حَفْضَ العَيْشِ تحتِ رواقه      لا بدَّ إنْ نفقتُ وإنْ لم تَنْفِقِ  
ظَنًّا شبيهاً باليقينِ ولم أخلِّ      أنْ الزمانِ بما سقاني مُشْرِقِ (١)  
لأقارعنَّ الدهرَ دونَ مروءتى      وحرمتُ عَزَّ النَّصْرُ إنْ لم أَصْدِقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعروا خدhem كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يسيما أنفسهم ذل الملق والمهوان ، وليتخذوا منه وما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه . وفرغ إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتهان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْفِي لِمَلِكِ قَنَاعَةٍ لَوْ أَنِّي      مَتَّعْتُ فِيهِ بَعْرَةَ الْمُتَمَلِّكِ  
وَلَكُنْتُ يَا سِ كُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُهُ      لَوْلَمْ تَعَيْتُ فِيهِ الحَطُوبُ وَتَفْتَكِ  
أَلَيْتُ أَجْعَلُ مَاءَ وَجْهِ بَعْدَهُ      كَدَمٍ يُهْلُ بِه الحَجِيجِ بِمَنْسِكِ  
لَا أَنْشَأْتَنِي الحَادِثَاتُ لِمِثْلِهَا      وَرُمِيتُ قَبْلَ وَقُوعِهَا بِالمَهْلِكِ

لقد أضع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضع معه كثر يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان معتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلى أغصن بما سقاني .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذلّه ،  
ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يا مستجيبَ دعاءِ المستجيرِ بهِ      ويا مفرجَ ليلِ الكربةِ الداجيِ  
قد أرتجتُ دوننا الأبوابُ وامتنعتُ      وجلَّ بأبك عن منعِ وإرتاجِ  
نخافُ عدلكَ أن يجرى القضاءُ بهِ      ونرتجيك فكنُ للخائفِ الراجيِ

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغمّ ،  
وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يغلث الله  
عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يانفسُ صبرا واحتسابا إنها      غمراتُ أيامِ تمرُّ وتنجلي  
لا تياسى من رُوحِ ربكِ واحذري      أن تستقرى بالقنوط فتخذلي

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذى يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف  
عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تياس من روح ربها  
فإنه لا يياس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأحواله .

وكان على بن النضر يمجيد الرثاء كما يمجيد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مرثية بديعة فى إبراهيم  
ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها  
بقوله :

يامرؤنُ ذا جدتُ الرشيدِ فقِفْ معي      نسفحُ بساحتهِ مزادَ الأدْمَعِ (١)  
وامسحُ بأردانِ الصِّبا أركانهُ      كى لا يلمَّ بهِ شحوبُ البلقعِ  
وبودُ نفسى لو سقيتُ ترابهُ      دمَ مُهجتيِ ووقيتهِ بالأضلعِ

وهو يتجه إلى الزمن أو السحاب الممطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ،  
بل ليسفحها معا عليه قربانا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأكام الصِّبا أركانه ، حتى يظل  
ناضرا لا يلم به شىء من شحوب البلقع أو القفر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو فداه بروحه  
وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره ملئناعا بقوله :

(١) مزاد : جمع مزادة وهى القرية .

لَتَنْفَسْتُ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوقَةً      بِنَسِيمِ مِسْكِ رِيَاضِهَا الْمَتَضَوِّعِ  
 أَوْ مَا عَجِبْتَ لِطُودِ عَزٍّ بَاذِخٍ      مُسْتَوْدَعٍ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ  
 وَلِحْدًا مَنْ وَطِئَ الْكَوَاكِبَ رَاقِيًا      كَيْفَ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا بِالرِّمْعِ  
 وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رُبُوعِكَ شَاكِيًا      وَبِهَا الَّذِي بِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصبا العطرة بمسك الرياض ذكي الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى النزول تحت الريمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - يمتلىء حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبية .

### علي بن عَرَام<sup>(١)</sup>

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل القسطنطينية ويأخذ عن علماءها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه أثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن متقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهاني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حيٌّ في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حنين بالغ ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في فؤاده إذ يقول متلهفا في العودة إليها حين نفاه بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارِكُ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاخِنِي      عَنِ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الزُّلَالِ الَّذِي يَجْرِي  
 مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَنَى ظِلُّهُ      وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ القَطْرِ

فهو يتمنى وقت قيلولة بأسوان وشربة من مائها السلسبيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يمانئه فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

المخاضة ١/٥٦٥ .

(١) انظر في ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٦٥/٢ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله وبضاهيه في نبهه ». ويشيد به وبشعره العباد الأصهباني إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائع ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ<sup>(١)</sup> اسلِحِر . . ولاين عَرَّام في ميدان النظم عَرَّام<sup>(٢)</sup> ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء<sup>(٣)</sup> نار الذكاء ضيرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فدَامِه<sup>(٤)</sup> ومزوج مدامه حرام ، اعجب : بحر في الصَّعيد<sup>(٥)</sup> يُقصدُ بالتيمم لئانه ، ونجم في صعود السعود لا يَرْتَقِي إلى سماءه ». ويتلو العباد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياةُ غرورٌ كَسَرَابٍ بدا لنا في فِجاجِ  
تَتَبِعُ الحُلُوَّ من جَنَى عَيْشِهَا الحُلْدَ وَ يَمُرُّ من الرِّزَايا أجاجِ<sup>(١)</sup>  
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعةً ثم أرهقوا بانزعاجِ

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحُلُو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهي قرارهم ومنزلهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مراثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لِسود الخطوبِ غَيْرِكَ يُجَلِي هـا وقد غاب منك بدرٌ منيرٌ  
مَنْ يَحُوْكَ القَرِيضَ مِثْلَكَ يُسْدي هـ على خَيْرِ قِ بهِ وَيُنيرُ<sup>(٧)</sup>  
ليس في العَيْشِ بعدَ فِقدِكَ خَيْرٌ حَبْدًا وافدُ الرَّدَى لو يزورُ  
كان ظنِّي إذا المنايا انتحنتا أني أَوْلُ وأنت أخيرُ<sup>(٨)</sup>

- (١) حسر : انكشف .  
(٢) عرام : قوة وشدة  
(٣) إذكاء : إيقاد .  
(٤) الفدام : ما يوضع على فم الدن لتصفية ما فيه .  
(٥) الصعيد : الوجه القبلي وهي أيضا وجه الأرض  
(٦) أجاج : شديد الملوحة .  
(٧) يسدي : من السدى وهو ما يمد طولاً في النسيج .  
(٨) انتحنتا : قصدتا .  
ينير : يلحم أو يجعل له لحمه وهي ما يمد عرضاً في النسيج  
يريد أنه يحكم الشعر إحكاماً دقيقاً

كيف لي بالسَّلْوُ عنه وطىُّ الـ قلب من فقهه جَوَى منشورُ  
فَسَقَى قبره نداءً ففيه لِشراه غِنَى ورىُّ غَزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط نديه بتأينه ، إذ فقد البدر الذي كان ينير في دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذي كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعم في دنياه وكل خير ، حتى ليرتمى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منطو على نار من الجوى لا تحبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداء وكرمه الذي طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شأيب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استهلها بقوله :

الرَدَى للأنام بالمرصادِ كل حَىٍّ منه على ميعادِ  
كيف يُرَجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعا على الأصدادِ  
فإذا سرَّ ساء حَتْمًا وَيَقْضَى بوجودِ إلى بلىِّ ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون في قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبالها من سخرية للزمان ، فإنه لا يبقى للإنسان على شيء ، وحتى لو سره يوماً لساءه يوماً أو أياما ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى في نفس القصيدة أو المراثية قائلا :

نحنُ في هذه الحياة كسَفَرٍ ربما أَعْجلوا عن الإروادِ (١)  
عَرَسوا ساعةً بها ثم نادى بالرحيل المجدِّ فيهم مُنادٍ (٢)  
كم أبٍ والهٍ بِشُكْلِ بَيْنِهِ كم يتيمٍ فينا من الأولادِ  
يدعَى المرءُ لِرثِّ أرضٍ ودارٍ سَهَّاهَا غيرَ لائقٍ بالسَّدادِ  
وهو موروثُها إذا كان يَبْقَى وهى تَبْقَى على مَدَى الآبادِ  
وقَصَّاراهُ أنْ يَشِيعَ مَحْمُو لَأْ بِأَكْفانه على الأعوادِ

(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

(١) الإرواد : الإمهال .

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في التمهّل والوقوف ، إنها لا تريد عن ساعة تتزلفها قافلة ، وسرعان ما يصبح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يبكي وينوح وبين أنيناً لا ينقطع ، أب يئن ويذرف الدموع مدراراً على أبنائه ، وأبناء أيتام يثنون ودموعهم لا تجفُّ ولا ترقأ على آباؤهم وأمهاتهم ، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يجوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها ومملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُرِّ الدهور ، وما أعظمها عبرة ، فكل إنسان مها بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغبرة محمولا على أعواد ، وسرعان ما يُلقَى عليه رداء التراب الثقيل . ويقول ابن عَرَام

وإذا الأهلُ والأقارب والأخذُ  
فالقبورُ البيوتُ مضجَعُنَا فيهِ  
كم أحال البلى إليه قديماً  
شاهدُ الموتِ لائحٌ في جبين الـ

سبابُ راحوا فأتت في الإثر غادِ  
ها وما إن سوي الثرى من وسادِ  
جَسَدًا ناعما من الأجسادِ  
حَيٌّ منا في ساعة الميلادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائح وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

### ابن النقيب<sup>(١)</sup> : الحسن بن شاوَر الكِنَافِي

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ الدمياطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينوه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن المخاضرة للسيوطي ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن  
العقاد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن النقيب : الحسن بن شاوَر المغرب في  
حل المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات  
الوفيات لابن شاکر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العقد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصاً مجسداً من الفضائل معنونا عن بيته - إذ يُنسَبُ إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الشرائع » وصنف كتاباً سماه « منازل الأحاب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندي من أفراد شعراء العصر المتغلغلين في الغوص على المعاني الخائزين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه الثالث والمثاني » ويقول ابن شاعر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللاتفة المتمكنة . وهو أحد فرسان تلك الحلقة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاعر يقصد بالحلقة السراج الوراق والجزار والحمامي الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لحنه روحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُدْرِيُّ فاعذُرْنِي وسامحْ      وجِرُّ عَلِيَّ بالإحسان ذَيْلاً  
ولما صِرْتُ كالجحون عِشْقاً      كتمتُ زيارتي وأتيت ليلاً

وكلمة « ليلاً » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبه « ليلى » . وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديته ، ورقة حسه ، وله غزل بديع سنشده منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أياساكني مصرِ غدا النيلُ جارِكم      فأكسبكم تلك الحلاوة في الشُّعْرِ  
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى      سوى أثرٍ يبدو على النظم والثُّعْرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبُنْ سحرَ البيان بأرضنا      فكم فيه موسى مبطلُ آيةِ السُّحْرِ  
ولا رِقَّةَ الشعر الذي كان أولاً      وكيف رقيق الشُّعْرُ مع قسوة الدهر

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المالك أو أنه أثار الغزلة مكتفياً بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلاً بالمالك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغري بردى ،

مما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شطِّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوّر انتصاره تصويرا ارائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثر حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

نحن	إلا	قطاعة	الأجناد	وبرايات	غرَّ هذا	النادى <sup>(١)</sup>
نحن	إلا	حكاية	وخيال	وحديث	لحاضر	ولبادي
نحن	إلا	غسالة	لمراق	لقدور	تفرغت	وزبادي
نحن	إلا	زبالة	ضمَّها الزب	ال	فوق	الأكوام للوقاد
جردونا	فما	قطعنا	فردو	نا -	وقد أحسنوا -	إلى الأغناد
وعرضنا	على	براذين	جيشي	ما	استعدت	لحملة وطراد <sup>(٢)</sup>
ورماح	لم	تعتقل	لطعان	وسيوف	ما جردت	لجلاد
فهي	لا فرق	في يد	الفارس الكش	حان	منا أو	في يد الحداد

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذي يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التتاري ودحره دحرا لا تقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهما : ما نحن إلا نحاتة الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحدث مردد ، بل غسالة لمراق بل زبالة ، ولعله يباليغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جردوهم لينظروا إلى أي حد هم سيوف قاطعة فلما لم يقطعوا ردهم إلى الأغناد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التي ركبوها ، فإنها

(٢) براذن جمع برذون : بغل ضخيم .

(١) القطاعة : النحاتة كالبراية .



لم تكن ممزنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضا فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للنزال ، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أو في يد الحداد كي يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يا قُفْلَ بابِ الرِّزْقِ يا ذا الذي مازال عند الفتح قُفْلاً عَسِرَ  
أفرطتَ في العُسْرِ ولا بَدْءَ أَنْ تنفِشَ أو تندقَ أو تنكسرَ

وهو يشعر كأن باب الرزق أُغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك ، ويأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفش وتفتح أغلاقه أو يندق أو ينكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وجرّدتُ معَ فقري وشيخوختي التي تراها فنومي عن جُفوني مشرّداً  
فلا يدعى غيري ثيابي فلنبي أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ الجرد

وحتى ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهّد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهي على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء ، حتى يقول :

لا تَتَّقِ من آدميٍّ في ودادٍ بصفاء  
كيف ترجو منه صفوا وهو من طينٍ وماء

فظيبي - في رأيه - أن لا يُصنَى إنسان لصديقه إنحاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

### عبد الله <sup>(١)</sup> الإدكاوي

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتّاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أمّه ذهب في طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها في زمنه ، واشتهر بأدبه

(١) انظر في ترجمة الإدكاوي وأشعاره تاريخ الجبرق ٣٥٢/١ وراجع ٢١٠/١ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ .

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبهر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحفي ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يا بهجة العصر يامنح كلُّ علًّا يأمحييَ الدين بالآثار والسِّنن

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوّح روض عزه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدررة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانت سعاد للسيوطي ومنظومة في علم العروض والمقامة الصحفية ضمنها ألفاظ تتغير معانيها بالتحصيف ومقامة أخرى مجنونة ، وبضاعة الأريب في شعر الغريب ، وهي مجموعة من أشعاره . وله أيضًا تحميس بانت سعاد والدر المنتظم في الشعر الملتزم والفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحدا ، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحِدُ من تفرَّدَ بالعطا فنائحُ الأجواد بعضُ هباته  
الفارسُ المقدمُ في يومِ الوغى والمرهبُ الآسادِ في وثباته

ومن تصانيفه « الدر الثمين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهلجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوي تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريري في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهي تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ما كانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لَخِلُّ إنَّ أَسَا وائسَ لَخِلُّ إنَّ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطقة كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائتي قالت لنا بين الربا بمقدمات ما بها ليهام<sup>(١)</sup>  
برهان سعدى الآن أنتج قائلا دَع وَجَنَّةَ المحبوب فهي ضرام

وله مرثى مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعاته وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتفجع عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، وله فيه مرثيتان مطلع أولاهما :

مَضَى عالمُ العصرِ الإمامُ لرَبِّهِ حميدَ المساعى فاندبته وبالغ

وفي خاتمتها ينشد :

ولما قضى ذاك المهذبُ نَحْبَهُ وآبَ برضوانِ من الله سابع  
دعوتُ أحبَّائي وقلت لهم قفوا معى عند ذا التاريخ نبكى المدابغى

ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته المحنُ وفي تلونه قد حارتِ الفِطْنُ

ويختتمها بقوله :

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرِّخةً حُلِيَّتْ من حُلَلِ الأبرارِ يا حَسَنُ

ولم ينشد له الجبرقى شيئا من مرثيه الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدابغى ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعرى إذا دَنَا يارِفاقى أَجلى ثم هَيَّئوا لى تُرابى  
واغْتدوا بى إلى مَحَلٍّ بِهِ صَحْ جى جَفَونى وليس يُرَجى إيابى  
هل إذا غَرَبُوا الترابَ أَيْلَقُوا ذرَّةً من عَظْمى فيالمصابى  
وَيْحَ هذى الدنيا التى تحرق الأَكْ سبادَ قد مَرَّقتْ بِلِحْدَى إهابى  
وبذاك القَفْرِ اغتديتُ رَهينًا ليس لى من زادٍ ولا من رِكابِ

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيعون يحملون نعشه إلى مثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده في التراب ولم تبقى من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويكيها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا حبيسا لازادا ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنه الشعراء المصريين في زمنه .

## ٦

## شعراء الدعوة الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانئ وسنخره بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجده يخاطبه بقوله في إحدى مدائحه (١) :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحتَ في البرايا ووارثُ الأنبياءِ

والحُجَّةُ عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمضى في الديوان وفي قراءة مدايحه للعزيز ، وسرعان ما نلتقي بقوله فيه (٢) :

وهو لسان التَّقَى ومقلته	وهو يمينُ العُلا ويُسرّاهَا
صُورٌ من جوهر النبوة إذ	كان الورى طينةً وأمواها
فن يُطعُه يَفْرُ بطاعته	ومن عصاه فقد عصى الله

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلُقوا من جوهر لطيف مصفًى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفافه . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً<sup>(١)</sup> :

أنت المسمًى المرجى قبل مولدو والخامس القائم المذكور في الكتب  
وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالي وصى لسلفه كما قدر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سراً . ويقول تميم أيضاً في العزيز<sup>(٢)</sup> :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر  
نورٌ لطيفٌ تنهى فيك جوهره تناهياً جاز حدَّ الشمس والقمر  
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهوى وبسط الأرض والمدبر  
والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبته إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلاً ممثلاً للعقل الكلي الفعّال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زورا وبهتانا . وتمام يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهوى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونمضى في قراءة ديوان تميم فنجده يقول في إحدى مدائحه للعزيز<sup>(٣)</sup> :

وإنَّ جميع الغيب لله وحدهُ تبارك من ربٍّ ومن صمَدٍ وترٍ  
وما علمتُ منه الأئمة إنما رَوَّه عن المختار جدِّهم الطَّهرِ

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

وتتم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جل شأنه : ( عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تباد في الغلو والمهتان .

وسرى ابن هانئ يتمادى مثل تميم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفهما في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان إيرانياً ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هانئ ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردّد هذا النغم الإسماعيلي الغالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ وسترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربي وليس مصرياً ، ونرى العماد الأصبهاني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الأمر قاتلاً (١) :

إلى ذرورة النور العلائى إنه إلى ذرورة النور الإلهى ينسب

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهى الذى يعم الأكوان . ويذكر له العماد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه (٢) :

صرف جزيالو يرى تحريمها	من يرى الحافظ فرداً صمدًا
بشر في العين إلا أنه	من طريق العقل نوراً وهدى
جل أن تذكركه أعيننا	وتعالى أن تراه جسداً
فهو في التسيح زلقى راع	سمع الله به من حمداً
تذكر الأفكار فيه نبأ	كاد من إجلاله أن يعبدًا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصدمية ، وكان دعواتهم يزعمون أن الله

ينبغي أن يتزّه عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلي الأول وأسمائه . ومرّبنا آتفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممثول الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسمائه وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخصش يخلى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى ليكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعايتها ، إذ يُروى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين <sup>(١)</sup> :

خشوعاً فإن الله هذا مقامه وهمساً فهذا وجهه وكلامه  
وهذا الذي في كل وقتٍ بروزه تحيَّاته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسّد المسيحيون الرب في المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع <sup>(٢)</sup> في مدائح بني أبي أسامة كُتاب الإنشاء في عهد الحافظ والآخر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأميني في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العباد الأصهباني في الخريدة إذ أنشد له شعرا في ابن <sup>(٣)</sup> رزيك الوزير الفاطمي من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل علي بن أبي طالب وبكاء الحسين أنشدتها صاحب «الغدير» وفيها يقول <sup>(٤)</sup> :

يا آل أحمد كم يكابد فيكم كبدى خطوباً للقلوب بواكى  
كيدى بكم مقروحةً ومدامعى مسفوحةً وجوى فوادى ذاكى  
وإذا ذكرتُ مصابكم قال الأسى لجنونى اجتنى لذيذ كراك <sup>(٥)</sup>  
وابكى قتيلا بالطفوف لأجله بكت السماء دماً فحق بكاك

وهو يغلو في مديح علي بن أبي طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُحّرت له رُحاء ، ويقول إنه

(١) خطط المقرئى ٢١٤/٢ .

(٤) شعراء الغدير ٣١٣/٤ وانظر أدب الطف ٣٢٨/٢ .

(٥) كراك : نومك .

(٢) الخريدة ١٠٥/٢ .

(٣) الخريدة ٢٣١/٢ وما بعدها

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانيء والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

### ابن هانيء<sup>(١)</sup>

هو محمد بن هانيء المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبى صفرة الأزدى القائد المشهور فى زمن بنى أمية ووالهيم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رَوْح واليه بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتهما بإفريقية ، وكان من سلالتهم أبو الشاعر هانيء ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أدبيا نزع إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلى هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أنه كان كثير الانهك فى اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أو لعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلى متابعا فى ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصح ممدوحه بالغبية عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية فى السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بديعة بمثل قوله فى جعفر :

المشْرِقاتُ النِّيرَاتُ ثلاثةُ الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ فى الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجج فى مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها فى صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدا فابعد فى مدائحه ، كما أبدع فى مديح قواده وخاصة فى جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يَمِّم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلها بقوله :

للسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدباء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وعبر الذهبى ٣٢٨/٢ والشذرات ٤١/٣ ودبوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر فى ابن هانيء وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطعم للفتح بن خاقان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجلوة للحميدى : ٨٩ وبغية الملتبس رقم ٣٠١ ونفع الطيب (الفهرس) والإحاطة



رأيت بعيني فوق ما كنتُ أسمعُ وقد راعني يومٌ من الحشر أروعُ  
غداةَ كأن الأفقَ سُدَّ بمثلهُ فعاد غروبُ الشمس من حيث تطلعُ

ونَوّه بالجيش وعِظمه، ورحلةِ جواهر المظفرة إلى الديار المصرية ، ولم يلبث جواهر أن أرسل إلى المعز يهنئه بفتح مصر سنة ٣٥٨ فهتف ابن هانئ فرحاً مستبشراً :

يقول بنو العباس هل فُتحتَ مِصرُ فقل لبني العباس قد قُضِيَ الأمرُ  
ومُدَّ جاوز الإسكندريةَ جَوهَرُ تصاحبه البُسرَى وَيَقْدُمه النَّصرُ

وجمع المعز أسبابه وتوجه إلى مصر سنة ٣٦٢ وشيعة ابن هانئ ورجع إلى أسرته بالمغرب لأخذها معه واللحاق به ، وتجهز وتبعه ، غير أنه اغتيل في برقة لشهر رجب سنة ٣٦٢ ويقال إنه لم يشيع المعز بل كان في صحبته إلى أن دخل مصر ثم عاد إلى المغرب لأخذ عياله ، واغتيل ببرقة كما ذكرنا . ولما بلغت المعز وفاته حزن عليه وتأسف قائلاً : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . ولعله لم يكن يريد أن يفاخر به من حيث روعة شعره فحسب ، بل كان أيضاً يريد أن يفاخر به من حيث استظهاره للعقيدة الإسماعيلية ومبادئها المفرطة في الغلو إفراطاً بعيداً حتى لتتحرف عن الإسلام وجادته .

وبمجرد أن نقرأ في ديوان ابن هانئ نراه يردد أن إمامة الفاطميين ربانية وأنها فريضة مكتوبة على كل مسلم وأنهم يتوالون بترتيب إلهي وأنهم معصومون من كل زلل وأن طاعتهم من طاعة الله من أطاعهم استحق رضوان الله ومن عصاهم كان مآله الخسران المبين ، يقول في المعز :

إمامُ رأيتُ الدينَ مرتبطاً به فطاعتهُ فوزٌ وعصيانُهُ خسرُ

وهم دائماً مبرأون من الذنوب مطهرون من الآثام ، بل هم نور الله ومشكاته في العباد ، يضيئون للناس حياتهم ، ويكشفون عنهم ظلمات الضلال ، وكأنهم يُتَمون نور الله أو كأنهم يشاركون فيه ، يقول في المعز :

وما كُنْتهُ هذا النورِ نورُ جبينه ولكنَّ نورَ الله فيه مشاركُ

ويكرر هذه الفكرة كثيراً في مثل قوله مادحا للمعز :

تَسْعَى بنورِ الله بين عبادِهِ لتضئَ برهاناً لهم وتُلوحا  
وجَد العيانُ سناكَ تحقيقاً ولم تُحِطِ الظنونُ بكنهه تصريحاً

وقد انتقل ابن هاني<sup>١</sup> بقلة واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضيائه فحسب ، أما هو فكانه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلاً :

أَتَبِعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيدٍ  
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بَرَهَانٍ يَلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ

وقد خطأ ابن هاني<sup>٢</sup> في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز مخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفي عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحهم بأن في الإنسان لا هوتا وناسوتا أروحا وجسما . وبالغوا فحلَّصوا - مثل ابن هاني<sup>٣</sup> - أئمتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحا أونورا خالصاً ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنرى ابن هاني<sup>٤</sup> يقول في المعز :

مَا شِئْتَ لَأَمَّا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

ويقول فيه أيضا :

نَدَعُوهُ مُنْتَقِمًا عَزِيزًا قَادِرًا غَفَّارًا مُؤَبِّقًا الذُّنُوبَ صَفُوحًا

فالمعز الواحد القهَّار المنتقم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعواتهم وشياطينهم أن يزهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبقوها على أئمتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يدانيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هاني<sup>٥</sup> في المعز من أنه مقسم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتَكَ مَنْ تَرَزُّقُهُ يَرَزُّقُ مِنَ الْوَرَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحَرَّمَ مِنَ النَّاسِ يُحَرِّمُ

فمن شاء رزقه ووسَّع رزقه ومن شاء حرمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هاني<sup>٦</sup> فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَرَى وَنَحَرَّتْ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَمَلُهُ الْعَشْرُ

فهو لا يمين على شتون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يمين ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجأ فيه من أن الإمام ممثول العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدنيا وَمَنْ خُلِقَتْ له ولعِلَّةٍ ما كانتِ الأشياءُ

وماذا بقى الخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هانئ للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرِي صُرُوفها بما شئتَ من حَتْفِ ورزقٍ مقسَّم

فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يدبّر الدنيا ويصرفها ، وهو الذي يمين على الكون وينسقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول :

أرى مَدْحَهُ كالمدحِ لله إِنَّهُ قُوتٌ وتَسْبِيحٌ يُحِطُّ به الوِزْرُ

ويستضيء ابن هانئ بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم يتظنون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُختَمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسمائه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثوله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منذ آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لو كنت نوحاً منذراً في قومهِ مازادهم بدعائِهِ تضليلاً

ويتمثل فيه قبس موسى وشعلته وهدهاه :

من شُعلةِ القَبَسِ التي عُرِضَتْ على موسى وقد حارتُ به الظلماءُ

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله :

أقسمتُ لولا أن دُعيتُ خليفةً لدُعيتُ من بعد المسيح مَسِيحاً

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوت السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكأنا أنت النبيُّ محمدٌ وكأنا أنصارُك الأنصارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحلّ فيه ، بل لكأنه الله ، جلّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلّ بقرية رقادة بجوار القيروان :

حَلَّ بِرَقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ  
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكان ابن هاني شاعرا فذا بارعا ، وإنا لنأسي له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبية التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو في رأينا يُعدُّ مستولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مستولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أنا ربكم الأعلى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هاني يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَنَقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بِعَيْبِ وَأَمْدَكُمْ فَلَقَّ الصَّبَاحُ الْمُسْفِرِ  
وَجَنَيْتُمْ نَمَرَ الْوَقَاعِ يَانَعًا بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضِرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ريحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيدة تكتظ بأبيات رائعة .

### المؤيد<sup>(١)</sup> في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

(١) إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) انظر في المؤيد ديوانه ومقلمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية . وراجع مختصر المجالس المؤيدية لخاتم بن

الهجري لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسعى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي ( ٣٨٦ - ٤١١ هـ ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أبا كاليجار الحاكم البويهي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقي فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعاة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَتَّى عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر محسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لعهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيّنهُ الوزير اليازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحسَّ خطر طغربك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرما فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طُغْرُبُك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمّلا بالأموال من المستنصر ، ومحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعده الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى «عانة» سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغربك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى عرشه . وفرّ في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعاة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت لإخفاقاً ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يُدعى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين قصير . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاعه بمرتبة داعي الدعاة يلقي دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها

في كتابه « المجلس المؤيدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعي اليمنى ، وعُني بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندى ودحض آرائه الإلحادية (١) . وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء المعري ناظره فيها طويلا في تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما ينتج من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً ناثراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل في القرآن على نحو ما خصَّ الله « الخضر » الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسرارهِ ووقفها على الأئمة :

يا قومُ سِرُّ الملكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا  
سِرُّ له صاحبُ موسى الخضرُ قال معي لن تستطيع صبرا  
تدبروا القصة ماذا يَمَّا من قصَّها إن لم تكونوا نوما

وكان كل إمام خضر زمنه ، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول على بن أبي طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هاني ، وقد مضى المؤيد وراءه يردّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبغ عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى ليجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأباعتهم ويزجون بأعداءهم في الجحيم ، يقول :

يقسمون الجنان والنار فيهم فلكل نصيبه الموجوب

كبرت كلمة بل كلماتٍ تخرج من فمه ، ويتأدى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد

الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه الفلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية ، يقول :

هَلَمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا سَكَّانُهَا آمَنُوا الْمَوْتَ  
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقَبِيلَةِ الَّتِي عَلَيْهَا بِلَامِسْكَ دُلَّتْ وَوَجَّهَتْهَا  
وَمِيزَانِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤْفَى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتِ وَفِيْنَا  
فالمستنصر وأمثاله ميزان الله في الأرض ، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعضياتهم  
ومقداره يكون العذاب ، ومايزال المؤيد يردد مثل هذا الضلال والبهتان في ديوانه .

ومما رددته المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أئمتهم وأنهم مثل العقل  
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى  
تُسبغ عليهم ، وقد رتبوا في أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم ، وكل منهم يمثل من  
سبقوه في هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفي ذلك يقول في المستنصر وآله :

سَلَامٌ عَلَى الْعَتْرَةِ الطَّاهِرَةِ	وَأَهْلًا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ بَدَىَّ عَلَى آدَمِ	أَبِي الْخَلْقِ بَادِيهِ وَالْحَاضِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَطُوفَانِهِ	أَدِيرَتْ عَلَى مَنْ بَغَى الدَّائِرَةَ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنَاهُ السَّلَامُ	غَدَاةً أَحَقَّتْ بِهِ النَّائِرَةُ (١)
سَلَامٌ عَلَى قَاهِرٍ بِالْعَصَا	عُصَاةً فَرَاعَنَهُ جَائِرُهُ
سَلَامٌ عَلَى الرُّوحِ عَيْسَى الَّذِي	بِمِيعَتِهِ شَرَفَتْ نَاصِرَتُهُ (٢)
سَلَامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدِ	وَلِيِّ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَيْدَرِ	وَأَبْنَائِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ عَلَيْكَ فَمَحْصُولِهِمْ	لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ
بِنَفْسِي مُسْتَنْصِرًا بِالْإِلَهِ	جُنُودُ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرُهُ
شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهُ الْإِلَهِ	وَجْهُهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرُهُ

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم  
الذي ألقاه الخمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التي استحالت

(١) النَّائِرَةُ : نَائِرَةُ الْحَرْبِ : شَرَاهَا

(٢) نَاصِرَةُ : بَلَدَةُ الْمَسِيحِ .

ثعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيح المشفع في الآخرة ، وعلى أو حيدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو على والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفى المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه أتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

#### ظافر<sup>(١)</sup> الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُدَام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكتاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكبَّ الصبي على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سوت منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العباد الأصهباني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقَى بالمساجد ، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعروفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحمّامياً ووراقاً وخياطاً وكحالا . وقد

والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ و« في أدب مصر الفاطمية »  
للذكور محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحسين  
نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء  
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات  
الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبي الصلت  
أمية في الجزء الأول من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون



تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهايات له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظفر واليها من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حداً كى يكسر حلقتة ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَرَ فِي أوصافك العالمُ واعترف النائرُ والناظمُ  
من يكنِ البحرُ له راحةً يضيّق عن خنصره الخاتمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال المستأنس ، فقال تَوَّأ :

عجبتُ لجرأة هذا الغزالِ وأمرٍ تخطى له واعتَمَدُ  
وأعجبُ به إذ بدأ جاثماً فكيف اطمأنَّ وأنت الأسدُ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رأيتُ بسبابك هذا المنيّف شيباً كما فأدركني بعضُ شكِّ  
وفسّكرتُ فيما رأى خطاطرى فقلتُ البحارُ مكانُ الشبكِ  
وكانت هذه الحادثة سبباً في اشتهار ظافر بمدينته ، وتهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبي حديد قاضياً وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكد يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقدمه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره في القسطات ، وأخذ يدبج فيه مدائح طنانة ، وهو يغدق عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

وهذا الجنابُ الأفضليُّ يُكِنِّي ذُرَى ظِلِّهِ إني إذن لسعيدُ

وقدّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطاحي ، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكوه على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نعم به في زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ هـ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حينئذ نجد ظافرا يفكر في تقديم مدائح للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل الفسطاط يقصر مدائح على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان سنيًا ، وكان المأمون البطاحي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعبارة أدق لم يكن غالبا في تشيعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكبَّ على ديوان ابن هاني الأندلسي يدرسه ليمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدحجه ليحتذيه ، يقول في إحدى مدائحهم للأمر مصرحا بذلك دون أي مواربة :

أجادَ ابنُ هاني في المعزِّ مدائحًا هداها إليها ذلك الفضلُ والمجدُ  
وقد جادَ مدحى فيك لما رأيتُ ما رأى فاستوى المدحان والإينُ والجدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رده ابن هاني من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعتنقها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فمن عاشَ أحياءَ نداهُ ومن يمُتَ على حُبِّه طوعًا فمُسكُنُه الخُلْدُ  
أطاعته أسرارُ القلوبِ ديانةً فما لامبرئٍ لم يعتقد حبه رُشدُ  
فطاعته فرضٌ وخدمته تُقى ونصرتُه دينٌ ومرضاته جدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجدُّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هاني فكرة النور التي يردددها في مديحه للمعز قاتلا في الأمر :

إمامٌ تبدى للورى من جبينه ضياءً به تُشفى بصائرُها الرُمدُ  
ونوركٌ ما يهدى الصباحُ لناظرٍ ولولاه ضلَّ الناسُ وامتنع القصدُ

وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانيء دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي يتنظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا في مدحة أخرى للآمر :

أنت الذي بعثَ الإلهُ لنا به آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثُولِهِ  
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذي تتفاضلُ العلماءُ في تَعْلِيلِهِ  
ما زال يَنقُلُهُ الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظَهْرٍ مثلِ ذبيحِهِ وخليلِهِ  
وتوارثتُهُ الأنبياءُ وسادةُ الـ خلفاءِ حتى حان وقتُ حُلُولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الرباني من النور الذي يعم أطباق السموات والأرض ، وما زال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبيحه ومثل علي وجعفر الصادق إلى أن حلَّ في الأمر المطهر المحضوف بالعناية الإلهية والتفحة النورانية ، ومن ثمَّ كان ابن هانيء يقول في المعز إنه جوهر الملكوت وإنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانيء في المعز ويردها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانيء . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجد ضيف إلى قيثاره مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانيء ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذب عن حرّامات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فرغهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء مبرما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوي أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لماما وإلا عند هذا الظاهر السطحي منها الذي صوّناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيرا له ، حينئذ نجد ظافرا يمدحه مدحا يخلو خلوا تاما من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابنا ، وقيل بل ترك طفلا رضيعا اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبة وتعصبت جماعة أخرى سريعا للحافظ عبد الحميد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ مخنف وراء الرماد ، مما جعل ظافرا يدافع في بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه في الخلافة قائلًا :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنصفاً في نقلها  
وورثتَ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رأس الأئمة . ولا يلبح ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون في أئمتهم من معان قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله .

ياحُجَّةَ الله التي أبدتْ لنا بِكَمالها الآياتِ والبُرهاننا

وكأنما حدث انقلاب في مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفي سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافرا لم يكن إسماعيليا بالمعنى الدقيق ، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها للمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئ يستظهر ما فيه أو بعضا مما فيه ، ولم يعد استظهاره قشورا ، ردَّدها حيناً في مديح الأمر ثم كفَّ عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفوا .

وبدون ريب كان ظافر شاعرا بارعا وفيه يقول العماد الأصهباني في ترجمته له بكتابه الخريدة :  
« ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر.. حدَّاد لو أنصفُ لسمِّي جوهرياً ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلئ حرياً ، أهْدَى بِرَوِيٍّ شعره

الرَّوَى لِلْقُلُوبِ الصَّادِيَةَ<sup>(١)</sup> رِيًّا ، فياله ناظما فصيحاً مفلحاً جريًّا<sup>(٢)</sup> . وحقا شعره غاية في السلاسة والعدوية ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائما في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد أتى عندهم وقد يستخدمونها أحيانا ولكن في خفة ورشاقة . ودائما تلقانا عند ظافر العدوية والرقعة على نحو ما نرى في مثل قوله متغزلا :

ياساكني مصرِ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلَبِّهِ  
أمن المروءة أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعْدَمًا من قلبه

وهما بيتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيرا إلى صور طريفة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حاملة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقلتاها دَمَهُ فنهْ على وَجَّتَيْهَا سِمَةَ  
وها في أناملها بَعْضُهُ دَعْتُهُ خِضَابًا لِكِي تُوْهَمَهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق في الوهم إغراقا يروع قارئه ، وسنشد له قطعة من غزله في الفصل التالي ، ونكتفي بصورة واحدة من صوره الحاملة العجيبة لتدل على هذه المقدرة البارعة ، وهي صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأملُ بنيةَ الهرمين وأنظُرُ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ  
كعمارتَيْنِ على رحيلِ لمحبوبين بينهما رقيبُ  
وماءُ النيلِ تحتهما دموعُ وصوتُ الريحِ عندهما نجيبُ

وهي صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحاملة ، فالهرمان كأنها عمارتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرفان الدمع مدرارا ، ويهوى تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولهما تتحجب وتئن أنينا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

(٢) جريا : جريثا .

(١) الصادية : الظامنة .

## الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

### شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى طالما تغنى به الشعراء مصورين حبيهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شرابا هنيئا بل رحيقا صافيا لا يداينه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظا من نار يلدع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو جحيم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرِّم حتى من الإشارة واللمحة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مها تجرِّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدىء ويعيد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجابا هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا ينجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادى ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقي صاف ، حب يمتلى أحنانا . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعرضه فيه كثير مما يلدِّ النفس ويمتعها ، وخاصة ما نفذوا إليه من غزل وجدانى صادق فى وصف حبيهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما سزاه واضحا عند ابن النبيه والبهاء زهير .

ويجئ إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفى أبداً في قلوب الشعراء ، فهم دائماً يَصْلَوْنَهَا وَيَصْلَوْنَ معها البعد والفراق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هاني<sup>(١)</sup> .

فَتَكَاتُ طَرْفَةَ أَمْ سَيْفُ أَيْبِكَ      وَكُتُوسُ خَيْرِ أَمْ مَرَأَشُ فَيْكِ  
أَجْلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَتْكَ مُحَاجِرِ      مَا أَنْتِ رَاحِمَةٌ وَلَا أَهْلُوكِ  
يَابِئْتَ ذِي السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ      أَكْذَا يَجُوزُ الْحَكْمُ فِي نَادِيكِ  
عَيْنَاكِ أَمْ مَعْنَاكِ مَوْعِدُنَا      وَفِي وَادِي الْكُرَى أَلْقَاكِ أَمْ وَأَدِيكِ  
قَدْ كَانَ يَدْعُو خِيَاثَةَ طَارِقًا      حَتَّى خَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكِ  
مَنْعُوكِ مِنْ سِنَةِ الْكُرَى وَسَرَّوَا فُلُو      عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقِ ظَنُّوكِ

وهو لا يدري كيف يتقى فتكات طرف صاحبه التي تشبه أتم الشبه فتكات سيف أيها ، وإنما جميعاً لتصيبه في الصميم دون أى رافة ، وإنه ليائس بأساً شديداً من رافة أيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائها ورؤيتها في الكرى والأحلام ، ويألم ألماً شديداً ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينيه في الحلم ، وإنه ليبئ خائفاً منهم حذراً ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحرمان واللوعة . ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تغل عنه أسى والتباعا ، يقول<sup>(٢)</sup> :

مَازَالَ فِي الْحَبِّ شَوْقٌ مَوْجِعٌ وَأَسَى      مَبْرِحٌ يَقْطَعُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا  
حَتَّى رَمَى الْبَيْنَ بِالتَّفْرِيقِ الْفَتْنَا      وَحَلَّ مِنْ وَصْلِهَا مَا كَانَ قَدْ عَقِدَا  
فَأَوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى      فِي الصَّدْرِ لَمْ يُبْقِ لِي صَبْرًا وَلَا جَلْدَا  
قَالَتْ وَعَبَّرْتُهَا مَخْلُوطَةً بِدَمٍ      تَجْرِي وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُعْدَا  
لَا تَطْلُبِ النُّطْقَ مِنِّي بِالسَّلَامِ فَمَا      أَبْقَى فِرَاقُكَ لِي رَوْحًا وَلَا جَسَدَا

وهو يصور أساه في حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينعب بالفراق ، فيلتاع لوعة تستمر بين جوانحه ، ويتهالك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هي تذرف الدمع مدراراً مرسله

(١) ديوان ابن هاني (طبعة زاهد على) ص ٥٣١ . (٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتبية ، وتتلطف له فائلة لا تطلب منى النطق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحبوياته في الديوان مرارا بمثل قوله (١) :

قالتُ وقد نالها للبين أوجعهُ والبينُ صعبٌ على الأحباب موقعةُ  
اجعلْ بديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قُوَاهُ عن حَمَلِ مافيه وأضلعهُ  
كأنني يوم وُلْتُ - حَسْرَةً وأسى - غريقُ بَحْرٍ يرى الشاطى وَيُمنَعُهُ

فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، ونحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة ، وتميم يبادلها نفس الشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه ليذوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطى ولا يستطيع وصولا إليه . وعلى الرغم من أنه كان أميراً وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدراان الحس ، ومن طريف قوله في بعض غزله (٢) :

قلتُ اسمحني لي بتقبيلِ أعيش به قالت : وأىُّ محبٍّ قَبْلُ القمرَا  
ومرَّبنا في ترجمة ظافر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهي قصيدة غزلية ، تجرى على هذا النمط (٣) :

لو كان بالصبر الجميل مَلَادُهُ ماسحٌ وابلٌ دمعهُ ورَدَادُهُ  
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبداً من الحدقِ المراض عِيَادُهُ  
لا تخدعَنَّك بالفتور فلأنه نَظَرٌ يضرُّ بِقَلْبِكَ اسْتِئْذَادُهُ  
يا أيها الرِّشَا الذي مِنْ طَرْفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذُهُ  
دُرٌّ يلوح بِفَيْكٍ مَنْ نَظَامُهُ خمرٌ يجولُ عليه مَنْ نَبَادُهُ (٤)  
وقناةُ ذاك القَدِّ كيف تقوِّمُتْ وسِنَانُ ذاك اللَّحْظِ ما فولادُهُ  
رِفْقاً بجسمك لا يذوبُ وإنني أخشى بأن يَجْفُوَ عليه لادُهُ (٥)

(٤) النباز : صانع النيبذ

(٥) اللاذ : ثوب من حرير

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ .



والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعذوبة ، حتى مع قوافيها الذالية ، وتملأ صورته النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهي سهام حقيقية تنفذ إلى حبّ القلوب وسويدائها ، ويخال ذرّاً ملء فمها ويتساءل من نظمه في هيئته البديعة ، أما ما حوله من رُصاب أوريق فخمر حقيقية ويتساءل من التباذ الذي صنع هذه الخمر العجيبة ، ويشد به العجب وهو ينظر إلى قامة صاحبتة واستوائها الرائع ، ويتساءل أي فولاذ صلب أتخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفئدة . وإن جسد صاحبتة ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذي تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه وراهاقه . وله يتغزل موجهاً الخطاب إلى معاتبه في حبه وتهالكه فيه <sup>(١)</sup> :

عَتَبَ                      وَلَكِنِّي                      لَمْ                      أَعِ  
وَمَا قَدَرُ                      عَتَبِكَ                      حَتَّى                      يَزِيلُ  
وَمَا دَامَ                      لَوْمُكَ                      إِلَّا                      وَآذُ  
مَضَى                      كَيْ                      يُوَدِّعُ                      سُكَّانَهُ  
فَوَادِيَ                      فِي                      غَيْرِ                      مَا                      أَنْتَ                      فِيهِ  
وَأَيْنَ                      مَلَأْمُكَ                      مِنْ                      مَسْمَعِي  
وَمَا                      تَمَكَّنَ                      مِنْ                      أَضْلَعِي  
وَأَنْتَ                      تَقْدِيرُ                      أَنْ                      جَنَانِي                      مَعِي  
غَدَاةَ                      الْفِرَاقِ                      فَلَمْ                      يَرْجِعْ  
فَحُذِّ                      فِي                      مَلَامَتِهِ                      أُوَدِّعُ

والقطعة توج برقة الحسن ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللفظ اللذين يشترهما أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة الفأهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هي ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجداني الصافي الذي سنعرضه عند ابن التبييه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه في القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتاباً فقد سلبت محبوبتي عقلي وسمعي ، وملك حبها جناني ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأننا لا أعقل ولا أسمع شيئاً مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة في أن يستمر في لومه أو يكف عنه ، وعادة المحبين أن يعنفوا بلائيمهم في الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف في ود اريق .

وربما كان من تنمة الرقة في غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدمياطي يتغزل بجارية سوداء ، محاولاً بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظنُّ من قبح السواد ، يقول <sup>(٢)</sup> :

وعاذلٍ مُخْتَفِلٍ      مجتهدٍ في عَـذَلِ  
 يلومني في ظَبِيَّةٍ      مخلوقةٍ من كُحْلِ  
 إن السَّوَادَ عِلَّةٌ      من نورِ هذى المُقَلِّ  
 والحَجَرُ الأسودُ لم      يُخَلِّقْ لغيرِ السُّبَلِ  
 والقارُّ - مذ كان -      وعاءُ السُّلْسَبِيلِ السُّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذي تردان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذي تبصر به من حولها النور المنبثق في الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقبيله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذها في دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يسندون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم مبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير<sup>(١)</sup> :

إذا أحرقت في القلب موضع سُكْنِهَا      فمن ذا الذي من بعدُ يُكرم مَثْوَاهَا  
 وما الدمعُ يوم البينِ إلا لآلِيٍّ      على الرَّسْمِ في رسمِ الديارِ نثرانها<sup>(٢)</sup>  
 وما أطلعَ الزَّهْرَ الربيعُ وإنما      رأى الدَّمْعُ أجيادَ العُصُونِ فحلَّأها  
 ولما وقفنا للوداع وترجمتُ      لعيني عَمَا في الضمائرِ عَيْنَاهَا  
 بدتْ صورةً في هيكلِ فلو أننا      ندينُ بأديانِ النَّصَارَى عبدانها

وهو يشكو من النار التي دلعتها صاحبته في قواده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه ملىء بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، ويعلم سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعبث جالها بقواده ، حتى لتبدو له وكأنها صورة في هيكل تقدم لها القرايين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصري ، إذ يستحيل وجدًا وصبابة ورقة وخفة من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

(٣) الحريدة ٢١٦/١ .

(١) معجم الأدياء ٦١/٩ .  
 (٢) على الرسم : على العادة .

هُمْ نُصِبَ عَيْنِي أَنْجِدُوا أَوْ غَارُوا وَمَتَى قَوَادِي أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا (١)  
 فَارَقْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَمَثَّلُهُمْ لِي الْأَفْكَارُ  
 تَرَكَوْا الْمَنَازِلَ وَالِدِيَارَ فَهَلُمَّ إِلَّا الْقُلُوبَ مَنَازِلٌ وَدِيَارُ  
 وَاسْتَوْتُونَا الْبَيْدَ الْقِفَارَ فَأَصْبَحْتُ مِنْهُمْ دِيَارُ الْإِنْسِ وَهِيَ قِفَارُ  
 فَلَنْ عَدْتُ مِصْرَ فَلَآءَ بَعْدَهُمْ فَلَهُمْ بِأَجْوَزِ الْفَلَا أَمْصَارُ (٢)  
 أَوْ جَاوَرُوا نَجْدًا فَمَلَى مِنْ بَعْدَهُمْ جَارَانُ : فَيُضِ الدَّمْعَ وَالتَّذْكَارُ  
 وَالدهر ليلٌ مذ تناعت دارهم عني وهل بعد النهار نهارٌ

إنه لن ينسأهم أبدا مها أنجدوا أو غاروا ومها شرقوا أو غربوا ، ومها أنصفوه أو ظلموه ، لقد فارقه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم منزلا عظيما ، لا تزايله صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبه . وينظر إلى الديار والمنازل حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات ، فقد غادروها قفرا يبايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له في قفره الخرب إلا جاران : تذكارهم ودموعه المنهلة التي لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا في عينيه . حتى غدا النهار مظلمًا داجيا ، فقد أخذوا معهم كل شيء حتى النهار وضياءه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله (٣) :

لَمْ يَهْنُ قَطُّ عَلَيْنَا بُعْدُكُمْ مِثْلَمَا هَانَ عَلَيْكُمْ بُعْدُنَا  
 لَمْ تَبَالُوا إِذْ رَحَلْتُمْ غُدْوَةً أَيُّ شَيْءٍ صَنَعَ الدهرُ بِنَا  
 وقوله (٤) :

أَحِبَابِنَا مَا بَالُكُمْ فِينَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَعْدَى  
 وَحَيَاةٍ وَدُّكُمْ وَتُرْبَةٍ وَصَلُّكُمْ مَا خَنَتْ عَهْدًا

والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصرى ، فالوصل مات وقبر والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتربهم أو قبورهم - بتربة الوصل العزيز وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الخريدة ١/٢١٩ .

(٤) الخريدة ١/٢١٤ .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أي

تهامة .

(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل أبياته المشهورة<sup>(١)</sup> :

ياربُّ إن قَدَّرْتُهُ لِمَقْبَلِ غَيْرِي فَلِلسواكِ أَوْلأَكُوسِ  
ولئن قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثِ يَارَبُّ فَلَيْكُ شَمْعَةٌ فِي المَجْلِسِ  
وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعِينَ مَراقِبِ فِي السَّرِّ فَلَتَكُ مِنْ عَيونِ التَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في أبياته أنانية الحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لا يقبل شفقتها سوى المسواك للوضوء والأكوس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس ، وإذا كان لا بد من عين لرقيب فلتكن من عيون النرجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يمنح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتح من المعين المصري العذب كقوله<sup>(٢)</sup> :

يَاطَرُفُ مالِكِ سَاهِدًا فِي راقِدِ ياقَلْبُ مالِكِ راعِبًا فِي زاهِدِ  
مِنْ يَشْتَرِي عَمْرِي الرَحيصَ جَميعَهُ مِنْ وَصَلِكِ العالِي بيومِ واحِدِ  
عائِبْتُهُ فَتورَدتْ وَجَنائَتُهُ وَالقَلْبُ صَخْرٌ لا يَلِينُ لِقاصِدِ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا تكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واله بها واجد ، وعاتها فتضرجت وجناتها بالحنجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلتن له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله<sup>(٣)</sup> :

تَرى الحَينِي أَوْ حَينِي الحائِمِ جرتُ - فَحَكَتْ دَمْعِي - دَموعُ العائِمِ  
وَهَلْ مِنْ ضلوعِ أَوْ رِيعِ تَرَحَّلُوا فَكَلُّ أَراها دارِساتِ المَعالِمِ  
لَقَدْ ضَعَفَتْ رِيحُ الصَّبَا فَوْصَلَتْها فَيَتِي لَماها هِبوبُ السَّائِمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدري أيحاكي السحاب في قطره المثل حينه الملتاع أو هو يلي

(٢) الخزانة ص ٢٤٧ .

(٣) الخزانة ص ٢٤٦ .

(١) الخريدة ١٣٣/٢ وخزانة الأدب للحموي (طبع)

مطبعة بولاق) ص ٢٤٦ .

الحائم وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارّة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحاله سمام لافحة .

وتلقى بخِذْنِ القاضى الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يوج بوجد لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة ، إذ يدوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبلة أو ضمّة كاد يطير من الفرح طيارا ، مها تأبّت عليه محبوبته ومها صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان ، يقول (١) :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجرّمه أنا أحنى عليه من قلب أمّه  
ضنّ عنى برقيقه فتحيدتُ إلى أن سرّفته عند لثيقه  
وإلى اليوم من ثلاثين يوما لم تزل من فمى حلاوة طعمه  
إن قلبى لصدده ورقادى ملكُ أجفانه وروحي لجسمه  
يكسّر الجفنَ بالفتورِ ومالى عملٌ عند كسره غير ضمّه

والأبيات تموج بالعدوية والظرف ، فكله حنان لصاحبه ، حتى ليفوق حنوّه عليها حنوّ الأم . وما زال بها حتى اقتطف منها خلسة قبلة ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده وسهده . وتصنّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النخاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نعم المشوق وأنعم المشوقُ فالمعشوقُ كالخضِر الرقيقِ رقيقُ  
خضِرٌ أديرُ عليه معصمٌ قبلةُ فكانَ تقبيلى له تغنيقُ  
ونعم لقد طرق الحبيب وماله إلا حدودُ العاشقين طريقُ  
فرشوا الحدودَ طريقه فكأنما زفراهم لقدمه تطريقُ (٣)  
وأفى وصبحُ جبينه متنفسٌ وأنى وجيدُ رقيبهِ مخنوقُ

(٣) التطريق : تسهيل الطريق للآرة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الوهان بما أنعم عليه المعشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراتهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجيئها المشرق إشراق الصباح ، وغصّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله (١) :

سَعِدْتُ بِيَدِ بَدْرِ خَدِّهِ بَرَجُ عَقْرِبِ فَكَذَّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمِ  
وَأَقْسَمُ مَا وَجَّهُ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَأَ بِأَوْضَحَ مِنِّي حُجَّةً عِنْدَ لَوْحِي  
وَلَا سَيِّئًا لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلِي كَفَضَلَةِ صَبْرٍ فِي قَوَادِ مَتِّمِ  
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بَعُودُ أَرَاكِ تَعَلَّقَ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْءُ مَبْسَمِ (٢)  
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَثْمِ مَبْسَمِ شَهِيٌّ لِقَلْبِي لَثْمٌ آتَارِ مَسْمِ (٣)  
بَكَيْتُ بِكَلْتِي مُقَلَّتِي كَأَنِّي مَتَّمُّ مَا قَدَ فَاتَ عَيْنِي مُتَّمِّ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكذب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفاتنة . وإن فتنها وما تدلع في قلبه لأنصع برهان له عند لاثميه ، أنصع من الصباح في وضوحه وضيائه . وقد مرّ بمنزلها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوهان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لألأه فوقف مبهوتا مشدوها ولا أمل له في قبلة يقتطفها أو ما يشبه القبلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتم بكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فما زال يكيه حتى دعت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يذوب لطفًا ورقة مما جعله يتغزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحتمل في غزله بهن على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الأضم الذي نزل بهن ، من مثل قوله (٤) :

فَتَنَّتْنِي مَكْفُوفَةٌ نَاطَرَاهَا كَتَبَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(٣) النسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الحبية .

(٤) الديوان ص ٨٤٦ .

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) مبسم : نعر

فَهِيَ لَمْ تَسْلُلِ الْفُتُورَ حُسَامًا      لَا وَلَمْ تَحْمَلِ اللَّحَاظَ سِنَانًا<sup>(١)</sup>  
وَهِيَ بِكَّرَ الْعَيْنِينَ مُحَصَّنَةً الْأَجْدَ      فَاِنْ مَا افْتَضَّ مَيْلُهَا<sup>(٢)</sup> الْأَجْفَانَا  
قَصَّرَتْ عَشَقَهَا عَلَيَّ فَلَمْ تَعِدْ      شَقَّ فَلَائِنَا إِذْ لَمْ تُعَايِنِ فَلَائِنَا  
لَا وَلَمْ تَبْصُرِ الرِّجَالَ فَتَخْتَا      رَ عَلَى مُلْتَحِيهِمُ الْمُرْدَانَا  
عَمِيَتْ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِنْدَ      سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَخْلَى الْمَكَانَا  
عَلِمْتُ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافْتُ      أَنْ تَسْمِيَ غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فتنته بحسبها ، وهي فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمى سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاظ ، ويصفها ببيكاراة العينين وظهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يمس ميل الكحل عينيها ، وإنها لتفرده بالحلب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحي والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينيها ، فنحنت عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو يحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابيين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتصاوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصدائه الواسعة في غزل الشعراء ، فانفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبيهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله<sup>(٣)</sup> :

قَلَّدْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ جِيدَ مَوْدَعِي      دُرَّرًا نَظَّمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَعِي

(١) اللحاظ : مؤخر العين مما يلي الصدغ . العين

(٢) الميل : المكحل أو المرود وهو ما يوضع به الكحل في

(٣) فوات الوفيات ٢٣٦/١ .

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد  
 يانفسُ قد فارقتِ يوم فراقهم  
 هيات يرجعُ شملنا بالأجرع  
 بحياتكم جودوا على تكراً  
 فلقد عدمتُ الصبرَ يوم فراقكم  
 يانا زحين فهل لكم من عودةٍ  
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا  
 قلبى ولا جلدى ولا صبرى معى  
 طيبَ الحياةِ فى البقا لا تطعمى  
 ويعود أحبابى الألى كانوا معى<sup>(١)</sup>  
 فعسى خيالكم يلمُ بمضجعى  
 وتضمرتُ نارُ الأسى فى أضلعى  
 نزعَ التفرُّق ما بقى من مدمعى  
 هلكت من شوقى وفرط توجعى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعراً بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانته فيها صبره وتجلده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى اليقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أورجعة تردُّ إليه روحه وتردِّ عنه أوجاعه من الحب الملتب وأوصابه .

ونلتقى بقى الدين<sup>(٢)</sup> السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرماً بحب الجمال وكان يغنى بشعره الغرامى المغنون لرقه انسجامه وعذوبة الفاظه ، ومن غزله :

أنعم بوصلك لى فهذا وقتُه  
 يا من شُغلتُ بحبِّه عن غيره  
 بالله إن سألوك عنى قل لهم  
 عبدي وملىكى يدي وما أعتقتُه  
 أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم  
 أدرى بذا وأنا الذى شوقتهُ  
 يا حسنَ طيفٍ من خيالك زارنى  
 من عظم وجلي فيه ما حَقَّقتهُ  
 فمضى وفى قلبى عليه حسرةٌ  
 لو كان يمكننى الرقاد لحقته

وهو يتضرع لمحجوبه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذلاً له إنه عبده وملىك يده ولن تُردَّ إليه حريته ، ويشكو لواعج الشوق ،

٤٦٦/١ وخزاة الأدب للحوى (طبع بولاق) ص

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرميل .

(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات



ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكبد بحققه أو يتحقق منه حتى قرّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاذه قليلا حتى يشفى منه غلّة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزائنه على هذه الأبيات بقوله : « ما نفتات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات ولا لسلاف ثغر الحبايب مع حلاوة التقييل عذوبة هذه الرشقات » . ومن غزله :

قصدَ الحِمَى وأتاه يَجْهدُ في السرى      حتى بدتْ أعلامُه وقيابُهُ  
ورأى ليلي العامريّة منزلا      بالجد يُعرف والندى أصحابُهُ  
قد أشرعتْ بيضُ الصّوارِمِ والقنا      من حوله فهو المنيعُ حجابُهُ  
وعلى جِماه جلالَةٌ من أهله      فلذاك طارقةُ العيون تهابُهُ  
كم قَلبْتُ فيه القلوبُ على الثرى      شوقا إليه وقبِلتْ أعتابُهُ

وهو يرمز لصاحبه بليلي العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذي ملأ اليد بأغاني حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليلي المتصلة حتى بدت أعلام حياها وقيابه أو خيامه ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا في أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجي فخر الدين بن لقمان كاتب بيرس وفلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله (١) :

كُنْ كيف شئتَ فإنني بك مغرُمٌ      راضٍ بما فعل الهوى المتحكّمُ  
ولئن كتمتُ عن الوشاة صبابتي      بك فالجوانحُ بالهوى تتكلمُ  
أشتاقُ من أهوى وأعلم أنني      أشواق مَنْ هو في الفؤاد مخيمُ  
يامنْ يصدُّ عن الحب تدلُّلاً      وإذا بكى وجداً غداً يتبسّمُ  
أسكتك القلبَ الذي أحرقتَه      فحذارٍ من نارٍ به تتصرّمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفي حبه عن الوشاة بل

(١) المثل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب

يكنمه بينا جوانحه تنطق به وتعلمه ، ويعجب أن يشاق صاحبتة ويود لقاءها ، بينا هي مخيمة في قواده لا تبرحه . وإنما لتمن في التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبسم . ويحذرنا من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللب . فقد أسكنها قلبه الذي أحرقتة ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مندلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كثير من مثل قوله <sup>(١)</sup> :

أهلاً بطيفٍ على الجرعاء مُختَلَسٍ      والفجرُ في سَحَرٍ كالنُغْرِ في لَعَسٍ <sup>(٢)</sup>  
والنجمُ في الأفقِ الغري مُنحدرٌ      كَشُعْلَةٍ سَقَطَتْ من كَفِّ مُقْتَبِسٍ  
ياحِبِّدا زَمَنُ الجرعاء من زَمَنِ      كلُّ الليالي فيه ليلةُ العُرسِ  
وحبِّدا العيشُ مَعَ هيفاءٍ لوبرزتْ      للبدرِ لم يَزُهُ أو للغُصْنِ لم يَمِسِ  
محروسةٍ بشعاعِ البيضِ ملتَمَعاً      ونورٌ ذاك الحِمِّيا آيةُ الحرسِ  
يَسْعَى وَرَا لَحَظْها قَلْبِي ومن عَجِبِ      سَعَى الطَّرِيدَةِ في آثارِ مَفْتَرَسِ  
ليت العذولَ على مرأى محاسِنِها      لو كان نَسِي عَمِي عَيْنِيهِ بِالْحَرَسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذي رآه في حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر يتلجج في الآفاق المظلمة تبلجج الثغرى لعس الشفاه ، والنجم يسقط في الأفق الغرى منحدرًا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالي الجرعاء المفرحة فرح ليالي العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيبته التي لو رآها البدر لغضَّ من زهوه ولو رآها الغصن لغضَّ من ميسانه وخيلائه . ويقول إنها مُتَمَّعة محروسة بسيف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذي يُشِعُّه وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفترسها ، ويقول إن ضيائها أحال عيني العذول عشوائين ، فهو لا يبصرها ، ويتمنى لو ثنى ذلك بخوسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أى حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكثرون من الغزل التواجي <sup>(٣)</sup> شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكميّ في الخمر والندماء وآدابهم ، ويعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجري ، توفي سنة ٨٥٩

(١) النجوم الزاهرة ٩٦/١١ .

(٢) الجرعاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد الشفة .

(٣) انظر في التواجي وشعره الضوء اللامع للشخاوي

٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكاني  
١٥٦/١ وصفحات لم تنتشر من بدائع الزهور (طبع دار  
المعارف) ص ٢٧ . وبادار الكتب المصرية مخطوطة من  
ديوانه . ومن كتبه « عقود اللآل في الموشحات والأزجال » .

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خَلِيلِيَّ هَذَا رَبِيعُ عَزَّةَ فَاسْعِيَا إِلَيْهِ وَإِنْ سَأَلْتُ بِهِ أَدْمَعِي طَوْفَانُ  
فَجَفَنِي جَفَا طَيْبَ الْمَنَامِ وَجَفَنَهَا جَفَانِي ، فَيَا لَلَّهِ مِنْ شَرِّكَ الْأَجْفَانِ

ونمضى في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني الملتاع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض  
معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلي ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرَّجه  
وتلميذه يحيى<sup>(١)</sup> الأصيلي ، الذي يقول في بعض غزله :

بدا بوجهٍ جميل الوصف والشان يقول : سبحان من بالحسن وشأنى<sup>(٢)</sup>  
كأنه روضةٌ غناءٌ مزهرةٌ من دمع عاشقها تُسقى بغدران  
أشبهتُ في حبه وُرقَ الحمى فغدا كلُّ بيتٍ الجوى شجواً على البان

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ،  
والحد بالورد والشقيق والعين بالترجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق  
بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحامه بيت جواه شجوا على أغصان البان وهو يشبه  
على من قامتها تحاكي قامة البان . ونخرج على يد الأصيلي يوسف<sup>(٣)</sup> المغربي ، وغزله كغزل أستاذه  
يسيل عذوبة من مثل قوله :

جعلوا الصباحَ مباسماً ثم الظلا مَ صَفَائِراً ثم الرماحَ قُدودا  
والوردَ خدّاً والغصونَ معاطفاً والبدرَ قرّفاً والغزاةَ جيّدا  
ورأتُ غصونُ البانِ أن قُدودهم فاقتُ فأضحى رُكعاً وسجودا

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي  
والأصيلي والعسيلي يكوّنون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متماثلة في رشاقة الموسيقى وجمال  
الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإيدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي رحانة الألبا ٣٢/٢ وما  
بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيلي رحانة الألبا ٣٨/٢ وسلافة  
المصرلابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .

(٢) وشان : زيني .

عقيقٌ دمعى غداً في الجزع كاللثيم  
وانهلُّ مُنْسِجاً من نار مضطرم  
ظبيّ نفورٍ أنيسٍ ناعسٍ يقظٍ  
إن أرضَ يغضب وإن أقرب نأى صلفاً  
مُهْفَهْفٍ مابدت للغصن قامته  
وإن تبسّم ما برق بكازمة  
ما فيه عيبٌ سوى تغتير مُقلّته

مُدَّ بَانَ سَكَانُ بَانَ الْحَيِّ وَالْعَلَمِ  
مَلَانَ وَجَدًا إِلَى خِشْفٍ بَدَى سَلَمِ  
بِاللَّيْلِ مَتَشِّحٍ بِالصَّبْحِ مُلْتَمِّمِ  
وَإِنْ أَدَلَّ يَتَهُ بِالْعَزِّ وَالشَّمِّ  
إِلَّا أَتْنَى ذَابِلَ الْأَوْرَاقِ ذَا ضَرَمِ  
لَهُ وَمِیْضٌ يَجْلَى دَاجِيَ الظُّلَمِ  
وَفَتَكْهَآ فِي قَوَادِ المُدْنَفِ السَّقْمِ

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوي إنه مازال يبكي حتى اختلط دمه بالدم القاني وتناثر في الجزع أو جانب الوادي وكأنه ديم مسكوبة مذ بُعد سكان الوادي والعلم أو الجبل وما بها من شجر البان ، وإنه ليبيكي وأحشاؤه تضطرم بوجود مبرح إلى خشف أو ظبي من ظباء ذى سلم بنجد ، وإنه لظبي نفور أنيس ناعس يتشح بوشاح أسود من شعره ، ويلثم بلثام منير من وجهه . وإن لقيه راضيا غضب وازور عنه وإن قرب منه نأى بجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا وشما أو تكبرا . وهو مهفف ضامر دقيق الخصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلا ويلتاع لوعة ملتهبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق التماعا في الليالي الداجية . ويجعل عيه الوحيد فتور عينيه الذى طالما تغنى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التى تصمى أفئدة المرضى بالحب ، وفتتك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجداني الذين صوروا ما اختلج في خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرح ولوعات ممضة .

### ابن (١) النبيه

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النبيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقا بديعا وطبع طبع حجر في القرن الماضى . وطبع  
الديوان حديثا بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر)  
بيروت .

(١) أنظر في ابن النبيه وترجمته وشعره ابن خلكان  
٣٣٦/٥ وغرات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦  
وحسن المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة  
عبدالله فكرى للديوان إذ جمعه ورتبه وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وتفتحت ملكته الشعرية ، وورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره ، وفي ديوانه مدائح مختلفة له ، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البائية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها في قوافيه بقوله في مطلعها :

قَتُّ لَيْلِ الصُّدُودِ إِلَّا قَلِيلًا      ثُمَّ رَتَّلْتُ ذَكَرَكُمْ تَرْتِيلًا  
وَوَصَلْتُ الشَّهَادَ أَقْبَحَ وَصَلٍ      وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَمِيلًا

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يُعجَبْ بالقصيدة ، فلم يعين في دواوين صلاح الدين وأيضا لم يعين في دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولي شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأيناه يقدم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفي بن شكر . ويبدو أن صداقة انعقدت حينئذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذه كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خلاط وميافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . وكان ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرقة لموقعها على الفرات وابن النبيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى ابن النبيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دِمَاطُ طُورٍ وَنَارُ الْحَرْبِ مَوْقِدَةٌ      وَأَنْتَ مُوسَى وَهَذَا الْيَوْمُ مِيقَاتُ  
أَثْلَجَتْ صَدْرَ رَسُولِ اللَّهِ وَانْكَشَفَتْ      عَنْ سَرْحَةِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَامَاتُ  
اللَّهُ أَكْرَمُ أَنْ تُمْسِيَ مَزَامِرَهُمْ      تُتَلَّى وَتُنْسَى مِنَ الْقُرْآنِ آيَاتُ

وهو يستغل اسمه في مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور ، ويذكر في القصيدة أن عصاه تلفقت كل ما أفكروا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قتلا وأسرًا وسييا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه نجزي لا يمثاله خزي .

ويدل ديوان ابن النبيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبهجة يتمتع فيها بالرياض ومحالس الأنس والطرب حتى وفاته بنصيبين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هناة لم

ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حنينه يتفرق في تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الواهين ، كقوله مكثياً عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضي المقدسة في المدينة المنورة الذي طالما تغنى به شعراء الصباية والحب المتناع :

يَابَارِقَا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجْنَهُ      مَنْزَلْنَا بِالْعَقِيقِ مَنْ سَكْنَهُ  
وَمَرْبِعُ اللَّهْوِ يَانِعُ خَضِيلُ      أَمْ غَيْرَ الدَّهْرِ بَعْدَنَا دِمْنَهُ (١)  
يَا تَرُقُ هَذَا جَسْمِي يَذُوبُ ضَنْيَ      وَمَهْجِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَهُ  
بَلِّغْ حَدِيثَ الْحِمَى وَسَاكِنَهُ      لِمَغْرَمٍ أَنْحَلَ الْهَوَى بَدَنَهُ  
أَشْقَى الْمُحِبِّينَ عَادِمٌ وَطَرًّا      فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنَهُ  
سَقِيًّا لِأَيَامِنَا الَّتِي سَلَفَتْ      كَانَتْ بِطَيْبِ الْوَصَالِ مَقْتَرَنَهُ  
لَوَيْعَ يَوْمٍ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ      كُنْتُ بِعُمُرِي مُسْتَرْخِصًا ثَمَنَهُ

وابن النبية في أول الأبيات يخاطب بارقا أذكره ما يعتلج في أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادي النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لا يزال مربع اللهو والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غير الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراءه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضئاً وسقماً ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً بطمئنه عن الحمى وساكنه . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالحب المقنون الذي عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضيا بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النبية بذلك يصور تصويرا رائعا تعلق المصريين في غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمئهم إلى جرعة من نيله في ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوان ابن النبية أحسننا بوضوح أنه يمثل في غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدماعة والرقه وخفة الظل لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضا في تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أي حجاب من أهداف المحسنات البديعية ، فهو قلما يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجداني سام ، دون

(١) خضيل : مبتل ندى . الدمن : جمع دمنة : آثار

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قدما لغزله أن يكثر التغمى به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن <sup>(١)</sup> لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتغمى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفْدِيهِ إِنْ حَفِظَ الْهَوَى أَوْ ضِيْعًا      مَلِكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْعَا  
 مِنْ لَمْ يَذِقْ ظُلْمَ الْحَبِيبِ كَظْلَمِهِ      حَلُومًا فَقَدْ جَهَلَ الْحَبَّةَ وَادْعَى <sup>(٢)</sup>  
 يَا أَيُّهَا الْوَجْهُ الْجَمِيلَ تَدَارِكُ الصَّبَّ النَّحِيلَ      فَقَدْ وَهَى وَتَصَغُّصَعَا  
 هَلْ فِي قَوَادِكُ رَحْمَةٌ لِمَتِيمٍ      ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ قَوَادًا مَوْجَعَا  
 هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي      أَوْ أَشْتَكِي بَلَوَايَ أَوْ أَتَضَرَّعَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحمده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، ويسترحمه لوهن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يبث شيئا من حبه أو من محبته فيه . ولا تقل جمالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانًا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطَّلُّ      فَمَنْ جَفَنِيكَ أَسْيَافُ تُسَلُّ  
 يَزِيدُ جَمَالَ وَجْهِكَ كُلَّ يَوْمٍ      وَبِجَسَدِي يَذُوبُ وَيَضْمَحَلُّ  
 وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسْمِي      وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ  
 إِذَا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ      تَرَى مَاءَ يَرْفُ عَلَيْهِ ظِلُّ <sup>(٣)</sup>  
 وَقَدْ يَهْدِي صَبَاحُ الْخَدِّ قَوْمًا      بَلِيلِ الشَّعْرِ قَدْ تَاهَا وَضَلُّوا

وابن النبية يتوسل إلى صاحبه أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تبق عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه اضمحلالا وتضاؤلا ونحولا . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هي تدل عليه

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الثغر وبريقه .

(٣) الذوائب : صفائر الشعر .

(١) انظر كتاب شعر الغناء الصنعاني للدكتور محمد عبده

غانم (طبع دار الكاتب العربي ببيروت) ص ١٧٧ .

وتترداد كل يوم دلالا وإعراضا . وماذا يبصر؟ إنه لا يبصر إلا جمالا فاتنا وجسدا سائرا رقيقا رقة الماء يهتر عليه من الشعر ظل ناضر باهر . ويقول :

ياساكفى السّفح كم عَيْنٍ بكم سَفَحَتْ      نَزَحْتُمْ فَهَىٰ بَعْدَ الْبُعْدِ قَدْ نَزَحَتْ  
لَهْفَىٰ لَظِيئَةٍ إِنْسِي مِنْكُمْ نَفَرَتْ      لابل هى الشمسُ زالتْ بَعْدَ مَا جَنَحَتْ  
بِيضَاءِ حَجَبِهَا الْوِاشُونَ حِينَ وَشَوَا      عَنِ وَلَوْ لِمَحَتْ صَبِغَ الدُّجَىٰ لِمَحَتْ  
يَقْتَصُّ مِنْ وَجْتِئِهَا لِحْظُ عَاشِقِهَا      إِنْ ضَرَّجَتْ قَلْبَهُ بِاللِّحْظِ أَوْ جَرَّحَتْ  
مَنْ لِي بِسَلْمَىٰ وَفِي أَجْفَانِ مَقْلَتِهَا      لِلْحَرْبِ بِيضٌ حَدَادٌ قَطُّ مَا صَفَحَتْ  
وَأَسْوَدُ الْخَالِ فِي مَحْمَرِّ وَجْتِئِهَا      كِمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فِي جَمْرَةٍ لَفَحَتْ

وفى القطعة جناس بين « السّفح وسفحت » بمعنى صبّت العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و « نزحت » العين بمعنى نفذ دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و « وشوا » فى البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و « محت » فى آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر فى قياس الأنعام ، وهو فى أول القطعة يشكو لساكفى السّفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفّت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظلية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتص بالنظر إلى وجنتها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهى مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فك عينها الساحرتين ، ويتصور الخال فى خدها الوردى كجئة من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذى يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى الله ما أَحْسَنُ      شَقِيقًا حُفًّا بِالسَّوْسَنِ  
خُدُودٌ لَثْمُهَا يُبْرِى      مِنَ الْأَسْقَامِ لَوْ أَمَكْنَ  
فَمَا تُجَنِّى وَحَارِسُهَا      بِقُفْلِ الصَّدْغِ قَدْ زَرَقْنَ<sup>(١)</sup>

(١) زرقن الصدغ : جعل الشعر المسدل على الخدود كالحلقة .



أَبْتُ هَوَاهُ مِنْ حُرْقِ لِنَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنَّ  
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعلن افتتانه بجمال صاحبه واحمرار خدودها المشبهة لورد الشقيق المحفوفة بنخصل السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لثم خدودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خدودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خدودها قفلا كالخلفة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليث هواه وما يذوقه من حرارته اللافة للنجم حين جَنَّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتفائه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكم أسكن محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقتة وأنت عليه . ومن غزله الرائع :

أَمَّا وَبِضَائِ مَبْسِمِكِ النَّقِيِّ	وَسَمْرَةَ مِسْكَ اللَّعْسِ الشَّهِيِّ <sup>(١)</sup>
لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْهَجْرَانِ جِسْمِي	وَأَعْطَشْتَنِي وَصَالِكُ بَعْدَ رِيٍّ
إِلَى كَمْ أَكْتَمُ الْبَلْوَى وَدَمْعِي	يَبُوحُ بِمُضْمَرِ السَّرِّ الْخَفِيِّ
وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهِيَةِ غَرَامِي	فَوَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنْ الْخَلِيِّ
تَغَاذَلْنِي وَتَزَوَى حَاجِبِيهَا	كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنِ الْقَيْسِيِّ
وَتَحْتَرَقُ الصَّفُوفُ بِرَيْقِ فِيهَا	وَهَلْ يَخْفَى شَذَى الْمَسْكَ الشَّدِيِّ
يَذُودُ شَبَابَ الْقَنَا عَنْ وَجْتِيهَا	كَمَنْعِ الشُّوكِ لِلرُّودِ الْجَنِيِّ <sup>(٢)</sup>
إِذَا مَارَمْتُ أَقْطَفُهُ بَعِينِي	تَقُولُ حَذَارٍ مِنْ مَرَعِي وَيِي <sup>(٣)</sup>

وابن النبية يُقَسِّمُ لِحُبُوبَتِهِ بِمِسْمَا الْفَاتِنِ وَسَمْرَةَ شَفَاهَا اللَّعْسَ أَنَّهَا أَسْقَمَتْ جِسْمَهُ بِهَجْرَانِهَا بَعْدَ الْوَصَالِ وَبِمَا أَصَابَتْهُ بِهِ مِنْ ظَمَأٍ بَعْدَ رِيٍّ ، وَيَقُولُ إِلَى كَمْ أَكْتَمْتُ مَحْتَى فِي الْحُبِّ وَدَمْعِي يَبُوحُ بِسَرِّي وَإِلَى كَمْ أَشْكُو لِلْأَهِيَةِ عَنِّي ، وَصَدِيقُ الْمَثَلِ الْقَدِيمِ : وَيَلُ الشَّجِي مِنْ الْخَلِيِّ . وَيَعْجَبُ أَنَّهَا تَغَاذَلَهُ أَوْ تَمْدَلُهُ أَسْبَابَ الْغَزْلِ ، بَيْنَمَا تَقْطُبُ حَاجِبِيهَا وَتَزَوَى مَا بَيْنَهُمَا ، وَيَلْتَمَسُ لَهَا عَذْرًا ، فَكَأَنَّ حَاجِبِيهَا قَوْسَانَ يَرْسِلَانِ السَّهَامَ ، وَلَا بَدَّ لَهَا كَالْقَوْسِ وَوَتَرِهَا مِنَ الشَّدِّ وَالْجَذْبِ فِي أَثْنَاءِ الرَّمْيِ

(٣) وى : وخيم .

(١) اللعس : سواد الشفة .

(٢) شبا القنا : حد الرماح .

بالسهم والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأرجحه يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبية من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبتة بما يحميها من الرماح تذود عن وجتها الفاتنتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائنه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشفق عليه شيئا من ورد وجتها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني يموج باللهفة والظما واللوعة الملتببة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب المحب الوهлан ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي المتناغم عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبية في هذه الصورة الرائعة التي تخلو من المتاع الحسى والتي يسيل فيها الشعرقة وعضوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجري شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النبية نزيل دياره حين كان الحاجري لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفري الموصلى الذي تحدثنا عن غزله الوجداني المتناغم يستضيء فيه بابن النبية أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفري التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :

أَيِّ دَمْعٍ مِنْ الْجَفُونِ أَسْأَلُهُ إِذْ أَتَيْتُهُ مَعَ النَّسِيمِ رِسَالَةً  
 إِنَّمَا نَظَمَهَا مَعَارِضَةً وَمَحَاكَاةً لِقَصِيدَةِ ابْنِ النَّبِيِّ :

بَدْرٌ تَمُّ لَه مِنْ الشَّعْرِ هَالَةٌ مِنْ رَأَى مِنْ الْحَبِينِ هَالَةٌ (١)

فهى من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفري لابن النبية أوسع من هذا ، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لافي أساليبه السلسلة السائغة فحسب ، بل أيضا في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتب ، مع الرقة والدمائة واللفظ وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النبية بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التي كانت مأمولة لهذه الصبابة

(١) هالة الأولى : دائرة القمر . وهاله الثانية : من هاله الشيء إذا أعجبه وروعه .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النغم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة .

### البهاء<sup>(١)</sup> زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، انتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بني أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حجّها خامس ذي الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »<sup>(٢)</sup> وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهدًا بالمخصَّبِ من مَيِّ ومادونه من أَبْطَحٍ وَحَجُونِ<sup>(٣)</sup>  
منازلُ كانتُ لي بين منازلُ وكان الصَّبَا لاني بها وقريني

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهي منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خدنه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى المات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولي شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ . وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جلدك التقوى والى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان

٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ ،

٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و«البهاء زهير» :

بحث بقلم الشيخ مصطفى عبدالرازق . وقد طبع ديوانه

بكمبرج سنة ١٨٧٦ بتحقيق بلمر مع مقدمة وتعليقات ،

وطبع في القاهرة مرارا وفي بيروت .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق

ص ٥ .

(٣) المخصب : موضع رمى الجار بمنى . والأبطح :

أبطح مكة وهو وادياها . والحجون : جبل بها .

الدين إسماعيل اللطى يهته فيها بولايته على أعلاها ، وأعجب به اللطى فأتخذه كاتباً له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتق بينهما ، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهني السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبّيه منشداً فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لَبَّيْكَ يَا مَنْ لَامِرْدٌ لَأَمْرُو      وَإِذَا دَعَا الْعَبُوقُ لَا يَتَعَوَّقُ<sup>(١)</sup>  
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ      حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّنُقُ  
سَجَدْتُ لَهُ حَقَّ الْعَيُونِ مَهَابَةً      أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطْرِقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائباً عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، ينعم بالحياة وهناً بها . ويتنقل معه في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والعلى بجماله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْعَرِيشِ وَرَبْقَةٍ      مِنْ الْعَيْثِ هَطَالُ الشَّايِبِ هَتَانُ<sup>(٢)</sup>  
بِلَادٌ إِذَا مَا جِئْتَهَا جِئْتَ جَنَّةً      لَعَيْنِكَ مِنْهَا كَلِمَا شَتَّ رِضْوَانُ  
تَمَثَّلُ لِي الْأَسْوَاقُ أَنْ تُرَابَهَا      وَحَصْبَاءُهَا مِسْكٌ يَفُوحُ وَعَقِيَانُ<sup>(٣)</sup>  
فِيَا سَاكِنِي مَصِيرٌ تُرَاكِمُ عِلْمَتُمْ      بَأَنِي مَا لِي عَنْكُمْ الدَّهْرُ سُلُونُ  
عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شُقَّةَ الْبَعْدِ بَيْنَنَا      فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ

كثير المطر .

(١) العيوق : نجم في طرف الهجرة يتلو الثريا .

(٣) حصاءها : حصاها . العقيان : الذهب الخالص .

(٢) الشاييب : جمع شويوب وهو دفعة للمطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادي من شرقيه إلى غريبه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار ، ويتصور الوادي جميعه فردوسا لا يشبه فردوس وترابه وحصباء مسكا وذهبا خالصا ، وهو لا يسلو أهله ولا ينسأهم أبدا ويتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تجف دموعه المنهله ، وتهدأ أحشاؤه الموجهة .

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوبي الأردن وينزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعْتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهدده . وتُرَدُّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيرا نبيلاً فنعج - كما يقول ابن خلكان - خلقا كثيرا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمَّم على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحُمِل من هناك في محفَّة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عُزِل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهوا إلى تقدمه في السن ، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن القمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عزَّ ذلك على البهاء فلم يقبل ثقْله ، وقيل : قَبْلَهُ فترة ثم استعفى منه . وفي ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارا لبعض رفقده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَغْدِهِ ومَرَّه بعد حُلُوهِ إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالقسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان في ترجمته :  
 كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعُه عنه فلما اجتمعت به رأيتُه فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودمائة السجايا . وما مرَّ من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياةً سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من بؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفي شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجاليتها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح حين صباه وشبابه في قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحة بمتع الحياة وطرح الهموم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ  
مثل ما تَفَتَى المسرًّا ت كذا تَفَتَى الهمومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمدُّ منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتغنَّى بالحب وتبارحه في تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا روايب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُعرض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الايوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التي استحالت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان .

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يشركه فيه - كما أسلفنا - ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السُّلس أثر كبير في ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادى في مصر سهلا لا نتوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أى صعوبات ، وعلى نحو ما يجرى النيل مترقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرا به . وكما أن الوادى ينطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفس



والقصيدة في ديوان البهاء زهير، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور، وفي رأي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث، وإن اختلف المترعان في الفكرة، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحجوب. وفي البيتين: الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد الستر. على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير. ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطي إذ يقول:

لها حَفَرٌ يومَ اللقاءِ خَصِيرُهَا      فما بِأَلْهَا ضَنْتُ بما لا يَضِيرُهَا<sup>(١)</sup>  
 أعادتها أن لا يُعادَ مريضُها      وسيرتها أن لا يُفكَّ أسيرُها  
 وها أنذا كالطيفِ فيها صباةٌ      لعلى إذا نامتْ بلبلي أزورها  
 من الغيدِ لم توقدْ مع الليلِ نارُها      ولكنها بين الضلوعِ تُشيرُها  
 يقاضى غريمُ الشوقِ مني حُشاشَةً      مروعةٌ لم يَبقَ إلا يسيرُها

والصور في القطعة دقيقة فَحَفَرٌ صاحبته أو خجلها وحيائها يحرسها يوم لقائه، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها؟ وهل من عاداتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها؟ وهو تضرع وتوسل لطيف. ويقول إنه أصبح كالطيف شبها متضائلا انجيلا. ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعف الأحلام. وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله. ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه. ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبا مفرعة. وفي القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها. ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعذوبة، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا في اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله:

(١) ضنت: بخلت.



تَعِيشُ أَنْتِ وَتَبْقَى أَنَا الَّذِي مَتُّ عَشُقَا  
 حَاشَاكَ يَا نَوْرَ عَيْنِي تَلْقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى  
 وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْتِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرْقَا  
 يَا أَنْعَمَ النَّاسِ بِالْأَى إِلَى مَتَى فِيكَ أَشَقَى  
 لَمْ يَبْقَ مَنِي إِلَّا بِقِيَّةً لَيْسَ تَبْقَى  
 قَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنِّي (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرقّة واللفظ مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يا نور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

مَنْ أَلِيَوْمَ تَعَارَفْنَا وَنَطَوِي مَا جَرَى مِنَّا  
 وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قَلْتُمْ وَلَا قُلْنَا  
 وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَتَبِ فَبِالْحَسَنِ  
 فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا  
 وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجَعَ لِلْمَوْضِلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفًا وظرفًا وتسامحًا ورقّة ودمائة ، ودائمًا تجرّي في غزله هذه الرقّة الحلوة التي تشبه ماء النيل العذير الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصَّروا مَدَةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمُرَكُمْ  
 شَرَّفُونِي بِزُورَةٍ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَكُمْ  
 قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَيْتَنِي كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم محلكم من فؤادي لسركم  
لو وصلتكم محبتكم ما الذي كان ضرركم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاءان في البيتين : الأول والثاني من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين في لغتهم اليومية ، وإنه ليتضرع لصاحبه مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده ، لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحجران . وهو لا يتحرج من إعلان تذللته في الحب ، بل من إعلان عبادته لمحبوته ، يقول :

سأشكر حبًا زان فيك عبادتي وإن كان فيه ذلة وخضوع  
أصلي وعندي للصبا رقة فكل صلاتي في هوالك خشوع

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وتراويل يقدمها لمن شغفت قلبه حبًا ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبّد لها كما يتعبّد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذي فُتق به ، بل الذي عبث به حتى جعله يعبد محبوته ، يقول :

لِي حَبِيبٌ عَبْدتُهُ وَيَحَ مَنْ يَعْبُدُ الوَثْنَ

وكانه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يُتشد تراويل غزله الوجداني البديع .

وكان البهاء زهير يعرف في وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموي في خزانته من حوار<sup>(١)</sup> له مع ابن سعيد الأندلسي حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرون في الغزل من أصداف التشبيات والاستعارات فإنه قال له إن لنا في الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامي يقصد هذا الغزل الوجداني . ثم لقيه مرة أخرى وأنشد : « يابانَ وادى الأجرع » وقال له : أنتهى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سقيتَ غَيْثَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامي أن تقول : « هل ملتَ من طربٍ معي » . وفي ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجداني ومعانيه في عصره ، وهو ما جعل معاصريه في الديار الشرقية على شواطئ الفرات وفي دمشق والشام وفي القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

« أجازني رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدي الناس ». ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلاوي الشاعر الموصلى الأصيل الدمشقي الدار والمولد . ونصَّ ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعاً طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغري بردي لابن الحلاوي قصيدة<sup>(١)</sup> في نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثيره بالبهاء وفيها يقول :

هَلالٌ وَلَكِنْ أَفقٌ قَلبي مَحَلُّهُ غزالٌ وَلَكِنْ سَفْحُ عيني عَقِيقَةٌ<sup>(٢)</sup>  
على خَدِّهِ جَمْرٌ مِنَ الحِسنِ مُضْرَمٌ يُشَبُّ وَلَكِنْ في قَوادِي حَرِيقَتِهِ

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

### ابن<sup>(٣)</sup> مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذة رفيقاً وصديقاً ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية فتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عين حاكم قوص مجد الدين اللمطي البهاء كاتبه ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه ليستند عملاً إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستلّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله :

لَكَ اللهُ إِنَّ العَفوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ومثلُكَ أَوْلَى مِثْلِي الصَّفْحَ والعَفْوَ

٢٨٥/٦ ومرآة الجنان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥

والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن الحاضرة

٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديماً في القسطنطينية سنة

١٢٩٨ هـ . وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .

(٢) العقيق : اسم وديان ومواضع متعددة في المدينة

ومجد .

(٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان

ولم يجد الصديقان بدءاً من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومَرَّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منها بهذا الانتصار بمثل قوله :

يَانَاصِرَ الدِّينِ الحَنِيفِ بِسِيفِهِ وَمِذْلَ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالطُّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا تعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومَرَّ بنا أن البهاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّها والرِّقَّة وغيرهما في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا في الخزانة ، ولم يزل ينعم بقربه وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له في دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح في خدمته وهو متغير عليه متكر له إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع فلول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالقسطنطين وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدُّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته البديعة :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِي نَصِيحُ

آجَرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى      مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ  
 أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا      نَحْسِبُ أَنْ الزَّمْرَ - يَاطِبُلُ - رِيحُ  
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَدْهَمٍ      ضَاقَ بِهِ عَنِ نَاطِرِكَ الْفَسِيحِ<sup>(١)</sup>  
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ      بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنَ الصَّرِيحِ  
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ      إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا جَرِيحُ  
 وَفَقَّكَ اللهُ لِأَمْثَالِهَا      لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ  
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً      لِأَخِذْ نَارًا أَوْ لِقْصِدِ صَحِيحُ  
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا      وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحُ

ويعلق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « لله ذرّه ! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف  
 والبلاغة وحسن التركيب ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن  
 مصر قريبة المنال فإذا من دونها حُرُّ رقاب الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال . ويسخر منه  
 سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشثومة حتى يستريح منهم عيسى وتُحزَّر  
 رقابهم جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الخاسرة إلى الشرق ،  
 ويقول له ساخرا متهاكما : لاتزال دار ابن لقمان التي سُجنت فيها على حالها ، ولايزاد القيد أو الغل  
 باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سقود يشويه عليه ، مع لطف  
 التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لَبَّى نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه في  
 الستين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى  
 وُجد البيتان التاليان في رقعة تحت رأسه :

أَتَجَرَّعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ      وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ  
 وَلَوْ بِذُنُوبِ الْوَرَى جِئْتُه      فَرَحْمَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ،  
 وكانت بيني وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشدني أكثره . » ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحفظ

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل في خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أبوي ، وربما كان حذف مدائح من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عَزَّ عليه أن يُعزل من منصبه ، فانتمم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما ، وجنبا منها واقتطفا أزهارا أو ثمارا هنيئة ، كما يوضح ذلك ديواناهما وما فيها من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده باتخاذ غالبا البدويات رمزا لمحبوباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجود مجنون ليلي وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يبتئ في وجده وحببه شذا الحنان والشوق الذي يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى	وذروا السيوف تَقَرُّ في الأغمار <sup>(١)</sup>
وحذارٍ من لحظاتٍ أعينَ عينا	فلكم صَرَعنَ بها من الآسادِ <sup>(٢)</sup>
مَنْ كان منكم واثقا بفؤادِهِ	فهناك ماأنا واثقٌ بفؤادِي
ياصاحبِي ولى بِجرعاءِ الحمى	قلبٌ أسيرٌ ماله من فادِي <sup>(٣)</sup>
سلبته منى يوم بانوا مُقلَّةُ	مكحولةٌ أجفانُها بسوادِ
ويحى من أنا فى هواه مَيِّتٌ	عَيْنٌ على العُشاقِ بالمرصادِ
كيف السبيلُ إلى وصالِ محجَّبِ	ما بينَ بيضِ ظبَّا وسُمرِ صِعادِ <sup>(٤)</sup>
حرسوا مُهفَهِفَ قَدُو بِمُتَقَفِ	فتشابهَ الميَّاسِ بالمَيَّادِ <sup>(٥)</sup>

وواضح أنه رمز لحيبه والتباعد فيه برامة في نجد وظبائها ساحرات الأعين اللاتي يصرعن بهن الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد

- (١) رامة : موضع بالبادية .  
 (٢) العين : بقر الوحش .  
 (٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزونة  
 (٤) الظبي : جميع ظبي : حدالسيف . الصعاد : جمع  
 صعدة : القناة أو الريح .  
 (٥) الميَّاس : المتبختر . الميَّاد : التمايل ، والمغلف : الريح .

آسر ، وأحد لا يستطيع أن يصل أو يلمّ بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فن دونها سيوف ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرسَ قُدّها الرشيقي المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد أواميال . ويقول :

سَفَرْتُ وَجِئْتُ فِي الْعَلَائِلِ تَنْتَنِي فَأرْتَكُ حِظًّا الْجَحْلِي وَالْجَحْنِي  
وَرَنْتُ فَمَا تُغْنِي التَّمَائِمُ وَالرُّقَى وَأَيْكَ عَنِ لِحْظَاتِ تِلْكَ الْأَعْيُنِ  
بِدَوِيَّةٍ كَمِ دُونِهَا مِنْ ضَارِبٍ بِالسَّيْفِ مَرْهُوبِ السُّطَا لَمْ يُوْمَنْ  
لَا يَخْدَعَنَّكَ لِحْظُ طَرْفٍ فَاتِرٍ أَبَدًا وَلَا تَأْمَنْ لِعِطْفَةِ لَيْلٍ  
الْبَسْتَنِي يَا هَاجِرِي ثَوْبَ الضَّنَا وَأَخَذْتَنِي يَا تَارِكِي مِنْ مَأْمُنِي

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا ، ومدّت بصرها إليه فوقع في حباثل أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه التمام والرقى ، وإنما لدوية أعرابية تحميمها السيوف المرفهة . وينصح صاحبه أن لا تخدعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عما يسيبان له من آلام وأوصاب دون أن يذوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خَذُوا حَيْذْرَكُمْ مِنْ طَرْفِهَا فَهَوَّ سَاهِرٌ وَلَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ دَهْتِهِ الْحَاجِرُ  
فَإِنَّ الْعْيُونَ السُّودَ وَهِيَ فَوَاتِرُ تَقْدُّ السُّيُوفِ الْبَيْضَ وَهِيَ بَوَاتِرُ  
وَلَا تُخْدَعُوا مِنْ رِقَّةٍ فِي كَلَامِهَا فَإِنَّ الْحَمِيَّا لِلْعُقُولِ تُخَامِرُ  
مِنْ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ غَارَتْ لِحْسِنُهَا ضَرَائِرُهَا وَالسَّيِّرَاتُ الضَّرَائِرُ  
إِذَا مَا اشْتَهَى الْخَلْخَالُ أَخْبَارَ قُرْطِهَا فَيَاطِبُ مَا تُمْلِي عَلَيْهِ الضَّفَائِرُ

وهو يحذّر من طَرْفِ صاحبه ، فالسهم دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصمى قلبه ، وباللهعجب فإن العيون الفاترة الناعسة تقد السيوف الباترة القاطعة ، ويحذّر من رقة كلامها المعسول فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قربانها الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة في البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى تلمس خملهاها وكأنما تحدّثه بأخبار قرطها ، ومن غزله في بواكير حياته :

خَدُّ تَوَقَّدَ إِذْ تَرَقَّرَ مَاؤُهُ لَهْفِي عَلَى الْمَتَوَقِّدِ الْمَتَرَقِّقِ  
حَتَّى الْحَلِيُّ لِحْسِنِهَا مَتَوَسَّسٌ فَاعْجَبْ لِحَسَنِ الْجِمَادِ مَنْطِقِ

ياشمسُ قلبي في هوائك عطاردٌ لولا تعرّضه لها لم يُحرق  
 لم انس ما قالت وقد لمست يدي ماذا لقينا منه أو ماذا لقي  
 وأقول ياأخت الغزال ملاحه فتقول لا عاش الغزال ولا بقى

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرتة يتلألأ فيه ويتفرق ،  
 مما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسنها يُنطق حتى الجاد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه  
 بها ، وما هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة  
 للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقيته وسلمت  
 أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شبهها بالغزال حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الغزال  
 ولا بقى ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هزّوا القدودَ وأرهفوا سمرَ القنا واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأعينَا  
 وتسقّدّموا للعاشقين فكلمهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا  
 لاخيرَ في جفنٍ إذا لم يكتحلْ أرقاً ولا جسمٍ بجافاهُ الضنا  
 لما اتنى في حلّةٍ من سندسٍ قالت غصونُ البانِ ما أبقي لنا  
 شبّهته بالبدر قال : ظلمتني - يا عاشقي والله - ظلماً بيننا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهنّ وسيوفها عيونهنّ وكل من  
 حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب  
 والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه في حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون  
 شجر البان الذي طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبهها  
 بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمتني ظلماً بيننا فهي أكثر منه جمالاً وحسناً وروعة . ومن  
 أبياته البديعة التي تتداولها كتب الأدب قوله في بعض غزله .

لسنا ثيابَ العناقِ مزررةً بالقَبَلِ

ولعل في كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجداني وما أشاع فيه من الرقة واللفظ  
 والدمامة والظرف وعذوبة الروح وخفة الظل .



برهان<sup>(١)</sup> الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وُضُمَتْ إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكب على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرّس وحدّث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدايح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له وراسله . وله في وصف شعره ونثره تفريل بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بجزائه . ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمى بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومرأى وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدايح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها :

أمسى ضريحك موطن الغفران ومحلّ وفدٍ ملائك الرحمن

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علماءها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلة محدثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراق والشيخ بدر الدين البشتكي ، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقي الدين الفاسي المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

٣٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٠/٦ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماء مطلع النيرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦ هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجوم الزاهرة ١٩٦/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٣١٤/٩-٣٩٨ و٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر

وأجاز له روايته ، وما زال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقاته بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .  
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أو كما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل يقدمه صاحبه لمحبوته مؤملا في الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصبابة والغرام والوجد الذي لا تنطفئ ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف والرقه ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقه من مثل قوله :

بأبي لحظُ غزالٍ قائلٍ في الفلوات<sup>(١)</sup>  
أخذتُ بابلُ عنه بعضَ تلكَ النَّفثاتِ  
حسناتُ الخدِّ منه قد أطالتُ حَسراتي  
أعشقتُ الشاماتِ منه وهىَ أسبابُ ممانى  
إنَّ للموتِ بأقدا ح جفونى سكراتِ  
قلتُ قد ميتُ غراما قال لى مُتُ بحياتي

والآيات تتطير عن الفم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته في الفلوات ، غزال ينفث في كل ما حوله السحر ، بفتنته وجمال وخطوده التى ملأت قلب الشيخ حشرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتملئ بحسنها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه ليذوب - أو كما يقول - ليموت وجدا والتياعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ، ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلّة عليه قائلة له : « مت بحياتي » ومن نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيك يا قرى غريمى  
وملئى الحميمُ وصدّ عنى  
وكم سأل العواذل عن حديثي  
وعمّ يسائلون ولى دموعُ  
بدتُ فى خدّها شاماتُ مسكٍ  
إذا نيرانُ خديّها تبدّتُ  
ومن شغفى بعُصن القدِّ منها  
أغارُ على العُصون من النسيمِ

(١) قائل : من القيلولة وهى وسط النهار ، وفعله قال

وكأنى بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى، ويقول إن غرامها غير يمه وذكرها نديمه طوال الليل، والتورية في البيت الثاني بديعة فقدم له الحميم والصديق في حب صاحبته، ولم يبق له إلا دمعه الحميم الحار يرافقه. ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة «النبأ» وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجرى على حدودها، ويقول إن شامات حدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هوم حبه المشتعل في حنايا صدره. ويعجب أن يجمع خذاها بجمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارةً وجنات النعيم وورودها الفاتنة. ويعلم غيرته عليها حتى ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غضنها من غصون الرياض النَّاضرة. ويقول:

يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذل	أَيْحِلُّ في شَرَعِ الهوى أنْ أهْجَرَ
طلعتُ بدورُ التَّمِّ من أزاركم	فغدا اصطبارُ الصَّبِّ مُنْقَصِمُ العُرَا
من كل هَيْفَاءِ القوامِ كأنها	غُضْنٌ يجرُّهُ النسيمُ إذا سَرَى
دُكرتُ فصغَّرها العَدُولُ جهالةً	حتى بدتُ للناظرين فكَبِرا
وجهلْتُ معنى الحسنِ حتى أقبلتُ	فرايته فيها يلوحُ مصوِّرا
لما درتُ أنى الكلمِ من الهوى	جعلتُ جوابي في المحبة لن ترى <sup>(١)</sup>
يامنْ إذا ما مرَّ حُلُوْ حديثها	أغناك عن مرِّ العتيقِ وأسكرا <sup>(٢)</sup>
أرخصتُ يومَ البينِ سِعْرَ مدامعى	وتركتُ قلبى بالگرامِ مسعرا <sup>(٣)</sup>

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيبه ألم الهجران وأن تنقذه منه، فقد نفذ صبره إذ رآها مع صواحبها الفاتنات وهن يمسن ميس الغصون حين يداعبها النسيم، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جاهلها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح. الله أكبر: أما هو فيرى فيها كل معاني الفتنة مصورة مغرية. ولما علمت مقدار وجدته المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة، بل مضت تُدِلُّ عليه، وتقول له: لن ترانى. ويعود إلى نداءها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها وحلاوته المسكرة، ويقول لها: لقد أرخصت مدامعى وأسعرت قلبى أو أشعلته نارا موقدة. وفي البيتين الأخيرين طباق وجناس مندجان في هذا الأسلوب السهل السائق، ويقول:

(١) الكلم: الجريح. لن ترى: لن ترانى.  
 (٢) يريد بالعتيق الخمر المعتقة.  
 (٣) في مسعر تورية لأنها إما من السمر وهو المعنى المتبادر غير المراد، وإما من السعير أى الجحيم وهو المعنى المراد.

علموا بأنّي لا أحولُ فعذبوا      ودرّوا بأنّي عاشقٌ فتغصّبوا<sup>(١)</sup>  
قتلوا المتّيمّ في الهوى وتظلموا      وجنّوا عليه بصدّهم وتعبّوا  
ومهفهفٍ لولا حلاوةً وجهه      ما كان مرٌّ عذابه يُستعذبُ  
إن كان يرضى أن أموت صباةً      فجميعٌ ما يرضاه عندي طيبٌ  
يا باخلاً وله أجودٌ بمهجتي      رفقاً على صبِّ عليك يعذبُ  
إن ملتَ فالأغصانُ يُعهدُ مثلها      أو غيتَ فالأقمارُ قد تتغيّبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حولاً عنها فتادت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغبضا ، ومع أنها فتكت بمحبها تشتكى منه ظلما وجورا . وماتزال تتجنى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه لإرضاء لها . حتى ليطيب له الموت في سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة ، ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا<sup>(٢)</sup> طريفا أودعه خزانته ، من مثل قوله :

تنفّس الصبحُ فجاءتْ لنا      من نحوه الأنفاسُ مسكّيةً  
وأطربتْ في العود قُمْريّةً      وكيف لا تُطربُ عودِيّةً

وعودِيّة لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يحتفلون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

(٢) خزنة الأدب للحموى ص ٣٨١ .

(١) أحول : أنحول .

## نور الدين <sup>(١)</sup> على العسيلي

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيًا تلمذ لشيخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي : « نور حلقة الزمان ونور (زهر) حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابله الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى شهرته بشعره على شهرته بالعلم والفقہ والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الحِمَى ولياليه التي سَلَفَتْ      من أدمعى ومن الوَسْمَى هَتَّانُ <sup>(٢)</sup>  
 لى في الديار سقاها المزن صَيِّبُهُ      غزالُ حُسْنٍ بديع الخلق قَتَّانُ <sup>(٣)</sup>  
 يارِ رَبِّبَ الحسن قد بالغت في تلى      أما لهجركِ يالْمِيَاءِ هجرانُ <sup>(٤)</sup>  
 هلا نظرتِ إلى مُضْنَاكِ راحمةً      فكان يشفع منك الحسنَ إِحْسَانُ

وهو لا يميل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبداً في الديار غزال سحره وخب لبه . ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبه لمياء أن تصله بعد طول المهجر والعذاب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَأَنَّ الذى أهوى على نفسه جَنَى      فال على تلك المحاسن بالفَتَكِ  
 فأغرق خَدْيَهُ بماءِ جِمالِهِ      وأوقع في الظَّلْمَاءِ ناظرَهُ التُّرْكِي  
 وهاجفُهُ يبيكى عليه من الضَّنَا      وها خَصْرُهُ من ثِقَلِ أَرْدافِهِ يُشْكِي

وهو يجعل المحبوب التركي جانباً على نفسه ، فقد أغرق خديه في ماء جباله أو بعبارة أخرى في رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداجي فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه يبيكى

(٣) المزن : السحاب . صَيِّبُهُ : مطره .  
 (٤) الربوب : القطيع من الظباء أو البقر الوحش .  
 والاستعارة واضحة .

(١) انظر في نور الدين العسيلي وترجمته ربحانة الألبا  
 (تحقيق عبدالفتاح الحلوى) ١٩٧/٢ وما بعدها وشذرات  
 الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى : مطر الربيع . هتان : هطال .

على ضناه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لَهُ ذُوَابَةٌ كَحِيَّةٍ مِنْ خَلْفِهِ  
تَحْمَى ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِيٍّ رَدْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمى خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كَلُّ فِعَالِ الْحَبِّ مَحْمُودَةٌ وَإِنْ تَجَافَى وَتَجَنَّى وَتَاه  
فَوْضَلُهُ قَطْعٌ لِدَاءِ الْأَسَى وَهَجْرُهُ قَطْعٌ لِقَوْلِ الْوِشَاءِ

فهو يرتضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من التظرف والرقه ورهافة الشعور مما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة في دولاب (ساقية) روض صورته فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غبي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي ماتني تبكى على عهدها بالرياض ، وماتني عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومررنا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيلي وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

## ٢

## شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، فنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهـاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شدّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالمرودة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التي تصور بسالتهم الحربية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يردّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حربية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية<sup>(١)</sup> :

لله دَرَى إِذْ أَعْدُو عَلَى فَرَسِي إِلَى الْهِيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْعَرُ  
وَفِي يَدِي صَارُمٌ أَفْرَى الرَّعُوسَ بِهِ فِي حَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يُبْقِي وَلَا يَدْرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتزمة ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجَّهها إلى أبيه ناثرا عليه . وأخفقت ثورته . ويتزل مصر في أيام كافور الإخشيدي المنتبى ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكل ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتزمة . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابه تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرده له ترجمة عما قليل ، وولتقى بعده بولى الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتابات من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

ولقد سموتُ على الأنامِ بخاطرِ اللهُ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا  
فَإِذَا نَظَمْتُ نَظَمْتُ رَوْضًا حَالِيًا وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَاخِرًا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهن كانه بحر زاخر ، وهو يهدى منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . وولتقى بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتبها على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصارى<sup>(٣)</sup> :

مِنَالُ الثَّرْيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِن عَاصَتْ عَلَيَّ الْمَطَالِبُ  
وَإِنِّي وَإِن لَمْ يَسْمَحِ الدَّهْرُ بِالْمَنَى فَلَئِي فِي كَفَالَاتِ الرِّمَاحِ مَآرِبُ  
تُقَرَّبُ لِي مُسْتَبْعَدَاتِ مَطَالِبِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاصِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى عليين من السموات ، وطبيعي أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا ييأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٣ .

(٢) معجم الأدياب ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُقَلَّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعائها فسجنه وهمم بقتله مما جعل المهذب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حرثته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصيبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول (١) :

جَلَّتْ لَدَى الرَّزَايَا بِلْ جَلَّتْ هِمَمِي      وهل يَضُرُّ جَلَاءَ الصَّارِمِ الذِّكْرِ  
لو كانت النارُ للياقوتِ محرقةً      لكان يَشْبَهُه الياقوتُ بالحجرِ  
لا تُفَرِّقَنَّ بَاطَارِي وَقِيمَتَهَا      فإنما هي أصدافٌ على دُرِّ  
ولا تظنَّ خفاءَ النجمِ من صِغَرِ      فالذنبُ فى ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمّل الرزايا والمصائب التى نزلت به جلدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار مها اضطرت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطاره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطمار الخلقفة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلى ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصغر للبصر لا للنجم .

ونمضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حرق عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحققهم محقا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكان لأبد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا المجد البطولى الذى توجها به صلاح الدين ، وتغنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حماسية مضطربة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكأن كل ما تجمّع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمّع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع (٢) :

سَوَايَ يَخَافُ الدَّهْرَ أَوْ يَرْهَبُ الرَّدَى      وَغَيْرِي يَهْوَى أَنْ يَكُونَ مَخْلَدًا  
وَلَكِنِّي لَا أَرْهَبُ الدَّهْرَ إِنْ سَطَا      وَلَا أَحْذَرُ الْمَوْتَ الرَّؤْمَامَ إِذَا عَدَا (٣)

(٣) الزّوام : السريع .

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .



ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طرفه  
 توقُّدُ عزمي يترك الماءَ جمره  
 وأظماً إنْ أبدى لى الماءَ مئةً  
 ولو كان إدراكُ الهدى بتدليلٍ  
 وإنك عبدي يازمانُ وإنني  
 ولو علمتُ زهرَ النجومِ مكاني  
 لحدتُ نفسي أنْ أمدَّ له يداً  
 وحيلةُ حلمي تترك السيفَ مبرداً  
 ولو كان لى نهرَ الحجرِ مورداً  
 رأيتُ الهدى أنْ لا أميلَ إلى الهدى  
 على الكرهِ منى أنْ أرى لك سيِّداً  
 لخرتُ جميعاً نحوَ وجهي سجداً

وكانه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصري لزمته حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبر بها عن شعور كل مصري على مر الزمن بأجداد أمته الحربية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولاً يهرب الدهر ولا يهرب الموت الزوأم ، ولو مد الدهر طرفه إليه لتنازله بعزم صادق يُشعل الماء جمرًا ملتها ويردّ السيف كليلاً صلداً لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظماً إن أبدى له الماء مئةً ، بل إنه ليموت ظمأً حتى لو كان نهر الحجر مورده وحقق له وروده كل ما أمله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة بسيطرته عليه حتى كأنما ذلّ له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبداً مسترقاً ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعظيم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لورأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت في روحه مصر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير بشعره وكان حامل لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُرب عن شعري ودولته  
 إذا رأيت قوافيها وطلعتها  
 كأنَّ ألفاظها في سمع حُسدِها  
 كواكبُ الرّجم يخرقن الشياطينا  
 أنْ ابن عبّادٍ باقٍ وابنُ زيدونا  
 فقد رأيتُ مقاتلك البحرِ والثونا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنسى ، فلا تزال حية نصرته ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد ورى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم أبيات قصيده كشهد الرِّجْم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح .  
وقلنا نلتقى في الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشمائل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على السنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقدفون بسهامه -  
كما مر بنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوي على نحو ما يصور  
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندی . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها  
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف  
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبي داود  
كان كثيرا ما يهجو مزييا على ماشاده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة  
كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضَجَّةٌ للناس من خَلْفِ سِتْرِهِ تَضجُّ إلى قلبِ عن الله مُغْفَلِ

فقلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضحجون خلف حجابيه وحرسه . ولا نشك  
في أن ابن أبي داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبنى جامعه المشهور وعهد إلى بعض  
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبي في كافور الإخشيدي مشهورة ، وقد ظلمه بدوره ظلما بينا .  
وكان المصريون قد احتفوا به حين نزوله في القسطنطينية وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين  
ظهرانهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبي الجوع وله  
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح (١) :

هاجيك فيما قاله مادحُ فأنت في صَفَقَتِكَ الراجحُ  
ياأيها الصَّعُو الذي لم يزل يرقص حتى دَقَّهُ الجارِحُ (٢)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك  
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يبدق عنقه صقرا أو نسر  
جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعة الغالية الراضية .  
وما زعمته للأئمة من نسبة إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

(٢) الصعو : العصفور الصغير .

(١) اليتيمة ٣٨٩/١ .

مما عرضنا له في غير هذا الموضوع . ويُروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم جمعة ، فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصرى هذين البيتين<sup>(١)</sup> :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفْر والحماقة  
إن كنتَ أعطيتَ عِلْمَ غَيْبٍ فَقُلْ لَنَا كاتبَ البطاقة

فتناولها العزيز وقرأها ولم ينبس بيت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار حفيظتهم بالإضافة إلى نخلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا غاضبا<sup>(٢)</sup> :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا  
العزُّ فيهم والمال عندهم ومنهمُ المستشارُ والملك

وهى سخرية من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين مرأ على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجائى وزير المستنصر وكان أقطع اليمين لحيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فحاطبه جاسوس الفلك قائلا<sup>(٣)</sup> :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودعْ الرقاعةَ والتحامقْ  
أمن الأمانة والستى قُطِعَتْ يداك من المرافق

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجايا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى بمقطعاته الهجائية الكثيرة فى الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول<sup>(٤)</sup> :

(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣

(٤) الحريدة ١٠٣/٢

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢

قُلْ لَابِن بَدْرِ مَقَالَ مِنْ صَدَقَهْ لَا تَفْرَحَنْ بِالْوَزَارَةِ الْخَلْقَهْ  
 إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَهَا مُرَاغَمَهْ فَهِيَ عَلَى الْكَلْبِ بَعْدَكُمْ صَدَقَهْ

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم المحلى الملقب برضى الدولة المار ذكره  
 يهجو بعض أصحاب الدواوين وما كانوا عليه من فساد في جمعهم للضرائب ، يقول (١) :

وَكُتَّابٍ لَهِمْ أَبْدَا حُمَاتٌ تُعَدُّ لَهَا الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ (٢)  
 بِأَيْدٍ تَبْتَدِرُونَ إِلَى الرَّشَاوِي كَأَيْدِي الْخَيْلِ أَبْصُرْتَ الْخَالِي

فكأنهم يشبهون الزنابير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم  
 الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بجمتها أو إبرتها وكما يلسع الصل أو الأفعى بسمه القاتل .  
 ومنتقى في أثناء ذلك بدعايات ساخرة كقول ابن قادوس يتهم على الرشيد بن الزبير وكان شديد  
 السواد (٣) :

إِنْ قَلْتَ مِنْ نَارٍ خُلِقْتَ وَفُقْتَ كُلُّ النَّاسِ فَهَمَّا  
 قَلْنَا صَدَقْتَ فَمَا الَّذِي أَطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحْمًا

وهي دعابة قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء مليء  
 بالسموم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله في مناقب مايزال يتلون لكل شخص باللون الذى يعجبه ،  
 يقول (٤) :

حَوْلَهُ الْيَوْمَ أَنْاسٌ كُلُّهُمْ يُزْهَى بِرَائِهِ  
 وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْنُهُ لَوْ أَنَّائِهِ

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكونهم  
 بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يصفع بالنعال على حد قوله (٥) :

وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقَعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ  
 وَمَا عَلَيْهِ قَطُّ مِنْ صَفْعِ النَّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الخريدة ١/٢٢٩ .

(٤) الخريدة ١/٢٣٣ .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

(١) الخريدة ٢/٤٧ .

(٢) حات : جمع حمة وهي إبرة الزنبور والعقرب .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوره يُصَفَعُ بالنَّعال ولا مغيث له ولا مجير ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذى لا يدمى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله (١) :

رَبِّ ثَقِيلٍ لُبْغُضٍ طَلَعَتْهُ أَحْشَاءُ حَتَّى كَانَهُ أَجَلِي  
وَكَلِمًا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاءَ حَتَّى كَانَهُ عَمَلِي

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفاترى مستغلا اسم أبيه في هجائه (٢) :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا  
وَبَنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر الماليك يريشون سهام الهجاء ، ويلقنا في أوائله الجزار والوراق ولها أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرهما البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أوكما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة ، ومن قوله فيهم (٣) :

ثَكَلْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدَمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا  
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جُبَاةٌ لَقَبُضٌ مُغَلَّهَا كَالْمُقْطَعِينَا  
نَحَيْلَتِ الْقِضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمَّوهُ الْأَمِينَا  
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهَ الْعَدْلَ ظُلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجعلون بفتاواهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . وما يلاحظ

(٣) الديوان ص ٢١٨ .

(١) البهء زهير للشيخ مصطفي عبدالرازق ص ٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥٨/٧ .

أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا<sup>(١)</sup> :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضَّتُهُمْ صِدْقَ الْوَلَا تَطُولًا<sup>(٢)</sup>  
وما رَعُوا عهدا ولا مودَّةً ولا ولا

وفي كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتبني بقوله<sup>(٣)</sup> :

رَبُّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مِتْوَالِي  
كَلَّفُونِي بَيْعَ خَيْلِي بِرَخِيصٍ وَبِغَالِي

والتورية في كلمة بغالي مع كلمة برخيص - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعمد إليها في هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظلم نلتقى بالهجاء في أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جميعها على النمط التالي<sup>(٤)</sup> :

يا ضَبْعَةَ الْهَمِيَانِ مِنْ عَائِلِ قَبِيلِ عَيْدِ أَعْوَزِ الْفُطْرَةِ<sup>(٥)</sup>  
وياقفا المهزوم من فارسٍ أدركه في ساحةٍ قَفْرَةٍ  
وبَهْتَةَ السُّكْرَانِ مِنْ هَاجِمٍ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ قَرَّةٍ<sup>(٦)</sup>  
ويانعيًا جَاءَ عَنِّ وَاحِدٍ إِلَى عَجْوِزٍ مَالهَا أُسْرَةٌ

وتمضى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المضمي تكليل الدم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة<sup>(٧)</sup> طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداعب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

- (١) ربحانة الألبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ص ٤١ -  
(٢) تطولا : تفضلا .  
(٣) النجوم الزاهرة ١٢٩/١٢ .  
(٤) نغمة الربحانة للمحبي ٦١٢/٤ .  
(٥) الفطرة : النقل في لغة المصريين العامية . الهميان : كيس النقود .  
(٦) قرة : باردة .  
(٧) تاريخ الجبرتي ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم الثَّو سَ لِقاسمٍ وأذلَّ هامةً  
وكساه ثوبَ جنايةٍ يَحْزَى بها يومَ القيامةِ  
ومضى يتهمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسل الكحل من العيون ، وردَّ عليه  
قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنهما يعيدان لنا نقائص جرير والفرزدق يقول  
قاسم :

جَلَّ الذي . قسم الشَّقا لشبابةٍ وله أدامه  
بعامةٍ لوخالها الـ قَلًا توهمها برامةٍ  
موروثيةٍ عن جَدِّه من قبل أن تُبْتى القِمامةِ  
لو كان يصلحُ للصلاة لحقَّ للقرْدِ الإمامةِ

والقَلَّ مقصور القَلَّء وهو من يلقى اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذي يُقلى فيه . يشير  
بذلك إلى ضخم رأسه وقذارة عمامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت  
حوالى سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة في الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر  
والهجاء :

### تميم<sup>(١)</sup> بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التي بناها  
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور في نفس السنة التي ولد فيها تميم  
حفيدة إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار  
وعقيل ، وكان المعز قد بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفى سنة  
٣٤١ . وكان في الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصيفا سيوسا ، دانت له إفريقية من تونس  
إلى المحيط ما عدا سبته فإنها ظلت - كما مر بنا في غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموي  
صاحب الأندلس ، وسيّر جوهرًا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا في غير هذا  
الموضع - ودخلها المعز في سنة ٣٦٢ وكان على الهمة يحكم تدبير الأمور حازما منتهى الحزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة  
ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية) .

(١) انظر في تميم وترجمته وأشعاره البيهية ٤٣٦/١ وابن  
خلكان ٣٠١/١ والحلة السراء (طبعة د . حسين مؤنس)  
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب في أدب مصر

واتضح حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لا يزال في المنصورية بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته تميما في مجونه<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن المعز حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله<sup>(٢)</sup> ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متسما باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المعز عني بتربية ابنه تميم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكبَّ على الشعر العربي في أزمته المختلفة يتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهور والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، ففضى في سيرته ، يحيا للهور والمجون . وموت أخوه وأبوه فيريثهما رثاء فاترا ، وهو رثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألما شديدا لغرته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يردّ العزيز إليه حرته . وهما فترتان صغيرتان في حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يغدق عليه إغداقا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطلُّ على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المعشوق ، غير ما كان يضفي عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يجيا حياة ترف وهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأديرة ، وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقيم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في مطالع شبابه ، وقد عاد فصرفها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كتابة تميم بأبي على قاطعة في أنه أنجب فعلا .

(١) سيرة جودر (تحقيق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .  
(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السراء أن السبب في صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينتجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب



مضارب وسراذقات وقباب ببركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلا في النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسمعهم بعض قياته . وفي ديوانه ما يصور كثوس اللهو والمجون التي كان يعبّ منها عبّاً ، ومرّبنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تيم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان يضيف إلى هذا المديح فخرا يمتزج أحيانا بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا	الصبحُ	أنا	الشمسُ	أنا	البدرُ	الذي	يَسْرِي
أنا	المرجُوُّ	في	العُسْرِ	أنا	المرجُوُّ	في	السُّرِّ
أنا	المُسْبِلُ	لِلنُّعْمَى	أنا	الكاشفُ	لِلضُّرِّ		
أنا	الراتقُ	لِلْفَتْقِ	أنا	القاصمُ	لِلظُّهْرِ		

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصباح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبّر الكون ومقسّم الرزق المرجو في العسر واليسر والمسبغ للنعمى والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجايز للكسر والعالم بالذكر ، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

أبني	عليّ	إن	نكننُ	نُنمّي	إلى	حَسَبِ	أَنَافِ	بنا	وَجَدُّ	أَرْوَعا <sup>(١)</sup>
فلقد	علمت	أنتي	أغشى	الوَعَى	وَأَنوبُ	في	الجُلّي	قَوْلَا	مُسْمِعَا <sup>(٢)</sup>	
ولقد	علمت	أنتي	رُضتُ	العلا	يَفَعَا	وحاولتُ	المكارمَ	مُرْضعا <sup>(٣)</sup>		

(١) القول بشير إلى بلاغته في شعره .  
(٢) الفجع : الفج في إبان شبابه .

(١) أناف : أشرف وارتفع .  
(٢) الجُلّي : الأمر العظيم . قَوْلَا : صيغة مبالغة من

فَدَعُوا لِي الشَّرْفَ الَّذِي شَدَّتَهُ إِذْ هِضْتُمُوهُ فَانْكَفَأَ وَتَضَعَّصَعَا<sup>(١)</sup>  
 لِي فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ جَوْلَةً يَعْدُو بِهَا قَلْبُ الزَّمَانِ مَصْدَعًا  
 فَادْفَعْ بِحِدِّ السَّيْفِ كُلَّ ظَلَامَةٍ إِنْ لَمْ تَجِدْ يَوْمًا سِوَاهُ مَدْفَعًا  
 فَبِذَلِكَ أَوْصَانِي الرَّوْصِيُّ وَرَهْطُهُ وَعَلَى قَرْصُ أَنْ أُطِيعَ وَأَسْمَعَا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالی والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه في الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلاء وساسها في مطلع شبابه وأنه حاول المكارم منذ كان في المهدي مرضعا . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذي يمنونه منه ، وكأنه يندرهم ويهددهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك وصية جده أبي الأوصياء علي بن أبي طالب وأبنائه من الأئمة وأن فرضا عليه أن يسمع ويطيع . ولا ريب في أن هذه المعروفة التي كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيق بها العزيز ، غير أن غمتها سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قدسيته ووجوب طاعته .

ومعروفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر في قيثارته ، ونقصد ردوده العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسي بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاءه موقفان : موقف يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز في فخره بأسرته وينقضها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يردُّ عليها ، وهو في الموقف الثاني حر يختار أي وزن ينظم فيه وأي قافية ، أما في الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التي يرد عليها وقافيتها على شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق في نقائضها ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز استهلها بقوله : « أَيُّ رُبْعٍ لآلِ هِنْدٍ وَدَارٍ » عمد تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها في الوزن والروي ، وفيها يقول ، راداً على ابن المعتز والعباسيين جميعا :

لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمَثَلِ عَلِيٍّ هَلْ تَقَاسُ النُّجُومُ بِالْأَقَارِ  
 مَنْ لَه الصَّهْرُ وَالْمَوَاسَةُ وَالنُّصْرَةُ ، وَالْحَرْبُ تَرْتَمِي بِالشَّرَارِ  
 مَنْ دَعَاهُ النَّبِيُّ حَيْدُنَا وَسَمَّا هُ أَخَا فِي الْخَفَاءِ وَالْإِظْهَارِ

(١) هضتموه : من هاض العظم إذا حطمه وكان على وشك أن ينجز .

مَنْ لَهُ قَالَ أَنْتَ مَنِي كَهَارُو نَ وَمَوْسَى أَكْرَمُ بِهِ مِنْ نِجَارٍ (١)  
 ثُمَّ يَوْمَ الْغَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ خَصَّصَهُ دُونَ سَائِرِ الْحَضَارِ  
 مَنْ لَهُ قَالَ : لَا قَتَى كَعَلَى لَا وَلَا مُتَّصِلٌ سِوَى ذِي الْفَقَارِ (٢)  
 مَنْ تَوَطَّأَ الْفِرَاشَ يَخْلُفُ فِيهِ أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ  
 وَلَبْنَا حُرْمَةَ الْوِلَادَةِ وَالْأَعْدَاءِ وَالسَّبْقِ وَالْهَدَى وَالْمَنَارِ  
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادِسْنَا الرُّوحَ أَمِينُ الْمُهَيْمِنِ الْجَبَّارِ  
 حُجَجٌ كَلِمَا تَأَمَّلْهَا الْعَامِلُ لِمُ بَانَتْ لَهُ بَيَانَ النَّهَارِ

وتميم يوازن بين جده علي بن أبي طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأيمن في الحرب ، ويشير إلى حديث نبوي ترويه الشيعة : أن النبي عليه السلام قال : « علي مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - في اعتقادهم - أحق من الشيخين : أبي بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدیر خم وهو موضع بين مكة والمدينة أثني فيه الرسول ﷺ على ابن عمه علي ، وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى في هذا اليوم بالخلافة لعلي . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجري يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذي الحجة عيداً لهم . ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذي اصطفاه الرسول لينام في فراشه ليلة خرج مع أبي بكر مهاجراً إلى المدينة ، مخترقاً حصاراً مسلحاً ضرته قريش حول بيته ، حتى لا تتبته إلى خروجه ، وكانت قد بينت القضاء عليه ( يريدون أن يُطْفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين في أنهم من سلالة أعلام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما نقص الشيعة من أن الرسول ألقى كساءً عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنتها الحسن والحسين وكان سادسهم - كما يقول تميم - جبريل وقال : نحن أهل البيت في خيرٍ ردونه . ويذكر جهاد علي المبرور في غزوات الرسول وخاصة في بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعاً عباءة عظيمة . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية علي وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

يجرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

وتميم في الموقف الثاني الذي لا ينقض فيه قصيدة بعينها لابن المعتز ليح على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرًا مضطربًا بشرك كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جددهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعلى أو عن طريق خدماته الجليلة للدين الخفيف ونصره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بني أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموي - ولعله المستنصرين عبد الرحمن الناصر - كتابا يسبه فيه ويهجوهم ، فكتب إليه : « أما بعد فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب <sup>(١)</sup> . ولعل ذلك ما جعل تيمما يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إن قُرَيْشًا بَعْلًا هَاشِمٍ	تفخر في عَقْوَةَ عَرِيْسِهَا <sup>(٢)</sup>
إن يك من ياقوتها هاشمٌ	فعبد شمسٍ من ضَغَابِيسِهَا <sup>(٣)</sup>
اسمٌ إلى الصفوة من هاشمٍ	أهل معاليها وتَقْدِيسِهَا
دَعَّ عَبْدَ شَمْسٍ وَأَبَاطِيلَهَا	فقد بدا اللُّهُ بِتَنَكُّيسِهَا
قبيلةٌ ما طَهَّرَ اللهُ مَنْ شَايَعَهَا	من إثمٍ تنجيسِهَا

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنوه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيتهم ، أما عبد شمس وبنوه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقبيلة آتمة إنما فظيعة ، وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسيبهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(٣) الضغاييس : جمع ضغبوس : الضعيف النعم .

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

## طلائع<sup>(١)</sup> بن رزّيك

أرمنى الأصل قَدَم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبي طالب بالنجف ، وكان لا يزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولا حسنا ، فسار إلى مصر ، وترقى في خدمة الفاطميين حتى ولّوه حاكما لمنية الحصبب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجي وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربتة حتى إذا قرب من القاهرة فرعباس بما نهب من أموال القصر الفاطمي إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولي الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفاتر (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صبيا لا يعدو خمس سنوات ، فدبّر الدولة طلائع وأحسن تديريها ، حتى إذا توفي الفاتر بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلا لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاضد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدر عام في خلافة العاضد حتى دبّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاضد نفسه هو الذي أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعياً لا على مذهب الفاطميين الإسماعيلي ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئزي : « كان رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدييرا » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتابا سماه « الاعتماد في الرد على أهل العناد » ويقول المقرئزي إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضا بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجوهريّة في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت العصرية عليه وعلى حياته وأبجاده ومدائحه ومدائح  
غيره فيه ، ونشر محمد هادي الأميني ديوانه في النجف ،  
وأودع في مقدمته ثبنا مفصلا بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلائع وترجمته وأشعاره الخريدة ١٧٣/١  
والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٥٢٦/٢  
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر  
الفهرس) وخطط المقرئزي ١٩٢/٣ وبني عمارة الجني كتابه

يَا أُمَّ سَلَكْتُ ضَلَالًا بَيْنًا حَتَّى اسْتَوَى إِقْرَارَهَا وَجُودُهَا  
مِلْتَمٌ إِلَى أَنَّ الْمَعَاصِيَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِتَقْدِيرِ الْإِلَهِ وَجُودُهَا  
لَوْ صَحَّذَا كَانَ الْإِلَهِ بِزَعْمِكُمْ مَنَعَ الشَّرِيعَةَ أَنْ تُقَامَ حُدُودُهَا

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه في منزله وخاصة الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهد كعبة للقصاد من شعراء البلاد العربية أمثال ابن الدهان الموصلى وعمارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه يقول العماد : « نفق في زمانه النظم والنثر واسترقَّ بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصى بالعباءة » . وقد أدار العماد كثيرا من تراجمه في القسم المصرى من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف في أيامه الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحيه وافتتحه بترجمته ، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادى الأمينى ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسة وعشرين صحيفة ، ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وإنه كان يقع في جزءين ، وكان ديوانه المنشور وإنما هو مقتطفات من ديوانه الأصلى ، واتهمه بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من صنع شاعريه : الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما كان يرجع إليها لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانا يصلحان له شعره . وأكثر الديوان المنشور فى مديح آل البيت وراثتهم ورتاء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النغم الحزين الكثير فى شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير الكثير فى الموت ، حتى فى يومه البهيج يوم جلوسه فى الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام عينيه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين ترعبه فى دَسْت الوزارة :

انظُرْ إِلَى ذَى الدَارِ كَمْ قَدْ حَلَّ سَاحَتَهَا وَزِيرُ  
وَلَكُمْ تَبَخَّرَ آمِنًا وَسَطَّ الصَّفُوفِ بِهَا أَمِيرُ  
ذَهَبُوا فَلَا وَاللَّهِ مَا بَقِيَ الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ  
وَلِثَلْ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ الْفَنَاءِ غَدًا نَصِيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، ففضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاثلهم طوال أيامه ، حتى لقبه معاصروه بأبي الغارات ، فقد كان جيشه لاينى آيبا ذاهبا إلى مواقع الصليبيين وسحق جموعهم فى جنوبى فلسطين ودقُّ أعناقهم وسفك دمايهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

توالَتْ علينا فى الكتابِ والكِيبِ      بشائرٌ من شرقِ البلادِ ومن غربِ  
جعلنا جبالَ القُدسِ فيها وقد جرتُ      عليها عتاقُ الخيلِ كالثَّفَنِ السَّهْبِ<sup>(١)</sup>  
وقد أصبحتُ أوعارُها وحُزونها      سهولاً تُوطأُ للفوارسِ والرُّكَبِ  
ولما غدتُ لأماءِ فى جنَّباتها      صَبِينا عليها وإبلاً من دمِ سَكَبِ<sup>(٢)</sup>

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دمايهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيزِرِيِّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستشير نور الدين صاحب حلب لتضييق الخناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامة فى ميمية استهلها بقوله :

ألا هكذا فى اللهِ تمضى العزائمُ      وتمضى لدى الحربِ السيوفُ الصَّوارِمُ<sup>(٣)</sup>  
وتُغزى جيوشُ الكفرِ فى عُقرِ دارِها      ويوطأُ حِجَاجُها والأَنُوفُ رَواعِمُ<sup>(٤)</sup>  
خيولٌ إذا مافارقتُ مصرَ تبتغى      عِدًا فلها النَّصْرُ الميِنُ ملازم  
يسير بها ضرغامُ فى كلِّ مَازقٍ      وما يصحبُ الضَّرغامُ إلا الضَّراعِمُ<sup>(٥)</sup>  
فقولوا لنورِ الدينِ لا قُلَّ حِدَّةُ      ولا حكمتُ فيه اللبالي القَواشِمُ<sup>(٦)</sup>  
تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولا تهنَّ      وتُظهِرْ فتورا أنْ مضتْ منك حارِمُ

(٤) عقر: وسط .

(١) عتاق الخيل: كرامها . الثفن: الفلاة . السهب: المستوى .

(٥) الضراعِم: جمع ضرغام وهو الأسد .

(٢) وإبلا: مطرا شديدا . السكب: الماطل السائل .

(٦) القواشِم: الشديدة الظم .

(٣) الصوارِم: جمع صارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد للحربهم حتى يضيّق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيّق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثمر بالقرب من حمص يسمى أنطَرطوس ونكّل في الثغرين بحملة الصليب وسفهم فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفد	رَنجَ مالا يناله التأميلُ
فحوى من عكا وأنطَرطوسِ	عِدَّةٌ لم يُحِطْ بها التحصيلُ
أُليغنُ قولنا إلى الملك العا	دل فَهُوَ المرجوُ والمأمولُ
قلْ له كم تُماطل الدين في الكفد	ارِ فاحذرْ أن يغضبَ الممطولُ
سِرْ إلى القدسِ واحتسبْ ذاك في اللد	هـ فبالسيرِ منك يُشْفَى الغليلُ

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع في حماسياته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقفوا بين شقي الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبها إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعدُّ حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصّرت أيام الأفضل بن بدر الجمالي ومن جاء في إثره من الوزراء ، فلما أقيمت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهّز الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . ودائما يهيب في كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزّقوا كل ممزّق ، غير أن يدا أئمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، ورثاه عمارة وغيره من الشعراء مرثى حارة .



## ابن (١) النَّرُويّ

هو الوجه على بن يحيى النَّرُويّ أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجمته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الخريدة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن الندوي شاعرا مجيدا توه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يابانُ إن كان سُكَّانَ الجِميِّ بانوا      فقبضُ شأني له في إثرهم شأنُ  
من لي بأقارِ أنسٍ في دُجى طررٍ      أفلاكها العيسُ والأبراجُ أظعانُ (٢)  
من كل قانية الحديين ناهدةٍ      لو كان للضمِّ أو للثَّمِّ إمكانُ

وفي البيت الأول تورتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع و « شان » في آخر البيت بمعنى خبر . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يتمنى لو يلقى أقاربا مضيئة في ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهم ركب العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

(١) انظر في ابن الندوي وترجمته وأشعاره الخريدة

(٢) الطرر : جمع طرة وهي مقدمات شعر المرأة الذي

تصفه على جبهتها . العيس : الإبل .

١٨٧/١ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٣٣ و٣٤١ والفوات

١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ و٤١٦/٢ والروصتين

٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والخزانة ص ١٢٣ وابن خلكان

موهبتة الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر معاصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لا تَظُنَنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عَيْبًا      فَهِيَ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ  
وكذلك القِيسِيُّ مُحَدَّوْدِيَاتٌ      وَهِيَ أَنْكَى مِنَ الظُّبَا وَالْعَوَالِي (١)  
وإذا ما علا السَّنَامُ فففيه      لِقُرُومِ الْجِجَالِ أَيُّ جِجَالٍ (٢)  
وأرى الإِنْخِئَاءَ فِي مَنْسِرِ الْكَأِ      سِرِّ يُلْفَى وَمِخْبِ الرِّثْبَالِ (٣)  
قد تَحَلَّيْتَ بِانْخِئَاءٍ فَأَنْتِ الـ      رَآعِمِ الْمَسْتَمِرِّ فِي كُلِّ حَالِ  
وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ وَزْرِكَ فِي الظَّهْرِ      بِرِ فَأَمَّنًا فِي مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ  
كَوْنُ اللَّهِ حَدْبَةً فِيكَ إِنْ شِئْتَ      سَتَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنْ الْإِفْضَالِ  
فَأَتَتْ رِبْوَةً عَلَى طَوْدِ حِلْمٍ      مِنْكَ أَوْ مَوْجَةً بِبِحْرِ نَوَالِ  
مَارَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ      لَوْ غَدَتْ حَلِيَّةً لِكُلِّ الرَّجَالِ  
وإذا لم يكنْ من الهجر بُدٌّ      فَعَسَى أَنْ تَزورنِي فِي الْخِيَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حُصَيْنَة على أنها ميسم جبال وصفة من صفات الحسن في الهلال ، ويأخذ في بيان حسنها وفضائلها ، فالقسي أشد فتكا من أسنة السيوف والرماح ، وهي مصدر جبال كالسنام للجبال ، وما كان الانخفاء عيبا في منقار النسور ومخبل الأسد المصور . ويتصوره راعما مدى حياته ، ويعود فينبغي عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزر كبير مجسد تعجل حمله في دنياه . ويعود إلى السخرية والتهمك فيقول إنها ربوة تعلق طود حلمه أو موجة تعلق مياحه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتتمنى لو تحلّى بها كل الرجال . ويتأدى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جباله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ويخز فقيها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هو في الفقه ماهرٌ لا يُبَارَى      وأديبٌ في جُمْلَةِ الشعراءِ  
لا إلى هؤلاء - إن طلبوه -      وجودوه ولا إلى هؤلاء

(١) الضبا : جمع ظبه وهي حد السيف . والعوالى :  
الرماح .

(٢) منسر الكاسر : منقار الطير الجراح . الرثبال :  
الأسد .

(٣) قروم الجبال : عظامها

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : ( مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ) . وكان يعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بجمامٍ نعمتُ بهِ والماءُ ما بيننا من حوضه جارٍ  
 كأنه فوق شفافِ الرُحامِ ضحَى ماءٌ يسيل على أبوابِ قَصَارِ  
 والقصار : مبيض الثياب وغاسلها ، وكان الشاعر غفل ، فشبّه الماء بالماء . وانتهر الصديق ابن الذرّوى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له فكاد يحرقه من فرطِ إذكاءِ  
 أقام يُجهد أياما قريحتهُ وشبّه الماءَ بعد الجهدِ بالماءِ

وشاع الشطر الأخير على السنة المصرية إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرّوى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرّوى فعمد إلى هجائه بقوله :

وَنَيْلُوفَرٌ أَبَدَى لَنَا باطِنًا له مع الظاهر المخضّر حُمْرَةً عَنَدَمٍ (١)  
 فَشَبَّهُتُهُ لَمَّا قَصَدْتُ هِجَاءَهُ بكاساتِ حِجَامٍ بِهَا كَوْنُهُ الدَّمُ (٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبّح كل حسن مها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذى طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصبغة .

(٢) الحجام : محترف أخذ الدم بالمحجم .

أحمد<sup>(١)</sup> بن عبد الدائم

هوشهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرْمَسَاحِي نسبة إلى شَرْمَسَاح : بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا ، ولد في أوائل زمن المالك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيها شهاب الدين الحَوَيْي وقدم إليه قصيدة هجو فردّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبتني قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضي ، فأشتهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرحل الدمياطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يضع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهته فيها بعودته إلى عرشه وهجو المظفر بيبرس ويعرض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وَأَمَى الْمَظْفَرُ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ      وَنَاصِرُ الْحَقِّ وَأَمَى وَهُوَ مُتَّصِرٌ  
فَقُلْ لِبَيْرَسَ إِنْ الدَّهْرَ أَلْبَسَهُ      أَثْوَابَ عَارِيَةٍ فِي طَوْلِهَا قِصْرٌ  
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الخَيْرُ عَنِ أُمِّهِ      لَمْ يَحْمَدُوا أَمْرَهُمْ فِيهَا وَلَا شَكَرُوا<sup>(٢)</sup>  
وَكَيْفَ تَمَشِي بِهِ الأَحْوَالُ فِي زَمَنِ      لَا التَّيْلُ وَأَمَى وَلَا وَاغَاهُمْ مَطْرٌ  
وَمَنْ يَقُومُ ابْنُ عَدْلَانَ بِنُصْرَتِهِ      وَابْنُ المَرْحَلِ قُلُّ لِي كَيْفَ يَتَّصِرُ؟

(٢) تولى الأول بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره القوات ٨٦/١ والدرر الكاشفة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصّر النيل في فيضانه أجدبت بعض البلاد وارتفع السعر. وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامها ضده إلى بيبرس الجاشنكير، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها، ومّرّ به ابن عبد الدائم فأنشده:

والله ما سرّني عزلُ ابن عدلانِ

فقال له: جزيت خيرا. فأكمل البيت قائلا:

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة. وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف، وكأنه أراد أن يبتزّه، وكانت فيه صرامة فازدراه فانقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورعًا مثل أبيه، وتمضى القصيدة على هذا النمط.

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ وأوقافها ما بين عافٍ ودارسٍ<sup>(١)</sup>  
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حسرةً وَيَشْبَعُ بالأوقافِ أهلُ الطيالسِ<sup>(٢)</sup>

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعظائم هما منها براء، وكلها كذب وبهتان وافتراء، وكاد القاضي يتزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه. وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديداً، وساءت حالته، فإن لحوم العلماء مسمومة. وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالى سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ في زمنه.

### حسن<sup>(٣)</sup> البدرى الحجازى الأزهرى

يقول الجبرتي في ترجمته: «كان عالما فصيحاً مفوها متكلماً منتقدا على أهل عصره وأبناء مصره» ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة: صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه وسنن أبي داود وسنن التّسالى وجامع الترمذى. وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(٣) انظر في حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ

(١) عاف ودارس: محو زائل.

الجبرتي ٧٥/١ وما بعدها.

(٢) الطيالس: جمع طيلسان وهو كساء كان خاصا

بعلماء الدين تميّزا لهم.

مبكرة وعُنى بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العصد ، والدرة السنية في الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجبرتي شعره فيقول : له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلما نجد في نظمه حشواً أو تكملة ، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادير وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجماع الأياس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليفة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قوم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو جمهوره على الأقل لم يكن مديحاً وهجاءً وغزلاً وعتاباً وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقداً للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلك الناس حتى ليدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعامل من اجتنابهم وفر منهم فرار السليم من الأجر لا من الأبعد فحسب بل أيضاً من الأقارب ، يقول :

أخى فطناً كُنْ واحذر الناسَ جملةً ولا تكُ مغرورَ الظنون الكواذبِ  
ولا سماً نوعُ الأقاربِ إنهم عقابك في الدنيا وعقرُ العقاربِ (١)

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثرياً ليرثوك ، وإن كنت فقيراً كنت لديهم خسيساً أخس من الكلاب . وهو على هذا النحو سيئ الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سياط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذرْ أولى التسييحِ والسُّبْحَةِ	والصُّوفِ والعُكَّازِ والشَّمْلَةِ (٢)
قد صار إبليس لهم تابعاً	يقول يا لَلْعَوْنِ والنَّجْدَةِ
مما حَوَيْتُمْ عَلَّمُونِي فما	لِي عنكم في المكر من غُنْيَةٍ
لكم قيادى وانقيادى وما	مثلكم في النادِ والنَّدْوَةِ (٣)
وأنتمُ تاجى على هامتى	ماهتُم إلا كنتمُ هِمَّتِي (٤)

(٣) الناد : النادى حذفت الياء لضرورة الشعر .

(٤) همت : من هام بهم إذا خرج على وجهه لا يدرى

أين يتوجه .

(١) عقر : بيت أو منزل .

(٢) الشملة : شال كالطليسان يتلقع به على المنكين

والصدر .

وهو طبعاً يقصد نفراً من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومستوليياته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامة أقطاباً وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحه وجعلوها مزاراً ، يقول :

لَيْتَنَا لَمْ نَعِشْ إِلَى أَنْ رَأَيْنَا كُلَّ ذِي جِنَّةٍ لَدَى النَّاسِ . قُطْبًا  
عَلَمًا هُمْ بِهِ يَلُودُونَ بَلْ قَدْ تَخَذُوهُ مِنْ دُونِ ذِي الْعَرْشِ رَبًّا  
إِذْ نَسُوا اللَّهَ قَائِلِينَ فُلَانٌ عَنْ جَمِيعِ الْأَنْامِ يُفْرِجُ كَرْبًا  
وَإِذَا مَاتَ يَجْعَلُوهُ مَزَارًا وَلَهُ يُهْرَعُونَ عُجْمًا وَعَرَبًا

وكاننا بإزاء داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميمهم العامة بالمجنوبين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتاً . ومع كثرة أشعاره في هذا الجانب لم تترك وراءها في مصر أثراً . على أننا نجد به ذمه وهجاءه - ظلماً وعدواناً - لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أرباباً .

### ٣

#### شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمباهم المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى نافعاً لعبه من حوض إلى حوض ، بآث الحياة والجمال في كل ما يمسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرحون الطرف فيها والخيال ، فتتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتعمقهم الشعور بما خص الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أى وصف عن تصويره . وطبيعى أن يتردد ذكر النيل على السنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ويحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نبيلة له من الفسطاط إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى في عصر الولاية لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاية والقضاة

احتفظ بها الكندي . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المربي القاسم بن يحيى شاعر خارويه يخص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله (١)

ومطايا لا يغتدين ولا يسدّ      تأمن كدّ البُكور بعد الرّواح (٢)  
أصلها البرّ وهى ساكنة في ال      بحر سكنى إقامة إباح  
وإذا أوقرت فذات وقارٍ      وإذا أُخليت فذات مراح (٣)  
جاريات مع الرياح وطوراً      كاسرات بالجرى جدّ الرياح  
ساريات لا يشتكين سرى اللدّ      ل ولا يرتقبن ضوء الصباح  
لا يخفن الغار يُقدفن فيها      ويخفن المورّ بالضّضاح (٤)

ويطلب في تصوير المراكب ، فهى في الماء وهى خالية تماما من الماء ، وهى ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقى ، وهى من البيض ويطل شطرها الأسفل بالقار ، فهى بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقرّ على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجدّ في سيرها دون اعتزام جاح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعي ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابل للنطاح . ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثرّون من الصباح حتى كأن السفن تجرى خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول في وصف النيل وسفنه فيقول (٥) :

يوم لنا بالنيل مُحْتَصِرٌ      ولكل يوم مسرة قصر  
والسفن تجرى كالحيول بنا      صعدا وجيش الماء منحدر  
فكأنا أمواجه عكنٌ      وكأنما داراته سر (١)

(٤) الغار : جمع غمر وهو الماء الكثير العميق الضحاح : الماء القليل لاعمق فيه .  
(٥) ديوان تميم ص ٢٤١ .  
(٦) العكن : جمع عكنة وهى ماتى من ظاهر البطن وطياتها .

(١) انظر مقالا عن المربي للال ناجى بمجلة الكتاب العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة  
(٢) الرواح : الرجوع في العشى .  
(٣) أوقرت : حملت حملا ثقيل . المراح : المرح والنشاط .



والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكان أمواجه عكَنَ أو تَثَّيات أمامية لأجساد عارية وكأنما قواراته أو داراته في فيضانه السُّرر أو النقر الصغيرة أو الثُّكت في بطون من كن يهدين إلى النيل من عرائسه . ولهم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله في الناعورة<sup>(١)</sup> :

تثنّ	وليسَتْ	بمحزونةٍ	أنينَ	الحبِّ	الكثيبِ	الجزينِ
فتنطقُ	بالصوتِ	لا من فَمٍ	وتقدف	بالدمع	لا من جُفونِ	
كان لها	ميتًا	في الثرى	فأدمعها	هُمَّعُ	كلِّ حينٍ <sup>(٢)</sup>	
إذا زمرت	أطربتُ	نفسها	فغنتُ	بمخيلفات	اللحونِ	
غناءً	يرقصُ	كيزانها	ويظهرُ	فيهن	وثبَ	المجونِ
فتهوى	فوارغُ	في بثرها	وتصعدُ	منها	ملاء	العيونِ

والناعورة تن أنين الحب اليائس الجزين وتشكو لا بضم وتبكي لا من عين ، وتلحن مختلف اللحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقي أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله في النخل وبُسرُه أو بلحه<sup>(٣)</sup> :

النَّخْلُ كَالهَيْفِ الحِسانِ تَرَيْنَتْ فليسِنَ من أثمارهنَّ قلائدا

وكانها في خياله فانتات تترين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلوعها الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فكاحل من زبرجد رءوسها مسها الذهب . وأما الخوص الأخضر وتحت البلح الأحمر فزبرجد يثمر عقيقا « وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر ببركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأختها لها بجوارها بمنزلة السراويل ، ويعجب ابن قلاقس بغروب الشمس وراء النيل فيقول<sup>(٤)</sup> :

(٣) حسن المحاضرة ٢/٤٣٥ .

(٤) الديوان ص ٧٥ .

(١) الديوان ص ٤٢٤ .

(٢) همع : سواكل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً واعجب لما بعدها من حمرة الشفق  
 غابت وأبدت شعاعاً فيه يخلفها كأنما احترقت بالماء في العرق  
 وللهمال فهل وافى ليُنقِذها في إثرها زورقٌ قد صيغ من ورق<sup>(١)</sup>

وهي صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما  
 خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقاً من فضة جاء  
 لإنقاذها من العرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار  
 الشرقية نواحي الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد<sup>(٢)</sup> :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيه مُصعداتٍ بنا ومنحدراتٍ  
 ولياليَ بالجزيرةِ والجيزةِ فيما اشتهتُ من لذاتي  
 بين روضٍ حكى ظهورَ الطواويجِ سِ وجوَّ حكى بطونَ البزاةِ<sup>(٣)</sup>  
 حيث مَجْرَى الخليجِ كالحيةِ الرُّقِّ طاءَ بين الرياضِ والحجّاتِ  
 هاتِ زِدني من الحديثِ عن النِّيلِ لِي ودعني من دجلةٍ والفراتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب  
 وتنحدر ، وماتنى صاعدة منحدره ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجزيرة وجزيرة الروضة  
 والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهجة كأنها ألوان الطواويس في  
 جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ،  
 حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء  
 مرارا بهذا الحنين في أشعاره . وتُظِلُّ مصرَ أيامُ الممالكِ ويظلُّ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية  
 ومفاتها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤  
 وصَفُّ لشجرة سرّو باسقة قصد موضعها مع بعض رفاقه ، ووصفَ معها القارب المطلق بالقار  
 الذي ركبه ، يقول<sup>(٤)</sup>

مالت على التهر إذ جاش الحَرِيرُ به كأنها أذن مالت لإصغاء

(١) ورق : فضة .

طويلة الساق والذنب .

(٢) البهاء زهير ص ٢ .

(٤) خزنة الأدب للحموي ص ٤٢٤ .

(٣) البزاة : جمع بازى وهي جنس من الصقور الصغيرة

كَانَ صَمَغَتَهَا الْحَمْرَا بِقَشْرَتِهَا الْـ      مَدَكْنَاءُ قُرْصٌ عَلَى . أَعْكَانِ سَمْرَاءِ  
نَسَعَى إِلَيْهَا عَلَى جِرْدَاءِ جَارِيَةٍ      مِنْ آلَةِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءِ  
سَوْدَاءِ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَا      مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعَسَاءِ

والتصوير في الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصغى إلى خريه ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص ملتصق بطيات بطن لسمرء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سعوا إليها في سفينة حدباء كهلال الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على خد ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شهداً وعسلاً مصنئاً .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ، وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمير وكثوسها وسقاتها وندمائها ، ولكن يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثراً أو آثاراً واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ على ما حرّمه الدين ، وفي رأى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى في المديح وغير المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفراً منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمير ، إما إدماناً عليها وإما محاكاة وتقليداً لأبى نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاورة الخمر ومثله ابنه خارويه ، ويقال إنه كان يشرب أربعين رطلاً من النبيذ<sup>(١)</sup> . فحاكهما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشاشتى في كتابه الديارات ، وهى دير القَصِير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خارويه كثيراً ما يزوره ، ودير مَرْحَنًا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهيا بالجيزة ، ودير طمويه بجوار خلوان . ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كئوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :<sup>(٢)</sup>

أَتْرَكَ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارُ دَائِمَةٌ      وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشُورٌ  
وَالْعُصْنُ يَهْتَرُ كَالثَّشْوَانِ مِنْ طَرِبٍ      وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوِيٌّ وَمَنْشُورٌ

(٢) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٠٣ .

(١) النجوم الزاهرة ٦٣/٣ .

وإذا كان نقيب الأشراف يشرها حتى المالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلان بالأديرة ، وكان ثانيها خاصة يتهك في شرها ويجترئ على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه (١) :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلِّ بلا وضوءٍ وطُهْرٍ  
سُجَّدٌ للكُتوسِ من دون تَسْيِيحِ سِوى نَعْمَةٍ لَعُودٍ وَزَمْرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المجون مستهتره أسوأ ما يكون الاستهتار . وولتقى بتميم بن المعز ، ومر بنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أو بينها وبين بعض صواحيبه ، ومن قوله فيها وفي الورد (٢) :

ووردٍ أعارته الغواني خُدودها وأهدى إليه المسك أنفاسَ مَفْتُوقَةٍ  
كَأَنَّ النَّدى فِيهِ مَدَامُ عَاشِقٍ أُرِيقتْ غَدَاةَ الْبَيْنِ فِي خَدِّ مَعشوقه  
أَدْرَنَّا كُتُوسَ الرَّاحِ فِي جَنَابَتِه على حُسْنِ مَرآه ورقَةٍ تَوْرِيقه

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خدود الغواني وهو عقب بشذا المسك ، وكان الندى فيه دموع عاشق تانثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبه قوله (٣) :

ناولتها مثل خديها مُشْعِشَعَةً صِرْفًا كَانَ سَنَاهَا ضَوْءُ مِقْبَاسٍ (٤)  
فَقَبَلَتْهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ وكيف تسقى خدودَ النَّاسِ لِلنَّاسِ  
إِذَا تَنَاوَلْتُ خَدَيَّ كُنْتُ نَائِلَةً نفسى وهذا لعمرى غيرُ مَنقَاسٍ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقى خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدّم لها خدودها لتشرها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

(٣) الديوان ص ٢٤٩ .

(٤) المقياس : شعلة النار .

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٩٨ .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا يتقاس . وقبس منه الفكرة ابن هانئ الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمريه له (١) :

ومفهفٍ أبدى الشبابُ بخدّه      صدغاً فرقرق ورده في آسه (٢)  
تلهبُ الصهباءُ في وجناته      فتسير من عينيه في جلّاسه  
حتى إذا ملأ الزجاجه خدّه      نوراً وفاح الخمر من أنفاسه  
خال الزجاجه أفعمت بدمامه      فدنا ليشرب نوره من كاسه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخده كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تلهب في خده فتلهب السحر في عينيه فيسير منها إلى جلّاسه ، حتى إذا ملأ خده الكأس نورا ظنها ملئت خمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسبها . ولابن سناء الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسلة من مثل قوله (٣) :

أين كثوسى وأين أكوأى      فهى وحقّ الجونِ أوى بى  
يبدو عليها الحبابُ إن مزجت      مثل عيونٍ بغير أهداب  
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها      كأنه واقفٌ على الباب  
أسجدُ شكراً لها إذا طلعت      كأن كأسى لدى محرابى

وهو يصور في خمرياته مرحاً وابتهاجا ، ومرّ بنا أنه كان يعيش في بلهنية ونعيم ، وقلم كان يعترضه في حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهياة له ، لذلك لانعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النبيه هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله (٤) :

باكر صبوحك أهنا العيشِ باكره      فقد ترنم فوق الأيك طائره (٥)  
والليلُ تجرى الدرارى في مجرته      كأرّوض تطفو على نهر أزهرة (٦)

(٥) الأيك : الشجر الملتف .

(٦) الدرارى : الكواكب الثلاثة . الحجره : مجموعة من

النجوم تبدو كوشاح أبيض .

(١) الخريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) رفرق : مزج .

(٣) الديوان ص ٣٤

(٤) الديوان ص ٩١

فَانْهَضْ إِلَى ذَوْبٍ ياقوتِ لها حَبَبٌ      تَوْبٌ عَنْ نُغْرٍ مَنْ نَهَوَى جواهره  
 حمراءُ في وَجْنةِ الساقِ لها شَبِهُ      فهل جَنَاهَا مع العنقودِ عاصره  
 ساقِ تَكُونُ من صُبحِ ومن غَسَقِ      فايضٌ خَدَاهُ واسودَّتْ غَدَائِرُهُ (١)  
 تَعَلَّمْتُ بانهُ الوادى شَمائلُهُ      وزَوْرَتْ سحرَ عينيه جَاذِرُهُ (٢)  
 فلو رَأَتْ مُقَلَّتَا هاروتَ آيتَهُ الـ      كُبرى لآمنَ بعدَ الكفرِ ساحرُهُ

والفرحة تسرى في الخمرية ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء منورة بكواكبها الساطعة ، وحجاب الكأس كأنه نغر الحبيبية ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد ضفائرها البيهجة ، وكأنما قبست بانه الوادى رشاقها ، وزورت جاذره سحر عينها الخلابتين ، ولورآه هاروت لآمن بربه وكف عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستحدث عنهم بين شعراء الفكاكة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليداً ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا في إنمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة في عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط (٣) .

ليذهبوا في ملامى آية ذهبوا      في الخمر لا فِضةً تَبَقَى ولا ذَهَبُ  
 لا تأسفن على مالٍ تَمزَّقُهُ      أيدى سقاةِ الطَّلَا والحَرْدُ العُربُ (٤)  
 فما كَسُوا راحتي من راجِها حُللاً      إلا وعَرَّوا قوادى الهَمِّ واستلبوا

وقد مضى يجبب فيها ويفرى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يتهمة بمعاقرتها ، وقُدِّم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القيروطى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

(٣) الفوات ٥٠٢/٢ .

(١) الغسق : الظلام . الغدائر : الضفائر

(٤) الطلا : الخمر . الحرد : جمع خريدة وهى البكر

(٢) الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية

الحية .

المعروفة بجبال عينها .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول<sup>(١)</sup> :

كم ليلة نادمتُ بدرَ سماءها      والشمسُ تُشرقُ في أكفِ سقَاتِها  
والبدرُ يُستَرُّ بالغيومِ وَيُنْجَلِي      كنتنفسُ الحسناءَ في مرآتها  
خالفتُ في الصُّبهاءِ كلَّ مقلِّدٍ      وسعيتُ مجتهداً إلى حاناتِها  
أحرَّكَ الأوتارَ إن نفوسنا      سكناؤها وَقَفُّ على حركاتِها  
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلي      قامتُ إلى وصلي برغمِ وُشاتها  
ياخجَلَةٌ الأغصانِ من خَطراتِها      وفضيحةُ الغزلانِ من لَفَاتِها

والقيراطي إنما يستخدم مهارته الفنية التي صوّرناها في غير هذا الموضع ، ليدل على براعته في محاكاة المحان لزمه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الأبيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في الليالي القمرية وبين الصبهاء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهي طويلة ، وقد توه بها الأسلاف طويلا لروعها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يراحم الخمر في عصر الماليك تعاطى الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحطّم دنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقدمتها الخمر والحشيشة<sup>(٢)</sup> :

احذرْ نديمي أن تذوق المُسكرا      أو أن تحاولَ قَطُّ أمرا مُنكرا  
ذی دولةً المنصورِ لاجينَ الذي      قهر الملوك وكان سلطان الوری  
إياك تأكلُ أخضرًا في عصره      ياذا الفقيرُ يصير جِسْمُك أحمرًا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذي سيتزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطى الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة<sup>(٣)</sup> مقطوعات من مثل قوله :

عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٠٧ وما بعدها .

(١) النبل الصاق ١/٢٢١

(٢) فوات الوفيات ٢/٣٨٨

(٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشعر في

قم عاظمي خضراء كافوريةً قامت مقام سُلَافَةِ الصَّهْبَاءِ  
يغدو الفقيرُ إذا تناول درهما منها له تيهٌ على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يُزرَعُ منها كثيرٌ ببستان كافور في القاهرة ، وبلغنا كثيرون  
يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكثوسها ودانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء في الحقبة العثمانية ، ومما نقرأ لهم قول أبي  
المواهب<sup>(١)</sup> البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوةٌ تَنْضَحُ مِسْكَاً ولا بَدَعَ فِي الفِنْجَانِ شَكْلُ القَرَالِ<sup>(٢)</sup>  
تديرها هيفاء ممشوقةٌ خَوْدٌ تَنْتُ فِي بُرُودِ الدَّلَالِ<sup>(٣)</sup>  
بِغُرَّةٍ أَوْ طَرَّةٍ وَزَعَتْ أَفْكَارَنَا بَيْنَ الهُدَى وَالضَّلَالِ  
تقول للشمس وقد أَقْبَلْتُ تَلْمِي مَا أَنْتِ إِلا خِيالُ

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها  
كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي متخذين من نشوئها رمزاً  
لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفتن فيه . ونقف عند نفر من  
شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد  
مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخصهم ببعض الحديث .

#### ابن<sup>(٤)</sup> وكيع التنيسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسبا طويلا ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن  
خلف الضبي ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو  
والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائبا في الحكم بالأهواز في  
إيران لعبدان الجواليقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

وتمة البيئمة ٢٩/١ وحلقة الكميت في مواضع مختلفة

والعمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/٢١٦ وابن

خلكان ٢/١٠٤ .

(١) رحانة الألبا ٢/٢٢٦

(٢) قهوة : خمر .

(٣) خود : الشابة الحسة .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأشعاره البيئمة ١/٣٥٦



بتنيس، وهى مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية، وتمتد في بحيرة المنزلة، واشتهر أهلها<sup>(١)</sup> بصناعة النسيج والتفوق في صنع الثياب الشفافة والملونة، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون، وأكثر أغذية أهلها السمك، وهم مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكة، وهم يجنون النظافة والدمائة والغناء واللذة وأكثرهم بيتون سكارى. ويبالغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض. وفيها ولد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فمعروف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنيس. ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته، وقد نشأ فيها الشاعر وثقف. ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار، ولا ندرى متى كان ذلك تماما، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها المتنبي سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حنّابة وزير كافور، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبي، حيث ذكر رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا في سرقات المتنبي سماه المنصف إرضاء للوزير، ويقول ابن رشيق في العمدة: «سماه كتاب المنصف، مثل ما سُمي اللديغ سليما، وما أبعد عن الإنصاف». ولم يكن المتنبي من ذوق ابن وكيع، وبون بعيد بين ذوقيهما، فالمتنبي شاعر جاد منتهى الجد، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا المجون، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى المجون، فاندفع يريد أن يسقط المتنبي من عليائه وأنى له ذلك؟! ويبدو أنه كان ثريا، فأعانه ثراؤه على انغماسه في المجون، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواية شعره يذكرون له قصائد في ابن حنّابة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزیز والحاكم، فحسبه دائما كأس وطاس، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول:

وإن أتوك فقالوا كُنْ خليفتنا      فقل لهم إننى عن ذاك مشغولُ  
وارضَ الخمولَ فلا يحظى بلدته      إلا امرؤ خاملُ في الناس مجهولُ  
واسفك دمَ القهوةِ الصَّهباءِ تُحى به      روحى فإن دم الصَّهباءِ مطلولُ<sup>(٢)</sup>  
فهو يؤثر حياة الخمول والمجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة، ويبدو أنه تمثل كل

(٢) مطلول: مهدر لأطبُّب تاره.

(١) انظر فيهم نقول المقرئى عنهم في كتابه المخطوط

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السييء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعده نظرفا إن لجَّ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد نظرفا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى في تيس كما يقول المقرئ وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يبطل مكته في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلده ناعما بثرائه فيها وبمشاهدها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدوها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداع ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويجد فيه هناه . وتقتطف الأبيات التالية من خمرية له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع وصف مشغوف بها مفتون ، يقول :

أَبْدَى لَنَا فَصْلُ الرَّبِيعِ مَنْظَرًا	بِمَثَلِهِ تُفْتَنُ أَلْبَابُ الْبَشَرِ
فَلْأَرْضِ فِي زَيْ عُرُوسٍ فَوْقَهَا	مِنْ أَدْمَعِ الْقَطْرِ نِظَارٌ مِنْ دُرَّرٍ (١)
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ كَحَدَى كَاعِبٍ	رَاوِدَهَا ، فَاْمْتَنَعَتْ مِنْهُ بَشَرٌ
كَأَنَّمَا الْخَمْرُ عَلَيْهِ نَفَضَتْ	صِبَاغَهَا أَوْ هِيَ مِنْهُ تُعْتَصَرُ (٢)
أَخْجَلَهُ النَّرْجِسُ إِذْ جَادَلَهُ	فَاحِرٌّ مِنْ قَرَطٍ حَيَاءٍ وَخَفَرٍ
وَانظُرْ إِلَى الْأَطْيَارِ فِي أَرْجَائِهِ	إِذَا دَعَا التَّاكُلُ فِيهَا وَصَفَرَ (٣)
كَأَنَّمَا - تَصْفِرُ فِي رِيَاضِهَا -	سِرْبٌ قِيَانٍ فَوْقَ بُسْطٍ مِنْ حَبْرٍ (٤)

(٣) التاكل : من قدت ابنا لها .

(٤) حبر : جمع حبرة ، وهى القطعة من نسج الحرير .

(١) النار : ما يثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم

الفضية

(٢) صباغها : لونها .

والتسكُّ في عصر الصِّبا كأنه من قبحه خَلَعُ عِذارٍ في الكبر<sup>(١)</sup>  
فاشرب عُقارا لو أصابت حَجْرًا لطارَ من خَفْتِه ذاك الحَجْرُ  
كأنما الأوطارُ فيها جُمِعَتْ فليس في العيش لجافها وطَر<sup>(٢)</sup>

وإنما أطلنا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير  
الصب المفتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فعشقتها وأخذت  
تبكي بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها ، فانتنت حياء  
وتضرجت وجتها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفضت لونها القاني على  
الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل الزجس جاد له فاحمر لقوة حجته خجلا . وفي  
أرجاء هذا الروض البديع يغني الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغني فوق بسط من  
سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك وهجران  
المتاع في بواكير الحياة ذميمة مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الخمرية في شبابه .  
ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لومست حجرا لمسَّ السرور ، وأنها مجمع الأوطار  
والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباهج الطبيعة ، غير مُرِعٍ ولا مزدجر على  
شاكلة قوله :

جانبتُ بعدك عَفَى ووقارى	وخلعتُ في طرق المجون عِذارى
خوفتني بالنار جهْدك دائبا	ولججتُ في الإرباب والإنذار
خوفى كخوفك غير أنى واثق	يجميل عَفْوِ الواحد القهار
أنظرُ إلى زهر الربيع وما جلتُ	فيه عليك طرائفُ الأنوار
تاحتُ لنا الأطيَّارُ فيه فأرهبجتُ	عُرْسَ السرور وماتمَ الأطيَّار <sup>(٣)</sup>
فاشرب معتقَّةً كأن نسيما	مسكُ تَضوعه يَدُ العطار <sup>(٤)</sup>
مع مُسمعِ حَلَفَت له أوتارُه	أن لاتنافرَ رنةَ المزمار
فطنٍ يحرِّكُ كلَّ عضوٍ ساكنٍ	تحريكه لسواكن الأوتار

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخويله له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(١) خلع العذار: كتابة عن التهتك والإغراق في

(٣) أرهجت: أثارت.

(٤) تضرعه: تذكى رائحته وتشرها.

المجون.

(٢) الوطر: الأمانة.

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النغمة كثيرا في خمرياته ؛ ويقول له : انظر إلى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما ينتشر فيها من نواح الطير الذي يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباحج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفي كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك ففي رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عربي يعيش للخمر والطبيعة ولا يعني أى عناية بالمديح .

### الشريف <sup>(١)</sup> العقيليّ

هو علي بن الحسين بن حيدر بن عجيل بن أبي طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له في اليتيمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلي لا بد أن يكون قد توفي قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفي سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد في المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أر فيهم من يتحقق أمره ، وقال لي أحد الشرفاء المعنيين بأنساب الشرف : كان في المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » في اليتيمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذي وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط المقرئ ما يشير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة :

لَمَّا فَانَحَرَ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالماءِ      وَلَا تُضَحُّ ضُحًى إِلَّا بِصَهْبَاءِ <sup>(٢)</sup>  
أَدْرَكَ حَجِيجَ التَّدَامِي قَبْلَ نَفْرِهِمْ      إِلَى مَنَى قَصْفِهِمْ مَعَ كُلِّ هَيْفَاءِ

(١) الخليلي . بتحقيق د. زكي الخاسني

(٢) النحر : أذبح . يوم النحر : يوم الأضحى . تضحي : تذبح الأضحية . الصهباء : الخمر .

(١) انظر في الشريف العقيلي وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم القسطنطين) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع القوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع)

فخرج المستنصر في ساعته بروايا الخمر تُزجى بنغمت حُداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) في كيبكة من الفسّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفي ذلك العام أخذته الله وأخذ أهل مصر بالسنين<sup>(١)</sup> » وكان ذلك كان في أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا : « وقفت في الخريدة ( للعماد الأصبهاني ) على ترجمته فدلّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه في القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهرًا في القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطاً حتى قال ابن سعيد : كان له بها متنزّهات ، وهو في ذلك مثل تميم بن المعز ، فهما جميعاً من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تمها شغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلي فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بجدمة سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسي . . ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتها مازجاً بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومسرة . ونشر كأنما يتنفّض أمامها انتفاضا يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهها ورياضها وأشجارها وأزهارها ويركها ، حتى لتتحول أمامه معبداً ما يزال يقدم إليه ترانيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكان حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكتوسها المترعة ، وهو يدعو دائماً إلى احتساء هذه الكتوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فتها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دنانها ، مع القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكوّة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعياً إلى المتاع بجمال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الغَيْمُ ممدودُ السُّرَادِقُ      والزَّهْرُ مفروشُ النَّارِقِ<sup>(٢)</sup>  
والقَاشُ قد نُقِشَتْ لَنَا      مِنْهُ المَجَالِسُ والمرافِقُ

(٢) النّارِقُ : الوسائد .

(١) خطط المقرئى ٥٨٣/٢ . والستين : الجذب .

أشـجـاره وثماره مثلُ الترابِ والمخائق<sup>(١)</sup>  
 قد غنَّتِ الأطيَّارُ في طرقاته كلَّ الطرائقِ  
 فاعتقَ فؤادك فيه من رِقِّ الهمومِ بشربِ عاتق<sup>(٢)</sup>  
 فالأقحوانُ غصونُه بيضُ النَّواصيِ والمفارقِ  
 ومرارودُ الأمطارِ قد كُحِلَتْ بها حَدَقُ الحدائقِ

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفلٍ بسرادقٍ بهيجٍ وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه وملكاته كأنما قد قُطعت وفُصلت من القاش أو من نسيجٍ حريريٍّ متعدد الأصباغ ، بينما تطلُّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر فائن ومعنى ساحر ، جدير بالشراب المزيل للهموم ، والأقحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق آخذ زيتته وزخرفه ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مرارود تتمم بها زينتها وحسنا الفائن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بِيضَتْ قُبَّةُ السماءِ وزوَّقتْ قاعةَ الفضاءِ  
 فالسماء بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّةٌ بِيضَتْ ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشت ونُمِّتت بمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تتجسد الطبيعة في مناظر يتمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طفلاً الصباح بين داياتِ الرياحِ  
 وقوله :

السُّحْبُ تُرْضِعُ من بنات الأرض ما جعلَ الربيعُ لها الغصونَ مهودا  
 وقوله :

أمهاتُ الثَّارِ بين الرِّوايِ  
 وبناتُ الكرومِ تُجَلِّي بما قد  
 تائماتُ بلبسِ خُضْرِ الثيابِ  
 صاغه الماءُ من عقودِ الحَبابِ

فطفل الصباح يجبو بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الغصون ،  
وأمهات الخمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء ، والماء يجلو الخمر من بنات  
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحباب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلي  
باندماجه في الطبيعة وتملئ عينيه وقلبه بمشاهدها الساحرة ، فهو مسحور بها سحراً لا حدود له ،  
سحراً كان يحس إزائه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعاً حتى في غزله كقوله :

قامتُ قياماً روحها لرواحي إن النوى لقياماً الأرواح  
وبكتُ فصار الدمعُ في وجناتها مثل الحباب على كئوس الراح  
وكانتُ صفحةً وجهها لما بكتُ روضٌ يرصع ورده بأقاحي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر  
الرياض ومباهجها ، وهى أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنّى طوال حياته بها وبما كانت تُلقى في  
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على  
التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من  
قديم فقال : « مارأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته  
اللائقة الصحيحة التخيل » .

### ابن قادوس<sup>(١)</sup>

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول  
من القرن السادس الهجري ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزيل مصر في رسالته التي  
ألفها عن الشعراء المصريين حوالي سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق في المحافل  
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالي المقتول . كما مر بنا  
سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، ومازال  
يترقى بها حتى أسندت إليه - مع الموفق بن الخلال - رئاسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

المحاضرة للسبوتى ٥٦٣/١ ومقالا لنا عنه في مجلة الثقافة  
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس وترجمته وأشعاره الخريدة  
(قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية في المجموعة  
الأولى من نواذر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهيبين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

مليكُ تذلُّ الحادثاتُ لعِزِّه يُعيد ويُبدى والليلى رواعمُ  
وكم كربةٍ يومَ النزالِ تكشَّفتْ بِحَمَلاته وَهَى الغواشى الغواشمُ<sup>(١)</sup>  
تُشيد بناءَ الحمدِ والمجدِ بيضُه. وهن لآساس الهوادى هودام<sup>(٢)</sup>

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيتين الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهودام » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليقات طريفة إن هورضى عن شىء ، فإنه يلتمس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدهنا بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبية مخلوقة من كحل  
والحجر الأسود لم يُخلق لغير القبل

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تزين به النساء ، وقد مضى يقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، وما يبلغ حجر كريم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجج بالقبل . وفى أشعاره توريات يصنعها تظرفا . وكل شىء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمير وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشربها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُم قبل تأذين النوايس  
عروس دَنُّ لم يدع عتقها  
تُجلى علينا باسمًا نعرها  
مُذهبة اللون إذا صفت  
واجلُّ علينا بنت قسيس  
إلا شعاعا غير ملموس  
فلا تقابلها بتغيس  
مُذهبة لهمم والبوس

(٢) البيض : السيف .

(١) الغواشى : التوازل : الغواشم : القاهرة .



نَارٌ إِلَى النَّارِ دَعَا شُرْبُهَا وَشَرَّدَتْ بِالْعَقْلِ وَالْكَيْسِ  
فِي رَوْضَةٍ كَانَتْ أَزَاهِيرُهَا كَأَنَّهَا رِيشُ الطَّوَاوَيْسِ

وهو محتسبها مع رفاقه في بستان دير ، وهو يعب منها متمليا بجبال الطبيعة ، وهي تجلى عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرج الهموم حين يمس الخلق ، وإنها لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشربها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه أمل في عفوره . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسبا كتوس النشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وَلِيْلَةٍ كَاغْتَاضِ الطَّرْفِ قَصَّرَهَا وَوَصَلُ الْحَيْبِ وَلَمْ تَقْضُرْ عَنِ الْأَمْلِ  
بَثْنًا نَجَادِبَ أَهْدَابِ الظَّلَامِ بِهَا كَفَّ الْمَلَامَ وَذَكَرَ الصَّدِّ وَالْمَلَلِ  
وَكَلَّمَا رَامَ نَطَقًا فِي مَعَاتِبِي سَدَدْتُ فَاهُ بِطَيْبِ اللَّثْمِ وَالْقَبْلِ  
وَبَاتَ بَدْرُ تَمَامِ الْحَسَنِ مُعْتَنِي وَالشَّمْسُ فِي فَلَكِ الْكَاسَاتِ لَمْ تَقِلْ (١)  
فَبْتُ مِنْهَا أَرَى النَّارَ الَّتِي سَجَدْتُ لَهَا الْجُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي  
رَاحٌ إِذَا سَفَكَ النَّدْمَانَ مِنْ دَمِهَا ظَلَّتْ تَقْهَقُهُ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ جَدَلِ (٢)  
فَقُلْ لَنْ لَامَ فِيهَا إِنِّي كَلَفْتُ مُعْرِىَ بِهَا مِثْلَ مَا أُعْرِيتَ بِالْعَدْلِ (٣)

والخمرية بديعة يصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالي وصاله ، يعاتب فيها صاحبتة مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الخمر تنفلت أشعتها من أفلاكها في الكتوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها الجوس تسجد له حين تصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شربها كنى عدلا ، فإنتى مولع بها ولوعك باللوم والعدل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقها لندل على تفوق ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس ومعاصريه .

(٣) العذل : اللوم .

(١) نفل : تغرب .

(٢) جدل : سرود .

عبد<sup>(١)</sup> الباقي الإسحاق المتوفى

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعُنِيَ بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه المحي بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بحلاوة معانيه وعذوبة مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيّف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بخمرية ممزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمشّت لنا تُحجِلُ الكوكبا فناديتها مَرَحَبًا مَرَحَبًا  
أدارتُ بحضرتنا قهوةً وطافتُ بكأسِ الطَّلَا مُدْهَبًا<sup>(٢)</sup>  
رَكَتْ ورمئتُ بالأحاطها وقد أذكرتني عَهْدَ الصَّبَا  
وغنّتُ لنا فطربنا لها وياحُسْنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت لهُ ، وقد دارت عليه بكئوس الخمر ، وهو يتشئى بها ويجمال المغنية كما يقول ، مصرّحا بذلك مجاها فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرية راقصة :

رقص المجلسُ أنسا فاجعلِ الجرّة كاسا  
واسقنى بالزقِّ والطّا سِ فإنى طِيتُ نفسا  
وأقمِ لهُو والدِّ ذاتِ فى حانى عُرْسا  
كيف لا وهىَ ترينى فى دُجَا الظلماء شمسا  
وتقيمِ الميْتِ حيّا بعد ما جاور رمسا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جارا وزقا وطاسا لا كاسا فحسب ، وتصوّر نفسه كأنما يعيش فى حان يحاها فيه شمسا ، ترد إلى الموتى الحياة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

القرن الحادى عشر ٢٨٩/٢  
(٢) الطَّلَا : الخمر .

(١) انظر فى عبد الباقي الإسحاق وترجمته نفحة الریحانة  
للمحبي ٥٨٩/٤ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان

أَمَلْ لِي الكاسَ تماماً واسقني جَامًا فجَامًا (١)  
 اسقني بالكوب والكاس سِ فرادى وتوأمًا (٢)  
 ثم بِالجَرَّةِ فالج رَّةٌ حتى أتَّـرامِي  
 اسقني حينئذٍ بال رزقٌ حتى لا كلاما  
 ثم أزهى موضعٍ في ال روضِ فاختره مقاما

وهو صَبُّ بالخمر يريد أن يحتسيها حتى الثمالة ، بل يريد أن يشربها أرتالا جاما فجاما وكثوسا وأكوابا وَجَرَاتٍ متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها في أزهى موضع بالروض قد عبقت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإسحاق في أيام العثمانيين ذكرى أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

## ٤

## شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرّ بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم ، ويكفي أنها هي التي أنشأت في المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيانها تسهم منذ زمن الولاة في نشر مذهبي مالك والشافعي ، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقهاء ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم في الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله (٣) :

كُنْ بِمَا أوتيتَهُ مُغْتَبِطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ القَنوعِ المكثي  
 إن في نَيْلِ المنى وَشكِّ الرَّدَى وقياسُ القَصْدِ عند السَّرَفِ  
 كسراجِ دُهْنُهُ قُوْتُهُ فإذا غَرَّقْتَهُ فيه طُفِي

(٣) نكت الهيمان ص ٢٩٨

(١) الجام : إناء من فضة .

(٢) توأم : توأم : من الاثنين إلى مازاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مَنى عريضة يكون فيها حتف صاحبها ، ويقول لا بد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مَنته وقوته ، أما إذا لُغِط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتقيم بن المعز قصيدة في القرافة ومقابرها وما تبعث في النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلاً أو مناجياً<sup>(١)</sup> :

رجوتك ياربُّ لا أنى أطعتك طوعَ أولى الانتهاء  
ولكننى مؤمنٌ موقنٌ بأنك ربُّ الورى والسَّماءِ  
وأنتك أهلُّ لحسنِ الظنونِ وأنتك أهلُّ لحُسنِ الرجاءِ

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرحمه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشيء من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلي شاعر الطبيعة والخمر يجده يحم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون في نفس القافية ، كقوله في قافية الباء<sup>(٢)</sup>

أيها التائه الذى ضلَّ عما يراد به  
إنَّ للعرضِ وقفةً أمرها غيرُ مُشْتبه  
فانتبه قبل أن تُرى مذنباً غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبيعى وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية في الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

(٢) ديوان الشريف العقيلي ص ٧٩ .

(١) ديوان تميم ص ٢٧

ولتلقى بظافر الحداد بعد تميم ، وهو يذكر دائماً بالموت كقوله (١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الأَجَلِ  
تَخْدَعُ الإنسانَ لَدَتْهَا فَهِيَ مِثْلُ السَّمِّ فِي العَسَلِ  
أنتَ فِي دُنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالِي فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالعسل في العسل ، لاتزال تسرى في الجسم ، ولاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا بن النَّضْر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة (٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْتَرَضٌ فَخُذْهَا بِأَدَابِ القِنَاعَةِ وَالزَّهَادَةِ  
فإن جَنَحْتَ لذلكِ واستجابتُ وخالفتِ الهوى فهو الإِرادَةُ  
وإن جَمَحْتَ بها الشهواتُ فاكْبِحْ شَكِيمَتَهَا بِمِقْمَعَةِ العِبَادَةِ  
عَسَاكَ تُحِلُّهَا دَرَجَ المَعَالِي وَتَرْفَعُهَا إِلَى رُتَبِ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهي الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدها الشهوات فاكبح جماحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومرؤس مدلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصعد إلى رتب السعادة . ومن تبتلاته إلى ربه (٣) :

يَا مُسْتَجِيبَ دَعَايِ المُسْتَجِيرِ بِهِ وَيَا مُفْرَجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ الدَّاجِيِ  
قَدْ أُرْتَجَتْ دُونَنَا الأَبْوَابُ وَامْتَنَعَتْ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنِ مَنَعِ وإِرْتَاجِ  
نَخَافُ عَدْلَكَ أَنْ يَجْرِيَ القَضَاءُ بِهِ وَنَرْتَجِيكَ فَكُنْ لِلخَائِفِ الرَّاجِيِ

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجي ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أُغْلِقَ دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته

(٣) الخريدة ٩٧/٢

(١) الخريدة ٨/٢

(٢) الخريدة ٩٥/٢

رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلاً بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا بن سناء الملك<sup>(١)</sup> :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً والقبرُ دارى والأمواتُ جيرانى  
في وحشة القبر والدود المقيم به شغلٌ لنفسى عن دارى وبُستانى  
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها جهدى وألبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هي الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنما لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطناها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد في الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه وينزل رسمه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله<sup>(٢)</sup> :

يامنَ علا في ملكه فاقترَبُ ومنَ بدَا في نوره فاحتجَبُ  
ومنَ هو القصدُ لأهل الثهي والمطلبُ الأسنى وكلُّ الأربُ  
عودتني الأنسَ فلا تَنسِنِي وهبني الرُحمةَ فيما تهبُ

وهو يتضرع إلى ربه الذي علا في ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والذي يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذي هو المقصد والمطلب الأسنى وكل الأرب والأمل ، والذي عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهراً زمن المماليك ، من ذلك قول عبد الملك الأرميني القوصي المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقاً بعبوديه<sup>(٣)</sup> :

قلتُ لى النفسُ وقد شاهدتُ  
بأى وجهٍ تلتقى ربنا  
فقلتُ حسبي حُسنُ ظني به  
حالى لا تصلحُ أو تستقيمُ  
والحاكمُ العدلُ هناك العريمُ  
يُنيلني منه النعيمُ المقيمُ

(١) الديوان ص ٧٨٧ .

ص ٢١٢

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٩٨/١٠

(٢) ديوان ابن مطروح مع ديوان العباس بن الأحنف

قالت وقد جاهرت حتى لقد حَقَّ له يُصَلِّك نارَ الجحيم  
قلت معاذَ الله أن يَتَّبِلِي بنايِرِهِ وهو بجالي علم

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فبرد عليها بأنه حسن الظن بإلهه وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم ، فتسأله متعجبة أتجهر بذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار ، فيقول معاذ الله أن يصليه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القاهح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة<sup>(١)</sup> :

أضْبِرْ على حُلُوِّ القضاء ومُرِّه واعلم بأن الله بالغُ أمرِهِ  
وأثْبِتْ فكم أمرٍ أمْضَكَ عُسْرُهُ ليلاً فبَشَّرَكَ الصَّبَاحُ بِبُيُورِهِ  
واضْرَعْ إلى الله الكَرِيمِ ولا تَسَلْ بَشَرًا فليس سواه كاشفَ ضَرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلو ومر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرج الحزن .

ونلتقى بتبتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التنسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة<sup>(٢)</sup> :

إِلَهَ الخَلْقِ قد عظمتُ ذنوبِي فسامِحْ ما لعفوك من مشارِكِ  
أَعِثْ يا سيدي عَبْدًا فقيرًا أَنَاخَ ببابك العالِي ودَارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عباده ، ألقى عصاه بيباه ، أملا في قبول تضرعه ، ويورى تورية واضحة في قوله : « دارك » فعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن يئأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير في الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحتادي في الدعوة إلى القناعة

وأن لا يفكر الإنسان في رزق الغد<sup>(١)</sup> :

تَأَنَّ وَلَا تَجْرَعْ لِأَمِيرٍ تَحَاوَلُهُ فَخَيْرُ اخْتِيَارِ الْمَرْءِ مَا لِلَّهِ فَاعْلُهُ  
تَفِيئاً بِظُلِّ اللَّهِ مِنْ رَوْضِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّقَنَّكَ فَوَاضِلُهُ (٢)  
وَعِزٌّ تُهِنُّ دُنْيَاكَ وَاعْنَبَتْ بِرُكْحَتِهَا وَلَا تَحْفَلَنَّ بِالرِّزْقِ فَاللَّهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : ( أليس الله بكاف عبده ) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما العز الحقيقي إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيقي إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكان مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبنة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامي ، أو قل عبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحد أبنائها وهو ذو النون المصري ، ومرر بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفي وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه (٣) :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فِيكَ يَهُونُ  
لَكَ عِزٌّ بَأَنْ أَكُونَ قَتِيلًا فِيكَ وَالصَّبْرُ عِنْدَكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهي ، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ، ماداً بصره إلى القاع وأعمق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتملا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول (٤) :

(٣) ابن خلكان ١/٣١٦

(١) سلافة العصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ص ٤١٨

(٤) طبقات الصوفية للسلمي ص ٢٧ .

(٢) تفيئاً : استظل .



أموت وماماتٌ إليك صبايقي ولا قُضيتُ من صدق حبِّك أوطاري  
تحمل قلبي فيك مالا أبته وإن طال سُقمي فيك أوطال إضراري

فصباياته بالحب الإلهي لا تنقضي ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبهه نصب . وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون في العالم الإسلامي . ويدور الزمن بمصر دورات وتدخل في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطغى على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضوع وبصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجته في عهدها ، ومع ذلك فينبغي أن لا نظن أنه تلاشى ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومرَّ بنا من متصوفها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحمال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو على الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطي بعض أسماء لمتصوفة ظهوروا في عهد الدولة الفاطمية<sup>(١)</sup> مثل ابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخرة من أيام الفاطميين بصوفي كبير هو ابن الكيزاني وسنترجم له عما قليل . ومرَّ بنا أنه أخذ يتضح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهان ، اتجاه فردى فلسفى واتجاه جماعى سنى ، ومثّل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخرجه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام فى قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمي أنها من نظمه ، وفى فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله فى الذات الإلهية<sup>(٢)</sup> :

وحجَّبَ عَنَّا حُسْنَهُ نَوْرَ حَسَنِهِ فَن ذلِكَ الحَسَنِ الضَّلَالَةُ وَالهُدَى  
فِيانَارَ قَلْبِي حَبْدًا أَنْتِ مُصْطَلَى وَيَادَمَعَ عَيْنِي حَبْدًا أَنْتِ مَوْرِدَا

وشعره الصوفى يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض في مثل قوله (١) :

حَضَرُوا فَمُدُّ نَظَرُوا جَمَالَكَ غَابُوا      وَالْكَلُّ مَدَّ سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا  
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ      مِنْ خَمْرٍ حَبِّكَ طَافَتِ الْأَكْوَابُ  
أَنْتَ الَّذِي نَاوَلْتَنِي كَأْسَ الْهَوَى      إِذَا سَكَرْتُ فَمَا عَلَيَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعنى عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجود لا يشبهه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول (٢) .

مِنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَاذَا يَغَيِّرُهُ      وَمِنْ صَفْوَتَ لَهْ مَاذَا يُكَدِّرُهُ  
هِيَهَاتَ عَنْكَ مِلَاحُ الْكُونِ تَشْغَلُنِي      وَالْكَلُّ أَعْرَاضُ حَسَنِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكان الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود سنعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفي . ويلقانا صوفي من أتباع ابن عربي ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربي إذ يقول (٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي      فَلَمْ يَبْقَ حُدُّ جَامِعٍ لِحُدُودِي  
وَأَلْقَيْتُ سِرِّي عَنْ ضَمِيرِي مَلُوحًا      بِرَمَزِ إِشَارَاتِي وَفَكُّ قِيُودِي  
فَأَصْبَحْتَ مَنِي دَانِيَا بِمَعَارِفِي      وَقَدْ كُنْتَ عَنِّي نَائِيَا بِجَمُودِي

ويقول ابن حجر معلقاً على الأبيات : « وهذا نفس الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربي ، وكان له ديوان

(١) انظر ترجمة ككاكت في الفوات ١٠٨/١ والنجوم

(٢) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧

(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢

الزاهرة ٣٦٤/٧ .

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها العسوب وهي ملكة النحل .  
ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر  
تؤثر التصوف السنّي وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا في بيان ذلك بالفصل  
الأول ، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء  
الله السكندريّ الصوفي الواعظ تلميذ مؤسسها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي ، ومن  
شعره قصيدة يقول فيها <sup>(١)</sup> :

وياصاح إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعود ما الذي أنت صانعُ  
أترضى بأن تبقى الخلف بعدهم صريع الأمانى والغرام ينزع  
وهذا لسان الكون ينطق جهرة بأن جميع الكائنات قواطعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ،  
بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماتزال مهاجرة تتبعه .  
وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله  
كثيرا ليمثلوهم حماسة وإمعانا في ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح  
القوصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أفتى أنّ ترك الحبّ ذنبٌ آثمٌ في مذهبي من لم يُحبّ  
ذُقْ على أمرى مراراتِ الهوى فهو عذبٌ وعذاب الحبّ عذبٌ  
كل قلبٍ ليس فيه ساكنٌ صَبوةٌ عُدريّةٌ ماذا قلب

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زقاعة ،  
المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان بقوق وابنه السلطان فرج ، وله في  
الحب الصوفي ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله <sup>(٢)</sup> :

رأى عقلى ولبّى فيه حارا فأضرمَ في صميم القلب نارا  
ألا يالائمي دعني فإني رأيت الموتَ حَجًّا واعتمارا  
وأهلُ الحب قد سَكروا ولكنّ صحا كلُّ وفِرقتنا سُكاري

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حبهم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبدا في أثناء حبهم بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجددة حجاً وعمرة ، وما يزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لا يدانيه سكر ، متجردين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأنما تتعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجارحة في الوجد الرباني .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويجري الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاية الشاذلية ، والسادة البكرية لا في أيام الماليك فحسب ، بل أيضا في أيام العثمانيين من مثل قول علي وفا :

تغيبتَ عن عيني فَعَيْبِكَ شاهدي ووجَّهك مشهودي وما عنك عائقُ  
فإن غبتَ فالأشباحُ مني مغاربُ وإن لُحِتَ فالأرواحُ مني مشارقُ  
ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أُفِيضَتْ عليها العلوم اللدنية<sup>(١)</sup> .

ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم يريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم ، وقد يبالغون في ذلك ، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح<sup>(٢)</sup> . وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء يمدحون الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثرت على ألسنة أهل السنة مجسدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره الحمدي يتجسد في أمتهم من بعده . وبالمثل على ألسنة المتصوفة، وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوّهون بصحابة الرسول ومعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العَرْض وأن يكون دائما معنا لهم ونورا هاديا . وما زال الشعراء المصريون - مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حربا دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعيا أن يزدهر المديح النبوي للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعاراً يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقا ذريعا . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصرى حيثئذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيرى أنه مادم مصرى للرسول ، بل أنه مادم عربى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكثيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ . وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله في مديحه ﷺ (١) :

لم يبق لي أملٌ سواك فإنْ يَفَتْ      ودَعْتُ أيامَ الحياةِ وداعا  
لا أستلذُّ لغيرِ وجهك منظرا      وسوى حديثك لا أريد سماعا

وكان العزازی معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوي ، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم (٢) :

أَفَى النَّبِيِّنَ بَرَهَانًا وَمِعْجَزَةً      وَخَيْرٌ مَنْ جَاءَهُ بِالوَحْيِ جَبْرِيلُ  
سَلَّ الْإِلَهُ بِهِ سَيْفًا مَلَّتِهِ      وَذَلِكَ السَّيْفُ - حَتَّى الْحَشْرِ - مَسْلُوقُ  
وَيْلٌ لِمَنْ جَعَدُوا بَرَهَانَهُ وَتَنَى      عِنَانَ رُشْدِهِمْ غَيٌّ وَتَضْلِيلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نياته وبرهان الدين القيراطى مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويطرد ذلك في الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجى وغيره (٣) ، كما يطرد التوسل به وطلب الشفاعة ، ع نحو ما نجد عند عبد الله الإدكاوى من مثل قوله متوسلا (٤) :

(١) الفوات ٤٨٧/٢ .  
(٢) النبل الصافي ٣٤٣/١ .  
(٣) وانظر نفاحة الرحانة للمحى (طبعة عيسى الباقى)  
(٤) تاريخ الجبرقى ٣٥٣/١ .

الجللى) ٤١٣/٤ وما بعدها ، وقد أنشد المحى في كتابه قطعا  
كثيرة من المدائح النبوية .

(٤) تاريخ الجبرقى ٣٥٣/١ .

ياربُّ بالهادى الشفيح محمدٍ مَنْ قد بدا هذا الوجودُ لأجلِهِ  
 كُنْ لى معيَّنًا فى معادى واكْفينى همَّ المعاش وما أرى من ثِقْلِهِ  
 واسترَّ بفضلِكَ زلتى واغفرْ بعدُ لك سيئتى واشفِ الحشا من غِلِّهِ

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيح يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عوناً له في معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستريحه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلاً في الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوى :

### ابن الكيزاني<sup>(١)</sup>

هو محمد بن إبراهيم الكنانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزاني ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد دون منه العماد الأصبهاني فى كتابه « الخريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة .. وله ديوان شعريتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلَّ بها اعتقاده ، وزلَّ فى مزالقها سدَّاده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة « وهم أشباه الكرامية بخراسان » فهو عالم

والواقى بالوفيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزاني فى مجلة الثقافة ، العددين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزاني وأشعاره المغرب لابن سعيد (القسم الخاص بالفسطاط) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والخريدة (قسم مصر) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقترن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها ، فأنت إذ تشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر العباد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها في العلم الإلهي ، ومادام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . ومر بنا آنفا أن العباد قال إنه كانت تتبعه بمصر لعهدده في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتنق نحلته ، ويقول الفقطنى المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تتسمى إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالته » . وفي ذلك ما يدل على أن منزعه الصوفي ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه نأث هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الخبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لاتتفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصدّيق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تغرى بردى : « لا يلتفت لقول الخبوشاني فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الخبوشاني معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له العباد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الالهي ، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

تلذُّ لي في هوى ليلي معاتبتي	لأنَّ في ذكرها برِّداً على كِبدي
وأشْتَهِي سَمَمِي أن لا يفارقني	لأنها أودعته باطنَ الجسدِ
وليس في النوم لي ماعشتُ من أربِّ	لأنها أوقفت جفني على السُّهدِ
ولو تبادتْ على المهجران راضية	بالمهجر لم أشكُ ما ألتى إلى أحد
اللومُ أشبهُ بي منها وإن ظلمتُ	أنا الذي سقتُ حتفي في الهوى بيدي

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والهجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلي ، وبنادى في العتاب ، معلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزاني مثله مثل شعراء الحب الإلهي جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذرى ، معبرين بما في غزلهم من حسية واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لنرى ابن الكيزاني يقول :

أترعم ليلي أنني لا أحبها      وأنى - لما ألقاه - غير حمول  
فلا ووقوفى بين ألوية الهوى      وعصيان قلبي للهوى وعذولى  
لو انتظمتنى أسهمُ الهجر كُلهما      لكنتُ على الأيام غير ملول  
ولست أبالي إذ تعلقتُ حبَّها      أفاضتُ دموعى أم أضرتُ نحول  
وما عبتى بالنوم إلا تعللُ      عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسولى

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذرى ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانه للعذول أو العواذل وصره على الهجران الأليم وما يعانى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل في طيف يزوره في الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهرى للأبيات فابن الكيزاني إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لا نهائى غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يندلع شره في كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف في ألمه ، حتى ليبدل دمه في سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضىء في جنبات قلبه وقواده ، وهو الخمر الروحانية التى سرت في شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جرّ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ      كأسُ الحبّةِ فى محبتهِ سُقى

إنه لم يعد في حال صحو بل أصبح في حال سكر بالعشق الإلهى الذى لاحدود ولاضفاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يتعد عنه ، تاركا له الحسرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، وبنادى ابن الكيزاني :

ياحادى العيسِ اضطربِ ساعةً      فهججتى سارتُ مع الركبِ  
لاتحدُّ بالتفريق عن عاجلٍ      رفقا بقلبي الهائمِ الصبِّ



وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة في نفوس العشاق تعبيرا رمزيا عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلا عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيرا حسيا بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العذريون طويلا - ببيكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرَبِّكَمَا عَرَجًا سَاعَةً نَنُوحُ عَلَى الطَّلِّ الدَّارِسِ  
فَفَيْضُ الدَّمْعِ عَلَى رَسْمِهِ يُتْرَجَمُ عَنْ حُرْقِ البَائِسِ

ودائما يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العيس ، وهي ملحمة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هام على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنقد في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَتَّبِعُهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِهِ اعْطِفْ عَلَى الصَّبِّ المَشُوقِ التَّائِهِ  
أَضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قَوَادِهِ أَسْفًا لِأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ

ودائما تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوعة ونارها التي توشك أن تحرق والتي ما يزال يذوقها ويصطل بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحبة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب لحبه دواء ولا شفاء ، يقول :

أَضْرَفُوا عَنِي طَبِيبِي وَدَعَوْنِي وَحَبِيبِي  
عَلَّلُوا قَلْبِي بِذِكْرِي هُ فَقَدَ زَادَ لَهْبِي  
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ  
لَا أَبَالِي بِفَوَاتِ النَّفْسِ سِ مَادَامَ نَصِيبِي  
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ أَطُ نَبَّ فِيهِ بِمَصِيبِ  
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِنَحْيِي

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في براء من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً إنها يثيران حريقاً في قواده ، غير أن ما يشره معها من رحيق المحبة الربانية المصنفي ينسيه الحريق وناره المتلظية التي لاتنطفئ في سويداء قواده أبداً .

## ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حماة بسوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والمنشأ والمرى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولُقّب بالفارض لكتابته الفروض على النساء والرجال . ولى نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضي القضاة فأبأها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتنسك ، وعُنِيَ بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة في الجبل الثاني من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسن برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما سائحا في أوديتها عابدا لله ناسكا مؤملا في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثراً من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميرى رَوْحٌ بِمَكَّةَ رَوْحِي شَادِيًا إِنْ رَغِبْتَ فِي إِسْعَادِي  
كَانَ فِيهَا أَنْسَى وَمِعْرَاجٌ قُدْسِي وَمُقَامِي الْمَقَامُ وَالْفَتْحُ بَادِي

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبّحه ويعبده حق عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أيا ما وهو لا يسمع صوتا ولا يرى أحدا ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتمسون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم في هذا

للككتور محمد مصطفى حلمي وكتابنا فصول في الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعا مستقلة ، وطبع مع شرح عبد الغنى النابلسي وهو شرح صوفي رمزي ، ومع شرح حسن البوريني على ظاهر اللفظ دون تأويل .

(١) انظر في ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال ٢١٤/٣ وعبر الذهبي ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهي

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في جبهم الإلهي ، حتى لُقّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار توجع بوجد ملتاع لاحدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي ، وأيضا مايذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعا غصص الحجر والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدثه نفسه بسلك هذا الطريق المحفوف بما لا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُّ فاسلَّمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ      فما اختاره مُضْنَى به وله عَقْلُ  
وعِشْ خَالِيًا فالحبُّ راحتهُ عَنَّا      وأوَّله سَقْمٌ وآخِرُهُ قَتْلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذهُ رمزاً للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيدا ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكائناته وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غابَ عني - كلُّ جارحةٍ      في كلِّ معنى لطيفٍ رائقٍ بهجٍ  
في نَعْمَةِ العودِ والنَّايِ الرَّخِيمِ إِذَا      تَأَلَّفَا بين أَلحَانِ مِنَ الهَرَجِ (١)  
وفي مَسَارِحِ غَزْلانِ الخِمالِ في      بَرْدِ الأصائلِ والإصباحِ في البَلَجِ (٢)  
وفي مساقطِ أُنْداءِ الغمامِ على      بساطِ نَوْرِ مِنَ الأزهارِ مُنْتَسِجِ  
وفي مساحِبِ أذْيالِ النَّسيمِ إِذَا      أَهْدَى إِلَيَّ سُحَيْرًا ، أَطيبَ الأَرَجِ (٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله مائلا في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والنأي المرافقة لألحان الهزج ، وفي مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصبح ، وفي الأزهار والورود مساقط أُنْداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطه الطبيعة البهجة ، وفي النسيم يملأ الجو سحرًا بشذاه وأريج العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي معاصره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبثٌ في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجلٌّ في كل منظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه وولفه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يصلى فيه من هجر ، هاتفا من قواده :

تِهْ دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلٌ لِذَاكَ وَتَحَكَّمْ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ  
وَتَلَاقِيْ إِنْ كَانَ فِيهِ ائْتِلَافِيْ بِكَ عَجَلٌ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ  
فُقَّتْ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِيْ فِيهِمْ فَاقَةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذرى ، ولا يلبث أريح الحب الصوفي أن يعبق في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه ائتلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلي في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذرى رمزًا لحبه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزا لهذا الحب ، ولاخمر ولاكتوس ولادنان ولاسقاء ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسى مسكر ، فهو سكران دائما منتشي غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ  
لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو - إِذَا مُزِجَتْ - نَجْمُ  
وإنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ  
وَلَوْ نَفَّضُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سُكْرَهُ بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، ونحيي الروح لاجازا بل حقيقة ، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم .  
 خمر ربانية لا تشوبها أى شائبة مادية ، خمر ينشئ بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لا حدود له . وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والبياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعائه وستين بيتا أو تزيد ، وهي تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراجة القدسي بمكة وفتوحه التي هبطت عليه هناك وإنمحاءه حينئذ في الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم في بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شره من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه في معراجة من أهوال وخطوب ومحن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها في معراجة ، خالصا إلى الانمحاء والفناء في الذات العلية حتى ليقول :

ولم تَهَوَّنِي مالم تكن في فانيًا      ولم تَفْنِ مالم تُجْتَلَبْ فيك صورتِي  
 كلانا مُصَلٌّ واحدٌ ساجدٌ إلى      حقيقته بالجمع في كلِّ سَجْدَةٍ  
 وما كان لي صَلَّي سِوَايَ ولم تكن      صلاتي لغيري في أَدَا كلِّ رَكْعَةٍ

وكانه يشعر في البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهي لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية . ويقول في البيت الثاني إنما ينبغي أن تُمحي فيه حتى يفنى في الذات الربانية وتتجلى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول في البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا في ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاحَ وجودي في شهودي وِبِئْتُ عن      وجودِ شهودي ماحياً غيرَ مثبتِ  
 وفي الصَّحْوِ بعد المحوِّ لم أكنُ غيرها      وذاتي بذاتي إذ تجلَّتْ تجلَّتْ

فهو قد انمحي وفنى فناء كليا في الذات العلية ، وبلغ من هذا الانمحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتره في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرباني ، بل أيضا يعتره في حال الصحو ، فهو دائما مَمحُوٌّ قانٍ في الذات الإلهية . وهو دائما يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنّة والحديث النبوي ، فمنها يستمد في كل موارد الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء في الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديثٌ في التّحادى ثابتٌ روايتهُ في التّقلُّ غيرُ ضعيفةٍ  
يشيرُ مجبُّ الحقِّ بعد تقربٍ إليه بنقلٍ أو أداء فريضةٍ

وهو يشير إلى الحديث النبوي المشهور : « ماتقرب إلىَّ عبدى بشيءٍ أحبَّ إلىَّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبيته ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها .. وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعديته » . وفكرة الانحاء والفناء واضحة في الحديث ، ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفا إسلاميا خالصا . وما زال يتنسك لربه حتى ته  
٦٣٢ للهجرة .

### البوصيرى<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكأن لنفسه من اسم بلديها لقباً هو الدلاصيرى ، غير أن اللقب الذى غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيرى . واختلف م ترجموا له في تاريخ مولده كما اختلفوا في تاريخ وفاته ، والأرجح أنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٩٨ وقى بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفى قبل السنة السالفة فقبل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح ما رجحناه . واختلف مثل لداته إلى الكتابيب حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم في حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت في نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله ينتظم فيمن يعملون في الكتابة الديوانية ، وعين في دواوين بلبيس بالشرقية . ومر بنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

والخطط الجديدة لعل مبارك ٨/١٠ وكتابتنا فصول في الشعر ونقده ص ٢٢٩ - ٢٥٤ . وديوانه ( طبعة الحلبي ) بتحقيق محمد سيد كيلاني . وأورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربى ٨١/٥ ترجمات بردهته إلى اللغات الأجنبية وتحميساتها وتشطيراتها وشروحها المختلفة وكذلك الهمزية .

( ١ ) انظر في البوصيرى وحياته وأشعاره الفوات ٤١٢/٢ والواقي بالوفيات للصفدى ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١ وشذرات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الهيتمي على شرح مدحه الهمزية النبوية ولطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى وطبقات الصوفية للشعراني ١١/٢ وما بعدها ،

الحياة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليد الأمور بمصر ( ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعري مأمقُضى حِرْماني      دون غيري والألفُ للرَّحْمَنِ  
أتراني لا أستحقُّ لكوني      جامعاً شملَ قارئِ القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إنا      عائلةٌ في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصري المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه في مدايح من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنني وحدي لكنتُ مريداً      في رباطٍ أوعابداً في معارة

وكانه كان يشعر في أعماقه بأنه خُلِق لالكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسبا الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفي أو في كهف يخلو فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم في سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسي على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عدَّ ثاني اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندري ، وفي ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزیه في شيخه أبي الحسن حين توفي سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، يقول :

اسْلُكْ طَرِيقَ مُحَمَّدِيٍّ شَرِيعَةَ وَحَقِيقَةَ مُحَمَّدِيٍّ وَالمَحْجِدِ  
 اِنِ اِلمَامَ الشاذليّ طَرِيقَهُ فِي الفَضْلِ واضِحَةً لَعَيْنِ المَهْتَدِي  
 قَطْبُ الزمانِ وَعَوْنُهُ وِإمامُهُ عَيْنُ الوجودِ لسانُ سِرِّ الموجدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوي ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شاهت وجوهم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا في مديحه النبوي ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المحرّفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا في الرسول أزية النور المحمدي المعنوي لبّ الوجود وروحه ، وكان للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِسَنَةِ ماها فِي الخَلْقِ تَحْوِيلُ  
 مِنْ كَمَلِ اللهِ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ فَلَمْ يَفْتَهُ عَلَى الخالين تَكْمِيلُ  
 مِنْ آدَمَ وَلِحِينَ الوَضْعِ جُوهْرُهُ الـ مَكْنُونُ فِي أَنْفَسِ الأَصْدافِ مَحْمُولُ  
 فَلِلنَّبِوةِ إتمامُ وَمُبْتَدَأُ بِهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلُ وَتَأْجِيلُ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصف الوجد اللتاع ، ودائما يردد معجزات



الرسول وجهاده في غزواته ، وداثماً يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبيين وأيضاً خاتمهم ، يقول :

كان سِرّاً في ضمير العَيب منْ      قبل أن يُخلَقَ كونٌ أو يكونا  
تشرق الأكوأُن من أنواره      كلما أودعها اللهُ جَبِينا  
ختم اللهُ النبيين به      قبل أن يَجْبَلَ من آدم طِينا  
فَهو في آباءهم خيرٌ أبٍ      وهو في أبنائهم خيرٌ البِنينا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قبل الكون وخلق قبل أن يُجْبَلَ أو يُخلَق آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتاهم ، وهو أبوهم المعنوي الأزلي ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهي . ويكثر البوصيري في مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيري بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الورى » وهي في نحو أربعائة وخمسين بيتاً وعُني كثيرون بشرحها ، وهو فيها يجمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذي يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرَفَى رَقِيكَ الأنبياءَ      يا سَمَاءَ ما طاولتها سماء  
إنما مَثَلُوا صفاتِكَ للنَّاسِ      سِ كَمَا مَثَلُ النجومِ الماء  
أنت مصباحُ كلِّ فضلٍ فما تَص      بدرٌ إلا عن ضوئِكَ الأضواء

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلة أي نبي أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مثل جانباً من صفاته الربانية ، كما تمثّل النجوم المترامية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصور جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود اقترائهم على الدين الخفيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحرهم لرسوله . ويصور حجته إلى مكة وأداء المسلمين

لمناسك الحج . وينوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلى وخليفته  
أبى العباس المرسى ، ويتضرع فى أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه فى محو ذنوبه .  
وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبردة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان  
قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كى يعافيه ، وظل يكرر إنشادها  
ويبكى ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبى صلوات الله عليه يمسح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ،  
واتته فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتتحها متغزلا بحجازية  
من ذى سلم أشعلت الحب فى قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجهه اللطاع بحب الرسول عليه  
السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جاح النفس ورداها عن شهواتها .  
ويتحدث عن فضائل الرسول مبدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم  
ويسترسل فى تصوير الحقيقة الحمديّة الأزلية قائلا :

فاقَ النبيّن فى خَلْقِ وفى خُلُقِ ولم يدانوه فى عِلْمِ ولا كَرَمِ  
وكَلَّهم من رسول الله ملتَمِسُ غَرَفًا من البَحْرِ أورشَفًا من الدِّيمِ  
فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها يُظهِرن أنوارها للناس فى الظُّلَمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلمًا وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من  
نوره ، فنوره يتجلّى فى الأنبياء جميعا ومهما تعددوا فى الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة  
واحدة هى الحقيقة الحمديّة . ويفيض البوصيرى فى بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن  
معجزته الكبرى كما يفيض فى بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الخنيف حتى  
استسلموا صاغرين . ويتضرع للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به فى  
دنياه وآخرته . ولا تزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تنشد إلى اليوم فى حفلات الموالد وحلقات  
الذكر الصوفى وله بجانبها فى المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

### محمد بن أبي الحسن<sup>(١)</sup> البكري الصديق

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره يأخذ ما عندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجي ربه :

رَبِّ إِنِّي عَبْدٌ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ      فِلِحَالِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ تَدَارَكُ  
كُلُّ قَطْرٍ أَصَابَنِي مِنْكَ بَحْرٌ      كَيْفَ وَالْحَالُ فِيَّ تَجْرِي بِحَارِكُ  
كُلُّ جِزْءٍ مِنْ لِسْرِكَ دَارٌ      عَمَّرَ اللَّهُ يَا حَبِيبِي دِيَارِكُ  
مَنْ رَأَى رَأَكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ      أَيُّ شَكٍّ وَقَدْ جَعَلْتُ مَزَارِكُ

وتمثل في الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض :  
وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحية من مثل قوله :

حَبِيبُكَ دَانٍ رَقِيبٌ قَرِيبٌ      فَإِذَا الْبُكَاءُ وَمَاذَا التَّحِيبُ  
نَعْمَ هُوَ دَانٍ وَلَكِنِّي      بَعِيدٌ فَقِيدٌ طَرِيدٌ غَرِيبُ  
بُكَائِي عَلَى لَأَنِّي بُلِيْتُ      بَدَاءَ الصُّدُودِ وَعَزَّ الطَّيِّبُ

وعلى هذا النحو دائماً هو واله ملتان يعنى الوصال ، ومحبوه قريب منه ، بعيد لأنه لا ينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويثن والمحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

للعيدروس (طبع بغداد) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصديق  
للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن ربحانة الألبا للخفاجي  
٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لانه أبي المواهب ص  
٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملاً راجياً ويردد مارده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكري استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قرّبه الله إليه ، وسره الأعلى الذي لا يخيب أمله ، والذي ينال سؤاله اللاتئذ . ومن قوله في إحدى استغاثاته :

يا أكرمَ الخلق على ربِّه وخيرَ من فيهم به يُسألُ  
 قد مسنى الكربُ وكم مرّة فرجتَ كرباً بعضهُ يُذهلُ  
 وأنتَ بابُ الله أيُّ امرئٍ أتاه من غيرك لا يدخلُ

ويضيف في استغاثاته بالرسول إلى تفرّج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له في عروجه إلى السموات .

## ٥

### شعراء الفكاهة

من أهم ما يميز مصر قديماً وحديثاً ميل أهلها إلى الفكاهة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويراً جامعاً في كتابنا « الفكاهة في مصر » مستعرضين هذه الخصلة في مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخلفه شاعر كان يلقّب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحو في الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر <sup>(١)</sup> » . ولا يلبث أن يقول في سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بـ « قاضي البقر : » من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندير والهزل <sup>(٢)</sup> » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابةً للشعراء

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القسطاط) ص ٢٧٠

تتسع ، إذ ينبز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني إذ يلقانا فيه شاعر لُقِبَ بِشَلْعَلَعٍ وثان بالوضع وثالث بالكاسات ورابع بالججهجان وخامس بالنسناس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنيسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بغلام مسيحي ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذر له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريرك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندير بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد ، فلا تزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولا يزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونايه أو ناياته (١) :

وزامرٍ يكذبُ فيه عائبُهُ      تكثُرُ في صنعته عجائبُهُ  
يحبب صبرَ المرءِ عنه حاجبُهُ      كأنما نايأته ذوائبُهُ

والتورية واضحة في حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر في غير هذا الموضع - ومثله قر الدولة جعفر بن دؤاس ، وله يقول في ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد (٢) :

هذا ابنُ أفلحَ كاتبٌ متفردٌ بصفاته  
أقلامه من غيره ودوائبه من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعاية مشهورة للقاضي الجليس

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طبيب تعهده وكان محموداً ، فلم ير أعلى يديه وفيها يقول (١) :

وأصلُ بِلَيْتِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحِ بِعَسْكَرَيْنِ  
طَيْبٌ طِبُّهُ كَغُرَابِ بَيْنِ يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِي  
أَتَى الْحُمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ فَرَدُّ لَهَا الشَّبَابَ بِنُسْخَتَيْنِ  
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرِ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حَتِينٍ (٢)  
وَكَانَتْ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصِيرَهَا بِحَدَقِ نَوْبَتَيْنِ

والجليس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاخت وباحت أو فترت فإذا هو يردُّ لها الشباب بورقتين من سَفوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في ردِّ قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاهده في اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الذروري في الحقة الأيوبية ووصفه لحدة ابن أبي حصينة وصفا ساخرا لاذعاً . ومن طريف ما نقرأ من دعابات في هذه الحقب دعاة البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول (٣) :

لك يا صديق بَغْلَةٌ لَيْسَتْ تَسَاوَى خَرْدَلَةَ  
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعِيُونَ نُنُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَةً (٤)  
وَتُخَالُ مَدِيرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعْجِلَهُ  
مِقْدَارُ خَطْوَتِهَا الطَّوِيلَةُ حِينَ تَسْرَعُ أَنْمَلُهُ  
تَهْتَزُّ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَهُ

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظَنُّ أنها مقيدة لبطنها الشديد ، ويجعلها مديرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتز واقفة لاتسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة .

(٣) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفي عبدالرازق ص

٥٤ .

(٤) مشكلة : مقيدة .

(١) الخريدة ١٩٢/١ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قره من أطباء القرن

الثالث ومثله حنين بن إسحق .

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل (١) :

بِاللَّهِ قُلُّ لِلنَّيْلِ عَنِّي إِنِّي لَمْ أَشْفِ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ غَلِيلاً  
وَسَلِّ الْفُرَادَ فَإِنَّهُ لِي شَاهِدٌ أَنْ كَانَ طَرَفِي بِالْبِكَاءِ بَخِيلاً  
يَاقَلْبُ كَمْ خَلَفْتَ ثُمَّ بَيْتِيَّةً وَأظنَّ صَبْرَكَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلاً

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفي غليله ، ولن يكف بكاؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبئينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموي بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان (٢) : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله (٣) :

مَلَكْتَ الْخَافِقِينَ فَتَهَتَ عُجْبًا      وَلَيْسَ هُمَا سِوَى قَلْبِي وَقُرْطِكَ

فهي لا تمتلك قرطها الخافق المهتر وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزائر والوراق وابن النقيب والحمامي وابن دانيال ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور (٤) :

أَقُولُ وَقَدْ شَتَوْنَا إِلَى الْحَرْبِ غَارَةً      دَعَوْنِي فَأِنِّي أَكَلْتُ الْخَبِزَ بِالْجُبْنِ

والتورية في الجبن واضحة . ومن توريات النصير الحمامي قوله في بعض غزله (٥) :

وَيَطْنِي حَيًّا رَوَيْتُ بِرَيْقِهِ      فَإِذَا دَعَا قَلْبِي يَجَاوِبُهُ الصَّدَى

(٣) الديوان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

(١) خزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

٣١٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للصندي المتصل بالدعاء والجواب رجح الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذي ورى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذه عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرًا رديئًا غالبه نوى ، إذ كتب إليه (١) :

أرسلت تمرًا بل نوى فقبلته بيد الوداد فما عليك عتاب  
وإذا تباعدت الجسوم فودنا باقٍ ونحن على النوى أحباب

والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى التمر ، والمعنى البعيد الذى أراد ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفى وفخر الدين بن مكنس وبدر الدين البشتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصرى صنوان لايفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكاه كان يعيش للهزل هو عامر الأنبوطى وستترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

### ابن (٢) مكنسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكثر التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التعريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبدل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحي يسمى أبامليح فى عهد بدر الجالى وزير المستنصر وكانه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويتُ سماء المكرما تِ وكورتُ شمسُ المديح  
ماذا أرجى فى حيا تى بعد موتِ أبى مليح

والخريدة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦/١ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

(١) خزنة الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون



ويبدو أن البيت الثاني هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فاتق ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلفك مبهجاً والغيثُ فى يدهِ يَهْمِيْ فيجمعُ بين الشمسِ والمطرِ  
وقوله :

الطَّوْدُ حاسدٌ حِلْمِهِ وَأَنَاتِهِ وَالسَّيْفُ حاسدٌ بِأَسِهِ وَمَضَاهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها أو سابق فعلا من مثل قوله يصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل فى شكل عقرب :

قلتُ إذْ عَقْرَبَ الدَّلَا لُ على خَدِّهِ الشَّعْرُ  
مارئِيْ قَطُّ قَبْلَ ذَا عَقْرَبُ حَلَّتِ القَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ، وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لا تَخْدَعَنَّكَ وَجَنَةٌ حَمْرَةٌ رَقَّتْ فى الياقوتِ طَعُّ الجَلْمِدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الحسنُ فى وَجْتِهِ وطَرْفِهِ يفتح وَرْدًا وَيَغْضُ نَرْجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة فى الجون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهى تُصَبُّ من إبريق :

إبريقنا عاكفٌ على قَدَحِ كأنه الأُمُّ ترضعُ الولدا  
أوعابدٌ من بنى الجوس إذا توهَّم الكأسَ شُعْلَةً سَجَدًا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نوادير وأشعار كثيرة ، كان فيها يتاجن على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان دائم التصوير لبؤسه وقره وخلو داره من الطعام وعبث الجرذان فيها وبنات ووردان أو الصراصير ، ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لِي بَتُّ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَعْرِ لَابْنِ حِجَاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفٍ  
 أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِ الضَّعِيفِ  
 بَقْعَةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذَّ سَكَّتْهَا - فِي الْكُسُوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقة الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخييف من أشعار ابن حجاج المفحشة ، ويقول إنه - مذ سكنه - في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهي تورية واضحة . ومن قوله الفكاهة يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عشتُ خمسين بل تزيد	بُدُّ رقيقاً كما ترى
أحسبُ المقلَّ بُندُقاً	وكذا المِلْحَ سُكْرًا
وأظن الطويلَ من	كُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرًا
قد كَبُرَ بِرِيٍّ بِرِيٌّ	تُ وَعَقْلِي إِلَى وَرَا
عجبا كيف كلُّ شـ	سِنِيٍّ أَرَاهُ تَغْيِرًا
لا أرى البَيْضَ صَارَ يُوُّ	كَلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا
وإذا دُقَّ بالحجا	رِ زجاجٌ تَكْسَرًا

وهو يعلن في مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ، وكأنه لن يكفَّ عن رقااعته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمدور ، ويحسُّ ارتعاشه في شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فمه مكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شيء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق في الضحك ، إذ تحولت الحقائق في عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب في أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هي التي جعلت المصريين لزمته يلقبونه ابن مكنسة .

الجزائر<sup>(١)</sup>

هو يحيى بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته في الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان في أول أمره قصبًا وسال الشعر على لسانه وكانت ملكته خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة في الاسكندرية والحلة ودمياط . وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم ، وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من برة ، ويذكر دعوته له مرارا للزهوة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحامى وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يقدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذى يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويحيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهى مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن فى عصره من يقاربه فى جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رُزق من حسن الاهتداء لغرائب المعاني وبدائع الألفاظ ما يدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التى تميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن مترعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة فى وصف لغة الجزار بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهى ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة فى الفسطاط لزمه ، فطبيعى أن لا ينجح فى أشعاره إلى الألفاظ الغربية إنما ينجح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التى تصور صلة عامّة

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن العاد ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للزغولى ١٩١/٢ ومابعدها ، ومكتبة جامعة القاهرة مصورة لمنتخبات من شعره بخط الصفدى فى ١٨٠ ورقة .

(١) انظر فى الجزار وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المخاضرة ٥٦٨/١ وفوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الشعب المصري دائما بالشعر العربي صلة لاتقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون في الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد في الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصري الجزائر كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورأقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحماي ، وكان له حَمَام يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غير كلبٍ وليس يخشاه غير تيسٍ

وردَّ عليه الجزائر غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا في الدعابة :

يرجئنا بنو كلبٍ ويخشانا بنو عجلٍ

ويبدو أنه كان يعود في بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لا أشكرُ الجزارةَ ما عشتُ حِفَاطًا وأرفضُ الآدابا  
وبها أضحتِ الكلابُ تُرَجِّى نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزائر ميل متأصل في نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبَّه بابن مكنسة وأبي الشمقمق العباسي في الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكِّهاً بمثل قوله :

لى من الشمس خِلْعَةٌ صفراءُ لا أبالي إذا أتاني الشتاءُ  
بيتى الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مُدَارٌ وسَقْفُ بيتي السماءُ  
لو ترانى في الشمس والبردُ قد أذُ حَلَّ جسمي لقلتَ إني هباءُ  
كلما قلت في غَدٍ أدرك السُّو لَ أتاني غَدُ بما لا أشاءُ

فحتى الثياب لا يجدها ، وبيته الأرض وسقفه السماء ، وقد أنخله البرد حتى صار شبعا لا يكاد يرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

وَدَارِ خَرَابٍ بِهَا قَدْ نَزَلْتُ وَلَكِنْ نَزَلْتُ إِلَى السَّابِعَةِ  
فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ أَنِي أَكُونُ بِهَا أَوْ أَكُونُ عَلَى الْقَارِعَةِ  
وَأَخْشَى بِهَا أَنْ أَقِيمَ الصَّلَاةَ فَتَسْجُدَ حَيْطَانُهَا الرَّكَعَةَ  
إِذَا مَاقَرَأْتُ : ( إِذَا زُلْزِلَتْ ) خَشِيتُ بِأَنْ تَقْرَأَ : ( الْوَاقِعَةَ )

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولاسقف ولاحيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتفقد حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبة له هذا الوصف الفكه :

لِي نِصْفِيَّةٌ تَعُدُّ مِنَ الْعُمْسِ سِنِيًّا غَسَلْتُهَا أَلْفَ غَسَلَةٍ  
كُلَّ يَوْمٍ يَحُوطُهَا الْعَصْرُ وَالذُّقُّ مَرَارًا وَمَا تُقَرُّ بِعُمَلَةٍ  
أَيْنَ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمِ وَذَاكَ التَّسْوِيءُ فِيهَا وَخَطَرْتُ وَالشَّلَّةُ  
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةٌ قَطُّ وَلَا فِي أَكْأَمِهَا قَطُّ وَصَلَّهُ

فهي نصفية أو « جبة » طالما لبست وغُسلت وصُبغت ، وفي كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخنصيتين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهي بفتح العين الجناية وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل في العامية المصرية على مايتلفع به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهي فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنّا فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال تَوَا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَأَسْمًا فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ  
فَلَا تَسُومُونِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله في أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْكِنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : المظللان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، فضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزُوجُ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةً لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذَهْنٌ  
لَوْ بَرَزَتْ صُورَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسَرْتُ تَبَصُّرَهَا الْجِنُّ  
كَأَنَّهَا فِي فَرْشِهَا رَمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطُنٌ  
وَقَائِلٍ قَالَ فَمَا سَيْتُهَا فَقُلْتُ مَا فِي فَهَى سَيْنِ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنّها أي عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم في حار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشاراً في رثائه لأناته ، وجمع بعض معاصريه مرثيه لجماره في مجلد ، وهي مرث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ يَرَى رَغِيْبًا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسِرُ  
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لِقَالَ الْخَبِيْزُ أَكْبَرَ

وفي الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمته صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قُلْتُ لَسُقْمُ الْجِسْمِ مَنِيْ وَقَدْ أَفْرَطَ بِي فَرَطُ ضَنْأٍ وَاكْتِنَابُ  
فَعَلْتَ بِي يَا سُقْمُ مَا لَمْ يَكُنْ تُتْلَبُ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِ الثِّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لاتكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالا يصح ولا يجوز أبداً .

## السراج (١) الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، ولد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفي سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر ( الفسطاط ) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخيل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبديع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبعي ، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة ، ومازال الشعر يصعد به حتى عيّن كاتباً للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراقا ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله في الظاهر بيبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيدّها للعلم مدرسةً غدا عراقٌ إليها شيقٌ وشامٌ  
ولا تذكرنّ يوما نظاميَّةً لها فليس يضاها ذا النظامَ نظامٌ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دارّة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومررنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مراثية بديعة في المعز أيبك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمٌ عليه مآتما بعد مآتمٍ ونسفحُ دمعاً دون سَفْحِ المقطَمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقه ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدر ٩٠/١ وخطط المقرئ  
٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكعب المصرية  
ومصورة بخط الصفدي في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات  
الوفيات لابن شاکر ٢١٣/٢ والنجوم الزاهرة ٨٣/٨  
وشفوات الذهب ٤٣١/٥ وخزانة الأدب للحموي ص

فِي خَدِّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاخْتَلَفُوا      أَللِّشَّقَائِقِ أُمُّ لَلْوَرْدِ نَسِبَتُهُ  
فَذَاكَ بِالْحَالِ يَقْضَى لِلشَّقِيقِ وَذَا      دَلِيلُهُ أَنَّ مَاءَ الْوَرْدِ رَيْقُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حشره لعلم الناس واختلافهم في خدِّ صاحبتة ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بديعة ومعروف أن الشقيق قائم الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبتة الشبيه بمائه . ومن غزله أيضا :

لَا تَحْجُبِ الطَّيْفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ      لَمْ يَبْقَ مِنِّي لِفِرطِ السُّقْمِ مَطْلُوبٌ  
وَلَا تَتَّقِ بَأْنِي إِنْ مَوْعِدُهُ      بَانَ أَعْيَشَ لِلْقِيَا الطَّيْفِ مَكْذُوبٌ  
هَذَا وَخَدُّكَ مَخْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ      دَمْعٌ يَقِيضُ عَلَى خَدِّي مَخْضُوبٌ  
تَأْوُدُ الْعُصْنَ مَهْتَرًا فَأَنْبَأْنَا      أَنَّ الَّذِي فِيكَ خُلِقَ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيئات ، ويقول إنه يبكى دما قانيا كخذ صاحبتة في حمرة . ويزعم أن ميلان العنصن واهتزازة إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبتة . وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأى المعتزلة في أن الإنسان يكسب عمله بفعلة لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصرى كأهمية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده ، وقد خطا بفن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أرى عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته في لقبه السراج قوله مادحا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانِي      قَلَّدَ مِنْ نَظْمِهِ التُّحُورَا  
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ      فَاقْطَعْ لِسَانِي أَزِدْكَ نُورَا

وهو يشير إلى السراج الحقيقي حين يقول « اقطع لساني » وهو إنما يريد النوال الذى يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويها وإشادة . ومن تورياته في لقبه الوراق :

وَاخْجَلْتَنِي وَصَحَائِقِي قَدْ سَوَّدَتْ      وَصَحَائِقُ الْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ



وفضيحتي لمعنفٍ لي قائلٍ أكذا تكون صحائفُ الوراقِ  
فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمه : أكذا تكون صحائف الوراق  
سوداء ، بينما ينبغي أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير  
لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أديمَ وجهي عن أناسٍ لقاءَ الموتِ عندهمُ الأديبُ  
وربُّ الشعرِ عندهمُ بغيضٌ ولو وافى به لهمُ حبيب

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبوتمام إذ اسمه حبيب ، وهو  
المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُوَيْنِيَّ وانتصبْ واكتسبْ واكُدِّحْ فنفسُ المرءِ كداحَةٍ  
وكُنْ عن الراحةِ في عُزْلَةٍ فألصِّفْ موجودٌ مع الرَّاحَةِ

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ،  
ومن تورياته في بقلة معروفة في مصر باسم « الرحلة » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه  
قائلاً :

وأحمقٍ أضافنا ببقلتهِ لنسبةٍ بينها ووُضِلَتْ  
إذ مدَّ في وجه الضيوفِ رجله

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرحلة على المائدة ، مما يدل بوضوح  
على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فسر لي عابراً مناماً فصلَّ في قوله وأجمل  
وقال : لا بد من طلوعٍ فكان ذلك الطلوعُ دُملاً

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعاً ، وصنع هذه التورية  
البارعة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموي توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه .  
ووراءها توريات لانقل عنها لطفاً وبراعة .

## ابن (١) دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتىً إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلده ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكمّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى واضبعتى فيهم وإفلاسى  
ماحالٌ منْ درهمُ إنفاقه يأخذه من أعينِ الناس

والتورية في الشطر الأخير واضحة ، وهى عبارة تدور على السنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أى رغم أنفه ، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تتعقد في دكانه أغلب الليالى ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمه من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحامى ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عُصَيَات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونه يُجهز على بصره فيصبح ضريراً محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندى إلا أن يكون فيكم من يقود الله تعالى . وكان يلزم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم في عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : ياحكيم أما أعطيناك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشترت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريفة قوله :

قد عقلنا والعقلُ أى وثاقِ وصبرنا والصبرُ مرُّ المذاقِ  
كلُّ من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتهما . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابنا الفكاهة في مصر ( طبع دار الهلال ) ص ٥٣ ومابعدها .

(١) انظر في ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبر

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما يسميها بابات لتمثّل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمّي متحركة متحاورة ، واسم أولها « طيف الخيال » ، والثانية « عجيب وغريب » والثالثة « متيم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبداع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » وهي مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قرّبا شديداً إلى عامية أهل القاهرة لزمه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصلى متغنيا بفضله وجدّه وهزله ، ويسلم سلام القادم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحديثة بمثل قوله :

قسماً بحسنِ قوامك الفتانِ يا أوحداً الأمراء في الحدبانِ  
يامشبه الغصن الرطيب إذا انثنى من حذبته يمسُّ بالرمانِ  
يا منجلاً شكلاً الهلال بقده حاشاك أن تُعزّرى إلى نقصانِ

ويستمر في تحسين حديثه ، فهو صاحب ردّفين ، وهو جمل جليل السّام ، بل هو كالعود الأحذب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لافضاً الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطاً على قفاه . ويغنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازروني بعد تجرّسه في الطرقات وفي عنقه دنّ نبيذ أو نباذية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حدُّ السكر من قبل صلّيه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدًا  
فلما بدا المصلوبُ قلتُ لصاحبي ألا تُبّ فإنّ الحدّ قد جاوز الحدّ  
والتورية واضحة في كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشيء لحدّه

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحذب ليرى إبليس وغواياته ويندب تحطيم أوانى الخمر وذنانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - يا قوم - شيخنا إبليسُ وخلا منه ريعه المأنوسُ  
والقناني به تكسرنَ والخمُّ - أرُّ من بعد كسرهما محبوسُ  
وذوو القصف ذاهلون وقد كا دتْ على سبيلها تسيلُ النفوسُ  
والحرافيشُ حولها يتباكو ن بنارِ تُراع منها الجحوسُ  
وقصيبُ ونرجسُ وسعادُ باكياتُ ونزهةُ وعروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لندل على ماتموج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدثه فى توقعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا وافتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُربِعَر انتقاما منه حين هزى به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُرْدَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الملاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شروى نقيرا كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طلب منه المهر . وقد أطلق البخور ورشَّ الطيب على الحضور ويُنشد :

أُسيْتُ أفقرَ مَنْ يروحُ وَيَعْتدى ما فى يدي من فاقتي إلا يدي  
فى منزلٍ لم يحوِ غيرى قاعداً فإذا رقدتُ رقدتُ غيرَ ممددٍ  
وترى البعوضَ يطير وهو بريشه فإذا تمكَّن فوق عرقِ يَفصِدِ  
والفارُ يركُضُ كالخيول تسابقتُ من كلِّ جرداء الأديم وأجرد  
وترى الخنافسَ كالزئوج تصفقتُ من كل سوداء الأديم وأسود  
هذا ولى ثوبٌ تراه مرقعا من كل لونٍ مثل ريش الهددِ

ومع ذلك يُزفُ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الدهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور ما يعطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى يرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه ، فيحطمه حطما . وتموت الخاطبة وبنوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالنُّوح والتعديدي بعد فقد العجوز أم رشيد  
هلكتُ آخرَ الليالي السودِ ياليلَى الوصالِ باللهِ عُودى

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص ويتردد فيها التسلسل ، وشخصها في غاية الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . وما زال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتمثيلاته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور في أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

### عامر<sup>(١)</sup> الأنبوطى

يقول الجبرتي في ترجمته : « شاعر مفلق هجاء » ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزناً وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه وهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استهّلها بقوله :

يقول عامرٌ هو الأنبوطى أحمد ربي لستُ بالقنوطى<sup>(٢)</sup>  
وأستعين الله في ألفيّه مقاصدُ الأكلِ بها محويّه  
فيها صنوفُ الأكلِ والمطاعمِ لذتُ لكلِ جانعٍ وهائمٍ<sup>(٣)</sup>  
طعامنا الضانى لذيذٌ لئنهم لحما وسمنًا ثم خبزًا فالتقم

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليانس

(٣) الهائم : شديد العطش .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرتي

فإنها نفيسة والأكل عم مطاعم إلى سناها القلب أم (١)  
والأصل في الأخباز أن تُقَمَّرَا وجوزوا التَّقْدِيد إذ لا ضرراً (٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئاً من أشعار هذه الألفية يغرقون في الضحك إغراقاً ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائي تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضَّانِ تَرِياقُ من العللِ وَأَصْحُنُ الرِّزِّ فيها منتهى أُملى (٣)  
ولا خليلٌ بِدَفْعِ الجوعِ يرحمني ولا كريمٌ بَلْحَمِ الضَّانِ يسمع لي  
طال التلهف للمطعم واشتعلتْ حُشاشتي بِحَمَامِ البَيْتِ حين قُلبِي  
أريد أكلًا نفيسًا أستعين بهِ على العبادات والمطلوبِ من عملي

وكانت لابن الوردي الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعاً حكماً وأمثالاً ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوه فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعومَ عدسٍ وبَصَلْ في عَشاءٍ فَهُوَ للعقل خَبَلْ  
وعنِ البِصَارِ لا تُعَنَّ بهِ تُمسِ في صحَّةِ جِسْمٍ من عِلَلْ  
واحتفلْ بالضَّانِ إن كنت فتى زاكى العقلِ ودَعْ عنك الكسَلْ  
من كبابٍ وضلوعٍ قد زَكَّتْ أكلها يَنْقِي عن القلبِ الوَجَلْ

وطعام العدس والبصل وكذلك البصار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضاني وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه في القاهرة ويسرى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستغرقون في الضحك ، بما يعرض عليهم في أشعاره الفكاهة من أصناف الأطعمة وألوان

(٣) أناجر: جمع أنجر ويطلق في العامية على أواني

الطعام وطهيه الكبيرة .

(١) أم: قصد .

(٢) قمر: كلمة عامية أى تعرض على النار

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه « كبابا » ودواء من الحلوى والخشاف . وما زال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفي سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

### شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التى تتمن الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحمامى الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهى نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هى الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والمواليا استحدثته أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربي وخاصة الزجل والمواليا .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصلي وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة ، ومنه ما سمّته مصر بُلَيْقًا وجمعه على بلاليق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحاض ، ومنه ما سمّي قَرَقِيًّا وهو ما تضمن الهجاء أو الهزل ، ومنه ما سمّي مكفّرًا وهو ما تضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومررنا أن الشريف العقيلي في القرن

الخامس كان يجتم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفّرة لما قدم في القافية من مجون .  
وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت  
تلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرك ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام  
أقبلت على البليّقي وهو زجل هنزلي ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان  
بالفسطاط جماعة يصنفون البليّقي ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البليّقي ، ومن  
بليّقاته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لديني الحقاني  
نرجع لديني الأول عن النسا لسُ تتحوّل  
إن كنت في ذا تتقول اضعف وقطّع آذاني

وهذا من الطراز العالی في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره <sup>(١)</sup> . واشتهر في القرن  
السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايقي <sup>(٢)</sup> وممن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايقي زين الدين  
القوصي وقدروى له ابن حجرٌ بليّقا <sup>(٣)</sup> ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدروى له ابن تغري  
بردي بليّقا <sup>(٤)</sup> ، هزليا رقص به منشدوه بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندي خلقُ فقد صدق  
عندي قبا من عهد نوح على الفتح <sup>(٥)</sup>  
لو صادفوا شمس السطوح كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندي خلق » أي هرم إلى بليّغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ،  
وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البليّقي مرارا . وبجانب البلايقي تلقانا أرجال كثيرة في هذا  
العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفي الدين الحلّي ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من  
القرن الثامن الهجري ، وهو يجرى على هذا النمط <sup>(٦)</sup> :

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥  
(٢) انظر بعض بليّقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص ٣٢٧  
(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣  
(٤) النجوم الزاهرة ١٠/٣١٧ - ٣١٨ .  
(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه .  
(٦) العاقل الحلّي لصفي الدين الحلّي نشر ولهم هو نرباخ  
بألمانيا ص ٢٧ .



مَنْ نَعَشَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَارَ طَرَزُوا مِنْ زَانُوا بِالْعِدَارِ  
عَرَضْتُ لَوْ بِاللِّمَاحِ صَارَ وُرْدُوْ كَالْبَهَارِ<sup>(١)</sup> وَتَبَدَّلَ لُونُو بِالصَّفَارِ

وأشد زجلا مصريا كاملا ، قال : سمعته للمصريين ، وهو يصور خفة روحهم ورقمهم  
ولطفهم وظرفهم ، ومما جاء فيه <sup>(٢)</sup> :

لَسْ غَرِيبٌ مِّنْ فَارَقَ أَوْطَانُوْ أَوْ بَعِدَ عَنْ نَاطِرُو الْحَبِيبِ  
إِلَّا مِّنْ دَارُو قَبْلُ دَارُو وَالْحَبِيبُ عَنْ نَاطِرُو مَحْجُوبِ  
حَيِّي عَنِّي حَجَبِيْهِ أَهْلُو وَأَسْرَفُو فِي جَمْعِ حَفَاطُو  
وَالرَّقِيبُ قَدْ غَيَّبُو عَنِّي حَتَّى عَنِّي قَيْدَ الْفَاطُو  
كُلْ يَوْمَ لِأَجْلُو يَغِيظُ قَلْبُو رَبِّ غِيظَ قَلْبِ الَّذِي غَاطُو  
مَاحْطَرُ إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ أَوْعَبَّرَ إِلَّا وَهُوَ مَرَعُوبِ  
لَسْ نَطِيقُ نَلْفِظُ مَعُو لَفْظُهُ لَا وَلَا يُرْسِلُ إِلَيْهِ مَكْتُوبِ  
رَيْتُ حَبِيبِي فِي الرِّيَاضِ يَمْرُحُ بَيْنَ أَقْرَانُو وَأَثْرَابُو  
قَلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لِقَى أَحْبَابِيُونَسِي أَصْحَابُو  
قَالَ لِي قَدْ ضَجَّتْ بِنَا أَعْدَانَا وَرَمُونَا قَلْتُ مَا صَابُوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعذوبة . وقد روى صاحب خزانة الأدب قطعة من زجل ابن  
القماح في وصف النرجس <sup>(٣)</sup> . ولما توفي السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا  
عظيما ورثاه الشعراء بعدة قصائد ، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم <sup>(٤)</sup> :

كوكب السعد غاب من القلعة وهلألو قد انطفأ بأمان  
وزحل قد قارن المريخ لكسوف شمس الضحى شعبان

ومن أطرف الأزجال المصرية لعهد المالك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة <sup>(٥)</sup> نظمه زجال  
مصرى في رثاء الفيل مرزوق ، وهو فيل كان قد أهدها تيمور لثك في أوائل القرن التاسع الهجرى  
إلى سلطان مصر ، وتصادف أن الغلمان الموكلين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على

(٤) النجوم الزاهرة ١١/٨٣

(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

(١) البيار : زهر أصفر .

(٢) العاطل الحالى ص ١٠٩

(٣) خزانة الأدب ص ٢١٩

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فاتخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرجون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

سهم الفراق قد صاب قلبي	يا مسلمين
ونا غريبه هندية	قلبي حزين
وعيطت حتى أبكت	جيرانها <sup>(١)</sup>
من كثر مانحت ناحوا	لأحزانها
من نارها صارت تلطم	بودانها <sup>(٢)</sup>
حتى الزرافة جاءت	متحسره
تبكى على الفيل اللي مات	في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفئات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعد في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حينئذ بمصر . وفي دار الكتب مجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأزجال حية في الحقة العثمانية ومثلها المواليا ، وهي الفن الشعبي العامي الثاني الذي استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجده في ديوان ابن الفارض الصوفي ، واشتهر به في عصر الماليك أبو بكر بن العجمي عين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجري وكان إمام فن المواليا<sup>(٣)</sup> لزمه وضروبه المتشعبة ، ومن موارياتها :

للحب قالوا معنك الذي اذبلتو جدلوا بقبله فقلبو فيك خبلتو  
فقال أقسم لو ان البوس سبلتو ومات ، للشرق ما درتو وقبلتو<sup>(٤)</sup>

قد تكون من القبله بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها  
بكلمة البوس ، وقد تكون من القبله بكسر القاف أى  
مأداره نحو القبله بعد موته وهو المعنى المراد .

- (١) عيطت : بكت .  
(٢) ودانها بالعامية : آذانها .  
(٣) خزائن الأدب ص ٤٣ .  
(٤) درتو : كلمة عامية أى أدرته . وفي قبلتو تورية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام الممالك وأيضاً في أيام العثمانيين . وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي : البليق ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ شمس الحفني الشافعي الخَلَوِيُّ :

خَطَرَ عَلِيٌّ غَزَالِي مَرَّ مَا اتَكَلَّمَ فَوْقَ جَفُونِهِ وَقَلْبِي وَالْحَشَا أَكَلَّمُ  
إِيشْ كَانَ يَضْرَهُ إِذَا بِالرَّاسِ لِي سَلَّمَ حَتَّى أَسْرَّ مَهْجَتِي لَوْلَا السَّلَامُ سَلَّمَ

والنوع الثاني القَرَقِيَا وينظم في الهزل والفكاهة وما يتصل بهما ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شَمَّة .

قَالُوا تَحِبُّ الْمَدْمَسُ؟ قَلْتُ بِالزَّيْتِ حَارٌّ وَالْعَيْشُ الْإَبْيَضُ تَحِبُّهُ قَلْتُ وَالْكَشْكَارُ  
قَالُوا تَحِبُّ الْمَطْبُقُ؟ قَلْتُ بِالْقَنْطَارِ قَالُوا اشْرُ تَقُلْ فِي الْخَضَارِيِّ قَلْتُ عَقَلِي طَارَ

والقول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفّر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواعظ وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحفني أو الحفناوي وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النمط .

بِاللَّهِ يَأْقَلِبُ دَعْ عَنكَ الْهَوَى وَأَسَلَّمَ مِنْ كُلِّ مَيْلٍ وَوَأَفِي عَهْدِهِمْ أَسَلَّمَ  
وَالزَّمْ حَمِي سَادَةٍ مِنْ أَمَّهُمْ يَسَلَّمَ وَأَسَلُّكَ سَبِيلَ التَّقَى يَوْمَ اللَّقَا تَسَلَّمَ

ويقول صفي الدين الحلبي إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالباً يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكان قائله يحكى ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق<sup>(١)</sup> . ويحكى ابن تغري بردي منه منظومة في وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهي تستهل على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

مِنَ الْكَرْكُ جَانَا النَّاصِرُ وَجَبُّ مَعَهُ أُسْدُ الْغَابَةِ

(٢) النجوم الزاهرة ١٠/٤٨ .

(١) العاقل الحلبي ص ١٤٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ .

ووقعتك يا أمير قوصون ما كانت آلا كدابة

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراقي أيضا ، إذ نرى الجبرتي في الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذلك كان ينظم في الزجل والقوما والكان وكان والموالي والبليق<sup>(١)</sup> . ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامي .

### إبراهيم<sup>(٢)</sup> المعمار

هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعمار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الخائلك وقيل المعمار وقيل الحجار عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيا في الأزجال والبلايق » ويقول الصفدي : « عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيا في الأزجال والبلايق ، بحيث إنه في ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغري بردي : « كان ذكي الفطرة قوى القريحة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

قُبِحَ الطاعون داءً فُقدت فيه الأُحبة  
بيعت الأنفس فيه كلُّ إنسانٍ بحبِّه

وفي كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمٌ كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرًا على الفراق ولو رُميتَ ممن تحبُّ بالبين  
وأنت يادمعُ إن ظهرتَ بما يُخفيه قلبي سقطتَ من عيني

وفي كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف في العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوافي ١٧٣/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن إياس في مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .

(١) انظر الجبرتي ٢٩٠/١ .

(٢) انظر في المعمار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات

٥٥/١ والنجم الزاهرة ٢١٢/١٠ والمهمل الصافي ١٧٤/١

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله في زوجته مداعبا :

لما جَلَّوْا عِرْسِي وَعَايِنْتُهَا وَجَدْتُ فِيهَا كَلًّا عَيْبٍ يُقَالُ  
فَقُلْتُ لِلدَّلَالِ مَاذَا تَرَى ؟ فَقَالَ : مَا أَضْمَنُ إِلَّا الْحَلَالَ

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته  
مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى في هذا الموقف يفزع إلى التورية قائلا :

مَا كَانَ صَفْعٌ بِالرِّضَا لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ أُذُنِي  
لَوْلَا يَدٌ سَبَقَتْ لَهُ لِأَمْرَتِهِ بِالْكَفِّ عَنِّي

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أذني » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع  
وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ،  
وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وَحَادِمٍ يَعْلُو عَلَى عِشَاقِهِ بَرْتِيَّةٍ مِنَ الْجَمَالِ نَاهَا  
وَأِسْمُهُ - وَهُوَ الْعَجِيبُ - مُحْسَنٌ وَكَمْ دَمُوعٍ فِي الْهَوَى أَسَا لَهَا

وفي كلمة « أساها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو  
الحزن كأنه يرق لحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

مَا مَصْرُ إِلَّا مَنْزِلٌ مُسْتَحْسَنٌ فَاسْتَوَطَنُوهُ مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبًا  
هَذَا وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَقَرٍ بِهِ فْتَيْمَّمُوا مِنْهُ صَعِيدًا طَيِّبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : ( فْتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ) وهو لا يريد معنى  
الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلي ، وهي تورية بديعة ،  
ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الْحَزَانَ لَمَّا أَنْ رَأَى نَيْلَنَا قَدْ عَمَّ سَهْلًا وَجَبَلٌ  
وَرَأَى الْأَرْضَ لَنَا قَدْ أُخْرِجَتْ سُنْبُلَاتِ ذَاتِ حَبٍّ فَاخْتَبَلُ  
وَبكى إِذْ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زَادَهَا اللَّهُ عَرُوقًا وَسَبَلٌ

والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمرة ، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قمح وسبل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولى فراقه يوم عيدي  
فقبل شيع بست فقلت أيضا وسيدي

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي . ولم تُعْن كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَجَتْ يوما مع الحَبِّ الرشيْق القَدَّ وقلت آهي على من قَبْلَكَ في الحدِّ  
فَسَلَّ سيفو من أَجْفَانو لقتلى حَدَّ قلت انتهى الأمر يا حِجِّي لهذا الحدِّ

وفي كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المفرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزَّيْنِ وَأَصْبَحَتْ مُضْنَى قَلْقُ أَخشى حلول الحَيْنِ  
وكنت قَبْلُ خَلِيٍّ لم أشكُ وشكُ البينِ سالمٌ من العشق حتى صابني بالعينِ

ولكلمة « صابني بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لمحجوبه بعينه وسهامها القاتلة . وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها تظرفا لأهل زمنه .

### الفُبَارَى (١)

هو وخلف بن محمد الفُبَارَى عاش في القرن الثامن الهجري ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه منهم ، كما نراه ينظم أزجالا مختلفة في أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مثدنة

للنواجي ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبي بيثنة ص ٢١ .

(١) انظر في الفُبَارَى تاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجري ، وراجع زجلا له في عقود اللآل

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمه ، فعنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظمه في موضوعات كثيرة : في المديح والثناء والأحداث السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) وكان محبوبا من رعيته :

حُبِّ قَلْبِي شَعْبَانَ مَوْفِقَ رَشِيدٍ      وَجَالُوا أَشْرَقَ وَمَالُو حُدُودَ  
 وَأَبُوهُ الْحَسَنُ وَعَمَّهُ الْحُسَيْنُ      وَارِثُ الْمَلِكِ مِنْ جُدُودِ لَجْدُودِ  
 زَعَقَى السَّعْدَ بَيْنَ يَدَيْكَ شَاوِيشُ      فِرْحَ الْقَلْبِ بَعْدَ مَا كَانَ حَزِينِ  
 وَنَصَبَ لَكَ كُرْسِيَّ عَلَى الْمَمْلَكَةِ      وَظَهَرَ لَكَ نَصْرَهُ بَفَتْحِ الْمِينِ  
 وَالْعَصَابِ مِنْ حَوْلِكَ اشْتَالَتْ      - خَفَقَتْ فِي الرُّكُوبِ عَلَيْكَ - الْبَنُودِ  
 فَاحْكَمْ احْكَمْ فِي مِصْرٍ يَا سُلْطَانَ      فَجَمِيعَ الْجُنُودِ لِحَسْنِكَ جُنُودِ

والشاویش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدي السلطان شعبان مؤتمرا بأمره ، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أي رفعت البنود والأعلام كناية عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهي والسلطان . ونراه متصلا بابنه السلطان على (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ) ناظما الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظمه في وقعة العربان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جَا الْحَبِيرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَا      بَاتُوا فِي لَيْلَةِ الْأَحَدِ  
 جَا دَمْنَهْرَ عَرَبِ خَدَا      سَوْقَهَا وَأَخْرَبُوا الْبَلَدِ  
 وَابْنِ سَلَامٍ أَمِيرِهِمْ      هُوَ الَّذِي لِلْجَمِيعِ حَشْدِ  
 فَبَرَزَ أَيْتَمَشَ سَرِيعَ      بِمَالِيكَ وَجُنْدِ نُوبِ  
 وَعُدَدَ مَا هَا عَدَدِ      وَيَطْلِبُوا لَهُمْ طَلَبِ  
 حَضَرُوا مَا التَّقْوَا أَحَدِ      مِنْ جَمِيعِ الْعَرَبِ حَضَرِ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :

فِي النَّاسِ رَأَيْنَا لِلْخَيْرِ مَعَادُنَ      وَالذَّرَّ يَوْجِدُ فِي كَثَرِ مِثْلُهُ

وَأَنَّ رُمْتَ جَوْهَرٍ فِي الشَّخْصِ مَكْنُونٌ	فَجَوْهَرُ الشَّخْصِ حَسَنٌ فِعْلُهُ
وَأَنَّ كَانَ تَرِيدُ صِحَّةَ الْمَعَانِي	وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مَحْرَّرَ
خُدُّ فَرْعٍ بِإَيْدِكَ مِنْ أَسْلِ حَنْظَلٍ	وَأَزْرَعُ جَذْوَرَهُ فِي أَرْضٍ عَنَبَرٍ
وَأَسْقِيهِ بِمَاءِ بَانَ وَوَرْدٍ مَمْزُوجٍ	وَعَقْدَ جُلَّابٍ وَحَلٍّ سَكَّرٍ (١)
وَحِينَ تَشَوْفُهُ عَقْدَ ثَمَّارِهِ	وَأَنَّ أَوَانَهُ وَحَلٍّ فَصْلُهُ
ذُوقُهُ تَرَاهُ مَرًّا وَالسَّبَبُ فِيهِ	مَا يَرْجِعُ الْفَرْعُ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الرجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكثظ بالصور والاختيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وإيرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه في هذا الرجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَحْتَقِرْ أَيْ ابْنَ آدَمَ	فِي طَوْلِ حَيَاتِكَ وَلَا تَنْدُمُهُ
كَمْ حَى خَامِلٌ تَقُولُ عَلَيْهِ	مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبَيْمِ مِنْ اسْمَةٍ
وَأَنَّ جِيَتْ صَاحِبَتُهُ فِي يَوْمِ بَيَانٍ لَكَ	تَظْهَرُ مَعَارِفَهُ وَيَنْجَلِي عِلْمَهُ
وَيَشْبَهُ الرُّوضِ حِينَ يَبْدُو شَوْكِهِ	وَالْوَرْدِ مَسْتَوْرٍ مِنْ تَحْتِ سَيْلِهِ
وَالْبَحْرِ تَلْقَى الرَّمَمَ تَعَوْمٌ بِهِ	وَالدَّرَّ غَايِصٌ مَخْلُوطٌ بِرِمْلِهِ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبيين حقيقته ومعرفة جوهره ، والسَّلُّ في العامية : الشوك . ويمثل هذا الرجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر مقلود الأغصان تشبه به الحسان .  
والجلاب : ماء الورد والزهري .



## ابن (١) سودون

هو على بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُني في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها ، وعُين إماما بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة ، فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُني بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصديق ، ويقصد بالتصديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحكايات الملائيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب الزجل والمواليا التالى فهو أيضا عامى اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجيبة والتحف الغريبة ، وكان البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامى وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا اقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية . تجملك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته :

إلى الربيع أرى الأهواء تَلوِينِي	لما بدا زَهْرُهُ في حسن تلوِينِ
قد عَطَّرَ الأَرْضَ نَشْرَ الفول حين سرتُ	نُسَيْمَةٌ سحرًا منه تحيِينِي
كأن زهرته أمُّ الخُلُولِ إذا	فَلَقَّتْهَا فوق نَعْنَاعٍ بصَحْتُونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح باميةً	لولا شعورُ كأعرافِ البراذين (٢)
واعجب من الماء وَسَطَ البحر كيف غدا	يمشى بلا قدمٍ سَحْبًا على الطِينِ
مُسْلَسلا قد جَرَى ياصاح منطلقا	فاعجب لمن جمع الصُّدَيْنِ في حين

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧

ومقالين لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العددين رقم

١٠ ، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

نزهة النفوس ومضحك العبوس مطبوع في القرن الماضي

وطبع حديثا .

(٢) البراذين : جمع بردون وهو البخل .

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمزج في الحديث عن الجمال الهاج في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحينها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفائح من نبات الفول وإلى زهره الذي يشبه صدفة أم الخلول التي يطعمها المصريون واضعين على الخلول التنوع والبهارات . أما القمح فتشبه سنبله البامية : الخضار المعروف ، لولا ما يتدلّى من سنبله من شعور كأعراف البغال والخيل . ويعجب عجباً لا حد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلاً إذا جرى منحدرًا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثانٍ من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقي من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

عجبٌ	عجبٌ	هذا	عجبٌ	بَقَرَا	تَمَشَى	ولها	ذنبٌ
ولها	في	بُزَيِّزِهَا	لَبَنٌ	يبدو	للناس	إذا	حلبوا
من	أعجب	ما	في	مصر	يُرَى	الـ	العنبُ
وَالنَّخْلُ	يُرَى	فيه	بَلَحٌ	أَيْضَا	وَيُرَى	فيه	رُطْبٌ
والمركبُ	مَعَ	ماقد	وَسَقَتْ	في	البحر	بجبلٍ	تسحبُ
وَالنَّاقَةُ	لا	منقارَ	لها	وَالوَزَّةُ	ليس	لها	قَتَبٌ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيرعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية في البدهية ، في صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عدوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشى ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسراً ورطباً ، والملاحون يجرّون بجباهم المركب الموسوق ، والناقة لا منقارها وكأنه كان يظنها يجسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشى على أربع ، ويتساءل عن قتها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تعتدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلغى فيه المنطق السديد إلغاءً .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاح . وصفه لحفل زواجه

وقبح زوجته على هذا النمط :

حَلَّ السُرورُ بهذا العَقْد مبتدرا ونجمٌ طالعه بالسَّعدِ قد ظهرا

«الفُلُّ» كَلَّلَ وَجَهَ الْأَرْضِ فَانْعَطَفْتُ  
 وَالطَّيْرُ مِنْ فَرْحِهَا فِي دَوْحِهَا صَدَحْتُ  
 تقول في صَدَحَها : دام الهنا أبداً  
 هذا وعقلُ عروسي كان أصغر من  
 في السنِّ قد طَعَنْتُ ماضِرَّ لو طُعِنْتُ  
 في وجهها نَمَشْتُ في أذنها طَرَشْتُ  
 يا حُسْنَ قامتها العَوْجا إذا خطرتُ  
 تظَلُّ تهتف بي : حَسَنًا حَطَيْتَ بها

وهو في أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفافة على عروسه ،  
 فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ  
 بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شماء صماء في وجهها نَمَشُ وفي عينيها  
 عمش وقد حَنَى قامتها الهرمُ . ومع كل هذا القبح تظلم تهتف به أن يحمد الله على حظوته بها ،  
 ويتمنى لو طُعنت بسيف أو حازها الموت ودفنت في التراب إلى غير مآب .

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، يبعث على  
 الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أُمِّي أرى الأحزان تَحْنِينِي  
 وظالما دلَّعْتَنِي حال تربيَنِي  
 أقول : « مَمَّ مَمَّ » تَجِي بِالْأَكْلِ تُطْعَمُنِي  
 إنْ صَحْتُ فِي لَيْلَةٍ « وَأَوْأُ » لِأَسْهَرِهَا  
 كم كَحَلَّتَنِي ولى في جِبْهَتِي جَعَلْتُ  
 ومن فَقِيهِي إنْ أَهْرَبَ وِرامَ أَبِي  
 وَزَعْرَدَتْ فِي طَهوْرِي فَرِحَةً وَغَدْتُ  
 وَخَلَّفَتَنِي يَتِيْمًا ابْنُ أَرْبَعَةٍ  
 فظالما لِحَسْنَتِي لِحَسَنِ لَحْسَنِي  
 خوفا على خاطرِي كى لا تَبْكِيَنِي  
 أقول : « أمبو » تَجِي بِالْماءِ تَسْقِيَنِي  
 تقول « هُوهُو » بهزُّ كى تُنْشِيَنِي  
 « صوصو بِنَيْلِي » وكم كانت تَحْنِينِي  
 مَسْكِي وَبَعْنِي له كانت تَحْنِيَنِي  
 تَشَّرُ المِلْحَ من فَوْقِ وَتَرْقِيَنِي  
 وأربعين سِنِيْنَا فِي حِسابِيَنِي

والمرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عبدوان على ما تألف في  
 الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعة حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكّرُها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتى له بالطعام « وأمبو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبكي على صدرها وهي تهزه في حنان ، كما يذكّرُها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّي من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تحببته حين يهرب من الكتاب . ويذكّرُها بيوم ختانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وترقيه من شركل مايؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للثناء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك ونتهادى معه في الضحك . وقد جاء في المرثية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم في هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد ربّي وصار لِمُسْتَهْي عَقْلِي ابتداء  
بقيتُ أقول : نُؤو نُؤو تاتّه ودحُو كخْ وأمبو مَم آء

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح في اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جعّبة هزل وفكاهة ، وقد بنى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلاهته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تهوي من أبراج عالية ، هي أبراج المنطق والعقل الواعي ، فنضحك ونسترسل في الضحك .

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

### الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوان الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق <sup>(١)</sup> ، وبحق يقول القلقشندي إنه « لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتتناقله الألسنة <sup>(٢)</sup> » . ومرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي <sup>(٣)</sup> ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فبذلكان يقابلها في العربية عبيدي . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خماروية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادي .

وابن عبد كان يتدبّر بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوّت شهرته منذ زمنه لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصائبي كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالجمع ، وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ( طبع )

(٢) صبح الأعشى ٩٥/١

(٣) صبح الأعشى ٩٥/١ و ٢٨/١١ .

دار المعارف ص ٣٤٥ وما بعدها .

الازدواج من حين إلى آخر، وسجعه خفيف. ويمده بغير قليل من التصاوير<sup>(١)</sup>، وتوقف القلقشندى في كتابه صبح الأعشى ليذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبتدئ أجوبة الكتب<sup>(٢)</sup>. وكان أهل بغداد في زمنه يغبطون عليه مصر، ويقولون إن بها كاتباً - يقصدون ابن عبد كان - ليس لأمير المؤمنين بمدينة بغداد مثله<sup>(٣)</sup>. وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجرى<sup>(٤)</sup>.

ونخصى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيمى، واشتهر برسالة طويلة له، ردّها على رومانوس حاكم بيزنطة، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكتب إلا خليفة، فكال له النجيمى الصاع صاعين، ولإعجابه برسائله كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرها بها مباحيا<sup>(٥)</sup>.

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ويعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضاً لأنهم كانوا أصحاب نخلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربى ونظموا الدعوة لها تنظيماً دقيقاً، فكان من الطبيعى أن يهتموا اهتماماً واسعاً بديوان الإنشاء القائم على كل شؤون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية، وفي ذلك يقول القلقشندى: «لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايةهم لديوان الإنشاء وكتباه، فارتفع بهم قدره، وشاع في الآفاق ذكره، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى<sup>(٦)</sup>». وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين، فكان لا يتولاها - كما يقول القلقشندى - إلا أجلُّ كتاب البلاغة، ويخاطب بالأجلِّ ويلقب بـ«كاتب الدست»، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه في الصدر من مناصب الدولة «وكان أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطقات.. وله حاجب من الأمراء والشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخادّ والمسند والدواة العظيمة

(٥) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد: القسم الحاضر

بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها.

(٦) صبح الأعشى ٩٦/١.

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربى ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها.

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦.

الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة<sup>(١)</sup> . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائماً أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفي خلفه ابن برى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية<sup>(٢)</sup> . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ما حدث<sup>(٣)</sup> للقاضي الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصلاح الدين القاضي الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العماد الأصبهاني في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدست وكاتب الدرّج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعاً كبيراً في عهد المالك ، مما جعل الظاهر يبصر يعين ثلاثة كانوا أصحاب الدست ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر<sup>(٤)</sup> . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائماً إلى نهاية عصر المالك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائياً وأصبح أثراً بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندى ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه<sup>(٥)</sup> سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه<sup>(٦)</sup> سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى<sup>(٧)</sup> ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيراً ما بدؤوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومربنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فإن تركه فإلى صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجرى يترسمون طريقته ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحى كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(٢) انظر كتابنا « المدارس النحوية » طبع دار المعارف

(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما

ص ٣٣٨

بعدها

(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧

(٧) حسن المحاضرة ٢٣٠/٢

(٤) السلوك للمقرئى ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً<sup>(١)</sup> . وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجرى ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان بلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتدُّ بشعره وكتابه مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءين من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسنتها خلدهما له بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصائى - فيما يبدو - برسائله<sup>(٢)</sup> . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »<sup>(٣)</sup> ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجمه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُّ<sup>(٤)</sup> ولا يَجِفُّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكِفُّ<sup>(٥)</sup> ولا يكفُّ ، ووزنك فى سدِّ ثلم الفساد يَرَجح ولا ينجفُّ » . والجناس واضح بين يَجِفُّ ويَجِفُّ وبين يكفُّ ويكفُّ وقد طابق بين يرجح ويخف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يحلى سجمه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجرى ابن أبى الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وستترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى إثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وستترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموقى بن الحلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمان ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخباء من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العماد الأصهبانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية<sup>(٦)</sup> . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموقى بن الحلال وفى صبح الأعشى بعض رسائله<sup>(٧)</sup> ، وعلى يديه تحرَّج القاضى الفاضل

(١) المغرب فى حل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

(٤) يَجِفُّ : يسرع . وفى الأصل يوجف

(٥) يكفُّ : يسيل .

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته

الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشذرات الذهب

. ٢١٩/٤



في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة . وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليد الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصهباني كما أسلفنا ، وسنترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن مماتي وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعنى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الايوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي . وألّف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشؤونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتي ، وسنعرض له في ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المصنّية في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم التابلسي ، وكان كتابا في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) . وبلغنا إبراهيم<sup>(١)</sup> بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك في عهد أيلك وقطز وبيبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كتابا في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، وظيفة أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح<sup>(٢)</sup> الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيّطه شافع<sup>(٣)</sup> بن علي بن عباس ، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حرم على عساكره الغارات على البلاد<sup>(٤)</sup> .

٤١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم

(٣) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

الزاهرة ٥٠/٨ .

(٤) صبح الأعشى ٢٣٧/٧ .

(٢) انظر في فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجوم

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشذرات الذهب

ويلمع في رياسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السر منها أو بعبارة أخرى رياسة الديوان عبد<sup>(١)</sup> الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليها بعده من الأسرة فى سنة ٧٢٩ أخوه<sup>(٢)</sup> محيى الدين يحيى ، وكان يَشْرُكُه فى كتابة السر ابنه شهاب الدين أحمد ، وفى سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادها فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه<sup>(٣)</sup> علاء الدين ، وظل فى الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين<sup>(٤)</sup> إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكنس ، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع فى أوائل عهد المالك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين فى زمنه وسنترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رياسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنه كتابه .

### ابن<sup>(٥)</sup> الصيرفى

هو على بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل فى ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

المخاضرة ٦٠٤/١ وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -  
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ وخطط المقرئى  
٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة - طبع دار  
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان  
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع  
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩  
(٢) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٤٦/٢  
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١  
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢  
(٥) انظر فى ابن الصيرفى وترجمته ورسائله معجم الأدباء  
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر فى مواضع مختلفة وحسن

الزبدي ، فأُسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمي المستعلي سنة ٤٩٥ هـ وولّى الأفضل الجمالي ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو في الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفي هو الذي يكتب السجل بوفاة المستعلي وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رعوس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتابا عن الأمر عند استقراره في الخلافة بعد أبيه بأنه فُوِّض إلى الأفضل الجمالي وزيره تدبير شؤون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاية الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهتئا فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى في صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفي في البشارة بسلامة الخليفة في مواسم رمضان إذ كانت تكتب في مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك في عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل في ديوان الإنشاء لعهد الأمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه في رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ هـ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفي كاتباً بليغاً بل يُعَدُّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغائهم مسلمٌ ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد في المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله في مجلدات عدة ، فوجدت [القاضي] الفاضل البيساني ينسج على منواله ويتزع منزعه» وسنعرف عما قليل أن القاضي الفاضل أبرع كتاب مصر في هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفي البيانية في أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذي كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستعلي وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ هـ وقد استله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلّي على جدّه لأبيه على بن أبي طالب ، ويقول «إن الله أكرمهم بالمتزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل عليّ بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وغيرهما من جلة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الديني المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقي للقرآن أو المعنى الخفي الذي

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر أبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزء به والفجيجة فيه ثم يقول :

« وقد كان الإمام المستعلى بالله - قدس الله روحه - عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد إلى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيرته المرضية ، بما جبلنى <sup>(١)</sup> الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إثارة العدل ، وإننى - فيما استرعىته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه » .

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آبائه ، وأن أباه عهد إليه بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعلى وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطنى يتوارثه إمام بعد إمام متقللاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لاتحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جمع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أولعل القلقشندى جذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجبالى صاحب الأيادى السابقة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

(١) جبلنى : خلقنى .

أشرنا إليها وردّها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لَمَحُ المَلْحِ »<sup>(١)</sup> وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في الغطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداو بإحيائها قلبا لى قريحا ، وإذا كانت عازرَ فكنُ مسيحا » .  
والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل بليته النصارى والمسلمون في الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرون فيه من الملاهى فى الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ فى هذا العيد من اللهو وشرب الخمر فى أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داو بإحيائها قلبا لى جريحا ، يطلب منه أن ييث فى دنانه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجبالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ما تُقَرَّبُ به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عَصَدَه بتأييده ، وخصَّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده<sup>(٢)</sup> ، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونقبت<sup>(٣)</sup> فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت<sup>(٤)</sup> بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على ما ظهر سُموقه<sup>(٥)</sup> فى البلاغة وسُوقه ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكننا السيد الأجلّ الأفضّل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضّل . ويذكر أنه قال من تمة تقدمته لتلك الرسالة :

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .

(٤) نفق : راج .

(٥) سموقه ويسوقه : ارتفاعه

(٢) فى المغرب : تجديده

(٣) نقبت : ذهبت وشاعت .

« فيجب على كل من صَفَّتْ فكرته ، وصَحَّتْ فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن بِبَرِّقها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه <sup>(١)</sup> من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوته ، ويُعمل مطايا رَوِيَّته ، فيما يخدم مجلسه <sup>(٢)</sup> العالى به ، مما يُطرب مورده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفي كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة فى لفظ ، بل مع السهولة واليسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَدِق ، شرابا يمتع النفس . وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نَقَبت فى البلاد » أى مضت وانتشرت أخذًا من قوله تعالى : ( فتَقَبُّوا فى البلاد هل من محيىص ) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح فى رسائله . وكثيرا ما يوشى سجعه بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُغْزًا له فى السيف على هذا النحو : « يبالغ فى شكره إذا أقصد <sup>(٣)</sup> وجرح ، وتقبل فى تزكيته شهادة المجرَّح » . وفى كلمتى التزكية والمجرَّح توريتان واضحتان فللتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى عدلهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرَّح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لا تقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرَّح بالسيف فى الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل فى هاتين التوريتين ما يدل على أن ابن الصيرفي كان يستظهر التورية فى نثره أحيانا ومرًّا بنا أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقيلي كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبعهم فى ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفي . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها <sup>(٤)</sup> فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتَّابها ، وبهديهم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفي كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول فى نظام ديوان الرسائل وبيان ما ينبغى أن يتحلَّى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) فى المغرب : أسد ، وأقصد السهم : أصاب

(١) فى المغرب : يصنفه .

(٤) خزنة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

(٢) فى المغرب : عمله .

يُورخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أحصب من ملكته الشعرية .

### القاضي<sup>(١)</sup> الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلا ، العسقلاني مولدا ، الييساني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء ييسان بفلسطين للفاطميين فُنسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سزى بعد قليل . وكان طبيعيا أن يُعنى أبوه بتربيته ، وبدأ بإرساله إلى كُتّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيرا من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمي الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٣هـ ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظنا ان سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل سنتين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من ييسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلا وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمَّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لها الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُنِيَ به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سأل في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فكث يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلِّ شعر ديوان الحماسة ، فحلَّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

الكتب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوي ديوانه ومختارات محي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضي الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر الذهبي ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٦/٧ وحسن المخاضرة للسيوطي ٥٦٢/١ والخزينة للعقاد الأصبهاني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ٥١-١/٨ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحسَّ أن المكانة التي يريدها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورَحَّب به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمانى سنوات ، وكانت كنبه تسترعى أنظار موظفى الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاقد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائزين الظافر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاقد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لا بد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظافر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبثُ شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ ، وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاقد بنور الدين صاحب حلب ، ويقدم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعرض اليد التى نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاقد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن « شاور » لا يثوب إلى رشده فيقتل به ويُقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاقد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمنشورات عن العاقد بين يدي الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصرف الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاقد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاقد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاقد إلى القضاة



والولاية بتقلد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضا العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن اخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكتف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذه وزيرا ، قلما يبرم شيئا إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحدا من أفراد أسرته بمصر فى اثناء غزواته للصليبيين أبقاءه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيرا ما كان يصحبه معه فى مواقفه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القدس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلا أحداث زمنه ومبلغا عنه عهوده وسجلاته وتوقعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقاصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضرا وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قآزره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبيا فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلا من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعرا وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصبهاني فى كتاب الخريدة : « رَبِّ القلم والبيان والألسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديهة المطرزة ، والفصل الذى ماسمع فى الأوائل بمن لو عاش فى زمانه لتعلق بغيره ، أو جرى فى مضاره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخرع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لامحالة ، والفاضل بغير إطالة .

وفيما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقدمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغثك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجية <sup>(١)</sup> ، وشيمة ، وسيمة <sup>(٢)</sup> ، وخلاتق ، فيها ماتح الخلاتق ، ونحاتر <sup>(٣)</sup> ، لم يجز مثلها حائر ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن <sup>(٤)</sup> ، ومآثر جد غير عائر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها <sup>(٥)</sup> ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال <sup>(٦)</sup> عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي لديك كإمام <sup>(٧)</sup> نورها تتفتح .. وأبسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا ، واعقد حبي <sup>(٨)</sup> العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقداً ونقضا . وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وقرضا ، وصرف أمور المملكة إليك الصرف والتصريف ، وثقف أود <sup>(٩)</sup> الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف . »

وإنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص منه الثرى كانت قد استوت وتبأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوي وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمي ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى في تورياته المتصلة بالحديث النبوي ، فجعل قديم فخر

(٦) جلال : عظام .

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .

(٧) كإمام : جمع كمية وهي غطاء النور والزهر .

(٢) وسيمة : جميلة

(٨) حي : جمع حبة ، وهي الثوب يديره الجالس

(٣) نحاتر جمع نحيزة : طبيعة .

حول ساقبه وظهره للاستناد عليه

(٤) آسن : متغير الطعم .

(٩) أود : اعوجاج .

(٥) قطارها : قطرها ومطرها .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتي قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا بجميع صوره . ويجانس بين خلالتق بمعنى طباع والخلالتق بمعنى الناس والتورية واضحة فى كلمة الخلاتق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فماء المحاسن غير آسن والجَدَّ أو الحظ غير عائر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجعه فىأتى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فىأتى بسجعتين تداخلها فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان يضطرم نارها » . ويعمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الحصل تنوضح ، وكأتم نُور المساعى وزهرها تفتتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعدوبة .

ولعل فيما قدمنا مايصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصر التى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموقف بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعته البلاغية عبارات مضيئة بحسبها البياني كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - يابنى أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أدهم (١) ، وقلدتم بيض أيامه صوارم (٢) ، وأفنيتم شموسه وأقارنه فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم حاتم ، ونفسُ حاتم (٣) فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(١) أدهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب (٣) حاتم : جواد العرب المشهور

(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

« وهذه القلعة عُقاب في عُقاب <sup>(١)</sup> ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغامة عامة ، وأئمة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرهما ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : « كان الهلال لها قلامة » أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قُدَّتْ من الظَّفَرِ

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأئمة إذا خضبها الأصيل . ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأئمة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يبيشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حطين وفتحته العظيم لبيت المقدس .

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وسقف عندها قليلا في غير هذا الموضوع ، ومررنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذها ابنا روحياً له وذكرنا في غير هذا الموضوع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

### محيي الدين <sup>(٢)</sup> بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وفقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لِداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

الثامن في مواضع مختلفة وصبح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و ١٧٦/١ و ٣٥٦/٧ و ٣٦٦/٨ و ٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و ١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرهما جمع عقبة وهي المرقى الضعب في الجبال .

(٢) انظر في محيي الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ و تاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ و شلرات الذهب ٤٢١/٥ و النجوم الزاهرة ٣٨/٨ و حسن المحاضرة للسيوطي ٤٧٠/١ و ٣٦٦/٢ و نهاية الأرب : الجزء

بيبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدُّست ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبي نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن المماليك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية ، ورتقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهي أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديداً .

وقد أشاد بمجى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى في نهاية الارب : « كان مجى الدين أجلّ كتاب العصر ، وفضلاء مصر ، وأكابر أعيان الدُّول ، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق مازق صناعة وحسنا ، ومن النثر الراقق مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة » ويقول ابن شاعر في كتابه الفوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يطيل السجعة الثانية ليضمّنها ما يريد من المحسنات البديعية ، وفي مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حلّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعضوية الكلم . وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل في غزواتهم ، ويرسل بوصفها ملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء في مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبنى سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ في طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى في جبال شامخة مدلّلا فيها طريقه لايعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة في نحو خمس عشرة صحيفة مدوّنة في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهي وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين في ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا في شيء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدَح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمرُّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل في الأصائل والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتردد الزائر من الأهبة ، أو يتزود الطائر من الثَّغْبَة (١) ، نسبق وَفَدَ الرِّيح من حيث نَتَّحَى ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسَّجبه أذيال الصوافن (٢) تَمَّحَى ، تحمل هَمَّنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعت أئهذا الهام نحن نبت الرُّبى وأنت الغام

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة المسوع ، وتسمى العين بها هجمة هجوع ، وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفى الرفيق عن رفيقه ، وتُشغله عن اقتفاء طريقه ، يَنبْرِى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثرت ، أو جبالُ تَفَطَّرت (٣) ، بينها مخائض لا بل مغائض ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنظقت بالجداول وتعمت بالثلوج ، وعميت مسالكها فلا أحد إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلتف شجراتها التفاف الأكماء على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتبس ، بل سيولة وعدوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى بقوانينها الأعراف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأراف ، وهو الذى ما قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى ما برح النصر ينتسب من مهاب تأمليه الفلاح ، ويتبسّم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، ويُقسّم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذى كم جلا بهى جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن رواه ويمن

(١) الثغبة : الجرعة .

(٣) تفتت : تشقت .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو الفرس

آرائه يهيم ، وكم أبرأ مورده العذب هيم<sup>(١)</sup> ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه أبراهيم .  
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روى واحد ، قد يكون الفاء أو  
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفاً آخر كالمدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من  
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ  
« أشرف » مورياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية  
أخرى في لفظ أبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،  
وهو لا يريد وإنما يريد بالكلمة أنه أبراهيم أى عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى  
صاحب اليمن مبشراً بفتوح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كرامَ أموالهم وهم صابرون  
لا مصابرون ، وكم شكت منه حمة تنبئ بشكوها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معرة وما من  
معرة خاف ، وما زالت أيدى المالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون  
والصياصي<sup>(٢)</sup> ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي » .  
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : ( حتى  
يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ) . ويكثر الاقتباس لآي الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما  
يكثر حل الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ معرة الثانية من  
العار مقديماً لها بذكر حمة والمعرة وهما من مدن الشام . وورى أيضاً في قوله : « وناهيك بمدمع  
العاصي » وهو إنما يريد نهر حمة المعروف باسم العاصي . ودائماً نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه  
يستمد من نبع فياض لا يفيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون  
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العنان ، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعنان ،  
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسه عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفي خدمته جنود  
لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بنجولهم من جبال  
لبنان تيجاناً لها صاعتها الثلوج ، ومعارج لا مرافق بها غير الرياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك  
الجنادل انحطاط الأجدال<sup>(٣)</sup> ، واندفعا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال<sup>(٤)</sup> ، ولم يحفل أحد

(١) هيم : جمع أهيم وهو العطشان عطشا شديداً .

(٣) الأجدال : الصقور .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

(٢) الصياصي : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولاجل شاق ، فقال : هذا منخفض أوعال .  
والكلمات والسجمات تنزل عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابه لها ، وما يوفره لها من محاسن بدیعة بقدر الحاجة دون تكثُر يحيلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأبى بها إلا في الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استهلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرخم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعْمَ اللهُ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً ، وَمِنْحَةً وَإِنْ غَدَتْ بِالْبَرَكَاتِ مُتَرَدِّدَةً ، وَمِثَّةً وَإِنْ أَصْبَحَتْ إِلَى الْقُلُوبِ مُتَوَدِّدَةً ، فَإِنْ أَشْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا ، وَأَجْمَلَهَا وَأَفْضَلَهَا ، وَأَجْزَلَهَا وَأَنْهَلَهَا ، وَأَتَمَّهَا وَأَعَمَّهَا ، وَأَضَمَّهَا وَأَلَمَّهَا ، نِعْمَةً أَجْزَأَتِ الْمَنَّْ وَالْمَنْحَ ، وَأَنْزَلَتْ فِي بَرَكِ سَفْحِ الْمُقَطَّمِ أَغْزَرَ سَفْحَ ، وَأَتَتْ بِمَا يَعْجَبُ الزَّرَّاعَ ، وَيَعْجِزُ الْبَرْقَ اللَّمَّاعَ ، وَيُعَلِّقُ <sup>(١)</sup> الْقِطَاعَ ، وَيُعَلِّقُ <sup>(٢)</sup> الْأَقْطَاعَ ، وَيَأْتِي فِي الْغَدِّ بِأَكْثَرٍ مِنَ الْيَوْمِ وَفِي الْيَوْمِ بِأَكْثَرٍ مِنَ الْأَمْسِ ، وَيَرْكَبُ الطَّرِيقَ مَجْدًا فَإِنْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِهِ حِمْرَةٌ فَهِيَ مَا يَعْزُضُ لِلْمَسَافِرِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ .. وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْبَابِ إِذَا هُوَ فِي الطَّاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْإِحْتِرَاقِ <sup>(٣)</sup> ، إِذَا هُوَ فِي الْاجْتِرَاءِ لِلْإِغْرَاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْمَجَارَى ، إِذَا هُوَ فِي السَّوَارَى <sup>(٤)</sup> . »

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقتها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صبَّه . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح ( يعجب الزرَّاع ) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل ما يخالط النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس تعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيضان النيل وأنه سرعان ما يملاً مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عبابه ويتأدى طوفانه ، فيينا يدخل سُدَّة باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات ،

(١) يعل القطاع : يروى قطع الأرض مرارا .

(٢) يعل الأقطاع : يجعل الضياع تعطى الغلَّة والحار .

(٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٤) السواری : يريد الأعلى .



وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخرق الآفاق فيها لا يغرقها بمياهه العذبة ، وبيننا يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السوارى وأعلى الأعلى .

ولم يكن محي الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سلمٌ بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين لزمته ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهى أحد مصادر المقرئى في خططه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألفاف الحفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب فى خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئى وكذلك القلقشندى فى صبح الأعشى . ولعل فى قدامنا من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البيانية والبلاغية .

### ابن (١) فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وُلِّتْ أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجرى ، وقد وُلد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلى المشهور وقاضى قضاة دمشق الشافعى شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه فى العقلية ، وأذن لابن فضل الله فى الإفتاء على مذهب الشافعى . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضى شُهبة وابن الزمِّلَكَانى ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه فى ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

والشذرات ١٦٠/٦ والوفى ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ما تقدم فى حديثنا عن النشاط الجغرافى بمصر وطبع له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

(١) انظر فى ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر ( انظر الفهرس ) وخطط المقرئى ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢

الوداعي . ورحل إلى مصر في أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفي ونزيلها أبي حيان الأندلسي . وسمع الحديث على علماءها كما سمعه على حفاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتبا بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مسندا إليها كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حاداً الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر ، فتغير عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابته إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لبى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في الحرم سنة ٧٤١ وظل يلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونُقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتبا ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابه معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبب ، ويتدفق بجره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبورق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رقيق ، ويغوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تروى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيها .. صرف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكاتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله في سبعة أقسام أولها في رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضاً إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثاني في العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاة العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاية وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافي . والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله براً وبحراً . والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف ، وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضاً الحيوان الأليف والوحشى والطير ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التي دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورية لكتاب الديوان لأنها تتصل بأعمالها اتصالاً قوياً . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذته الكتّاب إماماً لهم وجعلوه نصب أعينهم في كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجه وأمثله ، واعتمد عليه القلقشندي في بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله في تقليد وزير ووصيته بما ينبغي عليه في وزارته :

« عليه بالكفاة الأمانة ، وتجنّب الخونة وإن كانوا ذوى غناء ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهرّ بابه ، ويسهّل حجاباه ، ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب مقدما الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ماغاب عنه وحضر نظر الماسي والمصاحب ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانتة ، ولا يدع من جميل نظره من صحتّ لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . ولا يصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذي نحن أمناءه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإناء أناؤه ، فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمر من مستحقه ، ولا يتسّمح في تحلية بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئاً إلا بحقه » .

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف في كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بجز يتدفق ، وفي تضاعيف تدفقه ينثر جواهر المحسنات ، وهي تواتيه طبيعة ، تارة يطابق وتارة يجانس في يسردون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف في كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفًا سالَ المَتمونَ من لُعبه ، وسار الموت في إهابه <sup>(١)</sup> ، وتناوم غِرارُه <sup>(٢)</sup> ملء جفنيه فما هجع ، وتناوب <sup>(٣)</sup> للوثوب للمهجع فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ، وتحرَّق على من سلم فتوقدت ضلوعه نارًا وترقرقت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق وكأنها غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله في وصف قدح أو كاس : « تكوَّن من جوهر مكنون ، وتجسَّد من هواء مظنون ، وأُتخذَ حِذْرًا لابنة العنب <sup>(٤)</sup> ، وطاف به الساقى فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، قَهَقَه عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام فقيل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أى قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذي وصفناه . ومنها فواصل السمر في فضائل آل عمر ، ومنها صُباية المشتاق في مجلد في مدح النبي ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلدا ، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم للممالك في العالم الإسلامي وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في العالم العربي بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب مفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(١) إهابه : جلده .

(٤) الحنتر : البيت . ابنة العنب : الخمر .

(٢) غرار السيف : حده .

## الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصيرين الشخصية والإخوانية في التهنئة والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتجبير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . ومن برعوا في تديبها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخياء العسقلاني الكاتب الديواني لزمان الخليفة المستنصر ، وسنخسه بحدِيث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن <sup>(١)</sup> بن زيد الأنصاري الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعراً ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلفي في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخياء ، وقتلها بدر الجمالي وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنا كُتِبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسّها بعض معاصريه عليه ، وكأنا أراد القدر أن يثار له وكان الحسن قد استبدّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدس عليه السم في طعامه فمات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - «عريق النسب ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعمام» ويقول العماد الأصهباني : «وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله» . واحتفظ العماد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قَدَّمَ الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصفت الضمائر ، وخلصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار ، والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسرَّ ، ومشاركين فيما نفع وضرَّ ، وتلك حالي وحال حضرة مولاي فاني وإياها

ومعجم السلفي ص ٤٤٨ .

(١) انظر في ترجمة الحسن بن زيد الحريرة (قسم شعراء

مصر) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧

كنفس قسّمت على جسمين ، وروح فرّقت بين شخصين ، فأما ألمها فقد مضى وأزعجني ، وأما برؤها فقد سرّها وأبهجني .

ومهارته في صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتبادل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة في السجعة الثانية تعانق أختها في السجعة الأولى في عذوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له في تعزية :

« الخَطْبُ الحادث ، فادحُ كارث<sup>(١)</sup> ، كادت له القلوب أن تتبرأ من أضرالها ، والعيون أن تتعوّض بدمائها من مدامعها ، والضحي أن يدّرع<sup>(٢)</sup> جلباب الدُّجّة ، والحوامل أن تُجهّضَ بما في بطونها من الأجنّة . وإن المنية حوّض كل الناس وارده ، ومنهل كل الخليفة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر .. ولا فقير خامل الذكر . »

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتسم به من اكتمال الإيقاع في الألفاظ بين السجعيات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبي الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يجيبه عن كتابه<sup>(٣)</sup> :

« فضضت الكتاب عن رسالته التي يبهج قشيبا<sup>(٤)</sup> ، ويضوع<sup>(٥)</sup> طيبها ، ولا يترّف قلبها<sup>(٦)</sup> ، فخلتُ أني أختال أيّ اختيال في حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرضاب<sup>(٧)</sup> ، من الثنايا العذاب ، بعد الصدّ والاجتناب :

ذَكَرْتُ بِهِ عَهْدًا كَأَنْ لَمْ أَفْزُ بِهِ  
وَعَيْشًا كَأَنْي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثَبًا

ثم نزهت ناظري ، وجلوت خاطري ، بيدائع ماتضمّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أني أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كي أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجني مثل تلك

(٥) يضوع : يفوح

(٦) قلبها : معيها

(٧) الرضاب : الريق

(١) كارث : محزن .

(٢) يدّرع : يلبس . الدجّة : الظلمة .

(٣) انظر الرسالة في ديوان ظافر

(٤) قشيب : جديد

الأثمار ، فما أخصبها رياضاً ، وأعذبها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .  
وظافر يعنى في رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جمال اللفظ وحسن الجرس ،  
حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريده من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن  
الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتأبهم يدبج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف  
منها محبى الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة في مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من  
ترسل عبد الرحيم » ومن قوله في إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :  
« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شردَّ برُدُّها ، ووردَّ وردُّها ، واخضرَّ نباتها ، وحسنَ  
نعْمها ، وصفا ماؤها ، ووصفا (١) رداؤها ، وتغنَّت أطيارها ، وتبسَّمت أزهارها ، وافترَّ (٢) زهر  
أقحوانها فحكى ثغور غزلانها ، ومالت قُصْبُ بانها ، فانثت ثنَّتى ولدانها . فلما قربتُ من  
بساتينها ، ولاح لى فسحُ ميادينها ، وتوسطت جتَّة واديها ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ،  
سمعت عند ذلك حماما يغرد ، وهزاراً (٣) ينشد ويردد ، وقُمرياً (٤) ينوح ، وبلبلا بأشجانه  
يبوح » .

وأسلوب القاضى الفاضل واضح في هذه القطعة لا بأسجاعة فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال  
الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضا بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة  
وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقته وتورياته الرشيقة وما عرف به من  
العناية بمراعاة النظير . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح  
لابن سناء الملك أن يجمع منها كتابا يسميه « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحتفظ دار  
الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء  
الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء  
الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد  
الفاضل في رسائله الشخصية بالشعر حتى ليروى له القلقشندى في الجزء الأول من صبحه (٥)  
رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات .  
ومن كتاب الديوان حينئذ البارعين في تحبير الرسائل الشخصية الأسعدين ممتقى ، وسنترجم له عما قليل .

(٤) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(١) صفا : سبخ .

(٥) صبح الأعشى ٢٧٦/١ .

(٢) افتر : تفتح .

(٣) الهزار : العندليب .

ونمضي في زمن المماليك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محيي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به ويقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردَّ على عائبه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة <sup>(١)</sup> ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعنّفه تعنيفا شديداً ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عائبه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضَّ مني .. وزعم أن إناء إبانٍ غير مُفْعَم <sup>(٢)</sup> ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادتي جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة <sup>(٣)</sup> ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لا تُتَلَقَّ بأقلامى ، وأنى لا أعدّ في جملة الكُتَّاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتركيم لا أدخل معهم في باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى <sup>(٤)</sup> به إليه مجابوا : ما كل الأفاعى تعبت بها الأنامل ، ولا كل المراعى تُنصَّبُ بها الحبالل ، ولا كل زخَّار <sup>(٥)</sup> يُخاضُ ، ولا كل جنَّاح يُهاضُ ، ولا كل جامع يُراضُ ، ولا كل سابعة تُفاضُ <sup>(٦)</sup> .. ولا يَصُرُّ الزناد الوارى <sup>(٧)</sup> قُدحُ القادح ، كما أنه لا يضير النجم السارى نيجُ النابح . »

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحننا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورى في كلمة « قُدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قُدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قُدح في عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر في الرسائل الشخصية حينئذ تقریظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقریظ شعره ومصنفاته كما قرَّظ ابن نباتة . ومرّ في ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوق » ترجم فيه لكل من قرَّظوا كتابه « بجمع الفوائد » . وتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرّت ترجمته بين الشعراء تقریظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه <sup>(٨)</sup> :

(١) انظرها في نهاية « تمام المتنون في شرح رسالة ابن زيدون » للصفدى

(٢) مفعم : ملىء

(٣) قريحة : جريحة

(٤) أومى : أشير

(٥) زخار : النهر الزخار : الملىء الطامى

(٦) تفاض : تكون سابعة ضافية

(٧) الوارى : المتقد

(٨) خزانة الأدب للحموى ص ٥٤٧



« لاغرو أن فضح بديع<sup>(١)</sup> الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجاً ، وأعلى هممه التي لا ترضى الشهب جيداً والأهله سُروجاً .. وقد زهت أمداحه المؤيدية<sup>(٢)</sup> فأصبحت بيوته المرفوعة ( ذات العماذ ) وراقت محاسنه التي ( لم يُخلق مثلها في البلاد ) .. وظلما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام<sup>(٣)</sup> ابن سُكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتي فوجدها مسكَّره<sup>(٤)</sup> ، وعلم المتنبي أن هذا خاتم الأدباء لا محاله ، والمترسل الذي نهض دونه بأعباء كل رساله .

والتقريظ زاخر بالاقباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العماذ . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذاً من قوله تعالى في سورة الفجر ( ألم تركيب فعل ربك بعاد إرم ذات العماذ ) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباته أو أبياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : ( التي لم يخلق مثلها في البلاد ) . وراعى النظر مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سُكرة فذكر معه القطر النباتي يريد شعر ابن نباته الحلوى . وحين ذكر المتنبي أشار إلى ما قبل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبي تاريخياً غير أن القيراطي رأى استغلال ذلك في جلب ما يخدم غرضه من مراعاة النظر والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضاً للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة<sup>(٥)</sup> طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكناس يدعو مجلس أنس وشراب ، واصفاً له ما سيتمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول :  
« هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - في عذراء مصونة ، كالدرة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأن على خدها فوق ورده ياسمينه .. لها من ذاتها طرب يغني عن المزامير ، بلقيسية الجمال لها ( صرح مُرد من قوارير ) ليلها من حسنها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلمت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أديمها كلما تعتق يغلو ،

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .

(٢) المؤيدية : يريد أمداحه في المؤيد ( انظر ترجمته ) .

(٣) ابن سُكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمتنبي .

(٤) مسكَّره : مغلقة .

(٥) مطالع البدور للغزولى ١٥٢/١ والأدب في العصر

الملوكى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١ .

ووردها كلما مرَّ يخلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطَّرف » في كل قَصْر وهي على الإطلاق ذهبية العصر .. لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان . وهو ينثر في الرسالة كثيرا من التصاوير مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقبتاس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيا عن دَنِّ الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذى شمרת بلقيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ ( حسبه لُجَّةٌ وكشفتُ عن ساقها قال إنه صرح ممرَّد من قوارير ) أى من زجاج شفاف لا يحجب ماوراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التى دعا ابن مكناس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتى لم يمسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنها وكرَّمها . وفي السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريتان واضحتان ، فهو لا يريد بلفظة « راحتها » كَفَّها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذى يحتسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حيثثذ من رسالة محمد بن أبى الحسن البكرى الذى مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العسلى ليتسلى بمجلسه فى ممتزه نَصْرٍ يلتقى فى شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول (١) :

« سيدنا البرّ الذى يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورْد والصدْرُ بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهراً لراجيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتزاحم على سيف (٢) زخّار علومه ، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فُلك السرور ، بفلك الجبور ، طفحت بالنيل لاجزْر عن الجزر مدّه المديد ، واستلّت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد . »

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ فى السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولمحمد الطيلونى من كتاب القرن الحادى

(٢) سيف : شاطئ .

(١) ربحانة الألبا للخفاجى ( طبعة الحلبي ) ٢٢٩/٢

عشر المهجري وشعرائه رسالة<sup>(١)</sup> هجا بها القاضي عمر المغربي هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رثّ ، وحديثه غثّ ، يا كثير الثّباح ، يا خائبا في الغدوّ والرواح ، يا تارك السنّة والفرّض ، يامن سعى بالفساد في الأرض ، يامهبط الدواهي ، وتابع العيّ والملاهي .. يا كثير الشكوى ، يا أثقل من رَضوى<sup>(٢)</sup> ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. يا أثقل من المكتب على الصّبيان ، ومن كِرا<sup>(٣)</sup> الدار على السكان .»

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبى مقتطفات في نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجى مؤلف ربحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة في الرسائل ، ولكننا نشعر في العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمنته .

#### ابن<sup>(٤)</sup> أبى الشخباء

وقيل ابن الشخباء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلانى ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولع اسمه فيها وتألق ، غير أننا لانمضى إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالى وزير المستنصر هو الذى أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضى إسماعيل بن على كما مر بنا آنفاً فى الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبى الشخباء شاعرا بارعا كما كان كاتبًا بارعا ، ولذلك لُقّب بالحميد ذى الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « الحميد مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضى الفاضل عبد الرحيم اليّسانى منها استمدّ ، وبها اعتدّ .. كتب فى ديوان

(٤) انظر فى ابن أبى الشخباء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والذخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بتونس القسم الرابع - المجلد الثانى) ص ٦٢٧ وابن خلكان

(١) نفة ربحانة للمحى (تحقيق عبد الفتاح الحلوطية

الجلبى) ٦٠٥/٤

(٢) رضوى : جبل بالمدينة

(٣) كرا : أجر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر .. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمرآء زمانه « ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المخبرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطُولَى » . وبدون ريب كان أروع كاتب قاهرى فى القرن الخامس الهجرى ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسلام فى الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله فى رسالة استعطاف : « المودآت إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تحترمها الشبهة المُرْمِضة <sup>(١)</sup> ، ولم تزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتها السن مختلفة ، وعلتها برود من اللفظ مفوَّفة <sup>(٢)</sup> ، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرقعة ، وجنوب <sup>(٣)</sup> مودته قد عادت مروعة ، وصرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ما عهدته :

تُنْبِي طَلَاقَهُ وَجْهَهُ عَنِ وَجْهِهِ فَتَكَادُ تَلْقَى التُّجَحَّ قَبْلَ لِقَائِهِ  
 وَضِيَاءَ وَجْهِهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرُؤُ صَادِي الْجَوَانِحِ <sup>(٤)</sup> لَارْتَوَى مِنْ مَائِهِ  
 لم أجداسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب على الارتياب بؤده ، ويتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دقائمه ، ويحبر ظاهره وباطنه ، فأخبرنى أن بعض الناس - ولم يُسمه - نقل إليه عنى فشن الغارة على وفاته ، وزلزل أواخى <sup>(٥)</sup> وده وإخائه ، فقلت : عتب ، والله ولاذنب ، وشكايه ولا نكايه <sup>(٦)</sup> ، وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لا إسعافه ، وعدله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل <sup>(٧)</sup> ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وَأَوْجَفْتُ <sup>(٨)</sup> ، وتألفت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مديدة ، وحبال كرمه محصوفة <sup>(٩)</sup> جديدة ، فحسن بتلك الشئائل ، أن تجمع شمل الفضائل .  
 والسجعات تنزلق عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبى الشخباء بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

- (١) المرضة : الموجعة .  
 (٢) البرود المرفوفة : الثياب الرقيقة المخططة .  
 (٣) الجنوب : ريح لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة .  
 (٤) صادى الجوانح : عطشان .  
 (٥) أواخى : أواصر .  
 (٦) نكايه : غلبة وقهر .  
 (٧) الماحل : الساعى بالميمية .  
 (٨) أوضع : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف .  
 (٩) محصوفة : محكمة متينة .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يغوص عليها ويستخرج لآلها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعي للقاضي الفاضل وللكتّاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرتي لي بالأمس قد قَطَبَ <sup>(١)</sup> حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وَحَى ، أم عُصَب <sup>(٢)</sup> به أمر ونَهَى ، أم قَلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكمه ، والْقِطْنَ صائبُ فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تَشْفَعُ به ، والخور العين <sup>(٣)</sup> تشكو لآعج حَبِّه ، وثمار الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقْتَبَسُ من زَنْده ، والكوثر يُمدُّ من معينه ، والسموات مطوياتٌ يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذي شمخ بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكبارا ، فضى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلا . ولا أمراً ناهيا ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع القطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفع به الملائكة ، وأن الخور العين تشكو تباريح حبه ، وأن ثمار الجنة مدَّ يده ، ونار جهنم تقتبس من زنده الواري المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، ونخال السموات مطوياتٌ يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطعن بها هذا القائد في الصميم ، وفي آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : ( والسموات مطوياتٌ يمينه ) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه في رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجاً له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شِعاراً لهم وسُنناً في رسائلهم . وله من رسالة في هجاء مضيف ومائدته .

« ولجْتُ منزلاً قد استعار من قلب العاشق حرّاً ورَهْجاً <sup>(٤)</sup> ومن أخلاق مالكة ضيقاً وحرّجا ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقِطَ على جدرانها بالقار ، فجلست طويلاً إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(١) قطب : عبس وضم حاجبيه .

(٢) عصب به : ضمَّ إليه .

(٣) العين : جمع عيناء : واسعة العينين جميلتها .

(٤) رهجا : غبارا .

الخِوان<sup>(١)</sup> ، فرأيت أرغفة قد أحكمت في الصغر والإطاف ، ولم تتعوّذ<sup>(٢)</sup> قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، واسعة الأكناف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جعل في قرارة كل منها ما لا يدفع السَّعْب<sup>(٣)</sup> ، ولا تجده اليد إلا بالتعب ، فجئنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتفقد منا حركة وسكونا ، وقتنا ولم نقارب الكفاف ، وقد ظنَّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ وورصاته والقدرة البارعة على الملازمة بين السجعيات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسنغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

#### ابن مَمَّانِي<sup>(٤)</sup>

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مَمَّانِي ، سليل أسرة قبطية من أسبوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَمَّانِي جوهريا واشتهر بأنه كان يصبغ البَلُورَ صبغة البياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودى عليه في سوق الصاغة تشوفت نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكتب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسَلِّمُ هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما بيده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

للقفطي ٢٣١/١ وخطط المقرئ ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشذرات الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية للشبكي ٢٤٣/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الخريدة وقبلة في المغرب .

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام  
(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها  
(٣) السعْب : الجوع الشديد  
(٤) انظر في ابن مَمَّانِي وترجمته ورسائله الخريدة (قسم مصر) ١٠٠/١ ومعجم الأدباء ١٠٠/٦ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباه الرواة

سنة ٥٦٤م وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديواني إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضي الفاضل يعجب بابن ممتى ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديواني الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصفي بن شكر أخذ الجو يكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصدورت أمواله . واسترقتة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوماً وظل يسبغ عليه عطاياها حتى توفي هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن ممتى مصنفات كثيرة عدَّ له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفاً ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشيء بالشيء يذكر » ويقال إن القاضي الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذي نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئ في خططه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذي يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن ممتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ربيها ومتحصّلها من عين ( نقد ) وغلّة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطي في إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسن وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وستعرض له في غير هذا الموضوع . وكان له ديوان شعري سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليله ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفي المغرب .

وكان ابن ممتى يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب في الديوان الفاضلي ، ذو الفضل الجليّ ، والشعر العليّ ، والنظم السيّ ، والخط القويّ ، والسحر

المانوى<sup>(١)</sup> ، والروى<sup>(٢)</sup> الروى<sup>(٢)</sup> ، والقافية القافية<sup>(٣)</sup> أثر الحسن ، والقريحة المقترحة صورة  
 اليمن ، والفكرة المستقيمة على جدّد<sup>(٤)</sup> البراعة ، والفظنة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد  
 أن أنشد العباد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب  
 براعته الشعرية مستهلا لها بقوله : « ومن نور<sup>(٥)</sup> نثره البديع ، ونور فجره الصّديق<sup>(٦)</sup> وغرر درره  
 النّصيعة<sup>(٧)</sup> ودرر غرره الصّنيعة<sup>(٨)</sup> ، ماتحدّى<sup>(٩)</sup> له بهائم الغائم . وتحدّى<sup>(١٠)</sup> به كرائم  
 المكارم ، ويرتّع الحسن في روضه ، وتكرع الحسناء من حوضه ، وتغتبط الآداب بدابه<sup>(١١)</sup> ،  
 وترتبط الألباب بياهه . »

ومن طريف مادونه له العباد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق في إحدى  
 الأمسيات قائلا :

« فصلت عنه في أخريات النهار ، وقد ظهر في أطراف الجدران لفرق<sup>(١٢)</sup> فراق الشمس  
 اصفرار ، فلما ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق ، وليست المشارق السوداء لما تمّ في المغارب على  
 الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب النثار ، كدراهم النثار<sup>(١٣)</sup> وتشابهت  
 زواهرها - وإن اختلفت في الأسحار - بالأزهار في الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على  
 وجهه الكلف<sup>(١٤)</sup> ، ومرت به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف  
 بالسلف ، وظهر الوجوم ، في وجوه النجوم ، وعيل صبر التّسرّين<sup>(١٥)</sup> فواحد طائر يحوم ، وآخر  
 واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفو الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سوسن الفجر  
 ولاح ، وابتسم ثغر الصباح عن الأفاح<sup>(١٦)</sup> ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزالة من  
 أس الكناس<sup>(١٧)</sup> طلقة الحيا . »

(١٠) تحدى : تساق بالأراجيز والأشعار .  
 (١١) دابه : تسهيل دابه أى نمطه (١٢) فرق : جزء  
 (١٣) النثار : ما ينثر على العروس في الزفة من الدراهم  
 (١٤) الكلف : ما يعلو وجه القمر أحيانا من كدرة  
 (١٥) النسران : نجان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسمى  
 الثاني النسر الواقع  
 (١٦) أفاح : جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه  
 كأسنان المنشار وهو الأروالة ويشبه به الاسنان .  
 (١٧) الغزالة : الشمس . الكناس : بيت الغزال في  
 الشجر يستتر به . طلقة الحيا : بشة الوجه .

(١) المانوى نسبة إلى ماني مؤسس مذهب المانوية الفارسي  
 قبل الإسلام  
 (٢) الروى الأولى : الحرف الذى تُبنى عليه القصيدة  
 والروى الثانية من الماء أى شافى الغلة .  
 (٣) القافية الأولى : نهاية البيت في القصيدة ، والقافية  
 الثانية من قفا الشيء أى تبعه .  
 (٤) جدد : نهج مستو (٥) نور : زهر  
 (٦) الصديق : المشرق نورا (٧) النصيحة . الناصعة  
 (٨) الصنيعة : البديعة .  
 (٩) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . الغائم : التعاويذ



ويدل هذا الفصل على أن العباد الأصهباني كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممتاني الكتابية ، وهي براعة تكاد تبدو في كل سجعة من سجعات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في الأصيل تعكس بصفتها على أطراف الجدران فرقا وفرعا لهول الفراق . وتَوَارَى ذهب الأصيل وراء نار الشفق الملتاع ، وليست المشارق السواد على الشمس الغريقة في المغارب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالثأر ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نثار الدراهم في الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالها فلم يسألها ما الخبر ، حسداً وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوم في وجوه النجوم ، وكاد النيران أن يفقدا صبرها فواحد طائر يحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتم ثغر الصباح عن أضواء كالأقحاح . وظلما شبّه الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالعنقود . ويستغل ذلك ابن ممتاني ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة فجعلها تستر ليلا وراء الأفق في كناس ككناس الغزال والظباء في الشجر . ومراعاة النظر واضحة في السجعيات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممتاني الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكير الليل على المشارق حزناً على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممتاني مع مراعاة النظر ، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن مصير الشمس حسداً يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ما علل به طيران أحد النسرين ووقوع صاحبه لما فقدا من صبرهما . وتلاحق في تضاعيف ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجعته من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :

« لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفاتٍ سوامٍ تتصرّم<sup>(١)</sup> ، وعبرات هوامٍ تتصرّم<sup>(٢)</sup> ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيًّا فيتدّمّم<sup>(٣)</sup> ، بالصمت عن أن يتحرّز ويتحرّم<sup>(٤)</sup> ، وأفكارٍ تنزّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جلده ، فجلده بالقلق لما تجاوز حدّه وحدّه<sup>(٥)</sup> ، وأجرى من سوابق دموعه عسكري أجرى فشق

(٤) يتحرم : يحده حراما

(٥) حده : ضربه بالسياط

(١) سوام : لازمة لا تبرح . تتصرّم : تشتغل

(٢) هوام : سائلة . تتصرّم : تقطع

(٣) يتدّمّم : يتوسل

خَدَّهُ وَخَدَّهُ<sup>(١)</sup> .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسوِّدَةً ، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعَدَهُ ، وإخلافه وُدَّهُ<sup>(٢)</sup> وَدَّهُ<sup>(٣)</sup> ، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدمه عليه على كَأَفَّةِ أمثاله وأنظاره ، فعلم أن عَلمَ المودة قد رُفِعَ ، وموصول جبل الجفوة قد قُطِعَ ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذاً ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع الملائدِّ مَلَادًا<sup>(٤)</sup> . وتناول به بيد الإجلال ، وفَضَّهُ بيد الإدلال ، فوجده منظوماً على خَطِّ كالكثوس المرصعة لما لاح مداده مُدَامًا ونَقَطَهُ حَبِيًّا . وألغى تبيح للخواطر طرباً ، وتعريضاتٍ لو كان التصريح فضة لكانت ذهباً ، ومننٍ مالاحت سحائبها حتى وَكَفَتْ<sup>(٥)</sup> وأبَادٍ ما استكفت فواصلها حتى عَمَّتْ وَكَفَتْ .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل ، فالزفرات تتصرَّم والعبرات تتصرَّم بينا يتذم بالصمت ويتحرم . ولا تلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه في مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حَدَّهُ ومنتهاه ، ويحُدُّه كما يُحَدُّ الجناة ، وتجرى سوابق دموعه فتشق خده وتحده أى تشقه وتؤثر فيه ، وتَحْلُقُ وتبلى مودة صاحبه فيتمنى لو كان الموت ودَّهُ وزاره . ويعود ابن ممانى إلى هذا الجنس التام بين « الملائدِّ وملاذًا » كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواصل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا في الفصل مراعاة النظير والطباق ، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره . ومن طريف مآثر عنه من تصويره لوفاء النبل قوله .

« وأما النبل المبارك فإنه عَمَّ الْبِقَاعِ<sup>(٦)</sup> ، وطَبَّقَ<sup>(٧)</sup> ، الْبِقَاعِ ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلَفَّ بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوبٌ إلا إياه . »

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النبل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور قدرة ابن ممانى البيانية

(١) خده : شقّه وأثر فيه

(٥) وكفت : أمطرت ، وكفت في آخر الفصل من الكفاية

(٦) البقاع هنا : مرتفعات وادى النبل

(٧) طبَّقَ : عمّ

(٢) إخلاق الشبيء : جمعه بالياء

(٣) وده : زاره

(٤) ملاذاً : ملجأ

وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

### فخر الدين <sup>(١)</sup> بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قيطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غراره ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبة ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطى ويدر الدين البشتكى الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) ذات مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السُّرياق منكسا على رأسه ، فقال :

وما تعلقتُ بالسُّرياق منتكسا  
لكننى مذ نفتتُ السُّحر من أدبى  
لِجَرْمَةٍ أوجبتُ تعذيبَ ناسوقى <sup>(٢)</sup>  
علقتُ تعليقَ هاروتِ وماروتِ

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم عينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلى الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفى قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع فى غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر فى الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن الذوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٤٤٧

(١) انظر فى ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدر

(٢) لجرمة : لجرم أى الذنب . ناسوقى : جسدى .

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصحح الأعشى

٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحموى ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

فصيحا بليغا .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرقّة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس « وكان كثير التورية فيه على نحو ما يتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشتكي في غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عاليا وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلا :

« رَبَّنَا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين ، وسلاماً على نوح في العالمين . ما تأخيراً مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر المجرّة بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى بقول القائل : حَدَّثَ عن البحر ولا حرج .. وسَقَى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كاس ، وسُئِلَ ابن أبي الرّدّاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلأ اليباب <sup>(١)</sup> ، وهال العُباب ، كال فطفّف ، وزار فما خفّف ، جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناسُ إلى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح <sup>(٢)</sup> ، وغدّا التّيار ينساب في كل يَم كالأيم <sup>(٣)</sup> ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع الغيم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرّج مائيّ ، وتغيّرت الألوان فكل مافي الأرض سمائيّ .. وتحالى إلى أن أقرف <sup>(٤)</sup> الليمون الأخضر ، واحمّرت <sup>(٥)</sup> عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرا <sup>(٦)</sup> . ويزيد .. ولكم قال الهرم للسّارين ، ياساريةُ الجبل ، وأنشد وقد شمرّ ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفي من البلبل ، وكم قال أبوالمهول : لاهول إلّا هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء <sup>(٧)</sup> النهر .. ولورآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يرُ منه غيرُ الآثار ، ليكى بعيني عُرْوة <sup>(٨)</sup> ، وأوى من الرّصد إلى ربّوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلّا ترجعى ،

(١) اليباب : القفر والحراب .

(٢) اليباب : القفر والحراب .

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

(٤) أقرف هنا : عطّر ، من القرقة المعروفة طيبة الرائحة

(٥) احمرت عينه : كتابة عن الحمرة في طمى النيل

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان في شمالها الشرق

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور في صدر الإسلام

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : ( ياسماءُ ألقى<sup>(١)</sup> ) .. ولقد طار النَّسرُ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر  
البحر من السُّكاري بالشخايت<sup>(٢)</sup> إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح ، ونرجسُ البساتين وقد  
ايضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصنُ البان وقد قيل له  
طوبى لمن عانقك ولا باس .

ونكتفي بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهي رسالة بديعة في وصف فيضان النيل  
وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعلى في شواطئ النيل حتى كادت أن تمتزج بالبحر في السماء  
كما يقول ابن مكناس ، فإذا الحادى للإبل يلتقي بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر  
والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانها وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعال  
هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك  
ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه  
الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزُّؤام . ويستمر ابن مكناس في هذه الاستعارات ،  
فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب في الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر  
الصغير . ويستعير الكلمة الماثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو  
يحارب في الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية .  
وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانها فقال متمثلاً بشطر من  
الشعر : أنا الغريق فما خوفي من البلبل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من  
بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان في أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر .  
والمعشوق بستان ورباط عظيم كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان في  
القرآن الكريم : ( وياسماءُ ألقى ) . وتلقانا في الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة مثورة . وما أسرع  
ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : ( وايضت عيناه من الحزن فهو  
كظيم ) . وورى في كلمة آس فهي تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطبيب  
المداوى . والاستعارات بديعة هي وما تحلّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس  
وظباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قيروانى ضرير إلى أبي بكر بن العجمي أحد الكتاب النابهن في ديوان الإنشاء

(٢) الشخايت : لعلها القوارب .

(١) ألقى : أمسكى عن الماء

بأن صديقه ابن مكناس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمي من ذلك ، وتأذى ابن مكناس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« ( ليس على الأعمى حرج ) بلغني - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين ، لازال زينة يحلّي به العاقل ، ويُظللّ تحت جناح أدبه القائل <sup>(١)</sup> - من غيبة ذلك الضرير ، مالاخشي الله فيه بظهور الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة مالا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الرّيب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكلبل من التنصل ، <sup>(٢)</sup> ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهرّ من الأرجاس <sup>(٣)</sup> ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصلّ بالناس .. والمسئول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالی فإبنا بكر أول من تصلّب <sup>(٤)</sup> في الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمىة كهذه فأصمى <sup>(٥)</sup> ، وتردّد إليه مرة أخرى فد(عبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) .. »

والسجعات خفيفة رشيفة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفي كلمة « القائل » تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمي يُظلل تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما يريد القائل من القيلولة ووقتها الحار في الظهيرة ، فهو غوث العائدين وملاذ المعوذین المحتاجين . واستغل اسمه أبا بكر في التورية باسم أبي بكر الصديق متلظفا بذكر حادث صلاته بالمسلمين نزولا على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن مكناس إلى التورية بأبي بكر الصديق حين طلب من ابن العجمي أن لايفتح بابه للواشي مقتديا في ذلك بالصديق حين تشدد في حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ماينبغي على ابن العجمي من لقاء الواشي لقاء متجها على نحو ماتصور ذلك الآية : ( عبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى ) . ولعل في كل ماقدمت مايصور خفة روح ابن مكناس وعذوبة سجمه ومايشيع فيه من سلاسة .

(٤) تصلب : تشدد .  
(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

(١) القائل : المتعب من القيلولة وهي وسط النهار

(٢) التنصل : التبرء

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

## المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير يصور كيف يحتال أديب متسول على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقة ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جَوَّاب آفاق يظهر فى بلدان كثيرة أديبا متسولا يجلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبيدع الزمان الهمداني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى فى مقاماته المشهورة .

وأكبَّ الناس على مقاماتهما إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء فى الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتها ف هذا الفن البديع ، تارة بينونه على الشحاذة الأديبة مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكثفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتركون القصص جانبا ، وبينون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة (١) ، صور فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسرَّ إليه غلام أن ليس عندهم للإنتفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنتفاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير ملىء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشيع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزه الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كلَّ جَنَانِي وَبَنَانِي ولسانى وإنسانى (٢) ، من الدَّابِّ فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو

(٢) إنسانى : يريد إنسان عينه

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

خطُّ أرقه<sup>(١)</sup> ، فتاقت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع . فقلت له : ما الشأن ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، فقلت : ويحك عَجَلْ بفتح الباب ، وأذُن للأجباب ، فهم نزهة النفس ، وثمرة الأُنس .

وتمضى المقامة بهذا السجع الخفيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعدوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد<sup>(٢)</sup> بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المهذب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صنّف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكملة لكتاب اليتيمة للثعالبي وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصبهاني عنه : « أوحده عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحويّاً لغويّاً عروضياً مؤرخاً منطقيّاً . مهندساً ، عارفاً بالطب والموسيقى والنجوم متفنناً » . ومن كتبه كتاب منية الأملعى وبلغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصوّر معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصيرية<sup>(٣)</sup> ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله ما يبره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواراه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة توج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزئى بزى الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أمواهم ، وهم لا يقدرّون العلوم حق قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبتم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصّر سيرباله<sup>(٤)</sup> ، وقصّ سيباله<sup>(٥)</sup> ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضا للاستفادة فى معرض

(١) أرقه : أكتبه

(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخريدة (قسم شعراء مصر) ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية

(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية ٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

(٤) سيرباله : ثوبه

(٥) سيباله : شاربه



الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام <sup>(١)</sup> ، ويجلب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين الحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تناول موضوعاً محلّ صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على السنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة <sup>(٢)</sup> أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوماً مامع أناس ، وصل برّهم بيّناس ، كل منهم يهتّر للأكرومة ، وبأوى إلى أشرف <sup>(٣)</sup> أرومة ، على خيل مسومة <sup>(٤)</sup> ، مثقفة مقومة ، ما بين جّون أدهم <sup>(٥)</sup> ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سنان ، أو انعطف لعنان ، وأشهب كرم ، له سالفه ريم <sup>(٦)</sup> ، كأنما خلق من عقيق أو تردّي برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهملاج <sup>(٧)</sup> إن زجرته ألهب أديمه <sup>(٨)</sup> ، روضة بهار <sup>(٩)</sup> ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم <sup>(١٠)</sup> ، ويمرور الغيم ، لا ينبه النائم إذا عبّر به ، ولا يحرك الهواء في سيره ، أخف وطأً من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضاً ، حتى أتينا أرضاً ، كأنما فرشَ قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لُجَبِن وعَسْجِد .. تُهدى للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للنخيل ولكلاب الصيد .

(٦) ريم : ظي أبيض . والفرس الأشهب : يخالط بياضه

سواد أو أحمر

(٧) الهملاج : الفرس في سيره بخثرة .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أبيض .

(١٠) الأيم : الحية الذكر .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجالية) ص

٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسومة : معلمة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام المالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما نسى أصلها عند الهمذاني والحريري نهائيا ، فلا بطلٌ صاحب حيل ، ولا قصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهى للأدلة والبراهين ، مع السفسطة والمغالطة وقلب الحاسن مساوى بغرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة <sup>(١)</sup> ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : ( ن والقلم وما يسطرون ) وهى براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقادمة <sup>(٢)</sup> أجنحته الطائرة ، ومطلق أرزاق عفاته <sup>(٣)</sup> المتواترة ، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رُقم كتابُ الله الذى لا يأتیه الباطل وسنة نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل <sup>(٤)</sup> .. إن نُظمتْ فرائد العلوم فإنما هو سلكها ، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يجلب النفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النفع <sup>(٥)</sup> » .

ويستمر القلم فى هذه المفاخرة ، فهو الذى يأمر بالجهاد والسيف نائم فى قرابه ، وهو الذى يأمر بالعدل والإحسان ، مع الحماية عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعلَى فضله على السيف حتى فى الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخيلائه والخيلاء وكبرياته . وينبرى السيف مدافعا عن حياه مستهلا كلامه بقوله تعالى : ( وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورُسله بالغيب إن الله قوى عزيز ) ومحمد الله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . ويتفض القلم فى دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلا للسيف فى حدة وعنف .

« أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعتاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا للمعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(٤) الخواطل : الحائدة عن الصواب

(١) خزنة الأدب للمحموى ص ١٣٠ ، ٥٤٥

(٥) النقع : غبار الحرب . والوعد يكون فى الخير والإيعاد

(٢) قادمة الأجنحة : ريشات أربع كبار فى مقدمة

فى الشرح

الجناح

(٣) عفاته : طلاب معرفته .

من دخل تحت قوله تعالى (أَوْمَنْ يُشَأْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مَبِينٍ) لقد تعدّيت حدّك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب .

ويرد عليه السيف مغیظاً محققاً ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيراً بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنها للملك كاليدين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولفظ مآخذة ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولابن مكناس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حواراً بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمانه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الحقبة العثمانية ، وينحو بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الحفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعاً له ، من ذلك مقامتان <sup>(١)</sup> لمصطفى اللقيمي الدمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بهما الأمير العثماني رضوان كتحدا ، وإحداهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة <sup>(٢)</sup> في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلوقي ضمّنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدوبيت والزجل والكان وكان والقوما والموالي مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجددير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

### ابن <sup>(٣)</sup> أبي حَجَلَة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أبي حجلة التلمساني الأصل . ولد بزواوية جدّه أبي حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

نغرى بردى ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن العماد ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٦/١٤ .

والحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والمقار .

(١) تاريخ الجبرقي ٢٢١/١ ومابعدها

(٢) تاريخ الجبرقي ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أبي حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجوم الزاهرة لابن

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبنا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفي بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزرء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأمتحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . ومازال يتولى خانقاه منجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغري بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : « سكر دان السلطان » و « ديوان الصبابة » وهما مطبوعان .

ومعنى سكردان إناء السكر وقد أهده بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكي السلطان حسن بن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور في معظمه حول العدد ٧ وأهميته في تاريخ مصر وأحداثها . وقد جعله في مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر في الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث في الباب الثاني عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين في أسرته . ويعرض في الباب الثالث لإقليم مصر وصلته العدد سبعة به . ويعود في الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحاديث قصيرة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة في البابين السادس والسابع . ويتبع ابن أبي حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول في أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثاني لقصة موسى وفرعون ، والثالث للملك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمي ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة ، والسابع للزهرة السبع . وما ذكره عن الحاكم الفاطمي ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقتل وهو يلبس سبع جبات بعضها فوق بعض . ولاريب في أنه بالغ في ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصبابة - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والهجران والاستعطاف وإفشاء السر والكتمان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو في ثلاثين باباً ويزخر بالمختارات الشعرية والنثرية في الحب والصبابة ، ووضع بين يدي أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحاديث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندى لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفائه ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقدما لها بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والناثر الذي كان بنسبته إلى الطيور <sup>(١)</sup> محرّك المناطق وإلى الشعر صنّاجة الأدب » ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش ، وكأن ابن أبي حجلة سمى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

« إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصرات تَجَّاجُهُ <sup>(٢)</sup> ، وأَعْيَى طيبَ الغِيْطَانِ <sup>(٣)</sup> علاجه :

وَشَرَّقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ وَعَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلغَرْبِ مَغْرِبٌ

قلت : فافعل التَّغْيِيرُ <sup>(٤)</sup> ، بجزيرة الطَّيْرِ ؟ قال : لم يبق بها هاتف يبشِّرُ بالصبح ، ولا ساعٍ يَسْعَى بِرِجْلِي (ولا طائر يطير) بجَنَاح ، إلا اتخذ (نققا في الأرض أو سَلْمًا في السماء) أو آوى (إلى جبل يَعْصمه من الماء) فأذاق بها الحَمَامَ الحَمَامِ <sup>(٥)</sup> في المروج ، وترك أرضها كسماء مالها من فروج ، وتلا على الحمام : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بُرُوج) وكم في سماء مائها من نَسْرِ واقع ، وبُومَةٍ تصفُرُّ على ديارها البلاقع <sup>(٦)</sup> :

ومَنْهَلِي فِيهِ الغَرَابُ مَيْتٌ سَقَيْتُ مِنْهُ القَوْمَ واستقيتُ

قلت : ففصر ؟ قال : زحف عليها بعسكره الجرار ، ونفط مائه الطَّيَّار ، قلت فالجزيرة ؟ قال . طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجمَّس ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسَّر ، فأصبح بعد اخضرار بَرَّتِهِ <sup>(٧)</sup> شاحبَ الإهاب ، ناصل الخِضَاب ، غارقا في قعر بحر (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطَّالِحَ كالإلح يمشى على الماء (فتنادوا مُصْبِحِينَ) : (أن لا يدخلنَّها اليوم عليكم مسكين)

(٣) الغيطان : الحقول

(١) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٤) التغيير : طائر صغير كالعصفور

(٢) المعصرات : السحاب المطر تعصره الريح .

(٥) الحمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاقع : الخالية

تجاجة : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ في عتوه حتى صافح

(٧) بَرَّتِهِ : شارته وثنويه .

السحب .

وأدرکہم الغرق فأیسوا (١) من الخلاص (فَعَشِيَهُمْ من الیمِّ ماغَشِيَهُمْ) (ولات حين مَناص (٢) )  
 و (حَرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم) فهدَّت قواہم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذین آمنوا وعملوا  
 الصالحات (وقليل ماہم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الکيام (٣) بزهره ،  
 والكأس بحباب (٤) خمرة :

فكأنها فيه بساطٌ أخضرٌ وكأنه فيها طرازٌ مُذهبٌ (٥)  
 فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكم أنشد مرجها حين (مرج (٦) البحرين يلتقيان) :  
 أعينى كفاً عن فؤادي فإنه من البغي سعى اثنين في قتل واحد (٧)

قلت : فدار (٨) النحاس ؟ قال : أنحس حالها ، وأفسد ماعليها وما لها ، فدخل من حمامها  
 الطُّهر ، وقطع الطريق بالجامع الطُّهر ، فألحق مجازاً بابہ بالحقيقة ، ورقى منه على درجتين في  
 دقيقة .. قلت فجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جُلُّ ثمارها ، وأتى على مغانيها (٩) فلم يدع شيئاً من  
 رديها وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأنف (١٠) ، وترك قلَقاسها في الجروف (١١) على شفا  
 جرف (١٢) :

بعيني رأيت الماء يوماً وقد جرى على رأسه من شاهقي فتكسراً  
 طالما تضرع بأصابعه إلى ربِّه ، ولطم بروعسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه ، وتمثل بقول  
 الأول :

وإن سألوک عن قلبی وما قاسی فقلْ قاسی وقلْ قاسی وقلْ قاسی  
 لم يُفیده تحصنه من ورقه بالدَّرَق (١٣) والستائر ، ولا حنَّ عليه حين تضرع بأصابعه فصحَّ أن

- |   |  |
|---|--|
| (١) أيسوا : يشوا  | حتى تكاد تلفظ أنفاسها                                |
| (٢) مناص : ملجأ ومفر  | (٨) تسمى الآن دير النحاس وهي أمام النيل بمصر القديمة |
| (٣) الكيام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل أن تفتح          | (٩) مغانيها : منازلها .                              |
| (٤) الحباب : الفقايع على وجه الكأس                                | (١٠) الأنف : الجديد                                  |
| (٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في فيضانه من الطمي | (١١) الجروف : شقوق المحراث وبجاريه                   |
| (٦) مرج البحرين : أرسلها في مجريها متجاورين                       | (١٢) شفا جرف : شفا : حرف : جرف : المكان يجرفه الماء  |
| (٧) يشير إلى أن البحرين يأخذان بخناق جزيرة الروضة                 | (١٣) الدرَق : جمع درقة : الترس                       |

الماء سلطان جائر» .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى عليين فرقاً منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على الفسطاط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الحيزة حتى علا قناطرها وجرد القصب من بزته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الغرق في عبابه ، وخر عليهم السقف من فوقهم ، ولا ملجأ ولا مناص ، وأحاط بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولارد مجريه أو كما يسميها ابن أبي حجلة بحريه من حولها آخذين بنخاقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيا وكيف عم ماها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتنبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ويمضي ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولا نحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لغته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تنمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلائين تمييزاً لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثانى جناساً طريفاً مع اسمه . وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشرها في استيطانه بمصر حتى التماله . والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المعبّر الى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيها قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

هو شهاب الدين أحمد بن علي وُلد بقلقشنده بالقرب من قليوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنسب ، وهو من أصل عربي صميم إذ ينتمي إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي . ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يجيزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصّحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثناءها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمّاه الغيوث الهوامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و« قبائل الحجان في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعترفا بفضلته أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقريظه صوّر فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف تَوّا على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتدئ القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتّاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندي ومفآخراته صبح الأعشى ١١٢/١٤ ،  
٢٠٤ ، ٢٣١ . وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار  
الكتب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندي الضوء اللامع للسحاوي ٨/٢  
وشذرات الذهب ١٤٩/٧ والمنهل الصافي لابن تغري بردي  
٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ  
الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكى ٤١٦/١ . وراجع في



الإشياء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالحظ واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشطراً غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة في أنواع المكاتب وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأفلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين في الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتب الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسم والتفويض والتواقيع وخاصة مايتصل بزمن المماليك . وتحمل هذه المقالة كثيراً من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهي تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثاني عشر . والمقالة السادسة في متنوعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهدن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطراً من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقریظات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والانصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية .

ونعود إلى مقامته التي أشرنا إليها والتي وصف فيها صناعة الإنشاء وقرطها بها صاحب ديوانها بدر الدين العمري وقد سماها : « الكواكب الدرّية في المناقب البدرية » وهي محكية أمروية على لسان الناثر بن نظام ويلقانا في فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمري مركزَ التكليف ، ويتفرق جَمْعُ خاطري بالكُلف بعد التأليف ، أنصِبُ لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونسٌ من شوارد العقول وَحْشِيَّهَا ، وَأَشْرَدٌ عن روايض المنقول حُوشِيَّهَا ، وألتقط ضالَّةَ الحكمة حيث وجدتها ، وأقيدُ نادرة العلم حيث أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون أطفها ، معتمدا من ذلك ما تألفه النَّفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلى حُسْنُهُ النظر وَيَسْتَحْلِي ذكره السمع .. عارفا لكل عالم حقَّه ، وموقِّيا لكل علم مستحقَّه ، قد استغنيت بكتابي عن خَلِيٍّ ورفيقي ، وآثرت بيت خَلْوَتِي على شَفِيقِي وشقيقِي .. إلى أن أتيج لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة .

وأكبر الظن أن قد اتضح لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وقوافي أسجاعه ، بحيث لانكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصُّع كلامه على نحو ما نرى في التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيق وشفيق وشقيق ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصُّع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروايض المنقول . وفي أثناء ذلك يوشئ كلامه بالتورية إذ يقول : « أتزُّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد ، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضا لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقرانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئء بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله في نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موربا بذلك عن الفتح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحربى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة في الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضححت لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفي مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهه . وإذا مضينا في قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لا بد لكل إنسان من حرفة يكتب بها معاشه وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المنيقة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ المُلْكِ وعماده ،

وأركان الملك وأطواده . ولسان المملكة الناطق ، وسهمها المرفوق الراشق . ويحاور الناثر بن نظام في كتابة الإنشاء والحراج أيها أفضل ؟ ويجيبه أنني لكتاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعدى ما لا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندي على لسان الناثر بن نظام في بيان ما يلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحاءهم وخطبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والتحل وعلم العروض والقوافي والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لا بد من المعرفة بكل ما ذكره القلقشندي بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهدن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندي عنم يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ ويجيبه الناثر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العسرى ومنحصر في سليله البدر ، الذى تدور عليه ، فهو ابن بجّدتها الذى ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندي مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهى تتزع منزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التى ألمنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندي مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكراً فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بَصْعَةٌ (١) منى ، تُسْنَدُ إِلَىَّ وتُنْقَلُ عَنِّي ، لم يزل علمك بابا من أبوابي ، وجملتك داخلة في حسابي ، حتى مَيَزَكَ المازني فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جَنِّي فتبعه في التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوىٌّ ضمن كتبي ، نَسَبْتُكَ متصلة بنسبتي ، وَحَسَبْتُكَ لاحقٌ بحسبي . أنا مِلْحُ الكلام ، وَمِسْكُ الختام ، لا يستغنى عنى متكلم ، ولا يليق جهلى بعالم ولا متعلم ،

بى تتبين أحوال الألفاظ المركبة فى دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبس عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندى البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندمجين بعضها ببعض فى كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازنى علم الصرف بالتأليف وتبعه فى ذلك ابن جنى . ومضى المؤلفون فى العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندى يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنقلُ عنه ويُسند إليه وأنه مطوى فى كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم فى آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحى الصلة والعائد المعروفين فى النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد فى عبارتها على الموصول ، معبرا بها عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندى مفاخرة ثانية بين السيف والفلج ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رسلك أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونمّقت محالا .. وإنى - وإن صغر جرمى - فإنى لكبير الفعّال ، وإن نحفَ بدنى فإنى لشديد البأس عند النزال . وإن عرى جسمى فكلم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعى فكلم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرى فإنى بسعة المجال مشهور ، وإن قصّر باعى فكلم أطلقت أسيرا وأنا فى سجن الدواة مأسور » . ويمضى القلقشندى بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودأما نشعر عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

### السيوطى<sup>(١)</sup>

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفى أسيوطى هو همام الدين السيوطى ، وكان لأسرته وجهة ورياسة فى أسيوط ، منهم من ولى الحكم فيها ،

وبروكلمان ( الطبعة الألمانية ١٤٣/٢ ) . وانظر فى مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطى بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر فى نشاط السيوطى النحرى تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر فى السيوطى وترجمته حسن المحاضرة ٣٣٥/١ والضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للغزى (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ٢٢٦/١ وتاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٤ والبدرد الطالع للشوكانى ٣٢٨/١ والنور السافر للبيدروسى ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومنهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلده إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانته على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمناوي في الفقه الشافعي وتقى الدين الشبلي في الحديث والكافيحي في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشاف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادًا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبجّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فأستاذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاريه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . وبحق يُعدّ السيوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبِع في العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، وممرّ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدرر المشور في التفسير بالمأثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإيتقان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُنى عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصلصلة كما كانت عند الهمداني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعمور ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والثقل بمقامته الفستقية والعمور بمقامته المسكية ، وخص الأبحار الكريمة بمقامته الياقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهى مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصلوة . وواضح ما فى كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، وما يلبث الورد أن يدلّ بفوائده الطيبة ، ويرد عليه الزجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياورد ، وزعمت أنك جمعٌ فى قرد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجر .. فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا كسرت بقائم سيني شوكتك . وإنى القائم لله فى الديق على ساقى ، الساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تطرف أحداق .. وأنا فريد الزمان فى المحاسن والإحسان ، ولهذا قال فى كسرى أنوشروان : الزجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه بى عيون الملاح ، والمقرون فى مهات الأدوية بالصلاح . وللسيوطى بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذى تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزىلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريري فى مقامته الطيبية نسبة إلى طيبة أى المدينة وقد ضمها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيتباح ماء الضير ؟ » ويحجب أبوزيد السروجى بطل المقامات الحريرية : نعم ويحجب ماء البصير » والضير : حرف الوادى والبصير الكلب . ونرى السيوطى يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : مازلت أقتحم المهامه <sup>(١)</sup> الخيفة ، وأدخل فى المسالك العنيفة

(١) المهامه : القفار والقلوات .

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحالَ بَعِثَها <sup>(١)</sup> ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرَّواح ، وأترؤد من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّى بِمِسامرتِه العُرْبَةَ ، وأديبا يُنِيل بِمِحاضرتِه الإِربَةَ <sup>(٢)</sup> ، فبينما أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تَسَمَّرْتُ سحائب الألفاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع بثياب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذ معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسَمِيرا ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وشِمْتُ <sup>(٣)</sup> ما عنك فهمت ، فانت على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبير سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسائلك ، وأوضح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضحاً ولم يمسح أمه ؟ فقال : لم يصحَّ يأمّة .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر؟ والجواب الجواز ، لأن المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فحل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسيوطية بناها على ألغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الخلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقهاء واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أي موضوع حتى لتراه يتخذ نجاة أبوي الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوي الرسول من النار لايشوبها أي شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران . ولعل فيما قدمنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع عتبه . (٢) الإرية : الأمنية . (٣) شام : نظر متطلعا أو مؤملا شيئا

## الشهاب (١) الخفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري ، ولد لفقير شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشعراني والفقير الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرملي . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضيا في الرومللي ثم في سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقى مفتيها يحيى بن زكريا لقاء سيئا وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضيا في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربي ، ومن أهمهم عبدالقادر البغدادى صاحب الخزانة ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سببا في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأنبها بخمس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك عالما ومؤرخا كبيرا ، صنف حاشية على تفسير البيضاوى طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضى عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طُبع مرارا . وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه «ريحانة الألبا» الذى نذكره كثيرا في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطا . وكان شاعرا مجيدا ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطا ، وقد أنشد من شعره كثيرا في الريحانة وبالمثل أنشد منه كثيرا الحجي في ترجمته له ، وهي في أكثر من مائة صفحة .

وقد دونَّ الشهاب الخفاجي مقاماته التى أشرنا إليها في ترجمته التى عقدها لنفسه في نهاية كتابه الريحانة وسمى أولاهها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادى العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه

٤٧٧ وخلاصة الأثر ٣٣١/١ وسلافة العصر ص ٤٢٠

(١) انظر في الشهاب الخفاجي ترجمته لنفسه في نهاية

ريحانة الألبا ٢/٣٢٥ وما بعدها ونفحة الريحانة ٤/٣٩٥ -



بينما تقبل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفها وعلماءها . ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله :

« لوقارنه السعد الأكبر إلى أعلى عليين ، حملته بنات نعش إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة والبصر ، عار على آدم أبي البشر ، إنما خلق اعتذارا لإبليس في ترك السجود ، وأنى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويتم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كذبة واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد فقد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الوطواط المترجم له في قسم إيران كتبها غيمن كان يزاحمه في أداته ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطا شديدا ، ونسج الشهاب الحجاجي على منواله في صنع هذه المقامة قاصدا بها المفتى خصيمه مسميا له باسم الوزير ، وفيها يضع منه ويهجو هجاء مرا ، ويصور قصته معه وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثل به تمثيلا شديدا . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، افترض اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الحجاجي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغريبة ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

#### ٤

### المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة العيدين ، وكان يتولاها أئمة المساجد ، وأحيانا خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن <sup>(١)</sup> علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن الفسطاط ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواعظه في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة <sup>(٢)</sup> خطبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتمجيده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه <sup>(٣)</sup> . ويبدو أن الخطب والمواظع كانت تُعدُّ لهم - ولمن ينيبونه عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبي الشخباء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواظع لعلها كانت خطبا أعدّها للخليفة ووزيره بدر الجمالي ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعا ، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول <sup>(٤)</sup> :

« أيها الناس فكّوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقة <sup>(٥)</sup> ، ولا تُسيموا <sup>(٦)</sup> أطعاكم في رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تُميلوا صَعَوْكم <sup>(٧)</sup> إلى زيارج <sup>(٨)</sup> الدنيا الحبيبة .. أين الجبايرة الماضية المتغلبة ، والملوك المعظمة المرعبة <sup>(٩)</sup> أولو الحفدة <sup>(١٠)</sup> والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجرارة اللّجبة <sup>(١١)</sup> .. طرقت - والله - خيامهم غير منتهية ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية <sup>(١٢)</sup> محتضبة ، وأكلت لحومهم هوامُّ الأرض السّغية <sup>(١٣)</sup> ، ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبلُ فيه عُذرٌ ولا معتبه ، وتجازى كل نفس

- |   |  |
|---|--|
| والاستعارة واضحة                                  | (١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ٥٥١/١ والعبر       |
| (٧) الصغو: الشق والجانب                           | ٢٤٧/٢  |
| (٨) زيارج: جمع زيرج: الحلية والزينة               | (٢) انظر سيرة الأستاذ جودر (طبع دار الفكر العربي)    |
| (٩) المرجبة: الموقرة المعظمة                      | ص ٧٦   |
| (١٠) الحفدة: الأعوان.                             | (٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤                             |
| (١١) الجرارة: الكثيفة. اللجبة: ذات الحلية والوضاء | (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة |
| (١٢) قانية: حمراء. محتضبة: مصبوغة بالخصاب         | ١٩٢٩) ٥٤٥/١٠   |
| الأحمر  | (٥) الآصار: الذنوب. المستحقة: المرتكبة               |
| (١٣) السغية: الجائعة                              | (٦) أسام الدابة في المرعى: خلاها ترعى فيه كما تشاء   |

بما كانت مكتسبة ، فإما سعيدة مقرّبة ، تجرى من تحتها الأنهار مثوّبة (١) ، وإما شقيّة معدّبة ، في النار مكبّكة (٢) .

وقد التزم ابن أبي الشخاء في موعظته الباء والهاء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثر . وخصائص ابن أبي الشخاء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهو يعنى بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المرهقة ويحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقرّفة ، ويصرفوا أطاعهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأثم الخالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كتوس الموت دهاقا ، وأكلت هوامّ الأرض وحشراتنا لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فإما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، فيلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكي : « وله ديوان خطب مشهور (٣) » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرة دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تُلقَى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئ (٤) أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوله : ( انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) وكان في الكتاب مواظ بليغة في الحث على الجهاد ، فقرئ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة والفسطاط وضواحيها وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكي ٣٧/٧

(٤) الخطط ٤١٣/١

(١) مثوبة : مكافأة

(٢) مكبّكة : مجمعة .

ونلتقى في زمن المالك بابت المنبر <sup>(١)</sup> الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق <sup>(٢)</sup> العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة فى جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكى : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، ويطلق مترجموه فى ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطى أنه كتب بها إلى قاضى إخمى بالصعيد ، وفيها يقول <sup>(٣)</sup> :

« نحمد الله الذى ( يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور ) ، ويمهل حتى يلبس الإهمال بالإهمال على المغرور ، ونذكره بأيام الله ( وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ) ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحجزة عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما لحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد المهم مما يجب للرب على الربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصره وهمة على حظ نفسه ودنياه ، فغاية مطلبه حب الجاه .. فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : ( فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ) .

ولعل فى هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العيد فى خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنيل العذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برفائق وعظه وكلمته التى كان يجلب بها وبما يضمها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويكفون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلموا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر فى ابن المنبر فوات الوفيات ١٣٢/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشذرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومراً بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنيت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام الماليك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومراً حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخضه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم <sup>(١)</sup> الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد <sup>(٢)</sup> البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على السنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقي ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمات ، فهن بالقدره واقفات ، بالسبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك ( الملائكة ) في مجارى الأفلاك . بالكرسى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لدغة المنافق . »  
 وكان يعاصر الدسوقي والبدوي أبو العباس <sup>(٣)</sup> المرسي المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن وراجع الشعرائي ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والواقى ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر الدسوقي في الطبقات الكبرى للشعراني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١  
 (٢) راجع ترجمة البدوي في الشعرائي ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب

الشاذلى ، وهو أندلسى من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفى الرابعة والعشرين من سنّه خرج إلى الحج ، وفى طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رحل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوّجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه فى جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هى وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه فى السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقى دروسه فى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقاته فى الجامعين تزدحم بالطلاب والعلماء . وتوفى أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، وتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلى سماه « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسي وشيخه أبى الحسن » ويعد جامعه اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا نقتطف من ابتهالاته وأدعيته قوله (١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن وحُصْنًا منك بالمحبة .. وآتانا العلم اللدنى والعمل الصالح والرزق الهنىء على بساط علم التوحيد والشرع .. وسحّر لى الرزق واعصمى من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهب لى لسانا لا يفترعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبِعَضْ لنا الدنيا وحبيب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نحزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف

المنن والأخلاق للشمرانى (طبع المطبعة اليمينية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ما جعلها تشدّد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرّعات وأن لا يسألوا الناس شيئاً مما في أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرها . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس المرسى بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز<sup>(١)</sup> الدّميرى الدّيرينى ، ولد بقرية دميرة بالقرب من دمايط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين في الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول في ريف مصر شمالاً وجنوباً ، وكان فقيهاً شافعيًا ، ونظم كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازى ، ونظم سيرة نبويّة ، وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً محشوشنا ، وله في التصوف كتاب « طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلهى ، عرفتنا بربوبيّتك ، وعرفتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدّسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك .

إلهى ، إن ظلمة ظلّمنا لأنفسنا قد عمّت ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت ، فالعجز شامل ، والحصر<sup>(٢)</sup> حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهى ، ماعصيناك جهلاً بعقابك ، ولاتعرضنا لعذابك ، ولكن سوّلت<sup>(٣)</sup> لنا نفوسنا ، وأعانتنا بشقوتنا ، وعرّنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من يستنقذنا؟ وبجبل من نعصم إن قطعته حبلك عنا؟ واخجلتنا من الوقوف غداً بين يديك ، وافضيتنا إذا عرضت أعمالنا القبيحة عليك .

اللهم اغفر ما علمت ، ولا تهتك ماسترت .

إلهى ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب ولا يبالى .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : العى .

(١) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

(٣) سوّلت : أغرت ، وتقال في الشرور والسوء .

المخاضة ٤٢١/١ والشعراني ٢٢٤/١ ومناجاته المذكورة في

بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .  
ويروى السبكي مناجاة لصوفي شاذلي من صوفية القرن الثامن هو شمس <sup>(١)</sup> الدين بن اللبان محمد  
بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) ياقوت العرشي  
تلميذ أبي العباس المرسي ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه في الربانيات »  
وهي تطرد على هذا النمط .

« الهى ! جلّتْ عظمتك أن يعصيك عاصي ، أو ينسأك ناسي ، ولكن أوحيت روح أوامرك  
في أسرار الكائنات ، فذكرك الناسي بنسيانه ، وأطاعك العاصي بعصيانه ، وإن من شيء إلا  
يسبح بحمديك ، إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، ولكن قامت عليه حجتك ،  
ولله الحجة البالغة : ( لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ) .

ويبدو أن كتاب المتشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن  
العاصي يطيع الله بعصيانه وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعد  
العاصي لله مطيعا له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاص ومطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه  
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضبّطت عليه كلمات على طريق الاتحادية القائلين  
بالحللول ، كما يقول إن له كتابا على لسان الصوفية ، فيه من إشارات الصوفية القائلين بالوحدة ،  
وهو في غاية الحلالة لفظا وفي المعنى سم قاتل .

وكان يعاصره يوسف <sup>(٢)</sup> بن عبدالله العجمي الكرديّ المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد  
دفن بزوايته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تغري بردي  
بقوله : « الإمام العالم المسلّك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان  
شيخا حقيقَةً ومُقتدًى طريقة ، كان إمام المسلّكين ( آخذى العهود على المريدين ) في عصره وله  
رسالة في التصوف سماها « ریحان القلوب والتوصل إلى الحبوب » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان  
بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرقَة أو المرقعة الصوفية وتلقين  
الذكر .. ويقول ابن تغري بردي : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف العجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١

والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشعراني ٧١/٢ وحسن

المحاضرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكامنة ٤٢٠/٣ والسبكي

٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوافي بالوفيات للصفدي

١٦٨/٢ ومراة الحنان ٣٣٣/٤ وشذرات الذهب ١٦٣/٦



على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أورداد وأذكار هائلة » وهذه الأذكار والأورداد سقطت من يد الزمن . وهو وأورداده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام المماليك وما كان لهم من أورداد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونحى إلى أيام العثمانيين وولتقى في مطلعها بأبي السعود <sup>(١)</sup> الجارحى المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشعرانى ، وأهم منه الشعرانى <sup>(٢)</sup> نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمؤلفات التى قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التى التزمها فى حياته . ومع أنه صوفى سنى نراه يدافع عن أستاذه الروحى : ابن عربى ، ومحاولا تأويل عباراته على نحو ما يصور ذلك فى كتابه « الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التى عرضنا لها فى غير هذا الموضوع ناشطة بمصر . ويعلوشأن الطريقة الخلوتية المنسوبة الى الشيخ محمد الخلوئى منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى <sup>(٣)</sup> بن كمال الدين البكرى الناشئ ببيت المقدس ، وقد طوّف فى بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبرئى قائلًا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرقى المريدين الإمام المسلك ، تأليفه تقارب المائتين ، وأورداده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله <sup>(٤)</sup> :

« إلهى ، أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود فى كل آن .

إلهى ، أنت قلت : ( ادعونى أستجب لكم ) فما نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهى ، اين المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف البراح عنك وأنت الذى قيّدتنا بطوائف الإحسان .

والشعرانى إمام التصوف فى عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر فى ترجمة مصطفى البكرى الصديق الخلوئى تاريخ الجبرئى ١/١٦٥ وسلك الدرر ٤/١٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى البكرى .

(٤) انظر فى ورد السحر للبكرى مجموع الأورداد الكبير ( طبع مكتبة النصر ) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فى الطبقات الكبرى للشعرانى ٢/١٤٣

(٢) انظر فى ترجمة الشعرانى كتابه « لطائف المنن والأخلاق » فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢/٢٥٩ وطبقات المناوى الكبرى ٢/٤٩٥ والخطط التوفيقية ١٤/١٠٩ وكتاب الشعرانى والتصوف الإسلامى لظه عبدالباقى سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي قَتَّه به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذي تحيرت في عظمته ألبابُ العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه ، أفتح لنا فتحة صمدائياً وعلماً ربانياً ، وتجلياً رحمانياً ، وفيضاً إحسانياً .  
وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقدمتهم الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر وهو ملتبس أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشاذلى وابن عطاء الله السكندرى .

### أبو الحسن (١) الشاذلى

هو على بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غارة بالقرب من سبته في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبَّ على العلوم الاسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحسَّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَة طريقة الصوفى المغربى أبى مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكأنما كان باب سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدق أن تعرف في فاس على صوفى هو عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذة إماماً وشيخاً ، وقد دفعه دفعاً إلى أن يعيش للتصوف ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أدمن على الشرب والمحبة وكأسها مع السكر والصحو ، كلما أفقت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به ، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله ، وقدس كما له وجلاله » . ولم يلبث شيخه أن أمره

الشاذلى للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في العصر الاسلامى للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب في التراث الصوفى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٥٠ .

(١) راجع ترجمة الشاذلى في كتاب « لطائف المتن في مناقب أبى العباس المرسي وشيخه أبى الحسن » وحسن المحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهميان ص ٣١٣ والشعرانى في الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلية في الآثار الشاذلية لابن عباد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

بالحجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلي وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرّف بتلميذه أبي العباس المرسي وتوثقت الصلة بينهما في الله ومحبه حتى قال له الشاذلي يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلي وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافي الإسكندرية وحدها ، بل أيضا في القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملة شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواظبه في الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفي القاهرة والمدن المصرية ، فانها المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفي هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبي العباس المرسي منذ لقائه به فأعلن في أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهي تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطني الصوفي .

وهاجم الشاذلي بقوة حياة الخانقاهات والتسول التي كان يعيشها الدراويش الرحل ، فعنده أن الصوفي الحقيقي لا يكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لا بد أن يعتمد على نفسه في كسب قوته ، فتصوّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مرديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث في موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مرديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماء الكبار من مثل العزيز عبدالسلام وابن دقيق العيد ومحبي الدين بن سراقه وغيرهم من جلة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور في الكلام والخطابة على أبي الحسن ، فتكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانهر الشيخ العزيز عبدالسلام ، فقام هاتفا منبراً قائلاً : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . وأنزل الجيش المصري بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلاً كسيراً ، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلي إلى الاسكندرية والعلماء والناس يَكُونُ عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفي صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحسَّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئته . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه في أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرِّفاً أزمته كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها في كتابه لطائف المنن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلَّله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجي ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسعَ ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفر لي إنك على كل شيء قدير . يارزاق يا قوی يا عزیز ! لك مقاليدُ السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأولياك ، واجعل خير أيامنا وأسعدنا يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيمننا من أرواحنا ، ومسخرنا من أنفسنا (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) . »

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك ديناً قَيِّما ، ونسألك العافية من كل بليَّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس .

والمناجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدنا يوم لقائه وأن ينقِّره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال في الورد يتمنى أن يهبه الله رضاه وحبَّه وأن يدفع عه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعزُّ الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم في العبادة والنسك وأن يلبسوا الخرق والمرقعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم في التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا في الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عائلة على

المجتمع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقة الوفاية .

### ابن عطاء <sup>(١)</sup> الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي . وكان في أول أمره منصرفا عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس المرسى تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأخذ يقنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفى سنة ٦٨٥ خلفه على رئاسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيها كبيرا ، كما كان صوفيا شاذليا لسنياً ، فجلس مجلس أستاذه يدرّس للناس الفقه والتفسير ويعظهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكبَّ عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواظبه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثرت أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائما مبادئها الأساسية وهو أن الصوفي الحقيقي من يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسئدونه به رمقهم

(١) ١٣٥١ هـ . ص ٧٠ والوفاء ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابه عنه للدكتور التفتازاني وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشعرا ١٤/٢ والبدرد الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون ( طبع القاهرة

فليسوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويجني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه » وألف في مناقب شيخه أبي العباس المرسي وأبى الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبوع . ويقول الذهبي : « كانت له جلاله عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق » . وصنّف ابن عطاء الله « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن والتوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأبي ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح<sup>(١)</sup> الفلاح ومصباح الأرواح » . وواضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتبٌ صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دونها أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضع . وتوفي بالمدسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة<sup>(٢)</sup> آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه - حفلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامة .

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبويا فتتوالى سيول القول ، من ذلك ماجاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، مَنْ له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم ، وأخذ أهل الباطن ( الصوفية ) منه باطنيهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحته على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه » .

(٢) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقي

فيه أحيانا بعض مواعظه

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب

لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله

على الاطلاق للشعراني (طبع المطبعة الميمنية)

وتكثر عنده مثل هذه التفريعات والتوليدات في الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب ، مع التنوع الدائم في الأفكار وتشعبها شعبا وفروعا لانكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بالتكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

« كيف يُتصَوَّر أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟

ياعجبا كيف يظهر الوجود في العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟

والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهر الكائنات جميعا وموجدها ،

وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها عرفته وسبحته ، وإن وجوده

لأبدي أزلي ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ،

أقرب إليه من حَبْل الوَريد . وياعجبا كيف يحجبه الفاني الحادث ، وهو القديم الأزلي . وهو يُسرُّ

في العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله في أثناء وعظه عن

الشكر ، فأجابته توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : » شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر

اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : ( وأما بنعمة ربِّك فحدِّثْ ) . وشكر الأركان : العمل

بطاعة الله قال تعالى : ( اعملوا آل داود شكرا ) . وشكر الجنان : الاعتراف بأن الله وحده هو

المنعم قال تعالى : « وما بكم من نعمة فن الله ) . وسأله لاجين : ما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟

فقال : إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبدل والإيثار للعباد ، وإذا كان

ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد » . وبحق ما قاله الشعراني من أن لكلامه حلاوة

وجلالة .

أحمد<sup>(١)</sup> الدردير

هو أحمد بن محمد العدوي المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد ببني عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبَّ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوّية - كما مرّ بنا - عن طريق الشيخ الخلوّى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كريم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحنفى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعدي شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعيّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوّية الصوفية .

وعدّد الجبرقى فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على ورد الشيخ كرم الدين الخلوّى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوّية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلّي عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات<sup>(٢)</sup> والصلوات ، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوّية ، ومما يقول فى مسبعاته داعيا ربه متبتلا إليه .

« اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شتاة الأعداء ،

الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ١٣

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجبرقى ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد



وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفجأة النعمة .

اللهم إني أعوذ بك من شر الخَلْق وهم الرِّزْق ، وسوء الخَلْق .

اللهم إني أعوذ بك من الرِّزْق والجَزَع ، وأعوذ بك من الطمع في غير مطمع .

ويظل يستعيز من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يظلم أو يظلم أو يبغي على إنسان أو يبغي عليه ذو سلطان أو يطغى أو يطغى عليه . ويستعيز من الشرك الظاهر والخبى ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائماً في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودنياه .

وننتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مر بنا حديث

عنها عند البوصيرى ، إذ يقول :

« اللهم اجعل أفضل صلواتك أبداً ، وأسمى بركك سرمداً ، وأزكى تحياتك فضلاً وعدداً ،

على أشرف الخلائق الإنسانية ، ومجمع الحقائق الإيمانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجان لسان

القدم .. وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .

اللهم صلّ على مَنْ مِنْهُ انشَقَّت الأسرار ، وانفَلقت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلت

علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه مناسبق ولا لاحق ، فرياض الملكوت

يزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .

اللهم صلّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار ،

ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال .

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدى وأن وجود الكائنات مستعار

منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود

العلوى والسفلى وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئى في كل نور ،

ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعنى أزلية النور المحمدى أو قل أزلية الحقيقة

المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سبعاته الخاصة ، ومع

الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد واسئلك بنا طريق الرّشاد .

وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد واخلع علينا خلع الرّضوان والوداد ،

وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وتوجنا بتاج القبول بين العباد .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَارْفَأْ بِنَا رَافَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ يَوْمَ النَّادِ (١) «  
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكأن الدردير يستمد من معين  
لاينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعدوبة .

## ٥

## كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

## (١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأفاصيص القصيرة التي تروّح عن النفس أو  
التي يُقصدُ بها إلى غرض خلقي نبيل ، وتارة يراد بها أفاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم  
أوقاض أو نجيل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في  
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة  
الثانية .

## كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد (٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن  
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،  
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكتبه في ديوانها ،  
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروى أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب  
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلم الأوائل . ورُزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله  
ليعمل كاتباً في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خجارويه وليس ذلك  
فحسب ، فإنه وصله بعلم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في  
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتابا في الأقواس

(١) يوم التناد : يوم القيامة واستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (قسم الفسطاط)

كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خجارويه . وكتابه  
المكافأة طبع مرارا .

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥

وتاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوزني) ص ٧٨

المثالة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثمرة في الفلك لبطليموس . وقد توفي سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسان تميم أموالها في التجارة والزراعة ، فأغدا كثيرا على كل من رأياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل يمثله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوءهم وشهرهم لما يجران من أوحم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهي تصور حسن العقبي وكيف أن أناساً تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لاتزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصّلتني على الباب أى لحقني - اعتذرت إليه من تقصيري في حقّه - امرأة تُطلق ( أى أصابها المخاض ) - ست ( أى سيدة ) - امرأة مقربة ( أى قربت ولادتها ) . واستخدام قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزء ماقد متيه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدام أيضا مطابقتنا في العمامة بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتهوا على صيباني حلواء في العيد » والفصحى أن يقال « اشتهى على صيباني » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نضع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبي في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

## أخبار سيويه المصري

ألف هذا الكتاب ابن <sup>(١)</sup> زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له في الدراسة هو محمد <sup>(٢)</sup> بن موسى الكندي المعروف باسم سيويه المصري ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متنسكا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ في ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه في الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه في المجالس العامة والمساجد والمتنزهات . وما زال هذا دأبه حتى توفي سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب في خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبيلا على كتاب الكندي : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكماله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب في سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق في كتابه أخبار سيويه مشاهد مختلفة لنقد سيويه للحكام وللناس في عصره ممزوجا بشيء من التباله ، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح ، إنما كان يجر وينهر بألفاظ غير قبيحة ولكنها تحز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب في موكب لصلاة الجمعة ، فتصدى له يوما في أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سلطت عليهم قاصفة (يوم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تتبعها الرَّادِفَةُ) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفزع ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسمن البدن ، قطع الله منه الوتين <sup>(٣)</sup> ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قبيل الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمر يجتته القلاة » .

(٢) راجع في سيويه المصري معجم الأدباء ٦١/١٩

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر في ابن زولاق معجم الأدباء ٢٢٥/٧ وابن

خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول

إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

وكان سيويه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أوقل فى هجائه للحكام ، ويوشبهه بآية أو آيات قرآنية على نحو مأمراً بنا أنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ماكان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمناه فيضحكون ويفرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقربوه ويحاسبه أملا فى أن لا يكويهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتأبه ، ولفق أصحابه ، وحشد بين يديه حجابه ، وشمّر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرح فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرِقَ فخرج لهذا الأمر ينكره » ؟ . ومع أن سيويه كان يصوغ نوادره فى هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا فى مثل : « فجاءت فراريج فلقتوا ما بين يديه » والفصحى فلقت ما بين يديه . وكان أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

### كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن ممتى الذى مرت ترجمته ، وقد قصّ فيه طائفة من النوادر نسبا إلى قراقوش <sup>(١)</sup> التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وفوّض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحمق ، فانتز ابن ممتى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش » <sup>(٢)</sup> فى حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوفه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قسا فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن ممتى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إبنى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حزيمة فاشوش ، قد أثلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ،

(١) انظر فى قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالا لنا فى مجلة الكاتب

المصرى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١ -

١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤

ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يردّ كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . ويأخذ ابن ممتى في سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمّ بحبسها لولا أن شفعت فيها جارتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ صرخ فى الرجلين قائلا : إنها اللذان اعتديا عليه بتنف لحيته ، وضاح فى غلماه أن يزجّوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبت الشعر فى ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءت به بحدّادٍ له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشقه فقيل له إنه حدادك الذى يتعلّ لك الفرس ، فنظر أمامه فراه رجلا قفّاصا فقال : « اشنقوا القفّاص وسيبوا (اتركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممتى قراقوش متصرفا فى القضايا بحمق مابعد حتم ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تبينا يضيع فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية تُنتف ، أو قل يدخل جانبا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يبرأ ويرى يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممتى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسع فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ما فى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن ممتى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحتمق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحمقى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من العجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأي الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

### هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فتجد علما واعظا يسمى يوسف الشربيني يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والضعف والجهل فى قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادى فكاهية عما كان يعانىة أهل الريف حيثئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدى وطعاما يتخذ من القول يسمى البيسار والمش العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الربى صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعزتين وحصه فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادى لاذعة تحمل فى أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسواته .

### (ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت فى مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة موسى وقصة ليوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومرَّبنا فى الحديث عن كتابة التاريخ فى الفصل الثانى بيان لبعض ما كتب فى السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة فى ميلاد الرسول ﷺ وما اقترن به من خوارق وحياته وما راقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتي تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة فى الكوميديا الإلهية (٢) ومجانبا هذا القصص الدينى الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر فى تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا فى مجلة

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لباتشيا ترجمة الدكتور

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين .  
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألقت في مصر - أو أخذت بها شكلها  
النهائي - وهي سيرة عنتره والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة .

### سيرة (١) عنتره

أساس هذه السيرة أخبار عنتره في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسيته  
وحبه لبعلة ابنة عمه . ويتحول عنتره في السيرة بطلا عظيما للمحمة عربية تمتد فيها بطولاته من  
العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية في أول كتاب منية  
النفس في أشعار عنتره عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي  
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة في قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار  
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها ، فألف لهم  
سيرة عنتره وشُغفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع  
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري ، وحتى أصبحت في اثنين  
وثلاثين جزءا ، وهي منشورة في أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنتره في الزمان فحسب ، بل  
تمتد أيضا في المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنتره العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام  
وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا والحبشة والسودان . وهي موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من  
قديم أن يتشدها الناس على الرابة في حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا  
من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقطع الكلام في كل جزء من أجزائها  
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه . وهكذا حتى نهايتها .  
وتتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بني عبس قبيلة البطل ، وتعرض  
السيرة مولد عنتره وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقبيلته ضد القبائل المنافسة  
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببعلة من أعمال شديدة الخطر جسّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر في سيرة عنتره وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية



ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

ويصبح عنتره حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا فى السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنتره من أميرة إفريقية وإنجابها منها الجوفران وربما كان تحريفا لجود فرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنتره فى السيرة تتسع لالتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشى ، وعرف عنتره أنه جد أمه زبيبة . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصرية بتاريخ العرب فى الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب فى الإسلام وفتوحاتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائرتهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثلها عنتره أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائل النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام ورؤى وأساطير وخوارق عجيبة .

### السيرة (١) الهلالية

قوام هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسلم ورياح وعدى وربيعة والأثبج إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمالى إفريقيا ومن كان بهذه الاقاليم من الصنهاجين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

للهلالية والزناتية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا فى للسيرة الهلالية لعبد الحميد يونس .

(١) انظر فى السيرة الهلالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث روى بها أشعارا

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطي . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمي في عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها في المستقبل . وحانت الفرصة لذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكي السننى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة في تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسלט عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ماتحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يملكونه من بلاد المغرب وسرعان ما لبثه جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت في سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغبة في سنة ٤٤٦ طرابلس ، واتجهت هلال ورياح والأثيخ وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتفى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعع الإمارة بينما تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها في الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها في هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبثت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاص للسيره أو قصاصها استغلوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هى الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتوح (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأثره على عشيقها ، وزوجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أوبيا في نجد ، حتى إذا قدمت معهم

مضوا مع أبيها في الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زُوجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبها له . وهي قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بني هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بني هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلائهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سُمِّي القصاص بطلها أبازيد الهلالي وسما خصمه في قبيلة زناته : الزناتي خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجي ، كما غاب زعيم القبائل يجي الرياحي وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعينين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العريين الخياليين : أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبي . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها أُلِّفت في القرن السابع الهجري أو بعده في القرن الثامن وهي مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصري في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشد على ربابة في المقاهي والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالي أبو زيد الهلالي وأبناء أخته يجي ومرعى ويونس وفي تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التفرقة وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناتي خليفة من دخولها وتفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبي زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقي بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبي ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناتي خليفة ويتأمر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهي السيرة ، وهي تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup>

كان طبيعياً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقاً إلى شمالي العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحه المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبإيعاه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحزماً وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التتار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكال للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدُّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلّف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطلٌ عربي يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الديناري وكاتم السراي كاتب السر وناظر الجيش والصاحب والدويداري ( تحريف للدوادار ) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل في السيرة قصص طويلة كقصة إبراهيم الخوراني ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وواعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأبيك وقطر . وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالهم منذ زعيمهم الحسن الصبّاح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيعه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربه قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتمخل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، وترجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجرى .

### سيرة (١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهى تصور الصراع بين العرب والأحباش فى أواخر العصر الجاهلى . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهى فى ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن فى سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة فى التاريخ القومى العربى ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية . وتجعل السيرة سيف بن ذى يزن حنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول إنما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألقت بمصر فى القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

### ألف (٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم فى كتابه « الفهرست » : من كتب الأسمار والحرفات التى نقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندى . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، ولا يعرف بالضبط متى أضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أريد بها أن يحوى ليلالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب فى بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة . وتميز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائى وإبراهيم المهدي . ويشيع فى الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكره وتدينه البالغ ووجه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

كتاب « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

(١) راجع فى هذه السيرة وما بها من تأثيرات مصرية مقال ياربه عنها فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر فى ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات فى

القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطعن به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المختالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزبيق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصور حياتهم فى الأسواق والحمامات وما يغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويز . وملتقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصباح العجيب وأيضا حكاية مريم الزنارية ، وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب . وأهم من كل ماسبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى أخرجته بلغتها العامية فى صورته المعروفة لنا ولأسلافنا منذ القرن الثامن الهجرى .

وقد انتشرت ألف ليلة وليلة بلغتها العامية المصرية فى جميع بلدان العالم العربى ، وبالمثل انتشرت فيها بتلك العامية القصص الشعبية : قصص عنزة والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن . وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم . وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث وأن الإذاعة والسينما أتاحت لها هذا التعرف فى عصرنا ، وهو - كما قلنا - تعرف قديم .



القسم الثاني  
الشام





# الفصل الأول

## السياسة والمجتمع

١

### فتح العرب للشام والحقب (١) الأولى

#### (١) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهي سهل ساحلى يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . وتجرى فيها أنهار صغيرة أهمها العاصى المتجه إلى الشمال في سوريا ، والليطاني المتجه إلى الجنوب ، وبردى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذى يصب في البحر الميت ، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طبرية . ويجنوبى دمشق هضبة حوران . وفي شمالي الهضبة الشرقى منطقة اللجأ وفي جنوبيها الشرقى جبل الدروز . وتنساب الشام شرق حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديم يُزرعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها في الشمال أشجار الأثل المختلفة وهيا ذلك أهلها لكى يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هيا البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلى . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد

تغرى بردى والمغرب ( قسم القسطنط ) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لقلهوزن وتاريخ العرب - مطول لفيليب حتى ( الترجمة العربية ) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ( نشر دار العلم للملايين ) .

(١) انظر في تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى ( الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت ) وراجع في فتوحها وتاريخها الإسلامى تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن

إخناثون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتقد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكون الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحلي بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوّنوا لهم مستعمرات في إسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الآشورى في القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الآشوريون في القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق . م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق . م . وتولّت بعده شتونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الامبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام : إمارة النبط في شرق الأردن وأقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرًا في الجنوب بشرقي الأردن وبُصْرَى في الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامي ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَنْمُرُ شمالي بادية الشام ، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أُدْبَيْة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا في عهد زوجته الزباء ، فقبضوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شَقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوبي دمشق ، وهي قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جِلْتَق أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حكيمة بالقرب من قَسْرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خَرَّ المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادي

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطة .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الخفيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُدْرَأَ خطرهما . وهو ما جعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبي العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسيرا في سنة اثنتي عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم في الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرقي الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقي من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيشي الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وقَّح بُصْرَى شمالي البلقاء . ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدتي الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهي أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم في اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام في نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الجابية - جنوبي دمشق على مسيرة يوم منها - وهي إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضمَّ ولاية الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها ، وفتحت له القدس أبوابها ، وأمن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحرمتهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُحْلَى القدس من اليهود وأجاب ملتسهم ، ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين ، وفيه توفي أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبي سفيان وإلى دمشق ، وولاهها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة بيدو الشام في

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبي طالب ، وعزله ، . فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صيفين بين معاوية وبين علي بن أبي طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده - استجابة لمشورة عمرو بن العاص - أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى علي وأقيم حكمان للفصل بين الطرفين : أما جند علي العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعري ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجد الحزَّ وطبَّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل علي عن الخلافة لوقف الحرب وحقق دماء المسلمين . وأعلن الحكم ، وانقسم جيش علي : فرقة معه وفرقة سَمَّتْ أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامي وحاربهم ونكّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجي أئيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن علي تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمرأؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

### (ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفياني نسبة إلى أبي سفيان ، معاوية على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مرواني من البيت الأموي نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصير بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر ، والمغيرة بن شعبة الذي ولاه الكوفة ، وزيايد بن أبيه الذي اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة علي في شرقي الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى ييزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شئون الحكم وعمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية في الشؤون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده في خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفي عهده توغل عقبة بن نافع - ابن خالة عمرو بن العاص - في البلاد المغربية ، وأسس في وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبي البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي ، كما أباه الحسين ابن علي واتجه إلى العراق ، فلقيته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد وإلى العراق قبيل دخوله الكوفة في « كربلاء » غربي الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشيعنة ، ولا يخلو ضريحه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السُّكُونِي ، فضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية ، ففكَّ عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتَهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بدوها من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مَرَج رَاهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائداً فيها ، وباع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكري العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفي وإلى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير وإلى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وباعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل في قتال القوم حتى خرَّ صريعا . وقد عُني ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة في المغرب .

ويُعدّ زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما في

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحها هناك أقصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة ثم هباً لرخاء واسع في ديار الشام ، كما هباً للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموي العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيّن جدرانه وسقوفه بالرخام المطعم والفُسَيْفَسَاء التي كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكّل بقواد الوليد العظام ، فقتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد ألغى سباً على بن أبي طالب على المنابر وعمل على استئالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفّف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين في قبرس وأيلة ( العقبة ) ونجران ومصر ، وسوّى بين العرب والموالي في الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجّل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذي لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهي ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذي اتخذ مقره في الرصافة على الفرات ، وفي عهده ثار زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقتل وصلب ، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومُنَى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبي فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفّي هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغرب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا على الهمة ، وأخطأ بقله عاصمة الخلافة إلى حرّان ، فانفضّ عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها في الشام وبعضها في

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط في أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلّى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها في بوضير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية في الكوفة وطورد الأمويون في كل مكان وأبيدوا بوحشية ، ونُشِئت قبور خلفائهم - عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز - وأُذريت عظامهم ورفاتهم في الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبدالرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبدالملك ، إذ فرّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

### (ج) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام - بسقوط الدولة الأموية - السيادة المطلقة في الإسلام وفقدتها العرب معهم تدريجاً . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا في الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم في الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صدها السيىء في نفوس أهل الشام ، مما هيأ بعد نحو عشرين عاما لثورة القيسية في قسرين بزعامة أموى هو أبو محمد السفيناني ، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفرّ السفيناني إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر . ونمضى إلى سنة ١٩٥ في عهد الخليفة الأمين فيظهر في دمشق سفيناني جديد هو على بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفينان ، ويتردد عامل الأمين عن دمشق ، ويبيعه الدمشقيون بالخلافة . وشغل عنه الأمين بجر أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته أعوان الأمين واحتفى بالمِرّة بالقرب من دمشق وأقام بها أياما ومات . وفي سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المبرقع أبو حرب اليماني وزعم أنه السفيناني المنتظر ودعا أولاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن قويت شوكة فادّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم في ألف فارس وأسرّه وحبسّه ومات في حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبدالله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد في موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلا في مذبح مشهورة ببلدة الرملة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده



أبو جعفر المنصور ، خرج عليه عبد الله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخراساني ، وجبسه المنصور ومات في حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدي الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا والياً لهم في بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سبباً في أن لا يُعْتَمَدَ الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سبباً في أن يحاولوا الإثراء سريعاً قبل أن يُعزَلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمينية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتي ، فقد اندلعت بينها نار العصية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزَلٍ طوال العقد الثامن من القرن الثاني ، واغتنمت السوق بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفِكَت دماء المئات منها . وأخيراً أرسل إليها هرون الرشيد وزيره جعفرًا البرمكي ، فأطفأ نار العصية المحتدمة بين الطرفين بتجريدهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفي سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفساً ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الوائلي خلفاً له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفاً وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحياناً ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيراً من الثغور للدفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم ماتي ذاهبة إلى شمالي الشام آية منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدي والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقله وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في أثناءها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفي سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقًّا وأوطوهم ذُلًّا وَصَغَارًا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عَمُورِيَةَ أَمْنَعِ بِلَادِهِمْ فِي آسِيَا الصَّغْرَى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغري وابنه يوسف يَكِيلُونَ لَهُمْ ضَرْبَاتِ سَاحِقَةٍ . ويظل غزو البيزنطيين صيفاً في أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور في شمالي الشام . وينكل بهم علي بن يحيى الأرميني والفارس المغوار عمر

بن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته ، وبنى له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامراء عاصمته في العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعاً . وربما كان من أهم ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

### (د) الطولونيون - القرامطة

#### ١ - الطولونيون

رأينا في حديثنا عن مصر كيف تنقلت الأحوال بأحمد بن طولون حتى وليها وأنشأ بها الدولة الطولونية محققاً لها نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وكان قد ولي إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعنى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكاً لا يزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائباً عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولاً بشورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأتاب عنه بها مولاة لؤلؤاً ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقوداً باسمه وكتب الموفق ليرسل إليه جيشاً يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهزم الموفق بتلبسته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالحججور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كي يكون في استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذكر فيها ولياً

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السالفة في أول

الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوى .

للعهد ، ولم يرد على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشاً لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعا .

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال ما يعوضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرق في فقراء دمشق والعوطة . وتوفى سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خنارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاية آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فبنى خنارويه بالهزيمة ، وتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجابته ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسرَّ خنارويه سرورا عظيما ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيرا ، مما كان يعود على أهلها برواج واسع في التجارة . وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجمارية له فهددها خنارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد - ونفرت الناس - منه . وخلفه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشه ، وكان لا يزال صيبا ضعيفا ، فأخذت الدولة في التضعف ، وعاث القرامطة فسادا في الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتفي وأغااثهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أى مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لا يقل عنه ضعفا ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

## ٢ - القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧ ، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدتنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأوضحنا كيف أنها بدأت بإيحاء من عبد الله بن ميمون

ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان  
ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبرى ،  
وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادى ،  
ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدورى

القدّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه في «سَلْمِيَّة» بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعائه إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي ، وقد التقى في لسواد بنبطى يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا في الأموال . وانضم إلى قرمط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء . ويخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنو العليّص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . وآية له ثانية هي ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتِب لهم النصر المبين . وساق جموعه في الشام يعيثون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة في وجهه الملمم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقِّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخُطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة وقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعانى ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفي ، ولجى استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في الحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرّ كثيرون منهم إلى البوادي . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لا يزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ في جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طبرية فانتصر على أهلها وقتل بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بصرى وأدرعات ، وتعقبت جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهى حركة

زكرويه وأولاده ودعائه في الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاية مختلفين .

### (هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)

#### ١ - الإخشيديون<sup>(١)</sup>

مرّ بنا في مصر حديث عن الإخشيد وتأسيسه فيها الدولة الإخشيدية منذ سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدّث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد في الفرما ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ما ينقضه ابن رائق ويتيأ الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية في العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبها في فلسطين ، أما شمالها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث في سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتزح الفرصة للإخشيد وجهر الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى القسطنطينية في السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ماتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفي أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكريا ضخما ولقيه في مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة ما بيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر في أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفي سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد في أثناء ذلك ما بين على

<sup>(١)</sup> تغرى بردى ، وانظر قسم مصر ص ١٩ .

(٦) انظر في الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة في أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحيشي باتفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورفّاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعاً مقداماً . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد ، وكان - كما مر بنا في قسم مصر - صيباً ، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب . وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين .

## ٢ - الحمدانيون<sup>(١)</sup> (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذاً حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مر بنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابهم فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظيمة طالما هيا نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلاحق بهم وأذاقهم نكالا شديداً ، وردّ منهم كل ما سلبوه من أهل الشام . ويُكتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة بالتنبي الذي نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقاً ذريعاً .

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ (سامي الدهان) وراجع البيهقي للعلابي ١٥/١ وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحمدانيين وسيف الدولة

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسي بدمشق - تحقيق الدكتور محمد

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته ونحوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها في شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مرَّعش في سنة ٣٤١ وهو يكيِّل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبتقى ولا تندر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوراً . وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشودا هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلى ، وأسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل مافيه . وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعريين حصن الحدث شمالي مرعش والمسلمون يكبرون ويهللون . وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ما بيني يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمالي الموصل وكثيرا مانازلهم هناك وفي شمالي الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهر الجو بين المتنبي وبين البطل العربي . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربي فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنزل بهم ماتعود من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفي نهض البطل من فراشه وصدَّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ لَبَّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في لحده على لَبْنَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعهِ وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونفَّذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابي المعلم الثاني . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبي ، وعقد لهم الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » فصولا طويلة في الجزء الأول منه ، وفيه وفي أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أَوْجُهُم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرَّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلاذتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبو فراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقَاتله وخرَّ أبو فراس في ميدان الحرب صريعا . وفي نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قرغويه الحاجب وأسر وأفلت منهم وانهمز أصحابه وخرَّب نفقور كثيرا من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث تقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذي ظل أميراً لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفي سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جد هما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آباءه ولم يلبث أن فر إلى بلاد الروم في مطالع القرن الخامس الهجري ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا في عهد سيف الدولة المجيد

## ٢

الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكي (نور الدين)

(١) الفاطميون<sup>(١)</sup>

مر - في قسم مصر - حديث مفصل عن الدولة الفاطمية وفتح جوهر للديار المصرية سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمي في المحرم سنة ٣٥٩ ، وفي السنة التالية أعلن المؤذنون في الشام - بأمره - « حى على خير العمل » شارة الأذان الشيعي . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد - كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات - أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة البويهى أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمهده عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقيل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمي وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت - بالقرب منها - بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

القلاسي (طبع ليدن) في السنوات ٣٦٣-٥٥٥ .

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة

وما ذكرنا من المصادر في قسم مصر وذيل تاريخ دمشق لابن



عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده الفوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالي أن يُثري بسرعة على حساب أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين والياً ، وكثيراً ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيَّارين بها كثورة قسَّام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدرّوز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلي بلبنان ، ولاتزال في المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعالي الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعاته إلى ربوبيته إذ كانت تردّد - كما مر بنا في قسم مصر - أن الخلفاء تجسّد للذات العلية . وكان طبيعياً في عهد هذا الخليفة الشاذ المخبول أن تضطرب شئون الحكم في الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدو الجزيرة العربية الشماليين من طيئ ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المرفّج بن دغفل لا يكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويقدم عليه أبو الفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المرفج بالأموال فينفض يده من أبي الفتوح ويعود إلى إمارته .

### (ب) بنو (١) مرداس

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولا تخفى طويلاً في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابي ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المرفّج الطائي ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال في الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقي بهما جيش فاطمي ،

(١) انظر في بنى مرداس كتب التاريخ العام وزيادة الحلب من تاريخ حلب : الجزء ين : الأول والثاني .

فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية في حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفى نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفى سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطالحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم وهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجلقي ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

### (ج) السلاجقة<sup>(١)</sup>

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دقة الحكم في خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعياً أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام ، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أتسز بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تُتَشُّ بن ألب أرسلان من أتسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح في سنة ٤٧٤ أنطَرطوس على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

وفيمر وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل

تاريخ دمشق لابن القلانسي وانظر في أتسز تاريخ دمشق

لابن عساكر ٣٣١/٢ وفي تتش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عمار قاضي طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقره عليها ملكشاه السلجوقي وظلث معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شيزر شمالي الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخرَّ صريعا في الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتِل بالرى في حرب مع ابن أخيه بَرَكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفى دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُغْتِكِين » وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفى سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بوري حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسَلَطُوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتفض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظلما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفى سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذي ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحداً أخوه محمد ، وتوفى فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظلما ، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعى إلا ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقلَّ به مؤسساً دولة الملوك الأرتقية ، وتوفى سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكَّان وإيلغازى ، ومنها أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجهها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

### (د) الصليبيون<sup>(١)</sup>

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ماغرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت الجماعة في عهد المستنصر مما عرضنا له في حديثنا عن مصر ، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور ، فعمل على

واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

(١) انظر في الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه لإساحتها الجنوبية . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ماضعض دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو عبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البورين في دمشق والدولة الأرمنية في بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوياء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال التَّصِيرِيَّة محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريمونددى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصبيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذى استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدي الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

#### (هـ) آل زنكى <sup>(١)</sup> (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

من المنتظم والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والكواكب  
الدريه فى السيرة النورية لابن قاضى شهبة (طبع بيروت)  
وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨٤/٥ .

(١) انظر فى آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر فى الدولة  
الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس  
لابن خلدون والخامس والسادس من النجوم الزاهرة والعاشر

إلى أن الداء إنما يمكن في تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيئا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمالي الشام مثل حماة وحمص وبعبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرّة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضي سستان على ماحقق من هذا المجد البطولي حتى امتدت إلى جثمائه الطاهر أيد آئمة في الظلام سفكت دمه الزكي .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكي لابنه غازي بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم تواسنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية بحجى على خير العمل . وفي سنة ٥٤٤ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفا وخمسمائة وفتح حصن فامية ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفي سنة ٥٥٢ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفي سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واثته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغاما وشاور تجاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأنجده بأمرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ومحدثها بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف - كما مر في حديثنا عن الدولة الفاطمية بقسم مصر - وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقي ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ماينى ينازل حملة الصليب ، وفتح حصون « مرعش وإعزاز وحارم » وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعا ، بنى كثيرا من المدارس في بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبهارستان دمشق وبها توفي سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقي على حلب حتى توفي سنة ٥٧٧ ودخلت في حوزة صلاح الدين وحكمه .

## الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون

### (١) الأيوبيون<sup>(١)</sup> (صلاح الدين)

مر بنا - في قسم مصر - أن الأمور استقرت بيد صلاح الدين منذ سنة ٥٦٧ للهجرة ، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية ، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشولك ورفع الحصار عنها ، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر . وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعة وكفرطاب ، ويولّى على حماة أخاه تقي الدين وعلى بعلبك ابن أخيه فرخشاہ ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين في السنوات : ٥٧٣ و ٥٧٤ و ٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما . ويستولى على الموصل ، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين . ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب ، وهي آخر مرة يقارن فيها مصر لحرهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا ، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر . وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب ، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر ، وسيتوالى هذا التوزيع . وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتسع لسultan حاكمين ، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته . ويعقر له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتدين . ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جرارة ويتجه بها نحو طبرية ، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاي لوزيخان ملك بيت المقدس وتلتقي سريّة له في حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبق منهم باقية ، ويلتقي الجمعان في سهل حطّين إلى الغرب من بحيرة طبرية ، وتُدقُّ أعتاق حملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريموند

الأصهباني وسيرة صلاح الدين لابن شداد وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية . وراجع ما ذكرناه من مصادر أخرى في قسم مصر ص ٢٧ .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام ومفرج الكرب لابن واصل وذيل الروضتين لأبي شامة والفيح القسي في الفتح القدسي والبرق الشامي للهاد

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقيين . وبلغ من كثرة القتل والأسرى أن قال أبو شامة - كما مر بنا في قسم مصر - : « من شاهد القتل قال : ماهناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ماهناك قتيل » ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير .

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل ( بئر سبع ) وعسقلان وغزة وصيد الكرك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت في أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحمية الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار في كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطَّ عن ظهور أهل الشام ما كان يهظهم من الضرائب وملاها بالمدارس والخانقاهات والبيهارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثا مدرارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعليك لبهرام شاه وحمص لشيركوه الثاني . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يجرِّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي . وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحده والفاتر والأشرف موسى . ويغزو حملة الصليب مصر في سنتي ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ما صورنا ذلك في قسم مصر . ونغضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفرديك عن القدس في مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلم منه دمشق وأعطاهما الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فرديك القدس قامت قيامة الناس فلم يبق بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفي الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفي على أثره في نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فأرى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يرض ذلك الملك الصالح فنحى أخاه في سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتزعه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى في نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامي ، وهزم الملك الصالح الحليين في غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق في حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفة لشدة مرضه ، واتجه توجا للقاء العدو بالمنصورة شمال الدلتا في الطريق إلى دمياط ، وهناك لبي نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس - كما مر بنا في قسم مصر - وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب في الساحل الشامي لعله يسترد كرامته التي أهدرت بمصر وبق بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شيء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورا . أما توران شاه فعجزه ممالك أيه جزاء سنار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقبت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيك مملوك أبيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .



(ب) المماليك<sup>(١)</sup>

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك ، وعدَّهم الحكام الأيوبيون في الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيك التركماني في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسي بينها لسنة ٦٥١ على أن يكون للمماليك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعها إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاء سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاء أن اندفع بسول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخرَّبها وأحاطها أنقاضا ، ودخل هولاء في السنة التالية ديار بكر وممَّك حرَّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالي دمشق ، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرَّ الناصر يوسف وأسرته التتار ، وبقي معهم في ذلِّ وهوان مابعد هوان .

ومضى التتار يتقدمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطليين العظمين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحذقوا بهم ونازلوهم حتى أفنؤهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة المماليك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربها للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقي الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبي الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للمماليك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد للحرب من تبقى من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

(١) لأن الفدا صاحب حماة وراجع العصر المماليكي لسعيد عاشور .

(١) انظر في المماليك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقرئزي والمختصر في أخبار البشر

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسطبارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفي العام التالي استولى على صفد وتينين والرملة في فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشقيف وطبرية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التيوتون . وأعظم أجماده الحربية ضد حملة الصليب أخذه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع بائني عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التي أقامها حملة الصليب في أول دخولهم للشام . وبدأ في الأقب من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث ان استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ما سلمت بيروت وجبله . حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعها صور وصيداء وحيفا وأنطربطوس ، وخرج من بقي من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعفة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هي : دمشق وحلب وحمّة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقي الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكي في الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم ( قُيِّت ) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين ( ٦٩٦-٦٩٨ ) والمؤيد شيخ ( ٨١٥-٨٢٤هـ ) رقيا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرّ منهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُني عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل ماسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك في كتّاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعمّ ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يثنون من عار الهزيمة الفاضحة في عَيْن جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكسرتهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كسرتهم على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على البيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحريك بيبرس فولوا مدبرين . وفي سنة ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عيتاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا البيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبء إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاودون هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويوهون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربي الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شتون التتار غازان وكان قد دخل في الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أعد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريرا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيا الشام ، ويلقاه جيش الممالك ، فيهزمه ويقتمح حلب ويُعمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج في طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأتى على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثلها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت في الشام لعهد الممالك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام . ومن هذا الصراع ماحدث من تحول الملك من الممالك البحرية إلى الممالك البرجية الجراكسة على يد برفوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام - كما عانت مصر - من النزاع المستمر بين أمراء الممالك ، حتى كانوا يقتتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك في القرن الأخير من حكم

المالِك ، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجاً حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم العثماني على أبواب الشام في مَرَج دابق .

### (ج) العثمانيون<sup>(١)</sup>

مر بنا في قسم مصر كيف قضى سليم الأول العثماني على دولة المالِك في الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغوري في موقعة مَرَج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقى أهلهما بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالّت أصواتهم له بالدعاء ، وخطبوا له على منابرهما . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بنى معن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليماً ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابعها وتجاراتها منه مما أضر إضراراً شديداً بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التي حولت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكأنما توسم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضي ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد فر إلى سليم من المالِك مملوك خائن هو الغزالي الذي زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ماعدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين ، وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرّصريعاً عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن توزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا : أولاهها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي : حمص وحاة وسلمية وجبله ، وثالثها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة . وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ماعدا نيابة طرابلس في لبنان .

تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة ، وتاريخ العرب (مطول) لفليب حتى .

(١) انظر في العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس ، والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري ، ومقدمة

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانة والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . ويجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. وُمنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبان أورييون من أجناس مختلفة كانوا يُربون تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلمًا كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومن وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المالك ، وكان أكثرهم من الدرروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حروفش يعلبك وآل فريخ فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . وبدل على قساد الحكم العثماني واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدرروز ( ٩٩٠-١٠٢٣هـ ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صغد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدرروز . وتنهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . وتمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م فيسقط ضاهر العمر صاحب صغد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م . ويليه بعده أحمد الجزائر ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثماني ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجتمع<sup>(١)</sup>

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفي قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوريين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس في الشام ربما هو الذى هياها من قديم لأن تكثرت فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعاً يضم هذا الشتات الجنسى في وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه في وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عونه في الحكم وإدارة دفة الأمور في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى في رخاء لم يبلغه هذا الاقليم في أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف الثقل من فستق وغير فستق إلى ما تنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضاً عني أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثاً وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفاً وغير سيوف والزجاج الملون والقاشاني ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضا على المهارة في التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوروبا من قديم ، وظلت تجاراتها تكوّن مصدراً أساسياً لثروتها في عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعتق

في الشام لمحمد كرد على في الجزء الأول من محاضرات الجمع العلمى العربى بدمشق .

(١) انظر في مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجبابة

الأزمة إلى نهاية زمن الممالك الباب الكبير لمرور توابع الهند وغرّوض آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لبنان جنوبي الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل . وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد في تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريحها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد أخذ في التعرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوّنون شطرا مهما في سكان الشام ، وكان الشطر الثاني ، وهو الأكبر ، متحضرا ويقيم في المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقربون زعماء البدو ، ولكي يدعروا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرّج بن دغفل مدينة الرملة .

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالى أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة فلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم في الجيش العربي . وهى بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعية فيما تودى من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده - كما يقول الصولى - خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفياه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع تملك ، وتارة يكون إقطاع استثمار ، وكان عثمان بن عفان أول من سنّ هذه السنة في الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في قريش

والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأهته ونفقاته . وبنى لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى في مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النيروز وعيد المهرجان ، ولا بد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشؤون المالدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضاً لابد أن كانت تقدم ل الهدايا في الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموي بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره ، وقد استقدم - كما مر بنا - لصنع الفسيفساء في جدره وفصوصه اثني عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم في تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مثَّلت فيه أشجار وفرَّعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام ستين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف ، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليوناً من الدنانير ومائتي ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعه ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمنع السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكنفى في المعادن بالصدقة ولا يؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرفع الجزية عن أسلموا من الموالي بحيث يسوى بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور . ويتوفى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولا بد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم ، ويشهد بذلك ماشاده في دمشق والبوادي من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه



الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية ، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتى تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويرى أن بعض ولاية الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدّد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجردا من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تتعش وخاصة فى عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخا . وعنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة (١) .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقبا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هيئة لزمه فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الارهاق غايته فى ولاية المعلى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حيثند فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب بيئاته ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تُستخدَم فى مصالح الرعية كما صوّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لا تحوط رعيّة  
فعلام تُؤخذُ جزيّة ومكوسُ

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمى إلى

والثغور وإنها كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة .

ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حيثند على العواصم

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى أتى جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتِكِين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عثمان في الأمصار كانت بطبرية فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ما قام به بناء مارستان و خانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولا يقر لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكي واستولى على شمال الشام ، وكان قد أصبح خراباً من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الرُّها وامتلات كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكي ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحقبة وبعلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ما كان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والجبن واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس في أموال عظيمة . ووزع في عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سَمَّن كيسه ، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمَّ الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ماصباً في حجور الناس من القناطر المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته في حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بعلبك ودمشق حين أظلمها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينها نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين يتزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشتريين سلعا جديدة . وكان الحرب شيء والتجارة شيء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » صورة لافقة من تواصل الحياة بين العرب المدينين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتنين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفتيين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم - كما يقول ابن جبير - فى عافية : يتعايشون ويتبادلون السلع وعروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض فى سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل فى البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان فى المجتمع الشامى طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعياً والشام دائما حاملة للسياف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالحة والتنافس فى إحسان الرماية . وكان أهلها يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تروج بالأقمشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذى استقبل ابن مسجح مغنى مكة وغناه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة واستقبل أيضا بديحا واستمع إلى غناؤه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سريج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حبابة وسلامة القس ، ووصفه أبو حمزة الخارجى ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحلة قومت بألف دينار .. حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره . . ونشأ ابنه الوليد فى هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته فى كتاب الأغانى ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة وهوه وطربه ، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا فى المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له فى قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبو الفرج فى ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشى بالدَّفِّ على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب فى أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام فى دمشق وغير دمشق . إذ يوجد فى كل زمن منحرفون ينغمسون فى اللهو والخمر وشرب الدنان ، وكان يهينى لهم ذلك فى الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون فى الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفى قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات باللورود والزرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر فى تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابن حجة الحموى فى كتابه ثمرات الأوراق خيرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجرى كانوا قاصدين مصر . فنزلوا بدمشق في طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا في منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذاً على عشاءهم ، فشربوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى ما بين عوادة وطنورية وزامرة وصنّاجة ورقاصة ودقّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحلى وسألمهم في الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس في المنزل واللعب بالشطرنج والتّرد أو القراءة في الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون هو .

ولا ريب في أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترقّات . ويبدو أنهن كن من عوامل شيوع البغاء ، إذ نقرأ في تراجم نور الدين وصلاح الدين والعاقل أنهم طهّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النحاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى في الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقياً توفى سنة ٦٣٢ هو عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون يروى عنه أنه كان بيته نيف وعشرون جارية فما بالنّا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة . ولم يقف المنحرفون بالمجتمع في طهرهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيش ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعاً وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجّان كانوا يعودون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهراً طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليا تنكر نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقي محمد بن على وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهى .

وظلت الشام تعيش في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجرى إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق الفوضى بسبب ما كان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث في السنوات ٧٥٣ و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل في انتصار تيمور لترك السريغ على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها - كما مرّ بنا - نهباً وسفكاً للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكده يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد في حبال وأشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلا . وزاد تيمور لك الطين بلّة بتجريد دمشق - كما مرّ بنا من صفوة صناعتها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولا بد أنها ظلت تعاني من خسائر الحريق وأنقاض عمائر الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمان الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسايم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادي . وظلت هذه العناية بتشيد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومر بنا أن خوارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصراً ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمؤسسات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمؤسسات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظنون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مر بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سييء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهى ذلك لمظالم لاتطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو يتزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عُروضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاسا وفسادا وظل ذلك سائدا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

## ٥

التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصرية - الدرروز - الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين .

### (١) الإسماعيلية والإمامية

مرَّبنا - في كتاب العصر العباسي الثاني - أن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ سلمية قرب حماة بالشام حوالي منتصف القرن الثالث الهجري مركزا للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثني عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين ، إلى أن فرَّ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجري . ونشط دعواتهم في الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التي تقصر إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسرارهِ ، ولذلك سمو باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلي وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبي القاسم محمد الذي اختفى وهو في الثامنة من

عمره حوالى سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لا بد من عودته يوما أو رجعت لهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملا الدنيا حقا وعدلا ، ويسمونه فى أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذى ينقذ العالم من مفاسده وشروره . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعانى الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصي والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر فى القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقها من الشام سببا فى أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبئون فى حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لتحدث عن فرق شيعية غالية هى فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية التزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

### (ب) النَّصِيرِيَّةُ<sup>(١)</sup>

فرقة شيعية غالية غلوا مفرطاً ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن فى قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النصيرى زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادى عشر حسن العسكرى وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبى طالب وأنه خالد فى طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكه العالى ، ولا يلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلَّص اللاهوت أو الجزء الإلهى من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهى ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسى إنما كان رسولا لعلى بن أبى طالب ، ويحلفون بعلى قائلين : وحق على العلى الأعلى ، كما يحلفون بالنور

ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجلولدهم ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس .

(١) انظر فى النصيرية فرق الشيعة للنوحي والمثل والنحل للشهرستانى وصبح الأعشى ٣٥/١٣ ، ٢٤٩ ، والتعريف لابن فضل الله العمري ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلی : « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع . ويقول التوحيخي في فرق الشيعة وابن فضل الله في التعريف إنهم يخلون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبشرون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ما سبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمي فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعواتهم لنحلهم الغالية المفرطة في الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولايته في الشام أن يأخذوا على أيديهم ، ويأمرهم أن يعمرؤا في كل قرية من قرَاهم مسجدا وأن يحوا منها الخمور وكل ما يتصل بالآثام ، وصدعت قرَاهم لأمره .

### (ج) الدرور<sup>(١)</sup>

الدرور فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسد الإلهي حل في الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلي أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصنّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبي ﷺ انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد في الناسوت . وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من

وجولد تسيهر ص ٢١٦

(١) راجع في الدرور صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب

طائفة الدرور : تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين



وديان قرية بانياس غربى دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضاً فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدرور نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيب بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كرمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدي الدولة البورية صاحبة دمشق ثم فى أيدي عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبيين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلاؤا بلاء حسناً فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا عُصَّة فى حلوق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرورى وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدرکہا الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرورى وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسَّدُ إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الإنسانية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدرور لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندى عقيدتهم قائلاً : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعت وإنه يغيب ويظهر بهيته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلامعاد عندهم ولابعث ولاقيامه ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته اناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسقط شريعة الدرور الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندي إنهم يذهبون مذهب الطبائعية في قولهم إن الطبائع هي المولدة ، والموت بفساد الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفساد الزيت ، ويقول : إنهم زادوا في البسمة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجعاعة .

#### (د) الإسماعيلية<sup>(١)</sup> النزارية أو الفداوية أو الحشاشين

مرّ بنا في الحديث عن التشيع بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له : ابنى نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « الموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونا كثيرة بإيران وبعض بلداتها في قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالي أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا في إيران يمثلها الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

(١) ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعيى ١/١٢١ و ٤/١٤٦ و ١٧٩ ورحلتي ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ،

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المخدر. وعمل الحسن بن الصباح على نشر الدعوة الإسماعيلية لافي أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا في إقليم الشام ، فأرسل إليها دعائه ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تثنس السلجوقي (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبوطاهر واستولى مع شيعته على حصن فامية من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفي نفس السنة وفد على دمشق نزارى من الموت ، وتقرب من طُفَيْكِين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغاني وزير بوري (٥٢٢ - ٥٢٦) في دعوته فعين أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثاني صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور ، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفتن بوري فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغاني ، ورد الله حملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون التزاريون في بانياس يمكنون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهي مصياف والرصافة وقُدْموس والخوابي والكهف والميمنة والعليقة ، مركزا للدعوة . ويُعدّ دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين في منازلته ولكنه توفي قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليغتاوه ونجى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرد لهم في سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصره قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يدوا له يد العون في تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالى رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدروز يقاومون التتار - كما مرّ بنا - ولعل ذلك ما جعل الظاهر بيبرس بعد فضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانياً يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعاً ، ولم يعتمد على إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاء حين استولى على قلعة ألموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقي عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه دية ، فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهم له ، وإن أصيب فهم لولده » . ويقول القلقشندى نقلاً عن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فحين عن قتل أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شيحة » المدفون بدمياط .

## الزهد (١) والتصوف

الشام - من قديم - بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيراً بعيداً في تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحداية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّتْ هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه - فى أيام الرومان الظلمة - الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتق كثرة السكان فى الشام الدين الخنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جَلَّةِ الصحابة وبخاصة من أهل الصُّفَّة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرحوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكبرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظماً لهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حلقات الذكر » .

والسلوك للمقرئى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافعى وخلاصة الأثر للمحجى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبْرِى وجولد تسهر ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميناهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النووى وفى أبى الدرداء البيان والتبين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحميد محمود) وكشف المحجوب للهجوئى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسم للمقدسى

وعلى شاكلة معاذ في الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصاري ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصفة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتحمل على اللغو في الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُعقلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري ساخطُ ربه أم راض ، وأبكاني هول المطلع <sup>(١)</sup> ، وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدي الله لا يُدرى أيومرني إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة في الشام العباد والأتقياء وولتقى بهم في كل طائفة : في القضاة والفقهاء والمحدثين وقرّاء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ما هو معروف عن الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذي يخشى الله في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومررنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سوى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحط عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جاييا . ويفيض ابن سعد في ترجمته له بطبقاته في بيان زهده ورفضه لمتاع الحياة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل في دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه في النسك والتعبد حتى اصفر لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلتمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتني في قبري وقد سألت الحدقتان - بعد ثلاث ليال - على وجنتي وتقلّصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعي أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد في الشام . ونكتني بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك ما يقولونه عن شيبان الراعي المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسجع كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد <sup>(٢)</sup> ، ومنهم من كان يتعبد الله في جبال أنطاكية والمصيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(٢) راجع مقامة أحسن التقاسيم للمقدسي .

(١) الاستشراف للأخرة

جبير<sup>(١)</sup> . وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله في الزهد كتاب سماه : « العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » . وولتقى بمعاصره أبي سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دارياً غربي دمشق ، وكان إماما حافظا كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أننى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول المهجورى : « كان ربحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، في تراجعهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهداً أقرب منه إلى أن يكون متصوفاً . وحمل عنه نزعته النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ما كنت به متجملا وعنه راضيا » ويذكر بروكلمان له كتابا في الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيرا . وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبد الله ، وذكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ربحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابدا تقيا صالحا توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى في طرسوس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكانما اتخذوه رباطا لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ماقلناه مرارا في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائما يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان تغير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسي أحمد بن يحيى

مضى ستم للمقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي (شمال الموصل) فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

(١) يقول ابن جبير في كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الحير يتال على الغبراء من الخطباء والمعلمين لاقى دمشق وحدها بل أيضا في القرى والضياع ، ومن ستم للمقام فيها

المعروف باسم ابن الجلاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما مر بنا فى قسم مصر المتوفى سنة ٢٤٥ وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى . وكان ذوالنون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرقى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبو عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشهد مَنْ هو منزّه عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده فى الكون أملا فى أن يقضى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذبارى شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقة المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما على السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقعته الصوفية فنظر إلى ورد السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا قليل ، فخذ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونصبى ( تعبى ) فلما كان وقت العصر قلت له : عطشى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولا دينار . وظل كثيرون من العباد والنسك يؤثرون جبال الشام ويقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقي فى جبل الجولان شرق الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برى ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ



الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري ، وغيرهما كثيرون مثل الختلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ ، وهو أستاذ الهجویری الغزنوی الأفغانی ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالي الطوسي الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته ، ورى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغائها من محبة الله . وأتم الكتاب في دمشق . واستقبلته استقبالاً عظيماً لأن متصوفها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التي وصفناها في إيران ، بل كانوا دائماً يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فاتحة التمام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الائتلاف توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تتش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي ونساؤهم وأمرأؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط في ديار الشام ووقف الرواتب والأموال التي تنفق على متصوفها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلام الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وهدا فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدرباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفي هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبدالقادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لافي العراق وحدها بل أيضا في الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون في العراق والشام وشاعت سريعا في العالم العربي .

ومعنى ذلك أن التصوف السني الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة في أن يكون هو التصوف الشائع في الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفي القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردي الإيراني ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألمنا بها في حديثنا عنه في الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة في إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويحلّقون لحاهم وحواجبهم . وتسرب ثانية إلى الشام جدول صوفي فلسفي زاخر على لسان يحيى الدين بن عربي المولود بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه في إشبيلية وفارقها في الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل في مكة فترة ثم بارحها مطوّفا في البلاد العربية ودخل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ » . وكان إماما في التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود وصنّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفي في التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردي ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيا فيما بعد لكي يظل التصوف الفلسفي - على قلة - حيا بجانب التصوف السني ، وكانت عباراته في كتاباته تحتل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفي ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا في مصر عند الشعرائي .

وتُعنى دولة المماليك بالخانقاهات والرُّبُط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا في ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتي القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الخنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطربة ، وأكلهم الحيات وهى حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة فى أيديهم ، ولفهم شعورهم وتليدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلل ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يذكيها بقود جزل يزيدها لها واضطراما ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد ترهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله تعالى » وزعم أنه وصل فى سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاختنق إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السيميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالى ، وشاع أمره فقبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المرزى والذهبي ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت فى الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجرى الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التى تدين بالنظريات الحلولية ولا تقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقدس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجرى نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أى تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السوى . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون فى العالم الإسلامى ، وكان لهم أثر غير قليل فى حفاظ العامة على الروح الإسلاميه .

وغصص إلى زمن العثمانيين فتشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون في العالم الإسلامي . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحَّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء في عالم الحقيقة والحب الإلهي ، على نحو ما نجد عند عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفي وغير الفلسفي ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية في لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان نائرا .

## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهياها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها فى مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل فى شواطئها فتشارك فى الملاحة والتجارة على نحو ما هو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلال الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية فى زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا فى تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولعت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور فى مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة فى صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة فى مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان فى بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية فى الأدب اليونانى ولع فى صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأديبا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا فى عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهبة التي أسسها أحد قساوستها في أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزوة لقرنها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر الهيليني تُعدّ ثلاثة المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

ومما يدل بوضوح على مدى تأثر ٥هـ الهيلينية في الشام أن نراها تتعمق بادبها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروة الطامحة إليها في عهد أديبته . وحين خلفته في الحكم أرملةته زنوبيا اتخذت لوجينوس الذي علمها اليونانية مستشاراً لها ، ويظن أنه كان حمصي الموطن ، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣ م . وهو يوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يوناني ومسيحي<sup>(١)</sup> يعدها للمشاركة سريعا في نشاطها العلمي والأدبي بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذي كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام في دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وعنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الحنيف . وكانوا مايزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فينبعوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مر بنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفي ، وكبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ من أقرأهم ألفا وستائة ونيفا ، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف في شيء رجع إلى أبي الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا<sup>(٢)</sup> . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن في دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطنًا ، ثم

(٢) انظر ترجمته في كتاب « غاية النهاية في طبقات القراء » لابن الجزري (نشرة برجستراسر) ٦٠٦/١ .

(١) انظر في هذا التراث وكل ماذكرت آنفا كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لفيليب حتى - الجزء الأول - الترجمة العربية .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية ، وطبيعي أن يعنى الأمويون بمن يفقه الناس في شئون دينهم ، ومن يروى لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آي الذكر الحكيم ، ومن يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتونهم فيما يجدُّ من شئونهم .

ومعروف أمر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته أو نحو هذا فاكتبه لي ، فإنني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع في الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سقا في قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا من كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدي أبي الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين في الأمصار الإسلامية لزمه وبعد زمنه . وما نلبث بأخرة من العصر الأموي وأوائل زمن الولاة في العصر أن نلتقى بفتية مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما في الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعي أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التي بعثها الأمويون في الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين في كل بلد شامي من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه في الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقرآته حقبا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلم بذلك في غير هذا الموضوع ، إنما نهم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليها مؤدبون ، يعلمون الناس العربية في المساجد حتى لا يخطئوا في تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصّر الخلفاء وأمرأ البيت الأموي في تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفي كتب الأدب لهم وصايا لمؤدبي أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقومون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من ينابيعها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد جُبنا له فلم نوجَّهه إلى البادية »<sup>(١)</sup> . وظل هذا النشاط في تعلم اللغة بجانب النشاط في تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات في زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم في المدن وأيضا في القرى ، والدولة لاتقصر ، بل دائما تُجرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء في كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظَلُّ الشام عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إضرار الرواتب على العلماء ويطرَد النشاط العلمي في الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموي بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عبيد بن شريّة الجهمي ، وجعلها عبيد موضوعا لسمره وأحاديث معه ، وجمع كثيرا من هذه الأحاديث في كتاب له سماه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، طُبِعَ له في حيدر آباد مع كتاب التيجان في ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون في الشام ، على نحو ما سيوضح ذلك في نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣- ٣٥٦ هـ) حين أظَلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرها من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سداً منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكَلَّ بهم وبمجموعهم مرارا وتكرارا . وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون في زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابي المعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبي علي الفارسي وابن جنى وابن خالويه . وسزاه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه ، كما يرعى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول الثعالبي ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة في الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامي والبيغاء والوَأَواءِ الدمشقي والخالديين والسريِّ الرِّفاءِ وكُشاجم وابن نباتة السعدي . ونحيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر في الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه ، ويكفي أنه نزل عنده لمدة



تسع سنوات أعظم كوكب في سماء الشعر العربي لزمته : المتنبى الذى ملأ الدنيا بوصفه لبطلته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفى أثناءه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر فى يدها لأوائل القرن الخامس الهجرى حتى استولى عليها بنومرداس كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ولا يبق معها فى العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم فى تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أيدينا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التى كان يبدلها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام . ولكن يكفى أن تكون الشام أنتجت فى هذه الحقب أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامى . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمته ، يكفى ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصب وازدهار رائع . وقد استقل بنومرداس بحلب ، ويصور ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لا يزال حياً ناشطاً منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضى طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاوّل أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفتهم الحاكم ، فأنشأ بها داراً سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها فى تنوع الدراسات بها وفى جلب الكتب الكثيرة إليها<sup>(١)</sup> ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطاً علمياً واسعاً فى الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ما قدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُثِدَتْ حركتها العلمية وهى لاتزال ناشئة فى المهدي . ويدخل أكثر الشام فى حكم السلاجقة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس فى المدن الكبيرة لدولتهم فى إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعى والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ما جعل العلم العربى بجميع فروعه شعبياً ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أى حلقة من

(١) خطط الشام لمحمد كرد على ٦٧/٦ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم في مدرسة فإنه كان يأخذ راتباً معيناً يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون في بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت في دمشق المدرسة الصادرية <sup>(١)</sup> بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفي سنة ٤٩١ . وفي سنة ٥١٤ بنى أتاكب العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة <sup>(٢)</sup> للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت في هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهي المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقي بدر الدولة أبو الربيع سليمان

ويُظَلُّ الشامَ لواء الزنكيين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا في شغل مستمر بجروب حملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم الممالك بحيث تزدهر في الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دائرة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدم لهم فيها الغذاء ، ويقيمون فيها للراحة والنوم . وكانت تلحق أيضاً بالمدرسة خزائن كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير في رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين ، وبها قبره نُورَه الله ، وهي قصر من القصور الأنيقة » بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقه الحنفي . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة في دمشق وحلب وغيرها من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدَّ ابن الشحنة منها في كتابه الدر المنتخب في مدارس حلب نحو خمسين مدرسة في بلدة شامية واحدة أسست بين سنتي ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعد لدمشق في سنة ٦٨٠ وهي سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة حنبلية . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هي مدى شيوع هذه المذاهب في الشام فأكثرها انتشاراً

قبلها مدرسة سميت الجاروخية وانظر في حديثنا عن المدارس المصدرين السالفين .

(١) الأعلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس في تاريخ المدارس للنعمي ٤٢٩/١ .

(٢) سميت الأيمينية نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت

فيه المذهب الشافعي ثم المذهب الحنفي ثم المذهب الحنبلي ثم المذهب المالكي . ولم يُبَيِّنْ للمذهبيين الآخرين مدارس إلا في عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يكتظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفي ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبلعك ومنبج » (١) . وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوي ، من ذلك دار الحديث النورية التي أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولَّى مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيما بعد أسندت إلى الإمام الشافعي : النووي .

وبدون ريب بعثت هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثرت العلماء في كل علم حتى ليروى العماد الكاتب في كتابه « الفتح القدسي » أنه وُزِعَ في إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصَّ كل عالم دينار واحد (٢) ، أى أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضروه . ومابالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لا بد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته : ويروى ابن خلكان في ترجمة نور الدين إنه كان لا يزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة في حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن في بلادك إذرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فغضب من ذلك غضبا شديداً وزجر صاحبه زجراً عنيفاً . وكان صلاح الدين على شاكلته في العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يجتلس من أوقاته ما يعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مها بعدت الشقة كما حدث في ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السُّلُفِي الحافظ المشهور (٣) واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه في الفقه وأنه ألف فيه كتاباً وأيضاً

(١) ابن خلكان في ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ . (٢) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على

السُّلُفِي أيضاً : انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

(٣) الفتح القدسي ص ٤٨١ .

فإنه كان يتعمق في دراسة النحو<sup>(١)</sup>. فسلطين بنى أيوب كانوا مثقفين<sup>(٢)</sup>، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة.

ويعدُّ صاحب الأعلام الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس. وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس في زمن الماليك وأخذوا يضيفون كثيراً من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية. وحقاً كانت كثرة الماليك غير مثقفين، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلطين بنى أيوب، ومع ذلك عنوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة، على أنه عُرف بعض متأخريهم بمدارس العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلطين: برقوق والمؤيد شيخ وقايتباي والغورى.

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام الماليك، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد في هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد في كراماتهم والمبالغة في ذلك، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشعر، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ ما يريدونه المتوسلون بهم. ويقف المستشرقون عندما نزل بابن<sup>(٣)</sup> تيمية من محن، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلاً على جمود الفكر الديني حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماماً حنبلياً يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية. ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحمراً فكرياً، وقد حارب الصوفية في منازعهم الفلسفية وكل ما قالوا به في الحلول ووحدة الوجود، وحارب الشيعة الإسماعيلية ومايزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلى وما يتصل به من تجسد الإله

والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ والمنهل الصافي ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلى في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي لصفي الدين الحنفي والكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية لمرعي الكرعى وابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

- (١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ وما بعدها  
 (٢) مما يذكر عن هؤلاء السلطين أنه كان لهم بعض مؤلفات، فكما كان للمعظم عيسى كتاب في الفقه الحنفي كان للمنصور محمد الأيوبي صاحب حجة كتاب في تاريخها ومن زارها أو اتخذها مسكناً من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الامجد الأيوبي صاحب بعلبك يحضر دروس الحافظ اليونيني، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفاً ما بعده شرف.  
 (٣) انظر في ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١

في الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى يفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفتى فتاوى حرة في كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجاته . وهى هجيات صريحة جريئة ألّبت عليه كثيرين من الخصوم في بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حجة عما في القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فهمت على ظاهرها مثل : ( الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ) و ( يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد في الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد في الآية الثانية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ما أجاب به ابن تيمية في رسالة مستقلة : أن واجباً أن تؤمن بما جاء في القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بال مخلوقات وأيضاً دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان ماتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى في الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفعوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرأه من التهمة . ونجاه الله من هذه الحنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية في سنة ٧٠٥ بسب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية ومايموه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدعونها ، وشكوه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخذاعهم للناس كما مر بنا . وفي نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علماءها واجتمعوا له - وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة - وأخذوا يناقشونه في إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فالله استوى - كما يقول - حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلاً موضحاً رأيه في الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه كحاماً وبضعة أشهر . ولبت في القاهرة يعلم ويعظ ، وسرعان ما وقع به خصومه بدعوى حملته على أصحاب المنزعة الفلسفى في التصوف القائلين بالحلول ووحدة الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رقى عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردّ إليه حريته وأكرمه إكراماً عظيماً . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفر عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعدُّ طلقة واحدة . حينئذ ثارت ثائرة الفقهاء ، حتى أجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصدع السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا فى سنة ٧٢٠ وعقد بدمشق مجلس محاكمته ، وسُجن ولبت فى السجن خمسة أشهر وأياماً ثم رُدّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معضية من أشد المعاصي ، فاعتُقل بسبب هذه الفتوى وجُعل في قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولاً بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده في مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان في الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهادا منه ، أما مسألة الاجتهاد في الشرع فقد تركها العلماء له . ولسنا بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلا - كما مر بنا آنفا - على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا على مصاريعه طوال زمن الماليك حتى بين الحناابلة . واشتهر في كل مذهب فقهي مجتهدون جدد مثل النووي في المذهب الشافعي . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعمائة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية في محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغرى بردى يذكر أن كبيرهم في دمشق ابن الزملاكاني ونظيره في مصر ابن دقيق العيد أثنيا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملاكاني قوله عنه : « العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحد علماء الدين .. محيي السنّة ومن عظمت به لله علينا المِنة » .

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة في زمن الماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دائرة وقضاتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أظلم لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جذوة منها متقدة في بعض المدارس والجوامع ومخاصة في الجامع الأموي بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومرّ بنا أن الحكم العثماني بالشام أخذ يسوء سوءا شديداً ، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره في تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذي وضعه الظاهر بيبرس وظل قائما طوال أيام الماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاضٍ عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العربية في دواوين الولاية ، واستخدموا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليده بالعربية ، غير أن العربية كانت لغة الدين الحنيف ، فظلت

حية في ديار الشام هي والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون في الدراسات الدينية وفي الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

## ٢

## علوم الأوائل - علم الجغرافيا

## (١) علوم الأوائل

مرّ بنا - في فاتحة الفصل - أن الشام شاركت في التراث اليوناني منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة في ثغورها : صور وصيداء وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث في الفكر الفلسفي والعلمي ، ومنهم من كان يحدق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامي وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة . ويلقانا في عهد معاوية طيبان من الأطباء المتميزين في دمشق حيثئذ هما ابن أثال ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة<sup>(١)</sup> ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية<sup>(٢)</sup> . وهما يرمزان إلى مانقوله من أن التراث العلمي اليوناني ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا في ديار الشام ، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتبها في الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتباً ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارة وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة (الكيمياء) »<sup>(٣)</sup> . ونمضى بعد خالد فنلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحرّان<sup>(٤)</sup> وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه<sup>(٥)</sup> ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعا من المراكز التي عنيت قديما بدراسة التراث اليوناني . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٧١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٥

(٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبي أصيبعة ١٧١

(٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى

بغداد في كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي

أبجر، ويتخذة طبيبا<sup>(١)</sup> له، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه في أثناء ولاية أبيه على مصر، فلما ولي الخلافة استقدمه وأسلم على يديه، وظل يعتمد عليه في صناعة الطب. وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندري في الطب إلى العربية، ويبدو أنه كان قد نال شهرة في علم الطب لزمته، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر، وإنما ترجمه ماسرجويه<sup>(٢)</sup> البصرى. ولو أنه فكر حقا في نقل التعليم - وخاصة تعليم الطب - إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية.

على كل حال كان التراث اليوناني الفلسفي والعلمي معروفا - طوال زمن بني أمية - في أنطاكية وبعض مدن الشام وفي الأديرة، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب. ويروى أن سالما رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسططاليس إلى العربية<sup>(٣)</sup>، ويذكر بروكلمان أنه تُرجم - أيام الأمويين سنة ١٢٥ - كتاب مفتاح أسرار النجوم<sup>(٤)</sup>. وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليوناني العلمي والفلسفي. وظل المعنيون بعلوم الأوائل يتنفسون في هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين. ويبدو أن دمشق ظلت تعني بها وبخاصة الطب، ومن أطبائها في القرن الثاني الحكم<sup>(٥)</sup> بن أبي الحكم، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمر طويلا حتى لحق القرن الثالث، وكان طبيبا مسيحيا عالما بأنواع العلاج والأدوية. وكان ابنه عيسى<sup>(٦)</sup> - على غراره - طبيبا، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجها، وله في الطب كناش كبير. ويبدو أنه أُسس في دمشق مرصد كبير، إذ نرى المأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت في بغداد ودمشق، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال<sup>(٧)</sup> ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلمهم من الهنود والإغريق في وقت قصير.

وظلت الشام تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني، ومن كبار مترجميها عبد المسيح<sup>(٨)</sup>

- |   |   |
|---|---|
| (١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١                                | (٦) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٧  |
| (٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٨٠، ٣٢٤       | (٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطي ص ٢٨١ منجا خبيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون |
| (٣) الفهرست ص ١٧١                                       | بدمشق، انظر القفطي ص ٣٥٧  |
| (٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٩٠/٤ | (٨) انظر في عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودي بور ص ٢٢   |
| (٥) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٦                                | وعلوم اليونان لأوليري ص ٢٢٧   |



ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطبيعي ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابًا منسوبًا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أتولوجيا أوروبية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندري ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونضى إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسْطًا<sup>(١)</sup> بن لوقا المولود بيبلك في أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون . وذكر له ألدوميللي ترجات أخرى ، وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة في العمل بالكرة الفلكية ، والجامع في الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حَبِيش<sup>(٢)</sup> بن الحسن الأعمش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله في كثير من تراجمه ، ومما ترجمه عهد بقرات وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب في الأدوية المفردة وآخر في الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد<sup>(٣)</sup> ابن يعقوب الدمشقي وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجات كثيرة ، ترجم إيساغوجي (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدال لأرسطو ، وعنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفي مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبابوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتبًا لجالينوس . وهذه الأسماء التي ذكرناها إنما هي رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقبا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة - كما مر بنا - حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة في عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب في زمنه يلمون بحضرتهم ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاطه في حلب أكبر فيلسوف عربي في زمنه الفارابي<sup>(٤)</sup> ، وقد ظل عنده حتى لبيء نداء ربه سنة

(٣) انظر في سعيد ابن أبي أصيبعة ٢٨٢ وبروكلمان

١١٨/٤ وألدوميللي ص ٢١١

(٤) راجع في الفارابي وفلسفته ومراجعته كتابنا العصر

العباسي الثاني ص ١٤٠ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة قسطا الففطى ٢٦٢ وابن أبي أصيبعة

٣٢٩ وبروكلمان ٩٧/٤ وألدوميللي ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) راجع في حبش الففطى ١٧٧ وابن أبي أصيبعة

٢٧٦ وبروكلمان ١١٧/٤ وألدوميللي ص ١٤٣

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفياً وفكرياً ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُني بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد: ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام ما ذكره القفطي عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسي كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتين بسبب إحسانه لعلمين وراتباً ثالثاً جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية<sup>(١)</sup> . وذكر القفطي بينهم في موضع آخر من كتابه ابن كشكرايا<sup>(٢)</sup> وكان طبيباً مشهوراً عينه فيما بعد عضد الدولة البويهى بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضاً بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم<sup>(٣)</sup> الرقي ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل في بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المراداسيين بحلب والسلاجقة في حلب ودمشق ، يدل على ذلك ما يلقانا من أطباء مختلفين في تلك الديار مثل البيرودى<sup>(٤)</sup> في القرن الخامس وظافر<sup>(٥)</sup> بن جابر السكرى ومبشر<sup>(٦)</sup> بن فاتك في نفس القرن ومثل ابن الصلاح<sup>(٧)</sup> وابن البذوخ<sup>(٨)</sup> في القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنوناً من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب - كما روى أسامة بن منقذ - أحد أطباءهم يعالج بعض مرضاه علاجاً يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخرية شديدة ، وسجل على الصبليين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطاً مزرياً ، على نحو ما صور ذلك في كتابه « الاعتبار » .

وندخل في زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى وبمن يعالجهم من الأطباء ، وتنشأ لهم بيمارستانات ، ينزلونها وتقدم لهم فيها الأدوية

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٤

(٦) القفطي ص ٢٦٩

(٧) القفطي ص ٤٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٦٣٨

(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٦٢٨

(١) القفطي ص ٢٥٠

(٢) القفطي ص ٤٠٣

(٣) القفطي ص ٤٢٩

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٠

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير في رحلته ببارستانيين رأهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثاني حديث ، ويقول إن الحديث أحفلها وأكبرهما وجرايته (نفقته) في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكرّون إليه كل يوم ، ويتفقّدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال في الجديد أكثر ، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضرباً من العلاج وهم في سلاسل موثقون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضاً كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البيمارستانات تُبنى في ديار الشام حتى لنتلقى بمارستانات في صرّخد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى ليعدون في كتاب ابن أبي أصيبعة بالعثرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نقف عند مشهورهم ، ونبدأ بشمس<sup>(١)</sup> الدين اللبودي المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطبُّ في البيمارستان النوري الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدُّخوار<sup>(٢)</sup> مذهب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي مولداً وداراً رئيس بيارستان دمشق الذي أسسه نور الدين محمود ، توفي سنة ٦٢٨ وأفرد ابن أبي أصيبعة له في طبقاته فصلاً طويلاً تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقَفّها على هذه الغاية في حياته وبعد مماته . وكان أثره في تعليم الطب بدمشق واسعاً ، وثقفته على يديه جماعة كبيرة . وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلوم الأوائل ما ذكرناه في الفصل الماضي من أن أمراء البيت الأيوبي توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، وتحول كل أمير منهم في بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء في كل فروع العلم ، وناثق بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد<sup>(٣)</sup> الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقدس سنتين يعالج الناس في بيارستانها ، ثم انتقل إلى

(٣) راجع في رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ص ٦٩٩

وَأَلدومبيل ص ٣٢٠

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر في الدخوار ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات

الوفيات ٥٦٣/١ وأَلدومبيل ص ٣٢٠

دمشق وقوّضت إليه رياسة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبي أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيبا . وينوه ابن أبي أصيبعة بكتابه في الأدوية المفردة وكيف كان يتعقبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللّيُّ ( جمع ليفة ) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات في الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به ، ويشاهد النبات ويحقّقه ، ويريه للمصوّر فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوّره . وسلك في تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصوّر في إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له في وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له في وقت يبسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات في أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم <sup>(١)</sup> الدين اللبدي سنة ٦٦٦ وكان يتعمق ببحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبي أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون في الطب لابن سينا ورسالة في مسائل فسيولوجية . ورعاه في الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب في البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيبا ، وكانت له كتب في الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبي أصيبعة <sup>(٢)</sup> الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذي يتكرر ذكره في الهوامش ، توفي سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفي شبابه نزل القاهرة ، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل في البيمارستان الناصري مدة ، ثم جذبه إليه أمير صرخد بفلسطين في الزمن الذي ذكرناه . زمن رعاة العلوم والآداب المتعددين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونخصى إلى زمن المالك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحاق المشهور باسم ابن القف <sup>(٣)</sup> المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

- |  |             |
|--|-------------|
| (١) انظر في اللبدي ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٣ وخطط الشام لكرد على ٤/٤٦ ، ٦/١٠٣ وألدومبيلي ص ٣٢١  | ص ٣٣٠       |
| (٢) راجع في ابن أبي أصيبعة النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ وابن كثير ١٣/٢٥٧ والشفرات ٥/٣٢٧ وألدومبيلي | ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ |
| (٣) انظر ابن أبي أصيبعة ص ٧٦٧ وألدومبيلي   |             |

أبي أصيبعة ، وكان طبيبا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة في صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن <sup>(١)</sup> السويدي إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيدالة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله في الطب « التذكرة الهادية » وفي الصيدلة « الباهر في الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم في هذا الموضوع كالبيروني والرازي وأبي حنيفة الدينوري . ولا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات في بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبي أصيبعة في الحديث عنهم . وأيضا لا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير ما يذكره لهم ابن أبي أصيبعة من مؤلفات تناول علوم الكيمياء والفيزيكا والرياضة والهيئة أو الفلك . وقد مضت الأجيال في زمن الممالك تنهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب في البيمارستانات المنتشرة في بلدان الشام .

ومن نبغوا في الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين <sup>(٢)</sup> بن الشاطر الموقت في الجامع الأموي بدمشق وله كتاب في الزيج توفى سنة ٧٧٧ ومثله ابن <sup>(٣)</sup> الهائم القرظي شهاب الدين المدرس بالقدس في المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة في الحساب والجبر ، توفى سنة ٨١٥ . وعنى كثيرون بالتأليف في علم المنطق . وألفت كتب كثيرة في ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفي بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين في العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسي الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ما أصاب الحركة العلمية في الشام من تدهور في أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يتراءى من حين إلى حين في الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافي وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حينئذ تذكرة <sup>(٤)</sup> داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهي مهمة في وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل في الطب طبع مرارا .

(١) انظر في ابن السويدي فوات الوفيات ٥٤/١ والمنهل

الصافي ١٢٤/١ وألدومبيلي ص ٣١٩

(٢) راجع في علاء الدين الشنرات ٢٥٢/٦ وألدومبيلي

ص ٥٥٣

(٣) انظر الضوء اللامع للسخاوي ج ٢ رقم ٤٤٩

والذنفرات ١٠٩/٧ وألدومبيلي ص ٥٠٦ ، ٥١٣

(٤) راجع في داود الأنطاكي البدر الطالع للشوكاني

٢٤٦/١ وخلاصة الأثر ٦٤٠/٢ وألدومبيلي ص ٤١٧ .

## (ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولاتها ، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت والى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنها قصتان ملفقتان بل منحولتان<sup>(١)</sup> . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لاتدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب المِجَسْطَى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينجب أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى<sup>(٢)</sup> محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجدّه أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودوّن معلوماته فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وما سمعه من الثقات ، وما وجدّه فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منها ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامرة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لبيتر ٤/٢ وألدومبيل ص

٢٢٧ وكراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الترجمة العربية) ص ٥٣ ومابعدها

(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان

٢٥٣/٤ وما بهما من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤

في الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شماليه فالشام فصر فالغرب فبادية الشام . والقسم الثاني ، جعله للمشرق ، يبدأ ببلاد الهياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخورستان ففارس فكرمان فالسند ففازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخططها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخرصرة ، والأنهار العذبة بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقافات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصيني . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التي زارها بكل مشاهدتها حتى لكأنما يبصرها قارئه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا يبارى في عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقفى في مقدمته الطويلة وفي مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر <sup>(١)</sup> بن طاهر المقدسي ، وهو مثله لاتعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافي كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . وولتقى في النصف الأول من القرن الخامس بأبي الحسن علي <sup>(٢)</sup> بن محمد بن شجاع الرعي المالكي المتوفى سنة ٤٣٥ وله « كتاب الإعلام في فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثار والباق الشريفة » .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسياً منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، حين استولى حملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذ هبَّ الشاميون - والعرب معهم في كل مكان - يصرخون في وجوه حملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأما كنا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوحون في وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدَّى لذلك من الجغرافيين المشرف <sup>(٣)</sup> بن المرجي المقدسي الذي صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر في المطهر بروكلان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ .

(٣) انظر في المشرف بروكلان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكي

٢٢٤/١ .

(٢) راجع في الرعي بروكلان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ وما بعدها .

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدس والشام » ليستثير حساسة الناس من حوله حتى يضرّوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رجسهم . وفي نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر<sup>(١)</sup> بن محمد بن أحمد الواسطي سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين في ثمانين مجلدا ، ومن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدينته بهالة قدسية كي يدافع عنها أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى الذماء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس - كما مر بنا - سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حملة الصليب ودمرهم في حطين تدميرا لم يكذب يبق منهم ولا يذر . وتكون لذلك فرحة مابعدھا فرحة في نفوس المسلمين . ولا يكاد يمضي على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باسم القاسم<sup>(٣)</sup> ، وكان يشتغل بالوعظ في دمشق ، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرا على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا على<sup>(٤)</sup> الهروي السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء في الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصاتيساره بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيده له مدرسة بظاهر حلب ، وهي صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبي في الشام لالعلماء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن ينزل بها من جلة العلماء ، حتى لينون لهم المدارس ليحاضرُوا فيها الطلاب . وولتقى بعثمان<sup>(٥)</sup> النابلسي المتوفى حوالي سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتي وعين حاكما لمحافظة القيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم في

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

(٢) انظر في الجغرافى المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم الأدباء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام)

٢٧٤/١ وللمنتظم ٢٦١/١٠ ومرآة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة

الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبر الذهبى ٢١٢/٤ ومرآة الجنان

٣٩٢/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٢١٥/٧ وابن خلكان

٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦

والبداية والنهاية ١٢/٢٩٤

(٣) انظر فى القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨

والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر

٣١٤ وشذرات الذهب ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

(٤) راجع فى الهروي ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات

٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

(٥) انظر عثمان النابلسى فى كراتشكوفسكى ٣٤٩/١



ترتيب بلاد الفيوم» ويؤلف (١) ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ - هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين - كتابا بديعا سماه الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما في البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات ، وقد رجعنا إليه مرارا في حديثنا عن الحركة العلمية .

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب في الظهور . ونقرأ منها كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس (٢) الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل في التاريخ الطبيعي وما يتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافي كبير ، وألحق به بعض الخرائط وفُقدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطبيعي أن يعنى إبراهيم (٣) بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابه : « الإعلام بفضائل الشام » و « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » . ويلقانا أبو الفدا الملك المؤيد (٤) إسماعيل الأيوبي صاحب حياة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافيا ، وهما الثاني وعنوانه « تقويم البلدان » وهو كتاب جغرافي للعالم في زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عربي حتى العصر الحديث ، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب (٥) الدين القدسي المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » ، ويلقانا عمر (٦) بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ - وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن - وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافي للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا طريفة في كتابنا « عجائب وأساطير » . ويؤلف عبد (٧) الرحمن العليمي المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

(١) انظر في عز الدين بن شداد تاريخ ابن الفرات ( طبع

بيروت ) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب

٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكى ٣٦٩/١ .

(٢) راجع شمس الدين الدمشقي في كراتشكوفسكى

٣٨٦/١

(٣) انظر ابن الفركاح في الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦

وكراتشكوفسكى ٥١٠/٢

(٤) راجع الملك المؤيد في فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر

٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية

١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة

٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكى ٣٨٩/١

(٥) انظر في شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١

وكراتشكوفسكى ٥١١/٢

(٦) راجع في عمر بن الوردى ابن إياس ٦٠/٢

وكراتشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٧) انظر العليمي في كراتشكوفسكى ٥١٥/٢

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ». وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا في الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن (١) طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله في ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامى » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر (٢) الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية في المنازل الرومية » وتلاه محمد (٣) بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية في كتابه « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار » . وتلتقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد (٤) بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصف محمد (٥) بن أحمد بن حافظ الدين القدسي المتوفى سنة ١٠٥٥ زيارته لدمشق والقدس والقاهرة في كتابه « إسفار الأسفار في أبقار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى سترجم له فيما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس وبعليك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك في زمن العثمانيين أحمد (٦) المنيى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العتبي للسلطان محمود الغزنوى .

## ٣

## علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة

أخذت الشام تُعنى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

- |   |  |
|---|--|
| (١) انظر فى ابن طولون ترجمة شخصية له طبعت بدمشق بعنوان : الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون وراجع الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشنرات الذهب ٢٩٨/٨ وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ ومابعدها | (٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢                 |
| (٢) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢  | (٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢                 |
| (٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢  | (٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢                 |
| (٤) انظر فى المنيى سلك الدرر للمرادى ١٣٣/١  | (٦) انظر فى المنيى سلك الدرر للمرادى ١٣٣/١ |
| (٥) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢  | وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢                         |

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين في معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لا يزال بها كثيرون لا يعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لاتعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيَّة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا في الأمثال <sup>(١)</sup> رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولباه أيضا في أيام يزيد بن معاوية أخباري يسمى علاقة بن كريم الكلابي ، فوضع للناس كتابا ثانيا في الأمثال <sup>(٢)</sup> والحكم . وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عنمن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولاشك أن كثرتهم كانت من قراء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموي فزودتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب <sup>(٣)</sup> أولاد عتبة بن أبي سفيان ، وهو أيضا مؤدب <sup>(٤)</sup> الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذي دفعه إلى المجون ، إذ كان زنديقا ماجنا . وكان معبد الجهني مؤدبا <sup>(٥)</sup> لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك في خلافته الزهري المحدث مؤدبا <sup>(٦)</sup> لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثاني والثالث تُعنى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرَّجهما - تخرج أولها وهو أبو تمام في الربع الأخير من القرن الثاني وتخرج الثاني في أوائل القرن الثالث وهو البحترى - وضعا أُقيم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمنها ، وسمي كل منهما مجموعته باسم الحماسة على نحو ما هو معروف . وكانت بغداد - مركز الخلافة - تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبي أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقي وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة في الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة ،

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن

حجر ٢١/٤

(٥) البيان والتبيين ٢٥١/١

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ٢٥٤/١ .

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا في

الأمثال لصحار العيدي معاصر معاوية .

(٣) البيان والتبيين ٢٥٢/١

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحداً ، وكان يؤلف في الميدانين معا ، وقد يكون شاميا أصيلا وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به في الشام الزجّاجي<sup>(١)</sup> عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوى ببغداد ، فُنسب إليه ، ونزل الشام فأقام بجلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلم كتابه الجمل ، وهو كتاب بارع في تعليم الناشئة ، وظل يُدرّس بعده في مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلا عن الشام مدداً متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمال تترخر بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله في علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولاً مفصلاً دقيقاً ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجاجي في كتابي « المدارس النحوية » وأوضحت أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة . وخرج في سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية - إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد - إلى طبرية فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد في النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة - كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع - حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع في بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النقيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بجلب حينئذ أبو الطيب<sup>(٢)</sup> عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب فى الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه<sup>(٣)</sup> اللغوى النحوى واتخذ سيف الدولة مؤدباً لأبنائه ، وله فى اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والمدود وكتاب المذكور والمؤنث وله فى النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب فى القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألّف كتابه « ليس » فى كلام العرب ، وعقب عليه المحافظ المصرى مغلطى فى مواضع وسمى كتابه « الميس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان ينزع فى آرائه منزع الكوفة وتوفى بجلب سنة ٣٧٠ .

النحويين وبغية الرواة وبروكلمان ٢٤٢/٢

(٣) انظر فى ابن خالويه إنباه الرواة ٣٢٤/١ وابن خلكان

١٧٨/٢ ومعجم الادباء ٢٠٠/٩ وبيتمة الدهر ٨٨/١

وطبقات الشافعية للسبكي ٢٦٩/٣

(١) انظر فى الزجاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان

١٧٦/٣ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص

٢٥٢ وبروكلمان ١٧٣/٢

(٢) راجع فى أبى الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب

وبجانب ابن خالويه وأبي الطيب اللغوي كانت هناك طائفة من نخاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السميساطي وعلى بن محمد العدوي وعبد<sup>(١)</sup> الله بن عمرو الفياضى ، وكان معهم النامى الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويًا في بلدته المصبيصة ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بجلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ . وكان كُشاجم على شاكلة النامى لغويا وشاعراً وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب فى البيزرة وكتاب ثان فى أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولها تصانيف فى الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبي تمام وأخبار ابن الرومى . ولمع حينئذ فى سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . وقد تحدثنا عن نشاطهما اللغوى والنحوى فى كتابنا « المدارس النحوية » وبهنا هنا أن نذكر أن ابن جنى لزم المتنى فى بلاط سيف الدولة وبعد ذلك فى بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسها بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم من شرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعرى ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيرى سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت<sup>(٢)</sup> بن شمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفى ذلك ما يشير إلى ما قلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه ما يشير أيضا إلى أن بنى مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التى بعثها فيها سيف الدولة الحمداني وأسرته .

ولعل بلدًا عربيًا لم يظفر بما ظفرت به الشام فى أبي العلاء الشاعر اللغوى العبقري المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشريعة وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله فى أشعاره وفى رسائله وكتاباتة النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكان ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكتها فى أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرّد دائما شروحا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحًا سماه ضوء السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان فى مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهى فى الزهد والعظات شرحًا ، أنشأه فى غريبها وسماه « السادن » كان فى

(١) انظر كتاب (أبو الطيب المتنى) لبلاشير (ترجمة)

(٢) راجع إنباه الرواة ٦٥/١ وانظر معجم الأدباء

عشرين كراسة . ولعل في ذلك ما يشير إلى أنه كان ينبغي في نشر هذا الكتاب أفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع في غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغي أيضا أن يُقَرَّدَ عنه شرح غايياً أوقافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ في رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها ويتنظم في تضاعيفها ، وكان ينبغي أن ينحى عنها ويوضع في هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبي العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التي كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هي ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطي ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزير الدولة فاتك الذي كان والياً للفاطميين على حلب<sup>(١)</sup> من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ . وقدم رسالته السندية إلى والي حلب الذي خلف فاتكا : سند<sup>(٢)</sup> الدولة بن عثمان الكُتامي . ولعل في الرسالتين ما يشير إلى أن ولاية الفاطميين في المدة القصيرة التي تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل في البلدان الشامية الأخرى التي كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعملُ أبي العلاء اللغوي لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّبنا أنه شرح ديوان المتنبي وبالمثل شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحترى وسماه عبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتباً لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد . ويروى أنه ألف في النحو كتاباً سماه النافع وكان في خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة . وفي الحق أنه كان إماماً كبيراً في اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزي : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري »<sup>(٣)</sup> ويعدد الصفدى من رُزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبي : كان أبو العلاء عجباً في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدا<sup>(٤)</sup> ويقول ابن فضل الله العمري : « كان أبو العلاء مطلعاً على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف ، متبحراً في اللغة ، متسع النطاق في العربية<sup>(٥)</sup> » . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوي الكبير

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣١

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٤

(٣) أبو العلاء وما إليه للراجكوتى ص ٥٣

(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠

(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

لم ينشأ في مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ في بلدة المعرة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر<sup>(١)</sup> ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوي والنحوي الكبير الذى كان ماثولاً لافى مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضاً فى مدنها وبلداتها الصغرى .

وفى كتب التراجم نخاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونها للناشئة ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم فى زمن أبى العلاء ، أحمد<sup>(٢)</sup> بن عبد الرحمن الطرابلسى ويذكر مترجموه أنه كان لا يزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر . وكان يعاصره على<sup>(٣)</sup> بن أبى الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية فى صور وصيداء وولتقى من شراح المتنبي بالوأواء<sup>(٤)</sup> الحلبي اللغوى المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوأواء دمشقى شاعر سيف الدولة ، كما ولتقى فى شيزر بمهرف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح<sup>(٥)</sup> على ديوان المتنبي ، وتوفى معه فى نفس السنة أبو اليمن التاج الكندى زيد<sup>(٦)</sup> بن الحسن نحوى دمشقى المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية فى الشام أثناء القرن السابع الهجرى ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر فى هذا الازدهار ، أولهم يعيش<sup>(٧)</sup> بن على بن يعيش الحلبي الدار والمولد ، ولد بلجلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب فى نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نخاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحه عليهما شرحه على كتاب المفصل للزنجشبرى وهو منشور فى عشر مجلدات استقصى فيه آراء النخاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيراً ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبى على الفارسى ، وهو بذلك يُسلِّكُ فى المدرسة البغدادية التى كانت تجمع فى مصنفاتها بين آراء النخاة البصريين والكوفيين وتنفيذ إلى آراء جديدة فى هذه المسألة أوتلك ، وفى كتابنا « المدارس النحوية » توضيح كاف لمنهج ابن يعيش فى النحو واختياره لآراء النخاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . .

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٦) سذكمر مصادر ترجمته بين القراء .

(٢) راجع ترجمة الطرابلسى فى إنباه الرواة ٨٦/١

(٧) راجع فى ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

الوردى ١٧٦/٢ والشذرات ٢٢٨/٥ وبغية الوعاة ص ٤١٩

(٤) انظر فى الوأواء الحلبي إنباه الرواة ١٨٦/٢

والعلم الثاني لم يكن شاميا بل كان مصرياً ، ومنذ العصر الأيوبي كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعليم في البلدين ، وكثيراً ما درّس وعلم جلة العلماء الحلبيين والدمشقيين والمقدسيين في مدارس القاهرة ومساجدها مثل يحيى بن معطى المتوفى بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعناه بين نحاتها المصريين . وكثيرا ما نزل بيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأمضوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفيدون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب (١) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة في القسم المصرى . ويهنا هنا أن نعرف أنه حين أحس نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيًا ، فنزل بزواية المالكية في جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتابيه الرائعين في النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأملى شرحين لها . وتوالت بعده لنفاستهما الشروح عليها بين عربية وفارسية حتى بلغت على الكافية - كما استقصاها بروكلمان - سبعة وستين شرحا ، وعلى الشافية - ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلا في دمشق وطلاب العربية مكثبون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان يخطب الجمعة في المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم في عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معلنا بذلك احتجاجه على عمله المزرى ، وردّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والعلم الثالث لم يكن مصريًا ولا شاميا ، بل كان أندلسيا ، وهو ابن (٢) مالك محمد بن عبد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو في بلده جيان ، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو فى الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة في حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متوليا بها مشيخة المدرسة العادية ، ولم يلبث أن طار صيته في آفاق الشام ، فقصدته الطلاب من كل فج ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم في النحو ألفيته المشهورة ، وتوالت بعده شروحه حتى بلغت تسعة وأربعين شرحا ، غير ما على بعض شروحه من حواش . وألف في النحو بجانبها كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله في

(٢) انظر في ابن مالك ومصادره كتابنا المدارس النحوية

(١) انظر مصادر ابن الحاجب بين النحاة المصريين



الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، وتحفة المودود في المقصور والممدود ، وإيجاد التعريف في علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومثور ، وأوضحت في كتاب المدارس النحوية منهجه في النحو وأنه كان منبجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا في السّفر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو في الأندلسيين .

وتظل دراسات اللغة والنحو في الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المالك ونذكر من نخاة الشام ولغويها الذين تكوّنوا في موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء<sup>(١)</sup> الدين بن النحاس الحلبي المولود سنة ٦٢٧ سمع موطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتفّ الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفي سنة ٦٩٨ ويُنسب له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ<sup>(٢)</sup> محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحّة الحريري ومختصر لصحاح الجوهري جرّده فيه من الشواهد ، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء<sup>(٣)</sup> الدين ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبي الأصل والمولد ، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعي والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوي الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُني به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشغل بالتدريس في مدارس متعددة حتى توفي سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمي بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المالك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجري نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذلك كان بارعا في القراءات أو في الفقه وأصوله وأيضا في العربية ، ولم تكن توجد بلدة لافي الشام فحسب بل أيضا

والنهاية ٩٨/١٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٨/٩

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٣٥٠/٢ وبغية

(٣) راجع في مصادر ترجمة ابن عقيل قسم مصر

الوعاة ص ٦ والشذرات ٤٤٢/٥

(٢) انظر في ابن الصائغ فوات الوفيات ٣٨٠/٢ والبداية

في كل العالم العربي الاوهى تعنى بدراسة اللغة والنحو . وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته .

ونغضى إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة ، إذ لا يستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها ، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة ، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون في مقدمتهم الشيخ ياسين<sup>(١)</sup> بن زين الدين العليمي المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة ، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى ، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام . والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكد يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التى تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل هع الهوامع للسيوطى والمغنى لابن هشام وارتشاف الضرب (عسل النحو) لأبى حيان . بل لقد أمعن فى قراءة النحو عند ابن يعيش ، وتجاوزه إلى من سبقوه ، من أئمة المذاهب النحوية ، بحيث تحول بحاشيته إلى ما يشبه موسوعة نحوية كبرى ، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام فى زمن العثمانيين كانت لاتزال نشيطة تحقّق بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين .

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والنقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث فى الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمي فيما بعد باسم البديع ، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العنّابى الشاعر الشامى لزم الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار<sup>(٢)</sup> زعيم المجددين فى العصر العباسى الأول . وما يزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينمىها حتى ليتخذها كالمذهب له ، وما يلبث أبو تمام الشاعر الشامى أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المنتظرة من تكوين هذا المذهب الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني . ( هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي )<sup>(٣)</sup> . وآثرنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » أن نسميه مذهب

(٣) أنظر ترجمة مسلم بن الوليد الملحقه بديوانه نشر

الدكتور سامى الدهان

(١) انظر فى الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمحجى ٤/٩١

وحاشيته طبعت بمصر مرارا

(٢) البيان والتبيين ١/٥١

التصنيع أى التتميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام<sup>(١)</sup> . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية<sup>(٢)</sup> . ومن ذلك نخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتائى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير منازع .

وما تقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبيلًا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسحقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تُنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مظار ، وسرعان ماالتفت حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم أنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المتنبى تسع سنوات طويلا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال النامى والكتاب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدونون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى - كما مر بنا - وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرا ، وكان أبو على الفارسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سُئل عن لفظه فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده<sup>(٣)</sup> :

وفاؤكما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ      بَأَنْ تُسْعِدَا      وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ

وكان ابن خالويه حاضرا فقال له : يا أبا الطيب إنما يقال شجاء ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكتْ فما وصل الأمر إليك<sup>(٤)</sup> . وكان ذلك سببا فى أن فسد

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( الطبعة العاشرة - نشر

دار المعارف ) ص ٢٣٩

فى البكاء . يقول لصاحبه : اسكبا معى الدمع فإنه أشقى

للغليل كما أن الربيع أكثر شجاء للمحب إذا درس .

(٤) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم

(٢) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧

( طبع ونشر دار نهضة مصر ) ص ٢٩٨ .

(٣) يخاطب المتنبى بالبيت صاحبين له على عادة العرب .

أشجاء : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسعدا : بالمساعدة

مايينها طوال مقام المتنبي عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤلِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المتنبي يغادر حلب إلى غير مآب . والمهم أنه كان ينعقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوي حول شعر المتنبي في حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تنعقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ما كانوا يتحاورون في سرفاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذي يصل الملكة الأدبية ، وصورٌ ذلك أبو بكر الخوارزمي الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان في الحلقة من نقد خصص ، فقال : « ما فتى قلبي وشحد فهمي وصقل ذهني وأرهف حدَّ لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي ، وغصنُ الشباب رطيب ورداء الحدائة قشيب » (١) .

ونلتقي بعد هذه الحلقة بأبي العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوي ، فهو يضمناها شروحه لدواوين أبي تمام وسمَّاه ديوان حبيب وديوان المتنبي وسماه معجز أحمد - كما مر بنا - وراجع البحرى مرارا ناقدًا له ولذلك سمى شرحه لديوانه - كما أسلفنا - عبث الوليد وهو اسمه والبحترى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم في شروحه للشعراء الثلاثة عما في أشعارهم من غريب وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه - ما استطاع - لما يُظنُّ أن أبا تمام والمتنبي أخطأ فيه . ولأبي العلاء في رسالة الغفران نقد كثير أجراه في القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقي الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب في أوزانها وقوافيها . وسوى من هذا النقد في الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسي كتابا بعنوان : « النقد واللغة في رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطا في الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعي (٢) المتوفى سنة ١٠٧٣ مؤلف كتابين نفيسين في النقد والتاريخ الأدبي ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و« الصبح المنبي في الكشف عن حيشية المتنبي » وهو يعرض في الكتابين سيرة الشاعرين عرضا تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيها ، ولا يكاد يترك خبرا مها يتصل

(٢) انظر في البديعي خلاصة الأثر ٤/٥١٠ .

(١) البيهية للثعالبي (بتحقيق محمد محيي الدين

بسيرتها ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارها مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتمامًا واسعًا ، وكان أول كتاب صدر لها في هذه الدراسات كتاب <sup>(١)</sup> سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ واسترجم له بين الشعراء . والكتاب - كما يتضح من عنوانه - يناقش قضية الفصاحة ويقدم لها بمحدث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعاني . ويتناول صفات الفصاحة في الكلمة المفردة ثم في الكلام ، ويخوض في تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة وما يرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته . وولتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ واسترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع في نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالمحسنات البديعية ، وقد عرض منها في الكتاب خمسة وتسعين محسنًا . ويصنف الزمكاني «<sup>(٢)</sup> الدمشقي عبد الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان «<sup>(٣)</sup> التبيان في علم البيان » استضاء فيه كما قال في مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلوم المعاني والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . وولتقى سريعا بيدر <sup>(٣)</sup> الدين بن محمد بن مالك الأندلسي العالم النحوي الذي تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي في كتابه «<sup>(٤)</sup> المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع » وقد أدخل ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع - مثل السكاكي - ذبلا لعلمي المعاني والبيان ، بل جعله علما مستقلا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنًا .

ولم يلبث الخطيب <sup>(٤)</sup> القزويني الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصا دقيقا واضحا

٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والبيغة  
ص ٩٠٦ وانظر في تحليل كتابه «<sup>(١)</sup> البلاغة : تطور وتاريخ »  
ص ٣١٥ .  
١٢٠/٤ (٤) انظر الخطيب في الدرر الكامنة لابن حجر  
والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والشذرات ١٢٣/٦ وراجع في  
تحليل كتابه «<sup>(٢)</sup> البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥  
وما بعدها .

(١) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا «<sup>(١)</sup> البلاغة تطور  
وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر في ترجمة الزمكاني السلوك للمقرئ ٣٨٩/١  
والسبكي ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ وبيغة الوعاة ص  
٣١٦ وراجع في تحليل كتابه «<sup>(٢)</sup> البلاغة تطور وتاريخ » ص  
٣١٤ .

(٣) راجع في ترجمة بدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكي

لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُنى ببسط قضايا علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع في كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التي حظى بها تلخيصه . ويصنّف ابن قيم <sup>(١)</sup> الجوزية دمشقي المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعاني والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُنى بثلاثة فنون من فنون البديع : الجناس وله فيه كتاب جنان الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيها كتاب فض الحتام في التورية والاستخدام وبنار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصبح في زمن تأليف البديعيات وشروحها وهي قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ بديعة في مائة واثنتين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مها لمن يكتبون عن الأدبين المصري والشامي في تلك الحقب ، مع منتخبات بديعة للشعراء والكتّاب تدل على ذوق أدبي مرهف ، وسنترجم له بين الكتّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين ، ولعبد الغني النابلسي الذي سنترجم له في غير هذا الموضوع بديعتان <sup>(٢)</sup> ومع كل بديعة شرح خاص بها .

#### ٤

#### علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعنى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قراءتها في الصدر الأول أبو الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلّى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومرّ بنا ذكر ذلك وأنه كان

ص ٣١٩

(٢) انظر الحديث عنها في كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ

٣٦٤ وما بعدها

(١) راجع في ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤

والبدر الطالع ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ وطبقات

الحنابلة للشطبي ص ٦١ وكتابنا « البلاغة : تطور وتاريخ »

يجعل الناس عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا ، وعدّ يوماً من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستائة ونيفا ، ولعل في ذلك ما يوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوون به في مساجدها . وخلف أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد<sup>(١)</sup> الله بن عامر اليمنى العربى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب ، فقرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ماجعل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقدّمين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة ، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزرى في ترجمته : « لازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى<sup>(٢)</sup> بن الحارث الدّمارى الدمشقى إمام الجامع الأموى المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب<sup>(٣)</sup> بن تميم الدمشقى المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد<sup>(٤)</sup> الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثانى عراقك<sup>(٥)</sup> بن خالد شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام<sup>(٦)</sup> بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد : الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبى ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولا بد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثانى فقد نزل المدينة عتبة بن حاد الدمشقى ، فقرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته<sup>(٧)</sup> ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر<sup>(٨)</sup> الغسانى عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

- |  |                      |
|--|----------------------|
| (١) راجع في ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١ | (٤) ابن الجزرى ٤٠٤/١ |
| وكتاب طبقات القراء لابن الجزرى ٤٢٣/١   | (٥) ابن الجزرى ٥١١/١ |
| (٢) ابن الجزرى ٣٦٧/٢   | (٦) ابن الجزرى ٣٥٤/٢ |
| (٣) ابن الجزرى ١٧٢/١   | (٧) ابن الجزرى ٤٩٩/١ |
|  | (٨) ابن الجزرى ٣٥٥/١ |

ومرّ بنا ذكر ابن خالويه في بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر في حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم - فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضا فإن له في توجيه تلك القراءات كتابا معروفا . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيرا هو أبو الطيب عبد <sup>(١)</sup> المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد في القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة في القراءات الثمان وهو أستاذ أبي عمرو الداني صاحب كتاب التيسير المشهور في القراءات . وذكرنا في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين ما اعتمدنا عليه في تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي على الفارسي تلميذ ابن مجاهد تحتفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبي على الفارسي مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصنف عبد <sup>(٣)</sup> الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المحتجى في القراءات . وولتقى بالحسن <sup>(٤)</sup> بن على الأهوازي شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعري والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر - فيما بعد - كتابه : تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري ، وكانت له مؤلفات كثيرة في القراءات والقرآن وعلومه .

وما يزال التأليف في القراءات والقرآن وعلومه مستمرا في الشام حتى نلتقى بابن <sup>(٥)</sup> الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة في علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . وولتقى في أيام الأيوبيين بأبي اليمن <sup>(٦)</sup> الكندى زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

الزاهرة ٥٦/٥

(١) انظر في عبد المنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١

(٥) انظر في ابن الطحان ابن الجزرى ٣٩٥/١

وطبقات الشافعية للسبكي ٣٣٨/٣

(٦) راجع في أبي اليمن ابن الجزرى ٢٩٧/١ ومعجم

(٢) راجع في « طاهر » ابن الجزرى ٣٣٩/١

الأدباء ١٧١/١١ وخطط الشام ٤٧/٢ والبداءة والنهاية

(٣) انظر في عبد الجبار ابن الجزرى ٣٥٧/١

٧١/١٣ وإنباء الرواة ١٠/٢ وابن خلكان ٣٣٩/٢

(٤) راجع في الأهوازي ابن الجزرى ٢٢٠/١ والنجم



ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثا وثمانين سنة . ومن تلاميذه علم<sup>(١)</sup> الدين السخاوي على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفا وأربعين سنة حتى توفي سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة في القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الإقراء . ومن تلاميذه الذين تصدروا القراءة في دمشق أبو الفتح<sup>(٢)</sup> محمد بن علي ولي مشيخة القراءة بتربة أم الصالح ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضي عبد السلام الزواوي المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالتربة الصالحية بعد وفاة شيخها أبي الفتح وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام في القرن الثامن ابن<sup>(٣)</sup> جبارة المقدسي ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر في بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفي سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان<sup>(٤)</sup> الدين الجعبري استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفي سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصنّف في القراءات كتاب نزهة البررة في القراءات العشرة . وولتقي بابن البارزى قاضي حاة ومفتى الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشرعة في قراءات السبعة . وما نزال نقرأ عن مؤلفات شامية في القراءات حتى نصل إلى ابن<sup>(٥)</sup> الجزري محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر في القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية في طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسي في الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملي الدمشقي أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علماءها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولّى مشيخة الإقراء بالجامع الأموي حتى توفي سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرّد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالتفسير أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ما عُنيت الشام بالقراءات عُنيت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبري

(٤) راجع في الجعبري ابن الجزري ٢١/١ والدرر رقم ١٣٠ والشذرات ٩٧/٦

(١) انظر في مصادر علم الدين السخاوي قسم مصر ص ١١٨

(٥) ترجم ابن الجزري لنفسه في كتابه طبقات القراء ٢٤٧/٢ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض

(٢) راجع ابن الجزري ٢١١/٢

تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوني ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر في ابن جبارة ابن الجزري ١٢٢/١ والدرر رقم

٦٦٧ والشذرات ٨٧/٦

تفسيره أكتب عليه تدرسه ، ويلقانا لها مفسر مهم هو عبد (١) الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعاني الألفاظ القرآنية . وولتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير (٢) للقرآن الكريم . ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة » (٣) . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو عالي (٤) بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيرا كبيرا في مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم يتمه وهو مطبوع . وللغزبن عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزى وابن تيمية ، أما هبة (٥) الله فكان قاضيا لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وله روضات الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه في التفسير القرآني وقد صوره في رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجملناه في مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربي ، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معاني القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله وما يتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبق منهجه على سورة النور وسورتي المعوذتين القصيرتين

(٤) راجعه في تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ والبداية

والنهاية ١١٤/١٣

(٥) انظر في ابن البارزى الدرر ج ٣ رقم ١١٠٣

وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦

(١) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المفسرين

للسيوطي رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكليان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكرد على ٤١/٤

(٣) تمة المختصر لابن الوردي ٨٧/٢

وخصَّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن جميعه .

ونهج نهج ابن تيمية في تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح في كتابه . « التبيان في أقسام القرآن » وفي تفسيره للمعوذتين . وكان يعاصره السمين<sup>(١)</sup> الحلبي أحمد بن يوسف وكان نحويًا مقرئًا ونزل مصر وبها توفي سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخيم في عشرين مجلدا ، وكتاب في إعراب القرآن في ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب في أحكام القرآن ، وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو . وملتقى بابن<sup>(٢)</sup> كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرت تفسيره مطبعة المنار في تسعة أجزاء ، وعداده في التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدًا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين في تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثى الفقهاء » ويقول الشوكاني مثنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » ويصنف العليمى عبد الرحمن بن محمد الحلبي المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيرًا للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشغلت الشام منذ دخلت في الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوى مكمل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون محدثون به الناس من أمثال مكحول<sup>(٣)</sup> مفتى الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد<sup>(٤)</sup> بن شهاب الزهري أول من دوّن الحديث تدوينًا عامًا ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفي سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

خلكان ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب  
٢٨٩/١٠ والشذرات ١٤٦/١  
(٤) انظر في الزهري صفة الصفة ٧٧/٢ وابن خلكان  
١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩  
وطبقات القراء ٢٦٢/٢

(١) راجع في السمين الحلبي طبقات القراء ١٥٢/١  
والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ١٧٩/٦  
(٢) انظر في ترجمة ابن كثير الدرر ج١ رقم ٩٤٨  
والشذرات ٢٣١/٦ والبدر الطالع ١٥٣/١  
(٣) راجع في مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوي وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداده في الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عيينة وسفيان الثوري فقيها العراق . وعن تلاميذ الزهري والأوزاعي في الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذي مرَّ بنا ذكره بين القراء . وممن حمل عنه الحديث القاضي عبد <sup>(١)</sup> الصمد بن عبد الله قاضي دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقي شيخ الشام في الحديث توفي سنة ٢٨٢ . وولتقي بخيثة <sup>(٢)</sup> بن سليمان الطرابلسي أحد الحفاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣ . ولاتلبت بلدة طبرية بل الشام أن تقدّم سليمان <sup>(٣)</sup> بن أحمد الطبراني المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير ، وقد جمع في الكبير أحاديث جميع الصحابة ماعدا أبا هريرة إذ أفرد له كتابا خاصا . وكان يعاصره الحسين <sup>(٤)</sup> بن محمد الماسرجسيّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار ، صنّف المسند الكبير مهذبا مغلّلا في ألف وثلاثمائة جزء ولم يصنّف في الإسلام أكبر من مسنده وجمع حديث ابن شهاب الزهري جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء . وولتقي بحافظ من صيّداء هو أبو الحسين <sup>(٥)</sup> محمد بن أحمد الغساني المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة . ويلقانا حافظ من صور هو محمد <sup>(٦)</sup> بن علي الصوري المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات . ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد <sup>(٧)</sup> بن طاهر المقدسي المعروف باسم ابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات في الحديث النبوي متعددة ، منها : « أطراف الكتب الستة » وهي صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٤) انظر في الماسرجسيّ النجوم الزاهرة ١١١/٤  
 (٥) راجع الغساني في النجوم ٢٣١/٤ وبروكلمان ٢١٤/٣  
 (٦) انظر في الصوري تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣١١/٣ وبروكلمان ٢٣١/٣  
 (٧) راجع في ابن القيسراني المنتظم ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوفائي للصفدي ١٦٦/٣ وميزان الاعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبي ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤

(١) راجعة في النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر في أبي زرعة النجوم ٨٧/٣  
 (٢) انظر في خيثة تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢  
 (٣) راجع في الطبراني تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبي ٣١٥/٢

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين في مقدمتهم أبو القاسم<sup>(١)</sup> بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبني له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله في الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها « الأطراف » جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة الثقات في الحديث ، وله وراء ذلك آمال كثيرة . وجاء بعده عبد<sup>(٢)</sup> الغنى الجماعى المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية سماه « عمدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام » وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزرى الآتى ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مغلطى بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، وولتقى بابن<sup>(٣)</sup> الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق في علوم حديث الرسول ، طبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . ويلقانا محيي الدين النووى الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب في مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرّس بدار الحديث الأشرفية في دمشق وغيرها . وكان يعاصر النووى اليونى على<sup>(٤)</sup> بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخارى ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة في أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين في العالم الإسلامى ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها في واحد وسعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبى ذر الهروى وأصل ثان مسموع للحافظ أبى محمد الأصبلى وأصل ثالث مسموع لأبى القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة السمعانى . وكان بجواره في تلك المجالس الإمام النحوى ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فيما بعد يملئ كتابا مستقلا

الحفاظ ١٤٣٠/٤ والسبكى ٣٢٦/٨ والبداية والنهاية

١٦٨/١٣ والشذرات ٢٢١/٥

(٤) راجع اليونى في الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسلوك

٥٢٤/١ والنجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والشذرات ٣/٦

(١) مرت مصادر ترجمته في ص ٥٦٣ .

(٢) راجع في الجامعى تذكرة الحفاظ ١٦٠/٤ وطبقات

الحفاظ للسيوطى ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ٣٥٤/١ والعبر

٣١٣/٤

(٣) انظر في ابن الصلاح ابن خلكان ٢٤٣/٣ وتذكرة

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليوناني في مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفي أيديهم نسخ من صحيح البخارى للمقابلة . واتخذ اليوناني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونانية ، وهى نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليوناني بسماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه . وهى ذروة فى التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليوناني ، كما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا « البحث (١) الأدبي » .

ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن الهجرى المزمى (٢) يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رئاسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف « طبع فى الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزمى من مفاخر دمشق فى زمنها وله فى الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقي ومختصر الأطراف للمزمى والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين . ومن محدثى القرن التاسع بدر (٣) الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى » والخيزرى (٤) الدمشقي محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخارى المسمى بالفتح البارى . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلاني على صحيح البخارى وشرح النووى على صحيح مسلم .

وطبيعى أن يكون الفقه نشيطا فى الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى فى القضايا الشرعية وما يعرض لهم منها فى حياتهم اليومية ، وفعلا تكوّن للشام إمام أنشأ مذهباً فقهياً ظل فيها طويلاً بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى

وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبدر الطالع ٣٥٣/٢  
 (٣) انظر فى العيني حسن المحاضرة ٤٧٣/١ والفوائد البية  
 ٢٠٧ والضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٢٨٦/٧  
 والبدر الطالع ٣٩٤/٢  
 (٤) راجع فى الخيزرى الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

(١) البحث الأدبي (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها  
 (٢) انظر المزمى فى الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠  
 وشذرات الذهب ١٣٦/٦ والبداية والنهاية ١٩١/١٤  
 والسبكي ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردي ٣٣٢/٢ وطبقات  
 الحفاظ للسيوطي ٥١٧ واللباس فى أخبار المناسك ٣٥/١

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي<sup>(١)</sup> صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفي سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده بيبلك ومنشؤه بيروت ، واتخذها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكي إنه : « لم يكن يلي القضاء بدمشق والخطابة والإمامة - قبل ظهور مذهب الشافعي فيها لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل - إلا أوزاعي على مذهب الإمام الأوزاعي<sup>(٢)</sup> . ويذكر المؤرخون أنه ولي القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد<sup>(٣)</sup> إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملها وأنها كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تغرى بردى أنه توفي لسنة ٣٤٧ قاضي دمشق أحمد<sup>(٤)</sup> بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموي وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لا يزال حياً في دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري . ومعروف أن الأمويين في أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك في أواخر القرن الثاني للهجرة<sup>(٥)</sup> ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالاً عن مذهب الأوزاعي .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولي قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاة في الدولة الإسلامية كان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه الحنفي ، ونظن ظناً أنه كان يوجد في دمشق أحياناً قاض حتى بجانب القاضي الأوزاعي ، وربما كانا يتداولان الحكم ، ومن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضي دمشق علي<sup>(٦)</sup> بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظناً أن حلب كانت أسرع من دمشق في الانصياع لمذهب أبي حنيفة

(٣) انظر فيه وفي أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ ، ١١٣ ،

٢٦٠

(٤) راجع في ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفي

السبكي ١٩٦/٣ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي لبالنسيا ترجمة الدكتور حسين

مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

(١) انظر في الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد

والأنساب للسمعاني ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ

بغداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب

١٤١/١ والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ ومحاسن المساعي في مناقب

الأوزاعي (طبع القاهرة) صنفه مؤلف مجهول سنة ٨٥٠

وضحي الإسلام ٩٨/٢

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٣٢٦/١

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها في ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبي الفهم<sup>(١)</sup> التنوخي الأنطاكي المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيهاً حنفياً بارعاً . وولتقى في حلب بأحمد<sup>(٢)</sup> بن يحيى بن زهير الحلبي المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه من مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بني أبي جرادة هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم في القرن السابع كما سنذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة في دخول مذهب أبي حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثاني كانوا أحنافاً ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يبغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفي . ويلقانا المفضل<sup>(٣)</sup> بن محمد المعري الحنفي المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدوري الحنفي البغدادي وليّ القضاء ببلبك وناب في القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب في الرد على الإمام الشافعي . ويلقانا البلاساغوني<sup>(٤)</sup> محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبي حنيفة ، وليّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله في الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموي ، فحاول أن يقيم فيه إماماً حنفياً ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يملكوه وعزل وعاد القضاء في دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أسست في دمشق - كما مر بنا - المدرسة الصادرية سنة ٤٩١ ويعدُّ ابن شداد من فقهاها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيهاً حنفياً ، وذكر النعمي بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المالك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعاً وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهاها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعمي . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وما أنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق - على المذهب الحنفي من قديم كما مرَّ بنا . واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بني العديم ، وعنى نور الدين

رقم ٢٢٤

(١) النجوم الزاهرة ٣/٣١٠ وتاج التراجم رقم ١٣٥

(٤) انظر في البلاساغوني النجوم الزاهرة ٥/٢٠٤

(٢) انظر ابن زهير في تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم

والسبكي ١/٣٢٦

الأدباء ٥/١٦ وما بعدها .

(٣) راجع المفضل في النجوم الزاهرة ٥/٥٢٠ وتاج التراجم



بالمذهب وكان حنفياً وأسس له مدرستين : مدرسة بلج وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفي وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصري<sup>(١)</sup> الذي انتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني : شرح مفصل في ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر في مجلدين سماه الوجيز ، ومع إيحاظه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضا للشيباني كتاب السير الكبير وهو في الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب ، وله كتاب في الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعنى في المذهب حتى ألف فيه كتابا<sup>(٢)</sup> . وليس ذلك فحسب ، فقد كلف الحصري وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا في عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتُظَلَّ الشَّامَ أيامُ المَالِيكِ ويقرر الظاهر بيبرس أن لا يُقْتَصَرُ في مصر على قاضٍ شافعي كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه في القضاء قاض حنفي وقاض مالكي وقاض حنبلي وعم ذلك في دولته بدمشق وحلب وغيرها من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة في ازدهار المذهب الحنفي بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار بيبرس عبد<sup>(٣)</sup> الله بن محمد بن عطا الأذري المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاة الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذري المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف في كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطاً وافرأ أداه فقهاء الأحناف في ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان<sup>(٤)</sup> الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب ملتقى

مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر في الأذري النجوم الزاهرة ٢٤٦/٧ والسلوك

للمقریزی ٦١٩/١

(٤) راجع في برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية

وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٤٣٣/٢

(١) راجع في الحصري الفوائد البية في طبقات الحنفية

٨٤ والجواهر المضية لابن أبي الوفا ١٥٥/٢ وتاج التراجم

رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٥٢/١٣ والنجوم الزاهرة

٢١٣/٦

(٢) انظر في المعظم عيسى ونشاطه في الفقه الحنفي مختصر

الأبجر في فروع الفقه الحنفي ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية ، وصنف شمس الدين المرثاشي الغزالي المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفي ، ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا في الشام المذهب المالكي ، ويأخذ في النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من الجمارستان النوري ، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهتمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مررنا بذكره في قسم مصر بين النحاة وله مختصران نفيسان في الفقه المالكي وعلم الأصول ، ودرّس الفقه المالكي أيضا في زاوية المالكية الملاصقة لغربي الجامع الأموي ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه في المدرسة الصلاحية عبد (١) السلام الزواوي المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رياسة المالكية بالشام ومشيخة القراء ، وكان معمرا ، توفي عن ٩٢ عاما . ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشرايشي في حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكي كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم في بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكي ، وكان أول من تولى القضاء المالكي بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوي المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى (٢) بن مسعود مدرس الفقه المالكي بالجامع الأموي المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكي لمصنفها سحنون ناشر المذهب في الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب في مناقب مالك ، وإليه انتهت رياسة المالكية في الشام . ويلقانا في كتب التراجم كثيرون ينتقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكي . ويأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين في التضائل والشحوب .

وكان أول من أدخل مذهب الشافعي - فيما يبدو - إلى الشام أبو زرعة (٣) بن عثمان الدمشقي ولي القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولي القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفي سنة ٣٠٢ ويقول

(٣) راجع أبو زرعة في قضاة دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢ والسبكي ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

(١) راجع في عبد السلام الزواوي النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك ٥٤٢/١

(٢) انظر في ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

السبكي كما أشرنا إلى ذلك في قسم مصر : لم يل القضاء بعده في الشام لإشافعي المذهب غير ابن حذلم قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مرّ بنا . ومربنا أيضا أنه ولي قضاء الشام حتى توفي سنة ٣٢٥ . ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد <sup>(١)</sup> الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين <sup>(٢)</sup> بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق في زمن الإخشيد ، وأبو <sup>(٣)</sup> يحيى البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر الميائنجي قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد في القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعي ودراسته في مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكي بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائري <sup>(٤)</sup> الحسن بن حبيب الدمشقي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقانا في القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو <sup>(٥)</sup> الخير المروزي يستوطن المعرة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب في فقه الشافعي يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . وولتقي من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد <sup>(٦)</sup> الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر <sup>(٧)</sup> بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتي ويحدث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب في الفقه الشافعي : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه في الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعي في مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية في سنة ٥١٤ ويعدُّ ابن شداد في

(٥) انظر أبا الخير في السبكي ٢٩٩/٤

(٦) راجع في أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكي ١٠٠/٥

(٧) انظر نصر بن إبراهيم في تهذيب الأسماء واللغات

١٢٥/٢ والسبكي ٣٥١/٥ والعبر ٣٢٩/٣ ومرآة الجنان

١٥٢/٣ والنجوم الزاهرة ١٦٠/٥ والشذرات ٣٩٥/٣

(١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١١/١٥٧

والعبر ١٦٢/٢ والسبكي ٣٢٠/٣

(٢) راجع الحسين في السبكي ٣/٢٨١ وقضاة دمشق ٢٧

(٣) انظر البلخي في قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٣/٢٩٨

والشذرات ٣٢٦/٢ والعبر ٢٢٢/٢

(٤) راجع في الحصائري السبكي ٣/٢٥٥ وقارن مع ابن

غلبون في السبكي ٣٣٨/٣

كتابه «الأعلاق الخطيرة» من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرةً من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصالح الدين والأيوبيين - وكانوا شافعية إلا ما كان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفى - ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيًا ، وبلغت مدارس الشافعية - كما أحصاها ابن شداد - أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابهين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لا يقل عن مائة وستين فقيهاً ناهياً ، واطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعمى فى كتابه «الدارس» وأيضاً فيما قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاض لم يحدث أثراً عكسياً فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهورهم ، فمنهم ابن <sup>(١)</sup> أبو عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبني له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبلبلك ، وبني هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكي عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه «صفوة المذهب» فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العزيز بن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محيى الدين النووى <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦٧٦ عن

(٢) راجع فى النووى السبكي ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية

٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة

٢٧٨/٧ والعبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك

٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

(١) انظر فى ابن أبى عصرون خريدة القصر (قسم شعراء

الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكي ١٣٢/٥

ونكت الهميان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والعبر ٢٥٦/٤

والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية

والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

خمس وأربعين عاما ، ومر بنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته في فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المحرر للرافعي القزويني ، واختصر منهاج فيما بعد الشيخ زكريا الأنصاري ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووي في فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار في زمنه وبعد زمنه علاء<sup>(١)</sup> الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزملاكي حفيد عبد الواحد الذي ذكرناه بين البلاغيين توفي سنة ٧٢٧ . وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلة من هؤلاء الفقهاء ، ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون في الشام مثل تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموي مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعي مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلي في الشام أقل شيئا وأنصارا من المذهب الشافعي والحنبلي ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلي هو أبو القاسم الخرققي عمر<sup>(٢)</sup> بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوت شهرته هو « المختصر » في الفقه الحنبلي ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لا يتعش في ديار الشام حتى قبض له في القرن الخامس أبو الفرج<sup>(٣)</sup> الشيرازي المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه في بغداد على أبي يعلى صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا في دمشق فحسب بل أيضا في بيت المقدس وغيرهما من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة في الفقه الحنبلي والأصول ، منها : المبهج والإيضاح ، ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه ، والتبصرة في أصول الدين ، وله كتاب الجواهر في التفسير ثلاثون

(١) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكامنة ١٧٦/٣

الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وابن

خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق) ٨٥/١ وما بعدها

(٣) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكامنة ١٧٦/٣

وطبقات الشافعية للسبكي ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات

١٥٠/٢ وحسن المحاضرة ٥٤٤/١ والشذرات ٣٤/٦

(٢) انظر في الخرققي تاريخ بغداد ٢٣٤/١١ وطبقات

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد (١) الوهاب بن طالب التيمي نزيرل دمشق وإمام مسجد الریحان .

وخلف أبا الفرج الشيرازي على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون في دمشق والشام ببيت ابن الحنبلي ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف في الفقه الحنبلي والأصول ، منها المنتخب في الفقه الحنبلي في مجلدين والبرهان في أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب في الشام يد سابعة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبيلة ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه « الأعلاق الخطيرة » بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية في بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو ما يصوره ذلك النعمي في كتابه « الدارس في تاريخ المدارس » . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة في ديار الشام - كما في ديار مصر - قاض في كل بلد كبير بجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق (٢) الدين بن قدامة الجماعلي المقدسي عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله وأصول الدين ، منها المغني شرح به مختصر الخزقي المار ذكره في عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافي في أربع مجلدات ، وله في أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفي أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن . ومانكاد تبلغ نهاية القرن السابع أيام الماليك حتى يتألق في المذهب اسم الإمام ابن (٣) تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانبا من تحرره الفكري واجتهاده في غير هذا الموضوع ، ومررنا حديثنا عن منهجه في التفسير القرآني ، وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التي سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهي مطبوعة قديما في خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما في الناس وأضاف

(١) ابن رجب ٩٦/١

٢٥٦/٦

(٢) راجع في ابن قدامة ابن رجب ١٧٠/٢ والبداية والنهارية ٩٩/١٣ والشذرات ٨٨/٥ والنجوم الزاهرة

(٣) مرت مصادر ابن تيمية في الحركة العلمية ص ٥٥١ .

إليها كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى في دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلّة على الجهمية والمعتلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر في الدرر : هو طويل النفس في كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكاني في البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتبجبه القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاةهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخيه من أيام الماليك مجير الدين العليمي عبد الرحمن بن محمد قاضي بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب في طبقات الحنابلة سماه « المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يتحدث بين أصحابها ، مما أتاح مبكرا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيها لهذا العصر كما يكثر التأليف في علم الأصول الذي وضعه الإمام الشافعي وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذي أمنتابه في حديثنا عن علم الكلام بقسم مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه « الإحكام في أصول الأحكام » ربما كان أروع كتاب في علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام - مثل مصر - انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التي نشأت في بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان . الشافعي والأشعري في كل مكان . ولم يلبث أن خصمها الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين في أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكي في طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبي ، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك في غير هذا الموضع . وفي الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردّون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما أشاد بفخر الدين بن عساكر في رده المفتح على الحسن بن علي الأهوازي المار بين القراء في كتابه « تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري » . ويشيد السبكي

بصنى <sup>(١)</sup> الدين بن الهندى المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعرى ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه فى نصرة المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له بجواره كتابا فى الأصول هو « نهاية الوصول فى دراية الأصول » .. وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعرى على مدار السنين فى أيام المماليك والعثمانيين .

## ٥

## التاريخ

نشطت دمشق والشام فى كتابة التاريخ بجميع صورته من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسير المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى نذب نفسه للكتابة فيها أبو <sup>(٢)</sup> زُرعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبى طى المتوفى سنة ٦٣٠ . وولتقى فى أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقى محمد <sup>(٣)</sup> بن يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتعنى مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبي المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها فى حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . وولتقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول مايلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامه بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله ديرنبورج . ولأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

١٢٨/١ وتاريخ ابن عساكر ٧/٢٧٤ وابن حجر فى التهذيب

٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٣/٢١

(٣) انظر فى شمس الدين الشذرات ٨/٢٤٩

(١) راجع فى صنّى الدين طبقات السبكي ٩/١٦٢

والوفى بالوفيات ٣/٢٣٩ والدرر لابن حجر ٤/١٣٢ ومراة

الحنان ٤/٢٧٢ والشذرات ٦/٣٧ والبير الطالع ٢/١٨٧

(٢) انظر فى أبى زرعة النجوم الزاهرة ٣/٨٧ وقارن بالجزء



وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصبهاني وفيه ألف كتابه « البرق الشامى » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفتوحاته وأحداث الشام فى عهده ، وهو فى سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفيح القُسى فى الفتح القدسى » صوّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويراً أدبياً بديعاً . وصنّف بهاء<sup>(١)</sup> الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبى طى . ولابن عنين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة<sup>(٢)</sup> للملك العزيز سماها التاريخ العزيزى : وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد<sup>(٣)</sup> الجلية فى الفرائد الناصرية » . وللنووى المذكور بين الفقهاء كتاب فى سيرة الإمام الشافعى ، ولابن عربشاه<sup>(٤)</sup> الدمشقى المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » مصوراً إفساده فى الأرض وإهلاكه الحرث والنسل ومارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره فى عهد السلطان جُتمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر » . ولبلدر الدين العيني المار ذكره كتاب السيف المهند فى سيرة السلطان المؤيد ، ولبلدر الدين محمد<sup>(٥)</sup> بن أبى بكر الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ سيران : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباى . وله سير كثيرة فى العصر . ولابن طولون الذى ذكرناه آنفاً بين الجغرافيين سيرة لابن العربى المتصوف . وصنّف شمس الدين الدمشقى المار ذكره سيرة لأبى حنيفة ، ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية . ولمحمد بن يحيى الحنبلى سيرة صنّفها عن عبد القادر الجبلانى المتصوف ، وهى مطبوعة ، ولمرعى<sup>(٦)</sup> بن يوسف الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنّفها فى مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ما صادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها فى

(١) راجع بهاء الدين فى ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكي

٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الوردي ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ

١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبداية والنهاية

١٤٣/١٣ والمختصر لأبى الفدا ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة

٢٩٢/٦ والشذرات ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة (الطبعة الثانية)

٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عربشاه فى ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته فى الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر فى مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ما اتصل منها بفضائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام في كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه في ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب . وهذبته بحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهذيبه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلما يذكر في المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثاني الذي سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب في ذكر الجامع الأموي وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها في باطنها وظاهرها وخوانقها وربطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومأمذحت به نثرا وشعرا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعي ثقافي حضاري . وقد عني ابن شداد بجلب كما عني بدمشق . ولعل أهم كتاب عني بها قبله كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » لابن العديم <sup>(١)</sup> عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه في عشر مجلدات أرخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأجدى وجعل له تاريخا لحلب على السنين في كتابه : « زبدة الحب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامي الدهان بدمشق . ولابن خطيب <sup>(٢)</sup> الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تمة لبغية الطلب في مجلدات سماها « الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب » وأكمله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملة « نزهة النواظر » . وعنى بكل ذلك أيام العثمانيين ابن <sup>(٣)</sup> الحنبلي محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزيد والضرب (عسل النحل) في تاريخ حلب » مع تكملة إلى سنة ٩٥١ . ولجبر الدين العليمي المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأئیس الجليل في تاريخ القدس والخليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذكر أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فمسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية في الضوء اللامع جده

رقم ١٠١٦ والشذرات ٢٤٧/٧

(٣) انظر ابن الحنبلي في الشذرات ٦٦٥/٨

(١) انظر في ابن العديم معجم الأدياء ٥/١٦ وفوات

الوفيات ٢٠٠/٢ والشذرات ٣٠٣/٥ وتاج التراجم ص ٤٨

ومقدمة الدكتور سامي الدهان لكتابه زبدة الحب

في الشام إلا تجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ما وصلنا ومنها ما لم يصلنا وضاع مع الأيام .  
 وترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول ما يلقانا فيه ابن القلانسي حمزة<sup>(١)</sup> بن أسد  
 المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذُيِّل به على كتاب التاريخ  
 لهلل الصابي ابتداءً به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره  
 العظيمي<sup>(٢)</sup> الحلبي المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ومحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حياة وتاريخها  
 وله أيضا تاريخ على السنين . وجاء بعدهما ابن أبي الدم<sup>(٣)</sup> الحموي قاضي حجة المتوفى سنة ٦٤٢  
 وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام في ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى  
 المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة  
 الزمان في تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليفة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة  
 وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات في كل سنة ، وكان في أربعين مجلدا ، ونُشر منه في حيدر  
 آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ما أوضحنا ذلك في حديثنا عن المؤرخين بالعراق في الجزء  
 السالف . ولموسى<sup>(٤)</sup> بن محمد اليونى البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرأة في نحو النصف مع  
 ذيل في أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير  
 هو أبو الفدا صاحب حجة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر في أخبار  
 البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة  
 ٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى  
 المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها «تتمة المختصر» طبعت مثل أصلها مرارا .  
 وولتقى بالذهبي<sup>(٥)</sup> محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير  
 الأعلام في ١٢ مجلدا رتبته على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكي تلميذه في

(٤) راجع موسى في الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦

والبداية والنهاية ١٢٦/١٤

(٥) انظر في الذهبي الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الهيمان ٢٤١

وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ

ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القراء ٧١/٢ ومرآة الجنان

٣٣١/٤ والسبكي ١٠٠/٩ والوفى بالوفيات ١٦٣/٢

والنجوم الزاهرة ١٨٢/١٠ والشذرات ١٥٣/٦ والدرر

الطالع ١١٠/٢

(١) راجع في ابن القلانسي تاريخ دمشق لابن عساكر

٤٣٩/٤ ومعجم الأديب ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥

والشذرات ١٧٤/٤

(٢) انظر في العظيمى بروكلمان (الترجمة العربية)

١٣١/٦

(٣) راجع في ابن أبي الدم : السبكي ١١٥/٨ وتاريخ

ابن الوردى ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبي الفدا

١٨٢/٣

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الحياد في عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جام غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى ليقول السبكي أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كإمام الحرمين الجويني والغزالي وأمثالها لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول من طعن فيه ، ويعيد ذلك ويبيده<sup>(١)</sup> . وكان ينبغي أن يكون منصفًا في تاريخه وتراجمه فيه بريئا من العصبية في المذهب ، ويقول السبكي : « هذا وهو الحافظ المِدره والإمام المِجَلُّ فما بالك بعوامّ المؤرخين » . وللذهبي تاريخ عام في مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبته على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر في خبر من غبر » وذكره يتردد في الهوامش .

وكان يعاصر الذهبي أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدوادار صاحب صرّخند ، وله كتر الدرر وجامع العُرر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو في تسعة أجزاء أولها في بدء الخلق وثانيها في الأمم القديمة وثالثها في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع في الدولة الأموية ، والخامس في الدولة العباسية ، والسادس في الدولة الفاطمية ، والسابع في الدولة الأيوبية ، والثامن في دولة المماليك البحرية ، والتاسع في دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر . وتلتقى بابن كثير الذي مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو في التاريخ العام ، عُني فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق والمتهم في الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة<sup>(٢)</sup> الحلبي المتوفى سنة ٨١٥ وله في التاريخ العام « روض المناظر في علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . وتلتقى بعده بيدر الدين العيني الذي مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ مجلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيًا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة في القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

(١) انظر السبكي ١٣/٢ وما بعدها

والشذرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩/١

(٢) راجع في ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠

ومن نلتقى بهم في أيام العثمانيين الجنابي مصطفى<sup>(١)</sup> بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنابي يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرماني<sup>(٢)</sup> أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة .

ويجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتباً فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرَةُ الْفِطْرَةِ وَعُصْرَةُ الْقَطْرَةِ » للعماد الأصبهاني ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البندارى سنة ٦٢٣ بكتابه « زبدة النصره ونخبه العصرة » طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقى بأبي شامة<sup>(٣)</sup> الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسي الشافعي عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حملة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب الحربي تصويرا رائعا ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكتب للروضتين ذبلا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالي<sup>(٤)</sup> القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم « المقتنى لتاريخ أبي شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذبله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقي الدين محمد<sup>(٥)</sup> بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقى بابن<sup>(٦)</sup> واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » نشره

١٥٠١/٤ والدرر ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢/٢٦٢  
والشذرات ١٢٢/٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع  
٥١/٢

(٥) انظر في ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٦/٢٣٤  
(٦) راجع في ابن واصل نكت الهميان للصفدي ص  
٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب  
وخطط الشام لكرد على ٤٤/٤ وله تجريد الأغاني لأبي  
الفرج جرده من أسانيد ، ونُشر في القاهرة

(١) انظر في الجنابي دائرة المعارف الإسلامية . وفي معهد

المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه

(٢) راجع في القرماني خلاصة الأثر ٢٠٩/١

(٣) انظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل

الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحافظ

١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداية والنهاية

٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٥/٢ وطبقات القراء

٣١٨/٥ والشذرات ٣١٨/٥

(٤) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحافظ

الدكتور جمال الدين الشيبان في ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ في تاريخ المالك حتى أيامه كتابه « درة الأسلاك في دولة الأتراك » ابتداءً به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب في تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمي السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقي بكثيرين من كتّاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامون لم يخصوا قطرا عربيا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها ، نذكر منهم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ويقع في نحو خمسة عشر مجلدا ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزاءه . ومنهم ابن<sup>(١)</sup> شاعر الكتبي الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكلمة لما فاته ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكتاب وشعراء وصوفية وحكّام . وكان يعاصره الصفدى خليل بن أيك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسلم به في حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبتهم الشام في كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الضخم الوافي بالوفيات ويدخل في نحو ثلاثين مجلدا نشرت منها طائفة . وله بجانبه « نكت الهميان في نكت العميان » في تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفأ في العالم العربي على توالى الحقب ، وأيضا « أعيان العصر وأعوان النصر » في مشاهير معاصريه في نحو تسعة مجلدات ، وهو جرى بالنشر . ويعنى نجم<sup>(٢)</sup> الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وعُنت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المحي<sup>(٣)</sup> محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر » كما يصنف المرادى<sup>(٤)</sup> محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : « سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر » .

ويؤلف العماد الاصبهانى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أكثر أجزاء العراق . وُصّفت بعد العماد في الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد<sup>(٥)</sup> بن عمر بن شاهنشاه

(٣) انظر في المحي سلك الدرر ٨٦/٤

(٤) راجع في المرادى تاريخ الجبى ٢٣٣/٢

(٥) انظر مختصر المرأة لسبط ابن الجوزى : ٤٠١

(١) انظر في ابن شاعر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر

٧١/٤ والشذرات ٢٠٣/٦

(٢) راجع في الغزى خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء

الأول من الكواكب السائرة

صاحب حجة المتوفى سنة ٦١٧ وكان في عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدي الزمن .  
ومما وصلنا نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبي المذكور في بيان محاسن الشعراء بدمشق  
وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طُبع في مجلدين كبيرين .

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام في هذا العمل عن طريق ابن  
أبي أصيبعة الذي مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن  
وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتُعنى الشام بكتب الرجال من رواة  
الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجماعلي - كما مر بنا - كتاب « الكمال في معرفة أسماء الرجال »  
عن رواة الحديث النبوي في كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزى المار ذكره بين المحدثين  
تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال في اثني عشر مجلدا ، وللنووي كتاب في رجال  
صحيحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين في ذكر رجال الصحيحين وعنى الذهبي باختصار  
هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسمى كتابه « تهذيب تهذيب الكمال » في  
خمس مجلدات . وللذهبي كتاب المشبه في الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة في  
رواة الحديث وغيره . وللذهبي أيضا ميزان الاعتدال في نقد الرجال أى رواة الحديث النبوي رتبه  
على حروف المعجم وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات ، .

ولللذهبي كتابان في حفاظ الحديث النبوي وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ في أربعة مجلدات  
ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطى الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم ،  
والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبي كتاب في طبقات القراء لم يكتب له الذبوع إنما كتب لغاية  
النهاية في طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتردد في  
الهوامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون  
المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللفقهاء كتب كثيرة في رجالهم وطبقاتهم ،  
وقد صُنّف كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فلأحناف كتبهم وكذلك للشافعية  
والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن فقهاءهم ، ولعل في هذا مايدل على أنهم ظلوا  
في الشام قليلين . وكثر التأليف في الحنفية بأخرة من العصر ، فلاين طولون السابق ذكره كتاب  
الغرف العلية في متأخرى الحنفية » .

وللحنفية كتب في طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضية في طبقات الحنفية  
لعبد القادر بن أبي الوفا وتاج التراجم لابن قطلوينا . وكان التأليف كثيرا في طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح أثار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووى ورتبه على حروف المعجم .  
 ومن أشهر كتابه فى تلك الطبقات السبكى وكتابه مذكور مرارا وتكرارا فى الهوامش . وكتاب  
 ابن (١) قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو  
 مطبوع . ونشط الحنابلة فى كتابة تراجم فقهاءهم ولابن رجب (٢) الدمشقى الحنبلى المتوفى سنة  
 ٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع فى مجلدين .  
 ولحمد (٣) بن عبد القادر النابلسى المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع ، ونحتم كلامنا فى هذا  
 المصل بالاشارة إلى كتاب الدارس فى تاريخ المدارس للنعمى (٤) المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور  
 الحركة بل النهضة العلمية التى ظلت أضواؤها تشع فى الشام ، حتى مع ماغشيها من سحب  
 العثمانيين .

(٣) راجع محمد بن عبد القادر فى الدرر لابن حجر

١٣٨/٤ . وبروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦

(٤) انظر النعمى عبد القادر بن محمد فى الكواكب

السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨

(١) راجع فى ابن قاضى شهبة للضوء اللامع ج ١١ رقم

٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبدر الطالع ١٦٤/١

(٢) انظر فى ابن رجب ذيل طبقاته الحفاظ ص ٣٦٧

والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشذرات الذهب ٣٣٩/٦

ومقدمة الدكتور سامى الدهان لطبعة الذيل بدمشق



## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### عرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربي لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التي نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط في مقدمتهم الإغريق نزلوا لها منذ فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتل الرومان الشرط الأكبر منها في أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام ، وتآقت فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم في التعبير الوجداني والفكري .

وهيا كل ذلك لأن تعدد اللغات في الشام قبل الفتح العربي الإسلامي ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل في الشام من قديم ، لالجواره للجزيرة العربية وموقعه شمالي الحجاز وغربي بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهي دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألمنا بها في فاتحة الفصل الأول ، ونيسط الحديث عنها الآن بعض البسط<sup>(١)</sup> . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العلي الجزء الأول وكتابنا العصر الجاهلي ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي في مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وكذلك كتابه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» ٤١٦/١ وما بعدها ، وتاريخ

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت في مطلع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه في سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثاني النبطي دمشق وغوطتها الخصبية ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسي ، إذ كانت تضم شمالي الجزيرة العربية وشرقي الأردن وجنوبي فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها في مطلع القرن الثاني للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب في أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التي سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أجدديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكتابتها العربية ، ومضى خطهم يتطور في بيئتهم وشمالي الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والذي يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تُدْمَرُ أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالي الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزاً كبيراً للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها في منتصف القرن الثالث الميلادي لعهد أذينة الذي بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية في دولته التغلغل في ديارها ، وكان عاملاً في تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة في عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكش ثنائية التأثير اللغوي العربي في ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته في عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغساسنة ، وقد أخذت في الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقت بعد خراب سدِّ مأرب ، واستقرت في شرقي الأردن . وشقت - فيما بعد - طريقها شمالاً إلى حوران ، واصطدمت في تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول في هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جفنة بن عمرو مُزَيْقِيَاء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحياناً باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أي شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادعي أسقفا على الكنيسة المونوفستية السورية ، وكانت تحالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونصّب تسعة وثمانين أسقفا في البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد في سوريا والشام ، ولذلك دلالاته البعيدة في نفوذ القبيلة بالشام وفي مدى ما حدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة اليعقوبية . وكان الغساسنة كثيры الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على أسنة مادحي ملوكهم من الشعراء ذكر جلق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بردى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جلق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرقي .

وإنما أطلنا في بيان ذلك كله لنندل على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولاريب في أن الفتح الإسلامي العربي زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحي ودخلوا في الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا في شريعته السمة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذي لا فصلح حياة أمة بدونه ، وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروبا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهابا لا يطاق ، بينا رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل في الضرائب مسوين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح في جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشيء ، مها يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا في الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثير من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسول طوال الحقب الأولى للحكم الأموي ، واستقرت منها عشائر وبطون في بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لاعن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومي بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها في الإسلام ، إذ جزء لا يتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعرايه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذي مر بنا في الفصل الماضي عن أبي الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا في تلاوة القرآن بمسجد دمشق أربع وستائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لا يحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم . ونظن ظنا أن الاستعراب في الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحي لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التي كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبي كالعربية ، ولا كان لها مجالها في الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين في الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكبَّ كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغي أن لا ننسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة يعقوبية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين في إدارة الشؤون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس ( وفي بعض المصادر سرجون ) ويظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربي الإسلامي واتخذه معاوية مستشارا له في الشؤون المالية مع بقائه معتنقا لدينه المسيحي ، وكان حفيده يوحنا الدمشقي يشرف على الشؤون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، وما زالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء في شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ما ذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء <sup>(١)</sup> . ولاشك في أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد ما نقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان في ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومي الذي أخذ عنه خالد علم الكيمياء أو كما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها <sup>(٢)</sup> .

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨

(٢) انظر ترجمة خالد في ابن خلكان ٢/٢٢٤

ولم نتحدث عن اليونانية التي كانت معروفة في الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا أنفاً أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان في علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومي ، وأكبر الظن أن الرهبان في دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا في التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيي الشام المستعربين . ولعل في كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التي دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

## ٢

## كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر في تاريخ الشعر العربي لا عند الفساسة ولا عند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط في الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو ما يلقانا في المعارك التي نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولّى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفي مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . وولتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرقاع العاملي اليمنى والطرماح الطائي اليمنى ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي بين شعراء بني أمية ، وأما الطرمح فنشأ في الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة في كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بني أمية تَعَصَّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعطائهم . وما نبغ شاعر واشتهر في هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أو ذاك ، والخلفاء يُعَدِّقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ما هو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجريرو عبد الله بن الربيروذي الرُّمَّة والعجاج وابنه رُوبة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثير والأحوص وابن قيس الرقييات . ومدحهم من شعراء نجد كثيرون في مقدمتهم الراعي التُّمَيْرِي . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم في بيئاتهم ، فأجزلواهم في العطاء ، وكانوا يراون غادين عليهم راغمين بقصائد طنانة يرونها الرواة في كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ما قدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بني أمية ، فقد شارك غير خليفة في هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم في قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمير حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي .

وتنتقل الخلافة في العصر العباسي إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها في الشعر ، وهو نشاط لا يقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصدرون في شعرهم عن النزعات التجديدية التي نُظِم الشعر العربي على أضوائها في صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماءهم في القرن الثاني الهجري عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي معاصر الرشيد ، وكان من الفلّجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز في كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . ومن كان يعاصره من الشعراء الشاميين البعثابي وكان يحتذى - كما يقول الجاحظ - حَدُّوْبشار بن برد في البديع وله ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وعلى غرار هذا تلميذه منصور العمري الشامي ، وله أيضا ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وبالمثل في هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامي مهم عاش في القرنين الثاني والثالث هو ديك الجن . فالشام لم تنشط في الشعر طوال العصر العباسي الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء الناهيين شاركوا في نهضته وازدهاره ، بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربي مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التميميق الحسي والفكري ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام أستاذ هذا المذهب الذي أعطاه صيغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » . وتلاه تلميذه البحتري ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه في النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسي مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربي وتقاليده في الصياغة ، وكان لا يبارى في الضرب على قيثارة الشعر العربي واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبت الأجيال التالية في العالم العربي على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربي وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسي والمعنوي الذي يرضى المتفلسفة والمتعمقين في المعاني . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفتين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ولأبي تمام ترجمة

في كتابنا « العصر العباسي الأول » وللبحترى ترجمة في كتابنا « العصر العباسي الثاني ». ونشرف بعد البحترى على نهاية القرن الثالث ، ولا تزال للعصر العباسي الثاني بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبي الصنوبري وله ترجمة في كتاب هذا العصر .

ونغض في عصر الدول والإمارات ، وقد عُني بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس الثعالبي في يتيمة ، متحدثنا عن الشعراء النابهن في أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ في فواتح كتابه أن كيفة الشعر العراقي التي كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خفت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمة بقوله : « الباب الأول من القسم الأول في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب في ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام .. والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط ( فلاحى ) العراق ومدخلتهم إياهم .. ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان .. وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر ويتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجذل ويفضل » . ولسنا نريد أن نناقش الثعالبي في هذا الحكم ، فإنه - على ما فيه من مبالغة - يدل على ما حدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبئ عنها الأبواب التالية في اليتيمة ، فقد جعل الثعالبي الباب الثاني لسيف الدولة الحمداني أمير حلب وشمالي الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبي فراس الحمداني الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبى شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومر بنا كيف أن حلب في زمن سيف الدولة ( ٣٣٣ - ٣٥٦ هـ ) استحوطت أكبر مركز علمي وفلسفي ولغوي ، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابي وأبي علي الفارسي وابن جنى غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولا يهنا الآن بيان ذلك إنما يهنا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء في تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير في الشام أو في العراق أو في إيران إلا أمها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبي إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك - بعد الخلفاء - مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر « منهم كُشاجم - ويقال إنه كان طبَّاحة - والخالديان - وكانا خازني مكتبته - والسَّلامى والسَّرى الرِّقاء والوأواء الدمشقي والنامى المصيصى وابن نباة السعدى والبيَّغاء ، وكل هؤلاء كانوا شعراء ، وترجم لهم الثعالبي ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعبء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام في نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصوري وأبي الرقعمق والواساني وجميعهم ترجم لهم الثعالبي ، ويعنى البخزرى في دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوق نظام الملك ، وترجم لأبي العلاء المعرى وابن سنان الحفاجي تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهاني في الخريدة . ولم يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثاني من القرن الخامس ومطلع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين في تلك الحقبة ابن حيوس وله ديوان ضخم في مجلدين . ويعرض العماد الأصبهاني في خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة في أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب ، ونراه في مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهل العراق ، بالضغط كما صنع الثعالبي ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزنا ، وأسحُّ مُرنا ، وأمتن صيغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحترى وأبي تمام وطائفة من محدثهم بعدهما مثل عبد المحسن الصوري وابن سنان الحفاجي وابن حيوس ، وكأني به نسي أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويرجم في هذا الجزء لابن الخياط الدمشقي تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبهم الشام في القرن السادس الهجري من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسي والقيسراني وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد بيوتها وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حاد الحُرَّاط . وكان العماد لم يترك في الشام لزمه شاعرا كبيرا ولاصغيرا إلا ترجم له .



واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العهاد في أيام الأيوبيين والمالِك  
والعثمانيين ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاعر الكنجي والوفاء  
بالوفيات للصفدي ومطالع البدور للغزولي والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي  
وريحانة الألبا للخفاجي ونفحة الريحانة للمحي وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل  
عشرات من شعراء الشام في حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابههم في تلك الأزمنة والحقب أيام  
الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين  
الأنصارى وأيدمر المحبوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب  
الدمشقى ، وتموج رفوف المكتبات في العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

## ٣

## شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات

## (١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء في العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ،  
وتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثرون منه في جميع الأقاليم الإسلامية ، وهياً ذلك لظهور  
أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون  
كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرع عن هذا النمط من قديم عند  
أبى نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس  
تتحد قافيته في كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى في الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ،  
وكان الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوته في عقد تلتقى عندها أملاكه المختلفة ، وتسمى هذه  
القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا في العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون  
رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خاسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية  
أو تساعية ، ومن عني بالنظم فيها أسامة بن منقذ فى ديوانه منها أربعة مسمطات خاسية ، ومن  
قوله في أحدها (١) :

عبد المجيد ص ٤٠ .

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع المطبعة الأميرية  
بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوى والدكتور حامد

كَمْ رُضْتُ نَفْسِي بِالسَّلْوَانِ فَامْتَنَعْتُ وَكَمْ أَضَاعُوا مَوَائِقَ الْهَوَى وَرَعَتْ  
وَمَا نَقَمْتُ عَلَيْهِمْ غَدْرَةً فَصَفْتُ<sup>(١)</sup> وَلَا أَضَعْتُ لَهُمْ عَهْدًا وَلَا أَطَّلَعْتُ  
عَلَى وَدَائِعِهِمْ فِي صَدْرِي الثَّهْمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة في الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن المسمط خماسي الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات في دواوين ابن الساعاني والصاحب شرف الدين الأنصاري وأيلمر المحبوي زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء في الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين الصفدي ، ونظّل نلتقي بها في الحقب المتأخرة .

### (ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلّف بيتين ، وتتحد الشطور : الأول والثاني والرابع في القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث في القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما : « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مَسْتَفْعَلُنْ مَسْتَفْعَلُنْ » و« فَعْلُنْ مَتَفَاعِلُنْ فَعْوَلُنْ فَعْلُنْ » وقد أخذت تشيع على السنة الشعراء في هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قسيم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفي خاتمة ديوانه منها اثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفّف الميَّاسِ ما أحسنه ولو بقلبِ قاسِ  
يهتُّ كأنه قضيْبُ الآسِ سكرانَ ولم يَلْبِقْ حميًّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهاني ديوان صغير جميعه دُوَيْبِيَّاتٍ أَرْبَاعِيَّاتٍ ، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين في الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

لأراحة لي في العيش إلا أغزو سبى طربًا إلى الطلّي يهتُّ<sup>(٣)</sup>  
في ذلّ ذوى الكفر يكون العزُّ والقدرة في غير جهادٍ عجزُّ

(١) صفت : مالت

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ( طبع مطبعة

وادي النيل ) ٢٠٧/١ .

(٣) الطلّي : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفحته .

وكان لفتيان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع ما فيه دوبيئات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه في ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْنَتَيْكَ زَاهٍ زَاهِرٌ وَالسَّحْرُ بِمَقْلَتَيْكَ وَافٍ وَافِرٌ  
وَالعَاشِقُ فِي هَوَاكَ سَاهٍ سَاهِرٌ يَرْجُو وَيَخَافُ فَهَوَّ شَاكٍ شَاكِرٌ

ونظلم نلتقى بالرباعيات في دواوين الشعراء أيام المالك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وبهاء الدين العاملي وعبد الغنى النابلسي وغيرهم من الشعراء<sup>(١)</sup> وحين شاعت التورية بشها الشعراء في رباعياتهم كقول علي بن المظفر الوداعي الحلبي المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا<sup>(٢)</sup> :

لَمَّا حُجِبَ الكَرَى عَنِ الآمَاقِ وَانقَادَ مَعَ العِدَا عَلَى العُشَاقِ  
نَادَيْتُ وَقَدْ تَزَايَدْتُ أَشوَاقِ يَاغُصْنُ رَضِيْتُ مِنْكَ بِالأُورَاقِ

والتورية واضحة في كلمة الأوراق ، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبه ، وهو المراد .

### (ج) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشاركة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خُرْجَة يسمّى بها القفل الأخير في الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسطحات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان - خاصة - قائلين إنها فن أندلسي خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسط نظمه ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقي للموشحات الأندلسية إذ يجري على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

قولى لَطَيْفِكَ يَتَشَنَّى عَن مِصْجَعِي عِنْدَ المَنَامِ

عند الرُقَادُ      عند الهجوعُ      عند الهجوذُ      عند الوَسَنُ  
 فعسى أنامُ      فتنطقي      نارُ      تأججُ      في العظامِ  
 في الفؤادِ      في الضلوعِ      في الكبوذِ      في البدنِ

ويستمر المسمط الموشح على هذا النمط ، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروي جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أو قل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معاني شاعر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد المرواني ( ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكتب لهذه الصورة عنده أن تشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا في كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية في كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشاركة كي ينظموا على غرارها منذ زمنه في أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجلياني الأندلسي الطبيب نزيب دمشق في زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهريّة ، ويقول ابن أبي أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودويّيات » أو رباعيات . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نلتقى بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب في الموشحات سماه : توشيع <sup>(١)</sup> التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن علي الدهان ، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان ، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغني فيه المغنون <sup>(٢)</sup> ، ويسوق نفس الموشح الذي ذكره الصفدي ، ويستهلّه بقوله :

بأبي غُصْنُ بَانَةٍ حَمَلَا      بَدَرَ دُجَى بِالْكَمَالِ قَدْ كَمَلَا      أَهْيَفُ  
 فَرِيدٌ حُسْنٍ مَامَسٍ أَوْ سَفَرَا       
 إِلَّا أَعَارَ الْقَضِيْبَ وَالْقَمَرَا       
 يُبْدِي لَنَا بَابِتْسَامَهُ دَرَرَا

(١) حقق هذا الكتاب أليير مطلق ونشره بدار الثقافة  
 (٢) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوفاء  
 ٢٠٩/٤ وانظر فهرس عقود للتواحي  
 بيروت .

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم . وذكر الصفدى بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفي الخطيب المعاصر له ، وهو يفيض بالعدوية وجمال اللفظ والصور كقوله :

ساحرٌ بالدلائى      ساحرٌ بالصَّبِّ      فاتقُ في الكمان      لائقٌ بالحَبِّ  
بِشَذَا المسكِ فاحُ      ثغرُ هذا الغزالِ  
باسمُ عن أقاح      كفريدِ اللآلِ  
ردُّ نورَ الصبّاحِ      كظلامِ اللّيانِ

وأشد الصفدى لنفسه في كتابه سبعا وثلاثين موشحة ، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين ، ولما يخلق إلى أفق الموشحات التي يعارضها ، ويغلب التكلف على موشحاته ، وفي أحيان قليلة يسلس في بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله في معارضة موشحة لابن اللبّانة الأندلسي :

بات بدري وهو معتنى      أحسى فاهُ وأرتشفُ  
وبه أمسيت مئجدا  
بعد ماقد كنت منفردا  
وغدا بدر السما كمددا

وقد أنشد النواجي في كتابه عقود اللآل ثمانى موشحات لابن حبيب الحلبي وموشحين لابن حجة الحموي<sup>(١)</sup> .

ويلقانا وشاحون مختلفون في زمن العثمانيين على نحو ما يذكر المحبي عن أبي بكر العمري وأبي بكر العصفورى<sup>(٢)</sup> . ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورا للسان الدين ابن الخطيب استلهه بقوله<sup>(٣)</sup> :

يالباي السّفح من عهد الصّبا      ياسقى مغناكِ صوبُ الدّيمِ  
كم تسرّفتُ بها بين الرّبيّ      خلّسا مرّتْ كطيفِ الحلمِ

(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمي العربي بدمشق

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجي

(٢) نغمة الرخانة للمحبي ٢٢/١ ، ٢٥٤

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسي كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشأحين مهمين هما أيدمر المحيوى والمحار الحلبي .

### أيدمر المحيوى<sup>(١)</sup>

لأنعرف شيئاً عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل ما بأيدنا عنه أنه عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلاطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيداً بانتصاره على حملة الصليب في موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيراً وله مدائح في الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلي شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعيش بعد هذا التاريخ طويلاً ، وله غزليات وأشعار طريفة في الطبيعة ، وله - بجانب ذلك - موشحان في المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض في موشحه الأول ابن زهر في موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هَرَّ عِطْفَ الغصنِ من قامتهِ  
مُطْلِعاً للشَّمسِ من طلعتهِ  
ثم نادى البدرَ في ليلتهِ  
أيها البدرُ تَغَيَّبَ وَيَحْكَا ما احتياجُ الناسِ للبدرِ معي

وعذوبة موسيقاه واضحة في هذا الموشح ، وكان يضيف إليه في أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولا تفارقه هذه العذوبة حتى حين ينجح إلى التكلف على نحو ما نلقاه في موشحه الثاني وفيه يقول :

بات وَسُمَّارُه النجوم	ساهر	فن تُرَى	عَلَمِكِ الشُّهَدَ يا جفون
صبا إلى مذهب التصابي	صابي	لا يعدل	
فجئته خافق الجنايب	نابي	مُبَلِّل	
والطَّرْفُ من دائم انسكاب	كابي	مَجْبَل	

(١) ١٠٩/٤ وخطط المقرئ ( طبعة دار التحرير ) ٧/٢ وديوانه  
طبعته دار الكتب المصرية .

(١) انظر في أيدمر فوات الوفيات ١٤٠/١ والاتصار  
لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ( طبع مطبعة بولاق )

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لبالقفل ، وتلا القفل بالدور في ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثاني مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصايب مستخرج من التصايب وبالمثل نأبي مستخرج من الجناب ، وكأبي مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه في الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

### المحار<sup>(١)</sup> الحلبي

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبي الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمَحَر الكتان أى يغسله وبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيها ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفي بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر الحيوى في موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

ماناحت الوُرُقُ في الغصونِ      إلّا هاجتْ على      تُعْرِدها      لوعةَ الحزين  
 هل مامضى لى مع الحبايبِ      آيبٌ      بعد الصدودِ  
 أوهل لأيامنا الذواهب      واهبٌ      بأنْ تعودِ  
 بكل مصقولة الترائبِ      كاعبٌ      هيفاء رُودِ

والموشح يمج على هذه الشاكلة بعدوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى فى الدور من آخر كلمة فى جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالاً بديعاً للتلحين والتنغيم على نحو ما يتضح فى كلمات « آيب - واهب - كاعب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة فى النغم موشحته التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى المار ذكره فى العراق ، افتتحها بقوله :

مدشمتُ سنا البروق من نعمانِ      باتت حَديق

(١) انظر فى محار قوات الوفيات ٢/٢١٩ ، ٥٠٦ ، وانظر توسيع التوشيح للصفدى إذ توارد مع صاحب القوات ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٩/٢٢١ والوفاء ٤/٢٨٠ على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللال رقم ٥٢ ، ٧٦

تُذَكِّي بمسيل دمعها الهتان نارَ الحرق<sup>(١)</sup>  
 ما أومض بارقُ الحيمى أو خَفَقًا  
 إلا وأجدُّ لى الأسي والحرقا  
 هذا سببٌ لمحتى قد خُلِقا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضمم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المخار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقها ومايطوى فيها من جمال التصاوير .

### (د) البديعيات

مرَّبنا أن الشام - منذ أواخر القرن الثاني الهجرى - تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ما هو معروف عن أبى تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سمّيته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنميق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضاً عن استخدام طرائف فكرية لاتكاد تُحصى . وتبع البحترى - كما ذكرنا - أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكتار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبى فراس الحمدانى<sup>(٢)</sup> :

وما السلافُ دهنتى بل سَوَّالْفُهُ ولا الشَّمولُ دهنتى بل شمائلُهُ

ولعل شاعراً شامياً لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألواناً من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حَيُّوس المتوفى سنة ٤٧٣هـ وكان يتابع أبا تمام فى الإكتار من المحسنات البديعية جناساً وغير جناس . ونرى العماد الأصبهانى فى الخريدة يتوقف مراراً لثبيت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجّل ذلك مراراً على الشعراء

الفرنسى بدمشق) ٣٠٢/٢

(١) تذكى : تضم .

(٢) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان ( طبع المعهد



الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيسراني وفيه يقول :  
 « صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » <sup>(١)</sup> . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لافي  
 استخدام الجناس وحده بل في استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من  
 الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية  
 وأشاعتها في شعرها ونثرها مضيئة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين  
 وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية  
 ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضى الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار  
 الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ما وجدنا ذوق هذه المدرسة  
 المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حجة الحموى فى خزائنه إذ  
 ذكر السابقين فى المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم  
 وتأزر نصرهم » وعدّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز  
 الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠  
 ومجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة  
 ٦٨٨ ومحيى الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة فى خزائنه بأشعارهم فى  
 محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا فى باب التورية ، واستطاعوا فى أحوال كثيرة  
 أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التى تلقانا فى توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ <sup>(٢)</sup> :

يَمْرُؤٌ بِي كَلِّ حَيْنٍ وَكَلِمًا مَرًّا يَحْلُو

وهو لا يريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر فى أول البيت ، وإنما يريد مر من  
 المرارة عكس الخلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن تميم <sup>(٣)</sup> :

أَيَا حُسْنَهَا مِنْ رَوْضَةٍ ضَاعَ نَشْرُهَا فَتَادَتْ عَلَيْهِ فِي الرِّيَاضِ طَيُورٌ

ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يضوع إذا فاحت رائحته ، وثانيها من ضاع الشيء

(٣) فوات الوفيات ٥٤٢/٢

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

يضيع إذا فقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه (١) :

ولقد أتيتُ إلى جنابك قاضياً باللثم للعتبات بعضَ الواجب  
وأُتيتُ أقصد زورةً أحظي بها فُرِدْتُ - ياعيني - هناك بحاجب

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البواب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على السنة الشاميين ، ويشيد الحموي في خزائنه باستخدام الوداعي على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله (٢) :

قال لي العاذلُ المُفئدُ فيها يومَ وافتِ فسَلَّمْتُ مُخْتَالَةً  
قم بنا ندعى النبوةَ في العشدِ حتى فقد سَلَّمْتُ علينا الغزاة

وللغزاة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبته الجميلة التي تشبه الغزاة وهو المراد .

ويتبع ابن حجة ما أخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعي ، وبالمثل يتبع ما أخذه الصفدي من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدي يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيها كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدي - كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المماليك ، يشترك في ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أيك الدمشقي المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمي المتوفى سنة ٨١٦ وابن حجة الحموي صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويترد اصطناع المحسنات البديعية في أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمنين شطور أو أبيات في قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري فواصل «سورة الشمس» في قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله (٣) .

قسماً بِشَمْسٍ جَبِينِهِ وَضَحَاها وَنَهَارٍ مَبْسَمِهِ (إذا جَلَّأها)

(٣) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق - تحقيق د. عمر موسى) ص ٥١٥

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٣٤

(٢) الخزانة ص ٣٤٣

وتوالت قوافيه : ( يَعْشَاهَا - زَكَّاهَا - تَقَوَّاهَا - أَشَقَّاهَا ). ومن طريف الاقتباس في الغزل قول فتح الدين بن الشهيد (١) :

في صدرها رُمَانٌ نَهْدٌ زَانَهُ حَلَى (يُوسُوسُ في صدور الناس)

ويريد بوسوسة الحلى صوته الخفى ، واقتبس - كما هو واضح - آية سورة الناس وما فيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذى (يوسوس في صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمين لأبيات المتنبي وغير المتنبي من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت من أبيات المتنبي في وصفه لزهر اللُّوز إذ يقول (٢) :

أزهرَ اللُّوزِ أنت لكلِّ زهرٍ من الأزهار يأتينا إمامُ  
« لقد حسنتُ بك الأيامِ حتى كأنك في فَمِ الدهرِ ابتسامُ »

وعُنى كثيرون باقتباس الشطور الثوانى من معلقة امرئ القيس وتضمينها في قصائدهم . وسنلتقى بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات في ترجأتنا للشعراء .

### (هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت - على لسان أبي تمام - إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق في الشعر العربى ، فإنها هى أيضا التى نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد في الشعر أو قل هى التى أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء - منذ أوائل هذا العصر - يتكلفون في صورهم البيانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » ومانصل إلى أبى العلاء المعرى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه في ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو فى مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفا حرفا ، وفى كل حرف يأتى بالروى ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويان يلزماتها فى حتمية شديدة . وليس هذا كل ما فى الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف ما فيه من ألوانه ، إذ نراه يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تحصى ، وشغف بالجناس وعقده بدوره إذ طلبه بين القافية

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لا يزال شيئاً سهلاً فطلب أن يكون بين أول كلمة في البيت وبين القافية كقوله (١) :

أَشْرَاكُ ذَنْبُكَ وَالْمُهَيْمِنُ غَاغِرٌ مَا كَانَ مِنْ خَطِّ سِوَى الْإِشْرَاكِ

ومعنى أشراك : أغراك ، وأوقعتك في الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد في لزوم ما لا يلزم أو في اللزومات ، ولا يكتفى أبو العلاء بعقد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عقداً أخرى من ألفاظ الثقافات وما يتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل (٢) :

بِقَائِ الطَّوِيلِ وَغَيْبِ البَاسِطِ وَأَصْبَحْتُ مُضْطَرِباً كَالرَّجْرِ

والطويل والبسيط والرجز من بحور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطراباً لكثرة ما يجري فيه من زحافات وعلل .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أرسى أبو العلاء في الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لافي قصيدة واحدة أو في قصيدتين ، بل في ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لا ينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها ما لا يلزم من اللوازم التي التزمها جميعاً ، ولكنهم يستخدمونها في الحين بعد الحين كقول ابن حيّوس متغزلاً (٣) :

أَوْصَابُ جِسْمِي مِنْ جِنَايَةِ بَعْدِكُمْ وَالصَّبْرُ صَبْرٌ بَعْدَكُمْ أَوْصَابُ

فقد جانس بين أول كلمة في البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أي مر . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عيّن (٤) :

خَبَّرُوهَا بِأَنَّهُ مَا تَصَدَّقَى لَسَلُّوْا عَنْهَا وَلَوْ مَاتَ صَدًّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموي في خزانته : « كان الشيخ صلاح

(٣) الديوان ٥٨/١

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص

الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

الدين الصفدى يستسمن ورمه ويظنه شعما فيشبع أفكاره منه ويملاً بطون دقاتره ( شعرا ونثرا )  
ويأتى فيه بتراكيب تحفٌ عندها جلاميد الصخور . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها  
قول الصفدى (١) .

وكم شئتُ لما قستُ مقدارُ ودِّكم بوارقَ يأسٍ في بوارٍ قياسِ  
والجناس في الشطر الثاني ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه  
غير قليل من الثقل فما بالنثا بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولانعدم أن نجد بين  
الشعراء من يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها  
تصك الآذان صكا عتيفا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة  
٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهباً في نظمه ، يقول ناصحاً شعراء عصره (٢) :

إذا أحببتَ نظمَ الشعرِ فاخترْ لنظمك كلَّ سهلٍ ذى امتناعِ  
ولا تقصدْ مجانسةً ومكَّنْ قوافيه وكنهه إلى الطُّباعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء في القرنين الرابع  
والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم في ذلك كثير من الأفانين .  
ويتشد العماذ الأصهباني في خريدته صوراً كثيرة من هذه الأفانين ، وخاصة عند ابن قسيم الحموى  
المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العماذ بصورة معقدة من تصنعه في  
القوافي إذ نظم أبياتا على خمس قواف ، يقول فيها مادحا (٣) :

قل للأمير أخى الندى والناتل	الهطال	للشعراء	والقصاب
لازلتَ تستهكُ العِدا بالذابل	العسال	في الاحشاء	والأكباد
ووقيت من صرف الردى والنازل	المفتال	للأعداء	والحساد

وواضح أنه يمكن أن تُفصل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة  
التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٤/١

(١) الخزانة ص ٢٦

(٢) الخزانة ص ٢٧

التصنع والتعقيد . وينشد العمادلا بن قُسمِّم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولها من صاد وثانيها من سين أو العكس<sup>(١)</sup> . ومما أنشده العماد في خريدته من هذه الصور المتكلفتة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم في كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون<sup>(٢)</sup> ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرأ على سبعة أوزان<sup>(٣)</sup> . ولا ين عينين حين ألم في رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازي في « هراة » قصيدتان<sup>(٤)</sup> في مديحه تشتمل كل كلمة في أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسَّتْ سريرته وَقُدِّسَ سِنْحُهُ وسما بأسلافٍ سِراةٍ شُوسٍ<sup>(٥)</sup>

بينما تشتمل كل كلمة في ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء في العصر بصنع الألفاظ والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا في دواوينهم على نحو مايلقانا في ديوان ابن عنين وأيضا في ديوان مامية الرومي الدمشقي في زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يتصنع للماليلزم في بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصاري مجلد كبير فيه<sup>(٦)</sup> .

#### ٤

#### شعراء المديح

يكثُر شعراء المديح في الشام منذ القرن الثاني الهجري ، وذكرنا أسماء نفر منهم في غير هذا الموضع ، وقد أهدت الشام في القرن الثالث إلى الشعر العربي أكبر شاعرين مدّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحتري . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة في أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمداني الذي تحول بها إلى أكبر مركز علمي وفلسفي وأدبي ، على نحو ما مَرَّبنا ، وغدت مقصد الأديباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد في العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفي مقدمتهم المتنبي . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم

(٥) السنخ : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع

المقدام

(٦) فوات الوفات ٥٩٨/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٧/١

(٢) الخريدة ٤٥/٢

(٣) الخريدة ١٠٨/٢

(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨

ومدائحهم بالعشرات - إن لم يكن بالآلاف - مسجلين للبطل العربي مجده الحربي العظيم ، وقد صورنا في قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربي مدائح المتنبي فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبي الفرج البغداد ، فكتاب اليتيمة للثعالبي يحمل من مدائحها ومدائح غيرها لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفي أن نشير إلى من حفوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقي وأبي العباس أحمد بن محمد المصيصي المشهور باسم النامي ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب في المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحهم (١) :

أَمِيرَ الْعُلَا إِنْ الْعَوَالِي كَوَاسِيٌ      عِلَاءَكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي جَنَّةِ الْخُلْدِ  
يَمْرٌ عَلَيْكَ الْحَوْلُ ، سَيْفُكَ فِي الطَّلَا      وَطَرْفُكَ مَا بَيْنَ الشُّكِيمَةِ وَاللَّبْدِ (٢)  
وَيَمُضِي عَلَيْكَ الدَّهْرُ ، فَعَلُّكَ لِلْعَلَا      وَقَوْلُكَ لِلتَّقْوَى وَكَفُّكَ لِلرَّفْدِ

سيف الدولة دائما محارب يدق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكي السلاح وبصره مصوب إلى فرسه الذي يعلك باستمرار شكيمته استعدادا للزوال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلل ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومحافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة - ومثله الحمدانيون عامة - من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتقدون هذه النحلة ، ومر بنا أن تفرعت عنها فرقة التصيرية الشديدة الغلوملا ترعمه - كما مر بنا - من ألوهية علي بن أبي طالب . ومكّن لانتشار التشيع في الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام يتزلون القاهرة معتقدين - على ما يبدو - لتلك النحلة ويتغنون بمدح الخليفة الفاطمي العزيز ( ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ) ووزيره يعقوب بن كلّس وفي مقدمتهم أبو الرّعمق أحمد بن محمد الأنطاسي ، وله في الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله في ابن كلّس بإحدى قصائده (٣) :

لَمْ يَدْعُ لِلْعَزِيزِ فِي سَائِرِ الْأَرَضِ      ضُ عَدُوًّا إِلَّا وَأَخْمَدَ نَارَهُ

اللحام

(١) اليتيمة ١/٢٢٥

(٣) اليتيمة ١/٣١٠

(٢) الطلا : جمع طلية أو طلاة كما مر . وهي العنق أو

صفحة . الشكيمة : الحديدية المعترضة في فم الفرس من

كلَّ يومٍ له على نُوبِ الدَّهْرِ وَكَرَّرَ الخطوبَ بالبَدَلِ غَارَةً  
ولأبي العلاء المعري ديوان معروف يسمى «سَقَطَ الرَّزْدُ» أكثره مدائح نظمها على سبيل  
المرين لاقتصاداً لمديح شخص بعينه إلا ماندر، فهو لم ينظم أكثرها طلباً للكسب ونيل العطاء،  
وإنما على سبيل التدريب اتباعاً لشعراء المديح المنتشرين بزمنه في كل مكان، ومن قوله على  
طريقتهم في المديح بأولى قصائد سقط الرند:

مَكْلَفُ خَيْلِهِ قَنْصَ الأَعَادِي وَجَاعِلُ غَايِهِ الأَسْلَ الطُّوَالَا  
تَكَادُ قِسِيَهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تُمَكِّنُ مِنْ قُلُوبِهِمُ التَّبَالَا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال. وإنه لأسد حقا غير أن  
عريته ليس غاباً بل رماحاً طوالاً تحطف الأرواح خطفاً، وإن قسيه لتصيب أعداءه في الصميم  
دون رام يتزع عنها النبل والسهام، وهي مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه.  
ومرّبنا أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين في حلب، وعنى منهم خاصة محمود بن نصر بجمع  
الشعراء حوله فاجتمع في حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبي الربيعي وابن حيّوس الدمشقي  
وابن النحاس الحلبي وابن سنان الخفاجي. وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى في  
شعبان سنة ٤٦١ على حصن «أسفونا» ونكّل تنكيلا شديدا بأهله، فحاصره محمود بن نصر  
وفتك بجميع رجاله، وكانوا نحو ألفين، وردّ محمود الحصن على أهله، وهنّاه ابن سنان الخفاجي  
بهذا النصر المبين قائلاً في إحدى قصائده (١).

إِنْ أَظْهَرْتُ لِعُلَاكَ أَنْطَاكِيَّةً حُزْنَاً فَقَدْ ضَحِكْتُ عَلَى قُطْبَانِيَا  
لَمَّا أَطْلَى لَهُ لَوَاؤُكَ خَافِقًا عُرِفَتْ وَجُوهُ الدُّلِّ فِي صُلْبَانِيَا

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي قدّم له كثيرون من شعرائها  
مدائحهم، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك سيّوساً بعيد النظر، فساس الدولة السلجوقية خير  
سياسة، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية في العراق وإيران، وله يقول محمد بن أحمد  
الشطرنجي الحلبي من مدحة طويلة على أبواب حلب (٢).

(٢) دمية القصر ١/١٩٩

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ١٤/٢ وما

بعدها والديوان طبعة بيروت ص ١١٣.



ياخَيْرَ مِنْ خَفَقَتْ عَلَيْهِ رَايَةٌ وَأَجَلَ مَعْقُودٍ عَلَيْهِ لَوَاءٌ  
لَكَ كُلُّ يَوْمٍ مِثَّةٌ سَيَّارَةٌ فِي الْخَافِقِينَ وَغَارَةٌ شِعْوَاءُ

وذكرنا - فيما أسلفنا - أن بني عمار استطاعوا أن يكونوا لهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقربون منهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، وذكر العمامد الأصبهاني في الخريدة نفرا من شعرائهم في مقدمتهم ابن العلافى المعرى ، وله من مدحة في عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم (١) :

يَحْتَاطُكَ التَّوْفِيقُ لِأَيُّلُوكَ فِي تَسْهِلِهِ لَكَ كُلَّ صَعْبٍ أَوْعَرَ  
دَامَتْ لَكَ النِّعْمَاءُ مُوَصُولٌ بِهَا تَوْفِيقٌ مَنصُورِ اللِّوَاءِ مَظْفَرٍ

وسقطت من يده طرابلس في حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلافى - فيما يبدو - شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدم مداخه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجبالى ، وله يقول في إحدى مداخه (٢) :

لِيَزِدَّ عَلُواً مَلِكُ مِصْرَ فَإِنِهَا بِوِ حَرَمِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَرَمِ  
فِكَةُ مِصْرَ ، وَالْحَجِيجُ وَفُودُهُ وَيَمَانَهُ رَكْنُ الْبَيْتِ ، وَالثَّلِيلُ زَمْرُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا في حجر بنى عمار واستظلوا بما أحدثوا في طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقى ابن الخياط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمرء حصن شيرز : بنو مقلد بن مُنْقَذَ عَلَى شَاكِلَةِ بَنِي عَمَارٍ فِي طَرَابَلُوسٍ يَتَرَدَّدُ مَدِيحَهُمْ عَلَى  
السَّنةِ الشُّعْرَاءُ مِنْذَ اسْتَخْلَصَ عَلَى بَنِ مَقْلَدِ بْنِ مَنْقَذَ «شَيْرَز» مِنْ أَيْدِي الرُّومِ سَنَةَ ٤٧٤ هـ وَظَلَّتْ  
أَسْرَتُهُ تَحْكُمُهَا حَتَّى أَتَى عَلَيْهَا زَلْزَالٌ شَدِيدٌ سَنَةَ ٥٥٢ هـ هَدَمَهَا مِنْ قَوَاعِدِهَا وَأَهْلَكَ سَكَانَهَا . وَتَغْنَى  
الشُّعْرَاءُ طَوِيلًا بِاسْمِ مَحْرَرِهَا فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَلَى بَنِ مَنْقَذَ وَبِخَلْفَائِهِ فِي حَكْمِهَا ، كَمَا نَجَدُ عِنْدَ ابْنِ  
مَنْبِرٍ وَالْقَيْسِرَانِي .

ويلقانا في أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطينى هو العزرى لإبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ هـ وقد ترك غزاة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف إلى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

إلى كَرَمَانَ وشيراز في فارس وهرارة في أفغانستان وكلما ألم بيلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جَوَّال ، وله أشعار كثيرة رائعة في المديح وغير المديح ، وله في ابن مكرم وزير كَرَمَانَ مدائح بديعة من مثل قوله (١) :

مادعوناه من بني الدهر إلا أَهْلَ الدَّهْرِ نفسه للثَّهَانِي  
جُمِعَ الأُسْدُ والكواكب والأبْجِدُ حَرُّ والناسُ منه في إنسانِ  
واستجابت له مناقبُ شَتَّى لم تُجَلِّ في خواطر الإيْمَانِ

ويتبته البطل المغوار أتاك الموصل عماد الدين زكي منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجري إلى أن تخاذل المسلمين أمام حملة الصليب مرجعه إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لا يجد من جمع كلمتها تحت لواء واحد. ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوا في سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجمعهم ، ويستولى على حصن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سباته الطويل . ويتبارى الشعراء في مديحه والإشادة بانتصاره ، وفي مقدمتهم ابن منير والقيسراني . ولم يلبث في سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء في كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير (٢) :

فتحُ أعادَ على الإسلام بهجتهُ فافتَرَّ مَبْسِمُهُ واهتَزَّ عِطْفَاهُ  
أين الخلائفُ عن فتحِ أُنَيْحِ له مَظَلُّ أُنُقِ الدنيا جَنَاحاهُ

ومضى ابن منير في القصيدة يُعَلِي - بحق - هذا الفتح على فتح المعتصم لعمورية أكبر مدن آسيا الصغرى في زمنه ، فقد قضى زكي على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالي العراق . وبدا حينئذ - في الأفق - أمل كبير في أن ممالكهم التي أسسوها في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لا بد أن تسقط في أيدي المسلمين مهما طال الزمن .

وامتدت إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يدُ آئمة في الظلام ففتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجهاد الصليبيين ، وغرَّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرُّها ، واستردها

لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ٩٣/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥١/١

(٢) الروضتين لأبي شامة ٣٩/١ وانظر مفرج الكروب

سريعا نور الدين وفرّ جوسلين ، وهنّاه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفي مقدمتهم ابن قسيم الحموي  
بمثل قوله (١) :

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه كالرمح دلّ على القساوة ليئته  
والدين يشهد إنه لمعزّه والشرك يعلم إنه لمهيئته  
فتح الرّها بالأمس فانفتحت له أبواب ملك لا يُدالّ مَصُونُهُ (٢)

وولّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ .  
ونازل صاحب أنطاكية وجموعه ، وخرّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وقرّت جموع الصليبيين  
مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير في مطلع قصيدة  
له (٣) :

أقوى الضلال وأقفر عرصاته وعلا الهدى وتبّلجت قسامته

وظلت أيام نور الدين محمود أعياد نصر على حملة الصليب ، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح  
رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغتكين على مدينة  
دمشق سنة ٥٤٩ ويهنته عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا (٤) :

لقد بلغت بحمد الله منزلة عليّة فاقصد العالی من القرب  
وطهر المسجد الأقصى وحوّزته من التّجاسات والإشراك والصلب

وفي نفس السنة يهزم الصليبيين بدلوك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب في أنطاكية  
عن نصف أعمال حارم . واستولى على شيزر ويعلبك وصرّخد ، وشغل بإرسال نور الدين شيركوه  
وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور  
الدين محمود يُعدّ بحق منشيّ الدولة الأيوبية . ولم يلبث في سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ،  
وأخذت حصون كثيرة تساقط في يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العباد الأصهباني قائلا في مطالع  
إحدى قصائده (٥) :

أقفر . عرصاته : ساحاته . تبّلجت : أضاعت .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١

(٢) يذال : يهان .

(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤

(٣) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكرب ١٢٢/١ أقوى :

ياواحدا في النَّصْرِ غيرَ مشارِكٍ أفسمتُ مالك في البسيطة ثانٍ  
كم وقعةً لك في الفَرْنَجِ حديثها قد سار في الآفاقِ والبُلْدانِ  
وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبهم هُونًا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين في منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ، وقد صورنا فتوحه العظيمة في قسم مصر ، وماوافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التي استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامي ، ولم يبق في الشام ولا في الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل ، تغنى بها سبط بن التعاويذي البغدادي وموفق الدين الإربلي والشاتاني الموصلی وابن الساعاتي الدمشقي وله مدائح كثيرة متناثرة في كتاب الخريدة ، وللعقاد في هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة في قسم مصر ، ولابن الشحنة الموصلی فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين (١) :

وإني امرؤٌ أَحَبَّيْتُكُمْ لمكارمٍ سمعتُ بها والأذنُ كالعينِ تُعَشِّقُ  
وقالتُ لِي الآمالُ إن كنت لآحقاً بأبناءِ أيوبٍ فأنت الموقِّعُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام - بعد صلاح الدين - لأخيه العادل ، ولابن عَنِينِ الدمشقي فيه وفي ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائعة بديعة في العادل يستعطفه بها في العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه في أهلها ، وأذن له العادل في العودة ، وفيها يقول (٢) :

العادلُ الملك الذي أسماؤه في كل ناحيةٍ تشرفٌ منبرا  
نسختُ خلايقه الكريمةَ ما أتى في الكُتُبِ عن كسرى الملوكِ وقيصرا  
ملكٌ إذا خفتُ حلومُ ذوى الثهي في الرُّوعِ زاد رزانةً وتوقراً

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذي يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شيخنة دمشق ابن أخي صلاح الدين لأمه ،

وهو ممدوح فتیان الشاغوري دُبِّج فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حماة الأيوبيين ، وكانوا ممدّحين . ومن أسبغ عليهم مدائحهم الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، وله في صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثاني موقف محمود حين أحس بأن التتار سيفزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتتار في عين جالوت كان في مقدمة المحاربين البسلاء ، وثوّه الصاحب الأنصاري بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله (١) :

بَعَيْنَ جَالُوتَ خُضَّتْ بَحْرٌ وَغَيٌّ يُخَالُ فُلُكَا بِالْأَسْنَدِ مَشْحُونَا  
وَكُنْتُ لِلجَيْشِ عُرَّةً شَدَخَتْ أَنْوْفَهُمْ فَانْتَشَوَا مُوَلِّينَا

وطوال أيام المماليك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التتار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومربنا في قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم في الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرق فخاض إليها لَجَجَةً وخاضها جيشه معه ومزقهم شرْمُزَقٌ ، وفي هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصاري الدمشقي (٢) :

الْمَلِكُ الظَّاهِرُ سُلْطَانُنَا نَفْدِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِ  
اِقْتَحَمَ الْمَاءَ لِيُطْفِئَ بِهِ حَرَارَةَ الْقَلْبِ مِنَ الْمُغْلِ

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخر حصونهم أخذ شعر المديح في الشام يتحوّل إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمّة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريبين من إستامبول وكانوا لا يزالون غادين عليها راخين ، مما جعلهم يكثرّون من مديح سلاطينهم ، على نحو

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى - نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٤٧٥

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مايلقانا في ديوان مامية الرومي المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلاطين سليمان وسليم الثاني ومراد الثاني . ويكثر حينئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثر من مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك في آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجُمْل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نقرأ من شعراء المديح النابهين .

### ابن الخياط (١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقي . ودائما يلقانا في كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ في المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيئا ، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكاتب غاصة بالكتب في كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب في كل بلد عربي أن يتزود بما شاء من الثقافة العلمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لاحصر لهم .

وشهد ابن الخياط في صباه دمشق نائرة على حكم بدر الجمالي ، حتى لقد أشعل أهلها النار في قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة ، ونهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا في دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتَشُّ أخو السلطان ألب أرسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءا شديدا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها في هذه الأثناء ابن الخياط وكان لا يزال في بواكير شبابه ، وولَّى وجهه نحو حِجَاة ، ووفد على أميرها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذة كاتباً له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبَانِي جودُهُ عَيْشًا كَانِي ظفرتُ به من الدَّهْرِ استراقا

خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذييل تاريخ دمشق لابن القلائسي ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبير ٣٩/٤ وابن

وكان شاعرٌ بلدته ابنُ حَيُوس حين اضطربت الأحوال في دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها في كنف بني مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حَيُوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تزويجه بشعره . وأوصاه أن يفد على بني عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو ما يلاحظ من مدحه للأمير الحلبي وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستُ بك الدنيا جلالاً فلو كانت يدًا كنت السَّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شَيْر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لخصمهم الأشم من مناعة ، وفي ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزَّ حَصَباءَ أرضهم أعزَّ منألا من نجوم القباهب

ونرى ابن الخياط في سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُوس ، فينزل طرابلس قاصدا بني عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ - ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولها داليتها ، وفيها نحس فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى بِنَدَى جلال الملك عَيْنا إذا نزحت قَرارة كلِّ وادٍ  
فمن ذا مُبْلَغ الأملِكِ عنا وسُواسِ الحواضر والسبوادي  
بأنا قد سَكنا ظلَّ مَلِكٍ مَحُوفِ البأسِ مرجو الأيادي  
فما نخشى محاربة الليالي ولانرجو مسالمة الأعادي

وهنيئاً بمقامه في ظل بني عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتزهات وينعمون بمشاهدها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك في المناسبات كمرور الأعياد . وله في أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله في إحداها :

أأرتجى غيرَ عَمَّارٍ لِنائبةِ إذنِ فلا آمسئني كفه الثوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له      مَنعاً لضاق به ذرعاً وإن رَجَباً  
البازلُ المَالَ مستولاً ومبتدئاً      والصَّائِنُ المجدَ موروثاً ومكتسباً

وظل في طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فحزن حزناً شديداً.

وعَبَثَ بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلَّانَه بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقي وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهاني ، واصطحبه معه إلى « الرى » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بني كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش غضب الدولة آبق أبوابه فدحه بقصيدة بائئة ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحُه فيه حتى توفي سنة ٥٠٢ ومن قوله في البائية :

وما آبقُ إلا حياً مُتَهَلَّلُ      إذا جادَ لم تُقْلَعِ مواطِرُ سُحْبِهِ  
أغرُّ غياثُ للأنامِ وعصمةُ      يُعاشُ بُنْعَاهُ وَيُحْمَى بِدَبِيهِ  
ولم يُرَ يوماً راجياً غيرَ سَيْفِهِ      ولم يُرَ يوماً خائفاً غيرَ رَبِّهِ  
حُبَيْتَ حياءَ في سماحٍ كأنه      ربيعُ يَزِينُ النَّوْرَ ناصِرَ عُسْبِهِ

والقصيدة رائعة حقا ، نوه بها القدماء طويلا كما نوهوا بغزلها وسنشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامي في السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُعْتِكِين صاحب دمشق على سواد طبرية سنة ٤٩٩ وفي السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صيدا ، وفي ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عصب الدولة أمير الجيش في دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستنقراً الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرضِ إِفْرَنْجِيَّةِ      جيوشُ كمثلِ جبالِ تَرْدِي  
أنوماً على مثلِ هَدِّ الصَّفَاةِ      وهزلا وقد أصبح الأمرُ جِدًّا  
وكم من فتاةٍ بهم أصبحتُ      تَدُقُّ من الخوفِ نَحْرًا وَخَدًّا



فحاموا على دينكم والحريم  
فقد أتبتت أروسُ المشركين  
محاماةً من لا يرى الموتَ فقد  
فلا تُغفلوها قطافاً وحصدنا

وله وراء هذه القصيدة ميثية لبطل استشهد في حرب حملة الصليب سنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة غضب الدولة المتوفى - كما مر بنا - سنة ٥٠٢ . ولا نجد له وراء هاتين القصيدتين شعرا حماسياً ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن أن شعراء الشام في الربع الأول من القرن السادس على الأقل قصروا في استشارة الأمة ضد حملة الصليب حيثئذ . وله في هذه الفترة التي عاشها بعد غضب الدولة مدائح في بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها في مرضه الأخير يسترفد ابن القلانسي المؤرخ ، وفيها يثني على أدبه وكتابه بمثل قوله .

له ففَرُّ لو تجسَّدنَ لم يُفَضِّلنَ إلا بهنَّ العُقودُ  
فَيُظَلِّمَنَّ إن قيل نَوْرٌ نَضِيرٌ وَيُبَحِّسَنَّ إن قيل دُرٌّ نَضِيدُ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون في اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نزهة كثيرة في الغوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب الترد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العماد الأصبهاني في خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغرابة أو ما يشبه الغرابة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتي وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة الفذة .

### ابن (١) القيسراني

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

الدين زنكي وابنه نور الدين محمود والشذرات ١٥٠/٤  
وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود  
إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه - وهي مختارات منه -  
بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة ابن القيسراني وشعره الحريدة ( قسم  
الشام) ٩٦/١ وابن القلانسي : ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط  
ابن الجوزي ( طبع حيدر آباد ) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء  
٦٤/١٩ وعبر الذهبي ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤  
والنجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروصتين ٥١/١ في حروب عماد

وانتقل به أبوه وهو في صباه إلى قيسارية<sup>(١)</sup> ، فنسب إليها وقيل ابن القيسراني إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد في هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقلماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأي الأول أننا سنجدده عما قليل أهم شاعر شامي عُني بتصوير البطولة العربية في الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين في حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث في عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طُغتكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبرية سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم في البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والاتصارات العظيمة لطغتكين لا نجد لها أى ذكر أو صدى في شعر ابن القيسراني مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق في أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها في عهد يورى بن طغتكين (٥٢٢ - ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده في الحروب الصليبية حين هزم حملة الصليب على أبواب مدينته في أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جدَّةٌ ففارقوها وفي أيديهم العدمُ  
وغادروا أكثرَ القُرْبانِ والمجفلوا وخلفوا أكبرَ الصُّلْبانِ وانهمزوا<sup>(٢)</sup>

وكان - كما قال مترجوه - يتولى في أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن يورى (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسراني ، مما جعله يهجوه ، وعلم بهجائه فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وفر منه بعيدا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكى على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبغزيرين ، وتأنى كد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربي حلب في الطريق إلى حماة ، ويشعر في عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

(٢) المجفلوا : تشردوا

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين .

حَدَارِ مَنْ وَأَنْتَى يَنْفَعُ الْحَدْرُ وَهِيَ الصَّوَارِمُ لِأَثْبِقِ وَلَا تَدْرُ  
وَأَيْنَ يَنْجُو مَلُوكَ الشَّرْكَ مِنْ مَلِكٍ مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ بَلْ مِنْ جُنْدِهِ الْقَدْرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرُّها من يدجوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التي أقامها الصليبيون شمالي العراق آملين في الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الحارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم في نفس ابن القيسراني ونفوس المسلمين وينشد :

سَمَتْ قِبْلَةَ الْإِسْلَامِ فِخْرًا بِطَوْلِهِ وَلَمْ يَكُ يَسْمُو الدِّينَ لَوْلَا عِمَادُهُ (١)  
مَصِيبُ سِهَامِ الرَّأْيِ لَوْ أَنَّ عَزَمَهُ رَمَى سَدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَصَمَى سِيدَادُهُ (٢)  
فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْكُفْرِ تُسَلِّمُ بَعْدَهَا مَمَالِكُهَا إِنْ الْبِلَادَ بِلَادُهُ

ونرى ابن القيسراني - بعد هذا الفتح المبين - بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد إنه زارها لحاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمر أو كانت حاجة شخصية ، ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شَبَّ بِإَفْرَنْجِيَّاتٍ وَبِرَاهِبَاتٍ وَتَمَادَى فِي هَذَا التَّشْيِيبِ ، وسنذكر طرفا منه في حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبي منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقتل عماد الدين بيد آئمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتغرَّجوسلين الأمانى ووقوف الأزمين معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه نور الدين منكلا بالأزمين ، ويهني ابن القيسراني الوزير ابن أبي منصور بهذا الانتصار قائلا :

لِيَهْنِكَ مَا أَفْرَجَ النَّصْرُ عَنْهُ وَمَانَالَهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ  
وَإِنْ يَكُ فَتَحُ الرُّهَا لُجَّةً فَسَاحِلُهَا الْقُدْسُ وَالسَّاحِلُ

وحقا عظم الأمل في نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامي جميعه . ويحشد حملة الصليب في سنة ٥٤٣ جيشا كيفا لهم في بقعة تسمى « يَعْرَى » ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسراني :

(٢) أصمى : أصاب

(١) بطوله : بفضل

مظفرٌ في دِرْعِهِ ضَيْعَمٌ عَلَيْهِ تاجُ الْمَلِكِ مَعْقُودٌ  
وَصَارُمٌ الْإِسْلَامَ لَا يَنْشِيْهُ إِلَّا وَشَلُّوا الْكُفْرَ مَقْدُودٌ<sup>(١)</sup>

ويدور العام ومحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن «إنب» ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتِلَ في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاني ، ولم يفلت من القتل إلا من خيبر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هذي العزائم لا ما تدعى القُضْبُ وذى المكارمُ لامآلاتِ الكُتُبِ<sup>(٢)</sup>  
أغرَّتْ سيوفك بالإنفرنج راجفةً فؤادُ روميةِ الكبرى لها يَجِبُ<sup>(٣)</sup>  
غضبتَ للدين حتى لم يَفْتِكْ رَضًا وكان دين الهدى مرضاته العَضْبُ  
من كان يغزو بلادَ الشُّركِ مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ<sup>(٤)</sup>  
فأنهضُ إلى المسجد الأقصى بذي لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتقبُ<sup>(٥)</sup>

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحريين ضد حملة الصليب وما يامله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب في سبيل الله لا يتغنى مغنا ، إنما يتغنى ما عند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة .

إلا تكن أحدَ الأبدالِ في فلكِ الـ تَقْوَى فلا نَتَّارِي أنك القُطْبُ

وكانه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعيش ابن القيسراني حتى يمجد بقية انتصاراته الحميدة على الصليبيين ، إذ توفي قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح في بني منقذ وفي مجير الدين آبق صاحب دمشق . ويقول العباد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل في شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريجه وراوى ديوانه .

(١) الشلو: العضو وبقية الشيء . مقدود: مشقوق  
(٢) القُضْبُ جمع قُضْبٍ : السيف القاطع  
(٣) راجفة: نفخة ممينة : يجب : يخفق  
(٤) محتسب : يحتسب أجره على الله  
(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصباح والجلبة .

ابن الساعاتي<sup>(١)</sup>

هو بهاء الدين علي بن محمد بن رستم الدمشقي خراساني الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ هـ وكان ماهرا في صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التي وضعت على باب الجامع الأموي ، وأتاح له ذلك ثروة ، نعم به ابنه علي إذ شُغف بالفروسية وبيع بعض ضروب اللهو مثل الزرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبياً واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين في الجامع الأموي ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسطُرلابي بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفي قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . وزراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعي صلاح الدين ماصلحتُ شَمُّ الممالك بعد الزَّرنج والميل  
فليعلم القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلوله وعلى الآفاق فليطُل<sup>(٢)</sup>

وتحققت سريعا نبوءته بفتح القدس ، وزراه بين من حقوا بصلاح الدين في موقعته الماحقة :  
موقعة حِطَّين على حافة طبرية ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وما أنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبدا ، إذ كُتبت الكثرة منهم على وجوها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم في أسر البطل العربي ، وله يقول :

جَلَّتْ عزماتك الفتحَ المينا وقد قَرَّتْ عيونُ المؤمنين  
قضيتَ فريضةَ الإسلامِ منه وصدقتَ الأمانى والظنوننا  
فألممُ بالسواحلِ فهى صورٌ إليك وألحقِ الهامَ المتونا<sup>(٣)</sup>  
وقلبُ القدسِ مسرورٌ ولولا سَطَاك لكان مكتنبا حزينا  
أدرتَ على الفرنجِ وقد تلاقتُ جموعهمُ عليك رَحَى طحونا

(١) انظر في ابن الساعاتي وشعره وفيات الأعيان لابن

خلكان ٣/٣٩٥ وعبر الذهبي ١١/٥ ومرآة الزمان : ٣٧٥

(٢) يطول : بفخر تيبا

(٣) صور : مائلة وناظرة . الهام : الرءوس

والغصون البانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب ١٣/٥ وابن أبي أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حملة الصليب في ييسان وغير ييسان ، وتراعى له مدن الساحل الشامي ، وهي تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصبح مبهجا فرحا :

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ في كلِّ منطقي وشاع إلى أن أسمع الأسلُ الصَّمَا (١)  
فليت فتى الخطَّابِ شاهدَ فَتْحِهَا فيشهد أن السهمَ من يوسفِ أَصْمَى  
حَبَا مكةَ الحُسَني وثني يثيرِ وأطرب ذِيكَ الضريحِ وماضِمَا  
وأصبح نَغْرُ الدينِ جِذلانَ باسمَا وألسنةُ الأعمادِ تُوسعه لثَمَا

لقد فُتِحَ القدسُ عنوةً ، وإن قعقة السلاح لتكاد تسمع الصَّم ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحاً حريئاً بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما . ويصور ابتهاج مواطن الوحي في مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس نغر الدين ، وكأنا ألسنة الأعماد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد في صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبعن حول نور الدين كما يتضح من قوله في مدحة له :

أبكننِي الأيامُ مذ ضحكْتُ لى عن نيوبِ نوابِ عَصَلِ (٢)  
أفسدنِ خلاني فمالي في الِ سَرَاءِ والضَّرَاءِ من خِلِّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعد له صديق وفي في موطنه سببا في أن يشد رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رعدة ناعمة وذكر ذلك مرارا في شعره ، وكان قد وطد علاقته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه في القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور في مديحه منادمته له ومجالس أنسه . وله مدائح في السلطان

(٢) عصل : معوجة كآنياب الأسد

(١) الأسل : الرماح والسيوف .

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسنذكر بعضاً من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضاً بعضاً من خمرياته .

### الشهاب<sup>(١)</sup> محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبلياً ، فحفظ القرآن صيباً . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرّب فيه ، وكان يحلّه ويوده مودة مخلصّة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكتّه معاليه ولم يُرْ قبله كريمٌ مضى والمكرّماتُ نُؤادبهُ

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعيّنونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محبى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البندقدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائماً عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديباً كاتباً محسناً وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاماً . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعراً متفوقاً كما كان كاتباً بارعاً ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويراً بديعاً مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرقى

والناسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء  
والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن  
حجر ٩٢/٥ والدارس فى تاريخ المدارس للنعمى ٢٣٦/٢

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن  
شاذان فى ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١  
وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفنك بجمعهم وكاد أن لا يبق  
 باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول  
 فيها :

سِرَّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيْمِنُ جَارُ      وَاحْكُمُ فَطَوَّعُ مَرَادِكَ الْأَفْدَارُ  
 خُضَّتِ الْفُرَاتُ بِسَابِحِ أَقْصَى مَنَى      هَوَّجُ الصَّبَا مِنْ نَعْلِهِ آثَارُ  
 حَمَلْتِكَ أَمْوَاجَ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى      بَحْرًا سَوَاكَ تُقْلُهُ الْأَنْهَارُ (١)  
 رَشَّتْ دَمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَظِرُّ      مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غِبَارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا  
 على منازلة بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم  
 يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البوائل الأهوال كالأميد الضارية إلى أن انكسر  
 التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة  
 عظيمة وفي ذلك يقول الشهاب محمود :

كَذَا فَلْتَكُنْ فِي اللَّهِ تَمْضَى الْعَزَائِمُ      وَإِلَّا فَلَا تَجْفُو الْجَفُونَ الصَّوَارِمُ (٢)  
 بِجَيْشٍ تَظَلُّ الْأَرْضُ مِنْهُ كَأَنَّهَا      عَلَى سَعَةِ الْأَرْجَاءِ فِي الضِّيْقِ خَاتِمُ  
 يَحِيطُ بِمَنْصُورِ اللَّوَاءِ مَظْفَرٍ      لَهُ النَّصْرُ وَالْتَأْيِيدُ عَبْدٌ وَخَادِمُ  
 مَلِيكٌ بِهِ لِلدِّينِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ      بِشَائِرِ لِلْكَفَارِ مِنْهَا مَاتِمُ  
 مَلِيكٌ لِأَبْكَارِ الْأَقَالِمِ نَحْوَهُ      حَنِينٌ كَذَا تَهْوَى الْكِرَامَ الْمَكَارِمُ

ومر بنا في قسم مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم  
 مثل قيسارية وصفد والرملة ويافا وأنطاكية مزبلا منها مملكتهم ، ولم يدون ابن تغرى بردى شيئا  
 من شعر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر في منازلة  
 الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك  
 تكون جميع ممالكهم التي شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق في أيديهم إلا عكا وصور وصيداء

السيف القاطع

(١) نقله : تحمله

(٢) جفن السيف : غمده . الصوارم جمع صارم :



وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجّد فتوحه الشهاب محمود قائلاً .

الله أكبرُ هذا النَّصرُ والظَّفَرُ هذا هو الفتح لاماتزعم السيرُ  
هذا الذي كانت الآمالُ إن طمحتُ إلى الكواكب ترجوه وتنتظر  
فأنهضُ وسِرُّ واملِك الدنيا فقد نَحَلتُ شوقاً منابرها وارتاحتِ السرُّ (١)  
إن لم يُوفِّ الوَرى بالشكر مافتحُ يداك فاللهُ والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلّت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا في شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها الجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعصى الداوية والإسبانية في أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أن فتحها تم في السابع عشر من جادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار في نفس الموعد الذي كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفي هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهتاً « الأشرف خليل » مفتحها لها بقوله :

الحمد لله ذلّتْ دولةُ الصُّلبِ وعزّ بالترك دينُ المصطفى العربي  
هذا الذى كانت الآمالُ لو طلبتْ رؤياه فى النوم لاستحيّتْ من الطلب  
مابعد عكاً وقد هُدّتْ قواعدها فى البحر للشرك عند البرّ من أرب (٢)  
لم يبقَ من بعدها للكفر مذ خربتْ فى البحر والبر ماينجى سوى الهرب  
يايومَ عكا لقد أنسيتَ ماسبقّتْ به الفتوحُ وما قد خُطّ فى الكتب  
بُشراك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ بك المالكُ واستعلتْ على الرّب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيدا

(٢) أرب : مطلب وأمنية

(١) السر : جمع سرير : العرش

وقلعة جُبَيْل وعتليت وأنطربوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويمد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربى الفرات ، ويهتته الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلاً من مدحة طويلة .

وفتحٌ بدأً في إثر فتحٍ كأنما سماءٌ بدتْ تترى كواكبها الزهرُ

وعلى هذا النحو سجّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلاوون وخليل تسجيلاً رائعاً . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها في ديوان سماه : « أهنا المنائح في أسنى المدائح » وهو مفقود ، وسنشده له قطعاً في حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

### منجك<sup>(١)</sup> بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ في بيت نعمة ، فكان أميراً ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيراً القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، أخذت القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفاى ، وأبى العباس المقرئ . أما الأدب الذى شغف به منذ نشأته فقد أخذ عن أحمد بن شاهين . وكان كريماً مسرفاً مبالغاً في إسرافه ، فأنفق ما خلفه له أبوه ، حتى إذا تربت يده وضاعت به دنياه ولّى وجهه نحو إستانبول ، ولكنه لم يحقق فيها ما كان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيراً من المدائح والغزليات والخيريات ، وأكثر مدائحه في الفقهاء والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفي مقدمة من مدحهم شيخه في القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تندى أنامله ويشرق وجهه  
يقظ لأعقاب الأمور كأنما  
فيجود بالآلاء والألأاء  
جليت عليه حقائق الأشياء

طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك .

(١) انظر في منجك ربحانة الألبا طبعة عيسى الحلبي ٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤/٤٠٩ ونفحة الربحانة ، وقد

ومهابةٌ سادَ الولاةَ ولاؤها محفوفةٌ بجلالةٍ وبهاء  
وشمائلٍ رقتُ كما خطرتُ على زهرِ الربيعِ بواكرُ الأنداءِ

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعاني مكررة في المديح التقليدي ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها لإخراجا طريفاً على نحو ما يتضح في البيت الأول الذي جمع فيه بين الكرم والبشر المترقق في وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بالآلاء الوجه وإشراقه وما يجري فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء والآلاء جناس بديع . وواضح كيف لآم في البيت الثاني بين معناه وبين الممدوح وكان مفتيا لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وما جمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه في البيت الرابع فشمائل المفتي رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء .

وولى القضاء في دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء في الدولة العثمانية وعم فضله وبره أديبها ، وله ألف البديعي كتابيه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و « الصبح المنبي في الكشف عن حثيثة المتنبي » ويقول منجك في تهته له بالعيد :

آلى الزمانُ عليه أن يُواليكَا يُثني عليك ولا يأتي ثانيكَا  
إذا سَطَا فبأحكامٍ تنفَّذها وإن سَخَا ففِضْلِي من مساعيكَا  
من ذا يُصَاهيكِ فيما حُزَّتْ من شرفٍ ومَنْ يُدَانيكِ في حِلْمٍ ويَحْكِيكَا  
أعيادُنَا كُلُّهَا يومُ نراكِ بهِ وليلَةُ القَدْرِ وَقْتُ من لياليكَا

والملاءمة بين معاني الأبيات ومنصب المفتي - وكان حينئذ قاضيا بدمشق - واضحة ، والمبالغة واضحة في البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثني وثانيكَا » وعاد إليها بقوة في البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضي أعيادا ، ولكنه أبقى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقت من ليالي الشيخ . ولأريب في أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع ما يوشيه به من جناس وطباق كما في البيت الثاني . ودائما محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة في أستاذه المقرئ - وهو صاحب نفع الطيب - ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو في مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بارأءِ مسدِّدةٍ ويقطع الليلَ تسيحًا وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحهم في الديوان وعند من ترجموا له ألغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجرى ، وكثرت زمن المالك والعمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سنذكر منها بعض أبيات في غير هذا الموضع .

## ٥

### شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلى على نحو ما نجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجارها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع في فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم في سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلى يحاكون الجاهليين في تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسى أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابون منهم يعتمدون على عقولهم الخصبية في استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُحصى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالآلاف على نحو ما عرف عن أبي تمام الشاعر الدمشقي ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبى أكثر سنوات عمره في الشام وبواديه وقد بلغ الذروة في تضمين مدائحهم حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة ما يثارت في شعره من حكم أفردتها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهي مبالغة مفرطة في التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون - بعد المتنبى وأبي تمام - الحكم في جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربي حكما وفيلسوبا كبيرا ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ هـ وستترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرَائى قد لمع اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبى العتاهية التى سماها ذات الأمثال ، والتي ضمنها أربعة آلاف مثل . ولامية الطغرائى لا تبلغ مبلغها في حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هي من البسيط على شاكلة نونية البُستى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخصوا بعض

قصائدهم برصْف طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من هذا الطراز يقول فيها <sup>(١)</sup> :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَهُ في منزلهِ فالخزمُ أن يترحلا  
كالبدر لما أن تضاءلَ جدُّ في طلب الكمالِ فحازه متنقلاً  
سَهْماً لحلمك أن رَضيتَ بمشربٍ رَتِقَ ورزقُ الله قد ملأ المَلا  
فارق تَرُق كالسيفِ سُلَّ فبان في مَتْنِهِ ماأخفى القِرَابُ وأخملا  
للقفر لا للفقر هبها إنما مَعْنَاك ماأغناك أن تتوسَّلا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكالم البدر وعز الشخص في تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملا أو الأرض وملأها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسَلَّ من قرابه أو غمده ، وعار ما بعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفر المجدب الخراب خير من أن يقف بباب .

ودائماً تلقانا هذه الحكم في تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضاً منشورات في كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصي <sup>(٢)</sup> :

الدهرُ كالطيفِ بؤسَاهُ وَأَنعَمُهُ عن غيرِ قَصْدٍ فلا تَحْمَدِ وَلَا تَلْمِ  
لِاتسَالِ الدهرِ في البأساءِ يَكْشِفُهَا فلو سَأَلْتَ دَوَامَ البؤسِ لم يَدِمِ

فكل شيء حائل وزائل ولادوام لضر أو نفع ولا لبؤس أو نعيم ، ولادخل لدهر في شيء من ذلك ، ولا يأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولا ضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الامثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتاً . وفيها يقول <sup>(٣)</sup> :

(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ٣٠٦/١

(١) ابن خلكان ١٥٦/١

(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

اعتزلَ ذَكَرَ الأغانى والغزلِ . وَقُلِ الفَصْلَ وجانبٌ مَنْ هَزَلَ  
 وَأَتَى اللهُ فَتَقَوَّى اللهُ مَا مازجتْ قلبَ امرئٍ إِلا وَصَلَ  
 قاطعِ الدنيا فمن عاداتها تخفضُ العالى وتُعلَى مَنْ سَفَلَ  
 لا تُقَلُّ أَصلى وَفَضلى أَبداً إِنما أَصلُ الفتى ماقد حَصَلَ  
 مِنْ عَنِ النَّمامِ واهجرُهُ فما بَلَغَ المَكروه إِلا مَنْ نَقَلَ

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدى الإنسان في سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردي ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضاً أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكماً وأمثالاً منتشرة في أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزرى الحلبي المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة (١) :

حاذِرْ عِداكَ الأَفرينِ مِنَ الوَرى فَأَضْرُها القُرَباءِ والقُرَباءِ  
 وتوقَّ مِنَ كَيْدِ الحَقودِ ولينِ ما يُبْدى فَقَدْ يُصدى الحِسامَ الماءِ

ويذكر ابن معصوم لشاعريسمى نجيب الدين على بن محمد العاملى رحلة أودعها أشعارا على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهبّارية ومافيه من حكم ومعانٍ خلقية تهنيدية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله (٢) :

المراء لايسلم من حاسدٍ أوشامتِ فى اليسرِ والعُسْرِ

وتكثر الحكم أيضاً فى كتاب نفحة الریحانة للمحجى ، وهى من قديم كثيرة فى الشعر العربى كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلاً عند أبى العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافى الشام وحدها بل فى العالم العربى جميعه . وتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

(٢) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

(١) ریحانة الألبا ١/١٢٢

أبو العلاء<sup>(١)</sup> المعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنُوخِي ، ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة في بلدة تسمى « مَعْرَةَ النعمان » من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته « أبي العلاء » وفي ذلك يقول :

دُعِيْتُ أبا العلاء وذاك مَيِّنٌ ولكنَّ الصحيحَ أبو التَّزُولِ

وأسرته تنحدر من قبيلة تنوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدري وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنني ألبستُ في الجدري ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لأعقل غير ذلك » . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت في ترجمته له بمعجم الأدياء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعي أن يقتدى بهم فيكبَّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الخفيف واللغة . وأيضا فإن فقدته لبصره مبكرا جعله يُعْتَى بطلب العلم . وتلمذ على أبيه أولا ومن في بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ما عندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة والشهر إلا في العيدين .

ورحل إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوي أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمنتبي ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد كَبَّت نداء ربه . وأخذ نفسه منذ

والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٦٥ وفضول في الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقاد ص ٧٠ وأبو العلاء المعري للدكتورة عائشة عبدالرحمن ومقدمتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشرح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاله والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لمبتز ١١٠/٢ .

(١) انظر في ترجمة أبي العلاء وشعره معجم الأدياء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبي العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا في المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعري لابن العديم الحلبي وهي دفاع قوى عنه ونقى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبي العلاء لظه حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبتا : كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦

هذا التاريخ في سنة ٤٠٠ هـ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لا يبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث<sup>(١)</sup>  
لفقدى ناظري ولزوم يتي وكون النفس في الجسم الخبيث

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه في جسده وسجن داره وسجن فقهه لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولايتها للحاكم بأمر الله الفاطمي عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدئا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كلية ودمنة ، ولم يكد يتم الجزء الرابع منه حتى توفي فاتك سنة ٤١٣ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سدد الدولة الكُتامي سنة ٤١٤ وقدم له أبو العلاء الرسالة السُنديّة في مجلد واحد .

واعقل صالح بن مرداس أمير حلب في سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعْتُ شَفِيعًا إِلَى صَالِحٍ وَذَاكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأَى قَسْدًا  
فِي سَمْعِ مَنِّي سَجَعَ الْحَامِ وَأَسْمَعُ مِنْهُ زَيْبَرَ الْأَسَدِ

ومنذ حبس نفسه في داره أصبح ملاذًا لطلاب العلم في العالم العربي ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفي مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمري : « أخذ عن أبي العلاء خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تحرّ وديانات .. وكان له أربعة من الكُتّاب المحجّودين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم في كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحري » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

(١) النبيث : الخفي .



وكان أبو العلاء آية خارقة في الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب الزرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُ ويهمل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثله أبو العلاء تمثلا حيا خصبا ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثل صاحبها التراث الإنساني جميعه .

ومنذ سنّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك في شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميها البلسن والبلس رافضا ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائده ، إذ يقول :

يقنعني بُلْسُنُ بَارَسُ لِي      فَإِنِ اتَّيْتُ حَلَاوَةَ قُبْلَسُ

ويقول ناصر خسرو في رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ فوجده في سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك في أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لنرى القفطي - وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد - يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المين ، فشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذلك خشن الملبوس والمأكل والزهد في ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له في السنة مقدار ثلاثين دينارا قدر منها لمن يخدمه النُصف ، وأبقى النصف الآخر لمثوته ، فكان أكله العدس - إذا أكل - مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) في الشتاء وحصيرة من البردي في الصيف ، وترك ما سوى ذلك . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذاً بمذاهب الحكماء ولا اتباعا لمذهب البراهمة الهندي ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسنّ بعمق آلام الإنسان في دُنياه ، ولعل ذلك ماجعله يعزف عن الزواج حتى لايرزق بولد يكابد من دنياه ماكابده وصرح بذلك قائلا :

هذا جناهُ أبى عيسى وما جئتُ على أحد

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا في سنة ٤٤٩ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيراً الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني نحو أربعين رسالة ، ونشرها في ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنجية التي أرسل بها إلى الوزير البغدادي أبي القاسم المغربي وتلاها بالرسالة الإغريقية المرسله إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل في غير هذا الموضوع . ولأبي العلاء أيضا رسالة الملائكة وهي في مسائل التصريف ، طُبعت قديما بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسلم بها وبكتابه الفصول والغايات في حديثنا عن النثر . وله « ملق السيل » في الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا . وله ديوان صغير سماه الدررعات وهو أشعار في وصف الدروع ، وقد طُبعت ملحقا بديوانه الكبير سَقَط الزند .

ونقف قليلا لتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثاني اللزوميات ، والسقط أول ما يخرج من نار الزند وشكره ، سمي أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول ما نظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها في رثاء أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعره في الكهولة ومنه قصيدة نظمها في رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرا مثنيا إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمى شرحه « ضو السقط » وقد طُبعت في مصر قديما . وطُبعت دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزي وشرح لأبي محمد البطلبوسى الأندلسي وشرح لأبي الفضل قاسم الخوارزمي ، وهو في خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره في المديح ، وجمهوره في مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك في مقدمته قائلا « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلبا للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذي ستر بَغْفَةً (بُلَغَةً) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجّه إليهم مديحه - كما قال - طلبا للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يحببهم شعرا ، وربما مدحهم شاكرا صنيعا لهم على نحو ما ذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفا عونه الحميد له في أثناء ترده على تلك الدار ومكثتها الكبرى المشهورة . وطبيعي أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو في الديوان - بعامة - يحاكي المتنبي ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرح ديوانه وسماه معجز أحمد بينا سَمَّى شرحه لديوان أبي تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحترى « عبث الوليد » ويفجؤنا في الديوان فخر عنيف على نحو ما نقرأ في قصيدته :

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل  
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وهذا الصوت القوى المفاخر المباهى بالمجد والعبقرية يكاد يخفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقي : صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريف أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقدته لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وما حمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شك كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا يُصفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى يقول :

ولو أنني حبيبتُ الخلدَ فردًا لما أحببتُ بالخلد انفرادا  
فلا هطلتُ على ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عطارد المنسوب إليه السلم لو خبرت الناس خبرته وبلاءه وجربت من كيدهم ماجرب وعرفت من خبث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولا ثراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظنَّ بسائر الإخوان شرًّا ولا تأمنُ على سيرٍ فؤادا  
فلو خبرتهم الجوزاءُ خبيري لما طلعتُ مخافة أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه في السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، وإنه ليفلُّ نواب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومضائه . وفي رأينا أن أروع قصائد أبي العلاء في سقط الزند مرثيته لأنها تفصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثيته لصديقه الفقيه .

غير مُجدِّ في مِلِّي واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترنُّمُ شادي  
وشيئهُ صوتُ التَّعْيِ إذا قيَّ سَسَ بصوتِ البَشِيرِ في كل نادى

وواضح أنه يقول في مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتها واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود - مها طالت حياته - صراخا عليه ، حتى لكان الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجو الحماة فلا يدرى السامع أتبكي محزونة أم تغني مبهجة . ويمضي

أبو العلاء في مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وطء أقدامه على الأرض ، لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكمن من لحدٍ فيها يضحك من تراحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولا يلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لا ضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجيعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبي العلاء مرثية ثانية يرثي بها صديقا من أبناء عمومته ، وهي تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارهُ لم يَفخَرَ المولى على عبدهِ  
أضحى الذي أُجِّلَ في سِنِّه مثل الذي عُوِّجِلَ في مَهْدِه  
ولا يبالي المَيِّتُ في قبره بدمه شُيِّع أم حَمَدِه  
والواحدُ المَقْرَدُ في حَتْفِه كالحاشد المكثرِ في حَشْدِه  
ورُبَّ ظمآنٍ إلى مَوْرِدٍ والموتُ لو يعلم في وِرْدِه

وديوانه الثاني اللزوميات أو لزوم مالا يلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفي بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه - كما يقول في مقدمته - ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويّه يجيء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لا يلزم من باء أوتاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفاً كان يشغل بها الفراغ الطويل الذي نظم فيه اللزوميات إذ امتد إلى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمة ومنها العارضة أما الدائمة فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة في البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستتم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين في اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يُعدُّ أول من وسّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون في أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التي ضيق بها الممرات إلى قوافي الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنهما فلسفته أو تفكيره الفلسفي المتشائم وهو تفكير شغل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التي طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذي يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صبًّا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًّا . ويتسع به

التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه بأس ينقل عليه ثقلاً طويلاً ويملاً نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر فقيم إذن تلقى الأبناء لها من آبائهم وفيم الزواج وهي شر متصل ، شر يؤذن دائماً بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يَأْبَقُ الْإِنْسَانُ مِنْ مُلْكِ رَبِّهِ وَيُخْرَجُ مِنْ أَرْضِهِ لَهُ وَسْمَاءُ

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاكاً ولا خلاصاً ، وحرى به أن لا يتخذ ولداً حتى لا يرمى به في أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء في لزومياته الشرور الكبرى التي تقع دائماً على عاتق الإنسان بل تشغله أيضاً الشرور الصغرى التي تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعواتهم بهالة قدسية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولججوا في نعمتهم بصفات الله حتى آمنت طائفة في زمن أبي العلاء بتجسد الألوهية في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي . وهذا البهتان في العقيدة كان يروج له دعواتهم وخطبائهم في المساجد ، وفي رأينا أنهم المقصودون بحملة أبي العلاء على علماء الدين في أيامه بمثل قوله :

نَادَيْتُ عَلَى الدِّينِ فِي الْآفَاقِ طَائِفَةً يَأْقُومُ مِنْ يَشْتَرِي دِينًا بِدِينَارٍ  
جَنَّوْا كِبَائِرَ آثَامٍ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الصِّغَائِرَ تَجْنِي الْخُلْدَ فِي النَّارِ

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمي دينهم بثمن نجس دراهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخر كثيراً من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقصاً ومن قوله فيهم :

تَزَيَّوْا بِالتَّصَوُّفِ عَنْ خِدَاعٍ فَهَلْ رُزَّتِ الرِّجَالُ أَوْ اعْتَمِيَتْ (١)  
وَقَامُوا فِي تَوَاجُدِهِمْ فَدَارُوا كَأَنَّهُمْ ثَمَالٌ مِنْ كُمَيْتٍ (٢)

وهاجم الحكّام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له أو أى مصلحة ، وفي ذلك يقول :

وأرى ملوكًا لاثخوط رعيّة فعلام تؤخذ جزية ومكوس

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعَدُوا مصالحها وهم أُجْرأوها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويغنون عليه ويكيدون له ويأترون به . ويتسع مجملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزرىّ المشين . ولم ينس المرأة في إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لاتنصف في الود ولاتنق للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها في رأيه - الغزل والنسيج والرّدن أو الحياكة :

علموهنّ النّسجَ والغزل والرّدنَ وَخَلّوا كتابَةً وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك - في رأينا - فساد المجتمع في بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمته والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس في السراء والضراء ، يقول :

كيف لايشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر في اللزوميات ، فقد أودعها كما مرّ بنا آنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه في دنياه إزاء ما يُصَبُّ عليه من شرورها وهمومها وأفاعيها التي تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء في أشعاره حيرة تتراءى ظلّاتها في اللزوميات مما جعل بعض القلماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك في كل شيء ويتخذ الشك عقيدة له - كما اتخذ السوفسطائيون - ويسلطه على ماحوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفت الخنيفة والنصارى ما هتدت ويهود حارت والجوس مُضَلَّه  
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

والبيتان في هجاء أصحاب هذه الديانات لزمته لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفّر أختها في داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلي الفاطمي قائما في مصر ويدعوله الحكام وعلماء الدين في الشام . وطبيعي أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

في الغلو غلواً شديداً ، بل المسرف في الاحراف عن الإسلام انحرافاً مفرطاً . وقد استعرضنا في مقالنا عن التفكير الفلسفي في شعر أبي العلاء بكتابتنا « فصول في الشعر ونقده » الأشعار التي قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولاً كثيراً انتحل عليه خصومه . ويبدو أن أيادي شريرة امتدت إلى اللزوميات قديماً وأدخلت عليها فساداً غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامتُ إلى الفساد البرايا واستوتُ في الضلالة الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الإلحاد بأبي العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبي العلاء لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبي العلاء بسبعين عاماً وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامتُ إلى الفساد البرايا ونهتُنا - لوتنتهى - الأديانُ

ورواية البطليوسي للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التي اعتمدت عليها وأيضاً من النسخ الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات <sup>(١)</sup> مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدين أدخلت على اللزوميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة <sup>(٢)</sup> مثل ابن الراوندى . وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتاً ظنوا منها أنه يؤمن بقدم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفاً بذلك رأى المتكلمين المسلمين في حدوثها جميعاً وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى في واقع الأمر أبيات شُبِّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غيرَ فانٍ فسبحانَ المهيمنِ ذى الكمالِ

وقوله :

ياشهبُ إنك في السماء قديمةٌ وأشرتِ للحكماء كلَّ مُشارِ

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للفقى ٧٥/١ .

(١) أشار د. حكامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسي في مقدمته إلى أن المختار فيه من اللزوميات يصحح بعض ما حُرِّف من شعر أبي العلاء ووضَّع عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

وهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيراً بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ما هناك أنه قال إن الزمان تقادم أى تعمق في القدم ، وجعل الشهب في البيت الثاني قديمة وهو لا يقصد بالقدم في البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد ما يناقض الحدائة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجومِ ولا مذهبي قِدَمَ العالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولا بقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم في مثل البيتين السالفين - كما قلنا - بأنه يعنى تقيض الحدوث وهو إنما يعنى تقيض الحدائة ، وقد بسطنا ذلك في مقالنا عن أبى العلاء بكتابنا المذكور آنفا ، وأوضحنا أنه في أشعاره مؤمن إيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الخفيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما يتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خمسى وصومَ الدهر ألفهُ وأدمنَ الذكرَ أبكاراً بأصالِ

فهو صائم الدهر ، فرض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مرارا بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذكرٌ وغرّنى أنه بَعِيدُ  
وعن يميني وعن شمالي بصحبتى حافظٌ قَعِيدُ

وهو يستلهم في البيتين قوله تعالى : ( إذ يتلقى المتلقين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكرو ونكير فيه للناس ، يقول مخاطباً الليالى :

خَلَّصْنِي مِنْ ضَنْكِ مَا أَنَا فِيهِ وَأَطْرَحْنِي لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ  
ويشعر في عمق بأنه مقصّر مها قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائما في عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعاً :



ومغفرةُ اللهِ مرجوةٌ إذا أصبحتُ أعظمي في الرَّمَمِ  
 وباليستي هامدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يَنفُضون اللَّمَمِ  
 ونادى المنادى على غفلةٍ فلم يَبْقُ في أذني من صَمَمِ  
 وجاءت صحائفُ قد ضُمَّتْ كِبائِرَ آثامِهِم وَاللَّمَمِ<sup>(١)</sup>  
 وليت العقوبةَ تحريقَةً فصاروا رمادا بها أو حُمَمِ<sup>(٢)</sup>

فهو آمل في غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليرتجى أن لا يبعث يوم القيامة (يوم يُنادى المُنادِ من مكان قريب) كما جاء في سورة ق ، فيبئُ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بأذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : ( وكلُّ إنسانٍ أزمانه طائرُه في عُقْفِه ونُجْرُحُ له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ) . وما يلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تُحْرِيقًا يصبح العصاة به رمادًا أو حمًا فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيرا مثل : ( أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) . ولعل في ذلك ما يسقط كل ما قاله عنه بروكلمان في ترجمته له من أنه كان لا يعترف برسالة الإسلام وأيضًا ما قاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحداً بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يحجدها ، وله قصيدة رائعة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلَّى عليه اللهُ ما ذرَّ شارِقٌ ومافَتْ مسكاً ذِكْرُه في المحافلِ

واقترن ذلك عنده - كما مر بنا - بالزهد والتقصيف وهو فيها يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملا حنايا نفسه ، ولكن كان لا يزال يومض له بريق الأمل في رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا بِأئسُّ من عَفْوِ رَبِّي على ما كان من عَمَلِي وَسَهْوِ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إمامًا له ، لا يثق ولا يستسلم ولا يلقى مقاليدَه إلا إليه ، لمثل قوله :

كذَبَ الظنُّ لِإِمامٍ سِوى العَقْدِ لِي مشيرًا في صُبْحِهِ والمساءِ

(٢) الحسم : ما أحرق من خشب وغيره

(١) اللمم : الذنوب الصغيرة

وظنوا أن في ذلك ما يتصل من بعض الوجوه لإنكاره - في رأيهم للنبوت ، وفاتهم أنه متابع في تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الأول آيات بشرين المعتمر المعتزلي الرائعة في تمجيد العقل ، وما زال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجبائي وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحي السماوي وهي لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائي وابنه ، وكان يخالفها الأشعري ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء في رسالة الغفران . وكان - مثل المعتزلة - يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس ما يصل إليه الإنسان من اليقين وفي ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهادى أن أظنُّ وأُحدِسَا

فبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشريعة مرجعه في الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسي أبي العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرِّرا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كَرَهًا ورحلتى إلى غَيْرِهَا بِالرَّغْمِ وَاللَّهُ شَاهِدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر في حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا تخرج إلى الدنيا اختيارا ولا ترحل عنها اختيارا ، وهو ما لا ينكره عليه أحد من القائلين بجزرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة - وهو معتزلي مثلهم - إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبِرًا فعقابه ظلمٌ على ما يفعله

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه - عند القائلين به - نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجود العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية في أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وإرادته العليا ولذلك يقول :

لَا تَعِشْ مُجْبِرًا وَلَا قَدْرِيًّا وَاجْتَهِدْ فِي تَوْسُطِ بَيْنِ كَيْفَيْنَا

فذهبه في حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولا يخالفه معتزلي في ذلك ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية في إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف في أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريشة في مهب رياح القضاء والقدر تسيّره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأي الأول ، وهو ما اختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرّح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات :  
ولعل ما أسلفنا من الحديث يوضح في إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يردُّ إلى فقدته لبصره صيبا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردُّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التي ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب في فلسفته ، وجانب ثان استمدّه من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلِّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث في فلسفته استمدّه من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بجرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية في أفعاله الشريرة والآثمة والخيرة الطيبة .

### منصور<sup>(١)</sup> بن المسلم

هو منصور بن المسلم العميمي الحلبي المعروف بالدميكي وبابن أبي الحُرَجِين ، ولد مجلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شيوخها ، وشغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة في تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان في مسجد الرماحين وغيره ، وظل في هذا العمل يشغل به حياته حتى توفي سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا في الرد على ابن جنى في كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق في العربية وجودة

اللفظي ٣٢٦/٣

(١) انظر في منصور بن المسلم الحريرة (قسم الشام)

١٦٩/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٤/١٩ وإنباه الرواة

غَوْص . ويقول يا قوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائع فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدل على تبحره في علم العربية . وروى العماد الأصبهاني في الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رفاقة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أَحْبَابِنَا إِنْ خَلَّفَ الْبَيْنُ بَعْدَكُمْ قَلُوبًا ففِيهَا لِلتَّفْرِقِ نِيرَانُ  
رَحَلْتُمْ عَلَى أَنْ الْقُلُوبَ دِيَارَكُمْ وَأَنْكُمْ فِيهَا عَلَى الثَّأِي سَكَّانُ

ونمضى معه في هذا الغزل المتنازع وإذا هو يذكر غربته في دمشق ، وينتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له في الحياة ، مما تعمق نفسه في غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلأته ، يقول :

وَمَا بَاخْتِيَارِ الْمَرْءِ تَشَعْبُ نَيْبُهُ فَتَبْرَحُ أَوْطَارًا وَتَبْرَحُ أَوْطَانُ (١)  
عَسَى مُورِدٌ مِنْ مَاءِ جَوْشَنَ نَاقِعٌ فَإِنِّي إِلَى تِلْكَ الْمَوَارِدِ ظَمَّانُ  
وَمَا كُلُّ إِنْسَانٍ يَنَالُ مَرَادَهُ وَيُسَعِدُهُ فِيمَا يَجَاهِلُ إِمْكَانُ  
وَعَيْشُ الْفَتَى طَعْمَانٌ حُلُوٌّ وَعَلَقَمٌ كَمَا حَالُهُ قِسْمَانُ : رِزْقٌ وَحِرْمَانُ

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جرعة من ماء الآبار في جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لبيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك في عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثاني حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يدوق الحلو والمر في حياته كما يدوق الرضا والحرم . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا وما يلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رَأَيْتُ الْفَتَى يَأْتِيهِ مَا لَا يَنَالُهُ وَسَعَى لَوْ أَنْصَى الرَّكَابَ وَالرَّكْبَانَ (٢)  
وَمَنْ رَامَ إِدْرَاكَ الْمُنَى بِفَضِيلَةٍ فَقَدْ رَامَ أَمْرًا لَيْسَ يَدْرِكُهُ صَعْبًا  
وَيَذْهَبُ بِالوَدِّ الْمِرَاءَ وَيَمْتَرِي حَفَائِظَ لَا تَبْقَى عَلَى صَاحِبِ صَحْبَانَا (٣)  
تَوْقٌ قَلِيلَ الشَّرِّ خَوْفٌ كَثِيرُهُ وَلَا تَحْقِرَنَّ النَّزْرَ رُبَّمَا أُرْبَى  
فَإِنْ صَغِيرَ الشَّيْءِ يَكْبُرُ أَمْرُهُ وَكَمْ لَفْظَةً جَرَّتْ إِلَى أَهْلِهَا حَرْبَانَا

(١) تشعب : تبعد

(٢) سعى : يستير : حفاظ جمع حفيظة وهي الغضب والحمية .

(٣) أنصى : أتعب . الركائب : الابل

وهو يتكلم في أول الآيات عن الحظ وما يغدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومها تذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لا ينشب بينهم مراء ولا جدال مقيت لأنه يثير حفاظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع ما بينهم من صلوات . ويوصى الإنسان أن يتجنب قليل الشر حتى لا يقع في وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لا يظنه - مها صغر وتضاءل - شيئا لا يؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر في قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحِبُّ الإنسانُ ما فيه نَقَصُهُ      وَيُبْغِضُ ما يَنْجِي به وَيُزِيدُ  
نريد من الأيام تَصْفُو من الأذى      وَتَصْفُو ولا يَقْضِي بذاك وجودُ (١)  
وكيف نروم العيش خِلْوا من القَدَى      وللماء من بعد الصِّفاء ركود  
إذا كان يُعْطَى المرءُ ما يستحقُّه      تساوى شقى في القضا وسعيد  
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلاها      يعيبُ ذميمَ العيش وهو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : ( وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابعة رغبة ولا تقتضى بذلك سنة الوجود ، حتى في الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ما تمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجدير بمن خبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح في رأيه حميدا لا كريبا مذموما . ومن طريق شعره .

الناسُ كالأرضِ ومنها هُمُ      من حَشِنَ اللَّمْسِ ومن لَبِنَ  
مَرَوْ تَوَقَّى الرَّجْلُ منه الأذى      وإِثْمِدُ يُجْعَلُ في العين (٢)

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأهمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصلْد الذي لا يأتي بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذي يبرى العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجمالا . ولنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

(٢) المرو: الحجر الصلد. الإثمِد: الكحل

(١) تصفو: تصح رغبة هائلة

## حسين (١) الجزري

هو حسين بن أحمد الجزري الحلبي ، ولد بجلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيرا من مدائحهم ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض . . العالم بشعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار .. راقت بدائع آدابه ورقت ، وملكت روائعه حرَّ الكلام واسترقت » ويقول الشهاب الخفاجي : « أديب له أوصاف حسنى ، ومناقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفي سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر في بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديوانى مصطفى الباني والفتح بن النحاس في مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها في الشعر قائلا :

الشعرُ ما شاقْتُك منه حكمةٌ لا ما يشوقُك الكئيبُ الأوعسا (٢)

فليس الشعر في رأيه ما يصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر ما يفيد تجربة وخبرة وبصراً بالحياة . وهو لذلك لا يعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدا من كئيبان وعساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه ما يزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرفك كنهها وحقيقتها ، يقول في تضاعيف غزل له :

إن المحبةَ محنةٌ لا منحةٌ ومن الغرام برى المحبَّ المغرما  
وإذا مُبِعَتَ الماء أول مرةٍ ووردتهُ أخرى تذكَّرتَ الظما  
في كل يومٍ روعةٌ أولوعةٌ والقدَّ تُقعده الحوادث توأما  
ولقد ملئتُ نحاربا ونحاربا لن تلقى إلا إناءً مُقعما

وهي أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لا منحة يضمنى صاحبه ، ومن تصدده صاحبه أول مرة كمن يُصدَّ عن الماء وهو شديد الظما إذ لا يزال يذكر ذلك حتى لو

(٢) الكئيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه الأرجل للبه

(١) انظر في ابن الجزري وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣

ورحانة الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه في

مجموعة العقود الدرية

أُتِيحَ له الورود ، فظمؤه ولهفته القديمان لا يبرحان ذاكرته ، وهل في الحب إلا صَدٌّ وامتناع  
وعذاب ، والمحِبُّ يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفْعَمٌ بالتجارب كما  
يُفْعَمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرَّجاءَ ذَلَّةً الفتى      وطولَ المنى عجزاً وحبَّ الغنى فقراً  
فلا تَصْجِرَنَّ من حالَةٍ مستحيلَةٍ      كما نَلَّتْهَا عُسْرًا سَتَرَكَهَا يُسْرًا  
وإن الفتى كالغُصْنِ مادام نابتاً      فأَوْنَةٌ يُكْسَى وَأَوْنَةٌ يَعْرى

وهو يرى اليأس من الناس وتَحْقِيقَ الآمال لا إحدى الراحتين فحسب ، بل عِزًّا ما بعده عز ،  
كما يرى الرجاء وخاصة في الناس ذلاً ما بعده ذل ، واتساع الأمانى عجزاً لا يشبهه عجز ، والتطلع  
إلى الغنى فقراً لا يماثله فقر . فخير للإنسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن  
لا يضجر من شدة تنزل به لأنها لا بد أن تستحيل وتتحول ، فكل عسر معه يسر ، وما أشبه الإنسان  
بغصن شجرة يَعْرى من الأوراق ويكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَّنِي بالبؤسِ دهري دائماً      دون الورى فأنا بذلك أفضلُ  
هذى عقاقيرُ العِطارةِ كُلِّها      لم يحترقَ منهن إلا المندلُ

فهو يتقبل البؤس راضياً ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه ما يكون بالمندل أو العود الطيب الرائحة فإنه  
يحرق وحده دون ما عند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد في أشعاره ذكر الحرمان وأن  
الكرم لا تضره قلة المال بينما اللئيم لا يُجديهِ ولا يَنْفَعُهُ الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء  
والفضلاء تعلُّلات للتضييق على نفر منهم في الرزق بمثل قوله :

لأنحسب الأرزاق تُقسَمُ باطلا      كلا لقد ساوى المهيمنُ بيَّنها  
فإذا رُزِقَتَ الجهلَ أدركتَ المنى      وإذا حُرِمَتَ الجَدُّ أُعْطِيتَ الثَّهَى

وكان أهل الأرض في رأيه اثنان: جاهل ثرى له كل ما يأمَلُ ويتمنى وكان الدنيا طوع أمره ،  
وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِمَ الجَدُّ أو الحظ وحرِمَ معه إكسار الحياة من المال والثراء والنعيم .  
ويقول :

غَيْرُ بِدْعٍ إِذَا ظَلَمْتَ      بدهر      رُزِقَ العَمْرُ فِيهِ حَظًّا عَظِيماً  
فأهواءُ الصحيحِ يُدْعَى      عليلاً      والمُلدِّبُ المِصَابُ يُدْعَى سَلِيماً

وهو يواسى من يحسُّون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش الكرم ، بينما المغمورون يعيشون فى بجموحة من الثراء والنعم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللدغ يدعى سليما من تسمية الأضداد ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَكَ إِن بَعْدَ الضُّيْقِ مَخْرَجٌ وَصَبْرُكَ عِنْدَهُ أَهْيَى وَأَبْهَجُ  
وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ وَعِنْدَ حَلُولِهَا الرَّحْمَنُ قَرْحٌ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لا بد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لا بد كاشف الكرب والأحوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لداثما مع الصابرين الذين لا يأسون أبدا من عونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم وما يماثلها فى أشعاره - كما قدمنا - مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُليِّكُ مِنْ قَبْلِ السُّؤَالِ نَوَالُهُ وَيَأْتِيكَ دُونَ الْإِنْتِظَارِ نُضَارُهُ

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجودًا .

## ٦

## شعراء التشيع

مرَّبنا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرِفَ فى سَلْمِيَّةَ بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القَدَّاحِ حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادًا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع العالى المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فىهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون <sup>(١)</sup> :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدٍ



وقد ذهبنا في كتابنا العصر العباسي الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر في مثل ذلك للمأمون عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل عليّ على أبي بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلي ومواقفه في عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبي تمام إذ نجد عنده أشعارا في أهل البيت ومراثي تندب الحسين وتبكي مصرعه من مثل قوله في افتتاح إحدى مراثيه (١) :

ياعينُ لالغصا ولا الكُثبِ بُكا الرّزايا سوى بُكا الطّربِ (٢)  
ياعينُ في كربلا مقابرُ قد تركنَ قلبي مقابرَ الكُربِ  
من البهاليلِ آلِ فاطمةِ أهلِ المعالي والسادةِ الثّجُبِ  
كم شَرقتُ منهم السيوفِ وكم رُويتِ الأرضُ من دمِ سَرِبِ (٣)

ويقول أبو الفرج عن هذه المراثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا (٤) ، فتشيعه كان تشيعا معتدلا .

ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالي إلا منذ القدّاح ودعوته الإسماعيلية التي اتخذ لها سَكَمِيَّة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطة يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائي صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسأله عن معاوية وما روى من فضائله فأبى أن يفضله ، فإزالوا يدفونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يتقرب إلى الرملة فأت بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية - لقيت لها آذانا صاغية بحلب منذ مطلع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع - فيما يبدو - تشيعا معتدلا . ونراه يذكر - ما يؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلي بالإمامة بعده ، وله مراث في الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله (٥) :

- 
- (١) الديوان (في طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١  
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٥١/١٤  
(٣) شرفت : غصت . سرب : سائل .  
(٤) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢  
(٥) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكتبان شعر النسيب .

يَوْمَ الْحَسَنِ هَرَقَتْ دَمَ عِ الْأَرْضِ بِلِ دَمَعِ السَّمَاءِ  
 مَنْ ذَا لِمَعْقُورِ الْجَوَا فِي مَهَالِ أَعْوَادِ الْخَبَاءِ  
 مَنْ لِلطَّرِيحِ الشُّلُو عُرُّ يَانَا خَلِّي بِالْعَرَاءِ  
 مَنْ لِمَحْنَطِ بِالثَّرَا بِ وَلِلْمَغْسَلِ بِالِدَّمَاءِ

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتحها بقوله (١) :

الدينُ مُحْتَرَمٌ والحقُّ مُهْتَضَمٌ وَقِيَّ آلِ رَسولِ اللَّهِ مُقْتَسَمٌ

والفيءُ : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فدك وكانت فيثا لرسول الله في غزوته لخير والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت في إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت ثوبا الرأيه وكان ينبغي أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة في واحد وستين بيتا . ويعلن في ديوانه مرارا أنه شيعي إمامي ، ويذكر أممتهم الاثني عشر في مثل قوله (٢) :

شَافِعِي أَحْمَدُ النَّبِيُّ وَمَوْلَا عِيَّ عَلِيٌّ وَالْبِنْتُ وَالسَّبْطَانِ  
 وَعَلِيٌّ وَبَاقِرُ الْعِلْمِ وَالصَّامِ دِقُّ ثُمَّ الْأَمِينُ ذُو التَّبْيَانِ  
 وَعَلِيٌّ وَالتَّمَقِّيُّ ابْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ وَالْعَسْكَرِيُّ الدَّانِي  
 وَالْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ فِي يَوْمِ لَايْنَدُ إِلَّا عُفْرَانُ ذِي الْعُفْرَانِ

والأئمة الاثنا عشر في الأبيات مرتبون ، وهم علي بن أبي طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلي زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم علي الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقي والحواد ثم ابنه علي الهادي ونجله حسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي ويسميه القائم في مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثني عشر حتى انتهى إلى العسكري بن الهادي قائلا (٣) :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (نشر وتحقيق د. سامي الدهان) ٣/٣٤٨  
 (٢) الديوان ٣/٣٩٧  
 (٣) راجع ٣/٤٢٩ وما بعدها.

وابنه العسكرى والقائم المظهر حقي محمد بن علي

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدي لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا في حديثنا عن بهاء الدين العاملى . ويلقانا في القرن الخامس الهجرى ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعى إمامى ، ومن آثار تشيعه في شعره قوله (١) :

وقالوا قد تغيرت الليالى وضُيِّعت المنازلُ والحقوقُ  
وأقسمُ ما استجدَّ الدهرُ خلُقًا ولاعدوانه إلا عتيقُ  
أليس يُردُّ عن فديكِ عليُّ ويملك أكثر الدنيا عتيقُ

وهو يأسى لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فديك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا في أن ترثها ، وذكرها أبو بكر بحديث أبيها صلى الله عليه وآله واستجابت له راضية . وكبرت كلمة تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصديق الزاهد الذ أنفق أمواله في دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخضه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام في القرن الخامس الهجرى ابن حيوس الشاعر الدمشقى ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العماد الأصهباني في كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا في القرن السادس الهجرى ، غير أنه - على عادته كما ذكرنا في قسم مصر - لا يُعنى بشعرهم الشيعى إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبها أو تحلها ، منهم ابن قُسيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العماد في حب آل البيت قوله (٢) :

ويَدِ بِآلِ مُحَمَّدٍ عَلِقَتْ مَنَى فَلَستُ بِغَيْرِهِمْ أَرْضَى  
جَعَلَ الإلهُ عَلِيَّ حُبَّهُمْ وَعَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ قَرَضَا  
فَأَنَارَ ذَلِكَ مِنْ زِنَادِقَةٍ حَسَدًا فَسَمُوا حُبَّهُمْ رَفُضَا  
وَعَجِبْتُ هَلْ يَرْجُو الشَّفَاعَةَ مَنْ يَنْوِي لآلِ مُحَمَّدٍ بَعْضَا

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٤٥٣/١

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو في هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر في شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ ، ويقول عنه العماد : كان غالياً متشيعاً<sup>(١)</sup> ولم يرو شيئاً من شعره الشيعي الغالي . وكان طلائع بن رُزَيْك وزير الخليفين الفاطميين : الفائز والعاقد شيعياً إمامياً ، وكان من مقريبه ثقة الملك الحسن من بني أبي جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة<sup>(٢)</sup> ، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها في ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة في الخريدة عرقلة الدمشقي حسان بن نُمَيْر المتوفى سنة ٥٦٧ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلاً<sup>(٣)</sup> :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سَنَةِ الإمام يزيدٍ  
وهو يريد يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهماً وسخرية . ونظلم في زمن الأيوبيين والمالكيك نستمع إلى أشعار تبكي الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغوري الدمشقي المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا في مطالع ديوانه باكياً الحسين ذارفاً عليه الدمع مدراراً منشداً<sup>(٤)</sup> :

لَمْ لَا أُسْحُ بِيَوْمِ عَاشُورَاءَ مِنْ مَقَلَّتِي دَمًا يَمَازِجُ مَاءَ  
يَوْمًا بِهِ قُتِلَ الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَا قَتَلَا حَوَى كَرْبَاً بِهِ وَبِلَاءَ

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة في حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملاً عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى ، ويسترسل في التنويه بعلي بن أبي طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وينوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض في الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

أَلْهَيْتِي لِلْحُسَيْنِ غَدَاةً أَضْحَى هُنَاكَ «بِكَرْبَلَا» شِلْوًا قَتِيلًا

- (١) الخريدة ٧٦/١  
(٢) الخريدة ١٩٩/٢  
(٣) الخريدة ٢٠١/١  
(٤) ديوان فتیان الشاغوری (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٦  
(٥) الديوان ص ٥٨٠ والشلو: العضو من الإنسان والجمع أشلاء، كناية عن الموت

(٤) ديوان فتیان الشاغوری (طبع مجمع اللغة العربية

يَبْرُقُ جِسْمَهُ دَوْسُ الْمَذَاكِي      وَقَدْ أَعْلَتْ وَايَاهُ الْعَوِيلَا (١)  
 شَكَا ظَمًا فَمَا عَظَفُوا عَلَيْهِ      وَلَا أَلْوَا وَلَا أَرَوَا غَلِيَا  
 رَسُولُ اللَّهِ سَمَاهُ « حُسَيْنَا »      وَقَبَّلَ ثَعْرَهُ زَمْنَا طَوِيلَا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بعلي والحسين وأصحاب العباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعهما الرسول في حجره فقبلها واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار » . ولم يكن فتيان غالبا في تشيعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله في علي والحسين وآلهما (٢) :

لَمْ أَهْوَهُمْ أَبَدًا بِيُبْغِضِي غَيْرَهُمْ      كَلَّا وَمَنْ فَرَضَ الصَّلَاةَ وَوَقَّتَا  
 فَهُوَ يَقْسِمُ بَرِيهِ فَاضِ الصَّلَاةِ أَنَّهُ لَمْ يَجِبْ آلَ الْبَيْتِ مِبْغِضًا لِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٌ مِثْلُ غَلَاةِ الشَّيْعَةِ ، بَلْ  
 هُوَ يَجِبُ الْجَمِيعَ وَإِنْ كَانَ جَبَهُ لَهُمْ أَزِيدٌ وَأَكْثَرُ ، كَمَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ قَصِيدَتُهُ السَّالِفَةُ .  
 وولتقي في زمن الماليك بالوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله (٣) :

سَمِعْتُ بَانَ الْكَحْلَ لِلْعَيْنِ قُوَّةً      فَكَحَلْتُ فِي عَاشُورَ مُقَلَّةً نَاطِرِي  
 لَتَقْوَى عَلَى سَحِّ الدَّمُوعِ عَلَى الَّذِي      أَذَاقُوهُ دُونَ الْمَاءِ حَرَّ التَّوَاتِرِ

فهو قد تكحل في يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذي قتله دون جرعة ماء يحتسبها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو في التشيع فكان ينكر ذلك منحيا على من يتهمه بالسب واللعن ، وفي ذلك يقول (٤) :

قُلْ لِلَّذِي بِالرَّفْضِ أَتَى      هَمْنِي أَضَلَّ اللَّهُ قَصْدَهُ  
 أَنَا رَافِضِيٌّ أَلْعَنَ الْ      شَيْخَيْنِ أَبَاهُ وَجَدَّهُ (٥)

وواضح أنه يقول إنه رافضي تهكما على خصومه . ونظلم نلتقي بشعر شيعي على هذه الشاكلة

(٤) الفوات ١٧٥/٢

(٥) أباهُ مشددة الباء لصحة الوزن

(١) المذاكي : الخيل ، وَايَاهُ : نساء أسرته .

(٢) الديوان ص ٦٨

(٣) فوات الوفيات لابن شاکر ١٧٦/٢

لا في أيام المالك فحسب ، بل أيضا في أيام العثمانيين ، ومن يُظنُّ تشيعه حينئذ درويش<sup>(١)</sup> الطالوي المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين<sup>(٢)</sup> بن عبد الصمد العاملي وهو أبو بهاء الدين العاملي أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسنترجم له عما قليل .

### كشاجم<sup>(٣)</sup>

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندي بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفي تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفي ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله في الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السندي من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان في ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكل به في مدة حبسه السندي بن شاهك » وربما تلقن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ في بيته . وأصبح السندي بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاء الشام ، وربما توفي بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسلِّك حفيده كشاجم في شعراء الشام ، وكان يسكن في شيبته بلدة الرملة بفلسطين . ونظن ظنا أنه وُلد لأبيه حوالي سنة ٢٩٠ للهجرة . ويبارح الرملة والشام جميعا في سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولي الموصل مرارا بين عامي ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالدين . وينزل عند سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن علي أمير الزاب قصيدة في مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

الحريري طائفة كبيرة من شعره ، ودنوانه مطبوع ببيروت ، وراجع في السندي جده ترجمة موسى الكاظم في ابن خلكان والحيدان للناظر ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف للمسعودي ( طبعة الصاوي ) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص

٣٤٩

(١) ربحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) أنظر في كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد

٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٠/١ والمتنخل للثعالبي

ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيرواني وذيل زهر

الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشي في شرحه لمقامات

القيرواني ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .  
 قد كان شوقى إلى مصرٍ يُورِّفنى فالآن عدتُ وعادتُ مِصرُ لى دارا  
 وتُروى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقيل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل  
 التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول في شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح ورتاء وشكوى وهجاء وخمريات  
 ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة في الصيد والطرده وله كتاب فيها  
 سماه المصايد والمطارد ، وأيضا له كتاب فى أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعيا إماميا إما - كما  
 قلنا - مثل أهل بيته وإما استقلالاً منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه  
 ابن شهر آشوب \* إن صحَّ مارواه - من قوله :

نبيى شفيعى والبتولُ وحيدرُ وسيِّطاهُ والسجَّادُ والباقرُ المجدِ  
 يجحفَ بموسى بالرِّضا بمحمدٍ بنجلى الرِّضا والعسكريين والمهدى  
 والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى  
 عشرية وهم اثنا عشر إماما : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على  
 زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، وريحم جعفر فى قسمه ، والترخيم فى غير المنادى  
 شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد  
 الجواد نجل الرضا ، ويلىه على الهادى فالحسن العسكرى ، وقد سماهما العسكريين والمهدى هو  
 محمد المهدي المنتظر الذى مات صبيا حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماههم جميعا كشاجم - كما  
 رأينا - فى بيته واتخذهم شفعاء له عند ربه ، مما يقطع - إن صحَّ أنه ناظم البيتين - بتشيحه  
 وإماميته أو اعتناقه نخلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولها الحسين ومن قُتلوا معه من آلِه فى  
 كربلاء قائِلا فى مطالعها :

يا بؤس للدهر حين آل رسو	لِ الله تَجَنَّحُهُمْ جَوَائِحُهُ
أظلم فى كربلاء يومهم	ثم تَجَلَّى وهم ذبائِحُهُ
لابرح الغيث كلَّ شارقة	تَهْمَى غواديه أوروائجُهُ <sup>(١)</sup>

وتسيل .

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والفوايد

والرؤايع : السحب المطرة صباحا ومساء . تهمنى : تصب

على ثرى حله ابن بنت رسول الله مجروحة جوارحه  
وسيق نسوانه طلائح أحد زان تهادى بهم طلائحه

والقصيدة تفيض - على هذا النحو - أسى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعوله الغيث أن يظل يهيم كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبه نساء آل البيت منهكات مُعيبات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ما أصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاهرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى هزبية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر ما يعتقدده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غدِيرِخُم ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وثر القوم فى بدرهم لقد ثأر القوم فى كربلاء  
بها هتكت حرّم المصطفى وحلّ بين عظيم البلاء  
وساقوا رجالهم كالعبيد وحازوا نساءهم كالإماء  
ولو كان جدّهم شاهداً لشيع أظعم بالبكاء

والآيات بالغة التأثير فى وصفها لهول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك حرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما كفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعاً عن سبطه وآله .

ويُلمّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وما أصابهم فى كربلاء إلاما سريعا ، وكأنما أراد أن يفرد لها لعلى سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شبهة بهداه جلا وكم خبطة بحجاه فصل  
وكم أطفأ الله نار الضلال به وهى ترمى الهدى بالشعل



وكم ردَّ خالقنا شمسَهُ عليه وقد جَنَحَتْ لِلطَّفَلِ  
وكم ضَرَبَ النَّاسَ بِالْمَرْهَفَاتِ عَلَى الدِّينِ ضَرْبَ غِرَابِ الْإِبِلِ

وحقا كان عليٌّ ملهما في معرفة الحكم الفاصل في أي مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرهفة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُردُّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغة ، عليٌّ في غنى عنها ، بل هي بهتان ، ومثلها بهتانا مازعمه في القصيدة من تفضيل عليٌّ درجات فوق أبي بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى في بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبضَ نبيٌّ حتى يؤمَّهُ رجل من قومه » . وكلُّ ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولا يلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو - غير خجل ولا مستح - أبا بكر وعمر ، لأنها منعا السيدة فاطمة حقها في ميراث الرسول ومآل إليه في غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا في ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقه » ولعل في ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه في تشيعه .

### ابن حيوس<sup>(١)</sup>

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقي ، كان جده حيوس على شيء غير قليل من الثراء مما جعله يشيّد بدمشق داراً فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضي غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفي مقدمتهم خاله ابن الجندی الغساني ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا في دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمي المسمى أنوشتكين الدزبري ينزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤ ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره في مجلدين

(طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤

وزبدة الحلب (نشر د. سامي الدهان) ٤٠/٢ والوافي

١١٨/٣ وعبر الذهبي ٢٧٩/٣ وشنترات الذهب ٣٤٣/٣

فانعدت صلة وثيقة بينها وأخذ كل منها يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدُّ زبرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه في ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن علي اليازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه في القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي فدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فدح الوزير بعده بمدحة واحدة .

وفي هذه السنوات التي تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاية الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها في مدائحهم ، وتضطرب الأمور في القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب في دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأياها مهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها ، ويتصافد لقاؤه فيها بعلي بن منقذ صاحب حصن شيزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المردي صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسا من تلبيته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، ومازال الشاعر يوالى مدائحهم فيه إلى وفاته سنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطايها عليه . وخلفه ابنه نصر ، فضى يجزل للشاعر في العطاء حتى بلغت مدائحهم فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاءه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلي لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حيوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذى نفق الثناء بسوقه وجرى الندى بعروقه قبل الدم

وأجازه بألفي دينار ، وفي نفس السنة توفي ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب في أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولى وجهه نحو بني مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَوْءٍ بمصرٍ جادنى زمنا فداء نَوْءٍ سقانى الرىِّ فى حَلْبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسئولته لآل مرداس في الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثاره - كما يقول ابن خلكان - وأسبغوا عليه نعا ضخمة ، مما جعله يبني دارا فخمة له بلجلب ، وكان قد كتب على بابها :

دَارُ بَنَيْنَاهَا وَعَشْنَا بِهَا فِي نِعْمَةٍ مِنْ آلِ مُرْدَاسٍ  
قُلُوبُ لِبْنِي الدُّنْيَا أَلَا هَكَذَا فَلْيَصْنَعِ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ

ولم ينفعهم ما صنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُقَيْلِي دولتهم استأذنه في إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية في مدائح لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة في كتابينا « العصر العباسي الثاني » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القداح اتخذت سلمية بالقرب من حاة مركزها لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذي ينسخ بشريعته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النوراني ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لا تشوبه الأكدار ، فهو نوراني خالص . وأضافوا أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبري الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قيس ابن حيوس في مدحه للدزيرى سنة ٤٢٧ قوله في مديح المستنصر حين ولي الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أَمَّتْ خِلاَفَتُهُ رِيحُ النَّدَى يَسْرًا      وَظَلَّ نَشْرُ الدُّنَا مِنْ نَشْرِهَا عَطْرًا (١)  
وَحُصِّصَ بِالشَّرْفِ الْمُحَضُّ الَّذِي ارْتَفَعَتْ      لَهُ النَّوَاطِرُ وَالنُّورِ الَّذِي بَهَّرَا  
هُمُ الْأَلَى أَخَذَ اللَّهُ الْعَهْدَ لَهُمْ      وَالنَّاسُ ذَرٌّ عَلَى مَنْ بَرَّ أَوْ فَجْرًا (٢)  
لَأَجْلِهِمْ خَلَقَ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهَا      وَذَنَّبُ آدَمَ لَوْلَاهُمْ لَمَّا غُفِرَا  
وَإِنْ آلَاءُهُ مَا لَا يَحِيطُ بِهَا      وَصَفَّ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَنْطِقُ الْحَجْرَا  
مَنَابِقُ عَدَدَ الْأَنْفَاسِ مَا تَرَكْتُ      لِفَاخِرٍ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَفْتَحْرَا

(٢) الذر: ما يرى في شعاع الشمس الداخلي من النافذة.

(١) أمت: قصدت، يسرا: سهلا، النشر: الريح الطيبة والطيب، الدنيا: جمع دنيا.

وواضح أنه في البيت الثاني يشير إلى اللاهوت النورى المنقول في الأئمة - بزعم الإسماعيليين - حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العلى. ويكثر ابن حيوس من ذكر إمام العصر وغيث المسلمين وتنقل النور في الأئمة وأن طاعتهم فرض، يقول للذيرى في إحدى قصائده:

يَاسَيْفَ مَنْ عَصِيَانُهُ وَوَلَاؤُهُ جَعَلَا شَقِيًّا فِي الْوَرَى وَسَعِيدَا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمى والشقى حطبُ النار مَنْ عصاه. ونراه في مديح الوزير اليازورى يجرّضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير اليازورى المعروف لفتنة البساسيرى في سنتى ٤٤٧ و ٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيها للخليفة الفاطمى، وفيها يقول للخليفة العباسى القائم بأمر الله:

عَجِبْتُ لِمَدْعَى الْآفَاقِ مُلْكًا وَغَايَتُهُ بِبَغْدَادِ الرُّكُودُ  
وَمِنْ مُسْتَحْلَفٍ بِالْهَوْنِ رَاضِي يُنَادُ عَنِ الْخِيَاضِ وَلَا يَدُودُ

وهو يريد أن ملكه لا يتجاوز بغداد، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس في يده من الحكم والسلطان شيء مع الملك السلجوقى طغرل بك. وما يزال يدور فى الفلك الإسماعيلى الفاطمى حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرادسى وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها:

وَلِكِ الْأَدَلَّةُ أَوْضَحَتْ حَتَّى رَأَى إِبْثَاتَ فَضْلِكَ مَنْ رَأَى التَّعْطِيلَا  
عُرُوا بِأَنْ شَرَّقَتْ عَنْهُمْ مَذْهَبًا فِي الرَّأْيِ مَا عَرَفُوا لَهُ تَأْوِيلَا

وهو فى البيتين يعرّض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل فى القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم، وكأنه يريد أن يعلن تبرّؤه منهم وأنهم ضالون مضلون. وأشعار ابن حيوس تمتاز بالقوة والصلابة والجرالة والنصاعة، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط.

## بهاء الدين <sup>(١)</sup> العاملي

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامي الشيعي ينتقل في بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة في أفغانستان . واستقر به المقام في « البحرين » حيث توفي بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين في بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحببت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور في مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه في الحديث النبوي والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى ما فيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المحلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته في البلاد الإيرانية والعربية ألقى عصا تسياره في أصفهان ، وقربه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية في أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفي أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكري وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البوريني في دمشق . وقد هيأتها إمامية أبيه ونشأته في إيران مركز المذهب الإمامي إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتباً في الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة في التفسير وفي الأصول وفي الفقه وفي العربية وفي الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الخفاجي : « شعره باللسانين العربي والفارسي مهذب محمر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الخفاجي في الرحانة وابن معصوم في سلافة العصر والحبي في نفحة الرحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرًا ومديحا ورتاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو في شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامي غال . وكان الإمامية يعتقدون أن إمامهم الثاني عشر محمدا المهدي المنتظر لم يمت حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام <sup>(٢)</sup> الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

(١) انظر في بهاء الدين العاملي وشعره سلافة العصر لابن معصوم ص ٢٨٩ ورحانة لأبنا للخفاجي ٢٠٧/١ ونفحة الرحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبي) ١٩٧ ، وفي مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣

وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢ ، ٢٤٠/٦  
(٢) راجع في إمام الوقت عند الإمامية الاثني عشرية العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيير (طبع القاهرة) ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

اتصال شخصي به وأنهم يتوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصرف لشئون الكون والعباد ، ولياء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أوقامه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها في كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربِّ العالمين وظلُّهُ  
هو العروة الوثقى الذي منْ بذيله  
علومُ الورى في جنبِ أبحرِ علمه  
به العالمُ السفلى يسمو ويعتلى  
على ساكنِ القبراء من كلِّ ديارٍ (١)  
تمسكُ لا يخشى عظامَ أوزارِ  
كغرفةٍ كفُّ أو كخمسة منقارِ  
على العالمِ العلويِّ من غيرِ إنكارِ  
همامٌ لو السبعُ الطَّباقُ تطابقتْ  
على نقضِ ما يقضيه من حكمه الجاري  
لنكسَ من أبراجها كلُّ شامخِ  
وسكنُ من أفلاكها كلُّ دوارِ  
أياحجةَ الله الذي ليس جارياً  
بغيرِ الذي يرضاه سابقُ أقدارِ  
ويامنُ مقاليدُ الزمانِ بكفه  
وناهيك من مجدٍ به خصَّه البارئ

وبهاء الدين يجعل محمداً المهدي الغائب في رأى الإمامية خليفة الله في تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذاً من الآية الكريمة : ( وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى أَخْذًا مِنَ الْآيَةِ الْكُرْمِيَّةِ : ) ( وَمَنْ يُبَالِغْ فِي سَعَةِ عِلْمِهِ اللَّدْنِيِّ بِالْقِيَاسِ إِلَى عِلْمِ النَّاسِ الَّذِي لَا يُعَدُّ شَيْئًا مَذْكُورًا بِجَانِبِ بَحَارِ عِلْمِهِ . وَيَزْعَمُ أَنَّ الْعَالَمَ السُّفْلَى وَهُوَ الْأَرْضُ شَرَفٌ بِهِ وَفُضِّلَ عَلَى الْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ ، وَيَزْعَمُ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ لَوَاتَفَقَتْ عَلَى نَقْضِ مَا يَبْرُمُهُ لِانْقِلَابِ أَجْرَاجِهَا وَخَرَجَتْ مِنْ قَوَاعِدِهَا وَسَكَنَ مِنْهَا كُلُّ دَائِرٍ مَتَحَرِّكٍ مِنْ أَجْرَاجِهَا . وَيَصِفُهُ بِأَنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ وَأَنَّ الْأَقْدَارَ الْإِلَهِيَّةَ طَوَعَ أَمْرَهُ لَا تَعْصَاهُ أَبْدَاوُ أَنَّ مَفَاتِيحَ الزَّمَانِ وَخَزَائِنَهُ بِيَدِهِ . وَالْقَصِيدَةُ تَمْتَلِئُ بِهَذَا الْغُلُوِّ الْمَفْرُطِ الَّذِي يَجْعَلُ هَذَا الْإِمَامَ لَا يَزَالُ حَيًّا يَصْرِفُ أُمُورَ الْكُونِ ، وَيَدْبِرُ شُؤْنَ الْعِبَادِ ، وَيَعَذِّبُ مِنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَقَالِيدُ الدُّنْيَا بِكِفِّهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرَى فِيهَا بِإِرَادَتِهِ ، وَكَأَنَّ قَائِمَ الزَّمَانِ فَوْقَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَهُوَ غُلُوٌّ مَا يَمِثَلُهُ غُلُوٌّ .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو في عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سب من وقفوا -

(١) ديار : ساكن دار . القبراء : الأوس .

في رأى الشيعة - ضد على وحقه في الخلافة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو ما نقلناه في مثل قوله :

يا أيها المدعى حبّ الوصيّ ولم يَسْمَحْ بسبّ أبي بكرٍ ولا عمراً  
كذبتَ والله في دعوى محبّته تَبَّتْ يداك ستصلى في غدٍ سقرًا  
فإن تكن صادقًا فيما نطقتَ به فابترأ إلى الله ممن خان أو غدرا  
وأنكرَ النصّ في خُمٍّ ويبيعه وقال إن رسول الله قد هجرا  
أتيتَ تبغى قيامَ العذر في فدكٍ أتحسب الأمرَ بالتصويه مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبي بكر وعمر فريضة من لم يؤدها صلى نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين - كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه - ويعلل لما قاله بأنها أنكرا نصّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعلى بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه في الحج حتى إذا مرض استخلفه في الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديم له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنها منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فدك فبقي رسول الله ، وإنما منعاها بوصية الرسول - كما ذكرنا مرارا - إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » . وما من ريب في أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة في نفوس المسلمين . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بهاء الدين العامل كان رافضيا غالبا في الرفض ، سواء في مهاجمته أبا بكر وعمر أو في خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه في تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل ما لَحَّ فيه من رفع إمامه الحق عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

يكثّر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى في إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسب جذبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي ، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملأ قلبه وجداً وشوقاً إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد ، وعبثاً يتدل لها ويستعطف ويتضرّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل في نفسه بلقائها أبداً ، فهو دائماً مؤمل في اللقاء بعد المهجران وعلى الأهل في الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قد يما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلى يشيع على كل لسان ، فقد ظل يغنى باسمها وعيناه مصوّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشرًا آرامها ، إذ هجر حيّتها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيّق ساحاته ، وإنه ليفر منه منظويا على نفسه حالما يلبى وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلى . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المغرق في الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبته فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها



هالة سحرية ، وبذلك تستحيل في خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعري ساحر . وقد يفيق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا . ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامي من شعراء العصر العباسي الأول هو ديك الجن الحمصي ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وهتاناً ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتغزل بصاحبته « علوة الحلبية » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك في كتابنا « العصر العباسي الثاني » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربي - على مر الأزمنة - أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة مجلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان في القرن السابع الهجري . على أن بين الشعراء من لم يقتصر في غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقي الذي أضاف إليه الإسلام بمثلثه عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه في هذا الكلف عذابا متصلا . وفي الغزل بجانب ذلك الغزل الحسي الذي يصور جمال المرأة ومفاتها تصويرا ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمح العواطف . وظل هذان النوعان : الملائكي الطاهر والمادى الصريح يتقابلان في الغزل العربي طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كشاجم في صاحبة له (١) :

السَّحْرُ في أَلحَاطِهَا الفَاتِكَةَ	وَالرُّوحُ من إِعْرَاضِهَا هَالِكَةَ
وَالقَهْوَةُ الصَّهْبَاءُ من رِيْقِهَا	وَالمَسْكُ من أَصْدَاعِهَا الحَالِكَةَ
مَنْ لَمْ يَرِ الدَّرَّ وَتَأَلِيفَهُ	فِي سِيلِكِهِ فليُرَا ضَاحِكَةَ
قَدْ كَتَبَ الحَسَنُ عَلى خَدِّهَا	طُلَّ دَمٌ أَنْتِ لَه سَافِكَةَ

والآيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت)

محفوظة ، فريق صاحبتة خمر والشعر على أصداعها مسك وأسنانها درّ ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهي مبالغة في الخيال والتصوير . ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول (١) :

سكرتُ من لَحْظِهِ لا من مُدَامَتِهِ      ومال بالتَّومِ عن عيني ثَمَائِلُهُ  
وما السِّلافُ دهنتي بل سِوَالْفِهِ      ولا الشَّمولُ ازدهنتي بل شَمَائِلُهُ  
أَلْوَى بِلَيْبِي أَصْدَاغُ لُوَيْنَ لَهُ      وغال قلبى ما تحوى غلائلُهُ

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبتة وعينها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الخمر هي التي دهنته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمر أو الشمول هي التي استخففته بل خصاها الحلوة وما أروع أصداع شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليلى حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة (٢) ، إذ يقول إنها ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح ففترقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديدهاته ، وهي قديمة في الشعر العربي . ولابن سنان الخفاجي (٣) :

أَتَرَى طَيْفِكُمْ لَمَّا سَرَى      أَخَذَ النَّوْمَ وَأَعْطَى السَّهْرَا  
أَمْ ذُهِلْنَا وَتَمَادَى لَيْلُنَا      فَتَوَهَّمْنَا الْعِشَاءَ السَّحْرَا  
يَا عَيُونًا بِالْحَمَى رَاقِدَةً      حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيَكِنَّ الْكُرَى  
سَلِّ فِرْوَعَ الْبَانَ عَنْ قَلْبِي فَقَدْ      وَهَمَّ الْبَارِقُ فِيمَا ذَكَرَا

وليس في الأبيات لهفة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبتة أو صواحيبه - في البيت الثالث - أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هي أبيات في الغزل أو النسب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢

(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢

كثيرة يقدم بها لمداخه نحس فيها لوعة الحب وحرقة قواده من مثل قوله (١) :

خُذَا من صَبَا نَجِدِ أَمَانًا لِقَلْبِهِ      فقد كَادَ رِيَّاهَا يَطِيرُ بَلْبِهِ  
تَذَكَّرُ والذَكَرَى تَشوقُ وذو الهوى      يتوقُ وَمَنْ يَعلَقُ به الحُبُّ يُصِبه  
غَرامُ على يَأسِ الهوى ورجائه      وشوقُ على بُعدِ المزارِ وَقُربِهِ  
إِذَا خَظرتُ من جَانِبِ الرَّمْلِ نَفحةً      تَضَمَّنَ منها داءَهُ دونِ صَحبِهِ  
أَغَارُ إِذَا آنستُ في الحَيِّ أَنَّةً      حَذارًا وخوفًا أَن تكونَ لِحَبِّهِ

فحب صاحبه النجدية استأثر بقلبه حتى يطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن يطير شعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُصِبه ، ويأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقول في القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسم في الصبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ في وصف غيره عليها ، حتى ليخشى أن تكون كل أنة يسمعا في الحى من حب لها محموم بحبا ودائه العصال . ولمعاصره الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة (٢) :

إِشارةً مِنْكَ تَغنيى وَأَحسنُ ما      رَدَّ السَلامَ غَدَاةَ اليَئِنِّ بِالعَتمِ (٣)  
حَتى إِذا طاحَ عَها المِرطُ من دَهَشٍ      وانحَلَّ بِالضَمِّ سَلكُ العَقدِ فى الظَلَمِ (٤)  
تَبَسَّمتُ فَأَضاءَ اللَيلُ فَالتَقَطتُ      حَباتِ مُنتَبِرٍ فى ضِوءِ مُنتَظِمِ

وهو تكفيه الإيماء من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول إنه سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسمت فأضاء ظلام الليل وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة فى ضوء اللؤلؤ المنتظم فى ثعرا البراق الفاتن . ودخل القيسرانى مدينة أنطاكية فى أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت له ، وكان فى الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تسمى ماريًا ، خلبت ليه ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله (٥) :

(٤) المرط : كساء من حرير أو صوف تلتفع به المرأة

(٥) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العتم : نبات أزهاره قرمزية

عفائفُ إلا عن مُعاقرة الهوى ضعائفُ إلا في مغالبة الصَّبِّ  
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبي حنانيك سِرِّ بي عن ملاحظة السَّرْبِ  
تقضى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهجره فحتامَ لا يصحو فؤادى من حُبِّ  
وأهوى الذى يهوى له البدرُ ساجداً ألسَتَ ترى فى وجهه أثرَ التُّرْبِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر التراب العالق بجبهته لتوالى سجوده لصاحبه ولجلهاها الساحر . ويقول إن زمانه تقضى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة . ولحماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله (١) :

ألا هل لماضى العيشِ عندكِ مرجعُ وهل فيه بعد اليأسِ للصَّبِّ مَطْمَعُ  
لقد أولعتُ بالصدِّ عنى وإنى لفرقتها، ما عشتُ، بالوجد مَوْلَعُ  
أصاحكُ حُسادى فيغلبنى البكا وأكتُمُ عَوادى وإنى لموجعُ  
إذا خطرْتُ من ذكرها لىَ خطرةً تكاد لها أنياطُ قلبى تقطَعُ

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال جبل الرجاء ممدودا ، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجده وجدا ملتناعا . ويصاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحس كأن نياط قواده وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة . وقد أنشد له العماد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقى المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبه قائلا (٢) :

مَنْ منصفى من ظالمٍ متعنِّتٍ يزداد ظلما كلما حكمتُهُ  
ملكته روحى ليحفظ ملكه فأضاعنى وأضاع ما ملكته

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد ملكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح ، فما أشقاه ؛ ويقول فتيان الشاغورى متغزلا (٣) .

ومهفهفٍ بلغَ المنى بصفاته حركاتُ غُصنِ البان من حركاتِهِ

(٣) الديوان ص ٦٤

(١) الخريدة ١٣٧/٢

(٢) الخريدة ٣١٥/١

والشمسُ تَحْجَلُ من ضياءِ جَبِينِهِ والجَلْنَارُ يَغَارُ من وَجَنَاتِهِ  
أضحى الجمالُ بأسره في أسره فكأن يوسف حاز بعضَ صفاتِهِ  
لا تَطْمَعُنْ يا عاذِلِي في سَلْوَى عنه فما أسلوه ، لا وحياتِهِ

وهو يصور صاحبه مهفهفة أو بعارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذي يميد ملاحه حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل الشمس تصفرّ خجلا من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافا ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبه أبدا .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة (١) :

وتنبّهت ذاتُ الجناح بسحرة بالواديين فنسبتُ أشواق  
ورّقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق (٢)  
أنى تُباريني جوى وصباية وكأبة وأسى وبيض مآي  
وأنا الذى أُملى الجوى من خاطرى وهى التى تُملئ من الأوراق

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحمامة الورقاء وصبايتها لأليفها وحزنها الدفين ، ويقول إنه يملئ من خاطره حُرقتة ولوعته ، بينما هى تملئ من أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد . ويقول المحار الحلبي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة (٣)

ما بئ شكواه لولا مسّه الألمُ ولا تأوّه لولا شفّه السقمُ  
ولا توهم أن الدمع مُهجتِهِ أذابها الشوقُ حتى سال وهو دمُ  
يُبلدى التجلّد والأجفانُ تفضحه كالبرق تبكى العوادى وهو يتسم  
يمسى ويصبح لا صبيرٌ ولا جلدٌ ولا قرارٌ ولا طيفٌ ولا حلمُ

والمحار يقول إنه لم يشك إلا بعد أن برح به الألم ولا أن إلا بعد أن شفّه السقم وما كان ليتوهم

(١) إسحاق الموصل أشهر المغنين الملحّنين فى العصر العباسى

(١) الخزانة ص ٣٢٦

(٢) فوات الوفيات ٢٢١/٢

(٢) يعقوب هو النّبى يعقوب ويكأوه على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن معروف . وإسحاق هو

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دمًا قانيا . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجلد وتملكه قلق لا حد له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف في المنام ، وحتى الأحلام إذ لا يزال مسهّدًا لا ينام .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة<sup>(١)</sup> :

طرقتُ طروقَ الطيفِ وَهَنَا مَيَّالَةٌ الأَعْطَافِ حُسْنًا  
مَصْقُولَةٌ الجَدَّيْنِ مَثَلُ السَّيْفِ الحَاطِطِ وَمَتْنَا  
فِي حَلَّةٍ مِنْ جِنْسٍ مَا يَكْسُو الرِّبْعَ الغُصْنَ دَكْنَا  
الدُّلَّ يَنْبِتُ مِنْ مَسَا حَبِ ذَيْلِهَا وَالحُسْنَ يُجَنِّي  
لَوْ خَاطَبْتُ وَتَنَا لِحَ نَّ مَعَ الجُمُودِ هَا وَأَنَا

وليس في القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبه ودلّها وحسنها ، ويقول : لو خاطبتُ وثنا من الأحجار لحنّ لها وأنّ أئينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل<sup>(٢)</sup> :

مَنْ عَذِيرِي فِي حَبِّ طِفْلِ لَعُوبٍ عَوْدُوهُ سَفَكَ الدِّمَاءَ فَحَلَا لَهُ  
كَلِمًا صَدَّ عَنْ سِوَايَ دَلَالًا صَدَّ عَنِّي تَبْرُمًا وَمَلَا لَهُ  
لَسْتُ أُنْسِي يَوْمَ الفِرَاقِ وَقَدْ أَدْرَكَ مِنْ شَمَلِنَا التَّوَى آمَالَهُ  
غَضَبَ البَيِّنِ مِنْ يَدِي كُلِّ قَدْ سَرَقَ الغُصْنَ لَيْتَهُ وَاعْتَدَالَهُ  
مَرَّ نَشْوَانَ مِنْ جَوَى يَتَشَنَّى نَقَلَ الوَرْدُ غُصْنَهُ فَأَمَالَهُ

والقطعة ترخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عودوا صاحبه الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبه وقوامها اللين المشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبه تشنى لثقل الورد المتوهج على خدودها الفائقة . وحرى بنا أن نترجم في إجمال لبعض شعراء العصر الغزليين .

(١) نفحة الرحانة (طبعة الحلبي) ٥٢٧/٢ .

عبد<sup>(١)</sup> المحسن الصوري

هو عبد المحسن بن محمد الصوري ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبي : « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدياء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان . توفي سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حيّوس الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة مُعَرِّى بشعره ، وكان يفضلهُ على أبي تمام والبحترى والمنتبي . ويُروى أنه مرَّ في طريقه إلى حلب بشاعر المعرَّة بل الشام بل العالم العربي لزمه : أبي العلاء ، وجرى بينهما حديث في الشعر والشعراء وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصوري بقصر أشعاره وأنه لا ينظم في الغالب إلا مقطعات فقال له ابن حيّوس : هو أشعر من طويلك يقصد المنتبي ، فدَّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه قائلاً : الأمراء لا يناظرون ، يعني أنه لا يقارن بالمنتبي . وكان أبو العلاء معجباً بالمنتبي إعجاباً شديداً حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصوري لا يدفع أنه مجيد في قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب في فنه من أبي تمام في دقائق وتصاويره وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسي يعجب بأشعاره حتى ليقرنه في مقدمة ديوانه بالشريف الرضي ومهيار قائلاً : إنه تملكته في شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا في ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصوري ألهمه هذه المقطوعة أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعاً يتغزل غزلاً رقيقاً ممتزجاً بالطبيعة وجمالها الهاجع في الكون ، وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن في غزله ، فهو فيه يمزج بين الحبوب وعناصر الطبيعة مزجاً فيه كثير من الطرافة في التصوير كقوله :

بِالذِي	أَلْهَمَ	تَعَدَيْ	حِي	ثَنَائِكِ	الْعِدَابَا
وَالذِي	أَلْبَسَ	خَدَيْ	لِكِ	مِنَ الْوَرْدِ	نِقَابَا
وَالذِي	صَيَّرَ	حَظِّي	مِنْكَ	هَجْرَا	وَاجْتِنَابَا
يَا غَزَالًا	صَادَ	بِاللَّحْ	ظِ	فَوَادِي	فَأَصَابَا
مَا الذِي	قَالَته	عَيْنَا	لِكِ	لِقَلْبِي	فَأَجَابَا

٢٣٢/٣ وعبر الذهبي ١٣١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٩/٤

ومرأة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

(١) انظر في ترجمة عبد المحسن الصوري وأشعاره

البيئمة ٢٩٦/١ وتتممة البيئمة ص ٣٥ وابن خلكان

فهو يصل بين رُضاب الثنايا في ثغر صاحبه وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتها وردا تنتقب به . وهو بعد في التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهي غزال لأيصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب فقلبيه طائعة مستجيبة . وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب في غزل عبد المحسن الصوري واستضاء به ، كما استضاء واستلهم في أشعار أخرى له جانبا ثانيا في غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدمائة والنعومة على نحو ما نجد في قوله :

أُتْرَى بَثْرًا أَمْ بَدَيْنِ	عَلَقْتُ مَحَاسِنُهَا بَعَيْنِي
فِي لَحْظِهَا وَقَوَامِهَا	مَا فِي الْمَهْدِ وَالرُّدَيْنِي
وَبَوَجْهِهَا مَاءَ الشَّبَا	بِ خَلِيطِ نَارِ الْوَجْتَيْنِ
بَكَرْتُ عَلَيَّ وَقَالَتِ اخْدِ	تَرَّ خَصْلَةً مِنْ خَصْلَتَيْنِ
إِمَّا الصَّدُودُ أَوْ الْفِرَا	قُ فليس عندي غيرُ ذَيْنِ
فَأَجَبْتُهَا وَمَدَامَعِي	مَهْلَةً كَالْمِرْزَمَيْنِ <sup>(١)</sup>
لَا تَفْعَلِي إِنْ حَانَ صَدِّ	لُدُّكَ أَوْ فِرَاقُكَ حَانَ حَيْنِي
وَكأَنَّمَا قَلْتُ أَذْهَبِي	فَضْتُ مَسَارِعَةَ لَبْنِي

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المتقطعة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بجلاوتها وعذوبتها في الآذان ، بل في القلوب والأفئدة . ويقول في صُدغ شعر مرسل بين أذن صاحبه ووجنتها وقد توقف مائلا منحنيا :

جَنِّي مَا جَنِّي وَأَنْصَرَفْ	وَأَنْسَكِرْ ثُمَّ اعْتَرَفْ
سَلُوا صُدْغَهُ لِمَ جَرَى	وَلِمَا جَرَى لِمَ وَقَفْ
وَكأَن كَانَ عَلَى أَنَّهُ	يَجُوزُ الْمَدَى فَانْعَطَفْ

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجاله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجرى ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

(١) المرزمان : نوهان شديدا اللطر



ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبهم ، ويذكرون ذلك في أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلقته سكران من خمرة الصبا به غفلة عن لوعتي ولهبي  
 وشاركني في حبه كل أغيد يشاركني في مهجتي بنصيب  
 فلا تُلزِموني غيرة ما عرفتها فإن حبيبي من أحب حبيبي

وهو في ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمتقه ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهي مبالغة مفرطة في الرقة ورهافة الشعور .

### ابن (١) منير

هو أحمد بن منير الطرابلسي ، ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويفي في أسواقها ، وأخذ ابنه في نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العباد الأصهباني كان شيعيا غالبا ، ويقول ابن خلكان : « كان رافضيا » . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بوري بن طغتكين صاحب دمشق ( ٥٢٢ - ٥٢٥ هـ ) . وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بوري على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله ينزل في بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشيزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، وكان في أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب . وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكي على الصليبيين في بادين وغيرها من ساحات الحرب في الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التي أسسها حملة الصليب . وأقام ابن منير حينئذ بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكي ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه في غزواته ، واتخذ نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق في بعض المهام ، ولم يلبث أن توفي بحلب سنة ٥٤٨ .

(١) انظر في ابن منير وشعره الخريدة ( قسم الشام )

٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسي ٣٢٢

والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ٤/٤٦٦ .

وتناول ابن منير في شعره أغراضاً مختلفة في مقدمتها المديح ، ومربنا - في غير هذا الموضع - حديث عن مديحه لعقاد الدين زنكي وابنه نور الدين في انتصاراتهما الرائعة على حملة الصليب ، ويُشيد العقاد الأصبهاني بشعره وروعته . وكان يكنى أبا الحسن ويلقب المهذب وقال في وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزلال ، وأدقُّ من السحر الحلال ، وأطيب من نيل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير . وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعاً منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صَفَّى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجود متقد لا تحمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ رَكَّبَ الْبَدْرَ فِي صَدْرِ الرَّدِّيْنِيِّ	وَمَوَّهَ السَّحْرَ فِي حَدِّ الْبِجَانِيِّ
وَأَنْزَلَ النَّيِّرَ الْأَعْلَى إِلَى فَلَكِ	مَدَارُهُ فِي الْكِسَاءِ الْخُسْرَوَانِيِّ
طَرَفُ رَنَا أَمْ قِرَابٌ سُلَّ صَارْمُهُ	وَأَعْيَدُ مَاسَ أَمْ أَعْطَافُ خَطِيِّ
أَذَلِّي بَعْدَ عَزِّ وَهَوَى أَبْدَأُ	يَسْتَعْبِدُ اللَّيْثَ لِلظُّبِيِّ الْكِنَاسِيِّ (١)
أَمَا ذَوَائِبِ مَسْكِ مِنْ ذَوَائِبِهِ	عَلَى أَعَالِي الْقَضِيبِ الْخَيْرَانِيِّ
وَمَا يُجِنُّ عَقِيْقِي الشَّفَاهُ مِنَ الـ	رَيْقِ الرَّحِيقِيِّ وَالنُّغْرِ الْجَمَانِيِّ
أَرَبِي عَلَى بَشْتِي مِنْ مَحَاسِنِهِ	تَأَلَّفْتُ بَيْنَ مَسْمُوعٍ وَمَرْتِي

والصور في الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه في صدر رمح رديني مهيبٍ لإصابة الحب في الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموهاً في حد السيف البجاني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حريري . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سل سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قد شائق ناعم يشئ أو بإزاء أعطاف رمح خطي قاتل ، ويقول إن الهوى يستبد الليث الفاتك للظبي الوادع الذي يعيش في كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالي هذا الغصن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فورهاها الثغر الفضي من الأسنان والريق الرحيق السائغ . وهي صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضاً طريفاً . ويقول :

أَثْرِي يُثْبِتُهُ عَنْ قَسْوَتِهِ خَدُّهُ الذَّائِبِ مِنْ رِقَّتِهِ

(١) الكيناس : مأوى للظبي في الشجر يستتر به

أفأستنجده وهو الذى  
 ولهذا قَوْسُهُ مُوتَرَةٌ  
 لَوْنُ الدَّمْعِ عَلَى صِبْغَتِهِ  
 تَسْتَمِدُّ النَّبْلَ مِنْ مَقْلَتِهِ  
 قُرٌّ لَا فِخْرَ لِلبَدْرِ سِوَى  
 أَنَّهُ صَبِغَ عَلَى صَوْرَتِهِ  
 صُدْعُهُ كَرْمَةٌ خَمِرٌ قُسِمَتْ  
 بَيْنَ خَدَيْهِ إِلَى نَكْهَتِهِ  
 أَنْحَالُ الْخَالِ يعلُو خَدَّهُ  
 نَقَطَ مَسْكِ ذَابٍ مِنْ طُرَّتِهِ  
 ذَاكَ قَلْبِي سَلَبْتُ حَبَّتَهُ  
 وَاسْتَوْتُ خَالًا عَلَى وَجَّتِهِ

والقطعة تموج بالصور ، فخذُ صاحبته يدوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني ، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل في مقلتها يستمد . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صبغ على صورتها ، وكأن صدغيها أو خصلتي الشعر المرسلتين على خديها كرمة خمر قسمت بينها واستحالت رضايا في ثغرها يرشفه الحب . ويقول : لا تظن الخال على خدّها نقطة مسك سقطت من طرّة شعرها ، بل هو حبة فؤاده سلبتها من قلبه وأتاحها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة في شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وَتَوَقَّدَتْ فِي الرَّوْضِ مِنْ وَجَنَاتِهِ  
 نَارُ الْحَيَاءِ يَشْبُهَا مَاءُ الصَّبَا (١)

وقوله :

وَكَمْ لَهُ فِي كَبْدِي لَسَعَةٌ  
 بَرُودَهَا الدَّرِّيَاقُ مِنْ فِيهِ (٢)

وقوله :

سَلَّمْتُ فَازُورًا يَزُورِي قَوْسَ حَاجِبِي  
 كَأَنِّي كَأْسُ خَمِرٍ وَهُوَ مَخْمُورُ

وقوله :

قُرٌّ مَا طَلَعَتْ طَلَعَتْهُ  
 إِلَّا سَجَدَ الْبَدْرُ لَهَا

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة في الألفاظ وبين الرشاقة والعدوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل في مملوكه « تتر » أنشدها الحموي في خزائنه تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

(٢) برودها : شرايبها. الدرياق : الترياق الشافي

(١) يشبها : يوقدها .

الشاب<sup>(١)</sup> الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، نشأ أبوه في دمشق ، وخدم الدولة في عدة جهات ، وعمل كاتباً وشيخاً للصوفية وانتظم في سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم « سعيد السعداء » وولد له حيثنذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله :

يا ساكني مصرَ شَمَلُ الشوقِ مجتمَعُ بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاء

والتحق أبوه بالدواوين في دمشق ، وولى هو عمالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون في دورهم أوفى المنتزهات ، غير أنه لم يعيش طويلاً ، إذ عاجلته المنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ . وقد تناول الشاب الظريف في شعره أغراضاً مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربي ، وكأما تمثل ما في أشعارهم جميعاً من وجد قوي حار ، وبث منه الكثير في غزله ، مصوراً ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضاً ذلك في لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفي شعره ورقته ينقل ابن شاعر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره : « نسيم سرى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه في الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقق شعره فكاد أن يُشرب ، ودق فلا غرو للقضب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيقي الألفاظ ، سهل على الحفاظ ، ل يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تخلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر » .

ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره فوات الوفيات لابن شاعر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ

وهي شهادة قيمة لابن فضل الله في الشاب الطريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يموج شعره بالركة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشهم في نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تَحْفَ مَ فَعَلتْ بِكَ الأَشواقُ      وَاشرَحْ هَواكَ فَكَلَّنا عُشاقُ  
فَعسى يُعِينكَ مِنْ شَكوتِ لَه الهَوى      فِي حَمَلَه فَالعاشِقونَ رفاقُ  
لا تَجِزَعنَّ فَلسَتَ أَوَّلَ مُعَرمٍ      فَتَكَتْ بِه الوِجِناتُ والأُحداقُ  
واصْبِرْ عَلى هَجِرِ الحَبِيبِ فرِما      عادَ الوِصالُ وللهوى أخلاقُ  
يا رَبِّ قَد بَعَدَ الَّذينَ أَحَبُّهم      عَنِ وَقَد أَلَفَ الفِراقَ فِراقُ

والآيات تسيل رقة وعضوبة ، وهي تلتصق بالنفس لالما قاله ابن فضل الله العمري من أن الشاب الطريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شيء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة ، مما يشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب في تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظي ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أَعزَّ اللهُ أنصارَ العيونِ      وَخَلَّدَ مَلِكَ هاتيكِ الجُفونِ  
وَضاعَفَ بالفتورِ لها اقتدارًا      وَإِن تَكَ أضعَفْتُ عَقلِي وِدِينِي  
وَأبقي دَولَةَ الأَعطافِ فينا      وَإِن جَارَتْ عَلى قَلبِي الطَّعِينِ  
وَأسبَغَ ظِلًّا ذاكَ الشَّعْرِ مِنْه      عَلى قَدُّ بِه هَيَفُ الغِصونِ

وهو دعاء لصاحبته ملء بالظرف والرقة والدمائة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجبال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشره تأثيرا في القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم : في قلبه . ويستمر في دعائه : أن يسبغ الله ظل ذلك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لي من هواك بَعِيدُهُ وقَرِيبُهُ  
 يا من أَعِيدُ جِلالَهُ بِجِلالِهِ  
 إن لم تكن عيني فإِنَّكَ نورُها  
 أو لم تكن قلبي فَأنت حَبِيبُهُ  
 هل حرمةٌ أَوْرحمةٌ لَمَتِّمٍ  
 قد قَلَّ مِنْكَ نصيرُهُ ونصيبُهُ  
 لم يبق لي سرٌّ أقول تَدِيعُهُ  
 عني ولا قلبٌ أقول تُذِيبُهُ  
 والنَّجْمُ أَقْرَبُ من لِقائِكَ مَنالُهُ  
 عندي وأبعدُ من رضاكَ مَغِيبُهُ

والآيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبه بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهي ليست جميلة فحسب بل هي أيضا جليلة ، وهو يعيد جالها بجلالها حذرا من عيون الجاسدين . وهي نور عينه وَحَبَّة قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أوحرمته الحب لعلها تتيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه في حبا ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبا حتى ذاب التياعا لطول يأسه من لقاءها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقاءها مثلا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو في غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَشْنِي قوامِكَ المشوقِ وبأنوارِ وجهِكَ المعشوقِ  
 جُدْ بوصولِ أوزورَةٍ أو بوعدي أوكلامِ أو وقفةٍ في الطريقِ  
 أو بإرسالِكَ السلامِ مع الرُّيحِ وإلا فبالخيالِ الطُّرُوقِ

وتدل تمنياته في وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدمائه والظرف والتدله في الحب واتقاد جذوته في فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

### حسن<sup>(١)</sup> البوريني

هو حسن بن محمد البوريني ، ولد بالأردن في قرية صَفُورِيَّة لسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

(١) انظر في حسن البوريني وشعره ربحانة الألبا ٤٢/١

المقدس ، وفيه أمّ تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها . وتولى منصب القضاء في الحج الشامي سنة ١٠٢٠ . وكان عالما ثبتا حُفظة فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سنيًا شافعيًا . وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحي في كتابه خلاصة الأثر .

وكان البوريني شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبرلي بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الحفاجي : « دياجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارذ التي يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملتاع ، ويكنى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعي أن يتأثر بحبه الإلهي الظامئ أبداً وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصي ، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائماً الفراق والحрман ، فما يكاد يهنا بالحب لحظة حتى ينزع له غراب البين ، ويظل في نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبه بمثل قوله :

يقولون في الصبح الدعاء مؤثّرٌ      فقلت نعم لو كان ليلى له صُبْحُ  
وياعجباً متى أروم لقاءه      وفي جفنه سيفٌ ومن قدّه رُمحُ  
وإنسانُ عيني كيف ينجو وقد غدا      يطول له في لُجٍّ مدمعه سَبْحُ  
وليس عجيباً أنّ دمعى أحمرُّ      وفي مهجتي فرحٌ وفي مقلتي رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبه في ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها المشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يغرق فيها إنسان عينيه ، وما زالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دماً ، ويشعر كأن في مهجته جرحاً لا يبرأ وفي مقلته رشحاً لا يبرأ . ويقول :

وكنا كعُصْنِي بانهٍ قد تألّفا      على دَوْحَةٍ حتى استظلالا وأَبْنَعَا  
يغنيها صدحُ الحمامِ مرَّجَعًا      ويسقيها كأسُ السحابِ مُتْرَعَا  
سليمين من خطب الزمان إذا سَطَا      خَلِيَيْنِ من قول الحسودِ إذا سَعَى

ففارقتني من غير ذنبٍ جَنِيتهُ وأبقى بقلبي حُرقةً وتوجعًا  
عفا الله عنه ما جناه فإني حفظتُ له العهدَ القديمَ وصيغًا

وهي قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبه كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان ولدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معا وتناولوا الحياة تناولوا واحدا ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كثوس السحاب منتشين هائثين ، لا عذول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبه من غير ذنب جناه . ويصطلي قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع المهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبه جنايته ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكرًا له بل حافظًا أمينًا . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أو اهلاً  
ويا ظبِّي هل بعد النَّفَّار تأنُّسُ  
ويامتزلُّ الأحبابُ أين ترحلوا  
يميلون عني للوشاة وإنني  
على لهم حفظُ الوداد وإن جنوا  
وها هي من بعد الفراق طُلُوقُ  
ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ  
وهم في فؤادي - ما حييتُ - نزولُ  
إليهم وإن طال الصدود أميل  
وليس إلى نقضِ العهود سبيلُ

وقد فارقته صاحبه وأصبحت منازل قلبه طولوا دارسة ، وإنه ليتساءل متحسرا هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الجيبة وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبدا ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والمهجران فسيظل متعلقا بهم حافظا لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يجاطب في نفس القصيدة قريبا أو كما يسميه ابن ورقاء أي حمامة رمادية اللون قائلا :

وما حاجني إلا ابنُ ورقاءِ سُحرةٌ  
يردُّدُ في صُحفِ الرياضِ قصائدًا  
يجيئُ أن البينَ آذَى فؤادهُ  
ولم تحتكم فيه الليالي ولم يين  
أما والهوى لو ذقت ما ذقتُ في الهوى  
له فوقَ أفنانِ الرياضِ هَدِيلُ  
من الشوقِ يُملِها لنا ويميلُ  
وكيف ولما يئنا عنه خليلُ  
عليه لبينِ رقةً ونحولُ  
لما ازدان بالأطواق منك تليلُ



ألا إنه مافارقَ الإلفَ دَهْرُهُ ومالَى إلى وَصْلِ الحبيبِ وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددها في صحف الرياض ويمليها مخيلاً كأنه يشكو من آلام بين مبرح ولا بين ولا فراق ، فحبيبتة بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضننى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتبارجه ماازدان تليله أو عنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفته يوماً بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دفاترُ مشحونةٌ مملوءةٌ بأدلةِ التوحيدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائماً مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجُب الهجران . ومازال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبي نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

## ٢

### شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحجاسة الحربية غلب عليها قديماً ، حتى سمي أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحجاسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا في الأعداء . وكانت معارك العرب - على مر السنين - بينهم وبين الأمم وقوداً مستمراً للفخر والهجاء ، فلم تحمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون في تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفي بذكر شاعرين كبيرين قريبين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم في آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من محق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربي كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمها الشعراء لييان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فنجد - بعامل المنافسة - شاعرا يفاخر زميلا له وبهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم ، وكان يكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبق ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالدين والسريّ الرّفاء . وشاعر الفخر الشامي الذي لا يبارى في القرن الرابع الهجري أبو فراس الحمداني ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول (١) :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ	عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تُعَدُّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةٌ	ولا ذنب لى إلا العُلا والفضائلُ
وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم	بإخفاء شمسٍ ضوءها متكاملُ
وإنى وإن كنت الأخير زمانهُ	لأتِ بما لم تستطعه الأوائلُ
ولى منطلقٌ لم يرضَ لى كُنْهُ منزلُ	على أننى بين السَّاكِينِ نازلُ
ولما رأيتُ الجهلَ فى الناسِ فاشياً	تجاهلتُ حتى ظنُّ أنى جاهلُ
وواعجباً كم يدعى الفضلَ ناقصُ	ووأسفاً كم يُظهرُ النقصَ فاضلُ
ينافسُ يومى فى أمسى تشرفاً	وتحسدُ أسحارى على الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبي العلاء المتشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقه في فن الفخر ، وإما نظمها في ساعة غضب ردا على بعض شائتيه وخصومه . ومع ذلك فهي تصور مكانته في الأدب العربي ، وأنه فيه - بحق - السابق المجلى ، وهو يقول : من أين يلحقنى الذم وأنا أنهض بكل ما يكسبني المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية)

والإقدام الجريء والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلاء والفضائل ذنوبا وعبويا ، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفائه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أقى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين فى السموات العلاء لا يزال منطقته أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنًا . ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضى أبو العلاء فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفخر بقومه وبلائهم فى حرب الثغور ضد الروم (١) :

أهلُ الثغور إذا تلمَّ مُلِمَّةٌ	بَسَطُوا رِمَاحًا دونها وسواعدا
وأولو الثَّقَى فإذا مرت عليهم	لم تلق إلا مكرما ومجاهدا
إن حاربوا ملثوا البلاد مَصارعًا	أو سالموا عَمَرُوا الديار مساجدا
بيتُ له النسبُ الجلبى وغيره	دعوى تريد أدلَّة وشواهدا

وهو يفخر بياس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملثون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملثوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرذ له ترجمة - ولابن الساعاتى المار ذكره (٢) :

وإنى لآبى الضَّيْمِ من كل صاحب	وأكره قلبى أن يكون له خدنا
وإن بلدُ لم أَعُدُّ فيه مكرمًا	نهضتُ فأعملتُ الجدِيلِيَّةَ البُدْنَا (٣)
وما شان فَضلى بين أهلى خمولهُ	وقد بلغتْ غاياته الإنسانَ والجنَّا
فإنى كعود الهنْد هينَ بدوَجِهِ	وقد عبَّقتْ أنفاسُهُ السَّهْلَ والحزنا

(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

(١) ديوان ابن سنان الخفاجى ص ٢٣

(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢١٤/٢

فهو يأبى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحسَّ أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ في بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فثله مثل عود الهند لا يُعرفُ فضله في دَوْحته ، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض . ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجلس المعتز بنفسه وكرامته طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى المار ذكره (١) :

يَقْدَمُنِي عَزْمِي وَحِطِّي مُؤَخَّرِي وَيُوصِلُنِي حَزْمِي وَدَهْرِي يَقَطُّعُ  
وَهْمِي مِنَ الدُّنْيَا الْعَالِي وَيُنِيلُهَا وَمَا هُمُّ قَلْبِي الرَّقْمَتَانِ وَلَعْلَعُ (٢)  
وَلَا رَشَاءُ أَحْوَى وَلَا صَوْتُ قَيْتَةٍ وَلَا قَدَحٌ فِيهِ الرَّحِيقُ الْمُشْعَشَعُ (٣)  
وَلَكِنَّمَا لَدُنُّ وَأَجْرُدُ سَابِحٌ وَمَسْرُودَةٌ زَغْفَا وَأَبْيَضُ يَسْطَعُ (٤)

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر . وهمه طلب المعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنين غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضيء في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالي لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بحمر ، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوفير وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعاية وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصوري وقد نزل ضيفا على أخ له (٥) :

وَأَخْرَسَهُ نَزْوِي بِقَرْحٍ مِثْلَ مَا مَسَّنِي مِنَ الْجُوعِ قَرْحُ  
بِتُّ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ وَفِي حَكْمِهِ عَلَى الْحَرِّ قُبْحُ

(١) ربحانة الالبا ١١٨/١  
(٢) الرقمتان : قرنتان في شرق نجد أو روضتان ويذكرهما شعراء الغزل . لعلع : جبل في نجد  
(٣) الرشأ : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة :  
سفرة في الشفة ، الرحيق المشعشع : العسل المزوج  
(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة : درع . زغفا : سابعة . أبيض : سيف  
(٥) اليتيمة ٣٠٠/١

قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السَّكَّةِ وَهَمُّ طَافِحٌ لَيْسَ يَصْحُو  
لَمْ تَغْرَبْتَ قُلْتَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُضْحٌ وَنُجْحٌ  
سَافَرُوا تَغْتَمُوا فَقَالَ وَقَدْ قَالَ لَمْ تَمَامُ الْحَدِيثِ صَوْمُوا تَصِحُّوا

وهي دعابة تلسع لسَعَّ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيغه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من  
عَضُّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مسَّه من الجوع قَرَحٌ لا يزال يَبِزُّ المأ ،  
وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : ( إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرَحٌ مِثْلُهُ ) أى إن نالوا  
منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ،  
ولقد أصابته سكرة من الشح والهَم ، فسأله سؤالا مزريا : لم تغربت ونزلت عندى ، فأجابه لقول  
رسول الله ﷺ : سَافَرُوا تَغْتَمُوا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صوموا تصحوا ، وكأنه  
يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤  
في هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه (١) :

رَأَيْتُ لَوْ مَا مَصُورًا جَسَدًا شَيْمَتُهُ الْاِحْتِيَالُ وَالْكَذِبُ  
عَلَى سَرِيرٍ كَالنَّعْشِ لَا رَهْبٌ يعلوه من هيبَةٍ وَلَا رَعْبٌ  
يَجِبُهُ بِالهُجْرِ مَنْ يَخَاطَبُهُ بَيْنَ السَّعَالِي وَبَيْنَهُ نَسْبٌ (٢)  
يَفْرُقُهُ النَّاسُ لِلسَّفَاهَةِ وَالْعَقْرَبُ يُخْشَى وَخَدَهُ تَرَبُّ  
لِلْجَمْعِ وَالْمَنْعِ قَائِمٌ أَدَا كَالْفِيلِ لَا تَشْتَى لَهُ رُكْبٌ

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزى إلى ما يشبه  
سياطا بل شواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للؤم والكذب ، يجلس لاعلى سرير بل  
على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب فى ماله ، لما عُرف عنه من شحٍ بغيض ، وأنه يصبك مخاطبه  
بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسا ذميا . والناس يخشونه  
لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه  
مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقه شحًا بغيضا لا يديانه شح . وكان العرقلة الكلبي  
المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم  
لا مالا ، بل شعيرا فقال (٣) :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١/١٨٢

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/١٩١

(٢) السعال : الغيلان

يقولون لم أرخصت شعرك في الورى فقلت لهم إذمات أهل المكارم  
أجازى على الشعر الشعير وإنه كثير إذا استخلصته من بهائم

ومنذ زمن الغزى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من  
مدوحهم ، بل إن منهم من يعطيهم رقعا مسطرا دون أن يفي بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام .  
ومن كبار الهجائين في أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجف المتوفى سنة ٦٣٥  
للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول (١) :

يا رب كيف بلوتني بعصاةٍ ما فيهم فضلٌ ولا إفضالٌ  
متافرى الأوصافِ يصدقُ فيهمُ الـهاجى وتكذبُ فيهمُ الآمالُ  
جينا إذا استنجدتهم للممة لوما إذا استرفدتهم بجالُ  
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل وهم عند الشدائد آل

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراها جديرة بكل مذمة في مهجوا إذ تكذب فيها دائما  
الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لؤماء بجلاء ، وهم في الرخاء أهل أو آل  
كما يقول ، وفي الضراء سراب أو آل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئا . وولى السلطان  
الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية : المذهب المالكي والحنفي  
والشافعي والخبلي ولقب ممثلي هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكي بلقب شمس الدين ، فاتخذ  
الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكاهة الساخر. من مثل قول بعضهم (٢) :

أهل الشام استرابوا من كثرة الحكماء  
إذ هم جميعا شمسٌ وحالهم في ظلام

وكان شرب الحشيش الخدر عرف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدد  
الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب  
الظريف (٣) :

شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٨١

(١) فوات الوفيات ١/٥٣٩

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٣٧ وانظر ذيل الروضتين لأبي

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها لكنه غيرٌ مصروفٍ إلى رَشَدِهِ  
صفراءٌ في وجهه خضراءٌ في فيه حمراءٌ في عينه سوداءٌ في كَبِدِهِ

وهو يقبِّحها غاية التقيح بآثارها في ماضغها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد  
لا يزول في كبده . ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كحَال (١) :

دَعُوا الشَّيْخَ مِنْ كَحْلِ الْعَيُونِ فَكَفَّهُ يَسُوقُ إِلَى الطَّرْفِ الصَّحِيحِ الدَّوَاهِيَا  
فَكَمْ ذَهَبَتْ مِنْ نَاطِرٍ بِسَوَادِهِ وَأَلْقَتْ بِيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا

فكحله يعمى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بصيصا  
ولا غير بصيص . ولبعض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباعوني الشافعي  
المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة (٢) :

قضاء الشام أنشدني بديني لا تباعوني  
صُفِغَتْ بِكَلِّ مَضْفَعَةٍ وَبَعْدَ الْكَلِّ بَاعُونِي

وكانه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفحات متوالية . وفي كلمة « باعوني » تورية واضحة  
فهو لا يقصد « باعوني » من البيع وإنما يقصد القاضي الباعوني .

ويظل الهجاء على السنة الشعراء يرمون بسهامه من لا يروجهم من الحكام ومن لا يسع عليهم  
نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في  
بخيل (٣) :

بخيلٌ لو بيومٍ منه جادت أنامله لغالته الندامة  
ولو في النار ألقى ألفَ عامٍ لما عرفت له يوما سلامة  
ولو صارت بسفرته رغيفا ذكاءً لما بدت حتى القيامه

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا . وما تُرجى له سلامة من النار بل سيظل خالدنا  
فيها ، وإن مائدته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديرة كالشمس ،

(٣) ربحانة الألبا ١/١٠٨

(١) فوات الوفيات ١/٥٤٠

(٢) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٤

ولو أنه ألقى رغيها عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوقا وخجلا أن يرى شبيها على سفرته أو مائدته . وحرى بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء .

### أبوفراس (١) الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضي ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقرن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهي كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلية وهو رمز حقيقته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو في سنته الثالثة ، وعنت به أمه ، وأحضرت له المعلمين في صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبوفراس الذي كفله وقام على تربيته فارسا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين يدربونه على الفروسية ، وبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته ، فمنحه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالوق يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفي ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوقا بصيد الحيوان إنما كان مشغوقا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومررنا في حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعي الهوى ، وقد عرضنا لمييمته الملقبة بالشافية التي دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حاراً ، وتشيع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب في مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدق أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب في إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه في حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا في تقتيلهم وتمزيقهم شرمزق ، وفي يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة في مكاتب العالمين العربي والغربي ووضع حواشيه ورتب فهرسه .

(١) انظر في أبي فراس وشعره البيهقي ٣٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشذرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامي الدهان



غلمانه وإذا بكيتية من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فیدافع إلى أن تتخنه الجراح ويصبيه سهم في فخذة ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويقدم به تيودور إلى خرسنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويدوق ذل الإسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتواً وصلابة . ويكبر الروم في أبي فراس فروسيته وبطولته فينزولونه في قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما في أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا في الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريد فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شراك الروم . وفي سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفي شهر رجب ينزل أبو فراس مع ثلاثة آلاف أسير عربي بخرسنة ، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهازات متلاحقة . ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه فرعونيه في جادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حثفه ، ويقال إنه سقط جرحا في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيا قائلا في ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشَّابِ أَبُو فِرَا سٍ لَمْ يَمْتَعْ بِالشَّابِ

وطبيعي أن لا يكون المديح الموضوع الذى يستفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن في حاجة إلى التكبس بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذى يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتعدُّ روميته أو أشعاره في أسر الروم القطع الأرجوانية في ديوانه ، وفيها غزل ورناء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن في العرب وبسالتهم الحربية ، وفيها أخذ يذكره باندحارهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مرعش وجرح أبيه بها في

وجهه وأسر ابن أخته في اللقمان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو في روميته يجن إلى  
ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهي تسأله عنه الركبان حين أسر  
قائلا على لسانها :

يَا مَنْ رَأَى لِي بِحِصْنِ خَرْشَنَةَ أُسْدَ شَرِيٍّ فِي الْقَيْودِ أَرْجُلَهَا

ويرد عليها مسرعاً

يَا أُمَّتَا هَذِهِ مَوَارِدُنَا نَعُلُهَا تَارَةً وَنَنْهَلُهَا<sup>(١)</sup>

فواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة  
من أقدامهم . ويقول في قصيدة ثانية : لولا أُمِّي العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء  
من ابن عمي أبدا . ويقول لها :

يَا أُمَّتَا لَا تَيْأَسِي لَلَّهِ الْإِطْفَاءُ خَفِيَّةٌ  
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيْدِ لَ فَإِنَّ خَيْرَ الْوَصِيَّةِ

فهو واثق في الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة  
بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى في الأسر ونزولهم به في  
خَرْشَنَةَ ، إذ سرعان ما أنشد :

إِنْ زَرْتُ خَرْشَنَةَ أُسِيرَا فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا مُغِيرَا  
وَلَنْ لَقِيْتُ الْحَزْنَ فِي لِكِّ فَقْدِ لَقِيْتُ بِكَ السَّرُورَا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت  
المنازل والقصور وأتت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت في روح أبي فراس  
كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالي  
إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانیه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن  
أن تقهر مها نزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبي فراس حيثئذ قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن

(١) نعلها : نشرها تباعا . نهلها : نشرها ابتداء

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحيبه .

أراك عَصِيَّ الدَمْعِ شِيَمْتُكَ الصَّبْرُ      أما للهوى نَهَىٰ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ  
بلي ! أنا مشتاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ      ولكنَّ مِثْلِي لَا يُدَاعٍ لَهُ سِرُّ  
معلَّتني بالوصل والموتُ دونه      إذا مَتُّ ظَمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ  
تسألُنِي مَنْ أَنْتِ؟ وهىَ عَليمةٌ      وهل بفتى مِثْلِي على حاله نُكْرُ  
فقلتُ كما شاءتُ وشاءَ لها الهوى      قَتيلُكَ قَالَتْ أَيُّهُمْ فَهْمٌ كَثُرُ  
وقالتُ لَقَدْ أَرَزَىٰ بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا      فقلتُ معاذَ اللَّهِ بل أَنْتِ والدَّهْرُ

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعري في قلبه من لوعة إزاء معلته بوصل لا يناله ، وكأنما تتغير كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى في حوارها قائلاً لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإننى غير منكر فى معمعان المعارك وقيادة الكتائب الموعودة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبي نساءهم دون أن أهتك لهم سترًا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصبح بكل فتوته :

أَسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بَعُزْلٍ لَدَى الْوَعْيِ      وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَبِّي غَمْرٌ (١)  
ولكنَّ إِذَا حُمَّ الْقِضَاءُ عَلَى امْرِيءٍ      فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَبْقِيهِ وَلَا بَحْرٌ  
يَمْتُونُ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا      عَلَى ثِيَابٍ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرٌ  
سَيَذَكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ      وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءُ يُفْتَقِدُ الْبَدْرُ  
وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا تَوْسَطُ بَيْنَنَا      لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ  
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا      وَمَنْ خَطَبَ الْحِسَاءَ لَمْ يُعْلِهِ الْمَهْرُ  
أَعَزُّ نَبِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى ذَوَى الْعَلَا      وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التَّرَابِ وَلَا فَحْرُ

يقول : أسيرت وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أُسرتُ جبنا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذي لا معدى عنه ولا مفر منه في بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم متُّوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحربية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دقَّ نصال سيوفه في أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه في الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربي والأمة العربية ، إنها ترمي بنفسها في أتون الحرب فلما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليبذلون أرواحهم في نيل المعالي ، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول من مثلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهي جدية بأن يضمها كل شاب عربي إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاتة - وهو في سجنه - إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتَ بقربي حمامةٌ      أيا جارتا هل تشعرين بحالي  
معادَ الهوى ما دقتِ طارقةَ النوى      ولا خَطَرْتُ منك الهمومُ بيالي<sup>(١)</sup>  
أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمُ      على غُصْنِ نائى المسافةِ عالى<sup>(٢)</sup>  
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا      تعالَى أقاسمُك الهمومَ تعالَى  
أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةٌ      ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالى  
لقد كنتُ أولى منك بالدمعِ مُقلَّةٌ      ولكنَّ دمعى فى الحوادثِ غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه وسمع الشجون في نفسه ، ويُعيذها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهومومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينها ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حرته وتبكي حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمة ، غير أن دمعى في الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشم أثقالها ويتحملها في قوة . وشعر أبى فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

(٢) القوادم : ريشات أربع كبار في مقدم الجناح

(١) النوى : الفراق

والحماسة ، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطرا بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحلب . وشعره - بحق - يُضرم الحمية في النفس العربية .

### عرقلة<sup>(١)</sup>

هو حسان بن نعيم الكلبي الدمشقي ، ولد سنة ٤٨٦ و حفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُغْتِكِين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة أبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جعبر ومدينتي آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدائح ، ويذكر له في إحدى مدائحه أنه شيعي قائلا :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سَنَةِ الإمام يَزِيدٍ  
فهو ليس سَنِيًّا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعي من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذي وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين في مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم في مجالس لهوهم وسمرهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحضره مجالس أنسه . ووصفه العباد الأصهباني حينئذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا رُبْعَةً مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشرًا للأمرء ؛ شاعرا مستطرف الهجاء ، لم يزل خَصِيصًا بالأمرء السادة بنى أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، والمملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نغفه ، وله فيه

والشذرات ٢٢٠/٤ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

(١) انظر في عرقلة الدمشقي وشعره الخريدة (قسم الشام) ١٧٨/١ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦٤/٦

مدائح ، ولديه منه مدائح » . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ،  
وَوَفَّى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .  
ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا .  
فغضب ، وأنشد ما مرَّ ذكره من قوله :

يقولون: لِمَ أرخصتَ شعرك في الورى فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ  
أجازى على الشعرِ الشعيرَ وإنَّهُ كثيرٌ إذا استخلصته من بهائمِ  
واشتهر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد - كما أسلفنا - إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان  
يحاول فيه التندير لإضحكا لسامعه وجلبا لسروره ، كقوله في مغن ضارب على العود لم يعجبه  
صوته ولا ضربه وتلحينه :

على	صَوْتُهُ	سَوَّطَ	علينا	لا على	الفرسِ
وجملة	ضربه	ضربٌ	للدُّرعِ	وُمُتَّرسِ	
يقول	السامعون	له	رماه	الله	بالخرسِ
وخذُ	ياربُّ	مهجته	إذا غنى :	(خُدِي نَفْسِي)	

فهو لا يجعل صوته يصدك الأسماع فحسب ، بل يجعله يكوها كى الشياطين للخيل ، أما ضربه  
فكانه ضرب حقيقى يضرب به دروعا وتروسا لا ألقانا تُشجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم  
يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدقة يغنى مقطوعة أولها : « خُدِي  
نفسى » . ويقول لبعض مهجويه :

لك	وجهٌ	كأنه	ال	بَدْرٌ	لكن	إذا	كُسف
وقوامٌ	كأنه	ال	مُغْضَنٌ	لكن	إذا	انقصف	
وبنانٌ	كأنه	ال	بِجْرٌ	لكن	إذا	نُشِف	
وأبٌ	أكذبُ	الأنسا	م	ولكن	إذا	حُكف	

وهو في الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يمحوه بل أن يرده عليه هجاء  
واقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر. وكان بدمشق في زمنه طيب يسمي أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جفنٌ إحدى عينيه ، وكان هذا الطيب كثيرا ما يرثي من يموت فقال عرقله متندرا عليه :

لنا طيبٌ شاعرٌ أَشْتَرُّ أراحنا من شخصه الله  
ما عادَ في صُبْحَةِ يومٍ فَتَى إلا وفي باقيه رثاه

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء. فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه. وكان يُقذع أحيانا في هجائه ، حتى في الموت. ويقول في رثاء بعض خصومه :

لقد حَسَنَتْ به اليومَ المراثي كما حَسَنَتْ به أمس الأهاجي  
ولكنْ لَجَّ في شَتْمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللجاج

وهي شامة تدل على أنه كان عدواني المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض الحبان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكثوسها وقيانها المغنيات يبكيه بكاء مرا .

### أسامة<sup>(١)</sup> بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي ، من أعلام بني منقذ أصحاب قلعة شيزر إلى الشمال من حماة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عني بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقي - وهو شاب - في صيده أسدا فصرعه . ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبنت أسامة وأخذ يعده للإمارة بعده . وكان اسم عماد الدين زنكي قد أخذ في التآلق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعاً مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين . وبمقدار فرحه

والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ ورمأة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

(١) انظر في أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقرئزي ١٢٥/١

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفي في العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث في مسقط رأسه لحايته غير أن عمه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، ففترقوا في البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أنر مدير دولة أولاد طُغْتِكِين لقاء حسنا ، وظل الجو بينهما صافيا حتى سنة ٥٣٩ هـ إذ اكفهرَّ الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ ( ٥٣٤ - ٥٤٤ هـ ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنِّي عاشر به حياة رَغْدَة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر ( ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلار لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولَّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبي يجبو في الخامسة من عمره ، وكاتب أهل القصر طلائع بن رزّيك الوالي بالصعيد ، فقدم في جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرت أخت الظافر ، فكتبت إلى حَمَلَة الصليب بعسقلان - وكانوا قد استولوا عليها حديثا - تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة - الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فُقتل عباس ، وُرِدَّ نصر إلى القاهرة ، وقرَّ أسامة في نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩ هـ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزّيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجمشت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة .

ونزلت بأسامة في سنة ٥٥٢ هـ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيْر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتوا في البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حَمَلَة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات منكمشُ  
أيامه مثلُ شهر الصومِ طاهرةٌ من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوَّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما



أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربي رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدته موجدته - في رأينا - من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفًا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كُتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولَبَّاه مَبتهِجا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له في مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لَبَّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجلَّى في معارك عماد الدين زنكي ضدَّهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكِأاةَ إلى أن شَبْتُ فيها وخيرَ الخيلِ ما قَرَحَا (١)  
 أخوضها كَشهابِ القَدْفِ مِبْتِسا طَلَقَ الحِياَ وَوَجَّهُ المِوتِ قَد كَلَحَا (٢)  
 بصارمٍ من رآه في قَتامٍ وَغَى أقرى به الهامَ ظن البرقَ قَد لَحَا (٣)  
 فَسَلَّ كِأاةَ الوَغَى عني لتعلم كم كَرِبِ كَشَفْتُ وكَم ضَبِقِ يَسِي انْفَسَحَا

فهو قد نازل كِأاة الحرب أو شجاعانها منذ سنته الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيئا لا يبين ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصيح قارحة مستتمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كَشهابِ ساطع باسمِ الثغر متهلل الوجه وقد كثر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ ليلمع في غبار الحرب - وهو يحطم به الرؤوس حطما - كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله في تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة :

(١) الكِأاة : الشجعان . فرح الفرس : بلغ الخامسة

(٢) قَتام وَغَى : غبار حرب . أقرى الهام : أشق

من عمره

(٣) طلق الحيا : مستبشر الوجه . كلع : عبس

كم قد أبدتُ بسيفي كلَّ مفتخرٍ حامى الحقيقة يومَ الجَحْفَلِ اللَّجِبِ<sup>(١)</sup>  
 وكم تركتُ بنى الإفرنج في رُعبٍ فصرتُ أَدْعَى لديهم جالبَ الرُعبِ  
 وكم جرت إليهم جَحْفَلًا لَجِبًا بالسَّابِرِيَّةِ والمَازِيِّ واليَلْبِ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم  
 النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب في قلوب حملة الصليب حتى سموه - جزعا -  
 جالب الرعب ، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سَلُّ بِي كَمَاةَ الرَّعَى فِي كُلِّ مَعْرَكٍ يَضِيقُ بِالنَّفْسِ فِيهِ صَدْرُ ذِي الْبَاسِ  
 يُنَبِّئُكَ بِأَنِّي فِي مَضَايِقِهَا نَبْتُ إِذَا الْخَوْفُ هَزَّ الشَّاهِقَ الرَّاسِي

فهو يجلى في المعارك حامية الوطيس التي تبلغ فيها الروح الحلقوم ويرى الكماة فيها الموت  
 نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الهاجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز  
 الخوف والفرع الجبال الرواسي من الكماة العتاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاخرها معددا لانتصارات البطل على حملة  
 الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَنَا الْأَمْرُ لَتَحْيَا بِنَا الدُّنْيَا وَيَفْتَحِرَ الْعَصْرُ  
 جَعَلْنَا الْجِهَادَ هَمًّا وَاشْتَغَلْنَا وَلَمْ يُلْهِنَا عَنْهُ السَّمَاعُ وَلَا الْعَمْرُ  
 بِنَا أَيْدِ الْإِسْلَامِ وَازْدَادَ عِزَّةً وَذَلَّ لَنَا مِنْ بَعْدِ عِزَّتِهِ الْكُفْرُ  
 بِنَا اسْتَرْجَعَ اللَّهُ الْبِلَادَ وَأَمَّنَ الْعِبَادَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر في ذلك قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استرجع كثير من  
 بلاد الشام وأمن فيها الناس ، ووضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد  
 الإسلام عزة . ونور الدين - بدون ريب - هو الذى هيا لأصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته  
 المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته  
 سنواته السبعون عن الاشتراك في نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل (٢) السابرية : الدرع المحكمة النسيج . الماذى :

السلاح . اليب . الترس .

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل

اللبج : الجيش الكثيف كثير الضجيج

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلاى والسبعون قد أوهنتُ قُواى عن سعيى إلى الحربِ  
 وكنت إن ثوبَ داعى الوغى لبيئته بالطعن والضرب (١)  
 أشقُ بالسيف دجى نفعها شقَّ الدياتجى مُرسلُ الشهبِ (٢)  
 أنازلُ الأقران يُرديهمُ من قبل ضرى هامهم رُعبى (٣)

فقد وهن عظمه وضعفت مئته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرؤوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن (٤) عُنَيْن

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عُنَيْن ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركتها أسرته إلى زرع فى حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبي الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبوالقاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان عدوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشئه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وحجبتى أن أفعل الخير والدَّ ضئيلُ إذا ما عدَّ أهلُ المناسبِ

والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسيط ابن الجوزى  
 ٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ ومفرج الكرب لابن واصل  
 ٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققه خليل  
 مردم (نشر دار صادر بيروت) .

(١) ثوب : دعا  
 (٢) النقع : غبار الحرب  
 (٣) يرديهم : يهلكهم  
 (٤) انظر فى ابن عنين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم  
 الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/١٣

بِعِيدُ عَنِ الْحَسَنِ قَرِيبٌ مِنَ الْخَنَاءِ وَضِعُّ مَسَاعِي الْخَيْرِ جَمُّ الْمَغَائِبِ  
إِذَا رَمَتْ أَنْ أَسْمُو صَعُودًا إِلَى الْعَلَاءِ غَدَا عَرَقُهُ نَحْوُ الدَّيْتَةِ جَاذِبِي

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعفة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطل المغوار الذي أذلَّ حملة الصليب ودفع جمعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره . هذا البطل الذي احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين في العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضي الفاضل وكتبه عماد الدين الأصبهاني وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سلطاننا أعرجُ وكتائبُه ذو عَمَشٍ وَالْوَزِيرُ مُنْحَلِبٌ

وكان القاضي الفاضل أهدب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عُنَيْنِ في دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقرض الأعراض ، وضجَّ الناس من لسانه وهتائه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، ففضى على وجهه يجوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخورزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكَيْن ( ٥٧٧ - ٥٩٣ هـ . ) فوفد عليه ، وقدم إليه مداخحه فلقبه لقاء كريما وخفَّ على قلبه فاتخذَه نديما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أثرى ، وكثر في يده المال ، فرأى أن يستمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر في العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفَّى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانا ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التي يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت في أيام نيابته عن أبيه أو في أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوهُ بالشحِّ بينما يمدح عمه العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

مَا كُلُّ مَنْ يَسْمَى بِالْعَزِيزِ لَهُ فَضْلٌ وَلَا كُلُّ بَرِّقٍ سُحْبَةٌ غَدَقَةٌ (١)  
بَيْنَ الْعَزِيزِينَ بَوْنٌ فِي فَعَالِهَا هَذَاكَ يُعْطَى وَهَذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

وهو هجاء لاذع للعزير عثمان إذ يجعله - لشدة شحه - شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهاة ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فأحتفلوا به وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش » . وتوفي العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتطورت الظروف - كما مر بنا في قسم مصر - وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولّى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحنّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه المعظم عيسى ( ٥٩٧ - ٦٢٤ هـ ) يمدحه ، وقربه منه واتخذهُ بأخرة من أبنائه وزيراً له ، حتى إذا توفي رثاه رثاء حاراً . وأبقى له منزله أبنته داود ( ٦٢٤ - ٦٢٦ ) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفي سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاماً .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عنين في كتب التاريخ والأدب . وهو في مقدمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجلّى ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه - كما مر بنا - عن دمشق ، وحتى من أكرمه كان يهجوهم غير مراع فيهم إلاً ولاذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعضّ أيديهم التي امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلطاننا الذي نرتجيهِ واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ  
هو سيفٌ كما يقالُ ولكنْ قاطعٌ للرسومِ والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشتهه وضياعه في البلاد وردّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى فؤاده التي طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقاً له فيه مدائح رائعه ، ولكن كان ينبغي أن يرد شيطان هجائه عن الإلمام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراماً إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عُنَيْنٍ والبها مذ تَوَلَّيا      على الناس ولى الحَيْرَ عن كل مُسَلِّمٍ  
فوالله يا عيسى بمن شِئْتَ منها      لُعِنْتَ ولو كنت المسيحَ بن مَرِيَمٍ  
وحقاً هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قَسَمه له بأنه لعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا  
نفسه في ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الحطيثة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه  
استعار منه - كما مرَّ بنا - هجاءه لأبيه . وأهداه طيب عيون - أو كما كانوا يقولون كحال - خروفاً  
هزيباً جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتانى خروفٌ ما شككتُ بأنه      حليفٌ هوى قد شَفَّه الهَجْرُ والعدْلُ  
إذا قام في شمسِ الظهيرةِ خلتُهُ      خيالاً سرى في ظلمةِ ماله ظلُّ  
فناشدته ما تشهى قال قَتَّةٌ      وقاسمته ما شَفَّه قال لى الأكلُ  
وظلٌّ يراعبها بعينٍ ضعيفةٍ      ويُشدها والدمع في الحدِّ منهُ  
أتتُ وحياضُ الموت بيني وبينها      وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابي وضعه بدقة في موضعه من القطعة ، وقد جعل الحروف الهزيب نَصَورَ  
عشقي شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل ، وهى صورة بديعة ويستحلفه  
ما يشتهى فيقول قتة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعبها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة  
ودموعه منهلة على حدوده ، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه  
فروحه في الحلقوم .

وبصور ابن عنين بخيلاً شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجراً متبرماً ، متمنياً  
أن لا تتكرر هذه الدعوة أبداً ، ومُدَّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عنين  
حينئذ قائلاً :

عهدى به واليدُ اليمنى يكفُّ بها      عَرَبَ المدامع والأخرى على الكبدِ  
يقول للخبيز: لا يبعد مداك ولا      أختى عليك الذى أختى على لُبِّدِ  
ولبد آخر نسور لقان في قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتي الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفِعَ وأنه معتاد الصفع دائما يقول :

تعجّب قومٌ لصفعِ الرشيدِ وذلك مازال من دابِه  
رحمْتُ انكسارَ قلوبِ التَّعالِ وقد دَنَسوها بأثوابِه  
فوالله ما صَفَعوه بها ولكنهم صَفَعوها به

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لالفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

### ابن<sup>(١)</sup> النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدّل محاسنه وزهده في الحياة . ونراه في شعره يريث تلك الأيام أسفا محزوناً ، ويقال إنه تزيى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أباؤها وشعراؤها استقبالاً كريماً . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون في نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيراً من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذي تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أديبائها أهلاً ومكاناً طيباً ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفي سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبي في كتابه : نفضة الريحانة : « أنا لا أجد عبارة تفي في حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتي به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره في آذان الزمان ، وساحرٍ إذا أُشربتْ كلماته العقول استغنت عن الكتوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استنفده في المديح ، ويكثر في مقدماته من الغزل ، وقد يفرغ إلى الفخر بمثل قوله :

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ و خلاصة الأثر ٣/٢٥٧ ونفضة الريحانة ٢/٥٠٧ .  
وديوان ابن النحاس مطبوع قديماً في بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لي نفسَ الوقورِ وعَفَّةَ الـ  
وما كلُّ مَعْسولٍ اللَّمَى يَسْتَفْرِئِي  
تقديرٍ وقلبي في المهماتِ قَلْبُ  
ولا كلُّ مطلوبٍ لَدَى مُحِبِّ (١)  
وأحتملُ المكروهَ ممن يملئني  
ولم أَلُو جِيدَ الودِّ عمن ينكَبُ  
إذا أنا لم أدفع عن النفسِ ضَمِيمَهَا  
فلا انجَاب عنها من دُجَا الضَّيْمِ غَيْهَبُ  
ولا وَطِئْتُ خَدَّ الفياثي ركائبي  
ولا سَالَ حَزْنُ بالمطىِّ وسَبَسَبُ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قلب يحتمل في قوة للأمور ، ولا يستثيره جلال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف عمن يُعرض عنه من الأوداء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاء المظلم ، وأن تهن قواه فلا تطأ الفياثي ركائبه ولا يسيل بها حزن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يادهرُ مثلُ لا يُقَدُّ  
أنا لا أبالي إن رُمِيْتُ  
العينُ يدميها الدُّبَا  
والتَّيْبَرُ يعلوه التُّرَا  
تكنى فَنَى العِرْفَانِ خِ  
وارقبْ خُفُوقِي إن سَكَدْ  
والبدرُ يشرق في المطَا  
والروضُ يذبل ثم تُكْ  
قَلُّ عن سَنَامِ المجدِ جَنِيهْ  
تُ وَسَبَّ عِرْضِي مَنْ أُسِبُهْ  
بُ وَيُعْجِزُ الآسَادَ دَبُهْ  
بُ وَفَضْلُهْ بَاقٍ وَوَبُهْ  
لَا نَا فَضَائِلُهْ وَكُتِبُهْ  
تُ فَعَاصِنِي يُرْجِي مَهَبُهْ  
لَع بَعْدَ مَا أَخْفَاهُ غَرَبُهْ  
سَيَّ التُّورَ والأورَاقَ قُضْبُهْ

وهو يقول للدهر إن شيئاً لا يستطيع أن يزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ، ولا يهيمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم ، مثله في ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقب حركتي ، فإنني كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلي إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تم أضواؤه الآفاق ، أو كمثل الروض تذبل



أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبله ؟ والمجدُّ ياباه فيَّ والحسبُ  
والشمسُ صَوْنًا لضوءِ طلعتها قبل لِحاقِ الظلامِ تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آباه وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخي الليل سدوله على الآفاق .

### ٣

#### شعراء المراثى والشكوى

المراثى قديمة في الشام منذ عصر بنى أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثاني تشارك الشام بقوة في الشعر العربي ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقي أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربي جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا في ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبي المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا في شعره . وولتقى في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات بكشاجم . وله رثاء في أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيها رثاء أبي فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم ، فأحس في عمق بفضيعة فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مرثية بديعة في أخت له يقول فيها<sup>(١)</sup> :

أترعم أنك خِدْنُ الوفاءِ      وقد حَجَبَ التُّرْبُ من قد حَجَبُ  
فإن كنت تصدقُ فما تقولُ      فمُتَّ قبل موتك مَع من تُحِبُّ  
وكنْتُ أقيكِ إلى أن رمْتُك      يدُ الدَّهرِ من حيث لا أحتسبُ  
فلا سلمت مقلَّةً لم تَسُحَّ      ولا بقيت لِمَّةً لم تَسِبُ  
ولو رُدَّ بالرُّزِّ ما تستحقُّ      لما كان لي في حياتي أربُ

وهو يتمنى لو غُيبَ الترابَ مع شقيقته وصنور روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التي أصابتها في الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمة ويتمنى أن لا يتوقف أنهارها ، لعلها تشق غلّة نفسه وحرقة فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له في حياته أرب ولقدّم روحه فداء لها .

ولأبي العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق ، ويقول في مطلعها إنه سمع بداهية أصمّت أذنه وصكّت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعظم أن يرثها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراره فضلا عن مقام أسنانه ، وينشد<sup>(١)</sup> :

وَمَنْ لِي أَنْ أَصَوِّغَ الشُّهْبَ شِعْرًا      فَأَلْبَسَ قَبْرَهَا سِمْطَى نِظَامِ  
مَضَتْ وَقَدْ اكْتَهَلْتُ وَخَلْتُ أَنِي      رَضِيعٌ مَا بَلَّغْتُ مَدَى الْفِطَامِ  
فِيَارِكَبَ الْمَثُونِ أَمَا رَسُولٌ      يَبْلُغُ رَوْحَهَا أَرْجَ السَّلَامِ  
ذَكِيًّا يُصْحَبُ الْكَافُورُ مِنْهُ      بِمَثَلِ الْمِسْكِ مَفْضُوضِ الْحَتَامِ

وهو يكبرها عن أن يرثها بألفاظ ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جدتها الطاهر ، ومحس في عمق - وهو في سن الكهولة - كأن السنوات الطويلة التي فصلته عن صدر أمه من القصر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو في حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجها من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له<sup>(٢)</sup> :

بِرَغْمِي أَنْ أَعْتَفَ فَيْكَ دَهْرًا      قَلِيلًا فَكُرْهُ بِمَعْتَفِيهِ  
وَأَنْ أُرْعَى النُّجُومَ وَلَسْتَ فِيهَا      وَأَنْ أَطَأَّ التُّرَابَ وَأَنْتَ فِيهِ

ويقول الباخريزي تعليقا على البيتين : « هذا أرقُّ ما يكون في المرأى ، إذ يكاد يفجر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار » .  
وتنشب الحروب الصليبية ، وفي بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله (١) :

يألرَّجالٍ لَنازلٍ لم يُحْتَسَبْ      ولحادثٍ ماكانَ بالمَتَوَقَّعِ  
تالله ما جارَ الزمانَ ولا اعتدى      بأشدَّ من هذا المصابِ وأوجعِ  
ياقولُ قَوْلَةَ مُكَمِّدٍ مُسْتَتِرٍ      ماءَ الشُّونِ له ونارَ الأضلِّعِ  
أشكو إلى الأيامِ فيكَ رِزِّي      لو تسمعَ الأيامُ شكوى موجعِ  
صُلَّ بَعْدَها يادهرُ أوفاكفُفُ وُحْدُ      مَنْ شَتَّ ياصرفَ المنيةَ أودِعِ

وهي مرثية رائعة تمتلئ بأبيات تصور لوعات الدمشقيين في هذا البطل وكرامتهم وفجيعتهم التي لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقلُّ الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمدًا عليه ، وليُنزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أوفليكف ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة .

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ هـ فاهتزت الشام لفقدته هزة شدة ، وفي رثائه يقول العماد الأصهباني في إحدى مرثياته (٢) :

ياملِكًا أَيامُهُ لم تَزَلْ      لفضلهِ فاضلةٌ فاخره  
غاصتْ بحارُ الجودِ مذ غُيِّتْ      أنمُكُ الفائضةُ الزاخره  
ملكْتَ دنياك وخلفتها      وسرتَ حتى تملكَ الآخرة

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ هـ رنة حزن عميقة في جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أراح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفي مقدمتهم عماد الدين الأصهباني ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامي ، وفيها يقول (٣) :

أين الذي شَرَّفَ الزمانُ بفضلهِ      وسَمَّتْ عليَ الفضلاءَ تشريفائهُ

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية

بالقاهرة) ٢٢٨/١ .

شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروضتين

(٢) الروضتين لأبي شامة (طبع مطبعة وادي النيل

٢١٥/٢ والنجوم الزاهرة ٦/٦٠

لا تحسبوه ماتَ شخصا واحدا قد عمَّ كلَّ العالمين مماتهُ  
لو كان في عصر النبيِّ لأُنزِلَتْ في ذِكْرِهِ من ذكره آيَاتُهُ  
ياراعياً للدين حين تمكنتُ منه الذنابُ وأسلمته رُعاتهُ  
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائماً رِضوانُ رَبِّ العرشِ بل صلواتُهُ

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام  
ومصر ، حماية جعلته في الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمَّره من المدارس والمساجد في  
كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليها من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلف ملكا  
ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولَةً أَحْنَى لها حَمَلَةَ الصليب رعوسهم .  
ولا يكاد يتوفى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاضٍ إلا ويرثيه الشعراء ، من  
ذلك قول الشهاب محمود في ابن صَصْرَى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣  
للهجرة (١) :

قاضى القضاة وَمَنْ حَوَى رُتْبًا سَمَتْ  
عَنْ أَنْ تُسَامَ سَنًا وَبَزَّتْ مَنْ سَعَى  
شَيْخُ الشُّيُوخِ العَافِرِينَ وَمَنْ رَفَى  
رُتْبَ السُّلُوكِ تَعَبُّدًا وَتَوَرُّعًا  
حَاوَى العُلُومَ بِمَا تَفَرَّقَ فِي الوَرَى  
إِلَّا الَّذِي مِنْهَا إِلَيْهِ تَجْمَعًا

وطبيعي أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقهاء دقيقا . ويقولون إنه كان  
يجمع بين الحسينين : المعرفة بالمقول والبراعة في المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس  
وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسنى الحلبي المتوفى سنة  
١٠٥٦ في رثاء أخيه (٢) :

رُزُّ أَلَمٍ وَحَسْرَةٌ تَتَوَالَى  
وَفِرَاقٌ إِلْفٍ إِنْ أَرَدْتُ تَصَبُّرًا  
كُنَّا كَعُصْنَى دَوْحَةٍ قَطَعَ الرَّدَى  
مِنْهَا الْأَغْصَصُ الْأَرْطَبُ المِيَالَا  
أَوْ كَالْيَدَيْنِ لِذَاتِ شَخْصٍ وَاحِدٍ  
كَانَ الْيَمِينَ لَهَا وَكُنْتُ شِمَالَا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدودا في أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

يلحّون عليه نوائب الدهر وتغافل الممدوحين وبؤس حظوظهم. في دنياهم وما يتجرّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يبلون في الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويملاً النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس (١) :

أراني وقومي قَرَقْنَا مَذهَبًا      وإن جَمَعْتَنَا في الأَصُولِ المَنَاسِبُ  
فأَقْصَاهُمْ أَقْصَاهُمْ      من مَسَاعِي وَأَقْرَبُهُمْ مِمَّا كَرِهْتُ الأَقْرَابُ  
غَرِيبًا وَأَهْلِي حَيْثَا كَرَّرَ نَاطِرِي      وَحِيدًا وَحَوْلِي مِنْ رِجَالِي عَصَائِبُ  
وَأَعْظَمُ أَعْدَاءِ الرِّجَالِ ثِقَاتُهَا      وَأَهْوَنُ مِنْ عَادِيتهِ مَنْ تَحَارَبُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر في عمق بالغرابة بين أهله وذويه وعصائباته ، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزعه . وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أعدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تعالنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متق شره وخيائته وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله (٢) :

يَا دَهْرُ يَا مَنْجَزَ إِيعَادِهِ      وَمُخْلَفَ المَأمُولِ مِنْ وَعْدِهِ  
أَيُّ جَدِيدٍ لَكَ لَمْ تُبْلِهِ      وَأَيُّ أَقْرَانِكَ لَمْ تُرُدِّهِ  
تَسْتَأْثِرُ العِقْبَانَ فِي جَوْهَا      وَتُنزِلُ الأَعْصَمَ مِنْ فِئِدِهِ (٣)  
إِنْ زَمَانِي بِرِزَايَاهُ لِي      صَبْرِي أَمْرُحُ فِي قَدِّهِ (٤)  
أَفْضَلُ مَا فِي النَفْسِ يَغْتَالِهَا      فَتَسْتَعِيدُ اللّٰهَ مِنْ جُنْدِهِ  
وَرَبُّ ظَمَانَ إِلَى مَوْرِدِ      وَالمَوْتُ لَوِيعِلْمِ فِي وَرْدِهِ

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويُخلف دائما

(٣) الأعصم : الوعل . الفند : قمة الجبل

(٤) القد : ما يُقَدُّ من الجلد ويُشَدُّ به الأسير

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه ليأتى دائما على كل جديد وكل قرْن يدعى أنه يمثاله في القوة أو الشجاعة ، فالكل أسراه : العقبان في أجوائها العليا والعُصم أو الوعول في أعالي الجبال ، فلا أحد ينجم من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قَدًّا أو قيدًا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحبها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يقتاله أو يهلكه ما سُلط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعيز من شرها ، ويقول رب ظامئى إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ<sup>(١)</sup> :

حَدَّرْتَنِي تِجَارِي صُحْبَةَ الْعَا لَمْ حَتَّى كَرِهْتُ صُحْبَةَ ظَلِي  
لَيْسَ فِيهِمْ خَلٌّ إِذَا نَابَ خَطَبٌ قَلْتُ مَالِي لِدَفْعِهِ غَيْرُ خَلِّي  
كُلُّهُمْ يَبْدُلُ الْوَدَادَ لَدَى الْيُسْرِ رِ وَلَكِنِّهِمْ عِدَى لِمَقْلٌ  
فَاعْتَرَلْتُهُمْ فِي انْفِرَادِكِ مِنْهُمْ رَاحَةُ الْيَأْسِ مِنْ حِذَارٍ وَذُلٌّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمتهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفاً أن يكون فيه ما في الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعذك ، إنما يعرفك في اليُسْرِ ، أما في العسر فلا يودك ولا يعرف لك طَوْلاً ولا فضلاً ولا يسدُّ لك ثلثة ولا يقدم لك عوناً ، فاعتزل الناس وأياسُ من أن يردوا لك معروفاً أو جميلاً تعيش آمنة عزيزاً . ويقول ابن عُثَيْنِ في التَّشَوِّقِ إلى دِمَشْقٍ بعد أن ظل منفياً عنها طويلاً شاكياً محزوناً لغربته وما لقي فيها من ضنك العيش بعد أن طُوفَ في العراق وإيران وخراسان والهند واليمن<sup>(٢)</sup> :

فَسَقَى دِمَشْقَ وَوَادِيَّهَا وَالْحِمَى مِتَوَاصِلُ الْإِرْعَادِ مُنْقَصِمُ الْعُرَى  
فَارْقَتْهَا لَا عَن رِضَى وَهَجْرَتِهَا لَا عَن قَلْبِي وَرَحَلْتُ لَا مَتَحِيْرًا  
أَسْعَى لِرِزْقِي فِي الْبِلَادِ مَشْتَتٍ وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكُونَ مَقْتَرًا  
لَا عِشْتِي تَصْفُو وَلَا رَسْمُ الْهَوَى يَعْفُو وَلَا جَفْنِي يَصَافِحُهُ الْكُرَى

فهو يدعو لدمشق - وكان يكثر من الحنين إليها - أن يسقيها سحاب متواصل الأرعاد

أو الإمطار ، منقصم العرى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقتها قسرا ، وهو إنما فارقتها لهجوه أهلها وإفحاشه في هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسدُّ رمقه ، فرزقه دائما مقترَّ أو قليل ، وعيشته دائما نكدة ، وهواه معلق دائما بدمشق ودائما مسهَّد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكت عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمماليك ويحتون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حجة الحموى صاحب خزنة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لهده ، ويقول مشوقا إلى بلده حجة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله (١) :

ياساكنى مَعْنَى حِجَاةٍ وَحَقَّكُمْ      من بعدكم ماذقتُ عيشًا طَيِّبًا  
أَرْضُ رَضَعْتُ بِهَا نُؤْدَى شَبِيبِي      ومزجت لَدَائِي بكاسات الصِّبَا  
وقد التفتُ إِلَيْكَ يَادَهْرِي بطو      ل تعبى وحقَّ لِي أَنْ أَعْتَبَا  
قَرَّرْتُ لِي طَوْلَ الشَّتَاتِ وَظَيْفَةَ      وجعلتْ دَمْعِي فِي الخُدُودِ مَرْتَبَا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه في حجة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشتته بعيدا عن قره عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حجة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا (٢) :

قد صرتُ أَحْتَرِزُ الأَنَامَ وَغَدَرَهُمْ      إن الطَّيِّبَ يَخَافُ مَسَّ الدَّاءِ  
وقطعتُ بِالْيَأْسِ الرَّجَاءَ لَدَيْهِمْ      وَالْيَأْسُ يَجْدَعُ أَنْفَ كُلِّ رَجَاءِ  
ولطالما أَصْفَيْتُ قَبْلَكَ خُلَّتِي      من لا أَرَاهُ مُوَافِقًا لِإِخَائِي  
وبلوت منه وَدَّهَ فَرَأَيْتُهُ      مَسْتَلُونَا كَتَلُونُ الحَرَبِيَاءِ

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فينس

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجح شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلون ألوانا كألوان الحرباء ، إذ تتلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فأتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرتاء .

### ابن سنان <sup>(١)</sup> الحفاجى

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحفاجى الحلبى تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولانعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ عندي وحالٍ شَرَّحُها فى الجملة  
همٌ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ وفراقٌ أوطانٍ وبُعدٌ أحبةٍ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته خلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عزاز » فقال : لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الحفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوّب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر - بأمر محمود - أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحس بالموت أنشد .

خَفَ مَنْ أَمَنْتَ وَلَا تَرَكْنَ إِلَى أَحَدٍ  
فَمَا نَصَحْتُكَ إِلَّا بَعْدَ تَجْرِبِ

الزاهرة ٩٦/٥ وكتابتها البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . ودويوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

(١) انظر فى ابن سنان الحفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزء بين الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والتجوم



وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتحه بمرثية في الكاتب علي بن محمد بن عيسى العمري ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفي رثاء ابن سنان له يقول :

ومعدّلٍ جارٍ على غلوائه يُروى حديثُ نَداهِ عن أعدائه  
عَجَلْتُ عليه يَدُ الحِجَامِ وعوده رِيَّانٌ من خَمْرِ الشَّبابِ ومائه  
عَجَبًا لحدِّ السيفِ كيف أصابه ومضاهُوه في الرُّوعِ دون مَضائه  
ولمصعبٍ ملاً الزمانَ هديرُه قاده بعد شِياسِه وإبائه  
إن يرفعوه فقد غنّوا بعلائه أو يشهروه فقد كُفوا بثنائه

وابن سنان يؤنن صديقه تأينا حزينا قائلا : إنه كان بجرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذي شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نصرًا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القيادة يهدر هدير الفحول ويزار زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه في الصلب ، فقد أغناهم علاؤه في السماكين ، وإن كانوا قد شهروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثي جماعة من أهله وأصدقائه :

أيها الظاعنون لازل للغيمِ سِ رِواحُ عليكمُ وبكورُ  
لستُ أرضى بالدمع فيكم فهل يَمُ لك رِىَّ البحورِ إلا البحورُ  
قد رأينا دياركم وعليها أثرٌ من عُفاتكم مهجورُ  
عَرَصَاتُ كأنهن ليلالٍ فارقتها عند الكمالِ البدورُ  
بانَ ذُلُّ الأسي عليها فللغيمِ سِ بكاءٌ وللنسيمِ زفيرُ  
يانجومَ العلاءِ غرّبتُم وما في اللِّيلِ من بعدكم نجومٌ تغورُ

وهو يدعو لأجدائهم أن تظل تمطرها السحب في البكور والرواح بل حرى أن تُروى البحور من فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مرَّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتُ وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسي والحزن عليها

والسحب تبكى بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها في الليل نجوم تغور في سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حج بيت الله :

أبكيك لو نهضتُ بحقِّك أدمعُ      وأقول لو أن النوائبَ تسمعُ  
لا يُعبطنُ على البقاء مرزاً      إن المودعَ إلفه لمودعُ  
قُبْحاً ليومك فالنوائبُ بعده      جلُّ وكلُّ رزيةٍ لا تُفجعُ<sup>(١)</sup>  
لو كان ينفعني السلوُ نبذته      أسفاً عليك فكيف إذ لا ينفع  
عجباً لمن يُبقي ذخائرَ ماله      ويظلُّ يحفظهن وهو مضجعُ  
ولغاflٍ ويرى بكلِّ نيةٍ      ملقى له بطنَ الصفائح مضجعُ<sup>(٢)</sup>  
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينه      أفا تضيقُ بهنَّ أو تتصدعُ

وهو يقول إن أى دموع له لاتفى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاتسمعه النوائب ، ويقول إن أحدا لا يُعبطُ على بقاءه ، فما تلبث رحي الموت أن تطحن الباقيين المودعين . وما أقبح اليوم الذى سمع فيه رزه أمه . فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلا ، ولكنه لا ينفع أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعمّا قليل يضيع ، وللغاfl عن الموت وفى كل عطفة بطريق من طريقه مضجع معدّه له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديدة .

### الغزى<sup>(٣)</sup>

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي الغزى ، ولد بغزة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بها جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العباد الأصهبانى فى الخريدة : جاب البلاد وتغرب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

(١) جلل : أى بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير

(٢) انظر فى الغزى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣/١

وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

(٢) الشية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع

فالفظة من ألفاظ الأضداد .

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرَمَان ، وعاد الدين طاهر قاضي القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا منتقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفي سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثثانه إلى بلخ ودُفِن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل ، ويبثُّ في أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغرته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد المؤمنين قلوبا في البلاد ، وفي ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلتَ ضرورةً      بابُ الدواعي والبواعثِ مُغلَقُ  
خَلتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرتَجى      منه التَّوَالُ ولا مَليحٌ يُعشَقُ  
ومن العجائب أنه لا يُشترى      ويُبْحانُ فيه - مع الكساد - ويُسرقُ

وهو لا يشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية في النقد العربي باب واسع . ويقول العاد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى وما يعزُّ من المعاني العرْمعنى إلا إليه يُعزى ، يُعنى بالمعنى ويحكم منه المبني ، ويودعه اللفظ إيداع الدرِّ الصدف ، والبدر السُدف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إني لأشكو خطوبًا لا أعينها      ليرأ الناسُ من لومي ومن عدلِي  
كالشمع يبكي ولا يدري أعبرته      من صحبة النار أم من فرقة العسلِ

فخطوبه كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فثله كالشمع لا يعرف هل يبكي من فرقة الرِّحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطيقُهُ      كما حمل العظمُ الكثيرُ العصائبِ  
وليلٍ رجونا أن يدبَّ عذاره      فما اختطَّ حتى صار بالفجر شائبا  
فلا تحمدِ الأيامَ فيما تُفِيدُهُ      فما كان منها كاسيًّا كان سالبا

والصور في الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه ما يكون بعظم كبير شدَّت عليه العصائب وهو يتصورُ ألما ، ويصور قصر الليل فما اختطَّ عذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لاتحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تعرّى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحظُّ من جوهرِ الأشياءِ سلَّهُ ولا      تسألُ من الله قَدًّا زانَه الهِفِّ  
فالقوسُ في قبضةِ الرامي لعزَّتْها      والسهمُ من هُونِه يُرمَى به الهدفُ  
لم يُبقَ لي زمني شيئا أُسرُّ به      فالحمدُ لله لافوزٍ ولا أسفُ  
عرى أكابره من ثوبِ محمّدةٍ      فالقومُ في السابغاتِ اللبّسُ الكُشفُ  
لم يقنعوا بحجابِ البخلِ فاحتجّبا      كما غلا بعد سوء الكيلةِ الحشفُ  
وإن جرى غلطٌ منهم بمكرمةٍ      فيئضةُ العقرِ لا يُرجى لها خلفُ  
أعجبُ بهم قطُّ في الآراءِ ما اتفقوا      على صوابٍ وفي التقصيرِ ما اختلفوا

فهو يشكو حظّه التعس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالخط مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وما أشبه الغزى بقوس عزيز في قبضة الرامي تصوّب منه السهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شيء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرّى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمّدة ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجّبا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردته وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك بيضة العقر التي لا تبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لا يتفقون في الرأي على شيء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا      تعدّر ما تَبَلُّ به الجفونُ  
فا يَندى الممدوحُ بنانُ      ولا يَندى المهجورُ جَبِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلى جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بنانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجور يجيل يندى جبينه خجلا وكسوفًا . ويقول :

حبلُ المنى مثلُ حبلِ الشمسِ متصلا      يُرى وإن كان عند اللّمسِ مَبْتوتا

فلا تقلُ لیت صَرَفَ الدهر ساعدنی فَإِنَّ فی لیت أوماً یقطع اللیتاً<sup>(١)</sup>

والصورة في البيت الأول بديعة ، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتني فإن في لیت أوماً أو عطشنا شديدا دون ربه ابتئات اللیت أو صفحة العتق . فدع المنى والغنى فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزى مدائح وغزليات - كما قلنا - رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه في نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة في مكنتبات العالم .

### فتيان<sup>(٢)</sup> الشاغوري

هو فتیان بن علی الأسدي الشاغوري وُلد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صيبا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهي الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أمم حفظه أكب - مثل لداته - على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويديريهم عليها . واختار قرية الزبداني بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتّابا يعلم فيه الناشئة ، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ على نحو ما مر بنا في قسم مصر ، واتخذ الأفضل مودود بن المبارك - وهو أخو عز الدين قرخشاہ ابن عم الأفضل لأمه - شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفا لها . ويلتحق فتیان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي ، ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

٢٧٤/٦ ومطالع البدر للغزولي ٢٨/١ والشدرات

٦٣/٣ . ودويانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق

أحمد الجندي وتقديمه .

(١) أوما : عطشا شديدا . اللّيت : صفحة العتق .

(٢) انظر في فتیان الشاغوري وشعره الخريدة ( قسم

الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

وكان فتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكتابه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأخاه غازي صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه - فيما عهد - بتعليم أولاده الخط والعربية . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مداخله ويكثر من مديح وزيره المصري صفي الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائح ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقدمتهم صاحب حجة تقي الدين عمر (٥٧٤ - ٥٨٧ هـ) أعطاه له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فرُّوخشاه (٥٧٥ - ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ - ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائح للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعي - وهو شاعر مدح كبير - أن تكون له مرثي لمن لبي نداء ربه من ممدوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام . ومن أروع مرثياته مرثيته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفائه ووفاته ، وفيها يقول :

أى ركنٍ وهى من العلماء	أى نجمٍ هوى من العلياء
إن رزء الإسلام بالحافظ العا	لم أمسى من أعظم الأرزاء
أقفر بعد ربيع الأحاديث	ث أقوت معالم الأبناء
كان من أعلم الأنام بأسما	رجال الحديث والعلماء
كان علامة ونسابة لم	يخف عنه شئ من الأشياء
أنت أعلى من أن تُحدِّد بوصفٍ	بلغته بلاغة البلغاء

وفتيان في المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجيرة دمشق في محدثها الذى لا يبارى ومؤرخها الذى لا يجارى . وهو فى البيت الثانى يصور فى ألم إقفار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذى يقال إنه كان يقع فى ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره - إن لم يكن أعلمهم - بالحديث النبوى ورجالها وبتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .

ويتوفى بعده في السنة التالية القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولي القضاء لعهاد الدين زنكي في الموصل ، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء في دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقره صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدم الإسلام معدوم المثال وهوت من أوجها شمسُ المعالي  
ولسانُ الشرع قد ألبسَ عيًّا بعد أن كان جريئًا في المقال  
وسماء الدين قد ران على بدرها التُّقصانُ من بعد الكمال  
والقضايا قاضياتُ نَحَبِها إثرُهُ حَزُنًا على تلك الخلال  
ماتَ من كان لأهل العلم كَهْفًا وثملاً مُحَسِّنًا أيَّ ثَمالٍ (١)

وهو يبكي الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا ، كما كان مرجعا للعلماء - كما يقول فتيان - وثمانلا وسندا لهم وموثلا . ويتوفى تقي الدين عمر صاحب حجة فيؤبنه بمرثية يقول فيها :

أباحَ ثغورَ الكفرِ بالسيفِ عتوةً وسدَّ ثغورَ السلمِ بالطَّعنِ في الثَّغرِ  
وكيف يُلامُ المسلمونَ على الأسيِّ وقد عدمَ الإسلامُ ناصرَه عُمرَ  
لقد كانَ يلقي المُرَهفاتِ بوجهه وسُمِرَ القنا بالصَّدْرِ في الوِردِ والصَّدْرِ (٢)  
وكان يرُدُّ الجَحْفَلَ المَجْرَّ وحده يَمْسُونُ بالأيدي الظهورَ من الحَوْرِ (٣)

وهو يشيد ببسالته في حرب حملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دوَّخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه في أتون الحرب مقبلا دائما معرضا وجهه للسيوف وصدرة للرماح ، وكم ردَّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أديارهم فزعين مروعين . ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤبنه بمثل قوله :

لَنْ كانَ خَلْقُ الخَلْقِ من طينِ آدمٍ فَن نورِ خَلْقِ الله خَلْقُك ياغازي

(١) اللام : اللجأ والغيث

(٢) الحجر : الكيف

(٣) المرهفات : السيوف . القنا : الرماح

فمن لليتامى والأرامل بعده يقومُ بإكرامِ عليهم وإعزازِ  
مضى مُلكهُ المحروسُ من عيبِ عائبٍ ومن عبثِ الرّازى ومن عنتِ الرّازى

وكان الغازى مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع على الهمة حسن التدبير  
والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحمى ملكه - كما يقول فتيان - من عيب  
العائب وزراية المزرى وعنت الرّازى أو الممتحن المختبر .

ولفتيان بجانب مرثية شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

علام تحركى والحظ ساكنٌ ومانهتُ فى طلبٍ ولكن  
أرى نذلًا تقدّمهُ المساوى على حرٍّ تؤخّرهُ المحاسنُ

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون ما يبتغون أو ما يرون أنهم  
جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا ما يقوله فتيان من أن لافائدة فى الحركة وأن المساوى تقدم  
أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعدٌ فى الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

### مصطفى<sup>(١)</sup> البابى

هو مصطفى بن عبد الملك - وقيل عثمان - البابى ، ولد بالبواب إحدى قرى حلب فى القرن  
الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق  
سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إسطنبول وأفاد من  
علمائها وعيّن قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة  
المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا مجيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ،  
ويتخلل المديح أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من  
قصيدة استهلها محزونا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفافا  
عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن  
النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الرخانة  
٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت



أَيُّ ذَنْبٍ نَعَابِ الدَّهْرَ فِيهِ وَعَتَابُ الأَيَّامِ دَاءٌ عُضَالُ  
 أَنَا مَا بَيْنَ فَرْقَةٍ تَجْمَعُ السَّقْفَ سَمٌ وَيُعَدُّ تَدْنُو بِهِ الأَجَالَ  
 وَخُطُوبِ الأَفْتَاهَا يَسْتَعِيدُ الـ خَوْفُ مِنْهَا وَتُدْعَرُ الأَهْوَالُ  
 وَأَمَانِ تَجَاذِبُ الدَّهْرَ ذَيْلَ الـ حِطِّ وَالدَّهْرُ جَاذِبٌ جَدَّالُ  
 هِمَّةٌ أَرَقَّتْ جَفُونَ الأَمَانِي بُوْعُودٍ لِلدَّهْرِ فِيهَا مِطَالُ  
 أُنْتَمَى مِنَ الزَّمَانِ وَفَاءً وَوَفَاءُ الزَّمَانِ أَمْرٌ مَحَالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدري لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيد الخوف من شرها وتفزع الأهوال . وتلك أمانيه ماتزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفي صدره همة تورق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لاني بها ، وكأن وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صَاحِبِي أَيْغِيَا لَنَا خَارِجَ العَا لَمْ دَارًا فَبِئْسَ دَارُ الزَّحَامِ  
 وَاصْدُقَانِي أَلْسَمَا بَيْنَ لَيْلٍ وَنَهَارٍ مَا لِي حَلِيفُ ظَلَامِ  
 وَاسْتَعِيرَا لِمَقْلَتِي هَجْعَةً عـ سَلَّ مَنَامِي يَعُودُ لَوْ فِي مَنَامِ  
 مِنْ أُمُورٍ تَقْذِي العِيُونَ وَأُخْرَى تَصْدَعُ السَّمْعَ مِثْلَ وَخَزِ السَّهَامِ  
 مَشْرَبٌ كُلُّهُ قَدَى سَوْغَتِهِ إِلفُ هَذِي النُّفُوسِ للأَجْسَامِ  
 مِنْ أَرَادَ العَيْشَ الهَنَى فَلَا يُعِدُّ حَمْلُ فِكْرَا فَالعَيْشُ عَيْشُ السَّوَامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنها يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال والمنام ، وهيئات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من الآم ، حتى لكأنها مورد من غسلين أوزقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادي . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجيلانية فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربانية .

## شعراء الطبيعة ومجالس اللهور

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابية ، ومرت في كتاب العصر العباسي الأول عناية أبي تمام بوصف الطبيعة في مقدمات مديحه أو مستقلة في بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفة للطير وأحاسيسه ، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لقمري وقرية يتساقبان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا في كتابنا العصر العباسي الثاني عند براعة البحترى في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . وولتقي في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غَيْثُ	أَنَا	مُؤَذِّنٌ	بِخَفْضِ	مَتَّصِلُ	الْوَيْلِ	حَيْثُ	الرَّكْضِ
يَضْحَكُ	فِي	بَرْقِ	خَفِيِّ	كَالْكَفِّ	فِي	انْبِطَاطِهَا	وَالْقَبْضِ
وَالْأَرْضُ	تُجَلِّي	بِالنَّبَاتِ	الْعَفْصِ	فِي	حَلْيِهَا	الْحَمْرُ	وَالْمَيْبِضِ
وَأَقْحَوَانٍ	كَاللُّجَيْنِ	مَحْضِ		وَنَرَجِسٍ	ذَاكِي	النَّسِيمِ	بَضِّ
مِثْلَ	الْعَيْونِ	رَنَقَتْ	لِلْعُمْصِ	تَرْنُو	وَيَغْشَاهَا	الْكَرَى	فَتُنْفَضِي

وهو مطر متصل الويل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ماتنقبض ، والأرض كأنها في حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألاً كالفضة الخالصة والزرجس العطر النضر مثل العيون تنكسر جفونها للنوم ، وهي تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغضى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح (١) :

لَقَدْ	نَشَرْتُ	أَيْدِي	الْجَنُوبِ	مَطَارَفًا	عَلَى	الْجَوِّ	دُكْنَا	وَالْحَوَاشِي	عَلَى	الْأَرْضِ
يَطْرُزُهَا	قَوْسُ	الْغَمَامِ	بِأَصْفَرٍ		عَلَى	أَحْمَرٍ	فِي	أَخْضَرٍ	تَحْتَ	مَيْبِضٍ

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَالِ مِصْبَغَةٍ وَالبعضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجوثايا دكنا مغبرة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيا على الأرض ، وقوس قرح يطرّزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت في غلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهي صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخريدة<sup>(١)</sup> :

الشام شامةٌ وَجَنَّةُ الدنِيا كما إنسانٌ مقلتها العَضِيضَةُ جَلَّتْ  
من آسِها لك جَنَّةٌ لا تَنْقُضِي ومن الشقيق جهنمٌ لا تَحْرُقُ  
فعلام تصحو والحمامُ كأنها سَكْرَى تَغْنَى تارةً وتصفقُ  
وتلوم في حب الديار جهالةً هيات يسلوها فوادٌ شيقُ

وهو يجعل الشام خالاً في وجنة الدنيا ويجعل «جَلَّتْ» اسم دمشق القديم إنسان مقلتها العضيضة التي ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تخدّر بجهاها حاسيس مُشاهدا ، فلا يصحو ، والحمام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طربا . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتيان الشاغورى في وصف قرية الزبداني بشهر كانون شتاءً والثلوج تراكم على أشجارها ونباتاتها في شهر كانون زمن الشتاء مهينة لازدهار أزهارها في زمن الربيع<sup>(٢)</sup> :

قد أجمدَ الخمرَ كانونٌ بكل قَدْحٍ وأحمدَ الجمرَ في الكانون حين قَدَحُ  
ياجَنَّةَ الزَبْداني أنت مسفرةٌ عن وَجْهِ حُسنٍ إذا وَجَّهَ الزمان كَلْحُ  
فالثلج قُطنٌ عليكِ السُحبُ تَنَدِّفُهُ والجو يحلجه والقوسُ قوسُ قُرْحُ

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء في الزبداني بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمدها القَرّ الشديد وأحمد الجمر في الكانون أو الموقد حين أتقد . ويتصور قرية الزبداني جنة من جنان الدنيا ، وما يلبث أن يصور الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قرح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١

ويقول الوداعي على بن المظفر في مناظر رأس العين بعبك<sup>(١)</sup> :  
ياحادى الأظعان إن شارفت من بَعْلَبِكْ سَفَحَ لُبَانِه  
فاقرأ تَحِيَاتِي عَلَى نَازِلٍ فِي مَحَجِرِ الْعَيْنِ كإِنْسَانِه  
والروضُ يُهْدَى مَعَ نَسِيمِ الصَّبَا نَشْرَ خُرَامَاهُ وَرِيحَانِه  
وراسلَ القُمَيْرِيُّ وِرْقَاءَهُ شَدَّوْا عَلَى أوتارِ عِيدَانِه

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبه ، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمري المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبه شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه في زمن المالك ، وبعدهم في زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع<sup>(٢)</sup> :

نثر الربيعُ ذخائرَ الندى سَوَّارَ من جِيبِ العَوَادِي  
والوردُ مَحْضُوبُ البِنَا نِ مَضْرُجُ الوَجَنَاتِ نَادِي  
حَرَسَتْهُ شوكَةٌ حُسْنِه من أن تَمُدَّ لَهُ الأيَادِي  
والعندليبُ أَمَامَه بِفَصِيحِ نَعْمَتِه يَنَادِي  
من رام يَبْتُ بالخَدُو د فدونها خَرَطُ القَتَادِ<sup>(٣)</sup>

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من حبيب السحب الغوادى والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لأئى الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشىء لا ينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في منتزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى في الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبي الرقعمق<sup>(٤)</sup> الأنطاكى شاعر المعز الفاطمى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

بمشقة شديدة .

(٤) انظر مصادر ترجمته في قسم مصر ص ١٨٧

(١) خزانه الأدب للحموى ص ٣٤٢

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الربحانه ٥١٢/٢

(٣) دونه خرط القتاد : مثل يضرب للشىء لا ينال إلا

لايستحي من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبي الحجاج ماجن العراق الذي تحدثنا عن مجونه وهزله في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله <sup>(١)</sup> :

توهمتُ أمرا فلم أنبسِ بحرفٍ وناديتُ بالأكؤسِ  
حُميًّا كأن سَنَا نورها سنا بارقٍ لاح في الجندسِ <sup>(٢)</sup>  
يُعاطيكها رَشًا طرفُهُ سريعُ إلى تلفِ الأنفُسِ  
بِخَدِّ يروقكِ توريدهُ وعينِ تنوبُ عن التَّرجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينسب بينت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التي تلعب حُميًّا بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع في دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطَّرف لتقدمها إليك فتصيبك في الصميم بجد مورِّدٍ وعين فاتنة .  
ويقول الغزى الذي مرت ترجمته <sup>(٣)</sup> :

قَمٌ نَقَرِعَهَا كَأَنَّهَا الذَّهَبُ بِكَرًّا ، أَبُوهَا وَأُمُّهَا الْعِنَبُ  
أَرَقٌّ مِنْ عِبْرَةِ الْيَتِيمِ وَمِنْ عِبَارَةِ الصَّبِّ قَلْبُهُ وَصَبُّ  
مَدَامَةٌ تَصْقَلُ الْقُلُوبَ إِذَا رَانَتْ عَلَيْهَا الْهَمُومُ وَالرَّيْبُ  
كُتُوسُهَا أَنْجَمٌ نَضِلُّ بِهَا لَا يَهْتَدِي مِنْ تَضَلُّهُ الشُّهُبُ  
لَا فِدَامَ فِينَا وَلَا فِدَامَ لَهَا عَرُوسٌ دَنٌّ عَقُودُهَا الْحَبِّبُ

وهو يقول لصاحبه قم نقرعها أو نفتضها ونشرها ، إنها في رأيه - كعروس بكر - أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب الموجه قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والرب أو الشكوك ، ويعجب من كتوسها أن تكون أنجما ولا تهدي ، بل تضل صاحبها وأى ضلال بينا عادة النجوم أن تهدي ، ومن تضله لا يهتدى أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس في رفاقه قدم أو أحمت وأنه لافدام لها أو مصفاة إذهى شديدة الضفاء ، ويقول إنها عروس دَنٌّ عقود جيدها لآلئ الحَبِّبِ التي تعلقو كتوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتیان الشاغورى صديقا إلى نزهة قائلا <sup>(٤)</sup> :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(١) اليتيمة ٣١٢/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

(٢) حمية الخمر : سورتها وشدتها . سنا : ضوء .

الجندس : دجى الليل الشديد السواد .

بادرُ إلينا فإنَّ الرَّاحَ ممكنةٌ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مجتمعٌ  
ويومنا طيبٌ صافي الأديم وما فيه هواءٌ ولا في رأسه قزَعُ  
والطير ترقصُ في الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتنا تقعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع  
لافيه عواصف ولا في سمائه قزَع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على  
الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رؤسهم .  
وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الخمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد  
لهم الحموى في خزانته فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين  
يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي محي الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن  
المظفر الوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبي قوله (١) :

باكرٌ إلى الروضة نَسْتَجْلِها فَشَغْرُها في الصبح بَسَّامٌ  
والزرجسُ القَصُّ اعتراه الحيا فغصُّ طرفا فيه أسقام  
وبلبلُ الدَّوْحِ فصيحٌ على الأيكة والشَّحْرورُ تتمام  
فعاطني الصَّهْبَاءُ مشمولَةٌ عذراء فالواشون نُؤام  
وأحتم أحاديث الهوى بيننا ففي خلال الروض نَمَّام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التي أشاعتها مصر منذ  
العصر الفاطمي عناية واسعة ، وقد ورى في البيت الثاني بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى  
المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشدوه الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير اليمامة . ضرب  
من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون  
نوام . وعاد إلى التورية في البيت الأخير بكلمة نَمَّام - وهو ضرب من السَّعْتَر مزهر - عن التَّام  
الحقيقي من الأشخاص . ويقول محي الدين بن قرناص (٢) :

روضةٌ من قَرَقَفٍ أنهارها وغناءُ الورق فيها بارتفاع  
لا تَلَمُّ أهصانها إن رقصتْ ففهي ما بين شرابٍ وسماع

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٠

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٦

وقد ورى محيي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافي عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذه السكر ، بل إن الأغصان نفسها التي رويت من تلك الأنهار سكرت فرقست ، فلا عجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموى في خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة في الرياض ومثله الوداعي ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الغرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول علي بن محمد الحشرى الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة (١) :

قُمْ هَاتِيهَا وَضَمِيرُ اللَّيْلِ مَنْشَرُ      وَالبَدْرُ فِي لُجَّةِ الظُّلْمَاءِ مُسْتَبِحُ  
عَجَّلْ بِهَا وَحِجَابُ اللَّيْلِ مَنْسَدُ      مِنْ قَبْلِ يَدُو لَنَا فِي وَكْرِهِ الصُّبْحُ  
وَاسْتَضْحَكِ الدَّهْرَ قَدْ طَالَ الْعُبُوسُ بِهِ      لَا يَضْحَكُ الدَّهْرُ حَتَّى يَضْحَكُ الْقَدْحُ  
وَلَا يَطِيبُ الْهَوَى يَوْمًا لِمُغْتَبِقِ      حَتَّى يَكُونَ لَهُ فِي الْيَوْمِ مُصْطَبِحُ  
وهو يخاطب ساقيا أن يتاوله كأس الخمر والليل من حوله ، مبهج وأضواء البدر تلمع في جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملا الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده ، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يشرب الخمر غبوقا وهو شرها بالعشى حتى يكون له منها صبح وهو شرها في الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

### الوَأَوَاءُ (٢) الدَّمَشْقِي

هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوَأَوَاءِ الدَّمَشْقِي ، من أهل دمشق ، وُلِدَ بِهَا وَنَشَأَ ، وَكَانَ ابْنًا لِشَخْصٍ مِنْ عَامَةِ الشَّعْبِ . يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الثَّعَالِبِيُّ فِي الْيَتِيمَةِ مِنْ أَنَّهُ لُقِّبَ بِالْوَأَوَاءِ لِأَنَّهُ كَانَ مَنَادِيَا بِسُوقِ الْفَاكِهِةِ ، أَوْ كَمَا كَانُوا يَسْمُونَهَا دَارَ الْبَطِيخِ ، يَنَادِي عَلَى الْفَوَاكِهِ جَلْبَا لِلْمَشْتَرِينَ . وَقَدْ ذَكَرْنَا مَرَارًا فِي حَدِيثِنَا عَنْ الشُّعْرَاءِ أَنَّهُمْ - فِي أَغْلَبِ الْأَمْرِ - كَانُوا مِنْ عَامَةِ الشَّعْبِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَلَكَاتُ هَيَاتِهِمْ لِنُظْمِهِ بَلِّ لِلتَّفُوقِ فِيهِ . يَلْقَانَا ذَلِكَ فِي بَغْدَادَ وَفِي الْقَاهِرَةَ وَفِي

طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي

الدهان وزايج مقدمته له .

(١) نفضة الریحانة ٣٥١/٢

(٢) انظر في الوأواء وشعره اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون

من الشعراء للقفطي وفوات الوفيات ٣٠١/٢ وديوانه

جميع بلدان العالم العربي . ومكَّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائما هي وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة ما يزال يتردد عليها حتى يحسن ما يريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج في هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة في حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا في ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد . وأيضا ليس في الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل ما فيه أنه لزم شريفا من سادة دمشق ووجهائها بمدحه ، وأنه أعطاه في أول مدحة له عشرين دينارا ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقي أحمد بن الحسين العلوي ، فهو من أشرف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جوادا ممدحا ، وكان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته لحلب في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري . وربما كان هو الذي قدَّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتي ٣٣٣ و٣٣٤ . وفي ديوانه ثلاث قصائد في مديحه ، ولذلك عدُّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيقي أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا ما يمزج بينها جميعا مثل قوله في الفصيدة الأولى من ديوانه :

حاز الجالَ بأسره فكأنما	قُسمت عليه محاسنُ الأشياء
متبسِّمٌ عن لؤلؤِ رطبِ حكي	بردًا تساقطَ من عقودِ سماء
تُغنى عن التفاحِ حمرةُ خدّه	وتنوب ريقتهُ عن الصَّهباء
فأمزجُ بمائك نارَ كأسِكِ واسقني	فلقد مزجتُ مدامعي بدماني
واشربُ على زهرِ الرياضِ مُدامةً	تنني الهوموم بعاجلِ السَّراء
لطفتُ فصارتُ من لطيفِ محلِّها	تجري مجارى الروح في الأعضاء

والوَأواء معروف بكثرة تصاويره في أشعاره ، فساقيته الخمر تبسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود في السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشربُ على زهر الرياض الذي الرائحة تلك الخمر التي تجلب السرور كما يقول ، ويزعم



أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء . ومن قوله في وصف الراح :

وبنتِ كَرَمٍ كأنها لَهَبٌ تكاد منها الأكفُ تَلْتَهَبُ  
تلعب في كأسها إذا مُزجتُ كأنما يستفزُّها طربُ  
في عَرَصَةِ الكَأْسِ حين تمزجها سماءُ تَبْرِ نَجْمُها ذهبُ  
وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكرم ، ويقول إنها حارةٌ كأنها لسان لهب ، وإن الأكف في زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب في كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرَصَة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فئات التبر ، نجومها - أى حبابها - ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقياني ذبيحةَ الماء في الكأ س وكُفًّا عن شُرْبِ ماتسقياني  
إنني قد أمنتُ بالأمس إذ م ستُّ بها أن أموت موتا ثاني  
اسقيني القهوةَ التي تنبتُ الورَّ دَ - إذا شئتَ - في حدود الغواني  
في رياضِ تريك في الليل منها سُرُجًا من شقائق النعمانِ  
كتبتها أيدى السحاب بأقلامِ م دموعٍ على طُروسِ المغاني

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحًا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لا يسقيه الماء وإنما يسقيه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا ، ومثله من ملمنى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرِّج حدود الغواني بالخمرة فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسبها في رياض تنير بها ليلا الورد المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد دُوِّنت على طروس ، هي صحف المغاني أو الرياض . ودائما يعنى الوأواء في شعره بالتساوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتُ لؤلؤًا من نَرَجِسٍ وسَقَتُ وَرْدًا وَعَصَّتْ على العُتَابِ بالبرِّدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعتاب للأصابع والبرِّد للإنسان ، وهى صور لا تحمّل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريري على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

## ابن قُسيمَ الحَمَوِيَّ

هو مسلم بن الحَصْرِ بن قُسيمَ التَّنُوخِي الحموي ، ولد ونشأ بجَمَاة ، ويقول العماد : « كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتها .. وفاق شعرهما شعره ، لكنه خانه عمره ، وفلَّ شَبَا ( حدًّا ) شبابه ، وحل شعوب ( الموت ) بشعباه ، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة » . والعماد يقول إنه توفي شابا ويبدو أن ميلاده لا يعود العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موهبتة الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فدح صاحب حِجَاة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزَاغَة وحاصر حصن شَيْزِر بالقرب من حِمَاة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكي فأسرع إليه في عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الصعابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ في ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق ، وأعلن له أنرُمدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته . وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطرح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أنرُمدبر دولة آبق بن محمد بن بوري ، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنر . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكي ، وله فيه مدحة أرخها العماد الأصبهاني بسنة ٥٤٢ . ولانرتاب في أنه ظل متصلا بزنكي يمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ ومجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين في عسكره ، فهرب جوسلين . واقتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

وهناهُ ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفى الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العماد الأصبهاني : إنه مات شابا .

وقد استعرض العماد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يفرق في اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خَيْرٌ ما أَصْبَحْتَ مَخْلُوعَ العِذارِ فَانفِ عَنكَ الهَمُّ بالكأسِ المُدارِ  
 قَمِ بنا نَتَهَبِ اللذَّةَ في ظِلِّ أيامِ الشبابِ المُستعارِ  
 إِنما العارُ الذي تُحذره أن ترائي من لباسِ العارِ عارى  
 وسعيدٌ من تقضى عُمُرهُ بين كاساتِ رُضابٍ وعُقارِ (١)  
 في اصطباحِ واغتباقي واقترا بٍ واغترابٍ وانتهاكِ واستارِ

وهو يصرِّح - ولا يخفى - بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجزه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هنايته وسعادته ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًا في بلدته حماة ومغتربا في دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعضيان ربه منتهكا لحرماته . ومن قوله في خمرة ثانية .

باكرا شمسَ القناني تَدركا كلَّ الأمانِ  
 وخذا في لَذَّةِ العَيْبِ شِ على رَغْمِ الزمانِ  
 قهوةً ألبسها المزجُ قيصا من جُجان (٢)  
 كخدودِ الوردِ من تحـ ستِ نُغورِ الأَقحوانِ  
 إِنما البُعْيةُ أنْ أصـ سِبحَ مَخْلُوعِ العنانِ

وهو يدعو إلى اللذات بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما ليست قيصا لؤلؤيا . ويصورها في حمرتها والماء آخذ بتلايينها بنغور من الأَقحوان الأبيض تعلوها خدود وردية . ولا يلبث أن يعلن في أبيات تالية عصيانه لربه ، فكل ما يبيغيه أن يظل سادرا في خلع عنانه - أو كما قال في المقطوعة السابقة - في خلع عذاره منتهكا ساجدا في قبلة الكأس لتسيح مثنى العود

(٢) الجان : اللؤلؤ

(١) الرضاب : الريق . العقار : الخمر .

وأوتاره . وكأنه يعيد لنا صورة أو صورة من خمريات أبي نواس المتهنكة الخليفة المارقة .  
ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من  
ذلك قوله يصف رمانة :

ومحمة من بنات العُصو نِ يمنعها ثقلها أن تميدا  
منكسة التاج في دستها تفوق الحدود وتحكى التهودا  
تفض فتفتتر عن مبسم كأن به من عقيق عقودا  
كأن المقابل من حبها ثغور تقبل فيها خدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكسة التاج في دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تهدل وتتدلى في  
غصنها وعلى صدرها بقية ثوارها . ويتصور حباتها عقودا من عقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات  
وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسيم شاعرا مجيدا ، ومرربنا أنه كان  
يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعي .

### مجير<sup>(١)</sup> الدين بن تميم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم ، ولد بدمشق ونشأ بها ، وسال الشعر على  
لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد  
(٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور إقدامه ورسالته في شعره  
قائلا :

دعنى أخطر في الحروب بمهجتى إما أموت بها وإما أرزق  
فسواد عيشى لا أراه أيضا إلا إذا احمر السنان الأزرق

وقربه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو في  
التصميم الذى عاناه فضلا المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفي صحة المعانى والذوق اللطيف  
غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بالفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

والنجم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة  
لخزانات من ديوانه بخط الصفدى في ٤٧ ورقة

(١) انظر في مجير الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات  
٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموى ص ٣١٩ - ٣٢٥

الأول ، إنما اراد به المعنى الثاني وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراهُ ولم أزجرُ عن التضمين طَيْرِي  
أضمنُ كلَّ بيت فيه معنىً فشِعْرِي نصفُهُ من شِعْرِ غَيْرِي

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه « كان جنديا محتثما شجاعا مطبوعا كرم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان من الشعراء المعدودين » .  
ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن تميم من أصحاب المقطعات الطريفة في الغزل والطبيعة والخمر ، ولا يبارى في ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات في مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليقات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله في الساقية والطبيعة من حولها :

تأملُ إلى الدولاب والنهرِ إذ جرى ودمعُها بين الرياض غزيرُ  
كأن نسيمَ الروضِ قد ضاع منها فأصبح ذا ييكي وذاك يدورُ

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التي يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التي يريد بها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثاني . ويقول مفاخرها بين الأرض والسماء :

يا جاعلَ الأفقِ مثلَ الأرضِ حُجَّتُهُ بالشمسِ إذ بزغتْ والبدرِ حينَ وَصَحَ  
كم من شمسٍ وأقارٍ إذا سَرَحَتْ في الأرضِ طرتَ إليها خَفَّةً وقرحَ  
ولا تَقْلُ : قُرْحُ في الجوّ زَيْنُهُ في كلِّ غُصْنٍ ترى في الأرضِ قَوْسَ قُرْحِ

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلًا إن في الأرض شمسًا وأقارًا من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بجال قوس قرح ، فأغصان الرياض في الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قرح نضرة أرجة .  
ويقول :

سبقتُ إليك من الحديقة وردةً وافئتك قبلَ أوانها تَطْفِئِلا  
طمعتُ بلكمك إذ رأيتُك فجمعتُ فمها إليك كطالبٍ تقبِلا

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لاتزال في كمّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول في وصف ناعورة أوساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بأثّة وبكاء  
وتعلّلت بلقائه فلاجل ذا جعلت تُدير عيونها في الماء

فقواديسها لاتهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذي ضاع منها ، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لم لأميلُ إلى الرياض وزهرها وأقيم منها تحت ظلّ ضافي  
والغصنُ يلقاني بشعرٍ باسمِ والماءُ يلقاني بقلبٍ صافي

والشعر الباسم هو الأفحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالشعر كثيرا ، وفي البيتين رقة ودقة حس وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما في قوله :

كيف السبيلُ لأن أقبلَ خدّاً منْ أهوى وقد نامتْ عيونُ الحرّسِ  
وأصابعُ المنتورِ تُوميّ نحونا حسداً وتغمّزها عيونُ التّرجسِ

والمنتور زهر ذكي يزهر في أعلى سيقانه ، شبه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للترجس بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا في هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته . ويقول في الخمر مداعبا :

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقلي لها تأثير  
فاعجب له أنّي يصونُ بلحظه مشمولاً وإنّاؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإباء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر ما فيه من الخمر بالماء وهو كسر حميّاها وثورته ، وهو المعنى المراد في البيت . ويقول أيضا في الخمر :

وليلةٌ بتُّ أسقى في غياها راحاً تسلُّ شبابي من يد الهرمِ  
مازلت أشرها حتى نظرتُ إلى غزّالة الصبح ترعى نرجسَ الظلمِ

ويريد بالغزاة الشمس وبنرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجناً مثل ابن قسيم ، ولا ندرى هل كان يشرب الخمر حقاً أو كان ينظم فيها محاكاة للمعنى نظراً . ومن طرائفه في الرياض قوله

بعث النسيم رسالةً بقدمه للروض فهو بقربه فرحانٌ  
ولطيب ما قرأ الهزارُ بشدوه مضمونها مالت له الأغصانُ

والهزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافي ميل الأغصان لسماح شدو الهزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة الارتياح والسرور لسماح مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أشهد منها صاحباً الفوات والخزانه بدائع كثيرة .

### ابن النقيب (١)

هو عبدالرحمن بن محمد الحسيني الملقب بابن النقيب ، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف ، وعنى بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإمام بالمديح ، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به ، ولذلك يمكن أن تعد مدائمه في باب الإخوانيات ، وهي ليست الجواهر في ديوانه المنشور ، إنما الجواهر فنته بالطبيعة الدمشقية ومنتزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة . ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زهر ( حسان ) أوزهر ، أو وصف روض مطل على نهر ، وهو ممن أغرى بهذين النوعين ، وذلك أما لميل غريزي في فطرته ، أو لأن دمشق متروحة فكرته » . ولم يطل به الدهر بين هذه المفاات التي كانت تحلب له . فقد توفي في الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله في نهر وروض على حافتيه :

التَّهْرُ يَصْدَا بِهَاتِيكَ الظَّلَالِ كَمَا  
وَالزَّهْرُ يَفْرَشُ فِي شَطْبِهِ مَارَقَتُ  
رَبِيعَةُ الوَشَى لَا يَنْفِكُ زِبْرُجُهَا

يَصْدَا مِنَ الْعَيْدِ حَدَّ الصَّارِمِ الدَّكْرِ  
فِيهَا السَّحَابُ مِنْ رَيْطٍ وَمِنْ حَبِيرٍ  
يَجْلُو لَنَا مِنْ حِلَاهَا أَحْسَنَ الصُّورِ (٢)

مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجواهر .

(١) انظر في ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠

ونفحة الريحانة ٢/٣٤ (ديوانه) (طبع المجمع العلمي العربي في دمشق) وانظر مقدمتي أحمد الجندي وخلي

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هي فتصدأ بأغادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش في شطيه مارقت أو نقشت فيها السحاب من رِيط وِحِير أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ريعي لايزال زبرجه ونقشه يجلو من حلي الطبيعة وجواهرها أجمل الصور .. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه في بعض متزهات دمشق قائلا :

ومجلسٍ حَفَّتِ العُصُونُ بنا فيه ووجهُ الرياض مبهجُ  
 كأن أوراقها يرفُّ بها فوق الندامى نسيما الأريجُ  
 خُضِرُ من الأزْرِ لاتزال بها مناكبُ الراقصات تختلج

وهي صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الاغصان - حين يرفّ نسيما فوق الندامى - كأنها أزرق أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المتحركة في أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول في بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يثنيها الصبا والبدرُ من خللِ يلوح ويُحجِبُ  
 حسناء قد عامتْ وأزحتْ شعرها في لُجَّةِ والموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسناء في لُجَّةٍ مرخية ذوائب شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب في فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بجمرة كقوله :

وزهرِ قَرْنُفُلٍ في الروضِ يحكي عقيقَ دمٍ على صفحاتِ ماءٍ  
 رأى وِجَنَاتٍ من أهوى فأغضى فبان بوجهه أثرُ الحياءِ

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وِجَنَاتِ صاحبته ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهو والحجون موشحات مختلفة منها ماعارض به لسان الدين بن الخطيب في موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همي » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه بيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا مايقوله الحبي من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة البديعة في التشايبه العجيبة .



## شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومربنا في الفصل الأول استعراض لنسآكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهبنة فى المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتعمها أضواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها فى غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صداه فى الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا فى ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظلل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس (١) :

أما يَرَدُّعُ الموتُ أَهْلَ التَّهَى      ويمنع عن غِيهِ مَنْ غَوَى  
فيا لاهيًّا آمنا والحمامُ      إليه سريعٌ قريبٌ المدى  
إذا مامرتَ بأهلِ القُبُورِ      تيقنْتُ أنك منهم غدا  
فلا أملٌ غيرُ عَفْوِ الإلهِ      ولا عملٌ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع العَوَى عن غِيهِ ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاهِ آمِنٍ على نفسه ولا يفكر فى هول ماينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفوره فحرى به أن يكفّ عن كل موقفة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير فى الحياة والموت نهاية كل حى وينشد (٢) :

هِيَ النَّفْسُ تَهْوَى الرَّحْبَ فى كل موطنٍ      وهى النفسُ تهوى الرَّحْبَ فى كل موطنٍ  
وهل يَرْتَجِي خُضَرَ الملابسِ ظاعنٌ      وهل يَرْتَجِي خُضَرَ الملابسِ ظاعنٌ  
نوابئُ أَلْقَتْ فى النفوسِ جرائحًا      نوابئُ أَلْقَتْ فى النفوسِ جرائحًا  
لِى القوتِ فَلْيَغْمُرْ سَرْنَدِيبَ حَظُّهَا      لى القوتِ فَلْيَغْمُرْ سَرْنَدِيبَ حَظُّهَا

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يكتفى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موجس تغبر فيه هذه الثياب وتمزق تمزيقاً . ويقول تلك نوائب تصيب النفوس في الصميم وتحث فيها جراحا عميقة يستعصى سبها معرفة غورها على كل طيب ، ويذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسد رمقه ، ولتمتلي سرنديب - أو كما تسمى الآن سيلان - بمعاوص لآئها من الدرر وليكثر بغانة في غربي إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبي قوتي . ولمر بنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها ، مكتفيا بالعدس والتين . ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته . ويقول ابن سنان الحفاجي (١) :

استغفر الله القديم وعُدُّ به من شرِّ غاؤٍ في الحطامِ منافسٍ  
وافعلُ جميلا لا يضيعُ صنيعه واسمَحْ بقوتك للضعيف البائسِ  
واقنعْ في عيش القناعة نعمةً لا تتقَى كفَّ الزمان الخالسِ  
لا تفخرنَّ وإن فعلتَ فبالثقي ناضلٌ وفي بَدَلِ المكارمِ نافسِ

وهو يستغفر الله من شر كل غاؤ منافس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصي بفعل الجميل ومد اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصي أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شيء يحتلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولا ينافس إلا في المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الخريدة (٢) :

عمرتَ دارَ فناءٍ لابقاءِ لها ظلًّا بأنك عنها غيرُ متقلٍ  
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها وأنت لاشكَّ في الأخرى على وجلٍ  
دارُ الإقامة أولى بالعمارة من دارِ نعيمك فيها غيرُ متصلٍ  
فاعملْ لنفسك ماترجو النجاةَ به فليس يُنجيك إلا صالحُ العملِ

وهو يزهّد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان ، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

ويقول الإمام النوى الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة (١).

وجدتُ القنَاعَةَ أَصَلَ الغِنَى فصرْتُ بأذْيَالِهَا مُمْتَسِكٌ  
فلاذًا يرَانِي عَلَى بَابِهِ وِلَاذًا يرَانِي بِهِ مِنْهُمْ  
وعشْتُ غِنْيًا بِلَا دَرَاهِمٍ أَمْرٌ عَلَى النَّاسِ شِبْهُ المَلِكِ

وكان محي الدين النوى إماما ورعا زاهدا مثابرا على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكام - كما يقول - يراه على بابه طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا ، فانهماكه إنما هو في العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس في أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوي آخذا نفسه في حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى الباني الذي مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطؤها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد في خياله قائلا .

قد غَنِينَا عَنِ الدَّرُوسِ بِمَا تُمُّ عَلَى عَلِينَا صَحَائِفُ الأَيَامِ  
مِنْ عِظَاتٍ تُثَلِّي بِغَيْرِ لِسَانٍ وَسُطُورٍ حُطَّتْ بِهَا أَقْلَامُ  
وَلَوْ أَنَّ العَيُونَ زَالَتْ غَشَاهَا لَرَأَتْ كُلَّ أَخْمَصٍ فَوْقَ هَامٍ (٢)  
بِلَ وَفِي كُلِّ وَرْدَةٍ أَلْفُ خَدٍّ وَقَضِيبٍ يَمِيسُ أَلْفُ قَوَامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر في هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أى مكان لا يخلو منهم ، وحتى لكأننا نطوهم بأقدامنا ، فهم منبثون في كل بقعة وفي كل مكان . ويقول الباني لوزالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا - وياهلول مانرى - أقداما تطأ رعوسا ، وهالنا أن الورد النابت من الأرض يستمد حرته من ألف خد ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من ألف قد . ويلاحظ المحي أن المشهور في هذا المعنى قول أبي العلاء .

خَفَّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ أَلْ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

(٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبي) ٣٠١/١

وقول مهيار :

رُويْدًا بأخفافِ المطىِّ فإنما تُداسُ جباهُ في الكرى وخدودُ  
وكان البابی نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن مترع هذا كله قول المتنبي :  
ويذفنُ بَعْضُنا بَعْضًا ويمشى أواخرنا على هامِ الأوالى

والأوالى : الأوائل . ولا يكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى البابی دقيق ، وفى رباعيات عمر الحيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، وبذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

فى الاعتبار بمن مضى من قبلنا غيرٌ وتلك هدايةُ المسترشدِ  
فلكم طوتُ ترياؤنا أما وهل مَيّتٌ بغيرِ ثرائها لم يُلحدِ  
حتى كأن شَقِيْقَها دمُ أسرةِ سفكتُ دماءهمُ عيونُ الخردِ  
ويَنفَسجُ الروضِ الندىُّ كأنه خيلانُ وجناتِ الحدودِ الورْدِ

فالشقيق الأحمر القانى يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج الأحمر القائم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد فى التصور والخيال .  
وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك - كما مر بنا فى الفصل الأول - أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد فى مقدمتهم ابن الجلاء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمنها .  
طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام .  
وذكرنا فى الفصل الأول نزول الغزالي بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضىء بقوة بما كتبه أبو نصر السراج والقشيري فى الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك سدَّ الثلمة التى كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينها . وزادها دعماً نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة . وتبعهم فى ذلك نور الدين حين أصبحت الشام فى قبضته ، بل لقد اتسع فى العناية بهم ورصد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمالكيك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تياران كبيران : تيار سني كانت تتبعه جواهر الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضوع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثله في القرن السادس الهجري يحيى السهروردي الذي ترجمنا له في إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثل هذا التيار في القرن السابع يحيى الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه في دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفي . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردي وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفي المتفلسف القديم تؤثر هي وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفي شعري . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع مادخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المالكيك . وستترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي ، أما ابن عربي فعداده في الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بنزعتي التصوف والزهد مديح نبوي كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسبان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويعا بخلقهم الكريم ورسالته العظمى وجهاده في سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشعبية نشط معها مديحه ، إذ انبث كثير منه في مدائحهم لأنتمهم العلويين وفي مراثيمهم للحسين علي نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني .. ولأبي العلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه ، وفيها يشيد به ورسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمد	وليس العوالى في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى	وشهب الدجى من طالعات وأفل
فصلى عليه الله ما ذر شارق	وما فت مسكا ذكره في المحافل

وعوالى القنا أو الرماح هي الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبرغ تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفّه ببركاته ماطلعت شمس وماطر ذكره المحافل بمسك لا يضاويه مسك .

ويستخدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التتار ، إذ أحسّ الشعراء - بحق - أنها حروب موجّهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية (١) :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدهُ      وللشهادة تجريحٌ وتعديلُ  
لولاه لم تك لاشمسٌ ولا قرٌ      ولا الفراتُ وجاراه ولا النيلُ  
مرتلُ الوحي يتلوه ويدرسه      ولم يكن لكلام الله ترتيلُ  
وسيدُ الرسلِ حقا لاختفاء به      وشافعٌ فى جميع الناس مقبولُ  
بثتُ نبوته الأخبارُ إذ نطقتُ      فحدثتُ عنه توراةً وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة الحمديّة وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قر ولا حياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى . ويقول فتیان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته (٢) :

أؤمّلُ من خير الأنام شفاعَةً      بها فى نعيم الجنان أخلدُ  
ووددتُ بأنى زرتُ قبرك راجلا      وقبّلتُ تراباً أنت فيها موسىدُ  
ومرغتُ خدي عند قبرك ضارعا      بأرضٍ حصاها لؤلؤٌ وزبرجدُ  
وذاك ضريحٌ يحسدُ المسكُ تره      وكلُّ شريفٍ القدر لاشك يحسدُ

وهو يؤمّل فى شفاعته الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس ف الحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبّله وعفّر خده بما حوله من التراب ضارعا متوسلا بأرض

حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على ما يحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع في المديح النبوى . وفي مدحة نبوية يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثوى الرسول الكريم (١) :

أَرْضَ الْأَحْبَةِ مِنْ سَفْحٍ وَمِنْ كُثْبٍ      سَقَاكَ مِنْهُمْ الْأَنْوَاءُ مِنْ كُثْبٍ (٢)  
يَاسَاكِنِي طَيِّبَةَ الْفَيْحَاءِ هَلْ زَمُنُ      يُدْنِي الْحَبَّ لَنْبَلِ الْحَبِّ وَالْأَرْبِ  
أَرْضُ مَعَ اللَّهِ عَيْنُ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا      فَإِنْ تَغَبَّ حَرَسَتْهَا أَعْيُنُ الشُّهْبِ

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكتباناً من كُثْبٍ أو قرب لتظل تزهو بالشذى العطر ، ويتمنى زمناً يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجذث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهاراً وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلاً حراسة يرعاها الله جلّ علاه . وللشهاب محمود ديوان في مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النهائية النبوية لإسماعيل النبهاني بطائفة من مدائحه ، وفي إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبته إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق في غريبها ولم يلبثوا أن زاروا القبر الزكى ، يقول (٢) :

وَإِذَا شَارَفُوا الْعَقِيقَ تَرَاءَتْ      مِنْ رُبَاهِ سَنَا الْقِيَابِ الزُّهْرِ  
وَتَلَقَّاهُمْ بِشِيرِ التَّلَاقِ      بِقَبُولِ تَسْرَى قُبَيْلِ الْفَجْرِ  
وَشَدَا الرُّوضَةِ الَّتِي بَيْنَ أَزْكَى      مَنِيرِ فِي الدُّنَا وَأَشْرَفِ قَبْرِ  
جِدَا ذَلِكَ مِنْ مَقَامِ كَرِيمٍ      يُشْتَرَى يَوْمَهُ بِكُلِّ الْعُمَرِ

وهو يصور فرحة ركبته أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاق وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير إلى الحديث النبوى : « ما بين قبري والمنبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثول أمام القبر الطاهر يُشْتَرَى يومها بالعمركله . ولكمال الدين محمد بن علي الزمّلكاني المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها (٣) :

(٣) فوات الوفيات ٢/٤٩٧

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤

(٢) المجموعة النهائية ٢/١٧٣

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلِّهم  
 قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ  
 بإصاحبِ الجاه عند الله خالقه  
 ها قد قَصَدْتُكَ أشكوُ بعض ما صنعتُ  
 عليك من ربِّكَ الله الصلاةُ كما  
 وفتحُ الخيرِ ماحي كلَّ إشراكِ  
 من أنبياءِ ذوى فضلٍ وأملكِ  
 ماردٌ جاهك إلا كلُّ أفاكِ  
 بى الذنوبُ وهذا ملجأُ الشاكى  
 منا عليك السلامُ الطيبُ الزاكي

والملكاني يقرر حقيقة كبرى ، فحمد عليه السلام خير خلق الله وماحى الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله في حياه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة في المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى الباني من مدحة نبوية بديعة<sup>(١)</sup> :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعاً  
 فبابك بابُ الله ما عنه مهربُ  
 أغثنى تداركنى أجرنى فلاننى  
 وأبعدُ شىء أن تضيق برحبتها  
 أخو عثرةٍ يرجو الإقالة مذنبُ  
 وطالبُه من غير بابك يُحجَبُ  
 لَقَى. إن تراخى عنه لُطفك يُعْطَبُ  
 شفاعتك العظمى بنا فهى أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقبله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيب به لائثاً أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس في المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول في هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه . وللباني يتوسل<sup>(٢)</sup> :

ياحى ياقيوم قد  
 إني سألتك بالذى  
 نور الوجود خلاصة الـ  
 إلا نظرت لمستغيب  
 فالطفُ به فيما جرى  
 بهر العقول سنا بهائك  
 جمع القلوب على ولائك  
 كوني صفة أنبيائك  
 ث عائد بك من بلائك  
 فى طى علمك من قضائك

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٤

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٧



والبابي يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد في كل نور: في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذة وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلفظ به في قضائه وما جرى في طي علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوي وهو أول من نقف عنده .

### عبد العزيز الأنصاري <sup>(١)</sup>

هو شرف الدين صاحب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصاري ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزوري سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقي في منصبه مدة ، أو لعله عمل في منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاؤها حين يعنى منه . وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعي أن يُعنى القاضي بتربية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب ما فيها نزل به بغداد فاستمع بها إل شيخ المدرسة النظامية ، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حاة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبد العزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحهم وكذلك في زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حاة بعده السلطان قلقج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبد العزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذ المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا في العاشرة

٢٥٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والخزانة للحموى ض  
٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية  
بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى

(١) انظر في عبد العزيز الأنصاري وشعره فوات  
الوفيات ٥٩٨/١ وذيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والعبر  
٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبلبك ودمشق الذي ذكره مترجموه في هذا التاريخ . وكان يلمُّ بجلب ، ونجده سنة ٦٤٧ في صحبة أميرها الناصر يوسف في زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعقَدُ في هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماع الحديث عنه ، ومن سمعه منه الحافظ الهمياطي محدث مصر واليونيني محدث دمشق ، ويقول ابن تغرى برى عنه : « برع في الفقه والحديث والأدب وأقنى ودرس وتقدم عند الملوك وترسّل عنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا » وينقل صاحب الفوات عن الصفدى في وصف شعره وشاعريته قوله : « لا أعرف في شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسرى ولا أكثر ، وإن له في لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافي المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ » وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعدوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى في شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله في أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدتها تجاه حجرته الشريفة :

ياخاتمَ الرُّسُلِ الكرامِ وفارجَ الـ	كُربِ العِظامِ بفعلهِ والمقولِ
ها قد وردنا من ضريحك مورداً	نُشفَى به من كل داءٍ مُعْضِلِ
أدعوك للجلّى وتلك شفاعَةٌ	لم ترضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزى	فى الحشر كاساتِ الرِّحيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدته الطاهر ومعينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه - حين يشد بالناس أوار العطش وهيبه - كاسات من الرحيق الصافى . ويقول في مدحة نبوية ثانية :

ويلاىَ من نومىَ المشرِّدَ	وآهٍ من شملىَ المبدِّدَ
غُصْنُ نَقًّا حَلًّا عَقْدَ صَبْرِي	بِلينِ خَصْرٍ يكاد يُعقَدُ
فمن رأى ذلك الوشاحَ الـ	صَّائِمَ صَلَّى على مُحَمَّدَ

أشرف مَنْ في النهار ناجي وخير مَنْ في الدجى تهجد  
وغيرُ بدعٍ لمستجيرٍ به إذا نال كلَّ مقصدٍ

وموسيقى الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصاً رائعاً من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبه الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينة ، فمن رآها - كما يقول - صَلَّى على الرسول إعجاباً بها واستحساناً لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهاراً وتهجده ليلاً وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصاري كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقي في متاع الحياة الدنيا . وفي إحداها يقول :

مُلْكُ القنَاعَةِ عَزْ يُذْهِبُ الذَّلَّةَ      فَمَنْ حَوَى كَثْرَتَهُ لَمْ يُبْتَ مِنْ قَلَّةِ  
تَبًّا لِمَنْ طَمَعِ مُسْتَعْبِدٍ وَمُنَى      لَاتَسْتَقِرُّ عَلَى رِيٍّ بِلَا غَلَّةِ  
يَسُومُ إِبْلَاعَهُ مِنْ رِيْقِهِ بَلَاءً      وَلَيْسَ يَرَوِي وَلَوْ أْبْلَعْتَهُ دِجَلَهُ  
فَانْقَعُ غَلِيْلِكَ مِنْ نَهْلٍ بِلَا عَلَلٍ      وَاقْنَعْ إِذَا أَكَلْتَ أَغْنَتْكَ عَنْ أَكَلِهِ

فالقناعة - في رأيه - عزم بعده عز ، ومن حوى كثرتها الذي لا يفنى لم يشك من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لا تروى أبداً فداً لما صاحبها يعانى من غلة العطش وحرارته ، ودائماً يريد أن يبل ريقه ، إذ لا يروى أبداً ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكثف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشربة الأولى من الماء ولا تطلب العلل أو الشربة الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وَأَبْغِ أُخْرَى دَائِمٌ فِيهَا نَعِيمٌ وَشِقَاءٌ  
وَتَنْصَلُ مِنْ خَطِيئَاتِهَا النَّارُ جَزَاءُ  
وَإِذَا صَحَّ لَكَ الْقَوْتُ عَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ  
كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قُصَارَاهُ الْفَنَاءُ  
وَلِأَهْلِ الْخُلْدِ فِي الْخُلْدِ      لِلَّهِ الْبِقَاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل ما فيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة والله البقاء والدوام .

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالا يلزم . ومر بنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى في خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

### محمد (١) بن سوار

هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الحَضِير الشيباني الدمشقي المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عرى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريري المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ وما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبُ كَمَا شَاءَ الْإِلَهُ جَلِيلُ دَهَلْتُ لَدَيْهِ بَصَائِرُ وَعَقُولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غوى نهجهم وضلوا السبيل وسُدِلَ الحجاب الإلهي دون أبصار المتصوفة وخُتِمَت دنان خمر الحب الرباني . وإذا رجعنا إلى الحريري عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتنون بقتله - كما أفتى فقهاء حلب بقتل السهروردي - لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردي المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريري لم تؤد به إلى انحرافات ، والسبب في ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل في البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى - فيمن لقي - شهاب الدين السهروردي الصوفي السني البغدادي وسمع عليه وأجلسه في ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

الحريري في القوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبدالنعم الخيمي في القوات ٤٥٨/٢ .

(١) انظر في محمد بن سوار وشعره وأخباره قوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٧/٢٨٢ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والوفى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هي أن ابن سوار حجج ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة - وكانت لابن الخيمي المتصوف المصرى تلميذ ابن الفارض - فادعاها لنفسه ، فراجعه ابن الخيمي وعبثا حاول أن يقنعه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكّم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي .

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردي البغدادي لأنه كان سني التصوف وتصوف ابن سوار فلبسني ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمّ صبحي سَمْرًا أو أراكُ	فإنما مقصدهم أن أراكُ
وإن ترنمتُ بذكر الحمى	فإنما عقْدُ ضميرى حياكُ
وإن بكى صبُّ حبيبًا فما	أحسب إلا أنه قد بكاكُ
ملاّت كلّ الكون عشقا فما	أعرف قلبا خاليا من هواكُ

فصّجه إن أمّوا به شجر السمر والأراك فقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل في كل مكان ، وهو حين يذكر في غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحل في جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكأن كل شيء مرآة له ، إذ يتراءى في كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامنّ يشير إليهم المتكلم	وإليهم يتوجّه المتظلم
وعليهم يحلو التأسف والأسى	ويلدّ لوعات الغرام المعرّم
هذا الوجود وإن تعدّد ظاهرا	وحياتكم مافيه إلا أنتم
وإذا نظقتُ فى صفات جالكُم	وإذا سألتُ الكائنات فعنكم
وإذا سكرتُ فن مدامة حبكم	وبذكركم فى سكرتى أترنم
وإذا نظمتُ تغزلا فى صورة	فلأجل حسنكم المحجّب أنظم
أنتم حقيقة كلّ موجود بدأ	ووجود هذى الكائنات توهم

والآيات صريحة فى أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل فى الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهره ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أو سأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد في كل جميل . وهو إذا سكر فسكروه من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل في صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الرباني . وإنه لينبث في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهي نفس الأفكار التي تلقانا عند ابن عربي ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خَلَا مِنْهُ طَرْفِي وَامْتَلَا مِنْهُ خَاطِرِي فَطَرَفِي لَهُ شَاكٍ وَقَلْبِي شَاكِرٌ  
وَلَوْ أَنِّي أَنْصَفْتُ لَمْ تَشْكُ مُقَلَّتِي بَعَادَا وَدَارَاتُ الوجودِ مَظَاهِرُ

فالله يمتزج بروحه ولا يراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهد في كل الأشياء . وكان للمتصوفة لأيامه ليال يحونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السحر ، ويروى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموي ليلة من تلك الليالي فغنى المغنى من شعره :

وَمَا أَنْتَ غَيْرُ الْكَوْنِ بَلْ أَنْتَ عَيْنُهُ وَيَفْهَمُ هَذَا السِّرَّ مَنْ هُوَ ذَاتُهُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ما كفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشوش المجلس . وفي البيت وفي بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول - على أساس ما يزعمه من فكرة وحدة الوجود - إن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه ، والفكرة بأساسها - كما يرفضها ابن الحكم - يرفضها - كما ذكرنا ذلك أيضا - أهل السنة وأصحاب التصوف السني .

### عفيف<sup>(١)</sup> الدين التلمساني

هو سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي التلمساني ، وتدل نسبته إلى تلمسان في الجزائر على أنه مغربي الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آباءه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ ودويان الحقائق  
ومجموع الرقائق لعبد الغني النابلسي ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ .  
ودويان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

(١) انظر في عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات  
الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمي ٤٦٣/٢  
وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ما عندهم ، ولعل ذلك ماجطه يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت في دمشق وفي دواوينها وخاصة في بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده . ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خائفاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي ، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود ، فأكد لها في نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها في الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربي ، ومذهبه في وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى كيشند بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفي سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفا - تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربي ، مما جعله يُعنى بشرح أعقد كتبه في التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفي مكتبة ولي الدين ياستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه « ترجان الأشواق » من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمي المذكورة آنفا في ترجمة ابن سوار :

لولا الحِمَى وظبَاءُ بِالْحِمَى عُرْبُ	ما كان في البارِقِ النَّجْدِيَّ لِي أَرْبُ
وفي رياضِ بيوتِ الحِمَى من إضْمِرٍ	وَرَدُّ جَنِيٍّ ومن أكامِه النَّقْبُ
لا تقدرُ الحُجْبُ أن تُخْفِيَ محاسنَه	وإنما في سنَاهِ الحُجْبُ تَنْحَجِبُ
ياسالما في الهوى مما أكابده	رققا بأحشاء صَبَّ شَقَه الوَصْبُ
هل السلامة إلا أن أموتَ بهم	وَجَدًا وإلا فُبُقَيَايَ هَمِي العَطْبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد الحيين إزاء محبوبه الرباني ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حماه ما كان له أمل وراء البارق النجدى ، ولا كان له ولوع بورد الحدود فى رياض بيوت الحى من إضم . ويتصور كأن الأقمعة أو الحجب التى تُسَدَّلُ على تلك الحدود هى أكمام الورود ، ويقول إن الحجب لاتستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب فى سناه وضيائه المشرق . ويذكر أن أحشائه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهيامًا ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكرارى يفيقون من سكرهم ، وهو لايفيق مما شرب من دَنِّ هذا الحب الإلهى :

لاتحسبوا أنى عن حَبِّكم سالى وحَفَّكم لم يزل حالى بكم حالى  
يا ساكنين قوادى وهو منزلكم لاعشْتُ يوماً أراه منكمُ خالى  
أنتم بقلبى أَدْنَى من جَوَانِحه حَقًّا على رِغم حُسَادى وَعُدَّال  
أوضحتمُ لِحَبِّبكم طريقتكمُ حاشاكمُ تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لايزال بحبه لربه حاليا أومزدانا بحلى بديعة . ويقول إن محبوه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه ومايحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويتضرع إلى محبوه الربانى أن لايهجره بعد وصله . ويقول :

يا أَصِيحَابِى بذى سَلَمٍ مَنْ أَصِيحَابِى وما السَّلْمُ  
أنا عنى اليوم فى شُغْلٍ فاذكرونى إن نسيتمُ  
وأشيعوا فى الحِمْى حَبْرِى وأذيعوا السرَّ واكْتَتَمُوا  
لايرانى الحِجْبُ مُنْتَنِياً بعد مالاحت لى الحِمْى  
كنتُ قبل اليوم فى حُلْمٍ وتقضى ذلك الحُلْمُ  
فزمانى كلُّه طَرَبٌ دونه الأوتار والنَّعْمُ

إنه على وشك أن يتحقق أمله فى الوصول إلى محبوه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له خيام محبوه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن يشقى عن طريقه إلى محبوه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح



مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون . ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفي مندلع خَمَسَهَا عبدالغني النابلسي مع أبيات متصلة بها لم نشدها ، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب غفيف الدين غبطة وابتهاجا .

### عبدالغني <sup>(١)</sup> النابلسي

هو عبدالغني بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموي . ودرس فيها بالمدرسة القيميرية وجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبدالغني سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُني بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفي ، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوي والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرؤها . وسرعان ما نضج علميا وهو لا يزال في العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للمرادي سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية في الطريقة النقشبندية ، ثم جذبته إليه مذهب ابن عربي الصوفي الفلسفي ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قبله إمامه ابن عربي ، ويردّد دائما : ليس في الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلّى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه	الله	وجود	واحد	حكمة	فينا	حرام	وحلال
وهو	حق	وسواه	باطل	قال	في القرآن	والسبع	الطوائف
أينا	أنتم	تولوا	ثم	هو	الإله الحق	محمود	الفعال

(١) انظر في عبدالغني النابلسي وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٣/٥٣٠ ومفحة الربحانة ٢/١٣٧ وتاريخ الجبرتي ١/١٥٤ وله ديوان الحقائق ومجموع

الرقائق في صريح الواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية - طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة : ( والله المشرق  
 والمغربُ فأينما تولُّوا فثم وجه الله ) والآية إنما تشير إلى أن أى مكان من المشرق والمغرب يأمرهم الله  
 باتخاذها قبلة تكون هناك جهته التي أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالاً بها ومتحد معها كما  
 يذهب النابلسي وابن عربي زاعمين أن ذاته هي ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علوا  
 كبيرا . ويقول النابلسي متحدًا بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتي ذاتُ كلِّ الخلاقِ      وسلَّ عنه ذا علمٍ كريمٍ الخلاقِ  
 ولا صفةٌ إلا ومنى تعيَّنتُ      لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائقِ  
 أنا الجوهرُ السَّارى بغيرِ سرايةِ      ألوحُ وأخفى في جميعِ الحقائقِ  
 أنا النورُ نورُ العينِ منى تكوَّنتُ      عيونُ البرايا من مشوقٍ وشائقِ

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواه ، إذ كل ما في الكون مظاهر له ، يصنعها بوجوده .  
 ويحاول النابلسي جاهدا أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله محلٌّ في جميع الموجودات وبين  
 مايزعمه هو وابن عربي من وحدة الوجود ، وإنما لتبلغ به أن يقول في مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا  
 وليس في الحضرة ثاني » أو كما يقول :

اثنان نحن وفي الحقيقة واحدٌ      لكنَّ أنا الأدنى وأنت الأَكْبَرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله -جل جلاله- واحد . وهي نفسها فكرة  
 وحدة الوجود التي يحاول جاهدا الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من  
 أصحاب التصوف الفلسفي على طريقة ابن عربي . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن  
 يحيله رموزا خالصة على نحو ما نجد في شرحه لأول بيت في القصيدة البائية بالديوان :

سائقَ الأَطْعانِ يَطْوِي السَّيِّدَ طَيِّ      مُنْعِمًا عَرَّجَ على كُتُبانِ طَيِّ

يقول : « سائق الأَطْعان هو الله تعالى ، والأَطْعان : الناس وكتبان طَيِّ كناية عن المقامات  
 المحمدية التي عددها كرمال الكتيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصِّله - كما يوصِّل جميع  
 المؤمنين - إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شيء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأَطْعان  
 المتوجه إلى منازل طي على حافتي نجد والحجاز ليتمهَّل قليلا حتى يجيئى من يربهم في طريقه إلى  
 الحجاز معبرا بذلك عن حنينه إليه . وطبيعي وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربي وتمثل كثيرا من

أشعار المتصوفة محمسا لها ومشطرا كما يتضح في ديوانه الصوفي أن نراه تارة يتغزل في بئنة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقيا وكأسها وشرابها وحبابها وما تحدث في روحه من نشوة وفي عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلى الفلسفى لا كما يؤمن المتصوفة بأن حفظ اللطم إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم الحجة القلبية . وله قصيدة بديعة في الاستغفار من ذنوبه وخطاياه امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله في الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نورُ طَـةِ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ وبه كان الترقى في جميع الدَّرَجَاتِ

ونحسُّ في الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية في الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفي الديوان موشحات ودوبيتات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامة ، وفي الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن « كان وكان » العامى .

## ٦

## شعراء شعبيون

لأنقصد بشعبية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بيئاتها الشعبية من سلالة عامتها ، فذا لما جمهور الشعراء في كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبي وأيضا بهرام شاه الأيوبي صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونقرأ من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العباد في خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا من عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخباز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لا نريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم في أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم في أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هي : الزجل والمواليا ، والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ في الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخامس ثم شاع في البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا في الشام يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صني الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه : « العاقل الحالى » يتوّه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبي بها كما لقي بجلب راوية ثقة من أكبر رواته هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغليّس حملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صني الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر (٧٢٣ - ٧٢٦ هـ) غير أنها كانا بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصحح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه ما نقله عن نسخته ، وعرفه بمشايع الزجل في حلب . ومن أعلامه البارعين حينئذ بحجة علاء الدين بن مقاتل ، وسترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ودرواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جنزبرج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم<sup>(١)</sup> ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا . وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصح استطرافا ، وقلما تُصاغ صياغة فصيحة ، إذ تطرد فيها

(١) انظر خزانة الأدب للحموى ص ١٧٦ . ٦ .

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جويان بن مسعود الدمشقي المتوفى في حدود سنة ٦٨٠ للهجرة<sup>(١)</sup> :

أفارقه وأول إني قد اتسَّلتُ وريحتُ قلبي وزال همي واتخَلَّيتُ  
وأذكر مساويه في حقِّ إذا وليتُ وإذا رجعتُ نسيتُ الكلَّ واتخَلَّيتُ

والتورية واضحة في كلمة « واتخَلَّيتُ » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخَلَّى بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقي صاحبه أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبعد عن الهم .

ونلتقى بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسي سيد قومه الصحابي الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان - كما يقول بعض من ترجموا له - من أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا<sup>(٢)</sup> :

البدر والسَّعد ذا شِبْهكُ وذا نَجْمكُ والقَدَّ واللَّحْظُ ذا رِمْحُ وذا سَهْمكُ  
والبغضُ والحبُّ ذا قِسْمِي وذا قِسْمكُ والمسكُ والحسنُ ذا خالِكُ وذا عَمكُ

فصاحبه تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجبتها والحسن يعم كل أعضائها وفي كلمة « عمك » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذِي قايِلِهِ لا خِطَا والقِصْدُ تُسْمَعُنَا ما النِّحْوُ؟ قالَتْ لها : نِحْنُ بأَجْمَعُنَا  
الرِّفْعُ والنِّصْبُ نا وانْتِي ومن مَعْنَا للجِرِّ ، والزَّوْجُ حَرْفُ جاءَ للمَعْنَى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نحنا هي نحن بالفصحى . ونظّم أصحاب المواليا في جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلَّها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقى في ديوان عبد الغني النابلسي بنحو ثمانين مواليا نكتفي منها بقوله<sup>(٣)</sup> :

تغرى بردي ١٢٧/١

(١) فوات الوفيات ٢١٨/١ .

(٢) ديوان الحقائق للنابلسي ص ٢٦٨ .

(٣) راجع في هذه المواليا وتاليها المنهل الصافي لابن

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العميق  
 واخرج عن الكل أنت الكل بامعقوب أما الجميع هو الخالق أو المخلوق  
 فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى  
 هي وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمشدون ببغداد لإيقاظ الناس كي يتناولوا سحورهم  
 استعدادا للصوم ، وكانوا يختتمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت  
 اسمها وشاعت في البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات  
 والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا في  
 قسم مصر . ولا بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة <sup>(١)</sup> منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذي  
 امتُحنت به الشام ومصر سنة وفاته . وفي ديوان عبدالغني النابلسي منظومة صوفية منه في  
 عشرين <sup>(٢)</sup> بيتا تصور عقيدته في وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن  
 أبي العلاء بن مقاتل الزجال .

### أبو <sup>(٣)</sup> العلاء بن مقاتل

هو علي بن مقاتل الحموي ولد سنة ٦٧٤ هـ ، ويقول ابن حجر إينه « تعانى الأدب فتعلم  
 الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأرزجال فاشتهر بها ، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين .. وكان  
 هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه .. وكانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له  
 زجلا مشهورا في الملك المؤيد صاحب حجة (٧١٠-٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصفي  
 الحلبي . وكان الصفي قد نزل حجة ومدح المؤيد وابنه الأفضل في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث  
 من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموي في خزائنه قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن  
 مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بجدته وأبا عذرتة ، ومن سلّمت إليه مقاليد هذا الفن .. وأورد  
 الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غرر أزجاله في تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار في  
 ترجمته » . ويشد الحموي زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النقط :

للحموي ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكامنة في أعيان  
 المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجي له في كتابة  
 عقود اللآل ستة أزجال ( انظر الفهرس )

(١) تمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردى  
 ٣٠٢/٢

(٢) ديوان الحقائق للنابلسي ص ٣٥٦ .

(٣) انظر في أبي العلاء بن مقاتل وأزجاله خزائنه الأدب

قلبي يحب نبيّاه ليس يعشق إلا إياه  
 من رام وصالو يعطّب  
 ليث الهوى ونمرو فاعجب لصغر عمرو  
 أردي الأسود وأرعب  
 أذكر نهار تبعتو وروحي كنت بعنو  
 أخشى عليك لتتعب  
 كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لخلفو  
 ورمت لثم كفو قال دغ مناك وكفو  
 فإن لثم إصبغ  
 من الثريا أصعب

وبمجرد أن نسمع هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ  
 بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « فتياه » تجذب إياه و « حياه » تجذب بحياه ، وبالمثل  
 « يطبع » في القفل تجذب يعطّب . وكأننا في مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم في الزجل اسماقا  
 بديعا ، وكأنه عطر للأذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفّتها ورشاقتها ، فصاحبته بدر في السماء  
 لاتصل إليه الأيدي ، وهي غزال تقهر بعينها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوث  
 والنمور . وتهلكها وترعبها رعبا . ونصخته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم  
 كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهي صنعة زجلية  
 رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب في الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ،  
 فيطبع تقابلها يعطّب ، وأرعب تقابلها أرعب ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبغ تقابلها أصعب .  
 وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التي لا تحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها  
 تغريد عندليب مع ما يحمّل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، ويحق يقول صاحب  
 الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين .

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

### الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بني أمية ، لما كان من اتخاذ ديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم<sup>(١)</sup> أو ختم الرسائل التي تصدر عنه إلى الولاة ، وبهنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون في الذروة من البيان والبلاغة لزمهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهشيارى أثباتاً طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ما عُنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون في ديوان الرسائل<sup>(٢)</sup> .

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ( ١٠٤ - ١٢٤ هـ ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل في دمشق بيد مولى لهشام هو سالم<sup>(٣)</sup> ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسططاليس<sup>(٤)</sup> ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعدّه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة<sup>(٥)</sup> واحتفظ الطبرى برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهي تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الازدواج والترادف الصوتي . وتبعه في النهوض بالرسائل

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ( طبعة الحلبي ) ص ٦٢ .  
(٢) ص ٢٤ .  
(٣) الفهرست ص ١٧١ .  
(٤) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .  
(٥) انظر في ذلك الفن ومذاهبه في النثر العربي ص



السياسية تلميذان: أحدهما من بيته هو ابنه عبدالله، وثانيها من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه، لبلاغته وقد ضربت بها الأمثال، فقيل: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد»<sup>(١)</sup> ويقول ابن النديم: «عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل»<sup>(٢)</sup> ويقول المسعودى إنه «أول من استخدم التحميدات فى الكتب»<sup>(٣)</sup> واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية<sup>(٤)</sup>. وكان يعرف الفارسية، ويقول صاحب الصناعيين إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى<sup>(٥)</sup> وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية. وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية، ومنها رسالة<sup>(٦)</sup> طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجهه لمحاربة بعض الخوارج، وهى أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدير شؤونها من الوجهتين المادية والحربية. وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة وال طولونيين والإخشيديين، بل لقد تعطل تماما، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد، وأصبحنا طوال القرون: الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتّابه العظام، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة لل طولونيين والإخشيديين جميعا، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية، حتى إذا أظللّ دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سني الدولة<sup>(١)</sup> ابن أخي الشاعر ابن الحياط الذي ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العهاد قطعاً مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله في منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيراً ، ومكانه لدينا مكيناً أثيراً ، لاقرين بجاريه ، ولانظير يماثله ويباريه ، ولا متناول يطمع في إدراك معاليه ، شددنا بركنه أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعولنا عليه فيها ، واستهنضناه لتوليها ، ورأيناها كفاها وكافها » .

وكتابات على هذا النحو دائماً مسجوعة سجعاً فيه غير قليل من الرشاقة والعدوبة . وكتب بعده لسلاطين دمشق البوريين عبدالله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد<sup>(٢)</sup> الكاتب الدمشقي ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة سيرة ، وتوفى سنة ثمان أوسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العهاد شيئاً من كتاباته .

ويُظنُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسراني ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العهاد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه »<sup>(٣)</sup> ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته في البلدان التي أظلمها حكمه جاء فيه<sup>(٤)</sup> .

« وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتباً من المظالم المححفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقة عليكم في أرزاقكم ، والمؤون التي تساهمكم في منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن قوَّض الله - عزَّ وجلَّ - لنا - تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً فأولاً ، ولم نبتغ في إقراره على وجوه شُبَّهه ولا تأولاً » .

ويلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر<sup>(٥)</sup> شاكر بن عبد الله المعري كاتب الإنشاء بدمشق ، واستغفاه من الخدعة سنة ٥٦٣

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع في أبي اليسر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٠٤ .

(١) انظر في سني الدولة الخريدة (بداية الشام) ص

٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ

ابن عساكر ٢٧٧/٧ والتجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١٢٥/١ .

فأقام العماد الأصبهاني مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باست كتابه في ديوانه بالشام ، وسنفر له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غير منازع . وتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصري مثل ابن النيه كاتب الأشرف موسى ، وقد ترجمنا له بين شعراء الغزل في مصر ، ومثل عبد الرحيم بن علي بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق ، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندي . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتححه لطرابلس واستيلائه عليها من أيدي الصليبيين نوه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين في اللهور ، يقول (١) :

« وكانت الخلفاء والملوك ما فهم إلا من هو مشغول بنفسه ، مكبٌ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عنَّ له وُصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من يملكه بالسُّكَّة والخطبة ، وأموال تُنهب ، وممالك تذهب . »  
ويريد بالسكَّة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطابهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفي سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين علي في عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندي في صبحه بما ذكج كثيرة من رسائله

(١) النجم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع في ترجمته ٣٤/٨

وتوقيعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسائله تدخل في ثلاثين مجلداً وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله في التهئة بتقليد سيف<sup>(١)</sup> :

« وقلده مِنناً : سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده ، وتشرق جواهر الفتح في فرنده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حدّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهت عزائمّه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعلم أنه سيفنا الذى على عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفي مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخسه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حاه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السربها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين ( الخليفة العباسى المقيم بمصر حينئذ ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بائدة بائدة العدا ، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى والله الحمد - بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرداء ، آمنة من الردى ، وامتنّ على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سهّم تديره الشريف فيهم مسددا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح في هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما في « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرداء : الثوب ( كناية عن الأحوال ) والردى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلى في السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

السيف : حائله  
(٢) صبح الاعشى ١٢١/١٠ وانظر في ترجمته النجوم  
الزاهرة ١٦١/١٤ .

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة  
الوهية ص ١٠٠ . وفرند السيف : لمعان صفحته .  
والقوادم : ريشات الطائر الكبار في جناحه . ونجد

وعين ابن البارزى في ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى في كتابة السراية كمال الدين ، وكان تارة يعزل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم في الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة في ديوانها الكبير كُتِّب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كُتِّب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كُتِّبها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره في وصف قلعة (١) :

« لاترى العيون لبعده مرماها إلا شزرا ، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نزرا ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج .»

ونذكر من أهم كُتِّب السر في دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، توكل في كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها ففتح (٢) الدين بن الشهيد حتى توفي سنة ٧٩٣ وكان بارعا في الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام في رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أديبا فصيحاً ذكيا (٣) » . وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفي غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين .

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستبين .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٥

(٣) فوات : حلو . أجاج : شديد اللوحة .

(٣) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٢

## العقاد (١) الأصبهاني

هو عقاد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ و قدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها . وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العقاد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، ووَلَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقلَّمه قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكتسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضي إلى نور الدين فأعجب به واتخذَه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح في مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعي ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العامدية . ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء . ولما توفى نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العقاد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد تَوًّا ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضي الفاضل ، ورغبه في إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفى سنة ٥٩٧ .

والعقاد الأصبهاني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

الشافعية للسبكي ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفي كتابه : البرق الشامي والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

(١) انظر في ترجمة العقاد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروضتين في مواضع مختلفة والجزء الثاني من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبي ٢٩٩/٤ والوفاء بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي . ومرَّبنا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتها وهو في سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسي في الفتح القدسي في وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصرة القَطْرَة في تاريخ السلاجقة ووزرائهم : وذكرنا - في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم « زبدة النصرة ونجبة العصرة » وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُبي والعُقبي في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نحلة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق في ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العباد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم ما فيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحاً دَحَرَ فيه حَمَلَة الصليب ومُرَقَّهم تمزيقاً كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يبشر بالنصر المبين في سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يبحر فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العباد :

« لاختفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كريم ، أنقدها الله من عبيد بني عُبيد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعنتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شعبة القوم ، وهم غير مأموني السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطيفة فن حقا أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتق لأعضل رَقَّه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام ونغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله خمس سنين في بيكارها ( حربها ) منتقها من كفارها متحملا لمشاقها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العباد في أول القطعة بين « عبيد وعبيد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصرياً على الأقل في

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العباد من البشارات في كل انتصار لصالح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العباد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العباد فيها المواقع وصفا تفصيلا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه في تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتح العظيم ، والتَّجْحُّمُ الكريم ، قد انقضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرَةٍ تَمْنِيهِ ، وجيرة تَرْجِيهِ ، ووحشة اليأس من تَسْنِيهِ ( انفكاك عقده ) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذي أعاد القدس ( الشريعة ) إلى المقدس ، وأعاذه من الرَّجْسِ ، وحقق من فتحة ما كان في النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عَزْرَ يومه ماحياً ذُلَّ أُمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقسَّ ، وعبد الصليب ومستقبلي الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ( يريد يوم الأحد ) وقع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذي هو فتح الفتوح » . والطباق كثير في القطعة ، والجناس يُنثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه في بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعي أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدي بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله في جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فيضه المستفيض ، وتبلَّج ( إشراق ) وجه وجاهته وتأرَّج ( انتشار ) نبأ نباهته ماعرَّفه من عوارفه ( فواضله ) البيض » .

يقول الصفدي معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسُّفه في هذا الترتيب » . ويقول السبكي معلقا على كلام الصفدي : « الأمر كما وصف ، ولقد معجَّ سمعي فواتح أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردَّ العجز على الصدر » . على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العباد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه ، ويتسع في الإحسان صُقعُه ( جانبه ) ويرشف اللبُّ مُدامه ، ويكون عند مَنْ له ذوقٌ أطيبٌ من تغريد حمامه » .



الصفدي<sup>(١)</sup>

هو صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦ وعُني في أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدرّج بموطنه صفد ، يكتب ما يوقّع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدي ، وعيّن في كتابة اللّسّت ، حتى يعاونه في عمله وما يتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدي الشهاب محمود كاتباً مجيداً . وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو ما مرّ بنا في ترجمته ، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام ، وعيّن رئيساً لديوان الإنشاء بحلب وقتاً ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة اللّسّت مساعداً لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر في الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموي للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتباً ناظماً ناثراً شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموي في خزائنه مرارا ليذكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعاني شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه « خبز الشعير » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله ؛ وشعره في جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بَسَمَهُمُ الْحَاطِظِ رِمَانِي فَذُبْتُ مِنْ هَجْرِهِ وَبَيْتِهِ

وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠٠/٦ والبدر الطالع ٢٤٣/١  
وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صح  
الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٣٥١ .

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١  
والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبدایة والنهابة لابن كثير  
٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/١٠ وما بعدها

إن متُّ مالى سواه خَصَّمُ فإنه قاتلى بعينيه

ويعد من أكبر المصنفين فى التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته فى التراجم كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزاءه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكت الهميان فى نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى انسكاب الدمع : دمع الحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الناثر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح ملهىء بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ما اتهمه به خصوصه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشرح رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام التون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصّف مئين من المجلدات وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحتفظ منها القلقشندى إلا برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أمودج الجنة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يَزُوقون ، وهى زهرة ملكنا ودرة سلكتنا .. تعين أن نتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهززاناه مثقفاً (١) وسللناه عَضْباً (٢) وخبأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف ما يُدخِر ، وأعز ما يُحِبُّ ، كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرأ لما وزر ، وكم غنيتُ به أيامنا عن الشمس وليالينا عن القمر ، وكم علا ذرى رَبِّ تعز على الكواكب الثابتة فضلا عمن يتقل فى المباشرات (٣) من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى (٤) فأعادها ريبعا عرَّد به طائر الإقبال وصفر . فليتلق هذه الولاية بالعزم الذى نعده ، والحزم الذى شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

(٣) المباشرات : الأعمال

(٤) جمادى : بريد قليلة

(١) مثقفا : سيفا مصقولا

(٢) عضا : قاطعا .

ولا يمجده ، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُسَّاب ، وتزيد نمواً وسمواً فتفوق الأمواج في البحار وتفتت القطر من السحاب .»

وواضح مافي السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحياناً في اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد <sup>(١)</sup> بها تتبين فوارس الجلاذ في مضايق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال ، وتبدو شمسو الجبال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية - أتاب الله تعالى واقفها - هي الواسطة في عقودها . والدرة الثمينة بلاكفء لها بين قيم نفودها ، قد تدبج فيها البناء وتأرج عليها <sup>(٢)</sup> الثناء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد .»

وواقع مافي التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب في مثل « جلاذ وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائماً مثل هذه الكلف في جناساته ، بل هي تأتي عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة في التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائغ . وكان محبباً إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

(٢) تأرج عليها : عطرها :

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

ابن حجة<sup>(١)</sup> الحموي

هو تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي ، ولد بحجة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدياء مصر من مثل ابن مكناس الذي مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل في دواوين حمة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزي موطنه كتابة السر بهما ، وكانت قد توفقت علاقة ابن البارزي بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذة كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزي معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبي ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزي وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباي سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حجة ، وظل بها مكبًا على التصنيف والتأليف حتى توفي سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية في المديح النبوي وما حمل أبياتها من محسنات البديع لزمه ، وهي في مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا في سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء في زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله في البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التي ينبغى ان تراعى في الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضي الفاضل وابن نباته وأيضًا ببعض رسائله . والكتاب في مجموعة أشبه بكتب المحاضرات وال نوادر . واختصر بعض

٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١٥ .

(١) انظر في ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب في مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكاني ١٦٤/١ والقصوة اللامع للسخاوي ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعماني

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر في الخزانة بباب إرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة في كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتباً ، وأنشد في الخزانة كثيراً من شعره ، ويقول الشوكاني : « قد يأتي في نظمه بما هو حسن وبما هو في غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفي الخزانة رسائل كثيرة له ، وخاصة في أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفي « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولاً بالشام ثم ما أنشأه في عهد المؤيد ثم في عهد الملوك المظفر والمظفر ططر والصادح في كتاب سماه « قهوة الإنشاء » في مجلدين ، ومنه مخطوطة في دار الكتب المصرية ، وفي الدار أيضاً كتاب له محفوظ بأسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونُبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة ، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقّ قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع<sup>(١)</sup> عليه ، وقبّل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الخلو فالت غصونها إليه .. وحضنّ مشتهى الروضة في صدره وحنّا عليها حنوّ المرضعات على القطيم :

وأرشفنا على ظمياً زلالاً الذُّ من المدامة للنديم

وراق مديد بجره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بجلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعاب فالتق الثوى والحبّ ، فأرضع في أحشاء الأرض جنين النبات وأحيا له أمهات العصف والأبّ .. ونسى الزهر بجلاوة لقاءه مرارة الثوى ، وهامت به مخدّرات<sup>(٢)</sup> الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة » .

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتباً مجيداً إن لم يكن بارعاً ، وأطال السجعات ليحملها ما يريد من التوريات ، وهى كثيرة في القطعة ، وما غمضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك في التورية بكلمة

الرجال . والاستعارة واضحة

(١) يريد قلع السفن وشرعها

(٢) المخدّرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجاباً عن

الآيات فلا يريد آيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورياً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذنا من قوله تعالى : ( وفاكهةً وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم ) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى التمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا في كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفي الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منسئ الديوان ، ولا بن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذي وُلد من الأم أفرأهم ، وأبو المهات الذي شَهَر من العُدَّة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريره بالعجاب ، ويغنينا عن موضح القشيري فإنه يغذينا في إبانته باللباب .. وقد وقع العمويه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رعوسها والمذهب الذي تهذيبه في أدب القاضي كفاية ، وهو البحر الذي مادخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي ، وقد بدأها في السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعي ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعرين عبد السلام ، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني ، وأشار معه في نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالي وتقريب الفقَّال الشاشي ، ثم ذكر اللباب وهو لباب الألباب للآمدى في علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيراً إلى كتاب الإبانة في فقه الشافعية للفراني ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ونهاية المطلب المذكورة آنفاً والمذهب لأبي شامة المقدسي والتهذيب للبعغوي وأدب القاضي للماوردي والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجويني . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد رويّة وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

## الرسائل الشخصية

مرَّبنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتها لها حينئذ من كبار الكتاب من لاتزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة<sup>(١)</sup> تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعدوية ومع ما عُرِف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثالث الهجري وأوائل الثالث العتَّابي كلثوم بن عمرو ، وله بدوره - رسائل شخصية<sup>(٢)</sup> تموج بالتصاووير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية ، فشاع في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم في كتاباتهم فعمَّموه في رسائلهم الشخصية . ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد<sup>(٣)</sup> الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البيَّغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعراً مبدعاً وكاتباً بارعاً ، وفي كتاباته يقول الثعالبي « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبي من رسائله كقوله مثلياً ، مطرباً .

« شهابُ ذكاء ، وطُودُ وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالي بأفعاله مشرقة ، والأقذار لحفوه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتَه ، أمن من الدهر شدته ، ومن فرغَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

(٣) انظر ترجمته ورسائله في البيئمة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبي ٦٨/٣ وابن خلكان . ١٩٩/٣ .

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى الباي الحلبي) ٤٣٤/٢ وفي مواضع متفرقة .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

## (١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُنت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققتها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولها رسالة المنيح وهو القُدح الثامن من قِداح الميسر التي ليس لها نصيب في القهار ، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتضوع<sup>(١)</sup> ، وللكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَعَمْنَا<sup>(٢)</sup> على بُعد الدار أَرَجُ<sup>(٣)</sup> أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلْهُبِهِ ، وخَوَّلَ<sup>(٤)</sup> الأسماع سُنُوفًا<sup>(٥)</sup> غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغارية ، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وهب لنا شرف عَظِيم ، وألقى إلينا كتاب كرم ، صدر عن حضرة السيد الحَبِير<sup>(٦)</sup> ، ومالك أعتة النظم والنثر ، قراءته نُسْكُ ، وختامه بل سائره مِسْكُ ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلَّ<sup>(٧)</sup> عن التقبيل فظلاله المقبلة ، ونزّه أن يبتذل فنسخة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة<sup>(٨)</sup> ، على ما ضمن من الملاحه ، والخشية على دُجَى مداده من التوزُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللُّثْم ، والمَوارِن<sup>(٩)</sup> بالانتشاء<sup>(١٠)</sup> والشَّمِّ ، حتى تصير سطوره لَمَى<sup>(١١)</sup> في الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظه الدين من القهار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التي ليست لحظًّا

(٧) جل : تنزّه .

(٨) الإلاحة : الإشفاق

(٩) الموارن : الأنوف .

(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .

(١١) اللمى : سمره حسنة في الشفة .

(١) يتضوع : يفوح .

(٢) فعمنا : ملأ أنوفنا .

(٣) أرج : شذى

(٤) خول : أعطى

(٥) سنوفا : أقراطا

(٦) الحبير : العالم



بالخاترة .. فيا شرفه من صكِّ بالفخر ، يَبْجَحُ به على الثُّظَاءِ حَيْرِيَّ (١) الدهر ، موشحًا بكل شذرة أعذب من سُلَافِ العنقود ، وأحس من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أويوح (٢) عند الشروق .

وإذا مضينا بعد ذلك في قراءة رسالة المنيع - وهي طويلة - أخذت أمواج الألفاظ الغربية تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستين منها مايقراً لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجعة ، بل مع غير لفظ في كل سجعة ، وكأما كان يطلبه طلباً في سجعاته ، أو كما كان بعده زينة ينبغى أن لا تخلو منه سجعة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغربية المبعدة في الإعراب مما قرأه في الشعر القديم وفي كتب اللغة ، ولا يهمل أن تكون الكلمة مما دُونَ في المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالاً لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك في بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هي حشد الألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ماقرأ في رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضاً إلى أبي القاسم المغربي وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغَمِ الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التي هي كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبداً ، فقد جعلني إن حضرت عُرف شاني ، وإن غبت لم يُجهل مكاني ، كيا في النداء ، والمحدوف من الابتداء ، إذا قلت زَيْدٌ أَقْبِلْ ، والإبْلُ الإِبْلُ ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أُلْقِيَتْ فبواجب ، وإن ذُكِرَتْ فغير لازم (٣) ، إني وإن غدوتُ في زمن كثير الدِّدِ (٤) كهاء العدد ، لزمتم المذكر فأتت بالمنكر ، مع إلفِ يراني في الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت (٥) الرصين ، فهي لا تثبت على طريقة ، ولا تُدْرَكُ لها صورة في الحقيقة »

وهو يدعولأبي القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الآبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء

(٤) الدد : اللهو واللعب .

(١) يبجح : يفخر . حيرى الدهر : أهد الدهر .

(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد .

(٢) يوح : اسم الشمس .

(٣) لازم : لازم .

في الهاء وهي لاتدغم فيها أبداً ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لا يكسد صوته بين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لا يدغمان أبداً ولا يتحدان كالأمس والغند . ويدعو أبو العلاء له أن تصحح رتبته أرفع الرتب في الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو ، إذهما بسبب رفعهما في أعلى الرتب . ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبداً . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفاً رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكانها محفوظ ذكرت مع المنادى أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ ، فتقول : محمد أي يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أي هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم في منزلته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أوتائه من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس في العربية العكس . ولا يكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط في درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا في لغة تميم ، فيقولون في أن عن ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أو كما يقول « بين بين » وقد تسهل تماماً فتصبح حرف لين مثل سال في سأل ، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهل مثل أمر ، فهي كما يقول أبو العلاء لاثبتت في العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعب نثره على قارئه ، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة في الرسالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف ، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطي بدار المعارف . وتتكاثر في الرسالة المعارف عن المرأة وحليها ولا بأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية . وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برائله إلى علماء في عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويراً لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقى واجتماعى وسياسى وأدى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبى طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي :

« شوقى إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمحلة ، إلى السحابة المُسحلة <sup>(١)</sup> ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواء الغريضة <sup>(٢)</sup> ، وتشوقى لأخباره تشوقَ راعى أنعام <sup>(٣)</sup> أجذب فى عام بعد عام ، لبارق <sup>(٤)</sup> يمان ، هوله مرتقبُ مَمان <sup>(٥)</sup> . وأسفى لفقده أسف وحشِيَّة <sup>(٦)</sup> ، رادت <sup>(٧)</sup> بالعشيَّة ، فخالفها السُّرحانُ إلى طلاً <sup>(٨)</sup> راد فحار <sup>(٩)</sup> فهى تطوف حول أميل <sup>(١٠)</sup> ، وترى صبرها ليس بجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدى الوالدة ، والمقسم بالملح لبني خالدة وانتظارى لقدمه انتظار تاجر مكة وفدً <sup>(١١)</sup> الأعاجم ، وربَّ الماشية ظهورَ الثَّبْتِ الناجم <sup>(١٢)</sup> . »

وبدون ريب تُعدُّ رسائل أبى العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائماً يُعنى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه ما لا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائماً نلتقى فى رسائله بالألفاظ الآبدة المعنة فى الغرابة وإن لم تمنع فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو ما يلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهداً لهم أقسموا فيه بالملح لبني خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابني شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « المححلة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتصاوير .

- |  |   |
|--|---|
| (١) المسحلة : المطرة                             | (٧) رادت : ذهبت تطلب الكلال             |
| (٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة         | (٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب |
| (٣) الأنعام : الابل .                            | (٩) حارمنا : تحير                       |
| (٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله يمتنا | (١٠) أميل : كتيب عال                    |
| حتى لا يخلط مطره                                 | (١١) يريد : قدوم وفود الحجيج الأجانب    |
| (٥) يمان : متناول                                | (١٢) الناجم : الذى لاساق له             |
| (٦) يريد بقرة وحشيه                              |   |

## (ب) رسائل متنوعة

طبيعي أن تكثر الكتابات الشخصية على السنة الأدياء ، شاكرين صنيعا أو مهشين على منصب كبير أو معاتين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألم بأصدقائهم أو في فقيد عزيز ، وتارة يؤثنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائي الشاعر الكاتب والغزوي إبراهيم بن عثمان الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصهباني : « كانت بينها مكاتبات مفيدة وبينها لنسب الفضل المؤدة الوكيدة » ويسوق العماد للغزوي رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها (١) :

لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامي دام ساميا ، وليبضة المجد حاميا - إذا علق بعرض الكرام كان كالنار في المندلي<sup>(٢)</sup> ، ييوح بسرطيه الحقي . فإن وقع من السفهاء إفك فداعيته ما ظهر لهم من انتائه ، وانتساب مؤنته إلى سمائه .

وانتخاب الغزوي لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعني فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسي الذي ترجمنا له بين الشعراء نزع عن دمشق إلى قلعة شيزر في الشمال خوفا من ابن الصوفي وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حلیم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها (٣) :

« إن جراحى إلى الآن لم تدق حلاوة الاندمال ، وقروحها تزداد قرحا مع الحل والترحال ، وبين جواحي من الأين<sup>(٤)</sup> ، لما لقيتُ بدمشق من العبن ، مالا يحله إلا عقْد الكفن ، ولا يرفع حدته إلا التيمم بصعيد<sup>(٥)</sup> المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خلق ذميم<sup>(٦)</sup> ، وخلق ذميم ، وأصل لثيم ، وفرع زنيم<sup>(٧)</sup> ، ووجه لظيم ، وفقأ كليم<sup>(٨)</sup> ، وهلم جراً من عذاب أليم ، وصراط في الود غير مستقيم . »

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتباً بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل في

(٥) الصعيد : التراب

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١

(٦) ذميم : قبيح . ذميم : مذموم

(٢) المندلي : عود الطيب

(٧) زنيم : دعي

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١

(٨) كليم : جريح

(٤) الأين : العناء

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجلالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولاً كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة<sup>(١)</sup> :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحُه والفضل نُغْبَة من بجره الزاخر ، وقطرةٌ من سحابه الماطر ، تفرَّد به فاله فيه من نظير ، وسبق من تقدّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكماماً ترينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآياتٍ فصاحةٍ كادت أن تُتلى فى المحاريب ، إذا استنطقتُ ازدحمتُ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بجره حُلُوٌ سلسال . »

ونمضى إلى أيام المالك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله - كما أسلفنا - كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى الترسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندى فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهئة بعيد الأضحى جاء فيها<sup>(٢)</sup> :

« جعله الله أبرك الأعياد وأسعدها وأيمنَ الأيام وأجدها ، وأجملَ الأوقات وألذها وأرغدها ولا برح مسرورا مستبشرا ، منصوراً على الأعداء مقتندرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضوداً ، مهناً بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حُلَّة ، ومنحه من المكارم أحسن حُلَّة » .

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهناً بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبا ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوانب فى

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١

مجموعة سنة ١٣٠٠ هـ ص ١٦٣

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

« بلغنى انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذى بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشَرِقْتُ<sup>(١)</sup> أجفان المملوك بالدموع ، وأحرق قلبه بين الضلوع ، فالعلومُ تبيكه ، والخاصنُ تعرّى فيه ، والأقلامُ تمشى على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده .. ولاخاصاً إلا حزن قلبه ، ولعاماً إلا طارئُ لُبِّه » .

وكان يجنح فى نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضاً فإنه كان يعنى بجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهى : الندب عن معناه الحقيقى وهو بقاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رؤوسها حزناً وهى فعلاً تمشى على رؤوسها أو بعبارة أخرى تكتب برؤوسها ، فاستغل ذلك فى تعزيتة .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سِكِّيناً أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله<sup>(٢)</sup> : « المملوكُ يُنْهَى وصول السكِّين التى قطع بها أوصل الجفأ ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرءُ والشفا ، وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحفأ .. ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النُّصاب<sup>(٣)</sup> ، وذلك بعد أن خضعت له الرؤوس والرِّقاب .. أنملةً صبح تَقَمَّعت بسواد الدجى ، فَعَوَّذْتُهَا بِـ ( الضحى والليل إذا سَجَا ) .. تَطَّرَفَ بأشعتها الباهرة عين الشمس ، ويقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الحفا أى البعد ، وفكر فى سجعة معه فجاء بالشفا والحفا وأصله رقة الحف ويريد المبالغة فى تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والحراب عن موسى الحلاق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضاً بمواظبة الخمس إذ لا يريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظّل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى معاتبته<sup>(٤)</sup> :

(٣) نصاب السكين : مقبضها

(١) شرقت : غضت .

(٤) نفة الرحانة للميجى ٢٤٧/١

(٢) خزنة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

«الصدقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه في الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُبصر ، أو كالعنقاء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فثلهم . . كلمع السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أو كالحَيال الذي يبدو في المنام ، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام» .

ويسوق المحبي في نفحة الرحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبي وبين عبد الغنى النابلسي الصوفي ، وله يقول متوددًا مثنياً مشيداً بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحي (١) :

«مولاي الذي سار في بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله في جسم العالم مقام الحواس الخمس ، لازال في السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر ينزله ، كأنه البدر والدنيا منازل ، ومن شايعه مسعودٌ يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دَوْحَتِكَ (٢) ، وغصن من سَرْحَتِكَ (٣) ، بل نَبْتُ سَقْتِهِ أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك» (٤) .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التي رأيناها في أيام المالك ، فهو يعتمد دائماً على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

### ٣

#### المقامات

كان لبديع الزمان الهمداني فضل السبق الى استحداث فن المقامات في العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحتمل على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كي يسبقوا عليه شيئاً من عطائهم يعينه على سدّ حاجاته في الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريري فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القصّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوي والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعي أن لاتعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع

(١) نفحة الرحانة ١٣٩/٢

(٢) السرحة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٣) الغوادى : السحب

(٤) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

الزمان ، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريري وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام المالك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثانى من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قصّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرْناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتنزه فى الرياض ولقاءه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا ، وهو يفتتحها على هذا النمط<sup>(١)</sup> :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولّع بنظم الأراجيز ، ومد شَبَّ عمري عن الطَّوق ، مُعْرِى بالگرام والتَّوق ، وأهم بالشَّمول<sup>(٢)</sup> والشامائل ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتنزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض<sup>(٣)</sup> ، وولجت<sup>(٤)</sup> بين حياض ورياض . »

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة<sup>(٥)</sup> العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رَشَف الرِّحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعماثرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة الملتاعة<sup>(٦)</sup> :

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفرى (طبع المطبعة

الأدبية ببيروت) .

(٢) الشمول : الحمر .

(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن شاعر ٥٦٥/٢

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار

الكتب المصرية) ٢٠١/١



« سألت عن الخبر، ممن غير، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق<sup>(١)</sup> اللهب اللامع، فبادرت إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام مَعْصُفَرَاتٍ<sup>(٢)</sup> ذوائبها، وصعدت إلى السماء عَذَبَاتُ ذوائبها. . . وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي (ترمي بشرير كالقصر)، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جائية، وكم نفس كانت في النازعات وهي تتلو (هل أذاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل ما يليها وتفضي ما يسفلها ويعتليها ».

وواضح في سجعاته طلبه للجناس. فهو يجانس بين الخبر وغير، والجامع واللامع، واللحم والشحم، ويمضي في مثل هذه الجناسات الناقصة، واشتهر لزمه بالتصنع الشديد للجناس. وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهي أطراف العائم التي تطرح عليها، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي إبتليت به دمشق وأهلها بلاء عظيما. وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمي بشرير كالقصر) وهي في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق. وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو، فذكر (الزمر) أي الجماعات و(الدخان) و(الجائية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى في سورة (الغاشية) والغاشية القيامة.

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القصّ والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه. وغلب عليها ذلك أيضا في أيام العثمانيين وولتقى في نفحة الريحانة للمحبي بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقي من بني النقيب، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو<sup>(٣)</sup>.

« نَرْجِسُ نَعْتَهُ الْفَتُورُ ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور .

(٢) مَعْصُفَرَاتٍ : مصبوغة بالعصفر، وهو صبغ أصفر

(٣) نفحة الريحانة ٣٥/٢

(١) عقائق : جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه

به الصفدى اللهب

وَشَقِيقٌ كَأَنَّهُ أَقْدَاحُ الْعَقِيقِ<sup>(١)</sup> ، قَدْ رَسَبَ بِقَرَارَتِهَا مِسْكٌ فَتِيقٌ  
وَأَدْرِيونَ<sup>(٢)</sup> كَأَنَّهُ مِدَاهِنُ عَسَجِدٍ ، عَلَى سِوَاعِدِ زَبْرَجِدٍ  
وَسِوَسْنِ كِبْيَاضِ السِّوَالِفِ ، أَوْ جِيَادٍ<sup>(٣)</sup> الْوِصَائِفِ  
وَقَرَنْفُلٌ كَأَنَّمَا تَوَقَّدُ بِالْجَمْرِ ، وَانْعَقِدُ مِنَ الْخَمْرِ  
وَيَظَلُّ طَوِيلًا فِي وَصْفِ الْأَزْهَارِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى وَصْفِ الْأَطْيَارِ ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَسْجَاعِ الْمَلِيئَةِ  
بِالتَّشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ .

وَرَوَى الْحَجَّيُّ لِعَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيِّ الصُّوفِيِّ الَّذِي مَرَّتْ تَرْجَمَتُهُ مَقَامَةً وَوَصَفَ فِيهَا نَزْهَةً مَعَ صَدِيقٍ  
عَثَرَ فِيهَا عَلَى قِصْرِ عَالِي الْبِنْيَانِ فَدَخَلَاهُ ، يَقُولُ<sup>(٤)</sup> :

« فَصَعَدْنَا إِلَى قِصْرِ مَشِيدٍ<sup>(٥)</sup> ، مَزْخَرَفِ الْجِوَانِبِ بِالْوَانِ الْأَطْلِيَّةِ وَأَنْوَاعِ الشَّيْدِ<sup>(٦)</sup> ، فِيهِ الْغُرْفُ  
الرَّفِيعَةُ ذَاتُ التَّرْزِينِ ، وَالْمَقَاصِيرُ الْمَصْنُوعَةُ لِقَاصِرَاتِ<sup>(٧)</sup> الطَّرْفِ عَيْنٍ . قَدْ طَلَّتْ شَبَابِيكَهُ عَلَى  
تِلْكَ الْأَرْجَاءِ الْمَوْفِقَةِ ، وَالْجِدَاوِلِ الْمَتَدَفِّقَةِ ، وَأَرْضِهِ مَفْرُوشَةٌ بِأَفْخَرِ الْوَشِيِّ وَالِدِيْبَاجِ ، وَقَدْ أَطْلَقْتَ  
فِيهِ مَبَاخِرُ الطَّيْبِ فَزَادَ فِي الْإِبْتِهَاجِ .. فَحَلَسْتُ أَنَا وَصَاحِبِي عَلَى تِلْكَ الْأَرَاثِكِ الْمَمْنُوعَةِ<sup>(٨)</sup> ،  
وَالْفَرَشِ الْمَرْفُوعَةِ ، نَتَنَاشِدُ الْأَشْعَارَ ، وَنَتَشَبِّثُ بِأَذْيَالِ الْأَفْكَارِ » .

وَيَلْقَاهُ هُوَ وَصَاحِبُهُ رَفِيقٌ ، فَيَسْأَلُهُ أَيْنَ كُنْتَ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تَوَجَّهْتَ ؟ وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَقُولَ لَهُ :  
« مَا ذَلِكَ الْقِصْرِ الْمَوْصُوفِ سِوَى جَبَّتِي هَذِهِ وَثَوْبِي هَذَا الصُّوفِ ، وَالشَّبَابِيكَ جِيُوبِهِ وَأَطْوَاقِهِ ،  
وَلَا عَجَبُ أَنْ نَفَحَّتْ فِيهِ مَبَاخِرُ الطَّيْبِ فَإِنَّهَا قَرَاطِيْسُهُ وَأَوْرَاقُهُ » . وَكَأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْمَقَامَةِ رَمُوزٌ  
صُوفِيَّةٌ جَلَّاهَا عَبْدُ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيُّ فِي تِصَاوِيرِ الرِّيَاضِ وَالْقِصْرِ وَتَهَاوِيلِهِ . وَحَرَى بِنَا أَنْ نَقْفَ قَلِيلًا  
عِنْدَ ابْنِ الْوَرْدِيِّ أَهْمَ كِتَابِ الْمَقَامَةِ الشَّامِيِّينَ .

(٦) الشيد : كل ما طلى به البناء من جص وغيره

(٧) قاصرات الطرف : خجلات حبيبات . عين :  
جميلات واسعات الأعين .

(٨) الأرائك : مقاعد متجددة المنوعة : أي عن الناس

(١) العقيق : حجر كريم أحمر . فتيق : فائح .

(٢) الأذريون : زهر شديد الصفرة . والعسجد : الذهب

(٣) جياذ هنا : جمع جيد أي عتق .

(٤) نفحة الريحانة ١٥٢/٢ وما بعدها

(٥) مشيد : عال مرتفع .

ابن الوردى<sup>(١)</sup>

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد في المعرة بلدة أبي العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر في الدرر : بل نشأ بحلب وهي حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيها وفقهها ومفتيها الشافعي شرف الدين البارزى . وتقل في بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله في الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزملاكانى قاضى قضاء الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله في ابن الزملاكانى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه : ورأى ابن الزملاكانى فيما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولّى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبنا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى في الفقه الشافعي في منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود في شعراء القرن الثامن النابيين ، ويقول ابن شاکر : « أجاد في المثنو والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . وديوانه كبير وهو مطبوع في الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكي في ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفي رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبداع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات في الديوان المقامة الصوفية ، ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية في مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم في الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه معه مقاماته ورسائله مطبوع في الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

(١) انظر في ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكي ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وقوات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبسًا ، وخالفوهم أنفسا . والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردي في مقاماته ، يقول (١) :

« حكى إنسان ، من معرّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بواد وقانا لفحة الرّمضاء (٢) ، وقال : حكمت على الوادى الذى تروع حصاه حالية العذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر ، فرويت كبدَ صادٍ (٣) من تلك العين ، ولكن نُغصّ منظرها الحسن بذكر ظمًا الحسين . »

وقد تصنع ابن الوردي في أول مقامته لمصطلح التعريف والتنكير في النحو ، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر في وصف واد للمنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ سقاه مضاعفُ الغيثِ العميمِ  
تروع حصاه حالية العذارى فتلمسُ جانب العقدِ النظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلّ ابن الوردي ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله في كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نُغصّ في قراءة المقامة لئراه وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردي مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة في حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور ، وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردي بمدرسها النورية ، فإذا مدرستها

(٣) صاد : عطشان شديد العطش

(١) الديوان ( في مجموعة طبعة الجوائب ) ص ١٣٣

(٢) الرّمضاء : شدة الحر

القاضي حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوون نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتي شعر ، سامهما <sup>(١)</sup> فضل سر ، وأقام وزنها ، وقال إنهما وإنهما ، وأنا رسول أصحابي إليك لتتصف بيننا وقد دُلت عليك » فقال له : قل ما أردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل وغير الغزل ، والقاضي يعلق تعليقات نقدية بديعة .  
وحينئذ رجع المعري إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقي شخصٌ معرّيٌ أميراً يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة وما يجري فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصراري والجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضي القضاة ابن الزمكاني الذي أمر بإبطالها وشدد في النكير عليها ، ويدعو له قائلاً :

« لازل نداء <sup>(٢)</sup> مثل حرف النداء ، كفيلا بضم الأقرين والبعداء ، من وُصل به نال عُرُفا <sup>(٣)</sup> ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفًا ، حتى يكون علمه علماً منصوباً ، وعواطفه للمعارف خيراً مبتدأ به منصوباً ، ولا برح مرفوعاً بفعل الحسنى ، وسيوف بجوئه ماضية فهي على الفتح تُبني » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو في عبارات الثناء على ابن الزمكاني وسجعاته ، فلا زال ابن الزمكاني مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهي العطف والنعت والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوباً » وأراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده في هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائماً ولكن من حين إلى حين تلقانا في نثره هذه الرقع التي تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة في وصف حريق دمشق الذي وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق في وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى في الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيراً منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق في

(٣) العرف : المعروف

(١) سامهما فضل سر . غالى بها في السعر

(٢) نداء : كرمه

وصف الحريق» . وله رسالة بديعة في وصف وباء الطاعون الذي فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسميا ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء في الديوان - باسم رسالة أولى لغيب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التي كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهي رسالة طريفة .

## ٤

### المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب المساجد كل يوم جمعة وفي العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تروج بخطب الوعظ وإن لم تكن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول ما يلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القصاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعين للقصاص مرتبات <sup>(١)</sup> خاصة . ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثاني وفي مقدمتهم الأوزاعي صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حياً مزدهراً في القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلاً عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقي بأبي العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجد يقول : « إن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفري » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له في النثر دعاء

(١) انظر في ذلك كتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي

( طبع دار المعارف - الطبعة التاسعة ) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون لنا سهلاً . وله كتاب تاج الحرة ، وهو في عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديماً من يد الزمن ، وبقي من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بمحدث عما قليل .

ويحتمد الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية في نفوس الناس ، حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محي الدين محمد بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها ، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه ، وسلم بخطبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المهذب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصهباني - كما يقول بخريدته - بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعدُّ سبط ابن الجوزي يوسف بن قزوغلى أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكناً ودار إقامة . وكان قد نشأ في حجر جده ابن الجوزي واستمع إلى مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشرف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمتزلة العظمى ، وكان له لسان حلوفى الوعظ والتذكار ولكلامه موقع في القلوب <sup>(١)</sup> » ويصف أبو شامة مجلس وعظه في كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالاً ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق ، وجامع الجليل ، حضرت مجالسه صغرى وكبرى في الموضوعين مرارا ، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفضَّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر . وكان يجلس [ للوعظ ] كل سبت وتُبْسَطُ السجادات والحُصُر والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر ما بينه وبين القبة في يوم الجمعة ،

وبييت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن» (١).

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المالك ابن غانم المقدسي ، وله حوار طريف مع إبليس سماه «القول النفيس في تفتيس إبليس» وهي رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغي . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» وستحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة ، ويقول ابن حجة : «لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذى أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعه» (٢) . ولاريب أن الخطابة الدينية اطرد لها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

### (١) خطب ابن (٣) نبأته الفارقي

ابن نبأته الفارقي هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : «صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجوده قرحتته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نبأته من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطُبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر الحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ، ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

«أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تظمعوا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم يا عباد الله

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩ (٣) انظر في ابن نبأته الفارقي ابن خلكان ١٥٦/٣

وعبر الذهبي ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

(٢) خزنة الأدب ص ٢٠



الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوتٌ ولا تعجيل ، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل ، كم ألقى عليلاً بصحيح وصحيحاً بعليل ، وكم أخذ قريباً من قريب وخليلاً من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فلئ متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل .  
ولغة ابن نباتة فى خطابه عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مرينا عند العباد الأصهبانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنها كم أن تُحبطوا صيامكم بالغيبة والنميمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسحور ، يا غافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، يا هانما فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. يامائلا إلى زهرة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، يا عادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم الشُّور » .

وهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابه ببيانه الرائع .

### (ب) الفصول (١) والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة (٢) للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الخنفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة (٣) ، ولعل من أسبابها أنه سمي الكتاب :

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية  
القصر ١٣٠/١ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١  
(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زنائى) وقد  
نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف  
الحاء .  
(٢) راجع سفرنامه لناصر خسرو (الترجمة العربية

« الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتمجيده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول في كتابه : « علم ربنا معلم ، أنى ألقت الكلم ، أمل رضاه المسلم ، وأتى سخطه المؤلم ، فهب لي ما يبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلث حتى ليقول (١) :

« لو نقلت مياه اللُّجج على منكبي في قُذاف (٢) ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجررت كُثبان الأرض وصرائمها (٣) في جرٍّ أو مِشاة (٤) ، فألقيتها في الخُضَر (٥) الدائمات ، حَفْدًا (٦) لله كنتُ أحدَ العجزة المقصّرين ، ولو أذن لي وأيدتُ فاتبنتُ مراهص (٧) من الثرى الأسفل إلى الثريا ، ومن الورد ، المتخذ من عود إلى وتد السُعود (٨) ، لم أؤد ما يوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وهو يقول : مها تنسك ومها أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جر كُثبان الأرض كُثيبا وراء كُثيب في زنايل وألقاها في لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابنتي من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ما توجهه بحلة الله وعظمته . وإنه ليصبح مبتهلا إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهب لي عينين كأنهما غامتا شتى (٩) تَبِلان (١٠) الصباح والمساء (١١) » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . وهذه الصيحة أخوات كثيرة في الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناجي ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السعود : سعد الأخيبة : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحبا دائم المطر

(١٠) تَبِلان : تهطلان ، من الويل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قذاف : جرة

(٣) صرائم : جمع صرمة وهي القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشاة : زليل

(٥) الخضَر : اللجج

(٦) حَفْدًا : خدمة

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائماً . وليس هذا كل ما صعبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجمات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة ، وإنما لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيرا ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهاً لبعض مصطلحات علم الصرف (١) .

« لا تجعلنى ربُّ معتلاً كواو يقوم ، ولا مبدلاً كواو موقن من الباء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربَّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولاغناء ، مشبهها لايجب من التسميات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها ميقن ، فقلبت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنها مشتقتان من الجدول والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيرا من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ما قدمناه لناخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلا وتحليلا .

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محبي<sup>(١)</sup> الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كانوا قضاة في دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاة قضاءها ، حتى إذا فتحت القدس ، وكان محبي الدين حاضرا فتحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة ، وأعد من كانوا في حضرته خطبا بليغة يخطبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محبي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع في الخطبة . وقال<sup>(٢)</sup> فيها .

« الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قدر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضلته ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمدته على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أباشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة<sup>(٣)</sup> ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتدالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة<sup>(٤)</sup> الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار . وهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت<sup>(٥)</sup> بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرّ به عينا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعزوتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الردى ،

١١٠/٢

(١) انظر ترجمة محبي الدين في طبقات السبكي

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفي المثل :

١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبي ٢٠١/٤

الحكمة ضالة المؤمن

والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦

(٤) إماطة : تحية وإبعاد

والشذرات ٣٣٧/٤

(٥) تبلجت : أشرقت

(٢) انظر الخطبة كاملة في ابن خلكان والروضتين

ورجوع القهقري .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر» .  
والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح  
المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بدر وفتوح الشام ومصر والقادسية  
وهجرات خالد والصحابة الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

### (د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن <sup>(١)</sup> غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور  
لزمته المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب في ٣٠ صفحة ، ذكر في مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلاً :  
« قد وضعت كتابي هذا مترجماً عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتني به  
الأزهار بلسان حالها ، والشحارير عن مفاصلها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور  
والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار» . ويقول إنه  
خرج يوماً ليتأمل في الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقت نسيمها وغنى عندليها ، وكان  
وحيداً وأخذ كل ما حوله يخاطبه بلسان الحال دالاً على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم  
صنعه ، وسجل من ذلك عظات بليغة على السنة الأزهار ثم السنة الطير ثم السنة الحيوان . وبدأ  
بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار  
وأحد عشر نوعاً من الأزهار استهلها بالورد قائلاً على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقتي فالوقت  
سيف ، أعطيت نفس العاشق وكسيت ملاحه المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع في  
بقائي فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدر ، والعيش المحرور ، أني حيثما نبت رأيت  
الأشواك تراحمني وتجاورني ، فأنا بين الأدغال مطروح ، ونبال شوكتي مجروح . وهذا دمي على  
عندمي يلوح ، وهذا حالي وأنا أطف الأوراد ، وأشرف الورد ، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ  
المراد» .

وختم ابن غانم الكلمة بالعبارة التي يريد بها ، وجعل الورد ضيفاً على الطبيعة ، لأن مدة بقائه  
فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذقت الناس فيها من حلاوة  
العيش لا بد أن تجمع إليهم شيئاً من مرارته فليست الدنيا ورداً خالصاً ولا حياة لإنسان فيها دائماً

لابن الغامد ٣٦٢/٥ .

(١) انظر في ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن

كثير ٢٨٩/١٣ ومرة الجنان للباغى ١٩٠/٤ والشذرات

مشرقة زاهية بل لا يبد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل وآس وسرور وخزن ، وحرى<sup>١</sup> بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذى ظلما ذكر المحبون فى لينة وتمایل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد أتقد ، وإلى الحبّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما التجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشرّبها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صمد ، وموجدتها بالقدرة قد انفرد ، لا يشاركه فى ملكه أحد ، ولا يفتقر هو إلى أحد ( لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ) .

وهى عظه بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب الثمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وما أعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التى لا يشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثلته شىء وهو على كل شىء قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيّار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا الهائم اللّهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدنى فى الرياض فرحان ، وفى الغياض<sup>(١)</sup> أردد الألحان . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لى عيدان<sup>(٢)</sup> ، وانت تحسبنى فى ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست فى يمينى حانتا ، أنا أنوح حزنا لاطربا ، وأبوح ترعا لافرحا ، لأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلها ، ولا خضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنى مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت فى تمثال العرفان ، كلُّ من عليها فان » .

والهزار فى أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان ما يفكر فى انتهائه ، فيندب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل ما فيها من صفاء لا يلبث أن تغشاها كدرة قائمة ، وكل ما فيها من عيش حلولا يلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل ما فيها هالك فان . وسعد من كتبت له السعادة ، وشقى من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف

المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويحتم حديثه عنها بكلام على لسان الغملة إذ تقول :

« إذا رماك الدهر بمرمى قم له ، وإذا رأيت من تيباً للسير فسِرْ قبله ، ولا تكن في تدبير عيشك أبله ، تعلم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كُلفت جمع المثونة بتيسير المعونة ، وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبر ما أدخره من الحب لقوتي ، في بيوتى » .  
والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير في الطريق السديد ، واعياً لحكمة الله في خلقه ، متعظاً بما تورده عليه الحيوانات والأطيوار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء تيرله دنياه ، وتعدده إعداداً حسناً لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقاً مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ أبدة غريبة ، وتتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعاً .

٥

### أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل :

خَلَّفَت الشام في هذا العصر أعمالاً أدبية كثيرة ، ويلقانا في مفتحه كشاجم ، وله كتاب المصايد والمطارذ عرض فيه الصيد وآلاته وما قيل فيه من الأشعار عرضاً طريفاً ، وله بجانبه كتاب في البيزة أو بعبارة أخرى في جوارح الصيد ، وكتاب في أدب النديم . ولأبي العلاء المعرى أعمال أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسنلم بها عما قليل ، وفي خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفي الخريدة أيضاً رسالة <sup>(١)</sup> طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شاباً سنة ثمان أو تسع وستين وخمسائة ، وموضوعها معاشر الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غُصّة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تندمل كلومها ، وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض في وصف الصيد وماركبوها فيه من خيل وما حملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبزاة وشواهين ، ويطنل في بيان صيد

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام)

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق فى فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه ما نظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وماروى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شيزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جَرَّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها <sup>(١)</sup> حَوْلَهُ وَحَيْلَهُ <sup>(٢)</sup> ، فأصبحتُ (كأن لم تُعْنِ بِالْأَمْسِ) موحشة العرصات بعد الأُنس ، قد دَثَّرَ عمرانها ، وهلك سكانها ، فعدت مغانيها <sup>(٣)</sup> رسوما ، والمسرات بها حشرات وهموما » وهو كتاب ضخيم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة ، وقد جعله فى ستة عشر فصلا : فى المنازل والديار والمغانى والأطلال والربيع والدَّمَن <sup>(٤)</sup> والرسم والآثار والمسكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخسه بكلمة . ونمضى إلى زمن المالك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطبيعة والطيور والحيوان والأخلاق وسنلم به عما قليل .

ونلتقى فى زمن المالك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

(٣) مغانيها : منازلها

(٤) الدمن : آثار الديار

(١) تعفيتها : دنورها وطمسها

(٢) الحويل : الحول والقوة



وبأخرة من عصر الماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرده له كلمة .

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، وملتقى بهاء الدين العاملى الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله الخلاة ، وهى كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادير ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو فى مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحامسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

### (١) رسالة<sup>(١)</sup> الغفران

رسالة طويلة فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلى بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وهى تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة فى الجنة يلقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفِرَ لَهُمْ ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظاراً لمصيره وقد ظل فى المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظمأ ، وكان معه صك التوبة ففكر فى دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَظَّمَ القصائد الطوال فى مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام على بن أبى طالب ، ورأى أبا على الفارسى يحاوره نفر من شعراء البادية فى تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبى طالب منه شاهداً على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الخيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غربية ، ويطلع فىرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر فى رسالة الغفران ( طبعة أمين هندية ) ( المعارف )

(و) طبعة د . بنت الشاطى ) وهى طبعة محققة ( نشر دار

أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْحَى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالخطيئة والخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامراً القيس وعنزة واثني عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبي وبخاورهم جميعا . ويعود فيلتقي بآدم عليه السلام وبعض الحيات التي ظلمت في الدنيا ، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجَاز ، وبخاورهم في أرجازهم حوارا طرفيا . وتنتهي رحلة ابن القارح على الصراط وماشاهد من عذاب في الجحيم ومن نعم لا يماثله نعيم في الجنة ، ويفضي ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول في الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العالمية ، إذ كتب دانتي الشاعر الإيطالي المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين .

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبي العلاء عن الزنادقة والزنادقة ، وقد استهلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه في زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرقة الأدب وهمومها ، ودفع عن المتنبي ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألها كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك في عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه ، وفي مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كاهنود وبالخلول من الصوفية كالخلاج ، وأصلى ابن الراونديّ الزنديق<sup>(١)</sup> هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الدم والتفريق ، ومن قوله في التاج وهو أهم كتب ابن الراوندي الكافرة : لا يصلح أن يكون نعلا ، وأفٌّ وثُفٌّ ، وجورب وخُفٌّ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ في مسجد بجلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وبعض علماء حلب وتبليات العرب في الجاهلية وبعض مسائل فرعية .

(١) راجع في ابن الراوندي وإلحاده والرد عليه كتاب

من تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صَوَّرَ فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق في حوارهِ مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وما ذكر من قصائدهم . وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثيرة في زمنه وما فيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أُنحى بدمٍ عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمَّلَ الرسالة سخرية من الدين الخفيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذي ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لا يكتفى بالإغراب في ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا في غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهدِه في العقد الثالث من القرن الرابع .

### (ب) رسالة (١) النَّسْر والبلبل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان الدمشقي ، ترجم له العباد الأصبهاني في خريدته . وقال إنه زاره في مدرسته العمادية التي كان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنَّسْر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. « ثم ذكر - فيما يبدو فاتحتها ، وهي تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاء غبطة وفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أنى ملك الطيور ليس لى شيء من سحره وجماله ؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسْر على هذا النمط :

طار طائرٌ عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفلق (٢) وانخرق قيص العسق (٣) مشهور بالقسر (٤) ، موسوم بالنَّسْر ، والليل قد شابَتْ ذُوَابته (٥) ، وابيضَّت قته ..

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ٣٤٠/١ (٣) العسق : الليل .

وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره في

كتاب المحمدون من الشعراء والوفاء بالوفيات ٣٣٠/٢ (٤) القسر : القهر

(٥) الذُوَابية : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة

واضحة

(٢) الفلق : الصبح

كأنما أجنحته رُكبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رُشِق (١) عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق في أفق السماء . . يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويبسط يجرح بأسنة قواده (٢) أعطاف القبول (٣) وأطراف الصُّبا ، ويُقدِّد الشمال بخوالف (٤) كأنها غروب (٥) الظُّبا ، ويفتق بخوافيه (٦) جُيوبَ الجنوب (٧) ، ويخرق بصدره صدر الرياح في الهبوب . . حتى أشرف . . على روض أريض (٨) . وظلُّ عريض ، وأنهارٍ متدفِّقة ، وأشجارٍ موقنة ، وظلُّ مثور ، ووَرْدٍ ومثور (٩) ، ومكانٌ بهج ، وزهرٌ أريج . . فن ورِدٍ فضيُّ الأوراق ، ذهبيُّ الأحداق ، كافوري الصَّبغة ، مسكى الصَّبغة ، مائيُّ الجسم ، هوائيُّ الرسم ، حاكت (١٠) الصُّبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وفَتَّحتَ الجنوب أكامه ، وحسرت (١١) الذُّبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر في أفق الشجر ، كأنه شهب السَّحر ، أو حدود الحُور في القصور ، ظهرت في غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وتترنَّح وتعتنق ، والنسائم تُحلُّ عُقدَ أززار الزَّهر . . . والشمس تُسفر وتنتقب ، وحاجب الغزاة (١٢) يبدو ويحتجب . . فوقف [النسر] في الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح . . وبيننا هو صافُّ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبلٍ سحريٍّ على وَكْرٍ شجريٍّ ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنَّة أوتاره . . وألحان أعذب من نقرات المزهار ، ينثر درأ من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَفِ افتنانه بين أفنانه (١٣) ، ويرجعُّ قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه . . كأنها ما قبل عن مزامير آل داود وتساويحهم في الركوع والسجود . . أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى (١٤) جنوهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ في المزمار ، فرأى البلبل يرجُّ سجع ألحانه في ربيع أحزانه . .

- |  |   |
|--|---|
| (١) رشق : رمى                                | (٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر           |
| (٢) القوادم : الريش الطويل في مقدم الجناح    | (٩) المثور : زهر له رائحة ذكية                |
| (٣) القبول : ربيع الصبا الشرقية              | (١٠) حاكت : نسجت                              |
| (٤) خوالف : جمع خالفة هي الريش في مؤخر النسر | (١١) حسرت : كشفت . والذُّبور ريح تهب من الغرب |
| (٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد - والظبا :   | (١٢) الغزاة : الشمس .                         |
| جمع ظبة وهي الحد للرمح ونحوه                 | (١٣) أفنانه : أغصانه .                        |
| (٦) الخوافي : الريش القصير في الجناح         | (١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوهم عن     |
| (٧) الجنوب : ربيع جنوبية                     | المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .                |

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعتها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب في هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بحفنة لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره . ويقتن النسر صوتُ البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما في نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهي أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصفران : القلب واللسان ، ما يكون الدر بقدر الصدف ، وشتان ما بينهما في القيمة والشرف ، ولا الآدمي كالفيل ، وبينها بؤن في التفصيل .. وأما النعمة التي قرع سمعك سوط لذتها .. فإنني رصعت شذرها<sup>(١)</sup> في عقد ألحاني على نغم بعض الأغاني » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كوّن ألحانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولى النهار وصبغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشعلُ له الشموع وتصطف القيان وصفوف الحور والولدان وترجع الأنغام والألحان ، ويتقضى ليلهم في لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألحانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحدو حذوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت في الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووجه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويظيل المهذب في العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدرك الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجدل في طلب المنى دون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن الغفلة وما يشبه الغفلة .

### (ج) كتاب الاعتبار<sup>(٢)</sup>

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب في برستون سنة

١٩٣١ وراجع ما كتبناه عنه في كتابتنا : الترجمة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

شيزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتقل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف مشاهدته واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب ، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفافيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم في بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر في صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لا توجد عندهم غيرة على نساءهم ، ويصورهم متخلفين في الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة ( في أعلى الشام ) كتب إلى عمى أمير شيزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دُملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء ( فكيف ) يداويها ؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة ( قطعة ) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضره وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضره ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من ماكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ موسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا فنجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه . »

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم وما أخذوه من العادات الإسلامية الشرقية في المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولا أى نسق تأليفي ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لانتصع فيه ولا تكلف ، فلا سجع يداخله ولا محسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيبتها يصف ما شاهد وصفا نابضاً بالحياة في لغة سهلة ، حتى لتقترب أحياناً من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفاً ، ففيها بعض الخطأ في الإعراب وفي نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لا يتصل في الذكريات اتصالاً من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبي الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحياناً كلمات إنجليزية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل ما يتصل به من لغة الناس لزمته . وفي الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حرية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

### (د) نسيم<sup>(١)</sup> الصبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعدُّ طريقة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقي المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عين محتسباً بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والحليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفي سنة ٧٧٩ . وله تاريخ في سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه في أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله في السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب في أشرف المناقب ، والمقتني في ذكر فضائل المصطفى .

والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريط الصفدى لنسيم الصبا بين يدي طبعته سنة ١٢٩٠ هـ .

(١) انظر في نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١١٨٩/١١ .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصبا » وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً ، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحياناً أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعفاف والشكر والثناء والتهنئة والثناء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينها من الفراق أو يرضيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس . ونشر دائماً بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عبابه :

« هزَّتني رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثَبِج<sup>(١)</sup> البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسفر متواها ، وركبتُ فيها (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) .. يالها سفينة ، على الأموال أمينة ، ذات دُسُرٍ<sup>(٢)</sup> وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جناح ، وتعتاض عن الحادى<sup>(٣)</sup> بالملاح ، تخوض وتلعب ، وترد<sup>(٤)</sup> ولا تشرب ، لها قلاع كالقلاع<sup>(٥)</sup> ، وشراع يحجب الشعاع ، وسكينة<sup>(٦)</sup> وسكان<sup>(٧)</sup> ومكانة وإمكان ، وجوؤ<sup>(٨)</sup> وفقار<sup>(٩)</sup> ، وأضلاع محكمة بالقار<sup>(١٠)</sup> .. بعيدة ما بين السحر والنحر<sup>(١١)</sup> ، من أحسن الجوارى<sup>(١٢)</sup> المنشآت في البحر ، معقود بنواصيها<sup>(١٣)</sup> الخيز كالخيل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سرى الليل :

- (١) ثَبِج : وسط .  
 (٢) دُسُر : حبال .  
 (٣) الحادى : سائق الإبل بالهداء وهو الغناء للإبل  
 (٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه  
 (٥) قلاع الأولى : شراع السفينة جمع قلع . وقلاع  
 الثانية : جمع قلعة وهي الحصن  
 (٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دثها  
 (٧) الجؤجؤ : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة  
 وهي الواحدة من عظام سلسلة الظهر  
 (٨) القار : القطار  
 (٩) السحر : الرثة ، النحر . أعلى الصدر  
 (١٠) الجوارى : السفن  
 (١١) نواصيها : مقدماتها . وفى الخيل : الشعر فى مقدمة الرأس



ما رأى الناس من قصورٍ على الماء سواها تَسِيرُ سِيرَ القِدَاحِ (١)  
 كأنها وَعِلٌّ (٢) ينحطُّ من شاهقٍ ، أو عَرَبَاضٌ (٣) سابقٌ يَحْتَكُهُ سائقٌ ، أو عقرب سائله (٤) ،  
 أو عُقَابٌ صائِلَةٌ (٥) .. حاكمها (٦) عادلٌ في حكمه ، عارفٌ ينقضُ أمرها وبَرَمَه (٧) ، يهتدى  
 بالنجوم ، ويبتدئُ باسم الحى القَيُّومِ .. وبيننا نحن من البحر في قاموسه (٨) ، كتب الجَوْ حروف  
 الغيم في طروسه ، وثارَت رِيحٌ عاصفٌ ، يتبعها رعدٌ قاصفٌ ، فالت بنا الفلْكَ (٩) واضطربت ،  
 ودنت شفتها من رَشْفِ الماء واقتربت ، واستمرت تعلو على الأوتاد (١٠) ، وتهيم في كل وادٍ .  
 وتضرم في الكبود نار ناَجِرٍ (١١) ، إلى أن ( بلغت القلوب الحناجر (١٢) ) .. ثم نظر إلينا من لآ  
 تحق عليه السرائر ، وأمر الجارية (١٣) بِحَمْلِ عبيده إلى بعض الجزائر .

ونزلوا الجزيرة وتزهوا في رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحبصاؤه درر . ويمضى ابن  
 حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يمتع الآذان والأذهان  
 يجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين  
 تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقررًا له : « لقد أشبه الدر فى  
 انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقَطْرُ الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البُكْرِ إذا غنت على  
 غصونه مطرباتُ حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح  
 بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا أنتقى جوهره وأجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين  
 بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائما يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

- 
- |   |   |
|---|---|
| (١) القداح : السهام                       | (٩) الفلك : السفينة                             |
| (٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى             | (١٠) الأوتاد : الجبال                           |
| (٣) العرباض : البعير الضخم                | (١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة                |
| (٤) سائلة : رافعة ذنبها                   | (١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت          |
| (٥) صائلة : واثبة جائلة                   | الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من |
| (٦) حاكمها : ربانها                       | الفرع   |
| (٧) برم الجبل ضد نقضه والاستعارة واضحة    | (١٣) الجارية : السفينة                          |
| (٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجنة العظيم |   |

(هـ) فاكهة<sup>(١)</sup> الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها ، حتى كانت طامة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشعالم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علماءها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفي الذي أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على أثنى حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بجلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة تيمور سماها عجائب المقدور في نواب تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة - كما أسلفنا - في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفي سماه « مرزبان نامه » طبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفي بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة .

وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبي المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير الملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيراً له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه . فجمع الملك

(١) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عربشاه

النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوي ١٢٦/٢

الخلفاء

وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول في ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وقُتل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساساني الذي كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثاني في وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع خنته أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وماينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان مايامل ، ويأمن مايجذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطيور على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على ألسنة الوحوش وماهو غير مألوف الطبع من البهائم والسباع وأصناف الأطيوار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها الطباع ، لأن المألوف منها اقرارف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفتنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقها الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يغرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عائه وتعبه في زرع غرسه ونصّبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكر خان الذي طمَّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفتنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلجُّ الكتاب على

أن المال الذي في خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغي أن يُنفق في مصالحها وحوائجها ، وهو في يد الحاكم أمانة ، وصرفه في غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارئة الأخلاق الحميدة والشهائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة في الدين . وفي كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد في الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلمها يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلائها مما جاء في بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك في أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأفاصيص خير ما قرأه في الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعلية الناس وصعاليكهم . ولا بد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكي كليلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ما قرأه في كتاب سلوان المطاع في عدوان الأتباع الذي ألمنا به في حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة في مقدمته للكتاب ، وحكمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر .

وفي الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلم من شئون السياسة والحكم وبما يهدي إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتسب ، وذرائل تجتنب ، وما أروع الحكمه التي أجزاها على لسان بعض الملوك في قوله لأبنائه ناصحا : « يابني اكتبوا العلم والفضل وادّخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

# خاتمة

١

تحدثنا عن مصر في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي الشام في عصر الدول والإمارات الذي يمتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وبدأنا حديثنا بعرض التاريخ السياسي لمصر منذ فتح العرب لها وبيان ماتعاقب عليها من حكم الولاة زمن الدولتين الأموية والعباسية ، وحكم الدولتين الطولونية والإخشيدية ثم الدول الفاطمية والأيوبية والمماليك مع بيان الدور الذي نهضت به مصر في سحق الصليبيين والتتار ، ثم ما كان من محتتها بالحكم العثماني . وكان يتوزع مجتمعا ، كغيره من مجتمعات البلدان الإسلامية - ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية هي طبقة الحكام وكبار الإقطاعيين والتجار ، وطبقة وسطى وتشمل العلماء ، وطبقة دنيا وتشمل الصناع والفلاحين وصغار التجار . وكان بجوار هاتين الطبقتين أهل الذمة وخاصة من القبط ورقيق كثير . وكانت مصر طوال العصر تنعم برخاء أعدائها لانتعاش واسع في الصناعة والتجارة وكثرة الأعياد فيها الإسلامية والقبطية ، وقد حمل إليها الفاطميون المذهب الإسماعيلي الغالي في عقيدته الشيعية ، وظلت مصر منصرفة عن هذا المذهب لاعتدال في مزاجها وأنها تعرف عن التطرف وظلت تقبل طوال العصر على الزهد والتصوف وازدهرا بها في عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية وكثرت زوايا التصوف وخانقاهاته وطرقه وأعلامه وأتباعه .

وكانت تجرى في مصر من قديم بجانب نهر النيل جداول كثيرة للثقافة والمعرفة التطبيقية في الزراعة والهندسة والطب ، وظلت هذه الروح العلمية في مصر ناشطة طوال عهد البطالمة والرومان ، ولم تلبث جذوتها أن اتقدت في الحقب الإسلامية الأولى ، فإذا المغرب يأخذ عنها قراءة ورش للذكر الحكيم وتظل منتشرة به إلى اليوم ، وإذا هي ترعى مذهبان فقهيان كبيران وتنتشرهما في أقطار العالم الإسلامي ، وهما مذهب مالك والشافعي . ويضع مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة . وينفذ متصوفها الكبير ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف الإسلامي . ويؤسس الفاطميون دار العلم ، وكانت جامعة كبرى مزودة بمكتبة نفيسة . ويكثر فيها صلاح الدين وأسرته الأيوبية من إنشاء المدارس العلمية : الفقهية وغير الفقهية ، ويصنع

صنيعهم الممالك ، وكانت المساجد والجامع تشترك في نشر الثقافة . وتصبح مصر موئلا لعلماء العالم الإسلامي شرقا وغربا وخاصة بعد غزو المغول لبغداد وخروج المسلمين من صقلية والأندلس ، وأيضا تصبح حامية للثقافة الإسلامية والعربية . وفي كل مجال يلقانا علماءها في الفلسفة وعلوم الاوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا . وتنهض فيها علوم اللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية ، وحتى في زمن العثمانيين . ويكثر التأليف في البلاغة والبديع والنقد منذ ابن وكيع التنيسى في القرن الرابع الهجرى ، وتزدهر بها علوم القراءات والتفسير والحديث والفقهاء في مختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام . ويتكاثر العلماء الأعلام في كل هذه العلوم . وتنشط كتابة التاريخ نشاطا واسعا : السيرة النبوية الذكية والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء .

وتأخذ مصر في التعرب منذ الفتح الإسلامي ، ويدخل كثير من أبنائها في الإسلام ، وحتى القبط أو من بقي منهم على دينه المسيحي يأخذون في التعرب ، ويتم تعربهم في القرن الثالث الهجرى . ويتصل في مصر نشاط للشعر ، ويظل هذا النشاط محدودا زمن بنى أمية ، ونزلها -وزارها - بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق ، ويتسع نشاط الشعر قليلا زمن ولاتها من العباسيين ، وينزلها أبو نواس وأبو تمام . ويتردد هذا النشاط في الفموزمن الدولتين الطولونية والإخشيديية ، ويأخذ في الازدهار زمن الدولة الفاطمية ، ويفرد الثعالبي في اليتيمة وتمتمها والباخرزى في دُمية القَصْر قسما خصوصا بشعرائها في القرن الرابع وشطر من القرن الخامس . ويتردد لمصر هذا الازدهار بقية حكم الفاطميين وطوال حكم الدولتين الأيوبية والمملوكية ، ويسجل العماد الأصهباني في القسم الخاص بمصر في خريده شطرا كبيرا منه يصور مدى ما كان بها في القرن السادس من نهضة شعرية ، وتكثر الدواوين المطبوعة في عصرنا لشعرائها . ويتكاثر النظم في الشعر الدورى والرباعيات والموشحات ويشتهر بالنظم فيها العزازى وابن الوكيل الديقاطى . كما يتكاثر استخدام الألوان البديعية . وفي كل زمن ومع كل دولة تلتقى بشعراء المديح ، وفي مقدمتهم المهذب بن الزبير وابن قلاقس وابن سناء الملك وابن نباتة وعبدالله الشراوى ، ويصادفنا كثيرون من شعراء المرأتى والشكوى من أمثال على بن الضر وعلى بن عرام وابن النقيب : الحسن بن شاور وعبدالله الإدكاوى ، وتلتقى بشعراء الدعوة الإسماعيلية يتقدمهم ابن هانى الأندلسى والمؤيد فى الدين الشيرازى وظافر الحداد الإسكندرى .

وتتكاثر طوائف الشعراء ، وأول من تلتقى بهم شعراء الغزل وقد بثوا فيه حيننا ووجدنا ملتا على وشغفا ظامنا ، مما أعدّ لضرب من الشعر الوجداني المليء بلواعج الشوق والتضرع والاستعطاف واللهفة واللوعة على نحو ما نقرأ عند ابن النيهه والبهاء زهير وابن مطروح وبرهان الدين القيراطي ونور الدين العسيلي . ويتغنى الشعراء بمفاخرهم وبأهاج فردية واجتماعية ، على نحو ما نجد عند تميم ابن المعز وطلائع بن رزّيك وابن الذرّوى وأحمد بن عبد الدائم وحسن البدرى الحجازى . وتعمقهم الشعور بجمال الطبيعة المنبتة فى النيل وضافه ووديانه ورياضه ، ونعموا بمجالس هومتمعة فى المنتزهات والأديرة ، مما نلجده مائلا عند ابن وكيع التنيسى والشريف العقيلي وابن قادوس وعبد الباى الإسحاقى .

وتغنّى شعراء الزهد والتصوف للشعب مشاعره الدينية مما يتصل بالتقشف والحب الإلهى والمديح النبوى على نحو ما نجد عند ابن الكيزانى وابن الفارض والبوصيرى ومحمد بن أبى الحسن البكرى . ومجبة المصريين للفكاهة والنادرة مشهورة ، مما نراه مائلا على السنة كثيرين من الشعراء مثل ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق وابن دانيال ومسرحياته الفكهة وعامر الأنبوطى . ويتزع نفر من الشعراء إلى التعبير فى أشعارهم بلغة الحياة اليومية ، مما أداهم إلى استخدام الأرجال والموالي بكثرة على نحو ما يلقانا عند إبراهيم المعمار وابن سودون .

وتنشط مصر فى الكتابة الديوانية منذ عهد ابن طولون ، ويتوالى عشرات من كتّاب الدواوين منذ الدولة الفاطمية أمثال ابن الصيرفى والقاضى الفاضل ومجى الدين بن عبد الظاهر ، وابن فضل الله العمري . وتتكاثر الرسائل الشخصية بين الأدباء ويبرع فيها ابن أبى الشخباء وابن ممانى وفخر الدين بن مكانس . وتغنّى طائفة من الكتاب بصنع مقامات تُبنى أحيانا على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريرى ، وفى الأكثر تستقل عنها مفضية إلى قصص فكه أو وعظ أو بعض مسائل علمية ، وقد تكون حوارا بين بعض الحيوانات أو بين بعض الأزهار ، وقد يراد بها إلى الهجاء على نحو ما نقرأ عند ابن أبى حجلة والقلقشندى والسيوطى والشهاب الحفاجى . وتلقانا مواعظ وابهالات كثيرة ، ومن أروعها ما نقرؤه عند أبى الحسن الشاذلى وابن عطاء الله السكندرى وأحمد الدردير . وكثرت كتب النوادر التى تعبر عن روح مصر القصيصة الفكهة مثل كتاب المكافأة وأخبار سيويه المصرى والفاشوش فى حكم قراقوش . وبالمثل كثرت كتب السير والقصص الشعبية مثل سيرة عنتر والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة .

وفي القسم الثاني من هذا الجزء تحدثنا عن الشام وتاريخها الأدبي في هذا العصر وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفي عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حقة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حملة الصليب في حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون ثم المماليك وسحقهم للمغول في عين جالوت مشهور . وكانت مصر والشام في أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جحافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع في الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظلما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر في الشام فرق الشيعة من نصيرية ودرروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهم المسمون بالفداوية والحشاشين . وقد مضت الشام تُعنى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والحانقاها والطرقات الصوفية والدراويش .

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وقد نفذت بمجرد دخولها في الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثرت في بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني وفي العناية بعلم الأوائل من رياضيات وطبيعات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ما عُنيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجري يتألق اسم كثيرين من نخاتها أمثال الزجاجي وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسي ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أبو العلاء المعري ، وولتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبي العلاء إلى يوسف البديعي أيام العثمانيين ،



وتنشط بها الدراسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبدالغنى النابلسي في بديعيتيه المشهورتين. وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة ، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزرى في القرن التاسع الهجرى . وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة ، كما تنشط دراسة الحديث النبوى ويتكاثر حفاظه الناهيون ، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى ، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووى الشافعى وابن تيمية الحنبلى ، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعرى . وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء .

وكانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام لاعلى الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب . بل أيضا في داخل البلاد الشامية ، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين ، وكانوا يدينون بدينهم المسيحى . وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامى ، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين . ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر ، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها ، وطوال عصر بنى أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيدية إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبى تمام والبحترى . وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاط سيف الدولة ، على نحو ما يصور ذلك الثعالبي في البيئمة .

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العباد الأصهباني شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة . وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجرى وما بعده . ويكثر الشعر الدورى والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أيدمر الحيوى والمحار الحلبي ، وبالمثل البديعيات والتعقيدات ، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخياط وابن القيسراني وابن الساعاتي والشهاب محمود ومنجك . وتدبج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبى العلاء المعرى ومنصور بن مسلم وابن الجزرى . ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيوس وبهاء الدين العالمى .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير في النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو ما نقرأ عند عبد المحسن الصورى وابن منير والشاب الطريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملثوا الدنيا ضجيجا بمفاخرهم وبسالتهم في سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم وما يرسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو ما نقرأ عند أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . و نلتقي بكثيرين من شعراء المرثى والشكوى مثل ابن سنان الحفاجي والغزوي وقتيان الشاغوري ومصطفى الباي . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بحال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو في المتنزهات والأديرة على نحو ما نقرأ عند الوأواء دمشقي وابن قسيم الحمويّ ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية وما يتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبد العزيز الأنصاري ومحمد بن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وتُعنى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة في عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو ما نجد عند العماد الأصهباني الناثر الشاعر والصفديّ وابن حجة الحمويّ وكانا أيضا ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ما أملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأديباء للشكر وللتهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ما كانوا يراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرانيّ والغزويّ ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولا تعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريريّ ، إذ تُعنى بالوصف أو بالوعظ أو المفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت نخوص في موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردي . وتكثر المواعظ وفي مقدمتها خطب ابن نباته وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لحبي الدين بن الزكيّ وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي . وتكثر في العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

## فهرس الموضوعات

صفحة

٩ - ٥

مقدمة

### القسم الأول : مصر

- ٦٨ - ١٣ ..... الفصل الأول : السياسة والمجتمع
- ١٣ ..... ١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى
- ( أ ) فتح العرب لمصر
- ( ب ) زمن الولاة
- ( جـ ) الطولونيون
- ( د ) الإخشيديون
- ٢١ ..... ٢ - الفاطميون - الأيوبيون
- ( أ ) الفاطميون
- ( ب ) الأيوبيون ( صلاح الدين )
- ٣٤ ..... ٣ - الماليك - العثمانيون
- ( أ ) الماليك
- ( ب ) العثمانيون
- ٤٤ ..... ٤ - المجتمع
- ٥٦ ..... ٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية
- ٦٠ ..... ٦ - الزهد والتصوف
- ١٦٠ - ٦٩ ..... الفصل الثاني : الثقافة
- ٦٩ ..... ١ - الحركة العلمية
- ٨٨ ..... ٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
- ( أ ) علوم الأوائل
- ( ب ) علم الجغرافيا
- ١٠٨ ..... ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

## صفحة

- ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ..... ١٢٨  
 ٥ - التاريخ ..... ١٥١

## ٢٥٦ - ١٦١ ..... الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء

- ١ - تعرب مصر ..... ١٦١  
 ٢ - كثرة الشعراء ..... ١٦٦  
 ٣ - شعر دوري ورباعيات وموشحات وبديعيات ..... ١٧٢  
 ( أ ) الشعر الدوري  
 ( ب ) الرباعيات  
 ( ح ) الموشحات : العزازی . ابن الوكيل  
 ( د ) البديعيات

- ٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزبير، ابن قلاقس، ابن سناء  
 الملك، ابن نباتة، عبد الله الشيراوی ..... ١٨٥  
 ٥ - شعراء المرائي والشكوى ..... ٢١٩  
 على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور .  
 عبد الله الإدكاوی  
 ٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية ..... ٢٣٩  
 ابن هاني . المؤيد في الدين الشيرازي . ظافر الحداد .

## ٣٩٩ - ٢٥٧ ..... الفصل الرابع : طوائف من الشعراء

- ١ - شعراء الغزل ..... ٢٥٧  
 ابن النبيه . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطي .  
 نور الدين على العسيلي .  
 ٢ - شعراء الفخر والهجاء ..... ٢٩٧  
 تميم بن المعز . طلّاح بن رزّيك . ابن الذروي . أحمد بن  
 عبد الدائم . حسن البدری الحجازی  
 ٣ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ..... ٣٢٢  
 ابن وكيع التنيسي . الشريف العقيلي . ابن قادوس . عبد الباقي  
 الإسحاقی

## صفحة

٣٤٢ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية .....  
ابن الكيزاني . ابن الفارض . البوصيري . محمد بن أبي الحسن  
البكري

٣٦٧ - شعراء الفكاهة .....  
ابن مكنسة . الجزار . السراج الوراق . ابن دانيال . عامر  
الأنبوطي

٣٨٦ - شعراء شعبيون .....  
إبراهيم المعمار . الغباري . ابن سودون

### الفصل الخامس : النثر وكتابه ..... ٤٠٠ - ٤٨٩

١ - الرسائل الديوانية : ابن الصيرفي . القاضي الفاضل . محبي

٤٠٠ .....  
الدين بن عبد الظاهر . ابن فضل الله العمري

٢ - الرسائل الشخصية .....  
ابن أبي الشخاء . ابن ممان . فخر الدين بن مكاس

٣ - المقامات .....  
ابن أبي حجلة . القلقشندي . السيوطي . الشهاب الخفاجي

٤ - المواعظ والابتهالات .....  
أبو الحسن الشاذلي . ابن عطاء الله السكندري . أحمد الدردير

٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية .....  
٤٧٧ .....  
( أ ) كتب النوادر

كتاب المكافأة . أخبار سيويه المصري . كتاب  
الفاشوش في حكم قراقوش . هز القحوف .

( ب ) كتب السير والقصص الشعبية

سيرة عنترة . السيرة الهلالية . سيرة الظاهر بيبرس . سيرة سيف بن ذي  
يزن . ألف ليلة وليلة .

## القسم الثاني : الشام

٥٤٣ - ٤٩٣	..... الفصل الأول : السياسة والمجتمع
٤٩٣	١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى
	( أ ) فتح العرب للشام
	( ب ) زمن الدولة الأموية
	( ح ) زمن الولاة العباسيين
	( د ) الطولونيون - القرامطة
	( هـ ) الإخشيدون - الحمدانيون ( سيف الدولة )
	٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل
٥٠٧	زنكي ( نور الدين )
٥١٣	٣ - الأيوبيون ( صلاح الدين ) - المماليك - العثمانيون
٥٢١	٤ - المجتمع
	٥ - التشيع : الإسماعيلية والإمامية . التصيرية . الدروز .
٥٢٩	الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشون
٥٣٦	٦ - الزهد والتصوف
٦٠٣ - ٥٤٤	..... الفصل الثاني : الثقافة
٥٤٤	١ - الحركة العلمية
٥٥٤	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
	( أ ) علوم الأوائل
	( ب ) علم الجغرافيا
٥٦٥	٣ - علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة
٥٧٧	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقہ والكلام
٥٩٥	٥ - التاريخ
٦٨٢ - ٦٠٤	..... الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٦٠٤	١ - تعرب الشام

- ٢ - كثرة الشعراء ..... ٦٠٨
- ٣ - شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات ..... ٦١٢  
 ( أ ) الشعر الدورى  
 ( ب ) الرباعيات  
 ( ج ) الموشحات: أيدمر المحيوى . المحار الحلبي  
 ( د ) البديعيات  
 ( هـ ) التعقيدات
- ٤ - شعراء المديح: ..... ٦٢٥  
 ابن الخياط - ابن القيسرائى . ابن الساعاى . الشهاب محمود .  
 منجك
- ٥ - شعراء الفلسفة والحكمة ..... ٦٤٧  
 أبو العلاء المعرى . منصور بن المسلم . حسين الجزرى
- ٦ - شعراء التشيع ..... ٦٦٧  
 كشاجم . ابن حيوس . بهاء الدين العالمى
- الفصل الرابع: طوائف من الشعراء ..... ٦٨٣ - ٧٧٨
- ١ - شعراء الغزل ..... ٦٨٣  
 عبد المحسن الصورى . ابن منير . الشاب الظريف . حسن  
 البورينى
- ٢ - شعراء الفخر والهجاء ..... ٧٠٠  
 أبو فراس الحمدانى . عرقلة . أسامة بن منقذ . ابن عنين . ابن  
 النحاس
- ٣ - شعراء المراثى والشكوى ..... ٧٢٤  
 ابن سنان الخفاجى - الغزى . فتيان الشاغورى . مصطفى البابى
- ٤ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ..... ٧٤١  
 الواواء الدمشقى - ابن قسيم الحموى . مجير الدين  
 ابن تميم . ابن النقيب
- ٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ..... ٧٥٦

	عبد العزيز الأنصاري . محمد بن سوار . عفيف الدين التلمساني . عبد الغني النابلسي	
٧٧٤	٦ - شعراء شعبيون : أبو العلاء بن مقاتل .....	
٨٣١ - ٧٧٩	الفصل الخامس : النثر وكتابه .....	
٧٧٩	١ - الرسائل الديوانية .....	
	العماد الأصبهاني - الصفدي - ابن حجة الحموي	
٧٩٤	٢ - الرسائل الشخصية .....	
	( أ ) رسائل أبي العلاء	
	( ب ) رسائل متنوعة	
٨٠٢	٣ - المقامات : ابن الوردى .....	
٨٠٩	٤ - المواعظ والابتهالات .....	
	( أ ) خطب ابن نباتة الفارقي	
	( ب ) الفصول والغايات	
	( ج ) خطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكي	
	( د ) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار	
٨١٨	٥ - أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل .....	
	( أ ) رسالة الغفران	
	( ب ) رسالة النسر والبلبل	
	( ح ) كتاب الاعتبار	
	( د ) نسيم الصبا	
	( هـ ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء	
٨٣٧ - ٨٣٢	..... خاتمة	



تاريخ  
الأدب العربي  
٧

عصر  
الدول والإمارات  
مصر

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف



عصر  
الدول والإمارات  
مصر



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي - كما ذكرنا في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة - يُدخلون منه أكثر من ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوّضت ما كان بها من مبنية وحضارة، وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعت أركانها منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها في بغداد كان سلطاناً منقوصاً، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد البويهيين ومن خلفهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضاً كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يسمّون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول ببغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول إن ديار مصر كانت تعيش في العصر المغولي، بينما لم يكن لسلطان المغول في تلك الديار أى ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظلها، وامتد جناحاه زمنياً حتى شمل ما سباه المؤرخون باسم العصر العثماني.

وينبغي أن نعرف أن الطول الزمني لعصر الدول والإمارات لا يعني أن تاريخ الأدب العربي ظل في كل دولة من دوله أو إمارة من إماراته متساياً بسبب أديبية واحدة في أزمنته المتغيرة عبر قرونه المتطاولة، مهما مرّ بالدولة أو الإمارة من أحداث ومهما ألمّ بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائماً من زمن إلى زمن. وهو ما جعلني أقسم تاريخ الأدب في كل بلد تقسماً زمنياً يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعه وحياته العلمية. ودعاني ذلك إلى أن أرجع في كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسياً فحسب، بل أيضاً اجتماعياً وأديبياً وعلمياً، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به في حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث.

وقد يُظنُّ أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبي أو العلمي بين دوله وإماراته، وهو ظنٌ مخطئٌ، فقد كان بين شعوبها جميعاً تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد، فكانوا إذا ألفوا كتاباً عن الشعراء مثلاً ساقوا فيه شعراء العالم العربي جميعاً كما في اليتيمة للثعالبي والخريدة للعباد الأصبهاني، وبالمثل إذا ألفوا كتاباً عن القراء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجري يجمعون في القرن علماء العالم العربي وأدبائه جميعاً في كتب مرتبين فيها ترتيبها أبجدياً بحيث نستطيع أن نؤرخ في كل قرن للحركتين الأدبية والعلمية في أى قطر عربي، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمات قبله وحدة أدبية وجدانية، وعلمية عقلية.

وقد بدأت في هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسى، وأقدم الأزمنة التى خطها التاريخ بها زمنُ الخلفاء الراشدين وماتلاه سريعاً من زمن الأمويين، وفيها أخذ الدين الحنيف ينتشر في مصر ويعتقه كثيرون من سكانها القبط. ويحكمها ولاة من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثير من العناصر الفارسية. وتستشعر مصر استقلالها السياسى منذ أواسط القرن الثالث الهجرى في عهد الطولونيين، وبالمثل في عهد الإخشيديين. وتستولى عليها الدولة الفاطمية وتنشئ فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتى عام، وتأخذ في الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام في أواخر القرن الخامس الهجرى ويستولون على بيت المقدس. ويغطّ خلفاؤها في نوم عميق إلى أن قيّض الله لمصر صلاح الدين الأيوبي، فأسس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب في حطين وغير حطين، وتبعه خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويخلفهم الماليك، وينزلون المغول في عين جالوت ويمزقون جموعهم، وتفترق فلولهم على وجوهها إلى الشمال، ويظهرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورجسهم. ويدور الزمن دورات، وينزل العثمانيون مصر، وتتحول من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحبل النَّيلُ مصر من قديم إلى جنات وزروع وغروس شتى، وأهلها ذلك لرشاء

واسع - على مرّ الزمن - لمن يسعون في مناكبها. ودائمًا كان بها - في العهود الإسلامية - ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا، وفي الطبقة العليا الوالى وصاحب الخراج، والقاضى، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتين العباسى والعلوى. وفي الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراعة والصناع والتجار، وفي الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقيق من أواسط إفريقيا ومن أرمينية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكام للكنيسة وكبار الإقطاعيين من القبط ما لهم من الأرض وحقوقها نظير الخراج، وأدى المقتدرون من القبط الجزية، وهى فى حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون فى الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيراً من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رائجة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنظرون. وتلقى مصر بكنوزها فى حجر أحمد بن طولون فيبنى قصره العظيم، وجامعه الكبير وبيارسطاناً ضخماً، ويفرق ابنه خمارويه فى ترف بالغ. وتنعّم الدولة الإخشيدية بثناء مصر، ويتضخم فى عهد الفاطميين، ويكثر من القصور والبذخ والترف وأدواته، ويتسعون فى الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وأعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر فى عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين نكتة حربية تُعدُّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسعت مصر فى العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات. ويخلفهم المماليك، وتعيش مصر طوال زمنهم فى رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهاراً واسعاً وكانت قد أصبحت ملاذاً لعلماء العالم العربى النازحين من وجه النورمان والإسبان غرباً ومن وجه المغول شرقاً. وتدور بها الدوائر فيحتلها العثمانيون، ويزايلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى فى العالم العربى.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتمسك المصريين بعقيدتهم السنية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صيحات ذهب أدرج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أن مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفى والتصوف السننى مع بيان أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

ومعروف ما لمصر من دور عظيم فى نشأة الحضارة الإنسانية ونشأة العلم بمعناه العالمى وظلت ترعاه طويلاً. وكانت قد خدمت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعاد إليها الانتقاد تدريجاً بحيث لا نصل إلى أواسط القرن الثانى الهجرى حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة فى الدراسات الدينية ونشرها فى العالم العربى، فهى

تنشر قراءة وُرش، ومذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس، وتنتشر مذهب الشافعي في الشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس لأول مرة، وتكتب روايةً للسيرة النبوية الزكية، تصبح إماماً لكتب السيرة الشريفة، ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامي. وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عهد الفاطميين ويؤسسون بها جامعة سموها دار العلم، ألحقوا بها مكتبة ضخمة. وتأخذ الحركة العلمية بمصر في ازدهار واسع لعهد الأيوبيين وما أسسوا بها من عشرات المدارس، ويزداد عددها في عهد المماليك ازدياداً مفرطاً حتى ليقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحداً لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المدارس وحدها دور العلم فقد كانت تشاركها في ذلك المساجد والجوامع مثل الجامع الأزهر. ومع خمود تلك الحركة العلمية في عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربي، وموتلاً لعلماء المغرب والمشرق، وظلت تضيء في جامعة الأزهر مصابيح العلم والعرفان.

وعرضت نهضة العلوم المختلفة بمصر عرضاً تفصيلياً تاريخياً على مر الأزمنة، وبدأت بعلم الأوتل، وألمت بما كان لمصر فيها من نشاط قبل الفتح العربي سواء في الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الطب أو الكيمياء أو الفلسفة. وانتفعت مصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمت إليه ما نقل ببغداد من الفلسفة وعلوم الأوتل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط العلمي والفلسفي لمصر منذ أيام الفاطميين وأعلامه على مر الحقب، وتحدثت عن جغرافيتها منذ ابن سليم مكتشف المجرى الأعلى للنيل في أواسط القرن الرابع الهجري. وبالمثل تحدثت عن النشاط في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مصر فيها جميعاً على مر التاريخ ومع كل علمٍ مصنفاً القيمة. وأيضاً عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعلماءها جميعاً على تعاقب الحقب، وما لهم من مصنفاً باللغة القيمة، وذكرت في كل علمٍ من العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوتل من نبغوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمي لمصر وعلماؤها الأفاضل في كل علم وفن مرسومًا رسمياً بيننا دقيقاً منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر - بعد الفتح العربي - تتعرب سريعاً لاعتناق كثير من سكانها القبط الإسلام لما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق



العربي الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التي كانت تؤخذ من القبط في عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى أقل من النصف في عهد معاوية. وعملت على السرعة في تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها وثارها وطيبات الرزق فيها، وامتزجوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعدَّ لتعرب من لم يدخل من القبط في الدين الحنيف، حتى إذا كنا في القرن الثالث الهجري تمَّ تعرب القبط برهبانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية في بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربي بمصر محدوداً زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربي الفاتح كانت من اليمينية، والشعر إنما يكثر على لسان القبائل المضرية والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجلها الرواة، حتى إذا كنا في زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر يأخذ في النشاط بها، ونزلها أبو نواس وأبو تمام، وازداد نشاطه فيها لعهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ونزلها المتنبي وأحدث نزوله بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية. ويترجم الثعالبي في كتابه «اليتيمة» لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العباد الأصبهاني مجلدين في كتابه «المخريدة» ترجم فيها لمائة وأربعين شاعراً، ويطرد هذا الازدهار للشعر في مصر طوال زمن الأيوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر في مصر الشعر الدوري منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، وتكثر الرباعيات حتى إذا ازدهرت الموشحات في الأندلس درسها ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين الأيوبي ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري عروض الشعر العربي ورسومه. ولابن سناء الملك فيها موشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعدوية، وبذلك كتب لها الذبوع الواسع بعده في مصر على السنة الشعراء مثل العزّازي، وأكثر المتصوفة في زمن المماليك من النظم فيها وتلحينها في أذكّارهم. ويستظهر الشعراء - منذ القاضي الفاضل - ألوان البديع ومحسناته، ويصبح التفنن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذت - بعد ذلك - أترجم لأعلام الشعر في مصر طوال عصر الدول والإمارات محلاً لشخصياتهم الأدبية وموزعاً لهم على أغراض الشعر وموضوعاته الأساسية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشحات، وللرثاء والشكوى أعلامها النابهن مثل علي بن النضر بملكته الشعرية

الخصبة، وللدعوة الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هانيء الشاعر الفاطمي، وللغزل أعلام وجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللفخر والهجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن المعز وابن الذرؤى المقذع في هجائه، وللطبيعة ومجالس اللهو أعلامها مثل الشريف العقيلي وله في الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهة والتصوف والمدائح النبوية أعلام يتغنون بالحب الإلهي مثل ابن الفارض وبالحب النبوي مثل البوصيري، وللفكاهة أعلام توج أشعارهم بالتندير والدعابات والتوريات والهزل مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة. وعرضت شعراء الشعر الشعبي العامي وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه في الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ عدد من ترجمت لهم من شعراء مصر الأفاذ في عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعرًا، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعرًا ناهبا من الشعراء أيام العثمانيين. ولم أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ بهم كتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز في تطور الشعر بمصر، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على مر الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبي في الشعر، ومن كان لهم دور في التطور به أتاح لهم مجداً أدبياً كثيراً أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتابه بمصر بادئاً بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بن طولون ديوان الإنشاء واتخذ له كتاباً مجيدين. ويعنى الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة في الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الذروة الأدبية على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه وتصيح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها في بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامها الناهبين. ويعنى بعض الكتاب - منذ أيام الفاطميين - بكتابة المقامات، وقلما تقوم على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريري، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قصص فكاهة، أو على وعظ، أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والابتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صوّرت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت - بعد ذلك - أربعة من كتب النوادر

هي: كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سيبويه في نقد الحكام والناس ممزوجاً بالتبأله، وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحياناً في حكم القاهرة، وصورة ابن عماني في طائفة من الأحكام الطائشة تحكى غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادير لاذعة على لسان أهل الريف المصرى تصور بؤسهم أيام العثمانيين. وتلا ذلك أربع سير شعبية: سيرة عنتره، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذى يزن، وجميعها تصور البطولة العربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيراً كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميز به كل نوع من أنواع هذه القصص. وقد صاغت مصر الكتاب بلغتها العامية وانتشر بها في العالم العربى منذ عصر المماليك. وبنفس العامية انتشر في البلاد العربية من قديم ما ألّفته مصر من كتب السير الشعبية المذكورة آنفاً: سيرة عنتره وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير في تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بمئات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى في مصر أثناء حقب طويلة تمتد من فجر تاريخها العربى إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبمجتمعها وطبقاته وشئونه المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخى لعلمائها الأفاضل في علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضاً إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النظرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواظع والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب النابهين وعرض خصائصهم الفنية عرضاً نقدياً تحليلياً. ولا أزمع أنى صورت تاريخ الأدب العربى في مصر قبل العصر الحديث تصويراً كاملاً، إنما حاولت، وأرجو ألا أكون قصرت. والله أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر، والإخلاص فى القول والعمل. وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م.

شوقى ضيف



# الفصل الأول

## السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى<sup>(١)</sup>

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشاخنة . كما تلقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعدّها التّيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهى أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البنت والثّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطلمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، وثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، ففارقوها سريعاً ، وتسوّء أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كلن يضطهد من لا يمتنون مذهبه الملكاني المسيحي ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

للمسعودى وحسن المحاضرة السيوطى ( طبعة عيسى الباب  
الجلوى ) ١٠٦ / ١ وفتح العرب لمصر لبتلز ( الترجمة العربية )  
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب  
الإسلامية لهوكلمان ( الترجمة العربية ) طبع بيروت ١ / ٩٩ .

( ١ ) انظر في فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح  
البلدان للبلاذرى وتاريخ الطبرى وابن الأثير والمغرب لابن  
سعيد قسم القسطنطينية ( طبع جامعة القاهرة ) وخطط  
المقريزى ( طبعة دار التحرير ) ١ / ٥٥١ والنجوم الزاهرة  
لابن تغرى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

اتحادا في طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قيرس ( المقوقس ) بطريقا للإسكندرية جامعا إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهبه الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى العُلل الدينية غللاً اقتصاديا .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريةها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرون في زحفهم حتى حصن بابلون ( بالقرب من ممفيس القديمة ) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابلون ، ويضطر قيرس ( المقوقس ) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابلون والإسكندرية جميعا سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصا لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريةهم الدينية ولايمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني .

ودالما الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليعقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الديني وحريةهم الدينية ، حتى لقد فرَّ البطريق القبطي بنيامين وظل محتبئا حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبيعيا أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييدا منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥هـ ومن بقي منهم ولَّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية<sup>(١)</sup>

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجده الذي يحمل اسمه والذي بناه في الفسطاط : موضع معسكره في حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إبدانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . ويلي مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم في البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة مااجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعللى رضى الله عنه ، ووليها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفى سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يوليّه معاوية قيادة الفتوح في المغرب جولات أكثر عمقا ، يخطط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشهرا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني ، وأخذ الولاية في أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ أتبع الأمويون في ولاية مصر ستة تغيير الولاية ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الولى يقدّم وهو يعلم أنه معزول عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدّحا ، وإليه شدّد الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جفنة (قدر) تُنصب كل يوم حول داره لإطعام

خلدون وخطط المقرئى ٥٦١/١ وما بعدها وحسن المحاضرة  
٥٧٨/١ ما بعدها .

(١) انظر في ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب  
الولاية والقضاء للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول  
والثانى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جنة يطاف بها على القبائل . ولأريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، وما يؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضجّ منها في كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كل هذا الظلم وما يجترأ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ما كتب به إلى حيّان بن شريح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر : « ضَع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : ( فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ) ويقول ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ) . ويبدو أن حيّان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضررك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، فبِح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وآله هاديا ولم يبعثه جاليا » <sup>(١)</sup> .

واضطر حيّان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ما توفى لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاة بني أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتقاص القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يرعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرّمه من الظلم والعسف . وظلت القسطنطينية حاضرة الولاة الأموي منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة القسطنطينية أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار القسطنطينية ، وكان يتزها ولاة بني العباس ، وتلقانا بعض انتقاصات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانمود نسجع عنها ، إنما تلقانا انتقاصات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط المقرئى ١٤٢/١



للعرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتقاص يلقانا - للعرب - انتقاص دحية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلى فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلب من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فارت عليه قيس واليمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظلم نسمع عن انتقاضات في الحوف الشرق ، ويستغل الفرصة الجروى في تئيس وبنو السرى الذين استولوا حيناً على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى الأمير الأموى ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فيتولون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتفض أهل الحوف مراراً ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على ما بها من فتن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائياً في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان ما يرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ما خلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذي تعقب مروان بن محمد ، وبني له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتقاضات والفتن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر قرناً ، وبالمثل من كان يُسند إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قداماء جاءوا مع اليمانيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة حيناً للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمانيين في رحلتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون<sup>(١)</sup>

هم أول أسرة حكمت مصر حكماً مستقلاً ، وحقاً كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقربين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ هـ فغنى بتربيته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفي في عهد المتوكل ، فقوض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أقطعت لزواج أمه بايكباك ، فأنابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ هـ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية ، واتخذ جيشاً ضخماً بلغ عداده مائة ألف ، وفي أثناء ذلك ضُمَّت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ هـ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئاً بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولجوشية من القواد وكبار الموظفين . وعنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً يُلقَّب فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليوني دينار ، وبني مارستاناً ضخماً ، واتخذ لنفسه ديواناً كبيراً على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعنى في دولته بأن ينقل إليها الأنظمة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه حمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

المقريزي ١/ ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلوي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وحمارويه والطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبوكلمان ص ٢٢٠ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبري واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندى (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها ونخطط

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما ينقذ بينها صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخم الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحول الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساقى والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع لإصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وبنوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا قرش أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدى غلمانه في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولا يدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وسحب جيوشهم في الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يعينهم بجنده ويلبى استغاثتهم . ويُقتال هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكيم اثني عشر يومًا إذ سرعان ما يقدم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبكيهم الشراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولاية مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهديّة بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيد وأبناؤه .

### (د) الإخشيدون<sup>(١)</sup>

الإخشيد هو محمد بن طُمُج بن جُفّ القرغاني التركى خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى وُلّوه

تراجم الإخشيد وكافور وخط المقرئى ١/٦١٧ ومروج الذهب للمسعودى ومصر في عصر الإخشيديين للدكتور سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاية للكندى ص ٣٠٤ وما بعدها والجزءين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم القسطنط) ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلكان (طبعة دار صادر) في

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاة الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان ما يتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتديبر شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعائة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصياً ، واختلف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشتره الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يبنى الشعراء ويكثر من عطايمهم ، وزار مصر حينئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يدعى بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المزعزعات الفاطمية صاحب المهديّة والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صيباً فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيّنهم

في الأرض فساداً ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

## ٢

## الفاطميون - الأيوبيون

(١) الفاطميون<sup>(١)</sup>

تنسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرّاً لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملماً بالفلسفة والملل والأديان ، فنظّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سلّمية بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية في العراق وغير العراق ، مما هياً لظهور القرامطة في البحرين وجنوب العراق ، كما هياً لظهور داع إسماعيلي من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمره عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشاً قضى به على الأغلبية حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سلّمية عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدى ويعلن نفسه خليفة شرعياً ، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانهم مستودعين هم رموس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماماً

الزاهرة لابن تفرّج بردى وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي والنكت المصرية لعارة اليمنى وصبح الأعشى في مواضع متفرقة والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتر .

(١) انظر في الفاطميين المنتظم لابن الجوزي وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد ( قسم القاهرة ) طبع دارالكب واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء للمقرئزي وكتابه الخطط ٢/٢١ ومابعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء: الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقي والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . ومما شكك في هذا النسب المحض الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطنن في نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله في المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشن عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتتحهما قائده جوهر الصقلى ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سبتة ، فإنها ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كاهن وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكده يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل القسطنطينية والبر الشرقى بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ تواترًا يخطط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس ولبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال في الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيئطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر في بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واخطت قصر الخلافة ، وحفر أساسه في أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واخطت

كل قبيلة - خِطَّة عُرِفَتْ بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسينية والحراشفت . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذّنوا بحَيٍّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلا بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلا حازما أدبيا ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أُقيمت فيه دعوتُه وخُطب له في جمعته وجماعته إلا «سَبْتَة» فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلْكَيْن بن زيري الصّنهاجى . واستمر جوهر في علو منزلته إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتى عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريما شجاعا ، يعفو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحمّاة وشيْز وحلب ، وخُطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلْس وكان يهوديا وأسلم . وبنى قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقا ولا غربا ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزى إنه وُلِّي عيسى بن نسطوروس النصرانى ومنشا اليهودى فكُتبت إليه سيدة مصرية بالذى أعزَّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلَّ المسلمين بك إلا نظرت في أمرى ، فقبض عليهما وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى » .

وما زال العزيز رفيقا برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سوىَّ العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلا ونهارا ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحينما يحب العلماء والصلحاء ، وحينما يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَب على المساجد والجوامع سبُّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

وتارة يبيحها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل اللوخيا والترمس والجرجير والسّمك لاقشر له والزيب . وحُرّم الخمر وشدّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جرّة غسل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والخفاف لهن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحُرّم - فيما حُرّم - الغناء ولعب الشطرنج والترّهة على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشدوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لا يزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأفلاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعائه ، وفي مقدمتهم داع دُرُزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمي دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التّصَيُّرية في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية علي بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر متزع حيكمت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وساست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التّصَيُّرية والدُرُزِيَّة جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلّابي واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن الفرج البدوى إلى مدينة الرّملة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتها جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادا سمحا حلّما محببا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبّر له الدولة أبو سعد التستري اليهودى ، وقتلا في سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن على الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلم ولاءه للمستنصر ، ويدعوله على المنابر هناك ، وتتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان في المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لى العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توافى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن



أرسلان البساسيري في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسي في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَصِيَ عليه وعلى فتنه أو دعوته السلطان طُغْرُبُكُكُ السلجوقي . ويحدث في أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانیه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين دينارا وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بِلَّةً نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبقي في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر في سنة ٤٦٨ ببدر الجمالي ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وقَوَّض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالي كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخوارج بعد وفاة المستنصر حُببهم في أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلي . وأحدث ذلك انقسامًا بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلي كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالة هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فثار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائمًا بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلي مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالي ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولأنهى إلا أن يخرجوا في مواكب أول العام الهجري ولصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثي لم يتضح شره ولا عواقبه الوحشية كما اتضح في عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنونًا أو مجبولًا ، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرُّبنا ، وكأنما جيء بالخلافة أرجوحة للصبى ، وتوفى المستعلي سريعا سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو في الخامسة من عمره ، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبت طائفة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل ، وتتاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلدوين إلى الرها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . يأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستولى جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر في غفلته والجيش المصرى غائب عن حياه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئا . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستوزر أحمد بن الأفضل الجالى وكان هو وأبوه وجده سنين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَىَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيا وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظافر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه القاتر وهو فى الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصية والغلبان ، ونظل نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقَلًا فى أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتفسد فى أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم فى مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرًا للرماد فى العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتل ضرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجداً به ويهجم حينئذ أميرك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بليس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور فى الوزارة ، وسرعان مايقبل ظهر الجن لشيركوه وجنوده ،

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصلبيين ، ويحاصرون شيركوه في بليس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغيانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، ويليّه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تّيس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنجدان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارًا يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

### (ب) الأيوبيون<sup>(١)</sup> (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُون في آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفيح القسى في الفتح القلمى والبرق الشامى للهاد الأصهبى وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العربية واللغات الأجنبية .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة وخطط المقرئى والسلوك الجزء الأول ومراة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب ، وتطورت الظروف كما مررنا ، ففضى صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية ، وردَّ مصر إلى الخلافة العباسية ، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز . وجدَّ في إصلاح أحوال مصر ، فحطَّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها ، وبذَّل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر ، إذ نراه يلمِّح في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد ، يبينه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، إلى ما يدور بخلده قائلاً عن نفسه : « إنه مفتقر إلى أن . . يقلد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزع ، وتأتبه التشريفات الشريفة » . ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأرمنية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين .

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرقى ، ويحاصر الشوبك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشي لقاءه ، ومع ذلك كان يعدُّ نفسه تابعا له ، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين . وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوبك والكرك ، ثم رفع الحصار ، وإن كان قد استولى على أيلة ( العقبة ) . وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين ، ويذهب إليها ويستولى عليها . وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعارة اليمنى الشاعر ، وقتل داعي الدعاة وصلب عارة .

وفي هذه السنة توفي نور الدين ، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين . واعترف صلاح الدين بسلطانه ، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وسك النقود باسمه . ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول تورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة ، وأيضا لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موالو الفاطميين يسمى الكتر ودارت عليه الدوائر . ومرَّبنا آنفاً أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر ، ونراه يسيِّر عسكرياً بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريقي ودانت له بالطاعة برقة وقسطيلية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكراً في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين . وها هو مبكراً قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقي المغربى والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصلبيين ، فاستقر في نفسه أنه لا بد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصلبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ويُكْتَبُ له النصر ، ويعقد صلحاً مع الملك الصالح يُبْقِي له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخم حول القاهرة والفسطاط حماية لها ، ويُنْظِلُ المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بمجدة ويعوض صاحب مكة عنها آلاف الأرباب قحاً تفرق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجح كفته رجحاناً واضحاً ، ويمضى إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوّل لرايچنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفناً بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقّبهُ العادل - نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فبعد صلاح الدين جيشاً ضخماً لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حدب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقى إحدى سراياه في شرق حيفا بجماعة من الداوية والإسبترارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقتلُ قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حطين المشهورة في غربي طبرية ، ويُحَقِّقُ جيشهم محققاً ، ويولى هارباً ريموند صاحب طرابلس ورينالد صاحب صيدا ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلבות ، ويقع في الأسر قادتهم وزعماءهم جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهو صاحب جبيل شمالي بيروت وهمفري صاحب تبين إلى الجنوب الشرقى من صور وجيرار مقدم الداوية ورايچنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال

أبو شامة في كتابه الروضتين : « من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايخنالده صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك محمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلّ خنجره وضره ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الحيمة . وطمان بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوية والإمبتارية لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصّت حينئذ أسواق دمشق بأمرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل ( بترسيح ) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوبك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضابقتها بالزحف والقتال والمنجنقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونكّس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزير المسجد بالفُسَيْفَسَاء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوبك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمال أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليب حرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطُرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجًا عَزَلًا من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لَبَّى بها نداء ربه في صفر سنة ٥٨٩ فبَكَاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وستقف في غير هذا الموضع عند عنايته بالعمارة والبيمارستات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب ينوّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكاً له (مدبِّراً لدولته) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمالي الشام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان باراً بالرعية عادلا منصفا ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهد لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيِّها ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقى بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صرَّخند سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيداً حتى توفى سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بمنوده إلى مصر ، فقبه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمداً الديار المصرية . وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحده . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسير السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلحها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلمها الواء صلاح الدين ، وكان محمداً محسناً لتدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارساً مجاهداً أبلى بلاء حسناً مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقياً وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجر إلى الفسق والإثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويُردون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائياً ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيشون فساداً ، وتسول لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في قمة فيضانه ، فسلبت المصريين مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يوماً مشهوداً ، نعتى به الشعراء طويلاً . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقاً حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدأ من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متوجهاً إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطاناً على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء الممالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دوراً وقصوراً كثيرة وعمل لها ستين برجاً وبنى بها مسجداً واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها ممالئكة البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف



إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسراً ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقدّيس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقائهم والمرض ينقل عليه وحُمِل إلى مصر في محفّة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمهل المرض بها ، فمات مئة الشهداء مجاهداً في سبيل الله . وأخذت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مرّتهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دمياط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاءً مبرماً على أكبر حملة صليبية وُجّهت إلى مصر باغتيال ممالك أبيه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فاقدى نفسه وقلوب حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسراً ذليلاً .

واجتمع رأى المماليك على تولية شجرة الدر المملّك بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق المماليك على أن تلى شؤون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقراض الحكم الفاطمي ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوماً ، وأحسّت بمرحج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتابك العسكر وأن تتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خداعاً للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صيياً أويبياً هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى المماليك وقائدهم أيبك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزخموهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن تراثها وحماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

## الممالك - العثمانيون

### (١) الممالك<sup>(١)</sup>

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء الممالك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيون لم يتعطلوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيديين التركيين . وما إن توفي السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى الممالك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مر بنا آنفاً - إلى عز الدين أيبك قائدهم . وظل الممالك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما الممالك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء الممالك ويتزولونهم في أبراج القلعة حيث يربون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم الممالك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت الممالك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيبك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حينئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى . وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

(١) القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص وروض للسيوطي (طبع فينا) والدرز الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء الملايع للسخاوي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لحسام الدين سرور والعصر المالكي لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعدها .

(١) انظر في الممالك السلوك والمخطوط للمقرئزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ومجالس السلطان الغوري وآخرة الممالك لابن زنبيل وتشريف الأيام والمصور في سيرة الملك المنصور (طبع

شكّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطر أتابكاً له فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعمد قُطر إلى مملوك عظيم من مماليك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين نيسان و نابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأعراس والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطر ، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار هوليين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام الممالك لافي حكم مصر وحدها ، بل لقد انصوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحق قُطر وبيبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قُطر سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطر لقصر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء الممالك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما على الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتهاز ظهور أمير عباسي بدمشق قرّ من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بني العباس بايحه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه . وبذلك ثبت عرشه ووطد سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آبائه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم الممالك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من الممالك أن يعدّوا أنفسهم حاة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع بيبرس تقليدًا أن يسافر محملاً إلى مكة سنويًا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائماً إلى اليوم . وعُنى بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام . وظل طوال حكمه يُعدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصفد وتبين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفا والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرُّها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . وما زال الظاهر بيبرس ذاهباً آتياً من الفرات لحرب التتار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإيماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسي بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضياً ، وظل العمل بذلك جارياً في عصر الماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوماً مشهوداً ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجداً كبيراً بالقاهرة لاترال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعدُّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وألّفت حولها قصة مشهورة ، وما زالت الأجيال تريد فيها إيماناً بفروسيته الخارقة . وقد توفى سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء الماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنة لا تتجاوز السابعة . وجعلوا قلاوون أتابعاً له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور، وهو من أعظم سلاطين الماليك حزماً وعزماً وتديباً وبأساً ، وقد اتبع سياسة الظاهر بيبرس في الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مراراً وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهراً بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جيل وبيروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورماً ما بها من شغب . وتوفي سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعاً وبطلاً مغواراً ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسّر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وأخذت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيداء وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خيلاً على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيتآمروا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعين كاتباً نائباً له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويعتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تار العراق ، وترجح كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فساداً . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشاً كثيفاً سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقاً ، وتولى فلولهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المالك في التنافس حول السلطنة ويحشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوبي الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حباً شديداً ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قلنا ، على الصليبيين نهائياً ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية على مصر انتصاراً حاسماً . وعقدوا معه صلحاً سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أويعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكفي أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعني عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهوسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعياً أن يفسد الحكم في عهدهم فساداً شديداً . وفي سنة ٧٦٦ سؤلت لحاكم قبرص بطرس لوزيخان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولى بمن معه هارباً حين علم باقتراب الجيش المملوكي .

وطبعي وقد فسد حكم آل قلاوون فساداً لاصلاح له بعده ، أن يحاول المماليك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المماليك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، وما زال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المماليك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أديباً يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المماليك البرجية مثل شيخ وبرساي وجقمق وقايتباي والغوري . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفي سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعدها عن الحكم وهي سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكثر في زمن هذه الدولة البرجية المناфسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . وهبُّ بأخرة من حكم برقوق إعصار تبارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيناً ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولي ، ويكتب له برقوق تقليداً أوامر سوما بنيابته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوق برقوق بينا يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبعليك ، وكان مماليك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقاءه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة ينهبون ويسلبون ويأتون من الفطائع ما صوره ابن عربشاه في كتابه عجائب المقدور في نواب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله المالك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء المالك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامع المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبْنَى في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبويع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومُرَّبنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزيخان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحاءها ، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين وبحكم قبرص مقيداً في الأغلال ، وقبِل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهَّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدى لمصر سنويا عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جضمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدداً حربيّاً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات بين أمراء المالك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان شديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، منتقلاً فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف في جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء المالك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين المالك البرجية ، وكان شاعراً واشهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً في السن ، بينما كان يتراءى في الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والمالك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة نوابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين ، وضياح ماكانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوروبا وتغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب في جنوى الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات ، ووقف الغورى معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغورى نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدد مصر خطراً أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود ، وسمعوا بما أنزله لإسماعيل الصفوى بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم لإسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغورى كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غالباً عن قانصوه فوجد جيشا كثيفا ومضى به إلى شمال سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينها معركة مرج دابق شمال حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار . ولم تكن تنقص جيش المالك الشجاعة ، إنما كان يتقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعياً أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمالك مصر ويكتفى بممتلكاتهم في آسيا ، فكاتب خليفة قانصوه في مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمالك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحس بتخاذل المالك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفر طومان باى . وحل سليم القاهرة في اليوم التالى وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسلم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففر إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشنقه على باب زويلة . بذلك انتهى حكم المالك لمصر وتقوضت دولتهم .



(ب) العثمانيون<sup>(١)</sup>

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريين ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضاً مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المالك حتى الرخام كانوا ينزعونه . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لاتزال تترجمها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جردت مصر من علمائها وفنانيها وتراثها الفكري والفني ، وعاشت حقبة سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيح لها زعامة أو شيئا من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان يلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقراً له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك ساريا بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضاً أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه ، وقد اختارهم سليم جميعاً من المالك ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار ( مدير الخزانة ) والروزنامجي ( حافظ السجلات ) وأمير الحج وقاضي القضاة ورئيسهم و نقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المالك أو كبيرهم . ويجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتبخدا ( نائب الوالي ) والدفتردار والروزنامجي و مندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

القومية في مصر وظهور محمد علي لعبد الرحمن الرافعي  
ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرابية والخطوط  
التوفيقية لعل مبارك ( طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب )  
١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان  
ص ٤٤٨ .

(١) انظر في العثمانيين آخره المالك لابن زنبيل وبدائع  
الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من  
الدول للإسحافى وتاريخ الجبرق والبلاد العربية والدولة  
العثمانية لساطع المصري والحملة الفرنسية وظهور محمد  
علي لمحمد فؤاد شكرى والجيزة الأول من تاريخ الحركة

وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلى إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يمثلون في البلاد سلطة نائلة بجانب سلطى الجند والوالى ، إذ جعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم ببرقا فسمى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسناجقة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكشاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشاف المتزومون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للمتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعتصرونهم اعتصاراً دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصببون عرقا لكى ينعم المتزوم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويزهقونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوروبا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجهنون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن تعرف أنه حكم مصر حتى مجيء نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفاً شديداً فأخذ سلطان السناجق المالك يقوى ، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمة الشؤون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعيما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوى ، حتى غدا مناظراً أو مائلا للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد وماليكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنئته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بدأ من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعياً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المالك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوها . غير أن الباب العالى العثماني لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يُرد لها استقلالها وحريتها ، وظل شيخاً للبلد ، يوئى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد سنتين في عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما لإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخاً للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهاداً عنيفاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفذ نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر في الضرائب وشتون الحكم .

لم يعر هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مطامعه الاستعمارية ، وما زالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعاً . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت في المصريين الشعور القومى . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثماني رأوا أن من واجبهم التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدءوا بقوة نهضتهم الحديثة .

المجتمع<sup>(١)</sup>

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا يخالطون سكانها لا في مدنهم فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصري . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالي وصاحب الخراج والقاضي وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتي العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . وبحوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وتغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرّ ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فاتك الرومي وكافور الحبشي القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط . ويمد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربي كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضي على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدونها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وتُرك للقبط الإشراف

شداد ورحلة ابن جبير ومعبد النم ومعبد النقم للسبكي  
والدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين  
لعطية مصطفي مشرفة والمجتمع المصري في عصر السلاطين  
الماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية في  
القرن الرابع الهجري لأدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في  
العصور الوسطى لستانلي لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية  
لبروكلمان .

(١) انظر في المجتمع الولاية والقضاة للكندي والمغرب لابن  
سعيد بقسميه عن الفسطاط والقاهرة ومروج الذهب  
للسعودي ومصر عند المقدسي وابن حوقل وناصر خسرو  
والإشارة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب  
ابن كلس والأفضل بن بدر الجمالي في ابن حلكان والخطط  
للمقرئزي والخزرجين الثالث والرابع من صبح الأعشى  
والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس  
وكتاب قوانين الدواوين لابن عماد وسيرة صلاح الدين لابن

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب . وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جدا حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتينس وديبق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الديقى مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تينس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشب والنترون ، وأيضا على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . وما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء النمل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قلمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديدا ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شئ كثير . فأخذه المأمون ليبت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاه من قريبها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن النولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضى موضع الزهد والتشقىف إذ يذكر الكندى في كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون فى سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقاً كان يحدث أحياناً قحط أو أوبئة أو تدمرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التى يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك فى الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص فى رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء فى مصر ، فهى تموج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأقاويه . ويبدو أن المساكن بها والغرف والحوانيت كانت توجر ، ويؤجر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهى من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندى أن الولى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارثون أحياناً بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولا بد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى المعتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضاً أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضى لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناها ، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف فى لحنه . وكان الناس يخرجون للترهة فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج ( وفاء النيل ) وبالأعياد الإسلامية وأيضاً بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسى لأول الربيع .

ويتولى مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكوّناً بها الدولة الطولونية ، وتلقى مصر فى حجره وحجر ابنه خمارويه بكنوزها ، وكان حازماً بعيد النظر رعوفاً بالربة ، فالتقى عن كواهلها كثيراً من الضرائب التى كان قد فرضها عليها ابن المدير عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النظرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقلَّ بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأغدقت عليه من طبياتها ، فكَوَّن جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج القسطنطينية وقطائع لعساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطنان وتفردت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامع الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدنانير ، وبنى يبارستانا وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعمَلُ سَمَاطٌ عَظِيمٌ ، وينادى : من أحب أن يحضر سَمَاطُ الأَمِيرِ فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخلف فى خزانته من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير .

واستقر السلطان بعده لابنه خنارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خنارويه يفرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نخاساً تخرج من عيون المياه وتنحدر إلى فسائى يفيض الماء منها إلى مجار تَسْقَى سائر البستان ، وسرَّح فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلاً حيطانه بالذهب واللآزود وجعل فيه تماثيل أوصوراً بارزة لحظاياهم ومغنياتهم وعلى رؤسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجعلت فى هذا البستان بين يدي القصر فسقية من الزيتق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يرى لها فى الليالى القمرية منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزيتق . واتخذ خنارويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ الثدى حين زوجها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملته دكة تألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خنارويه - كما مرَّ بنا - قصر فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعاً أن أبابكر محمد بن الماذرانى عامل الخراج ووزير خنارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤدِّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكت دولتهم بدموع غزار . وتخلّفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، وبفضل ثرائها استطاع أن يعدّ لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، ومازال سعهه بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تنعم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرّض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خوارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدبر الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنّابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قيم وحوا من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكي ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من نصب السباط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأسرج من شاطئى الفسطاط وشاطئى الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقفار .

وتلقى مصر بكنوزها للفاطميين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من



شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخّل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم .  
وينعم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقل  
القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلي . وكانت المكوس تُفرضُ على  
كل شيء حتى قال المقرئزي إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسي أنه كان يُجبى من  
تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئزي إنه بلغ المتأخر على تنيس في  
ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من  
الثياب في شطا ودمياط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمياط والأشمونين في  
يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشبُّ والنطرون . وكانت تُفرضُ  
مكوس على الحمامات ، وكانت تُعدُّ بالمئات في الفسطاط والقاهرة ، وعلى الحوانيت ، ويذكر  
ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيها نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين  
وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التي يدفعها أهل الذمة .  
وكانت - كما يقول ابن مئان في كتابه قوانين الدواوين - تُفرضُ مكوس على المتاجر الصادرة  
والواردة تبلغ نحو عشرين في المائة من العروض أو البضائع . وكانت هناك حبوس كثيرة أو بعبارة  
أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط في  
القرن الثاني - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ في خزائن الدولة الفاطمية ، حتى  
لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربي ، وفيها يقول المقدسي : « هي الإقليم الذي افتخر به  
فرعون على الورى .. أحد جناحي الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره ( يريد الفسطاط ) قبة  
الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراتُه تُعمرُ الحجاز ، وبأهله يهبج موسم الحاج ، وبِرّه يعمّ الشرق  
والغرب . قد وضعه الله بين البحرين ( الأحمر والمتوسط ) وأعلى ذكره في الخافقين ، حسبك أن  
الشام - على جلالها - رُستاقه ( قرأه ) والحجاز - مع أهلها - عياله » .

وطبيعي أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل في مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية  
وزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعيها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون  
من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تمليك يورث وإقطاع  
استغلال يُمنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويروى أن يعقوب بن كلس أول وزراءهم  
بمصر كان راتبه في العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفي ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف  
دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم في أوائل القرن

السادس الهجري الأفضل بن بدر الجمالي ترك ستائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاق ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حوّل كل أموال مصر في عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكي في عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحتما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص النيل والقحط ، كما مر بنا في عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائما وتعود سريعا إلى رخائها الذي أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف ، ويكنى لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كُشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمي ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقرئى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يبي به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق في الآخرة » .

ولعل في كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبذخ في أيام الدولة الفاطمية ، وبزخر حديث المقرئى وغيره بملابس الخلفاء وعائمتهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة في أثابهم وأواني طعامهم وفي قصورهم وبساتينها وأروقها وأفنيتها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو في القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور في نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقاننا في كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار في سطوح منازلهم حتى لثرى كأنها حدائق ، وبما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قدير ، تؤجر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضا الزراعة . وكل شيء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا في النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجنائبي

والأجبر والأعوان وعاصر النبيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لتجد ابن الطحان يؤلف في الغناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان في الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهي - كما يقول المقرئ - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الختم ، وموسم عيد القطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير ( الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب ) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ( وفاء النيل ) وعيد النيروز ( أول الربيع ) وهو عيد فارسي كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الغطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتون وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزين فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئ : « كان الناس بمصر يخرجون في بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون في صور منكرة مضحكة ، وقد يحاكي نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات في العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاهى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد في أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرتة الأيوبية ، وفي عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تبشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، ورُدَّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن يتقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خُفِّفَ الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُنْفَقُ في الحرب دون أن يختزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تَعْرَى بَرْدَى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين لَبَّى نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهبا صوريا ، ولم يَحْلَفْ مِلْكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضَيْعَة ولا مزرعة . ويروى ابن تَعْرَى بَرْدَى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد دينارين ، وتعذَّر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخطفه ابنه توران شاه - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجاهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأنصيرة من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرِّباطات ، وظل خلفاؤه يُعْنَوْنَ بالعمران ، مما أُنْعَشَ الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتينس وغيرها . وقد عُنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوروبية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الرى عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلَّى بها الإمام فى مجمع حفيل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد أتخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمع اللهو والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى فى عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهوهم ومرحهم ، وحقا لم يُعْنِ

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عيداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدد فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعي أن يُشغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية بحروبهم مع الصليبيين وما كانت تَسْتَفِيدُ منهم من أموال ضخمة . ويدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرِفَ في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبي إنه طَهَّرَ جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والحواطي والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاة المصريين في أيام انتصارات سلاطين الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن ممانى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، وكان قد عَيَّنَ قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمِّيَ في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبعرضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين المالك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْرُدون نهائياً الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى قتمزق دولته . وتُعدَّ أيام المالك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مر بنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فأرَّين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أربابها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأربابها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موثلاً العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المالك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامه . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المالك البحرية والبُرجية ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدربونهم في القلعة على الفروسية ، ويُعِدُّون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى إذا شَبَّوا

توزعهم أمراء المماليك ، مكوّنين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تملك كما مر بنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المماليك تكاثرا شديدا ، حتى اضطرت بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المماليك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئ . ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يلد لآدمي عليه . وكأنما حُرّم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها المماليك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذي يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المماليك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور ونظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المماليك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التي يجمعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، ومما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشرط الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بنية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المماليك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضاً فإن الجبوس لأراضى الأوقاف التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضوع مضت تزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدراً أساسياً من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُصمَّم إليها ضريبة أخرى من مصادرة أموال التجار أحياناً وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلاً ، وهو ثراء أعدها التنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبائها الشاخنة الرائعة .

وعادت إلى مصر فى أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة فى العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المماليك عيد محملى الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة فى هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساهر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للزهة فى أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأزبكية وكان يمر بها قديماً ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للتره بها فى النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم فى كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه فى فن الغناء و«خوى» أعجوبة أيامها فى الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم فى كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحابية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحياناً وكذلك الحشيش ، وقد يكثر من يتورطون فى تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر فى كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاحيمهم حيثذ الترد والشطرنج وتطير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حيثذك خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً تاماً ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها فى عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك فى المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاحيمهم سماع سيرة عنترة وذات الهمة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس . وكانما كُتب على الشعب المصرى أن يؤدى ثمناً باهظاً لمرحه وهو فى زمن المماليك ، فإذا العثمانيون يحتاحون دياره . وثُتمم سماء مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلاً ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولجان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جردتها فأتمها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعاتها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من تحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حيثزدها التجارية وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعماليق والماليك يعترضون خيراتها وطيباتها من الورد ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والفسك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ، ليوسف الشريفي وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرقق به العثمانيون والماليك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جبر أفزع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفقر طعام الفلاح خبز الشعير والحب القريش (الحللى من الدهن) والبصل والعدهس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكاهة يحمل كثيرا من السوم .

## ٥

### التشيع : الدعوة<sup>(١)</sup> الفاطمية الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضوع - أن مصر دخلت في بيعة على بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاية من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ، إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوى بعينه . وتمضى مصر معتقدة لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية ، وينزلها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يفلح أحد منهم

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس للتصيرية (طبع دار الفكر العربى) وكذلك الهدى في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشريعة في

الإسلام لجولدستين (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المنفى) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف .



في حملها على الثورة ضد العباسيين، وكان دعوتهم لم تكن تلبث أن تترد معهم إلى المغرب. وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقمون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متمسكة بعقيدتها السنية. ومرُّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر المختفى منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه. ومرُّ بنا كيف أن عبداً لله بن ميمون القداح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعايتها هياً لعبداً لله الفاطمي حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائم فالمنصور فالعز الذي اتسع بالدولة ومدَّ حدودها شرقاً إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعل وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصي لسلفه طبقاً للترتيب الإلهي في خلافة أو ولايته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول ﷺ - في اعتقادهم - فأوصى بخلافة علي وإمامته من بعده، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل: «علي مني بمنزلة هرون من موسى» كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تابع الإمامة في آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا).

ومبدأ ثانٍ قرره هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سراً أو علانية وجهاً، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويقضون أمورهم إليه ويبدلون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، ينضوون تحت لوائه ويبرهون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء.

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنساني بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهرين من الآثام، لا يتورطون في معصية، ولا يقعون في أي خطيئة مها كانت صغيرة، لما يتقل في أصلابهم - حسب اعتقادهم - من نور إلهي ينقي أرواحهم

ويُخلِّبها من دواعي الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع ما يزال ينتقل في الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : ( وكذلك يَجْتَنِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خصّوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والمثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذى يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها . وهم بذلك يقترّبون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التى تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسبين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فضلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكوفى ، وكل دور يدعّم عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهي في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعالا وأن عليا وصيه - فى اعتقادهم - كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح عليّ عقلا فعالا . وما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مثله عقولا كلية مدبرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم يبدعون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى للمسيح . وزعموا أن الله - جلّ جلاله - ينبئ أن يتّزه عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا - بزعمهم - إن أسماءه الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

يسمى باسم أويوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه « مطالع الشمس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يُتأسس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للمخلوق إلى معرفته وصول . » وكان أبو فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدى الوجود الذي لا يحده الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يُعرف إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سؤلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعاة إلى عبادته . ولما طفع الكيل قُتل في ضواحي القاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوماً إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبي ، إذ كانوا يُلقنون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكمُ إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقلي في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناذرة في الأذان بحمى على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أياها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُعَنَّ بالدعاية كما عُني الفاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعاة ، وللدعاة جميعاً رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب ، ويليه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتى وراء ذلك الدعاة والتقاء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني ، وكان مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت سنية ومبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثراً . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد ، أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفه عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل

المزاج لا يتطرف يمينا ولا يساراً، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويباينها أشد المباينة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي، فعثر على أساءة أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة، إنما كانوا سُنيِّين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتق مذهباً من مذاهب الشيعة، فضلا عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط.

## ٦

الزهد<sup>(١)</sup> والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ، وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لدينها الوثني في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد في حطام الدنيا ومتاعها الفاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات وآرب إلى الأديرة يتفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسراباً من المجنون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعلو زَيْدًا أو قشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوي المادي وتعلق بما عند الله من المتاع الآخروي الروحي .

وابن خلكان وابن شاطر في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تفرى بردى وبلاتع الزهور لابن إلياس وتاريخ الجبرقي وكتاب في التصوف الإسلامي لنيكلسون والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة، وإبراهيم السنوسي وأحمد البعوي في دائرة المعارف الإسلامية، والتصوف في مصر إبان العصر العثماني والشعراني للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاية والقضاة للكندي ، والمغرب ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشعراني . وكذلك كتاب لواقع الأتوار ، والخطط للمقرئزي في الحقايات والرياضات والزوايا . والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجويزي ترجمة الدكتور إسعاد عبد الحادي قنديل وأخبار الحكماء للقفطي وتهذيب ابن عساکر

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتنبذ طياتها ، وقرأ في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنيقة من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبي ، وهو أول من قصَّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان يحتم القرآن في كل ليلة زلفى وتعبداً لربه . ومنهم المُرزى صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتياظه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : بلغني أنهم يستعملون السُّرجين ( روث البهائم ) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفضيلة الجماعة ، مستنداً في ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة . ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسطاط : « كان أحد البكائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقلعوا إليه وما حكم به ويكى خشية خطئه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي ثبوتاً طويلاً بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصفوة في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدنا اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهي في مُصلأها بغير فراش .

وطبيعي ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف ، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السُّرى بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرؤن بالمعروف ويعارضون السلطان في امره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . ويمكن أن تتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبياً لظهور التصوف في مصر . ويروي الكندي أنه كان في القاهرة جماعة مماثلة لمعهد المامون كانت تحيط بقاضيهِ عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكان التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هى من الصُفَّة وأهلها الذين كانوا يتقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجع القشيري رأياً على آخر ، وذهب البيهقي إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفياً بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طئاً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما نغضى طويلاً في القرن الثالث الهجرى حتى نسمع بأبى حاتم العطار المصرى أستاذ أبى تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذوالنون المصرى المتوفى مع أبى تراب في نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخيمى . كان أوحد وقته زهداً وورعاً وعبادة ونسكا ، طلب الفقه في أول حياته فتلمذ لىث بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتلمذ لشُقْران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى مستنداً في ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير منازع - في العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميّز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحُدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائماً كان يفرّق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوّة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقته عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله ( أى رسوله ) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته » . وفي هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أى انفصام وأن ما ذكره المهجورى فى كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمر الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنة الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردّه مكرّماً ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول : حَيَّ هَلَا بَدَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشبرى فى رسالته والهجوبرى فى كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازى شيخ مشايخ إيران والجينيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخراز وهو أول صوفى تكلم فى الفناء وسهل بن عبد الله التُّستَرى شيخ الحلاج الصوفى المشهور . وفى ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر فى التصوف وتاريخه كان أثراً بعيداً وعميقاً إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفى بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيّتها وهو بنان الحمّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيّتها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد فى المغرب قسم الفسطاط : كان الإخشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيراً ما كان يلم بأبى سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء فى خشوع متبركاً به .

وتدخل مصر فى أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطنى ، وزعم الفاطميون لأئمتهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شىء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفى هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة فى المشرق : فى العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم فى الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشبرى والغزالى إلى خطورة هذا الصدع فى بيان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملاً بقوة على رأيه . بحيث لا يكون المتصوف متصوفاً حقاً إلا إذا

أدَّى الفرائض والسنن الدينية ، ولابد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوقفت الأمة جميعها بنيانا مرصوصا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقا . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة دارا كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دارعبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ وهى أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخا سُمي شيخ الشيوخ ، ورتب للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبني لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسما : أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لتصوفها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حيث يزدهر في مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردي فلسفي ، واتجاه جماعي سني ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجدّه وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانع به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقد رفَعَ حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسددوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المتزع الصوفي الفلسفي الفردي المتزع الصوفي الجمعي ، وقد هيات له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نمضى في القرن السابع طويلا حتى يتزل



بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التي كُفرت في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حاسة ملتية .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتخليفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتبنى لهم كثيراً من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويُعدُّ المقرئ من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها خانقاه البيبرسية ، ويقول المقرئ : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهي أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمائة صوفي ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوي وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى لها مسجدا وحاما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخاري وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثني عشر رباطا ، وكانت ترتب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر في دار الحرب ، ولعل في إطلاقه على زوايا المتصوفة حينئذ ما يدل على صلته المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والنسك وكانت ترتب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعياً أن تكثر الطرق الصوفية في زمن هذه الدولة التي اتسعت في رعاية المتصوفة وولتقى في أوائلها بأبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقتان : الوفاية والخلوتية . وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربعة فروع . وولتقى بإبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوي المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر في أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ،

ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم، وقلت أعالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتنسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقریزی إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة . وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المالك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفي مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحففي ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له في غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فلكل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعائم القادرية بيضاء ، وهي عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت هذه الطرق تنظّمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمرديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلًّا له ، إذ تلاشى إرادته في شيخه تلاشيا تاما وفي ذلك يقول الشعراي في كتابه : « لواقع الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم اللسوقي : « المرید مع شیخه علی صورة المیت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المرید شيخا ، وكانوا يرسلون بالمریدین إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون في وطنه وفي الوطن الإسلامي الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة في نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخداماتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون في معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحي واضح ، جعلهم يقفون أحيانا في وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة في الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة في كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديداً ، كما جعل الحكام من الماليك وغيرهم يَحْشُونَهُمْ وَيَحْسَبُونَ حَسَابَهُمْ . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام الماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين الماليك يرهبونهم ويفقدون لهم ما يريدون . ومما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين الماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوفي ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السني وطرقه في أيام الماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفي إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششتري الأندلسي ، وعفيف الدين التلمساني نزيل دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصري الوحيد الذي اعتنق التصوف الفلسفي ومذهب ابن عربي فيه عبد العزيز بن عبد الغني الحسيني من الأسرة الحسينية بينيع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربي ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه في دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربي في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مسرِّبًا إلى مصر .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام الماليك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوي القديم ، بسبب تحول خاتقاته ورباطاته وزواياه إلى تكايا وسميت كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سموها بالماذيب وال دراويش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغي ان لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى في زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفي مصري ظهر في زمنهم هو الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهه الفلسفي والسني ، إذ قرأ ابن العربي وابن الفارض كما قرأ الغزالي والقشيري وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السني وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنقات كثيرة تُعدُّ بالعشرات ، أكثرها في التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتر بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه تَوًّا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس بينت شفة . ويقول الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفنى قطب رضى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ويأذنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا في أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا في الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحي والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع في الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرق بفن الزراعة وشتق الثرع وتديير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلال الحروف الهيروغليفية التي اشتقت منها الحروف الفينيقية ، وأيضا ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة في نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها فى الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجدوة المتقدة لا تخمد مها تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شررا كثيرا من هذه الجدوة فى عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخما ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضا مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعائة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم فى تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرقُ المكتبة فى أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئُ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرايوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورتنة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويدمرُوا معه المكتبة . ولا يُعنى الرومان بالحركة العلمية فى مصر أى عناية ، فقد عدُّوها مخزناً يمددهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة فى لغة

العلم ، وشاركها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرس في الإسكندرية »<sup>(١)</sup> .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قبيل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينياً ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتاحها ، فقد دحضَ هذا القول بتلر وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحرقَت تاريخياً في عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحرقَت مكتبتها الصغرى قبل أن تحقق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف<sup>(٢)</sup> ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أي أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفاً تاماً الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجرّدون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليقفوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جاءوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء

العلمى حتى الفتح العربى .

(٢) بتلر ص ٣٤٨ وما بعدها وقران بصفحة ٨٣ وما كتبه فى الفصل الثامن ومقال ماكس مايرهوف فى التراث اليونانى .

(١) انظر فى هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بتلر (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بلوى ، وقد فصل القول فى نشاط هذه المدرسة .

والوعاظ ممن اضطلعوا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية . وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر<sup>(١)</sup> بن الخطاب . وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللفتنوى فيما يجدهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدثين ، وكان يُسند إليهم الوعظ . ودائماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعنى بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً<sup>(٢)</sup> مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد<sup>(٣)</sup> بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفى وكونَ بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكتفى بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدْركه الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذاسعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجيرة الخولاني القاضي ألف<sup>(٤)</sup> دينار كل عام ، ومربنا في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي القسطنطين سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثرياً ثراء طائلاً ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويًا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرًا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدثين والفقهاء<sup>(٥)</sup> . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفًا ثانية ومن رجلين آخرين ألفًا ثالثة<sup>(٦)</sup> . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء

(٤) حسن المحاضرة / ١ / ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان / ٤ / ١٣٠ .

(٦) ابن خلكان / ٣ / ٣٤ .

(١) حسن المحاضرة / ١ / ١٩٠ .

(٢) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٧ .

(٣) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٩ .

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس<sup>(١)</sup> (أوقاف) . وكان طيبات مصر وخيراتها صبّت في حجور العلماء . فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هيا للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه . وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي . وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حينئذ التلقي والتلمذة ، فهي تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقهاء واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي ، وتُسيغ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسطت القرن الثاني للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هي تعدّهما لقراءة ورّش والاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هي التي كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوّعا وانتشارا .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر في زمن الولاية مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علماءها المختلفين . ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدوّنة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة . ويبنى أحمد بن طولون جامعته المشهور ويرتّب لإملاء الحديث النبوي فيه الربيع بن سليمان المرادي ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء<sup>(٢)</sup> . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُروى أنه كان يعطى القاضي بكّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة<sup>(٣)</sup> . ولا بد أن غطايا مقاربة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمحدثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون ( ٢٥٤ -

(٣) ابن خلكان ١ / ٢٧٩

(١) ابن خلكان ٣ / ٢٥٠

(٢) خطط القرظي ٣ / ١٤٦ وما بعدها



٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوي عن علمائها ، وهم البخارى وأبوداود ومسلم وابن ماجه والنسائي<sup>(١)</sup> وأقام فيها الأخير واتخذها مسكنا ودارًا له ، وكان ينزل في زقاق القناديل ، وأملى بها سنته ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاية مصر وحكامها يترّون من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يُروى من أن ابن - ير الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو فى نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبى بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعى عن تلميذه : المزنى والربيع بن سليمان المرادى إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضًا محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعى إلى سمرقند عن المزنى وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الرويانى المحدث وله مسند . جاءوا جميعًا إلى القسطنطينية يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يموتهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار<sup>(٢)</sup> . وإذا كان طلاب العلم تُغلق عليهم الأموال بمصر فما بالناس بما كان يُغلق على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعى فى خراسان عن طريق أبى بكر بن إسحق النيسابورى ومحمد بن نصر وأيضًا عن طريق عبدان المروزى الذى تفقه على المزنى والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطى إنه هو الذى أظهر مذهب الشافعى فى خراسان<sup>(٣)</sup> ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعى المصريين أبو القاسم الأنماطى عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكي : هو الذى اشتهرت به كتب الشافعى ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه فى بغداد والعراق

(٢) معجم الأدياء ٤٦/١٨ وحسن المحاضرة

٣١٠/١ .

(٣) حسن المحاضرة ١/٣٤٩ .

(١) حسن المحاضرة ١/٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية

للسبكي (طبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة) ٧/٢ ،

١٧١ ، ١٥/٣ .

أبو العباس بن سُرَيْج<sup>(١)</sup> . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده لأن في الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup> . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تخرج منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة<sup>(٣)</sup> . ويمضي السبكي قائلاً إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

وتمضى مصر في العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكيين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات<sup>(٤)</sup> . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقسم مصر مذهبه والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائياً إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي . وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصرى كبير من أمته هو أبو جعفر الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهى التى أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التى يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية فى النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويومها الأخصف الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطرداً فى زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنماء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة وكان يُغلق على العلماء ويحزل صلاتهم ، فقصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوى وكان له مجلس فى المسجد يملكه فيه على الناس ، وعنى بتأليف مسند

(٣) السبكي ١/٣٢٢ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم القسطنط) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن المحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارَقُطِيُّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره ، وأعانه في تأليف مسنده مع من كان يُعِينُهُ فِيهِ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ وَأَقَامَ لَدَيْهِ مَدَّةً ، وَبَالَغَ ابْنُ حِزْبَةَ فِي إِكْرَامِهِ ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ نَفَقَةً وَاسِعَةً وَأَعْطَاهُ شَيْئًا كَثِيرًا وَحَصَلَ لَهُ بِسَبَبِهِ مَالٌ وَفِيرٌ <sup>(١)</sup> .

وظل ابن حِزْبَةَ يَقُودُ الْحَرَكَةَ الْعِلْمِيَّةَ بِمَصْرٍ طَوَالَ وَزَارَتِهِ وَقَدْ اِمْتَدَّتْ نَحْوَ عَشْرِينَ عَامًا مِنْ أَيَّامِ كَافُورٍ إِلَى قَرَبِ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ الْإِسْخِيدِيَّةِ ، وَطَبِيعِيٌّ وَمِثْلُهُ يَقُومُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَمْضَى فِي النُّشُورِ وَالنَّشَاطِ . وَمَنْ نَزَلَ مِصْرَ حِينَئِذٍ الْمَسْعُودِيُّ عَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ الْمَوْرُخِ الْمَشْهُورِ . وَمِنْهَا ذَاعَتْ كُتُبُهُ التَّارِيخِيَّةُ وَفِي مَقْدَمَتِهَا كِتَابُهُ مَرْوَجُ الذَّهَبِ ، وَظَلَّ مَقِيمًا بِهَا حَتَّى لَبَّى نَدَاءَ رَبِّهِ سَنَةَ ٣٤٥ وَقِيلَ بِلِ سَنَةِ ٣٤٦ .

وتزداد الحركة العلمية نموًا ونشاطًا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْعِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ دَفْعًا قَوِيًّا ، وَمَا تَكَادَ تَمْضَى سِنَوَاتٌ فِي عَهْدِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ حَتَّى نَجِدَ الْخَلِيفَةَ الْعَزِيزَ (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يَرْسُمُ رَاتِبًا لِسَبْعَةِ وَثَلَاثِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَيُنِيئُ لَهُمْ دَارًا بِجَوَارِ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ <sup>(٢)</sup> الَّذِي كَانُوا يَتَّخِذُونَهُ مَقْرَأً لِدَعْوَتِهِمُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ . وَلَا نَعْرِفُ هَلْ كَانَ الْفُقَهَاءُ جَمِيعًا إِسْمَاعِيلِيَّةً أَوْ كَانَ بَيْنَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ، عَلَى أَنَّا نَجِدُ ابْنَ الْحَاكِمِ يَسْتَدُ إِلَى فُقَيْهَيْنِ مَالِكِيِّينَ التَّدْرِيسَ فِي هَذَا الْجَامِعِ <sup>(٣)</sup> ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَحْوَلُ سَرِيعًا إِلَى جَامِعَةِ كِبْرَى لِلدِّرَاسَاتِ الدِّينِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ . وَفِي أَخْبَارِ وَزِيرِ الْعَزِيزِ ابْنِ كَلَّسٍ أَنَّهُ كَانَ يُجْرَى بِأَمْرِهِ أَلْفُ دِينَارٍ شَهْرِيًّا عَلَى جَامِعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالرُّوَاقِينَ وَالْمُجَلِّدِينَ <sup>(٤)</sup> ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَشَأَتْ حَرَكَةٌ عِلْمِيَّةٌ كِبْرَى لِالدِّرَاسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَحَسَبَ ، بَلْ أَيْضًا لِنَسْخِ الْمَخْطُوطَاتِ فِي مَخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ . وَأَكْثَرُ دَلَالَةٍ عَلَى ذَلِكَ مَا يُرَوَى مِنْ أَنَّ الْعَزِيزَ عُنِيَ بِإِنْشَاءِ مَكْتَبَةٍ فِي الْقَصْرِ ، كَانَ بِهَا مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ مَجْلَدٍ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَلَى مِائَتَيْ أَلْفٍ <sup>(٥)</sup> ، وَكَانَ أَمِينَهُ الْقَائِمَ عَلَيْهَا الشَّابِثِيَّ <sup>(٦)</sup> عَلَى بْنِ مُحَمَّدٍ صَاحِبِ كِتَابِ الدِّيَارَاتِ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ بِهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ نَسْخَةً مِنْ مَعْجَمِ الْعَيْنِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ ، وَأَكْثَرُ مِنْ عَشْرِينَ نَسْخَةً مِنْ تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ ، وَمِائَةِ نَسْخَةٍ مِنْ مَعْجَمِ الْجُمْهُورَةِ لِابْنِ دَرِيدٍ . وَمَا زَالَ الْعَزِيزُ يُعْنِي بِهَذِهِ الْمَكْتَبَةِ هُوَ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْخَلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ ، حَتَّى قَبْلَ

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز

١/ ٢٥٠ نقلًا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٥) النجوم الزاهرة ٤/ ١٠١ والخطط ٢/ ١٢٨ .

(٦) ابن خلكان ٣/ ٣١٩ .

(١) ابن خلكان ١/ ٣٤٧ ، ٣/ ٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣/ ٣٦٣ والخطط ٣/ ١٥٧ ،

٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٨ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مملأة بنفائس المجلدات في الحديث النبوي والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة الهائلة لزمن المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضي الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلالاً الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين<sup>(١)</sup> . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلحَقُ بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنقات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفاً وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب<sup>(٢)</sup> . وإنما نُصِّوا على إنزال المصاحف لجلاها ، ولا بد أنهم أنزلوا معها كثيراً من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وَيُؤَسَّسُ في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمِلَ إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوي على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقرئ « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعِلَ فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر . وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وَفْقِيَّةً كبيرة للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصَّ الفراشين والحُصْرَ والحبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين ديناراً سنوياً . ومن المؤكد أن الحاكم كان يتفنى بهذه الجامعة أن تكون مركزاً للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيساً لها أحد دعواتها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نحلته طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعي المشهور وأكبر حُفَّاز

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها الخطط (٢) الخطط ٣/١٤٦ ، ١٦٣ .

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجبال إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جعل المستعلي بالله الخليفة الفاطمي بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذي كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن النزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمرين المستعلي . غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية<sup>(١)</sup> .

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية ظل مركزاً لدراسات أهل السنة . ولا بد أن نلاحظ أن القاهرة حين أُسست إنما كانت مسكناً للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت القسطنطينية مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجد جامعها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بن العاص بين العشاءين مائة مجلس وعشرة<sup>(٢)</sup> للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحياناً<sup>(٣)</sup> ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بدءاً - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ومحاربونهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ لأبي لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطأ للإمام مالك<sup>(٤)</sup> ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسبب والطلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخيل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضاً دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغربية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته ، وولّى بعده ابن عمه عبد العزيز الذي أقامه رئيساً لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة المخطوط

ص ٢٠٥

(٢) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر المخطوط ٣١/٣ .

٢١٨ ، ١٩٤/٢ .

(٣) المخطوط ٣/٢٧٥ .

(٤) أحسن التماسيم في معرفة الأقاليم (طبع ليدن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارقي ، ولم يلبث أن سفك دمه <sup>(١)</sup> . وإذن فقتل الحاكم لجاعة من أهل السنة ليس دليلا كافيا على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يُبقي ولا يذر من كبار دعائه وقضاته ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) أمر بطرد <sup>(٢)</sup> الفقهاء المالكية من مصر أى الفسطاط سنة ٤١٦ . وينقص هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلّهون عليا وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا في آباءنا وأجدادنا منكرًا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفطع إلى ما لا يمليق بنا ذكره ، وإنما لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال » <sup>(٣)</sup> . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينهيه من البلاد . وكان لا يزال بمصر في عهده عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطي : « أكرم بمصر وتمول وسعد جدًا ، ومرض فكان يقول في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا <sup>(٤)</sup> » . فصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لاتزال مركزا كبيرا للإشعاع العلمي والدراسات الدينية ، ينزلها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية ، وينزلها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلا بمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس <sup>(٥)</sup> . ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره <sup>(٦)</sup> . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدنا فيها ما يكفل لها الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلها في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ

(٥) ابن خلكان ٥/٢٧٤ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٦) معجم الأديب ١٢/١٢٦ وكان أستاذ الداني في

(٢) الخطط ٣/٣١ .

القراءات هو نفسه أستاذ مكي : عبد النعم بن غلبون الحلبي

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

نزول مصر .

(٤) حسن المحاضرة ١/٣١٤ .

الحديث في عصره. الإمام السُّلُفي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الذَّيْبَلِي المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادي المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسي المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسي<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبنائها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعدُّون بالعشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قولته السالفة : « عندما عشنا متنا . » ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشافعيين حينئذ في مصر : المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندى يشهد لهم بذلك شهادة بيِّنة إذ يقول عنهم : « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه<sup>(٢)</sup> . » وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حينئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوماً .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترضون أهل السنة ، وحقا حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان قبيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيَّنوا على رأس القضاة قضاة شافعيًا هو أبو عبد الله محمد<sup>(٣)</sup> بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ٤٠٤/١ وما بعدها .

(١) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطي وما به من إثبات خاصة بهم في جزئه الأول .  
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٥٢٠/٣ .

شافعيين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجمالي (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان ولي الأمر ومحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل<sup>(١)</sup> السنة ولا يتعصبان ضدهم. وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة: شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا<sup>(٢)</sup>. ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥.

ويتزل في الإسكندرية السلفى أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلار في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعي المذهب مثل السلفى فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى له مدرسة فوّض تدريسها إليه، يقول ابن خلكان: وهي معروفة باسمه إلى الآن أى في زمنه<sup>(٣)</sup>. وفي صبح الأعشى سجل<sup>٤</sup> بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفى والقيام على نفقة من فيها من القراءة والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة، مع بيان أنه أعدّ لهم جميعا فيها المثوى والمسكن. وبذلك يكون ما ذكره المقرئى وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح<sup>(٤)</sup>، فقد كانت بها مدرسة السلفى المذكورة، وكانت مدرسة سنية شافعية. ونفس دار العلم يمكن أن نعدها مدرسة بالمعنى الكبير الذى كان لنظامية بغداد، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى.

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام. وفي غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا في الفصل الماضى، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف سريعا، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم، ويكاد يقضى على الصليبيين في الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب. وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوقا بها وخاصة بالحديث النبوى مما جعله يتزل الإسكندرية ليلتقاها على

(١) الغرب ص ٢١٦.

(٣) ابن خلكان ١/١٠٥.

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥.

(٤) الخطط ٣/٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢/٢٥٦.



السلفى أكبر حفاظه في عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُروى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشى المالكى<sup>(١)</sup> ، بينما كان السلفى شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذاهب ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء المذهب الحنفي ، فإذا هويتشي خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها في أثناء وزارته للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى قوّض إليه تدريس الفقه الشافعي بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضيعة بالقيوم وقضا عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعي والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية<sup>(٢)</sup> . والمهم أنه رتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدنين ، فقد كان نظام الاعادة معروفاً حينئذ ، ورتب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها في حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكان كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات في عصرنا ، فع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة في عهد الدولة الأيوبية لا في عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا في عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا في جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراءهم وأمرأؤهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها في الفسطاط والقاهرة عددها المقرزى - والطريف أنه اشترك معهم في إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفة توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقهاء الشافعي وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداهما أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العزوه واسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٧/٢٠٦ وقارن بحديث المقرزى عن المدارس في الجزء الثالث من المخطوط .

(٣) انظر حديث المقرزى في ذلك بالمخطوط ٣/٣١٣ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك ابن واصل في كتاب مفرج الكرب في تاريخ بنى أيوب ١/١٩٥ وما بعدها وكان يرسل بولديه :

العزير والأفضل سلطانى مصر ودمشق بعده للسمع من السلفى وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ٢/١٩ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقه المالكى بجانب المدرسة القمحية التى أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التى بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقه الحنفي بجانب المدرسة السيوفية التى أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأزكشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعي والمالكى مثل مدرسة القاضي الفاضل ، وأخرى بنيت للفقه الشافعي والحنفي مثل المدرسة القطبية التى أنشأتها السيدة مؤنسة ابنة السلطان العادل . وبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وهى أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلى . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوى تسمى دار الحديث الكاملة نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تبرى بردى أن جميع المدارس التى أنشأها صلاح الدين لم تُسمَّ منها مدرسة باسمه ، مع ما رُتب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة<sup>(١)</sup> .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه فى أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين ينفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان ينفق على مدارسه السالفة ، وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرم من المحارم ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان ( صلاح الدين ) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال<sup>(٢)</sup> . »

وكانت الإسكندرية فى عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزاً لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السُّلُقى الشافعي ، ويبدو أن

(٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدن) ص ٥٢ .

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجوم الزاهرة ٥٥/٦ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمخارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله<sup>(١)</sup> . وأخذت المدارس تعمُ مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضاً أمراء بيته ، من ذلك أن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية<sup>(٢)</sup> ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة<sup>(٣)</sup> ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية<sup>(٤)</sup> بها . ويبدو أنه لم تكد تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمي بجامع العطارين الذى بناه بدر الجمالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والمحلة وطظا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعددها المقرئى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحياناً بعض نسائهم وأمهاتهم ، وقد عدت للشافعية منها أربعة : المدرسة<sup>(٥)</sup> الطيرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثاً : الغزنوية والجمالية والمهندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين مثل المدرسة الأقباقوية والجاى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتمرية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .  
 (٢) ابن خلكان ٤٥٦/٣ .  
 (٣) الطالع السعيد للإدقوى (طبع مطبعة الجمالية)  
 (٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .  
 (٥) انظر فيما يلى من حديث عن هذه المدارس خطط المقرئى ٣/٣٤٠ وما بعدها .

« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ». وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية <sup>(١)</sup> فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرنح أو الحلى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوفا بالدور والحوانيت . أما المدرسة المنصورية <sup>(٢)</sup> فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرسا وثلاثة من المعيدين ومقرنا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشها الرواتب ، وبنى بجوارها مكتبا لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقيهين القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة في الشتاء والصيف . وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرنا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أمينا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب <sup>(٣)</sup> الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلماها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يشتركها الجوامع والمساجد . وفي مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلى نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعي ومحدثا لإملاء الحديث النبوي وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة <sup>(٤)</sup> . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخي العظيم ، فقدا أكبر جامعة

وما بعدها .

(١) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣ / ٣٤٠ .

(٢) المخطوط ٣ / ٣٤٦ .

(٣) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣ / ٣٤٢ والسلوك

(٤) المخطوط ٣ / ١٦٠ والسلوك ١ / ٥٥٦ وما بعدها

للمقريزي (طبعة القاهرة) ١ / ٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠

للدراستات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وخلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأوس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره <sup>(١)</sup> . » واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين <sup>(٢)</sup> سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى ببيرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب <sup>(٣)</sup> فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يشرك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحميها إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسد إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد تزها كثير من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يجئ إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(٣) المخطوط ١٦٥/٣ ويقول المقرئى إنه رصد له أوقافا

(١) المخطوط ١٦٣/٣ .

كثيرة فى الجزيرة والصعيد والإسكندرية .

(٢) المخطوط ١٤٨/٣ وحسن المحاضرة ٢/٢٤٩ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونَهضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حررروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعاً عن الشيوخ الثقات ويروىها جيل عن جيل بمتهمى الدقة ولا يروىها إلا من شهد له شيخ بأنه جديرٌ بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرأها الآن حتى يروىها أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دُونوه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشياها إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تناوله ، إذ تُعرض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشؤون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستظرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبيشى<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجدود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبيشى الضم اللامع ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقضه الحقائق السابقة نقضا ، وسيوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمى ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المماليك . وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما أحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويصيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجردوا السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدتهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . ووجد بعض المدارس من أعمدها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توفى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تتقد في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أو ذاك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الحنفية التي أنشأها صلاح الدين أو في المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أو في المدرسة الأقباقوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئى في خطه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغورى ، ومثل المدرسة السنانية <sup>(١)</sup> ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلطية والأشرفية <sup>(٢)</sup> ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذا للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتحلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أو في أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون الدمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادى صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ١/١٦٢ و ٢٢٠ . (٢) الجبرتي ١/٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمساني أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العاملى صاحب الكشكول . وعرّبت مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاله مؤلفا أديبا مثل راغب باشا واليا سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدى اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثمانى المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها ورعاية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصاييح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيسا من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدّد الجبرتي شيوخه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

## ٢

## علوم الأوائل - علم الجغرافيا

## (١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى<sup>(١)</sup> برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشأ فى ديارها ورقيا رقيقا بعيدا<sup>(٢)</sup> . وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تمصر البطالمة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لسانا لها ، فهضمت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرّسُ كتبه فى العربية وفى أوروبا حتى القرن الماضى<sup>(٣)</sup> ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشريحه

(٢) الدوميل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الدوميل ص ٤٣ وقصة الحضارة لوردبيرانت

(نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

(١) انظر العلم عند العرب للدوميل (ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم

ص ٢٣ وما بعدها .



العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية<sup>(١)</sup>. وغزا مصر الرومان، كما أسلفنا، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النمو، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهيليني في العلوم. ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه «النظام الرياضي للنجوم» وقد سماه العرب «المجسطى» أي الأعظم بنفس اللقب الذي وضعه له اليونان. وله كتب أخرى منها موجز جغرافي، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب<sup>(٢)</sup>. ويلقانا هيرون، وهو أرشميدس صغير كما يقال، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية، وتاريخه غير معروف فن الطماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد<sup>(٣)</sup>. ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب ظني كان تجديدًا لفلسفة أفلاطون، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة. وظل نشاط مصر في الطب عظيمًا، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكتف بمقامه فيها بالإسكندرية. فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبها والنوبة وبواديها<sup>(٤)</sup>. ومما لا ريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها، وقد عقد ابن أبي أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً<sup>(٥)</sup>. وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرع إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية، وكان حسب الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية<sup>(٦)</sup> ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من «رأس عين» بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السرياني الذي أمر

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) للقفطي (طبع

لندن) ص ١٣٢.

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقفطي ص ٧١.

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ ومابعدها وقصة الحضارة

١١٠/١١

(١) قصة الحضارة ١٥٦/٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٤٥

(٢) قصة الحضارة ١٠٦/١١ والأدمييل ص ٤٥

ومابعدها.

(٣) للأدمييل ص ٤٥، ٤٧٠ وقصة الحضارة

١٠٨/١١

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يجي النحوي شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأباي<sup>(١)</sup> . ومما لا شك فيه أن القبطية شَرِكَت اليونانية لزمان الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومُرَّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربي بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب في أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومُرَّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز ( ٩٩ - ١٠١ هـ ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران<sup>(٢)</sup> فلعله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطباؤها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن التديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا يتزلون بمصر وتقصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة ( الكيمياء ) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي<sup>(٣)</sup> . فكان الطبيعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرون القس الإسكندري في الطب . وكلف بذلك ما سرجويه البصرى كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطلقا أن يقال إن كثيرين من علماء

ص ١٧١ .

(٣) الفهرست ص ٣٥٢ .

(١) انظر مقالة مايرهوف في كتاب التراث اليوناني

ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) راجع مقالة مايرهوف السالفة وابن أبي أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح للحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيراً من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفاً والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبي طيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه والياً على مصر (٦٥ - ٨٦هـ) ويقال إنه أسلم على يده (١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحتفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالاً .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) يستدعى منها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان (٢) بطريك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر ألدومبيلي كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط (٣) . ومن أشهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي .

وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧هـ) باتحاذ المارستانات (٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مازستاناً جديداً أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه (٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زبيرك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف (٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتها ظل يؤلفه في نحو أربعين عاماً من سنة

(٤) خطط المقرئى : مارستان المنافر ٣/ ٣٨٦ .

(٥) الخنط ٣/ ٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبي الإسكندري وابن أبي آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدومبيلي ص ٢٦٩ .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات <sup>(١)</sup> مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس <sup>(٢)</sup> بن جريج ، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طيب ، ومن الأطباء لعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيبا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور <sup>(٣)</sup>

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نفع علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى ويذكر ألدوميللى أن له رسالة فى المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بلوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكاريننسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل <sup>(٤)</sup> ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما سخاذا فى الرياضيات والهندسة . وكان مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنقلتها إلى العربية ، وكل ذلك تمحوّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمم فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتتقيح جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتتقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم ألدوميللى ٧١١ ، ٢١٦

وبروكلمان ٤ / ١٩٣ والقفطى ٧١١ ، ٢٣٣ .

(١) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٥ .

وتفسيره لهذا التقيح في كتاب مستقل نُوّه به وأصله القدماء .

وظل النشاط محتدماً في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد<sup>(١)</sup> بن عبد الله العتقي وأبي<sup>(٢)</sup> عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصديقي المصري ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ في تقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وانه كان يشغل أربع مجلدات ضخماً ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول<sup>(٣)</sup> منه ، وقد سماه الزيج الحاكمي الكبير ولم يلبث أن توفي سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أبو علي الحسن بن الهيثم البصري<sup>(٤)</sup> ، وفرح الحاكم يقدمه وخرج للقائه على باب القاهرة . ولما وقف على خجل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب المحسّطى في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبيعهما جميعاً بمائة وخمسين ديناراً ويبدو أن نبوغه الفلسفي والرياضي والفيزيقي إنما تحقق في مصر التي اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » في العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمي عالمي بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده في الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء في كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة في عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . وبما يدل على النشاط في الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السّنبدي من أنه رأى<sup>(٥)</sup> في خزانة القصر الفاطمي سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطى ص ٢٨٥ .

٢٨١ .

(٢) القفطى ص ٤١٠ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ وألنوميل ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) انظر في علي بن عبد الرحمن المصنف ألنوميل

٢١٣ ، ٢١٩ وروكلان ٢٢٤ / ٤ وابن خلكان ٤٢٩ / ٣

والقفطى ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لنينو ١٨٦ ،

(٥) القفطى ص ٤٤٠ .

آلاف وخمسمائة حزة وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعهد الدولة البويهية .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضي متفلسف هو مبشر<sup>(١)</sup> بن فاتك ، ويقول القفطي قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجري لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئبي : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمي وغيرهم يُطلقُ لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم في كل سنة<sup>(٢)</sup> » ثم يذكر أنه فكر في عمل مرصد ضخم فنشط في إقامته ، ويذكر المقرئبي أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبي العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجاة بن سند الساعاتى الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكرم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحسّاب الرياضيين والمنجمين ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلعي وأبانصر تلميذ سهلون . ويتزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبي الصلت المتفلسف والأديب الأندلسى ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصرى وعلى بن النصر ، وقد ترجم لها القفطي<sup>(٣)</sup> ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، وله أيضا ترجمة في القفطي<sup>(٤)</sup> .

وتموج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى<sup>(٥)</sup> بن العازار الجراح اليهودى ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمى المقدسى<sup>(٦)</sup> وأحمد<sup>(٧)</sup> بن محمد البلدى وأبوسهل كيسان<sup>(٨)</sup> بن عثمان وأعين<sup>(٩)</sup> بن أعين ومتصور<sup>(١٠)</sup> بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء في عهده من مثل إسحق<sup>(١١)</sup> بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه<sup>(١٢)</sup> وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبو القاسم

ويروكلمان . ٢٩٠/٤

(١) القفطي ص ٢٦٩ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٣٣٢ ويروكلمان ٢٩١/٤ .

(٢) خطط المقرئبي في ذكر الرصد ٢٣٣/١ وما بعدها .

(٨) القفطي ص ٢٦٧ وانظر ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٨ .

(٣) القفطي ص ١٨٦ و٢٣٧ على الترتيب .

(٩) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ .

(٤) القفطي ص ٤١٠ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ .

(١١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٤ .

(١٢) ألدوميل ص ٢٤٠ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطي ص ١٠٥

عمار<sup>(١)</sup> بن علي وله المنتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثثذ ابن<sup>(٢)</sup> رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوّت شهرته في العالم العربي مما جعل علماءه يكاتبونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طبيبا ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما : « كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطبّ وأعلم بالعلوم الحكيمية وما يتعلق بها » . وقد تُرجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه<sup>(٣)</sup> . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على<sup>(٤)</sup> بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم<sup>(٥)</sup> بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبناؤه على أموال كثيرة ، وكان شغوقا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نُسُخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمّ بحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراقي عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر . ويقولون إنه حوّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة<sup>(٦)</sup> بن رجمون الطيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظّل نسمع عن أطباء في العهد الفاطمي لا في القاهرة

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والتفطى ص ٢٠٩ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ وألدوميل ص ٥٤٨

وبروكلان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) القفطى ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ٥٦١ وألدوميل

ص ٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين<sup>(١)</sup> بن منصور طيب إسنا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن<sup>(٢)</sup> العين زري وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبي أصيبعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطيب يسمى بلمظفر<sup>(٣)</sup> بن المعرف . ولحققت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتقدوا هذه الدعوة ، وكان دعواتها يلقنون تلاميذهم الفلسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرّر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعواتها كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من إيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم في ابن أبي أصيبعة والقفطي سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الأمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل<sup>(٤)</sup> الدين الحونجي المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطي - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧١ .

(١) حسن المحاضرة ١/٥٤٠ والطالع السعيد للإدري

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١/٥٤١ .

١٢٠ .

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٠ .



في ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويرجع في عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر<sup>(١)</sup> بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد ، كان فقيها حنفياً عالماً بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمير حجة نواعير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علوشاهق إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظرًا بالغ الروعة . وكان فلكياً مبدعاً . فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن في المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين ، وقد بدأ هذا الاهتمام بتأخذه مارستاناً ضخماً في القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً<sup>(٢)</sup> » ويذكر أنه عين له قيماً وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشياً ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن بالمارستان قسماً خاصاً بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم ، وقسماً خاصاً بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستاناً آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولا بد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة وبغداد جميعاً كان دائماً مدرسة للطب كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثاً كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد<sup>(٣)</sup> أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيساً على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته . وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن<sup>(٤)</sup> جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحل طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده

(١) انظر في قيصر حسن المخاضرة ٥٤٢/١ والطالع

السعيد ص ٢٥٩ وألدوميل ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن المخاضرة

٥٤٠/١ .

(٤) انظر في ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى

أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدوميل ص ٣٢٠ وما بعدها

وص ٥٦٦ .

مثل أبي (١) البركات بن القضاعى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجمال (٢) الدين ابن أبي الخوافر القيسى وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح (٣) الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون . ويقول الدومبيلي إنه ألف كتابا يحتوي على ١٥ فصلا في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحيانا رئاسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس (٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل وتميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن (٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات . وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين ، وهو بحق إمام النباتين لزمه ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدلى قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المغنى في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحت لابن البيطار المالقي الأندلسي بحوثها العلمية الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فلإنها أتاحت لأحمد بن يوسف النيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجرى ، وهو لا يزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا . ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكرا بدراسة التاريخ الطبيعى واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا في خمسة وعشرين فصلا (٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة

٥٤٢/١ والدومبيلي ص ٤١٤ وما بعدها

(٦) نشر كتابه «أزهار الأفكار» في القاهرة الدكتوران

محمد يوسف ومحمود بسيوى خضاجى بالهيئة المصرية العامة

للكتاب ، وراجع فيه مقدمتها وما بها من مراجع .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ والدومبيلي ص ٣٢٢ ،

٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكوينه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور<sup>(١)</sup> بن بكرة الذهبى الكاملى وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات من بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل ينزها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة<sup>(٢)</sup> ، ويذكر السيوطى حشدا<sup>(٣)</sup> من متفلسفها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصبهانى المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنبارى المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبى الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصبهانى المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين على بن أحمد المدرس بمدرسة بقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافيجى محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، ومن أهم بالتاريخ الطبيعى بيلك القبجقى الذى صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كتر التجار في معرفة الأحجار » ويقول ألدومبيلى : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها<sup>(٤)</sup> » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثانى عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدت لصنعها ، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحة في البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها في عصر المماليك يغدون ويروحون في البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع موانئ إيطاليا وغزوهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٥٣٩ وما بعدها .

(٤) اللومبيلى ص ٣١٤ وما بعدها .

(١) انظر فيه ألدومبيلى ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٢) راجع البحر المحيط لأبى حيان ٥/ ١٤٨ - ١٥٠ في

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

مصر للبوصله إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . ويلقانا بها محمد<sup>(١)</sup> بن موسى الديمري المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته في علم الحيوان التي سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرف من الحديث النبوي والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حينئذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين المالك منذ الظاهريين ، وفي مبانیه يقول ابن تفرى بردى : « بُني في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبني في أيام الخلفاء المصريين ( الفاطميين ) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات<sup>(٢)</sup> » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكثر من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لانزال نرى آثاره في مساجدهم الباقية . ويؤه السخاوى بمهندس مصرى بارع لعهد السلطان برفوق ( ٧٨٤ - ٨٠١ هـ ) هو شمس الدين الطولونى ، ويقول : « كان المولى عليه وعلى أبيه في العائرت السلطانية<sup>(٣)</sup> » . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الهائم<sup>(٤)</sup> الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسى الطالب ، كان واسع الانتشار . وفي دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المالك في دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعدّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تخرّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

(٤) انظر ابن الهائم في الشنرات ١٠٩/٧ والضوء اللامع ٢ رقم ٤٤٩ وألدمويل ٥٠٦ ، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ١٢٥/٢ .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة في النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ والشنرات ٥/٣٢٧ وأيضاً ألدمويل (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع في الديمري حسن المحاضرة ١/٤٣٩ والضوء اللامع .. رقم ٢٠٤ وشنرات الذهب ٧/٧٩ والبر الطالع ٢/٢٧٢ وألدمويل ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٩٦ .

(٣) الضوء اللامع ١/٢٢١ .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربي ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُلْتَقَيْنَ بالظاهر بيبرس مثل شهاب<sup>(١)</sup> الدين بن فتح الدين القيسي ورشيد<sup>(٢)</sup> الدين أبي حليقة النصراني . وما يلبث أن يلي السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا البمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا<sup>(٣)</sup> » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمد ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدها بكل ما تحتاج إليه من فرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب<sup>(٤)</sup> . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعِدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذكَرُ أن مَجْبَاه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم<sup>(٥)</sup> . وتلقانا في عهد قلاوون بجانب كلية الطب التي كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة<sup>(٦)</sup> المهديّة نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبي حليقة المار ذكره في عهد بيبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم في أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبي أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطيبة وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية<sup>(٧)</sup> « .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حيثئذ أنه كان يدرس في المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوي ، وبجانب ذلك يرتب فيه درسا للطب<sup>(٨)</sup> ، ومن درسوا فيه بعد زمنه في القرن الثامن الطبيب شمس<sup>(٩)</sup> الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠/١

(٦) خطط المقرئى ٣/٣٧١ .

(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٨) خطط المقرئى ٣/١٤٨ .

(٩) حسن المحاضرة ١/٥٤٦ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٣) التاجم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

(٤) راجع في هذا المارستان خطط المقرئى ٣/٣٨٦ .

وما بعدنا .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ويكفي لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمانه علاء الدين .  
على بن أبي الخزم المعروف باسم ابن النفيس<sup>(١)</sup> العلامة في فنه الذي لم يكن في زمانه من يضاهيه  
في الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدومبيلي وغيره من  
الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طبيًا خطيرًا لم  
يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمانه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المهذب في  
الكحل » وشرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفي سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه  
وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء  
بعده مهذب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن<sup>(٢)</sup> المحاضرة أسماء طائفة  
من الأطباء في القرن الثامن الهجري . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد<sup>(٣)</sup> بن الأكفاني المتوفى  
سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمد « كشف العين  
في أحوال العين » وله كتاب في الطب المنزلي سماه « غنية اللبيب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية  
القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى  
أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً نشره شبرنجرف في المكتبة الهندية . واشتهر  
بعده في طب العيون صدقة<sup>(٤)</sup> بن إبراهيم الشاذلي ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء  
النصف الثاني من القرن الثامن الهجري المقابل للقرن الرابع عشر الميلادي . وما يدل على شهرة  
مصر لأيام المالك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان  
بايزيد العثماني أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص  
بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج<sup>(٥)</sup> . ويظل هذا  
النشاط الطبي في مصر حتى نهاية زمن المالك إذ نلتقى في زمن قانصوه الغوري  
(٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصي ، وإليه قدّم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم  
وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكاني ٢/٧٩ . وانظر ألدومبيلي  
ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدومبيلي ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/٣٧٧

والسبكي ٨/٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/٥٤٢ والشذرات

٥/٤٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/٢٣٤ وروضات الجنات

٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/١٣١ وألدومبيلي

ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجي عنه .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام المماليك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما ألف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خيّل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر<sup>(١)</sup> بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين: الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثاً فرونر . ولأيدمر<sup>(٢)</sup> الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها ، المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحجى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المنوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرقى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعتهم رضوان<sup>(٣)</sup> الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرقى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧ م . ويؤه الجبرقى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن<sup>(٤)</sup> أفندى قطة ، فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرقى بأبيه في الرياضيات والفلك ، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف<sup>(٥)</sup> الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه ألف كتابا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاويل والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كثر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(٤) الجبرقى ٧٠/٢ .

(٥) الجبرقى ١٦٤/١ .

(١) ألدوميل ص ٥٠٥ .

(٢) ألدوميل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٣) تاريخ الجبرقى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

وينوه طويلا بحسين<sup>(١)</sup> المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد<sup>(٢)</sup> بن موسى الجناجى المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبري في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبري وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادى عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكره عنه عضوامثل شهاب الدين بن سلامة<sup>(٣)</sup> القليوبى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكي<sup>(٤)</sup> داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبري وتراجمه في القرن الثانى عشر الهجرى يراه يذكر طبييا يسمى قاسم<sup>(٥)</sup> بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثمانى ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبري يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصورى ، ومعنى ذلك أن مازستان المنصور قلاوون الذى مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المالك .

### (ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والحيزة والإسكندرية . ولعاصره محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط<sup>(٦)</sup> سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودى على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباتة التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

(٥) الجبري ٢/٥٤ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ترجمة

صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ١/١٦٨ .

(١) الجبري ١/٢١٩ .

(٢) الجبري ٢/١٢٥ .

(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكي في قسم الشام



الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في القسطنطينية كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي القسطنطينية ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو مليء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابين سليم<sup>(١)</sup> الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمقررة وعلوة والبجة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقريري وابن إياس مرارا : وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمي سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان<sup>(٢)</sup> .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعي<sup>(٣)</sup> كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر<sup>(٤)</sup> بن عبد الرحمن الإسكندراني المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اختلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ سما ولاحظ وستفولد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب<sup>(٥)</sup> . وينزل مصر في أواخر القرن السادس الهجرى عبد<sup>(٦)</sup> اللطيف البغدادى ويغنى بتأليف كتيب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » . والكتيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعمّا أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مرّوعين .

- (١) كراتشكوفسكى ١٩٢/١ وروكلان ٢٥٣/٤ .  
 (٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة د. فتي ريدة ٧/٢ - ٨ .  
 (٣) كراتشكوفسكى ١٦٩/١ وابن خلكان ٢١٢/٤ .  
 (٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وغريدة القصر  
 (٥) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ٣٤٥/١  
 (٦) للمعاد الأصبهاني (قسم مصر) ٢٢٥/٢ وفيه الوعاة للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ٣٢٢/١ .  
 (٥) انظر كراتشكوفسكى ٣٢٣/١ ومقدمة وستفولد للجزء الخامس من معجم البلدان .  
 (٦) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ٣٤٥/١

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجرى ويتكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن<sup>(١)</sup> المتوج محمد بن عبد الوهاب الزيبرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعائة . وكان في زمنه التويرى<sup>(٢)</sup> شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مر ذكرها فى الحركة العلمية والتى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعى وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل<sup>(٣)</sup> الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها فى الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية فى الغرب والشرق . وتتم الدولة فى هذا القرن الثامن بعمل روكلات أو بعبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضى المصرية ، ومن أهمها الروك<sup>(٤)</sup> الناصرى سنة ٧١٥ فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر فى القرن التاسع الهجرى ، وملتقى فى أوائله بابن دقاق<sup>(٥)</sup> والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر فى كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيهما يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى<sup>(٦)</sup> شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقريزى<sup>(٧)</sup> تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

(٥) الشلوات ٨٠/٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى فى ترجمته بالفصل الخامس .

(٧) الفوه اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٦٦ والنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية)

٣٩٤/١ والسيوطى ٥٥٧/١ والشوكافى ٧٩/١ والمؤرخون فى مصر لزيادة ص ٣ .

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب

الحديثة) ١٥٥/٤ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٥٥/١ وكراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

(٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨/١ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله فى ترجمته بالفصل الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .  
 ويعنى خليل<sup>(١)</sup> بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة الممالك في كشف الطرق  
 والمسالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المماليك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع  
 الهجرى بابن الجيعان<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف  
 لرحلة السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف فى سفر ممولانا  
 الأشرف » . وينتهى الجغرافيون فى العهد المملوكى بابن<sup>(٣)</sup> إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠  
 وله كتاب « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية  
 الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر  
 السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافى بمصر فى عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم  
 يعد أبناؤها يشعرون بمكانتهم التى كانت لهم زمن المماليك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد  
 العربية بالطاعة وفى مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا  
 إذ نجد ابن<sup>(٤)</sup> زنبيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف فى الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرغائب لما فى  
 البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . وتلتقى فى القرن الحادى عشر بالسهنورى<sup>(٥)</sup>  
 محمد بن أحمد وله كتاب فى منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبى  
 المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى فى مناسك الحج ومنازله ورسالة فى معرفة  
 أسماء البلاد : أطوالها وانحرافاتا ، وتبدو الرسالة كأنها زيج صغير ، وهى بذلك تدخل فى الجغرافية  
 الفلكية ، كما يدخل النشاط فى الفلك والهيئة الذى عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى  
 الكبير رضوان وأمثاله من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل  
 بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى<sup>(٦)</sup> أسعد القيسى الدمياطى  
 المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانع الأنس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

- 
- (١) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .  
 وكراتشكوفسكى ٤٧٢/٢ .  
 (٢) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى  
 ٤٧٥/٢ .  
 (٣) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة  
 المعارف الإسلامية .  
 (٤) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى  
 لكراتشكوفسكى ٦٨٣/٢ .  
 (٥) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .  
 (٦) انظر فيه تاريخ الجغرافى ٢٢١/١ - ٢٤٢ وراجع  
 كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .

سنة أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل لأبي اليمن مجير الدين الخنيلي ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحاييف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني جغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز .

## ٣

## علوم اللغة والنحو والبلاغة والتقد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستي البصرة والكوفة بهما . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة ، فكانت تلقن الشباب في القسطنطينية والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن هُرْمَزٍ الأَعْرَجِ تلميذ أبي الأسود الدؤلي . نزول الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطردًا طوال القرن الثاني للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجُم في هذه الميادين . ولم تُعن كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لا شك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطي في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذي لحق زمن الإمام الشافعي حين نزل القسطنطين سنة ١٩٩ وكان عالما باللغة ولم يكن أحدًا بالقسطنطين يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعي في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعي . ومن كان يجتمع به الشافعي في القسطنطين من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطي عنه إنه كان إماما في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعي كثيرا من أشعار العرب<sup>(٢)</sup>

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار السير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته في ص ١٥١ .

(١) راجع ابن هرّز في أخبار النحويين البصريين للبرقي ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزري ٢٨١/٤ وإنباء الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر في العقد الثاني من القرن الثالث في صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته<sup>(١)</sup> ويُحدث بها ضرباً من الثراء في حياتها اللغوية إذ كان لغويًا كبيراً مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « التوارد في اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم في اللغة الذي سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم - كما يقول ابن خلكان - المفترقة أو المختلفة في المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبري في العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه<sup>(٢)</sup> .

ونلتقى في الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد<sup>(٣)</sup> التميمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شىء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التي تكثف بالغريب مثل ديوان رؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على<sup>(٤)</sup> بن الحسن الهنأى الأزدي المعروف باسم كراع النمل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغوياً لا يُشَقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم ، ويقول القفطى في ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المنصّد في اللغة ، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه الجرّد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة المغرب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه المنجّد، قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر في القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما في معجم العين للخليل . ولم تُردّ في ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف في المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى في معجمه تهذيب اللغة - في

(١) انظر ترجمته في الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ .

(٢) معجم الأديب لياقوت ٥٣/١٨ .

(٣) انظر ترجمة ولاد في إنباه الرواة ٣٥٤/٣ .

(٤) راجع ترجمة الهنأى في إنباه الرواة ٢٤٠/٢ .

ومعجم الأديب ١٢/١٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزمخشري في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزمخشري أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كُرَاع النمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتحمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد<sup>(١)</sup> بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرَّجه أبوه محمد نحوياً ولغويًا ماهراً ، ولم يكف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤبة رواية لى عن أبي عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في القسطاط أصعب ديوانين عربيين لغويًا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والمدود ، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكُرَاع النمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيراً للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماً كثيراً ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم ، إذ فسّر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهى أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية ، ونشعر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبي ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجورج وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبي الأديباء وأصحابه العلماء ومن تمهر في لغات العرب<sup>(٣)</sup> » ومثل صالح بن

١٠١/١ ومعجم الأديباء ٢٢٤/٤ وابن خلكان ١/٩٩ .

(٣) البيهقي ١/٣٩٥ .

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأديباء ٤/٢٠١

وإنباه الرواة ١/٩٩ وما به من مراجع .

(٢) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباه الرواة

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب ، صحب المتنبي وروى شعره <sup>(١)</sup> » . وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبي وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى بعلق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين علي <sup>(٢)</sup> بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصرى فى كتابه « الرد على ما فى المقصور والمدود لابن ولاد »

ويقول ياقوت فى ترجمة المهلبى إنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم التَّجِيمِى كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان راوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفاً ، وتلميذ ثان له يسمى جُنَادَة <sup>(٣)</sup> اللغوى ، وسنرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة فى رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفى المهلبى يقول القفطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا ( أى فى القرن السابع الهجرى ) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى <sup>(٤)</sup> تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلىقات والمفضليات وديوان الحماسة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجَمِّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم المعز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لها كتابا ، وعاد بعد خلافتها إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبه على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والظاء وكتاب معان فى شعر المتنبي وكتاب فى المآخذ عليه .

تلميذا للأزهري صاحب معجم التهذيب زوى عن أبى أحمد العسكري كنية ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .  
(٤) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

(١) اليتيمة ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر فى سنة ٤١٤ ، ٤١٥ ، للمسيحى ( نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ) ص ٩٦ .  
(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأوباء ١٢ / ٢٢٤ ولبناه الرواة ٢ / ٢٣٢ .  
(٣) انظر ترجمة جُنَادَة فى معجم الأوباء ٧ / ٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف<sup>(١)</sup> النجيمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صغته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . أما الرواية الأولى فمن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر<sup>(٢)</sup> بن شاذان اللغوى البصرى نزىل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن صَبَّحان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيمى عن إبراهيم النجيمى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعها إحكاماً لا يكاد يفوقه إحكام ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويتردد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويزورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على<sup>(٣)</sup> بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البرِّ اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

٢٦٥/١ .

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٧/ ٢٧٩ وابن

خلكان ٣٢٢/٣ وإنباه الرواة ٢/ ٢٣٦ وما به من مراجع .

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيمى ابن خلكان

٧٥/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسعدي فى النجيمى

والشعرات ٣/ ٧٥ وغير النهى ٢/ ٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة



واتخذها دار مقام له وتصدّر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذه الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الأمر الفاطمي معلما لولده ، ومن طريقه اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البرّ في صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء في اللغة ، وكتاب الأفعال عُني بنشره مجمع اللغة العربية في القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برّي<sup>(١)</sup> عبد الله المصري المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته وناذرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشي على درة الغواص في أوهام الخواص » للحريري ، وأن له كتابا لطيفا في أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردّا على أبي محمد بن الخشاب ، ردّ فيه على كتابه الذي عدّد فيه غلط الحريري في المقامات ، وطُبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريري مع نقد ابن الخشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنّفاته حواشي على معجم الصحاح للجوهري سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع في كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهي حواشي فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهي من الكتب الخمسة التي ذكر ابن منظور في مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها في تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه في جزءين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولا ين برّي أيضا حواشي على كتاب المعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، ومن آرائه الطريقة أنه ينبغي المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها في العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة في زمن الدولة الأيوبية إذ توفي سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان<sup>(٢)</sup> بن بنين الدقيقي المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنّفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح في شرح أبيات الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب إغراب العمل في شرح أبيات كتاب الجمل للزجاجي ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المباني واقتراق المعاني في اللغة »

(٢) انظر ابن بنين في معجم الأدباء ١١/٢٤٤ وفي بقية الوعاة ٢٦١ .

(١) راجع في ابن برّي معجم الأدباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشدرات الذهب ٢٧٣/٤ وبقية الوعاة ص ٢٧٨ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض . والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن<sup>(١)</sup> منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلداً . وهو أكبر معجم لغوي عربي ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة . وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشي الصحاح لابن بري والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير . وهو معجم تنوع به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا العاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المثونة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهى الكبير للرافعي صنفه أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن<sup>(٣)</sup> السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفاً وتصنيفاً في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مراراً بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والمعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة) ١/ ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص

٤٥٥ .

(١) راجع ابن منظور في نكت الهميان ص ٢٧٥ والدرر

الكاملة ٥/ ٣١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٣٤ والبقية ص ١٠٦

وفرات الوفيات ٢/ ٥٢٤ والوافي ٥٤/٥ والشذرات ٢٦/٦ .

(٢) انظر الفيومي في الدرر الكاملة لابن حجر (نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومترد وشاذ . ويتحدث عن تَقْبُلِ روايته ومن تُرُدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المنتحل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابيه ومباحثه . ونمضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم . ومن خير من يمثلهم شهاب<sup>(١)</sup> الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ . ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص في أوهام الخواص للحريزي . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة ، وينزلها كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزلها - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ . حتى لبى نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلماءها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروز آبادي . وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرق تقاريط كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتيح لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن الماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين ، كما أتيح لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهرة للسيوطي .

ومررنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدبين أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصحح لمصر نحاتها من أبنائها ونزلاتها في مقدمتهم ولاد التيمي الذي مر ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد<sup>(٢)</sup> بن جعفر الدينوري نزيل القسطنطينية المتوفى سنة ٢٨٩ . وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقر بها صنف لطلابه كتابا في النحو سماه المهذب ، وعنه حملة المصريون . ويلقانا في زمنه محمد<sup>(٣)</sup> بن ولاد آف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/ ٣٣٢

ومعجم الأدباء ١٩/ ١٠٥ وإنباء الرواة ٣/ ٢٢٤ وما به من مراجع .

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينوري في معجم الأوباء ٢/ ٢٣٩ وإنباء

الرواة ١/ ٣٣ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى القسطنطينية يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنقح . ونزل القسطنطينية في سنة ٢٨٧ الأبخش<sup>(١)</sup> الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى في القرن الرابع الهجري فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويًا كبيرًا كما كان لغويًا كبيرًا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقد به سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء<sup>(٢)</sup> نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحيانًا ينفذ إلى آراء اجتهادية جديدة مما يجعله بحق طليعة<sup>(٣)</sup> المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليها كثيرون من الطلاب يأخذون عنها ، ومر بنا أن منذرين سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فصره في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرباحي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه<sup>(٤)</sup> لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين الحوفي<sup>(٥)</sup> على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدّر لإقراء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادياً<sup>(٦)</sup> الترتع يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول التفوذ إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره التاكر<sup>(٧)</sup> النحوي

(٥) انظر الحوفي في الأصبهان للسعدي الورقة ١٨١  
ومعجم الأقباء ١٢ / ٢٢١ وابن خلكان ٣ / ٣٠٠ وإنباه  
الرواة ٢ / ٢١٩ والشفرات ٣ / ٢٤٧ .  
(٦) المدارس النحوية ص ٣٣٤ .  
(٧) إنباه الرواة ٢ / ٨ .

(١) انظر الأبخش الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣ / ١٢  
وابن خلكان ٣ / ٣٠١ ومعجم الأقباء ١٣ / ٤٦١ وإنباه  
الرواة ٢ / ٢٧٦ .  
(٢) انظر كتابها للمدارس النحوية ص ٣٣٠  
(٣) المدارس النحوية ص ٣٣٢ .  
(٤) إنباه الرواة ٣ / ٢٣٠ .

المصرى تلميذ ابن جنى المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جنى فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ<sup>(١)</sup> طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علماءها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجمع عمرو بن العاص في القسطاط . وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - مسير الشمس ، منها المقدمة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو البغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان يتزع البغداديين<sup>(٢)</sup> في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدّر لإقراء النحو تلميذه محمد<sup>(٣)</sup> بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي وأكبر نحاة مصر في أوائل زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن برى<sup>(٤)</sup> الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته في الأفاق ، فقصدته الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولي نحوي المغرب والأندلس ، وقد تون عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو بغدادى<sup>(٥)</sup> الترع في النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نحاة المصريين لزمه . وخلف ابن برى في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين ، ومر بنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيبويه سماه « لباب الأكياب في شرح الكتاب » . ونزل مصريجي<sup>(٥)</sup> بن مُعطى المغربي الدمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كالفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإياه الرواة ٧٨/٣ والشنرات ٦٢/٤ ورواة الختان

٣/٢٢٥ والبنية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن سطي في معجم الأدباء ٣٥/٢٠

والبنية ٤١٦ والشنرات ٢٩/٥ وتاج التراجم ٨٣ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٧/١٢ وإياه

الرواة ٩٥/٧ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشنرات ٣/٣٣٣

ومرآة الختان ٩٨/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٢) للمدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ١٨/٣٩

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على <sup>(١)</sup> بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وولتقى بعلي <sup>(٢)</sup> بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزمخشري ، واسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حينئذ بلا منازع ابن الحاجب <sup>(٣)</sup> عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمل ، وكتابه الكافية في النحو والثافية في الصرف طارت شهرتها في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسها للطلاب في كل مكان ، وكثرت عليها الحواشي والشرح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضي الإسترابادي . وينزع ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية <sup>(٤)</sup> ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وولتقى في أوائله بأمين الدين المحلي <sup>(٥)</sup> محمد بن علي المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين <sup>(٦)</sup> بن النحاس الحلبي الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان <sup>(٧)</sup> هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، ويجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أي غسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين <sup>(٨)</sup> ويتصدى

- (١) راجع ابن الرماح في البقية ص ٣٤١ .  
 (٢) انظر العلم السخاوي في معجم الأدياء ٦٥/١٥  
 وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباه الرواة ٣١١/٢ والبقية  
 ص ٣٤٩ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والسبكي ٢٩٧/٨ وحسن  
 المحاضرة ٤١٢/١ .  
 (٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان  
 ٢٤٨/٣ وطبقات القراء ٥٠٨/١ وطبقات الذهبي ٢٠١/٢  
 والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٢٣٤/٥ والبقية  
 ص ٣٢٣ وبر وكلان ٣٠٨/٥ .  
 (٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .  
 (٥) حسن المحاضرة ٥٣٣/١ .  
 (٦) بقية الوعاة ص ٦ .  
 (٧) انظر أباحيان في الدرر الكامنة لابن حجر  
 ٣٠٢/٤ والبقية ص ١٢٦ ونكت الهيماني ص ٢٨٠  
 وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٦/٩ وطبقات القراء ٢/٢٨٥  
 وفوات الوفيات ٥٥٥/٢ والشذرات ١٤٥/٦ ونفح الطيب  
 (طبعة دوزي) ٨٢٣/١ .  
 (٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم<sup>(١)</sup> الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشري وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حيثُأد أكبر نحاتها ابن هشام<sup>(٢)</sup> جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فج ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها «مغنى اللبيب عن كتب الأعراب» وهو في جزءين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجمل ، بث في كثير من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» وكتاب «شدور الذهب» وكتاب «قطر الندى» وكل هذه الكتب مطبوعة مرارا وتكرارا . وهو يتهج في النحو منهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وولتقى في القرن التاسع الهجري بالدمايني<sup>(٤)</sup> الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدّر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمْنَى الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وولتقى بعدهما<sup>(٥)</sup> بالكافيجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حيثُأد الشيخ خالد<sup>(٦)</sup> الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُنسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها «المقدمة الأزهرية في علم العربية» وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : «التصريح على التوضيح» لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كليات النحو كتاب «الأشباه والنظائر» في أربعة مجلدات . وفيه طبق

- 
- (١) البغية ص ٢٢٦ .  
 (٢) انظر ابن هشام في الدرر الكامنة ٣٠٨/٣ والشنذرات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ والدرر الطالع ٤٠١/١ وكتابتنا «المدرس النحوية» ص ٣٤٦ .  
 (٣) راجع ابن عقيل في الدرر الكامنة ٣٧٢/٢ والبغية ص ٢٨٤ والشنذرات ٢٠٤/٦ والدرر الطالع ٣٨٦/١ وكتابتنا «المدارس النحوية» ص ٣٥٥ .  
 (٤) انظر الدمايني في الضوء اللامع ج٧ رقم ٤٤٥ والشنذرات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ والدرر الطالع ١٥٠/٢ .  
 (٥) انظر الكافيجي في الضوء اللامع ج٧ رقم ٦٥٥ والبغية ص ٤٨ وشنذرات الذهب ٣٢٦/٧ .  
 (٦) راجع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج٢ رقم ٦٦١ وشنذرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة ١٨٨/١ والمخطوط الجديدة لعل مبارك ٥٣/١٠ .

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس ، وقد طبع بجيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جني كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب همع الهوامع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلاقات النحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بديعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني<sup>(١)</sup> على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم في القرن الحادي عشر الشنواني المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشري المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر<sup>(٢)</sup> البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزنة الأدب » وهي شرح لشواهد شرح الكافية في أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم ، وبذلك أحال خزنته إلى دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهلية وصدر الإسلام ، ونمضى إلى القرن الثاني عشر فيلقانا الحفني المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المعنى . وهي مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوي<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . وملتقى بالصبان<sup>(٤)</sup> محمد بن علي المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهي أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوي بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمي النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر في أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب يجده يعني بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٣ سماه المنصف<sup>(٥)</sup> في بيان سرقات المتنبي . وهو بذلك أدخل في مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجبرقي ١٦٥/٢ .

(٤) تاريخ الجبرقي ٢٢٧/٢ والمخطط التوفيقية ٣٠٦/٣ .

(٥) انظر في هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبي عند

العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بدمشق

الدكتور محمد رضوان الداية .

(١) انظر الأشموني في الضوء اللامع ٥/٦

وشفوات الذهب ١٦٥/٨ والبدر الطالع ٤٩١/١ وفيه

أنه توفي سنة ٩١٨ .

(٢) انظر في عبدالقادر البغدادي خلاصة الأثر

٤٥١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .



غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثاً في السرقات الشعرية عامة ، ومبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي . والكعب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكان مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين . تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفنى الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغي ألف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لعل<sup>(١)</sup> بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفي سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ في حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في ستة أبواب : أولها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الخمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس ، واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل البيهية للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . ويلقانا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤

وفرات الوفيات ١٠٦ / ٢ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم<sup>(١)</sup> بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه « معالم الكتابة ومقام الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العزيز عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب في علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة أنجاز في الذكر الحكيم . عُني فيه بالأمثلة أكثر مما عني بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان . وأهم من العزيز عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالما لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أديبا وعُني بالتأليف في البديع وألّف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدي الزمن . أما ابن أبي الإصبع فبعد أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري ، وله كتابان : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآي القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها تبيين أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلية المحاضرة للحاتمي والمنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرماني وإعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضي والموازنة للآمدى والوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيق وسرّ الفصاحة لابن سنان الحفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزمخشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فهمها وقهها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

١٩١٣ . كتابه : « معالم الكتابة » طبع ببيروت سنة ١٩١٣ .

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١ / ٥٦٠ .

وشذرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السعيد للإدقوى ١٦٠

تحرير التحبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجداني ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه <sup>(١)</sup> . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كالتكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتشغل مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع . وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي . وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصرى هو أحمد <sup>(٢)</sup> بن على بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ . ويسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فوائحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذي أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، ويصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أني مزجت قواعد هذا العلم ( علم البلاغة ) بقواعد الأصول والعربية .. وضمنته شيئا من القواعد المنطقية والمعاهد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشركين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافية ١٠/١٣٩ وراجع في الدرر الكامنة ١/٢١٠  
وشنرات الذهب ٦/٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١/١٢١  
وإبناء القمر بأبناء العمر لابن حجر ١/٢١ .

(١) نفحات الأزهار على نسبات الاسمار ( طبع دمشق ) ص ٣ .  
(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات

يضم كل بيت محسنا من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن الماليك وجدنا السيوطي ينظم بديعية يسميها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد الفتاوازي .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنّابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده <sup>(١)</sup> . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً . وتحدث حديثاً مجملاً - عرضنا له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعقباً لها في قصائده مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوان بيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته في الفهم . وقد بما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحوا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفنى ، ويحاولوا أن يبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه اللغوي لبيت وقع عليه عفووا هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يُولف كتاباً في النقص على ابن وكيع في شعر المتنبي ونخطته <sup>(٢)</sup> كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه » <sup>(٣)</sup> . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من مصر ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدِّ كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمترلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشيعهم له ، مما جعل العميدى <sup>(٤)</sup> محمد بن أحمد كاتب

(٣) الصلدة لابن رشيق ٢١٦/٢ .

(٤) انظر العميدى في معجم الأدياء ٢١٢/١٧ وإنباه

الرواة ٢٤٦/٣ وبغية الرواة للسيوطي ١٩ .

(١) انظر أبو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم

الكيلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

(٢) معجم الأدياء ١٢/١٣٣

الإنشاء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم «الإبانة عن سرقات المتنبي» وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تراءى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية.

وماتزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله، و ماتزال معنية بالمتنبي، بل إنها تمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي. ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول<sup>(١)</sup> لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي. ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار، يقصد حكمه البديعة. وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه «ليس من أهل اختياره»، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره، لأن بحاره زخّارة، وأسوده زّارة، ومعدن تيره مردوم بالحجارة، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة، يطمع ويونس، ويوحش ويونس، وينير ويظلم، ويصبح ويعتم، شذرة وبدره، ودره وآجره، وقبلة بجانبها لسعة»، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي، وهو نقد دقيق، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيقي، فصنعه، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي، يقول: «ولو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيقي يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه، وهو يهيب أشعار هذين الرجلين منها قبيحا ولا سيما ابن المعتز». ويؤه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بابن المعتز والبحترى. وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك، وأورد القلقشندي في صبحه نموذجاً<sup>(٢)</sup> من هذه الرسائل المتبادلة بين الأديبين الكبيرين، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل يبت ابن سناء الملك:

صليفي وهما الحسنُ باقي فرما يُعزّل يَتُّ الحسن منه ويُكنَسُ

لذكره فيه كلمة «يكنس» المتبدلة، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز

في قوله:

(٢) انظر صبح الأعي ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٢.

(١) من مطبوعة بدار الكتب المصرية.

وقَوَّامِي مِثْلُ الْقَنَاءَةِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدَّيْ مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ

وكانه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصري في العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسي ، فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من عروض الموشحات الأندلسية محلّ الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربي ، وستحدث بشيء من التفصيل عن ذلك في الفصل التالي .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد في زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبَّارة<sup>(١)</sup> على بن إسماعيل مواطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدر في نقد الشعر » وهو في نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدي في كتابه « الغيث المسجّم » الذي وضعه في شرح لامية المعجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدي في نكت الهيمان « متعتنا نعتنا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بِشَوْكِ الْقَنَا يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَائِبِهَا وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

يصف في البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقترب من حياها لباس قومها وخشية من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقّف ابن جبارة بإزاء البيت<sup>(٢)</sup> وقال إنه أراد أن يمدح قوم صاحبه فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذي جعله كفن مئته لأنه جعل طعن رماحهم كإبر النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدي قائلا : أما كونه يدعى أنه لا ألم في إبر النحل ولا ضرر في الزنابير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس في إبر النحل والزنابير سُمٌّ يمنع القرب منه والدنوإليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح القوم بإبر النحل فهو لم يعقد في البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر في ابن جبارة نكت الهيمان ص ٢٠٨ وبغية الرواة ص ٣٢٩ .  
(٢) الغيث المسجّم شرح لامية المعجم ( طبع مطبعة بولاق ) ١ / ٢٢٤ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شهما فهما القبا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بلزاء<sup>(١)</sup> بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضي الفاضل ، إذ يقول :

يَقْرِى الضيُوفَ شعاعَ يَثِرُ أحمرِ فشعاعُ ذاك التَّبرُ نيرانُ القِرَى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . التبر لا يكون إلا كذاك ( أى أحمر ) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التي توقد على اليفاع لهتدى بها الحيران . وتهدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبرا مجازا ، ولولا ان هذا لازم لما قيل في بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك في أن النقد الأدبي المصرى في هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدي من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع في نقله . ولعلنا لانبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر في زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفي مقدمته<sup>(٢)</sup> يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مشكاتها . ومضى يذكر الأصل<sup>(٣)</sup> من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفي صبح الأعشى دراسة<sup>(٤)</sup> نقدية

(١) الغيث المسجم ١/ ٧٦٤ وانظر ١/ ١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ في

خزائنه ( طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة ) بمقدمة الكتاب

(٣) في الحزارة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر

الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأعشى ٢/ ١٩٢ - ٣٣٨ .

طريقة للمعاني والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وتلتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجي وكتابه « ربحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشعراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثَّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

## ٤

### علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة في القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش<sup>(٢)</sup> عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا في العربية . وإليه انتهت رياسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع ، ولا يزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد<sup>(٣)</sup> الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء . كما تعنى بما يؤلَّف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكرين مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحمزة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصرىا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلَّف كتابا في اختلاف السبعة<sup>(٤)</sup>

وطبقات القراء ١/ ٣٨٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١/ ٤٨٨ وانظر طبقات القراء

٣٠١/٢ حيث يذكر تلميذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر في ورش . حسن المحاضرة ١/ ٤٨٥ وطبقات

القراء ١/ ٥٠٢ .

(٣) انظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ١/ ٤٨٦



المذكورين ، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي . وأول من نقف عنده عبد<sup>(١)</sup> المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونخصي في القرن الخامس فلتقى بعبد<sup>(٣)</sup> الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتقى بالحسن<sup>(٤)</sup> بن محمد البغدادي المالكي نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، ونلتقى بإسماعيل<sup>(٥)</sup> بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه «العنوان» . ونلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصري وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر<sup>(٦)</sup> ، ونلتقى في القرن السادس بآبن الفحام<sup>(٧)</sup> شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتقى بآبن<sup>(٨)</sup> بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي<sup>(٩)</sup> الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته «جرز الأمانى» المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم<sup>(١٠)</sup> السخاوى المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل المصري طبقات القراء ٣١٨/٢ والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .  
 (٧) راجع في ابن الفحام حسن المحاضرة ٤٩٥/١ وطبقات القراء ٣٧٤/١ والنشر ٧٥/١ .  
 (٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ٢١١/١ والنشر ٧٢/١ .  
 (٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ٤٩٦/١ وطبقات القراء ٢٠/٢ وطبقات الشافعية ٢٧٠/٧ ونكت الهميان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .  
 (١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨

(١) راجع في عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ٤٩٠/١ وطبقات القراء ٤٧٠/١ والنشر في القراءات العشر ٧٩/١ .  
 (٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ٤٩١/١ وطبقات القراء ٣٥٦/١ والنشر في القراءات العشر ٧٣/١ .  
 (٣) انظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ٤٩٢/١ وطبقات القراء ٣٥٧/١ والنشر ٧١/١ .  
 (٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ٤٩٣/١ وطبقات القراء ١٣٠/١ والنشر ٧٤/١ .  
 (٥) انظر في ابن خلف حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ١٦٤/١ والنشر ٦٤/١ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جلال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن<sup>(١)</sup> بن إسماعيل الصفراوي الإسكندري المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلان . ويتوالى التأليف في القراءات ونلتقى بابن الجندي المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطي على الشاطبية . ويحتم الإمام شهاب<sup>(٢)</sup> الدين القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ زمن الماليك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفي المكملين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيصن المكي واليزيدي البصرى والحسن البصرى والأعمش الكوفي إلى ما ذكرناه آنفاً من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف في القراءات لزمن العثمانيين ناشطاً ومن أهم ما ألف في زمنهم كتاب إتخاف البشر وهو يُعنى بعرض القراءات الأربع عشرة ألقه البناء أحمد بن محمد الدمياطي المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجري ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذي مر ذكره أن يؤلف في جوانب منها ، فقد ألف كتاباً في النسخ والنسوخ وكتاباً في الوقف والابتداء وألف كتاباً - كما مر بنا - في إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة في هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغيره وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفي بالإشارة إلى كتابين هما البرهان في علوم القرآن لبدر<sup>(٣)</sup> الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ والإنقان في علوم القرآن للسيوطي ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما أُلّف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفي السيوطي كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعي أن تُعنى به مصر منذ دخلت في الإسلام حتى تفهم

(٣) انظر في الزركشي الدرر الكامنة ١٧/٤ وشنرات الذهب ٣٣٥/٦ وحسن المحاضرة ٤٣٧/١ وإنباء الغمر بأبناء العمر ٤٤٦/١ .

(١) انظر في الصفراوي حسن المحاضرة ٤٥٦/١ وشنرات الذهب ١٨/٥ .

(٢) راجع في القسطلاني الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ وشنرات ١٢١/٨ والبدر الطالع ١٠٢/١ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفَاطَهَا يروون خلفاً عن سلف ما قيل في معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس <sup>(١)</sup> . وكأنها بعض ما حملة البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلة رواته فيها . وتظل مصر معنيةً بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدفى <sup>(٢)</sup> محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، ومن تلقى به فى زمن الأيوبيين المرسى <sup>(٣)</sup> السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمان فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزيز عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجه البانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن الماليك وثلثى بالقرطبي <sup>(٤)</sup> محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا ( منية الخصيب فى الصعيد ) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نخب التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

(١) فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨  
وشنرات الذهب ٥ / ٣٣٥ .  
(٥) راجع ابن المنير فى الديناج المذهب ص ٧٨  
وشنرات الذهب ٥ / ٣٨١ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٦١  
وفوات الوفيات ١ / ١٣٢ .

(١) الإقنان فى علوم القرآن للسيوطى ٦ / ٢٢٣ .  
(٢) انظر الإدفى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن  
المخاضرة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ٢ / ١٩٨ .  
(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥  
ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠٩ وشنرات الذهب ٥ / ٢٦٩ .  
(٤) انظر القرطبي فى الديناج المذهب لابن فرحون ( طبع )

آراء الزمخشري الاعتزالية التي بُنِّها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن <sup>(١)</sup> النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد <sup>(٢)</sup> العزيز الديريني المتصوف المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير ، وأيضا كان يعاصره العلم <sup>(٣)</sup> العراقى المصرى المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراقى نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذى انتقل إلى حفيده ، وله كتاب فى الانتصار للزمخشري من ابن المنير وله مختصر فى التفسير .

وأكبر المفسرين فى القرن الثامن أبو حيان الأندلسى وتفسيره البحر المحيظ مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداده فى الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطى وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » مطبوع فى ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسَّر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطى من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع فى جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب <sup>(٤)</sup> الشربيني المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتموج بمصر بحفاظ الحديث النبوى منذ نزها الصحابة وفى مقدمتهم أبو ذر الذى سكنها مدة وعقبه بن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفى مقدمتهم نافع مولى ا.ع. الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرم صاحب أبى هريرة وي زيد بن أبى حبيب . وكثر حفاظ الحديث وروائه فى القرن الثانى الهجرى ، ومن أهمهم أبو زرعة

(٣) انظر فى العلم العراقى حسن المحاضرة ٤٢١/١

ونكت المبيان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ١٣/٣ .

(٤) راجع فى الخطيب الشربيني شذرات النعب

. ٣٨٤/٨

(١) انظر ابن النقب فى طبقات المفسرين ص ٣٢

وشذرات الذهب ٤٤٢/٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع الديريني فى حسن المحاضرة ٤٢١/١

المتوفى سنة ١٥٨ وابن لهيعة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبدالله<sup>(١)</sup> بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : البُوَيْطِيُّ وَحَرْمَلَةُ وَالْمُرْزِيُّ والرَّبِيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشهار مصر بحفاظ الحديث نزها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفى وله فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار ، وابن جِزَّابة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث فى وزارته ، وسمع الدارقطنى حافظ العراق فى زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فاجاء مصر ليعينه ، تَمَوَّل ، وكان فيها يروى الحديث ويمليه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد<sup>(٢)</sup> الغنى بن سعيد الحافظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله فى الحديث المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال وكتاب مشتببه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر فى القرن الخامس تلميذه الحبال<sup>(٣)</sup> الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السُّلْفَى<sup>(٤)</sup> أكبر الحفاظ فى القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج . على نحو ما يصور ذلك معجمه . وهو مطبوع ، وبنى له العادل بن السلار وزير الظاهر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مر بنا . وقُوض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

١٨٨ / ٣ .

(٣) راجع فى الحبال حسن المحاضرة ١ / ٣٥٣ .

(٤) انظر فى السلفى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥٦ وطبقات الحفاظ له ٣٩ / ٢ وابن خلكان ١ / ١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣ / ١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١ / ٤٤٩ والسيكى ٦ / ٣٢ والأنساب ٣٠٢ وشذرات الذهب ٤ / ٢٥٥ وطبقات القراء ١ / ١٠٢ وميزان الاعتدال ١ / ١٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيراً فى ورق بردى بمدينة إدفو فى جنوبى مصر واسمه الجامع فى الحديث ، وهو مكتوب فى القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب فى المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر فى ابن وهب حسن المحاضرة ١ / ٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠ / ٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢ / ٨٦ وبروكلمان ٣ / ١٥٥ .

(٢) انظر فى عبد الغنى المنتظم ٧ / ٢٩٠ وابن خلكان ٣ / ٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٢٥٠ وشذرات الذهب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي <sup>(١)</sup> بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث <sup>(٢)</sup> الكاملة حتى توفي في سنة ٦٣٣ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكي الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد <sup>(٣)</sup> العظيم بن عبد القوى المصرى الشافعى المتوفى سنة ٦٥٦ . يقول السيوطى إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملة عشرين سنة ، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحراً في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قِيماً بمعرفة غريبه ، إماماً حجة بارعاً في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طُبِعَ مراراً . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الدمياطى <sup>(٤)</sup> شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذه معيداً له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن <sup>(٥)</sup> جماعة الشافعى المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بكثرة من سماع الحديث ودرس في المدرسة الحشاشية ، صنّف تخرّيج أحاديث الإمام الرافعى الشافعى وغير ذلك . ويعنى بشرح البخارى غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مُغلطى <sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطى له أكثر

وطبقات الحفاظ ٦٥/٢ والسبكي ١٠٢/١٠ وطبقات

القراء ٤٧٢/١ وتذكرة الحفاظ ٢٦٨/٤ والدرر الكامنة

٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبدية والنهاية

٤٠/١٤ والبدلر الطالع ٤٠٣/١ .

(٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١

وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكي ٧٩/١٠ والدرر الكامنة

٤٨٩/٢ .

(٦) راجع في مغلطى حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر

الكامنة ١٢٢/٥ .

(١) راجع في ابن المفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١ وشذرات الذهب ٤٧/٥ .

(٢) ذكر السيوطى في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثبنا بمن تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطى

٥٩/٢ والسبكي ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١

وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي

٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .

(٤) راجع في الحافظ الدمياطى حسن المحاضرة ٣٥٧/١

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجه ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . ويلقانا بعده الحافظ <sup>(١)</sup> العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخريج احاديث كتاب الاحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها . فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألّف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى « وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجه إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخرجاته تعد بالعشرات <sup>(٢)</sup> . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومرينا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وولتقى فى أيام العثمانيين بعد الزهوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحنفى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرتي أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والاحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجه وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرك للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك <sup>(٣)</sup> » . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلّ حفاظه التاجيون يُعدّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكي فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

(١) انظر فى العراقى الضوء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٤٥٢

المحاضرة ١ / ٣٤٠ .

وحسن المحاضرة ١ / ٣٦٠ والشذرات ٧ / ٥٥ .

(٣) تاريخ الجبرتي ١ / ٢٨٩ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن

أبي حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وكان مقرراً لهارون الرشيد : أن يكون القضاة في الدولة العباسية أحنافاً . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار<sup>(١)</sup> بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي<sup>(٢)</sup> أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعدّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي ، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق<sup>(٣)</sup> بن إبراهيم الشاشي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى<sup>(٤)</sup> بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي ، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد<sup>(٥)</sup> الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد<sup>(٦)</sup> الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالبدر بن الحنن ، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩ . ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن<sup>(٧)</sup> الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطى المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو<sup>(٨)</sup> القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن الماليك إذ جعل الظاهر يبيرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

- (١) انظر في بكار حسن المحاضرة ٤٦٣/١ وابن خلكان ٢٧٩/١ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١/١٦٨ وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩ .  
 (٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن عساكر ٢/٥٤ والمنتظم ٦/٢٥٠ وحسن المحاضرة ١/٣٥٠ وابن خلكان ٧١/١ وطبقات القراء ١/١١٦ والجواهر المضية ١/١٠٢ وتاج التراجم ص ٨ والشفرات ٢/٢٨٨ .  
 (٣) انظر في إسحق الجواهر المضية ١/١٣٦ والفوائد البية ٢٢ .  
 (٤) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ١/٤٦٤ والجواهر المضية ١/٣٣٠ .  
 (٥) انظر في الجريري حسن المحاضرة ١/٤٦٤ .  
 (٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ١/٤٦٤ وشذرات الذهب ٤/٣٤١ .  
 (٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ١/٤٦٥ والجواهر المضية ١/٣٥٢ .  
 (٨) انظر القوصي في حسن المحاضرة ١/٤٦٥ والجواهر المضية ١/٣٠٤ .



قاضييه ، وأيضا فإنه جعل للحنفية نصيبا في مدرسته الظاهرية وأول حنفي دَرَسَ المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسلفية لؤلؤ<sup>(١)</sup> بن أحمد وأبو بكر<sup>(٢)</sup> بن محمد الإسوي . ومن قضاتهم النعمان<sup>(٣)</sup> بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري . ويُحْتَمُّ القرن السابع بآين النقيب الذي مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن الناهين أحمد<sup>(٤)</sup> بن إبراهيم السروجي المدرس بالسلفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولي القضاء ، وله شرح في كتاب الهداية للمرغيناني . وابن<sup>(٥)</sup> يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني . وكان يعاصره ابن<sup>(٦)</sup> التركماني المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحا له على الجامع الكبير أملاه دروسا على الطلاب . وأنجب قفيين : أحمد<sup>(٧)</sup> المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى<sup>(٨)</sup> المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعي<sup>(٩)</sup> المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كتر الدقائق في الفروع للحافظ النسفي سماه تبين الحقائق على كتر الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء . ويلقانا السراج<sup>(١٠)</sup> الهندي قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن<sup>(١١)</sup> أبي الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية

(٧) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٧٧/١ .

(٨) انظر في علي حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٦٦/١ .

(٩) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ والدرر الكامنة ٦١/٣ .

(١٠) انظر في السراج حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٠/٣ والفوائد البية ١٤٩ وإنباء الغمر ٢٧/١ .

(١١) راجع في ابن أبي الوفا حسن المحاضرة ٤٧١/١ والدرر الكامنة ٦/٣ والفوائد البية ٩٩ وإنباء الغمر ٦٦/١ .

(١) انظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ٤٦٦/١ والجواهر المضيئة ٤١٦/١ .

(٢) انظر في أبي بكر حسن المحاضرة ٤٦٧/١ .

(٣) راجع في النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١ والجواهر المضيئة ٢٠١/٢ .

(٤) انظر في السروجي حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٥٣/١ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع في ابن يلبان حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٣٥٤/١ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر في ابن التركماني حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر

الكامنة ٤٩/٣ .

المثبت في الهوامش . وملتقى بأكمل<sup>(١)</sup> الدين الباريقي المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة علي أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاةهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى<sup>(٢)</sup> ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني ، طبع بمصر في ثمانية أجزاء . وملتقى بالقاسم<sup>(٣)</sup> بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . وتمضى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان القضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين<sup>(٤)</sup> بن نجم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كثر الدقائق وهو مطبوع أيضا في عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمر تاشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلأوى المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لاتزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموي وله تصانيف عدة ، منها شرح الكثر وحاشية الدرر والغرر ، توفى سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبرتي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصرى كبير هو الليث<sup>(٥)</sup> بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعى : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر في ابن نجم خلاصة الأثر للحمبى ودفرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع في الليث تاريخ بغداد ١٣ / ٣ وابن خلكان ٤ / ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٩ وعبر النهي ١ / ٢٦٦ .

(١) انظر في الباريقي حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والفوائد البية ١٩٥ ونبأه العمر ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر في ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشنرات ٧ / ٢٩٨ والبدر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع في ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦ / ٦٣٥ والشنرات ٨ / ٣٢٦ والبدر الطالع ٢ / ٤٥ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة ( دار الهجرة ) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب ، جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً ، وعبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرغ على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم . ومن تلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين<sup>(٢)</sup> ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد<sup>(٣)</sup> الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث<sup>(٥)</sup> بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقهم ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعد السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيها مالكيًا اشتهروا بمصر . ومن نلتقى به في أوائل القرن الرابع أحمد<sup>(٦)</sup> بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامعة عمرو ويدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حينئذ يُنسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن<sup>(٧)</sup> المعافري قاضيها

المذهب ٢٣١ والسبكي ٦٧/٢ والواق بالوفيات ٣٣٨/٣  
والشذرات ١٥٤/٢ وميزان الاعتدال ٦١١/٣ .

(٥) انظر في الحارث رفع الإصر عن قضاء مصر  
١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ  
بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .

(٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والديباج  
المذهب ٣٧ .

(٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والغير  
٢٥٠/٢ .

(١) انظر في ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن  
خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتهديب لابن  
حجر ٢٥٢/٦ والشذرات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة  
٣٠٣/١ .

(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١ .  
(٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة  
٣٠٥/١ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبي ٣٦٦/١ وابن  
خلكان ٣٤/٣ وتهديب التهذيب ٢٨٩/٥ والشذرات  
٣٤/٢ .

(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ٣٠٩/١ والديباج

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر<sup>(١)</sup> الأسواني قاضى مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد عدَّ السيوطى من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها ، منهم أبو<sup>(٢)</sup> بكر النعالى إمام المالكية بمصر فى وقته . وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقة فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها . توفى سنة ٣٨٠ . ومنهم أبو القاسم<sup>(٣)</sup> الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك . ونزل بالقاهرة القاضى عبد<sup>(٤)</sup> الوهاب فقيه بغداد المالكى وكان شاعراً بارعاً ، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت بيلدكم بلوغ أمانة ، واجتاز بمجرة النعان بلدة أبى العلاء فأضافه ، وله فى الإشادة بفقهاء وبشعره :

إذا تفقه أحيا مالكا جدلا ويُنشرُ الملك الضَّلِيل إن شعرا

والملك الضليل : امرؤ القيس . وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانتالت فى يديه الرغائب . ولم يلبث أن أم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا . ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو<sup>(٥)</sup> بكر الطرطوشى نزىل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ . واشتهر بكتابين له فى السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائحي هما سراج الملوك وسراج الهدى . ومن تلاميذه سند<sup>(٦)</sup> بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه فى حلقة وانتفع به الناس وله شرح المدونة . وكان يعاصره أبو القاسم<sup>(٧)</sup> بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار من المالكية ، تفقه به أهل الثغر زمانا .

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية ، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر<sup>(٨)</sup> إسماعيل بن مكى تلميذ

- الطرطوشى المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته فى المذهب ، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع
- (١) راجع فى أبى الذكر حسن المحاضرة ٤٤٩/١  
والطالع السعيد للإدغوى ٣٦٤ .
- (٢) انظر فى النعالى حسن المحاضرة ٤٥٠/١ والديباج المذهب ٢٥٨ .
- (٣) راجع فى الجوهري حسن المحاضرة ٤٥١/١ والعبر ١٧/٣ .
- (٤) انظر فى عبد الوهاب حسن المحاضرة ٣١٤/١ والعبر ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢١٩/٣ والديباج المذهب وفوات الوفيات ٤٤/٢ والثغرات ٢٢٣/٣ .
- (٥) راجع فى الطرطوشى حسن المحاضرة ٤٥٢/١  
والصلة لابن بشكوال : ٥٤٥ والمغرب ٢٤٢/٢ وابن خلكان ٢٦٢/٤ والعبر ٤٨/٤ وأزهار الرياض ١٦٢/٣ .
- (٦) انظر فى سند حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ١٢٦ .
- (٧) راجع فى ابن مخلوف حسن المحاضرة ٤٥٣/١ .
- (٨) انظر فى أبى الطاهر حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ٩٥ .

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومربنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكي بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاءه حيثثد ابن شاس<sup>(١)</sup> عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهداً الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسى هذه المدرسة الحسين<sup>(٢)</sup> بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفتيا في وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوى الذى مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بنور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكرم<sup>(٣)</sup> بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل .

ونمضى في زمن المماليك ، وولتقى بابي حفص عمر<sup>(٤)</sup> بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس<sup>(٥)</sup> الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي<sup>(٦)</sup> شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصاحبية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٧ واللبياح المنهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/ ٣١٦ واللبياح

للذهب ٦٢ والمنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع

دار الكتب) ١/ ٢١٥ .

(١) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ١٣/ ٨٦ وحسن المحاضرة ١/ ٤٥٤ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/ ٤٥٥ واللبياح للذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكرم حسن المحاضرة

١/ ٤٥٦ واللبياح للذهب ١٦٧ .

المتبر أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إماماً فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج<sup>(١)</sup> الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي<sup>(٢)</sup> بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ ولي قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن<sup>(٣)</sup> الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الحلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعي للملأمة . وكان يعاصره الزواوي<sup>(٤)</sup> عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رياسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل<sup>(٥)</sup> بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدي خليل . وأهم تلاميذه<sup>(٦)</sup> جبرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . وولتقى بالبساطي<sup>(٧)</sup> محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولي القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن الممالك وفي أيام العثمانيين . ومن أعلامهم في القرن الحادى عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهوري ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

- (١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشمراني ١٩/٢ والسبكي ٢٣/٩ والخطط الجديدة لملى مبارك ٧٠/٧ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج للذهب ٧٠ وشذرات الذهب ١٩/٦ والدرر الكامنة .
- (٢) راجع في ابن مخلوف النويري حسن المحاضرة ٤٥٨/١ والدرر الكامنة .
- (٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والديباج للذهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٣٥٥/٤ .
- (٤) راجع في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ٤٢٤/١ والدرر الكامنة .
- (٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ٤٦٠/١ والديباج للذهب ١١٧ ونيل الأبتهاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ١٧٥/٢ ونفع الطيب (طبع بولاق) ١٢٠/٢ .
- (٦) راجع في جبرام حسن المحاضرة ٤٦١/١ والضوء اللامع ٢٠/٣ .
- (٧) انظر في البساطي حسن المحاضرة ٤٦٢/١ والضوء اللامع ٥/٧ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . وولتقى بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرتي ومن أهمهم الزرقاني <sup>(١)</sup> أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضا من أهمهم على <sup>(٢)</sup> بن أحمد بن مكرم العدوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهى بمصر كذلك كان مذهب الشافعى <sup>(٣)</sup> مزدهراً ، بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ مصر ، واكمل له فيها مذهبه الفقهى . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامى ، كما مر بنا في غير هذا الموضوع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعا . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى ، والمذهب المالكى مذهب أهل الحديث ، وهو الذى أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذى سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاخصروه وشرحوه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البويطى والمزنى ، أما البويطى فهو يوسف <sup>(٤)</sup> بن يحيى القرشى الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطى عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعى في حلقة بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى ، وحُمل إلى بغداد في حنة القول بخلق القرآن ، فأصرَّ على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفى . والمزنى <sup>(٥)</sup> هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

(٤) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ١/٦٩ .

(٥) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ١/٤١٤ .

(٦) انظر الإمام الشافعى في الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٢/٥٦ ومعجم الأدياء ١٧/٢٨١ وابن خلكان ٤/١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

(٧) تهذيب التهذيب ٩/٢٥ وصفة الصفوة ٢/١٤٠ وحلية الأولياء ٩/٦٣ وألف كثيرون في سيرته ومذهبه قديما

(٨) وحديثا .

(٩) راجع في المزيق السبكي ٢/٩٣ والعبر ٢/٢٨

(١٠) واللباب ٣/١٣٣ وابن خلكان ١/٢١٧ والنجوم الزاهرة ٣/٣٩ والسيوطى ١/٣٠٧ وشنفرات الذهب ٢/١٤٨ .

أخذ عنه خلافت من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فشرخوا المذهب في بلدانهم ، وله في الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمثبور والمسائل المعتمدة وكتاب الوائتق وكتاب العقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات الشافعية للسبكي غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة<sup>(١)</sup> محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبى حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور<sup>(٢)</sup> بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق<sup>(٣)</sup> المروزي إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل القسطنطينية وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر المزني ، وانتقل إلى القسطنطينية وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضرىوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر<sup>(٤)</sup> بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضي القسطنطينية ، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع المولدات الذي شرحه كثيرون . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطي عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعي<sup>(٥)</sup> أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطي في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الخليلي<sup>(٦)</sup> علي بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغني بين البسط والاختصار .

١/ ٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٨ والعبر ٢/ ٢٦٤ وابن خلكان ٤/ ١٩٧ والوائق ٢/ ٦٩ والشنرات ٢/ ٣١٧ .  
 (٥) راجع في القضاعي السبكي ٤/ ١٥٠ وابن خلكان ٤/ ٢١٢ والوائق ٣/ ١١٦ والسيوطي ١/ ٤٠٣ والشنرات ٣/ ٢٩٣ .  
 (٦) أنظر في الخليلي السبكي ٥/ ٢٥٣ والعبر ٣/ ٣٣٤ والسيوطي ١/ ٤٠٤ والشنرات ٣/ ٣٩٨ وابن خلكان ٣/ ٣١٧ .

(١) راجع في أبى زرعة السبكي ٣/ ١٩٦ والسيوطي ١/ ٣٩٩ والعبر ٢/ ١٢٣ والشنرات ٢/ ٢٣٩ .  
 (٢) انظر في منصور السبكي ٣/ ٤٧٨ والسيوطي ١/ ٤٠٠ والمغرب في حلل المغرب (قسم القسطنطينية) ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/ ٢٨٩ ونكت الهميان ٢٩٧ ومعجم الأدياء ١٩/ ١٨٥ والمنظم ٦/ ١٥٢ .  
 (٣) راجع في المروزي تاريخ بغداد ١١/ ٦ وابن خلكان ١/ ٢٦ والسيوطي ١/ ٣١٢ .  
 (٤) انظر في ابن الحداد السبكي ٣/ ٧٩ والسيوطي



وربما كان أهم منه مجلى<sup>(١)</sup> بن جميع قاضى القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله فى الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعى ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبى يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفوض القضاء بمصر للشافعية ، فاتسع نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخجوشانى<sup>(٢)</sup> محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله فى الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية فى عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقى المصرى المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقى ، وله شرح على كتاب المهذب لأبى إسحق الشيرازى أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا فى عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد<sup>(٣)</sup> الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضى قضاة الشافعية فى عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان<sup>(٤)</sup> فى قضاء القاهرة وله شرح على المهذب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبى إسحق الشيرازى ، توفى سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد<sup>(٥)</sup> بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده فى زمن الأيوبيين العز<sup>(٦)</sup> بن عبد السلام وقد مررنا فى الفصل السابق حديث عنه مع الماليك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالقسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلى . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن الماليك إذ توفى سنة ٦٦٠ وله فى الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيرا وكتابا فى مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطى من فقهاء الشافعية زمن الماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر فى عثمان السبكى ٣٣٧/٨ والسيوطى ٤٠٨/١ والشذرات ٧/٥ وابن خلكان ٢٤٢/٢ .  
 (٥) راجع فى ابن عين الدولة السبكى ٦٣/٨ والسيوطى ٤١٢/١ والعبر ٩٦٢/٥ والشذرات ٢٠٥/٥ .  
 (٦) انظر فى العز السبكى ٢٠٩/٨ والسيوطى ٣١٤/١ والشذرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ومرآة الجنان ١٥٣/٤ وفوات الوفيات ٥٩٤/١ والنجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ .

(١) راجع فى مجلى السبكى ٢٧٧/٧ والسيوطى ٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشذرات ١٥٧/٤ وابن خلكان ١٥٤/٤ .  
 (٢) انظر فى الخجوشانى السبكى ١٤/٧ والسيوطى ٢٦٢/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤ والشذرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦ .  
 (٣) راجع فى ابن درباس السيوطى ٤٠٨/١ ورفع الإصر : ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي ، ومن أهمهم ابن <sup>(١)</sup> دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد <sup>(٢)</sup> بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين : الرافعي القزويني والنووي الدمشقي في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في مذهب الشافعي ، درّس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية في عشرين مجلدا والمطلب في ستين مجلدا ومن كبار الفقهاء الشافعية القمولى <sup>(٣)</sup> أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فأوعى . وكان يعاصره بدر <sup>(٤)</sup> الدين بن جماعة قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات في فنون كثيرة . وتلقى بالزركبوني <sup>(٥)</sup> أبي بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبي إسحق الشيرازي عم النفع به وشرح ثان على المنهاج للنووي . وكان يعاصره سليمان <sup>(٦)</sup> بن جعفر الإسنوي المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع وتلقى بتقى <sup>(٧)</sup> الدين السبكي على بن عبد الكافي المتوفى في نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة في الفقه وشروح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكي الذي مر ذكره بين البلاغيين ، وله في الفقه شرح على كتاب الحاوي للشيخ نجم الدين القزويني المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد <sup>(٨)</sup> الرحيم بن الحسن الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية في زمانه .

- ١/ ٤٢٥ والدرر الكامنة ٣/ ٣٦٧ وفوات الوفيات  
٢/ ٣٥٣ ونكت الحميان ٢٣٥ ومرآة الجنان ٤/ ٢٨٧  
والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٨ .  
(٥) انظر في الزركبوني السيوطي ١/ ٤٢٦ والشفرات  
١٢٥/٦ .  
(٦) راجع في سليمان السيوطي ١/ ٤٢٩ .  
(٧) السبكي ترجم له ابنه بهاء الدين في طبقات الشافعية  
١٠/ ١٣٩ وانظر في ترجمته السيوطي ١/ ٣٢١ والدرر  
الكامنة ٣/ ١٣٤ .  
(٨) انظر في الإسنوي السيوطي ١/ ٤٢٩ والدرر الكامنة  
٢/ ٤٦٣ .

- (١) راجع في ابن دقيق العيد السبكي ٩/ ٢٠٧  
والسيوطي ١/ ٣١٧ والشفرات ٦/ ٥ والبدر الطالع  
٢/ ٢٢٩ ومرآة الجنان ٤/ ٢٣٦ والوافي ٤/ ١٩٣ والطالع  
السعيد للإدقوي ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/ ٤٨٤ والدرر  
الكامنة ٤/ ٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .  
(٢) انظر في ابن الرفعة السبكي ٩/ ٢٤ والسيوطي  
١/ ٣٢٠ والشفرات ٦/ ٢٢ ومرآة الجنان ٤/ ٢٤٩ والبدر  
الطالع ١/ ١١٥ والدرر الكامنة ١/ ٣٠٣ .  
(٣) راجع في القمولى السبكي ٩/ ٣٠ والسيوطي  
١/ ٤٢٤ والدرر الكامنة ١/ ٣٢٤ والشفرات ٦/ ٧٥  
والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩ .  
(٤) راجع في ابن جماعة السبكي ٩/ ١٣٩ والسيوطي

ويلقانا ابن<sup>(١)</sup> الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمانه تصنيفاً ، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني<sup>(٢)</sup> عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطي . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوي وبهما ختم السيوطي حديثه عن فقهاء الشافعية . وبعد السيوطي نفسه خاتمهم الحقيقي إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووي وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها في ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . وملتقى بالشيخ زكريا<sup>(٣)</sup> الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦ وله في الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونخصى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف في الفقه الشافعي ناشطاً . ومن كبار الفقهاء في القرن العاشر ابن حجر<sup>(٤)</sup> الهيثمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيثمية طبعت بمصر في أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربيني الخطيب الذي مر ذكره بين المفسرين ، وله في الفقه شرح منهاج النووي ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبي شجاع ، ولسليمان البجيرمي حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملي<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعي بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلي طويلاً ، ويعلل السيوطي ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا في أول أمرهم المذاهب الثلاثة التي كانت قائمة بمصر ، وهي مذاهب الشافعية والملكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلي ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى<sup>(٦)</sup> الجماعيلي المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام في معالم

(٤) راجع في ابن حجر الهيثمي مقدمة فتاويه والشذرات

اللامع ١٠٠/٦ والشذرات الذهب ٤٤/٧ .

(٥) انظر في الرمل الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة

للغزي ١١٩/٢ والحفظ التوفيقية (طبعة بولاق) ١١٩/٤ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسي في قسم الشام

ص ٥٨٤ .

(١) راجع في ابن الملقن السيوطي ٤٣٨/١ والضوء

اللامع ١٠٠/٦ وشذرات الذهب ٤٤/٧ .

(٢) انظر في البلقيني السيوطي ٣٢٩/١ والضوء اللامع

٦ رقم ٢٨٦ والشذرات ٥١/٧ .

(٣) انظر في الشيخ زكريا الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢

والكواكب السائرة ١٩٦/١ والبدر الطالع ٢٥٢/١ والنور

السافر ص ١٢٥ .

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولمؤلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيبا المزي جمال الدين يوسف بن الزكي وأكمل التهذيب مُعطى الذى مر ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودرسته فيها إيوانا بجانب أوابين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهريبيرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، في تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم<sup>(١)</sup> الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر<sup>(٢)</sup> بن عبد الله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق<sup>(٣)</sup> الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر<sup>(٤)</sup> الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به ستا وعشرين سنة ، وعاد<sup>(٥)</sup> الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صنّف تجريد الأولمر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزنى . ويختم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد<sup>(٦)</sup> بن إبراهيم الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلى ناشطا بمصر زمن العثمانيين ، وفي كتاب تاريخ الجبرتي أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى<sup>(٧)</sup> بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة في المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفا بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، ونلتقى في كتب التراجم من حين إلى آخر

٦/٣٤٣ والدرر الكامنة ٥/١٦٣ وإنباء الغمر ١/٤٦٦ .

(٥) راجع في عاد الدين السيوطى ١/٤٨٢ والضوء

اللامع ١١/٦٦ والشذرات ٧/٤٢ .

(٦) انظر في الكنانى السيوطى ١/٤٨٤ والضوء اللامع

١/٢٠٥ والشذرات ٧/٣٢١ .

(٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

(١) انظر في نجم الدين السيوطى ٢/٤٨٠ والشذرات

٥/٤٢٨ والمنهل الصافى ١/٢٧٢ .

(٢) انظر في عمر المقدسى السيوطى ١/٤٨٠ والشذرات

٥/٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/١١١ .

(٣) راجع في موفق الدين السيوطى ١/٤٨١ والشذرات

٦/٢١٥ .

(٤) انظر في ناصر الدين السيوطى ١/٤٨١ والشذرات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومربنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضاتهم بمصر النعمان<sup>(١)</sup> بن منصور التميمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد<sup>(٢)</sup> الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمى والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . وينزل مصر بعده المؤيد<sup>(٣)</sup> فى الدين هبة الله الشيرازى أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم فى القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس فى العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر فى القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه فى الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة فى مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .

(٣) راجع فى المؤيد فى الدين السيرة المؤيدية بتحقيق

د. محمد كامل حسين وكتابه فى آداب مصر الفاطمية

ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع فى النعمان ابن خلكان ٤١٥/٥ ولسان الميزان

١٦٧/٦ والشلوات ٤٧/٣ ومرواة الجنان ٣٧٩/٢

والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب الهمة فى آداب

اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) أنظر فى حميد الدين بر وكلمان ٣٥٥/٣ ومقدمة

ومرّ بنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعياً أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبّين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضاً إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف<sup>(١)</sup> الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شرح مرارا وتكرارا ، ولشمس<sup>(٢)</sup> الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولهباء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائماً على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعري الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري .. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً لإدخال ابن تومرت رأياً الأشعري إليها<sup>(٣)</sup> . ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبحار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفاً وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام المعلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطاً حتى نهاية زمن العثمانيين .

١٠٠/٨ والسيوطي ٥٤٢/١ والعبر ٣٥٩/٥ والشنرات

٤٠٦/٥ وفوات الوفيات ٥٢٣/٢ ومرآة الجنان

٢٠٨/٤

(٣) خطط المقرئ ٢٧٩/٣ .

(١) أنظر في الآمدي ابن خلكان ٢٩٣/٣ والسبكي

٣٠٦/٨ والسيوطي ٥٤١/١ والعبر ١٢٤/٥ والشنرات

١٤٤/٥ ولسان الميزان ١٣٤/٣ وميزان الاعتدال

٢٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ .

(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

## التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبت في جميع ألوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين . وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُنيت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد<sup>(١)</sup> الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنما لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد<sup>(٢)</sup> الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبلي هو سعيد<sup>(٣)</sup> بن البطريق الذي تقلد منصب بطريك الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفي سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن التصاري وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للذهبي ٨٦/٣ .

(٣) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٤٥٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٧٧/٣ وما هما من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر ذيله روزن في لينتجراد في القرن الماضي .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ١٧٧/٣ وشرح سيرته للسهيلى المسى الروض الأصف : مقدمته ، وعبر الذهبي ٣٧٤/١ والسيوطي ٥٣١/١ وإنباه الرواة ٢١١/٢ .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣٥/٣ والسيوطي ٤٤٦/١ ، ٥٥٣ ، والديباج لابن فرحون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذُيِّل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكلمة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد<sup>(١)</sup> بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن<sup>(٢)</sup> بن أحمد بن يونس الصدفي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . وولتقى بمحمد<sup>(٣)</sup> بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . وولتقى في أوائل زمن الفاطميين بابن<sup>(٤)</sup> زولاق الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طفج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا - وفقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكلمة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سيديوه المصري . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى<sup>(٥)</sup> بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدفي ، كما يلقانا الروذباري أحمد<sup>(٦)</sup> بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماء « بلشكر الأدباء » وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

(٤) انظر ابن زولاق في السيوطي ١/ ٥٥٣ وابن خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان ٢/ ١٩١ .  
 (٥) انظر الطحان في ابن خلكان ٣/ ٢٢٣ وانظر بروكلمان ٦/ ٨٤ .  
 (٦) راجع الروذباري في المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصاحف ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس في السيوطي ١/ ٣٥١ ، ٥٥٣ وابن خلكان ٣/ ١٣٧ وفوات الوفيات ١/ ٥٢٦ والشواتر ٢/ ٣٧٥ وعبر النهي ٢/ ٢٧٦ .

(٣) انظر في الكندي السيوطي ١/ ٥٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية . وبروكلمان ٣/ ٨٢ .



وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسيحي <sup>(١)</sup> الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولائها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتي ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيرتان إيام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على <sup>(٢)</sup> بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطاحي . وللرشيد <sup>(٣)</sup> بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأذهان » ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى القسطنطين والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه . وبجانب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبدالعزيز الأندلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعداده في الأندلسيين . ومن ذلك مصنف للقاضي الجليس في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مدائح بني أسامة سنة ٥٢٥ . وولتقي بالقرطبي محمد <sup>(٤)</sup> بن سعد الذي ألف لشاور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي القسطنطين والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبي السرور الرُّوحى وله تحفة الظرفاء في أخبار الأقبياء والخلفاء إلى الظاهر لأهراز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويُظن أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١/١٦٠ ومجمع الأدباء ٤/٥١ والطالع السيد ٥٢ والحريدة قسم مصر ١/٢٠٠ والشنرات ٤/١٩٧ والسيوطي ١/٥٤٠ .  
(٤) انظر في القرطبي المغرب قسم القسطنطين ص ٢٦٧ .

(١) انظر في المسيحي المغرب (قسم القسطنطين) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٤/٣٧٧ والسيوطي ١/٥٤٤ والوفى للصفدي ٤/٧ والعبر ٣/١٣٩ والشنرات ٣/٢١٥ والنجوم الزاهرة ٤/٢٧١ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٠٥ .

سنة ٥٦٧ وطبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠ .

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأرمني ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداء تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥ . ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلَميُّ المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثرت ترجمة العلماء لشيوخهم ، مما يُلقَى أضعاف كثيرة على الحركة الثقافية لعهدهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد<sup>(١)</sup> بن أسعد الجَوَانِي الحسني ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه . قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعلي بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المتقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومرّ بنا ذكر الحافظ عبد الغني بين الحنابله وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي<sup>(٢)</sup> على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحمدين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في ليزنج والقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونخصي إلى زمن المماليك وفي عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير ، ويلقانا المكين<sup>(٣)</sup> بن العميد ، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبي اليسيرين أبي المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربي في ليدن سنة ١٦٢٥ للميلاد وترجم إلى الأَنْغليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر<sup>(٤)</sup> تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتاب المسبّحي

١٩١/٢ والسيوطي ٥٥٤/١ .

(١) انظر في الجواني الحريدة (قسم مصر) ١١٧/١

(٣) انظر المكين في بروكلمان ١٤٤/٦ ودائرة المعارف

ولسان الميزان ٧٤/٥ .

الإسلامية .

(٢) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٧٥/١٥ والطلال

(٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٢٣٧/٥ وفوات الوفيات

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزائر المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولابن<sup>(١)</sup> الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحري بنا أن نذكر هنا ابن<sup>(٢)</sup> خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا بحبي<sup>(٣)</sup> الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون<sup>(٤)</sup> باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقى في القرن الثامن بالدوادار<sup>(٥)</sup> ركن الدين بيبرس المنصورى المتوفى سنة ٧٢٥ وله زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزاءه . وكان يعاصره النويري الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية ، وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسالك الأبصار . وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والمشراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونلتقى بالحافظ ابن<sup>(٥)</sup> سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازي والشانل والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفى بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام ، بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخارى . ويلقانا الإدفوى<sup>(٦)</sup> جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(١) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ١/٣٥٨ ،

٤٢٥ والبدر الطالع ٢/٢٤٩ والنجوم ٧/٣٥٦ وطبقات

القراء ١/٣٨٦ والدرر الكامنة ٤/٣٣٠ والسبكي

٩/٤٦٨ .

(٦) راجع في الإدفوى السيوطي ١/٥٥٦ والشذرات

٦/١٥٣ والدرر الكامنة ٢/٧٢ والبدر الطالع ١/١٨٢

(١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ٦/١٤٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة بحبي الدين بن عبد الظاهر في ص ٤١٥ .

(٤) انظر في النوادر الدرر الكامنة ٢/٤٣ والشذرات

٦/٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطى وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الأنصارين قلاوون وتاريخ بطاركة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين<sup>(١)</sup> المماليك . وولتقى بالحافظ مُعلطاي المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم » ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكي الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع في كتابه « معيد النعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابات إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا ، والسبكي يتجه في « معيد النعم » نفس الوجهة في المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعتمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكى يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعا وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل ما يهيه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا في مطلع القرن التاسع ابن<sup>(٢)</sup> الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ . وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان في عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق<sup>(٣)</sup> صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خصص كل جزء منه بمدينة . وقد نشر فولرز منه الجزء من الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب في تراجم الصوفية ، وله في تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام في اثني عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان بقوق وله فيه سيرة

(٣) انظر ابن دقاق في السيوطى ٥٥٦/١ والشذرات

(١) بروكلمان ١٤٦/٦ .

٨٠/٧ والضوء اللامع ١٤٥/١ .

(٢) انظر ابن الفرات في السيوطى ٥٥٦/١ والضوء

اللامع ٥١/٨ .

سماها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برفوق » وتكثر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلتقى بالمقریزی المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارساتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلمت ، وبذلك يلتقي في الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوّل المقریزی التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » وله اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقتفى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر<sup>(١)</sup> الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف في التراجم . وله كتاب الإصابة في تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب في اثني عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . وكل هذه الكتب مطبوعة . وله أنباء العمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى<sup>(٢)</sup> بَرْدَى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تغرى بردى في الضوء اللامع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية في أبي المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر في السيوطى ٣٦٣/١ والشذرات ٢٧٠/٧ والضوء اللامع ج ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البية للكتوى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى لمحمد مصطفى زيادة

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشؤون الاجتماعية مع الاهتمام بالتواحي العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأئمة والعلماء والأدباء في العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سوق كبير من الطرائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء . وولتقى بشمس<sup>(١)</sup> الدين السخاوي محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئ ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثاني ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة لحياته .

ويتوج السخاوي هذا النشاط التاريخي العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامي العربي . واسم الكتاب يوحي بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده في التربة الدينية والحلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشؤون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشؤون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغي أن يتوفر في

والشفرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر  
للعبدروسي ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩ .

(١) انظر في السخاوي مقدمة كتابه الضوء اللامع  
وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للغزى ٥٣/١

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطول في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم. ويُنجى باللائمة على الذهبي في تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية. وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي. ويفيض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويسط الحديث في نقد المؤرخين وكتابتهم التاريخية. والكتاب بالغ الروعة والنفاسة:

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي، وطبقات المفسرين وبقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، وحسن المحاضرة وهو مبعوث في الهوامش، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي، ومسالك الحنفا في والدى المصطفى، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة. وله وراءها مصنعات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووي. ويُحتمُّ زمن الماليك بابن إياس محمد بن أحمد الذي عرضنا له بين الجغرافيين، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أفاض في التاريخ إفاضة واسعة، حتى ليذكر وفيات كل شهر، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر ميينا ما أحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلماؤها وصناعاتها المهرة، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة.

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين، وأول مؤرخ نلتقى به في عهدهم ابن زنبيل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم. ويصف معاركه مع الجراكسة في شمال الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول. ويلقانا عبد الوهاب الشعراfi المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مرالسنين حتى زمنه، وهي مطبوعة مرارا. ويلقانا في القرن الحادى عشر الهجرى زين الدين بن أبى السرور البكرى محمد الصديق وابنه شمس الدين محمد ولها كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد <sup>(١)</sup> الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاقى محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول « وهو مطبوع . وولتقى بنور <sup>(٢)</sup> الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهي مطبوعة مراراً . ويلقانا شهاب <sup>(٣)</sup> الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ربحانة الألباء ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موقلة للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابى نفتح الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

١٢٢/٣

(٣) انظر مصادر ترجمة الخفاجى فى ص ٤٥٩

(١) راجع المناوى فى خلاصة الأثر ٤١٢/٢ والبدر

الطالع ٣٥٧/١ .

(٢) راجع نور الدين الحلبي فى خلاصة الأثر



## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربي الإسلامي لغات وعناصر جنسية مختلفة . فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفي عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان في الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب في الطب لأهرون القس . وكان بها رومان ، وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الروماني . وطبيعي أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة في الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جواهر مصر من القبط . وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوتت تفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للآتينى أى شأن ، فقد طردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت في الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية في الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفي كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية<sup>(١)</sup> . وسرعان ما هجرت ونُبتت إلاكلمات قليلة سقطت في العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان في البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية  
( عصر الولاة - نشر دار الفكر العربى ) للدكتور محمد كامل  
حسين ص ٣٠ .

(١) خطط المقرئى ١٨١/١ وفيه أن نقل الدواوين  
بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من  
الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى  
نشرها جروهمان في مواضع متفرقة وهى صادرة عن الولاى

التخاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبتاءور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة<sup>(١)</sup> ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كُتبت في العهد الروماني أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكياً لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكتسحها وتظفر بالسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذوا يعملان بسرعة على تعرب مصر . أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم . يقول بتلر : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم ( الأرثوذكسية ) طحنا »<sup>(٣)</sup> . ومعروف أن الرومان أو قتل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا يبهنون طيبات مصر بها ، ويعتصرون خيراتها اعتصارا ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا . وعدّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأخذوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضى بتلر قائلا : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا راهب ، وقلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف<sup>(٤)</sup> ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد من

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بتلر ص ٢٤٣ .

(٤) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان للياقوت ص ٣٣٩ .

(١) انظر فتح العرب لمصر لبترل ترجمة محمد فريد

أبي حنيد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط الملحق برسالة

ماريتا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

يسلمون في ازدياد مع السنين حتى إذا ولي حيّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزية ، حتى اضطرتت إلى اقتراض عشرين ألف دينار أتممتُ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتكَ جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضررك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عمن أسلم قَبِحَ اللهُ رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جاييا يجمع الأموال <sup>(١)</sup> . » وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقبَلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوى وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعريب مصر ، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بخصبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية في عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال في العهد الأموى يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قريبة من الجزيرة العربية فتزها كثيرا كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُعنى كتبُ بيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى . وطبيعى أن تخلط هذه القبائل بسكان مصر لافى مدنهم فحسب . بل أيضا في ريفهم . فقد سَنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سن لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع في ريف مصر ثم يعودوا إلى القسطنطينية . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات <sup>(٢)</sup> . من بينهم عون بن خارجة القرشى وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولا بد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكى يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حاجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلائل مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان يتزل في قرى مصر وضياعها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية<sup>(١)</sup> . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كيّدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان<sup>(٢)</sup> . وكان ذلك بدءًا حقيقياً لتعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقي في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌّ من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيدانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من ألسنة القبط في الريف والقرى وتُحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقى على دينه »<sup>(٣)</sup> وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مرّ بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الحنيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبع منهم كثيرون تُترجمُ لهم كتبُ التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

١. والمقرزي ١/١٧٣ .

(١) خطط المقرزي ١/١٤١ .

(٣) بتلر ص ٤٢٥ .

(٢) الولاة والقضاة الكندي (طبعة جيست) ص ١٩٣

يزيد بن أبي حبيب الذي أقامه عمير بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجري للفتيا بين الناس ، وقد ذكرناه في الفصل الماضي . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورشا . وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلث أن نلتقى بعد ورش بندي النون المصري الإخيمى وله فضل تأسيس التصوف في العالم الإسلامى . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هي رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفاض العلماء في كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا في الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على ألسنة كثيرين من القبط أنفسهم ، ويبدو أن كثيرين من الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها<sup>(١)</sup> . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا في الفصل الماضي - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبحر ، وأسلم على يده ، وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية . ومر بنا أيضا أن الدومبيلي ذكر كتابين في الكيمياء ألفها عالم مصرى أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية ، كما تدل على ذلك ترجمته<sup>(٢)</sup> في طبقات ابن أبي أصيبعة . وملتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨ هـ) وقد ذكرنا في الفصل الماضي له كتابا بالعربية في تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبي أصيبعة كتابا في الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت في القرن الثالث الهجرى ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجرى يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطى واليونانى في مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت في الروال وحلت محلها في ألسنة القبط العربية وخاصة في لغة التخاطب اليومى ، أما هي فاحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة في الصحراء والصحيد . من ذلك ما يذكره المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(١) انظر سير الآباء البطارقة لأسقف الأشمونين ساويرس (٢) راجع عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٤١ .

ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة<sup>(١)</sup> بالقرب من أسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية . أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قدمنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

## ٢

## كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على السنة اليمنيين نشاطه على السنة المصريين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن ماُنظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندي في كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقرئى في الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملته متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزة ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بيشنة وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأبن بن خريم . ومن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بدیعة<sup>(٢)</sup> ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نُصیب وكان مُستترقا لکنانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، وردَّ إليه حرثته مما أثر في نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله العَمْر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العصر<sup>(٣)</sup> الإسلامى . وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضنى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

كتابنا العصر الإسلامى (الطبعة التامة) ص ٢٩٩ .

(٣) العصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

(١) الخطط ٣/٥٦١ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونغضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، وبصور ذلك إسحاق بن معاذ في مديحه للمفضل بن فضالة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاه<sup>(١)</sup> كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمري الذى ولى قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط في العرب ، وهجاه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة<sup>(٢)</sup> . وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصب بن عبد الحميد متولى الخراج<sup>(٣)</sup> بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ يثر عليه مدائح رائحة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك غيور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُفَيْر والمعلّى الطالبي ، ولسعيد أشعار في الولاية والقضاة للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و٢٠٩ . والمعلّى الطالبي - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تتردد بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا في هجاء القاضى العمري يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مرثية رائحة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفًا » وفيها يقول<sup>(٤)</sup> :

ياموت كيف سلبتنى وَصْفًا قَدِّمَتْهَا وتركتنى خَلْفًا  
وأخذت شِقَّ النفس من بدنى فقَبَّرَتْهُ وتركت لى النَّصْفَا

وزاره يتصل بالولاية ومدحهم واحدا تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة<sup>(٥)</sup>

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرةٍ وأظلم الناس عند الجود للمال  
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبًا لما أشرتَ إلى خَزَنِ بِمثالٍ

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصدا عباس بن هبة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليتها المطلب الخزاعي بأخرة من القرن الثاني ، ومرة ثانية

العصر العباسي الأول ( الطبعة الثامنة ) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨

(١) الولاية والقضاة للكندى ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .

(٤) العقد الفريد ( طبعة لجنة التأليف ) ٣/٢٧٩ .

(٢) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ .

(٥) الأغاني ( طبع دار الكتب ) ١٢/١٠٢ .

٤١٣ ، ٤١٤ .

(٣) خطط المقرئى ١/٣٨٥ وانظر ترجمته في كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدها الكندي في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالي بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعلى الطائي وابنه حِطَّان . إذ نجده ينشد في ديوان الحماسة قطعة بديعة لحِطَّان تصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله <sup>(١)</sup> :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية سنتلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ذو النون المصري الإخميمي مؤسس التصوف الإسلامي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثاني الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : « كان شاعراً مقلماً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهل .

ومرّ بنا أن أحمد بن طولون ولي إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصراً ضخماً . كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وألحق به ميدانا فسيحا للعب الكرة . وأنشأ خجارويه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرّ بنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خجارويه بالشعر والشعراء فأسبغ عليهم العطايا وأسبغ عليهما الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبي هاشم وسعيد القاضي الملقب بقاضي البقر ومحمد بن طشوبه وأحمد بن إسحق <sup>(٢)</sup> ، ويقول المقرئ : رأيت كتابا قدر اثنتي عشرة كراسة مضمنة فهرستاً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية « ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » <sup>(٣)</sup> . وفي هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، وما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر <sup>(٤)</sup> . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(٣) الخطط ١/٦١٢  
(٤) معجم الأدباء ٢/٤١٥

(١) الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوق (طبع لجنة  
التأليف) ١/٢٨٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وما بعدها



أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المرّبي شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والحيل والصيد . وللبحترى مدائح مختلفة في خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغرى بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه <sup>(١)</sup> وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما في الشام ، فقد كانت تتبعها ، وكانا ينزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غلامه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ . وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه يُعدُّ في طبقة ابن الرومي والبحتري ونظرائهما <sup>(٢)</sup> ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بديدة كثيرة ، وأنشدنا أيضا أشعاراً له رائعة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدي في الشعر وفضله . وبدون شك التفَّ حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور <sup>(٣)</sup> بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظَلَّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويظَلُّ الشعر ناشطا في أيامها ، ويترجم الثعالبي في كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكمي وعبيد الله بن أبي الجوع والحسن بن محمد الشهاجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسيني الرّسّبي <sup>(٤)</sup> . ونزل مصر في عهد كافور المتنبّي ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجوع من كبار المعجبين به فعُنِيَ برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . ومن نزولها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أديرتها شعر كثير . ونزلها أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جزّابة <sup>(٥)</sup> .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وورثته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانئ الأندلسي ، ومعه ابنه تميم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المعز نفسه شاعراً ، روى ابن تغرى بردى بعض شعره <sup>(١)</sup> ، وكان ابنه العزيز نزار الذى ولى الخلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً <sup>(٢)</sup> وكذلك كان الحاكم <sup>(٣)</sup> والمستنصر <sup>(٤)</sup> ، فطيمى أن يبعثوا نهضة شعرية فى البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصدهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا . وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز : يعقوب بن كلس . وكان يهوديا وأسلم . ودبر دولتها تدبيراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه ينشدونه المدائح . ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبى وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفى سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر <sup>(٥)</sup> ولا بد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين ، فضلا عما كانوا ينتهون عليها أشعار المديح . غير أنه ينبغى أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقييد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة فى التشيع المنحرف ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع . فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياسا لمدى نشاط الشعر فى مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمى الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا خبرا مها يسوقه المقرئى عنه إذ يذكر أنه بنى بركة الحبش منظره بها طاقات صور فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقه قطعة قماش كُتب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رفّ مذهب . فلما دخل المنظره وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صُرة محتومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صُرتَه بيده <sup>(٦)</sup> وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالى شاعراً ، وروى ابن ميسرّ فى أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فمدحه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية أسماء طائفة من مدّاحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم . ويسمى العماد الأصبهانى فى القسم المصرى من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رزّيك بأخرة من العصر الفاطمى شاعراً ، والتف حوله كثير من الشعراء ، ونخصهم شاعره الجليس بن الحباب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(٥) النجوم الزاهرة ٤/١٥٨

(٦) الخطط ٢/٢٦٨

(١) النجوم الزاهرة ٤/٧٩

(٢) النجوم الزاهرة ٤/١١٣

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٩٦

نقل منه العماد الأصبهاني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه « جَنَّانُ الجَنَانِ ورياض الأذهان » وهو مفقود ، غير أن العماد الأصبهاني انتفع بترجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابهن في البلاد العربية أمثال أبي الرقعمق الأظفكي وصرع الدلاء البغدادي والتهامي المكي وابن حيّوس الدمشقي وأمّية بن أبي الصلت الأندلسي المار ذكره آنفا .

ويظل نشاط الشعر المصري في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البداهة لعلی بن ظافر الأزدي ، وهو يسجّل الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . وتلقّى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لنظم أشعار على البديهة دون بُطء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعر كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد في خريدته يخصّ مصر بمجلدين ترجم فيها لمائة وأربعين شاعرا . وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن زُرَيْك والأفضل بن بدر الجالبي في الدولة الفاطمية ممدّحا ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعرا كبيرا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذبني شاعرنا به لإقصده مادحا كما يقول ابن خلكان (١) . ونرى فاضل بن راجي الله العطار المصري يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) كتابا في شعراء مصر لزمه سماه « الشعراء العصرية بالديار المصرية » (٢) . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسي كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلداتها في الوجهين البحري والقبلي ، وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاعر الكتبي والوافية بالوفيات للصفدي وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

(٢) المغرب: قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص ٣٢٤

(١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة بيروت) ٢١١/٧

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتايب السلوك والخطط للمقريزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمالكي إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضي الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلي والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألبا» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المحبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قسما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . وولتقى بطائفة منهم عند المحبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرتي ، وهو يعنى فى الجزء بين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

### ٣

## شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات

### (١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان تتحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور<sup>(١)</sup> :

رسالةً من كَلْفٍ عميدٍ حياته في قبضة الصدود  
بَلَّغَهُ الشوقُ مدى المجهودِ ما فوقَ ما يلقاه من مزيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دوراً . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين ، وشاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمطات شاع مبكراً وعرضنا له في كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسمط مشتق من السَّمَط وهو قلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقى مع الأعرار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى وكان شاعراً مجيداً . ومن مسمطاته مخمّس مدح به أخاه العزيز استهله على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

دَمُ العُشَاقِ مطلولٌ ودينُ الصَّبِّ ممطولٌ<sup>(٣)</sup>  
وسيفُ اللحظِ مسلولٌ ومبدى الحَبِّ معذولٌ

وإن لم يُصنغِ لللائمِ

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دوراً على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية ، وهى عمود المسمط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأنشد العماد الأصبهاني مسمطاً سباعياً<sup>(٤)</sup> لشاعر إسكندري يسمى موسى بن على . وأخذ الشعراء المصريون في العصور المتأخرة يكثرون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهمزته في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ويخصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبعياتها وتسبعياتها عشرات أكثرها لمصريين<sup>(٥)</sup>

(٣) مطلول : مهمل ولادية له .

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

(١) البيتة ٢٥٦/١

(٢) ديوان تميم بن العزيز بن المعز الفاطمى (طبع ونشر

دار الكتب المصرية) ص ٣٨

وتظل المسمطات وخاصة الخمسات تلقانا أيام العثمانيين في كتب التراجم من مثل ربحانة الألبا  
ونفحة الربحانة وتاريخ الحيرى . ولأبى السعود الشعرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من محمّس نبوى (١)

ياحادى العيس إن حَفَّتْ بك الكَرْبُ الْحَوْزُ - هُدَيْتَ - بركبِ ساقه الطَّرْبُ  
وَقُلْ لصبُّ غدا بالشوق يَتَّحِبُ لمهبطِ الوَحْيِ حَقًّا تَرْحَلُ الشَّجْبُ  
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر في الخمس قافية الشطر الخامس في الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو  
ما قدمنا في قاعدة نظمه .

### (ب) الرباعيات

مرّنا في كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية . والرباعية  
أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية ، أما الشطر  
الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى  
الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا في هذا العصر : عصر الدول  
والإمارات وجدنا الفرس يكثرون من استخدامها مع تسميتها باسم « دوبيت » أى بيتين .  
ويشركهم شعراء العرب في ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعَلُنْ  
مُسْتَفْعَلُنْ » و « فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ » على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عن الرباعيات في  
قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نمضى في زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء  
يكثرون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّانِي (٢) :

ياغَضْنُ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السواك يحتاج سِوَاكُ  
قُلْ لى أنهاك عن مجيئك نُهّاك لو تمّ وفاق بُسْتُ خَدَيْك وفاقُ

ومن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسى الذى  
زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول الدُّوَيْتِ »

السواك، وفاق أى فك ، وسمى صاحبه غصنا لاستواء  
قامتا . والنهى : العقل .

(١) نفحة الربحانة للمحى (طبعة الحلبي - تحقيق

عبد الفتاح الحلبي) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأديباء ١٢٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه

أوالرباعيات . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبي الإصبع :

قَبِلْتُ ثَنَايَا كُجَّانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُضَارِ الْخَدِّ  
نَادَى مَاذَا؟ قَلْتُ: طَبْعُ عَرَبِي بِشْتَاقِ أَقَاخِ الرُّوضِ دُونَ الْوَرْدِ<sup>(١)</sup>

ويُسهم في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرِّح من مثل قوله :

رُوحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَا يَا مُؤَنِّسَ وَحْشَتِي إِذَا اللَّيْلُ هَدَا  
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا لَا أَسْفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ صُبْحُ أَبَدَا

فهو يبذل روحه لمحبيه الرباني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجَاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تنفلت أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحيانا في المديح النبوي كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألبا<sup>(٢)</sup> :

مَا جَرَّ لظِلُّ أَحْمَدِ أذْيَالُ فِي الْأَرْضِ كَرَامَةً كَمَا قَالُوا  
هَذَا عَجَبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ وَالنَّاسَ بظَلُّهُ جَمِيعًا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والنور لا ظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

### (ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه : (٢) ربحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق<sup>(١)</sup> وفي رأي أنها فعلاً تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسمطات والمحمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلاً . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة<sup>(٢)</sup> ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها وانسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهمله ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفُلاً ، ومن خُرْجة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسمط المشرق المشرق ، وهي لعلي بن عياد الإيمسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العباد موشحة على هذا النمط<sup>(٣)</sup> .

يا مَنْ أَلُوذُ بِظِلِّهِ فِي كُلِّ خَطْبٍ مَعْضَلٍ  
لَا ثَلْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَتَمَسِّكًا يَدَ السَّلَامِ  
أَمَّا مِنْ كُلِّ بَاسٍ فِي الْحَوَادِثِ وَالصَّرُوفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلاً لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحدون قوافي الشطور في الأقفال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسمطات . وعادة يبتدئ الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يبتدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

الأول ص ١٩٩ وقسم الثام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الخريدة للعباد (قسم شعراء مصر) - طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر ٤٤/٢

(١) فن الترشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع

ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسي



المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريقة يحتفظ بها ديوانه<sup>(١)</sup>.

وكان طبيعياً أن يتعرف المشارقة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس ، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة ، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين : إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وفيه يقول ابن سعيد : « كان منشأ للمنشور والمنظوم » وأقام بمصر عشرين سنة ، وصنّف في الأطلنجان وعنه أخذها أهل إفريقية<sup>(٢)</sup> ، ولا بد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم ، وقد توفى سنة ٥٢٩ . ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب<sup>(٣)</sup> ، ولا بد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات . ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الأندلسي<sup>(٤)</sup> ، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة ، وكان له عشرة دواوين ثامننا يشتمل على موشحاته . ومثّر بنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجّل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشدهوه من الموشحات الأندلسية .

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ومحدثنا العباد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له<sup>(٥)</sup> . وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً ، بل لما هو أبعد من ذلك : ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه ، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس : « دار الطراز » الذي ألفه في عهد السلطان الأفضل<sup>(٦)</sup> بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦هـ) وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأقفاها وعدد شطورها وأنها تتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأقرع<sup>(٧)</sup> وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءاً<sup>(٨)</sup> . ويقول عن الخرجة ، وهي القفل الأخير في الموشحة ، هي « أبرز الموشح وملحه وسكره

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

مصر) ص ٣٣٧ .

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

٢٦١/١ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٨٨/٢ .

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن

أبي أصيبعة ص ٦٣٠ .

(٥) الحزينة (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها .

(٦) راجع مجلة الثقافة العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١ .

(٧) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٢٦ .

(٨) انظر دار الطراز ص ٩٧ .

ومسكه وعنبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة<sup>(١)</sup>، ويقول أيضًا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجنة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له<sup>(٢)</sup>، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذي دار على ألسنة العلماء والشعراء. واختار ابن سناء الملك في كتابه للأندلسيين أربعًا وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسًا وثلاثين، وله وراءها موشحات كثيرة إذ أنشد له أحمد السخاوي في كتابه: «سجع الوُزُق المنتخبة في جمع الموشحات المنتخبة» أربعًا وثلاثين موشحة سوى ما أنشده النواجي في كتابه: «عقود اللآل في الموشحات والأزجال».

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاققتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغما خالصا يلدّ الأسعاع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تفل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله في مطلع موشحة رواها ابن سعيد<sup>(٣)</sup>:

البَدْرُ يَحْكِيكَ	لولا تَشْنِيكَ
وأنت جُنَّةٌ <sup>(٤)</sup> الصديق	لولا تَجْنِيكَ
	لم يلق نُعْمِي ونعيم
	حَمَلْتَنِي كُلَّ عَظِيم
	وإن لى ذنبا قديم
بالضَّمِّ أَجْنِيكَ	لِلصُّدْرِ أُذْنِيكَ
لأن لى قلبًا رقيق <sup>(٥)</sup>	عساه يُعْدِيكَ

والكلمات تطير بخفة عن الفم لخلوة جرسها وعذوبتها في النطق والسمع وجمال وقعها في النفوس والأفئدة، وموشحاته في دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو الغصن في إحدى موشحاته:

وَجْهَكَ يَا أَحْسَنَ الْبَرِيَّةِ      قَدْ جَمَعَ الْمِلْحَ وَالْمَلَاحَةَ

(٤) جُنَّة: وقاية  
(٥) فى الأصل رقيقا

(١) دار الطراز ص ٢٢

(٢) دار الطراز ص ٢٣

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

نرجسةً فيه مستحيهٌ ووردةٌ تحتها أقاحهٌ  
والخالُ في الوجنةِ المُضيهِ في الماء لا يُحسن السباحه

وقد جمع في الدور أروع صورة للملاحة ، فالعين ملأى بالخضر والحياة ، والوجنة ورد ناضر ، تحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يرم . وبذلك أعد ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر<sup>(١)</sup> الأهمى العيلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلِّى يَأْسُحُبُ تيجانَ الرُّبى بالحلى  
واجعلى سوارها مُنْعَطَفَ الجدول

والموشحة تفيض بكنوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبوب، بهجة ما بعدها بهجة. وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها<sup>(٢)</sup> :

قل لمن يلومُ في مُهْفَهَفِ أَسْمَرِ  
ثغره النّظِيمُ مُسْكِرٌ وسُكْرٌ

آه لو سقاني اطفأت نيرانى دُرَّةً ثمينَةً في الياقوت مكنونة

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفىء نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل درراً ثمينه وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن المماليك فنلتقى بكثير من الوشاحين ، وفى مقدمتهم العزازى وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام المماليك على لسان ابن نباتة وغيره<sup>(٣)</sup> وشاع استخدامها على لسان المتصوفة فى أذكارهم، ولعلى بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفاية فى زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لا يزال مخطوطا، وأنشده منه السخاوى فى سجع الورق المذكور آنفا خمسا وخمسين موشحة ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة.

العزازى<sup>(٤)</sup>

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجرا بقيسارية جهاركس فى القاهرة

والأزجال للنواجى بتحقيق عبد اللطيف الشهاى ولابن نباتة  
فيه تسع موشحات وللمجد الدين بن مكانس أربع موشحات.

(٤) انظر فى العزازى المنهل الصافى ١/٣٤٠ وما بعدها

والنجوم الزاهرة ٩/٢١٤ وفوات الوفيات لابن شاعر الكبى

٨٨/١ والواقي ٧/١٥٢ والدرر لابن حجر ١/٢٠٥ .

(١) انظر فى مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص

٣٤٨ ، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الادباء ١٩/١٤٨ وفوات

الوفيات ٢/١١١ ونكت الهيمان ٢٩٠ والشذرات ٥/١١٠

(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبد الله فكوى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات

قرب حى الغوريّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديباً مطبوعاً ظريفاً له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية في ذلك . ويقول ابن حجر : له في الموشحات يد طويلة توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفي دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان في خمسة أقسام : في مدائح الرسول وأهل بيته وفي مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفي النكت والملح والألغاز والأحاجي ، وفي الغزل والتنهائي والتعازي ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعره زمانه ، وفي غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصوّرة منتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاكر في فوات الوفيات والنواجي في عقود اللآل في الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة استهّلها بقوله :

يا لهلّة الوصل وكأس العُقار      دون استتار      علّمَتانى كيف خلَعُ العِدَارُ<sup>(١)</sup>

اغْتَمَ اللذاتِ قبلَ الذهابِ

وجرَّ أذيالَ الصِّبا والشبابِ

واشربُ فقد طابت كئوسُ الشَّرابِ

واختتمها بقوله :

يا ليلة أنعمَ فيها وزارُ      شمسُ النَّهارِ      حَيَّيتِ من بين الليالى القِصارُ

وله في مطلع موشحة بديعة :

ما سلَّتِ الأهينُ الفواترُ من غِمدِ أجفانها الصِّفاحِ<sup>(٢)</sup>

إلا أسالتِ دِما المحاجرُ من غيرِ حربٍ ولا كِفاحِ<sup>(٣)</sup>

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاكر ، وهى في الحقيقة خمسم رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، مع الخلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

(٣) المحاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلع العذار : كتابة عن الانهالك في الهون

(٢) الصفاح : السيوف

ابن الوكيل<sup>(١)</sup>

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطي ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس في غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها في زاوية الشافعي والمشهد الحسيني والمدرسة الناصرية إلى أن توفي سنة ٧١٦ . ويقول السبكي : كان إماما كبيرا بارعا في مشهد الشافعي يضرب به المثل في البحث نظارًا مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوي كان يحفظ مقامات الحريري وديوان المتنبي ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة في الشعر الشعبي : الزجل والبلايق التي تدور في المزل . ومن قوله في إحدى موشحاته :

ما أخجلَ قَدَه غصونَ البانِ بين الورقِ  
إلا وسبًا لها مع الغزلافي حُسْنُ الحدقِ  
الصحة والسقام في مقلتهِ  
والجنتُ والجحيمُ في وجنته  
ما أبدع معنى لاسخ في صورته  
كالورد حواه ناعم الرِّيحانِ بالطلِّ سقى  
والقدُّ يميل ميلة الأغصانِ للمعتنقِ  
أحيا وأموت في هواه كمدًا  
من مات جوى في حبه قد سَعِدَا  
ياعاذلُ لا أترك وجدى أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل في هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته في ضبط النغم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحار الحلبي معاصره الذي حاكاه فيها وفي وزنها إبداعًا واقتانًا .

المحاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل في الموشحات والأزجال للتواصي (انظر الفهرس) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل في الفوات ٥٠٠/٢ والوفاء بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشذرات الذهب ٤٠/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفاها كقوله في المطلع :

غدا مُنَادِينَا مَحْكَمًا فِينَا يَقْضَى عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا  
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازی ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الحفاجي وغيره ، وتلقانا عند المحبي موشحة بديعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها <sup>(١)</sup> :

اعجبوا من حُسْنِ تلويحِ العيونِ      تلکمُ حانَهُ  
بِأبي مَرِّ الحَفَا بالدَّرِّ حَالِي  
قَدْرُهُ قد حَطَّ من قدرِ العوَالِي  
مطلبي من نُفْرِهِ كَثُرَ اللَّالِي

والموشح يسيل عدوية ، وأنشد الجبرقي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً <sup>(٢)</sup> عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

### البيديات

إذا تركنا الموشحات إلى البيديات وأجدناها قديمة في الشعر المصري ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع في قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) النساء في الاستواء والاعتدال .

(٢) تاريخ الجبرقي ١/١٩٨

(١) نغمة الرمانة ٥١٩/٤ والكنانة : جمعة السهام أشار

بها إلى سهام العيون . والعوالي : الرماح وتشبه بها قنود

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله <sup>(١)</sup> :

وشاعِرٍ شعره فنونُ نكل بيتٍ له طنينُ  
تُسخن عينَ العدوِّ منه قصائدُ كلها عيونُ

فقد ورى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها أبيات الشاعر النفيسة . وللتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة <sup>(٢)</sup> . ومن يرجع إلى القسم المصرى من كتاب الخريدة للهاد الأصهباني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجرى يلاحظ شيوع محسنات البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاؤس في وصف مغن <sup>(٣)</sup> :

لا أشربُ الرّاحَ إلا ما بين شادٍ وشادنُ  
قُمَ بانديمى فأنصتِ والليلَ داجٍ لداجينُ  
طاوغَ على القصفِ والعزِّ فكلُّ حاسٍ مُحاسينُ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون في أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف <sup>(٤)</sup> :

ومهندٍ سبيحَ الفرندُ بصفحه وطفاً فيحسبُ مُعمداً مسلولا

والفرند ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ذيب الحمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتضمنين بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

١٦١/١

(٤) الخريدة ٢٧٨/١

(١) المغرب (قسم النسطاط) ص ٢٤٤

(٢) الخزانة للحموى (طبعة بولاق) ص ٣٣٧ وما بعدها

(٣) الخريدة للهاد الأصهباني (قسم شعراء مصر)

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس<sup>(١)</sup> :

لام العواذُ مغرماً في حبِّ مُلهيةٍ وقبنةٍ  
ولو أنهم رأينَ تَأْ ثيرَ الغرام به وقبنةٍ

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهي موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجد لها مبنوثة في أشعارهم ، ويذكر العماد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة<sup>(٢)</sup> .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذي نشأ وترقى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حجة الحموى والصفدى إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه<sup>(٣)</sup> في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية أمثال الجزائر المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحماي المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سميهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذي تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحرير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطي أو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر خزنة الأدب للحموى ( طبع مطبعة بولاق )



الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمح ولم يتقبل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوى عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجرى بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقد بما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل القسطنطينية والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد (١) :

أيا ساكني مصرِ غداً التَّيْلُ جارِكم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشَّعْرِ  
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقي سوى أثر يبدو على النظم والثَّعْرِ

وسنذكر نفاثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

#### ٤

#### شعراء المديح

يكتظ الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جواداً ممدحاً ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجري على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لمدح والي الخراج بها : الخنصيص ، ويضفي عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن لهيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مر بنا ، كما يمدح واليها عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلّى الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضوع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر والي مصر للمأمون . ويظلمها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن (٢) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله في كتاب الولاة والقضاة للكتدي  
أشعار مفرقة .

(١) فوات الوفيات ٢٣٦/١  
(٢) انظر في ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت  
١٢١/١٠ والمغرب لابن سعيد (قسم القسطنطينية) ص ٢٧٠

له يَدُكم خَلَدَتْ من يَدِ سحابةٍ عَمَّتْ بأنوارها  
انظُرْ إلى مصرٍ بسلطانهِ ترَّ الهدى فاضَ بأرجائها

ومن شعراء الطولونيين المرمي<sup>(١)</sup> القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيش خارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيراً من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلِكَ دائما بمصرٍ وإنى لستُ عن غيرها أَرْصَى  
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أبو الجيشِ والتَّيْلُ الذى ملأَ الأوصا

وتوفى المرمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . وأطرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام وثور الروم وخُطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد<sup>(٢)</sup> بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

ياملِكُ الشامِ ومصرَ إلى أقصى ثغور الروم والشامِ  
واليمنِ الأبعد لاوَالِ [مُدَّ كُكُكُمْ] ربيعاً قادراً حامياً

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوحور وعلى ، ويتوفى أولهما سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن فى حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن جرتابة . وكان كافور ممدحاً ، فقصدته الشعراء من كل فجٍّ وفى مقدمتهم كشاجم شاعر الشام ، والمتنبى إمام الشعراء لزمه وبعد زمنه . وكان أول ما أنشده يائته ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيدا (قاضي البقر) فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و ٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاصى المذكور فى النجوم الزاهرة ٣/ ١٤١ بين من رثوا الدولة الطولونية

(١) راجع فى المرمي للمغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعاراً متفرقة له فى الولاية والقضاة للكندى فى أخبار خارويه وفى مقالاته عنه بمجلة الحجة : العدد ١٤٢ ومجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ فى عددي آب وتشرين الثماني

قواصدُ كافرٍ تواركُ غيرهَ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَابِيَا  
وغيرُ كثيرٍ أَنْ يزوركُ راجلٌ فيرجعُ ملكًا للعراقين واليا

وظل المتنبى نحو أربع سنوات ينتظر أن يوليه كافر على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق ليليل وهجاه هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعاً عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقلي ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز ( ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ) ويتخذ يعقوب بن كلس وزيراً له ، وكانا يجزلان العطاء للشعراء . مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحها ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجوع في إحدى مدائحه <sup>(١)</sup> :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معا نَحَيْفَتْنَا خَطوبُ تَشَعَّبُ الأُمَمَا

ولم يمضِ على المعز في أيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرِّقَمَقِ الأَنْطَاكِي : أحمد بن محمد ، وأقام بها زماناً طويلاً حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهرًا والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيانها » <sup>(٢)</sup> وينشد له قصيدة في مدح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنَّاجَة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدثت بمصر من قصيدة في مدح <sup>(٣)</sup> :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتليًا نَجَلُ العُلا وسليلِ السادةِ الصِّلْحَا  
مازلتُ مصرُ من كيدٍ يُرادُ بها لكننا رِقِصتُ من عدلهِ قَرَحَا

ويلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر في أول عهده صريح <sup>(٤)</sup> الدلاء البغدادي ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(١) راجع خطط المقرئ ٢٩٦/٢ وانظر في ابن أبي الجوع البيهقي ٣٩٥/١ ومر بنا حديث عنه . تشعب : تفرق وتفسد .

(٣) المغرب (قم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنَّاجَة الملح حسن المحاضرة ١/٥٦٢ .

(٢) ابن خلكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر في أبي الرقمة البيهقي ٣٢٦/١ والعبر ٣/٧٠ والشُّرَات

(٤) انظر صريح الدلاء في تمة البيهقي ١٤/١ وفي ابن خلكان ٣٨٣/٣ والعبر ٣/١١٠ والشُّرَات ٣/١٩٧

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالي سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان مدحا ، فبعث نهضة قوية في الشعر ، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا . ومن كبار مدأحه ظافر الحداد وسنترجم له بين شعراء التشيع ، وحسن بن زيد الأنصاري وسنترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله<sup>(١)</sup> .

أَيامُكَ العُرَى مصقولٌ عوارضُها      كَأَن آصَالِها من رِقَّةٍ بُكَّرَ  
أَحْمَلتَ ذَكَرَ ملوكِ كَنت خاتمهم      وَأَنجُمُ الليلِ في الإصباح تَسْتِيرُ  
بعضُ الوَرَى أنتَ لَكن فُقتهم شرفاً      إن الحجارة منها الدرُّ والمدرُّ  
تخال راحته والمشرفى بها      سحابةً ظلَّ فيها البرقُ يستعُرُ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن زُرَّيك ، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضى الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع . .

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء . في مقدمتها الأعياد وموالد الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذى بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليالى رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة التبروز ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفى كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة ، وكان الشعراء يهتنون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه ويصور لنا ذلك المقريزى من بعض الوجوه فى احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لعهد الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التى أنشِدَتْ وما كان يصحبها من نقد يديه بعض المستمعين ، من ذلك<sup>(٢)</sup> أن ابن جبر أنشد فى هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله :

(٢) خطط المقريزى ٢٥٣/٢ .

(١) الخريدة للمعاد الأصهبان (قسم شعراء مصر)

فُتِحَ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ المَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَايَةُ البِيضَاءُ  
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَهُ كَفَّ الإِمَامِ فَعَرَفَهَا الإِعْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شىء يخرج من النهر غير الماء . وبذلك ضيعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمِنْ اجْتِمَاعِ الخَلْقِ فِي ذَا المَشْهَدِ لِلنَّيْلِ أَمْ لَكَ يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ

فهلّل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وخُلع عليه وزيد في جاريه . وممّر بنا حديث المنظرة التي بناها الأمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُبرٍ للشعراء وفي كل صُرة خمسون ديناراً جزاء وفاقاً لمديحهم ، وكان ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الخافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتجادون أيامه في تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرّج ينشده في إحدى مدائحه (١) :

أمرتنا أن نضوعَ المدحَ مختصراً لِمَ لا أمرتَ ندىَ كَفَيْكَ يُختَصِرُ  
والله لأبُدَّ أن نُجْرِي سوابِقنا حتى يبينَ لها في مدحك الأقر

فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة في طرابلس وثالثة في أنطاكية ورابعة في الرها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة في عهد وزيرها طلائع بن رزّيك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس ينجم على الناس إذا بعاد الدين زكوى يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرماً ، ويتابع جهاده ابنه نور الدين ، ويستغيث به شاوور في مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعاً ، فينهي صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ في الانقضاض على الصليبيين ، وكلما التقى بهم دمّر جمعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حطين التي

(١) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/٢ .

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصَّلْبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم في القتل والأسر حتى كان من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العباد الأصهباني صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها (١) :

حططت على حِطِينَ قَدَرَ ملوكهم ولم تُبْقِ من أجناسِ كفرهمُ جِئْسًا  
بطونُ ذئابِ الأوضِ صارتِ قبورهمُ ولم تَرُضْ أرضٌ أن تكون لهم رَمِيْسًا (٢)  
سبَايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شُرِيَتْ بِحَسًا وقد عُرضَتْ نَحْسًا (٣)  
يُطَافُ بها الأسواقُ لاراغبُ لها لكثرتها كم كثرةٌ توجب الوكْسًا (٤)

وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل ( بيرسيع ) وقيسارية وحيفا وصَيْدَاء وبيروت . وتغنى الشعراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنَّى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر (٥) :

أُتْرَى منامًا ما بعِثْنِي أَبْصِرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ  
قد جاء نصرُ الله والْفَتْحُ الَّذِي وَعَدَ الرَّسُولَ فَسَبِّحُوا واستغفروا  
فُتِحَ الشَّامُ وطَهَّرَ الْقُدْسُ الَّذِي هو في القيامة للأنام المحشَّرُ

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُشَدُّ في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أنجاد حرية مظفرة . وتبَّه لذلك أبو شامة في الروضتين فأتبع المواقع الحربية بما نُظِم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربي بالفتوة والقوة والمضاء ويدفعه دفعا إلى أن يكيل لأهداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة .

(٤) الوكس : البيع بالخسارة .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٢) رمسا : قبرا .

(٣) نحسا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة<sup>(١)</sup> :

أهدى كفه أم غيَّبُ عَوثٍ      ولا بَلَغَ السحابُ ولا كرامَةَ  
وهذا بِشْرُهُ أم لَمَعُ بَرَقٍ      ومَنْ للبرقِ فينا بالإقامة  
وهذا الجيشُ أم صَرَفُ الليالي      ولا سبقتُ حوادِثُها زحامة  
وهذا الدهرُ أم عَبْدٌ لديه      يصرِّفُ عن عزيمته زمامه  
وهذا الثَّرْبُ أم خَدٌّ لَكُنَّا      فآثارُ الشفاهِ عليه شامه

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف مبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيَّب سحاب منهر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذي يتلأأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فقيم لا يريم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيئته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على حدود يرى عليها آثار الشفاه التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقيلها ، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الحدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حملة الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولوا على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

بِكَ اهْتَرَّ عِطْفُ الدِّينِ فِي حُلِّ التَّصْرِ      ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكُفْرِ  
وما فَرِحَتْ مِصْرٌ بِذَلِكَ وحدها      لقد فرحت بغدادُ أكثرَ من مِصْرِ  
فن مبلغُ هذا الهناء لمكة      ويترَبُّ يُنبئه إلى صاحب القبر

(٢) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق (طبعة سنة

(١) غزاة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

والبهاء زهير بصور تهلل الدين الخفيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإنه لحرى أن تنهأ به منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهتأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتتطور الظروف سريعا، فيقتل توران شاه وتخلفه شجرة الدر فالسلطان أيك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد السنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حملة الصليب من نكال شديد.

وتظل مصر وشعراءها دولة المالميك، وما توافى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المالميك فيكيح جماحها في عين جالوت، ويردها قُطر والظاهر بيبرس إلى غير مآب. ويصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على الهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المالميك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحرابه المستمرة مع الصليبيين والتتار، وكيف قوّض للأوليين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقبه الدائم للتتار في الموصل. وسمع يوما بمجموع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> :

ولما ترامينا الفرات بيخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم<sup>(٢)</sup>  
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم

وكان الشعراء ينثون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية



يقول السراج الوراق من مدحة بديعة<sup>(١)</sup> :

وشيدها للعلم مدرسة غداً عراقُ إليها شيقٌ وشامٌ  
ولا تذكرن يوماً نظاميةً لها فليس يُضاهى ذا النظامَ نظامٌ

فهي في رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك في بغداد .  
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بيرس السلطان قلاوون ( ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ ) . ومربنا  
بناؤه للمارستان ضخماً وإلحاقه به مدرسته المتصورة ، وفي ذلك يقول معين الدين عثمان بن  
سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلاً قصيدة في مديحه بقوله<sup>(٢)</sup> :

أنشأت مدرسةً ومارستاناً لتصحح الأديان والأبدان

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان  
خليل ( ٦٨٩ - ٦٩٣ ) وكان بطلامغورا فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع في أقل من  
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم يبق لهم  
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون  
يهنون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين المنجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة في هنته  
بانتصاراته المجيدة أولاها :

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل وقتاً شأواً ملوك الأعرص الأول

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعارا مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية  
المشهور<sup>(٣)</sup> :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكاً  
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدك الجبال دكاً

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط في غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت  
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفي ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص  
٢٣١ .

(١) المخطوط للمقرئى ٣/٢٤١  
(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

ابن عبد الدائم الشَّارِمَسَاحِي (١) :

لا تعجبوا للمجانيقِ التي رشَقَتْ  
بل اعجبوا للسانِ النَّارِ قائلَةً  
عكًّا بنارٍ وهَدَّتْهَا بأحجارِ  
هدى منازلَ أهلِ النَّارِ في النَّارِ

وتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طَلَعَةُ سُلْطَانِنَا تَبَدَّتْ بِكَامِلِ السَّعْدِ فِي الطَّلُوعِ  
فَاعْجَبْ لَهَا تَيْكِ كَيْفَ أَبَدَتْ هَلَالَ شَعْبَانَ فِي رَيْعِ

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٢) :

لِلْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الْمَنْصُورِ سَيِّدِنَا مَنَاقِبٌ بَعْضُهَا يَبْدُو بِهِ الْعَجَبُ  
لَهُ خَلَائِقٌ يَبِيضُ لَا يَغْيَرُهَا صَرَفُ الزَّمَانِ كَمَا لَا يَصُدُّهُ الذَّهَبُ

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظَهْرُ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ابْتَدَأَ بِالظَّاهِرِ الْمُعْتَرِّ بِالْقَاهِرِ  
وَالْبِشْرِ قَدْ تَمَّ وَكُلُّ أَمْرٍ مَشْرُوحٌ بِالْبَاطِنِ بِالظَّاهِرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موطئاً لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيشون فساداً في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فساداً في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثاً انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

(٢) النجوم الزاهرة ٨٣/١١ .

(١) نوات القويات ٨٦/١ .

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد كتاب التُّمْت ، وفيها يقول (١) :

بُشْرَاكَ بِأَمْلِكَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ      بفتوح قبرس بالحسام المَشْرِفِ (٢)  
فَحُّ تَفْتَحَتِ السَّمَاوَاتُ الْعَلَا      مِنْ أَجْلِهِ بِالنُّضْرِ وَاللُّطْفِ الْحَفِي

ولا نعود نسمع عن انتصارات حربية مجيدة أيام المالك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلطين في توليم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم ويكثف تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الوالي العثماني رضوان كتحدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والأواجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم عبد الله الإراكاوي ، وقد صنف في مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمي الدمياطى ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة في مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها (٣) :

مَلِكٌ سَعِدٍ قَدْ سَمَا فِي عَصْرِهِ      مُؤَيَّدٌ مَعْظَمٌ فِي مِصْرِهِ  
مَعْرُزٌ كَيُوسُفٍ فِي قَصْرِهِ      عَلَيْهِ مَنشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِهِ

ومن مداح رضوان قاسم (٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كَفَّهُ الْغَيْثُ عَلَى النَّاسِ هَمًّا      فَأَعَادَ الْخِصْبَ بَعْدَ الْيَبْسِ  
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْتَسِمًا      وَهُوَ فِي فِيهِ مَحَلُّ اللَّعْسِ

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهر الأجلاء ، ويلقانا ابن الصلاحى (٥) السيوطى كلفا بأستاذه الشمس الحفنى ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرتي ١٩٣/١ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتي ٢٦٥/١ وما بعدها

(١) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .

(٢) المشرقي : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ،

والسيوف المشرقية : سيوف حادة قاطعة .

(٣) الجبرتي ٢٣٢/١ .

إمامُ الهدى الرّاقى إلى ذروة العُلا إلى رتبةٍ عنها الثوابُ تقعدُ  
وماشتَ قل فيه فأنت مصدّقُ مزاياه تقضى والحاسنُ تشهدُ

وأكثرُوا حينئذ من التّاريخ بالشعر يؤرخون به قديم والو أو مناسبة من المناسبات في آخر شرط  
بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ،  
ويحسن أن نستعرض شعراء المديح الناهين على مر الحقب .

### المهذب<sup>(١)</sup> بن الزبير

هو الحسن بن على الغسانى ، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجرى ، وبها ثقف علوم  
العربية ، وأوى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى  
نراه يتصل ببني الكثر سراً ببلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها :

لئن جهل المدّاحُ طُرقَ مديحكم فإني بها من سائر الناس أعلمُ  
وهل لى حمدٌ فى الذى قلت فيكم ونعماكم عندى التى تتكلمُ

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبى إلى التزوح عن بلده إلى  
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولخشى وزير الخليفة  
الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ ) ولعله هو الذى أنقذه فى مهمة إلى اليمن ، فأكب على كتب  
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع فى أكثر من عشرين مجلدا . ولم  
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولخشى طلائع بن  
رزيك ( ٥٤٩ - ٥٥٦ هـ ) . وكان يعد أكبر شاعر فى زمنه ، وقد ترجم له العماد الأصبهانى ترجمة  
ضافية استهلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبنا المشيد ، لم يكن فى زمانه أحد أشعر  
منه ، وله شعر كثير ومحل فى الفضل أثر » . والغالب على شعر المهذب المديح .

ومن يدرس الشعر العربى يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهى تقوى

الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١/١٦١ فى ترجمة  
أخيّه الرشيد وفوات الوفيات ١/٢٤٣ والنجوم الزاهرة  
٥/٣١٣ وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٥٦٣ .

(١) انظر فى ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر ( قسم  
شعراء مصر - طبع لجنة التّأليف والترجمة والنشر ) ١/٢٠٤  
ومعجم الأدباء ٩/٤٧ والنكت المصرية لمارة الجنى ص  
٣٥ والظالم السعيد الجامع لأشياء الفضلاء والرواة بأعلى

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديدة بأن يسجلها الشعراء ويتغنواها ، وهي تضعف حين تعبر عن زلنى وما يتصل بالزلنى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمدح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروبهم في خراسان وفي آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبي في سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائعة من الغناء والشعر ، أما في الضرب الثاني فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حربيا أو غير حربى ، إنما يقرءون ملقا وترلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير لطلّاح بن رزّيك في الضرب الأول ، لأنه ملأ أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته ماتى تنازل الصليبيين في العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفزعهم في « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانى الشامية والفلسطينية . وكان طلّاح يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبهجا بمثل قوله :

لما أبوا ما فى الجفان قرّبتهم	بصوارم سلّت من الأجفان <sup>(١)</sup>
وثلّت فى يوم العريش عروشهم	شبا ضراب صادق وطعان <sup>(٢)</sup>
ألجأتهم للبحر لما أن جرى	منه ومن دمهم معا بحران
ولأنت تخضب كلّ بحر زاخِر	ممنّ نحارب بالتّجيع القانى <sup>(٣)</sup>
حتى ترى دمهم وخضرة مائه	كشقائق نثرت على الرّيحان
وكانّ بحر الروم خلّق وجهه	وطقت عليه منابت المرّجان <sup>(٤)</sup>

(٣) النّجيع : الدم . القانى : شديد الحرارة .

(٤) خلّق وجهه : طيب بالخلوق وهو الزعفران .

(١) الجفان : جمع جفة وهي قصعة الطعام .

والأجفان : جمع جفن وهو عمد السيف .

(٢) شبا : جمع شاة ، وهي حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح مبهج بما آفاه الله من نصر على ابن رزّيك في العريش ، فقد دقّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منزهة . ولا ريب في أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الرمان ، وكان المتوسط قد خلّق وجهه وطيب بالزعفران وطفّت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصرى لقي فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شُبُهْنَ بِالغُرْبَانِ فِي أَلْوَانِهَا      وَفَعَلْنَ كَوَاسِرِ الْعُقْبَانِ  
وَأَتَتْكَ مُوقِرَةً بِسِسِيٍّ بَيْنَهُ      أَسْرَاهُمْ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانِ (١)

وهو يصف الأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لره وسهم عطفًا ولا حركة ، ويتوهّ بقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتَلَ الْبِرْنَسَ وَمَنْ عَسَاهُ أَعَانَهُ      لَمَّا عَتَا فِي الْبَعْجِ وَالْعُدْوَانِ  
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ      مَرَّ الْجَنَّا يَبْدُو عَلَى الْمَرَانِ (٢)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزّيك :

مَا زُلْزِلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بِلِ ذَاكَ مَا      بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وله في ابن رزّيك مدائح كثيرة وراء هذه التورية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمّ بقتله ، وسجّنه ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لفة على أخيه ، إذ يقول :

يَارَبُّجُ أَيْنَ تَرَى الْأَحْبَةَ يَمَّمُوا      هَلْ أَنْجِدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَوْ أَنْهَمُوا (٣)  
نَزَلُوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا      وَمِنَ الْفَوَادِ مَكَانَ مَا أَنَا أَكْمُ

(٣) أنجدوا : دخلوا مجددا . أنهموا : دخلوا تامة .

(١) موقرة : محملة .  
(٢) الجننا : الثمر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم  
وتعوّضت بالأنس روحى وحثّة  
إني لأذكركم إذا ما أشرقت  
لا تبعثوا لى فى النسيم نحيّة  
وجدّ على مرّ الزمان محيّم  
لا أوحش الله المنازل منهم  
شمس الضحى من نحوكم فأسلم  
إنى أغار من النسيم عليكم

والأبيات تعبر عن عاطفة الحب المتناعة وأنه لن ينسى أحباءه أبدا نزلوا نجدا أو نزلوا تهامة ، فهم فى سويداء فواده والوجد يبرّح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر فى البيت الأخير عن رقة ورهاقة حس بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وما لى إلى ماء سوى التبل غلّة  
ولو أنه - أستغفر الله - زمزم

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهى محبة تملك دائما على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المهذب وأخوه الرشيد - وكان شاعرا مثله - وثقا صلتهما بشركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر الجح لصلاح الدين وعمه شركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاور الرشيد ويسجن المهذب فينظم شعرا كثيرا فى استعطافه ، ويرد إليه حرته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

### ابن قلاقس<sup>(١)</sup>

هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندرى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبى طاهر السلفى أكبر المحدثين فى عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية : وكان فى أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفى وله فيه مدائح بديعة مثبتة فى ديوانه من مثل قوله :

تفيض بحار العلم من كلماته  
فإن كنت ظمأنا فرد خير منهل  
فيا أيها المحمود من كل ناطق  
على كل معنى فى قنا كل منزل

الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديما بمطبعة الجوانب وراجعه وضبطه خليل مطران .

(١) انظر فى ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/١٤٥ ومجمع الأدباء ١٩/٢٣٦ وابن خلكان ٥/٣٨٥ وحسن المحاضرة ١/٢٤٢ والشذرات ٤/٢٢٤ ومراة

تَحَسَّدتِ الأَيَّامُ فِيكِ هَلُم تَرَل مَتَى القَادِمِ الجَدَلَانِ وَالمُتَرَحَّلِ

وهو يشير إلى علم أستاذه وأنه كان مقصدًا للراجلين في طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامي . وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاصد ( ٥٥٧ - ٥٦٤ هـ ) .  
واتصل بكتاب الديوان لهده ومدحهم ، وفي مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرر المدائح ،  
ومن قوله في إحداها متخلصًا من الغزل إلى مديحه :

يَارِبُّ خَمْرٌ قَمُّهُ كَأَسْهُهَا لَمْ أَقْنَعُ مِنْ شَرِبِهَا بِالشَّمِيمِ  
أَتَبِعْتُ رَشْفًا قُبْلًا عِنْدَهَا وَقَلْتُ : هَذَا : مَزْمٌ وَالحَطِيمِ  
فَافْتَرَّ إِمَّا عَنِ أَقَاحِي الرُّبَى تَضْحَكُ أَوْ دُرُّ العُقُودِ النُّظْمِ  
أَوْ كَانَ قَدْ قُبِلَ مُسْتَحْسِنًا مَا حَبَّرَ الفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ  
مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتَلِكِ الدَّارُ دَارُ النِّعَمِ

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، فقم صاحبه كأس خمر ،  
وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحطيم المقدس . وضحكت فخال  
أقاحى الربى تضحك ، بل عقد در نظم . بل درر القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لَفْظُهُ خمر  
وأخلاقه قرح وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .  
وليس في شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاور عهدًا  
مضطربًا أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فسادًا شديدًا ، مما جعل شاور يضطر مع  
ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح  
الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا  
الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر في مبارحة مصر إلى  
صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع في أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الداهيين إلى الحج تنويها  
كثيرا بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت في أيدي النورمانديين ولكن أمراءهم منذ روجار كانوا  
لايزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى .  
على كل حال نفاجاً برحيل ابن قلاقس إلى صقلية في شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكذب ينزل بها حتى  
أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفًا بديعًا ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها  
الطبيعية فأنشد :



بلدُ أعارته الحمامة طَوْقَهَا وكساه حُلَّةَ ريشه الطاووسُ  
فكانما الأزهارُ منه سُلَافَةٌ وكانَ ساحاتِ الديارِ كَثُوسُ

وتنقلُ في بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يلزم ، وتعرفُ على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وفيه دُبُج مدائح كثيرة ، مشيداً ببيانه وبلاغته ، وبمحسن تدييره ، بمثل قوله :

ويمناك طَيْرٌ يُعْنِ وسَعْدٍ أَصْفَرُ الظهرِ أَسْوَدُ المنقارِ  
قلمٌ دَبَّرَ الأقاليمَ فالكتُّ بٌ به من كِتابِ الأقدارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاقس كتاباً سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائح فيه ، واحتفظ العاد الأصهباني في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هي شخصية القاضي علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي ، ويقول العاد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حذقة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك في الفصاحة من أبايدٍ ملكتَ بها الفخار على الإيادي<sup>(١)</sup>  
تَحَدَّتْكَ من صَقَلِيَّةٍ خَيْلا فكنْتَ الوردَ يُقَطِّفُ من قَتَادِ  
وشِمَّتْكَ بين أهليها صَفِيًّا فكنْتَ الجمرَ يُقْبِسُ من زنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زناد صلْد وهو وحده الجمر ، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالغ في مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر مملوحوه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جُرْدُنَا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجرْدُنَا المدائح فاستقرتْ على أوصافِ جُرْدُنَا الوزيرِ

وهو يشير مراراً إلى مجالس الشراب في صقلية ، وأنه قضى بها أياماً وليالي هنيئة ، كان يستمتع

(١) هوقس بن ساعدة الإيادي الحليب المشهور .

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يتشئن في نسق بديع من الحركات يقول :

وَمُعْنٌ تَنَاوَلَتْ يَدُهُ الْعَوْدَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ  
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْمَزَامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ  
وَصَبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طُرُقَ اللَّيْلِ لِرَجَائِلِ عَلَى الْوَجْهِ الصَّبَاحِ  
يَبْعَثُ الرُّوضُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طَوَالَ الرَّمَاحِ

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لاتزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبي السعود ابني عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلَك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَرْنَا وَقَدْ نَادَى السَّمَاخُ بِنَا رِدْوَا فَعُدْنَا إِلَى مَعْنَاكَ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ  
وَجَادَبْنَا لِلْأَهْلِ شَوْقٌ يَقِيمُنَا وَشَوْقٌ لِمُعْنِينَا عَنِ الْأَهْلِ يَقَعْدُ  
وَمَا فَاحَ فِينَا غَيْرَ ذِكْرَاكَ رَوْضَةً وَلَا سَاحَ فِينَا غَيْرَ نَعْمَاكَ مُورِدُ  
فِيَا يَاسِرَا نَلْنَا بِهِ الْفَضْلَ يَاسِرَا وَيَامَنُ وَجَدْنَا مِنْهُ مَا لَيْسَ يُوجَدُ  
دَعْوَتَ بَصَوْتِ الْجُودِ حَتَّى عَلَى النَّدَى لِأَنَّكَ تَرَوِي عَنِ بِلَالٍ وَتُسْنِدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسرا يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتهى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صورته وتعليقاته قوله في جارية سوداء :

رُبَّ سَوْدَاءٍ وَهِيَ بِيضَاءٌ مَعْنَى نَافِسَ الْمَسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ  
مِثْلَ حَبِّ الْعَيُونِ يَحْسِبُهُ النَّاسُ سُ سَوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نُورُ

وهي صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشَّعْرَ وَأَنَّ مِنْهُ مَا يَذْبَلُ سَرِيحًا

ومنهُ مَا يَخْلُدُ عَلَى الدَّهْرِ ، وَمِنْهُ الْقَبِيحُ وَمِنْهُ الْجَمِيلُ ، يَقُولُ :

الشَّعْرُ مِنْهُ قَصِيرٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ يَدْوِي وَمِنْهُ طَوِيلٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ<sup>(١)</sup>

أو كالعيون فهذى حظها حَوْلُ يُعَصُّ منها وهذى حظها حَوْرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو ستين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عيذاب ثغر قوص على بحر القلزم ، وكان الموت كان في انتظاره ، فلم يكذب يتزها حتى لَبَّى نداء ربه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره .

### ابن سناء <sup>(١)</sup> الملك

هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كُتَّاب الإنشاء في الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبها بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب ، وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قُربَ الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة بينهما حتى كان ينيبه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بترية ابنه هبة الله منذ نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّي أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ يقرأ كتب الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمي إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث على السنِّي الكبير الحافظ السلفي أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً  
إلى أحمد المحيي شريعة أحمد  
إلى كعبة الإسلام أو علم العلم  
فلا علمت منه أباً أمة الأمي

للحموي في مواضع متفرقة ومقالنا : « الروح المصرية في شعر ابن سناء الملك » بكتابنا : « فصول في الشعر ونقده وابن سناء الملك : حياته وشعره لعمد إبراهيم نصر » ومقدمة محمد عبدالحق لنشرته للديوان في الهند ، ونشره وحققه في القاهرة محمد إبراهيم نصر .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدياء ٢٦٥/١٩ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان ٦١/٦ وصر الذهبي ٢٩/٥ والشفراء ٣٥/٥ وحسن الحضرة ٢٤٣/١ وبدائع البداهة لعل بن ظافر وخزانة الأدب

وقد أكبَّ على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكبَّ على الموشحات الأندلسية في طلبعة عمرة كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعاً نهائياً بذكاء خارق .

وقد فتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً فتتحاً راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه في أن يتخذ كاتباً بين يديه ، وأذن له ، وأضفى عليه من إعجابه بشعره وودّه ما أصبح به أباً روحياً له ولفنّه . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتاب ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضي الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحها فيه أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضاً ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتموج رسائل الفاضل فيها ببناء غديّ عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسننا وبخثها ، وقلما يُجمعُ بين الحسن والبخت » ويفضّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله درُّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبقى للأباء ذكراً ، وللأبناء فخراً ، وأرسلها مقلّدت ، فأرهفها مجرّدت ، وأثارها أوابد ، فنظّمها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وهما ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقداً كما كان شاعراً .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتاباً ثانياً باسم مصايد الشوارد . وكان ناثراً بارعاً كما كان شاعراً مبدعاً ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصاً ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نصبت مشاريعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمّ المقياس من الضعف بالاستلقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالباً في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكراً  
مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمٌ يَسَاءُ بِهِ وَفِيهِ كُلُّ شَيْعِيٍّ وَسَيِّئِيٍّ

ولم يكن القاضي الفاضل شيعياً ، بل كان سُنِّيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن  
ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشيعه معاً . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أصحابه إلى نوم  
الخلق عن ثأر الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنته ، فإن مصرع الحسين يأسي له  
الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعه جميعاً ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم  
حبه وتشيعه له يقول :

وَعَدَوْتُ فِي حَيِّ لَهْ مَشِيْعًا مِنْ ذَا رَأْيٍ مَشِيْعًا مَتَسُنًّا

وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعر شيعي غالباً في تشيعه .  
ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي  
هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه  
لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتُ بِالطَّبِيعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُحِبِّ أَبَا هَا فَجَاءَتْ وَقَعَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وآله فيه أهاج مختلفة كما يشهد  
ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيداً له . وقد أشاد في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعاً ، ولم  
يخص على بن أبي طالب بتتويه . ومر بنا أنه تلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره .  
وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة  
بستاناً ومرة فندقاً . وظل موظفاً في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين  
واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان  
الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل  
بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع  
كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مداخمه وكانوا يجزلون له في العطاء ، وبالمثل  
كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم  
ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُمدَّقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفاً منعماً . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات ، وكانت تمتدى للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثيله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشعُّ منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهولة وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة في السنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جدا ، ومثل « وديني هو على أكثر » ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدمائة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُحَجِّبِ      وفي سوى العَيْنين لم تُكْسَفِ  
مُعَمَّدَةٌ المُرْهَفِ لكنها      تَفْتِكُ بِالْغَمْدِ بلا مُرْهَفِ<sup>(١)</sup>

فهي شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينيها كسوف ، ونورها يغمر كل ما حوفاً وإن جفونها لتطبق على عينيها إطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعاً - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى ليقول :

ووالله ما أُشْرِى الشَّامَ وَمُلْكُهُ      وَغُوطَتَهُ الحَضْرَا بِشْبْرين من شِبْرَا

فغوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتريه بشبرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هي حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلاً في مراتبه لأمه وأبيه وجدته وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن معاليه ليشهرها      البدرُ في الأفقُ يستغنى بشهرته

ذاك الذى يَسْمُ الدَّهْرُ العَبُوسُ بِهِ تَيْهًا وَتَبْهَجَ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِ  
وَنَحْسٌ فِي مَدِيحِهِ لِأَبِيهِ بِسَعَادَتِهِ سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ مَزَلَّتِهِ وَأَدْبِهِ وَعِلْمِهِ وَشَيْعِمِهِ فِي  
إِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ يَفُوقَانِ الوَصْفَ . وَأَيْضًا مَا تَمَتَّازُ بِهِ مِصْرٌ مِنْ تَعَلُّقِ بِالدِّينِ نَجْدُهُ مِصْرًا فِي أَشَارِهِ .

وأهم من استفند مدائحه صلاح الدين والقاضى الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى  
على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسسوه في الشام من ممالكهم فقد مزق  
جموعهم تمزيقًا ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه  
مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدَّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه  
للحرب تحت لوائه ، حتى ينقضَّ بهم على حملة الصليب ، وله يقول :

بِدَوْلَةِ التُّرْكِ عَزَّتْ مَلَّةُ الْعَرَبِ وَبَابِنِ أَيُوبَ ذَلَّتْ شَيْعَةُ الصُّلْبِ  
وَفِي زَمَانِ ابْنِ أَيُوبٍ عَدَّتْ حَلْبٌ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ وَعَادَتْ مِصْرٌ مِنْ حَلْبِ

وكانه كان يستشعر في عمق أمنية توحيد العالم العربي . وله في صلاح الدين مدائح كثيرة يصور  
فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . وما زال صلاح الدين يتزل بهم الدمار ويأخذ  
منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى في موقعة حطين ، وفيها جرت دماؤهم أنهارا  
وتعمَّ الفرحة الديار العربية ، وهبى ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلاً :

لَسْتُ أَدْرِي بَأَى فَتْحِ نُهْتًا	يَا مُنْبِلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَّتْ
أَنْهَيْتَ إِذْ تَمَلَّكَتَ شَامًا	أَمْ نُهَيْتَ إِذْ تَمَلَّكَتَ عَدْنَا
قَدْ مَلَكْتَ الْجِنَانَ قَصْرًا فَقَصْرًا	إِذْ فَتَحْتَ الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنًا
لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ يَنْشَأُ	وَمَحَلٌّ فَوْقَ الْأَسْنَةِ يُبَيِّنُ
حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عُظْمًا وَلَكِنْ	جَعَلْتَهَا حَمَلَاتُ حَيْكِكَ عَيْنًا (١)
لَمْ تَلَاقِ الْجِيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ	مَكَ لَاقِيَتِهِمْ بِلَادًا وَمُدْنَا
وَتَصَيَّدْتَهُمْ بِحَلْقَةِ صَيْدٍ	تَجْمَعُ اللَّيْثَ وَالْغَزَالَ الْأَعْمَاءَ (٢)

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالمهن المنفوش) . والعهن : الصوف .  
(٢) الغزال الأغص : الذى يخرج صوته من خياشيمه .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها بصور أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذي يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتبين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفاً به بالرسول عليه السلام .

ومدائح في القاضي الفاضل كثيرة حتى تُتعدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له في الأعياد وفي القدوم من الشام ومن الحج وفي انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوّه بها في مدائح له ، وهو فيها يباليغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صَوَّرَ اللهُ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَوْرًا      وَجَمِيعُ الْأَنَامِ مَاءٌ وَطِينٌ

وقوله :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا خَادِمٌ أَنْتَ رَبُّهُ      وَمَا الخَلْقُ إِلَّا عَالَمٌ أَنْتَ فَاضِلُهُ

وقوله :

الدَّهْرُ مَدٌّ إِلَيْهِ كَفُّ مَفْتَقِرٌ      فَدُّ الدَّهْرِ مِنْهُ لِحَظٍّ مَحْتَقِرٌ  
فِي كَفِّهِ قَلَمٌ إِنْ شِئْتَ أَوْ قَدْرٌ      بِصَرْفِ الخَلْقِ بَيْنَ النِّفْعِ وَالضَّرْرِ

وهو يكرر معنى البيت الثاني وبطيل فيه ، وله يقول :

بِمِيمُونِ رَأْيِكَ كَانَ الفَتْوحُ      وَمِنْصُورِ عَزْمِكَ كَانَ القَلْبُ

وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قوله صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء

بسيفي وإنما انتصرت بقلم القاضي الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لَا يَسْتَقِرُّ المَالُ فَوْقَ بِنَانِهِ      حَتَّى كَأَنَّ بِنَانَهُ مَخْرُوقٌ  
يَاطَالِبِينَ ذُرَى عُلَاهُ تَوَقَّفُوا      وَمُؤْمَلِينَ نَدَى يَدَيْهِ أَفِيقُوا

وهما بيتان رائعان في وصف الجود ، ويحق كان القاضي الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل

تكرم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية ويحق ، يقول له :

شُكْرِي لِنُتَاكِ شُكْرَ الأَرْضِ للمَطْرِ      أَوَّلَا فَشُكْرَ سَوَادِ العَيْنِ لِلنَّظْرِ



فهو يشكره شكر الأرض المجدبة للغيث المدرار الذى يجي مواتها ، بل شكر سواد العين لنور  
البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهمر على  
الناس :

وقَصَّرَ البحرُ عنه فهو مكتسبٌ أما تراه بكفى موجِه التطمنا  
وولتِ السحبُ - إذ جارته - باكيةً أما ترى الدمع من أجفانها أنسجماً

فالبحر يشعر لزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجِه ، وإن الغيث  
ليبكي بدموع غزار لا تزال تهمل . ونحسُ بفرحة تسرى فى كثير من مدائحهِ للفاضل كما نحس خفة  
الظل التى يشتهر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

ضنَّتْ بطرفِ ظلِّ يُعدي سقمه أرايتُم من ضنَّ حتى بالضنا  
إني رأيتُ الشمس ثم رأيتها ماذا على إذا هويتُ الأحسنا  
وسألتُ من أىِّ المعادن ثغرها فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا  
أبصرتُ جوهرَ ثغرها وكلامه فعلمتُ حقاً أن هذا من هنا

وضنَّ صاحبه بالطرف وعدواه وضنَّها حتى بالسقم أو بالضنا غريب ، وتلطَّف فى التخلص  
من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعدوبة  
الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاوير المبتكرة ، كقوله :

أفتِ على عاشقك القيامة بوردي لحدُّ وغصنٍ لقامة  
فمينَ ورِّد خلدك كيف النجاة؟! ومن غصنٍ قدك كيف السلامة

وقوله :

وأشكو إلى ليلِ الغدائرِ غدَرها وأملى عليه وهو فى الأرض يكتب

وقوله :

ألقىَ حباتلَ صيدٍ من ذوائبه فصادَ قلبى بأشراكِ من الشعرِ

وقوله :

لا تحشَ منى فإنى كالنسيمِ ضنا وما التيسيمُ بمخشى على العُصنِ

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعِقْدُ وَحَدَهُ فَيَا عَجَبًا يَا قَوْمُ هَلْ يَقَلِّقُ الْعِقْدُ

وقوله :

سَأَلْتَنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رَبَّةَ الْبَيْتِ أَنْتِ بِالْبَيْتِ أَخْبِرِي

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

### ابن نبأة<sup>(١)</sup>

هو جمال الدين محمد بن محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نبأة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبته إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخته في الأدب ، ويذكر من بينهم محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخته في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحونها إلى دمشق والشام في تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويبرح أبوه مصر إلى الشام

مواضع متفرقة وكتاب ابن نبأة المصري لعمر موسى ( طبع دار المعارف ) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام ( طبع دار المعارف ) ٢٢١/٢ و طبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه عطلوطات كثيرة في مكاتب العالم العربي والغربي

(١) انظر في ابن نبأة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية طلسكي ٢٧٣/٩ والوفى بالوفيات للصفدى ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والنجوم الزاهرة ٩٥/١١ وشنرات الذهب ٢١٢/٦ والبدر الطالع ١٥٢/٢ . وخزانة الأدب للحوى في

حوالى سنة ٧١٠ ويتزل دمشق ، ويأخذ الطلاب عنه الحديث<sup>(١)</sup> ، ويستقر بها ويتولى فيها بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حَبَّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حيننا متصلا بمثل قوله :

أَوْ لِمَصْرَ وَأَرْضَ مِصْرَ وَكَيْفَ لِي بِدِيَارِ مِصْرَ مَرَاتِعًا وَمَلَاعِبًا  
حَيْثُ الشَّيْبَةُ وَالْحَبِيبَةُ وَالْوَفَا فِي الْأَقْرَبِينَ مِشَارِبًا وَأَصْحَابًا  
وَالدَّهْرُ سَلْمٌ كَيْفَمَا حَاوَلْتُهُ لَا مِثْلُ دَهْرِي فِي دِمَشْقٍ مَحَارِبًا

وقواده يهفو إلى مصروترب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وجهه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتباً سنوياً : ستائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحه ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهدىها له مثل كتابه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجماً لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزملاكنى وابن صصرى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمرى ، وله فيهم جميعاً مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السر فى دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته فى الواقى بالوفيات ٢٧٠/١ والدرر

طبيعياً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُعزل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقعاً للدُّسْتِ وكانت قد تقدمت سنه ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدُّسْتِ ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخٍ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أمره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفي ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان تَبِعُ الشعر عند ابن نباتة فياضاً ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النبأى » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يزيد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يحتفظ بالمدائح ، وعُني كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدى بكثرة إغارته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرماً بصنعها ، وألف في سرقات الصفدى منه كتاباً سماه « خبز الشعير » يزيد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المنوم ، واستهلَّ خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : ( رب اغفرلى ولوالدى لمن دخل بيتى مؤمناً ) ويورد دائماً أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدى مثل قوله في الغزل مورياً .

ومولع بفخاخ يمدّها وشبالك  
قالت لى العين ماذا يصيدُ قلت كراكى

ويقول الصفدى :

أغار على سرح الكرى عند ما رمى الـ كراكى غزالٌ للبدور يحاكى  
فقلت ارجعى يا عينُ عن وِردِ حسنهِ ألم تنظره كيف صادَ كراكى  
والكرى : النوم ، والكراكى طير مفردة كركى . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدى ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلاً :

فديتك أيها الرامى بقوسٍ ولحظٍ يا ضناً قلبى عليه  
لقوسك نحو حاجيك انجذابٌ وشيهُ المشى منجذبٌ إليه

ويقول الصفدي :

تَشْرَطُ مَنْ أَحَبُّ فَذُبْتُ وَجَدًا      فقال وقد رأى جَزَعِي عَلَيْهِ  
عَقِيقُ دَمِي جَرَى فَأَصَابَ خَدِّي      وشيئهُ الشَّيْءُ مَنْجَذِبٌ إِلَيْهِ  
وتشبيهه الحاجب بالقوس والمجذابه إليه طبعي ، أما انجذاب الدم إلى الخَدِّ وتشبيهه به فانفر منه بعيد .

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الحقة والإشاقة . ويذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزمِّلَكَاني بتأثية رائعة بدأها بالجزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قَصَّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه »<sup>(١)</sup> . وأروع مدائحهم ما نظمه في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن ، وقد دَبَّح في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لو أَنَّ لِلْبَحْرِ جَنَواه لفاض على      وَجَهَ الثَّرَى بنفيس الدرِّ متضوِّدٍ  
ولو أمرُّ على صِلْدِ الصِّفا يده      لَأُتِبَتِ العُشْبَ منها كلُّ جُلْمودٍ  
ياحِبِّدا الملكُ السارى على شِمْمٍ      تَرَوَى وتَنْقَلُ عن آباته الصِّيدِ  
أغشى العَفَاة فلولا ناهياتُ تَقَى      - أستغفر الله - نَسَمَوه بمعبودٍ

وهو دائم الإشادة بجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار ملؤه في أعلى السموات ولايزال يتألق ويضيء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :

العالمُ الملكُ السيارُ سوِّددهُ      في الأرض سَيْرَ الدَّراري بين أفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفُ بدتْ فَعَدَّتْ      نعم السَّوارُ على الإسلامِ والسَّورُ  
وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحهم للمؤيد ، وورى كثيرا باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أقسمت ما الملك المؤيد في الورى إلا الحقيقة والكرام مجاز  
هو كعبة للفضل ، ما بين الثدى منها وبين الطالبين حجاز

وواضح أنه ورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المعبّر ، وورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذى تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز لإقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المؤيد :

يذكرنا أخبارَ معرٍ بجوده ونشئ له لفظاً فينشئ لنا معنًا

ومعنى بن أوس المزنى مشهور بجوده فى مفتتح العصر العباسى شهرة حاتم فى الجاهلية ، وقد ورى آخر البيت فى مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معنًا المزنى .

ومملوحوه الثانى فى الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حاة بعد أبيه تهنته بسلطنته وتعزية له عن أبيه ، تُعدُّ من فرائد الشعر العربى ، وفيها يقول :

هناءٌ محاً ذاك العزاء المقدما فما عبسَ المحزون حتى تبسما  
ثغورُ ابتسامٍ فى ثغورِ مدامعٍ شيبان لا يمتاز ذو السبق منها  
مليكان هذا قد هوى لضريحه برغى وهذا للأسرة قد ساء  
كانَ ديار الملك غاباً إذا انقضى به ضيغمُ أنشا به الدهر ضيغما  
فإن يكُ من أيوبَ نجمٍ قد انقضى فقد أطلعت أوصافك الرقر أنجما  
وإن تك أيامُ المؤيد قد مضتْ فقد جددتْ عليك وقتاً وموسماً  
هو الغيثُ ولّى بالثناء مشيعاً وأبقاك بجرّاً بالمواهب مُنعمًا

وعلى هذا النحو تمضى تهنته الأفضل جامعة بين النقيضين فى كل بيت : بين المدح والثناء ، وفى ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه ودكائه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قطر نبات . وله فى مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قومٌ لَذِكْرِهِمْ عَلَى صُحُفِ الْعُلَا  
 الْمَلِكُ بَعْضُ دِيَارِهِمْ فَلْيَتَرَلُوا  
 إِنْ يَتَّقِ مَاضِيَهُمْ عَلَى سُنَنِ الْوَفَا  
 مَلَأَتْ مَوَاهِبُهُ الْقُلُوبَ مَهَابَةً  
 وَكَأَنَّمَا أَقْلَامُهُ بِسَوَادِهَا  
 لَاعْيَبَ فِيهِ سِوَى الْعَزَائِمِ قَصْرَتْ  
 أَصْلُ الْفَخَارِ وَكُلُّ ذِكْرِ مُلْحَقُ  
 وَالنَّجْمُ بَعْضُ جِلْدِهِمْ فَلْيَتَرَفُوا  
 فَلَأَنَّهُمْ بِيَقَاءِ أَفْضَلِهِمْ بَقُوا  
 فَالْقَلْبُ قَبْلَ الطَّرْفِ فِيهَا مُطْرَقُ  
 غِرَابٌ بَيْنَ فِي الْخَزَائِنِ تِنَعُقُ  
 عَنْهَا الْكَوَاكِبُ وَهِيَ بَعْدُ تَحْلُقُ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعي بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هيبة ، والأقلام كأنها غرابان فراق لخزائن الأمير ماتزال تنعق في أمواها بالبين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتتى محلقة في السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب في تحليقها المتغلغل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصفور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وكلُّ شاهينٍ شهىُّ المرْتَمَى  
 بينا تراه ذاهبا لصيدو  
 حتى تراه عائدا من أفقه  
 وكلَّ صقيرٍ مُسْبِلِ الجناحِ  
 ذو مقلّةٍ لها ضرامٌ واقدُ  
 كأنما المخلبُ منه مِنْجَلُ  
 وكل منسوبٍ إلى سلوقِ  
 طاوى الفؤاد ناشر الأظافرِ  
 بعضٌ بالبيض ويخطو بالقنا  
 كبارقٍ طار وصبوبٍ قد هَمَا<sup>(١)</sup>  
 معتصما بأيده وكيدو<sup>(٢)</sup>  
 ملتزما طائره في عنقه  
 مواصلُ الغدوِّ والرَّواحِ<sup>(٣)</sup>  
 يكاد يشوى ما يصيد الصائد  
 لحصد أعمار الطيور مرسل  
 أهرت وثاب الخطأ ممشوق<sup>(٤)</sup>  
 باعجبا منه لطاوٍ ناشرِ  
 ويسبق الوهم لإدراك المنى

(٤) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الشدق .

(١) الصرب : المطر . هما : سال

(٢) الأيد : القوة

(٣) مسيل : مرسل

وإنما نتمتتا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لندل على أن أرجوزة الطرد والصيد الملية بالألقاظ الغربية عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محمله بصور بديعة ، فقلعة الصقر كأنها شعلة نار ومغلبة كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحادة ويخطو بسيقان كأنها القتا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمدبح الأفضل وبحق سماها : « نظم السلوك في مصابيد الملوك » .

وملوحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مدبحة له الحرارة التي ألقاها في مدبح الأفضل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله بقول :

ياناصرَ الدين والدنيا لقد نفذتْ أقلامُ مدحك في الدنيا بسطانِ  
دانتْ لك الخلقُ من بدوٍ ومن حَصيرِ وفاضِ جودك في قاصِرِ وفي داني  
هدى المدائنُ من أقصى مشارقها لمتهى الغرب في طوعٍ وإذعانِ

وله وراء مدبحة السلاطين والأمراء والعلماء والكتّاب مدبحة نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدى محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحاها بقوله :

أفي كل يومٍ منك عتبٌ يسوفنى كجلمود صَخِرَ حطهُ السَّيْلُ من عُلِّ

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « خبز الشعير » المألف . وصنع ابن نباتة صنيعة فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استهلها بقوله :

فطمتَ ولاني ثم أقبلتَ عاتبا أفاطمُ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ  
وابن نباتة كثير الشكوى في شعره من يؤسه ورقة حاله ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذي غمره بنواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله :

لقد أصبحتُ ذا عُنبرٍ عجيبٍ أقضى فيه بالأنكادِ وفقى  
من الأولادِ خمسٌ حولَ أمِّ فواحرَياه من خمسي وسيتُ



وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسميا سته أو سيدته . وكان مرزاً ، حتى يقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي إن كثيرين من أولاده توفوا في سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثهم مرأى كثيرة ، وله رثاء حار في السلطان المتوحد وابنه الأفضل . ويقول الشوكاني : هو أشعر المتأخرين ولاسيما في الغزليات .

### عبد الله<sup>(١)</sup> الشبراوى

من بيت علم وجمالة ، كما يقول الجبرتي ، ولد في سنة ١٠٩٢ ومضى في نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعي ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأملى وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق في الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر في سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومترلة عظيمة عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم في مدة مشيخته للأزهر مقام على<sup>٢</sup> وهيبه وتجلته عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان في الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاظ في مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرتي : « وله ديوان يحتوي على غزليات وأشعار ومقاطع مشهور بأبدي الناس » . وما زال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح في ولاية مصر العثمانيين ، وأهم وال دُيِّج فيه مدائحه عبد الله الكجورى أو الكجورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحهم له ، إذ يقول الجبرتي عنه : « كان خبيراً صالحاً منقاداً إلى الشريعة أبطل الحارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرياب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلاً المكرمات ابنُ الكجورى كريمُ الطبع والأصلِ الشهير  
أقام العدلَ في مصرٍ وأحياناً معاملةً بها بعدَ الدثورِ

وإن لمعت صوارمهُ بأرضٍ      تسارعت العصاةُ إلى القبورِ  
 وإن حادثته في العلم تلقى      بحوراً موجهاً درُ النُحورِ  
 وإن ساومته شعراً فحدث      عن ابن أبي ربيعةٍ أو جريرِ  
 وإن تسمع تلاوته تجده      حكى داودَ يلهج بالزبورِ  
 أدام اللهُ دولته بمصرٍ      ومُتّعنا به دهرَ الدهورِ  
 وأنقذنا به من كلِّ كربٍ      وكفَّ بغزوه أهلَ الفجورِ

ونسبح القصيدة جيد ، والشبراوى يمدح الكبورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل  
 الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، وبنوّه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما بنوه بشعره ونثره .  
 وقد مضى فى القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانى الأندلسى  
 ونوابغ الكتّاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن المماليك تقاريط الكتب والمصنفات الأدبية  
 والبلاغية ، وللشبراوى من تقريظ لبديعية وشرحها لعل بن تاج الدين :

أذاك نَفَرُ تَسَمُّ      أم ذاك لُطْفُ تَجَمُّ  
 أم روضةٌ قد تَعَتَّى      سُخْرورُها ونَرَنَمُ  
 أم الصُّبا حين هَبَّتْ      أزالَتِ الهَمَّ والِقَمُّ  
 قد كنت أعتب دهرى      وأحسب الدهرَ أَعْقَمُ  
 حتى رأيتُ عَجيباً      من فضلك الباهر الجَمُّ  
 فكلُّ لفظك لُطْفُ      وكلُّ معنالك محكم

والتقريظ طويل إذ تحوّل به الشبراوى إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه  
 وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكائه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أميراً أو يتوفى هو أو  
 بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتا فى تلك المناسبة ، إذا حُسبت حروف الكلمات فى شطرها  
 الأخير بحساب الجمل أرّخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوى يشارك فى هذا  
 الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألتُ الشعر هل لك من صديقٍ      وقد سكن الدلنجاوى لَحْدَهُ  
 فصاحَ وخرَّ مغشياً عليه      وأصبح ساكناً فى القبرِ عنده  
 فقلتُ لمن أراد الشعرَ أقصرُ      فقد أرّختُ : ماتَ الشعرُ بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائحه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أَعِدْ خَيْرَ الْعُدَيْبِ وَسَاكِنِيهِ وَكَرَّرْ طَيْبَ ذِكْرِهِمْ عَلِيًّا  
فَلَنَهُمْ - وَإِنْ هَجَرُوا وَصَدُّوا أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّا

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .



### شعراء المراتى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، وولتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاه الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرَّ بنا - ممدِّحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصغر بنحو شهر ، فبكاها الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارق بمصر وجيش العباسيين يطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكأنما عزَّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونخصى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مرثى مختلفة لنفر منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مرثية خلفتها تلك الحقبة مرثية المعلّى الطائى لجاريته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتُظَلُّ الدولة الطولونية مصر ، ومرَّ بنا ما كفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقِش على جدرانه صور بارزة له ولخطاياها وعلى رؤسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأعدت الدولة على الشعراء إغداقا واسعا ، فلما قضى عليها جيش الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكأها الشعراء وبكوا آثارها

بلموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم<sup>(١)</sup> :

قِفْ وَقْفَةً بِفَنَاءِ بَابِ السَّاجِ وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ<sup>(٢)</sup>  
 وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيما إزعاج  
 فانظر إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل ثنيّة وفجاج<sup>(٣)</sup>

ولسعيد القاصّ مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي<sup>(٤)</sup> في كتابه الولاية والقضاة ،  
 واقتطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مرثى الشعراء للدولة وما كانت  
 أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا  
 من سكانه :

بِاللّهِ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ أَحْبَبْنَا أَمْ هَلْ سَمِعْتَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِنَا خَبْرًا

وتكاثر الشعراء - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم يبكوها  
 حين دخل جوهر الصقلى مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك  
 إلى أن مدة الإخشيد لم تطل ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان  
 كافور مذبر مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفى  
 فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا  
 شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسى ببغداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمى بقيادة  
 جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة  
 فلم يبكها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مرثى مختلفة لعم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر  
 أولاده ، وكان المظنون أن يتخذها ولى عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرف ولاية العهد  
 عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفى مبكرا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذى تلقب بلقب  
 العزيز ، ولعم مرثية فى أخيه عبد الله مطلعها<sup>(٥)</sup> :

كُلِّ حَيًّا إِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ وَالسَّيَالَى تَعَلَّةٌ وَغُرُورُ

وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(١) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وانظر الولاية والقضاة ص

(٤) الولاية والقضاة ص ٢٥٣ .

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٣) الثنية : الطريق فى الجبل ، والفجاج . الطرق .

الكب المصرية) ص ١٤٧ .

(٥) ديوان عم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع دار

ويبكي شبابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلمَّ بأبيه المغر سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقده ، وهو شئ طبيعي لتحيته له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويبكى فيه الحسينَ الشهيدَ وآبائه الفاطميين . ويبكى جارية له بكاء فيه غير قليل من اللفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويبكى بالمثل قينة امغنية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو يبكيه بكاء مؤثرا قائلا (١) .

نَحَرُوهُ غَيْرَ مَذْمُومٍ نَحَرَ الْهَدَايَا لِلضَّحِيَّةِ

ويصوّر موقعة كربلاء وما سُفك فيها من دماء البيت العلوي ، ويصف موكب النساء اللاتي كنَّ مع الحسين وهنَّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالأنات واللوعات الممضتة . وتلتقى بالمسبحي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول (٢) .

وباليتنى للموت قَدِّمْتُ قبلها وإلا فليتَ الموت أذْهَبَنَا معا

وتكثر مرأى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي للمستنصر ، إذ يقول (٣) :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَدَى ولا أمرُه أمرٌ يقاسُ به أمرٌ  
وقد بكت الخنساء صحراً وإنه ليبيكيه من قَرَطِ المصاب به الصَّحْرُ

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس اللدماطي في مرثية (٤) :

يا فجعاً هي في الجنان مسرةً لقدومه تختمال في عُرفاتها  
إن كان في الدنيا عليه ماتمُّ فأراه عرسَ الجورِ في جنَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم يبكيها المصريون ولا ودَّعواها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥

(٤) الحريرة (قسم شعراء مصر) - ٢٣١/١ .

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عمارة اليمنى الذى ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربى . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية ، وراثه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العباد الأصهباني في رثائه (١) :

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً      قد عمّ كلّ العالمين مماتُهُ  
لو كان في عصر النبىِّ لأُنزِلَتْ      في ذكرو من ذكرو آياته  
ياراعيا للدين حين تمكنتُ      من كل قلب مؤمن روعاته  
فعل صلاح الدين يوسف دائماً      رضوان ربّ العرش بل صلواته

وهى مرثية طويلة في مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده في الدين واستبساله في حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم في الشام ما حقاً لهم محقاً ذريعاً . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تغية آثار العزيز ويبكى القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطباً القصر (٢) .

وكم قد حَجَجْنَا فيك للمجدِ كعبَةً      وكم قد أقننا فيك للحجِّ مؤسماً  
وكم قد وجدنا فيك رافةً راحيةً      إذ تُعطى حَطيماً وزمزماً

ولابن سناء الملك مرث مختلفة في أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله نذب رائع في أبيه ، تنمرفيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى مضمّة ، وما يزال يندبه ويبكيه قائلاً (٣) :

ويا أرضه إن ينكسف بك بذرُهُ      فما برحت في الأرض تُكسِفُ أقارُ

وينفس اللوعة والحرقه لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا في عينه ، وبحس كأنما كان في فردوس معها من فراديس الجنان وأخرج منه إلى غير أوبة يقول (٤) :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكَ يَا مَا بَقَلْبِي      مِنْكَ يَا طُولَ حَسْرَتِي وَعَنَائِي  
كَتَبْتُ فِي جَنَّةٍ فَأُخْرِجْتُ مِنْهَا      وَاسْتَعَادَ الْعِطَاءَ رَبُّ الْعِطَاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدر آباد) ص

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦ وانظر خاتمة كتابه البرق الشامى .

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بلوى) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللهفة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أورشمة ، ويظل يئن ويسكب دموعه إلى أن يقول (١) :

وآنسى من بعدها طولُ وحشتي وضاجعي في مضجعي بعدها كزبي  
أيا تُربُّ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِهَا أَهَذَا صَنِيعُ التُّرْبِ بِالْغُصْنِ الرَّطْبِ

ويشتهر ابن النبيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يعزى الناصر عن ابنه فى أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله (٢) :

الموتُ نَقَادٌ عَلَى كَفِّهِ جَوَاهِرٌ يَخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادُ  
والمرءُ كَالظِّلِّ وَلَا بُدَّ أَنْ يَزُولَ ذَاكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدَادِ

ولا يموت سلطان أيوبى بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعاً ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح (٣) :

يَابَعِيدَ اللَّيْلِ مِنْ سَحْرَةِ دَائِمًا يَبْكِي عَلَى قَمْرَةِ  
خَلَّ ذَا وَانْدَبَ مَعِيَ مَلِكًا وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

وحقاً ولَّتْ دنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع فى حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام . حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيى الدين (٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور

تلاوون لمحيى الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسد) ص ١٠٤ وما بعدها .

(٣) فوات الوفيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزمَ التتارَ فأصبحوا تغتالمهم عند الكرى الأحلام  
هذا الذى قهر الفرنج فكلهم تُرديهم من رُعبِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .  
ومرّ بنا الحديث عن ابن نباتة وممدوحه السلطان المؤيد الذى ذبّج فيه غرر المدائح ، حتى إذا  
مات رثاه بمرث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مرثيه :

نعى المؤيدَ ناعيه فوا أسفا للغيث كيف غدتُ عنا غواديه  
واروعتا لصباحٍ من رزيتيه أظنّ أن صباح الحشرِ ثانيه  
ليت الحمامَ حياَ الأيامَ موهبةً فكان يُفنى بنى الدنيا ويقيه  
ليت الأصاغر يُقدى الأكبرون بها فكانت الشهبُ فى الآفاق تُقديه

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتنى لومات الناس جميعا  
فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تقديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولاتهم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث  
يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى  
سنة ١١٣٦ للهجرة <sup>(١)</sup> :

أقى أمانٍ وسيفُ الأمن قد غمدا ويدرُ أفق سماء العدلِ قد فُقدنا  
وشمسُ نصرِ عباد الله قد كُسفتْ ودولة العزِّ ماتتْ بالذى لُجدا  
كم قد أعاث فقيرا من ظلامته وأبدل الجور عدلا والفسوق هدى

وتكثر مرثى العلماء الأعلام وتكتظ بمرثيهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ،  
من ذلك قول <sup>(٢)</sup> عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين  
توفى سنة ٩١١ :

مات جلالُ الدين غوثُ الورى مجتهدُ العصر إمامُ الوجود  
فيا عيونُ انهملى بعده ويا قلوبُ انفطرى بالوقود

ويروى الجبرتي أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وه

(٢) بدائع الزهور لابن لياس ٦٣/٣ .

(١) الجبرتي ١٢١/١ .



السيد حسين الإدكاوي قصيدة أنشدت وقت الصلاة عليه مطلعها<sup>(١)</sup> :

ما بين حرقة أدمعى وتولّهي نارٌ يؤجّجها هيبٌ تولّهي  
يا أرضُ ميدى ياسماء تشقّقى ياشمسُ نوحى يانجومُ تاوّهى

والمبالغة واضحة في البيت الثاني

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيئارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوظ التي كتبت عليهم فيها ، ومن نزول المصائب التي تعصف بهم ، من مثل قول تميم بن المعز<sup>(٢)</sup> :

أما والذي لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسرّ المكتم أعلم  
لئن كان كتمان المصائب مؤلمًا لإعلانها عندى أشدّ وآلم  
صبرتُ عن الشكوى خياءً وعفةً وهل يشتكى لدغ الأراقم أرقم<sup>(٣)</sup>  
وبى كلُّ ما يئكى العيون أقله وإن كنت منه دائمًا أتبسم

وكان تميم يعيش في نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزير الفاطمي . وعاش تميم يتجرع مرارة هذه العضة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التي كان ينفس بها عما يجثم في دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد<sup>(٤)</sup> :

ولى همّة تبغى النجوم وحالة تصحف ماتبعيه فهو لنا ضدّ  
إذا رفعتنى تلك تخفض هذه فكلُّ تناوٍ فى إرادته الحدّ<sup>(٥)</sup>  
فما حالُ شخصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ وليس له عن واحد منها بُدّ  
تولتني الأرزاء حتى كأنما قوادى لكفى كلّ لاطمة خدّ

فهمته ماتزال تصعد به حتى يصافح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدرك

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٧ .

(٥) الحد : المنع .

(١) تاريخ الجيفى ١/١٨٩ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الأرقم : الأفران .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة مايزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمالي طنطا ويقول العماد :  
كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له (١) :

لقد بكرتُ تلومُ على خمولى كأن الرزقَ يجلبهُ احتيالي  
وكم أدليتُ من دَلْوٍ ولكنْ بلا بللٍ يُرَدُّ على قَدالي (٢)  
وكم علقتُ أطاعى رجاءَ بخلِّبِ بارقٍ ووميضِ آلِ  
ولا أنا بالكفافِ التَّزْرِ راضي ولا أنا عن طِلابِ الكُثْرِ سالِ

فصاحبه تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس في يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلائهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حربياً به أن يرضى بالترز القليل .

وتحفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا في بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك (٣)

ياخَيْبَةَ الحُرِّ الذى لم يلق فوق الأرض حراً  
وإذا اشتكى فقراً أسا ل الدمع من عينيه ثيراً  
والخَلْقُ تُذرى الدمعَ ما ء وهو يُذرى الدمعَ جَمراً  
وإذا تملكتِ اللسا مُ فإن موتَ الحُرِّ أحرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوماً ، فقد كان يعيش في مجبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نطن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه ، وهى فعلا أبيات عارضة في ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بنخفة الظل التي عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضرباً من الفكاهة أحياناً على

(٣) الديوان ص ٣٢٨

(١) الحريدة ٤٦/٢ .

(٢) القلاد : القفا .

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وسترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .  
ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر  
- كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

ياسيدي دعوة ذي حالة أحالها الدهر وعدوانة  
تقليسه في الشام بعد الغنى يعصى بأن القلب حرانة  
فارق أولادًا وأهلا وما تحمّلت للبين أظعانة

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضحك وضيق العيش ، وقد فارق  
أولاده وأهله بيتي أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوقى بسطة من الرزق . ويردد ابن  
نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن الماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة  
الحياة وعيشها البائس المضمي . وساعد على ذلك أن الماليك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية  
الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبقون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان  
نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبوا  
نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إغالا في البؤس واليأس والشكوى  
المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا  
العصر .

### علي بن النضر<sup>(١)</sup>

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن بَرِّي وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب  
سيبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابيين ، تولى قضاء الصعيد  
وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجالبي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويبدو أن موهبته الشعرية  
استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان  
الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكنتز أعيان أسوان . ثم قصد بمدح الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا  
للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(مصر) للمعاد الأصبهاني ٩٠/٢ والطالع السعيد ص ٢٢٠  
والبخية للسيوطي ص ٣٥٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت  
أمية في نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة  
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذفوي صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خلعة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجأؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الخيبة والحرمان :

بين التعرُّز والتدلل مسلكتُ  
فاسلكه في كل المواطن واجتنبُ  
ولقد جلبتُ من البضائع خيرها  
ورجوتُ خفصَ العيش تحت رواقه  
ظنًا شبيها باليقين ولم أخلُ  
لأقارعنَّ الدهرَ دون مروءتي  
بادى المتارِ ليعين كل موَفِّي  
كبرَ الأبى وذلةَ المتملِّقِ  
لأجل مختارٍ وأكرم متقٍ  
أن الزمان بما سقاني مُشْرِقِ (١)  
وحرمتُ عزَّ النُصر إن لم أصدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعروا خداهم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يُسيموا أنفسهم ذل الملق والمهوان ، وليتخذوا منه وما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه وفرغ إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتهان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْفِي لِمَلِكِ قِنَاعَةٍ لَوْ أَنِّي  
وَلَكْتَرِ يَأْسِي كُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُهُ  
أَلَيْتُ أَجْعَلُ مَاءَ وَجْهِ بَعْدَهُ  
لَا أَنشَأُنِي الْحَادِثَاتُ لِمِثْلِهَا  
مُتَّعْتُ فِيهِ بِعِزَّةِ التَّمَلِّكِ  
لَوْلَمْ تَعِبْتُ فِيهِ الْخَطُوبُ وَتَفْتَكُ  
كَدَمِ يُوْهِلُّ بِهِ الْحَجِيجُ بِمَنْسِكِ  
وَرُمِيْتُ قَبْلَ وَقُوعِهَا بِالْمُهْلِكِ

لقد أضاع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضاع معه كتر يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلي أعص بما سقاني .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذلّه ، ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يا مستجيبَ دعاءِ المستجيرِ بهِ      ويامفرجَ ليلِ الكُرْبَةِ الدّاجيِ  
قد أرتجتِ دوننا الأبوابُ وامتنعتِ      وجلّْ بأبكِ عن منْعِ وإرتاجِ  
نخافُ عدلَكَ أن يجرى القضاءُ بهِ      ونرتجيكِ فكُنْ للخائفِ الراجيِ

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغم ، وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يفلق الله عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يانفسُ صبرا واحتسابا إنها      غمراتُ أيامِ تمرُّ وتنجلي  
لا تياسى من رُوحِ ربِّكِ واحذري      أن تستغري بالقنوط فتُخذلي

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذي يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تياس من روح ربها فإنه لا يياس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان علي بن النضر يجيد الرثاء كما يجيد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مرثية بديعة في إبراهيم ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٧٢٢ هـ للهجرة وهو جد المذهب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها بقوله :

يامزُنْ ذا جدتُ الرّشيدِ قِفْ معي      نَسْفَحْ بساحتهِ مزادَ الأدمعِ (١)  
وامسحْ بأردانِ الصّبا أركانهُ      كي لا يلمَ بهِ شحوبُ البلقعِ  
ويودّ نفسى . لو سقيتُ ترابهُ      دمَ مُهجتي ووقيتهُ بالأضلعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب الممطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ، بل ليسفحها معا عليه قربانا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأحكام الصبا أركانه ، حتى يظل ناضرا لا يلم به شيء من شحوب البلقع أو الفقر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو فداه بروحه وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره مُلتاعا بقوله :

(١) مزاد : جمع مزادة وهي القرية .

لَتَنْفَسَتْ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوقَةً بِسِيمِ مِسْكِ رِيَاضِهَا الْمَتَضَوِّعِ  
 أَوْ مَا عَجِبْتَ لِطَوْدِ عَزٍّ بَادِخٍ مُسْتَوْدَعٍ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ  
 وَلَخَدْ مَنْ وَطِئَ الْكَوَاكِبَ رَاقِيًا كَيْفَ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا بِالزَّرْمَعِ  
 وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رَبْوَعِكَ شَاكِيًا وَبِهَا الَّذِي بِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصبا العطرة بمسك الرياض ذكي الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى النزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - ليمتلىء حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبية .

### علي بن عَرَّام<sup>(١)</sup>

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علماء اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه آثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن منقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهاني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حتى في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حين بالغ ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في فؤاده إذ يقول متلهفا في العودة إليها حين نفاه بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارِكَ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاخِنِي عَنِ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الْوَالِئِ الَّذِي يَجْرِي  
 مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَيِّ ظِلُّهُ وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ القَطْرِ

فهو يتمنى وقت قبولة بأسوان وشربة من مائها السلسبيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يماثله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

المحاضرة ١/٥٦٥ .

(١) انظر في ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٦٥/٢ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله وبضاهيه في نبهه ». ويشيد به وبشعره العباد الأصهباني إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائع ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ <sup>(١)</sup> اسلحر . . ولا ين عَرَّام في ميدان النظم عَرَّام <sup>(٢)</sup> ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء <sup>(٣)</sup> نار الذكاء خيرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فدامه <sup>(٤)</sup> ومزوج مدامه حرام ، اعجب : بحر في الصَّعيد <sup>(٥)</sup> يُقصدُ بالتميم لمائه ، ونجم في صعود السعود لا يرتقى إلى سمائه ». ويتلو العباد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياةُ غرورٌ كَسْرَابٍ بدا لنا في فجاج  
تتبع الحُلُو من جنى عَيْشها الحُدَّ و بِمَرٍّ من الرِّزَايا أجاج <sup>(٦)</sup>  
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعةً ثم أُرهِقوا بانزعاج

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحُلُو سرعان ما يحول مرا وملح أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهي قرارهم ومنزلهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مرثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لسود الخطوب غَيْرِك يُجْلِيها وقد غاب منك بدرٌ منيرُ  
مَنْ يَحُوكُ القَرِيضَ مِثْلَكَ يُسْدِيها على خَيْرِةٍ بِهِ وَيُنِيرُ <sup>(٧)</sup>  
ليس في العَيْشِ بعدَ فِقْدِكَ خَيْرٌ حَبْدًا وافدُ الرَّدَى لو يزورُ  
كان ظني إذا المنايا انتحنتا أننى أولٌ وأنت أخيرُ <sup>(٨)</sup>

(٦) أجاج : شديد الملوحة .

(٧) يسدي : من السدى وهو ما يمد طولاً في النسيج .

ينير : ينحم أو يجعل له لحمه وهي ما يمد عرضاً في النسيج

يريد أنه يحكم الشعر إحكاماً دقيقاً

(٨) انتحنتا : قصدنا .

(١) حسر : انكشف .

(٢) عرام : قوة وشدة

(٣) إذكاء : إيقاد .

(٤) فدام : ما يوضع على ضم الدن تصفية مافيه .

(٥) الصعيد : الوجه القبلي وهي أيضاً وجه الأرض

كيف لي بالسُّلُوِّ عنه وطىُّ الدِّ قلب من فقهه جوى منشورٌ  
فسقى قبره نداءً ففيه لِكراه غنى وريٌّ غزيرٌ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط نديه بتأينه ، إذ فقد البدر الذى كان ينير فى دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعيم فى دنياه وكل خير ، حتى ليمنى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منطو على نار من الجوى لا تحبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداء وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شآبيب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استهلها بقوله :

الرِّدَى للأنام بالمرصادِ كل حَىٍّ منه على ميعادِ  
كيف يُرْجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعا على الأصدادِ  
فإذا سرَّ ساء حَتْمًا وَيَقْضَى بوجودِ إلى بلى ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون فى قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبألها من سخرية للزمان ، فإنه لا يبقى للإنسان على شيء ، وحتى لو سره يوما لساءه يوما أو أياما ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى فى نفس القصيدة أو المراثية قائلا :

نحنُ فى هذه الحياة كسفرٍ ربما أَعْجَلُوا عن الإروادِ<sup>(١)</sup>  
عَرَسُوا ساعةً بها ثم نادى بالرحيلِ المجدِّ فيهم مُنادِ<sup>(٢)</sup>  
كم أبِ والهِ بِتُكَلِّ بَيْنِهِ كم يتيمٍ فينا من الأولادِ  
يدعى المرءُ لِمَرثَ أرضِ ودارِ سَهَّأ غيرَ لائقٍ بالسَّدادِ  
وهو موروثها إذا كان يَبْقَى وَهَى تَبْقَى على مَدَى الآبادِ  
وقُصَّارُهُ أنْ يَشِيعَ مَحْمُو لَأْ بِأَكْفَانِهِ على الأعوادِ

(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

(١) الإرواد : الإمهال .



وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في التمهّل والوقوف ، إنها لا تريد عن ساعة تنزلها قافلة ، وسرعان ما يصبح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يبكي وينوح وبين أنيناً لا ينقطع ، أب بين ويذرف الدموع مدراراً على أنثائه ، وأبناء أيتام يتنون ودموعهم لا تجفُّ ولا ترقأ على آباتهم وأمهاتهم ، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يجوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها ومملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُرِّ الدهور ، وما أعظمها عبرة ، فكل إنسان مها بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغيره محمولاً على أعواد ، وسرعان ما يلقى عليه رداء التراب الثقيل . ويقول ابن عَرَّام

وإذا الأهل والأقارب والأخذ      بابٌ راحوا فأنت في الإثر غادِ  
فالقبورُ البيوتُ مضجَعُنا في      ها وما إن سيوى الثرى من وسادِ  
كم أحال البلى إليه قديماً      جسداً ناعماً من الأجسادِ  
شاهدُ الموتِ لائحٌ في جبين ال      حى منا في ساعة الميلادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائح وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن النقيب<sup>(١)</sup> : الحسن بن شاور الكتافي

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيووية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ اللمياطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينوه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن  
العقاد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن النقيب : الحسن بن شاور المغرب في  
حل المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات  
الوفيات لابن شاکر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العهد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصاً مجسداً من الفضائل معنونا عن بيته - إذ يُنسبُ إلى شاور وزير المعاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الثمائل » وصنف كتاباً سماه « منازل الأحباب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندي من أفراد شعراء العصر المتغفلين في الغوص على المعاني الخاترين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه الثالث والثاني » ويقول ابن شاعر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللاتقة المتمكنة . وهو أحد لرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاعر يقصد بالحلبة السراج الوراق والجزار والحمامي الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لحنفة وروحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُدْرِيُّ فاعذُرني وسامعُ      وجرَّ عليَّ بالإحسان ذَيْلا  
ولما صِرتُ كالمجنون عِشْقاً      كتبتُ زيارتي وأتيت ليلا

وكلمة « ليلا » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبتة « ليلى » . وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديهته ، ورقة حسه ، وله غزل بديع سنشدد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أياساكني مصرِ غدا النيلُ جاركم      فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعرِ  
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى      سوى أثر يبدو على النظم والتثبيرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبْنِ سحرَ البيان بأرضنا      فكم فيه موسى مبطلُ آيةِ السحرِ  
ولا رِقَّةَ الشعرِ الذي كان أولاً      وكيف رقيق الشعرِ مع قسوة الدهرِ

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المالك أو أنه آثر العزلة مكتفياً بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلاً بالمالك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغرى بردى ،

لما مررنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شطّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوّر انتصاره تصويرا ارائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثر حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

نحن	إلا	قطاعةُ	الأجنادِ	وبراياتُ	غرَّ هذا	النادى <sup>(١)</sup>
نحن	إلا	حكايةُ	وخيالُ	وحديثُ	لحاضرٍ	ولبادى
نحن	إلا	غُسالَةُ	لمراقٍ	لقدور	تفرَّغت	وزبادى
نحن	إلا	زُبالةُ	ضَمَّها	الزَّبَّ	ألُ فوق	الأكوام
جَرَدونا	فما	قطعنا	فردُّو	نا -	وقد أحسنوا -	إلى الأغادِ
وعرَضنا	على	براذينِ	جيشِ	ما	استعدَّتْ	لحملةٍ
ورماحِ	لم	تعتقل	لطعانِ	وسيوفٍ	ما جَرَدتْ	لجِلاذِ
فهمَ	لا	فرق	في	يد	الفارس	الكُشْدِ

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذى يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التتارى ودحره دحرا لاتقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهما : ما نحن إلا نُحاةُ الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحدث مردد ، بل غُسالَةُ لمراق بل زبالة ، ولعله يباليغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضِعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول لانهم جردوهم لينظروا إلى أى حد هم سيوف قاطعة قلما لم يقطعوا رذوهم إلى الأغاد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التى ركبوها ، فإنها

(٢) براذن جمع برذون : بغل ضخم .

(١) القطاعة : النحاتة كالبراية .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضاً فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للتزال ، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أو في يد الحداد كى يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يا قُفْلَ بابِ الرِّزْقِ يا ذا الذى مازال عند الفتح قُفْلاً عَسِرَ  
أفرطتَ فى العَسْرِ ولا بُدَّ أنْ تنفَسَ أو تندُقَ أو تنكسِرَ

وهو يشعر كأن باب الرزق أُغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك ، ويأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفش وتفتح أغلاقه أو يندق أو ينكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وجرَّدتُ معَ قَفْرِي وشيخوختي التى تراها فنومى عن جُفونى مشرِّدُ  
فلا يدعى غيرى ثيابى فلانى أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ المجرِّدُ

وحق ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهَّد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهى على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصدقاء ، حتى ليقول :

لا تَبَيِّنْ من آدَمِيٍّ فى وداٍ بصفاء  
كيف ترجو منه صفوا وهو من طينٍ وماء

فطبيعى - فى رأيه - أن لا يُصنئ إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طينٍ وماء .

### عبد الله<sup>(١)</sup> الإدكاوى

ولده بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب فى طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها فى زمنه ، واشتهر بأدبه

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحقَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحففى ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يا بهجة العصر يا مناج كلَّ علماً يأمحى الدين بالآثار والسُنن

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوِّح روض عزه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدررة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانث سعاد للسيوطى ومنظومة في علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيف ومقامة أخرى مجونية ، وبضاعة الأريب في شعر الغرب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضاً تخميس بانث سعاد والدر المنتظم في الشعر الملتزم والفوائج الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحدا ، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظماً ونثراً ، وفيه يقول :

رضوانٌ أوحِدُ من تفرَّد بالعطا فنانحُ الأجواد بعضُ هباته  
الفارسُ المقدامُ في يوم الوغى والمرهبُ الآسادِ في وثباته

ومن تصانيفه « الدر الثمين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريرى في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهى تُقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ما كانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لَخِلْ إِنْ أَسَا وَأَتَسَ لَخِلْ إِنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطق كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائتي قالت لنا بين الربا بمقدماتٍ ما بها إيهام<sup>(١)</sup>  
برهانٌ سعدي الآن أنتج قائلا دَعَّ وَجَنَّةَ المحبوبِ فهى ضرام

وله مرث مختلفة فيمن سميتهم من الشيوخ رعاته وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتفعج عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغي المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، موله فيه مرثتان مطلع أولاهما :

مَضَى عالمُ العصرِ الإمامَ لرَبِّهِ حميدَ المساعي فاندبتهُ وبالغ

وفي خاتمها ينشد :

ولما قضى ذاك المهذبُ نَجَبَهُ وآبَ برضوانِ من الله سايغ  
دعوتُ أحبَّائي وقلت لهم قفوا معي عند ذا التاريخ نبكى المدابغي

ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته الخنُ وفي تلونه قد حارتِ الفِطْنُ

ويختتمها بقوله :

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرِّخةً حُلِّيت من حُللِ الأبرارِ يا حَسَنُ

ولم ينشد له الجبرتي شيئا من مرثيته الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدابغي ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعري إذا دَنَا يارِفاقي أجلي ثم هَيَّئوا لي تُرابي  
واغْتَدُوا بي إلى مَحَلِّ بِهِ صَحْ جِي جَعَوِي وليس يُرْجَى إِيابي  
هل إذا غَرَبُوا الترابَ أَيْلَقُوا ذرَّةً من عَظْمِي فَيَا مِصَابِي  
وَيَحْ هَذِي الدنيا التي تَحْرَقُ الأَكْدَ بادَ قد مَزَقَتْ بِلِحْدِي إِهَابِي  
وبِذاك القَفْرِ اغْتَدَيْتُ رَهِينًا ليس لي من زادٍ ولا من رِكابِ

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيون يحملون نعشه إلى سمثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده في التراب ولم تبقى من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويبيكها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا حبيسا لا زاد ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنه الشعراء المصريين في زمنه .

## ٦

## شعراء الدعوة الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانئ وسنخسه بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجده يخاطبه بقوله في إحدى مدائمه <sup>(١)</sup> :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحتُ في البرايا ووارثُ الأنبياء

والحجة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمضى في الديوان وفي قراءة مدائمه للعزيز ، وسرعان ما نلتقى بقوله فيه <sup>(٢)</sup> :

وهو لسان التقي ومقلته . وهو يمينُ العلاء ويُسراها  
صُورٌ من جوهر النبوة إذ كان الوري طينةً وأمواها  
فن يُطعمه بقرُّ بطاعته ومن عصاه فقد عصى الله

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلُقوا من جوهر لطيف مصفًى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفاقة . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً<sup>(١)</sup> :

أنت المسمًى المرجئى قبل مولدو      والخامسُ القائمُ المذكورُ في الكتبِ •

وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالٍ وصى لسلفه كما قدّر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرا . ويقول تميم أيضا في العزيز<sup>(٢)</sup> :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى      روح من القدس في جسم من البشر  
نورٌ لطيفٌ تنهى فيك جوهره      تناهياً جاز حدَّ الشمس والقمر  
معنى من العلة الأولى التي سبقت      خلقت الهيولى وبسطت الأرض والمدبر

والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبته إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلاً ممثلاً للعقل الكلى الفعّال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زورا وبهتانا . وتميم يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونمضى في قراءة ديوان تميم فنجده يقول في لإحدى مدائمه للعزيز<sup>(٣)</sup> :

وإن جميع الغيب لله وحده      تبارك من رب ومن صمدٍ وترٍ  
وما علمت منه الأئمة إنما      رووه عن المختار جدّهم الطهر

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .



وتتم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جلَّ شأنه : ( عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تماد في الغلو والبهتان .

وسرى ابن هاني يتأدى مثل تميم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان إيراينياً ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هاني ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردّد هذا النغم الإسماعيلي الغالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ هـ وسترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربي وليس مصرياً ، ونرى العماد الأصبهاني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الأمر قاتلاً<sup>(١)</sup> :

إلى ذرّوة النور العلائىّ إنه إلى ذرّوة النور الإلهىّ يُنسبُ

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهى الذي يعم الأكوان . ويذكر له العماد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه<sup>(٢)</sup> :

صِرْفُ جِرْبَالٍ بَرَى نَحْرِمَهَا	من يرى الحافظَ قَرْدًا صَمَدًا
بَشْرٌ فِي الْعَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ	من طريق العقل نورٌ وهُدَى
جَلٌّ أَنْ تُذَكِّرَكَ أَعْيُنُنَا	وتعالى أن تراه جَسَدًا
فَهُوَ فِي التَّسْبِيحِ زَلْفَى رَاكِعٌ	سمع الله به مَنْ حَمِيدًا
تُذَكِّرُ الْأَفْكَارُ فِيهِ نَبَأٌ	كاد من لإجلاله أن يُعْبَدًا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصلدية ، وكان دعواتهم يزعمون أن الله

(٢) الخريدة ٢٤١/١ والجربال : الخمر

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣٩/١

ينبغي أن يتزه عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلي الأول وأسماءه . ومربنا أنفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممثل الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسماء وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخفش يخلى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى يكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعائنا ، إذ يروى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين <sup>(١)</sup> :

خشوعاً فإن الله هذا مقامه وهمساً فهذا وجهه وكلامه  
وهذا الذي في كل وقت بروزه نحياته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسّد المسيحيون الرب في المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع <sup>(٢)</sup> في مدائح بنى أبي أسامة كتاب الإنشاء في عهد الحافظ والأمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأميني في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العماد الأصبهاني في الخريدة إذ أنشد له شعرا في ابن <sup>(٣)</sup> رزبك الوزير الفاطمي من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل علي بن أبي طالب وبكاء الحسين أنشدها صاحب «الغدير» وفيها يقول <sup>(٤)</sup> :

يا آل أحمد كم يكابد فيكم كبدى خطوباً للقلوب بواكى  
كيدى بكم مقروحة ومدامعى مسفوحة وجوى قوادى ذاكى  
وإذا ذكرت مصابكم قال الأسى لطفونى اجتنى لذيد كراك <sup>(٥)</sup>  
وابكى قبلا بالطفوف لأجله بكت السماء دماً فحق بكاك

وهو يغلو في مديح علي بن أبي طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُحرت له رُخاء ، ويقول إنه

(٤) شعراء الغدير ٣١٣/٤ وانظر أدب الطغ ٣٢٨/٢ .

(٥) كراك : نومك .

(١) عطل للقرنيزى ٢١٤/٢ .

(٢) الخريدة ١٠٥/٢ .

(٣) الخريدة ٣٣١/٢ وما بعدها .

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانيء والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

### ابن هانيء<sup>(١)</sup>

هو محمد بن هانيء المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد المشهور في زمن بنى أمية ووالبهم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رُوح واليها بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتها بإفريقية ، وكان من سلالتها أبو الشاعر هانيء ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أديبا نزح إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلي هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أنه كان كثير الانتهاك في اللذات ، واتهم بأنه يعتقد مذهب الفلاسفة ، أولعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلي متابعا في ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالغيبة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية في السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بديعة . بمثل قوله في جعفر :

المشركات النيراتُ ثلاثةُ الشمسُ والقمرُ النيرُ وجعفرُ

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ في الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتقد المذهب الإسماعيلي ويلجج في مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها في صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع في مدائحه ، كما أبدع في مديح قواده وخاصة في جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يمم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلها بقوله :

لسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدباء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وعبر الذهبي ٣٢٨/٢ والشذرات ٤١/٣ وديوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر في ابن هانيء وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطبع للفتح بن خاقان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجنوة للحميدى : ٨٩ وبغية المتلمس رقم ٣٠١ ونفع الطيب (الفهرس) والإحاطة

رَأَيْتُ بَعْضِي فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ      وَقَدْ رَاعَى يَوْمٌ مِنَ الْحَشْرِ أَرْوَعُ  
غَدَاةً كَانَ الْأَفْقَ سُدًّا بِمِثْلِهِ      فَعَادَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطَلَّعُ

وَنُوهُ بِالْجَيْشِ وَعِظْمُهُ وَرِحْلَةَ جَوْهَرِ الْمَظْفَرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ جَوْهَرًا أَنْ أُرْسِلَ إِلَى  
الْمَعْرِزِيَّةِ بِفَتْحِ مِصْرَ سَنَةِ ٣٥٨ فَهَتَفَ ابْنُ هَانِيٍّ فَرِحًا مُسْتَبْشِرًا :

يَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ      قَتَلَ لَبْنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ  
وَمَنْدُ جَاوَزِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ جَوْهَرُ      تَصَاحَبَهُ الْبُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ

وَجَمَعَ الْمَعْرِزِيَّ بِسَبَابِهِ وَتَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ٣٦٢ وَشِيعَهُ ابْنُ هَانِيٍّ وَرَجَعَ إِلَى أَسْرَتِهِ بِالْمَغْرِبِ  
لَأَخْذِهَا مَعَهُ وَاللِّهَاقِ بِهِ ، وَتَجَهَّزَ وَتَبِعَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ اغْتِيلَ فِي بَرْقَةِ لَشَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ٣٦٢ وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ  
يَشِيعَ الْمَعْرِزِيَّ كَانَ فِي صَحْبَتِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ مِصْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَخْذِ عِيَالِهِ ، وَاغْتِيلَ بِبَرْقَةِ كَمَا  
تَذَكَّرْنَا . وَلَمَّا بَلَغَتْ الْمَعْرِزِيَّ وَفَاتَهُ حَزَنٌ عَلَيْهِ وَتَأَسَّفَ قَائِلًا : هَذَا الرَّجُلُ كُنَّا نَرْجُو أَنْ نَفَاخِرَ بِهِ شِعْرَاءَ  
الْمَشْرِقِ فَلَمْ يَقْدِرْ لَنَا ذَلِكَ . وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ رُوِيَ شِعْرُهُ فَحَسِبَ ، بَلِ  
كَانَ أَيْضًا يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ اسْتَظْهَرَهُ لِلْعَقِيدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمِبَادِئِهَا الْمَفْرُطَةِ فِي الْغُلُوفِ الْفِرَاطِ  
بَعِيدًا حَتَّى لَتُنْحَرَفَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَجَادَّتْهُ .

وَبِمَجْرَدِ أَنْ نَقْرَأَ فِي دِيْوَانِ ابْنِ هَانِيٍّ نَرَاهُ يَرُدُّ أَنَّ إِمَامَةَ الْفَاطِمِيِّينَ رِبَانِيَّةٌ وَأَنَّهَا فَرِيضَةٌ مَكْتُوبَةٌ  
عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهُمْ يَتَوَالَوْنَ بِتَرْتِيبِ الْإِلَهِيِّ وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ زَلَلٍ وَأَنَّ طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ  
مَنْ أَطَاعَهُمْ اسْتَحَقَّ رِضْوَانَ اللَّهِ وَمَنْ عَصَاهُمْ كَانَ مَالَهُ الْخُسْرَانَ الْمِيئِينَ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِزِيَّ :

إِمَامًا رَأَيْتُ الدِّينَ مَرْتَبَطًا بِهِ      فِطَاعَتُهُ فَوْزٌ وَعَصِيَانَتُهُ خُسْرٌ

وَهُمْ دَائِمًا مَبْرَأُونَ مِنَ الذَّنُوبِ مَطْهُرُونَ مِنَ الْآثَامِ ، بَلِ هُمْ نُورُ اللَّهِ وَمَشْكَاتُهُ فِي الْعِبَادِ ،  
يُضِيئُونَ لِلنَّاسِ حَيَاتَهُمْ ، وَيَكْشِفُونَ عَنْهُمْ ظِلْمَاتِ الضَّلَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يُتِمُّونَ نُورَ اللَّهِ أَوْ كَأَنَّهُمْ  
يُشَارِكُونَ فِيهِ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِزِيَّ :

وَمَا كُنُّهُ هَذَا النُّورِ نُورٌ جَبِينِي      وَلَكِنَّ نُورَ اللَّهِ فِيهِ مَشَارِكُ

وَيَكْرُرُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ كَثِيرًا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ مَا دَحَا لِلْمَعْرِزِيَّ :

تَسْعَى بِنُورِ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ      لَتَنْصِيءَ بِرِهَانًا لَهُمْ وَتُلُوْحًا  
وَجَدَ الْعِيَانُ سَنَّاكَ تَحْقِيقًا      وَلَمْ تُحِطِ الظُّنُونُ بِكُنْهِهِ تَصْرِيْحًا

وقد انتقل ابن هانئ نقلة واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضيائه فحسب ، أما هو فكانه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلًا :

أَتَبِعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيدِ  
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بَرَهَانٍ يَلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ

وقد خطا ابن هانئ في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز مخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحهم بأن في الإنسان لا هوتا وناسوتا أوروها وجسما . وبالتالي فخلصوا - مثل ابن هانئ - أئمتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحا أونورا خالصا ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لئى ابن هانئ يقول في المعز :

مَا شَتَّ لَمَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

ويقول فيه أيضا :

نَدَعُوهُ مُنْتَقِمًا عَزِيزًا قَادِرًا غَفَّارًا مُؤَبِّقًا الذَّنُوبِ صَفْحًا

فالمعز الواحد القهار المنتقم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعواتهم وشياطينهم أن يتزهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبغوها على أئمتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يدانيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانئ في المعز من أنه مقسم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتِكَ مَنْ تَرَزُّقُهُ يُرَزِّقُ مِنَ الْوَرَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحْرِمُ مِنَ النَّاسِ يُحْرِمُ

فن شاء رزقه ووسع رزقه ومن شاء حرمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانئ فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَرَى وَتَحَيَّرَتْ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ

فهو لا ييمن على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا ييمن ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجأ فيه من أن الإمام يمثل العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدنيا وَمَنْ خُلِقَتْ له ولعلَّةٍ ما كانتِ الأشياءُ

وماذا بقي لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هانئ للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرِي صُرُوفُها بما شئتَ من حَتْفٍ ورزقٍ مقسَّمٍ

فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يدبّر الدنيا ويصرفها ، وهو الذي ييمن على الكون وينسقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول :

أرى مدحهُ كالمُدحِ لله إِنَّه قُنُوتٌ وتَسْبِيحٌ يُحِطُّ به الوِزْرُ

ويستضيء ابن هانئ بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم ينتظمون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُختمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسمائه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثوله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منته آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لو كنتِ نوحاً منذراً في قومهِ مازادهم بدعائِهِ تضليلاً

ويتمثل فيه قيس موسى وشعلته وهداه :

من شُعلةِ القَبَسِ التي عُرِضَتْ على موسى وقد حارتُ به الظلماءُ

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله :

أقسمتُ لولا أن دُعيتُ خليفةً لدُعيتُ من بعد المسيح مَسِيحاً

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوته السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكأنما أنت النبيُّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحلّ فيه ، بل لكأنه الله ، حلّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلّ بقريّة رقادة بجوار القيروان :

حَلَّ بِرِقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلًّا بِهَا آدَمُ وَنُوحُ  
حَلًّا بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكان ابن هانئ شاعرا فذا بارعا ، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبية التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو في رأينا بعدُ مستولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مستولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هانئ يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَتَقَّتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بِعَنْبِيرٍ وَأَمْدَكُمْ فَلَقْتُ الصَّبَاحَ الْمُسْفِرَ  
وَجَنَيْتُمْ ثَمَرَ الْوَقَائِعِ يَانَعًا بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ربحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تحمّل السيوف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيدة تكتظ بأبيات رائعة .

### المؤيد<sup>(١)</sup> في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) انظر في المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحاتم بن

المجربى لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسمى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم البويهي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقي فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعوة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر خسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لعهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيّنهُ الوزير اليازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحسَّ خطر طغرلبيك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرمى فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طغرلبيك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاءه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمّلا بالأموال من المستنصر ، ومحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعده الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى «عانة» سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغرلبيك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى عرشه . وفرّ في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعوة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقاً ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يُدعى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين اقصر . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاعه بمرتبة داعي الدعوة يلقي دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها



في كتابه « المجالس المريدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعي اليمنى ، وعُني بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندي ودحض آرائه الإلحادية<sup>(١)</sup> . وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء المعري ناظره فيها طويلا في تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما يتجه من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً نائراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل في القرآن على نحو ما خصَّ الله الخضر<sup>(٢)</sup> الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسرارهِ ووقفها على الأئمة :

يا قومُ سرُّ الملكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا  
سرُّ له صاحبُ موسى الخضرُ قال معي لن تستطيعَ صبرا  
تدبروا القصةَ ماذا يَمَّا من قصِّها إن لم تكونوا نوَّما

وكان كل إمام خضرُ زمنه ، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول على بن أبي طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هاني ، وقد مضى المؤيد وراءه يردّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبغ عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى يجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجّون بأعداءهم في الجحيم ، يقول :

يقسمون الجنانَ والنارَ فيهم فلكلِّ نصيبه الموجبُ

كبرت كلمة بل كلماتٍ تخرج من فمه ، ويتأدى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الاسلام لعبد

الرحمن بسوى (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه القلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية ، يقول :

هَلَمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا سَكَّانُهَا أَمِينُوا الْمَوْتَ  
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقِبْلَةَ الَّتِي عَلَيْهَا بِلَامِسْكِ دَلَّلتَ وَوَجَّهْتَا  
وَمِيزَانِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤَفَّى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتَ وَفِيْنَا  
فَالْمُسْتَنْصِرُ وَأَمْثَالَهُ مِيزَانِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، بِطَاعَتِهِمْ وَمَقْدَارِهَا يَكُونُ الثَّوَابُ وَبَعْضِيَانِهِمْ  
وَمَقْدَارُهُ يَكُونُ الْعَذَابُ ، وَمَا يَزَالُ الْمُؤَيَّدُ يَرُدُّ مِثْلَ هَذَا الضَّلَالِ وَالْبَهْتَانِ فِي دِيْوَانِهِ .

ومما رددته المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أئمتهم وأنهم مثل العقل  
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى  
تُسَبِّحُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ رَتَّبُوا فِي أَدْوَارٍ تَشْتَرِكُ مَعَهُمْ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ مِنْذَ آدَمَ ، وَكُلِّ مِنْهُمْ يُمَثِّلُ مِنْ  
سَبْقُوهُ فِي هَذِهِ الْأَدْوَارِ مِنَ الْأُمَّةِ وَالرُّسُلِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ فِي الْمُسْتَنْصِرِ وَآلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى الْعَتْرَةِ الطَّاهِرَةِ	وَأَهْلِهَا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ بَدِئُ عَلَى آدَمِ	أَبِي الْخَلْقِ بَادِيهِ وَالْحَاضِرِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَطُوفَانِهِ	أَدِيرْتُ عَلَى مَنْ بَقِيَ الدَّائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنَاهُ السَّلَامُ	غَدَاةً أَحَقَّتْ بِهِ النَّائِرَةُ (١)
سَلَامٌ عَلَى قَاهِرِ بِالْعَصَا	عُصَاةً فِرَاعِنَةَ جَائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الرُّوحِ عَيْسَى الَّذِي	بِمَجِيئِهِ شَرَّفَتْ نَاصِرَهُ (٢)
سَلَامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدِ	وَلِيِّ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَيْدِرِ	وَأَبْنَائِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرِ
سَلَامٌ عَلَيْكَ فَمَحْصُولِهِمْ	لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ
بِنَفْسِي مُسْتَنْصِرًا بِالْإِلَهِ	جُنُودَ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرَةُ
شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهُ الْإِلَهِ	وَجُوهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرَةُ

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم  
الذي ألقاه النمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التي استحالت

(١) النائرة : نائرة الحرب : شرها

(٢) ناصرة : بلدة المسيح .

ثعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيق المشفق في الآخرة ، وعلى أو حيدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو علي والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفي المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

### ظافر<sup>(١)</sup> الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُدام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكُتاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكبَّ الصبى على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سَوَتْ منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصهباني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعر وفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحماسياً ووراقاً وخياطاً وكحالا . وقد

والنجم الزاهرة ٣٧٦/٥ وفي أدب مصر الفاطمية ،  
للدكتور محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحسين  
نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء  
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات  
الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبي الصلت  
أمية في الجزء الأول من نواذر المخطوطات لعبد السلام هرون

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهايت له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظفر واليها من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حداذاً كي يكسر حلقتة ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَّرَ فِي أوصافك العالَمُ واعترف النائرُ والناظمُ  
من يكنو البحرُ له راحةً يضيق عن خنصره الخاتمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربيض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال المستأنس ، فقال تَوًّا :

عجبتُ لجرأة هذا الغزالِ وأمرٍ نخطى له واعتَمَدُ  
وأعجبُ به إذ بدأ جاثماً فكيف اطمأنَّ وأنت الأسدُ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رأيتُ ببابك هذا المنيفِ شيباً كما فأدركني بعضُ شكِّ  
وفكَّرتُ فيما رأى خاطري فقلتُ البحارُ مكانُ الشبكِ

وكانت هذه الحادثة سبباً في اشتهاظ ظافر بمدينته ، وتهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبي حديد قاضيا وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكذب يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقلَّعه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره في الفسطاط ، وأخذ يدبِّج فيه مدائح طنانة ، وهو يعتقد عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

وهذا الجنابُ الأفضليُّ يُكنى ذرى ظلَّهُ إني إذن لسعيدُ

وقلَّرتُ لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي ، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نعم به في زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حيثئذ نجد ظافرا يفكر في تقديم مدائحه للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل القسطنطينية يقصر مدائحه على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان سنيًّا ، وكان المأمون البطاحي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعبارة أدق لم يكن غالبا في تشيعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكتبُ على ديوان ابن هانيّ الأندلسي يدرسه ليمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدحها ليحتديه ، يقول في إحدى مدائحه للأمر مصرحا بذلك دون أي مواربة :

أَجَادَ ابْنُ هَانِيٍّ فِي الْمَعْرِ مَدَائِحًا هَدَاهُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْفَضْلُ وَالْمَجْدُ  
وَقَدْ جَادَ مَدْحِي فَيْكَ لَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَى فَاسْتَوَى الْمُدْحَانُ وَالْإِبْنُ وَالْجَدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رده ابن هانيّ من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعتنقها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فَمَنْ عَاشَرَ أَحْيَاهُ نَدَاهُ وَمَنْ يَمَتُّ عَلَى حَبِّهِ طَوْعًا فَسَكُنْهُ الْخُلْدُ  
أَطَاعَتُهُ أَسْرَارُ الْقُلُوبِ دِيَانَةٌ فَمَا لَامِرِيٍّ لَمْ يَعْتَقِدْ حَبَّهُ رُشْدُ  
فَطَاعَتُهُ فَرَضٌ وَخِدْمَتُهُ تَقَى وَنُصْرَتُهُ دِينٌ وَمَرْضَاتُهُ جَدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجدُّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضوع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هانيّ فكرة النور التي يرددها في مديحه للمعز قائلا في الأمر :

إِمَامٌ تَبَدَّى لِلوَرَى مِنْ جَبِينِهِ ضِيَاءٌ بِهِ تُشْفَى بِصَائِرُهَا الرُّمْدُ  
وَنُورُكَ مَا يَهْدِي الصَّبَاحُ لِنَظِيرٍ وَلَوْلَاهُ ضَلَّ النَّاسُ وَامْتَنَعَ الْقَصْدُ

وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانيء دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي ينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا في مدحة أخرى للآمر :

أنت الذي بعثَ الإلهُ لنا بهِ آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثولِهِ  
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذي تتفاضلُ العلماءُ في تعليلِهِ  
مازال يَنقُله الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظَهْرٍ مثلِ ذبيحِهِ وخليلِهِ  
وتوارثته الأنبياءُ وسادةُ الـ خلفاءِ حتى حان وقتُ حلولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الرباني من النور الذي يعم أطباق السموات والأرض ، ومازال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبيحه ومثل علي وجعفر الصادق إلى أن حلَّ في الأمر المطهر المحضوف بالعبادة الإلهية والتفحة النورانية ، ومن ثمَّ كان ابن هانيء يقول في المعز إنه جوهر الملكوت وأنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانيء في المعز ويردها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانيء . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قيامة مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانيء ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذب عن حرُمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء مبرما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوي أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لاما وإلا عند هذا الظاهر السطحي منها الذي صوّناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيراً له ، حيث نجد ظافراً يمدحه مدحا يخلو خلواً تاماً من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابناً ، وقيل بل ترك طفلاً رضيعاً اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبية وتعصبت جماعة أخرى سريعاً للحافظ عبد المجيد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ محتفٍ وراء الرماد ، مما جعل ظافراً يدافع في بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه في الخلافة قائلًا :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنصفاً في نقلها  
وورثتَ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

الحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رأس الأئمة . ولا يلبح ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون في أئمتهم من معانٍ قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بمراته للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله .

يأحجَّةَ الله التي أبدتْ لنا بِكَمالِها الآياتِ والبُرهانِ

وكأنما حدث انقلاب في مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفي سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافراً لم يكن إسماعيلياً بالمعنى الدقيق ، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها لمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئٍ يستظهر ما فيه أو بعضاً مما فيه ، ولم يَعدْ استظهاره قشوراً ، ردّها حيناً في مديح الأمر ثم كفّ عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفا .

وبدون ريب كان ظافر شاعراً بارعاً وفيه يقول العباد الأصهباني في ترجمته له بكتابه الخريدة :  
« ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر .. حدّاد لو أنصِفُ لسمي جوهرياً ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلئ حرياً ، أهدي بروي شعره

الرؤى للقلوب الصادية<sup>(١)</sup> رِيًّا ، فياله ناظما فصيحاً مفلحاً جريًّا<sup>(٢)</sup> . وحقا شعره غاية في السلاسة والعدوية ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائما في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد تأتي عندهم وقد يستخدمونها أحيانا ولكن في خفة وإشاعة . ودائما تلقانا عند ظافر العدوية والرقعة على نحو ما نرى في مثل قوله متغزلا :

ياساكني مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلِيهِ  
أمن المروءة أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعدماً من قلبهِ

وهما بيتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيرا إلى صور طريفة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حاملة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقلتاها دَمَهُ فنهْ على وَجنتِها سِمْه  
وها في أناملها بَعْضُهُ دَعْتُهُ خِضاباً لِكى تُوهَمَهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق في الوهم لإغراقا بروع قارئه ، وسنشد له قطعة من غزله في الفصل التالي ، ونكتفي بصورة واحدة من صورته الحاملة العجيبة لندل على هذه المقدرة البارعة ، وهي صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأملُ بنيةَ الهرمين وانظُرْ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ  
كعمارتَيْنِ على رحلي لمحبوبين بينهما رقيبُ  
وماءُ النيلِ تحتهما دموعُ وصوتُ الريحِ عندهما نجيبُ

وهي صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الخاملة ، فالهرمان كأنهما عاريتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرفان الدمع مدرارا ، ويهمن تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولها تنتحب وتئن أنينا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

(٢) جريا : جريتا .

(١) الصادية : الظائمة .



## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

لعل موضوعاً لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى ظلما تغنى به الشعراء مصورين حبيهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شراباً هنيئاً بل رحيقاً صافياً لا يدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظاً من نار يلذع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد في حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو جحيم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حلت الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرِّم حتى من الإشارة واللحمة من بعيد ، ولكن الأمل في اللقاء يظل يراوده مها تجرُّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدىء ويبعد في تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقاً قد تلقانا في تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجاباً هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا ينجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادية ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقي صاف ، حب يمتلئ إحساناً . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نوراً من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعرضه فيه كثير مما يلذ النفس ويمتعها ، وخاصة ما نقلوا إليه من غزل وجداني صادق في وصف حبيهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما ستره واضحا عند ابن النيبه والبهاء زهير .

ويخيل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبداً في قلوب الشعراء ، فهم دائماً يَصْلَوْنَها وَيَصْلَوْنَ معها البعد والفراق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هاني<sup>(١)</sup> .

فَتَكَاتُ طَرْفَةَ أُمِّ سَيْوْفٍ أَيْبِكُ وَكُتُوسُ خَمِرٍ أُمِّ مَرَّاشِفٍ فَيْبِكُ  
أَجْلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَتْكُ مَحَاجِرٍ مَا أَنْتِ رَاحِنَةٌ وَلَا أَهْلُوكُ  
يَا بِنْتَ ذِي السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ أَكْذَا يَجُوزُ الْحَكْمُ فِي نَادِيكَ  
عَيْتَالِكُ أُمِّ مَغْنَالِكِ مَوْعِدُنَا وَفِي وَادِي الْكِرَى أَلْقَالِكِ أُمِّ وَادِيكَ  
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خِيَاثَةً طَارِقًا حَتَّى خَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ  
مَنْعُوكُ مِنْ سَيْتَةِ الْكِرَى وَسَرَّوًا فَلَوْ عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقٍ ظَنُّوكُ

وهو لا يدري كيف يتقى فتكات طرف صاحبه التي تشبه أتم الشبه فتكات سيف أيها ، وإنها جميعا لتصبيه في الصميم دون أي رافة ، وإنه لياثس بأسا شديدا من رافة أيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائهما ورؤيتها في الكرى والأحلام ، ويألم ألما شديداً ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينيه في الحلم ، وإنه ليبست خائفا منهم حذرا ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحمران واللوعة . ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تقل عنه أسمى والتباعا ، يقول<sup>(٢)</sup> :

مَازَالَ فِي الْحَبِّ شَوْقٌ مَوْجِعٌ وَأَسَى مَبْرَحٌ يَقْطَعُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا  
حَقٌّ رَمَى الْبَيْنُ بِالتَّفْرِيقِ أَلْفَتْنَا وَحَلَّ مِنْ وَصَلْهَا مَا كَانَ قَدْ عَقِيدَا  
فَأَوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى فِي الصَّدْرِ لَمْ يُبْقِ لِي صَبْرًا وَلَا جَلْدَا  
قَالَتْ وَعَبَّرْتَهَا مَخْلُوطَةً بِدَمٍ تَجْرِي وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُعْدَا  
لَا تَطْلُبُ النُّطْقَ مِنْي بِالسَّلَامِ لَمَّا أَبْقَى فِرَاقُكَ لِي رُوحًا وَلَا جَسَدَا

وهو بصور أساه في حبه وكيف بفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينبع بالفراق ، فيلتاع لوعة تستمر بين جوانحه ، ويتالك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هي تذرف الدمع مدرارا مرسله

(١) ديوان ابن هاني (طبعة زاهد على) ص ٥٣١ . (٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتبية ، وتلطف له قائلة لا تطلب منى النطق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحباته في الديوان مرارا بمثل قوله (١) :

قالتُ وقد نالها للبين أوجعهُ والبينُ صعبٌ على الأحباب موقِعُهُ  
اجعلْ يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قُوَاهُ عن حَمَلِ ما فيه وأضلَّهُ  
كأنني يومٌ ولتُ - حَسْرَةً وأسى - غريقٌ بِخَرِّ يرى الشاطي وَيُمنَعُهُ  
فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، وتحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة ، وتحم يبادلها نفس الشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه لينوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطي. ولا يستطيع وصولا إليه . وجلى الرغم من أنه كان أميرا وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدران الحس ، ومن طريف قوله في بعض غزله (٢) :

قلتُ اسْمَحِي لِي بتقبيلِ أعيش به قالت : وأيُّ محبٍّ قَبْلُ القمرَا  
ومرَبْنَا في ترجمة ظافر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهي قصيدة غزلية ، تجرى على هذا اللفظ (٣) :

لو كان بالصبر الجميل مَلَاذُهُ ماسَحٌ وابلٌ دمعهُ ورَدَاذُهُ  
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبداً من الخلدِ المراض عيَاذُهُ  
لا تخدعَنَّك بالفتور فإنه نَظَرٌ يضرُّ بِقَلْبِكَ استِلْدَاذُهُ  
يا أيها الرِّشَا الذي مِنْ طَرْفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذُهُ  
دُرٌّ يلوح بِفَيْكٍ مَنْ نَظَامُهُ حَمْرٌ يجولُ عليه مَنْ تَبَاذُهُ (٤)  
وقناةُ ذاك القُدِّ كيف تقومتُ وسينانُ ذاك اللَّحْظِ ما فولَاذُهُ  
رَفَقًا بجسمك لا يدوبُ وإنني أخشى بَأْنَ يَجْفُو عليه لآذُهُ (٥)

(٤) النباذ : صانع النيبذ

(٥) اللاذ : ثوب من حرير

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ .

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعلوبة ، حتى مع قوافيها الذالية ، وتملاً صورة النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهي سهام حقيقية تنفذ إلى حبّ القلوب وسويدائها ، ويخال ذرّاً ملء فيها ويتساءل من نظمه في هيته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أوريق فخمير حقيقية ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة . ويشد به العجب وهو ينظر إلى قامه صاحبه واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب أتخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفتدة . وإن جسد صاحبه ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومه ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورهاقه . وله يتغزل موجهاً الخطاب إلى معاتبه في حبه وتهالكه فيه <sup>(١)</sup> :

عتتَ ولكنى لم أعِ وأين ملامك من مسمعى  
وما قدر عتبك حتى يزيل غراما تمكّن من أضلعى  
وما دام لومك إلا وأذت تقدر أن جاني معى  
مضى كى يودّع سكّانه غداة الفراق فلم يرجع  
فوادى في غير ما أنت فيه فخذ في ملامته أودع

والقطعة توج برقة الحسن ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللفظ اللين يشتر بها أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة الفاهرية اليومية . ولا نبعذ إذا قلنا إنها تعد هي ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجداني الصافي الذى سنعرضه عند ابن التيبه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه في القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتاباً فقد سلبت محبوبتى عقلى وسمعى ، وملك حبها جاني ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأنا لا أعقل ولا أسمع شيئاً مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة في أن يستمر في لومه أو يكف عنه ، وعادة المحبين أن يعنفوا بلائيمهم في الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف في ود ارقيق .

وربما كان من تنمة الرقة في غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدياتي يتغزل بحارية سوداء ، محاولاً بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظن من قبح السواد ، يقول <sup>(٢)</sup> :

(٢) الخريدة ١/٢٣٢ .

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦/٢

وعاذلو مُحْتَفل مجتهد في عَـذَلِ  
 يلومنى في ظَبِيبة مخلوقة من كُحْلِ  
 إن السَّوَادَ عِلَّةُ من نورِ هدى المُقَلِّ  
 والحَجَرُ الأسودُ لم يُخْلَقْ لغير القُبَلِ  
 والقَارُ - مذ كان - وعاء السَّلْسَبِيلِ السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذى تزدان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذى تبصر به من حولها النور المبتق في الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقيله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذة في دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يستنون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم مبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير<sup>(١)</sup> :

إذا أحرقت في القلب موضعَ سُكناها فن ذا الذى من بعدُ يُكرم مَثَواها  
 وما الدمعُ يوم البينِ إلا لآلئى على الرِّسْمِ في رسم الديارِ نثرانها<sup>(٢)</sup>  
 وما أطلعَ الزَّهرَ الربيعُ وإنما رأى الدَّمْعُ أجيادَ الغُصونِ فحلَّأها  
 ولما وقفنا للوداعِ وترجمتُ لعينى عما في الضمائرِ عَينَها  
 بدتْ صورةً في هيكلِ فلو أننا ندينُ بأديانِ النَّصارى عبدانها

وهو يشكو من النار التى دلعتها صاحبته في فؤاده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه ملئُ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، ويعلن سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعبث جلالها بفؤاده ، حتى لتبدو له وكأنها صورة في هيكل تقدّم لها القرايين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصرى ، إذ يستحيل وجدًا وصباة ورقة وخفة من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

(٣) الخريدة ١/٢١٦ .

(١) معجم الأدياء ٦١/٩ .

(٢) على الرسم : على العادة .

هُمْ نُصِبَ عَيْنِي أَنْجِدُوا أَوْ غَارُوا وَمَتَّى قَوَادِي أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا<sup>(١)</sup>  
فَارَقْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَمَثَّلُوا لِي الْأَفْكَارِ  
تَرَكَوا الْمَنَازِلَ وَالْأَدْيَارَ فَاهْلَهُمْ إِلَّا الْقُلُوبَ مَنَازِلُ وَدِيَارُ  
وَاسْتَوَطَنُوا الْبَيْدَ الْقِفَارَ فَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ دِيَارُ الْإِنْسِ وَهِيَ قِفَارُ  
فَلَنْ غَدَتْ مِصْرٌ فَلَآءَ بَعْدَهُمْ فَلَهُمْ بِأَجْوِازِ الْفَلَآءِ أَمْصَارُ<sup>(٢)</sup>  
أَوْ جَاوَرُوا نَجْدًا فَمَلَى مِنْ بَعْدِهِمْ جَارَانُ : فَيُضِضُ الدَّمْعَ وَالْتِدَّكَارَ  
وَالدَّهْرَ لَيْلٌ مَدَّ تَنَاعَتْ دَارَهُمْ عَنِّي وَهَلْ بَعْدَ النَّهَارِ نَهَارٌ

إنه لن ينساهم أبدا مهما أنجدوا أو غاروا ومهما شرقوا أو غربوا ، ومهما أنصفوه أو ظلموه ، لقد فارقه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم مترا عظيما ، لا تتراible صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبيهم . وينظر إلى الديار والمنازل حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات ، فقد غادروها فقرا يبايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له في قفره الحرب إلا جاران : تذكارهم ودموعه المنهلة التي لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا في عينيه . حتى غدا النهار مظلما داجيا ، فقد أخذوا معهم كل شيء حتى النهار وضيائه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

لَمْ يَهْنُ قَطُّ عَلَيْنَا بَعْدُكُمْ مِثْلَمَا هَانَ عَلَيْكُمْ بُعْدُنَا  
لَمْ تَبَالُوا إِذْ رَحَلْتُمْ غُدُوَّةَ أَيِّ شَيْءٍ صَنَعَ الدَّهْرُ بِنَا  
وقوله<sup>(٤)</sup> :

أَحِبَّابِنَا مَابَالَكُمْ فِينَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَعْدَى  
وَحَيَاةٍ وَدُكْمٍ وَتُرْبَةٍ وَصَلَكُم مَأَخَذْتُ عَهْدًا

والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصرى ، فالوصل مات وقبر والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتُرْبِهِمْ أو قبورهم - بترية الوصل العزيز وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الخريدة ٢١٩/١ .

(٤) الخريدة ٢١٤/١ .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أي

تهامة .

(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل أبياته المشهورة<sup>(١)</sup> :

يَارِبُّ إِنْ قَدَّرْتَهُ لِمُقْبَلٍ غَيْرِي فَلِلْمَسَاكِ أَوْلَى الْأَكْوَسِ  
وَلَنْ قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثٍ يَارِبُّ فَلَيْكَ شَمْعَةٌ فِي الْمَجْلِسِ  
وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعِينَ مَرَاقِبٍ فِي السَّرِّ فَلَتَكُ مِنْ عَيُونِ التَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في أبياته أنانية المحب وكأنه يجب نفسه كما يجب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لا يقبل شفتيها سوى المسواك للوضوء والأكؤس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون الترجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين ينجح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتح من المعين المصري العذب كقوله<sup>(٢)</sup> :

يَا طَرْفُ مَالِكٍ سَاهِدًا فِي رَاقِدٍ يَاقَلْبُ مَالِكٍ رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ  
مَنْ يَشْتَرِي عَمْرِي الرِّخِيصَ جَمِيعَةً مِنْ وَصْلِكَ الْغَالِي يَوْمٍ وَاحِدٍ  
عَاتِبْتُهُ فَتَوَرَّدَتْ وَجَنَاتُهُ وَالْقَلْبُ صَخْرٌ لَا يَلِينُ لِقَاصِدِ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا تكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واليه بها واجد ، وعاتبها فتضرجت وجناتها بالحنجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلين له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله<sup>(٣)</sup> :

تُرَى لِحْنِي أَوْ حَنِينِ الْحَائِمِ جَرَتْ - فَحَكَتْ دَمْعِي - دَمْعُ الْغَائِمِ  
وَهَلْ مِنْ ضُلُوعٍ أَوْ رُبُوعٍ تَرَحَّلُوا فَكَلُّ أَرَاهَا دَارَسَاتِ الْمَعَالِمِ  
لَقَدْ ضَعَفَتْ رِيحَ الصَّبَا فَوصلَتْهَا فَمَنَى لَامِنَهَا هُبُوبُ السَّهَائِمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدري أبحاكي السحاب في قطره المنهل حنينه المتنازع أو هو يبلي

(٢) الخزانة ص ٢٤٧ .

(٣) الخزانة ص ٢٤٦ .

(١) الخريدة ١٣٣/٢ وخزانة الأدب للحموي (طبع

مطبعة بولاق) ص ٢٤٦ .

الحمام وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحالته سمائم لافحة .

ولتلقى بخذن القاضي الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يموج بوجود لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبله أو ضمة كاد يطير من الفرح طيرانا ، مها تأبّت عليه محبوبته ومها صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يمانله حنان ، يقول (١) :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجُرْمِهِ      أنا أَحْتَى عليه من قَلْبِ أُمَّةٍ  
ضَنْ عَنِ بَرِيْقِهِ فَتَحْيِلُ      تْ إِلَى أَنْ سَرَقْتِهِ عِنْدَ لَثْمِهِ  
وإلى اليوم من ثلاثين يوما      لم تَزُلْ من فَمِي حلاوَةٌ طَعْمُهُ  
إن قلبى لصدرة ورقادى      ملكُ أجفانه وروحى لجسمه  
يَكْسِرُ الجَفْنَ بالفتورِ ومالى      عملٌ عند كَسْرِهِ غيرُ ضَمِّهِ

والأبيات تموج بالعدوية والظرف ، فكله حنان لصاحبته ، حتى ليفوق حنوه عليها حنو الأم . وما زال بها حتى اقتطف منها خلسة قبله ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقادها وسهده . وتصنّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نَعِمَ المشوقُ وأنعمَ المشوقُ      فالعِشُّ كالخَصْرِ الرقيقِ رقيقُ  
خَصْرٌ أديرُ عليه مِعْصَمٌ قَبْلَهُ      فكأن تقبيلى له تَغْنِيْقُ  
ونعم لقد طرق الحبيب وماله      إلا حدودُ العاشقين طريقُ  
فرشوا الحدودَ طريقه فكأنما      زفراهم لقدمه تطريقُ (٣)  
واقى وصُبْحُ جبينه متنفسُ      وأنى وجيدُ رقيبهِ منحوقُ

(٣) التطريق : تسهيل الطريق للمارة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .



وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الوطمان بما أنعم عليه العشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخلودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجيئها المشرق لإشراق الصباح ، وغصّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله <sup>(١)</sup> :

سَعِدْتُ بِيَدِ خَدِّهِ بُرْجُ عَقْرَبِ فَكَذَّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمِ  
وَأَقْسَمُ مَا وَجَّهُ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَأَ بِأَوْضَعِ مَنِي حُجَّةً عِنْدَ لَوْعِي  
وَلَا سَيًّا لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلِهِ كَفَضْلَةِ صَبْرٍ فِي قَوَادِ مَتِيمِ  
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بَعُودُ أَرَاكَةِ تَعَلَّقَ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْؤُ مَسِيمِ <sup>(٢)</sup>  
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَثْمِ مَبْسَمِ شَهِيٌّ لِقَابِي لَثْمٌ آثَارِ مَسِيمِ <sup>(٣)</sup>  
بَكَيْتُ بِكَلَّتِي مُقَلَّتِي كَأَنِّي مَتَمُّ مَا قَدَ فَاتَ عَيْنِي مُتَمِّمِ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكذب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفاتنة . وإن فتنها وما تدلع في قلبه لأنصع برهان له عند لاثميه ، أنصع من الصباح في وضوحه وضياؤه . وقد مرَّ بمنزلها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوطمان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لأنه فوقف مبهوتا مشدوها ولا أمل له في قبلة يقتطفها أو ما يشبه القبلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتمم بكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فما زال يبكيه حتى دمعت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان ينبوب لطفًا ورقة مما جعله يتغزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحتال في غزله بين على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذي نزل بهن ، من مثل قوله <sup>(٤)</sup> :

فَتَسْتَحِي مَكْضُوفَةً نَاطِرَاهَا كَتَبَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) المنسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الجبيلة .

(٣) الديوان ص ٨٤٦ .

(٤) ميسم : نقر

فَهِيَ لَمْ تَسَلِّ الْفُتُورَ حُسَامًا      لا ولم تحمل اللِّحَاطَ سِنَانًا<sup>(١)</sup>  
 وَهِيَ بِكَرِّ الْعَيْنَيْنِ مُحْصَنَةٌ الْأَجْدُ      فان ما افتَضَّ مِيلُهَا<sup>(٢)</sup> الْأَجْفَانَا  
 قَصَّرَتْ عَشَقَهَا عَلَى فِلم تَعَد      شَقُّ فَلَانًا إِذْ لَمْ تُعَايِنِ فَلَانَا  
 لا ولم تبصر الرجال فتختا      ر على مُلْتَحِيهِمُ الْمُرْدَانَا  
 عَمِيَتْ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِزْدُ      سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَخْلَى الْمَكَانَا  
 عَلِمْتُ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافْتُ      أَنْ تَسْمَى غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فتنته بحسنها ، وهي فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمى سهام عينها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاط ، ويصفها بيكارة العينين وطهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يمس ميل الكحل عينها ، وإنما لتفرد بالحب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحى والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينها ، فنحته عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو بحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابيين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتصاوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدنا ملتناعا وكان لذلك أصداءه الواسعة في غزل الشعراء ، فانفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبيهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : الآلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله<sup>(٣)</sup> :

قَلَدْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ جَيْدَ مَوْدَعِي      دُرَّرًا نَظَمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَعِي

(١) اللِّحَاط : مؤخر العين ممايل الصدغ .

العين .

(٢) فوات الوفيات ١/٢٣٦ .

(٣) الميل : المكحل أو المرود وهو ما يوضع به الكحل في

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد  
 يانفسُ قد فارقت يوم فراقهم  
 هيئات يرجعُ شملنا بالأجرع  
 بحياتكم جودوا على تكراً  
 فلقد عدمتُ الصبر يوم فراقكم  
 يانا زحين فهل لكم من عودةٍ  
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا  
 قلبى ولا جلدى ولا صبرى معى  
 طيبَ الحياة فى البقا لا تطمعى  
 ويعود أجابى الألى كانوا معى<sup>(١)</sup>  
 فعسى خيالكم يلم بمضجعى  
 وتضمرت نارُ الأسى فى أضلعى  
 نرح التفرق ما بقى من مدمعى  
 هلكت من شوقى وقرط توجعى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانته فيها صبره وتجلده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى اليقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أورجعة ترد إليه روحه وترد عنه أوجاعه من الحب الملتب وأوصابه .  
 وولتقى بتقى الدين<sup>(٢)</sup> السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرماً بحب الجمال وكان يغنى بشعره الغرامى المغنون لرقه انسجامه وعلوية ألفاظه ، ومن غزله :

أتعم بوصلك لى فهذا وقته  
 يا من شغلتُ بجه عن غيره  
 بالله إن سألوك عنى قل لهم  
 أوقيل مشتاق إليك فقل لهم  
 يا حسن طيف من خيالك زارنى  
 فحضى وفى قلبى عليه حسرة  
 يكفى من الهجران ما قد ذقته  
 وسلوت كل الناس حين عشقته  
 عبدي ومليك يدي وما أعتقته  
 أدرى بذنا وأنا الذى شوقته  
 من عظم وجدى فيه ما حققته  
 لو كان يمكننى الرقاد لحقته

وهو يتضرع لمحجوبه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذلاً له إنه عبده وملك يده ولن ترد إليه حريته ، ويشكو لواعج الشوق ،

٤٦٦/١ وخزانة الأدب للحوى (طبع بولاق) ص

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرمل .

(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات

ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكبد يحققه أو يتحقق منه حتى قرَّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاذه قليلا حتى يشفى منه غلَّة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزانته على هذه الأبيات بقوله : « ما نفتات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات ولا لسلاف ثغرا أنياب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشقات » . ومن غزله :

قصَدَ الحِمَى وَأَتَاهُ يَجْهَدُ فِي السَّرَى      حَتَّى بَدَتْ أَعْلَامُهُ وَقِبَابُهُ  
وَرَأَى لِلَّيْلِ العَامِرِيَّةَ مَتَزَلًا      بِالْجُودِ يُعْرِفُ وَالنَّدَى أَصْحَابُهُ  
قَدْ أَشْرَعَتْ بِيضُ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا      مِنْ حَوْلِهِ فَهَوِ الْمَنِيحُ حِجَابُهُ  
وَعَلَى حِمَاهُ جِلَالَةٌ مِنْ أَهْلِهِ      فَلِذَلِكَ طَارِقَةُ العَيُونِ تَهَابُهُ  
كَمْ قَلْبٌ فِيهِ القُلُوبُ عَلَى الثَّرَى      شَوْقًا إِلَيْهِ وَقُبْلَتُ أَعْتَابُهُ

وهو يرمز لصاحبه بليلى العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذى ملأ اليد بأغاني حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليلالى المتصلة حتى بدت أعلام حبيها وقبابه أو خيامه ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا فى أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجى فخر الدين بن لقمان كاتب بيبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله (١) :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنِّى بِكَ مَغْرَمٌ      رَاضٍ بِمَا فَعَلَ الهَوَى الْمُتَحَكِّمُ  
وَلَنْ كَسَمْتُ عَنِ الوَشَاةِ صَبَابِى      بِكَ فَالْجَوَانِحُ بِالهَوَى تَسْكُمُ  
أَشْتَاقُ مِنْ أَهْوَى وَأَعْلَمُ أَنِّى      أَشْتَاقُ مَنْ هُوَ فِي الفُؤَادِ مَحْمِىمُ  
يَا مَنْ يَصِدُّ عَنِ الحُبِّ تَدْلُلًا      وَإِذَا بَكَى وَجَدًا غَدَا يَتَبَسَّمُ  
أَسْكَنْتُكَ القَلْبَ الذِّى أَحْرَقْتَهُ      فَحَذَارٍ مِنْ نَارٍ بِهِ تَنْصَرَّمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفى حبه عن الوشاة بل

(١) المنبل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب

المصرية) ١١٩/١ .

يكتمه بينما جوائحه تنطق به وتعلمه ، ويعجب أن يشناق صاحبه ويود لقاءها ، بينما هي مخيمة في قواده لا تبرحه . وإنما لتمعن في التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبسم . ويحدرها من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللعب . فقد أسكنها قلبه الذى أحرقتة ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مدلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كثير من مثل قوله <sup>(١)</sup> :

أهلاً بطيفٍ على الجرعاء مُختَلَسٍ      والفجرُ في سَحَرٍ كالثغرِ في لَعَسٍ <sup>(٢)</sup>  
والنجمُ في الأفقِ الغربي مُنحدرٌ      كشُعَلَةٍ سقطتْ من كَفِّ مُقْتَبَسٍ  
ياحِبِّدا زمنُ الجرعاء من زمنٍ      كلُّ الليالي فيه ليلةُ العرسِ  
وحبِّدا العيشُ معَ هيفاءٍ لوبرزتْ      للبدرِ لم يَزُهُ أو للفضنِ لم يَمِسِ  
محروسةٌ بشعاعِ البيضِ ملتَمعاً      ونورُ ذاكِ المحيَّا آيةُ الحرسِ  
يَسَعِي وَرَا لَحَظَهَا قَلْبِي وَمِن عَجَبِ      سَعَى الطَّرِيدَةِ في آثارِ مفرسِ  
ليت العنولَ على مرأى محاسِنِها      لو كان ثَنَى عَمَى عَيْنِهِ بِالْحَرَسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذي رآه في حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر يتلجج في الآفاق المظلمة تلبج الثغر في لعس الشفاه ، والنجم يسقط في الأفق الغربي منحدرًا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالي الجرعاء المفرحة فرح ليالي العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيته التي لورآها البدر لغض من زهوه ولو رآها الفصن لغض من ميسانه وخيلائه . ويقول إنها ممثلة محروسة بسيوف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذي يُشِعُّه وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفرسها ، ويقول إن ضياءها أحال عيني العنول عشوائين ، فهو لا يبصرها ، ويتمنى لو ثنى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أى حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكثرون من الغزل التواجي <sup>(٣)</sup> شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكيت في الحمر والتلماء وآدابهم ، وبعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجري ، توفي سنة ٨٥٩

٢٢٩/٧ والنجم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكاني  
١٥٦/١ وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور (طبع دار  
المعارف) ص ٢٧ . وبدار الكتب المصرية مخطوطة من  
ديوانه . ومن كبه عقود اللآل في الموشحات والأزجال .

(١) النجم الزاهرة ٩٦/١١ .  
(٢) الجرعاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد  
الشفة .  
(٣) انظر في التواجي وشعره الضوء اللامع للسماوي

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خليلي هذا ربيعٌ عزةٌ فاسعياً إليه وإن سالتُ به أدمعى طوفانٌ  
فجفنتي جفاً طيباً المنامِ وجفنتها جفاني ، فيالله من شرك الأجنانِ

ونمضى في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني الملتاع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض  
معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلي ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرَّجه  
وتلميذه يحيى<sup>(١)</sup> الأصيلي ، الذي يقول في بعض غزله :

بدا بوجهٍ جميل الوصف والشان يقول : سبحان من بالحسن وشاني<sup>(٢)</sup>  
كأنه روضةٌ غناءٌ مزهرةٌ من دمع عاشقها تُسقى بغدرانِ  
أشبهتُ في حبه وورق الحمى فغدا كل بيت الجوى شجواً على البانِ

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ،  
والحد بالورد والشقيق والعين بالزرجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق  
بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحامه بيت جواه شجواً على أغصان البان وهو يشبه  
على من قامتها تحاكي قامة البان . وتخرج على يد الأصيلي يوسف<sup>(٣)</sup> المغربي ، وغزله كغزل أستاذه  
يسيل عذوبة من مثل قوله :

جعلوا الصباح مباسماً ثم الظلام صفائراً ثم الراح قدودا  
والورد خدّاً والغصون معاطفاً والبدر قرناً والغزالة جيداً  
ورأت غصون البان أن قدودهم فاقت فأضحت رُكعاً وسجوداً

وتشبيه قدود الحسان بالراح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي  
والأصيلي والعسيلي يكوّنون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متاثلة في رشاقة الموسيقى وجمال  
الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي ربحانة الألبا ٣٢/٢ وما  
بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيلي ربحانة الألبا ٣٨/٢ وصلافة  
العصر لابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .

(٢) وشاني : زيني .

عقيقُ دمعى غداً في الجزع كالديمِ  
وانهلاً مُنسجماً من نار مضطرمِ  
ظبيّ نفورٍ أنيسٍ ناعسٍ يقظِ  
إن أرضَ يغضب وإن أقربَ نأى صلفاً  
مُهفَهِفٍ ما بدت للغصنِ قامتهُ  
وإن تبسّم ما برقُ بكاطمةِ  
ما فيه عيبٌ سوى تفتيرِ مُقلّتهِ  
مُذبانَ سكانَ بانٍ الحى والعلمِ  
ملآنَ وجداً إلى خشفِ بذي سلمِ  
بالليلِ مُتَشِحٍ بالصبحِ مُلْتَثِمِ  
وإن أذلَّ يتهُ بالعزِّ والشممِ  
إلا أنتهى ذابلَ الأوراقِ ذا ضرمِ  
له وميضٌ يجلى داجى الظلمِ  
وفتكها في فوادِ المُذنبِ السقمِ

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوى إنه مازال يبكى حتى اختلط دمه بالدم القاني وتناثر في الجزع أو جانب الوادى وكأنه ديم مسكوبة مذ بُعد سكان الوادى والعلم أو الجبل وما بها من شجر البان ، وإنه ليبكى وأحشاؤه تضطرم بوجود مبرح إلى خشف أو ظبي من ظباء ذى سلم بنجد ، وإنه لظبي نفور أنيس ناعس يتشع بوشاح أسود من شعره ، ويلثم بلثام منير من وجهه . وإن لقيه راضياً غضب وازور عنده وإن قرب منه نأى بجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه سلفاً وشما أو تكبراً . وهو مهفهف ضامر دقيق الخصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلاً ويلتاع لوعة ملتبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق الخاعا في الليالى الداجية . ويجعل عيه الوحيد نور عينيه الذى طالما تغنى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التى تصمى أفئدة المرضى بالحب ، وفتكك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجدانى الذين صوروا ما اختلج في خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرح ولوعات ممضة .

ابن (١) النيه

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقاً بديها وطبع طبع حجر في القرن الماضى . وطبع الديوان حديثاً بتحقيق عمر محمد الأسعد ( نشر دار الفكر ) بيروت .

(١) انظر في ابن النيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وفوات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسن المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبدالله فكرى للديوان إذ جمعه ورتبه وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وفتحت ملكته الشعرية ، ورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره ، وفي ديوانه مدائح مختلفة له ، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها في قوافيه بقوله في مطلعها :

قَتُّ لَيْلِ الصُّدُورِ إِلَّا قَلِيلًا      ثُمَّ رَتَّلْتُ ذَكَرَكُمْ تَرْتِيلًا  
وَوَصَلْتُ الشَّهَادَ أَقْبَحَ وَضَلُّ      وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَبِيلًا

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يُعْجَب بالقصيدة ، فلم يَعيِّن في دواوين صلاح الدين وأيضا لم يَعيِّن في دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولي شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأيناه يقدِّم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفيِّ بن شُكْر . ويبدو أن صداقة انعقدت حيثُذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرُّها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذه كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خِلاط وميافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . وكان ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرُّقة لموقعها على الفرات وابن النيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى ابن النيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دَمِيَاطُ طُورٍ وَنَارُ الحَرْبِ مَوْقِدَةٌ      وَأَنْتَ مَوْسَى وَهَذَا اليَوْمُ مِيْقَاتُ  
أَثَلَجَتْ صَدْرَ رَسولِ اللَّهِ وَانكشَفَتْ      عَن سَرْحَةِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَامَاتُ  
اللَّهُ أَكْرَمُ أَنْ تُمْسَى مَزَامِرَهُمْ      تُتَلَّى وَتُنْسَى مِنَ القُرْآنِ آيَاتُ

وهو يستغلُّ اسمه في مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور ، ويذكر في القصيدة أن عصاه تلففت كل ما أفكروا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قُتلا وأُسرا وسبيًا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بنجزي لا يمانله خزي .

ويدل ديوان ابن النيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبهجة يتمتع فيها بالرياض ومجالس الأُنس والظرب حتى وفاته بتَّصِيْبين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هتاء لم



ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حينه يتفرق في تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الواهين ، كقوله مكنياً عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضي المقدسة في المدينة النورة الذي طالما تغنى به شعراء الصباية والحب المتناع :

يَابَارِقَا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجَنَهُ      مَنْزَلْنَا بِالْعَقِيقِ مِنْ سَكَنَهُ  
 وَمَرْبِعُ اللَّهْوِ يَانِعُ خَضِيلُ      أَمْ غَيْرَ الدَّهْرِ بَعْدَنَا دِمْنَهُ (١)  
 يَا بَرِّقُ هَذَا جَسْمِي يَذُوبُ ضَنِّي      وَمَهْجَتِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَةٌ  
 بَلِّغْ حَدِيثَ الْحَمِيِّ وَسَاكِنِهِ      لِمَغْرَمٍ أَنْحَلَ الْهَوَى بَدَنَهُ  
 أَشَقِي الْمَحْبِينَ عَادِمٌ وَطَرًّا      فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنَهُ  
 سَقِيًّا لِأَيَامِنَا الَّتِي سَلَفَتْ      كَانَتْ بِطَيْبِ الْوَصَالِ مَقْرَنَهُ  
 لَوْ يَجَّ يَوْمٌ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ      كُنْتُ بِعُمْرِي مُسْتَرَحْصًا ثَمَنَهُ

وابن النبية في أول الأبيات يخاطب برقاً أذكره ما يعتلج في أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادي النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لا يزال مربع اللهو والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غير الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراءه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضناً وسقماً ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً بطمئنه عن الحمى وساكته . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالحب المقنون الذي عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضيا بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النبية بذلك يصور تصويرا رائعا تعلق المصريين في غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمئنه إلى جرعة من نيله في ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوان ابن النبية أحسنا بوضوح أنه يمثل في غزله الأروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدماعة والرقعة وخفة الظل لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضا في تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أصداف المحسنات البديعية ، فهو قلما يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجداني سام ، دون

(١) خضل : مبتل ندى . اللمن : جمع دمنة : آثار

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قدما لغزله أن يكثر التغنى به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن<sup>(١)</sup> لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفِيهِ إِنْ حَفِظَ الْهَوَى أَوْضِعَا      مَلِكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْعَا  
 مِنْ لَمْ يَذُقْ ظَلَمَ الْحَيْبَ كَظَلَمِهِ      حُلُومًا فَقَدْ جَهَلُ الْحَبَّةِ وَادَّعَى<sup>(٢)</sup>  
 يَا أَيُّهَا الْوَجْهُ الْجَمِيلُ تَدَارِكُ الصَّبَّ السَّحِيلَ      فَقَدْ وَهَى وَتَصَغُّعَا  
 هَلْ فِي قَوَادِكُ رَحْمَةٌ لِمَتِّمْ      ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ فَوَادًا مَوْجَعَا  
 هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي      أَوْ أَشْتَكِي بَلْوَائِي أَوْ أَتَضَّرَعَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، وبسترحه لوهن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يبثه شيئا من حبه أو من محبته فيه . ولا تقل جمالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطَّلُ      فَمَنْ جَفَنَيْكَ أَسِيْفًا تُسَلُّ  
 يَزِيدُ جَمَالَ وَجْهِكَ كُلَّ يَوْمٍ      وَبِجَسَدٍ يَذُوبُ وَيَضْمَحَلُّ  
 وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسْمِي      وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ  
 إِذَا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ      تَرَى مَاءَ يَرْفُ عَلَيْهِ ظِلُّ<sup>(٣)</sup>  
 وَقَدْ يَهْدِي صِبَاخُ الْخَدِّ قَوْمًا      لِبَلِيلِ الشَّعْرِ قَدْ تَاهَا وَضَلُّوا

وابن النبية يتوسل إلى صاحبه أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تُبقي عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه أضمحللا وتضاؤلا ونحوها . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هي تدل عليه

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الثمر وريقه .

(٣) النوايب : صفات الشعر .

(١) انظر كتاب شعر الفناء الصنعاني للكوكور محمد عبده

غانم (طبع دار الكاتب العربي ببيروت) ص ١٧٧ .

وتزداد كل يوم دلالة وإعراضا . وماذا يبصر ؟ إنه لا يبصر إلا جلالا فاتنا وجسدا ساحرا رقيقا رقة الماء يهتر عليه من الشعر ظل ناضر باهر . ويقول :

ياساكنى السَّفْحَ كم عَيْنِو بكم سَفَحَتْ      تَرْحَمُ فَهَى بعد البُعْدِ قد نَزَحَتْ  
لَهْفَى لظِيَّةِ أَنْسِرِ مِنْكُمْ نَفَرَتْ      لا بل هي الشمسُ زالتْ بعد ما جَنَحَتْ  
يَبْضَاءُ حَجَبِهَا الْوَأَشُونَ \* حِينَ وَشَوَا      عَنِ وَلَوْ لَمَحَتْ صَبِغَ اللَّحْجَى لَمَحَتْ  
يَقْتَصُّ مِنْ وَجَّتِيهَا لِحْظُ عَاشِقِهَا      إِنْ ضَرَّجَتْ قَلْبَهُ بِاللُّحْظِ أَوْ جَرَّحَتْ  
مَنْ لِي بِسَلْمَى وَفِي أَجْفَانِ مُقَلَّتِهَا      لِلحَرْبِ يَبِضُّ حِدَادُ قَطُّ مَا صَفَحَتْ  
وَأَسْوَدُ الْخَالِ فِي عَمْرٍ وَجَّتِيهَا      كَمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فِي جَمْرَةٍ لَفَحَتْ

وفي القطعة جناس بين « السفح وسفحت » بمعنى صببت العين الدمع ، وكذلك بين « ترحمت » بمعنى بعدتم و« نزحت » العين بمعنى نفذ دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و« وشوا » في البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و« محت » في آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر في قياس الأنغام ، وهو في أول القطعة يشكو لساكنى السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظيية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتص بالانظر إلى وجتيتها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهي مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينها الساحرتين ، ويتصور الخيال في خدها الوردى كحجته من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذي يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى اللهُ مَا أَحْسَنَ      شَقِيْقًا حُفًّا بِالسَّوْسَنِ  
خُدُودُ لَسْمُهَا يُبْرِى      مِنَ الْأَسْقَامِ لَوْ أَمَكْنَ  
فَمَا تُجَنِّى وَحَارْسُهَا      يَقْفُلُ الصَّدْغُ قَدْ زَرَقْنَ (١)

(١) زرقن الصلغ : جعل الشعر المدلل على الخلود كالحلقة .

أَبْتُ هَوَاهُ مِنْ حُرْقِ لِنَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنُّ  
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعلن اقتنانه بجمال صاحبه واحمرار خلودها المشبهة لورد الشقيق المحفوفة بمخض السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لثم خلودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خلودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خلودها فلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليث هواه وما يدوقه من حرارته اللافحة للنجم حين جَنُّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتنانه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكم أسكن محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقت وأتت عليه . ومن غزله الرائع :

أَمَا وَبِيَاضِ مَبْسُوكِ النَّقِيِّ	وَسُمْرَةِ مِسْكَةِ اللَّعْسِ الشَّهِيِّ <sup>(١)</sup>
لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْهَجْرَانِ جِسْمِي	وَأَعْطَشَنِي وَصَالِكِ بَعْدِ رِيٍّ
إِلَى كَمْ أَكْمُ الْبَلْوَى وَدَمْعِي	يَبُوحُ بِمُضْمَرِ السَّرِّ الْحَقِيِّ
وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهِيَةِ غَرَامِي	فَوَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْحَلِيِّ
تَغَاذَلْنِي وَتَزَوَى حَاجِبِيهَا	كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنِ الْقَيْسِيِّ
وَتَخْتَرِقُ الصَّفُوفَ بِرَيْقِ فِيهَا	وَهَلْ يَخْفَى شَدَى الْمَسْكَ الشَّدِيِّ
يَذُودُ شَبَا الْقَنَا عَنْ وَجَّتَيْهَا	كَمَنْعِ الشُّوْكِ لِلرُّودِ الْجَنِيِّ <sup>(٢)</sup>
إِذَا مَا رُمْتُ أَقْطَفُهُ بَعِينِي	تَقُولُ حَذَارٍ مِنْ مَرَعِي وَيَبِي <sup>(٣)</sup>

وابن النبية يُقَسِّمُ لمحبوبته بميسمها الفاتن وسمرة شفاهاها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد رِيٍّ ، ويقول إلى كم أكتم محتى في الحب ودمعي يبوح بسرِّي وإلى كم أشكو للاهية عنى ، وصدق المثل القديم : ويل للشجى من الحللى . ويعجب أنها تغازله أو تمدله أسباب الغزل ، بينما تقطَّب حاجبيها وتزوى ما بينها ، ويلتمس لها عذرا ، فكان حاجبيها قوسان يرسلان السهام ، ولا بد لهما كالقوس ووترها من الشد والجذب فى أثناء الرمي

(٣) وي : ونجم .

(١) اللعس : سواد الشفة .

(٢) شبا القنا : حد الرماح .

بالسهم والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأريجه يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبية من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبه بما يحمها من الرماح تذود عن وجتها الفانتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشفتيه شيئا من ورد وجتها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني موج باللهفة والظمأ واللوعة الملتبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب المحب الوهّان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي المتناغم عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبية في هذه الصورة الرائعة التي تخلو من المتاع الحسى والتي يسيل فيها الشرقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجرى شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النبية نزيل دياره حين كان الحاجرى لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفرى الموصلى الذي تحدثنا عن غزله الوجداني المتناغم يستضيء فيه بابن النبية أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفرى التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :

أى دمعٍ من الجفون أسألُه إذ أتته معَ النسيم رسالة

إنما نظمها معارضةً ومحاكاةً لقصيدة ابن النبية :

بَدْرُ رِيمٍ له من الشعر هالَه من رآه من المحبين هالَه<sup>(١)</sup>

فهي من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفرى لابن النبية أوسع من هذا ، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لافي أساليبه السلسلة السائغة فحسب ، بل أيضا في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتهب ، مع الرقة والدماثة واللفظ وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النبية بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التي كانت مأمولة لهذه الصباية

(١) هالة الأولى : دارة القمر . وهاله الثانية : من هاله

الشيء إذا أعجبه وروعه .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النعم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة .

### البهاء<sup>(١)</sup> زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بنى أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حَجَّها خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكعب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »<sup>(٢)</sup> وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهداً بالمحْصَبِ من مِئى ومادونه من أَبْطَحِ وحَجُونِ<sup>(٣)</sup>  
منازلُ كانتُ لى بهن منازلُ وكان الصَّبَا لى بها وقَرِيفى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهى منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خِذنه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى المات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جلدك التقوى والى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

(١) وطبع في القاهرة مرارا وفي بيروت .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرزاق ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجمار بمضى . والأبطح : أبطح مكة وهو وادياها . والحجون : جبل بها .

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان ٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ .  
٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و« البهاء زهير » :  
بحث بقلم الشيخ مصطفى عبد الرزاق . وقد طبع ديوانه  
بكبرج سنة ١٨٧٦ بتحقيق يلمر مع مقدمة وتعليقات ،

الدين إسماعيل اللطى يهته فيها بولايته على أعمالها ، وأعجب به اللطى فاتخذها كاتبا له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتّر بينهما ، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهني السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرده فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له ملحقين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبّيّه منشدا فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لَبَّبِكَ يَا مَنْ لَامِرْدٌ لِأَمْرِهِ وَإِذَا دَعَا الْعَيْوُقَ لَا يَتَعَوَّقُ (١)  
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّعُ  
سَجَدْتُ لَهُ حَقَّ الْعَيْوُنِ مَهَابَةً أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطْرُقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائبا عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، ينعم بالحياة وينها بها . ويتنقل معه في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والخلى بجماله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْعَرِيْشِ وَبَرْقَةٍ مِنْ الْغَيْثِ هَطَالُ الشَّايِبِ هَتَانُ (٢)  
بِلَادٌ إِذَا مَا جِئْتَهَا جِئْتَ جَنَّةً لَعَيْنِكَ مِنْهَا كَلِمَا شَتَّ رِضْوَانُ  
تَمَثَّلَ لِي الْأَشْوَاقُ أَنْ تَرَاهَا وَحَصْبَاءَهَا مِسْكٌ يَفْوُحُ وَعَقِيَانُ (٣)  
فِيَا سَاكِنِي مِصْرٍ تُرَاكِمُ عَلِمْتُمْ بَأَنِي مَالِي عَنْكُمْ الدَّهْرُ سُلُوَانُ  
عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شُقَّةَ الْبَعْدِ بَيْنَنَا فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ

كثير المطر .

(١) العيوق : نجم في طرف الهجرة يتلو الثريا .

(٢) حصابها : حصاها . العقيان : النعب الخالص .

(٣) الشاييب : جمع شويوب وهو دفعة المطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادي من شرقه إلى غربه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدار ، ويتصور الوادي جميعه فردوسا لا يشبه فردوس وترابه وحصابه مسكا وذها خالصا ، وهو لا يسلو أهله ولا ينسأهم أبدا ويتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تجف دموعه المنهلة ، وتهدأ أحشائه الموجعة .

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوبي الأردن وينزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعْتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهد . وتُرَدُّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيرا نبیلا ففتح - كما يقول ابن خلكان - خلقا كثيرا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمَّ على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحُمل من هناك في محفَّة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبَّى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عُزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلًا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السنِّ ، فأعفاه من منصبه وأسندته إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عزَّ ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده ، وقيل : قَبِلَهُ فترة ثم استعفى منه . وفي ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارا لبعض رفده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَعْدِهِ ومَرَّهُ بعد حُلُوهِ إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان في ترجمته :  
كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعُه عنه فلما اجتمعت به رأيتُه فوق ما سمعت عنه من مكارم



الأخلاق ودعائه السجاياء . وما مر من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياةً سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من بؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفي شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجالها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خذن صباه وشبابه في قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرح بمتع الحياة وطرح الهموم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ  
مثل ما تَقْنِي السَّرا ت كذا تَقْنِي الهمومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمد منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله بتقني بالحب وتبارحه في تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا روايب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُعرض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الأيوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التي استحالت إلى أصداف يتقصها البريق واللمعان .

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يشرّكه فيه - كما أسلفنا - ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السُّلس أثر كبير في ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادي في مصر سهلا لا تنوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أي صعوبات ، وعلى نحو ما يجري النيل مترقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابه . وكما أن الوادي يتطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفس

طُبعت على اللين والرقه والدماثة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النبيه . ومن الحق أن البهاء زهيراً كما خلق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عنوبة وخفة ظل ورشاقة .

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجداني على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفياً أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكراً - وتطور على لسانه - أشعارهم المليئة بالوجد الإلهي وتباريحه ، وانطبع هذا الوجد في نفسه وبثه في جبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه في نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستبق بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفي في غزلهم جميعاً ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجداني الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض ممن ستحدث عنهم في غير هذا الموضوع بثوا في أشعارهم وجداً لا يضاف له ، وكان البهاء زهيراً استمد جفوة من هذا الوجد المبرح نشر شررها في غزله . وكثيراً ما نعثر عنده على أبيات تصور تأثيره بالصوفية كقوله في بعض غزله :

أنا في الحقيقة أنتم هذا اعتقادي فيكم

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسئلنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد المحب بالمحجوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي أَنْتَ الْعَلِيمُ بِحَالِيهِ

وكانه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعا مستعظفاً ، وهو إنما يخاطب صاحبه التي دلعت نار الحب في قواده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التي يقول فيها :

غیری	على السلوان	قادر	وسوائی	في العشاق	غادِرْ
أشکرو	وأشکر	فعلهُ	فاعجب	لشاکو	منه شاکر
لا تنکروا	خَفَقَان	قَدْ	جی	والحبيب	لدى حاضر
ما القلب	إلا	دارهُ	ضربت	له	فيها البشائر
باليل	طل	ياشوق	دُم	إلى	على الحالين صابر
لی	فيک	أجر	مجاهد	إن	صح أن الليل كافر

والقصيدة في ديوان البهاء زهير، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور، وفي رأى أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث، وإن اختلف المتزعمان في الفكرة، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحبوب. وفي البيتين: الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد الستر. على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير. ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطي إذ يقول:

لها خَفَّرَ يومَ اللقاء خَفِيرُهَا      فما بأُهَا ضَنْتُ بما لا يَضِيرُهَا<sup>(١)</sup>  
 أعادتها أن لا يُعادَ مريضُها      وسيرتُها أن لا يُفكَّ أسيرُها  
 وما أنذا كالطيفِ فيها صبايةٌ      لعل إذا نامتْ بلبيلٍ أزورها  
 من الغيدِ لم توقدْ مع الليل نارُها      ولكنها بين الضلوع تُشيرُها  
 يقاضى غريمُ الشوقِ مني حُشاشَةً      مروعةٌ لم يَبقَ إلا يسيرُها

والصور في القطعة دقيقة فَخَّرَ صاحبه أو خجلها وحيأوها يجرسها يوم لقائه، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها؟ وهل من عاداتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها؟. وهو تضرع وتوسل لطيف. ويقول إنه أصبح كالطيف شبها متضائلا تخيلا. ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعيف الأحلام. وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله. ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه. ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبا مفرعة. وفي القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها. ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعذوبة، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا في اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله:

تَعِيشُ أَنْتِ وَتَبْقَى أَنَا الَّذِي مِتُّ عِشْقًا  
 حَاشَاكَ يَا نَوْرَ عَيْنِي تَلَقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى  
 وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْتِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرْقًا  
 يَا أَنْعَمَ النَّاسِ بِالْأَى إِلَى مَتَى فِيكَ أَشَقَى  
 لَمْ يَبْقَ مَنِيَ إِلَّا بِقِيَّةً لَيْسَ تَبْقَى  
 قَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنِّي (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرفقة واللطف مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يا نور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

مِنَ الْيَوْمِ تَعَارَفْنَا وَنَطْرِي مَا جَرَى مِنَّا  
 وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قَلْتُمْ وَلَا قُلْنَا  
 وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَنْبِ فَبِالْحَسَنِ  
 فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا  
 وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ لِلْوَصْلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنها عتاب مملوء لطفًا وظرفًا وتسامحًا ورفقة ودماثة ، ودائمًا تجري في غزله هذه الرفقة الحلوة التي تشبه ماء النيل العذير الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصُّرُوا مَدَةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمُرَكُمْ  
 شَرَّفُونِي بِزُورَةٍ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَكُمْ  
 قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَيْتَنِي كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم محلكم من فؤادى لسركم  
لو وصلتكم محبتكم ما الذى كان ضرركم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاء ان فى البيتين : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتضرع لصاحبه مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحرام . وهو لا يتحرج من إعلان تذللته فى الحب . بل من إعلان عبادته لمحبوته ، يقول :

سأشكر حبًا زان فيك عبادتى وإن كان فيه ذلَّة وخضوعُ  
أصلّى وعندى للصَّابة رِقَّةً فكلُّ صلاتى فى هوائك خشوعُ

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وتراتيل يقدمها لمن شغفت قلبه حبا ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبّد لها كما يتعبّد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فُتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوته ، يقول :

لى حبيبٌ عبديتهُ وَيَحَ مَنْ يَعْبُدُ الْوَتْنَ

وكانه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يُثبّد تراتيل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزائنه من حوار<sup>(١)</sup> له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرون فى الغزل من أصداف التشبيات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يابانَ وادى الأجرع » وقال له : أشتهى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سُقَيْتَ عَيْثَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل مِلتَ من طربى معى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ القرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

« أجازني رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدي الناس ». ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلوى الشاعر الموصلى الأصل الدمشقي الدار والمولد . ونصّ ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغرى بردى لابن الحلوى قصيدة<sup>(١)</sup> في نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول :

هَلالٌ ولكنْ أفتُ قلبى مَحَلُّهُ غزالٌ ولكنْ سَمَحُ عيني عَقِيْقُهُ<sup>(٢)</sup>  
على خَدِّهِ جَمْرٌ من الحسنِ مُضْرَمٌ يُشَبُّ ولكنْ فى قَوادى حَرِيْقُهُ

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

### ابن<sup>(٣)</sup> مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ هـ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذه رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية فتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عين حاكم قوص مجد الدين اللمطى البهاء كاتبه ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه ليستند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستلّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله :

لك الله إن العفو أقرب للتقوى ومثلك أولى مثلى الصّفْحَ والعفوا

٢٨٥/٦ ومرآة الجنان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥

والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن المحاضرة

٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديما في القسطنطينية سنة

١٢٩٨ هـ وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .

(٢) العقيق : اسم وديان ومواضع متعلّقة في المدينة

ومجد .

(٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان

ولم يجد الصديقان بدأ من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومَرَّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منوها بهذا الانتصار بمثل قوله :

يَانَاصِرَ الدِّينِ الحَنِيفِ بِسِيفِهِ وَمِذْلَ أَهْلِ الشَّرْكِ وَالطَّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا تعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومَرَّ بنا أن البهاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّها والرِّقَّة وغيرهما في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا في الخزانة ، ولم يزل ينعم بقره وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له في دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح في خلتمته وهو متغير عليه متكره إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجِن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع فلول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالقسطنطينية وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدُّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته اليبديعة :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ . مَقَالَ صِلْتِي مِنْ قَوْلِي نَصِيحِ

آجَرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى      مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ  
 أَنْتِ مَصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا      نَحْسِبُ أَنْ الزَّمْرَ - يَاطْبُلُ - رِيحَ  
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَذْهَمِ      ضَاقَ بِهِ عَنِ نَاطِرِيكَ الْمَسِيحِ<sup>(١)</sup>  
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ      بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ  
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ      إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا جَرِيحَ  
 وَفَقَّكَ اللهُ لِأَمْثَالِهَا      لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ  
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةَ      لِأَخِذْ ثَأْرًا أَوْ لِقْصِدِ صَاحِبِ  
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا      وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحُ

ويعلق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « لله دَرُّهُ ! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف  
 والبلاغة وحسن التركيب ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن  
 مصر قريبة المال فإذا من دونها حُرُّ رِقَابِ الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال . ويسخر منه  
 سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشتومة حتى يستريح منهم عيسى وتُحزَّرَ  
 رِقَابِهِمْ جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الخاسرة إلى الشرق ،  
 ويقول له ساخرا متهمكا : لاتزال دار ابن لقمان التي سُجنتَ فيها على حالها ، ولايزاد القيد أو الغلُّ  
 باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سقود بِشَوْبِهِ عليه ، مع لطف  
 التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لَبَّى نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه في  
 الستين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى  
 وُجد البيتان التاليان في رقعة تحت رأسه :

أَتَجَزَعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ      وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ  
 وَلَوْ بِذُنُوبِ الْوَرَى جِثَّتْ      فَرَحْمَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ،  
 وكانت بينى وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشدنى أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحتفظ

(١) الحين : الهلاك . أدمع : قيد .



بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضاً مع أنه ظل في خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أيوبى ، وربما كان حذف مدائح من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عَزَّ عليه أن يُعزَّل من منصبه ، فانتمم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفاً أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينها هذه المودة الحلوة طوال حياتها ، وجنَّيا منها واقتطفا أزهارها أو ثمارها هنيئة ، كما يوضح ذلك ديواناها وما فيها من مراسلات شعرية بينها . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده بانخاذه غالباً البدويات رمزاً لمحبوباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجود مجنون ليلي وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يبثُّ في وجده وجه شذا الحنان والشوق الذى يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى	وذروا السيوفَ تَقَرُّ في الأَغَادِ (١)
وحذارٍ من لحظاتِ أعينِ عينا	فلكم صرَعنَ بها من الآسَادِ (٢)
مَنْ كان منكم واثقاً بفؤادِ	فهناك ماأنا واثقٌ بفؤادِ
ياصاحبى ولى بجرعاء الحمى	قلبٌ أسيرٌ ماله من فادى (٣)
سلبته منى يوم بانوا مقلَّة	مكحولةٌ أجفانُها بسوادِ
وبحى من أنا فى هواه مئتُ	عَيْنٌ على العُشاق بالمرصادِ
كيف السيلُ إلى وصالِ محجَّبِ	ما بين بيضِ ظبَّا وسُرِّ صِعادِ (٤)
حرسوا مُهْفَهَفَ قَدَّو بمثَقَّفِ	فتشابه الميَّاس بالمَيَّادِ (٥)

وواضح أنه رمز لحبه والتباعد فيه برامة في نجد وظبائها ساحرات الأعين اللاتي يصرعن بهن الأسد ، وقد خلف قلبه أسيراً هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد

صعدة : القناة أو الرمح .

(١) رامة : موضع بالبادية .

(٥) الميَّاس : المتبختر . الميَّاد : المتابل ، والمثقف :

(٢) العين : بقر الوحش .

الرمح .

(٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزونة

(٤) الظبي : جمع ظبة : حدالسيف . الصعاد : جمع

أسر، وأحد لا يستطيع أن يصل أو يلمّ بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فمن دونها سيوف  
ورماح مسلوطة مشرعة ، ويعجب أن يُحرَسَ قَدُّها الرشيقي المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد  
أواميَّال . ويقول :

سَفَرْتُ وجاءتُ في العَلائلُ تَنبئني فأرثك حَظَّ المجتلى والمجتلى  
ورنتُ فما تُغني التمامُ والرقيَ وأبيك عن لحظات تلك الأعين  
بدويةً كم دونها من ضاربٍ بالسيف مرهوبٍ السطّا لم يؤمن  
لا يندعكُ لحظَ طَرفٍ فاتِرٍ أبداً ولا تأمن لعطفةٍ لَينٍ  
أَبَسْتَنِي ياهاجرى ثوبَ الضنا وأخذتني يا تاركى من مأمنى

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا ، ومدّت بصرها إليه فوق في جبال  
أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه التمام والرقي ، وإنما لبدوية أعراية تحميها السيوف المرفهة . وينصح  
صاحبه أن لا تحدعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عما يسيبان له من آلام وأوصاب دون أن  
يدوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خذوا جذركم من طرفها فهو ساهرٌ وليس بناجر من دَهتهُ المهاجرُ  
فإن العيون السودَ وهي فواترُ نقدُ السيوف البيضَ وهي بواترُ  
ولا تُخدَعوا من رِقّةٍ في كلامها فإن الحميا للعقول تُخايرُ  
من القاصراتِ الطَرفِ غارتُ لحسنا ضرائرها والنيراتُ الضرائرُ  
إذا ما اشتهى الخَلخالُ أخبارَ قَربها فياطيبَ ما تُملئُ عليه الضفائرُ

وهو يحتر من طَرفِ صاحبه ، فالسهم دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصمى قلبه ،  
وباللعب فإن العيون الفاترة الناعسة نقد السيوف الباترة القاطعة ، ومحدّر من رقة كلامها المعسول  
فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قربانها  
الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة في البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى  
تلمس خذلاها وكأنما تحدنه بأخبار قَربها ، ومن غزله في بواكير حياته :

خَدُّ تَوَقَّدَ إذ تَرَقَّقَ ماوَهُ لَهْفِي على التوقِّدِ المترقِّقِ  
حتى الحلَى لِحُسْنِها متوسِّسُ فاعجبُ لحسنِ للجهادِ منطَقِ

ياشمسُ قلبي في هوائك عطاردُ لولا تعرضه لها لم يُحرقِ  
 لم انس ما قالت وقد لمستُ يدي ماذا لقينا منه أو ماذا لقي  
 وأقول يا أنختَ الغزالِ ملاحاً فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقي

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرته يتلألأ فيه ويتفرق ،  
 مما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسنها يُنطق حتى الجواد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه  
 بها ، وما هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة  
 للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقيته وسلمتُ  
 أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شبهها بالغزال حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الغزال  
 ولا بقي ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هزوا القُدودَ وأرهفوا سمرَ القنا - واستبدلوا بدلَ السيفِ الأعمى  
 وتسقدموا للعاشقين فكلهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا  
 لاخيرَ في جفنٍ إذا لم يكنجلُ أرقاً ولا جسمٍ بجافاهُ الضنا  
 لما انثنى في حلةٍ من سندسٍ قالتُ غصونُ البانِ ما بقي لنا  
 شبهته بالبدر قال : ظلمتني - يا عاشقي والله - ظلما بينا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهن وسيوفها عيونهن وكل من  
 حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب  
 والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه في حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون  
 شجر البان الذي طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبهها  
 بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمتني ظلماً بيناً فهي أكثر منه جمالا وحسنا وروعة . ومن  
 آياته البديعة التي تتداولها كتب الأدب قوله في بعض غزله .

لبسنا ثيابَ العناقِ مزررةً بالقَبَلِ

ولعل في كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجداني وما أشاع فيه من الرقة واللفظ  
 والدمائة والظرف وعذوبة الروح وخفة الظل .

برهان<sup>(١)</sup> الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وُضعت إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكب على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرّس وحدّث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدائح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له ورأسه . وله في وصف شعره ونثره تقرير بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بجزائره . ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمي بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومرثي وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها :

أمسى ضريحك موطن الغفرانِ ومحلّ وفدٍ ملائِكَ الرحمنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلة محدّثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراقي والشيخ بدر الدين البشتكي ، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقي الدين الفاسي المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

٣٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٠/٦ والقصد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماه مطلع النيرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦ هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجوم الزاهرة ١٩٦/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٣١٤/٩ - ٣٩٨ و٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر

وأجاز له روايته ، وما زال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقاته بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .  
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أو كما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل  
يقدمه صاحبه لمحبوته مؤملا في الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصبابة  
والغرام والوجد الذي لا تنطفى ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف  
والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأبي لحظُ غزالٍ قائلٍ في الفلوات<sup>(١)</sup>  
أخذتُ بابلُ عنه بعضَ تلك الأنفثاتِ  
حسناتُ الخدِّ منه قد أطالتِ حَسراتي  
أعشقتُ الشاماتِ منه وَهَى أسبابُ ممانِي  
إنَّ للموتِ بأقدا حِ جفوني سكراتِ  
قلتُ قد مِتُّ غراما قال لي مُتُّ بجياني

والأبيات تطاير عن الفم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته في  
الفلوات ، غزال ينث في كل ما حوله السحر ، بفتنته وجمال وخطوده التي ملأت قلب الشيخ  
حسرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتملّى بحسبها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه  
ليبوب - أو كما يقول - ليموت وجدا والتياعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ،  
ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلّة عليه قائلة له : « مت بجياني » ومن  
نفس هذا المعين المتدقق السلس يقول :

غرامى فيك يا قمرى غريبى  
وملّنى الحميمُ وصدّ عنى  
وكم سأل العواذل عن حديثي  
وعمّ يسائلون ولى دموعُ  
بدتُ في خدّها شاماتُ مسكٍ  
إذا نيرانُ خديّها تبدّتْ  
ومن شغفى يعضن القدّ منها  
وذكرك في دُجى ليلي نديى  
ومالى غير دمعى من حميمِ  
فقلت لهم على العهد القديمِ  
تحدّثهم عن التّبأ العظيمِ  
كحظى أو كليلي أو هومى  
رأيتُ بهنّ جنّاتِ التّعيمِ  
أغارُ على الثّصون من النسيمِ

(١) قائل : من القيلولة وهي وسط النهار ، وفعله قال

وكأنى بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى ، ويقول إن غرامها غير يمه وذكرها  
 نديمه طوال الليل ، والتورية في البيت الثاني بديعة فقدمه الحميم والصديق في حب صاحبته ، ولم يبق  
 له إلا مدحه الحميم الحاريرافقه . ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع مافيه من الجناس وكذلك  
 البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة « النبا » وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجرى على  
 حدودها ، ويقول إن شامت حدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من  
 حظه معها أو من ليله أو من هوم حبا المشتعل في حنايا صدره . ويعجب أن يجمع خداه  
 بجمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارة وجئات النعيم وورودها الفاتنة . ويعلن غيرته عليها حتى  
 ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غضبها من غصون الرياض النَّاضرة . ويقول :

يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذلُ	أبجلُّ في شرع الهوى أن أهجراً
طلعتُ بدورُ التَّمِّ من أزراركم	فغدا اصطبارُ الصَّبِّ مُتَّقِصِمَ العُرا
من كل هَيْفَاءِ القَوامِ كأنها	غُصْنُ يجرُّه النسيمُ إذا سرى
ذُكرتُ فصغرها العذولُ جهالةً	حتى بدتُ للناظرين فكبرا
وجهلْتُ معنى الحسنِ حتى أقبلتُ	فرايته فيها يلوحُ مصوراً
لما درتُ أنى الكلمِ من الهوى	جعلتُ جواي في الحجة لن ترى <sup>(١)</sup>
يامنْ إذا ما مرَّ حَلُو حديتها	أغناك عن مرِّ العتيقِ وأسكرا <sup>(٢)</sup>
أرخصتُ يومَ البينِ سِعَرَ مدامعى	وتركتُ قلبى بالگرامِ مسعراً <sup>(٣)</sup>

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه ، فقد نفذ صبره إذ رآها مع  
 صواحبها الفاتنات وهن يمسنّ ميسن الغصون حين يداعبها النسيم ، ويقول إن العذول كان يحاول  
 الغض من جالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح . الله أكبر : أما هو فيرى فيها كل معاني  
 الفتنة مصورة مغرية . ولما علمت مقدار وجده المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة ، بل  
 مضت تُدبِّل عليه ، وتقول له : لن ترانى . ويعود إلى نداءها والتضرع إليها مصورا روعة حديتها  
 وحلاوته المسكرة ، ويقول لها : لقد أرخصت مدامعى وأسعرت قلبى أو أشعلته ناراً موقدة . وفي  
 البيتين الأخيرين طباق وجناس مندمجان في هذا الأسلوب السهل السائغ ، ويقول :

(٣) في مسعر تورية لأنها إما من السعرو وهو المعنى المتبادر  
 غير المراد ، وإما من السعير أى الجحيم وهو المعنى المراد .

(١) الكلم : الجريح . لن ترى : لن ترانى .

(٢) يريد بالعتيق الحمر المعتقة .

علموا بأنى لا أحولُ فعدَّبوا      وَدَرَّوْا بَأْنِي عَاشِقُ فَتَضَيَّبُوا<sup>(١)</sup>  
 قتلوا المتَّيِّمَ فى الهوى ونظلموا      وَجَتَّوْا عَلَيْهِ بِصَدْمِهِمُ وَتَعْتَبُوا  
 ومهضفٍ لولا حلاوةُ وجهه      مَا كَانَ مَرُّ عَذَابِهِ يُسْتَعَذَّبُ  
 إن كان يرضى أن أموت صبابةً      فَجَمِيعُ مَا يَرْضَاهُ عِنْدِي طَبِّبُ  
 يا باخلاً وله أجودُ بمهجتي      رَفَقًا عَلَى صَبِّ عَيْلِكَ يَعْذَّبُ  
 إن ملتَ فالأغصانُ يُعْهَدُ مِثْلَهَا      أَوْ غَيْتَ فَالْأَقْمَارُ قَدْ تَتَّعِبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حولا عنها فتادت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغبضا ، ومع أنها فككت بمحبها تشتكى منه ظلما وجورا . وما تزال تتجنى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطيب له الموت فى سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة . ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا<sup>(٢)</sup> طريفا أودعه خزائنه ، من مثل قوله :

تَنْفَسُ الصَّبْحُ فَجَاءَتْ لَنَا      مِنْ نَحْوِ الْأَنْفَاسِ مِسْكِيهِ  
 وَأَطْرَبَتْ فِي الْعُودِ قُمْرِيَّةٌ      وَكَيْفَ لَا تُطْرَبُ عُودِيَّةٌ

وعودية لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٨١ .

(١) أحول : أحول .

نور الدين<sup>(١)</sup> على المُسَبِّلِي

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيًا تلمذ لشيخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي : « نور حدة الزمان ونور (زهر) حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابله الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى شهرته بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الحِمَى ولياليه التي سَكَفَتْ      من أدمعى ومن الوَسْمَى هَتَانُ<sup>(٢)</sup>  
 لى فى الديار سقاها المزن صَيِّهُ      غزالُ حُسْنِ بديع الخلق قَتَانُ<sup>(٣)</sup>  
 يارِ رَبِّ الحسَن قد بالغتَ فى تلى      أما لهجرِكِ يالْمِئَاءِ هجرانُ<sup>(٤)</sup>  
 هلا نظرتِ إلى مُضْنَاكِ راحمةً      فكان يشفع منك الحسَنَ إِحْسَانُ

وهو لا يميل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبداً فى الديار غزال سحره وخلب لبه . ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعداب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَأَنَّ الذى أهوى على نفسه جَنَى      قال على تلك المحاسن بالفتك  
 فأغرق خَدَّيه بماءِ جِمالِه      وأوقع فى الظلِّماء ناظرَه التُّركى  
 وهاجفنه يبيكى عليه من الضنَّاء      وها خَصْرُهُ من ثِقَلِ أُرْدافِه يُشكى

وهو يجعل المحبوب التركي جائبًا على نفسه ، فقد أغرق خديه فى ماء جماله أو بعبارة أخرى فى رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداغى فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه يبيكى

(٣) المزن : السحاب . صَيِّهُ : مطره .

(٤) الريب : القطيع من الظباء أو البقر الوحش .  
 والاستعارة واضحة .

(١) انظر فى نور الدين العسلى وترجمته ربحانة الألبا

(تحقيق عبدالفتاح الحلوى) ١٩٧/٢ وما بعدها وشذرات

الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى : مطر الربيع . هتان : هطال .



على ضنائه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لَهُ ذُؤَابَةٌ كَحَيَّةٍ مِنْ خَلْفِهِ  
تَحْمَى ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِيٍّ رَدْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمي خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كُلُّ فِعَالِ الْحَبِّ مَحْمُودَةٌ وَإِنْ تَجَافَى وَتَجَنَّى وَتَسَاه  
فَوَضَلَهُ قَطَعُ لِدَاءِ الْأَسَى وَهَجَرَهُ قَطَعُ لِقَوْلِ الْوَشَاه

فهو يرضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من النظرف والرقه ورهافة الشعور مما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة في دولا ب (ساقية) روض صورته فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غبي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي ماتني تبكى على عهدا بالرياض ، وماتني عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومررنا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيلي وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

## ٢

## شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، فنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهـاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شدّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالبروءة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التي تصور بسالتهم الحرية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يردّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حرية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية<sup>(١)</sup> :

لله دَرَى إِذْ أَعَدُّوْا عَلَى فَرْسِي إِلَى الْهِيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَعْرِ  
وَفِي يَدِي صَارُمٌ أَفْرَى الرَّعُوسَ بِهِ فِي حَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يُبْقِي وَلَا يَدْرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتبية ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجَّهها إلى أبيه ثائرا عليه . وأخفقت ثورته . وينزل مصر في أيام كافور الأبخشيدي المتنبئ ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكل ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتبية . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابغة تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، وولتقي بعده بولي الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباتاته من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

وَلَقَدْ سَمِعْتُ عَلَى الْأَنَامِ بِخَاطِرِ اللَّهِ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا  
فَإِذَا نَظَّمْتُ نَظَمْتُ رَوْضًا حَالِيًا وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَاخِرًا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهنه كأنه بحر زاخر ، وهو يهدي منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . وولتقي بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حاسيا ملتبها على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصاري<sup>(٣)</sup> :

مَنَالُ الثَّرِيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِن عَاصَتْ عَلَيَّ الْمَطَالِبُ  
وَإِنِّي وَإِن لَمْ يَسْمَعْ الدَّهْرُ بِالْمَنَى فَلَ فِي كَفَالَاتِ الرِّمَاحِ مَآرِبُ  
تُقَرَّبُ لِي مُسْتَبْعَدَاتِ مَطَالِبِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى علين من السموات ، وطبيعي أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا ييأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٣ .

(٢) معجم الأديباء ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذي لا يُقَلَّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذي ترجمنا له في الفصل الماضي وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعائها فسجنه وهمم بقتله مما جعل المهذب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حرّيته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن في قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصيبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول (١) :

جَلَّتْ لَدَى الرَّزَايَا بِلَ جَلَّتْ هِمَمِي      وهل يَضْرُ جَلَاءُ الصَّارِمِ الذِّكْرِ  
لو كانت النارُ للياقوتِ محرقةً      لكان يَشْتَبُه الياقوتُ بالحجرِ  
لا تُغَرَّرَنَّ بأطْهَارِي وقيَمِيهَا      فإنما هي أصدافٌ على دُرِّ  
ولا تظنُّ خفاءَ النجمِ من صِغْرِ      فالذنبُ في ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمّل الرزايا والمصائب التي نزلت به جلدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار منها اضطربت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطهاره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطهار الخلقة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم في السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب في الصغر للبصر لا للنجم .

ونمضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر في أيامه من مجد حربي عظيم بسحقها الصليبيين في ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحققهم محقا لا يكاد يبق منهم ولا يذر . وكان لابد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا المجد البطولي الذي توجها به صلاح الدين ، وتغنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين في قصائد حماسية مضطربة ، كما مر بنا في ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر في أشعاره فخرا عارما ، وكان كل ما تجمّع في صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمّع في صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع (٢) :

سَوائِ يَخافُ الدهرَ أو يرهَبُ الرُّدَى      وغيرى يَهْوَى أن يكون مَحْلُدا  
ولكننى لا أرهَبُ الدهرَ إن سَطَا      ولا أهدُرُ الموتَ الرُّؤْمَ إذا عَدَا (٣)

(٣) الرُّؤْمُ : السريح .

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طرفه  
 توَقَّدُ عَزمِي يَبْرُكُ المَاءُ جَمْرَةً  
 وَأَظْمَأُ إِنِّ أَبْدَى لِي المَاءُ مِئَةً  
 ولو كَانَ إِدْرَاكُ الهَدَى بِتَدَلُّلٍ  
 وَإِنَّكَ عِبْدِي يَازِمَانُ وَإِنِّي  
 ولو عَلِمْتُ زُهْرَ النَجْمِ مَكَانِي  
 لَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَن أَمَدًا لَهُ يَدًا  
 وَحِلْيَةٌ جَلْمِي تَتْرَكَ السِّيفَ مِيرَادًا  
 وَلَوْ كَانَ لِي نَهْرُ المِجْرَةَ مِوردًا  
 رَأَيْتُ الهَدَى أَن لَا أَمِيلَ إِلَى الهَدَى  
 عَلَى الكُرْهِ مِنِّي أَن أَرَى لَكَ سَيِّدًا  
 لَحَرَّتْ جَمِيعًا نَحْوَ وَجْهِ سُجْدًا

وكانه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمه حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأجماد أمته الحربية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولا يهرب الدهر ولا يهرب الموت الزوام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لتنازله بعزم صادق يشعل الماء جمرا ملتها ويرد السيف كليلا صلداً لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظمأ إن أبدى له الماء مئةً ، بل إنه ليموت ظمأ حتى لو كان نهر المجره موردته وحقق له وروده كل ما أمله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة سيطرته عليه حتى كأنما ذل له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبدا مسترقاً ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعظيم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لورأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت في روحه مضر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير شعره وكان حامل لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُربِ عن شعري ودولته  
 إِذَا رَأَيْتُ قَوَافِيهَا وَطَلَعَتَهَا  
 كَأَنَّ أَلْفَظَهَا فِي سَمْعِ حُسْدَهَا  
 أَنَّ ابْنَ عَبَّادَ بَاقٍ وَابْنَ زَيْدُونَا  
 فَقَدْ رَأَتْ مَقْلَتَاكَ البَحْرَ وَالثُّونَا  
 كَوَاكِبُ الرَّجْمِ يَحْرَقْنَ الشَّيَاطِينَا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ ، فلا تزال حية نضرة ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد ورى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم آيات قصيده كسهب الرجم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح .  
وقلما نلتقى في الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشائيل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقذفون بسهامه -  
كما مربنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوي على نحو ما يصور  
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها  
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف  
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبي داود  
كان كثيرا ما يهجو مزريا على ماشاده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة  
كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضجّة للناس من خلف ستره تضحُّ إلى قلبٍ عن الله مُغفَلٍ

قلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابهِ وحرسه . ولا نشك  
في أن ابن أبي داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبني جامعه المشهور وعهد إلى بعض  
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبي في كافور الإخشيدي مشهورة ، وقد ظلّمه بدوره ظلما بيّنا .  
وكان المصريون قد احتضوا به حين نزوله في إلفسطاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين  
ظهرانهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبي الجوع وله  
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح (١) :

هاجيك فيما قاله مادحُ فأت في صَفقتك الراجحُ  
ياأيها الصَّعُو الذي لم يزل يرقص حتى دَفَّه الجارحُ (٢)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك  
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يدق عنقه صقرا أو نسر  
جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعة الغالية الراضية .  
وما زعمته للأئمة من نسبة إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

مما عرضنا له في غير هذا الموضوع . ويروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم الجمعة ،  
فأرى ورقة كتب فيها شاعر مصرى هذين البيتين <sup>(١)</sup> :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفْر والحماقة  
إن كنتَ أعطيتَ عِلْمَ عَيْبٍ فقلْ لنا كاتب البطاقة  
فتناولها العزيز وقرأها ولم ينيس بنت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار  
حفيظتهم بالإضافة إلى نخلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير  
من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة  
والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ  
أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا  
غاضبا <sup>(٢)</sup> :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا  
العزُ فيهم والمال عندهمُ ومنهمُ المستشارُ والملكُ

وهى سخريه من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل  
الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا  
كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين مرًا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجرائى  
وزير المستنصر وكان أقطع الديدن لخيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل  
الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخاطبه جاسوس الفلك قائلا <sup>(٣)</sup> :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودعْ الرقاعةَ والتحامقْ  
أمن الأمانة والثقى قُطِعَتْ يداك من المرافق

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجرايا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى  
بمقطعاته المهجائية الكثيرة فى الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول <sup>(٤)</sup> :

(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣

(٤) الحميدة ١٠٣/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢

قُلْ لَابِن بَدْرِ مَقَالَ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَفْرَحَنْ بِالْوَزَارَةِ الْخَلْقَةَ  
إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَهَا مُرَاغِمَةً فَهَيَّ عَلَى الْكَلْبِ بَعْدَكُمْ صَدَقَهُ

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم المحلى الملقب برضى الدولة المار ذكره  
يهجو بعض أصحاب الدواوين وما كانوا عليه من فساد فى جمعهم للضرائب ، يقول (١) :

وَكُتَّابٍ لَهُمْ أَبَدًا حُمَاتٌ تُعَدُّ لَهَا الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ (٢)  
بِأَيْدٍ تَبْتَدِرُنْ إِلَى الرِّشَاوَى كَأَيْدَى الْخَيْلِ أَبْصُرْتَ الْخَالَى

فكأنهم يشبهون الزنابير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم  
الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بجمتها أو إبرتها وكما يلسع الصل أو الأفعى بسمه القاتل .  
ونلتقى فى أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتهم على الرشيد بن الزبير وكان شديد  
السواد (٣) :

إِنْ قَلْتِ مِنْ نَارِ خُلِقْتَ وَفُقَّتْ كُلُّ النَّاسِ فَهَمَّا  
قَلْنَا صَدَقْتَ فَا الَّذِى أَطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحَا

وهى دعابة قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولا بن قادوس أحيانا هجاء ملىء  
بالسوم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله فى مناقب مايزال يتلون لكل شخص باللون الذى يعجبه ،  
يقول (٤) :

حَوْلَهُ الْيَوْمَ أَنْاسٌ كُلُّهُمْ يُزْهَى بِرَائِهِ  
وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْنُهُ لَوْنُ إِنَائِهِ

ونغضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكويهم  
بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يصفع بالنعال على حد قوله (٥) :

وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ  
وَمَا عَلَيْهِ قَطُّ مِنْ صَفْعِ النَّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الخريدة ١/٢٢٩ .

(١) الخريدة ٢/٤٧ .

(٤) الخريدة ١/٢٣٣ .

(٢) حات : جمع حمة وهى إبرة الزنبور والعقرب .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوّرهُ يُصَفِّعُ بالتعال ولا مغِيث له ولا مجير ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذي لا يدمى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله <sup>(١)</sup> :

رَبٌّ نَقِيلٌ لُبُغْضٍ طَلَعَتْهُ أَخْشَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ كَأَجْلَى  
وَكَلِمًا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ عَمَلِي

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفاترى مستغلا اسم أبيه في هجائه <sup>(٢)</sup> :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا  
وَبَيْنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر المالك يريشون سهام الهجاء ، ويلقانا في أوائله الجزار والوراق ولها أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرهما البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أو كما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة ، ومن قوله فيهم <sup>(٣)</sup> :

ثَكَلْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا  
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جِبَاةٌ لَقَبُصٌ مُغَلَّهَا كَالْمُقَطَّعِينَا  
تَحَيَّلَتِ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمَّوهُ الْأَمِينَا  
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدَلَ ظُلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجمعون بفتاواهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . وما يلاحظ

(٣) الديوان ص ٢١٨ .

(١) البهاء زهير للشيخ مصطفي عبدالرازق ص ٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥٨٧ .



أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا<sup>(١)</sup> :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضَّتُهُمْ صِدْقَ الْوَلَا تَطُولَا<sup>(٢)</sup>  
وما رَعُوا عهدا ولا مسودَّةً ولا ولا

وفي كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله<sup>(٣)</sup> :

رَبُّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مِتْوَالِي  
كَلَّفُونِي بَيْعَ خَيْلِي بِرَخِيصٍ وَبِغَالِي

والتورية في كلمة بغالي مع كلمة برخيصة - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعمد إليها في هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظلم نلتقى بالهجاء في أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جميعها على النمط التالي<sup>(٤)</sup> :

يا ضَيْعَةَ الْهَيْمَانِ مِنْ عَائِلِي قَبِيلِ عَيْدِ أَعْوَزِ الْفُطْرَةِ<sup>(٥)</sup>  
وياقَافَا الْمَهْزُومِ مِنْ فَارِسِي أَدْرَكَهُ فِي سَاحَةِ قَفْرَةِ  
وَبَهْتَةَ السَّكْرَانِ مِنْ هَاجِمِي فِي لَيْلَةِ مَظْلَمَةِ قَرَّةِ<sup>(٦)</sup>  
ويانَعِيًّا جَاءَ عَنِّ وَاحِدِي إِلَى عَجُوزِ مَالِهَا أُسْرَةِ

وتخصى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المضمي تكليل الذم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة<sup>(٧)</sup> طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداعب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

- 
- (١) ربحانة الألبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ص ٤١ .  
(٢) تطولا : تفضلا .  
(٣) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٩ .  
(٤) نغمة الربحانة للمحبي ٦١٢/٤ .  
(٥) الفطرة : التقل في لغة المصريين العامية . الهيمان : كيس النقود .  
(٦) قررة : باردة .  
(٧) تاريخ الجيفي ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم الثَّو سَ لقاسمٍ وأذلَّ هامةً  
وكساه ثوبَ جنايةٍ يَحْزَى بها يومَ القيامةِ  
ومضى يتمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسل الكحل من العيون ، وردَّ عليه  
قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنها يعيدان لنا نقائص جرير والفرزدق يقول  
قاسم :

جَلَّ الذي . قسم الثَّقَا لشبانةٍ وله أدامةُ  
بعمامةٍ لوخالها الـ قَلًّا توهمها بِرامهُ  
موروثهٍ عن جَدِّه من قبل أن تُبْتَى القِمَامهُ  
لو كان يصلحُ للصلا ة لِحَقِّ للقرِّدِ الإمامهُ

والقَلَّ مقصور القَلَّاء وهو من يَقلُّ اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذي يُقلَى فيه . يشير  
بذلك إلى ضخم رأسه وقذارة عامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت  
حوالى سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة فى الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر  
والهجاء :

### تميم<sup>(١)</sup> بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التي بناها  
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور فى نفس السنة التي ولد فيها تميم  
حفيده إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار  
وعقيل ، وكان المعز قد بوع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفى سنة  
٣٤١ . وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصييفا سيوسا ، دانت له إفريقية من تونس  
إلى المحيط ما عدا سبتة فإنها ظلت - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموى  
صاحب الأندلس ، وسيّر جوهرًا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا فى غير هذا  
الموضع - ودخلها المعز فى سنة ٣٦٢ وكان على الهمة بحكم تدبير الأمور حازما منتهى الحزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة  
ديوانه ( طبعة دار الكتب المصرية ) .

(١) انظر فى تميم وترجمته وأشعاره البيعة ٤٣٦/١ وابن  
خلكان ٣٠١/١ والحلة السمرية ( طبعة د . حسين مؤنس )  
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب فى أدب مصر

وانضح حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لا يزال في المنصورية بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته تيمما في مجونه <sup>(١)</sup> .

ويبدو أن المعز حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله <sup>(٢)</sup> ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متمسما باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المعز عُني بتربية ابنه تميم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكب على الشعر العربي في أزمنته المختلفة بتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، فمضى في سيرته ، يحيا للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيريثهما رثاء فاترا ، وهورثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألاما شديدا لغريته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يرد العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان في حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يصدق عليه إغداقا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطل على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المعشوق ، غير ما كان يضي عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يجيا حياة ترف وهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأديرة . وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في مطلع شبابه ، وقد عاد نصرها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كناية تميم بأبي على قاطعة في أنه أنجب فضلا .

(١) سيرة جوزف (تحقيق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .  
(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السبراء أن السبب في صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب

مضارب وسراذقات وقباب بركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلاً في النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسمعهم بعض قياته . وفي ديوانه ما يصور كتوس اللهو والمجون التي كان يعبّ منها عباً ، ومرّبنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تميم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان يضيف إلى هذا المديح فخراً يمتزج أحياناً بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا الصبحُ	أنا الشمسُ	أنا البدرُ	الذي يسرى
أنا المرجوُّ	في العُسرِ	أنا المرجوُّ	في السُرِّ
أنا المُسبِلُ	للنُعمي	أنا الكاشفُ	للضُرِّ
أنا الراتقُ	للفتقِ	أنا القاصمُ	للظُّهرِ

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبر الكون ومقسّم الرزق المرجو في العسر واليسر والمسبغ للنعمي والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذکر ، يريد أنه العارف لبواطن الذکر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

أبني عليُّ إن نكنزُ نُنمى إلى	حَسَبِ أَنافِ بنا وَجدُ أروعا <sup>(١)</sup>
فلقد علمتُ أنني أغشى الوغى	وأنوبُ في الجبلى قولا مُسمعا <sup>(٢)</sup>
ولقد علمتُ أنني رُضتُ العلاء	يَقَعًا وحاولتُ المكارمَ مُرضعا <sup>(٣)</sup>

(١) أناف : أشرف وارفع .

(٢) الجبلى : القى في إبان شبابه .

(٣) الرض : صيغة بالغة من

فَدَعُوا لِي الشَّرْفَ الَّذِي شَدَّيْتَهُ إِذْ هَضَمْتُمُوهُ فَانْكَفَأَ وَتَضَعَّضَعَا (١)  
 لِي فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ جَوْلَةً يَعْلَمُونَ بِهَا قَلْبُ الزَّمَانِ مَصْدَعًا  
 فَادْفَعْ بِحِدِّ السَّيْفِ كُلَّ ظُلَامَةٍ إِنْ لَمْ تَجِدْ يَوْمًا سِوَاهُ مَدْفَعًا  
 فَبِذَلِكَ أَوْصَانِي الْوَصِيِّ وَرَهْطُهُ وَعَلَى فَرَضٍ أَنْ أُطِيعَ وَأَسْمَعَا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالی والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه في الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلاء وساسها في مطلع شبابه وأنه حاول المكارم منذ كان في المهد مرضعا . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذي يمنونه منه ، وكأنه يندرهم ويهددهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك وصية جده أبي الأوصياء علي بن أبي طالب وأبناؤه من الأئمة وأن فرضا عليه أن يسمع ويطيع . ولا ريب في أن هذه المعزوفة التي كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيّق بها العزيز ، غير أن غمتها سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قلميته ووجوب طاعته .

ومعزوفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر في قيثارته ، وتقصد ردوده العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسي بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاهه موقفان : موقف يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز في فخره بأسرته وينقضها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يرثي عليها ، وهو في الموقف الثاني حر يختار أي وزن ينظم فيه وأي قافية ، أما في الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التي يرد عليها وقافيتها على شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق في نقائضها ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز استلها بقوله : « أَيُّ رَجَبٍ لَالَ هِنْدٍ وَدَارِهِ عَمْدٌ تَمِيمٌ إِلَى نَقْضِهَا بِقَصِيدَةٍ تَمَثَّلُهَا فِي الْوِزْنِ وَالرُّوْيُ ، وَفِيهَا يَقُولُ ، رَأْدًا عَلَى ابْنِ الْمُعْتَزِ وَالْعَبَّاسِيِّنِ جَمِيعًا :

لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمَثَلِ عَلِيٍّ هَلْ تَقَاسُمُ النُّجُومُ بِالْأَقْمَارِ  
 مَنْ لَه الصُّهْرُ وَالْمَوَاسَةُ وَالنُّصْرَةُ ، وَالْحَرْبُ تَرْتَمِي بِالشَّرَارِ  
 مَنْ دَعَاهُ النَّبِيُّ حِدْنًا وَسَمًا هُ أَنْتَا فِي الْخِضَاءِ وَالْإِظْهَارِ

(١) هضتموه : من هاض العظم إذا حطمه وكان على وشك أن ينجر .

مَنْ لَه قَالَ أَنْتَ مِنْى كَهَارِو نَ وَموسَى أَكْرَمَ بِهِ مِنْ نِجَارِ (١)  
 ثُمَّ يَوْمَ الْعَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ خَصَّه دُونَ سَائِرِ الْحَضَارِ  
 مَنْ لَه قَالَ : لَاقَى كَعْلَى لَا وَلَا مُنْصَلُّ سَوَى ذِى الْفَقَارِ (٢)  
 مَنْ تَوَطَّأَ الْفِرَاشَ يَحْلُفُ فِيهِ أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ  
 وَلَنَا حُرْمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَعْدَاءِ سَامِ وَالسَّبْقِ وَالْهُدَى وَالْمَنَارِ  
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادَسْنَا الرُّوحُ أَمِينُ الْمُهَيْمِنِ الْجَبَّارِ  
 حُجَّجُ كَلِمَا تَأْمَلُهَا الْعَالَمُ لِمُ بَانَ لَهُ بَيَانَ النَّهَارِ

وتعم يوازن بين جده على بن أبي طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفاخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأيمن في الحرب ، ويشير إلى حديث نبوى ترويه الشيعة : أن النبي عليه السلام قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - في اعتقادهم - أحق من الشيخين : أبى بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدِيرِ خُمٍّ وهو موضع بين مكة والمدينة انتهى فيه الرسول ﷺ على ابن عمه على ، وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى في هذا اليوم بالخلافة لعلى . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجرى يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذى الحجة عيداً لهم . ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لاقى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذى اصطفاه الرسول لينام فى فراشه ليلة خرج مع أبى بكر مهاجراً إلى المدينة ، مخترباً حصاراً مسلحاً ضرته قريش حول بيته ، حتى لا تتببه إلى خروجه ، وكانت قد بُيئت القضاء عليه ( يريدون أن يُطْفِئُوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين فى أنهم من سلالة أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول أتى كِسَاءَ عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن والحسين وكان سادسهم - كما يقول تميم - جبريل وقال : نحن أهل البيت فى خبريرددونه . ويذكر جهاد على المبرورى وغزوات الرسول وخاصة فى بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعاً بلاء عظيماً . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية على وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

(٢) منصل : سيف .

(١) نِجَار : أصل وحسب .

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

وتتم في الموقف الثاني الذي لا يتقضى فيه قصيدة بعينها لابن المعتز يلح على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرا بشرر كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومته سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعلى أو عن طريق خدماته الجللى للدين الحنيف ونصره . وبعد طرفا من هذا الجدل إلى بنى أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموى - ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - كتابا يسبه فيه ويهجو ، فكتب إليه : « أما بعد فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب <sup>(١)</sup> . ولعل ذلك ما جعل تيمم يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إِنْ قُرَيْشًا بَعْلًا هَاشِمٌ	تَفْخِرُ فِي عَقْوَةِ عَرِيْسِهَا <sup>(٢)</sup>
إِنْ يَكُ مِنْ يَاقوتِهَا هَاشِمٌ	فَعَبْدُ شَمْسٍ مِنْ ضَعَايِسِهَا <sup>(٣)</sup>
اسْمٌ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ	أَهْلُ مَعَالِيهَا وَتَقْدِيْسِهَا
دَعَّ عَبْدَ شَمْسٍ وَأَبَاطِيلَهَا	فَقَدْ بَدَأَ اللَّهُ بِتَنَكُّيْهَا
قَبِيْلَةً مَا ظَهَرَ اللَّهُ مَنْ	شَايِعَهَا مِنْ إِثْمٍ تَنْجِيْسِهَا

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنوه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيتهم ، أما عبد شمس وبنوه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقبيلة آتمة إنما فظيعا ، وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذ كرسفكمهم لدم الحسين وسيهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(٣) الضعائيس : جمع ضفوس : الضعيف اللئيم .

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

## طلائع<sup>(١)</sup> بن رزّيك

أرمنى الأصل قَدَم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبي طالب بالنجف ، وكان لا يزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولا حسنا ، فسار إلى مصر ، وترقى في خدمة الفاطميين حتى وُلّوه حاكما لمنية الخصب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجي وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قرب من القاهرة فرعباس بما نهب من أموال القصر الفاطمي إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولي الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفاتر (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صيبا لا يعدو خمس سنوات ، فدبّر الدولة طلائع وأحسن تديرها ، حتى إذا توفى الفاتر بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلا لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاقد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدرك عام في خلافة العاقد حتى دبّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاقد نفسه هو الذي أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعيا لا على مذهب الفاطميين الإسماعيليين ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئ : « كان رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتديرا » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتابا سماه « الاعتاد في الرد على أهل العناد » ويقول المقرئ إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضا بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجهورية في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت العصرية عليه وعلى حياته وأجاده ومدائمه ومدائح  
غيره فيه ، ونشر محمد هادي الأميني ديوانه في النجف ،  
وأودع في مقدمته نبئا مفصلا بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلائع وترجمته وأشعاره الحريدة ١/١٧٣  
والغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٢/٥٢٦  
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر  
الفهرس) وخطط للمقرئ ٣/١٩٢ وبني عمارة اليمنى كتابه



يا أمة سلكت ضللا بيّنا حتى استوى إقرارها وجُودها  
 ملّتُم إلى أن المعاصي لم يكن إلا بتقدير الإله وجُودها  
 لو صغّ ذا كان الإله بزعمكم منع الشريعة أن تُقام حُدودها

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه في منزله وخاصة الجليس بن  
 الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهد كعبة للقصاد من شعراء البلاد  
 العربية أمثال ابن الدهان الموصلي وعمارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه  
 يقول العماد : « نفق في زمانه النظم والنثر واسترقّ بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ،  
 واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعطاء » . وقد  
 أدار العماد كثيرا من تراجمه في القسم المصري من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف في أيامه  
 الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحيه  
 وافتحه بترجمته ، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادي الأمين ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسة وعشرين صحيفة ،  
 ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وإنه كان يقع في جزءين ، وكان ديوانه المنشور وإنما هو  
 مقتطفات من ديوانه الأصلي ، واتهم بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من  
 صنع شاعريه : الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما  
 كان يرجع إليها لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانا يصلحان له شعره . وأكثر  
 الديوان المنشور في مديح آل البيت وراثتهم وثناء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النغم  
 الحزين الكثير في شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخلوا يوما يندبون فيه هو  
 يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير  
 الكثير في الموت ، حتى في يومه البيح يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام  
 عينيه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربعه في دسّت الوزارة :

انظُرْ إلى ذى الدارِ كم قد حلَّ ساحتها وزيرُ  
 ولكم تبختر آمنا وسطَ الصفوفِ بها أميرُ  
 ذهبوا فلا والله ما بقى الصغيرُ ولا الكبيرُ  
 ولثلل ما صاروا إلي ه من الفناء غدا نصيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، ففضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاتلهم طوال أيامه ، حتى لقبه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لا ينى آيبا ذاهبا إلى مواجهة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنونى فلسطين ودقَّ أعناقهم وسفك دمايهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

توالَتْ علينا فى الكئاب والكبِّ      بشائِرُ من شَرَقِ البلادِ ومن غَرْبِ  
جبلنا جبالَ القُدْسِ فيها وقد جرتْ      عليها عتاقُ الخيلِ كالثَّقَفِ السُّهْبِ<sup>(١)</sup>  
وقد أصبحتْ أوعارُها وحزونها      سهولاً تُوطأُ للفوارسِ والرَّكَبِ  
ولما غدتْ لآماءِ فى جَنابِها      صَبَّنا عليها وإبلاً من دمِ سَكَبِ<sup>(٢)</sup>

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دمايهم على جناب فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيزْرِىِّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضيق الحناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامة فى ميمية استهلها بقوله :

ألا هكذا فى الله تمضى العزائمُ      وتمضى لدى الحربِ السيوفُ الصَّوارِمُ<sup>(٣)</sup>  
وتُعزى جيوشُ الكفرِ فى عقرِ دارِها      ويوطأُ حياها والأنوفُ رَواعِمُ<sup>(٤)</sup>  
خيولُ إذا ما فارقتْ مصرَ تتبغى      عِداً فلها النَّصْرُ الميِّبُ ملازم  
يسير بها ضرغامُ فى كلِّ مآزق      وما يصحب الضَّرغامُ إلا الضراغِمُ<sup>(٥)</sup>  
فقولوا لنور الدين لا فُلَّ حَدَّةُ      ولا حكمتْ فيه الليالى العَواشِمُ<sup>(٦)</sup>  
تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولا تهنْ      وتظهرْ فتورا أنْ مضتْ منك حارِمُ

(٤) عقر : وسط .

(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد .

(٦) العواشم : الشديدة الظلم .

(١) عتاق الخيل : كرامها . الثقف : القلاة . السهب : المستوى .

(٢) وإبلا : مطرا شديدا . السكب : الهائل السائل .

(٣) الصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيَّق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيَّق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثر بالقرب من حمص يسمى أنطَرطوس ونكَّل في الثغرين بحملة الصليب وسفهم فكبح طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يبشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإف رنج ما لا يناله التأميلُ  
فحوى من عكا وأنطَرطوسِ عِدَّةٌ لم يُحِطْ بها التحصيلُ  
أبلغن قولنا إلى الملك العا دل فهو المرجو والمأمول  
قل له كم تُتأمل الدين في الكف ر فاحذر أن يغضبَ المطولُ  
سير إلى القدس واحتسب ذاك في اللد ه فبالسير منك يُشقى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع في حماسياته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقعوا بين شقي الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبها إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعدُّ حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصرت أيام الأفضل بن بدر الجمالى ومن جاء في إثره من الوزراء ، فلما ألقى مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهز الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . ودائما يبيب في كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزقوا كل ممزق ، غير أن يدا أئمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، وراثه عمارة وغيره من الشعراء مرثى حارة .

## ابن (١) الذُّرَوِيُّ

هو الوجهه على بن يحيى الذُّرَوِيُّ أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبيية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الخريدة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن الذروري شاعرا مجيدا نوه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يابانُ إن كان سَكَّانَ الحِمْيِ بانوا ففَيْضُ شَأْنِي له في إثرهم شانُ  
مَنْ لى بأقارِ أنسٍ في دُجَى طُرُرٍ أفلاكُها العيسُ والأبراجُ أظعانُ (٢)  
مِنْ كل قانية الحَدَّين ناهدة لو كان للضمِّ أو للثَمِّ إمكانُ

وفي البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع و « شان » في آخر البيت بمعنى خير . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يتمنى لو يلقى أقمارا مضيئة في ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهن ركنن العيس فكأتما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

(١) انظر في ابن الذروري وترجمته وأشعاره الخريدة

١٨٧/١ وللغريب (قسم القنطرة) ص ٣٣٣ و٣٤١ والفوات

١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ و٤١٦/٢ والروضتين

٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والحزانة ص ١٢٣ وابن خلكان

في مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .

(٢) الطرر : جمع طرة وهي مقدمات شعر المرأة الذي

تصفه على جبهتها . العيس : الإبل .

موهبة الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر معاصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لَا تَظُنُّنَّ حَدَبَةَ الظَّهْرِ عَيْبًا فَهِيَ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ  
 وَكَذَلِكَ الْقِسِيُّ مُحَدَّوْدِيَاتٌ وَهِيَ أَنْكِي مِنَ الطَّبَّا وَالْعَوَالِي <sup>(١)</sup>  
 وَإِذَا مَا عَلَا السَّنَامُ فِيهِ لِقُرُومِ الْجِجَالِ أَيْ جِجَالٍ <sup>(٢)</sup>  
 وَأَرَى الْإِنْخَاءَ فِي مَنْسِرِ الْكَأ سِرٍ يُلْقَى وَمِخْلَبِ الرَّثْبَالِ <sup>(٣)</sup>  
 قَدْ تَحَلَّيْتَ بِإِنْخَاءٍ فَأَنْتَ الـ رَّاعِجُ الْمُسْتَمِرُّ فِي كُلِّ حَالٍ  
 وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ وَزْرِكَ فِي الظَّهْرِ بِرٍ فَأَمَّا فِي مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ  
 كَوْنُ اللَّهِ حَدَبَةً فِيكَ إِنْ شَدَّ تَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنَ الْإِفْضَالِ  
 فَأَنْتَ رَبُوءٌ عَلَى طَوْدِ حِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةٌ بِبَحْرِ نَوَالِ  
 مَارَاتِهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ لَوْ غَدَتَ حَلِيَّةٌ لِكُلِّ الرَّجَالِ  
 وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْهَجْرِ بُدٌّ فَعَسَى أَنْ تَزُورَنِي فِي الْخِيَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حصينة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن في الهلال ، ويأخذ في بيان حسنها وفضائلها ، فالقسي أشد فتكا من أسنة السيوف والرماح ، وهي مصدر جمال كالسنام للجبال ، وما كان الانخاء عيبا في منقار النصور ومخلب الأسد المصور . ويتصوره راكعا مدى حياته ، ويعود فينتق عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزر كبير مجسد تعجل حملة في دنياه . ويعود إلى السخرية والتهمك فيقول إنها ربوة تعلق طود حلمه أو موجة تعلق مياحه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتتمنى لو تحلّى بها كل الرجال . ويتأدى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ونحز فقيها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هُوَ فِي الْفَقْهِ مَاهِرٌ لَا يُبَارَى وَأَدِيبٌ فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ  
 لَا إِلَى هَوْلَاءَ - إِنْ طَلَبُوهُ - وَجَسَدُهُ وَلَا إِلَى هَوْلَاءَ

(١) الظبا : جمع ظبه وهي حد السيف . والعوالى :  
الرماح .

(٢) قروم الجمال : عظامها

(٣) منسر الكاسر : منقار الطير الجارح . الرثبال :  
الأسد .

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : ( مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ) . وكان يعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بحمامٍ نعمتُ بهِ والماءُ ما بيننا من حَوْضِهِ جارِ  
كأنه فوق شَفَافِ الرُّحَامِ ضُحَى ماءٍ يسيل على أبوابِ قَصَارِ

والقَصَارُ : مبيض الثياب وغاسلها ، وكان الشاعر غفل ، فشبّه الماء بالماء . وانتَهز الصديق ابن الذرّوى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له فكاد يَحْرِقُه من فَرَطِ إِذْكَاءِ  
أقسامٍ يُجهدُ أياماً قَرِيحَتُهُ وشبّه الماءَ بعد الجُهدِ بالماءِ

وشاع الشطر الأخير على السنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرّوى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرّوى فعمد إلى هجائه بقوله :

وَنَيْلَوْفَرٍ أَبَدَى لَنَا باطِنًا له مع الظاهر المَخْضَرُّ حُمْرَةً عَنْدَمٍ (١)  
فَشَبَّهْتُهُ لما قَصَدْتُ هِجَاءَهُ بكاساتِ حِجَامٍ بها لَوْنَةُ الدَّمِ (٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبّح كل حسن مها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذى طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

(٢) الحجام : محترف أخذ الدم بالحجم .

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصبغة .

أحمد<sup>(١)</sup> بن عبد الدائم

هوشهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرْمَسَاحِي نسبة إلى شَرِّ مَسَاح : بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا ، ولد في أوائل زمن المالك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيه شهاب الدين الحَوَّيِّي وقدم إليه قصيدة هجو فردَّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشهر فلنك إذا أدبني قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضي ، فأشتره ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرَّحَلِّ الديماطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يضع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهنئه فيها بعودته إلى عرشه وبهجو المظفر بيبرس ويعرض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرَّحَلِّ وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وَلِيَّ الْمَظْفَرِ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ      وناصِرُ الحقِّ وافيٌّ وهو مُنتَصِرُ  
فَقُلْ لِيْبِيْرَسَ إِنْ الدَّهْرُ ألبَسَهُ      أثوابَ عاريةٍ في طولها قِصْرُ  
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الخَيْرُ عن أُمِّمِ      لم يحمداوا أمرهم فيها ولا شكروا<sup>(٢)</sup>  
وكيف تمشي به الأحوالُ في زمنِ      لا التَّيْلُ وافيٌّ ولا وافاهمُ مطرُ  
ومَنْ يقومُ ابنُ عدلانٍ بِنُصْرَتِهِ      وابن المرَّحَلِّ قُلْ لي كيف يتصرُّ؟

(٢) تولى الأولى بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره الثغرات ٨٦/١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصّر النيل في فيضانه أجذبت بعض البلاد وارتفع السعر. وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامها ضده إلى بيبرس الجاشنكير، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها، ومّر به ابن عبد الدائم فأنشده:

والله ماسرني عزلُ ابنِ عدلانِ

فقال له: جزيت خيرا. فأكمل البيت قائلا:

من غير صفعٍ ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة. وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف، وكأنه أراد أن يبتزّه، وكانت فيه صرامة فازدراه فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورعاً مثل أبيه، وتمضى القصيدة على هذا النمط.

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ، وأوقافُها ما بين عافٍ ودارسٍ<sup>(١)</sup>  
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حسرةً وَيَشْبَعُ بالأوقافِ أهلُ الطيّالِسِ<sup>(٢)</sup>

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعظائم هما منها براء، وكلها كذب وبهتان وافتراء، وكاد القاضي ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه. وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديداً، وساءت حالته، فإن لحوم العلماء مسمومة. وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالي سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيخ في زمنه.

### حسن البدرى الحجازى الأزهرى<sup>(٣)</sup>

يقول الجبّرى في ترجمته: «كان عالماً فصيحاً مفوها متكلماً منتقداً على أهل عصره وأبناء عصره» ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة: صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه وسنن أبى داود وسنن النسائى وجامع الترمذى. وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(٣) انظر في حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ

(١) عاف ودارس: محو زائل.

الجبّرى ٧٥/١ وما بعدها.

(٢) الطيّالِس: جمع طيلسان وهو كساء كان خاصا

بعلماء الدين تميّزا لهم.



مبكرة وعنى بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد ، والدرّة السنيّة في الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجبرقي شعره فيقول : له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلما تجد في نظمه حشواً أو تكلمة ، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجراع الإيثار من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليفة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قوم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أوجهوره على الأقل لم يكن مديحا وهجاء وغزلا وعتابا وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقدا للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الظم لسلك الناس حتى ليدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعاقل من اجتنبهم وفر منهم فرار السليم من الأجر لا من الأبعاد فحسب بل أيضا من الأقارب ، يقول :

أخى فطنتا كُنْ واحذر الناسَ جملةً ولا تَكُ مغرورَ الظنون الكواذب  
ولا سميّا نوعُ الأقارب إنهم عقابك في الدنيا وعُقرُ العقارب<sup>(١)</sup>

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثريا ليرثوك ، وإن كنت فقيرا كنت لديهم خسيسا أخس من الكلاب . وهو على هذا النحو سبى الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سباط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذرْ أُولَى التَّسْبِيحِ والسَّبْحَةِ	والصُّوفِ والعُكَّازِ والسَّمَلَةِ <sup>(٢)</sup>
قد صار إبليس لهم تابعا	يقول يا لَلْعَتُونِ والتَّجْدَةِ
مما حَوَيْتُمْ عِلْمُونِي فما	لِي عَنْكُمْ فِي المَكْرِ من غُيْبَةٍ
لكم قيادى وانقيادى وما	مِثْلَكُمْ فِي النَادِ والتَّنَادَةِ <sup>(٣)</sup>
وأنتم تاجى على هامى	ماهِمْتِ إِلا كُنْتُمْ هِمَّتِي <sup>(٤)</sup>

(٣) الناد : التادى حلقت الياء لضرورة الشعر .

(٤) همت : من هام بهم إذا خرج على وجهه لا يدرى أين يتوجه .

(١) عقر : بيت أو منزل .

(٢) السملة : شال كالطليسان يتلقع به على المنكين والصدر .

وهو طبعاً يقصد نفراً من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته  
ومسئوليته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون  
الجنون وتظنهم العامة أقطاباً وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مزاراً ، يقول :

لَيْتَنَا لَمْ نَعِشْ إِلَى أَنْ رَأَيْنَا كُلَّ ذِي جِنَّةٍ لَدَى النَّاسِ . قُطْبًا  
عَلَمًا هُمْ بِهِ يَلُوذُونَ بَلْ قَدْ تَخَذُوهُ مِنْ دُونِ ذِي الْعَرْشِ رَبًّا  
إِذْ نَسُوا اللَّهَ قَائِلِينَ فُلَانٌ عَنْ جَمِيعِ الْأَنْامِ يُفْرِجُ كَرْبًا  
وَإِذَا مَاتَ يَجْعَلُوهُ مَزَارًا وَلَهُ يُهْرَعُونَ عُجْمًا وَعَرَبًا

وكاننا بإزاء داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالجنوديين وتقيم لهم  
الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتاً . ومع كثرة أشعاره في هذا  
الجانب لم تترك وراءها في مصر أثرًا . على أننا نجد بوجه ذمه وهجاءه - ظلماً وعدواناً - لبعض  
رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه ، فلا رجال الدين  
انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أرباباً .

### ٣

#### شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمياهه المتدفقة العذبة وبما  
ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى ناقماً لأعباه من حوض إلى حوض ، بأثا الحياة  
والجمال في كل ما يمسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد  
وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه  
الجنات يسرحون الطرف فيها والخيال ، فتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتمتعهم الشعور بما خصَّ  
الله ديارهم من هذا النعيم الذى يقصر أى وصف عن تصويره . وطبيعى أن يتردد ذكر النيل على  
أسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ومحدثنا ابن قيس الرقيات  
حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نيلية له من الفسطاط  
إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير  
أن الشعر المصرى في عصر الولاة لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة

احفظ بها الكندي . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المرعي القاسم بن يحيى شاعر خازويه يخص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله (١)

وَمَطَايَا لَا يَغْتَدِينُ وَلَا يَسُوءُ      أَمَّنَ كَدُّ الْبُكُورِ بَعْدَ الرُّوْحِ (٢)  
 أَصْلُهَا الْبُرُّ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي الْوَادِ      سَبَحَ سَكْنَى إِقَامَةٍ لَا بَرَا حِ  
 وَإِذَا أُوقِرَتْ فَذَاتُ وَقَارٍ      وَإِذَا أُخْلِيَتْ فَذَاتُ مِرَاحٍ (٣)  
 جَارِيَاتٌ مَعَ الرِّيَاحِ وَطَوْرًا      كَاسِرَاتٌ بِالْجَرَى جِدُّ الرِّيَاحِ  
 سَارِيَاتٌ لَا يَشْتَكِينُ سُرَى اللَّيْلِ      لَمْ يَلْ وَلَا يَرْتَقِبْنَ ضَوْءَ الصَّبَاحِ  
 لَا يَخْفَنَ الْغَمَارَ يُقَدِّفَنَّ فِيهَا      وَيَخْفَنَ الْمُرُورَ بِالضُّخْضَاحِ (٤)

ويطلب في تصوير المراكب ، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء ، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقي ، وهي من البيض ويطل شطرها الأسفل بالقار ، فهي بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقر على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجذب في سيرها دون اعتزام جهاح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعي ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للنطاح . ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثرون من الصباح حتى كأن السفن تجري خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول في وصف النيل وسفنه فيقول (٥) :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مُخْتَصِرٌ      وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قِصْرٌ  
 وَالسُّفُنُ تَجْرِي كَالْحَيُولِ بِنَا      صُعْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُنْحَدِرٌ  
 فَكَأَنَّمَا أَمَاجُهُ عُكْنٌ      وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرٌّ (٦)

(٤) الغار : جمع غمر وهو لاء الكثير العميق الضحاح : لاء القليل لاعمق فيه .

(٥) ديوان تميم ص ٢٤١ .

(٦) الممكن : جمع عكة وهي ماثل من ظاهر البطن وطياتها .

(١) انظر مقالا من المرعي لجلال ناجي بمجلة الكتاب العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة

(٢) الرواح : الرجوع في المشي .

(٣) أوقرت : حملت حملا قليلا . للراح : للريح والنشاط .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكان أمواجه عكَنَ أو ثَنِيَتِ أمامية لأجساد عارية وكأنما فواراته أو داراته في فيضانه السُّرُّر أو النقر الصغيرة أو الثُكَّت في بطون من كن يهدين إلى النيل من عرائسه . ولعم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله في الناعورة<sup>(١)</sup> :

تَشَنَّ	وَلَيْسَتْ	بِمَحْزُونَةٍ	أَنِينَ	الْحَبِّ	الْكَثِيبِ	الْحَزِينِ
فَتَنْطِقُ	بِالصَوْتِ	لَا مِنْ قَمٍ	وَتَقْذِفُ	بِالدمع	لَا مِنْ جُفُونِ	
كَأَنَّ	لَهَا	مِيتًا	فِي الثَّرَى	فَأَدْمَعُهَا	هُمُّعٌ	كَلٌّ
إِذَا	زَمَرَتْ	أَطْرَبَتْ	نَفْسَهَا	فَغَنَّتْ	بِمَخْتَلِفَاتِ	اللَّحُونِ
غِنَاءَ	يَرْقُصُ	كِيْزَانَهَا	وَيُظْهِرُ	فِيهِنَّ	وِثْبًا	الْمَجُونِ
فَتَهْوِي	فَوَارِعًا	فِي بَثْرَهَا	وَتَضَعُدُّ	مِنْهَا	مِلاءَ	الْعَيُونِ

والناعورة تن أنين الحب اليائس الحزين وتشكو لا بضم وتبكي لا من عين ، وتلحن مختلف اللحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقي أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله في النخل وبُسرُه أو بلحه<sup>(٢)</sup> :

النَّخْلُ كَالْهَيْفِ الْحَسَانِ تَرْتَيْتُ فَلَيْسِنَ مِنْ أثمارهنَّ قلائدا

وكانها في خياله فانات تترين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلعتها الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فكاحل من زبرجد رعوسها مسها الذهب . وأما الخوص الأخضر ونحته البلح الأحمر فزبرجد يشر عقيقا ، وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر بركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأختها لها بجوارها بمنزلة السراويل ، ويعجب ابن قلاص بغروب الشمس وراء النيل فيقول<sup>(٣)</sup> :

(٣) حسن المحاضرة ٢/٤٣٥ .

(٤) الديوان ص ٧٥ .

(١) الديوان ص ٤٢٤ .

(٢) مع : سائل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً واعجب لما بعدها من حُمْرَةِ الشَّفَقِ  
غابتْ وأبدت شعاعاً فيه يَخْلُفُهَا كأنما احتَرَقَتْ بالماء في العَرَقِ  
وللهلال فهل واني لِيُثَقِّدَهَا في إثرها زورقٌ قد صَبِغَ من وِرْقٍ<sup>(١)</sup>

وهي صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقا من فضة جاء لإنقاذها من الفرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد<sup>(٢)</sup> :

حِذَا النَيْلُ وَالْمَرَاكِبُ فِيهِ مَضْعَدَاتٍ بِنَا وَمُنْحَدِرَاتٍ  
وَلِيَالِيَّ بِالْجَزِيرَةِ وَالْجِدِّ بِيْهَا اشْتَيْتُ مِنْ لُدَائِي  
بَيْنَ رَوْضِ حَكِي ظَهْوَرِ الطَّوَاوِيْدِ سِرِّ وَجُوِّ حَكِي بَطْوَنَ الْبِرَاةِ<sup>(٣)</sup>  
حَيْثُ مَجْرَى الْخَلِيْجِ كَالْحَيَّةِ الرَّقْدِ طَاءَ بَيْنَ الرِّيَاضِ وَالْحَنَاتِ  
هَاتِ زَنْقِي مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ النَّيْلِ لِي وَدَعْنِي مِنْ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، وماتني صاعدة منحدره ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجزيرة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهجة كأنها ألوان الطواويس في جو صاف صفاء بطون البراة الطائرة ، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مرارا بهذا الحنين في أشعاره . وتُظَلُّ مصرَ أيامَ الممالك وَيَطَّلُ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولاين مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ وَصَفُ شَجَرَةٍ سَرُوَ بِاسْقَةٍ قَصَدَ مَوْضِعَهَا مَعَ بَعْضِ رِفَاقِهِ ، وَوَصَفَ مَعَهَا الْقَارِبَ الْمَطْلِيَّ بِالْقَارِ الَّذِي رَكِبُوهُ ، يَقُولُ<sup>(٤)</sup>

مَالَتْ عَلَيَّ النَّهْرُ إِذْ جَاشَ الْخَرِيرُ بِهِ . كَأَنَّهَا أُذُنٌ مَالَتْ لِإِضْغَاءِ

(١) ورق : فضة .

(٢) البهاء زهير ص ٢ .

(٣) البراة : جمع بازى وهي جنس من الصقور الصغيرة

طويلة الساق والذنب .

(٤) خزنة الأدب للحموى ص ٤٢٤ .

كَانَ صَمْنُهَا الْحَمْرَ بِقَشْرَتِهَا الـ لِدَكْنَاءِ قُرْصٌ عَلَى أَعْكَانٍ سَمْرَاءِ  
نَسَعَى إِلَيْهَا عَلَى جَرْدَاءِ جَارِيَةٍ مِنْ آلَةِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءِ  
سُودَاءِ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَا مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعَسَاءِ

والتصوير في الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصفي إلى  
خريه ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص  
ملتصق بطيات بطن لسمرء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سعوا إليها في سفينة حدباء كهلال  
الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على  
خد ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شهدا وعسلا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ،  
وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمر وكثوسها وسقاتها وندمائها ، ولكن  
يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثر أو آثارا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ  
على ما حرّمه الدين ، وفي رأبي أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى في المديح وغير  
المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمر ،  
إما إدمانا عليها وإما محاكاة وتقليدا لأبي نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر  
أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاقره الخمر ومثله ابنه خجارويه ، ويقال  
إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ<sup>(١)</sup> . فحاكاهما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا  
يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشابشتى في كتابه الديارات ،  
وهي دير القُصير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خجارويه كثيرا ما يزوره ،  
ودير مَرْحًا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهبيا بالجيزة ، ودير طمويه بجوار حلوان .  
ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كثوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن  
محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :<sup>(٢)</sup>

أَتَرَكَ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارُ دَائِمَةً وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشُورٌ  
وَالْقُصْنُ يَهْتَرُ كَالثَّشْوَانِ مِنْ طَرَبٍ - وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوِيٌُّّ وَمَنْشُورٌ

(٢) للغرب (قسم القساطط) ص ٢٠٣ .

(١) النجم الزاهرة ٦٣/٣ .

وإذا كان نقيب الأشراف يشرها حتى الخالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلمان بالأديرة ، وكان ثانيها خاصة يتهتك في شرها ويجترى على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه<sup>(١)</sup> :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلِّ بلا وضوءٍ وطُهْرٍ  
سُجَّدٌ للكُتوسِ من دونِ تَسْبِيحِ حِ سَوى نَعْمَةٍ لَعُودٍ وَزَمْرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المحزون مستهترة أسوأ ما يكون الاستهتار . ولتلقى بتميم بن المعز ، ومر بنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أو بينها وبين بعض صواحيبه ، ومن قوله فيها وفي الورد<sup>(٢)</sup> :

ووردٍ أعارته الغواني خُدودَهَا وأهدى إليه المسكُ أنفاسَ مَفْتَوْقَهُ  
كَأَنَّ النَّدى فِيهِ مَدَامُ عَاشِقِي أُرِيقتْ غَدَاةَ البَيْنِ فِي خَدِّ مَعشوقِهِ  
أُدرْنَا كُتوسَ الرَّاحِ فِي جَنَابَتِهِ على حُسْنِ مَرآهِ وَرَقَّةٍ تَوْرِيقِهِ

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد حدود الغواني وهو عبق بشذا المسك ، وكان الندى فيه دموع عاشق تناثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبه قوله<sup>(٣)</sup> :

ناولتها مثل خَدِّيها مُشْعِشَعَةً صَرُفاً كَانَ سَنَاهَا ضَوْءُ مِقْبَاسٍ<sup>(٤)</sup>  
فَقَبَلْتَهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضاحِكَةٌ وكيف تسقى حدودَ الناسِ للناسِ  
إذا تناولتُ خَدِّي كُنْتُ نائِلَةٌ نفسى وهذا لعمرى غيرُ منقاسِ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقى حدود الناس للناس ؟ وكأنه قدّم لها حدودها لتشرها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٤٩ .

(٢) الديوان ص ٢٩٨ .

(٤) المقياس : شعلة النار .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هانئ الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمريته له (١) :

ومهفهفٍ أبدى الشبابُ بخدّه      صدغاً فرقوقَ ورّده في آسه (٢)  
تلهّبُ الصّهباءُ في وجنّاته      فتسير من عينيه في جلاسه  
حتى إذا ملأ الزجاجةَ خدّه      نوراً وفاحَ الخمرُ من أنفاسه  
خالَ الزجاجةَ أفعمتَ بدمامةٍ      فدنا ليشرّب نُوره من كاسه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخدّه كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تلهب في خدّه فتلهب السحر في عينيه فيسير منها إلى جلاسه ، حتى إذا ملأ خدّه الكأس نورا ظلها ملكت خمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسيها . ولا ين سناء الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسلة من مثل قوله (٣) :

أين كئوسى وأين أكوأى      فهىَ وحقَّ المجونِ أوكى بى  
يبدو عليها الحبابُ إن مُزجتُ      مثلَ عيونٍ بغيرِ أهدابِ  
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها      كأنه واقفٌ على البابِ  
أسجدُ شكراً لها إذا طلعتُ      كأن كاسى لدىّ محرابِ

وهو يصور في خمرياته مرحاً وابتهاجا ، ومربنا أنه كان يعيش في بلهنية ونعيم ، وقلما كان يعترضه في حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النبية هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله (٤) :

باكرُ صبوحك أهنأ العيشِ باكره      فقد ترنم فوق الأيكِ طائرُه (٥)  
والليلُ تجرى الدرارى في مجرته      كأرزوض تطفو على نهرِ أزهرة (٦)

(٥) الأيك : الشجر الملتف .

(٦) الدرارى : الكواكب الثلاثة . المجرة : مجموعة من

النجوم تبدو كوشاح أبيض .

(١) الحريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) رقوق : مزج .

(٣) الديوان ص ٢٤

(٤) الديوان ص ٩١



فَانْهَضْ إِلَى ذَوْبٍ ياقوتٍ لها حَبَبٌ  
 حمراء في وَجْتهِ الساقِ لها شَبَّةٌ  
 تنوبُ عَنْ نَعْرِ مَنْ تَهْوَى جواهره  
 فهل جَنَاهَا مع العنقودِ عاصره  
 فابيضَ خَدَاهُ واسودَّتْ غَدَائِرُهُ<sup>(١)</sup>  
 وزوَّرتْ سحرَ عينيه جَاذِرُهُ<sup>(٢)</sup>  
 فكُبرى لآمن بعد الكفر ساجِرُهُ  
 فلو رأتْ مُقلَّتَا هاروتَ آيتَه الـ

والفرحة تسرى في الخمرية ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء منورة بكواكبها الساطعة ، وحباب الكأس كأنه نغر الحبيبة ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد صفائرها البهيجة ، وكأنما قبست بانه الوادي رشاقها ، وزوَّرت جاذره سحر عينها الخلابتين ، ولو رآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستحدث عنهم بين شعراء الفكاهة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليداً ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا في إثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداوها الرواة في عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط<sup>(٣)</sup> .

ليذهبوا في ملامى آية ذهبوا  
 لا تأسفن على مالٍ تمزقه  
 في الخمر لافضة تبقى ولا ذهب  
 أيدى سقاية الطلاء والخرد العرب<sup>(٤)</sup>  
 فما كسوا راحتي من راجها حللاً  
 إلا وعروا قوادى همم واستلبوا

وقد مضى يجيب فيها ويفرى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها ، وقدم للقضاء وثبت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القيراطي الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

(٣) الفوات ٥٠٢/٢ .

(١) الفسق : الظلام . الضمائر : الضمائر

(٤) الطلاء : الخمر . الخرد : جمع خريدة وهي البكر الحية .

(٢) الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية المعروفة بجمال عينها .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول<sup>(١)</sup> :

كم ليلة نادمتُ بدرَ سماءها      والشمسُ تُشرقُ في أكفِ سقَاتِها  
والبدرُ يُستَرُّ بالغيومِ وَيَنجَلِي      كتنفُّسِ الحساءِ في مرَاتِها  
خالفتُ في الصُّبْهَاءِ كُلَّ مَقْلَدٍ      وسعيتُ مجتهداً إلى حاناتِها  
أحرَّكَ الأوتارَ إن نفوسنا      سكناتها وَقَفُّ على حركاتِها  
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلي      قامتُ إلى وصلي برغمِ وُشَاتِها  
ياخجَلَةٌ الأغصانِ من خَطَرَاتِها      وفضيحةُ الغزلانِ من لَفَاتِها

والقيراطي إنما يستخدم مهارته الفنية التي صوّرتاها في غير هذا الموضع ، ليدل على براعته في محاكاة المجان لزمناه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الآيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في الليالي القمرية وبين الصبهاء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهي طويلة ، وقد توه بها الأسلاف طويلا لروعها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر في عصر المماليك تعاطي الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحطّم دنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقدمتها الخمر والحشيشة<sup>(٢)</sup> :

احذرْ نديمي أن تنوق المُسْكِرَا      أو أن تحاولَ قطُّ أمرا مُنْكَرَا  
ذی دولةَ المنصورِ لاجينَ الذي      قهرَ الملوكِ وكانَ سلطانَ الوری  
إياك تَأْكُلُ أخضراً في عصره      إذا الفقيرُ يصيرُ جِسْمَكَ أحمرَا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذي سيتزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطي الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة<sup>(٣)</sup> مقطوعات من مثل قوله :

عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٠٧ وما بعدها .

(١) للمثل الصافي ٧٢/١

(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢

(٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشعر في

قم عاظمي خضراء كافورية قامت مقام سُلَافَةِ الصُّهَاءِ  
يغدو الفقير إذا تناول درهما منها له تبة على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يُزرَعُ منها كثير ببستان كافر في القاهرة ، ويلقانا كثيرون  
يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكوسها ودانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على السنة الشعراء في الحقبة العثمانية ، وبما نقرأ لهم قول أبي  
المواهب <sup>(١)</sup> البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوة تَنْضَحُ مِسْكَاً ولا بَدَعُ فِي الفِنْجَانِ شَكْلُ الغَزَالِ <sup>(٢)</sup>  
تديرها هيفاء ممشوقة خَوْدُ تَنْتُ فِي بُرُودِ الدَّلَالِ <sup>(٣)</sup>  
بِسُرَّةِ أوطرة وزعت أفكارنا بين الهدى والضلال  
تقول للشمس وقد أقبلت تلثمي ما أنتِ إلا خيال

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على السنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها  
كانت قد شاعت على السنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي متخذين من نشوتها رمزاً  
لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفتن فيه . ونقف عند نفر من  
شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد  
مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخسهم ببعض الحديث .

ابن <sup>(٤)</sup> وكيع التنيسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسبا طويلا ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن  
خلف الضبي ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقهاء والنحو  
والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائبا في الحكم بالأهواز في  
إيران لعبدان الجوالقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

(١) ربحانة الألبا ٢/٢٦٦ .

(٢) قهوة : خمر .

(٣) خود : الشابة الحسنة .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأشعاره البيهقي ١/٣٥٦ .

وتتمة البيهقي ١/٢٩٩ وحلقة الكهيت في مواضع مختلفة

والعمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/٢١٦ وابن

خلكان ٢/١٠٤ .

بتنيس، وهى مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية، وتمتد في بحيرة المنزلة، واشتهر أهلها<sup>(١)</sup> بصناعة النسيج والتفوق في صنع الثياب الشفافة والملونة، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكثف بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون، وأكثر أغذية أهلها السمك، وهم مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكة، وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة وأكثرهم بيتون سكارى. ويبالغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض. وفيها ولد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فمعروف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنيس. ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته، وقد نشأ فيها الشاعر وثقف. ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار، ولا ندرى متى كان ذلك تماما، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها المتنبى سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حنّابة وزير كافر، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبى، حيثذ رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا في سرقات المتنبى سماه المنصف إرضاء للوزير، ويقول ابن رشيق في العمدة: «سماه كتاب المنصف، مثل ما سُمي اللديغ سليما، وما أبعداه عن الإنصاف». ولم يكن المتنبى من ذوق ابن وكيع، وبون بعيد بين ذوقيهما، فالمتنبى شاعر جاد منتهى الجد، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا المجون، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى المجون، فاندفع يريد أن يسقط المتنبى من عليائه وأتى له ذلك؟! ويبدو أنه كان ثريا، فأعانه ثراؤه على انغماسه في المجون، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواية شعره يذكرون له قصائد في ابن حنّابة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزیز والحاكم، فحسبه دائما كأس وطاس، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول:

وإن أتوك فقالوا كُنْ خَلِيقَتَنَا      فقلْ لهم إننى عن ذاك مشغولٌ  
وارضَ الخمولَ فلا يحظى بِلَدَّتِهِ      إلا امرؤُ حاملٌ في الناس مجهولٌ  
واسفكُ دمَ القهوةِ الصَّهباءِ تُحَيِّ بهِ      روحى فإن دم الصَّهباءِ مطلولٌ<sup>(٢)</sup>

فهو يؤثر حياة الخمول والمجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة، ويبدو أنه تمثل كل

(١) انظر فيهم نقول المقرئى عنهم في كتابه المخطوط (٢) مطول: مهرد لا يُطلب ناره.

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السيء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعده نظرفا إن لجَّ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحمل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد نظرفا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصرارى في تنيس كما يقول المقرئ وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يطيل مكثه في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثراته فيها وبمشاهدتها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدوها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداع ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويجد فيه هناه . ونقتطف الأبيات التالية من خمرة له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع ووصف مشغوف بها مفتون ، يقول :

أبدى لنا فصلُ الربيع منظرًا  
فالأرض في زىِّ عروسٍ فوقها  
أما ترى الوردَ كخدى كاعبٍ  
كأنما الخمر عليه نفّضتْ  
أخجله التّرجيسُ إذ جدّله  
وانظر إلى الأطيّار في أرجائه  
كأنها - تصفّر في رياضها -  
بمّله تُفْتَنُ ألبابُ البشَرِ  
من أدمع القطر نثارٌ من دُرِّ (١)  
راودها ، فامتعت منه بشرّ  
صباغها أو هي منه تُعْتَصِرُ (٢)  
فاحمرّ من قرط حياءٍ وخمرّ  
إذا دَعَا التّاكلُ فيها وصَفَرُ (٣)  
سِرْبُ قِيانٍ فوق بُسْطٍ من حير (٤)

(٣) التاكل : من قعدت ابنا لها .

(٤) حير : جمع حيرة ، وهي القطعة من نسيج الحرير .

(١) التار : ما ينثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم

الفضية

(٢) صباغها : لونها .

والتسكُّ في عصر الصِّبا كأنه من قبحه خَلَعُ عِذارٍ في الكبر<sup>(١)</sup>  
فاشربْ عُقارا لو أصابتْ حَجْرًا لطارَ من خَفْتِه ذاك الحَجْرُ  
كأنما الأوطارُ فيها جُمَعَتْ فليس في العيش لجافِها وطَرُ<sup>(٢)</sup>

وإنما أظننا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير  
الصب المفتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فمشقتها وأخذت  
تبكي بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها ، فانشئت حياة  
وتضرجت وجتاتها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفقت لونها القاني على  
الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل الزرجس جاد له فاحمراً لقوة حجته خجلا . وفي  
أرجاء هذا الروض البديع يغني الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغني فوق بسط من  
سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك وهجران  
المتاع في بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الحمزية في شبابه .  
ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لو مست حجرا لمسه السرور ، وأنها تجمع الأوطار  
والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباحج الطبيعة ، غير مرعوب ولا مزدجر على  
شاكلة قوله :

جانبتُ بعدك عَفَّتِي ووقارِي	وخلعتُ في طرق المجون عِذارِي
خوفتني بالنار جُهْدَكَ دائِبًا	ولججتَ في الإرهاب والإندار
خوفِ كخوفك غيرَ أني واثقٌ	بجَمِيلِ عَفْوِ الواحد القهارِ
انظُرْ إلى زهر الربيع وما جَلَّتْ	فيه عليك طرائفُ الأنوارِ
تاحتْ لنا الأَطْيَارُ فيه فَأَرَهَجَتْ	عُرْسَ السرورِ وماتمَ الأَطْيَارِ <sup>(٣)</sup>
فاشربْ معتَقَةً كأنْ نسيما	مسكٌ تَضَوُّعُه يَدُ العَطَّارِ <sup>(٤)</sup>
مع مُسْمِعٍ حَلَفَتْ له أوتارُه	أنْ لا تنسافرَ رنةَ المزمَارِ
فطنِ بِمِرْكٍ كُلِّ عَضْوٍ ساكنِ	تحريكَه لسواكنِ الأوتارِ

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخفيفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(٣) أرهجت : أثارت .

(٤) تضوعه : تذكى رائحه وتشرها .

(١) خلع العذار : كتابة عن التهلك والإغراق في

المجون .

(٢) الوطر : الأمانة .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النغمة كثيرا في خمرياته ؛ ويقول له : انظر إلى ما حولك من جبال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما يتشرف فيها من نواح الطير الذي يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباحج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفي كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك ففي رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عربي يعيش للخمر والطبيعة ولا يعني أى عناية بالمديح .

### الشريف<sup>(١)</sup> العقيلي

هو علي بن الحسين بن حيدرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبي طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له في اليتيمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلي لا بد أن يكون قد توفى قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفى سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد في المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أرفهم من يتحقق أمره ، وقال لي أحد الشرفاء المعنيين بأنساب الشرف : كان في المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » في اليتيمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذي وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط المقرئى ما يشير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة :

قُمْ فَانْحَرِ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالماءِ      وَلَا تُصَحِّحْ صُحْيَ إِلا بِصَهْبَاءِ<sup>(٢)</sup>  
أدرك حَجِيجَ التَّدَامِي قبل نَفْرِهم      إلى مَنَى قَصْفِهِم مَعَ كُلِّ هَيْفَاءِ

(١) انظر في الشريف العقيل وترجمته وأشعاره اليتيمة

(٢) انحر : أذبح . يوم النحر : يوم الأضحى . تصحى : تذبذب الأضحية . الصهباء : الخمر .

(١) انظر في الشريف العقيل وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم القسطاط) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع

فخرج المستنصر في ساعته بروايا الخمر تُزجى بنمات حُداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) في كبكبة من الفسّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفي ذلك العام أخذته الله وأخذ أهل مصر بالسنين<sup>(١)</sup> » وكأن ذلك كان في أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا : « وقفت في الخريدة (للعاد الأصهباني) على ترجمته فدلّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه في القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهراً في القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطاً حتى قال ابن سعيد : كان له بها منتزهات ، وهو في ذلك مثل تميم بن المعز ، فهما جميعاً من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تميها شغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلي فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بخدمه سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنبسي . . ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتها مازجاً بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومسرة . ونشر كأنما يتفرض أمامها انتفاضاً يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهاها ورياضها وأشجارها وأزهارها ويركها ، حتى لتتحول أمامه معبداً ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكأن حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكثوسها المترعة ، وهو يدعو دائماً إلى احتساء هذه الكثوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فتنها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دنائها ، مع القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكوّة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قرح رائع بديع ، يقول داعياً إلى المتاع بجبال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الغَيْمُ ممدودُ السُّرَادِقُ وَالزَّهْرُ مفروشُ النَّارِقِ<sup>(٢)</sup>  
والقَاشُ قد نُقِشَتْ لَنَا مِنْهُ المَجَالِسُ والمِرَافِقُ

(٢) النارق : الوساتد .

(١) خطط المقرئ ٥٨٣/٢ . والسنين : الجذب .



أشـجـاره وثماره مثلُ الترابِ والمخائق<sup>(١)</sup>  
 قد غنَّتِ الأطيارُ في طرقاته كلَّ الطرائق  
 فاعتقُ فؤادك فيه من رِقِّ الهمومِ بشرِبِ عاتق<sup>(٢)</sup>  
 فالأقحوانُ غصونُه بيضُ النواصي والمفارقِ  
 ومرادُ الأمطارِ قد كُجِلَتْ بها حدَقُ الحدائقِ

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفلٍ بسرادقٍ بهيجٍ وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه ومتكاته كأنما قد قُطِّعتْ وفُصِّلَتْ من القاش أو من نسيجٍ حريريٍّ متعدد الأصابع ، بينما تطلُّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر فاتن ومعنى ساحر ، جدير بالشراب المزيل للهموم ، والأقحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق آخذ زيتته وزخرفه ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراد تمتم بها زينتها وحسنا الفاتن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بِيَضَتْ قُبَّةُ السماءِ وزُوِّقَتْ قاعةُ الفضاءِ

فالسماء بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّةٌ بِيَضَتْ ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشَتْ ونُمِّقَتْ بمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تجسد الطبيعة في مناظر يتمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طفلاً الصباحِ بين داياتِ الرياحِ  
 وقوله :

السُّحْبُ تُرْضِعُ من بنات الأرضِ ما جعلَ الربيعُ لها الغصونَ مهودا  
 وقوله :

أمهاتُ الثمارِ بين الروابي تائماتُ بلبسِ خُضْرِ الثيابِ  
 وبناتُ الكرومِ تُجَلِّيُ بما قد صاغه الماءُ من عقودِ الحبابِ

(٢) العاتق : الخمر .

(١) المخائق : القلائد .

ففضل الصباح يجوب بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الفصون ،  
وأمهات الثمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء ، والماء يجلو الخمر من نبات  
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحجاب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلي  
باندماجه في الطبيعة وتملئ عينيه وقلبه بمشاهدتها الساحرة ، فهو مسحور بها سحراً لا حدود له ،  
سحرا كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعا حتى في غزله كقوله :

قامت قيامةً روحها لرواحي إن التوى لقيامة الأرواح  
وبكت فصار الدمع في وجناتها مثل الحجاب على كتوس الراح  
وكان صفحة وجهها لما بكت روض يرصع ورده بأقاحي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر  
الرياض ومباهجها ، وهي أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنى طوال حياته بها وبما كانت تُلقى في  
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على  
التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من  
قديم فقال : « مارأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته  
اللائقة الصحيحة التخيل » .

### ابن (١) قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول  
من القرن السادس الهجري ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزيل مصر في رسالته التي  
ألفها عن الشعراء المصريين حوالي سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلعب ويتألق في المحافل  
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالي المقتول . كما مر بنا  
سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، وما زال  
يترقى بها حتى أُسندت إليه - مع الموفق بن الحلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

الماضرة للسويطي ٥٦٣/١ ومقالا لنا عنه في مجلة الثقافة  
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس وترجمته وأشعاره الخريدة  
(قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية في المجموعة  
الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهئين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

ملكٌ تذلُّ الحادثاتُ لعِزِّه يُعيد ويُبدي والليالى رواعمُ  
وكم كربةٍ يوم التزالِ تكشفتُ بحملاته وهى الغواشى الغواشم<sup>(١)</sup>  
تَشيد بناءَ الحمدِ والمجدِ بيضه . وهن لآساس الهوادى هودام<sup>(٢)</sup>

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيت الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهودام » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليقات طريفة إن هو رضى عن شيء ، فإنه يلتبس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدهناه بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبية مخلوقة من كُحْلِ  
والحجرِ الأسودِ لم يُخلقْ لغير القَبْلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحة ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العين الذى تزين به النساء ، وقد مضى يقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، ما يبلغ حجر كرم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجَّاج بالقبْلِ . وفى شعاره توريات يصنعها نظرفا . وكل شيء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمر وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشربها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُم قبل تأذين النواقيسِ واجلُّ علينا بنتَ قسيسِ  
عروسَ دَنِّ لم يدع عثقا إلا شعاعا غير ملبوسِ  
تُجلى علينا باسمًا نقرأها فلانقابلها بتغيسِ  
مُدبَّه اللُّون إذا صفت مُدبَّه اللهم والبوسِ

نارٌ إلى النار دعا شُرْبُهَا وَشَرَّدَتْ بالعقل والكيس  
في روضةٍ كانت أزاهيرها كأنها ريشُ الطواويس

وهو يحتسبها مع رفاقه في بستان دبر ، وهو يعبّ منها متمليا بجمال الطبيعة ، وهي تجلى عليهم  
عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرّج الهموم حين يمسّ الخلق ، وإنها  
لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشرها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه  
يتناولها من يد إبليس ، وكأنه أمل في عفوره . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسبا  
كثوس النشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وليلةٍ كاغْتَاضِ الطَّرْفِ قَصَّرَهَا وَضَلُّ الحبيبِ ولم تَقْصُرْ عن الأملِ  
بنتا نجادب أهدابَ الظلام بها كَفَّ الملام وذكرَ الصّدِّ والمَلَلِ  
وكلما رام نطقا في معانتي سَدَدْتُ فاهُ بِطِيبِ اللّثمِ والقَبْلِ  
وبات بدرُ تمام الحسن مُعْتَنِي والشمسُ في فلكِ الكاساتِ لم تَقِلْ<sup>(١)</sup>  
فبتُّ منها أرى النار التي سجدتْ لها المِجوسُ من الإبريقِ تَسْجُدُ لِي  
راحُ إذا سفك التَّدْمان من دمها ظَلَّتْ تُقَهِّمُهُ في الكاساتِ من جَدَلِ<sup>(٢)</sup>  
فقل لمن لام فيها إنني كلفُ مُغْرَى بها مِثْلَ ما أُغْرِيَتْ بِالْعَدَلِ<sup>(٣)</sup>

والخمرية بديعه بصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالي وصاله ، يعاتب فيها صاحبه  
مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينا شمس الخمر تنفّلت أشعتها من  
أفلاكها في الكثوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها المِجوس تسجد  
له حين تصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه  
غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شرها  
كفى عذلا ، فإنني مولع بها ولوعك باللوم والعذل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لندل على تفوق  
ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس  
ومعاصريه .

(٣) العذل : اللوم .

(١) نخل : تغرب .

(٢) جدل : سرود .

عبد<sup>(١)</sup> الباقي الإسحاق المنوفي

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه الحجبى بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بجلاوة معانيه وعذوبة مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف وستمين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بحموية مزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمشّت لنا تُخجِلُ الكوكبا فناديتُها مَرَحَبًا مَرَحَبًا  
أدارتُ بحضرتنا قهوةً وطاقتُ بكأسِ الطَّلَا مُذهبا<sup>(٢)</sup>  
رنتُ ورمئتُ بأحاطها وقد أذكرتني عهدَ الصِّبا  
وغنّتُ لنا فطربنا لها وياحُسنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت له ، وقد دارت عليه بكثوس الخمر ، وهو ينتشى بها ويجال المغنية كما يقول ، مصرِّحا بذلك مجاها في غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرة راقصة :

رقص المجلسُ أنسا فاجعل الجرة كأسا  
واسقى بالزقِّ والطَّا سِ . فإنى طبتُ نفسا  
وأقمِ للهو والدِّ نذات فى حانى عُرُسا  
كيف لا وهى ترينى فى دُجا الظلماء شمسا  
وتقيم الميِّتَ حيا بعد ماجاور رمسا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصوّر نفسه كأنما يعيش فى حان يجالها فيه شمسا ، ترد إلى الموتى الحياة ، تعبيراً بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

القرن الحادى عشر ٢/٢٨٩  
(٢) الطَّلَا : الخمر .

(١) انظر فى عبد الباقي الإسحاق وترجمته نغمة الرحانة  
للمجى ٤/٥٨٩ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان

أَمَلْ لِي الكاسَ تماماً واسقني جَمَامًا فجَامًا (١)  
 اسقني بالكوب والكا س فرادى وتُوَامَا (٢)  
 ثم بِالجَرَّةِ فالج رة حتى أَتـرامِي  
 اسقني حينئذٍ بال زقُّ حتى لا كلاما  
 ثم أزهى موضعٍ في ال روضِ فاختره مقاما

وهو صَبُّ بالخمر يريد أن يحتسبها حتى الثالثة ، بل يريد أن يشربها أرتالا جاما فجاما وكثوسا وأكولبا وجَرَّتْ متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها في أزهى موضع بالروض قد عبت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإسحاق في أيام العثمانيين ذكرى أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

## ٤

## شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرَّ بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم ، ويكفي أنها هي التي أنشأت في المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاية في نشر مذهبي مالك والشافعي ، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقهاء ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم في الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله (٣) :

كُنْ بِمَا أوتيتَه مُغْتَبِطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ القَنوعِ المكثي  
 إن في نَيْلِ المنى وَشكَّ الرَّدَى وقياسُ القَصْدِ عند السَّرْفِ  
 كسراجِ دُهْنُهُ قُوْتُهُ فإذا غَرَّقْتَهُ فيه طُفِي

(٣) نكت الميمان ص ٢٩٨

(١) الجام : إناه من فضة .

(٢) توام : توأم : من الاثنين إلى مازاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مئى عريضة يكون فيها حتف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مئته وقوته ، أما إذا أفرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتيم بن المعز قصيدة فى القرافة ومقاييرها وما تبعث فى النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلاً أو مناجياً (١) :

رجوتك يارب لا أنى أعطتك طوع أولى الانتهاء  
ولكننى مؤمن مؤقن موقن بأنك رب الورى والسما  
وأنت أهل الحسنى الظنون وأنت أهل الحسنى الرجاء

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسما ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشىء من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلى شاعر الطبيعة والخمر يجده يختم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون فى نفس القافية ، كقوله فى قافية الباء (٢)

أيها التائه الذى ضل عما يراد به  
إن للعرضى وقفة أمرها غير مشتبه  
فانتبه قبل أن ترى مذنباً غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبيعى وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية فى الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

ونلتقى بظافر الحداد بعد تيمم ، وهو يذكر دائماً بالموت كقوله (١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الأَجَلِ  
تَحْدَعُ الإنسانَ لَدَتْهَا فَهِيَ مِثْلُ السَّمِّ فِي العَسَلِ  
أنتَ فِي دِنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالِي فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالمس في العسل ، لاتزال تسرى في الجسم ، ولاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا بن التضر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة (٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْتَرَضٌ فَخُذْهَا بِأَدَابِ القِنَاعَةِ وَالزَّهَادَةِ  
فإن جَنَحْتَ لذلكِ واستجابتْ وخالفتِ الهوى فهو الإرادة  
وإن جمحتْ بها الشهواتُ فاكبحْ شَكِيمَتَهَا بِمِقْمَعَةِ العِبَادَةِ  
عسَاكَ تُحِلُّهَا دَرَجَ المعَالِي وَتَرْفَعُهَا إِلَى رَبِّ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهي الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدها الشهوات فاكبح جاحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومرؤس مدلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصعد إلى رتب السعادة . ومن تبتلاته إلى ربه (٣) :

يَا مُسْتَجِيبَ دَعَاءِ المُسْتَجِيرِ بِهِ وَيَا مُفَرِّجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ الدَّاجِيِ  
قَدْ أُرْتَجَتْ دُونَنَا الأَبْوَابُ وَامْتَنَعَتْ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنِ مَنَعِ وإِرْتَاكِ  
نَخَافُ عَدْلَكَ أَنْ يَجْرِيَ القَضَاءُ بِهِ وَنَرْتَجِيكَ فَكُنْ لِلخَائِفِ الرَّاجِيِ

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجي ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أُغلقَ دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته



رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلاً بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا بن سناء الملك<sup>(١)</sup> :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً والقبرُ دارى والأمواتُ جيرانى  
فى وحشةِ القبرِ والدودِ المقيمِ به شغلٌ لنفسى عن دارى وبُستانى  
سأوسع القبرَ بالأعمالِ أصلحها جهدى وأبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هى الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنما لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطناها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد فى الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه ويتزل رمسه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله<sup>(٢)</sup> :

يا مَنْ عَلا فى مُلكِهِ فاقْتَرَبْ وَمَنْ بَدَأَ فى نوره فاحتجَبْ  
وَمَنْ هو القَصْدُ لأهلِ الثَّهْبِ والمطلبُ الأَسْنَى وكلُّ الأَرْبِ  
عَوَدَتْنى الأَنْسَ فلا تَنْسِنى وهَبْنى الرَّحْمَةَ فيما تَهَبْ

وهو يتضرع إلى ربه الذى علا فى ملكوته وهو أقرب إليه من جبل الوريد ، والذى يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذى هو المقصد والمطلب الأسنى وكل الأرب والأمل ، والذى عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهراً زمن المماليك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمئى القوصى المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقاً بعفو ربه<sup>(٣)</sup> :

قالَتْ لىَ النَّفْسُ وقد شاهدتْ  
بأىِّ وَجْهِ تَلْتَقى رَبِّنا  
فقلتُ حسبي حَسُنُ ظنى بهِ  
حالى لا تصلحُ أو تستقيمُ  
والحاكمُ العَدْلُ هناك الغريمُ  
يُنيلنى منه النعيمُ المقيمُ

قالت وقد جاهرت حتى لقد حقَّ له يُصليكَ نارَ الجحيمِ  
قلت معاذَ الله أن يبتلى بسنارِهِ وهو بحالِي علمِ

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بالله وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم . فتسأله متعجبة أنجهر بذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار . فيقول معاذ الله أن يصلية ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القحاح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة (١) :

أضربُ على حُلُوِّ القضاءِ ومُرِّهِ واعلم بأن الله بالغُ أمرِهِ  
وأثبتُ فكم أمرٍ أمضُكُ عُسْرُهُ ليلاً فبشركُ الصباحُ بيُسْرِهِ  
واضرعُ إلى الله الكرمِ ولا تسَلْ بشراً فليس سواه كاشفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلو ومر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرج الحزن .

ونلتقى بتبتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التنسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة (٢) :

إلهَ الخلقِ قد عظمتُ ذنوبِي فساميغُ ما لعفوكُ من مشارِكِ  
أغيثُ ياسيدي عبداً فقيراً أناخُ ببابك العالِي ودارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عباده ، ألقى عصاه ببابه ، آملاً في قبول تضرعه ، ويورث تورية واضحة في قوله : « دارك » فعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن يئأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير في الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحنّادى في الدعوة إلى القناعة

وأن لا يفكر الإنسان في رزق الغد<sup>(١)</sup> :

تَأْنٌ وَلَا تَجَزَعُ لِأَمْرٍ تَحَاوَلْتَهُ فَخَيْرٌ اخْتِيَارِ الْمَرْءِ مَا اللَّهُ فَاعِلُهُ  
تَقِيًّا بَظِلِّ اللَّهِ مِنْ رَوْضِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّقَكَ فَوَاضِلُهُ<sup>(٢)</sup>  
وَعِزٌّ تُهِنُّ دُنْيَاكَ وَاغْنَى بِتَرْكِهَا وَلَا تَحْفَلَنْ بِالرِّزْقِ فَاللَّهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : ( أليس الله بكاف عبده ) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما العز الحقيقي إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيقي إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامى وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكان مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامى ، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحد أبنائها وهو ذو النون المصرى ، وممراً بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفى وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه<sup>(٣)</sup> :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانَ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فِيكَ . يَهُونُ  
لَكَ عِزُّمُ بَانَ أَكُونَ قَتِيلًا فِيكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهى ، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ؛ ماداً بصره إلى القاع وأعماق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتملا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول<sup>(٤)</sup> :

(٣) ابن خلكان ١/٣١٦

(١) سلافة المصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ص ٤١٨

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .

(٢) تقياً : استظل .

أُموت وماماتٌ إليك صَبَابِي ولا قُصِيَتْ من صدقِ حَبِّكَ أوطاري  
تَحْمَلُ قلبي فيك مالا أبُتُه وإن طال سُقْمِي فيك أوطالِ إضراري

فصباياته بالحب الإلهي لا تنقضي ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبه نصب . وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون في العالم الإسلامي . ويدور الزمن بمصر دورات وندخل في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطفى على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضع وبصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجهة في عهدها ، ومع ذلك فينبغي أن لا ننظر أنه تلاشي ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومررنا من متصوفها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحجال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطي بعض أسماء لمتصوفة ظهوروا في عهد الدولة الفاطمية<sup>(١)</sup> مثل ابن الترجان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخرة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزاني وستترجم له عما قليل . ومررنا أنه أخذ يتضح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهاً ، اتجاه فردي فلسفي واتجاه جماعي سني ، ومثل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفي ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفي الشام في قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمي أنها من نظمه ، وفي فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله في الذات الإلهية<sup>(٢)</sup> :

وَحَبِّبَ عَنَا حُسْنُهُ نَوْرَ حَسَنِ  
فِي نَارِ قَلْبِي حَبِّدَا أَنْتِ مُصْطَلِّي  
فَن ذلِكَ الحَسَنِ الضَّلَالَةُ وَالهُدَى  
وَيَادَمَعَ عَيْنِي حَبِّدَا أَنْتِ مَوْرِدَا

وشعره الصوفي يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض في مثل قوله (١) :

حَضَرُوا فَمُنْذُ نَظَرُوا جَمَالَكَ غَابُوا وَالْكُلُّ مَذُ سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا  
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ مِنْ خَمْرِ حَبِّكَ طَافَتِ الْأَكْوَابُ  
أَنْتَ الَّذِي نَاوَلْتَنِي كَأْسَ الْهَوَى . فَإِذَا سَكَرْتُ فَمَا عَلَيَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعنى عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجود لا يشبهه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول (٢) .

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَاذَا يَغَيِّرُهُ وَمِنْ صِفَوَاتِهِ لَهْ مَاذَا يُكَدِّرُهُ  
هَيَّاتِ عَنكَ مِلاخُ الْكُونِ تَشْغَلُنِي وَالْكُلُّ أَعْرَاضُ حَسَنِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكان الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود ستعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفى .

ويلقانا صوفى من أتباع ابن عربى ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربى إذ يقول (٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي فَلَمْ يَبْقَ حَدٌّ جَامِعٌ لِحُدُودِي  
وَأَلْقَيْتُ سِرِّي عَنِ ضَمِيرِي مَلُوحًا بِرَمِيزِ إِشَارَاتِي وَفَكَ قِيُودِي  
فَأَصْبَحْتَ مَنِي دَانِيَا بِمَعَارِفِي وَقَدْ كُنْتَ عَنِّي نَائِيَا بِجَمُودِي

ويقول ابن حجر معلقا على الأبيات : « وهذا نفس الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربى ، وكان له ديوان

(٢) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧

(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢

(١) انظر ترجمة ككاكت في الفوات ١٠٨/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦٤/٧ .

كبير ، و يذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها البسوس وهى ملكة النحل .  
ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية فى التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر  
تؤثر التصوف السنى وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا فى بيان ذلك بالفصل  
الأول ، وكان من أهم الطرق التى تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء  
الله السكندرى الصوفى الواعظ تلميذ مؤسسها أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى ، ومن  
شعره قصيدة يقول فيها <sup>(١)</sup> :

ويا صاح إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعود ما الذى أنت صانع  
أترضى بأن تبقى المخلف بعدهم صريع الأمانى والغرام يتنازع  
وهذا لسان الكون ينطق جهره بأن جميع الكائنات قواطع

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ،  
بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماترال مهاجرة تتبعه .  
وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون فى الذكر بين صفوف الذاكرين الله  
كثيرا ليملثوهم حاسة وإمعانا فى ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح  
القوصى الصوفى المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب آثم فى مذهبي من لم يحب  
ذق على أمرى مرارات الهوى فهو عذب وعذاب الحب عذب  
كل قلب ليس فيه ساكن صبوة عذرية ماذا قلب

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية فى أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زقاعة ،  
المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله فى  
الحب الصوفى ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله <sup>(٢)</sup> :

رأى عقلى ولبى فيه حارا فأضرم فى صميم القلب نارا  
ألا يالانى دغنى فلانى رأيت الموت حجا واعتارا  
وأهل الحب قد سكروا ولكن صحا كل وفرقتنا سكارى

(٢) المنبل الصاق ١/١٥٤ والنجوم الزاهرة ١٤/١٢٦ .

(١) النجوم الزاهرة ٨/٢٨٠

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حبيهم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبدا في أثناء حبيهم بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حجا وعمرة ، وما يزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لا يدانيه سكر ، متجردين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأما تتعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجامحة في الوجد الرباني .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويجري الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاة الشاذلية. والسادة البكرية في أيام المالك وأيام العثمانيين من مثل قول على بن وفا :

تغيبت عن عيني فغيبك شاهدي      ووجهك مشهودي وما عنك عائق  
فإن غبت فالأشباح منى مغارب      وإن لُحِتَ فالأرواح منى مشارق

ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أفيضت عليها العلوم اللدنية<sup>(١)</sup>. ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم مريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم، وقد يبالفون في ذلك، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح<sup>(٢)</sup>.

وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء بمدحون الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثرت على السنة أهل السنة مجسدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على السنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المحمدي يتجسد في أئمتهم من بعده . وبالمثل على السنة المتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوّهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العرّض وأن يكون دائما معينا لهم ونورا هاديا . وما زال الشعراء المصريون - مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حربا دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندمت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعيا أن يزدهر المديح النبوي للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعاراً يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقا ذريعا . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصري حيثذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيري أنه مادم مصري للرسول ، بل أنه مادم عربي له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكثيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله في مديحه ﷺ (١) :

لم يبق لي أملٌ سواك فإن يفتُ ودعتُ أيام الحياة وداعا  
لا أستلذُ غير وجهك منظرا وسوى حديثك لأريد سماعا

وكان العزّازي معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوي ، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم (٢) :

أفَى النَّبِيِّنَ بَرَهَانًا وَمَعْجَزَةً وَخَيْرٌ مَنْ جَاءَهُ بِالوَحْيِ جَبْرِيْلُ  
سَلُّ الْإِلَهِ بِهِ سَيْفًا مَلْتَمِيَةً وَذَلِكَ السَّيْفُ - حَتَّى الْحِشْرِ - مَسْلُوكُ  
وَيْلٌ لِمَنْ جَحَدُوا بَرَهَانَهُ وَتَنَى عِنَانَ رُشْدِهِمْ غَيٌّ وَتَضْلِيلُ

ولاين سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولاين نيانه وبرهان الدين القيراطي مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويطرد ذلك في الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجي وغيره (٣) ، كما يطرد التوسل به وطلب الشفاعة ، ع نحو ما نجد عند عبدالله الإدكاوي من مثل قوله متوسلا (٤) :

(١) الفوات ٤٨٧/٢ .  
(٢) المنبل الصافي ٣٤٣/١ .  
(٣) وانظر نغمة الريحانة للمحي ( طبعة عيسى البابي  
(٤) تاريخ الجبقي ٣٥٣/١ .



ياربُّ بالهادى الشفيعِ محمدٍ  
 كُنْ لى مميئاً فى معادى واخفى  
 منْ قد بدا هذا الوجودُ لأجله  
 همُّ المعاش وما أرى من ثقله  
 لك سببى واشفِ الحشا من غلِّه  
 واسترِّ بفضلك زلتى واغفرْ بعدَّ

وهو يضرع إلى الله متوسلاً إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عوناً له فى معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلاً فى الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوى :

### ابن (١) الكيزانى

هو محمد بن إبراهيم الكتانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزانى ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد حوّن منه الهامد الأصهبلى فى كتابه « الخريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عدوية وحلاوة .. وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلّ بها اعتقاده ، وزلّ فى مزالقتها سداده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة » وهم أشباه الكرامية بنجراسان « فهو عالم

والواقى بالوفيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزانى فى مجلة الثقافة ، المجلدين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزانى وأشعاره المغرب لابن سعيد ( القسم الخاص بالفسطاط ) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والخريدة ( قسم مصر ) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقترن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها ، فانت إذ تشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر العباد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قلمها في العلم الإلهي ، ومادام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . ومر بنا آنفا أن العباد قال إنه كانت تتبعه بمصر لمهده في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتنق نحلته ، ويقول القفطلي المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تنتمي إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالاته » . وفي ذلك ما يدل على أن منزعه الصوفي ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الحنبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لا تنفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصديق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تغري بردي : « لا يلتفت لقول الحنبوشاني فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الحنبوشاني معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له العباد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي ، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

تَلَدُّ لِي فِي هَوَى لَيْلِي مَعَاتِبِي	لَأَنَّ فِي ذِكْرهَا بَرْدًا عَلَى كَيْدِي
وَأَشْتَهِي سَمِّي أَنْ لَا يَفَارِقَنِي	لَأَنَّهَا أَوْدَعْتَهُ بَاطِنَ الْجَسَدِي
وَلَيْسَ فِي النَّوْمِ لِي مَاعَشْتُ مِنْ أَرَبِّ	لَأَنَّهَا أَوْقَفَتْ جَفْنِي عَلَى السُّهْدِي
وَلَوْ تَمَادَتْ عَلَى الْهَجْرَانِ رَاضِيَةً	بِالْهَجْرِ لَمْ أَشْكُ مَا أَلْقَى إِلَى أَحَدِي
اللَّوْمُ أَشْبَهُ بِي مِنْهَا وَإِنْ ظَلَمْتُ	أَنَا الَّذِي سَقْتُ حَتَّى فِي الْهَوَى يَبْدِي

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والهجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى ، ويتأدى في العتاب ، معلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزانى مثله مثل شعراء الحب الإلهى جميعا فقد رفضوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذرى ، معبرين بما فى غزلهم من حسيه واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لئزى ابن الكيزانى يقول :

أترعم ليل أننى لا أحبها	وأنى - لما ألقاه - غير حمول
فلا ووقوفى بين ألوية الهوى	وعصيان قلبى للهوى وعذولى
لو انتظمتنى أسهمُ الهجر كُلهما	لكنتُ على الأيام غير ملول
ولست أبالى إذ تعلقتُ حبها	أفاضتُ دموعى أم أضرتُ نحولى
وما عبئى بالنوم إلا تغلُّ	عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسولى

وهل من «ارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذرى ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانه للعقول أو العواذل وصبوره على المجران الأليم وما يمانى فيه من البكاء والتجيب والسقم والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهرى للأبيات فابن الكيزانى إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لانهاى غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يتدلج شرره فى كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يلبثها وصف فى ألمه ، حتى ليذك دمه فى سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضىء فى جنات قلبه وقراهه ، وهو الخمر الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جرُّ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كأسُ الهبةِ فى محبتِ سقى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهى لاحتلوه ولاضفاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يتعد عنه ، تاركاً له الحشرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، وينادى ابن الكيزانى :

يا حادى العيس اضطرب ساعةً فهجيتى سارتُ مع الركبِ  
لاتحدُّ بالتفريق عن عاجلي رفقا بقلبِ المائمِ الصبِّ

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة في نفوس العشاق تعبيراً رمزياً عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلاً عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيراً حسياً بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العذريون طويلاً - بيبكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرَبِّكَأ عَرَجًا سَاعَةً نَنُوحُ عَلَى الطَّلَلِ الدَّارِسِ  
فَيُضِضُ الدَّمُوعَ عَلَى رَسْمِهِ يُتْرَجَمُ عَنْ حَرْقِ البَائِسِ

ودائماً يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العيس ، وهي ملححة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هام على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنقد في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَتِيهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِهِ اعْطَفْ عَلَى الصَّبِّ المَشُوقِ التَّائِهِ  
أَضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قَوَادِهِ أَسْفًا لِأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَانِهِ

ودائماً تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوحة ونارها التي توشك أن تحرق والتي ما يزال ينوقها ويمسلي بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحنة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب له دواء ولا شفاء ، يقول :

اضْرِفُوا عَنِّي طَبِيبِي وَدَعُونِي وَحَبِيبِي  
عَلُّوْا قَلْبِي بِذِكْرَا هُ فَقَدْ زَادَ لَهْبِي  
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ  
لَا أَبَالِي بِفَوَاتِ الثَّفِّ سِ مَادَامَ نَصِيبِي  
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ أَطُ نَبَّ فِيهِ بِمَصِيبِ  
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِنَحْيِي

إن الداء هو نفس اللئام وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في براء من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً إنها يثيران حريقاً في قواده ، غير أن ما يشره معها من رحيق المحبة الربانية المصنئ ينسيه الحريق وناره المتلظية التي لاتنطفئ في سويداء قواده أبداً .

## ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حاة بسوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والمنشأ والمرنى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولُقِّب بالفارض لكتابه الفروض على النساء والرجال . ولى نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأبأها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتسك ، وعنى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة في الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما سائحاً في أوديتها عابداً لله ناسكاً مؤملاً في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثراً من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميرى رَوْحٌ بِمَكَّةَ رَوْحِي شَادِيَاً إِنْ رَغِبْتَ فِي إِسْعَادِي  
كَانَ فِيهَا أُنْسِي وَمِعْرَاجُ قُدْسِي وَمُقَامِي الْمَقَامُ وَالْفَتْحُ بَادِي

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبِّحه ويعبده حق عبادته ناسكاً خاشعاً متضرعاً ، شاعراً من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ما حوله غيبة قد تطول أياماً وهو لا يسمع صوتاً ولا يرى أحداً ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتسمون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم في هذا

للكور محمد مصطفى حلمى وكتابتها فصول في الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعات مستقلة ، وطبع مع شرح عبد الغنى النابلسى وهو شرح صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورى على ظاهر اللفظ دون تأويل .

(١) انظر في ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال ٢١٤/٣ وعبر الذهبي ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهي

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في حبه الإلهي ، حتى نُقِبَ بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار تملح بوجود ملتح لاحدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي ، وأيضا مايدذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعاً غصص المهجر والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدته نفسه بسلك هذا الطريق المحضوف بما لا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُ فاسلَّمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ      فما اختاره مُضَيَّى به وله عَقْلُ  
وعِشْ خالِياً فالحبُّ راحتهُ عَنَّا      وأوَّلُه سُقْمٌ وآخِرُه قَتْلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذهُ رمزاً للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيدا ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكائناته وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غابَ عني - كلُّ جارحةٍ      في كلِّ معنى لطيفٍ راتقي بهجٍ  
في نعمة العود والثأني الرُخيمِ إذا      تألَّفًا بين ألحانٍ من الهزجِ (١)  
وفي مسارح غزلان الخائل في      برِّد الأصائل والإصباح في البلجِ (٢)  
وفي مساقط أنداء الغمامِ على      بساطِ نورٍ من الأزهار مُنتججِ  
وفي مساحبِ أذبالِ النسيمِ إذا      أهدى إليَّ سُحيرا ، أطيَّبَ الأرجِ (٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله مائلا في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والنأي المرافقة لألحان الهزج ، وفي مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنغام الأصيل والصبح ، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطه الطبيعة البيجة ، وفي النسيم يملأ الجو سحراً بشدهاء وأريجها العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي . . . صره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبث في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجل في كل منظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه وولفه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يوصل في من هجر ، هاتفا من قواده :

تَهْ دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلٌ لِذَاكَ      وَتَحَكَّمُ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ  
وَتَلَافِي إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَافِي      بِكَ عَجَّلُ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ  
فَقَتَّ أَهْلَ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي      فِيهِمْ فَاقَةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذري ، ولا يلبث أريح الحب الصوفي أن يعقب في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه اتلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلى في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزًا لحبه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزًا لهذا الحب ، ولاخمر ولاكتوس ولادنان ولاسقاء ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسي مسكر ، فهو سكران دائما منتش غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً      سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخَلِّقَ الْكَرْمَ  
لَهَا الْبَدْرُ كَأَسْرُ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا      هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو - إِذَا مُزِجَتْ - نَجْمُ  
وَإِنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ      أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ  
وَلَوْ نَفَّضُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ      لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَاتَّعَشَّ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سكره بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء و نفوس الرسول ﷺ و نفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، ونحى الروح لاجازا بل حقيقة ، فلو صبها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم . خمر ربانية لا تشوبها أى شائبة مادية ، خمر ينشئ بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعم لا حدود له . ودبوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والنياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراجة القدسي بمكة وفتوحه التى هبطت عليه هناك وإنحاءه حيثذ في الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم في بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه في معراجة من أهوال وخطوب وعمن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها في معراجة ، خالصا إلى الانحاء والفناء في الذات العلية حتى ليقول :

ولم تهوى مالم تكن فى فانياً      ولم تفن مالم تُجتلب فيك صورتي  
كلانا مُصلٌ واحدٌ ساجدٌ إلى      حقيقته بالجمع في كلِّ سجدةٍ  
وما كان لي صلّى سوايَ ولم تكن      صلاحى لغيري في أدا كلِّ ركعةٍ

وكانه يشعر في البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهي لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية . ويقول في البيت الثاني إنها ينبغي أن تُمضى فيه حتى يفنى في الذات الربانية وتتجلّى فيه الصورة الإلهية ، وما يليث أن يقول في البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا في ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاح وجودى في شهودى وبتت عن      وجود شهودى ماحياً غير مبيت  
وفى الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها      وذاتى بذاتى إذ تجلّت تجلّت

فهو قد انمضى وفقى فناء كلياً في الذات العلية ، وبلغ من هذا الانحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتره في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرباني ، بل أيضا يعتره في حال الصحو ، فهو دائماً محوفاً في الذات الإلهية . وهو دائماً يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض



الدينية وبالسنة والحديث النبوي ، فمنها يستمد في كل موارد الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء في الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديثٌ في اتحادى ثابتٌ روايتهُ في الثقل غيرُ ضعيفةٍ  
يشيرُ بحبِّ الحقِّ بعد تقربٍ إليه بنقلٍ أو أداء فريضةٍ

وهو يشير إلى الحديث النبوي المشهور : « ماتقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحببته ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . وإن سألتني أعطيتك ، ولن استعاذني لأعبدته » . وفكرة الانحاء والفناء واضحة في الحديث ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفاً إسلامياً خالصاً . وما زال يتنسك لربه حتى وفاته سنة ٦٣٢ للهجرة .

### البوصيرى<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكأن لنفسه من اسم بلديها لقباً هو الدلاصيرى ، غير أن اللقب الذى غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيرى . واختلف م ترجموا له في تاريخ مولده كما اختلفوا في تاريخ وفاته ، والأرجح أنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٩٨ وتوفى بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفى قبل السنة السالفة فقبل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح ما رجحناه . واختلف مثل لداته إلى الكتابات حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم في حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت في نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله يتنظم فيمن يعملون في الكتابة الديوانية ، وعين في دواوين بليس بالشرقية . ومربنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

والخطط الجديدة لعل مبارك ٨/١٠ وكتابتنا فصول في الشعر  
ونقده ص ٢٢٩ - ٢٥٤ . وديوانه ( طبعة الحلبي ) بتحقيق  
محمد سيد كيلاني . وأورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب  
العرنى ٨١/٥ ترجمات بردهت إلى اللغات الأجنبية ونخبها  
وتشظيراتها وشروحها المختلفة وكذلك المخرية .

(١) انظر في البوصيرى وحياته وأشعاره القوات ٤١٢/٢  
والرأى بالوفيات للصفدى ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١  
وشذرات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الميمنى على  
شرح مدحه المخرية النبوية ولطائف المنن لابن عطاء الله  
السكندرى وطبقات الصوفية للشمراني ١١/٢ وما بعدها ،

الحياة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليد الأمور بمصر ( ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعري مأمقُتُضَى حِرْمَانِي      دون غَيْرِي والألفُ للرَّحْمَنِ  
أتراني لا أَسْتَحِقُّ لكوني      جامعًا شَمَلَ قَارِي القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إننا عائلةٌ في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصري المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه في مدائحه من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنني وحدي لكنتُ مريدًا      في رباطٍ أوعابداً في معارة

وكانه كان يشعر في أعماقه بأنه خلُق لايكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفي أو في كهف يخلوفيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم في سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسي على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عدَّ ثاني اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندري ، وفي ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزیه في شيخه أبي الحسن حين توفي سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، يقول :

اسْلُكْ طَرِيقَ مُحَمَّدِيٍّ شَرِيعَةَ حَقِيقَةِ وَعَمْدِيٍّ الْمَحْتَدِ  
 اِنِ الْاِمَامَ الشَّاذِلِيَّ طَرِيقَهُ فِي الْفَضْلِ وَاضِحَةً لَعَيْنِ الْمَهْتَدِيِّ  
 قَطْبُ الزَّمَانِ وَغَوْثُهُ وَاِمَامُهُ عَيْنُ الْوَجُودِ لِسَانُ سِرِّ الْمَوْجِدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوي ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شامت وجوهم ، يكتبون رسائل ضد الدين الخفيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا في مديح النبوي ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المخرفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا في الرسول أزلية النور المحمدي المعنوي لبُّ الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين ولد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بَسْتَةٌ مَالَهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ  
 مِنْ كَمَلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ قَلَمٌ يَفْتُهُ عَلَى الْخَالِقِينَ تَكْمِيلُ  
 مِنْ آدَمَ وَالْحَيْنِ الْوَضْعَ جَوْهَرُهُ الـ مَكْنُونٌ فِي أَنْفَسِ الْأَصْدَافِ مَحْمُولُ  
 فَلَنْسَبُوهُ إِتْمَامٌ وَمُبْتَدَأٌ بِيهِ وَاللَّفْخِرِ تَعْجِيلٌ وَتَأْجِيلُ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصف الوجد الملتاع ، ودائما يردد معجزات

الرسول وجهاده في غزواته ، ودائما يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبيين وأيضاً خاتمهم ، يقول :

كان سِرًّا في ضمير الغيب من قبل أن يُخْلَقَ كونٌ أو يكونا  
تشرق الأكوأُن من أنواره كلما أودعها اللهُ جَبِينا  
ختم اللهُ النبيين به قبل أن يَجْبَلَ من آدم طِينا  
فَهو في آباتهم خير - أب وهو في أبنائهم خيرُ البِنِينا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قبل الكون وخلق قبل أن يُجْبَلَ أو يُخْلَقَ آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوي الأزلي ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهي . ويكثر البوصيري في مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيري بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الورى » وهي في نحو أربعمائة وخمسين بيتا وعُني كثير من بشرحها ، وهو فيها يحمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذي يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرَفَّى رَقِيكَ الأنبياء ياسمَاء ما طاولتها سماء  
إنما مَثَلُوا صفاتِكَ للنَّاسِ كما مَثَل النجوم الماء  
أنت مصباحُ كلِّ فضلٍ فما تَصَدَّرُ إلا عن ضوئك الأضواء

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلة أي نبي أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مَثَلُ جانبنا من صفاته الربانية ، كما تَمَثَلُ النجوم المترائية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصوِّر جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الخفيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحرهم لرسوله . ويصور حجَّته إلى مكة وأداء المسلمين

لمناسك الحج . وبنوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلي وخليفته  
 أبي العباس المرسي ، ويتضرع في أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه في محو ذنوبه .  
 وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبردة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان  
 قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كي يعافيه ، وظل يكرر إنشادها  
 ويكي وي يدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبي ﷺ يسح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ،  
 وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتتحها متغزلا بحجازية  
 من ذى سلم أشعلت الحب في قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه  
 السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جاح النفس وردّها عن شهواتها .  
 ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم  
 ويسترسل في تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فاق النبيّن في خَلْقِي وفي خَلْقِي ولم يدانوه في عِلْمِي ولا كَرَمِي  
 وكلُّهم من رسول الله ملتَمِسٌ عَرَفًا من البَحْرِ أورشَفًا من الدِّيمِ  
 فإنه شمسٌ فضلٍ هم كواكبها يُظهرن أنوارها للناس في الظُّلْمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلمًا وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من  
 نوره ، فنوره يتجلى في الأنبياء جميعا ومها تعددوا في الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة  
 واحدة هي الحقيقة المحمدية . ويفيض البوصيري في بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن  
 معجزته الكبرى كما يفيض في بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الخنيف حتى  
 استسلموا صاغرين . ويضرع للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به في  
 دنياه وآخرته . ولا تزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تشد إلى اليوم في حفلات الموالد وحلقات  
 الذكر الصوفي وله بجانبها في المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

### محمد بن أبي الحسن<sup>(١)</sup> البكري الصليبي

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره يأخذ ما عندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجي ربه :

رَبِّ إِنِّي عَبْدٌ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ      فَلَاحِي بِاللَّطْفِ مِنْكَ تَدَارَكُ  
كُلُّ قَطْرٍ أَصَابَنِي مِنْكَ بَحْرٌ      كَيْفَ وَالْحَالُ فِيَّ تَجْرِي بِمَارِكُ  
كُلُّ جِزْءٍ مِنْهُ لَسْرُكٌ دَارٌ      عَمَّرَ اللَّهُ يَا حَبِيبِي دِيَارَكُ  
مَنْ رَأَى رَاكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ      أَيُّ شَكٍّ وَقَدْ جَعَلْتُ مَرَارَكُ

وتمثل في الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض :  
وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحية من مثل قوله :

حَبِيبُكَ دَانٍ رَقِيبٌ قَرِيبٌ      فَاذَا الْبِكَاءُ وَمَاذَا التَّحِيبُ  
نَعَمْ هُوَ دَانٍ وَلَكِنِّي      بَعِيدٌ فَقِيدٌ طَرِيدٌ غَرِيبٌ  
بُكَائِي عَلِيٌّ لِأَنِّي بُلِيْتُ      بَدَاءَ الصُّدُودِ وَعَزَّ الطَّيِّبُ

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتحاق يعني الوصال ، ومحبوه قريب منه ، بعيد لأنه لا يتبله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويث والحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

للعيدروس (طبع بغداد) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصليبي  
للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن رحمة الألبا للخفاجي  
٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابنه أبي المواهب ص  
٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملا راجيا ويردد ما رددته ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكري استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قربه الله إليه ، وسره الأعلى الذي لا يجيب أمله ، والذي ينال سؤله اللائذ . ومن قوله في إحدى استغاثاته :

يا أكرم الخلق على ربِّهِ وخير من فيهم به يُسألُ  
 قد مسنى الكربُ وكم مرة فرجتَ كربًا بعضهُ يُذهلُ  
 وأنت بابُ الله أيُّ امرئٍ أتاه من غيرك لا يدخلُ

ويضيف في استغاثاته بالرسول إلى تفرّيج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له في عروجه إلى السموات .

## ٥

### شعراء الفكاكة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاكة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا في كتابنا « الفكاكة في مصر » مستعرضين هذه الحصلة في مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخطفه شاعر كان يلقب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحو في الطرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر <sup>(١)</sup> » . ولا يلبث أن يقول في سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضي البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الخلاوة والتندير والهزل <sup>(٢)</sup> » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابة للشعراء

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠ .

تتسع ، إذ ينز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصمهاني إذ يلقانا فيه شاعر لُقّب بِشَلَّع وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهمجان وخامس بالنسناس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنيسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بفلام مسيحي ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذرأله ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندير بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد ، فلا تزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولا يزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونابه أو ناياته (١) :

وزامر يكذبُ فيه عائبَةٌ      تكثرُ في صنعته عجائبَةٌ  
يحجب صبر المرء عنه حاجِبَةٌ      كأنما نايأته ذوائبه

والتورية واضحة في حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر في غير هذا الموضع - ومثله قر الدولة جعفر بن دؤاس ، وله يقول في ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد (٢) :

هذا ابنُ أفلح كاتبٌ متفردٌ بصفاته  
أقلامه من غيره ودوائه من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعابة مشهورة للقاضي الجليس



شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طيبب تعهّده وكان محمودا ، فلم يبرأ على يديه وفيها يقول (١) :

وَأَصْلُ يَلْتَنِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحِ بِعَسْكَرَيْنِ  
طَيْبٌ طَبُّهُ كَغُرَابٍ بَيْنَ يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِ  
أَنِي الْحُمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ فَرْدٌ لَهَا الشَّبَابَ بُسْخَتَيْنِ  
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرِ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حُنَيْنٍ (٢)  
وَكَانَتْ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصِيرَهَا بِحَذْقِ نَوَاتَيْنِ

والجليس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاخت وباحت أو فترت فإذا هو يرُدُّ لها الشباب بورقتين من سقوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في ردِّ قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاوده في اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الذروري في الحقة الأيوبية ووصفه لخدبة ابن أبي حصينة وصفا ساخرا لاذعا . ومن طريق ما نقرأ من دعايات في هذه الحقب دعاية البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول (٣) :

لَكَ يَا صَدِيقِي بَغْلَةٌ لَيْسَتْ تَسَاوِي خَرْدَلَهُ  
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعَيُوبُ نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَهُ (٤)  
وَتُخَالُ مَدْبِرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتَ مُسْتَعْجَلَهُ  
مَقْدَارُ خَطُوتِهَا الطُّوْ يَلِي حِينَ تَسْرَعُ أَنْمَلَهُ  
تَهْتَزُّ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَهُ

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظنُّ أنها مقيدة لبطنها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنال بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتز واقفة لاتسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة .

(١) الخريدة ١٩٢/١ .

(٣) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفي عبدالرازق ص

٥٤ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قرّة من أطباء القرن

(٤) مشكلة : مقيدة .

الثالث ومثله حنين بن إسحق .

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل<sup>(١)</sup> :

باقه قُلْ للنيل عنى إننى لم أشفِ من ماء الفراتِ غليلا  
وسلّ الفؤادَ فإنه لى شاهدٌ أن كان طرْفى بالبكاء نجلا  
ياقلبُ كم خَلَفْتَ ثمُّ بُيْتَهُ وأظن صبرك أن يكون جميلا

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفى غليله ، ولن يكف بكأوه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبئنة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموى بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان<sup>(٢)</sup> : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله<sup>(٣)</sup> :

ملكَت الخافقين فتهتَ عَجَبًا وليس هُما سوى قلبى وقُرطك

فهى لا تمتلك قرطها الخافق المهتر وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزائر والوراق وابن النقيب والحمامى وابن دانيال ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور<sup>(٤)</sup> :

أقول وقد شتّوا إلى الحرب غارةً دعوى فإنى آكلُ الخبزَ بالجبنِ

والتورية في الجبن واضحة . ومن توريات الناصر الحامى قوله في بعض غزله<sup>(٥)</sup> :

ويظننى حَيًّا رَوَيْتُ بريقه فإذا دعا قلبى يجاوبه الصدى

(٣) اللويان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص

٣٠٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للصدى المتصل بالدعاء والجواب رجح الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذه عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرًا رديثًا غالبه نوى ، إذ كتب إليه (١) :

أرسلت تمرًا بل نوى فقبلته بيد الوداد فما عليك عتابُ  
وإذا تباعدت الجسم فودنا باقى ونحن على النوى أحباب

والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى العمر ، والمعنى البعيد الذى أراده ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصانع الحنفى وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البشتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والزواج المصرى صنوان لايفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكه كان يعيش للهزل هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

ابن (٢) مكنسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكث التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التعريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبدل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحي يسمى أبامليح فى عهد بدر الجمالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويت سماء المكرما      تِ وَكُورَتْ شمسُ المديحِ  
ماذا أرجى فى حيا      فى بعد موتِ أبى مليحِ

والخريلة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦/١ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

(١) خزنة الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون

ويبدو أن البيت الثاني هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق  
ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلقاك مبهجًا والغيثُ فى يدهِ يَهْمِي فَيَجْمَعُ بين الشمسِ والمطرِ  
وقوله :

الطَّوْدُ حاسدٌ حِلْمِهِ وَأَنَا تِهٍ والسيفُ حاسدٌ بأسِهِ وَمَصَانِهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها  
أوسابق فعلا من مثل قوله بصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل فى شكل عقرب :

قلتُ إذْ عقربَ الدَّلَا لُ على خَدِّهِ الشَّعْرُ  
مارئى قَطُّ قَبْلَ ذَا عقربُ حَلَّتِ القَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه بـرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ،  
وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لا تَخْدَعَنَّكَ وَجَنَّةُ محمَّرَةٌ رَقَّتْ فى الباقوتِ طَبَعُ الجَلْمِدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الحسنُ فى وَجَنَّتِهِ وطَرْفِهِ يفتح وَرْدًا وَيَغْضُ نَرْجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة فى المجون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات  
بديعة من مثل قوله بصف الخمر وهى تُصَبُّ من إبريق :

إبريقنا عاكفٌ على قَدَحٍ كأنه الأُمُّ ترضعُ الولدا  
أوعابدُ من بنى الجوس إذا توهَّم الكأسَ شَعْلَةً سَجْدًا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نواذر وأشعار كثيرة ،  
كان فيها يتاجز على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان  
دائم التصوير لبؤسه وقره وخلو داره من الطعام وعبث الجردان فيها وبنات وِردان أو الصراصير ،  
ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لَيْ بَتُّ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَعْرِ لَابِنِ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِهِ سَخِيفٍ  
 أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِي الضَّعِيفِ  
 بَقْعَةٌ صَدٌّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذَّ سَكَنَتْهَا - فِي الْكُؤُوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقة الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيف من أشعار ابن حججاج المفحشة ، ويقول إنه - مذ سكنه - في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهي تورية واضحة . ومن قوله الفكاهة يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ      دُ رَقِيعًا كَمَا تَرَى  
 أَحْسَبُ الْمُقْلَ بُنْدُقًا      وَكَذَا الْمِلْحَ سُكْرًا  
 وَأُظِنُّ الطَّوِيلَ مِنْ      كُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرًا  
 قَدْ كَبُرَ بَرٌّ بِبِرِّ      تٌ وَعَقْلِي إِلَى وَرَأِ  
 عَجَبًا كَيْفَ كُلُّ شَيْءٍ      سَبِيءٍ أَرَاهُ تَعْيِيرًا  
 لَا أَرَى الْبَيْضَ صَارَ يُؤَى      كُلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا  
 وَإِذَا دُقَّ بِالْحِجَا      رِ زَجَاجٌ تَكْسَرًا

وهو يعلن في مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ، وكأنه لن يكف عن رقاوته ومجونته ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والممدور . ويحس ارتعاشه في شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكده يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فمه مكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شيء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق في الضحك ، إذ تحولت الحقائق في عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب في أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هي التي جعلت المصريين لزمه يلقبونه ابن مكنسة .

الجزائر<sup>(١)</sup>

هو يحيى بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والملوكية ، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته في الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان في أول أمره قصباً وسال الشعر على لسانه وكانت ملكه خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة في الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائمه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم في وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من بره ، ويذكر دعوته له مرارا للزهوة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحمامي وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يفدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذي يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويخيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائمه ، وهي مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدي : « لم يكن في عصره من يقاربه في جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رزق من حسن الاهتداء لغرائب المعاني وبدائع الألفاظ ما يدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التي يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن مترعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة في وصف لغة الجزار بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهي ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة في الفسطاط لزمته ، فطبيعي أن لا ينجح في أشعاره إلى الألفاظ الغربية إنما ينجح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التي تصور صلة عامة

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن الهادي ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للزولي ١٩١/٢ وما بعدها ، ومكتبة جامعة القاهرة مصورة لمتخيات من شعره بخط الصفدي في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في الجزار وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المحاضرة ٥٦٨/١ وغوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الشعب المصري دائما بالشعر العربي صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون في الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد في الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصري الجزائر كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورّاقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحامى ، وكان له حَمَام يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ وليس يخشاه غيرُ تيسٍ

وردّ عليه الجزار غير غاضب بل كأنما يريد استمراراً في الدعابة :

يرجينا بنو كلبٍ ويخشانا بنو عجلٍ

ويبدو أنه كان يعود في بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرقة الجزارة فقال :

كيف لا أشكرُ الجزارةَ ما عشتُ حِفاظًا وأرفضُ الآدابا  
وبها أضحتِ الكلابُ تُرجيُ نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزار ميل متأصل في نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبِّهه بابن مكنسة وأبي الشمقمق العباسي في الشكوى من بؤسه وقره مداعبا متفكها بمثل قوله :

لى من الشمس خِلعةُ صفراءِ لا أبالى إذا أتانى الشتاءُ  
بيتى الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مَدَارٌ وسَقَفُ بَيْتِي السَّمَاءُ  
لو ترائى فى الشمسِ والبرْدُ قد أذَّ حَلَّ جَسْمِي لَقَلتَ إِنى هَبَاءُ  
كلما قلت فى غَدٍ أدرك السُّو لَ أتانى غَدٌ بما لا أشاءُ

فحتى الثياب لا يجدها ، وبيته الأرض وسقفه السماء ، وقد أنخله البرد حتى صار شيحا لا يكاد يرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

وَدَارِ خَرَابٍ بِهَا قَدْ نَزَلْتُ وَلَكِنْ نَزَلْتُ إِلَى السَّابِعَةِ  
فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ أَنِي أَكُونُ بِهَا أَوْ أَكُونُ عَلَى الْقَارِعَةِ  
وَأَخْشَى بِهَا أَنْ أَقِيمَ الصَّلَاةَ فَتَسْجُدَ حَيْطَانُهَا الرَّكَعَةَ  
إِذَا مَا قَرَأْتُ : ( إِذَا زُلْزِلَتْ ) خَشِيتُ أَنْ تَقْرَأَ : ( الْوَاقِعَةَ )

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولاسقف ولاحيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقض حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبة له هذا الوصف الفكه :

لِي نِصْفِيَّةٌ تَعُدُّ مِنَ الْعُمْرِ سِنِيًّا غَسَلْتُهَا أَلْفَ غَسَلَةٍ  
كُلَّ يَوْمٍ يَحُوطُهَا الْعَصْرُ وَالذُّقُّ مَرَارًا وَمَا تُقَرَّرُ بِعُسَلَةٍ  
أَيْنَ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمِ وَذَاكَ التَّسْبِيحُ فِيهَا وَخَطَرْتِي وَالشَّمْلَةَ  
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةٌ قَطُّ وَلَا فِي أَكْثَامِهَا قَطُّ وَصَلَّهُ

فهي نصفية أو « جبة » طالما لبست وغُسلت وصُبغت ، وفي كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصبين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهي بفتح العين الجنابة وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل في العامية المصرية على ما يتلفح به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهي فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنَّأ فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال ثَوًّا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَاسِيًّا فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ  
فَلَا تَسْؤَمُونِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله في أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْكِنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ



والقطر هنا السكر ، والدر : الهطلان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، ففضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةً لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذَهْنٌ  
لَوْ بَرَزَتْ صَوْرَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسْرَتْ تَبَصَّرَهَا الْجِنَّ  
كَأَنَّهَا فِي فَرْشِهَا رِمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطْنٌ  
وَقَاتِلِي قَالَ مَا سَيِّئًا فَقَلْتُ مَا فِي فَمِهَا سِنٌ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنها أي عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارًا في رثائه لأناته ، وجمع بعض معاصريه مراثيه لحماره في مجلد ، وهي مراث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ يَرَى رَغِيْبًا فَمَا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسِرُ  
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لَقَالَ الْخَبْرُ أَكْبَرَ

وفي الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمته صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قَلْتُ لَسُقْمُ الْجِسْمِ مَنِي وَقَدْ أَفْرَطَ بِي قَرُطٌ ضَنًّا وَاكْتِنَابٌ  
فَعَلْتُ بِي يَأْسُقْمُ مَا لَمْ يَكُنْ تُتْبَسُّ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِ الثِّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لاتكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالا يصح ولا يجوز أبدا .

السراج<sup>(١)</sup> الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفى سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخیل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبدیع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبيعى ، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة ، ومازال الشعر يصعد به حتى عین كاتبنا للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراقه ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله في الظاهر يبهرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيدّها للعلم مدرسةً غدا عراقٌ إليها شيقٌ وشامٌ  
ولا تذكرنّ يوما نظاميّةً لها فليس يضاها ذا النظامَ نظامٌ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوق المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دارة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومررنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مرثية بديعة في المعزايك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمٌ عليه ماتما بعد ماتمٍ ونسفعُ دمعاً دون سَفْحِ المقطّمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقه ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدر ٩٠/١ وخطط المقرئى  
٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية  
ومصورة بخط الصفدى في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات  
الوفيات لابن شاکر ٢١٣/٢ والنجم الزاهرة ٨٣/٨  
وشنرات الذهب ٤٣١/٥ وغزاة الأدب للحموى ص

فِي خَدِّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاسْتَخْتَلَفُوا أَللِّشَّقَاتِ أُمُّ لِلوردِ نِسْبَتُهُ  
فَذاكَ بِالْخَالِ يَقْضَى لِلشَّقِيقِ وَذا دَلِيلُهُ أَنَّ ماءَ الوردِ رِيْقُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حشره لعلم الناس واختلافهم في خد صاحبه ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بديعة ومعروف أن الشقيق قائم الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبه الشبيه بمائه . ومن غزله أيضا :

لَا تَحْجُبِ الطَّيْفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ لَمْ يَبْقَ مِنِّي لِفِرطِ السُّمِّ مَطْلُوبٌ  
وَلَا تَتَّقِ بَأْنِي إِن مَوْعِدُهُ بَانَ أَعِيشِ لِلْقِيَا الطَّيْفِ مَكْنُوبٌ  
هَذَا وَخَدُّكَ مَحْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ دَمْعٌ يَقْبِضُ عَلَى خَدِّي مَحْضُوبٌ  
تَأْوُدُ الْعُضْنَ مَهْتَرًا فَأَبْنَانَا أَنَّ الَّذِي فِيكَ خَلْقٌ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيبات ، ويقول إنه ييكي بما قانيا كخذ صاحبه في حمرة . ويزعم أن ميلان الغصن واهتزازه إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبه . وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأى المعتزلة في أن الإنسان يكسب عمله بفعله لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصري كأهمية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده ، وقد خطا بطن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أرى عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته في لقبه السراج قوله مادحا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانِي قَلَّدَ مِنْ نَظْمِ الشُّحُورَا  
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ فاقطعَ لِسَانِي أَرِذْكَ نَورَا

وهو يشير إلى السراج الحقيقي حين يقول « اقطع لسانى » وهو إنما يريد النوال الذى يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويها وإشادة . ومن تورياته في لقبه الوراق :

وَاحْجَلْتِنِي وَصَحَائِنِي قَدْ سَوَّدَتْ وَصَحَائِفُ الْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ

وفضبحتي لمُعْفٍ لى قائلٍ أكذا تكون صحائفُ الوراقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمه : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينما ينبغي أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أديمٍ وجهي عن أناسٍ لقاء الموت عندهمُ الأديبُ  
وربُّ الشعرِ عندهمُ بغيضٍ ولو وافى به لهمُ حبيب

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبو تمام إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُونِيَّ وانتصبٍ واكتسبٍ واكذَحِ فنفسُ المرءِ كدَاخَةٍ  
وكُنْ عن الراحةِ في عزَلَةٍ فالصُّفْعُ موجودٌ مع الرَّاحَةِ

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته في بقلة معروفة في مصر باسم « الرجل » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قائلا :

وأحمقٍ أضافنا ببِقَلَةٍ لنسبَةٍ بينها ووُضَلَةٌ  
إذ مَدَّ في وجه الضيوف رِجْلَهُ

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجل على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فَسَّرَ لى عابِرٌ منامًا فَصَّلَ في قوله وأجْمَلُ  
وقال : لايد من طُلُوعِ فكان ذلك الطلُوعُ دُمْلُ

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية البارة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموى توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لا نقل عنها لظفا وبراعة .

## ابن (١) دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتى إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلده ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكحّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائلي عن حرفتي في الورى واضبعتي فيهم وإفلاسي  
ماحال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

والعورية في الشطر الأخير واضحة ، وهي عبارة تدور على ألسنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أي رغم أنفه ، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تتعقد في دكانه أغلب الليالي ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمته من أمثال الجزائر وابن النقيب والوراق والحامى ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عصيات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونهم يُجهز على بصره فيصبح ضريرا محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندي إلا أن يكون فيكم من يقود لله تعالى . وكان يلزم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم في عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : ياحكيم أما أعطيناك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريقة قوله :

قد عقَلْنَا والعَقْلُ أَيُّ وثاقٍ وصَبْرْنَا والصَّبْرُ مرُّ المذاقِ  
كلُّ من كان فاضلا كان مثلي فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقها . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابتها الفكاهة في مصر ( طبع دار الهلال ) ص ٥٣ وما بعدها .

(١) انظر في ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوقيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشنبرات الذهب لابن العباد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبدر

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما يسميها بابات لتمثل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمِّي متحركة متحاوره ، واسم أولها « طيف الخيال » والثانية « عجيب وغريب » والثالثة « متم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لمهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبداع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » وهي مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قريناً شديداً إلى عامية أهل القاهرة لزمه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصلى متغنيا بفضله وجدّه وهزله ، ويسلم سلام القادم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحديثة بمثل قوله :

قسماً بحسن قوامك الفتان يا أوحده الأمراء في الحدبان  
يامشبه الغصن الرطيب إذا انثنى من حذبتيه يمس بالرمان  
ياعجلاً شكل الهلال بقده حاشاك أن تُعزرى إلى نقصان

ويستمر في تحسين حديثه ، فهو صاحب ردّفين ، وهو جمل جليل السّم ، بل هو كالعود الأحذب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لأفض الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطاً على قفاه . ويعنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكورات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازرونى بعد تجريبه في الطرقات وفي عقبه دنّ نبيذ أو نبادية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حدّ السكر من قبل صلبيه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدًا  
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تُب فإن الحدّ قد جاوز الحدّ  
والتورية واضحة في كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشيء لحدّه

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحدث ليرثى إبليس وغوياته ويندب تحطيم أوانى الخمر وذنانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - يا قوم - شيخنا إبليسُ وخلا منه ربُّعه المأنوسُ  
والقناني به تكسرنَ والخمُّ - أارُ من بعد كسرها محبوسُ  
ودَّو القَصْف ذاهلون وقد كا دتْ على سِيلها تسيلُ النفوسُ  
والحرفايشُ حولها يتباكو ن بنارِ تُراع منها الجوسُ  
وقضيبُ و نرجسُ وسُعادُ باكياتُ ونزْهَةٌ وعروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لنندل على مانعوج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدثه فى توقعات وودائع ، وأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا واقتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرْبَعَر انتقاما منه حين هزئ به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُرْدَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شروى نَقير كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طلب منه المهر . وقد أطلق البخور ورشَّ الطيب على الحضور وينشد :

أَمَسِيْتُ أَفْقَرَ مَنْ يَرُوحُ وَيَعْتَدِي ما فى يدي من فاقتي إلا يدي  
فى منزلٍ لم يَحِوْ غَيْرِي قَاعِدًا فإذا رقدتُ رقدتُ غيرَ ممدِّدِ  
وترى البعوضَ يطير وهو بريشه فإذا تمكَّن فوق عِرْقٍ يَقْصِدِ  
والفارُ يَرُكُضُ كالخِيولِ تسابقتُ من كلِّ جرداء الأديم وأجردِ  
وترى الخنافسَ كالزُنوجِ تصفَّفتُ من كلِّ سوداء الأديم وأسودِ  
هذا ولى ثوبٌ تراه مرَّقا من كلِّ لونٍ مثل ريش الهدهدِ

ومع ذلك يُزِفَّ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الدهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور ما يتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبه وضحكه ، فيحطمه حطما : وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالتَّوْحِ والتَّعديِدِ بعد فقد العجوز أمَّ رشيدِ  
هلكتْ آخرَ اللَّيالي السودِ باليالي الوِصالِ باللهِ عُودى

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص ويتردَّد فيها التسلسل ، وشخصها في غاية الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . وما زال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور فى أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

### عامر<sup>(١)</sup> الأنبوطى

يقول الجبرتي في ترجمته : «شاعر مفلق هجاء» ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استهلها بقوله :

يقول عامرُ هو الأنبوطى أحمد زى لستُ بالقنوطى<sup>(٢)</sup>  
وأستعين الله فى ألفيّه مقاصدُ الأكلِ بها محويّه  
فيها صنوفُ الأكلِ والمطاعمِ لذتُ لكلِ جائعٍ وهائمِ<sup>(٣)</sup>  
طعامنا الضانى لذيذُ اللّهم لحما وسمنا ثم خبزنا فالنتقم

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليانس

(٣) الهائم : شديد العطش .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرتي



فإنها نفيسة والأكل عمّ مطاعمٌ إلى سناها القلبُ أمّ (١)  
والأصلُ في الأخبارِ أن تُقمرًا وجوزوا التّقيّد إذ لا ضررًا (٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئاً من أشعار هذه الألفية يفرقون في الضحك إغراقاً ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجليلة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائي تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضّانِ تزيّاقُ من العليلِ وأصْحُنُ الرزِّ فيها منتهى أُملى (٣)  
ولا خليلٌ يدفَعُ الجوعَ يرحمى ولا كريمٌ بلحْمِ الضّانِ يسمع لى  
طال التلهف للمطعم واشتعلتْ حُشاشتى بحامِ اليّت حين قُلى  
أريد أكلًا نفيسًا أستمين به على العبادات والمطلوب من عملى

وكانت لابن الوردي الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خظوهم فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعمَ عدسٍ وبصلٍ في عشاءٍ فهو للعقل خبيلٌ  
وعنّ البيصارِ لا تُعزَّ به تُمس في صحّة جسمٍ من عليلٌ  
واحتفلْ بالضان إن كنت فتى زاكى العقل ودغ عنك الكسلُ  
من كبابٍ وضلوعٍ قد زكتْ أكلها يئنّ عن القلب الوجلُ

وطعام العدس والبصل وكذلك البيصار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضاني وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يظرف معاصريه في القاهرة ويسرّى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستفرون في الضحك ، بما يعرض عليهم في أشعاره الفكهة من أصناف الأطعمة وألوان

(١) أمّ : قصد .

(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق في العامية على أواني الطعام وطهيه الكبيرة .

(٢) تقمر : كلمة عامية أى تعرض على الناس

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه « كبابا » ودواء من الحلوى والحشاف . وما زال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفي سنة ١١٧٣ للهجرة .

## ٦

## شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التى تتمهن الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتحنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما رتبنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحامى الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهى نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هى الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والمواليا استحدثته أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربى وخاصة الزجل والمواليا .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصلى وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة ، ومنه ما سمّته مصر بُلَيْقًا وجمعه على بلايق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحاض ، ومنه ما سمّي قَرْقِيًا وهو ما تضمن الهجاء أو الهزل ، ومنه ما سمّي مكفّرًا وهو ما تضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومُرُّ بنا أن الشريف العقيلي في القرن

الخامس كان يجتم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفرة لما قدم في القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت تُلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرک ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُليق وهو زجل هزل ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُليق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البُليق ، ومن بُلقياته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لديني الحقاني  
نرجع لديني الأول عن التَّسا لَسَنَ تحوّل  
إن كنت في ذا تتقول أضفَعُ وقطعُ آذاني

وهذا من الطراز العالى في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره <sup>(١)</sup> . واشتهر في القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايق <sup>(٢)</sup> . ومن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايق زين الدين القوصي وقدروى له ابن حجر يُلقبًا <sup>(٣)</sup> ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدروى له ابن تغرى بردى بُلقيًا <sup>(٤)</sup> هزليا رقص به منشدوه بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندي خلقُ فقد صدق  
عندي قبا من عهد نوح على الفتوح <sup>(٥)</sup>  
لو صادفوا شمس السطوح كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندي خلق » أى هرم إلى بُلقينا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُليق مرارا . ويحانب البلايق تلقانا أزجال كثيرة في هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفي الدين الحلبي ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، وهو يجري على هذا النمط <sup>(٦)</sup> :

(٤) النجوم الزاهرة ١٠/٣١٧ - ٣١٨ .

(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه .

(٦) العاقل الحلبي لصفي الدين الحلبي نشر ولهم هو نرباخ

بألمانيا ص ٢٧ .

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥

(٢) انظر بعض بُلقيات ابن دقيق في الطالع السعيد ص

٣٢٧

(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣

مَنْ نَعَشَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَارُ طَرَزُوا مِنْ زَانُوا بِالْحِدَارِ  
عَرَضْتُ لُو بِاللَمَّاحُ صَارُ وُرُكُو كَالْبَهَارِ<sup>(١)</sup> وَتَبَدَّلَ لُونُو بِالصَّفَارِ

وأشد زجلا مصريا كاملا ، قال : سمعته للمصريين ، وهو يصور خفة روحهم ورقمهم  
ولطفهم وظرفهم ، وما جاء فيه <sup>(٢)</sup> :

لَسْ غَرِيبٌ مِّنْ فَارِقِ أوطَانُوْ أَوْ بَعِيدٌ عَنِ نَاطِرُو الْحَبِيبِ  
إِلَّا مِّنْ دَارُو قَبْلُ دَارُو وَالْحَبِيبُ عَنِ نَاطِرُو مَحْجُوبِ  
حَبِيبِي عَنِّي حَجَبُوهُ أَهْلُو وَأَسْرَفُو فِي جَمْعِ حُطَاوِ  
وَالرَّقِيبُ قَدْ غَيَّبُوا عَنِّي حَتَّى عَنِ قَيْدِ الْفَاطُوْ  
كُلْ يَوْمَ لِأَجْلُو يَغِيظُ قَلْبُو رَبِّ غِيظُ قَلْبِ الَّذِي غَاظُوْ  
مَآخِطَرٌ إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ أَوْ عَبِيرٌ إِلَّا وَهُوَ مَرَعُوبِ  
لَسْ نَطِيقُ نَلْفِظُ مَعُو لَفْظُهُ لَا وَلَا يُرْسِلُ إِلَيْهِ مَكْتُوبِ  
رَيْتُ حَبِيبِي فِي الرِّيَاضِ يَمْرُخُ بَيْنَ أَقْرَانُو وَأَثْرَابُو  
قَلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لَيْقَى أَحْبَابُو نَسِي أَصْحَابُو  
قَالَ لِي قَدْ ضَجَّتْ بِنَا اَعْدَانَا وَرَمُونَا قَلْتُ مَا صَابُوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعلوية . وقد روى صاحب خزنة الأدب قطعة من زجل ابن  
القحاح في وصف الترجس <sup>(٣)</sup> . ولما توفى السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا  
عظيما وراثه الشعراء بعدة قصائد ، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم <sup>(٤)</sup> :

كوكب السعد غاب من القلعة وهلاكو قد انطفا بأمان  
وُزَحَلْ قَدْ قَارَنَ الْمُرَيْخُ لِكُسُوفِ شَمْسِ الضُّحَى شُعْبَانُ

ومن أطرف الأزجال المصرية لعهد المماليك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة <sup>(٥)</sup> نظمه زجال  
مصرى في رثاء الفيل مرزوق ، وهو فيل كان قد أهداه تيمورلنك في أوائل القرن التاسع الهجرى  
إلى سلطان مصر ، وتصادف أن الغلمان الموكلين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على

(٤) النجوم الزاهرة ٨٣/١١

(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

(١) البهار : زهر أصفر .

(٢) العاقل الخليل ص ١٠٩

(٣) خزنة الأدب ص ٢١٩

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

سهم الفراق قد صاب قلبي	يا مسلمين
ونا غريبة هندية	قلبي حزين
وعيطت حتى أبكت	جيرانها <sup>(١)</sup>
من كثر مانحت ناخوا	لأحزانها
من نارها صارت تلطم	بودانها <sup>(٢)</sup>
حتى الزرافة جاءتها	متحسرها
تبكى على الفيل اللي مات	في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولقنات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعددها في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حينئذ بمصر . وفي دار الكتب مجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأرجال حية في الحقبة العثمانية ومثلها المواليا ، وهي الفن الشعبي العامي اللطيف الذي استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجده في ديوان ابن الفارض الصوفي ، واشتهر به في عصر الماليك أبو بكر بن العجمي عين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجري وكان إمام فن المواليا<sup>(٣)</sup> لزمه وضروره المتشعبة ، ومن موالياته :

للحبيب قالوا معنك الذي اذبلتو	جدلؤ بقبله فقلبو فيك خبلتو
فقال أقسم لو ان البوس سبلتو	ومات ، للشرق مادرتو وقبلتو <sup>(٤)</sup>

قد تكون من القبلة بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها بكلمة البوس ، وقد تكون من القبلة بكسر القاف أي ماأداره نحو القبلة بعد موته وهو المعنى المراد .

(١) عيطت : بكت .

(٢) ودانها بالعامية : آذانها .

(٣) خزنة الأدب ص ٤٣ .

(٤) درتو : كلمة عامية أي أدرتو . وفي قبلتو تورية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام المالك وأيضاً في أيام العثمانيين . وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي : البليق ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ شمس الحفني الشافعي الخَلَوْتِي :

خَطَرَ عَلَيَّ غَزَالِي مَرَّ مَا أَتَكَلَّمُ فَوْقَ جَفُونِهِ وَقَلْبِي وَالْحِشَاءُ أَكَلَّمُ  
إِيشْ كَانَ يَضْرَهُ إِذَا بِالرَّاسِ لِي سَلَّمُ حَتَّى أَسْرَ مَهْجَتِي لَوْلَا السَّلَامُ سَلَّمُ

والنوع الثاني القَرَقِيَا وينظم في الهزل والفكاهة وما يتصل بها ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شَمَّة .

قَالُوا تَحِبُّ الْمَدْمَسُ؟ قَلْتُ بِالزَّيْتِ حَارٌّ وَالْعَيْشُ الْإِيضُ تَحِبُّهُ قَلْتُ وَالْكِشْكَارُ  
قَالُوا تَحِبُّ الْمَطْبِقُ؟ قَلْتُ بِالْقَنْطَارِ قَالُوا أَشْ تَقْلُ فِي الْخَضَارِي قَلْتُ عَقْلِي طَارَ

والقول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفّر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواظف وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحفني أو الحفناوي وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النظم .

بِاللَّهِ يَا قَلْبُ دَعَّ عَنْكَ الْهَوَىٰ وَأَسَلَّمُ مِنْ كُلِّ مَيْلٍ وَوَأَمِّي عَهْدَهُمْ أَسَلَّمُ  
وَالزَّمُ حَمِي سَادَةٍ مِنْ أُمَّهُمُ يَسَلَّمُ وَأَسَلُّكَ سَبِيلَ التَّقَىٰ يَوْمَ اللِّقَا تَسَلَّمُ

ويقول صفي الدين الحلبي إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالباً يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكأن قائله يحكي ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق<sup>(١)</sup> . ويحكي ابن تفرى بردى منه منظومة في وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهي تستهل على هذا النظم<sup>(٢)</sup> :

مِنَ الْكَرْكُ جَانَا النَّاصِرُ وَجَبَّ مَعَهُ أُسْدُ الْغَابَةِ

ووقعتك يا أمير قوصون ما كانتِ آلا كدابةً

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراقي أيضا ، إذ نرى الجبرتي في الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم في الزجل والقوما والكان وكان والموالي والبليق<sup>(١)</sup> ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامي .

### إبراهيم<sup>(٢)</sup> المعمار

هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعمار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الخائك وقيل المعمار وقيل الحجار عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيما في الأزجال والبلاليتق » ويقول الصفدي : « عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيما في الأزجال والبلاليتق ، بحيث إنه في ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغري بردي : « كان ذكي الفطرة قوى القريحة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

قُبِّحَ الطاعون داءً فُقدتْ فيه الأُحِبَّةُ  
بيعتِ الأنفسُ فيه كلُّ إنسانٍ بِحَبِّهِ

وفي كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمٌ كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرًا على الفراق ولو رُميتَ ممن تحبُّ بالبَّينِ  
وأنتِ يادمعُ إن ظهرتِ بما يُخفيه قلبي سقطتْ من عيني

وفي كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف في العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوافي ١٧٣/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن إياس في مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .

وله زجل ماجن في كتاب عقود اللال للنساجم ،

(١) انظر الجبرتي ٢٩٠/١ .

(٢) انظر في المعمار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات

٥٥/١ والنجم الزاهرة ٢١٢/١٠ والمنهل الصافي ١٧٤/١

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله في زوجته مداعبا :

لما جَلَّوْا عِرْسِي وَعَايِنْتُهَا وَجَدْتُ فِيهَا كَلًّا عَيْبٍ يُقَالُ  
فَقُلْتُ لِلدَّلَالِ مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: مَا أَضْمَنُ إِلَّا الْحَلَالَ

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته  
مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى في هذا الموقف يفرع إلى التورية قائلا :

مَا كَانَ صَفْعٌ بِالرِّضَا لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ أُذُنِي  
لَوْلَا يَدٌ سَبَقَتْ لَهُ لِأَمْرَتِهِ بِالْكَفِّ عَنِّي

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أذني » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع  
وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ،  
وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وَخَادِمٍ يَلْعُو عَلَى عِشَاقِهِ بَرْتَبَةٍ مِنَ الْجَمَالِ نَاهَا  
وَإِسْمُهُ - وَهُوَ الْعَجِيبُ - عَمْسٌ وَكَمْ دَمُوعٍ فِي الْمَوَى أَسَاهَا

وفي كلمة « أساهها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو  
الحزن كأنه يرق لمحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

مَا مَصْرٌ إِلَّا مَنْزَلٌ مُسْتَحْسَنٌ فَاسْتَوَطَنُوهُ مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبًا  
هَذَا وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ بِهِ فَيَتِمُّوا مِنْهُ صَعِيدًا طَيِّبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : ( فَيَتِمُّوا صَعِيدًا طَيِّبًا ) وهو لا يريد معنى  
الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلي ، وهي تورية بديعة ،  
ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الْخَزَانَ لَمَّا أَنْ رَأَى نِيلَنَا قَدْ عَمَّ سَهْلًا وَجَبَلًا  
وَرَأَى الْأَرْضَ لَنَا قَدْ أُخْرِجَتْ سُنْبُلَاتِ ذَاتِ حَبِّ فَاخْتَبَلُ  
وَبِكِي إِذْ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زَادَهَا اللَّهُ عُرُوقًا وَسَبَلًا



والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمر ، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قح وسبل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولى فراقهُ يومُ عيدي  
فقبل شِعْبُ بستٍ فقلت أيضا وسيدي

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي . ولم تُعَنْ كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَجَتْ يوما مع الحِبِّ الرشيْق القَدَّ وقلت آهي على من قَبْلِكَ في الحدِّ  
فسلَّ سيفو من أجفَانو لقتلى حدَّ قلت انتهى الأمر يا حِيبي لهذا الحدِّ

وفي كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المقرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزَّينِ وَأَصْبَحَتْ مُضْنِي قَلْقُ أَخْشِي حلول الحَيْنِ  
وكنت قبلُ خَلِيُّ لم أشكُ وشكُ البينِ سالمٌ من العشق حتى صابني بالعينِ  
ولكلمة « صابني بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لمحبه بعينه وسهامها القاتلة . وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها نظرفا لأهل زمنه .

### العُبَارِي (١)

هو خلف بن محمد العُبَارِي عاش في القرن الثامن الهجري ، وكان فقيها وعلما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقرّبونه منهم ، كما نراه ينظم أرجالا مختلفة في أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مئذنة

للتواصي ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبي بئينة ص ٢١ .

(١) انظر في العُبَارِي تاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجري ، وراجع زجلا له في عقود اللآل

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمناه ،  
فمنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظمه في موضوعات كثيرة : في المديح والرثاء والأحداث  
السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان ( ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ ) وكان محبوباً من رعيته :

حُبّ قلبي شعبان موقِّع رشيدٌ      وجمالو أشرقٌ ومالو حدودٌ  
وأبوه الحسن وعمه الحسينُ      وأرث الملك من جُدود لجدود  
زَعَقِ السعد بين يديك شاويشُ      فرح القلب بعد ما كان حزين  
ونصَّب لك كرسي على الملكة      وظهَّر لك نصره بفتحو الميين  
والعصائب من حولك اشتالتُ      - خفقت في الركوب عليك - البنود  
فاحكم احكم في مصر ياسلطان      فجميع الجنود لحسك جنود

والشاويش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدى السلطان شعبان مؤتمراً  
بأمره ، ويقول إن العصابت أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أى رفعت البنود والأعلام  
كناية عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهى والسلطان . ونراه متصلاً بابنه السلطان على  
( ٧٧٨ - ٧٨٣ هـ ) ناظماً الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظمه في  
وقعة العريان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جا الحَبْرُ يوم الأربعاء      بأنو في ليلة الأحد  
جا دمنهور عرب خلدوا      سوقها وأخربوا البلد  
وابن سلام أميرهم      هو الذى للجميع حشدُ  
فبرز أيتمش سريع      بمالك وجند نُوبُ  
وعُدد مالها عدد      ويطلبوا لهم طلب  
حضرُوا ما التقوا أخذُ      من جميع العرب حضرُ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ  
كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك  
والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :  
في الناس رأينا للخير معادنٌ      والدرّ يوجد في كتر مِثْلُهُ

وَأَنْ رُمَتْ جَوْهَرٌ فِي الشَّخْصِ مَكْتُونٌ  
وَأَنْ كَانَ تَرِيدٌ صِحَّةَ الْمَعَانِي  
خَذُ فَرْعٍ بِإَيْدِكَ مِنْ أَسْأَلِ حَنْظَلٍ  
وَإِسْقِيهِ بِمَاءِ بَانَ وَوَرْدٍ مَمْرُوجٍ  
وَحِينَ تَشُوفُهُ عَقْدُ ثَمَارِهِ  
ذُوقُهُ تَرَاهُ مَرٌّ وَالسَّبَبُ فِيهِ  
فَجَوْهَرُ الشَّخْصِ حَسَنٌ فِطْلَةٌ  
وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مَحْرُزٌ  
وَازْرَعْ جَنْدُورَهُ فِي أَرْضِ عَثْبٍ  
وَعَقْدُ جَلَابٍ وَحَلٌّ سَكْرٌ (١)  
وَأَنْ أَوَانَهُ وَحَلَّ فَصْلُهُ  
مَا يَرْجِعُ الْفَرْعُ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكظ بالصور والاخيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وايرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه في هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَحْتَقِرْ أَيْ ابْنَ آدَمَ  
كَمْ حَى خَامِلٌ تَقُولُ عَلَيْهِ  
وَأَنْ جَيْتَ صَلَاحَتُهُ فِي يَوْمِ بَيَانٍ لَكَ  
وَيَشْبَهُ الرُّوضِ حِينَ يَبْدُو شَوْكُهُ  
وَالْبَحْرِ تَلَقَى الرَّمَمَ تَعَوْمٌ بِهِ  
فِي طَوْلِ حَيَاتِكَ وَلَا تَنْمُهُ  
مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبَيْمِ مِنْ اسْمِهِ  
تَظْهَرُ مَعَارِفَهُ وَيَنْجَلِي عِلْمَهُ  
وَالْوَرْدِ مَسْتَوْرٍ مِنْ تَحْتِ سَيْلِهِ  
وَالدَّرِّ غَايِصٌ مَخْلُوطٌ بِرَمْلِهِ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جوهره ، والسُّلُّ في العامية : الشوك . ويمثل هذا الزجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر مقدود الأغصان تشبه به الحسان .

والجلاب : ماء الورد والزهر .

## ابن (١) سودون

هو على بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُنى في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها ، وعُين إماما بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والمزول وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة ، فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العيوس » وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحكايات الملائيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب التزجل والموايلا التالى فهو أيضا عامى اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجبية والتحف الغريبة ، وكان البابين الثالث والرابع هما الخالصان بالشعر الشعبي العامى وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية . تجملك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته :

إلى الربيع أرى الأهواء تَلوِينِي	لما بدا زَهْرُهُ في حسن تلوِينِ
قد عَطَّرَ الأَرْضَ نَشْرَ الفول حين سرتُ	نُسَيْمَةً سحرا منه تحيِينِي
كان زهرته أمُّ الخُلُول إذا	فَلَقَّتْهَا فوق نَعْنَاعٍ بصَحُونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح باميةً	لولا شعورُ كأعراف البراذين (٢)
واعجب من الماء وَسَطَ البحر كيف غدا	يمشى بلا قدمٍ سَحْبًا على الطِينِ
مُسْتَسْلًا قد جَرَى بإصاح منطلقا	فاعجب لمن جمع الصُّلَّين في حين

نزهة النفوس ومضحك العيوس مطبوع في القرن الماضي وطبع حديثا .

(٢) البراذين : جمع برذون وهو البطل .

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧

ومقالين لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العددين رقم ١٠ ، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمر في الحديث عن الجمال الهاجع في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحينها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفاتح من نبات الفول وإلى زهره الذي يشبه صدفة أم الخلول التي يطعمها المصريون واضعين على الخلول التنعاع والبهارات . أما القمح فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروف ، لولا ما يتدلّى من سنابله من شعور كأعراف البغال والخيل . ويعجب عجباً لاحد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلاً إذا جرى منحدرًا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقي من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

عجبٌ	عجبٌ	هذا	عجبٌ	بَقَرًا	تَمَشَى	ولها	ذنبٌ
ولها	في	بُسْرِيَّهَا	لَبِنٌ	يبدو	للناس	إذا	حلبوا
من	أعجب	ما	في	مصر	يُرَى	الـ	العنبُ
والنَّخْلُ	يُرَى	فيه	بَلَحٌ	أَيْضًا	وَيُرَى	فيه	رُطْبٌ
والمركبُ	مَعَ	ماقد	وَسَقَّتْ	في	البحر	بجبلٍ	تسحبُ
والسناقةُ	لا	منقارَ	ها	والوزةُ	ليس	ها	قَتَبٌ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيرعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية في البدهاة ، في صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عدوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشى ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسْرًا ورطبا ، والملاحون يجرّون مجاهم المركب الموسوق ، والسناقة لا منقار لها وكأنه كان يظنها بجسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشى على أربع ، ويتساءل عن قتها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تتعدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلغى فيه المنطق السديد إلفاء .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاك . وصفه لحفل زواجه وقبح زوجته على هذا النمط :

حلَّ السرورُ بهذا العقد مبتدرا ونجمُ طالعه بالسعد قد ظهرها

وه الفل، كَلَّل وجه الأرض فانعطفت  
والطير من فرحها في دوحها صدحت  
تقول في صدحها: دام الهنا أبداً  
هذا وعقل عروسي كان أصغر من  
في السن قد طمعت ماضراً لو طمعت  
في وجهها نمش في أذنها طرش  
ياحسن قامتها العوجا إذا خطرت  
تظلل تهف بي: حسنا حظيت بها

وهو في أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لرفاقه على عروسه ،  
فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ  
بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صماء في وجهها نمش وفي عينيها  
عمش وقد حتى قامتها الهرم . ومع كل هذا القبح تظل تهف به أن يحمد الله على حظوته بها ،  
ويتمنى لو طمعت بسيف أو حازها الموت ودفنت في التراب إلى غير مآب

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، يبعث على  
الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أمي أرى الأحزان تخينني  
وطالما دلعتني حال تربيته  
أقول : « مَمَّ مَمَّ » نجي بالأكل تُطمعني  
إن صحت في ليلة « وأوأ » لأشهرها  
كم كحللتني ولي في جبهتي جعلت  
ومن فقيهي إن أهرب ورام أبي  
وزغردت في طهوري فرحة وغدت  
وخلفتني يتما ابن أربعة  
فطالما لَحَسْتَنِي لَحْسَ تَحِينِي  
خوفا على خاطري كي لا تبكينني  
أقول : « أمبو » نجي بالماء تُسقيني  
تقول « هوهُو » بهز كي تُنسينني  
« صوصو بينلي » وكم كانت تخينني  
مَسْكَي وَبَعَثِي له كانت تخينني  
تنثر الملح من فوق وترقيني  
وأربعين سينتا في حسايني

والرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما نألف في  
الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمع حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكّرُها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتى له بالطعام « وأمبو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبكي على صدرها وهي تهزه في حنان ، كما يذكّرُها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّي من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تحبته حين يهرب من الكتاب . ويذكّرُها بيوم يختانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وترقيه من شر كل ما يؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للثناء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك وتهادى معه في الضحك . وقد جاء في المرثية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم في هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد ربِّي وصار لِمُتَّهِى عَقْلِي ابتداء  
بقيتُ أقول : نُؤُ نُؤُ تَتُّو تَاتَهْ ودَحُو كَخْ وَأُمْبُو مَمَّ آءْ

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح في اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جعبة هزل وفكاهة ، وقد بنى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلابته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تهوي من أبراج عالية ، هي أبراج المنطق والعقل الواعي ، فنضحك ونسترسل في الضحك .

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

### الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوان الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق <sup>(١)</sup> ، وبحق يقول القلقشندي إنه « لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتناقله الألسنة <sup>(٢)</sup> » . ومرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي <sup>(٣)</sup> ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فعبد كان يقابلها في العربية عبيدى . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خiarوية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان بيتدى بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوت شهرته منذ زمنه لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصابى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالسمع . وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ( طبع )  
دار المعارف ص ٣٤٥ وما بعدها .  
(٢) صبح الأعشى ١/٩٥  
(٣) صبح الأعشى ١/٩٥ ، ٢٨/١١ .



الازدواج من حين إلى آخر ، وسجمه خفيف . ويمده بغير قليل من التصاوير<sup>(١)</sup> ، وتوقف القلقشندی في كتابه صبح الأعشى ليدكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبدئ أجربة الكتب<sup>(٢)</sup> . وكان أهل بغداد في زمنه يخطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كتابا - يقصدون ابن عبد كان - ليس لأمر المؤمنين بمدينة بغداد مثله<sup>(٣)</sup> . وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجرى<sup>(٤)</sup>

ونخصى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان ، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيمى ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردَّ بها على رومانوس حاكم بيزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفتخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكتاب إلا خليفة ، فكال له النجيمى الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالته كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرًا بها مباحيا<sup>(٥)</sup>

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ويعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضاً لأنهم كانوا أصحاب نخلة شيعية غالبية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربى ونظموا الدعوة لها تنظيمًا دقيقا ، فكان من الطبيعى أن يهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفى ذلك يقول القلقشندی : « لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايةهم لديوان الإنشاء وكتّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولىه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى<sup>(٦)</sup> » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لا يتولاه - كما يقول القلقشندی - إلا أجلُّ كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلُّ ويلقب بكتاب الدست ، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه فى الصدر من مناصب الدولة « وكان أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات .. وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والنخاد والمسدند والدواة العظيمة

(٥) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : القسم الخاض

بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها .

(٦) صبح الأعشى ٩٦/١ .

(١) الفن ومناهبه فى النثر العربى ص ٣٤٩ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها .

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣

(٤) معجم الأدياء ٨٥/٦ .

الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة ،<sup>(١)</sup> . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائماً أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفى خلفه ابن برّى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية<sup>(٢)</sup> . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ما حدث<sup>(٣)</sup> للقاضي الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصالح الدين القاضي الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العباد الأصهباني في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدّست وكاتب الدّرج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعاً كبيراً في عهد الماليك ، مما جعل الظاهر يبصر يعين ثلاثة كانوا أصحاب الدّست ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السرّ<sup>(٤)</sup> . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائماً إلى نهاية عصر الماليك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائياً وأصبح أثراً بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه<sup>(٥)</sup> سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه<sup>(٦)</sup> سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى<sup>(٧)</sup> ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيراً ما بدؤوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومربنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فإن تركه فإلى صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجرى يترسمون طريقته ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما

(٢) انظر كتابنا « المدارس النحوية » طبع دار المعارف

بعدها

ص ٣٣٨

(٧) حسن المحاضرة ٢٣٠/٢

(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧

(٤) السلوك للمقريزى ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً<sup>(١)</sup> : وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن علي بن خيران الملقب بولي الدولة ، وكان يلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتدُّ بشعره وكتابه مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءين من شعره ورسائله ليعرضها على الأدياء هناك ، فإن استحسنوهما خلدهما له بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصائبي فيما يبدو برسائله<sup>(٢)</sup> . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »<sup>(٣)</sup> . ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُّ<sup>(٤)</sup> ولا يَجِفُّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكْفُ<sup>(٥)</sup> ولا يَكْفُ ، ووزنك فى سدِّ ثَمِّ الفساد يَرَجح ولا يَجِفُّ . والجناس واضح بين يَجِفُّ ويَجِفُّ وبين يَكْفُ ويَكْفُ وقد طابق بين يرجح ويحف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يحلى سجعه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجري ابن أبى الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى إثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وسترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الخلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمان ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخباء من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العماد الأصهبانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية<sup>(٦)</sup> . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلال وفى صبح الأعشى بعض رسائله<sup>(٧)</sup> ، وعلى يديه تحرَّج القاضي الفاضل

(١) المغرب فى حل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

طبع . مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٢) معجم الأدياء ٥/٩ وما بعدها

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

(٤) يحف : يسرع . وفى الأصل يوجف

(٥) يكف : يسيل .

(٦) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته

الحريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشعرات الذهب

٢١٩/٤ .

في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة . وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليذ الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصبهاني كما أسلفنا ، وسنترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن ممتى وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعنى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الايوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي . وألف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشؤونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن ممتى ، وسنعرض له في ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسي ، وكان كاتباً في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) . وبلغنا إبراهيم<sup>(١)</sup> بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك في عهد أيلك وقطز ويبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كاتباً في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، ووظيفة أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح<sup>(٢)</sup> الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيئطه شافع<sup>(٣)</sup> بن علي بن عباس ، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حُرّم على عساكره الغارات على البلاد<sup>(٤)</sup> .

٤١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجم

الزاهرة ٥٠/٨

(٣) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

(٢) انظر في فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجم

(٤) صبح الأعشى ٣٣٧/٧

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشذرات الذهب

ويلمع في رئاسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السر منها أو بعبارة أخرى رئاسة الديوان عبد<sup>(١)</sup> الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن فلاوون إلى دمشق ووليا بعده من الأسرة في سنة ٧٢٩ أخوه<sup>(٢)</sup> محيى الدين يحيى ، وكان يشركه في كتابة السر ابنه شهاب الدين أحمد ، وفي سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادها فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه<sup>(٣)</sup> علاء الدين ، وظل في الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين<sup>(٤)</sup> إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكنس ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع في أوائل عهد المماليك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين في زمنه وسترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رئاسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أئمه كتابه .

### ابن الصيرفى<sup>(٥)</sup>

هو على بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل في ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

المخاضرة ٦٠٤/١ ، وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -  
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، وخطط المقرئى  
٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) - طبع دار  
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان  
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع  
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩  
(٢) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٤٦/٢  
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١  
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .  
(٥) انظر في ابن الصيرفى وترجمته ورسائله معجم الأدياب  
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر في مواضع مختلفة وحسن

الزيدى ، فأُسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستعلى سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجمالى ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستعلى وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رءوس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتابا عن الأمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فوّض إلى الأفضل الجمالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاة الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهنتاً فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الأمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن زريك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغاتهم مسلّم ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تريد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل البيسانى ينسج على منواله ويتزع منزعه» وسنعرّف عما قليل أن القاضى الفاضل أربع كتاب مصر فى هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفى البيانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستعلى وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلّى على جدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمه بالمتزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جُلّة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الخ:

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر آبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزء به والفضيحة فيه ثم يقول :

« وقد كان الإمام المستعلى بالله - قدس الله روحه - عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من آبيه عن جده ، وعهد لى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى لى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فىهم بسيرته المرضية ، بما جبلنى <sup>(١)</sup> الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إيثار العدل ، وإنى - فيما استرعىته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه . »

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت لى بالوراثة عن آبائه ، وأن أباه عهد لى بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لى وأنها تنتقل بالوصية من الأب لى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك لى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم بطنى يتوارثه إمام بعد إمام متقللاً من جيل لى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جمع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود لى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أو لى القلقشندى حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار لىها ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجهمالى صاحب الأيدى السابعة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

(١) جبلنى : خلقنى .

أشرنا إليها وردّها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لَمَحَ المَلْح »<sup>(١)</sup> وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في الغطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداو بإحيائها قلبا لى قرحا ، وإذا كانت عازر فكنّ مسيحا » .  
والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل بيلته النصرارى والمسلمون في الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرون فيه من الملاحى فى الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ فى هذا العيد من اللهو وشرب الخمر فى أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داو بإحيائها قلبا لى جرحا ، يطلب منه أن ييث فى دنانه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجمالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ما تُقَرَّب به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عَصَدَه بتأييده ، وخصَّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده<sup>(٢)</sup> ، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونَقِبَت<sup>(٣)</sup> فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت<sup>(٤)</sup> بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على مآظهم سُمُوقة<sup>(٥)</sup> فى البلاغة وُسُوقة ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكنّا السيد الأجلّ الأفضّل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضّل . ويذكر أنه قال من تمة تقدمته لتلك الرسالة :

(٤) نفق : راج .

(٥) سُمُوقة وبسوقه : ارتفاعه

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .

(٢) فى المغرب : تجديده

(٣) نقبت : ذهبت وشاعت .



« فيجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصَحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن ببيْرِفها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه <sup>(١)</sup> من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوته ، ويُعمل مطايا رَوِيَّته ، فيما يخدم مجلسه <sup>(٢)</sup> العالی به ، مما يُطرب مورده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفي كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة في لفظ ، بل مع السهولة واليسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غلِق ، شرابا يمتع النفس . وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نُقِبَتْ في البلاد » أى مضت وانتشرت أخذًا من قوله تعالى : ( فنقبوا في البلاد هل من محيص ) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح في رسائله . وكثيرا ما يوشى سجعهم بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُغْزاله في السيف على هذا النحو : « يبالغ في شكره إذا أقصد <sup>(٣)</sup> وجرح ، وتقبل في تركيته شهادة المجرَّح » . وفي كلمتي التزكية والمجرَّح توريتان واضحتان فللتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى علَّمهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرَّح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لا تقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرَّح بالسيف في الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل في هاتين التوريتين ما يدل على أن ابن الصيرفي كان يستظهر التورية في نثره أحيانا ومرَّبنا أن شعراء القرن الخامس وفي مقدمتهم الشريف العقبلى كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبعهم في ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفي . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها <sup>(٤)</sup> فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتَّابها ، وبهديم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفي كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول في نظام ديوان الرسائل وبيان ما ينبغي أن يتحل به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) في المغرب : أفسد ، وأقصد السهم : أصاب

(١) في المغرب : يصنعه .

(٤) خزانة الأدب للحموى ( طبعة بولاق ) ص ٦٧

(٢) في المغرب : عمله .

يُورخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية .

### القاضي<sup>(١)</sup> الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلاً ، العسقلاني مولداً ، اليّساني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء بيسان بفلسطين للفاطميين فُنسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سزى بعد قليل . وكان طبيعياً أن يُعنى أبوه بترتيته ، وبدأ بإرساله إلى كُتّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيراً من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمي الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٥٣هـ ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظناً أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل ستين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من بيسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلاً وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لهما الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُنِيَ به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سأله في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فكث يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلّ شعر ديوان الحماسة ، فحلّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر الذهبي ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسيكي ١٦٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٢/١ والحريدة للعقاد الأصماني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨-٥١ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع

الكب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوي ديوانه ومختارات محي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضي الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحس أن المكانة التي يريد لها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورُحِبَ به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمانى سنوات ، وكانت كتبه تسترعى أنظار موظفي الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاقد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائزين الظاهر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ وولياها بعده عمه العاقد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لا بد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظاهر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبث شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ ، وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستتجد شاور والخليفة العاقد بنور الدين صاحب حلب ، ويقدم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعرض اليد التى نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاقد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن « شاور » لا يثوب إلى رشده فيقتل به ويقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاقد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمنشورات عن العاقد بين يدي الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصر الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاقد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاقد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاقد إلى القضاة

والولاية بتقلد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضاً العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذه وزيراً ، قلما يبرم شيئاً إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحداً من أفراد أسرته بمصر فى أثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيراً ما كان يصحبه معه فى مواقفه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القدس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلاً أحداث زمنه ومبلغاً عنه عهوده وسجلاته وتوقعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضراً وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قازره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعراً وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصهبانى فى كتاب الخريدة : « رَبِّ القلم والبيان واللَّسن واللسان ، والقريحة الوقَّادة ، والبصيرة النقَّادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفِضْل الذى ماسمَع فى الأوائل بمن لوعاش فى زمانه لتعلق بغيره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأَبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبعد الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واعترفت ، وأمام فضله ألت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناسر أئمة الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لاحالة ، والفاضل بغير إطالة .

وفما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقلمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدنا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغنتك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجية <sup>(١)</sup> ، وشيمة ، وشيمة <sup>(٢)</sup> ، وخلائق ، فيها ماتحب الخلائق ، ونخاتر <sup>(٣)</sup> ، لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن <sup>(٤)</sup> ، ومآثر جد غير عائر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها <sup>(٥)</sup> ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال <sup>(٦)</sup> عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي لديك كرائم <sup>(٧)</sup> نورها تتفتح .. وأبسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا ، واعقد حبي <sup>(٨)</sup> العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقداً ونقضا . وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وقرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف ، وثقف أود <sup>(٩)</sup> الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف . »

ولما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص منه الثرى كانت قد استوت وتهيأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوي وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمي ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى في تورياته المتصلة بالحديث النبوي ، فجعل قديم فخر

(٦) جلال : عظام .

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .

(٧) كرائم : جمع كريمة وهي غطاء النور والزهرة .

(٢) وشيمة : جميلة

(٨) حبي : جمع حبة ، وهي الثوب يديره الجالس

(٣) نخاتر جمع نخيرة : طبيعة .

حول ساقبه وظهره للاستناد عليه

(٤) آسن : متغير الطعم .

(٩) أود : اعوجاج .

(٥) قطارها : قطرها ومطرها .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتى قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا بجميع صوره . ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والتورية واضحة فى كلمة الخلائق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فاء المحاسن غير آسن والجَدَّ أو الحظ غير عاثر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجمه فبأى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فبأى بسجعتين تداخلها فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان يضطرم نارها » .

ويعمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكأتم نور المساعى وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعذوبة .

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصر التى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعته البلاغية عبارات مضيئة بحسبها البياني كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - يابنى أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم <sup>(١)</sup> ، وقلدتم بيض أيامه صوارم <sup>(٢)</sup> ، وأفنيتم شموسه وأقاراه فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونفسُ حاتم <sup>(٣)</sup> فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تملئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(١) أداهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب (٣) حاتم : جواد العرب المشهور

(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

« هذه القلعة عُقاب في عِقاب <sup>(١)</sup> ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغامة عمامة ، وأتملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرهما ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : « كان الهلال لها قلامة » أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضَوْءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قُدَّتْ من الظَّفَرِ

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأتملة إذا خضبها الأصيل . ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأتملة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يبشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حِطَيْن وفتح العظم لبيت المقدس .

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وستقف عندها قليلا في غير هذا الموضوع ، ومربنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذة ابنا روحياً له وذكرنا في غير هذا الموضوع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

### محيي الدين <sup>(٢)</sup> بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرهما جمع عقبة وهي المرق الصعب في الجبال .

(٢) انظر في محيي الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشنرات الذهب ٤٢١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطي ٤٧٠/١ و٤٧٠/٢ ونهاية الأرب : الجزء

الثامن في مواضع مختلفة وصحح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و١٧٦/١ و٣٥٦/٧ و٣٦٦/٨ و٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

بيبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدُّسْت ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبي نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن المالك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية ، ورقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهي أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباها إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديداً .

وقد أشاد بمجى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى في نهاية الارب : « كان مجى الدين أجلّ كتاب العصر ، وفضلاء مصر ، وأكابر أعيان الدُّول ، والذي اختر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق مارق صناعة وحسنا ، ومن النثر الراقى مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة » ويقول ابن شاعر في كتابه القوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يطيل السجعة الثانية ليضمّنها ما يريد من المحسنات البديعية ، وفي مقدمتها التصاویر والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حلّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعذوبة الكلم . وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل في غزواتهم ، ويرسل بوصفها لملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء في مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبنى سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ في طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى في جبال شامخة مذلّلا فيها طريقه ليعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة في نحو خمس عشرة صحيفة مدوّنة في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهي وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين في ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا في شيء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدَح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمرُّ



على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يزيد الزائر من الأهبة ، أو يتزود الطائر من الثَّغْبَة (١) ، نسبق وَفْدَ الرِّيحِ من حيث نَسْتَحْي ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسْجبه أذيال الصوافن (٢) تَمْحَى ، تحمل هَمْنَا الخيل العناق ، ويكبو البرق خلقنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّ هذا الهامُ نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغامُ

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدَّتها ليلة الملسوع ، وتمنَّى العين بها هجمة هجوع ، وأخذنا في اختراق غابات أشجار نخي الرقيق عن رفيقه ، وتُشغله عن اقتفاء طريقه ، يَنْبَرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثرت ، أوجبالٌ تَفْطَرَتْ (٣) ، بينها مخاض لا بل مغائص ماخر جنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعممت بالثلوج ، وعُمِّيت مسالكها فلا أحدٌ إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلتفُّ شجراتها التفاف الأكام على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أي عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سيولة وعذوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذي بقواعد السلطنة أدرى بقوانينها الأعراف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرف ، وهو الذي ما قبل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذي ما برح النصر يتنسّم من مهابٍ تأميلة الفلاح ، ويتبسّم ثغره فتوسم الثغور من ميسمه النجاح ، ويُقسّم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذي كم جلا بهيِّ جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن روايته ويمن

(٣) تفتت : تشفتت .

(١) الثَّغْبَة : الجرعة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو الفرس

آرائه يهيم ، وكم أبرأ مورده العذب هيم<sup>(١)</sup> ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم .  
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روى واحد ، قد يكون الفاء أو  
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفا آخر كالمدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من  
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ  
« أشرف » مورياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية  
أخرى في لفظ إبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،  
وهو لا يريدُه إنما يريد بالكلمة أنه أبرأهما أى عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى  
صاحب اليمن مبشراً بفتح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كراماً أمواهم وهم صابرون  
لا مصابرون ، وكم شكت منه حِمة تنسبُ بشكِّها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معرّة وما من  
معرّة خاف ، وما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون  
والصباصي<sup>(٢)</sup> ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثارة مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي » .  
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : ( حتى  
يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ) . ويكثر الاقتباس لآى الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما  
يكثر حلُّ الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ معرّة الثانية من  
العار مقدماً لها بذكر حِمة والمعرّة وهما من مدن الشام . وورى أيضاً في قوله : « وناهيك بمدمع  
العاصي » وهو إنما يريد نهر حِمة المعروف باسم العاصي . ودائماً نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه  
يستمد من نبع فياض لا يغيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون  
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العنان ، وسبق جيشه إليها كل خير وليس الخبير كاليان ،  
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسه عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفي خدمته جنود  
لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بنحيوهم من جبال  
لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارض لامرافق بها غير الرياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك  
الجنادل انحطاط الأجدال<sup>(٣)</sup> ، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال<sup>(٤)</sup> ، ولم يحفل أحد

(٣) الأجدال : الصقور .

(١) هيم : جمع أهيم وهو العطشان عطشا شديداً .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

(٢) الصباصي : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولا جبل شاق ، فقال : هذا منخفض أوعال .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحبس انتخابها لها ، وما يوفره لها من محاسن بدیعة بقدر الحاجة دون تكثُر يميلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأياتي بها إلا في الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استهلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرثم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعْمُ اللهُ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَدَّة ، وَمِنَحْهُ وَإِنْ غَدَتْ بِالْبَرَكَاتِ مُتَرَدِّدَةً ، وَمِثَّهُ وَإِنْ أَصْبَحَتْ إِلَى الْقُلُوبِ مُتَوَدِّدَةً ، فَإِنْ أَشْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا ، وَأَجْمَلَهَا وَأَفْضَلَهَا ، وَأَجْزَلَهَا وَأَنْهَلَهَا ، وَأَتَمَّهَا وَأَعَمَّهَا ، وَأَضَمَّهَا وَأَلَمَّهَا ، نِعْمَةٌ أَجْزَأُ الْمَنِّْ وَالْمَنْحِ ، وَأَنْزَلَتْ فِي بَرَكِ سَفْحِ الْمُقَطَّمِ أَغْزَرَ سَفْحِ ، وَأَتَتْ بِمَا يَعْجَبُ الزَّرَّاعَ ، وَيَعْجِزُ الْبَرَقَ اللَّمَّاعَ ، وَيُغَيِّلُ <sup>(١)</sup> الْقِطَاعَ ، وَيُغَيِّلُ <sup>(٢)</sup> الْأَقْطَاعَ ، وَيَأْتِي فِي الْغَدِّ بِأَكْثَرِ مِنَ الْيَوْمِ وَفِي الْيَوْمِ بِأَكْثَرِ مِنَ الْأَمْسِ ، وَيَرْكَبُ الطَّرِيقَ مَجْدًا فَإِنْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِهِ حَمْرَةٌ فَهِيَ مَا يَعْزُضُ لِلْمَسَافِرِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ .. وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْبَابِ إِذَا هُوَ فِي الطَّاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْإِحْتِرَاقِ <sup>(٣)</sup> ، إِذَا هُوَ فِي الْاجْتِرَاءِ لِلْإِغْرَاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْمَجَارَى ، إِذَا هُوَ فِي السَّوَارَى <sup>(٤)</sup> . »

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صبّه . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح (يعجب الزرع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل ما يخاطب النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس لتعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيضان النيل وأنه سرعان ما يملا مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عبابه ويتأدى طوفانه ، فبينما يدخل سدة باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات ،

(١) يغل القطاع : يروى قطع الأرض مرارا .

(٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٤) السواري : يريد الأعلى .

(٢) يغل الأقطاع : يجعل الضياع تعطى القلة والحار

وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخترق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبيننا يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السواري وأعلى الأعلى .

ولم يكن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سلمٌ بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين زمنه ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهي أحد مصادر المقرئ في خطه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئ وكذلك القلقشندي في صبح الأعشى . ولعل فيما قدمنا من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البليغة والبلاغية .

### ابن<sup>(١)</sup> فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ووليت أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجري ، وقد وُلد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلي المشهور وقاضي قضاة دمشق الشافعي شهاب الدين محمد بن الجمد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزاري وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقلية ، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافعي . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضي شُهبة وابن الرُّمْلَكَاني ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

والشدرات ١٦٠/٦ والوفى ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطُبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ما تقدم في حديثنا عن النشاط الجغرافي بمصر وطُبع له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

(١) انظر في ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والتجويم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقرئ ٢٣٤/٢ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٣٨٩/١

الوداعي . ورحل إلى مصر في أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفي ونزِيلها أبي حيان الأندلسي . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتباً بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مسندا إليهما كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حاد الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر ، فتغير عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لبى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في المحرم سنة ٧٤١ وظل يلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتباً ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المِقْوَه الحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبورق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رقيق ، ويفوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تروى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيها .. صرف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكاتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله في سبعة أقسام أولا في رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضاً إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثاني في العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاية العهد . والتقاليد خاصة ب كبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاية وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله براً وبحراً . والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضاً الحيوان الأليف والوحشى والطيور ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التي دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورة لكتاب الديوان لأنها تتصل بأعمالها اتصالاً قوياً . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذه الكتاب إماماً لهم وجعلوه نصب أعينهم في كتاباتهم الديوانية بما كور نماذجه وأمثله ، واعتمد عليه الفلقشندى في بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما بصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله في تقليد وزير ووصيته بما ينبغى عليه في وزارته :

« عليه بالكفاة الأمانة ، وتجنب الخونة وإن كانوا ذوى غناء ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهر بابيه ، ويسهل حجابيه ، ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب مقدا الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر المماسى والمصالح ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانتة ، ولا يدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمانؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإبناء آناؤه ، فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسرع فى تخلية بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئاً إلا بحقه . »

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف فى كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بحريته فى ، وفى تضاعيف تدقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طيبة ، تارة يطابق وتارة يجانس فى يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف فى كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفاً سالَ المَنُون من لُعبه ، وسار الموت في إهابه <sup>(١)</sup> ، وتناوم غراره <sup>(٢)</sup> ملء جفنيه  
فما جمع ، وتناوب <sup>(٣)</sup> للوثوب للمهجع فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ،  
وتحرق على من سلم فوقدت ضلوعه ناراً وترقرت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق  
وكأنها غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله في وصف قدح أو كاس :  
« تكوّن من جوهر مكنون ، وتجسّد من هواء مظنون ، وأتخذ خدراً لابنة العنب <sup>(٤)</sup> ، وطاف به  
الساق فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، قهقهه عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام  
فقيل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع  
جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد  
ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أي قدح الشرر وأذكاه من  
قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو  
عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذي وصفناه . ومنها فواصل السمر في فضائل آل  
عمر ، ومنها ضبابية المشتاق في مجلد في مدح النبي ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك  
الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلداً ،  
وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم  
للممالك في العالم الإسلامي وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في  
العالم العربي بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب  
نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن  
خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب  
مفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(١) إهابه : جلده .

(٤) الخدر : البيت . ابنة العنب : الخمر .

(٢) غرار السيف : حده .

## الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهينة والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتخيير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . ومن برعوا في تدبيجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخياء العسقلاني الكاتب الديواني لزمان الخليفة المستنصر ، وسنخسه بحديث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن<sup>(١)</sup> بن زيد الأنصارى الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعراً ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلقى في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخياء ، وقتلها بدر الجمالى وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنما كُتِبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسّها بعض معاصريه عليه ، وكأنما أراد القدر أن يثار له وكان الحسن قد استبدّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدرس عليه السم في طعامه فمات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - « عريق النسب ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعام » ويقول العماد الأصبهاني : « وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ العماد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قَدَّمَ الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصفت الضمانر ، وخَلَصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار ، والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسو ، ومتشاركين فيما نفع وضرر ، وتلك حالى وحال حضرة مولاي فاني وإياها

(١) ومعجم السلقى ص ٤٤٨ .

(١) انظر في ترجمة الحسن بن زيد الخريدة ( قسم شعراء

مصر ) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب ( قسم القاهرة ) ص ٢٣٧



كنفس قسّمت على جسمين ، وروح فرّقت بين شخصين ، فأما ألمها فقد مضى وأزعجني ، وأما برؤؤها فقد سرّها وأبهجني .

ومهارته في صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتعادل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة في السجعة الثانية تعانق أختها في السجعة الأولى في علوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له في تعزية :

« الحَظْبُ الحَادِثُ ، فَادِحٌ كَارِثٌ <sup>(١)</sup> ، كَادَتْ لَه القُلُوبُ أَنْ تُتَبَّرَأَ مِنْ أَضَالِعِهَا ، وَالعَيُونَ أَنْ تُنَعَوَّضَ بِدِمَائِهَا مِنْ مَدَامِعِهَا ، وَالضَّحَى أَنْ يَدَّرَعَ <sup>(٢)</sup> جَلِبَابَ الدُّجْنَةِ ، وَالحَوَامِلُ أَنْ تُجَهَّضَ بِمَا فِي بَطُونِهَا مِنَ الأَجْنَةِ . وَإِنِ المُنِيَةَ حَوَّضُ كُلِّ النَّاسِ وَارِدُهُ ، وَمِهْلُ كُلِّ الحَلِيقَةِ قَاصِدُهُ ، لَا يَسْلَمُ مِنْهَا مُلْكٌ نَافِذُ الأَمْرِ . . . وَلا قَاقِرٌ خَامِلُ الذِّكْرِ » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتسم به من اكتمال الإيقاع في الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبي الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يجيبه عن كتابه <sup>(٣)</sup> :

« فَضِضْتُ الكِتَابَ عَنِ رِسَالَتِهِ الَّتِي يَبِيعُ قَشِيهَا <sup>(٤)</sup> ، وَيَضُوعُ <sup>(٥)</sup> طَيْبِهَا ، وَلا يُتَرَفُّ قَلْبِهَا <sup>(٦)</sup> ، فَخَلْتُ أَنِي أَخْتَالُ أَيُّ اخْتِيَالٍ فِي حَلْلِ الشَّبَابِ ، وَأَذْكَرُ الأَحْبَابِ ، وَأَرشَفُ الرُّضَابِ <sup>(٧)</sup> ، مِنَ الثَّنَايَا العَذَابِ ، بَعْدَ الصَّدِّ وَالاِجْتِنَابِ :

ذَكَرْتُ بِهِ عَهْدًا كَأَن لَمْ أَفْزُ بِهِ  
وَعَيْشًا كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَنَبَا

ثم نزهت ناظري ، وجلوت خاطري ، بيدائع ماتضمّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أني أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كي أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجني مثل تلك

(٥) بضوع : يفوح

(٦) قليبها : معنيها

(٧) الرضاب : الريق

(١) كارث : محزن .

(٢) يدرع : يلبس . اللجئة : الظلمة .

(٣) انظر الرسالة في ديوان ظافر

(٤) قشيب : جديد

الأثمار ، فما أخصبها رياضاً ، وأعذبها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .

وظاهر يعنى في رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريد من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتأبهم يديج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف منها محي الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة في مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » ومن قوله في إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد برُّدُها ، وورَّد وردُّها ، واخضرَّ نباتها ، وحسَّن نَعْمَها ، وصفا ماؤها ، وصفا (١) رداؤها ، وتغننت أطيارها ، وتبسَّمت أزهارها ، وافتَرَّ (٢) زهر أقحوانها فحكى ثغور غزلاتها ، ومالت قُصْبُ بانها ، فانتشت تثنى ولدانها . فلما قربتُ من بساتينها ، ولاح لى فسحُ ميادينها ، وتوسطت جنة وادياها ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماما يغرَّد ، وهزاراً (٣) ينشد ويردد ، وقمرِياً (٤) ينوح ، وبلبلاً بأشجانه ييوح . »

وأسلوب القاضى الفاضل واضح في هذه القطعة لا بأسجاعه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضا بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيقة وما عرف به من العناية بمراعاة النظر . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتابا يسميه « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين القاضل وابن سناء الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد القاضل في رسائله الشخصية بالشعر حتى ليروى له القلقشندي في الجزء الأول من صبحه (٥) رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتّاب الديوان حينئذ البارعين في تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن ممانى ، وستترجم له عما قليل .

(٤) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(١) ضفا : سنج

(٥) صبح الأمتى ١/٢٧٦ .

(٢) افتَرَّ : نتفخ

(٣) الهزار : العنديل .

ونحفي في زمن الماليك فوجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محيي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردُّ على عتابه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة <sup>(١)</sup> ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها بصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعنِّفه تعنيفا شديداً ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عتابه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضُّ مني .. وزعم أن إناء إباني غير مُقَمِّم <sup>(٢)</sup> ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادنى جريحة ، وقرائح ارتجالي قريحة <sup>(٣)</sup> ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لا تُلقَّح بأقلامى ، وأنى لا أعدِّ فى جملة الكُتَّاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى <sup>(٤)</sup> به إليه مجابوا : ماكل الأفاعى تعبت بها الأنامل ، ولاكل المراعى تُنصَّبُ بها الحبالل ، ولاكل زَخَّار <sup>(٥)</sup> يُخاضُ ، ولاكل جَنَاح يُهاضُ ، ولاكل جامع يُراضُ ، ولاكل سابعة تُفاضُ <sup>(٦)</sup> .. ولا يَصُرُّ الزناد الواهى <sup>(٧)</sup> قدحُ القادح ، كما أنه لا يضير النجم السارى نبحُ النابح .

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحيننا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورى في كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح فى عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر فى الرسائل الشخصية حينئذ تقریظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقریظ شعره ومصنفاته كما قرظ ابن نباتة . ومرَّ فى ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوق » ترجم فيه لكل من قرظوا كتابه « جمع الفوائد » . ولتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرَّت ترجمته بين الشعراء تقریظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه <sup>(٨)</sup> :

(٥) زخار : النهر الزخار : الملىء الطامى .

(٦) تفاض : تكون سابقة ضافية

(٧) الوارى : المقعد .

(٨) خزنة الأدب للحموى ص ٥٤٧ .

(١) انظرها فى نهاية « تمام المتن فى شرح رسالة ابن

زيدون » للصفدى

(٢) مفعم : ملء

(٣) قريحة : جريحة .

(٤) أومى : أشير .

« لا غرو أن فصّح بديع<sup>(١)</sup> الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجًا ، وأعلى هيمه التي لا ترضى الشهب جياذًا والأهلة سُروجًا .. وقد زهت أمداحه المؤيدية<sup>(٢)</sup> فأصبحت بيوته المرفوعة ( ذات العباد ) وراقت محاسنه التي ( لم يُخلَقْ مثلها في البلاد ) .. وظلما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام<sup>(٣)</sup> ابن سُكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النبائي فوجدها مسكّره<sup>(٤)</sup> ، وعلم المتنبي أن هذا خاتم الأدباء لامحاله ، والمترسل الذي نهض عنه بأعباء كل رساله . »

والتقريظ زاخر بالاعتباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العباد . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذًا من قوله تعالى في سورة الفجر ( ألم تركيب فعل ربك بعاد إرمَ ذات العباد ) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباته أو أبياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : ( التي لم يخلق مثلها في البلاد ) . وراعى النظر مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سُكرة فذكر معه القطر النبائي يريد شعر ابن نباته الحلوى . وحين ذكر المتنبي أشار إلى ما قبل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبي تاريخيًا غير أن القيراطي رأى استغلال ذلك في جلب ما يجدم غرضه من مراعاة النظر والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضًا للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة<sup>(٥)</sup> طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعو له مجلس أنس وشراب ، واصفًا له ما سيمتتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول :

« هل لك - بسط الله أمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - في عذراء مصونة ، كالدررة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأن على خدها فوق وزده ياسمينه .. لها من ذاتها طرب يغنى عن الزامير ، بلقيسية الجمال لها ( صرحُ مُرَّد من قوارير ) ليلها من حسنها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلمت بالمصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أديمها كلما تعتقت يغلر ،

(٤) مسكرة : مغلقة .

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .

(٥) مطالع البذور للغزولي ١٥٢/١ والأدب في العصر

(٢) المؤيدية : يريد أمداحه في المؤيد ( انظر ترجمته ) .

الملوكي للذكور محمد زغلول سلام ص ١١ .

(٣) ابن سُكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمتنبي .

ووردها كلما مرَّ يحلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطَّرف » في كل قَصْر وهي على الإطلاق ذهبية العصر .. لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان . وهو ينثر في الرسالة كثيرا من التصاویر مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقباس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيا عن دَنْ الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذي شمردت بلقيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ ( حسبته لُجَّةً وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير ) أى من زجاج شفاف لا يحجب ما وراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التي دعا ابن مكانس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتي لم يمسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والثورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنها وكرمها . وفي السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريثان واضحتان ، فهو لا يريد . بلفظة « راحتها » كنهها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذى يحتسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حينئذ من رسالة محمد بن أبى الحسن البكرى الذى مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العسلى ليتسلى بمجلسه فى متزّه نصّر يلتقى فى شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول (١) :

« سيدنا البرّ الذى يجرى ببحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورّد والصّدْرُ بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهرا لراجيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتزاحم على سيف (٢) زخّار علومه ، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فلك السرور ، بفلك الجبور ، طفحت بالنيل لاجزّر عن الجزر مدّه المديد ، واستلّت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد . »

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ فى السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولحمد الطيلونى من كتاب القرن الحادى

(٢) سيف : شاطئ .

(١) ربحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبي) ٢٢٩/٢

عشر الهجري وشعرائه رسالة<sup>(١)</sup> هجا بها القاضي عمر المغربي هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رثّ ، وحديثه غثّ ، ياكثير الثّباح ، ياخائباً في الغدوّ والرواح ، ياتارك السنّة والقرّض ، يامنّ سعى بالفساد في الأرض ، يامهبط الدواهي ، وتابع العنّى والملاهي .. ياكثير الشكوى ، يا أثقل من رَضَوَى<sup>(٢)</sup> ، ياموت الخبيب وطلعة الرقيب .. يا أثقل من المكتب على الصّبيان ، ومن كيراً<sup>(٣)</sup> الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبي مقتطفات في نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجي مؤلف ربحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة في الرسائل ، ولكننا نشعر في العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمته .

#### ابن أبي الشخباء<sup>(٤)</sup>

وقيل ابن الشخباء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلاني ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولمع اسمه فيها وتألّق ، غير أننا لانمضي إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالي وزير المستنصر هو الذي أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضي إسماعيل بن علي كإمرًا بنا أنفا في الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبي الشخباء شاعرا بارعا كما كان كاتبًا بارعا ، ولذلك لُقّب بالمجيد ذي الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « المجيد مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونَحْتِه ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني منها استمدّ ، وبها اعتدّ .. كتب في ديوان

(٤) انظر في ابن أبي الشخباء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والنخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بتونس القسم الرابع - المجلد الثاني) ص ٦٢٧ وابن خلكان

٨٩/٢

(١) فحة الربحانة للمحبي (تحقيق عبد الفتاح الحلوطية

الحلبي) ٦٠٥/٤

(٢) رضوى : جبل بالمدينة

(٣) كرا : أجر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر.. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمراء زمانه « ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحيرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهري في القرن الخامس الهجري ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسام في الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله في رسالة استعطاف : « المودّات إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تحترمها الشبهة المُرْمضة <sup>(١)</sup> ، ولم تزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتها ألسن مختلفة ، وعلتها برود من اللفظ مفوّفة <sup>(٢)</sup> ، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرّقة ، وجنوب <sup>(٣)</sup> مودته قد عادت مروّعة ، وضرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ما عهدته :

تنبى طلاقة وجهه عن وجهه فتكاد تلقى التّجج قبل لقائه  
وضياء وجه لو تأمله امرؤ صاى الجوانح <sup>(٤)</sup> لارتوى من مائه

لم أتجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب على الارتباب بوّده ، ويتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دفاتنه ، ويخبر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس - ولم يُسمه - نقل إليه عني فشنّ الغارة على وفاته ، وزلزل أوأخى <sup>(٥)</sup> وده وإخائه ، فقلت : عتب ، والله ولاذنب ، وشكايه ولاينكايه <sup>(٦)</sup> ، وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لإسعافه ، وعدله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل <sup>(٧)</sup> ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أوضعت وأوجفت <sup>(٨)</sup> ، وتألّفت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مديدة ، وحبال كرمه محصوفة <sup>(٩)</sup> جديدة ، فحسن تلك الشائتل ، أن تجمع شمل الفضائل .

والسجعات تنزلق عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبي الشخباء بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(٦) نكايه : غلبة وقهر.

(١) المرْمضة : الموجعة.

(٧) الماحل : الساعى بالهيمه.

(٢) البرود المفوّفة : الثياب الرقيقة المخططة.

(٨) أوضع : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف.

(٣) الجنوب : ربيع لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة.

(٩) محصوفة : محكمة متينة.

(٤) صاى الجوانح : عطشان.

(٥) أوأخى : أواصر.

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يفوص عليها ويستخرج لألثها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعي للقاضي الفاضل وللكتاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرته لى بالأمس قد قطَّب<sup>(١)</sup> حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وحي ، أم عُصب<sup>(٢)</sup> به أمر ونهى ، أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكه ، والفيطن صائب فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تشفَّع به ، والخور العين<sup>(٣)</sup> تشكو لاجع حبه ، وثمار الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقتبس من زنده ، والكوثر يمدُّ من معينه ، والسماوات مطوياتٌ يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمخ بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكبارا ، فضى يهزأ به ويسخر منه سخریات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلا . ولا أمراً ناهيا ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع الفطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفَّع به الملائكة ، وأن الخور العين تشكو تباريح حبه ، وأن ثمار الجنة مدَّ يده ، ونار جهنم تقتبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، وخال السماوات مطوياتٌ يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطعن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : ( والسماوات مطوياتٌ يمينه ) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم ألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجا له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شعارا لهم وسُننا فى رسائلهم . وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلا قد استعار من قلب العاشق حرًّا ورهجا<sup>(٤)</sup> ) ومن أخلاق مالكة ضيقا وحرجا ، كأنما زفرت فيه النار ، ونقط على جدرانه بالقار ، فجلست طويلا إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(١) قطب : عبس وضم حاجبه

(٢) عصب به : ضم إليه .

(٣) العين : جمع عيناء : واسعة العينين جميلتها .

(٤) رهجا : غبارا



الخِوان<sup>(١)</sup> ، فرأيت أرغفة قد أحكمت في الصغر والإلطاف ، ولم تتعوّذ<sup>(٢)</sup> قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، وانمة الأكتاف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جعل في قرارة كل منها مالا يدفع السَّعْب<sup>(٣)</sup> ، ولا تجده اليد إلا بالتعب ، فجئنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقتنا ولم تقارب الكفاف ، وقد ظنُّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ وحصانته والقدرة البارعة على الملازمة بين السجعيات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

#### ابن مَمَّانٍ<sup>(٤)</sup>

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبي المليلح زكريا بن مَمَّانٍ ، سليل أسرة قبطية من أسيوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَمَّانٍ جوهريا واشتهر بأنه كان يصيغ البِلُّورَ صبغة الباقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودى عليه في سوق الصاغة تشوف نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليلح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكسب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسَلِّمُ هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما بيده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام

(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها

(٣) السب : الجوع الشديد

(٤) انظر في ابن مَمَّانٍ وترجمته ورسائله الخريدة (قسم

مصر) ١٠٠/١ ومعجم الأدياب ١٠٠/٦ والمغرب (قسم

القاهرة) ص ٢٦٦ وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباه الرواة

للقفطى ٢٣١/١ وخطط المقرئى ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة

١٧٨/٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشذرات

الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية

للسبكي ٢٤٣/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الخريدة وقيل

في المغرب .

سنة ٥٦٤ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديواني إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضي الفاضل يعجب بابن ممانى ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديوانى الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصنى بن شكر أخذ الجوى يكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصدورت أمواله . واستتر فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفى هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن ممانى مصنفات كثيرة عدَّ له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفًا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشئ بالشئ يذكر » ويقال إن القاضي الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذى نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئى في خطه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ومايجرى فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن ممانى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ربيها ومتحصلها من عين ( نقد ) وغلَّة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطى في إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسنى وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وسنعرض له في غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعرى سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليله ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفي المغرب .

وكان ابن ممانى يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب في الديوان انفاضلى ، ذو الفضل الجليلى ، والشعر العلى ، والنظم السوى ، والخطاط القوى ، والسحر

المانوى<sup>(١)</sup> ، والروى<sup>(٢)</sup> الروى<sup>(٣)</sup> ، والقافية القافية<sup>(٤)</sup> أثر الحسن ، والقرحة المقترحة صورة  
 اليمن ، والفكرة المستقيمة على جدّد<sup>(٥)</sup> البراعة ، والفطنة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد  
 أن أشدّ العباد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب  
 براعته الشعرية مستهلا لها بقوله : « ومن نور<sup>(٥)</sup> نثره البديع ، ونور فجره الصديق<sup>(٦)</sup> وغرر درره  
 النصيحة<sup>(٧)</sup> ودرر غره الصنّعة<sup>(٨)</sup> ، ماتخذى<sup>(٩)</sup> له بهائم التمام . وتخذى<sup>(١٠)</sup> به كرائم  
 المكارم ، ويرتّع الحسن في روضه ، وتكرّع الحسنة من حوضه ، وتغتبط الآداب بدابه<sup>(١١)</sup> ،  
 وترتبط الأبواب بيباه . »

ومن طريف مادونه له العباد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق في إحدى  
 الأسميات قائلا :

« فصلت عنه في أخريات النهار ، وقد ظهر في أطراف الجدران لفرق<sup>(١٢)</sup> فراق الشمس  
 اصفرار ، فلما ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق ، ولبست المشارق السواد لما تمّ في المغرب على  
 الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب النثار ، كدراهم النثار<sup>(١٣)</sup> وتشابهت  
 زواهرها - وإن اختلفت في الأسحار - بالأزهار في الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على  
 وجهه الكلف<sup>(١٤)</sup> ، ومرّت به طوابع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف  
 بالسلف ، وظهر الوجوم ، في وجوه النجوم ، وعيل صبر التسرّين<sup>(١٥)</sup> فواحد طائر يجوم ، وآخر  
 واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفوا الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سوسن الفجر  
 ولاح ، وابتسم نغر الصباح عن الأقاح<sup>(١٦)</sup> ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزاة من  
 أس الكناس<sup>(١٧)</sup> طلقة الحيا . »

- (١٠) نحدي : تساق بالأراجيز والأشعار .  
 (١١) دابه : تسهيل دابه أى غطه (١٢) فرق : جزء  
 (١٣) الطار : ما يثر على العروس في الزفة من الدراهم  
 (١٤) الكلف : ما يملو وجه القمر أحيانا من كدرة  
 (١٥) النسران : نجان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسمى  
 الثاني النسر الواقع  
 (١٦) أقاح : جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه  
 كأسنان المنشار وهو الأروالة ويشبه به الاسنان .  
 (١٧) الغزاة : الشمس . الكناس : بيت الغزاة في  
 الشجر يستتر به . طلقة الحيا : بشة الوجه .

- (١) المانوى نسبة إلى ماني مؤسس مذهب المانوية الفارسي  
 قبل الإسلام  
 (٢) الروى الأولى : الحرف الذي ثبني عليه القصيدة  
 والروى الثانية من الماء أى شاق الغلة .  
 (٣) القافية الأولى : نهاية البيت في القصيدة ، والقافية  
 الثانية من قفا الشيء أى تبعه .  
 (٤) جدد : نهج مستر (٥) نور : زهر  
 (٦) الصديق : المنشق نورا (٧) النصيحة : الناصحة  
 (٨) الصنّعة : البديعة .  
 (٩) اتخذى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد

وبدل هذا الفصل على أن العماد الأصهباني كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممانى الكتابية ، وهى براعة تكاد تبدو في كل سجة من سجمات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في الأصيل تعكس بصفرتها على أطراف الجدران فرقا وفرعا لهول الفراق . وتوآرى ذهب الأصيل وراء نار الشفق اللتان ، وليست المشارق السواد على الشمس الغربية في المغرب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالنار ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نثار الدراهم في الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالها فلم يسألها ما الخبر ، حسداً وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجود في وجوه النجوم ، وكاد السران أن يفقدا صبرها فواحد طائر يحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتسم ثغر الصباح عن أضواء كالأفاح . وطالما شبه الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالعنقود . ويستغل ذلك ابن ممانى ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزاة فجعلها تستر ليلا وراء الأفق في كناس ككناس الغزال والظباء في الشجر . ومراعاة النظر واضحة في السجمات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممانى الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكير الليل على المشارق حزنا على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممانى مع مراعاة النظر ، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن مصير الشمس حسدا يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ما علل به طيران أحد النسر من وقوع صاحبه لما فقدا من صبرهما . وتلاحق في تضاعيف ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجمات من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :

« لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفرات سوام تصرم<sup>(١)</sup> ، وعبرات هوام تصرم<sup>(٢)</sup> ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيا فيتدمم<sup>(٣)</sup> ، بالصمت عن أن يتحز وتتحرم<sup>(٤)</sup> ، وأفكار تنزّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جلده ، فجلده بالقلق لما تجاوز حده وحده<sup>(٥)</sup> ، وأجرى من سوابق دموعه عسكريا أجرى فشق

(٤) يتحرم : يجده حراما

(٥) حده : ضربه بالسياط

(١) سوام : لازمة لا تبرح . تصرم : تشتغل

(٢) هوام : سائلة . تصرم : تنقطع

(٣) يتدمم : يتوسل

خَدَّهُ وَخَدَّهُ<sup>(١)</sup> .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسوِّدةً، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعده، وإخلاقه وَدَّهُ<sup>(٢)</sup> وَدَّهُ<sup>(٣)</sup>، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره، ورفع ناظره بقدمه عليه على كَأَفَّةِ أمثاله وأنظاره، فعلم أن عَلمَ المودة قد رُفِعَ، وموصول جبل الجفوة قد قُطِعَ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذاً، واجتمعت فيه أمانى النفس، فاتخذته دون جميع الملائم مَلَاذًا<sup>(٤)</sup>. وتناوله بيد الإجلال، وفضَّه بيد الإدلال، فوجده منظوماً على خطِّ كالكتوس المرصعة لما لاح مداده مُدَامَا ونَقَطَهُ حَبِيْبًا. وألفاظ تتيح للخواطر طرباً، وتبريقاتٍ لو كان التصريح فضة لكانت ذهباً، ومَنَنِ مالاحت سحائبها حتى وَكَفَّتْ<sup>(٥)</sup> وأباید ما استكفت فواضلها حتى عَمَّتْ وَكَفَّتْ.

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل، فالزفرات تنصَّرمُ والعبرات تنصَّرمُ بينا يتدم بالصمت ويتحرم. ولانثب أن تلقانا جناساته التامة. فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه في مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق، حين تجاوز حدَّه ومنتهاه، ويحدُّه كما يُحدُّ الجناة، وتجري سوابق دموعه فتشق خده وتحدُّه أى تشقه وتؤثر فيه، وتخلق وتبلى نودة صاحبه فيتمنى لو كان الموت ودَّه وزاره. ويعود ابن ممانى إلى هذا الجنس التام بين «الملاذ وملاذاً» كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية. وتلقانا في الفصل مراعاة النظر والعلباق، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره. ومن طريف مآثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله.

« وأما النيل المبارك فإنه عمَّ البقاع<sup>(٦)</sup>، وطبَّق<sup>(٧)</sup>، البقاع، وانتقل من الإصبع للذراع، حتى لم يُلَفَّ بمصر قاطع طريق سواه، ولا موهوب مرهوب إلاياه.»

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع، حتى قطع الطرق وأخذ بجناب الدور والسكان، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان. ولعل في كل ما قلنا ما يصور قدرة ابن ممانى البيانية

(١) خدّه: شقّه وأثر فيه

الكفاية

(٢) إخلاق الشيبى: جملة باليا

(٣) ودّه: زاره

(٤) ملاذاً: ملجأ

(٥) وكفت: أمطرت، وكفت في آخر الفصل من

(٦) البقاع هنا: مرتضعات وادى النيل

(٧) طبَّق: عمَّ

وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

### فخر الدين <sup>(١)</sup> بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غزاه ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبة ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشتكي الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورفى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) فلت مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السُّرْيَاق منكسا على رأسه ، قال :

وما تعلَّقتُ بالسُّرْيَاقِ منتكسا  
لكنني مذ نفثتُ السُّحْرَ من أدنى  
لِحِزْمَةٍ أوجبتُ تعذيبَ ناسوقِ <sup>(٢)</sup>  
عَلَّقْتُ تعليقَ هاروتِ وماروتِ

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم بعينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلي الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفى قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر في الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن اللوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(١) انظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدر

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصبح الأعشى

٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للمحمدي ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

(٢) لجرمة : لجرم أى لذنب . ناسوق : جدى

فصيحاً بليغاً .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرقّة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس « وكان كثير التورية فيه على نحو ما يتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشتكي في غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عالياً وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلاً :

« رَبَّنَا اجْعَلْنَا فِي هَذَا الطوفان من الآمنين ، وسلاماً على نوح في العالمين . مات أخيراً مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر الحجر بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى بقول القائل : حدّث عن البحر ولا حرج .. وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كاس ، وسئل ابن أبي الرّداد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلاً الياب<sup>(١)</sup> ، وهال العباب ، كال فطّف ، وزار فما خفّف ، جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح<sup>(٢)</sup> ، وغدداً التيار ينساب في كل يم كالأيم<sup>(٣)</sup> ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع الغيم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرج مائي ، وتغيّرت الألوان فكل مافي الأرض سمائي .. وتحالى إلى أن أقرف<sup>(٤)</sup> الليمون الأخضر ، واحمرت<sup>(٥)</sup> عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرًا<sup>(٦)</sup> ويزيد .. ولكم قال الهرم للسّارين ، ياسارية الجبل ، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفي من البلل ، وكم قال أبو الهول : لاهول إلأهولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء<sup>(٧)</sup> النهر .. ولورآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار ، لبكى بعيني عروة<sup>(٨)</sup> ، وأوى من الرّصد إلى ربوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلا ترجعي ،

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(١) الياب : القفر والحراب .

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان في شمالها الشرقى

(٢) يريد السفن

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور في صدر

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

الإسلام

(٤) أقرف هنا : عطّر ، من القرقة المعروفة طيبة الرائحة

(٥) احمرت عينه : كتابة عن الحمرة في طمى النيل

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : ( ياسماء أقلعي <sup>(١)</sup> ) .. ولقد طار التسرُّ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر  
البحر من الشكاري بالشخاتيت <sup>(٢)</sup> إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح ، ونرجسُ البساتين وقد  
ايضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصن البان وقد قيل له  
طوبى لمن عابقتك ولا باس .

ونكتفي بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهي رسالة بديعة في وصف فيضان النيل  
وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعلى في شولطىء النيل حتى كادت أن تمتزج بالبحر في السماء  
كما يقول ابن مكنس ، فإذا الحادى للإيل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر  
والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانها وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعال  
هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك  
ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه  
الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزُّوم . ويستمر ابن مكنس في هذه الاستعارات ،  
فينخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب في الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر  
الصغير . ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو  
يحارب في الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية .  
وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانها فقال متمثلاً بشطر من  
الشعر : أنا الغريق فما خوفي من البلبل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من  
بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان في أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر .  
والمعشوق بستان ورباط عظيمان كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان في  
القرآن الكريم : ( ياسماء أقلعي ) . وتلقانا في الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة منثورة . وما أسرع  
ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : ( وايضت عيناه من الحزن فهو  
كظيم ) . وورى في كلمة آس فهي تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطيب  
المداوى . والاستعارات بديعة هي وما تتحلّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس  
وطباقات ومرعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قبروانى ضرير إلى أبى بكر بن العجمى أحد الكتاب النابهين في ديوان الإنشاء

(٢) الشخاتيت : لعلها القوارب .

(١) أقلعي : أمسى عن الماء .



بأن صديقه ابن مكناس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمي من ذلك .  
وتأذى ابن مكناس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« ( ليس على الأعمى حرج ) بلغنى - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب  
الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجّة زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين ،  
لازال زينة يحلّى به العاطل ، ويُظَلّ تحت جناح أديه القائل<sup>(١)</sup> - من غيبة ذلك الضير ،  
مالاخشى الله فيه يظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من  
الرّيب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل ،<sup>(٢)</sup> ولا بد من نهلة اعتذار على  
سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدياء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهّر من الأرجاس<sup>(٣)</sup> ، لقال  
لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس .. والمستول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه  
يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالى فن أبا بكر  
أول من تصلّب<sup>(٤)</sup> فى الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضير قصد بعض الأصحاب برمى كهذه  
فأصمى<sup>(٥)</sup> ، وتردّد إليه مرة أخرى ف(عبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) ..

والسجعات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفى كلمة « القائل »  
تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمي يُظَلّ تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما  
يريد القائل من القيلولة وقتها الحار فى الظهيرة ، فهو غوث العائدين وملاذ المعوذتين المحتاجين .  
واستغل اسمه أبا بكر فى التورية باسم أبى بكر الصديق متلطفًا بذكر حادث صلواته بالمسلمين نزولا  
على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن  
مكناس إلى التورية بأبى بكر الصديق حين طلب من ابن العجمي أن لايفتح بابه للواشى مقتديا فى  
ذلك بالصديق حين تشدد فى حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر  
الحكيم آية تصور ماينبغى على ابن العجمي من لقاء الواشى لقاء متجهها على نحو ماتصور ذلك  
الآية : ( عبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى ) . ولعل فى كل ماقدمت مايصور خفة روح ابن مكناس  
وعذوبة سجعه ومايشيع فيه من سلاسة .

(١) القائل : التعب من القيلولة وهى وسط النهار

(٤) تصلب : تشدد

(٢) التنصل : التبره

(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

## المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير يصور كيف يحتال أديب متسول على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقة ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جواب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أديبا متسولا ينجلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبديع الزمان الهمداني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى فى مقاماته المشهورة .

وأكبَّ الناس على مقاماتها إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء فى الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتها ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذة الأديبة مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكتفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتركون القصص جانبا ، وبينون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة (١) ، صوّر فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فلتقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسّر إليه غلام أن ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشبع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزههم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كلَّ جنانى وبنانى ولسانى وإنسانى (٢) ، من الذّاب فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو

(٢) إنسانى : يريد إنسان عينه

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

خطُّ أرقه<sup>(١)</sup> ، فتأقت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقَرَّع . قلت له : ما الشأن ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، قلت : وبمك عَجَلُ بفتح الباب ، وأدُن للأجباب ، فهم نزهة النفس ، وثمرة الأنس .

وتمضى المقامة بهذا السجع الحقيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعدوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد<sup>(٢)</sup> بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المهذب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صتَّف كتاب جِنان الجَنان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكلمة لكتاب اليتيمة للثعالبي وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصبهاني عنه : « أوجد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً مؤرخاً منطقياً . مهندساً ، عارفاً بالطب والموسيقى والنجوم متفتناً » . ومن كتبه كتاب مئنة الأملئى وبلغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصور معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصصية<sup>(٣)</sup> ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادنا بعالم نحوى مورداً عليه من النحو ومسائله ما يبهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغئى ، ويتوالى حواراه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعياً على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزئى بزئى الزهاد والصوفية احتيالاً على الناس ليسبغوا عليهم من أموالهم ، وهم لا يقدرون العلوم حتى قدرها فضلاً عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصَّر سرباله<sup>(٤)</sup> ، وقصَّر سباله<sup>(٥)</sup> ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضاً للاستفادة فى معرض

(١) أرقه : أكتبه  
(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخريدة ( قسم شعراء مصر )  
(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية  
(٤) سرباله : ثوبه  
(٥) سباله : شاربه  
٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام <sup>(١)</sup> ، ويحلب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تناول موضوعا يحلُّ صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السُّروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على السنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة <sup>(٢)</sup> أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمنح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوما مامع أناس ، وصل برهم بليناس ، كل منهم يهتز للأكرومة ، ويأوى إلى أشرف <sup>(٣)</sup> أرومة ، على خيل مسومة <sup>(٤)</sup> ، مثقفة مقومة ، ما بين جون أدهم <sup>(٥)</sup> ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سينان ، أو انعطف لعنان ، وأشهب كرم ، له سالفه ريم <sup>(٦)</sup> ، كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهملاج <sup>(٧)</sup> إن زجرته أهب أديمه <sup>(٨)</sup> ، روضة بهار <sup>(٩)</sup> ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم <sup>(١٠)</sup> ، ويمر مرور الغيم ، لا ينبه النائم إذا عبر به ، ولا يحرك الهواء في سربه ، أخف وطأً من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما قرش قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لجبن وعسجد .. تُهدى للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق . »

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيال وللكلاب الصيد .

(٦) ريم : ظبي أبيض . والفرس الأشهب : يخالط بياضه

سواد أو حمرة

(٧) الهملاج : الفرس في سيره بخنرة .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أبيض .

(١٠) الأيم : الحية الذكركر .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجمالية) ص

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسومة : مطعمة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام الممالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما تُنسى أصلها عند الهمداني والحريري نهائياً ، فلا بطلٌ صاحب حَيْلٍ ، ولا قِصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهي للأدلة والبراهين ، مع السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن مساوياً بفرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة <sup>(١)</sup> ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : ( ن والقلم وما يسطرون ) وهي براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقادمة <sup>(٢)</sup> أجنحة الطائفة ، ومطلق أرزاق عُقَاتِهِ <sup>(٣)</sup> المتواترة ، وأتملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رقم كتابُ الله الذي لا يأتبه الباطل وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل <sup>(٤)</sup> .. إن نُظمتْ فرائد العلوم فلإنما هو سلكها ، وإن علت أسرة الكتب فلإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يجلب النفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النفع <sup>(٥)</sup> . »

ويستمر القلم في هذه المفاخرة ، فهو الذي يأمر بالجهاد والسيف نائم في قرابه ، وهو الذي يأمر بالعدل والإحسان ، مع المحاماة عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعَلِّ فضلَه على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخيلائه والخيلاء وكبرياته . وينبئ السيف مدافعاً عن حماه مستهلاً كلامه بقوله تعالى : ( وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعٌ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسله بالغيب إن الله قوي عزيز ) ويحمد الله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزيمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا . ويتفض القلم في دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلاً للسيف في حدة وعنف .

« أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعتاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا للمعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(٤) الخواطل : الحائذة عن الصواب

(١) خزانة الأدب للحموي ص ١٣٠ ، ٤٤٥

(٥) النقع : غبار الحرب . والوعد يكون في الخير والإيحاء

(٢) قائمة الأجنحة : ريشات أربع كبار في مقدمة

في الشر

الجناح

(٣) عقاته : طلاب معروفه .

من دخل تحت قوله تعالى ( أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ ) وهو في الخصام غير مبين ) لقد تعدت حدك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحياب .

ويرد عليه السيف مَغِيظًا مَحْتَمًا ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيرا بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنها للملك كالديدين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبِّجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولا ين مكانس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حوارا بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الفترة العثمانية، وينحوي بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الخفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعا له ، من ذلك مقامتان <sup>(١)</sup> لمصطفى اللقيمي اللمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بها الأمير العثماني رضوان كئخدا ، وإحداهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة <sup>(٢)</sup> في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الحلوني ضمَّنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدوييت والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجددير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

### ابن <sup>(٣)</sup> أنى حَجَلَة

هوشهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أنى حجلة التلمساني الأصل . ولد بزواوية جدّه أنى حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

تقرى بردى ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن العماد ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٦/١٤ .

والحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والمقار .

(١) تاريخ الجبرتي ٢٢١/١ وما بعدها

(٢) تاريخ الجبرتي ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أنى حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجوم الزاهرة لابن

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبنا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفي بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأمتحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . وما زال يتولى خانقاه منجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : «سكر دان السلطان» و«ديوان الصباية» وهما مطبوعان .

ومعنى سيكردان إثناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكى السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور فى معظمه حول العدد ٧ وأهميته فى تاريخ مصر وأحداثها . وقد جعله فى مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر فى الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث فى الباب الثانى عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين فى أسرته . ويعرض فى الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود فى الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحداث فصيحة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة فى البابين السادس والسابع . ويثبّع ابن أبى حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول فى أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثانى لقصة موسى وفرعون ، والثالث للملوك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمى ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة . والسابع للزهرة السبع . وما ذكره عن الحاكم الفاطمى ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسيه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقُتل وهو يلبس سبع جبّات بعضها فوق بعض . ولاريب فى أنه بالغ فى ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصباية - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والهجران والاستعطاف وإنشاء السر والكتان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو فى ثلاثين بابا ويذخر باختارات الشعرية والنثرية فى الحب والصباية . ووضع بين يدي أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحداث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندى لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفاته ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقلما لها بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان بنسبته إلى الطيور <sup>(١)</sup> محرّك المناطق وإلى الشعر صنّاجة الأدب » ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرّياش ، وكان ابن أبي حجلة سمّى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

« إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصيرات تَبْجَاجُهُ <sup>(٢)</sup> ، وأَعْيَى طيبَ الغِيْطَانِ <sup>(٣)</sup> علاجه :

وشرّق حتى ليس للشرّق مشرقٌ وغرّب حتى ليس للغرب مغربٌ

قلت : فافعل التَّنْغِيرَ <sup>(٤)</sup> ، بجزيرة الطَّيْرِ؟ قال : لم يبق بها هاتف يبشّر بالصباح ، ولا ساع يَسْمَى بِرِجْلٍ (ولا طائر يطير) بجَنَاح ، إلا اتخذ (نفقا في الأرض أو سُلْمًا في السماء) أو آوى (إلى جبل يَعْصمه من الماء) فأذاق بها الحمام الحمام <sup>(٥)</sup> في المروج ، وترك أرضها كسماها ماها من فروج ، وتلا على الحمام : (أيما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بُروج) وكم في سماء ماها من نَسْرٍ واقع ، وبُومَةٍ تصفّر على ديارها البلاقع <sup>(٦)</sup> :

ومتهلّ فيه الغرابُ ميّتٌ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ

قلت : فصر؟ قال : زحف عليها بعسكره الجرار ، ونفط مائه الطَّيَّار ، قلت فالجيزة؟ قال . طفى الماء حتى علا على قناطرها وتجرّس ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسّر ، فأصبح بعد اخضرار بَرْتَه <sup>(٧)</sup> شاحب الإهاب ، ناصل الخِضاب ، غارقا في قعر بحر (يغشاه مرج من فوقه موج من فوقه سحب) وقطع طريق زاويتها على من بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطَّالِح كالألح يمشى على الماء (فتنادوا مُضْهِين) : (أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين)

(٣) الغيطان : الحقول

(١) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٤) التنغير : طائر صغير كالصغور

(٢) المعصرات : السحاب المطر نعمصره الريح .

(٥) الحمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاقع : الخالية

تجاجة : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ في عنوه حتى صافح السحب .

(٧) بَرْتَه : شارته وثوبه .



وأدرکہم الفرق فأیسوا (١) من الخلاص (فَعَشِيَهُمْ من الیَمِّ ماغَشِيَهُمْ) (ولات حين مناص (٢) )  
 و (خرّ عليهم السّفْفُ من فوقهم) فهُدَّت قواہم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذین آمنوا وعملوا  
 الصالحات (وقليل ماہم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الکيام (٣) بزهره ،  
 والکأس بحباب (٤) خمرة :

فكانها فيه بساطٌ أخضرٌ وكأنه فيها طرازٌ مُذهبٌ (٥)  
 فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكم أنشد مرّجها حين (مرّج (٦) البحرين يلتقيان) :  
 أعينى كُفًّا عن فؤادی فإنه من البغى سعى اثنين في قتل واحد (٧)

قلت : فدار (٨) النّحاس ؟ قال : أنحس حالها ، وأفسد ما عليها وما لها ، فدخل من حمامها  
 الطُّهر ، وقطع الطريق بالجامع الطُّهر ، فألحق مجازَ بابِه بالحقيقة ، ورقي منه على درجتين في  
 دقيقة .. قلت فجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جُلُّ ثمارها ، وأنى على مغانيها (٩) فلم يدع شيئا من  
 رديها وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأنف (١٠) ، وترك قُلُقاسها في الجروف (١١) على شفا  
 جُرف (١٢) :

بعيني رأيت الماء يوما وقد جرى على رأسه من شاهقٍ فتكسرا  
 طالما تضرّع بأصابعه إلى ربِّه ، ولطم برءوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه ، وتمثّل بقول  
 الأول :

وإن سألوک عن قلبی وما قاسی فقلّ قاسی وقلّ قاسی وقلّ قاسی  
 لم يُفیده تحصُّنه من ورقه بالدَّرَق (١٣) والستائر ، ولاحنّ عليه حين تضرّع بأصابعه فصحّ أن

- 
- (١) أيسوا : يشوا  
 (٢) مناص : ملجأ ومفرّ  
 (٣) الكيام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل  
 أن تفتح  
 (٤) الحباب : الفقاقع على وجه الكأس  
 (٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في  
 فيضانه من الطمي  
 (٦) مرج البحرين : أرسلها في مجريها متجاورين  
 (٧) يشير إلى أن البحرين بأخذان بخناق جزيرة الروضة  
 حتى تكاد تلفظ أنفاسها  
 (٨) تسمى الآن دير النحاس وهي أمام النيل بمصر القديمة  
 (٩) مغانيها : منازلها .  
 (١٠) الأنف : الجديده  
 (١١) الجروف : شقوق الهراث ومجاريه  
 (١٢) شفا جرف : شفا : حرف : جرف : المكان يجرفه  
 الماء  
 (١٣) الدرّق : جمع درقة : الترس

الماء سلطان جائر .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى عليين فرقا منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على القسطنط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجزيرة حتى علا قناطرها وجرّد القصب من بزّته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدرّكهم جميعا الفرق في عبايه ، وخرّ عليهم السقف من فوقهم ، ولا ملجأ ولا مناص ، وأحاط بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولاردّ مجرّيه أو كما يسميها ابن أبي حجلة بمجره من حولها آخذين بنخاقها ، كأنما يريدان أن تصيح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياهه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيا وكيف عمّ ما بها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتبّت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ومعنى ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولا نحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لغته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تنمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلالين تمييزا لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثاني جناسا طريفاً مع اسمه . وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشرها في استيطانه بمصر حتى الثالثة . والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المعبّر الى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيما قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

هو شهاب الدين أحمد بن علي وُلد بقلقشنده بالقرب من قليوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنسب ، وهو من أصل عربي صميم إذ ينتمي إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يجيزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصّحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثناءها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمّاه الغيوث الهوامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و« قبائل الحمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعترفا بفضلله أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقريبه صور فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف تَوًّا على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتدئ القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندي ومفارحاته صبح الأعشى ١١٢/١٤ ،  
٢٠٤ ، ٢٣١ . وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار  
الكتب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندي الضوء اللامع للسخاوي ٨/٢  
وشلوات الذهب ١٤٩/٧ والمنهل الصافي لابن تغري بردي .  
٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ  
الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ٤١٦/١ . وراجع في

الإنشاء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالحظ واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشطرًا غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة في أنواع المكاتب وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين في الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتب الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسم والتفاوض والتوقيع وخاصة مايتصل بزمن المالك . وتحمل هذه المقالة كثيرا من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهي تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثاني عشر . والمقالة السادسة في مجموعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهدن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطرًا من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقریظات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية

ونعود إلى مقامته التي أشرنا إليها والتي وصف فيها صناعة الإنشاء وقرّط بها صاحب ديوانها بدر الدين العمري وقد سماها : « الكواكب الدرّية في المناقب البدرية » وهي محكية وأمروية على لسان الناثر بن نظام ويلقانا في فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ، وبتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ، أنصب لاقتناس العلم أشراك التحصيل ، وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونسُ من شوارد العقول وَحَشِيَّهَا ، وَأَشْرَدُ عن روابض المنقول حُوشِيَّهَا ، وألتقط ضالَّةَ الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلوم أشرفها ، ومؤثرًا من الفنون ألطفها ، معتمدًا من ذلك ماتألفه النَّفس ويقبله الطبع ، مقبلًا منه على ما يستجلى حُسْنُه النظر ويستحلى ذكره السمع .. عارفا لكل عالم حقَّه ، وموفِّيا لكل علم مستحقَّه ، قد استغنيت بكتابي عن خَلِي ورفيقي ، وآثرت بيت خَلَوْتِي على شَفِيق وشقيق .. إلى أن أتيج لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة » .

وأكبر الظن أن قد اتضح لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وقوافي أسجاعه ، بحيث لانكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصع كلامه على نحو مانرى في التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيق وشقيق وشقيقى ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفروق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشئى كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد به ، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضًا لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقترانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئ بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موزيا بذلك عن الفتوح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحربى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحنا لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهه . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لا يبد لكل إنسان من حرفه يكتبب بها معاشه . وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المثيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ المُلْك وعماده ،

وأركان الملك وأطواره . ولسان الملكة الناطق ، وسهمها الموقوق الراشق . وبحاور الناثر بن نظام في كتابة الإنشاء والحراج أيها أفضل ؟ وبجيبه أتى لكتّاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعداء ما لا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندى على لسان الناثر بن نظام في بيان ما يلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحاءهم وخطبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والتحلّ وعلم العروض والقوافي والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لا بد من المعرفة بكل ما ذكره القلقشندى بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهدن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندى عن من يضم هذه الرتبة الرئيسة والمقبة الشريفة ؟ وبجيبه الناثر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمري ومنحصر في سليله البدر ، الذي تدور عليه ، فهو ابن بجدها الذي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندى مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهي تنزع متزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التي أمنتها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندى مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرة فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بضعه <sup>(١)</sup> منى ، تُسندُ إليّ وتثقل عني ، لم يزل علمك بابا من أبوابي ، وجملتك داخلة في حسابي ، حتى ميزك المازني فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جنّي فتبعه في التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطويّ ضمن كتي ، نَسبتك متصلة بنسبتي ، وحسبك لاحقٌ بحسبي . أنا ملجُ الكلام ، وميسكُ الحتام ، لا يستغنى عني متكلم ، ولا يليق جهلي بعالم ولا متعلم ،

في تبيين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبسُ عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندی البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندمجين بعضها ببعض في كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازني علم الصرف بالتأليف وتبعه في ذلك ابن جنّي . ومضى المؤلفون في العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندی يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنقلُ عنه ويُسند إليه وأنه مطوّى في كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم في آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين في النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد في عبارتها على الموصول ، معبرا بها عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندی مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رِيسِكَ أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونَمَقْت محالا .. وإني - وإن صَغُرَ جِرمي - فإني لكبير الفِعال ، وإن نَحُفَ بدني فإني لشديد البأس عند النزال . وإن عَرِيَ جسمي فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور ، وإن قَصُرَ باعني فكم أطلقت أسيرا وأنا في سجن الدواة مأسور » . ويمضي القلقشندی بمثل هذه الصياغة المشوابة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشرع عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

### السيوطي<sup>(١)</sup>

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفي أسيوطي هو همام الدين السيوطي ، وكان لأسرته وجاهة ورياسة في أسيوط ، منهم من ولى الحكم فيها ،

ويروكلمان ( الطبعة الألمانية ١٤٣/٢ ) . وانظر في مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطي بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر في نشاط السيوطي النحوي تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر في السيوطي وترجمته حسن المحاضرة ١/٣٣٥ والضوء اللاحع للسخاوي ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للغزّي ( نشر الجامعة الأمريكية ببيروت ) ١/٢٢٦ وتاريخ ابن إلياس في مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعراني ص ٤ والبدر الطالع للشوكاني ١/٣٢٨ والنور السافر للعيلدروسي ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومنهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلده إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانتة على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمناوي في الفقه الشافعي وتقى الدين الشبلي في الحديث والكافيّجى في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشاف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادًا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبخّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فأستاذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاربه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفًا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . وبحق يُعدّ السيوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشريعة الدينية . وله أكثر من كتاب طُبِع في العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، ومرّ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإتيان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه



في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُني عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصعلكة كما كانت عند الهمداني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعمود ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والثقل بمقامته الفستقية والعمود بمقامته المسكية ، وخص الأبحار الكريمة بمقامته الباقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصلوة . ووضح ما في كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، وما يلبث الورد أن يدلّ بفوائده الطيبة ، ويرد عليه النرجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن بغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجّر .. فاحفظ بالصمت حُرمتك ، وإلا كسرت بقائم سني شوكتك . وإني القائم لله في الدياجي على ساق ، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحداق .. وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان ، ولهذا قال في كسرى أنوشروان : النرجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه في عيون الملاح ، والمقرون في مهات الأدوية بالصلاح . »  
واللسيوطي بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذي تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبية نسبة إلى طيبة أي المدينة وقد ضمها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيستباح ماء الضرير؟ » ويحجب أبو زيد السروجي بطل المقامات الحريرية : نعم ويُجْتَنَّبُ ماء البصير » والضرير : حرف الوادي والبصير الكلب . ونرى السيوطي يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : ما زلت أقتحم المهامه <sup>(١)</sup> الخيفة ، وأدخل في المسالك العنيفة

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحالَ بَعَثَها (١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرَّواح ، وأترؤد من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّي بمسامرته العُربة ، وأديبا يُنِيل بمحاضرته الإربة (٢) ، فبينما أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تسرَّرتُ سحائب الألفاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع ببياب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذُه معاضداً ونصيراً ، ومحاضراً وسميراً ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وشِئْتُ (٣) ما عنك فهمت ، فانتِ على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبير سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسائلك ، وأوضح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضحاً ولم يمسح أمه ؟ فقال : لم يصحَّ يا أمَّه .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر؟ والجواب الجواز ، لأن المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فحل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسيوطية بناها على الغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالماً بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقهاء واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أي موضوع حتى لراه يتخذ نجاة أبوي الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوي الرسول من النار لايشوبها أي شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران . ولعل فيما قدهنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع عبة . (٢) الإربة : الأمانة . (٣) شام : نظر متظلا أو مؤملا شيا

## الشهاب <sup>(١)</sup> الحفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الحفاجي المصري ، ولد لفقيه شافعي بسريا قوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشعراني والفقهاء الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرملي . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضيا في الرومللي ثم في سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقبه مفتيها يحيى بن زكريا لقاء سيثا وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضيا في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربي ، ومن أهمهم عبد القادر البغدادي صاحب الغزانه ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سيبا في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعها بخمس مقامات يصور فيها تفانم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك علما ومؤرخا كبيرا ، صنف حاشية على تفسير البيضاوي طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طبع مرارا . وصنف في تراجم الأدياء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه «ريحانة الألبا» الذي نذكره كثيرا في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطا . وكان شاعرا مجيدا ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطا ، وقد أنشد من شعره كثيرا في الريحانة وبالمثل أنشد منه كثيرا المحيي في ترجمته له ، وهي في أكثر من مائة صفحة .

وقد دون الشهاب الحفاجي مقاماته التي أشرنا إليها في ترجمته التي عقدها لنفسه في نهاية كتابه الريحانة وسمى أولها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه

٤٧٧ وخلاصة الأثر ٣٣١/١ وسلافة العصر ص ٤٢٠

(١) انظر في الشهاب الحفاجي ترجمته لنفسه في نهاية ريحانة الألبا ٣٢٥/٢ وما بعدها ونفحة الريحانة ٣٩٥/٤ -

بينما تقبل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفها وعلماها . ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله

« لوقارنه السعد الأكبر إلى أعلى عليين ، حملته بنات نعش إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة والبصر ، عاراً على آدم أبي البشر ، إنما خلق اعتذاراً للإبليس في ترك السجود ، وأتى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راوياً لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعاً أهل كذبة واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد فقد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الطواط المترجم له في قسم إيران كتبها غيمن كان يزاحمه في أداته ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطاً شديداً ، ونسج الشهاب الحفاجي على منواله في صنع هذه المقامة قاصداً بها المفتى خصيئته مسمياً له باسم الوزير ، وفيها يضع منه ونهجه هجاء مرا ، ويصور قصته معه وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثل به تمثيلاً شديداً . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الحفاجي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألغاز المغربية ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

#### ٤

#### المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة العيدين ، وكان يتولاها أئمة المساجد ، وأحياناً خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن <sup>(١)</sup> علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن القسطنطين ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواظفه في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة <sup>(٢)</sup> خطبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه <sup>(٣)</sup> . ويبدو أن الخطب والمواظف كانت تُعدُّ لهم - ولبن ينيونه عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبي الشخباء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواظف لعلها كانت خطبا أعدّها للخليفة ووزيره بدر الجلال ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعاً ، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول <sup>(٤)</sup> :

« أيها الناس فكروا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقة <sup>(٥)</sup> ، ولا تُنسيموا <sup>(٦)</sup> أطاعكم في رياض الأمانى المنشعبة ، ولا تُميلوا صَعُوكم <sup>(٧)</sup> إلى زيارج <sup>(٨)</sup> الدنيا المحببة .. أين الجبابرة الماضية المتقلبة ، والملوك العظيمة المرجبة <sup>(٩)</sup> أولو الحفدة <sup>(١٠)</sup> والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجرارة اللّجبة <sup>(١١)</sup> .. طرقت - والله - خيامهم غير منتهية ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية <sup>(١٢)</sup> مختنضة ، وأكلت لحومهم هواماً الأرض السّعبة <sup>(١٣)</sup> ، ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبَلُ فيه عُذْرٌ ولا مَعْتَبَةٌ ، وتجاوزى كل نفس

- |  |  |
|--|--|
| (١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ٥٥١/١ والعبر       | والاستعارة واضحة                                 |
| ٢٤٧/٢  | (٧) الصفو: الشق والجانب                          |
| (٢) انظر سيرة الأستاذ جوهر (طبع دار الفكر العربي)    | (٨) زيارج: جمع زبرج: الحلية والزينة              |
| ص ٧٦   | (٩) المرجبة: الموقرة العظيمة                     |
| (٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤                             | (١٠) الحفدة: الأعوان                             |
| (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة | (١١) الجرارة: الكثيفة. اللجة: ذات الحلية والوضاء |
| ١٩٢٩) ٥٤٥/١٠   | (١٢) قانية: حمراء. مختنضة: مصبوغة بالخصاب        |
| (٥) الآصار: الذنوب. المستحقة: المرتكبة               | الأحمر   |
| (٦) أسام الدابة في المرعى: خلاها ترعى فيه كما تشاء   | (١٣) السفبة: الجماعة                             |

بما كانت مكتسبة ، فلأما سعيدة مقرّبة ، تجرى من تحتها الأنهار مَثُوبَةً (١) ، وإما شقيّة معدّبة ، في النار مُكَبَّكَةً (٢) .

وقد التزم ابن أبي الشخاء في موعظته الباء والهاء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثر . وخصائص ابن أبي الشخاء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهو يبغي بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المهزقة ومحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المترفة ، ويصرفوا أطاعهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأُمم الخالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دهاقا ، وأكلت هوامّ الأرض وحشراتنا لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فلأما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونغصى إلى زمن الأيوبيين ، فيلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكي : « وله ديوان خطب مشهور (٣) » . وطبيعى أن الخطابة لزهن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرته دينه الخفيف . ولم تكن خطب الجهاد تُلقَى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئ (٤) أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من المسكر أوله : ( انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهَلُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) وكان في الكتاب مواظ بليغة في الحث على الجهاد ، فقرئ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة والفسطاط وضواحيها وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكي ٣٧/٧

(٤) المخطوط ٤١٣/١

(١) مَثُوبَةٌ : مكافأة

(٢) مُكَبَّكَةً : مجتمعة

ونلتقى في زمن المالك بابت المنير<sup>(١)</sup> الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاضره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق<sup>(٢)</sup> العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضي القضاة في جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكي : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، وبطيل مترجموه في ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطي أنه كتب بها إلى قاضي إخميم بالصعيد ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

« نحمد الله الذي ( يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ) ، ويمهل حتى يلبس الإهمال بالإهمال على المغرور ، ونذكره بأيام الله ( وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ) ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحجرتة عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما منحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبت الآخرة وراءه ، واتخذ إله هواه ، وقصره همة وهمة على حظ نفسه ودنياه ، فضاية مطلبه حب الجاه .. فاتق الله الذي يراك حين تقوم ، واقصر أمك عليه فإن المحروم من فضله خير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : ( فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ) .

ولعل في هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العيد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالليل بالعذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برفائق وعظه وكلمه التي كان يجلب بها وبما يضمنها من آتى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر في ابن المنير فوات الوفيات ١٣٢/١ والتجويد

الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشذرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومُرَّ بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنيت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام الماليك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومُرَّ حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخسه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم <sup>(١)</sup> الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد <sup>(٢)</sup> البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على السنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقي ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمة ، فهن بالقدره واقفات ، بالسبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك ( الملائكة ) في مجارى الأفلاك . بالكبرى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لدغة المنافق » .

وكان يعاصر الدسوقي والبدوي أبو العباس <sup>(٣)</sup> المرسي المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن وراجع الشعراي ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والواق ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر الدسوقي في الطبقات الكبرى للشعراي (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١  
(٢) راجع ترجمة البدوي في الشعراي ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٧٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب



الشاذلي ، وهو أندلسي من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفي الرابعة والعشرين من سنه خرج إلى الحج ، وفي طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفي الكبير أبي الحسن الشاذلي ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رحل إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه في جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هي وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه في السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقي دروسه في الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقة في الجامعين تزدهم بالطلاب والعلماء . وتوفي أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناسرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، ولتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلي سماه « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن » ويعد جامع اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا تقتطف من ابتهالاته وأدعيته قوله (١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبه والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم في القرآن وخُصنا منك بالمحبة .. وآتانا العلم اللدني والعمل الصالح والرزق الهنيء على بساط علم التوحيد والشرع .. وسخر لي الرزق واعصمني من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهب لي لسانا لا يفتعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبغض لنا الدنيا وحبب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نُحزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق للشعراني (طبع المطبعة الميمنية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية .  
ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك  
ما جعلها تشدّد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم من مال  
أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما . وبذلك  
وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس المرسي بترجمة  
قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز<sup>(١)</sup> الدّميرى الدّيرينى ، ولد بقرية  
دميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين في الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول في ريف  
مصر شمالا وجنوبا ، وكان فقيها شافعيًا ، ونظم كتاب التنبية لأبي إسحاق الشيرازى ، ونظم سيرة  
نبويّة ، وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً محشوشنا ، وله في التصوف كتاب « طهارة  
القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :  
« إلهى ، عرّفتنا بربوبيتك ، وعرّقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدّسك ، ونعمتنا  
بذكرك وأنسك .

إلهى ، إن ظلمة ظلّمنا لأنفسنا قد عمّت ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت ، فالعجز  
شامل ، والحصر<sup>(٢)</sup> حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهى ، ما عصيناك جهلا بعقابك ، ولا تعرّضنا لعذابك ، ولكن سوّلت<sup>(٣)</sup> لنا نفوسنا ،  
وأعانتنا شقوتنا ، وعرّنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من  
يسْتَقْدُنَا ؟ وبِحَبْلِ مَنْ نَعْتَصِمُ إِنْ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنَا ؟ وإخجَلتْنَا مِنَ الْوَقُوفِ غَدًا بَيْنَ يَدَيْكَ ،  
واقضيتنا إذا عرّضت أعمالنا القبيحة عليك .

اللهم اغفر ما علمت ، ولا تهتك ماسترت .

إلهى ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربًا يغفر الذنوب  
ولأبيال .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : العى .

(٣) سوّلت : أغرت . وتقال في الشرور والسوء .

(١) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

المخاضة ٤٢١/١ والشعراني ٢٢٤/١ ومناجاته المذكورة في

بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .  
ويروى السبكي مناجاة لصوصي شاذلي من صوفية القرن الثامن هو شمس <sup>(١)</sup> الدين بن اللبان محمد  
ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه ( والد زوجته ) ياقوت العرشي  
تلميذ أبي العباس المرسي ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه في الربانيات »  
وهي تطرد على هذا النمط .

« الهى ! جَلَّتْ عَظْمَتُكَ أَنْ يَعْصِيكَ عَاصٍ ، أَوْ يَنْسَاكَ نَاسٍ ، وَلَكِنْ أَوْحَيْتَ رُوحَ أَمْرِكَ  
فِي أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ ، فَذَكَرَكَ النَّاسِي بِنَسْيَانِهِ ، وَأَطَاعَكَ الْعَاصِي بَعْصِيَانِهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا  
يَسْبُحُ بِحَمْدِكَ ، إِنْ عَصَى دَاعِيَ إِيمَانِهِ فَقَدْ أَطَاعَ دَاعِيَ سُلْطَانِكَ ، وَلَكِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُكَ ،  
وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) .

ويبدو أن كتاب المتشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن  
العاصي يطيع الله بعصيانه وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعد  
العاصي لله مطيعا له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاص ومطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه  
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبِطَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّحَادِيَةِ الْقَائِلِينَ  
بِالْحُلُولِ ، كَمَا يَقُولُ إِنْ لَهُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ الصُّوفِيَّةِ ، فِيهِ مَنَ إِشَارَاتُ الصُّوفِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ ،  
وَهُوَ فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ لَفْظًا وَفِي الْمَعْنَى سَمِ قَاتِلٌ .

وكان يعاصره يوسف <sup>(٢)</sup> بن عبدالله العجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد  
دفن بزوايته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تغري بردي  
بقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان  
شيخا حقيقَةً ومُقْتَدِي طَرِيقَةٍ ، كَانَ إِمَامَ الْمَسْلُوكِينَ ( آخَذِيَ الْمَهْودُ عَلَى الْمُرِيدِينَ ) فِي عَصْرِهِ وَلَهُ  
رِسَالَةٌ فِي التَّصَوُّفِ سَمَّاها « رِيحَانُ الْقُلُوبِ وَالتَّوَصُّلُ إِلَى الْحُبُوبِ » . وَمِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مَخْطُوطَتَانِ  
بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ وَقَدْ ذَكَرَ فِيهَا شَرَايِطَ التَّوْبَةِ وَلبس الخرقَة أو المرقعة الصوفية وتلقين  
الذكر .. ويقول ابن تغري بردي : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف العجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١

والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشراي ٧١/٢ وحسن

المحاضرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكامنة ٤٢٠/٣ والسبكي

٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوفاء بالوفيات للصفدي

١٦٨/٢ ومراة الخنا ٣٣٣/٤ وشذرات الذهب ١٦٣/٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أوراد وأذكار هائلة ، وهذه الأذكار والأوراد سقطت من يد الزمن . وهو وأوراده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام المالِك وما كان لهم من أوراد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونخصي إلى أيام العثمانيين وولتقي في مطلعها بأبي السعود <sup>(١)</sup> الجارحي المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشعراي ، وأهم منه الشعراي <sup>(٢)</sup> نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنز والأخلاق » بيان بالمؤلفات التي قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التي التزمها في حياته . ومع أنه صوفي سني نراه يدافع عن أستاذه الروحي : ابن عربي ، محاولا تأويل عباراته على نحو ما يصور ذلك في كتابه « الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضوع ناشطة بمصر . ويعلو شأن الطريقة الخلوئية المنسوبة إلى الشيخ محمد الخلوقي منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفي <sup>(٣)</sup> بن كمال الدين البكري الناشئ ببيت المقدس ، وقد طُوف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبرتي قائلا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرقى المريدين الإمام المسلِّك ، تأليفه تقارب الماشقين ، وأوراده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله <sup>(٤)</sup> :

« إلهي ، أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود في كل آن .

إلهي ، أنت قلت : ( اذعوني أستجب لكم ) فما نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهي ، ابن المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف الهراج عنك وأنت الذي قِيدتْنا بلطائف الإحسان .

والشعراي إمام التصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة مصطفي البكري الصديق الخلوقي تاريخ الجبرتي ١/١٦٥ وسلك الدرر ٤/١٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية في البكري .

(٤) انظر في ورد السحر للبكري مجموع الأوراد الكبير ( طبع مكتبة النصر ) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشعراي ٢/١٤٣

(٢) انظر في ترجمة الشعراي كتابه « لطائف المنز والأخلاق » في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢/٢٥٩ وطبقات المناوي الكبرى ٢/٤٩٥ والخطط التوفيقية ١٤/١٠٩ وكتاب الشعراي والتصوف الإسلامي لطفه عبد الباقي سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي قُتِّبَ به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذي تحيرت في عظمته ألبابُ العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه ، افتحْ لنا فتحة صَمَدَاتِيَا وَعِلْمًا رِبَانِيَا ، وَتَجَلِّيَا رِحَانِيَا ، وَفَيْضًا إِحْسَانِيَا .  
وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقدمتهم الشيخ الحففي شيخ الجامع الأزهر وهو ملتحق أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري .

### أبو الحسن <sup>(١)</sup> الشاذلي

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غمارة بالقرب من سيّنة في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبَّ على العلوم الاسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحسَّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَةَ طَرِيقَةِ الصُوفِي الْمَغْرِبِي أَبِي مَدِين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفي رفاعي هو أبو الفتح الواسطي ، وكأنا كان باب سلوكه الصوفي . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدق أن تعرف في فاس على صوفي هو عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذة إماما وشيخًا ، وقد دفعه دفعًا إلى أن يعيش للتصوف ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أَدْمِنِ عَلَى الشَّرْبِ وَالْحَبَّةِ وَكَأْسِهِمَا مَعَ السُّكْرِ وَالصُّحُو ، كَلِمَا أَقْفَتِ أَوْ تَبَقَّظْتَ شَرِبْتَ ، حَتَّى يَكُونَ سَكْرُكَ بِهِ ، وَحَتَّى تَغِيْبَ بِجِالِهِ عَنِ الْحَبَّةِ وَعَنِ الشَّرْبِ وَالشَّرَابِ وَالْكَأْسِ ، بِمَا يَبْدُو لَكَ مِنْ نُورِ جِالِهِ ، وَقَدَسَ كَمَا لَهُ وَجَلَالُهُ » . ولم يلبث شيخه أن أمره

الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب في التراث الصوفي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٥٠ .

(١) راجع ترجمة الشاذلي في كتاب « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن » وحسن المحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهيمان ص ٣١٣ والشعراني في الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلمية في الآثار الشاذلية لابن عياد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

بالمهجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلي وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرّف بتلميذه أبي العباس المرسي وتوثقت الصلة بينهما في الله ومحبه حتى قال له الشاذلي يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلي وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافي الإسكندرية وحدها ، بل أيضا في القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه في الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفي القاهرة والمدن المصرية ، فانهال المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفي هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبي العباس المرسي منذ لقائه به فأعلن في أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهي تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطني الصوفي .

وهاجم الشاذلي بقوة حياة الخانقاهات والتسول التي كان يعيشها الدراويش الرُحَل ، فعنده أن الصوفي الحقيقي لا يكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لا بد أن يعتمد على نفسه في كسب قوته ، فتصوّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث في موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماء الكبار من مثل العزبن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحيي الدين بن سراقه وغيرهم من جلة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور في الكلام والخطابة على أبي الحسن ، فنكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانهر الشيخ العزبن عد السلام ، فقام هاتفا منبرها قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . وأنزل الجيش المصري بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلي إلى الاسكندرية والعلماء والناس يكتبون عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعالجه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفي صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحسّ بدنوا أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه في أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرفاً أزمته كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها في كتابه لطائف المنن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجي ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفر لي إنك على كل شيء قدير . يارزاق يا قوى يا عزيز ! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأولياك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفصلك في ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيما من أرواحنا ، ومسخرا من أنفسنا (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) . »

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قيما ، ونسألك العافية من كل بليّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس .

والمناجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن ينقره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال في الورد يتمنى أن يبه الله رضاه وحبّه وأن يدفعه عن كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعز الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم في العبادة والتسك وأن يلبسوا الخرق والمرقعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم في التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا في الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على

الاجتماع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان الوفائية والخلوتية .

### ابن عطاء <sup>(١)</sup> الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي . وكان في أول أمره منصرفا عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس المرسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأجذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفي سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيها كبيرا ، كما كان صوفيا شاذليا لسيئا ، فجلس مجلس أستاذه يدرّس للناس الفقه والتفسير ويعظهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكب عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثرت أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائما مبدأها الأساسي وهو أن الصوفي الحقيقي من يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون للناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسدّون به رمقهم

(١٣٥١ هـ .) ص ٧٠ والواق ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابا عنه للدكتور التفازاني وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشمراني ١٤/٢ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة



فليسوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويجني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه » وألف في مناقب شيخه أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبوع . ويقول الذهبي : « كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يخطر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق . وصنف ابن عطاء الله « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن والتنوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأتقي ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح <sup>(١)</sup> الفلاح ومصباح الأرواح . ووضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتب صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دونها أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضوع . وتوفي بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة <sup>(٢)</sup> آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه خلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامه

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبوياً فتتوالى سيول القول ، من ذلك ماجاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، من له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم ، وأخذ أهل الباطن ( الصوفية ) منه باطنهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحته على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه » .

(٢) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقى فيه أحيانا بعض مواظبه

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بجملة الله على الإطلاق للشرفاني ( طبع المطبعة الميمنية )

وتكثر عنده مثل هذه التفريعات والتوليدات في الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب ، مع التنوع الدائم في الأفكار وتشعبها شعبا وفروعا لاتكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بال تكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

« كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟

يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟ «  
والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهِر الكائنات جميعا وموجدها ،  
وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها عرفته وسببته ، وإن وجوده  
الأبدى أزليّ ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ،  
أقرب إليه من جَبَلِ الوَريد . ويا عجباً كيف يحجبه الفاني الحادث ، وهو القديم الأزلي ، وهو يُسْتَرُّ  
في العرْضِ وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله في أثناء وعظه عن  
الشكر ، فأجابه توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : « شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر

اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : ( وأما بنعمة ربك فحدث ) . وشكر الأركان : العمل

بطاعة الله قال تعالى : ( اعملوا آل داود شكرا ) . وشكر الجنان : الاعتراف بأن الله وحده هو

المنعم قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله ) . وسأله لاجين : ما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟

فقال : إذا كان ذا علم فيالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالهدل والإيثار للعباد ، وإذا كان

ذاجاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد . « وبخى مقاله الشمراني من أن لكلامه حلالة

وجلالة .

أحمد <sup>(١)</sup> الدردير

هو أحمد بن محمد العدوي المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد بينى عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبّ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مرّ بنا - عن طريق الشيخ الخلقوى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا غافيا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كريم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحفنى وشيوخه بعامّة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فى شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعيدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعيّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوتية الصوفية .

وعدّد الجيرقى فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على ورّد الشيخ كريم الدين الخلقوى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلّي عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات <sup>(٢)</sup> والصلوات ، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، وما يقول فى مسبعاته داعيا ربه متبتلا إليه .

« اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شاة الأعداء .

الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ١٣

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجيرقى ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد

وَعْضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وُجْءة النعمة .

اللهم إني أعوذ بك من شر الخَلْق وهم الرُّزْق ، وسوء الخَلْق .

اللهم إني أعوذ بك من الزَّيْغ والجرع ، وأعوذ بك من الطمع في غير مطعم .

ويظل يستعيد من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يظلم أو يُظلم أو يُبغى على إنسان أو يُبغى عليه ذو سلطان أو يُطغى أو يُطغى عليه . ويستعيد من الشرك الظاهر والخبئ ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائما في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودنياه .

ونتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مر بنا حديث

عنها عند البوصيري ، إذ يقول :

« اللهم اجعل أفضل صلواتك أبداً ، وأتمى بركتك سرّمدًا ، وأزكى تحمّياتك فضلا وعددا ،

على أشرف الخلائق الإنسانية ، وجمع الحقائق الإيمانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجان لسان

القدم .. وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .

اللهم صلّ على مَنْ مِنْهُ انشَقَّت الأسرار ، وانفلقَت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلت

علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدرکه مناسبق ولا لاحق ، فرياض الملكوت

بزهَر جماله موفقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .

اللهم صلّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار .

ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال . »

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدي وأن وجود الكائنات مستعار

منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود

العلوى والسفلى وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئي في كل نور ،

ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعني أزلية النور المحمدي أو قل أزلية الحقيقة

المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع

الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد واسلّم بنا طريق الرشاد .

وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد واخلع علينا خلع الرضوان والوداد ،

وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وتوجنا بتاج القبول بين العباد .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَأَرَأَيْتَ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِجَبِيهِ يَوْمَ التَّنَادِ (١) «  
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكان الدردير يستمد من معين  
لا ينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعذوبة .

٥

## كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

### (١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التي تروّج عن النفس أو  
التي يُقصدُ بها إلى غرض خلقي نبيل ، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم  
أو قاض أو نجيل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في  
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة  
الثانية .

### كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد (٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن  
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،  
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكبه في ديوانها ،  
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروي أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب  
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلم الأوائل . ورزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله  
ليعمل كاتباً في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه وليس ذلك  
فحسب ، فإنه وصله بعلم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في  
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتاباً في الأقواس

(١) يوم التناد : يوم القيامة واستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (قسم الفسطاط)

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥ كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه . وكتاب  
المكافأة طبع مرارا .

(١) يوم التناد : يوم القيامة

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥ كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه . وكتاب  
تاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوزني) ص ٧٨

المثالثة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثمرة في الفلك لبطليموس . وقد توفي سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسنان تسمير أموالها في التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رآياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذي جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل بمثله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوئهم وشهرهم لما يجران من أوحم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهي تصور حسن العقبي وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لاتزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصّلتني على الباب أي لحقني - اعتذرت إليه من تقصيري في حقه - امرأة تطلق (أي أصابها المخاض) - ست (أي سيدة) - امرأة مقربة (أي قربت ولادتها). واستخدم قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزء ماقد متيه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتهاو على صيباني حلواء في العيد » والفصيح أن يقال « اشتهى على صيباني » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نضع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبي في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

## أخبار سيويه المصرى

ألف هذا الكتاب ابن<sup>(١)</sup> زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له فى الدراسة هو محمد<sup>(٢)</sup> بن موسى الكندى المعروف باسم سيويه المصرى ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقهاء وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متسككا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ فى ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه فى الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه فى المجالس العامة والمساجد والمتزهات . وما زال هذا دأبه حتى توفى سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب فى خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبلا على كتاب الكندى : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب فى سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد فى قسم القسطنطين من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق فى كتابه أخبار سيويه مشاهد مختلفة لنقد سيويه للحكام وللناس فى عصره ممزوجا بشيء من التباه ، ولم يكن يتقدأ ويذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزرع وينهر بالفاظ غير قبيحة ولكنها تحز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب فى موكب لصلاة الجمعة ، تصدى له يوما فى أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سلطت عليهم قاصفة (يوم ترجف الرأجفة تتبعها الرأدفة) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفرع ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسمن البدين ، قطع الله منه الوتين<sup>(٣)</sup> ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قبل الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمر يجتته القلاة » .

(٢) راجع فى سيويه المصرى معجم الأدباء ١٩/٦١

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر فى ابن زولاق معجم الأدباء ٧/٢٢٥ وابن

خلكان ٢/٩١ ولسان الميزان لابن حجر ٢/١٩١ حيث يقول

إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

وكان سيبويه المصرى يستخدم السجع دائما في نقده أوقل في هجائه للحكام ، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو ما مر بنا آنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء في أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ما كان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمته فيضحكون ويفرقون في الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقربه ويخالسه أملا في أن لا يكونهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير في موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتابه ، ولفق أصحابه ، وحشد بين يديه حجابيه ، وشمر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طرُق فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرق فخرج لهذا الأمر ينكره ؟ » . ومع أن سيبويه كان يصوغ نوادره في هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا في مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والفصحى فلقطت ما بين يديه . وكان أسلافنا سبقونا إلى ذلك في لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

### كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن ممانى الذى مرت ترجمته ، وقد قصَّ فيه طائفة من النوادر نسبها إلى قراقوش <sup>(١)</sup> التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وقوض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر في طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحمق ، فانتهز ابن ممانى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر في أحكامه جمعها في كتابه « الفاشوش » <sup>(٢)</sup> في حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : في الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما قوضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قسا في تسخير المصريين في بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن ممانى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إننى لما رأيت عقيل بهاء الدين قراقوش حُرمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمَّة ، لا يقتدى بعالم ،

(٢) راجع في تحليل هذا الكتاب مقالا لنا في مجلة الكاتب

المصرى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١ -

(١) انظر في قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة

١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤



ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولا يبتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يردّ كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . ويأخذ ابن ممانى فى سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمّ بجسها لولا أن شفعت فيها جاريتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ ضرخ فى الرجلين قائلا : إنها اللذان اعتديا عليه بتف لحيته ، وصاح فى غلماه أن يزجوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبت الشعر فى ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءته بجداد له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشقه فقيل له إنه حدادك الذى يتعلّ لك الفرس ، فنظر أمامه أباه فرأى رجلا قفاصا فقال : « اشتقوا القفاص وسيبوا ( اتركوا ) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممانى قراقوش متصرفا فى القضايا بحمق مابعده حمق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يضع فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية تُنفث ، أو قل يدخل جانبا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يبرأ ويرى يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممانى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسع فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ما فى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن ممانى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحقق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحمقى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من الغجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأي الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

### هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشريفي يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والضعف والجهل في قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادير فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتخذ من الفول يسمى اليسار والمش العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الريفى صاحب القصيدة إنذ لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعزتين وحصه في ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادير لاذعة تحمل في أطواها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسوآته .

### ( ب ) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت في مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة ليوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومرّ بنا في الحديث عن كتابة التاريخ في الفصل الثانى بيان لبعض ما كتب في السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة في ميلاد الرسول ﷺ وما اقترن به من خوارق وحياته وما رافقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتي تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة في الكوميديا الإلهية (٢) ويجانب هذا القصص الدينى الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر في تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا في مجلة

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لبالنشيا ترجمة الدكتور

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين .  
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألفت في مصر - أو أخذت بها شكلها  
النهائي - وهي سيرة عنتره والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة .

### سيرة (١) عنتره

أساس هذه السيرة أخبار عنتره في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أبناء فروسيته  
وحبه لبعلة ابنة عمه . ويتحول عنتره في السيرة بطلا عظيما للمحمة عريية تمتد فيها بطولاته من  
العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية في أول كتاب منية  
النفس في أشعار عنتره عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي  
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة في قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار  
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها ، فألف لهم  
سيرة عنتره وشُغفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع  
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري ، وحتى أصبحت في اثنين  
وثلاثين جزءا ، وهي منشورة في أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنتره في الزمان فحسب ، بل  
تمتد أيضا في المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنتره العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام  
وجنوب أوربا وشمال إفريقيا والحيشة والسودان . وهي موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من  
قديم أن ينشدوها الناس على الرابة في حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا  
من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقطع الكلام في كل جزء من أجزائها  
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه . وهكذا حتى نهايتها .  
وتتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بنى عبس قبيلة البطل ، وتعرض  
السيرة مولد عنتره وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمائه لقييلته ضد القبائل المنافسة  
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببعلة من أعمال شديدة الخطر جسّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر في سيرة عنتره وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

ويصبح عنتره حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا في السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنتره من أميرة إفريقية وإنجابه منها الجوفران وربما كان تحريفا لجودفرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنتره في السيرة تسع لانتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشي ، وعرف عنتره أنه جد أمه زيبية . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصرية بتاريخ العرب في الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب في الإسلام وقضائهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائيرهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثلها عنتره أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائلها النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام وروى وأساطير وخوارق عجيبة .

### السيرة (١) الملالية

تروم هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسليم ورياح وعدى وربيعة والأنجب إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمالى إفريقيا ومن كان بهذه الاقليم من الصنهاجين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

لللهالية والزناية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا فى للسيرة الملالية لعبد الحميد يونس .

(١) انظر فى السيرة الملالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث يروى بها أنشطاراً

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطي . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمي في عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها في المستقبل . وحانت الفرصة لذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكي السنى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة في تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ماتحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يمتلكونه من بلاد المغرب وسرعان ما لبته جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت في سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغة في سنة ٤٤٦ طرابلس ، واتجهت هلال ورياح والأبيج وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتبنى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعص الإمارات بينا تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها في الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها في هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبّت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاصّ للسيرة أو قصاصها استغلّوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هي الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتوح (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأثره على عشيقها ، وزوّجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أوبيا في نجد ، حتى إذا قلمت معهم

مضوا مع أيها في الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زُوجها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبا له . وهي قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بني هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بني هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلائهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سُمِّي القصاص بطلها أبازيد الهلالي وسموا خصمه في قبيلة زناتة : الزناني خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجي ، كما غاب زعيم القبائل يحيى الرياحي وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العريين الخياليين : أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبي . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها أُلِّفت في القرن السابع الهجري أو بعده في القرن الثامن وهي مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشدا على ربابة في المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالي أبو زيد الهلالي وأبناء أخته يحيى ومرعى ويونس وفي تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التفرية وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناني خليفة من دخولها وتَفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبي زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبي ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناني خليفة ويتأمر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهي تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup>

كان طبيعياً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقاً إلى شمالي العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحه المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحزماً وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التتار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكان للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدُّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلّف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عربي يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الدينارى وكاتم السراى كاتب السروناتر الجيش والصاحب والدويدارى ( تحريف للدودارى ) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتنداخل في السيرة قصص طويلة كقصّة إبراهيم الحوراني ورحلته إلى روما . وتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وما عهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأبيك وقطرز . وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيلاتهم منذ زعيمهم الحسن الصباح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيبه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربه قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف الإسلامية ،

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتخفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجري .

### سيرة (١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهي تصور الصراع بين العرب والأحباش في أواخر العصر الجاهلي . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهي في ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن في سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة في التاريخ القومي العربي ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية . وتحمل السيرة سيف بن ذى يزن حنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألفت بمصر في القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

### ألف (٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم في كتابه « الفهرست » : من كتب الأسمار والخزافات التي نقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندي . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، ولا يعرف بالضبط متى أُضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أُريد بها أن يحوى ليالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب في بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة . وتمييز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائي وإبراهيم المهدي . ويشيع في الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكرهه وتدينه البالغ وجهه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

(١) راجع في هذه السيرة وما بها من تأثيرات مصرية مقال

ياريه عنها في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر في ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات في



القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزبيق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصوّر حياتهم فى الأسواق والحمامات وما يغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويذ . ونلتقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصلح العجيب وأيضا حكاية مريم الزنارية وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب . وأهم من كل ما سبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى صاغته بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ القرن الثامن الهجرى ، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامية السِّير الشعبية: سِير عنتره والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن . وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم . وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرف فى عصرنا، وهو - كما قلنا - تعرف قديم .

## خاتمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بمصر في عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربي من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية. وأوضح كيف أن قبض مصر رحبوا بالعرب لما كفلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص، وتعاقب الولاة عليها في زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز برفعها عن كواهلهم. وتتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث ولها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر في عهدا استقلالها، وبالمثل في عهد الدولة الإخشيدية. وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاها الدولة الفاطمية الإسماعيلية، ويظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيون الشام، ويؤسسون دولة لهم في بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبي، وينازل حملة الصليب ويسحق جموعهم سحقا في حطين وغير حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية في ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم الماليك فيسحقون جموع المغول في عين جالوت سحقا ذريعا، ويطردون حملة الصليب نهائيا من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولى العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعا لسكان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيهارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح ثراؤها الضخم للدولة الفاطمية حياة مترفة بالغة الترف كما أتاح لصلاح الدين أن يعد جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة. وأيضا فإنه بنى بالقاهرة قلعته المشهورة ومارستانا كبيرا سوى ما شيد من المدارس. وتزدهر الحياة

بمصر لعهد المالك وتتكاثر الأعياد بها تكاثراً واسعاً وتوسع موجات الغناء وفنون اللهو والتسلية، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً عاماً. وألمت بعد عرض المجتمع في مصر للدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألمت بالزهدي وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصري التصوف الإسلامي ومبادئه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفي يمثل ابن الفارض واتجاه سُني شعبي تمثله الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي، وقد تعددت فروعها لعهد المالك تعدداً واسعاً، حتى بلغت أحد عشر فرعاً، ومن أهمها الطريقتان: الوفاية والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدت دوراً عالمياً عظيماً في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهراماتها الشاهقة تمثل هذا الدور تمثيلاً باهراً، ويدين لها العلم بمعناه العالمي ديناً كبيراً بما أدت له في الهندسة والمعمار والطب والرياضة، وتظل جذوتها العلمية متقدمة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها في عهد البطالمة إذ لم تلبث في أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضواءها في الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضي على دخولها في الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضوائها وشررها إلى العالم العربي، على نحو ما هو معروف عن ابنها ورث وحمل المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءة الشائعة في المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتتلمذوا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكي في الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعي ويعني تلامذته المصريون بمذهبه الفقهى والمحاضرة فيه، ويأخذونه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه في بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم - لأول مرة - تاريخ الفتوح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة، ويحملها المؤرخون لها في العالم العربي جميعه مغرباً وغير مغرب.

ويعني حكام مصر - منذ عهد ابن طولون - بالحركة العلمية وإثرائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: «دار العلم» كما يبنون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية

كبرى إلى اليوم، وينشئ بها صلاح الدين الأيوبي خمس مدارس، ويتبارى خلفاؤه الأيوبيون والمماليك في إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذى زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بحصرها لكثرتها، وكانت المساجد والجوامع - وخاصة الجامع الأزهر - تنافس المدارس في هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذًا لعلماء العالم العربى غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء النورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمدن إيران والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفي كل مجال يلقانا علماءها في الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا، وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والتقد منذ ابن وكيع التنيسى في القرن الرابع الهجرى، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقهاء بمختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام، ويُؤرِّخ لكل علمائها الأعلام في العلوم جميعا تأريحا دقيقا. وتتشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا في السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر في التعرب منذ الفتح الإسلامى، ويدخل كثير من أبنائها في الدين الخفيف، وحتى القبط أو - بعبارة أدق - جميع من بقى منهم على دينه المسيحى يأخذون في التعرب ويتم تعريبهم في القرن الثالث الهجرى. ويتصل نشاط الشعر في مصر، ويظل محدودا زمن بنى أمية، وزارها في أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر في زمن ولاة العباسيين أو يأخذ في النشاط، ويصبح لها شعراء نابهن مثل المعلّى الطائى، وينزلها أبو نواس لمديح الخصب والى الحجاج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها فى النصف الأول من القرن الثالث ذو النون المصرى الإخيمى مؤسس التصوف، ويشتهر بها فى بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا فى عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت فى أواخر القرن الثالث بكأها منهم كثيرون حتى ليقول المقرئى إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد،

ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبى ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعر بها نشيطا في عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه لما توفى ابن كلّس وزير المعز وابنه العزيز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزرائهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهجون بالثناء عليهم، ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمى الرشيد بن الزبير كتابا في شعراء مصر سباه: «جنان الجنان ورياض الأذهان» سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها في القرن السادس الهجرى العباد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي بمجلدين في كتابه الخريدة، ترجم فيها نحو مائة وأربعين شاعرا، ويفد عليها في أواخر أيام الدولة الأيوبية على بن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب ويخصها هي وشعراءها وكتّابها وحكّامها ووزراءها وقضاها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقي منها القسمان الحاصان بالفسطاط والقاهرة، وحققا ونُشرا. وتظل كتب التراجم في عصر الماليك تترجم لكثيرين من الشعراء النابهين بمصر. وتألقت حينئذ أسماء كثيرين منهم ونُشرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء في العهدين الفاطمى والأيوبي. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجى في القرن الحادى عشر الهجرى يؤلف كتابا في شعراء زمانه سباه: «ريحانة الألبا» خص مصر بالقسم الثالث منه، وملتقى بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجى في كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرقى.

ويكثر الشعر الدورى بمصر وتكثر مزدوجاته ومسمّطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها في أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك في أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الخليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربى على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز». وقد ألقى بدراسته له في الكتاب أربعا وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتبعها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعد هذا الفن الأندلسى للذويع والانتشار، فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائعة،

ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوى فى كتابه «سجح الورق المنتخبة فى جمع الموشحات المنتخبة» ينشد له أربعا وثلاثين موشحة. وترجمت لوشاحين مصريين كبيرين هما العزازى وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة فى أذكاهم، ولعل بن وفاشيخ الطريقة الوفائية فى أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويكثر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له فى طريقة استخدامه لها وفى إكثاره من التورية مدرسة يتكاثر أتباعها فى أيام الدولتين الأيوبية والملوكية بمصر والشام.

ويكثر شعر المديح، ويظل يجرى على ألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أظل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء فى مديح أحمد بن طولون وفى مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذى مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة المرمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه. ويشتهر بعده فى زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبي فى اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المتنبي حين مقامه فى القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجرى ويكثر شعراؤه النابون، وقد ترجمت خمسة منهم عارضا روائع مدائخهم، وهم المهذب بن الزهير شاعر طلائع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلاص الشاعر الاسكندرى المادح لشاور الوزير الفاطمى والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريقة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكى حسن، ويتميز بلغة سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الأزهر فى أيام العثمانيين وله مدائح كثيرة فى ولاتهم.

وينشط الرثاء فى مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة، وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند على بن النضر الشاعر الفاطمى ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند على بن عرام شاعر أسوان، وله مرثية

بهديمة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والخسف ومن العوز والبؤس، وعبداه الإدكاوي أيام العثمانيين، وله مرثية يرثى فيها نفسه ويبيكها وقد حملهُ النُعثُ إلى مثواه. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا في مديح خلفائهم غلوا مقيتا، إذ جعلوهم فوق البشر والبشرية مسبغين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هاني الأندلسي، وتموج أشعاره في المعز الفاطمي بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخر ملكته الشعرية في مديح المعز بصفات إلهية قدسية، بهتان ما بعده بهتان. وعلى شاكلته المؤيد في الدين الشيرازي إذ يجعل الخلفاء الفاطميين في مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ عليهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصري من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هاني - الذي صرح في بعض مديحه للأمر بأنه يحاول محاكاته - بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمي وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هاني والمؤيد الشيرازي في إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يُعد شذوذا على المصريين في أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آباؤهم سُنين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقدما لا تخبو ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويموج شعر كثيرين يوجد لا حدود له على نحو ما يلاحظ في غزل ابن سناء الملك، ويعم الغزل الوجداني بعض أشعار الغزلين، وكأنما يتأثرون فيه الغزل الصوفي الملتاع المعاصر لهم، ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجداني رفيع، مما دفع المغنين إلى التغنى به لا في مصر وحدها بل أيضا في كثير من ديار العرب، وتغنت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجداني المكتظ باللهفة واللوعة والركة واللطف. ولا يقل عنه في الغزل الوجداني روعة البهاء زهير، وكأنما انطبع الوجد الصوفي وأشواقه في أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلتبس عند الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذي يقطر رقة ودمائه وظرفا. ولبرهان الدين القيراطي غزل وجداني كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التي يذوب

فيها المخب لوعة وهياما، وتلتقى في أيام العثمانيين بالعسيلي وما يتميز به غزله من رهافة الحس ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره : الفخر بالأخلاق النبيلة وبالأس والشجاعة، ولا ين سناء الملك فيه منظومة رائعة جسّد فيها روحا قوية عاتية: روح بطولة صلاح الدين وجيشه. المصرى الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتنكيل لا يماثله تنكيل. ومن قديم يسيل الهجاء في السنة الشعراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعاية. وتلتقى في الفخر بتميم بن المعز الفاطمي المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطرا بشرر كثير وجهه إلى ابن المعز الشاعر العباسي وأسرته العباسية، ولطلّاح بن رزّيك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذرّوى من كبار الهجائين، وله أهجية في أحدب مليئة بالسخرية الموجعة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي، وكان يكثر من هجائه للناس حتى القضاة وعلماؤ الدين، وعلى شاكلته حسن البدرى الحجازي إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويتعمق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المريمي شاعر خمارويه، وتكثر مجالس الأُنس واللّهو والغناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف في أشعاره بالطبيعة والخمر، والشريف العقيلي شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشغف بوصف الخمر، ومثله عبد الباقي الإسحاقى أيام العثمانيين. وعُرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصرى - كما مرّ بنا - قد وضع أسس التصوف الإسلامى في القرن الثالث الهجرى، غير أنه لم يزهده بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ يتضح فيه - كما مرّ بنا - اتجاهان: اتجاه فلسفى مثله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سنى مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية، ومن أتباعها الشعراء أبو العباس المرسى، وقد ترجمت قبله لابن الكيزانى الصوفى المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت التزّاد في ابن الفارض ومجاهداته الروحية وعشقه الربانى، وفنائه وانمحاته في الذات الإلهية إنحاء كليا.



وكان الشعراء المصريون يتغنون بمدح الرسول ﷺ من قديم، وأخذ هذا المدح يزدهر في زمن الحروب الصليبية وأكبر ملاح مصرى للرسول البوصيرى ويشتهر بمدحه النبوية المسماة بالهمزية، وربما فاقتها روعة ميمته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان بتشدان - إلى اليوم - في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى. وولتقى في العصر العثماني بمحمد بن أبى الحسن البكرى، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعة له يوم القيامة. وألمت بشعراء الفكاهة وعرضت في ترجمات ابن مكسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دانيال مسرحياته الفكاهة وخاصة مسرحية «طيف الخيال» وهى عمل تمثيلى بديع. وألمت بعامر الأنبوطى في أيام العثمانيين ومعارضته الفكاهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبى وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعمار وتورياته المستملحة، والغبارى وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء في وصفه لزوجته ليلة الدخلة أو في رثائه لأمه أو في حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعاً يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق في الضحك.

وينهض النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين في عهد الفاطميين ابن الصيرفى، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعة. وولتقى بالقاضى الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية في أيام الأيوبيين والمماليك، وهى تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب في أيام المماليك محمى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى، وتطبع كتابتهما الديوانية بطوابع كتابة القاضى الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابة الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، ومن أهمهم ابن أبى الشخياء في زمن الفاطميين، وسجعاته خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ ورسائنه. ولابن ممانى كاتب الدواوين في عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظر وحسن التعليل. ويتميز ابن مكانس في أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريات والجناسات البديعة مع خفة الروح والعدوبة والسلاسة..

ويعنى غير كاتب بصنع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحاذة الأدبية المعروفة في مقامات الهمذاني والحريري، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصى أو على وعظ، ومن نلتقى بهم فيها ابن أبي حجلة المغربي، وله مقامة بديعة في وصف فيضان النيل، والقلقشندى وله مقامة في وصف صناعة الإنشاء وتقريظ صاحب ديوانها، وأخرى في المفاضلة بين العلوم، والسيوطى وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين العطور، والشهاب الخفاجى أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية في وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم متصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختتمها بمديح السلطان العثمانى. وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمت في عَرْضها لأبى الحسن الشاذلى إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندرى وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرضت كتب النوادر والسير الشعبية بادئا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سيبويه المصرى، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السموم. وتحدثت عن كتاب الفاشوس في حكم قراقوش لابن مماتى، وكتاب هز القحوف ليوسف الشربيني وما يحملان في نوادرهما من مسخرية لازعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنتره والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وعن ألف ليلة وليلة.

# الفهرس

صفحة	
١٢ - ٥	مقدمة .....
٦٨ - ١٣	الفصل الأول : السياسة والمجتمع .....
١٣	١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى .....
	( أ ) فتح العرب لمصر
	( ب ) زمن الولاة
	( جـ ) الطولونيون
	( د ) الإخشيديون
٢١	٢ - الفاطميون - الأيوبيون .....
	( أ ) الفاطميون
	( ب ) الأيوبيون ( صلاح الدين )
٣٤	٣ - المماليك - العثمانيون .....
	( أ ) المماليك
	( ب ) العثمانيون
٤٤	٤ - المجتمع .....
٥٦	٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية .....
٦٠	٦ - الزهد والتصوف .....
١٦٠ - ٦٩	الفصل الثاني : الثقافة .....
٦٩	١ - الحركة العلمية .....
٨٨	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا .....
	( أ ) علوم الأوائل
	( ب ) علم الجغرافيا
١٠٨	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد .....

## صفحة

- ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ..... ١٢٨
- ٥ - التاريخ ..... ١٥١
- الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء ..... ١٦١ - ٢٥٦
- ١ - تعرب مصر ..... ١٦١
- ٢ - كثرة الشعراء ..... ١٦٦
- ٣ - شعر دوري ورباعيات وموشحات وبديعيات ..... ١٧٢
- ( أ ) الشعر الدوري
- ( ب ) الرباعيات
- ( ج ) الموشحات : العزازی . ابن الوكيل
- ( د ) البديعيات
- ٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزبير، ابن قلاقس، ابن سناء  
الملك ، ابن نباتة ، عبد الله الشبراوی ..... ١٨٥
- ٥ - شعراء المراثي والشكوى ..... ٢١٩
- على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور .  
عبد الله الإدكاوی
- ٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية ..... ٢٣٩
- ابن هاني . المؤيد في الدين الشيرازي . ظافر الحداد .
- الفصل الرابع : طوائف من الشعراء ..... ٢٥٧ - ٣٩٩
- ١ - شعراء الغزل ..... ٢٥٧
- ابن النبيه . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطي .  
نور الدين علي العسيلي .
- ٢ - شعراء الفخر والهجاء ..... ٢٩٧
- تيم بن المعز . طلائع بن رزّيك . ابن الذروري . أحمد بن  
عبد الدائم . حسن البدری الحجازی
- ٣ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ..... ٣٢٢
- ابن وكيع التنيسي . الشريف العقيلي . ابن قادوس . عبد الباقي  
الإسحاقی

- ٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ..... ٣٤٢  
ابن الكيزاني . ابن الفارض . البوصيري . محمد بن أبي الحسن  
البكري
- ٥ - شعراء الفكاهة ..... ٣٦٧  
ابن مكنسة . الجزار . السراج الوراق . ابن دانيال . عامر  
الأنبوطي
- ٦ - شعراء شعبيون ..... ٣٨٦  
إبراهيم العمار . الغباري . ابن سودون
- الفصل الخامس : النثر وكتابه ..... ٤٠٠ - ٤٨٩
- ١ - الرسائل الديوانية : ابن الصيرفي . القاضي الفاضل . محيي  
الدين بن عبد الظاهر . ابن فضل الله العمري ..... ٤٠٠
- ٢ - الرسائل الشخصية ..... ٤٢٤  
ابن أبي الشخباء . ابن مماتي . فخر الدين بن مكاس
- ٣ - المقامات ..... ٤٤٢  
ابن أبي حجلة . القلقشندي . السيوطي . الشهاب الخفاجي
- ٤ - المواعظ والابتهالات ..... ٤٦٠  
أبو الحسن الشاذلي . ابن عطاء الله السكندري . أحمد الدردير
- ٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية ..... ٤٧٧  
(١) كتب النوادر  
كتاب المكافأة . أخبار سيويه المصري . كتاب  
الفاشوش في حكم قراقوش . هز القحوف .
- (ب) كتب السير والقصص الشعبية  
سيرة عنتره . السيرة الملالية . سيرة الظاهر بيبرس . سيرة سيف  
ابن ذي يزن . ألف ليلة وليلة
- خاتمة ..... ٤٩٠ - ٤٩٨

تاريخ  
الأدب  
العربي

دكتور شوقي ضيف

عصر  
الدول والإمارات  
الأندلس



دار المعارف

تاريخ  
الأدب العربي

عصر  
الدول والإمارات  
الأندلس

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف



دارالمعارف





عصر  
الدول والإمارات  
الآنندلس

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات ويشتمل على خمسة فصول، وأنها يتناول تاريخها السياسي منذ فتح العرب لديارها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م إلى خروجهم منها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م مع عرض لتكوين مجتمعتها وظواهره وما تسرب إليه من تشيع وسرى فيه من زهد وتصوف. ويوضح الفصل كيف أن أسس الحضارة الأندلسية تكاملت منذ عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م - ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) وكانت قد استقرت منها ثلاثة أسس قبله، هي أسس الدين الحنيف والعربية والعلوم بشعبها اللغوية والدينية، وضمَّ عبد الرحمن الأوسط إلى هذه الشعب شعبة علوم الأوائل من الرياضيات وغير الرياضيات، وأرسى في تلك الحضارة قواعدها المادية عن طريقين: طريق زاوله بنفسه، إذ شغف باقتناء أدوات الترف والتحف المشرقية، وجاراه الأندلسيون في هذا الشغف، وطريق زاوله مغنيه زرياب تلميذ إسحق الموصلي الوافد على قرطبة في أول عهد عبد الرحمن إذ سنَّ للمجتمع الأندلسي سنناً ظلت راسخة فيه، سنناً عمت المأكل والملبس وما يتصل بها من هيئة الأندلسيين رجالاً ونساءً وما يتخذون من صور التزين. وأرسي عبد الرحمن قواعد الحكم متخذاً له مجلس وزراء يدير شئون الدولة ومصالح الرعية على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة. وقد استطاع زرياب إرساء أسس فنية قومية لنهضة موسيقية رائعة كان لها - فيما بعد - تأثير واسع في الموسيقى الإسبانية والأوربية. وحظيت المرأة في هذا المجتمع الأندلسي بمكانة رفيعة لم تحظ بها أختها المشرقية.

ويوضح الفصل الثاني كيف أن إيبيريا - قبل الفتح العربي - لم يكن لها دور حضارى بارز في الحضارة العالمية، والعرب هم الذين أتاحوا لها - حين استوطنوها - أن تنهض بدور عظيم في هذا المضمار، ويعرض الفصل نشوء الحركة العلمية الأندلسية

وتطورها على مر العصور العربية هناك وإسهام المرأة الأندلسية فيها وما أضافه علماء الأندلس في مختلف العلوم الرياضية وغير الرياضية من مثل البَطْرُوجِي وهو - لاكبلر (Kepler) الألماني - الأب الحقيقي لعلم الفلك الحديث، ومثله الزهراوى في الجراحة العالمية وعبد الملك بن زهر في الطب الإكلينيكي وابن البيطار في الصيدلة. وناهيك بازدهار الفلسفة في الأندلس وتلمذة الغربيين لفلاسفتها وخاصة ابن رشد الذى ظل يُدرّسُ قرونًا متعاقبة في جامعاتهم منذ القرن الرابع عشر الميلادى، وكان أثره العميق في الفكر الأوربي حاسمًا، وخاصة في حركة التحرر والإصلاح الدينى.

وأوضح الحديث عن النشاط اللغوى بالأندلس اكتشاف ابن حزم وابن سيده لعلم فقه اللغة المقارن بين اللغات السامية قبل اكتشاف الغربيين لهذا العلم بقرون عديدة. وتبين في الفصل ما لعلباء مصر من أستاذية لغير عالم أندلسى في اللغة والنحو والتاريخ والقراءات وحمل الأندلسيين فيها لقراءة ورش المصرى، وحملهم لفتاوى عبد الرحمن بن القاسم ونظرائه المصريين في الفقه. وأشار الحديث في الفصل إلى التقاء المبدئين الأساسيين في فلسفة ديكارت بأفكار المعتزلة والمتكلمين، وهما مبدأ الشك في حقائق الأشياء حتى يتضح وجه اليقين، ومبدأ أنا أفكر فأنا موجود، مما يقتضى وجود الخالق رب العالمين.

والفصل الثالث يعرض نشاط الشعر والشعراء، ويستهل بالحديث عن تعرب سكان الأندلس جميعاً: مَنْ أسلم منهم وأبنائهم المولدين ومن ظل على دينه المسيحى ولم يدخل في الإسلام. وتدل على تعرب المسيحيين هناك أقوى دلالة صرخة القس البرو المشهورة التى يتحسّر فيها على إهمال الشبان المسيحيين في إيبيريا للغة آبائهم اللاتينية الدارجة وازدراؤهم لما ألف فيها من كتابات مسيحية، بينما يقبلون في شغف على تعلم العربية واتخاذها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم نثرًا وشعرًا. ويؤكد بالنتى في كتابه تاريخ الفكر الأندلسى تلك الصيحة ويدعم دلالتها بوثائق كنسية لاتينية تحمل قصائد عربية وأيضًا بكتابات لاتينية لنصارى الإسبان - حتى بعد خروج العرب من الجزيرة - على هوامشها شروح وتعليقات باللغة العربية. وفي ذلك ما يؤكد - بوضوح - خطأ نظرية المستشرق الإسباني ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون اللاتينية الدارجة لغة خطاب في حياتهم اليومية، وهم إنما كانوا يستخدمون في تلك الحياة عامية عربية أندلسية، وزعم ريبيرا - خطأ - أن الأزجال الأندلسية نُظمت باللاتينية الدارجة

وهي إنما نظمت بعامية عربية أندلسية أتاحت لها أن تُروى في المشرق وتتداول به وتحاكي فيه، وقد كتب فيها علماء اللغة الأندلسيون - مثل الزبيدي - كتباً مختلفة. وامتازت الأندلس بكثرة الشعراء فيها كثرة مفرطة، ويدل على ذلك وفرة ما وُضع فيهم هناك من كتب، وخاصة كتاب الذخيرة لابن بسام بمجلداته المقصورة على عصر أمراء الطوائف، وقد ترجم لأكثر من مائة شاعر أندلسي في هذا العصر القصير الذي لا يكاد يتجاوز ثمانين عاماً، فما بالنابن وراءهم من الشعراء في قرون الأندلس الثانية. ومن يرجع إلى كتاب نفع الطيب يجد المقرئ يترجم فيه لعشرين شاعرة كن مشهورات، ووراءهن كثيرات لم تكن لهن شهرتهن. ونفذت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعريّ الجُم إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وذهب غير مستشرق إسباني إلى أن هذا الفن نشأ في الأندلس من المزج بين الشعر العربي وبعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الإسبانية الدارجة، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا بها دَعْوَاهم في هذا المزج المزعوم. والصحيح أن الموشحات صورة أندلسية حديثة تطورت عن المسمّطات المشرقية المعروفة في الشعر العربي، وهي تتألف من أدوار، وكل دور فيها يُختمُ بشطر تغاير قافيته قوافي الشطور السابقة له في الدور بينما تتحد مع قوافي جميع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة، وكل ما بين المسمّطات والموشحات من خلاف أن الشطر الأخير المتحد القافية في أدوار المسمّطات تعدد في الموشحات مما يقطع - دون أدنى ريب - بأنها تطورت تطوراً طبيعياً عن المسمّطات. ويؤكد ذلك أن من أنشأوها وطوّروها في الأندلس كانوا من أصول عربية خالصة فقد أنشأها عربي في أواخر القرن الثالث الهجري هو مقدم بن معافي، وطوّرها في القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس عربيان هما يوسف بن هرّون الرمادي الكندي وعبادة بن ماء السماء الخزرجي الأنصاري. وألم هذا الفصل الثالث بكبار الوشاحين وترجم لنفر منهم، كما ألم بالأزجال التي نظمت بالعامية على غرار الموشحات مع الترجمة لناظمها الأندلسي المشهور: ابن قزمان. واستعرض الفصل - بعد ذلك - روائع شعراء المديح في الأندلس على مر العصور مع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وبالمثل استعرض روائع شعر الفخر مع الترجمة لثلاثة منهم وروائع شعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، كما استعرض روائع أصحاب الشعر التعليمي مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعرض الفصل الرابع روائع الأغراض في بقية الشعر الأندلسي مع الترجمة لبعض شعراء الأندلس المبدعين، وأول غرض عرضه الغزل، وفيه تتفوق الأندلس - في رأينا -

على جميع البلدان العربية بما بثت فيه من لوعات وجَد لحب عذرى عفيف ظلت جذوتها تتقد وتوهج في أشعار الغزلين الأندلسيين قرونًا متوالية، وبلغ من توهج تلك اللوعات أن امتد شررها الساطع إلى الأدبين الإسباني والفرنسي وبالتالي إلى الآداب الأوروبية، ويتضح هذا الشرر - بقوة - عند الإسبان في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) وكأنها قصة محب عذرى عربى فتن بمحبوبته حتى جنَّ أو كاد يُجنَّ، وسرفانتس في سطورها الأولى ينسبها إلى عربى حدثه بها، مما يؤكد أنه استلهم فيها أقاصيص الحب العذرى عند الأندلسيين، ونغضى معه في القصة فبرى الحب العنيف يخرج منه دائماً عن طوره إذ يعيش هائماً على وجهه والجنون يصيبه أحياناً وكلما أفاق منه تغنى بحبه مفتوناً بصاحبته مثله الأعلى في الجبال البارع. ويعم شرر هذا الحب عند شعراء التروبادور الفرنسيين في القرن الثاني عشر الميلادى. إذ نراهم مفتونين بمحوباتهم فتنة تدفعهم إلى التذلل لها وتمجيدها لما تستشعره من عفة وجمال مثل قرينتها الأندلسية. وما أثر به الغزل الأندلسى العفيف في هؤلاء الشعراء ترداد ذكرهم للوشاة والرقباء، وأيضاً ظهور القافية في أشعارهم لأول مرة في الشعر الأوروبى. وللمرأة الأندلسية في هذا الغزل العفيف الملتاع مشاركة واضحة، وتغزلت أحياناً في أختها الأندلسية الفاتنة، وكانت لبعضهن ندوات يؤمها بعض الشعراء ورجال الأدب والفكر. وعكس غير شاعر عواطفه في عناصر الطبيعة من حوله، مدوّناً في شعره بدقة مشاعره وروعة تصاويره.

وتحوّل الفصل من الغزل إلى الطبيعة والخمر، وبنوّه البحث دائماً بتفوق الأندلس على البلدان العربية في شعر الطبيعة، لما كان يتملّى به الشاعر من جمال هذا الفردوس بجناته ورياضه وأزهاره ورياحينه وأنهاره وما يجرى فيها أو يتهدى من زوارق تزدان بالشموع ليلاً، وكأن أهل الأندلس كانوا في عُرْسٍ دائم ليلاً ونهاراً. وقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال هذا الفردوس الأرضى وما يسكب في النفوس من سحر يروع القلوب والألباب على نحو ما هو معروف عن ابن خفاجة، وتفجّونا عنده وعند أضرابه من شعراء الطبيعة - بل عند جميع شعراء الأندلس في كل الأغراض الشعرية - صور في منتهى الروعة.

وعرض الفصل - بعد ذلك - رثاء الأفراد وما لشعراء الأندلس من فرائد في التفجع على الأبناء والزوجات والأصدقاء، ويبلغ التأثير بالقارئ مُنتهاه في مراتبهم للشهداء الأبرار في حروب أعدائهم من حَملة الصليب الشماليين، ومن أروعها مرثية لابن الزقاق بكى فيها شاباً استشهد في عنفوان شبابه بعد أن أبلى في حرب أعداء دينه بلاء عظيماً،

ولا تقل عنها روعةً موشحةً على بن حزمون في بكاء بطل بلنسية أبي الحملات قائد الأعتة حين استشهد في معركة ضارية مع حَمَلَة الصليب بعد أن مَرَّق كثيرين منهم تزيقاً. ويتميز ابن وهبون في مرثيته بتأملات عميقة في حقائق الموت والحياة. وبجانب مرثي الأفراد مرث لدول الأندلسية حين تغرب شمسها وتدور عليها الدوائر مثل مرثي ابن اللبانة لدولة المعتمد بن عباد حين استولى يوسف بن تاشفين على إمارته بإشبيلية ونفاه إلى أغمات بالمغرب، ولاين عبدون مرثية طويلة لدولة المتوكل بن الألفطس أمير بطليوس حين فتك به المرابطون على أبواب مدينته، وفيها يسوق ابن عبدون الأمثال من الملوك الغابرة والدول الدائرة وكل ما على الأرض من حيوان كاسر وطيور جارح فإن كل ذلك إلى فناء. وأنشد الفصل خواطر شتى في الزهد وخاصة لأبي إسحق الإليبري كما أنشد خوالج وجدانية متنوعة في التصوف الفلسفي الإسلامي عند ابن عربي وغيره. وتكاثرت المدائح النبوية على لسان كثيرين مثل ابن جابر الوادي آشي. ومنذ سقوط طليطلة في حجرة حَمَلَة الصليب يستصرخ أهل الأندلس المغاربة والعرب لرد عدوانهم، ويكثر هذا الاستصراخ منذ القرن السابع الهجري حين أخذت تسقط المدن الكبرى: قرطبة وأخواتها في حجور النصارى الشماليين على نحو ما هو معروف من استصراخ ابن الأبار وأبي البقاء الرُندي.

والفصل الخامس خاص بالنثر وكتابه، ويبتدىء بعرض روائع الأندلسيين في الرسائل الديوانية مع الترجمة لأهم كتابها الرسميين، وجعلهم جهادهم الدائب للنصارى الشماليين ونزالهم الضارى لهم يكثر في تلك الرسائل من تصوير مواقعهم معهم والتحول بتلك الرسائل أحياناً إلى ما يشبه منشورات حربية تستثير حمية أهل الأندلس والمغرب لسحق أعداء الدين الحنيف سحقا لا يبقى منهم ولا يذر، ومن أروع تلك الرسائل المنشور الذي وجهه أبو محمد بن عبد البر إلى أهل الأندلس لحمل السلاح والأخذ بثأر مدينة «بَرَبَشْتَر» حين نكّل بها النورمانديون ونصارى الشمال على حين غفلة من أهلها سنة ٤٥٦هـ وتوالت مثل هذه الصيحات، ومَرَّق المغيرون شرمزق. ولاين القصيرة رسالة ديوانية بديعة يصور فيها انتصار ابن تاشفين والأندلسيين في موقعة الزلاقة وقد بلغ من كثرة قتلى النصارى فيها أن كان الناس يصنعون من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها. ولاين أبي الخصال منشور حربي ملتهب للحض على خوض معركة حامية الوطيس، ولاين الخطيب تصوير حماسي لمنازلة أمير غرناطة الغنى بالله النصارى في جيان. وحرى بالعرب في كل عصر أن يرفعوا هذه الرسائل الديوانية الأندلسية وما يمثّلها شعارات

لمجدهم الحربى على توالى العصور. وتلى الرسائل الديوانية فى الفصل الرسائل الشخصية مع الترجمة لأهم كتبها الناهين وقد استطاعوا أن يتحولوا بها من باب المناسبات وما يتصل به من مثل التهنة والعتاب والاعتذار والاستعطف والاستمناح إلى لوحات أدبية لوصف البطولة الحربية فى جهاد النصارى. وأكثروا من وصف الطبيعة على نحو ما نجد عند ابن خفاجة فى وصف نزهة، وأبى القاسم بن الجدى فى وصف مطر بعد جذب شديد، وابن أبى الخصال فى وصف ليلة قاسية البرد. وعلقوا فى بعض رسائلهم مناظرات رائعة بين الأزهار والرياحين، عقدها ابن برد وحبيب وأبو عمر الباجى وابن حسداى وحوّل الفقيه ابن سراج رسالة له فى الشفاعة لشخص يسمى الزُّرِّيْزِر إلى دعاية مرحة أودعها كل ما يميز طائر الزُّرُّزور مما يتصل بريشه وأجنحته وهيبته وأفراخه وأعشاشه، وطارت الرسالة فى الأندلس وحاكاها كثير من الكتاب أمثال أبى القاسم بن الجدى وأبى بكر عبدالعزيز بن القبطورنه. وبذلك كله استحالت الرسائل الشخصية فى الأندلس على أيدى كتبها المجلّين - فى بعض جوانبها - إلى لوحات أدبية بارعة.

وتتميز الأندلس بكثرة الرسائل الأدبية الخالصة، ويعرض الفصل طائفة طريفة منها فى مقدمتها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، مع إثبات أن لا علاقة لها برسالة الغفران لأبى العلاء وأن ابن شهيد استوحاها من إحدى مقامات بديع الزمان، ومع بيان أن ابن شهيد استطاع بها أن يبتكر قصة رائعة يدور الحوار بها فيها وراء الطبيعة فى عالم الجن وأن يضمنها نظرات نقدية وغير قليل من الفكاهة المستملحة. ويُلَمُّ الفصل برسائل ابن برد الأدبية فى المناظرة بين السيف والقلم وفى وصف بخيل صاحب نخلة شحيح منتهى الشح، وتصوير صديق له يدافع بحرارة عن تفضيله لأهب الشاء - أو بعبارة أخرى جلود المَعز - على البسط صيفا وشتاء، وقد استوحاها من رسالة سهل بن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ وبيانه لفضل البخل وشح النفس على الجود والكرم. وتحدّث الفصل عن رسالتى ابن زيدون الهزلية والمجدية، وأولاهما فى السخرية - على لسان ولادة مهوى فواده - بغريمه فى حبها: ابن عبدوس، وثانيتها فى استعطف أبى الحزم جهور حين زجَّ به فى غياهب السجون، وهما أثران أدبيان بارعان. ويُلَمُّ الفصل برسالة ابن غرسية الذميمة فى الشعوبية والردود المفجحة عليها، كما يُلَمُّ بالرسائل النبوية التى ضمّنها كبار الكتاب من أمثال ابن الجنان شوقاً حاراً إلى زيارة الرسول ﷺ وطلب الشفاعة. وتكاثرت المواعظ على نحو ما هو معروف عن منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

ويعرض الفصل أعمالاً نثرية متنوعة لكتاب الأندلس المبدعين، وفى مقدمتهم ابن حزم

وكتابه «طوق الحمامة» والكتاب دراسة تحليلية نفسية بديعة للحب العذرى العفيف وتجارب ابن خزم فيه وتجارب معاصريه في غير موارد بل في صراحة مستحبة، صراحة تسمو فيها العاطفة الإنسانية الخالدة، عاطفة الحب، وترتفع عن صفات الغريزة النوعية. والكتاب ترجم من قديم إلى اللاتينية وتأثر به دانتي في كتابه «الحياة المتجددة» وبالمثل تأثر به بعض شعراء الإسبان.

ومن الأعمال النثرية الأندلسية الرائعة كتاب المقتبس لابن حيان في تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، وهو نموذج فريد في كتابة التاريخ كتابة تحليلية بصيرة لامثيل لها عند العرب قبله ولا بعده، وعلى شاكلته كتاب الذخيرة لابن بسام في كتابة التراجم الأدبية لعصره كتابة تاريخية تحليلية نقدية بارعة. ومن الطرف النثرية الأندلسية مذكرات الأمير عبدالله بن بلقين آخر أمراء غرناطة من بني زيري، وفيها يتحدث عن إمارة أسرته بتلك المدينة، وكذلك عن إمارته قبل نفى يوسف بن تاشفين له إلى المغرب، وهو حديث صريح كل الصراحة حتى لتصبح تلك المذكرات شبيهة بكتب الاعترافات عند الغربيين.

ومن أروع الأعمال النثرية الأندلسية، بل العربية عامة، قصة حى بن يقطان لابن طفيل الوادى آشى القيسى وهى قصة رمزية، أراد بها ابن طفيل التوفيق بين الفلسفة والدين، وقد أدارها على طفل نشأ في جزيرة مهجورة نما فيها وحده ونما معه عقله، حتى أدرك حقائق الأشياء على نحو ما يدركها الفلاسفة، واستنبط أن للكون خالقا وشعر بحاجته إلى الاتحاد به، وما زال يحاول ذلك حتى تحقق له هذا الاتحاد. وابن طفيل بذلك يثبت أن التأمل الفكرى المحض، كالإيمان الحقيقى الصادق عن طريق الأنبياء، يودى مثله إلى الاتصال بالله والاتحاد به، وإذن فلا تعارض ولا تنافر بين الفلسفة والدين. وتصادف أن عثر غرسية غوميس في مخطوطة موريسكيه بمكتبة الإسكوريال في مدريد كتبت في القرن السادس عشر على قصة تسمى قصة الصنم والملك وابنته تتشابه في إطارها الخارجى مع قصة ابن طفيل التى كتبها في القرن الثانى عشر، وبدلا من أن يستنتج أن مؤلف هذه القصة الموريسكية اطلع على قصة حى بن يقطان أو استلهمها إما في أصلها العربى وإما في ترجمة لاتينية أو قشتالية قديمة زعم العكس وأن ابن طفيل هو الذى استلهم هذه القصة أو أصلها القديم الذى كان شائعا في زمنه، وهكذا بنى زعمه على مقدمات وهبية. وتنه جوتيه في مقدمة ترجمته الثانية لقصة حى بن يقطان لما وقع فيه غرسية من خطأ. وبالمثل أخطأ پالنشيا في توهمه تأثر ابن طفيل بالمسيحية في القصة وأن يقطان فيها رمز الله وبالتالي «حى» رمز المسيح ابن الله، والقصة تكتظ بالآيات



والتعبيرات القرآنية والروح الصوفية الإسلامية. وهي بحق عمل فريد أصيل لابن طفيل لاسابقة له في الآداب العالمية، وقد تأثر به الأدب الإسباني كما يتضح في قصة الصنم والملك وابنته الموريسكية التي ذكرها غرسية وأيضاً في قصة الناقد (الكريتيكون) الإسبانية لجراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر والتي يقول منندث بيلايو عنها إنها تتطابق مع قصة حى بن يقظان تطابقاً واضحاً. وقد كتب على هداها في سنة ١٧٠٩ الكاتب الإنجليزي دانييل ديفو قصته المعروفة: «روبنسن كروزو».

وتحدث الفصل بعد ذلك عن فن المقامات بالأندلس والتحامه بمقامات الحريرى المعتمدة على الكدية أو الشحاذة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطى وخصائصها في الأسلوب والمضمون، ومع بيان تأثير هذا الفن في الأدب الإسباني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، إذ نشأ عند الإسبان - على هداه - ما سُمى بالقصص البيكارسية أو قصص الشطارة والسطار، وبطلها «البيكارو» يعيش - كبطل المقامات - على التسول والشحاذة مستخدماً لذلك حيلاً وخُدعا شتى.

وَألمَّ الفصل برحلات الأندلسيين مبيناً أنها تعددت عندهم بسبب أدائهم لفريضة الحج سنوياً، وللإمام بمراكز الثقافة في المشرق، وللسفارة الخارجية إلى ممالك النصارى الشمالية، وللسفارة الداخلية إلى الإمارات الأندلسية، ولزيارة ماوراء البلدان العربية في آسيا وشرقى أوروبا، ولمرافقة أمراء غرناطة في عهد الأندلس الأخير في رحلاتهم وكذلك في مرافقة بعض سلاطين المغرب في رحلاتهم. ومن أطرف رحلات الأندلسيين رحلة ابن جبير المتميزة بحسن العرض وجمال الأسلوب المرسل العذب.

وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربى في الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وكتب علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية وكتب الشعر ودواوينه وكتب النثر وأعمال كتّابه، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولاً - بقدر ما أستطيع - أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس مع تصحيح الأحكام المخطئة التي من شأنها الغص من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذى أثر به في الأدب الإسباني والآداب الأوروبية. والله - وحده - ولى الهدى والتوفيق.

القاهرة في أول مايو سنة ١٩٨٩م.

شوقى صيف

## الفصل الأول

### السياسة والمجتمع

١

#### التكوين الجغرافي والبشرى<sup>(١)</sup>

تقع شبه جزيرة إيبيريا في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية، وتتصل بالقارة عن طريق جبال شاهقة وعرة، هي جبال البرينيه التي تكوّن حاجزا منيعا بينها وبين أوروبا، ولا يمكن لأحد اجتيازها إلا من ممرين يخترقانها في الشرق والغرب، وبينها ممرات متعرجة ملتوية ضيقة سهاها العرب باسم الأبواب مما جعلهم يسمون تلك الجبال جبال الأبواب. وفي وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلة على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة الكبرى: المصرية والفينيقية واليونانية والرومانية، كما تنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسي، وهو يطوّق شاليها الغربي في خليج بسكاي ويتصل في جنوبيها بالبحر المتوسط عن طريق مضيق الزقاق الذي سُمي بعد الفتح العربي إلى اليوم باسم مضيق جبل طارق. وتمتد في هضبة إيبيريا الوسطى سلاسل جبال من الشرق إلى الغرب تصعب التواصل بين أجزائها في الداخل. وبها أنهار كثيرة وخاصة في الغرب حيث تصب في المحيط، وهي من الشمال إلى الجنوب نهر المنيو ثم نهر دويرة، وهو كثير الفروع غزير المياه خصب التربة، ويليه نهر تاجه وتقع عليه مدريد وطليلة ويصب عند أشبونة، ثم نهر أنه وتقع عليه بطليوس، فنهر الوادي الكبير وتقع عليه قرطبة وإشبيلية ومنه يتفرّع نهر شنيل مادّا ذراعا له إلى غرناطة، وجنوبيه نهر لكة ويصب في المحيط بالقرب من قادس. وتصب في البحر المتوسط أنهار أقل أهمية ما عدا نهر إبرو في

الأولى من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس وكتاب دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان وكتاب الإسلام في إسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع.

(١) انظر في التكوين الجغرافي لإيبيريا كتب الجغرافية العربية القديمة وخاصة التراث الجغرافي الأندلسي والتعريف به في كتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس. وراجع في التكوين البشرى لإيبيريا الصفحات

الشمال وهو متعدد الفروع غزير المياه، وينبع من شرقي إقليم قشتالة ويمر بإقليم أراجون فأقليم سرقسطة في الثغر الأعلى فأقليم قطلونية ويصب عند طرطوشة جنوبي برشلونة. ويليه جنوباً نهر الوادي الأبيض ويصب عند بلنسية، فنهر شُقر بأوديته وفروعه الخصبة ويصب شمالي دانية، ثم نهر شقورة وعليه تقع مرسية، ويليه نهر أندرش ويصب عند المرية، فنهر البُشرات ويصب عند شلوبينيه.

والمناخ في إيبيريا متباين لاختلاف أقاليمها، فهو في الجبال وشمالي البلاد بارد، وهو دافئ في الوديان بالوسط وفي الجنوب. ومناخ الأقاليم في الشرق مناخ البحر المتوسط وتخضع له تلك الأقاليم في نباتاتها وحيواناتها، بينما تخضع الأقاليم في الغرب لمناخ المحيط الأطلسي ونباتاته وحيواناته وغاباته. وإيبيريا لاتساع مساحتها وقيام الجبال والهضاب فيها متعددة المناخ، فمناطق جبلية بها غابات وأحيانا معادن ويسفوحها مراعي، ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وهضاب بها قفار ومراعي، وأحواض أنهار بها حبوب وبقول وحدائق ذات بهجة. ومن يعيشون في تلك الأحواض وما بها من زرع وضرع تجرى حياتهم سهلة هينة، ومن يعيشون في الجبال يتأثرون بوعورتها ومن يعيشون في سفوحها والقفار ومراعيها يتأثرون بما يتأثر به أهل البوادي. وعلى هذه الشاكلة بينما نجد في إيبيريا أهل مدن متحضرين نجد أهل جبال بائسين كما نجد رعاة متبدين، مما حال من قديم بين أهل إيبيريا وبين قيام وحدة جغرافية تؤلف بينهم وتجمع أشتاتهم.

وهذا الاختلاف في أقاليم إيبيريا رافقه - منذ أقدم الأزمنة - اختلاف في العناصر والأجناس البشرية التي كوَّنت سكانها، وأول من سكنها الإيبيريون وهم قبائل من غالة والبسك، وسرعان ما أخذت أجناس وأمم تفد عليها، وكان أول الوافدين الفينيقيين، وفدوا عليها في القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، وأقاموا بشواطئها الجنوبية مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة وعلى المحيط مدينة قادس، ووفد عليها بعدهم الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد وأقاموا بشواطئها الشرقية الشمالية وهم الذين سموها إيبيريا وقد أسسوا بها مدينة برشلونة على البحر المتوسط، ووفد عليها بعدهم بنحو قرنين القرطاجيون وأسسوا في شرقيها مدينة قرطاجنة. واستولت عليها روما في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وكان جيشهم الفاتح لها خليطا من شعوب أوربية مختلفة إيطالية وغير إيطالية واستوطنتها بعض أسر رومانية، وأطلقت عليها روما اسم إسبانيا، وأشاعت فيها حضارتها ولغتها حتى إذا تنصرت أدخلتها معها في النصرانية. وظلت خاضعة لها، حتى

إذا أقبل القرن الخامس الميلادي وأقبلت معه غارات المتبربرين من الألمان وغيرهم على الدولة الرومانية الغربية وقضت عليها كان من سابقهم إلى إسبانيا قبائل، الوندال، وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل ضخمة من القوط وُسِّمَ باسمهم: «فاندالوسيا» وعرب الفاتحون من العرب هذا الاسم إلى الأندلس وسموا به جميع إيبيريا من الجنوب إلى أقصى الشمال. وظل القوط يحكمون البلاد متخذين طليطلة - كما اتخذها الرومان - عاصمة لهم، ونزلها في عهد القوط يهود كثيرون، وازداد عددهم بها حتى كانت لهم مدن خاصة بهم مثل أليسانة قرب قرطبة وكثروا في إلبيرة وغرناطة.

وأضاف الفتح العربي إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة في المجتمع الإيبيري عناصر جديدة آسيوية من العرب وإفريقية من البربر. وكان عدد العرب في الفتح لا يتجاوز ثمانية عشر ألفا، وسموا باسم البلديين تمييزا لهم من فوج عربي نزل الأندلس سنة ١٢٣ للهجرة مع واليها بلج بن بشر القشيري، وكان تعداده عشرة آلاف وسموا باسم الشاميين تمييزا لهم من البلديين، ونزلها في سنة ١٢٥ للهجرة مع واليها أبي الخطاب حسام بن ضرار الكلبي فوج عربي ثان، وسمع العرب بخيراتها فارتحل إليها كثيرون منهم. وكانت كثرة الفاتحين من البربر حتى إذا تم الفتح أخذت بعض القبائل والعشائر البربرية تهاجر إلى الأرض الجديدة واتخذوها سكنا ومقاما لهم. ويجانب البربر والعرب نجد عنصرا ثالثا فسح له حكام الدولة الأموية في الأندلس والمقام بها منذ أفضى زمام تلك الدولة إلى الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) إذ استكثر من شراء الصقالبة، وهم رقيق أوربي كان يُحْصَى ويبيع، وأصل نشأته في بلغاريا شرقي أوروبا، ولذلك قيل له صقلبي، وعم الاسم في الأندلس الرقيق الأوربي جميعه من ألمانيا وغير ألمانيا. وكان حكام الدولة الأموية يشترون هؤلاء الصقالبة شبانا ويدخلونهم في الإسلام ويعلمونهم العربية وآداب المجتمع الأندلسي ويدربونهم على الفروسية واتخذوهم حرسا وخدمًا في قصورهم، وألحقوا نفرا منهم بجيوشهم وازدادوا حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا في عهد عبد الرحمن الناصر، وسنراهم يستقلون ببلنسية ودانية والمرية في عهد ملوك الطوائف.

وواضح أنه شاركت في التكوين البشري لإيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوي والإفريقي والأوربي، وبذلك أصبحت في دماها القارات القديمة الثلاث، مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها، إذ أخذ كل إقليم من أقاليمها يشعر أن له وجودا ذاتيا وأن من حقه التمتع بالاستقلال، ومن ينظر إلى خريطةها اليوم يرى فيها أمتين مستقلتين تمام الاستقلال: الأمة الإسبانية والأمة البرتغالية، ولكل منها نظامها السياسي الخاص.

## الفتح - عصر الولاة

(أ) الفتح<sup>(١)</sup>

اتمَّ موسى بن نصير والى المغرب منذ سنة ٨٦ هـ/٧٠٦ م فتح بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسى غربا وجبال السوس الأقصى جنوبا، واتبع موسى سياسة حميدة: أن يرسل مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء ليدخلوا البربر في الدين الحنيف ويلقنوهم تعاليمه، مما عمل على تعريبهم سريعا، وأسس في بلاد المغرب الأوسط ولاية جعل حاضرتها تلمسان، وأسس في بلاد المغرب الأقصى ولاية ثانية جعل حاضرتها طنجة المطلة على مضيق الزقاق، وولَّى عليها أحد قواده من البربر هو طارق بن زياد. وأبقى موسى على سبته شريقيها على الزقاق لواليتها الرومى البيزنطى يولييان، وكان قد سارع إلى موسى حين وصوله إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ/٧٠٩ م فأعلن له ولاءه وطاعته. ويظن أنه أغراه حينئذ بغزو إيبيريا، وكان ملكها غيطشة Witiza قد توفى سنة ٧٠٨ م وأبى الأشراف أن يخلفه على العرش أحد أبنائه، وأجلسوا عليه لذريق Roderic حاكم قرطبة، ونشبت حروب بينه وبين أبناء غيطشة، وانتصر عليهم، ويبدو أنهم استغاثوا ببولييان حاكم سبته البيزنطى حليف أبيهم، ورأى أنه لا قبل له بلذريق وفكر أن يستعين عليه بالعرب، فأغرى موسى بن نصير - حين لقيه في طنجة - بغزوها. أما ما يقال من أن دافع يولييان إلى حث موسى على هذا الغزو مسألة شخصية هي عدوان الملك الجديد لذريق على ابنته في قصره وأنه أراد أن يثار لانتهاك عرضه بحض العرب على غزو إيبيريا ففى رأينا أن ذلك من باب الأساطير، والمعقول أن يكون الباعث الحقيقى لموسى بن نصير على غزوها

وما بعدها ونزهة المشتاق للإدريسى بتحقيق دى جويه ودوزى (طبع ليدن) ص ١٧٧ وتاريخ إسبانيا الإسلامية لبروثنسال ٨/١ وما بعدها والصفحات الأولى من دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ٤٣ وما بعدها.

(١) انظر فى الفتح الصفحات الأولى من أخبار مجموعة (طبع مدريد) وتاريخ افتتاح الأندلس لابن حبيب وأيضا لابن القوطية والجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى وتاريخ ابن خلدون (طبع مطبعة بولاق) ١١٦/٤ وما بعدها ونفح الطيب (طبعة إحسان عباس) ٢٣١، ٢٢٠ - ٢١٥/١

أو عبارة أدق على فتحها أنه سأل عنها وعرف كثيرا من أحوالها الجغرافية والسياسية وأن ليس بها جيش حقيقى يحميها، فتطلع للاستيلاء عليها ونشر الإسلام بها، وشاور في ذلك الخليفة، وكان الوليد بن عبد الملك، وكان مثله شديد الطموح للفتوح وكانت جيوشه تتغلغل في أقصى الشرق: في أواسط آسيا وفي الهند، فشجع موسى، غير أنه أمره بالتمهل حتى يرسل حملات استكشافية، يتبين بها أين ينزل الجيش الفاتح وكيف يتحرك. وندب موسى لهذه المهمة قائدا من قواده هو طريف فعبر - مع أربعائة من الجند ومائة فارس - إلى الشاطيء الإيبيرى في سنة ٩١ هـ/ ٧١٠ م ونزل في موضع أقيمت به بلدة سميت باسمه، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقام طريف بعدة غارات تبين له منها أنه لا توجد بجنوبي إيبيريا وسائل دفاع تحميها. واستدار العام فرأى موسى أن يرسل حملة أكثر عددا بقيادة طارق بن زياد وإلى طنجة، فعبر في سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م مضيق الزقاق بجيش عداة سبعة آلاف، وتجمعوا عند جبل سُمى فيما بعد إلى اليوم جبل طارق. ويقال إن عبور هذه الحملة للمضيق - مثل عبور سابقتها - إنما كان بسفن أعدها يوليان، ويدحض ذلك أنه كان لموسى بن نصير والعرب حينئذ أسطول يحمى شواطئ إفريقيا من الأسطول البيزنطى وأقيمت له دار صناعة كبيرة بتونس، وما دام موسى قد عزم على فتح إيبيريا فلا بد أنه أمر أسطوله بالتوجه غربا ليعبر - بحملة طريف ثم بحملة طارق - مضيق الزقاق، أما قصة عبور الحملتين على سفن يوليان فلا يؤيدها منطق الأحداث، وهى - فى رأينا - تكملة لما نسجه الخيال الشعبى من سخط يوليان على لذريق بسبب اعتدائه المزعوم على ابنته. ومما يتصل بهذا القصص الأسطورى عن فتح الأندلس الخطبة البليغة التى أضيفت إلى طارق، وقيل إنه ألقاها على جنوده بعد عبورهم مباشرة مفتتحا لها بقوله: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر» والخطبة من روعة البيان بحيث يبعد أن ينشئها مغربي تعرب حديثا مثل طارق، غير أنها شاعت بين الأندلسيين شيوعا أعده الخيال الشعبى ليضيف إليها أسطورة إحراق طارق للسفن التى جاز بها مع جنده إلى الشاطيء الإيبيرى، وهى لو صحت لكانت عملا طائشا، وهو عمل لا يمكن أن يقدم عليه أى قائد يقدر مسؤولياته وتبعاته. ومما يؤكد أنها مختلقة ومن نسج الخيال الشعبى أنها لم تروى فى كتب التاريخ الأندلسى طوال خمسة قرون وأن أول من رواها الإدريسى الجغرافى المتوفى سنة ٥٦٠ للهجرة فى كتابه نزهة المشتاق.

وانحدر طارق بجيشه غربا ماراً برأس بارز على الزقاق، أقيمت به - فيما بعد - مدينة الجزيرة الخضراء، وتابع مسيرته على المحيط، وعلم أن لذريق يعدّ جيشاً للقائه، فأرسل إلى موسى بن نصير يستمده، فأمدّه بخمسة آلاف بقيادة طريف، جازوا المضيق في سفن عربية، ولم يلبث طارق أن التقى مع لذريق في السهول المنبسطة شرقى قادس وهزمه هزيمة ساحقة، جعلت كثيراً من مدن إيبيريا تفتح أبوابها لطارق وجنده، بينما فرّ لذريق إلى الشرق، وقُتل على نهر شقورة. وأرسل طارق أحد قواده إلى قرطبة فاستولى عليها. وتماذى طارق في الفتح حتى طليطلة عاصمة لذريق والقوط، فألقت له عن يد، وفرّ منها الأسقف والقساوسة يحملون مذبح كنيستها، ولحقت بهم كنيية عربية عند بلدة صغيرة واستولت منهم على المذبح وذخائر كثيرة، وقيل لهم إنه مائدة سليمان، فسميت البلدة بعد ذلك باسم المائدة. وأخذت تشيع - منذ فتح طليطلة - أسطورة شعبية، مؤداها أنه كان بها بيت مطلسم عليه أفعال كثيرة أمر بفتحه لذريق، فوجده فارغاً إلا من تابوت مغلق وجد فيه لفائف مدرجة رسمت فيها صور عرب مدججين بالسلاح وفي أعلاها كتابات بالعجمية تشير إلى أن أمة الرجال المصورين ستغلب على الأندلس حين تكسر أفعال هذا البيت، وواضح أنها أسطورة مختلقة ولا أساس لها من حقيقة.

ولما بلغ طارق طليطلة في وسط إيبيريا رأى موسى بن نصير أن يسير إليه في قوة كبيرة ليشد أزره. ويثبت فتحه ويمكن له، وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجداً، وظل كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتاً من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندسا معماريا لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع في إيبيريا ما اتبعه في المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل إيبيريا القرآن الكريم وفرائض الإسلام. ومضى بجيشه غربا يتم فتح طارق واستولى على شذونة وإشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة، ويقول بعض المؤرخين خطأ إنه كان قد امتلأ غيظاً وحقداً على طارق لما فتح الله على يديه من البلاد، وزعموا أنه حين لقيه - بدلا من تهنئته بانتصاراته - شدّ وثاقه وهمّ بقتله، وكل ذلك يخالف الأحداث، ولم يكن موسى من الطيش والحمق بأن يصنع ذلك بطارق الجدير بكل شكر وثناء. ويدل أقوى الدلالة على صحة ما نقول أن طارقاً ظل الساعد الأيمن في استكمال الفتح.

وأقام موسى مع طارق في طليطلة طوال الشتاء في سنتي ٩٤، ٩٥ هـ/ ٧١٣ - ٧١٤ م. وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك كان أول عربي حكم قطرا أوروبيا، وجاءه نبأ بانتفاض إشبيلية فأرسل إليها ابنه عبد العزيز

فأخذ الانتقاضة، واستولى غربيها على لبلّة وباجة. وكان مما كتب به موسى بن نصير إلى الخليفة يبشره بالفتوح قوله: «إنها ليست الفتوح ولكنه الحشر ولكنها الجنة». وخرج في ربيع سنة ٩٥ هـ/٧١٤ م - ومعه طارق - بالجيش إلى الشمال لإيبيريا قاصدا سرقسطة مفتاح منطقة وادي نهر إبرو، واستولى عليها كما استولى على لاردة شرقيها، وجاءه حينئذ أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بوفوده عليه مع طارق لتقديم تقرير مفصل إليه عن الفتوح، ورأى أن يؤخر الوفود عليه بضعة أشهر حتى يستكمل فتح إيبيريا، إذ رأى بلدانها ومعاقلها في الشمال تستسلم له دون مقاومة تذكر. وللإسراع بالفتح أمر طارقاً أن يتجه بجنده إلى الشمال الشرقي فاستولى على أراجون، واتجه موسى إلى الشمال الغربي، ولحق به طارق بعد استيلائه على أراجون، واستولى في طريقه على ليون بمنطقة قشتالة، وتوغل موسى في مسيرته وعبر جبال كنتبريه، واستولى على حصن أبيط في أقصى الشمال، ووصل إلى خليج بسقاية (بسكاي) على المحيط. وأحس أنه أنهى فتح إيبيريا إذ استولى مع طارق على أقاليم قطالونيا في الشرق وأراجون والبشكنس وقشتالة وجليقية في الشمال إلى أقصى الغرب. فرأى أن يلبي مع طارق أمر الخليفة بوفودها عليه، وأتاب عنه في حكم البلاد ابنه عبد العزيز. ومن سوء حظها أن الموت كان قد أسرع إلى الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان فلم يحسن لقاء الفاتحين العظمين، ولم يعودا بعد ذلك إلى إيبيريا، ولا عُرف مصيرهما، ويقال إن موسى حجّ مع سليمان سنة ٩٧ هـ وإنه توفي بالطريق في المدينة أو في وادي القرى، أما طارق فيبدو أنه عاد إلى موطنه مكثفياً بما أدى في سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة.

وكان موسى وطارق قد استوليا على أهم البلدان في إيبيريا، وبقيت فيها بلدان وجهات لم تخضع لها، فأخضعها ابنه عبد العزيز في ولايته القصيرة قبل مقتله: (٩٥ - ٩٧ هـ). وكان قد اتخذ إشبيلية عاصمة له، واتجه منها إلى الغرب فاستولى على باجة وبأيرة وشترين وقلمرية، وبذلك استكمل فتح غرب إيبيريا، وكانت لاتزال في الجنوب الشرقي جهات وبلدان لم تخضع للعرب خضوعاً تاماً، فرأى عبد العزيز أن يخضعها، وبدأ بالقة فاستولى عليها كما استولى على غرناطة، وولى وجهه نحو إقليم مرسية، ولم تكن أنشئت فيه إنما أنشئت فيما بعد، وكانت أريولة عاصمة هذا الإقليم، وكان يحكمه قائد قوطي تسميه المصادر العربية تدمير، فامتنع في مدينته وصمد لحصار المسلمين، حتى إذا لم يبق في قوس صبره منزع لجأ إلى حيلة، هي نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القضبان إيهاماً للمسلمين بأنه لا يزال في المدينة عدد



ضخم من الرجال اليواصل المتهين لمواصلة اقتال، وخرج هو وطلب لقاء قائد المسلمين عبد العزيز، فاستأمنه، فأمنه، وعقد له الصلح ولأهل بلده على إتاوة وجزية يؤدونها. وفي رأينا أن هذه الحيلة للاستئمان تُعدُّ - بدورها - من أساطير الفتح الشعبية الكثيرة التي كانت تتداول في إيبيريا. إذ يكفي أن يخرج هذا القائد بعد حصار طويل لقائد المسلمين المحاصرين لبلده ويطلب الأمان له ولمدينته فيجيب إلى طلبه كما حدث كثيرا في الفتح الإسلامية.

### (ب) عصر<sup>(١)</sup> الولاة (٩٥ هـ/٧١٤ - ١٣٨ هـ/٧٥٥ م)

عملت عوامل متعددة على كثرة الاضطرابات في هذا العصر، منها كثرة العناصر التي تكوّن منها الشعب في الأندلس، إذ كان منه أسبان مختلفو الجنسيات كما أسلفنا ويهود، وحل به بربر كثيرون وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: البتر والبرانس، كما حل به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمينية أو قحطانية، وكانت بينها خصومات قديمة أشعلتها في العصر الأموي حروب قيس المضرية وكلب اليمينية في موقعة مرج راهط، واستعادت القبائل العربية في الأندلس هذه الخصومات سريعا. وكان البربر البتر يأخذون صفّ العدنانية والقيسية، بينما البربر البرانس كانوا يأخذون صفّ القحطانية وكلب اليمينية، وكان الوالي على الأندلس إذا كان يمينا أو كلبيا تعصب لقومه، وبالمثل إذا كان عدنانيا أو قيسيا مماهيا لكثرة الاضطرابات والقتال في تلك البلاد. وعامل ثان هيا لها هو كثرة تعيين الولاة هناك حتى بلغوا في نحو أربعين عاما اثنين وعشرين واليا، فلم يكن الوالي يشعر بشيء من الاستقرار. وعامل ثالث هيا بدوره لكثرة الاضطرابات في الأندلس هو بعدها عن السلطة المركزية في دمشق، فكان الخلفاء الأمويون لا يعرفون شئونها معرفة واضحة، مما جعلهم يكلون تعيين ولايتها إلى ولايتهم على المغرب، مع أنها كانت أكثر من المغرب ثراء وخراجا، وكانت تنعم بغير قليل من الحضارة، بينما أهل المغرب كانوا - وخاصة في الداخل بعيدا عن الشواطئ - بدوا غير متحضرين، وكان أهل الأندلس بأنفون من هذه التبعية، والخليفة الوحيد الذي تنبه إلى

وما بعدها و١٤/٣ وما بعدها وفجر الأندلس  
لحسين مؤنس ص ١٢٢ وما بعدها والتاريخ  
الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ص ١٣١  
وما بعدها.

(١) انظر في ولاة الأندلس بعد الفتح كتاب  
الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس لابن القوطية  
والجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى  
وتاريخ ابن خلدون ١١٨/٤ ونفع الطيب ٢٣٤/١

ذلك هو عمر بن عبد العزيز، إذ فصل ولاية الأندلس عن ولاية المغرب، وولّى عليها سنة مائة للهجرة السمح بن مالك، فطبق سياسة عمر في إنصاف الإِسبان المغلوبين والمساواة في الحقوق بينهم وبين المسلمين من العرب والبربر، ودفع الناس بقوة إلى الجهاد في سبيل الله وراء جبال البرينيه في غالة (فرنسا) وتوالت انتصاراته حتى مدينة تولوز، وثبتت أقدام المسلمين في ولاية سبتمانية جنوبي فرنسا وعاصمتها أربونة بحذاء البحر المتوسط، ولم يلبث أن استشهد في آخر سنة ١٠٢ للهجرة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد توفي قبل السمح فعادت الأندلس تابعة لوالى المغرب، فولى عليها عنبسة الكلبي، واقتدى بالسمح في متابعة الجهاد وراء جبال البرينيه واستولى على قرّقشونة في داخل سبتمانية، وتوغل في وادي نهر الرون حتى سانس على بعد ٧٠ كيلو مترا من باريس واستشهد سنة ١٠٧ وولّى عليها والى المغرب يحيى بن سلمة الكلبي وظل عليها حتى سنة ١١٠ وكان شديد العصبية - مثل عنبسة الوالى قبله - لقبيلته كلب اليمنية، ولقيت قيس المضرية منها الأمرين، وولى بعدها ولاة قيسيون كالوا لكلب الصاع صاعين أهمهم الهيثم الكلابى وله بلاء حسن في الجهاد بأرض غالة، ويقال إنه توغل فيها حتى ماسون شمالي ليون. ووليتها عبد الرحمن الغافقى فأعاد إلى الأندلس الهدوء والنظام وقاد جيشا كبيرا لغزو غالة، وواصل انتصاراته بين نهري جرونه ودوردوني، ومضى في اتجاه اللوار وكان شارل مارتل قد حشد له جيشا كثيفا من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوربي، والتقى به لسنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م بين تور وبواتيه على بعد مائتي كيلو مترا من باريس، وصمد المسلمون عشرة أيام ينازلون أعدادا ضخمة، وفجأهم استشهاد قائدهم عبد الرحمن في المعركة فانسحبوا. وولّى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري لمدة سنتين وخلفه عليها سنة ١١٦ عقبه بن الحجاج القيسى وظل يليها خمس سنوات محمود السيرة، ورابط في جليقية بأقصى الشمال الغربي من إيبريا حتى لم يبق فيها قرية إلا فتحت ماعدا حصن بلاى بالقرب من خليج بسكاي لوعورة الطريق إليه، وتخطى جبال البرينيه إلى سبتمانية وعسكر بجيشه في عاصمتها أربونة وتقدم على نهر الرون واستشهد في قرّقشونة. وباستشهاده يتوقف هذا المد العربي الإسلامي وراء جبال البرينيه في غالة (فرنسا) بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد، سجل فيها العرب صفحات انتصار مجيدة بجانب انتصاراتهم وفتوحاتهم العظيمة في إيبريا.

وإنما عاق العرب عن المضى في هذه الفتوحات والانتصارات ما أفضوا إليه في الأندلس - منذ أول العقد الثالث في القرن الثاني - من عصبيات عنيفة أخذت تضطرم

اضطرابا شديدا لا بين العرب المضرية واليمنية فحسب، بل أيضا بين العرب أنفسهم والبربر وكانت قد اندلعت العصبية بينها في المغرب، واضطر هشام بن عبد الملك أن يرسل جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيري وابن أخيه بلج بن بشر لإخماد ثورة ضارية للبربر، فهزم الجيش مرارا، واضطرت قوات منه تبلغ عشرة آلاف كان يقودها بلج بن بشر أن تلجأ إلى مدينة سبتة، وحاصرها البربر وأصابها جوع قاتل فكاتب بلج بن بشر والى الأندلس أن يسمح له بدخولها مع جنده، فتردد، وكان قد تطاير شرر كثير من فتنة البربر بالمغرب إلى إخوانهم في الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ولما ينزلونه بهم من عسف، فثاروا في بلدان كثيرة هناك وخشى الوالى مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر أن يدخل الأندلس سنة ١٢٣ بآلافه العشرة. وتعاون مع الوالى في القضاء على ثوراتهم، مما جعلهم يتنادون - وخاصة في شمال البلاد - بالرجوع إلى موطنهم في المغرب. وكانت من البربر كثرة في جليقية وحوض نهر الدويرة وفي الأراضى الواقعة شمالي نهر تاجه، فتركوا تلك الديار جميعا تنعى أهلها، وكان لهذه الهجرة البربرية الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام لا في الأندلس وحدها بل أيضا في ساحات الجهاد والفتوح خلف جبال البرينيه في غالة، فقد توقف هذا الجهاد، وليس ذلك فحسب، إذ ضاعت جليقية وأراضى حوض نهر الدويرة أو أشرفتا على الضياع، فقد تركها المغاربة لنصارى الشمال، وأوشك أن يكون ما تركوه وخسره الإسلام نحو ربع إيبيريا، تركوه للنصارى دون حرب أو ما يشبه الحرب، ليتجمع النصارى فيه ويعمره ويغيروا على المسلمين منه طوال القرون التالية ويخرجوهم من ديارهم وفردوسهم الأرضى.

ولم يلبث بلج بن بشر أن اشتبك بعد ذلك مع جنوده الشاميين في حروب مع والى الأندلس وجنوده من العرب الفاتحين، وسموا أنفسهم البلديين تمييزا لهم من هؤلاء الشاميين الطارئين. وانتصر بلج ولم يلبث أن توفى وعادت الحرب جذعة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ومن انضم إليهم من البربر المستقرين في الأندلس إذ كانوا يرون أنفسهم - مثل العرب البلديين - أحق بالأندلس وخيراتها. وهاجت الفتن والحروب بين الفتنين، وولى - من قبل والى المغرب - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، غير أنه أفرط في التعصب لقومه من كلب واليمنية ضد القبائل المضرية والقيسية ونشبت فتنة ضارية، فخلع سنة ١٢٨، ولم تهدأ البلاد، فقد احتدمت الفتنة بين اليمنية والمضرية وأيضا بين العرب الشاميين والبلديين، واستطاع الصميل بن حاتم زعيم المضرية أن يضم تحت لوائه قومه ومعهم

العرب الشاميون بينما انضوى اليمينيون والعرب البلديون والبربر تحت لواء يوسف بن عبدالرحمن الفهري، واتفق الطرفان سنة ١٢٩ أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويتخذ الصميل مستشاراً له ووزيراً، وبذلك عاد الأمن والنظام إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨ ولكنها لم تعد إلى الجهاد في غالة (فرنسا) ولا إلى الحفاظ على ما أضعته من الأندلس الهجرة البربرية الكبرى، مما أتاح الفرص لنصارى الشمال أن يقيموا لهم دُولاً ما زالت تناضل المسلمين قروناً متطاولة إلى أن سقطت غرناطة آخر معاقلهم بتلك الديار.

## ٣

الدولة الأموية<sup>(١)</sup>

لا نصل إلى أواخر السنة الثانية والثلاثين بعد المائة حتى يقضى العباسيون على الدولة الأموية في المشرق وقد مضوا يستأصلون الأمويين في مذابح جماعية، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا منهم على وجه الأرض باقية. في هذه الأثناء فرَّ شاب أموي في التاسعة عشرة من عمره إلى إفريقيًا هو عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، واستطاع أن يدخل الأندلس - ولذلك سُمِّي عبد الرحمن الداخل - وأن يقبض على زمام الحكم بها ويجعله وراثياً في أسرته لمدة ثلاثة قرون متوالية. وبذلك أثبت أن الدولة الأموية إذا كانت سقطت في المشرق فقد قامت في الأندلس وكل ما هناك أن العاصمة انتقلت من دمشق إلى قرطبة.

وأُحيط فرار عبد الرحمن إلى إفريقيًا ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات والأساطير، من ذلك أنه كان بإحدى قرى العراق مع أختين له وأخ صغير في الثالثة عشرة من عمره حين كان العباسيون ينكّلون بأفراد أسرته، وحاصرت جنودهم القرية،

والمقتبس من أنباء أهل الأندلس: الأجزاء المنشورة بتحقيق الدكتور مكى والحجى وشالميتا ومعه رفيقان. وراجع دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى.

(١) انظر في الدولة الأموية بالأندلس البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثاني وأخبار مجموعة والجزء الأول من المغرب وأعمال الأعلام لابن الخطيب، والذخيرة لابن بسام في خلفاء الحقبة الأخيرة للدولة الأموية ونفح الطيب في مواضع مختلفة وتاريخ ابن خلدون ١١٦/٤ وما بعدها

فاصطحب عبد الرحمن أخاه وحمل ما استطاع من المال وأوصى أخته أن يرسل إليه بموضع عينه لها في الشام مولاه بدرًا ومولاهما سالمًا. وحين كان بهم مع أخيه بعبور الفرات لحقتها جنود العباسيين وعرضت عليها الأمان، وكان التعب قد أخذ بخناق أخيه فاستجاب لهم. أما هو فألقى بنفسه في الفرات، وبمجرد أن وصل إلى الشاطئ رأى سيوف الجند العباسي تنوش أخاه، فحمد الله أن نجا بنفسه، واتجه إلى الموضع الذي عينه لأخته بالشام فوجد بدرًا وسالمًا في انتظاره ومعها مال وجواهر. ومضى معها مسرعًا إلى إفريقيا وأخذ ينتقل فيها بين قبائل البربر، واستقر عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة. وكان سالم قد أعياه طول التنقل فعاد إلى الشام أما بدر فظل مع مولاه. وتساقت مع هذه الأسطورة أسطورتان تزعم أولاهما أن والي المغرب أحسَّ بخطر عبد الرحمن فأرسل في طلبه، وكاد أن يقع في يد طالبيه، لولا أن خباته امرأة من قبيلة نفزة في ثيابها، وتزعم الأسطورة الثانية أن عم أبيه مسلمة بن عبد الملك كان على علم بالنجوم وأنها أخبرته أن الأمير عبد الرحمن سيحقق الأمر على يده. ولم يكن مسلمة على شيء من العلم بالنجوم، إنما هي أسطورة كالأسطورتين السابقتين وكأساطير أخرى تتصل برحلة عبد الرحمن وجميعها وضعها قصاص شعبيون بعد أن عظم شأن عبد الرحمن وبيته في الأندلس. وتساقت أخبار كثيرة عن إرسال عبد الرحمن بمولاه بدر إلى موالى أسرته الأموية في الأندلس واستجابتهم له واستجابة اليمينية التي طالما أيدت أسرته في صفين وفي مرج راهط. ودخل عبد الرحمن الأندلس وكوّن سريعًا جيشًا للقاء والي يوسف الفهري ومستشاره الصميل على مشارف قرطبة. واندرج جيشها وأسر الصميل ومات في السجن خنقًا، أما يوسف ففرَّ إلى طليطلة وفي إحدى قراها لقي حتفه.

وفي مساء هذا الانتصار في اليوم العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ للهجرة دخل عبد الرحمن القصر بقرطبة وصلّى بالناس وخطب في الجند معلنًا ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، وأخذ يحاول جادًا أن تكون دولته في قرطبة امتدادًا لدولة آبائه في دمشق، وكان أول ما مهّد به لذلك قطعه الخطة للعباسيين بعد عشرة أشهر من استيلائه في الأندلس على صولجان الحكم، وحاول بعض دعاة العباسيين أن يثوروا به في أول أمره، فقبض عليهم وحزّ رؤسهم، وقيل إنه وضعها في جواليق (أوعية) وعلى رأس كل منهم بطاقة تحمل اسمه وأرسلها إلى والي العباسيين في القيروان، وقيل: بل أرسلها إلى المنصور، فقال: الحمد لله الذي جعل بيني وبين عبد الرحمن صقر قريش بحرًا. وأخذ عبد الرحمن يعمل على تثبيت الحكم بالأندلس في بيته وأن يكون وراثيًا في أبنائه وأحفاده، وبذلك حمى

الأندلس لمدة ثلاثة قرون من الاضطرابات والحروب الأهلية وأن تتوزع إلى أندلسات كثيرة. كما حدث في القرن الخامس الهجري لعهد ملوك الطوائف.

وهذا الحكم الوراثي حاكى فيه عبد الرحمن وأبناؤه وأحفاده حكم أسلافهم الأمويين في دمشق، وكانوا - مثلهم - حكاماً مستبدين لا يشركون في حكمهم أحداً، فكل أزمة الحكم بأيديهم، وسنرى عوامل في الأندلس تلطف هذا الحكم الاستبدادى وتحففه، إذ كان علماء الدين والقضاة والعامّة يأبون في أحوال كثيرة إلا أن يُسمع لهم ويؤخذ بوجهات نظرهم، ولا نصل إلى عهد عبد الرحمن بن الحكم حتى ينشئ في الأندلس نظاماً للوزارة يشبه نظمها الحديثة. وعلى نحو ما كان الخلفاء الأمويون في دمشق يتخذون لأبنائهم المؤيدين والمعلمين كذلك اتخذ عبد الرحمن الداخل وأبناؤه المعلمين والمؤيدين لأبنائهم في قرطبة، وكان لذلك أثره في رعاية الأمويين في الأندلس للأدب وأهله وأيضاً للعلم وأصحابه على نحو ما كان أسلافهم في دمشق يرعونهم. وأسستوا سنة أسلافهم في بناء القصور بالبادية على نحو ما نعرف عن هشام جد الأسرة من بنائه لنفسه قصرًا بعيداً عن دمشق في البوادي سماه الرصافة أو منية الرصافة، وحاكاه في قرطبة حفيده عبد الرحمن الداخل فبنى لنفسه قصرًا شمالي قرطبة سوى قصره المواجه لجامعها الكبير اتخذه للتنزه ولسكنه في كثير من أوقاته، وتبعه أبناؤه يبنون لأنفسهم قصوراً خارج قرطبة، وكانوا كذلك يبنون دوراً لأبنائهم يعلمون فيها ويؤدّبون. واقتدى عبد الرحمن بأسلافه في بناء الجوامع والمساجد، وقد بدأ بناء جامع قرطبة الكبير وظل الأمراء بعده يزيدون فيه حتى أصبح يضارع الجامع الأموي الكبير في دمشق، إن لم يتفوق عليه، وبنى مسجداً في إشبيلية وفي بلدان أخرى متعددة. وعنى عبد الرحمن الداخل بالتنظيم الإداري والشئون المالية على نحو ما كان يعنى أسلافه الأمويون في دمشق. ومن تنمة هذه المحاكاة لأسلافه اتخذه داراً للسكة وضرب العملة فيها باسمه، واتخذه مذهب الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة أساساً للفتوى والقضاء في الأندلس، ومن تنمة ذلك أيضاً أن نجده يسمى وزيره عبد الواحد بن مغيث الغساني حاجباً بالضبط كما كان يسمى أسلافه في دمشق وزراءهم، وظل ذلك بعده فترة.

وشغل عبد الرحمن الداخل - وأبناؤه بعده - بثورات داخلية كثيرة على نحو ما شغل أسلافهم في دمشق بثورة ابن الأشعث في العراق وثورات الخوارج والشيعة، وكانت ثورات الأندلس دائماً حادة عنيفة بسبب ما كان بها من عصبية - متحدتاً عنها - بين اليمينية والمضرية، وبين العرب البلديين والشاميين، وبين العرب والبربر، وأخذت تظهر

عصبية جديدة هي عصبية المولدين من أبناء وأحفاد من أسلموا من الإِسبان وانضم إليهم المسألة (المسلمون الجدد من الإِسبان) وكذلك المسيحيون ممن استعربوا وغير المستعربين، وقد نادوا بأن البلد بلدهم وهم أحق بها وأخذوا يثرون، وشبت بسبب ذلك كله ثورات في الجزيرة الخضراء وباجة وإشبيلية وطليلة وأخدها عبد الرحمن جميعاً. وبجانب هذه الحروب الداخلية كانت هناك حروب في الشمال مع الإمارات الإِسبانية، وعلى نحو ما حوّل أسلافه في دمشق الحرب بينهم وبين بيزنطة، إلى حرب صوائف، وهي حملات صيفية كانت توجّه إلى حدود بيزنطة كذلك صنع عبد الرحمن وخلفاؤه في قرطبة. وبذلك توقفت حركة الفتوح التي رأيناها في عصر الولاة والتي كانت قد توغلت في جنوبي فرنسا الغربي حتى بواتيه ونهر الرون، إذ أخلى عبد الرحمن كل ما كان بأيدي العرب من أرض شمالي جبال البرينيه بفرنسا واقتصر على ما بيده من الأندلس. وكان بنفس عليه سلطانه واليان عربيان هما واليا سرقسطة وبرشلونة عاصمة قطلونيا وبلغا من خيانتها أن اتصلا بشارلمان ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب وأغرياه بغزو الأندلس سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م واقتحم جبال البرينيه وحاصر سرقسطة طويلاً واضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده، ولكن بعد أن أنشأ ولاية في قطلونيا مهدت لاستقلال تلك المنطقة. وفي أثناء عودته أخذ الأندلسيون وحلفاؤهم من البشكنس ينقضون على مؤخرته ومزقوها تمزيقاً هي وقائدها رولان الذي تكونت حوله - فيما بعد - ملحمة شعبية باسم ملحمة رولان.

وتوفي عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ وخلفه ابنه هشام بعهد منه، وقد بايعته العامة بقرطبة، مما يدل على أن الحاكم الأموي هناك كان يضع في اعتباره رضاها عنه، وليس ذلك فحسب. فقد اتخذ هشام مستشارين له من الفقهاء أو مشاورين يرجع إليهم في تدبير الأمور، ويروى أن مصعب بن عمران قاضي قرطبة حكم على أحد رجال هشام بحكم فشكاه إليه، فقال له: والله لو أمرني بالخروج عن مقعدى (إمارتى) لخرجت عنه. وعلى هذا النحو كان يخفف من حدة استبداد الحاكم الأموي في قرطبة الرعية التي كان يخشاها والقضاة والفقهاء أو علماء الدين، وظل ذلك مرعياً طوال أيام الأمويين في الأندلس حرصاً على طلب السمعة وحسن الأحدثوة بين الرعية. وظلت جيوش هشام تقضى على ثورات المسيحيين في الشمال إلى أن توفي سنة ١٨٠ للهجرة.

وولى بعده ابنه وولى عهده الحكم، وكان في السادسة والعشرين من عمره، وهو أول من استكثر من الصقالبة، إذ بلغوا في عهده خمسة آلاف. ومع حزمه كان يأخذ بشيء من

اللهو ويخرج للصيد، ولم تعجب سيرته الفقهاء والعامّة، وكثر تعرض الناس له في الطريق بالسبّ، فصلب في سنة ١٩٠ نفرًا من الفقهاء، مما جعل مراحل الغضب عليه تغلّى في قرطبة إلى أن انفجرت ثورة ضده في جنوبيها كان يقودها الفقهاء، واتسعت فشمّلت قرطبة، وتحركت جموع الشعب نحو قصره تطالب بعزله، فسُلط عليهم جنده من الصقالبة فسفكوا دماء كثيرين وتبعوهم في دورهم بالهدم والإحراق وهدموا الرّيبض الجنوبي منشأ الثورة ومركزها. وبعد ثلاثة أيام أعلن الحكم الأمان للتأثرين على أن يخرجوا من قرطبة، فخرج منهم جمهور إلى طليطلة، وخرج جمهور ثان إلى دار الحرب في الشمال وجمهور ثالث ركب البحر إلى الإسكندرية يبلغ نحو خمسة عشر ألفًا، وأنزلهم عبدالله بن طاهر والى مصر للمأمون جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأ وا فيها دولة إسلامية ظلت بها إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ للهجرة. وكانت جيوش الحكم ماتى غادية رائحة لحرب المسيحيين في الشمال، واستطاع البشكنس بقيادة ونقة الاستيلاء على مدينة بنبلونة سنة ١٨٣ وأقاموا من حينئذ مملكتهم نبارة وظلت وراثية في أبناء ونقة. وحاصرت في سنة ١٩٠ قوات فرنسية مدينة برشلونة، وسقطت بعد مقاومة عنيفة، وبذلك ضاع من أيدي العرب في الشمال الشرقي إقليم قطلونية كما ضاع إقليم بنبلونة، وكان قد ضاع في عهد عبد الرحمن الداخل إقليم جليقية وأشتوريش. ويقول ابن سعيد في المغرب إن الحكم كان من أشد بني أمية في الأندلس إقداما إلى ما جمع من جودة الضبط وحسن السياسة وكان يشبه بالمنصور العباسي في شد الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة، وتوفي سنة ٢٠٦ للهجرة.

وولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن، ويسمى عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر، وفي عهده تكاملت أسس الحضارة العربية في الأندلس، وكانت ثلاثة أسس من أسسها أخذت في الاستقرار هناك هي الدين الحنيف ولغته العربية ودعوته إلى العلم والتعلم وكانت الأندلس قد سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية، فدفعها عبد الرحمن الأوسط إلى العناية بعلوم الأوائل، وضم إلى ذلك أساسا رابعا هو الجانب المادى للحضارة الأندلسية، إذ شغف ببناء القصور وأثاثها ورياشها الفاخرة وحاكاه الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق وطرائفه، وانضم إلى ذلك أساس خامس فيما اكتمل للمجتمع من تكوين فني وحضارى عن طريق وفود زرياب المغنى تلميذ إسحق الموصلى على قرطبة في أول عهد الأمير عبد الرحمن وقيادته هنالك نهضة للغناء والموسيقى وبثه في المجتمع الأندلسي



## جوانب حضارية جديدة في الملبس والمأكل والهيئة.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه، وهو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسية من وجهة تنظيم الحكم وضبط قواعده إذ اتخذ مجلس وزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب، وجعل له ولمرءوسيه من الوزراء بيتا فى قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير للمال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير للثغور أو الحرب، وعدّ ابن حيان وزراءه وبلغ بهم ستة عشر طوال أيامه. وكان الوزراء يجتمعون مع رئيسهم يوميا، وكل منهم يعرض مسأله ويتشاورون فيها، وإذا قضوا بأمر عرضه الحاجب على الأمير، فإن قبله فيها والإرْدُ إلى مجلس الوزراء لإعادة النظر فيه. وعلى نحو ما عُنَى عبد الرحمن بتنظيم الوزارة عنى بالخطط، وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم وخطة الثغور، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، ويليه خطة صاحب الرد فيما استرايه الحكام وردوه عن أنفسهم، وخطة الشرطة الوسطى (وقد تسمى الكبرى) وكان لصاحبها الضرب على أيدي أصحاب المناصب والجاه فى الظلامات، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها خاصا بالعامّة، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق. وبذلك كله أحكم عبد الرحمن النظام الإدارى للدولة، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها. وكان لا يصدر فى أمر إلا بعد الرجوع إلى مجلس الوزراء، وكان له مستشارون من القضاة والفقهاء لا يحد عن مشورتهم، وبذلك كله أرسيت قواعد الحكم الأموى فى قرطبة، إذ أصبح الحاكم يحكم عن طريق مجلس الوزراء والقضاة ورجال الدين، مما جعل الحكم هناك شوريا إلى حد كبير. وكان يقال لأيامه أيام العروس لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء، وزاد فى جامع قرطبة رواقين فى الجنوب وبنى فى الأندلس جوامع كثيرة، وتولع مثله بيناتها جواريه.

وفى أيامه نشبت فتنة بين اليمينية والمضرية فى تدمير (مرسية) ظلت سبع سنوات إلى أن أخذت، وكثيرا ما كانت جيوشه تغزو المسيحيين فى الشمال، وأحيانا كان يقود تلك الحملات بنفسه ويغنم غنائم كثيرة. وغزا النورمان (سكان إسكنديناوة) شواطئ الأندلس الغربية عند أشبونة وقادس فى آخر سنة ٢٢٩ وصعدوا من مصب الوادى الكبير إلى إشبيلية، ونكل بهم قواده وولت فلولهم إلى المحيط. وأرسل إليه إمبراطور بيزنطة بهدية، فأرسل إليه الشاعر القرطبى يحيى الغزال بهدية ماثلة، ويقال إنه قضى فى بيزنطة ثلاث سنوات، ولما عاد أرسله بهدية إلى ملك النورمان، ونجح فى السفارتين

أوالوفادتين جميعا، وعنى عبد الرحمن الأوسط ببناء أسطول لحراسة الثغور على المحيط الأطلسى وعلى البحر المتوسط وفتح به سنة ٢٣٤ جزائر البليار ميورقه ومنورقة ومما يُذكر له بنيانه ثغر مُرسية على مقربة من ساحل البحر المتوسط. وفي أواخر أيامه أشعل المتعصبون من أحبار النصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين، وأثاروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسبِّ الدين الحنيف ومقدساته حتى إذا لم يبق في قوس الصبر منزع طلب عبد الرحمن إلى رئيس الأساقفة عقدَ مجمع كنسى في قرطبة للنظر في هذه المحنة، وعُقد المجمع وأصدر قرارا باستنكار هذه الفتنة الحمقاء وتحريم سب الإسلام. وهدأت الأمور، ولم يلبث عبد الرحمن أن لَبَّى نداء ربه في سنة ٢٣٨ للهجرة.

وولى بعده ابنه محمد بعهد منه، وطالت إمارته في الأندلس حتى وفاته سنة ٢٧٣ للهجرة، وكان محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث حسن السيرة، وزاد في ترتيب الأداة الحكومية مستكثرا من الوزراء حتى بلغوا ثلاثة وعشرين في عهده. وكان مثل آبائه يعامل المسيحيين معاملة حسنة، وفسح للمستعربين منهم ممن اتخذوا العربية لسانا لهم في مناصب الدولة، من ذلك تعيينه لقومس بن أنتينان متولى جمع الضرائب من أهل الذمة للدولة كاتباً له سنة ٢٤٦ ولم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه ويُذكر أنه استعفى الأمير محمداً أثناء اعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين، وأصبح ذلك بعده - كما يقول ابن حيان - عاماً في الأندلس. وفي سنة ٢٤٥ أغار النورمان غارتهم الثانية على شواطئ الأندلس الغربية على المحيط وشواطئها الشرقية على البحر المتوسط وصدَّهم الأسطول ونكَّل بهم، فلم يعودوا بعد ذلك للإغارة على الأندلس. وكثرت الفتن والحروب في عهد الأمير محمد كما كثرت الثورات، وفي مقدمتها ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقى في بطليوس بالغرب سنة ٢٦٠ وثوراة عمر بن حفصون في مالقة سنة ٢٦٧ ودخل في هذه الثورات عناصر جديدة من المسالمة (المسلمين الجدد) والمولدين (أبناء وأحفاد من أسلموا من الإيبان) وتحيزت النصارى إلى هؤلاء الثوار وصاروا إلبا على العرب يقولون نحن أولى بحكم الأندلس لأنها بلدنا ووطننا. وظلت الثورتان المذكورتان محتدمتين وظلت جيوش الأمير محمد تحاول القضاء على هذه الفتن مع خروجها من حين إلى حين لحرب المسيحيين في الشمال. وكان مشغوقا بالبنيان فزاد قصور آبائه فخامة، وبنى لنفسه قصرا أنيقا في الجنوب الغربى لقرطبة.

وخلف محمداً في حكم الأندلس ابنه المنذر لمدة عامين شغل فيها بحرب عمر بن حفصون في قلعة بْبشتر بين مدينتى رُنْده ومالقة، وحصره فيها، غير أن الأجل وافاه أثناء

الحصار، فعاد به أخوه عبد الله إلى قرطبة في صفر سنة ٢٧٥ وولى الإمارة بعده. وكان عبد الله يكثر من تلاوة القرآن والتهجيد وصلاة الجماعة مع العامة، وكان مجلسه يحفل بطبقات أهل الآداب والعلوم، وفتح للعامّة باباً في قصره لأخذ رقاعهم والنظر في ظلاماتهم، وبذلك انتعشت الرعية في عهده، غير أن الثورات والفتن تفاقمت تفاقماً شديداً في أيامه، حتى لقد كادت تعم كور الأندلس، إذ ماجت جميعها بالفتنة والثورة بين المولدين والمسالمين والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أو بين البربر والعرب أو بين العرب بعضهم وبعض فبجانب ثورتي عبد الرحمن بن مروان الجليقي وابن حفصون كانت هناك ثورات عبد الملك بن أبي الجواد في باجة وابن وضاح في لورقة بكورة مرسية وغيرهما كثيرون، سوى من ثار من البربر أمثال بنى ذى النون في شنتبرية. وفي أثناء هذه الفتن والثورات التي امتدت في عهد الأمير محمد وطوال عهد ابنه المنذر وعبد الله استطاع ألفونس الثالث ملك ليون والجلالفة أن يوسع رقعة مملكته حتى شملت الحوض الممتد بين نهري الدويرة والتاجه وأنشأ به عدداً كبيراً من الأديرة والكنائس، وأسكن هذه الأراضي الجديدة المستعربين من نصارى الإسبان الذين قدموا عليه من أرجاء الأندلس وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠ للهجرة.

وكان لا بد للأندلس من حاكم قوى حازم يعيد إليها وحدتها، ويبدو أن الأمير عبدالله شعر بذلك في عمق مما جعله يعد للأمر عدته برعايته لحفيد له صنعه على يديه هو عبدالرحمن، اتخذها ولياً لعهد، وكان يملك قلبه وقلوب الحاشية والرعية والجنود، وكان شاباً له اثنتان وعشرون سنة، وهاله ما رأى في الأندلس من كثرة الثورات، وفي مقدمتها ثورة عمر بن حفصون ومن قادمهم من المولدين والمسالمين والعجم، فقاد إليه جيشاً في أول سنة من سني حكمه، واستولى في طريقه إلى مركز ثورته في بيشتر بالقرب من مالقة على سبعين حصناً، وأعاد الكرة إليه في السنة التالية وردّ إلى طاعته إشبيلية وشذونة ومالقة. ولم يجد ابن حفصون مفراً في السنة الثالثة من إعلان طاعته والانقياد إليه، وتوفي سنة ٣٠٥ وتبين أنه كان قد تنصر إذ دُفن في كنيسة بيشتر، وثار أبناؤه على عبد الرحمن وقضى على ثوراتهم نهائياً سنة ٣١٤ وحوّل كنيسة البلدة إلى مسجد، واستخرج منها جثة ابن حفصون وصلبه بقرطبة، وعاد جنوب البلاد جميعه إلى طاعته. واتجه عبدالرحمن بعد ذلك إلى غربي الأندلس وعبدالرحمن بن مروان الجليقي، ولم تكد تدخل سنة ٣١٨ حتى كان الغرب كله قد استسلم، واستسلمت طليطلة وجميع البلدان في إقليمها. وبذلك محا عبد الرحمن فكرة الثورة في الأندلس وعاشت في أمن ورخاء. وأخذ منذ السنوات الأولى من حكمه يفرض

هيته على من جاوره من المسيحيين الإسبان في الشمال وأذعنت له بالولاء مملكتنا الجلالقة والقشتاليين واتخذتا منه الحكم المطاع فيما ينشأ بينهما من خلاف، وفزع إلى سُدته ملوكهما وأمرأؤهما يلتمسون رضاه، وطار صيته في أوروبا، فوفدت منها سفارات كثيرة محملة بالهدايا: من إمبراطور بيزنطة والبابا في روما وإمبراطور المملكة الجرمانية وهيو ملك الفرنجة وكونت برشلونة وماركيز توسكانيا وماركيز بروفنسا: قلدو الذي أصبح - فيما بعد - ملكا على إيطاليا. وكانت تعقد لهذه السفارات في قصره حفلات فخمة<sup>(١)</sup>. وكانت الدولة الفاطمية قد قامت في القيروان قبيل حكمه بقليل وقضت على الدولة الرستمية في المغرب الأوسط فأخذ يرسل المال والسلاح للأدارسة في المغرب الأقصى حتى يستطيعوا الوقوف في وجه الفاطميين واستولى على طنجة وسبتة، ورأى بثاقب فكره وقد أعلن عبيد الله المهدي الخلافة الفاطمية في القيروان ولم يعد للعباسيين وجود في المغرب أن يبادر إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين في أواخر سنة ٣١٦ وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر. وبذلك فصل الأندلس عن العالم العربي بعد أن ظلت طويلا تخضع لسultan العباسيين الروحي قبله، إذ رأى هذا السلطان يتقلص في إفريقيا، وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية، وأصدر في ذلك منشورا قرىء على الناس في مساجد الأندلس، وفيه أعلن تمسكه بنصرة أهل السنة والجماعة، مع استنكاره الشديد لعقيدة ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ أي بعد منشوره بنحو سنتين، وكان قد مزج في عقيدته بين مبادئ المعتزلة والمتفلسفة والصوفية.

وبلغ من احتفاء الناصر بأبهة الملك أن بنى لنفسه وحواشيه وجنده مدينة الزهراء على سفح جبل العروس المطل على قرطبة. وتأنق غاية التأنق في قصره بها وأبهائه، ولم ينشأ له ولد إلا بنى له فيها قصرا مقرونا ببستان واختار له بعض الكفاة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربيته وتعليمه. وعنى بالمسجد الجامع في قرطبة، فأضاف إليه في اتجاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه. وعنى بعمده وزخرفته وأقواسه وأقام به محرابا بديعا. ومن إنشاءاته الضخمة بناؤه مدينة سالم في الثغر الأوسط بمواجهة مملكتي نبارة والجلالقة في الشمال لتكون مركزا للجيوش المجاهدة هناك. وبنى أيضا مدينة المرية على البحر المتوسط لتكون قاعدة لأسطوله. ويعدّ عهده أعظم عهد مرّ بالأندلس، بما أتاح لها من الاستقرار

و ٢٧٢/٢ وما بعدها.

(١) انظر في ذلك تاريخ ابن خلدون ١٣٧/٤،

١٤٢ وما بعدها، وأزهار الرياض ٢٥٨/٢

والوحدة والمنزلة العليا بين الدول الغربية والعربية، وأعانتة على ذلك حنكته في السياسة وتديبر الحكم وخبرته الدقيقة في اصطفاء الرجال واختيار القواد، كما أعانه خلق إسلامي عربي كريم من التسامح والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد لكل من استسلم من الثوار مع حسن المعاملة. وطالت مدة حكمه إلى سنة ٣٥٠ إذ استغرقت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ويقال إنه عدّد أيام السرور التي صَفّت له في هذه المدة الطويلة من حكمه، فكانت أربعة عشر يوماً.

وخلفه بعهد منه ابنه الحكم المستنصر وكان في السابعة والأربعين من عمره، وظلت الأندلس في عهده موحدة وظلت للخلافة الأموية هناك هيبتها في الداخل والخارج، وأخذت سفارات<sup>(١)</sup> ممالك النصرى في الشمال وممالك أوروبا تفد على قرطبة. وحاول البشكنس في بنبلونة والجلالقة في ليون الإغارة على بلاده فأوغلت جيوشه سنة ٣٥٢ في أراضيها، وأرغمتها على العودة إلى إعلان ولائها لقرطبة. وتابع سياسة أبيه في إمداد الأدارسة بالمغرب الأقصى بالمال والسلاح، وأمدهم بالجنود ضد الفاطميين. وفي عهده عاد النورمان إلى الإغارة على شواطئ الأندلس الغربية في المحيط والشرقية في البحر المتوسط ونكل بهم الأسطول غرباً وشرقاً. وكان قد تعهده العلماء في شبابه فشُغف بالعلوم على اختلاف ألوانها واستحال جامع قرطبة لعهدِه إلى جامعة كبرى، وعُنى عناية واسعة بمكتبته ومكتبة القصر. وكان أبوه توفي قبل إتمامه للزيادة في الجامع فأتمها. ووقع في خطأ كبير إذ أوصى بالحكم من بعده لابنه هشام الملقب بالمؤيد وكان لا يزال طفلاً صغيراً في الثانية عشرة من عمره حين وفاته سنة ٣٦٦ وبذلك عرّض الدولة لحكم الحجاب الأوصياء وبالتالي لزلزلة لا بد أن تنزل بها سريعاً.

وقام بأمر المؤيد في أول خلافته جعفر المصحفي حاجب أبيه، وأشركت معه فيها «صبح» أمه محمد بن أبي عامر المعافري صاحب خطة الشرطة والسكة بقرطبة وكان قد ازدلف إليها في عهد الحكم بحسن الخدمة والقيام بمواقع الإرادة، وأخذ يُعدُّ سريعاً لتفرده بالحجابة، فأغرى المصحفي بالصقالية وأخذ ما في أيديهم من الأموال العظيمة، واستعان بالبطل غالب صاحب مدينة سالم على جعفر فسجنه حتى هلك في سجنه، ثم بجعفر بن على الأندلسي أمير الزاب بالمغرب الأوسط على غالب ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيبى على جعفر، ثم فتك بعبد الرحمن، وخلصت له الحجابة، وكان المؤيد متخلفاً شديد

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ١٤٥/٤ وما بعدها وأزهار الرياض ٢٨٨/٢ وما بعدها.

التخلف إلى حد البله، فانفرد بالسلطان المطلق في الحكم، ونقل الأموال المخترنة في قصر الخلافة إلى داره. وذكر ابن حزم في رسالته نقط العروس أنه فكر في عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة، واستشار نقرأً من الفقهاء فاختلّفوا بين مؤيدين ومعارضين، فرجع عن ذلك واكتفى بلقبه المنصور. وكان له مجلس معروف في أحد أيام الأسبوع يجتمع فيه إلى أهل العلم. ورأى أن يتخذ لنفسه جيشاً من البربر، فاستقدم منهم آلاف أعانوه في غزواته الكثيرة ضد البشكنس أصحاب نبارّه والجلالقة أصحاب ليون. ويقال إن غزواته أربت على عشرين غزوة وقيل بل على خمسين، واستولى في إحداها سنة ٣٧٧ على برّشلونة.

وقد أخطأ ابن أبي عامر في تكوينه الجيش البربرى الذى أنزله في قرطبة إذ سيكون له - فيما بعد - أثر سيء في فتنتها التي طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية. ودامت دولة ابن أبي عامر ستاً وعشرين سنة إذ توفي سنة ٣٩٢ بمدينة سالم في الثغر الأوسط للبلاد. وتولى الحجابة بعده هشام المؤيد ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، ونوّه ابن حيان بحسن ضبطه للأندلس وأن الناس سكنوا منه إلى عفة ونزاهة فأخذوا في المكاسب والرفاهية وارتفعت نفائس الأعلاق والتحف الثمينة، ورام صهره ابن القطاع الاستيلاء على أزمّة الدولة ففطن له وقتله. وسار بسيرة أبيه في الجهاد وكثرة الغزو للجلالقة والبشكنس واحتل بنبلونة عاصمة الأخيرين سنة ٣٩٧ وتوفي في غزوة كبيرة له سنة ٣٩٩. وخلفه في الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر وكان نحساً على نفسه وعلى المؤيد هشام وعلى أهل الأندلس، إذ انفتح منه - كما يقول ابن سعيد - باب الفتنة العظمى وفسد التاموس، لما انهمك فيه شرباً وزندقة وطعنا في الدين الحنيف قولاً وفعلاً، وطلب من هشام أن يوليّه العهد بعده ففعل، وخرج لحرب المسيحيين في الشمال، فنارت عليه الأسرة الأموية، وكان في طليطلة، فرجع إلى قرطبة ليتدارك الأمر فتلّقه جند سفكوا دمه في جمادى الأولى سنة ٣٩٩. وبذلك انتهت دولة بني عامر.

واتفق بنو أمية على خلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وتلقيه بالمهدى، وكان طائشاً: فرأى - بغير روية - مناصبة جند العامريين من البربر العداء، فاجتمع بهم بظاهر قرطبة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فبايعوه في ربيع الأول سنة ٤٠٠ للهجرة ولقبوه بالمستعين، ونهضوا به إلى طليطلة وهناك استنصر بالجلالقة فنصروه، وكان ذلك أول إسفين دق في ضياع

الأندلس، وحاصر البربر وجموع الجلالقة قرطبة وبرز إليهم المهدي في كافة أهلها، وهُزم مع أنصاره هزيمة ساحقة، فرُّ على إثرها إلى طليطلة، فاستعان بالجلالقة - مثل المستعين - فأعانوه، ودخل قرطبة، غير أن أهل القصر قتلوه وأعادوا هشاماً إلى خلافته، وحجبه واضح الصقليبي، وحاصر البربر مع المستعين قرطبة وأرسل إلى الجلالقة ليمدوه، وبعث إليهم هشام وحاجبه واضح بالتنازل لهم عن ثغور قشتالة التي استولى عليها المنصور بن أبي عامر، فلم يلبوا المستعين. واستطاع البربر اقتحام قرطبة سنة ٤٠٣ وفتكوا بهشام المؤيد، وعاد للمستعين صولجان الحكم.

وكان من قواد البربر على بن حمود وأخوه القاسم وهما من أسرة الأدارسة العلوية، وعقد المستعين لعلى بن حمود على طنجة وعملها وللقاسم على الجزيرة الخضراء، وظل في الحكم طوال خلافته ست سنوات وعشرة أشهر كانت كلها شداداً مشثومات، ويكفي دولته ذلاًّ ودُماً أن أنشأها وثبَّتْها الجلالقة حتى سنة ٤٠٧ إذ يهاجم على بن حمود قرطبة ويستولى على أداة الحكم ويقتل المستعين. وكان واضح الصقليبي قد فر إلى شاطبة وفر كثير من الصقالبة بزعامة خيران إلى المريّة ومُرسية ونزلت جماعة منهم دانية، ولم يلبث غلمان على بن حمود أن قتلوه سنة ٤٠٨ فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه في سنة ٤١٢ يحيى ابن أخيه على وكان والياً لسبته واستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلى وفرَّ المأمون إلى إشبيلية وعاد ببعض البربر إلى قرطبة ولحق المعتلى بالقة واستولى على الجزيرة الخضراء. وثار على المأمون أهل قرطبة وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار سنة ٤١٤ وقرب البربر منه فوثب عليه العامة بعد ٤٧ يوماً من حكمه، وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب المستكفي بالله ويقال إنه لم يجلس على كرسى الخلافة أيام الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ كان أسير الشهوة عاهر الخلوة. وفي أيامه استؤصلت بقية قصور جده الناصر في الزهراء، ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن تحرك سنة ٤١٦ للاستيلاء على قرطبة. فهرب المستكفي ومات ببعض الثغور واستولى يحيى على مقاليد الأمور، وثار عليه أهل قرطبة سنة ٤١٧ وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد في الثغور ثلاثة أعوام، ثم سار إلى قرطبة وتلقب بالمعتدّ، وفي سنة ٤٢٢ خلعه أهلها، وبذلك انتهت الدولة الأموية في الأندلس.

## أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحراف في غرناطة

### (أ) أمراء الطوائف<sup>(١)</sup>

تقوُّض الصرح الشامخ الذي شاده بالأندلس أمراء البيت الأموي وخلفاؤه، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة واستقلال مدنها الكبرى بأعمالها وقيام النظام المسمى بنظام أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف، وقد بدأ منذ زمن الفتنة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) إذ أخذت العناصر المختلفة تقتسم تلك البلدان، فكان للصقالبة أكثر بلدان الشرق وللعرب والبربر بلدان الوسطة والغرب والجنوب. وتنافست هذه البلدان تنافساً أدى إلى طور حضارى راق كما أدى إلى نهضة واسعة في الأدب والعلم. وفي الوقت نفسه أخذت تتحارب فيما بينها، بل أدهى من ذلك أن بعض أولئك الأمراء أدى الجزية صاغراً لمسيحيي الشمال مما قوَّى في نفوسهم فكرة استرداد الأندلس من العرب المسلمين. ونفق قليلاً عند أهم المدن التي تكوَّنت فيها هذه الإمارات.

وأول مدينة نفق عندها قرطبة وقد اجتمع الملاء فيها أو كبار رجالها ووقع اختيارهم على أبي الحزم جهور ليكون أميناً على حكمها، وبذلك تأسس فيها نظام جمهوريَّ ارستقراطي يرأس الحكم فيه أبو الحزم جهور، ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم في المسائل المهمة، وخلفه في الحكم سنة ٤٣٥ ابنه أبو الوليد محمد باتفاق الملاء، وفوِّض

أمراء غرناطة (طبع دار المعارف) ودول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والصقالبة للعبادي (طبع مدريد) والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال (ترجم إلى العربية) طبع القاهرة والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادي (طبع بيروت).

(١) انظر في هؤلاء الأمراء الذخيرة لابن بسام والمغرب لابن سعيد في بلدانهم والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والحلة السيرة لابن الأبار في تراجمها، وكذلك التكملة، والجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والثاني من أعمال الأعلام (طبع بيروت) وكذلك الرابع بتحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ونفح الطيب للمقرى (بتحقيق إحسان) في مواضع مختلفة والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر



التدبير إلى ابنه عبد الملك، فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذى النون، فاستغاث بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فوجه إليه ابنه الظافر سنة ٤٦٢ في عسكر كثيف ففك ابن ذى النون حصاره، وغدر الظافر بعبد الملك فخلع بنى جهور عن قرطبة ونفاه مع أبيه إلى شلطيخ في الجنوب الغربى للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلاً، فأقبل المعتمد بجنوده وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المعتمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون فظل يدير شئونها إلى أن قتله المرابطون سنة ٤٨٤ للهجرة.

وتعدُّ إمارة إشبيلية أهم إمارات الطوائف لما قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى ولما صار إليها من بلدان كثيرة في شرقي الأندلس وغربيها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيها محمد بن إسماعيل اللخمي منذ سنة ٤١٤ إلى أن توفى سنة ٤٣٣ وخلفه ابنه عباد الملقب بالمعتضد وكان جباراً سفاكاً للدماء وأحاط نفسه بكوكبة كبيرة من الشعراء واتسع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر بينما كان يرهب المسيحيين في الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغراً، وبذلك كان معولاً كبيراً لهدم الإسلام والعروبة في الأندلس. وتوفى سنة ٤٦١ فخلفه ابنه المعتمد وفي عهده بلغت الإمارة الذروة في السلطان إذ دان له كثير من البلدان في غربي الأندلس مثل قرمونة وشريش وشلب وفي شرقيها مثل مالقة ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغراً لملك ليون وقشتالة، وكان شاعراً واجتمع له من الشعراء ما لم يجتمع لأى حاكم أندلسي، وكان مولعاً بالشراب ومجالس الغناء، وعزله يوسف بن تاشفين في عبوره سنة ٤٨٤ ونفاه إلى أغمات في المغرب، وبها توفى سنة ٤٨٨ للهجرة.

وقامت في الجنوب إمارة ثالثة هي إمارة غرناطة تملكها صنهاجة وأول أمرائهم بها زاوى بن زبرى الذى اشتهر بهزيمته لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى الروانى بالخلافة وزحف به على غرناطة. وخاف الكرة عليه من أهل الأندلس فرحل بما حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه في المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن (٤١٠ - ٤٢٩ هـ) وورثه ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكان من أبطال الحروب وعظم سلطانه بهزيمته لزهير صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩ هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين، وظل على غرناطة، إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ للهجرة.

وقامت في الثغر الأعلى إمارة سرقسطة، ثار بها منذر بن يحيى التجيبى ممدوح ابن دراج، وتوفى سنة ٤١٤ فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له فدخل عليه قصره وقتله، فانتهاز الفرصة واليه على لاردة - وقيل

على تطيلة - سليمان بن أحمد بن هود وانقضَّ على سرقسطة سنة ٤٣١، فهرب القاتل وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بني هود وكان فارسا مغوارا وله غزوات مشهورة للمسيحيين في الشمال، وكان شاعرا وممدحا للشعراء. وجمع ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشا ضخما للاستيلاء على سرقسطة وباءت حملته بالإخفاق الذريع فأعاد الكرة سنة ٤٥٦ وفاجأ النورمانديون بلدة بربشتر على مسافة ٦٠ كيلو مترا في الشمال الشرقي من سرقسطة واقتحموها وأنزلوا بأهلها مذبحه بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهن في الأسواق ببيع الإماء، وبارك البابا إسكندر هذا العمل الوحشي الفظيع. واستعاد المقتدر البلدة حين استدار العام ومزق المعتدين شر ممزق، ودانت له وشقة في الشمال الغربي من بربشتر وطرطوشة في الجنوب الشرقي من سرقسطة، وأخرج إقبال الدولة بن مجاهد من دانية على البحر المتوسط وأدخلها في إمارته، وتوفي سنة ٤٧٤ وخلفه ابنه المؤمن يوسف وكان شجاعا باسلا وحاميا للعلماء والشعراء وتوفي سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه المستعين أحمد، وحين استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف رأى أن يتركه حاجزا بينه وبين المسيحيين في الشمال، وتوفي شهيدا في حروبه معهم سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه عماد الدولة عبد الملك، وحاول على بن يوسف بن ناشفين أخذ الإمارة منه، فاستعان بالنصارى وتملكها المرابطون حتى سنة ٥١٢ إذ حاصرها النصارى واستولوا عليها وأخذوا في تملك بلاد الثغر الشمالي الأعلى إلى أن ملكوها جميعا.

ومن الإمارات المهمة في مَوْسَطَة الأندلس إمارة طُلَيْطَلَة ثار فيها زمن الفتنة في أواخر الدولة الأموية قاضيها ابن يعيش، وتوفي سنة ٤١٩ فتملكها إساعيل بن ذى النون وأسرته البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف، وتوفي سنة ٤٢٩ فخلفه فيها ابنه المأمون يحيى، وهو أعظم أمرائها قدرا، اجتمع عنده جلة من الشعراء والكتاب، وعنى ببناء قصر له تأتق فيه غاية التأتق مما جعل الأدباء والشعراء يطنبون في وصفه، وتوفي سنة ٤٦٧ وخلفه حفيده القادر يحيى وكان قصير النظر سيء التدبير، وفغر ألفونس السادس فاه على ثغوره وجعل يطويها - كما يقول ابن سعيد - طى السجل للكتاب، فثار عليه أهل طليطلة وهرب إلى بعض حصونه وتملكها المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس لمدة عشرة أشهر، واستردها القادر بمعونة ألفونس السادس، وأسلمها له سنة ٤٧٨ على أن يساعده في أخذ بلنسية، فأخذها لمدة عامين إلى أن قتل سنة ٤٨١. وكان قد تملكها زمن الفتنة صقليين هما مبارك ومظفر وصارت لحفيد للمنصور بن أبي عامر يسمى عبدالعزیز

سنة ٤١٧ وظل يدبر شئونها حتى سنة ٤٥٢ ووليها بعده ابنه المظفر عبد الملك، واستولى عليها القادر وثار عليه قاضيها ابن جحّاف، وأخذ فارس نصراني يغير عليها هو السيد القنبيطور واستسلمت له سنة ٤٨٧ فنكل بأهلها وذبح الآلاف منهم وأحرق قاضيها حيًّا، ومات سنة ٤٩٢ واستولى عليها المرابطون سنة ٤٩٥.

ومن إمارات الشرق المهمة - بجانب إمارة بلنسية - إمارة دانية تملكها أول الأمر في مدة أمراء الطوائف مجاهد الصقلي منذ سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٣٦ وكان محبا للعلماء مجزلا العطاء لهم وللشعراء، وكان قد تملك مع دانية جزر البليار، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ومنه تسلم دانية المقتدر صاحب سرقسطة سنة ٤٦٨ وخلفه على ميورقة مولاه أغلب وتولاها بعده مبشر الصقلي وألت إلى المرابطين.

ومن الإمارات المهمة في الشرق مُرْسِيَّة، وهي - كما أسلفنا - من بنيان عبد الرحمن الأوسط، وثار بها في زمن أمراء الطوائف المرتضى الرواني وبايعه الصقالبة الذين تغلبوا على الشرق وذهبوا به إلى غرناطة، فهزمهم زاوى بن زبرى وقتل المرتضى في المعركة، وخلفه على مرسية أبو عبد الرحمن بن طاهر، وثار عليه أهلها وراسلوا المعتمد بن عباد فأرسل إليهم وزيره ابن عمار الشاعر فأخذها من يده وثار بها لنفسه، وثار عليه القائد عبد الرحمن بن رشيق، وتملكها أبو الحسن بن اليسع باسم المعتمد بن عباد ثم صارت للمرابطين. ومن إمارات الشرق أيضا المرية وهي من بنيان الناصر على البحر المتوسط وقد تملكها الصقالبة ثم معن بن صادح إلى أن توفي سنة ٤٤٣ وورثها ابنه المعتصم، وكان شاعرا وكريما جزل العطاء للشعراء، توفي سنة ٤٨٤ وجيش المرابطين يحاصره.

ومن إمارات الغرب المهمة إمارة بطليوس، تملكها زمن أمراء الطوائف الأفضس عبد الله حتى سنة ٤٣٠ فورثها عنه ابنه المظفر وهو من أعلم أمراء الطوائف وأدبهم، وخلفه عليها ابنه المتوكل سنة ٤٦٠ ويؤثر له أنه انتدب أبا الوليد الباجي كبير فقهاء الأندلس في زمنه ليدعو أمراء الطوائف إلى توحيد كلمتهم ضد نصارى الشمال، غير أن دعوته - بسبب أطعاهم - ذهبت أدراج الرياح، ومن يد المتوكل أخذ المرابطون هذه الإمارة وما كان يتبعها من المدن مثل أشبونة.

(ب) المرابطون<sup>(١)</sup>

رأينا ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة يغير على ثغور طليطلة وما يلبث أن يستولى عليها سنة ٤٧٨ وهى نتيجة طبيعية لتفتت الأندلس وتوزعها بين أندلسات أو إمارات تتناحر وتتحارب بينما تؤدي الإتاوات لألفونس السادس وأمراء أراجون ونبارة وبرشلونة، تؤديها إشبيلية وبطليوس وغيرها. وأحس أمراء الأندلس وفي مقدمتهم المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس أن ما أصاب طليطلة أصبح قاب قوسين أو أدنى إلى إصابة إماراتهم، فتقع فريسة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة أو لغيره من الأمراء المسيحيين في الشمال، وأجمعوا أمرهم على أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، وأرسلوا إليه نفرا من قضاة مدنهم الكبرى يستنفرونه - واستنفره كثير من الفقهاء - للوقوف معهم في وجه أعدائهم الشماليين من المسيحيين، وكان المرابطون قد نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بالصحراء الكبرى والسنغال. واستمع يوسف إلى القضاة، وهاله الأمر، فجهز سريرا جيشا جرارا وأعد له أسطولا عبر به في سنة ٤٧٩ الزقاق، واتجه إلى إشبيلية، وانضم إليه المعتمد صاحبها تواء، وبالمثل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والمتوكل أمير بطليوس، وعلم ألفونس بمقدمه فاستغاث بملوك النصارى في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجاءته سيول من الفرسان، والتقى الجمعان في الزلاقة بالقرب من بطليوس، ودارت معركة حامية الوطيس سحق فيها جيش ألفونس، وفر على وجهه مع الفارين. وتصادف أن توفي ابن ليوسف بن تاشفين فعاد إلى المغرب بعد هذا النصر المبين ولو تابع تقدمه لاسترد طليطلة، وكأنه اكتفى بتقليم أظافر العدو، وسرعان ما عاد ألفونس للإغارة على شرقى الأندلس، وعلم بذلك ابن تاشفين، فجاز إلى الأندلس جوازه الثاني سنة ٤٨١ وكاد ينزل بألفونس ما أنزله به في الزلاقة،

للنصارى وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادي (طبع بيروت) وعصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى (طبع دار القلم) ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع (نشر مكتبة النهضة المصرية).

(١) انظر في المرابطين: الجزء الثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والرابع (طبع بيروت بتحقيق إحسان عباس) والثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء بالمغرب) ونفح الطيب للمقرى وتاريخ ابن خلدون والحلة السيرة والتكملة لابن الأيبار والمعجب للمراكشى ونظم الجبان لابن القطان (تحقيق د. مكى - طبع الرباط) والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى

غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب بعد أن ترك في الأندلس حامية. وسرعان ما دبَّ الشقاق بين أمراء الطوائف فجاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة سنة ٨٤٣ مصمماً - بمشورة الفقهاء الأندلسيين - على إنهاء حكم هؤلاء الأمراء، واستسلم له سريعاً أمير غرناطة، واضطر إلى العودة إلى المغرب وترك لصره سير بن أبي بكر تنفيذ الخطة، فاستنزهم جميعاً ومن أبي أخذه أسيراً مثل المعتمد بن عباد الذي نُفي إلى أغيات بالمغرب، أو قتله بعد حصاره مثل المتوكل صاحب بطليوس. وبذلك أظلَّ حكم ابن تاشفين الأندلس ما عدا سرقسطة، فإنه تركها لبني هود لتكون حاجزاً بين الأندلس ونصارى الشمال، وعبر إلى الأندلس مرة رابعة سنة ٤٩٠ لأخذ البيعة لابنه على وتوفي سنة ٥٠٠ للهجرة.

وتولى على ابنه الحكم بعده فحاول الاقتداء بأبيه في الجهاد فعبر إلى الأندلس سنة ٥٠١ ووجه أخاه تيمياً بجيش إلى أقليم شرقى طليطلة، والتقى بألفونس وأوقع به هزيمة ساحقة قُتل فيها ولي عهده - وكان ابنه الوحيد - فتوفي متأثراً بفقدته، واستولى تيم على أقليم وشنَّتبرية. وفي سنة ٥٠٣ غزا جيش المرابطين أراضي طليطلة واستولى على طليطلة غربيها، واستعاد المرابطون جزائر البليار سنة ٥٠٩. وكان على بن يوسف قصير النظر فحاول أخذ سرقسطة من بني هود، واستولى عليها كما مر بنا، وسرعان ما أخذها منه النصارى سنة ٥١٢. واشتبك المرابطون سنة ٥١٤ مع ألفونس الأول ملك أراجون في معركة بكتندة ولم يكتب لهم النصر. وفي سنة ٥١٩ استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول للاستيلاء على بلدهم فاندفع إلى الجنوب، وردَّه المرابطون على أعقابهم، وأجلَّوا عن غرناطة من كانوا سبباً في استدعائه من النصارى إلى سلا ومكناسة بمراكش. وفي سنة ٥٢٨ وجه على بن يوسف جيشاً بقيادة يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية إلى إفراغة شرقى سرقسطة، ولقى جيشاً لألفونس ملك أراجون فمزقه شر ممزق. وتوفي على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٥٣٧ وخلفه ابنه تاشفين وكان ضعيفاً مما أذن بنهاية تلك الدولة.

وقد حمل كثير من المستشرقين في مقدمتهم دوزي وبيروغنس على تلك الدولة زاعمين أنها كانت دولة بدو جفاة لا عهد لهم بالحضارة، وفاتهم أن أهل المغرب اعتنقوا الدين الحنيف من قديم وأخذوا بقسط من حضارته الإسلامية وكل ما اتصل بها من علوم وآداب، فليس بصحيح أنهم كانوا بدوا جفاة وقد فتح سلاطينهم أبوابهم في مراكش للعلماء والشعراء الأندلسيين واختاروا لرياسة دواوينهم في حاضرتهم أبا بكر بن القصيرة كبير

كتاب الإمارة العبادية بإشبيلية، حتى إذا توفى سنة ٥٠٧ خلفه زميل له من كتاب تلك الدولة هو أبو القاسم بن الجدة، وتوفى سنة ٥١٥ فخلفه الكاتب الأندلسي البارع ابن أبي الخصال، وكان يساعد الثلاثة جميعا كتاب من الأندلس. وقد ازدهرت في عهد المرابطين العلوم اللغوية وعلوم الدراسات الإسلامية وكذلك الدراسات الفلسفية ولمع فيها فيلسوف كبير هو ابن باجة. وشجّع حكام المرابطين في الأندلس الحركتين العلمية والأدبية وفتحوا أبوابهم على مصاريعها للشعراء، على نحو ما يوضح ذلك ديوان ابن خفاجة ومدائحه فيه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف الفتح بن خاقان باسمه كتابه فلائد العقيان، وكذلك مدائحه لأخيه تميم حاكم غرناطة ثم إشبيلية والأندلس ولأخيها سلطان المرابطين: على ولابن تيفلويت حاكم سرقسطة راعى ابن باجة والحركة الفلسفية ولأبي عبد الله محمد بن الحاج حاكم قرطبة وابنه أبي بكر. وتبرز من نسائهم راعيات للأدب مثل مريم زوجة تميم بن يوسف ممدوحة ابن خفاجة، وأهم منها السيدة حواء زوجة أهم قوادهم سَير بن أبي بكر حاكم إشبيلية مددا متطاوله ممدوحة الأعمى التطيلي، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة يحضرها كبار الشعراء والمتفلسفة، وتحاورهم في الشعر ونقده على نحو ما حدث فيما بعد بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وظهور سيدات متأديات فيها على غرارها، وكان لهن صالونات يتحاور فيها أدباء باريس الناهون.

وحقا كان لفقهاء المالكية سطوة كبيرة في عصر المرابطين، وهي سطوة لا ترجع إلى المرابطين ذات أنفسهم، وإنما ترجع إلى أن هذا العصر أتى بعد عصر فساد في الحكم انتشر فيه اللهو، وأصبحت الأندلس أندلسات وإمارات كثيرة بل شراذم، والجيران والإخوان يتحاربون، والعدو فاعرٌ فاه، يكاد يلتهمهم جميعا، مما جعل الفقهاء يستغيثون بالمرابطين وابن تاشفين كي ينقذوا الأندلس مما تحولت إليه من دار هو كبيرة ممزقة، واستنقذها المرابطون ومن ورائهم ومعهم الفقهاء يؤيدون ويساعدون، فكان طبيعيا أن يعظم شأنهم في هذا العصر بالقياس إلى عصر أمراء الطوائف عصر اللهو والفساد. وكان من أخطاء بعضهم أن أفنوا بأن الغزالي مجدد الإسلام المصلح يعد من المبتدعة، مما أدى إلى ظهور حركة دينية إصلاحية جديدة هي حركة الموحدين التي عجلت بسقوط دولة المرابطين. وفي هذه الأثناء انتهز نفر من رؤساء المدن في الأندلس الفرصة فاستقلوا بها، وكان أولهم ابن حمدين قاضي قرطبة وتبعه في بطليوس ابن قسى وفي المرية يوسف بن مخلوف ثم الرميمي وفي مرسية عبد الله بن عياض ثم صهره ابن مردنيش وتبعته بلنسية وطرطوشة

وجيان وظلت الجزر الشرقية مع بني غانية حتى سنة ٥٨٠ إذ صارت لدولة الموحدين.

### (ج) الموحدون<sup>(١)</sup>

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت، وهو مصلح ديني مغربي زار المشرق وتلمذ على أساتذته من الأشعرية وغيرهم، وعاد إلى المغرب فنظم فيه ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهائهم المالكية الذين كانوا يهتمون في دراسة الفقه بالفروع دون الأصول، وتبعه خلق كثيرون وجعلهم طبقات: الطبقة الأولى سبها الجماعة، وسمى الطبقة الثانية باسم الموحدين وألف منهم جيشاً ضخماً واقع به المرابطين سنة ٥٢٤. وتوفي سريعاً فخلفه عبد المؤمن بن علي حتى وفاته سنة ٥٥٨ للهجرة، وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة، إذ استطاع القضاء نهائياً على دولة المرابطين، وتبعه المغرب من طرابلس إلى المحيط، وتم له ملك أكثر الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وكان ابن الرنك صاحب قلmerية شمالي نهر تاجه بالقرب من المحيط قد استولى على أشبونة وشنترين وقصر أبي دانس، وهو يعد أول ملوك البرتغال بينما استولى ابن مردنيش على شرقي الأندلس وولى صهره إبراهيم بن همشك على جيان، فنازلها الموحدون وقصوا عليها في الستينيات، وكان النصارى قد استولوا على المرية من يد ابن الرميمي فاستعادوها. وتوفي عبد المؤمن فخلفه ابنه يوسف، وكان مثقفاً ثقافة واسعة أتاحت له في أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذة إشبيلية عاصمة له، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائراً على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل والأقيسة ومعتنقاً لمذهب أهل الظاهر، وعبر إلى الأندلس في سنة ٥٦٦ لمجاهد النصارى، وأعاد عليهم الكرة في سنة ٥٨٠ وهي سنة وفاته وخلفه ابنه يعقوب، وكان متعصباً للمذهب الظاهري تعصباً شديداً، وفي السنة الثانية من حكمه توفي ابن الرنك ملك البرتغال واستولى ابنه شانجه على مدينة شلب، واستردها يعقوب في السنة التالية ومعها قصر أبي دانس في الجنوب الشرقي لأشبونة. وعبر إلى الأندلس سنة ٥٩١ في جيش

والثالث من الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للنصارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت والمغرب) وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروقنسال براجعة د. لطفى عبد البديع.

(١) انظر في الموحدين بالأندلس الجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدون ١٦٥/٤ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) وكتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي (طبع تونس) والجزءين الثاني

جرار، وعلم به ألفونس الثامن ملك قشتالة فجمع له جموعاً كثيرة تزيد على مائتي ألف راجل وخمسة وعشرين ألف فارس، والتقى عند حصن الأرك في وسط الطريق بين قرطبة وطليطلة، ومُنِيَ ألفونس وجيشه بهزيمة ماحقة وتنادوا الفرار الفرار، وفر ألفونس ناجياً بنفسه. وعاد يعقوب إلى إشبيلية مبتهجاً بكثرة الأسلاب والغنائم، وأصلح مسجدها وبنى مئذنته التي عرفت باسم الخيرالدا، وكان حرياً أن يتبع ألفونس إلى طليطلة ويستولى عليها حتى يفيد الفائدة المرجوة من هذا النصر العظيم، غير أنه اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات. وتوفي سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر وكان ضعيفاً وشغلته ثورات مختلفة في المغرب كما شغله استيلاؤه على جزائر البليار من يد بنى غانية، بينما كان ألفونس يعد العدة لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعان ملوك النصرارى في الشمال واليابا والأساقفة في جنوبي فرنسا واعدن مساعديه بالغفران وجاءه عبّاد الصليب من كل فجٍّ، والتقى سنة ٦٠٩ بالناصر وجيش الموحدين في حصن العقاب إلى الجنوب الشرقي من حصن الأرك، وهُزم الناصر وجيشه هزيمة مرة، ولم تدر السنة حتى توفي وخلفه ابنه المستنصر حتى سنة ٦٢٠ وأخوه المأمون حتى سنة ٦٢٩ وفي أيامه أعلن استقلاله ابن أبي حفص واليه على تونس، وولى بعده ابنه الرشيد حتى سنة ٦٤٠ وفي عهده استقل بنوزيان بتلمسان (المغرب الأوسط) وخلفه ابنه السعيد وفي أيامه عظم شأن بنى مرين في المغرب الأقصى واستولوا على فاس ومكناس وأيضاً على سلا والرباط على شاطئ المحيط ودخلوا مراكش سنة ٦٦٤ وبذلك انتهى عهد الموحدين.

ومنذ زمن المأمون الموحدى أخذ بعض النافرين في الأندلس يعلنون استقلالهم، وفي مقدمتهم ابن هود الملقب بالمتوكل الناصر بمرسيه سنة ٦٢٥ ومَلَك قرطبة وإشبيلية وغرناطة فضلاً عن مالقة والمرية، ولقيه النصرارى في ماردة شرقي بطليوس سنة ٦٢٦ فهزموه وأخذوها، واستولى صاحب برشلونة على جزائر البليار سنة ٦٢٧، ولم يلبث ملك قشتالة أن استولى على قرطبة جوهره الأندلس الكبرى سنة ٦٣٣ وقتل ابن هود وزيره ابن الرميمى غيلة في المرية، وثار زيان بن يوسف بن مردنيش ببلنسية سنة ٦٢٦ وأخذها منه ملك أراجون سنة ٦٣٥ وسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ ودانية سنة ٦٤١ وشاطبة سنة ٦٤٤ واستولى فرناند الثالث ملك قشتالة على إشبيلية عروس الأندلس سنة ٦٤٦. وآلت مرسية لعلم المتوكل بن هود بفريضة للنصارى وخدمة، وثار عليه عزيز بن خطاب سنة ٦٣٥ وهُزم في وقعة مع النصرارى فاستدعى أهل مرسية زيان بن يوسف بن مردنيش فدخلها وقتله سنة ٦٣٦ وعاد أهل مرسية فثاروا على ابن مردنيش وأخرجوه من بلدتهم،



فعدت لبني هود، وما زال فرناند الثالث ملك قشتالة يفاورها ويحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٦٤ للهجرة.

### (د) بنو الأحمر<sup>(١)</sup> في غرناطة

تتنمى هذه الأسرة إلى حفيد الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج لعهد الرسول ﷺ وهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر والملقب بلقب الغالب بالله، وكان فارساً مقداماً، رأس في قريته أرجونة شمالي جِيَّان واستولى على جِيَّان سنة ٦٢٩ من ابن هود ثم على بَسْطَة ووادي آش شمالي غرناطة، ثم على غرناطة نفسها سنة ٦٣٥ واتخذها عاصمة وامتدَّ سلطانه في الشرق إلى مالقة والمرية، غير أنه اضطر إلى التخلي عن جيان سنة ٦٤٣ لملك قشتالة، وعقد معه معاهدة التزم فيها بتقديم عون له في استيلائه على إشبيلية سنة ٦٤٦ واتسع بسلطانه شمالي مالقة والمرية حتى لورقة وجنوبياً حتى جبل طارق والجزيرة الخضراء وحتى لبلة وشريش وشذونة في الجنوب الغربي لغرناطة، ومكَّن له من تثبيت ملكه حنكته السياسية وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١. وخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه، وسرعان ما هاجمه ألفونس العاشر ملك ليون فاستنجد بالمنصور عبد الحق سلطان المرينيين بالمغرب فأرسل إليه قوة كبيرة، والتقى الجمعان عند إستجة جنوبي قرطبة سنة ٦٧٤ وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً. واتفق محمد الفقيه سلطان غرناطة وسلطان بني مرين على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة مرينية يرأسها قائد مريني يسمى شيخ الغزاة يدخل في عداد كبار الشخصيات بغرناطة، واتفق على أن تكون مالقة قاعدة للقوات المرينية، وعبر المنصور المريني مراراً وظل يشترك مع القشتاليين حتى أذعنوا لمسالمة محمد الفقيه، وتوفي سنة ٧٠١ وخلفه ابنه محمد المخلوع سنة ٧٠٨ وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣ إذ تنازل لابن عمه إسماعيل، والتقى بالقشتاليين سنة ٧١٨ ودارت عليهم الدوائر، وله فضل في إقامة بعض منشآت قصر الحمراء واغتيال سنة

الرباط) وتاريخ ابن خلدون: الجزء الرابع ونفح الطيب للمقرى (انظر الفهرس) ويوسف الأول سلطان غرناطة لمحمد كمال شبانة (طبع القاهرة) ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس.

(١) انظر في بني الأحمر بغرناطة أو بني نصر كتاب اللوحة البديرية في الدولة النصرية والإحاطة في أخبار غرناطة (في تراجم أمرانهم) وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ونبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمجهول (طبع المغرب) والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٠٩/٢ والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع (طبع

٧٢٥ وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الأول، وفي أيامه استولى القشتاليون على طريف المشرفة على جبل طارق، وحدث وباء كبير سنة ٧٤٩ ولابن خاتمة الشاعر رسالة في وصفه. واغتيل أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله وله القسط الأوفر من منشآت قصور الحمراء، وتوفي سنة ٧٩٣ وكانت علاقته حسنة بملك القشتاليين وبالمثل علاقات ابنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفى سنة ٨٢٠ وتلا يوسف أمراء ضعاف دب الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم، ولم يلبث القشتاليون أن استولوا على جبل طارق سنة ٨٦٧ وبذلك أصبحت إمارة غرناطة محاصرة بالقوات النصرانية، بالإضافة إلى ما نشب من حروب بين أبناء الأسرة الحاكمة كانوا يستعينون فيها بملوك قشتالة. وأخذ ذلك يندرج بنهاية إمارة غرناطة وعجل بها زواج فرناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، فتعاونوا على القضاء على الإمارة، وقدموا بقوات ضخمة استولوا بها على بعض المدن الصغرى، ثم حاصروا غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس، واستسلم أبو عبد الله الصغير وسلم مفاتيح الحمراء لفرناند سنة ٨٩٧ للهجرة ونصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ المسلمون في غرناطة والأندلس بكامل حقوقهم وبمساجدهم وإقامة شعائرهم الدينية، ولكن الإسبان ضربوا بكل ذلك عرض الحائط ومضوا يضطهدون المسلمين المتبقين أسوأ اضطهاد وسموهم المدجنين، بينما سموا من تنصر منهم ظاهراً الموريسكيين وعقدوا لهم محاكم التفتيش المشهورة إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة ١١١٧ هـ / ١٦٠٩ م أمراً بخروجهم من إسبانيا. ومن الغريب أن هذا التعصب الديني المقيت الذي أخرج المسلمين من الأندلس هو الذي أتاح لأوروبا استكشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فإن فردناند الذي ساعد أرسطو كولمب على اكتشاف أمريكا كان متأثراً - بعد استيلائه على غرناطة - بفكرة حصر الإسلام والمسلمين بين نارين، وتأثر بنفس الفكرة البرتغاليون في اكتشافهم لطريق الهند.

المجتمع<sup>(١)</sup>

رأينا - فيما مر بنا - كيف كان التكوين البشرى لسكان إيبيريا مزيجاً معقداً من عناصر جنسية كثيرة إذ نزلها قديماً قبائل من بلاد الغال في الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وجرمانية، ونزلها كثيرون من اليهود ثم نزلها مع الفتح العربُ والبربر. وجلب إليها حكام الدولة الأموية كثيرون من الصقالبة المنتمين إلى شرقي أوروبا وفرنسا وألمانيا. ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأندلسي مشتركة في تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا. ودخل كثير من أهل إيبيريا في الإسلام وكانوا يُسمَّون: «مسالمة» وسمَّى أبناؤهم باسم المولدين، وظل كثيرون على مسيحياتهم مع اصطناعهم لحياة المسلمين وعاداتهم وتعلم العربية والتكلم بها وسمَّوا باسم المستعربين.

وأخذت تعمل عوامل في المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة فقد تزوج كثيرون في الجيش الفاتح من الإسبانيات. وظل ذلك فيما بعد، إذ كان كثيرون من العرب والبربر يؤثرون الإسبانيات الشقراوات، وكان البيت الأموي يكتظ بهن. ومن تلك العوامل أيضاً روح التسامح الديني الذي بثه الإسلام في أتباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود يعاملون بالحسنى معاملة كريمة. ومرت بنا في غير هذا الموضوع فترة دينية لعهد عبد الرحمن الأوسط أثارها بعض قساوسة النصارى ورهبانهم، وسرعان

ومقدمته وصفة الأندلس (من: نزهة المشتاق) للإدرسي نشر دوزي ودي جويه (طبع ليدن) ونفع الطيب وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ١٨٥/٢ حيث ينقل التيفاشي عن ابن سعيد نصاً مهماً عن الموسيقى الأندلسية، وراجع تراث الإسلام: الجزء الأول طبعة القاهرة وانظر طبعته المتجددة في الكويت وبحثاً قيمياً عن المجتمع القرطبي للدكتور الطاهر مكى في كتابه: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» ص ١٥ وما بعدها وص ٢٤٧ وما بعدها.

(١) انظر في المجتمع الأندلسي مواضع مختلفة من المقتبس لابن حيان بأجزائه المنشورة والصلة لابن بشكوال والحلة السراء والتكملة لابن الأبار والذخيرة لابن بسام وكتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (طبع تونس) وكذلك نشرة صحيفة المعهد المصري بمبريد: المجلد الرابع، والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (طبع دار المعارف) ورسالة الحسينية لابن عبدون وصورة الأرض لابن حوقل ونقط العروس في نوادر الأخبار لابن حزم نشر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد الثاني من المجلد الثالث عشر وتاريخ ابن خلدون

ما انتهت وحل محلها تعصب وطني استشعره المسالمة والمولدون والمسيحيون إذ داخلهم عصبية التعصب لوطنهم والشعور بأن العرب والبربر الأندلسيين غرباء أجنب، مما هيا لثورات عبد الرحمن بن الجليقي في بطليوس وعمر بن حفصون في بيشتر وكثيرين غيرها، واستطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على هذه الثورات واستعادة وحدة الأندلس. وتوقف قليلا بإزاء الحضارة والغناء والمرأة في الأندلس.

## الحضارة

كانت حياة أهل إيبيريا قبل الفتح العربي أقرب إلى حياة البداوة، وظل المسيحيون في القسم الجبلي بالشمال يعيشون هذه الحياة لوعورة موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من شظف وخشونة، وظل العرب والبربر وأهل الأندلس جميعاً يعيشون نفس هذه المعيشة المتبدية زمن الولاة، غير أنهم أخذوا في التحضر زمن الدولة الأموية لما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون في ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). بسبب شغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما دفع تجار قرطبة إلى استيراد أدواتها ونفائسها، وفي ذلك يقول ابن سعيد في ترجمته بكتاب المغرب: «في أيامه دخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجاليه، ووافق زمنه انتهاب الذخائر التي كانت في قصور بغداد عند خلع الأمين فجلبت إليه». وحاكاه أهل قرطبة والأندلس في العناية بالفرش والرياش وأدوات الزينة، ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس الأنيقة، وأخذت تنشأ هناك صناعة الحلبي والحقاق والتحف والأواني والأثاث. وسرعان ما أخذ المجتمع القرطبي يتحضر في المعاش والحياة الاجتماعية وآدابها في المأكول والملبس والتزين وكان من أهم العوامل في ذلك وفود زرياب غلام إسحق الموصلي في أول عهد عبد الرحمن الأوسط الذي احتفل به احتفالاً عظيماً وقد علم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع مع تفضيل آنية الزجاج، وأضاف إلى أطعمتهم ألواناً جديدة من أطعمة بغداد، وعلم المرأة الأندلسية كيف تزين وما تتخذ من عطور ومن ضروب الثياب وكيف تتفنن في تصفيفات شعرها وكيف تسدله على جبهتها وجوانب وجهها، وعلم الرجال آداباً مختلفة في اتخاذ الثياب وتقصيرها وتضييق الأكمام وإرسال شعرهم وراء آذانهم، وأيضاً كيف يتأنقون في فرشهم وتأثيث بيوتهم.<sup>(١)</sup>

(١) انظر في هذا الدور الحضارى لزرياب النفع ومابعدها.

للمقرى (تحقيق د. إحسان عباس) ١٢٧/٣

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة في الحضارة المادية، وساعدها على ذلك ثراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار والضرع والزرع والبساتين وكثرة المعادن، ولاحظ ذلك كل من زاروها من رحالة المشرق فقالوا إن خيراتها كثيرة وليس بها شحاذ ولا متسول، وهياً هذا الثراء فيها وما كان يجنيه حكامها من الضرائب للتعفن في بناء القصور منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد حتى إذا كنا في عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه لا يبني قصرًا أو قصورًا متعددة فحسب، بل يبني مدينة الزهراء بجوار قرطبة على سفح جبل العروس وقد ظل عشرة آلاف عامل ينهضون بينها لمدة خمسة وعشرين عامًا، وكانت الطبقة الدنيا فيها بساتين وحدائق، وفي الطبقة الوسطى دور الموظفين، وفي الطبقة العليا قصره وقاعته الكبيرة المزدانة بأعمدة الرخام وحليها الذهبية وجوهرة كبيرة تتلألأ في وسطها سوى ما كان بالمجلس المعروف بمجلس المؤنس من تماثيل لحيوانات من الذهب الخالص. وكان القصر يمتد طولاً في نحو ثلاثة آلاف ذراع وعرضاً في نحو ألف وخمسمائة، وكان به نحو أربعة آلاف عمود من الرخام. ويتضح ثراء الحكم الأموي وأهله في بناء المسجد الجامع بقرطبة. ولا تزال روعته ماثلة إلى اليوم على الرغم مما اقتطع منه لكاتدرائية وكنيسة، وقد استغرق وصف روعة العمار فيه نحو عشرين صحيفة في كتاب الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون<sup>(١)</sup> شك. وبني المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بدوره مدينة الزاهرة. ولا يتضح ثراء الحكم الأموي في بناء الجامع الكبير الذي ظل يعنى الحكام الأمويون حتى عهد المنصور بزخرفته والاتساع به ولا في بناء القصور وبناء المدن فحسب، فمن أهم صوره الهدايا الفاخرة التي ذكر ابن حيان أن عبد الرحمن الناصر<sup>(٢)</sup> كان يرسل بها إلى أمراء المغرب مثل هديته إلى موسى بن أبي العافية سنة ٣٢٢ وما كان بها من قطع البزّ العجيب الصنعة والطرف الأنيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب. وذكر ابن خلدون في ترجمته للناصر هدية<sup>(٣)</sup> وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد وما حمل إليه فيها من الذهب، وقد بلغ خمسمائة ألف مثقال وحمل من التبر مثله، سوى كميات كبيرة من سبائك الفضة والعود الهندي والمسك الذكي والعنبر والكافور والثياب الحريرية المرقومة بالذهب والفراء الثمين والملاحف المذهبة للخيول والأبسطة، وأيضاً سوى عشرين جارية بكسوتهن وزينتهن وأربعين وصيفاً، وسوى ما لا يكاد يحصى من السلاح وعتاق الخيل الكريمة.

(١) انظر الكتاب بترجمة الدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) ص ٢٢.  
 (٢) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٤. وانظر أزهار الرياض ٢٦١/٢.  
 (٣) المقتبس ٢٣٨/٥.

وظل كثير من صور هذا الثراء الواسع ماثلاً في عهد أمراء الطوائف، وهو يتضح في تنافسهم في بناء القصور والتفنن في كل ما يتصل بها من أناقاة وتمييق على نحو ما يصور ابن بسام ذلك في وصفه لقصر المكرم للمأمون بن إسماعيل بن ذى النون حين احتفل فيه بإعذار لحفيده يحيى، ونشعر كأننا انتقلنا إلى قصر مسحور من قصور ألف ليلة وليلة لكثرة ما فيه من ضروب الديباج والطنافس والستائر المزركشة وأزر الحيطان المرمرية وما عليها من تماثيل وصور لحيوانات وأطيوار وأشجار وثمار، سوى بحيرتين في القصر صفت عليهما تماثيل أسود من الذهب والمياه تنساب من أفواهها. ونعجب أن ينفق أمير طليطلة - وهو أقرب أمراء الأندلس إلى ملوك قشتالة والنصارى عامة - هذه القناطير المقنطرة من الذهب على قصره المكرم، ولا يكاد يبقى في خزائنه ما لا يشتري به سلاحاً للقاء أعدائه، وما هي إلا سنوات حتى سقطت طليطلة من يد حفيده يحيى في حجر ألفونس السادس ملك قشتالة. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يقل عن المأمون في طليطلة إسرافاً في بناء قصوره والإنفاق على حظاياها ومجالس أنسه الكبيرة وكان مشغولاً بزوجته اعتياد الرميكية وفي نفح الطيب أنها رأت يوماً بإشبيلية نساء البادية حولها يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات - في الطين - ثيابهن عن سوقهن، فقالت له: أشتهى أن أفعل مثلهن أنا وجوارىي فأمر بعنبر ومسك وكافور وماء ورد، وصير كل ذلك طيناً في القصر ومعه قِربٌ وحبال من حرير، وخرجت - هي وجوارياها - يَخضن في ذلك الطين. ويحكى عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة أنه حين تنازل عن أمواله ليوسف بن تاشفين كان بينها سَفَط ذهب فيه عشرة عقود من أنفس الجواهر، وتنازلت أمه عن خمسة عشر عقداً نفيساً. وعلى هذا النحو ظل أمراء الطوائف ينعمون بهذا الترف على حساب الشعب، وحقاً كانت هناك طبقة وسطى من التجار والصناع ممن كانوا يقدمون أدوات الترف والنعيم للطبقة الحاكمة وحواشيها من الوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة، غير أنه كان وراءها طبقة من العامة تكدح وتنصب لطائفة استأثرت لنفسها بزينة الحياة.

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في صور ما كانت تعيش فيه الطبقة العامة من شظف في الحياة أو بؤس لكثرة ما كان في الأندلس من طيبات الرزق، وقد ظلت تنعم بما فيها من ثراء لعهدى المرابطين الموحدون ونرى آثاره في بناء السلطان يعقوب الموحدى لجامع إشبيلية ومثذنته «الخَيْرِ الداء» التي لا تزال قائمة إلى اليوم، أما الجامع فأحاله المسيحيون إلى كنيسة، وما كان أحراهم أن يبقوه متحفاً - على مر الزمن - يعرض مهارة الفنان الأندلسي في المعمار والزخرفة. وحرى بنا أن نذكر أنه كان بالأندلس غابات كثيرة هيأت

لصناعة الأساطيل وازدهار صناعة الأثاث، واشتهرت طرطوشة بصنوبر أحمر صافي البشرة، ومن عيدانه اتخذ خشب المسجد الجامع بقرطبة. وكانت المعادن كثيرة، ومن أهمها معدن الزئبق في شمالي قرطبة، ويقول الإدريسي في القرن السادس الهجري إنه كان يعمل فيه ما يزيد على ألف عامل، وازدهرت صناعات الحلج والأواني والحِقاك والطرف المعدنية والبرونزية والفضية والملابس والثياب الحريرية، ويقول الإدريسي إنه رأى في المرية ثمانمائة دار طراز للحريز تصنع فيها الحلل والثياب والستائر والبسط. ويقول ابن خلدون في مقدمته عن الأندلس وصناعاتها وقد نزلها في أواخر القرن الثامن الهجري: «إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش والرياش وحسن الترتيب والأوضاع في بناء القصور وصوغ الآنية من المعادن والحزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها، ونجد صناعاتها مستحكمة لديهم، وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف»<sup>(١)</sup>. ومن أكبر الأدلة على استمرار ازدهار الصناعات ومظاهر الحضارة المادية في الأندلس قصر الحمراء الذي شاده بغرناطة أمراؤها في الحقب العربية الأخيرة بها، وليس قصرًا فحسب بل معرضًا خلابًا لما وصلت إليه الحضارة الأندلسية من ازدهار، وبه يحيط سور يعلوه شرف للحراسة، وتلقاك بداخله جنة العريف، وهي حديقة كأنها اقتطعت من الفردوس بنافوراتها ومياهها المتدفقة وأشجار البرتقال والريحان بها والأزهار الأرجة، ومن ورائها القصر الفخم وقد فُرشت أرضه بالرخام وازدانت حيطان قاعاته وردداته وغرفه بالآيات القرآنية والأشعار وآلاف الزخارف، وتلقاك أسود في قاعة حاملة حوضًا من الماء ينسكب من أفواهها، وقد استغرق وصف هذا القصر وجنته في كتاب «الفن العربي في إسبانيا وصقلية» لفون شاك أكثر من خمسين صفحة، وإنه ليقول وقد أخذت روعته بلبه: «سعيد من يستطيع زيارة الحمراء إذ سوف تستيقظ في روحه الأحلام المكتوبة وتحيا الآمال الضائعة»<sup>(٢)</sup>.

(١) المقدمة (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي) ص ٩٣٨ وما بعدها.

(٢) انظر الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون شاك ص ١٨٢.

## الغناء

وكان الغناء يشيع في الأندلس منذ وفود زرياب غلام إسحق الموصلي على الأمير عبد الرحمن الأوسط واحتفاله به احتفالاً عظيماً، إذ جعل له راتباً مائتي دينار في الشهر وأقطعه من الدور والضياح ما يقدر بأربعين ألف دينار غير صلوات سنوية. وأقام زرياب في قرطبة معهداً يتدرب فيه الفتيان والفتيات على الغناء، واشتهر بأنه أضاف إلى أوتار العود وترّاً خامساً اخترع له مضراباً من قوادم النسر<sup>(١)</sup>، وجعل للغناء تقاليد انفردت بها الأندلس فكان يبدأ بالنشيد ويخرج منه إلى البسيط ويختتم بالمحركات والأهازيج<sup>(٢)</sup>، وينقل التيفاشي عن ابن سعيد أنه لم يكن بالأندلس قبله سوى طريقة حُداة العرب وترانيم الكنائس دون قانون<sup>(٣)</sup> فيها أي دون رقمٍ (نوت) موسيقية. وزرياب بذلك يفتتح حركة الغناء والموسيقى في الأندلس. وخرّج زرياب كثيرين من الشباب والمجواري منهم منفعة أهداها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن بنانة وقلم وعلم وشفاء. وأخذ الغناء في الأندلس يزدهر بعده ومن أتقنوه عباس بن فرّناس المتوفى سنة ٢٧٤ واتسع التعلق به، حتى أصبح الشغل الشاغل لكثير من المدن، ويحكى التجيبي شارح أشعار كتاب المختار من شعر بشار للخالدين في مقدمة شرحه أنه بات ليلة في سنة ٤٠٦ بمالقة ساهراً لما كان يخفق حوله من أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية. وكل بلاد الأندلس كانت مثل مالقة عزفاً وغناء، واتسعت الموجة زمن أمراء الطوائف وخاصة في إشبيلية وطليطلة. ومن اشتهر بعد زمنهم بجودة التلحين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وهو الذي أخذ أهل إفريقية الألحان الأندلسية عنه، وكان يعاصره الفيلسوف ابن باجة وكان إمام الأندلس الأعظم في الموسيقى والألحان، وخلفه عليها تلميذه أبو عامر بن الحمارة وكان يصنع عود الغناء بيده وينظم الشعر ويلحنه عليه ويعنى<sup>(٤)</sup> به، شأن المغنين الأوربيين المعاصرين الذين ينظمون الشعر ويلحنونه ويعنونه. ويبدو أنه كان يقترن الرقص بالغناء منذ زرياب، وقد رقى بدوره فنوناً من الرقي حتى لنجد ابن كسرى المالمقى المتوفى سنة ٦٠٣ للهجرة يصف حركات راقصة تسمى نزهة على هذا النمط<sup>(٥)</sup>:

(٤) المغرب ١٢٠/٢.

(١) النفع ١٢٦/٣.

(٥) تحفة القادم نشر الفريد البستاني بمجلة

(٢) النفع ١٢٨/٣.

المشرق ببيروت العدد ٤٠، ٤١ سنة ١٩٤٧ م رقم

(٣) انظر كتاب ورقات عن الحضارة العربية



إذا رقصت أبصرت كلٌ بديعةً تُرى ألفا حيناً، وحيناً هي النونُ

فهى تتحرك في رقصها حركات شتى، تارة تُرى معتدلة، وتارة تتثنى وتبالغ في الثنى حتى لتصبح مثل القوس أو مثل النون. ويرسم لنا على بن يوسف بن خروف القرطبي نفس الصورة فيقول في راقص ولعلها راقصة<sup>(١)</sup>:

ومنوع الحركات يلعب بالنهاي لبس المحاسن عند خلع لباسه  
متأوداً كالغصن وسط رياضه متلاعباً كالظبي عند كيناسه<sup>(٢)</sup>  
بالعقل يلعب مُقبلاً أو مُدبراً كالدهر يلعبُ كيف شاء بناسه  
ويضمُّ للقدمين منه رأسه كالسيف ضمَّ ذبابه لرأسه<sup>(٣)</sup>

واشتهر في القرن السابع أبو الحسن المرسى وكل تلحين بالأندلس والمغرب في شعر متأخر فهو من صنعته. وقد أخذ ملوك قشتالة منذ القرن الخامس الهجري يجذبون إليهم بعض المغنين والمغنيات الأندلسيات وقيمون لهم الحفلات وكان لذلك أثره البعيد في نشأة الموسيقى عند الاسبان، إذ لم يكن يعرفون قبل الغناء العربي وما صحبه من موسيقى سوى ترانيم الكنائس كما يقول ابن سعيد، فعرفوا آلات الموسيقى العربية الكثيرة ورقمها الموسيقية، تدل على ذلك أكبر الدلالة أسماء تلك الآلات في اللغة الإسبانية، فقد انتقلت إليها بأنغامها وألحانها العربية وهو دين كبير للموسيقى الأندلسية العربية على الموسيقى الأوربية فقد أخرجتها من عالم الترانيم الكنسية إلى عالم الموسيقى المؤلفة في رُقْمٍ (نوت) موسيقية بتقديرات لحنية زمنية دقيقة.

## المرأة

ولم نتحدث حتى الآن عن المرأة في المجتمع الأندلسي، وكانت تحظى فيه بشيء من الحرية قلما كانت تحظى به أختها في المشرق، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجدها تركب مع الأمير في موكبه إذ نرى ابن حيان يروى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قال لحاجبه عيسى بن شهيد يوماً وكان قد طال عليه المرض والمكث في قصره دون خروج:

(٣) ذباب السيف: طرفه القاطع - رأس السيف:

مقبضه.

(١) المغرب ١/١٣٧.

(٢) متأوداً: مثنيا - كناس الظبي: مأواه في

الشجر.

«إن بعض كرائمنا سألنا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة، فاخرج من فورك فانظر في إقامة ما يحتاج إليه للنزهة على مقتضى العادة واعجل بذلك فإننا متحركون صبيحة<sup>(١)</sup> غد» ويبدو أن الأميرات كن يبرزن للشعب سافرات يدل على ذلك ما ذكره ابن حزم في رسالته: «نقط العروس» من أن رسيس كانت سيدة مهيبة اتصلت بعبد الرحمن الناصر ونالت عنده مكانة رفيعة مما جعله يُركبها في موكب له ذات يوم على بغل خلفه سافرة بقلنسوة وشقَّ بها الربض الغربي كله بقرطبة إلى مدينته: الزهراء<sup>(٢)</sup>. ومما يدل على ما كان للمرأة الأندلسية من منزلة أن نجد بينهن كاتبات أو كما نقول الآن سكرتيرات للأمراء والخلفاء مثل مُرّنة كاتبة عبد الرحمن الناصر كما يقول صاحب<sup>(٣)</sup> الصلة، وأيضاً كاتبته كتبان<sup>(٤)</sup> كما يقول صاحب الذيل والتكملة، ومثل لبني<sup>(٥)</sup> كاتبة ابنه الحكم المستنصر كما في الصلة. واشتهرت في الأندلس غير شاعرة حتى ليترجم المقرئ لعشرين منهن، وسنلم بذلك في الفصل التالي. ويبدو أن كثيرات من النساء وخاصة في البيت الأموي كن يتقن أرقى الآداب الاجتماعية مع حيازتهن للثقافة ونظمن الشعر مما أعدَّ لظهور ولادة بنت الخليفة المستكفي واتخاذها في قصرها ندوة أدبية كان يحضرها ابن زيدون وغيره من الشعراء والأدباء. وظل ذلك في الأندلس، فكانت هناك سيدات من البيوت الرفيعة تحذو حذو ولادة في اتخاذ ندوة أدبية لها، حتى في عهد المرابطين الذين يقال عنهم إنهم كانوا محافظين، إذ نجد سيدة شريفة من بيتهم هي السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر - الذي مهَّد بحسن قيادته ليوسف بن تاشفين حكم الأندلس وظل حاكماً على إشبيلية اثنين وعشرين عاماً - تتخذ لنفسها ندوة مماثلة لندوة ولادة، وسنعرض لها في ترجمتنا للأعمى التطيلي ومدحه لها بقصيدة بديعة. وعلى شاكلتها وشاكلة ولادة تلقانا حفصة الركونية وندوتها الأدبية في عصر الموحدين وسنترجم لها مع أبي جعفر بن سعيد في حديثنا عن الغزل.

(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٥٤.  
 (٤) الذيل والتكملة للمراكشي (طبع المغرب) ٤٩١/٢/٨.  
 (٥) الصلة رقم ٦٥٣ وبغية الملتبس رقم ١٥٨٩ وكانت بارعة الخط نحوية عروضية شاعرة.

(١) انظر المقتبس (بتحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ٢١.  
 (٢) راجع نشرتنا لتلك الرسالة في الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٧٣ - ٧٤.

## التشيع - الزهد والتصوف

(أ) التشيع<sup>(١)</sup>

من الخطأ أن نظن أن ثورة أحد أحفاد من ناصروا عليا في صفين كانت ثورة شيعة كما حدث في عهد عبد الرحمن الداخل وبالمثل ثورة حفيد لعمار بن ياسر عليه، ويقال إن عمر بن حفصون اتصل - في أثناء ثورته بالفاطميين - وكانوا لا يزالون في القيروان ولم يكن اتصال ولاء وإنما كان اتصالا سياسياً كيدياً للأمير عبد الله بن محمد. ودعا ثائر أموى لنفسه سنة ٢٨٨ للهجرة هو أحمد بن معاوية وتلقب بالمهدى، فظن خطأ - لهذا اللقب - أن لثورته علاقة بالتشيع وكل ما هناك أنه استعار هذا اللقب من دعاة الشيعة. ونجد ابن عبدربه المتوفى سنة ٣٢٨ يتحدث في كتابه «العقد الفريد» عن الشيعة وفرقهم وليس معنى ذلك أنه كان شيعياً، فقد كان متشيعاً للأمويين متعصباً لهم.

وحاول آسين بلاسيوس أن يرد بعض آراء ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ إلى آراء الإسماعيلية من الشيعة لمقامه فترة في القيروان عاصمة الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر. غير أنها ترد - كما سنرى في غير هذا الموضع - إلى الاعتزال والتصوف والفلسفة، فلا علاقة بينه وبين التشيع، وبالمثل لا علاقة بين منذر بن سعيد خطيب عبد الرحمن الناصر وبينه. وحقا أرسل الفاطميون بعض جواسيسهم للتعرف على الأندلس والدعوة لهم مثل ابن حوقل، غير أن ذلك لم يأت بطائل، إذا استثنينا تشيع ابن هانيء الشاعر الأندلسي وإيمانه بالعقيدة الإسماعيلية، وربما كان أبوه من دعائهم السريين في الأندلس.

ووجدت في الأندلس زمن الفتنة الأموية فُرصة للشيعة كى ينشطوا للدعوة إلى أنفسهم هناك حين استولى على بن حمود - من أسرة الأدارسة في المغرب - على مقاليد الخلافة الأموية سنة ٤٠٧ غير أن غلبانه قتلوه - كما أسلفنا - في السنة التالية، وولى

الفريد لابن عبدربه والمغرب في مواضع مختلفة والتشيع في الأندلس للدكتور محمود مكى ومصادره.

(١) انظر في التشيع بالأندلس صورة الأرض لابن حوقل وأحسن التقاسيم للمقدسى والعقد

بعده أخوه القاسم، ونازعه ابن أخيه المعتلى - كما مر بنا - ولم يلبث أن لحق بمالقة، وبها قتل سنة ٤٢٧. ولم يأخذ هؤلاء الحموديون الفرصة كي ينشروا في الأندلس دعوة شيعية، وهم أنفسهم لم ينظموا هذه الدعوة هناك. وتنشأ صلة في عهد أمراء الطوائف بين أمير دانية على بن مجاهد والفاطميين غير أنها لا تتعدى تبادل بعض الرسائل. ويربط بعض الباحثين بين ما حظى به اليهود - لعهد الطوائف - من مكانة في غرناطة وبين ما كان في أمرائها بنى زيرى من نزعة شيعية، وكأنا للتشيع صلة باليهودية، وهو ربط بعيد، والصحيح أن اليهود حظوا بهذه المكانة عند بنى زيرى لقدرتهم الاقتصادية مما جعل بنى زيرى يولون أحدهم - وهو ابن النغريلة - الوزارة

ونستطيع أن نزعم أن الأندلس كانت محصنة ضد التشيع ودعاته، حتى ليقول المقدسى في أواخر القرن الرابع الهجرى إن الأندلسيين إذا عثروا على متشيع ربما قتلوه. وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية نجد كبار المؤرخين في الأندلس مثل ابن حيان وكبار المفكرين هناك مثل ابن حزم يتعصبون للأمويين ضد الشيعة تعصبا شديدا. وكل ما يمكن أن يكون للتشيع في الأندلس إنما هو بعض الأصداء في مدائح الشعراء للحموديين في قرطبة ومالقة لمدة ربع قرن، وهى أصداء ضعيفة جدا إذ قلما صدر الشعراء في شعرهم عن تشيع حقيقى لآل البيت. وسنرى في حديثنا عن الرثاء أن الأندلسيين أخذوا منذ عصر المرابطين يستوحون مأساة الحسين في نظم بعض مرثى له، بل لقد أقاموا له أحيانا ماتم يندبون فيها، وكأنا كانوا يندبون مأساتهم ومأساة رجالهم في الأندلس. ونخلص من كل ما قدمنا إلى أنه لم تظهر في الأندلس موجة حادة للتشيع، وكل ما حدث أن أفرادا قد يتشيعون، وهو تشيع لا يعدو - غالبا - حب آل البيت.

## (ب) الزهد<sup>(١)</sup> والتصوف

أخذت تنمو في الأندلس نزعة مبكرة إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا والإقبال على العبادة، وكان مما يزيكها في نفوس الأندلسيين الوعاظ في المساجد الذين كانوا يعظونهم

لاين حيان والإحاطة في أخبار غرناطة والنفح وأزهار الرياض (انظر الفهارس) والمرقبة العليا للنباهي والطبقات الكبرى للشعراني وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا

(١) انظر في الزهد والتصوف بالأندلس وأعلامها المذكورين هنا الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار والمغرب لابن سعيد والفصل في الملل والنحل لابن حزم والذيل والتكملة للمراكشى والمقتبس

دائما ويذكرونهم بالله واليوم والآخر وأنهم معروضون على ربهم يوم القيامة فإما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار والجحيم. وزكاها أيضا أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة في المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بآداب الإسلام والقيام بفرائضه وواجباته، ومنذ عبد الرحمن الأوسط كانت تعنى زوجاتهم ببناء المساجد على نحو ما كانوا يعنون هم أنفسهم وكنَّ يقفن بعض أموالهن للجهاد في سبيل الله، واشتهرت طروب زوجة عبد الرحمن الأوسط ببنائها مسجدا في الرض الغربي من قرطبة، واشتهرت ابنته البهاء بزهدا ونسكها وكتابتها لمصاحف وقفتها في مسجد لها بين مساجد الرض الغربي.

ومن أوائل من يلقانا من زهاد الأندلس وعبيداها أيوب البلوخي. ويروى أن السماء شحت بمطرها لأول عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وفزع الناس إلى قاضيه مسرور بن محمد كى يصلى بهم صلاة الاستسقاء لما يعرفون من صلاحه، فلباهم حتى إذا وقف ليخطب خطبة الاستسقاء نادى: يا أيوب البلوطى! عزمت عليك حيث كنت لتقومن، فلم يقم إلا بعد أن أقسم عليه في الثالثة، وقال حين قام: يا هذا أشهرتني أما كنت أدعو حيث أنا؟ ثم رفع القاضى رأسه فقال: اللهم إنا نستشفع إليك بوليك هذا، وألح بالدعاء، وكثر الضجيج والبكاء، فلم ينصرفوا إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة المطر. وطُلب أيوب بعد ذلك فلم يوقف له على أثر. ويدل هذا الخبر على أنه كان لأهل الأندلس اعتقاد حسن في التساك الزهاد. ومن كان يفرط في زهده ونسكه كانوا يظنون أنه من أولياء الله وأنه مجاب الدعوة. وكان يعاصر أيوب إمام في المذهب المالكي هو عيسى بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ وكان في الذروة من العبادة والزهد، ويقال إنه صلى أربعين سنة الصبح بصلاة العتمة أو العشاء. واشتهر بالزهد من قضاة عبد الرحمن الأوسط معاذ بن عثمان المتوفى سنة ٢٣٤ وقيل إنه كان مجاب الدعوة. ومن الزهاد أيام عبد الرحمن الناصر أبو وهب عبد الرحمن العباسى المتوفى سنة ٣٤٤ وسنعرض له بين شعراء الزهد. ويلقانا في زمن الفتنة الزاهد عبد الرحمن بن مروان القنازعى المتوفى سنة ٤١٣ نسب إلى ما كان يكتفى به لسد رمقه من صنع القنازاع التى كان يتخذها الأندلسيون لغطاء رؤوسهم مما يشبه القلنسوة، وكان صوام النهار قوام الليل راضيا بالقليل من كسبه، ولم ينحط يوما إلى مسألة أحد. ومن الزهاد في عصر أمراء الطوائف الفقيه المحدث ابن الطلاع، واشتهر بأنه لقي المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوعظه ووبَّخه على حياته الماجنة اللاهية. ويؤلف ابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ كتابا في زهاد الأندلس وأتمتها، وتظل نزعة الزهد حية مطردة فيها حتى خروج الإسلام والمسلمين

وأخذت موجة من التصوف ترافق هذا الزهد منذ أيام عبد الرحمن الناصر، وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ للهجرة، وكان قد حج وطُوف ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز ولا بد أن سمع بمحنة الحلاج وصلبه سنة ٣٠٩ ببغداد وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه في منزله بجبل قرطبة، وأخذ يلقيهم تعاليمه، وكانت مزيجا من آراء الصوفية والمعتزلة ومر بنا استنكار عبد الرحمن الناصر لعقيدته، وذكر ابن حيان في الجزء الخاص بالناصر إرساله سنة ٣٤٠ إلى البلدان المختلفة في الأندلس منشورا يندد فيه بعقيدة ابن مسرة ويتوعد أتباعه، مما يدل على أنها كانت قد أخذت تشيع وتتألف حولها فرقة. وتماذى الطلب لأفرادها بقيّة عهد الناصر وفي عهد ابنه الحكم المستنصر، مما جعلهم يضطرون للاختفاء حتى إذا أظلم عهد هشام المؤيد عادوا إلى الظهور والنشاط في الدعوة لعقيدتهم مما اضطر القاضي محمد ابن يبقى بن زُرْب المتوفى سنة ٣٨١ للهجرة إلى الكشف عنهم واستتابتهم، وتابت على يديه منهم جماعة. غير أن هذه العقيدة الصوفية استمرت، ويذكر ابن حزم في كتابه «الفصل» من معتنقيها في النصف الأول من القرن الخامس الهجري إسما عيل بن عبد الله الرُّعَيْنِي، ويقول إنه أدخل على عقيدة ابن مسرة بعض التعديل، من ذلك أنه ذهب إلى أن العالم لا يفنى وأنه مستمر إلى ما لا نهاية. ولم تضمحل هذه العقيدة الصوفية في الأندلس لعهد أمراء الطوائف بل ظل لها أتباع في قرطبة وإشبيلية والمرية وغيرها من المدن الأندلسية.

وأخذ التصوف ينشط في عهد دولة المرابطين، ومن أهم المتصوفة لعهدا أبو العباس ابن العريف المتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ وهو من أهل المرية وله في التصوف كتاب محاسن المجالس نشره آسين بلاسيوس مع ترجمة فرنسية، وكانت تقوم طريقتة على الزهد في منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما يتصل بها من المنن التي يمن الله بها على النفس الإنسانية. ويقول إن طريقتة هي طريقة الخواص التي تقف عند الفناء في محبة الذات الإلهية، وكأنه لا يقول بوحدة الوجود إنما يقول بالفناء في المحبة الإلهية، وهو بذلك يعد من أصحاب التصوف السني، وكأنه يبتعد عن مراتب التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود خطوة أو خطوات. ومن معاصريه في الأندلس ابن برّجان الإشبيلي عبد السلام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٣٦، وأيضا ابن قسّى أبو القاسم أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٥٤٦ والذي قاد ثورة بغرب الأندلس ضد المرابطين حين ساءت

أحوالهم وأوشكت على نهايتها، وكان يتزعم في ثورته طائفة كبيرة من المريدين أى المتصوفة. وبلغنا في عصر الموحدين غير متصوف أندلسى ينزع بقوة نحو التصوف الفلسفى مثل أبى عبدالله الشوذى وتلميذه ابن دهاق الملقى المتوفى سنة ٦١١ للهجرة وينشأ فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى محبى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) بإشبيلية، ويأخذ فيها تصوفه الفلسفى المعروف عن شيوخ متعددين يذكرهم من ترجوا له كما يأخذه عن عجوز تسمى نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية لزمها سنتين خادما ومريدا. وأشهر من جاءوا بعده فى التصوف الفلسفى أبو الحسن الششتري المتوفى سنة ٦٦٨ وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩. وبلغنا فى القرن الثامن ابن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٣٣ وقد طاف ببلدان المغرب، وكأنا وجد فى العقيدة الشاذلية السنية مأربه فانضم إلى أتباعها، وعنى بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى ووصف فى شرحه رياضاته ومجاهداته النفسية.

## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

لم يكن لإيبيريا دور حضارى فى العالم القديم، إذ ظل سكانها قرونا متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة، وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مملكة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى، وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارة اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عمومتهم من القرطاجنيين، فأعانوهم. واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم فى إفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سرىعا على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخيراتها فى إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية، وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهى التى سمتها باسم إسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة فى حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو ولدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هدریان. وكانت الخطابة مزدهرة فى روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعد بقوة لهذا الازدهار، كما أعد لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلمون الشباب فنون البلاغة الخطابية، وشاركت إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد، وجيء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة



الرواقين، وأصبح فيلسوفاً ورواقياً ومعلماً كبيراً للخطابة، وعلمها نيرون، وله مسرحيات اتخذها كورني وراسين مثلها المسرحى الأعلى، وحكم عليه نيرون بالموت لاثامه باشتراكه في مؤامرة ضده. ورحل إلى روما شاب إسباني هو كونتليان ليتعلم فن الخطابة، وبرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتاباً كان - ولا يزال - المرجع الأساسي للأوروبيين في التعرف على الخطابة الرومانية. واشتهر بروما حفيد لسنيكا، هو «لوكان» الشاعر، وكان قد وُلد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعراً متألقاً بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر وبومبي، واتهمه نيرون باشتراكه مع عمه في مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين<sup>(١)</sup>.

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديماً في الأدب اللاتيني أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم ينتجوه في إسبانيا، بل أنتجوه في روما، وهو لذلك أدب لاتيني روماني خالص. وإسبانيا - بذلك - لا تزال في العهد الروماني كما كانت في العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالاً إسبانية متميزة القسات، بل ظلت روما ترعاها وتتعهد لها في الحضارة كما تعهد لها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت في القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المتبربرة التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلمها العرب منهم. ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتاباً من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصويره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت في قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء في الحقائق، وتدل على ما كان فاشياً في عهد القوط بإسبانيا من الجهالة<sup>(٢)</sup>، وليس لهذه المجموعة أي ذكر في كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، وبيحق ما يقوله صاعد في كتابه طبقات الأمم من أن هذا القطر لم يعرف في

وما بعدها و١٩٩ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ١٢/١٩٤ وما بعدها.

(١) انظر في سنيكا وأسرته وكونتليان ولوكان

قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ١٠/١٦٣ وما بعدها وكذلك ١٧٤

العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقا في وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب<sup>(١)</sup>. وكان فيه - كما مر في الفصل الماضي - يهود ولكن لم يكن لهم أى كتاب علمي، وأيضا لم يكن لهم دور في الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على تمثل العلم العربي ثم على المساهمة في ترجمته إلى اللاتينية فيما بعد حين جدَّ الغرب في طلب العلم الأندلسي والوقوف عليه. ومثل اليهود - في ذلك - الصقالبة الذين مرَّ ذكرهم في غير هذا الموضوع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الرُّبضي، وكانوا يتعلمون العربية ويتثقفون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أى دور في الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكما لإحدى المدن في عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء. أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - لم يحملوا إلى الحركة العلمية في الأندلس تراثا لاتينيا، وكل ما لهم أن من أسلموا منهم وسلااتهم من المولدين أسهموا في تلك الحركة العلمية العربية، وعروبتها لا ترجع إلى اللسان الذي استخدمته فحسب، بل ترجع - أيضا - إلى أنها أسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومرَّ بنا أن موسى ابن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائما مع الجيوش فقهاء يعلمون أهل الديار المفتوحة الإسلامَ ويحفظونهم بعض القرآن ويصرونهم بالدين الحنيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعارا من شعائر الدين أخذ به المسلمون في جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتابيب منذ عصرها الأول عصر الولاة<sup>(٢)</sup>، واطرد ذلك طوال الحقب التالية، ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتابا في عهده، جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقي في أماكن مختلفة من أحياء قرطبة<sup>(٣)</sup>. وكانت قرطبة تكتظ بكتاتيب أخرى قبل كتاتيبه. وكان معلم الكتابيب يسمى مؤدبا، وكان يأخذ أجرا على تعليمه الناشئة<sup>(٤)</sup>، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوي بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت)

٢٤٠/٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (طبع

القاهرة) ص ٢٧٨.

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة)

ص ٩٧.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد)

ص ٤٠.

تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، وينوّه ابن خلدون بتعليم الناشئة في الأندلس قائلا: «وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ومدارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي»<sup>(١)</sup>. وابن خلدون يثني - بذلك - على مؤدبي الأندلس وأنهم استطاعوا أن يفرسوا في الناشئة - فضلا عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مروهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدّهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يُؤدّب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والوزراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدّب أبناء العامة في المساجد أو في دور ملحقة بها أو في دور مستقلة بهم أو في دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين يُنهي هذا التعليم الأول على أيدي المؤدبين يتحول إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتسع في دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوي، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم في أي علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى يبايعه الأساسية في المشرق، وحتى مؤدبو الكتائب تُذكر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودي<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ١٩٨ والغازي<sup>(٣)</sup> بن قيس المتوفى سنة ١٩٩. وكانت الرحلة في طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بتحببها إلى الشباب القرطبي وتشجيعهم عليها، ورحل في عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطنه. وتصبح الرحلة في طلب العلم إلى المشرق تقليدا متبعا منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرئ لمشاهيرهم فصولا طويلة في نَفحه، وهي تدل على أنها ظلت تقليدا متبعا قرنا متوالية. ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الرضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهد كثره مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الرض القبلي عليه بقرطبة، فقد ألّبهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤلّبوهم عن قرطبة،

ص ٢٧٨

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٥٢

(٣) الزبيدي ص ٢٧٧.

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي

فرحل فريق إلى دار الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الاسكندرية ١٥ ألفا وأنزلهم أميرها عبدالله بن طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا في الفصل الماضى.

وبلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ويقول عنه ابن سعيد في المغرب، كما مر بنا: «عنى أبوه بتعليمه وتخرجه في العلوم الحديثة والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذى علم في فنه»<sup>(١)</sup> ويقول ابن خلدون: «كان عالما متبحرا في علوم الدين والفلسفة»<sup>(٢)</sup> ويقول ابن القوطية: «التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر في دولته وإسعافهم في مطالبهم كلها»<sup>(٣)</sup> وسنرى في غير هذا الموضع أنه هو الذى دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائل. وأقبل الطلاب لعهدده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالآئات - في المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمه بعد يحيى الليثى تضم ثلاثمائة طالب<sup>(٤)</sup>. وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ويقول ابن حيان نقلا عن الرازى: «كان مكرما لأعلام الناس مقدما على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف في رعايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم»<sup>(٥)</sup> ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له<sup>(٦)</sup>، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشنى فقد رحلا إلى المشرق وجلب أولهما كتاب مصنف ابن أبى شيبة في الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنعوه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماء منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثانى أيضا من المشرق حاملا كتاب الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملاءه الكتاب على الطلاب فى المسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) إنه «كان كثير التلاوة للقرآن مثابرا على درسه متصرفا فى فنون العلم متحققا بلسان العرب بصيرا بلغاتهم وأيامهم حافظا للغريب والأخبار آخذا من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أعمر مجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمرا ولا يؤخره إلا بمشورة أهل

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ٤٥/٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٤.

(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.

(٤) الديباج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة

دار التراث بالقاهرة) ٨/٢.

(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - طبع

بيروت) ص ٢٤٥.

(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

العلم والفقهاء باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوى الزمانة<sup>(١)</sup> « وفي ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولّى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وتبلغ الأندلس في عهده الذروة المنتظرة في قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية في أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستنّ له الإغداق على العلماء، ويكفى أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي بالفسطاط - وهو أندلسي الأصل - عشرة آلاف دينار<sup>(٢)</sup> ليفرقها على شيوخ المالكية بمصر لتتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلمائها من كل صنف، واستنّ لابنه الحكم أيضا إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا في الأندلس علمهم، ووفد عليه من بغداد أبو علي القالى<sup>(٣)</sup> سنة ٣٣٠ فبالغ في الحفاوة به، وقاد أبو علي في الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذه اللغويين الكثيرين. وكما عني الناصر بعلماء الدين واللغة عني بمن يدرسون علوم الأوائل، ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه بهدية بينها كتاب ديوسقوريدس في الصيدلة باليونانية، ولم يكن في قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعا، وألف الناصر لجنة لمساعدته في ترجمة الكتاب إلى العربية<sup>(٤)</sup>.

واقترى الحكم بأبيه منذ كان وليا لعهد وأسند إليه الإشراف على الحركة العلمية، فنهض بها في أيامه، حتى إذا خلفه في الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عني بتلك الحركة إلى الذروة، وقد طرّز القالى باسم أبيه واسمه كتابه الأمالي ونوه بها طويلا في مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين في الأندلس وفي المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب<sup>(٥)</sup> في فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشي،

وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ١٥٥.

(٤) انظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل

تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسي

بالقاهرة) ص ٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

(طبعة دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٩٣

وما بعدها.

(٥) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

(١) انظر المقتبس (طبع دارالعارف) الفصل

الخاص بالثناء على الأمير عبدالله وتقريظه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ١/٣١٣-٣١٤.

(٣) انظر في وفادة أبي علي القالى على الناصر

ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدي

ص ٢٠٤ وإنباه الرواة ١/٢٠٤ ومعجم الأدياء

لياقوت ٧/٣٠ وبغية الملتبس للضبي ص ٢١٦

ووصلها بجائزة كبيرة، ومن ذلك كتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجياني الذي ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، وكان ابن داود ذكر في كتابه مائة باب في كل باب مائة بيت فجعل الجياني كتابه مائتي باب في كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئاً<sup>(١)</sup>، وسمع الحكم بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني فأرسل إليه ألف دينار ذهباً ليعث إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقحة، وأرفقه بكتاب في أنساب أسرته الأموية موشحاً بمنابحهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضي الأبهري المالكي حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم في الفقه المالكي<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن الأبار: «لم يُسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها<sup>(٣)</sup>» ويقول ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهد خزان من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده<sup>(٤)</sup>». وكان له ورّاقون أو بعبارة أخرى جُلاب كتب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب، ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته في القصر كانت أربعاً وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون<sup>(٥)</sup> ورقة - وفي رواية خمسون ورقة - وكانت الدار التي اتخذها لمكتبته أشبه بمجمع علمي، وكانت تزخر بالحدائق في صناعة النسخ والتجليد<sup>(٦)</sup> وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخاً منقحة غاية التنقيح. ويذكر الحميدى في الجذوة أن الحكم مرَّ يوماً بأبي على القالي ومجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوي ابن ولاد، ومكث معهم قليلاً يسألهم عن نسخ الكتاب<sup>(٧)</sup>. ويقول ابن الأبار منوها بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: «كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته في الحلة السرياء وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعائة ألف كتاب.

(٧) جذوة المقتبس للحميدى ص ٤٧ وما بعدها.

(١) انظر الجذوة ص ٩٧ وبغية الملتبس ص ٤٠ وابن دحية في المطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٣) انظر ترجمة الحكم في الحلة السرياء لابن الأبار (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

لفوائدها، وقلما تجد له كتابا كان في خزائنه إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو في آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به<sup>(١)</sup>. وطبيعى أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس في عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب في العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فحسب، بل أيضاً بفضل ما أغدق عليهم من الرواتب الجزيلة. ولم يكن الحكم يقصر الرواتب على العلماء المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب في المساجد، بل كان يعممها في المؤدبين الذين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين في الكتاتيب<sup>(٢)</sup> ومرمياً بنا أنه أنشأ في قرطبة سبعة وعشرين كتاباً، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوّه بأهله ورفع ذكركم، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان النائية عن بلده<sup>(٣)</sup>.

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان في الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبى عامر، لا ينازعه في ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع النصارى في الشمال انتصر فيها دائماً واستولى منهم على برشلونة وحصونا وبلدانا أخرى كثيرة، مما حبب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم في كل أسبوع يوماً يجلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه<sup>(٤)</sup>، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادي اللغوى، وألف له في اللغة كتباً مختلفة نال بها منه أموالاً جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأمالى لأبى على القالى، وحين قدمه إليه أمر له تواباً بخمسة آلاف دينار<sup>(٥)</sup>. وكان يعنى بالفقهاء

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ٢٠١/١.  
 (٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشى (طبع القاهرة) ص ٨٣ والحامدي ص ٧٢.  
 (٥) الصلة لابن بشكوال ٢٣٥/١ وإنباه الرواة للقفطى (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

(١) ترجمة الحكم في ابن الأبار ٢٠٢/١ ويقول القاضى عياض في كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ٢٢/١): «كان الحكم ممن طالع الكتب ونقر عن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم».  
 (٢) البيان المغرب لابن عذارى ٣٥٨/٢.

والمحدثين عنايته بصاعد اللغوى واللغويين. وكان شديد الطموح فأمر أن يجيئ بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح - كما مرَّ بنا في الفصل الماضى - إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى - تقرباً للامة - أن ينكل بتلامذة ابن مسرة الصوفى المتفلسف المعتزلى<sup>(١)</sup>، ودفعه هذا التقرب إلى أن يأمر بإحراق كل ما كان فى مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم<sup>(٢)</sup> حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التى ازدهرت فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت فى مدها، إذ كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبى عامر الفتنة أو الفتن التى ظلت أكثر من عشرين عاما وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتن أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التى كانت مخزنة فى مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

وأعدَّ ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية فى المدن الكبرى التى تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا يسمونهم، إذ انتثر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو قل إمارات كثيرة، ففى كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخواتها فى العلم والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه فى السلطان والشئون المادية والثقافية والفنية، وكأنما أعيدت فى هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتها وما كان بينها من تنافس هياً لعصر من أزهى العصور اليونانية فى الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهى الحقب فى تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية سيجد حاكميها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقا كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بنى الأفطس فى بطليوس بغربى الأندلس وقد صعداوا بالتأليف فى الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس فى موسوعته التى سهاها كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ، وكانت

ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٣ ونسبة إحراق الكتب للخليفة هشام المؤيد خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٤٣٧/٢.

(١) يدفعنا إلى اعتقاد ذلك أن قاضى الجماعة محمد ابن بيقى فى صدر دولة ابن أبى عامر هو الذى تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولا بدَّ أن كان ذلك بإيعاز منه. انظر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالثيا (الترجمة العربية)



نحو مائة مجلد<sup>(١)</sup>. وبثَّ بنو ذى النون في طليطلة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة في عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: «لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجلاء<sup>(٢)</sup>». ونهضت سرقسطة في أقصى الشمال بحركة علمية نشطة في الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت في دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤمن من بنى هود وله في العلوم الرياضية تأليف مثل الاستهلال والمناظر<sup>(٣)</sup> وكان مألفا للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت في المرية شرقى الأندلس نهضة علمية وأدبية واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلبي أول أمرائها، وكان كاتباً مبدعاً وشغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربعائة ألف مجلد<sup>(٤)</sup>، وصارت الإمارة سريعاً إلى بنى صُهاح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة في عهد أميرها المعتصم وكان شاعراً مجيداً كما كان ممدّحاً أكثر الشعراء من مديحه<sup>(٥)</sup>. وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون في مرسية وبلنسية في شرقى الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالماً بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفاضل، وشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلماه<sup>(٦)</sup>. وكان لغرناطة في جنوبى الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمى والأدبى، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر في الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ٤٧٨ للهجرة، واستقر في نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة في وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين في الشمال وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن

(٥) انظر ابن الأبار في الحلة السيرة ٨٢/٢ ويقول كان يجلس يوماً في كل أسبوع للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه في التفسير والحديث.  
(٦) المغرب ٤٠١/٢ وأعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان المغرب ١٥٧/٣.

(١) المغرب لابن سعيد ٣٦٤/١ ويذكر أنه اجتمع عنده ابن شرف حسنة القيروان وعبدالله بن خليفة المصرى الحكيم وأبو الفضل البغدادي الأديب.  
(٢) المغرب ١٢/٢.  
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/٤.  
(٤) المغرب ٢٠٦/٢.

الفقهاء في هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجرى الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه<sup>(١)</sup>، واحتذاه في ذلك ابنه على خليفته في الحكم. ولا تلبث دولة الموحدين أن تحل في المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيها عالمًا مشاركًا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية<sup>(٢)</sup> وكان مؤثرًا لأهل العلم ويجري عليهم الرواتب الواسعة<sup>(٣)</sup> وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ). وكان قد درس في إشبيلية على فقهاءها وعلماؤها اللغويين، وقيل إنه كان حُفظةً حتى ليقولون إنه حفظ البخارى بأسانيدِهِ، وشغف بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر<sup>(٤)</sup>، وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفاً مثله ثقافة واسعة وكان يعقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة<sup>(٥)</sup>. وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو في الأندلس طوال عصر دولتي المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط في أيدي المسيحيين الشماليين منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس في غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة في حجر النصارى أن تستتم نهضة العلوم والآداب الأندلسية، وهاجر كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر في الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقيه (٦٧١ - ٧٠١) يرعون العلماء والشعراء، وعُرف باسم الفقيه لدراسته الفقه أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفًا بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرسية لمحمد بن إبراهيم الأوسى ومحمد بن أحمد الرقوطي كى يدرسا للطلاب في غرناطة العلوم الطبية والفلسفية<sup>(٦)</sup> ولعل أكبر أمير من بني الأحمر نشطت دراسة العلوم في عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول

(٥) انظر كتابنا الرد على النحلة (طبع دار المعارف) ص ١٥.  
(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (تحقيق عنان - طبع القاهرة) ٦٧/٣ - ٦٨.

(١) روض القرطاس لابن أبي زرع (طبع الرباط) ص ٣٨.  
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع القاهرة) ١٥٨/١.  
(٣) المعجب ص ٢٦٩.  
(٤) المعجب ص ٣١٠.

(٧٣٣ - ٧٥٥) الذي أنشأ لأول مرة في غرناطة - بل ربما أيضا في الأندلس - مدرسة سهاها المدرسة<sup>(١)</sup> النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعا في المساجد أو في دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب في منازلهم، ولم يكن ذلك قاصرا على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاما عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضا عند بعض معلمى الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجرى فإن الحركة العلمية ازدهرت بها ازدهارا عظيما كما رأينا سواء في المساجد أو في منازل العلماء التي كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة في هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يلزم أتباعه رجالا ونساء بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعيا أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروض دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدبين لبناتهم ولجواربهم وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب الثراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدبين مؤدبات كن يتفرغن لتأديب الصبيان في الصغر مثل ابنة حزم التي كانت تشترك مع أبيها وأخيها في تأديب الناشئة بدار واحدة<sup>(٢)</sup> وكان قيام المؤدبين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم في أى فرع من فروع العلم إلا يأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعلم القراءة والكتابة وشيء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كن يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الرضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبثلة وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراءة بالمساجد<sup>(٣)</sup> وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعا منه وقراءة عليه، وصحبته، وكان لها يوم في الجمعة تنفرد فيه به لأخذ العلم عنه بداره.

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع أكاديمية المملكة المغربية - تحقيق محمد بن شريفة) ٤٨٤/٢/٨.

(١) راجع هذه المدرسة في ترجمة رضوان النصرى في الإحاطة ٥٠٨/١ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من بنائها بسنة ٧٥٠.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقہ وعادت إلى الأندلس<sup>(١)</sup>. ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديبا شاعرا وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) كاتبة لها<sup>(٢)</sup>. ومر بنا في الفصل الماضي ثلاث من جواري القصر الأموي كانت اثنتان منهن: مزنة وكتبان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة بُنَي تكتب للمستنصر، وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وكانت أديبة بليغة تحسن تحبير الرسائل ومن إنشائها الرسالة التي عزى فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبي عامر عن أبيه وجدّد له العهد بالحجّابة<sup>(٣)</sup> سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجواري في قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهم اللاتى كن يقمن على تربية النشء في تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء في العهد الأموي إذ يقول عن نشأته في أواخر القرن الرابع الهجرى بكتابه طوق الحمامة: «إننى رُبيّت في حجور الجواري ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين بقل<sup>(٤)</sup> وجهى وهن علمنى القرآن وروينى كثيرا من الأشعار»<sup>(٥)</sup>. وتلقانا في كتب التراجم من حين لآخر عالمت متعمقات في العلم مثل ابنة فائز زوجة أبي عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبي عمرو الداني المقرئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبي داود بن نجاح في آخر سنة ٤٤٤ للهجرة<sup>(٦)</sup>. وكانت تعاصرها إشراق السويداء وقد برعت في العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها في علم العروض وعنها أخذها أبو داود المقرئ وقرأ عليها كامل المبرد وأمالى القالى<sup>(٧)</sup> واشتهرت في تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتانى بحسن الغناء وبإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة<sup>(٨)</sup>. وتلقانا في القرن السادس أم العز<sup>(٩)</sup> راوية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيس

أحمد مكى طبع دار المعارف) ص ٧٩.  
 (٦) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشى ٤٩٤/٢/٨.  
 (٧) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشى ٤٨٠/٢/٨.  
 (٨) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة لابن يسام (تحقيق احسان عباس) ص ١١٢.  
 (٩) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشى ٤٨٣/٢/٨.

(١) المراكشى ٤٨١/٢/٨.  
 (٢) نفس المصدر ٤٨٥/٢/٨.  
 (٣) المراكشى ٤٩٣/٢/٨.  
 (٤) يقال بقل وجه الغلام حين ينبت شعر خده ولحيته.  
 (٥) طوق الحمامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر

أمير شرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبي بكر وكانت تحذق الطب مثل أبيها وأخيها وكثيرين من أسرتهما، وكانت الطبيبة لنساء الأمراء من بني عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجواربهم، وكانت تُستفتى في الطب لرجالهم فتزيد حظوة<sup>(١)</sup> عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ وتعد بحق - جدة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللاتئي كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت تتجول في بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة.<sup>(٢)</sup> ويذكرون عن محبى الدين بن عربى الصوفى المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصوف زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها فى دفعه إلى التصوف نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادما ومريدا، مأخوذا بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسنلم فى موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التشقق بالشعر، مما هيا لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

## ٢

## علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا (أ) علوم الأوائل

لم يكن فى إسبانيا قبل فتح العرب لها شىء واضح من علوم الأوائل فى الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافا منها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى مما ترجم فى بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد فى ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إن أباه الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) عنى بتعليمه وتخريجهم فى العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث فى الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها، إذ يمضى ابن سعيد فى ترجمته قائلا إنه: وجّه عباس بن ناصح إلى العراق فى

(١) انظرها فى الذيل والتكملة للمراكشى  
(٢) انظر المراكشى ٤٨٥/٢/٨.

(١) انظرها فى الذيل والتكملة للمراكشى  
٤٨٣/٢/٨ وراجع طبقات الأطباء  
لابن أبى أصيبعة فى ترجمة أخيها الطبيب أبى بكر

التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها، ونظر هو فيها»<sup>(١)</sup>. وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد في الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسيا في زمنه يقبل على دراسة علم الفلك والهيئة ويصبح منجما له هو عبد الله بن الشَّمر، وكان شاعرا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجري عليه راتبا للشعر وراتبا للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهدده، وله معه في التنجيم أخبار طريفة<sup>(٢)</sup>.

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين في القرن الثالث الهجري منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بهما من الرياضيات، وأخذوا سريعا يهتمون بالكيمياء والفلسفة، واشتهر بذلك كله عباس<sup>(٣)</sup> بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة في أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ.)، وفيه يقول ابن سعيد: «كان فيلسوفا حاذقا وشاعرا مفلقا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نسب إليه السحر وعمل الكيمياء» ويقول ابن حيان في المقتبس: «أبداع عباس بن فرناس عندنا في فنون التعاليم القديمة والحديثة وتفلسف وأغرب في غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصَوَّغ اللحون». وبلغ من علمه بالفلك أن صنع في بيته قبة على هيئة السماء تراءى للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال في تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سَرَق (شقق) الحرير فتهيا له أن طار في الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل في الهواء فحلَّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة. وتأخذ علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة في النمو منذ عصر الأمير محمد

والجذوة للحميدي رقم ٥٠٥ وبغية الملتبس رقم ٨٤٥.

(٣) راجع في ابن فرناس المغرب ٣٣٣/١ والمقتبس ص ٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣١ والبغية رقم ١٢٤٧.

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥/١.

(٢) انظر في ابن الشمر المغرب ١٢٤/١ والمقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضي رقم ٦٨٩ والزبيدي ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذاري ٨٥ وما بعدها والقضاة للخشني ص ٨٣.

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ.)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم في علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا جُلب وأكَّب العلماء عليه يدرسونه. وطبيعي لذلك أن يظهر في عهد المستنصر مسلمة<sup>(١)</sup> المجريطي المتوفى سنة ٣٩٨ وهو يفتتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية، ومن أعماله شرحه لقبه الفلك لبطليموس وقد تُرجم إلى اللاتينية في بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: «سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها» وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة في الأسطرلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمي أوجداوله الفلكية وقد حوَّها من التاريخ الفارسي إلى التاريخ العربي وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتاني ساه تعديل الكواكب. وخلفه في الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمر المنصور بن أبي عامر في زمن حجابته باحراق كتب علوم الأوائل - كما مرَّ بنا - كان حدثا عارضا، وظلَّ لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطها في بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم<sup>(٢)</sup> أصبغ بن محمد بن السمح الغرناطي المتوفى سنة ٤٢٥ وكان رياضيا بارعا في الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله «المدخل إلى الهندسة» في تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة في الحساب، وكتابتان في الأسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعته والآخر في العمل به، وله أيضا زيح فلكي انتفع به وبكتابات الفلكية ألفونس العاشر وعلماؤه. ومن تلاميذ مسلمة ابن الصفار<sup>(٣)</sup> أحمد بن عبدالله الغافقي، وله زيح جيد ورسالة في العمل بالأسطرلاب، وكان يعلم في قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة في أوائل القرن الخامس الهجري - إلى دانية لعهد صاحبها مجاهد العامري وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضا الكرمانى<sup>(٤)</sup> عمرو بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٤٥٨ عن تسعين

(٢) راجع طبقات صاعد ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٣ وبالتنشا ص ٤٤٩ وألدومبيلي ص ٣٥١.  
(٣) انظر في ابن الصفار طبقات صاعد ص ١٠٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالتنشا ص ٤٥٠ وألدومبيلي ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٧/٤.  
(٤) راجع في الكرمانى طبقات صاعد ص ١٠٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالتنشا ص ٤٥٥ وألدومبيلي ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٨/٤.

(١) انظر في مسلمة المجريطي طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسي لبالتنشا (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدومبيلي (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص ٣٥١ وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣٢٣/٤.

عاما وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا، واستقر بسرقسطة عند بنى هود في رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة، وخلفه ابنه يوسف المؤمن إلى أن توفي سنة ٤٧٨ وكان يكبُّ على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر، وله أيضا كتاب الاستهلال في الفلك<sup>(١)</sup>.

ولعل في التلامذة السابقين لمسلمة المجريطى ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولا يلبث أن يظهر في عصرهم علمُ الرياضيات الزُّرقالى<sup>(٢)</sup> القرطبي المتوفى سنة ٤٧٢ وهو من أعظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية وأسطرلاب وابتكر له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر في الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماءه من مؤلفاته رسالة في العمل بأسطرلاب الصفيحة، وكما تُرجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه «طريقة في عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها».

وينتهى عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس في حوزة المرابطين منذ سنة ٥٨٤ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير في عهدهم ولكنه لا يعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة، ويظل المرابطون في الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ويلمع في عصرهم اسم جابر<sup>(٣)</sup> بن أفلح الإشبيلي وله كتاب في حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه في علم النجوم الذى ساه إصلاح المجسطى، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التى تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرار دى كريمونا المتوفى بطليطلة سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م. وتختلف دولة الموحدين دولة المرابطين في الأندلس منذ العقد الخامس في القرن السادس الهجرى، ويتألق في عهدهم بالنصف الثانى من القرن اسم عالم رياضى إشبيلي عربى يُعدُّ في طليعة الرياضيين

(٢) انظر الزرقالى في طبقات صاعد ص ١١٧ وبالنتيا ص ٤٥١ وألدومبيلى ص ٣٥٩ (انظر الفهرس).

(٣) انظر في جابر بالنتيا ص ٤٥٦ وألدومبيلى ص ٣٨٣.

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالنتيا ص ٤٥٥. وعاش في بلاط بنى هود من تلامذة مسلمة المجريطى ابن البغونش انظر فيه طبقات صاعد ص ١٢٧ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٥ وبالنتيا ص ٤٥٣.



العالمين، ونقصد البَطْرُوجِي<sup>(١)</sup> أبا إسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة، وترجع شهرته وأهميته إلى كتابه الفلكي في علم الهيئة، إذ قَوَّض فيه نظرية بطليموس في كتابه المجسطى عن الكواكب السيارة قائلاً إنها تتحرك في مدارات إهليلجية أو بيضاوية حول الشمس، وتَرَجَمَ هذا الكتاب الفلكي سريعاً إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليطلة وأطلع عليه حوالى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م وبذلك أدخل نظرية البَطْرُوجِي الفلكية مبكراً إلى العالم الغربي وترجمها إلى العبرية موسى بن طَبُّون سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية قالينيوس بن داود سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ م ونشرت ترجمته في البندقية سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣١ م. وبدون ريب اطلع كبلر<sup>(٢)</sup> الألماني (١٥٧١ - ١٦٣٠ م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التي استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عُدَّ كبلر أباً لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعى، فأبوه الشرعى الحقيقى هو البَطْرُوجِي الإشبيلي العربى. وتوقف هذا النشاط فى الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت فى يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها فى أيدي المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة فى الأندلس، وأخذ النشاط فى علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التى ظلت للعرب فى الجنوب نحو قرنين ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرُّقُوطِي<sup>(٣)</sup> محمد بن أحمد وتوفى بها سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤ م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات فى مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب فى حضرته، ولبَّاه سريعاً، ويحتمم الرياضيين الأندلسيين فى نهاية القرن التاسع الهجرى القلَّصَادِي<sup>(٤)</sup> على بن محمد القرشى وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفى ببجاية سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦ م وظلت كتبه تتدارس فى المغرب طويلاً وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

(٤) راجع فى القلَّصَادِي ترجمة واسعة فى نفع الطيب ٦٩٢/٢ وانظر الضوء اللامع للسخاوى ١٤/٥ وبالنتىا ص ٤٥٧ ومابعدها وألدومبيللى ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجفان.

(١) راجع فى البَطْرُوجِي ابن أبى أصيبعة ص ٤٨٢

وبالنتىا ص ٤٥٦ وألدومبيللى ص ٣٨٣ ومابعدها.

(٢) راجع بالنتىا ص ٥٣٥.

(٣) انظر فى الرقوتى بالنتىا ص ٤٥٧ والاحاطة

٦٧/٣ وما بعدها.

وازدهر الطب في الأندلس - مثل علوم الرياضة والفلك - ويقول ابن جلجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بَصْرٌ بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عبد الرحمن الأوسط<sup>(١)</sup> (٢٠٦-٢٣٨) ويمكن أن نعتم ذلك في الأندلسيين بعامة، كما مرَّ بنا آنفاً، فإنهم انتظروا في ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته في الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) طبيب يسمى حمدين<sup>(٢)</sup> بن أبان وكان - كما يقول ابن جلجل - طبيياً حاذقاً، ووفد على قرطبة حينئذ طبيب من المشرق يسمى الحراني<sup>(٣)</sup> اشتهر بدواء لأوجاع الجوف ساه المغيث، ويذكر ابن جلجل في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) طبيياً يسمى إسحق وآخر يسمى ابن ملوكة<sup>(٤)</sup>. ثم أخذ علم الطب في الازدهار لعهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) إذ كثرت دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا في صدر دولته يحيى<sup>(٥)</sup> بن إسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله في الطب كتاب في خمسة أسفار. ومن أطباء العيون حينئذ سليمان<sup>(٦)</sup> بن باج، وكان يعاصره سعيد<sup>(٧)</sup> بن عبدالرحمن ابن أخي عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفي سنة ٣٤٢ وكان حاذقاً في علاج الحميات، وله كتاب في الصيدلة. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أحمد<sup>(٨)</sup> بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتتلماذا لثابت بن سنان بن قرة الطبيب المشهور ببغداد وقرأ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحراني وأخذاه عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصهما المستنصر لنفسه، وتوفي عمر، وظل المستنصر حفيباً بأحمد وأسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهراً في علاج أمراض

- 
- (١) طبقات الأطباء والحكام لابن جلجل ص ٩٢.  
 (٢) انظر فيه ابن جلجل ص ٩٣ وبالنتيا ص ٤٦١.  
 (٣) انظر في الحراني ابن جلجل ص ٩٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦.  
 (٤) راجع في ابن ملوكة وإسحق ابن جلجل ص ٩٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦ ويقول ابن جلجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيًا لفعود الناس.  
 (٥) انظر في يحيى بن إسحق ابن جلجل ص ١٠٠.  
 وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٨.  
 (٦) راجع في ابن باج ابن جلجل ص ١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩.  
 (٧) انظر في سعيد ابن جلجل ص ١٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١/١٢٠ والتكملة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنتيا ص ٤٦٢.  
 (٨) راجع في أحمد وأخيه عمر ابن جلجل ص ١١٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٧ وبالنتيا ص ٤٦٤.

العيون كما كان صيدلانيا حاذقا، وكان يعاصره محمد<sup>(١)</sup> بن عبدون الجبلى وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبرّ ماستانها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبي عامر.

وتتوّج النهضة الطبية حينئذ بالزهرأوى<sup>(٢)</sup> أبى القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التى بناها غربى قرطبة، وقد خدمه - فيما يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفى سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين جزءا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقساما ثلاثة: قسما فى الطب العام والأمراض وقسما فى الصيدلة وقسما فى الجراحة، وعنى جيراردى الكرىبونى فى القرن الثانى عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزاءه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر فى البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة فى القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب فى الغرب، وظل يدرس فى الجامعات الأوربية من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه، إذ ظل الجراحون الأوربيون يعدّون الزهرأوى إمامهم فى الجراحة سواء فى جراحة العظام أو فى جراحة الحصة فى المثانة والمهبل والشق عنها وتفثيتها وعمليات الفتق والدوالى وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمّن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهى تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها، وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البطرّوجى السالف الذكر أبا لعلم الفلك العالمى.

ويظل علم الطب فى الأندلس مزدهرا فى عصر أمراء الطوائف وكذلك فى عصر المرابطين والموحدين، ويتوارث فى بعض البيوت مثل بيت بنى زهر بإشبيلية، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين فى القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبد الملك<sup>(٣)</sup> جدّهم وكان ماهرا فى صناعة الطب، وطارث شهرته بها فى عصر أمراء

وَأَلدومبيل ص ٣٥٣، ٣٥٥.

(٣) انظره فى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٩

والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٧

والذيل والتكملة للمراكشى تحقيق د. إحسان

عباس ٣٧/١/٥.

(١) انظر فى ابن عبدون ابن جلجل ص ١١٥

وإبن أبى أصيبعة ص ٤٩٢.

(٢) راجع فى الزهرأوى الصلة لابن بشكوال ٣٦٨

وإبن أبى أصيبعة ص ٥٠١ وتاريخ الأدب العربى

لبروكلمان ٣٠٠/٤ ومابعدها وبالتثيا ص ٤٦٥

الطوائف إلى أن توفي سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء<sup>(١)</sup> طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه علي إلى أن توفي سنة ٥٢٥ للهجرة، وله في الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبي أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها في السنة التالية لوفاة، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحيانا باسم كتاب النكت) وقد نشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلمذ ابنه عبد الملك<sup>(٢)</sup> طبيب المرابطين ثم الموحدين إلى أن توفي سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن بزمانه من يماثله في صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقي منها ثلاثة إلى اليوم، هي: كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد وهو في الطب الباطني، وكتاب الأغذية والأدوية وهو في الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو في الطب العملي، وترجم إلى اللاتينية، وطبعت الترجمة في البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلي: «يُعد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربي عملي (كلينيكي) بعد الرازي». وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذي انفرد بالإمامة في الطب لزمه إلى أن توفي سنة ٥٩٥ ومراً بنا في غير هذا الموضوع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب في هذا البيت، فكان عبد الله<sup>(٣)</sup> بن أبي بكر بن زهر طبيباً حاذقاً وخدم الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) إلى أن توفي سنة ٦٠٢ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبي الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات في الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبي العلاء زهر، وتلقن صناعة الطب عن ابن رشد ابنه أبو محمد<sup>(٤)</sup> عبد الله وخدم بها الناصر

(١) طبعة كوديرا بمديد) رقم ١٧١٧ وبالنتيا ص ٤٧١ وألدوميلي ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب كولان عن حياته ومؤلفاته.  
(٢) راجع ابن أبي أصيبعة في ترجمة أبيه ص ٥٢٩.  
(٣) انظر أيضا ابن أبي أصيبعة بعد ترجمة أبيه ص ٥٣٣.

(١) راجع أبا العلاء في التكملة رقم ٢٥٥ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ص ٢٠٣ وفيه أنه تطيب زمانا طويلا بالمشرق وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وعاد إلى الأندلس وبُدَّ بها أهل زمانه.  
(٢) انظر في عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر ابن أبي أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار

الموحدي. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بني الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفى سنة ٧٧٠ رسالة في وصف وباء الطاعون الذي اجتاح مدينة المرية سنتي ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوى وأسبابها ومرض الطاعون وصفا طبييا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب في الطب كتابا في جزئين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعيا أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس في الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مرَّ بنا، وكان له تأثير بعيد في نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقا في صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جلجل في ترجمته إنه تولى خزانة الطب في قصر المستنصر، ورتب لها اثني عشر صبيًا صقالية طبّاحين للأشربة صانعين للمعجونات. وولتقى في عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر بصيدلى يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبي أصيبعة<sup>(١)</sup> كتابا يسمى كتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جلجل<sup>(٢)</sup> مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذى يتردد ذكره في الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسرها في الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة في ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب، ومقالة ثانية في أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن<sup>(٣)</sup> سمّجون وله كتاب في الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيدلة في عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلى في عصرهم ابن<sup>(٤)</sup> وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: «تمهّر في علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله

(١) راجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر في ابن جلجل طبقات الأمم لصاعد ص ٥٠٠ وبالنتيا ص ٤٦٧

(٣) راجع في ابن وافد طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنتيا

ص ٤٦٧.

(٤) راجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر في ابن جلجل طبقات الأمم لصاعد وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس

للحميدى (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتبس

للضبي (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالنتيا ص ٤٦٥

والدوميلي ص ٣٥٤.

نوادير محفوظة في الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه. وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها - حتى وفاته - لأمرها المأمون بن ذى النون. وتَسُنَدُ كتب الصيدلة حينئذ كتب ألفت في الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع في الفلاحة لابن<sup>(١)</sup> حجاج الإشبيلي المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردني. وهو يفيض في بيان الزراعة والغراسة لمختلف البقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الآفات والأمراض، وعلى شاكلة هذا الكتاب في الفلاحة كتاب لأبي عبيد البكري الجغرافي المتوفى سنة ٤٨٧ وهو في نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفى سنة ٤٩٩ بعنوان: «القصد والبيان».

ونمضي إلى القرن السادس الهجري، وولتقى فيه بصيدلى كبير هو أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد الغافقى المتوفى سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة في العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ في كتبه بنحو مائتى نقل عنه، وأيضاً فإن ابن العبرى المتوفى سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصراً ونشره جورج صبحى وماكس مايرهوف بالقاهرة. ولتلقى بعده بابن<sup>(٣)</sup> العوام أبو زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمدريد، وهو موسوعة تاريخية نفيسة في علم النبات، وقد عدّ منه ٥٨٥ نوعاً منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. ومن تعمقوا في دراسة النباتات في الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية<sup>(٤)</sup> الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر في طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجوّل في الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة في تركيب الأدوية، وأعظم ما أهداه إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار<sup>(٥)</sup> أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو ضياء الدين عبدالله بن أحمد، وقد تجول في نواحي المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل

(٤) انظر في ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٥٣٨ وبالنتيا ص ٤٧٨ وألدومبيلي ص ٤١٤.  
(٥) راجع في ابن البيطار ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وفوات الوفيات لابن شاعر (تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد) ٤٣٤/١ وبالنتيا ص ٤٧٨ وألدومبيلي ص ٤١٤.

(١) انظر ابن حجاج في المغرب ٢٥٦/١ وبالنتيا ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع في الفلاحة.  
(٢) راجع في الغافقى ابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنتيا ص ٤٧٢ وألدومبيلي ص ٤٠١.  
(٣) راجع في ابن العوام بالنتيا ص ٤٧٥ وألدومبيلي ص ٤٠١ وأعمال مؤثر المستشرقين في استوكهلم (١٨٨٩ م) ٢/٢١٥ - ٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

رئيسا على العشائين بمصر، وظل يرأسهم في عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبي أصيبعة عنه: أوحذ زمنه في معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» المطبوع ببولاق في أربعة مجلدات وهو معجم أبجدي للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيرا أسماءها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والكتاب الثاني المغنى في الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعي. وأخذت كتبه تدرس بعده في العالم الإسلامي دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو بحق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلي في الأندلس بعده محمد بن<sup>(١)</sup> السراج الغرناطي المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراكش ووضع في الأدوية والأعشاب كتبا كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

### (ب) الفلسفة

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها في الأندلس، وأول شخص تضاف إليه محمد بن<sup>(٢)</sup> عبد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكرا بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه في عقيدته، وكأنما خشى على نفسه، فرحل في سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واختلّف في رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل في ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه في عزلته، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحرية في إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة

الخامس من المقتبس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها  
وكتاب الناصر في التنديد بذهبه ص ٢٥ والفصل  
في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة)  
١٩٨/٤ وبالنتيا ص ٣٢٦.

(١) انظر في ابن السراج بالنتيا ص ٤٨٢.  
(٢) راجع في ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس  
لابن الفرضي (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢. وأخبار  
الحكماء للقفطي (طبع ليبزج) ص ١٦ والجزء

الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأ إلى إنباذوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقلي المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذى النون المصرى الذى كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وألّف فى ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقدر فى أحاديث الشفاعة ويؤوّل آيات القرآن. وكان يسرّ دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلامذته يتناقلون آراءه سرا، ويبدو أن أتباعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يُتلى على الناس فى قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضّح فيه نحلتهم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لآى القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأمر من يتولون الأحكام بتتبعهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور فى عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمه من التسامح الفكرى حتى إذا توفى وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبى عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضى قرطبة محمد بن يبقى بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وألّف ابن يبقى ضد هذه التعاليم كتابا ينقضها، وحاكاه فى ذلك الزبيدى اللغوى. ويظل لابن مسرة أتباع مستترون. ويذكر ابن حزم فى كتابه الفصل - كما مر بنا - داعيا كبيرا لتلك التعاليم كان يعاصره فى القرن الخامس الهجرى، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فإما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعيني، وكان يقول إن العالم لا يفنى أبدا، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرءون منه<sup>(١)</sup>. وظلت تعاليم ابن مسرة حية فى الأندلس طويلا، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربى، وأيضا عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا فى اتجاهه أو بعبارة أخرى فى اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسططاليس.

وكثر هذا الاتجاه فى عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى



الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليلي المتوفى سنة ٤٦٢ في كتابه طبقات الأمم مرارا إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبي الوليد القشبي الطليلي وابن الجلاب السرقسطي وابن سيده المرسي، وفيه يقول: «عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفا كبيرا مبسوطا». وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقي ومتفلسف، ويلقانا ممن عكفوا على دراسة المنطق أبو الصلت أمية<sup>(١)</sup> بن عبد العزيز الداني المتوفى سنة ٥٢٩ وله في المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمدير مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن<sup>(٢)</sup> السيد البطليوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوي وله في الفلسفة رسالة مطبوعة في القاهرة بعنوان: «كتاب الحدائق في المطالب الفلسفية العويصة» وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تفتى - بل تبقى - بعد موته. ويذكر ابن السيد في الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرا من محاوره تيمائوس ونقل بالثنيا عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليوناني المعروف لتلك المحاور.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن<sup>(٣)</sup> باجة المتوفى سنة ٥٣٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة في سرقسطة شمالي الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التي عنت بالترجمة له شيئا عن نشأته ودراسته، ويبدو أنه أكب مبكرا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكب على علم الألحان والغناء، وبلغ فيه كما بلغ في الفلسفة وعلم الأوائل مبلغا عظيما. وكان شاعرا مبدعا كما كان ناثرا بليغا، مما جعل أبا بكر<sup>(٤)</sup> بن تيفلويت حين حكم سرقسطة من قبل

القلاند ص ٣٠٠ وابن خلكان ٤٢٩/٤ ونفع الطيب (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٧/٧ والواقى بالوفيات للصفدي (طبع إستانبول) ٢٤٠/٢ والحريدة للهاد الأصهباني (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار التونسية ٣٣٢/٢ وبالثنيا ص ٣٣٥.

(٤) انظر ترجمته في الإحاطة ٥٠٤/١.

(١) انظر في مصادر أمية ترجمته في الفصل الرابع.

(٢) راجع في ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ٣٨٥/١ وقلاند العقبان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٩٦/٣ وأزهار الرياض ٥٦/١، ١٠١/٣ وبالثنيا ص ٣٣٤.

(٣) انظر في ابن باجة القفطي ص ٤٠٦ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ١١٩/٢ والفتح في

المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذه كاتباً له ووزيراً، حتى إذا توفي هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مراثيه وتغنى بها في ألحان مبكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين في المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبي أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا بان لك الرجحان في أقاويله، وقد عنى عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السماع الطبيعي أو سمع الكيان، وجزءاً من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءاً من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابي والأدوية المفردة لجالينوس وأيضاً لابن وافد. وله تصانيف في الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله في الفلسفة كتاب في البرهان وكتاب في النفس وكتاب في العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمدير وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أي رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض في بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوي الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصل بين التأمل العقلي وبين عَوْنِ علوى، محالوا الوصل بذلك بين الفلسفة والدين، وخلفه ابن طُفَيْل وابن رشد<sup>(١)</sup>، فبلغا بالفلسفة الإسلامية في موطنها الغاية التي ليس وراءها غاية.

وابن طُفَيْل<sup>(٢)</sup> هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسي، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة في بُرْشانة من أعمال المَرِيَّة، وقيل في وادي آش من أعمال غرناطة، وقيل بل في تاجلة من أعمال جِيَّان، وقد أكبَّ على كتب الفلسفة والطب مبكراً، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف في زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف في الفلسفة مثل كتاب له في النفس، واشتغل بالطب في غرناطة

وما بعدها والمغرب ٨٥/٢ وتحفة القادم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٤٧٨/٢ وبالتنباص ٣٤٨ والميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقي. (طبع دارالمعارف).

(١) انظر في تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للمراكشي (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفي تلمذة ابن رشد له ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

(٢) راجع في ابن طفيل المعجب ص ٣١١

وبعض الأعمال الإدارية فيها وفي سبته وطنجة، ثم صار طبيبا لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذته مستشارا، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وممن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيباً به إلى أن توفى قبله بقليل في مراكش سنة ٥٨٠، بينما توفى ابن طفيل سنة ٥٨١ وكانت له في الطب والفلك مؤلفات سقطت في يد الزمن، ويقول البطروحي أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله في الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر في عصره إلى اليوم بقصته: حى بن طفيل، وسنخسها بحديث مفرد في الفصل الأخير.

وابن رشد<sup>(١)</sup> هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، وُلد لها في العقد الثاني من القرن السادس الهجري، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضيا في إشبيلية سنة ٥٦٥ وفي قرطبة سنة ٥٦٧، مما يدل على أنه أكب على دراسة الفقه في بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعا مهما في الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بتطوان، وتُرجم في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٤٨٢ وتُرجم له أيضا إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا في الطب طُبع أيضا في البندقية بعد كتابه الكليات بستين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠ هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو في كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو سنه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن

بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقالة كرادى فو عنه في دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتابي د. عاطف العراقي عن النزعة العقلية والمنهج النقدي في فلسفة ابن رشد. (طبع دار المعرف).

(١) راجع في ابن رشد ابن أبي أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار في كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والوفائي بالوفيات للصفدي (طبع إستانبول) ١١٤/١ وابن فرحون في الديباج المذهب ٢٥٧/٢ والمغرب ١٠٤/١ وابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ١٥٤/٦ وابن العماد في الشذرات ٣٢٠/٤ وبالثنيا ص ٣٥٣ وتراث الإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر

ينهض بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) حتى إذا انتصر في موقعة الأرك المشهورة ضد نصارى الإِسبان سنة ٥٩١ أخذته الحمية للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول بقدوم العالم بالقوة موقفا بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كالأل، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه في سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراکش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منهما أن لبيَّ نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: «رأيت له تلخيص كتب أرسطو في جزء واحد في نحو مائة وخمسين ورقة لخص فيه كتبه: سمع الكيان، والسياء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخصها وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء» ويقول بالثيا إنه وضع شروحا مطولة لكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعي وكتاب الساء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب، وللمنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضا مؤلفاته الأصلية في الفلسفة وفي مقدمتها تهافت التهافت الذي يرد فيه على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة وأرسططاليس. وله شروح على كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وتُرجم إلى اللاتينية أيضا كتاباه: «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومن قوله فيه: «الحكمة (أى الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضية وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجواهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل في قصة حى بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وكان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيما دونه إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفي كل إنسان قيس منه، وإذا ازداد اتصاله به ساء إلى حالة الكشف الصوفى. وأدته محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل في النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين

رأى أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الغزالي وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وُجد وتشكّل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء في ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلي أو جزئي، إذ هو علة الموجودات جميعا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريوني (١١٨٧ م) وميشيل سكوت الإنجليزى (١٢٣٥ م) وهرمان الألماني (١٢٧٢ م) يذيعون أعماله أخذت تُدرّس في الجامعات الأوربية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبت الكنيسة لعناتها على سيجر البرابانتى الأستاذ بجامعة باريس وطرده من رحابها في سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقا رشديا، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكانى الألماني ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكويني هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه في التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيران معه في طريق واحدة متبعين خطاه فيها قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقيصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس في الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لاتران البابوى قرّر سنة ١٥٠٢ لَعَنَ كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس في الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. ومما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح الدينى في النهضة الأوربية، ويقول بالنتيـا إن تأثير ابن رشد في تاريخ الفكر الأوربي كان حاسما، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يُعدّ - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام في الأندلس.

### (ج) علم الجغرافيا

تابع الأندلسيون المشاركة في الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيون يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربى والإسلامى، وقد يصفون أنحاء من أوربا الغربية والشرقية، وأضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك في جاهليتهم حين كانوا يكثر من الرحلة وراء الكلاّ ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج جزءا لا يتجزأ من عبادتهم ومُنسِكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقا

إلى أواسط آسيا وغربا إلى الأندلس والمحيط الأطلسي، فكان طبيعيا أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبيعي لذلك أن يكون لكل بلد عربي جغرافيوه ورحالته، وأن تشارك الأندلس في ذلك بحظ أو حظوظ، وأول جغرافي مهم نلتقى به فيها أحمد<sup>(١)</sup> بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافي، ولم يبق من أعماله سوى قطعة في جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: «أخبار ملوك الأندلس» وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها في قسميها الغربي والشرقي وأنهارها وجبالها وكورها ومدنها وإنشائها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان في كتابه - وكذلك ابن سعيد في كتاب المغرب - بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو<sup>(٢)</sup> عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس في عصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) المتوفى سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك. ويلقانا في عصر أمراء الطوائف أحمد<sup>(٣)</sup> بن عمر بن أنس العذري الدلائني المريي المتوفى سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك وفيه يعرض كور الأندلس وأجزاءها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضا أبو عبيد البكري<sup>(٤)</sup>، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان أباه أمراء وُلّية وسلطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذها منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتلمذ على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المريّة، وأرسله ابن صّادح صاحبها في رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فأثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفي. وله في الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه

(٤) راجع في أبي عبيد البكري الذخيرة لابن بسام، المجلد الأول من القسم الثاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٣٢ والقلائد للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص ١٩١ والصلة لابن بشكوال ص ٢٨٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ والمغرب ١/٣٤٧ والحلة السراء (طبع القاهرة ١٨٠/٢) ومؤنس ص ١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ص ٣٠٩ وما بعدها والدومبيلي ص ٣٦٠.

(١) انظر في الرزي جذوة المقتبس للحميدي (طبع القاهرة) ص ٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص ٥٦.  
(٢) راجع في أبي عبد الله التاريخي الحميدي رقم ٩٠ وبغية المتلمس للضبي رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.  
(٣) انظر في الدلائني الحميدي رقم ٢٣٦ والضبي رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

مطبوع، والكتاب الثاني معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع في جزيرة العرب، طبعه وستفلد قديماً، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة في أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد في مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدّدة ومبوّبة على حروف المعجم مقيدة» واستهله بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقلات والوقائع والأيام.

ونلتقى في النصف الأول من القرن السادس الهجري بجغرافي يسمى محمد<sup>(١)</sup> بن أبي بكر الزهري عاش في المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافي في وصف ما سواه «الخارطة المأمونية للعالم» وفيه يتحدث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعنى بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليتمكن أن يوصف بأنه جغرافياً شعبية.

وتلقانا في الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها في مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس لابن غالب<sup>(٢)</sup> من مؤرخي القرن السادس الهجري وهي تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورته ومحرايه ومنبره ومع بيان الجبال في الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسي من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرئ احتفظ بها في النسخ، وله في الجغرافيا كتاب مجمل ساه «كتاب بسط الأرض في الطول والعرض»، ويقول الدكتور حسين مؤنس: «يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها في دقة<sup>(٣)</sup>» والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدىء من جزائر الخالدات في المحيط الأطلسي، وتنتهى بجزائر السيلي أي اليابان.

المجلد الأول في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د. مؤنس ص ٤٥٢ وما بعدها. (٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بتطوان.

(١) انظر في الزهراوي د. مؤنس في كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص ٣٥٨ وما بعدها.  
(٢) راجع في ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفى عبدالبديع لها وقد نشرها في الجزء الثامن من

وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية في وصف غرناطة لكتابه: الإحاطة في تاريخ غرناطة واللمحة البدرية في الدولة النصرية. وحرى بنا أن نذكر محمد<sup>(١)</sup> بن عبد المنعم الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو معجم جغرافي نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

## ٣

## علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبيعياً أن تعنى الأندلس مبكرة بقيام مؤدبين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سوراً منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا في الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعاً النطق بالفصحى وبيعض آيات القرآن الكريم في صلاتهم. وتلتقى في القرنين الثاني والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤدبين، وهم يعدون بالعشرات في كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ومن أوائلهم الغازي<sup>(٢)</sup> بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٣٨ للهجرة وتوفي الغازي سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقى بالأصمعي ونظرائه في اللغة بالبصرة ويأخذ عن مالك الموطأ في الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤدبين بالأندلس في القرن الثاني والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين في القراءات والفقه والحديث النبوي. وعلى شاكلته في الرحلة والأخذ عن الأصمعي ومالك وغيرهما من الأئمة معاصره أبو موسى<sup>(٣)</sup> الهواري، وله كتاب في القراءات وكتاب ثان في التفسير. ومن معاصريها جودي الراحل إلى المشرق المتوفى سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائي إمام النحو الكوفي وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف في النحو، وكان يعاصره محمد<sup>(٤)</sup> بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضي الراحل بدوره إلى المشرق.

(١) أبي الفضل إبراهيم (طبع ونشر الخانجي) ص ٢٧٦.

(٢) انظر في الهواري الزبيدي ص ٢٧٥.

(٤) راجع الزبيدي ص ٣٠٦.

(١) راجع في الحميري كراتشكوفسكي ص ٢٩٥ وباللتيا ص ٣١١ ود. مؤنس ص ٥٢٩.

(٢) انظر في الغازي كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي بتحقيق الأستاذ محمد



ويذكر الزبيدي في طبقاته عشرات من لغويي الأندلس في القرن الثالث الهجري، منهم عثمان<sup>(١)</sup> بن المثني القيسي تلميذ ابن الأعرابي، لقي أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد<sup>(٢)</sup> بن الفرغ وكان من أقوم العلماء في زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبدالله حفيد الغازي السالف ذكره، تتلمذ للغويي العراق من أمثال الرياشي وأبي حاتم وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من اللغة والعربية، وعنه روى الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنهم ثابت<sup>(٣)</sup> بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضي منذر بن سعيد بساعه من أبي العباس بن ولاد المصري المتوفى سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط<sup>(٤)</sup>.

وينزل قرطبة أبو علي<sup>(٥)</sup> القالي اللغوي الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوي عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالى هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط في التأليف والتدريس بقرطبة وضاحتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه «الأمالي» وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه «ذيل الأمالي والنوادر» وأملى أيضا من تأليفه كتابه المقصور والممدود والمهموز وكتابا في الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والنقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبياني وعلقمة والأعشى والحطيئة والشاخ والنابغة الجعدي وأوس بن حجر والقطامي

إبراهيم) ٢٦٢/١.

(٤) الحميدي ص ٤٧.

(٥) راجع في القالي الزبيدي ص ٢٠٢ وابن

الفرضي ٨٣/١ والقفطي ٢٠٤/١ وبغية المتلمس

٢١٦ ومعجم الأدياء ٢٥/٧ والأنساب للسمعاني

٤٣٧ ب وابن خلكان ٢٢٦/١ والحميدي في الجذوة

١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفي مواضع

مختلفة وشذرات الذهب ١٨/٣.

(١) انظر في ابن المثني الزبيدي ص ٢٨٨ وابن

الفرضي ٨٨/١ والمغرب ١١٢/١.

(٢) راجع في الرشاش الزبيدي ص ٢٨٤ وابن

الفرضي ص ١٤١ والحميدي ص ٢١١ والمغرب

١١٤/١.

(٣) انظر في ثابت وابنه قاسم الزبيدي ص ٣٠٩

وابن الفرضي ٨٨/١ وبغية المتلمس للضبي ٢٣٨

وابناه الرواة للقفطي (تحقيق محمد أبي الفضل

والأخطل وذى الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه «البارع» وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت في النمو أثناء القرن الرابع الهجرى على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالى فى اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصاريف الأفعال طبعه جويدى فى ليدن باسم كتاب الأفعال وتصاريفها ويقول ابن خلكان هو الذى فتح للعلماء الكتابة فى هذا الموضوع، وله كتاب فى المقصور والممدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يحصى ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية فى القرن الرابع الزبيدى<sup>(١)</sup> محمد بن الحسن تلميذ القالى المتوفى سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: «كان واحد عصره فى حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعانى والنوادر ولم يكن بالأندلس فى فنه مثله فى زمانه» واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال فى عهدهما دنيا عريضة، وفى مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزيادته فيه كثيراً من المواد التى يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لا يمكن أن يروى عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوى بصرى، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله فى لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبدالنواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجرى فى ألسنتهم من أخطاء. ومن لغوى القرن الرابع السرقسطى<sup>(٢)</sup> سعيد المعافرى المتوفى بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبى بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه فى كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسمه وقد نشره مجمع اللغة العربية فى أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدى ابن الإفيلى<sup>(٣)</sup> إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روى عن أستاذه كتاب الأمالى للقالى، وله

(٢) راجع فى السرقسطى الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

(٣) انظر فى ابن الإفيلى الذخيرة لابن بسام (طبعة إحسان عباس) ٢٨١/١ والصلة ٩٤ والإنباه ١٨٣/١ ومعجم الأدباء ٤/٢ وابن خلكان ٥١/١.

(١) انظر فى الزبيدى ابن الفرضى ٩٢/٢ والحמידى ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية الملتبس رقم ٨٠ وإنباه الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا فى الهوامش.

شرح جيد على ديوان المتنبي. ومن لغوي القرن الخامس ابن سيده<sup>(١)</sup> على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفي المغرب لابن سعيد: «لا يُعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفا، تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر» وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف، والمعجم الثاني المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعاني في سبعة عشر مجلدا، ويذكر في مقدمته مصادره، وهي تتوالى بالعشرات، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في اللغة كتاب لعالم لغوي قبله إلا اطلع عليه، وقد تنبه ابن سيده في هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية، إذ يقول: «كنعان بن سام بن نوح، إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية».<sup>(٢)</sup> وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثا من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة - مثل العربية - من أم واحدة. ونجد ابن حزم معاصره يتنبه بقوة إلى أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعا لحمة قرابة وثيقة كقرابة اللهجات في لغة واحدة، يقول في كتابه الإحكام في أصول الأحكام: «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة - لا لغة حمير - هي لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نعمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نعمة الأندلسي.. وهكذا في كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل<sup>(٣)</sup>». وواضح أن ابن حزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعا لغة واحدة، وتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شالا وغربا أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم، وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثا، وكأن ابن حزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين - بذلك - إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوى فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه

(١) ٣٠٥/٣ والديباج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢/٢٥٩.

(٢) انظر المخصص لابن سيده ١٦٧/١٣.

(٣) راجع الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم

(طبع القاهرة) ٢٠/١.

(١) راجع في ابن سيده الحميدى وبغية الملتبس

رقم ٢٠٥ والمطبع ٦٠ والصلة ص ٤١٠ ومعجم

الأدباء ٢٣١/١٢ وابن خلكان ٣٣٠/٣ والإنباء

٢٢٥/٢ ونكت المهيمان ٢٠٤ وشنرات الذهب

اللغات المقارن بين اللغات السامية التي ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوربيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم في ذلك نفس شأنهم الذي مر بنا في قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلام الشنتمرى<sup>(١)</sup> يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦ شارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلي: امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ في شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعي، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هداة كتب أبو بكر عاصم<sup>(٢)</sup> بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤ شرحاً لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبيد البكرى المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب اللآلى في شرح أمالى القالى نشره عبد العزيز اليمنى بالقاهرة، وكتاب فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويى الأندلس المهمين ابن السيد<sup>(٣)</sup> البطليوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبي العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضاً شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الأشركونى أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل في الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة، ويلقانا في أوائل القرن السابع الشريشى أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحه لمقامات الحريرى منشور بمصر.

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون في القرنين الثانى والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كانوا يعلمونها العربية أو النحو، ومررنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائى، وله تأليف في النحو، وروى أن للفيق عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة ٢٣٨ كتاباً في إعراب القرآن، وملتقى في أواخر القرن الثالث الهجرى بالأقشطين<sup>(٤)</sup>

(٣) انظر مصادره في ص ٨٤ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.  
(٤) انظر في الأقشطين الزبيدى ص ٣٠٥ وابن الفرضى ٣٢٩/١ والإنباه ٣/٢١٦.

(١) انظر في الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١ والمطمح ٦٤ وابن خلكان ٨١/٧ ومعجم الأدباء ٦٠/٢٠ ونكت الهميان ٣١٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٣.

(٢) راجع في عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبي جعفر الدينورى كتاب سيبويه، وكان يدرس في قرطبة لطلابه. وولتقى بعده بمحمد<sup>(١)</sup> بن يحيى الرباحى المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبي جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتتح في الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفى دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدى، وهو أستاذه في النحو وعليه درسه وتمثله وألف فيه كتابه الواضح الذى نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفليلى المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه - مع ما يهتم به من شرح الشعر - كتاب سيبويه رواية عن العاصمى عن الرباحى. ولابن سيده الذى تحدثنا عنه أنفاً بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبي، ونيوه في مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيها مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا على الفارسى وابن جنى، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون - بجانب تعمقهم في نحو المدرستين البصرية والكوفية - في نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمرى الذى عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفاً بعلم النحو المعقدة، وقد روى كتاب سيبويه عن ابن الإفليلى وأقرأه لطلابه مذلاً لهم صعابه ومشاكله، وتوفر الأندلسيون - بفضل نسخة الرباحى من كتاب سيبويه التى ذكرناها آنفاً - على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشري يرحل في شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوى أندلسى كان مجاوراً بها هو عبدالله<sup>(٢)</sup> بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. وولتقى بآين السيد البطلبوسى المار ذكره بين اللغويين، وكان يعنى بشرح كتاب الجمل للزجاجى، وله كتاب في النحو سباه المسائل والأجوبة، وهو في آرائه النحوية بغدادى الاتجاه، يختارها أحياناً من المدارس النحوية السابقة وأحياناً ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله في ذلك معاصره ابن<sup>(٣)</sup> البادش

تاريخ البلد الأمين للفاسى (طبع القاهرة ١٨٢/٥).  
 (٣) راجع في ابن البادش بغية المتتمس ص ٤٠٦  
 والإنباه ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى  
 ٥١٨/١ والديباج المذهب ١٠٧/٢ وكتابتنا المدارس  
 النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ١٠٠/٤.

(١) راجع في الرباحى الزبيدى ص ٣٣٥ وابن  
 الفرضى ٣١٤/١ والإنباه ٢٢٩/٣ وابن خلكان  
 ٣٧٢/٤.

(٢) انظر في ابن طلحة تفسير البحر المحيط  
 لأبي حيان ٣٧٢/٤ وبغية الوعاة للسيوطى ص  
 ٢٨٤ وانظر التكملة رقم ١٣٣٠ والعقد الثمين في

على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبي على الفارسي، وعلى شاكلته وشاكلة صاحبه ابن الطراوة<sup>(١)</sup> سليمان بن محمد معاصرها المتوفى سنة ٥٢٨.

ويسود هذا الاتجاه في النحو الأندلسي من انتخاب أفذاذ النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلي<sup>(٢)</sup> عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ في كتابه «تنتائج الفكر» وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى<sup>(٣)</sup> الجزولي المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة في النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجي، ومثله ابن خروف<sup>(٤)</sup> على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجي، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد<sup>(٥)</sup> بن عبد الرحمن القرطبي قاضي قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذي نشرته مع تحليل لآرائه التي هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليلات وتقديرات، ومع محاولة لوضع أسس في تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوبين<sup>(٦)</sup> عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولي المسماة بالجزولية وكتاب في النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور<sup>(٧)</sup> على بن مؤمن المتوفى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية في زمنه بالأندلس، وله الممتع في التصريف والمقرب في النحو وهما منشوران،

المدارس النحوية ص ٣٠١.  
 (٥) انظر في ابن مضاء بقية التكملة رقم ٢٣٤  
 وبقية الملتس ص ١٩٢ والديباج المذهب لابن  
 فرحون ٢٠٨/١ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على  
 النحاة.  
 (٦) راجع في الشلوبين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب  
 ١٢٩/٢ والإنباه ٣٣٢/٢ وابن فرحون في الديباج  
 ٧٨/٢ وابن خلكان ٤٥١/٣ وكتابنا المدارس  
 النحوية ص ٣٠٢.  
 (٧) انظر في ابن عصفور بقية الوعاة للسيوطي  
 ص ٣٥٧ وعرضنا لآرائه في كتاب المدارس  
 النحوية ص ٣٠٦.

(١) انظر في ابن الطراوة بقية الملتس ص ٢٩٠  
 والتكملة لابن الأبار ص ٧٠٤ والمغرب ٢٠٨/٢  
 وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٦.  
 (٢) راجع في السهيلي بقية الملتس ص ٣٥٤  
 والإنباه ١٦٢/٢ وطبقات القراء ٣٧١/١ وابن  
 خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩.  
 (٣) انظر في الجزولي الإنباه ٣٧٨/٢ وابن خلكان  
 ٤٨٨/٣ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.  
 (٤) راجع في ابن خروف التكملة ص ٦٧٦  
 ومعجم الأدباء ٧٥/١٥ وابن خلكان ٣٣٥/٣  
 والذليل والتكملة للمراكشي ٣١٩/٥ والقوات  
 ١٦٠/٢ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابنا

وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجي. وولتقى بعده بابن<sup>(١)</sup> مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة في النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصرى وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخارى سوى مصنفات أخرى في النحو تبلغ نحو الثلاثين، وكان يعاصره ابن الضائع<sup>(٢)</sup> على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبي على الفارسي والجمل للزجاجي، وخاتمة أئمة النحو في الأندلس أبو حيان<sup>(٣)</sup> محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله شروح على كتاب سيبويه وكتابه ابن عصفور: المقرب والمتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل، وله أيضا في النحو كتاب ارتشاف الضرب أى عسل النحل في ستة مجلدات، وصنع له مختصراً في مجلدين، ويقول السيوطى في البغية: «لم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة».

وبجانب علوم النحو واللفظة عُنت الأندلس بالبلاغة العربية، وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى تعتمد في ذلك على رواية النصوص الأدبية للناشئة والتعرف على كتابات المشاركة في البيان العربى، واستطاع المؤيدون في أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهلى والإسلامى والعباسى بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثل كثيرون خصائص البيان العربى، وأصبحوا شعراء وكتابا نابهن. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضربهم من أصحاب الاتجاه العربى في البلاغة وبذلك ظلوا - آمادا - بعيدين عن مناحى الاتجاه البلاغى المجدد الغالى في التجديد<sup>(٤)</sup> والذي كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

(٣) راجع في أبى حيان طبقات الشافعية لسبكي ٣١/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ والإحاطة ٤٣/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ وفوات الوفيات ٣٥٢/٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ١٤٥/٦ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر في هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢-٦٦.

(١) راجع في ابن مالك طبقات الشافعية لسبكي ٢٨/٥، ٢٥٧، وفوات الوفيات ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٨٠/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٧ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وفي كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لآرائه النحوية.

(٢) انظر في ابن الضائع الإحاطة ١٢٠/٤ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

ويلقانا في مطالع القرن الخامس الهجرى كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه «الفوائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية» لعلى<sup>(١)</sup> بن محمد بن أبي الحسين المتوفى قريبا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات لشعراء الأندلس، والثانى على شاكلته، واسمه «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتانى<sup>(٢)</sup> أبى عبد الله محمد المتطبب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبا المشرقى المتوفى سنة ٣٣٢ فى كتاب «عيار<sup>(٣)</sup> الشعر» وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادى الحسى والمعنوى الذهنى ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، إنما عنى بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهى موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب فى وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، وأتبع تلك الأبواب بأبواب فى وصف الخمر والغناء والمغنين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنسانى والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والإنسان والطبيعة من مثل قطع الفاووز والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان فى الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشيوخوخة والفاء. وتعرض فى كل ذلك التشبيهات الطريفة فى رأى ابن الكتانى لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد إسماعيل بن حبيب الحميرى الملقب بحبيب<sup>(٤)</sup> المتوفى بعد ابن الكتانى بنحو عشرين عاما قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكلمة البديع فى العنوان لا تعنى البديع بمعناه البلاغى الاصطلاحى، وإنما تعنى المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول فى مقدمة الكتاب «لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه». وحقا للأندلسيين أشعار بديعة فى وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون

لكتابه (طبع دار الثقافة بيروت).

(٣) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحديثنا عن التشبيه

فى كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.

(٤) انظر فى حبيب ومصادره وترجمته الفصل

الخامس. وكتابه البديع نشر فى الرباط بتحقيق

هنرى بيريس وفى السعودية بتحقيق د. عبد الله

عسيلان.

(١) راجع فى ابن أبى الحسين واسم كتابه الحميدى

٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبغية الملتصم رقم ١١٩٣

والحلة السراء طبعة حسين مؤنس بالقاهرة

٢٢٤/١.

(٢) انظر فى ابن الكتانى طبقات الأمم لصاعد

ص ١٢٥ وابن جلجل ص ١٠٩ وابن أبى أصيبعة

ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه



فيهما على المشاركة فقول يحتاج إلى نظر، ويكفي المشاركة أن يكون من بينهم ابن الرومي أكبر مبدع في وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميري في كتابه مختاراته الشعرية والنثرية في ثلاثة أبواب: باب جعله في وصف الربيع ورياحينه وباب ثان في وصف أزهاره، وباب ثالث في وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع بمثل قوله مقدما لها: «ومن غريب الرصف في عجيب الوصف» وقوله: «ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل» وقوله: «ومن السحر المتحل والكلام المتخل». وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعنى بالكتابة في البلاغة، إنما كانت تعنى بعرض المختارات الشعرية، وقد أكتبت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت في أواخر العصر تعنى بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نُقل إليها من كتابات المشاركة في البلاغة، وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهي تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية، ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد<sup>(١)</sup> بن عبد الملك الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصا له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصل القول فيها كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعي<sup>(٢)</sup> أبي القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالي منتصف القرن السادس الهجري، وقد جعل كتابه في مقدمة تحدث في فصولها عن صور من محاكاته لأبي العلاء ومضى يعلى النثر على الشعر ثم أفاض القول في بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بحديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعاني، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ما شاع ذلك بعده عند المشاركة منذ بدر<sup>(٣)</sup> الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث في الصور البيانية والمحسنات البديعية لأنها

كتابه إحكام صنعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد رضوان الداية.

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

(١) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٢) انظر في الكلاعي المطمح ص ٢٩ وابن الأبار

في التكملة ص ١٨٧ والمغرب ٢٤٢/١ ومقدمة

قُتلت بحثاً عند المشاركة وأيضاً عند ابن رشيقي، فأفرد فصولاً لأنواع الأسلوب في الكتابة وهي عنده سبعة: الأسلوب العاطل وهو الخالي من الأسجاع، والحالي وهو المحلى بالسجع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشح بمحسنات البديع، والمرصع وهو ما حُلِيَ بالأخبار والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمغصن وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعات داخلية تتقابل في كل سبعة طويلة مع قرينتها في السجعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين في الأسلوب أغصان وفروع مثل: «ومن السلام سلام وإن لاح جوهرها، ومن الكلام كلام وإن فاح عنبرها» والمفصل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجمل النثرية على شاكلة كتاب ملقى السبيل لأبي العلاء ولبديع الزمان الهمداني رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهي صورة من التعقيد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيقات والمؤلفات، وهي أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعيني محمد<sup>(١)</sup> بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ریحان الألباب وريحان الشباب، جمع فيه ما يحتاج إليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها في سبعة مراتب وتهمنا في حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصاحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب في بيان شروط الفصاحة مستمداً من كتابات المشاركة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة» واستمد منه ومن الجاحظ في حديثه عن عيوب الكلام من المعاطلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثراً فيها بقدامة في كتابه نقد الشعر والحاتمي في كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

ونغضى في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فنرى البلاغة تلتحم في الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدى لكتابي الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصها ويشرحها بفكره العبقري الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصاً، وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوصه مورداً لكل مبدأ بلاغي فيه أمثلة من الشعر العربي على نحو ما يتضح في قسمه الثالث الخاص بالعبارة

(١) راجع في المواعيني ابن الأبار في التكملة

وهو فيه يفصل الحديث في أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية، أما التشبيه<sup>(١)</sup> فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاها المستمدة من بيئتها، ويحذّر من التشبيهات النائية ملاحظاً أن التشبيه ينبغي أن ينعقد بين أشياء متجانسة، ويلم بالتشبيهات التمثيلية المركبة، ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثراً بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه، ويعرض صوراً مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسناً وقبحاً كقول القائل في وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد، فشتان - في رأيه - بين الوصفين، ويلاحظ أيضاً تفاوت البيان في التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض مشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد، ويتحدث عن الإيجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل في الشعر ولا تقبل في النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد صنع قبل ابن رشد تلخيصاً لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله في هذا الكتاب أشبه بتعريب له، ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوي بمحسوس ملاحظاً أنه ينبغي أن لا يكون بالأشياء الخسيسة، ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبي تمام، ويهاجمها متأثراً بالأمدى في كتابه الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحترى. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة في بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة، وعرض للكناية وللجناس التام والناقص وللطباق وللمراعاة النظير، وهاجم المبالغة في الشعر التي تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التي تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويجىء بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء<sup>(٢)</sup> صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط في المكتبة التيمورية، يسمى: «الوافي في نظم القوافي» وهو في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه

(٢) انظر في مصادر أبي البقاء الرندي ترجمته في الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافي في كتاب تاريخ النقد الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق في كتابه العمدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

(١) انظر في آراء ابن رشد البلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد في الجزء الثاني والأربعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع في الحركة النقدية وأعلامها التاليين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

وأدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق في كتابه العمدة، والجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث في سرقات الشعراء، والرابع في حد الشعر والعروض. والجزء الثاني في الكتاب يلتقى في وضوح مباحث البلاغة المعروفة عند المشاركة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرها، كما يتناول المحسنات البديعية، وقد أضاف إليها نحو ثلاثين محسناً. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمين والتتميم والتسهم والترصيع والمبالغة، وفي كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقلما نلتقى بعد الرندي في الأندلس بكتب مستقلة في علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشاركة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري على نحو ما يتضح في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وسنفضل القول في هذه الرسالة<sup>(١)</sup> في الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم وبهاجم في رسالته شيخهم ابن الإفليلي، لأنهم يفقدون في رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبي، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: «إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات فإذا جاور النسب النسب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحة». ويلاحظ على أبي تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يفرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعاني الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البينة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعاني بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائماً عنده رهافة الذوق الأدبي ودقة الإحساس بالجمال الفنى. ويعرض ابن حزم بعده لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة في الشعر ويقصد بها إيراد المعاني الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبنى على الإغراق والمبالغة.

ونغضى إلى القرن السادس الهجري وملتقى بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها ينوه

(١) انظر في الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته في  
الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس)  
١٩١/١ وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبي عند  
العرب ص ٤٧٥.

(١) انظر في الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته في  
الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس)

بالتخييل في الشعر ويعيب على نقاد عصره تمسكهم بالجزالة حتى في الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ في شعر عبد المحسن الصوري والشريف الرضى ومهيار. وكان يعاصره الأشركوني الذي مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها في غير هذا الموضوع ونراه في مقامتين من مقاماته يصدر أحكاما سريعة على أعلام الشعر المشرقي حتى زمن مهيار، وهي أحكام منثورة في كتب النقد عند المشاركة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعاني المبتوثة في أشعار المشاركة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويرات شعراء الأندلس لمعاني الشعر المشرقي وصوره وأخيلته، ونراه يحمل<sup>(١)</sup> على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنبي أو بعض معان إلحادية مما نسب إلى أبي العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعتة المحافظة. ويلقانا عند الكلاعي الذي تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبي الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعيني في كتابه ريحان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدي كان يركز على نقد المشاركة، وقلما التحم منه شيء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان في كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وكأنما احتفظ النقد الأندلسي بذلك لناقد متأخر هو حازم<sup>(٢)</sup> القرطاجني المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي وهو في النقد الأندلسي يقابل ابن رشد في البلاغة الأندلسية الذي سبقه بنحو قرن، وقد ولد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقي الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت في حجر الروم - إلى المغرب وعاش في ظل الدولة الحفصية. وله في النقد كتاب يسمى «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققة - القول وأجزائه والأداء وطرقه وأثر الكلام في السامعين، وسلمت منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمه وتتعمق في بحث المعاني والمباني والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها

(١) الذخيرة ٤٧٩/٢ وما بعدها تحقيق د. إحسان عباس ص ٥٠٣ وما بعدها.  
النقدية مقدمة محققة الدكتور محمد الحبيب بن الحوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

(٢) انظر في كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه

اسم مَعْلَم أو معرف، وُعيى المعلم بالتفريعات المنطقية غالبا بينما يعنى المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختتم بملاحظات سهاها مأمأ أى مقصدا، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضاءة وتنوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتنوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقا علميا سديدا وقدم لها بمدخل علمى قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم فى كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربى الجاحظ صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجى صاحب سر الصناعة مرارا وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعول فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر فى الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد أشار إليه فى الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابى للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو فى أكثر كتابه يعد شارحا لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة؛ أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليونانى والمأساة فيه وأنها تمثل أفعالا وأفعالا للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هى تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة فى الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو فى القسم الثانى أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث فى الشعر وقيامه على التخيل فى المعانى والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها فى النفوس دافعا عن معانى الشعر ما لا يلائمها من المعانى العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغى لكل عمل فنى من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه فى البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لا بد فى الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، ونفى عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقا من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، وينوّه بأراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفى القسم التالى يبحث فى الملكة الشعرية ومقوماتها وفى أوزان الشعر واستخدامها وأعارضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لا بد فى القصيدة من ترابط أجزائها ويشيد بالمتنبى وصنيعه المحكم فى قصائده. وفى القسم الأخير قسّم الشعر

إلى جدى وهزلى وتحديث عن موضوعات الشعر العربي ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بابن المعتز والبحترى والمنتبى وأبى تمام وابن الضحاك وأبى سعيد المخزومى ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازه وتفرد الواضح. وحازم يحتتم النشاط النقدى فى الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

## ٤

## علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون فى الأندلس يحفظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقرار المسلمون هناك، ومراً بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازى بن قيس الذى كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلباً للعلم وقد أخذ عن نافع مقرأ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدى - إلى الأندلس، وكان ابنه عبد الله يقرأ بها - بعده - الناشئة والناس، وكان يعاصر عبد الله بن الغازى أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويقول الزبيدى إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطى الأصل المصرى تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءات فى الأندلس كما أخذت تشيع فى المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءات مثل عبد الله<sup>(١)</sup> بن محمد القضاعى الذى كان يقرأ الناس بقراءة ورش فى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) حتى توفى سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفراً من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشاركة ويحاولون التأليف فيها مقتدين بهم فى ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفاً كبيراً فى القراءات هو أبو عمر<sup>(٢)</sup> الطلمنكى المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها فى الشام

لابن الجزرى ٧١/١ وكتابه طبقات القراء

(١) طبقات القراء ٤٥٦/١.

١٢٠/١.

(٢) انظر فى الطلمنكى النشر فى القراءات العشر

ومصر، وخاصة عن عبدالمعمر بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد في القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعني بدراستها حتى توفي سنة ٤٢٩ وله فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى<sup>(١)</sup> بن أبي طالب المعروف بحموش القيرواني منذ نزلها سنة ٣٩٣ إلى أن توفي سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبدالمعمر بن غلبون مثل الطلمنكى، وعد له ابن خلكان في القراءات واختلاف القراء تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب في أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه في جزئين وكتاب في تصحيح المدِّ لورث في ثلاثة أجزاء. ومن القراء المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني<sup>(٢)</sup> المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة في الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعا إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة ٤١٧ واتخذها سكنا ودار إقامة إلى أن توفي سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة في قراءات القرآن وتفسيره وعلومه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير في القراءات السبع وعليه عوّل الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان في قراءة ورش عن نافع، ونشر له في دمشق كتاب المحكم في نقط المصاحف. ويلقانا بعده محمد<sup>(٣)</sup> بن شريح الإشبيلي المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافي في القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الداني الإمام الشاطبي<sup>(٤)</sup> الضرير القاسم بن فيره نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزلها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بمدرسته متصدرا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة «حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات» وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وعليها عوّل القراء في زمنه وبعد زمنه حفظا وقراءة وتفسيرا، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: «استوعب الشاطبي ما دونه

(٣) راجع النشر في القراءات العشر ١/٦٧ وابن خلكان ٧/٨٢.

(٤) انظر في الشاطبي التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢/٢٠ والذيل والتكملة للمراكشى ٥/٥٤٨ ومعجم الأدباء ١٦/٢٩٣ ونكت الهميان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٧٠ ونفح الطيب ٢/٤٥.

(١) راجع في مكى طبقات القراء ٢/٣٠٩ وبغية المتتمس ٤٥٥ ومعجم الأدباء ١٩/١٦٧ وإنباه الرواة ٣/٣١٣ وابن خلكان ٥/٢٧٤.

(٢) انظر في الداني طبقات القراء ١/٥٠٣ والصلة رقم ٨٧٣ ومعجم الأدباء ١٢/١٢١ وبغية المتتمس ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٩٨ وطبقات المفسرين للسيوطي ١٥٩ وإنباه الرواة ٢/٣٤١ والنفح ٢/١٣٥.



الداني في القراءات بقصيدته وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس<sup>(١)</sup>». وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الغرناطي الذي مر ذكره بين النحاة، ويقول في مقدمة تفسيره إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجموا له أن له كتابا في كل قارئ من القراء السبعة وأيضا كتابا في قراءة زيد بن علي إمام الزيدية.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطة ورسمه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئ: الداني ومكي في ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعنى بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشاركة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم في تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما ألف فيه هناك كتاب بقي<sup>(٢)</sup> بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: «هو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره» وابن حزم يضعه فوق تفسير الطبري أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وولتقى بعد بقي بمحمد<sup>(٣)</sup> بن عبد الله بن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر في التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، ولمكي المذكور آنفا تفسير ضخيم سماه: «الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» وكان في سبعين جزءاً، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقي التفسير الكبير لابن عطية<sup>(٤)</sup> أبي محمد عبد الحق بن غالب بن قاضي المرية المتوفى سنة ٥٤٢، وولى أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيهاً ناهياً عارفاً بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز في التفسير من أحسن التأليف فيه وأبدع التصانيف على مر الأزمنة، وسماه الوجيز تواضعاً، وهو في مجلدات ضخمة، وفيه لخص - كما يقول

بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبغية ٧٧ وطبقات المفسرين للسيوطي رقم ١٠٢ والوفاء للصفدي ٣٢١/٣ وابن فرحون ٢٣٢/٢.  
(٤) راجع في ابن عطية الفتح في القلائد ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنباهي ص ١٠٩ والصلة رقم ٨٢٥ وابن فرحون في الديباج ٥٧/٢ والمغرب ١١٧/٢.

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافي ١٠٣٠/٣  
(٢) راجع في بقي ابن الفرضي ١٠٧/١ والحميدي ١٦٧ ونفع الطيب (تحقيق إحسان عباس) ١٦٨/٣ والصلة رقم ٢٧٧ والبغية للضبي ٢٢٩ ومعجم الأدباء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبي ٦٢٩.  
(٣) انظر في ابن أبي زمنين الحميدي ٥٣ وابن

ابن خلدون - التفاسير الماثورة كلها وتحريّ الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس<sup>(١)</sup>. وينسب لمحيى الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبته له غير صحيحة، وثلثى بعده بالقرطبي<sup>(٢)</sup> محمد بن أحمد نزيل مصر الذي اختار المنيا بالصعيد سكنا إلى أن توفي سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن» وهو فى عشرين مجلدا، سار فيه على نهج ابن عطية فى تفسيره<sup>(٣)</sup>. ويختتم نشاط الأندلسيين فى تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبى حيان الذى مرّ بنا ذكره بين النحاة وهو فى ثمانى مجلدات ضخام، ويذكر فى مقدمته مصادره فى اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوى وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبدالحق بن عطية مواطنه وتفسير الزمخشري، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنها والمراجعة لها فى تفسيره، ويعنى فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب وبيان لغات العرب كما يعنى بالقراءات السبع وما وراءها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

ونشطت الأندلس فى علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيها معاوية<sup>(٤)</sup> بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء فى روايته أو فى التصنيف فيه وفى رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجرى، وثلثى فيه يبقى بن مخلد الذى مر ذكره بين المفسرين، وله فى الحديث النبوى مصنف يقول فيه ابن حزم: «له فى الحديث مصنفه الكبير الذى رتبته على أسماء الصحابة رضى الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلثمائة صحابى ونيف، ثم رتب حديث كل صحابى على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومسند» أى أنه مصنف فى الفقه وأحكامه ومسند على طريقة مسند ابن حنبل يراعى فيه الصحابى الراوى للحديث عن رسول الله ﷺ ومع كل حديث سنده، ويقول ابن حزم: «ما أعلم أحدا سبق بقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه،

والحميدى رقم ٧٩٦ ومعجم الصدى لابن الأبار ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضى عياض ٣٤٩/١ وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١٠٢/١ والقضاة للخشنى (طبعة ريبيرا) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب لابن حجر (طبع حيدرآباد) ٢٠٩/١٠

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٢) انظر فى القرطبي طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨ وابن فرحون ٣٠٨/٢ والوفى للصدى ١٢٢/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥.

(٣) ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٤) راجع فى معاوية ابن الفرضى رقم ١٤٤٣

فإنه روى أحاديثه في المصنف عن مائتي رجل وأربعة وثمانين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير»<sup>(١)</sup> ويقول ابن حبان في المقتبس به انتشر الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاه محمد<sup>(٢)</sup> بن وضاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - في نشر الحديث وسعة الرواية، «فاستوسع أهل الأندلس في الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند»<sup>(٣)</sup> وهما لم يدفعا الأندلس إلى السعة في الحديث وروايته فحسب، بل دفعها أيضا إلى معرفة طرقة وعلمه. ويلقانا بعد بقي وابن وضاح تلميذها ثابت<sup>(٤)</sup> بن عبدالعزيز السرقسطى المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٣ وقد رحلا إلى المشرق في طلب الحديث وعادا إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب في غريب الحديث سماه «الدلائل» وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم في زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين في القرن الرابع قاسم<sup>(٥)</sup> بن أصبغ تلميذ بقي بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ، وكتاب المجتبي ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له في الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد<sup>(٦)</sup> بن عبد الملك بن أين (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رفيضان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من كتب المصنفات. ويلقانا في آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وينوه ابن بشكوال في كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلمه، ومعرفته بأساء الرواة: المعدلين منهم والمجرحين<sup>(٧)</sup>. وملتقى في القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدى<sup>(٨)</sup> صاحب جذوة المقتبس التي نرجع إليها في الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوى في القرن السادس الهجرى، ومنهم رزين<sup>(٩)</sup> السرقسطى المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد في الجمع بين الموطأ والصحيح الخمس: البخارى ومسلم وأبي داود والترمذى والنسائى، وقد

(١) نفع الطيب ١٦٨/٣.

(٢) انظر في ابن وضاح ابن الفرضى رقم ١١٣٤

والحميدى رقم ١٥٢ والضبي رقم ٢٩١.

(٣) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - نشر

بيروت) ص ٢٦٤

(٤) راجع في ثابت وقاسم ابنه مراجعهما في هامش

ص ٩٢ وأيضا النفع ١٧٠/٣ والحميدى رقم ٣٤٥،

٧٧١

(٥) انظر في ابن أصبغ النفع ١٦٩/٣ وابن

الفرضى رقم ١٠٦٨

(٦) راجع في ابن أين النفع ١٦٩/٣ والحميدى.

رقم ٩٨ وابن الفرضى رقم ١٢٢٨.

(٧) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

(٨) راجع في الحميدى الصلة رقم ١١١٤ ومعجم

الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من

مصادر والواقى للصفدى ٣١٧/٤.

(٩) انظر في رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضبي ٧٤١.

دوت شهرته في المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول». وجاء بعده الرشاطي<sup>(١)</sup> عبدالله بن علي المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب في أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعاني،

وجاء بعده ابن قُرُقول<sup>(٢)</sup>: إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض في غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق<sup>(٣)</sup> الإشبيلي المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، وله أيضا كتاب في الجمع بين الصحاح الستة وكتاب في المعتل من الحديث وكتاب في غريب القرآن والحديث ضاهى به الغريبين للهروي وثلاث نسخ من كتاب له في الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس في القرن السابع الهجري ابن القطان<sup>(٤)</sup> علي بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلمه ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطبة، ويذكر ابن الأبار أن له تأليف مختلفة في الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن<sup>(٥)</sup> فرح الإشبيلي نزيل دمشق وبجامعها حدث إلى أن توفى سنة ٦٩٩ وله قصيدة غزلية ضمن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة في رجال الحديث ورواته، من أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطي المار ذكره، ومن أهمها أيضا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ<sup>(٦)</sup> يوسف بن عبدالعزيز الأندى المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرف المحدثين بثقات الرواة وضعفائهم.

وللأندلس نشاط خصب في الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولا على مذهب الإمام الأوزاعي فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاتحين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفي مقدمتهم صعصعة<sup>(٧)</sup> بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذي أفتى الناس هناك - أخذا برأى

(٤) راجع ابن القطان في التكملة رقم ١٩٢٠  
(٥) انظر ابن فرح في طبقات الشافعية (الطبعة الجديدة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤ وشذرات الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة ١٩١/٨.

(٦) راجع ابن الدباغ في الصلة رقم ١٣٩٥  
(٧) انظر في صعصعة ابن الفرضي رقم ٦٠٥ والحميدي رقم ٥١٠.

(١) راجع في الرشاطي الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ٦١، ١٢٠ وابن خلكان ١٠٦/٣  
(٢) راجع في ابن قُرُقول بقية التكملة رقم ٣٩٤ وابن خلكان ٦٢/١

(٣) انظر في ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم ١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشي في المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

أستاذه - بغرس الشجر في صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل في المساجد الجامعة بالأندلس<sup>(١)</sup> بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك<sup>(٢)</sup> بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون في كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تُعدّ دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فجّ، فكان طبيعياً أن يكون بين هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان لمالك سمعة مدوّية في العالم الإسلامي، وأيضاً فإن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) وابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ) دفعا الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه كان مغاضباً للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث واليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجرّده وضربه بالسياط عقاباً له على فتواه<sup>(٣)</sup>. وهو ما جعل - في رأينا - عبد الرحمن الداخل وابنه هشاماً يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهي نصرّة له ضد العباسيين وصاحبهم أبي حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة في نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وحمل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس - إن لم يكن أول من أدخله - الغازي بن قيس الذي مر بنا بين المؤيدين والقراء، يقول ابن القوطية: «في أيام عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع، وكان له مكرماً ومتكرراً عليه بالصلة في منزله»<sup>(٤)</sup> ويقول الحميدى: كانت تدور الفتيا على الغازي بن قيس في عهد هشام إذ كان مشاوراً مع مصعب بن عمران<sup>(٥)</sup>. ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضاً إلى الأندلس شبطون<sup>(٦)</sup>: زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفي بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى

(١) انظر في هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهي (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت في الأندلس بقية لمذهب الأوزاعي في الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فقيهاً على مذهبه. انظر الحميدى ص ٢٠٥ وابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (طبع مدريد) ص ١٨١.

(٣) راجع ترجمة مالك في ابن خلكان ٣٥/٤.

(٤) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع

مدريد، ص ٣٥

(٥) الحميدى ص ٣٠٥.

(٦) راجع في شبطون ابن الفرضي رقم ٤٥٦

والحميدى رقم ٤٣٩ والقضاة للخشنى ص ١٤، ٣٣

وابن فرحون ٣٧٠/١.

الأندلس. وأول فقيه أندلسي مالكي يُعدُّ - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى<sup>(١)</sup> بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان في المقتبس: «رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت في الفقه المالكي طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: «هو الذي علّم أهل الأندلس الفقه» ويقول أيضا ابن حيان: «كان لا يُعدُّ في الأندلس أفقه منه في نظرائه» وله في الفقه المالكي كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم<sup>(٢)</sup>. وتألّف في الفقه المالكي بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى<sup>(٣)</sup> اللبثي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطن في أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل في الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطن منه إلا بعض أبواب سمعها في الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضي (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: «إنه كان لا يولّي قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكي وبذلك انتشر مذهب مالك في الأندلس». ولم يقبل تولى القضاء إذ فرغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير في الفقه المالكي وفقهائه في الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرّج في الفقه المالكي على يد عبد<sup>(٤)</sup> الرحمن بن القاسم، وتخرّج مثله على يده سحنون

(٤) يُذكر كثيراً في النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بأراء عبد الرحمن بن القاسم المصري الفقيه حتى ليقول أبو الوليد الشقندي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس واحتفظ بها المقرئ في النفع (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: «أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضيا إلا بشرط أن لا يعدل في أحكامه عن مذهب ابن القاسم».

(١) انظر في ابن دينار ابن الفرضي رقم ٩٧٣ والحيمدي ص ٢٧٩ والضبى ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكى) ص ٧٨، ٩٩.

(٢) النفع ١٦٧/٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض (طبعة الرباط) ١٧/١.

(٣) راجع في يحيى المقتبس ص ٤٢ و ٨٣ وما بعدها وابن الفرضي رقم ١٥٥٤ والحيمدي رقم ٩٠٨ وابن خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لعياض (طبع بيروت) ٥٣٤/١.

فقيه القيروان الذي حمل عنه مدونته<sup>(١)</sup> وأذاعها بوطنه، فنُسبت إليه، وهى من عمل ابن القاسم وإملاءاته<sup>(٢)</sup> على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليا لاسم مالك فى كتب الفقه المالكي الأندلسي، ومثل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكاً فى فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضا فى تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل أشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسة المالكية بعد ابن القاسم إلى أن توفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفى سنة ٢٢٥. ويذكر أيضا فيها الإمام الليث المذكور آنفا الذى قال فيه الشافعى: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحيى الليثى عميد الفقهاء المالكيين فى الأندلس المذكور آنفا والذى كان لا يفتى إلا برأى مالك يترك رأيه فى القنوت فى الصبح لرأى الليث، كما يترك رأيه فى الأخذ باليمين مع الشاهد لرأى الليث فى إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث<sup>(٣)</sup> التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا الإمام مالكا مؤثرة رأى الليث، والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهى الشركة غير المميزة كأن يكون لرجل فى غنم مائة وعشر ولآخر فى نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعهما فيكون عليها ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منها على حدة فيكون على كل واحد منها شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا مالكا إلى رأى الليث هى مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثلث مثلا وهو نظام معروف فى مصر إلى اليوم، وكان المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومررنا أنهم أخذوا بمذهب الأوزاعى فى غرس الشجر فى المساجد مخالفين فى ذلك رأى مالك. وخلف يحيى الليثى فى رئاسة المدرسة المالكية بالأندلس عبد<sup>(٤)</sup> الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب

(٣) راجع فى هذه المسائل التى خالفت فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهى ص ٥١.

(٤) انظر فى عبد الملك بن حبيب ابن الفرضى رقم ٨١٤ والزبيدى فى طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨٢ والحميدى رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطمح لابن خاقان ص ٣٦ وابن فرحون فى الديباج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

(١) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيروان أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابها عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

(٢) انظر المقتبس ص ٨٤.

الواضحة في الفقه المالكي الذي اشتهر في الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة<sup>(١)</sup> محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبغ بن الفرج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها في الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى<sup>(٢)</sup> بن مزين المتوفى سنة ٢٥٩ وله كتاب في تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وباستقصائه لمعاني الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له في رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى<sup>(٣)</sup> بن عبد الله حفيد يحيى الليثي المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يلى على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم وحديث الليث وعشرة<sup>(٤)</sup> جدّه يحيى الليثي. وفي ذلك ما يدل على أن كتابا في الأندلس كان يروى عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون في القيروان، كما كان يروى كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبي زمنين<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب في اختصار مدونة سحنون وكتاب في الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقى في زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكي الأندلسي الكبير ابن عبد<sup>(٦)</sup> البر يوسف النمري المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمن الموطأ من معاني الرأى والآثار» شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحا بديعا، وله «كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» رتبته على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءا». واشتهر بعده في القرن الخامس أبو الوليد<sup>(٧)</sup> الباجي

ص ١٠٨

(٦) راجع في ابن عبد البر المطمح ص ٦١ والحميدى ص ٣٤٤ والصلة رقم ١٣٨٦ وتذكرة الحفاظ ١١٢٨ وابن فرحون ٣٦٧/٢ والمغرب ٤٠٧/٢ وترتيب المدارك ٨٠٨/٤.

(٧) انظر في أبي الوليد الباجي الصلة رقم ٤٤٩ وقلاند العقيان ص ١٨٨ والنباهى ص ٩٥ والمغرب ٤٠٤/١ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٢ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثاني ص ٩٤.

(١) راجع ابن عتبة في ابن الفرضى رقم ١١٠٢ والحميدى رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.  
(٢) انظر في ابن مزين ابن الفرضى رقم ١٥٥٦ والحميدى رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفع ١٦٨/٣.

(٣) راجع في يحيى بن عبد الله ابن الفرضى رقم ١٥٩٥.

(٤) يريد بعشرة جده كتبا عشرة له كان يروها عن شيوخه وخاصة شيطون.

(٥) انظر مصادر ابن أبي زمنين بين المفسرين



سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلق كثير غربا وشرقا وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتنقى مختصره، والإيماء مختصر المنتقى، وكتاب في الأصول باسم إحكام الفصول في أحكام الأصول، وأيضا كتاب المقتبس من علم مالك بن أنس والمهذب في اختصار مدونة سحنون. ويلقانا في القرن السادس ابن<sup>(١)</sup> رشد الجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية في زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله «البيان والتحصيل لما في المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل» بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت في المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو<sup>(٢)</sup> بكر بن العربي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القيس في شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة في شرح كتب الصحاح في الحديث وفي أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله في الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن الأبار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعُلم ووجه فأفاد وأمتع به، ولا يعلم في فنه أنفع منه ولا أحسن مساقا<sup>(٣)</sup>. ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيها مالكيا كبيرا باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية في المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية في ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة في الفقه المالكي في نحو ١٦٩٠ بيتا وهي منشورة في باريس منذ القرن الماضي، وكان الطلاب يدرسونها في جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيما سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكي في الأندلس، وكان من أهم الأسباب في ذلك أن جُمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب<sup>(٤)</sup> أبي حنيفة، إذ عدَّ مذهب العباسيين خصوم الأمويين في الأندلس، ومثله المذهب

فرحون ٢٥٢/٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

(٤) ممن ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفي محمد بن عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين في عهد عبد الرحمن الأوسط. انظر ابن الفرضي رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

(١) انظر في ابن رشد الجد الصلة رقم ١١٥٤

والنباهي ص ٩٨ والديباج ٢٤٨/٢

(٢) راجع في ابن العربي الضبي رقم ١٧٩

والنباهي ص ١٠٥ والمغرب ٢٥٤/١ والصلوة رقم

١١٨١ وابن خلكان ٢٩٦/٤ وتذكرة الحفاظ

رقم ١٢٩٤ وأزهار الرياض ٨٦/٣ - ٩٥ وابن

الحنبلي البغدادي، أما المذهب الشافعي فعنى به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبدالرحمن بن القاسم وأشهب وأصبغ ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعي من مثل المزني ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وإبراهيم بن المنذر وأبي الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبدالأعلى والحارث بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعي ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعي يلقانا بقرطبة هو قاسم<sup>(١)</sup> بن محمد بن سيار المتوفى سنة ٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعي بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عبدالله بن عبدالحكم للفتقه والمناظرة وصحبه وتحقق به، وعاد إلى الأندلس فعنى بنشر مذهب الشافعي عن طريق التأليف والتدريس، ومما ألف كتاب الإيضاح في الرد على ابن عتية وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما في ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتف حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقى. وكان يعاصره بقى بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعي مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضي من فقهاء الشافعية يحيى بن عبدالعزيز المعروف بابن الخراز<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعي وليونس بن عبدالأعلى، ومما سمعه من ابن عبدالحكم مختصر المزني ورسالة الشافعي. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقى وقاسم هو أبو الخيار هرون<sup>(٣)</sup> بن نصر القرطبي المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعي. ومن فقهاء الشافعية في القرن الرابع الهجري أسلم<sup>(٤)</sup> بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتلمذ للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعي، وعاد إلى قرطبة، وولى بها قضاء الجماعة مرتين في أيام عبدالرحمن الناصر وكان يقضى بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك..

فرحون ٣٦٠/٢

(٤) انظر في أسلم ابن الفرضي رقم ٢٧٨ والحميدى رقم ٣٢٢ والقضاة للخشني ص ١٥٥ وابن فرحون ٣٠٨/١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٢٧/١.

(١) راجع ابن سيار في الحميدى ٣١٠ وابن الفرضي ٣٩٧/١ والسبكي في طبقات الشافعية (طبعة الحلبي الجديدة) ٣٤٤/٢.

(٢) راجع في يحيى ابن الفرضي رقم ١٥٦٨.

(٣) انظر في هرون ابن الفرضي رقم ١٠٤٧ وابن

وكان عبد الله بن عبد الرحمن الناصر شافعيًا، وثبت لأبيه أنه يدبر مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعي في الأندلس. ووفد في عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعي فأكرمهم وتوسع لهم في العطاء والرواتب مثل عبيد<sup>(١)</sup> الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إمامًا في الفقه على مذهب الشافعي كثير التصنيف فيه وفي القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين في القرن الرابع الأصيلي<sup>(٢)</sup> عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة سباه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن الرابع ابن<sup>(٣)</sup> أمية الحجاري وله كتاب في أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلًا إنه كان بصيرًا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بني أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكرًا مذهب الظاهرية في الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهري المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تلمذ له أندلسي هو عبد الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد في نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقي معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكي. ونمضى إلى القرن الرابع الهجري، وتلتقى بمنذر<sup>(٤)</sup> بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصري واختلاف العلماء رواية عن ابن المنذر النيسابوري، كما يحمل مذهب داود الظاهري، وكان خطيبًا مفوهًا، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليها في عهد ابنه الحكم وكان شديدًا في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم، وله مع الناصر عظات محمودة، وكان مذهبه الفقهي المذهب الظاهري وكان يحتج له ويحامي عنه ويؤثره، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهب مالك الذي عليه العمل في بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قويًا على الانتصار للمذهب الظاهري، وله كتاب في أحكام القرآن غاية في بابه. ويلقانا في القرن

(١) راجع في عبيد الله بن عمر ابن الفرضي رقم ٧٦٩.  
(٢) راجع في ابن أمية الحميدي ص ٣٨٠ وقد سباه ابن أمية وانظر في كلمة ابن حزم عنه النفع ١٦٩/٣.  
(٣) انظر مصادر منذر في ترجمته بالفصل الخامس.

(٤) انظر في الأصيلي ابن الفرضي رقم ٧٨٥ وابن فرحون ٤٣٣/١

الخامس إمام مذهب الظاهرية في الأندلس على<sup>(١)</sup> بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦، وكان من أسرة نابهة، إذ كان أبوه وزيراً للمنصور بن أبي عامر، ونشأ نشأة مترفة، ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠ فخرج من قرطبة وعاد إليها مراراً وأقامه المستظهر وزيراً سنة ٤١٤ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصمَّ ابن حزم على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكي، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعي ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهري على أبي الخيار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦ واعتنقه مؤمناً به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يبطل الأصول الخمسة التي أخذ بها الأحناف والشافعية، وهي القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغي إبطاله والاكْتفاء بالكتاب والسنة. وله كتاب في أصول المذهب المالكي القائمة على التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعي وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهري ازدهر في عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهباً فقهياً لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة في عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبيعياً لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهري يتقدمهم قاضي القضاة ابن مضاء<sup>(٢)</sup> أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢ وابن<sup>(٣)</sup> حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢ وكان قد ولي القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلها ابن<sup>(٤)</sup> خطاب الإشبيلي على بن عبد الله قاضي إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكي بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلطانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهري، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهرياً ثم تحول إلى المذهب الشافعي.

ولم نعرض لفقهاء القضاة المالكيين في الأندلس لأن لهم كتباً متعددة مطبوعة تعنى بهم مثل كتاب القضاة للخشني ولا بن عبد البر كتاب مائل وكذلك للنباهي، وإنما يهمنا من دفعوا الحركة الفقهية المالكية في الأندلس إلى الازدهار بدراستهم المذهب للطلاب

(٣) راجع في ابن حوط الله النباهي ص ١١٢ والتكملة ٨٣٨/٢.

(٤) انظر في ابن خطاب التكملة رقم ١٩٠١.

(١) راجع في مصادر ابن حزم ترجمته في الفصل الخامس.

(٢) مرت مصادر ابن مضاء في ص ٩٧.

ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغي أن أشير إلى أن النظام القضائي بالأندلس رافقته ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره في المشرق، أولاها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية<sup>(١)</sup> من الفقهاء يرجع إليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد في القضايا المشكلة، وهي تشبه ما نعرف في قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها في القضايا الملتبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسي. والظاهرة الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوى والمتهمين على نحو ما نعرف في قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محامياً يثبت ذلك في عقد بينه وبين المحامي<sup>(٢)</sup> وكان للمحامي الحق في أن ينيب من يترافع عنه في القضية أمام القاضي، ويثبت ذلك أيضاً في عقد بينها<sup>(٣)</sup>. والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبين للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهي كتب باللغة الأهمية في بيان الأحوال الاجتماعية في الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات في المزارعات وغيرها من الاستتجارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستتجار الخيل والسلاح للحرب واستتجار الثياب والحلى والكتب<sup>(٤)</sup>، وكان لا بد لإسلام نصراني أو يهودي من وثيقة يقدمها للقاضي وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره ولا فاراً من شيء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذي لا يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضي أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق<sup>(٥)</sup>.

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التي عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعبارة أدق لم تجد لها أنصاراً فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلي ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجري ومن المعتزلة القدامى حينذاك عبد الأعلى بن وهب

(١) يتردد أسماء أعضاء هذه الهيئة في مقتبس ابن

حيان لعهد بني أمية ويسمهم المشاورين.

(٢) انظر في ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار الأندلسي المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد) ص ٤٩٨. وراجع ترجمة ابن العطار في الديباج

المذهب ٢/٢٣١.

(٣) ابن العطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن العطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

(٥) ابن العطار ص ٤٠٥، ٤٠٩.

القرطبي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة<sup>(١)</sup> للإنسان، وكان يعاصره معتزلي مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان<sup>(٢)</sup> في أفعاله، وتابعه في اتجاهه الاعتزالي ابن السمينة<sup>(٣)</sup> يحيى المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزلياً. وأول معتزلي أندلسي دعا إلى الاعتزال بمعناه الكامل ابن مسرة الذي أُلْمِنَا به في أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتاب أمر الناصر في سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلاميذه عن العقيدة السننية للجماعة بترويجه لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الانسان حر في إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراءه الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء - كما أسلفنا - في عهد الناصر وعادوا إلى الظهور في عصر ابنه الحكم لما نشر من التسامح إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبي عامر الذي أظهر التشدد في كل ما يخالف آراء أهل الأندلس، ومع ذلك كان حكم بن منذر بن سعيد في عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول<sup>(٤)</sup> ابن حزم، واضطرت شيعة ابن مسرة إلى الاختفاء ثانية في عهد ابن أبي عامر وعادت إلى شيء من النشاط في عصر أمراء الطوائف على نحو ما مرَّ بنا - في حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إسما عيل الرعيبي. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالي أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن كثيراً من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات والصيدلة مما هيا لقيام التأليف العلمي في أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيا لقيام التفكير الفلسفي فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة في التفكير الأوربي أن نجد ديكرات (١٥٩٧ - ١٦٥٠ م) أبا الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على مبدئين يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك في حقائق الأشياء حتى نتبين فيها وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام في كتابه الحيوان مستشهداً بقوله: «لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك». وكان حرياً بالأستاذ الدكتور طه حسين حين نوه بهذا المبدأ في أوائل كتابه «في الأدب الجاهلي»

الفرضى رقم ٥٧٨، والنفع ٣/٣٧٥ وبالنتيا  
ص ٣٢٥.

(٤) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكي) ص  
٧٢.

(١) انظر ترجمته في ابن الفرضى رقم ٨٣٥ وابن  
فرحون ٥٥/٢ وبالنتيا ص ٣٢٥.

(٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضى رقم ٤١٧  
وبالنتيا ص ٣٢٥.

(٣) انظر فيه طبقات الأمم لصاعد ص ١٠١ وابن

وأضافه إلى ديكرت أن يضيفه إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالي أو الكلامي الثاني أشار إليه بيير دانييل هويه إذ قال إن ديكرت أخذ عن أهل الفكر والمجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفي: «أنا أفكر فأنا موجود»<sup>(١)</sup> مما يقتضى وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدآن أو الأصلان الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبها ديكرت اجتلاباً مما ترجم في اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرئ في<sup>(٢)</sup> النفح عن شخص يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلماً متحققاً برأى الأشعرية، وأنشد له بيتين في مديح إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج في الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثاً خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام في الإسلام، وفيه ينقض نقضاً دقيقاً مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءة والربانية واليعسوية أتباع أبي عيسى الأصبهاني، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلاً إنها جميعاً من صنع البشر. ويرى أن الكلمات في التوراة وفي الإنجيل بعهديه - القديم والجديد - حُرِّفت عن مواضعها على أيدي أصحابها من اليهود والنصارى. وينتهي من دراساته المتعمقة في التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل - ببراهين قاطعة - على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحى الإلهي، وكيف أن الله نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بني إسرائيل بما فيهم عيسى، إذ يعده - كما يعده المسلمون عامة - نبياً مرسلًا.

للكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود ١٠٠/١.  
(٢) النفح ٣/٣٥٣.

(١) بالنسبة ص ٥٣٤. وانظر في مبدأ ديكرت  
الفلسفي ترجمته في قصة الفلسفة الحديثة

## التاريخ

نشطت الأندلس - منذ القرن الثالث الهجري - في الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أو بالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أو بالسيرة النبوية العطرة أو بكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد في هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منها. ويتضح في كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثي الذي مر بنا ذكره بين فقهاءها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معها وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى ﷺ وأُم بالخلفاء وافتتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه في عهد عبد الرحمن الأوسط، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا في أوكسفورد<sup>(١)</sup>. وتلتقى بعده بعريب<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبري وهو مثله على السنوات بادئاً بسنة ٢٩١ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولا بن حزم المار ذكره بين الفقهاء والمترجم له في الفصل الأخير رسالة تدخل في التاريخ العام سماها نقط العروس في تواريخ الخلفاء ونوادر أخبارهم نشرتها في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولا بن الخطيب المترجم له بين الكتاب كتاب إعلام الأعلام في تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وفي مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد<sup>(٣)</sup> بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب الموعب لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. وتلتقى بكتاب الأخبار المجموعة، لمؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف في أيامه، كما تلتقى بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض في الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله

(١) راجع مقال د. مكي عن هذا المخطوط في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس ص ١٨٩، ٢٢١.  
(٢) انظر مصادر ترجمة الرازي بين الجغرافيين ص ٨٩.

(٣) انظر في ترجمة عريب القسم الأول من الجزء



(٣٧٥-٣٠٠هـ). وولتقى في عصر أمراء الطوائف بآبن حيان كبير مؤرخى الأندلس المتوفى سنة ٤٦٩ وموسوعته التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسنلم بهما في الفصل الأخير، وليحيى<sup>(١)</sup> بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب فى تاريخ دولة لمتونة (المرابطين) وجاء بعده ابن صاحب<sup>(٢)</sup> الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله فى تاريخ الموحدين كتاب باسم «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدي إمام الموحدين». ويلقانا عبد الواحد<sup>(٣)</sup> المراكشى المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربى درس فى الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو الحجاج البياسى<sup>(٤)</sup> يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له فى الفصل الأخير وله كتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرىة، وهو تاريخ لبني الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول.

وتكثر الكتابة فى السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولا بن حزم فيها «جوامع السيرة النبوية» ولا بن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضى عياض كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ وهو سبقي، وأولى لذلك أن نذكره فى الجزء الخاص بالمغرب، وللكلاعى<sup>(٥)</sup> سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازى رسول الله ﷺ ومغازى الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة، ولا بن<sup>(٦)</sup> سيد الناس الإشبلى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ فى السيرة النبوية «عيون الأثر فى فتون المغازى والشهائل والسير» وهو منشور بالقاهرة من قديم مجلدين.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب

واختصار القدرح العللى (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإبارى ص ٩٤.

(٥) انظر فى الكلاعى التكملة رقم ١٩٩١ والمغرب ٣١٦/٢ وتحفة القادم رقم ٩٠ وابن فرحون ٣٥٨/١.

(٦) راجع فى ابن سيد الناس الدرر الكامنة للسيوطى ٢٠٨/٤ والنجوم الزاهرة ٣٠٣/٩.

(١) راجع فى ترجمة ابن الصيرفى التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ١١٨/٢.

(٢) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة فى التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٣) راجع فى ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لمحققه محمد سعيد العريان.

(٤) انظر فى ترجمة البياسى المغرب ٧٣/٢.

العامه كتاب الاستيعاب لابن عبد البر في تراجم الصحابة، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد في تراجم الأندلسيين والكتابان منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي<sup>(١)</sup> عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المقتبس للحميدى<sup>(٣)</sup> محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ وينتهي به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتبس للضبي أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدى في جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأبار المترجم له في الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيرة في تراجم العلماء والأدباء والأمراء الذين نظموا الشعر في الأندلس والمغرب وله أيضاً معجم الصدفى وشيوخه وأصحابه، وللملاحى<sup>(٥)</sup> محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب في علماء إلبيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير<sup>(٦)</sup> أحمد بن إبراهيم الغرناطى المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتنمة لكتاب ابن بشكوال. وأخيراً كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة وعلمائها وأدبائها لابن الخطيب وهو في أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى<sup>(٧)</sup> المتوفى سنة ٣٦١ والمرقبة العليا للنباهى<sup>(٨)</sup> المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومر ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المار ذكره، وألفت في أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، ويلقانا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب

(٦) راجع في ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للمراكشى ٣٩/١ والإحاطة ٨٨/١ والدرر الكامنة ٨٤/١ والمنهل الصافي ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.  
 (٧) انظر في الخشنى ابن الفرضى رقم ١٣٩٨ والضبى رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٠٠.  
 (٨) راجع في النباهى الجزء الثاني من أزهار الرياض ونيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(١) انظر في ابن الفرضى كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدى ٢٣٧ والمغرب ١٠٣/١ والذخيرة ٦١٤/٢.  
 (٢) راجع في صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.  
 (٣) انظر مصادر الحميدى بين المحدثين ص ١١٠.  
 (٤) راجع ابن بشكوال في التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصدفى لابن الأبار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢٤٠/٢.  
 (٥) انظر في الملاحى التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ١٢٦/٢.

(الأندلس) لابن دحية<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب، وفي مقدمتها قلائد العقيان والمطمح للفتح<sup>(٢)</sup> بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهي في ثمانية مجلدات وسنلم بها في الفصل الأخير، ولابن الأبار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيرة المذكورة آنفاً وكتاب تحفة القادم في تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق في العديدين الثالث والرابع من سنتها الحادية والأربعين، ولابن<sup>(٣)</sup> سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأندلسية في جزءين بدار المعارف، وله الغصون الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضاً، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدح المعلى وبه طائفة كبيرة من شعراء الأندلس في النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن<sup>(٤)</sup> الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأندلسيين في كتابة التاريخ ينبغي أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها روائع علمائهم وأدبائهم مثل رسالة فضل الأندلس لابن حزم المدونة في نفع الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأساء الشيوخ وما حُمل عنهم من الكتب مثل فهرسة<sup>(٥)</sup> ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

دار المعارف).  
 (٤) انظر في ابن الأحمر درة المجال لابن القاضي  
 (طبع الرباط) ١١٦/١ وجذوة الاقتباس ٦٩ ونيل  
 الابتهاج ٩٩.  
 (٥) راجع في ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضيبي  
 ٦٥ والذيل والتكملة للمراكشي (تحقيق د. محمد بن  
 شريفة) ٢٩٩/٨ وطبقات القراء لابن الجزرى  
 ١٣٩/٢.

(١) انظر في ابن دحية التكملة رقم ١٨٣٢ وصلة  
 الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.  
 (٢) انظر في الفتح بن خاقان معجم الصدقي:  
 ٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦  
 والذيل والتكملة للمراكشي ٥٢٩/٥ وابن خلكان  
 ٢٣/٤.  
 (٣) راجع في ابن سعيد الإحاطة ٢٣٠/١  
 والفوات لابن شاكر ١٨١/١ ومقدمتنا لنشر  
 القسم الأندلسي من كتابه المغرب (طبع

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الأندلس - كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس

مرّ بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربي من الغالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والقاندال والقوط، ومنها الآسيوي من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضيرون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُتر وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، وبرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالبة، وبذلك كله كانت الأندلس مجعاً لعناصر جنسية شتى. وذكرنا - فيما أسلفنا من حديث - أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا في الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا في موطنهم بالأندلس، وإنما في روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع في تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئاً ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبربرة من القندال والقوط قضت - أو كادت - على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضرباً من العسف والظلم حتى كاد أهلها يستحيلون إلى ما يشبه الرقيق، سوى ما نشروا في البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقى العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد أشرنا إليها في الفصل الماضي وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمتلئ بأخطاء كثيرة، وتدل - بوضوح - على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل في مضمار الدين

والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذى لا تطيب حياة أى شعب بدونها بل إنها تصبح نُكْرًا وشرا خالصين مع ما كان يجثم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التعس.

وكأنما كُتِبَ للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدهمة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السمح في معاملة أهل الكتاب من النصارى واليهود بمنتهى الرفق، بحيث تُكْفَلُ لهم حريتهم الدينية في عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أى تدخل، وبحيث يُرْفَعُ عنهم ثقل الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغیضة من البؤس والظلم والهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التى حررت أهل الأندلس من جُور القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقا قبيحا، والتى ملأت الأندلس بالعدل الذى يعطى لصاحب الحق حقه دون أى حيف، والذى يسوى بين الناس في مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سببا قويا في أن يعتقد كثيرون من مسيحيي الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مثل إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أى شائبة من فكرة التثليث المعقدة في الدين المسيحى، مع ما يتيح لمعتنقه من سعادة في دنياه وآخرته، وأيضا لأن من كان يعتقد الدين الحنيف منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهى ذلك سريعا في الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة في الإسلام وكانوا يسمون المسألة، وسُمِّيَ أبناؤهم باسم المولدين. وينبغى أن نذكر أنه لم يحدث في تاريخ العرب بالأندلس أن أكره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لا بد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين في قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك في وثيقة يُشْهَدُ عليها شاهدين، قائلا فيها إنه يعتقد الإسلام بعد أن وقف على شريعته «طائعا آمنا، غير فائر من شىء ولا مكره، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكرًا له نعمته على هدايته له»<sup>(١)</sup>.

وطبيعى أن يُقبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تُعدّ جزء لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطرا كبيرا من أهل الأندلس تعربوا تعربا كاملا: دينا ولغة،

(١) كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار (طبع

مدير) ص ٤٠٥ وما بعدها.

وقد بقى وراءهم شطر ظل على مسيحيته، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانسية لغةً في مخاطبه اليومي، غير أنه شعر سريعاً بما ذكرناه آنفاً من أنها لغة مجدبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبي كتراث العربية، وأيضاً ليس لها مثلها تراث ثقافي ولا حضارى، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلاً عما لأهل العربية في البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائماً يحاول أن يحاكي الغالب، فما بالنا إذا ظل هذا الغالب يستعلى على مسيحيي الأندلس ويهودها ثقافياً وأدبياً وحضارياً لا قرناً ولا قرنين بل قروناً متعاقبة من القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربى الباهر فى العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك «ترند» فى مقاله بـتراث الإسلام قائلاً: «كانت قرطبة فى القرن العاشر الميلادى أكثر المدن الأوربية حضارة، وكانت فى ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونبأه وبرشلونه كانوا يقصدون إليها كلما مسَّتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير»<sup>(١)</sup>. ومنذ أواسط القرن الحادى عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التى استولت عليها الإمارات المسيحية الشالية إلى مؤسسات<sup>(٢)</sup> ترجمة ضخمة لكل ما هو عربى من علم وفلسفة وأدب، ويؤم طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوربية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلاً عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباساً عربية إلى مدنه وبلداته، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل فى نهضة أوربا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين فى الأندلس على دينه تعرب - مثل زميله الذى اعتنق الدين الحنيف - بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضارى وثقافى، وأيضاً بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة فى التخاطب «اليومى» للمسيحيين فى الأندلس وفى شمال إيبيريا فقيرة فقراً شديداً، بحيث لا نستطيع أن نجد مبرراً كافياً لما ذهب إليه المستشرق الإسبانى ريبيرا فى نظريته<sup>(٣)</sup> الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمونها فى

ص ٥٣٦ وما بعدها وفى مواضع مختلفة.

(٣) راجع هذه النظرية فى بالنتيا ص ١٤٢

وما بعدها.

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ص ١٧.

(٢) انظر فى ذلك تاريخ الفكر الأندلسى لبالنتيا

المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانسية، ويقول: إن هذا الازدواج في اللغة كان الأصل في نشوء طراز شعري مختلط تترج فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعري واحد، غير أن الزجل سوقى دارج والموشحة عربية فصيحة. وفي رأينا أن ريبيرا بالغ في كل ذلك مبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروى الخشني عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضى قد أدركته الملالة والسامة<sup>(١)</sup>. وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك في الدلالة على معرفة بعض القضاة للاتينية الدارجة ما ذكره الخشني من أن رجلا من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضى في مجلسه بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قاضى انظر لشقيتِكَ هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: - كما يقول الخشني - لست أنت شقيتي إنما شقيتي بغلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار<sup>(٢)</sup>. وكان بين القائميين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمى اللسان مقبول الشهادة عندهم<sup>(٣)</sup>. وهذه الأخبار جميعا عند الخشني لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلا عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب في لغة التخاطب لأنها أخبار فردية، ويمكن أن يكون القاضيان السالفان رُزقا لأميين أعجميتين، فتلفظ كل منهما الأعجمية عن أمه، أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمى اللسان فيدل على أنهم كانوا في حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التي يلوكها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوى أو المتهمين، حتى يحكم القضاة في قضاياهم عن حسن فهمٍ بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب في قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. وما يدل به أيضا أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب

(١) قضاة قرطبة للخشني (طبعة مصر) ص ٩٦. (٢) الخشني ص ٨٤.

(٢) الخشني ص ١١٨.

اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التي دخلت في الإسلام، وهو شيء طبيعي أن يظل اللقب اللاتيني القديم ملحقاً ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يُلْحَقُ بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سعيد المتوفى سنة ٢٦٧ لُقِبَ زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي الشاعر بلقب النَّذْل كما في المقتبس لابن حيان<sup>(١)</sup>، وفي التكملة لابن الأبار أنه لُقِبَ بالقملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أي النذل<sup>(٢)</sup>، وكأما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيراً قدر الثياب داتها، فلقبه بعض معاصريه انتقاماً منه بلقب القلقاط، و Calafate باللاتينية الدارجة دهان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكى - لقدارة ثيابه. وكان سعيد بن عثمان المرواني شاعر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع يُنَبِّزُ بلقب البليّنه<sup>(٤)</sup> Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سعيد - الحوت لضخامته. ومثل هذا النبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب في قرطبة والأندلس كان محدوداً إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح في دلالاته على النبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذه دليلاً على شيوع اللاتينية الدارجة في تخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن في أيدينا برهاناً قوياً على صحتها هو ما ذكره ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» عن قبيلة بليّ بالأندلس، إذ قال: «دارهم في الموضع المعروف باسمهم بشمالى قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (في القرن الخامس الهجرى) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن بالعربية فقط: نساؤهم ورجالهم»<sup>(٥)</sup>. ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بليّ وحدها في الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتتخاطب في لغتها اليومية. وابن حزم إنما يتحدث عن بليّ وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما في نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على

(٣) راجع المغرب ١/١١١.

(٤) المغرب ١/١٩٧.

(٥) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع)

دار المعارف) ص ٤٤٣.

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكى طبع بيروت)

ص ٩٨ وقابل بالمغرب ١/١١٣.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع في

ذلك تعليق د. مكى في المقتبس ص ٥٠٤



شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع في كتابه معجم البلدان عن أهل شلب إذ يقول: «قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ومن لا يعانى الأدب، ولو مرت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه»<sup>(١)</sup>. وفي الروض المعطار للحميرى المتوفى سنة ٩٠٠: «مدينة شلب في الجنوب الغربى للأندلس» ويقول: «إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهود متأخرة»<sup>(٢)</sup>. وكأنما ظل يعيش فى الأندلس ببعض مدنها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة، فكيف يذهب باحث إلى أن العرب - أو كثيراً منهم - هناك زابت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية الدارجة فى تخاطبهم اليومي، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب؟!!

ومما يدل على خطأ نظرية ريبيرا أيضا - من بعض الوجوه - صيحة البرؤ القرطى المشهورة التى يأسى فيها لولع نصارى الإسبان بالأدب العربى ولغته العربية، فما بالناس بولع المسلمين من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والحسرة تقطع نياط قلبه: «إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة؟! ومن - سوى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟! يا للحسرة! إن المهويين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وأدبها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثهم عن الكتب النصرانية أجاوبك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرخوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»<sup>(٣)</sup>.

(٣) راجع نص هذه الصيحة فى البثيا ص ٤٨٥ وما بعدها.

(١) انظر مدينة شلب فى معجم البلدان لياقوت.  
(٢) الروض المعطار للحميرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٦.

وَأَلْبَرُو يصرخ - بأعلى صوته - إن شبان النصرارى فى الأندلس لزمناه أصبحوا يشغفون شغفا شديدا بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا هى تملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشاعر والأحاسيس، وإذا هم يعكفون عليها قارئى متخذين منها أمثلتهم فى الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالنتىا تلك الصيحة لأَلْبَرُو قائلا: «إن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القوائد التى نجدها فى خاتمة مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية بمديرد، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبوابا على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قُسِّ يَسْمَى بِنَجْنِسِيْس، والكتاب مُهْدَى إلى الأسقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء فى قصيدة شعرية عربية لا تفرق فى شىء عما ينظمه العرب المسلمون فى هذا المقام شكلا ومضمونا». ويسوق بالنتىا أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: «والكثير من الكتب اللاتينية التى كتبها المستعربون (من نصرارى الإسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمنا طويلا بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (فى طليطلة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمون بأساء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التى خلفها لنا مستعربو طليطلة»<sup>(١)</sup>.

ويشهد لبالنتىا وأَلْبَرُو أن نجد بين الإسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عَيَّنوا كتابا فى دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مثل قومس بن أنتنيان الذى مرَّ ذكره فى الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبدالرحمن. وإذا كان أَلْبَرُو يشهد بتعرب الإسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستحبون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعرَّبت - فى ظننا - كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها ووشاحيها، وقد ترجم ابن سعيد فى كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النغريلة وزير باديس بن حبوس فى غرناطة وكان سيئ السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولعاصرهما حسداى بن يوسف بن حسداى كاتب بنى هود بسرقسطة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أديبا مجيدا شعرا ونثرا، وله ترجمة طويلة فى كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتبا عند بنى هود قبله، وعين

(١) انظر بالنتىا ص ٤٨٦ وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر جده حَسَدَاى كاتبا في دواوينه. ومن ترجم لهم ابن سعيد بين شعراء المائة السادسة إلياس بن صَدُود الطيب وإسحق بن شمعون وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية الأندلسية. وترجم ابن سعيد لشاعر يهودى طليطلى مستعرب هو إبراهيم بن الفخار رسول ألفونس إلى الأئمة في دولة الموحدين. وترجم ابن سعيد في القرن السابع أيضا لإبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي الذى أثر الإسلام دينا وعقيدة، وكان شاعرا نابها ووشاحا مجيدا. وما يدل على اتساع التعرب بين يهود الأندلس أن نجد بين نسايم شاعرات مجيدات مثل قَسْمونة بنت إسماعيل اليهودى وكان أبوها - كما يقول المقرئ - شاعرا واعتنى بتأديبها، وكانت تطارحه الشعر، وكان ربما نظم قسما من موشحة، فأتمتها هى بقسم آخر. وما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعربا كاملا أنه حين أخذ الإسبان والغربيون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم في ذلك دور ضخم، سوى ما تمثلوه من تلك الثقافة في لغتهم العبرية، حتى ليقول بالنتيا: «نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة»<sup>(١)</sup>.

ولعل في ذلك كله ما ينقض - بوضوح - على خطأ نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن في ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التى قدمناها. وأيضاً فإنه لا يستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإسبان في الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون في تخاطبهم اليومي العامية العربية الأندلسية، بينما سموا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قرونا متوالية. وكل ما يستدل به ريبيرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبى في الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت في نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظم بالعربية الفصحى في جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظرها في الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية في نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد، ومعروف أيضا أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تترأى فيها أحيانا ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهى ليست عامية لاتينية، إنما هى عامية عربية، شأنها شأن العاميات التى نشأت في جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها بلغات أهلها

(١) راجع دور اليهود في ترجمة الثقافة الأندلسية

الوطنية، وقد دخلتها في كل بلد عربي بعض خصائص تلك اللغات في النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث في الأندلس على نحو ما يتضح في أزجالها، فهي منظومة بعربية عامية تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانسية التي كانت مستقرة في الأندلس قبل الفتح العربي وظلت حية فيها وراءها من الإمارات المسيحية في الشمال، وبالمثل في الأندلس على ألسنة بعض النصارى والجواري الإسبانيات والمسترقين من الإيبان في الحروب، وانزلت منها بعض ألفاظ في الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامية، وليس فيها أى نص مكتوب أو منظوم باللهجة الرومانسية الدارجة في الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبيرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أو يلمنون بشيء منها بجانب الفصحى والعامية العربية الأندلسية المتداولة في الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامية أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضا قصائد نظموا على أوزان العروض العربي، على نحو ما يلقانا عند أبي عبدالله أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغليس، وهو من شعراء القرن السادس الهجرى، إذ ذكر صفى الدين الحلى في كتابه: «العاطل الحالى» أنه قرأ له في ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وقد سُمى أوزان عشر قصائد منها، وهي أربع من وزن المديد، واثنان من وزن الرمل، وأخريان من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مخلع البسيط، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامية<sup>(١)</sup>. ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامية تنظم على أوزان الشعر العربي كما سيتضح - فيما بعد - في تعليقنا على ما ننشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب في ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبيرا، إنما تداولوا فيها عامية عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس في مخاطبهم اليومي بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وأدائها الرفيعة، يستوى في ذلك المسلمون والمسلمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم البرُّو أنفاً. والشعب الأندلسى - في هذا الصنيع - يلتقى

المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

(١) راجع كتاب العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة

بجميع الشعوب الإسلامية في البلدان العربية المختلفة، إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعاً متمسك بالفصحى وتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر، وفي الوقت نفسه تتحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها في ذلك مثل العامة من حولها، وهي لغة أهمل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التي كانت سائدة في تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطاناً جديدة لهم. وكما أن العامة بمختلف البلدان العربية بدلت في بعض ألفاظ العربية تبديلات مختلفة في حركاتها وانزلت من كلماتها السوقية والعامية بعض ألفاظ إلى كتابات الكتاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين في المشرق يؤلف كتباً في لحن العامة، حتى يجتنبه الأدباء وينحوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو ما نعرف عند الكسائي البغدادي المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألف الزبيدي القرطبي الذي مر ذكره بين اللغويين الأندلسيين في القرن الرابع الهجري كتاباً في لحن العوام حتى ينبه الكتاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحياناً في كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبينوه ويجتنبوه<sup>(١)</sup>.

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية في الأندلس على ألسنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانسية، كما ظن ريبيرا، وهي عامية كانت تهمل الإعراب وتفسد أحياناً النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التي نشأت في البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدي كتباً، ونظم فيها زجالون أزجالاً كثيرة، وأحياناً دواوين زجلية، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربي أندلسي عامي ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلفت العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافي وأدبي وعلمي وفلسفي، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا في الأندلس شعباً عربياً كبيراً ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربياً اللغة فصيحاً وعاميةً، وظل عربياً الدين والحضارة كما ظل عربياً الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

(١) انظر مقدمة كتاب لحن العوام للزبيدي بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب (طبع مكتبة دار العروبة بالقاهرة).

## (ب) كثرة الشعراء

كان طبيعياً أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدوداً زمن الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نُظمت أشعار في تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضرى مبكر في عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جَعُونَةُ الكلابي كان مَدَّاحاً لِلصُّمَيْلِ بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهري والى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعاراً لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضي. ويظل الرواة ينشدون أشعاراً لأمرء البيت الأموي. وقد أخذ هذا البيت القرشي في رعاية الشعر منذ أول ولايته في الأندلس، ويذكرون من الشعراء في عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المرواني الداخل إلى الأندلس في صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المرواني وكانت له عند الداخل مكانة عليّة. واشتهر من الشعراء في عهد الأمير هشام أبوالمخشيّ عاصم بن زيد المتوفى في دولة ابنه الحكم الربضي، واشتهر لزمن الحكم غريب بن عبد الله الثقفي الطليطلي المتوفى في أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وعهده يُعدّ - كما مر بنا - بدء الازدهار الحضاري والثقافي بالأندلس، وأيضاً بدء الازدهار الأدبي، وحظي بنزول زرياب في قرطبة لأول حكمه، ودفعه لهضة غنائية وموسيقية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهورهم عباس بن ناصح قاضي الحكم الربضي على شذونة والجزيرة، ومرّ بنا - فيما أسلفنا - أن عبد الرحمن الأوسط وجّه به إلى العراق في التماس الكتب القديمة التي تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزاً كثيرة أكبّ عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم في إساعة تلك العلوم ثم الإضافة إليها - فيما بعد - إضافات باهرة. ومن مشهورى الشعراء أيضاً في هذا العهد يحيى الغزال الذي بدأ ظهوره في عهد الحكم الربضي وعاش طويلاً حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم في عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرهما عبد الله بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديمه وعثمان بن المثني مؤدب أبنائه، ومثله

عبد الله بن بكر الكلاعى الملقب بالنذل، ومثلها أبو عثمان سعيد بن الفرغ الملقب بالرشاش، وكان من آدب الناس في زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهورى الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفى جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتبى وله مدائح كثيرة في الأمير وابنه القاسم ووزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار في المغرب والمقتبس. ومن تدور أسماؤهم من الشعراء في المقتبس لعهد الأمير محمد طاهر بن حزم وقام بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد المورورى وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم في المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حلبتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسيحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحها له حتى وفاتها لعهد، وعداد ابن عبد ربه في بيوتات المولدين ومثله عداد ابن إدريس في بيوتات المولدين لعهد الدولة المروانية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبرى مخترع الموشحات وهو عربى صليبة كما سنعرف فيما بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلى وأحمد بن قلزم وإسحاق المنادى وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المطبب ابن أخى الشاعر ابن عبد ربه وعبيديس بن محمود، وكان كاتباً في القصر وله مدائح كثيرة في الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشاليه النائر بجيان فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله النائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلقاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح في الأمير عبد الله وأيضاً في كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا في الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله في ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسألة والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التى حدثت فيها هذه الفتنة البيرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيها حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته وهجو متوعدا الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودى والى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربى هو الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق، ومولد من أبناء المسألة هو العبلى عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منهما عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا في عهد حفيده عبد الرحمن الناصر لذي امتد خمسين عاما حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: «اجتمعت له حلبة من فحول الشعراء أمراء الكلام افتنوا في تقريظه وتوسعوا في ذكر عدالته وساحه كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا فيها تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنا وبهاء وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خنازيد<sup>(١)</sup> مقدمهم معلمه في الصبا ابن عبد ربّه ، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادى وإساعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السُّنَّاط وغيرهم من كبار الطارئين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادي ومحمد بن الحسين الطُّبْنِي الإفريقي<sup>(٢)</sup>. ويذكر ابن حيان في الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مدائح كثيرة كانوا يهنتونه فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربه وابن إدريس ولشعراء آخرين مثل جعفر المصحفي ومحمد بن أضحى صاحب الحامّة وعبد الملك بن جهور وزيره وأحمد بن محمد الرازي الذي مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء الأولين يدخلون في عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) وفي مقدمتهم جعفر المصحفي مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطُّبْنِي ومن شعرائه المهمين وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحداثق. وكان الحكم مثل أبيه الناصر - شاعرا، وأنشد له صاحب المغرب أشعارا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيه محمد بن عبد الملك بن الناصر. ويخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ويحجب له المنصور بن أبي عامر ثم ابنه المظفر والناصر، وتصبح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عاما، ويُقضى فيها على الحكم الأموي قضاء مبرما. ومن مشهورى الشعراء في الدولة العامرية والسنوات العجاف بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التوابع والزوابع المشهور بجودة نثره وشعره، والبليني سعيد بن عثمان المرواني وهو من مداح المنصور بن أبي عامر، والقائد يعلى بن أحمد بن يعلى وعبد الملك بن إدريس الجزيري كاتب المنصور وابن النظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهشيمي وعبد الله بن أبي الحسن

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد  
الاسباني العربي للثقافة بمadrid) ص ٤٠ وما بعدها.

(١) الخنازيد جمع خنزيد، وهو من الشعراء: المجيد  
المحسن.



ومحمد بن شخيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادي المتوفى سنة ٤١٣  
ومحمد بن الحسين الطُّبِّي وجعفر بن أبي علي القالي، وعيسى بن الحسن، وعبادة بن ماء  
السماء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتّاني محمد بن الحسن المذحجي المطيب وابن دراج  
القسطلي وأمّية<sup>(١)</sup> بن غالب الموروري.

وبما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد  
كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجري، على  
نحو ما نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه «طبقات الشعراء  
بالأندلس» وتتوالى بعده المصنفات التي تعنى بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعرض  
أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكتّاني المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء  
الأندلس لمحمد بن هشام الأموي في زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء  
الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرؤوف  
الأزدى المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء البيرة لمطرف بن عيسى الغساني المتوفى سنة ٣٥٧  
وكتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجياني، ومرّ بنا في الفصل الماضي أنه ألفه للحكم  
المستنصر معارضا به كتاب الزهرة لابن داود البغدادي وكان ابن داود وزّع كتابه على  
مائة باب وأودع في كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مر بنا - في مائتي  
باب وفي كل باب مائتا بيت، افتخارا بذلك لأهل موطنه وبيانا لتفوقهم في الشعر  
وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣ كتابا في أخبار شعراء الأندلس،  
وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء الساء كتابا مماثلا، وألف ابن الكتّاني «كتاب  
التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وهو نماذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء  
الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألمنا به في حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية في  
الفصل الماضي. وفي سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء  
الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

ونمضي إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدّت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله  
كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تُعَنَّ بجذب الشعراء إليها كما عُنت إمارة بني عباد  
ياشيبيلية، فقد أكثروا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحالوا إشبيلية

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء في المغرب  
وخاصة في كتاب مدينة الزاهرة ١/١٩٧-٢١١.

إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم في الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعرا كبيرا وله ديوان شعر منشور. ويترجم ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها في عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح في وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإساعيل بن عامر الحميرى الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع في وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأبار وأبا حفص عمر بن الحسن الهوزنى وعلى بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلي وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبي الذى اتخذه وزيرا ومدبراً لشئون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعيا كبيراً للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكتابه وأبو القاسم بن الجعد وأبو القاسم بن مرزقان وابن المرعى النصرانى الإشبيلي. وكاد أن لا ينجم فى بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبى الذى وفد على أبيه، وانعقدت بينه وبين المعتمد صحبة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقاه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينها وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البشرات فى إلبيرة ابن القزاز محمد بن عبادة، ومن المريّة يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وهبون الذى تغنى طويلا بانتصاره مع يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذى تفجع على دولته تفجعا مريرا حين نفاه ابن تاشفين إلى أغات براكش. ومن وفد عليه أيضا ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل فى هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور - من بعض الوجوه - كثرة الشعراء فى عهد أمراء الطوائف وحقا لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغته إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يحفون بها وبأمرائها، ولنأخذ مثلا المريّة، فقد كان من أمرائها راعٍ كبير للشعر هو المعتصم بن صّادح الذى ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعرا، وكذلك كان أبناؤه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد فى إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين

عليه من الأندلس وغيرها الأشكر كى يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيرى الذي كان يفد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادى آشى والأسعد بن بليطة الطليطلى وابن شرف القيروانى. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سببا في أن تتعدد بالأندلس المراكز التي تُعَدُّ على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفاً زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هي التي تنثر الدنانير، أما في هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل بزتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمرية ومُرسية ودانية وبطليوس وطليلة وسرقسطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهرة مستجدة في هذا العصر هي ظاهرة الشعراء الجوالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير في طلب النوال والمال مثل أسعد بن بليطة الطليطلى وابن القزاز محمد بن عبادة وأبي عامر بن الأصيلي وكان جواب آفاق وعبد الرحمن بن مقانا الأشبوني المبدع، ورأى أن يرجع أخيراً إلى موطنه «القبذاق» ويشغل فيها بالزراعة بعد أن كَلَّت قدماء وأضناه التطواف على الإمارات والأمراء<sup>(١)</sup>. وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هي ظاهرة المداحين المتسولين من أهل الكُدية الذين يسميهم ابن بسام في الذخيرة باسم القوالين، وهم لا ينظمون شعرا ولا مديحا، وإنما ينشدون غرر القصائد على الأبواب وفي الأسواق يَسْتَجِدُونَ بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مُقانا:

البرقِ لائحٍ من أندرينْ ذرفتْ عيناك بالدمع المعين<sup>(٢)</sup>

ويقول إن طائفة القوالين في الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عذوبة في اللفظ وسلاسة<sup>(٣)</sup>.

وينتهى عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس في عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٤١ هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصارى في الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم في الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبيعى أن ظلَّ يعيش في عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا في عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء في هذا العصر عبد الله بن سارة وابن أبي

(٣) الذخيرة ٢/٧٩١.

(١) الذخيرة ٢/٧٨٧.

(٢) أندرين: قرية بالشام.

الخصال الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطورنة وعلى بن الإمام  
ومحمد بن الجراوى الغرناطى وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفى وله كتاب فى  
تاريخ الدولة اللمتونية أو دولة الملتمين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر بن  
الحاج وأمىة بن أبى الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وابن بسام صاحب  
الذخيرة وأبو بكر المخزومى الأعمى وأبو العلاء بن الجنان وابن عائشة الكاتب  
وأبو بكر بن العربى وابن العريف وأبو أمىة بن عصام وعبد الحق بن عطية  
وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلم ومحمد بن الروح وابن الفخار  
الأصولى المالمقى، ومن كبار الشعراء الوشاحين فى العصر الأعمى التطبلى ويحيى بن بقى  
واليكى يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو عبد الله بن أبى  
الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين  
والشعراء تراجم وأشعار فى كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضاً فإنه ترجم لابن قزمان  
الواضع النهائى لفن الزجل الأندلسى وديوانه منشور منذ القرن الماضى وقد توفى سنة  
٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاماً، وهو لذلك حرى بأن يلحق بعصرهم.

ونمضى إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد فى كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من  
أربعين شاعراً نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبى وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن  
الصفار الأعمى القرطبى والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبلى والحراز  
البسطى وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن الحمارة تلميذ ابن باجة ومحمد بن  
عبد الواحد الملاحى مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عذرة وأحمد بن  
عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكتندى محمد بن  
عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبى والرصاصى محمد بن غالب  
وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن ينق الشاطبى ويحيى الجزار السرقسطى.  
وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده  
لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأبو بكر بن زهر وابن حبيب القصرى  
الفيلسوف وعلى بن المربى وابن هرودس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق  
وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهد الشاطبى. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع  
إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبلى والبلارج القرمونى وابن  
الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقى. ومما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر فى  
الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى كثرة ناظميه بين الفقهاء واللغويين والتحاة والأطباء

والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مرّ بنا عن أهل شلب مما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهاما واسعا برّزت فيه أخواتها في البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل المغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرئ في النسخ لأكثر من عشرين شاعرة، منهن في القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبي المخشّص عاصم بن زيد، ومنهن في القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجارية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجانية، ومنهن في القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستكفي ومهجة بنت التّياني القرطبية ومريم بنت أبي يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجارية والعبادية جارية المعتضد بن عباد واعتقاد المعروفة باسم الرّميكية زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائه وغاية المنى جارية المعتصم بن صمّاح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المرابطي سير بن أبي بكر وإلى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضرهم فيها وتستمع إلى أحاديثهم وأشعارهم وتبدي بعض انتقادات على ما تسمع. ومن ترجم لهن المقرئ في القرن السادس نزهون بنت القليعي وحمدة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية وورقاء بنت ينتان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسماة العامرية، وترجم المقرئ في أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وفير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأى إقليم عربي، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفا أذكى في نفوسهم نساء ورجالا جذوة الشعر مما جعل الأندلس تملأ شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذى رافق الشعر الأندلسى قرونا متعاقبة فى التقلص والنحول، إذ أخذ كثير من ينابيع الحياة التى كان يستمد منها فى الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت الحواضر الكبرى فى وسط الأندلس وشرقيها وغربيها فى حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربى ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصارى الصحابى لضاعت الأندلس نهائيا من أيدي العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشماليين وأن يكون دولة فى غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبنائه وأحفاده يقومون عليها حتى غلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش

الموحدين فيها أحسَّ الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلا أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يتراءى لهم سريعا، وكان ذلك سببا في أن يغادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم علومهم وآدابهم التي أثروا بها تأثيرا عميقا في البلاد المغربية، خاصة في مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب نُشر مجمل له باسم اختصار القِدْح المَعْلَى وهو يعرض فيه شعراء الأندلس في المائة السابعة من جالسهم في الأندلس وقيد عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم في البلدان المغربية وخاصة تونس أو في البلدان المشرقية في الإسكندرية أو في القاهرة أو في دمشق، وقد بلغوا في كتابه اثنين وسبعين شاعرا، وتراجهم أكثر تفصيلا وأشعارا من ترجماته في كتاب المغرب، ومن يذكره بينهم أبو الوليد الشَّقْنَدِي صاحب الرسالة المشهورة في فضل الأندلس وتفوقها الثقافي والأدبي، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجياني ويقول إن أباه ممدوح مدغليس في أزجاله. ويتوسع في الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوين والدباج والأعلم البطليوسي منشدا بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلا، ولذلك عنى بالحديث عن نزل فيها من الأدباء والشعراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيرة وتحفة القادم ومعجم الصدفي وبها توفي سنة ٦٥٨ ومثل أبي المطرف أحمد بن عميرة وأبي الحجاج يوسف البياسي وابن هَمَشِك محمد بن يحيى. ومن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلي المطبَّب وقد عينه المصريون في مارستان القاهرة. وكانت مصر دائما ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دِحْيَة الذي أسند إليه السلطان الكامل رياسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذي جعله رئيسا للعشابين أو الصيادلة في القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربي المتصوف وتوفي بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفي سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القدح المعلى مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس في المائة السابعة. وملتقى بعده بكتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» للسان الدين بن الخطيب وبه ترجمات مائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفري المتوفى سنة ٧٩١ وتلاههم بالمقرئين والمدرسين من الشعراء مثل أبي حيان المهاجر إلى القاهرة، وذكر في إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين في شعراء الأندلس في المائة الثامنة كتاب نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد

عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عاما، وهو يلتقى معه في طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة لسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل في كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في الأندلس منذ اكتمل تعريبها في القرن الثالث الهجرى كثرة مفرطة، وظل الشعر حياً بل مزدهراً في الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلموا وجدوا تغنوا بالشعر وصد حوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك في ذلك علماءهم من كل صنف ورجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبانهم، ومتفوقهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالخراز والجزار اللذين مر ذكرهما ومثلها مرج الكحل الشاعر البلسنى فقد نشأ ينادى في الأسواق ويتعشش من بيع السمك، وأخذت همته تترقى قليلا قليلا في حب الشعر إلى أن نظمه وأجاده. ومثله ابن جاح الصباغ البطليوسى.

## ٢

## الموشحات والأزجال

## ( أ ) الموشحات

الموشحات جمع موشحة، وهى مشتقة من الوشاح وهو - كما فى المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزا، وتتعدد أجزاءه أو شطوره، ويليه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبيننا تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها فى القفل الأول سواء فى الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأول فى قافيته، فلكل غصن قافية تتحد فى أجزاءه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعا فى الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاءها المتقابلة فى الأقفال المتعاقبة فى الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاءها فى الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائما، وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفا أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هى التى ابتكرت فن الموشحة، ويظن أنه كان لاتساع موجة الغناء والموسيقى منذ زرياب فى عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مر بنا فى الفصل

الأول أثر كبير في نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفترة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سعيد: «ذكر الحجارى في كتاب المسهب في غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها»<sup>(١)</sup>. ويسمى ابن بسام في ترجمته لعبادة بن ماء الساء مخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبرى الضرير، ويقول: «كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة»<sup>(٢)</sup> وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم في نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربى وأوزانه إنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوربى<sup>(٣)</sup>، وهو خطأ في الفهم إذ أن كلمة «الأعاريض المهملة غير المستعملة عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما رده العروضيون المشاركة والمغاربة من أن الدوائر الخمس التي ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريض الشعر العربى تفسح لأوزان مهملة لا تنحصر لم يستخدمها العرب في أشعارها، واستخدمها في عصره - كما يقول صاحب الأغاني - تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمِيدَع البصرى، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رُزَيْن العروضى وأتى فيه ببدائع جمّة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس»<sup>(٤)</sup> وقد أنشد ياقوت قصيدة له في مديح الحسن بن سهل، وأشار إلى أنها خارجة على أوزان الشعر العربى وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة، وهو - في رأينا - عكس وزن المنسرح. ويعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسى ثان نظم أشعارا له مختلفة على تلك الأوزان المهملة على نحو ما يصور ذلك كتابنا «العصر العباسى الأول»<sup>(٥)</sup>.

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهملة غير المستعملة التي أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها

مكى في كتاب أثر العرب في النهضة الأوربية ص ٥٠ وما بعدها.

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٥) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

(١) راجع كتاب المقتطف من أزهار الطرف لابن سعيد بتحقيق د. سيد حنفى حسنين (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ٤٦٩/١.

(٣) انظر بالنسبة في تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور



أنها من أعاريض دوائر الخليل المهملة التي لم يستعملها العرب، وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - في رأيه - محمد بن حمود القبري الضرير أنه كان: «يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة» وهو يقصد قفلها الأخير الذي يأتي في الخاتمة. وربما كان ذلك مادعا «رييرا» إلى القول بأن الموشحة طراز شعري يمتزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلا بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانسية في الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بُنى على شاكلتها موشحته مرصعا لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بفض من الجواهر الكريمة. وليس في يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية رومانسية، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصح منطقيا أن يكون قد حدث أحيانا عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية في نهاية الموشحة على سبيل النظر، كما حدث ذلك مرارا عند بعض الشعراء العباسيين<sup>(١)</sup>. وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن في القرن الخامس وما بعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانسية إلى أغنية رومانسية كانت متداولة في الأندلس أو تغنى، فالقول بذلك إنما هو - في رأينا - مجرد ظن لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون ينجحون أحيانا في بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانسية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: «الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط في المجون) من قبل السخف، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللحن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويُجْعَلُ الخروج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستعاراً على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولا بد في البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت»<sup>(٢)</sup>. وواضح أن ما تحمله الخرجة أحيانا - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد

(١) العصر العباسي الأول ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٣٠.

(١) انظر في ذلك فصلا فتحه الجاحظ في البيان والتبيين (طبعة هرون) ١٤١/١ - ١٤٤ لمن كان يتملح بإدخال ألفاظ فارسية في شعره من الأعراب فضلا عن كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا

عن الحد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب في استخدام الوشاح الأندلسي أحيانا للخرجات الرومانسية فراراً من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني من خرجات الموشحات في كتابه - الزجل الأندلسي - يلاحظ أن كثيراً من الخرجات العجمية التي ذكرها تشكو فيها الفتاة لأمها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذلة لعاشقها تذلاً شديداً، وقد يصاغ ذلك في خرجات عامية ولكن في تلميح غالباً دون أن يخدش حياء الفتاة، أما ما كان يظن الوشاح أنه يخدش حياءها فكان يصوغه في عبارة لاتينية دارجة أو رومانسية وهذا - في رأينا - هو الباعث على وجود الخرجات الأعجمية في بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغاني الرومانسية الأعجمية. ومما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسمطات العباسية التي ظهرت منذ القرن الثاني الهجري على لسان أبي نواس وأضرابه يلاحظ توا أن المسمطات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان في الموشحة وكل دور - مثل الغصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر تتفق في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وهو يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في كل دور من أدوار المسمط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسمط فهو القطب الذي يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركز أو القفل في الموشحة، وكل ما بينها من فروق أن الشطر في نهاية أدوار المسمط واحد بينما هو في مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان في الموشحات الأولى شطرا واحداً. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشكلة الشديدة بين الموشحة والمسمط كما يتبين من الاسم الذي اختاروه لها اشتقاقاً من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسمط من السمط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقى جميعاً عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور في المسمط مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أي الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذي يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالف بينها ويُعطف أحدهما على صاحبه. وهي تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القبري وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجعل اللفظ العامي أو العجمي مركزاً أو كما سُمي فيما بعد قفلاً ويضع عليه أشطاراً، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطرا واحداً بالضبط كما كان في المسمط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر أشطار الأشعار،

وكان أكثرها على الأعراب الممهلة غير المستعملة، وهي الأعراب التي أشار إليها الخليل بن أحمد في دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التباديل والتوافيق الرياضية<sup>(١)</sup> بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهملة لم يستخدمها العرب، وكأن الوشاح الأول في الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعراب مقام ابن السميذع ورزين العروضي وأبي العتاهية في بغداد، ممن عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعراب الممهلة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأول الذي ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادي الكندي المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطورا مهما يقول ابن بسام في نفس النص السابق: «فكان أول من أكثر في الموشحة من التضمين في المراكز» يريد أنه أول من أحدث في الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور في المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعة. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء الساء الخزرجي، الأنصاري المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطورا جديداً هو تضمينه مواقع الوقف في الأغصان أو بعبارة أخرى دقة التجزئة في أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التي حملتها العصور التالية، وصور ذلك ابن بسام قائلا: «كانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء الساء منادها، وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه». وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للرمادي بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي احتفظ لعبادة بن ماء الساء بموشحتين تتقابل فيهما أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء في كل غصن تقابلا دقيقا على نحو ما نرى صنيعة في هذا الغصن متغزلا<sup>(٢)</sup>

لَيْلِيَّةُ الذَوَائِبِ	وَوَجَّهَهَا نَهَارُ <sup>(٣)</sup>
مَصْقُولَةُ التَّرَائِبِ	وَرَشَفُهَا عُقَارُ <sup>(٤)</sup>
أَصْدَاغُهَا عَقَارِبُ	وَالْحَدُّ جُلْنَارُ <sup>(٥)</sup>

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها في القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليدا ثابتا في الموشحات بعده. والوزن في هذا

(٣) الذوائب = الضفائر.

(٤) العقار = الخمر.

(٥) جلنار: زهر الرمان.

(١) راجع في ذلك ترجمة الخليل في كتابنا المدارس

النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.

(٢) راجع الموشحة في الفوات ١/٤٢٨.

الغصن والأغصان بعده مستفعلن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى  
 التي أنشدها ابن شاعر من وزن الرمل أقفاها وغصونها، ومطلعها:  
 مَنْ وَلِيَّ فِي أَمَةٍ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يَعْزَلْ  
 إِلَّا لِحَاظَ الرَّشَاءِ الْأَكْحَلِ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تُنظَّمُ إما على أعاريض الشعر العربي المستعملة  
 وإما على أعاريضه المهملة، وموشحاته تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب في  
 الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال  
 والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بغصن ويسمى - حينئذ -  
 أقرع، وقد يتألف القفل من جزئين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الغصن.  
 ويسمى القفل الأخير باسم المخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا،  
 ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قربا شديدا من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزاز  
 محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن  
 ذى النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لبون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان  
 هو والقزاز فرسي رهان في العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر  
 كما كان يجيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح في المعتمد بن عباد أمير إشبيلية  
 وأبنائه، وهو يستهلها دائما بغزل رقيق من مثل قوله في موشحة مدح<sup>(١)</sup> بها المعتمد:

يَفْتَرُّ عَنِ لَوْلُوِّ فِي نَسَقٍ      مِنْ الْأَقَاحِ      بِنَسِيمِهِ      الْعَبِيقِ  
 هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِرَشْفِ الْقَبْلِ  
 هِيَهَاتَ مِنْ نَيْلِ ذَاكَ الْأَمْلِ  
 كَمْ دُونَهُ مِنْ سُيُوفِ الْمُقْلِ  
 سُلَّتْ بِلِحْظِ وَقَاكِ خَجَلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستفعلن فعِلن مُستعلن. والثاني على  
 زنة: مُتفعلاتُ والثالث على زنة: متفاعِلن. والرابع على زنة فعِلن. واجتماع هذه التفاعيل  
 تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهملة، أما الغصن

(١) انظر الموشحة في دار الطراز ص ٥٤ وفي

فيطرد على زنة: مستفعلن فاعلن مستفعلن، وهو وزن عربي مستعمل بكثرة ونقص وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة في موشحاته مرارا لعدويته.

وتتسع موجة الوشاحين في عصر المرابطين، ومن أهمهم في عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلي المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِيَّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخسه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلي يقل عنه براعة، غير أن له ديوانا كبيرا مما جعلنا نخصه بترجمة بين الشعراء، ويكفي لبيان مهارته في صنع الموشحات ما يروى من أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم في مجلس بإشبيلية بينهم يحيى بن بَقِيَّ والأعمى التطيلي، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

ضاحكٌ عن جُمانٍ سافرٌ عن بَدرٍ  
ضاقٌ عنه الزمانُ وحَواه صَدْرِي

مَرَّق ابن بَقِيَّ موشحته وتبعه الباقر<sup>(١)</sup> لما فجاهم به التطيلي في موشحته من عدوية في اللفظ وروعة في التصوير، والقفل السالف مكون من أربعة أجزاء، والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فَعْلَن، وتمضى جميع الأقفال بهذه الزنة بينما تمضى الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله في الغصن الأول:

آهٍ مما أَجِدُ شَفْنِي ما أَجِدُ  
قام بي وَقَعْدُ باطنٌ مَتَّيْدُ

وكان التطيلي تعمد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهملة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الغصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أقفالا وأغصانا من وزن عربي مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة في موشحات التطيلي الملحقة بديوانه كقوله في موشحة نظمها من الوزن الأخير:

حُتُّ الكَتُّوسَ رَوِيَّةٌ على رُوائِ البساتينِ من قهوةٍ بابليَّةِ  
أرقُّ من دَمَعٍ محزونِ

خلعتُ عِزِّي وديني في أهيف القَدِّ لَدْنِه

يَسْطُو بِسَيْفِ الْمُنُونِ مَا جَفَنَهُ غَيْرَ جَفْنِهِ  
يَا قَسْوَةَ الْحَبِّ لِيَنِي وَلَوْ بِرُمَّانِ غُضَّتْهُ

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا عل وزن المجث: مستفعلن فاعلاتن. وعاصر التطيلي من الوشاحين النابيين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره في الفصل الماضي وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشحا في مديح ابن تيفلويت المرابطي الوالي على شرقي الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه وألقاه على قينة، فلما غنت ابن تيفلويت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشی ابن باجة في طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين في عصر المرابطين الأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري وأبو بكر بن رُحيم ويحيى بن الصيرفي المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشح بناه من مخلع البسيط مستخرجا دائما الجزء الثاني من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة في الجزء الأول على هذا النمط<sup>(١)</sup>:

يَا رَبَّةَ الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ مِيلِي  
رَأَيْتَ فِي وَجْهِكَ السَّعِيدِ عَيْدِي

وتظل الموشحات مزدهرة في عصر الموحدين (٥٤٠ - ٦٣٤ هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة كما يتضح في موشح له بديع<sup>(٢)</sup> مستخرجا الجزء الثاني من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله في مطلعته:

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَالسُّعُودِ بِاللَّهِ عُودِي

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثاني مستفعلان، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المريفي وفي المغرب له موشحة<sup>(٣)</sup> بارعة. وسابق الحلبة - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنخصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرسي في إحدى موشحاته:

(٣) المغرب ٢/٢١٨.

(١) المغرب ٢/١٤٧.

(٢) المغرب ٢/٢١٥.

## ورداء الأصيل تطويه كف الظلام

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء<sup>(١)</sup>؟ وهي صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحِلُّ الدَّجَى يَجْرِي      مِنْ مُقَلَّةِ الفَجْرِ      عَلَى الصَّبَاحِ  
وَمِعْصَمُ النِّهْرِ      فِي حُلَلِ خُضْرٍ      مِنْ البِطَاحِ

طرب لهذا القفل منها طربا شديدا<sup>(٢)</sup> لعدوية ألفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حينئذ على بن حزمون الهجاء، وله موشحة<sup>(٣)</sup> بديعة يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة ببلنسية، وقد استشهد في الدفاع عنها في إحدى معاركه المحتدمة مع النصارى وسنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرناء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلي المتوفى سنة ٦٢٧، وله في إحدى موشحاته<sup>(٤)</sup>:

وَأُفْرِدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا      وَبِتُّ عَلَى جَمْرَاتِ الغَضَا  
أَعَاتِقُ بالفِكرِ تِلْكَ الطُّلُولُ      وَالتُّمُّ بِالوَهْمِ تِلْكَ الرِّسُومُ

وأغصان الموشحة وأقفاها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتفضى الأندلس بعد الموحدین إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى في حجر النصارى، وقلما يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا في عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وأشهر موشحاته<sup>(٥)</sup>:

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى      قَلْبَ صَبِّ حَلِّهِ عَنِ مَكْنَسِ  
فَهَوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقَ مِثْلَهَا      لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

وقد صاغه أقبالا وأغصانا من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل المتصوفة على صنع الموشحات ويهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربي والششتري. وولتقى في غرناطة بابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة

يستوقد بخشبه.

(١) المقتطف ص ٢٦٠.

(٥) ديوان ابن سهل الإشبيلي (طبع بيروت)

(٢) المقتطف ص ٢٥٨ وما بعدها.

ص ٢٨٣ ومكنس الطبي: مأواه في الشجر ليستتر

(٣) المغرب ٢١٧/٢.

به. القبس: شعلة النار.

(٤) المغرب ٢٨٩/٢ والغضا: من أشجار نجد.

مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتتحا لها بقوله<sup>(١)</sup>:

جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمِي يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ  
لم يكن وصلُك إلا حُلماً في الكرى أو خلسة المختلسِ

وكأنها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بما وعدنا من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القزاز وابن بقي وابن زهر.

### ابن عبادة<sup>(٢)</sup> القزاز

هو أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، ترجم له ابن سعيد في المغرب وقال إنه من حصن بلور من إقليم غرناطة وظنه ابن خاتمة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبداً لآل صمادح وفي أرضهم أصلى وعيشى ومولدى  
لما كان لى إلا إليهم ترحل وفي ظلهم أسمى وأضحى وأغتندى

وكان يلتم بالمعتمد بن عباد وله أيضا فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: «من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذكر اسمه وحُفظ نظمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصع تاجه، وكلامه نازل في المديح، أما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف». وربما قسا ابن بسام عليه في حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه في زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات في كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلي ويحيى بن بقي من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلى يتكون قفله من ستة أجزاء بينما يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفى منه بغصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه

٢٥٢/٢ والذخيرة/١-٨٠١ وما بعدها والخريدة  
(طبعة تونس) ١٨٢/٢ ودار الطراز لابن سناء  
الملك: الموشحات أرقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣

(١) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة  
والنشر) ٢١٣/٢ وهى: سقط مدرارا.  
(٢) انظر في ابن عبادة القزاز القلائد للفتح بن  
خاقان: ١٤ والمغرب ١٣٤/٢ وأزهار الرياض



قال: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بَدْرَتِيْمُ شَمْسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمِّ  
 مَا أْتَمُّ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا مَا أَنْمُ  
 لَا جَرْمٌ مِنْ لَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حُرِّمُ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تُحَدِّد، رشاقة كأنما تطير بها في خفة فتحدث عَبَقًا، وهو عبق مصدره الدقة في انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هي مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء في كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فعروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، وقدم القزاز في الجزئين الأولين فاعلن على مستفعلن. ويمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداها من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مرُّ بنا في قفل موشحتين للتطيلي وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجري على الأعراب الممهلة غير المستعملة فظن «رييرا» ومن تبعه خطأ بأنه يقصد أعراب أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعراب الممهلة غير المستعملة عند العرب التي نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع في دوائر العروض الخمس من تفاعيل أدارها فيها مقدِّمًا ومؤخرًا في أسبابها وأوتادها ومستخدما إشارات من النقط والحركات تصور ما يحدث في التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعراب أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلًا أن يستخدم من أوزان جديدة أهملها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئًا. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعراب مهملة وكيفية استحداث تلك الأعراب معروفة للأندلسيين منذ بدأوا في نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبري الوشاح الأول أثبتتها مفصلة في كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التي أنشدناها والتي أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجابا شديدا أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية في وصف عَرْضٍ لأسطول المعتصم في البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التي رأيناها في الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول في أحد الأغصان:

وجارياتٍ تجولُ مثلَ الجيادِ السابقة  
 إنشَاءً مَنْ فِي الْمُحَوَّلِ يُنْشِئُ السَّحَابَ الْوَادِقَةَ<sup>(١)</sup>

(١) المحول: الجذب. الوادقة: المطرة. وهو يشيد بجود المعتصم وقد أشاد طويلا ببسالته الحربية.

سَمَتْ عَلَى النّجْم طَوْلٌ مِنْهَا فِرْعُوعٌ بِاسِقِهِ (١)

والموشحة تُرَدُّ إلى بحر الرجز وزحافاتِه. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلاسة والانسباب بين مديح المعتصم بن صاهد والمعتد بن عباد، وفي أحد أقفالها يقول فيهما:

بَحْرًا نَعْمَ لِمَنْ وَرَدَّ ظَمَانٌ سِيفًا نَقَمَ لِمَنْ مَرَدَّ (٢) أَوْحَانُ

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نهج ابن عبادة القزاز وأنه كان يعنى بتقصير أجزاء القفل والغصن حتى يتيح لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكتفى بذلك بل يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعبق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى (٣) بن بقى

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبي القيسى المشهور باسم ابن بقى نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح في القلائد، فقال عنه: «هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصيه طائعه، إذا نظم أزرى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقْم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد سهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلب دهر كواهى الجمان» وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَعَلَّتْ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فَأَعْجَزْنِي نَيْلُ الرِّغَائِبِ حَتَّى أُبْتُ بِالنَّدَمِ

ولم يلبث أن فُتِحَ له باب كبير هو باب بنى عَشْرَةَ قِضَاةٍ سَلَا بِالْقَرْبِ مِنَ الرِّبَاطِ

ومعجم السلفى ٥٠ وانفردة (طبع تونس) ٢٣٦/٢ ونفح الطيب في الجزئين الثالث والرابع (انظر الفهرس) وأزهار الرياض ٢٠٨/٢ ودار الطراز أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣ وله موشحة في المغرب وثانية في معجم الأدباء وافتتح ابن الخطيب كتابه «جيش التوشيح» بطائفة من موشحاته.

(١) باسقة: عالية. يقصد الصوارى وما يرفع عليها ويمتد من القلاع.

(٢) مرد: عتا وجاوز الحد.

(٣) انظر في يحيى بن بقى القلائد ٢٧٩ والذخيرة ٦١٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢٠ والتكملة رقم ٢٠٤٢ وابن خلكان ٢٠٢/٦ والمغرب ١٩/٢ والإحاطة ٤١٨/٤ والمقتطف ص ٢٥٦ وما بعدها

الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحارا فياضة في الجود فغمروه بجودهم وخاصة يحيى بن علي بن القاسم وأخاه أحمد قاضي سلا، فمكث في رحابها طويلا، وأضفى عليها من شعره وموشحاته دُررا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التي مدح بها القاضي أحمد، والتي قال في خرجتها أو خاتمها أبو بكر بن زهر: ما حسدت وشاحا على قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالی لا يلحقُ  
أطلعه المغربُ فأرنا مثله يا مشرقُ

وهو لم يحسده في رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضا على روعة تصويره في الفقرة الثانية إذ جعل القاضي أحمد كوكبا بيزغ في المغرب ولا مثيل له في المشرق. ويتضح إبداعه في تصويره إذ يقول في أحد أغصان هذا الموشح متغزلا بصاحبته:

عطا بليتَيْهِ ومراً كالظبيِّ لبيده<sup>(١)</sup>  
فدلُّ عليه تكسّر الحليِّ بجيده  
تفتيرُ عينَيْهِ يُسرِع في برى عميده

وهو يجعلها كأنها ظبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق في الشجر مصورا بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحا أو كاللمح إذ مرّت سريعا إلى منزلها، ويصوره كأنه بيداء فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الأطباء بل هي من النساء إذ سمع صوت الحلي بجيدها. ويقول إن تفتير عينيهما الجميلتين يسرع في ضنا محبوبها، ولا يزال يأمل من البيد والفلوات ردها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقي لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد في كتابه «رايات المبرزين» والمقرى في أزهار الرياض ومع ذلك نجدها في ديوان التظليل خطأ<sup>(٢)</sup> كما نجد أختا لها في ديوانه أيضا وهي في مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقي الذي تقياً ظلالة.

(٢) انظر ديوان التظليل ص ٢٧٠ وقارن برايات المبرزين ص ٧٩ وأزهار الرياض ٢٠٩/٢.

(١) الليث: صفحة الجيد وجعلها تعطو بها وتمدها، كناية عن طولها.

وينص ابن سناء الملك في مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه<sup>(١)</sup> وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صبرتُ والصَّبْرُ شِيْمَةٌ العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني  
لما جنى الوَرْدُ مِلءَ كَفِّيهِ تشوّفتُ وردتان إليه  
فحلّنا في رياض خَدْيِهِ

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: «معذبي كفاني» لأن وزنه مستفعلن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعدوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد في حدود صاحبه تنقلنا إلى عالم شعري حالم مكتظ بروى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

ياوَيْحَ صَبٌّ إلى البِرِّقِ له نَظْرُ وفي البكاءِ مع الوُرُقِ له وَطْرُ

من وزن البسيط أفعالا وأغصانا، وهو يضم في الوزن الجزئين الأولين والتالين بعضها إلى بعض، ويقول من موشحة:

إن لم يكن إليك سبيلُ فالصَّبْرُ بالجميل جميلُ

والوزن في أفعالها وأغصانها مستفعلن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة في كثير من أغصان ابن بقي وخرجاته كقوله في موشحة من وزن الرجز:

ليلٌ طويلٌ ولا مُعِينٌ يا قلبَ بعضِ الناسِ أما تَلِينُ

وقوله في خرجة موشحة ثانية مستخدما لغة عامية كأنما تفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيرا بعيدا:

اختلطت بموشحات التظليل وخاصة في كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ في نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التظليل وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حقيقه مع إشارته إلى ذلك!

(١) راجع ديوان التظليل ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضا ابن سعيد في المغرب ٢٥/٢ الموشحة: ما الشوق إلا زناد إلى ابن بقي وقد أضيفت إلى التظليل في ديوانه ص ٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقي

سَافِرٌ حَبِيبِي سَحَرٌ وَمَا وَدَّعْتُو يَا وَحْشَ قَلْبِي فِي اللَّيْلِ إِذَا افْتَكْرْتُو

وكلمة وحش حذف منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحياناً إذ تصبح مستفعلاتين. وهذه الألفاظ الغزلة المفرطة في السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقي من صور بديعة طارت شهرته في عصره وبعد عصره، وقد لبى نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبو بكر<sup>(١)</sup> بن زُهر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سليل أسرة طبية الممنها بها بين الأطباء في الفصل الماضي، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة في عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخارى أسانيد وامتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحُدث بمقامات الحريري عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بمكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وتوفي في آخر سنة ٥٩٥ وصلى عليه السلطان الناصر بن يعقوب ودفن بروضه الأمراء في مراكش. ويقول صاحب المطرب إن الذى انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار في المغرب والمشرق موشحه:

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ  
وَنَدِيمِ هِمَّتُ فِي غُرَّتِهِ  
وَسَقَانِي الرَّاحَ مِنْ رَاحَتِهِ  
كَلِمَا اسْتَبْقِظَ مِنْ سَكْرَتِهِ  
جَذَبَ الزُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ

لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والوفاي للصفدى  
٢٩/٤ وراجع في موشحاته المغرب ومعجم الأدباء  
وابن أبي أصيبعة وتوشيح التوشيح للصفدى (انظر  
الفهرس) وبالمثل جيش التوشيح لابن الخطيب.

(١) انظر في أبي بكر بن زهر التكملة رقم ٨٥٥  
والمغرب ٢٧١/١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣  
وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبي أصيبعة  
ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ٢٥٦/١٨ وزاد المسافر

والموشحة من وزن الرمل، وهى تسيل خفة ورقة وعدوبة ورشاقة فى نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذاً بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحة هذا الغصن وقفه:

هل تستعاد	أيامنا بالخليج	أو ليالينا
إذ يُستفاد	من النسيم الأريج	مِسْكُ دارينا <sup>(١)</sup>
وإذ يكاد	حُسْنُ المكان البهيج	أن يحيينا
نهرٌ أظله	دَوْحٌ عليه أنيق	مورقُ فينان <sup>(٢)</sup>
والماء يجرى	وعائتم وغريق	من جنأ الریحان

والغصن والقفل جميعاً يزخران بشجى يثير فى القلب حيننا بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام والليالى ولا ما كان فى حدائقها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شىء فيها كان يلقاهام بالتحيات والبسات، وماء نهر إشبيلية يجرى من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظللهم، والرياحين والزهر بين سايح وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو موله مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما انتزع منه انتزاعاً. وزنة الجزء الأول فى القفل والغصن مستفعلاتن، وزنة الجزء الثانى مستفعلن فاعلان، وزنة الجزء الثالث فى القفل فاعلان وفى الغصن فعّعلن، وبذلك يُردّ وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى دائماً وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة، وهذه التغيرات فى تفاعيل هذه الموشحة وما مائلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجرى أحياناً على أعاريض مهملة أى من أعاريض الشعر العربى كما أسلفنا مراراً لا من أعاريض الشعر الأعجمى الوهمية، كما ظن «ريبيرا» وتلاميذه. ولابن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قلبي من الحب غير صاح	صاح
وإن لحانى على الملاح	لاح
وإن درى قصتى وشانى	شانى

والجزء الأول فى الغصن والقفل من مخرج البسيط، والجزء الثانى على زنة فعّعلن تفعيلة

(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

(١) دارين: قرية كانت على الخليج العربى ينسب إليها المسك والطيب.

المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللائم،  
 وشانى الأولى: مخففة من شأنى والثانية: المبغض. واستمر ابن زهر فى هذه الموشحة  
 يستخرج الجزء الثانى من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارئه  
 ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعرى. وكان كثيرا ما يفجأ قارئه بصور طريفة  
 كقوله فى الموشحة التى أنشدها له ياقوت فى معجم الأدباء:

طرقت والليل ممدودُ الجناحُ مرحبًا بالشمسِ من غير صباح

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبتة فأضاءت فى هذا الليل كأنها  
 شمس تطلع دون صباح مما يلقي فى نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالا  
 وغصونا من وزن الرمل، وأنشد له ابن دحية فى المطرب موشحة من وزن المتقارب  
 افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظِلَامَ الشُّعُورِ عَلَى أَوْجِهِ كَالْبُدُورِ  
 سَفَرْنَ فَلَاحَ الصَّبَاحِ  
 ضَحِكْنَ ابْتِسَامَ الْأَقَاحِ  
 كَانَ الذِّى فِي النُّحُورِ تَحْيِرْنَ مِنْهُ الشُّعُورُ

والصور طريفة إذ يجمع فى غزله والإعجاب بجمال صواحيبه ظلام الشعور وبدور  
 أو أقمار الوجوه ويضيف أنهم سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح،  
 وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذى طالما شبه به الشعراء الثغور  
 لنصاعة بياضه. ويفجؤنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ يتنقل بصره بين ثغورهن وعقود  
 اللآلى التى تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تحيرون ثغورهن من تلك اللآلى البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقی وابن عبادة القزاز  
 وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين توج بالنغم، وحقا خالفوا بين قوافى الأقفال وقوافى  
 الأغصان، ولكن الأقفال تتجد قوافيها فى كل موشحة كما تتحد قوافى الأجزاء فى كل  
 غصن. فالقافية لم تهمل فى الموشحة إنما تنوعت فى الأغصان، وظلت موحدة فى أجزاء  
 الأقفال، وكان حريا أن يسقط بذلك شىء من وفرة الأنغام المعروفة فى القصيدة العربية  
 غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أرقى الألفاظ العربية وأكثرها عذوبة  
 وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قصرُوا الشطور فى أجزاء الأقفال والأغصان،  
 حتى أصبحت أنغام أى موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وفرة، بل إنها لتتفوق عليها فى

كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسحاب، حتى لتصبح روائعها وكأنها يم من الأنغام تفرق الأذن في خضمه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وُضعت في نشأتها - وظلت توضع أحيانا - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانسية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام : إن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربي المهملة التي حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فظنوا في دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك في موشحاتهم أحيانا بزيادة سبب في بعض التفاعيل أو نقصه مع اطراد ذلك في الموشحة، بحيث تدخل بدقة في أعاريض الشعر العربي وإيقاعه، فضلا عن أن كثيرا منها - إن لم تكن كثرتها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربي وأوزانه المستعملة من قديم.

## (ب) الأزجال

الأزجال جمع زجل<sup>(١)</sup>، وهو في اللغة التطريب، وقد سمي به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقابل للموشحة. وفي اسمه الذي اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغنى به في الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالى الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك في بعض أزجاله<sup>(٢)</sup>، وتلتقى بعده بابن عبد الرؤوف ورسالته في الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغي أن يمنع الذين يمشون في الأسواق بالأزجال إلا أن تكون نفيرا للجهاد أو تهليلا لحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز<sup>(٣)</sup>. وحين رأى المستشرق الإسباني «ريبيرا» أن صورتها لا تختلف في شيء عن صورة الموشحة من حيث الأفعال والأغصان قرنها بها في نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجري قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شعري شعبي تترج فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذًا صورتين هما

وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ في ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرؤوف في

ثلاث رسائل نشر بروقنسال.

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني (نشر معهد الدراسات العربية العالية في الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢



الموشحة الفصيحة والزجل السوقي الدارج<sup>(١)</sup>، ويسط غرسية غوميس فكرته قائلا إنه «قدّم براهين جلية على وجود لغة رومانسية كان يتكلمها أهل الأندلس وهى اللغة التى كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله.. وكانت اللغة الداريجة الجارية على الألسن فى قرطبة»<sup>(٢)</sup>. والشعبتان جميعا كما يراها ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقيني، أما أنه كانت تشيع فى الأندلس لغة دارجة رومانسية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقضها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانسية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعا فتحت لها وتناشدها الناس فيها، وأكبوا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب<sup>(٣)</sup>. ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثا ولا دراسة، وأن أول من بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئا من تاريخها وخصائصها العروضية واللغوية ببغدادى هو صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فى كتابه «العاطل الحالى والمرخص الغالى» ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانسية أو لاتينية كانت دارجة فى الأندلس ما استطاع فهمها ولا درّسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ فى كتابه السالف، الذى لا أبالغ إذا قلت إن أحدا لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يبين دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعا فى المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية دارجة أو رومانسية، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانسية بحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها فى لغات الشعوب التى فتحها العرب والتى استحدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعا - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى «ريبيرا»، وهى أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى فى حاجة أيضا إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أى شىء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجرى، مما ينعنا علميا أن تنسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلا عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان

ص ١٨٦.

(١) انظر بالنشأ ص ١٤٢.

(٢) المقتطف ص ٢٦٣.

(٣) دراسات أندلسية للدكتور الطاهر مكى

المتوفى في منتصف القرن السادس يحدثنا في مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا في زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهي أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاصيل بالألفاظ العربية المجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساساً للزجل أخطئ بن ثماره وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسلة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائياً قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن ثماره تفاصيله ببعض الألفاظ التي لا تجرى في العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حُلَاهَا، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه<sup>(١)</sup>. ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: «لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقتة بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فنا سموه بالزجل»<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ذلك أن تصور «رييرا» ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكراً مع الموشحة وأنه نُظِمَ بلغة رومانسية دارجة كانت تشيع على ألسنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نُظِمَ بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانسية، ونُظِمَ محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت في عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخصص ابن قزمان بكلمة. وينبغي أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمر ووصف الطبيعة والإعجاب بجبالها الفاتن والمديح والهجاء والرثاء وجميع أغراض الشعر العربي، وكان كثير منه يُنشد في الحث على جهاد النصارى وفي المناسبات الدينية. وأكبر زجال في الجيل التالي لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مَدَغْلِيس<sup>(٣)</sup>، وهو من أهل المريّة، وله أزجال كثيرة في مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد إن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرئ في نفع

(١) المقتطف ص ٢٦٣.

(٢) انظر في مدغليس المغرب ٢١٤/١ وتعلقنا

على ترجمته في الهامش.

(٣) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. على

عبد الواحد وافي) ص ١٣٥٠.

الطيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومدغليس بمنزلة أبي تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان (يريد أنها كانا ينظمان الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه<sup>(١)</sup> وكان ديوانه يُروى في المشرق وحصل صفى الدين الحلى على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قزمان أكثر ملاحظاته على عروض الزجل الأندلسي وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وذكر له قطعاً من أزجاله وأروعها الزجل الذي أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول:<sup>(٢)</sup>

ثلاث أشيا فإلبساتين	لَسْ تُجَدُّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
النسيم والخضرة والطير	شِمٌّ وَأَنْزِرَةٌ وَإِسْمَعٌ
ورذاذاً دقٌّ ينزل	وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفيض	وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر	والقصون ترقص وتطرب

ويشيد في نهاية الزجل بغناء أم الحسن. والزجل مفعم بالسلاسة والعدوبة والتصاوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنما تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحينه. ومع أن مدغليس لم يوحد القوافي بين الأجزاء الأولى المتقابلة في قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادهما في الأجزاء الثانية أسوة بابن قزمان في بعض أزجاله يموج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتع النفس لدقته في اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه في انتخابها حتى لكأننا نستمتع فيها إلى لحن موسيقى. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد العامية التي أسلفنا الحديث عنها، وكأنما رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياساً على الموشحة صاغ القصائد العامية قياساً على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مر بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبو الحسن علي بن محمد الشاطبي، وقد أنشد له صاحب العاقل الحالى قطعة من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفاً حال العدو:<sup>(٣)</sup>

(٣) انظر العاقل الحالى ص ٣٤ و ٨٠.

(١) النفع ٣/٣٨٥.

(٢) المغرب ٢/٢٢٠.

كَلِمَارًا السِّیُوفُ إِلَیْهِ تَنْجَرِدُ      صَاحٌ وَیَشْكُو وَثَمَّ لَمْ یَرْتَفِدْ<sup>(١)</sup>  
یَنْبِیحُ الْكَلْبُ إِذْ یَرَى الْأَسَدَ      وَالْأَسَدُ لَسٌ یَهْزُو ذَاكَ النَّبَاحَ

وَرَجَاعَتْ عَلَیْهِ جُنُودٌ وَوِبَالٌ      وَمَالَ النَّحْسِ مَا عَوْ كَفَّ مَا مَالَ  
لَمْ تَنْجِیْهِ وَصِیَّةُ الْكُرْدِ نَالٌ      وَلَ فَادَتْ نَصِیْحَةُ النَّصَاحِ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد في المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجلية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقي، ومنهم زجالو إشبيلية: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله بن خابط وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن<sup>(٢)</sup> ناجية اللورقي. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجالي القرن السابع أمثال البُلَّارِجِ القرموني ويحيى بن عبد الله بن البجضة. وترجم لابن الدباغ<sup>(٣)</sup> المذكور آنفاً وقال إنه لقيه بمالقة وأنه إمام في الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشحة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاج عصر الموحدين لولا ما أتيح له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششتري المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاقل من زجل قوله<sup>(٤)</sup>:

يَا حَبِيبُ قَلْبِي تَعَطَّفُ      بَعْضُ هَذَا الْهَجْرِ يَكْفَا  
فَدَمُوعٌ عَيْنِي مَا تَرَقَّا      وَهَيْبٌ قَلْبِي مَا يَطْفَا

والزجل من وزن الرمل، ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس في المغرب ونظم لهم نوعاً من الشعر الملحون في أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض<sup>(٥)</sup> البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين في عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام في الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلاً لمدغليس استهله بقوله:

حَلَّ الْمَجُونُ يَا أَهْلَ الشُّطَارَا      مَذْ حَلَّتِ الشَّمْسُ بِالْحَمَلِ

وجدير بنا أن نقف قليلاً عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسي وتحدث عن بعض أزجاله.

(١) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بمدد من قومه.

(٢) انظر في هؤلاء الزجالين فهرس المغرب.

(٣) المغرب ٤٣٨/١.

(٤) العاقل الحالي ص ٥٦.

(٥) المقدمة ص ١٣٥٧.

ابن قزمان<sup>(١)</sup>

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش في عصر المرابطين إلى أن توفي بعده سنة ٥٥٥ للهجرة في صدر دولة الموحديين (٥٤٠ - ٦٤٠ هـ) وفي المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزالوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه في قرطبة نشأة علمية أدبية، وهي نشأة أهلته ليكون أديباً وكاتب وناثق كما يكون شاعراً ووشاحاً<sup>(٢)</sup>، أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات في كتابه تحفة القادم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة في مديح يحيى بن غانية والى غربى الأندلس من قبل على بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص في مجلس شراب، فأطفاً فيه السراج بأكامه. ولعل في ذلك ما يدل على أنه اتجه مبكراً للمتاع بالخمر واللهو. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاقل الحالى موشحة غزلية غزلاً مادياً صريحاً<sup>(٣)</sup>. وفي المغرب أنه «كان في أول شأنه مشتغلاً بالنظم العرب (شعراً وتوشيحاً) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس». وقد طارت شهرته في الزجل لا بقرطبة وحدها، بل في كل مدن الأندلس، وأيضاً في المغرب والمشرق، حتى لتحتفظ العصور بمخطوطة من ديوانه كتبها نسّاخ بمدينة صنف في فلسطين قبل سنة ٦٨٣ هـ/١٢٣٤ م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصورة في لوحات، وعُنى في سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكي «نيكل» بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة في مدرسة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ في رأينا خطأ كبيراً حين حاول أن يطبق على أوزاله أعاريض الشعر الغربي القائمة على النبر والمقاطع كأوزان الشعر الإسباني بحجة أن الزجل نظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهي حجة لا دليل

(١) انظر في ابن قزمان المغرب ١٠٠/١ و١٦٧

(٢) راجع الزجل السابع في الديوان.

(٣) العاقل الحالى ص ٨٢.

وما بعدها وتحفة القادم لابن الأبار في مجلة المشرق

عدد ٣ سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٣٧٥ والإحاطة

٤٩٤/٢ والعاقل الحالى لصفى الدين الحلى (انظر

عليها أى دليل، بل كل شىء ينقضها نقضاً فقد صبغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهى لذلك تلتقى بها فى أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا فى تحليلنا العروضى لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك فى الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربى ودوائر الخليل التى أثبتتها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وتأتى فى قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعاً لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها فى صدف قديماً أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفى الدين الحلى أن يدرسها فى كتابه العاقل الحالى، وهى على أعاريض الأشعار الأوربية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونفس صفى الدين يشهد فى كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة أوزان العرب<sup>(١)</sup>. ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوربى؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم - مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين. والديوان - بدون ريب - كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غنية عن سواه لأنه ديوان إمام الزجالين فى الأندلس غير مدافع، ويترأى لنا فيه ابن قزمان ماجناً عاكفاً على اللذات من الخمر والنساء والغلمان لا يرعوى ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مراراً مجاهراً به فى غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحياناً إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضى يأمر بسجنه، ويستغيث بالقائد المرابطى محمد بن سير فيرد إليه حرته. وطبيعى لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المسرفة فى المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله فى أزجاله مداحاً كبيراً للأمراء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدى العطاء فى إلحاح. وهو يهبط فى هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذى يسكنه مصوراً فى تضاعيف ذلك بؤسه وحرمانه وما هو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب ننكره عنده كما ننكر إسرافه فى اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحننا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجال الفنان الكبير الذى أعطى للزجل صورته العامية

الأقفال والأغصان من غير أن يخسروا فى الميزان.

(١) العاقل الحالى ص ٢٢ ويؤكد صفى الدين ذلك قائلاً إنهم خالفوا أحياناً بين الأوزان فى

التامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يخلب الألباب بخفته ورشاقتة من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ في الديوان:

لأنسيتِ إذ زارني جيبِي وإنجلي همي وزاد كَرْبِي قَلْتُ لُهُ وَقَتًا أَخَذَ قَلْبِي  
قَالَ مَتَى تَجِينِ قُلْ غَدَا وَغَدَا لِلنَّاطِرِينَ قَرِيبٌ

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف في جزئي القفل. والجزء الثاني في الغصن: «وإنجلي همي وزاد كربِي» يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فحين زال هم زاد كربيه، وهي صيغة لا يقوؤها إلا من شفه العشق. ويقتطف صفي الدين الحلي هذا المطلع من أحد أزجاله<sup>(١)</sup>:

قالوا عني بأنني فيك عاشق  
يا حبيبي لقيت كثير في الناس  
هذا شئ والنبي يانور عيني  
ول بالله خطر على بالي  
إيش تَقْلُ يَصْدُقُوا  
بالصواب يَنْطِقُوا  
ما تَحَدَّثت بِهِ  
لا ولا خُضْتُ فِيهِ

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستفعلن فعَلن. والفقرة رقيقة رقة شديدة، مع غير قليل من الرفق والعطف والحب الذي يكظمه في نفسه ويشيع - دون إرادته - من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد في المغرب طائفة من أزجاله الماجنة، وتخللها أحيانا قطع أو فقر بديعة في وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

الربيع ينشرَ غلامٌ مثل سلطاناً مؤيدٌ  
والثمار تنشر حليّه بشابٍ يحل زرجدٌ  
والرياض تلبس غللا من نبات فحل زمردٌ  
والبهار مع البنفسج يا جمال ابيض في أزرق

واستمر يذكر الندى يترقرق على الغصون وأزهار الخيري والآس، والماء يجري، والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانسية فإنها جاءت من العامية الأندلسية، وهي أشياء محدودة لا تُخرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانسية كما ظن «ريبيرا»

وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة في أزجاله صياغة عامية عربية هي عامية الأندلس على نحو ما يلاحظ فيما أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفى الدين الحلى أنه على الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية المجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفى الدين لذلك كله وما يماثله بشواهد كثيرة من أزجاله.<sup>(١)</sup> ولا نبالغ إذا قلنا إن أحدا لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قزمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفى الدين لها في كتاب العاطل الحالى، إذ لم يتصدَّ أحد لدراستها دراسة علمية خصبة قبله، وسيظل كتابه منجما لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيرا واسعا في الغرب، إذ على هديه ظهرت الطُّرُزُ الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالثنيا حديثا مفصلا عن مدى تأثيره في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأيضا بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضى بالثنيا في الحديث عن تأثير الزجل في الأغاني الإسبانية بطرازه الشعرى وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها في قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر في القرن الثالث عشر (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) الذى سباه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعائة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثائة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا في القرن الرابع عشر الميلادى الذى سباه: «الحب الطيب» ويقول بالثنيا إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

(١) انظر العاطل الحالى ص ٦٤ وما بعدها



## شعراء المديح

طبيعي أن يأخذ شعراء المديح في الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون في التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) كما مرّ بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش في عصره من الشعراء يدبج القصائد في مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس<sup>(١)</sup> بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وينوه ابن حيان بإبداعه في التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله في تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنبلونة في نبأه بأقصى الشمال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول<sup>(٢)</sup>:

مكرمين على الدنيا عزيزين	إن القُفولَ الذي أوفى بعيدين
قُدومُ فِطْرٍ فكانا خيرَ عيدين	قُدومُ أكرمٍ من في الأرض قاطبة
توردا في بياض بين صدغين <sup>(٣)</sup>	طابا كتفاحتى خدتي مُنعمَة
مكحولتين بسحر البابلين <sup>(٤)</sup>	أو مُقتنى رشيأ في طرفه حور

ونلتقى بعده بشعراء ابنه الأمير عبدالله وفي مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد<sup>(٥)</sup> الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيوتات الشرف في المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان في قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيدالله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لك:

(٤) البابلين: هاروت وماروت المشهوران بالسحر.

(٥) انظر في ابن إدريس الحميدى رقم ٥٨٢ وابن الفرضى رقم ٧٦٥ والضىي رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان في الجزء الخاص بعيد الرحمن الناصر أشعارا كثيرة (انظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعا حتى قالوا إنه كان يؤذن في مسجده وهو وزير.

(١) انظر في عباس بن فرناس المقتبس لأبي حيان (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزبيدي ص ٢٩١ والحميدى رقم ٣٧١ والمغرب ٣٣٣/١ وبغية المنتسب رقم ١٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين أشعار كثيرة في المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.

(٣) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

قد جاءك الفتحُ في العيد الكبير فما رأيتُ مثلها في اليومِ عيدين  
يا فرحةً من رأى في الغزو طالعتها وشاهدَ الفتح لم يأسف على البين  
اللذ في السمع من بشرى الحميم إذا وأفى ومن منظر المعشوق في العين

ومدح البيت الأموي الجدير بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذي أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة، كانت قرطبة فيها عاصمة الحضارة والثقافة في أوروبا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التي تفككت في عهد جده عبد الله، ودان حكام نباله وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومر بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء في زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعاً بها وفي مقدمتهم ابن عبدربه وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبيد الله بن يحيى بن إدريس وله يقول في مدحة ميمية: <sup>(١)</sup>

يَهْنَا الخِلافة سَعَى خَيْرِ إِمَامٍ      اللَّهُ مَسْعَاهُ وَإِلِسْلَامِ  
لِيُعَزَّ دِينَ اللَّهِ فِي كَنْفِ الْعُلَا      وَيَذَبُّ عَنِ حَرَمِ الْهَدَى وَيُحَامِي  
مَسْتَجِرًا وَعَدَ الْإِلَهَ بِنَصْرِهِ      فِي شِبَعَةِ الْإِشْرَاكِ وَالْإِجْرَامِ

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال في شهر رمضان وأدركه عيد الفطر في بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد - كما يقول ابن حيان - للقاء العدو ومزق جموعه تمزيقا. ولا بن إدريس يذكر زيادته في جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها: <sup>(٢)</sup>

سَيَسْهَدُ مَا شَيْدَتْ أَنْكَ لَمْ تَكُنْ      مُضِيْعًا وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا  
فِي الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالْتَقَى      وَبِالزَّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ لِلْمَلِكِ وَالْعَلِيَا

وقد استحال جامع قرطبة في عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائما يرفع شعراء الأندلس في مدائحهم لأمراء البيت الأموي الدين الحنيف شعارا لهم في غزواتهم للمسيحيين في الشمال، فهم يحامون ويصلون تحت لوائه دفاعا عنه وانتصارا له زُلْفَى لِرَبِيهِمْ. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب في الأندلس، بل في جميع العالم العربي، لعصره، غير أنه لم يكن داهية في السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية في تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويمده بالسلاح

والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمي، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبي العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه في تلك السياسة إذ ألقى بخيرة قواده وجنوده في الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعاف جبهته الشمالية في حروبه مع نصارى الإسبان. وفي هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن علي أمير الزاب وأخوه يحيى معلنين الانفصال عن معدّ الفاطمي ودعوته وولاءهما له، وهلل شعراؤه بوفادتها طويلا، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص<sup>(١)</sup>:

بِأَيِّمِنِ إِقْبَالِ وَإِسْعَادِ طَائِرِ      تَبَاشِيرُ مَحْتَوِمٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقِعِ  
تَوَافَتْ بِمُلْكٍ مِنْ مَعَدٍّ مَقْوُضٍ      لِمُلْكٍ إِلَى مَهْدِيٍّ مِرْوَانٍ رَاجِعِ  
فِيَالِكِ مِنْ بَشْرَى سُرُورٍ تَضَمَّنَتْ      بِلَوْغِ الْأَمَانِي عَنْ سُعُودِ الطَّوَالِعِ  
فَجَعْفَرُ يُغْنِي عَنْ جُنُودِ بَرَائِهِ      وَيَحْيَى يَلَاقِي حَاسِرًا أَلْفَ دَارِعِ

وهو يقول إن وفودهما بشرى بأن ملك معد الفاطمي تقوض من أساسه للملك المرواني: الحكم، ويصفه بأنه مهدي منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطُّبْنِي وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام في الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبي عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابنه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعا فأكثر من غزوات النصارى في الشمال حتى بلغت - فيما يقال - نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جربيرة في صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغنى بها شعراؤه طويلا من مثل قول صاعد<sup>(٢)</sup>:

اليوم عاشَ الدِّينُ وابتدأَ الهُدَى      غَضًّا وَعَادَ الْمَلِكُ عَذَبَ الْمَوْرِدِ  
من فاته بدرٌ وأدركَ عُمُرُهُ      جَرَبِيرَ فَهُوَ مِنَ الرَّعِيلِ الْأَسْعِدِ

وهو يجعل غزوة جربيرة أختا لغزوة بدر التي أعز الله بها الإسلام ورسوله والمؤمنين

(٢) انظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢-٧٣ وهو صاعد البغدادي اللغوي الشاعر الوافد على المنصور بن أبي عامر، وراجع ترجمته في الذخيرة ٨/١/٤ وما بعدها والحميدي: ٢٣٣ والبغية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأديباء ٢٨١/١١ وإنباه الرواة ٨٥/٢ والمعجب للمراكشي ص ٧٥ وابن خلكان ٤٨٨/٢.

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر في ترجمة ابن شخيص الحميدي في المجدوة ص ٨٤ وبغية الملتبس ص ١١٩ واليتممة للتعالي (تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد - طبع دار الفكر) ٢٢/٢ وقال الضبي في البغية: له على لسان رجل يعرف بأبي الفوث أشعار مشهورة في أنواع الهزل.

مبالغة في تمجيده لانتصار ابن أبي عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن درّاج القسطلي  
وسنخسه بكلمة. ويقول فيه وفي حجابته عبادة بن ماء السماء<sup>(١)</sup>:

لنا حاجبٌ حاز المعالي بأسرها فأصبحَ في أخلاقه واحدَ الخلقِ  
فلا يفترُّ منه الجهولُ يبشّره فمعظمُ هولِ الرعدِ في أثرِ البرقِ

وعاصر عبادةُ زمنَ الفتنة بقرطبة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد  
الخلافة على بن حمود العلوي من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه  
متحزبا له متشيعا بمثل قوله<sup>(٢)</sup>:

أطاعتك القلوبُ ومَنْ عَصِيَّ وَحِزْبُ الله حِزْبُكَ يا عَلِيَّ  
وإن قال الفخورُ أبي فلانَ فَحَسْبُكَ أن تقولَ أبا النبيِّ

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى  
ابن أخيه، ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود  
بجنود من البربر إلى قرطبة ويستردّ الحكم من يحيى سريعا، ويغادر قرطبة إلى الجزيرة  
الخضراء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فها أنا ذا يابنَ النبوة نافتُ من القولِ أريا غير ما ينفثُ الصلُّ<sup>(٣)</sup>  
وعندي صريحٌ في ولائك مُعرقٌ تشيئه محضٌ ويبيعهُ بتلُّ<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إن ولاءه لآل البيت عريق ويمضى فيذكر أن جده كان مواليا لعلي مما جعل  
معاوية يبغضه بغضا شديدا. وكان ابن الحنات الكفيف القرطبي يتشيع مثله للحموديين وله  
مدائح متعددة فيهم وخاصة في علي بن حمود وفيه يقول<sup>(٥)</sup>:

إمامٌ أقامَ الدِّينَ حدَّ حسامِهِ طريراً ومنه في يدِ الله قائمٌ<sup>(٦)</sup>

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسماع الحموديين في الأندلس، إذ لم يكونوا

(٥) انظر القصيدة في ترجمة ابن الحنات بالذخيرة

٤٣٧/١ وراجع ترجمته في الجذوة ص ٥٣ والبيغة

رقم ١٢٤ والصلة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١٢١/١

والتكلمة رقم ٤٢٩ والوفاي ١٢٤/٣.

(٦) طريرا: له رؤاء وبهجة.

(١) راجع ترجمة عبادة في الذخيرة ٤٧٥/١

وسنخسه بكلمة بين شعراء الطبيعة والخمر.

(٢) انظر في هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة

عبادة في الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(٣) الأرى: غسل النحل. الصل: الحية.

(٤) بتل: حق.

هم ولا آباؤهم الأدارسة في المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

وإذا مضينا في عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتدبج فيه المدائح، إذ تكاثر الحب في تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الوافدين على أمرائها، وقد استحوطت قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث في الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بمجلداته الثمانية الضخام متحدثا عن الشعراء البارعين بكل حاضرة في هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شاعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحة أبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني لإدريس بن يحيى الحمودي أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغلزلاً وخرماً وسنعرض لذلك في ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشداً<sup>(١)</sup> :

وكانَ الشمسَ لما أشرقتُ فأنثتُ عنها عيونُ الناظرينُ  
وجهُ إدريسَ بن يحيى بن عليٍّ بن حمودِ أمير المؤمنين  
كتب الجودُ على أبوابِهِ أدخلوها بسلام آمنينُ  
انظرونا نقبِسَ من نوركم إنّه من نورِ ربِّ العالمينُ

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عاداته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سايق نواله عليه. وتغنى ابن زيدون مرارا بأمراء قرطبة بنى جهور، ولما ظنوا أنه مشترك في مؤامرة ضدهم وزجوا به في غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله<sup>(٢)</sup> :

بنى جهور أحرقتُم بجفائكم جناني فما بال المدائح تعبقُ  
تظنونني كالعنبرِ الوردِ إنما تطيبُ لكم أنفاسُهُ وهو يحرقُ

وردت إليه حريته، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذه وزيراً له وأجزل له في الراتب والعتاء، وفيه يقول ابن زيدون في إحدى مدائحه<sup>(٣)</sup> :

(١) سيد كيلاني ص ٦٠ والمغرب ١/٦٩.  
(٢) الديوان ص ١١٢.

(١) انظر القصيدة في ترجمة ابن مقانا بالذخيرة ٤٨٦/٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد

همامٌ يزِين الدهرَ منه وأهله      مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ متفلسفٌ  
 يتيهُ بِمِرْقَاهُ سريرٌ ومنبرٌ      ويحمدُ مَسْعَاهُ حسامٌ ومُصْحَفٌ  
 جحيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقوده      وجَنَّةٌ عَدْنٌ للمطيعين <sup>(١)</sup> تَزْلَفُ

ومرٌّ بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفاضل، والذخيرة تكتظ بما قدموه لها من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن الليانة، وسنترجم له في الفصل التالي، ومن قصيدة له في مديح المعتمد <sup>(٢)</sup> :

ملكٌ إذا عقد المغافرَ للوغي      حلَّ الملوكُ معاقدَ التيجانِ <sup>(٣)</sup>  
 وإذا غدتُ رايته منشورةً      فالخافقانِ لهنَّ في حَفَقانِ <sup>(٤)</sup>  
 يامنشئُ العلياءَ بعد مماتها      تفنى النجومُ وما ثناؤك فانِ  
 الأرضُ حاجتها إليك بطبعها      كالعينِ حاجتها إلى الإنسانِ

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية في عهد أميرها المعتصم بن معن بن صُباح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعراً، فهتفت باسمه الشعراء في إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يصدق عليهم من أمواله، ولوطنه أبي حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله <sup>(٥)</sup> :

وأحسنُ من روضٍ تحلَّى بنورِهِ      مُحَيًّا ابنَ مَعْنٍ في حُلِيِّ الفضائلِ  
 جوادٌ كأنَّ الأرضَ جمعاءً راحةً      له وبحورَ الأرضِ خمسُ أناملِ  
 جَلَلَتْ فجلَّ القولُ فيك وإنما      يُقَدُّ لِقَدْرِ السيفِ قدرُ الحمائلِ

وشاعر المعتصم المبدع ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقلُّ عن المعتصم والمعتمد جوداً وشعراً ولِسناً وفصاحة المتوكل بن المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، ولأبيه كتاب المظفرى في الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد، واستحالت بطليوس في عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتتلَّى فيها مدائحهم، وتغنى بمدح المتوكل الشاعر الفذ

(٥) انظر في الأبيات ترجمة أبي حفص بن الشهيد في الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وانظره في الحميدى ص ٢٨٣ والمغرب ٢٠٩/١ وبغية الملتبس ص ٣٩٤ وقال ابن سعيد: شاعر المرية في زمانه وكان مقتصرًا على أمير بلده المعتصم بن صباح.

(١) تزلف: تقدّم وتصبح زلفى ومنزلة

(٢) الذخيرة ٦٨٧/٣

(٣) المغافر: جمع مِغْفرة: زرد من الدرود على قدر

الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوغى: الحرب

(٤) الخافقان: المشرق والمغرب. الخفقان: سرعة

نبضات القلب.

عبد المجيد بن عبدون مواطنه وقصر مدائحه عليه، وسنخسه بترجمة في الفصل التالى، وفيه يقول<sup>(١)</sup>:

طَبَّقْتُ آفَاقَ الْكَلَامِ فَلَمْ أَدْعُ      زَهْرًا يَرِفُ وَلَا جُمَانًا يُنْظَمُ  
لِلَّهِ دُرُّكَ هَلْ لِمَجْدِكَ غَايَةٌ      إِلَّا وَأَنْتَ بِهَا مَعْنَى مُغْرَمُ  
هَزَّتْكَ أَرْوَاحُ السَّمَاةِ بَأَنَّهُ      وَمِنَ الرَّجَاحَةِ فِي حِمَاكَ يَلْمَمُ  
وَتَعَلَّمْتُ مِنْكَ الْغَمَامَةَ شِيْمَةً      تَهْمِي وَفِيهَا لِلْبُرُوقِ تَبَسُّمُ

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التى يشبه بها الشعراء محبوباتهم فى الحسن سباحة وجودا، ومثل جبل يللم فى رجاحة العقل وحلمه ورزاقته، والصورة الأخيرة بديعة إذ جعله يصدق أمواله على الشعراء والمجتدين وهو يبتسم وكأنه غمامة تهطل والبروق فيها ماتى تلمع كبساته التى ترسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلا عند موقعة الزلافة فى أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا فى الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمرأ عاشوا للترف واللهو، وإن سدّدوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم فى الإمارات وإخوانهم فى الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين فى الشمال، وسقطت طليطلة فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأمراء المترفين المفككين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفى مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين فى المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية فى غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس فى الزلافة بالقرب من بطليوس فى اليوم الثانى من رجب سنة ٤٧٩ وصدق - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - فى وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقا ذريعا، وكأنما استوصل جيشهم استصلا، إذ لم ينبج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولا مقهورا، وفرّ على وجهه ألفونس يتسنم الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنأ الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح فى تهنئة له<sup>(٢)</sup>:

فى الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن القزاز.

(١) الذخيرة ٦٨٥/٢.

(٢) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت

ثناؤك ليس تَسِقَهُ الرِّيحُ      يطيرُ ومن نَدَاكَ له جَنَاحُ  
تطيبُ بذكركَ الأفواهُ حتى      كأن رُضابها مِسْكُ وِزَاحُ<sup>(١)</sup>  
جلبتُ إلى الأعادي أسدَ غابٍ      برائتها الأسنَةُ والصِّفاحُ<sup>(٢)</sup>

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب في حمير وكان بنو عباد من قبيلة لحم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون في قصيدة يهني فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر المين منشدا<sup>(٣)</sup>:

نُمي في حَمِيرٍ وَنَمَتَكَ لَحْمُ      وتلك وشائجُ فيها التحامُ  
فيوسفُ يوسفُ إذ أنت منه      كيامن، لا وهى لكما نظام  
فإن يَنْجُ اللَّعِينُ فلا كَحْرُ      ولكن مثلما ينجو اللئامُ  
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا      كأن وهادها منهم إكامُ

وهو يجعل يوسف نفس سمية الصديق ويجعل المعتمد أخوا له يشد أزره مثل يامن أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالت من جثث الأعداء إكاما أو أكبات وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنئة بديعة<sup>(٤)</sup> للمعتمد بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح أمراء الطوائف بالوحدة، ولقب بعد تلك الموقعة المظفرة بأمرير المسلمين، وبنى ألفونس حصنا ضخما بالقرب من مرسية في موضع يسمى لبيط، ليجدد إغاراته على أمراء الطوائف، فاستنجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانيا الزقاق سنة ٤٨١ ووجه قواته إلى حصن لبيط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى سابق العهد بهم من الانغمار في الخلافات وفي الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس ابن تاشفين ليزيل - إلى غير رجعة - حكم هؤلاء الأمراء الذين يخربون بيوتهم وبيوت المسلمين في الأندلس بأيديهم. وعبر يوسف الزقاق في رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده ابن أخيه سير بن أبي بكر، فاستسلم طواعية عبدالله بن بلقين أمير غرناطة، واستسلم المعتمد بن عباد في إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبطليوس، وهلل

المعتمد بن عباد، وسنفرد له ترجمة في الفصل التالي.

(٤) انظر في هذه التهنة الذخيرة ٨١٤/٣.

(١) الرضاب: الريق المرشوف. راح: خمر

(٢) البرائن: جمع برتن: مخلب السبع. الصفاح:

السيف.

(٣) الذخيرة ٢٤٥/٢ وابن وهبون من شعراء



فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، ويصور ذلك أبو الحسن بن الجدي في مدحة لابن تاشفين متشفيا فيهم قائلا<sup>(١)</sup>:

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر  
وكيف يشعر من في كفه قدح  
فقل لمن نام أصبحت أنتبه فلقد  
وانظر إلى الصبح سيفا في يدي ملك  
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ  
هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا  
تحدو به مدهلات الناي والوتر<sup>(٢)</sup>  
مضى لك الليل صرفا وانقضى السحر  
في الله من جنده التأيد والظفر  
كمارعاها بطرف ساهر عمر<sup>(٣)</sup>

ويُظَلُّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا في قتال النصارى ما أخر استردادهم للأندلس جميعها قرونا بفضل جيوشهم وجيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويوج ديوان الأعمى التطيلي بمديح علي بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وسنفرده بكلمة، وبالمثل يوج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتيم، وكان إبراهيم واليا له على شرقى الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تيم واليا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقى الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مُفْتَتَحٌ بمدحة بديعة فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول<sup>(٤)</sup>:

وأبلج منصور اللواء إذا سرى  
له فتكة لو زاحم الدهر تحتها  
وعزم يرد الطود هدا ونجدة  
نقسمة جود يفيض وهمة  
أظلت عقاب النضر أجنحة النسر  
لعدت به دهم الليالي من الشقر  
تهز قود السمر في الحلال الحمر  
فمن منهل غمر ومن جبل وعر

والمدحة على هذا النحو تلوينات وتوليدات في معاني الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالي شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلال الأعداء حمرا بما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمته لا تبارى كجبل وعر لا يساميه جبل في وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بديعة في مديح زوجة تيم مريم، وكانت سيدة أديبة

(٣) يريد بعمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٤) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازي) ص ٢٥ وما بعدها.

(١) راجع القصيدة في الذخيرة ٢٥٦/٢ وانظر في ترجمة ابن الجدي المغرب ١/٣٤٠.

(٢) يشير ابن الجدي إلى تهالك أمراء الطوائف على الملذات والخمر والغناء وكأنهم يعيشون في دور ملاه لا في دور حكم وسياسة.

فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشراء وتثيبهم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة<sup>(١)</sup>:

مشهورة في الفضل قَدَمًا والنهى والجودِ شُهْرَةً غُرَّةً في أَدْهَمِ  
تُولِي الأيادي عن يدِ نَزَلِ الندى منها بمنزلةِ المحبِّ المُكْرَمِ  
حمل الثناء بها القريض وإنما حمل الحديث رواية عن مسلم

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عطرًا عطر الحديث المروى عن مسلم في صحيحه مبالغة منه في بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تقنى بها ابن خفاجة وغيره مادحين مطرين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة في الفصل الثاني. وفي ابن تيفلويت والمرابطين يقول ابن باجة معللا لاسمهم «المثمين» إذ كانوا يضعون لثامًا على وجوههم<sup>(٢)</sup>:

قومٌ إذا انتقبوا رأيت أهلةً وإذا هم سَفَرُوا رأيت بدورا  
لا يسألون عن النوال عُفَاتِهِمْ شكرا ولا يَحْمُونَ منه نَقِيرًا<sup>(٣)</sup>  
لو أنهم مسحوا على جَدْبِ الرُّبِيِّ بأكْفِهِمْ نَبَتَ الأَقْأَحُ نَضِيرًا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويخفون جزءا من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويمدحهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والحاجات شكرا على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون ولا ييقون منه لأنفسهم أى شيء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجدبة بأكفهم لاهتزت وربت وأنبت أزهارا وأقاحا ناضرا.

ولحمد بن إبراهيم بن المواعيني المار ذكره بين البلاغيين في الفصل الماضي مدحة في الزبير بن عمر المثلثم والى قرطبة يقول في تضاعيفها مخاطبا للمثمين أو المرابطين<sup>(٤)</sup>:

جولوا وُضُولُوا فالمناسبُ جَمِيرٌ أهلُ المفاخر والندى والنادي  
للقوم في كل البلادِ رياسةٌ تحكى بنى العباس في بغداد  
أضحت مجالسهم سروج جيادهم إن السروج مجالس الأمجاد

المعروف .. النقيز: الشيء المتناهي في الصغر.

(٤) انظر الأبيات في ترجمته بالمغرب ٢٤٧/١.

(١) الديوان ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) النفع ٤١٧/٣.

(٣) النوال: العطاء. العفاة: السائلون طلاب

والصورة في البيت الأخير بديعة، ولليكى يحيى بن سهل هجاء الأندلس في المرابطين معللا لتسميتهم بالملثمين بالغا بهم الغاية من المديح<sup>(١)</sup> :  
 قوم لهم شرفُ العلا في حمير      وإذا أنتموا صنهاجةً فهم هم  
 لما حووا إحراز كل فضيلة      غلب الحياء عليهم فتلتموا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للأداب وراعية للشعر والشعراء، وهي أسرة بنى عشرة أصحاب خطة القضاء في مدينة «سلا» على شاطئ المحيط، وأول من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضي على بن القاسم بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقى وعيسى بن وكيل الغرناطي ومحمد بن سوار الأشبوني المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من أسره عند النصارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله<sup>(٢)</sup> :  
 لو أن رفقك في القلوب مركب      لم يلتقم في البحر يونس حوت  
 ولقد حملت من الوقار سكينه      لم يحتملها قبلك التابوت

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾ وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: ﴿إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينه من ربكم﴾. وخلف عليا في القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام في ترجمته بالذخيرة مدحه لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى موثلا لشعراء الأندلس، وبني أحمد قصرا، هنأته به الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبو عامر محمد بن الحماره حاضرا ولم يكن أعد شيئا ففكر قليلا، ثم أنشد<sup>(٣)</sup> :

يا أوحده الناس قد شيدت واحدة      فحل فيها حلول الشمس في الحمل<sup>(٤)</sup>  
 فما كدارك في الدنيا لذي أمل      ولا كدارك في الأخرى لذي عمل  
 ومر بنا في ترجمة يحيى بن بقى بين الوشاحين أنه خص القاضي أحمد وأخاه يحيى بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينما كانا يواليان إغداق نواهما عليه، مما جعل لسانه

وقد دعاه أبا الحسين على بن الحماره وراجع ترجمته في المغرب ٢/٢٦٨ وسنفرد له ترجمة في الفصل التالي بين الهجائين.

(٢) البيتان في ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.

(٣) انظر ترجمة أبي عامر في النفع ٤/١٣ و ١٤٠.

(٤) الحمل: من منازل الشمس.

(١) المغرب ٢/٢٦٨ وسنفرد له ترجمة في

الفصل التالي بين الهجائين.

(٢) البيتان في ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.

(٣) انظر ترجمة أبي عامر في النفع ٤/١٣ و ١٤٠.

(٤) الحمل: من منازل الشمس.

يلهج بمدحها والثناء عليها طويلا، من مثل قوله في يحيى من مدحة طويلة<sup>(١)</sup> :  
 نَدَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَقَارِ سَكِينَةٌ      فِيهَا حَفِيزَةٌ كُلُّ لَيْثٍ مُخَدِّرٍ<sup>(٢)</sup>  
 مِثْلَ الْحَسَامِ إِذَا انطوى فِي غَمَدِهِ      أَلْقَى الْمَهَابَةَ فِي نَفْسِ الْحَضِرِ  
 أَزْرَى عَلَى الْبَحْرِ الْخِضْمَ لِأَنَّهُ      فِي كُلِّ كَفٍّ مِنْهُ خَمْسَةٌ أَبْحُرُ  
 أَقْبَلْتُ مَرْتَادًا لِحُودِكَ إِنَّهُ      صَوَّبُ الْغَمَامَةِ بِلِ زُلَالِ الْكَوْثَرِ<sup>(٣)</sup>

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظل بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وظل شرقي الأندلس: مرسية وجيان وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش حتى توفي سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده في حوزة الموحدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وسماه جبل الفتح، وأقام به شهرا يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوما لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاءوه من كل مدينة لاستقباله ومدحه، وكان يوما مشهودا، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفي مقدمتهم الأصم الرواني القرطبي الشاعر حفيد الشريف الطليق والرصافي البلنسي محمد بن غالب، وسنفرد له ترجمة عما قليل وأحمد بن سيد الإشبيلي وأخيل الرندي وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي، وأنشده مدحة يقول في تضاعيفها<sup>(٤)</sup> :

دعانا نحو وجهك طيبُ ذِكْرٍ      ويدعو للرياضِ شذا الرياحِ  
 وكنت كساهرٍ ليلا طويلاً      ترنح حين بُشِرَ بالصباحِ

ورتب عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاية لمدنها الموالية له، وولى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحدين في الأندلس، وولى ابنه عثمان غرناطة وأعمالها، وكان محباً للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) أباه وكان ممدحا، ومن مدّاحه أبو محمد المالقي وهو يستهل مدحة قدّمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمته تسنده سورُ الحواميم القرآنية السبع التي يرددها هي وغيرها من سور القرآن الكريم آناء الليل

(٣) صوب: مطر. الكوثر: نهر في الفردوس.

(٤) انظر مدحته في المغرب ١٦٤/٢ وسنخصه

بكلمة في الفصل التالي.

(١) ابن خلكان ٢٠٤/٦.

(٢) حفيظة: حمية. ليث مخدر: أسد في خدره

وبغيلة.

وأطراف النهار، ويقول إنه ستسندُه وتنصره السبع المثاني وهى آيات سورة الفاتحة السبع التى يرددُها كل يوم فى صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينها فى المصحف بالبسمة. ويجعله الجوهرة الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتديبره السياسى. وكان سيوسا وعالما بالعربية وبالحدِيث ويقال انه كان يحفظ البخارى بأسانيدِه وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع للحكم المستنصر الأموى قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جلسيه ووزيره، وهو الذى نبهه - كما مرَّ فى الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ). وفى أيامه شرع فى بنیان مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيرا من قصورها، وفى سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذى بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم فى الأندلس، فعبر إليه الزقاق فى جمادى الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها فى إشبيلية. وأخذ يعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقائه بدوره، والتقى الجمعان فى الثالث من شعبان فى الأرك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفا منهم، وأسروا ثلاثين ألفا، وفرَّ ألفونس ومن بقى من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرائصهم ترتعد رعبا وفرعا، وكان حريا بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، فاكتفى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطبا المنصور<sup>(١)</sup>:

حَيْتِكَ مَعْطَرَةَ النَّفْسِ	نَفَحَاتُ الْفَتْحِ بِأَنْدَلُسِ
فَنَزَرَ الْكُفَّارَ وَمَاتَمَهُم	إِنَّ الْإِسْلَامَ لَفَى عُرْسِ
أِيمَامِ الْحَقِّ وَنَاصِرِهِ	طَهَّرَتِ الْأَرْضَ مِنَ الدَّنْسِ
وَصَدَعَتْ رِذَاءَ الْكُفْرِ كَمَا	صَدَعَ الدِّيْجُورَ سَنًا قَبَسِ <sup>(٢)</sup>

ومضى يصور فى القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سقيت به الوهاد والتلال من دمائهم، ويلوهم هلعا قائلا إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعنتها وأغار بها روح

(١) القصيدة بتامها فى المعجب ص ٣٧٠ (٢) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فإلى عيش نكد تعس. وتوفى يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) وفي عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعدُّ لمعركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنما شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشعراء بمثل قول أحمد بن شطيرة القرطبي<sup>(١)</sup>:

كذا يشرف الطالع الأسعدُ ويسمو لأملكه السيدُ  
ويسرعى أقاصى أقطاره قريبٌ له عزمةٌ تبعُدُ

وأخذ الناصر يعدُّ العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أوروبا وقد منحهم البابا الغفران. ولم تلبث رحى هذه الموقعة الصليبية أن دارت في سهل يقع إلى الشمال الشرقي من قرطبة وجنوبي قلعة رباح، ومضى الناصر وجيش المسلمين بهزيمة فادحة، كانت نذيراً لانتهاة دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعاً على قلعة رباح وبياسه وأبدة. وتوفى الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفى، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزداد وهناً على وهن، مما هباً للملك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط في حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شيء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها إلى المغرب والمشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يمتون أنفسهم بأنهم سيعودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التي ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجنى الذى اتجه إلى أبى زكريا الحفصى، وقدم إليه مدحة يقول فيها<sup>(٢)</sup>:

أمير الهدى من يدن منك فإنه بقربك عن صرف الحوادث قد أقصى  
عسى الله أن ينتاش أندلساً بكم ويأخذ فيها للهدى أخذ مقتص

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى. وكان قد قيض للأندلس منذ الثلاثينيات في القرن السابع ابن الأحمر فأقام بغرناطة دولة أسرته التي استمرت نحو قرنين ونصف،

(٢) ديوان حازم القرطاجنى (طبع بيروت)

ص ٦٦.

(١) انظر البيتين في ترجمته بالمغرب ١٣٩/١ وله

ترجمة في تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ ومعها

بعض شعره.

وطبيعي أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعي أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه يقول ابن سعيد: «كان من عجائب الدهر في الفروسية والإقدام والسعادة في لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجحافلُ وتُدخِرُ أبناءُ القنَا والقنابلُ»<sup>(١)</sup>

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبناؤه وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفي سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصارى الشماليين، وأرغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق لملك أراجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد إسماعيل، ونازله الجيش القشتالي سنة ٧١٨ في مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، ويهنته أبو عبدالله اللوشي بمثل قوله<sup>(٢)</sup>:

قصدوا العرينَ ليغلبوا آسادهُ فقصى عليهم بأسك الغلابُ

وقويت شوكة المسلمين في عهد أبي الوليد وعهد ابنه أبي عبدالله محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعادته بعد موقعة بحرية عنيفة سُحق فيها أسطول ملك أراجون وهنته بهذا الفتح المبين أبو العلاء محمد بن سهاك العاملي منشدا<sup>(٣)</sup>:

فتحُ قضاةِ لُمُلُككِ الرحمنُ لم تأت قط بمثله الأزمانُ  
فلائِيَّ يومٍ سعادةٍ أولاكهُ ذلَّتْ بعزّةٍ نصْرِهِ الصُّلبانُ

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) وكان راعيا للأدب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون في مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوي الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع، وفي ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزيين بها قبة العرُض المظلة على مجلسه في الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة<sup>(٤)</sup>:

(٣) راجع ترجمة ابن سهاك العاملي في الكتيبة

الكامنة ص ١٩٨.

(٤) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: «الصيب

والجهام والماضي والكهام» تحقيق الدكتور قاهر

(طبع الجزائر) ص ٢٦١.

(١) المغرب ١٠٩/٢.

(٢) انظر ترجمة أبي عبدالله اللوشي في الكتيبة

الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة

الثامنة لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان

عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع في ترجمة

اللوشي الإحاطة ١٩٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.

أَبْصَرْتُ مِنِّي فِي الْمَصَانِعِ قُبَّةً      تَأْتِي فِي السَّعْدِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ  
فَتُتْلَى سَطُورُ الْكُتُبِ فَوْقَى دَائِمًا      وَتُعْرَضُ مِنْ تَحْتِي سَطُورُ الْكُتَائِبِ

والقطعة بديعة، ولاين جُزَى الغرناطى مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة فى أبى  
الحجاج من مثل قوله<sup>(١)</sup>:

إِنِّ الْمَعَالَى وَالْعَوَالَى وَالنَّدَى      وَالْبَاسَ طَوْعُ يَدَى أَبِي الْحَجَّاجِ<sup>(٢)</sup>  
مَاضَى الْعَزِيمَةِ وَالسِّيُوفِ كَلِيلَةٌ      طَلَّقَ الْمُحَيَّا وَالْخَطُوبُ دَوَاجِي  
لَيْثُ الْوَعَى وَالْخَيْلُ تُزَجَّى بِالْقَنَا      وَالْبَيْضُ تَنْهَلُ مِنْ دَمِ الْأَوْدَاجِ<sup>(٣)</sup>

وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ.) مكمل منشآت قصر الحمراء، وكان ممدحا للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمرك، وسنفرد له ترجمة عما قليل. وكان حفيد الغنى بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ.) شاعرا، ولزمه ابن فركون الشاعر يمدحه واتخذة كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ نحو مائة قصيدة ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية إلا ونظم للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلد السلطة<sup>(٤)</sup>:

إِلَيْكَ تَبَاشِيرُ الْبِشَائِرِ مُقْبِلَةٌ      تَلُوحُ بِأَفَاقِ الْهَدَى مَتَهَلِّلَةٌ  
فَهَنَّتْ مَا اسْتَقْبَلَتْ يَا مَلِكَ الْهَدَى      مِنْ الْعَزِّ لَا زَالَتْ سَعُودُكَ مَقْبِلَةٌ  
لَقَدْ قَلَّدَ الرَّحْمَنُ أَمْرَ عِبَادِهِ      إِمَامًا لَهُ فِي الْعَدْلِ أَرْفَعُ مَنْزِلَهُ

ويعد يوسف الثالث آخر أمراء بنى الأحمر المهمين، ويفضون بعده فى القرن التاسع الهجرى إلى خلافات، تقضى على الإمارة قضاء مبرما. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث عن أهم شعراء المديح فى الأندلس، وهم ابن عبد ربه وابن دراج القسطللى وابن عمار وابن الحداد والرصاصى وابن زمرك.

(٣) تزجى: تدفع. الأوداج جمع ودج وهو عرق فى العنق إذا قطعه الذابح لم يبق فى الإنسان حياة. (٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن شريفة (طبع أكاديمية المملكة المغربية) ص ١٠٣.

(١) انظر هذه القصيدة فى ترجمة ابن جزى الضافية فى أزهار الرياض ١٨٩/٣ وترجم له ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف فى كتابه نثر فرائد الجبان وابن الخطيب فى الكتبية الكامنة ص ٤٦. (٢) العوالى: الرماح.



ابن عبد ربه<sup>(١)</sup>

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد في قرطبة سنة ٢٤٦ للهجرة، في أسرة متواضعة من أسر الموالى إذ كان جده سالم من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل، وألحقه أبوه بأحد الكتاتيب، ثم وجهه إلى الدراسة على الشيوخ في جامع قرطبة الكبير، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين من أمثال بقى بن مخلد وابن وضاح والحشنى. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - في الغزل والخمر، وقلما يقع له فيها شعر جيد. ويبدو أنه لم يكن ينظم فيها عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيها عن محاكاة أنداده، ومن خير ما له في الغزل قوله:

الجسم فى بلدٍ والروح فى بلدٍ ياوحشةً الروح بل ياغربة الجسدِ  
إن تبك عيناك لى يامن كلفت به من رحمة فهما سهماك فى كبدى

وكان سريع الغضب، وجرَّ عليه ذلك اشتباكه مع القلقاط الشاعر معاصره في الهجاء، ونراه في كثير من أشعاره شاباً وشيخاً ميالاً إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادراً في ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية في شبابه بمقطوعة في ذم الدنيا والتنفير منها، وسُمِّي تلك المقطوعات المحمَّصات أى المخلصات من الذنوب، كأنما عدَّ شعره في شبابه ذنوباً وآثاماً وهو إنما كان في رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقترافاً حقيقياً للآثام، لأنه لم يكن مهيباً لذلك بحكم روحه المحافظة. ويدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه «العقد الفريد» وهو مطبوع بمصر مرارا في عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية المشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر

مكى ببيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر  
لمشور بباريس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن  
الناصر والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفع الطبيب  
للمقرى. انظر في كل ذلك الفهارس، وتاريخ الأدب  
الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان  
عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل  
ص ٢٢٣.

(١) انظر في ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدى  
٩٤ وابن الفرضى ٤٩/١ والبغية رقم ٣٢٧  
والبييمة للتعالي (طبعة محمى الدين عبد الحميد)  
١٠/٥ - ١٠ - ٧٤ - ٩٩ والمطرب ص ١٤١  
ومعجم الأدباء ٢١١/٤ والمطمح ص ٥١ وابن  
خلكان ١١٠/١ والمقتبس لابن حيان الجزء الخاص  
بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود

الأمير عبد الرحمن الأوسط يحيى الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال صاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، وهو رمز واضح لروحه المسرقة في المحافظة.

ومع أن غزلياته وخردياته وزهدياته يبدو فيها جميعا التكلف الشديد تتجلى في مدائحه شاعرية بارعة، وكأنما خلق للمديح أو مداحا، وبدأ مديحه مبكرا، وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

بِالْمَنْذِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ شَرُفَتْ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ  
فَالطَّيْرُ فِيهَا سَاكِنٌ وَالْوَحْشُ فِيهَا قَدْ أَنْسَ

وتوفى المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ.) ويمدحه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقصيدة قافية يقول فيها متجاوزا كل حد في المبالغة على عادة الشعراء:

إِذَا فَتَحْتَ جَنَاتٍ عَدْنٍ وَأَزْلَفْتَ فَأَنْتَ بِهَا لِلْأَنْبِيَاءِ رَفِيقٌ

وينتصر عبد الله على ابن حفصون الثائر في إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد اشتدت شوكته وتداعى له - كما يقول ابن حيان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهناه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائية وجيمية، وفي الثانية يقول:

هَذِي الْفَتْوحَاتُ الَّتِي أَذَكَّتْ لَنَا فِي ظُلْمَةِ الْأَفَاقِ نَوْرَ سِرَاجٍ

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ.) جده عبد الله وكان ابن عبد ربه أحد معلميه وكان الناصر جديرا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتغنى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على الثائرين في الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملوك النصارى وأمراؤهم في الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يُعد جيشا جرارا لغزوة المنتلون، ويستولى فيها على مائتي حصن من حصون الثوار وهنته ابن عبد ربه بهذا النصر المبين مرارا منشدا:

فِي غَزْوَةِ مَائِنَا حِصْنٍ ظَفَرَتْ بِهَا فِي كُلِّ حِصْنٍ غَوَاةٌ لِلْعَنَاجِيحِ<sup>(١)</sup>  
مَا كَانَ مَلِكُ سَلِيمَانَ لِيَدْرِكَهَا وَالْمُبْتَنِي سَدٌّ يَا جُوجٍ وَمَا جُوجٍ

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذى القرنين بانى سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولا ابن عبد ربه في حروب الناصر من سنة ٣٠٠

إلى سنة ٣٢٢ منظومة<sup>(١)</sup> تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدار تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذي نقرؤه في حديثه عن غزوة المُنتلون بجيَّان:

أَرْجَفَتِ الْقِلَاعُ وَالْحِصُونُ      كَأَنَّمَا سَاوَرَهَا الْعَمُونُ<sup>(٢)</sup>  
وَأَقْبَلْتُ رَجَالَهَا وَفُودًا      تَبَغَى لَدَى إِمَامِهَا السُّعُودَا  
قُلُوبَهُمْ بَاخِعَةً بِالطَّاعَةَ      قَدْ أَجْمَعُوا الدُّخُولَ فِي الْجَمَاعَةَ

وأسلوب ابن عبد ربه في المنظومة جميعها يخلو من التصاوير مما يدخلها في دوائر الشعر التاريخي التعليمي كمنظومة علي بن الجهم التاريخية التي ألمنا بها في كتاب العصر العباسي الثاني، وفي الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يخلق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن<sup>(٣)</sup> دراج القسطلي

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ في بيت من بيوت قبيلة صنهاجة المغربية بمدينة من أعمال جيَّان تسمى قسطلة دراج، وفي نسبتها إلى جده ما يدل على عراقية أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيَّان فاتسعت ثقافته اللغوية والأدبية. ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عُرف بين شعراء بلده، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكيا بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها

ص ١٥٦ والمعجب للمراكشي ص ٨٥ وألبان المغرب لابن عذارى ٢/٢٧٤ و ٣/٩ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢-١٢٤ وأيضاً في مواضع مختلفة وابن خلكان ١/١٣٥ ومقدمة ديوانه المنشور بدمشق تحقيق د. محمود مكي وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٣٠٢.

(١) أنظر في هذه المنظومة العقد الفريد لابن عبد ربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤/٤٩٩ وما بعدها وسنلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

(٢) أرجفت: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٣) راجع في ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ١/٥٩ وما بعدها والحميدى ١٠٢ والبيتمة للثعالبي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ٢/١٠٣ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبقيّة الملتبس رقم ٣٤٢ والمغرب ٢/٦٠ والمطرب

ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحدائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلفا وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبي عامر حاجب المؤيد هشام في الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديوانا لأعطيائهم ورواتبهم وأقام عليه أديبا بصيرا بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة في المنصور أعجبته فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بداهته في نظم الشعر وهو يوفق فيما يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له في مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس في رائيته: «أجارة بيتينا أبوك غيور» فنظم في معارضتها قصيدة بديعة صور فيها امرأته متلهفة عليه في وداعه مشفقة ورضيعها في المهدي وهي تتجرع مرارة الفراق وتنتحب .. يقول:

ولما تدانت للوداع وقد هفا      بصبري منها أنة وزفير  
تناشدي عهد المودة والهوى      وفي المهدي مبعوم النداء صغير<sup>(١)</sup>  
تبوا ممنوع القلوب ومهدت      له أذرع معطوفة ونحور

ويطيل في تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقا وغربا، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومدبجه، ويشيد بجهاده للنصارى في الشمال ونصرته للدين الحنيف وانقضاضاته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم مايزالون يفدون عليه في قرطبة معلنين خضوعهم له وطاعته، ووفد في أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نبارة معلنا ولاءه ومحكما له في نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ألا هكذا فليسم للمجد من سما      ويحمي ذمار الملك والدين من حمي<sup>(٢)</sup>  
فهذا عظيم الشرك قد جاء خاضعا      وألقى بكفيه إليك محكما

ووفد في نفس السنة أمير قشتالة وولى عهدا على المنصور، ويصف في لامية له مثوله خانعا بين يدي المنصور والعرض العسكري الرهيب الذي أقيم لاستقباله. ولا يفد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ومدبجه، وبالمثل كان يوالى مدائحه فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابن دراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يغزوها ينشده مدحة بديعة كان بحق أهلا لها وجديرا، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شنتياقب في جليقية بأقصى الشمال الغربي

(١) مبعوم النداء: رقيقه ولينه.

(٢) ذمار الملك: ما ينغم. حياطته والدفاع عنه.

إسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفي كنيستها، وتعدُّ من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفي تلك الواقعة يقول ابن دراج في مدحه بديعة:

لقد قصمت عُرى دين الضلالة من رأس القواعد ممنوع الحمى أشبه<sup>(١)</sup>  
وسُمته جاحما للنار ما بقيت نفس من الكفر إلا وهى من خطبه  
فالله جازيك يا منصور غزوته بسيف ماضٍ لنصر الدين مُحْتَسِبِه

ويتوفى المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستنَّ سنة أبيه في غزو النصارى، ولا بن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن في الحجابة لمدة شهرين إذ قُتل في إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعاني منها أشد العناء نحو عشرين عاما هُدمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزاهرة مدينة المنصور بن أبى عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحدا بعد الآخر، فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدي، ثم للخليفة الثائر عليه المستعين ولوزيره القاسم الحمودى ويعبر الزقاق إلى سببته لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر في مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول ﷺ. ومرأ بنا أن الحموديين لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوى في الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا في أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبي، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله:

لك الخيرُ قد أوفى بعهدك خيرانُ وبُشراك قد آواك عِزُّ وسلطانُ

ويقصّر خيران فى جزائه، وينتهى به المطاف - بعد سنوات ثمان مضية - إلى الأمراء التجيبيين فى سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهناً بها فى رعاية منذر بن يحيى التحيبى ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى فى عينيه، يهنئه فيها بجهاده فى شهر رمضان وظفره بأعدائه، يقول فيها:

ساقى الحياة لمن سالمت، مُطعمها دُعافَ سُمِّ لمن حاربتَ ناقعه<sup>(٢)</sup>  
مواصلًا بالندى ما الله واصلهُ وقاطعا بالظبي ما الله قاطعهُ

(٢) السم الذعاف: السم القاتل.

(١) أشب: ملفت الشجر، ويقصد الكنيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.

فى جيشٍ عزٍّ ونصرٍ أنتُ غرَّتُهُ وشَمَلِ دينٍ ودنيا أنتُ جامعُهُ

ويتوفى منذر سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وقد عليه مادحا بقصيدة بديعة استهلها بقوله:  
إلى أى ذكرٍ غيرِ ذكرك أرتاحُ ومن أى بحرٍ بعدَ بَحْرِكَ أمتاحُ  
واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له فى العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن القدر لم يمهله فقد توفى بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١ لم

وقد أشاد بآبن دراج كل من كتبوا عنه شرقا وغربا، فالثعالبي يقول عنه فى اليتيمة:  
«كانِ بَصُفَعُ الأندلس كالمتنبى بصفع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم» ويقول ابن حيان عنه: «أبو عمر بن دراج القسطلى سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين» ويصفه ابن شهيد «بجزالة شعره وصحة قدرته على البديع وحوك الكلام وتلاعبه بالمعاني وإطالته فيها» ويقول ابن بسام عنه:  
«لسان الجزيرة شاعرا وآخر حاملى لوائها، سار نظمه ونثره مسير الشمس» ويلاحظ بحق كثرة اقتراضه للمعاني من المتنبى، ولاحظ ابن شهيد كثرة استخدامه للبديع، وكأنه يحاكي فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة فى ترجمتنا له بكتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع فى بعض شعره للمصطلحات العلمية. وما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضا يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشاركة وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمنتبى، وهو - كما ذكرنا فى كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - يلتقى صوته فى أشعاره بصوت ابن هانى فى العناية باللفظ الطنان وقعقاته، وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكيا بذلك المتنبى فى مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التى جعلته يحس بالضيق سنين عديدة.

ابن عمار<sup>(١)</sup>

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنبوس، ومر بنا ما ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد إلى فلاح بها خلف محرائه قرض شيء من الشعر قرضه له توا في أى معنى يطلبه منه، فكان طبيعياً أن تهدي إلى الأندلس شاعراً فذا من شعرائها، وكأنما اختار القدر لها محمد ابن عمار الذى نشأ بشلب طفلاً لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على شيوخ متعددين منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعمى، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل فيها تأدبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شيء غير قليل من ضحك العيش وبؤسه، مما جعل ابن بسام يقول عنه إنه «أحد من امترى»<sup>(٢)</sup> أخلاف الحرمان، وقاسى شدائد الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحلس<sup>(٣)</sup> دهليز فلان وأبى فلان». ولم يكن له شيء يتكسب به سوى شعره، فطاف به في بعض مدن الأندلس مسترفداً، لا يبالي ممن أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفراته على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحاً في رجل من أهل السوق ظنا منه أنه يعطيه النوال الوفير، وإذا هو يسرّ إلى غلامه بكلام، فأتاه بمخلاة شعير، وفكر في دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الغضاضة. ومضى يتقلب في بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ.) أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

أدِر الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد أنبَرى والنَّجمُ قد صَرَفَ العِنانَ عن السُّرى<sup>(٤)</sup>

واستحسنها المعتضد وأمر له بجال وثياب ومركب وأن يُكتب في ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتمد، وتوثقت عرى المودة بينهما حتى أصبح المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتمد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره في تلك الولاية وساءت السمعة عنها لعكوفها على الخمر والغناء، فأمر

خلكان ٤٢٥/٤ ونفع الطيب للمقرى (انظر الفهارس).

(٢) امترى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحلس: لزم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

(٤) السرى: المسير ليلاً.

(١) انظر في ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والقلائد ٨٣ والحلة السيرة (طبع القاهرة) ١٣١/٢ والمغرب ٢٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ١٦٩ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والمخرية ٧١/٢ وبغية المنتسب رقم ٢٢٧ وابن

المعتضد بالتفريق بينها وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المعتصم بن صُهادح أمير المِريَّة وفترة عند أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مُرسية، وفتريات أخرى عند غيرهما، إلى أن توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقرَّبه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المعتمد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابته إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذها وزيره ومستشاره.

وطمح المعتمد إلى الاستيلاء على مرسية، وزين له ذلك ابن عمار، فأعدَّ جيشا جرارا بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراعاة له حرمة برِّه القديم به كما أسلفنا. ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتماذى في إنكاره للجَميل إذ سوَّلت له نفسه أن يستلبها من المعتمد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هي وأعمالها، وجلس مجلس التهنئة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهنئونه ويمدحونه. واستعمل على الحصون خُساس عبيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعبثا حاول المعتمد بن عباد أن يردّه عن غيِّه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلا من أن يطلب الصّفح هجاء وهجا زوجته الرُّمَيْكِيَّة قرّة عينيه بقصيدة طارت شهرتها في الأندلس منها:

فيا عامرَ الخيل يا زَيْدَها      منعتَ القرى وأبحتَ العيالاً<sup>(١)</sup>

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر في العواقب، وبينما كان سادرا في خمرة وهو أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببني إخوته وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها في يده، حينئذ انتهز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية في وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فولى وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ.) واستقبله على مضض منه لما فعل بالمعتمد وليُّ نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

علّى وإلا ما نواح الحمائم      وفى وإلا ما بكاء الغمام

وأخذ يذكرّه بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيما. ولم يلبث أن رغب المؤتمن في الاستيلاء على حصن شقورة شمالي مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبدالله بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المعتمد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة في شراء هذا الخائن الآثم الكنود؟ فأرسل إليه

(١) القرى: طعام الضيوف.



المعتمد ابنه الراضى بمال وخيل، وتسلمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ وحاوّل أن يستلين قلب الراضى ببعض شعره فلم يصغ إليه، ونظّم في طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجايك - إن عافيت - أئدى وأسمعُ وعذرك - إن عاقبت - أجلى وأوضحُ

ولم ينفعه عند المعتمد تذللّه فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفاً في قيوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استتارته عليه زوجته الريميكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون بيت مفرد هو قوله:

عجباً لمن أبكبه ملء مدامعى وأقول: لاشلت يمين القاتل

وبدون ريب كان ابن عمار انتهازياً وصولياً لا يرعى صداقة ولا عهداً، أما شعره ففي الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح في القلائد: «مقذف حصا القريض وجماره ومطلع شمسه وأقهاره» ويقول ابن بسام: «شعره غرب وشرق، وأشأم في نغم الحدأة وعلى السنة الرواة وأعرق.. وهو يضرب في أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام» ويظيل في الإشادة به، ويقول ابن الأبار في ترجمته: «من بديع صنيعه إتلاف أشعاره المقولة في الامتياح وقصائده المصوغه في الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شيء سوى أمداحه في المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله» ويتيمته - بحق - وفريدته مدحته الرائية في المعتضد عباد التي ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضاً كأنه حسناء تكتسى بوشى الزهر الأنيق، وتتقلد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عبادُ المخضرُّ نائلُ كَفِّهِ	والجوُّ قد - ليسَ الرداءَ الأَغْبِرَا <sup>(١)</sup>
أئدى على الأكبادِ من قطرِ الندى	وألذ في الأجفان من سِنَّةِ الكَرَى <sup>(٢)</sup>
أيقنتُ أنى من ذراه بجنّة	لما سقانى من نَدَاهِ الكَوْتَرَا <sup>(٣)</sup>
فاحِ الثرى متعطرًا بثنائه	حتى حسبنا كلُّ ترْبٍ عُنْبِرَا

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئاً مدحته بهذه الصور والمعاني البديعة، ومما يفجأ قارئه به تصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقّه لأعناق كُهاثم وشجعانهم إذ يقول:

(١) الجو قد لبس الرداء الأغبِر: كناية عن الجذب.  
(٢) الكرى: النوم. سنة الكرى: الغفوة في أوله.  
(٣) ذراه: كفه. الكوتر: نهر في الجنة.

أثرت رُمَحَكَ من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغُصْنَ يَعْشَقُ مُثْمَرًا  
وصبغت دِرْعَكَ من دِماء كُمَاتِهِمْ لما رأيت الحسن يُلبَسُ أحمرًا

وابن عمار لا يبارى في روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكان مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافي البديع.

### ابن الحداد القيسى<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى من مدينة وادي آش في البيرة موطن بني عقيل وغيرهم من القيسيين وشُغف في صباه - كما يقول ابن بسام - بصيبة نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لغزله بها في حديثنا عن شعراء الغزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة في الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضاً في الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء في موطنه، ويذكر مترجموه أن له في العروض كتاب «المستنبط في علم الأعاريض المهملة عند العرب» ولا أرتاب في أنه لو وصل إلينا لكان دليلاً قوياً على ما قلته في حديثي عن الموشحات من أن الأعاريض المهملة التي يُنظَّم فيها والتي أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هي أعاريض العرب المهملة التي نصَّ عليها الخليل في دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم «رييرا» ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له في العروض كتاباً ثانياً باسم: «قيد الأوابد وصيد الشوارد» وكتاباً ثالثاً باسم: «الامتعاظ للخليل» ردَّ فيه على السرقسطى المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجا فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ولا أرتاب في أن كتبه جميعاً تؤكد ما ذهبت إليه في فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات في الأوزان المهملة التي أشار إليها الخليل في وضعه لدوائره العروضية، وهي مرسومة بدقة في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن صُباح التجيبى أمير المربِّية التي بناها عبد الرحمن الناصر بالجنوب الشرقي للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية،

والإحاطة ٢٥٠/٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ١٠/٦ والوافى للصفدى (طبع إستانبول) ٨٦/٢.

(١) انظر ترجمة ابن الحداد في الذخيرة ٦٩١/١ والمطمح ص ٨٠ والمغرب ١٤٣/٢ والتكملة رقم ٤٦٨ والخريدة ٢٠٤/٢ والفوات ١٦٧/٢.

وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميراً لها في الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التي امتدت إلى أكثر من أربعين عاماً، وكان يخصص يوماً في كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بليطة الطليطلي والقزاز محمد بن عبادة الإلبيري المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركي ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذي عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدائحه فيه من مثل قوله في إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ      لما كانت الأيامُ عندي ذخائراً  
يُحجُّ ذراهُ الدهرَ عافٍ وخائفٌ      جُموعاً كما وافى الحجيجُ المشاعراً<sup>(١)</sup>  
فزر مَكَّةَ مهما اقترفتْ مائماً      وزرَ أَّفَقَهُ مهما شكوتْ مَفاقراً<sup>(٢)</sup>  
تهيمُ بمرآةِ العصورِ جلالَةً      وتحسدُ أولاهَا عليه الأواخرَا

والصورة في البيت الثاني رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة البديعة، كقوله في مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على مألوف المدائح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشداً.

ويا لك من نَهْرٍ صَوَّلٍ مُجَلِّجٍ      كأن الثرى مُزَنٌ به دائمُ الرَّعْدِ<sup>(٣)</sup>  
كأن يدَ المَلِكِ ابنِ معنٍ محمدٍ      تُفجِّرُهُ من مَنبَعِ الجودِ والرَّفْدِ<sup>(٤)</sup>  
فمن جوده ما فى العمامة من حَيَا      ومن نوره ما فى الغزاة من وَقْدِ<sup>(٥)</sup>  
ومنك أخذنا القول فيك جلالَةً      وما طاب ماءُ الوَرْدِ إلا من الوَرْدِ

وقرَنُ جلجلة ماء النهر في حصباء الثرى بصلصلة الرعد الدائم في السحاب المطر في منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور في البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أخوا له اقتترف ذنباً اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحس الشاعر بشيء من سخط المعتصم عليه، فغادر المرية مولياً وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ.) بسرقسطة، وكان شاعراً يقدر الشعر وأهله كما كان بطلاً مجاهداً

(١) ذراه: حماه وكشفه عاف: طالب معروف.

(٢) مفاقر: وجوه فقر.

(٣) صوئل: شديد الهياج. المزن: السحاب.

المطر.

(٤) الرفد: العطاء.

(٥) الحيا: الغيث والمطر. والغزاة: الشمس.

صاحب غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالا حافلا، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه، وأكثر ابن الحداد من التغني بانتصاراته على ابن ردمير حاكم أراجون، وله فيه من مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناءه حصن المدور في نحر العدو:

مَسَاعِيكَ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ سِهَامٌ      وَرَأْيُكَ فِي هَامِ الضَّلَالِ حُسَامٌ<sup>(١)</sup>  
 وَلِحَاكُ يَرْدِي الْقَرْنَ وَهُوَ مُدَجِّحٌ      وَذِكْرُكَ يَثْنِي الْجَيْشَ وَهُوَ لُهَامٌ<sup>(٢)</sup>  
 كَأَنَّكَ لَا تَرْضَى الْبَسِيطَةَ مِنْزِلًا      إِذَا لَمْ يُطَنِّبْهُ عَلَيْكَ قَتَامٌ<sup>(٣)</sup>  
 كَأَنَّكَ خَلْتَ الشَّمْسَ خَوْدًا فَلَمْ يَزَلْ      يَقْنَعُهَا بِالنَّقْعِ مِنْكَ لِثَامٌ<sup>(٤)</sup>

وواضح أنه أبدع في تصوير غزوات المقتدر المستمرة التي لا يزال يشنها على العدو حربا في إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكنا في الأرض إلا ساحات القتال وقد شُدَّت عليه فيها أطناب القتام وغيار القتال الأسود الكثيف ويُبْعَد في الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذا منه لها لثاما أو حجابا. وحنَّ إلى المعتصم بن صдах، فعاد إليه وإلى المرية، وهو يردد.

وَاصِلُ أَخَاكَ وَإِنْ أَتَاكَ بِجَفْوَةٍ      فَخَلُوصُ شَيْءٍ قَلِمَا يَتِمَكَّنُ  
 فِي كُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مَوْجُودَةٌ      إِنْ السَّرَاجُ عَلَى سَنَاهُ يُدَخِّنُ

وذكرنا في صدر الحديث عنه أن كان مولعا بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سهاها «حديقة الحقيقة» وضاعت فيما ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

زَهَبَ النَّاسُ فَانْفِرَادِي أَنْيْسِي      وَكِتَابِي مُحَدَّثِي وَجَلِيسِي  
 صَاحِبٌ قَدْ أَمِنْتُ مِنْهُ مَلَالًا      وَاخْتِلَالًا وَكُلَّ خُلُقِي بَيْتِيسِي

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشهم طويلا دون محاولة لسخط عليهم أو نقمة، وأخيرا لبى ابن الحداد نداء ربه بالمرية سنة ٤٨٠.

(٣) يطنبه: يغطي كالخيمة. القتام: الغبار.

(٤) الخود: الحسناء. النقع: غبار الحروب.

(١) هام: جمع هامة: الرأس.

(٢) اللهم: الجيش الجرار.

## الأعمى التَّطِيلِي القَيْسِي (١)

هو أبو جعفر - وقيل أبو العباس - أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة التَّطِيلِي القَيْسِي، فهو عربي الأرومة، أما نسبه إلى تَطِيلَة - وكانت تقع إلى الشمال الغربي من سرقسطة - فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه - وربما جده - هاجر منها مبكرا إلى إشبيلية، فولد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد في كتابه «رايات المبرزين» ففيها كان مَرَبَاه وتعلمه، ويعلن مرارا أنه ضَيِّقٌ باستيطانها، يقول عنها:

فَتَاللهِ مَا اسْتَوَطَّنْتُهَا قَانَعًا بِهَا وَلَكِنِّي سَيْفٌ حَوَاهِ قِرَابُ

فهو منها كسيف حواه قراب أوغمد، لا بد أن يسكن لها راضيا أو راغما. وربما بعثه على إعلان ذلك بَرْمٌ وقلقٌ كانت تنطوي عليهما نفسه، بسبب فقدته لبصره، إذ كان ضريرا، وبكر إليه - فيما يبدو - شيء من الصلع أو بعض الشعرات البيض في رأسه، مما جعله يصرخ:

أَمَا اشْتَفْتُ مِنِّْي الْأَيَّامُ فِي وَطَنِي حَتَّى تَضَاقِقَ فِيمَا عَنِّي مِنْ وَطَرٍ (٢)  
وَلَا قَضَتْ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تِكْرُرَ عَلَيَّ مَا كَانَ فِي الشُّعْرِ (٣)

وكان يلتقي في إشبيلية دائما بطائفة من الشعراء والوشاحين المجيدين في مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقي وكان يقدمه على نفسه معترفاً له بالتفوق والسبق في التوشيح كما مرُّ بنا في حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلي هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي بمرافقته في روحاته وغدواته. وليس في ديوانه مدائح لأمرء الطوائف ولا ليوسف بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينا نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ). مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت في القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفي سنة ٥٢٥ بينا يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتبط (مات) شابا (أو قريبا من

(١) انظر في ترجمة الأعمى التَّطِيلِي وأشعاره

(١) انظر في ترجمة الأعمى التَّطِيلِي وأشعاره

(٢) وطر: مأرب.

الذخيرة ٢/٢٢٨ وما بعدها والقلائد ص ٢٧٣

(٣) تكرر: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كرّ الليل

والحريرة ٣/٥١١ وبغية الملتبس رقم ٤٢٩

والنهار.

والغرب ٢/٤٥١ ونكت الهيمان للصفدي ص ٤١٠

ونشر ديوانه وقدم له د. إحسان عباس في دار

الشباب) عندما به اغتبط». ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها  
فإلى سنوات معدودات. وفي ديوانه مرثية حارة لزوجة له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن  
بعدها بأخرى تسمى زهرا، ويذكر في بعض شعره أنها كانت تعنفه لعوده عن التماس  
الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوى الجاه والثراء في إشبيلية من مثل بنى  
الحضرمى وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبى العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء  
طائلا من مهنته وحلّ من السلطان محلا لم يحظّ به أحد من أهل الأندلس في وقته وله  
ينشد:

خَشِنْتَ فلم تترك وأنت منازِعُ      ولِئْتَ ولم تأخذ وأنت قديرُ  
من المَجْدِ دانٍ دونه متعرِّضُ      إلى الهول سباقٌ عليه جَسُورُ  
كفيلٌ بأرواحِ الأنامِ موكلُ      عليمٌ بأسرارِ الحِمامِ خبيرُ

وهو يشير في البيت الأخير إلى مهارة أبى العلاء في الطب وعلاج الأنام أو الناس  
ومعرفة أسرار الحمام أو الموت. ونظم في أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث  
قصائد، ويتوسل في إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف مواطنه، الذى اتخذه  
الأمير المرابطى جليسا له ومستشارا، أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارا، وفي  
إحداها يثنى عليه بمثل قوله:

جنابك للعلا حِصْنٌ حَصِينُ      وذكرُك للمنى دُنْيَا ودِينُ  
طليعةٌ جيشك الظفرُ المَوَاتِي      وظلُّ لوائك الفتحُ المَبِينُ  
جوادٌ بالديار وما حَوَتْهُ      ولو أن الزمان بها صَنِينُ  
قد اهتزَّتْ بأنعمك الليالى      كما تهتزُّ بالثمرِ الغصونِ

وله فى على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة، وله أيضا فيه موشحة بديعة،  
وإحدى فقراتها تمضى على هذه الشاكلة:

سما على      لإمرة المسلمينا  
صبح جلي      راق، النهى والعيونا<sup>(١)</sup>  
سمح أبى      يرضيك شداً ولينا  
كالهندوانى      وكالغمام الهتانِ      وفق الأمانى  
وملء عين الزمان

ومن أكثر من مديحهم ابن حمد بن محمد بن محمد التغلبي قاضي الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بمدائح إليه، وفي أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أَسَدٌ يَمَلَأُ الْعَرِينَ مِنَ الْبَأْسِ      سِ وَطَوْدٌ يَحْمِي مِنَ الْإِمْلَاقِ<sup>(١)</sup>  
 زُهَيْتَ خَطَّةُ الْقَضَاءِ بِهِ زَهْدٌ      وَ حَمَامِ الْفُصُونِ بِالْأَطْوَاقِ  
 أَرِيحِي تَرَاهُ يَهْتَزُّ لَلْبَدِّ      لَ اهْتَزَّازَ الْقَضِيبِ لِلْإِيرَاقِ<sup>(٢)</sup>

وكان صديقا للشاعر الوشاح يحيى بن بقي ورآه يطرق أبواب بني عشرة قضاة سلا رعاة الشعر لزمانه كما مر بنا في ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضي بعد أبيه على وأخاه يحيى، فتبع ابن بقي يقدم إليها مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لِقَاضِي قُضَاةِ الْغَرْبِ وَابْنِ قَضَاتِهِ      تَوَدَّدَتِ الْأَمَالُ وَهِيَ سَوَامِكُ<sup>(٣)</sup>  
 إِذَا سَمِعْتَ أَدْنَاهُ حَتَّى عَلَى الْعُلَا      فَلَا الْجُودُ مَتْرُوكٌ وَلَا الْبَأْسُ تَارِكٌ  
 رَفَعْتُمْ لِأَهْلِ الْغَرْبِ أَعْلَامَ دِينِهِمْ      فَأَبْصَرَ مَا فَوْكَ وَأَقْصَرَ آفَكَ<sup>(٤)</sup>

وقد أضيفت إلى الشاعر في الديوان قصيدة نونية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضي أبا الحسن علي بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها محقق الديوان مع إشارته إلى أن العماد الأصبهاني في الخريدة ذكر أنها في مديح أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، وفي رأينا أن الصواب ما ذكره العماد، لأن القاضي المذكور توفي سنة ٥٠٢ وكان التطيلي لا يعدو حينئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له في الأمير على بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه في بني عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا في ترجمة يحيى بن بقي أن القدماء نصوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقي، فنسبتها إلى التطيلي مخطئة، ونظن ظنا أن الموشحتين رقم ١٠ و ١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن علي بن القاسم حري بهما أن تنسبا أيضا إلى ابن بقي مثل أختهما رقم ١١ في ملحق الديوان إذ هو الذي تفتيا ظلالة كما نص القدماء وتغنى به في غير موشحة. و فقط ذات الرقم ١٣ في مديح من يسمى

(١) العرين: الغيل أو بيت الأسد. البأس: منه.

(٢) طود: جبل. الإملاق: الفقر.

(٣) سوامك: جمع سامك: عال.

(٤) مأفوك: ضعيف العقل. آفك: كذاب مفتر.

(٢) القضيب: العنق: الإبراق: خروج الورقة

يوسف بن القاسم، فهي التي يمكن أن تضاف إلى التطيلي، وخاصة أن نسبتها إليه شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ<sup>(١)</sup> المتصوف في القرن السابع الهجري، وفيها يقول:

إن جئت أرض سَلا      وافيك بالمكارم      فتيانُ  
هُم سطور العُلا      ويوسف بن القاسم      عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر الذي مهد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا: سبعة وعشرين عاما فيما يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكتاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم في الشعر وتشارك في نقد بعض الأبيات، ومن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكاكبان أبو بكر بن القصيرة وابن المرخي محمد بن عبد العزيز، وكانت ممدحة، ومن ثناء التطيلي عليها في قصيدته:

مليكة لا يوازي قَدْرَها ملكُ      كالشمس تَصْفُرُ عن مقدارها الشهبُ  
دُنْيَا ولا تَرْفُ، دِينٌ ولا قَشْفُ      مُلْكٌ ولا سَرْفٌ دَرْكٌ ولا طَلْبُ  
بِرٌّ ولا سَقَمٌ عَيْشٌ ولا هِرْمٌ      جَدٌّ ولا نَصْبٌ وِرْدٌ ولا قَرْبٌ<sup>(٢)</sup>

ويفيض التطيلي في وصف جودها وما تغدق من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشيد بإخوتها يحيى وإلى قرطبة ومحمد محرر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفي منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التطيلي اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: «له أدب بارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى، وذهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز، في الطويل منه والموجز».

(١) العطاء لهذه السيدة في تناول الأيدي ولا يكلف عناء ولا مشقة.

(٢) انظر أزهار الرياض للمقرئ ٢٣٣/٢ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد الغد يعني أن ورد



الرّصافي محمد بن غالب<sup>(١)</sup>

وُلد محمد بن غالب في رصافة بلنسية، فنُسب إليها، وقد رزقت به أسرة متواضعة، إذ كان أبوه رفاً، وكأنما كان مولده في تلك الرصافة بشيراً بأنه سيكون من شعراء الطبيعة في الأندلس لجهاها إذ كانت - كما يقول ابن سعيد في ترجمته بالمغرب - مناظر وبساتين ومياها جارية، وفي بلنسية يقول: «خَصَّها الله بأحسن مكان، وحفَّها بالأشجار والجنان. وحيث خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازة ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة». وفي هذه الجنة الفيحاء نشأ الطفل المرفه غير أنه لم يكتب له أن تتم له نشأته فيها، إذ اضطر أبوه - فيما يبدو - لمبارحتها إلى مالقة وهو لا يزال صغيراً في نحو الثامنة أو التاسعة من عمره، مما جعله - فيما بعد - يكثر - كما قال ابن الأبار في ترجمته بالتكملة - من الحنين إليها ويقصر أكثر منظومه عليها، وفي ذلك يقول عنها:

بلادى التى ريشت قويدمتى بها فريخاً وأوتني قرارتها وكراً<sup>(٢)</sup>  
مهادى ولين العيش فى ريق الصبا أبى الله أن أنسى لها أبداً ذكراً

وطار الطفل صغيراً من وكره مع أبيه إلى عُش متواضع في مالقة، وفيها أخذ أبوه يلقنه حرفته من رفو الملابس، وفسح له من الوقت ما مكنه من الاختلاف إلى كُتّاب لحفظ القرآن الكريم ثم الاختلاف فيما بعد إلى حلقات الشيوخ لتعلم العربية والترود من علوم الدين الخفيف ومن الأدب والشعر. وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، إذ يُروى أنه خرج مع بعض رفاقه في الدراسة إلى نزهة في مالقة، وارتجل في تلك النزهة بيتين أعجب بهما الشيخ المرافق، وتنبأ له أنه سيكون شاعر زمانه. ويقدم عبد المؤمن أمير الموحدين لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ للهجرة، ويُستدعى الشعراء من بلدان الأندلس لاستقباله في جبل طارق أو جبل الفتح، وكان عبد المؤمن - كما مر بنا أمر ببناء مدينة على سفحه، وفيها أنشده شعراء الأندلس مدائحهم فيه، ومن بينهم الرصافي، وهو لا يتجاوز عشرين ربيعاً كما يقول صاحب المعجب، وقصيدته أو مدحته تصوّر شاعرية

(١) انظر في ترجمة الرصافي وأشعاره المغرب ٣٠٩/٤ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها في دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافي البلنسي مع مقدمة عن حياته وشعره.  
(٢) قويدمة الطائر: الريشات في مقدم الجناح.

(١) انظر في ترجمة الرصافي وأشعاره المغرب ٣٤٢/٢ والمعجب للمراكشي ص ٢٨٦ والإحاطة ٥٠٥/١ والتكملة لابن الأبار رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤٣٢/٤ والوفاء

ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت مهدىً الموحدين وإمامهم ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبت في جانب جبل الفتح كالنار التي جاء في القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء ﴿فقال لأهله امكنوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري﴾ وتمثل الرصافي الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحاً قصيدته بقوله:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور	قَبَسْتُ ما شئت من علمٍ ومن نور
فقبضة القدح من نور النبوة أو	نور الهداية تجلو ظلمة الزور
ما زال يقضمها التقوى بموقدها	صَوَّأُ هاجرة قوأم ديجور <sup>(١)</sup>
نور طوى الله زند الكون منه على	سقط إلى زمن المهدي مذخور <sup>(٢)</sup>
حتى أضاءت من الإيمان عن قبس	قد كان تحت رماد الكفر مكفور <sup>(٣)</sup>

ويشيد الرصافي بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهدي إمام الموحدين ابن تومرت وأضوائها التي طبقت البلاد المغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تنهادى بين أيدي مجاذفها وكأنها تفرق في ماء الورد الأرجواني الصافي، وتسرع خائضة التيارات في الزقاق فيخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافي في تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد في عنان السماء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقه بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيّد الخطو غير أنه جوال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيما جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسيير الجبال ودكها دكاً، وبطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به ويهدى دعوته وبسالة جيشه، وينهى القصيدة بتمثله في جبل طارق والمهدي ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبل الطور وموسى وفتاه يوشع قانع الجبابرة الذي تأخرت له الشمس عن مغربها، وكان عبد المؤمن يوشع جديد.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافي أن يقدرها عبد المؤمن

السقط: شرر النار. مذخور: مخبوء.

(٣) مكفور: محجوب مستور.

(١) يقضمها: يطعمها. الهاجرة: نصف النهار عند

اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.

(٢) الزند: الحجر الأعلى الذي تقدح به النار.

وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمي للموحدين أو يسبغ عليه ولاية صغيرة أو جاهًا، وفوجيء بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثيرين الذين زفوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفئ مثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسّر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصمما أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفيا بصنعة زفو الملابس. وسكن غرناطة وقتا وانعددت صداقة بينه وبين شاعرها أبي جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألح عليه في امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها بحاملة لأبي جعفر. وفي بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة في المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحدا، وراجع بعض الشعراء في ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجعه:

يقول أناسُ لو رفعتَ قصيدةً لأدركتَ حَتْمًا في الزمان بها أمرا  
ومن دون هذا غيرةٌ جاهليةٌ وإن هي لم تلزم فقد تلزم الحرًّا

وهي ليست غيرة جاهلية، بل هي غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره في تملق الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجرا زهيدا تأباه النفوس الحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقشي الشاعر وزير ابن هشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش الناثر على الموحدين بمرسية وشرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٧ هـ) فأخذ يرسل إليه هدايا نفيسة، ولم ير الرصافي بدا من أن يشكره، ووالى الوقشي هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجال له	كثر العديدُ وأعوزَ الندُّ <sup>(١)</sup>
من معشرٍ نجمَ العلاء بهم	زُهرٌ كما يتناسقُ العقْدُ <sup>(٢)</sup>
وكانما فاق الأنام بهم	نسبٌ إلى القمرين ممتدُّ
فيرى وليدَهُم المنام على	غير المجرّة أنه سُهْدُ
هيات يذهب عنك موضعه	هطل الغمامُ وجلجل الرعدُ

وظل الرصافي بمالقة قانعا بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا في المديح ولكن في الطبيعة وفي بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه وأصدقائه محرّما على نفسه أن ينتجع أحدا بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم

لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالي لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفي سنة ٥٧٢ وهو في نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأبار مدون بأيدي الناس متنافس فيه.

### ابن زَمْرَك<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد بحى البيازين في غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقي الأندلس، وهي أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حدادا، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضيلا كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعا، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه في الفقه أبا سعيد بن لب وفي الحديث النبوي أبا البركات ابن الحاج وفي الأصول أبا علي منصور الزواوي وفي التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفي العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الغرناطي أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفي الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخريجيه وصنيعته، وعنى به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتبا حسنا. ونراه حين خلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبي سالم المريني يلتحق به في منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التعاون مع أخيه أبي الوليد إسماعيل مدير المؤامرة ضده، ولم يهنأ إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وفتك به زوج شقيقته من أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقباً له الغالب بالله، وتطورت الظروف سريعا، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الغنى بالله إلى إمارته في جمادى الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرك كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب، ونرى ابن زمرك يردد لأستاذه دائما في رسائل وقصائد ولاءه له وحمده وشكره

بكتاب ضخم ساء البقية والمدرك من كلام ابن زمرك، واطلع المقرئ على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثاني من كتابه أزهار الرياض وهي تشغل في هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

(١) انظر في ترجمة ابن زمرك وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٣/٢ - ٣١٤ والكنية الكامنة في شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الابتهاج للتنبكي (طبع فاس) ص ٢٨٢ وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضي (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/٤١٢ وخصه السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ).

على ما أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يترامى إلى ابن الخطيب أن مؤامرة تدبر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المريني عبد العزيز بتلمسان ويحتل ابن زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الغنى بالله. ويرسل الغنى بالله إلى السلطان المريني أبا الحسن النباهي قاضى الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متها بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضى فى مهمته، إذ حمى ابن الخطيب منه السلطان المرينى، غير أن حاميه لم يلبث أن توفى سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس، وتجددت مساعى الغنى بالله للقبض على ابن الخطيب، وأخيرا يقبض عليه فى سنة ٧٧٦ وتقدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برياسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه القديم وصنيعته فى المحاكمة متها له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على لسانه فى كتابه: «روضة التعريف بالحلب الشريف» ويسترسى فى توبيخه. وزُجَّ به فى غياهب السجون، ويأخذى الليلالى دُسا إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل دفنه، فاسودت بشرته وورى التراب مأسوفا عليه لتهمة زائفة دُبرت له كيدا آثما. ونعم ابن زمرك بوزارة الغنى بالله عشرين عاما متوالية أصبح فيها المدبر لشئون الإمارة حتى ليروى ابن الأحرر المؤرخ سفارته الموفقة للغنى بالله إلى الملوك وأنه فوَّض له فى عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين أى بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوَّضه فى الصلح مع النصارى تسع مرات. ويتوفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثانى فىهوى به من حالى إلى غياهب السجون ويرد إليه بعد نحو عام ونصف حرية ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما إقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنن له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجحوده لفضل أستاذه ابن الخطيب والتجنى عليه لمآرب دنيوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته ونقروها وجدناه ينزل فيها منزلا عليا من شعراء الأندلس فى مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث فى كتابه السالف: «البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» أنه خدم جده السلطان الغنى بالله سبعا وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده فى تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة فى ستة وستين عيدا. ويذكر أيضا أن كل ما فى منازل الغنى بالله من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش فى القباب والطاقت والثياب السلطانية فهو له. وينشد المقرئ له فى كتابه أزهار الرياض عن كتاب

«البقية والمدرك» ما يقرب من عشرين قصيدة ومخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة في مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة في مديح ابن الخطيب ولّى نعمته وسوى قصيدة في مديح أبي سالم المريني وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثاني وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مرات في الغنى بالله ومرثية في أستاذه الشريف الغرناطي. ومن أهم مدائحه للغنى بالله يائية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتا استهلها بغزل بديع شغل ثمانية وعشرين بيتا، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلا إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريبَ والبعيد والغيث الذي يهطل على العفاة دائما والباسل الذي يروى غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ في وصف مبانیه في قصور الحمراء مأخوذا بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

ولله مَبْنَاكُ الْجَمِيلُ فَإِنَّهُ      يفوقُ على حكم السعود المبانيا  
بِنَيْتٍ لَه كَفَّ الثَّرِيَا مَعِيذَةً      ويصبح معتلّ النواسم راقيا  
وتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرُ لَوْ ثَبَّتَ بِهِ      ولم تك في أفق السماء جواريا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عُوذَةً له وتيممة من عيون الحساد لشدة سموقه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرُّقِيَّةُ التي يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجرى في قنوات مثبتة في الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ويمضى ابن زمرك فيصور البهو الذي شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرية يحملها اثنا عشر أسدا تجم المياه من أفواهاها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك في وصفه المبني الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلا:

به البَهُوُ قد حاز البهَاءُ وقد غدا      به القَصْرُ آفاقَ السماء مُبَاهِيا  
به المَرْمَرُ المَجْلُوُّ قد شَفَّ نورُهُ      فيَجْلُو من الظُّلْمَاءِ ما كان داجيا  
وراقصية في البَهُوِ طوعَ عِنَانِهَا      تراجع ألحانَ القِيَانِ الغَوَانِيا  
إذا ما علت في الجَوِّ ثم تحدّرت      تحلّى بمَرْفُضِ الجُمَانِ النَّوَاصِيا<sup>(١)</sup>  
يذوبُ لُجَيْنٌ سأل بين جواهرٍ      غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا<sup>(٢)</sup>  
تشابه جَارٍ للعيون بجامدٍ      فلم أدُرْ أَيًّا منهما كان جاريا

وتصويره للنافورة في الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير،

إذ لم يعد يدرى أيها السائل لجين الماء أو جواهر المرمر الناصعة البياض، ويشيد بما في البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. ويلتفت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرش البهيجة وما يعلوها من برج قمارش المصعد في السماء وينشد:

وطامحة في الجوِّ غيرِ مُطالَةٍ      يردُّ مداها الطُّرْفَ أَحْسَرَ عَانِيَا<sup>(١)</sup>  
تمدُّ لها الجوزاءُ كَفَّ مصافِحِ      ويدنو لها بَدْرُ السماءِ مناجيا  
ولا عجبُ أن فاتت الشُّهْبَ بالعلَا      وأن جاوزتْ منها المَدَى المتناها

والأبيات السالفة جميعا لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بنى سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك في نفس القصيدة جنة العريف القائمة في مدخل القصر، وهي من عجائب البساتين والرياض في الدنيا، وكأنما تكمل زينة القصر بل كأنما تكمل العرس البهيج الذي لا يزال قائما فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشحة أكثرها في مديح الغنى بالله، وإحداها في مديح الرسول ﷺ، وجمهورها من مخلع البسيط. واشتهرت له موشحات صبحية يذكر فيها وداع صاحبته في الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله بل عند العرب منذ عمر بن أبي ربيعة وسنعرض لذلك في حديثنا عن الغزل، ويعد ابن زمرك بدون ريب آخر الشعراء الأندلسيين المبدعين.

#### ٤

### شعراء الفخر والهجاء

#### (أ) شعراء الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربي التي رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتغنون به طوال العصور الإسلامية مجسدين فيه دائما مثالياتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والعزة والكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة كما يتغنون عصبياهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التي يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر في الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن

(١) أحسر: كليل.

الثاني الهجري وخاصة على لسان الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذي استطاع بحزمه ومضائه وجلده أن يقضى قضاء مبرما على ثورة أهل الرّبض الجنوبي بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهاجا بعد تلك الواقعة<sup>(١)</sup>:

رَأَبْتُ صُدُوعَ الْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعًا      وَقَدَّمَا لِأَمْتِ الشُّعْبِ مَذَكْتُ يَافِعًا<sup>(٢)</sup>  
 فَسَأَلْتُ تُغُورِي هَلْ بِهَا الْيَوْمَ ثَغْرَةٌ      أَبَادِرُهَا مُسْتَنْضَى السَّيْفِ دَارِعًا<sup>(٣)</sup>  
 وَشَافَهُ عَلَى الْأَرْضِ الْفَضَاءِ جَمَاجِمَا      كَأَقْحَافِ شِرْيَانِ الْهَيْبِدِ لَوَامِعًا<sup>(٤)</sup>  
 تُنْبِيكَ أَنِي لَمْ أَكُنْ فِي قِرَاعِهِمْ      بَوَانٍ وَأَنِي كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعَا

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه في القتال وأنه لا ينكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناقعا. ويهتف شاب أموي متهور في عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدحّون أنه فوق الناس جميعا من بيته وغيره وأنه سيُشعل الأرض ويُضرمها بنيران الحروب، فيزجّ به عبد الرحمن في غياهب السجون ثم يعفو عنه ويرد إليه حريته.

ومرّ بنا في الفصل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسألة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد في نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وقادها في نواحي مالقة عمر ابن حفصون وفي نواحي بطليوس عبد الرحمن الجليقي وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى البيرة في أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صقاله وفتك به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربي القيسي، وساعده الأيمن سعيد بن جودي وكان فارسا وشاعرا مجيدا، وواقع سوار جموع النصارى والمولدين ثارًا لابن صقاله سنة ٢٧٦ وفتك بسبعة آلاف منهم، وتغنى بهذه الواقعة سعيد بن جودي مفاخرًا متوعدا ومهددا، وأخذ كثيرون من العرب من كورتي جيّان وريّة يتجمعون إلى سوار في حصن غرناطة، بينما لاذ المولدون والنصارى بعمر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل البيرة، ولسعيد بن جودي فيها قصيدة

(٣) مستنضى السيف: شاهره. دارعا: لايسا درع

الحرب والنزال.

(٤) أقحاف: رموس. الهبيد: الحنظل.

(١) المغرب ٤٤/١.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشقاقات الثاثرين، ورأب: لأم وأصلح. والشعب: الصدع والانفراج بين جيلين. والاستعارة واضحة.



حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسألة والنصارى غيرة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمر العرب عليهم سعيد بن جودي، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يجرّس فيها العرب ويفاخر بأسه وشجاعته، وسنخسه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المعارك الحربية هذه الفتنة معركة شعرية<sup>(١)</sup> نُظِم فيها شعر حماسي كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعبلي واسمه عبد الرحمن (أو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى الأسدي محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بني خزيمه، ومن قول العبلي في إحدى قصائده يهون من العرب وجموعهم بغرناطة:

منازلهم منهم قفارٌ بلاقعٌ تجارى السّفا فيها الرياحُ الزعازعُ<sup>(٢)</sup>

ومضى يهدد العرب بوقائع مبيرة تحصدهم حصدا، فردّ عليه الأسدي ناقضا لقوله، منذرا متوعدا له ولجماعته بالويل والثبور يقول:

منازلنا معمورةٌ لا بلاقعُ وَقَلَعْنَا حَصْنَ من الضَّيْمِ مانعُ  
ألا فاندنونا منها قريبا بوقعةٍ تشبُّ لها وَلِدَانِكُم والمَرَاضِعُ

وإتفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقي فيها سبعة عشر ألفا منهم حتفهم وصرخوا واستغاثوا بالأمير عبد الله في قرطبة، ومن مشهور قول العبلي في تلك الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصتُ قناتهمُ وذُلُّوا وَزُعِرَ ركنُ عَزْمِهِمُ الأذُلُّ

وناقضه الأسدي بقصيدة طويلة يعيره هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم من تقطيل وسفك لدمائهم، ومن قوله مفاخرا:

لواءُ النُّصْرِ معقودُ علينا بتأييدِ الإلهِ فما يُحَلُّ

وللأسدي شعر كثير يجرّس فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين في كورة البيرة حتى إذا خلفه حفيده الناصر قضى على مثيرى هذه العصبية الجنسية في كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت لأهل الأندلس وحدتهم عربا ومسألة ومولدين.

(٢) بلاقع: مقفرة. السفا: التراب.

(١) انظر في أشعار هذه المعركة المقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

ومن طريق ما يُروى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠ هـ) أن نزاراً الفاطمي الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) كتب إليه كتاباً يسبّه فيه وهجوه، فرد عليه المستنصر الرواني: «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك:

ألسنا بنى مروان كيف تبدّلت بنا الحال أودارت علينا الدوائر  
إذا وُلد المولود منا تهلّلت له الأرض واهتزت إليه المنابر»

فأفحمه<sup>(١)</sup> ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخى المستنصر الرواني المسجون في عهد المنصور بن أبي عامر شعر كثير يفتخر فيه بنفسه وبآبائه، وسنفرده بكلمة. وللمنصور بن أبي عامر<sup>(٢)</sup>:

رمتُ بنفسى هولَ كل عزيمة وخاطرتُ والحرُّ الكريم يخاطرُ  
رفعنا المعالى بالعوالى بسالة وأورثناها فى القديم معافير<sup>(٣)</sup>

وحكاياته في الجهاد كثيرة، ويقال إن له نيفاً وخمسين غزوة في النصارى وإنه كان لا يخلّ في أكثر أيامه بغزوتين في السنة يشنها عليهم، ومّر بنا في الفصل الأول حديث عنه وعن غزواته المظفرة. ولا بن شهيد<sup>(٤)</sup>:

بالعلم يفخرُ يومَ الحفَلِ حامله وبالعفاف غداةَ الجمع يزدانُ  
وما لأن قناتى غمَزُ حادثة ولا استخفَّ بحلمى قَطُّ إنسان  
أمضى على الهول قُدماً لا يُنهِنُهْنى وأنتنى لسفيهى وهو غضبانُ

ومضى يقول إنه لا يرد على حمق بحمق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتملق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطوى حانيا الضلوع على لظى المسغبة دون تبرم أو ضيق، بل مع البشر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن<sup>(٥)</sup> حزم:

أنا الشمس فى جوِّ العلوم منيرةٌ ولكنَّ عيى أن مطلعى الغرْبُ  
ولو أنتى من جانب الشرق طالعٌ لجدُّ على ما ضاع من ذكرى النَّهبُ

(١) انظر هذه الرواية في النسخ ٥٥٨/٣.

(٢) المغرب ٢٠٣/١.

(٣) العوالى: الرماح. ومعافير بفتح الميم: قبيلة.

ابن أبي عامر وهى يمنية.

(٤) ديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكى (طبع

القاهرة) ص ١٦٣.

(٥) الذخيرة ١/١٧٣.

وهو حقاً - كان شمساً منيرة في العلوم ولم يعبه طلوع شمس من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضيء ما بينها إلى اليوم، وسنفرده له حديثاً في الفصل الأخير.

وتتكاثر على ألسنة أمراء الطوائف أشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد وبكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحميتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتدبيرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيلية<sup>(١)</sup>:

أَقِومُ عَلَى الْأَيَّامِ خَيْرَ مَقَامٍ وَأوقُدُ فِي الْأَعْدَاءِ شَرَّ ضِرَامٍ  
وَأَنْفَقُ فِي كَسْبِ الْمُحَامِدِ مُهْجَتِي وَلَوْ كَانَ فِي الذِّكْرِ الْجَمِيلِ حِمَامِي  
وَأُبْلِغُ مِنْ دُنْيَايَ نَفْسِي سُؤْلَهَا وَأَضْرِبُ فِي كُلِّ الْعَلَا بِسَهَامِي

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغنا من دنياه كل ما يتمنى محققاً لنفسه كل ما يريد من المعالي والأمان. وسنخص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشعر كأن الفخر يغيض معينه بعدهم في نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول<sup>(٢)</sup> علي بن أضحى الهمداني الغرناطي المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نَحْنُ الْأَهْلَةُ فِي ظِلَامِ الْجِنْدِسِ حَيْثُ احْتَلَلْنَا فَهَوَ صَدْرُ الْمَجْلِسِ  
إِنْ يَذْهَبُ الدَّهْرُ الْخَثُونُ بَعْرُنَا ظَلَمًا فَلَمْ يَذْهَبْ بَعْرُ الْأَنْفَسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلدة تنزلق عنها توأ من الزمن دون أن تنال منها أي نيل. ولابن خفاجة قصيدة يفتخر فيها بنفسه وبرفاق له في مسقط رأسه بجزيرة سُقْر يعيشون للباس والنجدة والنضال وخوض الدماء بخيلهم المحجلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تذر، وفيها يقول<sup>(٣)</sup>:

مَضَاءٌ كَمَا سَأَلَ الْحُسَامُ مِنَ الْعِمْدِ وَبَأْسٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزُّنْدِ  
تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرُ النَّجِيعِ سُلَافَةٌ تَدَارُ وَلَا غَيْرُ الْأَسْنَةِ مِنْ وَرْدِ  
وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ لِيَحْدُنُ الْعَلَا تَرِبُ النَّدَى لِدَّةِ الْمَجْدِ  
أَخْوَضُ الطَّبَا تَخْضَرُ فِي النَّعْقِ بِيضُهَا فَالْقَى الْمَنَايَا الْحُمْرَ فِي الْحُلْلِ الرُّمْدِ

(٣) ديوان ابن خفاجة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

(١) الحلة السرياء (تحقيق د. مؤنس) ٤٤/٢.

(٢) مغرب ١٠٨/٢.

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور. - على عادة ابن خفاجة في شعره - فرفاقه لا يقلّون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساودمارا، وإنهم ليتساقون المنايا حتى لكان سلافتهم وخمرهم فيها نجيع الدماء التي يسفكونها من الأعداء ولا ورد لهم سوى الأسنة الفاتكة بهم، ويقول - تواضعا - إنه ليس صدرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خدن وصديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وإنه ليخوض معهم الحرب وقد أصاب النقع أو الغبار الطبا بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلل والثياب بغير قليل من الكثرة، وهو يندفع - مثلهم - إلى الأعداء، مقتحبا إليهم المنايا الحمر التي تسحقهم سحقا.

وبهذه الروح العاتية التي لا تقهر، يقول الطبيب الشاطبي أبو عامر محمد بن يتيق<sup>(١)</sup> المتوفى في آخر سنة ٥٤٧:

دَعْنِي أَصَادِ زَمَانِي فِي تَقْلِبِهِ	فَهَلْ سَمِعْتَ بَظْلًا غَيْرَ مُنْتَقِلِ
وَكَلِمَا رَاحَ جَهْمًا رُحْتَ مَبْتَسِمًا	كَالْبَدْرِ يَزِيدُ إِشْرَاقًا مَعَ الطُّفْلِ
وَلَا يَرُوعَنَّكَ إِطْرَاقِي لِحَادِثِيَةِ	فَاللَيْثُ مَكْمَنُهُ فِي الْغَيْلِ لِلْغَيْلِ
وَمَا تَأْطُرُ عَطْفُ الرَّمْحِ مِنْ خَوْرِ	فِيهِ وَلَا أَحْمَرُ صَفْحِ السِّيفِ مِنْ خَجَلِ
لَا غَرَوَانُ عَطَّلَتْ مِنْ حَلِيهَا هَمِي	وَهَلْ يُعِيرُ جَيْدُ الطَّبِيِّ بِالْعَطَلِ

وهو يقول دعني أصادي الزمان وأعارضه في تقلباته بي وأحداثه معي، وهل سمعت بظل ثابت في مكانه، ومهما تجهم لي ونظر إلى مكفهراً الوجه فسأظل مبتسماً كالبدر يزداد إشراقاً مع الطفل أو الظلام الداجي، وإذا رأيتني مطرقاً إزاء حادثة ملمة فإنه إطراق الليث في غياله للوثوب على فريسته، ومهما يصبني من أحداث فلن تتنى إرادتي، وحتى إن ظن أنها تتنى فهو تتنى حد الرمح شديد المضاء، وسأظل قاطعاً نافذا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة الخجل. وإن همي لأعظم من أن تتحلى بالرمح والسيوف، فهي أحد من أي سيف وأمضى من أي رمح، وإنها مجردة من تلك الحلى تجرد جيد الطبي رائع الجمال. وهو زهو ما بعده زهو وعجب لا يمثاله عجب بمروءته وشخصيته ورجولته.

ونلتقى بسهل بن مالك الأزدي الغرناطي البارع في العلوم القديمة والحديثة، وكانت

قد نالته محنة في عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغرّب عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد<sup>(١)</sup> :

وإِنِّي من عزمي وحزمي وهمتي      وما رُزِقْتَهُ النفسُ من كرمِ الطُّنَجِ  
لَفِي مَنْصِبٍ تَعْلُو السَّمَاءَ سِمَاتُهُ      فتنبتُ نورًا في كواكبها السَّبْعِ  
تَدْرَعْتُ بالصَّبْرِ الجميلِ وأجلبتُ      صُروفُ اللّيالي كي تمزّق لي دِرْعِي<sup>(٢)</sup>  
فما ملأتُ قلبي ولا قبضتُ يدي      ولا نَحَتَّتْ أصلي ولا هَصَرْتُ فَرْعِي<sup>(٣)</sup>  
فإنْ عَرَضْتُ لي لا يفوه بها فمي      وإن زَنَحْتُ لي لا يضيّق لها ذَرْعِي<sup>(٤)</sup>

ونفس سهل - حقًا - كانت نفسًا كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة، بل ظل رابط الجأش قوي النفس أمام صروف الدهر وهومه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولا بن<sup>(٥)</sup> جَزَى المار ذكره المتوفى سنة ٧٨٥ :

وكم من غادَةٍ كالشمس تبدو      فيسلي حُسْنُهَا قلبَ الحزينِ  
غَضَّتْ الطَّرْفَ عن نظري إليها      محافظةً على عِرْضِي ودينِي

وهو يفتخر بعفاه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخه بكلمة، ولم نعرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشاركة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرائهم فسحوا للفخر في أشعارهم، وهم سعيد بن جودي وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

### سعيد<sup>(٦)</sup> بن جودي السعدي

هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي من هوازن من جند

- (١) الذليل والتكلمة للمراكشي (بقية السفر الرابع - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣ وراجع في ترجمته التكلمة رقم ٢٠٠٧ واختصار القدر المعلق ص ٦٠
- (٢) أجلبت: أحدثت جلبة وصخبًا، كناية عن تكاثرها
- (٣) هصرت فرعى: كسرتة، كناية عن أن صروف الليالي انزاحت عنه دون أن تنال منه.
- (٤) الذرع: الطقة.
- (٥) أزهار الرياض ١٨٦/٣.
- (٦) انظر في ترجمة سعيد بن جودي المقتبس: الجزء الخاص بالأمر عبد الله (راجع الفهرس) والحميدي ص ٢١٣ والبيعية ص ٢٩٤ والحلة السيرة لابن الأبار ١٥٤/١ وما بعدها وأيضًا في ترجمة سوار بن حمدون السابقة لترجمته والمغرب ١٠٥/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥ والإحاطة ٢٧٥/٤.

دمشق الداخلين إلى الأندلس في عهد الولاة، ولّى جده الأقرب جودى بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوار بن حمدون المحاربى أمير عرب البيرة المنازعين للمولدين والمسألة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتحيز سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب في تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودى - وكان شاعراً - أهم مساعداً له في حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثار زعيم العرب قبله في تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صقاله، إذ قتل منهم فيما يقال سبعة آلاف، ونرى ابن جودى يرميهم حينئذ بشواظ من شعره منشداً:

قد طلبنا بئارنا فقتلنا	منكم كل مارق وعنيد
قد قتلناكم بيحيى وما إن	كان حكم الإله بالمردود
فاصلوا حرها وحر سيوف	تتلظى عليكم كالوقود
لم تزالوا تبغونها عوجاً حت	سى وردتم للموت شر وورود

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صقاله غدرا، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسألة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثني عشر ألفا، ويرميهم بقصيدة ملتبهة، يقول فيها:

لقيتم لنا مملومةً مستحرةً	تجيد ضرب الهام تحت العوامل <sup>(١)</sup>
وظلت سيوف الهند تحصد جمعكم	حصاد زروع أينعت للمناجل <sup>(٢)</sup>
ولم يبق منكم غير عان مصفد	يقاد أسيراً موثقاً فى السلاسل <sup>(٣)</sup>
وأخر منكم هارب قد تضايقت	به الأرض يعدو من جوى ويلابل <sup>(٤)</sup>

ولم يلبث سوار قائد هاتين المعركتين أن قُتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فأمّر العرب مكانه في زعامتهم سعيد بن جودى صاحبه، وظل يذود عنهم زياد الأبطال سبع

لحصد الزرع

(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.

(٤) يعدو: يفر. جوى: ضيق. بلايل: وساوس.

(١) مملومة: كنيية. مستحرة من استحر القتل إذا

اشتد. الهام: الرءوس. العوامل: الرماح

(٢) تحصد: تقطع. أينعت: حان حصادها وقطعها.

وأينع الثمر: حان قطفه. المناجل: جمع منجل: آلة

سنوات طوال، مثيراً فيهم الحماسة والحمية لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعرا حماسيا كثيرا لسعيد نظمه في تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت:

وما كان إلا ساعةً ثم غودروا كمثل حصيدٍ فوق ظَهْرِ صَعِيدٍ<sup>(١)</sup>  
وله مرثية في بطل وربما رثى بها سوار بن حمدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن  
لقوا حتفهم في تلك الحروب، وله أيضا بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها  
بشجاعته على شاكلة أبي دلف قائد المأمون في غزلياته. وله في جارية تسمى جيجان  
سمعها بقرطبة تغنى للأمير عبدالله في إمارة أبيه محمد، فهام بها دهرًا دون أن يراها وفيها  
يقول:

سَمِعِي أَبِي أَنْ يَكُونَ الرُّوحَ فِي بَدَنِي فَاعْتَاضَ قَلْبِي مِنْهُ لَوْعَةَ الْحَزَنِ  
أَعْطَيْتِ جِيجَانَ رُوحِي عَنْ تَذَكُّرِهَا هَذَا وَلَمْ أَرَهَا يَوْمًا وَلَمْ تَزْنِي  
فَقُلْ لَجِيجَانَ يَا سُوْلِي وَيَا أَمْلِي اسْتَوْصِ خَيْرًا بَرُوحِ زَالٍ عِنْدَ بَدَنِ<sup>(٢)</sup>  
كَأَنْتِي وَأَسْمَهَا وَالدَّمْعَ مَنْسَكُبُ مِنْ مَقْلَتِي رَاهِبٌ صَلَّى إِلَى وَثْنِ  
ومن عجب أن قُتِلَ هذا الفارس البطل غيلةً بأيدي بعض أصحابه في شهر  
ذى القعدة من سنة ٢٨٤.

عبد الملك<sup>(٣)</sup> بن هذيل

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل، كان أبوه هذيل بن خلف بن رزين من أكابر جند  
البربر، وفي أول الفتنة بقرطبة سمت نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طليطلة  
وسرقسطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدين بحسن سياسته وتدبيره. ومراً بنا أنه  
أول من أفرط في ثمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار  
كانت أديبة تحسن الغناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبيعة واللعب بالسيوف  
والخناجر المرفهة، وابتاع لها هذيل قينات مغنيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته  
أرفع ستائر أمراء الطوائف. والستارة عندهم تعنى المسرح الذي كانت تغنى وترقص عليه

(٣) انظر في عبد الملك بن هذيل وشعره القلائد ٥١  
والخريدة ١٠٩/٣ وما بعدها والحلة السرياء ١٠٨/٢  
والمغرب ٤٢٨/٢ وأعمال الأعلام ٢٣٨ والبيان المغرب  
لابن عذاري ٣٠٩/٣ والمطرب ص ٣٩.

(١) الحصيد: الزرع المحصود أو المقطوع.  
الصعيد: وجه الأرض  
(٢) حذف الياء في «استوص» في خطاب جيجان  
لضرورة الوزن.

القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفي هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر، فكان طبيعياً أن تتفتح فيها ملكته. وتوفي أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثاً في الندى، وليثاً في العدا» بينما يقول ابن الأبار إنه «كان - مع شرفه وأدبه - متعسفا على الشعراء، متعسراً بمطلوبهم من ميسور العطاء» ويقول ابن بسام: «كان له طبع يدعو فيجيبه، ويرمى نُغرة الصواب عن قوسه فيصيبه». وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابنُ تاشفين وتوفي سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتحجب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم في مركب ولا ملابس. وله وقائع مع النصارى مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلاح وإعداد هي التي اضطرتة إلى عدم الاتساع في النوال على الشعراء لا عن شح وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطرار، وقد تدل على ذلك دعوته للوجود في بعض شعره قائلًا:

اهدُم بناءَ البخلِ وأرْفُضْ لَهُ      مَنْ هَدَمَ البخلِ بنى مَجْدَهُ  
لا عاش إلا جائعًا نائِعًا      مَنْ عاش في أمواله وحده

وهو يدعو على البخل الشحيح الذي يقيض يده عن العطاء للناس ولا يشركهم في أمواله أن يعيش جائعًا نائعًا أو ظامًا وبعبارة أخرى فقيرًا بائسًا. وكان موقفه كريمًا من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية - كما مرُّ بنا - فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاصَّ ضياعه وأملاكه، وإن شقَّ عليه ذلك لبعد السهلة ويرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلداتها الجنوبية، هي شنتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخرًا:

شَاوَتْ آلَ رزِينِ غيرَ محتفلٍ      وهم - على ما علمتم - أفضلُ الأممِ  
قومٌ إذا سُئلوا أغنوا وإن حَرَبُوا      أفنوا وإن سوبقوا جازوا مَدَى الكرمِ (١)  
جادوا فما يتعاطى جودَ أنبلهم      مَدُّ البحارِ ولا هَطَّالَةُ الدِّيمِ  
وما ارتقيتُ إلى العُلْيَا بلا سببٍ      هِيَهَاتَ هل أَحَدٌ يَسْعَى بلا قَدَمِ  
فمن يَرُمُّ جاهدا إدراكَ منزلتي      فَلْيَحْكُنِي في النَّدَى والسَّيفِ والقلمِ

ومبالغة منه مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزين إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم -

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطعوا وتعذوا.



ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعدًا إلى ذروة العلياء إلا بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أنا مَلِكٌ تَجَمَّعَتْ فِيَّ خَمْسٌ كُلُّهَا لِلأَنَامِ مُحِي مُمِيتٌ  
هي ذهنٌ وحكمةٌ ومضأٌ وكلامٌ في وقتِه وسكوتٌ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغي الصمت ولا يتكلم إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذا ماضيًا كالسهم المصمية. وروى له ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذمًا شديدًا من يتناولون الناس بالسخرية والإزراء عليهم وتلبهم بينما هم في الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب فيها من رهبته أمام عيون صاحبه وما تسله من المحاظها بينما لا يخشى السيوف في القتال ولا يرهبها، يقول:

إذا سلَّت الأُلحاظُ سَيْفًا خَشِيتهُ وفي الحرب لا أخشى ولا أتوقَّعُ

ولعل في كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والنبيل والشيم الكريمة.

### يوسف الثالث<sup>(١)</sup>

حفيد الغني بالله، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بني الأحمر النصرين، وله ديوان كبير حَقَّقَه الأستاذ عبد الله كتون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف في مقدمته التي سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرئ في نفحه - كما جاء في مقدمة محققه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهي ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت في أثناء حكمه فرناها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثاني، وله مراث في بعض إخوته وأبنائه. وفي الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبي سعيد عثمان المريني صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣هـ) بسبب جبل طارق ومن

(١) تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسي لحجى ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

(١) انظر في ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كتون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره في

يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيراً به وتصفو بينها العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه. وكان نصارى الشمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة وموادعة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف في بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله في قصيدة حماسية من قصائده:

راق الزمان وجاءنا ميقاته	بالضحوة الغراء من أيامه <sup>(١)</sup>
نأت في حرب الصليب وحزبه	بشفيح كل موحد وإمامه
مستأصلي بيع العداة مهتمي	ماصان فيها الكفر من أصنامه <sup>(٢)</sup>
والله جل جلاله متكفل	بالنصر والمعهود من إنعامه

ويوسف يعلن أنه انتصر في ضحوة أضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدى في جهاده لهم بجهاد الرسول ﷺ للكفار. مصمماً على استئصال بيعهم أو كنائسهم وتهتيم أو تهشيم أصنامهم مستعيناً بعون الله في نصره عليهم وسحقهم سحقاً ذريعاً. وطبعياً أن يكتظ ديوان يوسف بحمم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لقد علمت نصر باني كفيها	إذا هاجت الهيجاء واحمرت الأرض <sup>(٣)</sup>
أدافع عنهم بالصوارم والقنا	وأحمى حماها أن يُنال لها عرض
بنا ساعة الهيجاء يحمي وطيسها	وتهتك أستار البعثة إذا انقضوا
إلى عترة الأنصار تغزي أرومتي	إلى معشر في الذكر حُبهم فرض

وهو يقول إن بني نصر من أسرته يعلمون بلاءه في الحرب وأنه حين يحمي وطيسها أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتلى صرعى يذود عن حماهم ويدافع عنهم مستميتاً بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمى إلى رهط الأنصار إذ أسرته من سلالة سعد بن عبادة، ومعروف أن عداده في السابقين الأولين من الأنصار. وينشد مفاخرًا:

ألست سليل الصيد من آل حمير  
وخير ملوك الأرض قومًا ولا فخر<sup>(٤)</sup>

(١) الضحوة: الضحى.

(٢) بيع: كنائس مهتمي: محطمي.

(٣) كفيها: ضامن. الهيجاء: الحرب. احمرار

(٤) الأرض: كناية عن كثرة الدماء.

(٤) الصيد: جمع أصيد: السيد.

لنا المنصبُ الأعلى على كل منصب لنا العِزَّةُ القَعَسَاءُ والغُرَرُ الغُرُّ<sup>(١)</sup>  
لنا الهُضْبَةُ الشَّمَاءُ ساميةُ الدُّرَى لنا الرّايةُ الحمراء يَهْفُو بها النَّصْرُ<sup>(٢)</sup>  
مكارمُ أُعِيَتْ كُلُّ من رام حَصْرَها وهيهاتَ ما للشُّهبِ في أفقها حَصْرُ

وهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحَوْل والطُّول من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة والهضبة الضاربة في السماء التي لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهي مكارم يعزُّ حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم في السماء. ووراء ما اخترناه ليوסף الثالث من أشعار في الفخر والحجاسة أشعار ذات نسيج ضعيف، وهي طبيعية ممن ينشأ مثله في الملك والترف والنعيم.

### (ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم في الشعر العربي، ومر بنا - في كتابنا عن العصر الجاهلي - أنه كان في الأصل لعنات يصيبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تنزها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خاصة إلى سباب وتهوين للمهجوِّين على السنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلونه كما يسلون سيوفهم في حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة في الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول ﷺ، ولم يلبث أن احتدم بالعراق في العصر الأموي ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سُميت بالنقائض. وظل التهاجي مضطرباً بين الشعراء في العصر العباسي، وسقطت منه شعل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعر في الأندلس لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفي مقدمتهم يحيى الغزال، وسنخسه بكلمة، ومن هؤلاء الهجائين المبكرين عبد الله<sup>(٣)</sup> بن الشمر المتفنن في العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حيان<sup>(٤)</sup> عن قاض اسمه يُخامر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشمر استغل ذلك يوماً - وهو في مجلس القضاء - فألقى بين البطاقات التي كان ينادى بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوبا عليها: يونس بن متى،

(١) القعساء: الوطيدة. الغرر: الأعمال العظيمة.

الأوائل في الفصل الثاني.

الغر: المشهورة.

(٤) المقتبس (تحقيق د. مكي - طبع بيروت).

(٢) الشاء: السامقة: يهفو: يخفق.

ص ٦٥ - ٦٦.

(٣) مرت مصادر ابن الشمر في الحديث عن علوم

المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة في يده أمر أن يُدعى له بمن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرّر الهاتف النداء خارج مجلس القاضى ولا يجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولها من علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

يُخامرُ ما تنفكُ تأتي بِفِضْحَةٍ      دعوتَ ابنِ مَتَى والمسيحِ بنِ مَرِيَمَا  
فَفاكَ قَفا جَحشٍ ووجْهكَ مَظْلَمٌ      وَعَقْلُكَ ما يَسَوَى مِنَ البَعْرِ دِرْهَمَا

فتألب الفقهاء على يُخامر وأجمعوا على ذمه والقده فيه، وثارَت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايته. ومن الهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن<sup>(١)</sup> بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجى ثمانية عشر شاعراً رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراض الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن يقربّه ويجزل له النوال، وأسرتَه النصارى في إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوه شامتا به في قصيدة طويلة:

تَصَبَّحَ أبا حَفْصٍ عَلى أَسْرِ هاشِمٍ      ثلاثُ زُجاجاتٍ وخمَسَ رَواطِمِ<sup>(٢)</sup>  
وَبُحَّ بالذى قد كنت تُخْفِيهِ خِفيَةً      فقد قطعَ الرحمنُ دولَةَ هاشِمِ

وافتدى الأمير محمد هاشما فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب لمؤمن حباتل السعاية عند أميره فحبسه، وطال حبسه حتى توفي سنة ٢٦٧. ومن كبار الهجائين في عهد الأمير عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) القلقاط<sup>(٣)</sup> محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسئل لسانه على الناس جميعا حتى على الأمير عبدالله وفيه يقول:

ما يَرْتَجِي العاقلُ فى مُدَّةِ الرَّجُلِ فيها موضعُ الراسِ

وكان صديقا لابن عبد ربه، وبدرت منه بادرة له، فتوجس منه شراء، وتهاجيا وأقذع كل منهما في هجاء صاحبه. وتخف حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر،

(٢) رواطم لعلها من آنية الخمر في الأندلس.  
(٣) انظر في القلقاط وشعره الزبيدى ٣٠١ والحميدى ٩١ وبغية الملتس ١٣٤ والمغرب ١١١/١ وابن عذارى ١٩٣/٢ وإنباه الرواة ٢٣١/٣ والمقتبس الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(١) انظر في ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره الحميدى. ٣٣٠ والجزء السابق من المقتبس في مواضع مختلفة (راجع الفهرس) وقضاة قرطبة للخشنى ١٠٣ - ١٠٥ والحميدى ص ٣٣٠ وبغية الملتس ص ٤٥٦ والمغرب ١٣٢/١.

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بإراقة الخمر وتشدد في ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بذمه، من بينهم الرمادى: يوسف بن هرون، فأمر بسجنه حتى إذا توفى عادت إليه حرите، واشتهر له قوله في طفل حلق أهله شعره خوفاً عليه من الحسد<sup>(١)</sup>:

حلقوا رأسه ليكسوه قُبْحًا      خيفةً منهم عليه وشُحًا  
كان قبل الحلاق ليلاً وصُبْحًا      فمحووا ليله وأبقوه صُبْحًا

وغضى إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشتد معه الهجاء ولو أن ابن بسام عُنى في الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون بابا سواه وفي مقدمتهم السُميسر وسنفرد له ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب<sup>(٢)</sup> الملقب بالحجّام شاعر قلعة رباح غربي طليطلة وقد سقطت في حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالبا لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو عليّة القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التي تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشده صاحب الذخيرة:

صغارُ الناس أكثرهم فسادا      وليس لهم لصاحبة نهوضُ  
ألم ترَ في سباع الطير سراً      تسالمتنا ويؤذينا البعوضُ  
وقوله:

فيا للملك ليس يرى مكاني      وقد كُجِلت لواحظه بنورى  
كذا المسواك مطرّحاً هواناً      وقد أبقى جلاءً فى الثغورِ

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيراً، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشيء من الاستطالة مع الإقلال والجذب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالاً وإجداً، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر<sup>(٣)</sup> الأصبلي، وهو كثير الذم والهجاء للناس

روايات المرزبن ص ٨٢.

(١) روايات المرزبن (طبعة القاهرة) ص ٧٨.

(٢) انظر في أبي عامر الأصبلي وشعره الذخيرة

(٢) راجع في أبي تمام غالب الحجّام وشعره

٨٥٧/٣ والمغرب ٤٤٤/٢ والحريدة ٣٠٨/٢.

الذخيرة ٨٢١/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠/٢

بمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغادَ يَعْتَمرون دورًا ومالي في بلادِ الله دارُ  
أجولُ فلا أرى إلا رِعاعًا كبارُهُم إذ اختبروا صغارُ

ونسبت لعهد أمراء الطوائف أكبر<sup>(١)</sup> معركة للهجاء ضد يهود غرناطة، ذلك أن كورة البيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوى بن زيرى الصنهاجى زمن الفتنة، فاتخذ غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتباً له يهودياً يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقب بابن النغريَّة، وكان داهية خبيثاً درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفى حبوس سنة ٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة ٤٦٧ وفي عهده أصبح ابن النغريَّة رئيس وزراءه أو وزيره الأول بحسن تدبيره لشئون المال، وبالغ باديس في الثقة به، بينما هو كان يعد نفسه حامياً لليهود في الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرعى مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدري شيئاً من شئون الحكم، وبلغ من عداوته للإسلام أن كان لا يجد حرجاً من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن في أشعار، وتوفى سنة ٤٥٦ وكان قد أعد ابنه يوسف ليخلفه في وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب، وأخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفي مقدمتهم السُّميسر وأبو الحسن يوسف بن الجدل القائل في سخط وغضب<sup>(٢)</sup>:

تحكمت اليهودُ على الفُروجِ وتاهتُ باليغالِ وبالسُروجِ  
وقامت دولةُ الأندالِ فينا وصار الحكمُ فينا للعلوجِ<sup>(٣)</sup>  
فقل للأعور الدجالِ هذا زمانكُ إن عزمتَ على الخروجِ

(١) انظر على ابن النغريَّة لابن حزم (طبع القاهرة) ص ٩ - ١٨.

(٢) الذخيرة ٥٦٢/٢

(٣) العلوج: جمع علج: اللفظ.

(١) انظر في هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٧٦٦/٢ وما بعدها وانظر المغرب ١١٤/٢ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٢٦٤/٣ والإحاطة ٤٣٩/١ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة

وأصبح المسلمون في غرناطة، يموجون بالحنق والغيط من يوسف واليهود الذين اعتصروا طبيبات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة الكامن، إذا أبو إسحق الإلبيري الذي سنترجم له بين الزهاد يدهم بقصيدة حماسية ملتهبة، بل بالشعلة الشعرية المضطربة شواظا ونارا حامية، وإنه ليهتف في مطلعها برجال صنهاجة الحاكمين<sup>(١)</sup>:

ألا قُلْ لَصَنْهَاجَةَ أَجْمَعِينَ	بدور النَّدِيِّ وَأَسْدِ الْعَرِينِ <sup>(٢)</sup>
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً	تَقَرَّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامَتِينَ
تَخَيْرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا	ولو شاءَ كانَ منَ المسلمِين
فَعَزَّ الْيَهُودَ بِهِ وَأَتَّخَوْا	وتَاهَوْا وكانوا منَ الأَرذَلِينَ <sup>(٣)</sup>
ونالوا منهاهم وجازوا المَدَى	فحانَ الهلاكُ وما يَشْعُرُونَ

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يبقيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوالين يحملون أخراجهم على ظهورهم في صغار وذل وهوان باحثين في المزابل عن خرق من الثياب ملوثة يتخذونها أكفانا لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحا مننيا حتى يتتبه ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميهم يوسف أفتاه - كفقيهه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فبادِرْ إلى ذَبْحِهِ قُرْبَةً	وَضَحِّ بِهِ فَهوَ كَبَشٌ ثَمِينٌ
ولا تحسبن قتلهم غُدْرَةً	بل الغُدْرُ في تركهم يعبثون
وقد نكتوا عهدنا عندهم	فكيف تلام على الناكثين

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها في الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صراح أن يرسل إليه جنودا إلى غرناطة أملا في أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفي مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسور كثيرون من الرعية قصره حين تبينت

(١) ديوان الإلبيري (طبع مدريد) ص ١٥١. ومأواه.

(٢) الندى: مجلس القوم. العرين: غيل الأسد. (٣) اتنخوا: تعاطموا وتكبروا.

لهم جليّة نواياه مصممين على قتله، فاخْتبأ منهم في بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار الهجائين في عصر المرابطين عبد الله<sup>(١)</sup> بن سارة الشنتريني المتوفى سنة ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: «رأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تُربى على حصَى الدُّهْناء، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم» ويقول إنه أُضرب عن ذكرها إلا لمعا قليلة لمنهجه الذي اتخذها في الذخيرة، وهو أن ينحى عنها الهجاء وخاصة المفحش منه، وكان ابن سارة مقترراً عليه في الرزق، فتنقل طويلاً في بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوراقة، وفيها يقول ذاماً هاجياً:

أما الوراقة فهى أنكد حرفة أغصانها وثمارها الحرمان  
شبهت صاحبها بإبرة خائط تكسو العرأة وجسمها عريان

ويكثر في زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجياً، ومثله ابن خفاجة وابن البني وفيهم يقول مخاطباً لهم:

أهل الرياء لبستم ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم  
فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال بابن القاسم  
وركبتم شهب الدواب بأشهب وبأصغ صغت لكم في العالم

وهو يتهمهم بالمرآة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمتهم المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدراً لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. ومن عنف بالفقهاء في الهجاء الأبيض<sup>(٢)</sup> محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ وولع بهجاء الزبير المرابطى حاكم قرطبة بمثل قوله:

عكف الزبير على الضلالة جاهداً ووزيره المشهور كلب النار  
مازال يأخذ سجدة في سجدة بين الكئوس ونعمة الأوتار

(٢) راجع في ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد المسافر ص ٦٦ ونفع الطيب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٨٣٤/٢ والحريدة ٣١٥/٢ والقلائد ٢٦٠ والتكملة ٨١٦ والبقية رقم ٨٩٦ والمغرب ٤١٩/١ وابن خلكان ٩٣/٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.



فإذا اعتراه السَّهُوُ سَبَّحَ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَانِ وَرَنَّةُ الْمِزْمَارِ

وكانت في الأبيض جراءة شديدة، وأفحش في بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له: ما دعاك إلى هذا الهجاء؟ حتى إذا أخذ يقرّعه ويوجعه باللوم قال له هازئاً به: إننى لم أر أحق بالهجو منك ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلمها إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وأمر بقتله، وهو حمق منه ما بعده حمق. وكان معاصره اليكفى يهجو المرابطين مثله، غير انه لم يبلغ مبلغه في الإقذاع وهو من كبار الهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبى العلاء بن زهر وابن باجة - بسبب المشاركة في مهنة الطب كما يقول المقرئ - ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، فقال فيه ابن<sup>(١)</sup> باجة:

ياملك الموت وابن زُهرٍ جاوزتما الحدَّ والنهائَةَ  
ترفقاً بالورى قليلاً فى واحدٍ منكما الكفائَةَ

وهى في رأينا دعابة وممازحة، لا هجاء ذميم كما ظن المقرئ، مما جعله يعقّب لأبى العلاء بن زهر ببيتين يصف فيها شخصاً بالزندقة وأنه لا بد أن يصلب والجذع والرمح حاضران، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعابة. ومن الهجائين المخضرمين الذين عاشوا في عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى<sup>(٢)</sup> المخزومى أبو بكر محمد، وأنشد له ابن سعيد في المغرب هجاء كثيراً، من ذلك قوله في إحدى مقطوعاته يهجو قوما لقوه لقاء قبيحا:

وأنتم سننتم كلَّ مُحدَثٍ سُبَّةٍ ولم تتركوا فيها لحاقاً لآخر

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبة وكل مذمة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها على كل لاحق، حتى استحقوا لعنة تزرى سوءاً وعاراً بلعنات كل من في المقابر كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة زهون<sup>(٣)</sup> - وكانت من بيت فضل وعلم - هجاها قائلاً:

ألا قلّ لنزهونة مالها تجرُّ من التيه أذيالها

المغرب ٢٢٨/١ والإحاطة ٤٢٤/١ ٢١٦/٣

(٣) تأتى فى الفصل التالى مراجع زهون.

(١) نفع ٤٣٤/٣ وما بعدها.

(٢) انظر فى ترجمة الأعمى المخزومى وشعره

فردت عليه بهجاء موجه أخرسه. وكما هجا تلميذته التي كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابناً له بقوله:

الحقُّ أبلغُ لستَ أنتَ وحقٌّ مَنْ      أحيا بك الأجلافَ ممن يُفْلِحُ<sup>(١)</sup>  
لا تهتدى بفضيلةٍ لا ترعوى      بملاميةٍ لا أنت ممن يصلح  
يزدادُ عقلك ما كبرتَ تناقصاً      وتلجُّ في صممٍ إذا ما تنصَّحُ<sup>(٢)</sup>

وبدلاً من أن يتعاطف مع ابنه فلذة كبده ويصوغ له النصح برفق يجرح مشاعره بهذه السهام المصمية. ويقول ابن سعيد عنه في مطلع ترجمته نقلاً عن الحجاري: «بشار الأندلس انطبعا ولسنا وأداة، وهو الذي أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد». ويروى ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يبره ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله في دار تلتفا، وقال للغلام له: أسأل في الموضوع الذي نزل فيه المخزومي متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهم بالرحيل زادا وينظر له في دابة تحمله، وأساء الغلام الطريقة إذ ضرب على المخزومي فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبياتا منها:

لا ترجون بني سعيدٍ للندى      فالظلُّ أقيدُ منهم للسائلِ  
قومٌ مصيبتهم بطلعةٍ وافدٍ      وسرورهم أبداً بخيبةٍ راحلِ

ومن كبار الهجائين في عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد<sup>(٣)</sup> بن الصفار الأعمى القرطبي المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوع في الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروى ابن سعيد أنه لما قال أبو زيد الفازازي كاتب أبي العلاء المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التي أولها: «الحزم والعزم منسوبان للعرب» يشير بذلك إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة في مديح يحيى بن الناصر الموحدى أخى المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجيا له بقوله:

وإن ينازعك في المنصور ذو نسب      فنَجَلُ نوحٍ ثوى في قسمة العطبِ  
وإن يقلُّ أنا عمُّ فالجوابُ له      عمُّ النبيِّ بلا شكٍّ أبولهبِ

المغرب ١/١١٧ واختصار القدر المعلى ص ٢٠٣  
والتكملة ص ٣١٣.

(١) أبلغ: مضى.

(٢) تلج: تنمادى.

(٣) انظر في ترجمة ابن الصفار الأعمى وشعره

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرّض على قتله، وفرَّ ابن الصفار إلى أبي زكريا بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتباً شهرياً إلى أن بارح دنياه. ويظل شرر الهجاء يتطاير في إمارة بني الأحمر، ويكثر الشعراء حينئذ من ذم الزمان والناس، على نحو ما يلقانا عند البسّطي محمد بن عبد الكريم القيسي بأخرة من زمن تلك الإمارة، وقد صبَّ كثيراً من هجائه على القضاة والمشرّفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضي بلده<sup>(١)</sup>:

تَبّاً لِقَاضِي بَسْطَةَ ابْنِ مَفْضَلٍ      تَبّاً لَهُ فِيهِ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي  
إِذْ غَيَّرَ الْأَحْكَامَ عَمَّا أُصَلَّتْ      تَغْيِيرَ جَبَّارٍ عِنْدِ مُعْتَدِي

وحرى بنا أن نتوقف قليلاً بإزاء أربعة من كبار الهجائين في الأندلس على مر عصورها هم يحيى الغزال والسُّمَيْسِر واليَكِّي وعلي بن حَزْمُون.

### يحيى<sup>(٢)</sup> الغزال

هو يحيى بن الحكم البكري الجبّاني المعروف باسم الغزال، وُلد حوالي سنة ١٥٦ للهجرة وتوفي حوالي سنة ٢٥٠ وإذا صحَّ ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره في أرجوزته التاريخية من قوله:

أَدْرَكْتُ بِالْمِصْرِ مَلُوكًا أَرْبَعَةً      وَخَامِسًا هَذَا الَّذِي نَحْنُ مَعَهُ

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشام وحفيده الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لُقّب بالغزال وهو ممن رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدباً وعلماً. ويبدو أنه كان يتولى أحياناً بعض أعمال للدولة وخاصة في زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع في بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشترى

٦٤ - ٦٥، ٦٩، ٧٠، ١٣٤ والحميدى رقم ٨٨٧  
والبغية للضبي رقم ١٤٦٧ والمغرب ٥٧/٢  
والمطرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن عذارى  
٩٣/٢ والنفع ٢/٢٥٤ واليتيمة للتعالي ٥٦/٢  
وكتاب القضاة للخشى ص ٨٣. ونشر ديوانه  
د. محمد رضوان الداية بدار قتيبة.

(١) انظر كتاب البسّطي آخر شعراء الأندلس  
للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت)  
ص ١٩٤.

(٢) راجع في ترجمة يحيى الغزال المقتبس:  
الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد  
(تحقيق د. مكّي - طبع بيروت) ص ١١ - ١٣.

للدولة منها حاجتها وكان السعر قد هبط، فرأى أن يكتفى برد ما يماثلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرا فذا فاستعطفه ببعض منظومه أو بعبارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب به، ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتيوفيل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد القضاء على غارة النورمان الدانماركيين بغربي الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى ملكهم، ونجح فيها كما نجح في السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشغله لبعض الوظائف ولسفارته المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش في غير قليل من لين العيش وأنه كان في أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعا - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من المرارة مما دفعه إلى أن يكثر من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب في أول قدومه على قرطبة، ويهجو الناس جميعا حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أرى هاهنا من الناس إلا      تَعَلَّبًا يَطْلُبُ الدِّجَاجَ وَذِيبًا  
أو شبيهاً بِالْقَطِّ ألقى بعين      ه إلى فَاةٍ يريُدُ الوثوبًا

فالناس بين ثعلب ماكر وذئب مفترس وقطّ ينتظر فرصة من فارة، وجميعهم متحفز للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه قاضى الجماعة بقرطبة يُخامر بن عثمان الجذامى الجياني مواطنه، ولأه عبد الرحمن قضاء الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه ومن أحكامه، كقوله في شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملا لا يحسن أداءه على نحو ما كلف القاضى يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ له كلفتنى غيرَ صنعتى      كما قَلَدُوا فَضَلَ القضاءِ يُخامرا  
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لى      سأفضحُ ما قد كان منك مُغايِرا  
فقلتُ له: رأسُ الفُضوحِ إقامةُ      علينا كذا من غيرِ عِلْمٍ مُكابرا  
وخبطُك فى دينِ الإلهِ على عمى      خِبَاطَةَ سكرانٍ تكلمُ سَادِرا<sup>(١)</sup>  
فلن يَحْمِلَ الصَّخَرَ الذُّبابُ ولن ترى الـ      سَلِاحَ فِيزجِينِ السِّفِينِ مَوَاخِرا<sup>(٢)</sup>

(٢) مواخر: تمخر البحر أى تشقه.

(١) سادرا: غير مبال.

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخطط في قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، ويمثله في حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التي لا يوتأها إلا أولو العزم بذياب يُطلب إليه أن يحمل صخرا ضخما وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفنا تشق مياه البحار شقا. وما يزال يهون منه ويزرى به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلي الحصى تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤذي الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجحيمه على ما قدمت يداه:

أيا لا هياً في القصر قرب المقابر يرى كل يوم وارداً غير صادر  
تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما تلذ به من نقر تلك المزاهر<sup>(١)</sup>  
سترحل عن هذا وإنك قادم - وما أنت في شك - على غير غافر

وكان الأمير عبد الرحمن ولّى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ في سنة ٢٣٦ يفكر في صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهماكه في اللذات، فأغرت طروب نصراً أن يسقيه شربة سم حتى يعجله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدح نصر لمشيئتها، ونبه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة في معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستطع أن يعصى له أمراً، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقبا له بأبي الفتح ومتشفيا فيه من قصيدة طويلة:

أغنى أبا الفتح عما كان يأمله حُفيرة حُفرت بين المقابير  
فصار فيها كأشقى العالمين وإن لُفوه بالنفح في مسك وكافور

وأمر عبد الرحمن بإنزال زرياب مغنيه في قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصراً قد ترك قصره إلى مسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفته أو كما يقول سوى ثلاثة أثواب. ولعل فيها أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجع في زمنه.

هو خلف بن فرج الإلبيري، من أعلام الشعراء في زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقده، وكأنما تخصص بالقدح والهجو في أهل زمنه، حتى ليكتب في هجائهم كتابا في مجلدات سماه «شفاء الأمراض في أخذ الأعراض». وكانت كورته إلبيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجي منذ سنة ٤٦٧ وكان السميسر ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين في ملاهيهم بين الكاس والطاس متنازدين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصارى فاغرة تريد أن تلتقم بلدانهم، وإنهم ليرهبونهم حتى ليدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

نادِ الملوكَ وقل لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في	أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	إذ بالنصاري قمتم
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبي شقتم

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثا منكرة مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم في يده، بل إنهم ليستعدون به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصير في حكم إماراتهم، شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمر غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادي، فعبد الله بن بلقين غارق في تشييد قلعة يتحصن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخرا:

يبني على نفسه سفاهاً كأنه دودة الحرير

فهو - في رأيه - كدودة القز لا تزال تنسج حولها معقلا لها وهو ليس معقلا بل عقلا تلفه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمر وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعا بمثل قوله:

١٦٧/٢ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب

١٠٠/٢

(١) انظر في ترجمة السميسر وشعره الذخيرة

٨٨٢/١ وما بعدها، ونفح الطيب ٢٢٧/٣، ٢٩١.

٤١٢، ١٠٨/٤ والحמידى ص ١٩٣ والخريدة

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ      أبا البرية إنَّ الناسَ قد حكموا  
أَنَّ البرابرَ نَسَلُ مِنْكَ قَالَ إِذْنُ      حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَازَعَمُوا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجع المؤلم توعده الأمير عبد الله بسفك دمه، ففر إلى المعتصم بن ضُدادح أمير المريَّة مستنجرا به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السميسر سيئ الظن بالناس سوءا شديدا، حتى لينشد:

رَأَيْتُ بَنِي آدَمٍ لَيْسَ فِي      جَمُوعِهِمْ مِنْهُ إِلَّا الصُّوَرُ  
وَلَمَّا رَأَيْتُ جَمِيعَ الْأَنَامِ      كَذَلِكَ صِرْتُ كَطَيْرِ حَذِرُ  
فَمَهْمَا بَدَأَ مِنْهُمُ وَاحِدٌ      أَقُولُ أَعُوذُ بِرَبِّ الْبَشَرِ

فقد أصبح من الناس جميعا مثل طير حذر لا يزال يتلفت يمينا ويسارا خشية أن يقع في شبكة من شباكهم رصدوها له، وإنه ليستعيد منهم ومن شرهم بربه لاجئا إليه ضارعا. وعلى شاكلة ظنه السيئ بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء إذ يقول فيهم:

أنا أحبَّ الشعرَ لكنني      أبغضُ أهلَ الشعرِ بالفِطْرَةِ  
فلستَ تلقى رجلا شاعرا      إلا وفيه خَلَّةٌ تُكْرَهُ  
والعُجْبُ والنُّوكُ إلى الجهلِ في      أكثرهم إلا مع النُدْرَةِ

وطبيعي أن يعجب كل شاعر بشعره، أما النوك أو الحمق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ في وصفهم بهما. ويعلن مرارا أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جعله يكثر من أشعار طريفة في الزهد والقناعة والحياة والموت.

### اليكِّي (١)

هو أبو بكر يحيى بن سهل اليكِّي من قرية يَكَّة شمالي مُرْسِيَّة، قال فيه الحجارى: «هو ابن رومي عصرنا وحُطِيثة دهرنا، لا تجيد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء» عاش في زمن المرابطين ولحق دولة الموحدين إلى أن توفي حوالي سنة ٥٦٠

١٨٨/٣ ٥٨٠/٣ والضبي في البغية ص

(١) انظر في ترجمة اليكِّي وشعره زاد المسافر لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢/٢٦٦ والخريدة

وكان المرابطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سماوا المثلثين، ونراه يعلل لاتخاذهم اللثام بمثل قوله:

لَمَّا حَوَّوْا إِحْرَارَ كُلِّ فُضِيلَةٍ غَلَبَ الْحِيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلَّثَمُوا  
 فِي مَدْحَةٍ بَلَغَ بِهَا غَايَةَ رِضَاهُمْ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ طَبْعُهُ وَمَا فَطَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَجَاءِ الْمَقْدَحِ،  
 فَهَجَاهُمْ وَقَدَحَ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَلِثَامَهُمْ رَامِيًا لَهُم بِالذَّنَاءَةِ وَنَقَصَ الْعِفَافَ قَائِلًا:  
 فِي كُلِّ مَنْ رَبطَ اللَّثَامَ ذَنَاءَةً ۖ وَلَوْ أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى كَيْوَانٍ<sup>(١)</sup>  
 لَا تَطْلُبُنَّ مُرَابِطًا ذَا عَفَّةٍ ۖ وَاطْلُبْ شِعَاعَ النَّارِ فِي الْعُدْرَانِ

وفي نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسي - كأندلسي - أن المثلثين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها في براثن النصارى الشاليين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلاقة التي سحقوهم فيها سحقا بعيدة. وربما هجاهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموه بمثل قوله:

يَا أَهْلَ فَاسٍ لَقَدْ سَاءَتْ ضَمَائِرُكُمْ فَأَصْبَحَتْ فِيكُمْ الْآرَاءُ مَتَّفِقَةً  
 وَرَبَّمَا اجْتَمَعَتْ فِي بَعْضِ سَادَتِكُمْ نِقَائِصٌ أَصْبَحَتْ فِي النَّاسِ مُفْتَرِقَةً

ويتبادى في البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنما يحصى عيوب نفسه، وبالمثل ما أحصاه من خصال عشرة ذميمة للفقير وزوجته، وما وصم به قاضي بلده: مرسية من جوره وأكله أموال اليتامى وأموال المساجد سرقة وغصبا، يقول:

يَطَالِبُهُ الْآيْتَامُ فِي جُلِّ مَالِهِمْ وَيَطْلُبُهُ فِي حَقِّهِ كُلُّ مَسْجِدٍ<sup>(٢)</sup>

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدرّك أو إلى هذا المنحدر لا يصبح من الفن والشعر في شيء، إذ يصبح سبًا وقذفًا مذمومًا. وربما كان أخف ما هجا به أهل فاس قوله:

قَصَدْتُ جِلَّةَ فَاسٍ أَسْتَرْزِقُ اللَّهَ فِيهِمْ<sup>(٣)</sup>  
 فَمَا تَيْسَّرَ مِنْهُمْ دَفَعْتَهُ لِبَنِيهِمْ

(٢) جل: معظم.

(٣) جلة: أجلاء.

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس

وشؤم.



وإنما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئاً من الدعابة، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال بيمينه يدفعه لأبنائهم بيساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله في بعض مهجويته:

أَعِدِ الوضوءَ إذا نطقتَ به متذكِّراً من قبل أن تُنسى  
واحفظْ ثيابك إن مررتَ به فالظِّلْ منه ينجسُ الشَّمْسُ

وكانه يصفه بدنس لا يمانله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو في الإقذاع والإيلام. وفي أهاجيه فحش كثير. وتردد ابن سعيد في المغرب في نسبة موشح له وقال إنه لابن المربني ويروى لليكي مما يدل على أنه شارك في نظم الموشحات.

### على<sup>(١)</sup> بن حزمون

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن حزمون، من المريّة، يقول فيه ابن سعيد: «صاعقة من صواعق الهجاء» ويقول ابن عبد الملك المراكشي: «كان شاعراً مفلحاً ذاكراً للأدب والتواريخ أحد بواقع<sup>(٢)</sup> الدهر، بذىء اللسان مقذع الأهاجي». ومربنا في حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدى بعد قفوله من غزوة الأرك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان، وأنشدنا منها قطعة هناك، ويذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه وفد على المستنصر الموحدى (٦١٠ - ٦٢٠هـ) بمراكش مادحا له ومتظلماً من واليه المجريطي على مرسية لضربه بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالي وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفي المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالي واشتد أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مرثية رائعة لقائد الأعنة برسية سنعرض لها في غير هذا الموضوع، وجره هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعماً أنه فرّ في إحدى المواقع مع النصارى قائلاً:

يودُّ بأن لو كان في بطنِ أمِّه جَنِيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو

(١) ٢١٤/٢ وما بعدها وأزهار الرياض ٢١١/٢.

(٢) بواقع جمع باقعة: داهية.

(١) انظر في ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب

ثَقِيلٌ وَلَكِنْ عَقْلُهُ مِثْلُ رِيْشَةٍ      تَطِيرُ بِهَا الْأَرْوَاحُ فِي مَهْمِهِ دَوٌّ<sup>(١)</sup>  
 تَمِيلُ بِشِدْقِيَّتِهِ إِلَى الْأَرْضِ لِحَيَّةٍ      تَنْظُنُّ بِهَا مَاءً يَفْرَغُ مِنْ دَلْوٍ  
 وَقَدْ حَدَّثُوا عَنْهُ بِكُلِّ نَقِيصَةٍ      وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يَرَوِي وَلَا يَرَوِي

وهو تجنُّ على هذا القائد الذي كان مشهورا في قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى يصفه بالجبن، وهو يرى منه، وبثقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التي لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهي مبالغة في هجاء مقذع كان حريا به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأى أن يلتقى بالوزير الموحدى أبي سعيد بن جامع، فقصده داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقبل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ بَيْنٍ      وَمِنْ وَقُوفٍ عَلَى دَارِ بَيَابِينِ  
 وَمِنْ زِيَارَةِ أَرْبَابٍ بِلا عَدَدٍ      لَا يَمْلِكُونَ حَيَاتِي لَا وَلَا حَيَاتِي<sup>(٢)</sup>  
 إِنِّي وَجَدْتُهُمْ لَمَّا رَجَوْتُهُمْ      كَالرِّيْحِ تَطْلُبُهَا مَا بَيْنَ كَفَيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أدبيا وغيثا مدرارا وممدحا للشعراء، ولكنها نزعة الهجاء في ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسرعا لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنما أراد أن يقتصص منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تَأَمَّلْتُ فِي الْمَرْأَةِ وَجْهِي فَخَلَّتُهُ      كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهْوِ  
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلْ خَلِيقَتِي      فَإِنَّ بِهَا مَا قَدْ أَرَدْتَ مِنَ الْهَجْوِ  
 كَأَنَّ عَلَى الْأَزْرَارِ مِنِّْي عَوْرَةَ      تَتَادَى الْوَرَى غُضُّوا وَلَا تَنْظُرُوا نَحْوِي  
 فَلَوْ كُنْتُ مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ لَمْ أَكُنْ      مِنَ الرَّائِقِ الْبَاهِي وَلَا الطَّيِّبِ الْحُلُوِّ

وفي الحق أنه كانت في ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هي التي دفعته إلى أن يسلك طريقة ابن حجاج البغدادي الماجنة المفحشة في كثير من شعره، وكان وشاحا مجيدا ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم في عروضها ورويا موشحة ماجنة مكثرا فيها من الفحش. وينهى المراكشي حديثه عنه بقوله: «ونال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة خوفا من لسانه» وبعبارة أخرى خوفا من هجائه البذيء المقذع.

(١) الأرواح: الرياح. مهمه: مفازة. دَوٌّ: واسع.  
 (٢) حيني: هلاكي وموتى.

## الشعراء والشعر التعليمي

ذكرنا في كتاب العصر<sup>(١)</sup> العباسي الأول أن رقى الحياة العقلية في هذا العصر دفع الشعراء إلى استحداث فن الشعر التعليمي، وكان من أوائل السابقين إليه أبان بن عبد الحميد فترجم كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية في ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينما تتحد في الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليلة ودمنة في هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة في تاريخ ملوك الفرس وفي الفقه وأحكام الصوم والزكاة. ومن نظم في هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفرزاري، إذ نظم في علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعي فيه قصيدة في ذكر الملوك والجباة الهالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتمر يكثر من النظم في هذا الفن التعليمي، وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان. ولعلى بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليقة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين في هذا الفن الجديد - إن لم يكن أولهم السابق إليه - الشاعر يحيى الغزال الذي مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم في فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين الفاتحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسائها مستقصيا محسنا<sup>(٢)</sup>. وتلتقى بعده بتام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبدالله إلى أن توفي في حدود سنة ٢٨٠ ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولائها والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم<sup>(٣)</sup>، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخمة<sup>(٤)</sup> وفي ذلك ما يؤكد أنها كانت مفرطة في الطول.

(١) العصر العباسي الأول ص ١٩٠ وما بعدها

(٢) نفع الطيب ٢٨٢/١

(٤) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكى (نشر دار

(٣) الحلة السيرة تحقيق د. حسين مؤنس (طبع

الكتاب العربي بلبنان) ص ١٧٩.

وإذا استمررنا في تتبع الشعر التاريخي التعليمي وأراجيزه التقينا بأرجوزة<sup>(١)</sup> ابن عبد ربه التي سجّل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعا لأبياته فيها على تلك السنوات وهي في نحو ٤٥٠ بيتا، وقد استهلها بقوله:

سبحانَ مَنْ لَمْ تَحَوِّهِ أَقْطَارُ      وَلَمْ تَكُنْ تَدْرُكُهُ الْأَبْصَارُ  
وَمَنْ عَنَتْ لَوَجْهِهِ الْوُجُوهُ      فَمَا لَهُ نِدٌّ وَلَا شَبِيهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامدا له على آلائه التي أسبغها على الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن كانت حباته قد تناثرت وعمّت الفتن في كل الأنحاء وكثر الثوار في كل مكان، وإذا عبد الرحمن بغزواته المتوالية سنويا يعيد إلى الأندلس وحدتها ويقضى قضاء مبرما على الثوار والمرّاق ويأخذ في منازل نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يدٍ وهم صاغرون، ونكتفى من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة<sup>(٢)</sup> السنة الأولى من غزوات الناصر وهي سنة ثلاثائة، وكان قد أعد جيشا ضخما خرج به من قرطبة في السابع من شهر رمضان في تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جيان واتجه إلى حصن المنبلون وثأثره سعيد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورحل إلى حصن شمنتان وثأثره عبيدالله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلا له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورحل إلى الحصون التي كانت موالية لعمر بن حفصون في جيان ثم في البُشُرَات وافتتحها جميعا، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون في إقليم إلبيرة من الحصون فافتتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفا. ورأى أن يريح جيشه وكان قد فتح سبعين حصنا من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعاقل تبلغ نحو الثلاثائة، وهي فتوح لم يسمع بمثلها - كما يقول ابن حيان - لملك واحد من ملوك الأرض في غزوة واحدة، وقفل منها عائدا إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه في أرجوزته مشيدا بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خانعين:

وَجَمَّعَ الْعُدَّةَ وَالْعَدِيدَا      وَكَثَّفَ الْأَجْنَادَ وَالْحُشُودَا  
ثُمَّ انْتَحَى جِيَانَ فِي غَزَاتِهِ      بَعَسْكَرٍ يَسْعُرُ مِنْ حُمَاتِهِ<sup>(٣)</sup>

المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) يسعر: يتقد. حماة: جمع حام.

(١) انظر الأرجوزة في العقد الفريد ٤/٥٠٠ وما بعدها.

(٢) راجع هذه الغزوة في الجزء الخامس من

فأذعنت مُراقها سِراعا      وأقيلت حُصونها تَداعي  
 وافتتح الحصون حِصْنا حِصْنا      وأوسع الناسَ جميعًا أَمنا  
 ثم انتحى من فُورِهِ إلبيره      وهى بكل آفةٍ مَشهوره  
 ولم يدعُ من جِنها مَريدا<sup>(١)</sup>      بها ولا من إنسها عَنيدا  
 إلا كساهُ الذلُّ والصَّغارا      وعَمه وأهلَه دَمارا  
 وانصرف الأميرُ من غَزاتِهِ      وقد شفاه اللهُ من عُداتِهِ

والأبيات ليس فيها الحرارة التي ينبغي أن تموج بها إزاء هذه الغزوة التي ليس لها مثيل في تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت في أرجوزة من الشعر التاريخي التعليمي الذي تفتقر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائي المتوهج حرارة. ولا بن عبد ربه مدائح كثيرة في الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل في نفس هذه الغزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله في مدحه للناصر<sup>(٢)</sup>:

في نصف شَهْرٍ تركت الأرض ساكنةً      من بعد ما كان فيها الجورُ قد ماجا  
 لما رأوا حومةَ الشاهين فوقهم      كانوا بُغائًا حوالِها ودُراجا<sup>(٣)</sup>  
 ويقول في وصف عدله في رعيته:

أحيا لنا العدلَ بعد مِيتتِهِ      وردَّ روحَ الحياة في جَسَدِهِ

ونلتقى في عصر المرابطين بأهم ناظم للشعر التعليمي التاريخي، ونقصد أبا طالب عبد الجبار الملقب بالمتنبى، وسنفرده بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبي الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة في نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب». وأهم من نظموا بعده في هذا اللون التاريخي من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذي ستأتي ترجمته في الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سماها «رَقْمُ الحِللِ في نِظْمِ الدُولِ» وهى تاريخ شعري للدول الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبديين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمرء الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بغرناطة وبنى مرين بإفريقيا، وطُبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضي، ويسوق ابن الخطيب في تضاعيفها نثرا لتوضيح الأبيات، وفي كتابه «الإحاطة» اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الربضي وما كان

(١) مريدا: خبيثا شريرا.

(٢) الجزء الخامس من المقتبس ص ٦٢.

(٣) الشاهين: من جوارح الطير وسباعها. البغاث

والدرج: طائران صغيران والاستعارة واضحة.

من ثورة الفقهاء وأهل الریض علیه وسفكه لدماء كثيرین وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه في حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع لأحد في الثورة علیه عهدا ولا ذمة، يقول لسان الدين مشيرا إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام<sup>(١)</sup>:

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما      قام بها ابنه المسمى الحكما  
واستشعرَ الثورةَ فيها وانقبضُ      مستوحشا كاللثيث أقعى ورَبَضُ<sup>(٢)</sup>  
حتى إذا فُرِصَتُهُ لاحَتْ نَفْضُ      فأفحشَ الواقعةَ في أهل الرَبِضُ  
وكان جبارا بعيدَ الهمة      لم يَرَعَ من إل بها أو ذِمة<sup>(٣)</sup>

وإذا تركنا التاريخ وشعره التعليمي إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهي أكثر من أن تحصى في الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علما دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها في العالم العربي وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة في العلم الذي نظمتها مها شرقنا أو غربنا في البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بين فيره الشاطبي الذي مر ذكره بين القراء في الفصل الثاني، وقد سهاها - كما مر بنا - حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبةً إليه، وعدتها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وقد شرحت مرارا، شرحها العلم السخاوى وغيره، وظلت المرجع الأساسى للقراء منذ عصر الشاطبي إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطى وقلنا هناك إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سهاها: «عقد اللآلى في القراءات السبع العوالى»، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها<sup>(٤)</sup> من الشهرة والذیوع. ودوت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكي لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس في الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطأ لمالك وسهاه: «التمهيد لما في الموطأ من المعانى والأسانيد» ويقول ابن حزم - كما مر بنا - «لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا» ولعل ذلك ما جعل الشاطبي ينظم قصيدة في

(١) الإحاطة ١/٤٨٢

(٣) إل بتشديد اللام: عهد.

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن

(٢) اللثيث: الأسد. أقعى: جلس على إلبته

حجر ٧٣/٥.

ونصب ساقيه وفخذه. ربض: طوى قوائمه ولصق

بالأرض.

خمسائة بيت تحيط علماً بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسي حتى آخر أيام العروبة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات في العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبي بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله في القراءات<sup>(١)</sup> منظومة باسم «إيضاح المعاني في القراءات الثماني» ومنظومة ثانية في علم الفرائض (الميراث) باسم: «كنز المفاوض في علم الفرائض» ومنظومة ثالثة في علم الأصول باسم: «مهيع الوصول إلى علم الأصول» وله في الفقه المالكي أرجوزة في نحو ١٦٩٠ بيتاً نشرت في باريس منذ القرن الماضي وكانت تدرس في جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيراً ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه وأحكامه على نحو ما نجد في رائية<sup>(٢)</sup> أبي الحسن بن الحصار، وهي اثنان وعشرون بيتاً في بيان المدني والمكي من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكي.

وكان طبيعياً أن تشارك الأندلس المشرق في نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينهما في كتابه «البديع» إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسناً وضم إليها صور البيان الأساسية وهي الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبي الإصبع المصري مائة واثنين وعشرين محسناً. وتأخذ في الظهور منذ علي بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعيات<sup>(٣)</sup>، وهي منظومات يتضمن كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعیه من وزن البسيط في ١٤٥ بيتاً موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسناً من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أبا حيان الغرناطي ينظم قصيدة في علمي البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحلبي والإربلي في أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسي أسهم في تلك القصائد ابن جابر الوادى آشى المترجم له بين شعراء المديح النبوي، إذ نظم بديعية من بحر البسيط

الأول من السفر الثامن ص ٢١٠.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٣٥٨

وما بعدها.

(١) انظر في أسماء هذه المنظومات لابن عاصم

النسخ ١٩/٥.

(٢) راجع الذيل والتكملة للمراكشي: القسم

في مائة وسبعة وعشرين بيتا وجعل موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم  
وساها: «الحلة السِّيرَا في مدح خير الورى» واستهلها بقوله:

بَطِيَّة أَنْزَلَ وَيَمُّ سَيِّدِ الْأُمَمِ وَأَثْرُ لَهُ الْمَدْحَ وَأَثْرُ أَطْيَبِ الْكَلِمِ<sup>(١)</sup>

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرُّعَيْنِي، ويقول في مقدمته لها إن ابن  
جابر أتبع في سرد المحسنات البديعية الخطيب القزويني في كتابيه الإيضاح والتلخيص،  
ولعل ذلك ما جعله يكتبها فيها بنحو ستين محسنا.

ولعل الأندلس لم تكثر من النظم في علوم كما أكثرت من نظم علوم النحو والتصريف  
واللغة، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائي الجبَّاني المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق،  
ويعد أشهر نحاة القرون العربية المتأخرة لا في الأندلس فحسب بل في العالم العربي  
جميعه، وكان نظم الشعر التعليمي سهلا عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق  
الدقائق في النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيزه ومنظوماته فيها المصوغة  
صياغة بديعة، وفي مقدمتها نظمه المفصل للزخمشري في النحو باسم «المؤصل في نظم  
المفصل» ومنظومته المطولة «الكافية الشافية» في النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله  
في الصرف منظومة لامية في أبنية الأفعال باسم «المفتاح أو اللاميات» وهي في مائة وأربعة  
عشر بيتا من وزن البسيط، ومنظومة ثانية في ٤٩ بيتا من وزن الكامل ضمنها الأفعال  
الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطي في الجزء الثاني من كتابه الزهر. وله في  
اللغة منظومة واوية في ١٦٢ بيتا ساها «تحفة المودود في المقصور والمدود» وهي تتضمن  
الألفاظ التي تنتهي بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت في القاهرة مع  
شرح موجز لها، ومنظومة ثانية في ٦٢ بيتا من وزن البسيط ساها: «الاعتداد في الفرق  
بين الزاى والصاد» ضمنها الكلمات المتماثلة التي تنتهي بها. وأهم منظوماته جميعا الألفية  
في النحو والصرف وهي أرجوزة في ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية  
الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارس وإكباب الشيوخ والطلاب عليها في جميع  
البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أى منظومة أخرى فى النحو والصرف  
واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وخواشيبها مثل شرح الأشموني وحاشية الصبان  
عليه وشرح ابن عقيل وحاشية الخضرى عليه. ولحازم القرطاجنى المتوفى سنة ٦٨٤

(١) طيبة: المدينة. يم: اقصد.



منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها ، حديثنا عنه عما قليل، ولأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة في النحو سماها «غاية»<sup>(١)</sup> الإغراب في علمي التصريف والإعراب» أى النحو، ولم تحظ - كأرجوزته في القراءات - بشيء من الشهرة، وبالمثل الأراجيز النحوية التي نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعا ألفية ابن مالك. ويذكر ابن حجر في كتابه الدرر أن ابن جابر الوادى آشى نظم كتاب فصيح ثعلب في اللغة.

وكان قد شاع نمط لغوى من وزن الرجز يتضمن كثيرا من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأديين بمعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دريد في القرن الرابع بمقصورته التي تقع في نحو مائتين وخمسين بيتا من الشعر والتي مدح بها عبد الله بن محمد ابن ميكال والى الأهواز وابنه، وأخذ بعض الشعراء في المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدح المعلن في عناية الشعراء بها وفي تحميس بعضهم لها، ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته في هذا اللون من الشعر التعليمي اللغوى، ونذكر منهم على بن حريق المخزومي، إذ ذكر المراكشى أن له مقصورة<sup>(٢)</sup> عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشى أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة<sup>(٣)</sup> جعلها في ثلاثة أقسام: الأول في الزهد والتضرع إلى الله واستغفاره، والثاني في الحديث النبوى: بئى الإسلام على خمس، والثالث في الشكوى من الزمان والإخوان ورتاء أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتا أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحا مفيدا. ولحازم القرطاجنى مقصورة نالت حظا من الشهرة وسنلم بها في حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادى آشى موضوعا جديدا هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرئ فى النفع<sup>(٤)</sup> مسميا لها باسم المقصورة الفريدة، وهى فى أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقاوية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائما الألف المقصورة واستهلها بالنسيب على العادة التى شاعت فى قصائد المدح النبوى، مع تضمينها بعض

(١) ذكرها أبو حيان فى كتابه منهج السالك فى

الكلام على ألفية ابن مالك ص ٤٥.

(٢) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر

الخامس ص ٢٧٦.

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧.

(٤) راجع نفع الطيب ٣٠٦/٧.

الحكم الطريفة والإفاضة في سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بعراجه إلى السماء وقرب جبريل منه، وازدياده قربا حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولا هاديا منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ في قوافي أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعرا بارعا. وحرى بنا أن نخص كلا من أبي طالب عبد الجبار وحازم القرطاجني بكلمة.

### أبو<sup>(١)</sup> طالب عبد الجبار

لم تُعَنَ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبي طالب عبد الجبار، وحقا عُني ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه اكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة سُفْر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة في مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعْرَف بلقب المتنبي، ويضيف أنه كان «أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وأكثرهم تفننا في العلوم، وأوسعهم ذُرْعا (طاقة) بالإجادة في المنثور والمنظوم». ويذكر أنه كان يسرف في المجون، وأنشد له خمرية اقتطفنا منها أبياتا في الفصل التالي، ويقول إنه كان قانعا بما يسد حاجته من العيش، فلم يمدح أميرا ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة. وتدل مقدمته لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظنا أنه أحد ولاية دولة المرابطين على شرقى الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئا عن الحقبة التي عاش فيها، غير أنه أرخ في أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) وأنه يقتفيه ويهتدى به في حكمه، مما جعل العباد الأصبهاني يستنتج في ترجمته له أنه عاش بعد سنة خمسمائة أي بعد السنة الأولى من حكم علي، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) قائلا عنه:

وهُوَ إِلَى الْآنَ إِمَامُ الْخَلْقِ وَالْمَلِكُ لِلَّهِ الْإِلَهِ الْحَقِّ

وفي قوله: «إلى الآن» ما يدل على أنه عاش فترة في مدة حكمه، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

(١) ٢١٠/٢ وما بعدها والمغرب ٣٧١/٢ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة أبي طالب عبد الجبار الذخيرة ٩٤٤-٩١٦/١ والخريدة للعباد الأصبهاني

والأرجوزة في أربعائة وخمسين بيتا، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصدا بها استمناحه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع في أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفا عيون زهرها وملتقطا مكنون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر في فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدوها باسم الله والصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ في حمد الله مبتدع السماء والأرض والبرية ابتداءً خالق مهيم منفرد بوحدانيته منزّه عن قول جهّم بن صفوان وغيره من المجسّمة، ويدعو إلى التأمل في ملكوت العالم وتدييره وإحكام خلقه وأيضا إلى التأمل في خلق الإنسان وأطواره وما وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى الممات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. وينتقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما في الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لا بد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أف لِقَوْلِ الْفِئَةِ الْبَصْرِيَّةِ      أَهْلُ الْهَوَى وَالْفِرْقَةِ الْغَوِيَّةِ  
وَاحْذَرْ هَذَاكَ اللَّهُ إِذَا الْفَهْمُ      قَوْلَهُمْ وَاحْذَرْ مَقَالَ جَهْمِ  
وَقُلْ بِمَا يَقُولُ أَهْلُ الْحَقِّ      مِنْ مُثْبَتِي صِفَاتِ رَبِّ الْخَلْقِ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشدد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشدد به الضجر من جهّم وأنداده المجسمة، ويعلن أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبي الحسن الأشعري. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذي ينقله الجهم الغفير عن الجهم الغفير أو الجماهير عن الجماهير، وهو بذلك سنى أو قل أشعري، ولا يلبث أن يحدثنا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

وَكُلُّ شَيْءٍ جَوْهَرٌ أَوْ عَرَضٌ      إِلَّا الَّذِي الطَّوْعُ لَهُ مُفْتَرَضٌ  
فَإِنْ فَحَصْتَ قَائِلًا مَا الْجَوْهَرُ      وَمَا هُوَ الْعَرَضُ إِذْ يُفَسَّرُ  
فَالْجَوْهَرُ الْحَامِلُ لِلْأَعْرَاضِ      وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ بِذِي أِبْعَاضٍ  
وَالْعَرَضُ الْمَحْمُولُ كَالْأَلْوَانِ      وَحَرَكَاتِ الْجِرْمِ وَالْإِسْكَانِ

فكل ما في الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض إذ

هو منزّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر - ويريد الجوهر الفرد - لا يتجزأ، والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلاسه ملابسة الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة ثالثة في بيان العلم ويوصى بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهوم وأن لا يهمل العقل ويأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لغلبة الخصوم، ويعرفه بأنه معرفة الشيء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلاً:

العِلْمُ عِلْمَانِ أَيَا مَنْ يَبْحَثُ	عِلْمٌ قَدِيمٌ ثُمَّ عِلْمٌ مُحَدَّثٌ
إِنَّ الْقَدِيمَ عِلْمٌ رَبِّ الْعَرْشِ	بَارِي الْبَرِيَّةِ الشَّدِيدِ الْبَطْشِ
وَمُحَدَّثٌ فَذَلِكَ عِلْمُ الْخَلْقِ	مِنْ نَاطِقٍ وَغَيْرِ مَا ذِي نُطْقٍ
وَكُلُّ عِلْمٍ مُحَدَّثٍ عِلْمَانِ	عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ بِلَا بَرَهَانِ
وَبَعْدَهُ فَعِلْمُ الْاِسْتِدْلَالِ	وَالْمَنْطِقُ الْبَاحِثُ عَنِ أَحْوَالِ

فالعلم علمان: علم قديم أزلى خاص بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضروري بدون برهان وهو البديهيات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلاً: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له. ويتنعى علي النصارى قوهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود في الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جل جلاله عن شريك وأن يكون جسماً له حد وانتهاء. ويتحدث في مقدمة رابعة عن التفكير في ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما في الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صناعاً يدبره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحدانية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدل ذلك على أن رباً فوقه هو الكمال المطلق الذي ليس له نهاية تحدده. وفي مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتدياً بأضواء من الذكر الحكيم منشداً:

قَدْ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا	كَمَا عَنِ الرَّسُولِ فِي الذِّكْرِ تَلَا
أَخْرَجَ مِنْ مَاءٍ دُخَانًا فَسَمَا	ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ لِيَبْلُوَ الْأَمَمَا
وَأَدَمُ صُورَ مَنْ صَلَّصَالِ	فَكَانَ مِنْهُ جُمْلَةُ الْأَنْسَالِ
ثُمَّ بَرَا لِأَدَمٍ حَوَاءَ	فَسَكَنَا جَنَّتَهُ الْعَلِيَاءَ

وهو يشير في الآيات إلى ما جاء في الذكر الحكيم من خلق السموات في مثل قوله

تعالى بسورة النازعات: ﴿السَّاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ (أَظْلَمَ) لَيْلِهَا وَأَخْرَجَ ضِحَاهَا﴾ وقوله عزَّ شأنه في سورة فَصَّلَتْ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وللأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وقوله سبحانه في سورة النازعات: ﴿وَالأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أى بسطها للإنسان ووسع رقعتها إلى أبعد حد. ويقول إن آدم صُور من صلصال وهو الطين اليابس بشهادة مثل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وقوله في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. ويذكر أبو طالب أن الله برأ أو خلق لآدم حواء وأسكنها الفردوس. ويستمر في الأرجوزة متحدثا عن عصيانها لربها وأكلها من الشجرة وهبوطها للأرض ويتحدث عن قتل ابنها قابيل لأخيه هاويل، وعن تكاثر نسلها وانتشار الفساد فيه وما كان من إرسال الله لنوح، وعن الأنبياء المنصوص على قصصهم في القرآن الكريم. ويستغرق ذلك نحو مائة وستين بيتا، دل فيها على ثقافة واسعة وخاصة ثقافته بالفرق الإسلامية وبالفلسفة وما يتصل بها من المنطق. ويترك تلك المقدمات إلى التاريخ الخالص، فيتحدث عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس حتى عهد المسترشد كما أسلفنا. ثم يؤرخ لدولة بني أمية في الأندلس وما كان من الفتنة بقرطبة والقضاء على الحكم الأموى في تلك الديار قضاء مبرما. ويستقصى أمراء الطوائف وبلدانهم استقصاء دقيقا، ويصور فساد حكمهم بمثل قوله الغاضب عنهم:

قد أهملوا البلادَ والعبادا      وعطَّأوا الثغورَ والجهادا  
واشغلتْ أذهانهم بالخمرِ      وبالأغاني وسماع الزَّمرِ  
وزادهم فى الجهل والخِذلانِ      أن ظاهروا عِصابة الصُّلبانِ

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة عن الثغور والحمى وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، ودخلوا طوائف النصارى في الشمال حتى قويت أطماعهم وخاصة أذفونش ففرض الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره والتقم طليطلة واسطة القلادة سنة ٤٧٨ واشتعلت في كل جهة ناره. وفزعت الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فعبر إلى الأندلس، واستنقذها من أذفونش ونصارى الشمال بسحقه لجنوده سحقا وبيلا في موقعة الزلاقة على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وفيها وفي استصراخ أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وإذ أراد الله نصرَ الدين  
فجاءهم كالصُّبحِ في إثرِ غَسَقِ  
وواصل السَّيرَ إلى الزَّلَاقَةِ  
لله دَرٌّ مِنهَا من وَقَعَهُ  
وَتَلَّ لِلشُّرْكَ هُنَاكَ عَرشُهُ  
أَسْتَصْرَحَ النَّاسُ ابنَ تَاشِفِينِ  
مَسْتَدْرِكَا لِمَا تَبَقَّى من رَمَقِ  
وَشَاقِهِ لِيَوْمِهَا مَا شَاقَهُ  
قَامَتِ بِنَصْرِ الدِّينِ يَوْمَ الجُمُعَةِ  
لَمْ يُغْنِ عَنْهُ قَوْمَهُ أَذْفَنُهُ

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف في الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك في صدر سنة ٤٧٩ فلجأهم كالصُّبحِ المضيء في إثر ظلامٍ مطبق، مستدركا لما بقى في الأندلس من رمق يوشك أن يزهق ونفس يوشك أن يضمحل، وبادر عجلا متلهفا إلى الزلاقة بأسدٍ وغى والنصر يحف بركابه، ونازل العدو يوم الجمعة، وكان يوما فاصلا إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بالفونس السادس وجنوده وتلَّ عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة في نسيجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم في اختيار الألفاظ والقوافي دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعاني أو تضيء عليها شيئا من الإبهام. وهى تدل - بوضوح - على تعمق أبي طالب في الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعى بتاريخ حكام العرب شرقا وغربا منذ أقدم الحقب في الدول الإسلامية حتى زمنه.

### حازم<sup>(١)</sup> القرطاجنى

مرَّ بنا في الفصل الثانى حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفذاذ علماء الأندلس وأدبائها، رُزق به أبوه محمد بن الحسن الأوسى الأنصارى قاضى قرطاجنة سنة ٦٠٨ للهجرة، وعنى بتربيته فحفظ القرآن الكريم، وشبَّ فأخذ يتلقى الآداب والعلوم في بلدته الواقعة على البحر المتوسط في الجنوب الشرقى للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومدَّ رحلاته غربا إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوبيين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل اطلاعه على

من مصادر، ودراسة الدكتور مهدى علام بعنوان «أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة في الأدب العربى مع تحقيقها» وجمع شعره ونثره ببيروت عثمان الكعاك مع تعريف به.

(١) انظر في حازم وترجمته وشعره اختصار القدح المعلق ص ٢٠ وبغية الوعاة للسيوطى وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٣٨٧/٥ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة وما بها

تلخيصه لكتابه الخطاب والشعر لأرسططاليس هو الذى وصله بالثقافة اليونانية النقدية مما يتضح أثره فى كتابه منهاج البلغاء. وهاجر فى أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحدى وله فيه أمداح ونال منه صلات سنية. وأحس أن سلطان الموحدين يوشك على نهايته وأن لا أمل فى دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه - مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين - إلى أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، فعرف له فضله وقربه، وتوفى فقراً به منه ابنه المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ووظفه فى دواوينه، واتخذ تونس موطناً له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعاً بين العمل فى ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره فى مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظاً أنه يتناول فى المقاطيع المأثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية فى شعره أو لذكر بعض المحسنات البيعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة فى رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح فى أبى زكريا الحفصى وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة فى الرسول الأعظم ﷺ ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس على نحو ما يقول فى فاتحتها:

لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل  
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

وأهم مدائحه مقصورته التى مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام فى صنع مختصر شعرى للنحو على نحو ما نرى فى ميمته النحوية التى نظمها من وزن البسيط وهى فى مائتى بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصى لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ فى عرض المختصر الشعرى للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئاً بتعريف النحو والكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والخفض وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقاً فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشعرية - دون ريب - مقصورته التى مدح بها المستنصر، وهى أرجوزة طويلة بل مسرفة فى الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة، وقد استهلها بالغزل منشداً:

لله ما قد هجّت يا يومَ النوى  
على فؤادى من تباريح الجوى

ويطيل في غزله إلى خمسين بيتا ناسجا في أبياته أكثر المعاني التي ألم بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير في نفوسهم هديل الحمام من شجى. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه في مائة وعشرين بيتا ذاكرا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقى، وينشد:

مستنصرٌ بالله منصورٌ به مؤيدٌ بعونه على العدا  
ملكٌ حكى ملكٌ سليمانَ الذي لم يتَّجه لغيره ولا ابتغى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنة الخلد كما يشبه قناتي المياه اللتين تحملانه من جبل زغوان إلى تونس واللتين جددتها المستنصر، بنهرين كبيرين، وكان كل قناة إنما هي نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل في وصف جنات أبي فهر والقصبية بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاح وغيت ساح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشدا:

بلغتُ آرابَ المنى في دولةٍ أولتُ يدي أسنى الأيادي واللها<sup>(١)</sup>  
والدهرُ عيدٌ والليالي عرسٌ والدهرُ أحلامٌ كأحلامِ الكرى<sup>(٢)</sup>

وكانما تهيج تونس بمهاجها في نفسه الذكرى لمرايع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك في نحو ثلاثين بيتا. ويعود بذكرته إلى ماضيه متحدثا في نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التي نهىها النصارى والتي كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصورا كم نعيم فيها مع خلّانه من الشباب متنقلين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى ورّبي ومروج وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكانما يصف فردوسا مفقودا كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله:

نصيف من مرسية بمنزلٍ صفاً به الدّوح على ماء صفاً<sup>(٣)</sup>  
نقطع دُنيانا بوصلِ الأنس في معتقبٍ في روضه ومعتدى<sup>(٤)</sup>

الشجر وكثر.

(٤) معتقب: مكان الغبوق وهو شرب العشى.

معتدى: مكان الغدوّ في الصباح.

(١) الأيادي: النعم. اللها: العطايا.

(٢) الكرى: النوم.

(٣) نصيف: نقض الصيف. صفا الدوح: نما



وتتاجى بالمنى أنفسنا  
تقسّم الناسُ بها قسمين من  
إذا اجتنى زَهْرَ الجمالِ وامقٌ  
وكم أغاني كَنَظِيمِ الدَّرِّ في  
وكم حديثٌ كَثِيرُ الزُّهْرِ في

حيث تداعى الطَّيْرُ منها وانتجى<sup>(١)</sup>  
بين خلَى قلبه ومُصْطَبِي<sup>(٢)</sup>  
فيها اجتنى خَلْوُ بها زَهْرَ الرُّبِيِّ<sup>(٣)</sup>  
تلك المغاني قد وشأها من وشى<sup>(٤)</sup>  
تلك المباني قد حكاها من حكى

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التي رسم فيها مرسية وجناتها العطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى في أنس موصول، والناس قسمان محب وقع في شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبيننا يجتنى المحبُ أزهار حبه من النظر أو من القبل يجتنى الخلى من مشاهد الطبيعة الخلابة، والناس هناك كأنما لا يقضون أياما، بل يقضون أعيادا تكتظ بالغناء والموسيقى وبأحلى سمر تهواه الأفئدة. ويطيل حازم في رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التي كانت تلتقى فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودّع تلك الجنان ارتسمت في خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه في فلُكها، متساقين فيها كنوس الأنس في حدائق، منتشدين فيها بأكوس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنة وجمالا عن لوحة مرسية. ويطيل في وصف حدائقها وأزهارها من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخيرى ونرجس وياسمين، ويصف كل ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغاني الشعب: شعب بوان التي تغنى بها المتنبى، ويدعوها بالسقيا ويندب جدها العائر وما عفا فيها وفي أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنما أراد بما صور من تلك الفراديس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشبب بمحبوبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنما يتخذ من حبها الذي ضاع رمزا للأندلس الضائعة. ويلم بمدح المستنصر وكأنما استرد بإكرامه له شيئا مما ضاع منه. ويتحدث في نحو مائتي بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقي فيها من المتاعب والمشاق التي احتملها في جلد وصبر، ويفكر في شؤون الحياة وفي نفسه وخصاله وتسهيل على لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

(١) انتجى: تتاجى.

(٢) خلَى: خلو. محب. خلو: خلَى.

(٣) وامق: محب. زين وزخرف.

(٤) وشى: خال من الحب. مصطبي: محب مفرم.

ما أحدثتُ حادثةً لى روعةً  
والعيشُ طَوْرًا مُشْتَهَى مُسْتَمْرًا  
والعيشُ محبوبٌ إلى كل امرئٍ  
قد يُدرك الحاجةَ مَنْ لم يَسْعَ فى  
إن احتياطُ المرءِ فى أفعاله  
ولا اعترانى جَزَعٌ لما اعترى  
وتارة مُسْتَوْبَلٌ ومُجْتَوَى  
لا فرقَ بين الشيخِ فيه والفتى  
طلابها وقد تفوت مَنْ سعى  
رأى يؤدِّيه إلى سُبُل الهدى

ويطيل فى الكلام عن ضلوا نهج الرشد فكان فى ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم التاريخ الجاهلى من مثل قصة النعمان وقتله لعدى بن زيد تسرعاً، وقصة زرقاء اليمامة وتكذيب قومها لها حين حذرهم أن جيشاً قادماً ولم يصدقوها فكان فى ذلك حتفهم، وقصة الزبأ فى حصنها وكانت أمنع من عُقاب فى أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد احتالت على جذية ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى، فدمس لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمراً فوثقت به ووعدها أن يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالاً فى جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن وهى تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل ولقتها أنها تمشى مثقلة كأنها تحمل حديداً. ولم تنتبه. وخرج الرجال من الجواليق واستولوا على المدينة وقتلوها. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنما يروى الأسطورة العربية ليبين ما حدث فيها من تغرير بالزبأ وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير وبئدة من ثقل ما تحمل، يقول:

وَعَرَّهَا جَدْعٌ قَصِيرٌ أَنْفَهُ  
وَأَوْقَرَ الْعَيْسَ رِجَالاً وَعَبَا  
فَأَمِنْتَهُ وَهُوَ مَرْهُوبُ الشَّدَا<sup>(١)</sup>  
بُؤْسًا لَهَا وَأَبُؤْسًا فِيمَا عَبَا<sup>(٢)</sup>  
وَأَرْتَابَ فِى مَشَى الْجَمَالِ لِحْظُهَا  
وَمَا دَرَّتْ مَا فَوْقَهَا حَتَّى غَدَتْ  
وَلَمْ تَحْقُقْ عِنْدَمَا قَالَتْ: عَسَى<sup>(٣)</sup>  
مُقْصَدَةً بِسَهْمٍ دَهَى مَا خَبَا<sup>(٤)</sup>

ويتحدث عما تروى الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة فى الجاهلية، وينصح بالحزم فى الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عن شبوا

(١) الشدا: الحد، شبه قصيرا بالسيف القاطع.

(٢) أوقر العيس: حمل الإبل. عبأ: هبأ.

(٣) قالت عسى أى أنها شككت ولم تتحقق من

(٤) دهى: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس في ثأر أبيه حُجر. ويسوق أخبارا كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحاف وإيقاعه بتغلب في معركة البشر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، ويتذكر حاله وغرته عن وطنه وينشد:

إِنَّ ثَوَاءَ الْمَرْءِ فِي أوطَانِهِ عِزٌّ وَمَا الْغُرْبَةُ إِلَّا كالتَّوَى<sup>(١)</sup>

ويذكر طائفة من الجاهليين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنوا إليها حينما ملتاغا، راجين أن يشتفوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيرا جماعات دمرته تدميرا. ويذكر قصة هدهد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسد مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بإرساله نبي الهدى الذي أضاءت بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه ويفتح الأندلس، وبانتصار الموحدين في موقعة الأرك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للثوار، وعم طوفان فتنة انجلى عن ضياع جواهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، وأصبحت لسان الحال تملئ شجوها، ويكى كل ما هنالك وبكت حتى الأنهار بمدمع هام وأنت الوديان وبثت شكواها الثغور والمدن، وانتثرت الأندلس كحبات عقد في حجور نصارى الشمال، واحتوا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر وهيب به أن ينجذ الأندلس ويسترجعها من برائن الإسبان منشدا:

ولو سَمَا خَلِيفَةُ اللَّهِ لَهَا	لأفكَّهَا بالسَّيْفِ مِنْهُمْ وَأفْتَدَى
ففى ضَمَانِ سَعْدِهِ مِنْ فَتْحِهَا	دَيْنٌ عَلَى طَرْفِ الْعَوَالِي يُقْتَضَى <sup>(٢)</sup>
فقد أَشَادَتْ أَلْسُنُ الْحَالِ بِهِ	حَى عَلَى اسْتِفْتَا حِهَا حَى عَلَى
أَثَائِ الْعِدَا مَا كَانَ مَرْعُوبًا بِهَا	وهو الَّذِي يُرْجَى بِهِ رَأْبُ الثَّأَى <sup>(٣)</sup>
مَا زَالَ يُعْلِي الْمَلَوَانُ نَصْرَهُ	وَسَيْفُهُ يَخْطُ مَا يُعْمَلِي الْمَلَا <sup>(٤)</sup>

ويمضى في استصراخه لإنقاذ الأندلس بكل ما يستطيع من كلم مثير، وهتف بهتاف

(١) ثواء: إقامة. التوى: الهلاك.

(٢) العوالي: الرماح.

(٣) أثنأى العدا: أكثر من القتل فيها

والجراحات.. مرعوبا: ملتئا. رأب الثأى: إصلاح

الصدع والفتق.

(٤) الملوان: الليل والنهار. الملا هنا: الخلق

الكريم.

المسلمين في كل أذان: «حَيَّ عَلَى» استفتاحها أى أقدم أقدم ويا خيلِ الله اركبى الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتصقاً بها، وهو الذى يُرَجَى به لأُمَّ ما انفتق، وإنه لمعوّد النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يملئها على الأيام، ويستثير حميته، ويتصور كأن جيشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يغتر بعمره وأن يعمل لآخرته قائلاً:

لا تَلَّهُ فِي وُجُودِكَ الْأَوَّلِ عَنْ وُجُودِكَ الثَّانِي وَنَهْنَهُ مَنْ لَهَا<sup>(١)</sup>

ويقول إن للنفس وجهين: وجهها يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجهها يشدّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعامل من حرص على التمسك بسُنن السنة والاعتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله في فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصودته وما بذل فيها من جهد في تخير الألفاظ والمعاني، وهى - كما رأينا - مجموعة من لوحات بديعة تحلب القارئ بروعتها البيانية.

## الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

### شعراء الغزل

لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب في جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنساني الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملأ مجلدات في كل عصر على حدة، بل أيضا في كل إقليم. ودائما الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هائى بحبه وتارة شقى محروم يشكو الهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبتة أحسَّ بفرحة لا تماثلها فرحة، فإذا انصرفت عنه أظلمت الدنيا في عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعا ماديا حسيا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وهو لذلك قد يعنى بتصوير متاعه المادى فيه تصويرا مزريا وفرعا ثانيا عذريا عفيفا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبتة لمعانى الحب والوجد في ذاتها، لا لشيء حسى وراءها، وهو الفرع الذى نمتلئ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثروا الحب بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنما أصبح نارا في صدورهم لا يمكن إطفائها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيقيهم من العذاب واجدين فيها متاعا لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائما الحرمان والدموع والآلام. وهذان الفرعان من الحب العذرى والحب المادى يكتظ بهما الشعر الأندلسى ولأولها دائما الغلبة والرجحان، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعا شعراء ينظمون في الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره، سواء في ذلك أمراء البيت الأموى وحكامه أو أبناء الشعب عربا وبربرا ومسالمة ومولدين، من ذلك قول الحكم الربضى في جوارٍ غاضبته وهجرته<sup>(١)</sup>:

(١) انظر في مقطوعة البيتين الحلة السراء ٥٠/١ والبيان المغرب لابن عذارى ٧٩/٢.

قُضِبُ مِنَ الْبَانِ مَاسَتْ فَوْقَ كُتْبَانِ      أَعْرَضُنِي عَنِّي وَقَدْ أَرْمَعَنَ هَجْرَانِي  
مَلَكْتَنِي مَلِكٌ مِنْ ذَلَّتْ عِزَائِمُهُ      لِلْحَبِّ ذَلُّ أَسِيرٍ مَوْثِقٍ عَانِ

وهو يشكو من هجر هؤلاء الجوارى، ويعترف بأنهن يملكنه، بل يأسرنه بأغلال الحب، ويستعطفهن متذللاً. وكانت طروب زوجة ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شغفت زوجها حبا، غير أنه كان يعرف واجبه من قيادة الجيش في الدفاع عن الأندلس ضد أعدائه الشماليين، مما جعله يمزج غزله فيها ببيان شجاعته مثل قوله<sup>(١)</sup>:

إِذَا مَا بَدَتْ لِي شَمْسُ النِّهَا      رِ طَالَعَةٌ ذَكَرْتَنِي طَرُوبَا  
عَدَانِي عِنكَ مَزَارُ الْعِدَا      وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لِهَامًا مَهِيبًا<sup>(٢)</sup>  
سَمَوْتُ إِلَى الشَّرِكِ فِي جَحْفَلٍ      مَلَأْتُ الْحُزُونَ بِهِ وَالسُّهُوبَا

وقد استهل القصيدة بستة أبيات في الغزل بطروب ثم خلس إلى بيان بأسه وقوة جيشه واقتحامه معه للحزون والسهوب أو للمرتفعات والفلوات وكيف ظل طويلاً يدرع غبار القتال حتى استحالت نضرة وجهه شحوبا ابتغاء ما عند الله من ثواب المجاهدين عن حمى الإسلام، ويفتخر بنسبه الأموى وأنه لا يزال يضرم ويطفئ حروبا في سبيل نصرة الدين الحنيف واستئصال أعدائه من أهل الصليب. وحسبنا ذلك من أمراء البيت الأموى في القرنين الثاني والثالث للهجرة على لسان الحكم وابنه عبد الرحمن. ولؤمن بن سعيد شاعر عبد الرحمن<sup>(٣)</sup>:

حُرْمَتُكَ مَا عَدَا نَظْرًا مُضْرًا      بِقَلْبِي بَيْنَ أَضْلَاعِي مَقِيمٍ  
فَعِينِي مِنْكَ فِي جَنَاتِ عَدْنٍ      مَخْلَدَةٌ وَقَلْبِي فِي الْجَحِيمِ

والبيتان تلاعباً بالمقابلة بين جنات عدن والجحيم أكثر منها غزلا يعبر عن عاطفة حارة، وللقفاط الهجاء غزل يُروى في ترجمته بالكتب الأدبية من مثل قوله<sup>(٤)</sup>:

يَا غِزَالًا عَنْ لِي فَابٍ      تَزَّ قَلْبِي ثُمَّ وَلِي  
أَنْتَ مِنْ بَفْؤَادِي      يَا مُنَى نَفْسِي أُولِي

وهما بيتان رقيقان ولغتهما عذبة. ولاين عبد ربه شاعر الأمير عبد الله وحفيده

(٣) المغرب ١/١٣٣.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٣٠٢.

ومرت في الحديث عن الهجاء مصادر ترجمته.

(١) راجع في قصيدة هذه الأبيات الحلة السراء

١/١١٤. والمغرب ١/٤٧ والبيان المغرب ٢/٨٥.

(٢) لهاما: جيشا كثيفا.

عبد الرحمن الناصر غزليات فيها جمال في التصوير ورشاقة في التعبير كقوله<sup>(١)</sup>:

يَالْوُلُوأَ يَسْبِي الْعُقُولَ أُنْقَا      وَرَشَا بَتَعْدِيبِ الْقُلُوبِ رَفِيقَا  
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ      دُرًّا يَعُودُ مِنَ الْحَيَاءِ عَقِيقَا  
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى مَحَاسِنِ وَجْهِهِ      أَبْصَرْتَ وَجْهَكَ فِي سَنَاهِ غَرِيقَا  
يَأْمَنُ تَقَطُّعَ خَصْرُهُ مِنْ رِقَّةٍ      مَا بِأَلِّ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَقِيقَا

والصور متناسقة تناسقا بديعا فاللؤلؤ الأبيض تتضرج الحدود منه بحمرة الحياء فيصبح عقيقا أو ياقوتا، والبصر يفرق في محاسن الوجه وسناها أو ضوئها المتوهج جمالا وفتنة، والخصر رقيق رقة شديدة، واللغة فيها انسياب وصفاء وسلاسة، وللحكم المستنصر<sup>(٢)</sup>:

عَجِبْتُ - وَقَدْ وَدَّعْتُهَا - كَيْفَ لَمْ أُمَّتْ      وَكَيْفَ انْتَنَتْ بَعْدَ الْوَدَاعِ يَدِي مَعِي  
فِيَأْمُقِلْتِي الْعَبْرَى عَلَيْهَا اسْكَبِي دَمًا      وَيَا كَيْدِي الْحَرَى عَلَيْهَا تَقْطَعِي

والبيتان ينان عن شعور مرهف رقيق، ولغتها سلسلة. ومن كبار الشعراء لعهد الحكم المستنصر الرمادى وسنفر له كلمة، ومنهم أحمد بن فرج الجياني وقد رَجَّ به المستنصر في سجن ببلدته جَيَّانَ لما رُفِعَ له من أنه هجاه، فسجنه ومات في سجنه، ولم يشفع له تأليفه كتاب الحدائق الذي تحدثنا عنه في غير هذا الموضوع، وهو يعد بحق حامل لواء الشعر العذرى في الأندلس، كما يتضح في قوله<sup>(٣)</sup>:

وَطَائِعَةَ الْوِصَالِ عَفَفْتُ عَنْهَا      وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمَطَاعِ  
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةً فَيَاتَتْ      دِيَاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةَ الْقِنَاعِ<sup>(٣)</sup>  
وَمَا مِنْ لِحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا      إِلَى فِتْنِ الْقُلُوبِ بِهَا دَوَاعِ  
فَمَلَكْتُ النَّهْيَ جَمَحَاتٍ شَوْقِي      لِأَجْرِي فِي الْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِي  
وَبَتَ بِهَا مَبِيتَ السَّقْبِ يَظْمًا      فَيَمْنَعُهُ الْكِعَامُ مِنَ الرُّضَاعِ<sup>(٤)</sup>  
كَذَاكَ الرُّوْضُ مَا فِيهِ لِمَثَلِي      سَوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ

ص ١٤٠ والمغرب ٥٦/٢ والمطرب ص ٤ ومعجم

(١) النفع ٥٦٤/٣.

الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) مغرب ١٨٧/١.

(٣) السقب: ولد الناقه. الكعام: ما يجعل على فمه

(٣) انظر في ترجمة أحمد بن فرج الجياني وشعره

لنعه من الرضاع.

الحميدى ص ٩٧ والقلائد ص ٧٩ والبعية

ولست من السَّوائِمِ مُهْمَلَاتٍ فَأَتَّخِذُ الرِّيَاضَ مِنَ المِرَاعِيِ<sup>(١)</sup>

وابن فرج الجباني يصف لنا جمال صاحبتة الخلاب وأنها كانت طوع وصاله وحبه، وكيف أنه أمضى معها ليلة سافرة فاتنة فؤاده، وفي كل لحظة تتجدد فتنتها، ومع ذلك ظل معتصبا بالعفاف المفطور عليه، يردُّ بعنفٍ جمحات عواطفه وغرائزه، ساميا بنفسه عن عالم الحيوانية والغريزة النوعية إلى عالم كله سمو وصفاء ونقاء وطهر ما وراءه طهر. ويصور نفسه مثل سقب يظلماً والكعام على فمه، بل إنه ليكفيه من صاحبتة النظر، يشفى به غليله إذ ليس كغيره ممن حوله المشبهين للحيوانات المرسلّة في المِرَاعِيِ ترعى كل ما تلقاه. ولا نشك في أن هذا التسامي اقترن بالحب والغزل في الأندلس منذ أول الأمر، غير أن ابن فرج الجباني عبّر عنه في لوحة بديعة، وكأنما رسمه فيها وجسده تجسيدا قويا. ولجعفر المصحفي وزير الحكم المستنصر<sup>(٢)</sup>:

كَلَّمْتَنِي فَقَلْتُ: دُرٌّ سَقِيطٌ      فِتَامَلْتُ عِقْدَهَا هَلْ تَنَاطَرُ  
فَأَزْدَاهَا تَبَسُّمٌ فَأَرْتَنِي      عِقْدَ دُرٍّ مِنَ التَّبَسُّمِ آخِرُ

واستعارة الدر للكلام وللشعر قديمة، غير أن المصحفي عرف كيف يحورها ويعرضها عرضا بديعا، حتى ظن من حسن كلام صاحبتة أنها تلفظ دررا حقيقية أو أن عقدها تناثرت درره وحباته. وللشريف الطليق حفيد الناصر غزليات كثيرة، وسنخصه بكلمة.

وتنشب الفتنة وقوج الأمور وتضطرب اضطرابا شديدا، ويتولى الخلافة ما يقرب من سبع سنوات سليمان الملقب بالمستعين أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وكان يحسن نظم الشعر، وضاع شعره مع ما ضاع زمن الفتنة، إلا قصيدة نظمها معارضة لقصيدة هرون الرشيد: «ملك الثلاث الأنسات عناني» وفيها يقول المستعين<sup>(٣)</sup>:

عَجِبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي      وَأَهَابُ لِحْظِ فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ  
وَتَلَكَّتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالدَّمِي      زُهْرُ الْوَجْهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ  
فَأَبْحَنُ مِنْ قَلْبِي الْحِمَى وَتَرَكْنِي      فِي عِزِّ مُلْكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي  
لَا تَعْدِلُوا مَلِكًا تَدُلُّ لِلْهَوَى      ذَلَّ الْهَوَى عِزُّ وَمَلِكٌ ثَانِ

السيرة ٢٥٧/١ - ٢٦٧ والذخيرة ٥٨/٤ وما بعدها.

(٣) الذخيرة ٤٧/١.

(١) السوائِم: الحيوانات المخلاة في المِرَاعِيِ.  
(٢) رايات البرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٦٩ وانظر في جعفر وشعره المطمح ص ٤ والحلة



والقصيدة غزلية بديعة. ولم يهنا المستعين بخلافته إلا نحو سبع سنوات، وفتك به بنو حمود واستولوا على الخلافة، وعادت إلى أحفاد عبد الرحمن الناصر بعد سبعة أعوام، وتولاها عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر سنة ٤١٤ لمدة شهرين إذ فتك به ابن عمه المستكفي. وكان المستظهر شاعرا وشغف بابنة عم من أعمامه، وروى له ابن بسام فيها أربع مقطوعات تصور حبه لها ومدى تعلقه بها من مثل قوله (١):

غزَالُ براهِ الله من نورِ عَرَشِهِ لتقطعِ أنفاسي وليس من الإنسِ (٢)  
 وهبتُ له مُلكي وروحي ومُهَجَّتِي ونفسي ولا شيءٌ أعزُّ من النفسِ  
 وكثيرون من أبناء البيت الأموي تترجم لهم كتب الأدب وتذكر لهم غزليات وأشعارًا مختلفة. ومن الشعراء المهمين الذين عاشوا بقرطبة زمن الفتنة عبادة بن ماء السماء الخزرجي الأنصاري الذي أعطى الموشحة صيغتها النهائية، ومن غزلياته قوله (٣):

إذا رُمْتُ قَطْفَ الوَرْدِ ساورني الصَّدْعُ بعقربِ سِحْرِ في فؤادي له لَدْعُ (٤)  
 غزَالُ بجسْمي فترَةٌ من جُفونِهِ وفي أدمعي من لونِ وجنته صَبْعُ  
 زيارته أخفى خفاءً من السُّها ودون فراغي من محبته الفَرَعُ (٥)

وهو يقول إنه إذا رام قطف الورد من حدود صاحبه ساوره أو وثب عليه ومنعه عقرب الصدغ، وإنه ليشعر بلدغاته في فؤاده. وزعم أنها أعدت دموعه بلون خدودها الوردية كما أعدت جسمه بفتور جفونها وانكسارها البديع، ويقول إن زيارتها تتعدر عليه حتى لتصبح كأنها نجم السُّها الذي تتعذر رؤيته. ويقول ابن شهيد معاصره، وكان شاعرا بارعا وكاتبًا مبدعا، وستترجم له بين الكتاب، ومن غزلياته قوله (٦):

ولما فشا بالدمع من سرِّ وَجَدنا إلي كاشحينا ما القلوبُ كواتمُ (٧)  
 أمرنا بأمسك الدُّموعِ جفوننا ليشجى - بما تطوى - عدولٌ ولائمُ  
 فظلت دموعُ العينِ حيرى كأنها خلالُ ماقينا لآلِ توائمُ

وتصويره لدموعه ودموع صاحبه وإمساكها بها تترقق في جفونها ولا تسقط باللالئ التوائم تصوير بديع.

(١) الذخيرة ١ / ٥٧.

والهالك.

(٢) براه: خلقه.

(٦) ديوان ابن شهيد (تحقيق يعقوب زكي) طبع

(٣) الذخيرة ١ / ٤٧١.

القاهرة ص ١٥٤.

(٤) ساوره: وثب عليه.

(٧) الكاشحين جمع كاشح: العدو المفيض.

(٥) السها: نجم خفي. الفرغ هنا: الموت

وتتكاثر سيول الغزل في عصر أمراء الطوائف، عصر الغناء واللهو ومجالس الأنس، ونجده متداولاً شائعاً على ألسنة جميع الأمراء والوزراء والشعراء والفقهاء، وكأنه تراث يضمونها جميعاً إلى صدورهم وفي مقدمتهم الفقيه ابن حزم، وسنفرد له ترجمة بين الكتاب، وكان شاعراً وله غزليات كثيرة منها قوله<sup>(١)</sup>:

وددتُ بأن القلب شقٌّ بمُدِيَةٍ      وأدخلتُ فيه ثم أطبقُ في صَدْرِي  
فأصبحتُ فيه لا تحلُّين غيره      إلى مُقْتَضَى يوم القيامة والحشر  
تعيشين فيه ما حبيتُ فإن أمتُ      سكنتِ شِغافَ القلب في ظلمِ القَبْرِ

وقوله متحولاً بمحبوبه، أو محبوبته، إلى إدراك مجرد وراء صورته الحسية<sup>(٢)</sup>:

أمنَ عالمِ الأملِك أنت أم أنسيُّ      أين لي فقد أزرى بتمييزي العيِّ  
أرى هيئةً إنسيَّةً غير أنه      إذا أعمل التفكير فالجرمُ علويُّ  
عدمنا دليلاً في حدوثك شاهداً      نقيسُ عليه غير أنك مرئيُّ  
ولولا وقوعُ العين في الكون لم نقلُ      سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقيُّ

فهو لا يدري محبوبه إنسي أم ملك طاهر، وبحار، وتعظم حيرته، فالهيئة إنسية، والجسد علوي، بل لكأنه تخلص من جسديته، ولولا أن العين تبصره وتشاهده لظن أنه العقل الرفيع الذي لا يحده مكان حسي. وثلثي باين برد الأصغر، وسنخصه أيضاً بترجمة بين الكتاب، وكان مثل ابن حزم شاعراً، وله غزل بديع مثل قوله<sup>(٣)</sup>:

لما بدأ في لا زورٍ      دى الحرير وقد بهرُ  
كبرتُ من فرط الجمال      ل وقلت: ما هذا بشرُ  
فأجابني: لا تُنكرن      ثوب السماء على القمرُ

والأبيات تنم عن شعور رقيق مرهف مع عذوبة الألفاظ والصياغة وجمال الخيال والتصوير. ولأبي جعفر الخولاني أحد شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية<sup>(٤)</sup>:

بدرُ ألمٍ وبدرُ التَّمِّ مُمتَحِقُ      والأفقُ مُحلِّولُك الأرجاءِ من حسدِ  
أردتُ توسيده خدِّي وقلُّ له      فقال: كفك عندي أفضل الوُسدِ

(٤) الذخيرة ١٣٦/٢.

(٥) بدر التَّم: البدر في تمامه واكتماله. ممتحق:

مختف نوره. محلولك: شديد السواد.

(١) طوق الحامة (تحقيق د. الطاهر مكي) طبع دار

المعارف ص ٩٢.

(٢) طوق الحامة ص ٢٥.

(٣) المغرب ٩٠/١.

فبات في حرمٍ لا غدرٌ يذعُرُهُ وبتُ ظمآنٍ لم أصدُرُ ولم أريدُ

فكأنما بات بجوار صاحبتة في حرم مقدس ملتزما للعفاف لا ينقع غلَّة حبه برئى منها ورشف والمنهل طوع يده وهو لا يرده ولا يصدر عنه، بل يكتفى بتكرار النظر للحدود والوجنات. وينشد له ابن بسام قطعا أخرى مماثلة في العفاف مع ما يحمل من ألم الحب وأثقاله.

وشاع في الأندلس - كما مر بنا في الشواهد السابقة، وكما يلي في شواهد مماثلة - هذا الغزل العذرى أو الروحى السامى الذى تُعدُّ العفة مقومه الأساسى والذى يجرى فيه هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيته حتى ليشرد لبُّ المحب والمحبوبة معه ويغيب عن حسه، مكتفيا منها - وهى طوع يديه - بنظراته وكأنه في حلم - أو - كما يقول الخولانى - في حرم مقدس.

وهذا الحب الأندلسى العذرى أو الروحى النقى تطاير شرر كثير منه إلى الأدبين الإسباني والفرنسى، وهو يتضح عند الإسبان أشد الوضوح فى قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧-١٦١٦ م) وهو يذكر فى سطورها الأولى أنه يقصُّها عن عربى، وكأنه مترجم لها فحسب. ونمضى فى قراءتها فنشعر كأنما تجسد فى بطلها الفارس العاشق: دون كيشوت الحب الروحى السامى الأندلسى، وهو يخرج فى حبه عن طوره ويصبيه الجنون أو ما يشبه الجنون، إذ يهيم - ومعه تابعه سانشو - على وجهه منتقلا فى إسبانيا مقتنحا فى أوقات جنونه كل ما يصادفه - أو يظنه - من أخطار أملا فى رضا محبوبته. وكلما تغلب على خطر تذكرها، إذ هى مثله الأعلى، وهو لذلك لا يزال يقدم إليها حبه وشجونه فيه. وعلى نحو ما يتألق شعر الحب الروحى الأندلسى عند الإسبان فى قصة دون كيشوت يتألق عند الفرنسيين فيما نظمه شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر الميلادى، إذ تتشابه أشعارهم من حيث الشكل وطريقة النظم والعروض والأغصان والأقفال والقوافى مع الموشحات الأندلسية<sup>(١)</sup>، وأيضا فإنها تتشابه معها ومع الغزل الأندلسى العفيف فى المضمون: فى عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع أمام المحبوبة والطاعة والتذلل بين يديها وأيضا فيما يجرى فى هذا الغزل من ذكر خداع المحبوبة أحيانا وذكر الرقباء والوشاة. ويقول عبد الرحمن بن مقان<sup>(٢)</sup>:

العامة للتأليف والنشر) ص ٥٧ وما بعدها.  
(٢) الذخيرة ٧٨٨/٢.

(١) انظر الدكتور مكى فى كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية (طبع الهيئة المصرية

لمن طَلَّلُ دَارِسُ بِاللَّوَى  
رَمَادٌ وَتُوَّى كَكُحْلِ العُرُوسِ  
غدا مَوْسَمًا لوفود البلي  
عجبتُ لطيفِ خيالِ سَرَى  
وكيف تجاوزَ جَوَزَ الحِجَازِ  
ولم يَثْنِه حَرُّ نارِ الضلوعِ  
فذكرَ أيمانًا بالعقيقِ

كحاشية البُردِ أو كالرِّدَا  
ورسُمُ كجسمِ بَراه الهوى  
وراح مَرآحًا لِسِرْبِ المَها  
من السُّدرِ أتى إليَّ اهتدى  
وجَوَزَ البحارِ وسِدرَ المُنَى  
وبَحْرُ الدموعِ وريحُ النُّوى  
ولَيْلتنا بهضابِ الجِمَى

وقد ضمن الحديث عن الأطلال وطيف الخيال صوراً وخواطر جديدة، فالطلل الدارس باللوى أو منقطع الرمل يشبه في عين المحب الواله الرداء المعلم أو حاشيته المنمنمة، والرماد كأنه كحل العروس سواداً والتماعا. وقد أصاب الرسم أو الطلل - لفراق أحبائه - ضنا المحبين، ولم يكتف بأن جعله مسرحاً لبقر الوحش مثل امرئ القيس في مطلع معلقته فقد جعله أيضاً موسماً لوفود البلي، وأيضاً لم يكتف في ذكر المواضع بموضع شجر السدر في حمى صاحبه، فقد أضاف إليه مواضع أخرى من الجزيرة: جوز (وسط) الحجاز والعقيق أحد وديانه. وكل ذلك ليغلب إلى قصيدته جوً بوادي الحجاز وحبها العذرى الملتاع، وصوره مضطرباً في حنايا ضلوعه. وعجب أن يصل إليه طيف الخيال ولا تثنيه النار الصاعدة من صدره ولا بحار الدموع المنهمرة من عينيه، ولا ريح النوى العاصفة، وبذلك مزج الغزل الأندلسي بروح الغزل العذرى الظامئ المتلهف أبداً. ويقول محمد بن البين وزير يحيى الوالى على يابرة لأبيه المظفر أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) في إحدى قصائده<sup>(١)</sup>:

غَصَبُوا الصَّبَاحَ فقسَّموه حُدوداً  
ورأوا حَصَى الياقوتِ دون محلِّهم  
واستودعوا حَدَقَ المَها أَجفَانَهُمْ  
لم يَكْفِ أن سَلَبُوا الأَسِنَّةَ وَالظُّبَا  
وتضافروا بَصَفَائِرِ أبَدُوا لَنَا  
واستوهبوا قُضْبَ الأَرَاكِ قُدوداً  
فاستبدلوا منه النجومَ عُقوداً  
فَسَبَّوْا بهنَّ ضَرَاغِمًا وَأُسودا  
حتى استعانوا أَعْيُنًا ونهودا  
ضَوْءَ النِّهَارِ بِلَيْلِهَا مَعقودا

وهي قطعة من الغزل الفريد بروعة تصاويره، وهي مثل سابقتها من أطرف ما يصور تواصل الشعر الأندلسي مع أصوله الشعرية العربية، فكل ما في القطعة من صور طالما

(١) الذخيرة ٨٠٢/٢ والمغرب ٣٧٠/١.

كرره العرب في غزلياتهم، فقالوا إن الحدود مشرقة كالصباح، والقُدود أو القامات كغصون الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسمى الضراغم والأسود، وكأنا الأعين والنهود أسنةً وظبا سيوف، وكأنا الضفائر ليال حالكة السواد. وكل ذلك صاغه ابن البين هذه الصياغة الرائعة، فإذا كل هذه الصور تأخذ نسقا أندلسيا جديدا، ينعش الفكر بعبقه. ومن أصحاب الغزل المبدعين المعاصرين لابن البين ابن زيدون وسنفرذ له ترجمة مع صاحبه ولادة.

ونلتقى بابن الحداد الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، ويقول ابن بسام في ترجمته<sup>(١)</sup> له: «كان قد مُني في صباه بصبيبة نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب.. وكان يسميها نُويرة كما صنع الشعراء الظرفاء قديما في الكناية عن أحبوه..» وكان اسمها الحقيقي جميلة» وإنما اختار لها هذا الاسم تصغيرا للكلمة «نار» التي أشعلها حبها في قلبه» وأنشد ابن بسام له فيها إحدى عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة، وفيها عرض مرارا لعقيدة التثليث المسيحية وللقسس والصلوات في الكنائس، وهو يستهلها بتائية يذكر فيها حضوره لرؤية فتاته المسيحية الاحتفال بعيد فصح في إحدى الكنائس وقد تراءى الأسقف ممسكا بمصباح وعصا ومن حوله القسس وعينه تسرح - كما يقول - في الحسنات المسيحيات، والجميع يتلون صحف الإنجيل، ويخلص من ذلك إلى وصف مشاعره تلقاء فتاته فيقول<sup>(٢)</sup>:

الشمسُ شمسُ الحسَنِ من بينهم	تحت غَمَامَاتِ اللُّثَامَاتِ
وناظري مختلسٌ لَمَحَهَا	وَلَمَحُهَا يُضْرِمُ لَوَاعَاتِي
وفى الحشا نارٌ نُويرِيَّةٌ	عُلِّقْتُهَا مِنْذُ سُنِّيَاتِ
لا تَنْطَفِي وَقْتًا وَكَمْ رُمَّتْهَا	بل تَلْتَطِي فِي كل أوقَاتِي

وفي ذكر ابن الحداد لغمامات اللثامات في البيت الأول ما قد يشير إلى أن فتاته كانت راهبة، ويؤكد ذلك أنه دائما في أشعاره لها لا يراها إلا في الكنائس وبين القسس في أثناء التراتيل والصلوات مع تكراره لذكر الصلبان وعقيدة التثليث. وكان حبا في صباه كما يقول ابن بسام - أو في بواكير شبابه، وكان من جانب واحد إذ لا وصف فيه للقاء ولا لوداع.

(٢) الذخيرة ٧٠٥/١.

(١) الذخيرة ٦٩١/١ وما بعدها.

وكان في هذا العصر كثيرات من الحرائر والجوارى يحسنن نظم الشعر، إذ كان الآباء - أمراء ووزراء وعلماء وأدباء - يعنون بتثقيف فتياتهم، كما مر بنا في غير هذا الموضوع، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجوارى، وكانت تستيقظ في أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية، واشتهرت من دانية «العبادية»<sup>(١)</sup> التي أهداها أميرها مجاهد العامري إلى المعتضد أمير إشبيلية بأنها كانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة مع معرفة دقيقة باللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وكانت نائمة، فقال:

تَنَامُ وَمُدْنَهَا يَسْهَرُ      وَتَصْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَصْبِرُ

فأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هذا، وهذا بهِ سيهلك وَجَدًّا وَلَا يَشْعُرُ

وكانت لا تقل عنها إجادة للشعر مع سرعة البديهة «اعتقاد»<sup>(٢)</sup> الملقبة بالرُّمَيْكِيَّة زوجة المعتمد ابنه، وهي إشبيلية، ويقال إن سبب معرفته بها أنه ركب نهر إشبيلية في نزهة مع ابن عمار وزيره، وقد أحالت الريح سطح النهر إلى ما يشبه زَرْدَ الدَّرْع: فقال المعتمد لابن عمار: أجزُّ

صَنَّعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدَ

فأطال ابن عمار التفكير ولم تسعفه بديهته، فقالت فتاة من الغسَّالات على حافة النهر:

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدَ

فعجب ابن عباد من حسن ما أجازت به الفتاة الشطر الذي صاغه، مع عجز ابن عمار الشاعر النابه، والتفت إليها، فأعجبته، فسألها: أنت متزوجة؟ فقالت: لا. فتزوجها وهي أم أولاده النجباء: الراضى وإخوته وأختهم بثينة وكانت شاعرة. وعلى شاكلة الرُّمَيْكِيَّة والعبادية «غاية»<sup>(٣)</sup> المنى «جارية المعتصم بن صامح أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعُرِضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ قالت: غاية المنى، فقال لها: أجزى:

سَلُّ هَوَى غَايَةِ الْمُنَى

(٣) انظر في غاية المنى القسم الثاني من السفر الثامن للمراكشي ص ٤٨٨ وما بعدها.

(١) انظر في العبادة والخير المذكور عنها نفع الطيب ٢٨٣/٤

(٢) راجع في اعتقاد الرميكية النفع ٢١١/٤.

فقلت بديهة:

مَنْ كَسَى جِسْمِي الضَّنَا  
وَأَرَانِي مَدَهَا سَيَقُولُ الْهُوَى أَنَا

وأعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم<sup>(١)</sup> الكرم، وكان أبوها المعتصم قد اعتنى بتأديبها، لما رأى من ذكائها، حتى نظمت الشعر والموشحات وأحبت - كما يقول ابن سعيد - الفتى المشهور بالسما، وأنشد لها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ سَبِيلٌ لَخَلْوَةٍ يَنْزُهُ عَنْهَا سَمْعُ كُلِّ مِرَاقِبٍ  
وَيَاعَجَبًا أَشْتَاقُ خَلْوَةَ مَنْ غَدَا وَمَثْوَاهُ مَا بَيْنَ الْحَشَا وَالتَّرَائِبِ

والصورة في البيت الثاني تدل على أنها كانت شاعرة تجيد نظم الشعر، ولعلها كانت تجيد أيضا نظم الموشحات.

ونضى إلى عصر المرابطين، ويلقانا غزل كثير على ألسنة الشعراء، إذ لا يكاد يوجد شاعر فذ إلا وهو ينظم فيه معبرا عن مشاعره الوجدانية، من ذلك قول الأعمى التظليل<sup>(٢)</sup>:

أَرِيْقُ تُعْرِكُ أُمُّ بِنْتِ الزَّرَاجِينِ وَعَرَفُ نَشْرِكُ أُمِّ مَسْكَ لَدَارِينِ<sup>(٣)</sup>  
جِسْمٌ بَرَّاهُ الْإِلَهَ حِينَ صَوَّرَهُ مِنْ مَاءِ لَوْلُؤَةٍ وَالنَّاسُ مِنْ طِينِ  
وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ يُعْزَى إِلَى بَشَرٍ أَوْ أَنْ يُضَافَ لِحُسْنِ الْخُرْدِ الْعَيْنِ<sup>(٤)</sup>  
يُدِيرُ لِي مُقْلًا مَرَضَى بِلَا سَقَمٍ يُمِيتُنِي تَارَةً فِيهَا وَيُحْيِينِي  
كَمْ زَفْرَةٍ تَسْتَعِيرُ النَّارَ وَقَدَّتْهَا وَلَوْعَةٍ طَى أَضْلَاعِي تَنَاجِينِي

وهو يقرن ريق صاحبه إلى الخمر ورائحتها الطيبة الذكية إلى مسك دارين: مرفأ لسفن الهند على الخليج العربي كانت تُحْمَلُ إليه أنواع المسك والطيب، طالما أشاد بطيبه ومسكه شعراء العرب. ويجعل صاحبه ملاكا صورته الله - حين خلقه - من ماء لؤلؤة

الطيبة.

(١) راجع في أم الكرم المغرب ٢٠٢/٢ وما بعدها.

(٢) الديوان ص ٢١١.

(٤) الخرد جمع خريدة: الحساء. العين جمع عيناء:

واسعة العين الفاتنة.

(٣) الزراجين جمع زرجون: شجرة العنب. بنت

الزراجين: الخمر. العرف والنشر: الرائحة الذكية

إشادة بجمالها الخلاب الذي لا يقاس به - ولا يمكن أن يُقَرَّن به - جمال الخرد العيون أو الفاتنات ساحرات العيون من البشر، ويشعر في حرارة زفراته كأنها أنفاس نار متقدة، وتكتظ أضلعه بلوعات محرقة ممضة. وسنخص معاصره ابن الزقاق بكلمة أو ترجمة مختصرة، ولابن عبدون<sup>(١)</sup>:

وما أنسَ ليلتنا والعنا      قُ قد مزجَ الكلُّ منا بكلِّ  
إلى أن تقوسَ ظهرُ الظلامِ      وأشمطَ عارضُه واكتَهَل<sup>(٢)</sup>  
ومسَّ رداءَ رقيقِ النسِيمِ      على عاتقِ الفجرِ بعضُ البَلَلِ

وقد صورَ هرم الليل وشيخوخته وهو يكاد يلفظ أنفاسه لتفلت أضواء الفجر وحواشيه بعجوز تقوس ظهره ووهنت عظامه من الهرم والشيخوخة، واشتعلت صفحة خدّه شيباً. والتفت إلى ما يحدث من برودة الجوفى أخريات الليل، فتخيل النسيم العليل حينذاك رداء رقيقاً على منكب الفجر مسّه بعض البلل، وهى صورة بديعة. ويقول ابن خفاجة في وصف صاحبة له<sup>(٣)</sup>:

غزاليَّةُ الأحاظِ ربيَّةُ الطُّلى      مُدَامِيَّةُ الألى حبايَّةُ الثَّغرِ<sup>(٤)</sup>  
ترنحُ في موشيةٍ ذهبيةٍ      كما اشتبكتُ زهرُ النجومِ على البدرِ<sup>(٥)</sup>  
تلاقى نسيبي في هواها وأدمعى      فمن لؤلؤِ نظمٍ ومن لؤلؤِ نثرِ  
وقد خلعت ليلاً علينا يدُ الهوى      رداءَ عناقٍ مرزقةٍ يدُ الفجرِ

والأبيات - مثل أشعار ابن خفاجة - تكتظ بالصور، فصاحبه مثل الغزال في سحر عيونه والطَّبِّي في طول جيده أو عنقه وجماله، أما شفتاها فمبسِّمٌ دنٌّ خمري، وأما ثغرها فعلى حفافيه حبابٌ هذا الدنُّ المسكر، ومن حولها وشى ثوبها الذهبى يتجمع كنجوم مشرقة مضيئة حول القمر المنير. ويبدع ابن خفاجة حين يتصور - في البيت الأخير - يد الحب والهوى تنسج حوله هو وصاحبه رداء غريباً، هو رداء العناق، ويأسى لأن يد الفجر امتدت له ممزقة إيذانا بالوداع. ويقول يحيى<sup>(٦)</sup> بن بقى المارة ترجمته بين الوشاحين:

١) الذخيرة ٧١٥/٢ والمغرب ٣٧٥/١.  
٢) أشمط العارض: شابت صفحة الخد.  
٣) الديوان ص ٢٤.  
٤) الريم: الطبي خالص البياض. الطلى: العنق.  
٥) زهر النجوم: النجوم المشرقة المضيئة.  
٦) الذخيرة ٦٣٦/٢ والمغرب ٢١/٢.



بأبي غزال غالته مُقلتي  
وسألت منه قُبلةً تَشْفِي الجوى  
بنتنا ونحن من الدجى في لجة  
حتى إذا مالت به سِنَّة الكرى  
باعده عن أضلعٍ تشاقه  
بين العذيب وبين شطى بارق<sup>(١)</sup>  
فأجابني فيها بوعدٍ صادق<sup>(٢)</sup>  
ومن النجوم الزهر تحت سُرّادق  
زَحْرَحْتُهُ شيئا وكان مُعانق<sup>(٣)</sup>  
كيلا ينام على وسادٍ خافق

وهو يتخيل أنه لقي صاحبه بين موضعين من المواضع التي طالما لقي فيها شعراء الغزل العربي محبوباتهم، وهما العذيب وبارق، ويقول إنها واصلته ومدّت له في الوصال واللقاء، وأنها باتت معه في ليلة تحت سُرّادق النجوم المضيئة، معانقة له، حتى إذا ألم النوم بمعاقد أجفانها دفعه حنوه عليها إلى أن يزحزحها قليلا عن صدره الذي توسدته، حتى لا تنام - كما يقول على وسادٍ خافق بحبها نابض نبضا شديدا. ويقول ابن باجة المتفلسف<sup>(٤)</sup>:

همُ رحلوا يومَ الخميسِ غُدِيَّةً  
ولما تولّوا ولت النفسُ إثرهمُ  
ولى جسدٌ ما فيه لحمٌ ولا دمٌ  
وعينان قد أعماهها كثرةُ البكا  
فودّعَتْهم لما استقلّوا وودّعوا<sup>(٥)</sup>  
فقلت: أرجعى قالت إلى أين أرجعُ  
ولا هو إلا أعظمُ تتَقَعَّقُ<sup>(٦)</sup>  
وأذنُ عصتْ عذالها ليس تسمع

وهو يقول إن صاحبه وأهلها رحلوا يوم الخميس صباحا فودّعوه وودّعهم ورحلت نفسه في إثرهم، وعينا يدعوها إلى الرجوع وهي تردد إلى أين أرجع؟ وقد ضنى جسدى ونحل حتى لم يبق فيه لحم ولا دم، إذ أصبح أعظما فوق أعظم. وحين تتحرك أى حركة تسمع قعقعقتها وأصواتها، فقد صار جلدا على عظم كما يقولون، وابتضت عيناه من كثرة البكاء وصارت أذنه صماء لا تسمع ما يقوله العذال من لغو وهراء.

ومن الشاعرات البارعات اللاتى أظلهن عصر المرابطين ولحقن - في أغلب الظن - عصر الموحدين نزهون وحمدة الغرناطيتان، أما نزهون<sup>(٧)</sup> فيقول ابن الأبار أحسب أن

والذيل والتكملة للمراكشى (القسم الثانى من السفر الثامن، نشر بنشره بالمغرب ص ٩٣ والبيغة ص ٥٣٠ والنفع ٢٩٥/٤ والإحاطة وانظر ٤٢٤/١، ٣٤٤/٣ وراجع في أبيها التكملة رقم ٥١٥.

(١) العذيب: ماء. بارق: جبل. وهما بنجد.  
(٢) الجوى. الوجد. (٣) الكرى: النوم.  
(٤) الخريدة ٣٣٣/٢. (٥) استقلوا: رحلوا.  
(٦) تتقعق: تتحرك مع صوت.  
(٧) انظر في نزهون وأخبارها وشعرها المغرب ١٢١/١ وتحفة القادم لابن الأبار رقم ١٠٠ مكرراً

أباها محمد بن أحمد الملقب بالقلبي قاضي غرناطة إلى أن توفي سنة ٥١٠ وإذا صح ذلك كانت من بيت فقه وقضاء. وعلى كل حال تدل أخبارها أنها كانت من بيت نابه، إذ نجد أهلها يلاحظون ذكاءها، فيعنون بتخريجها في الأدب، ويقال إنه كان بين من قرأت عليهم - كما مر بنا - المخزومي الذي مر ذكره بين شعراء الهجاء. ونجد لها مطارحات ونوادير مع الشعراء، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنها اتخذت لنفسها ندوة كانت تلقى فيها الشعراء، ويقال إن الکتندی الشاعر الغرناطي دخل يوماً مجلساً كانت تقرأ فيه بعض الشعر على المخزومي فقال له - وكان أعمى - أجز: لو كنت تبصر من تكلمه

فأفحم الأعمى ولم تسعفه بديهته، فبادرت زهون قائلة ومثنية على نفسها في سرعة خاطفة.

لغدوتَ أحرَسَ من خلاخِله  
البدْرُ يَطْلُعُ من أزرته والغُصنُ يَمْرَحُ في غلائله

ويروى أنه لقيها ابن قزمان الزجاج وعليه غفارة صفراء، وكان قبيح المنظر، فقالت له: أصبحت كبقرة بني إسرائيل ولكن لا تسر الناظرين، تشير إلى وصف القرآن الكريم لبقرتهم: بأنها (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). ومر بنا في حديثنا عن المخزومي بين شعراء الهجاء أنه لم يسلم منه أحد، حتى تلميذته زهون، وأنها ردت عليه وألقمته حجراً أحرسه. وأما حمدة<sup>(١)</sup> فكانت ابنة مؤدب فاضل يسمى زياد بن بقمي ربأها هي وأختها زينب تربية فاضلة تتقفا فيها ثقافة أديبة واسعة، حتى أحسنتا نظم الشعر وصوغه. ويترجم ابن الأبار لحمدة في التكملة وفي التحفة ويقول: من أهل مدينة وادي آش (بالقرب من غرناطة) وإحدى الأديبات المتطرفات العفيفات، وفي كتاب المغرب أنها حسناء المغرب وشاعرة الأندلس. وينقل المقرئ عن ابن سعيد أنها هي وأختها زينب من نساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة. ويذكر الرواة أنها خرجت مع صواحب لها إلى النهر في مدينة وادي آش، وهو يجري بين بساتين ورياض، ولما خلعن

للمراكشي ٤٨٥/٨/٢ والإحاطة ٤٨٩/١ ونفع  
الطبيب ٢٨٧/٤.

(١) راجع في ترجمة حمدة بنت زياد وأختها زينب  
المغرب ١٤٥/٢ وتحفة القادم رقم ١٠٠ والتكملة  
رقم ٢١٢٠ والمطرب ص ١١ والذيل والتكملة

ثيايين ونظرت إلى صاحبة لها من بينهن كانت تهواها، وألقين بأنفسهن في النهر سابحات متلاعبات قالت في محبوبتها:

أباح الدَّمْعُ أُسْراري بوادى      له فى الحسنِ آثَارُ بَوَادِي<sup>(١)</sup>  
 فمن نَهْرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ      ومن رَوْضٍ يَرِفُ بكلِّ وادى  
 ومن بينَ الظباءِ مَهَاءُ إنسٍ      لها لَبِيٌّ وقد سَلَبَتْ فَوَادِي<sup>(٢)</sup>  
 لها لَحْظٌ تَرَقُّدُهُ لِأَمْرٍ      وذاك الأَمْرُ يَمْنَعُنِي رُقَادِي  
 إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا      رأيتَ البَدْرَ فى جُنْحِ الدَّادِي<sup>(٣)</sup>  
 كأنَّ البدر مات له شَقِيقٌ      فمن حُزْنٍ تَسْرِبِلُ بالسَّوَادِ

والأبيات بالغة الروعة، وبدون ريب كانت صاحبتهما في منتهى الفتنة والحسن والجمال، وكانت السباحة في النهر والأشجار مصطفة من حوله متحلية بالورود عبقة بالرياحين، وصاحبتهما التي خلبت لبتها تلعب معها ومع صواحبها في المياه، ولطالما سهرت الليالي تفكر في سحر عينيها، وها هي تسدل أحياناً ضفائرها على جوانب من وجهها، ويطل وجهها من خلالها، وكأنما ترى قمرا يطل في جنح الليالي الحالكة أو كأنما مات له شقيق فهو يلبس السواد عليه. وتقول أختها زينب<sup>(٤)</sup>:

ولمَّا أبى الواشون إلا فِرَاقَنَا      ومالَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ  
 وَشَنُوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ      وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي  
 غَزَوْتَهُمْ مِنْ مُقْلَتِيكَ وَأَدْمَعِي      وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ

وواضح ما في البيت الأخير من تشبيه للمقلة والدموع والنفس الحار على الترتيب بالسيف والسيول والنار، وهي مقابلة بديعة، ويسمى البلاغيون هذا الصنيع باسم اللف والنشر، وهو كثير في الشعر العربي من قديم، ومنه أمثلة كثيرة في الشعر الأندلسي قبل زينب.

وتظل سيول هذا الغزل الرائع تتدفق من كل بلدة أو مدينة أندلسية في عصر الموحدين، ويلقانا في صدره محمد بن عياض صاحب المقامة العياضية، وهي مقامة غزلية،

(١) بوادى الأخيرة: ظاهرة.

(٢) المهاء: بقرة الوحش واسعة العينين.

(٣) الدادى: الليالي الأخيرة في الشهر القمري،

(٤) وهي حالكة السواد. جنح الليل: ظلامه.  
 (٤) نفع ٢٠٨/٣ وفي المغرب أن الأبيات لأختها حمدة.

ولذلك تتضمن بعض مقطوعات في الغزل، ومن أروعها قوله<sup>(١)</sup>:

أنكرتُ إلا سَقَامَ طَرْفٍ      وأى سيفٍ بلا ذُبَابٍ<sup>(٢)</sup>  
 إن أنا لاحظتُه تَوَارَى      من دَمْعَةِ العينِ فى حِجَابِ  
 أَبْصْرَتُهُ جَدولًا وورْقًا      من دَمْعِ عَيْنِي وانتحاي<sup>(٣)</sup>

وتشبيه العين بالسيف القاتل تشبيه متداول في الشعر العربي من قديم، ولكن تفرق الدموع في عينيه بالبيت الثاني حتى لتصبح حجابا بينه وبين رؤية صاحبه تشبيه طريف لم يسبق إليه. أما تشبيه الدموع بالجدول وتشبيه انتحابه بهدير الحمام فكلاهما متداول قديما، وإن كان قد أخرجها إخراجا طريفا. والغزل في الأندلس يتشابه بقوة مع الغزل العربي الطاهر العفيف، ومن أهم ما يلاحظ فيه الارتباط الوثيق بالعناصر البدوية القديمة على نحو ما يلقانا في غزلية لمتفلسف الأندلس أبي بكر محمد بن طُفَيْل الذى تحدثنا عنه في نشاطها الفلسفى، إذ يستهلها على هذا النمط<sup>(٤)</sup>:

أَلَمْتُ وقد نام الرقيبُ وهوماً      وأسرتُ إلى وادى العقيق من الحمى<sup>(٥)</sup>  
 وجرتُ على تَرْبِ المحصَّبِ ذَيْلُهَا      فما زال ذاك التُّرْبُ نَهْبًا مَقْسَمًا<sup>(٦)</sup>  
 تناقله أيدي التجارِ لَطِيمَةً      ويَحْمَلُهُ الدارِيُّ أَيْانَ يَمَمًا<sup>(٧)</sup>  
 ولما رأتُ أن لا ظلامَ يُجْنِئُهَا      وأن سُرَاهَا فيه لن يُتَكْتَمًا<sup>(٨)</sup>  
 أزاحتُ غَمَامَ العَصْبِ عن حُرِّ وَجْهَهَا      فأبدتُ شعاعا يُرْجِعُ الصُّبْحَ مَظْلَمًا<sup>(٩)</sup>  
 فكان تجليها حِجَابَ جمالها      كشمس الضحَى يعشى بها الطرفُ ساهما

ولو أننا لم نعرف صاحب هذه الأبيات وأنه أندلسى لظنناه أمويا من شعراء نجد العذريين أو عباسيا ممن كانوا يتمثلون العناصر البدوية مثل أبي تمام متخذين منها رموزاً لإسباغ العذرية والعتاف المتناع على غزلهم، وها هو الشاعر الأندلسى بدوره يتخذ تلك العناصر

(١) مغرب ١/٣٤٥.

(٢) ذباب السيف: حده القاطع.

(٣) ورق جمع أوراق؛ ما لونه رمادى من الحمام.

(٤) مغرب ٢/٨٥ والمعجب ص ٣١٦ وتحفة القادم

رقم ٤٣.

(٥) هوم: مال رأسه فى النعاس. أسرت: سارت

ليلا. وادى العقيق: مواضع كثيرة بالمدينة وبالطائف

ونجد.

(٦) المحصَّب: موضع رمى الجمار بنى.

(٧) اللطيمة: وعاء المسك. الدارى: العطار نسبة

إلى دارين: فريضة أو مرفأ كان يحمل إليه قديما

المسك من الهند. يمم: قصد.

(٨) يمجئها: يسترها، سراها: سيرها ليلا.

(٩) العصب: العصاة على الرأس وطرف الوجه.

حر ظاهر.

رموزا تصور كيف أن جذوة الحب العذرى الطاهر لا تزال متقدة في نفوس الشعراء هناك، مما جعل ابن طفيل يستعير من المدينة وادى العقيق ومن مكة المحصّب، وجعل التراب الذى ير عليه ذيل ثوب صاحبتة مسكا، يتقاسمه الناس وينهبونه، ولعت في ذهنه ذكرى العطار الذى ذكره الغزلون القدماء مرارا في مثل قول الشاعر العربى القديم متحدثا عن ولع صاحبتة بالمسك والتعطر به:

إذا التاجرُ الدارِيُّ جاءَ بِفَأْرَةٍ من المسكِ راحتٍ فى مفارقتها تَجْرِي<sup>(١)</sup>

ويفضى إلى الحديث عن جمال صاحبتة الذى بهره، ويقول إنها بلغت من إشراقها ما جعلها ترى الظلام لا يسترها مهما صنعت، فأزاحت العصابة عن رأسها وجوانب وجهها فأبدت من أشعة ضوئها ما يفوق أشعة الشمس فى الصباح، بل إن ضوء الصباح ليبدو مظلمًا بالقياس إلى ضوئها، ولعله فى ذلك نظر إلى قول أبى تمام:

بيضاء تَسْرِى فى الظلام فيكتسى نورا وتَمْشِى فى الضياء فيظلمُ

وما يلبث ابن طفيل أن يخلق فى خياله، إذ يتصور جمال صاحبتة حجابا لها يُعشى الناظرين فيدفعهم عن النظر إليها، وهو حجاب أروع من حجاب الدموع المار بنا أنفا عند محمد بن عياض. وكان يعاصر ابن طفيل أبو جعفر بن سعيد وسنفرد له كلمة مع صاحبتة حفصة الركونية. وتلتقى فى مدينة الجزيرة الخضراء بشاعر من بيت نباهة وثناء هو ابن أبى روح، وله يصف ليلة<sup>(٢)</sup> قضاها مع صاحبتة فى متنزه على ضفة نهر الجزيرة الخضراء المسمى وادى العسل لحلاوته<sup>(٣)</sup> كما يقول ابن سعيد:

عَرَجَ بوادى العَسَلِ      وقفَ عليه وأسأل  
عن ليلةٍ قطعَها      صُبْحًا برغمِ العُدلِ  
أرشفَ خمرَ الرِّيقِ أو      أقطفُ وردَ الخَجَلِ  
وقد تعانقنا اعتنا      قَ القُضْبِ فوق الجدولِ<sup>(٤)</sup>

الجارية والبساتين النظرة، ونهرها يعرف بوادى العسل لحلاوته وعليه حاجب مشرف على النهر والبحر فى نهاية من الحسن يسمى الحاجبية، ومن متنزهاتها النقا.  
(٤) القضب: الفصون.

(١) فأرة المسك: وعاؤه. الدارى: العطار.  
(٢) رايات المرزبن لابن سعيد (تحقيق د. النعمان القاضى طبع القاهرة) ص ٥٤.  
(٣) المغرب ٣٢٠/٦ إذ يقول ابن سعيد عندما يخرج الإنسان من باب الجزيرة الخضراء يجرد المياه

وَالشَّمْعُ فِي دِرْعِ الْغَدِيرِ كَعَوَالِي الْأَسْلِ (١)  
بِتْنَا إِلَى أَنْ حَثْنَا إِلَى النَّوَى بَرْدُ الْحَلَى

وابن أبي روح يتمثل في البيت الأخير من المقطوعة ما جاء في كتاب الأمل من أن عربية سُئلت كيف تعرفين الفجر؟ فقالت: أعرفه ببرد الحلى. وهو يصور ليلة هنيئة له قضاها مع صاحبه متعاقبين يقطف من ورد الخجل ويجنيان معا من زهرات حبهما، وكأنما كانت ليلة من ليالى العرس، فالشموع متقدمة متألثة على سطح الغدير وعادة يشبهه العرب بالدرع لما تحدته الرياح فيه من غضون. ويقول محمد بن سفر المترجم له بين شعراء الطبيعة (٢):

وواعدتها والشمسُ تَجَنُّحُ لِلنَّوَى  
فجاءت كما يمشى سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَى  
فَعَطَّرَتِ الْآفَاقَ حَوْلِي فَأَشْعَرَتِ  
فَتَابَعْتُ بِالتَّقْيِيلِ آثَارَ سَعِيهَا  
فَبِتُّ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالهُوَى  
أَعَانِقُهَا طَوْرًا وَالنِّمُّ تَارَةً  
فَفَضَّتْ عَقُودًا لِلتَّعَانِقِ بَيْنَنَا  
بِزَوْرَتِهَا لَيْلًا وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرَى  
وَطَوْرًا كَمَا مَرَّ النَّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ  
بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرْفُ يُشْعِرُ بِالزَّهْرِ (٣)  
كَمَا يَتَقَصَّى قَارِئٌ أَحْرَفَ السَّطْرِ  
تَنَبَّهُ بَيْنَ الْغُضَنِ وَالْحِقْفِ وَالبَدْرِ (٤)  
إِلَى أَنْ دَعَتْنَا لِلنَّوَى رَايَةَ الْفَجْرِ  
فِيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ اتْرَكِي سَاعَةَ النَّفْرِ

والمعاني والأخيلة بديعة، فقد زارته وتارة كأنها سنا الصبح يتخلل الظلام أو كأنها النسيم العليل الذى يحيى النفوس، وعطرت الأرجاء بعرفها أو نشرها، وكأنما استحال الثرى تحت أقدامها طيبا ذكى الرائحة وهو ما ينبئ يقبل مواضع خطوها، وكانت ليلة سعيدة نام فيها الليل واستيقظ الحب حتى كان الفجر وحتى كان الوداع، بل لكأنما كانت ليلة القدر الهنيئة، وإنه ليهتف بها أن لا تنفر وتقبض أجنحتها عن الكون، حتى يؤجل الوداع ولو إلى حين.

ونلتقى بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ قبل إكمالها الأربعين صاحب كتاب زاد المسافر فى شعراء زمانه المتردد ذكره فى الهوامش، وله يصف ليلة أنس عفيفة وصفا

(١) الأسل: الراح: عوالها: أطرافها القاطعة. (٣) العرف: الرائحة العطرة.  
(٢) النفع ١٩٩/٣. (٤) الحقف: الكتيب من الرمل.

يديعا<sup>(١)</sup>:

يا حُسْنَهُ وَالْحُسْنَ بَعْضُ صِفَاتِهِ  
بَدْرٌ لَوْ أَنَّ الْبَدْرَ قِيلَ لَهُ: اقْتَرَحْ  
صَاحِبَتَهُ وَاللَّيْلُ يُذَكِّي تَحْتَهُ  
وَضَمَّتُهُ ضَمَّ الْبَخِيلِ لِمَالِهِ  
أَوْثَقْتَهُ فِي سَاعِدَيْهِ كَأَنَّهُ  
وَأَبَى عَفَافِي أَنْ أَقْبَلَ ثَغْرَهُ  
فَاعْجَبْ لِمَلْتَهَبِ الْجَوَانِحِ غُلَّةً  
وَالسَّخْرُ مَقْصُورٌ عَلَى حَرَكَاتِهِ  
أَمَلًا لِقَالِ أَكُونَ مِنْ هَالَاتِهِ  
نَارَيْنِ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ وَجَنَاتِهِ<sup>(٢)</sup>  
أَحْنُو عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ  
ظَبْيٌ أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ فِلَاتِهِ  
وَالقَلْبُ مَطْوِيُّ عَلَى جَمَرَاتِهِ  
يَشْكُو الظَّمَا وَالْمَاءُ فِي لَهَوَاتِهِ<sup>(٣)</sup>

وصفوان يقول إن محبوبته جميلة جمالا خلب لُبُّه، حتى ليتصور أن كل أمل للبدر أن يكون من هالات جمالها الفاتن. ويكون لقاء ذات ليلة، وهو يكاد يحترق من حبه المتقد في جوانحه، كما يقول، ويأخذها بين ساعديه ويضمها إلى صدره ويعف عن تقبيلها، وهي طوع يديه، وهو ظامئ ظمأ شديدا، والماء في أعالي حلقه، ويجاهد حتى لا ينزلق إلى صدره الملتهب وبطفيء غلته. وعلى هذا النحو يرُدُّنا غَزَلون أندلسيون إلى نجد وغزها العذرى عند مجنون ليلي وأضرابه بمثل هذا التصوير الرائع للعفاف الملتاع، بجانب ما استشعروه من العناصر البدوية وعرض صورها الديدعة على نحو ما رأينا عند ابن طفيل. وثلثى في عهد الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) بشاعره أحمد بن شَطْرِيَّة الذى اختطفه الموت في ريعان شبابه، ومن غزله الطريف<sup>(٤)</sup>:

سَتَرَ الصُّبْحَ يَطْرُهُ وَجَلَّ اللَّيْلَ يَغْرُهُ  
كَعْبَةً لِلْحُسْنِ فِي كُلِّ فَوَادٍ مِنْهُ جَمْرُهُ  
جَاءَنِي كَالظَّبْيِ فِي أَشْرَاكِهِ إِذْ حَلَّ شَعْرُهُ<sup>(٥)</sup>  
وَمَضَى عَنِّي وَلَكِنْ بَعْدَ مَا خَلَّفَ نَشْرُهُ<sup>(٦)</sup>

ويقول على بن حريق<sup>(٧)</sup>:

(٣) لهوات جمع لهاة: أعلى الحلق.  
(٤) انظر المغرب ١/١٤٠.  
(٥) أشراكه جمع شراك: حباله الصائد.  
(٦) نشره: عطره.  
(٧) المغرب ٢/٣١٩.

(١) انظر في ترجمة صفوان وشعره المغرب ٢/٢٦٠ ورايات المرزبان ص ١١١ والتكملة ص ٤٢٩ والتحفة رقم ٥٢ الإحاطة ٣/٣٤٩ ومقدمة كتابه زاد المسافر لعبد القادر محداد.  
(٢) يذكى: يضرم ويوقد.

كَلَّمْتُهُ فَاصْفَرُّ مِنْ خَجَلٍ حَتَّى اِكْتَسَى بِالْعَسَجِدِ الْوَرِقُ  
وَسَأَلْتُهُ تَقْيِيلَ وَجَنَّتِهِ فَأَبَى وَقَالَ: أَخَافُ أَحْتَرِقُ  
حَتَّى زَفِيرِي عَاقَ عَنْ أَمَلِي إِنْ الشَّقِيُّ بِرِيقِهِ شَرِقَ

وهو يشبه صفرة الخجل التي كست خد صاحبه بالعسجد أو الذهب ووجنتها بالورق أو الفضة، ويقول إن أنفاسه بلغ من حرارتها أن صاحبه خشيت لو قبلها أن يحترق خدها من زفيره، ويقول إن الشقي بريقه شرِق أو غاص. ومن الغزلين بأخرة من عصر الموحدين سهل بن مالك الذي مر ذكره بين شعراء الفخر، وله متغزلاً<sup>(١)</sup>:

ولما بدا ضوء الصُّباح رأيتها تنفُّضُ رَشْحَ الطَّلِّ عن ناعِمٍ صَلَّتْ<sup>(٢)</sup>  
فقلتُ: أخاف الشمسَ تفضح سِرِّنا فقالت: معاذَ الله تفضحني أختي

وسهل يتصور صاحبه زهرة جميلة تنفض عن وجهها الناعم المضيء في الصباح ندى العرق، ويخوفها من إذاعة الشمس لسرها، وتطمئنه، فهي أختها ولن تذيع لها سرا. ويقول ابن سعيد<sup>(٣)</sup> صاحب كتاب المغرب المبعوث في الهوامش المتوفى سنة ٦٨٥ بتونس<sup>(٤)</sup>:

وهبتُ فُوَادِي لِلْبِاسِمِ وَالْحَدَقِ وَحَكَّمْتُ فِي جَفْنِي الْمَدَامِعَ وَالْأَرْقِ  
ولم أستطع إلا الوفاء لغادر وباليتمني لما وفيت له رَفَقِي  
ومن أجله قد رقَّ جسمي صَبَابَةً وباليتمني لما رآه عليه رق

ومنذ أواسط القرن السابع الهجري - بل منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩ نشعر أن نبع الغزل الذي كان متدفقا في بلدان الأندلس أخذ يغيض وتغيض معه البهجة عن نفوس الأندلسيين لسقوط مدنها واحدة إثر أخرى في حجر نصارى الشمال، ولم يبق لهم سوى إمارة غرناطة التي ظلوا ثابتين فيها ثبوت الجبال الراسية، ولكن مع غير قليل من الأسى والإحساس بمستقبل مفعج ملبد بالغيوم. وطبيعي أن يعم الغزل في تلك الإمارة غير قليل من التكلف وأن يُصاغ كثير منه للتعبير عن جناس أو تورية أو غيرها من محسنات البديع، ومع ذلك لا يزال هناك من يتخففون من هذه المحسنات محاولين التعبير عن شيء من الوجد، ونشعر دائما عندهم بغير قليل من التصنع وأنهم يبذلون ويعيدون في خواطر



الغزلين قبلهم وأخيلتهم، على نحو ما سنرى في الكلمة التي سنسوقها للحديث عن ابن خاتمة وغزله. ويشيد ابن الخطيب بما في قصيدة لابن جُزَيٍّ من وجد قائلاً إنها من الغراميات التي سلك فيها مسلك مجنون ليلى، وربما كان أجمل ما فيها قوله: (١)  
 تباعدت لما زادنى القربُ لوعةً لعل فؤادى من جَوَاهِ يُفِيقُ  
 ولا سلوةً تُرَجِّى ولا الصبرُ ممكنٌ وليس إلى وَصْلِ الحبيبِ طريقُ  
 شجونٌ يَضِيقُ الصَّدْرُ عن زَفَرَاتِهَا وشوقٌ نطاقُ الصبرِ عنه يَضِيقُ  
 فياغائباً عن ناظرىُّ أما يُرى لشمسك من بعد الغروبِ شُرُوقُ

وواضح أن الأبيات ليس فيها لوعة أمثال مجنون ليلى من أصحاب الحب العذرى، ولا فيها حرارة هذا الحب ولا ما يتقد في أفئدة العذريين من نيرانه. ويلقانا ركام هائل في الغزل من زخارف البديع وكأنما أصبحت هي - لا الغزل ووجد المحب - الغاية في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر على نحو ما نرى في قول ابن جُزَيٍّ (٢):

أُبْحِ لى يا روضَ المحاسنِ نظرةً إليَّ وِرْدِ ذاك الخدِّ كنتُ لك الفدا  
 وبالله لا تبخلُ علىَّ بِقَطْفَةٍ فإني عهدتُ الروضَ يوصفُ بالندى

وليس المراد بالندى المعنى القريب وهو قطراته الملائمة للروض وإنما المعنى البعيد وهو الكرم والسماح بما يريد، وهو - في الواقع - لا يريد بالبيتين التعبير عن عاطفة حب، وإنما يريد التعبير عن تورية وهو لذلك يتكلف لها استعارة الروض والورد كما يتكلف طلب الإباحة، وكأنه بإزاء مسألة فقهية!

ويوج ديوان يوسف الثالث أمير غرناطة - المترجم له في الفصل السابق - بالغزل، بل إنه محوره، إذ كثرة قصائده ومقطوعاته تدور عليه، وهو يكثر فيه من ذكر العفاف والعناصر البدوية كبارق وسلع والجرعاء والعذيب والرقمتين والغزال والرِّيم والقِباب والخيام والإبل المودعة. وحقاً هذا كله يطبع به الغزلون الأندلسيون أشعارهم وصلاً محكما لها بالشعر العذرى ودقائقه الشعورية، غير أن حب يوسف الأمير حب سطحى متكلف أو هو حب مترف لا ينبع من القلب، مع أنه يكثر من ذكر الشريف الرضى ومهيار غير أن غزله ينقصه ما عندهما من الرقة والوجد واللوعة وأيضاً ما عندهما من صفاء التعبير وعذوبته، ومن أجل ما نقرأ له في غزلياته قوله:

(١) الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب (٢) الكتيبة الكامنة ص ٢٢٧.

هل البان يحكى من معاطفك القداً  
 لقد أخطأ التشبيه من حسب السها  
 وهل لجلي ليلي نظيراً وإن هم  
 هي الغاية القصوى محاسن لم تجد  
 أو الورد في توريده يُشبه الخداً  
 يقاوم في آفاقه القمر السعدا  
 يظنون منها الثغر قد أشبه العدا  
 شبيهاً لها في الغانيات ولا نداً

وهو يريد أن يقول إن قد ليلي أرشق من قد البان وحمرة خدها تفوق حمرة الورد جمالا وبهاء، ومثل أترابها منها مثل نجم السها الخافت الذي لا يكاد يبين سناه بالقياس إلى ضوء البدر الذي يملأ الآفاق نوره، وثغرها في بياضه وصفائه يشبه درر العقد المتلألئة. وكل هذه التشبيهات مرت بنا في أخيلة بدیعة تصور انبهار الغزلين بجمال صواحبهن، وقد أضعفها عنده أيضا عرضها في صور من الاستفهام واقتنائها بالحسبان والظن. ولعله يحس بنا أن نتوقف قليلا عند نفر من شعراء الغزل الأندلسيين المبدعين وهم: الرمادى، والشريف الطليق، وابن زيدون وولادة، وابن الزقاق، وأبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية، وابن خاتمة.

### الرمادى<sup>(١)</sup> الكندى

هو أبو عمر يوسف بن هرون الكندى المعروف بالرمادى، ويقول مترجموه إن نسبته إلى قبيلة كندة جعلت كثيرين من شيوخ الأدب في زمنه، يقولون: فتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس الكندى في الجاهلية والمتنبى والرمادى القرطبي الكنديين. أما لقبه الرمادى فيقول ابن بشكوال في الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هي: «أوجنيس» ويبدو أنه كناه بها أحد معاصريه على نحو ما مر في كُنَيَات وألقاب شعراء آخرين مثل البليّنة أى الحوت. وقال ابن سعيد في المغرب إنه منسوب إلى رمادة من قرى مدينة شلب في الجنوب الغربى للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه أعرف بشلب وقراها، ولو كانت الكلمة نقلا لكنية: «أبي جنيس» الإسبانية أو

٦٢/٢٠ والذخيرة ٣٢٢/١ و١٤١/٢ و٣٤٦/٣،  
 ٨٢١ و١٢٠/٤ وانظر تاريخ الأدب الأندلسى  
 عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس  
 ص ١٥٥.

(١) انظر في ترجمة الرمادى وشعره الجذرة  
 ص ٣٤٦ والمطمح ص ٦٩ والبغية ص ٤٧٨  
 والصلة ص ٦١٣ والمغرب ٣٩٢/١ والمطرب لابن  
 دحية ص ٦٦ وما بعدها وابن خلكان ٢٢٥/٧  
 واليتيمة ١٤/٢ ، ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء

الرومانسية لقييل: «أبو الرماد» لا الرمادى. وقد تتلمذ لأبى على القالى وروى عنه كتاب النوادر الملحق بالأمالى، وله فيه مدحة بديعة. ويبدو أنه درس كتبه بعده للطلاب إذ يذكر ابن سعيد بين طلابه بقرطبة أميراً من بنى ذى النون الطليطيين. وأخذ يشتهر في الشعر منذ عصر الحكم المستنصر، ويقول الفتح بن خاقان في المطمح إنه: شاعت عنه أشعار في دولة الحكم ورجاها سدد إليهم سهاما فأوغرت عليه الصدور، وسجنه الحكم دهرا، ثم ردت إليه حريته بعد وفاته، وفي سجنه ألف كتابا عن الطير ختم كل حديث له في طائر بأبيات في مديح الحكم ولكنها لم تُلن قلبه، ويبدو أنه بدأ اللمز له ولرجاله حين أمر بإراقة الخمر في جميع الجهات بالأندلس، إذ نرى للرمادى قصيدة يتوجع فيها متألما لشاربيها. وفي أشعاره بعض خمريات وبعض غزل في الغلمان ولا ندرى أكان ينظم في ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبى نواس وأضرابه من المشاركة، إذ نراه يصرح مع خمرياته وغزلياته في السقاة بمثل قوله:

فُتِحَتِ الْجَنَّةُ مِنْ جَبِيهِ      فَبِتُّ فِي دَعْوَةِ رِضْوَانِ<sup>(١)</sup>  
مَرَّةً فِي الْحَبِّ تَنْهَى بَانَ      يَجْأَهَرَ اللَّهُ بَعْصِيَانِ

وقوله:

ومابى فخرٌ بالفجور وإنما      نصيبُ فجورى الرُشْفُ والشَّفَتَانِ

وأكبر الظن أنه لم يكن ماجنا. ويقال إنه كما مدح الحكم المستنصر مدح المنصور بن أبى عامر حاجب ابنه المؤيد، ولم يصلنا شيء من مدائحه لها، وعاش عشر سنوات بعد ابن أبى عامر إذ توفى سنة ٤٠٣. وقد سقط ديوانه من يد الزمن غير أن الذخيرة والجذوة والمغرب واليتيمة للشعالبي تحتفظ جميعا بغزل له غير قليل، وهو يطبع بطابعين: طابع الرقة البين في مثل قوله:

هُوَ ظَالِمِي لَكِنْ أَرِقُّ عَلَيْهِ      مِنْ أَنْ أُجِيلَ اللَّحْظَ فِي خَدْيِهِ  
أَعْفَيْتُ رِقَّةً وَجُنَّتِيهِ مِنْ أَدَى      عَيْنِي وَمَا أَعْفَيْتُ مِنْ عَيْنِيهِ

ومع ما يحمل البيتان من رقة متناهية إذ يقول إنه يخاف على حدود صاحبه من نظراته أو كما يسميها أذى عينه يحملان أيضا الخاصة الثانية في غزله، وهى البعد في التصور حتى ليصبح وهما من الأوهام على نحو ما أصبحت نظراته أذى يوشك أن يلم بالحدود، ولعله

(١) جيب التوب: فنتحه العليا.

يشير بذلك إلى الحياء والخجل الذي يلم بصاحبه فتحمر وجنتاها حين تلاحظ نظراته. ومن ذلك ما أنشده الحميدى فى الجذوة من قوله:

غَدًا يَرْحَلُونَ فِىمَا يَوْمٌ رَسَدَ      لَكَ كُنْ بِالظَّلَامِ بَطِيءَ اللَّحَاقِ<sup>(١)</sup>  
وَبَا دَمَعِ عَيْنِي سُدَّ الطَّرِيقَ      وَأَفْرَغَ عَلَيْهِمْ نَجِيعَ الْمَاقِي<sup>(٢)</sup>  
وَبَا نَفْسِي جِئُهُمْ مِنْ أَمَامٍ      وَقَابَلَهُمْ بِنَسِيمِ احْتِرَاقِ  
وَبَاهُمْ نَفْسِي بِهِمْ كُنْ ظَلَامًا      وَقَيِّدَهُمْ عَنْ نَوَى وَانْطِرَاقِ  
وَيَالِيلٍ مِنْ بَعْدِ ذَا إِنْ ظَفِرُ      تَ بِالصُّبْحِ فَاقْدِفْ بِهِ فِى وَثَاقِ

فصاحبه سترحل مع أهلها غدا، وهو يتضرع لليوم أن يتريث فى مسيرته، حتى يتأخر ليل الغد المؤذن بالفراق، ويتجه لدموعه يأمل أن تستحيل جدولا من الدم القانى، فتسد الطريق على هذا الركب، كما يتجه إلى نفسه الحارّ بالحب وشراره أن يلفح الركب بلهيبه المشتعل حتى لا يستطيع مسيرا، وبالمثل يتجه إلى هوم نفسه مبالغا فى وهمه إذ يطلب إليها أن تنشر ظلامها، بحيث لا يستطيع الركب انطلافا، وحتى الليل يبالغ فى وهمه إزاءه، فيطلب إليه إن ظفر بالصبح أن يأسره ويشد من حوله الوثاق. وكل ذلك إغراق فى الوهم ما بعده إغراق، وعلى شاكلته قوله:

عَلَى كَمْدَى تَهْمَى السَّحَابُ وَتَذْرِفُ      وَمِنْ شَجْنِي تَبْكِي الْحَمَامُ وَتَهْتَفُ  
فَالسَّحَابُ إِنَّمَا يَذْرِفُ دُمُوعَهُ لِمَا يَرَى مِنْ كَمْدِهِ وَهَمِّهِ وَضَنَاهُ، وَالْحَمَامُ إِنَّمَا يَبْكِي وَيُنُوحُ لِمَا يَرَى مِنْ شَجْنِهِ وَحَزْنِهِ، وَمِنْ طَرِيفِ صُورِهِ الْغَزَلِيَّةِ قَوْلُهُ:

وَإِذَا أَرَادَ تَنْزُهَاً فِى رَوْضَةٍ      أَخَذَ الْمِرَاةَ بِكَفِّهِ فَأَدَارَهَا<sup>(٣)</sup>

وهى مبالغة واضحة فى الوهم. إذ صاحبة هذا الوجه الفاتن فى رأيه لا تحتاج إلى روضة. تقضى فيها نزهة تمتع به نفسها، إذ حسبها أن تنظر فى مرآتها فترى أروع روضة، ومن الممكن أن يكون قد أراد أن وجه صاحبه بالقياس إليه كأنه مرآة بديعة لروضة فاتنة. وكل ذلك شاهد على أن الرمادى الكندى كان شاعرا متفننا، فلا غرو أن يتفنن فى الموشحة الساذجة عند القبرى، ويتيح لها - كما مر بنا - تطورا جديدا بالغ الأهمية.

(١) الأنف، وهو مجرى الدمع.

(٢) المرأة: المرآة.

(٣) رسل: تمهل.  
(٢) نجيع: دم.. موق العين: طرفها من جهة

الشريف<sup>(١)</sup> الطليق المرواني

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، قيل إنه كان يعيش جارية رباها أبوه معه، فنشأ يصبو إليها، وكانت تصبو إليه، وذكر ذلك لأبيه، ولم يحترم رغبته، فاستأثر بها من دونه، واشتدت غيرته من أبيه، فانتضى يوما سيفاً وانتهاز فرصة منه، فقتله، وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة، فزجَّ به المنصور بن أبي عامر في السجن وظل به ست عشرة سنة، ثم أطلقه، فسمى الطليق لذلك، وعاش بعد إطلاقه ورد حريته إليه ست عشرة سنة ثالثة، وهو من نادر الاتفاق، وتوفي قريبا من سنة أربعائة. ويقول ابن حزم في كتاب الحلة السَّيراء: «أبو عبد الملك هذا في بنى أمية كابن المعتز في بنى العباس ملاحه شعر وحسن تشبيهه». ويقول في جمهرة أنساب العرب: «مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين». ويروون له أشعارا نظمها في السجن وينقصها الإحساس بالمرارة، وكأنما يشعر بعظم ذنبه تلقاء أبيه. وله وراءها أشعار كثيرة في الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وهو فيها يعبر عن مشاعر صادقة، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربي، وتمثله للصياغة الشعرية الرصينة المونقة، مع العناية بالأخيلة والتساوير، من ذلك قوله متغزلا في قافية له مشهورة:

غُصْنٌ يَهْتَرُ فِي دِعْصٍ نَقَا	يَجْتَنِي مِنْهُ فَوَادِي حُرَقَا <sup>(٢)</sup>
أَطَّلَعَ الْحَسَنُ لَنَا مِنْ وَجْهِهِ	قَمَرًا لَيْسَ يُرَى مُمَّحِقَا
وَرَنَا عَنْ طَرْفِ رَيْمٍ أَحْوَرٍ	لِحِظَّةِ سَهْمٍ لِقَلْبِي فُوقَا <sup>(٣)</sup>
بِاسْمٍ عَنْ عِقْدِ دُرٍّ خَلْتَهُ	سَلْبَتَهُ لِنِشَاءِ الْعُنُقَا
سَالِ لَامِ الصُّدْغِ فِي صَفْحَتِهِ	سِيلَانَ التَّبْرِ وَافَى الْوَرَقَا <sup>(٤)</sup>

ونشعر بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وأنه يعرف كيف يضم اللفظة إلى اللفظة في نسق صوتي بلذ الأسباع والألسنة، وحقا تشبيهه قامة المرأة بالغصن النابت في كتيب نقا أو رملة متداولٌ وكذلك تشبيهها بالقمر وبظبي أحور، وهي تسدُّ السهام إلى قلوب

(١) لابن حزم ص ١٠٢.

(٢) دعص: كتيب. نقا: رملة.

(٣) ريم: ظبي. فُوق: سُدد.

(٤) الصدغ: الشعر المسدل بين الأذن والعين.

الورق: الفضة.

(١) انظر في ترجمة الشريف الطليق وشعره الحلة

السَّيراء ٢٢٠/١ والمغرب ١٩١/١ والحميدى

ص ٣٢١ والبغية ص ٤٤٧ والمعجب ص ٢٨٥

وما بعدها ونفح الطب ٥٨٦/٣ وما بعدها

والذخيرة ٥٦٣/١ وما بعدها وجمهرة الأنساب

المفتونين بها وأيضاً تشبيه الأسنان في اللثة بعقود در وصدغ الشعر المسدل بين الأذن والعين باللام وأن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة، كل ذلك رده الشعر قبل الطليق ولكنه عرف كيف يصوغه ويحور فيه تحويرات تروع قارئه. ومن غزله قوله:

وَدَعْتُ مَنْ أَهْوَى أَصِيلاً لَيْتَنِي  
وَوَجَدْتُ حَتَّى الشَّمْسِ تَشْكُو وَجَدَهُ  
وَعَلَى الْأَصَائِلِ رَقَّةٌ مِنْ بَعْدِهِ  
وَعِدَا النَّسِيمِ مَبْلُغًا مَا بَيْنَنَا  
مَا الرَّوْضُ قَدْ مُزِجَتْ بِهِ أُنْدَاؤُهُ  
وَلِذَاكَ أَوْلَعٌ بِالرِّيَاضِ لِأَنَّهَا  
ذُقْتُ الحِمَامَ وَلَا أَذُوقُ نَوَاهُ  
وَالوُرُقُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا بِهَوَاهُ<sup>(١)</sup>  
فَكَأَنَّهَا تَلْقَى الذِّي أَلْقَاهُ  
فَلِذَاكَ رَقٌّ هَوَى وَطَابَ شَدَاهُ<sup>(٢)</sup>  
سَحْرًا بِأَطْيَبِ مِنْ شَدَا ذِكْرَاهُ  
أَبْدًا تَذَكَّرْنِي بِمَنْ أَهْوَاهُ

وهو يصور وجده والتياغه بذكري من يهواها من خلال عناصر الطبيعة، فالشمس في وداعها للأفق أصيلاً وما يصيبها من شحوب وصفرة كأنما تشكو وجدها بحبها، وبالمثل تندب الورق الرمادية من الحمام لوعتها بهواها، وكأنما سكبت على الأصيل والنسيم رقة الوجد وأريجه العطر، وإن شذى ذكراه لصاحبه ليفوق شذى أى روض تتفتح أزهاره الندية سحراً، وهو ما يجعله صباً بالرياض إذ تمثل عناصرها صاحبه له وتجسمها بكل ما فيها من حسن وجمال وفتنة. ودائماً نشعر عند الطليق بروعة الموسيقى مع ما تمتاز به صياغته ولغته من صفاء وسلاسة.

ابن زيدون وولادة<sup>(٣)</sup>

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي الأندلسي ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ في بيت علم وفقه، لأب فقيه كان من هيئة الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين

عنه طبع دار المعارف وديوانه وقد نشر مرات آخرها سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور على عبد العظيم.

(٤) راجع في ولادة وأخبارها مع ابن زيدون وشعرها الذخيرة ٤٢٩/١ وما بعدها والصلة ص ٦٥٧ والمغرب ٦٥/١، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ والمطرب ص ٧ والوفاي للصفدي ٢٥١/٤ ونفح الطيب ٢٠٥/٤ وما بعدها.

(١) الورق: الحمام الرمادي اللون  
(٢) الشذى: رائحة الطيب والمسك.

(٣) انظر في ترجمة ابن زيدون وشعره الذخيرة ٣٣٦/١ وما بعدها والحميدي ص ١٢١ والقلائد ص ٧٠ والمطرب ص ١٦٦ والمعجب للمراكشي ص ١٦٢ والمغرب ٦٣/١ والحريدة ٤٨/٢ وابن خلكان ١٣٩/١ والبغية رقم ٤٢٦ ومقدمتي سرح العيون وتمام المتون لرسالتيه الهزلية والجديدة وكتابنا

(٣٩٩-٤٠٧ هـ) وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة، فهو من بيت حسب ونسب وثناء، وعُنى أبوه بتربيته إلى أن توفي سنة ٤٠٥ وظل بعده ينهل من العلوم والمعارف بقرطبة وخاصة من الآداب العربية. وليس لدينا أخبار واضحة عنه في شبابه إلا ما انعقد بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفي من حب، وقد توفي أبوها سنة ٤١٦ وما توافى سنة ٤٢٢ حتى تسقط دولة الخلافة الأموية في قرطبة، ويتولى أبو الحزم جهور مقاليد الحكم وجعله حكما شوريا ديمقراطيا من خلال مجلس كان يرجع إليه في سياسته وتدير شؤون حكمه. وأكبر الظن أن ابن زيدون كان ممن انتظموا حوله في حاشيته، ودُسَّ عليه حوالى سنة ٤٣٠ أنه يشترك في مؤامرة ضد أبي الحزم جهور، وتصادف أن اتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه، وزج به أبو الحزم في السجن، واستعطفه برسالته الجدية ويقصائد مختلفة، غير أنه ظل يُصمُّ أذنيه عنه إلى أن توسط له ابنه أبو الوليد - وكان صديقا له - فرد إليه أبو الحزم حريته. ويتوفى سنة ٤٣٥ ويخلفه ابنه أبو الوليد فيعهد لصديقه ابن زيدون بالنظر على أهل الذمة، ثم يتخذه وزيرا له، ويوفده في عدة سفارات إلى أمراء الطوائف، وتدير في سنة ٤٤٠ مؤامرة ضد أبي الوليد وتفشل المؤامرة، ونجد ابن زيدون بعدها مضطربا ويرسل إلى المعتضد عباد أمير إشبيلية أن يلجأ إليه، ويرحب بمقدمه عليه سنة ٤٤١ ويتخذه وزيرا له حتى وفاته سنة ٤٦١ ويظل وزيرا لابنه المعتمد إلى أن يلبى نداء ربه سنة ٤٦٣.

وابن زيدون من أعلام الشعر والنثر في الأندلس، وله مدائح رائعة في أبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد والمعتضد عباد، وله أيضا مرات بديدة. غير أن القطعة الأرجوانية في حياته وشعره هي كلفه بولادة وما نظمها فيها من غزل، وكانت أديبة شاعرة، واتخذت لها مجلسا أو ندوة بقصرها تخالط فيها الشعراء وتساجلهم وتفوق أحيانا البارعين منهم، وفيها يقول ابن بسام: «كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتْها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب».

وولادة - بذلك - تكون قد سبقت سيدات الصالونات الأدبية في فرنسا اللاتني نسمع بهن بعدها بستة قرون أو سبع ممن كن يتخذن - على شاكلتها - ندوات يختلف

إليها بعض الشباب والكهول من الأدباء والمتفلسفة لما يميزن به من رجاحة العقل وخفة الروح والقدرة على إدارة الحديث والمشاركة فيه مع شيء من الحسن والجمال. ولو أن الأمور والأحوال السياسية استقامت واطردت استقامتها في الأندلس لوجدنا كثيرات مثل ولادة، هن مثل مجلسها ومنتداها على نحو ما مرَّ بنا من حديث عن السيدة حواء زوجة حاكم إشبيلية المرابطي سير بن أبي بكر وممدوحة الشاعر الأعمى التيطلي، وكما سنرى عما قليل مثيلتها حفصة الرُّكُونِيَّة في عهد الموحدين، ومن المؤكد أن كثيرات من الشاعرات اللاتني ترجم هن المقرئ واللاتني يبلغن أربعاً وعشرين كان هن مجالس ومنتديات على شاكلة ولادة. وهى ثمرة الحرية التي استمتعت بها المرأة في الأندلس والتي أشرنا إليها مراراً. وينبغي أن نفرق دائماً بين الحرية والمجون، فلم تكن ولادة ومثيلاتها في الأندلس ماجنات إنما كن سيدات فضليات قُذِنَ في المجتمع الأندلسي نهضة أدبية وفكرية، وقد أشار ابن بسام إلى عفة ولادة فقال «مع طهارة أثواب»، كما أشار إلى استشعارها لكرامتها بقوله: «مع علو نصاب، وكرم أنساب» وكذلك كانت مثيلاتها من ذوات الحسب والنسب، على نحو ما صورنا ذلك عند السيدة حواء فيما أسلفنا من حديث.

وكان ممن اختلف إلى مجلس ولادة أو منتداها الفتى الشاعر النابغ ابن زيدون، وظل مواظباً على ذلك أياماً وشعر أنها تؤثره، فوقع في قلبه كما وقع في قلبها، واتصل بينهما الود، ويروى أنها كتبت إليه بعد طول تمنع لما أولع بها:

ترقَّب إذا جنَّ الظلامُ زيارتي      فإني رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسَّرِّ  
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح      وبالبدْرِ لم يَطَّلِعْ وبالنجم لم يسرِّ

واتصل بينها اللقاء في منتداها وفي حدائق قرطبة، تغمرهما نشوة الحب، وتارة ينشدها من أشعاره فيها وتارة ينشدها من أشعار الغزلين من أمثاله، وحدث أن غاب عنها لأمر عرض له، فكتبت إليه:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرُّقِ      سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لقي  
تمرُّ الليالي لا أرى البينَ ينقضي      ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّقِ مُعْتَقِي

غير أنها لم تلبث أن تبدلت، فأذاقته بعد نعيم حبها وقربها جحيم هجرها وبعدها، ويقال إن سبب هذا الهجر أنها لاحظت مغازلته لإحدى جواربها، ويقال: بل لأنه نقد لها بعض



شعرها، وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن ابن زيدون أخطأ في حقها أو في حق شعرها خطأ كبيراً. ويقال إنها صَبَّتْ إلى أديب نابغ ثرى ممن كانوا يختلفون إلى منتداها هو ابن عبدوس وصبا إليها، فطار صواب ابن زيدون، وكتب إليه رسالته الهزلية ساخراً منه كما كتب إليه قصائد مهددا متوعدا، غير أن ولادة لم تصفح عنه، وظل مبعدا محروماً. وغزله فيها - كما صورنا ذلك في كتابنا عنه - يصور ثلاث مراحل: مرحلة وصله، ومرحلة هجره، ومرحلة يأسه، وغزل المرحلة الأولى فيه بهجة وفرحة، إذ ينعم بقرّة عينه ويسعد سعادة لا حدود لها. أما غزل المرحلة الثانية ففيه الشكوى والحرقه والالتياح العميق والحسرة على فردوسه المفقود. بينما غزل المرحلة الثالثة غزل المبتئس الباكي النادب لحظه. وغزله يعدُّ في الذروة من الغزل العربي وخاصة غزل المرحلتين الثانية والثالثة، لما يصور فيهما من لوعاته المحرقة الممضة، ومن أروع قصائده الغزلية في صاحبه قافيته التي يستهلها بقوله:

إني ذكرتك بالزّهراءِ مُشتاقاً والأفقُ طَلَّقَ ومَرَأى الأرضِ قدرَاقاً

وهو يذكر منتداها في قصرها بضاحية الزهراء وما تموج به من رياض وبساتين، وتغمره اللوعة واللهفة على لقائها ويُشرك الرياض التي طالما جاسا معها خلاها وتجوّلاً بين أشجارها وأزهارها وطيورها ومياهها في أحاسيسه ومشاعره، وكأنها تشاركه همومه، وأروع من هذه القصيدة قصيدته:

أُضْحِي التَّنَائِي بديلاً من تَدَانِينَا ونَابَ عن طيب لُقَيْنَا تجافينا  
حالت لِبُعْدِكُمْ أَيَامُنَا فَعَدْتُ سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا  
بالأمس كنا وما يُخْشَى تَفَرَّقُنَا واليوم نحن وما يُرْجَى تلاقينا  
يَا جَنَّةَ الخُلْدِ أَبَدِلْنَا بِسَلْسِلِهَا والكُوْتِرِ العَذْبِ رَقُومًا وَغِسْلِينَا<sup>(١)</sup>

والقصيدة تكنظ بالحنين وبلوعات قلب محترق وزفراته، ولعل يأسه من ولادة هو الذي دفعه إلى مغادرته قرطبة مسقط رأسه إلى إشبيلية، لعله يستطيع أن ينسى حبه أو يسلوه، ويقول صاحب الصلة إنها عمرت عمراً طويلاً ولم تزوج قط، وتوفيت سنة ٤٨٤ بعد أن خلدت اسمها في تاريخ الشعر العربي وتاريخ المرأة الأندلسية.

(١) السلسل: الماء العذب. الكوثر: نهر في الجنة. أهل النار. الرقوم والغسلين: طعامان من أطعمة

## ابن الرِّزْق (١) اللُّخْمِي

هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عطية اللخمي البلنسي المعروف باسم ابن الرِّزْق، وهو ابن أخت الشاعر الأندلسي المشهور ابن خفاجة، رُزق به أبوه في أواخر العقد التاسع من القرن الخامس الهجري، ويصل بعض مترجميه بين أبيه وبين أسرة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية في عصر أمراء الطوائف، ويقولون إنه حين خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة إشبيلية اختفى الأب وهاجر إلى بلنسية، واستوطنها، وعمل بها مؤذنا بمسجدها الكبير. وفي نفع الطيب رواية تزعم أن أباه كان فقيرا جدا وأنه كان صاحب حانوت يكب فيه على صناعة الرِّزْق، وأنه كان يتلوم ابنه لسهره ليلا يشتغل بالآداب، لما يكلفه ذلك من الزيت الكثير لمصباحه، ويقال إنه نال بأولى قصائده في أمير بلنسي ثلاثمائة دينار، فأقى بها إلى أبيه ووضعها في حجره، وقال له: اشتر بها زيتا، ونظن ظنا أن هذا الخبر غير صحيح وأن صاحبه حاول به تفسير لقب أبيه المتصل باسمه: ابن الرِّزْق. ولا نعرف أهذا اللقب كان لأبيه أو لأحد أجداده، ويغلب أن لا يكون له أي صلة بزقاق الخمر وأن هذا الأب أو الجَد لقب «رِزْقًا» لسمنه الزائد وانتفاخ كرشه، كما أشارت إلى ذلك عفيفة ديراني محققة ديوانه. وعنى الأب بتربية ابنه لما رأى فيه من مخايل الذكاء حتى إذا شبَّ لزم دروس ابن السيد البطلبيوسي وعلى يديه درس العربية والآداب. وتفتحت موهبته مبكرا، وأخذ يلفت نظر الشعراء والأدباء في بلدته. وامتح بعض الكبراء من بني عبد العزيز أمراء بلنسية قديما قبل مولده وبعض القضاة ويحيى بن غانية أمير بلنسية ومرسية لعهد علي بن يوسف بن تاشفين. وكان قليلا ما يمدح أميرا أو كبيرا، إذ كان يترفع عن المديح، ونوه بذلك مرارا في شعره من مثل قوله:

أنا من تمنَّته الملوك فلم أعجُ منها على ذى طارفٍ وتلادٍ (٢)

فالمملوك لزمه كانت تمنى أن يصوغ لهم شيئا من مدائحه، وكان يتمنَّع عليهم لإبائه نفسه وشعوره العميق بكرامته. وفي الديوان مرات مختلفة وبينها مرثية حارة في سيدة

(١) انظر في ترجمة ابن الرِّزْق وشعره المغرب ٣٢٣/٢ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها. والنفع ٣/١٩٩ و ٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديراني (طبع دار الثقافة بيروت) ومقدمتها له وما بها من مصادر.  
(٢) أعج من عاج: نفت. تلاد: قديم ضد طارف.

(١) انظر في ترجمة ابن الرِّزْق وشعره المغرب ٣٢٣/٢ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها. والنفع ٣/١٩٩ و ٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديراني (طبع دار الثقافة

لعلها زوجته كما ترجح محققة الديوان، وقد رزق منها بنجلين: محمود وإبراهيم، ويصور حبه لها وعاطفته الأبوية نحوها بإحدى قصائده. والديوان موزع بين موضوعين كبيرين هما الغزل وحب الطبيعة، والغزل تارة يقدم به إحدى قصائد المديح، وتارة ثانية يخلطه بالطبيعة مضيفاً إلى النشوة بها النشوة بالخمر، ومن بواكير غزله قوله في مقدمة إحدى مدائحه:

يا شمسَ خِدرٍ ما لها مَغْرَبُ      أرامَةٌ خِدرِكِ أمْ يَثْرِبُ<sup>(١)</sup>  
 ذهبتِ فاستعبر طَرْفِي دَمًا      مَفْضُضُ الدَّمْعِ به مُذْهَبُ  
 ناشدتكِ اللَّهُ نَسِيمَ الصَّبَا      أَنِي اسْتَقَرَّتْ بعدنا زَيْنُ  
 لم تَسْرِ إلا بِشَدَى عَرَفِهَا      أولا فَمَاذا النَّفْسُ الطَّيِّبُ<sup>(٢)</sup>  
 إيهِ وإن عَدْبَنِي حُبُّهَا      فمن عذابِ النَّفْسِ ما يَعْذُبُ

وتتضح في هذه الأبيات المبكرة - كما يقول الرواة - الخاصة الفنية الرائعة التي أشار إليها أبو الوليد الشقندي في بيانه براعة الأندلسيين في الشعر، وهي أن ابن الزقاق يتناول في أشعاره الصور والأخيلة التي تداولها الشعراء قبله مراراً وتكراراً حتى غدت كالثوب الخلق البالي، فإذا هو يبت فيها حياة وحيوية فتصبح جديدة نضرة مغرباً في ذلك أحسن إغراب وأطرفه، على نحو ما يتضح في تلك الأبيات، فقد أخذ عن الشعراء استعارة الشمس لصاحبه في البهاء والجمال، وأضاف إليها أنها شمس لا تغرب، إذ ما تني طالعة في خدرها مشرقة، ويناشد نسيم الصبا أين مستقر صاحبه؟ ويذكر أن شذاها يفوح لا من حولها فحسب، كما يقول الشعراء، بل في النسيم ذاته دليل أنفاسه المحملة بأريج هذا الشدى، ويقول:

سَلِ الرِّيحِ عن نَجْدٍ تخَبَّرَكَ أنها      معطَّرَةُ الأنفاسِ مُدُّ سَكنتُ نَجْدًا  
 وأن الغضا والسدرَ مذ جاورتهما      بِطِيبِ شذاها أشبها البانَ والرندا

فصاحبه منذ سكنت نجداً أحالت الريح فيها إلى أنفاس معطرة، بل لقد أحالت الغضا والسدر من أشجار البادية العادية إلى أشجار البان والرند التي طالما ذكرها الغزلون واستدارت من حولها في أخيلتهم هالات الجمال لمحبيباتهم. ومن قوله في مقدمة إحدى مدائحه:

(١) الخدر: البيت. رامة: موضع بنجد. يثرب: (٢) شدى العرف: رائحة الطيب العطرة. المدينة.

ولقد مررتُ على الكَثيبِ فَأَرَزَمْتُ  
 ما بينِ ساحاتِ لهمِ ومعاهدِ  
 والوُرُقِ تهتفِ حولهمِ طرباً بهمِ  
 وإبلى ورجعتِ الصَّهيلَ جِياى<sup>(١)</sup>  
 سُقيتُ من العَبَرَاتِ صَوْبَ عِهادِ<sup>(٢)</sup>  
 وبكلِ مَحْنِيَةٍ ترنُّمِ شادى<sup>(٣)</sup>

والبيت الأول يكتظ بالحنين لصواحيه وراء الكثيب وحوله، حتى الإبل جمدت في مكانها ولا تريد أن تفارقه، وتجاوبت الخيل بصهيلها، فهي لا تريد أن تبرحه. ويدعو لساحاتهم ومعاهدهن أن تظل تُسقى بعبرات المحبين، ويسوق الحمام الورق لا ليصور فيه حنينه وأنينه لفراق صواحيه على عادة الشعراء، بل ليصور بهجته، فهو يشدو لهن طرباً. وتكثر في غزله مثل هذه الصور الطريفة من مثل قوله في وصف دقة الخصر:

أسألتها أين الوشاحُ وقد أتتْ  
 فقالتْ وأومتْ للسَّوارِ نقلتْهُ  
 معطَّلةً منه معطرةً النَّشْرِ  
 إلى معصمى لما تقلقل في خصرى

وقوله:

وقفتُ على الربوعِ ولى حنينٌ  
 ولو أنى حننتُ إلى مغانى  
 لساكنهنَّ ليس إلى الربوعِ  
 أجبائى حننتُ إلى ضلوعى

وقوله:

تحاذرُ من عمودِ الصبحِ نوراً  
 ولم أر قبَّلها والليلِ داجِ  
 مخافةً أن يلمَّ بنا افتضاحُ  
 صباحاً بات يدعُرهُ صباحُ

والتعبير عن نحول الخصر بنقل السوار إليه تعبير طريف، وبالمثل تعبيره عن أضلاعه بأنها غدت معاهد وربوعاً لمحبوباته، وتصويره لما جال في نفس صاحبتة من خوف بل من زعر حين أخذت تتفلت في الأفق تباشير الصباح، ويعجب لفرع صباح إنسى من صباح كوفى. وقد توفى ابن الزقاق سنة ٥٢٨ ولم يبلغ الأربعين من عمره، ولعل فيما قدمنا ما يكفى للدلالة على خصب شاعريته وأخيلته.

(١) أرزمت: حنت.

منه.

(٣) الورق: الحمام. مَحْنِيَةٌ: منعطف.

(٢) العهاد: المطرق أول الشتاء. وصوبه: الساقط

أبو جعفر<sup>(١)</sup> بن سعيد وحنفة الركونية

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، من سلالة عمار بن ياسر، نزل أسلافه قلعة في إقليم غرناطة نسبت إليهم، وحين نشبت فتنة قرطبة في نهاية القرن الرابع وظلت إلى نحو الربع الأول من القرن الخامس الهجري استقلت بها هذه الأسرة، وعادت إلى الاستقلال بها في نهاية عصر المرابطين حين نشبت عليهم الفتنة في الأندلس. ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحدين وكان قبل إعلان ولائه لهم حاول أن يتخذ من ابنه أبي جعفر أحمد وزيراً له يدير معه شئون القلعة، وكان شاعراً وفي ريعان شبابه فاعتذر له بأنه صاحب هو وطرب، ولا يصلح لوزارته، فأعفاه، ومضى يعيش للهواه مع رفاقه، حتى إذا نزل عبد المؤمن بجبل الفتح سنة ٥٥٦ وأقبلت إليه وفود الأندلس تعلن ولاءها له رأيناه يفد عليه مع أبيه ويقدم إليه بعض مداخله. وولى عبد المؤمن على بلدان الأندلس بعض أبنائه وقواده، وكانت غرناطة من نصيب ابنه أبي سعيد عثمان، وكانت فيه صرامة مع محبته للآداب وإسباغ المكافآت والنوال على الشعراء. وطلب وزيراً أديباً من أهلها يستعين به ووصف له أبو جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره، وحاول أن يستعفيه، فأبى، وتقلد وزارته.

وكان أبو جعفر قد كلف بفتاة شاعرة ذات جمال وحسب وثراء هي حنفة الركونية، وكان أبوها قد لفته ذكاؤها، فعنى بتربيتها، وأتاح لها من الحرية ما جعلها تلقى الأديباء والشعراء وتحاورهم، وتأخذ سريعاً مكانة رفيعة في بلدتها، ويبلغ من مكانتها أن تفد على عبد المؤمن بجبل الفتح وأن تشده متلطفة:

ياسيد الناس يامن	يؤمل الناس رفة
امنن على بطرس	يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه	الحمد لله وحده

مشيرة بالشرط الأخير إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، إذ كان سلطانهم يكتب

ص ١٠ والإحاطة ٤٩١/١ وانظر ص ٢٢٠  
والتحفة رقم ١٠٠ ومعجم الأديباء ٢١٩/١٠ والنفع  
١٧١/٤ - ١٧٩.

(١) انظر في ترجمة أبي جعفر بن سعيد وشعره  
المغرب ١٦٤/٢ والإحاطة ٢١٤/١ والنفع  
١٧٣/٤ - ٢٠٤. وراجع في ترجمة حنفة وأشعارها  
المغرب ١٣٨/٢ - ١٣٩ و ١٦٦/٢ والمطرب

بخط يده في رأس كل منشور: الحمد لله وحده. وأعجب بها عبد المؤمن واستنشدها من شعرها وأنشدته ما زاده إعجابا، ويبدو أن ابنه عثمان الذي تولى غرناطة بعد ذلك رآها حينئذ وبهره جماها. فلما ولى غرناطة حاول القرب منها عن طريق وزيره أبي جعفر، ولا بد أنه عرف ما كان قد انعقد بينها من حب وهو ليس حب مجون، بل حب طهارة وعفاف على نحو ما عُرف عن فتيات الأندلس وسيداتنا من تحرر ومن لقاءات بينهن وبين الشعراء في قصورهن، وفي الحدائق والرياض، إذ كن أحيانا يمضين فيها بعض الليالي مع من يهاهن وظلت ذكرى ليلة قضاها أبو جعفر مع حفصة في بستان بمتنزه يسمى «حور مؤمل» عبققة في نفسه حتى ليكتب إليها:

رَعَى اللهُ لَيْلًا لَمْ يَرُحْ بِمَذْمَمٍ      عَشِيَّةً وَارَانَا بِحَوْرِ مُؤْمَلٍ  
وَقَدْ خَفَقَتْ مِنْ نَحْوِ نَجْدِ أَرِيحَةَ      إِذَا نَفَحَتْ هَبَّتْ بَرِيًّا الْقُرْنُفْلُ  
وَعَرْدٌ قَمَرِيٌّ عَلَى الدَّوْحِ وَانْتَنَى      قَضِيبٌ مِنَ الرِّيحَانِ مِنْ فَوْقِ جَدُولِ

فهو يدعو لليل الذي نعم فيه مع حفصة باللقاء بين نسيم الرياض ونفحاتها التي تحيي القلوب أن يسبح الله دائما عليه رعايته. وتحجيه:

لِعَمْرِكَ مَا سُرَّ الرِّيَاضُ بَوْضَلِنَا      وَلَكِنَّمَا أَبَدَتْ لَنَا الْغَلَّ وَالْحَسَدَ  
وَلَا صَفَّقَ النَّهْرُ ارْتِيَاحًا لِقَرْبِنَا      وَلَا غَرَّدَ الْقَمَرِيُّ إِلَّا لِمَا وَجَدَ

وكانها تحدث عن حسد الناس لها وأنها لن يتركوها ينعان بحبها، ويقطفان من أزهاره ما يعن لها وما يمتعان به روحاها، واتصل بينها الحب واللقاء فكتبت إليه وقد استبطأت لقاءه:

أزورك أم تزورُ فإن قلبي      إلى ما تشتهي أبدا يميلُ  
فعجلُ بالجواب فما جميل      أناتك عن بثينة ياجميلُ

وهي تشير إلى حب جميل لبثينة حبا عذريا شاع ذكره في بوادي نجد والحجاز لعصر بني أمية. وأجابه مصورا ولعه بها وتوقيره لها:

أجلكم مادام بي نهضة      عن أن تزوروا إن وجدت السبيلُ  
ما الروض زوارا ولكنما      يزوره هبُ النسيم العليلُ

فالروض لا يزور ومثله الفاتنة التي ملكت قلب صاحبها وخبلت له، وإنما يزوره

النسيم العليل يستشفى بشذاه وأريجيه. ويبدو في أشعارها له أنه استأثر بقلبها وأنه لم يدع فيه مكانا لسواه حتى لتتشده ملئحة بحبه ناعمة به سعيدة، غير منكرة غيرتها عليه:

أغار عليك من عيني ومنى ومنك ومن زمانك والمكان  
ولو أنى خباتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

فهى تغار عليه غيرة لا تماثلها غيرة، حتى لتغار منه هو ومن كل ما يحيطه به من زمان ومكان، وتقول لو أنها خطفته ووضعت وراء جفونها في عيونها إلى يوم القيامة ما كفها. وبينما هى تنعم بهذا الحب مع أبى جعفر إذا عثمان بن عبد المؤمن صاحب السلطان فى غرناطة ومن له كل الأمر والتدبير يعترض طريقها المفروش بالورود والرياحين، وتحشى حفصة العاقبة، وتحاول أن تناوره وتداوره فتستأذن عليه فى يوم عيد كاتبة إليه:

ياذا العلاء وابن الخليفة والإمام المرتضى  
يهنيك عيداً قد جرى منه بما تهوى القضاء  
وأفاك من تهواه فى طوع الإجابة والرضا

ويتملىء قلب عثمان على كل من العاشقين موجدة وغيظا، وتزيده الوشايات موجدة على موجدة وغيظا على غيظ، إذ يقال له إن أبى جعفر قال لحفصة عنه: ما تحبين فى ذلك الأسود - وكان لون بشرته مائلا إلى السواد - فأسرّها فى نفسه، ونقلوا إليه أنه قال:

فقل لحريصٍ إذ يرانى مقيداً بخدمته لا يجعل الباز فى القفص

ووات عثمان الفرصة للانتقام، فإن أخوا أبى جعفر عبد الرحمن فرّ إلى ابن مردنيش الثائر فى شرقى الأندلس على الموحدين، ويبدو أن أبى جعفر فكر فى الانضمام إلى أخيه، فأمر عثمان بقتله، وقتل صبراً فى مالقة سنة ٥٥٩ للهجرة. وبكته حفصة طويلا وندبته ندبا حاراً ولبست عليه السواد، وهجرت غرناطة لغريمها عثمان إلى مراكش ولقيت أخاه سلطان الموحدين يوسف، وأنشدته من الشعر ما جعله يعطف عليها ويفسح لها فى قصره معلمة لفتياته، وتظل معززة مكرمة فى عاصمة الموحدين إلى أن لبت نداء ربها سنة ٥٨٦ للهجرة.

هو أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري المرِّي، ولد في نهاية القرن السابع أو مطلع القرن الثامن إذ يقال إنه توفي سنة ٧٧٠ أو قبلها بقليل عن سبعين عاما. وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته وثقافته، غير أن في نهوضه بالإقراء للقرآن الكريم في مسجد المرية الجامع ما يشهد بأنه كان متعمقا في الثقافة الإسلامية من قراءات الذكر الحكيم ومن الفقه والحديث النبوي، وتؤكد ذلك مؤلفاته وأشعاره وما تحمل من إشارات ثقافية إسلامية وأخرى لغوية. ونرى في أخباره زيارات كثيرة لغرناطة وانعقاد صلوات بينه وبين أعلامها وخاصة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مما يدل على أنه اتصل بالأعمال الديوانية لأمير غرناطة، ولعله عمل كاتباً مدة في دواوين المرية ببلدته التي كانت تتبع أمير غرناطة، إذ يُذكر في ترجمته أنه تَخَلَّى عن الكتابة، حتى إذا طُلب إليه أن يعود إليها أنشد:

تَقَضَّى فِي الْكِتَابَةِ لِي زَمَانٌ كَشَانِ الْعَبْدِ يَنْتَظِرُ الْكِتَابَةَ

وكتابة العبد التي يشير إليها هي أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسّطاً، فإذا أذاه صار حُرّاً، وهو يقول إنني قضيت في الكتابة زماناً غير قصير. مما يدل على أنه ظل يعمل في الكتابة لأولى الأمر ببلدته فترة وأنه استعفى منها فأعفى، وبذلك رُدَّتْ إليه حرّيته ولن يعود إلى حمل نير الكتابة أبداً. وتدل مؤلفاته أوضح دلالة على اتساع ثقافته وأنه لم يقف بها عند الثقافة الدينية واللغوية، بل اتسع بها لتشمل الطب من علوم الأوائل كما يتضح في كتابه: «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» وفيه يتحدث عن وباء الطاعون الذي اجتاحت المرية في عامي ٧٤٩ و ٧٥٠ ويفصل القول فيه وفي أسبابه. وله في التاريخ الأدبي كتاب مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية، وله في اللغة كتاب سماه: «إلحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس» وكتاب

مختلفة (انظر الفهرس) وديوانه حققه وقدم له د. رضوان الداية. وراجع دراسة عنه للمستشرقة الإسبانية سوليداد خيرت في كتاب دراسات أندلسية للدكتور الطاهر أحمد مكي (طبع دار المعارف) ص ٩٧.

(١) انظر في ترجمة ابن خاتمة وشعره الإحاطة ٢٣٩/١ وما بعدها والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر (تحقيق رضوان الداية) طبع بيروت - رقم ٢٠ ودره المجال لابن القاضي (طبع الرباط) ٤٠/١ ونيل الابتهاج لأحمد بابا (طبع القاهرة) ص ٧٢ ونفع الطبيب في مواضع



«إيراد اللآل من إنشاد الضوال وإرشاد السؤال». وله في الأدب رسالة صغيرة في «الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل» وكتاب «رائق التحلية في فائق التورية» وليس دراسة في التورية وإنما هو أشعاره الذي صاغها للتورية، وبها توريات عن مصطلحات علمية متنوعة.

وديوان ابن خاتمة في نحو مائتي صفحة، وهو موزع على أربعة أقسام: قسم في المدح والثناء، وقسم في التشبيب والغزل، وقسم في الملح والفكاهات، وقسم في الوصايا والحكم، ونبذة كبيرة من الموشحات استغرقت نحو أربعين صحيفة، وتليها مستدركات المحقق على الديوان. وأكبر الأقسام قسم التشبيب والغزل وهو في نحو خمسين صحيفة تضم تسعا وأربعين منظومة بين قصيدة ومقطوعة. ونشر منذ أول قصيدة نقرؤها فيه أن منظوماته ليست ثمرة تجارب حقيقية في الحب، إنما هي محاولات لمحاكاة شعراء الغزل والنسيب السابقين، إذ يختار ابن خاتمة لنفسه وزنا من أوزان الشعر، وينظم فيه أبياتا تتحدث عن الحب حديثا كله تكلف وتصنع لبيان قدرته على النظم في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر العربي، وفيه تتجمع العناصر البدوية من أسماء المواضع والأشجار والأزهار والآرام وغير الآرام من مثل قوله:

تهبُّ نُسَيْمَاتُ الصَّبَا مِنْ رَبِيِّ نَجْدٍ	فَيَنْفَحْنَ عَنْ طَيْبٍ وَيَعْبِقْنَ عَنْ نَدٍّ <sup>(١)</sup>
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُنَّ يَجُلْنَ فِي	مَعَاهِدِنَا بَيْنَ الْأَثِيَلَاتِ وَالرُّنْدِ <sup>(٢)</sup>
مَعَاهِدُ نَهْوَاهَا وَتَهْوَى لِقَاءِنَا	بِهَا قَدْ مَضَى حَكْمُ الْعَفَافِ عَلَى الْوُدِّ
وَفِي الْقُبَّةِ الْبَيْضَاءِ بَيْضَاءُ لُوبِدَتْ	لشَّمْسِ الضَّحَى يَوْمَ الْحَارَتِ عَنِ الْقَصْدِ <sup>(٣)</sup>
تَطَّلَعُ عَنْ صُبْحٍ مِنَ الْوَجْهِ نَيْرٍ	وَتَقْرُبُ عَنْ لَيْلٍ مِنَ الشَّعْرِ مُسَوِّدٍ

ونسيج الصياغة في الأبيات به غير قليل من الضعف، والمعاني والصور مكررة معادة دون تحويرات فيها - على نحو ما رأينا عند ابن الزقاق - تعيدها خلقا جديدا، ودائما الحد كالورد والريق كالشهد والمبسم كالعقد والصدغ كالعقرب. وقد يختلط الغزل بالحماسة ولكن دون حرارة ومع غير قليل من التكلف كأن يزعم أن مقلة صاحبه تغير على الورى وأن أناملها النواعم مخضبة بدمائهم. ولا نظلم ابن خاتمة فهو من أنبه الشعراء في زمنه، غير أن الشعر حينئذ نضب معينه، واستحال في كثير من جوانبه إلى

(١) الند: عود عطر الرائحة. ومثلا الرند وهو شجر طيب الرائحة.

(٢) حاربت: رجعت.

(٣) الند: عود عطر الرائحة.

(٢) الأثيالات تصغير الأثلات: من أشجار البادية.

صور من التكلف الشديد، وقد أصبح التصنع بدع العصر للإتيان بمحسنات البديع من جناس وطباق ولف ونشر وتوريات وبذلك لم يعد الشعر في جمهوره يعبر عن عواطف ومشاعر صادقة للشاعر، وربما كانت أجمل مقطوعة غزلية لابن خاتمة قوله:

زارتُ على حَذَرٍ من الرُقْبَاءِ وَاللَّيْلُ ملْتَفٌ بِفَضْلِ رِداٍ  
تَصِلُ الدُّجَى بسوَادِ فَرْعٍ فاحمٍ لتزِيدُ ظَلْمَاءَ إلى ظَلْمَاءِ  
فَوْشَى بها من وجهها وحليها بَدْرُ الدُّجَى وكواكِبُ الجوزاءِ  
أقسمتُ لولا عَفَّةَ عُنْدِيَّةٍ وتَقَى علىَّ له رقيبٌ رائي  
لنَقَعْتُ غُلَّةَ لَوْعَتِي بِرَضَائِهَا ونضحتُ وَرَدَ خدودها بيكائي

ومع ذلك فإننا نشعر بغير قليل من التكلف في المقطوعة على نحو ما نرى في الشطر الثاني من البيت الثاني، والصور في البيت الثالث مترامة، وقسمه الذي مهَّد به لعفته وتقاه الذي يراقبه في حبه، كل هذه صور من التكلف الشديد في الغزل. ويخف هذا التكلف في موشحاته بحكم القصر الشديد في شطورها، وبذلك لا تظهر فيها هلهلة النسيج التي تلاحظ بوضوح في كثير من أبيات شعره.

## ٢

## شعراء الطبيعة والخمر

تتميز الأندلس بطبيعة فاتنة في سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومنتزهاتها، وهى طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنوا بمفاتها ومشاهدها دائما بائين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مما زادهم شغفا بها ما مرَّ بنا من اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم مع صواحبيهم، ولذلك كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، وأيضا كثر عندهم المزج بين الطبيعة والخمر، ونظن ظنا أن إقبالهم على الخمر إنما كان بسبب مزاجهم الحاد العنيف الذى ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائما على الحدة والعنف والإقبال على فنون المتاع. وكان من آثار ذلك أن كثر عندهم شعر الخمر مقرونا بالطبيعة أو بها وبالحب، وكثيرا ما يسوقون ذلك في مقدمات مدائحهم، ولا نستطيع الحديث عن شعراء الطبيعة والخمر في قسمين متقابلين كما صنعنا في حديثنا عن شعراء الفخر والهجاء، إذ هما

ممتازان، مما يجعلنا نسوق الحديث عنها معا. وقد يكون من الطريف أن نلتقى عند عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في تلك الديار بمقطوعة له في وصف نخلة بيستان قصره في قرطبة المسمى منية الرصافة، وهي تمضى على هذا النمط<sup>(١)</sup>:

تبدت لنا وَسَطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ      تناءتْ بأَرْضِ الغَرْبِ عَنِ بَلَدِ النَّخْلِ  
فقلتُ: شَبِيهِي فِي التَّغْرُبِ والنَّوَى      وطولِ التَّنَائِي عَنِ بَنِي وَأَهْلِي  
نشأتْ بأَرْضٍ أَنْتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ      فمثلِكِ فِي الإِقْصَاءِ والمُنْتَأَى مثلي

وكان هذه النخلة رمز العرب هناك، وكان هذه القطعة الشعرية أيضا بدورها رمز لهم بما تحمل من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، حنين مبثوث في هذه النخلة الغريبة التي نقلها العرب إلى تلك الديار النائية القاصية البعيدة. وكما نقلوا النخلة معهم نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال، ونقلوا ما استحدثه العباسيون في وصف الطبيعة وسكبوا عليه من بيتهم ومشاعرهم وأخيلتهم ما بث فيه الحياة والحيوية على نحو ما نجد في هذه الأبيات البديعة المبكرة، وكأنها إرهاب لما يستشعره الشاعر الأندلسي من تمثل عناصر الطبيعة لمشاعر الإنسان. ونقلوا - بجانب ذلك - ما استحدثه العباسيون في الخمر وخاصة أبا نواس، ومن حاول محاكاته مبكرا يحى الغزال الذي ترجمنا له بين الهجائين، وله قصيدة على طريقة أبي نواس تصور مغامرة له في حان من حانات الخمارين وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

ولما أتيتُ الحانَ ناديتُ رَبَّةً      فتابَ خفيفَ الروحِ نحوَ نِدائِي  
فقلتُ أدقِّبُهَا فلما أذاقها      طرحتُ عليه رَيْطِي وَرِدَائِي<sup>(٣)</sup>

وهو يقول إنه حين ذاق خمر صاحب الحان بلغ من نشوته بها أن خلع ملابسه. وحرى بنا أن لا نأخذ مثل هذه الخمرية عند الغزال مأخذ الجد، فكثير من شعر الخمر - لا في الأندلس وحدها بل في كل البلدان العربية - كان يقال محاكاة لأبي نواس على سبيل الفكاهة في المجالس، ومثل ذلك ما يقال في وصف سقاتها والغزل بهم، فأكثر ذلك وجهوره، إنما كان يقال على سبيل التندير والمداعبة، ولا يمثل حقيقة ولا ما يشبه

(٣) الرِيطة: الثوب الرقيق تحت الرداء.

(١) الحلة السراء ٣٧/١.

(٢) الديوان ص ٤٣.

الحقيقة. ويقول عباس بن ناصح في قطع مفازة ليلاً<sup>(١)</sup> :

ومخوفةٍ تنفي مخافتها نوم الفتى ذى الميرة الندب<sup>(٢)</sup>  
للجن في أجوازها لفظ بالليل مثل تنازع الشرب  
وترى بها جون النعام إذا أشرفن كالمهونة الجرب<sup>(٣)</sup>

وهو يصف سرى الليل في فلاة مخوفة حتى ليخاف السرى فيها الشجاع شديد المضى. ويستلهم ما كرره طويلاً ذو الرمة في وصف الفلوات ليلاً وعزيف الجن بها الذي يشبه كما يقول عباس بن ناصح لفظ الشرب، ويشبه ما بها من النعام الأسود بالإبل الجرب المطلية بالقطران، وكأننا لا نقرأ لشاعر أندلسي في القرن الثالث الهجري وإنما نقرأ لشاعر نجدى من أمثال ذى الرمة. ويقول ابن عبد ربه في وصف نهار ممطر<sup>(٤)</sup> :

نهاراً لاح في سربال ليلٍ فما عرف الرواح من البكور  
وعين الشمس ترنو من بعيدٍ رنو اليكر من خلف الستور

فالسحب منعقدة في السماء والجو مظلم، ولا يدري ابن عبد ربه هل الناس السائرون فيه باكرون أو مبكرون صباحاً قبل طلوع الشمس أو هم رائحون أو راجعون، وأحياناً تترامى عين الشمس رانية من بعيد، ولكن سرعان ما تختفي وراء السحب اختفاء الفتاة الرانية خلف الستور خجلاً واستحياء. وتتقدم في القرن الرابع الهجري وملتقى بيحيى بن هذيل وله أشعار كثيرة في الربيع وأزهاره. وله في وصف حمامة وأنيها محزونة لفراق صاحبها أو هديلها<sup>(٥)</sup> :

ومرنة والدجن ينسج فوقها بردين من ظل ونوء باك<sup>(٦)</sup>  
مالت على طي الجناح وإنما جعلت أريكتها قضيب أراك<sup>(٧)</sup>  
وترنمت لحنين قد حلتها يغناء مسمعة وأنة شاك  
ففقدت من نفسى لفرط تلهى نفس الحياة وقلت من أبكاك

وهو يقول إن الحمامة ترن وتصوح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجاً فوقها

(٤) الذخيرة ١/٧٧٩.

(٥) الذخيرة ٣/٣٤٦.

(٦) الدجن: الغيم يعم أطباق الأرض والسماء.

النوء: المطر.

(٧) الأريكة: المقعد. قضيب: غصن.

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس

لابن الكتاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٧٣.

(٢) ذو الرمة: القوى الشجاع. الندب: الماضى.

(٣) جون: سود. المهونة: الإبل المطلية بالهناء

وهو القطران.

رداءين من ظل ومطر تذرّفه السحب، وهى محزونة قد مال رأسها على طى الجناح متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعداً، وشجاها فراق صاحبها فهى تترنم بغناء مزوج بأنين، مما جعله يذكر حبه ويملؤه تلهفا لرؤية صاحبته حتى لكأنما يوشك أن يفقد الحياة. ويبكى من حُرْق هواه بصاحبته، ويسأل الحمامة سؤال العارف من أبكاك؟ فنحن فى الهوى سواء. وتكثر أشعارهم فى الأزهار، وكثيرون منهم يردون على ابن الرومى فى تفضيله النرجس على الورد، ولسعيد بن فرج فى الرد عليه قصيدة يقول فيها: (١)

أزعمت أن الوردَ من تفضيلِهِ      خَجَلُ وناحلِهِ الفضيلَةَ عانِدُ  
إن كان يَسْتَحْيى لفضلِ جَمالِهِ      فحياؤُهُ فيه جَمالُ زائِدُ

فهو يجعل خجل الورد لاحمرار وجنته من جوهر حسنه يزيدة جمالا على جمال، فهو ليس احمرارا ولا خجلا عارضا أمام النرجس، بل هو جزء لا يتجزأ من جماله. ونزل الرمادى ضيفا على صَحب له فى مدينة وادى آش إلى الشمال الشرقى من غرناطة، وكان الوقت شتاء، وقدموا له احتفالا به باقة من الورد كانوا اجتلبوها من بجانة فى الجنوب الشرقى، فتعجب من وجود الورد فى وادى آش شتاء، فقالوا له إنه من بجانة، فأخلد إلى الصمت ولم يلبث أن لثمها وأنشد (٢)

ياخُدودَ الحورِ فى إخالها      قد علّتها حمرةً مكتسبِهِ (٣)  
اغتربنا أنتِ من بجانةٍ      وأنا مغتربٌ من قُرطبه  
واجتمعنا عند إخوان صفاً      بالندى أموالهم مُنتهبه  
إن لثمى لك قدامهم      ليس فيه فَعْلَةٌ مستغرِبَةٌ  
لاجتماعٍ فى اغترابٍ بيننا      قَبْلَ المغترِبِ المغترِبَه

والمقطوعة مع سهولة ألفاظها تفيض بالعاطفة، وكأنه أعاد لنا حديث عبد الرحمن الداخلى السابق إلى النخلة، فهو والوردة متاثلان فى الغربية، وأضاف إلى ذلك حبا للوردة ولثما وتقبيلا عند إخوان صفاء كرام كرما فيأضا. وكان للمنصور بن أبى عامر الحاجب ثلاث جوارٍ ساهن بأسماء الأزهار: بهارَ ونرجس وبنفسج، ونرى عبد الملك بن إدريس

بريس - طبع الرباط) ص ١٢٢.  
(٣) الحور جمع حوراء: المرأة البيضاء.

(١) الحميدى ٢١٢.  
(٢) البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد  
إساعيل بن عامر الحميرى (تحقيق هنرى

الجزيري يجعل كلا منهن تخاطب مولاها متمثلة زهرتها ومحاسنها بين الأزهار في مقطوعات<sup>(١)</sup> شعرية بديعة. ويقول الشريف الطليق في نفس قصيدته الفريدة السالفة في ترجمته<sup>(٢)</sup>:

وَعَمَامٍ هَظَلٍ شُؤْبُوهُ	نَادَمَ الرُّوضُ فَعَنَى وَسَقَى <sup>(٣)</sup>
فِي لِيَالٍ ضَلَّ سَارَى نَجْمِهَا	حَائِرًا لَا يَسْتَبِينُ الطَّرْقَا
أَوْقَدَ الْبَرْقُ لَهَا مِصْبَاحَهُ	فَانْتَشَى وَجْهَ دُجَاهَا مُشْرِقَا
وَشَدَا الرَّعْدُ حَنِينًا فَجَرَتْ	أَكْوَسُ الْمَزْنِ عَلَيْهِ غَدَقًا <sup>(٤)</sup>
وَعَدَّتْ تَحْنُو لَهُ الشَّمْسُ وَقَد	أَلْحَفْتَهُ مِنْ سَنَاها نُعْمَرًا <sup>(٥)</sup>

وقد بثَّ الشريف الطليق في الغمام المطر والروض مشاعر مجلس أنس وطرب بما فيه من مغن وساق في ليلة داجية، أمسى النجم فيها حائرا لا يتبين طريقه، وسرعان ما أشعل البرق لها مصابيحها، فاستحال وجهها الداجي المظلم مشرقا مضيئا، وأخذ الرعد يشدو ويغنى، فجرت أكوس المزن غزيرة حتى انتشى الروض، وأصبح، فرأت الشمس ما أصاب الغصون وبعض الأزهار من المطر المنهم ليلا، فعطفت على الروض وأشفقت عليه وكسته من سناها وضوئها طنافسها الذهبية، حتى يسرى فيه الدَّفء.

ولم ننف حتى الآن عند الخمريات لا لأنها كانت قليلة، فلم يكد يخلو شاعر ممن سميناهم في هذا العصر الأموي من أشعار له في الخمر، غير أنها في جملتها تعد محاكاة وتقليدا لما قال المشارقة فيها. وربما كان الشريف الطليق أول شاعر نقرأ له في الخمر أشعارا فيها شيء من الطرافة للمكاته الخيالية الخصبية من مثل قوله في نفس القصيدة السالفة:

رَبِّ كَأْسٍ قَدْ كَسَتْ جُنْحَ الدُّجَى	ثُوبَ نُورٍ مِنْ سَنَاها يَقْقَا <sup>(٦)</sup>
بِتُّ أَسْقِيهَا رَشًا فِي طَرْفِهِ	سِنَةً تُورِثُ عَيْنِي أَرْقَا <sup>(٧)</sup>
خَفِيَتْ لِلْعَيْنِ حَتَّى خِلْتَهَا	تَتَّقَى مِنْ لَحْظِهِ مَا يُتَّقَى

(١) راجع هذه المقطوعات في الذخيرة ٤٧/٤ وانظر في ترجمة الجزيري الجذوة ٢٦١ والمطمح ١٣ والصلة ٣٥٠ والمغرب ١/٢٢١.  
 (٢) الحلة السيرة ١/٢٢٣.  
 (٣) شؤبوب المطر: أول دفعة منه.  
 (٤) المزن: السحاب. غدقاء: غزيرة.  
 (٥) النمرق: الطنفسة من القטיפه أو الصوف.  
 (٦) الأبيض اليق: الناصع البياض جنح: ظلام.  
 (٧) الرشا: ولد الظبية.

أشْرَقَتْ فِي نَاصِعٍ مِنْ كَفِّهِ      كُشِعَاعُ الشَّمْسِ لَاقِيَ الْفَلَقَا<sup>(١)</sup>  
 طَلَعَتْ شَمْسًا وَقُوَّهُ مَغْرِبًا      وَيَدُ السَّاقِي الْمَحْيَى مَشْرِقًا  
 فَإِذَا مَا غَرِبَتْ فِي فَمِهِ      تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقًا

والاستعارات في الخمرية جيدة، فالكأس كست ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشاً عيناه ذا بلتان كأن بهما سنة من النوم، وإن فتورها وجماله ليؤرقه. ويقول إنها خمر روحانية، حتى إنها لا تكاد تُرى، وكأنها تتوارى من لفظ هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه، ويجعل يد الساقى مشرقاً لتلك الشمس أو تلك الخمر، كما يجعلها تغرب في فم الرشأ أو فم صاحبه. وكل ذلك فيه أصداء من خمرات أبي نواس، وقد نفذ إلى إضافة حين جعل يد الساقى مشرقاً وجعل الخمر حين تغرب في فم صاحبه تتحول في الخد منها شفقا. ويتصور معاصره الفقيه سليمان بن محمد البطليوسي الأرض في الربيع كأنها مجلس أنس كبير، يقول<sup>(٢)</sup>:

تبدت لنا الأرض مزهوءة      علينا ببهجة أتوابها  
 كأن أزهرها أكؤس      حوتها أنامل شرابها  
 كأن الغصون لها أذرع      تناولها بعض أصحابها  
 كأن تعانقها بالجَنُوب      تعانق خود لأثرابها  
 كأن ترقرق أجفانها      بكها لفرقة أحبابها

فالأرض قد ازدهت بأبهج أتوابها لهذا الاحتفال الكبير، وكأنما أزهارها تحولت إلى كتوس في أنامل الشاربين تمدها لهم أذرعها من الغصون، مبتهجة فرحة بلقائهم، وريح الجنوب تعانق الغصون عناق خود أو شابة فاتنة لأثرابها الفاتنات، ويتلفت فيجد الندى على وجنات الأزهار وفي عيونها فيقول إن الدموع ترقرق في أجفانها لفرقة أحبابها. وملتقى بعده بعبادة بن ماء السماء، وسنخصه بكلمة. وكان يعاصره ابن شهيد بأخرة من العصر الأموي، وله في زيارة دَيْرِ أيام شبابه مع صحبه في طلب الخمر واللهو<sup>(٣)</sup>:

وَلَرَّبَّ حَانَ قَدْ شَرِبْتُ بِدَيْرِهِ      خَمَرَ الصَّبَا مُزَجَّتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ  
 فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا الزُّفَاقَ تِكَاءَهُمْ      مُتَصَاغِرِينَ تَخْشَعَا لِكَبِيرِهِ

(١) الفلق: الصباح.

الملتس رقم ٧٦٢.

(٢) ابن الكثاني ص ٤١ والبديع في وصف الربيع

(٣) الديوان ص ١١٥.

ص ١٤ وانظر في ترجمة الفقيه الحميدي ٢٠٦ وبغية

يُهْدِي إلينا الرَّاحَ كُلَّ مُعَصْفَرٍ كَالخِشْفِ خَفْرَهُ التَّمَاخُ خَفِيرُهُ<sup>(١)</sup>  
وترنمُ الناقوسُ عندَ صلاتهم ففتحتُ من عيني لرجع هديره

وهو يقول إنه بات مع بعض رفاقه في حانة دير اضطفت فيها الدنان وأخذوا يعبون من الخمر متخذين من زقاقها متكئا لهم، كأنما يريدون أن لا يتركوا فيها بقية، وغللمان الدير يدورون عليهم بكتوسها وعين القسيس ترصدهم وترعاهم. وأخذتهم سنة من النوم، ودق ناقوس الكنيسة في الصباح فأيقظهم من رقادهم. وحرى بنا أن نشير هنا إلى كتاب التشبيهات لابن الكتاني المتوفى حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، فكل ما فيه من عرض للشعراء مع طرائف تشبيهاتهم هو من إنتاج العصر الأموى بالأندلس، وقد خص شعر الطبيعة بنحو ستين صفحة وشعر الخمر بنحو عشرين صفحة، تتوالى فيها جميعا تشبيهات طريفة لكثرة من الشعراء الذين أظلمهم هذا العصر ونالوا شيئا من الشهرة فيه، وقد بلغوا في الكتاب جميعه نحو مائة شاعر، مما يدل بحق على أن الشعر نشط في الأندلس لعصر بنى أمية - كما قلنا في غير هذا الموضوع - نشاطا عظيما.

وغضى إلى عصر أمراء الطوائف وولتقى في أوائله بأبى عبد<sup>(٢)</sup> الله محمد بن السراج شاعر بنى حمود بمالقة في الجنوب الشرقى للأندلس على البحر المتوسط، وكان صبيا بمن اسمها حُسن الورد وله فيها وفي الورد وفي الطائر المسمى حَسُونًا ويسمى عندهم أم الحسن أشعار كثيرة نذكر منها قوله:

ذَكَرْتُ بِالرَّوْدِ حُسْنَ الرَّوْدِ شِقَّتُهُ  
هَيْفَاءَ لَوْ بَعْتُ أَيَّامِي لِرَوِّئِهَا  
فَاشْرَبْتُ عَلَى ذِكْرِهَا خَمْرًا كَرِيقَتِهَا  
حُسْنًا وَطَبِيًّا وَعَهْدًا غَيْرَ مَضْمُونِ  
بِسَاعَةٍ لَمْ أَكُنْ فِيهَا بِمَغْبُونِ  
وَخُصْنِي بِهَوَاهَا حِينَ تَسْقِينِي

فورد الربيع على أغصانه يذكره باسم صاحبتة وبالورد المطبوع على خديها، ويقول إنها صِنُوُّ للورد طيبا وحسنا وقصرا إذ أيامه قليلة. ويذكر لقاءات له معها، فيطلب إلى الساقى كأسا يشربه على ذكرها، وذكرى الأيام التي نعم فيها بقربها. وكان يزامله في مديح بنى حمود أصحاب مالقة عبد الرحمن بن مُقانا وسنخصه بكلمة وولتقى

(٢) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره الذخيرة  
٨٧٠/١ وما بعدها والحميدى ٥٦ والبغية رقم ١٤٤  
والمغرب ٤٣٤/١.

(١) معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو صبغ أحمر.  
ويريد السقاة من غلمان القسس. الخشف: ولد  
الطبية. خفره: حماه. خفيره: حارسه.



بأبي عامر بن مسلمة صاحب كتاب حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح الذي ألفه للمعتضد عباد أمير إشبيلية، وله في وصف الخمر<sup>(١)</sup> :

خمرٌ ماتت زماناً بحجابٍ يحْتويها  
لبثت في بطن أم غيبتها عن بئها  
أحدثها الدنُّ دَهراً ثم عاد الروحُ فيها  
فانبرى منها سراجٌ رائقٌ من يجتليها

وهو يقول إنها ماتت زمانا طويلا وراء حجاب دنها أو سداده، ويزعم أنها ظلت في بطن أمها حقبا لا تبرزها لبنها من الكئوس، وما زالت الدن مدفونة، أو بعبارة أدق ما زالت الخمر مدفونة لا حياة فيها ولا روح، ثم قدر لها أن يعيد الماء لها روحها وحياتها حين وُضع فيها وامتزج بها، ولم تلبث أن بدا فيها سراج يروق الناظرين. وكان يعاصره في إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري الملقب بحبيب المتوفى سنة ٤٤٠ عن اثنين وعشرين عاما، وله كتاب البديع في وصف الربيع الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني، وهو أحد مصادرنا الموثوقة في الهوامش، وقد جمع فيه روائع مما للأندلسيين في صفة الربيع وأزهاره ونواويره، وهو دليل واضح على كثرة ما نظم الأندلسيون في الطبيعة مما أتاح له أن يؤلف فيها منتخباته البديعة في مائة وستين صفحة، مما نظموه فيها. ولابن عمار أبيات في الخمر والطبيعة اشتهرت قدّم بها مدحة للمعتضد عباد، وهي تمضي على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

أدر الزُجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى والنجمُ قد صرّف العنانَ عن السرى  
والصبحُ قد أهدى لنا كافوره لما استردّ الليلُ منا العنبرا  
والرّوضُ كالحسنا كساه زهره وشيا وقلده نداءه الجوهرا  
روضُ كأن النهرَ فيه معصم صافٍ أطلّ على رداءٍ أخضرا

وموسيقى القصيدة وصياغتها وصورها على هذه الشاكلة من التفنن، وكأنما تحولت الدنيا والطبيعة إلى محفل راقص، حتى النجم كأنما ثبت في مكانه لا يريم، واسترد الليل المرِح الذي قضوه عنبره وسواده منهم، فأهداهم الصباح كافوره وضيائه المشرق، وتبرجّ الروض في وشبه وجواهره، وكان النهر الذي يجري فيه معصم صاف متألئ بمياهه يشرف

(٢) الذخيرة ٣٨٤/٢ ومغرب ٣٩١/١.

(١) الذخيرة ١٠٨/٢.

على بساط بل على رداء سُندسى أخضر. وتتداخل صور الطبيعة في مديح القصيدة ومعانيها مرارا كقوله السالف في المعتضد:

أُنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى وَالَّذِي فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى

وكان يعاصره بإشبيلية على بن حصن الماجن، وسنفرد له كلمة. ونمضى إلى عصر المرابطين، وولتقى بعبد الله بن سارة، وله أشعار كثيرة في الأزهار: النرجس وغيره وفي الخمر ومجالسها، ومن قوله في النارنج<sup>(١)</sup>:

أَجْمُرُ عَلَى الْأَغْصَانِ زَادَتْ نَضَارَةً      بِهِ أَمْ خَدُودٌ أَبْرَزَتْهَا الْهُوَادِجُ  
كُرَاتُ عَقِيقٍ فِي غُصُونِ زَبْرَجِدٍ      بِكَفِّ نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ  
نَقَبَلَهَا طَوْرًا وَطَوْرًا نَشْمَهَا      فَهِنَّ خَدُودٌ بَيْنَنَا وَنَوَافِجُ

وابن سارة لا يدرى أيرى على الأغصان جمرا ناضرا أم خدودًا لحسان تومض من بعيد على الهوادج، بل هي كرات من عقيق أحمر تتوج غصونا من زبرجد أخضر، بل هي صوالج يرسلها النسيم بكفه إلى أعالي أشجارها حتى إذا تناوها بيده مضى يقبل فيها خدود الحسان ويشم أريجها العطر، وكأنها طورا خدود وطورا نوافج مسك ذكي الرائحة. ولهم شعر كثير في الفواكه والثمار نكتفي منه بهذا المثال. ولأبي طالب عبد الجبار المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي خميرية نواسية، وصف فيها زيارته لإحدى الحانات، يقول فيها<sup>(٢)</sup>:

وَحَمَارٌ أَنْخْتُ بِهِ مَسِيحِي      رَخِيمُ الدَّلِّ ذِي وَتَرٍ فَصِيحٍ<sup>(٣)</sup>  
سَقَانِي ثُمَّ غَنَانِي بِصَوْتِ      فِدَاوَى مَا بَقَلْبِي مِنْ جُرُوحِ  
وَفَضُّ فَمِ الدَّنَانِ عَلَى اقْتِرَاحِي      فِقَاحِ الْبَيْتِ مِنْهَا طِيبٌ رِيحِ  
فَقَلْتُ لَهُ لَكُمْ سَنَةً تَرَاهَا      فَقَالَ: أَظْنَهَا مِنْ عَهْدِ نُوْحِ  
وَلَمَّا أَنْ شَدَا النَّاوِسُ صَوْتَا      دَعَانِي: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الصُّبُوحِ

فهو قد نزل بخمار مسيحي يحسن الغناء على العود بصوت رقيق، وسقاه وغناه وشفى - كما يقول - ما بقلبه من جروح، وأخذ يفض له باقتراحه دنا وراء دن، وسأله عن عمرها فقال له إنها عتيقة وأظنها من عهد نوح، ودق الناوقس، فنبهه إلى الصبوح أو

(٣) رخييم: رقيق.

(١) الذخيرة ٨٤٠/٢ ومغرب ٤٢٠/١.

(٢) الذخيرة ٩١٨/١ والمغرب ٣٧٢/٢.

شُرِّبَهَا فِي الصَّبَاحِ. وَابْنُ الزُّقَاقِ يَصِفُ أَمْسِيَةً وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَخَلَّفَتْ وِرَاءَهَا عَلَى  
أَفْقِ السَّاءِ الْغَرْبِيِّ الشَّفَقَ الْبَهِيحَ<sup>(١)</sup>:

وَعَشِيَّةٍ لَبَسْتُ رِدَاءَ شَقِيقِ      تَزْهُوُ بِلَوْنِ اللَّخْدُودِ أَنْيَقِ  
أَبَقْتُ بِهَا الشَّمْسُ الْمَنِيرَةَ مِثْلَمَا      أَبْقَى الْحَيَاءُ بَوَجَنَةَ الْمَعشُوقِ  
لَوْ اسْتَطِيعَ شَرِبْتُهَا كَلْفًا بِهَا      وَعَدَلْتُ فِيهَا عَن كُتُوسِ رَحِيقِ

وهو يتصور العشيّة كأنها أعارها زهر شقائق النعمان الأحمر رداءً أو كأنما اكتست بحمرة الحدود الفاتنة أو كأنما خلّفت الشمس المضيئة عليها ما يخلفه الخجل على وجنة المعشوق. وإنه ليفتن بتلك العشيّة وما يلبس الأفق من أضواء الشفق الوردية والياقوتية التي تفوق نشوته برؤيتها نشوته بالكُتوس من رحيق الخمر، حتى ليرتمى - لو استطاع - أن يشربها هائنا بها هناة ما بعدها هناة. وابن الزقاق ينتشى دائماً بمناظر الطبيعة الساحرة وله بجانب شعره فيها خمريات كثيرة، ولكن تظل نشوته بالطبيعة أشد أو أكثر شدة. وكانت فتنة خاله ابن خفاجة بالطبيعة أعمق أو أكثر عمقا وسنخصه بكلمة عما قليل.

ونظّل في عصر الموحدين نلتقى بكثيرين مفتونين بمناظر الطبيعة الأندلسية الخلابّة، وفي مقدمتهم الرصافي الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، وله يصف نهر الوادي الكبير الذي يمر أمام إشبيلية وما يحيط به من أشجار ونباتات قائلاً<sup>(٢)</sup>:

وَمَهْدَلِ الشُّطُيْنِ تَحَسِبُ أَنَّهُ      مُتَسَائِلٌ مِنْ دُرَّةٍ لَصَفَائِهِ  
فَاءَتْ عَلَيْهِ مَعَ الْهَجِيرَةِ سَرَحَةٌ      صَدَدْتُ لَفَيْتِهَا صَفِيحَةً مَائِهِ<sup>(٣)</sup>  
وَتَرَاهُ أَزْرَقَ فِي غِلَالَةِ سُندَسٍ      كَالدَّارِعِ اسْتَلْقَى بِظِلِّ لَوَائِهِ

فالنهر تتهدّل على شطبيه أغصان الأشجار، وهو يجري تحتها صافيا متلألئا كأنه يسيل من درة أو درر نفيسة وقد بسطت شجرة ضخمة على مائه ظلها، وكأنما ألقت صدأ على صفيحته أو وجهه العريض، وهي صورة بديعة. ولم يلبث النهر أن تراءى له مع جفائيه من النباتات والزروع كأنما يرتدى غلالة سندسية، وأيضا تراءى له مع ما تلقى عليه السرحة

(٢) فاءت سرحة: بسطت ظلها. السرحة: الشجرة الضخمة. الهجيرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

(١) الديوان ص ٢٠٦ والمغرب ٣٣٤/٢.  
(٢) رايات المبرزين (طبع القاهرة) ص ١١٩ والإحاطة ٥١٤/٢.

من ظل كدارع محارب استلقى يستريح مستظلاً بلوانته. والرصافي لا يبارى في روعة تصاويره، وله يصف أمسية قضاها مع بعض رفاقه منتشياً بشرب الخمر وبرؤية مغرب الشمس والطير تصدح من حوله، يقول<sup>(١)</sup>:

وَعَشِيٌّ رَائِقٌ مَنْظَرُهُ      قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولِ<sup>(٢)</sup>  
وَكَأَنَّ الشَّمْسَ فِي أَثْنَائِهِ      أَلْصَقْتُ بِالْأَرْضِ خَدًّا لِلنُّزُولِ  
وَالصَّبَا تَرَفَعُ أَذْيَالُ الرَّبِيِّ      وَمُحَيًّا الْجَوَّ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ  
حَبِّذَا مَنْزِلْنَا مُغْتَبِقًا      حَيْثُ لَا يُطْرِبُنَا غَيْرُ الْهَدِيدِ  
طَائِرٌ شَادٍ وَغُصْنٌ مُنْتَنٍ      وَالذُّجَى يَشْرَبُ صَهْبَاءَ الْأَصِيلِ<sup>(٣)</sup>

وهو يقول إنه ظل في هذه الأمسية يتمتع بشراب الخمر الصافي وبنظر الطبيعة الخلاب والشمس تودع الأرض وتلصق بها خدها إعزازاً ومحبة، ونسيم الصبا العليل يحرك النباتات والغصون أو كما يقول أذيال الربى والمرتفعات، ويثني على منزلهم واغتيابهم أو احتسائهم للخمر فيه مساء على سماع الهديل وهديره وما يحمله من أنغامه وأشجانه. ويبلور روعته بالمنظر في طائر شاد وغصن منتن، ويخلق خياله، إذ يجعل الدجى ينتشى مثله ومثل رفاقه بما يشرب من صهباء الأصيل وريحه الهنيء. وكانوا كثيراً ما ينتزهون في الأنهار والخلجان ويركبون لها الزوارق ذات الأشرعة والأخرى ذات المجاديف، وأحياناً كانوا يُجرون فيها سباقاً على نحو ما كانوا يصنعون بسباق الخيل، ويتحدث الفقيه أبو الحسن على بن لبّال قاضي شريش عن أحد هذه السباقات في نهرها قائلاً<sup>(٤)</sup>:

بِنَفْسِي هَاتِيكَ الزَّوَارِقُ أُجْرِيْتُ      كَحَلْبَةِ خَيْلٍ أَوْلًا ثُمَّ ثَانِيَا  
وَقَدْ كَانَ جَيْدُ النَّهْرِ مِنْ قَبْلِ عَاطِلَا      فَأَمْسَى بِهَا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ حَالِيَا  
عَلَيْهَا لَزْهَرُ الشَّمْعِ زُهْرُ كَوَاكِبِ      تُخَالُ بِهَا ضِمْنَ الْغَدِيرِ عَوَالِيَا<sup>(٥)</sup>  
وَرَبٌّ مُثَارٍ بِالْجَنَاحِ وَآخِرِ      بَرَجَلٍ يِحَاكِي أَرْنَبًا خَلْفَ بَازِيَا

وهو يقول إن الزوارق أُجريت في النهر على دفعات تزينها شموع أصبح بها جيد النهر

والتكملة ص ٦٧٣ وصلة الصلة ص ١٠٩. توفي

سنة ٥٨٣.

(٥) العوالي: الرماح. زُهر جمع أزهر: مشرق

مضى.

(١) رايات المبرزين ص ١١٩.

(٢) صرف الشمول: خالص الخمر.

(٣) الصهباء: الخمر.

(٤) رايات المبرزين ص ٥٣ وانظر في ترجمة ابن

لبال وشعره المطرب ص ٩٧ والمغرب ٣٠٣/١

حاليا بعد أن كان عاطلا من الحلى والزينة. ويخال الشموع في النهر كأنها رماح مشرعة، بينما الزوارق منها ذات الشراع أو الجناح ومنها ذات المجاديف، وتسرع كأنها هي أرانب تخاف أن يصيدها البزاة والصقور. ومن شعراء الطبيعة المبدعين حينئذ محمد بن سافر، وسنخصه بكلمة. وملتقى بأخرة من أيام الموحدين بالهيثم بن أبي الهيثم حافظ إشبيلية بل الأندلس جميعها في عصره، وكان أعجوبة دهره، كان يحفظ ديوان ذى الرمة الشاعر الأموى، ومن عجائبه أنه كان يملئ على شخص شعرا - كما يقول ابن سعيد - وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا، وكل ذلك يملئه ارتجالا دون توقف، وله في فرس أصفر<sup>(١)</sup>:

أَطْرَفُ فَاتِ طَرْفِي أَمْ شِهَابُ	هفا كالبرق ضَرَمَهُ التَّهَابُ <sup>(٢)</sup>
أَعَارَ الصُّبْحُ صَفْحَتَهُ نِقَابًا	فَفَرَّ بِهِ وَصَحَّ لَهُ النُّقَابُ
فَمَهْمَا حُتَّ خَالَ الصُّبْحِ وَافَى	لِيَطْلُبَ مَا اسْتَعَارَ فَمَا يُصَابُ
إِذَا مَا انْقَضَ كُلُّ النُّجْمِ عَنْهُ	وَضَلَّتْ عَنْ مَسَالِكِهِ السُّحَابُ

وللأندلسيين شعر كثير في وصف الخيل لأنهم كانوا يجاربون عليها دائما، وكانوا يعقدون أحيانا بينها سباقات. ويتشكك الهيثم حين رأى هذا الفرس يعدو عدوا سريعا كأنه يبارى به الرياح، فيقول أهذا طَرْفُ أى حصان أو هو شهاب سقط من أحد أركان السماء، وكأنه برق مضطرم لهيبا. ويظن كأن الصبح أعاره نقابا أصفر، ففرَّ به، وهو دائما لا يتوقف كأنه يظن الصبح في إثره يطلب نقابه الذى اقترضه منه. ويقول إنه إذا انقضَّ وراء فريسة أعيا النجم أن يلحق به وضَلَّتْ السحب عن معرفة مسالكه. ويلقانا أبو جعفر أحمد بن طلحة، وله<sup>(٣)</sup>:

أَدْرَهَا فَالسَّمَاءُ بَدَتْ عُرُوسًا	مُضْمَخَةٌ الْمَلَابِسُ بِالْعَوَالِي <sup>(٤)</sup>
وَخَدُّ الرُّوْضِ خَفَّرَهُ أَصِيلٌ	وَجَفْنُ النَّهْرِ كَحَلٍّ بِالظَّلَالِ
وَجِيدُ الْغُضَنِ يُشْرِفُ فِي لَالٍ	تَضِيءُ بِهِنَّ أَكْنَافُ اللَّيَالِي

وهو يقول لصاحبه: دعنا نتناول خمر الغبوق المسائية، فالسواء قد بدت عروسا

(٣) اختصار القدر المعلق ص ١٤ وانظر في ترجمة ابن طلحة أيضا المغرب ٣٦٤/٢ والتحفة رقم ٩٦.  
(٤) العوالى: جمع غالية: المسك.

(١) الرايات ص ٤٧ وانظر في الهيثم وترجمته وشعره المغرب ٢٦٣/١ واختصار القدر المعلق ص ١٥٨ والتكملة ص ٧١٦. توفي سنة ٦٣٠.  
(٢) طرف بكسر الطاء: حصان. هفا: أسرع.

مبتهجة مضمخة أو معطرة بالمسك في منظر الروض البهيج، وكأنما سكب الأصيل على خد الروض حياء وخفرا فاصفر لونه، بينما كحل جفن النهر بالظلال، وقد أضاءت على جيد الغصن أزهار كاللآلئ تضيء الليالي المظلمة.

ويلقانا مَرَجُ الكُحْلِ: محمد بن إدريس الذي نشأ بائعا متجولا في الأسواق يتعيش ببيع السمك ثم ترقى به همته إلى الأدب قليلا قليلا - كما يقول ابن سعيد - إلى أن نظم الشعر ثم ارتفعت فيه طبقة، وله خمرة يمزج فيها بين نشوته بالطبيعة ونشوته بالخمرة يقول فيها<sup>(١)</sup>:

عَرَّجَ بِمُنْعَرَجِ الكَثِيبِ الأَعْفَرِ	بين الفرات وبين شط الكوثر <sup>(٢)</sup>
ولتغتيقها قهوة ذهبية	من راحتى أحوى المرافش أحوار <sup>(٣)</sup>
والروض بين مفضض ومذهب	والزهر بين مدرهم ومدنر <sup>(٤)</sup>
والورق تشدو والأراكة تنثنى	والشمس ترفل في قميص أصفر <sup>(٥)</sup>
ما اصفر وجه الشمس عند غروبها	إلا لفرقة حسن ذاك المنظر

وهو يدعو صاحبه أن ينزل معه بطريق الكتيب المشرب بحمرة في تلك الجنة البعيدة بين الفرات والكوثر ليعتصموا هناك بالغبوق أو خمر المساء، وبناظر الأزهار المفضضة والمذهبية، والورق أو الحمام يشدو ويهدر وأغصان الأراكة تنثنى، يثنىها النسيم العليل والشمس تبتخر في قميصها الأصفر الرقيق، ويقول إن صفرتها عند الغروب بسبب فراقها ووداعها لمنظر هذا الروض الفاتن. ويقول أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي المتطبب في خاتمة موشح له يصور شرب الخمر والصبحا يطل على الطبيعة<sup>(٦)</sup>:

فقم ناكرها للاصطباح  
والشهب تنثر من خيط الصباح

(١) مغرب ٣٧٣/٢ وانظر في ترجمة مرج الكحل

(٢) وشعره أيضا زاد المسافر ص ٢٧ والوافي بالوفيات

(٣) ١٨١/٢ والتكملة ص ٣٤٤ والاحاطة ٣٤٣/٢

(٤) المدرهم: الفضية من الدرهم. والمدنرة:

الذهبية من الدينار.

(٥) ترفل: تبتخر.

محمل عنه ديوان شعره وتوفى سنة ٦٣٤.

(٦) مغرب ٢٨٢/١ وانظر في ترجمة أبي الحجاج

(٢) منعرج الكتيب الأعفر: طريق الكتيب

وشعره أيضا اختصار القدح المعلى لابن سعيد

المخالط لونه حمرة. الكوثر: نهر بالجنة ولعله يريد

ص ١٦١.

دجلة.

(٣) القهوة: الخمر. اغتباها: شربها في المساء.

## والقُصْبُ ترقصُ في أيدي الرِّيحِ

على غناء الحمامِ والكاسُ ذاتُ ابتسامِ  
والظلامِ قَتِيلُ والصُّبْحُ دامي الحسامِ

وإنما ذكرنا هذا الدور الختامي لإحدى موشحات أبي الحجاج لنشير بوضوح إلى أننا إذا كنا قد أغفلنا في حديثنا عن أغراض الشعر ذكر الموشحات فليس معنى ذلك أنها انفصلت في أغراضها عن الأغراض العامة للشعر فقد كانت هي نفسها أغراض الموشحات ولهم فيها ما لا يحصى من الأخيطة البديعة، على شاكلة ما نرى في هذا الدور من تمثيل غياب النجوم مع تباشير النهار، فقد جعلها أبو الحجاج تنثر من خيط الصباح وكأنها دنائير تنثر في عُرْسِ والغصون راقصة متشابكة ومتلاعبة مع الرياح، والحمام يشدو ويقف والخمر في كتوسها تبتسم ثغورها. ولا يلبث أبو الحجاج أن يعرض علينا هذا المشهد الدرامي البديع فالظلام طريح قتيل، إذ سفك الصبح دمه، ولا تزال حرته القانية تلطخ سيفه. ويقول ابن الأبار مستلهما الرصافي في وصف نهر<sup>(١)</sup>:

ونهر كما ذابت سبائك فضة  
إذا الشفق استولى عليه احمراره  
وتحسبه سنت عليه مفاضة  
وتطلعه في دكنة بعد زرقه  
حكى بمحانيه انعطاف الأرقام<sup>(٢)</sup>  
تبدى خضيباً مثل دامي الصوارم<sup>(٣)</sup>  
لإرهاب هبات الرياح النواسم<sup>(٤)</sup>  
ظلال لأدواح عليه نواسم

وهو يجعل ما في النهر سبائك فضة سائلة، ويشبهه في انعطافاته مينا ويسارا بانعطافات الأفاعي، حتى إذا سقط عليه الشفق تصوّره سيفاً دامياً، وسقط عليه الظل فتصوره درعا لبسه النهر لإرهاب الرياح، وإنها لتحيل لونه داكنا بعد أن كان أزرق صافياً. ويقول إبراهيم<sup>(٥)</sup> بن سهل الإشبيلي:

الأرض قد لبست رداءً أخضراً والطلُّ ينثرُ في رُباها جوهراً

(١) أزهار الرياض ٢٢٣/٣.

(٥) انظر في ابن سهل وترجمته وشعره المغرب

(٢) الأرقام: الأفاعي.

٢٦٩/١ واختصار القدح ص ٧٣ والقوات ٢٣/١

(٣) خضيباً: ملونا. الصوارم: السيوف.

والمنهل الصافي ٥١/١ وهو يهودي أسلم في

(٤) سنت: صُبت. مفاضة: درع.

شبابه توفي سنة ٦٤٦. طبع ديوانه محققاً ببيروت.

فاحت فخلت الزهر كافورا بها      وحسبت فيها التراب مسكا أذفرا<sup>(١)</sup>  
وكان سوسنها يصافح وردها      ثغر يقبل منه خدا أحمر

وهو يقول إن الأرض لبست خضرة الربيع، وكأنما الطل ينثر في رباها كل ما في حجره من جوهر، وسطعت رائحة كافور زهرها الأبيض حتى خلت التراب فيها مسكا أذفر أو عاطرا، وكان سوسنها الأبيض الجميل حين يصافح وردها ثغر يقبل خدا ياقوتيا. ويقول أبو الوليد<sup>(٢)</sup> بن الجنان:

هات المُدَامَ وقد ناح الحمامُ على      هذا الظلامِ وجيشُ الصُّبحِ في الطَّلَبِ  
والسُّحْبُ قد بَدَّدَتْ في الأرضِ لؤلؤها      تضمُّه الشمسُ في ثوبٍ من الذهبِ

وقد جعل ابن الجنان الحمام ينوح على الظلام وجيش الصبح في إثره، وهو ينسحب بسرعة أمامه، بينما السحب تمطر لآلئها وقطراتها الفضية، ولم تلبث شمس الصباح أن التقطت كل هذه اللآلي؛ ولمتها أو جمعتها في ثوبها الذهبي. ولاين خاتمة في بلبل وردية اللون تغني في روض مكتظ بالورود والأزهار<sup>(٣)</sup>:

ووردية الجلباب أعجبها الورْدُ      فغنتُ وما بالغانيات لها عهدُ  
أنت وبطاح الأرض تجلّي عرائسًا      وفي كل غصن من أزاهره عقدُ  
وقد أبدت الدنيا محاسن وجهها      فمن زهرة ثغر ومن وردة خدُ  
فغنت غناء الشرب أنشتهم الطلا      وحت حنين الصب باح به الوجد<sup>(٤)</sup>

وهو يصور البلبل الوردية قد أعجبها ورد الروض وخليها، فغنت له غناء ساحرا لم تعهده الغانيات الجميلات، ويقول إنها أنت الروض في وقت الربيع، وقد ازدانت بطاح الأرض حتى لكأنها عرائس وازدانت غصون الأشجار بعقود الأزهار وأبدت الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة - مثل زهرة الأقحوان - ثغر، ومن وردة - وما أكثر الورد - خد. وأسكر البلبل المنظر الرائع فانتشت وغنت وحت حنين الصب المغرم الوهان. ولاين زمرك في وصف زهر القرنفل بجبل الفتح أو جبل طارق<sup>(٥)</sup>:

(٣) الديوان ص ٩٨ .

(٤) الطلا: الخمر.

(٥) أزهار الرياض ٢/٤٠.

(١) أذفرا: عطرا.

(٢) راجع في ابن الجنان وترجمته وشعره المغرب

٣٨٣/٢ واختصار القدح ص ٢٠٦.



رَعِيَ اللهُ زَهْرًا يَنْتَمِي لِقَرْنِفُلٍ      حَكَى عَرَفَ مَنْ أَهْوَى وَإِشْرَاقَ خَدِّهِ<sup>(١)</sup>  
 وَمَنْبِتُهُ فِي شَاهِقٍ مَتَمَنَعٍ      كَمَا امْتَنَعَ الْمَحْبُوبُ فِي تَيْهِ صَدِّهِ  
 أَمِيلٌ إِذَا الْأَغْصَانُ مَالَتْ بِرُوضَةٍ      أَعَانَتْ فِيهَا الْقُضْبُ شَوْقًا لِقَدِّهِ<sup>(٢)</sup>  
 وَأَهْفُو لِحَفَاقِ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى      وَأَهْوَى أَرِيحَ الطَّيْبِ مِنْ عَرَفِ نَدِّهِ<sup>(٣)</sup>

وهو يدعو لزهو القرنفل أن يرعاه الله لأنه يحكى عرف من يهاها وطيبها، ويقول إن منبته في أعالي جبل الفتح الممتنع على غزاته امتناع المحبوب في صدّه وتيهه وخيلاته، كما يقول إنه كلما رأى الأغصان في روضة عانقها شوقا لعناق محبوبه، ويقول أيضا إنه يحنّ إلى حَفَاقِ النَّسِيمِ مساء يظنه من قِبَلِ محبوبه، وهو أَرِيحَ الطَّيْبِ يظنه من أَرِيحِهِ الذِّكْوَى العَطْر. وحرى بنا أن نلم إلمامات قصيرة بمن وعدنا بالحديث المجمل عنهم من شعراء الطبيعة والخمر، وهم عبادة بن ماء السماء وعبد الرحمن بن مقانا وعلى بن حصن وابن خفاجة ومحمد بن سفر.

#### عبادة<sup>(٤)</sup> بن ماء السماء الأنصارى

هو عبادة بن عبد الله الأنصارى من ذرية سعد بن عبادة الخزرجى أحد النقباء الذين اختارهم رسول الله ﷺ في العقبة الثالثة، وقيل له عبادة بن ماء السماء انتبأ إلى جد الخزرج الأول، ولسنا نعرف شيئا واضحا عن نشأته إلا ما يذكر مترجموه من أنه تلميذ الزبيدى تلميذ أبي على القالى وأهم اللغويين بعده. ولم تلبث موهبته الشعرية - على ما يبدو - أن تفتحت، ومدح المنصور بن أبي عامر الحاجب (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) فأعجب به وأسبغ عليه جوائز، وسُجِّلَ اسمه في ديوان الشعراء وأعليت مرتبته فيه وأعلى عطائه. وتطور الأيام وتكون فتنة قرطبة التي ظلت نحو عشرين عاما، ويعتلى عرش الخلافة على بن حمود من سلالة الحسن بن على بن أبي طالب سنة ٤٠٧. ويدور العام فيقتل ويخلفه أخوه القاسم حتى سنة ٤١٢ ويخلعه يحيى ابن أخيه على. وعاد القاسم فانسحب يحيى إلى مالقة، ولم تلبث الخلافة أن عادت إلى الأمويين بقرطبة سنة ٤١٤. ولعبادة مدائح في هؤلاء الحموديين الثلاثة، وفي مديحه لهم غير قليل من مبالغات الشيعة في مديح

(٤) انظر في ترجمة عبادة وشعره الذخيرة ١/٤٦٨

وما بعدها والجذوة ٢٧٤ والمطمح ٨٤ والبغية رقم ١١٢٣ والصلة رقم ٩٦٣ والفوات ١/٤٢٥.

(١) العرف: الشذا وطيب الرائحة.

(٢) القضب: الغصون.

(٣) سرى: سار ليلا. أريح: فاتح. الند: عود طيب الرائحة.

أثمتهم، غير أنهم جميعاً لم يكونوا يستظهرون شيئاً من العقيدة الشيعية. ويبدو أن عبادة تبع يحيى إلى مالقة يمدحه ويسبغ عليه يحيى من نواله، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ ضاعت منه عطايا يحيى وأهل بيته له، وكانت مائة مثقال ذهباً فاغتم غماً شديداً، وكان ذلك سبب وفاته.

ويشيد ابن بسام بعبادة، ويقول إنه كان شيخ الصناعة وإمام الجماعة بزمنه في قرطبة معللاً ذلك بأنه سلك إلى الشعر مسلماً سهلاً، فقالت له غرائبه: مرحباً وأهلاً. ولم يكن شاعراً فحسب، بل كان أيضاً مؤرخاً أديباً إذ كان له كتاب في أخبار شعراء الأندلس، وعنه ينقل ابن سعيد في المغرب بعض أخبارهم. وأهم من ذلك ما ذكره ابن بسام - على نحو ما مر بنا في حديثنا عن الموشحات - من أنه هو الذى «نهج لأهل الأندلس طريقتها - وكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ولم تؤخذ إلا عنه». ومر بنا أن مقدّم بن معافى القُبرى - وهو عربى - أول من ابتكرها وأن الرمادى الكندى - وهو أيضاً عربى - تطور بها بعض التطور، ثم خلفه عبادة الخزرجى الأنصارى فأعطاهما شكلها النهائى. ومررنا بنقض دعوى أنها نشأت على غرار أغان رومانسية إسبانية فقد نشأت وتطورت وأخذت صيغتها النهائية على أيدي عرب تطويراً منهم - كما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات - لفن المسمطات المشرقية.

وكان عبادة - بحق - إمام الشعراء في زمنه، وما رواه ابن بسام له منه - يتميز بمثانة العبارة ونصاعتها وبحسن الأداء الموسيقى وبجمال الأخيلة، وله مبهوراً بجمال صاحبته وجمال أناملها التى شبهها بالعنّاب:

سقى الله أيّامى بقرطبة المني	سرورا كرى المُنْتَشَى من شرابه
وكم مُزجّت لى الراح بالريق من يدى	أغرّ يُرينى الحسن ملء ثيابه
تعلّنى فيه الأمانى بوعدّها	وهيهات أن أروى بورّد سَراهِ <sup>(١)</sup>
سلّ العنم البادى من السجف دالفاً	لتعذيب قلبى هل ديمى من خضابه <sup>(٢)</sup>

وهو يذكر أيام شبابه الماضية بقرطبة، ويدعو لها أن تُسقى سرورا ترتوى به وتنتشى كانتشاء صاحب الخمر من شرابه، ويذكر كم شرب الخمر فيها من يد حسناء وكيف كان يعلل نفسه بلقائنها ووعدّها، غير أنه كان دائماً سرايا لا يتحقق، ويتساءل هل خضاب

(٢) العنم: الخضاب الأحمر وأراد به الأنامل. السجف: ستر الخيمة بجانب بابها. دالفاً: مقبلاً.

(١) الورد: الماء الذى يردّه الناس، وقد أضافه إلى السراب تخيلاً.

أناملها البادى من الستر لتعذيب قلبه من دمه، كأنه قتيل هواها وقد سفكت دمه وعلق  
منها بالأنامل، ويقول:

أَجَلُ المِدمَاةِ فَهِيَ خَيْرُ عَرُوسٍ      تَجَلُّوْ كُرُوبَ النَّفْسِ بِالتَّنْفِيسِ  
وَاسْتَعْنِمِ اللِّذَاتِ فِي عَهْدِ الصَّبَا      وَأَوَانِهِ لَا عِطْرَ بَعْدِ عَرُوسٍ

وهو يتصور المدامة عروسا تهفو لها نفسه، ويزعم أنها تذهب كروب النفس وهومها،  
ويدعو إلى اغتنامها في عهد الصبا، فهو عهدها، وبعده لا يأبه الإنسان بها، ويتمثل بقول  
العرب: «لا عطر بعد عروس» فالعطر إنما تحتاجه العروس وقت زفافها. وأكبر الظن أن  
عبادة انصرف عن الخمر بعد شبابه أو لعله كان ينظم هذه الأبيات وما يماثلها تقليدا  
ومحاكاة للمجان وإلا ما استطاع أن يدخر المثنائيل الذهبية المائة التي ضاعت منه بالقة.

عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن مُقانا

هو أبو زيد عبد الرحمن بن مُقانا، من قرية القُبْدَاق من قرى أشبونة (ليشبونة  
الحالية بالبرتغال) ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وهل ثقف الآداب العربية في أشبونة  
وحدها أو أنه اختلف إلى الأدباء والعلماء في مدن سواها. وثلثي به في أوائل عصر أمراء  
الطوائف مترددا على سرقسطة لمديح أميرها منذر بن يحيى التجيبى المتوفى سنة ٤٣٠  
وعلى دانية لمديح أميرها مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ ويذكر ابن بسام أنه «جال أقطار  
الأندلس على رؤساء الجزيرة». وأهم من مدحهم من هؤلاء الرؤساء أو الأمراء وأسبغوا  
عليه نواهم إدريس بن يحيى بن على بن حمود الحسنى أمير مالقة الذى خلف أباه عليها  
سنة ٤٢٧ وظل بها حتى سنة ٤٤٧. ورأى ابن مقانا حين أصبح شيخا أن يكف عن  
تطوافه بأمراء الجزيرة وأن يعود إلى قريته وأن يمضى فيها بقية حياته معنياً بضبعة له فيها  
وما تحتاج إليه من حرث وزرع وغرس. ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته.

ويعرف ابن بسام بابن مقانا قائلا: «من شعراء غربنا المشاهير، وله شعر يعرب عن  
أدب غزير، تصرف فيه تصرف المطبوعين المجيدين في عنفوان شبابه وابتداء حاله، ثم  
تراجع طبعه عند اكتهاله» وكان ابن بسام يجعل وفوده على أمراء الطوائف في أيام

١٠٤٤ والمغرب ١/٤١٣.

(١) انظر في ابن مقانا وترجمته وشعره الذخيرة  
٧٨٦/٢ وما بعدها والحميدى ٢٦٠ والبغية رقم

الشباب وحدها، ويبدو أن هذا الوفود امتد به حتى بدء كهولته بل ربما حتى بدء شيخوخته إذ ينقل ابن بسام عن بعض مواطنيه أنه إنما انصرف إلى قريته شيخاً لا كهلاً. وأم قصائده التي طارت شهرتها في الآفاق مدحته النونية لإدريس بن يحيى الحمودي، وهو يستهلها بغزل طريف ولا يلبث أن يمزجه بنعته للخمر قائلاً:

قد بَدَا لِي وَضُحُ الصُّبْحِ المَبِينُ	فَأَسْتَقِينِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ الأَذِينِ <sup>(١)</sup>
مُرَّةٌ صَافِيَةٌ مَشْمُولَةٌ	عُتِقْتُ فِي ذَنِّهَا بِضْعَ سِنِينَ <sup>(٢)</sup>
مَعَ فَتِيانٍ كَرَامٍ نُجُبٍ	يَتَهَادُونَ رِياحِينَ المَجُونِ
وَعَلَيْهِمْ زَاجِرٌ مَن جِلْمِهِم	وَلَدَيْهِم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنِ <sup>(٣)</sup>
وَيُسْقَوْنَ إِذَا مَا شَرَبُوا	بَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مَن مَعِينِ <sup>(٤)</sup>

وابن مقانا يترأى له ضوء الصبح في السحر، فيهتف بالساقى أن يملأ كأسه قبل تكبير الأذان، ويقول إنها مرّة الطعم صافية باردة معتقة، كما يقول إنه يشربها مع فتیان كرام نجب يتهادون أزهار المجون الأرجة وعليهم زاجر من عفاف مع ما معهم من حسان غاضات البصر فانتات العيون، ويقول إنهم يسقون الخمر بأباريق وكأس من عين جارية. وينتقل من وصف خمر الصُّبُوح أو الصباح إلى نعت الطبيعة من حوله سماء ونجوماً ورياضاً وأزهاراً ويبدع خياله بمثل قوله:

ومصاييح الدُّجَى قَد أُطْفِئْتُ	فِي بَقَايَا مَن سَوَادِ اللَّيْلِ جُونِ <sup>(٥)</sup>
وَالشَّرِيَاءُ قَدِ عَلَتْ فِي أَفْقِهَا	كَقَضِيْبٍ زَاهِرٍ مَن يَاسَمِينِ
وَانبِرَى جُنْحُ الدُّجَى عَن صُبْحِهِ	كَغَرَابٍ طَارَ عَن بَيْضِ كَنِينِ <sup>(٦)</sup>
وَجَنَاحُ الجَوِّ قَدِ بَلَّه	مَاءٌ وَرَدِ الصُّبْحِ لِلْمَصْطَبِحِينَ
وَالنَّدَى يَقَطُرُ مَن نَرَجِسِهِ	كَدَمُوعٍ أَسْبَلْتَهُنَّ الجِفُونَ <sup>(٧)</sup>

وهو يقول إن مصاييح الدجى من الكواكب والنجوم أخذت تنطفئ واحدة إثر أخرى في بقايا من سواد الليل، وتعالى الثريا في السماء كأنها غصن مزهر من ياسمين، وأوشك

(٤) معين: عين جارية.  
 (٥) جون: سوداء.  
 (٦) جنح: ظلام. كنين: مستتر.  
 (٧) أسبلتهن: أرسلتهن.

(١) الأذنين: نداء الأذان للصلاة.  
 (٢) مرّة الطعم: بين الحلو والحامض. مشمولة: باردة.  
 (٣) قاصرات الطرف: يفضضن من أبصارهن.  
 عين جمع عيناء: واسعة العين جميلتها.

الياسمين بدوره على التوارى والانطفاء، وأخذ ظلام الليل يُنْهَى وينكشف عن أضواء الصباح وكأنه غراب حالك السواد اضطره إلى مفارقة بيض له ظل يستره، ووَرِدَ الصبح بل ماؤه بلل جناح الجو تحية للمصطبحين والندى يقطر من النرجس والأزهار والورود وكأنه دموع أسبلتها الجفون. وهي صور بديعة متلاحقة. وقد تداول القصيدة أدباء الكُديّة والشحاذة الأدبية في الأندلس ممن يسميهم ابن بسام باسم القوَّالين، وكانوا يقفون على الأبواب منشدين الشعر لقاء بعض الدراهم، وإنما اختاروها لما يجرى فيها من عدوية وسلاسة وروعة في الموسيقى والتصوير.

### على<sup>(١)</sup> بن حصن

هو أبو الحسن على بن حصن الإشبيلي، من شعراء أمير إشبيلية المعتضد، نشأ معه، وكان يعجب به وبشعره فاستوزره حين أصبح له صولجان إمارتها بعد أبيه إسماعيل. وظل الجوله صافيا إلى أن لحق ابن زيدون بالمعتضد، واتخذة وزيرا له معه، وكان في ابن زيدون شيء من الدهاء استحوذ به على قلب المعتضد، فنفس ذلك عليه ابن حصن. وكان المعتضد يدعوهما أحيانا إلى المساجلة بالشعر بين يديه، فكان ابن حصن يتفوق عليه لسرعة بديهته ورضاه بالعفو من طبعه، غير أن ابن زيدون كان يعلوه بحلمه ووقاره. وكان في ابن حصن تهور وطيش فزلت قدمه وأدياه إلى أن يسفك المعتضد دمه، وكان سفاحا للدماء قتل كثيرين من وزرائه وخواصه.

ويشيد ابن بسام بشاعرية على بن حصن قائلا عنه: «أحد من راش سهام الألفاظ بالسحر الحلال، وشق كرائم المعاني عن أفتن من محاسن ربّات الحجال، بين طبع أرق من الهواء، وأعذب من الماء، وعلم أغزر من القطر، وأوسع من الدهر». ويعجب ابن بسام من قوم أضربوا عن ذكره، وزهدوا في شعره ويعلل ذلك بأشعار له كثيرة كان يعبث بها بين مجونه وسكره، ويقول إن إحسانه أكثر وفضله أشهر، وبنوه بروعة تصاويره، ومن قوله في إحدى خمرياته المأجنة:

خَصَبَتْ بنانَ مديرتها بشعاعها      فَعَلَ العرّارة في شفاه الرّيرِ

والريرب: القطيع من بقر الوحش، يقول إن الخمر خصبت بنان الساقى بشعاعها

والبغية ص ١٤٣ والمغرب ١/٢٥٠.

(١) انظر في على بن حصن وترجمته وشعره الذخيرة ٢/١٥٨ وما بعدها والحميدى ص ٢٩٦

كما يخضب نبات العرار الصحراوي شفاها قطعان البقر الوحشى. وهى صورة طريفة لأنه يجلبها من بعيد من الجزيرة العربية وحديث شعرائها عما يترأى لهم فى البقر الوحشى هناك من جمال. ويقول فى خمرة أخرى:

إذا بدت لك فى قِطْعَةٍ من البِلَّارِ  
حسبتها شفقًا صُوبًا فى زجاج نهار

وهو يتخيل الخمر الحمراء كأنها الشفق الأحمر، ويتسع به الخيال فيقول إنها تُصَبُّ لا فى زجاج يَلُورَى أو مصوغ من بلور بل فى زجاج مصوغ من نهار مضى.. ويخاطب إشبيلية موطنه والنهر يتهادى أمامها والشمس جانحة للغروب:

كأنك والشمس عند الغروبِ عروسٌ من الحسن منحوتة  
غدا النهر عِقدك والطودُ تاجُكِ والشمسُ أعلاه ياقوتة

فالنهر وما يحفُّ به من أزهار عقد نفيس يتألق فى جيد إشبيلية والجبل من ورائها كأنه تاج معقود على رأسها ترصعه فى أعلاه ياقوتة الشمس البديعة. ومن قوله فى وصف هديل:

وما هاجنى إلا ابنُ وِرقاءِ هاتفٌ  
مُفستقٌ طوقٌ لازوردى كلِّكلٍ  
أدارُ على الياقوتِ أجفان لؤلؤٍ  
حديداً شبا المنقارِ داجٍ كأنه  
توسد من فرع الأراك أريكةً  
ولما رأى دمعى مُراقاً أرابه  
وحت جناحيه وصفق طائرا

على فنن بين الجزيرة والنهر<sup>(١)</sup>  
موشى الطلى أحوى القوادم والظهر<sup>(٢)</sup>  
وصاغ على الأجفان طوقاً من التبر<sup>(٣)</sup>  
شبا قلمٍ من فضةٍ مد فى جبر<sup>(٤)</sup>  
ومال على طى الجناح مع النخر<sup>(٥)</sup>  
بُكائى فاستولى على الغصن النضر<sup>(٦)</sup>  
وطار بقلبي حيث طار ولا أدرى<sup>(٧)</sup>

وابن حصن يتابع شعراء العرب فيما يتخيلونه من ترتيب الحمام المبعوم وأنه يبكى

(٣) التبر: الذهب.  
(٤) شبا: حد، سن.  
(٥) أريكة: منصة، مقعد. طى: جانب.  
(٦) أرابه: شككه وحرره.  
(٧) صفق الطائر: حرك جناحيه للطيران.

(١) ابن ورقاء: الهديل وهو ذكر الحمام. فنن: غصن.  
(٢) مفستق طوق: طوقه فستقى اللون. كلكل: صدر. لازوردى: أزرق أو بنفسجى. الطلى: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادم: ريش الجناح الطويل.

وينوح محزوناً لفراق أليفته، وهو يقول في مطلع مقطوعته إن هدير الهديل هاجه شوقاً إلى محبوبته، وتروعه صورته الجميلة في رسمها رسماً دقيقاً، فطوقه فستقى اللون وصدرة لازوردى أو أزرق بنفسجى وعنقه موشى وظهره وريشه الطويل أسود ضارب إلى الحمرة، وقد أدار فوق طوقه لؤلؤى عينيه، ومن حولها أهداب ذهبية. وحدُّ منقاره أسود داج كأنه سنُّ قلم من فضة غُمس في مداد شديد السواد. وقد توسد من فرع الأراكة منصّة، ومال برأسه محزوناً على أحد جناحيه وما يحف به من النحر. وأحسّ الشاعر أنه - مثله - حزين مهموم لفراق صاحبتة فانهمرت دموعه، وحانت من الهديل التفاتة فرآه يبكى واحترار ماذا يصنع، ولم يلبث أن بسط جناحيه وحرکہها طائراً، فطار قلبه معه. وهو تصوير بديع استطاع فيه ابن حصن أن يسوّى منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. ومما أعجب به ابن بسام من شعره قوله في وصف سحابة:

بكرتُ سُحْرَةً قُبَيْلَ الذَّهَابِ تَنْفُضُ المِسْكَ عن جَنَاحِ الغَرَابِ

واستعارة الغراب لليل معروفة قديماً ولكن الرائع أنه جعل السحابة بأقطارها تنفض المسك الأسود عن جناحه. وفي ذلك كله ما يدل على أن ابن حصن كان من شعراء الأندلس المبدعين.

### أمية<sup>(١)</sup> بن أبي الصلت

هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي، ولد سنة ٤٦٠ بمدينة دانية على البحر المتوسط، وشيَّب - على ما يبدو - بمدينة إشبيلية وكانت تزخر بطائفة من الفقهاء والأطباء والمتفلسفة والشعراء وأصحاب الموسيقى، وتخرَّج على أيديهم طبيباً متفلسفاً وشاعراً بارعاً يتقّف الموسيقى وتلاحينها الأندلسية. وفي أوائل العقد الثالث من حياته هاجر عن مدينته إلى المشرق مصطحباً والدته، وقد تكون الرغبة في التزود من علماء المشرق أو الرغبة في الحج من دواعي تلك الهجرة المبكرة عن مدينته. ونزل المهديّة بجوار القيروان، ويبدو أنه كان قد وفد عليها لمديح أميرها وأمير إفريقية تميم بن المعز

المغرب والأندلس (طبع تونس) ١٨٩/١ - ٢٧٠  
وتاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليزج) ص ٨٠  
ومرأة الجنان لليافعي ٢٥٣/٣ وشذرات الذهب  
٨٣/٤

(١) انظر في أمية وترجمته وشعره معجم الأدباء  
٥٢/٧ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة  
ص ٥٠١ والتكملة ٢٠٣/١ وتحفة القادم ٣ وابن  
خلكان ٢٤٣/١ والمغرب ٢٦١/١ والبيان المغرب  
لابن عذاري ٣١٢/١ والخريدة: قسم شعراء

الصنهاجى (٤٥٤ - ٥٠١ هـ). إذ كان مقصدا للشعراء لما يميزهم به من الجوائز السنوية، وامتدحه مرارا، وظل في حاشيته فترة. ورأى أن يوجه به إلى مصر برسالة، وكانت العلاقة بين تميم وحكام مصر سيئة، فحين وصل أمية برسالته إليهم زجوا به في سجن خزانة البنود بالقاهرة، وكان فيها خزائن متنوعة في أصناف الكتب وفنونها المختلفة، فأكبَّ عليها يقرؤها ويلتهم ما فيها من المعارف، ويقال إنه ظل بها ثلاث سنوات قبل صدور العفو عنه، وقيل بل عشرين سنة، وهى مبالغة واضحة. وفي كتاب طبقات الأطباء رسالة طريفة من على بن منجب الصيرفي صاحب ديوان الإنشاء وجه بها إليه في السجن منوها فيها بأنها رد على رسالة لأمية وهو في سجنه، ويثنى على قصيدتين أرسل بها إليه في مديح الأفضل بن بدر الجمالى وزير مصر حينئذ (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) وقد أنشد العماد في الخريدة قطعة من مدحة لأمية يمدح بها شفيعه ويسميه عليا وهو ابن الصيرفي كما ذكرنا. وعاد إلى المهديّة سنة ٥٠٥ في عهد يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ). وإليه قدم الرسالة المصرية وكتاب الحديقة الآتى ذكرها وعظم شأنه عنده وكذلك عند ابنه على أمير المهديّة بعده (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وحين أنشأ على مدرسته المشهورة للكيمياء أسند إليه الإشراف عليها وظل يتولاها إلى آخر أيامه. وقد نشرت له بالقاهرة الرسالة المصرية وفيها يذكر ما رآه بمصر من هيئتها وأثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وأهل الأدب، وعُنى فيها بذكر مُدّاح الأفضل الجمالى وألم ببعض من هجوه. ويقول ابن سعيد في المغرب: «عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التى هى الآن بأيديهم». ويبدو من هذه العبارة أنه لحن هناك لهم أغانيتهم الإفريقية على أسس الألحان الأندلسية. وألف لهم كتابا فى الموسيقى أهداه إلى الأمير على بن يحيى. وإشادة ابن سعيد بصنيعه فى هذا الجانب لها أهمية كبيرة، إذ ختم رحلاته بتونس وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ للهجرة، ويقول إن أمية جَلَّ قدره عند الحسن بن على خليفة أبيه كما جَلَّ عند أبيه وجده، وظل ينزل هناك منزلة جلييلة إلى أن توفى سنة ٥٢٩. وله مصنّفات مختلفة فى التنجيم والطب والهندسة تدل على واسع علمه، من ذلك كتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وله كتاب فى المنطق سماه: «تقويم الذهن» وبجانب ذلك له الرسالة المصرية السالفة وهى أهم نص عن شعراء مصر فى فواتح القرن السادس الهجرى، وله أيضا كتاب الحديقة فى شعراء عصره على نهج كتاب اليتيمة للثعالبي وكتاب الملح العصرية فى شعراء الأندلس والطارئين عليها. وهو يعد فى الناهيين من شعراء زمنه، وكان له ديوان كبير سقط من يد الزمن، غير أن العماد فى الخريدة انتقى منه طائفة كبيرة بترتيب الحروف الهجائية امتدت



فيه إلى أكثر من ثمانين صفحة مهد لها بقوله: «كل شعره منقح مستملح، صحيح السبك، محكم الحوك، نظيم السلك» وهو موزع بين مديح ورثاء وغزل وهجاء ووصف للقصور والخيل ومن قوله في الهرمين:

بِعَيْشِكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرًا      عَلَى طَوْلٍ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ هَرَمِيٍّ مِصْرٍ  
أَنَافًا بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفَا      عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوِ النَّسْرِ<sup>(١)</sup>  
وَقَدْ وَافِيَا نَشْرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيَا      كَأَنَّهُمَا ثُدْيَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ<sup>(٢)</sup>

وفي هذه الصورة ما يدل على أنه كانت لأمية ملكة خيالية خصبة، ومن أهم ما يتميز به كثرة خمرياته وتصاويره للطبيعة، وتتداول الكتب التي ترجمت له وصفه لبركة الحبش بمدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) وكانت جنات وبساتين تحتها مَسْرَبٌ من مياه النيل يصبُّ في قنوات تتخللها، وكان أهل الفسطاط يخرجون للنزهة فيها وللمتاع بمناظرها، وفيها يقول أمية:

لله يَوْمِي بِبِرْكََةِ الْحَبَشِ      وَالْأَفْقُ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَالغَبَشِ  
وَالنَّيْلُ تَحْتَ الرِّيَّاحِ مُضْطَرَبٌ      كِصَارِمٍ فِي يَمِينِ مَرْتَعِشِ<sup>(٣)</sup>  
وَنَحْنُ فِي رَوْضَةٍ مَفُوفَةٍ      دُبَّجٍ بِالنُّورِ عِطْفُهَا وَوُشِي<sup>(٤)</sup>  
قَدْ نَسَجْتَهَا يَدُ الرِّبِيعِ لَنَا      فَنَحْنُ مِنْ نَسَجِهَا عَلَى فُرْشِ  
فِعَاطِنِي الرَّاحِ إِنْ تَارَكَهَا      مِنْ سَوْرَةِ الْهَمِّ غَيْرِ مُنْتَعِشِ<sup>(٥)</sup>

وهي نزهة ببركة الحبش في يوم من أيام الربيع الجميلة، وتتوالى الأخيلة في الأبيات بدعية، فاضطراب النيل تحت الرياح كاهتزاز السيف في يد مرتعش لا يهدأ ولا يسكن أبداً، وهو وصحبه في روضة أنيقة وُشيت جوانبها وزينت بالنور، ومدَّ الربيع من تحتهم بساطاً سندسيا. وفي هذا الموكب الرائع الذي ملأ قلبه فتنة بالطبيعة وجمالها يسأل صاحبه أن ينأوله كأس الخمر، حتى يزول - كما يزعم - كل هم في طوايا نفسه. ويعلن مرارا أنه مولع باحتساء الخمر وسط الرياض ومباهج الطبيعة، ويفتن في مزجها بالغزل إذ يجتمع عليه صابته بالخمر وبجمال المرأة وينشد مثل قوله:

قَامَتْ تَدِيرُ الْمُدَامِ كَفَّاهَا      شَمْسٌ يَنْبِرُ الدُّجَى مُحَيَّاهَا

(١) أناف: ارتفع وأشرف. السالك: نجم نير.

(٢) النشز: المرتفع من الأرض.

(٣) صارم: سيف.

(٤) مفوفة: مزخرفة.

(٥) سورة: شدة.

للمسك ما فاح من مَرَّاشِهَا      والبرقي ما لاح من ثناياها  
غزالةٌ أخرجتُ سَمِيَّتَهَا      فلم تشبهُ بها وحاشاها<sup>(١)</sup>  
هَبَّهَا لَهَا حُسْنَهَا      وبَهَجْتَهَا      فهل لها خَدُّهَا وَعَيْنَاهَا

والأبيات تملك القلوب والأسماع بعذوبتها وتمكن ألفاظها وقوافيها في سياقها، وأيضاً برقتها ولطف معانيها ودقة التقابل فيها بين القامة والغصن والرِّدف والكثيب والمراشف وما يلمع وراءها من الثغر وصاحبه والشمس، وهَبُّ للشمس حسنها وبهجتها فهل لها خدّها الجميل وعيناها الفاتتان. وله وراء ذلك أشعار بديعة.

### ابن<sup>(٢)</sup> خفاجة

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة ٤٥٠ للهجرة بجزيرة شقر بين شاطبة وبلنسية، وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها، ولذلك سميت جزيرة وفي المغرب: أنها «عروس الأندلس المقلدة من نهرها بسلك، المتلفعة من جناتها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمام». وفي هذه الجنة الفيحاء نشأ ابن خفاجة في أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية، وتفتحت موهبته الشعرية، وغذاها غذاء شعريا رفيعا بأشعار عبد المحسن الصوري والشريف الرضى ومهيار والمتنبي كما يقول في مقدمة ديوانه، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصوري في مزج الغزل بالطبيعة والشريف الرضى ومهيار في ذكر الظعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية والطيِّف والخيال ونسيم الصبا وأنفاس الخزامى، أما المتنبي فيقول إنه تأثر به في لف الغزل بالحامسة. ويقول أيضا في مقدمة ديوانه إنه ظل في شبابه يتمثل هؤلاء الأربعة في شعره، متغنيا فيه بحب وجداني وبتعانه من الخمر والطبيعة الجميلة التي نشأ في حجرها. ولم يحاول حينئذ أن يفد على أمراء الطوائف مادحا، كما كان يصنع الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق

(مصر) ص ١٣٠٨. ومقدمة ديوانه بتحقيق د. السيد مصطفى غازي (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية). وراجع ترجمته في كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة بدار المعارف) ص ٤٤٤ وما بعدها وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر أمراء الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٠٤ وما بعدها.

(١) غزالة: يريد صاحبه، وتسمى بها الشمس.  
(٢) انظر في ابن خفاجة وترجمته وشعره الذخيرة ٥٤١/٣ وما بعدها والقلائد ص ٢٣١ والمغرب ٣٦٧/٢ والمطرب ص ١١١ وابن الأبار في التكملة (البقية المطبوعة في الجزائر) ص ١٧٥ ومعجم الصدفى ص ٥٩ والمطمح ص ٨٦ وبغية الملتبس ص ٢٠٢ وابن خلكان ٥٦/١ والخريدة ١٤٧/٢ ومقدمة ابن خلدون (طبع نهضة

بضیعة ورثها عن آبائه، وفي الديوان مقطوعة سينية نظمها في زيارة للمعتصم بن صاحب دعت إليها مناسبة طارئة فنظمها، وليس في الديوان وراءها مدحة لا في ابن صاحب ولا في غيره من أمراء الطوائف. ويذكر أن فترة الشباب وما له فيها من منظومات في الغزل والطبيعة والخمر أعقبتها فترة انقطع فيها عن نظم الشعر، ويقول إنها كانت فترة طويلة، وأكبر الظن أنها كانت سنوات معدودة انتهت بانتهاء عصر أمراء الطوائف، وكان هذا العصر كان عبثاً غليظاً على نفسه، كما كان عبثاً غليظاً على نفوس كثيرين من أهل الأندلس لانغماس أمرائه في الترف والمجون، حتى ضاعت طليطة سنة ٤٧٨. ونظن ظناً أن هذا الحادث الخطير هو الذي جعله يتوقف عن الشعر فترة، وأخذ يعود إليه الأمل في إنقاذ الأندلس حين دخلها المرابطون وانتصروا في الزلاقة انتصارهم الحاسم، ولعل إعجابهم بهم هو الذي جعله يزور المغرب ومراكش ويعود منها سنة ٤٨٣ كما جاء في ديوانه، ولا يلبث يوسف بن تاشفين أن يجمع الأندلس تحت لوائه في نفس السنة فينتعش الأمل في نفس ابن خفاجة ويعود إلى نظم الشعر، وتلك هي الفترة الثالثة في حياته، وفيها ظل يدبج المدائح في أمراء المرابطين وقوادهم ورجالاتهم مستهلاً ذلك - كما يقول في مقدمة ديوانه - بمدح إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أول ولاية المرابطين على شرقي الأندلس. وتوالت بعد ذلك مدائحه فيه وفي أخيه تميم وإلى غرناطة ثم مرسية بشرقي الأندلس لفترة قليلة وزوجته السيدة الحرة مريم وفي علي بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وفي أبي بكر بن تيفلوت ممدوح ابن باجة. وفي كل هذه المدائح وغيرها في تلك الفترة الثالثة من حياته لم يكن طالب نوال أو عطاء، وإنما كان - كما قال في مقدمة ديوانه «مصطنعاً، لامنتجعاً، ومستميلاً، لامستنيلاً اكتفاء بما في يده من عطايا منان وعوارف جوادٍ وهَّابٍ». ونظن ظناً أنه عاش فترة في حياته الطويلة بأخرة، إذ امتدت إلى أكثر من ثمانين عاماً، مفكراً في مصيره وفي متاع الحياة الزائل وما ينتظر الإنسان من العقاب والثواب، وفي هذه الفترة نظم طائفة من شعره في العظة والاعتبار والتوبة والابتهال والاستغفار، وفيها جمع ديوانه، وعُنى كما يقول في مقدمته بتنقيحه وإصلاح بعض أشعاره «إما لاستفادة معنى، وإما لاستجادة مبنى» وعُنى بجانب ذلك بكتابة بعض كتب الحديث والسنن - كما ذكر في بعض شعره - تقريباً لله ورسوله. وكان في هذه الفترة الرابعة من حياته يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادي بأعلى صوته: يا إبراهيم قوت، فيجيبه الصدى ويخترُ مغشياً عليه. وتوفي سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاماً.

ويشيد به ابن بسام وغير ابن بسام إشادة رائعة، وأهم موضوع استنفد أكثر شعره واشتهر به وصف الطبيعة حتى سباه الأندلسيون الجنان نسبة إلى جنان الأندلس وتصويره لها تصاوير بديعة، وعلل هو نفسه لهذه النزعة في ص ٢٩٠ بديوانه قائلاً: «إكثاره في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجريّة ماء ورنّة طائر ما هو إلا [إما] لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادق، وبطاح عريضة وأرض أريضة،<sup>(١)</sup> فلم يعد هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرّك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كلف<sup>(٢)</sup> لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل وانتجاع». ومن قوله في وصف روض صباحاً:

وَكِمَامَةٌ حَدَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا      عَنْ صَفْحَةٍ تَنَدَى مِنَ الْأَزْهَارِ<sup>(٣)</sup>  
فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثَغُورُ أَقَاحِهِ      أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِندَرَارٍ<sup>(٤)</sup>  
وَحَلَلَتْ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَاحِكٍ      وَالطَّلُّ يَنْضَحُ أَوْجَهُ الْأَشْجَارِ  
مَتَقَسِّمَ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مَحَاسِنِ      مِنْ رَدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارٍ<sup>(٥)</sup>

والصور تتراكم في القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها النديّة وثغور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدار والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار، والمحاظ موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار. ويقول في وصف عشية:

وَعَشِيٌّ أَنْسٍ أَضْجَعْتَنِي نَشْوَةً      فِيهِ يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيُدَمِّتُ<sup>(٦)</sup>  
خَلَعْتُ عَلَيَّ بِهِ الْأَرَاكَةَ ظَلِّهَا      وَالْغَصْنَ يُصْنِي وَالْحَمَامُ يَحْدُثُ  
وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةً      وَالْبَرْقُ يَرْقِي وَالْغَمَامَةُ تَنْفُتُ<sup>(٧)</sup>

وهو يقول إنها عشية جميلة انتشى فيها بمنظرها، إذ كان يستظل بأراكة في مقعد مهد لطيف، والحمام يحدث والغصن يرفف السمع إليه، والشمس تجنح للوداع وقد اصفرّ

(١) أريضة: كثيرة النبات.

(٢) كلف: هيام.

(٣) كمامة: أكمام وهي جمع كم بكسر الكاف:

برعوم الزهرة.

(٤) أخلاف جمع خلف بكسر الخاء: حلمة

(٥) الردف: العجز بضم الجيم. خصر الإنسان:

وسطه. قرار: منخفض من الأرض.

(٦) يدمت: يهد ويوطأ بتشديد الطاء.

(٧) تنفت: تنفق.

وجهها وشحب لفراق هذا المنظر، وشعل البرق كأنها رُقِيَّ تريد أن ترقبها والغمامة تنفث كما ينفث الراقي في العقد. ومن قوله في إحدى خمرياته:

وأراكة ضربت سماءً فوقنا      تندى وأفلاك الكئوس تدارُ  
حفت بدوحتها مجرةً جدولٍ      نثرت عليه نجومها الأزهارُ  
وكانها وكان جدول مائها      حسناءً شدَّ بخصرها زُنارُ<sup>(١)</sup>  
زف الزجاجُ بها عروسَ مُدامةً      تجلى ونوارُ العُصونِ نِثارُ<sup>(٢)</sup>

وقد جعل ابن خفاجة الأراكة التي جلس مع ندمائه تحتها سماء، ومضى يستتم الصورة، فالكئوس تدار وكأنها النجوم تدار في الأفلاك، والجدول وما حوله من الأزهار كأنه المجرة بما حولها من النجوم، وكان الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شدت حزاما إلى خصرها. وهذا زجاج الكئوس يزف المدامة إلى الشاربين ويجلوها عليهم، وما النوار والأزهار إلا نثار الدراهم والدنانير يلقي به المحبون في هذا العرس الكبير. وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر في عناصر الطبيعة، بحيث يصح لكل عنصر أحاسيسه التي يشترك بها مع غيره من العناصر. وتتراكم هذه الأحاسيس في شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، وهي ليست كثرة معان إنما هي كثرة تصاوير، وهي ليست عيبا بل هي حسنة وفضيلته، إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساسا عميقا، وهو إحساس تفرّد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعا، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب في مختلف عصورهم، وجعله إحساسه بها ينقل أوصافها إلى المديح فيقول في أبي بكر بن تيفلويت والى سرقسطة:

وجلا الإمارة في رفيفِ نضارةٍ      جلتِ الدجى في حلة الأنوارِ  
متقسّم ما بين شمسٍ دُجْنَةٍ      طلعت وبين غمامةٍ مدرارِ  
أرج النديُّ بذكره فكأنه      متنفسٌ عن روضةٍ معطارِ

فهو قد جلا الإمارة فيما يشبه رفيف البساتين من الرى والنضارة، حتى لكأنما أسبغت على الليل الداجي حلة من الأنوار، وما أروع طلعتة كأنها طلعة شمس من دجئة مظلمة

الدراهم والدنانير.

(١) زنار: حزام يشد في الوسط.

(٢) النثار: ما ينثر على العروس في الزفاف من

تضيء للأبصار، وكأنما يدها غمامة ما تزال تهمل بالنوال على العفاة والزوار، وإن ذكره في  
النَّدَى ليملؤه بأريجها العطر، حتى لكأنه يتنفس عن روض فائح العطر. وكما يمزج الطبيعة  
بالمديح يمزجها بمراثيه كقوله في رثاء صديق عزيز:

فِي كُلِّ نَادٍ مِنْكَ رَوْضٌ ثَنَاءٌ      وَبِكُلِّ خَدِّ فَيْكَ جَدْوَلٌ مَاءٌ  
وَلِكُلِّ شَخْصٍ هَزَّةٌ الْغُصْنِ النَّدَى      تَحْتَ الْبُكَاءِ وَرَنَةِ الْمَكَاءِ

وهو يقول - مخاطبا صديقه - إن كل ناد تحول إلى روض ثناء عليك وكل خد هطلت  
عليه الدموع الكثيرة حتى استحال كل شخص بأنينه وانهار دموعه إلى ما يشبه هزة  
الغصن الندى ورنة طائر المكاء الصغير يبكي أليفته.

ولم تتمثل حتى الآن بشيء من شعر الطبيعة الذي نظمه في الفترة الأخيرة من حياته،  
فترة التأمل في مصيره وما ينتظره، مثل أقرانه الذين رثاهم مرارا، من الموت والعدم،  
ولعل خير قصيدة تصور هذه الفترة قصيدته البائية المعنونة في الديوان بأنه قالها في  
الاعتبار، وهو يفتتحها بوصف سراه في الليل وكيف أن وجوه الموت كانت تتجلى له دائما،  
وكانما يصف رحلته الطويلة في الحياة، ويلتقى في سراه بجبل ضخم شاهق شامخ ويقوم  
معه حواراً ينطقه فيه بما يدور في نفسه، إذ يقول له: كم أوى إلى واستوطنني من فتاك  
ونسأك وكم مررتي من غادين ورائحين وراكبين وراجلين، وكلهم عصف بهم الموت، يقول:

وَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّهْتَهُمْ يَدُ الرَّدَى      وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَابِ  
وَمَا خَفَقُ أَيُّكِي غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْلَعُ      وَلَا نَوْحُ وَرُقَى غَيْرُ صَرْخَةٍ نَادِبِ  
فَحَتَّى مَتَى أَبْقَى وَيَظُنُّ صَاحِبُ      أَوْدُعُ مِنْهُ رَاحِلًا غَيْرَ آيِبِ  
فَسَلَّى بِمَا أَبْكِي وَسَرَّى بِمَا شَجَى      وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبِ

فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعا صالحين وطالحين إلى الموت والفناء  
وفقدان الحياة. وكل شيء يشترك مع الجبل ومع ابن خفاجة في الإحساس بهول هذا  
المصير حتى ليرتجف الأيك والشجر وينوح الورق أو الحمام فزعا لهذا المصير المفجع لكل  
الناس. ويستطيل الجبل وابن خفاجة بقاءهما بعد رحيل كل الصحاب. ويقول إن الجبل  
سرى عن نفسه لأنه وجد عنده نفس الحزن ونفس الشجا إزاء ما يشعر به من تلاحق  
الفواجع بالناس وأن كل من على الأرض كركب واقفين ينتظر كل منهم دوره للرحيل  
إلى الدار الباقية.

محمد<sup>(١)</sup> بن سفر

هو أبو الحسين محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحدين في المائة السادسة، ويقول ابن الأبار عنه، منسوب إلى جده وأصحابنا يكتبون اسمه بالصاد، كان بإشبيلية. ويقول ابن سعيد فيه: «شاعر المرية (بشرقي الأندلس) في عصره الذي يغنى ما أنشده من شعره عن الإطناب في التنبيه على قدره» وأشاد به المقرئ في النسخ مرارا بمثل قوله: «الإحسان له عادة» وقوله: «أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرًا». ويقول ابن سعيد: «أعجب ما قيل في مد نهر إشبيلية وجزره (لتأثره بجزر المحيط الأطلسي ومدّه) قوله:

جئت الجزيرة والخليج يحفها يشكو إليها كى تجيب حوارهُ  
شقّ النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره  
فتضاحكت ورق الحمام بدوجه هزءاً فضم من الحياء إزارهُ

وهو يجعل الخليج شاكيا إلى جزيرة هناك بقرب إشبيلية، فتعرض له النسيم شاقا جيب قميصه أو بعبارة أخرى فتحة مصب النهر، فانساب المحيط من شطيهما يطلب ثاره، وهو يكتفى بذلك عن المد، فتضاحك الحمام الذي كان رابضا على الدوح هزءا به، فاستحى الخليج أو المحيط وضم من الحياء إزاره، وهو يكتفى بذلك عن الجزر. وهو خيال بديع، وله يصف نزهة لبعض الشباب في زورق شراعى بنهر، وربما كان أيضا نهر إشبيلية المسمى بنهر الوادى الكبير:

لو أبصرت عيناك زورق فتية يبدي لهم بهج السرور مراحهُ  
وقد استداروا تحت ظل شراعه كل يمد بكأس راح راحهُ  
لحسبته خوف العواصف طائرا مد الحنان على بنيه جناحه

وهو أيضا خيال بارع لابن سفر، إذ يقول إن فتية ترافقوا في زورق مرحين مسرورين ولم يلبثوا أن تجمعوا في ظل شراعه يتهادون كتوس الخمر وكل منهم يد بها لصاحبه، ويشطح به الخيال، فيقول لكأن الزورق وهم متجمعون تحت شراعه خشية الريح الشديدة طائر في عشه دفعه الحنان إلى أن يمد جناحه على أولاده خوفا عليهم من

(١) انظر في محمد بن سفر وترجمته وشعره المغرب

٢١٢/٢ والرايات ص ١٠٦ والنحفة رقم ٦٦.

العواصف المباغثة. ويقول:

يامن رأى النهر استثارَ به الصِّبا      خَيْلاً لِإِرْهَابِ الْغُصُونِ الْمَيْدِ (١)  
لما رأتها سُدِّدَتْ تَلْقَاءَهُ      قرنتُ به خَيْلاً تروحُ وتغتدي  
وَعَدَّتْ تُدْرِعُهُ ولم تبخلْ لها      شمسُ الضُّحَى بمسامرٍ من عسجد

وهو يجعل ريح الصبا كأنها خيل تهب لإرهاب الغصون المتنايلة، ولقيته الغصون بخيل ما تزال غادية رائحة وذاهبة آتية، وأخذت تلبس النهر دروعا من ظلها للقاء خيل الصبا، وأهدتها شمس الضحى مسامر ذهبية كى تحكم تلك الدروع على النهر، وهو خيال بديع. ويقول في وادى المرية بلدته:

اشربْ على شِدْوِ الْحَمَامِ فَإِنَّهُ      أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الْغَرِيضِ وَمَعْبِدِ  
أترَاهُ أَطْرِبُهُ الْخَلِيْجُ وَقَدْ رَأَى      تَصْفِيْقَهُ تَحْتَ الْغُصُونِ الْمَيْدِ  
وكأنهنَّ رواقصٌ من فوقه      وبها من الأزهار شِبْهُ مُقْلِدِ (٢)

وهو يجعل شدو الحمام في سمعه أروع من غناء مغنئى مكة والمدينة: الغريضة ومعبد المشهورين في العصر الأموي، ويقول: كأنما أطربه شدو المياه وخريرها تحت الغصون الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، ولعل في ذلك كله ما يشهد لابن سفر بروعة أخيلته وتصاويره.

### ٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يتخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي منذ الجاهلية ألوانا ثلاثة، هي الندب أو النواح لموت ذوى الرحم، والتأبين بذكر فضائل الميت تبيانا لخسارة المجتمع فيه، والعزاء بتصوير الموت وأنه سنة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة. ونجد هذه الألوان الثلاثة ماثلة في الشعر الأندلسي، ونبدأ بعرض نصوص من ندب الشعراء لبعض أقربائهم من الأبناء

(٢) مقلد: موضع القلادة من العنق.

(١) الميد: المتنايلة.



والزوجات والإخوة، وولتقى بابن عبد ربه ملتاعا لفقد ابنين له هصر الموت غصن أكبرهما وهو في ريعان شبابه، أما الثاني فكان صبيا لم يبرح زمن الطفولة، وله فيها مرات مختلفة، ومن قوله في الشاب ملتاعا بعد فترة من موته<sup>(١)</sup>:

بَلَيْتَ عِظَامُكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ      وَالصَّبْرُ يَنْفَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْفَدُ  
يَا غَائِبًا لَا يُرْتَجَى لِإِيَابِهِ      وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعِدُ  
مَا كَانَ أَحْسَنَ مَلْحَدًا ضَمَّتَهُ      لَوْ كَانَ ضَمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الْمَلْحَدُ  
بِالْيَأْسِ أَسْلُو عَنْكَ لَا يَتَجَلَّدِي      هِيَهَاتَ أَيْنَ مِنَ الْحَزِينِ تَجَلَّدُ

وهو يقول إن حزنه يتجدد وصره ينفد والبكاء لا ينفد لغياب ابنه غيابا لا أوبة بعده إلى يوم القيامة، ويتمنى لو كان دفن معه. ويقول إنه يسلو عنه باليأس من لقائه، لا بتجلده، فلم يعد له تجلد ولا صبر. وكثير من الزوجات الأندلسيين كن قرة أعين لأزواجهن، ونرى كثيرين من الشعراء يلتاعون لوعة شديدة حين يختطف الموت منهم زوجاتهم، من مثل قول أبي إسحق الإلبيري يبكي زوجته<sup>(٢)</sup>:

عُجَّ بِالْمَطِيِّ عَلَى الْيَبَابِ الْغَامِرِ      وَارْبَعٌ عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَ نَاطِرِي<sup>(٣)</sup>  
وَاقْرَأَ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ ذِي لَوْعَةٍ      صَدَعَتْهُ صَدْعًا مَا لَهُ مِنْ جَابِرِ  
وَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُهُ فِي وَدِّهِ      لَقَضَيْتُ يَوْمَ قَضَى وَلَمْ أَسْتَخْرِ<sup>(٤)</sup>  
وَشَقَقْتُ فِي خَلْبِ الْفَوَادِ ضَرِيحَهُ      وَسَقَيْتُهُ أَبَدًا بِمَاءِ مَحَاجِرِي<sup>(٥)</sup>

وهو ينادى صاحبه أن يقف الركب على قبر محبوبته وبقراً عليه السلام من ملتاع صدعت بفراقها قلبه صدعا لا يمكن أن يلتئم، ويقول إنه كان من الإنصاف أن الحُدَّ معها في قبر واحد، فإن لم أمت شققت لها في سويداء الفؤاد ضريحا وسقيته أبدا بدموعى المنهلة. ومات لمعاصره فقيه الأندلس المشهور أبي الوليد الباجي ابنان مغتربان فندبها ندبا حاراً بقوله<sup>(٦)</sup>:

(٥) خلب الفؤاد: حجاب. محاجر العينين: ما يحيط  
بها.

(٦) المغرب ٤٠٥/١ وانظر أيضا في ترجمة أبي  
الوليد الذخيرة ٩٤/٢ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١  
وابن خلكان ٤٠٨/٣ والقلائد ١٨٨ والصلة ١٩٧.

(١) البيمة للتعالبي ٧٦/٢.

(٢) الديوان (تحقيق د. محمد رضوان الداية - طبع  
دمشق) ص ٧٤.

(٣) عج: اعطف. اليباب: القفر. الغامر: المغمور  
بالتراب. اربع: قف.

(٤) قضيت هنا: مت.

رَعَى اللهُ قَبْرَيْنِ اسْتَكْنَا بِلدَةٍ  
يَقْرُ بِعَيْنِي أَنْ أُرَوَّرَ ثَرَاهِمَا  
وَأَبْكِي - وَأَبْكِي - سَاكِنِيهَا لَعْنَى  
وَمَا سَاعَدْتُ وُرُقَ الْحَمَامِ أَخَا أَسَى  
وَلَا اسْتَعْدَبْتُ عَيْنَايَ بَعْدَهُمَا كَرَى  
هُمَا اسْكَنَاهَا فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَلْبِ  
وَالصَّقَّ مَكْنُونِ التَّرَائِبِ فِي التُّرْبِ (١)  
سَأُنْجِدُ مِنْ صَحْبٍ وَأُسَعِدُ مِنْ سُحْبٍ (٢)  
وَلَا رُوِّحْتُ رِيحُ الصَّبَا عَنْ أَخِي كَرْبٍ  
وَلَا ظَمْتُتُ نَفْسِي إِلَى الْبَارِدِ الْعَذْبِ

وهو يدعو الله أن يرعى قبري ابنيه اللذين يسكنان في السواد من قلبه، ويقول إنه يسرُّ بزيارة قبريهما واحتضان ثراهما، وإنه ليبيكي آملا فيمن ينجده ويساعده في بكائه، ولكن هيهات، فلا منجد لا من الإنسان ولا من ورق الحمام، ولا مروِّح عنه لا من ريح الصبا ولا من غيرها. وإنه يبیت مسهدا وقد زهد في كل متاع الحياة من بارد عذب وغير بارد عذب. وللأعمى التطيلي مرثية بديعة لزوجته آمنة تكاد فيها نفسه تذوب أسى وحسرات، وفيها يقول (٣):

أَمِنْ إِنْ أَجْزَعُ عَلَيْكَ فَاِنِّي  
بِرَغْمِي خَلَى بَيْنَ جِسْمِكَ وَالثَّرَى  
هَنِيئًا لِقَبْرِ ضَمِّ جِسْمِكَ إِنَّهُ  
إِذَا جِئْتَ عَدْنَا فَاطْلُبِينَا فَقَلَّمَا  
وَلَا تَعْدُلِينِي إِنْ أَقَمْتُ فَرْبَمَا  
رُزْتِكَ أَحَلَى مِنْ شِبَابِي وَمَنْ وَفَّرِي  
وَإِنْ كُنْتُ لَا أَحْشَى التَّرَابَ عَلَى التُّبْرِ (٤)  
مَقَرُّ الْحَيَا أَوْ هَالَةُ الْقَمَرِ الْبَدْرِ  
تَقَدَّمْتَنِي إِلَّا مَشَيْتُ عَلَى الْإِثْرِ (٥)  
تَأَخَّرَ بِي سَعْبِي وَأَثْقَلْنِي وَزَّرِي

والمرثية تكنظ بخواطر وصور بديعة، وهو يتمنى في مطلعها أن لو واروا جسد زوجته في صدره مع ما يحتدم فيه من لظى فرقتة لها، ويسألها هل احتملت الصبر على الفراق. أما هو فقد ضعف عن الصبر. ويقول لزوجته لا ترسلي إلي بطيفك فدونه سدود من كتائب السهد عليك، كما يقول لها أخبرت إن جيدك أصبح عاطلا من الحلى فخذى أدمعى مكانها إن كنت غاضبة على الدر، إن محارتها أوصدفتها عيني ولجتها أو يمها صدرى. ويبيكي ابن خفاجة ابن أخت له توفي في عنفوان شبابه بصحراء المغرب فيما يبدو، وجاءه نعيه، وفيه يقول (٦):

(٤) التبر: فتات الذهب.

(٥) عدن: الفردوس.

(٦) الديوان ص ٢٦٧.

(١) الترائب: عظام الصدر.

(٢) أسعد: من أسعد إذا أعان على البكاء.

(٣) راجع ديوان الأعمى التطيلي ص ٧٠.

أرقتُ أكفُ الدمعِ طورا وأسفحُ  
 فيها لغريبٍ فاجأته منيةٌ  
 ترى بي - إذا أعولتُ حزنا - حمامةً  
 وما أتلقى الركبَ أرجو تحيةً  
 فعرِّجْ على مثنوى الحبيبِ بنظرةٍ  
 وأنضحْ خدي تارةً ثم أمسحُ<sup>(١)</sup>  
 أته على عهد الشبابِ تجلحُ<sup>(٢)</sup>  
 ترنُّ وطورا أيكمةً تترنحُ  
 توافي له أوراقه تُتصفحُ  
 تراه بها عنى هناك وتلمحُ

وهو يقول إنه يقضى الليل مسهدا تارة يكفكف دمه وتارة يرسله مدرارا، وطورا يفيض فوارا وطورا يمسخه. ويأسى لابن أخته أن أسرع إليه الموت غريبا شابا، بل لقد اختطفه اختطافا. ويرق له كل ما حوله، فالحمام يرن بهديله والشجر يترنح ويتمايل بأغصانه. ويقول إنه لن يعود يتلقى القادمين ممن كانوا معه ليسألهم هل أرسل إليه معهم تحية أو رسالة وينادى كل من حوله أن يعرج على مثنوى الحبيب، ويلقى نظرة عليه، لعله يراه بها عنه أو يلمحه. ويقول أبو عامر بن الحمارة الفيلسوف تلميذ ابن باجة في زوجته زينب<sup>(٣)</sup>:

أزَيْبُ إن ظَنَنْتِ فإنَّ ظَهْرًا  
 بأية حَجَّةٍ أَسْعَى لَأَنْتِي  
 ولما أن حَلَلتِ التُّرْبَ قلنا  
 لقد ضَلَّتْ مَوَاقِعَهَا النُّجُومُ  
 ألا يَا زَهْرَةَ ذُبَلْتِ سَرِيْعًا  
 أَقْلَكَ سَوفَ يَرْكُبُهُ المُقِيمُ<sup>(٤)</sup>  
 سَواكِ وَأَنْتِ هَامِدَةٌ هَشِيمُ  
 أَضُنُّ المُزْنَ أم رَكَدَ النِّسِيمُ

وهو يقول لها إن الدابة التي حملتك إلى المقابر سوف تحملني قريبا، وسأظل وفيك لك على العهد لا أتزوج بعدك أبدا. والصورة بديعة في البيت الثالث، فقد تعجَّب لهذا النجم الثاقب أن يحل في التراب ومكانه السماء في أعلى عليين، ويعجب أيضا لهذه الزهرة العطرة أن تذبل في إبانها وشبابها سريعا، ويتساءل أبخل المزن بقطره أم ركد النسيم، وهي أيضا صورة بديعة.

ويكثر التأبين عندهم لكثرة رجالات الأندلس من أمراء وخلفاء وحكام ووزراء وقواد وفقهاء وعلماء من كل صنف وأدباء من الكتاب والشعراء، وعادة يذكرون مناقبهم

(١) أكف: أكفكف. أسفح: أصب. أنضح: من نضحت العين إذا فارت.

(٢) تجلح: تسرع.

(٣) الرايات ص ١٢٨ وانظر في ترجمته

المغرب ١٢٠/٢ والبغية ص ٥١٧ والمطرب ص ١٠٩ والواقف ٢٤٢/٢.

(٤) ظهرا: دابة، ويريد النمش أكلك: حملك.

ويعددون محامدهم وخصالهم الكريمة، ومن أوائل من أبنوهم عبد الرحمن الأوسط المؤسس الحقيقي للحضارة العربية في الأندلس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وفيه يقول شاعره طاهر<sup>(١)</sup> بن حزم:

وياحسرتنا إذ أظفِرَ الموتُ بَعْتَةً      بمن لم يكن إلا به الموتُ يَظْفَرُ  
تداعتُ إلى النَّعشِ السحابُ فظَلَّتْ      سريرا عليه السيدُ المتخَيِّرُ  
سَقَى اللهُ قَبْرًا بالنَّخيلِ غَمَامَةً      تكادُ إذا حُلَّتْ عَراها تَفْطَرُ<sup>(٢)</sup>  
كأنَّ ثَراه مُدُّ به سَكنُ النَّدى      إذا لَاعَبَتْهُ الرِّيحُ مِسْكَ وَعَنبرِ<sup>(٣)</sup>

وهو يتحسر على عبد الرحمن إذ ظفر به الموت، وكان الموت إنما يظفر به لأنه عدته وسلاحه، ويقول إن السحاب ظلل نعشه في مسيرته، ويدعو لقبه في النخيل (مقبرة الأمويين بقرطبة) أن تسقيه غمامة، وتظل هاطلة. ويقول إن ترى القبر مذ سكنه جثمان عبد الرحمن تفوح منه رائحة المسك والعنبر. ويتوفى سعيد بن جودي زعيم العرب بغرناطة فيؤننه مقدم بن معافي القبري مبتكر الموشحات بقوله<sup>(٤)</sup>:

مَنْ ذا الذي يُطْعِمُ أو يكسو      وقد حَوَى حِلْفَ النَّدى رَمْسُ<sup>(٥)</sup>  
لا اخضرتِ الأرضُ ولا أورق الـ      عودُ ولا أشرقتِ الشَّمْسُ  
بعد ابن جودى الذى لن ترى      أكرمَ منه الجنُّ والإنسُ  
دموعُ عَيْنِي فى سبيل الأسي      على سعيدٍ أبداً حُبْسُ<sup>(٦)</sup>

فقد دفن الجود مع سعيد ولم يعد هناك من يطعم أو يكسو، فلا عمت الأرض خضرة ولا أورق الشجر ولا أشرقت الشمس بعد سعيد الذى لن يرى الجن والإنس من يفوقه جودا وكرما. ويقول إنه سيظل يبكيه ملتاعا وستظل دموعه محبوسة عليه أسي وحزنا ولوعة. وكان سعيد يقود العرب ضد ثورة عليهم في إقليم غرناطة من المسالمة والمولدين والنصارى، ووقوف مقدم معه يدل بوضوح على أنه عربي من سلالة عربية، كما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن الموشحات. ولا بن الحنّاط الكفيف يرثى أبا الحزم بن جمهور أمير

(٤) المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله بن محمد (انظر الفهرس).

(٥) رمس: قبر.

(٦) حبس جمع حبيس: محبوس وموقوف.

(١) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١٢٥.

(٢) حلت عرا الغمامة: هطلت كثيرا. تظفر: تشقق. كناية عن غزارة المطر.

(٣) الندى: الجود والكرم.

قرطبة وهنئاً بالإمارة بعده ابنه أبا الوليد<sup>(١)</sup> :

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرَّزْءِ الَّذِي فَجَعَا      وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْحُكْمِ الَّذِي وَقَعَا  
أَبُ كَرِيمٍ غَدَا الْفِرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ      وَابْنُ نَجِيبٍ تَوَلَّى الْأَمْرَ وَاضْطَلَعَا<sup>(٢)</sup>  
لَهُ شَمْسٌ ضُحَى فِي اللَّحْدِ قَدْ غَرِبَتْ      فَأَعْقَبَتْ قَمَرًا بِالسَّعْدِ قَدْ طَلَعَا

وهو يستسلم لله فيما فجع به من موت أبي الحزم جهور ويستبشر بولاية ابنه أبي الوليد، ويقول إن جهورا أصبح في الفردوس ونهض ابنه بالحكم، ويقول إن أبا الحزم شمس غربت فطلع قمر سريعا قمر يحمل السعد بعده. ولابن مَعْلَى الطرسوني يرثي عالما من علماء العربية فيما يبدو<sup>(٣)</sup> :

رُزْءٌ بَكَتْ مِنْهُ الْعَلَا وَمَصَابُ      شَقَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبَهَا الْأَحْبَابُ  
وَطَفَقَتْ أَلْتَمِسُ الْعِزَاءَ فَخَانَتِي      نَفْسٌ تَذُوبُ وَأَدْمَعٌ تَنْسَابُ  
وَتَلْجَلِجُ النَّاعِي بِهِ فَسَأَلْتُهُ      عَوْدَ الْحَدِيثِ لَعَلَّهُ يَرْتَابُ  
أَنْعَى إِلَى الْإِعْرَابِ مِنْكَ مُعِيدَهُ      غَضًا كَمَا نَطَقَتْ بِهِ الْأَعْرَابُ  
نَاحَتْ بِكَ الْأَقْلَامُ غَايَةً وَسَعَهَا      وَبَكَتْ بِأَبْلَغِ جُهْدِهَا الْآدَابُ

وهو يقول إن موت هذا العالم مصاب جَلَلٌ بكت منه العلا وشقت عليه الأحباب جيوبها حزنا، ويقول انه التمس العزاء فخانتته نفسه الذائبة ودمعه المنساب، وتلجلج الناعي فأمل أن لا يكون النعي صحيحا. وينعيه إلى العربية التي أعادها غضة ناضرة كما نطق بها الأعراب في القديم، ويقول إن الأقلام والآداب تنوح عليه نواحا لا ينقطع. وملتقى بابن سوار وسنخسه بكلمة مفردة. ويتوفى أبو بكر بن تيفلويت المرابطي حاكم سرقسطة سنة ٥١٠ وكان بحرا فياضا وبطلا مغوارا ويرثيه صديقه الفيلسوف ابن باجة بمثل قوله<sup>(٤)</sup> :

سَلَامٌ وَإِلْمَامٌ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ      عَلَى الْجَسَدِ النَّائِي الَّذِي لَا أَزُورُهُ  
أَحَقًّا أَبُو بَكْرٍ تَقَضَى فَمَا يُرَى      تَرَدُّ جِمْاهِيرَ الْوَفُودِ سَتُورُهُ<sup>(٥)</sup>  
لَتَنْ أَنْسَتْ تِلْكَ الْقُبُورُ بِقَبْرِهِ      لَقَدْ أَوْحِشَتْ أَمْصَارُهُ وَقُصُورُهُ

(٢) اضطلع: نهض

(٣) الذخيرة ٨٤٤/٣ والمغرب ٤٥٧/٢

(٤) المغرب ١١٩/٢

(٥) تقضى: مات

(١) الذخيرة ٤٤٩/١ وانظر في ترجمة ابن الحنات

الذخيرة ٤٣٧/١ وما بعدها والحميدى ٥٣ والصلة

٦٤٠ والتكلمة ٣٨٧ والمغرب ١٢١/١ والخريدة

٢٩٧/٢ والوفى ١٢٤/٣.

وابن باجة، وقد يئس من زيارته لأبي بكر بن تيفلويت يتمنى له سلاما وروحا وأراحة ورحمة. وإنه لفي ذهول فيتساءل أحقا أنه لم يعد يغدو إلى قصره ولم يعد يرى ما كان على أبوابه ونوافذه من ستور كانت تردّ الجباهير؟ ويقول إن كانت القبور وجدت أنسا بقبره فقد خلفت وحشة في قصوره وأمصاره التي كان يد عليها سلطانه، وفيه يقول أيضا راثيا مؤبنا باكيا<sup>(١)</sup>:

يا صَدَىِّ بِالْتَّغْرِ جَاوِرُهُ      رَمَمٌ بِوَرَكْنٍ مِنْ رِمَمٍ<sup>(٢)</sup>  
صَبَّحْتُكَ الْخَيْلُ غَادِيَةً      وَأَثَارَتِكَ فَلَمْ تَرَمِ  
قَدْ طَوَى ذَا الدَّهْرِ بَزَّتُهُ      عَنْكَ فَالْبَسَ بَزَّةَ الْكُرَمِ<sup>(٣)</sup>

وهو يقول أيها الجثمان الثاوي بثغر سرقسطة الأعلى بوركت رمم الأموات الذين جاورتهم، ويلتفت إليه قائلا: لقد صبحتك الخيل التي تعودت أن تقودها لمنازلة الأعداء وأثارتك كي تهض معها، غير أنك لم تبرح مكانك. ثم يقول - وقد أمضه الحزن - إن يكن الدهر طوى عنك شارة الحياة فالبس شارتك الرائعة شارة الجود المنهل المدرار. ولا بن الزقاق مرثية في شهيد تقطر لوعة وأسى وهو يبكي فيه شبابه ومضاه وتنكيله بحملة الصليب شر تنكيل، وهو يستهلها بأن الشهب ناحت عليه وبكى الغيم وانحسر ظل الأنس واغبر ضوء الشمس وبكاه حزب الله والإسلام، ويقول لحامله: قفوا نودعه ونقض حقه من الدموع ولا تسلموه إلى الثرى، بل ادفنوه في جوانحنا وأحشائنا، وهتف ملتاعا<sup>(٤)</sup>:

أَعَزُّ عَلَيَّ بِضَيْعِمٍ ذِي سَطْوَةٍ      أَجْمَاتُهُ بَعْدَ الرِّمَاحِ رِجَامٌ<sup>(٥)</sup>  
أَعَزُّ عَلَيَّ بِزَهْرَةٍ مَطْلُولَةٍ      أَمَسْتُ وَلَا غَيْرُ الضَّرِيحِ كِمَامٌ  
إِنْ رَاحَ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ فَطَالَمَا      هَجَرْتُ بِهِ أَرْوَاحَهَا الْأَجْسَامُ  
الْلَيْلُ بَعْدَكَ سَرَمَدٌ لَا يَنْقُضِي      فَكَأَنَّمَا سَاعَاتُهُ أَعْوَامٌ  
يَا حَامِلِينَ النَّعْشِ أَيْنَ جِيَادُهُ      يَا مُلْبِسِيهِ التُّرْبِ أَيْنَ اللَّامُ<sup>(٦)</sup>

وهو يقول ونفسه تتقطع على هذا الشهيد حسرات تلذع حرقها فؤاده لذعا: إنه يعزُّ

(١) المغرب ١١٩/٢.  
(٢) الصدى: جسد الإنسان بعد موته.  
(٣) بزة: شارة.  
(٤) الديوان ص ٢٦٣ والمغرب ٣٣٦/٢.  
(٥) أجمات جمع أجمة: الغابة والشجر الكثيف الملتف وهي مخبأ الأسد. الرجام جمع رجمة: الحجارة تنصب على القبر.  
(٦) اللام: الدروع.

عليه أن يصبح غيل هذا الأسد الضرغام وغابه الملتف حجارة ملقاة على قبره تندبه. ولقد كان زهرة غضة أرجة في عنفوان شبابه، فصهرها الموت، وأبدلها من كمام الزهر حيطان ضريحه. ويقول إن كان قصره أصبح مهجور الفناء فطالما هجرت به أجسام أعدائه أرواحها وسحق ضلوعهم سحقا ذريعا، ويخال كأن الدنيا أصبحت بعده ليلا داجيا لا ينقضى أبدا وطالت ساعات السهد والغم والضيق والحزن العميق، وكأنما يذهل عن موت هذا الشاب البطل الذي تعود أن يراه ممتطيا جواده ممتشقا حسامه لحرب الأعداء، فيتساءل أين جياده، ويعجب أن يلبسه ملحدوه التراب وعادته أن يلبس الدرع ولأمة الحرب لمنازلة الأعداء منازلة ضارية. ومن أروع المراثي الأندلسية مراثية على بن حزمون للبطل أبي الحملات قائد الأcente بلبنسية وقد استشهد في بعض معاركه الضارية مع النصرارى بعد أن أبلى بلاء عظيما، وجعل ابن حزمون مراثيته موشحة كأنما أراد أن تكون ندبا ونواحا على البطل الصريع، وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

فَصَا لِبَاسَ الزَّرْدِ	وَخَاضَ مَوْجَ الْفَيْلِقِ <sup>(٢)</sup>
وَلَمْ يَرْعُهُ عَدَدُ	ذَاكَ الْخَمِيسِ الْأَزْرَقِ <sup>(٣)</sup>
وَالْحَوْرُ تَلْتِمُ خَدَّ	أَدِيمِهِ الْمَمْرُقِ
وَكَانَ ذَاكَ الْأَسَدُ	فِي كُلِّ خَيْلٍ يَلْتَقِي
إِذَا رَأَى الْأَعْلَاجَ وَكَبَّرَا	ثُمَّ أَنْبَرَى يُمَاصِعُ <sup>(٤)</sup>
رَأَيْتَهُمْ كَالدَّجَاجِ مَنْفَرَا	وَسَطَ الْعَرَا الْوَاسِعِ

والموشحة من بحر الرجز وهو يقول إن البطل خلع عنه الدرع وخاض دماء الكتيبة الباسلة وسط موجها المتلاطم يتقدم الصفوف مدافعا ذاتا غير مكترث بأعداد النصرارى من الإيبان ولا برماهم تنوشه، وأخذ يمزقهم شرَّ ممزق حتى تكاثروا عليه فخرَّ صريعا، وحفت به الحور العين تزفه إلى الفردوس تقبله وتلتئم مواضع الطعنات في جسده. وكم كان هذا الأسد المغوار يقود الخيل العاديات إلى النصرارى يحققهم محقا، وكان إذا نازلهم فرَّوا في غير نظام كأنهم دجاج منفر، متناثرين في كل صوب فرعا وهلعا، وكأنما كان قفلا كبيرا لبلبنسية، يصد عن حماها العلوج النصرارى منزلا بهم صواعق الموت صاعقة من بعد صاعقة إلى أن استشهد مشتريا بجهاده الفردوس ورضوان ربه. وتلتقى بمحمد بن

(١) المغرب ٢/٢١٧.

(٢) الزرد: الدروع. الفيلق: الكتيبة.

(٤) يماصع: يجالذ بالسيف ونحوه.

(٣) الخميس: جيش الإيبان، ووصفه بالزرقة

عبد الله بن أبي القاسم يرثى عالم العربية ابن الفخار الغرناطى قائلا<sup>(١)</sup> :

قَضَى مِنْ بَنِي الْفَخَّارِ أَفْضَلَ مَا جِدَّ      جَمِيلُ الْمَسَاعِي لِلْعَلَاءِ جِدُّ شَائِدٍ<sup>(٢)</sup>  
أَمْوَالِي مَنْ لِّلْمَشْكَلاتِ بَيْنُهَا      فَتَجَلُّوْ عَمَى كُلِّ الْقُلُوبِ الشَّوَاهِدِ  
وَمَنْ ذَا يَحُلُّ الْمُقْفَلاتِ صِعَابِهَا      وَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِي السَّبِيلَ لِحَائِدِ<sup>(٣)</sup>

وهو يصف أستاذه ابن الفخار بجده في السعى للمعالى وحله لمشكلات النحو ومغلقاته، ملحا في ذلك حتى تدلُّ وتستبين معيانتها وصعابها، وكلما دلل مسألة معية أو مشكلة صعبة أخذ يذلل مشاكل ومساائل أخرى أشد عسرا. ويقول أبو عبد الله اللوشى في رثاء سلطان غرناطة أبي الوليد إسماعيل بن فرج المتوفى لسنة ٧٢٥ للهجرة: <sup>(٤)</sup>

كَادَتْ نَجُومُ الْأَفْقِ تَسْقُطُ فِي الثَّرَى      لَمَّا شَكَتْ شَمْسُ الْعَلَاءِ أَوْلا  
لَا صَمَتَ إِلَّا وَهُوَ نَارٌ فِي الْحِشَا      لَا نُطِقَ إِلَّا مَا يَعُودُ عَوِيلا  
ضَاقتْ صَدُورُ الْخَلْقِ عَنِ أَنْفَاسِهِمْ      إِذْ ضَمَّ بَطْنُ الْأَرْضِ إِسْمَاعِيلا

وهو يببالغ بمبالغة مفرطة إذ يقول إن النجوم في السماء كادت تسقط في الثرى حين أفلتت شمس أميره إسماعيل، وإن الحزن عليه استحال نارا في الحشا واستحال كل نطق عويلا له وأنيبا وضقت الصدور عن أنفاسها لوعة وأسى.

واللون الثالث من ألوان رثاء الأفراد العزاء، وهو في أصله الصير على الموت في الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء إليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان، إذ الناس جميعا لا بد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء - وخاصة من أخذوا بحظ من الفلسفة - إلى التفكير في حقائق الحياة والموت والوجود والعدم، وثلثقى بابن شهيد وقد هدّه فالج أو شلل، وطال ألمه وتزايد سقمه، فنظم رثاء لنفسه، ومما قاله فيه متعزيا متقبلا للموت عن رضا: <sup>(٥)</sup>

يَقُولُونَ قَدْ أَوْدَى أَبُو عَامِرِ الْعَلَاءِ      أَقْبَلُوا فِقْدَمًا مَاتَ آبَاءُ عَامِرِ<sup>(٦)</sup>  
هُوَ الْمَوْتُ لَمْ يُصْرَفْ بِأَسْجَاعِ خَاطِبِ      بَلِغٌ وَلَمْ يُعْطَفْ بِأَنْفَاسِ شَاعِرِ  
وَلَمْ يَجْتَنَّبِ لِلْبَطْشِ مُهْجَةَ قَادِرِ      قَوِيٌّ وَلَا لِلضَّعْفِ مَهْجَةَ صَابِرِ

(١) الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص ٢١٢.

(٤) الكتيبة الكامنة ص ١٧٦.

(٥) الديوان ص ١١٣ والذخيرة ٣٣٢/١.

(٢) قضى: مات. شائد: بان.

(٦) أودى: مات. أقبلوا: لا تتكلموا.

(٣) حائد هنا: ضال.



يَحُلُّ عُرَى الْجَبَّارِ فِي دَارِ مُلْكِهِ وَيَهْفُو بِنَفْسِ الشَّارِبِ الْمَتْسَاكِرِ<sup>(١)</sup>

وهو يقول لمن سيبكونه من إخوانه: لا تبكوا ولا تقولوا مات، فالناس - مثل آبائه - جميعا يرحلون عن دنياهم. إنه كأس الموت لا بد للجميع من احتسائه، ولا يستطيع شيء أن ينحيه عن الناس لا أسجاع خطيب ولا أنفاس شاعر، ولا يفلت من شبابه قوى ولا ضعيف، ولا ملك جبار ولا أحد سكران أو غير سكران. ويقول جعفر حفيد مكى بن أبى طالب المقرئ المشهور فى رثاء عبد الملك بن سراج عالم العربية المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة<sup>(٢)</sup>:

الْمَوْتُ حَتْمٌ وَالنَّفُوسُ وَدَائِعُ      وَالعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنَى تَضَلِيلٌ  
لَا يَعْصِمُ الْعَصَاءَ مِنْهُ شَاهِقٌ      صَعْبٌ وَلَا الْوَرْدُ السَّبْتَى غَيْلٌ<sup>(٣)</sup>  
يَهْوَى الْفَتَى طَوْلَ الْبِقَاءِ مَوْمِلًا      وَلَهُ رَحِيلٌ لَيْسَ عَنْهُ قُفُولٌ  
يَلْهُو وَيَلْعَبُ مَطْمِئِنًا ذَاهِلًا      وَلَهُ رَسِيمٌ نَحْوَهُ وَذَمِيلٌ<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إن الموت حتم لا مفر منه، وما النفوس إلا ودائع له يسترجعها واحدة فى إثر أخرى، وما الحياة إلا برهة قصيرة كبرهة النوم، وما المنى إلا خُدَعٌ يضل بها الإنسان نفسه، ولن ينجو منه أحد لا العقاب المعتصم بجبل شاهق ولا الأسد القوى الجرىء فى غيله أو غابه، وإن الفتى ليهوى طول البقاء مؤملا آمالا كبارا غير مفكر فى رحلته الكبرى التى ليس منها قفول ولا رجوع. وإنه ليلعب ويلهو مطمئنا ذاهلا عن حركته المستمرة بين عدو وإبطاء نحو الموت. واغتيل بإشبيلية ذات ليلة شاب من شبابها المأمولين يسمى محمد بن اليناقى كان من المعجبين بالأعمى التطيلى وشعره، وكان يكتر من الافتقاد له، فحزَّ فى نفسه اغتياله ونظم نونية بديعة يعزى بها أخاه أبا الحسن، استهلها على هذه الشاكلة<sup>(٥)</sup>:

خَذَا حَدَّثَانِي عَنْ قُلٍّ وَفَلَانٍ      لِعَلِيٍّ أَرَى بَاقِيَّ عَلَى الْحَدَّثَانِ<sup>(٦)</sup>  
وَعَنْ دَوْلٍ - جُسْنِ الدِّيَارِ - وَأَهْلِهَا      فَنِينٌ، وَصَرَفُ الدَّهْرِ لَيْسَ بِفَانٍ<sup>(٧)</sup>

السريع.

(٥) الديوان ص ٢٢٤.

(٦) الحدثان: الليل والنهار.

(٧) جُسْنٌ: وَطْنٌ. صرف الدهر: أحداثه ونوائبه.

(١) المتساكر: متعاطى السكر والتظاهر به.

(٢) الذخيرة ١/٨١٤.

(٣) العصاء هنا: العقاب. شاهق: جبل سامق

الورد السبتي: الأسد الجرىء.

(٤) رسيم: عدو سريع. ذميل: سير دون

وعن هَرَمَى مصر - الغداة - أُمَّتًا بشرخ شبابٍ أم هما هَرِمَانِ  
 فالناس والدول جميعا لا يبقى منهم باق على الزمان، فالكل يفنى ولا تفنى كوارث  
 الدهر ومصائبه. ويتساءل عن الهرمين الباقيين بمصر هل مُتعا بشباب حى ناضر أو هما نشأ  
 هرمين عجوزين لم يعرفا شبابا ولا متاعا بالحياة، ويقول إن كل شيء - حتى في  
 الكواكب - إلى فراق، ويعود بالذكرى إلى أعزاء العرب في الجاهلية الذين طحتهم  
 الحروب، ثم يقول:

فذلّت رقابٌ من رجالٍ أعرّةٍ	إليهم تناهى عزُّ كلِّ مكان
وأى قبيلٍ لم يصدع جميعهم	يبكر من الأرزاء أو بعوان <sup>(١)</sup>
ونبهنى ناع مع الصبح كلما	تشاغلْتُ عنه عن لى وعنانى
أغمض أجفانى كأنى نائم	وقد لجت الأحشاء فى الخفقان
أقول كأنى لست أحفل وانبرت	دموعى فأبدت ما يُجنُّ جنانى <sup>(٢)</sup>

فكل أعزاء العرب واراهم التراب، وكل قبائلهم تصدعت بأرزاء لا مثل لها  
 أو مكررة أو معادة، ويقول إنه حين سمع نعى هذا الشاب كان يتشاغل عنه أملا فى أن  
 يكون غلطا وكان ما يلبث أن يترأى له، وهو بين الظن واليقين وأحشاؤه تخفق، ويحاول  
 أن يكتم حزنه، غير أن دموعه انهملت فأظهرت ما يستره جناحه من الهم والغم والحزن.  
 ويقول ابن الزقاق معزيا<sup>(٣)</sup>:

هُوَ الْقَدْرُ الْمَحْتومُ إن جاء مُقَدِّمًا	فلا الغابُ محروسٌ ولا اللَّيْتُ وَائِبُ
تساقُ أَيْبَاتُ النّفوسِ ذليلاً	إليه وتنقاد القرومُ المصاعب <sup>(٤)</sup>
وما الناسُ إلا خائضو غمرة الردى	فطافٍ على ظهْرِ الترابِ وراسبُ

وهو يقول إن الموت قدر حتمى للإنسان، ولذلك حين ينزل به لا يستطيع أن يرده  
 غيل ولا أسد متأهب للنزال، وإن الناس جميعا سادة وغير سادة ليساقون إلى وِرده،  
 ويخال ابن الزقاق كأن الناس جميعا يخوضون ماء غمرا، فطافٍ منهم لا بد أن ينشب الموت  
 فيه أظفاره، وراسب سبق صاحبه إلى قاع الموت وقراره. ويقول ابن خفاجة فى صديق  
 مات شابا متعزيا<sup>(٥)</sup>:

(٤) القروم المصاعب: السادة العظام.

(٥) الديوان ص ٢١٧.

(١) بكر: لم تسبق. عوان: مكررة.

(٢) الجنان: القلب والعقل.

(٣) الديوان ص ١٠٩.

إذا ارتجعتْ أَيْدَى اللَّيَالِي هِبَاتِهَا      فغَايَةُ هَاتِيكَ الْهِبَاتِ نِهَابُ  
تَحَبُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ      مَطَايَا إِلَى دَارِ الْبَلَى وَرِكَابُ<sup>(١)</sup>  
وَهَلْ مُهْجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ      تَحَوُّمٌ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عُقَابُ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن الليالي إذا أعادت إلينا هبة سرعان ما تستردها، وكأننا غافلون، فتلك مطايا الموت تعدو بنا في كل يوم مسرعة إلى دار الفناء، وما أشبه روح الإنسان بطريذة صيد تحوم عليها عقبان الموت ونسوره. ويقول أبو الحسن سهل بن مالك راثيا ومعزيا في ابن رشد فيلسوف الأندلس المشهور<sup>(٣)</sup>:

مَضَى عِلْمُ الْعِلْمِ الَّذِي بَيَّنَّهُ      تَبَيَّنَ خَافِيَهُ وَبَانَ طَرِيقُهُ  
رَجوعًا إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَحَقُّهُ      عَلَيْنَا قَضَى أَنْ لَا تُؤَدِّي حَقُّوقَهُ  
أَعَزَّيْكُمْ فِي الْبُعْدِ عَنْهُ فَإِنِّي      أَهْنِيهِ قُرْبًا مِنْ جِوَارِ يَرْوِقُهُ  
وَمَا كَانَ فِينَا مِنْهُ إِلَّا مَكَانُهُ      وَفِي الْعَالَمِ الْعُلُوتَى كَانَ رَفِيقُهُ

وهو يقول إن علم العلم الذي طالما أوضح خفياته ودلّل مشكلاته مات، وليس أمامنا إلا الصبر على هذه الفجيرة الموحجة: الصبر الجميل الذي دعا إليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وإن التمسك بعمرى هذا الصبر وحقوقه ليحول بيننا وبين أن تؤدى لهذا العالم العظيم ما ينبغى من العويل والبكاء. ويقول لرفاقه من تلاميذ ابن رشد: إذا كنت أعزىكم فيه فإنى أهنته بالجوار الذى يروقه، جوار الملائكة المصطفين الأخيار، وهل كان معنا منه إلا مكانه وجسده، أما روحه فكانت فى العالم الأعلى الذى صعدت إليه. ويقول ابن زمرى فى رثاء سلطان غرناطة الغنى بالله صفيّه وخليله حين توفى لسنة ٧٩٣ معزيا ابنه وخليفته يوسف<sup>(٤)</sup>

عزَاءً أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهَا      مَقَادِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ فِي الْخَلْقِ يُجْرِبُهَا  
هُوَ الْمَوْتُ وَرَدُّ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا      أَوْآخِرُهَا تَقْفُو سَبِيلَ أَوْلِيَّهَا<sup>(٥)</sup>  
وَمَا بَيْنَنَا حَتَّى وَمَا بَيْنَ آدَمَ      أَلَا هَكَذَا سَوَى الْبَرِيَّةِ بَارِيهَا  
وَفِي مَوْتِ خَيْرِ الْخَلْقِ أَكْبَرُ أَسْوَةٍ      تَصْبُرُ أَحْرَارَ النُّفُوسِ وَتُسَلِّبُهَا

(١) تحب: تعدو. ركاب: مطايا معدة للركوب.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) اختصار القدر المعلل ص ٦٣.

(٤) أزهار الرياض ١٥٥/٢.

(٥) تقفو: تتبع.

وهو يعزى ابن الغنى بالله بأن الله قَدَّر الموت على المخلوق جميعا، فالكل لا بد أن يردوا حياضه، يتبع الآخر الأول منذ آدم إلى اليوم، وقد مات رسول الله خير البرية، وفي ذلك أكبر عزاء لك عزاء لا يماثله عزاء. وأن أن نخص محمد بن سوار، وبالمثل ابن وهبون، بكلمة موجزة.

### محمد<sup>(١)</sup> بن سوار

هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني، ولد ونشأ في أشبونة بغربي الأندلس، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته وتعلمه غير أن ابن بسام يقول إنه نظم عدة قصائد في أمراء الطوائف قالها فيهم «تجيباً لا تكسبا، وعمر مجالسهم بها وفاء لا استجداء» مما يدل على أنه نشأ في يسار ونعمة أغنته في شبابه عن التكسب بأشعاره. ويستمر ابن بسام قائلاً إنه بعد أن خلع ابن تاشفين أمراء الطوائف لسنتي ٤٨٣، ٤٨٤ حالت بابن سوار الحال وتوزعه الإديبار والإقبال، إلى أن وقع في أسر النصراني وسجن بقورية على أحد فروع نهر تاجه غربي طليطلة، وظل يستغيث بمن يفتديه وينقذه من هذا الأسر وعذابه ولا مغيث إلى أن سمع باستغاثته على بن القاسم بن عشرة قاضي سلا في المغرب على المحيط، فأغاثه وافتداه، ورُدَّت إليه حرته بعد عام طويل من الأسر والعذاب، وعبر إليه الزقاق، فأظله برعايته وأسبغ عليه من نواله العَمْر على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وظل الشاعر يديج فيه المدائح، وكان القاضي من المقربين ليوسف بن تاشفين، ونظن ظنا أنه وصل ابن سوار به، إذ نراه حين توفي ابن تاشفين في المحرم سنة ٥٠٠ للهجرة ينشد مرثية على قبره، قائلاً:

دِينِ الذِي بِنْفُوسِنَا نَفْدِيهِ  
لَمْ تَرَضْ فِيهَا غَيْرَ مَا يُرْضِيهِ  
تُرْدِي عَدِيدَ الرُّومِ أَوْ تُفْنِيهِ<sup>(٢)</sup>  
حَكَمَ الْقَضَاءُ بِكُلِّ مَا تَقْضِيهِ  
فِي كُلِّ مَا تُخْفِيهِ أَوْ تُبْدِيهِ

اسْمِعْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرَ الْ  
جُوزِيَّتِ خَيْرًا عَنِ رَعِيَّتِكَ الَّتِي  
فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ مَبْرُورَةٌ  
تَصُلُّ الْجِهَادَ إِلَى الْجِهَادِ مَوْفَقًا  
مُتَوَاضِعًا لِلَّهِ مُظْهِرًا دِينِهِ

(١) أسرة بني عشرة للدكتور محمد بن شريفة: فصلة من مجلة تطوان، العدد العاشر سنة ١٩٦٥.  
(٢) تردى: تهلك.

(١) انظر في محمد بن سوار وترجمته وشعره الذخيرة ٨١١/٢ والمغرب ٤١١/١ والمحمدون من الشعراء للقفطي ٣٥٩ والوفاي ١٤٣/٣ وراجع

وهو يشيد بآبن تاشفين صاحب موقعة الزلاقة التي أجلت استرداد الإيبان للأندلس العربية مئات السنين. ويقول إنه ناصر الدين الذي يفديه كل مسلم بروحه ودمه، ويدعو الله أن يجزيه خير الجزاء عما بذل لرعيته في جهاده المستميت للإيبان وغزواته المتعاقبة واصلا الجهاد بالجهاد، إعلاء لكلمة الله في تواضع حميد. ويتوفى القاضي على بن القاسم بعد آبن تاشفين بعامين، فيقول فيه من مرثية طويلة:

العيشُ بعدك ياعلئُ نكالُ      لا شيءَ منه سوى العناء يُنالُ  
ياعصمةَ الفقراءِ بل يامالهم      هيهات ما للناسِ بعدك مالُ  
قد كنتَ آمالي التي أنا طالبُ      جهدي ومثَّ فماتتِ الآمالُ  
لا الظلُّ ظلُّ بعد فقدك ياأبا      حسنٍ ولا الماءُ الزلالُ زلالُ

وهو يقول إن العيش بعد ابن عشرة نكال وعقاب وعناء وعذاب، ويسميه عصمة الفقراء بما كان ينثر عليهم من أمواله، كما يقول إن آماله ماتت بموت ابن عشرة. ولم يعد الظل ظلا باردا بل أصبح يحموما، ولم يعد الماء الزلال زلالا عذبا، بل أصبح مرا لا يُساغ. وخلف القاضي في القضاء ابنه أبو العباس أحمد، فرعاه ووالى عليه نواله، ووالى ابن سوار له مديحه. وينشد ابن بسام له قطعة من مرثيته في صبي يسمى محمدا لعله كان ابنا لأبي العباس، كما ينشد له أبياتا في رثاء قاضيين، وربما كانا من بني عشرة. ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على موهبته الشعرية الخصبية..

ابن<sup>(١)</sup> وهبون

هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون، مولده ومنشؤه بمرسية على البحر المتوسط، وهي من بنيان الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانوا يسمونها بستان شرقى الأندلس، واشتهرت بما كان يصنع فيها من أصناف الحرير والديباج. وكانت بها حركة علمية وأدبية نشطة، ويكفى أن تكون هي التي أنتجت ابن سيده أكبر لغوى أندلسي صاحب المخصص والمحكم المتوفى سنة ٤٥٨ للهجرة وكان مع إتقانه للعربية متوفرا على علوم الحكمة والفلسفة، وأكبر الظن أن ابن وهبون تتلمذ له، وقد يكون هو الذي دفعه للقراءة في كتب

للمراكشي ١٥٩ وفوات الوفيات لابن شاعر  
٥١٣/١

(١) انظر في ابن وهبون وترجمته وشعره الذخيرة  
٤٧٣/٢ والقلائد ص ٢٤٢ والمغزيدة ٩٥/٢  
والمطرب ١١٨ وبغية الملتبس رقم ١١٠١ والمعجب

الفلسفة. وكانت شهرة المعتمد بن عباد قد طبقت الآفاق برعايته للشعراء، ونراه يفد على إشبيلية يريد أن يحظى بشيء من هذه الرعاية، ويلزم الأعلام الشنتمرى ويختلف إلى حلقته، ويعجب به ابن وهبون، وكان فيه - مثل ابن سيده - نزوع إلى الفلسفة، فلعله أيضا كان من أسباب اهتمامه بها. وقدّم الأعلام قصيدة له إلى المعتمد بن عباد فطار بها وزيره ابن عمار، ووصله بالمعتمد، وأعجب به بدوره، فقصره على هواه، ولم يرحل إلى أمير من أمراء الطوائف سواه، وظل عنده إلا أياما كان يرحل فيها كل سنة إلى مرسية مسقط رأسه يتعهد فيها أهله، حتى إذا استنزل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين المعتمد من عرش إمارته ونفاه إلى أغمات خرج من إشبيلية متجها إلى مرسية، وبالقرب منها سنة ٤٨٤ للهجرة لقي قطعة من خيل النصارى فاشتبك معهم، وكُتبت له - على أيديهم - الشهادة. ويتميز شعره بمسحة التأمل والبعد في الفكر والعمق فيه بتأثير قراءاته الفلسفية، وتوفي أستاذه الأعلام الشنتمرى سنة ٤٧٦ فبكاها بمرثية حارة استهلها بتأملات عميقة في الحياة والموت منشدا:

نَفْسِي وَجِسْمِي إِنْ وَصَفْتُهُمَا مَعَا	أَلْ يَذُوبُ وَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ <sup>(١)</sup>
لَوْ تَعَلَّمَ الْأَجْبَالُ كَيْفَ مَالُهَا	عِلْمِي لَمَا امْتَسَكَتْ لَهَا أَرْجَاءُ
إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يَرَادُ بِنَا فَلِمَ	تَعَيَا الْقُلُوبُ وَتَغْلَبُ الْأَهْوَاءُ
طَيَّفُ الْمَنِيَا فِي أَسَالِبِ الْمُنَى	وَعَلَى طَرِيقِ الصَّحَّةِ الْأَدْوَاءُ

وهو يقول ما الحياة؟ إن نفوسنا فيها سراب يذوب وأجسامنا صخرات ملساء لا تلبث أن تمسها يد الفناء، وحتى صخرات الجبال لو علمت - بقيقة أنها لا بد أن تتداعى يوما لما تماسكت لها أرجاء، ويقول إنا نعلم مصيرنا إلى الموت والفناء فلم نكلف قلوبنا ما تعيا به وتشقى؟ ولم تغلبنا الأهواء والشهوات؟، وتلك أطياف الموت وأشباهه تترأى لنا فيها نحاول ونحقق من أماني، وتلك الأدواء والأمراض كأنها تنتظر الأصحاء. ويستمر في إنشاده:

ماذا على ابن الموت من إبطاره	ولقائه هل عقت الأبناء
لم ينكر الإنسان ما هو ثابت	في طبعه لو صحت الآراء
دنف ييكي للصحيح وإنما	أمواتنا - لو تشعُر - الأحياء
ما النفس إلا شعلة سقطت إلى	حيث استقل بها الثرى والماء

حتى إذا خلصت تعود كما بدت ومن الخلاص مشقة وعناء

وهو يقول إن الإنسان ابن الموت فلماذا يفزع من لقائه؟ أهو ابن عاق لأبيه؟ ولماذا يتنكر الإنسان لما هو ثابت في كيانه؟ ولو أنصف الأحياء لعرفوا أنهم مرضى مرضا ثقيلا يُشفى بهم على الموت، وكأنهم هم الخليقون بالبكاء لهم، وفيهم إذن سيكون على من لبوا نداء الموت المستكن فيهم؟ إنهم الأموات الحقيقيون الجديرون بالبكاء عليهم. وما النفس إلا شعلة هببت - كما يقول ابن سينا - من العالم العلوي إلى الجسد أو بعبارة أخرى إلى التراب والماء، وما الموت إلا خلاص لها من هذا الأسر الطويل، ورب خلاص فيه مشقة وعناء. ومضى ابن وهبون بعد هذا العزاء يقول بأن ليس في الدنيا بقاء وأن الكل إلى فناء، مؤبنا الأعلم الشنتمرى أستاذه تأيينا رائعا، وهو - بحق - من شعراء الأندلس المبدعين.

### (ب) رثاء الدول

هذا اللون من رثاء الدول قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، إذ نجد الأسود بن يعفر يرثى دولة آل محرّق في الحيرة وحضارتهم وما شادوا من قصور الخورنق والسدير وسنداد، حيث كانوا يعيشون في ظل ملك ثابت ونعيم رافه، فزال ذلك كله، وأصبح باليا مندثرا. وحين قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاهها الشاعر أبو العباس الأعمى المكي طويلا. وسينية البحترى في إيوان كسرى حين زار أطلاله مشهورة إذ خلبت لبه نقوشه وما على حيظانه من تصاوير، فوصفه وصفا بديعا، وبكى في تضاعيف وصفه دولة الفرس ومجدها الحضارى. وحين أقنع فقهاء الأندلس يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة المشهورة بأن عليه واجبا أن ينقذ الأندلس من أمراء الطوائف بها المتعادين المتحاربين المفضين في حياتهم إلى اللهو والقصف متناسين مسؤولياتهم إزاء نصارى الشمال لبأهم مقتنعا بأنه يجب أن تجتمع الأندلس تحت لواء واحد، حتى تستطيع مدنها الصمود أمام نصارى الشمال، بل حتى تديقهم وبال غاراتهم في مواقع لا تقل عنفا عن موقعة الزلاقة. حينئذ رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد من القضاء على حكم هؤلاء الأمراء بالأندلس وعبر الزقاق إليها سنة ٤٨٣ وبدأ الجيش بغرناطة ثم بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فقاوم قليلا ولم تغنه مقاومته، واستسلم، ونفاه ابن تاشفين إلى أغات بقرب مراکش وكانت قرطبة تتبعه وعليها ابنه المأمون، وقاوم المرابطين وقتل، واستولى المرابطون على المدينة، كما استولوا على قلعة رندة من يد يزيد الراضى بعد أن لقي

مصر أخيه المأمون. واستولى المرابطون على بقية مدن الأندلس ما عدا سرقسطة إذ رأى ابن تاشفين أن تُترك لأمرائها البواسل الذين ينازلون مجاورهم من نصارى الشمال وينكّلون بهم. وأبى أمير بطليوس المتوكل عمر بن المظفر تسليم مدينته للمرابطين، وحاربهم ودارت عليه الدوائر فقتل من دونها هو وولدان له، وكان مثل المعتمد بن عباد أديبا كاتباً شاعراً، وأحالا مدينتيهما: إشبيلية وبتليوس إلى كعبة للقصاد من الأدباء والشعراء وقبلة لآمالها، فاجتمع عندهما من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء الطوائف، وبذلك أعادا سيرة سيف الدولة في حلب والرشيد في بغداد، وكتب للمعتمد أن يعيش بضع سنين، فبكى دولته، وأهم شاعر بكأها مثله ابن اللبانة، وحرى أن نخص كلا منها بكلمة، وبالمثل بكى ابن عبدون شاعر المتوكل دولته ببطليوس، وسنخسه مثلها بكلمة موجزة.

### المعتمد<sup>(١)</sup> بن عباد

هو المعتمد محمد بن المعتضد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمي أمير الحيرة في الجاهلية رُزق به المعتضد سنة ٤٣١ ونشأ في الحلية والزينة والترف، وكان المعتضد أديبا مثقفا، فكان طبيعيا أن يعنى بتربيته وأن يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء، وشبّ وتفتحت ملكته الشعرية. ورأى أبوه وهو لا يزال في بواكير شبابه أن يعهد إليه بحكم شلب في الجنوب الغربي للأندلس وكانت تتبعه، ونزل المعتمد فيها بقصر الإمارة المسمى بقصر الشراييب، وتعرّف عليه سريعا ابن عمار الشلبي، وكان شابا مثله وفيه مجون، فأغواه وأغراه بالخمير والمجون والسباع، وترامت إلى أبيه أبناء لهوه، فاستدعاه في نحو العشرين من عمره إلى إشبيلية، وأخذ يدربه على الحكم. وتصادف أن تعرّف سريعا على فتاة تسمى اعتماد مولاة لرُميك من أهل إشبيلية، فاستهوته بجمالها وبداهتها الشعرية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع، فاقترن بها، وهى أم أبنائه، وله فيها كثير من أشعاره، وكان أبوه قد استطاع أن يستولى بجانب شلب على مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة على زقاق جبل طارق وقرمونة في الشمال الشرقي لإشبيلية ولبلة وباجة في غربيها، وطمح إلى الاستيلاء على مالقة سنة ٤٥٩ من يد باديس

١٠٨/٢ وما بعدها وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٢٥٧/٣ والوافي ١٨٣/٣ وابن خلكان ٢١/٥ وما بعدها. وديوانه نشره بالقاهرة الدكتوران: أحمد بدوى وحامد عبد المجيد.

(١) انظر فى المعتمد بن عباد وترجمته وأشعاره الذخيرة ٤١/٢ وما بعدها والقلائد ٤٠ والحلة السيرة ٥٢/٢ والخريدة للعماد الأصبهاني ٢٥/٢ والمعجب ١٥٨ والمطرب ١٤ وما بعدها والإحاطة



الزيرى الصنهاجى أمير غرناطة، وأرسل إليها جيشا بقيادة المعتمد فاستولى عليها سريعا، وغرّه ذلك فأفضى إلى هوه وخمره، وأرسل باديس إليه جيشا باغته وتشتت جيشه وعاد إلى إشبيلية مدحورا. وتوفى المعتمد سنة ٤٦١ فأمسك المعتمد بزمام الحكم، وجاءه ابن عمار فاستوزره واستطاع الاستيلاء على قرطبة فى العام التالى لحكمه. وأخذ يكثر مع ابن عمار من مجالس الأناس ولياليه، كما أخذ يكثر من الإغداق على الشعراء فاجتمع ببابه منهم كثيرون عنى ابن بسام فى الذخيرة بالترجمة لغير شاعر منهم. وبينما كان يغاور جيرانه من أمراء الطوائف المسلمين أبناء دينه كان يسالم ألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدى إليه الجزية صاغرا كل عام، وحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته. وكان ضغط النصارى يشتد أيضا على المتوكل صاحب بطليوس فى الغرب وعلى أمير غرناطة عبد الله بن بلقين، فأجمع أمرهم - مع الفقهاء - على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ولبأهم وكُتب لهم معه النصر المؤزر فى الزلاقة، وعاد يوسف إلى بلاده، وعاد المعتمد وغيره من أمراء الطوائف إلى اللهو والقصف والانغماس فى اللذات، فاستغاث الفقهاء وأهل الأندلس بآبن تاشفين ثانية كى يخلص الأندلس من حكم هؤلاء الأمراء الذين مزقوها فى يد كل منهم مِرْقة مع ما يستنزفونه من طبيباتها فى الخمر والمجون. وعبر يوسف الزقاق، واستسلم سريعا أمير غرناطة، أما المعتمد فأبى الاستسلام وطلب من ألفونس السادس المهزوم فى الزلاقة النجدة ضد آبن تاشفين والمرابطين. وكان ذلك جُرْمًا فظيعا وخطئا كبيرا لا يحق له بعده أن يظل أميرا فى موطنه، وقاوم ولم تنفعه مقاومته فاستسلم، وأمر آبن تاشفين بنفيه مع أهله إلى المغرب، فنقلوا بالسفن من إشبيلية إلى طنجة، ومنها إلى مدينة مكناس، وأخيرا إلى أغمات بالقرب من مدينة مراكش، وظل بها مع أسرته، وفيها توفيت زوجته اعتقاد الرميكية، ولم يلبث أن توفى سنة ٤٨٨ للهجرة بعد نحو أربع سنوات قضاها فى منفاه. وطبيعى لشاعر مثله أن يبكى إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياة مرفهة، واسمه ملء الأذان فى الأندلس، والشعراء يغدون عليه ويروحون بفرائد من أمداهم، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلة. وكل ذلك أحمى وزال، وكأنه كان حلما واستيقظ منه على اليأس والبؤس، ويبكى ويظل يبكى ويذرف الدمع مدرارا، منشدا:

غريبٌ	بأرضِ	المَغْرِبِيِّنَ	أَسِيرٌ	سَبَّيْكِي	عليه	مِنْبَرٌ	وسريرٌ
وتندبهُ	البَيْضُ	الصَّوَارِمُ	والقَنَا	وينهلُ	دمعُ	بينهنَّ	غَزِيرٌ
فياليت	شِعْرِي	هل	أَبَيْتَنَ	أمامي	وخَلْفِي	رَوْضَةٌ	وغديرٌ

بِمُنْبِتَةِ الزَّيْتُونِ مَوْثَةِ الْعُلَا      تَغْنَى قِيَانٌ أَوْ تَرَنَّ طَيُورٌ  
بَزَاهِرِهَا السَّامَى الذَّرَى جَادَهُ الْحَيَا      تُشِيرُ الثَّرِيَا نَحُونَا وَنُشِيرُ

لقد أصبح غريبا وأسيرا منفيا في المغرب وإن منبر خطابته وعرش إمارته لبيكيانه وتبكي شجاعته السيوف والرماح، ويتقاطر دمع غزير، ويتساءل هل يمكن أن ينعم ليلة بما كان فيه من بساتين ورياض بإشبيلية بلدة الزيتون والعز والعللا والقيان المغنيات الجميلات والطيور الصادحات حول قصوره: الزاهر والثريا وغيرها مما تأتق في بنيانه. لقد تحولت كل هذه المباهج التي نعم بها المعتمد في إشبيلية إلى متاعس في أغمات، وحانت منه التفاتة فرأى قمرية تنوح بفننها وأمامها وكر أوعش به حمامتان، وكأنها تبكي أليها فقال:

بَكَتْ أَنْ رَأَتْ إِلْفَيْنَ ضَمَّهْمَا وَكُرُّ      مَسَاءً وَقَدْ أَخْنَى عَلَى إِلْفِهَا الدَّهْرُ  
بَكَتْ لَمْ تَرْقِ دَمْعًا وَأَسْبَلْتُ غَيْرَةَ      يُقْصِرُ عَنْهَا الْقَطْرُ مَهْمَا هَمَى الْقَطْرُ  
وَنَاحَتْ وَبَاحَتْ وَاسْتَرَا حَتْ بِسِرِّهَا      وَمَا نَطَقْتُ حَرْفًا يَبْسُوحُ بِهِ سِرُّ  
فَمَا لِي لَا أَبْكِي؟ أُمُّ الْقَلْبُ صَخْرَةٌ      وَكَمْ صَخْرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَجْرِي بِهَا نَهْرُ  
بَكَتْ وَاحِدًا لَمْ يُشْجِهَا غَيْرُ فَقْدِهِ      وَأَبْكِي لِأَلَا فِي عَيْدِهِمْ كُثْرُ

وهو يقول إن القمرية بكت حين رأت إلفين في وكر، بينما هي فقدت إلفها، فهي تبكيه بدمع مترقق في جفونها لا يبلغ تعبيره في الحزن والشجا القطر مها همى وسال. ويقول كأنما نواحها أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذي فقدته، ويخاطب نفسه لماذا لا أبكي؟ هل أنا صخرة؟ ومع ذلك فالصخر تتشقق منه - وتجري به - الأنهار والمياه الغزيرة، ولقد بكت واحدا شجاها وأحزنها فقده، وحرى بي أن أبكى الأفي وخِلاني الذين يخطئهم العد. وير به سرب قطا فيهبج وجده ويحرك شوقه، ويتمنى لو كان مثله حرا ينطلق كما شاء، ويدعو له منشدا:

أَلَا عَصَمَ اللَّهُ الْقَطَا فِي فِرَاخِهَا      فَإِنَّ فِرَاخِي خَانَهَا الْمَاءُ وَالظَّلُّ

فهو يدعو لكل قطة أن يعصمها الله في فراخها فلا تصاب بظما ولا بمسغبة ولا بعناء كما أصيب أولاده من بنين وبنات. وللمعتمد أشعار أخرى كثيرة تصور لوعته لفقده ملكه وحرقة فؤاده على فلذات كبده.

ابن اللبانة<sup>(١)</sup>

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي الداني، من دانية على البحر المتوسط، إحدى المدن الأندلسية التي كانت مليئة بالعلماء والكتاب والشعراء، وهو منسوب إلى أمه، وكانت امرأة صدق، تشتغل ببيع اللبن، حتى غلب اسمه عليها، ونُسب أولادها إليها، وعينت به وبتربيتها، فثقف الآداب العربية وفتحت ملكته الشعرية مبكرة، فتردد على أمراء الطوائف، وكلهم أعجبوا بشعره. واستقر أخيراً عند المعتمد بن عباد، إذ كان أكثرهم نوالاً، وظل عنده حتى استنزله ابن تاشفين من إمارته، وأخذ بعده ينتقل في البلاد، وزاره بأغيات في منفاه، وعاد إلى الأندلس، وألف كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» وتدل نقول ابن سعيد عنه أنه كان في أخبار الشعراء، وحاضر به في المريّة بجنوبي الأندلس على المتوسط - كما يقول ابن الأبار - سنة ٤٨٦ ولا ندرى هل عاد إلى زيارة المعتمد في أغيات أو لم يعد، غير أنه لما توفي رثاه رثاء حاراً. ونراه يلحق بناصر الدولة مبشر بن سليمان بميورقة، ويبدو أن كلا منها أهدى صاحبه خير ما عنده، أهداه ناصر الدولة الأموال وأهداه ابن اللبانة الأشعار والمدائح البديعة، وما زال ابن اللبانة يعيش في رعايته حتى توفي في الجزيرة سنة ٥٠٧. وضرب ابن اللبانة مثلاً رائعاً في الوفاء للمعتمد بن عباد، فقد بكى دولته مراراً وتكراراً، ومن أروع ما قاله من ذلك دالية، وهو يفتتحها على هذه الشاكلة:

على البهاليل من أبناء عبّاد<sup>(٢)</sup>  
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد<sup>(٣)</sup>  
أساود منهم فيها وآساد<sup>(٤)</sup>  
وقد حلت قبل حمص أرض بغداد<sup>(٥)</sup>  
في ضمّ رحلك واجمع فضلة الزاد  
خف القطين وجف الزرع بالوادي<sup>(٦)</sup>

تبكى السماء بدمع رانح غادي  
على الجبال التي هتدت قواعدها  
عريسة دخلتها النائبات على  
إن يُخلعوا فبنو العباس قد خلعوا  
ياضيف أفقر بيت المكرمات فخذ  
ويا مؤمل وادبهم لتسكنه

(٣) أوتاد: جبال.

(٤) أساود جمع أسود: الأفعى الكبير. العريسة:

غيل الأسد والآساد.

(٥) حمص: إشبيلية.

(٦) خف القطين: رحل السكان.

(١) انظر في ابن اللبانة وترجمته وشعره الذخيرة

٦٦٦/٣ والقلائد ٢٤٥ والمغرب ٤٠٩/٢ والمعجب

٢٠٨ والمطرب ١٧٨ والخريدة ١٠٧/٢ والتكلمة

رقم ٥١١ والفوات ٢٧/٤ والواق بالوفيات

٢٩٧/٤ وبغية الملتبس رقم ٢١٣.

(٢) رانح غادي: راجع ذاهب. البهاليل: السادة.

وهو يقول إن السماء تبكى بسحبها على السادة من بني عباد الذين كانت الأندلس ترسو بهم كما ترسو الأرض بالجبال وإن قصورهم بإشبيلية لغابة اقتحمتها الكوارث على أسد مفترسة وحيات ضخمة سامة. ويعزى ابن اللبانة نفسه وأهل إشبيلية بأن لهم أسوة في خلع آل عباد بن خلعا قبلهم من الخلفاء العباسيين. ويلتفت إلى من كانوا ينزلون بالمعتمد وآبائه طالبين القرى والضيافة، فيقول لهم إن بيت الكرم والجود أغلقت أبوابه، فاستعدوا للرحيل واجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا، ويقول لمن كانوا يأوون إلى ظلهم رحل السكان وجف الزرع بالوادى الذى كان خصبا مرعا. ويصور مشهد المعتمد وأهله، وقد هبطوا من قصورهم لركوب السفن في نهر إشبيلية الكبير متجهين إلى طنجة وقد تجمع أهلها يودعونهم، يقول:

نسيت إلا غداة النهر كونهم	فى المنشآت كأمواتٍ بالحداد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزياد <sup>(١)</sup>
حط القناع فلم تستر مخدرة	ومرقت أوجه تمزيق أبراد <sup>(٢)</sup>
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداةٍ ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يصحبها	كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمعٍ وكم حملت	تلك القطائع من قطعات أكباد <sup>(٣)</sup>

يقول إننى مها نسيت فلن أنس رحيل المعتمد وآله فى السفن، وكأنها مقابر نزلوها والناس قد ملأوا الشاطئين متعجبين لتلك اللآلى من النساء تطفو على الماء فوق زبده ولا ترسب فى القاع. ويقول إنهن سرن من قصورهن سافرات لحزنهن يلطنن ويخمشن وجوههن بأظافرهن لفجيعتهن. وضج الرجال والنساء على الشاطئين، وضج من فى السفن وضج المفدون الملوحدون لهم بأيديهم، وسارت السفن يصحبها الندب والنواح كما يصحب الحداء الإبل السائرة فى الصحراء، وكم سال فى ماء الوادى الكبير من دمعٍ وكم حملت تلك السفن من فلذات أكباد. والمرثية طويلة. ووفد ابن اللبانة على المعتمد فى أغيات - كما يقول ابن بسام - وفادة وفاء لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد، ويقول إنه مدحه للوفاء بأحسن مما مدحه به للعطاء، وبذلك ملأ قلوب العرب فى كل مكان - إلى اليوم - عطفًا على المعتمد. وكأنما غسل بدموعه عليه

(٣) القطائع مثل المنشآت: السفن.

(١) العبرين: الشاطئين.

(٢) المخدرة: السيدة ملازمة الخدر أو البيت.

سينات حكمه من أدائه الجزية للملك النصراني في الشمال ومحاربه لجيرانه من الأمراء المسلمين أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته كأنه يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلافة منذ سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة، إذ استنجد ضده بألفونس السادس عدو الإسلام والمسلمين. كل هذه السينات استطاع ابن اللبانة أن يحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه المتنازع على دولته. وكما كان ابن اللبانة شاعراً كبيراً كان وشاحاً كبيراً أيضاً، وله موشحات كثيرة مدح بها المعتمد بن عباد، وهو أحد أربعة من وشاحي الأندلس أدار عليهم ابن سناء الملك اختياراته من موشحات الأندلسيين في كتابه «دار الطراز»

### ابن عبدون<sup>(١)</sup>

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى اليابرى، من يابرة غربى بطليوس، عنى أبوه بتربيته، وطمحت نفسه إلى التلمذة على أعلام العربية من مثل الأعلام الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وعبد الملك بن سراج المتوفى سنة ٤٨٦ وأبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤. وفي الصلة لابن بشكوال أنه كان عالماً بالخبر والأثر ومعانى الحديث وأن الناس أخذوا عنه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن المظفر أمير بطليوس وكان كاتباً شاعراً مع شجاعة وفروسية، وكان مثل أبيه ملاذاً لأهل الأدب والشعر، وكانت إمارته تشمل مدن يابرة وشنترين وأشبونه إلى المحيط. وأعجب المتوكل بالشاعر الشاب الناشئ في إمارته، ونفاجاً بوفود الشاعر على المعتمد ومدحيه، ولم يجد لديه قبولاً لما كان بينه وبين المتوكل أمير بلده، فرجماً ظن أنه أرسله عينا عليه، ولو كان يعرفه ويعرف خلقه الكريم ما داخله هذا الظن. وعاد الشاعر من لدنه، فلم يفد بعد ذلك على أحد من أمراء الطوائف، واستغرقه المتوكل بنوالة وبجودته، إذ اتخذ جليسا ورفيقا له في زيارته لمدن إمارته، وأسبغ عليه من الود حللاً ضافية، جعلته يلهج بمدحيه ويقصر شعره عليه، حتى إذا غاضب المرابطين، وقتلهم وقتل هو وابناه: الفضل والعباس رثاه ورثى دولته برائية مشهورة سنعرض لها عما قليل. ونراه يعلن بعد ذلك في شعره أنه لن يقدمه إلى أمير، وكأنما مات

٤٠٧ والمطرب ص ١٨٠ والمعجب للمراكشى ص ١٢٨، ١٤١، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧ والفوات ١٩/٢ والنفع فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس).

(١) انظر فى ابن عبدون وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٨/٢ والقلائد ١٤٥ والمغرب ٣٧٤/١ والخريدة ١٠٣/٢ والصلة رقم ٨٣١ والتكملة:

الأمرء جميعا في شخص المتوكل ومات معهم المديح. ويقول صاحب المعجب إنه كان يكتب للمتوكل أمير بطليوس ثم يقول إنه كتب بعد ذلك للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين الذي ولى إشبيلية بعد استنزال المعتمد منها مدة طويلة، ويذكر له رسالة كتب بها عنه إلى سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين بفتح مدينة شنترين، ويقول المراكشي إن ابن عبدون كتب ليوسف بن تاشفين أولابنه لا يدري والصحيح أنه إنما كتب لابنه على بعد سير بن أبي بكر، ويؤكد ذلك قول المراكشي في موضع آخر: «لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرّف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك» ثم يعددهم ويذكر من بينهم أبا محمد عبد المجيد بن عبدون. ويبدو أنه ظل كاتباً عنده إلى آخر حياته إذ يقول صاحب الصلة إنه انصرف إلى يأبرة لزيارة من له بها، فتوفى فيها سنة ٥٢٩ للهجرة. ويشيد ابن بسام والفتح بن خاقان وكل من ترجوا له بأشعاره، وخاصة برائيته التي رثى فيها دولة المتوكل ببطلليوس وقد نالت شهرة واسعة مما جعل كثيرين ممن ترجوا له ينشدونها في ترجمته، وعنى بشرحها عبد الملك بن عبد الله الشلبي من أدباء القرن السابع الهجري فشرحها. ونشرها مع شرحها دوزي ثم طبعت مع الشرح بالقاهرة، وهو فيها يسوق العبرة بمن ماتوا واندثروا من عطاء الأمم وحكامها الكبار ودولها الغابرة وحيواناتها الفاتكة وطيورها الجارحة، يقول ابن بسام: «اقتفى فيها أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال في التأين والرثاء بالملوك الأعزة وبالوعول الممتنعة في قُللّ الجبال والأسود الخادرة<sup>(١)</sup> في الغياض وبالنسور والعقبان والحيات في طول الأعمار»<sup>(٢)</sup> وهو يستهلها بقوله:

فما البكاء على الأشباح والصُّور  
عن نومة بين ناب اللئث والظفر<sup>(٣)</sup>  
من الليالي وخانتها يدُ الغير<sup>(٤)</sup>  
منا جراح وإن زاغت عن النظر  
كالأيم تار إلى الجاني من الزهر<sup>(٥)</sup>

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثْرِ  
أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ - لَا أَلُوكَ مَوْعِظَةً -  
مَا لِيَّالِي أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا  
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ  
تَسْرُ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغْرَبَ بِهِ

(٣) لا ألوک موعظة: لا أقصر في وعظک.

(٤) أقال: تجاوز وصف. الغير: أحداث الدهر.

(٥) الأيم: الأفعى.

(١) الخادرة: الساكنة. الغياض جمع غيضة؛ الأجمة.

(٢) راجع الذخيرة ٨١٨/١.

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دائها يرسل فواجهه على المحسوس وما وراء المحسوس، فقيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحا وصورا. ويقول إنني لا أقصر في وعظك ونهيك عن الاستنامة إلى الدهر، وهو قد أنشبت فيك نابه وظفراه. ويدعو الله أن يُقيلنا وينقذنا من عثرات الليالي وأن يسلط عليها الأحداث حتى تنهكها ولا تبقى فيها بقية، إذ في كل حين تصيبنا في عضو منا عزيز علينا بجراح، منها ما نراه، ومنها ما يزيغ عن البصر، وإنما إن سرّت بشيء - وهيهات - فلكى تخدعنا به، بل لكى تلسعنا من خلاله اللسعة القاضية، كالأفعى المختبئة في الزهر تلسع يد قاطفه اللسعة السامة المميتة. ويأخذ في العظة بذكر من أبادتهم الليالي والأيام من الدول العظيمة منشدا:

كم دولةٍ وليتْ بالنَّصرِ خِدْمَتَهَا	لم تُبقِ منها - وسلِّ دُنْيَاكَ - من خَبْرِ
هَوْتِ بَدَارًا وَفَلَتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ	وَكَانَ عَضْبًا عَلَى الْأَمْلَاكِ ذَا أَثَرِ <sup>(١)</sup>
وَاسْتَرْجَعَتْ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبَتْ	وَلَمْ تَدْعُ لِبَنِي يُونَانَ مِنْ أَثَرِ
وَأَتَبَعَتْ أُخْتَهَا طَسْمًا وَعَادَ عَلَى	عَادٍ وَجُرَّهُمْ مِنْهَا نَاقِضُ الْمَرْرِ <sup>(٢)</sup>
وَمَزَّقَتْ سَبَأً فِي كُلِّ قَاصِيَةٍ	فَمَا التَّقَى رَائِحٌ مِنْهُمْ بِمَبْتَكِرِ <sup>(٣)</sup>

وهو يقول: دول كثيرة أتاحت لليالي لها الظفر والرفعة، ثم عادت فهوت بها من حائق، هوت بدارا ملك الفرس، فقتله الإسكندر المقدوني، ولم تلبث أن هدّت منه، وكان سيفا قاطعا ساطعا فتلّمته وحطّمته. وقد استرجعت من بنى ساسان ملوك الفرس كل ما وهبتهم من عز ومجد، ولم تدع لليونانيين شعب الإسكندر من أثر كأن لم يكونوا شيئا مذكورا. وبالمثل صنعت بقبيلتي طسم وأختها جديس في اليبامة، وكرّ الدهر على عاد وجرحهم نكباته حتى محاهما محوا، ومزقت الليالي سبأ كل ممزق، فتفرق أهلها في الأرض ولم يلتق منهم رائح بغاد مبكر. ويمضى ابن عبدون في الحديث عنم أهلكتهم الليالي من أعظم العرب في الجاهلية والإسلام مشيرا معهم إلى كثير من الأحداث في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي مما يدل بوضوح على اتساع ثقافته وكيف يتحول التاريخ إلى شعر وفن، ثم يخاطب المتوكل عمر وآباءه بنى المظفر أمراء بطليوس:

بنى المظفر والأيام ما برحتْ	مراحلاً والورى منها على سَفْرِ
سُحْقًا ليومكم يوماً ولا حملتْ	بمثله ليلةً في مُقْبِلِ العُمْرِ

(٣) مبتكر: مبكر في الذهاب ضد رائح: راجع.

(١) العضب: السيف القاطع. أثر: فرندوروتق.

(٢) المرر جمع مرة: القوة. ناقض المرر: الدهر.

مَنْ لِلأَسْرَةِ أَوْ مِنَ لِلأَعِنَّةِ أَوْ  
وَيَحَ السَّمَاحِ وَيُوحِ البَأْسَ لَوْ سَلَمَا  
مِنَ لِلأَسِنَّةِ يُهْدِيهَا إِلَى الثُّغْرِ<sup>(١)</sup>  
وَاحْسِرَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى عُمَرِ

وهو يقول لبني المظفر بعد أن عدد لهم ما أبادته الليالي من الدول والعطاء تلك هي الأيام مراحل، وما أشبه الناس فيها بقوافل راحلة إلى عالم الموت والفناء، ويقول: سحقا وبعدا لليوم الذي زالت فيه دولتكم ولا حملت بمثله ليلة تعسة من الليالي. ويبيكهم لعرش بطليوس وخيلها العادية وسيوفها الباترة، ويتوجع للسباح وللشجاعة، ويتحسر على ما خسر الدين من جهاد المتوكل للأعداء وخسرت الدنيا من مجده وأبهة إمارته. والمرثية تعد من فرائد الشعر الأندلسي، بل الشعر العربي بعامة، وبدون ريب يُعد ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين.

## ٤

## شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

## (أ) شعراء الزهد

الزهد من جوهر الدين الحنيف ومنذ عصر الرسول ﷺ تتألق أسماء زهاد كثيرين، زهدوا في متاع الحياة الدنيا، مؤثرين عليه ما عند الله من متاع الآخرة، مع وصلهم زهدهم بالعمل والكسب، حتى لا يعيشوا عالة على المجتمع. وتلقانا - على مر التاريخ - طوائف من هؤلاء الزهاد، وكثيرون منهم استحال زهدهم - على ألسنتهم - إلى مواظب وأشعار كثيرة. وشركهم في أشعارهم الزاهدة كثيرون من علماء التفسير والفقهاء والحديث النبوي وعلماء العربية، فضلا عن الشعراء الذين طالما حانت منهم التفاتات إلى مصيرهم وما ينتظرهم من الموت. ومن أجل ذلك كله أصبح الزهد غرضا كبيرا من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل بلد عربي، وتلقانا منه سيول كثيرة في الأندلس، ولن نستطيع أن نعرض منها إلا شيئا يسيرا وخاصة ما جاء على ألسنة الزهاد الحقيقيين الذين قصروا حياتهم - أو شطرا كبيرا منها - على النسك والعبادة. وأول من تذكره من هؤلاء الزهاد أبو وهب<sup>(٢)</sup> عبد الرحمن العباسي القرطبي المتوفى سنة ٣٤٤ لهدهد عبد الرحمن الناصر،

(١) الثغر: جمع ثغرة: أعلى الصدر. يريد: طعنه  
(٢) انظر في أبي وهب وترجمته وشعره المغرب  
بالأسننة صدور الأعداء. ٥٨/١ والتكملة ص ٧١٨ والنفع ٢٠٧/٣، ٢٢٦.



ويقول ابن بشكوال: كان منقطع القرين في الزهد والورع، ويذكر ابن سعيد أنه كان لا يكلم - ولا يجالس - أحدا، وكان أكثر دهره مفكرا وجهه على ركبته، ومن شعره:

أنا في حالتي - التي قد ترأني  
 منزلي حيث شئتُ من مُستقرِّ الـ  
 ليس لي كُسوَةٌ أخاف عليها  
 أجعلُ الساعدَ اليمينَ وسادي  
 إن تأملتَ - أحسنُ الناسِ حالا  
 أرضُ أُسقى من المياهِ زُلالا<sup>(١)</sup>  
 من مُغيرٍ ولا ترى لي مالا  
 ثم أئني - إذا انقلبتُ - الشَّمالا

وهو لا يملك منزلا يقيه البرد وينام فيه ليلا ولا ثوبا غير الثوب الذي يستر جسده ولا مالا يكتنزه، ويرى نفسه بذلك أسعد الناس لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه من مغير أو ناهب، وحسبه جرعات من ماء عذب، وإذا نام اتخذ يمينه وساده، فإن تعب ثنى الشمال وسادا. ويقول ابن سعيد: كان إذا أصبح ونظر إلى استيلاء النور على الظلمة رفع يديه إلى السماء قائلا: اللهم إنك أمرتنا بالدعاء إذا أسفرنا<sup>(٢)</sup>، فاستجب لنا كما وعدتنا، اللهم لا تسلط علينا في هذا اليوم من لا يراقب رضاك ولا سخطك، اللهم لا تشغلنا فيه بغيرك، اللهم لا تجعل رزقنا فيه على يد سواك، اللهم امح من قلوبنا الطمع في هذه الفانية كما محوت بهذا النور هذه الظلمة، اللهم إنا لا نعرف غيرك فنسأله، يا أرحم الراحمين، يا غياث من لا غياث له. ومن قوله:

تنامُ وقد أعدُّ لك السهادُ  
 وتُصبحُ مثل ما تُسمى مُضيعةً  
 أتطمعُ أن تفوزَ غداً هنيئاً  
 إذا فرطتُ في تقديمِ زرعٍ  
 وتوقنُ بالرحيلِ وليس زادُ  
 كأنك لست تدري ما المرادُ  
 ولم يكُ منك في الدنيا اجتهادُ  
 فكيف يكون من عدمٍ حصادُ

وهو يقول مخاطباً: كيف تنام وقد هُيئ لك سهاد، كي تعبد الله حق عبادته، وكيف توقن بأنك راحل عن دُنياك وأنت لم تهَيِّ لنفسك زاداً لرحلتك، وتصبح وتسمى لا تدري من أمرك شيئا فكيف تطمع في الفوز بقبول الله لك ورضاه عنك وأنت لم تؤد حقه من العبادة والنسك، وهل يمكن لشخص قَصْر في رعاية زرعه أن يحصد منه شيئا. وثلثي في عصر أمراء الطوائف بأبي إسحق الإلبيري، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره الطَّيْطَل<sup>(٣)</sup>

٧٩٧/٢ والجذوة ٢٩٤ والبلغية رقم ١٢١٢ والذليل  
 والتكملة لابن عبد الملك المراكشي القسم الأول  
 من الجزء الخامس ص ١٩٥.

(١) زلالا: عذبا.

(٢) أسفرنا: أصبحنا.

(٣) انظر في الطيطل وترجمته وشعره الذخيرة

على بن إسماعيل الفهرى القرشى الأشبوني، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى، قرأ العلم بقرطبة ودرس على طائفة من علمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشعراء المحسنين سمح القريحة، مشاركاً في الحديث والفقه، أمضى في ذلك صدرا من عمره، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم في معانيهما أشعارا رائقة وضروبا من الحكم تناقلها الناس وحفظوها عنه. واتخذ لنفسه رابطة<sup>(١)</sup> في رقعة من بستان له على بحيرة شقبان عُرفت برابطة الطيطل ولزم بها العبادة والنسك إلى أن توفى. ويقول ابن بسام: إن أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه، ويذكر إنه نظم الدرّ المفصل في الزهد، ومن نظمه:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ      فدَعُهُ لأخرى ينفتحُ لك بأبها  
فإنَّ جِرابَ البَطْنِ يكفيك ملوهُ      ويكفيك سَوَاتِ الأمور اجتنابُها<sup>(٢)</sup>  
ولاتك مِبْدالاً لِعَرْضِكَ واجتنبْ      ركوبَ المعاصي يَجْتَنِبُكَ عِقَابُها

وهو يوصى صاحبه بأن لا ييأس أبدا، فإذا سُدَّ عنه باب في الرزق فليتركه إلى باب آخر ينفتح له، وليكفه كفاف القوت فإن وعاء البطن حسبه أن يمتلئ، وما زاد عن ذلك لا يحتاجه الإنسان، وليغنه عن الأمور السيئة أن يجتنبها، حتى لا يعرض نفسه لعقاب، ولْيُصْنِ عرضه وشرفه ويجتنب المعاصي حتى لا تصيبه أى عقوبة. ويقول:

الموتُ يركبُك كلَّ حين      فكيف لم يَجْفُكَ المِهَادُ  
ما حالُ سَفَرٍ بغير زادٍ      والأرضُ قَفْرٌ ولا مَرادٍ<sup>(٣)</sup>  
فأبْنِ بها للتقى بُرُوجاً      تَأْمَنُ إذا رُوِّعَ العِبَادُ

وهو يقول إن جرس الموت يدق في كل حين، فكيف لا تُحْيى الليل بالعبادة، وإنك لراحل مسافر إلى ريك، وهل يستطيع مسافر أن يسافر بغير مئونة وزاد، إنه يكون أشبه بمن يسافر في صحراء مجدبة ولا مرعى ولا قوت، فاتخذِ التقى والورع عُدَّتَكَ تأمن حين يعصف بك الموت الذى لا بد منه للعباد. وله وصف دقيق للنملة يصور فيها خصرها الضامر، وكأنما آخرها قطرة من قطران أو حبر أسود، تحمل قوتها مدخرة له مهتدية في ظلمة الليل إلى خرق كتقب الإبرة، لا يسمع لها أحد حركة، مسبحة ربه، وسبحانه العالم وحده بتسبيحها.

(٣) مراد بفتح الميم: مرعى.

(١) الرابطة: بيت للعبادة.

(٢) الجراب: وعاء الزاد.

وولد في عصر الطوائف سنة ٤٤٠ بكار<sup>(١)</sup> بن داود الرواني، ولحق عصر المرابطين وعاش فيه فترة غير قصيرة، مولده في شنترة من بلدان أشبونة بغربي الأندلس، درس في قرطبة ثم استوطن أشبونة. ويروي ابن سعيد عن أبي عمرو بن الإمام صاحب سفظ اللآلي في أخبار شعراء عصره المتوفى بعد سنة ٥٥٠ أنه لقيه وكان غاية في الزهد مطرّحا لنفسه واستشهد في جهاد العدو، ويقول إنه استنشده من شعره فأنشده:

ثِقُّ بِالذِي سَوَّاكَ مِنْ عَدَمٍ فَإِنَّكَ مِنْ عَدَمٍ  
وَأَنْظُرُ لِنَفْسِكَ قَبْلَ قَرِّ عِ السَّنِّ مِنْ فَرَطِ النَّدَمِ  
وَاحْذَرْ - وَقِيْتُ - مِنَ الْوَرَى وَأَصْحَبَهُمْ أَعْمَى أَصَمِّ  
قَدْ كُنْتُ فِي تَيْهِ إِلَى أَنْ لَاحَ لِي أَهْدَى عَ لَمِّ  
فَاقْتَدْتُ نَحْوَ ضِيَائِهِ حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الظُّلَمِ

وهو يقول: ضع ثقتك في الله الذي سواك وخلقك من عدم، وفكر في نفسك وما ينبغي أن تنهض به من عبادته قبل أن تعض على أصابعك نادماً على ما فرطت في جنب خالقك. واحذر الناس واصحبهم كأنك لا تراهم ولا تسمعهم. ويقول إنه كان في تيه ضلال وظلام حالك إلى أن لاح علم الهدى فاهتدى بضياته. ومن الزهاد لعصر الموحدين أبو الحجاج يوسف<sup>(٢)</sup> المنصفي، من قرية المنصف من قرى بلنسية في شرقي الأندلس، ويقول المقرئ: كان صالحاً وله رحلة حج فيها، ومال إلى علم التصوف، وله أشعار حملت عنه، منها قوله:

قَالَتْ لِي النَّفْسُ: أَتَاكَ الرَّدَى وَأَنْتَ فِي بَحْرِ الْخَطَايَا مُقِيمٌ<sup>(٣)</sup>  
هَلَا اتَّخَذْتَ الزَّادَ قَلْتِ: أَقْصِرِي هَلْ يُحْمَلُ الزَّادُ لِدَارِ الْكَرِيمِ

فنفسه قالت له: أتاك الموت وأنت غارق في الذنوب فهلا اتخذت زاداً للمعاد؟ فقال لها إن الزاد لا يحمل لدار الجواد الكريم. ومن طريف ما قيل حينئذ في الزهد والدعوة إلى العمل الصالح قول الفيلسوف أبي بكر بن طفيل<sup>(٤)</sup>:

يَا بَاكِيًّا فُرْقَةً الْأَحْبَابِ عَنْ شَحَطِ هَلَا بِكَيْتَ فِرَاقِ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ<sup>(٥)</sup>

(٣) الردى: الموت.

(٤) المعجب للمراكشي ص ٣١٣.

(٥) شحط: بعد.

(١) راجع في بكار وترجمته وشعره المغرب ١/٤١٥ والنفع ٣/٣٣٤.

(٢) انظر في أبي الحجاج المنصفي وترجمته وشعره المغرب ٢/٣٥٤ والتحفة رقم ٣٧ والنفع ٣/٣٣٦.

نورٌ تردَّدَ في طينٍ إلى أجلٍ فانحازَ علُوًّا وخبِي الطينَ للكفنِ  
 ياشدُّ ما افتَرَقَا من بعدما اعتلَّقَا أَظْنَهَا هُدْنَةٌ كانت على دَخَنِ<sup>(١)</sup>  
 إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما فيألها صَفْقَةٌ تَمَّتْ على غَبَنِ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول لمن يبكي على أحبابه حين يختطفهم الموت أتبكي لفراقهم ولا تبكي لما ينتظر من فراق الروح للبدن، وكأنما كانت الروح نوراً تردد وقتاً في طين الجسد، ثم تسامى عنه علُوًّا وخلاهُ للكفن، وإنها لفرقة شديدة بعد امتزاجها طول الحياة، وكأنما كانت بينها هدنة غير صافية، ويقول إن اجتماعها وامتزاجها إن لم يكن في رضا الله كان صفقة أو بيعة خاسرة.

وتكاثر الزهاد لعهد يعقوب الموحدى وكوّن منهم فرقة كبيرة جعلها بمقدمة جيشه في غزوة الأرك المشهورة لسنة ٥٩١ وكان يشير إليهم في الغزوة. ويقول: هؤلاء هم الجنّد، لا أولئك ويشير إلى العسكر. ويقول صاحب المعجب إنه حين رجع من المعركة أمر هؤلاء الزهاد الصالحين بأموال عظيمة، ومنهم من رأى قبول العطية، ومنهم من ردّها، وتساوى عنده الفريقان وقال: لكل مذهب<sup>(٣)</sup>. ومن كبار الزهاد حينئذ أبو عمران<sup>(٤)</sup> موسى بن عمران المارتنلى وهو من مأزئلة، حصن من حصون باجة، وعنه قال ابن الأبار في التكملة: كان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة والعزلة، وله في ذلك آثار معروفة مع الحظ الوافر من الأدب والتقدم في قرض الشعر في الزهد والتخويف، وكان ملازماً لمسجده بإشبيلية، توفى سنة ٦٠٤ عن اثنتين وثمانين سنة، ومن شعره:

إلى كم أقول ولا أفعلُ      وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ  
 وأزجرُ عيني فلا ترعوى      وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ  
 وكم ذا أوملُ طولَ البقا      وأغفلُ والموت لا يغفلُ  
 وفي كل يوم يُنادى بنا      مُنادى الرجيلِ ألا فارحلوا  
 كأن بي وشيكاً إلى مصرعى      يساق بنعشى ولا أمهلُ

وهو يتلوم نفسه فكم ينوى الخير ولا يفعل وكم يروم العمل الطيب ولا يعمل، وكم يزجر عينه أن لا تنظر إلى المحرمات ولا تزدرج، وكم ينصح نفسه أن ترعوى

(٤) انظر في ترجمة أبي عمران المارتنلى المغرب  
 ٤٠٦/١ والنفع ٢٢٥/٣، ٢٩٦، والتكملة ص ٤٥٧  
 وحقفة القادم رقم ٥٨ والغصون الليانة ص ١٣٥.

(١) هدنة على دخن: هدنة على فساد وعدم صفاء.

(٢) الغبن في البيع: الوكس والخسارة.

(٣) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.

ولا تنتصح، وكم يؤمل في البقاء غافلاً عن الموت والموت لا يغفل، وكأنه لا يسمع منادى الرحيل، مع أنه قريباً سيرحل، ويحمل في نعشه ولا يهمل.

ومنذ عصر المرابطين نجد كثرة الزهاد تتحول إلى التصوف وعالمه، وتظل أسراب شعر الزهد الذي كان يجري على ألسنة العلماء والشعراء تنطلق في مجراها الذي بدأت مسيرتها فيه منذ عصر الدولة الأموية، من ذلك قول حازم القرطاجني<sup>(١)</sup>:

لم يَدْرِ مَنْ ظَنَّ الحَيَاةَ إِقَامَةً      أَنْ الحَيَاةَ تَنْقَلُ وَتَرْجُلُ  
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْطَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ      دُنْيَاهُ مَرَحَلَةً وَيَدْنُو الْمَنْهَلُ  
يَحْطَى السَّعِيدُ بِهِ بِطُولِ سَعَادَةٍ      وَأَخُو الشَّقَاوَةِ لِلشَّقَاوَةِ يُنْقَلُ  
لَا تَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا اسْتَدْبَرْتَهُ      وَلَتَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا تَسْتَقْبَلُ

وهو يقول: من الخطأ أن يظن الإنسان أن الحياة دار إقامة، فإنها دار تنقل وارتحال، في كل يوم يقطع الإنسان فيها مرحلة من حياته إلى أن تكون المرحلة الأخيرة، وينتقل إلى حياته الثانية فينتقل إما إلى سعادة ونعيم وإما إلى شقاوة وجحيم، ومن عجب أن يبكي المرء إشفاقاً على ما خلف منها وراء ظهره وحقه أن يبكي إشفاقاً على ما يستقبله في آخرته من مصير غير معروف: شقى أو سعيد. ويقول ابن خاتمة متشبهاً بعفو الله ورحمته في أول قصيدة بديوانه:

لَقَدْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ أَبْوَابَ عَفْوِهِ      لِمَنْ رَاجَعَ الذِّكْرَى وَأَقْبَلَ خَاشِيَا  
إِلَهِي لَا تَفْضُحْ عَوَارًا سَتَرْتَهُ      فَمَا لِي مَأْمُولٌ سِوَاكَ إِلَهِيَا<sup>(٢)</sup>  
هَلَكْتُ رَدَى إِنْ لَمْ أَنْلُ مِنْكَ رَحْمَةً      تَبْعُدُ رَوْعَاتِي وَتُدْنِي أَمَانِيَا  
لَعَلَّ الَّذِي قَامَ الْوَجُودُ بِجُودِهِ      يُعِيدُ بِحَسَنِ اللَّطْفِ حَالِي حَالِيَا<sup>(٣)</sup>

وهو يقول إن الله - جل شأنه - فتح أبواب عفوه على مصاريعها لمن راجع نفسه وأقبل خاشياً منيباً، ويدعو الله أن يستر عيوبه ويرحمه رحمته الواسعة، ويرجوه بجوده الفياض على الوجود أن يعيد حاله حالياً مزداناً. ويستغيث لسان الدين بن الخطيب بربه منشداً<sup>(٤)</sup>:

(٣) حالياً: مزداناً.  
(٤) أزهار الرياض ١/٢٧١.

(١) الديوان ص ٩٧.  
(٢) العوار: العيب.

وَجَمَعَ إِذَا مَا الْخَلْقُ قَدْ نَزَلُوا جَمْعًا<sup>(١)</sup>  
 إِذَا مَا أَسَأَلَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِكَ الدَّمْعَا  
 وَأَنْجَحَ دُعَائِي فَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى<sup>(٢)</sup>  
 أَقِلْ عَثْرَتِي يَا مَأْمُولِي وَاجْبُرِ الصَّدْعَا<sup>(٣)</sup>

إِلَهَى بِالْبَيْتِ الْمَقْدَسِ وَالْمَسْعَى  
 وَبِالْمَوْقِفِ الْمَشْهُودِ - يَارَبِّ - فِي مَنِي  
 وَبِالْمَصْطَفَى وَالصَّحْبِ عَجَلُ إِقَالَتِي  
 صَدَعْتُ وَأَنْتَ الْمَسْتَعَاثُ جَنَابُهُ

وهو يتوسل إلى الله بمقدساته: بيت القدس والمسعى بين الصفا والمروة في الحج  
 وجمع أو المزدلفة مجتمع الحجاج، وبوقفهم في منى متبتلين إلى ربهم، وبالرسول صلى الله  
 عليه وسلم وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه ولاذ  
 بجنابه، وإنه ليستغيت به ضارعاً إليه أن يقيله من عثرته ويجبر الصدع أو الشقَّ البين في  
 أعماله. وحرى بنا أن نتحدث عن الزاهد الكبير الإلبيري.

#### أبو إسحق<sup>(٤)</sup> الإلبيري

هو أبو إسحق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، من أهل حصن العقاب بالقرب  
 من إلبيرة، ولزم في نشأته فقيها ومحدثها ابن أبي زمنين المتخلق بأخلاق الصالحين المتوفى  
 سنة ٣٩٩ ويقول بعض من ترجموا له إنه كان من البكَّاتين الورعين الخاشعين، ويقول  
 ابن الأبار في التكملة إن أبا إسحق روى مصنفاته عنه مما قد يدل على أنه جلس بمجلسه  
 لإفادة الطلاب في إلبيرة. وخرَّبت سريعا في عهد زاوى بن زيرى الذى اتخذ غرناطة دار  
 إمارة له (٤٠٣ - ٤١٠ هـ) مما جعل كثرة أهلها تهاجر إلى غرناطة، وهاجر إليها  
 أبو إسحق، غير أنا لا نعرف تاريخ هجرته إليها بالضبط، ونظن ظنا أنه ظل بها يروى  
 لطلاب العلم كتب أستاذه ابن أبي زمنين. ونرى أبا الحسن على بن محمد بن توبة حين  
 يتولى القضاء لباديس بن حبوس أمير غرناطة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) يتخذ أبا إسحق كاتباً  
 له. واصطحبه معه إلى المرية حين طلب إليه باديس حمل رسالة إلى أحمد بن عباس وزير

لأبن الأبار (البقية المطبوعة) ص ١٦٧ والمغرب  
 ١٣٢/٢ وفهرسة ابن خير ٤١٨. وقد نشر الديوان  
 في مدريد غرسية غومس وأعاد نشره وتحقيقه مع  
 كتابة مقدمة له الدكتور محمد رضوان الداية (طبع  
 دمشق).

(١) جمع: المزدلفة.  
 (٢) الإقالة للشخص: العفو عنه والصفح  
 والإعفاء.  
 (٣) صدعت: جهرت. الصدع: الشق والكسر.  
 (٤) انظر في أبي إسحق وترجمته وشعره الحميدى  
 في الجذوة والضبي في البقية ص ٢١٠ والتكملة

زهير الصقلبي أميرها، مما يدل على حسن منزلته عند القاضي وأنه ظل كاتباً له إلى أن أخذ يحمل بعنف على إسماعيل بن النغريلة اليهودي وزير الأمير باديس لتسلطه - مع من عهد إليهم بالعمل معه من اليهود - على شئون الحكم. واستطاع إسماعيل أن يستصدر أمراً من باديس بنفى أبي إسحق من غرناطة إلى إلبيرة، وربما عاد حينئذ إلى مسقط رأسه في العقاب. وتوفي إسماعيل بن النغريلة، وخلفه في وزارة باديس ابنه يوسف فزاد الطين بلة، وضع الناس، وكان أبو إسحق قد عاد إلى غرناطة، فألقى في أهلها قصيدة كانت أشبه بقنبلة، طالب فيها بقتل يوسف، وردّها الناس في الشوارع، وسرعان ما نشبت لسنة ٤٥٩ ثورة ضارية على اليهود ألمنا بها في حديثنا عن الهجاء، وكان أبو إسحق قد بلغ العقد التاسع من عمره فلبى نداء ربه في نحو سنة ٤٦٠ للهجرة. ولم يحمل أبو إسحق عن أستاذه ابن أبي زمنين مصنفاته في الفقه والحديث فقط. بل حمل عنه أيضاً مصنفاته في الوعظ وأخبار الصالحين. ولا يقل عن ذلك كله أهمية حملهُ عنه أشعاره الزهدية، مما غرس الزهد في نفسه مبكراً، وأتيحت له ملكة شعرية خصبة، فاستغلها في نظم أشعار زهدية كثيرة، ويقول ابن الأبار: «كان من أهل العلم والعمل شاعراً مجوداً وشعره مدون وكله في الحكم والمواعظ والأزهاد» ويقول ابن سعيد: «له ديوان ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها» وهو غرام مرجعه إلى ما تمتاز به زهدياته من لغة ناصعة وخواطر متنوعة تمس القلوب بما تحمل من فيض المشاعر الدينية، وكأنما يستمد من نبع حماسي يتدفق في عذوبة. والديوان يستهل بتائية في مائة بيت وسبعة يفتتحها بقوله:

تفتُ فَوَادِكُ الأَيَّامُ فَتَا      وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا  
وتدعوك المُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ      أَلَا يَا صَاحِبَ: أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

ويعضى أبو إسحق في القصيدة بهذه الصياغة والمعاني التي تؤثر في الأفتدة تأثيراً يملك على قارئه وسامعه كل شيء من أمره، فالدنيا عروس غادرة، والعاقل يفصل نفسه منها دون رجعة، وويح الإنسان ينام ويستغرق في نومه حتى إذا وافاه الموت انتبه بعد انخداعه. ويقول إلى كم ينخدع ولا يرعوى، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وكل ما يتصل به من طعام وشراب، فالقوت الحقيقي هو قوت الروح، وحرى به أن لا يحفل بجاه ولا ببال ولا بقصور مشيدة. ولن يضره الفقر إذا ما عرف ربه، ويقول: ما الدنيا إنها تسوء حقبة وتسروقتاً، ويحبها الإنسان مع أنه مسجون فيها وهل يجب أحد سجنه، ولا يفره طعامه فيها فستأكله حطاماً، وكل يوم يشهد فيها دفيناً، وهو لم يخلق ليعمرها،

إنما خلق ليعبرها، وحرى به أن لا يحزن على ما فات منها وأن يفرح لما فاز به في أخراه، وينصحه أن يلازم قرع باب الله فسُفِّتَحَ له يوماً، وينشد:

فلو بكتِ الدُّمَّا عَيْنَاكَ خَوْفًا      لَدَنَيْكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنَّا  
وَمَنْ لَكَ بِالْأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ      أُمِرْتَ فَمَا اتَّمَرْتَ وَلَا أَطَعْنَا  
وَتُشْفِقُ لِلْمَصْرِّ عَلَى الْمَعَاصِي      وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسِكَ مَارِحْمَا  
تَفْرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ      فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْنَا

فلو أن الإنسان لم يعمل الصالحات الباقيات وبكى وبالغ في بكائه حتى بكى دما فإن ذلك لن يتيح له الأمان مادام لم يطع أوامر ربه. ومن عجب أن يشفق الإنسان على عاصي ربه ويرق له قلبه وقلبه لا يرق لنفسه، وعجبٌ عجابٌ أن يفر من حرارة الهاجرة ولا يتخذ العدة للفرار من جهنم ولظاها المشتعل. وفي قصيدة كافية يقول للدنيا: لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وأنت تعامليننا بكل قسوة ودون أى شفقة، وفرض على الأبناء أن يبروا أمهاتهم إلا أنت، فواجب عقوبك وبغضك أشد البغض. ودائما ينصح بعمل الخير والإحسان إلى الفقراء ويخوف أشد التخويف من عذاب النار، وله قصيدة:

خمسـة وثلاثون بيتا ختمها جميعا بكلمة النار وفيها يقول:

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ      مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ  
تَنَقَّدُ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ      كِمِرْجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ

ويستمر قائلا: لا تقبل التوبة في النار، والشقى يفر من النار إلى النار، وويل له من النار، إذ لا راحة له فيها وكيف يرتاح وهو يشرب المهل فيها، ويطعم الزقوم، وتتدافع سيول النار في القصيدة حتى نصل إلى نهايتها فنطلب من الله مع أبي إسحق المعافاة والعتق من النار. ومن أروع قصائد الديوان قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة على هذا النحو:

يَأْيُهَا الْمُغْتَرُّ بِاللَّهِ      فَرٌّ مِنْ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ  
وَلُدُّ بِهِ وَأَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ      فَقَدْ نَجَا مَنْ لاذَ بِاللَّهِ  
وَقَمُّ لَهُ وَاللَّيْلُ فِي جُنْحِهِ      فَحَبَّذَا مِنْ قَامِ اللَّهِ  
وَأَتَلُّ مِنَ الْوَحْيِ وَلَوْ آيَةً      تُكْسَى بِهَا نُورًا مِنْ اللَّهِ  
وَعَفِرِ الْوَجْهَ لَهُ سَاجِدًا      فَعَزَّ وَجْهَهُ ذَلَّ اللَّهُ



وهو يقول: يا أيها الغافل عن ذكر ربه، فرّ من عقابه إلى ثوابه والجا إليه واسأله من فضله تنج من عذاب النار، وتهجد في آناء الليل، واتل من القرآن ولو آية يسبغ الله نورها عليك، وممّغ وجهك في العفر ووجه الأرض ساجدا لربك متذللاً له، فعز وجهه يتضرع إليه ويخضع وينقاد. وتمضى القصيدة بهذه الروعة في الصياغة، وكل بيت يدل دلالة جديدة، ومعه جوهرة لفظ الجلالة تضىء جوانبه، وتنزل منه منزلاً محكماً.

### (ب) شعراء التصوف

ألمنا في الفصل الأول بنشأة التصوف في الأندلس وأنها ترتبط بمحمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ وكان يجمع في عقيدته بين التصوف على طريقة ذى النون المصرى كما يقول ابن الفرضى وبين آراء المعتزلة في القول بخلق القرآن الكريم وإنفاذ الوعد والوعيد والاستطاعة مع التأويل لبعض آى الذكر الحكيم والأحاديث النبوية.<sup>(١)</sup> وقاوم عبد الرحمن الناصر هذه العقيدة، كما مرّ بنا، كما قاومها ابنه الحكم والمنصور بن أبى عامر حاجب ابنه هشام المؤيد، وظلت مكتنة في كثير من الصدور وظل لها أنصار في عهد أمراء الطوائف، ويذكر ابن حزم منهم - كما مرّ في غير هذا الموضع - إسماعيل الرعيني.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أول شاعر صوفي استظهر في وضوح عقيدة التصوف مقترنة بعقيدة الاعتزال هو أبو عمر<sup>(١)</sup> أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيرى الأصولى المتوفى سنة ٤٢٩ للهجرة، ويقول عنه تلميذه أبو المطرف الشعبي الذى روى عنه تأليفه «إنه كان متكلماً دقيق النظر عارفاً بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة». ويذكر ابن بسام أن أمر مدينة إلبيرة كان دائراً عليه مع زهده وورعه، بينما يذكر أبو المطرف أنه لقيه بغرناطة وفيها أخذ عنه مصنفاته، وأكبر الظن أنه ظل بإلبيرة حتى خربتها قبيلة صنهاجة في عهد الزيريين كما مر بنا، فانتقل عنها - مع أكثر سكانها إلى غرناطة. وأشاد ابن بسام بنثره

والمغرب ٩٥/٢ والصلة رقم ٨٩ وقد أسنّ تلميذه أبو المطرف عبد الرحمن ابن قاسم الشعبي واشتهر بالعلم والفضل، توفى سنة ٤٩٧. انظر الصلة: ٣٢٩.

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٢٠٢ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان (طبع مدريد) ص ٢٠ وما بعدها.

(١) انظر في أبى عمر أحمد بن عيسى الإلبيرى وترجمته وشعره الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها

وشعره وروى له رسالة كتبها سنة ٤١٩ إلى بعض إخوانه وفيها نزعة صوفية واضحة،  
وسنلم بها في الفصل التالى، وينشد له ابن بسلام:

شربتُ بكأسِ الحُبِّ من جَوْهرِ الحُبِّ رَحِيقًا بكفِّ العَقْلِ فى رَوْضَةِ الحَبِّ  
وخامرَ ماءِ الرُّوحِ فاهتَرَّتِ القُوى قُوى النَّفسِ شوقًا وارتياحًا إلى الرَّبِّ  
ونادى حَئيثًا بالأُنينِ حينها إلهى إلهى منْ لعبدك بالقُربِ  
وخاطبه وحيًا إليه مليكُه: سأكشِفُ - يا عبْدى لَعينك - عن حُجْبى  
فأعلن بالتسييح: مثلك لم أجِدْ تعاليتَ عن كَفِّ يَكافيكِ أوْصَحْبِ

وهو يقول إنه شرب في روضة الحب الإلهي رحيقا مصفى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنت قوى نفسه شوقا إلى مشاهدة ربه، ونادى - وأن في ندائه - متلهفا على قربه من ربه، وتجلّى له الله رافعا ما بينه وبين عبده من حجبه، فسبّح بحمده منزها له عن أن يكون له كفاء أو صحب، وكأنه يشير إلى الآيتين: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ - ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾. والتصوف في الأبيات - كما ذكر تلميذه أبو المطرف - تصوف سنى، فيه إشارة إلى وحدة الشهود، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد بالذات العلية الذى يؤمن به أصحاب التصوف الفلسفى. وكان يقرن إلى تصوفه إيمانه بعقيدة الاعتزال فى مثل قوله:

يا مُحدِثًا للكلِّ كنتَ ولم تَزَلْ - وكذاكَ رَبِّى لايزالُ بلا مكانٍ  
وقوله:

جَلَّتْ صفاتُ جلالِه، فجلالُه قد جَلَّ عن تَحديدِ كَيْفٍ ومَنْ وما

وهو يشير بذلك إلى ما يؤمن به المعتزلة من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فلا يحده مكان ولا زمان ولا تحصره كيفية ولا جوهر ولا عرض، تعالى جلال الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويذكر آسين بلاسيوس - ويتابعه بالنتيا - أن مدينة المرية على البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس أصبحت فى القرن الخامس الهجرى - بتأثير آراء ابن مسرة - مركزا مهما من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود، فظهر فيها محمد بن عيسى الإلبيرى الصوفى وأبو العباس بن العريف<sup>(١)</sup>، وما ذكرناه آنفا عن أحمد بن

(١) الوفا التفتازانى (طبع دار الكتاب اللبنانى)  
ص ٧٦.

(١) انظر فى ذلك بالنتيا ص ٣٢٩ وما بعدها  
وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى

عيسى الإلبيري المتوفى قبل ابن العريف بأكثر من قرن يدل على أن اسمه حُرِّف عند بلاسيوس، فأصبح محمدا بدلا من أحمد، ونفس لقبه الإلبيري يدل بوضوح على أنه ليس من أهل المرية إنما هو من البيرة بجوار غرناطة، وفيها قضى حياته كما مرَّ بنا، وكان من أصحاب التصوف السني بشهادة أشعاره وتلميذه أبي المطرف الشعبي. أما أبو العباس بن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة فكان من أهل المرية حقا غير أنه لم يكن من أصحاب التصوف الفلسفي على نحو ما سيتضح في ترجمتنا له عما قليل. وكان يعاصره في إشبيلية ابن<sup>(١)</sup> برَّجان عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي المتوفى سنة ٥٣٦ وفيه يقول ابن الأبار: «كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة وله تأليف مفيدة، منها تفسير للقرآن لم يكمله وشرح الأسماء الحسنى» وله في التصوف كتاب عين اليقين. وكان يعاصره أبو القاسم<sup>(٢)</sup> أحمد بن قسي، ويقول ابن حجر في لسان الميزان إنه رحل إلى ابن العريف في المرية، وعاد إلى موطنه في مارتلة بقرب باجة في غربي الأندلس وكثر أتباعه من المريدين. وحين احتدمت الثورة على المرابطين في أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري ثار عليهم مع مُريديه وغلب على شلب ولبلّة، وكاتب عبد المؤمن سلطان الموحدين ودخل في طاعته وانقلب على واليه، وحاول الاستعانة بالنصارى، وشعر بحركته بعض من معه فقتل سنة ٥٤٦. وينسب ابن حجر إليه - كما ينسب إلى ابن برَّجان - تحريفها لمعاني النصوص القرآنية وتأويلها بخلاف الظاهر، وله كتاب خلع النعلين وشرحه فيما بعد ابن عربي. وكان تصوفه هو وابن برَّجان - مثل تصوف ابن العريف - تصوفا سنيا، إذ لم ينسب إليهم جميعا مترجمهم كلاما في وحدة الوجود. وفي رأينا أن اعتناق بعض المتصوفة الأندلسيين لهذه الوحدة تأخر إلى عصر الموحدين. ومن اعتنقها حينئذ أبو عبدالله الشوذى الإشبيلي الملقب بالحلوى، ولى القضاء بإشبيلية في دولة الموحدين، ثم خلاص للتصوف ومزجه بالفلسفة، وقال بوحدة الوجود<sup>(٣)</sup>، وأهم تلاميذه ابن دهاق إبراهيم بن يوسف الأوسى المالمقى المتوفى سنة ٦١١ وفيه يقول ابن الأبار: «كان فقيها مشاوراً غلب عليه علم الكلام، فرأس فيه واشتهر به، وله تأليف منها شرح الإرشاد في علم الكلام

وبالنسبة ص ٣٣٢، ٣٧٣.

(٣) انظر في الشوذى وطريقته الصوفية وقوله بوحدة الوجود كتاب ابن سبعين ٧١ - ٧٥.

(١) انظر في ابن برجان التكملة ص ٦٢٥ وابن شاعر في الفوات ٥٦٩/١ ولسان الميزان لابن حجر (طبع حيدر آباد) ١٣/٤.

(٢) راجع في ابن قسي لسان الميزان ٢٤٧/١

لأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، وكتاب في مسائل الإجماع وشرح على محاسن المجالس لابن العريف، سكن مرسية وتجول في غير بلد، وكان يعتقد رأى أستاذه في وحدة<sup>(١)</sup> الوجود.

ونلتقى بمحيى الدين بن عربي، وهو أشهر متصوفة الأندلس، وسنخصه بترجمة قصيرة، وظهر في إثره ابن سبعين<sup>(٢)</sup> عبد الحق العكبي المولود بمرسية سنة ٦١٤ لأسرة كانت على حظ من الجاه والنعمة، وأكب في بدء حياته على علم المنطق والفلسفة الإلهية والعلوم الطبيعية والرياضية ونظر في أصول الدين على طريقة الأشعرية كما نظر في كتب التصوف لابن دهاق وغيره، وانتقل إلى سبتة سنة ٦٤٠، وبها أخذ يدعو لعقيدته الصوفية، وتبعه كثير من الفقراء والعبّاد، وتصادف أن أرسل فردريك الثاني صاحب صقلية إلى علماء سبتة أسئلة فلسفية أملا منهم في الإجابة عليها، وانتدب ابن سبعين للرد عليها، وكانت ردوده مقنعة حاسمة، مما جعل فردريك يشكره عليها، وظل علماء الغرب يهتمون بها اهتماما واسعا، وأكبّ حينئذ على كتب المتصوفة يستوعبها، واستقامت له في التصوف عقيدة ظل يدافع عنها بقية حياته، دافع عنها أمام علماء سبتة، حتى إذا ضيقوا عليه الخناق غادر سبتة إلى بجاية وأقام بها فترة ثم نزل تونس وجادله علماءها حتى اضطر إلى مغادرتها. ونزل القاهرة، ولم يطب له المقام - على ما يبدو - في مصر، فغادرها في أوائل العقد السادس من القرن السابع، ونزل مكة وجاور بها بقية حياته إلى أن توفي سنة ٦٦٩ وبها عُقدت صلة وثيقة بينه وبين حاكمها الشريف أبي نُمَيّ محمد الأول (٦٥٤ - ٧٠٢ هـ). وألف ابن سبعين مصنفات ورسائل متعددة، وأهم مصنفاته: الإحاطة وبَدِّ العارف وسماه صاحب الفوات: «ما لا بد للعارف منه» وكأنه أراد أن يشرح المراد بالعنوان، وله بجانب ذلك مصنفات في آداب السلوك والرياضات العملية، ومن أهمها رسالة العهد ورسالة الفقيرية التي يصور فيها معاني الفقر الصوفي وآدابه، وله رسائل في علم الحروف. وهو بدون ريب صاحب عقيدة صوفية تابعه فيها فرقة صوفية نسبت إليه فسميت السبعينية، وتهمنا عقيدته فيما يتصل بوحدة الوجود إذ غالى فيها غلوا مفرطا بإيمانه بالوحدة المطلقة، بمعنى أنه لا وجود سوى وجود الله فهو عين الخلق وهو عين

والبداية والنهاية ٢٦١/١٣ ولسان الميزان ٣٩٢/٣ والنفع ١٩٦/٢ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاقي ٣٢٦/٥ وشذرات الذهب ٣٢٩/٥ وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا التفنازاني.

(١) راجع في ابن دهاق التكملة (البقية المطبوعة في الجزائر) ص ٢٠٠ والإحاطة وراجع كتاب ابن سبعين (انظر الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ١١٠٦/٣

(٢) انظر في ابن سبعين فوات الوفيات ٥١٦/١

الكون والسماوات والأرض، وهو صورة كل موجود. وهو ما جعل الفقهاء والعلماء في كل مكان يأخذون على يده إذ يجعل حقيقة الوجود بين الله وعباده واحدة، فالله فقط وليس في الكون سواه، وفي ذلك يقول في كتابه الإحاطة:

من كان يُبصر شأنَ الله في الصُّورِ      فإنه شاخصٌ في أنقصِ الصُّورِ  
بل شأنه كونه، بل كونه كنهه      لأنه جملةٌ من بعضها وطرى  
إيه فابصرنى إيه فابصره.      إيه فلم قلت لى: ذا النفع فى الضرر

والآيات تحمل فكرته، فالله ترى صورته في كل شيء: جميل وقبيح وضخم وصغير، وشأنه أو وجوده الكون، والكون كونه وحقيقته، وابن سبعين صورة منه، وكل ما في الكون من نفع وضرر وخير وشر من صور الله المنبثثة في الوجود وكل موجود. وهو غلو مفرط يباعد بين صاحبه وبين الدين الحنيف مما جعل العلماء والفقهاء في عصره وبعد عصره يردون عليه ردودا عنيفة مثبتين عليه الإلحاد والزندقة. وحاول كثيرون من أتباعه الدفاع عنه وأن لكلامه ظاهرا وباطنا وأنه ينبغي أن لا يحكم عليه بظاهر أقواله. ومن اشتهر بأنه من أتباعه أبو الحسن الششتري الصوفي المعروف، وسرى في ترجمتنا له أنه ينفصل عنه في اعتقاده بوحدة الوجود. وكأنا بلغت هذه النظرية الذروة عند ابن سبعين، وأخذت سريعا في الانكسار، فإننا نجد كثرة المتصوفة - وخاصة في الأندلس والمغرب - تعتنق التصوف السنى.

ومن أهم المتصوفة الأندلسيين بعده ابن عباد<sup>(١)</sup> الرُنْدَى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزى المولود بُرْندة سنة ٧٣٣ وبها منشؤه ومرباه. ورحل منها مبكرا وتحوّل في بلدان المغرب، وأقام في سلا على المحيط سنوات طويلة ملازما للشيخ الزاهد الصوفى ابن عاشر أحمد بن عمر، وتحوّل عنه إلى فاس فاختر فيها إماما وخطيبا لجامع القرويين، ويقول صاحب نفع الطيب إنه كان صوفيا على طريقة الشاذلية، وهى من طرق التصوف السنى، وفي الجزء السادس من هذه السلسلة بمصر حديث مفصل عن هذه الطريقة وأستاذها أبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسى ومريده أو تلميذه ابن عطاء الله السكندرى. ومن أكبر الدلالة على أن ابن عباد الرندى كان شاذليا أن أهم مصنفاته شرحه كتاب الحكيم لابن عطاء الله السكندرى، وهى أقوال وخواطر وعظية بليغة. وكان يعاصره لسان الدين بن الخطيب، وله كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وفيه يعرض

(١) انظر في ابن عباد الرُنْدَى الإحاطة ٢٥٢/٣.

الاتجاهات الصوفية ومسائل التصوف الكبرى من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ونظرية المعرفة والمحبة الإلهية وغير ذلك. ونشعر أن نفسه أشربت منازع التصوف السنّي، وينعكس ذلك عنده في بعض القصائد وبعض المقطوعات، وهي جميعا إلى أن تكون خواطر صوفية أقرب منها إلى أن تكون تصوفا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا ينطبق ذلك على أشعاره في الكتاب وحدها بل أيضا على ما يماثلها في ديوانه: «الصيّب والجهام والماضي والكهام». وبالمثل ينطبق على ما نجد عند ابن خاتمة معاصره وغيره من قصائد وأبيات تحمل أصداء صوفية، لانتساع رنين التصوف منذ أواسط القرن السابع الهجري في كل بلد وكل دار. وحرى بنا أن نقف قليلا عند ابن العريف وابن عربي والششتري.

### ابن العريف<sup>(١)</sup>

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي، ولد بالمرية على البحر المتوسط سنة ٤٨١ وبها كان منشؤه ومرباه حفظ القرآن الكريم - مثل أترابه - في صباه، وعكف في شبابه على قراءات الذكر الحكيم والأخذ عن الشيوخ في التفسير والحديث النبوي والفقه والدراسات اللغوية والأدبية. وأقرأ الطلاب في المرية ثم في سرقسطة، وولّى الحسبة ببلنسية ويقول ابن بشكوال: «كانت له مشاركة في أشياء من العلوم وعناية بالروايات وجمع القراءات واهتمام بطرقها وحملتها». وأكبّ على قراءة كتب التصوف، وإذا هو يصبح صوفيا كبيرا، ولا يكتفى بتصوفه، بل يؤلف فيه بعض كتب<sup>(٢)</sup>، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: «محاسن المجالس» وقد نشره آسين بلاسيوس سنة ١٩٣١ وفي نفس السنة نشر عنه دراسة في مجلة جامعة مدريد، وأعيد نشرها في أعماله المختارة، وعنى الدكتور الطاهر مكى بنقلها إلى العربية، وهو فيها يتحدث عن حياة ابن العريف وكتابه «محاسن المجالس» ويحلله تحليلا دقيقا ملاحظا أن طريقته الصوفية تقوم على الزهد في كل ما عدا الله ومحبته، بما في ذلك الزهد في المنازل الصوفية العشرة، وهي المعرفة والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشوق والشكر، فلا معرفة سوى معرفة الله، ولا إرادة مع إرادته. ولا زهد في شيء، لأن الصوفي لا يتعلق

والفلسفة للدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) وترجمته فيه لدراسة آسين بلاسيوس عن ابن العريف وكتابه محاسن المجالس.  
(٢) ذكر المقرئ من كتبه كتاب مطالع الأنوار ومنابع الأسرار.

(١) انظر في ترجمة ابن العريف وشعره الصلة لابن بشكوال ص ٨٤ والبقية ص ١٥٤ والمطرب ص ٩٠ والتحفة لابن الأبار رقم ٨ ومعجم الصديقي ١٤ والمغرب ٢١١/٢ والنفتح ٢٢٩/٣ و ٣٣١/٤  
وراجع كتاب دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ

إلا بربه غير مفكر فيما سواه، ولا توكل، لأنه يتخلص من كل تدبير لنفسه راضيا بكل ما يكون من تدبير ربه، ولا صبر لأنه ليس هناك ما يحتاج إلى صبر، إذ كل ما يسوقه الله تصحبه الرأفة والرحمة، ولا حزن لأنه لا يوجد شيء مما قدره الله يوجب الحزن، ولا خوف من عذاب أو عقاب، ولا رجاء في تحقيق شيء، ولا شوق إلى أي شيء، إذ الصوفي لا يرجو ولا يشताق إلا ربه: ولا شكر إذ الصوفي لا يميز بين المنحة والمحنة أو النعمة والشدة. ومنزل واحد يتعلق به الصوفي هو المحبة للذات العلية والخلوص لله، بحيث لا يكون هناك أي شيء سواه، يقول: «إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون الصوفي قائما بإقامة الحق له، محسا بمحبته له، ناظرا بنظره له، من غير أن تبقى منه بقية تقف على رسم أو تناط باسم، أو تتعلق بأثر، أو توصف بنعت أو تنسب إلى وقت». وابن العريف بذلك كله يصور مدى اتصال الصوفي الحق بربه، بحيث لا يكون فيه أي شيء من فكر أو جسم سوى الفناء في الله، وهو بكل ذلك صوفي سني، ومن الخطأ الظن بأن في تصوفه شية من وحدة الوجود أو الاتحاد بالله، ومن طريف شعره الصوفي قوله:

سَلُوا عَنِ الشُّوقِ مَنْ أَهْوَى فَإِنَّهُمْ	أَدْنَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ وَهْمِي وَمَنْ نَفْسِي
مَازَلْتُ - مَذَسَكُنُوا قَلْبِي - أَصُونُ لَهُمْ	لَحَظِي وَسَمَعِي وَنَطَقِي إِذْ هُمْ أَنَسِي
فَمَنْ رَسُولِي إِلَى قَلْبِي لَيْسَ لَهُمْ	عَنْ مُشْكَلٍ مِنْ سَوَالِ الصَّبِّ مُلْتَبِسِ
حَلُوا الْفُؤَادَ، فَمَا أَدْنَى! وَلَوْ وَطِنُوا	صَخْرًا لَجَادَ بِمَاءٍ مِنْهُ مُنْبِجِسِ (١)
وَفِي الْحَسَا نَزَلُوا وَالْوَهْمُ يَجْرَحُهُمْ	فَكَيْفَ قَرُّوا عَلَى أذْكَى مِنَ الْقَبْسِ (٢)
لَأَنْهَضَنَّ إِلَى حَشْرِي بِحَبِّهِمْ	لَا بَارِكُ اللَّهُ فِيمَنْ خَانَهُمْ فَنَسِي

وابن العريف يتحدث عن شوقه لربه، مع أنه أقرب إلى نفسه من وهمه وأنفاسه، ويقول إنهم مذ نزلوا قلبه يقصر عليهم لحظه وسمعه ونطقه، فهم كل أنسه. ويتساءل هل هناك من يبلغهم ما في قلبه من صبابته وحببه ويقول: ما أروحهم على فؤاده، ولو وطئوا صخرًا لتفجر منه الماء، وقد سكنوا في حشاه المضطرم بحبهم، ويعجب منهم - والوهم يجرحهم - أن يسكنوا في ناره المتقدة، ويقول إنه سيظل - إلى الحشر - وفيا بعهدهم وحبهم لا ينساها أبدا، ويقول:

قِفَا وَقَفَةً بَيْنَ الْمُحْصَبِ وَالْحِمَى نَصَافِحُ بِأَجْفَانِ الْعَيُونِ الْمَغَانِيَا (٣)

(٣) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى. المغاني: المنازل.

(١) منبجس: منفجر.  
(٢) قرأوا: سكنوا واستراحوا.

ولا تَنْسِيَا أَنْ تَسْأَلَا سَمْرَ الْهَوَى  
 متى بات من سَمْرِ الْأَيْسِنَةِ عَارِيَا<sup>(١)</sup>  
 فعهدى به والماءُ ينسابُ فوقه  
 سماءُ وماءُ الْوَرْدِ ينسابُ واديا  
 أقامَ على أَطْلالهم ضوءَ بارقٍ  
 من الحسن لا يُبْقَى على الأرض ساليا

وهو يطلب من صاحبيه الوقوف بمنازل محبوبه القدسية: بالمحصب في منى والحصى المكي ليصافح بصره المغاني والمنازل وشجر الهوى والمحبة من الطلح الذي تعرى من سهامه وأسنته. ويقول إن عهده به والمطر ينسكب عليه من فوقه وماء الورد يجرى من تحته والنفوس معلقة بما في الأطلال من ضياء الحسن الذي لا يستطيع أحد أن يسלוه. ويقول:

تمشَّى والعيونُ له سوامٌ      وفي كلِّ النفوسِ إليه حاجَه<sup>(٢)</sup>  
 وقد مُلئتُ غلاتُه شعاعاً      كما مُلئتُ من الخمرِ الرُّجاجة<sup>(٣)</sup>

وهو يتغزل بمحبوبه مستخدماً لغة الحب الإنساني كما استخدمها في الأبيات السابقة، فقد رحل والعيون كلها متطلعة إليه، والنفوس جميعاً مفتقرة إلى رؤيته، وقد ملئت غلاته الكونية بأشعته. ولابن العريف بجانب ذلك مدائح في الرسول الكريم سنشد منها أطرافاً. وقد توفي سنة ٥٣٦ للهجرة.

#### ابن<sup>(٤)</sup> عربي

هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن عربي الطائفي، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ لأسرة تحظى بشيء من الثراء، وانتقل به أبوه في صباه إلى إشبيلية، وبها نشأ نشأة علمية حفظ فيها القرآن الكريم، ودرس على أحد تلامذة مدرسة ابن حزم المذهب الظاهري في الفقه، كما درس الحديث النبوي على شيوخه والآداب على معلمها وكتب لبعض الولاة، وتزوج بمریم بنت محمد بن عبدون الباجي، وكانت سالحة ورعة، فدفعته نحو الزهد والتقشف

في تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) ١٦٠/٢  
 والكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربي في  
 ذكراه المثوية الثامنة لميلاده (نشر وزارة الثقافة  
 المصرية) وابن عربي: حياته ومذهبه لآسين  
 بلاسيوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي (طبع  
 القاهرة) وبالنتيا ص ٣٧ وما بعدها.

(١) السَّمْرُ: شجر الطلح.

(٢) سوام: شاخسة ومتطلعة.

(٣) الغلائل: جمع غلالة: الثوب الرقيق.

(٤) انظر في ابن عربي التكملة رقم ١٠٢٣ وميزان  
 الاعتدال للذهبي ١٠٨/٣ ونفح الطيب ١٦١/٢  
 والبداية والنهاية لابن كثير ٤٩/١٤ والعقد الثمين



والتصوف، فأخذ يجتمع بزهاد ومتصوفة كثيرين، في مقدمتهم الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارتنلي الذي مر ذكره بين الزهاد وأبو العباس العرياني المتصوف، ولزم نونة «فاطمة بنت ابن المثنى» الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من إشبيلية يتجول في الأرض، وهو في نحو الثلاثين من عمره، واتجه إلى مرسية والمرية وهناك كتب رسالته الصوفية «مواقع النجوم» ثم رحل إلى المغرب واستقر في فاس مدة سنة ٥٩١ منصرفا إلى رياضته الصوفية. وقام بسياحات متعددة في نواحي المغرب في مراكش وغير مراكش، ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفي فترة معجبا بطريقته الصوفية. وأم بتونس وفيها صنف كتابه: «الدوائر الإحاطية في مضاهاة الإنسان للخالق». وفي سنة ٥٩٨ رحل لأداء فريضة الحج ونزل مكة وتعرف فيها على مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني إمام مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح في الأحاديث النبوية للترمذي، وتوثقت بينهما العلاقة، وكانت لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشغف بها ابن عربي حين رآها ونظم فيها ديوانه «ترجمان الأشواق» متخذا منها ومن غزله فيها رمزا لحبه الرباني ومواجهه الصوفية، وكتب حينئذ كتابه: «الدرة الفاخرة» في تراجم شيوخه من الصوفية، وفيه أشاد بشيخه أبي مدين وطريقته. وبارح مكة إلى بغداد والموصل سنة ٦٠١ وأخذ يتجول في البلدان، ونجده بالقاهرة سنة ٦٠٣ وجادله فقهاؤها فيما يفهم في أقواله من فكرة وحدة الوجود واتهموه بالمروق من الدين، غير أن السلطان العادل الأيوبي حماه منهم. ويتوجه إلى الأناضول ويعجب به كيكائوس ملك قونية، ويؤلف مصنفه: «مشاهد الأسرار» و«رسالة الأنوار». وينزل بغداد سنة ٦٠٨ ويلتقى بشهاب الدين السهروردي الصوفي السني، ويتوجه إلى مكة للحج سنة ٦١٠ ويؤلف شرحا على ديوانه ترجمان الأشواق يسميه ذخائر الأعلاق، وفيه يوضح المعاني الصوفية التي تضمنتها أبيات الديوان. ويعود إلى الأناضول وينزل حلب ويحتفى به سلطانها الظاهر غازي، ويؤلف كتابه: «الحكمة الإلهامية». وفي سنة ٦٢٠ يختار دمشق دار إقامة له حتى وفاته سنة ٦٣٨ وفيها ألف «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» وأذاع ديوانا له، وظل مشغولا بالتأليف حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

وكان ابن عربي مكثرا من التأليف حتى يقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت نحو أربعمائة، وعنده أن العلوم ثلاثة أنواع: علم العقل ويشمل العلوم المعروفة، وعلم الأحوال ويدرك بالذوق، وعلم الأسرار وهو فوق العلمين السابقين مما ينفت به الروح القدس في الروع

ويختص به الأنبياء والأولياء. وأهم من ذلك عقيدته في وحدة الوجود، وهي التي ملأت كتاباته وأشعاره بالألغاز، واختلف إزاء عباراتها العلماء من معاصريه ومن جاء بعدهم، فمنهم من قال إن لها باطنا سوى ظاهرها وتأولها، ومنهم من قال ببروقه من الدين الحنيف لمثل قوله: «إن الحق المنزه (أى الله) هو الخلق المشبه» و«إن العالم صورة الله وهوية الله». وربما كان ابن تيمية أكثر خصومه إنصافا له إذ قال إنه أقرب الصوفية القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر ويقر الأمر والنهى والشرائع على ما هي عليه ويأمر في السلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات<sup>(١)</sup>. ويمكن أن تؤول العبارتان السالفتان اللتان جعلتا كثيرين يحملون عليه حملات شعواء بسببها أنه إنما يريد أن الله المنزه عن الشبه بالخلق يتجلى فيهم كما يتجلى في العالم بتكوينه له وخلقهم. وبالمثل عباراته الأخرى الموهمة التي إن أخذت على ظاهرها ظنَّ به المروق من الدين والضلال، بينما لو أخذت بباطنها حملت على الإيمان والعرفان، وهو ما جعل كثيرين من معاصريه ومن جاء بعدهم يدافعون عنه. وقد سمع على الشيوخ بجانب صحيح الترمذى السالف صحيح مسلم وصحيح البخارى، وأجاز له السلفى فى الإسكندرية أن يحدث عنه، وأجازه ابن الجوزى فى بغداد وابن عساكر فى دمشق، وهم جميعا من كبار المحدثين فى عصره سوى شيوخ كثيرين. وبجانب هذه الشعبة الكبيرة فى عقيدته: شعبة وحدة الوجود تترأى شعبة ثانية كبيرة هى شعبة المحبة الإلهية، وقد صورها مبكرا فى ديوانه: «ترجمان الأشواق» ومن يقرؤه حسب ظاهره يظن أنه غزل صبَّ عاشق لنظام - كما يقال - فتاة الشيخ مكين الدين إمام مقام إبراهيم فى الحرم المكى، إذ يصف جمالها وفتنته به ودارها والأطلال والمنازل ودلالها ومراشفها ولوعته وحرقة فؤاده بحبها وسهام عيونها وفتور أجفانها وكأننا بإزاء شاعر من شعراء الغزل العذرى على شاكلة قوله:

مَرَضِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ	عَلَّلَانِي بِذِكْرِهَا عَلَّلَانِي
بِأَبِي طِفْلَةً لَعُوبٌ تَهَادِي	مِنْ بَنَاتِ الْخُدُورِ بَيْنَ الْغَوَانِي
طَلَعْتُ فِي الْعِيَانِ شَمْسًا فَلَمَّا	أَفَلَّتْ أَشْرَقَتْ بِأَفْقِ جَنَانِي
بِأَبِي ثُمَّ بِي غَزَالُ رَبِيبُ	يَرْتَعِي بَيْنَ أَضْلَعِي فِي أَمَانِ

فهو محب موجه الفؤاد أو هو مريض مرضا لا يرجى له منه شفاء لما وقع فى قلبه من

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية  
 (طبع دار المنار) ١٧٦/١.

حب هذه الفتاة أو هذه الطفلة اللعوب التي رآها تتبختر بين الغواني الجميلات. وحين رآها ظنّها شمسا فقد ملأت كل ما حوله وكل ما فيه من جنان أو عقل وغير عقل واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل شيء من أمره. وإنه ليفقد بروحه هذا الغزال المصون الذي يرمى بين أضلعه في قلبه وسويداء فؤاده. والديوان كله - على هذا النحو - غزل وصبابة لا سبيل إلى إطفائها إذ تستمد من وجد ملتحاق مايزال ابن عربي يذوق ناره المحرقة، وليست نار الفتاة نظام، وإنما هي نار المحبة الربانية، وإلى ذلك يشير في الديوان منشدا:

كُلُّ مَا أَذْكَرُهُ مِنْ طَلَلٍ      أَوْ رُبُوعٍ أَوْ مَعَانٍ كُلُّ مَا  
أَوْ نِسَاءٍ كَاعِبَاتٍ نُهَدٍ      طَالَعَاتٍ كَشْمُوسٍ أَوْ دَمِي  
صِفَةً قَدْسِيَّةً عُلُوبِيَّةً      أَعْلَمْتُ أَنَّ لَصَدْقِي قَدَمًا  
فَاصْرِفِ الْخَاطِرَ عَنْ ظَاهِرِهَا      وَاطْلُبِ الْبَاطِنَ حَتَّى تَعْلَمَا

وهو لا يذكر في القصيدة الطلول والرُبُوع والمغانى أو المنازل والنساء المشرقات كالشموس والدمى فحسب، بل يذكر أيضا: نجداً وتهامة والسحب تبكى والزهر بيتسم والمواضع النجدية مثل الحاجر وورق الحمام وأنيها والبروق والرعود والرياح والطرق والجبال والتلال والعقيق والنقا والرُّبِّي والرياح والغياض، وكل ذلك حين يذكره صفات قدسية علوية يتخذها رموزا لبيان حبه الرباني وأسراره وأنواره في فؤاده، وهو حب يتسع به حتى ليشمل أصحاب الديانات جميعا، إذ يقول:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلَّ صُورَةٍ      فَمَرَعِي لِيغْزَلَانٍ وَدَيْرٍ لِرُهْبَانٍ  
وَبَيْتٍ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةٍ طَائِفٍ      وَالْوَأْحِ تَوْرَةٍ وَمَصْحَفٍ قَرَّانٍ  
أَدِينُ بِدِينِ الْحَبِّ أَنِّي تَوَجَّهْتُ      رَكَابُهُ فَالْحَبُّ دِينِي وَإِيمَانِي

فدينه الحب الذي يسع جميع الديانات الساموية والوثنية، ولعل هذه شطحة من شطحاته الصوفية، إذ لا يمكن أن يصبح الناس أمة واحدة فضلا عن أن يكون دينها المحبة. وله بجانب أشعاره موشحات صوفية، وتميزها نفس العذوبة والسلاسة اللتين نجدهما في شعره كقوله في إحدى موشحاته:

يقول والوَجْدُ      أضناه واليَعْدُ      قد حَيْرَهُ  
وهيِّم العَبْدُ      والواحد الفردُ      قد خَيْرَهُ  
في البُوحِ والكتمانِ      والسرِّ والإعلانِ      في العالمين

وفي الحق أنه كان صوفياً كبيراً، وقد لقبه تلاميذه ومريدوه بالشيخ الأكبر، وسميت طريقته الطريقة الأكبرية.

### الششتري<sup>(١)</sup>

هو أبو الحسن علي بن عبد الله النميري، ولد بقرية شُشتر من عمل مدينة وادي آش في إقليم غرناطة لأسرة ذات جاه وثراء. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وجوده، وعنى بتفسيره والوقوف على معانيه، كما عنى بدراسة الفقه المالكي، حتى نعت بالفقيه وعروس الفقهاء. وأخذ يكبُّ في شبابه على دراسة التصوف ولقاء المتصوفة، حتى استوعب وتمثل كثيرا من الرياضات الصوفية، وسرعان ما أخذ بمبادئهم في السياحة والتجول في البلدان، فطاف ببعض البلاد الأندلسية ثم عبر الزقاق إلى البلاد المغربية، وظل بها متجولا فترة غير قليلة، تلمذ في أثنائها لأبي مدين المتوفى سنة ٥٩٢ وربما لم يلقه، فأخذ طريقته عن تلاميذه ومريديه. وكان صوفيا سنيا، وشاعت طريقته الصوفية - منذ حياته - في البلدان المغربية، وملأت - فيما يبدو - نفس الششتري فاعتنقها. ولقى ببجاية ابن سبعين وعرف منه ابن سبعين أنه ذاهب إلى أصحاب أبي مدين فقال له: إن كنت تريد الجنة فسر إليهم وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلي. وظل طويلا معجبا بابن سبعين حتى كان يعبر عن نفسه في بعض منظوماته بعبد ابن سبعين، ويقال إن ابن سبعين قال له: لن تدخل في طريق الصوفية إلا إذا تجردت من متاعك وثيابك ولبست قشبانية الصوفية (يريد رقعتهم البالية) وحملت في يدك بنديرا (يريد علم الدراويش) ودخلت السوق بهذه الصورة وبدأت بذكر الحبيب. فصنع كما رسم له ابن سبعين، وظل في السوق ثلاثة أيام يغنى بخواطر المتصوفة منشدا:

شويخ من أرض مكناس في وسط الأسواق يغنى<sup>(٢)</sup>  
اش على من الناس واش على الناس منى

واتجه إلى مصر، وأقام بالإسكندرية فترة تعرف فيها على الشيخ أبي الحسن الشاذلي

وراجع في أشعاره وموشحاته وأزجاله ديوانه بتحقيق د. علي النشار (طبع الإسكندرية).  
(٢) مكناس: مدينة بالمغرب بينا بجاية مدينة ساحلية بالجزائر.

(١) انظر في الششتري وترجمته وأشعاره وموشحاته وأزجاله نفع الطيب ١٨٥/٢، ٢٠٥ والإحاطة ٢٠٥/٤ وعنوان الدراية للغبريني ص ١٤٠ وما بعدها ونيل الانتهاج للتنكيحي والرسائل الكبرى لابن عباد الرندي (طبع فاس) ص ١٩٧

صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه أبي العباس المرسى وحمل عنها طريقتها، وبذلك يعترف في بعض أجزاله قائلاً: «شيوخى هم الشاذليّ» وحجج مرارا وكان كلما حجّ طوّف في العراق والشام ثم عاد إلى مصر. ويذكر مترجموه أنه لقي ابن إسرائيل تلميذ ابن عربي في الشام سنة ٦٥٠ كما لقي أصحاب عمر السهروردي البغدادي المتصوف السني المشهور مؤلف كتاب عوارف المعارف. وفي أوبة له من الشام إلى ساحل دمياط سنة ٦٦٨ توفي بقربها ودفن بمقبرتها، وقبره بها. وعليه شاهد يحمل اسمه. وكان لقاءه لابن سبعين وإعجابه به وذكره لاسمه في موشحاته وأجزاله مثنيا منها سببا في أن يظن بعض معاصريه ومن جاء بعدهم أنه كان - مثله - يؤمن بوحدة الوجود المطلقة، وهو منها براء، إذ بدأ حياته على طريقة أبي مدين المغربي الصوفية السنية، وانتقل منها في مصر إلى طريقة أبي الحسن الشاذلي الصوفية السنية، فهو صوفي سني، وفيه يقول الغبريني: «الشيخ الفقيه الصوفي الصالح العابد، من الفقهاء (يريد الصوفية) المنقطعين، له معرفة بالحكمة ومعرفة بطريقة الصالحين الصوفية» ونوه به ابن عباد الرندي الشاذلي في رسائله الكبرى، كما نوه به من صوفية الشاذلية أحمد زروق شارح قصيدته:

أرى طالبا منا الزيادة لا الحسنى      بفكرٍ رمى سَهْمًا فعُدَى به عَدْنَا<sup>(١)</sup>

إذ نقل عنه التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج نعتة له بقوله: «الشيخ العارف أحد الصوفية من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يُقرأ عليه القرآن والسنن، عارفا بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحكم والأذواق فحاز فيه قصب السبق». ويقول المقرئ فيه: عروس الفقهاء وإمام المتجردين وبركة لابسى الخرق الصوفية.. كان مجوداً للقرآن قائماً عليه عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال في الآفاق ولقى المشايخ، وحجج حجات، وآثر التجرد والعبادات، وصنف كتباً مختلفة، منها: «العروة الوثقى» و«المقاليذ الوجودية في الأسرار الصوفية» و«الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة» و«المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية». ومن شعره قوله:

لقد تَهَتْ عُجْبًا بالتجرّد والفقر      فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر  
وجاءت لقلبي نَفْحَةً قُدُسِيَّةً      فغبت بها عن عالم الخلق والأمر  
وصلت لمن لم أنفصل عنه لحظةً      ونزّهت من أعنى عن الوصل والهجر

(١) الحسنى وعدن: الجنة. الزيادة: مقام المحبة الصوفية.

وما الوصف إلا دونه غير أننى أريد به التشبيب عن بعض ما أدرى  
 وذلك مثل الصوت أيقظ نائمًا فأبصر أمرًا جل عن ضابط الحصر  
 فقلت له الأسماء تبغى بيانه فكانت له الألفاظ سترًا على ستر

وهو يتبه عجبًا وزهوًا بالاجتهاد في العبادة والإمامة لفقراء الصوفية، فلا يهمله أى  
 شيء مما يتعلق به الناس من جاه السياسة ومتاع الحياة، فحسبه نفحة قدسية امتزجت  
 بقلبه، فغاب عن الكون وكل ما فيه من عالم الخلق والتدبير. ويقول وصلت إلى رضوان  
 الله ومحبته، ويستدرك فإنه غنى عن الوصل والهجر ولا وصف يحيط به، وما تشبيبي وغزلي  
 إلا بعض ما أشعر به، وكأني مثل نائم أيقظه صوت فأبصر من جلال الله ما يحل ويعظم  
 عن الحصر، وحتى أساؤه الحسنى لا تجلو هذا الجلال، إذ لا تحيط به ألفاظ، بل لكأننا  
 الألفاظ تضيف دونه حجابًا إلى حجاب، وله في إحدى موشحاته:

خلعتُ عذار عشقى فى غرامى وهمتُ وقد حلا عندى هيامى  
 بمن أهوى وكاسات المدام  
 مذهبي دنى لائى دغنى الهوى فنى  
 ببذلى فى الهوى روحى ومالى عشتُ فما لعدالى ومالى

وهو يقول إنه لم يعد يتحفظ أو يتحشم في غرامه، بل لقد أصبح يتهتك فيه،  
 لا يستحي ولا يخجل، إذ جح به هيامه بمن يهوى بل لقد حلاله هذا الهيام كما حلاله  
 الإكباب على كاسات المدام حتى ينتشى بشراب المحبة الإلهية إلى أقصى حد ممكن، وهو  
 ليس شرابًا عاديًا بل هو رحيق صاف، وهو يتخذ دنه مذهبًا له حتى يهبج روحه وقلبه بهذا  
 الحب الربانى الذى بذل فيه روحه وكل ما يملك، فما للعدال اللائمين وماله. وقد اندلع في  
 فؤاده هذا الحب وإنه ليشرب رحيقه من دن قدسى عظيم. ومن قوله في موشحة ثانية:

يا حيبى بحياتك بحياتك يا حيبى  
 رقى لى وانظر لى بالذى بى أنت أدرى بالذى بى  
 أنت دائى ودوائى فتلطف يا طبيبى

وهى كلمات تكاد تطير من الفم طيرانًا لخفتها وعذوبتها وسلاستها. وهذه السلاسة  
 والعذوبة كان يكثر إنشاد شعره وموشحاته وأزجاله في حلقات المتصوفة من شاذلية وغير  
 شاذلية، ونوه بها جميعًا مترجموه، يقول الغبريني: «شعره في غاية الانطباع والملاحظة،

وتواشيحه ونظمه الزجلى في غاية الحسن» ويقول ابن عباد الرندى: «في موشحاته وأزجاله حلاوة، وعليها طلاوة».

### (ج) شعراء المدائح النبوية

طبيعى أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلهم في ذلك مثل الشعراء في جميع البلدان العربية الإسلامية، إذ هو المثل الكامل لكل مسلم في تقواه ونسكه وورعه وامتثاله لأوامر ربه. وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذى أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع، وفرضوا على أمراء الطوائف المتنازحين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خانعين. وهو ماجعل غير شاعر أندلسى يفزع إلى مديح الرسول الكريم آملاً أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة في نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف. واتسع ذلك منذ القرن السادس الهجرى حتى أصبح المديح النبوى غرضاً كبيراً من أغراض الشعر الأندلسى، ونحن نجده في هذا القرن على لسان ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ وله في مخاطبة مكة مهبط الوحي النبوى ورسوها الكريم شعر<sup>(١)</sup> طريف، وبالمثل نجده على لسان أبي عبدالله بن أبي الخصال كاتب يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وله مع مديح الرسول مرثيتان<sup>(٢)</sup> في مقتل الحسين بكر بلاء. ويسوق المقرئ في الجزء الأخير من كتابه نفع الطيب لابن العريف الصوفى أشعاراً نبوية يذكر أنه نقلها عن كتابه: «مطالع الأنوار ومنابع الأسرار» ومن قوله في إحداها: (٣)

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي      يَحُبُّكَ قُرْبَةً نَحْوَ الْإِلَهِ  
جَرَّتْ أَمْوَاهُ حُبِّكَ فِي فُؤَادِي      فَهَامَ الْقَلْبُ فِي طَيْبِ الْمِيَاهِ

فهو محب وآله للرسول عليه السلام، ويستمر قائلاً إنه نال به في دنياه فرحة وسروراً، وسينال به في أخراه جاهاً ونعيماً إذ يجب محبوب الإله وصفيه، ويتذلل له في بعض مدحه قائلاً إنه عبد مسترق له ويطلب منه العتق والرضا وأن يكون له ملاذاً وملجئاً. ويختم

(٣) انظر في هذه القصيدة وتاليها نفع الطيب

٤٩٧/٧

(١) أزهار الرياض ١٤٧/٣ وما بعدها.

(٢) فهرست ابن خبىر ٤٢١.

المقرى اختياراته من كتابه بقصيدة له تفتتح جميع أبياتها بسلامة الله على النبي الهادي العظيم على هذا النمط:

صَلَّى الإِلَهَ عَلَى النَّبِيِّ الْهَادِي      مَا لاذت الأرواحُ بالأجسادِ  
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا اسْوَدَّ الدُّجَى      فَكَسَا مُحَيًّا الأفقَ بُرْدَ جِدَادِ  
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا أُنْبَلَجَ السَّنَا      فابيضُ وَجْهُ الأَرْضِ بعد سَوَادِ

ويظل يدعو الله أن يصلى على رسوله ما هطلت السحب بالغيث وتغنى الطير على الأغصان، إذ خصه بالنور والإرشاد وختم النبوة كتابه الهادي. ولا تتضح عند ابن العريف فيما ساقه له المقرى من مديح نبوى فكرة الحقيقة المحمدية التي وجدت منذ الأزل ودارت حولها الأفلاك ودار الوجود، مما رده بعض المتصوفة وبعض مداح الرسول في المشرق، مما يؤكد ما قلناه من أن ابن العريف كان صوفياً سنياً. وملتقى بأبي الحسن بن لبّال وتشوقه<sup>(١)</sup> الحار إلى الروضة المقدسة الطاهرة لزيارة سيد ولد آدم، واشتهر صفوان بن إدريس بقصره<sup>(٢)</sup> أمداحه على آل البيت وإكثاره من تأيين الحسين، ولابن المناصف محمد بن عيسى المتوفى سنة ٦٢٠ أرجوزة<sup>(٣)</sup> في مئات من الأبيات في مديح الرسول. وملتقى بمعاصره أبي زيد الفاززى وسنخسه بكلمة.

وحين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة في حجر النصرى الإسبان الشماليين تكاثر المديح النبوى إذ اتخذ الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوى الشريف واصفين ما يعانیه وطنهم من محن خطيرة، وسنلم بطرف من هذه الرسائل في الفصل التالى مع الترجمة لابن الجنان المتوفى في عشر الخمسين وستائة، وقد أنشد له المقرى في الجزء السابع من نفع الطيب طائفة رائعة من مدائحه النبوية، ويستهلها بخمس<sup>(٤)</sup>، بديع جعل شرطه الخامس: «صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» وفيه عرض عرضاً رائعاً سيرته المنيرة ومعجزاته الباهرة. وكان يعاصره إبراهيم<sup>(٥)</sup> بن سهل الإشبلى، وكان يهودياً

(٤) نفع الطيب ٤٣٢/٧.

(١) المطرب ص ٩٠.

(٢) المغرب ٢٦٠/٢.

(٥) انظر فى ابن سهل مصادره فى ص ٣٠٦.

ومقدمة ديوانه لإحسان عباس طبع دار صادر

بيروت.

(٣) ساهها الدرّة السّنية فى العالم السّنية. انظر

التكملة ص ٣٢٥.



كما أسلفنا، ونشأ يقرأ ويدرس مع الشباب الإشبيلي المسلم ويختلط به، وشرح الله صدره للإسلام فأعلن في بواكير شبابه إسلامه، وكان شاعراً ماهراً، وله ديوان طبع مراراً، وبه قصيدة عينية تحمل تشوقاً إلى يثرب والحجاز، وأنشد له المقرئ منظومة<sup>(١)</sup> نبويةً بديعةً لعله استلهم فيها مخمس ابن الجنان إذ جعل شطرها الخامس الذي تدور عليه نفس شطر ابن الجنان السالف وقد ختمها بقوله:

يا شوقى الحامى إلى ذاك الحمى  
فمتى أقضيه غراماً مفرماً  
ومتى أعانقه صعيداً مكرماً  
بضمير كل موحدٍ ملثوما صلوا عليه وسلموا تسليماً

ولأبى الحسن الرُّعَيْنِي الإشبيلي المتوفى سنة ٦٦٦ قصيدتان حجازيتان وأخريان ربّانيتان<sup>(٢)</sup>. ولحازم القرطاجنى المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى مدحتان<sup>(٣)</sup> نبويتان بنى أولاهما على شطر له ثان من معلقة امرئ القيس وبنى الثانية بنفس النظام: شطر له وشرط من لامية امرئ القيس: «الأعم صباحاً أيها الظلل البالى». ويلقانا في كتاب الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة مدائح نبوية<sup>(٤)</sup> لغير شاعر مثل ابن الصانع وأبى جعفر بن جُزَى، وله مدحة على غرار مدحة حازم القرطاجنى الثانية.

وكان قد أصبح تقليدياً في غرناطة أن يُحتفل بالمولد النبوى احتفالاً رسمياً كل عام وأن تلقى فيه مدائح نبوية. وتسمى مولدية، وللسان الدين بن الخطيب طائفة من تلك المولديات، وهى مسجلة في ديوانه والجزء الأول من أزهار الرياض والجزء الأخير من نفع الطيب، ودائماً يبدوها بالحنين إلى الحجاز، ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة، وينهى المولدية غالباً بمديح السلطان الذى أقيم الاحتفال النبوى في عهده، ومن تصويره لحنينه المتنازع إلى الاكتحال بروية القبر الطاهر قوله:

إذا أنت شافهت الديار بطيبة  
فنب عن بعيد الدار فى ذلك الحمى  
وجئت بها القبر المقدس واللحدا  
وأذر به دمعاً وعفر به خداً

(١) النضج ٤٤٥/٧.

(٢) الذيل والتكملة للمراكشى القسم الأول من

الجزء الخامس ص ٣٦٤.

(٣) أزهار الرياض ١٧٨/٣ وما بعدها.

(٤) راجع الكتيبة الكامنة ص ٨٨، ١٣٤، ١٣٩.

٢٥١، ٣٠٣.

وكان يعاصره ابن جابر الوادى آشى وسنخسه بكلمة، وعاصرها ابن خاتمة وفي ديوانه مدائح نبوية بديعة، وأنشد المقرئ لابن زمرك مَوْلديات له في الجزء الثاني من أزهار الرياض، ومن قوله في إحداها مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم:

وأنت حبيبُ الله خاتَمُ رُسُلِهِ وأكرمُ مخصوصِ بَرُفَى ورضوانِ  
وأنت لهذا الكونِ علةٌ كَوْنُهُ ولولاك ما امتازَ الوجودُ بأكوانِ  
ولولاك للأفلاكِ لم تجلُ نِيرًا ولا قُلِدْتُ لِبَاتِنَهُنَّ بِشُهْبَانِ

وواضح أنه يقتبس من البوصيرى وأمثاله فكرة الحقيقة المحمدية وأن الله اصطفاه قبل نشأة الكون وأنه علة الوجود ومطلع النور في الأفلاك، ولولاه ما سطعت في لِبَاتِنِها ومواضع القلائد من جيدها شهبانه وشعله النيرة، وحرى أن نتوقف قليلاً بإزاء أبى زيد الفازازى وابن جابر الوادى آشى.

### أبو زيد<sup>(١)</sup> الفازازى

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبى سعيد بن يَخْلُقْتَن، وُلد بقرطبة، وبها منشؤه، وبمجرد أن حفظ القرآن الكريم أكبَّ على حلقات الشيوخ يتزود من الحديث النبوى وروايته والفقه وأصوله وعلم الكلام واللغة والنحو والأدب والشعر، وفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وسال ينبوع الشعر متدفقا على لسانه، وعمل في الدواوين الحكومية، وحظى بمكانة رفيعة عند أبى إسحق والى إشبيلية لأخيه الناصر الخليفة براكش (٥٩٢ - ٦٠٩ هـ) ولابن أخيه المستنصر (٦٠٩ - ٦٢٠ هـ) وعمل بدواوين عمه أبى العلاء إدريس في ولايته على إشبيلية وقرطبة، وتطورت الظروف ونودى بأبى العلاء - وهو فى الأندلس - خليفة للموحدين براكش. وجاز الزقاق إلى عاصمته سنة ٦٢٦ واستقدم أبأ زيد للعمل فى دواوين مراكش ولباه راضيا، ولم تكد تمضى بضعة أشهر حتى لبي نداء ربه سنة ٦٢٧ ويقول لسان الدين بن الخطيب فى ترجمته إنه كان فاضلا سُنيا شديد الإنكار والإنحاء على أهل البدع، وكان متلبسا بالكتابة عن الولاة والأمراء ملتزما بذلك مع كره له وحرصه على الانقطاع عنه..

ويقول لسان الدين أيضا عن أبى زيد إنه كان آية الله فى سرعة البديهة وارتجال النظم

٥٠٧/٧ وما بعدها.

(١) انظر فى ترجمة أبى زيد الفازازى التكملة رقم ١٦٤١ والإحاطة ٥١٧/٣ ونفح الطيب للمقرئ

والنثر وفورَ مادة وموالة استعمال. وله في الزهد عملان: عمل طُبِعَ بدار إحياء الكتب العربية في القاهرة باسم «القوائد العشرية في النصائح الدينية والحكم الوعظية» ولعلها هي التي سماها لسان الدين المعشرات الزهدية. ويقول إنه افتتحها بقوله: «المعشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية ناطقة بألسنة الوجلين المشفقين، شائقة إلى مناهج السالكين المستبين، نظمها متبركاً بعبادتهم، متيمناً بأغراضهم وإشاراتهم، قابضاً عنان الدعوى عن مداناتهم ومجاراتهم...». والمعشرات قصائد تشتمل كل منها على عشرة أبيات فأكثر، منظومة على جميع الحروف الهجائية. وكان له بجوار هذا الديوان ديوان ثان بنفس النسق نظمه في العبادة والنسك وسماه: «المعشرات الحبيبة» وافتتحها بقوله: «النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على ألسنة الذاهبين وجدا، الذائنين كمدا، نظم من نسج على منوالهم» وله ينجى ربه ويدعوه ضارعا:

إليك مددت الكفَّ في كلِّ شِدَّةٍ      ومنكَّ وجدتُ اللُطفَ في كلِّ نائِبِ  
فحقَّقْ رجائي فيك ياربُّ واكفِّني      شماتَ عدوِّ أو إساءةَ صاحبِ  
وكم كُرْبَةٍ نَجَّيْتَنِي من غِمَارِها      وكانتُ شَجًّا بين الحَسَا والتَّرائِبِ  
فيامنجي المُضطرَّ عند دَعائِهِ      أَعْتَنِي فقد سُدَّتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي

وسمى مجموعته في المدائح النبوية «الوسائل المتقبلة» وأضاف: «والآثار المسلمة المقبلة مودعة في العشرية النبوية» نظم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعدّها لما يستقبله من مدهش الأهوال، وفرغ خواطره لها على توالى القواطع وتتابع الأشغال، ورجا بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة.. والله - سبحانه - وليُّ القبول للتوبة، والمنان بتسويغ هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير في جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته» ولعل هذه المجموعة هي نفسها المطبوعة في دار إحياء الكتب العربية باسم «الوسائل المتقبلة في مدح النبي ﷺ». وهي مخمسات على الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء، والمخمس قد يشتمل على عشرين دورا، وقد يقل عدد الأدوار فيه حتى أحد عشر، ومن قوله في المخمس النوني عن رسول الله:

بدا قمرًا مسرأه شرقًا ومغربًا      وخُصَّتْ بِمِثْوَاهُ المدينةُ يثربُ  
وكان له في سُدَّةِ النورِ مَضْرِبُ      نجى لربِّ العالمين مقربُ<sup>(١)</sup>  
حبيبٌ فيدنو كلَّ حينٍ ويُسْتَدْنِي

أرواح الشهداء والملائكة.

(١) سدة النور: يريد بها سدة المنتهى المذكورة في سورة النجم وأن عندها الجنة التي تأوى إليها

من العالم الأعلى وما هو منهم شبيه بهم في الوصف زاكٍ لديهم  
رحيمٌ بكل الخلق دانٍ إليهم نصيحٌ لأهل الأرض حانٍ عليهم  
أضاء لهم صبحًا وصاب لهم مُرنا<sup>(١)</sup>

وهو يقول إن الرسول ﷺ قمر استضاءت بأشعة نوره المشارق والمغرب، وخصت به داره يثرب، شرف لها ما بعده شرف، ونزل في الساء، حين صعد إليها بمعراج، عند سدرة المنتهى، نجياً لرب العالمين مقرباً إليه حبيباً، بل أقرب محبوب إليه. وإنه لمن عالم الملائكة الأعلى وإن لم يكن منهم، لشبهه بهم في الوصف وطهارته وإنه للرحمة المسداة إلى الخلق مع النصح الخالص لوجه ربه ومع الحنو والعطف، بل إنه شمس يضيء الوجود صباحاً وينسكب عليه غيثاً غدقاً. ولأبي زيد وراء هذا الديوان نويات كثيرة أنشد منها المقرئ في النفح شذوراً، من ذلك قوله في الرسول:

تقدّم كلّ العالمين إلى مدى تطلُّ به الأوهام ظالعةً حسرى<sup>(٢)</sup>  
وعفَى رُسومَ الكافرين وأهلها فلا قيصرٌ من بعد ذاك ولا كسرى  
وخصّ بتشريفٍ على الناسِ كلهم بنور سماءٍ ناقلوه عن الإسراء  
ترقى إلى السبع الطباقي ترقياً حقيقاً ولم يعبرُ سفينا ولا جسراً  
فسبحان من أسرى إليه بعبده وبورك في السارى وبورك في المسرى

وهو يقول إن الرسول ﷺ تقدم عند ربه إلى مدى لا تستطيع الأوهام أن ترتفع إليه مها صعّدت ومهما تلهفت. وقد محا رسوم الكفار كأن لم تكن شيئاً مذكورا، فلا كسرى إذ سلبت منه كل بلاده وأصبحت من ديار الإسلام، ولا قيصر فقد سلبت الجوهرتان المتلاثلتان في تاجه: مصر والشام. وخصّه الله بتشريف على الناس ما بعده تشريف، خصه بالإسراء ليلاً إلى بيت المقدس وترقيه إلى السموات السبع ونزوله عند سدرة المنتهى يناجى ربه، فسبحان الذى أسرى بعبده. مردداً بذلك ما جاء في أول سورة الإسراء. ويقول بورك في الرسول السارى وفى المسرى والإسراء. ويردد أبو زيد في مديحه النبوى معجزات الرسول المادية ومعجزته الكبرى الخارقة معجزة القرآن الكريم وبلاغته التى ليس لها سابقة ولا لاحقة، ودائماً يذكر أنه خير الأنبياء وأفضلهم، وأكثرهم برا بأصحابه، ويحمل مرارا على أعدائه من الملحدّين، ويقول إنهم انحرفوا عن شاطئ النجاة فتردّوا في بحار هلاك ما بعده هلاك.

(٢) ظالعة: عرجاء. حسرى: متلهفة.

(١) المزن: السحاب الغدق المطر.

ابن<sup>(١)</sup> جابر الأندلسي

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن جابر الهواري، من أهل المرية ولد بها سنة ٦٩٨ وحفظ القرآن واختلف إلى الشيوخ من مثل ابن أبي العيش في العربية ومحمد بن سعيد الرندي في الفقه وأبي عبدالله الزواوي في الحديث. وكان كفيف البصر، ورأى أن يستتم ثقافته بالرحلة إلى الديار المصرية والشامية، وصحبه صديقه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطي، فكان ابن جابر ينظم وأبو جعفر يكتب. وحجاً وعادا إلى الشام، وسمع ابن جابر بدمشق على شيوخ عصره، واتجه مع صاحبه في سنة ٦٤٣ إلى حلب وتغلقا شاليها حتى ماردین<sup>(٢)</sup>، إذ يذكر ابن بطوطة في رحلته عن سلطان ماردین ابن الملك الصالح أنه كان بحرا فياضا في الكرم، يقصده الشعراء والفقراء من الصوفية فيجزل عطاياهم، ويقول إنه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحا، فأعطاه عشرين ألف درهم. وعاش طويلاً في حلب وتوفي بإلبيرة سنة ٧٨٠. وقد أكثر من النظم في المديح النبوي، وله فيه ديوان سماه «العقدين في مدح سيد الكونين» وبالمكتبة التيمورية مخطوطة منه. وله بجانب ذلك مشاركة خصبة في الشعر التعليمي إذ نظم فيه فصيح ثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وله بديعية اشتهرت بين البديعيات، وهي قصائد في المديح النبوي، عارض بها أصحابها - منذ صفى الدين الحلي - بردة البوصيري الميمية، وأودعوا كل بيت فيها لونا - وأحيانا لونين - من ألوان البديع، وشرحها رفيقة في رحلته أبو جعفر الغرناطي، واشتهرت باسم بديعية العميان وقد سماها: «الحلة السيرا<sup>(٣)</sup> في مدح خير الوري» وفي النفع طائفة كبيرة من نبيياته، منها مقصورة في نحو ثلاثمائة بيت نقتطف منها قوله:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَصْبَاحٌ هُدًى  
 إِنَّ تَحْسَبِ الرُّسُلَ سَمَاءً قَدْ بَدَتْ  
 وَإِنْ يَكُونُوا أَنْجَمًا فِي فَلَكِ  
 يَهْدِي بِهِ مَنْ فِي دُجَى اللَّيْلِ مَشَى  
 فَإِنَّهُ فِي أَفْقِهَا نَجْمٌ هُدًى  
 فَإِنَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بَدْرٌ بَدَا

٣٧٠ - ٣٠٢/٧

(٢) ماردین: قرية بتركيا الآن.

(٣) السيرا: المخطوطة خطوطا بديعة.

(١) انظر في ابن جابر وترجمته وشعره نكت الهميان ص ٢٤٤ والإحاطة ٣٣٠/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٤٢٩/٤ وشذرات الذهب ٢٦٨/٦ ونفع الطيب ٦٦٤/٢ - ٦٩٠.

أَحْسَنُ أَخْلَاقًا مِنَ الرَّوْضِ إِذَا مَا اخْتَالَ فِي بُرْدِ الصَّبَا أَوْ ارْتَدَى  
تَفْدِيهِ نَفْسِي مِنْ شَفِيعِ اللَّوْرَى وَقَلَّتِ النَّفْسُ لَهُ مِنِّي فِدَا

وقد بدأ ابن جابر المقصورة بالغزل وضمها في تضاعيف المديح النبوي كثيرا من الخواطر والحكم، وفصل القول في شئائل الرسول ومعراجه ومعجزاته، وتحدث عن الدهر وسطواته بأولى البأس والدول، كما تحدث عن حجه إلى البيت الحرام وزيارته بعده للرسول واكتحال عينيه بنور قبره، ويقول إنه ملاذه وعُدته وذخره لربه. وأنشد له المقرئ مدحة من غرر مدائحه للرسول ورى فيها بسور القرآن الكريم، ويقول المقرئ: لو لم يكن له في مديحه سواها لكفى، وهي تمضى على هذا النحو:

فِي كُلِّ فَاتِحَةٍ لِلْقَوْلِ مُعْتَبِرُهُ حَقُّ الثَّنَاءِ عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالْبَقْرَةِ  
فِي آلِ عِمْرَانَ قِدْمًا شَاعَ مَبْعُوثُهُ رَجَاهُ وَالنِّسَاءِ اسْتَوْضَحُوا خَبْرَهُ  
مِنْ مَدِّ لِلنَّاسِ مِنْ نِعْمَاهُ مَائِدَةٌ عَمَّتْ فَلَيْسَتْ عَلَى الْأَنْعَامِ مُقْتَصِرَهُ  
أَعْرَافُ نِعْمَاهُ مَاحِلُ الرَّجَاءِ بِهَا إِلَّا وَأَنْفَالُ ذَاكَ الْجُودِ مُبْتَدِرَهُ

والطريف أنه يُحْكَمُ وضع اسم السورة في مديح البيت ويلتحم بمعناه التحاماً رائعاً على نحو ما نرى من ذكره في هذه الأبيات لسور الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وآل عمران آل السيدة مريم كما جاء في السورة، والأنعام اسم السورة وهي الإبل، والأعراف كذلك اسم السورة، وهي في البيت جمع عرف بمعنى المعروف، والأنفال اسم السورة وهي العطايا. واطردت هذه الدقة في استظهار أسماء السور الكريمة في جميع أبيات القصيدة. ويهدى في نهايتها أزكى صلواته للرسول وعترته وصحابته، وخصوصاً عشرة منهم، ويسميهم، كما يهدى أزكى تحيتين للسيدتين الكريمتين خديجة وعائشة زوجتي الرسول ﷺ ولا بنته فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين، ويقول انه سيظل يهدى كل من ساهم مدائحه. وله قصيدة مطولة في فضائل الصحابة العشرة وآل البيت، ولكل علم منهم في أبياتها حظ مقسوم. ونشعر دائماً عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا يتقطع، بل يتدفق تدفقاً غزيراً.

## شعراء الاستنفار والاستصراخ

أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الغوث والعون تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، إذ انقسمت الأندلس الشاخحة في عصر الدولة الأموية إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للهو والقصف، وقلما فكروا في مصير الأندلس، وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسدّدونه إلى صدور جيرانهم الأندلسيين وما يلبثون أن يغمدوه حين يشهر الحرب على أحد هؤلاء الجيران أعدائهم من نصارى الشمال. وأكثر من ذلك كانوا يفدون أنفسهم وإماراتهم منهم بإتاوات سنوية يدفعونها لهم راغمين. وانهز أولئك النصارى الفرصة وهذه الفرقة بين أمراء الطوائف فتنادوا باسترداد الأندلس، وكان أول ما حاولوا استرداده حصن بربشتر سنة ٤٥٦ الواقع بين مدينتي لاردة وسرقسطة ركني الثغور الشمالية، فقد حاصره النورمانديون واستولوا عليه ونكّلوا بأهله ونسائه وفتياته تنكيلا بشعا، زلزل الأندلس وأطار من أهلها الأفتدة، وكان ممن أفرغه هذا الحادث الجلل، فقيه طليطلة الزاهد عبد الله العسال، فنظم قصيدة ملتهبة يستصرخ بها أهل الأندلس وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

ولقد رمانا المُشركون بأسهم	لم تُخَطِ لَكُنْ شأنها الإِصماء <sup>(٢)</sup>
كم موضع غنموه لم يُرْحَمَ به	طِفْلٌ ولا شَيْخٌ ولا عَذْرَاءُ
ولكم رضيع فرّقوه من أمه	فَلَهُ إليها ضَجَّةٌ وبُغَاءُ <sup>(٣)</sup>
ولربّ مولود أبوه مُجَدَّلٌ	فوق التراب وفرشهُ البيداء
ومصونة في خدرها محجوبة	قد أبرزوها ما لها استخفاء

وهو يقول إن المشركين رمونا بأسهم قاتلة، وغنموا مغانم ضخمة، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة على طفل ولا على فتاة ولا على رضيع ينشد أمه ويصيح بها، ولقد هتكت الحرم ونهبت الفتيات، والدماء هناك مطلولة، وقد رُوع سِرْبُ الله وقُلْ غَرَبه، وإن العين لتدمع وإن النفس لتتقطع. وكان ممن استشارتهم هذه النكبة وأقضت مضاجعهم الفقيه أبو حفص

(٢) الإصماء: القتل.

(٣) بغاء: نشدان.

(١) الروض المطار (طبع لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ص ٤٠.

عمر بن الحسن الهوزنى تَرَبُّ المعتضد أمير إشبيلية ورفيقه فى شبابه، فكتب إليه يستصرخه<sup>(١)</sup>، ليرأب الصدع ويداوى الجروح، ونظم أشعارا يحض فيها الأندلسيين على جهاد العدو قبل أن يستفحل الخطب ويُعضل الداء من مثل قوله<sup>(٢)</sup>:

بَيْتِ الشَّرِّ فَلَاسْتَزَلُّ	طَرَقَ النَّوَامَ سَمِعَ أزلُّ <sup>(٣)</sup>
فَثَبُوا وَاحْشَوْشَنُوا وَاحْزَلُّوا	كُلُّ مَارُزٍ سِوَى الدِّينِ قُلُّ
بَدَأَ صَعَقَ الأَرْضِ نَشْءٌ وَطَلُّ	وَرِيَّاحٌ ثَمَّ غَيْمٌ أبلُّ <sup>(٤)</sup>
يَدُنَا العَلِيَاءِ وَهَمٌّ - وَيَكُّ - شَلُّ	فَلَمَّ اسْتَرعى الأَعزَّ الأذَلُّ <sup>(٥)</sup>
عَجِبُ الأَيَّامِ لَيْثٌ صُمَلُّ	ذَعَرَتُهُ نَعَجَةٌ إِذْ تَصَلُّ <sup>(٦)</sup>

وهو يصرخ فى كل أندلسى أن يعزم - بقوة - على الشر، فقد صكَّ مسامع النوام ذئب فاتك. وعليهم أن يثبوا بأعدائهم ويحشوشنوا ويتجمعوا لهم حتى يضربوهم الضربة القاضية. وإنه لينذر قومه فبدء الصواعق سحاب ينشأ وطل خفيف ورياح لينة، ثم غيم كثيف ورعود وبروق وعواصف مدمرة. ويحاول أن يملأ روح الأندلسيين حماسة ملتبهة، فيقول إننا كثرة غالبية ولنا العز والبأس والمنعة، وأعداؤنا قلة ذليلة، فكيف ذهى الأذلاء الأعداء واستباحوا ديارهم، ويعجب أشد العجب من أن تُفزع نعجة لا حول لها ولا قوة بصوتها اللين الرخيم أسدا ضاريا بالغ الصلابة مفرط القوة. واستطاع أبو حفص الهوزنى وأضراجه من شعراء الأندلس أن يملئوا نفوس أهل سرقسطة غضبا لإخوانهم من أهل بربشتر، فلم يدر عام حتى انقضوا على النورمانديين ونكلوا بهم، واسترجعوا بربشتر، وغسلوها من وضرهم ورجسهم.

وكان فردناند ملك قشتالة قسم دولته بين أولاده الثلاثة: شانجه بقشتالة وألفونس بليون وأشتوريش وغرسية بجليقية والبرتغال، واختصم شانجه وألفونس وانتصر شانجه ففر ألفونس إلى دير، ثم لجأ إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبدلا من أن ينتهز الفرصة التى أمكنته من عدوه أنزله ببلده فى قصر وأكرمه لمدة تسعة شهور، درس فيها طليطلة ومدخلها ومخارجها. واغتيل شانجه، واستدعى القشتاليون ألفونس وأصبح

(٥) شل: يريد قلة.

(٦) صمل: شديد الخلق. تصل: تصيح بصوت لين

رفيق.

(١) الذخيرة ٨٩/٢.

(٢) الذخيرة ٨٩/٢.

(٣) سمع أزل: ذئب فاتك.

(٤) غيم أبل: غيم ممطر مطرا شديدا.



ملكا عليهم وعلى ليون وجليقية والبرتغال. وكان أول ما أهمه الاستيلاء على طليطلة حتى يردَّ الدِّينَ الذي في عنقه لبنى ذى النون! يقول ابن الخطيب: «وسُكَّناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذى أوجب تملك النصارى لها<sup>(١)</sup>». ولم يلبث أن استولى عليها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - سنة ٤٧٨ واستولى على جميع المدن والقرى التابعة لها من وادى الحجارة إلى طلييرة وشتنمية، وكان لذلك زلزلة ضخمة في نفوس الأندلسيين، إذ استولى ألفونس لا على مدينة بل على قلعة ضخمة من أكبر قلاعهم، وانبرى شاعر كبير يحرز الأندلسيين على الأخذ بالثأر واسترداد تلك الجوهرة الكبيرة، بقصيدة تقطر غضبا وموجدة، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

طُليطلةٌ أباح الكُفْرُ منها	حماها إنَّ ذا نَبأٌ كبيرُ
ألم تَكُ مَعْقِلًا لِلدِّينِ صَعْبًا	فَدَلَّه - كما شاء - القَدِيرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مَصْطَفَاةً	قَدِ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِهَا الأُمُورُ
مَسَاجِدُهَا كَنَائِسٌ أَى قَلْبٍ	عَلَى هَذَا يَقْرُؤُ وَلَا يَطِيرُ؟!
أَذِيلَتْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَانَتْ	مُصُونَاتٍ مَسَاكِنُهَا القُصُورُ <sup>(٣)</sup>

والنزعة الدينية قوية في القصيدة، إذ كانت حرب الشماليين فعلا حربا صليبية، والشاعر جزع أن يسقط هذا المعقل الكبير للدين الحنيف، ولا يهبُّ أبناؤه لحمايته واستعادته، حتى لقد أصبح دار كفر بعد أن كان دار إيمان وهداية. ولم يوف ألفونس بما عاهد عليه بنى ذى النون أمراءها وأهلها من الإبقاء على مساجدهم واحترام شعائرتهم الدينية، فقد أحال مسجدها الكبير كنيسة. ويستثير الشاعر حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب، بل أيضا للعرض الذى طالما سلَّت السيوف من أجله وأذيقته الختوف، فقد امتهنت النساء العفيفات ربات القصور الحسان ذوات الجمال، وتحولن إلى خادمات في بيوت العلوج، وإنه لحرى أن يغلى لذلك دم كل مسلم وأن يمتشق الحسام للثأر والفتك بأعداء الإسلام، يقول:

خذوا ثأرَ الديانَةِ وأنصروها	فقد حامت على القتلى النُشُورُ
ولا تهنؤا وسلؤا كلَّ عَضْبٍ	تَهَابُ مَضارِبًا مِنْهُ النُّحُورُ <sup>(٤)</sup>
وموتوا كلُّكم فالموتُ أولى	بكم من أن تجاروا أو تخوروا <sup>(٥)</sup>

(١) أعمال الأعلام ٢/٣٣٠.

(٢) نفع الطيب ٤/٤٨٣ وما بعدها.

(٣) أذيلت: امتهنت. قاصرات الطرف: عفيفات.

(٤) العضب: السيف القاطع.

(٥) تجاروا: من أجاره إذا حماه. تخوروا من خار:

ضعف ووهن.

وَنَرْجُو أَنْ يُتِيحَ اللَّهُ نَصْرًا عَلَيْهِمْ إِنَّهُ نِعْمَ النَّصِيرُ

وهو يقول للأندلسيين جميعا ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بئار دينكم ولا تهنوا بل جالدوا أعداءه مجالدة ضارية، حتى تذيقوهم وبال عدوانهم الأثيم، وإنه لعار ما بعده عار أن تسالموهم وتقبلوا إيجارتهم وحمائتهم لكم فإن في ذلك هواناً لكم ما بعده هوان. ويستصرخ كل أندلسي أن ينازلهم حتى الذماء الأخير، عسى أن يُجبرَ العظم الكسير. ومع روعة القصيدة وامتدادها إلى نحو ستين بيتا لم يذكر معها اسم ناظمها، وأكبر الظن أنها لزاهد طليطلة أبي محمد عبد الله العسّال، ومرّ بنا آنفا شعره حين استولى العدو على برّيشتر، ولا يعقل أن يستولى ألفونس على طليطلة بلده ولا ينظم فيها قصيدة حارة يستنفر بها الأندلسيين لاستردادها، ونظن ظنا أنه نظم في نجاتها لا هذه القصيدة فحسب، بل قصائد مختلفة يستثير بها مواطنيه كي ينقذوها من أيدي القشتاليين.

وكان يوسف بن تاشفين - كما مر بنا - حين استولى على إمارات أمراء الطوائف رأى أن يدع سرقسطة في أقصى الشمال لأمرائها من بني هود لاستبسالهم المستمر في حمايتها أمام ملوك أراجون، حتى إذا خلفه ابنه على زين له الملتفون حوله من الفقهاء ورجال دولته أن يأخذها من أيدي بني هود، فأجبرهم على التنازل عنها، وسرعان ما أزفت الآزفة إذ حاصرها ملك أراجون سنة ٥١٢ واستولى عليها من يد المرابطين. وكان ذلك نذير شؤم، فقد استولى النصارى بعدها على الثغور المجاورة، استولوا على كُنتده جنوبيها سنة ٥١٤ وعلى طُيلة وطرسونة غربيها سنة ٥٢٤. وفي سنة ٥٣٩ انحسر ظل دولة المرابطين عن الأندلس، وانتهاز الفرصة كثيرون من شخصياتها فسيطروا على بعض بلدانها، وسيطر من بينهم ابن همشك على جيان واتخذ وزيرا له أبا جعفر الوقشي أحد رجالات الأندلس النابيين وكان شاعرا، وما زال يقنع ابن همشك بالدخول في طاعة الموحدين حتى ارتضى رأيه سنة ٥٦٢ فأرسل به إلى يوسف بن عبد المؤمن في عاصمته مراكش ليعلن إليه دخوله في طاعته، وأحسن يوسف استقباله، وله فيه غير قصيدة، ونراه في إحداها<sup>(١)</sup> يستصرخه لجهاد النصارى في الأندلس ورد كيدهم في نحورهم، وفيها يقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُمَدُّ لِي الْمَدَى فَابْصِرْ شَمَلَ الْمُشْرِكِينَ طَرِيداً<sup>(٢)</sup>

(١) انظر القصيدة في نفع الطيب ٤/٤٧٧ - (٢) يد لي المدى: تطول حياتي.

وهل - بعد - يَقْضَى فِي النَّصَارَى بِنُصْرَةٍ  
ويغزوا أبو يعقوبَ فِي «سَنْتَ يَا قُب»  
ويُلْتَقَى عَلَى إِفْرِنْجِهِمْ عِبَاءَ كُلِّكُلِّ  
يفادهم جَرْحَى وَقَتْلَى مَبْرَحًا

تفادهم لِلْمُرْهَفَاتِ حَصِيدًا<sup>(١)</sup>  
يُعِيدُ عَمِيدَ الْكَافِرِينَ عَمِيدًا<sup>(٢)</sup>  
فِي تَرْكِهِمْ فَوْقَ الصَّعِيدِ هُجُودًا<sup>(٣)</sup>  
رُكُوعًا عَلَى وَجْهِ الْفَلَاحِ وَسُجُودًا

والوقشي يتمنى أن يمُدَّ له في عمره حتى يبصر جموع المشركين مهزومين مدحورين مطرودين إلى أقصى الشمال وقد حصدتهم سيوف المسلمين حصدا بقيادة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وهو يتعقبهم منزلا بهم الهلاك والدمار حتى «سنت يا قوب» في جليقية بأقصى الغرب من مملكة قشتالة، وقد أصبح عميدهم أو ملكهم قتيلا إثر مواقع تمزقهم تمزيقا، حتى لُتَمَلَأَ الأَرْضُ بهم جرحى وقتلى كَبُؤًا على جباههم، وكأنهم راعون على وجه الفلوات ساجدون وهم مجرَّحون مصرَّعون. ويمضي قائلا:

ويفتكُّ من أَيْدِي الطُّغَاةِ نَوَاعِمًا  
وَأَقْبَلْنَ فِي خُشْنِ الْمَسُوحِ وَطَالَمَا  
وَغَبَّرَ مِنْهُنَّ التَّرَابُ تَرَائِبًا  
فَحَقُّ لِدَمْعِي أَنْ يَفِيضَ لِأَزْرَقِ  
وَيَالْهَفَ نَفْسِي مِنْ مَعَاصِمِ طَفَلَةٍ

تَبَدَّلْنَ مِنْ نَظْمِ الْحُجُولِ قِيودًا<sup>(٤)</sup>  
سَحَبْنَ مِنَ الْوَشْيِ الرَّقِيقِ بُرُودًا  
وَخَدَّدَ مِنْهُنَّ الْهَجِيرُ خُدُودًا<sup>(٥)</sup>  
تَمَلَّكَهَا دُعَجُ الْمَدَامِ سُودًا<sup>(٦)</sup>  
تَجَاوَرُ بِالْقِدِّ الْأَلِيمِ نُهُودًا<sup>(٧)</sup>

والوقشي يستثير حمية يوسف بن عبد المؤمن بما حدث من هوان النساء المسلمين وفتياتهم الحسنات إذ تبدلن من زينتهن وحلى خلاخيلهن أغلال القيود، بل يا للذل فقد ألبسوهن مسوح النصارى الصوفية الخشننة بعد أن عشنَّ يلبسن الثياب الحريرية الموشاة الرقيقة، بل يا للهول لقد صرنَ خادِمَاتٍ يَلْطُخُ التَّرَابَ مواضع القلائد النفيسة في صدورهن، وقد غاضت من خدودهن النظرة من العمل الشاق في لفح الهاجرة بعد أن كن

(١) المرهفات: السيوف. حصيدا: محصودين

كالزراع المحصود.

(٢) يريد بعميد الأولى سيد النصارى وملكهم،

ويعيد الثانية قتيلا وأصل معناها القتل بالعمود.

(٣) كلكل: وقعة مبررة. الصعيد: وجه الأرض.

هجودا: موتى كأنهم نائمون

(٤) الحجول: الخلاخيل.

(٥) غبر: لطح بالغبار. الترائب جمع تريبة:

(٦) يريد بالأزرق الإسباني لزرقة عينيه. دعج

جمع أدعج: شديد السواد.

(٧) معاصم جمع معصم: موضع السوار في يد

المراة. طفلة بفتح الطاء: المرأة أو الفتاة البضة

الناعمة. القد: سير من جلد.

الناعمة. القد: سير من جلد.

ربّات بيوت وفتيات قصور مخدومات تحفّ بهن الفخامة والجلال. ويقول الوقشي حقّ  
لدمعي أن يسيل مدرارا لأولئك الحسان ذوات العيون النجلاء الدّعج اللائي نشأن في  
الحلية والنعيم، فقد بدّلت الأساور والحليّ الذهبية في معاصمهن أقداً أوسورا من جلد،  
فيالعار! ويا للإسلام! ويا للعروبة

وكان لهذه القصيدة وما يماثلها من استصراخات الأندلسيين ليوسف بن عبد المؤمن  
أمير الموحدين الأثر العميق في نفسه، فدخل الأندلس في سنة ٥٦٦ على رأس مائة ألف  
فارس شاكي السلاح، وسحق النصارى في غير موقعة واستردّ كثيراً من ديار الأندلس  
والقلاع والحصون، واتسعت بها مملكته. وخلفه ابنه يعقوب المنصور فمزق جموعهم في  
موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ غير أن النصر كتب لهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩  
لعهد ابنه الناصر. وثار الأندلس على الموحدين، وتفككت بلدانها وتحارب أمراؤها، مما  
أذن سريعاً بضياح الشطر الأكبر منها، وما توافى سنة ٦٢٦ حتى يستولى النصارى  
القشتاليون على مدينة ماردة في الغرب شرقي بطليوس، وفي السنة التالية يستولى  
صاحب برشلونة على جزيرة ميورقة، وما تلبث حبات العقد ودرره أن تنفرط واحدة في  
إثر أخرى، وتسقط في سنة ٦٣٣ قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى في حجر القشتاليين،  
وتنشب بأخرة من سنة ٦٣٤ موقعة أنيشة على بعد سبعة أميال من بلنسية بين رجالها  
وذوى البأس والشجاعة فيها وبين ملك أرجون وجنوده، واستطاعت الكثرة النصرانية  
أن تدحر الأبطال الأشداء ومن كان يلهب حماسهم من العلماء أمثال القاضي أبي الربيع  
الكلاعي الذي استشهد وهو ينازل العدو منازل ضارية. ولم يلبث ملك أرجون أن حاصر  
بلنسية أشهراً متعاقبة، وشدّد الحصار حتى أعوزت شجعانها المؤمن، ولم يبق إلا الموت  
جوعاً أو التسليم. ومنذ موقعة أنيشة أخذ أميرها أبو جميل زيان بن أبي الحملات  
يستصرخ حكام المغرب لإغاثة ونجدة بلدته مرسلًا إليهم الوفود تلو الوفود، وكان ممن  
استغاث به أبو زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس، إذ أرسل إليه وفداً على رأسه  
كاتبه ووزيره المؤرخ الأديب ابن الأبار، وسنترجم له عما قليل ملمين بقصيدته التي  
أنشدها بين يديه مستنرفاً له قبل سقوط بلنسية في يد العدو. وتأثر حين سماعه القصيدة  
فجهز أسطولاً من ثمانى عشرة سفينة محمّلة بالمؤن والسلاح، واتجه الأسطول - مع  
ابن الأبار والوفد المرافق له - إلى بلنسية، غير أن الأسطول أخفق في إيصال المؤن إلى  
المحاصرين، واضطر إلى إنزالها في ثغر دانية جنوبي بلنسية. وقد ظلت المدينة تقاوم أشهراً  
طوالاً حتى نفذت الأقوات واضطر أميرها وأهلها إلى التسليم في صدر سنة ٦٣٦ وكان

ذلك رُزْءًا أليما وخطبا جسيما، مما جعل كثيرين من شرقي الأندلس يستنهضون عزائم أهل المغرب وأمرائهم لاسترداد بلنسية والأخذ بثأرها، من ذلك قصيدة مطولة أنشدها المقري لشاعر وجه بها إلى أبي زكريا الحفصي أمير تونس، يقول فيها<sup>(١)</sup>:

نَادَتْكَ أَنْدَلُسُ فَلَبَّ نِدَاءَهَا      وَاجْعَلْ طَوَاعِيَتَ الصَّلِيبِ فِدَاءَهَا  
رِشْ أَيُّهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمِ جَنَاحَهَا      وَاعْقِدْ بِأَرْشِيَةِ النِّجَاةِ رِشَاءَهَا<sup>(٢)</sup>  
إِيهِ بَلْنَسِيَّةٌ وَفِي ذِكْرَاكَ مَا      يُعْرِى الشُّتُونَ دِمَاءَهَا لَا مَاءَهَا<sup>(٣)</sup>  
بِأَبِي مَا ذِنْ كَالطُّلُولِ دَوَارِسُ      نَسَخْتُ نَوَاقِيسُ الصَّلِيبِ نِدَاءَهَا  
هُبُوا لَهَا يَا مَعْشَرَ التَّوْحِيدِ قَدْ      أَنْ الْهُبُوبُ وَأَحْرَزُوا عَلَيَّاهَا

والقصيدة تزخر بالعاطفة الدينية، فالأندلس تستجير ضارعة من حملة الصليب الطغاة، ويتوسل الشاعر إلى أبي زكريا أن يریش جناح الأندلس المهيبض ويعقد حبلها وخبوطها بحبال النجاة وما يرسل إليها من الجيوش الجرارة. ويبكى بلنسية وما دهاها، مما يفيض المدامع لا ماء بل دماء ساخنة حارة، ويود لو فدى المآذن الدارسة بروحه، ويتحسر على ندائها: «الله أكبر» الذى نسخته نواقيس الصلبان بل محته محوا. ويستصرخ المسلمين أهل التوحيد أن يهبوا لإنقاذ الأندلس من أهل الصليب وما ينزلون بها من محن وخطوب عظام. وتسقط فى أواخر سنة ٦٣٩ مدينة شقر جنوبى بلنسية: بلدة ابن خفاجة أكبر شعراء الطبيعة فى الأندلس، ويلتاع الكاتب الشاعر ابن عميرة أحد أبنائها لسقوطها التياعا شديدا أملا فى استردادها من حملة الصليب بمثل قوله: <sup>(٤)</sup>

قَدْ عَادَ قَلْبِي مِنْ شَرْقِي أَنْدَلُسٍ      عَيْدُ أَسَى فَتَهُ وَمَا فَتَّرُ<sup>(٥)</sup>  
وَدُونَ شُقْرٍ وَدُونَ زُرْقَتِهِ      أَزْرَقُ يَحْكِي قَنَاهُ أَوْ أَشْقَرُ  
الرُّومُ حَرْبٌ لَنَا وَهُمْ وَشَلُّ      سَالِمَهُ الْوَارِدُونَ فَاسْتَبَحِرُ<sup>(٦)</sup>  
إِنَّا لَنَرْجُو لِلدَّهْرِ فَيَاةَ مَنْ      أَنْابَ مِمَّا جَنَاهُ وَاسْتَغْفِرُ<sup>(٧)</sup>  
وَنَرُقِبُ الْكِرَّةَ الَّتِي أَبَدَا      بِهَا عَلَى الرُّومِ لَمْ نَزَلْ نُخْبِرُ

الرباط) ص ٢٣٢.

(٥) عيد هنا: ما يعتاد الإنسان من الهموم. فتر: سكن

(٦) وشل: قليلون. استبحر: كثر واتسع.

(٧) فياة: رجعة.

(١) نفع الطيب ٤/٤٧٩.

(٢) رش من راش: أنبت الریش. أرشية جمع رشاء: الحبل.

(٣) يمرى من أمرى الناقة: أدر لبناها.

(٤) انظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي للدكتور محمد بن شريفة (طبع

وهو يقول إنه زار شرق الأندلس، فامتلاً قلبه مما حدث له ولموطنه «شقر» أسىً وغماً فنته تفتيتاً، ولم - ولن - يفتّر أو يسكن، وأين شُقر؟ وأين نهرها بزرقته وجلله السندسية؟ لقد استولى عليه شقر من الروم زرق العيون مثل زرقه قناته، ويقول: يا للعجب! لقد كانوا فئة معادية قليلة فسالمهم الواردون على الأندلس، فإذا هم يتكاثرون ويتسع سلطانهم. وإنه ليأمل أن يتوب الدهر بما جناه على أهل الأندلس من عدوان حملة الصليب، ويسترجع طالبا الغفران. ويقول إننا لا نزال نرقب الكرّة على الروم والنصر الذي وعد الله به الإسلام والمسلمين على الكفار وأهل الشرك. ويتوالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية، فتسقط دانية على المتوسط سنة ٦٤٣ وجيان شرقى قرطبة سنة ٦٤٣ وشاطبة شرقى دانية سنة ٦٤٤. وإشبيلية سنة ٦٤٥ ومرسية سنة ٦٦٤ ويصرخ أبو البقاء الرندي في نونية له مشهورة صرخة مدوية، وحرى بنا أن نتحدث بإيجاز عنه وعن ابن الأبار.

### ابن<sup>(١)</sup> الأبار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، كان أبوه من جلة القراء، من أهل حصن أنده من أعمال بلنسية، بارحها إليها واتخذها وطناً له ومستقراً، وبها رُزق بابنه محمد سنة ٥٩٥ للهجرة، وعنى به، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ عنه قراءة نافع مقرئ أهل المدينة المشهور، وأكب على دراسة الحديث ورجاله والفقهاء والتاريخ، وأخذ يلتهم كل ما يسمعه عن الشيوخ وخاصة عن إمام بلنسية وقاضيتها لعصره أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعى، وكان ابن الأبار يعجب به إعجاباً يملأ عليه نفسه، وهو الذى وجهه إلى العناية بالكتابة التاريخية عن أعلام الأندلس، واتخذ الكلاعى صفيّاً له، لما رأى من ذكائه النادر، غير أنه طمح إلى العمل السياسى فى دواوين الحكام، ولم يلبث والى الموحدىن على

مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وشذرات الذهب ٢٩٥/٥ وراجع كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عنه (طبع بمعهد مولاى الحسن ١٩٥١) وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية عنه ومقدمة الدكتور مؤنس لتحقيقه لكتابه «الحلة السيرة» وقد عرض فيها جميع من تحدثوا عنه من المستشرقين والمعاصرين.

(١) انظر فى ابن الأبار عنوان الدراية للفبرينى ص ١٨٣ واختصار القدح المعلى لابوع سعيد ص ١٩١ والمغرب ٣٠٩/٢ وتاريخ ابن خلدون ص ٢٨٣/٦ وفوات الوفيات لابن شاعر ٤٥٠/٢ وبقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ٩٠ وأزهار الرياض للمقرى ٢٠٥/٣ وما بعدها ونفع الطيب ٤٥٧/٤ وفر

مدينته محمد بن أبي حفص أن اتخذها كاتبا له، وكتب بعده لابنه أبي زيد عبدالرحمن، ويستخلص منه بلنسية أبو جميل زيّان بن مردنيش صاحب مرسية، ويظل ابن الأبار كاتبا له، وتحدث معركة أنيشة، ويستشهد فيها أستاذه الكلاعي ويندبه ويندب من استشهدوا معه ندبا حارا. وما يلبث صاحب برشلونه أن يحاصر بلنسية، وحينئذ يرسل به أميرها إلى أبي زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس على رأس وفد لطلب الغوث والمعونة، فجهّز له أسطولا محمّلا بالمؤن والأسلحة كما مرّ بنا، غير أنه لم يستطع إيصال ما يحمله إليها بسبب ما أحاطها به النصارى من حصار شديد، فانسحب الأسطول إلى دانية جنوبيها وسلم أهلها ما حمله كما مرّ بنا. وتطورت الظروف فاستسلمت بلنسية في صدر سنة ٦٣٦ وحضر ابن الأبار عقد تسليمها وشروطه، ودائما كان أمراء النصارى حين يستولون على بلد أندلسي لا يفون بالشروط المأخوذة عليهم، وكأنما زهد ابن الأبار في المقام بالأندلس بعد سقوط مدينته، فاتجه إلى البلاد المغربية ونزل بجاية وأقام بها بضعة أشهر، ثم تركها إلى تونس، فألحقه أميرها أبو زكريا بدواوينه، فتولى بها كتابة الإنشاء والعلامة أوشارة الدولة، وهي توقيع يوضع على المكاتبات الرسمية لبيان أنها صادرة عن الدولة الحاكمة، وكان يكتبها بخطه الأندلسي، فرأى الأمير أبو زكريا أن تكتب بالخط المشرقي وأن يختص بكتابتها أحمد بن ابراهيم الغساني، وغضب ابن الأبار لذلك وظل يكتب تلك العلامة بخطه الأندلسي، مما اضطر أبا زكريا أن يعفيه من عمله فأقام ببجاية فترة حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر أبو عبد الله محمد أعاده إلى الكتابة في ديوانه ورفع إلى مرتبة الوزارة، وكانت فيه حدة لسان تنفّر الناس منه، ويقول ابن خلدون: «كان فيه أنفة وبأو (عظمة) وضيق خلق» فأوجد له أعداء ألداء، واستطاعوا أن يقنعوا المستنصر باشتراكه في مؤامرة ضده، فأمر بقتله وإحراق أشلائه وكتبه، وهكذا قتل سنة ٦٥٨ مظلوما مأسوفا عليه من معاصريه وكل من جاء بعدهم.

ويعد ابن الأبار في الذروة من مؤرخي الأندلس وعلمائها البررة الموثوق بهم ثقة لا تدانيها ثقة، وهو في مقدمة من مكّنوا الباحثين المعاصرين من الكتابة عن الأندلس وأعلامها النابيين بفضل كتبه النفيسة، وهي: التكملة في مجلدين - المعجم في أصحاب القاضي الصدفي المتوفى سنة ٥١٤ هـ - الحلة السيرة في مجلدين وتشتمل

على تراجم الأبراء والأعيان في الأندلس والمغرب - تحفة القادم في شعراء عصره - إعتاب الكتاب: عن الكتاب الذين فقدوا مكاتبتهم وحظوتهم عند الحكام ثم استعادوها، وبهذا الكتاب استعاد مكانته عند المستنصر، ثم غضب عليه.

وكان ابن الأبار شاعرا مجيداً، وحين حدثت وقعة أنيشة أظلمت الدنيا في عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الجللة وخاصة شيخه أبا الربيع الكلاعي، وكان قد بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال أعداء الإسلام، ولم يزل متقدماً أمام الصفوف زاحفاً إلى الأعداء مرغباً في قتالهم منادياً فيمن ينهزمون: أعن الجنة تفرون؟ وظل يعمل السيف في الأعداء حتى استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعانها البواسل، ونديهم معه ابن الأبار بقصيدة، تشعل الحمية في قلب كل مسلم، وفيها يقول:

تُقَدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ <sup>(١)</sup>	أَلْمَا بِأَشْلَاءِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ
يَطِيرُونَ مِنْ أَقْدَامِهِمْ بِقَوَادِمِ <sup>(٢)</sup>	مَضُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ مَا كَأَنَّمَا
حَقُوقًا عَلَيْهِمْ كَالْفَرُوضِ اللَّوَاظِمِ <sup>(٣)</sup>	مَوَاقِفُ أَبْرَارٍ قَضُوا مِنْ جِهَادِهِمْ
رَمَى نِصَالٍ أَوْ لَدَيْغٍ أَرَاقِمِ <sup>(٤)</sup>	أَبَيْتُ لَهَا تَحْتَ الظَّلَامِ كَأَنَّنِي
وَأَيَّاسٍ مِنْ آسٍ لِمَسْرَاهُ حَاسِمِ <sup>(٤)</sup>	فَوَا أَسْفَى لِلدِّينِ أَعْضَلُ دَاوُهُ

وهو يهيب بكل مسلم أن يلم بتلك الأشلاء الطاهرة التي قطعتها ومزقتها رماح النصراري وسيوفهم ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد في سبيل الله مسرعين، كأنهم طير وأقدامهم قوادمه، حتى يودوا حقوق دينهم أداءً المجاهدين الأبرار. وإن ذكرى الواقعة وشهادتها لتحز في نفسه، بل لكأنما رمى منها بنصال تنزف الدم من فواده، أو كأنه لديغ حيات ما تزال سمومها تسرى في شرايينه. ويتحسر للدين الحنيف في الأندلس فكأنما أنزل النصراري به داء عضالاً، لا يمكن لطبيب أن يشفيه منه أو يحسمه. وذكرنا آنفاً أنه حين قدم مع وفد بلنسية على أبي زكريا صاحب تونس أنشده قصيدة يستصرخه بها لإنقاذ بلنسية ويقول ابن سعيد: عارضها كثير من الشعراء ما بين محطّي ومحروم، وولع الناس

(١) تقد: تشق. القنا: الرماح. الصوارم: الحيات.

(٢) أقدم: مسرعين. القوادم: الريشات الكبيرة في مقدم الجناح.

(٣) نصال جمع نصل: حد السيف. الأرقام: الحيات.

(٤) أعضل الداء: لم يمكن البرء منه. آس: طيب.



بحفظها وَلَعِ بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، ويقول المقرئ في أزهار الرياض إنها من «غرر القصائد الطنانية» ويقول في النفتح: إنها «قصيدة فريدة فضحت من باراها، وكبا»<sup>(١)</sup> دونها من جاراها» وفيها يستغيث:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا      إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسًا<sup>(٢)</sup>  
 يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْرًا      لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسًا<sup>(٣)</sup>  
 وَفِي بَلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقَرْطَبِيَّةٍ      مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا  
 يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعِدَا بَيْعًا      وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسًا<sup>(٤)</sup>  
 طَهَّرْ بِإِلَادِكَ مِنْهُمْ إِنْهُمْ نَجَسٌ      وَلَا طَهَارَةَ مَا لَمْ نَغْسِلِ النَّجَسَا  
 وَأَمَلًا - هَنِيئًا لَكَ التَّائِيْدُ - سَاحَتَهَا      جُرْدًا سَلَاهِبَ أَوْ خَطِيئَةً دُعَسًا<sup>(٥)</sup>

وهو يقول لأبي زكريا: أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدين الحنيف فقد تعس حظها وأصبح أهلها جزراً لسيوف النصارى. وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبلسية لما يروع النفوس ويخفق الأنفاس، إذ أصبحت المساجد كئاس وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراساً لنواقيس النصارى، ويقول له إنهم نجاسة ينبغي أن تطهر بلادك منهم بما تسفك من دمائهم، إذ لا طهارة ما لم تغسل النجاسة وتمحها محواً، وأملأ الأرض وساحاتها عليهم بخيلك وأسلحتك القاضية. وأثارت القصيدة أبا زكريا وملأت قلبه حفيظة وحمية وموجدة، فأمر - كما أسلفنا - بإعداد أسطول محمل بالمون والذخائر، وأرسل به مع ابن الأبار والوفد البلنسى المرافق له لإغاثة بلنسية المحاصرة، غير أن النصارى كانوا قد ضربوا حولها حصاراً لم يستطيعوا اجتيازه، وسقطت في أيديهم المدينة.

أبو<sup>(٦)</sup> البقاء الرندي

هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبي البقاء

الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي  
 ص ١٣٦ وما بعدها والإحاطة لابن الخطيب ٣/٣٦٠  
 ونفح الطيب للمقرئ ٤/٤٨٦ وما بعدها وأزهار  
 الرياض ١/٤٧ وما بعدها ومجلة معهد الدراسات  
 الإسلامية بمريد ٦/٢١١ وكتاب تاريخ النقد  
 الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية  
 ص ٤٣٣-٤٦٠.

- (١) كبا: تعثر.  
 (٢) درس: أخلق وتقادم عهده.  
 (٣) جزرا: قطعاً وذبانح. جدها: حظها.  
 (٤) بيع: كئاس. النداء هنا: الأذان. جرساً أى  
 للنواقيس.  
 (٥) جردا: خيلاً سابقة. سلاهب: عادية. خطية:  
 رماحاً. دعسا: طاعنة.  
 (٦) انظر في ترجمة أبي البقاء وشعره بقية السفر.

وكنية أخرى بأبي الطيب، ومسقط رأسه رُئده إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر وينابيع وتحفها وديان، مما جعلها - كما في المغرب - تُعَمَّم بالسحاب وتوشح بالأنهار العذاب، وقد رُزق أبوه به سنة ٦٠١ وكان من أهل العلم، ولذلك سلكه المراكشي بين أساتذته، وذكر منهم على بن جابر الدباج الإشبيلي الذي ظل يتصدر للإقراء بإشبيلية خمسين سنة، كما ذكر مواطن الدباج أبا القاسم بن الجد نزيل تونس. ولم يتلمذ لهذين العالمين فقط بل تتلمذ أيضا لابن الفخار الشريشي ولاين زرقون الغرناطي. ويذكر ابن الخطيب عن ابن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة أنه تتلمذ له، وكل ذلك يدل على أنهم في طلب العلوم والآداب، واتضح ذلك في جانبين عندهما التأليف ونظم الشعر، أما التأليف فله فيه كتاب: «روضة الأنس ونزهة النفس» ويبدو أنه كان كتاب محاضرات وطرف أدبية، وسبق أن ذكرنا في الفصل الثاني أن له أيضا كتاب الوافي في نظم القوافي، وأن منه مخطوطة بالمكتبة التيمورية، وأنه في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر وطبقات الشعراء وعمل الشعر وآدابه وأغراضه، وثانيها في محاسن الشعر وفنونه البديعية، وثالثها في الإخلال والسرقة والضرورة، ورابعها في حد الشعر وعروضه وقوافيه وأخباره تدل بوضوح على صلته الوثيقة بمحمد بن الأحمر مؤسس إمارة غرناطة، وهي صلة جعلته يكثر من مدائحه. وكان له بجانب هذين الكتابين المتصلين بالأدب شعره ونثره كتاب في علم الفرائض، وهو يدل - كما قال المراكشي - على أنه كان بجانب ثقافته الأدبية «فقيها فرضيا حافظا» أي محدثا ويقول إنه كان متفتنا في معارف جليلة.

ويقول المراكشي إنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ومنتوره» وأنه كتب إليه بإجازة ما رواه وألفه، ويذكر أن له في النثر مقامات بديعة في أغراض شتى، كما يذكر أن كلامه نظما ونثرا مدون، مما يدل على أنه خلف ديوان شعر كان معروفا في زمنه. وقد طارت شهرة أبي البقاء الرندي شرقا وغربا لقصيدته النونية التي نظمها بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى في يد النصارى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية سوى ما في حيز كل منها من مدن ومعامل وحصون مما تنخلع له القلوب والأفئدة أسى وحرزنا لهذا المصير المفجع، لا مصير المدن فحسب بل أيضا مصير السكان المسلمين من رجال ونساء وأطفال ووقوعهم أسرى في أيد لا ترحم، أيد استعبدتهم وأنزلت بهم أهوالا من العذاب لا تطاق. وكأنا ندب أبو البقاء نفسه عن أهل الأندلس يستصرخ المسلمين لنصرة إخوانهم في الدين وإنقاذهم من يد الكافرين الآثمين، وهو يستهل قصيدته بالحديث عن الدول التي دالت، وكأنا يتأثر في هذا الجزء من قصيدته بأبن

عبدون آملاً أن تدول دولة النصارى الشاليين، ثم ما يلبث أن يتمثل الفواجع التي نزلت بقرطبة وأخواتها الأندلسيات، وهتف:

دَهَى الْجَزِيرَةَ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ      هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَاوْنَهُدْ تَهْلَانُ<sup>(١)</sup>  
فَأَسْأَلُ بِلَنْسِيَّةٍ مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةٍ      وَأَيْنَ شَاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جِيَانُ  
وَأَيْنَ قُرْطُبَةٌ دَارُ الْعُلُومِ فَكَمْ      مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ  
وَأَيْنَ حِمِصٌ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نَزِهِ      وَنَهْرُهَا الْعَدْبُ فَيَأْضُ وَمَلَانُ<sup>(٢)</sup>  
قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانَ الْبِلَادِ فَمَا      عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ  
إِنِ الْمَسَاجِدَ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا      فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ

إن ما نزل بالأندلس ودهاها من الخطوب أمر يجلّ عن العزاء فيه، إنه لكارثة تهوى لها الجبال وتتهدّ في كل أرض إسلامية، فتلك مدن كبرى برمتها ضاعت وضاعت معها قرطبة دار العلوم وإشبيلية دار الغناء والموسيقى، لقد سقطت أركان البلاد الأندلسية وقواعدها الأساسية، فهل يؤمل بعد ذلك بقاء لغرناطة وغيرها مما لا يزال في أيدي المسلمين، لقد أصبحت المساجد وما كان يتلى فيها من قرآن كنائس تكتظ بالنواقيس والصلبان، ويصرخ مستنفرًا:

يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً      كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ  
وَحَامِلِينَ سِيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً      كَأَنَّهَا فِي ظِلَامِ النَّقْعِ نَيْرَانُ<sup>(٣)</sup>  
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَةِ      لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عَزٌّ وَسُلْطَانُ  
أَعْنَدَكُمْ نَبَأًا مِنْ أَهْلِ أُنْدَلُسِ      فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ  
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ      وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ

وهو يصيح في فرسان المسلمين وأبطالهم من حملة السيوف المرهفة أن يسارعوا لنجدة الأندلس، ويعجب أن يرى المسلمين راتعين في ديارهم يعيشون في دعة وعزة وقوة، كأن ليس عندهم خبر عن الأندلسيين وما أصابهم من محن وكوارث، لا تصيبهم وحدهم بل تصيب أيضا الحنيفة البيضاء في الصميم، فإذا التقاطع والتناوب وأنتم إخوان في الدين أخوة أقوى من أخوة ذوى الرحم، إذ ليست أخوة دم بل أخوة روح وقلب وفكر وفؤاد، ويصيح جزعا:

(١) أحد: جبل بالمدينة مشهور. تهلان: جبل بنجد.  
(٢) حمص: إشبيلية.  
(٣) النقع: غبار الحرب.

يا مَنْ لَذَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ  
 بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ  
 وَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاهِمَ عِنْدَ بَيْعِهِمْ  
 يَا رَبِّ أُمَّ وَطِفْلٍ حَيْلَ بَيْنَهُمَا  
 وَطِفْلَةً مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ  
 يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً  
 أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرًا وَطُغْيَانًا  
 وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ  
 لِهَالِكِ الْأَمْرِ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ  
 كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ  
 كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ  
 وَالْعَيْنُ بَاكِئَةٌ وَالْقَلْبُ حَزْنَانُ

وهو يلتاع لوعة محرقة لهؤلاء المسلمين الذين استذلهم الكفر والطغيان بعد أن كانوا في الذروة من العز والكرامة، لقد كانوا ملوكا وأمراء، فأصبحوا عبيدا، وإنهم ليكون بكاء مرا، حين يرون أنفسهم - وقد فقدوا أعز شيء على نفوسهم، فقدوا حرياتهم - يباعون بيع العبيد. وباللهول فكم من طفل فرّقوا بينه وبين أمه كما يفرّق بين الروح والبدن، إذ لن ترى ضناها وقلدة كبدها أبدا، وكم من سيدة فائقة الحسن فاتنة كأنما هي ياقوت ومرجان يرغمها إسباني جاف غليظ على المكروه البغيض، وهي محزونة تذرف الدمع مدرارا.

والقصيدة درة يتيمة رائعة، ولروعها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتا تندب بها البلاد التي سقطت في أيدي النصارى الشاليين بعد وفاة أبي البقاء الرندي سنة ٦٨٤ للهجرة. وتنبه لذلك المقرئ في نفع الطيب، إذ ذكر بعد إنشاده لها من رواية وثيقة أن بأيدي الناس منها زيادات نُدبت فيها مدن الأندلس التي ظلت تسقط حتى عهد العرب الأخير وحتى استسلام غرناطة مع غروب الشمس العربية نهائيا في تلك الديار بعد أن ظلت ساطعة في سائها ثانية قرون طوال.

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

### الرسائل الديوانية

كان طبيعياً أن يعنى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس بديوان الرسائل، كما عُنِيَ به خلفاء أسرته الأمويون في دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة في ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبي حوثة، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد<sup>(١)</sup> بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الربضي، وأسندها إلى حجاج<sup>(٢)</sup> المغيلي، وفطيس بن سليمان وفي كتاب الحلة السيرة أن راتبه كان خمسمائة<sup>(٣)</sup> دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونظمها الإدارية التي استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا، إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتاب مع الوزراء وأصحاب الخطط مما كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر ابن حيان كتابه، ويسميه أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالي - عبد<sup>(٤)</sup> الكريم بن عبد الواحد بن مغيث مع ما كان له من الحجابة، وتوفي سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن<sup>(٥)</sup> سعيد الزجالي، حتى إذا توفي سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله<sup>(٦)</sup> بن محمد بن أمية، وتوفي عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - في عهد

د. مؤنس) ٣٧٣/٢.  
(٤) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السيرة  
١٣٥/١.  
(٥) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ١/٣٣٠.  
(٦) المقتبس ص ٣١ والحلة السيرة ٣٧٣/٢

(١) انظر في محمد بن أمية وأبيه وتوليها الكتابة  
المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكي - طبع  
لبنان) ص ٣١ والمغرب ١/٧١.  
(٢) راجع في تولى المغيلي وفطيس الكتابة للحكم  
الربضي المغرب ١/٤٤٤.  
(٣) انظر الحلة السيرة لابن الأبار (تحقيق

محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه في الكتابة أثناء مرضه قومس<sup>(١)</sup> بن أنتينان النصراني وكان بليغا بصيرا بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استن في أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا في غير هذا الموضوع - الإجازة يوم الأحد، فتبعه في ذلك جميع الكتاب في ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة في الأندلس. وعجلت المنية بقومس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد<sup>(٢)</sup> بن محمد بن سعيد الزجالي مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد<sup>(٣)</sup> الله بن محمد بن أبي عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد<sup>(٤)</sup> الله بن محمد بن عبد الله الزجالي، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن الناصر حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد<sup>(٥)</sup> الملك بن جهور فعبد الحميد بن بسيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن فطيس بن أصبغ بن فطيس، ونراه يجر عن عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخليها من السجع<sup>(٦)</sup>، مما يدل على تأخر استخدامه في الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن فطيس إلى عبد<sup>(٧)</sup> الرحمن بن عبد الله الزجالي سنة ٣٢٩ حتى إذا كلفه في سنة ٣٤٥ بكتابة منشور<sup>(٨)</sup> - على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع - يُقرأ في المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرة وأتباعه أخلاه من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع في عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبي عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على السنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن<sup>(٩)</sup> برد الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبي عامر وابنيه وفي زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ثم لبني حمود بعده، وتوفي سنة ٤١٨ وقد نيف على الثمانين، وله من

الرحمن الناصر فهرس المقتبس الجزء الخامس الخاص بالناصر طبع مدريد.  
(٦) المقتبس ٤٣٨/٥.  
(٧) المقتبس ٤٧١/٥.  
(٨) المقتبس ٢٥/٥.  
(٩) انظر في ابن برد الأكبر الذخيرة ١٠٣/١ والمغرب ٨٦/١ والحميدي ١١١ والصلة لابن بشكوال ص ٤٠.

(١) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشني ص ١١٠.

(٢) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ٣٣١/١.

(٣) راجع في ابن أبي عبدة الحلة السراء ١٤٦/١.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ص ١٧٢.

(٥) راجع في ابن جهور وغيره من كتاب عبد

رسالة<sup>(١)</sup> ديوانيه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، يررّ فيها قتله لصهره ابن القطّاع:

«إنا أخذناه من الحَضِيض الأَوْهَدِ، وانتشلناه من شظف العيش الأُنْكَدِ، ورفعنا حَسِيْسَتَهُ، وأتمنا نَقِيصَتَهُ.. فلا أقرُّ لنا بحق، ولا قابل إحساننا بِصِدْق، ولا عامل رعيّتنا بِرِفْق، ولا تناول خدمتنا بِحَدْق، بل أعلن بالمعاصي ونَبذ عهودنا، وخالف سُبُلنا، وكَدَّر على الناس صَفُونا»

وينتهي عصر الدولة الأموية، وتدخل في عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسي الحاد بينهم والتنافس الأدبي الحاد بين الأدباء من كُتّاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام في جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كُتّابهم في كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد<sup>(٢)</sup> بن عباس كاتب زهير أمير المريّة على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ والتمسه محمد بن أحمد البزلياني كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسه أبو عامر<sup>(٣)</sup> التاكرني كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ ثم المنصور بن أبي عامر الأصغر أميرها بعدها، وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب مَعْن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرها أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على أميرى دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب الناهيين في هذا العصر أبو المطرف<sup>(٤)</sup> بن مثنى كاتب المأمون بن ذى النون أمير طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه في الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجي، ومنهم أيضا ابن المعلم<sup>(٥)</sup> كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد<sup>(٦)</sup> ابن أين كاتب المتوكل بن الألفس أمير بَطْلَيْوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش

(١) الذخيرة ١٢١/١.

٢٠١. وتاكرنا كانت قصبة رندة.

(٤) راجع في ابن مثنى الذخيرة ٤٠٩/٣.

(٢) راجع في أحمد بن عباس الذخيرة ٦٤٣/١

(٥) راجع في ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

والمغرب ٢٠٥/٢ والإحاطة (طبعة عنان) ٢٦٧/١

(٦) انظر في ابن أين الذخيرة ٦٥٢/٢ والمغرب

(٣) انظر في التاكرني الذخيرة ٢٢٦/٣ والمغرب

٣٦٦/١.

٣٣٢/١ والحامدي ٥٦ وإعتاب الكتاب

يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصارى الشمال، وفيها يقول: <sup>(١)</sup>  
«لما كان نور الهدى دليلاً، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معامك، ووقفت  
على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزوك الشرك  
أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما أعضل من الداء، وتستغاث لما أحاط بالمجزيرة من البلاء،  
فقد كانت طوائف العدو المطيفة بها - أهلكتهم الله - عند إفراط تسلطها واعتدائها،  
وشدة كلبها <sup>(٢)</sup> واستشراؤها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال.. ولم يزل دأبها التشطط  
والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى استصفي الطريف والتلاد، واضطرت في كل جهة  
نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم <sup>(٣)</sup>، فيالله! ويا للمسلمين! أيسطو  
هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه  
الملة النصر، ألا ناصر لهذا الدين المهتمض؟! ألا حامى لما استبيح من حمي الحرم؟ وإنا  
لله على ما لحق عرش الدين من ثل <sup>(٤)</sup>، وعزه من ذل!»

ومضى الرسالة بهذا الاستصراخ المتقدحمة للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين  
مثلها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضيهما مستغيثين به، كما استغاث به كثير من  
فقهاء الأندلس، فحف بجنوده وعبر بهم المجاز خفافا ونقالا رجالا وركبانا، وأنزل بهم وبين  
اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشمال موقعة الزلاقة التي سحق  
فيها أعداء الدين الحنيف سحقا، على نحو ما مر بنا في الفصل الأول. ويرى ابن تاشفين  
ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الطوائف الذين أحالوها مرقاً بينهم،  
فجمع بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبي بكر بن القصيرة كاتب المعتمد بن عباد،  
فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بدبوان الإنشاء، وظل يتولاه في عهد  
ابنه على إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧)  
ومن كتب له أبو القاسم بن الجد وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية،  
وأبو عبد الله محمد بن أبي الخصال وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطورنة  
كاتب المتوكل بن الأفضس مع ابن أمين المار. وكثر ولاية المرابطين في الأندلس وكان كل  
منهم يتخذ كاتباً بليغاً ومن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين وإلى غرناطة أبو الحسن

(٣) الشفار. جمع شفرة: حد السيف.

(١) الذخيرة ٦٥٣/٢.

(٤) ثل: هدم.

(٢) الكلب: شدة الحرص والمعانة، والاستشراء:

تفاهم الاعتداء.



على<sup>(١)</sup> بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبي بكر والى إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفضس ومرت ترجمته مع مراثيته المشهورة لدولة بني الأفضس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولاً لسير بن أبي بكر - كما ذكرنا- ثم لعل بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو م مرّ في ترجمته.

وتخلف دولةً الموحدين في الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتاب حكامها ويبدأ بكتاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد<sup>(٢)</sup> بن عطية وهو مراكشى وأبو القاسم القلمى من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبي، وفي مجموع رسائل موحدية المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعاً مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش<sup>(٣)</sup> والقلمى إلى أن توفي فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد<sup>(٤)</sup> الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبى المريبى المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة، وظل يلى ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفي مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن الناصر والثالثة عن يعقوب، وهى فى وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم فى موقعة الأرك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول<sup>(٥)</sup>:

« فلما صارت البلاد كأن لم تنغن، والمعاقل كأن لم تُبِن، وعُلم أن من حيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات أحياء ولكن فى عِداد الأموات، صوّبنا على طليطلة قاعدة الصُفر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون. وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يُبصرون، واستقبلتهم العبرُ أفواجاً أفواجاً، وجاءتهم النذر تأويباً وإدلاجاً.»

وكان أبو عبد الله محمد<sup>(٦)</sup> بن يخلفتن الفازازى القرطبي يعمل فى ديوان قرطبة وعُين

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ١١٦/٢

(٢) المعجب ص ٢٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور فى مجموع رسائل موحدية وله فيه عن يوسف رسالتان.

(٤) انظر فى كتاب يعقوب المعجب ص ٣٣٨

وراجع فى أبى عبدالله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢

وزاد المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

(٥) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٦) راجع فى محمد بن يخلفتن المعجب ص ٣٩١.

٤٠٦ والتكملة رقم ٢١٣٥.

قاضيا في مدينة مرسية، واستُدعى للنهوض بالكتابة في ديوان المستنصر حين توفي ابن عياش، وظل قائما عليه في عهد العادل (٦٢١ - ٦٢٤) وتوفيا معا في سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسي بجيآن وقضى على ثورته وكان يكتب له حينذاك أبو زيد<sup>(١)</sup> عبد الرحمن بن يَخْلُفْتَن المترجم له في الفصل الماضي أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراکش ولم يكد يمضى بها عدة أشهر - كما مر بنا في ترجمته - حتى توفي سنة ٦٢٧.

وكان يكتب لولاة الموحدين في الأندلس كتاب بارعون ويكفى أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هَرُودس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تثور على المأمون والموحدين لضعفهم في مقاومة الأرجونيين في الشرق والقشتاليين في الشمال والبرتغاليين في الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبي عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامّة، واتخذ مرسية قاعدة له ومد سلطاناه على مالقة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، وثار عليه بإشبيلية الباجي وابن صاحب الرد وابن الجد وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد واقع ابن هود وانتصر عليه مرارا واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التي ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش الثائر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولا تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين في تونس رجاء أن يدوا له يد العون ضد ملك أرجون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى في حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل تائر ممن سميناهم اتخذ كاتبا بليغا، فالبياسي كتب له أبو يحيى<sup>(٢)</sup> بن هشام القرطبي وأحبطت ثورته سريرا، واعتنق النصرانية مذموما مدحورا، وكتب لابن هود أبو جعفر<sup>(٣)</sup> أحمد بن

٣١/٧ حيث احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

(٣) راجع في أبي جعفر المغرب ١٦٤/٢ والقده

١١٤.

(١) راجع في عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب

١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) انظر في أبي يحيى بن هشام المغرب ٧٤/١

واختصار القده المعل ص ٨٩ وصبح الأعشى

طلحة وابن الجنان<sup>(١)</sup> وأبو المطرف بن عميرة، وسترجم له، وكتب عن الباجي ابن<sup>(٢)</sup> البناء الإشبيلي، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب<sup>(٣)</sup> الجبائي وأبو عبد الله<sup>(٤)</sup> ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذي ترجمنا له في الفصل الماضي.

ومن الكتاب في دواوين بني الأحمر ابن الحكيم<sup>(٥)</sup> كاتب الحاكم الثاني في الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) وكتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١ - ٧٠٨ هـ). ومن كتاب بني الأحمر النابيين في القرن الثامن الهجري ابن الجيَّاب<sup>(٦)</sup> ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زَمْرَك، ومَرَّت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أنه كتبهم في القرن التاسع الهجري أبو عبد الله<sup>(٧)</sup> الشَّرَّان محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث بكلمات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية النابيين هم: البزلياني وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن عميرة ولسان الدين بن الخطيب.

### البزلياني<sup>(٨)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزلياني المالقي، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم في عصر أمراء الطوائف لبني زيري المغاربة، وأول من تولاها منهم زاوي حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حبُوس بن ماكسن بن زيري، وطمحت نفس البزلياني للعمل في الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبوس وأصبح رئيسا لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه «ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها» وإنه تقلب في البلاد، وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فألحقه بدواوينه، ووصله بابنه

(٥) أزهار الرياض ٢/٢٤٠ والإحاطة ٢/٤٤٤.

(٦) الكتيبة الكامنة ص ١٨٣.

(٧) انظر في الشران أزهار الرياض ١/١٣٣.

(٨) راجع في ترجمة البزلياني ورسائله الذخيرة

١/٦٢٤ والمغرب ١/٤٤١.

(١) راجع في ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود

صبح الأعشى ٧/٣٤.

(٢) انظر في ابن البناء القدح ص ١١٨.

(٣) راجع في ابن خطاب الجبائي القدح ص ٢٢.

(٤) انظر في أبي عبد الله بن الخيال القدح ص

إسماعيل، وما تدخل سنة ٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني - كما سنرى - يرتضى سياسة المعتضد في غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعا لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأى أبيه، وخوفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بنى جهور في قرطبة، فيقع بين فكئ أسدين يمضغانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفظاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاضمه الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى في استغوائه له وإنه أشار عليه بهربه من أبيه ودبره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما وقر في نفسه من أنه هو الذى أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظنا أن المعتضد استدرج البزلياني للعمل في دواوينه، وهو يبيت له هذا المصير المحتوم، لما عرف عنه من إنجائه على أمراء الطوائف باللوم - فى رسائله - منذ كان عند حبوس - على سياستهم وحرهم بعضهم لبعض واستعانتهم فى ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا جراحهم فى صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريبا على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزنى يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعول عليه فى العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده<sup>(١)</sup>، فكان طبيعيا أن يفتك بالبزلياني، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أئداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها - كما يقول ابن بسام - عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبى أمير سرقسطة: وفيها يقول:

«اتصل بى ما وقع بينك وبين المؤمن (المنصور)<sup>(٢)</sup> الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧ - ٤٢٥ هـ.) والموفق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣ - ٤٣٦ هـ.) وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضطرتتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قلقهم، وكثر على المسلمين شفقى، فى أن يطأ أعداؤهم بلادهم، ويؤتموا أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة - يا سيدى - إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدَّتنا إلى الندم مساعينا، كانت الدائرة

(١) المغرب ٢٣٩/١ وما بعدها.

(٢) انظر فى تلقيب المنصور الأصغر بهذا اللقب

أَمْضٌ<sup>(١)</sup>، والحيرة أَرْمَضَ<sup>(٢)</sup>، والفتنة أَشَدُّ، والمحنة أَهْدَى، والأعمال أَحْبَطَ، والأحوال أَسْقَطَ، والأوزار أَثْقَلْ، والمضارَّ أَشْمَلْ، والله يُعِيدُنَا مِنَ الْبَوَائِقِ<sup>(٣)</sup>، وَيَسْلُكُ بِنَا أَجْمَلَ الطَّرَائِقِ.. وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي لِلْمُسْلِمِينَ الْحِصْنَ الْحَصِينَ، وَالسَّبَبَ الْمَتِينَ، وَالنَّصِيحَ الْمَأْمُونَ، فَاجْرِ فِي جَمْعِ كَلِمَتِهِمْ وَالْمَرَامَةَ دُونَ حَوَزَتِهِمْ<sup>(٤)</sup>..»

والبزلياني يصرخ في يحيى بن المنذر التجيبي أمير سرقسطة في أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطنون النصارى بلادهم مستعنين بهم في حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتيتيم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضا فحسب لكنت تلك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حوزتهم وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دوت في العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة في فلاة ولا حياة لمن تنادى. ويصرخ البزلياني في رسالة ثانية وجه بها إلى المنصور الأصغر أمير بلنسية الذي ذكره في الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

«اتصل بي ما جرعتُ له من لزومك مع الموفق مجاهد ومن تبعكما من مُعَاقِدِكِمَا لِمَقَاتِلَةِ الْمُظْفَرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ أَمِيرِ بَطْلِيُوسٍ (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) وَمَنَازِلَتِهِ وَمَقَارَعَتِهِ وَاسْتِجَاشَةِ<sup>(٥)</sup> كُلِّ حِزْبٍ مِنْكُمْ النَّصَارَى وَطَمَعِكُمْ أَنْ تَمْنَعُوا بِهِمْ ذِمَّارًا، وَتَقْضُوا بِإِخْرَاجِهِمْ (مَعَكُمْ) أُوطَارًا<sup>(٦)</sup>، وَتُدْرِكُوا بِأَيْدِيهِمْ أُوتَارًا<sup>(٧)</sup>. وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ مَا يَتَسَبَّبُ بِالْفِتَنِ، مِنَ الْبَلْوَى وَالْمِحْنِ.. بِاخْتِرَامِ<sup>(٨)</sup> الرِّجَالِ، وَإِيْتَامِ الْأَطْفَالِ، وَإِرْمَالِ<sup>(٩)</sup> النِّسَاءِ، وَإِحْلَالِ الدِّمَاءِ، وَانْتِهَابِ الْأَمْوَالِ، وَاعْتِسَافِ<sup>(١٠)</sup> الْأَهْوَالِ، وَإِخْلَاءِ الْأَوْطَانِ، وَإِجْلَاءِ السَّكَّانِ. هَذَا إِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ وَاحِدَةً، وَالشَّرْعَةُ مَعَاذَةً، فَأَمَا إِذَا انْسَاقَ الْعَدُوُّ إِلَيْنَا، وَتَطَرَّقَ عَلَيْنَا،

(٦) أوطارا جمع وطر: مأرب.

(٧) أوتار جمع وتر: نأر.

(٨) اخترام هنا: قتل أو موت.

(٩) أرملت المرأة: مات زوجها.

(١٠) اعتساف: ركوب.

(١) أمض: أكثر ألما.

(٢) أرمض: أوجع.

(٣) بوائق: جمع بانقة: الداهية.

(٤) الحوزة: الحمى.

(٥) استجاشة هنا: استعانة.

وَضَرَى<sup>(١)</sup> على أموال المسلمين ودمائهم، وَجَرُّوْ عَلَى قَتْلِ رَجَالِهِمْ وَسَبَى نِسَائِهِمْ، وَبَانَتْ لَهُ الْعَوْرَاتُ، وَتَحَقَّقَتْ عِنْدَهُمُ الْاِخْتِلَافَاتُ، أَحَدُوا رَحَاهُمْ<sup>(٢)</sup>، وَاسْتَمَدُّوا مِنْ وَرَاهِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِمْ بَعْدَ يَدٍ<sup>(٣)</sup>، وَلَا عَنِ إِخْلَاءِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بَدًّا، وَاللَّهُ يَحْمِيهَا مِنَ الْغَيْرِ<sup>(٤)</sup>، وَيَكْفِيهَا سُوءَ الْقَدْرِ»

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزلياني يهيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضى مع مجاهد في حشد الجيوش ضد أخيهما المظفر بن الأفتس أمير بطليوس مستعينين في قتال أهلها المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموا لها حماتها وأن يحققوا لها آمالها ويدركوا لها آثارها غير مراعين في أهل دينها حقا، إذ تقتل الرجال وتيتم الأطفال وترمل النساء وتهب الأموال وتخلو الأوطان ويحلو السكان. والطامة الكبرى أن العدو إذا جاس خلال ديارنا وتجراً على نهب أموال المسلمين وعلى سفك دمائهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم وانكشفت له في البلاد العورات، وتحقق مما بين أمراء المسلمين من الاختلافات والمنازعات شحذ أسلحته وأدار رحى حرب طاحنة مستمداً فيها النصارى من ورائه في أوربا، فجاءوه من كل فج، وأصبح المسلمون ولا طاقة لهم في نزاهم ولا قدرة، واضطروا اضطراباً إلى مبارحة الجزيرة لا يلوون. وذهبت الصرختان جميعاً هباء، وبدلاً من أن يعيها هؤلاء الأمراء الذين عاشوا للترف وأعدوا لضياغ البلاد جازاه المعتضد الباغي منهم شر الجزاء، فسفك دمه.

أبو محمد<sup>(٥)</sup> بن عبد البر

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبي عمر بن عبد البر النمزي القرطبي، وقد عُني به أبوه، فخرجه على يده في أجل صورة علمية للشاب الأندلسي في عصره، وتفتحت فيه مبكراً نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه «حلَّ من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاز به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف

(٥) انظر في ترجمة أبي محمد ورسائله الذخيرة

١٢٥/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠٢/٢ والقلائد ١٨١

والصلة رقم ٦٠٦ وبغية المنتس رقم ٩٦٥

وإعتاب الكتاب ٢٢٠ والحريدة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.

(١) ضرى: اجترأ.

(٢) الرحي هنا: رحي الحرب.

(٣) يد هنا: طاقة، قوة.

(٤) غير الدهر: أحداثه وتقلباته.

زحام، فأصاخ أبو محمد لمقاله، وتورط بين حباته وحباله» وأصبح من كتاب ديوانه، ولا نعرف الأسباب التي جعلت ابن زيدون يَغصّ - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه في حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكا للدماء، فأخذ في اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكثه عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فحفّ إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوا بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: «وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل في الدول كالبدر يترك منزلا إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف» وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ في قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يرو له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ - ٤٦٧ هـ) وكأنه صَحِبَ أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيسا لديوانه وكتّابه، وظل يعمل فيه، حتى توفي سنة ٤٥٨ وحزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن دانية إلى شاطبة، شرقيها، وبها توفي. وقد أورد ابن بسام لأبي محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زف ابنته إلى المعتصم بن صراح أمير المرية، وفيها يقول:

«أنفذت الهدية (العروس).. وأنا أسأل الله في متوجّجها ومُنقلبها الرعاية الموصولة بك، والكفافية المعهودة منك، حتى يفيء<sup>(١)</sup> عليها ظلك، ويؤثها<sup>(٢)</sup> مَثَوَى الحفاوة محلك، ويحميها حوزك ومكانك، ويؤويها عزك وسُلطانك، ثم حَسَبِي عليها كرمك وكنفك<sup>(٣)</sup>، وخليفتي عليها برك ولطفك.. وإنك - واللّه يبيحك ويُعَلِّيك، ويشد<sup>(٤)</sup> قبضتك على رقاب أمانيك وأراجيك - دُخْرُ الأبد، وعتادُ الأهل والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وقلدة الكبد، فارقتها عن شدة ضنائه، وأسلمتها بعد طول صيانة، ومازفت إلا إلى كريم يحملها محملاً الأمانة، ويقضى فيها حقّ الديانة، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن ملئها ومنشئها، وهو حُكْمُ الله الواجب، وقدره الغالب، وسنته المشروعة، ومشيئته المتبوعة»

(٣) الكنف: الحفظ والجناح.

(٤) يشد: يقوى ويحكم.

(١) يفيء: ينبسط.

(٢) يؤثها: ينزلها.

وحدثت في سنة ٤٥٦ نكبة عظيمة، فإن النورمانديين في الشمال الغربي لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوروبا لحرب المسلمين في الأندلس، مكوّنين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثاني، واخترقت الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وشقة في أقصى الشمال الشرقي لإسبانيا، ولم تستطع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة برّيشتر إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوماً، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوت والموتنة، ففتكوا بهم فنكا ذريعا وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وفتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وُزر لا يماثله وزر، وقد شرکه فيه أمراء الطوائف جميعا، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن برّيشتر. ويعلل ابن حيان تلك الكارثة بعلمتين: علة صمت الفقهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقية وخوفا منهم، والعلة الثانية، وهي الأفدح، أن الأمراء استناموا إلى التناؤد والتنافر، ويسميهـم «أمراء الفرقة الهمل» ويعجب أن لا تنبّههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفا واحدا ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهم إليه حفر الخنادق حول مدنهم وتعلية الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين في الأندلس وتزلزلت بهم الأرض، وتجمعوا في السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنما أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل بريشتر، وسرعان ما أجيل السيف في النصارى المعتدين واستوصلوا أجمعين وُردت بريشتر إلى المسلمين فغسلوها من رجس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صدأ الإفك<sup>(١)</sup>. وإنما قدمنا كل ذلك لتتضح لنا صرخة ضخمة وجّهها أبو محمد بن عبد البر في شكل منشور وُزِع في كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد في كل مكان منها إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعا هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل بريشتر وعنوانه - كما يقول ابن بسام -:

«من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعرّوة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتألفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سنة

(١) انظر في تصوير ابن حيان لموقعة بريشتر



الرسول، محمد نبي الرحمة، وشفيع الآفة، إلى من بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين»

والمنشور كان طويلا مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولا، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربشتر من الأهوال التي تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله في بعض فصوله مستثيرا مستنفرا بما يوجع القلوب سماعه من انتهاك النساء والدين:

«إنا لله وإنا إليه راجعون - على ما رأت منا العيون - من انتهاك النعم المدخرات، وهتك ستر الحرم المحجبات، والبنات المخدرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتم الجراح، وعبثت بهم زرق الرماح، وقد كثر الضجيج والوعيل والنواح... ومصاحف تمزق، ومساجد تحرق، ولا الأخ يلبى أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يدنى بنيه، (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ولا المرضعة تلوى (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعة ترثي لضجيعها.. وقد سيقت النساء والولدان، ما بين عارية وعريان، ومشيخة الرجال مقرنين في الجبال، مصفدين في السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبقة<sup>(١)</sup> بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا من شيعه الرحمن، والكفر يضحك وينكى<sup>(٢)</sup>، والدين ينوح ويبكى، فيا ويلاه! ويأذلاه! ويأكرباه! ويا قرآناه! ويا محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جزعا، وتقطعت قلوبكم قطعا، واستعذبتكم طعم المنايا، لموضع تلك الرزايا، ولهجرت أسيافكم أعمادها، وجفت أجانكم رقادها، امتعاضا لعبدة الرحمن، وحفظه القرآن، وضعفة النساء والولدان، وانتقاما من عبدة الطغيان، وحملة الصلبان»

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة في النفوس الخاملة حمية للدين الحنيف وما حرق من مساجده وصوامعه وما مزق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرمتهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عرى وعذاب أليم، ومن بقى من الرجال أوثقوا في السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن

(٢) ينكى: يقهر.

(١) مطبقة: مغطاة.

مادّهي بربشتر إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين في عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتنابد ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسراً:

«ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سَهْمٌ، ولا سَقَطَ لنا نَجْمٌ<sup>(١)</sup>، ولا ذلُّ لنا حِزْبٌ، ولا فُلٌّ لنا غَرْبٌ، ولا رُوعٌ لنا سِرْبٌ، ولا كُدْرٌ لنا شِرْبٌ<sup>(٢)</sup>، ولكننا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذر الحذر! فإنه رأس النظر، من بركان تطاير منه شررٌ مُلْتَهَبٌ، وطوفانٍ تساقط منه قَطْرٌ مُرْهَبٌ، قلما يُؤْمَنُ من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنّبهُوا قبل أن تُنّبهُوا، وقتلوه في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم»

ولم تذهب صرخة أبي محمد أدرج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجوا العدو في بربشتر وردوا كيده في نحره مستأصلين له إلا ما باعوه ببيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حرياً بأمراء الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقتهم كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها في حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

### أبو بكر<sup>(٣)</sup> بن القصيرة

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الوبلي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة، نشأ في إشبيلية، وتفتحت موهبته الأدبية في عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفتن له - كما يقول ابن بسام - ابن زيدون وزيره، فنبه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرّف

٥١٦/٢ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والوافي ١٢٨/٣  
والخريدة ٣٨٣/٣ والذيل والتكملة ٢٢٧/٦  
ووثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلد  
السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في  
مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د.  
حمود مكي لها.

(١) يقال لم يسقط لهم نجم كناية عن غلبتهم  
وظفرهم الدائم.

(٢) الشرب: مورد الماء.

(٣) انظر في ترجمة ابن القصيرة ورسائله الذخيرة  
٢٣٩/٢ والمغرب ١/٣٥٠ والقلائد ١٠٤ والصلة  
رقم ١١٣٧ والمطرب ٨١ والمعجب ٢٢٧ والإحاطة

حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منها بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه في الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدد عليه فيما كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ - وبالمثل المتوكل أمير بطليوس - يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكي يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذي حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولبأه ولبي المتوكل وفقهاء الأندلس، فعب بجنوده المجاز وأنزل - يعاونه الأندلسيون وأمرؤهم : المعتمد وغيره - بألفونس وقعة الزلاقة المشهورة في رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقاً كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين - نزولاً على إرادة الأندلسيين وفقهائهم - على إمارات الطوائف جميعاً ماعدا سرقسطة في الشمال إذ تركها لبني هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتهم ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيراً إلى أغمات كما مر بنا في غير هذا الموضع. وطبيعى أن يبتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويفاجأ في سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كى يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفى، ويبدو أنه كان يعجب بابن القصيرة والرسائل التي حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائماً على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة - كما ذكرنا آنفاً - بكثير من الرسائل التي كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التي فصل فيها القول في هزيمة ألفونس بالزلاقة، وكان جيشه قد دُمّر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها ويشكرون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة في الرسالة المذكورة ببعض فصولها بلسان المعتمد.

« قد علم ما كنا - قبل - مع عدو الله إذ فونش قصمه الله - من تطاطونا واستعلائه، وتقامتنا وانتخائته<sup>(١)</sup>، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به

(١) تقامو: تصاغر وتذل. انتخاء: تعاطم.

فَنَاءً، إِلَى أَنْ سَنَى<sup>(١)</sup> اللَّهُ تَعَالَى مِنْ اسْتَصْرَاحِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرِ الدِّينِ، أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ - أَيْدَهُ اللَّهُ - مَا سَنَى، وَأَدْنَى مِنْ نَائِي دِيَارِهِ وَشَحَطَ<sup>(٢)</sup> مَزَارَهُ مَا أَدْنَى.. ثُمَّ أَجَازَ - عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ - يَرِيشَ<sup>(٣)</sup> وَيَبْرَى، وَسَارَ قُدَمَا<sup>(٤)</sup> يَخْلُقَ وَيَقْرَى<sup>(٥)</sup>. وَاتَّفَقَ رَأْيُنَا بَعْدَ تَشَاوُرٍ عَلَى قَصْدِ قُورِيَّةَ (بِالْقُرْبِ مِنْ مَارِدَةَ شَرْقِي بَطْلَيْوسَ) - حَرَسَهَا اللَّهُ - وَسَمِعَ الْعَدُوَّ - لَعْنَهُ اللَّهُ - بِذَلِكَ فَقَصِدَ بِمُحْتَشِدِهِ إِلَيْهَا فِي جِيُوشِ تَمَلُّاءِ الْفِضَاءِ، وَتَسَدَّ الْهَوَاءَ، وَتَمَنَعَ أَنْ تَقَعَ عَلَى مَا تَحْتَ رَايَاتِهِ ذُكَاءً<sup>(٦)</sup>، قَدْ تَحَصَّنُوا بِالْحَدِيدِ مِنْ قُرُونِهِمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ، وَاتَّخَذُوا مِنَ السَّلَاحِ مَا يَزِيدُ فِي جِرَاتِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ، وَدَعَاهُ تَعَاظِمُهُ إِلَى مَوَاجَهَةِ سَبِيلِنَا، وَحَمَلَهُ نَفْجَهُ<sup>(٧)</sup> وَتَهَوَّرَهُ عَلَى السَّلُوكِ فِي مَدْرَجِ سَيُولِنَا، وَدَنَوْنَا إِلَيْهِ بِمَحَلَّتِنَا، وَأَطْلَلْنَا عَلَيْهِ بِرَايَاتِنَا، وَتَنَادَى الْمُسْلِمُونَ بِشِعَارِهِمْ<sup>(٨)</sup> الْمَنْصُورِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَعَلَى مِنْ مَعَهُ فِي حَالٍ مُؤَذِّنَةٍ بِالظُّهُورِ وَالْوُفُورِ، وَتَوَاقَفَ قَلِيلًا الْجَمْعَانِ، وَتَجَاوَلَ مَلِيًّا<sup>(٩)</sup> الْفَرِيقَانِ، ثُمَّ صَدَقَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ، وَنَاصِرُ الدِّينِ - أَيْدَهُ اللَّهُ - الْحَمَلَةَ، وَصَدَّمَ فِي جَمْعٍ لَمْ يَكْتُرْ عِدَدَ الْجَمَلَةِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَنْ وَلَّوْا الْأَدْبَارَ، وَاتَّبَعْتَهُمْ خَيْلُ الْمُسْلِمِينَ تَقْتَلُهُمْ فِي كُلِّ غَوْرٍ وَنَجْدٍ<sup>(١٠)</sup>، وَتَقْتَضِي أُرُوحَهُمْ عَلَى حَالِينَ مِنْ كَالِيٍّ وَنَقْدٍ<sup>(١١)</sup>، وَلَمْ يَخْلَصْ مِنْهُمْ عَلَى أَيْدِي الْمُتَّبِعِينَ - أَجْرَهُمُ اللَّهُ - إِلَّا مِنْ سَبِيلْتِهِمُ الْبُعْدَ، وَيَأْتِي عَلَى حُشَاشَتِهِ<sup>(١٢)</sup> الْجَهْدُ... وَلَمْ يُصَبَّ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَفَرَّهُمُ اللَّهُ عَلَى هَوْلِ الْمَقَامِ، وَشِدَّةِ الْاِقْتِحَامِ، كَثِيرٍ، وَلَامَاتٍ مِنْ أَعْلَامِهِمْ تَحْتَ تِلْكَ الْجَوْلَةِ إِلَّا عِدَدَ يَسِيرٍ، وَإِنْ كَانَ أَذْفُونَشَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - لَمْ يَمِتْ تَحْتَ السِّيُوفِ بِدَدًا<sup>(١٣)</sup>، فَسَيَمُوتُ لَا مَحَالَةَ أَسْفًا وَكَمَدًا، وَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا يَسِّرُ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ الْجَلِيلِ وَسَنَاهُ، وَمَنْحَهُ مِنْ هَذَا الصُّنْعِ الْجَمِيلِ وَأَوْلَاهُ».

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تتراءى وقعة الزلافة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف في مقدمتها باستخدامه<sup>(١٤)</sup> أمام ألفونس وتصاغره وشعوره

(٩) مليا: زما غير قليل.

(١٠) الغور: المنخفض من الأرض. النجد:

المرتفع منها.

(١١) الكالي: المؤجل. النقد: الحال، يقصد القتل

السريع والقتل المؤجل مشيرا بذلك إلى أسراهم.

(١٢) الحشاشة: بقية الروح.

(١٣) بددا: قطعا.

(١٤) الاستخذاء: الخضوع والذل.

(١) سنى: فتح.

(٢) شحط: بعد.

(٣) يريش ويبرى: يضر وينقع.

(٤) قدما: مسرعا.

(٥) يخلق ويقرى. يقرر الأمر ويمضيه.

(٦) ذكاء: الشمس.

(٧) نفجه: فخره بما ليس عنده.

(٨) شعارهم: الله أكبر.

بالمذلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنويا من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله الإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة الجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف في غفلة يعمهون. وقبض الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلّم أظفار ألفونس وردّ كيده في نحره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة في رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لسان يوسف بن تاشفين وجّه بها إلى أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين حين ولاه القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

«أَسْتَهْدِ اللَّهَ يَهْدِكَ، وَاسْتَعْنُ بِاللَّهِ يُعْنِكَ، وَتَوَلَّ الْقَضَاءَ الَّذِي وَّلَّاهُ اللَّهُ بَجْدٍ وَحَزْمٍ، وَجَلْدٍ وَعَزْمٍ، وَأَمْضِ الْقَضَايَا عَلَيَّ مَا أَمْضَاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَلَا تَبَالِ بِرَغْمِ رَاغِمٍ، وَلَا تَشْفِقْ مِنْ مَلَامَةٍ لِائْتِمَاءٍ.. وَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى جَمَاعَةِ الْمُرَابِطِينَ أَنْ يَسْلَمُوا لَكَ فِي كُلِّ حَقٍّ تَمْضِيهِ، وَلَا يَعْتَرِضُوا عَلَيْكَ فِي قَضَاءِ تَقْضِيهِ، وَنَحْنُ أَوْلَا وَكُلُّهُمْ آخِرًا مَذْ صَرَّتْ قَاضِيًا سَامِعُونَ مِنْكَ، غَيْرَ مُعْتَرِضِينَ فِي حَقِّ عَلَيْكَ، وَالْعَمَالُ وَالرَّعِيَّةُ كَافَّةً سِوَاءً فِي الْحَقِّ».

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الرعية جميعا، ويقول إنه ليس للجماعة المرابطين في الأندلس من أولى العقد والحل الحق في أى اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولا ثم المرابطون جميعا مذ صار قاضى الجماعة في قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف في القضاء الإسلامى، نجده في كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكى مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى في عهد على بن يوسف بن تاشفين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة في المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة في ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان على بن يوسف، وكان في زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالى وأن لا يعصوا له أمرا قائلا:

«إنه النائبُ عنا فى تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، وقد فوّضنا

إليه ذلك وأفردناه بالنظر في دقّه وجُلّه<sup>(١)</sup>، وقُلّه وكُثره<sup>(٢)</sup>.. وما فعل من ذلك كلّه فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمّضاه، ولا نُضَي ما وقّعَه وأباه، ولا نرى في أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولاه كأننا ما كان إلا أن يتولاه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعمّا في جَنَاننا<sup>(٣)</sup> يترجم، وعلى ما يوافقنا يُسدى ويلحم<sup>(٤)</sup>».

وفي رأينا أن هذه قسوة في معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل على بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصى ولاته بمعاملتها بالعدل الذي لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوا إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم في الرعية. وتخلو بعض السطور في رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشي يقول عنه: «كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء». وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحيانا رسائله المسجوعة.

### ابن أبي الخصال<sup>(٥)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي الشَّقُورِي المعروف بابن أبي الخصال، المولود سنة ٤٦٥ بفرغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربي مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفنا في العلوم مستبحرا في الآداب واللغات، عالما بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه «كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسن العشرة، واسع المبرة، من

والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢،  
٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤  
وراجع أربع رسائل ديوانية له في وثائق تاريخية  
جديدة عن عصر المرابطين في المجلدين السابع  
والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في  
مدريد بتحقيق وتحليل د. محمود مكي. وفي معهد  
المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية  
مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي  
الخصال.

(١) دقه: دقيقه. جلّه: كبيره.

(٢) قلّه: قليله. كثره: كثيره.

(٣) الجنان: العقل.

(٤) يسدى ويلحم: يصيب ويحكم.

(٥) انظر في ترجمة ابن أبي الخصال ورسائله  
الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥  
والصلة رقم ١١٨٧ والبعية رقم ٢٨٢ والمطرب  
١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خیر ٣٨٦،  
٤٢٠ ومعجم الصدفى ١٤٤ والخريدة ٤٤٩/٢

أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تأليف حسان» منها كتاب «سراج الأدب» وكتاب «ظل الغمامة وطوق الحمامة» في مناقب من خصَّه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحلَّه بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتباً بليغاً وشاعراً محسناً، وله قصيدة طويلة في نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب». وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة، ويقول صاحب المعجب: «له ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه، ونصبوه إماما يقتفونه» ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع في خمس مجلدات.

ولم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطي التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطي والى يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحيانا قيادة الجيوش التي تنازل نصارى الشمال، وولاه في سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها في السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش المحاربة. وحين تحولت مقاليد الحكم بعد يوسف إلى ابنه على وولاه على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملك أراجون بالقرب من سرقسطة محاميا عنها ومدافعا حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنما ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبي الخصال ظل كاتباً له حتى مطلع القرن الخامس الهجرى، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل في ديوانه بمراكش، وسنرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل في هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها في كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو مجتاز بإشبيلية في جملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشاً في تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طلبيرة رجحنا أن يكون ابن أبي الخصال رافقه في جملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضى قرطبة، وربما التحق فعلاً بديوانه في هذه السنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أثرية، وعين أخاه أبا مروان معه في الديوان، وما زالوا يكتبان عن على، وهو راض عنها كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رذمير صاحب أراجون في الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، والتقى الجمعان عند قلعة قليرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثني عشر ألفاً بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: «وبلغ ذلك على بن يوسف فغاضه، وأمر

بالكتابة إلى جنود لمتونة (المرابطين) في بلنسية بالخزى، فكتب ابن أبي الخصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزى<sup>(١)</sup> «وأفحش أبو مروان عليهم في رسالته بقوله في بعض فصولها: «أى بنى اللثيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيّفكم الناقد<sup>(٢)</sup>، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضاناً لها حالبٌ قاعد، لقد آن أن نوسِعكم عقاباً وأن لا تلوثوا<sup>(٣)</sup> على وجه نقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونظهرّ الجزيرة من رُحَصائكم<sup>(٤)</sup>». وهى مبالغة في الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد في الأندلس، مما أحق على بن يوسف، فأخر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبي الخصال فيما كتب أخوه وأن أبا عبد الله استغفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش» وأخوه إنما توفى سنة ٥٣٩ مما يدل - في رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقلالتهما من ديوان الكتابة وأنها ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ على الأرجح، وربما عملا فيه بعد وفاته إلى أن توفى أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفى سنة ٥٤٠.

ولأبي عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثرى للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك في غير هذا الموضوع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناهما من رسائله الديوانية كتب أولاهما في سنة ٥٠٧، وهى موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع النصارى الشاليين وفي فاتحتها يقول:

«كتابنا - أعزكم الله - بتقواه، وكنفكم بظل ذراه، ووفرّ حظوظكم من حُسنه، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سَبْع وخمسمائة بين يدي حركتنا يَمَن الله فاتحتها وعُقبها، وقد قرَعنا الظنائب<sup>(٥)</sup>، وأشرَعنا الأنابيب<sup>(٦)</sup>، وضمرنا اليعاسيب<sup>(٧)</sup>، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاص نية، وصدق حمية،

وجوهكم.  
(٤) رحضاه: عرق الحمى، والكناية واضحة.  
(٥) قرع الظنابيب: كناية عن الإسراع للحرب.  
(٦) الأنابيب: الرماح.  
(٧) اليعاسيب: الخيل.

(١) راجع قسماً من نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود مكى (طبع الرباط) ص ١١٠ وما بعدها.  
(٢) الناقد: الصيرفى الذى يميز النقد الحق من الزائف.  
(٣) تلوثوا: تضعوا اللثام شعار لمتونة على



فِي نَصْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَمَنْعَ جَانِبِهِ أَنْ يُضَامَ، أَوْ يَنَالَهُ مِنْ عَدُوِّهِ اهْتِضَامٌ<sup>(١)</sup>، وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَدْ بَالِغْنَا فِي الْإِحْتِشَادِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَاسْتِنَهَضْنَا مِنَ الْأَجْنَادِ، مَا يُرَبِّي عَلَى الْحَصَى وَالتُّعْدَادِ، فَإِنَّا نَعْتَقِدُ اعْتِقَادَ يَقِينٍ، بِقَوْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ أَنْ اسْتِنْفَارَ الدَّعَاءِ، وَاسْتِفْتَاحَ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، بِخَالِصِ الثَّنَاءِ، مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْجَحِ الدَّوَاءِ، فِيمَا أَعْضَلُ<sup>(٢)</sup> مِنَ الْأَدْوَاءِ».

وكانت هذه السنة حقا من السنوات التي أبلى فيها المرابطون بلاء عظيمًا في قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعلى بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبدا وظلوا يواجهون أعداءهم منزليين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحيانا ينتصرون في بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفي أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة - وخاصة في غرناطة - إلى الملك النصراني ألفونس بن رذمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم في أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشا كثيفا اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما في طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادي آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار اليُسانة بالقرب من قرطبة ولم يكتب لهم النصر، ومضى على وجهه مخترقا إقليم البُشُرَات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائدا إلى موطنه<sup>(٣)</sup>. وكان قد ظل في هذه الحملة نحو سنة يعيث في الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب بل أيضا لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد ويبدلون له كل عون. وكان يزيد في غضبهم شيء من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة وقرطبة في تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف بمراكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له في حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين

(١) اهتضام: ظلم.  
(٢) أعضل: أعجز. الأدوية: الأمراض.  
(٣) انظر في هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان) ص ١٤٦.

(١) اهتضام: ظلم.  
(٢) أعضل: أعجز. الأدوية: الأمراض.  
(٣) انظر في هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان)

المسلمين «وأفتى بتغريبهم عن أوطانهم<sup>(١)</sup>» ووعده على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبي الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل غرناطة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيتخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدع ابن أبي الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

«وَقَدْ إِلَيْنَا، وَوَرَدَ عَلَيْنَا، الْفَقِيهُ الْأَجْلُ الْمَشَاوِرُ أَبُو الْوَلِيدِ بْنِ رُشْدٍ، فَبَسَطَ لَدَيْنَا شَأْنَ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ - كَلَأَهَا اللَّهُ - وَجَلَّاهُ، وَوَصَفَ مِنْ حَالِهَا مَا أَصَحَّخْنَا لَهُ حَتَّى اسْتَوْفَاهُ، وَجَالَ بِمِيدَانِ الْبَيَانِ أَفْصَحَ مَجَالٍ، وَعَرَضَ الْأُمُورَ فِي مَعْرَضِهَا بِأَبْلَغِ مَقَالٍ.. وَلَنْ نَأْلُو<sup>(٢)</sup> جَهْدًا مَبْدُولًا، وَجِدًّا حَفِيلاً، وَعَزْمًا لَا نَائِيًا وَلَا كَلِيلًا<sup>(٣)</sup>، فِيمَا نَدْرَأُ وَنَدْفَعُ، وَنَدُودُ عَنْ حَوْزَةِ<sup>(٤)</sup> الْمَلَةِ وَنَمْنَعُ، وَنَدَابُ لِلذِّكْرِ الْمَدَابِّ الْحَثِيثِ<sup>(٥)</sup>، نُتَبِّعُ الْقَدِيمَ فِيهِ بِالْحَدِيثِ، وَنَنْصِبُ لَهُ النَّصَبَ الَّذِي لَيْسَ حَبْلُهُ السَّحِيلِ<sup>(٦)</sup> وَلَا النَّيْكِثِ<sup>(٧)</sup>، وَلَا يَشْغَلُنَا عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنْ أَهَمَّ، بَلْ نَصْرَفُ نَحْوَ جَنَابِكُمْ الْحَزْمَ الْأَتَمَّ الْأَهْمَ، وَجَهْدَ الْكِفَايَةِ مَا دَهَمَ حَادِثَ أَلَمِّ، فَاسْتَشْعِرُوا أَنْ أُمُورَكُمْ إِزَاءَ نَاطِرٍ أَهْتَابَلْنَا<sup>(٨)</sup>، وَمَنْ آكَدَ مُؤَكَّدَاتٍ أَشْغَلْنَا، وَقَدْ عَايَنَ الْفَقِيهُ الْأَجْلُ الْمَتَقَدِّمُ الذِّكْرَ، حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَسَيَبْلُغُكُمْ ذَلِكَ عَنْهُ فَلَا تَكُونُوا فِي رَيْبٍ مِنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُنَا عَلَى مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وَيَمْنَحُنَا مِنْ تَأْيِيدِهِ مَا يُعِزُّ الْإِسْلَامَ وَيُقِيمُ مِنْ أَوْدِهِ<sup>(٩)</sup>، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ، وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ».

وفعلًا نفذ على بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر في رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهود الموثقة إلى مكناسة وسلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميمًا عن غرناطة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن رذمير. وإذا كان المرابطون قَصْرُوا - أو أخذ عليهم شيء من التقصير - في مواجهة ابن رذمير فإنهم طالما أبلوا في منازلة النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث في موقعة أقليش التي انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصرع ابنه شانجه. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبي الخصال الديوانية أنه كان كاتبًا مجيدًا يحسن انتخاب الكلم في نسق محكم من السجع الرصين.

(٦) السحيل: المقتول على قوة واحدة فتلا خفيًا.

(٧) النيكث: المنقوض المشعث، ضد المقتول.

(٨) اهتبالنا: اغتنامنا الفرصة.

(٩) أوده: اعوجاجه.

(١) الإحاطة ١١٩/١ - ١٢٠.

(٢) نألوجهدا: نقصر في جهد.

(٣) كليلًا: ضعيفًا.

(٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها.

(٥) الحثيث: السريع.

ابن عميرة المخزومي<sup>(١)</sup>

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومي من سلالة خالد بن الوليد، وُلد سنة ٥٨٢ بجزيرة سُقر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تغنى أبناؤها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتابا حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أيفع وشبَّ أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها وفتيها وقاضيا أبي الربيع الكلاعي، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح العافقي شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة في طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطبة ونهل من حلقتي شيخها أبي عمر الشاطبي وقاضيا أبي الخطاب بن واجب، ورحل إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصاري، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفي في علم الأصول للغزالي وبعض كتب الصوفية. وطمحت نفسه مبكرا إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته ليكون شاعرا، ولم يلبث أن عمل بديوان أبي عبد الله بن أبي حفص الموحدى حاكم بلنسية حوالى سنة ٦٠٧ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه في سنة ٦١٧ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوين إمام العربية بالأندلس في عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ أبو زيد بن أبي عبد الله بن أبي حفص فألحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ ثار على أبي زيد زيان بن أبي الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل في ديوان زيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ وأحسَّ من زيان شيئا من

(١) انظر في ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القادم رقم ٩٢ واختصار القدر المعلى ص ٤٢ والمغرب ٣٦٣/٢ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٢ وعنوان الدراية للغيربى ص ١٧٨ والإحاطة ١٧٣/١ ونفع الطيب ٢٧٢/١ وصبح الأعشى ٥٣٤/٦، ٣٧/٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ١٤٩/٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٣٠١/٩، ٣٠٦/١٠ وراجع كتاب «أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي: حياته وآثاره» لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحفظ الخزانة العامة في الرباط بمخطوطتين من رسائله.

(١) انظر في ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القادم رقم ٩٢ واختصار القدر المعلى ص ٤٢ والمغرب ٣٦٣/٢ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٢ وعنوان الدراية للغيربى ص ١٧٨ والإحاطة ١٧٣/١ ونفع الطيب ٢٧٢/١ وصبح الأعشى ٥٣٤/٦،

الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة سُقْر، وكان سلطان ابن هود أمير مُرسية قد اتسع، فكتب له فى سنة ٦٢٩ وعينه ابن هود قاضيا فى شاطبة، جامعا له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلك بيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نفسه وعن أهل شاطبة فى الأندلس للمستنصر العباسى مع بيعة الناس فيها أيضا له ولابنه وليا للعهد من بعده. وابن هود فيها يعلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسى استكمالا لثورته على الموحدين وما يدعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين عمله فى الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتباً له، وقتل ابن خطاب. وكان ملك أراجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقي الخليفة الموحدى الرشيد فى مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته: «مراكش» وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلا، إذ عينه الرشيد قاضيا فى سلا والرباط. وتوفى الرشيد سنة ٦٤٠ فأقره أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبى زكريا الحفصى، ويبدو أنه إنما أغراه بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحتضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفى سنة ٦٤٦ تحوّل إلى أبى زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبى زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفى سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء فى قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشارا وأنيسا، وغمره بأفضاله إلى أن توفى سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبىعى أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبى زيد الموحدى، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش الثائر عليه وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدى، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبى زيد الموحدى أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدى سنة ٦٢٠ يستأذنه فى وفود أمير نصرانى عليه من أراجون يسمى: «پلاسكو أرتال» كان وصيا على ملكها خايمى، ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستقبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيما بعد عوناً لحاكم بلنسية فى حروبه ضد ملك أراجون. وصوّر ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ فى رسالته، وقد احتفظ القلقشندى فى الجزء

السادس من صبح الأعشى بشرط كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

«كان له في البلاد الأَرغُونِيَّة زعامة في شأوها<sup>(١)</sup> بَرَز، ولغايتها أحرز، وكان قد كفل صاحب أراجون في الزمان المتقدم كفالةً دارَ أمرها عليه، وألقى زمامها إليه. ثم إنه حطَّ من رتبته، وتأكدت المبالغة في نكبته.. والظاهر من حنقه على أهل أراجون وشدة عداوته لهم، وما تأكد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وقتَ فتنةٍ معهم ووجد ما يؤمِّله من إحسان الأمر العالی - أيده الله - فينتهي من نكايتهم والإضرار بهم إلى غاية غريبة الآثار، مفضية به إلى درك الثار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أقاربه وفرسانه وكلهم - في حبله - حاطب<sup>(٢)</sup>، ولإيجاده - متى أمكنه - خاطب».

وكان أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درسا من التجاء ألفونس القشتالي إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفرَّ منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالغ في إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفي أخوه وأصبح ملكا على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغي أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحيلوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعدهما أن يصبح العدو صديقا فما بالك إذا كان العدو محاربا لك، ولكن هكذا قدر لبليسية أن يحكمها غيرَ ليس عنده بصر بالأمر وأن يجد في كنفه «پلاسكو» الأرجوني عدوه الأمان والضيافة لمدة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بليسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلا شديدا.

ونفق قليلا عند البيعة للخليفة العباسي المستنصر التي أشرنا إليها والتي كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة بعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابنه وليا للعهد من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

«الحمدُ لله الذي جعل الأرضَ قرارا، وأرسل السماءَ مدرارا، وسخر ليلاً ونهارا، وقدرَ آجالا وأعمارا، وخلق الخلق أطوارا، وجعل لهم إرادةً واختيارا، وأوجد لهم تفكُّرا

(١) شأوها هنا: سلطانها.

(٢) يقال حطب في حبله إذا أعانه ونصره.

واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً، نحمده حمد من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وألحد في آياته سفاهة واغتراراً، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجاراً، السامى فخاراً، رفع الله من شريعته للأمة مناراً، وأطفأ برسالته للشرك ناراً، حتى علا الإسلام مقداراً، وعزَّ جاراً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراراً، واستسلم ذلَّةً وصغاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمَّها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وأثماراً. فجزى الله أفضل ما جزى نبياً مختاراً، ورسولاً اجتباه اختصاصاً وإيثاراً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثاراً واختباراً، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، صلاة نوالها إعلاننا وإسراراً، ونرجو بها مغفرة ربنا إنه كان غفاراً»

وواضح أن ابن عميرة التزم في سجع هذه القطعة التي استهل بها البيعة حرف الرءاء، وهو جانب يشيع شرقاً وغرباً حتى لنجد الرسالة يُختار لها أحياناً حرف بعينه، وكان الحريرى قد ابتدأ ذلك برسالتين التزم في إحداها السين وفي الثانية الشين، فأخذ المحصكى وبعض الكتاب في الشرق يحاكيه في هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب في الأندلس يحاكونه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب في عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكلمات وعظية على طريقة ابن الجوزى كما ذكر ذلك ابن عبد الملك في ترجمته له بكتابه «الذيل والتكملة، وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازى وتعقيب على كتاب التبيان في البلاغة لابن الزمكافى، ومنها كتاب في تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالخزانة العامة بالرباط مخطوطتان من رسائله.

### لسان<sup>(١)</sup> الدين بن الخطيب

أكبر كتاب غرناطة والأندلس في أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لأسرة يمنية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعين بدواوين غرناطة عند أمرائها بنى

٣٣٢/٧ وأزهار الرياض ١٨٦/١ وما بعدها  
والجزءين الخامس والسادس من نفع الطيب وكتاب  
الاستقصا للسلاوى (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤  
وفي مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعمال الأعلام =

(١) انظر في ترجمة لسان الدين التعريف بابن  
خلدون ورحلته شرقاً وغرباً (طبع لجنة التأليف  
والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصبح  
الأعشى للقلقشندى ٥٣٦/٦ وتاريخ ابن خلدون

الأحمر، وبها نشأ لسان الدين، وعُنى أبوه بتربيته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها في زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ في مديح السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣-٧٥٥) وهو أهم سلاطين بني الأحمر في القرن الثامن الهجري، ويُعدّ مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفه وأبهائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجياب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب في النثر والنظم وسائر العلوم الأدبية، وعُنى بالأديب الشاب، وما زال يعمل معه حتى توفي سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رياسة ديوان الكتاب بعده، وتوفي السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغنى بالله، فازدادت حظوته عنده ورفعته إلى مرتبة الوزارة. ونشبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبي عنان المريني بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال في بلاد المغرب واستقر بمدينة سلا زمنا، وعاد سلطانه إلى عرشه بغرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليده الحكم، ولقبه بذي الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقايبه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المريني بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بغرناطة وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرّك وقاضى غرناطة أبو الحسن التباهى ودسّوا عليه عند الغنى بالله أنه يحرض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم غرناطة إليه ووصموه بالزندقة لما ذكر في كتابه: «روضة التعريف» من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورُفِع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المريني فأبى تسليمه مبرّئا له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفي سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور في فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغنى بالله - أبو سالم المريني سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن أودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغنى بالله. ولم يكتف تلميذه ابن زمرّك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه في مجلس السلطان

عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب في كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس (طبع الإسكندرية) وكتابه في التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) وديوانه الشعري: الصيب والجهايم (طبع الجزائر).

= القسم الثاني (طبع الرباط) ص ٢٦١ وما بعدها وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٣ ولللسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة في أخبار غرناطة (طبع دار المعارف) والكتيبة الكامنة في معاصريه بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان

أبي سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها في مصنفه «روضة التعريف» تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن النكير عليه موبخا له، ونقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفاتهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله، ودُسَّ إليه في السجن من قتله خنقا، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضرمت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، ووُورِيَ التراب. وعجب الناس في فاس وفي غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدّوه من هنات ابن زَمْرَك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفا فضلا عن أن يكون متصوفا فلسفيا كما حاول ابن زمرَك أن ينعتَه بذلك كذبا عليه وافتراء، إنما كان كاتباً موسوعياً كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب في التصوف كتابه «روضة التعريف» لشيوع التصوف في زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفا حقاً لهجر الدنيا وعاش في زاوية - أو ضرب في الأرض - ناسكاً مثل ابن عربي وابن سبعين والششتري. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شيء والتصوف الحقيقي شيء آخر، وفيه يقول المقرئ: «هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس في عصره الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها» ويقول ابن خلدون في وصف براعته الأدبية: «كان آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجل مداه، ولا يُهتدى فيها بمثل هدها». ومما قيل فيه: «كاتب الأرض إلى يوم العرض». وله - بجانب ديوانه: الصيِّب والجهام - مقامة بناها على المفاخرة بين سلا في المغرب ومالقة في الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان في وصف البلدان وصف فيها بلدان الأندلس والمغرب هما: «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» في وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و«معيار الاختبار في ذكر أحوال المعاهد والديار» في وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه الأعمال منشورة وكذلك رحلته نفاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك في موضع آخر. ونقف قليلاً عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بني مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولاً أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطلق لسان الدين في هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطلق في الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان



المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحميد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحابته، ويذكر المكان الذي كُتبت فيه الرسالة ثم يأخذ في بيان المقصود منها ويختمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغني بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جوابا عن كتاب وصل منه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون في كتابه التعريف والقلقشندى في صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

«الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع وعزها الذائع على ما أسسه الأسلاف، وجب لحقها الجازم وفرضها اللازم الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف، فامتزاجنا بعلاتها المنيف وولائها الشريف كما امتزج الماء والأسلاف، وتناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العميم كما تأرجت الرياض بالأفواف<sup>(١)</sup>، لما زارها الغمام الوكاف<sup>(٢)</sup>، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال علاتها يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراق، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة لا تحصره الحدود ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف».

ولعل بلاغة لسان الدين قد اتضحت في هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتا بديعة، ويدعها لا يأتي من انتخاب ألفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتي أيضا من أسجاعها الطويلة التي يتلافى طولها بما يجري في تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى في تقابل السجعتين: «فخرها الشائع» و«عزها الذائع» في السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين في السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: «لحقها الجازم، وفرضها اللازم». وبنفس النمط تلاقى «المنيف والشريف» في السجعة الخامسة، و«الكريم والعميم في السجعة السادسة». ويكثر ذلك في الرسالة طلبا لاكتثال الجرس حتى تلذ الأسباع لذة موسيقية، وهي لذة تقترن بمحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات في السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاویر، ففضل الخلافة أصيل القواعد، ومباني فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغني بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالأسلاف، وتناؤهم عطر كشدی الرياض في الأزهار غب الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك في نعت الخليفة نفسه وآبائه الأمجاد، وامتد نعتة نحو أربعة عشر سطرا، ثم ذكر الغني بالله مع

(٢) الوكاف: المدرار.

(١) الأفواف: الزهر.

طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسمات الأسحار، وأطال في التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال في وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره مطريا مثنيا، ثم يأخذ في وصف جهاد سلطانه الغنى بالله لنصارى الشمال ومنازلته لهم في مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم في جيآن وكانت قد سقطت في أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:

«وهذه المدينة هي الأمُّ الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكُرْسِيَّ الملك، ومَجْنِبَتُهُ<sup>(١)</sup> الوسطى من السُّلُك، غَابُ الأسود، وَجُحْرُ الحَيَّاتِ السود.. ولما أَكْتَبْنَا<sup>(٢)</sup> جوارها، وكدنا نلتمع، نارها، تحركنا إليها ووشاحُ الأفق المرقوم<sup>(٣)</sup> بزهر النجوم قد دارَ دائرُهُ، واللَّيْلُ من خوف الصباح على سطحه المستباح قد شابت غَدَائِرُهُ.. ولما فشا سرُّ الصباح، واهتَزَّتْ أَعْطَافُ الرِّايَاتِ بتحياتِ مبشراتِ الرياح، أَطْلَلْنَا عليها إطلالَ الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أَصْحَر<sup>(٤)</sup> إليهم من الفرسان، وسبق إلى حَوْمَةِ الميدان، حتى أبحروهم<sup>(٥)</sup> في البلد، وسلبوهم لباسَ الجلد، في موقف يُذْهَلُ الوالد عن الولد، صابت<sup>(٦)</sup> السهامُ فيه غماما، وطارَتْ كَأَسْرَابِ الحَمَامِ تُهْدِي حِمَامًا<sup>(٧)</sup>، وأضحت القنأ قِصْدًا<sup>(٨)</sup>، بعد أن كانت شهابا رَصْدًا».

والقطعة زاخرة بالجناسات والتصوير، فجيآن أم ولود، وجنة من جنان الأندلس ولساكنيها النار وبتس القرار. وقد دنوا منها في أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث الصباح أن أخذ يذيع أسراره بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا في جحورهم فرارا من الموت الزوأم وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التي كانت تحميمهم، وخرها صرعى مجذلين.

- (١) مجنبة واسطة السلك: الجوهرة بجانب الجوهرة الوسطى الفريدة في العقد.  
 (٢) أكتبنا: قاربنا.  
 (٣) المرقوم: الموسم والمنقوش.  
 (٤) أصحر: برز.  
 (٥) أبحر: أدخل.  
 (٦) صاب: انصب.  
 (٧) الحمام بكسر الحاء: الموت.  
 (٨) قصد جمع قصدة: قطعة.

ويكثر ابن الخطيب - كعادة أهل الأندلس في زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن سلطانيه أبي الحجاج وابنه الغني بالله إلى الرسول ﷺ متوسلين إليه بالشفاعة في تحقيق أمانيتهم الدنيوية في النصر على الأعداء وأمانيتهم الآخروية في الغفران والرضوان، مع تصوير جهادها الدائب في نصرة الإسلام والذب عن حياضه في الأندلس. ويفيض المقرئ بكتابه نفع الطيب في الحديث عن شيوخه وتلاميذه وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حُسن أداء وروعة بيان.

## ٢

## الرسائل الشخصية

طبيعى أن يعنى الكتاب بهذه الرسائل منذ عنايتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناع وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام في الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التي صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضنك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان في ثراء وحال حسنة قائلاً<sup>(١)</sup>:

«كنت قد نشأتُ في مَعْقَلٍ من العَفَا<sup>(٢)</sup> والوَفْرِ، مُحَدِّقًا بسور من الأمن والسُّتْرِ، حتى أرسل إليَّ سلطان الفقر، رسولاً من نُوبِ الدهر، يريد استنزالي إليه، وخضوعي بين يديه، فأبيت من ذلك عليه، فغزاني بكتائب من النوائب، تسير تحت الوِيَةِ المصائب، تُرِيقُ بسيف الرِّزَايا، وتُشهر أسنَّة المنايا، يرمون عن قِسيِّ الأوجال، ويضربون طبول الذعر وسوء الحال، بأيدي باطشة لا تَكِلُ، وبصائر ثابتة لا تَمَلُّ».

والرسالة مبنية على السجع، مبالغة في التألق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلات بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التتميق في الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع الهجري على نحو ما أخذ يحدث في الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان (٢) العفا هنا: كثرة الخير وطيب العيش.

الأكبر، وتلتقى بأخرة من العصر الأموي بابن شهيد الكاتب البارع المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولاً شديداً، ونسوق له قطعة من رسالة أُنْبِ فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكراً معتذراً عن الإمام بيباه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخريب والهدم والحرق، يقول<sup>(١)</sup>:

«قد كان أقلَّ حقوق مولاى أن أقفَ بيباه، وأُخيمَ بفنائه، وأُهدى إليه الشكر غُضًّا، وأنثر عليه المدح بضًّا<sup>(٢)</sup>، ولكنى ممنوع، وعن إرادتى مَمْعُوع، يملكنى سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير، شىء غلب صَبَرَ الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، لِيُبين ضعف البشر، وتلوح قدرة مصرّف القدر، والذى أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب، بث شاغل، وبرح<sup>(٣)</sup> قاتل، وصبر يغيض<sup>(٤)</sup>، ودمع يفيض، لعجوزٍ بخراء<sup>(٥)</sup>، سهكة درداء<sup>(٦)</sup>، تُدعى قرطبة:

عجوزٌ لعمرُ الصبا فانيه لها فى الحشا صورة الغانية

طاب لى الموتُ على هواها، ولذَّ عندى سقى دمي لثراها». وله من رسالة يصور فيها أحد الأبطال المنازِلين لجيوش الأعداء من نصارى الشمال<sup>(٧)</sup>:

«واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعناد، واتخذ ظهر الجواد بيتاً، وظلَّ اللواء كُمَيْتاً<sup>(٨)</sup>، واستبدل من نَقَر الكِران<sup>(٩)</sup> قرع الطبول، ومن نغم القيان شجاً الصهيل، ومن وجبة<sup>(١٠)</sup> المعازف لَجَب الخيول، يمشى فى الهجير<sup>(١١)</sup>، ويسرى<sup>(١٢)</sup> فى الزمهير، ويحنُّ إلى الأذان والتكبير، فى خِطَّة إبليس، ومصدح النواقيس».

وستترجم لابن شهيد فى مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ومن أوائل من تلقاه فى هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب معن بن صُباح أمير

(٨) الكميت من الخيل: الأشقر ضارباً إلى

السواد.

(٩) الكران: العود.

(١٠) وجبة: صوت.

(١١) الهجير: القيظ وسط النهار.

(١٢) يسرى: يسير ليلاً. الزمهير: البرد

الشديد.

(١) الذخيرة ٢٠٧/١.

(٢) بضاً: ناضراً.

(٣) برح: عذاب.

(٤) يغيض: يغيب.

(٥) بخراء: رائحة فمها كريهة.

(٦) سهكة: كريهة الرائحة. درداء: ساقطة

الأسنان.

(٧) الذخيرة ٢٢٧/١.

المرية، وقد أطلال ابن بسام في ذكر تحميداته، وذكر طائفة من رسائله في العتاب والاستزارة وله رسالة في ذم صديق، ويقول ابن سعيد في المغرب إنها من أبداع ما قيل في ذم مؤاخ، ومن قوله فيها: (١)

«خَلَيْتُ عَنْهُ يَدِي، وَخَلَدْتُ قِلاَهُ خَلْدِي، بِيَضِ الْأَنْوَقِ (٢) مِنْ رِفْدِهِ أَمَكْن، وَصَفَا الْمَشَقَّرَ (٣) مِنْ خَدِّهِ أَلَيْن، نَزَرَ النَّوَالِ، رَثَ الْمَقَالِ، أَحَادِيثَ وَعَدَهُ لَا تَعُودُ بِنَفْعِ، وَلَا هِيَ مِنْ غَرْبٍ وَلَا تَبَعِ (٤)، عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّعْبِيسِ قُفْلٌ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ، وَلَيْلٌ مَاتَ صِبَاغُهُ، غَنِيٌّ مِنَ الْجَهْلِ، مَفْلَسٌ مِنَ الْعَقْلِ، تَنْضَالُ النِّعَمِ لَدَيْهِ، وَتَقْيِجُ مَحَاسِنِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، غِرْبَالُ حَدِيثٍ إِذَا وَعَى سِرًّا قَطَرَ مِنْهُ، كَيْدُ الزَّمَانِ عَلَيْهِ قَاسِيَةٌ، وَنِعْمَ اللَّهُ لَهُ نَاسِيَةٌ، قَصِيرُ عَمْرِ الْوَفَاءِ لِلْإِخْوَانِ، عَوْنٌ عَلَيْهِمْ مَعَ الزَّمَانِ، مَرْبٌّ لِأَطْفَالِ الْإِحْنِ، مُحْيِي لِأَمْوَاتِ الدَّمَنِ (٥)، رَقَدَتْ مَلَأَ عَيْنِي فِي قَرَشِ الْقَلَى (٦) لَهُ وَشَرِبْتُ زُلَالًا (٧) مَاءَ الْعَزَاءِ عَنْهُ»

ولابن برد رسالة وجه بها إلى أبي الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥ - ٤٦١ هـ) جعل موضوعها مجلسا للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتتجاوز في أيها أجمل في صورته وأعقب في رائقته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحرته معللا لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس من رؤساء الأزهار والرياحين النرجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيري، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة النرجس إذ يقول (٨):

«وَالَّذِي مَهَّدَ لِي حِجْرَ الثَّرَى، وَأَرْضَعَنِي ثَدْيَ الْحَيَا (٩)، لَقَدْ جِئْتُ بِالشَّهَادَةِ أَوْضَحَ مِنْ لَبَّةِ (١٠) الصَّبَاحِ، وَأَسْطَعُ مِنْ لِسَانِ الْمَصْبَاحِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُسِرُّ مِنَ التَّعَبُدِ لَهُ وَالشَّغْفِ بِهِ، وَالْأَسْفَ عَلَى تَعَاقُبِ الْمَوْتِ دُونَ لِقَائِهِ. مَا أَنْحَلُ جَسْمِي، وَمَكَّنُ سَقَمِي، وَإِذْ قَدْ أَمَكْنُ الْبَوْحُ بِالشَّكْوَى، فَقَدْ خَفَّ ثِقْلُ الْبَلْوَى»

وتتوالى شهادة البنفسج والبهار (١١) والخيري، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد

(١) الذخيرة ٥٠٤/١ والمغرب ٨٩/١.

(٢) واضح أن بيض الأنوق مثل لبيان الاستحالة.

(٣) المشقر: حصن في البحرين اشتهر صفاه

أو صخره بشدة الصلاة، ويريد أن صديقه صفيق.

(٤) الغرب والنيح: شجر تتخذ منه السهام.

(٥) الدمن: جمع دمنة: الحقد.

(٦) القلى: الكراهية.

(٧) الماء الزلال: العذب الصافي السلس.

(٨) الذخيرة ١٢٧/٢.

(٩) الحيا: المطر.

(١٠) اللبة: موضع القلادة من العنق.

(١١) زهر البهار أصفر ويشبه زهر النرجس.

بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعا على أنها أعطت للورد قيادها وملكتها أمرها، واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤمّر لسوابقه، وهى لذلك تلتزم له بالسمع والطاعة والرق والعبودية. وربما كنى بالورد عن أمه في أن يكون وزيرا لابن جهور مفضلا له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحاكاها غير كاتب، ومن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صورا مختلفة من التتميق، ومن روى له كثيرا من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة فى الشفاعات والوسائل والمودة وفى التهنتة والتعزية، من ذلك تعزيتة لأب فى فتى له استشهد فى قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

«كُتِبَ عن قلب يقشعُرُ، ونَفْسٍ بين ضلوعها لا تستقرُّ، لخبر الرُّزءِ الهاجم، والنبأ الشنيع الكالمِ.. فيا لها حسرةٌ ما أنكأها<sup>(٢)</sup> للنفوس، وجمرةٌ ما أذكأها<sup>(٣)</sup> فى القلوب. ورُوعَةٌ ما أفتها للأعضاد، ولوَعَةٌ ما أحرَّها على الأكباد:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقدّموا

ولقد خرج من بيته مجاهدا، وعن جَمَى الدين ذائدا، فوقع أجره على الله.. وأنت الطَّوْدُ الموفى<sup>(٤)</sup> على كل هَضْبَةٍ، المَعْلَى على كل فَرْحَةٍ وكرْبَةٍ. واللَّه - يا سيدي - فى نفسك العزيزة أن يكون فيها كامنٌ رزءٌ<sup>(٥)</sup> يقدح، أو أن يوهنَ منها باطن أسى يقدح»

وكان يعاصر أبا محمد ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له فى غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفى إحداها يقول مهنتا بعض العمال بخلاصه من نكبتة<sup>(٦)</sup>:

«كتابى عن نفسٍ قد أشرق وجهُ صباحها، وهبَّت رياحُ ارتياحها، بما طلع علينا من

(٤) الموفى: المشرف.

(٥) رزء: مصيبة.

(٦) الذخيرة ١/٥٨٤.

(١) الذخيرة ٣/٢١٩.

(٢) ما أنكأها: ما أنكأها أى ما أشد جرحها

والمها.

(٣) ما أذكأها: ما أحرها.

البشائر السارة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغت قلوب الأوداء الحناجر، وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمت فيك، بإساءتها إليك، كل مُنتسبٍ إلى فضل، مُتَّسِمٍ باسم نُبُل، وإن كانت قد أصابت فيك سواد ناظرها الذي تضىء به وتتجمل، وسخت منك بحلى جيدها الذي يحقُّ به أن تبخل.. وقد صادفت منك الإبريز<sup>(١)</sup> الذي لا يزيده السُّبُكُ إلا تمحيصاً، والمبرِّز الذي لا يُعقبه تحوُّل الأحوال نكوصاً، تتلقى الخطوب بصدْرٍ وساع<sup>(٢)</sup>، وصبرٍ منفسح الباع، وتَسْبِر<sup>(٣)</sup> الدهر بمسبارها، وتعرف من مكنونه حقيقة إرادته وإصداره».

ونلتقى بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخصه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضاً أبو عمر<sup>(٤)</sup> الباجي المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البهار وجه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفاً إليه آملاً أن تكون له الخطوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواوير الربيع وفيها يقول<sup>(٥)</sup>:

«أطال الله بقاء المقتدر مولاي وسيدى ومُعَلِّى حالى ومقيم أودى<sup>(٦)</sup>، وأعاذنى من خيبة العناء، وعصمني معه من إخفاق الرجاء، ولا أشمت بى عدوا من الرياض يناصبنى<sup>(٧)</sup>، وحاسدا من النواوير يراقبنى، وقد علم الوردُ موقع إمارتى، وغنيتى بلطيف إيمائى عن عبارتى.. وقد أتيت فى أوانى، وحضرت وغاب أقرانى، ولم أُخْلِ من خدمتك رتبتي ومكانى.. فهل لمولاي أن يُحسن إليّ صنيعاً، ويكرم النورَ جميعاً، ويُدنِّينى فأرْفى إلى أختى الثرىاً سريعاً، فى مجلس قد أخلصته سحائبه، وأفرغتِ الحسن عليه والطيب ضرائبه<sup>(٨)</sup>، وجهك بَدْره، وغرَّتكَ فَجْرُه، وأخلاقك زَهْرُه، وتناوَك دُرُه وعِطْرُه»

والباجى يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصورا بلسانه مطامحه فى التقدم عند المقتدر فى مجالس تدبيره وأنسه على جميع كتابه ووزرائه. ولمواطنه كاتب المقتدر حسداى<sup>(٩)</sup> - وكان يهوديا وأسلم وحسن إسلامه - رسالة مماثلة كتب بها إلى المقتدر على

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

(٦) أودى: اعوجاجى.

(٢) وساع: متسع.

(٧) يناصبنى: يفايدنى.

(٣) تسبر: تختبر. مسبار: آلة الاختبار.

(٨) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.

(٤) انظر ترجمة الباجى فى القلائد ١٠٢ والذخيرة

(٩) راجع ترجمته فى القلائد ١٨٣ والذخيرة

٤٥٧/٣ والحريدة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

١٨٦/٢ والحريدة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.

(٥) الذخيرة: ١٩٤/٢.

ومن شعراء العصر الذين عنى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية البديعة ابن الحداد الذى مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء فى العصر، وتمت رسائله عن أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالأداب العربية ومايطوى فيها من أعلام وأمثال وأشعار، وبعلم الأوائل ومايطوى فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله فى الشكر والإخاء<sup>(٢)</sup> :

« يا سيدى الذى هو قَسِيمٌ ذاتى إن تحققت الذوات والنحائر<sup>(٣)</sup>، وشقيقٌ نفسى إن تبينت الخلائق والغرائز، ومن أبقاه الله بقاءَ الفرقدين<sup>(٤)</sup> فى تدبير السعدين. بيننا من التحام المقة<sup>(٥)</sup>، واستحكام الثقة، ما أربأ<sup>(٦)</sup> به عن تضمين الصّحائف، ولو قُدت من السوّالف<sup>(٧)</sup>، وأنزهه عن اشتمال المداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسىّ النقاء، ووفائنا فلكىّ البقاء، ولا تُضَمَّن الطروس، إلا ما لحقه الدروس. وكتابى هذا إثر إتحافك لى بكتابين كالنيرين، فإن كان القمر ويوح<sup>(٨)</sup>، لإنارة اللوح، فهذان، لجلاء الأذهان».

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخسه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين<sup>(٩)</sup> سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوى الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريفة بناها على الدعابة فى الشفاعة لشخص يسمى بالزرزير مستغلا اتفاق اسمه مع اسم طائر الزُرزور على هذا النمط<sup>(١٠)</sup>:

«يَصِلُ بالكتاب - وصلَ الله عُلُوكَ، وَكَبَتَ عدوكَ - شَخْصٌ من الطيور يُعْرِفُ بالزُرزيرِ أقامَ لدينا أيامَ التحسِيرِ<sup>(١١)</sup>، وزمانَ التبليغِ بالشُّكْرِ<sup>(١٢)</sup>، فلما وافى ريشه، ونبت بأفراخه عُشُوشه، أَرَمَعَ عنا قُطوعا<sup>(١٣)</sup>، وعلى ذلك الأفق اللدن تدلياً ووقوعا، رجاء أن

- |                                       |   |
|---------------------------------------|---|
| (١) الذخيرة ٤٧٠/٣.                    | اللوح: الهوا بين السماء والأرض.             |
| (٢) الذخيرة ٧٠٤/١.                    | (٩) انظر ترجمته فى الذخيرة ٨٢١/١ والمغرب    |
| (٣) النحائر: الطباع.                  | ١١٦/١ والصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والحريدة       |
| (٤) الفرقدان: نجان قريبان من القطب.   | ٤٨٤/٢ ومعجم الأدباء ١١/١٨١.                 |
| (٥) المقة: المحبة.                    | (١٠) الذخيرة ٣٤٧/٢.                         |
| (٦) أربأ به: أنزهه.                   | (١١) التحسير: سقوط الريش العتيق.            |
| (٧) السوالف جمع سالفة: جانب العنق.    | (١٢) الشكير: صغار الريش. التبليغ: الاكتفاء. |
| (٨) النيران: الشمس والقمر يوح: الشمس. | (١٣) قوعا: طيرانا.                          |



يَلْقَى فِي تِلْكَ الْبَسَاتِينِ مَعْمَرًا<sup>(١)</sup> وَعَلَى تِلْكَ الْفُصُونِ حَبًّا وَثَمْرًا، وَأَنْتَ بِجَمِيلِ تَأْتِيكَ،  
وَكَرَمِ مَعَالِيكَ، تَصْنَعُ لَهُ هُنَالِكَ وَكُونًا<sup>(٢)</sup>، وَتَسْتَمَعُ مِنْ نَعْمِ شُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ أَغَارِيدَ وَلُحُونًا،  
دُونَ أَنْ يَلْتَقِطَ فِي فَنَائِكَ حَبَّةً، أَوْ يَسْتَرْطُ<sup>(٣)</sup> مِنْ مَائِكَ نَغْبَةً<sup>(٤)</sup>».

وطارت الرسالة في الأندلس وحاول غير أديب محاكاتها لِمَا فِيهَا مِنْ دُعَابَةٍ مُسْتَمْلِحَةٍ،  
إِذْ صَوَّرَ سِرَاجَ مَا كَانَ فِيهِ هَذَا الشَّخْصَ مِنْ ضَيْقٍ جَعَلَهُ يَلْتَمَسُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ لِصَاحِبِهِ  
بِالزَّرْزُورِ حِينَ يَنْحَسِرُ عَنْهُ رَيْشُهُ الْعَتِيقُ وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا الرِّيشُ الْقَصِيرُ، حَتَّى إِذَا كَثُرَ  
رَيْشُهُ صَمَّ عَلَى الْقَطُوعِ أَوْ الرَّحِيلِ أَمْلًا أَنْ يَنْزَلَ عَلَى أَفْقِ هَذَا الْجَوَادِ وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَنْزِلًا  
وَحَبًّا وَثَمْرًا وَوَكُونًا أَوْ عَشُوشًا يَأْوِي إِلَيْهَا مَتَغْنِيًا بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ. وَيَنْصَحُهُ أَنْ لَا يَجِدُ فِي فَنَائِهِ  
حَبَّةً يَلْتَقِطُهَا وَلَا جَرْعَةً مَاءٍ تَبَلُّ رَيْقَهُ. وَمِنْ حَافِلِ مَحَاكَاةِ سِرَاجِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي هَذِهِ  
الدُّعَابَةِ الطَّرِيفَةِ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ<sup>(٥)</sup> الْعَزِيزِ بْنِ الْقَبْطُورَنَةِ كَاتِبِ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينِ  
الْمُتَوَفَى حِوَالِي سَنَةِ ٥٢٠ لِلْهَجْرَةِ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي رِسَالَتِهِ<sup>(٦)</sup>:

«يَصِلُ بِكِتَابِي - وَصَلَّ اللَّهُ سَعُودَكَ - مِنْ الطَّيْرِ نَطَاقًا، مِنْ غَيْرِ ذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ<sup>(٧)</sup> ..  
مَهْدَتَهُ الْعَدَارَى الْحُجُورَ، وَالْحَقْفَةَ الشُّعُورَ، وَرَبَّتَهُ بَيْنَ التَّرَائِبِ وَالنُّحُورِ، وَعَلَّلَتْهُ  
بِالرُّضَابِ<sup>(٨)</sup>، وَسَقَتْهُ بِأَفْوَاهِهَا الْعِذَابَ، أَقَامَ عِنْدَنَا زَمَانًا، لَا يَتَأَلَّفُ إِلَّا رَنْدًا<sup>(٩)</sup> أَوْ بَانًا،  
يَتَدَرَّجُ فِي الْبَسَاتِينِ، يَتَطَلَّبُ الْعِنَبَ الْمُنتَقَى وَالتَّيْنَ، فَذَكَرْتَ لَهُ يَوْمًا وَالْحَدِيثَ ذُو  
شُجُونٍ، أَرْضِكَ الْمَيْثَاءَ<sup>(١٠)</sup> ذَاتَ الشَّجَرِ وَالْعِيُونَ، فَصَفَّقَ جَنَاحًا، وَاهْتَزَّ ارْتِيَاحًا، وَسَأَلَنِي  
إِلَى مَجْدِكَ كِتَابًا فَإَنْلَتُهُ مَا ابْتَغَى، وَقَلْتُ: سَلِمْتَ أَخَا الْبَيْغَا، وَبُلِّغْتَ الْمَدَى، وَجُنِبْتَ مِنْ  
حَزَّةِ الْمَدَى<sup>(١١)</sup> وَأَخَذَ الْكِتَابَ بِمِنْقَارٍ، وَصَفَّقَ بِرَيْشِ الْجَنَاحِينَ سُورًا وَطَارَ، وَأَنْتَ  
بِسَيَادَتِكَ تَبْسُطُ لَهُ فِي بَسَاتِينِكَ، وَتَفْرِشُ لَهُ مِنْ وَرْدِكَ وَيَاسَمِينِكَ»

وكان يعاصر ابن القبطورنة أبا القاسم بن الجمد، وسنخسه بكلمة، وعاصرهما  
ابن عبدون الشاعر الفذ الذي ترجمنا له بين شعراء الرثاء، وقد عمل في دواوين المتوكل

(١) معمرًا: منزلا.

(٢) وكونا جمع وكن: عش الطائر.

(٣) يسترط: يبتلع.

(٤) نغبة: جرعة.

(٥) راجع ترجمته في الذخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب

(٦) والتكملة رقم ١٧٤٣ والقلائد ١٤٨.

(٧) الذخيرة ٧٥٨/٢.

(٧) ذوات الأطواق: الحمام.

(٨) الرضاب: الريق المرشوف والعسل.

(٩) الرند: شجر طيب الرائحة. البان: شجر

يشبه به الحسان في الطول واللين.

(١٠) الميثاء: اللينة الطيبة.

(١١) المدى، جمع مديّة: السكين.

بيطليوس ثم في دواوين المرابطين، وله رسائل يخُطب فيها ودّ أبي القاسم بن الجد، وفي إحداها يقول<sup>(١)</sup> :

«إن تعذّر لقاء، فقد انتشر ثناء، امتلأت الأرض منه والسماء، ووَصَفَ عَزَّ الأوصافَ وغلبها، وهزَّ الأعطافَ وجَدَّبها، وذَكَرُ مَلَأَ الآذانَ حُلِيًّا، والآنافَ رِيًّا<sup>(٢)</sup>، والأفواه أَرِيًّا، ونُبُلٌ جَلَّتْ مطالعُهُ دِياجِي الأوهام، ورَوَتْ مَواقِعُهُ صَواذِي<sup>(٣)</sup> الأوهام.. والله دهرٌ أطلعكَ أفاقه، ووقتٌ وسِعَكَ طَلَقُهُ<sup>(٤)</sup>، ما أكرمَ طبيعته، وأضحَمَ دَسِيعَتَهُ<sup>(٥)</sup>، وأعْبَقَ في الآنافِ شَمِيمَهُ، وأرقَّ على الأنفاسِ نَسِيمَهُ.. وأنا أخطبُ إلى عِمادِي - أدام اللهُ عزَّتَه - مودَّتَه عَقِيلَةً<sup>(٦)</sup>، وأجعلُ رَجْمِي<sup>(٧)</sup> : الأدبَ والنسبَ وسيلةً، وأبذلُ من تحليةِ حَمْدِي وشكرِي مَهْرًا، وأبني لها بين سَحْرِي ونَحْرِي<sup>(٨)</sup> قَصْرًا.. والله - جَلًّا وعلا - يُعِينُنِي على فَرَضِهِ أُوْدِيهِ، وقَرَضِهِ أَقْضِيهِ».

وللأعمى التطيلي الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: «إني أبيت ظمآن، ولا أبيت خزيان، وأحتمل الحرمان. ولا أحتمل الهوان<sup>(٩)</sup>». وكان يعاصره ويعاصر ابن الجد ابن خفاجة شاعر الطبيعة المبدع الذي مرت ترجمته، وكما كان يبدع في وصفها شعرا كان يبدع في وصفها نثرا، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غِبَّ مطر<sup>(١٠)</sup> :

«لما أكبَّ الغمامُ إكبابا، لم أجدْ معه إغبابا<sup>(١١)</sup>، واتصل المطر اتصالا، لم أَلْفِ معه انفصالا، أذن الله تعالى للصحو أن يُطَلِّعَ صَفْحَتَهُ، وينشر صَحِيفَتَهُ، فَفَشَعَتِ الرِيحُ السحابَ، كما طوى السجلُ الكتابَ، وطفقت السماءُ تخلع جِلْبَابَهَا، والشمسُ تحطُ نِقَابَهَا، وتطلَّعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تحلَّتْ، وقد تجلَّتْ، ذهبَتْ في لُمةٍ من الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضًا، ونَطْوِي للترفُّجِ أَرْضًا، وننشر أرضًا، وتردِّدنا بتلك الأباطح نتهادي<sup>(١٢)</sup> تهادي أغصانها، وتتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم، أثناء ذلك

(٧) رحم: قرابة.

(٨) السحر: الرثة. النحر: أعلى الصدر.

(٩) الذخيرة ٧٢٩/٢.

(١٠) الذخيرة ٥٤٣/٣.

(١١) إغبابا: انقطاعا.

(١٢) نتهادي: نتايل.

(١) الذخيرة ٦٧٠/٢.

(٢) ريا: شدى.

(٣) صواذى: عطاش.

(٤) طلّقه: شوطه.

(٥) دسيعته: طبيعته وشيمه.

(٦) العقيلة: السيدة الكريمة.

المنظر الوَسِيم، ترأسلُ مَشَى، على بساطِ وَشَى، وَأَجَلْنَا النظرَ فى نهرِ صافى لُجَيْنٍ<sup>(١)</sup> الماء، كأنه مجرَّةُ السماء، مُؤْتَلِقِ جَوْهَرِ الحَبَابِ<sup>(٢)</sup>، كأنه من تغورِ الأحباب. وحضرنا مُسْمِعٌ<sup>(٣)</sup> يجرى مع النفوس لَطَافَةً فهو يعلم غرضها وهوأها، ويغنى لها مُقْتَرَحَهَا ومُنَاهَا: يحرِّكُ - حين يَشْدُو - ساكناتٍ وَيَبْتِعُ الطَّبائِعَ للِسُكُونِ»

ولا بن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل في التهادى وفي العتاب وفي الشفاعة، وفي التهاني وفي التعازى، وهى مبنوثة بترجمته فى الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله<sup>(٤)</sup>:

«قَمَرٌ فَضْلٌ سار إلى سِراره<sup>(٥)</sup>، ووُسْطَى عِقْدٌ أخذ فى انتشاره، وصَبَاحٌ جَذَلٌ<sup>(٦)</sup> أسرع فى انطوائه، ومصباح أمل عَجَلٌ بانطفائه، فقبحاً لدنيا قَصَفْتَهُ أنضر ما كان غُصْنَا، وكَسَفْتَهُ أقمر<sup>(٧)</sup> ما كان حسنا. وصار مفقوداً، كأن لم يكن مشهوداً، ومنشوداً<sup>(٨)</sup> كأن لم يكن موجوداً. وقد وجدتُ لذلك وَجْدًا لا يسعه الصَّدْرُ، ولا يقاومه الصَّبْرُ، وأواراً<sup>(٩)</sup> لا تَطْوِيهِ أحناءُ الضلوع، ولا تُطْفِئُهُ أحساءُ<sup>(١٠)</sup> الدموع. وكأن كل ذلك لما انقضى، فمضى، خيال ألم ثم تولَّى، وغمامٌ أظْلَمَ ثم تَجَلَّى».

ومن معاصرى ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبى الخصال أهم الكتاب فى دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحتفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدم وتعازى فى وزير و بنت وأخ وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جذب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحا بجمال الطبيعة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله فى ذخيرته، من بينها رسالتان وجه بها إلى ابن بسام رداً على رسالة كان أرسلها إليه فى طلب بعض شعره ونثره ليضمينه الذخيرة، وهو فى أولها يعتذر عن تلبية طلبه فى تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سَقَطِ المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه فى الطلب فاضطر أن يلبيه بقليل من شعره قائلا إنه

- 
- (١) اللجين: الفضة.  
 (٢) الحباب: الفقاقيع تلمع فوق سطح الماء.  
 (٣) مسمع: مغن.  
 (٤) الذخيرة ٥٥٧/٣.  
 (٥) السرار: آخر ليلة فى الشهر.  
 (٦) جذل: سرور.  
 (٧) أقمر: أضوأ.  
 (٨) منشودا: مطلوبيا.  
 (٩) الأوار: حر النار.  
 (١٠) أحساء هنا: يناعيع.

يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه النفث الأخيرة، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر في ليلة قاسية البرد، ويمضى في تصويرها قائلاً<sup>(١)</sup>:

«إني خططت والنوم مُغازل، والقرُّ منازل، والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجاج<sup>(٢)</sup>، فطوراً تسدده سنانا، وتارة تحركه لسانا، وأونة تطويه حيابة<sup>(٣)</sup>، وأخرى تنشره نؤابة، وتقيمه إبرة لهب، وتعطفه برة ذهب، أو حمة<sup>(٤)</sup> عقرب، وتقوسه حاجب فتاة، ذات غمزات، وتستل روحه من ذباله، وتعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد أو مسخته حدق<sup>(٥)</sup> جراد.. فلا حظَّ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين، واللبل زنجي<sup>(٦)</sup> الأديم تيرى<sup>(٧)</sup> النجوم، قد جللنا ساجه<sup>(٨)</sup>، وأغرقتنا أمواجه، ولو نظرت فيه الزرقاء<sup>(٩)</sup> لا كتحتل، أو خضبت به الشيبية لما نصلت<sup>(١٠)</sup>، والكلب قد صافح خيشومه ذنبه، وأنكر البيت وطنبه،<sup>(١١)</sup> والتوى التواء الحباب<sup>(١٢)</sup>، واستدار استدارة الحباب، وجلده الجليد، وضربه الضريب<sup>(١٣)</sup>، وصعد أنفاسه الصعيد<sup>(١٤)</sup>، فجماه مباح، ولا هريز ولا نباح، والنار كالصديق أو كالرحيق<sup>(١٥)</sup>، كلاهما عنقاء مغرب<sup>(١٦)</sup>، أو نجم مغرب».

والرسالة وصف شعري بديع لهذه الليلة من ليالي الشتاء الباردة بردا شديدا في الأندلس والرياح تقصف، واللبل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطة، وقد يضيء ويستعرض، وقد يتضاءل حتى يصبح إبرة أوبرة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبي الخصال في وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخيلته الرائعة. وليستتم صورة بردها الشديد وصف كلبا مقرورا مد عليه الثلج رواقه، حتى لم يعد يبصر طناب بيته والتف ذنبه على خيشومه

السواد.

(١) الذخيرة ٧٩٢/٣.

(٢) يريد الحجاج الثقفي وفتكاته بأعدائه.

(٩) زرقاء اليمامة: اشتهرت بحدة نظرها.

(١٠) نصلت: بهتت.

(٣) حيابة: فقاعة الماء.

(١١) الطنب: الحبال تشد بها الخيمة والخباء.

(٤) البرة: الحلقة توضع في أنف البعير، وبها شبه

(١٢) الحباب بالضم: الأقمى. وبالفتح: فقاقيع

الكاكب لسان الشمعة. حمة العقرب: إبرته.

الماء.

(٥) أذن جواد أى مستعرضا مثلها. حدق جراد

(١٣) الضريب: الثلج.

أى ضنيلا كنفطة مداد.

(١٤) الصعيد: وجه الأرض.

(٦) زنجى الأديم: أسود الجلد.

(١٥) الرحيق: الصافى من الخمر والشراب.

(٧) تيرى: ذهبى.

(١٦) عنقاء مغرب: طائر خرافى.

(٨) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد

أواخر طومه، وتفرّص وتكوّم كالأفعوان، وكاد يتجمد، فحسّو الجو من فوقه إبر من الثلج اللاسع، وأرضه قوارير من الجليد اللاذع، وجفّ ريقه في حلقة فلا هرير ولا نباح، ولا نار لمصطل، فالرياح العاصفة لها بالمرصاد حتى لكأنها الطائر الخرافي المسمى عنقاء مغرب.

ونمضى في عصر الموحدين، وملتقى فيه بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ الماز ذكره بين شعراء الغزل والمدائح النبوية، وله من رسالة يهنئ بها أبا القاسم بن بقى حين تولى خطة القضاة سنة ٥٩٢ وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

«حُسْنُ الأيامِ وجمالها، ومآل الآمالِ وثَمالها<sup>(٢)</sup>، وبَصْرُ المعارفِ وسَمْعها، وواحدُ الفضائلِ وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بُورِكَ في والدٍ وما ولد:

نسبٌ كان عليه من شمس الضحَى نوراً ومن فلَق الصّباحِ عَموداً

.. نفع الحقُّ به عِللُه، ونفعُ غلّله<sup>(٣)</sup>.. عِمادى الأكرم، ومَلادى الذى أنفخ من حدّه فى ضَرَم<sup>(٤)</sup>، وأحلّ من الاختصاص به محلّ الحرّم، تخيرتُ علاه ومن أخصّب تخيرٌ وما كنت إلا كالغريب ارتاد الجوار، والمحلّى انتقى المعصم حين صاغ السّوار.. والله - تعالى - يديم مدة قاضي الجماعة الأسرى<sup>(٥)</sup>، وكلّم حمّده أسيرٌ من الأمثال وأسرى<sup>(٦)</sup>، ونعم الله سبحانه عليه تترى، وما يريه من نعمة إلا هى أكبر من الأخرى». والتورية واضحة بين الأسرى وأسرى، وهى تكثّر فى نثر الأندلس وشعرها منذ هذا التاريخ.

ولسهل بن مالك - بأخرة من عصر الموحدين - رسائل شخصية بديعة، وسنخسه بكلمة، ولأبى عبد الله بن الجنان المترجم له بين شعراء المدائح النبوية من رسالة يعزى بها أبناء سهل حين توفى استهلها بقصيدة أو بمرثية طويلة وفيها يقول<sup>(٧)</sup>:

«يالهِ حادثاً، جمع قديماً من الكُروب وحادثاً، ومُصاباً، جرّع أوصاباً، وأضحى كلُّ به مُصاباً، لا جرم أنى شربت من كأسه مُستفظعها، وشرقت<sup>(٨)</sup> بها وبدمعى الذى ارفض<sup>(٩)</sup> معها، فغالت خلدى، وغالبت جلدى، حتى غبت عنى، ولم أدر بالآمى التى تُعنى.

(٥) الأسرى: الأشرف.

(٦) أسرى: أسير ليلاً.

(٧) بقية السفر الرابع الماز أنفا ص ١١٥.

(٨) شرقت: غصبت.

(٩) ارفض: تفرق وتبدد.

(١) بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة

تحقيق د. إحسان عباس ص ١٤١.

(٢) ثمالها: ملجأها.

(٣) نفع غلله: شفاه.

(٤) ضرم: وقود النار.

وبكيت حتى خشيت البكاء أن يعشيني<sup>(١)</sup>، وعُشيت<sup>(٢)</sup> إذ غَشَيْتَنِي<sup>(٣)</sup> من ذلك اليم<sup>(٤)</sup> ما غَشَيْتَنِي، «وظَلَلْتُ لَقَى<sup>(٥)</sup> أينما شاء الترحُّ يلقيني، فتارة يُفنيني، وتارة يُيقيني.. ويا ليت شعري إذ أفادوا الماء طهارةً زائدةً بغسل جلاله، هل حنطوه بغير ثنائه أو كَفَنُوهُ في غير خلافه، ويا ليت شعري إذ استقلَّ به نَعْشُهُ الأشرف، تُرْفِرُفُ عليه الملائكةُ ويظله الرُّفْرُفُ، هل رأوا قبله حَمَلَ الأَطْوَادِ<sup>(٦)</sup>، على الأعواد، وسير الكواكب في مثل تلك المواكب، ولم آثروا على نفوسهم، ورضوا الأرض مغرباً لأنوار شمسهم؟ هلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصَّفِيحَ صَرِيحَ الحب والولوع.. وهب الله لكم في مُصَابِكُمْ صبراً على قَدْرِهِ، وسكب دِيمَ مَغْفِرَتِهِ على مَثْوَى فقيدكم وقبره».

وأخذ الكتاب في الأندلس منذ القرن السابع الهجري على لسان أبي المطرف بن عميرة الذي ترجمنا له بين كتاب الدواوين وغيره يتصنعون في كتاباتهم بالماعات وإشارات إلى الأمثال وإلى مسائل العلوم ومصطلحاتها على نحو ما نقرأ من رسالة لأبي المطرف حين أعلمه صديق نبأ استيلاء الروم على بلنسية، فقال متحسراً<sup>(٧)</sup>:

«بالله أيَّ نَحْوٍ نَحْنُو، أو مَسْطُورٌ نَثَبْتُ أو نَمَحُو، وقد حُذِفَ الأَصْلُ والزائد، وذَهَبَتِ الصَّلَةُ والعائد.. وذَهَبَتِ علامةُ الرفع، وفَقِدَتِ نونَ الجمع، والمعتلُّ أَعْدَى الصَّحِيحِ، والمثلثُ أَرْدَى الفصيح.. ومالت قواعدُ المَلَّةِ، وصِرْنَا جَمْعَ القِلَّةِ، وظهرتُ علامةُ الخَفْضِ، وجاءَ بَدَلُ الكَلِّ مِنَ البَعْضِ».

وواضح أنه استغل مصطلحات النحو استغلالاً واسعاً في التورية عما أراد من تصوير بؤس الأندلسيين إزاء ما يسقط من بلدانهم في حجر نصارى الإسبان، وأضاف إلى التوريات بمصطلحات النحو توريات ببعض كتب الأندلسيين، وأقصد كتابي الصلة والعائد وهما من كتب التراجم ومن مصطلحات الذم أيضاً وأشار معها إلى تغلب المسيحي على العربي بكلمتي المثلث والفصيح مورياً بهما عن كتابين لغويين هما مثلث قطرب وفصيح ثعلب، ومعروف أن من أنواع البديل عند النحاة بدل الكل من البعض. وبجانب هذه الإشارات والإلماعات إلى مصطلحات العلوم وكتبها التي يحاكون بها تلمحا

(٥) لقي: مطروحا مهملًا.

(٦) الأطواد: الجبال.

(٧) الإحاطة ١/١٧٣.

(١) يعشيني: يعميني البكاء.

(٢) عُشيت: أغمى على.

(٣) غَشَيْتَنِي: غطاني وحواني..

(٤) اليم: البحر يريد بحر الحزن.

أبا العلاء المعري في نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه في كتابينا عن الفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع في الرسائل مع المحسنات البديعية - وخاصة التورية - عقد يصعب بها الكتاب الممرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشاركة من ذلك منذ الحريرى صاحب المقامات، إذ كان يلتزم في بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتالياتها غير منقوطة وأكثر مثل ذلك عند المشاركة كما كثر أن يلتزم حرف بعينه في كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنان إذ التزم في عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاح، فلاحاً<sup>(١)</sup>. والتزم في رسالة له العين في جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشى إنها «شاعت في الأندلس، وتنوقلت شرقاً وغرباً» وراجعه أبو الحسين الرعيني برسالة مماثلة، وردَّ عليه ابن الجنان أيضاً برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعيني برسالة نونية ملتزماً النون في جميع كلماتها<sup>(٢)</sup>. ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة في الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائماً من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائماً بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك ماثلاً في كتابات الكتاب بقرنات طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجري إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الغرناطيين وفي مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه في كتابه «التعريف» وفي إحداها يرحب بمقدمه إلى قرناطة قائلاً<sup>(٣)</sup>:

«لو خيَّرتُ أيها الحبيبُ الذي زيارتهُ الأُمْنِيَّةُ السَّنِيَّةُ والعارِفَةُ الوارِفَةُ<sup>(٤)</sup>، واللطيفة المُطِيفَةُ، بين رَجْعِ الشَّبَابِ يَقْطُرُ ماءً، وَيَرِفُ نَماءً، وَيَغَاظِلُ عَيونَ الكَوَاكِبِ فُضْلاً عن الكَواعِبِ إِشارةً وإيماءً.. وبين قدومك لما اخترتَ الشَّبَابَ وإن شاقني زمنه وأجرتُ سحَابَ دَمْعِي دِمْنَهُ<sup>(٥)</sup>، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَقَى جَنونَ اغْتِرابِي، وَمَلَكَنِي أزمَةَ آرابِي» وكانت بينها مودة وثيقة، وأن نترجم لبعض كتاب الرسائل الشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبي عبد الرحمن بن طاهر وأبي القاسم بن الجد وسهل بن مالك.

(٣) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.

(١) الإحاطة ٣٥٢/٢ - ٣٥٣.

(٤) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.

(٢) انظر في هذه الرسائل المراكشى (تحقيق د.

(٥) الدمن: آثار الديار، والاستعارة واضحة.

إحسان عباس) ٣٢٧/٥ وما بعدها.

(١) حبيب

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم في الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبي بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: «كان سديد سهم المقال، بعيد شأو الروية والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلا طَلَّقُ<sup>(٢)</sup> العمر، لسدَّ طريق الصباح، وغبَّر في وجوه الرياح، إذ توفى ابن اثنتين وعشرين سنة» وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفى شابا معتبطاً بغير علة قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية في الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حدائثه سنة. وله كتاب البديع في وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة في الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال في فاتحته:

«فَصَلُّ الرِّبِيعَ آرَجٌ وَأَبْهَجٌ، وَأَنْسُ، وَأَنْفَسُ، وَأَبْدِعْ، وَأَرْفِعْ، مِنْ أَنْ أَحَدٌ حُسْنَ ذَاتِهِ، وَأَعَدَّ بَدِيعَ صِفَاتِهِ.. وَهُوَ مَعَ صِفَاتِهِ الرَّائِقَةِ، وَسِمَاتِهِ الشَّائِقَةِ، وَأَلَانِهِ الْفَائِقَةِ، لَمْ يُعَنَّ بِتَأْلِيفِهِ أَحَدٌ، وَلَا أَنْفَرَدَ بِتَصْنِيفِهِ مَنْفَرَدٌ».

وقد جمع حبيب في كتابه أروع ما للأندلسيين في وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبي الوليد بن جهور وما بثه من حوار فيها بين خمسة نواوير هي الورد والنجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيرى النمام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهدا أو وثيقة بذلك على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسالته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلا البهار على الورد مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسالته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها في رسالته، يقول:

«أول من رأى ذلك الكتاب (رسالة ابن برد في تفضيل الورد) وعين الخطاب، نواويرُ فصل الربيع التي هي جيرةُ الورد في الوطن، وصحابته في الزمن، ولما قرأته

بريس طبع الرباط سنة ١٩٤٠. وطبع في السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.  
(٢) طلق: شوط.

(١) انظر في ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤/٢ والمجدوة ١٥٢ والبغية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية الجديدة) ص ٢١٩ والمغرب ١/٢٥٠. وراجع كتابه: «البديع في وصف الربيع بتحقيق هنرى



أنكرت ما فيه، وبنّت على هدم مبانيه، ونقض معانيه، وعرفت الورد بما عليه، فيما نسب إليه.. وكتبت إلى الأقبوان والخيرى الأصفر كتابا قالت فيه: لا ندرى لأي شيء أوجبت الأزهار تقديمه، بما غيره أشكل له وأحق به وهو نور البهار، البادى فضله بدو النهار، والذي لم يزل عند علماء الشعراء، وحكاماء البلغاء، مشبها بالعيون التي لا يحول نظرها، ولا يحور حورها، وأفضل تشبيه للورد، بنصرة الخد، عند من تشيع فيه، وأشرف الحواس العين، إذ هي على كل منول عون، وليس الخد حاسة، فكيف تبلغه رئاسة:

أين الخدود من العيون نفاسةً ورياسةً لولا القياس الفاسد»

واستمر حبيب في هذه الرسالة طويلا، وختمها بمبايعة الأزهار للبهار بتفضيله على الورد. وله من رسالة إلى أبيه:

«لما خلق الربيع من أخلاقك الغر، وسرق زهره من شيمك الزهر، حسن في كل عين منظره، وطاب في كل سمع خبره، وتاقت النفوس إلى الراحة فيه، ومالت إلى الإشراف على بعض ما يحتويه من النور الذي كسا الأرض حلا، لا يرى الناظر في أثنائها خلا، فكأنها نجوم نشرت على الثرى، وقد ملئت مسكا وعبرا، إن تنسّمها فأرجة، أو توسّمها فبهجة، تروق العيون أجناسها، وتحيى النفوس أنفاسها.. فأوجد لى سبيلا إلى أعمال بصرى فيها، لأجلو بصيرتى بمحاسن نواحيها، فالنفوس تصدأ كما يصدأ الحديد، ومن أجمها<sup>(١)</sup> فهو السديد الرشيد».

وواضح في الرسالة لطف الابن لأبيه، مع حسن تأتبه وجمال وصفه للربيع وشغفه بمشاهد نواويره البديعة. وله من رسالة إلى بعض إخوانه يستدعيه للمتعة معه والأنس به في منظر فاتن من مناظر الربيع، يقول:

«قد علم سيدى أن بمرآه يكمل جدلى، ويدنو أملى، وقد حلت محللا عنى الجوّ بتحسينه، وانفرد الربيع بتخصينه، فكساه حلا من الأنوار، بها ينجلي صدأ البصائر والأبصار، فمن مكوم<sup>(٢)</sup> يعيق مسكه، ولا يمنعه مسكه، ومن باد يروق مجتلاه، ويفوق مجتبا، فى مرآه ورياه، فتفضل بالخفوف<sup>(٣)</sup> نحوى لنجدد من الأنس مغانى<sup>(٤)</sup> درست،

(١) أجمها: أراجها.

(٢) مكوم: أى زهر مستور فى كمه.

(٣) الخفوف: الإسراع.

(٤) مغانى: منازل. درست: عفت وذهب أثرها.

ونفك من السرور معانى أشكلت وألبست<sup>(١)</sup> ونشكر للربيع، ما أرانا من البديع»  
والرسالة كسابقتها جمال صياغة وحسن أداء، وهى تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة  
فى أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصف فيه كتابه «البديع» متنقلا بين مشاهد  
وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

### ابن<sup>(٢)</sup> الدباغ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب، نشأ  
بسرقةسطة، وعمل بدواوينها وقرّبه المقتدر بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) حتى أصبح  
من وزرائه، وأحس منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل  
بالمعتمد بن عباد فى إشبيلية، فأجزل قراه، وخصّه بحظ من دنياه، وجعله مكان سره  
ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفتس صاحب بطليوس حين كان بيابرة.  
وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه فى وزارة المعتمد، وبلغه أنه قدح فيه بمجلس  
المعتمد، وخشى مغبة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن  
موطأ الكنف فى العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبى عبد الله بن  
أمين، واشتعلت بينها نار ملأ الأفق شعاعها، وأخذ بأعنان الساء - كما يقول ابن  
بسام - ارتفاعها، فكرّ راجعا إلى سرقةسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيئ  
الظنون، فنيا به مقامه عند المقتدر بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفتس، وربما  
دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جُبلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف  
الناهين، وفيه يقول ابن بسام: «فيا انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على  
نبله». ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها  
غرر ودُرر، وأكثرها فى ذم الزمان ومعاصريه وتعذر آماله فيه، من ذلك قوله فى بعض  
رسائله:

«كتابى وعندى من الدهر ما يهدُّ أيسره الرّواسى، ويفتت الحجر القاسى.. ومن  
أقلها قلب محاسنى مساوى، وأوليائى أعادى، وقصدى بالبغضة من جهة المقة<sup>(٣)</sup>،

(١) قسم شعراء المغرب والأندلس - طبع الدار

التونسية) ٣٨٧/٣

(٢) المقة: المحبة.

(١) أشكلت وألبست: اشتبهت وانبهمت.

(٢) انظر فى ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٣/٢٥١

والقلائد ص ١٠٦ والمغرب ٢/٤٤٠ والخريدة

واعتمادى بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غيرُ عليّ حتى شرابى، وأوحشنى حتى ثيابى،  
 فها أنا أتهم عياني، وأستريبُ من بيانى، وأجنى الإساءة من غرسِ إحسانى..  
 وما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أفضى عمري فى بوس ولا أنفك من نحوس..  
 لست أشكو إلا زمانى وقعوده بجدي<sup>(١)</sup>، وقبيح آثاره عندى، يخضنى بمزية حرمان،  
 ويتوخانى بفضلة عُدوان، ويجعلنى نصبَ سعيه، وغرضَ رميه، ومكان أذابته وبغيه..  
 ما أجد إلا من يثلب، ولا أمرٌ إلا بمن يتجهّم ويقطبُ.. وسبحان من جعل الدنيا دارَ  
 كُربٍ ومحنة، لكل ذى لبٍّ وفطنة، ومقام تنعم وترف، لكل ذى خسة ونطف<sup>(٢)</sup>.. وما أظن  
 أن لدجى حالى انبلاجاً، ولا لكربةِ نفسى انفراجاً، ولا إخالِ عمّراتِ الهمّ تنجلى،  
 ولا مُددَ النحوس تنقضى، ومن كانت له من الدنيا حُطوة يصطفئها، ومكانة يستقر فيها،  
 فليس لى منها إلا أن أرى كيف تنقسم رُتبها وتتناوب، وتتنازع نعيمها وتُتجاذب، وتُغتمّم  
 فوائدها وتتناهب، حتى كأنى جئت على العدد زائداً، ولم أكن عند القسمة شاهداً،  
 وما أقول هذا قول ساخط، ولا أياس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح  
 العليلُ فى أنة، واستغاث المتوجع إلى رنة<sup>(٣)</sup>، وخفف عن المصدر نَفث<sup>(٤)</sup>، ونفس من  
 وجد المكروب بث<sup>(٥)</sup>..

وهو يطيل فى مثل ذلك صادرا عن قريحة أدبية خصبة، وكأنما سيول الكلام العذب تفتد  
 عليه من كل صوب، وهو يختار أسلس الألفاظ وأحلاها فى الجريان على الألسنة  
 ومصافحة الأسعاع والقلوب، مما يصور براعة أدبية حقيقية، إذ يمتع دائما بألفاظه ومعانيه  
 الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنئة:

«قد كنت - أعزك الله - متمنيا لهذه الأيام، كما يُتمنى فى المجل<sup>(٦)</sup> صوب الغمام،  
 ومنتظراً لظهورك فيها، كانتظار النفس أعذب أمانها، ولما أطلعت ثلاثها السعود،  
 واستمررت بك الارتقاء والصعود، قلت لنفسي بُشراك، أسعفك الدهرُ بمنالك، وسرك فى  
 بعض أعزتك وأرضاك، وأذنى فى الإصغاء، إلى ما يطرأ من الأنباء، وكلما قيل فرع<sup>(٧)</sup>  
 من الجاه ذروة، واستجدت من العز كسوة، سرت العزة فى خلدى<sup>(٨)</sup>، وطالت<sup>(٩)</sup> على  
 النوب يدى»

- (١) جدى: حظى.  
 (٢) نطف: عيب.  
 (٣) رنة: صيحة.  
 (٤) نفثة المصدر: ما يخفف به عن صدره المريض.  
 (٥) البث: ما يبسه المكروب والمحزون تخفيفاً عنه.  
 (٦) المجل: الجذب.  
 (٧) فرع: علا.  
 (٨) الخلد: البال والفكر.  
 (٩) طالت: غلبت وتفوقت.

وبهذا البيان الخلاب لانزال نقرأ في رسائل ابن الدباغ معجبين، ونأسى لمصيره، وكان حريا بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس أن يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيقبله من أضرار تشاؤمه وعثرات بؤسه بما يُسدل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش مما يبذل قنوطه من معاصريه رجاء ويأسه منهم أملا وخوفه ثقة واطمئنانا، غير أن أحدا منهم لم يحاول إنقاذه من محتته، بل جميعهم تركوه يتجرع غُصَصَ الضَّيْمِ والحِرمَانِ في غير شفقة ولا رأفة.

### أبو<sup>(١)</sup> عبد الرحمن بن طاهر

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة مرسية في شرقي الأندلس، وهو بيت كان ينتمي إلى قبيلة قيس بن عيلان في الجزيرة، وكان يعتز بقيسيته وعروبته. ولما انتشرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدي أمراء الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه في بلدته مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رُزق بابنه أبي عبد الرحمن محمد حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، وشبَّ فأعان أباه في حكمه إلى أن توفى سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارِع إذ عنى أبوه بتربيته، وكان يتقدم أمراء الطوائف في بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به سباه «سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر» وترجم له في الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جوادا ممدحا، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذي مرت ترجمته بين الشعراء أيام خموله، فرحب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنَّار، إذ عرف في مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيرا ومستشارا للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زين له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يُغريه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعدَّ له جيشا جرارا لفتحها، وفي طريقه إليها اتخذ قائدا لعسكره عبد الرحمن بن رشيق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزجَّ به في سجن

والحلة السيرة ١١٦/٢ والذيل والتكملة للمراكشي ٥٩٠/٥ والخريدة ٣٦٣/٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٣٢.

(١) انظر في ترجمة أبي عبد الرحمن بن طاهر الذخيرة ٢٤/٣ - ١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢٤٧/٢ وبغية الملتبس رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠

بحصن قريب من مرسية يسمى «مُنْتْ أقوط» وسوّلت له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتمد ويستقل بمرسية، فسَلَطَ عليه قائده عبدالرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبو بكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية، كى يرد إلى ابن طاهر حرّيته، فردّها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبعجلاً معزّزاً، وشهد محنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسباني المغامر السيد الكنبيطور، ووقع - بعد بلاء مبرور فى حربته - بأسره، وافتدى وأطلق سراحه، ولم يبرح بلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومدّ له فى البقاء إلى أن توفى ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التى امتدت باين طاهر إلى نحو تسعين عاما أمضى منها فترة معاوننا لأبيه فى حكم مرسية وفترة ثانية فى حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلا ثم فترة طويلة ببلنسية معززا موقّرا. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداده، وهو تارة يثنى ويشكر، وتارة يعاتب أو يشفع أو يعزى أو يهنئ، وقد اهتزّ هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بربشتر فى الشمال الشرقى لسرقسطة سنة ٤٥٦ وأنزل بهم مذبحه - كما مرّ بنا - تقشعرا لهولها الأبدان وسبى منهم خمسة آلاف من النساء والعدارى وابعهم فى الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحبت، وأخذ يكتب لأقرانه كى يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله فى وصف هذا الحادث المروع:

«خطب أطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وقطع الآمال والهمم، وأسلم من الذلّة والقلّة إلى ما قصم، فما شئت من دمع مسفوحٍ مُراقٍ، ونفسٍ متردّدةٍ بين لهأةٍ وتراقٍ<sup>(١)</sup>، وأسى قد قرع حُصيّات القلوب فرَضُها<sup>(٢)</sup>، وعدل عن المضاجع بالجنوب فأقضُها<sup>(٣)</sup>». ويقول من رسالة أخرى مستنفرا للجهاد:

«لِينْدِبِ الإسلام نادب، ولِيَبِكْ له شاهدٌ وغائب، فقد طُفِنِي مصباحه، ووُطِي سآحه، وقُصَّ جناحه، وهِيضَ<sup>(٤)</sup> عَضُدُه، وغيضَ تَمُدُه<sup>(٥)</sup>، إلى الله نَفْرَعُ، وإليه نَضْرَعُ، فى طارق الخطب ومُنْتابه، ولا حول ولا قوة إلا به، فهو كاشف الكروب، وناصر المحروب».

(١) التراقى: جمع ترقوة: أعلى الصدر. اللهاة: أقصى سقف الحلق.  
(٢) رَضُها: دقها.  
(٣) أقضها: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.  
(٤) هيض: تحطم.  
(٥) غيض تَمُدُه: جفّ ماؤه القليل.

وحين رُدَّتْ إليه حريته وأُطلق من معتقله بفضل وساطة أبي بكر بن عبد العزيز الوزير بيلنسية واستجاب إلى رغبته في المقام عنده كتب وهو في طريقه إليه رسالة يقول في فصل منها:

« كتابي وقد طَفَلَ<sup>(١)</sup> العَشِيُّ، وسالَ بنا إليك المَطِيُّ<sup>(٢)</sup>، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لُقياك هادٍ، وسنوافيك المساء، ونَعْتَفر للزمان ما قد أساء، ونَرِدُ ساحةَ الأمن، ونشكر عظيمَ ذلك المَنِّ، فهذه النفس أنت مُقِيلها<sup>(٣)</sup>، وفي بَرْدِ ظِلِّكَ يكون مَقِيلها<sup>(٤)</sup>، فله مجدك وما تأتيه، لازلتَ للوفاء تُحْييه وتَحويه»

وكانت في ابن طاهر دعاية لم تفارقه حتى في أيام محنته بالاعتقال، وله في ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نوادر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويروى منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيق كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوما في اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملق معه ويتصنع، فقال له ابن طاهر: خلاصي بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتني في لحيتك لتخلصت ولم يرني أحد. وكتب إليه رجل يتزهده، وأطال الوعظ وردد، وهو يعرف أنه على الضد من وعظه، فأجابه:

«ورد كتابك فوعظ وذكر، ونصح فبصّر، ونبه من سِنَّة الغفلة، واغترار المهلة، وحذر من يوم الندامة، وبعث يوم القيامة، فبرحمك الله من هادٍ وخائف معادٍ، ومبتغي إرشاد، وداعٍ إلى صلاح وسداد، لقد حرّكت أنفُسًا قاسية، وهزرت جندلًا راسية، ومَعولك دونها نابٍ، لا يؤثر فيها بظُفْرٍ ولا نابٍ»

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر في خفة ورشاقة وعذوبة، وفي الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: «أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألفاظه ما يفضح العقود الدرّية، وتُعسّس<sup>(٥)</sup> معه الليالي البدرية».

(٣) مُقِيلها: منحّيها أى عما كانت فيه من اعتقال.

(٤) مَقِيلها: مكان راحتها.

(٥) تُعسّس: تظلم.

(١) طفل العشي: مال للغروب العشي وهو آخر النهار.

(٢) المطي: الإبل.

أبو<sup>(١)</sup> القاسم بن الجَد

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجَد الفهرى، من أسرة بنى الجَد، من بيوتات لُبلة غربى إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفي كتاب المغرب ترجمت لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكبَّ في نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلمع بين أقرانه في إشبيلية، فاختره المعتمد بن عباد أميرها وزيرا لابنه الراضى حين ولّاه مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب، وظل معه حين ولّاه مدينة رُنْدَة غربى مالقة إلى أن استنزل منها المرابطون سنة ٤٨٤ وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلده: لُبلة فولّوه خَطَّة الشورى ومقاليد الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان براكش منذ سنة ٤٨٧ ليوسف بن تاشفين ثم لابنه على. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه في هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفى ابن القصيرة سنة ٥٠٨ أسندت إلى ابن الجَد رئاسة الديوان براكش إلى أن توفى سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: «قريع<sup>(٢)</sup> وقتنا، وواحد عصرنا، ممن استمرى<sup>(٣)</sup> أخلاف النظم والنثر، فدرت له بالبيان أو بالسحر.. ورؤيدك حتى ترى الصبح كيف يُسفر، وثبج<sup>(٤)</sup> البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر<sup>(٥)</sup>». وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين: ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

«لم أزل - أعزك الله - أستنزل قربك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المنى، فى خُلْس الكرى. وما ظنك بى وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن

(٢) قريع: سيد.

(٣) استمرى أخلاف النظم: احتلب ضرعه.

(٤) ثبج البحر: وسطه.

(٥) فهر: قبيلة قرشية.

(١) انظر في ترجمة أبى القاسم بن الجَد الذخيرة

٢/٢٨٥، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب

ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩

والذيل والتكملة للمراكشى ٦/٣٢٦ والمغرب

١/٣٤١ والحريدة ٣/٣٩٣ وإحكام صنعة الكلام

لابن عبد الغفور الكلاعى ص ١٨٥.

خيالى نوم، ودنوت حتى همتت بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلا، حتى أشفى بلقائك غليلا.. ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاء حر، وقضاء برٍّ فما تحيَّفتُ (تنقصت) ودادى، ولا ارتشفت مدادى، ولا غاضت (نقصت) كلامى، ولا أَحَفَّتْ (استأصلت) أقلامى، وفى الكتاب بُلْغَةُ الوطر، وُيَسْتَدَلُّ على العين بالأثر.. وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف، وصلتَ صديقا، وبلَّتَ ريقا، وأسديتَ يدا، وشفيتَ صدَى (عطشا)، لا زالت أباديك بيضا، وجاهك عريضا، ولياليك أسحارا، ومسايعك أنوارا».

ويبدو أنه كتب لابن القصيرة هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمرآكش للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧. كما أسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفى - إلى تمنيهِ أن يستدعيه صديقه للعمل معه فى ذلك الديوان، ولا تخفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو ردَّ عليه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بديعة، مع لطف الأخيلة ودقة المعانى ومع حسن الأداء. ولانلبث أن نقرأ له رسالة فى وصف مطر بعد جذب شديد، وفيها يقول:

«لما استرابتُ جِياضَ الوهاد، بعهود العهاد<sup>(١)</sup>، وتأهَّبتُ رياضَ النِّجاد، لبرود الحداد، واكتحلَّتْ أجفانُ الأزهار، بإثْمِدِ<sup>(٢)</sup> النَّقْعِ المثار، وتعلَّطتْ الأنوار، من حُلِيِّ الدِّيمَةِ المِدرار، أرسل الله تعالى بين يَدَيَّ رحمته رِيحًا بليلةَ الجناح، سريعة الإلقاح، فنظمتُ عقودَ السَّحاب، نظَّم السَّحاب<sup>(٣)</sup>، ولم تلبث أن انتهتكَ رُواقها<sup>(٤)</sup>، وانبتكَ<sup>(٥)</sup> وشيكا نطاقها، وانبرت مدامعها تبيكي بأجفان المشتاق، غداةَ الفِراق، فاستغربت<sup>(٦)</sup> الرياض ضحكا ببيكائها، واهتزَّتْ رُفاتُ<sup>(٧)</sup> النَّباتِ طرَبًا لتغريد مُكائنها<sup>(٨)</sup>، فيا برَدَ موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص رِيها إلى غُللِ النفوس الصَّواد<sup>(٩)</sup>، كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفت رُضابًا<sup>(١٠)</sup> من الثنايا العذاب، أو تحمَّلت ماءَ الوصال، أو

(١) العهاد: المطر.

(٢) إثمد: كحل. النقع: الغبار.

(٣) السحاب: القلادة من الأزهار.

(٤) الرواق: مقدم البيت

(٥) انبتك: انقطع

(٦) استغرب فى الضحك: بالغ فيه

(٧) رفات: حطام

(٨) المكاء: طائر له تغريد حسن

(٩) رها: شربها حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة:

شدة العطش الصوادى. العطشى.

(١٠) الرضاب: الريق المرشوف.



سَرَتْ عَلَى أُنْدَاءِ الْأَسْحَارِ وَرِيحَانِ الْأَصَالِ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا انْسَكَبَ قَطْرًا،  
وَأَنْصَدَعَ فَجْرًا، وَتَوَقَّدَ قَيْسًا، وَتَرَدَّدَ نَفْسًا».

ولعل صوت ابن الجد اتضح، فهو صوت يفيض بألحان عذبة يأخذ بعضها بتلايبب  
بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد في تصاوير متتابعة،  
فيمتص النفس بنغماته وأخيلته البديعة. وله من رسالة يخطب فيها وداد أديب وأخوته:

«إن كانت المداخلة بيننا لم يُفْتَحْ لها باب، ولا علقنا بها أسباب، ولا رُمِيَ لنا في  
مَحْصَبِهَا<sup>(١)</sup> جِارًا، ولا عَطَفَ بنا نحو كعبتها اعتبارًا، فقد جمعنا في معرف<sup>(٢)</sup> المعرفة معارف،  
وَضُمْنَا من معالم العلم معاهد ومآلف، ووشجت<sup>(٣)</sup> بيننا من أواصر الأدب أنساب،  
وَضْرِبْتَ علينا في مدارج الطلب قِبابًا، ولا غرو من تداني القلوب على تنائي الديار،  
وائتلاف النفوس مع اختلاف النجار<sup>(٤)</sup>، فربما أَلَفَ تشاكل الشيم والأخلاق، بين مستوطن  
الشام وساكن العراق. على أنى لا أدعي ربتك في فنون العلم والآداب، ومن يضاهاى محل  
الفرقد<sup>(٥)</sup>، بمنبت الغرقد، لكنى وإن لم أعدّ في رعيك، فعندى من بضائع الكلم ما ينفق في  
سوقك، بقيت حلية للدهر فائقة، وغرّة في وجد الزمن رائقة».

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعومته، كل ذلك تغرق الآذان في  
أنغامه مع ما يسوق من أطياف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله  
يعارض أبا الحسين بن سراج في رقعة التي مرت بنا والتي شفّع فيها عند بعض ذوى  
الجاه والثراء لرجل يسمى الزريزير مستعيرًا له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش  
والعش والشكير والتحسير، وعلى غرار رقعة ابن سراج يقول في رقعته:

«لئن سُمِّيَ بالزُّرَيْرِ، لَقَدْ صُغِرَ لِلتَّكْبِيرِ، ولما طار ببلاد الغُربِ ووقِعَ، ورَقَا فى  
أكنافها وصَقَعَ<sup>(٦)</sup>، وعاین ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، فى تلك البطون،  
والمتون، ولم يجد بها قرارًا، أزمع عنها فرارا. واستخفه هائج التذكار، نحو تلك الأوكار،

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بنى.

(٢) المعرفة: الموقف بعرفات، والاستعارة واضحة.

(٣) وشجت: تشابكت.

(٤) النجار: الأصل والحسي.

(٥) الفرقد: النجم القطبي: الفرقد شجر قصير

فروعه شائكة.

(٦) رقا: صاح. صقع: ذهب في كل وجه.

حيث يكتسى ريشه حريرا، ويحتسى جَوْفه بَريرا<sup>(١)</sup>، ويحتسى قَرَاحا نَمِيرًا<sup>(٢)</sup>، فخذه إليك، نازلا لديك، مائلا بين يديك، يترنم بالثناء، ترنم الذباب في الروضة الغناء. ولن يَعدَمَ في جنابك حَبًّا نَثِيرا، وَخِصْبًا كَثِيرا، وَعُشًا وَثِيرا<sup>(٣)</sup>».

والدعابة لطيفة والصياغة بديعة، ويقول ابن بسام في ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهر، وأسرى من النسيم وأسير» لما يُشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب

### سهل<sup>(٤)</sup> بن مالك

هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثناء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي: «كان من أعيان مصره وأفاضل عصره تفننا في العلوم وبراعة في المنثور والمنظوم، محدثا مجودا للقرآن متقدما في العربية، وافر النصيب من الفقه وأصوله، كاتباً مجيد النظم في معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير» ويقول ابن سعيد في القدح المعلى: «لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها في العلم والجد والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع في العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال»، وصنف في العربية كتابا مفيدا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيوييه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفي في الأصول للغزالي.

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك يتندر به وبرجاله، وكان مطبوعا على النادرة ظريفا خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يحتمله فغربه عن غرناطة ببلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفي ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة فعاد إليها، وظل في جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفي سنة ٦٣٩ للهجرة عن سن عالية ورتاه تلميذه ابن الجنان رثاء حارا.

وكان سهل شاعرا كما كان ناثرا، ونثره يبذ شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه

ابن الأبرص ٧١٢ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون والذيل والتكملة للمراكشي (بقية السفر الرابع) ص ١٠١ والإحاطة ٢٧٧/٤.

(١) البرير: ثمر الأراك.

(٢) يَحْتَسِي: يتجرع. قَرَاحا نَمِيرًا: ماء صافيا زاكيا.

(٣) وَثِيرا: وطنيا.

(٤) انظر في ترجمة سهل بن مالك التكملة لتلميذه

بأصباغ الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره، فلما توفي سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا في عينيه وكأنما طعن في كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى بنيه يعزيهم - وقد حَزَّ في نفسه الجزع وعَضَّها الوجع - تعزية ملتان أضرمت اللوعة ناراً في فؤاده، وفيها يقول:

« لا أقول كفى ولا أستشعر صبراً، وقد أُسكن نورُ العِلْمِ قبراً، بل أُغرقُ الأَجْفانَ بمائها، وأستوهبُ الأشجانَ غَمْرَةَ<sup>(١)</sup> غَمَّائِها، وأتَهالك تَهالكَ المَجنون، وأستجير من الحياة بِرَيْبِ المَنون، وأنافِرُ السِّلْوِ منافرةَ اليقينِ لوساوسِ الظنون. وهو الخطبُ الذي نَفَى الهُجُودَ<sup>(٢)</sup>، وألزمَ أَعْيُنَ الثَّقَلَيْنِ أن تجود، وبه أعظمُ الدهرُ المصابَ، وفيه أخطأ سَهْمُ المَنية حين أصاب، والدهرُ يَسْتَرِجِعُ ما وهبَ، كان الصُّفْرُ<sup>(٣)</sup> أو الذَّهَبُ، ولا غرو أن دَهَمَ<sup>(٤)</sup> الرُّزْءُ، يؤود<sup>(٥)</sup> الفلكَ الدائرَ منه الجُزْءُ.. وإنا لله لفظَةٌ أوليها، وأتبعها زفرةٌ تليها، ولقد بحثت الأيامَ عن حَتْفِها بِظِلْفِها، وَسَعَتِ على قدميها إلى رَغَمِ أنفِها، حين أَتَلَفْتُ الواحدَ يزن مائةَ ألفِها، فَمَنْ لَبِثَ الوَصْلِ ولرعىِ الوسائلِ<sup>(٦)</sup>؟ وإلى من يُلجأُ في مُشكلاتِ المسائلِ؟ ومن المَجيبِ إذا لم يكنِ المسئولُ بأعلمَ من السائلِ؟ اللهم صَبِّرنا على فَقْدِ الأُنسِ بالعلمِ، وأدِلنا<sup>(٧)</sup> من خُفوفِ الوله بوقارِ الحِلْمِ، وأخْلِفه في بنيه وعامةِ أهليه بِشِيبِهِ، ما أوليته في جِوارِكِ المَقْدَسِ وتوليه»

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجع وتفجع لهذا الرزء الفادح الذي نزل بالأندلس لفقده فيلسوفها العظيم منقطع القرين: ابن رشد. وكتب صديق لسهل يعزيه عن محنته بنفيه إلى مُرسية وغربته، فردَّ عليه برسالة يقول فيها:

«أنا أستوهبُ لك أيها الشيخُ الأَخُ الجليلُ عافيةً لا تَعْفُو<sup>(٨)</sup> بالأسنِ الحُسادِ، ولا تَقْفُو<sup>(٩)</sup> موادها أَعْيُنُ السعاةِ البِغاةِ الذين ما لهم مَقْعَدٌ إلا بالمرصادِ، وأتني على كرمِ طباعك بوصولِ رسالتك التي طلعتُ على ليلي البَهِيمِ<sup>(١٠)</sup> صباحاً، وأدارتُ عليَّ من التسلِّي والتعزِّي أقداحاً.. ويعلم الله أيها العَلْمُ علما وفهما، أني لولا مخاطبتك ومثالك<sup>(١١)</sup>

- |                               |                                     |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| (١) غمرة غمائها: شدة شدائدها. | (٧) أدلنا: انصرتنا.                 |
| (٢) الهجود: النوم.            | (٨) تعفو: تنطمس.                    |
| (٣) الصفرة: النحاس.           | (٩) تقفو هنا: تحيط بها.             |
| (٤) دهم: فجأ. الرزء: المصيبة. | (١٠) البهيم: المظلم.                |
| (٥) يؤود: يتقل ويجهد.         | (١١) مثالك: يريد مثال مخاطبه وشخصه. |
| (٦) الوسائل: الصلات.          |                                     |

لَمْتُ أَسْفًا وَغَمًّا، وَلَسْتُ - عَافَاكَ اللَّهُ - بِذِي سَجْنٍ وَلَا قَيْودٍ، وَلَكِنْ مَعَاشِرَةٌ مِنْ لَا يَشَاكُلُ عَقَبَةَ كُؤُودٍ<sup>(١)</sup>، وَلَعَلَّهَا ذَنْوِبٌ تَمَحَّصٌ، وَسَبْكٌ يَصْفَى بِهِ الْإِنْسَانَ وَيُسْتَخْلَصُ، وَقَدْ شَكُونَا لَوْ أَنَّ الشُّكَاةَ تُسْمَعُ، وَدَعَوْنَا لَوْ أَنَّ الدَّعَاءَ - عِنْدَ مَنْ لَا يَقْبَلُهُ يَنْفَعُ».

وسهل يومئ في أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفي عن بلده، ويعبر عن ألمه وحزنه لهذا النفي مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التي أثلجت صدره وفتحت له من التسلي والتعزي أبوابا كانت مغلقة، فخفت من أسفه وغمه. ويقول المراكشي عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهممة حصيف الرأي وجيها مبرورا معظما عند الخاصة والعامة.

## ٣

## الرسائل الأدبية

مما تميَّز به النثر الأندلسي كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتاب في ذلك ملكات أدبية خصبة، وهي تلاحظ بوضوح في كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته في المودة والإخاء أو في العتاب أو في الرثاء إلى الاتساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التي تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفي كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة في كل ذلك، وخاصة مع موقعي بَرَبَشْتَر سنة ٤٥٦ والزلاقة سنة ٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التي تتخذ الطبيعة موضوعا لها، وألمنا فيما أسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن برد وحبیب وأبي عمر الباجي، ومررنا أن لابن الجدر رسالة بارعة في وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبي الخصال رسالة في وصف ليلة شديدة البرد نوه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة في وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفي مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة في وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة، وهما يتضحان في كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري وكان شاعرا يتصعلك في شعره على

(١) كؤود: صعبة.

طريقة الأدبائية أصحاب الكُذبة ممن يصفون في أشعارهم بؤسهم وحرمانهم وما يسود حياتهم من ضنك وفقر وإقلال طلبا للنوال، وكان له ابن رحل إلى غربي الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكي فيها الجاحظ مستمدا من رسالته الترييع والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولا في ترجمته له<sup>(١)</sup>. ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة في وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحيا شيئا من هزله<sup>(٢)</sup>، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوايع والزوايع وما فيها من سخرية وأيضا بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذي ألمنا به طائفة من رسائله في الدعابة والهزل، ومرت بنا رسالة أبي الحسين سراج بن عبد الملك في الشفاعة التي بناها على الدعابة لشخص يسمى الزرير مستغلا في وصفه طائر الزرور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارت شهرة الرسالة - كما أسلفنا - في الأندلس وحاكاها كثيرون من أعلام الكتابة بغرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع في الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والجهاد والحرب. وحرى بكل جانب من هذه الجوانب أن تُجمَع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

### رسالة التوايع والزوايع لابن شهيد

ابن شهيد<sup>(٣)</sup> هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي القرطبي، فهو من أصل عربي، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيراً للأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ووز ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذى الوزارتين ومر بنا في الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة تراء، وولد له في سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيراً للمنصور بن أبي عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيفاً منها إلى ثرائه

(١) الذخيرة ٥٤٩/١.

(٢) الذخيرة ٦٤٥/١ وما بعدها.

(٣) انظر في ترجمة ابن شهيد اليتيمة ٣٥/٢.

والجذوة ١٢٤ والمطوح ١٦ والذخيرة ١٩١/١ -

٣٣٦، ٤٣٧ والبغية رقم ٤٣٧ والخريدة ٥٥٥/٢.

ومعجم الأدباء ٢١٨/٢ وابن خلكان ١١٦/١

والواقى للصفدى ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب

زكى بالقاهرة وشارل بلا في بيروت وللأخير

محاضرات عنه بجامعة عمان.

الموروث عن أبيه ثراء واسعاً، واصطفاه المنصور بن أبي عامر لنفسه مستشاراً وجليساً. ونقل سكناه إلى جواره. وكان قد رُزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ في نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبي عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطاً بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عنده نهم للأدب والمعارف، يقول في فواتح رسالة: التوابع والزوابع: «كنت أيام كُتِّبَ الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام. فابتعت الدواوين وجلست إلى الأساتيد، فنبض لي عِرْقُ الفهم، ودرّ لي شريان العلم.. فطعنتُ ثغرة البيان دراكاً، وأعلقت رجلاً طيره أشراكاً، فانتالت لي العجائب وانهالت عليّ الرغائب». ويضيف إلى ذلك في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق في النعيم وفي تثقيف نفسه إذ النكبة تحل بأسرة ابن أبي عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفي منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسعدت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهله، فتوفي سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحساً على نفسه وانهمك في الشرب والزندقة والظعن في الدين الحنيف، فقتل سريعاً. وانفتح باب الفتنة التي قضت على الدولة الأموية ودُمِّرت فيها قرطبة وأحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزاهرة، وسُفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلاً. وترك ذلك آثاراً عميقة في نفس ابن شهيد فقد اندكت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بني أبي عامر، ولما رأى في أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكبَّ على كئوس الخمر واللذات يغرق فيها همومه محاولاً أن ينساها أو يتسلى عنها، وأتى له، إذ كانت تتجدد كل يوم، فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه في الخمر وما يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يُطبّق عليه من أحزان. وتصادف أن أصابه الصمم مبكراً، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى ليقول ابن حيان: «غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة حتى أسقط شرفه ولم يُقَصِّر عن ارتكاب قبيحة» ويقول ابن بسام: «كان بقرطبة في رفته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته وأحطَّ الناس في هوى نفسه وأهتكتهم لعرضه وأجرأهم على خالقه». وكان الشعر قد انتال على لسانه مبكراً، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبي، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترابه من الشباب القرطبيين المتأدبين أمثال ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبي عامر بن المظفر بن أبي عامر وابن عمه المؤتمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة

للخليفة المستعين الأموي (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ويشكو له ممن يتهمونه بسرقة الشعر كذبا وهتاناً. وفتك بالمستعين قائده علي بن حمود الحسني واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكاتبه أبي جعفر اللهائي، وفتك بابن حمود غلامه سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلعه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضي وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزجّ به في غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حرته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبي العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبي بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذي كانت ترعاه أسرة بنى ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالى بنى حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالى بنى أمية، وأيضا ربما رجع ذلك إلى المنافسة الأدبية، فنشبت بينها مناقضات نظما ونثرا استمرت طويلا. ولم يكن يؤذيه شيء مثل اتهامه بالسرقه في شعره ونثره، وبلغه أن أبا بكر محمد بن القاسم إشكمياط (في كتاب المغرب: إشكناط) يتهمه بالسرقه في نثره، فكتب إليه محنقا رسالة عنيفة، قال فيها: «لأقطعن حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا». ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموي خليفة في سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذه مع صاحبه ابن حزم ووزيرين، وأحسّ ابن شهيد أن الدنيا تبتسم له بعد طول العبوس، غير أن ابتسامتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوما، إذ خلف المستكفي الأموي المستظهر، وعادت الهموم تطبق عليه. وكان يحيى بن علي بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة في ديوانه، ونظن أنه زار حينئذ مجاهدا أحد فتيان العامريين الصقلية وكان قد أسس له إمارة في دانية بشرقى الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه ازورّ عنه فيها يبدو لاختلاف مسلكها في الحياة، إذ لم يكن مجاهد يأخذ نفسه بشيء من اللهو، بل على العكس كان منصرفا إلى الجد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن علي بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدمّ إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيريه ابن فتح وابن الفرضي ظلا يغلقان أبوابه في وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموي هو الخليفة المعتدّ وظل بعيدا عنها ينتقل في الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامري أصبح أميراً على بلنسية منذ

سنة ٤١٧ فتراسلا مرارا، وألح عليه المؤمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفتع لها وتوجع في أسى مرير. ويقرُّبه الخليفة المعتد ويتخذه جليسا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ويستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفي سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبي - من فتیان بنی عامر - قرطبة ومعه وزيره وكتابه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاه هجاء مقذعا. ويصاب في أواخر هذه السنة بفالج ويقاسى منه لمدة سبعة أشهر أهوالا ثقالا حتى ليفكر في الانتحار كما ذكر في بعض شعره، ويلبى داعى ربه في جمادى الأولى سنة ٤٢٦، وصلى عليه - وأقام مراسم دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويكثرُ البكاء والعويل على قبره وتُنشد مرثا متعده لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهى حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق في الأدب نثرا وشعرا، وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: «إذا تأملته ، وكيف يجرّ في البلاغة رسنه، قلت عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه.. وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برز فيها شأوه، وأبقاها في الناس خالدة بعده» وقال عنه الفتح بن خاقان في المطمح: «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسّق ما نسّق من درّ البيان ومُجانه» وقال فيه ابن بسام: «نادرة الفلك الدوّار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام، نظّم كما اتسق الدر على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور». وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من أشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته، وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسى دررًا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء في صدرها من مخاطبة ابن شهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبى محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب في اسمه توفي سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدى في الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول: «يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذى خاطبه أبو عامر بن شهيد



برسالة التوابع والزوابع التي ساءها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم». وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد في الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى - كما جاء في كتاب الصلة - سنة ٤١٦ تعين أن تكون الرسالة كتبت في هذه السنة على الأقل أو بعدها في إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة ألفت قبل هذا التاريخ.

والتابع في الرسالة الجنى والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر في صدرها لصديقه أبي بكر بن حزم أنه أرتج عليه ذات يوم في شعر كان ينظمه، فترأى له تابعه من الجنى على فرس أدهم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نمير من قبيلة أشجع في الجن، وكان في الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع في الإنس، وتحادثا حيناً، ثم علمه أبياتا إذا أراد استحضاره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما أرتج عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل تَوًّا. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلقي معه توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجنى، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجو فالجو والدو (الفلاة) فالدو حتى لمح ابن شهيد أرضا لا كأرض الإنس متفرعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلقي صاحب امرئ القيس «وأمال التابع عنان الجواد إلى واد من الأودية به دَوْح تتكسر أشجاره وترنم أطياره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلا: «يا عُنَيْبَةَ بن نوفل، بسقط اللوى فحومل (وهما موضعان بمعلقة امرئ القيس) يوم دارة جُلْجُل (أيضا في المعلقة) إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف إجازتك له؟ فظهر لهما فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحيا صاحبك أهذا فتاهم؟ قال زهير هو هذا. وأى جَمرة (يشيد بابن شهيد) يا عُنَيْبَةَ، فقال لابن شهيد: أنشد، فقال: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح (ارتفع) طَرْفه، واهتز عطفه، وقبض عنان الشقراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تحضر (تتب) طولا عنا، وكر فاستقبلنا بالصعدة (القناة) هازلها، ثم ركزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشد، فهم إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحيصة (النكول) ثم اشتدت قوى نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس مُعْجَبًا به، ثم قال له: اذهب فقد أجزتكَ وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب

لقاء صاحب طرفه، فقطع معه وادى عتيبة، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غَيْضَة. ويصف ابن شهيد الغَيْضَة وأشجارها ولقائه فيها بعنتر بن العجلان تابع طرفه، ويحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بدبعة، ويصيح عنتر معجبا بقصيدته، ويحيزه، ويغيب عنه. ويلتقى ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يترَّب ويتحاوران ويتناشدان الشعر ويحيزه. ويترك توابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسي. ويلتقى بصاحب أبي تمام، وينشده ابن شهيد أشعارا مختلفة له منها مرثيته للوزير حسان بن مالك. ويلتقى بتابع البحتري، ويتناشدان الشعر ويحيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبي نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادى الجن منازل مماثلة لمنازل أبي نواس في دُنْيَا الإِنْس، فهذا دَيْرٌ حَنَّةَ الذى كان كثيرا ما يختلف إليه، وَيَشُقُّ سَمْعَ ابن شهيد قَرَعُ النواقيس، ويحجاب مع تابعه أديارا وكنائس وحانات حتى ينتهيا إلى دَيْرِ عَظِيمٍ تَعَبَقَ روائحه وتفوح نوافحه، ويقف صاحبه زهير ببابه ويصيح سلام على أهل دَيْرِ حَنَّةَ، ويسأله ابن شهيد هل صرنا بذات الأَكْبِرَاحِ (ساحة يخرج إليها الرهبان في أعيادهم وطالما تغنى بها أبو نواس) ويحبيه: نعم، وتقبل نحوهما الرهايين وفي أوساطهم الرِّثَانِيرُ المشدودة وقد قبضوا على العكاكيز، بيض الحواجب واللحى، وقالوا لصاحبه ما بُغِيَّتْكَ؟ فقال حُسَيْنُ الدَّنَانِ تابع أبى نواس، فقالوا إنه فى شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بابن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفت دنانه وحولها غزلانه، وفى فُرَجَتِهِ شَيْخٌ طویل الوجه واللحية افترش أضعافَ (أخلاقاً) زهر، واتكأ على زِقِّ خمر، وبیده طاسُ خمر كبير، فصاح به زهير: حياك الله أبا الإحسان، فأجاب بجواب لا يُعْقَلُ لغلبة الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: أقرعُ أذن نشوته. بإحدى خمرياتك فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبى نواس وسأله أشجعي كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعي، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قَرَأَحًا، فشرِب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه من حاله، وأنشده قصيدة أبى نواس:

يَا دَيْرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأَكْبِرَاحِ مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِّى لَسْتُ بِالصَّاحِى

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طربا، وسأله تابع أبى نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقص ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شىء لم نلهمه نحن وقبل بين عينيه وأجازه. وسأل زهير ابن شهيد من تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع

أبى الطيب المتنبي، ولقيه فارسا على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كتيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عدبة صفراء، فحيّاه زهير، فأحسن الردّ ناظرا من مُقَلّة شوساء مضمومة أجفانها استعلاءً قد مُلئت تبيهاً وعُجْباً، واستشهد ابن شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شوط العمر فلا بد أن ينفث بدرر، وما أراه إلا سيختصر (يموت شاباً) بين قريحة كالجمر وهمة تضع أخمصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه. وكأنما كان تابع المتنبي يقرأ فى صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يحطم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيراً بعد لقائه بالمتنبي أن يلقاه بتوابع الكتاب - ويسميهم الخطباء - وركضا الجواد طاعنين فى مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم بمرج دهمان وإذا بناد عظيم جمعهم، والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيراً عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتيبة، فقال ابن شهيد: أبى هو ليس رغبتى سواه وغير صاحب عبد الحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذى إلى جنبه. وعرف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر، فاعتذر له قائلاً إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصة أسلوب الجاحظ وعبد الحميد الكاتب) غير أنه عدم ببلده قرسان الكلام. ويسوق حمة عنيفة على كتاب زمنه مستخدماً أسلوبيهما من الازدواج والمماثلة، ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة فى الحلواء، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلابية، ويستحسنانها قائلين إن لسجعه موضعاً من القلب ومكاناً من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكر أن له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه من أشدهما فى الطعن والإجحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا تعرف شخصية أبى محمد، إذ تكنى بهذه الكنية لزمته غير واحد، وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبو بكر بن حزم، الذى ذكر فى مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطاناً يجرى على لسانه ما يخرج عن قدرة الإنس، وإما أبو بكر محمد بن قاسم المعروف بإشكمياط الذى مر بنا فى حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نثره الحسان من سابقه، وأما أبو القاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبو القاسم الإفليلي، ويهتف صاحباً الجاحظ وعبد الحميد بتابعه أنف الناقة بن معمر، وينهض لهما جنياً أشمطاً (دبّ الشيب فى شعره) ربعة وارم الأنف (متكبر شامخ بنفسه) يتظالّع (يتعارج) فى مشيته كاسراً لطرفه، وزاويماً لأنفه.

وكان الإفليلي قد تصدّر في قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم في معاني الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكفي في خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حُسن البيان والبلاغة. ويتهم تابعه أنف الناقة ابن شهيد بنقص اطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيويوه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلي بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلاً إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثالا، فيصف له برغوثة وثلعبا وصفا رائعا. ويلتفت إليه تابع بديع الزمان زبدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العُقم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتليء زبدة الحقب غيظا، فيضرب الأرض برجله، فتتفرج عن هوةٍ يغيب فيها. ويشتد غيظ أنف الناقة تابع الإفليلي، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعارا بديعة متحدثا له، وتصيح فتيان الجن إعجابا واستحسانا، وتعلو أنف الناقة الكآبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتتبع الإفليلي في دروسه لزلّة قد تمر به في شعره أو نثره، فيهتف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مفخرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجنى إن الشيوخ قد تزل أحلامهم في التذرة، ويقول ابن شهيد: بل إنها المرة بعد المرة. وما يلبث صاحبها الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر وناثر، وينفض الجمع، والكل ممتلىء إعجابا به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بابن شهيد الكلام في باب التوابع والزوابع، ومدّ فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسي، وهي طرفة بديعة النسق في الصياغة والرونق في العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفواً.

وأضاف ابن شهيد في الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلفائه لتوابع الكتاب والشعراء بابا تذاكر فيه مع زهير تابعه ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قصر فيه، ويعرض لبعض المعاني ومن تداولوها، ويتمثل له جنى يسمى فاتك بن الصقعب ويتحاور معه ويجرى على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحدا فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبي، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكرة من صياح الجن إعجابا واستحسانا. وكان بقره جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبي، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره

البدیعة وبهرته، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وجدّ أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حينئذ أقسم أن لا يعرض له أبداً، وشهد له بعراقته في الكلام، وكأنما ألقمه حجراً بشعره وشعر آبائه فتضائل وغاب عن بصره.

ويُتبع ابن بسام ذلك بفصل أخير من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أنديّة أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أتان من حُمُر الجن وبعض بغالهم وتعرّضت لابن شهيد الأتان تحكّمه في شعّرين لحمار وبُعَل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيهما، وتقدّمت إليه بَغَلَةٌ شَهَاءٌ عليها جُلُّها (غظاؤها الصائن لها) وبرقعها، وأنشدته الشعّرين ففَضَّل شعر البُعَل وقال: كان أنف الناقة أجدر مني بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفني؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى والخال على خدّها، فتباكيا طويلا، وأخذوا في ذكر أيامها، وسألته: ما فعل الأحبة بعدها؟ أم لا يزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتیان، وتنكرت الخللان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحالوا عن العهد، ونسوا أيام الودّ. وكانت بقريهم إوزة بيضاء شهلاء في مثل جثمان النعام، ويسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها مثنيا عليها، فمرة تَسْبِخُ ومرة تطير، ومرة تنغمس في الماء ومرة تخرج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ورفرفت بمجدافها (بجناحيها) واستقبلته مع صاحبه جائية (قائمة على مؤخرتها) كصدر المركب، ثم سأله ماذا يُحسِن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنما أريد النحو والغريب تريد أن تتهمه بأنه لا يحسنها، ويظيل الحوار معها واصفا لها بالحمق وأنها في حاجة إلى عقل التجربة إذ عدت العقل الطبيعي، ويسألها أيها أفضل: الأدب أم العقل؟ وتجيبه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظري حينئذ في الأدب. وكان الإوزة بذلك تأخذ صفة الإفليلي بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب اللذين كان الإفليلي يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفليلي فيها بأنه هو الذي به ابن شهيد عرض، وجعله الغرض، وكأنما أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به في بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض في الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتاب الناهين مقارّنة إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دائما ويجيزونه، محاولا بذلك أن يسقط نقد الإفليلي له. ثم أخذ يعرض جانباً من

تداول المعاني بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذل الإفليلي في انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعاني التي يشترك فيها الشعراء ويتداولونها، وكان تابع الكاتب والشاعر في الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشرا سويا، وتشكّل له في الشطر الثاني على صورة بعض الحيوانات والطيور مستمدا في ذلك كله من قصص الجن عند العرب.

وقرن كثير من الباحثين<sup>(١)</sup> هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبي العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذي تأثر بأبي العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب، وحقا الرسالتان رحلتان فيما وراء الواقع، لكنها بعد ذلك تتباينان في موضوعيهما، فرحلة أبي العلاء تدور على عقيدة إسلامية هي عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من عُفِر لهم من الشعراء واللغويين في الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضراجه من الزنادقة في الجحيم. أما رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد - كما مرّت بنا - فتدور على ما شاع على ألسنة العرب في عصرهم الجاهلي الوثني من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنها لا يلتقيان أي التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداها في الأخرى. وذكرنا من قديم في كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر العربي» ثم في كتابنا «المقامة» أن الذي أوحى إلى ابن شهيد برحلته في أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه في مقامته الإبلية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجن وتحاورهما وإنشاد إبليس له أشعارا جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجرير، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جرير، ولم يلبث إبليس أن قال له: «ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعت الأرض. وفي نفس رسالة التوابع والزوابع ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان في مقاماته، إذ نرى ابن شهيد يعرض على تابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة في ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان في مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقي تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح

للدكتور هيكل ص ٣٨١.

(١) راجع بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسي

عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء يبهره. وفي ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبلية لبديع الزمان هي التي ألهمت ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وأوحت بها إليه. ويتردد في كتابي الجدوة للحميدي والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس في عصره وقبل عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

### رسائل ابن بُرد<sup>(١)</sup> الأصغر

ابن بُرد الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبي حفص أحمد بن بُرد الأكبر الذي ولى ديوان الإنشاء للمصور بن أبي عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب لسليمان المستعين الأموي وللأمراء الحموديين، ويترجم له ابن بسام في الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلاً إنه «أسمع الضمَّ بيانا، واستنزل العُصمَ إبداعا واستحسانا» ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رُزق ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجاة منذ نعومة أظفاره، فعنى بتربيته وتخريجها في الأدب نثره وشعره، وفي ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه «سر الأدب وسبك الذهب»: «وكان جدى أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته هذه الصناعة قد اقتعد سنّامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإني وافقت أول معالجتى لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسنى مصابيح من وصاياها فيها، ووطأ لى مراكب من دلائله إليها، وضرب لى صُوى (أعلاما) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعاً». ويقول ابن بسام إن بنى برد ينتمون إلى بنى شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك في جوانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفي بكاه - كما أسلفنا - بكاء حاراً. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموي في سنة ٤١٤ ابن

وأخباراً متفرقة عنه في ٣٥٨/١، ٧٧١، ٧٨٧  
وراجع رسالته في تفضيل الورد على سائر الأزهار  
في ١٢٧/٢ وراجع ٨١٩/٣.

(١) انظر في ترجمة ابن برد الأصغر الجدوة  
للحميدي: ١٠٧ والمطوح: ٢٤ والبقية رقم ٣٥٤  
والمغرب ٨٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٦/٢ والذخيرة  
٤٨٦/١ - ٥٣٥

شهير وزيراً كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإفليلي كتب للخليفة المستكفي بعد ابن برد في نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر في الأشهر التي تولاها ثم كتب فترة للمستكفي بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حياً حتى توفي بسرقة عن ثمانين عاماً سنة ٤١٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة في الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبى أميرها وهبته لقضائه أموالاً عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه في جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تبتسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه في عهد جهور حين أصبح حاكمها المتصرف في شتونها منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله في دواوين الخليفين الأمويين: المستظهر والمستكفي. ومن المؤكد أنه ظل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلي أمير دانية (٤١٢ - ٤٣٤ هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حنَّ إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه إليه قصيدة كى يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبي الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومَرَّت بنا رسالته البديعة إليه بتفصيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه يؤثر المقام بالمرية عند أميرها معن بن صَاح (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) الذى عرف له فضله، فاتخذَه وزيراً له، وإليه قدم ابن برد كتابه: «سر الأدب وسبك الذهب» وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخرجه كما مرَّ بنا، وأثنى ثناء غامراً على معن بن صَاح ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضمَّن الكتاب رسالة السلطانية والإخوانية وطرَّز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية مجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته في ظل هذا الأمير، ويقول الحميدى فى الجدوة إنه رآه فى المرية مراراً بعد الأربعين وأربعمئة، ولا ندرى هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صَاح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ) أو أن القدر لم يمهله حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فإنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلاً:

«كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نَفث



فيها بسحره، وأقام من أودها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره». وأتبع ذلك بفصول من تحميداته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره في النسيب وغيره، وألحق أديب بترجمته في الذخيرة من قديم ثلاثا من رسائله الأدبية في: السيف والقلم، والنخلة، وأهـب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائعه العُقم (التي لا مثيل لها) المستنزلة للعُصم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرى أن نلّم بها في إجمال.

### (أ) رسالة السيف والقلم

كتب ابن برد بهذه الرسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتها بالثناء عليها معاً فهما مثل جوادين سبقا في حلبة أو غصنين نُسقا في تربة، بل هما مثل نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق، غير أنها جرّرا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منها أن له الفوز على صاحبه وامتد بينها الجدل والحصام، فقاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال. وبدأ القلم فقال:

﴿نَ. والقلم وما يسطرون﴾ فجلّ من مُقسّم وعزّ من قَسَم، لقد أخذت الفضل برُمته، وقُدّت الفخر بأزمته. فقال السيف: عُدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أسرّ ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يُحسِن، إن عاتقا حمل نجادى (حمائل سيفي) لسعيد، وإن عَضداً بات وسادى لسديد، أفصح والبطل قد خرس، وأبتسم والأجل قد عَبَس. فقال القلم: الحق أبلج (مضى) والباطل لَجَلج (أعرج) أجلب الغنى من ضروعه، وأجتنى الندى (الجود) من فروعه، وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجوادٌ شأوه (شوطه) يدرك الأمل، شفيح كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: يا الله! استنتت الفِصال (أولاد النوق) حتى القرعى<sup>(١)</sup>، وربّ صلفٍ تحت الراعدة.<sup>(٢)</sup> لقد تحاول امتدادا بباعٍ قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة، أمستعرب (دخيل في العرب) والفلسُ ثمنك، وكل بقعة وطنك؟ إن الملوك لتبادر إلى دركي، ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثنى على النسب، والتغالى فيّ على الحسب، فتكُلّني (فتتوجني) المرجان، وتُعَلّني العقيان<sup>(٣)</sup>، وتلحفني بحائل

والصلف: قلة المطر أي أنها متوّع مع كثرة ما تحمل من المطر.

(٣) العقيان: الذهب. تتعله هنا: تكسو غمده.

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستئنان هنا: العدو. وهو يشير إلى أن الفصال إذا عدت حاكمتها أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للبخیل. والراعدة: السحابة.

كخمائيل. فقال القلم: أستعيز بالله من خطل أُرعيت فيه سَوامَكَ (إبلك) وزَلَلِ افْتتحت به كلامك، إن ازدراءك بتمكن وجداني، وبخس أثمانى، لنقص فى طباعك، وقصر فى باعك، ألا وإن الذهب معدنه فى العفر (التراب) وهو أنفـس الجواهر، والنار مكنها فى الحجر، وهى إحدى العناصر، وإن الماء - وهو الحياة - أكثر المعاش وجدانا، وأقلها أثمانا، وقلما تلقى الأغلاق النفيسة إلا فى الأمكنة الخسيصة. فقال السيف: جَعَجَعَةَ رَحَى لا يتبعها طَحْن (دقيق) وجَلْجَلَةَ رَعْد لا يليها مُزْنٌ، وجه لثيم، وجسم سقيم، ودموع سِجَام، كأنهن سُخَام (فحم) فَهَبٌ من نومك، وَأَفْطِرٌ من صومك، إنى لو انتضيت (سُللت) والشمسُ كاسفة لم ينظر وقت تجليها<sup>(١)</sup>، أو السُّنُون مجدبة أيقن بالحيَا (بالغيث) راعِيها. أَكْرَعُ (أشرب) يوم الوغَى فى لَبَّة البطل (أعلى صدره) فأعود كالخَدُّ كَسَى صَبَغ الخجل».

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يثن أحدهما كهاما (كليلا) بادرا إلى السلم يعقدان لواءه، قائلين إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا وتتفرق آراؤنا وقد جمعنا الله فى المؤلف الكريم، وقال القلم إن مما نبرم به عقْدنا، وننظم عقْدنا إن حالت حال، وكان للدهر انتقال، أن نخطُ كتابا مُصيبا، يكون لنا منابا وعلينا رَقيبا، فقد يدبُ الدهر بعقاربه، بين المرء وأقاربه، واختار القلم أن يكون العقْد شعرا، لأنه شَدُو الحادى، وزاد الرائح والغادى. وسجله فى قطعة شعرية بديعة. وواضح ما امتاز به ابن برد الأصغر فى تلك المناظرة بين السيف والقلم من قدرة على صوغ الأدلة والبراهين فى لسانى الخصمين المتناظرين، إذ ما زال يؤلف لكل منهما حججا يُدلى بها مع نقضه لحجج منافسه. وطبيعى أن لا تنقل تلك المناظرة بحذافيرها، فقد اجترأناها مكتفين بما نقلناه منها للدلالة على قدرة ابن برد فى توليد الأفكار والبراهين وفى صوغ الكلام وحوكه حياكة تموج بالعدوبة، إذ كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه وكيف يلائم بينها ملاءمات موسيقية بديعة.

### (ب) رسالة النخلة

هى رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه فى العام الفارط على كتمانها لرُطْب نخلة، وهى تُعد بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب، ويقول إنه سأله من جناها قليلا، فقال له لو علمت أن لكم به هذا الكلف لأمسكته عليكم، ولكنه فى العام المقبل إن شاء

(١) يشير إلى كثرة الغبار فى الحرب حين تسلّ السيف وتكر الخيل.

الله يكون غلتكم وعتادا نفيسا لكم وذخرا حبيسا عليكم، ويمضى ابن بُرد قائلا له: «رسمنا تلك العِدَّة في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفْظَةَ خواطرننا، أما أنت فهَلَّت عليها التراب، وأسلمتها إلى يد البلي، حتى إذا أخذت النخلة زُخْرُفَهَا وَازَّيْنَتْ زينتها، وبلغت غايتها، وأشبع القمر صَبْغَهَا، وأحكمتِ الشمس نُضْجَهَا، جنيتها على حين نام السُّمَار، وغفلت الجارةُ والجار، وُأبَّتْ بها إيابة الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلّاع الرُّطْب في الأسواق، والجنّي من بواكير النخيل على الأطباق، هزّت جوانحنا ذكرى العِدَّة، وقلقل أحشاءنا حذرُ الخيبة، فركضنا الدوابَّ إلى حُرْمَتِكَ<sup>(١)</sup>، وجعلنا نسرع طمعا في لقائك»

ويذكر ابن بُرد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى مَحِلَّتِهِ لقيهم فتى ظريف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا في جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجْر المشهورة على الخليج العربي بتمرها عن مثلها، ولا آوت قمارئ (حَمَام) البصرة إلى نظيرها، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرد:

«قال الفتى بالإخواني في الخيبة أنا ساكنٌ في المحلة التي مَنَبْتُ هذه النخلة في ساحتها وقد صرَمَها (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صرَمَها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رَأَتِ الطيرُ وهي على سَعْفِها ما أوصلُ إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زَفْرَاتِي، رمتني بأفراد من رُطْبِها أُحَلِي من شفاه العذارى، وأنا اليوم أبكي رُبْعًا خاليا».

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلا: ما هذه الخيانة للعهد، ويسأله شيئا مما ادخره منها لأعياده واعدًا له أن يناصبوا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا. ويصف له شيئا من كلام العرب في النخل وبدء نباته والبلح وتلون حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولد عقيم جوده، ويورد عليه ما أثر من قول الرسول ﷺ: «نعمت العمّة لكم النُّخْلَة» ويقول: «ليس من حقّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختم الرسالة بقوله: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بُخْلِكَ نوالا، ويمطلك إعجالا». وهي رسالة طريفة بما فيها من فكاهة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة في التعبير.

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحة أو حق.

## (ج) رسالة أُهْبُ الشَّاءِ

سَمَى ابن برد هذه الرسالة: «البدية في تفضيل أُهْب (جلود) الشَّاء على ما يُفْتَرَشُ من الوطاء» وهو فيها يردُّ على من لآمه على استخدام أُهْب (جلود) الشَّاء في الجلوس شتاءً وصيفاً دون وَطِيءِ الفُرْشِ ورافهها من قِطْعِ البُسْطِ والسجاجيد والحشايا. وهو في فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرفه بركة التواضع وينفره من الكبر، ويطلب في المقدمة، ثم يقول للآئمه:

«عَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللهُ - بارتخاص الأشياء في الشراء، وقلت لَمْ تَوْثِرْ ذَلِكَ إِلَّا لِلْوَمِ الخليفة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفسُ الحريص إلى الرخيص.. وأسأفح للكلام ميدانا، وأثر عليك من الألفاظ مُرْجانا، وأعاطيك من سُلَاف (خمر) المعاني أَكْوَابًا، وَأَشْمَكَ من روض البيان آسًا.. جَلَّ ماله عبتَ وفيه قلت ورددت، وبه أبدأت وأعدت، من إينارى في الصيف والشتاء أُهْب (جلود) الشَّاء، ومُراوحتي منها في البرد والحر، بين البَطْنِ والظْهْرِ. وأئى بساط مثلها أدلَّ علي التواضع وأعربُ عن القناعة وأدفاً في السَّيْرَةِ (الغداة الباردة) وألين في المَسِّ وأخف في الحَمْلِ وأمكن للنقْلة وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغنى عن تكلف التَّبْطِينِ ومراعاة أوقات الترقيع. ولا تحوجك إلى خِيَّاط ينازلك في السَّوْمِ (الثلث) ويخجلك أمَامَ القوم، وَيُنْتِجُ جَبِينَكَ (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذَلَّ التكرار عليه، وهو متبجج (متمكن) في دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه، فتشمت العدو بنفسك، وتبدي ما كان مستوراً من حالك، وهذه (الأهْب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوجنة، إن قَلْبَتْهَا لظهورها شتوت على وثارة<sup>(١)</sup>، أو صرفتها لبطونها صِفَتْ في لدونة».

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها في الأضحية تقرباً إلى ربه وطلباً لكريم ثوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة المثونة والكلفة، ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وسماه في تنزله ذبْحاً عظيماً. ويقول لصاحبه إن الصوف زى النَّسَاكِ والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمها المعلمون لأنها الأرق والأرخص والأوفق. ويختتم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائيه أن لا يستقبل

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطء الناعم.

بالذم من يفترشها مغتبطا بها، إذ لا يفترشها إلا الشيوخ الجلة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

«لا تجد مفترشا لها إلا شيخا رائع الوسامة، أبيض الشعرة، أنس إخوانه، وجلس (ملازم) أسطوانة<sup>(١)</sup>، قد حفظ المسائل وملا من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتفديه الجارات والجيران، ويتنافس فى حضوره أيام الزفاف، ويختص بصدور المجالس وطببات الصحاف، أو معلما.. قد ائتمنته الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقطع أكبادها، يقعد عنده الوراقون، ويتحاكم إليه فى الخطوط الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطال قلنساته<sup>(٢)</sup>، ووالى الزيارة بمنساته<sup>(٣)</sup>، وسار مهينما<sup>(٤)</sup> بتسيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هس إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك».

والرسالة تصوّر قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عائبه فى استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهى تدل على فضيلتى التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. وما يميزها دفء فروتها فى الشتاء القارس، وليوتتها فى المسّ وخفتها فى الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هى لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أو السجادة فى أجرة الترقيع والتبطين مخجلا له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. وما يزال الخياط يرجىء إنجازها لما يراد منه من تبطين أو ترقيع، ويظل صاحب الحشية أو السجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقا من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد فى ذلك متعة له. وهى صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد فى نثره لما يعمه من نقاء فى اللفظ وصفاء وعدوبة.

(٣) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعى يهش

بها على غنمه.

(٤) مهيننا: هامسا.

(١) يريد أنه عالم يلازم عمودا فى المسجد يلقى

محاضرتة عنده ويتحلّق حوله الطلاب لشهرته.

(٢) قلنساة: جمع قلنسوة.

## رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي، القرطبي، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل في الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا في حياته، أولها تبادلها في شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي واتصال هذا الحب بينها فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغالته إحدى جوانبها، وقيل بل بسبب نقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعا. وظل ابن زيدون يبكي حبها ووصلها طويلا، وكلفت بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُنتداهها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثاني الذي كان له تأثير في حياته، هو سخط أبي الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزجّ به في غياهب السجون مما جعله يستعطفه مرارا إلى أن عفا عنه وردّ إليه حرّيته بشفاعة ابنه أبي الوليد، وفي استعطفه كتب رسالته الجدية، وحرى بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعا: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة<sup>(١)</sup> الهزلية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس منافسه في حبها متهكما به ساخرا منه سخريات لاذعة، وما يمضى القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي سخر فيها من كاتب معاصر له يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبه، فوصفه بأنه مربع مدور، وظل في نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صورا ساخرة من الجمال وصوراً أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة في تاريخ العرب والأمم القديمة وفي العلوم كيمياء وغير كيمياء وفي الحيوان والجماد وفي الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أساء كثيرين من الرجال عربا وغير عرب في ميادين الثقافات المختلفة. وكأن ابن زيدون رأى أن يجاريه في رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أساء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن يكون لرسالته سماتها الخاصة لا في طريقة عرضه لأساء الرجال بها فحسب، بل أيضا بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر

ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون في ترجمته بالفصل الماضي.

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها في كتابنا عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح ابن نباتة لها في كتاب: شرح العيون شرح رسالة

الآيات وجلب الأشرطة، مما جعل الرسالة في حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المنثورة، وتجرد لذلك ابن نباتة في شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

«أما بعد أيها المصابُّ بعقله، المورِّطُ بجهله، البينُّ سَقَطُهُ، الفاحشُ غَلَطُهُ، العاثرُ في ذَيْلِ اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقطُ سُقُوطَ الدُّبابِ على الشرابِ، المتهافَتُ تهافَتَ الفَراشِ في الشَّهابِ (الضوء).. وإنك راسلنتني مستهديا من صلتى ما صَفِرَتِ (خلت) منه أيدي أمثالك، مرسلا خليلتك مرتادة وقد أعذرتُ (جهدت) في السفارة لك، وما قصَّرتُ في النياحة عنك، زاعمةً أن المروءة لفظُ أنت معناه، والإنسانية اسمُ أنت جِسْمُهُ وهَيُولاه (مادته) قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ في مراتب الجلال، واستوليتَ على محاسن الخلال، حتى خيلتُ أن يوسفَ عليه السلام حاسنك (باراك في الحسن) ففَضَّضتَ منه، وأن امرأةَ العزيز رأتك فسلتُ عنه، وأن قارونَ أصاب بعضُ ما كُنزتَ، وكسرى حَمَلَ غاشيتك (مظلتك) وقيصَرَ رعى ماشيتك، والإسكندرَ قَتَلَ دارا في طاعتك».

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالا وأعلاما تاريخيين عديدين، مدعيا أن جميعهم تصرَّفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجذية الملك العربي الجاهلي. ويقول له إن شيرين زوجة أبريز نافست ابنته بوران فيه وفي حسنه، وكليبا إنما حمى جِماه بعزته، ومهلها أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحامتا إنما جاد بأمواله والسُّليكَ بن السُّلَكة العَداء الجاهلي إنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظِّه، والمهلب القائد الأموي إنما ظفر بالخوارج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعدهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب باري أقلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والمجاخط مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. بل هو الذي أقام البراهين ووضع القوانين وحدَّ ماهية الأشياء وبين الكيفية والكمية وناظر في الجوهر والعرض وفرَّق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسياط هجائه معددا صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلبة. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سيء الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامه تممة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وياقل المشهور بالعي

عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاغتيال به ندم، والخيبة منه ظفر والجنة معه سقر، وأين هو من ولادة؟ إن الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويجعلها تهدده وتوعده بسوء المصير حتى كأنما يطلب حنقه، ويقول له على لسانها مقارناً في سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نوابع الشباب الأفاذا.

«النار، ولا العار، والمنية، ولا الدنية، والحرّة تجوع ولا تأكل بتديها، وما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، فإنما يتيمم من لم يجد ماء.. ولعلك إنما غرّك من علمت صبوتى إليه وشهدت مساعفتى له من أقمار العصر، وريحان المصر، الذين هم الكواكب علوهمم، والرياض طيب شيم.. ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكألو شيطنة (التنوء) فى العظم منهم. وإن كنت إنما عطرت أردانك (أكمامك) وجرت سروالك، واختلت فى مشيتك، وحذفت فضول لحيّتك، وأصلحت شارتك، ومططت حاجبك، ورققت خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم، فظننت عجزاً، وأخطأت الغرض».

وتضى ولادة قائلة لابن عبدوس فى سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه بُرديه وحلته مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالقرطين اللذين أهدتها إلى الكعبة، وقلده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل فى الجاهلية على فرسه النعام، ما شكت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خلتان سيئتان: كأردأ التمر وسوء كيله وهل يقترن عليها به إلا ما اقترن على عامر بن الطفيل الذى دعا عليه الرسول ﷺ فاقرنت غده فى رقبته بموته ميتة ذليلة فى بيت سلولية. وتقول له هازئة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديراً دقيقاً فلا يكلف نفسه ما لا يستطيعه، حتى لا يكون مثله مثل الكلبة براقش التى غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلّتهم، وضرب العرب بها المثل فى الشؤم، فقالوا «دلّت على أهلها براقش». ويختم ابن زيدون الرسالة قائلاً على لسانها: «قد أعذرت إن أغويت شيئاً، وأسمعت لو ناديت حياً، وإن بادرت بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يؤسّنك من مخدرة قول تغلظه وإن جرحاً<sup>(١)</sup>

فعدت لما نهيت عنه، وراجعت ما استعفيت منه بعثت من يزعجك إلى الخضراء



(الريف) دفعا ويستحثك نحوها وَكُزًّا (ضرباً) وَصَفْعًا، فإذا صرتَ إليها عبث أكاروها (فلأحوها) بك، وتسلط نواطيرها (متعهدو بساتينها) عليك بما قَدَمْت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك».

ويدون ريب بلغ ابن زيدون في هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح في يده كلُّعبة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا في القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حائق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو في كل ذلك يزدري عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيبته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق في السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامي وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربي، وكأنه هو الذي نفت فيهم كل ما امتازوا به. واستكثر في الرسالة من الأمثال ومن نثر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضا بالألفاظ الجارحة الموجعة المألَى بسموم التهكم.

### (ب) الرسالة<sup>(١)</sup> الجديدة

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهوراً أمير قرطبة حين ألقى به في غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهيه عقاراً لبعض مواليه، وقيل - وهو الأصح - بل لما دُسَّ عليه عند جهور من اشتراكه ضده في مؤامرة فاشلة، وظل يديج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبج له هذه الرسالة الرائعة مستهلاً لها بقوله:

«يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادى عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، أبقاك الله ماضى حَدِّ العَزْم، ثابتَ عَهْدِ النعمة، إن سلبتني - أعزك الله - لباس إنعامك، وعطلتني من حَلِي إيناسِك، وأظماتني إلى برود (بارد) إسعافِك، ونفقت بي كَفَّ حياتك (رعایتك) وغضضت عني طُرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائِي عليك، وأحسَّ الجمادُ باستنادي إليك، فلا غرَو قد يغصُّ بالماء شاربُه، ويقتل الدواءُ المستشفى به، ويؤتَى الحذرُ من مأمنه.. وإنى لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريبِ الدهر لا أتضععُ، فأقول: هل أنا إلا يدُ أدمائها سوارها، وجبينُ عضه إكليلُه، ومشرقُي ألقه بالأرض صاقِلُه، وسَمهرِي<sup>(١)</sup> عرضه على النار مُثَقفه..

كتابه: «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون».  
(٢) المشرقى: السيف. السمهرى: الرمح.

(١) انظر في هذه الرسالة وتعليقنا عليها كتابنا عن ابن زيدون، وراجع شرح الصفدى لها في

وهذه النكبة سحابة صَيْفٍ عن قليل تَقْسَعُ، ولن يَرِيَنِي - من سيدي - أن أَبْطَأَ سَيْبَهُ (عطاؤه).. فأبْطَأَ الدَّلَاءَ فَيَضًا أَمْلُوهَا، وأثقل السحاب مَشِيًّا أَحْفَلُهَا (أملؤها) وأنفع الحيا (الغيث) ما صادف جَدْبًا، وألذ الشراب ما أصاب غَلِيلاً».

وابن زيدون - في مطلع رسالته - يسترحم جهورا مستعظفا، فطالما أثنى عليه وطالما ظن أنه سيسبغ عليه نعمه، فإذا هو ينزل به عقابا أليها. ويتجلد للنكبة، ويحاول أن يسرّي عن نفسه، ويخال كأنه يد أدامها سوارها أو جبين عَضَه تاجه أو سيف ركزه صاقله في الأرض أو رمح سوّاه على النار صانعه. ويمنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف ستجلى ويعود إلى سماء الود الصّحو والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائه ومدحجه أبطأ فإن أبطأ الدلاء فيضًا أغزرها وأثقل السحاب مسيرةً في السماء أملؤها، وأنفع الغيث ما صادف أرضا مجدية، وألذ الشراب ما صادف نفسا ظامئة، ويستمر فيهبون من ذنبه مخاطبا جهورا بقوله:

«ليت شعري ما هذا الذنب الذي لم يَسَعُهُ عَفْوُكَ، والجهل الذي لم يأت من ورائه حِلْمُكَ.. وما أراني إلا أُمِرْتُ بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح: اركب معنا فقلت: (ساوي إلى جبل يعصمني من الماء)، وأمرت ببناء الصّرح (العلى أطلع إلى إله موسى) وعكفت على العجل، واعتديت في السّبّت، وتعاطيت فققرت، وشربت من ماء النهر الذي ابتلي به جنود طالوت، وعاهدت قريشا على ما في الصحيفة، وانخذلت بثلاث الناس يوم أحد، وتخلّفت عن صلاة العصر في بنى قريظة، وجئت الإفك على السيدة عائشة الصّديقية، وأنفت من إمارة أسامة، ومزّقت الأديم<sup>(١)</sup> الذي باركت يد الله عليه، وضحيّت بالأشمط<sup>(٢)</sup>، ورجمت الكعبة».

وهو يقول كأنني اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لآدم معلنا عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه في السفينة فكان من المغرّقين، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بنى إسرائيل حين عبدوا العجل وحين اعتدوا في يوم السّبّت فصادوا فيه، أو جريرة عاقر ناقة صالح (قدمم عليهم ربهم بذنبهم) وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوت الذي حرّم عليهم الشرب من نهر فخالفوه، أو جريرة

(٣) راجع الكعبة الحجاج في حرّبه لابن الزبير.

(١) يشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.

(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.

من تعهدوا لقريش بما في الصحيفة التي كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أبي بن سلول حين انخزل بن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أُحُد، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول في بني قُرَيْظَةَ من اليهود، أو جريرة من شاركوا في حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابي الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رَجْمِ الْحَجَّاجِ للكعبة، إلى عظام أخرى ذكرها لا يُعَدُّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشاء بنميم، ويُشهد الله أنه ما غشَّ جهورا ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح في عداد خاصته مما سؤل لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم وغمائمهم الدنيئة، يقول:

« كيف لا تتضرمَّ جَوَانِحُ الأَكْفَاءِ (النُّظْرَاءِ) حَسَدًا لى على الخصوص بك، وتتقطَّعُ أنفاسُ النُّظْرَاءِ منافسةً فى الكرامة عليك؟ وكيف وقد زاننى رَسْمُ خدمتك، وزهانى وِسْمُ نِعْمَتِكَ، وأبليتُ البلاءَ الجميل فى سباطك (صَفِّكَ) وقمتُ المقامَ المحمودَ على بساطك.. وهل لَيْسَ الصَّبَاحُ إلا بُرْدًا طَرَّرْتُهُ بفضائلك، وتقلدتِ الجوزاءُ إلا عِقْدًا فصلته بمآثرِكَ، واستملى الربيعُ إلا ثناءً ملأته بمحاسنك، وبثَّ المسكُ إلا حديثًا أذعته فى محامدك؟. ما يومُ حلِمةٍ بسرِّ. ولم أَكُسْ سَلِيبا، ولا حَلَيْتِكَ عُطْلا، ولا وَسَمْتِكَ غُفْلا بل وجدتُ أجْرًا وِجْصًا فَبَنَيْتُ، ومكانَ القولِ ذا سَعَةٍ فقلْتُ. حاشَ لك أن أَعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وهى تحترق، فلك المثل الأعلى وهو بك، وبى فىك، أولى.»

وهو يقول لجمهور إنه من الطبيعى أن تضطرم جوانح النظراء حسدا وتتقطع أنفاسهم غيظا لمنزلتى منك وقد ازدنت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى صفك ونصرتك وقمت المقام المحمود على بساطك، أنثر بين يديك خلع مدائح المضينة بفضائلك، وعقود ثنائى المنظومة بدرر مآثرِكَ، ولكأنا عطرُ الربيعِ إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسكِ إنما يُذيعُ أحاديث محامدك، ويقول: ما يوم حلِمةٍ بسرِّ أى أن ذلك كله مشهور، ويصبح إن جهورا لم يكن سلبيا أو عاريا فكساه ولا عُطْلا غير مزدان فحللاه ولا غفلا غير معلم فوسمه وأبده، بل لقد وجد أجْرًا وِجْصًا فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجمهور أن أَعَدَّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل: ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية﴾ وأيضا حاش لجمهور أن يعده كالذبالة أو فتيلة

السراج تضيء للناس وهي تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتَعَزُّ على ابن زيدون نفسه، فيقول إنه لن يصبر على الذل والهوان، ويقول إن الأدب خير وطن للأديب وإنه لا يُجفَى في أي مكان ينزل به فأينما توجَّه ورد أعذب منهل وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطى حكم الصبي على أهله. وكأنه يلمح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أدبه. وتهدأ نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أي وطن كما لا يؤثر على أبي الحزم جهور أي أمير، ويأخذ في استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

«إن الوطن محبوبٌ، والمَنْشَأُ مألوفٌ، واللييبُ يحنُّ إلى وطنه حنينَ النَّجِيبِ (البعير) إلى عَظِنِهِ (مَبْرَكِهِ) والكريم لا يجفو أرضاً فيها قَوَائِلُهُ (داياته) ولا ينسى بلدًا فيها مَرَضِعُهُ. هذا إلى مغالاتي بَعْدَ جوارك، ومنافستي في الحظِّ من قريك، واعتقادي أن الطمع في غيرك طَبِيعٌ (دناءة) والغنى من سواك عَنَاءٌ، والبدلُ منك عَوْرٌ (فاقة) والعوض لَفَاءٌ (خِسَّةٌ). وما هذه البراءة ممن يتولَّاك؟ والميلُ عَمَّنْ لا يميلُ عنك، وهَلَّا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك».

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حريته، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختمها بقوله لجهور: «هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، وَأشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ، لِيَتَأْتِيَ لَكَ الإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ». والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية في عهد الرسل وفي الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حل كثير منها، ومع رهافة الشعور ودقة الحس وصفاء الذوق في انتخاب ذلك كله وفي اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقا بديعا. ولكثرة ما في الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والأشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدي، وسمى شرحه «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون» وواضح من كلمة المتون التي اختارها اسما لكتابه أنه شَعَرَ أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهي - كأختها السالفة - آية بديعة من آيات النثر الأندلسي.

## رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها

ابن غرسية<sup>(١)</sup> هو أبو عامر أحمد بن غرسية، كان من أبناء نصارى البشكنس في شمالي إسبانيا، سُمي صغيراً - كما يقول ابن سعيد - وأدبه مجاهد مولاه ملك دانية والجزر المقابلة لها في البحر المتوسط شرقي الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦ هـ) وكان مجاهد من فتيان المنصور بن أبي عامر الصقالبة الذين دان لهم شرقي الأندلس في أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسي في العربية والكتابة ألحقه بدواوينه، وأخطأ جولدتسيهر في مقاله عن الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان في خدمة المعتصم ابن صَاحح التجيبى أمير المريّة (٤٤٢ - ٤٨٤ هـ). وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبي عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صَاحح كما ظن جولدتسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبي جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصحيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذي أنشده ابن سعيد في ترجمته إذ هجاه بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خاطب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتباً له لتركه مدح مجاهد (الصقلي أمير دانية) واقتصاره على مدائح ابن صَاحح التجيبى (العربي) الذي كان أميراً للمرية في حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ وهو معن بن صَاحح مؤسس دولة الصمادية بالمرية (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل في الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فقرها قوله:

«سلام عليك ذا الرَوِيِّ المَرَوِيِّ الموقوفَ قَرِيضُهُ على حَلَلَةٍ بَجَانَةِ أَرُشِ اليمَنِ<sup>(٢)</sup>،  
بزهدِ الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما ألجأوك إلى الخَبِطِ في الآل<sup>(٣)</sup>، مَهْ، مَهْ<sup>(٤)</sup>»

عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولدتسيهر المذكور. وراجع في أبي جعفر أحمد بن الجزار الذي كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٣٥٥/٢ - ٣٥٦. (٢) ذا الروي: القصيد. حللة بجانة: سكانها وهي بجوار المريّة. أُرش هنا: إقليم. (٣) الآل الأولى: الأهل والأصل. والثانية: النسراب. (٤) مه: كُفّ.

(١) انظر في ابن غرسية ورسالته الذخيرة ٧٠٤/٣ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٤٠٦/٢ وبحثاً لجولدتسيهر عن «الشعوبية عند مسلمي الأندلس في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠ (طبع لبيزج) وتاريخ الأدب الأندلسي عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٤١/٥ والمجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات للأستاذ

مَنْ أَحْوجَكَ إِلَى رُكُوبِ الْمَهْمَةِ<sup>(١)</sup> وَإِذَا يَمَّتْ بطن تَبَالَةَ تَتَبَّالَهُ، وَصَرَتْ ضِعْفًا عَلَى إِبَالَةَ<sup>(٢)</sup>.. وَأَحْسَبُكَ أَنْ أُرْزِيتَ، وَبِهَذَا الْجَيْلِ النَّجِيبِ (يَقْصِدُ مُجَاهِدٌ أَوْ الصَّقَالِبَةَ) أَزْدَرِيتَ، وَمَا دَرِيتَ أَنَّهُمُ الصُّهْبُ الشُّهْبُ لَيْسُوا بِعَرَبٍ، ذَوِي أَيْتُقٍ جُرْبٌ، بَلْ هُمُ الْقِيَاصِرَةُ الْأَكَّاسِرَةُ، بِهِمْ لَا رُعَاةَ شُؤْيَهَاتٍ وَلَا بِهِمْ<sup>(٣)</sup>، شُغِلُوا بِالْمَاذِيِّ وَالْمُرَّانِ، عَنِ رَعَى الْبُعْرَانَ<sup>(٤)</sup>، وَبِجَلْبِ الْعَزِّ عَنْ حَلْبِ الْمَعَزِّ، جَبَابِرَةُ قِيَاصِرَةٌ، صُقُورَةٌ غَلِبَتْ عَلَيْهِمْ شُقُورَةٌ، صُقُورَةُ الْخُرْسَانِ<sup>(٥)</sup>، لَكِنَّهُمْ خَطْبَةٌ بِالْخِرْصَانِ، أَرُومَةٌ رُومِيَّةٌ وَجِرْثُومَةٌ صُفْرِيَّةٌ.. فَلَا تَهَاجِرْ بَنِي هَاجِرٍ، أَنْتُمْ أَرْقَاؤُنَا وَعَبْدَتُنَا، وَعَتَقَاؤُنَا وَحَفْدَتُنَا، مَنَّا عَلَيْكُمْ بِالْعِتْقِ، وَأَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ رَيْبِ (كَرْبِ) الرِّقِّ، وَالْحَقْنَاكُمْ بِالْأَحْرَارِ فَغَمَطْتُمْ النِّعْمَةَ، فَصَفَعْنَاكُمْ صَفْعًا، يَشَارِكُ سَفْعًا، اضْطَرَّكُمْ إِلَى سُكْنَى الْحِجَازِ وَأَلْجَأَكُمْ إِلَى ذَاتِ الْمَجَازِ<sup>(٦)</sup>. وَإِذَا قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ، وَأَخَذْتَ فِي اتِّسَاقٍ، وَقَرَعْتَ الظَّنَابِيْبِ، وَأَشْرَعْتَ الْأَنْابِيْبِ، وَقَلَّصْتَ الشِّفَاهِ، وَفَرَّ الْهَدَانُ فَاهَ، وَوَلَّى قَفَاهَ، أَلْفَيْتَهُمْ ذَمْرَةَ النَّاسِ<sup>(٧)</sup> عِنْدَ احْمَرَارِ الْبَاسِ، الطَّعْنُ بِالْأَسْلِ، أَحْلَى عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَسَلِ، تَزْدَانُ بِهِمُ الْمُحَافِلُ وَالْمُحَافِلُ، كَوَاكِبُ الْمَوَاكِبِ، قُبُولٌ، عَلَى خِيُولٍ، كَأَنَّهُمْ فَيُولٌ، نَجُومُ الرَّجْمِ مِنَ الْعَجْمِ، ضَرَاغِمَةُ الْأَجْمِ، تَبَحَّيْحَتْ عَنْهُمْ سَارَةُ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ، رَبَّةُ الْإِيَاةِ<sup>(٨)</sup>.. دَوَّخُوا الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، فَاسْتَوَطَنُوا مِنَ الْمَجْدِ الذَّرْوَةَ وَالْغَارِبِ غَنُوا بِالْإِسْتَبْرَقِ (الْحَرِيرِ) عَنِ الْبَيْتِ (الْكِسَاءِ) الْمَجْمُوعِ مِنَ النَّعِيَجَاتِ طَعَامِهِمُ الْحَنِيزِ (اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ) لَا الْهَيْبِ (الْحَنْظَلِ) بِسُلِّ (شَجْعَانَ) لِأَحْرَاسِ

العرب. عبدة وحفدة: عبيد وخدم. سفا: لطمًا على الوجوه. ذات المجاز: سوق في الجاهلية كانت بقرب مكة.  
(٧) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنابييب وأشرعت الأنابييب. الهدان: الجبان. ولَّى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.  
(٨) الجحافل: الجيوش الضخمة. قبُولٌ: جمع قيل: ملك. الرجم: الشهب: يتساقطون على الأعداء مثلها. الأجم: جمع أجمة غيل الأسد وهي الشجرة الملتفة. تبححت عنهم: ولدتهم في عزة وسارة زوجة النبي إبراهيم أم إسحق. الإيابة هنا: الحسن.

- (١) المهمة: الفلاة.  
(٢) تباله: بلدة صغيرة باليمن يشير إلى أصل الأسرة الصادحية التجيبية اليمنية. ضغت على إبالة: مثل بضرب للبلية فوق البلية.  
(٣) الصهب الشهب: ذوو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بهم: بضم الباء فرسان حرب، وبتفتحها صغار الغنم.  
(٤) الماذي: السيوف. المران: الرماح. البوران: جمع بوير.  
(٥) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمر. الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالخرس لعجمة لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرصان أى الرماح.  
(٦) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبي إسماعيل أصل

مُسَلِّ (جريد النخل) ولاغراسُ فُسل (صغار النخل).. فكفَّ أيها الشَّانِ، فلهم عظيم الشَّانِ واليدُ الطَّولى إذ تَخَلَّصوكم من يد الحُبْشان.. رَسَخَتْ في المجد أصولنا وفروعنا، ومَنْ يَطُولنا، وكل الوَرى قد شمله فضلنا وطَوْلنا<sup>(١)</sup>، ذوو الآراء الفلسفية والعلوم المنطقية حملة الأسترلوميقي والجومطريقي، والعَلَمَة بالأرتماطيقي وأنولوطيقي والقَوْمَة بالموسيقى والبوطيقا<sup>(٢)</sup>، والنَهْضَة بعلوم الشرائع والطبائع، والمهرة في علوم الأديان والأبدان، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لا على وصف الناقَة الفَدْنِيَة (الضخمة).. فلا فخر معشر العُرْبَانِ العِرْبَانِ، بالقديم المَفْرَى الأَدِيمِ<sup>(٣)</sup>، لكن الفخر بابن عمنا (يريد الرسول صلى الله عليه وسلم)، الذى بالبركة عمنا، الإسماعيلي الحسب، الإبراهيمي النسب الذى به إنما انتشلنا الله تعالى وإياكم من العَوَايَة والعَمَايَة، ولا غَرَوَ أن كان منكم حِبْرُه وسِبْرُه، ففى الرِّغَامِ يُلْفَى تِبْرُه<sup>(٤)</sup>.. وينوه بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

«الله مما قد برآ صفوةً وصفوة الخلقِ بنو هاشمٍ  
وصفوة الصَّفوة من بينهم محمدُ النورِ أبو القاسمِ»

بهذا النبى الأُمىِّ أفاخرُ مَنْ يفخر، وأكثر جميع من تقدم وتأخر، المنيف (الرفيع) الطرفين، الشريف السلفين، المتلقى بالرسالة، والمنتمى للأداء والدلالة، أصلى عليه عدد الرَّمَلِ، ومدد النَمَلِ، وكذلك أصلى على واصلى جناحه، سيوفه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام..»

وابن غرسية يفتتح رسالته بالسخرية من أبى جعفر بن الجزار الذى يقف قريضه وشعره على نزلة بجاية والمرية بإقليم اليمن فى شرقى الأندلس محتصاً به عرب الأسرة الصُّهادحية أمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصقلبي ذى الأصل الشريف والنسب الرفيع، ويأخذ فى التهكم بابن الجزار والتهجم على العرب، فهو قد تعلق بآل أو بسراب، ويمَّ وجهه نحو تباله اليمينية، فتباً له لقد أصابه البله، وأصبحت محنته محتتين. ويعجب أن

(١) الغارب: الكاهل يربد مادون الذروة. الشان

الأولى: الشانء: المبعض الحاقدا. الطولى: سايغة

النعْم. ويشير: بالحبشان إلى حكمهم اليمن فترة

قبل الإسلام. يطولنا: يفوقنا. الطول: الفضل.

(٢) الأسترلوميقي: علم الفلك. الجومطريقي:

الهندسة. الأرتماطيقي: الرياضة. أنولوطيقي:

(٣) المَفْرَى الأَدِيمِ: الممزق جلده.

(٤) العَوَايَة والعَمَايَة: الضلال. حِبْرُه وسِبْرُه:

حسنه وبهاؤه. الرِّغَامِ: التراب. التبر. فتات

الذهب.

يزرى ابن الجزار على مجاهد وقومه الصقالبة. ويبدو أنه كان قد هجاه، فأخذ يشيد به  
 وبقومه الصَّهْبِ حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بعرب ذوى نوق جُرْب. ويضم إليهم  
 العجم قاطبة، ويقول إنهم ملوك قياصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام ولا غارسو  
 زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغلُّ ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت  
 جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية،  
 وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطنل في الحديث عن  
 فروسية العجم ويطولتهم في الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاهي وريبات الأقراط  
 أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإستبرق لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الخنظل  
 ولا الضب، وسكناتهم القصور لا الخيام وبيوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس  
 من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأمر العجم سارة ويتغنى  
 بجهاها وكهاها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية  
 والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق الفدنية الضخمة. وابن  
 غرسية في كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوية في القرن الثاني والثالث بالعصر  
 العباسى، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحناها في كتاب العصر العباسى  
 الأول - أنهم كانوا فى الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة  
 ولا مدنية ولا علوم، فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من علوم  
 الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصرون فى ذلك عن بغض للإسلام،  
 ولذلك اقترنت الشعوية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد فى الدين الحنيف. وشعوبية  
 ابن غرسية فى رسالته لا تقترن بالإلحاد ولا بزندقة، ومع أنه شعوبى ذميم يعلن فى نهاية  
 رسالته تمجيده للرسول ﷺ ولصحابته.

وليس بين أيدينا فى الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوية سوى هذه الرسالة  
 لابن غرسية، وحقا هناك كتاب صُنَّف قبلها سُمِّي: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر  
 فضل الصقالبة». ومن المؤكد أن نزعة الشعوية فى الأندلس كانت نزعة فردية، ولم  
 تتحول - كما تحولت فى القرنين الثانى والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على  
 معاداة العرب والإسلام. ولم تكد رسالة ابن غرسية تُشعلها حتى انطقت، بل لقد أطفأها  
 هو نفسه فى نهاية رسالته إذ أعلن تمسكه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من  
 المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوية،  
 كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفصلا فى حديثنا عن تاريخ الأدب العربى



بالعصر العباسي الثاني وإنما برسائل تنقض مزاعمه نقضا حمياً للعرب والعروبة. وفي الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن من الله القروي، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود تدبج في القرن السادس الهجري، منها رد لابن أبي الخصال باسم: «خطف البارق وقذف البارق في الرد على ابن غرسية الفاسق». وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسى، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبي يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبي الحجاج يوسف البلوي المتوفى سنة ٦٠٤ إذ سجّله في موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبي يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبي جعفر<sup>(١)</sup> أحمد بن الدودين البلسني، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسبب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقذعا أشد الإقذاع رادا كل مثلبة للعرب في رسالة ابن غرسية إلى محمّدة لهم وكل محمّدة للعجم إلى مثلبة، ومن قوله فيها:

«أخسأ أيها الجهول المارق، والمرذول المنافق، تكلتك أمك، حبرّت بحبرك لذهاب خبرك، ومَشَقَّتْ<sup>(٢)</sup> في قرطاسك لمشق رأسك، وما حقيقة جوابك على خطل خطابك إلا سلبك عن إهابك (جلدك) وصلبك على بابك، وأقسم ببارئ النسم، وناشر الأمم من رفات الرمم.. لأخلدنك سمرًا غابرا، ومثلا سائرا، أو تحترم بزئارك<sup>(٣)</sup> وتلحق بأديارك، مالك، ومقرّك ألك، أسرتك الأزدلين، وعترتك الأنذلين الصهب (الحمرة) أكلة الجيف.. وأما فخرك بربة الإياة (سارة) فياليتها حين ولدتكم تكلتكم، فلقد سربلتموها عارا مجددا، وعصبتم بها شنارًا (عارا) مخلدا، حين ختمت<sup>(٤)</sup> عن الكفاح، حذر الصوارم والرماح، فأسلمتم لعداتها، من بناتها، كل طفلة رداح<sup>(٥)</sup>، جائلة الوشاح<sup>(٦)</sup>، ذات ثغر

أوساطهم تمييزا لهم.

(٤) ختمت: جبنتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضخمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كناية عن دقة الخصر.

(١) انظر في ترجمة ابن الدودين ورسالته الذخيرة

٧٠٣/٣ وما بعدها وراجع ترجمته في المغرب

٣٢٢/٢ ورسالته في مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طعنت. مشق: طعن وقطع.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى في

كالأقاح، وُغْرَةٌ كالصباح.. ووصفك قومك بأن ليسوا حَفْرَةَ أَكْر<sup>(١)</sup>، ولا حَفْرَةَ عَكَر<sup>(٢)</sup>، الله أجل الأكر أن يحفروها، والعكر أن يحفزوها، لكنهم حَفْرَةَ جِحْشان، وحَفْرَةَ كهوفٍ وغيران<sup>(٣)</sup>، اتخذوها مَحْباً من قبائل العُربان، وملجأ من وَقَع الصَّوارم والمُرَّان، فعل الخِزَّان<sup>(٤)</sup> واليرابيع والجُرذان. وأما وصفك قومك أنهم مُجْدٌ، نُجْدٌ، فهيئات تلك صفات قومنا العرب أولى اللِّسَن والبيان والإسهاب في الصواب، والحكمة وفصل الخطاب، أنديتهم عِراضُ المنيَّة، وأرديتهم بِيضُ المشرفيَّة، ولَبُوسهم مضاعفةُ الماذيَّة<sup>(٥)</sup>، مجالسهم السُّروج، وريحانهم الوَشِيح<sup>(٦)</sup>، مُناهم، تعجيل مَناياهم، أسودُ الأَغِيال<sup>(٧)</sup>، حُماة الأشبال.

والرسالة الثانية عند ابن بسام في الرد على ابن غرسية رسالة<sup>(٨)</sup> أبي الطيب عبد المنعم بن من الله القروي، دخل الأندلس، ودرَّس الحديث في شرقها إلى أن توفي سنة ٤٩٣، وكان أديبا شاعرا، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستنارته، وكتب نقضا لها رسالة سماها «حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية والردُّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأهم الأعجمية» وهي تمتد في الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له في مطالعها:

«أخبرني عنك أما كانت للعرب يد تشكرها، ومينة تذكرها؟ أما جبرت نقيصتك؟ أما رفعت خسيستك؟ ألم تُربك فينا وليدا؟ ألم تتخذك بها تليدا؟<sup>(٩)</sup> ألم تُعن بتخريجك وتدرجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أسلقتك<sup>(١٠)</sup> عقب اللكنة، حتى إذا اشتد كاهلك، وقوى ساعدك، كفرت نعمتها لديك، ونثرت عصمتها من بين يديك.. وهات أرنا مفاخرك نرك مساخرك، أنت صاحب الشهب الصهب أين أنت عن السمر القمر<sup>(١١)</sup>، البيض غررا وصفحاحا<sup>(١٢)</sup>، الدعج عيوننا ورماحا، البلج<sup>(١٣)</sup> وجوها وسماحا؟ سعروا

(١) أكر: حفر. ٧٢٢/٣ - ٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر في

رسالته المجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات  
لهرون.

(٩) تليدا هنا: مقبلا.

(١٠) أسلقتك: أتاحت لك السليقة العربية.

(١١) القمر جمع أقر: المشرق الوجه.

(١٢) الصفاح: السيوف.

(١٣) البلج: المشرقون.

(١) أكر: حفر.

(٢) عكر: إبل.

(٣) جحشان: جمع جحش. غيران: جمع غار.

(٤) الصوارم: السيوف. المران: الرماح. الخزان:

أولاد الأرانب. الجرذان: الفئران.

(٥) المشرفية: السيوف. الماذية: الدرود.

(٦) الوشيح: الرماح.

(٧) الأغيال: جمع غيل: بيت الأسد.

(٨) انظر في ترجمة ابن من الله ورسالته الذخيرة

(أوقدوا) عليكم نارَ الحرب، بتلك الأئنيقُ الجُرب، فكسروا أكاسرتكم، وقصروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحماءهم<sup>(١)</sup>، وأخمدوا نارَ صولتهم، ومحووا آثارَ دولتهم، وطهروا الأرضَ المقدسةَ من أنجاسكم والمسجدَ الأقصى من أرجاسكم. ويحك يمِ آثرتَ (فضلت) وبمن كاثرتَ (فخرت) أما استحييتَ مما انتحيتَ؟ هل كانت العرب إلا كنزَ عزٍّ وذُخرَ فخر، وخبيثةٌ ذخرها الله إلى الوقت المحتوم ليختار منها صفيته، وميزها ليميز منها حفيته. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتةً وطأته، فسيحةٌ خطوته، شديدةٌ سطوته، لباقًا بتصريفِ القنَاةِ بنائه، بصيرا بمهيجِ الدارعين سناؤه.. أليس شعاركم: الهرب، الهرب، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يذبحون البرَّ ذبحا، ويسبحون البحرَ سبحا، حتى طرقتكم طارقتهم<sup>(٢)</sup> في هذا الطرف، ورشقكم راشقهم في هذا الهدف، وملكوا أرضكم بساحتها، وأحاطوا بها من ناحيتها، سلبوها بأقطارها وحلبوها من أشطارها».

ويطيلي ابن من الله في الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسيتهم، وما يزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى في العلوم. وبنوه بعلم العرب في الفلك والطب وبراعتهم في الغناء والموسقى. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذي به بزت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهديه وتنجيهِ. والرد الثالث الذي ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبس من كتاب<sup>(٣)</sup> لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا في الرسائل السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم في الصميم.

ومثل هذه الردود في الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة<sup>(٤)</sup> أبي يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غثيث (لا خير فيه) آبق وقاح لثيم الجدود. وبعد قرع صفاه، وصَفَقَ قفاه، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة التثليث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أبا للعجم أو تكون سارة زوجته أمًا لهم

(١) أحماء: جمع حمى.

(٢) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون.

(٣) أنندلس.

(٤) انظر الذخيرة ٧٤٦/٣.

أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشويه ويشوي العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهكم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية يهودج سيدتها، إذ العلوم التي ذكرها إنما هي علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهكم على موسيقاهم التي يندبون بها في نواحهم ويقصفون عليها في أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم في القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدنان، كما يتمدح بشغف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بمكان الغرة. ويقول ابن مسعدة: كفى ابن غرسية والعجم أن في العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيع هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، ويناظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة في ختام الرسالة بآبين تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن علي مؤسس دولتهم في المغرب والأندلس.

وواضح - مما تقدم - أن الشعوبية في الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسي، وكأنها شيء عارض أو كأنها حجر ألقى في بحر لجي للعروبة، فلم تترك أثراً وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهي كثرة تدل - دلالة بيّنة - على تعمق نزعة العروبة في الأندلس وأن الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائماً بقوة، أما ما نقرؤه أحياناً عن عالم أندلسي أو أديب هناك من أنه كان شعبياً فإنما كان يوصف غالباً بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

## رسائل نبوية ومواعظ

### (أ) رسائل نبوية

للأندلسيين كتابات كثيرة في مناقب الرسول ﷺ، على شاکلة كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صور فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة

ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب في الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهددها من الأخطار فبتوا شكواهم إلى الرسول ﷺ في رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وبتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر. وأخذوا - مع تقدم الزمن - يضمنون رسائلهم بعض الأحداث في الأندلس آملين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ في تلك الرسائل رسالة لأبي القاسم بن الجدد المتوفى سنة ٥١٥ هـ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة نبوية كتبها على لسان صديق صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقاً إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملاً في شفاعته، والحشر في عداد زمرة وجماعته، وفيها يقول ابن الجدد: (١)

«صلوات الله على خاتم الرُّسل وناهج السُّبل، وناسخ جميع المِلل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُربى على عدد النجوم، ويُرزى بالمسك المختوم، ويَقضى باتصاله رضا الحي القيوم.. ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغشيتني من نور برهانك ما بهر لبي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جوارحي التهاها، وأوسع جوارحي اضطراباً، وأشعر أملى عوداً إلى محلِّ المعظم وإياباً، وكيف لا أحنُّ إلى قريبك، وأتاهلك في حبك، وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، وكيف لا يتحرك نحوك نزاعي، ويتأكد انقطاعي، وبك استشفاعى، وإليك مفرعى يوم الداعي، فلا تنس لي - يا رسول الله - عيادى بك وليادى، واذكرنى في اليوم العظيم المشهود، عند حوضك المورود، وظلِّك الممدود، ومقامك المحمود».

والرسالة تصور هذا الشوق المضطرب في قلب كل مسلم ليسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتملى بنورها الباهر. وما إن يعود زائرُه إلى موطنه حتى يضطرب شوقه من جديد لينعم بزيارته آملاً أن يكون له حظ في شفاعته صفى الرحمن وحببيه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خير الإشبيلي في فهرسته أن لابن السيد البطليوسى عبدالله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ هـ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول ﷺ، وبالمثل ذكر ابن خير أن لابن أبي الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ - ومرت ترجمته - رسالة كتب بها متوسلاً إلى قبر الرسول

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجدد في الذخيرة

ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزمى (المقعدين) آملا في شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف يرى المقعد بإذن الله وببركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخسه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن<sup>(١)</sup> الجياني على بن محمد الأنصاري الذي تولى القضاء ببعض نواحي إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفي سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

«إلى سَيِّدِ المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذى جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِداً وطهوراً، وكان - ولم يزل - منتقلاً من صلب آدم نورا.. المصطفى المختار الذى انشق له القمر، ودان له الأسود والأحمر، ولاح النور الإلهى من قَسَماته، وعَرَفَه الكهنة والأخبار قبل كونه بِسَماته، بُشِّرَى الكليم<sup>(٣)</sup> الميمون النقيبة<sup>(٤)</sup> والطليلة، المشير إلى الأصنام فخرتْ صرِيعة.. من العبد المذنب الذى ثَبَّتَهُ الأقدار، وعاقه الفلك المُدار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثول فى معاهدك التى هى لِصَادِي الأمل أنقَع ديمة<sup>(٥)</sup>.. كتبتُه، وأنا أتَنفَسُ الصَّعداء<sup>(٦)</sup>، وأناجى بل أعْبِطُ أهل زيارتك السعداء، وللزُّفَرَاتِ تصعُدُ وانحدار، وللعبراتِ تردُّد فى الجفن وانهمار، وكيف ألدُّ حياةً ولم أعبر لزيارتك سَبَسَباً<sup>(٧)</sup> ولا لُجَّة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك بُرْهانا ولا حُجَّة، لأنَّيْم مواطئى سَعَى فيها بالوحي الرُّوح الأمين، وتخطى عَرَصاتِها<sup>(٨)</sup> سيّد المرسلين كيف لى أن أمرُغ الخدَّ فى عَيبِ ثَرَاها، أو أبلغ الجَدَّ<sup>(٩)</sup> الأعظم عندما أراها، اللهم ياربَّ أنجِدْ عبدك المسىء وأعنه على أداء الفريضة، وطيبَّ قلبه بانتشاق ريح طَيِّبة<sup>(١٠)</sup>، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه فى كرمك إلى إخفاقٍ وخيبةٍ»

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجياني طائفة من المعجزات النبوية. ويقف

(٦) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفساً ممتداً.  
(٧) السبب: الفلاة.  
(٨) عرصات: ساحاتها.  
(٩) الجد: الحظ.  
(١٠) طيبة: المدينة.

(١) انظر فى ترجمة أبى الحسن الجياني الذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٨٧/٥ وما بعدها.  
(٢) انظر الرسالة عند المراكشى ٢٨٨/٥.  
(٣) الكليم: موسى عليه السلام.  
(٤) النقيبة: الطبع والسجية.  
(٥) صادى: عطشان. ديمة: سحابة هائلة.

على باب الروضة الشريفة مسترحما لذنبه شفيعَ المذنبين يوم الهول الأكبر الذى تغذى بحبه طفلا وشابا وكهلا، وإنه ليأمل فى اللقاء بحبيبه، وفى فؤاده لوعة لا تنطفئ وفى عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طُيَّب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تماثلها سعادة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطلبلطة وبطليوس فى حجر حملة الصليب الشماليين، ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير التعلق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل إلى شفاعته تضرعا إليه كى ينصر المسلمين فى الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان<sup>(١)</sup> للسان الدين بن الخطيب كتبهما إلى الرسول عليه السلام على لسانى سلطانى الأندلس أبى الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣ - ٧٥٥هـ) وابنه محمد الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بديعة، يصور فيها الشوق الذى أضنى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويفخر بأن جده سعد بن عباد كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلالقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهى طويلة، ويفتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج بقوله:

«إلى رسولِ الحقِّ، إلى كافَّةِ الخلقِ، وغمَّامِ الرحمةِ الصادقِ البرِّقِ، والحائِزِ فى ميدانِ اصطفاءِ الرحمنِ قصبِ السَّبْقِ، خاتمِ الأنبياءِ، وإمامِ ملائكةِ السماءِ، ومن وجَّبتْ له النبوةَ وأدم بين الطَّينِ والماءِ.. نبيُّ الهدى الذى ختم به الرسالة ربُّه، وجرى فى النفوسِ مجرى الأناضِ حُبِّه، الشفيعِ المشفِّعِ يوم العَرَضِ، المحمود فى ملاء السماء والأرضِ.. فائدة الكونِ ومعناه، وسرُّ الوجودِ الذى بهر سَنَاهُ، مَن الأنوارِ من عنصرِ نورِه مستمَدَّة، والآثارُ تَخْلُقُ<sup>(٢)</sup> وآثارُه مستجدَّة، مَن طُوِي بساطُ الوحى لفقده، وسُدَّ بابُ الرسالةِ والنبوةِ من بعده».

وهذه القطعة الرائعة فى تمجيد الرسول يغمسها ابن الخطيب فى فكرة الحقيقة المحمدية

صبح الأعشى ٤٦٩/١٤.

(٢) تخلق: تبلى.

(١) انظر فى الرسالتين الإحاطة (طبعة عنان)

٥٢٧/٤ وما بعدها، وراجع فى الرسالة الأولى

التي رَدَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت في الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور في الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب في هذا التمجيد متحدثا عن معجزات الرسول، قائلا إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبي الحجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفى غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاده لحملة الصليب وما يلقي في هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبقرة الطاهرة، يقول:

«عاقنتي عن زيارتك العوائقُ إذ أصبحتُ بين عدوِّ تتكاثفُ أفواجهُ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُهُ»<sup>(١)</sup>، في طائفة من المؤمنين بك وطَّنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، واستعذبوا في مرَّضة الله تعالى ومرَّضاتك بوسهم، يطرون من هيعة<sup>(٢)</sup> إلى أخرى، ويتلفَّتون والمخاوف يُمْنَى ويُسْرَى، ويقارعون - وهم الفئة القليلة - جموعًا كجموع قيصر وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العُلْيَا، فيأله من سرِّب مروع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصبيبة حُمَرِ الحواصل<sup>(٣)</sup>، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل<sup>(٤)</sup>، والصليب قد تمطى ومدَّ ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون، وما وُعد به الشهداء تعتقه القلوب حتى تكاد تراه العيون إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله وقد أبلينا العُذْرَ، وأعملنا في سبيل الله وسبيلك البيضَ والسُّمْرَ<sup>(٥)</sup>، وأرغمنا الكُفْرَ».

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التي كان يبذلها مسلمو الأندلس في جهاد حملة الصليب، وقد جاءوهم - كالذرِّ عند انتشاره - من شمالي إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متزاحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هي العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكار أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازلهم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا مادقت أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتبها

(١) عجاجه: غباره.

الطيران.

(٢) هيعة: صيحة.

(٤) المناصل: جمع منصل: السيف.

(٣) حمر الحواصل: تشبيه لأطفال غرناطة بصغار

(٥) البيض: السيوف. السمر: الرماح.

الطير حين تكون حمراء الحواصل ولا تستطيع



سنة ٧٧١ بلسان السلطان الغنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تنكيهه بحملة الصليب في غير موقعة بعونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بجهد الطغاة البغاة. وكانت توجه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامي رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه في الأغراض الدنيوية والأخروية، غير أنها كثرت في الأندلس لبعث الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند ابن الجنان.

### ابن الجنان<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف باسم ابن الجنان، من أهل مرسية في شرقي الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: «كان محمد راوية ضابطا، كاتباً بليغا وشاعرا بارعا» ويقول الغبريني: «كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيها وكاتباً بارعا وأديبا». وكان مفرطا في القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاقت بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالي مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبته على الزقاق، فاستدعاه، ولبى دعوته، وأكرمه وحظى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لُبى نداء ربه في عشر الخميس وستائة.

وكان ابن الجنان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً محسنا، ويقول ابن الخطيب «له في الزهد ومدح الرسول ﷺ بدائع، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيرا» وأنشد المقرئ له في الجزء السابع كثيرا من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثا عن شمائل الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقدسيته ومرتبته العليا بين الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرئ محمسا نبويا طريفا يستهله على هذا النحو:

الله زاد محمداً تكريماً      وحباهُ فضلاً من لُدنه عظيمًا  
واختصه في المرسلين كريماً      ذا رَافَةٍ بالمؤمنين رحيمًا  
صَلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تسليماً

للغبريني ٢١٣ ونفح الطيب ٤١٥/٧ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية

ويضيف إلى هذا الدور في الخمس نحو ثلاثين دورا، والمخمس يسيل سلاسة وعدوبة، وأدواره تختتم بقوله: «صلوا عليه وسلموا تسليما». ولا تقل روعةً عن مدائح ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواعظه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ بها المقرئ كتبها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:

«السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التي لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ<sup>(١)</sup>، والبركةُ التي أولها الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرةِ الرِّسالةِ العامَّةِ الدعوةِ والنبوةِ، المؤيدةِ بالعِصمةِ والأيدِ والقوةِ، ومثابةِ البرِّ والتقوى، فهي لقلوبِ الطيبينِ صَفًا ومَرَوَّةً<sup>(٢)</sup> مقررُ الأنوارِ المحمديةِ، والبركاتِ السَّرْمَدِيَّةِ، أَمَّعَ اللهُ الإِسْلَامَ والمسلمينَ بحراسةِ أضوائها، وكَلَاءَةً<sup>(٣)</sup> ظلالها العليَّةِ وأفيائها<sup>(٤)</sup>»، وأقر عينَ عَبْدِهَا بِلَثْمِ ثَرَاهَا، والانخراطِ فِي سِلْكِ مَنْ يَراها. السلامُ عليكِ يا محمد، السلامُ عليكِ يا أحمدُ، السلامُ عليكِ يا أبا القاسمِ سلامَ مَنْ يمدُّ إليك يدَ الغريقِ، ويرجو الإنقاذَ ببركتك من نَكِدِ المضيقِ، ويتقطَّعُ أسفاً ويتنفسُ صُعداً<sup>(٥)</sup> كلما ازدلف<sup>(٦)</sup> إليك فريق، وعَمَرَتِ نحوك طريق، ولا يفتُرُ صلاةُ عليكِ له لسانٌ ولا يجفُّ ريق: كتبتُه يا رسولَ اللهِ وقد رحلَ المجدُّونَ وأقمتُ، واستقامَ المستعدونَ وما استقمتُ، وبينى وبينى لثَمَ ثَرَاكَ النَّبِيُّ، ولَمَحَ سَنَاكَ مُحَمَّدِيَّ مفاوِزُ وكلما رُمْتُ المَتَابَ رُدِدْتُ، وكلما يَمَّمْتُ البابَ صُدِدْتُ.. وحَقِّقْ وهو الحقُّ الأكيدُ والقسمُ الذي يبلغُ به المُقسَّمُ ما يريدُ، ما وَخَدْتُ<sup>(٧)</sup> إليك رِكاباً، إلا وللقلبِ إثرها التهابُ، وللدمعِ بعدها سَحٌّ وانسكابُ، وياليتني ممن يزورك معها ولو على الوَجْتَيْنِ، ويحييكِ بين رِكبها ولو على المُقْلَتَيْنِ.. ثم السلامُ ورحمةُ اللهُ تعالى وبركاته عليكِ ياسيدَ الخلقِ، وأقربهم من الحقِّ، ومن طَهَّرَ اللهُ تعالى مَواهاً وَقَدَّسَهُ، وبناهُ على التقوى والرضوانِ وأَسَّسَهُ، وآتاهُ من كلِّ فضلِ نبويِّ أعلاه وأسناهُ وأنفَسَهُ.. كتبه عبدك المستمسكُ بِعُرْوَتِكَ الوُثْقَى، اللانذُ بحرَمِكَ الأَمَّعِ الأَوْقَى، المتأخِرُ جسماً المتقدمَ نطقاً، والسلامُ عليكِ يا رسولَ اللهِ ﷺ تسليماً كثيراً ورحمةُ اللهُ تعالى وبركاته».

والرسالة توج بالعدوبة في اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواعج الشوق المضطرم في صدر ابن الجنان لزيارة قبر الرسول القدسي ولثم ثراه العطر والإمام بفنائه السنِّي

(١) تريم: تبرح.

(٢) السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج وفروضة والتشبيه واضح.

(٣) كلاءة: حفظ.

(٤) أفيائها: ظلالها.

(٥) يتنفس صعدا: يتنفس مع مشقة ووجع.

(٦) ازدلف: دنا وقرب.

(٧) وخذت: أسرعت.

وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الحجاج الأندلسيين من دونه يسرون في قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذى أرسله الله نورا وضاء للعالمين. ويفضى ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى ليشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فككا ولا لحاقا بالقوافل المتجهة إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز. ويذرف الدمع مدرارا، ويتمنى لو زار الرسول ﷺ لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدى. وروى المقرئ له موعظة بديعة فى فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكُبر والدلالات الواضحة الغرر، ويتلو المقرئ هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث فى نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول ﷺ وكيف عزَّهم الصبر، يقول: «وهل يسوغ الصبر الجميل فى فقيد بكته الملائكة وجبريل، وكثر له فى السموات السبع النحيب والويل، وانقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمَّ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنا دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عز شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة مناديا فى الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملتهب فى الصدور، ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعيا:

«اللهم أسقنا من حوضه المورود، وشرفنا بلوائه المعقود، وشفِّعه فينا فى اليوم المشهود، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللحود، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الرُّع السُّجود، واجعلنا معهم فى الجنة دار السلام ودار الخلود».

وبهذه اللغة الصافية التى تموج بالركة والعدوبة والتى تلد الألسنة حين تنطق بها والأسباع حين تنصت إليها كان ابن الجنان يتمتع القلوب والأفئدة.

### (ب) مواعظ

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفوية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة فى المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جلة الخطباء والوعاظ ممن حكى الجاحظ وعظهم وخطابتهم فى كتابه البيان والتبيين، وكثير هم الأندلسيون الذين تُذكر فى تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة

الأموية بالأندلس ووعاظها منذر بن سعيد، وسنخسه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذي يبعث الحياة في الوديان والسهول والزروع، فكان الناس يجتمعون في المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا في الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفي الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يغاثون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة السيول التي تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا في ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستئزال الغيث، وبينما الخطباء يلحون بالدعاء كان الناس يكثرون من الضجيج والابتهاال، وتشملهم رحمة الله فتنعقد السحب وتبرق وترعد وهطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبي وهب العباسي المعاصر لمندر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح في عصر أمراء الطوائف، وملتقى فيه بمواعظ كتابية تجر فيها رسائل بديعة. وهي رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحي والشوق إلى اللقاء الرباني والانقطاع إلى النسك والعبادة للحى القيوم عن كل متاع دنيوى. ونحس كأن الأندلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفى على نحو ما يلقانا في رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيرى سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه<sup>(١)</sup>:

«هَيَّاكَ يَدُ الْقَدْرَةِ هَيْئَةً رُوحَانِيَّةً، وَأَحْيَاكَ رُوحَ الْقُدُسِ حَيَاةً إِلَهِيَّةً، وَأَبْسُتَكَ الشَّرِيعَةَ لِبَاسَ التَّقْوَى، وَرَأْسَتَكَ الطَّبِيعَةَ بِرِيْشِ النُّهْيِ<sup>(٢)</sup>، حَتَّى تَطِيرَ مَعَ الرُّوحَانِيِّينَ فِي مَجَالِ الصَّدِّيقِينَ إِلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ، فَتَذُوقَ بَرْدَ عَيْشِ النِّعَمِ، وَتَلْذَّ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْقَيُّومِ، وَتَشْتَاقَ إِلَى لِقَاءِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ.. وَإِنَّ لِلَّهِ يَا أَخِي عِبَادًا أَقَامَ أَرْوَاحَهُمْ بِقَيُّومِيَّتِهِ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، فَمَشَتْ بِأَقْدَامِ الصَّدِيقِ إِلَى الْحَقِّ، فَدَنَتْ مِنْهُ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ عَلَى جَلَالِهِ، فِي اتِّسَاعِ كَمَالِهِ، فَضَعَفَتْ لِكِبَرِ سُلْطَانِهِ، ثُمَّ أَفَاقَتْ بِالْإِسْلَامِ وَنَطَقَتْ بِالْإِيمَانِ، وَاتَّصَلَتْ بِالْقُرْآنِ، وَعَلِمَهَا فَفَازَتْ بِالْحِكْمَةِ، وَانْقَطَعَتْ إِلَيْهِ بِالْكَلِمَةِ، وَدَانَتْ لَهُ بِالْحَنِيفِيَّةِ،

(١) راجع في النص الذخيرة ١/٨٤٧ وما بعدها. (٢) النهى: العقل.

فآواها إلى كَنَفه، ونَعَمها بطرائف تُحَفه، وأطلع لها السَّرَّ، وأكمل لها البِرَّ، فحَيَّيتُ بقربه،  
وشربت بكأس حُبّه».

والنزعة الصوفية ماثلة في الرسالة، وهي تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف في  
زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أُشربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال  
ابن العريف وابن عربي والششتري، ومرت لهم في الفصل الماضي ترجمات تعرّف بمنزعتهم  
الصوفي وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة ووعظهم إلى الوعظ العام  
وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكي  
أبا العلاء المعري في كتابه الوعظي: «ملقى السبيل» وقد جعله على الحروف الأبجدية،  
وعادة يذكر سجعات قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبي الحصال الذي  
ترجمنا له في هذا الفصل أول من حاول محاكاته في هذا الاتجاه<sup>(١)</sup>، وكثر بعد ذلك من  
عارضوه فيه من مثل أبي القاسم السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسمي معارضته له باسم:  
«حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل»<sup>(٢)</sup> وعارضه سليمان بن موسى الكلاعي المتوفى  
شهيذا سنة ٦٣٤ باسم «مفاوضة القلب العليل ومنايذة الأمل الطويل بطريقة أبي العلاء  
في ملقى السبيل»<sup>(٣)</sup> وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبي العلاء في وعظه  
بملقى السبيل كانت أشبه بجدول انبثق من نهر الوعظ الكبير. وولتقي في عصر المرابطين  
بأبي بكر الطرطوشي وسنخصه بكلمة.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد في رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزي  
ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكبَّ عليها غير أديب أندلسي يحاكيها على نحو  
ما يلقانا عند أبي المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول  
المراكشي: «له فصول وعظية على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي» وله قوله من  
عظة<sup>(٤)</sup>

«يا أعمى الهوى غابَ عنك وَضَحُ النهار، طالَتْ غيبَتُك عنا فأبى يومٍ تكون في  
الزَّوَارِ، العمرُ قد مضى ولم يبق إلا القليل، وأنت تعيش بالمنى والتعليل»، أين الإخوان

(٣) الذيل والتكملة للمراكشي بقية السفر الرابع  
ص ٨٦.

(٤) كتاب أبي المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي: عصر  
المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٤٧٩/٣ وصحفت فيها لفظة  
«ملقى».

والأتراب، طاحوا<sup>(١)</sup> والله وأكلهم التراب، بينما البلبل يغرد إذ نعب الغراب وفجأت الفجيعة فما لذ النوم ولا ساع الشراب».

وكان نبعا فياضا في الوعظ مما جعل بعض الوعاظ يستعينون به فيما يعظون به الناس. وملتقى بكثير من المواعظ في دولة بني الأحمر بغرناطة، ومن كبار الوعاظ في دولتهم ابن الزيات الكلاعي المالقي المتوفى سنة ٧٢٨ وله في الوعظ كتاب «شذور الذهب في ضروب الخطب»، وروى له لسان الدين بترجمته في الإحاطة عظة ألغى الألف من حروفها وفيها يقول:

قد نصحتم لو كنتم تعقلون، وهديتم لو كنتم تعلمون، ونصرتم لو كنتم تبصرون،  
وذكرتم لو كنتم تذكرون، وظهرت لكم حقيقة نشركم<sup>(٢)</sup>، وبرزت لكم خبيثة حشركم،  
فلم تركضون في طلق<sup>(٣)</sup> غفلتكم، وتعفلون عن يوم بعثكم، وللموت عليكم سيف  
مسلول، وحكم عزم غير مفلول<sup>(٤)</sup>، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه، ويخبر بجميع كسبه،  
 ويفرق بينه وبين صحبه، ويعدم نصرة حزبه، ويشغل بهمه وكربه، عن صديقه وتربه».

ويسترسل في مثل هذا الوعظ البسيط الذي ينزلق عن اللسان لحفته ولعدوبته، ولعله من أجل ذلك كان مجلس وعظه يغص بالناس ويزدهمون عليه لساع مواعظه. وحرى بنا الآن أن نقف قليلا عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشي.

### منذر بن سعيد البلوطي<sup>(٥)</sup>

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع في نواحي قرطبة يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية واللغوية وبز فيها أقرانه بقرطبة، وفي سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابوري كتابه الإشراف المؤلف في اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضا كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل سمعه على أبي العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى في اللغة والفقهاء والحديث. وأهم

٣١٩ وابن الفرضي رقم ١٤٥٢ والبيعية رقم ١٣٥٦

والجذوة ٣٢٦ والمطمح ٢٧ ومعجم

الأدياء ١٧٤/١٩ وإنباه الرواة ٢٢٥/٣ وأزهار

الرياض ٢٧٢/٢ ونفح الطيب (انظر الفهرس).

(١) طاحوا: هلكوا.

(٢) نشركم: بعثكم.

(٣) طلق: شوط.

(٤) مفلول: منلوم الحد.

(٥) انظر في ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزبيدي

من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهري وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالته، مع أنه كان قاضيا في بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيا يلتزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوى تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهري في نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذي استقر عليه العمل في الأندلس. وثقف في رحلته الاعتزال كما ثقف المذهب الظاهري، وكان يحتج له كما يحتج للمذهب الظاهري دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفي سنة ٣٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر في قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذي جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبي على القالي العالم اللغوي المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوت شهرته في الأندلس، فسأله أن يلقي خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهباً للناصر من توطيد الحكم في بلده، فقام القالي وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، وأرتج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر - وكان حاضرا - قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أهبة مفتتحا لها بقوله:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاما، ولكل مقام مقالا، وليس بعد الحق إلا الضلال، فافقهوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت.. وإني أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافته أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سيربكم».

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التي كانت عمت آفاق الأندلس، وفصل القول في انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهد من مكانة جعلت الروم يخبطون مودتها. وينصح الناس بالتزام الطاعة لخليفهم وابن عم نبيهم الناصر، ويحتم خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جنانه، وأعجب به الناصر إعجابا شديدا، فولاه الصلاة والخطابة بمسجده الجامع في مدينته الزهراء التي بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضي القضاة في الأندلس جميعا، وظل على ذلك في حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفي سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى في بناء مدينته الزهراء وتأنق فيها

ما وسعه التأنق على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع، فرأى منذر أن يتناوله في خطبة الجمعة بالموعظة الحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتداً منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: ﴿أَتَيْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ (١) آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ (٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ثم قال: ولا تقولوا: ﴿سِوَاءَ عَلَيْنَا أُوْعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ﴿فَمَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وما زال يصل ذلك بكلام مؤثر في ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومضى منذر يدعو إلى الزهد في الدار الفانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب في ذلك حتى تأثر المستمعون وضجوا بالبكاء، ودعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغضبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: «أحكام القرآن» وكان شاعراً، أما العظات فلعل واعظاً في وطنه لم يبلغ فيها مبلغه في زمنه، وكانت له خطب مجموعة ومتداولة في الأندلس تحمل وعظاً كثيراً، ومن عظاته قوله:

«حتى متي وإلى متى أعظُّ غيري ولا أتعظُّ وأزجره ولا أزدجر، أدلُّ على الطريق المستدلين، وأبقى مقيماً مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿إن هي إلا فتنتك تُضِلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾. اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك ولا تعذبني وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين».

أبو (٣) بكر الطُّرطوشي

هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الطُّرطوشي الأندلسي ولد في سنة ٤٥١ بطرطوشة في أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبي رندقة، ويبدو أنها كنية شهر بها فيما بعد، وقد تخرج على يد أبي الوليد الباجي بسرقسطة، أحد

٥١٧ وبغية الملتمس رقم ٢٩٥ والمغرب ٢/٤٢٤  
وابن خلكان ٤/٢٦٢ والديباج المذهب ٢٧٦ وغير  
الذهبي ٤/٤٨ وأزهار الرياض ٣/١٦٢ والشذرات  
٤/٦٢ وحسن المحاضرة ١/١٩٢.

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى  
الزهراء بضاحية قرطبة على جبل العروس.  
(٢) مصانع: مبان من القصور والحصون.  
(٣) انظر في ترجمة الطرطوشي ومواعظه الصلة



كبار المالكية في أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ وحجَّ ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جِلَّة الشيوخ في البلدتين، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، ثم سكن مصر واستقر بئر الإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ٥٢٠ هـ. وكان ورعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به:

«إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموتٍ مَنْ كان قبلك، وهو خارجٌ عن يدكٍ بمثل ما صار إليك فاتق الله فيما خوَّلك من هذه الأمة، فإن الله - عز وجل - سائلك عن التقير<sup>(١)</sup> والقَطْمِيرِ والفتيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود مَلِكَ الدنيا بحدأفيرا فسخر له الإنسَ والجنَّ والشیاطینَ والطيْرَ والوحشَ والبهائمَ، وسخر له الريحَ تجرى بأمره رُخاءً<sup>(٢)</sup> حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: ﴿هذا عطاؤنا فأمْنُنْ أو أمْسِكْ بغير حساب﴾ فما عدَّ ذلك نعمة كما عدتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجل، فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلونني أشكر أم أكفر﴾ فافتح الباب، وسهّل الحجاب وانصُرِ المظلوم».

وللطروشى مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير في مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبي وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذي ألفه للمأمون البطائحي وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجمالي (٥١٥ - ٥١٩ هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغي أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة في الحكم، ويبين في مقدمته منهجه فيه وغايته قائلا:

«جمعت محاسن ما انطوى عليه سيرُ ملوكِ سبِّتٍ من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسُّند والسندهند، فنظمت ما ألفت في كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة والكلمات اللطيفة والظريفة المألوفة.. إلى ما رأيته وجمعته من سير الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادير الخلفاء وما انطوى

(١) التقير: ما نقر في نواة التمر، والقَطْمِير: النواة والمراد أنه يُسأل عن أصغر الأشياء.

(٢) رخاء: لينة.

القشرة الرقيقة على النواة، الفتيل: الخيط في شق

عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم ونبوُّع الحكم ومعَدُن السياسات ومَعَاصُ الجواهر المكنونات.. الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة».

وقد جعل الطرطوشى الكتاب فى أربعة وستين بابا خصَّ أولها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب فى الخصال التى ينبغى أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله فى الباب الأول واعظا للملوك:

«اعتبر بمن مضى من الملوك والأقبيال، وخلا من الأمم والأجيال، وكيف بسطت لهم الدنيا وأنست لهم الآجال، وانفسح لهم فى المنى والآمال، وأمدوا بالآلات والعدُد والأموال، كيف طحنهم بكلكله المنون<sup>(١)</sup>، واختدعهم بزخرفه الدهر الخئون، وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجيحة، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية، فاعتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوَّد من يومك لغدك، ولا تنافس أهل الدنيا فى خفض عيشهم ولين رياشهم<sup>(٢)</sup> ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم»

ولم يكد يترك الطرطوشى خبرا أو عظة للرسول عليه السلام والرسل الكرام والخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأتقياء البررة والعبَّاد والصالحين الأطهار إلا دونها فى كتابه مع ما ساقه فى تضاعيفه من عظاته التى تموج بها صفحاته. وهو بحق فى الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعا حكاما وغير حكام.

## ٤

### أعمال نثرية

تتميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما فى طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما فى المقتبس لابن حيان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما فى مذكرات عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصّة حى بن يقظان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال فى كلمات مجملة.

(١) الكلكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: (٢) الرياش: الأثاث الفاخر.

## طوق الحمامة لابن حزم

ابن حزم<sup>(١)</sup> هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسي من موالى بنى أمية وزعم ابن حيان أن أسرته إسبانية من عجم لبلة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معرفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسي أعلى كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذه السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونصَّ ابن حزم على نسبته الفارسية وولائه لبني أمية قائلاً:

سَمَا بِي سَاسَانَ وَدَارَا وَبَعْدَهُمْ قُرَيْشُ الْعَلَاءِ أَعْيَاصُهَا وَالْعَنَابِسُ

وهو في الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفي الشطر الثاني ينتمى بالولاء إلى بنى أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابسة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عن ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أى مبرر لكى يرجح نسبته إلى عجم الفرس على نسبته إلى عجم الإيبان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبني أمية، وظل مشايخا لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حيان ضده، محاولاً أن يخلعه من ولائه وولاء أبيه للأمويين.

ومقدماته لما نشر من رسائله وكتاب ابن حزم: حياته وعصره لمحمد أبو زهرة ودراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة للدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وابن حزم صورة أندلسية للدكتور الحاجرى وابن حزم الأندلسي: حياته وأدبه للدكتور عبدالكريم خليفة. وفي كتاب طوق الحمامة انظر مقدمته في تحقيق الدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وعرضه فيها لآراء المستشرقين وما ذكره في هوامش تحقيقه للكتاب من تأثيرات موضوعاته في الأدب الإيباني. وانظر كتاب ألوان للدكتور طه حسين (الطبعة السادسة في دار المعارف) ص ٩٩ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة ابن حزم ودراسته الحميدى فى الجذوة ص ٢٩٠ والذخيرة ١٦٧/١ والمطمح ص ٥٥ والبعية للضبى ص ٤٠٣ والصلة ٤٠٨ والمعجب ٩٣ وطبقات الأمم لصاعد ص ١١٧ والمغرب ٣٥٤/١ ومعجم الأدباء ٢٣٥/١٢ والقفطى فى تاريخ الحكماء ص ٢٣٢ وابن خلكان ٣٢٥/٣ والذهبى فى تذكرة الحفاظ ٣٤١/٣ وعبر الذهبى ٢٣٩/٣ وابن شاکر فى الفوات ٢٧١/٢ والشذرات ٢٩٩/٣. وكتبت عن ابن حزم دراسات كثيرة، وراجع فيه تاريخ الفكر الأندلسى لبالنشیا ص ١٤، ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٩، ٤٢٦ وكتابات د. إحسان عباس فى تاريخ الأدب الأندلسى: عصر سيادة قرطبة ص ٢٤٥ - ٢٦٤

وكانت أسرة ابن حزم تعيش في قرية تملكها تسمى مُنت ليشم من قرى مدينة لَبْلَة على بعد خمسين كيلو متراً غربى إشبيلية، وبها وُلد أبوه أحمد، ورحل منها مبكراً إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما لَمع بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرّف عليه ابن أبى عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذه وزيراً له سنة ٣٨١ م مما جعله يسكن في الجانب الشرقى من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبى عامر وجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر في كُور غربى الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مغيبه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ م ووكّل تربيته في صباه إلى جواری قصره وكنّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية - شأن أمثالهن من الجوارى في قرطبة ومدن الأندلس - وفي ذلك يقول ابن حزم في كتابه «الطوق»: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى، لأنى رُبيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب وحين أبقل وجهى (نبت الشعر فيه) وهنّ علّمنى القرآن وروّينى كثيراً من الأشعار ودربننى في الخط». وجعلته هذه النشأة يستشعر مبكراً عاطفة الحب لمن كن في سنه من الجوارى، ويقول في الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فبا استحسّن بعدها سوداء الشعر أبداً. وظل يختلط بهؤلاء الجوارى ويعيش معهن كما يقول إلى حد الشباب وحتى أصبح يافعا في سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أباه اصطحبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٦ م. ولم يلبث أن أخذ يتلمذ للشيوخ وفي مقدمتهم ابن الجسور المتوفى سنة ٤٠٠ م وعنه أخذ الحديث النبوى وتاريخ الطبرى وكان لا يزال في سن مبكرة. وكثيراً ما كان يرافق أباه في مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لا يزال يسكن الجانب الشرقى من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ م رأى أن يتحول عن دوره المحدثة في هذا الجانب إلى دورهم القديمة في الجانب الغربى من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عُزل وأعيد سريعاً، فاتهمه بمساعدته للنائرين ضده واعتقل وأغرم إغراماً مالياً فادحاً، وتوفى سنة ٤٠٢ م.

وظل الفتى على في هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيوخ وقراءته. ويتزوج من جارية له كَلَفَ بها تسمى نَعْمًا كانت غاية في الحسن خَلْقاً وخُلُقاً، ولم يلبث القدر أن فجعه فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد

عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتر له دعة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تبادت في السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤ إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبي عامر، ووشى به إليه فاعتقله أشهراً ثم ردَّ إليه حرите فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهراً وغادره إلى بلنسية وأميرها مبارك والمظفر من فتيان العامريين، إذ سمع أنها يشايغان أمويا بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليها، ولم يلبث أن زحف معها بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والانقضاض منها على قرطبة التي كانت قد أصبحت في قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامريين أصبحت أطلالا دائرة فبكاها طويلا، وتفرغ لالتهام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفي سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموي فاتخذه وزيرا له مع خذنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويُعتقل الخليفة الجديد المستكفي ابن حزم فترة، وتردَّ إليه سريعا حرته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضَّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهداه عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ويقول ابن بشكوال في كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على معارضيه نحو أربعائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالكيا ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فترة ثم تركه في أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهري، وتنقل في مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقي، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتتعدد مؤلفاته تعددا واسعا، منها في الفقه كتاب الإبطال في مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهي القياس والرأى والتعليل والاستحسان والتقليد محاولا نصرة مذهبه الظاهري، وكتاب الإيصال في فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين في مسائل الفقه مع بيان الحجة لكل رأى،

وكتاب المحلّى فى المذهب الشافعى، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب حجّة الوداع. ومنها فى التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جمهرة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهى تسجل ما لعلمائها وأدبائها من مصنفات وأعمال. ومنها فى المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها فى تاريخ الأديان كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وهو به يعد واضح علم المقارنة بين الأديان الذى لم يعرفه الغرب إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حُرِّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلاً لآرائهم العقيدية، ويعرض فى تفصيل لأركان العقيدة الدينية القوية (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيما بعد توماس الإكويينى فى كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة فى الأصول كتابه الإحكام فى أصول الأحكام» ومرّ بنا فى الفصل الثانى أنه أشار فى مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية والعبرية وأن العربية الشالوية العدنانية لغة مضر وربيعة تخالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضح الأساس لعلم فقه اللغة المقارن فى العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفها أوروبا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى عنيت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادى بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته فى الأخلاق والسير ومداواة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكى ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس فى عصره، وفيها يصور الفضائل والردائل الخلقية مضيئاً إليها بعض اعترافات فى تواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريباً منها مقالات فى الأخلاق لبيكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بمدن الأندلس ناشراً علمه ومذهبه الظاهرى فى الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكي أبى الوليد الباحى فى جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢. وكان فقهاء المالكية لا يزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العودة إلى قرية آبائه مت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيراً وبها توفى سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة فى الألفة والألاف ألفه فى سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العذرى ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس فى الطبيعة الإنسانية فى أصل

عنصرها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوى قبل حلول النفوس في الأجساد في عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس ائتلاف ومشاكله فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين بابا، منها عشرة في أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب في النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر بابا في أعراض الحب المحمود والمذموم، وهى أبواب الصديق المساعد والوصل وطى السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة في المحبوبة والقناعة والوفاء والغدر والضنا والموت. ومنها ستة أبواب في آفات الحب، وهى أبواب العاذل والرقيب والواشى والهجر والبين والسلو، ثم بابان في قبج المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعرض لا في كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة منتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أى موارد أو خجل يحجبان الحقيقة، فالحقيقة دائما مكشوفة كالشمس. وفي تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس في الحب وترهاتها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبها حبا نقياً بريئاً من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه في الحب قوله في باب السلو:

«وإني لأخبرك عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غاية فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفرها ودمايتها، عديمة الهزل، منبعة البذل، فقيدة الذام<sup>(١)</sup>، قليلة الكلام، غضيضة البصر، شديدة الحذر، نقيّة من العيوب، دائمة القُطوب<sup>(٢)</sup>، حُلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض.. لا تقف المطامع عليها، ولا معرّس<sup>(٣)</sup> للأمل لديها.. على أنها كانت تحسّن العود إحسانا جيدا، فجنحت إليها، وأحببتها حبا مفرطا شديدا، فسعيت عامين أو نحوهما - أن تجيبني بكلمة، وأسمع من فمها لفظة، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى، فما وصلت إلى شىء من ذلك البتة فلههدى بمُصطنع<sup>(٤)</sup> كان فى دارنا.. تجمعت فيه دَخَلتنا<sup>(٥)</sup> ودَخَلت أختي: من النساء ونساء فتياننا ومن لاث<sup>(٦)</sup> بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله، فلبثن صدرا من

(١) الذام: العيب. (٢) القطوب: العيوب. (٣) معرّس: مكان. (٤) مصطنع: وليمة. (٥) الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو ليسوا منهم. (٦) لاث: اختلط.

النهار ثم تنقلن إلى قَصْبَةٍ<sup>(١)</sup> كانت في دارنا مُشْرِفة على بستان الدار، ويُطَّلَعُ منها على قرطبة وفحوصها<sup>(٢)</sup> مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب<sup>(٣)</sup> وأنا بينهن. وإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه، أنسا بقربها، متعزضا للدنو منها، فما هي إلا أن ترانى في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره مع لطف الحركة. فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال<sup>(٤)</sup> إلى غيره. وكانت قد علمت كلفى بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطَّلَعُ من غيرها عليها. واعلم أن قيافة<sup>(٥)</sup> النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج<sup>(٦)</sup> في الآثار. ثم نزلن إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيداتها في سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العود، وسوته بخفرٍ وخجلٍ لا عهد لى بمثله، وإن الشيء ليتضاعف حسنه في عين مُستحسنة، ثم اندفعت تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمري لكان المضراب كان يقع على قلبى، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا».

ويمضى ابن حزم فيذكر أن خطوبَ الفتنة الكبرى بقرطبة فرقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات في جنازة لبعض أهله باكية نادية، فأثارت فيه وجدا دفيئا وحركت ساكنا وذكَّرتَه عهدا قديما وحبًّا تليدا ودهرا ماضيا وجددت أحزانه، وما كان نسي، وزاد الشجا وتوقدت اللوعة. واضطُرَّ إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتها لفقدائها الصيانة التي كانت لها في قَصْرِ أبيه وأيام عزه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أقلَّ وصلَّ وأنست له بعض الأنس لجنَّ طربا أو لمات فرحا، غير أن هذا النفار منها هو الذى أتاح له الصبر والسُّلوى مع ما ظل يطوى في نفسه من عذاب حبه وآلامه.

وبمثل هذا التصوير الواقعي القصصى الصريح المرسل في غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصريه وما له

(٤) الزوال: التحول.

(١) قصبة: غرفة أو غرف مشرفة في الدار.

(٥) القيافة: المعرفة القائمة على التتبع.

(٢) فحوص قرطبة: ضواحيها.

(٦) مدلج في الآثار هنا: متعمق في تتبع الآثار.

(٣) شراجيب: قوائم.



من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والحصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى في شبابه. وفي حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه «الحياة المجددة» ويقول الدكتور الطاهر مكى في هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذى اختاره دانتي الإيطالى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسبن بلاسيوس - كما ذكر بالنتيا - فى معرفة دانتي بالتراث الأديبى الأندلسى، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضاً فى هوامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته فى الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة فى باب «القنوع من المحبوب بأى شىء» عن امرأة فى صقلية شاهدت شابا فى غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنظر إليه، فلما بعد أتت إلى المكان الذى أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض فى مواقع قدميه، ويقول بالنتيا إن شاعرهم الإيبانى المبدع «ماثياس» حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

## كتابة التاريخ والتراجم الأدبية

### (أ) المقتبس لابن حيان

هو أبو مروان<sup>(١)</sup> حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبى عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنتها (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ). وتوفى سنة ٤٢٧ هـ. ورزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعنى بتربيته، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نابل واللغوى النحوى ابن أبى الحباب والعالم اللغوى المشهور صاعد البغدادى وجميعهم توفوا بين سنتى ٤٠٠ و٤٠٣ للهجرة، مما يدل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو فى نحو العشرين، وكان منهما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة

وابنه محمد (طبع بيروت) وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنتيا ص ٢٠٨ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس للدكتور حسين مؤنس (طبع مدريد) ص ١٠١.

(١) انظر فى ابن حيان وترجمته الذخيرة ٥٧٣/١ والجدوة: ١٨٨ والبغية رقم ٦٧٩ والصلة رقم ٣٤٢ وراجع دراسة د. محمود مكى فى مقدمة نشره لقطعة المقتبس الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم الرضى

كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل في دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبي الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لهما الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتباً واسعاً. وذكر مترجموه أنه لقب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكى أن يكون هذا اللقب أسبق عليه رسمياً فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو الوليد بن جهور الحكم في إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سىء التدبير حاصره المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، مما جعله يستنجد بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا في غير هذا الموضع، ونرى ابن حيان يهنئه بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبي بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفي الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينها إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكى ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هي:

- ١ - أخبار الدولة العامية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.
- ٢ - كتاب المتين وبيئته بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.
- ٣ - وكتاب البطشة الكبرى وهو في خلع المعتمد بن عباد لأبي الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيخ في الجنوب الغربي للأندلس.

ونظن ظناً أن أخبار الدولة العامية لم تكن كتاباً مستقلاً عن كتاب المتين، بل كانت أجزاءه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءاً في كتاب المتين، إذ يقال إنه كان في ستين مجلدة. وكأن ابن حيان إنما كان له في رأينا كتابان في تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفي كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقية من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء: جزء يضم إمارة الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وشطراً من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وقد تملكه المستشرق بروفنسال ورجع إليه مراراً في كتابه «تاريخ

إسبانيا الإسلامية» ومصير هذا الجزء بعد موت بروقنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٤ هـ) نشره الدكتور محمود مكى بيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكى. وجزء رابع نُشر بمدير يد باسم الجزء الخامس نشره شالميتا مستعينا بكورينطى وصيح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). ثم جزء فى أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) نشره بيروت الدكتور عبد الرحمن الحجى. ويتميز ابن حيان فى المقتبس بأنه يضم فى تاريخ كل حاكم أموى إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرائية والاقتصادية فى عهده مع تراجم مفصلة للوزراء فى أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافى والاجتماعى والعمرائى والاقتصادى إلى تاريخها السياسى. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبارة فى بلاد البشكنس.

«فى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة غزا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمرها الله - غزوته المعروفة ببَنْبُلُونَةَ: بلد أعداء الله الكفرة البشكنس، وسلك فى سفره هذا طريق الشرق، وتمتع من النزول إليه والغزو معه محمد بن عبد الرحمن، وكان بمدينة العسكر من أحواز<sup>(١)</sup> بَلَنْسِيَّة، فنازل حصونه ووطئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلاد المشركين بَنْبُلُونَةَ بأنفذ عزمٍ وأؤكد حزمٍ وأقوى نية فى الانتقام لله تعالى ولدينه من الأرجاس<sup>(٢)</sup> الكفرة واحتل من أول بلدهم حصن قلهرّة، وكان العليج شانجه<sup>(٣)</sup> أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يعرف بقنطرة البّة وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلفوا فى بسائطها<sup>(٤)</sup> جميع أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أعجلوا عن انتقالها ولجأ علوج منهم بأهليهم وأولادهم إلى ثلاثة غيران<sup>(٥)</sup> فى شفير جرف<sup>(٦)</sup> على النهر، فلم يزل المسلمون

(١) أحواز: نواحي.

(٢) الأرجاس جمع رجس: القدر.

(٣) العليج: الكافر الفظ، وشانجه: حاكم

(٤) بسائطها: أراضيها المبسوطة.

(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.

(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادى.

(٥-٢٩٣-٣١٤ هـ).

يَتَوَقَّلُونَ<sup>(١)</sup> إِلَيْهِمْ فِيهَا، وَيَتَسَوَّرُونَ<sup>(٢)</sup> عَلَيْهِمْ مِنْ أَعَالِيهَا، حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ تِلْكَ الْغَيْرَانَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا الْعُلُوجَ وَسَبَّوْا الذَّرَارَىٰ وَغَنَمُوا الْأَمْتَةَ، وَهُدِمَتْ حِصُونُ الْكُفْرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الْجَهَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا صَخْرَةٌ قَائِمَةٌ. ثُمَّ تَنَقَّلَ النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَحِلَّةِ<sup>(٣)</sup> بَعْدَ أَنْ أَقَامَ فِيهَا يَوْمًا إِلَىٰ حِصْنٍ فَالْجِشَّ فَاضْرَمَتْ نَارًا أَرْبَابُضَهُ<sup>(٤)</sup> وَاسْتَقْصِيصَتْ زُرُوعَهُ وَنَعِمَهُ بِالنَّسْفِ وَالِاسْتِئْصَالِ.. ثُمَّ اسْتَعَزَّمَ عَلَى الْإِيغَالِ فِي بِلَدِ الْكُفْرَةِ وَالِاقْتِحَامِ لِسَرَوَاتِهِ<sup>(٥)</sup> وَالتَّوَصَّلِ إِلَىٰ مَوْضِعِ قَرَارِهِمْ وَمَجْتَمَعِ كَفَارِهِمْ وَنِكَايَتِهِمْ فِي عُقْرِ<sup>(٦)</sup> دَارِهِمْ وَمَكَانِ أَمْنِهِمْ.. وَأَمَرَ بِتَبْعِيَّةِ الْكُتَّابِ وَتَرْتِيبِ الْمَقَانِبِ<sup>(٧)</sup> وَشَكِّ<sup>(٨)</sup> الْعَسْكَرِ.. وَارْتَحَلَ النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ بَيْنَ أَجْبَلٍ<sup>(٩)</sup> شَامَخَةَ، وَشَوَاهِقِ مَنْقُطَةَ، وَالْجِيُوشِ لَا تَمُرُّ بِمَوْضِعٍ إِلَّا اضْطَلَمَتْهُ<sup>(١٠)</sup> وَنَسَفَتْ زُرُوعَهُ، وَأَفْسَدَتْ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ أَكْلَهُ وَهُدِمَتْ قُرَاهُ وَحُصُونُهُ، إِلَىٰ أَنْ بَلَغَ مَدِينَةَ بَنْبُلُونَةَ الَّتِي إِلَيْهَا يُنْسَبُ الْإِقْلِيمُ، فَأَصَابَهَا خَالِيَةٌ مُقْفِرَةٌ، فَدَخَلَهَا النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَجَالَ فِي سَاحَاتِهَا وَأَمَرَ بِهَدْمِ جَمِيعِ مَبَانِيهَا وَتَخْرِيبِ كَنِيسَةِ الْكُفْرَةِ الْمَعْظَمَةِ وَمَوْضِعِ بَيْعَتِهِمْ<sup>(١١)</sup> وَمَكَانِ مَنْسُكِهِمْ فَجُمِعَتْ الْأَيْدِي عَلَيْهَا، حَتَّىٰ جُعِلَتْ قَاعًا صَفْصَفًا.<sup>(١٢)</sup> وَتَقَلَّ النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ، وَكَانَ فِي مِمرِّهِ فَجٌّ<sup>(١٣)</sup> ضَيْقِ الْمَسَالِكِ وَعَرٌّ الْمَجَازِ.. وَتَظَاهَرَ<sup>(١٤)</sup> أَعْدَاءُ اللَّهِ لِأَهْلِ السَّاقَةِ<sup>(١٥)</sup> مُتَسَمِّينَ<sup>(١٦)</sup> فِي جَبَلِ شَاهِقٍ، مَلْتَمِسِينَ الْفُرْصَةَ، فَهَضَمَتْ الْخَيْلُ إِلَيْهِمْ سَرِيعًا، فَكَشَفْتَهُمْ وَهَزَمْتَهُمْ، وَقَتَلَتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ، فَانْقَشَعُوا<sup>(١٧)</sup> مُدْبِرِينَ لِاتْنِينَ لَا يَلُؤُونَ وَلَا يَعْرِجُونَ، وَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ بِعِزَّةِ الْقَهْرِ وَسُورَةِ<sup>(١٨)</sup> النَّصْرِ..»

وهذا الأسلوب الأدبي الخافق بالحيوية البارع في تصوير المواقع الحربية يمضى ابن حيان في المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوى وأدبي لا ينضب،

- 
- (١) يتوقلون إليهم: يأتونهم من الأعلى.  
(٢) يتسورون: يتسلقون.  
(٣) المحلة: الموضع.  
(٤) الأرباض جمع ربض: ما حول الحصن أو المدينة.  
(٥) سروات البلاد: أوساطها وأعاليها.  
(٦) عقر دارهم: وسطها.  
(٧) المقانِب جمع مقنَب: جماعة الفرسان.  
(٨) شك العسكر: حمله للسلاح.  
(٩) أجبل: جمع جبل.  
(١٠) اضطلمته: استأصلته.  
(١١) بيعتهم بكسر الباء: معبدهم.  
(١٢) صفصفا: لا نبات فيه.  
(١٣) فج: طريق.  
(١٤) تظاهر: تجمّع.  
(١٥) الساقاة: مؤخرة الجيش.  
(١٦) متسمين: محتلين ومختفين.  
(١٧) انقشعوا: انسحبوا وتفرقوا.  
(١٨) سورة هنا: مجد.

معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بألفاظه التي يرفدها في يسر متلاحقة بجزالتها ورسالتها ونصاعتها وأى نَصاعة؟ لكأنما كانت الألفاظ محتبئة في أكامها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حَيَّان، ففتحت له أكامها وانقادت إليه مهيتة له هذه الرُوعَة في اختيارها ونسج تعبيراتها مع الرونق الذي يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشيء من تزاويق المحسنات البديعية التي أخذ يصطنعها بعض كتّاب عصره، ولا شيء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله في ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط في السرد التاريخي ولا تفريط، بل سرد مقتصد يؤدي المعاني بدقة، مع إحكام التصوير النفسي والاجتماعي لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والجواري. ودائما يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سُجِّلَ عليها من معائب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتمم ملامح الشخصية أو تخفف عن القارئ جفاف التاريخ على نحو ما يلقانا في الصفحات الأولى من الجزء الخاص بالناصر وحديثه في مطلعته عن حَظِيَّتِهِ مرجان أم ولي عهده المستنصر وكيف سَلَبَتْهُ من ابنة عمه الحرّة وأوقعتها في شِباك سُخْطِهِ بدهانها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهي قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدِهِنَّ وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفي الحق أن كتابات ابن حيان في المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

### (ب) الذخيرة لابن بسام

هو أبو الحسن علي<sup>(١)</sup> بن بسام التَغَلْبِي الشنتريني من شَنترين في أقصى الغرب على نهر تاجه بالقرب من مصبه في المحيط الأطلسي عند أشبونة، وُلد بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شيء من اليسار، وعُنى بتربيته أبوه، وفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه في صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء وَمَنْ يحيطون بالمتوكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه

وفي أثناء تحريره لها ٤٥٢/٢ و ٧٨٧/٣ و ٧/٤ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعي (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة في ثمانية أجزاء.

(١) انظر في ابن بسام وترجمته رايات المرزبن لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه المغرب ٤١٧/١ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٠٨/٦ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجع في محاورته مع ابن عبدون ١٤٤/١ وفي لقائه لابن الدودين ٧٠٣/٣ وفي عمله بدواوين إشبيلية ٢٠/٤ وفي ابتداء تأليفه للذخيرة ٦٥٤/٣

والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أشبونه سنة ٤٧٧ ويلتقى بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره، مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أديب موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم ورسائلهم. وأكثر نصارى الشمال من الإغارة على بلدته، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر في مقدمته للذخيرة - مروّع السرب، بعد أن استنفد الطريف والتلاد، مما اضطره إلى التقلب في البلاد. ولم يتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بني عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد في كتابه الرايات إنه اتخذها موطناً له، ويذكر ابن بسام إنه خدم في بعض أعاليها السلطانية، ولعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظله فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخى يوسف بن تاشفين الذى مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبى بكر، وقد ظل يلى إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاماً. ويشيد ابن بسام في مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأديب من العطاء الوفير، ولم يسمه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف في حكم إشبيلية والبلاد إنما يريد به سير بن أبى بكر. ويقول إنه قدّم إلى حضرته الذخيرة مطرّزاً لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استعفى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفياً بما كان يغدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفّره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك في أن سير بن أبى بكر أعطاه في نسخته مبلغاً ضخماً من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفي سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس في ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتّابها ترجمات ضافية، وشفع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربعة أقسام: قسم لقرطبة وما يصادقها من مَوْسطة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانب الغربى حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانب الشرقى من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كتاباً أو شاعراً أو أميراً أو وزيراً لا يكتفى بكلمات مجملة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعتمد إلى التفصيل وذكر الدقائق مستعيناً بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان في كتابه المتين وبقدرة تحليلية

وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافاً بينا عن الثعالبي في يتيمة والعباد الأصبهاني في خريدته، إذ لا يرصف حشوداً من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاماً، على الرغم من أنه يعتمد في كتابه على السجع مثلها، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها في ضياء غامر، ولنضرب لذلك مثلاً، هو ترجمته للشاعر أبي عبد الله بن الحداد الذي مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة<sup>(١)</sup>:

« كان أبو عبد الله هذا شمسَ ظهيرةٍ، وبحرَ خَيْرٍ وسيرةٍ، وديوانَ تعاليمٍ مشهورةٍ، وضح في طريق المعارف وضوح الصُّبحِ المتهلِّلِ، وضرَبَ فيها بِقَدْحِ ابنِ مُقْبِلِ<sup>(٢)</sup> إلى جلالَةِ مَقْطَعٍ، وأصالةٍ مُنْزَعٍ، ترى العلمَ يَنبُثُ على أشعاره، ويتبيَّنُ في منازعه وآثاره، وله في العروضِ تأليفٌ، وتصنيفٌ مشهورٌ معروفٌ، مزَجَ فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخليلية، وردَّ فيه على السَّرْقُطِيِّ المنبوز بالحمار<sup>(٣)</sup>، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأَشْطَارِ. وأصل أبي عبد الله من وادي آش إلا أنه استوطن المَرِيَّةَ أكثرَ عمره، وفي بني صُمادح معظمُ شعره، ومع ذلك طُوِّبَ عندهم هنالك، ولِحَقِّ بَشْرِ بني هود، وله فيهم أيضاً غيرُ ما قصيدٍ، وهو القائل بعد خروجه من المَرِيَّةِ من قطعةٍ فلسفيةٍ:

لزمْتُ قناعتِي وقعدتُ عنهم      فلست أرى الوزيرَ ولا الأسيرا  
وكنْتُ سَميرَ أشعاري سَفاهاً      فعدتُ لفلسفيَّاتي سَميرا

وكان قد مُنِيَ في صباه بصبيَّة نصرانية ذهبَتْ بلبِّه كلُّ مذهبٍ، وركبَ إليها أصعبَ مَرَكَبٍ، فصرف نحوها وَجَهَ رضاه، وحكَّما في رأيه وهواه، وكان يسمِّيها نُويرة كما فعل الشعراءُ الظرفاء قديماً في الكناية عن أحبِّه، وتغيير اسمٍ مَنْ علقوه. وقد كتبت في هذا الفصل بعض ما قاله فيها من مُلحه، ورائق أوصافه ومدِّحه، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقرُّ بتفضيله، ويشهد له بجملته الاحسان وتفصيله».

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائماً لا يبهم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحاً تاماً على نحو ما نرى الآن في السجع

(١) الذخيرة ٦٩١/١.

(٢) هو سعيد بن فتحون وانظره في الجذوة ٢١٦

والذيل والتكملة ٤٠/٤.

(٣) قدح ابن مقبل: سهم فائز من سهام الميسر.

الذي قَدَّم به ابن الحداد، إذ يجلو ملامحه وثقافته جلاء تاما، فهو عربي الأصل من قيس، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتتم عن ذلك أشعاره، وله في علم العروض كتاب ردُّ فيه على الفيلسوف السرقسطى الملقب بالحمار محتجا للخليل بن أحمد واضع هذا العلم بما ذكره عن الأعراب المهملة وقد ألمنا بذلك في ترجمة ابن الحداد. ويذكر أن مسقط رأسه مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بنى صمادح أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأمرها المعتصم وسيذكر فيما بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولى وجهه إلى بنى هود بسرقسطة، ويذكر فيما بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية «وحسن بعدُ بها مَثْواه، وأكرمه المعتصم وأجزل قِراه» وظل بالمرية إلى أن توفي بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا في الترجمة قطعة كبيرة من نثره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويقتطف من غزله بُنْوَيْرَةَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقي جميلة، وكان أهلها سموها باسم عربي، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه في المعتصم بن صمادح منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلى لنا ذوقه الأدبي في جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضا تتجلى لنا قدرته النقدية إذ يرُدُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعري، ويقول إن النابغة الذبياني سبق المعري إلى معناه وإن عبد الجليل بن وهبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبي وَجْزَةَ السَّعْدِي الأُموي بيتا يتعلق بالمعنى. وينشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلةً بين بيت له وبيتين للمتنبي ويذكر أن المتنبي ألم في بيتيه بيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسبوق في بيتيه بيتين للنمري. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية في الذخيره مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد في مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين في الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء في سيرته وحبه في مطالع شبابه لنويرة أو في ثقافته أو في نثره أو في شعره وطرائفه وبدائعه في مديح المعتصم والمقتدر بن هود.

ويقول ابن بسام في القسم الأول بحديثه عن أشعار بنى الطنبى (٥٤٤/١) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكون من ملبح التعريض، وكأنه أراد به منْحَى أخلاقيا وإن لم يطبقه بدقة أحيانا. ويمتاز هذا المنحى عنده بمنحى ديني إذ نراه في القسم الثاني بترجمته للشاعر ابن وهبون (٤٧٨/٢) يحمل على الشعر الفلسفي المتأثر بمنزع المتنبي وأبي العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغي. وبحق حمل في القسم الأول بترجمة الوزير ابن الشاه (٨٤١/١) على الاستعارات البعيدة التي يمجها الذوق كأن يجعل شاعر



للکلام کيسًا محلَّ عَقْدِهِ، ويجعل شاعر تان للبلوى برّصًا ويجعل شاعر ثالث للمهابة فأسًا. وكان له ذوق أدبي مصفى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يوج بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولَمَع البديع الرائعة بل إنه يوج بفرائد لا تحصى للأندلسيين من الشعر والنثر، ويكفى أنهم يبلغون في الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملا أدبيا أبدع فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره في مقدمة الكتاب من تفوق الأندلس في الأدب وأنها منه في الأفق الأعلى.

وفي الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسي بروائعه الباهرة شعرا ونثرا محجوبا عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام في بعض الصحف أنه ابتداء تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنيا بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة في قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر في بعض فصولها، إذ نراه في ترجمته للكاتب ابن أبي الخصال يذكر أنه لم يجد لديه في سنة ٥٠٣ شيئا من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهودا مضية في سنين متطاولة، وهي جهود تنوء بها العصبه أولو القوة.

### مذكرات عبد الله بن بلقين

هو عبد الله<sup>(١)</sup> بن بلقين بن حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى القيروانى آخر أمراء بنى زيرى لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بقرطبة وإلبيرة زاوى بن زيرى فى زمن الفتنة، وظل يلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بلقين وهو فى الثامنة من عمره، وحاز حظا من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة فى تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغمارا غير مجربين مثل سباجة الصنهاجى، ويقول ابن الصيرفى المؤرخ إنه كان جبانا هيابة مغمذ السيف، فكان طبيعيا أن ترتعد فرائضه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه

وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ والبيان المغرب لابن عذارى. ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف فى القاهرة.

(١) انظر فى عبد الله بن بلقين المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروفسال) وما بعدها والإحاطة ٣٧٩/٣

عشرة آلاف دينار يدفعها سنويا. وكان طبيعيا أن يهمل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقعه ألفونس في الزلاقة وسحقه لجيشه سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المناقشات فيما بينهم ومدّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كل يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء في الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرها يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف في عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يببّتون وخشي على الأندلس من الضياع، فعبر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بلقين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما كان يفاوض ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطمعه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحه خلاصاؤه أن يلقي ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقبه مترجلا مرحبا سائلا العفو، فأمنه على نفسه وأهله وطيب خاطرهم، وصور كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشيء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشيعين يؤنسونه في الطريق ويتكفلون أموره، وكتب إليه يوسف: «لا أنساك ما بقيت» وأنزله بأغيات، وأسعفه - كما يقول ابن الخطيب - في رغباته، فعاش معيشة كريمة، ورزق ولدين وبنات، وترك لهم - حين توفي - مالا جمّا.

وكتب عبد الله في أثناء منفاه بأغيات كتابا باسم «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة» وكانت قد حُفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروفنسال باسم «مذكرات الأمير عبد الله». وهو في الفصول الأولى من الكتاب يحكى مقدّم بني زيري الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوي بن زيري لإمارتهم في غرناطة وتدير حبوس بن ماكسن بعده في تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودي ابن النغريّة وازدياد نفوذ النساء في القصر ومؤامرات ابن النغريّة وإفساده الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول في الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلا لها بالحديث عن أحداث الأندلس وتمزقها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله في موقعة الزلاقة معه مجاهدا بماله

وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه في اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعداداً لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنوياً، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث في إمارته وبعض الشئون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصّل الحديث في عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للمّ شعته ويصور مثول جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجند عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهى المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسي والاجتماعي والأخلاقي في الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة في حجر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسي والحربي، فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن في العصر الأموي، بل أصبح حكام الأندلس وأمراؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط في حجره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلّم أظفار ألفونس في الزلافة وردّه إلى وكره خاسئاً مدحوراً. ولا تصور المذكرات الانحلال الذي عمّ الأندلس فحسب، بل تصور أيضاً غرناطة وجميع أحوالها في عهد بنى زيرى وخاصة في عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته في التواطؤ المزمى مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبثاً يحاول تبرير فساد سياسته التي أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عبثت بها يد بروقنسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتألت بتصحيقات لا تكاد في أحوال كثيرة توجد بينها مسافات في السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقترب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجند والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والغلمان، يقول<sup>(١)</sup>:

«أما الجند من البربر فكانوا مغتبطين بهم (بالمغاربة) طامعين في الزيادة على أيديهم

(١) المذكرات ص ١٥ وصححنا النصّ في غير موضع.

للجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بـجحد<sup>(١)</sup> وقدموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، يعدمهم بأن يبقوهم في أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما من كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نية أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هم أهلها، وأكثرهم خرج من البلدة يقول: «لأى وجه نَحْتَمَل الحصار؟ تاجر هنا أو صانع، كما في غيرها. وأما الرعية فيخ، ذلك ما كانت تبغى طمعا منها في الحرية وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعُشْر. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج (الأفظاظ) أول من عصا، رجوا أن يكونوا عنده في أعلى مرتبة. حتى الخدم من النساء والخصيان كل طامع في إقبال الدنيا عليه والخروج عن ثقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصي منهم وليبب كانا زعيمى المداخلة ورأسا الفتك، يقولان: «نحن لا ولد لنا ولا تالد<sup>(٢)</sup>» فعلى أى شيء نصير<sup>(٣)</sup> إلى القتال؟ وما عسى نطمع إن نصير إليه؟ هل تحصل لنا سلطنة أو قيادة أو قضاء أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العيال، من سبق<sup>(٤)</sup> استمتع بنا وكنا عنده من جملة الفئىء، نُرزق كسائر الكسب، فلا نضيع، تعالوا بنا نقدّم لأنفسنا، ووردت عليهم كتب أمير المسلمين بالإنزالات القويّة والمثاقيل والمراتب العالية، يعدمهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم<sup>(٥)</sup> له».

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرابطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولما رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيعه وما كان من إنقاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يعلنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبقوهم في أماكنهم وزائدهم في رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يثقل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلا بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكفيا بزكاة العين وعُشْر الزرع، وانفض عن عبد الله سريعا العبيد والصقالبة آملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والخصيان طامعين في إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الخصيان على لسان خصيين كبيرين، قالوا إننا لا نعد أنفسنا شيئا إنما نحن لمن غلب، وأرسلناهما وأضرابها الكتب إلى ابن تاشفين، وردّ عليهم بأنه

(٣) فى الأصل: نصبر.

(٤) يريد: انتصر.

(٥) فى الأصل: وإسلامهم لنا.

(١) فى الأصل: بحجر. جحد: نكران للحق.

(٢) فى الأصل: تلد. والتالد: القديم والموروث من

المال.

سيعطيهم ما أملوه من مثاقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصرا، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تضى على هذه الشاكلة في لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيفات، ويقول محققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها محقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسي.

### قصة<sup>(١)</sup> حى بن يقظان لابن طفيل

مر بنا في الفصل الثاني تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته، وهو في الذروة من الفكر الأندلسي، عاش في القرن السادس الهجري (٥٠٦ - ٥٨١ هـ) ونريد الآن أن نفضل الحديث في قصة أدبية فلسفية قيّمة له هي قصة حى بن يقظان، وهي قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشريعة أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكى بالتفصيل قصة حى ونشأته في جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختلف في تكوينه، فقيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تخمّرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلىء بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زوجا كُفئاً، فتروجت سرا من قريب لها يسمى «يقظان»، وحملت منه بجنين، ولما وضعته خشيت أن ينكشف سرها، فوضعت في تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج اليم، فألقت به في تلك الجزيرة وسمعت صياحه طيبة فقدت وليدها، فعظفت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، ونما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجاً إلى معرفة كل ما حوله. وتنقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذاً إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءاً بتحريك يديه واستخدامها وستر سوءته ومعرفة الصيد، والنار واستخدامها في إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان في الحركة وارتفاع الهواء

وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر في قصة حى بن يقظان لابن طفيل وترجماتها بروكلمان وبالنشيا ص ٣٤٨ و ٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ص ٩٩ وما بعدها.

(١) طبعت قصة حى بن يقظان بمصر مرارا وفي دمشق وآخر طبعتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعه نفس القصة لابن سينا وللسهروردي وانظر فيها كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق

واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أن كل ما في الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل في ملكوت السموات والأرض، وهداه تفكيره إلى أن كل ما في الوجود لا بد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحس حاجته إلى مشاهدته وما ينبغي أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبّد لذلك في غار الأيام ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق في تأملاته منفصلا عن العالم الخارجي وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحس شيئا سوى واجب الوجود، وكأنما فنى فيه عن ذاته، فليس في الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنما هما شيء واحد أو كأنما ذاته هي ذات الحق. وكان يفتيق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهي البرئ من المادة ويعود إلى العالم الحسي مرارا وتكرارا، وأحس أنها عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغماء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة مجاورة رجل تقى يسمى أسبال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على «حى» وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد في الطريق الفلسفى الذى سلكه «حى» تعليلا علويا لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحى الذى اعتقده ولجميع الأديان المنزلة، وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التى يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقبّل عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يحدث أهلها عن العالم الإلهي الذى يتحد فيه الإنسان بربه ولا يرى فى ذاته ولا فى الوجود سواه، غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد فى الحديث ازدادوا نبواً ونفارا، إذ تهالكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فيهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة، فقد أهتتهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التذوق الروحى لا تمكن، فحسبهم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر «حى» لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهي والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أسبال العودة إلى الجزيرة المهجورة لينعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. وتنتطف من القصة قطعة يصور فيها «حى» أنه ما زال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا فى مشاهدته، واستطاع بجهاده أن تغيب عنه جميع

الذوات إلا ذاته فإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك في وضوح أن هذا الشعور شوب يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، وما زال يجاهد في الاتحاد بربه يقول:

«ما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتي له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد والتي هي الذوات العارفة بالموجود، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكل واضمحل وصار هباءً منثوراً ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود، واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولا تعلق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشر فإن كثيراً من الأمور التي قد تخطر على قلوب البشر يندرُ وصفها فكيف بأمر لا سبيل إلى خطوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره.. ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلاً. وأقول إنه لما فنى عن ذاته ولم ير في الوجود إلا الواحد الحق القيوم وشاهد ما شاهد، ثم عاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسُّكر فخطر بباله أنه لا ذات له يغير بها ذات الحق تعالى وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس شيء إلا ذات الحق، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فإنه وإن نسب إلى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه لما قد كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكرر بوجه من الوجوه».

وابن طفيل في هذه القطعة من قصته يصور تصويراً رائعاً شعور المتصوفة بانمحاءهم في ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة بوكوك لها في أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه مع نصها العربي سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكللي إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: «روبنسن كروزو». وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة ١٧٨٢ وترجمها بونس بويجس إلى الأسبانية سنة ١٩٠٠ وترجمها بتروف إلى الروسية سنة ١٩٢٠ وترجمها بالنثيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة ١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتيه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس في بحث نشره

عن القصة بمدريد سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوربال في مخطوط موريسكى يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي قصة بعنوان قصة الصنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين في الأندلس) ورأى أنها تلتقى بقصة حى بن يقظان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعى الأرجونى التى نشرت فى منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجزت عن الناس فى مَحْبَس لتنجو من طالع سىء، واستسلمت فى مَحْبَسها لابن الوزير وحملت منه ووضعت وليدها فى صندوق من الخشب وألقت به فى اليمِّ، فحملته الأمواج إلى جزيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلا من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن طفيل السابقة لهما بأربعة قرون أوتزید زعم زعما غربيا هو أن ابن طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها أهمته حينئذ قصته: حى بن يقظان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته فى قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتبيه فى ترجمته المجددة لقصة حى بن يقظان سنة ١٩٣٦ قائلا بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حى بن يقظان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف فى المحيط الإسباني إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر! وكان ينبغى أن ينبهه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة فى القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى المنطق وطبائع الأشياء أن تكون قصة حى بن يقظان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإسبانية القديمة فى القرن الثالث عشر الميلادى أو قبله أو لعلها ترجمت قديما إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضاً كان جديرا بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتي ابن سينا اللتين أشار إليهما ابن طفيل فى مقدمته لقصته وهما قصة حى بن يقظان وقصة سلامان وأبسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أبسال وسلامان وحى بن يقظان عند ابن سينا هى نفس شخصيات قصة حى بن يقظان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل فى مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا فى نزعه الصوفية التى بثها فى كتابه أسرار الحكمة المشرقية التى تقابل الحكمة اليونانية. وأيضاً فإنه تابع ابن باجة - الذى نوه به مع ابن سينا فى مقدمة القصة - فى كتابه تدبير المتوحد الذى يتحد فيه - كما مر بنا فى الفصل الثانى - عقل الفيلسوف بالعقل العلوى الفعال مباشرة واصلا بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن طفيل فى مقدمته للقصة.



ولا علاقة أى علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالثنيا وغيره، وأيضاً لا علاقة بين يقظان فى القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حى ابن الله كما ظن بالثنيا ظناً مخطئاً، ومعاذ الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأى وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حربياً بفرسية وغيره أن يردوا عناصر الإطار فى القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحى فكرة ميلاد «حى» بدون أم ولا أب فى إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودى من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء. أما تصوره بأن طينا تحمر وتخلق منه «حى» فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين). وأما على التقدير الثانى وهو أنه كان يإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعصلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كفتاً، وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوجها سرا وحملت منه ووضعت طفلاً، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعت فى تابوت أحكمت زمه (إغلاقه) وخرجت به فى أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به فى اليم فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما رددته بعض كتب التاريخ العربى من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائهما، فقال لجعفر أزوجها لك ليحل لك النظر إليها ولا تقربها، فقال: نعم. فزوجها منه، وكانا يحضران معا، وكان الرشيد يتركها فحملت العباسة من جعفر، وخافت الرشيد فسيرت ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حى سراً من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منها تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل فى وضع أم حى له فى تابوت والقذف به فى يَم نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء فى القرآن الكريم عن أم موسى حين وضعت وخافت عليه من فرعون وملائته أن يقتلوه - وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها - كما جاء فى سورة طه - ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ونفس الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى: «وضعت ابنها فى تابوت ثم قذفت به فى اليم فاحتمله إلى ساحل الجزيرة» وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصى فى قصة حى بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

## المقامات والرحلات

## (أ) المقامات

فن المقامات من أهم فنون النثر العربي، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨-٣٩٨ هـ) نافذا فيه إلى أقاصيص تصور الأدباء السيارين المسمين في عصره بالساسانيين المحترفين للكُدية أو الشحاذة الأدبية متخذاً له أدبياً شحاذاً، أو متسولاً كبيراً، هو أبو الفتح الإسكندري، ومعه راويته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور حيل أبي الفتح في استخلاص الأموال والمطاعم من أيدي الناس بفصاحته وخلاصة منطقته في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار. وطارت شهرة مقامات البديع في العالم العربي ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابن شهيد المار بنا يستوحى - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهي المقامة الإبليسية، رسالته التوابع والزوابع التي بناها على لقائه في وادي الجن لشياطين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مرَّ بنا - يحاكيه في وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه في وصفه الرائع للباء. ويعرض علينا ابن بسام في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعاً أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبي حفص<sup>(١)</sup> عمر بن الشهيد الذي لقيه الحميدى في المريّة سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صاهد (٤٣٩ - ٤٨٤ هـ) ومقامته أشبه بوصف رحلة له وصفاً أدبياً طريفاً، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعى حال الكتابة في عصره وأنها أصبحت صنعة ممتهنة. ويكتفى ابن بسام بعرض فصول منها، وفي أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصياح الديك في السحر، وفي فصل ثانٍ يصف منزل بدوى دخله مع صحبه «فهش البدوى وبش، وكَنَس منزله ورش، وصير عياله

الجدوة للحميدى ص ٢٨٣ والبغية ص ٣٩٤  
والمغرب ٢/٢٠٩.

(١) انظر في أبي حفص بن الشهيد ومقامته  
الذخيرة ١/٦٧٠ وما بعدها، وراجع في ترجمته

إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية». ويتحدث عن أثار بيته حديثا فكها، ويقول إنه حاول أن يكرهم فدعا صبيانه ليمسكوا بديك هَرَم، ويستغيث بهم الديك ويتشفع - في حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحوه أشبه بالأدوية منه بالأغذية، ويرقون له. ويقدم إليهم البدوى بعض الطافه معتذرا ويقبلون عُذْرَه ويرحلون سحرا عنه. وينزل مع صحبه قرية مسيحية سمعوا فيها صوت الناقوس والموابدِير راعهم ما فيه من شمس وأقمار ولا سيوف إلا من مُقْلٍ ولا تُرُوسٍ إلا من خَجَلٍ، فنزلوا فيه وشربوا من الدنان ما أسكرهم ثم شدوا الجياد عنه رَكُضًا فمروا بكنيسة متهدمة ويبكى ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضى مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيرا من طير البرك، وينقش على مرمره بيضاء مقطوعة شعرية يصور فيها البرك ومياهاها وما صادوه من طيرها. ويستأنفون السير ليلا، ويلقاهم شاب فارس ممتطيا جوادا ومُتَقَلِّدا حُساما، آتق من أهل حصن لنصارى مزروا به، معلنا إليهم أنه عبد الصليب وقرع الناقوس إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إله واحد، ليس له ولد ولا والد. وبذلك تنتهي المقامة وهي أشبه بنزهة متعددة المشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبي الوليد<sup>(١)</sup> محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكتابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولا وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابه حاملا إليه كتابا من أمير، فلبّاه، حتى إذا مثل بين يديه أسنعه مدحة فيه ثم تلاها بنثر مُفْرَطٍ في الثناء عليه من مثل قوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخادِر<sup>(٢)</sup>، والبحر الزاخر، أوهب الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر.. أعطر من العنبر، في كل منبر، وأفوح من المسك الذكي، في كل ندي» ومضى في مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحا، وأزدهى مَرِحًا، وقام إليه فقبل بين عينيه. وبذلك تنتهي المقامة، وهي أشبه برسالة في مديح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبي محمد<sup>(٣)</sup> بن مالك القرطبي، وقد ساق في

(٢) الخادر: المقيم بعينه.

(٣) انظر في أبي محمد بن مالك ومقامته الذخيرة ٧٣٩/١ وما بعدها وراجع في ترجمته القلائد ١٧٠.

(١) انظر في ابن المعلم ومقامته الذخيرة ١١٢/٢

وراجع الجذوة ص ٦٥ والبنية ص ٩٤ والمغرب ١١٢/١.

ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صُباح أمير المرية ويُغرق في مديحه إغراقاً شديداً، ونراه يُطيل في وصف فتوحه وانتصاراته في الحروب ووصف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيل مظهراً في هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناءه من مثل قوله: «جَدْبُ وِربيعِ مُعْرَق، وليل ونهار مشرق، فيه الصَّابُ والعَسَلُ والسَّهْلُ والجَبَل، ثالثُ القمرين وسِراج الخافقين<sup>(١)</sup>، وعماد الثَّقَلَيْن، المعتصم بالله ذو الرياستين». ويشكو للمعتصم عوز أهله وضيِّق ذات يده، وأنه لولا ما يُقَيِّده من أفرخٍ كزُغْبِ القَطَا لتقدم في صفوف جُنده تارة محارباً وتارة خَطيباً محمَّساً أو مُهادِناً. وبذلك تنتهي المقامة، وهي أشبه بقصيدة مدح طويلة دَبَّجها في المعتصم بن صُباح

وعلى هذا النحو نَفَتقد المقامة التي تقوم على الكُدَيَّة والشَّحَاذَة الأدبية في عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) ويؤلف مقاماته في أواخر القرن الخامس وسرعان ما تُدَوَّى شهرتها في العالم العربي ويؤمُّه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأمه من الأندلس في فواتح القرن السادس الهجري أبو<sup>(٢)</sup> القاسم عيسى بن جَهْور القرطبي وأحمد بن محمد بن خلف الشَّاطِبي وأبو الحجاج يوسف القُضاعي البَلَنْسِيَّ والحسن بن علي البَطْلَيْوَسِيَّ، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دارسيها هناك يتجرّد لشرحها، منهم عبد<sup>(٣)</sup> الله بن ميمون العبدي القرطبي المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو العباس<sup>(٤)</sup> أحمد الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طُبع بمصر مرارا في جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريري تقوم - مثل مقامات يديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشَّحَاذَة الأدبية، وقد بلغ الحريري بفنها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أُرث من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارستهم لمقامات الحريري وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار في القرن الخامس الهجري القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحى الحريري في مقاماته الساسانية القائمة على

(١) الخافقان: المشرق والمغرب، والثقلان: الإنس والجن.

(٢) انظر في ترجمة أبي القاسم بن جهور وزملائه التكملة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر ترجمة العبدي في المغرب ١/١١١.

(٤) راجع في الشريشي التكملة ١١٢ والنفع

١١٥/٢ والمتهل الصافي ١/٣٥٤.

الكُذبية والشحاذة الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدُّوحيَّة لمحمد<sup>(١)</sup> بن عياض اللَّبْلِيّ المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد في المغرب فاتحتها، والمقامة العياضية لمحارب<sup>(٢)</sup> بن محمد بن محارب الوادى آشى المتوفى سنة ٥٥٣ وهى فى مديح القاضى عياض، ومقامة فى هجاء بعض أعيان مالقة لعل<sup>(٣)</sup> بن جامع الأوسى، والمقامة النَّخْلِيَّة لأبى الحسن النباهى المالمقى المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهى مفاخرة بين النخلة والكرمة. وللسان الدين بن الخطيب مقامة فى السياسة، وهى أشبه برسالة أو مبحث فىا ينبغى أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل فى رعيته وتعهد المجاهدين فى سبيل الله وأن لا يعولوا فى كسبهم إلا على مغائهم كالجوارح لا تَطْعَمُ إلا من صَيِّدها وما يقع فى مخالبيها، ويلمُّ بسياسة العمال فى ولاياتهم وأن تقوم على الحق ودَحْض الباطل، وكل ذلك على لسان شيخِ فارسى ناصح لهرورن الرشيد ويوصيه بعارة البلدان والتمسك بالشريعة. والرسالة حرية بأن تقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع. وللسان الدين غير مقامة فى وصف رحلات له فى بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهى أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك سنتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الهجرى يشتهر - فى أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزُّجَال، وقد روى له المقرئ مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتها فى أمر الوباء الذى ألم بغرناطة زمن أميرها الغنى بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقاءه فيه على السلطان مع تفشى الوباء، ويقول إنه ينبغى أن يتحول عنه إلى مالقة التى كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التى تستوحى مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التى تستوحى الحريرى فى مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التى رواها الحارث بن همّام عن بطلها أبى زيد السروجى. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات اللزومية للسرقسطى، وهى خمسون مقامة، وسنخصها بحديث مستقل. وكان يعاصره الكاتب أبو عبدالله بن أبى الخصال الذى مرت ترجمته والمتوفى سنة ٥٤٠ وله مقامة<sup>(٤)</sup> ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريرى: أبى زيد السروجى، كما جعل الراوى لها نفس راوية تلك المقامات: الحارث بن همّام. وتبدأ المقامة

الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

(٤) انظر فى مقامة ابن أبى الخصال تاريخ الأدب

الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور

إحسان عباس ص ٣١٦.

(١) انظر ترجمة ابن عياض فى المغرب ٣٤٤/١

والتكملة ص ٢٣٣.

(٢) التكملة ص ٤٠٧.

(٣) راجع ترجمته فى الذيل والتكملة: القسم

بمنظر في الريف والناس متجمعون حول أبي زيد السروجي، وهو يستحثهم على الجود والسخاء وهم يحدفونه بالدرهم، وهو يتلقف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحته أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبى دعوته، ويطعم عنده الطعام المرىء، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركاً له رقعة فيها ثلاث قصائد. ويبحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة في وصف الخمر والشاربين ومن في الحانة من الجوارى والغلمان. ويقضى البطل وروايته فيها يوماً هنيئاً، وتنتهي المقامة بمقطوعة شعرية.

وتنوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندرى هل هي كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هي تستلهم الحريري في مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التي استلهمته مقامة العيد لعبد<sup>(١)</sup> الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بَلِّيش، وكانت مجاورة لمالقة، وهي مقامة خاطب فيها الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجديه أضحية، وهو فيها يحكى قصة ساساني من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئاً من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندي إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكر في العيد وأنت قد نسيت، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأقي بشيء وأخذت تهوّن من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب عدّاً يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقصّاب (جزّار) وبين يديه عنز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله في الثمن، وباعه له مؤجلاً بعشرين ديناراً، وانحدر معه لدكان موثّق يكتب لها عقد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد سرّد، فأخذ ينادى في الأسواق والأرزقة من رأى عنزاً، وإذا برجل فخار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العنز، والعنز يدور في الدهليز ويحطم ما بقي من الطواجن والقدور. وطلبه المحتسب (شرطي السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكي، ولم يعف عنه إلا بعد أن أدّى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجّه به مع الجمال إلى داره ولم تبق في الرّفاق عجوز إلا وصلت لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربّة البيت، فبادرت زوجها تقول: «ليس في البيت خل ولا زيت، ومتى تفرح زوجتك، والعنز أضحيتك، واقلة سَعِدْها، واخلف وَعَدْها، وما حبستك عن الكباش السّمان» وتأخذ في وصف الكباش السمين الذي كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة

(١) راجع في ترجمة عبد الله الأزدي ومقامته وما بعدها.

المعرفة، فتقول له عند مولانا ومأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض في مديح الرئيس أبي سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سَجْعًا عذبا، وهي تصوّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطي، تصوّر ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فأزرت به، وتصور القصاب في زيه وقد شدّ في وسطه منزرة وقصّر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمر ساعديه، وتصور جشعه في البيع. وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كل ما يرون. وهي مقامة بديعة.

### المقامات اللزومية للسرّقسطي

هو أبو الطاهر<sup>(١)</sup> محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الإشتروكي نسبة إلى إشتروكونه: حصن من أعمال تطيلة في الثغر الأعلى. ويبدو أنه نشأ في سرقسطة، ولذلك نسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكرا للقاء الشيوخ الناهيين في الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطليوسي ببلنسية وعن أبي بكر بن العربي بإشبيلية وعن أبي علي الصدفي بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبي محمد الرُّكْلِي بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس في العربية في مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطي وذكرت أنه توفي بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب المسلسل في غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية.

الطوائف المرابطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققة الدكتور بدر أحمد ضيف في الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

(١) انظر في أبي الطاهر السرقسطي الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤ ومعجمه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر أمراء

وقد وضع السرقسطى مقاماته في محاذاة مقامات الحريرى وعلى غرارها من اتخاذ بطل لها من أبطال الشحاذة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب في محاذاة بطل مقامات الحريرى: أبى زيد السروجى واتخذ له راوية هو السائب بن تمام في محاذاة راوية مقامات الحريرى: الحارث بن همام. وذكر مع السائب في تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن حمام. وجعل السرقسطى مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريرى وبنهاها مثله على عَرَضِ حَيْلِ شحاذ أدبى كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريرى في أنه لا يعطى لكل مقامة لقباً خاصاً بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هى التى ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسى من عمان وكثيراً ما يظهر فى ثياب خَلَقَة وأسْهال، منكرًا لشخصه على طريقة الحريرى. وهو دائماً واعظ يزهّد الناس فى الحياة ويحثهم على عَوْنِهِ لما يرون من سوء حاله، ويُلْقون إليه بالدرهم والدنانير، أو يبذلون له المآكل والطعام، متخذاً دائماً حيلة أو موقفاً، به يستدرّ عطفهم. وكثيراً ما يشترك معه فى الموقف أو الحيلة راويته السائب أو ابنه حبيب أو ابنته التى يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حرّة، فيظفر بالثمن، وتردّ إليها حريتها، حيلة من حيله.

ومقامات السرقسطى مبنية على السجع مثل مقامات الحريرى، غير أنه اقتدى فيه بأبى العلاء المعرى فالترّم فى نسجه مالا يلزم من تعدد قوافى السجع أو نهاياته مشروطاً على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفى بتصعيب المرات إلى سجعاته فى بعض مقاماته، إذ نراه فى المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية ولذلك سهاها المثلثة مفتتحاً لها بقوله: «أقمت فى غَزْنَة<sup>(١)</sup>، فترشفت من مائها أى مزنة، وتوطأت من أكنافها كل سهلة وحرزنة» وسمى تاليتها المرصعة لأنه لم يكتف فى سجعاتها بالاتفاق فى حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله فى مطلعها: «حسنت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العطن<sup>(٢)</sup> المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحاب» وسمى الثامنة عشرة المدبجة، لأنه جعل الكلمات فى كل سجعتين تتقابل فى نهاياتها وتتبادل، على شاكلة قوله فى وعظها: «وسامك<sup>(٣)</sup> الساء ورافعها، وسامك الدماء ودافعها، إنك فى حَبائل الرّزايا لمضطرب، ومن مناهل المنايا لمقرب». واشترط على نفسه فى المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة ولذلك سهاها

(٣) سامك: رافع.

(١) غزنة: مدينة فى أفغانستان.

(٢) العطن: مبرك الإبل.



الهمزية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سماها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجيم والخامسة والثلاثين الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع في السادسة والثلاثين فاختم سجعاتها بالنون وسماها النونية. ونحس غير قليل من التكلف في هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن في المقامات الأربع التالية وأولها وثانيتها على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتها على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته في المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن في الوعظ والوصف ونسج الكلام.

ويتنقل السرقسطى ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيما عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض في أولها على لسان البطل مميزات أنبه الشعراء في الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموى والعباسى، وخصّ الثانية - وهى المقامة الخمسون - بالحوار في النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا في هذه المقامة اسمه غريب، وبينما ينتصر حبيب للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب اللوثام، مبينا أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريرى ابنه في مقامته الأخيرة - أن يقوما على حرفة الكدية وأن لا يسطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين في العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهى في وصف الخمر وحاناتها. ودائما ينتقل الشيخ أبو حبيب في مقاماته من بلد إلى بلد في العالم الإسلامى منكرًا لشخصه متحولًا من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفي كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل في الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل في المغرب طنجة والقيروان، ونزل في مصر الإسكندرية ودمياط وفي الشام فلسطين وحلب. ونزل في أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشحر وظفار وزبيد والبحرين واليامة، ونزل بالعراق في بغداد وواسط والأنبار والرقة وحران، ونزل بإيران في الأهواز وأصبهان والرى ومرّو، وتوغل في بلاد الترك إلى الكرج وصول وغزنة. ولا يكتفى السرقسطى بإنزال بطله في البلدان الإسلامية والضرب في الصحارى والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريرى رحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا في المقامة الرابعة والأربعين وسماها العنقاوية نسبة إلى

العَنْقَاءُ أَنتَى الرَّيْحِ، وهما طائران خرافيان ضخمان يتردد ذكرهما في أحاديث بَحَّارَةِ الْعَرَبِ عن رحلاتهم في أعماق البحار والمحيطات مبالغين في وصف ضخامتهما وقوتها الخارقة وحملها لمن تحطمت سفنهم إلى البرِّ والبلاد المأهولة، على نحو ما نقرأ عند الرَّبَّانِ بُزْرُكِ بن شهريار من بَحَّارَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ فِي كِتَابِهِ: «عجائب الهند: برّه وبحره وجزائره» إذ يقول إن الرَّيْحَ أَنْقَذَ سَبْعَةَ غَرَقَتْ سَفِينَتَهُمْ فِي جَزِيرَةٍ بِقَرَبِ الْهِنْدِ وَيُرْوَى عَنْ بَعْضِ الْمَلَّاحِينَ أَنَّهُ رَأَى رَيْشَةً مِنْ رَيْشِهِ تَسَعُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ قَرِيبَةً مِنْ قَرَبِ الْمَاءِ! كَمَا يَذْكَرُ أَنَّ بَحَّارَةً وَقَعَ فِي سَفِينَتِهِمْ عَيْبٌ اضْطَرَّ لَهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا بِهَا إِلَى جَزِيرَةٍ صَغِيرَةٍ رَأَوْهَا فِي طَرِيقِهِمْ، فَنَزَلُوا بِهَا وَأَصْلَحُوا عَيْبَ سَفِينَتِهِمْ وَعَنَّ لَهُمْ أَنْ يَوْقِدُوا نَارًا لِبَعْضِ أَغْرَاضِهِمْ، فَأَحْسُوا الْجَزِيرَةَ تَتَحَرَّكُ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَسْرَعُوا بِالنَّزُولِ إِلَى سَفِينَتِهِمْ، وَتَوَلَّتْهُمْ الدَّهْشَةُ، إِذْ رَأَوْا الْجَزِيرَةَ تَغُوصُ فِي الْمَاءِ وَعَرَفُوا أَنَّهَا سُلْحَفَةٌ كَانَتْ طَافِيَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَأَحْسَتْ النَّارَ فِغَاصَتْ. وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذِهِ السُّلْحَفَةَ الضَّخْمَةَ الْخُرَافِيَّةَ وَالرَّيْحَ الْخُرَافِيَّ قَبْلَهَا لِأَنَّ مِنْ يَاقُوتِ مَقَامَةِ السَّرْقَسْطِيِّ الْعَنْقَاوِيَّةِ لَا يَشْكُ فِي أَنَّهُ قَرَأَ كِتَابَ بُزْرُكِ بْنِ شَهْرِيَارٍ وَأَنَّهُ اسْتَمَدَّ مِنْهُ حِينَ جَعَلَ بَطْلَ مَقَامَتِهِ وَرَاوِيَتَهُ يَلْبِجَانُ فِي رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ، «وَيَخْرُجَانُ إِلَى جَزِيرَةٍ عَرِيضَةٍ وَأَرْضُ أَرِيضَةٍ»<sup>(١)</sup>، وَلَا أَلْبَابَ وَلَا أَفْكَارَ، وَلَا عَرَفَانَ وَلَا إِنْكَارَ، إِلَى أَنْ اسْتَبْقَا مِنْ تِلْكَ الْغَمْرَاتِ، وَصَحَّوْا مِنْ تِلْكَ السُّكَّرَاتِ، فَعَلِمَا أَنَّ الْجَزِيرَةَ حَيَوَانَ بَحْرِيٍّ أَصْحَرَ<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ أَبْحَرَ، وَشَمَسَ، ثُمَّ قَمَسَ<sup>(٣)</sup> فِي الْمَاءِ وَأَنْغَمَسَ» وَالسَّرْقَسْطِيُّ يُشِيرُ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلْحَيَوَانَ إِلَى أَنَّهُ سُلْحَفَةٌ، فَإِنَّهَا حَيَوَانَ بَحْرِيٍّ بَرِيٍّ إِذَا نَزَلَ إِلَى الْمَاءِ قَصْدًا لِلِاسْتِرَاحَةِ مِنْ طَوْلِ الْمَقَامِ فِي الْبَرِّ طَفًا عَلَى وَجْهِهِ. وَمَا يَلْبِثُ السَّرْقَسْطِيُّ أَنْ يَقُولَ إِنَّ بَطْلَ الْمَقَامَةِ وَرَاوِيَتَهُ «أَظْلَمْتُمَا ظُلْمَةً ظَلِيلَةً وَسَحَابَةً بَلِيلَةً». وَتَهْبِطُ السَّحَابَةُ إِلَى الْأَرْضِ وَإِذَا هِيَ الرَّيْحُ فَرَّخَ الْعَنْقَاءَ، وَيَطِيلُ السَّرْقَسْطِيُّ فِي وَصْفِهِ وَكَيْفِ تَعَلُّقِهِ بِأَطْرَافِ رَيْشِهِ يَقُولُ السَّائِبُ الرَّاوِي.

«ثُمَّ لَمَّا صَدَعَ الْفَجْرَ وَوَضَّحَ، وَأَخْضَلَ<sup>(٤)</sup> النَّدَى وَنَفَّحَ، سَارَ فِي الْهَوَاءِ سَيْرًا رَفِيقًا<sup>(٥)</sup>، وَجَعَلَ السَّحَابَ يَسَايِرُنَا رَفِيقًا، تَخْفُقُ تَحْتَنَا الْبُرُوقُ، وَتَتَطَّلَعُ إِلَيْنَا الْمَغَارِبُ وَالشُّرُوقُ، إِلَى أَنْ فَارَقْتَنَا الْبَحَارَ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ الْإِصْحَارُ<sup>(٦)</sup>، وَلَمَّا يَجُنُّ مِنْ لَيْلِنَا

(٤) اخضل: ابتل.

(١) أريضة: حسنة المرأى.

(٥) رفيقا: لينا متندا. رفيقا التالية: صاحبنا.

(٢) أصحر: برز في الصحراء أو الأرض.

(٦) الاصحار: يريد الأرض.

(٣) شمس: نفر. قمس في الماء: غاص.

الإسحار<sup>(١)</sup>. ثم أخذ في الانصباب إلى أرض ذات أشجار وأنهار، ورياض موقنة وأزهار، فخيرنا أنها من أرياف النيل وشطوطه، ومجاريه وخطوطه، فحمدنا الله على نعمائه، وتقلبنا بين أرضه وسمائه».

ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويرفدوه بالصّلات الحقيّة، والهبات الخفيّة وهو دائما يضمن مقاماته مواعظ خلقية وينهى المقامة بشعر، وقد يكثر منه في تضاعيفها. ويعود السرقسطى في المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة في جزائر الهند لبطل مقاماته وراويته، غير أن الراوى لا يفضى فيها إلى وصف تلك الجزائر ولا إلى شيء من العجائب البحرية هناك إذ شغل عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل في مجلس غناء. وكأنما كان السرقسطى مطالعا على شيء من الغيب، إذ جعل البطل في المقامة الحادية والأربعين يتعشش من دُبِّ يراقصه ويؤمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مدريد في عصرنا إنما هو الدبّ. وفي الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطى أروع المقامات الأندلسية التي حاكت مقامات الحريرى بعده، وكانت حرة بأن يتجردها شارح مثل الشريشى مواطنه، وكأنما ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح في الأدب الإسباني إذ نشأ على غرارها في منتصف القرن السادس عشر الميلادى لون من الفن القصصى ازدهر خلال القرن التالى يصف حياة المشرّدين والمتسولين ويقوم على الشحاذة أو الكؤدية، سُميت أقاصيصه باسم «الأقاصيص البيكارسية» وسُمى بطلها باسم «البيكارو» ودائما نشأته متواضعة ويعانى من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسول حرفة له يكسب بها قوته مستخدما في ذلك حيلة والأعيب شتى تماما كالشيخ أبى زيد السروجى في مقامات الحريرى وكالشيخ أبى حبيب في مقامات السرقسطى، مع صبغ كلامه مثلها بصبغة وعظية خلقية<sup>(٢)</sup>.

### (ب) الرحلات

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنويا لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوى الشريف هى التى جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار فى العالم الإسلامى وما وراءه من

والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٨٨ وما بعدها.

(١) الإسحار: السير فى السحر.

(٢) انظر فى ذلك د. مكى فى كتاب أثر العرب

بلدان وشعوب في آسيا وأوروبا وخاصة في أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما بديارهم من ظواهر كونية. وأيضاً فإن تعدد مراكز الثقافة في العالم العربي وفي الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حَبَّبَ الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد في عصرنا عند شبابنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للتزود منه في جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى السفارات الخارجية التي كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة في عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء في الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى في أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور في أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد<sup>(١)</sup> بن مسلم الداني عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن صُباح أمير المريّة والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) أمير سرقسطة في أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد وواليه على ميورقة يصف له أحداث سفارته في رسالة طويلة سماها «طَيُّ المراحل» قال ابن بسام إنه اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفي فواتحها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقاءه، ويذكر دعوة إقبال الدولة إخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكمامهم وجعلوا أصابعهم في آذانهم. ويقتطف ابن بسام من رسالته قطعاً بديعة في وصف الطبيعة، وأخرى في وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يظاف عليهم بصحاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تجميئهم طِساس<sup>(٢)</sup> من التبر وأباريق رُصعت بالدر. وللشرب حجر خاصة وكان الأطباق فيها مُقل الجفون مُلئت من قُرّة العيون وكان الكتوس مراشف الحور تُمزج بحباب الثغور. ومن تصويره لقرطبة حين مرَّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله: «كثيراً ما كنت أقتَرِحُ إتيانها وإن كانت على هَرَمٍ، وأتمنّى وقفَةً فيها ولو على قَدَمٍ،

(١) انظر في الداني الذخيرة ٤٢٧/٣ والمغرب (٢) طساس: جمع طست.

وأرغب [في] زيارتها ولو لِمَأمًا، وأودُّ رؤيتها ولو مَنامًا، لألمح دارَ الخلافة، وأرى بيتَ الرياسة، وجعلتُ أسلك في منازل المدينة، وأنظر في تلك المشابه المبيّنة، فإذا رُسومها قائمةُ الأعلام، ونُصبها ماثلةُ الشكل والقيام.. ووقفت بالقصر المرواني وانتبذتُ إلى المُنتزه العَبْدِ الرَّحمانِي<sup>(١)</sup>، فإذا الثلاثُ الأثافي<sup>(٢)</sup> والديارُ البَلاقع<sup>(٣)</sup>، وقيل هنا كانت قصورهم وهناك هي قبورهم، قد صارت معاقلمهم ترابًا، ومساكنهم يَبابًا<sup>(٤)</sup>».

ويطيل في تصوير مجد قرطبة أيام بني أمية ويبكيها بكاء مؤثرا ويصور جامعها وقبابه ومقصورته الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثماني بجانبه، وكأنما بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختتم الداني رسالته بزيارته للمعتضد في إشبيلية وبيان مدى ترحيبه به وما أغدق عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجري ومن أهمهم أبو حامد<sup>(٥)</sup> الغرناطي (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) شُغف بالرحلة وتجوُّل في إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١ ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحوّل إلى نواحي البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغّل في بلاد الصُّقالبة والبُلغار وعلى ضفاف نهر الفُولجا، وصعد إلى أقصى الشمال في روسيا، وسجل مشاهداته في كتابه «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب» وله كتاب سباه «تحفة الكبار في أسفار البحار» ونشر سيزاردويلر بمدريد ما شاهده في شرقي أوروبا، وهو يكثر فيه من ذكر الخوارق والعجائب الخرافية، غير أن به من حين إلى حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الزُحلوقة يتزحلق بها الناس على الثلج في روسيا يقول:

«الطريق هناك في أرض لا يفارقها الثلج أبداً، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً (زُحلوقة) يَنحَتونها، طول كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ، ومقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه ثقب، وشَدّوا فيه سيورا

فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار  
دويلر لتحقيقه قطعة من كتابه «المعرب عن بعض  
عجائب المغرب» وتاريخ الأدب الجغرافي  
لكراتشكوفسكي تعريب الأستاذ صلاح الدين  
عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ  
الجغرافية والجغرافيين لمؤنس ص ٣٠٣ وكتابتنا:  
الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها  
وبالنتها ص ٣١٢.

(١) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام  
البيت الأموي بقرطبة.

(٢) الأثافي: جمع أنفية، والثلاث الأثافي: ثلاثة  
أحجار توضع عليها القِدْر، وكانت القبائل تتركها  
وراءها حين ترحل عن الديار.

(٣) البلاقع: المقفرة.

(٤) يبابا: خرابا.

(٥) انظر في أبي حامد ورحلته مقدمة جبريل

من جلود قوية يشدونها على أرجلهم. ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان في رجليه بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمنى عصا بطوله، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشى هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد البتة، وأى حيوان يمشى عليه يعوص في ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشى عليه بخفة وسرعة». وهي صورة من الترحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة الترحلق الحديث الذي تُعقد له المسابقات سنويا في البلاد الأوربية.

ونلتقى بعد أبي حامد الغرناطي من رخالة الأندلس بآبن جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة، ويلقانا من رحالة العصر الغرناطي القاضي أبو البقاء<sup>(١)</sup> البلوي خالد بن عيسى وسمى رحلته «تاج المفرق في تحلية علماء إفريقيا والمشرق» وقد لقي فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها في ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلقي العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعينه أميرها كاتباً في ديوانه زمناً يسيراً، ثم عاد إلى بلده فعين بها قاضياً. ويقول لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة إنه حجّ وقيّد عن العلماء، ورحلته في سفر وصف فيه البلاد ومن لقي بفصول، جلب أكثرها من كتابات العماد الأصبهاني وصفوان بن إدريس. ولاين جابر الوادي آشي الذي مرت ترجمته في الفصل الماضي رحلة دون فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن<sup>(٢)</sup> الحاج النميري المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عنى أبوه بتربيته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عين كاتباً في ديوان أبي الحجاج يوسف الأول أمير غرناطة، وفي سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل في عودته بقسنطينة سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المريني حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء

ص ١٤ والمنهل الصافي لابن تغرى بردى ٦٦/١  
وجذوة الاقنباس لابن القاضي ص ٨٧ ونثير  
فرائد الجمان لابن الأحمر ص ١١٣ ونفح الطيب  
١٠٩/٧ ورحلة: «فيض العباب» حققها الدكتور  
محمد بن شقرون ونشرها في الرباط.

(١) انظر في أبي البقاء ورحلته الإحاطة ٥٠٠/١  
ونيل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة  
الكامنة ص ١٣٤.

(٢) راجع في ابن الحاج النميري الإحاطة  
٣٤٢/١ والكتيبة الكامنة ص ٢٦٠ ونيل الابتهاج

فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأجبر في سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبي عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأفلت عند موته وعاد إلى غرناطة فعين قاضيا إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعرا مجيدا في الشعر الغنائي والتعليمي. ويقول ابن الخطيب في الإحاطة له رحلة «فيض العُباب وإحالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب» وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا في الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهى في وصف رحلة السلطان أبي عنان المريني من فاس إلى سلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بن مرين لقسنطينة وعناية وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبي عنان، وقد كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبي التزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعية مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف في صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذى مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة في بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته<sup>(١)</sup> مع أميره أبي الحجاج يوسف الأول في تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سهاها: «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» وقد سار موكب أبي الحجاج فيها لتقاء الشمال الشرقى من العاصمة غرناطة إلى وادى آش فالبيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بثغر المريّة على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبي الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملو سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء في هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحمين الرجال ويحيين الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر في غير هذا الموضع - السفور مبكرا.

ولابن الخطيب رحلة ثانية سهاها «معيار الاختيار في ذكر الأحوال والديار» ويسميتها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وصّف فيها أربعا وثلاثين مدينة من مدن إمارة

(١) انظر في هذه الرحلة وتالياتها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادى.

غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور في تلك المدن عمراتها ونشاطها الثقافي وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعاً مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسله غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سهاها «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» وكانت في أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقي الجزء<sup>(١)</sup> الثاني وهو يفتتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هنتاتة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبي الحسن المريني ويفيض في الحديث عن أحوال قبيلة هنتاتة. ويزور أغمات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحییه بقصيدة ويلمُّ بمراكش وغيرها من المدن في طريقه إلى مدينة سلا على المحيط، ويذكر كل ما في تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقى بأخرة من زمن دولة بني الأحمر في غرناطة بالقلصادي على بن محمد القرشي البسطي (٨١٥ - ٨٩١ هـ.) الذي مرَّ ذكره في الفصل الثاني بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سهاها: «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» حققها وقدم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - في وصف البلدان التي نزلها ذهاباً وإياباً في رحلته إلى الحجاز، بل يلتم بها في إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذين تتلمذ لهم فيها، وخاصة في تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخاً. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهي كتب اشتهرت بها الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبیر.

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادي بالقاهرة.



## رحلة ابن جبير

هو محمد<sup>(١)</sup> بن أحمد بن جبير الكنانى البلبسى المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد ببلنسية سنة ٥٣٩ وقيل سنة ٥٤٠ وسمع في نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل في الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخفَّ على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرايه وعبثا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشربنَّ سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كتوس، فملأ أبا سعيد الكأس دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بتلك الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزوَّد به للحج، وفصل من غرناطة في شوال، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عيذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة، وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة فبغداد فالموصل وبلداته. وهو في كل تلك البلدان يمكث بعض الوقت ويدون ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وغرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجَّل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وألّت السفينة بصقلية فنزل فيها وتجوَّل في بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها في قرطاجنة بساحل الأندلس في ١٥ من المحرم سنة ٥٨١

ورحلة ابن جبير تقصُّ ما شاهده في البلدان التي زارها ونزل بها في صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها في أوراق منفصلة، وكان الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائيا، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وآثر من نشرها في العصر الحديث

ص ٢٩٩ وبالنشيا ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية في ابن جبير وكتابتنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠-٩٤. والرحلة طبعت مرارا في ليدن والقاهرة.

(١) انظر في ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٣٨٤/٢ والإحاطة ٢٣٠/٢ ومقدمة رايت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دى خويه لطبعتها في ليدن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوفسكى

من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم «رحلة ابن جبير». وله رحلتان بعد هذه الرحلة حجّ في كل منها، والسبب في أولاهما أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلم الإسلام يرفرف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعا إلى إسحاق الحديث النبوي وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبي جعفر الوقشي وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله في طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجده عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أحدهما في الشكوى من إخوان الزمان - ديوانا سباه: نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح». ولكي يخفف عن نفسه حزنه عليها رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته في نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدي جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرّفت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعدوية، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يقول ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشعر في أحيان كثيرة كأنما بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما في تصويره للإسكندرية حين نزلها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنارها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنا والعالم الذي يدرس عليه والراتب الذي يرتفق به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبا الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام في لوحة باهرة. ويطنل في وصفه للهارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأدوية والأسرة كاملة الكسوة للرجال وما اتخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاء يره شباييك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عيذاب على البحر الأحمر ويقول في بحرها جزائر بها مغاص للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام في لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يغشى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائقة الترصيع والتجزيع وقبابٍ بديعة وسوارٍ وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئا في المسجد ولا في ظاهره وسطحه إلا تقيده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحه التي رسمها للمسجد الحرام،

ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) والمنبر الشريف:

«الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبليّة مما يلي الشرق.. وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتّى تصويره ولا تمثيله. وجميع سَعَتِهَا من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان وسبعون شبرا، وهى مؤزّرة بالرخام البديع النّحت، الرائع النّعت، وينتهى إزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، وعليه من الجدار المكرّم ثلث آخر قد علاه تَصْمِيخُ المسك والطيب، والذي يعلوه من الجدار شبائيكُ عودٍ متصلة بالسّمك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسّمك المسجد. وإلى حيز إزار الرخام تنتهى الأستار، وهى لازورديّة اللون.. وفى الصفحة القبليّة أمام وجه النّبى ﷺ مسمارُ فضة، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه ﷺ رأسُ أبي بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلي كتفى أبي بكر الصديق رضى الله عنها، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبي بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرّمة نحو عشرين قنديلا معلقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب. وعن يمين الروضة المكرّمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة، وهو مرخّم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وله باب على هيئة الشبّاك مقفل، يفتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف، والمنبر مغشّى بعود الآبنوس، ومقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طبّق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيدخل الناس أيديهم إليه ويتمسّحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم».

ويسترسل ابن جبير فى وصف المسجد وقيلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا التصوير البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضى الله عنه، ويصف مشاهد المدينة. ويبارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعاظها وخاصة ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ، وفى وصف إحدى مواعظه يقول:

«أتى فيها برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الأنفس احتراقا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النّشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، فشهدنا هولا يلا

النفوس إنابةً وندامةً، ويذكرها هولَ يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الراححة، والوجهة المفلحة الناجحة».

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالها، ويغادرها إلى الموصل فحلب، وتروعه مبانيها وقلعتها وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها في الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعه بساتينها المحدقة بها إحداق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء بحلها السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: «إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها (تقابلها) وتُحاذيها». ويطيل الوصف لمسجدها الأموي العظيم وما به من عمد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقوفه من الفسيفساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض في الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبي في الشام، كما أشاد بها في الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله في ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يقدون ويروحون في الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أي اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفئتين والتجار في عافية. ويُبهر من ميناء عكا مع التجار النصارى في إحدى سفنهم المعدة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مسينة في صقلية، فنزل بها وتجوّل في بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة في مطلع القرن الثالث الهجري وعربوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويرعون علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقلية حينئذ أن تصبح مجازاً لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا وخاصة في عهد روجر الثاني وابنه غليوم اللذين طبعوا حياة الدولة في أيامها بالطوابع العربية الإسلامية، ويصور ذلك ابن جبير في حديثه - برحلته - عن غليوم الذي زار الجزيرة في عهده، فيقول عنه:

«هو كثير الثقة بالمسلمين، وساكنٌ إليهم في أحواله والمهمٌّ من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجلٌ من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (في أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - «الحمد لله حقَّ حمده»، وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكرا لأنعمه». وأما جواريه وحظاياها في قصره

فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حاثنا به خديمه: يحيى بن فتيان الطراز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره، فتعود مُسلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهُنَّ على تكتم في ذلك كله، وهُنَّ في فعل الخير أمور عجيبة.. وأما فتيانه الذين هم عُيون دولته وأهل عيالته في ملكه فهم مُسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً (طلباً للأجر) ويتصدَّق تقرباً إلى الله وتزلفاً، ولهم في فعل الجميل أخبارٌ مأثورة». وهي وثيقة تاريخية مهمة فيما كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين في أيام ملوكهم الأولى بصقلية. ويتنقل ابن جبير في الجزيرة، ومما يذكره عن نساء النصارى في «الرم» العاصمة أنهن كن يلبسن نفس زِيِّ المسلمات ويتحجَّبن مثلهن منتقباتٍ بالنقب الملونة كما يتزيَّن على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستنكس هناك وسيُصبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثراً بعد عين، وصدق حدُّسه. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطئ الأندلسي ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبي المرسل البليغ فحسب، بل أيضاً بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

## خاتمة

تحدثنا - في الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئاً يميزها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبربرون في القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومرّ بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م والجهود التي بذلها موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتحها حتى خليج بسكاي وجبال البرينيه التي تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكدمضى أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبيها إلى شماليها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. ويُسْتَدْعَى الفاتحان العظيمان إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسموا ديارهم - بل إيبيريا جميعها - باسم الأندلس أخذاً من كلمة «قندالس» سكانها في الجنوب. وتدخل الأندلس في عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسناً في غزو غالة (فرنسا) ويفرضون على إقليم سبتمانية بجنوبيها ولاءه للعرب، وتتقدم جيوشهم مرارا على نهر الرون وفي اتجاه بوتاييه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتدب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العرب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفتح العرب شطراً كبيراً من أوروبا الغربية.

ويقيض لانتقال الأندلس من العصبيات المحتدمة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحر الرُقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تخلف دولة آبائه في دمشق التي قضى عليها العباسيون قضاء مبرما سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون في تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة في التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذي أنشأ للدولة أسطولا يحمي موانئها على المحيط الأطلسي

والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاما إداريا حضاريا، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة، وأضاف إليه هيئات - باسم خطط - للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة في المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذي فرض سلطانه على المسيحيين في الشمال. وما يلبث عهد الدولة الأموية أن ينتهي بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاما. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء في الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتّاب، وتتفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف واللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون - خانعين - للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يبق منزع في قوس الصبر لا للفقهاء ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب، فعبر إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس السادس في الزلاقة سحقا ذريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيف، وتعود الأندلس في بعض أجزائها إلى التفكك، وتتداركها دولة الموحدين، وتظل تحميها إلى أوائل العقد الثالث في القرن السابع الهجري، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدى لجيش ألفونس الثامن في موقعة الأرك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة في حجور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عبادة الصحابي الجليل أن يستنقذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم في المجتمع الأندلسي من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا في الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة متبديّة بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية في عهده وفود زرياب تلميذ إسحق الموصلي - أكبر الموسيقيين في عهد الرشيد - على قرطبة، ومكّن له عبد الرحمن - إلى أقصى حد - من إحداث نهضة موسيقية في الأندلس بإنشائه

له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الغنائية والموسيقية قيادة بديعة. ولا يقف أثر زرياب عند هذا الجانب، بل يتسع ليشمل الجوانب الحضارية المادية في المأكل وملبس الجنسين وتزيينها في الهيئة والمظهر، وأيضا في اتخاذ الرياش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناؤه يعنون ببناء القصور والتألق في أثاثها وزينتها، ولا يبنى حفيده الناصر قصرا فحسب بل يبنى مدينة عظيمة هي مدينة الزهراء. ومن يتابع ابن بسام في وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المكرم لبني ذى النون يظن كأنها من قصور ألف ليلة وليلة الخيالية، وما يزال قصر الحمراء بغرناطة إلى اليوم يشهد بما بلغت الحضارة المادية في المعمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى اليوم.

وكان للمرأة في هذا المجتمع الأندلسي الحضارى مكانة عظيمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها في المشرق حتى كان بينهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمويين، وكان بينهن عالمات مقرئات ومحدثات وطبيبات، وكان بينهن سيدات مجتمع راقيات كصواحب الصالونات بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان هن - مثلهن - غير قليل من التأثير في الحياة الأدبية.

ولم تعرف الأندلس التشيع إلا قليلا وعند أفراد محدودين، وظلت النزعة الأموية تغلب عليها بعد سقوط الدولة الأموية، وعرفت الأندلس الزهد وتألقت فيها أسماء زهاد كثيرين، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجرى وأنجبت فيه مشاهير مثل ابن عربي وابن سبعين والششتري.

ولم يكن لإيبيريا دور علمي في العصور القديمة، والعرب هم الذين بدأوا فيها الحركة العلمية بعلومهم اللغوية والدينية، وعمل عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل عليها بقوة العناية بعلوم الأوائل من رياضة وطب وصيدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمية الغاية المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفيسة في مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجرى، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع في الرياضة أسماء مسلمة المجريطى والزرقالى والبَطْرُوجى والرَّقُوطى، وتلمع في الطب أسماء الزهراوى وبنو زهر وابن رشد، وفي الصيدلة أسماء الغافقى وابن العوام وابن البيطار



وفي الفلسفة أساء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفي الجغرافية أساء الرازي وأبي عبيد البكري وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدي كتابا في طبقاتهم حتى زمنه في القرن الرابع الهجري، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوي ولفوي، ومن أشهرهم الرباحي راوي كتاب سيبويه عن أبي جعفر النحاس المصري ومنذر بن سعيد راوي معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصري، والزبيدي نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلي وابن سيده والشتتري وابن الطراوة وعيسى الجزولي وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكتاني المتطبب وحبيب والكلاعي والمواعيني وابن رشد وأبي البقاء الرندي، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجني.

وينقل القراء مبكرين عن ورش المصري قراءته وتشيع في الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعي والظلمنكي ومكي بن أبي طالب وأبو عمرو الداني والشاطبي وابن حيان. وتعنى الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أساء بقي بن مخلد وابن أبي زمنين وابن عطية والقرطبي وابن حيان. ويتكاثر المحدثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدى وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهاءهم وقضاتهم عليه وعلى حَمَلَة مذهبه المصريين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شَبْطون وعيسى بن دينار ويحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي وابن رشد الجدي. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيلي. وينشط المذهب الظاهري هناك، ومن كبار أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط الله. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وإسماعيل الرعيثي، كما عرفت المذهب الأشعري عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري، ومنهم من كتب في التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب في تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازي وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفي وابن صاحب الصلاة وأبي الحجاج البياسي وابن الخطيب. ومنهم من كتب في

السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعي وابن سيد الناس. ومنهم من كتب في تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب في الأنساب مثل ابن حزم وفي تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب في التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضى وصاعد والحميدى وابن بشكوال والضبي وابن الأبار والملاحى وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب في تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والحشنى والنباهى، ويشتهر في الترجمة للأطباء ابن جلجل وللغويين والنحاة الزبيدى وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحمر.

وأخذتُ أبحث بحثاً تحليلياً تاريخياً في نشاط الشعر والشعراء موضحاً كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلاً قوياً، وشركهم المسيحيون في هذا التمثيل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسراً ومتعجباً أشد العجب من هجران الشباب المسيحي للغته ووطنه الرومانسية وتمثله للعربية معجباً بها وبأدبها أشد الإعجاب، محاولاً بكل ما استطاع أن يتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشباب أتقنوها وكتبوا بها أشعاراً ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلاً بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عُنُوا كُتَاباً في دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها ما ينقض نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في حياتهم اليومية لهجة رومانسية من اللاتينية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعا من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعاً عاميات دخلتها في جميع البلدان العربية ألقاظ من لغاتها الأصلية التي كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع في الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألقاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث في عامية الشام ومصر وغيرها من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها في ذلك نفس شأنها وازدهارها في جميع الأقطار العربية، وتدل على ذلك دلالة بيّنة كثرة الشعراء في كل بلد بالأندلس حتى في الريف وبين أهل القرى، وهى كثرة تأخذ في الاتضاح منذ القرن الثالث الهجرى، وتتسع سعة شديدة في عصر أمراء الطوائف، إذ تعدد الأمراء الذين يغدقون عطاياهم على الشعراء. ويظلون يتكاثرون في اطراد طوال العصور التالية.

واستطاعت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعري الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسيه غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربي وبين بعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هي صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هي المسمطات، وكان أول من أحدثها عربي هو مقدم بن معاني، وأعطاهها صورتها النهائية بعده عريبان هما الرمادي الكندي وعبادة ابن ماء السماء الأنصاري. وعرضنا أو أشرنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من الوشاحين البارعين هم ابن عبادة القزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، والمنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض رواعتها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا في دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، ولأصحاب الشعر التعليمي مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عُرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عُرضت روائع الغزل على مر العصور مجسدة الشأو البعيد الذي بلغته الأندلس في تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما في الحب العذري العربي القديم من حنين ملتان وحُب ظامئ لا ينطفئ أواره، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتبادلهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا بحب. ويشترك معهم في الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل في الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون وولادة. وثلقتى بشعراء الطبيعة والخمر، وتبلغ الأندلس في شعر الطبيعة ذروة لعل إقليميا عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقانا وابن خفاجة وابن سفر. ويلقانا شعراء الرثاء للأفراد وفي مقدمتهم ابن وهبون وتأملاته البديعة في حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة في الأندلس وفي مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء الزهد والتصوف، وتتيح الأندلس للتصوف الفلسفي ازدهارا عظيما على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربي. وتزدهر فيها

المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقطت طليطلة في القرن الخامس يستصرخ الشعراء العرب ومواطنيهم لاستنقاذ مدنها من أيدي حملة الصليب، ويتعالى الصراخ في القرن السابع الهجرى وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبي البقاء الرندى.

وازدهر النثر في الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر فيها، ويتضح ذلك في كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفي مقدمتهم البيهقي وأبو محمد بن عبد البرّ وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن الخطيب، كما يتضح في كثرة كتاب الرسائل الشخصية وفي مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجدي. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوابع والزواج لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهي في تفضيل أهب (جلود) الشياه على البسط مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون في فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ التي يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجدية، وأولاهما مستوحاة من رسالة الترييع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسية الذميمة في الشعوبية والرود عليها، ومنها الرسائل النبوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواعظ مؤثرة مثل مواعظ منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشى. وملتقى بأعمال نثرية متنوعة وفي مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يكتظ بتجاربه وتجارب معاصريه في الحب العذرى مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر في الأندلس. وملتقى بالمقتبس لابن حيان وهو طراز في الكتابة التاريخية لا نظير له في كتابة التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام في كتابة التراجم الأدبية وعرض ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات لأمير غرناطى هو عبد الله بن بلقين، كما تلقانا قصة حى بن يقظان لابن طفيل، وهي قصة طفل ألقى به بعد مولده في جزيرة مهجورة، فنبته ظبية فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقا وأخذ يشعر برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت ابن طفيل أن التأمل العقلى الخالص المفضى إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء في أن كلامها يؤدى إلى نفس الغاية وهي الاتحاد الصوفى بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت ثبوتاً بيّناً أن عناصر القصة عناصر

عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت في الأدب الإسباني إذ استُوحيت منها قصة موريسكية هي قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسباني اليسوعي جراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثارا مختلفة في الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكاتبها الإنجليزي دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات في الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريري في مقاماته القائمة على الكُدية والشحاذة والتفاح باللسجع والتعابير الأنيقة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطي وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحرف في قوافي السجع محاكاة لأبي العلاء في لزومياته، وتغلغله ببطل مقاماته في أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذكر - في إجمال - ما أثر به فن المقامات في الأدب الأندلسي إذ نشأت على غراره في القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبطلها «البيكارو» يتجرّع - كبطل المقامات - آلام البؤس والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلا إلى ما يكتسبه عن طريقها بحيلٍ وخدعٍ شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعونه حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإمام بمراكز الثقافة في المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى في الشمال وأصحاب الإمارات المختلفة في الأندلس ومرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب في رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية في آسيا وشرقي أوروبا واكتشاف المجهول في تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبي حامد الغرناطي إلى بلاد البلغار والصقالبة وروسيا، ورحلة ابن جبير في البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.

# فهرس

صفحة

مقدمة ..... ٥

## الفصل الأول السياسة والمجتمع

- ١ - التكوين الجغرافي والبشرى ..... ١٣
- ٢ - الفتح - عصر الولاة ..... ١٦
- (أ) الفتح ..... ١٦
- (ب) عصر الولاة ..... ٢٠
- ٣ - الدولة الأموية ..... ٢٣
- ٤ - أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحمر في غرناطة ..... ٣٥
- (أ) أمراء الطوائف ..... ٣٥
- (ب) المرابطون ..... ٣٩
- (ج) الموحدون ..... ٤٢
- (د) بنو الأحمر في غرناطة ..... ٤٤
- ٥ - المجتمع ..... ٤٦
- الحضارة ..... ٤٧
- الغناء ..... ٥١
- المرأة ..... ٥٢
- ٦ - التشيع - الزهد والتصوف ..... ٥٤
- (أ) التشيع ..... ٥٤
- (ب) الزهد والتصوف ..... ٥٥

## الفصل الثاني

### الثقافة

- ١ - الحركة العلمية ..... ٥٩
- ٢ - علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا ..... ٧٢
- (أ) علوم الأوائل ..... ٧٢
- (ب) الفلسفة ..... ٨٢
- (ج) علم الجغرافيا ..... ٨٨
- ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ..... ٩١
- ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقہ والكلام ..... ١٠٦
- ٥ - التاريخ ..... ١٢٣

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

- ١ - تعرب الأندلس - كثرة الشعراء ..... ١٢٧
- (أ) تعرب الأندلس ..... ١٢٧
- (ب) كثرة الشعراء ..... ١٣٧
- ٢ - الموشحات والأزجال ..... ١٤٦
- (أ) الموشحات ..... ١٤٦
- ابن عبادة القزّار ..... ١٥٥
- يحيى بن بقى ..... ١٥٧
- أبو بكر بن زُهر ..... ١٦٠
- (ب) الأزجال ..... ١٦٣
- ابن قزمان ..... ١٦٨
- ٣ - شعراء المديح ..... ١٧٢
- ابن عبد ربه ..... ١٨٨

١٩٠	.....	ابن دراج القسطلی
١٩٤	.....	ابن عمار
١٩٧	.....	ابن الحداد القیسی
٢٠٠	.....	الأعمی التطیلی القیسی
٢٠٤	.....	الرُّصافی محمد بن غالب
٢٠٧	.....	ابن زَمْرَك
٢١٠	.....	٤ - شعراء الفخر والهجاء
٢١٠	.....	(أ) شعراء الفخر
٢١٦	.....	سعید بن جودی السعدی
٢١٨	.....	عبد الملك بن هذیل
٢٢٠	.....	یوسف الثالث
٢٢٢	.....	(ب) شعراء الهجاء
٢٣٠	.....	یحیی الغزال
٢٣٣	.....	السُّمَیْسِر
٢٣٤	.....	الیکّی
٢٣٦	.....	علی بن حَزْمُون
٢٣٨	.....	٥ - الشعراء والشعر التعليمی
٢٤٥	.....	أبو طالب عبد الجبار
٢٤٩	.....	حازم القرطاجنی

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

٢٥٦	.....	١ - شعراء الغزل
٢٧٧	.....	الرّمادی الكندی
٢٨٠	.....	الشريف الطلیق المروانی
٢٨٥	.....	ابن الزقاق اللّخمی
٢٨٨	.....	أبو جعفر بن سعید وحفصة الركونیة



صفحة

- ابن خاتمة ..... ٢٩١
- ٢ - شعراء الطبيعة والخمر ..... ٢٩٣
- عبادة بن ماء السماء الأنصاري ..... ٣٠٨
- عبد الرحمن بن مقانا ..... ٣١٠
- علي بن حِصْن ..... ٣١٢
- أُمَيَّة بن أبي الصلت ..... ٣١٤
- ابن خفاجة ..... ٣١٧
- محمد بن سفر ..... ٣٢٢
- ٣ - شعراء الرثاء ..... ٣٢٣
- ( أ ) رثاء الأفراد ..... ٣٢٣
- محمد بن سوار ..... ٣٣٥
- ابن وهبون ..... ٣٣٦
- (ب) رثاء الدول ..... ٣٣٨
- المعتمد بن عباد ..... ٣٣٩
- ابن اللبانة ..... ٣٤٢
- ابن عيدون ..... ٣٤٤
- ٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ..... ٣٤٧
- ( أ ) شعراء الزهد ..... ٣٤٧
- أبو إسحق الإلييري ..... ٣٥٣
- (ب) شعراء التصوف ..... ٣٥٦
- ابن العريف ..... ٣٦١
- ابن عربي ..... ٣٦٣
- الششتري ..... ٣٦٧
- (ج) شعراء المدائح النبوية ..... ٣٧٠
- أبو زيد الفازازي ..... ٣٧٣
- ابن جابر الأندلسي ..... ٣٧٦
- ٥ - شعراء الاستنفار والاستصراخ ..... ٣٧٨
- ابن الأَبَّار ..... ٣٨٥

## الفصل الخامس

### النثر وكتابه

- ٣٩٢ ..... الرسائل الديوانية -
- ٣٩٨ ..... البزلياني
- ٤٠١ ..... أبو محمد بن عبد البر
- ٤٠٥ ..... أبو بكر بن القصيرة
- ٤٠٩ ..... ابن أبي الخصال
- ٤١٤ ..... ابن عميرة المخزومي
- ٤١٧ ..... لسان الدين بن الخطيب
- ٤٢٢ ..... ٢ - الرسائل الشخصية
- ٤٣٥ ..... حبيب
- ٤٣٧ ..... ابن الدباغ
- ٤٣٩ ..... أبو عبد الرحمن بن طاهر
- ٤٤٢ ..... أبو القاسم بن الجد
- ٤٤٥ ..... سهل بن مآلك
- ٤٤٧ ..... ٣ - الرسائل الأدبية
- ٤٤٨ ..... رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد
- ٤٥٨ ..... رسائل ابن بُرد الأصغر
- ٤٦٠ ..... (أ) رسالة السيف والقلم
- ٤٦١ ..... (ب) رسالة النخلة
- ٤٦٣ ..... (ج) رسالة أهب الشاء
- ٤٦٥ ..... رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية
- ٤٦٥ ..... (أ) الرسالة الهزلية
- ٤٦٨ ..... (ب) الرسالة الجدية
- ٤٧٢ ..... رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها

## صفحة

٤٧٩	رسائل نبوية ومواعظ
٤٧٩	(أ) رسائل نبوية
٤٨٤	ابن الجنان
٤٨٦	(ب) مواعظ
٤٨٩	منذر بن سعيد البلوطي
٤٩١	أبو بكر الطرطوشي
٤٩٣	٤ - أعمال نثرية
٤٩٤	طوق الحمامة لابن حزم
٥٠٠	كتابة التاريخ والتراجم الأدبية
٥٠٠	(أ) المقتبس لابن حيان
٥٠٤	(ب) الذخيرة لابن يسام
٥٠٨	مذكرات عبد الله بن بلقين
٥١٢	قصة حنّ بن يقظان لابن طفيل
٥١٧	٥ - المقامات والرحلات
٥١٧	(أ) المقامات
٥٢٢	المقامات الزومية للسرقسطي
٥٢٦	(ب) الرحلات
٥٣٢	رحلة ابن جبير
٥٣٧	هامة

## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- دراسات في الشعر العربي المعاصر  
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث  
الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر  
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث  
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة  
لعصر بني أمية  
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:  
طبيعته- مناهجه- أصوله- مصادره  
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور  
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة  
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية  
في النقد الأدبي  
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده  
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية  
البلاغة: تطور وتاريخ  
الطبعة السابعة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية  
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

## في الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار  
عرض ودراسة

الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

## في تاريخ الأدب العربي

- العصر الجاهلي

الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة

- العصر الإسلامي

الطبعة الحادية عشرة ٤٦١ صفحة

- العصر العباسي الأول

الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة

- العصر العباسي الثاني

الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة

- عصر الدول والإمارات (١)

الجزيرة العربية-العراق-إيران

الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة

- عصر الدول والإمارات (٢)

مصر - الشام

الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

- عصر الدول والإمارات (٣)

الأندلس

الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة

## في مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة

- الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة

- التطور والتجديد في الشعر الأموي

الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة

- تجديد النحو
- الترجمة الشخصية
- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده
- الرحلات
- الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
- الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات
- ابن زيدون
- الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة
- في مجموعة نوابغ الفكر العربي
- الرثاء
- المقامة
- النقد
- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
- كتاب الرد على النحاة
- الدرر في اختصار المغازي والسير
- الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
- الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة
- الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات
- الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة
- الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
- الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
- لابن عبد البر
- الطبعة الثانية ٣٥٦

### في سلسلة «أقرأ»

- العقد
- البطولة في الشعر العربي
- الطبعة الرابعة
- الطبعة الثانية
- معنى (١)
- معنى (٢)
- الفكاكة في مصر
- الطبعة الثانية

١٩٨٩ / ٢٨١٧	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٦٥٠-٥	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٢٢٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

تاریخ  
الأدب  
العربي  
٩

دكتور شوقي ضيف

عصر

الدول والإمارات  
لبيبا - تونس - صقلية



دارالمعارف

تاريخ  
الأدب العربي  
٩

عصر  
الدول والإمارات  
لبيبا- تونس- صقلية

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف



دارالمعارف





عصر  
الدول والإمارات  
ليبيّا- تونس- صقلية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

١

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي قبل العصر الحديث خاص بليبيا وتونس وصقلية، وقد بدأتها بليبيا، فتحدثت عن جغرافيتها ومناطقها: طرابلس وفزان وبرقة، وعن زروعها وصناعاتها وتجارتها وموانئها، كما تحدثت عن تاريخها القديم وفتح العرب لها، وسطوع شمس الإسلام بديارها، وعن ولايتها أيام الأمويين والعباسيين وتبعية ولاية طرابلس وقسمها الغربي للدولة الأغلبية، وتبعية برقة وقسمها الشرقي لوالى مصر، وتبعتها معاً للدولة العبيدية الفاطمية فى المهديّة والقاهرة، وتسترجع الدولة الصنهاجية فى القيروان طرابلس، ويؤسس بها لنحو نصف قرن بنو خزرون إمارة لهم، وتكتسح ليبيا الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وتتبع برقة مصر فى أيام الأيوبيين والمماليك، بينما تتبع طرابلس الدولة الحفصية فى تونس، وتتأسس بها دولة بنى عمار فى القرن الثامن الهجرى (٧٢٤ - ٨٠٣ هـ) وتسترجعها الدولة الحفصية، ويستولى عليها فرديناند ملك إسبانيا سنة ٩١٦ هـ/١٥١٠ م ويُسَلِّمها بعده شارل الخامس إلى فرسان مالطة سنة ٩٣٦ هـ/١٥٣٠ م ويطردهم منها الأسطول العثمانى سنة ٩٥٨ هـ/١٥٥١ م، وتصبح ولاية عثمانية ويتولاها دايات مختلفون حتى إذا وليها أحمد القرمانيلى سنة ١١٢٣ هـ/١٧٩٥ م جعلها وراثية فى أبنائه. وفى سنة ١٢٥١ هـ/١٨٣٥ م استردّها الدولة العثمانية من الأسرة وحوّلتها من إيالة إلى ولاية، وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وقد سكن ليبيا - من قديم - سلالات من البربر، ويقسمها النسابون إلى برانس، وهم الحضرة أهل المدن، وبُتروهم الرُحْل أهل الهضاب والصحارى، ونزلها قديماً الفينيقيون والإغريق والرومان وبعض اليهود والزنوج، ثم نزلها العرب ومن تألفت منهم جيوشهم من أهل إيران والعراق والشام ومصر، وهاجر إليها أندلسيون كثيرون بين القرنين السابع والحادى عشر للهجرة. ونزلتها حاميات تركية فى العهد العثمانى، وألقى إليها القراصنة ببعض أسراهم المسيحيين، وأسلم منهم كثيرون. وكل هذه العناصر انصهرت فى البوتقة الليبية وظل العنصر

الليبي البربرى - مع ما حدث له من بعض التطور - هو العنصر الغالب على كل العناصر الوافدة على دياره. ومن قديم كانت التجارة رائجة رواجاً كبيراً في برقة وطرابلس، مما جعل الإغريق يحتلون الأولى ويؤسسون بها مدناً تجارية متعددة، كما جعل الفينيقيين والرومان يحتلون - بدورهم - طرابلس. وكان الساحل الشمالى يموج بمصايد الأسماك فيه، وكان ما وراءه من المدن والسهول والوديان يكتظ بأشجار الزيتون والنخيل والفواكه والزروع والحبوب، واكتظت الواحات بالنخيل وأنواع التمور والفواكه، وامتلات الهضاب والصحارى بمراعى الأغنام والأنعام. وملتقى بصناعات يدوية كثيرة وخاصة صناعة النسيج والزجاج وعصر الزيت ودبغ الجلود وقطع الرخام: طبيبات كثيرة من الرزق. وكان البربر وثنين ونزل بديارهم اليهود وكانت لهم بطرابلس حارة خاصة بهم، واستجاب بعض أهل المدن في عهد الرومان وبيزنطة للمسيحية، وكان بينهم أرثوذكس يتبعون كنيسة القبط في الإسكندرية وكاثوليك يتبعون كنيسة روما البابوية. وما إن نزل الإسلام لبيبا حتى أسرعت جماهيرها إلى اعتناقه، وآثرت دائماً مذهب مالك السنى واعتنق المذهب الإباضى جبل نفوسة وبعض أهل طرابلس. ومعروف أن الدولة العثمانية كانت تعمل على إشاعة مذهب الإمام أبى حنيفة في الولايات التابعة لها، غير أن مذهب مالك ظل في ليبيا - مثل جميع بلاد المغرب - هو المذهب العام للجماهير الليبية. وقد نزع كثير من أهل ليبيا إلى الزهد، وشاعت بينهم في الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

وأخذت الحركة العلمية تتشط في ليبيا منذ الفتح، إذ لم يكن الفاتحون غزاة يبتغون المغانم، إنما كانوا مجاهدين في سبيل الله يبتغون نشر دينه في أرجاء الأرض، ولذلك كانوا بمجرد الفراغ من الفتح يتحولون معلمين يهدون أهل الشعوب المفتوحة للإسلام وتعاليمه مع تحفيظهم لبعض آيات وسور من الذكر الحكيم، وسرعان ما كانوا ينشئون لهم الكتاباتيب - كما حدث في طرابلس - يعلمونهم فيها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظونهم القرآن ويرشدونهم إلى تعاليم الإسلام. وأخذت حلقات العلماء تكثر في المساجد بالمدن والقرى، وبالتدريج أخذوا يعنون بتفقيه الناس في الدين وتعريفهم بالعربية وقواعدها السديدة في النطق والتعبير. ولم يلبث أن رحل إلى المشرق بعض الليبيين في طلب العلم. واشتهر في كل مدينة ليبية بعض العلماء، وظهر في كل علم أئمة كبار، ونمت العلوم اللغوية والإسلامية. ودار الزمن دورات، وازدهرت تلك العلوم في عهد الدولة الحفصية وساعد على ازدهارها نشوء المدارس والزوايا، وخدمت الحركة العلمية في العهد العثمانى، أو بعبارة أدق أصابها شىء من الركود.

وإذا أخذنا نراجع العلوم والعلماء على مر الزمن لاحظنا أن ليبيا لم تعرف بنشاط في علوم الأوائل ولكنها عرفت ذلك في العلوم اللغوية والدينية، إذ لمع فيها - طوال القرون الإسلامية - علماء مختلفون مثل الأجدابى اللغوى في القرن الخامس الهجرى ومؤمن بن فرج

المقرئ في نفس القرن الخامس والمقرئ على بن عبد الحميد العوسجى في القرن العاشر وفي التفسير الخروبى في نفس القرن العاشر. ونبغ في الحفاظ المحدثين أسرة أحمد بن صالح العجلى في القرن الثالث وابن زكرون وأحمد بن نصر الداودى في القرن الرابع وابن عبيد في القرن السابع، ولمع في الفقه السنى موسى بن عبد الرحمن القطان في القرن الثالث وابن المنمر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع والزليطى في القرن التاسع، وبمن نبغ في الفقه الإباضى عمروس النفوسى في القرن الثالث، وأحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة في القرن الخامس وعلى بن يخلف التيمجارى في القرن السادس والجيطالى والشماخى في القرن الثامن. وظهر بليبيا بعض المؤرخين.

وقد تعرّبت ليبيا سريعا لكثرة من نزل بها من القبائل العربية ومن الجند الناشرين للإسلام، وأكملت تعربها هجرة الأعراب الكبرى من بنى سُلَيْمِ وبني هلال في منتصف القرن الخامس الهجرى، إذ امتزجت عشائر القبيلتين أو بعبارة أدق من استقرّ منها في ليبيا بأهلها من البربر، وأصبحوا شعبا عربيا كبيرا في تقاليد وعاتاته وملابسه ومطاعمه وأفراحه وأحزانه وأخلاقه وشيمه وفروسيته ومروءته ونجدته، وكان طبيعيا أن تنتصر العربية لغة الدين والثقافة أثناء ذلك على اللغة البربرية انتصارا حاسما، ويشهد الرحالة الكبير العبدرى لأهل برقة بالفصاحة، ويؤكد أنهم كانوا - حتى زمنه - في آخر القرن السابع الهجرى - لا يزالون يتكلمون بالفصحى بأنصع وأدق مما ينطق بها ويتكلمها أهل الحجاز، ولا تزال لغة برقة - إلى اليوم بشهادة بعض المعاصرين - قريبة قريبا شديداً من أمّها الفصحى. ولم تحدث في ليبيا نهضة أدبية واسعة قبل عصرها الحديث، ومرجع ذلك - في رأينا - إلى أنه لم ينشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء، ولا نشأ بها ديوان إنشاء يحدث فيها حركة نثرية أدبية، ولا كان فيها رعاة للشعر يجزلون العطاء للشعراء. ويلمع فيها بأخرة من القرن الثالث الهجرى شاعر طرابلسى يسمى خليل بن إسحق ويلتحق بحاشية العبيديين في عاصمتهم مدينة المهديّة، ويلمع بها في القرن السابع الهجرى فتح بن نوح الإباضى وابن أبى الدنيا وابن معمر، كما يلمع في العهد العثمانى البهلولى الطرابلسى، وله ديوان فى المديح النبوى، وألمع شاعر بعده أحمد بن عبد الدائم. وتذكر كتب التراجم - من حين إلى آخر - لبعض الكتاب الليبيين رسالة أو مقامة مكتفية بمثل هذه الإشارة دون أن تعرضها على القارئ، وكان فتح بن نوح الإباضى نائراً مجيداً، كما كان شاعراً مجيداً.

وتركّت ليبيا إلى القطر التونسي قلب إفريقية النابض، فتحدثت عن جغرافيته وتاريخه المفرق في القدم وفتح العرب له واعتناق أهله الدين الحنيف وعن ولاته الأولين وفي مقدمتهم عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس. ومن أهم ولاياتها في القرن الثاني. عبدالرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع المستولى على جزيرة قوصرة في البحر المتوسط. ومن ولاياتها بعده يزيد بن حاتم المهلبى وقد أحدث بها حركة أدبية نشيطة. ولم يلبث أن تولاهما إبراهيم بن الأغلب وجعلها الخليفة هرون الرشيد وراثية في أبنائه، وافتتحت تلك الدولة صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونشرت بها أضواء الإسلام والعروبة كما نشرتها في مالطة بعد فتحها سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م. وتخلّفها الدولة العبيدية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م إلى أن انتقل المعز العبيدى الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وخلفه في الإقليم التونسي الدولة الصنهاجية وظلت تستشعر ولاءها للدولة الفاطمية في القاهرة إلى أن أعلن حاكمها الصنهاجى المعز بن باديس استقلاله عن مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م وقيل بل في سنة ٣٩ أو أربعين، مما جعل الخليفة الفاطمى المستنصر يسلط عليه أعراب بنى هلال وسليم، وكانوا قد نزلوا شرقى الصعيد وعاثوا فيه فساداً فنزحوا إلى ليبيا وإفريقية التونسية كجراد منتشر، ونازلوا المعز واضطروه إلى الانحياز إلى مدينة المهديّة، واستقل بعض الولاة بمدنهم وأقاليمهم. وبذلك شاع في إفريقية التونسية نظام أمراء الطوائف مثل بنى جامع الهلاليين فى قابس وبنى خراسان فى تونس. وفى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م نزل الساحل التونسي ومدينة المهديّة روجّار الثانى النورمانى وطرده عبد المؤمن الموحدى بعد اثنتى عشرة سنة، وعاث فى أرجائها قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وأنقذ البلاد منهم الموحدون والدولة الحفصية، وعاشت لعهد الحفصيين فى رخاء وأمن، وحاصر تونس لويس التاسع وقبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد نهضة علمية وأدبية طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م وخلّصها منه بعد نحو أربعين عاما الأسطول العثمانى سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م وتبعت الدولة العثمانية، وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وأسرته، والباى حسين بن على وأسرته.

ويزخر المجتمع التونسى - بجانب سلالات البربر - بعناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجية وزنجية ويهودية ورومانية وألمانية من الوندال وبيزنطية وعربية ومن امتزج بهم العرب من إيران والشام ومصر وأيضاً عناصر أندلسية وتركية ومسيحية ممن جلبهم القراصنة، وامتزجت هذه العناصر وكونت الشعب التونسى وظل للعنصر البربرى فيه الغلبة مع ما حدث

له من صور تطور مختلفة إذ ظل يفرض هويته وشخصيته على كل ما وفد عليه من عناصر. وهياً الإقليم التونسي دائماً لسكانه رخاء واسعاً قديماً وحديثاً من الزروع وأشجار الزيتون والنخيل من الفواكه والصناعات مثل صناعة الزجاج والبلور والخزف وعصر الزيت والمنسوجات والسجاجيد والوراقة وكل ما يلزم المنشآت العمرانية من فسيفساء وتفنن في الزخرفة وضروب التجارات من منتجاتها ومنتجات ما يرد عليها من إفريقيا السوداء ومن أوروبا إذ كانت سوقاً عالمياً ضخماً. وأهلها ذلك لرفه واسع في الحياة وفي المطعم والملبس ولاحتفالات عظيمة بالأعياد ولاهتمام بالموسيقى والعزف على آلات الطرب والغناء في الحضر وعند أهل الدير. وحظيت المرأة في المجتمع التونسي بمكانة كريمة جعلتها تستشعر كرامتها وشخصيتها إلى أقصى حد، كما جعلتها تستشعر حمايتها لوطنها حين تدهم به الخطوب، مع برهنتها على حصافتها وكياستها السياسية. وكان البربر - قديماً - وثنيين ونزل بينهم يهود في القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعده، وحاولوا نشر ديانتهم فيهم ولم يتبعهم إلا القليل. واستولى على ديارهم الرومان وحاولوا - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر المسيحية بينهم، وبُنيت بعض كنائس وأسقفيات، واعتنقها بعض البربر في المدن الشمالية، وظلت عناصر مسيحية - فيما بعد - تنزل البلاد وخاصة من الصقالبة ومن كان يجلبهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين الوحيد الذي عم إفريقيا التونسية بعد الفتح العربي بحيث أصبح دين الأمة التونسية - بل الأمة البربرية جميعاً - لبساطته وتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ومحوه الفوارق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الشعوب. وكانت إفريقيا التونسية دائماً سنية، واختارت مذهب مالك الفقهى وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث، وعم مذهب مالك بعد ذلك حتى إذا كان العهد العثماني عاد المذهب الحنفى معه إلى الظهور، ولم تنجح في إفريقيا التونسية دعوة الإباضية ولا دعوة العبيديين الشيعية، وكثر فيها الزهد والزهاد، كما كثرت الرباطات لحراسة البلاد على السواحل وظل النساك لا يبرحونها، وكثرت بأخرة الطرق الصوفية.

ومنذ القرن الأول الهجري ينشر الفاتحون في القطر التونسي تعاليم الإسلام وشريعته السمحة في معاملة الأمم المفتوحة، بحيث يصبح من أسلم منهم على قدم المساواة مع العربي الفاتح، ويقبل البربر على اعتناق الإسلام، وينشأ جيل من مواليد إفريقيا التونسية من البربر والعرب ينقض انقضاضاً على حلقات العلماء في المساجد ويأخذ كل ما لديهم، ويطلب نفر منه المزيد، فيرحل إلى المشرق للقاء الإمامين الكبيرين أبي حنيفة ومالك، ويحمل مذهبيهما إلى العاصمة: القيروان وإلى تونس. وتنمو في القيروان حركة أدبية ولغوية. وساعد في ازدهار الحركة العلمية بإفريقيا التونسية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبية في القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشئ - أيام الحفصيين - من مدارس ومكتبات. ولم يبق علم

إلا عنيت به إفريقية التونسية، ونبدأ بعلوم الأوائل فقد أسس لها إبراهيم بن أحمد الأغلبى في عاصمته رقادة بجوار القيروان مدرسة كبرى باسم بيت الحكمة نبغ فيها أطباء عظام كان لهم ولتلاميذهم تأثير عظيم في الغرب، وينبغ في العهد الصنهاجى فلكى كبير كان له أثره في علم الفلك الغربى، وتؤسس تلك الدولة مدرسة في الكيمياء، وملتقى في عهد الدولة الحفصية بكيميائى كبير هو التيفاشى كما نلتقى بأطباء ورياضيين مختلفين وأيضاً ببعض الجغرافيين، ويتكاثر اللغويون والنحويون في العهد الصنهاجى ويلمع من بينهم عالمان لغويان كبيران هما الفزاز وله معجم ومؤلفات لغوية كثيرة وعبد الدائم بن مرزوق حامل شعر أبى العلاء المعرى إلى القيروان والأندلس كما يلمع الحصرى بمختاراته الشعرية والنثرية في كتابه زهر الآداب، ويضع ابن عصفور في العهد الحفصى أسساً قوية لمدرسة نحوية تونسية ويقود ابن رشيق بكتابه: «العمدة في صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية وبلاغية واسعة لافى إفريقيا التونسية وحدها بل في جميع المغرب. وكان علم القراءة للذكر الحكيم نشيطاً إلى أقصى حد، ونقل ابن خيرون قراءة ورش المصرى عن نافع قارئ المدينة، وهى القراءة المنتشرة في جميع بلدان المغرب إلى اليوم، ولم يلبث أن ظهر في القراءات إمام كبير هو مكى بن أبى طالب، ومن أعلام القراء في العهد الحفصى الليبى وابن بدال وفي العهد العثمانى باطاق. ومن أوائل المفسرين للذكر الحكيم عكرمة مولى ابن عباس ويحى بن سلام، ومن كبار المفسرين في العهد الصنهاجى على بن فضال وفي العهد الحفصى ابن بزيمة وفي العهد العثمانى محمد زيتونة. ويتكاثر المحدثون منذ القرن الثانى الهجرى، ومن أهمهم البهلولى بن راشد، ومن كبار المحدثين القابسى في القرن الرابع والمازرى في القرن السادس ومحمد بن عمر الأبى في القرن التاسع ومحمد بن برناز في العهد العثمانى. ويتعايش في الفقه المذهب الحنفى والمالكى في القرنين الثانى والثالث، ومن فقهاء المذهب الحنفى عبد الله بن فروخ ومن فقهاء المذهب المالكى على بن زياد حامل كتاب الموطأ عن مالك وسحنون المشهور صاحب المدونة التى حملها عن عبد الرحمن بن القاسم في الفسطاط تلميذ مالك. ومن حملة المذهب الكبار في القرن الرابع ابن أبى زيد. وكتب له أن يسود ويعم جميع بلدان المغرب منذ حمل المعز بن باديس الصنهاجى الفقهاء والناس عليه. ومن أهم فقهاء المازرى المذكور بين المحدثين وابن بزيمة المذكور بين المفسرين وتلميذه محمد بن عبد السلام أستاذ ابن خلدون وابن عرفة. ويجعل العثمانيون الفتوى بيد الفقهاء الأحناف ولهم الكلمة العليا في القضاء واشتهر بينهم غير فقيه كما اشتهر غير قليل من فقهاء المالكية مثل محمد الحجيج وله حاشيتان على مختصر خليل في الفقه المالكى.

وكل ما كان يدور في المشرق من جدل في المذاهب الكلامية كان يدور مثله في القيروان، وقد تجادلوا طويلاً في مذاهب الخوارج ومبادئ الإرجاء وما تجادل فيه المعتزلة مع غيرهم في مسائل

القدر وهل القرآن قديم أو حادث مخلوق، والتشبيه على الذات العلية. واشتد الجدل بين الفرق في جامع عقبة واشتدت ضوضاؤهم مما اضطر سحنون حين ولى القضاء إلى تفريق حلقاتهم فيه وإبطائها، ومن كبار المتكلمين سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد وله منازل ضارية مع دعاة العبيديين الشيعة ودائماً هو الغالب المنتصر. وشاع من قديم المذهب الكلامي الأشعري، وكانت له الغلبة في العصور التالية.

وازدهرت الكتابات التاريخية مبكرة في القيروان عن مغازى إفريقيا وأخبارها وحروبها وعن الدولة الأغلبية، وعنى بعض المؤرخين بتاريخ الدولة العبيدية وسيرة مؤسسها عبيد الله المهدي، وتكاثرت الكتابة عن علماء إفريقية التونسية كما يلقانا عند أبي العرب والحسن، وللرقيق القيرواني كتاب في تاريخ إفريقية والمغرب، ولابن رشيق كتاب نفيس في تراجم الشعراء باسم أنموذج الزمان، وللمالكي رياض النفوس في علماء إفريقية وزهادها، وللدباغ كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان وعليه تعليقات لابن ناجي، وللتجاني رحلة مشهورة تكتظ بالعلماء والأدباء في البلاد التونسية، وليحيى بن خلدون كتاب في تاريخ بني عبد الواد بتلمسان، وتتوج الكتابات التاريخية بتاريخ ابن خلدون ومقدمته النفيسة وما فيه من أخبار البربر. ويكتب ابن الهنتاتي عن تاريخ الدولة الحفصية وابن أبي دينار عن تاريخ إفريقية وتونس في كتابه المؤنس ومحمد السراج عن الأخبار التونسية في كتابه الحلل التونسية، ويترجم حسين خوجة - في كتابه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان - لفقهاء البلدان الكبيرة في حقبة من حقبة العهد العثماني.

وقد عايشت اللغة البربرية لغتين متحضرتين: الفينيقية واللاتينية قرونا طويلة ولم تتحول إلى لغة متحضرة لها أبجديتها الخاصة وكتبها التاريخية، وظل من يتحضر منهم أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل في أيام الرومان. وكان كثيرون من البربر قبل الفتح العربي يحسن اللاتينية نطقاً وكتابة، وظلت بعد الفتح بقايا من ذلك. ولكن سرعان ما أخذت البربرية لغة الشعب بعد الفتح واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل فيها محلها العربية، وتظل البربرية حية في جزيرة جربة وفي البوادي والجبال، حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجري امتزج البربر والأعراب وكوّنوا شعباً عربياً مكتمل العروبة في اللغة والدين والملبس والمطعم والأخلاق والعادات والأحزان والأفراح، وكان هؤلاء الأعراب من بني هلال وسليم ينطقون عزية فصيحة، وظلوا ينطقون بها حتى القرن السابع الهجري، وكانت تشيع بجانبها عامية في السنة أهل المدن، وأخذ لسان هؤلاء الأعراب يتأثر بها مع طول السنين، ويقول ابن خلدون إنهم هجروا الإعراب لعصره في القرن الثامن الهجري ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلوم ولغة الأدب الرفيعة، وبث فيها المهاجرون الأندلسيون في القرنين السابع والحادي عشر روحاً وانتعاشاً.



ويكثر الشعراء في القطر التونسي منذ منتصف القرن الثاني الهجري بفضل ما أحدثته فيها واليهما يزيد بن حاتم المهلبى من حركة أدبية واسعة بما صحبه إليها - ووفد عليه - من الشعراء، وكان إبراهيم بن الأغلب شاعرا، وبالمثل كثير من أهل بيته، فراج في القيروان سوق الشعر وازداد رواجه في عهد الخلفاء العبيديين وكانوا جميعا شعراء وأجزلوا لمادحيهم في العطاء، وينهض الشعر نهضة عظيمة في عهد المعز بن باديس الصنهاجى، وكان ينثر العطايا على مادحيه نثرا ويقال إنهم بلغوا مائة عدا، وألف ابن رشيق كتابه أنموذج الزمان لعهدده وترجم فيه لمائة من أفذاذ الشعراء وناهيههم وجميعهم من معاصريه. وكان ابنه تميم جوادا ممدحا وكان شاعرا وقصده الشعراء من جميع الآفاق: كما قصدوا ابنه يحيى وحفيده عليا وابنه الحسن، ولابن حمديس الصقلى وأمىة بن أبى الصلت الأندلسى في الثلاثة مدائح طنانة سوى من كان يحف بهم من شعراء القيروان. ويتنافس حكام المدن بعهد أمراء الطوائف في جمع الشعراء حولهم على نحو ما يصور ذلك العماد الأصبهاني في كتابه الخريدة، ومن ذكرهم من شعراء أبى الحملات مدافع أمير مدينة قابس سلام بن فرحان القابسى وهو من الشعراء المجيدىين وذكر من شعراء جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة التراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، ومن الشعراء الأفاذ لهذا العهد على المحصرى المهاجر إلى الأندلس وأبو الفضل بن النحوى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر في العهد الحفصى. ويفد على مدينة تونس كثير من شعراء الأندلس ويستقرون فيها ويبعثون فيها حركة شعرية خصبة مثل ابن الأبار وابن عميرة وحازم القرطاجنى وابن القصير. وأخذ الشعراء يتكاثرون في تونس مثل عنان بن جابر وابن عريبة ومحمد بن أبى الحسين وابن الشباط وابن السَّماط وابن حُسَينة والشهاب بن الخلوف. ويزاحم منذ القرن الثامن الشعر الشعبى الشعر الفصيح. ويضعف الشعر في أواخر العهد الحفصى وأوائل العهد العثمانى، وتبعث فيه هجرة الأندلسيين إلى الإقليم التونسى في القرن الحادى عشر الهجرى غير قليل من النشاط ويسترد حيويته ونضرتة في عهد الأسرة الحسينية على لسان أمثال على الغراب ومحمد الورغى ومحمد ماضور وتكثر فيه المعارضات الشعرية. ويتكاثر أعلام الشعراء في جميع أغراض الشعر وفنونه منذ الحقب التاريخية الأولى. ومن أعلام المديح على بن محمد الإيادى والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسى وابن عريبة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى، ومن أعلام الفخر والهجاء تميم بن المعز الصنهاجى ومحمد الرشيد الحسينى، ويتكاثر شعراء الغزل من أمثال على المحصرى وأحمد الليليانى ومحمد ماضور ومن شعراء الغربة والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبى الحسين، ويكثر شعراء الطبيعة من مثل عبدالواحد بن فتوح وابن أبى حديدة وأبى على بن إبراهيم، وبالمثل شعراء الرثاء للأفراد والمدن والدول مثل ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبدالسلام، ومن شعراء الوعظ أحمد الصواف وشعراء التصوف محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى ومن شعراء المديح النبوى

الشُّقْرَاطِسى وابن السماط المهْدوى. ومع كل غرض من هذه الأغراض ما يوضح نشاط الشعراء فيه من الترجمة لنابيهم وعرض روائع أشعارهم.

ونهض النثر مبكراً في القيروان وتونس على لسان الولاة والقواد وتأسست الدواوين منذ القرن الأول الهجرى، وانهض أبو اليسر الشيبانى بالكتابة الديوانية لعهد الأغالبة نهضة عظيمة وكوّن فيها مدرسة، وأصبح لها فيها تقاليد متبعة، صورها القلقشندى فى صبح الأعشى، واحتفظ برسالة ديوانية فى العهد الحفصى بليغة بلاغة رائعة. وكثرت الرسائل الشخصية منذ القرن الثالث الهجرى بين استعطاف وعتاب ومديح وهجاء واستمناع وعزاء، وهى مسجوعة، ودخلها فى الحقب المتأخرة غير قليل من التكلف. ولتلقى ببعض مقامات، وهى لا تقوم على أديب متسول وحيله الكثيرة فى جذب السامعين وإثارة عطفهم، وإنما تقوم على موضوعات أدبية يراد بها إظهار التفنن فى الكتابة الأدبية. وترجمت لثلاثة من أهم الكتّاب، هم أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد الأغالبة، وإبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب، وابن خلدون درة تونس الفريدة

## ٣

وانتقلت إلى جزيرة صقلية، فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح إفريقية التونسية لها فى عهد زيادة الله الأغلبى سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ونشر الدين الحنيف فيها ولغتها العربية وغزو الدولة الأغلبية فيها قَلَوْرِيَّة جنوبى إيطاليا واستمرار استيلائها عليها إلى نهاية أيام الدولة الأغلبية وفتحها لجزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م ونشرها للدين الحنيف فيها واللغة العربية، ولا تزال إلى اليوم تتكلم لكنة عربية تونسية ودخلت عليها تحريفات كثيرة بحكم طول الزمن وما وقع على لغة مالطة من تأثيرات. وولى للدولة العبيدية على صقلية ولاة حكموها حكماً جائراً، إلى أن وليها الحسن بن أبى الحسين الكلبى سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م وظلت وراثية فى أبنائه، وحكموها فى القرن الرابع حكماً سليماً، واضطرب حكمهم، وساء سوءاً شديداً فى القرن الخامس، فثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى أمراء طوائف وبلدان، وتحارب ابن الثمينة أمير بلرم مع أمير قصريانة، وهُزم فاستغاث بالنورمان حكام قَلَوْرِيَّة، فأغاثه ملكهم روجار الأول، وسرعان ما تحولت الاستعانة به إلى الاستيلاء على مدينة بلرم سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢ م وما توفى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م حتى يكون قد استولى على جميع مدن صقلية. ويدور العام فيستولى على جزيرة مالطة سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م. ورأى روجار أن شعب صقلية العربى أكثر حضارة ومدنية من شعبه مع تفوقه عليه فى شئون الزراعة والصناعة اليدوية، فأخذ يصانعه للإفادة منه وأخذ ما عنده مع التكيل الغاشم به، وخفف ابنه روجار الثانى وحفيده غليوم الأول

من هذا التنكيل البشع، غير أنه من الخطأ ما يقال من أنها عاملا للمسلمين في صقلية معاملة عادلة سمحة فإن ذلك إن صدق على تعاملها مع حاشيتها المسلمة في بلرم فإنه لا يصدق على معاملتها العامة للمسلمين في البلدان الأخرى على نحو ما يصور ذلك ابن جبير في رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول. واستحالت المعاملة السيئة إلى عسف لا يطاق حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصي، فاتفق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م مع فردريك الثاني على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، فجلوا عنها جميعا، وأجلى فردريك من كان بمالطة من المسلمين أو بعبارة أدق أجبرهم على الجلاء عنها إلى مدينة أمالفي (Amalfi) جنوبي إيطاليا.

وقد عامل المسلمون - طوال حكمهم لصقلية - أهلها المسيحيين معاملة سمحة كريمة أقصى ما تكون السماحة والكرم، فحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية. وكان بصقلية ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية مساعدون للوالى يسمون قوادا، كما كان لها قضاة عدول ومجموعة من الدواوين، من أهمها ديوان المحاسبة، وكانت صقلية تزخر بطبقات كثيرة من الرزق، فكان أهلها يعيشون في رخاء واسع بفضل زروعها وصناعاتها الكثيرة، وانتقلت إليها صناعة الورق من القيروان ونقلتها عنها أوروبا، مما أتاح لغوتنبرج اختراع الطباعة. وولتقى في صقلية بنفر من الزهاد أمثال القاضي ميمون وابن أبي محرز وبعض من لهم ميول صوفية مثل أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد البكري.

وقد فتح النورمان صقلية العربية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، إذ رأوا -هم وملوكهم- سمو العرب المسلمين الحضارى، فحاولوا - بكل ما وسعهم - الإفادة من حضارتهم، ونكّل روجار الأول بالمسلمين تنكيلا شديدا، واضطرته هذه الحضارة أن يدفع ابنه روجار الثاني إلى تعلم العربية والإكباب على ثقافتها وعلومها، وأخذ الرومان يفيدون من نظم المسلمين وترائيبهم الإدارية في الجزيرة، واتخذوا لأنفسهم دواوين على شاكلة الدواوين العربية، واندفع غليوم الأول مثل أبيه إلى إتقان العربية ومعرفة علومها ودفع النورمان معه إلى اقتباس العلوم والفنون وعناصر الحضارة الإسلامية فتحضروا بعد أن كانوا متبدين، وانغمسوا في تلك الحضارة، ومع ذلك ظلوا يقسون على المسلمين ويحاولون بكل ما استطاعوا فتننهم في دينهم الحنيف وازداد الظلم والعسف في عهد أباطرة الألمان، مما اضطر من بقى بصقلية من المسلمين إلى الجلاء عنها نهائيا.

ونقل العرب إلى صقلية الإسلامية ما كان بالقيروان من حركة علمية، فإذا الشباب فيها يكبُّ على ما لدى علمائهم من علوم دينية ولغوية، ويرحل منهم نفر إلى القيروان والمشرق للتزود من علمائهم، ويرحل إليهم كثير من علماء القيروان لتزويدهم بالعلوم والآداب ونشر

خاصة إلى رحلة ابن رشيقي القيرواني بكتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده إلى صقلية، مما كان له أثر بعيد في نهضةها الأدبية لعهد الكليبيين وبعدهم، وهاجر إليها كثير من شباب الأندلس وعلمائه للتعليم والتعلم، وبالمثل من علماء المشرق وأدبائه وكتب المشرق ودواوينه. ويقول ابن حوقل إنه كان في مدينة بلرم وحدها أكثر من مائتي مسجد وثلاثمائة معلم، مما يدل على أنه كان بها نشاط علمي واسع، ومثلها بقية المدن. وكان نحو نصف سكانها المسيحيين ففتين: فئة تتكلم الإغريقية، وفئة تتكلم اللاتينية، وربما كان في الفتين من يتقن اللغتين جميعا، وكان فيهما من يتقن العربية، كما كان بين العرب من يتقن اللاتينية أو الإغريقية، وأهل ذلك للاشتغال بترجمة بعض علوم الأوائل، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - أن الأمير إبراهيم الأغلب مؤسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة بجوار القيروان طلب إلى بعض الرهبان الصقليين المتكلمين بالعربية ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية، كما يدل عليه طبيب صقلى يسمى أبا عبدالله كان يتقن الإغريقية ومعرفة أسماء العقاقير والأدوية رحل إلى الأندلس في زمن عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) فضمه إلى من يشتغلون بالترجمة عن الإغريقية إلى العربية كتاب ديوسقوريدس في الأدوية أو الصيدلة والنباتات، ومما يدل على شهرة صقلية حينئذ بالفلسفة وعلوم الأوائل أن نجد بعض متفلسفة الأندلس يهاجرون إليها. وكان بها علماء رياضيون متعددون ومهندسون كبار بشهادة عماراتها السامقة ومن تردد أسماؤهم منهم في الكتب. ورحل إليها غير لغوى من الأندلس ومن أشهر أبنائها ابن البرّ وقد أسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكي صاحب كتاب تثقيف اللسان في أغلاط العلماء وغيرهم، وهاجرت إلى صقلية دواوين كثيرة على يده ويد غيره كما هاجرت إليها كتب لغوية وبلاغية ونقدية كثيرة. وملتقى بغير مقرأ للذكر الحكيم مثل محمد بن خراسان الصقلى وبغير مفسر مثل ابن ظفر وغير حافظ محدث مثل عتيق السمنطارى. ويتكاثر بها الفقهاء من قضاة وغير قضاة، ومن أهم فقهاؤها البرادعى ومحمد بن يونس التميمى وعبد الحق بن محمد القرشى.

وإذا تحولنا مع الثقافة إلى العهد النورمانى وجدنا علوم الأوائل تظل ناشطة في صقلية ويعنى روجار الأول بترجمة الثقافة العربية ويتكفل بترجمة عيونها إلى اللاتينية القيروانية في الطب والفلك وغيرها قسطنطين الإفريقي، واشتهرت صقلية في هذا العهد بفلكيين ورياضيين ومهندسين كبار من تلامذة الأساتذة في العهد الإسلامى، وألف الإدريسي الجغرافى المغربى لروجار الثانى كتابين جغرافيين للعالم كبير وصغير وبها خرائط جغرافية مهمة، ووضع له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان حريا بالإدريسي أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية الباهرة إلى حاكم عربى لا إلى حاكم نورمانى. وتظل العلوم اللغوية ناشطة في العهد النورمانى وتسجل كتب التراجم أساء غير عالم منهم سوى من بارحوا صقلية فرارا من الظلم

النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى وعثمان بن على الصقلى نزىلى مصر وقد رحبت هى وأدباؤها وعلمائها بهم أيا ترحيب. ويهاجر منها فى العهد النورمانى إمام كبير من أئمة القراءات هو ابن الفحام إلى الإسكندرية ومفسر صقلى مهم هو ابن ظفر وفقه كبير بل إمام من أئمة الفقهاء والحفاظ هو المازرى.

ويزدهر الشعر بصقلية منذ عهد الأسرة الكلبية فى القرن الرابع الهجرى، ولو أن كتاب الدرّة الخطيرة لابن القطاع الذى ترجم فيه مائة وسبعين شاعرا فى عهد الكلبين وصلنا لرأينا بوضوح مدى ازدهار الشعر فى أيامهم، وكأنه كان ينافس بهم شعراء الأنموذج لابن رشيق الذى ترجم فيه مائة شاعر. وقد وصلتنا منه اختيارات مبتورة لأبى إسحق بن أغلب تشتمل على ثلاثة وأربعين شاعرا واختيارات أخرى لابن منجب الصيرفى المصرى تشتمل على تسعة عشر شاعرا وهى منشورة، وأهم من هاتين المجموعتين ما ضمنه العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة من اختيارات له من الدرّة بلغت سبعة وأربعين شاعرا، وأضاف إلى مجموعته شاعرا من كتاب أمية ابن أبى الصلت من شعراء العهد الكلبى ثم ضم إليها اثنى عشر شاعرا فى العهد النورمانى اختارهم من كتاب لابن بشرون المهودى يسمى المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر، وعرضت فى إجمال نشاط الشعراء فى عهد الأسرة الكلبية وأهم أمرائهم الذين التف حولهم شعراء صقلية والقيروان والجزائر. ثم تحدثت عن موضوعات الشعر الصقلى بادئا بالمديح وما نثره شعراء صقلية على الأمراء الكلبين وعلى المعز بن باديس أمير القيروان وأمراء الطوائف من مدائح بديعة وما كان من تمجيد خلفاء هؤلاء الشعراء للملوك النورمان مكرهين إذ كانوا أسرى فى أيديهم فأشادوا بقصور روجار الثانى: القبة والمنصورية والفؤارة، وكل ذلك - فى رأى - على أمل أن يفكوا عنهم أغلال الأسر وقيوده، وترجمت لشاعر مهم من شعراء المديح فى عهد الكلبين هو ابن الخياط. وعرضت طائفة من غزليات بديعة لشعراء صقلية فى عهد الكلبين والعهد النورمانى، وترجمت لشاعر بارع فى نظم الغزل هو أبو الحسن البلبوبى. وتحدثت عن شعر الفخر فى عهد الكلبين مع الترجمة لأبى الحسن الطوبى، وألمت بشعر الوصف وتصوير الشعراء الصقليين للطبيعة الفاتنة وللمغنين والراقصين وترجمت لأبى عبدالله بن الطوبى مع عرض تصاويره البديعة، وعرضت روائع الشعراء فى الرثاء مع الترجمة لمحمد بن عيسى ومرائيه وما أودع فيها من لظى نار متقدة، وألمت بما لشعراء صقلية من زهد فى متاع الحياة ومناجاة لربهم مع الأمل فى عفوه ومغفرته، يوم يؤخذ العاصون بالتواصى ويسأل كل شخص عما قدمته يده، مع الترجمة لابن مكى ودعوته إلى العمل الصالح قبل الموت والعزلة عن الناس، بل حتى عن الزواج وتكوين الأسرة وما يصاحبه من عواصف. وآخر الموضوعات التى عرضتها التفجع والحنين واللوعة التى لا تنطفئ جذوتها أبدا فى نفوس المهاجرين من صقلية الذين لم يهاجروا منها طوعا، وإنما هاجروا قسرا وفرارا من جحيم ظلم

لا يطاق. وقد ترجمت لابن حمديس الذي عاش مغترباً عن وطنه، يتفجع عليه ويتوجع له ويشن ويحنُّ حيننا ظامناً دائماً إلى رؤية عشه وسكنه وكل يوم يأتيه ما يزيدُه بأساً من لقائه وحرماناً من رؤيته، وحاولت أن أرسم حياته منذ خرج من فردوسه في الرابعة والعشرين من عمره سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى نهاية حياته غريباً في بجاية، وهو في أثناء ذلك يحاول أن يرسل إلى قومه في صقلية شعلاً من شعره تحمّسهم وتدفعهم دفعا إلى جهاد العدو الباغى. وتسقط في أيدي النورمان سرقوسة مسقط رأسه وقصريانة بعد نضال مستميت امتد سنوات، ويودعها بقصيد جنائزية تسيل حزناً وألماً وبأساً مريراً، وظل يبكي صقلية طويلاً ويبكى معها راعيه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية حين نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات في مراکش، وتعاوده مراراً ذكرياته في صقلية ويذرف الدمع عليها حاراً، ويلمع له شيء من الأمل حين ينتصر الحسن بن علي بن تميم أمير المهديّة على النورمان سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فيصوب إليهم قذيفة ملتبهة من مدحة له. وديوانه ضخم وليس فيه هجاء فقد كان أكرم على نفسه من أن يؤذى أحداً إلى وفاته سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ويكتظ الديوان بكثير من المعاني والأخيلة المبتكرة. وهو يعد في الذروة الرفيعة من شعراء العرب قاطبة.

وتحدثت عن النثر في صقلية وكتابه البارعين، واحتفظ ابن بشرون المهدي فيهما عقد من ترجمات لبعض شعراء صقلية برسائل لهم بديعة، وترجم ابن بسام في الذخيرة لكاتب بارع من كتابها قبل العصر النورمانى، هو ابن الصباغ، وأفردت له ترجمة، وبالمثل لابن ظفر وعرضت له كتابين بارعين هما: أبناء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع. وألحقت بالحديث عن صقلية كلمة عن رحلة ابن قلاقس الإسكندرى إليها وأشعاره فيها ومدائحه لأعيانها ولغليوم الثانى وبعض قواده من النورمان، وربما اضطر إلى ذلك اضطراراً، وله في راعيه هناك أبى القاسم بن الحجر كتاب سماه: «الزهر الباسم» ضمنه مدائحه فيه. والله أسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص فى القول والفكر والعمل وهو حسبى ونعم الوكيل.

شوقى ضيف

القاهرة فى ١٥ من أبريل سنة ١٩٩٢م



القسم الأول

ليبيانا





# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

١

### الجغرافية<sup>(١)</sup>

ليبيا أول أقاليم المغرب الممتد على البحر المتوسط غرباً من مصر إلى المحيط الأطلسي، وتنقسم من قديم إلى ثلاث مناطق: منطقة مجاورة لمصر هي برقة، ومنطقة مجاورة لتونس هي طرابلس، ومنطقة جنوبي طرابلس وصحرائها المتسعة خلف جبالها هي فزان أو منخفض فزان. وعلى طول البحر المتوسط سهل ساحلي يتراوح بين نحو ميل وعشرة أميال أو يزيد قليلاً. ووراء طرابلس سلسلة جبال تسمى نفوسة غرباً ويفرن في الوسط وغريان شرقاً إلى أن تنقطع عند ترهونة في أواسط منطقة طرابلس. وتعود الجبال إلى الظهور في ساحل برقة من قرب بنغازي إلى درنة شرقاً وتسمى الجبل الأخضر. وتترامي وراء جبال طرابلس هضبة صحراوية متسعة بها جبال السودان، ومنذ واحة غدامس في الغرب تصبح منطقتها ملاصقة للجزائر حتى أقصى الجنوب، وتلتقى عنده بجمهورية النيجر. والهضبة تمتد إلى ماوراء الساحل والجبال في برقة وهي هناك رملية وترتكز على قواعد صخرية، وفي كثير من جهاتها تصبح أمواجاً متلاطمة من الرمال، وتمتد إلى شرقي مصر، وتترامي جنوباً حتى تتصل بالسودان في الجنوب الشرقي، وتلاصق تشاد في أقصى الجنوب. ومنطقة فزان في أقصى الجنوب إلى الغرب منخفض شديد الاتساع، وأعدّه ذلك من قديم لتكثر فيه الواحات والوديان. وتتميز ليبيا بكثرة الواحات، وتلقانا بكثرة في ساحل طرابلس من زاوية في الغرب إلى مصراته في الشرق، وتلتقى بها في

أحمد رزقانه (نشر معهد الدراسات العالية بجامعة الدول العربية) وأطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس (نشر الزهراء للإعلام العربي - القاهرة).

(١) انظر في جغرافية ليبيا ومدنها كتاب المغرب في بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيدالبكري، ومعجم البلدان لياقوت وكتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان وكتاب المغرب الكبير لمحمد علي ديبوز وكتاب محاضرات في جغرافية ليبيا للدكتور إبراهيم

ساحل برقة عند بنغازى ودرنة، وتكثر في الداخل، وتلقانا على حدود مصر واحة جغبوب وغربيها واحة أوجلة وواحة جالو وإلى الجنوب واحة كفرة. والواحات كثيرة أيضا في الصحراء المترامية بمنطقة طرابلس مثل واحة غدامس غربا وبونجيم شرقاً ومزدة إلى الشمال وغات في أقصى الجنوب، وشمالها شرقي فزان واحة القطرون.

وإذا جاوزنا ساحل ليبيا والجبال وراه وجدنا المادة الغذائية للأشجار والنباتات قليلة فيما عدا الواحات التي تتخلع فيها الصحارى الليبية ثيابها الرملية الصفراء وترتدى حلا خضراء من حين إلى حين. ومن المؤكد أن في الشمال وفي مناطق قريبة منه مساحات كثيرة قابلة للزراعة. غير أن المياه بصفة عامة قليلة، مما يسبب قلة الزروع، وأكثر جهات ليبيا أمطارا ساحل منطقة طرابلس والجبال وراهها وساحل برقة من بنغازى إلى درنة وماوراءها من الجبل الأخضر. وتقل الأمطار في خليج سرت وفي المناطق الصحراوية. ويمكن تلافى قلة الزراعة في ليبيا بتوفير مياه كثيرة لها عن طريق ثلاث وسائل: أولاها حفر آبار ارتوازية، ومعروف أنه يمكن أن تتعمق في الأرض إلى أكثر من مائة متر بينا الآبار العادية قلما تتعمق إلى أكثر من ثلاثة أمتار وأربعة، وثانيها تركيب مراوح هوائية على الآبار تديرها الرياح السريعة التي تهبّ هناك، وثالثه تلك الوسائل لإصلاح السدود والصحاري والمطيرة التي كانت مبنية زمن الرومان أو محفورة للحفاظ على السيول المنحدرة من الجبال وعلى أمطار الشتاء المنهمرة حول المدن في الشمال وفي الداخل. ومن المؤكد أن الزراعة كانت مزدهرة بليبيا أيام الرومان، إذ كانوا يعدونها مخزناً لغلاتهم وحاجتهم من زيت الزيتون. ومن أهم أشجارها - بجانب أشجار الزيتون - أشجار النخيل، وخاصة في الواحات ويقال إن في واحة غات خمسين نوعاً من البلح الليبي، ومن أشجارها اللوز، وتكثر في الشمال كل أنواع الخضروات والفواكه والكروم، وتكثر في طرابلس الثمار الحمضية مثل البرتقال والليمون واليوسفى. وعلى الجبال والهضاب والأجزاء الصحراوية مراعى متسعة ترعى بها الإبل والبقر وقطعان الأغنام والحراف. والمعادن بليبيا كثيرة، فبجانب البترول المكتشف حديثا الكبريت ويشغل مساحة واسعة في خليج سرت، ولذلك يسمّى خليج الكبريت. ويوجد المرمر في غربي طرابلس وبنغازى ويوجد في الأخيرة الشب والفوسفات، وتشتهر فزان بالنطرون. والمظنون أن بليبيا معادن كثيرة مثل القصدير والرصاص والزنك والحديد. والمناخ في ساحل ليبيا مناخ البحر المتوسط المعتدل فيما عدا خليج سرت، فمناخه وخيم. وأكثر اعتدالا وأقل حرارة في الصيف مناخ الجبال وراه طرابلس وبرقة لارتفاع سفوحها ومصاطبها المختلفة، أما ما وراء الجبال من الهضاب والصحارى الداخلية فتشدد فيه الحرارة كلما توغلنا جنوباً حتى لتصبح بعض الأنحاء في الصيف أشبه بحمامات عالية الحرارة، فضلا عما يهبّ فيها من هبّ متقدّ محمّل بغلالات ساخنة من التراب والرمل اللافح.

التاريخ القديم<sup>(١)</sup>

تاريخ ليبيا المغرب في القدم يختلف باختلاف منطقتيها الغربية والشرقية: منطقة طرابلس ومنطقة برقة، ومعروف أن الفينيقيين ارتادوا ساحل طرابلس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بقصد التبادل التجاري مع أهلها الليبيين، وكانوا شعباً ملاحياً عريقاً يجتري التجارة، مما جعلهم يجوبون سواحل إفريقيا الشمالية وإسبانيا في القرن المذكور وبعده، وفي أول الأمر كانوا يقنعون بإقامات مؤقتة في أثناء تبادل العروض (السلع) التجارية مع شعوب الأقاليم والمناطق التي نزلوا فيها، ومع الزمن آثروا أن يقيموا لهم مدناً - أشبه بمستعمرات - ليتخذوها مراكز ثابتة لما يحملون وينقلون من عروض تجارية. وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أقاموا على ساحل طرابلس ثلاث مدن متقاربة، هي طرابلس، وكانوا يسمونها وايات Vaiaat وحرّفها الرومان فسمّوها أوبا Oea وأقاموا غربها مدينة صبراته Sabrata في موضع العجيلات الحالية وسمّاها العرب صبرة ومعناها بالفينيقية سوق القمح، وهو اسم يرمز إلى ما استتول إليه المنطقة في عهد الرومان إذ سيعدونها مخزن قمح لهم. وأقام الفينيقيون شرقي أوبا أو طرابلس مدينة لبدة Leptis في موضع مدينة الخمس الحالية.

وهذه المدن الثلاث سماها اليونان Tripolis أى المدن الثلاث وأطلق العرب هذا الاسم على أوبا Oea فأصبح اسمها طرابلس، وسمّيت بها المنطقة جميعها فيما يقابل برقة في المنطقة الشرقية من ليبيا.

- وإقامة الفينيقيين لهذه المدن الثلاث الكبيرة تشير بوضوح إلى نقلهم الليبيين نقلة كبرى من

للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ الفتح العربى للطاهر الزاوى وأعلام البيان له، والمنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النائب الأنصارى وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس وتاريخ المغرب الكبير لمحمد على ديبوز وتاريخ ليبيا للدكتور إحسان عباس وليبيا بين الماضى والحاضر للدكتور حسن محمود.

(١) انظر فى تاريخ ليبيا عامة فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيروانى (قطعة منه - طبع تونس) وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس لابن أبى دبنار ورحلة التجانى والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وكتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية

حياة التجوال والرعى إلى حياة الاستقرار والزراعة، ويُظنّ أنهم أدخلوا إلى منطقة طرابلس زراعة الفواكه مثل الخوخ والتين والبرقوق والكروم، والنباتات التي تنتج الحنّاء والزعفران والشيح، وبعض الأشجار مثل أشجار اللوز وربما أشجار الزيتون أيضاً. وبذلك بثوا في مدن طرابلس نشاطاً زراعياً بجانب نشاطهم التجارى. وخلفهم في المنطقة بالقرن الخامس قبل الميلاد أبناء عمومتهم القرطاجيون، واتسعوا بالضرب من النشاط التجارى والزراعى في طرابلس. وفي عهدهم أخذت تنظّم الصلة بين مدن الساحل الطرابلسى الثلاث وبين الواحات الداخلية وغدامس وغات وفزان، بل أخذت القوافل التجارية تتغلغل في قلب إفريقيا وتنقل من تلك الأنحاء الرقيق والعاج وريش النعام، ويظن أن الواحات المذكورة آنفاً كانت تستشعر الولاء للقرطاجيين.

وتتوالى الحقب حتى إذا اصطدم القرطاجيون بالرومان وتمت الغلبة للأخيرين استولوا على طرابلس ومدنها من أيدي القرطاجيين سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وفي عهدهم ازداد ازدهار المدن الطرابلسية الثلاث ووجهوا حملة إلى غدامس وفزان استولت عليها، واتسعوا بالنشاط التجارى إلى قلب إفريقيا، وأرسلوا لذلك ثلاث حملات استكشافية، أولاها لكشف مناطق طرابلس الجنوبية، والثانية لكشف أو اكتشاف السودان والثالثة لاكتشاف السودان الغربى. ويبدو أن أسراً رومانية كثيرة استوطنت منطقة طرابلس يدل على ذلك ما لا يزال إلى اليوم من كثرة الأطلال لمعابد وحصون وأبراج ومقابر وقنايل ونُصب عليها كتابات لاتينية متأكلة، ولا نلتقى بها في المدن الكبرى الثلاث: أويا وصبراته ولبدة فحسب. بل نجدها أيضاً في أماكن مختلفة على الساحل مثل ترهونة وفي مواضع مختلفة منها إلى طرابلس وأيضاً في الداخل مثل يفرن في المنطقة الجبلية الوسطى إذ على برج بها كتابات لاتينية، ومثل بونجيم إذ في الشمال مَبْنَى روماني كبير به كتابة لاتينية نقشت عليه سنة ٢٠١ للميلاد باسم الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكان قد ولد ونشأ في مدينة لبدة إحدى المدن الطرابلسية الثلاث المذكورة آنفاً، ثم رحل إلى روما ليكمل تعلمه وتطورت به الظروف إلى أن أصبح إمبراطوراً للدولة الرومانية، وقد أعفى أهل بلده الطرابلسية: لبدة من الضرائب الحكومية، وتقديراً منهم لصنيعه كانوا يهدون روما سنوياً كمية وافرة من الزيت، ويقال إنها حين وُزعت على سكان روما بعد وفاته سنة ٢١١ للميلاد كفتهم خمس سنوات. وحين اعتنقت روما المسيحية وعملت على نشرها في الولايات التابعة لها نشرتها أو حاولت نشرها في طرابلس لما كان بها من جالية رومانية كبيرة، وتدل على ذلك بعض الكنائس المطمورة في الأماكن الأثرية الرومانية. وعُتبت روما عناية واسعة بازدهار الزراعة في طرابلس إذ كانت تعدها - كما أشرنا - مخزنها الضخم للغلال ولزيت الزيتون وغير ذلك من الطيبات، وهو ما جعلها تكثر فيها

من القنوات لحمل مياه الأمطار من الجبال كما تكثر من الخزانات والصحاريج والسدود على الوديان لحزن مياه الأمطار وتوزيعها على الزروع. وازدهار الزراعة - حينئذ - جعل القرى والبلدان تكثر في الأنحاء الشمالية من منطقة طرابلس، كما جعل السكان يزدادون بها زيادة كبيرة.

وإذا كان الفينيقيون والقرطاجيون نزلوا طرابلس قديماً قروناً متعاقبة فإن اليونان هم الذين نزلوا برقة قديماً على نحو ما يحدثنا هيرودوت في تاريخه، إذ يذكر أن السكان اليونان ازدادوا زيادة كبيرة في إحدى جزر بحر إيجه، فأرسلوا في سنة ٦٥٠ قبل الميلاد بعثة منهم إلى الشاطئ الإفريقي في اتجاه برقة لعلها تجد لهم أراضى صالحة للنزوح إليها، ونزلت البعثة في جزيرة بلاتيا بخليج بميه شرقى درنة، وبعد سنوات قليلة نزحوا منها إلى الشاطئ الإفريقي، وأسسوا به مدينة سيرين Cyrene (شحات الحالية) غربى درنة، ثم أسسوا أربع مدن أخرى غربياً، هى على الترتيب Appollonise (سوسة الحالية) و Barca (سميت منذ القرن السادس الهجرى المرج مع أن المنطقة مسماة باسمها: برقة) و Arsimoenoe (طوكره الحالية) و Berenice (بنغازى الحالية) وأطلق اليونان على هذه المدن اسم بنطابلس Pentapolis أى المدن الخمس. وغلب على المنطقة جميعها اسم برقة كما ذكرنا وبالمثل غلب على منطقة ليبيا الغربية اسم طرابلس.

وظلت سيرين تعد مدينة برقة الأولى في عهد اليونان، ولذلك سماوا أراضى الساحل حتى بنغازى باسم سيريناىكا. وعلى نحو عناية الفينيقيين والقرطاجيين والرومان بالتجارة في طرابلس عُنِيَ بها اليونان في سيريناىكا أو برقة مما جعلها تنشط في عهدهم بين مدنها الخمس وبين الواحات الداخلية من جهة، وبينها وبين السودان من جهة ثانية، فكانت القوافل التجارية تسير منحدره وصاعدة بين بنغازى وسيرين في أقصى الشمال وواحات كفرة وأوجلة وفزان، ويتغلغل بعضها إلى السودان وخاصة إلى دارفور ووادى حاملة من هناك الرقيق وسنّ الفيل وريش النعام والكركم. وكانت برقة على علاقة حسنة مع مصر، وتوطدت هذه العلاقة بعد موت الإسكندر المقدونى وقيام دولة البطالسة بمصر إذ أصبحت جزءاً من دولتهم مما نشط تجارتها مع مصر إما عن طريق شاطئ البحر المتوسط والإسكندرية، وإما عن طريق الصحراء وواحة سيوة. وتدخل برقة في حوزة الرومان سنة ٩٦ قبل الميلاد، وبذلك تصبح ليبيا جميعها شرقاً وغرباً في نطاق دولتهم الرومانية، ولذلك تلتقى فيها الآثار اليونانية بالآثار الرومانية، وتكثر الأولى في سيرين (شحات الحالية) حيث ترى بها أطلال لآلهة اليونان ومقابرهم ومدرجات مسارحهم، وتلك المدرجات سمة دائماً لليونان في كل بلد أقاموا به، وحاكمهم في ذلك الرومان. وقد ذكر بتناءور الشاعر اليونانى في القصيدة التاسعة من قصائده مدينة سيرين. وأخذت

مكانتها تهبط منذ قصى الإمبراطور الرومانى تراجان على ثورة اليهود بها، وما تصل إلى القرن الثالث الميلادى حتى تصبح أنقاضاً وأثرًا بعد عين. وتابعت روما في برقة صنيعها في طرابلس من حيث العناية بالزراعة إذ كانت تعدُّها جميعاً مخزنين لما يلزمها من الغلال، فحفرت لذلك كثرة من القنوات تُرى - إلى اليوم - وراء ساحل برقة وقد طمرتها الرمال، كما تُرى هناك آثار السدود والخزانات والصهاريج التى أقامها الرومان واليونان بطالسة وغير بطالسة في كل مكان شمالاً، وتحجب كثرتها عن البصر اليوم الأتربة والرمل التى انهالت عليها عبر القرون.

وهذا النشاط الزراعى وما اتصل به من النشاط التجارى أهل برقة قديماً لرخاء جعل المدن - بجانب مدنها الخمس المارة - تكثر فيها مثل درنة وطبرق، واشتهرت الأخيرة بأن جيزيلاً أحد ملوك إسبرطة المشهورين كان يتخذها دار إقامة له.

وما يوافق العقد الرابع من القرن الخامس الميلادى حتى تغزو جموع الواندال الجرمانية الشمال الإفريقى وتسقط على ليبيا - كأمواج من جراد - تعيموتفسد في البلاد لنحو مائة عام، بل تدمر وتحتطم كل ما شاده الفينيقيون والقرطاجيون والرومان في طرابلس وكل ما شاده اليونان والرومان في برقة إلى أن تجرد لهم القائد البيزنطى بليزير Bélisaire وكشف غمّتهم عن صدر ليبيا سنة ٥٣٤ للميلاد وأصبحت - من حينئذ - تابعة لبيزنطة. ولا نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع حتى نجد إمبراطور بيزنطة يتبع ليبيا لحاكم الإسكندرية، إذ تذكر المصادر العربية أنه حين فتح عمرو بن العاص ليبيا كانت برقة تتبع هذا الحاكم، بينما كانت طرابلس تتبع حاكم قرطاجة بإفريقية التونسية المعروف عند العرب باسم جرجير تحريفاً لاسمه الحقيقى جريجوريوس، ويبدو أنه حين رأى عمرو بن العاص يستولى على مصر سارع بالاستيلاء على طرابلس ليحوز لنفسه شيئاً من الغنيمة، إذ رأى الدولة البيزنطية توشك على الانهيار.

### من الفتح العربى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى

لما أتم عمرو بن العاص السياسى البصير فتح مصر واستقامت له رأى أن يؤمن حدودها الغربية ضد الدولة البيزنطية حاکمة الشمال الإفريقى حينذاك، فأعد جيشاً في أواخر سنة ٢١ للهجرة فتح به برقة، إذ استجابت له سريعاً، وأرسل ابن خالته عقبه بن نافع إلى الداخل،

ففتح الديار في الصحراء حتى وصل إلى زويلة حاضرة فزان، واستسلمت سنة ٢٢ للهجرة. وبعد أن رتب عمرو بن العاص شئون الحكم في برقة اتجه إلى طرابلس ففتحها سنة ٢٣ للهجرة، واستعان ببعض قواده في فتح ما بقى من بلدانها وبلدان برقة. وتم ذلك كله في عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب واستتم عمرو بن العاص في سنة ٢٣ فتح نفوسة وبذلك عمت ديار ليبيا جميعاً أضواء الإسلام. وظل عمرو طوال هذه السنة والسنة التالية أو أكثرها ينظم شئونها، وترك لأهلها أن يجمعوا بأنفسهم الجزية والضرائب المفروضة ويؤدوها في الموعد المضروب. وكانت هذه سياسة رشيدة، ولم تفرض ضرائب فادحة كما كان الشأن أيام الدولة البيزنطية، وأحس البربر في ليبيا بتعاليم الإسلام في العدل والمساواة المثلث بين من يسلمون منهم وبين العرب، فأقبلوا على الدين الخفيف وأخذ يعتنقه كثيرون منهم. ويعود عمرو إلى مصر مخلصاً وراءه ابن خالته عقبة بن نافع. ويتولى الخلافة بعد عمر عثمان بن عفان، فيولى على مصر عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٥ للهجرة وتظل ليبيا لأيامه هادئة حتى فتنه عثمان سنة ٣٥ للهجرة، فتضطرب الأمور فيها وفيما وراءها من إفريقية التونسية، ويتولى عمرو بن العاص مصر ثانية لعهد معاوية. ويعنى معاوية ببرقة وطرابلس وإفريقية ويجعلها ولاية مستقلة ويولى عليها معاوية بن حديج السكوني سنة ٤٥ للهجرة، ويولى بدوره رويغ بن ثابت الأنصاري على طرابلس، ويترك معه كتيبة، ويدور عام وقيل بل عامان ويفتح رويغ جزيرة جربة شرقي مدينة قابس. حتى إذا كانت سنة ٥٠ للهجرة ولّى معاوية على المغرب جميعه عقبة بن نافع، فرأى بثاقب بصيرته أن يتخذ للجيش العربي قاعدة تكون معسكراً له، فيها ينزل الجيش ويسكنها ويخرج منها لمتابعة الفتوح في المغرب، واختار موقعا في داخل إفريقية التونسية غربي ميناء سوسة على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وشيد فيه مدينته وسماها القيروان أي المعسكر، وجعل حولها سورا من القرميد، وشيد فيها جامعاً كبيراً، وسرعان ما استحال القيروان مدينة ضخمة واستحال جامعها جامعة كبرى، ويعيد عقبة إلى إفريقية الهدوء والاستقرار ويقضى على الحكم البيزنطي في الشمال الإفريقي جميعه. وبمجرد إتمامه لمدينته سنة ٥٥ للهجرة عُزل، وتولى المغرب أبو المهاجر، وقد نازل قبيلة أوربة من البرانس وزعيمها كُسيَلة في تلمسان ودارت عليها الدوائر، وأسر كُسيَلة ودخل في الإسلام. وتولى الخلافة يزيد بعد أبيه معاوية، فأعاد إلى المغرب عقبة بن نافع سنة ٦٢ للهجرة، فسار بجيش ضخم اخترق به الجزائر والمغرب الأقصى حتى بلغ المحيط الأطلسي، وكان قد وُيخ كُسيَلة زعيم أوربة لما كان من حربه للمسلمين فأسرّها في نفسه، وصمم على الانتقام، وفي عودة عقبة بالجيش تأخر عنه في كتيبة صغيرة بجبال الأوراس جنوبي مدينة بسكرة في الجزائر وكان كُسيَلة قد جمع من أنصاره جمعاً كبيراً، فانتهز الفرصة وهجم على عقبة وصحبه واستشهد البطل العظيم، وأقيم له مسجد ضمّ رفاتة، وسميت المنطقة باسمه: سيدي عقبة.



ويتولى المغرب حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) فيثبت الدين الحنيف هناك ويدخل فيه البربر أفواجا، إذ سوى - حسب تعاليم الإسلام - بين البربر والعرب في كل شيء: في الأعطيات وفي الخراج وفي الجيش فلا فرق بين جند عربي وجند بربري لا في المعاملة ولا في القسيء وغنائم الفتوح، ولو أن الولاة في القرن الثاني اتبعوا هذه السياسة مع البربر ما انتقضوا عليهم ولا شهروا السلاح ضدهم كما سئى عما قليل. وأسس حسان مدينة تونس وبني بها دار صناعة متخذاً منها نواة لإنشاء أسطول مغربي عربي لحماية السواحل المغربية من القراصنة والمغامرين الأوربيين، واستقدم من مصر ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشائه. ونظم إدارة الحكم والدواوين تنظيماً دقيقاً. وأتم هذا التنظيم بعده موسى بن نصير والى المغرب الجديد (٨٥ - ٩٦ هـ) إذ جعل المغرب خمس ولايات: ولاية برقة، وولاية إفريقية التونسية ومعها طرابلس، وولاية المغرب الأوسط، وولاية المغرب الأقصى، وولاية السوس أو سجلماسة. وكان يرسل لبرقة وطرابلس عمالاً أو ولاة كانوا يعدون مستقلين في الشؤون الداخلية للمنطقتين، مع إرسالهم نصيباً من الضرائب وبعض الجنود إلى القيروان. وعمل موسى - بكل ما في وسعه - على نشر الدين الحنيف بين البربر بإنشائه في أنحاء المغرب لكتاتيب كثيرة تحفظ فيها الناشئة القرآن الكريم مع إحسانها لتلاوته ومع تعليمها بعض مبادئ الدين الحنيف. وتم هذا الرسوخ للإسلام في المغرب وأرجاء ليبيا لعهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) الخليفة التقى إذ أرسل إلى المغرب عشرة من كبار الفقهاء للعمل على نشر الدين الحنيف هناك، واختار أحدهم والياً على المغرب جميعه هو إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي واستجاب إليهم آلاف من البربر حتى ليتمكن القول بأننا لا نصل إلى مطلع القرن الثاني الهجري حتى يصبح المغرب جميعه داراً إسلامية يؤدى فيها الجمهور الأكبر فروض الدين الحنيف.

ولا تعود ليبيا وما وراءها من المغرب تحظى بوال من أمثال ابن أبي المهاجر وموسى بن نصير وحسان بن النعمان وعقبة بن نافع منذ وفاة عمر بن عبد العزيز، فقد أخذ يتولى المغرب ولاة ساموا البربر كثيراً من العسف والظلم، حتى إذا تولى عبيدالله بن الحبحاب المغرب زاد الطين بلة، بتشدده في جباية الأموال من البربر ورفضه رفضاً باتاً التسوية بينهم وبين العرب. وانتهاز الفرصة دعاء الخوارج من صفرية وإباضية ودعوا بقوة إلى مبادئهم في التسوية المطلقة بين العرب والموالي من بربر وغير بربر في جميع الحقوق والشئون المالية، وحتى في الخلافة نفسها فلا تقتصر على قريش وأبنائها بل يتولاها أكفأ المسلمين ولو كان عبداً حبشياً. واستجاب المغرب الأقصى سريعاً لمبادئ الصفرية ونشبت فيه ثورة سنة ١٢٢ للهجرة، وتهزم جيوش الدولة جيشاً من وراء جيش إلى أن يكتب لها النصر بعد سنوات. أما مذهب الإباضية فقد انتشر انتشاراً واسعاً في طرابلس وجبل نفوسة وغربي ليبيا، وكان قد أصبح زمام الحكم في

المغرب بيد عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع منذ سنة ١٢٦ للهجرة، فأخذ يرقبهم ويكثر من العيون عليهم، وعرف أن رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي، فأرسل إليه أخاه إلياس في قوة عسكرية كبيرة فقتله. ولم تنته بذلك الحركة الإباضية في طرابلس فقد بايع الإباضيون في طرابلس بعده بالإمامة الحارث بن تليد الحضرمي سنة ١٣٠ للهجرة واتخذ وزيراً له عبد الجبار بن قيس المرادي، والمظنون أنها كانا من جيش أبي حمزة الخارجي الذي أرسله الإمام طالب الحق اليمنى لفتح الحجاز ومدينتيه المقدستين، ولم يكتب له النصر أخيراً على الجيش الأموي، وتسلسل من جيشه الحارث وعبد الجبار إلى طرابلس، وأخذوا يدعون للمذهب بها، ونجحت دعوتها وبويع الحارث إماماً، وأرسل إليه عبد الرحمن بن حبيب جيشاً، ويقال بل ذهب إليه بنفسه على رأس جيش، غير أن جيشه هزم شر هزيمة، وأصبح إقليم طرابلس من سرت في ليبيا إلى قابس في إفريقية التونسية يعترف بإمامته معتقاً لمذهب الإباضية. وفي سنة ١٣٢ للهجرة يغتال الحارث بن تليد ووزيره عبد الجبار في ظروف غامضة، ويدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس ويفتك بكثيرين من زعماء الإباضية.

وتعيش طرابلس وإقليمها نحو ثماني سنوات في هدوء، حتى إذا كانت سنة ١٤٠ للهجرة ثار الإباضية بقيادة إمامهم أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري واستولى على طرابلس وأعلن بها إمامته، وكان حازماً مقداماً جسوراً غيوراً على الدين، وكانت قبيلة ورفجومة الصفرية استولت على القيروان منذ سنة ١٣٨ للهجرة واستباحتها واستحلت المحارم وارتكبت كثيراً من المآثم والفظائع بها وجروحها تنزف بالدماء وأهلها يكثرون من العويل ولا مغيث، وعلم أبو الخطاب بعيث ورفجومة واستحالة أبنائها في القيروان إلى ذئاب هائجة مسعورة، فثارت ثائرتة واتقدت حميته لأهلها وأعدت في سنة ١٤١ للهجرة جيشاً ضخماً نازل به ورفجومة النزفوية في معركة طاحنة قتل فيها قائدها عبد الملك بن أبي الجعد وهزمت هزيمة ساحقة، ودخل أبو الخطاب القيروان وطهرها من رجس هذه القبيلة الباغية، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم والياً عليها من قبله، وعاد إلى طرابلس عاصمته. وكل ذلك علم به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، فاختر أحد قواده العظام محمد بن الأشعث وولاه على المغرب، وأرسل معه جيشاً بالغ الضخامة في نحو سبعين ألف مقاتل يقودهم صفوة كبيرة من القواد، ونشبت بينه وبين أبي الخطاب معركة حامية الوطيس سنة ١٤٤ للهجرة قتل فيها أبو الخطاب وأكثر أنصاره بحيث لم تقم للإباضية في طرابلس وجبل نفوسة بعدها قائمة. وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تيهرت في المغرب الأوسط، وبها أقام للإباضية دولة ظلت نحو قرن ونصف. وتولى المغرب يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٣ للهجرة ويعود النظام والاستقرار والهدوء إلى طرابلس حتى نهاية ولايته سنة ١٧٠ وقد ضم برقة إلى مصر. وتولى المغرب بعد يزيد أخوه روح بن حاتم

ثم هرثمة بن أعين حتى سنة ١٨١ وكان عهدهما عهد أمن وطمأنينة في طرابلس. وكان الخليفة العباسي هرون الرشيد سئم من كثرة الاضطرابات والثورات في البلاد المغربية، فسأل عن مقدم جريء سيوس يستطيع ضبطها ضبطاً محكماً فأشار عليه قانده هرثمة بن أعين بإبراهيم بن الأغلب التميمي لما يعرف من كياسته ورجاحة عقله، فمنحه حكمها هو وأولاده وأحفاده طوال إقرارهم النظام فيها والأمن، وبذلك تأسست في إفريقية التونسية دولة الأغالبة منذ سنة ١٨٤ للهجرة حتى سنة ٢٩٦ وتبعتهم طرابلس وظلوا يرسلون إليها عمالاً وظلت ثوراتها لا تهدأ بسبب من كان فيها وفي جبل نفوسة من الإباضية، وكان إباضية تيهرت لا يزالون يمدون إلى إباضيتها عوناً مستمراً. ولعل ما كان يوليها الأغالبة من الأهمية هو الذي جعلهم دائماً يولونها ولاية بارزين من الأسرة، وكثيراً ما كانت تنتقض عليهم، على نحو ما حدث سنة ١٩٦ في عهد واليها عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب، واستطاع القضاء على الثورة، ومن أهم ولاياتها من أبناء الأسرة أبو العباس عبد الله بن محمد الأغلب، ونقله الأمير أبو الغرانيق، ثم أعاده إلى طرابلس، ومنهم أحمد بن سواده الأغلبى وكان شاعراً بارعاً ومحمد بن زيادة الله الثانى وكان أديباً وشاعراً وخطيباً ومؤلفاً بارعاً، ونفس عليه ذلك ابن عمه إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وغار من سمعته الطيبة عند خليفة بغداد الرشيد فتسلل إليه خفية في طرابلس وقضى عليه. وفي عهد هذا الأمير الأغلبى شهدت برقة سنة ٢٦٥ ثورة عباس ابن والى مصر أحمد بن طولون على أبيه، واتخذها قاعدة له وجهاز منها حملة كبيرة زحف بها على طرابلس، غير أن جيش عاملها الأغلبى محمد بن قرهب هزمه وردّه على أعقابها. ولم يلبث أبوه أن قضى على ثورته سنة ٢٦٨ وولى على برقة عاملاً يصلح فيها ما أفسده ابنه. وثار جبل نفوسة في سنة ٢٨٣ ثورة عنيفة قضى عليها إبراهيم بن أحمد الأغلبى قضاء مبرماً.

وحين قضت الدولة العبيدية الفاطمية على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ حاولت أن تبسط سيادتها على طرابلس وتم لها ذلك، وأرسل مؤسسها عبيدالله المهدي جيشاً إلى برقة، فاستولى عليها من يد واليها العباسى، وكانت برقة سنية وطرابلس إباضية، وكاننا ترفضان العقيدة العبيدية الإسماعيلية، ولم تلبث طرابلس في سنتي ٢٩٩-٣٠٠ للهجرة أن حملت لواء الثورة في وجه ماقتون واليها من قبل عبيدالله المهدي وفتكوا برجاله من قبيلة كتامة التي كانت تؤيد الدعوة الفاطمية وأتاحت للمهدي استيلاءه على صولجان الحكم من أيدي الأغالبة. وصمم المهدي على الانتقام من طرابلس وأهلها، فجرد لها حملة كبيرة بحرية وبرية ولم يلبث أسطوله أن قضى على الأسطول الطرابلسى، وضرب الحصار براً حول طرابلس حتى ساءت أحوال أهلها سوءاً شديداً، فطلبوا الأمان، فأمهم القائد أبو القاسم بن المهدي، وكان في الجيش معه أحد أبناء طرابلس ممن كانوا قد سارعوا بالالتفاف حول المهدي، وكان ابناً عاقاً فعذب أهل بلده ونكل

بهم وأغرهم ثلاثمائة ألف دينار، واستكانت طرابلس. وفي سنة ٣٠٤ ثارت برقة فنكل بها العبيديون تنكيلا شديداً. وفي سنة ٣١٠ ثار الإباضيون في جبل نفوسة ثورة عنيفة، وقضت عليها جيوش العبيديين. وتظل ليبيا غربا وشرقا خاضعة لهم إلا ثورات صغرى كثورة أبي حاتم وثورة أبي يحيى الإباضيين وقضى على الثورتين يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤-١٧٠ هـ). وحرى بنا أن نذكر أن من أهم قضاتهم الذين كانوا يرسلون بهم إلى طرابلس لنشر دعوتهم القاضى النعمان صاحب المؤلفات المشهورة في الدعوة إلى العقيدة الإسماعيلية الفاطمية، وتبع المعز الفاطمى في ارتحاله إلى عاصمته الجديدة: القاهرة سنة ٣٦١ للهجرة. وكان المعز قد ترك على بلاد إفريقية التونسية والمغربين الأوسط والأقصى بلكين بن زيرى زعيم قبيلة صنهاجة، وجعل جبل نفوسة تابعا له، وفصل عن ولايته طرابلس وبرقة ملحقا لها بمركز الخلافة في القاهرة، وجعل لكل منها واليا تابعا له، ولم يدم ذلك لطرابلس طويلا، فإن بلكين أُلحَّ على الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) أن يلحقها بولايته هى ومنطقتها، وأجابه إلى أمنيته سنة ٣٦٧ وولى عليها بلكين حتى سنة ٣٧٣ هـ ولاة من قبله، وخلفه ابنه المنصور ثم حفيده باديس سنة ٣٨٦ للهجرة وأخذ يرسل إليها بدوره ولاة مختلفين، كان آخرهم عسيلة بن بكار سنة ٣٩٠ فخانه بتسليمها إلى يانس الصقلى حاكم برقة، وأرسل إليه باديس أحد قواده على رأس جيش حاصر طرابلس. وفي هذه الأثناء تسلل إلى طرابلس مغامر من قبيلة زناتة يسمى فلفل بن سعيد واستولى عليها وأسَّس بها دولة بنى خزرون، وأخذت تكثر بها الاضطرابات والمنازعات بين أفراد الأسرة ومن الطريف أنه تأسس في طرابلس حينئذ مجلس شورى يساعد الحاكم الخزرونى في تصريف الأمور، وأول من رأسه على بن محمد بن المنمر، وقد قضى هذا المجلس على آثار المذهب الشيعى في طرابلس وثبت المذهب المالكى السنى بها، وظلت أسرة بنى خزرون تحكم طرابلس حتى منتصف القرن الخامس الهجرى. وإذا ولينا وجوهنا نحو برقة في تلك الفترة وجدنا أمويا أندلسيا يسمى أباركوة يدعو لنفسه فيها بالخلافة، ويتبعه بنو قررة البرقيون أصحاب الجبل الأخضر، ويحاربون معه الفاطميين ثم يتخلون عنه ويقتل. وتظل الزعامة في برقة لبنى قررة طوال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى.

## من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجرى

هاجرت إلى ليبيا وإفريقية التونسية والمغرب الأوسط جموع أعرابية كبيرة من قبائل بنى سليم وبنى هلال كان القرامطة في البحرين قد ضموا من نجد إلى جيش ضخم نازلوا به الفاطميين في الشام ومصر، وما كادت تدخل في الديار المصرية حتى انضمت إلى الجيش الفاطمى، مما كان سببا في اندحار الجيش القرمطى وارتداده إلى البحرين، وقد نقلها العزيز بالله الفاطمى إلى الضفة الشرقية على النيل بالصعيد الأعلى، وظلت هناك مصدر قلق واضطرابات لأهل الريف الصعيدى، مما جعلها تتحول إلى مشكلة كبرى للحكم الفاطمى بمصر. ودار الزمن دورات وإذا الحاكم الصنهاجى الرابع المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) في إفريقية التونسية والمغرب الأوسط يؤثر المذهب السنى مشايعة لشعبه المغربى ويقطع الدعوة الفاطمية الإسماعيلية منضويا تحت لواء الخليفة العباسى سنة ٤٣٨ للهجرة، وامتلاً الخليفة الفاطمى المستنصر سخطا وموجدة عليه، ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك من الجند والجيوش ما يستطيع به القضاء على المعز بن باديس، وانتهاز الفرصة وزيره الحسن بن على اليازورى، فأشار عليه بإقطاع مشايخ بنى سليم وبنى هلال أعمال المعز بن باديس في المغربين الأدنى والأوسط وهجرتهم إليها مع قبيلتيهما، وقال له إنهم إن ظفروا بالمعز وقبيلته: صنهاجة تحققت أمنيته وصاروا أولياء للدولة وعمالا لها في تلك الأنحاء القاصية مع زوال عيثهم وفسادهم عن أهل الصعيد بمصر، وإن هم لم يظفروا بالمعز نكن قد تخلصنا منهم، ودبرنا له ما يقضى عليه. ووقعت المشورة من نفس المستنصر موقعا حسنا، واستدعى مشايخ القبيلتين وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجى العبد الآبى فلا تفتقرون» وأغرى الشيوخ بجوائز كبيرة، وأمر لكل بدوى من القبيلتين ببيعير ودينار. وانطلقت جموع بنى سليم وبنى هلال بفروعها (الأثيج وزغبة ورياح وجشم وعدى وربيعة والزواودة) سنة ٤٤٣ للهجرة إلى برقة وانسابوا فيها بخيلهم ورجلهم ينهبون ويسلبون واستقرت فيها مجاميع من بنى سليم، وتقدمت بقية هذه القبيلة مع بنى هلال بفروعها إلى طرابلس وإفريقية التونسية، وكان يتولى قيادتها جميعا يحيى الرياحى شيخ بنى رياح الهلالين، ولما استقرت جموع القبيلتين في طرابلس انعقدت له الرياسة فيها وفى انتقاهم إلى إفريقية التونسية، ولا يعرف عدد من دخل المغرب من القبيلتين، ويرى بعض المؤرخين أنهم لم يكونوا يقلون عن خمسمائة ألف ويقول ابن خلدون إنهم كانوا يسرون فى جموعهم كجراد منتشر لا يرون على شىء إلا أتوا عليه، فهم يطلقون

قطعانهم من الإبل والغنم على الزروع وهم يخربون المنشآت والقصور ويقتلعون الأبواب ويقدمونها وقودًا للنار. وحقا قد يكون ابن خلدون مسرفا فيما وصف به القبيلتين المذكورتين من النهب والسلب وتخريب العمران ولكن من الحق أيضا أن أعراب هاتين القبيلتين لم يكونوا مثل عرب الأجيال العربية الأولى الذين فتحوا بلدان الدولتين الساسانية والبيزنطية وأقاموا دولة الإسلام الكبرى المجيدة، إذ لم يكونوا جيوشا نظامية، وكانوا بدوا لا صلة لهم بالحضارة، ولم يكن لهم في هجرتهم إلى المغرب لا هدف ديني ولا هدف قومي، كما كان الشأن في فتوح العرب الإسلامية الكبرى وقد نازلهم المعز بن باديس في مكان يسمى حيدران بالقرب من قابس ودارت عليه الدوائر ودخلوا القيروان سنة ٤٤٦ ونهبوها وخرَّبوها، واضطر أن ينسحب منها إلى المهديّة عاصمة الفاطميين بالقرب منها وبها توفي سنة ٤٥٤ للهجرة. وظل هؤلاء الأعراب سادة القسم الأكبر من إفريقية التونسية وسادة طرابلس إلى عهد الموحدين في القرن السادس الهجري.

وقد تحولت برقة منذ هجرة بني سليم إليها في أواسط القرن الخامس الهجري من حياتها المستقرة في المدن الشمالية والواحات الداخلية إلى مشيخات بدوية لبني سليم واستحالت في جميع أجزائها إلى مراعى واسعة، وظل ذلك فترة طويلة نحو مائة عام، بل تزيد وكانت في أثناء ذلك تدين بالولاء لمصر، وانشغل حكامها عنها بالحروب الصليبية وتزعزع هذا الولاء في أواخر زمن الدولة الفاطمية لهذا السبب. ونرى صلاح الدين الأيوبي حين قضى على تلك الدولة يفكر في برقة وفرض ولاء مصر عليها وعلى إفريقية التونسية، ويكلف بهذه المهمة ابن أخيه المظفر تقي الدين، فنتولى فرق أو كتائب من جيشه على أجزاء من برقة ويعهد إلى اثنين من قواده - ربما بمشورة صلاح الدين - بإتمام هذه المهمة، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش، أما ابن قراتكين فتوغل في أوائل العقد الثامن من القرن السادس في ليبيا، ومضى حتى بلغ قفصة في إفريقية التونسية، واتخذها مقرا له، واستقر بها إلى أن فتكت به دولة الموحدين المغربية سنة ٥٨٣ ودخلت قفصة في حوزتهم. وأما قراقوش فقد مضى إلى أوجلة فافتتحها، وتقدم إلى فزان فاستولى على عاصمتها زويلة من بني الخطاب واتجه إلى الشمال واستولى على طرابلس سنة ٥٧٩ فترة وتقدم فاستولى على قابس، ومنه استردها الموحدون بعد استردادهم لقفصة من ابن قراتكين سنة ٥٨٣ مما اضطره إلى إعلان طاعته لهم، غير أنه عاد إلى العيث والإفساد واضعا يده في يدى ابني غانية على ويحى حين عاثا في إفريقية التونسية ضد الموحدين، وبعد مغامرات شتى مع من انضم إليه من بني سليم قتل سنة ٦٠٩ للهجرة، وظلت برقة بعده موالية لمصر طوال العصر الأيوبي، واطرد ولاؤها في زمن الماليك، ونرى الظاهر بيبرس سلطانهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) بطل موقعة عين جالوت ضد التتار الذي دفع سيولهم عن الشام إلى غير

رجعة يُولى برقة اهتمامه منذ سنة ٦٦٢ للهجرة ويُولى عليها شيخا حصيُفا من بنى سليم هو عطاء الله بن عَزاز، ويكل إليه جباية الزكاة من الإبل والأغنام وعُشْر الزروع والثمار. وحين غزا لويس التاسع تونس سنة ٦٦٨ بعد إخفاقه المشهور في غزو مصر وأُسره في دار ابن لقمان بالمنصورة أمر ببيرس ابن عزاز بإرسال نجدة سريعة إلى تلك المدينة، وأخفقت غزوة لويس التاسع لها، ومات مقهورا تحت أسوارها. وكانت بعض البلدان في برقة تثور أحيانا على ابن عزاز، فكانت مصر تسارع إلى تأييده على نحو ما حدث في طلميثة شمالى بنغازى وعودتها سريعا إلى الطاعة. وظل بنو عزاز يتولون برقة ويصرّفون شئونها ويشرفون على قبائلها إن لم يكن فيها جميعا ففى أكثر بلدانها وبواديها. وفي النصف الأول من القرن التاسع الهجرى نازعهم فيها عُرَيْف بن عمر وابنه. وتظل برقة موالية لمصر إلى أن استولى العثمانيون على القطر المصرى من أيدي المماليك سنة ٩٢٣ للهجرة، وطبّعى أن يمدوا سلطانهم إلى برقة التى ظلّت تدين بالولاء طويلا لمصر، وظلت تستشعر هذا الولاء إلى أن ضمّها والى طرابلس العثمانى محمد الساقلى (١٠٤٣ - ١٠٥٩ هـ). إلى ولايته.

وتاريخ طرابلس ينفصل عن تاريخ برقة منذ انضمامها إلى إفريقية التونسية سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م فى عهد حكامها من بنى زيرى الصنهاجين، وقد استقل بها بنو خزرون منذ أواخر القرن الرابع الهجرى إلى نحو سبعين عاما، وتكتسحها الهجرة الأعرابية الكبيرة لبنى هلال وبقايا بنى سليم، وتعانى من ذلك طويلا، وفى هذه الأثناء زالت السيادة العربية عن صقلية وسقطت فى حجر النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م نهائيا، وحينئذ أخذت تتراءى فى الأفق نذر خطر جسيم على الساحل الإفريقى، فقد استولى النورمان على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م وأعلن روجار الثانى ملك صقلية الحرب الصليبية على الساحل الإفريقى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وجَهَّز أسطولا يحاصر طرابلس ويتقب سورها، غير أن أهلها ومن وراءهم من الأعراب ردوا الأسطول على أعقابهِ وغنموا أسلحته، ولم يلبث شيخ من شيوخ العرب هو أبو يحيى بن مطروح التميمى أن استخلص طرابلس لنفسه، ونازعه فى سيادتها وسلطانها بعض أهلها، ونشبت بينها الحرب، وكان النورمان يعلمون ما صار إليه الشمال الإفريقى من ضعف الدولة الزيرية الصنهاجية وانزواء تميم بن المعز وأبنائه فى المهديّة وأنحائها وما تبعهم من شريط ساحلى ضيق، به جزيرة جربة وصفاقس وقابس، ولم يلبث الأسطول النورمانى أن استولى على المهديّة وجزيرة جربة وصفاقس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨، وعاد إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها، وبدلا من أن تغمد الفئتان المتنازعتان فى طرابلس أسلحتها ويوجهها إلى صدور أعدائهما الصليبيين ظلا يتحاربان ويقتتلان، وبذلك هبّا الفرصة لأعدائهما النورمان، فتسلقوا الأسوار، ودخلوا طرابلس وأمعنوا فى النهب والسلب والقتل وفرضوا على أهلها جزية يؤدونها لملك صقلية، وتركوا

حكمتها في يد أبي يحيى بن مطروح، فحكمتها حكما شوريا، إذ أُلِّف لها مجلسا مكونا من عشرة شيوخ كانوا يعقدون اجتماعاتهم في مسجد خارج المدينة للتشاور والتداول في تدبير أمورها. وظل النورمان الصقليون يحكمون طرابلس أكثر من عشر سنوات، ولاح لابن مطروح وأهلها نور قوة كاسحة في المغرب الأقصى، هو نور دولة الموحدين التي أخذت تستولى على بلدان المغرب، فعظم الأمل في نفوس الطرابلسيين أن تمد إليهم يد العون في التخلص من حملة الصليب، وما توافى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م حتى يشتد بهم الغضب لأدائهم جزية لنصارى صقلية، وفي إحدى الليالي يهجمون على الحامية الصقلية، فيحرقون بيوتها بالنار حرقا، ويدبحونها عن آخرها ذبحا، حتى لا يفكر النورمان في النزول بطرابلس ثانية. وينزل خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي المهدي سنة ٥٥٥ بعد طرد النورمان من ساحل إفريقية التونسية نهائيا، ويفد عليه ابن مطروح على رأس وفد من رجالات طرابلس، ويحتفى بهم، ويولى ابن مطروح حاكما على طرابلس من قبله، وما زال يتولاها حتى أدركته الشيخوخة، فرأى في سنة ٥٨٦ للهجرة أن يؤدي فريضة الحج فاستأذن أبا زيد بن أبي حفص والي تونس للموحدين، وأذن له واستقل سفينته، واضطرت في طريقها إلى الإسكندرية أن تتوقف قبل الوصول إليها ورسد في موضع لا يزال ينسبه المصريون إليه هو: «مرسى مطروح» المدينة المعروفة الآن على الشاطئ المصري. وتنبه عبد المؤمن خليفة الموحدين للانتفاع بأعراب بنى سليم وبنى هلال في جهاده لأعداء الدين الحنيف في الأندلس، فكلف القاضي ابن عمران بنظم قصيدة يستحث فيها بنى سليم للجهاد في نصرة الإسلام كما نصره أبائهم قديما، وصنع صنيعه ابنه يوسف حين اعترزم غزو نصارى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م إذ طلب إلى صديقه ابن طفيل الفيلسوف الأندلسي المشهور أن يستنفر الأعراب بقصيدة حماسية، فنظم قصيدة تتأجج حماسة ملتبهة استهلها بقوله:

أقيموا صدورَ الخيل نحو المغربِ لغزو الأعداى واقتناء الرغائب

وتأخر وفودهم على يوسف خليفة الموحدين، فأرسل إليهم ابن طفيل قصيدة ثانية، فلبى يوسف كثيرون منهم انتظموا في جيشه المتجه لغزو النصارى في الأندلس، وأكبر الظن أن ابنه يعقوب خليفة الموحدين بعده جند منهم كثيرين في جيشه المظفر الذي جاز به إلى الأندلس، وأوقع بالقشتاليين ومن كانوا معهم من نصارى الشمال وقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ التي مَزَّق فيها أعداء الدين الحنيف كل ممزَّق.

ومرَّ في حديثنا عن برقة أن المظفر تقى الدين ابن أخى صلاح الدين الأيوبي كان قد أرسل إلى ليبيا وإفريقية التونسية قائدين من قواده للاستيلاء عليهما، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش وأن الأول استطاع الاستيلاء على قصبة إفريقية التونسية إلى أن استولت عليها



دولة الموحدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأن الثاني استطاع الاستيلاء على أوجلة وفزان، كما استولى على طرابلس فترة محدودة سنة ٥٧٩ بعون بني رياح وبني دياب الهلاليين، واتجه غربا واستقر في قابس بإفريقية التونسية، واستولى عليها منه الموحدون سنة ٥٨٣ وفي هذه الأثناء كان علي بن غانية صاحب ميورقة حفيد يوسف بن تاشفين يضطغن على دولة الموحدين إزالة ملك أسرة ابن تاشفين أصحاب دولة المرابطين من المغرب والأندلس، فرأى أن يقدم على أعراب طرابلس ويكوّن منهم جيشا لحرب الموحدين واسترداد ملك المرابطين، ووجد قراقوش يحاول دفع هؤلاء الأعراب للانتفاض على الموحدين، فوضع يده في يد قراقوش مددا متطاولة مثيرين للقلقل والاضطرابات في المنطقة، وحين استولى الموحدون من قراقوش على قابس أعلن طاعته لهم مداراة ومكرا، ودار العام ففتك الموحدون بعلي بن غانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وكان يرافقه أخوه يحيى، فخلفه في الشغب على الموحدين، واشتبك مع جنودهم في معارك مختلفة، واشترك مع قراقوش في الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م واختار يحيى بن غانية واليا عليها تاشفين بن غازي، ووالته قابس وصفاقس، وفسد ما بينه وبين قراقوش، فحاصره في ودان جنوبي مدينة سرت حتى نفذ زاده واضطر إلى الاستسلام وقتله وصلبه سنة ٦٠٩ واسترد الموحدون طرابلس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وأداروا مع يحيى بن غانية بالقرب من تونس سنة ٦٢١ معركة حامية الوطيس هزم فيها هزيمة ساحقة، وفر إلى الجنوب هاربا، وظل ينتقل بين الأعراب إلى أن توفي سنة ٦٣١ للهجرة. وظلت طرابلس - منذ استولى عليها الموحدون - تتبع حاكم تونس - وتطورت الظروف سريعا وأسس بتونس أبو زكريا الحفصي الدولة الحفصية سنة ٦٢٥، وأخذ في العمل على تأسيسها وعاشت قرونا متوالية حتى القرن العاشر الهجري. وعاشت طرابلس في إطار سيادتها وأخذت تسترد نشاطها الزراعي والتجاري، واشتهر من قضاتها الطرابلسيين في أوائل هذا العصر أبو موسى عمران بن معمر الهواري، وظل يقوم على القضاء العادل البصير بها حتى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وطارت شهرة أحكامه وفتاويه إلى تونس وسلطانها المستنصر الحفصي فاستدعاه وأسند إليه القضاء في عاصمته: تونس. وولى إفريقية التونسية بعد المستنصر ابنه الواثق يحيى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وخُلع سنة ٦٧٨ للهجرة وتولاها عمه إبراهيم. وظهر - حينئذ - دعوى من بجاية يسمى ابن أبي عمارة أحمد بن مرزوق طمح إلى الملك فترك مهنة الحياكة التي كان يمتنها في بلدته، ونزح إلى سجلماسة، وأدعى في الأعراب هناك أنه المهدي المنتظر، وبايعه بعضهم، غير أنه شعر أن دعوته لن تنجح هناك، فتركهم، ونزل بين أعراب طرابلس، وأدعى أنه ابن الخليفة الواثق المخلوع وأن اسمه الفضل وبايعه كثيرون من بني سليم على نصرته، ودانت له طرابلس وبعض البلدان في غربي ليبيا وشرقي تونس وتقدم فاستولى على تونس سنة ٦٨١ وولى على طرابلس مرغم بن صابر من بني سليم، وأسره الصقليون في بعض غاراتهم سنة ٦٨٢ للهجرة، وباعوه لملك أراجون البرشلوني.

ولم يلبث الخليفة الحفصي عمر بن أبي زكريا أن استرد ملك آباءه الحفصيين سنة ٦٨٣ وأرسل إليه والي طرابلس محمد بن عيسى الهنتاني رسالة مدعنا فيها لطاعته. وفي سنة ٦٨٨ أرسل ملك أراجون سنة ٦٨٨ مع أسيره مرغم بن صابر حملة إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها وباءت بالفشل الذريع. ونزل بطرابلس سنة ٧٠٨ أمير حفصي في أثناء توجهه إلى أداء فريضة الحج هو أبو يحيى زكريا بن محمد اللحياني وفي عودته سنة ٧٠٩ أقام بها فترة جعلت أهلها يجلبونه ويقدرونه. وكان الحكم في إفريقية التونسية قد ساء سوءاً شديداً، إذ تولاه خليفتان اختلت الدولة في عهدهما اختلالاً سيئاً. فتحدث كثيرون من أهل طرابلس إلى الأمير المذكور محرّضين له على تولي مقاليد الخلافة بتونس حتى يصلح شئون الحكم بها وتعهدوا له بتأييده ونصرته، ونجحت الخطة، واحتل اللحياني تونس سنة ٧١١هـ/١٣١١م وأخذت له فيها البيعة، وظل يلى شئونها ويصرف أمورها تصريفاً حسناً لمدة ست سنوات، ونهض في آخرها لمقاومته أمير قسنطينة بالجزائر وكانما داخله اليأس من الانتصار عليه، فلجأ إلى طرابلس آملاً أن يعود منها بجموع تنصره، وترك الحكم في تونس لابنه محمد الملقب بأبي ضربة، وأخذ يكوّن في طرابلس جيشاً فتح به كثيراً من البلدان الليبية، غير أن أمير قسنطينة تغلب على ابنه أبي ضربة، وشعر أن وضعه في طرابلس لم يعد آمناً، فرحل من طرابلس بحرا إلى الإسكندرية وحل بها ضيفا على السلطان قلاوون إلى أن توفى، أما طرابلس فقد ترك الحكم فيها إلى صهره محمد بن عمران، وظل يلى شئونها إلى أن ثار عليه أهلها سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م واختاروا بعده لحكمهم شخصا من أسرة طرابلسية ناهية هو ثابت بن محمد بن ثابت بن عمار، وبه تأسست دولة بني عمار في طرابلس من سنة ٧٢٤ للهجرة إلى سنة ٨٠٣ وظل الأميران الأولان من هذه الأسرة يسوسان طرابلس وإقليمها سياسة حسنة، ويقول ابن خلدون إن تجارا من جنوة كانوا يترددون على طرابلس ولا حظوا ضعف تحصيناتها لعهد أميرها الثالث من بني عمار ثابت بن محمد بن ثابت وأغراهم ذلك بمهاجرتها، وتجمع أسطولهم في مينائها، وانتشروا في أسواقها يتظاهرون بأن غرضهم التجارة ومبادلة السلع وفي الليل أو في إحدى الليالي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م تسلقوا أسوار طرابلس واستولوا عليها في غفلة من أهلها، وفرّ ثابت أو حاول الفرار في أثناء حصارهم لقصره بها، ورآه بعض الأعراب ممن يعادى قبيلته فقتله. وظل الجنويون بطرابلس نحو عام، ودفعت الحمية لأهلها وللدين الحنيف أبا العباس أحمد بن مكى حاكم قابس في إفريقية التونسية إلى أن يفاوض قائد البحرية الجنوية لإخلائها والنزوح عنها فطلب لقاء ذلك خمسين ألف دينار ذهباً، فجمع ما عنده وأكمل ما بقي من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد، دفعوها له متحمسين، وأداها ابن مكى، وبارح الجنويون طرابلس بعد أن تركوا لهم فيها قنصلية ومستودعاً لبيع سلعهم. وتولى شئونها ابن مكى حتى وفاته سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م وخلقه عليها ابنه عبدالرحمن. وكان أحد أبناء أسرة بني عمار: أبو بكر بن محمد بن ثابت فرّ عنها - حين نزلها الجنويون -

إلى الإسكندرية، فعاد إليها سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م في أسطول، فحاصرها، وأعانها أهلها في استيلائه عليها، حتى يتخلصوا من عبد الرحمن لسوء سيرته. ولما استولى عليها أبو بكر استسلم له عبد الرحمن، فأرسله مكرماً إلى بلدة قومه قابس، وظل أبو بكر يدبّر شئون طرابلس عشرين سنة. وخلفه عليها أخوه عمران حتى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وأخذ أبناء الأسرة يحملون السلاح بعضهم ضد بعض، وحاول أحدهم وهو علي بن عمار الاستعانة بملك صقلية المسيحي مما جعل السلطان الحفصي أبا فارس عبدالعزيز يذهب إلى طرابلس بنفسه سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ويعزل عنها آخر ولاتها من بني عمار: يحيى بن أبي بكر ويعيدها إلى حظيرة الدولة الحفصية ويولى عليها أحد قواده، وبذلك انتهت دولة بني عمار في طرابلس. وظل الولاة الحفصيون يولون شئونها في القرن التاسع الهجري، وكانوا يوجهون إليها أحياناً بعض حملات، وآخرها حملة أبي عمرو عثمان الحفصي سنة ٨٦٣ وبلغ فيها تاجوراء شرقي طرابلس. وحين أخذت الدولة الحفصية في الضعف أخذت طرابلس تحكم حكماً ذاتياً بمجلس شورى يرأسه أحد الشيوخ النابهين، وكان آخرهم الشيخ عبد الله الذي رأس مجلسها وحكمها منذ سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م إلى أن هاجمها الأسطول الإسباني سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م.

وكان يتولى إسبانيا فرديناند الكاثوليكي الذي استولى على غرناطة من يد أبي عبدالله الصغير وأخرج العرب من الأندلس وقد سؤل له شيطانه أن يستأنف الحرب الصليبية بتعقبهم في الساحل الإفريقي الذي نزلوا فيه، ولم يكن للدولة الزيانية في الجزائر ولا للدولة الحفصية في تونس وطرابلس أسطول يحمي الساحل الإفريقي، واستطاع أسطول فرديناند الاستيلاء على المرسى الكبير في الجزائر سنة ٩١٠هـ/١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م. وفي سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م هاجم الأسطول الإسباني طرابلس، واحتلها بعد مقاومة عنيفة من أبنائها استشهد فيها منهم كثيرون، وخرج منها أكثر سكانها إلى تاجوراء واتخذوها مركزاً لمقاومة العدو الصليبي، وبذلك توقف كل ما كان بطرابلس من نشاط وتعطلت حركتها التجارية بينها وبين الإسكندرية والشرق وأيضاً بينها وبين صقلية والبندقية وجنوة في الغرب وساءت أحوال أهلها الاقتصادية، وفي سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م سلم المدينة شارل الخامس ملك إسبانيا إلى فرسان مالطة المعروفين باسم القديس يوحنا، وظلت الأحوال في طرابلس تزداد سوءاً على سوء، وظل كثير من سكانها يغادرونها إلى مدينة تاجوراء مركز المقاومة.

## في العهد العثماني

كانت الدولة العثمانية بالقرن العاشر الهجري في أوج قوتها، فانتخب أهل تاجوراء وقدًا ذهب إلى إستانبول مستغيثًا بتلك الدولة طالبًا منها حمايتها لطرابلس وإقليمها وطررد فرسان مالطة من ديارها، ولقيهم السلطان العثماني: سليمان لقاء كريمًا، وأمر فورًا الأغا مرادا بمرافقتهم للتعرف على أحوال المنطقة ونزل تاجوراء سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأنشأ بها جامعًا ومدرسة، وأرسل إلى السلطان بالأحوال في المنطقة، فأمر سنان باشا قائد الأسطول العثماني أن ينسق كافة العمليات الحربية مع مراد أغا لإخراج فرسان مالطة من طرابلس، فأمر سنان باشا درغوت الذي كان مرابطًا - حينئذ - ببعض قطع من الأسطول أمام الجزائر بمهاجمته لأولئك الفرسان بطرابلس وطردهم منها، وصدع توالأمره وهاجم طرابلس، واستسلم له فرسان مالطة سريعًا سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م. وأصبحت طرابلس ومنطقتها تابعة للدولة العثمانية، وكان مراد أغا أول من شغل منصب الوالي التركي بها، فعمل توال على ترميم القلعة وتعمير المدينة، وحوّل الكنيسة التي بناها فرسان مالطة بالقلعة إلى مسجد، وأخذت الحياة العامة في طرابلس تنشط ونشطت معها التجارة، وسرعان ما أصبحت طرابلس قاعدة مهمة من قواعد البحرية العثمانية في البحر المتوسط. وأدرسته الشيخوخة سريعًا، فرأى ترك طرابلس سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م إلى تاجوراء، لتمضية بقية حياته، وخلفه على البلاد من قبل الدولة العثمانية درغوت، وكان قائدًا بحريًا عظيمًا، فاتخذ طرابلس قاعدة كبرى لعملياته البحرية الحربية ضد قرصنة وأساطيل الأوربيين من إسبان وغير إسبان، وكثرت بها الغنائم والأسرى الأوربيون، وبذلك أعاد إلى الأذهان سيرة خير الدين (بربروس) في الساحل الجزائري واتخاذ الجزائر وغيرها من مدن هذا الساحل قاعدة لأعماله البحرية العظيمة التي ظلت ترتعد لها فرائص الأوربيين، وبالمثل أنزل بهم الفزع والرعب درغوت بسفنه البحرية وجنوده من الترك والطرابلسيين المغاوير. وعنى عناية واسعة بتحصين المدينة فأنشأ بها أبراجًا مختلفة وقصرًا له ودارًا للبارود وأذن للأسرى المسيحيين بإنشاء مقبرة خاصة بهم مما يدل على كثرتهم في أيامه بسبب حملات أسطوله البحرية وجهاد جنوده البحري في سبيل الإسلام وحماية ديار أبنائه المغاربة. وأنشأ بطرابلس جامعًا عظيمًا ضم رفاتة حين توفى سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م ووليها بعده علي ساعده الأيمن في القيادة البحرية لفترة محدودة، وخلفه عليها جعفر باشا وولاه آخرون منهم مصطفى باشا وفي عهده استولى نائر من أهل البلاد هو يحيى الجبالي سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م على كل ما سوى

طرابلس من المدن والأوطان وجبى خراجها، وزحف إلى المدينة وحاصرها، واستدعت الدولة العثمانية الوالى سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م لتهدئة الثائرين، وأرسلت أسطولاً لفك الحصار عن طرابلس وتعقب الثائر، وسرعان ما فكَّ الحصار وهُزم يحمى الجبالى وتوغَّل في الصحراء مع الأعراب، وقُتل، وانتهت ثورته.

وكانت الدولة العثمانية ترسل مع ولايتها في الولايات المختلفة التابعة لها حاميات عسكرية من جنودها الإنكشارية، وكثرتهم كانت من أطفال البلاد الأوربية النصرانية التي كانت تجارها أو الولايات التي كانت تدين لها بالولاء، أو من أبناء الشعب الذين رغبوا في الانضمام إلى هؤلاء الجنود، وكانت تربيتهم تربية عسكرية إسلامية، وتولف منهم عدداً ضخماً في جيوشها وترسل منهم مع ولايتها حرساً أو حامية كبيرة، وكانت الحامية تنقسم إلى فرق، ولكل فرقة رئيس منها يلقب بالداى بمعنى ملازم. وما نصل إلى القرن الحادى عشر الهجرى حتى تبرز نزعة قوية في صفوف حاميات الإنكشارية بالولايات العثمانية المختلفة للاستقلال بها وأن يتولاها داياتهم، وفي سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م نلتقى بصفر أول داى يحكم طرابلس ويدبر شئونها، وعُني بالحرب البحرية أو الجهاد البحرى الطرابلسى مما جعل الأسرى المسيحيين يكثرون بطرابلس في أيامه. وحكم طرابلس بعده الداى مصطفى الشريف سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وفي عهده نشطت البحرية، وعنى بتحسين بعض الحصون، وتولّى طرابلس بعده الداى رمضان، وكان ضعيف الشخصية، وتخلّى عن الحكم سريعاً إلى صهره محمد الساقزلى (١٠٤٣-١٠٥٩هـ/١٦٣٣-١٦٤٩م) وهو ثالث ولاية طرابلس العثمانيين العظام بعد مراد أغا ودرغوت، وكانت له مثل درغوت شهرة بين أبطال البحر العثمانية، وكان الأسطول الطرابلسى في عهده يتكوّن من ٢٤ قطعة، وكانت برقة قد دخلت في طاعة العثمانيين منذ استيلائهم على مصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م وضمّها محمد الساقزلى إلى ولايته في طرابلس ونشطت التجارة وحركة العمران في عهده نشاطاً عظيماً. وتوفى سنة ١٠٥٩ للهجرة وخلفه عثمان الساقزلى وهو مثل محمد الساقزلى من أهم ولاية ليبيا، وقد طال حكمه لها إلى نحو ثلاث وعشرين سنة، وازدهرت التجارة في عهده ازدهاراً عظيماً، كما ازدهر النشاط البحرى، وزار طرابلس لأول عهده العياشى في رحلته المشهورة إلى الحج، وفيها يشيد بطرابلس ومبانيها وأهلها وكرمهم الفياض واليهما عثمان الساقزلى ويقول إن له نكاية في العدو، وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد، ويذكر أنه رأى ستة من هذه المراكب أو السفن وهي تخرج للجهاد أعداء الدين، وكانت تحمل نحو ألفى مقاتل خرجت - كما يقول - مجتمعة إرهاباً للعدو حين يراها. وكانت تجلب كثيراً من الغنائم والأسرى مما جعل عثمان الساقزلى يبني لهم سجناً كبيراً كان به نحو تسعين غرفة أو ززانة بجانب سجنى الداى صفر ومحمد الساقزلى، وجعل بعض القاعات في قصر درغوت

مستشفى خاصا بالأسرى، وخصّص لرعايتهم طائفة من الأطباء، وألحق بالمستشفى صيدلية لتحضير ما يلزمهم من الأدوية. وأنشأ لنفسه قصرًا بديعًا، كما أنشأ مدرسة قرب باب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم، وبنى في سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م فندقًا كبيرًا كان به مائة غرفة كما كان به بئر في ساحته، وعُني بأسواق البلدة، وكان عهده عهد أمن واستقرار وعمران مزدهر إلى أن توفي سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧١م. وتعاقب دايات بعده ضعاف الشخصية على حكم ليبيا وكثرت تهديدات الأساطيل الأوربية إنجليزية وفرنسية، وكانوا يشفعون التهديد بقصف طرابلس حتى تضطر إلى مفاوضتهم وإرجاع أسراهم إليهم، وكانت طرابلس تردهم إليهم طلبا من داياتها للمهادنة ورغبة في السلام. ومن خير ولايتها في أوائل القرن الثاني عشر الهجرى محمد الإمام الذى أقام علاقات حسنة مع بعض الدول الأوربية وخاصة فرنسا، وبنى له مسجدًا بسوق الترك وجدّد بناء هذا السوق وسوق الحرير. وسمح الوالى بعده خليل الأرناءوطى (١٠٩٠-١٠٩٦هـ) لإسبانيا بإقامة قنصلية لها في طرابلس، وكان ظلوما غشوما واتخذ بطاقة له من النصرى ضعف دين وسوء سياسة.

وتردّى طرابلس وليبيا في هاوية من الصراعات والانقسامات، وينقذهما منها إجماع رأى الإنكشارية على تولى أحمد القرمانيلى طرابلس وليبيا سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م وكان شخصية قوية، فأخذ يعمل على استقلاله بليبيا وطرابلس وجعلها وراثية في أبنائه، وتلقّب بأمر المؤمنين، وأخذ يعنى بشئون الدفاع عن طرابلس وتجديد أسوارها وأبراجها وتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة، وبنى مسجدًا كبيرًا وألحق به مدرسة، كما بنى بعض قصور له، منها قصر للأزبنوبا الذى نفذ فيه مذبحته للإنكشارية، إذ دعاهم إليه، وقد أكنم لهم في سقوفه ودهاليزه من اغتالوهم حتى يستطيع أن يحكم البلاد حكمًا نظيفًا من شغبهم، وكأنما حاكاه محمد على - فيما بعد - حين اغتال المماليك بالقلعة. وكان حكمه حكمًا عادلاً رشيدًا، وامتد إلى نحو خمسة وثلاثين عامًا، مما أعطاه الفرصة لينهض بأعمال كثيرة، من ذلك إجراؤه الماء لطرابلس على حنايا ليسقى به أهلها وينتفعوا به، ومنها بناء سوق فسيح الفناء وبناء بيوت ومقاصير أنيقة في القلعة، ومنها بناء فسقية بقرب البحر لينهل منها أهل السفن من أسطوله وغيرهم، وفي سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م اندفع إلى طرابلس أسطول فرنسى في مظاهرة بحرية ليرغم القرمانيلى على رد بعض غنائم لأسطوله ورد الحرية إلى الأسرى الفرنسيين ودفع بعض التعويضات، فرفض مطالبه بعنف، وأخذ الأسطول الفرنسى يقذف طرابلس بالقنابل قذفًا شديدًا لمدة ثلاثة أيام والقرمانيلى مصر على موقفه ونفذت ذخائر الأسطول الفرنسى فانسحب إلى البحر ولم يعد ثانية إلى المياه الطرابلسية. وحمد له الطرابلسيون هذا الموقف الشجاع. وانتعشت الحركة التجارية لعهد انتعاشًا كبيرًا إلى أن توفي سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م وخلفه ابنه محمد حتى سنة

١١٦٧هـ/١٧٥٣م وكان عهده عهد أمن ورخاء واستقرار كعهد أبيه وخلفه ابنه على الذى ظل بيده صولجان الحكم فى طرابلس وليبيا لنحو أربعين عاما إذ توفى سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م وتميزت الفترة الأولى من عهده بالأمن والرخاء ونشاط الزراعة والتجارة، حتى إذا كانت سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حدثت كارثة خطيرة عصفت بطرابلس وإقليمها: كارثة مجاعة كبرى ظلت عامين وانتشر معها وباء الطاعون، وانهار لذلك اقتصاد طرابلس فى العهد الأخير لعلى القرمانيلى، وظلت لهذا الانهيار بعده آثار غير قليلة، وفى عهده أقامت دول البحر المتوسط الأوربية فصيليات لها فى طرابلس مع مصادفته على ما منحته من امتيازات أجنبية، مما يدل على حمقه وهو وجه وقصر نظره. وبعد وفاته حدثت انقسامات بين أبنائه على الحكم، وقتل ابنه يوسف أخاه الحسن، وشق عصا الطاعة عليه أخوه أحمد، وانتهاز الفرصة مغامر عثمانى هو على برغل كان يقود بعض سفن صغيرة مسلحة فى البحر المتوسط، فنزل طرابلس واستولى عليها سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م دون مقاومة تذكر، وغضب لذلك باى تونس، إذ استغاثت به الأسرة القرمانيلى، وردت إليها سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م وتولّى مقاليد الحكم بطرابلس وليبيا يوسف القرمانيلى، ومهما كانت الطرق التى سلكها مع إخوته للاستيلاء على الحكم فإنه كان حاكماً ممتازاً، ونعمت البلاد فى عهده بالأمن والرخاء والانتعاش التجارى ونشاط العلاقات بين طرابلس ومدن الشواطئ والانفتاح على الغرب والتعرف على مدينته، مما أعدها لاستقبال العصر الحديث.

وكانت الأقطار العربية قد أخذت تستعد - منذ فاتحة القرن التاسع عشر الميلادى - لاستقبال هذا العصر عقب نزول الحملة الفرنسية مصر واندحارها بفضل مقاومة الشعب المصرى. وقد أيقظ هذا الحدث الخطير البلاد العربية جميعاً من سبات عميق كان قد استغرقها منذ احتلال العثمانيين لأراضيها فى القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى، وأخذت كل منها تستشعر شخصيتها وتحاول انبعائها انبعائاً جديداً بصور تختلف سرعتها باختلاف ظروفها الخاصة، وكانت مصر أسرعها إلى هذا الانبعاث، وهو انبعاث كان يقوم فيها - وفى جميع الأقطار العربية - على ركنين: ركن التمسك بالتراث الإسلامى العربى على نحو ما يمثله الأزهر. وتمخض هذا التمسك فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عن ظهور الشيخ محمد عبده ودعوته الإصلاحية الدينية الكبيرة، والركن الثانى ركن التعرف على ما سبقت إليه أوروبا فى ميادين العلم والأدب والحضارة، مما جعل مصر تسبق شقيقاتها العربيات فى إرسال البعث إلى الغرب وإنشاء المدارس العلمية المختلفة فى الطب وغير الطب لعهد محمد على.

وفى رأينا أن فجر العصر الحديث بليبيا أخذ ينشر أضواءه بطرابلس فيها لعهد يوسف القرمانيلى وإن لم تكن أضواء مكتسحة، ولكنها أضواء على كل حال، إذ أخذ يوسف يحاول

انفتاح طرابلس على الغرب، عن طريق عنايته بأسطوله وما كان يجني منه من اتفاقيات الحماية الكثيرة لسفن الدول الأوربية في البحر المتوسط. وكانت الدولة تأخذ من ذلك إتاوات واسعة تفرضها على تلك الدول، وكان من بينها السويد، فطالبها يوسف بمائة ألف فرنك هدية وبدفع إتاوة سنوية قدرها ثمانية آلاف فرنك. وامتنع قنصلها في طرابلس من أداء ما طلبه يوسف، فأمر بإغلاق قنصليته، واستولى أسطوله على بعض السفن السويدية في البحر المتوسط، ووسّطت السويد نابليون عند يوسف، فوافق على أن تخفّض الهدية إلى ثمانين ألف فرنك، وتظل الإتاوة البحرية السنوية كما هي: ثمانية آلاف فرنك، وأعاد يوسف إلى السويد سفنها الأسيرة. ورأى في سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م أن يفرض على السفن الأمريكية التي تمخر عباب البحر المتوسط إتاوة سنوية على شاكلة ما يفرض على السفن الأوربية، وأبّت تلك السفن أن تدفع شيئاً، فصادرها، وحاصر الأسطول الأمريكي طرابلس عشرين يوماً، وهزمه الأسطول الطرابلسي، فانسحب إلى مالطة - ووسّط الأمريكيون القنصل الإنجليزي ووالى الجزائر العثماني، وقبّل يوسف وساطتها، وردّ إلى الأمريكيين سفنهم.

وواضح أن طرابلس احتلت لعهد يوسف القرماني مكانة كبيرة في العلاقات الدولية لم تحظ بها في أي عهد سابق، لا بما كانت تفرضه من إتاوات سنوية على سفن الدول الأوربية فحسب، بل أيضاً بكثرة الوفود الأوربية التي كانت تقدم على طرابلس للتفاوض والتصالح أو للتهديد والوعيد أو لدفع الإتاوات المفروضة. وكل ذلك كان بشارة العصر الحديث في ليبيا واستشعار طرابلس لشخصيتها العربية بقوة، غير أن المسيحيين الأوربيين كانوا لهذه النهضة بالمرصاد، فاجتمعوا في مؤتمر إكس لاشايل سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م وقرروا تفويض الدول الأوربية منع الإتاوات البحرية لمدن الشمال الإفريقي: طرابلس وغيرها وما يتصل بتلك الإتاوات من جهاد رجال البحرية الإفريقية في البحر المتوسط، وسموه قرصنة. وأخذت طرابلس تشهد مظاهرات واستعراضات لأساطيل إنجلترا ودول البحر المتوسط، وأخذت تلك الأساطيل ترغم يوسف القرماني على تحرير الأسرى المسيحيين والكف عن الغارات البحرية، ففقدت طرابلس مورداً كبيراً من المال كانت تعتمد عليه في إدارة البلاد ونهضتها، وأخذ يوسف القرماني يشعر بالضيق، ويزداد ضيقه سنة بعد أخرى لتراكم الديون على الدولة، مما دفعه في النهاية إلى أن يتنازل لابنه على القرماني عن الحكم سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م. ولم تكد تستدير ثلاثة أعوام حتى استردت الدولة العثمانية طرابلس وليبيا، إذ أرسلت إليها حاكماً جديداً استسلم له على القرماني، وبذلك انتهى عهد الأسرة القرمانية في طرابلس وليبيا، وتعاقب عليها ولاية عثمانيون طوال القرن التاسع عشر، وأخذ كثيرون منهم يستجيبون لمقتضيات العصر الحديث من التطور بطرابلس وليبيا وبأسلوب الحكم.



وظلت صور التعليم القديم في الكتاتيب والزوايا وحلقات المساجد قائمة، وعنى العثمانيون بإنشاء مدارس تركية في مدن طرابلس والخمس وبنغازى ودرنة، وكان يراد بها إلى تخريج موظفي الدولة، وألم الطلاب فيها ببعض العلوم العصرية مما يصلهم بالحياة العصرية بعض الاتصال، وأخذت إيطاليا تنشئ مدارس لها في طرابلس والخمس تصل من يتعلمون بها باللغة والثقافة الإيطاليتين إعداداً خيبثاً لما كانت تتويبه من احتلال ليبيا. وكان القرن التاسع عشر في ليبيا يحمل كل ذلك وأهم منه الزوايا السنوسية التي بدأ إنشائها محمد بن علي السنوسي الجزائري الأصل والمولد والأسرة وكان قد طوف بالبلاد المغربية وتغلغل في الصحراء الجنوبية لتلك البلاد حتى السودان، وشاهد زوايا المتصوفة المنبثة في تلك الأنحاء، وأدى فريضة الحج سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وظل بمكة خمسة عشر عاماً عرف في أثنائها الدعوة الوهابية وما تدعو إليه من الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى من القرآن الكريم والحديث النبوي، فرأى أن يدعو نفس الدعوة، وأن يتخذ لدعوته نظام الزوايا المعروف في البلاد المغربية، ولكن أي بلاد المغرب يختاره لزواياه. إن الطريقة الشاذلية تعم المغرب الأقصى وتونس وتعم الجزائر طريقة أبي مدين، وتزاحم الطريقتين في تلك البلدان طرق أخرى بينا ليبيا - وخاصة برقة فيها - لاتشيع بها طريقة صوفية معينة، وكان قد زار أنحاءها البدوية ورأى أهلها غارقين في دجاجير الجهالة بمبادئ الإسلام وتعاليمه وهم لذلك في حاجة إلى داع ودعوة تهديهم إلى سبيل الرشاد. ونزل برقة، وأقام لنفسه الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر بها، ورأى الناس يستجيبون لدعوته، فعاد إلى مكة وكان قد ترك بها أهله، ثم رجع إلى برقة ونقل مركز دعوته من الزاوية البيضاء إلى واحة جغبوب، وأخذت الدعوة السنوسية تنتشر في عهده وعهد ابنه محمد المهدي، حتى أصبح لها نحو مائة زاوية في بوادي برقة وحضرها في بنغازى ودرنة. وبذلك عمت اليقظة الإسلامية العربية التي كانت أضواؤها أخذت تتفلى إلى طرابلس وإقليمها في عهد يوسف القرمانلى إذ أشاعتها الدعوة السنوسية في بوادي برقة وحضرها. ولعل في ذلك كله ما يوضح كيف كان القرن التاسع عشر مبدأ تاريخ ليبيا الحديث وكل ما يتصل به من أدب وغير أدب.

## الفصل الثاني

### المجتمع الليبي<sup>(١)</sup>

١

#### عناصر السكان

سكان ليبيا - منذ الأزمان السحيقة - سلالات عريقة من البربر الذين استوطنوا قديما الشمال الإفريقي من مصر إلى المحيط الأطلسي، واختلف المؤرخون في بيان أصل منشئهم، فمن قائل إن جدودهم هاجروا إلى بلاد المغرب من فلسطين، ومن قائل إنهم عرب هاجروا من جنوب الجزيرة: من حمير، ويقال بل إن أصلهم من عرب الشمال، ويقول الطبرى إنهم أخلطوا من كنعان والعماليق وغيرهم، ويقول ابن خلدون إنهم من ولد كنعان بن حام. وعلى هذا النحو يضطرب المؤرخون في أصلهم وهل هم من العرب الساميين أو هم حاميون أو هم من الفلسطينيين الذين أخرجوا قديما من ديارهم. ومعروف أن قبائل منهم حين اعتنقت الدين الحنيف وتعرّبت انتسبت إلى حمير أو إلى بعض القبائل العدنانية، وهو إحساس عميق بأنهم يرجعون إلى أصول عربية.

وليس هؤلاء السكان للشمال الإفريقي هم الذين سموا أنفسهم بربراً، إنما سماهم بذلك الرومان أخذاً من الكلمة الإغريقية: «بربروس» ومعناها: الأجنبي الذي يتكلم لغة غير

وكتاب السير للشماخي وليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجي (طبع بيروت) وتاريخ ليبيا لإحسان عباس والإباضية في موكب التاريخ لمعمر ونفحات النسرين والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصاري وأعلام ليبيا للزاوي والنشاط الثقافي لأحمد مختار عمر وليبيا في كتب التاريخ والسير لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم.

(١) انظر في المجتمع الليبي وسكانه ومعيشته كتب التاريخ قديما وحديثا وخاصة تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان (طبع جامعة محمد ابن سعود) وتاريخ المغرب الكبير لدبوز، وراجع كتب الرحلات مثل رحلة التجاني (طبع تونس) ورحلة العبدري (طبع الرباط) وصورة الأرض لابن حوقل والمسالك والممالك للبكري وتراجم المالكى في رياض النفوس ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي والبيان المغرب لابن عذارى

مفهومة، إذ كان لسان المغاربة بالقياس إلى الرومان أصواتا مبهمة لا يفهمونها. وحين فتح العرب البلاد المغربية وجدوا هذا الاسم «البربر» يطلق على سكانها، فاستخدموه، ومن الغريب أن فعل بربر في العربية بمعنى قريب من المعنى الإغريقي، إذ يراد به التمتمة في الكلام بحيث لا يفهم.

ويقسّم النسّابون هذه الأمة الضخمة من حيث أسلوب الحياة إلى حَصْرٍ وبدوٍ رحَّلٍ، ويسمون الأولين البرانس وهم سكان المدن الشمالية مثل هوارة ونفزاوة في ليبيا وتونس وكتامة وصنهاجة في الجزائر ومصودة في المغرب الأقصى. ويسمون الثانين الرَحَّلَ باسم البُتْرِ وهم سكان الهضاب والصحارى مثل لواته في برقة ونفوسة في طرابلس. والمظنون أن أهل ليبيا كانوا يعيشون أولاً على الترحال وراء المراعى، حتى قدم عليهم الفينيقيون في طرابلس واليونان في برقة، فأنشأوا المدن وأخذ الليبيون يستقرون فيها وفيها وراءها من السهول والوديان. ونزل القرطاجيون مع الفينيقيين في طرابلس، واكتسح الرومان طرابلس وبرقة جميعاً. وبذلك تكاثرت العناصر التي نزلت ليبيا قديماً من الفينيقيين والقرطاجيين واليونان والرومان ونزلتها - وظلت تنزها - سلالات من الزوج منذ زمن الفينيقيين بعامل الاتجار في الرقيق ومن أجل الانتفاع بهم في المزارع والمراعى، وكانوا يكثرون في فزان. ونزلت ليبيا في زمن القرطاجيين - منذ القرن الثالث قبل الميلاد - جماعات من اليهود، وبالمثل بعد تخريب تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد. ونزلتها في القرن الخامس الميلادي جماعات من الواندال الألمان. ونزلها لخدمة الكنائس المسيحية بها بعض رهبان القبط المصريين. ومعنى ذلك أن سلالات ليبيا الأصيلة من البربر وفدت عليها عناصر جنسية أجنبية كثيرة من قارات العالم الثلاث القديمة: من آسيا ممثلة في الفينيقيين والقرطاجيين واليهود، ومن أوروبا ممثلة في الإغريق والرومان والواندال، ومن إفريقيا ممثلة في الزوج والقبط المصريين. وهذا كله قبل الفتح العربي، وأخذ ينزلها معه وبعده مزيد من الأجناس الوافدة وخاصة من العرب وجيوشهم الباسلة ومن كان بها من الفرس والعراق والشام ومصر. ولا ننسى هجرة العرب الكبرى إلى ليبيا وإفريقيا في القرن الخامس الهجري وقد استوطن بنو سليم برقة. ومنذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أخذ ينزلها أندلسيون كثيرون في أثناء سقوط مدنها في حجر الإسبان، وتكاثر نزولهم في أوائل القرن السابع عشر الميلادي حين أخرج الإسبان من بقى بديارهم من المسلمين. ونزلت طرابلس بعض أسر إسبانية حين احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وبالمثل نزلتها أسر مالطية كثيرة حين احتلها بعدهم فرسان مالطة. وفي العهد العثماني الذي ظل حقباً متطاولة نزل طرابلس وليبيا كثير من الترك والأسر التركية بجانب من نزلوها من الإنكشارية وجنود الترك سوى عناصر الأكراد والشركس.

وقد اندمج كثير من هذه العناصر قديماً في البربر وحديثاً أو بعد الفتح العربي فيهم وفي العرب فقد ظلوا دائماً العناصر الأساسية في ليبيا وأكثرها نبلاً واحتراماً وشعوراً بالشخصية، حتى لنستطيع أن نقول بصفة عامة، رغم كل العناصر التي نزلت لليبيا، إنها تكون وحدة كبيرة من عرب وبربر، بل لقد اندمج بعضهم في بعض بحيث لا نستطيع أن تميز الوجه العربي من الوجه البربري، بل لقد أصبحت الوجوه جميعاً ليبية لا فرق بين بربري وغير بربري.

## ٢

## المعيشة

مرّ بنا أن الفينيقيين أقاموا في طرابلس لتكون مركزاً لتجارتهم وأقاموا معها صبراتة غربيها وليدة شرقيها، وبالمثل أقام الإغريق في شرقي ليبيا سيرين، وأضافوا إليها أربعة مدن: مدينة مكان سوسة الحالية، وبرقة، ومدينة مكان طوكره الحالية، وبنغازي. وكل هذه المدن حول طرابلس وفي شرقي البلاد كانت مراكز تجارية في العصور السحيقة، وظلت التجارة النشاط الأساسي لأهلها، يتخذونها معاشاً لهم طوال العصور الماضية، وأخذت تقام معها على الساحل الليبي مدن أخرى مثل زاوية غربي طرابلس وإلى شرقيها لبد وزيطن ومصراته وسرت، ومثل أجدابية وطمثية ودرنة وطبرق في إقليم برقة. وسكان كل هذه المدن كانوا يعنون بالتجارة وما تحمل إليهم القوافل من السودان والجنوب وما تحمل إليهم السفن من عروض البحر المتوسط شرقاً وشمالاً. وكانوا يعنون - إلى جانب ذلك ببعض الصناعات اليدوية وصيد البحر، ويصف ابن حوقل - في القرن الرابع الهجري - طرابلس قائلاً: «بها من الفواكه الطيبة اللذيذة كالخوخ والكمثرى اللذين لاشبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف والأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية السود والبيض الثمينة» ولا يلبث أن يذكر النشاط التجاري بها قائلاً: «إلى مراكب ترسو ليلاً ونهاراً وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساءً، من بلد الروم وأرض المغرب، بضروب الأمتعة والمطاعم» ويقول البكري: «لطرابلس أسواق حافلة جامعة». ويضعف نشاط طرابلس التجاري حين اكتسحتها موجات الهجرة الأعرابية في منتصف القرن الخامس الهجري، ويعود إليها نشاطها في التجارة مع استيلاء دولة الموحدين إليها وعودة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وظلت إلى اليوم أهم مدينة تجارية في ليبيا.

وكانت برقة منذ نزلها اليونان وأسسوا بها المدن الخمس المذكورة أنفاً تلعب دوراً كبيراً في التجارة بليبيا، وحين نزلها ابن حوقل كانت لاتزال مدينة برقة (المرج منذ أواسط القرن السابع

الهجرى) قائمة وتحديث عن نشاطها التجارى قائلا: «وجوه أموالها جمّة، وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع، طُلاباً لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغربين ومشرقين» وقال إنها تنفرد بالتجارة في القَطْران والجلود المجلوبة للدباغة بمصر والتمور الواصلة إليها من واحة أوجله (الواحات الأخرى) ولها أسواق عدة لبيع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وذكر ابن حوقل للفلفل يجعلنا نذكر كيف أن ميناءى برقة وطرابلس كانا من قديم - كما مر بنا - مصباً للقوافل المصعدة من السودان وأواسط إفريقيا إليها والمنحدرة منها إلى تلك الأنحاء، وكانت تلك القوافل تأتي محملة بسلع الرقيق وريش النعام والعاج أو سن الفيل والجلود، وتعود محملة بسلع ليبيا والبحر المتوسط، بحيث ظلت ليبيا قرونا متطاولة الباب أو المنفذ الكبير بين البحر المتوسط وبلداته الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، وكان ذلك عاملاً قويا في ازدهار التجارة بطرابلس وبرقة والموانئ الساحلية بالإضافة إلى ماكان بليبيا من سلع كثيرة من مثل القمح والشعير والزيت والملح والجلود والتمور والعسل والبسط والسجاجيد والأكلمة.

وهذا النشاط التجارى لسكان ليبيا كان يرافقه نشاط زراعى حول المدن الساحلية حيث تكثر الأمطار ومن ورائها في السهول وفي وديان الجبال وفي المنطقة شبه الصحراوية والواحات من مثل واحة فزان. وتكثر زراعة الخضر والكروم والفواكه من كل صنف، وينمو الزيتون بكثرة في جبال طرابلس والجبل الأخضر ببرقة، وكانت روما قديما تعتمد في الزيت على ما تستورده من معاصر طرابلس. وتنمو بليبيا أشجار الحناء والجدارى التى تستخدم جذورها في الصبغة، كما تنمو في المنطقة شبه الصحراوية الحلفاء البرية ذات الأوراق الخيطية الشكل، وكانوا يستخدمونها في صنع القفاف والجبال، وهى صالحة كل الصلاحية لصنع الورق. ويبذر الفلاحون الحبّ ويجنون القمح والشعير. وكانت روما تعتمد قديما على ما يأتيها من حبوب طرابلس، وبالمثل الإغريق بالقياس إلى ما يأتيهم من برقة، ومما يدل - بوضوح - على أنه كان بليبيا قديما نشاط زراعى واسع ما لا يزال ماثلا في كثير من أنحاءها من مجارى المياه وقنواتها وسدودها وخزاناتها التى أنشأها الرومان والإغريق، وتحجب عنا كثرته الآن الرمال بغطائها الثقيل التى ظلت تنسجه طوال القرون الماضية، وإن ليبيا لحرية أن يعود لها هذا المجد الزراعى العريق. ولم أذكر أهم شجر يتراءى بقامته الهيفاء في كل مكان بأنحاء ليبيا في السهل الشمالى وفي المنطقة شبه الصحراوية وفي جميع الواحات، وأقصد النخيل وثماره من البلح، ويقال إن بطرابلس من أنواعه مايزيد عن ثلاثين نوعاً وأن في واحة غات وواحات فزان مايبليغ خمسين نوعاً.

والزراعة لا تحتل في ليبيا إلا الشطر الأقل في الساحل والسهل الريفى وسفوح الجبال وبعض الوديان في المنطقة شبه الصحراوية والواحات. والشطور الأخرى الكبيرة من ليبيا

يحتلها من قديم بدو رُحَّل يعيشون على رعى الأنعام والأغنام، وهم يربونها للحومها وألبانها وجلودها وأوبارها وشعرها وصوفها. وينوّه البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ بكثرة السائمة في ليبيا وغوها الواسع في مراعيها، ويقول إن كثرة ذبائح أهل مصر من ليبيا. وكان رعاتها من قبائل البدو الليبية يقتسمون مناطق الرعى بحيث لا يحق لقبيلة أن ترعى ماشيتها في منطقة قبيلة أخرى دون استئذانها، وإلا شهرت عليها الحرب، بالضبط كما كان يحدث بين القبائل في نجد بالجزيرة العربية. وكان الجفاف يصيب أحيانا ليبيا، فلا تنزل بها الأمطار التي تعودتها، فيعاني أهلها مجاعة شديدة، وربما كان ذلك هو سبب إيقاعهم - أحيانا - بحجاج المغرب والأندلس، بالضبط كما كان يصنع أهل نجد - بسبب ما يعانون من فقر وضنك - بحجاج العراق والشام ومصر، على أنه كان من شيوخ الليبيين في قفار طرابلس وبرقة من يحمون الحجاج، مما جعل العبدري يشهد لهم في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٩ للهجرة بأنهم لا يتعرّضون للحجاج بأذى إلا في الندرة.

وبجانب هذا النشاط الرعوى والزراعى والتجارى الذى كان مصدر معيشة أهل ليبيا طوال الحقب والقرون الماضية كانوا ينشطون من قديم فى الصناعات اليدوية من مثل صناعة الزجاج وأنيته التى مهر فيها الفينيقيون، وصناعة عصر الزيت من الزيتون، وكانت صناعة رائجة فى عصر الرومان، إذ كانوا يعتمدون - إلى حد كبير - على ما يستوردونه منه من طرابلس، وهيات الملاحات الكبيرة غربى طرابلس وفى بنغازى لقيام صناعة دبغ الجلود، كما هيات لطحن الملح وتصديره، واشتهر بأنه لا يحتوى من سلفات الكلسيوم إلا على نسبة واحد فى المائة مما يجعله نوعاً جيداً من الملح إلى أقصى غايات الجودة. ويشتهر الجبل الأخضر فى برقة بما ينتج من عسل النحل وشمعه، ويوجد المرمر فى بعض جهات طرابلس وبنغازى وخاصة فى غات، ومنه نوع وردى اللون وآخر ناصع البياض، وقد قامت حول اقتطاعه فى عهد الإغريق والرومان صناعة نشيطة، وبدون ريب أتاحت لها كثرة هذا المرمر نحت ما شاءوا من التماثيل والمعابد والصهاريج، ولا يزال أطلال كثير منها قائماً بليبيا إلى اليوم. وهيات المراعى الكثيرة فى إقليمى طرابلس وبرقة وما وراءها من الصحارى لكثرة الأصواف والأوبار المجزوزة من الأغنام والماعز والإبل، مما أتاح لقيام صناعات واسعة من النسيج: نسيج الملابس الرجالية والنسائية والسجاجيد والبسط التى يلائمها أشد الملاءمة الصوف الليبى لخشونته الطبيعية، بينما تلائم أوبار الإبل أقمشة الخيام. ولا ننسى ما كان يتعيش عليه بعض أهل ليبيا على امتداد الساحل الشمالى من صيد الحيتان والأسماك، وعُنيت جماعة فى طرابلس وأخرى فى بنغازى بجلب الإسفنج الكثير فى مياهها. وفى كل ذلك ما يوضح كيف أن ليبيا كانت - حتى العصر الحديث - كثيرة الخيرات والطيبات من الرزق.

## الدين

كان شأن أهل ليبيا في العصور السحيقة شأن كل الأقاليم المغربية وثنين يعبدون الكواكب والنجوم من مثل الشمس والقمر والكواكب السيارة جميعا ويقدمون لها القرابين ويقىمون لها المعابد. ويبدو أن اليهود لما نزلوا بديارهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد أخذوا يحاولون نشر دينهم بين المغاربة، ويظن أن بعض جماعات منهم تهودت قديما وظلت جماعات منهم تعيش في المدن المغربية، وجاءهم مدد جديد حين قوّض الإمبراطور تيتوس معبدهم في بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد، ونقلاهم بعد إسلام أهل المغرب - بفضل تسامح الإسلام العظيم - منتشرين في إقليم طرابلس: في طرابلس نفسها وفي مصراته وسيرين، ويذكر المؤرخون والرحالة حارة لهم بطرابلس، ويقال إنها كانت شديدة القذارة كما يذكرون أنه كان لهم معبد خاص.

وكانت المسيحية منتشرة - قبل الفتح العربي - بالمدن الساحلية في ليبيا وغيرها من البلدان المغربية، وكانت شائعة فيها بين سلالات الفينيقيين والإغريق والرومان، بينما ظل جمهور البربر وثنيا. وربما اعتنق المسيحية بعض جماعات منهم في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى العدل والمساواة، ولكن لاشك أن هؤلاء كانوا أقلية، إذ كان الشعب البربرى يعدها دين حكامه الرومان المستبدين الطاغين، وهو ما جعلهم ينفرون منها نفورا شديدا وخاصة في الهضاب والصحارى والجبال، ومع ذلك فقد سقط إلى هذه الأنحاء بعض القسس حينما اشتد أوار الخلافات الدينية واضطر بعض القساوسة إلى الفرار نحو الجبال أو نحو الجنوب، وأكبر الظن أنهم حاولوا الدعوة هناك إلى المسيحية، غير أنها لم تجد بين البربر هناك آذانا صاغية. وبدون ريب كانت المسيحية منتشرة - كما ذكرنا - بين المدن الساحلية، وربما عملت روما على نشرها منذ أعلن الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد أنها دين الدولة الرسمي، وأخذت تعمل على نشرها في البلاد التابعة لها. ويبدو أن القبط المصريين كانوا أسبق من هذه الحركة الرومانية في نشر المسيحية بليبيا إذ تتحدث المصادر العربية عن مناطق بليبيا كان أهلها أقباطا، ولا بد أن عملوا على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية المسيحية فيها، وبذلك عرفت ليبيا - قبل الفتح العربي - الكنيسة الأرثوذكسية المصرية كما عرفت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق روما وتشبيدها لها في طرابلس وغيرها.

وقد أخذ أبناء الكنيستين يتعايشون مع العرب في العصور الإسلامية بالرغم من أن المسيحية

تراجعت في ليبيا وكاد يُقضى عليها الدين الحنيف، إذ نجد أبا عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة يذكر أنه شاهد القبط في طرابلس وبرقة لا يزالون يحتفظون بالقبطية في زمنه ويتحدثون بها في لغتهم اليومية مع أنها كانت قد اختفت في السنة القبط بمصر وحلت محلها العربية إلا ما كان في بعض الأديرة المتعمقة في الصحراء الغربية، وكان مما عمل على استمرار الكنيسة الأرثوذكسية وبقائها وجود أسر وسلالات من اليونان في ليبيا، ومعروف أن كنيستهم مثل كنيسة القبط المصريين أرثوذكسية. ويدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد الوالين العثمانيين. محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى يرخصان لليونانيين في زمنها بإنشاء كنيسة أرثوذكسية قرب باب البحر وجعلها تابعة لباترك الإسكندرية. وظلت الكنيسة الكاثوليكية - منذ أنشأها الرومان - حية في طرابلس، وكانت تتبعها الجالية الرومانية القديمة، وظل يدها من تأسره سفن طرابلس الحربية في البحر المتوسط من أوروبا الشمالية والغربية وخاصة من إيطاليا وإسبانيا، وكانوا يعتنقون العقيدة الكاثوليكية المسيحية، ولا بد أن عنى الإسبان حين احتلوا طرابلس سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وظلوا بها عشرين عاما بهذه الكنيسة، وبالمثل عنى بها فرسان مالطة حين تبعوا الإسبان في احتلالها لنحو عشرين عاما أخرى، وقد كثر في عهدهم نزول المالطين بطرابلس، واستقرت بها من حينئذ بعثة الإرسالية الفرنسيسكانية للعناية بأمر المسيحيين وخاصة من كثر أسرهم في البحر المتوسط من مسيحيي الغرب لعهد العثمانيين.

ويفتح عمرو بن العاص برقة سنة ٢١هـ/٦٤١م ويدور العام وتفتح طرابلس، ولم يكن العرب المسلمون غزاة فاتحين ينهبون البلاد التي يفتحونها ويسوسون أهلها بالقهر والبطش كما كان الرومان والواندال يصنعون، بل كانوا - قبل كل شيء - ناشرين للإسلام وتعاليمه السمحة، دون محاولة لإكراه المغاربة عليه، ودون أى محاولة لإساءة معاملتهم، ومع إنقاذهم مما كان يفرضه عليهم البيزنطيون والرومان من الظلم والاستعباد، ومع ما يدعو إليه الدين الحنيف من عبادة إله واحد رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو دين الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، ليس فيه شيء من تجسيد اليهودية ولا من تثليث المسيحية التي يعجز المغربي عن فهمها وتصورها. والمسلمون جميعا عرب ومغاربة سواسية في الحقوق والواجبات ولا سيد ولا مسود. وأخذ الحكام: عقبة بن نافع ومن جاءوا ورائه يصدر عن هذه السياسة، وخاصة حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) الذي سؤى بين العرب والبربر في الفئىء والخراج وعدد أرضهم مفتوحة صلحا لا قهرا فلم يسلبها منهم. وشعورا منهم بهذه المساواة الكاملة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق انتظمت كتبية منهم في جيشه تبلغ اثني عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تجاهد في سبيل الله نصره لدينه. ويتسع انتشار الإسلام في عهد الوالى بعده موسى بن نصير (٨٥-٩٧هـ) من برقة إلى المحيط الأطلسى، إذ عمل - بكل جهده - على أن يعلم العرب البربر القرآن



وتعاليم الإسلام، ولم يكتف بانتظام جماعات من البربر في جيشه، فقد رأى إشراكهم في الحكم، وولى منهم طارق بن زياد على طنجة وإقليمها، وعهد إليه بقيادة جيش لفتح إيبيريا، وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر، كما يقول ابن عذارى - ويرسل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة بعثة مكونة من عشرة فقهاء على رأسها إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر للدعوة للإسلام ونشره بين البربر.

ومنذ هذا التاريخ أصبح الإسلام دين البربر في كل مكان: في الحواضر والبادى وسفوح الجبال والهضاب والصحارى، ونعمت به ليبيا وغير ليبيا من بلاد المغرب، وقوَّض الديانتين اليهودية والمسيحية، إذ انتشر بسرعة عجيبة لا في المناطق الشمالية المحدودة التي كانا يوجدان فيها فحسب، بل أيضا بين سكان الصحارى والجبال، بحيث انضوى المغرب وجميع أرجائه تحت لوائه، وهو ما لم تستطع المسيحية أن تحققه في عهد الرومان والبيزنطيين، بل إن من تبعها من البربر كانوا فئة أو فئات قليلة، وكأنا كان في الإسلام سحر جذبهم إليه، وليس السحر إلا ما قدمناه من ملاءمة عقيدته للفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، وأيضا لأنه يسوَّى بين رعاياه القدماء من العرب والجدد من البربر ويرفعهم إلى أعلى المناصب.

غير أنه بمجرد أن توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز وتولَّى بعده يزيد بن عبد الملك ثم أخوه هشام، إذا هما يوليان على البربر ولاية باغين طاغين ظلّمهم ظلما شديدا، كما أسلفنا في غير هذا الموضوع، وكان أشدهم بغيا وطغيانا عبيد الله بن الحبحاب هو وولاته، وبلغ من سوء سياسته أن أخذ يفرق بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج، فعَمَّ الاستياء في كل مكان من سياسته، وأدهى من ذلك أن واليه على طنجة لم يكتف بالعدوان على البربر في الخراج، فقد أعلن أنه يريد تخميس أراضيهم متناسيا أو متعاميا عما أعلنه حسان بن النعمان في ولايته من أن أرض البلاد المغربية فتحت صلحا لا قهرا، فهي ملك لأهلها منهم ولا يصح العدوان عليها بحال من الأحوال.

## ٤

### الإباضية والشيعة

كان طبيعيا - كما ذكرنا - أن تتور البلاد المغربية وأذكى ثوراتها وأمدّها بوقود جزل دعاة لمذهبيين من مذاهب الخوارج هما مذهب الإباضية ومذهب الصفرية، عرفوهم بها وبدعوة الخوارج عامة التي تدعو إلى الأخذ بنظرية الإسلام في المساواة المطلقة في الحكم وغير الحكم بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب، فليس في الإسلام أشراف هم العرب ومشروفون هم غير العرب،

والخلافة لا تُقَصَّرُ على قبيلة قريش وحدها، بل هي حق للمسلمين جميعا، يتولاها أكفؤهم سواء أكان عربيا أم غير عربى، وسواء أكان قرشيا أم بربريا أم عبدا حبشيا.

### (١) الإباضية

اعتنق عقيدة الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة كثيرون، ومرَّ بنا إشعالهم لثورات في طرابلس منذ سنة ١٢٦ للهجرة إلى أن أهدتها سنة ١٤٤ الجيوش العباسية نهائيا إلا ما كان من حركات صغرى في طرابلس وجبل نفوسة قضى عليها يزيد بن حاتم المهلبى حين ولاء المنصور سنة ١٥٤ للهجرة كتورة أبى حاتم الإباضى وثورة أبى يحيى الهوارى، وكان الحكام - وخاصة حكام الأغالبة - يستطيعون دائما قمعها، ولكن دون أن يستطيعوا القضاء على الدعوة قضاء مبرما، فقد ظلت حية هناك حياة مستمرة إلى اليوم.

وكان ينبغي أن يشيد الباحثون الغربيون بالإسلام وأنه استطاع في نحو ثمانين عاما أن ينتشر في ديار المغرب: في مدنه وجباله وصحاريه وبواديه وأن يمتلك من المغاربة أو قل من البربر قلوبهم وأفئدتهم بحيث أصبحوا يخلصون له ويحملون السلاح مع أهله للدفاع عنه ونشره في أقاصى بلادهم المغربية وفي الأندلس، كما مر بنا، واتخذوا لغته لغة قومية لهم ورسخت - أو أخذت ترسخ - بينهم في الجبال القاصية، بينما ظل الرومان قرونا متعاقبة يحكمون بلاد المغرب ومحاولون - بكل ما وسعهم - نشر لغتهم اللاتينية فيه ونشر عقيدتهم المسيحية، وخاصة منذ عهد قسطنطين وإعلانه أنها دين الدولة الرسمى، وظل البابا وقسيسه ورهبانه يجاهدون في نشرها بين البربر دون جدوى إلا ما كان من نفر ضئيل في المدن الساحلية الشمالية، وبدلا من أن يسجلوا ذلك ويعترفوا للإسلام بمبادئه الروحية البسيطة التى لقيت استجابة لا تماثلها استجابة لا في اليقاع المغربية وحدها بل في كل البقاع التى فتحها العرب الأولون: بقاع العراق وإيران والشام ومصر، إذ سرعان ما دخل أهلها جميعا في الدين الحنيف بمجرد أن وقفوا على مبادئه وتعاليمه الدينية الروحية، أقول بدلا من أن يسجل الباحثون الغربيون هذه الظاهرة الكبرى للإسلام بالقياس إلى المسيحية وما تحمل من عقيدة التثليث المعقدة ترى نفرا منهم يطيب لهم أن يزعموا زعما باطلا أن حركات الإباضية بليبيا في القرن الثانى الهجرى وبالمثل حركات الصفرية في المغرب الأقصى والأوسط كانت حركات استقلالية قومية<sup>(١)</sup>، وهو زعم مخطئ أشد الخطأ، إذ لم يحاول أحد من البربر في تلك الحركات الردة - أو الدعوة إلى المسيحية، كما لم يحاول أحد الردة، أو الدعوة إلى العودة إلى اللاتينية التى كانت منتشرة في المدن الساحلية

(١) انظر: E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique

du Nord, PP. 160 Sq.

الشمالية وأخذت تنسحب أمام العربية دون عودة. ومن أكبر الأدلة على أن الدين الحنيف ولغته احتلَّ قلوب المغاربة وتغلغلا إلى السويداء منها أن نجد قبائل بربرية كثيرة تصطنع لها أنسابا تصلها بالعرب الجنوبيين في اليمن أو بالعرب الشماليين سكان نجد، ومن يرجع إلى قواد ثورات الإباضية في طرابلس ونفوسة الذين ذكرناهم في غير هذا الموضع يرى أنهم كانوا عربا، ولم يكونوا من البربر، إذ كانوا فعلا بين تُجيبى وحضرمى ومرادى ومعافرى، وجميعهم من العرب، مما يدل دلالة قاطعة على أن ثورات الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة - وبالمثل ثورات الصفرية في المغرب الأقصى والأوسط - لم تكن ثورات بربرية قومية، وإنما كانت ثورات إسلامية ضد الحكام الغاشمين الذين انحرفوا عن مبادئ الإسلام في سياسة البربر وحكمهم، فأهدروا حقوقهم وفرَّقوا بينهم وبين العرب في الشئون المالية وغيرها. هى إذن ثورات كانت تستمد من روح الإسلام ومقاصده وتعاليمه في نشر العدل والمساواة بين شعوبه عربا وغير عرب، وأيضا فإن هذه الثورات لم تقم على مبادئ بربرية إقليمية أو قومية، إنما قامت على مبادئ فرقتين من فرق الخوارج في عُمان والعراق، وقد تغيَّتا فيهما سواء الإباضية أو الصفرية أغراضا وأهدافا إسلامية في الحكم وتطبيقه وما ينبغى فيه من المساواة والعدالة المطلقة بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لعرف مبادئ الإباضية التي شاعت في طرابلس وجبل نفوسة، وأول مبدأ لهم أن الخلافة - أو كما يسمونها الإمامة - ليست حقا لقريش ولا ميراثا لأسرة قرشية، بل هى حق لله وللمسلمين جميعا، وينبغى أن يتولَّها خير المسلمين تقوى وزهدا وورعا وتطبيقا لتعاليم الإسلام في الحكم القائمة على العدالة والمساواة، وهم يفترون عن عامة الخوارج في أنهم لا يعدون مرتكب الكبيرة كافرا، بل يعدونه مسلما عاصيا ولا يعدون دار المسلمين سواهم دار حرب وينبغى أن يحملوا السلاح دائما ضدهم، وأيضا فإنهم يتوارثون معهم ويحلِّون الزواج منهم، وهم بذلك أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى الجماعة الإسلامية، حتى ليتمكن أن يُفصلوا عن الخوارج ويُلحَقوا بتلك الجماعة. ومعروف أن مؤسس العقيدة الإباضية هو عبد الله بن إباض التميمي، وعنه حملها جابر بن زيد الأزدي العماني، وعن جابر حمل لواءها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ولاء البصرى موطنا، وقد أرسل سلمة بن سعد أحد تلاميذه إلى جبل نفوسة ليدعو الناس للدخول في عقيدتهم الإباضية، واستجاب له كثيرون فاختر منهم خمسة للقاء ابن أبي كريمة بالبصرة، وعادوا مملوئين حماسة للعقيدة أو الدعوة، وأخذوا ينشرونها في جبل نفوسة وطرابلس وإقليمها، حتى إذا كثرت أتباع الدعوة أخذوا يثورون على الدولة الأموية ثم على الدولة العباسية على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع.

## (ب) الشيعة: الدعوة العبيدية

إذا كان الإباضية نجحوا في أن يظل جبل نفوسة موطناً لهم إلى اليوم وبعض أنحاء من طرابلس وإقليمها فإن الدعوة العبيدية الإسماعيلية، على الرغم من أنها أسست لها دولة في إفريقية التونسية وانضوى تحت لوائها المغرب جميعه من برقة إلى المحيط الأطلسي فترة غير قليلة في القرن الرابع الهجري، لم تستطع أن تبقى في طرابلس وإفريقية التونسية إلى ما بعد القرن الرابع. ومعروف أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت منذ أواسط القرن الثاني الهجري إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة الفاطميين إلى ابنه موسى الكاظم، ويدين بذلك الآن شيعة العراق وإيران، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته، لأن الإمامة تنتقل في عقيدتهم إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه، ونظّم هذه الدعوة عبد الله بن ميمون القدّاح واتخذ مركزاً لها قرية سلمية بقرب اللاذقية، وأخذت تنتقل الإمامة في تلك الدعوة سرا من أب لابن، حتى إذا كنا في آخر القرن الثالث الهجري كان الإمام عبيد الله المهدي، وتسلسل أحد دعائه الدهاء أبو عبد الله الصنعاني إلى الجزائر، واستطاع أن يقنع بتلك الدعوة الشيعة قبيلة كُتامة، ولم يلبث أن قضى بها على الدولة التي كوَّنتها الإباضية في تيهرت بالجزائر، والأخرى التي كوَّنتها الصفيرية في سجلماسة جنوبي المغرب الأقصى، وقاد من كتامة حملة قضى بها على دولة الأغالبة في إفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وكان قد ظل يدعو للرضا من آل البيت، حتى إذا قضى على الأغالبة كشف القناع عن وجهه، فأعلن قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية، واستدعى من سلمية الإمام المستر بها أو المختفى عبيد الله. ووصل القيروان سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بيعة عامة، ويسمى مؤرخو إفريقية التونسية الدولة باسم الدولة العبيدية نسبة إليه، وخاصة أن بعض المؤرخين تشكك في نسب هذه الدولة إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، غير أن ابن خلدون أكد صحة نسبتها إليها وأنها فاطمية حقاً. وكان طبيعياً أن يحاول عبيد الله - حين بويع له بالخلافة - الاستيلاء على ليبيا ونشر الدعوة الإسماعيلية بها، لما فيها من طيبات الرزق، ولأنها طريقه إلى مصر المأمولة. وبمجرد استيلائه على القيروان تبعته طرابلس إذ كانت تتبعها في أيام الأغالبة، وولّى عليها كُتامياً سنة ٢٩٨ فسلب جنده الكتامى على أهلها من قبيلة هواة، فغضبوا غضباً شديداً وفتكوا بجنده، ولم يلبث جيش كتامى أن حاصرها، ولم يفك حصارها لها إلا بعد أن أغرم أهلها غرامة ضخمة: ثلاثمائة ألف دينار. وحاول عبيد الله المهدي ضمّ برقة إلى دولته واستعصت عليه، فأرسل إليها جيشاً كُتامياً على رأسه قائد يسمى حباسة الكتامى، ففتك بكثيرين من أهلها واستصفى أموالهم، وغرّم أهلها مائة ألف دينار. وعادت برقة سريعاً إلى الثورة سنة ٣٠٤ للهجرة، وردّها أحد قادة عبيد الله إلى الطاعة. وثار الإباضية في جبل

نفوسة سنة ٣١٠ هـ وهزموا جيشين لعبيد الله، وأخيراً انتصر جيش له على إباضية نفوسة، واستكانت ليبيا - منذ هذا التاريخ - لحكم الفاطميين طوال بقائهم في إفريقية التونسية وفترة بعد مغادرة المعز العبيدي لها إلى القاهرة ولكنها كانت استكانة على مضض غير قليل، فقد ظل من بها من الإباضية في جبل نفوسة وأنحاء طرابلس يعادون الدعوة العبيدية - أو الفاطمية - الإسماعيلية، كما ظل أهل السنة الذين تتألف منهم جماهير غفيرة في طرابلس وبرقة يستنكرون الدعوة الإسماعيلية الشيعية ويرفضونها رفضاً باتاً. وبمجرد أن انسحب حكمهم من إفريقية التونسية في عهد المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ). انسحبت معه عقيدتهم الإسماعيلية لا في إفريقية التونسية وحدها بل أيضاً في طرابلس وإقليمها وجبل نفوسة، وبقيت لتلك العقيدة ظلال باهتة في برقة لأنها كانت تتبع الدولة الفاطمية في القاهرة، أما في طرابلس وإفريقية التونسية وما وراءها من البلاد المغربية فإنه لم يبق لها أى ظلال لا باهتة ولا غير باهتة، ويرجع ذلك في رأينا إلى التطرف الشديد في انحراف مبادئها عن الدين الحنيف وتعاليمه، حتى لتتسلخ جملة عنه، إذ تحيط أئمتها بهالة من التقديس لا يقرها الإسلام حتى لتزعم عصمتهم رافعة لهم فوق المستوى الإنساني، بل إنها لتزعم أن الإمام العبيدي الإسماعيلي هو التجسد الرباني للذات العلية على الأرض، وهو لذلك المشرع وصاحب الأمر العالم بالغيب وما سُجِّل في ألواح، وكل صفات الله - جلَّ جلاله - إنما هي صفاته، إلى غير ذلك من مبالغات بل من ترهات، سوَّلت لبعض دعاة الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله أن يدعو إلى عبادته، وقد عرضت مبادئ هذه الدعوة الضالة بالتفصيل في الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة الخاصة بتاريخ الأدب العربي، موضعاً كيف أن مصر انصرفت عنها، بل رفضتها رفضاً، وهو ما حدث في طرابلس والبلاد المغربية. وكأنما دخلتها جميعاً - حين كانوا يحكمونها - من باب شديد الضيق، ثم خرجت بعدهم - حين رحلوا عنها - من باب آخر ولم تترك وراءها أثراً. وعبثاً حاول أبو عبد الله الصنعاني أن يقنع بها فقهاء القيروان وردوا عليه ردوداً مفحمة، وأحسَّ عبيد الله المهدي - بوضوح - نفور الناس من عقيدتهم الإسماعيلية نفوراً شديداً، فطلب إلى دعاة أن يخففوا من النشاط للدعوة لها، وبني «المهدية» على رأس بارز في الساحل على البحر المتوسط شرقي سوسة، وأحاطها بأسوار عالية قوية مع أبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد - كما يقول الحسن الوزان في وصف إفريقيا - سنة ٣٠٥ هـ ونقل إليها أسرته وأمواله وجنده حتى يأمن على نفسه. وظلت طرابلس وإقليمها بل أيضاً برقة وإقليمها كما ظلت إفريقية التونسية مزورَّتين عن الدعوة الشيعية، وظلت الجماهير فيها جميعاً مرتبطة بمذاهب أهل السنة إلى أن خرجت طرابلس وإقليمها كما خرجت إفريقية التونسية من الدعوة السيدية الإسماعيلية في عهد المعز بن باديس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع.

## الزهد والتصوف

ازدهر الدين الحنيف في جميع أنحاء ليبيا منذ القرن الأول الهجري، وأخذت مساجده تُبنى في كل مكان: في الحضرة والبدو، ويرمز إلى ذلك المسجد الجامع الذي بناه فاتح ليبيا العظيم عمرو بن العاص في طرابلس أمام باب قبيلة هواة، وتنافس ولاية طرابلس وليبيا بعده في بناء المساجد وخاصة ولاية الدولة الأغلبية، وخلفتها الدولة العبيدية، فعنى المهدي ببناء جامعها المتسع الأعظم، وبني ابنه القائم جامعاً حسن البناء في مدينة أجدابية. وكان الشعب يشارك في بناء الجوامع والمساجد فاكتظت بها ليبيا، وكانت جميعاً بيوتاً كبرى للعبادة والنسك، وكانت حلقات الفقهاء والعلماء فيها أشبه بمدارس للتعليم والدراسة، واشتهر كثيرون في جميع أنحاء ليبيا بأنهم كانوا زهاداً في المتاع الدنيوي وأنهم كانوا عبّاداً نساكاً ينتظرون ما عند الله من ثواب الآخرة، ويسوق المالكى في رياض النفوس وابن الدباغ في معالم الإيمان والتجاني في رحلته المشهورة وأحمد النائب في نفحات النسرين والمنهل العذب والظاهر الزاوى في أعلام ليبيا أسماء عشرات من زهاد ليبيا ونساكها على مر القرون.

ومن نذكره من زهاد ليبيا ونساكها عبد الله الشعاب المتوفى بعهد الأغالبة سنة ٢٤٣ للهجرة ولد بطرابلس ونشأ بها، وكان نجاراً لا يأكل إلا من كسب يده، وتمّ بناء مسجد كان البناء فيه توقف، وسكنه وعاش يتعبّد لربه فيه، ونُسب إليه إذ سُمي بمسجد الشعاب ويقول مترجموه إنه كان من كبار الصوفية والنساك الورعين، ومن هؤلاء النساك عبدالجبار السُّرقي المتوفى سنة ٢٨١ كان يختم القرآن مرة كل ليلة وختمه في مسجده أكثر من ألف ختمة، ومنهم عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ وكان يختم القرآن يومياً، ومنهم سعيد بن خلفون المتوفى سنة ٣٦٢ وكان من أكابر الصوفية واقفاً على المعارف اللدنية والقدسية وكان يسكن بمسجد منسوب إليه في طرابلس، وكان للناس اعتقاد فيه حتى لقبوه بلقب المستجاب وأكثروا من الحديث عن كراماته، وكان يعاصره بطرابلس ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا ابن الخطيب المتوفى سنة ٣٧٠ وكان يتخذ مسجد المجاز في بلدته مسكناً ومأوى له، وكان عابداً ناسكاً ورعاً، وكان يعاصرها أبو نزار خطاب البرقى المتوفى سنة ٣٧٣ وكان يعاشر الصوفية وينزع منزعهم، وكان مثل صاحبيه يسكن جامعاً إلى الشرق خارج المدينة. ومن كبار الزهاد بطرابلس في القرن الخامس الهجري أبو الحسن السيقاطى المتوفى سنة ٤٢٠ للهجرة وكان يتعبّد لربه بمسجد سيقاطة على ساحل طرابلس. وأبو مسلم مؤمن بن فراج الهوارى المتوفى

سنة ٤٤٢ للهجرة وله مسجد كان يتعبد فيه ويدرس لطلابه منسوب إليه.

ويتكاثر زهاد ليبيا ونساکها ومتصوفتها في القرون التالية، وهم أكثر من أن نحصيهم ونعدّهم عدًا، وقد أخذ نفر منهم - منذ القرن السابع - ينتمى إلى الطرق الصوفية السنية، وطبيعي أن لا ينتسبوا إلى الطرق الصوفية الفلسفية عند أبي مدين وابن عربي وابن سبعين وأضرابهم إذ لم يكن أهل ليبيا يأخذون أنفسهم بشيء من الفلسفة أو التفلسف يفسح لهذه الطرق بينهم، ونظن ظنًا أن بعض زهادها ونساکها تبع الطريقة الشاذلية الصوفية<sup>(١)</sup> السنية التي أخذت تشيع في تونس ومصر منذ أواسط القرن السابع الهجرى حين أسسها بتونس أبو الحسن الشاذلى، ثم غادرها إلى القاهرة، وكان من أهم أتباعه فيها ابن عطاء الله السكندرى الذى اشتهر بحكم له بدیعة. ويلقانا من كبار أتباع الطريقة الشاذلية في القرن التاسع الشيخ زروق المولود بمدينة مصراته شرقى طرابلس سنة ٨٤٦ للهجرة، وقد رحل إلى القاهرة ودرس بالأزهر وأخذ عن علمائه، ويبدو أنه اعتنق الطريقة الشاذلية حينذاك، وكان فقيها مالکيا ضليعًا وله مؤلفات مهمة في الفقه المالکي، وأكثر مؤلفاته في التصوف وبخاصة في الطريقة الشاذلية وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية بعنوان أصول الطريقة الشاذلية، ومخطوطة ثانية شرح فيها حزب الشاذلى المسمى بحزب البحر، ويقال إن له ستة عشر شرحًا لحكم ابن عطاء الله السكندرى، وطبع أحد هذه الشروح بالقاهرة مرارًا، وطبع له في القاهرة كتاب بعنوان قواعد التصوف. وتوفى زروق بمصراته مسقط رأسه سنة ٨٩٩ للهجرة.

ويلقانا بعده من أتباع الطريقة الشاذلية الخروبي محمد بن على المتوفى سنة ٩٦٣، وكان أبوه من تلامذة الشيخ زروق، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية، وتوفى فرعته أمه وكانت سيدة صالحة، فلقتنه كثيرًا من المدائح النبوية والتراتيل الدينية، وكان لها ابن عمه شاذليًا، فدرس عليه الخروبي مسالك الطريقة الشاذلية وحكم ابن عطاء الله السكندرى، واندمج روحياً في تلك الطريقة طوال حياته، وله شرح لحكم ابن عطاء الله، وفي دار الكتب المصرية له تفسير مخطوط كبير. ومن أكبر أتباع الطريقة الشاذلية في القرن العاشر الهجرى عبد السلام الأسمر المولود بمدينة زليطن شرقى طرابلس ولبده سنة ٨٨٠ للهجرة، وكان صوفياً مجذوباً في حب ربه، وكانت تعتره حالات وجد وهيام شديدة واستخدم في حلقاته ومجالسه الدف والبندير والغناء والرقص، مما جعل كثيرين من معاصريه النساك ينتقدونه نقدًا شديدًا، واضطره ذلك إلى الخروج عن بلده مرارًا إلى جهات مختلفة في ليبيا وفي إفريقية التونسية، واستقر أخيراً في زاويته بمسقط رأسه زليطن إلى أن توفى سنة ٩٨١ للهجرة، وكان يقرأ لأتباعه في الزاوية كتباً مختلفة في التوحيد

هذه السلسلة عن مصر.

(١) انظر في هذه الطريقة ومؤسسها أبى الحسن

الشاذلى وتابعه ابن عطاء الله السكندرى كتابنا في

والفقه المالكي، كما كان يقرأ لهم حكم ابن عطاء الله السكندري، وله مؤلفات مختلفة في التصوف، وكان له مریدون كثيرون لزموه في حياته من بيته مثل ابنه عمران ومن غير بيته مثل إبراهيم بن علي العوسجي المتوفى سنة ٩٩٨ ومثل كريم الدين البرموني المصراقي المتوفى بأخرة من القرن العاشر الهجري وله كتاب في أستاذه. ويتكاثر الزهاد والصوفية في ليبيا طوال العصر العثماني، وتتكاثر زواياهم وتعم في البلاد الطريقة الشاذلية، وتزاحمها بعض الطرق الصوفية السنية، ولكن تظل لها الغلبة.



## الفصل الثالث

### الثقافة

١

الحركة<sup>(١)</sup> العلمية

(أ) فاتحون وناشرون للإسلام

منذ فتح عمرو بن العاص لليبيا وولاتها يُعنون بنشر الدين الحنيف وتعاليمه وثقافته فيها، فقد كان ذلك الغاية المثلى والمقصد الأسمى من الفتوح الإسلامية لا في ليبيا وحدها، بل أيضا في كل ما فتحه المسلمون في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولذلك نرى ولاة المغرب في ليبيا وغير ليبيا يحثون كثيرين من جنودهم - وخاصة من أقاموا واستوطنوا هناك - إلى تحفيظ البربر القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ العربية كي يستطيعوا تلاوته تلاوة سليمة، وحثهم على ذلك - بقوة - عقبه بن نافع مؤسس مدينة القيروان في أواسط القرن الأول الهجري، وبالمثل مؤسس مدينة تونس: حسّان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) واتسع خلفه: موسى بن نصير - في هذه الغاية من تعليم البربر القرآن وتعاليم الإسلام، ويقال إنه كلّف بذلك سبعين رجلا من جنوده بثهم في قبائل البربر، ويقال: بل إنه جعل ذلك فريضة على جميع جنود العرب الفاتحين.

والتذكار لابن غلبون وحكاية مدينة لخليفة محمد التليسي وتاريخ المغرب الكبير لدبوز ونفحات النسرين والمنهل العذب لأحمد النائب وكتابي أعلام ليبيا ومعجم البلدان للزاوي وأعلام من طرابلس للمصراقي والإباضية في موكب التاريخ لمعمر وكتاب النشاط الثقافي في ليبيا لأحمد مختار عمر وتاريخ ليبيا لإحسان عباس وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجي.

(١) راجع في ثقافة ليبيا رياض النفوس للمالكي والبيان المغرب لابن عذارى وتراجم معالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي والسير للشماخي وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي وإنباه الرواة للقفطي والديباج المذهب لابن فرحون وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وتاريخ ابن خلدون والأنساب للسمعاني وكتابي الأزمنة والأنواء وكفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابي ورحلة التجاني ورحلة العياشي والرحلة المغربية للعبدي

ولابد من ملاحظة أن البربر الذين اعتنقوا الدين الحنيف أخذوا يشتركون مع الجيوش العربية في الفتوح وحرب الكفار، وكان زملاؤهم من العرب في حمل السلاح يلقنونهم أى الذكر الحكيم ومبادئ الإسلام وتعاليمه، ويذكر المالكي في كتابه «رياض النفوس» أن جيش زهير بن قيس وإلى المغرب بعد عقبة بن نافع كان مكوّنًا - في بعض حربه لكسييلة النائر المغربي - من ألفين من البربر وأربعة آلاف من العرب، كما يذكر ابن عذارى في كتابه «البيان المغرب» أنه كان في جيش حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥هـ) اثنا عشر ألفا من البربر، ويذكر أيضا أن جيش طارق بن زياد البربرى وإلى طنجة لموسى بن نصير كان مكوّنًا - في فتحه لإيبيريا - من سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر، ويعقب ابن عذارى على ذلك بأن موسى بن نصير «أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين». ومعنى ذلك أن الجند العربى الذى كان يعايش الجند البربرى في حرب الكفار ونشر الإسلام كان يعلمه القرآن وتعاليم الإسلام الدينية. ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه الشماخى في كتابه السير عن عمر بن يمكتن أول معلم من البربر للقرآن الكريم في جبل نفوسة بطرابلس قبيل اشتراكه في ثورة أبى الخطاب المعافرى سنة ١٤٠ للهجرة وتوليته له على مدينة سرت، فقد روى عنه أنه تعلم القرآن بطريق (مُقَمَداس) كان يتلقى فيها السَّابِلة والمارة من المشرق (يريد الجند العربى الداخلى إلى إفريقية التونسية) فيكتب عنهم لَوْحًا من القرآن وينصرف إلى منزله، فإذا حفظ ما فيه رجع إلى المحجّة (الطريق) فيكتب من المارة والرِّفاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلّم العلم». ويقول الشماخى إنه «كان يصنع ذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الإسلام وقلة المعلمين في البلدان». ونظن أنه إنما كان يصنع هذا الصنيع حتى يتلقن بدقة أداء ألفاظ الذكر الحكيم على وجوهها الصحيحة، لأن أداءها لا يكفى فيه ما كُتِبَ في مصاحفه أو في الصحف، بل لابد في القرآن الكريم من أخذه شفاها، حتى يحكم الشخص تلاوة آياته بنطقها وأدائها الدقيق، وهو ما دفع ابن يمكتن إلى أخذه شفاها من أفواه السابِلة والمارة من الجند العربى الداخلى إلى إفريقية التونسية والبلاد العربية. وفي هذا الخبر ما يوضح مدى ما أسداه الجند العربى الفاتح للمغرب - حتى المارة منهم بالطرق - في تحفيظ القرآن وحسن أدائه للمغاربة شبابا وغير شباب، ويقول ابن يمكتن إنه تعلم - من مارة الجند أيضا - العلم يريد تعاليم الإسلام والفقهِ بالدين الحنيف. فأينما كان الجند العربى مجاهدا في سبيل الله مع البربر ومقيماً بين ظهرانيتهم ومارا بطرقاتهم كان يعنى بشدّ أزهرهم في حفظ القرآن الكريم والمعرفة الدقيقة بمبادئه والتفقه البصير بتعاليمه.

## (ب) الكتابيب

إيماننا من الولاة في ليبيا وغير ليبيا من أن الدين الإسلامي العظيم جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم حتى يعلم بدقة فروض دينه وتعاليمه أخذوا يعنون ببناء كتابيب لتحفظ فيها ناشئة البربر القرآن وتعرف مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان المعلمون فيها يبدؤون بتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ العربية، لإحكام النطق السديد بألفاظ الذكر الحكيم. وكانت تلك الكتابيب تلحق بالمساجد أو تخصّص لها غرفة بداخلها ثم أخذت تشيع في الحارات والدروب بالمدن وفي الواحات والأحياء بالوديان، وظلت تحل في ليبيا وغير ليبيا محل التعليم الابتدائي في عصرنا، وكانت الناشئة تزود فيها ببعض الأحاديث النبوية وبعض سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكانت تزود فيها بمبادئ الحساب، وأهم من ذلك تعلم فروض الإسلام وخاصة الصلاة وكيفية أدائها وما ينبغي لها من الوضوء والطهارة كما تتعلم بعض إرشادات تهدي إلى الخلق المستقيم والسلوك القويم.

## (ج) المساجد

وهذا التعلّم المبكر للقرآن وتعاليم الإسلام الذي أنشئت من أجله الكتابيب في كل أنحاء ليبيا كانت الناشئة تنتقل منه إلى حلقات العلماء الذين كانوا يرابطون في المساجد ملقين على طلابهم مختلف الدروس والمحاضرات في فنون العلوم المختلفة من لغوية ودينية. وكانت ليبيا تكتظ بهذه المساجد في مدنها وقراها وواحاتها، ولم يكن يخلو مسجد من عالم كبير يحاضر الطلاب أو يعظ الناس، ومرّ بنا في حديثنا عن الزهد والتصوف ذكر بعض مساجد اشتهرت في طرابلس وساحلها، ويذكر التجاني في رحلته أن بخارجها مساجد كثيرة، أما مساجدها في أحيائها المختلفة ودروها فلا تحصى كثرة، ويقول إن بساحلها مساجد كثيرة. ولا نلتقى بالمساجد في ليبيا بالمدن فحسب، بل نلتقى بها أيضا في القرى على شاكلة مسجد على بن عبد الحميد العوسجي المقرئ الذي بناه في قريته «الحرشا» من قرى مدينة الزاوية، وكانت مدن جبل نفوسة وقراه تكتظ أيضا بالمساجد. وكان العلماء ينتصون في تلك المساجد لإلقاء دروسهم في قراءات القرآن الكريم وفي تفسيره وفي الحديث النبوي وفي الفقه والشريعة وفي العربية وقواعدها السديدة، وقد أصبحت طرابلس وبرقة منذ عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) مركزين من مراكز العلم، وبعث فيها الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) حركة علمية خصبة، إذ عنوا بعلمائها وأسبغوا عليهم من الرواتب ما يسد حاجتهم، وكان المجتمع الليبي بجميع طوائفه يجلّ هؤلاء العلماء ويعرف لهم قدرهم وأنهم منارة الدين وحلمة أضرائه.

## (د) الرحلة في طلب العلم والوافدون

على نحو ما كان الشباب المغربي في إفريقية التونسية يرحل إلى مصر والشام والحجاز والعراق للترزود من العلوم الإسلامية واللغوية كذلك كان الشباب الليبي يرحل في طلب العلم وأخذ عن أعلامه، وسنذكر - عما قريب - بعض من حملوا عن الإمام مالك كتابه الموطأ وأذاعوه في وطنهم. ولا بد أن بعض المعلمين للعربية في ليبيا مدَّ رحلته في المشرق إلى العراق للاختلاف إلى علماء العربية بها وحمل كتبهم إلى البلدان الليبية.

وكان موقع ليبيا في طريق الأندلسيين والمغاربة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة ذهاباً وإياباً يتيح لبلدانها مثل طرابلس وبرقة أن ينزلها بعض العلماء ويطيّب له الإقامة فيها شهراً أو أشهراً، ويلتف به طلابها يحاولون أن يأخذوا عنه ما عنده من العلم أو ما اشتهر به، على شاكلة محمد بن عيسى البياني الذي مر بطرابلس وبرقة في عامي ٣٣٢ و ٣٣٨ فالتف به طلابها يكتبون عنه، ومثل الفقيه أبي الحسين محمد بن إبراهيم الأندلسي الذي نزل طرابلس في عودته من أداء فريضة الحج، فقرأ عليه طلبتها بعض مؤلفاته. وكثر نزول مثل هذين العالمين بها في عهد الدولة الحفصية، ويقال إن ابن منظور العالم اللغوي المشهور المتوفى سنة ٧١١ بمصر تولى القضاء بها. ويروى عن بعض هؤلاء العلماء الوافدين - وخاصة على طرابلس - أنهم توقفوا بها للأخذ عن علمائها ونسمع بذلك منذ القرن الثالث الهجري، مما يدل بوضوح على ازدهار الحركة العلمية بطرابلس وأن أساء بعض علمائها أخذ في الذبوع مما جعل بعض العلماء الوافدين يشغف بلقائه والأخذ عنه، على نحو ما نجد عند ابن الفرضي في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» إذ ذكر نفراً نزلوا بطرابلس في رحلاتهم إلى المشرق للترزود من علمائها وحمل ما عندهم من العلم، ومن ذكرهم محمد بن قاسم بن سيار المحدث الأندلسي المشهور، إذ قال عنه إنه سمع بطرابلس عن علمائها في رحلته سنة ٢٩٤ للهجرة ومن ذكرهم أيضاً محمد بن عبد الملك بن ضيفون قائلاً عنه: إنه سمع بطرابلس في رحلته سنة ٣٣٨ من يحيى بن دحمان، كما سمع منه مواطنه هاشم بن يحيى بن حجّاج البطلبيوسي في رحلته إلى المشرق، وسنذكر - فيما بعد - أن التجاني صاحب الرحلة المشهورة التي ترجع إليها حين زار طرابلس واستمع إلى محدث فيها هو ابن عبيد انبهر انبهاراً شديداً والتمس منه أن يقرأ عليه صحيحه مسلم والبخارى.

## (هـ) المدارس

عرف العالم الإسلامي فكرة المدارس منذ أواخر القرن الرابع الهجري وتوسع فيها نظام

الملك وزير ألب أرسلان في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إذ بنى طائفة من المدارس في العراق وإيران سُميت كل منها باسم المدرسة النظامية، وكانت أشبه بجامعة يحاضر بها الأساتذة في فروع العلوم المختلفة، ولهم فيها مساكن ورواتب معلومة وللطلاب نفقات تكفيهم، ولكل مدرسة مكتبة نفيسة. وأخذت تتكاثر المدارس في البلدان العربية منذ القرن السادس الهجري، ويشيد التجاني وغيره من الرحالة الذين زاروا طرابلس بمدرسة بدیعة قام على بنائها بين سنتي ٥٥٥ و ٥٥٨ الفقيه الطرابلسي عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا. ونمضى إلى القرن السابع وكانت طرابلس تتبع الدولة الحفصية التي عنيت ببناء المدارس في تونس وأرجاء دولتها، ويبدو أنه بنيت في عهدها بطرابلس مدارس متعددة بشهادة التجاني في رحلته إذ يذكر أن بطرابلس مدارس متعددة أو كما يقول مدارس كثيرة. ويذكر الشماخي في كتابه السير وعلى يحيى معمر في كتابه الإياضية في موكب التاريخ مدارس متعددة للإياضية بنوها في جبل نفوسة. ومع أن العثمانيين في زمن حكمهم لطرابلس وليبيا لم يكونوا يولون الحركة العلمية العناية الواجبة نجد بعض ولاتهم يعنون ببناء بعض المدارس، يتقدمهم في ذلك مراد أغا إذ بنى مدرسة بمدينة تاجوراء، ولا بد أن هؤلاء الولاة بنوا مدارس متعددة في البلاد، ويُذكر أن عثمان الساقزلي بنى مدرسة بطرابلس قرب باب البحر، كما يذكر أن أحمد القرماني بنى مسجداً كبيراً وألحق به مدرسة. ولا بد أن مدارس تركية متعددة أنشئت في بلدان طرابلس وأيضاً في بلدان برقة حين انفكت عن تبعيتها للقاهرة، وكانت تتبعها منذ العصر الفاطمي إلى أن ضمها إلى ولاية طرابلس محمد الساقزلي. وبدون ريب ساعدت المدارس في النشاط العلمي بتلك الديار، ولو أنه كان في العصر العثماني نشاطاً محدوداً.

### (و) الزوايا

عرفت المغرب الزوايا وأخذت تستكثر منها منذ القرن السابع الهجري، وكانت الزاوية تتكون من قاعة ومحراب للصلاة وغرفة لتحفيظ القرآن أو تلاوته وبعض غرف للضيوف والطلبة وبعض الزوار ممن ينزلون بها مع ما تحتاج إليه من المرافق. وكان بعضها يتسع في مبانيه، حتى تصبح الزاوية كأنها مسجد يموج بطلابه وزواره، وكان يكثر أن يكون لشيخها ضريح يدفن فيه، ومن فوقه قبة كبيرة. وتحوّل كثير من الزوايا إلى ما يشبه دور علم مع ما تتيحه من العبادة والنسك، ويتحدث التجاني الذي نزل بطرابلس في أوائل القرن الثامن الهجري عن زاوية أولاد سهيل وعنايتها بتحفيظ القرآن وما بها من كتب كانت موقوفة على الطلاب وما كان لهم بها من غرف للسكنى. ومن أشهر زوايا ليبيا زاوية عبد السلام الأسمر بمدينة زليطن، وكانت تعنى - مع تحفيظ القرآن الكريم - بالعلوم الدينية، وكان بها حجر كثيرة لسكنى الشيوخ والطلاب، وقد أسسها صاحبها سنة ٩٠٠هـ وظل الطلاب يؤمنونها بعده من أنحاء ليبيا وغيرها، وكانت

مكتبتها تشتمل على خمسمائة مجلد من الكتب النفيسة. ولم تكد تخلو بلدة في ليبيا من زاوية تعنى بالعبادة وبث العلم والمعرفة.

### (ز) خمود في الحركة العلمية

أصاب الحركة العلمية بليبيا غير قليل من الخمود في فترتين أما أولاها فحين هاجر إلى ليبيا والمغرب أعراب بني سليم وبني هلال منذ سنة ٤٤٣ وكانوا بدوا جفافة، فأنزلوا بليبيا دماراً كثيراً، وخاصة في حضرها ومدنها، شل العمران فيها والحياة العلمية إلى نحو قرن من الزمان، ولم تلبث طرابلس أن مُحنت باحتلال نورمان صقلية لها ثلاث عشرة سنة طوالاً، وثار أهلها عليهم ومزقوهم ذات ليلة شرُّمُزَّق، ودانوا للدولة الموحدية المغربية، ولم يكد يمضى نحو ربع قرن حتى أصبحت ليبيا في طرابلس وبرقة مسرحاً لأطماع قراقوش وابني غانية على نحو ما مرُّ بنا في غير هذا الموضوع، وظلوا يعيشون في ليبيا فساداً عشرات السنين. وكل ذلك أثر في الحركة العلمية بليبيا واعتراها كثير من الخمود، غير أنه خلال كل هذا الرماد الثقيل الذي انهال عليها لنحو قرن ونصف من الزمان ظل بها وميض جمر علمي يلمع من حين إلى حين، مما هياً لاستمرار الحركة العلمية ببلداتها وظهور نفر من العلماء بها حملوا مصابيح العلوم المختلفة شرعية ولغوية . وتصبح برقة - أو تظل - موالية لمصر في عهد الأيوبيين والمماليك وتصبح طرابلس موالية للدولة الحفصية، وترعى حركتها العلمية بما أنشأت فيها من مدارس وتعيد لها غير قليل من ازدهارها القديم.

وتعود الحركة العلمية إلى الخمود بطرابلس حين ظلت نحو أربعين عاماً فريسة للإسبان ثم لفرسان مالطة في القرن العاشر الهجري، وتخلّفها الدولة العثمانية، ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا أصحاب علم وثقافة، ولذلك انتكست البلاد الإسلامية جميعها التي ضمها إلى دولتهم سواء في المشرق مثل العراق والشام ومصر أو في المغرب مثل ليبيا وتونس والجزائر وتراجعت فيها الحركة العلمية وأصابها غير قليل من العطل والخمود، إذ لم يكن الولاة العثمانيون يشجعون العلماء في طرابلس - وبالمثل في برقة حين دانت لهم - تشجيعاً مادياً بفرض رواتب لهم ثابتة بحيث تحدث بينهم غير قليل من التنافس والنشاط العلمي الخصب، كما تحدث في مجالسهم غير قليل من الجدل في العلوم ومسائلها الشرعية واللغوية، ويلاحظ ذلك الرحالة المغاربة في رحلاتهم إلى الحج ومرورهم بطرابلس على نحو ما ذُكرَ عند ابن عبد السلام الناصري في رحلته الحجازية الكبرى حين مر بطرابلس سنة ١٢١١ هـ/١٧٩٦م إذ يقول: «إن أئمة طرابلس مع لطافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدريس، غافلين عن المنافسة في هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعذرت أو عادة عندهم قد

تقررت، سوى فرد من الناس، بدا في جُنْح ليلها كالنبراس». وعالم طرابلسي واحد فقط هو الذى لفت الناصرى، والبلد لم تكن قفرا من العلماء، ولكنها كانت قفرا ممن يشجعونهم ويشيرون فيهم الرغبة في المنافسة العلمية، وبالتالي في البحث والجدل والمناظرة.

## ٢

## علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض

### (أ) علوم الأوائل

لم يكن للبييا نشاط واضح في علوم الأوائل قبل العصر الحديث، إنما يذكر عرضاً أن هذا العالم اللغوى أو الفقيه المالكى بجانب علمه الواسع بمادته كان عالماً بالحساب والهندسة والكيمياء مثل عبد الله بن عبد الله البرقى الراحل إلى الأندلس زمن الخليفة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ). ويقال إنه كان عالماً باللغة والنحو وإماماً فيهما وعالماً بالحساب والهندسة، ويقال عن الجلالمى الفقيه الإباضى فى القرن الرابع إنه كان مع براعته فى علمى الأصول والمنطق كان بارعاً فى الحساب، ومثله معاصره ابن المنمر الفقيه المالكى، وكان عبدالرحمن بن محمد التاجورى الطرابلسى الفقيه المالكى فى القرن العاشر الهجرى علامة زمانه فى علم الميقات. وهى إشارات متباعدة زمنياً ولا تحمل للبييا نشاطاً بيّناً فى علوم الأوائل.

### (ب) علوم اللغة والنحو والعروض

طبيعى أن تعنى ليبيا وبلدانها بالعربية، وكان الليبيون على مثال عمر بن يَمَكَنَ فى تلقفه للقرآن الكريم وآياته من أفواه الجند العربى يتلقفون كلهم العربية منهم وما يجرى على ألسنتهم من بعض الأشعار. ونشأت الكتابيب، وأخذوا يتلقنون مع آيات الذكر الحكيم بعض الأمثال العربية وبعض الأحاديث النبوية، وربما ألم لهم الشيخ بشيء من خطب الرسول والخلفاء الراشدين، حتى إذا كان القرن الثانى أخذت ناشئة من العلماء من أهل ليبيا تحسن قراءة الذكر الحكيم وتروى بعض الأحاديث وتنشد بعض الأشعار، ورحل عدد منهم غير قليل لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء فى مصر والحجاز والعراق، وسمع بعضهم بوضع علماء البصرة لقواعد العربية، فرحلوا إليهم وتعلموا عليهم، وعادوا إلى الكتابيب فى ليبيا يعلمون الناشئة ما سمعوه من تلك القواعد، وعلموها أيضاً للشباب فى المساجد وأخذ يشاركهم فى هذا التعليم وافدون من المشرق: من البصرة أحياناً ومن الكوفة أحياناً أخرى، وما تلبث ليبيا أن يصبح لها لغويون ونحاة من أهلها، يتقدمهم أربعة عاشوا فى عصر الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ترجم لهم جميعا الزبيدي في طبقاته، وأولهم محمد بن صدقة المرادى الطرابلسي، وغلب عليه التعر في اللغة، إذ كان لا يكتفى بالمألوف من اللغة في محاضراته وإملاءاته، بل يطلب دائما الشواذ والنوادير والغرائب اللغوية حتى يبهر تلاميذه وسامعيه. والثاني خلف بن مختار الطرابلسي المتوفى سنة ٢٩٠ وكان صاحب نحو و لغة ويقرض الشعر ويحيد المعاني، والثالث محمد بن سالم الطرابلسي المعروف بالعقق وكان صاحب نحو و لغة مثل سالفه مع علم بالجدل وإيمان بالاعتزال ومبادئه، والرابع عبد الله بن محمود من أهل سرت، نشأ فيها وأخذ عن علمائها، ورحل إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها وبها دوت شهرته في اللغة والغريب وشرح الدواوين الشعرية وأيام العرب، وله كتب أملاها في اللغة والعربية والغريب والعروض، يقول الزبيدي: «وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية التونسية والمغرب، وعليه قرأ الناس المشروحات توفى سنة ٣٠٨ للهجرة». وتلتقى عند القفطى في إنباه الرواة بأبي بكر محمد بن مؤمن الكندى البرقي، وفد على مصر وتوفى فيها سنة ٣٥١ وقد قارب الثمانين وكان نحوياً كبيراً، كما تلتقى بعلى بن مضر البرنيقي أو البنغازي نزيل مصر، كان نحوياً لغوياً كبيراً وكتب بخطه كثيراً من الكتب اللغوية وكان الناس يتنافسون في تحصيل ما يكتبه، ويقول القفطى إنه رأى نسخة بخطه من معجم الجمهرة لابن دريد، وقد بيعت بأربعة وعشرين ديناراً مصرياً، وإذا كان قد حمل إلى القاهرة نسخة من الجمهرة بخطه، فإننا سنرى ابن القطاع بعده بأكثر من قرن يحمل إلى القاهرة من صقلية نسخة من صحاح الجوهري، وكان عليها اعتماد المصريين في رواية معجم الجوهري، كما كان اعتمادهم على نسخة معجم الجمهرة بخط علي بن مضر البنغازي، ولعل في حمله لها إلى القاهرة ما يدل على ما بلغه أهل ليبيا من العلم باللغة ومعاجمها الكبيرة في القرن الرابع الهجري، إذ توفى سنة ٣٨٤ للهجرة.

وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري التقينا في طرابلس بعالم فذ من علماء اللغة العربية يحق لطرابلس - بل لليبيا عامة - أن تفاخر به، ويحسن أن نتوقف عنده قليلاً لنتخذ منه رمزاً قوياً على مدى ما حذقته ليبيا وطرابلس حتى زمنه من علوم العربية والتعمق فيها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي الطرابلسي اللواتي، فهو ليبي من قبيلة لواتة البربرية التي سكنت الساحل الليبي منذ العصور السحيقة، وأصل أسرته من أجدابية في إقليم برقة، ولذلك نسب إليها، وقد وُلد ونشأ وأمضى حياته في طرابلس إلى أن توفى بها، ولذلك عُرف بالطرابلسي. واختلف من ترجموا له أو ذكروه في القرن الذي عاش فيه، فقبل عاش في القرن السابع الهجري، وقيل: بل في القرن السادس، وقال التجاني في رحلته إنه عاش في القرن الخامس الهجري، ويؤيده - بل يقطع به - خبر له مع قاضي بلدته ابن هانش الذي ولى قضاءها بين سنتي ٤٤٤ و ٤٧٧ فقد ذكر الرواة أنه حضر مجلس قضاته، فرآه يحكم بحكم مخطئ



فردّه، فقال له ابن هانئ: «اسكت يا أحول فما استدعيت، ولا استفتيت» وانصرف من مجلسه غاضبا، فألف رسالة في الحوّل تدل على سعة علمه، وهى سعة شهد له بها كثيرون مثل القفطى في ترجمته له بإنباه الرواة، إذ يقول عنه: «من أهل اللغة، ومن تصدّر في بلده واشتهر بالعلم.. وكانت له يد جيدة فى اللغة وتحقيقها وإفادتها». ويقال إنه سئل من أين لك كل هذا العلم ولم ترحل؟ فأجاب: اكتسبته من أبى هوراة وزناة فى بلدتى، يريد من العلماء الذين كانوا يفدون على طرابلس من الشرق والغرب، مما يدل على الأثر الواسع للوافدين على طرابلس فى ثقافة شبابها ومعارفهم العلمية على نحو ما أشرنا إلى ذلك فىما أسلفنا من حديث. ويقول التجانى فى برحلته: «كان الفقيه أبو إسحق هذا من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوها ولغة وعروضا ونظما ونثرا». وينوه بمؤلفاته، ويذكر منها كتابه فى العروض، ويقول: «ناهيك به حسنا وترتبيبا وتهذيبا، وهو نسختان: كبرى وصغرى» كما يذكر له كتابا مختصرا فى علم الأنساب، اختصر فيه أنساب قريش للزبير بن بكار، ويقول: «قد رأيت أبا إسحق قد أدخل من حفظه فى هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبّه عليها». ومن مؤلفاته الطريفة كتاب فى الرد على ابن مكى فى كتابه: «تثقيف اللسان» وما جمعه فيه من الأخطاء اللغوية التى تدور فى أفواه الناس والعلماء، وقد راجعه فى كثير من هذه الأخطاء محاولا تصحيح بعض ما ظنه خطأ وتسويغه. وينوه التجانى بكتاب له فى شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلالها، ويقول التجانى: «استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها.. ولما استوفى ذلك استيفاء جميلا تعرّض لشرح المقاطع (الفواصل اللغوية) الواقعة فى سورة مريم لاشتغالها على كثير من تلك الأحكام، فجاء هذا التأليف فى غاية الإفادة». ويبدو أنه كان فقيها كبيرا، وتشهد له بذلك مراجعته لابن هانئ السالفة فى حكم قضائى له، ويقول التجانى: له تأليف جليلة وأسئلة مفيدة فى الفقه، ولكن لاشك فى أن نشاطه اللغوى كان أكبر وأخصب من نشاطه الفقهى. وقد نشر من مؤلفاته كتابان لغويان نفيسان هما: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، والأزمة والأنواء.

أما كتاب كفاية المتحفظ فهو على مثال كتاب فقه اللغة للثعالبي، ويتوزع مثله إلى عدة أبواب، فباب فى صفات الرجال المحمودة ويتلوه بصفات الرجال المذمومة، وباب فى صفات النساء المحمودة، ويتلوه بالمذموم من صفاتهن، وباب فى خلق الإنسان، وباب فى الخيل، وباب فى السلاح، وباب فى السباع والوحش، وباب فى الطير، وباب فى النبات إلى غير ذلك من أبواب كثيرة، ويقول فى مقدمته: «هذا كتاب مختصر فى اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام، وأودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشى الألفاظ واللغات، وأعربناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنيا لمن اقتصد فى هذا الفن، ومعينا لمن أراد الاتساع فيه». وقد

نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم العربي من قديم شرقا وغربا وعكف عليه غير عالم يشرحه أو ينظمه شعراً ليسهل على الطلاب حفظ ما فيه، وعدد بروكلمان في ترجمته مخطوطاته ومخطوطات شروحه ونظمه، وطبع الكتاب في عصرنا بالقاهرة وبيروت وحلب، ونسوق مثالا من صفحاته الأولى يوضح مدى أهميته والفائدة - أو الفوائد - اللغوية منه، يقول في باب الصفات المحمودة في الرجال:

«الجواد: الرجل السخي، والخرق: الكريم، والخضم: الكثير العطية، والخضم: الكثير الإنفاق، والأريحي: الذي يرتاح للعطاء، والحسب: الكريم الآباء، والماجد: الشريف، والصنديد: الرئيس العظيم وكذلك الهمام، والسמידع: السيد وكذلك الجحجج والأريب: العاقل، والحلال: الوقور، والمنجد الذي قد جرب الأمور، والمدره: الذي يكون رأس القوم ولسانهم، واللودعي: الذكي القلب، والمصقع: البليغ اللسان، والسري: المرتفع القدر وجمعه سرة بفتح السين».

وتشهد هذه الألفاظ بأنه كان صاحب حس أدبي وذوق مرفه وذاكرة لاقطة، مما جعله يعرف كيف يختار في كل باب من أبواب الكتاب من معاجم اللغة ومما حفظه من الشعر والنثر ألفاظا مصفاة نقية من شوائب الغرابية والإغراب كما قال في مقدمة الكتاب ومع تفسيرها بحيث تكون معانيها واضحة تمام الوضوح للشباب والأدباء حين يستخدمونها ويتلفظون بها، وهو ما دفع الناس - كما يقول القفطي - في مصر والمغرب إلى الاشتغال بالكتاب والعناية بحفظ ما فيه من الكلم المتخير المستعذب.

وأما كتاب الأزمنة والأنواء فقد حققه ونشره الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٤ للميلاد، ويقول ابن الأجدابي الطرابلسي في مقدمته: «هذا كتاب مختصر أودعناه أبوابا حسنة في علم الأزمنة وأساساتها، والفصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهيأتها، بأوضح ما أمكننا من التبيين، وبأسهل ما حضرنا من التقريب». والكتاب - كما يدل عنوانه - في علم الفلك وما يتصل به من الكواكب وأوضاع الشمس والقمر على مدار العام والأمطار والرياح وتغير الفصول. والعرب منذ الجاهلية يعنون بهذا العلم لشدة حاجتهم لمعرفة مواقع النجوم في ظلمات لياليهم الصحراوية الطويلة، حتى لكانها المصابيح التي تهديهم في سراهم ليلا فلا يضلون السبل، وقد أكثروا من التأليف في هذا العلم منذ القرن الثاني الهجري، ونقلوا عن الأمم القديمة: اليونانية والفارسية والهندية ما كتبوه فيه ومزجوه بمعارف العرب في صور مختلفة. وكتاب ابن الأجدابي يحتفظ بمعلومات طريفة، وقد استهله بحساب الأزمنة والسنين والشهور الشمسية عند الروم وغيرهم والقمرية عند العرب ثم يذكر الكواكب المشهورة ومواقعها في القبة الزرقاء والكواكب السيارة في السماء، ويتحدث عن بيان أزمنة السنة وبروج الشمس ومنازلها والرياح

وأسمائها، ويختم الكتاب بتفصيل الحديث في الشهور الشمسية وأسمائها عند الأعاجم. ويذكر مع كل موضوع الأشعار والأمثال المسجوعة المرتبطة به، مع ما يعم في الكتاب من جمال الصياغة وحسن العبارة، وبذلك استحال علم الفلك عند ابن الأجدابي الطرابلسي إلى علم أدبي، مما يدل بوضوح على قدرته وبراعته الأدبية.

وفي كتب الطبقات بعد ابن الأجدابي الطرابلسي أساء لبعض اللغويين والنحاة الليبيين على مدار الحقب إلى العصر الحديث، غير أن أحدًا من الليبيين لم يبلغ مبلغه في التعمق اللغوي مع حسن العرض وجمال البيان، ومن تذكره كتب التراجم بعده معاصره خلوف بن عبد الله البرقي النحوي نزيل صقلية وأبو الحسن على البرقي المتوفى سنة ٥٢٢ للهجرة، وكان نحويا كما كان شاعرا. وتم قرون ولا يلمع في ليبيا اسم لغوي أو نحوي، ويلقانا في القرن التاسع يوسف بن على الجعرائي في القصبات عاصمة مسلاتة سنة ٨٢٠ وله شرح على متن الأجرومية، وبنى له زاوية ببلدته كان يتعبد فيها لربه ويدرس النحو وغيره لطلابه، ومن نلقاهم في القرن العاشر الهجري محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب الطرابلسي المتوفى سنة ٩٥٤ للهجرة، وله حاشية على كتاب قطر الندى لابن هشام وأخرى على كتابه التوضيح أو أوضح المسالك، وله كتاب لغوي في المواضع التي غلط فيها الجوهري صاحب معجم الصحاح والفيروزابادي صاحب القاموس المحيط.

## ٣

### علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

تمثل قراء ليبيا للذكر الحكيم - مثل بقية قراء المغرب - قراءة ورش المصرى التي تلقنها عن نافع مقرئ المدينة المشهور وأحد القراء السبعة، ولا يزال القراء - إلى اليوم - يدوون بها في ليبيا والبلاد المغربية دوى النحل، ومن القراء المبكرين بليبيا في جبل نفوسة عمر بن يمكتن الذى مر بنا ذكره في الحركة العلمية، ومن كبار القراء في القرون التالية بعده مؤمن بن فرج الهوارى الطرابلسي المتوفى سنة ٤٤٢ للهجرة، وكان يقرئ القرآن في مسجد عرف باسمه بعده كما يقول التجاني في رحلته، واشتهر عبد السلام بن عبد الغالب المسراقي المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة بأنه كان يعنى بالقراءات السبع جميعا، ومثله على بن عبد الحميد العوسجى المتوفى سنة ٩٢٥ وكان يحفظ الذكر الحكيم بالقراءات السبع، وكان يحفظه للغلمان في مسجد بناه في حياته واشتهر بأنه مؤدب الصبيان. وكانت المساجد والزوايا والكتاتيب جميعا تموج بقراءة القرآن الكريم على مر الحقب.

وعلى نحو ما كانت ليبيا تعنى بقراءات الذكر الحكيم كانت تعنى بتفسيره، وكان علماءها يتلقون ما كتبه الطبرى وغيره من علماء المشرق ويعرضونه على الطلاب والناس، ومن كبار مفسريه بطرابلس مؤمن بن فرج الهوارى المذكور آنفا بين القراء، ومنهم أيضا محمد بن محمد الخطاب المتوفى سنة ٩٥٤ وله فى التفسير حاشية على تفسير البيضاوى، ويقال إنه حاول أن يكتب تفسيراً للقرآن وأنه مضى فيه حتى سورة الأعراف، ولم يكتب له أن يتمه، ومن مؤلفاته القرآنية كتاب فى تجويد القراءات أو فى علم تجويده. وكان يعاصره مفسر طرابلسى هو محمد بن على الخروبى المتوفى سنة ٩٦٣ وله تفسير تحتفظ به رفوف دار الكتب المصرية فى ثمانى مجلدات، سماه: «رياض الأزهار وكنز الأسرار» وكان صوفيا كبيرا وربما نزع فيه منزع المتصوفة فى تفسير الذكر الحكيم.

ولم تكن تقل عناية ليبيا بالحديث النبوى عن عنايتها بالتفسير للقرآن الكريم وقراءاته، ومن محدثيها سعيد بن عباس من أهل مدينة سرت، توفى سنة ٢٠٠ للهجرة، وتشتهر بروايته وتدرسه بعض البيوت أو الأسر مثل أسرة أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلى فى طرابلس المتوفى سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يشبهه بأحمد بن حنبل فى كثرة ما يروى من الأحاديث، وكان ابنه عبد الله وصالح محدثين، وظلت أسرته فى طرابلس تشتهر بروايتها للحديث النبوى وتدرسه للطلاب. وكان يعاصره فى برقة محدثان جليلان هما إبراهيم البرقى وعبد الكريم البرقى. وولتقى فى القرن الرابع الهجرى بيحيى بن دهمان، وكان محدثا كبيرا، تسامع به أهل الحديث النبوى فى البلاد المغربية والأندلسية، ومرَّ بنا أن أندلسيين محدثين سمعا منه الحديث. ومن نابىي المحدثين فى هذا القرن ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا المازذكه فى الفصل الماضى بين الزهاد، وهو تلميذ صالح بن أحمد العجلى، وكان يلقى دروسه فى الحديث النبوى بمسجد المجاز فى طرابلس، وإليه كانت الرحلة من بلدان إفريقية التونسية والبلدان المغربية، ومن رحل إليه للسمع عنه أبو الحسن القابسى محدث تونس المشهور، وله فى الحديث والفقه والرقائق الوعظية تأليف كثيرة. ومن كبار المحدثين بعده أحمد بن نصر الداودى المتوفى سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م كان من أئمة المالكية، أنجبته طرابلس، وألَّف فيها كتابه: «النامى» فى شرح الموطأ لمالك، وانتقل منها إلى تلمسان، وفيها ألَّف كتباً متعددة، منها: «النصيحة فى شرح كتاب البخارى» ويقال إنه أول من شرحه فى العالم الإسلامى، وألَّف كتاب الواعى فى الفقه وكتاب الأموال وهو فتاوى وأحكام فى غنائم وأراضى البلدان المفتوحة. ومن أهم المحدثين بعده إبراهيم بن عبد السلام المسراقى المتوفى سنة ٧٠٤. اشتهر بعنايته البالغة بغريب الحديث، وأهم منه معاصره الإمام المحافظ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم المشهور باسم ابن عبيد المولود بطرابلس سنة ٦٣٩ وبنوه به وبعلمه التجانى فى رحلته التى تحدث فيها عن زيارته

لطرابلس سنة ٧٠٧ للهجرة بصحبة الأمير الحفصى زكريا بن اللحياني، وفيه يقول: «القائم برسم العلم في هذه البلدة (طرابلس) في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبو فارس عبدالعزيز بن عبدالعظيم حضرت درسه بمسجد مجاور لداره، فرأيت رجلا متضلعا من العلم، ذاكرا بالمذهب (المالكي) ذكرا لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركا في علوم جمّة وله اعتناء بحفظ كلام (الأئمة) القرويين (بالمغرب الأقصى) في المذهب (المالكي) من تعليل أو تفسير أو توجيه أو تخريج، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام أبي المعالي (الجويني إمام الحرمين) وكلام الشيخ أبي حامد الغزالي.. ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكيّنة في العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هنالك (بطرابلس) وطلب مخدومنا (الأمير أبي زكريا اللحياني) أن يكون ذلك بمحضر منه، فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكناتنا، فعقدنا مجلسه لذلك بالقصبة (قصر البلدة) وفي مجلس الأمير منها، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد، فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الأنام». ويذكر التجاني أن ابتداء هذه المجالس كان في شهر شعبان من سنة ٧٠٧ وأنه بدأ بقراءة صحيح مسلم، والشيخ يعلق ويفسر ويحجّب على الأسئلة، حتى إذا أتمّ التجاني قراءة صحيح مسلم على الشيخ أخذ يقرأ عليه صحيح البخارى، والشيخ يفسر ويعلق تعليقات علمية ويرد على الأسئلة ردوداً دقيقة غاية الدقة، وأجاز ابن عبيد التجاني بما رواه عن شيوخه من هذين الصحيحين في صفر سنة ٧٠٨ للهجرة.

وبدون ريب يمثل ابن عبيد الذروة التي انتهى إليها علماء الحديث وحفاظه في طرابلس وأنهم لم يكونوا يقلون علما وحفظا ودراية للحديث النبوي وتعمقا في دراسته عن أندادهم في البلدان العربية: في تونس وغير تونس بل إن هذا أحد الأفضاذ المتأدبين بتونس يقطع مع أميره رحلتها ويظنان بطرابلس أشهراً ليحظيا بأخذ صحيحى مسلم والبخارى عن هذا الحافظ الكبير الثبت الحجة، وقد سأله التجاني عن شيوخه فأعطاه ثبنا بأهمهم، ونفر منهم كانوا طرابلسيين ونفر آخر كانوا من الوافدين على طرابلس إما لتولى منصب القضاء وإما مارّين بها في الطريق لأداء فريضة الحج أو عائدين إلى ديارهم المغربية، ويذكر له الكتب التي أخذها عنهم، وفي مقدمتها كتاب الإرشاد لأبي المعالي إمام الحرمين الجويني وكتاب البرهان له أيضا وكتاب المستصفي للغزالي. وفي ذلك ما يؤكد ما قلناه في غير هذا الموضع من أن الوافدين على طرابلس والمجتازين بها كان لهم تأثير واسع في حركتها العلمية. وتظل رواية الحديث النبوي ودراسته متصلتين في طرابلس وكل أنحاء ليبيا طوال القرون التالية.

ويعدّ الفقه أهم علم إسلامي استوعب نشاط العلماء الليبيين، وطبيعى أن لا ينشأ في ليبيا فقهاء يحسنون العلم بالمذاهب الفقهية المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب

الشافعي ومذهب ابن حنبل إلا بعد نشوء هذه المذاهب، وقد نشأت الثلاثة الأولى في القرن الثاني الهجري، ونشأ الرابع في القرن الثالث الهجري على نحو ما هو معروف، وظل بعيداً عن أهل ليبيا لا يعرفه - ولا يعتنقه - أحد منهم، وكان مذهب أبي حنيفة في العراق بعيداً عنهم، غير أن إمامه لعهد الرشيد: أبا يوسف حمله على أن يخص القضاء في الدولة الإسلامية جميعها بأهله، فكان يشترط في القاضى بأى بلد إسلامى أن يكون فقيهاً حنفياً، وكان إبراهيم بن الأغلب والى الرشيد ومؤسس الدولة الأغلبية في إفريقية التونسية وطرابلس يصدح هو والحكام من أسرته لمشيئة الرشيد وأبي يوسف في أن يكون القضاة بدولتهم أحنافاً ما أمكن ذلك، مما يجعلنا نظن أنه تولى القضاء في زمنهم بطرابلس بعض القضاة الأحناف، مما جعل المذهب الحنفى يعرف فيها بعض المعرفة، وبانتهاء زمن الدولة الأغلبية تنتهى صلة طرابلس بالمذهب، حتى إذا والت ليبيا الدولة العثمانية عادت هذه الصلة. إذ كان العثمانيون يفرضون على البلدان الموالية لهم أن يكون قضاة أحنافاً. وكان المذهب الشافعي قد انتشر بمصر وكثر فقهاؤه، ولا نسمع أن ليبيا اعتنقه، إذ كان قد جذبهم إليه مذهب مالك أستاذ الشافعي وإمام المدينة والحجاز. ولم يكذبى في علماء ليبيا بقية مذهب سواه، وخاصة أن نفراً منهم كانوا قد حضروا دروس مالك وحملوا عنه كتاب مذهبه: الموطأ وأخذوا يشيعون المذهب في ليبيا على نحو ما نعرف عن معاوية بن محمد الحضرمي الطرابلسي تلميذ مالك، وكان قد حمل المذهب عنه جلة من الفقهاء المصريين، فكان الليبيون يأخذون عنهم مثل إبراهيم بن أبي الفياض فقيه برقة المتوفى سنة ٢٤٥ تلميذ عبد الله بن وهب بالفسطاط حامل مذهب مالك عنه إلى مصر، أو بعبارة أدق أحد حملته عنه المصريين المهمين، وكان سحنون إمام المذهب في المغرب وحامله عن عبد الرحمن بن القاسم في مصر قد نزل قبل قدومه إلى القيروان في أجدابية بليبيا سنة ١٩١ وأذاعه فيها وانتقل إلى طرابلس وظل بها ثلاث سنوات يدرس لأهلها المذهب ويشيعه، ويلقانا فقهاء ومالكية كثيرون في بلدان ليبيا المختلفة مثل ابن أبي زرعة البرقي المتوفى سنة ٢٤٩ وله مؤلفات مختلفة في المذهب ورجال الموطأ وزيادات على مختصر الفقيه المالكي المصري ابن عبد الحكم ذكر فيها اختلافات فقهاء الأمصار، وولتقى في مدينة سرت بعبد الجبار بن خالد السرتي المتوفى سنة ٢٨١ للهجرة، وهو من تلامذة سحنون، ومن ولتقى به في طرابلس موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان المتوفى سنة ٣٠٦ وهو تلميذ محمد بن سحنون خليفة أبيه في حلقة بالقيروان، وتولى القضاء ببلدته فترة، ويقول ابن فرحون في الديباج إنه كان يحسن الكلام في الفقه على مذهب الإمام مالك، ويذكر له كتاباً ضخماً في أحكام القرآن في اثني عشر جزءاً، ولتقى في برقة بالفقيه المالكي عبد الله بن إسماعيل البرقي المتوفى سنة ٣١٧ ومرّبنا ذكره مع عبد الجبار البرقي بين الزهاد، ويلقانا في سرت الفقيه المالكي محمد بن حسن الزويلي السرتي المتوفى سنة ٣٨٣. ولتقى بإمام كبير من أئمة الفقه المالكي بطرابلس، هو على بن محمد بن المنمر المتوفى سنة

٤٣٢، وهو أول من انتصر لمذهب أهل السنة في بلده ضد المذهب الفاطمي الشيعي، وأمر بمنع شارتهم في الأذان: «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» ودعا الناس إلى صلاة الضحى جهاراً ولم يكونوا يصلونها في زمن الفاطميين إلا مستخفين، وأعاد صلاة القيام في رمضان وكان الفاطميون قد محوا رسمها محوً تاماً في أيامهم، وعنى في كتاباته ومحاضراته بمناصرة أهل السنة، ومن مؤلفاته التي عُنِيَ بها الطرابلسيون طويلاً كتابه: «الكافي في الفرائض». ومن أئمة الفقه المالكي بطرابلس عمران بن موسى بن معمر المتوفى سنة ٦٦٠ وهو أستاذ ابن عبيد الحافظ الكبير الذي نوه به التجاني طويلاً كما مرَّ بنا، وكان يدرس لطلابه من أمهات المذهب المالكي كتاب التفرغ لابن الجلاب وتهذيب المدونة للبرادعي. كما كان يدرس لهم كتاب المستصفي للغزالي والمحصل لابن العربي الأندلسي، وظل قاضياً على طرابلس أكثر من ثلاثين عاماً واشتهر بدقته في أحكامه وأقضيته، فاستدعاه المستنصر الحفصي لتولى القضاء في تونس سنة ٦٥٨ للهجرة، وتولاه لمدة عامين بها حتى توفي. وعرف شيوخ طرابلس حينئذ نظام المعيدين المعروف بمصر وغيرها في زمانهم، وكان المعيد عنده عبد الوهاب بن محمد الهنزولي، وخلفه في حلقة ودروسه حين بارح طرابلس إلى تونس بدعوة المستنصر الحفصي، ومن تلاميذه فقهاء المالكية عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا المتوفى سنة ٦٨٤ وهو مثل ابن معمر من أساتذة الحافظ المحدث ابن عبيد، وكان يدرس لطلابه بطرابلس كتابي الإرشاد والبرهان لأبي المعالي الجويني وكتاب المستصفي للغزالي، وسأعود للترجمة له بين الشعراء، إذ كان شاعراً كبيراً. ومن فقهاء المالكية النابيين أحمد بن عبد الرحمن الزليطني الفقيه الأصولي المتوفى بأخرة من القرن التاسع، وهو أستاذ زروق أو بعبارة أدق أحد أساتذته، وله مؤلفات كثيرة، منها شرحان على مختصر خليل في الفقه المالكي أحدهما ضخم في ستة مجلدات، ومنها شرحان على أصول السبكي، ومنها شرح مختصر فتاوى البرزالي، وتولى القضاء بطرابلس فترة ثم أسندت إليه بتونس مشيخة المدارس. ومرَّ بنا زروق في حديثنا عن الصوفية، وكان فقيهاً مالكيًا كبيراً، ومن كتبه الفقهية شرحان لرسالة ابن أبي زيد في الفقه، وشرح مواضع من مختصر خليل، وشرح الإرشاد في الفقه. ويظل الفقه المالكي مزدهراً في طرابلس - مثلها في ذلك مثل بقية البلاد المغربية، ومن فقهاؤها النابيين في العصر العثماني محمد بن شعبان الطرابلسي المتوفى سنة ١٠٢٠ وقد أسند إليه القضاء في طرابلس والفتوى والتدريس، واشتهر بمنظرته لعلماء إستانبول. ومر العياشي بطرابلس سنة ١٠٥٩هـ/١٦٥٠م وذكر من فقهاؤها في رحلته أثناء وصفه للمدينة محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي ومحمد بن مساهل مفتيها وقد ظلت ولايته للفتوى بها نحو أربعين سنة مُحَدَّت فيها سيرته، ونوّه بالفقيه محمد المكي وقال إن بيته بيت علم وذكر له خزانة كتب ليس لأحد من أهل بلدته خزانة تماثلها، وذكر من مؤلفاته: «شكر المنة في نصر السنة» وهو في الرد على عقيدة الإباضية.

والحق أن فقهاء المذهب المالكي في ليبيا يفوتون الحصر، مثلها في ذلك مثل الأقاليم المغربية المختلفة، وكانت الجماهير فيها جميعاً تعتنق مذاهب أهل السنة وخاصة مذهب مالك فهو المذهب الذى ذاع وشاع في جميع البقاع المغربية، إلا ما كان من جبل نفوسة في ليبيا وجزيرة جربة في تونس وبلاد ميزاب في جنوبي الجزائر، فإنها جميعاً اعتنقت العقيدة الإباضية إلى اليوم، وولتقى بفقهاء لها عديدين في جبل نفوسة، ومن أوائلهم إسماعيل بن ضرار الغدامسى أحد الذين رحلوا إلى البصرة للتلمذة على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة داعية العقيدة الإباضية وظل ملازماً له خمس سنوات وعاد إلى موطنه فولاه أبو الخطاب عبد الأعلى المعافى في ثورته بجبل نفوسة وطرابلس سنة ١٤٠ القضاة في دولته ووكّل إليه بجانبه شئون التعليم، وأخذ الفقهاء الإباضيون بعده يتكاثرون في جبل نفوسة ومن أهمهم في القرن الثالث الهجرى عمرو بن فتح النفوسى المتوفى سنة ٢٨٣ للهجرة وله كتب في العقيدة الإباضية: في الأصول والفروع، من أهمها كتاب منسوب إليه يسمى «العمروسى» ولما نزل داعية الإباضية بشر بن غانم الخراسانى جبل نفوسة استودعه مدونة في الفقه الإباضى رواها عن تلامذة داعية الإباضية الكبير بالبصرة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، فتنفّر هو وأخت له ليل نهار لنسخها، وكانت تقع في اثني عشر جزءاً، حتى أتما نسخها، وتصادف أن الأيام حفظتها بينما احترقت النسخة الأصلية. وعليها اعتماد الإباضية في الفقه، وهى تقوم عندهم مقام مدونة سحنون في مذهب الإمام مالك. ومن فقهاء الإباضية في القرن الرابع الهجرى سليمان بن ماطوس الشروسى، وتعد فتاويه مرجعاً مهماً عند الإباضية، وموسى بن يونس الجلامى، وقد برع في الأصول والمنطق والرياضيات وأسس مدرسة كبيرة كان بها أقسام داخلية للطلاب والغرباء، وولتقى في القرن الخامس بالفقيه أحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة، وكانت لها هيئة عليا وفروع في كل بلد وقرية تضم خير أهلها علماً وصلاًحاً، ومهمتها خدمة المصلحة العامة، ولهذا الفقيه الإباضى مؤلفات كثيرة، منها أصول الأرضين في ستة أجزاء والجامع في الفروع في جزئين والقسمة وتبيين أفعال العباد في ثلاثة أجزاء، وولتقى في القرن السادس بيوسف بن إبراهيم السدراتى المتوفى سنة ٥٧٠ وله كتاب العدل في أصول الفقه وكتاب الترتيب في علم الحديث، ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن على بن يخلف التيمجارى النفوسى، ناشر الإسلام في مملكة مالى فقد رحل إليها سنة ٥٧٥ وأقنح ملكها ووزراءه وأهلها بالدين الحنيف فاعتنقوه، وظل في ديارهم يعلمهم فرائض الإسلام ويحفظهم القرآن الكريم ويفقههم في الدين، وهى يد عظيمة لإباضية نفوسة بجانب الأيدى الأخرى العظيمة لصوفية المغرب ودرأويشها في نشر الإسلام بإفريقية السوداء غرباً ووسطاً وشرقاً. ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن الثامن الهجرى أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالى نسبة إلى جيطال مدينة كبيرة في جبل نفوسة، توفى سنة ٧٥٠ للهجرة، وهو كثير التأليف، له كتاب في الفرائض وكتاب في الحج والمناسك



وكتاب قواعد الإسلام وكتاب قناطر الخيرات في ثلاثة أجزاء. وملتقى بأبي ساكن عامر الشماخي المتوفى سنة ٧٩٢ عَزَم على أن يؤلف مدونة كبرى في الفقه وأخرج منها أربعة أجزاء أولها في الصلاة، والثاني في الزكاة والصوم والحج والندور والأيمان والحقوق، والثالث في البيوع والقسمة والرهن، والرابع في الوصايا والهبات. وملتقى في القرن العاشر بيد الدين أحمد الشماخي المتوفى سنة ٩٢٨ ومن أهم كتبه مقدمة في أصول الفقه. وللإباضية مجموعتان فقهيتان: مجموعة تسمى الديوان ألفها سبعة من فقهاءهم في نفوسة، ومجموعة ثانية تسميها ديوان العزابة ألفها عشرة من فقهاء نفوسة الكبار.

وقد مر المذهب الفقهي الإسماعيلي الفاطمي على ليبيا مرورا سريعا فقد كان الناس منصرفين عنه إلا نفرا قليلا بل أقل من القليل رأوا التعلق بدنيا الفاطميين، وربما ألجأهم إلى ذلك الضرورة، ولا نسمع في طرابلس عن فقيه إسماعيلي إلا مايروي عن خليل بن إسحق ولم يكن فقيها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولا كانت له مؤلفات فقهية، إنما حضر حلقات بعض الفقهاء حتى إذا دوى طبل المهدي وابنه القائم أسرع في الانضواء تحت لوائها، ومثله محمد بن سيار الفقيه البرقي المتوفى سنة ٣١٠ ومثلها محمد بن الحسن الطرابلسي الذي استدعاه يعقوب بن كلس وزير المعز الفاطمي إلى القاهرة وفوض إليه قضاء دمياط وبلبيس والفرما، وعلى شاكلتهم أبو جعفر أحمد بن خالد البرقي المتوفى سنة ٣٧٦ ومالك بن سعيد القراني ولي القضاء بمصر في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وأمر بضرب عنقه سنة ٤٠٥ للهجرة.

وإذا كانت ليبيا نشطت في علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات فإن نشاطها كان محدودا في علم الكلام، إذ لا يعدو ما يقال عن اشتغالهم به وأن يذكر أن شخصا كان نحويا أو لغويا أو فقيها كبيرا كان يعتنق الاعتزال مثل محمد بن سالم الطرابلسي، ولا نعرف إلى أي حد كان يتمثل مبادئه، ويذكر أن معاصره أبا خزر النفوسي الإباضي ناظر أحد المعتزلة في القرن الرابع وانتصر عليه، ويقال إن الفقيه المالكي الكبير أحمد بن نصر الداودي ألف رسالة في الرد على القدرية (المعتزلة) بعنوان الإيضاح ولو أنها وصلتنا لاستطعنا أن نأخذ صورة عن مباحث علم الكلام في ليبيا وبالأخص في طرابلس بلدته. ويقال إن الفقيه المالكي الكبير الدوكالي كان يدرس لطلابه من أمثال عبد السلام الأسمر في القرن العاشر الهجري مقدمة الأشعري في التوحيد، ويبدو أن ليبيا أصبح مثلها مثل البلاد المشرقية والمغربية منذ القرن الخامس الهجري وما بعده تؤثر المذهب الأشعري الكلامي على الاعتزال وغيره من المذاهب الكلامية.

## التاريخ

طبيعي أن يشغف بعض العلماء في ليبيا بالكتابة في التاريخ الإسلامي، كما شغف به كثير من في البلدان العربية، ومن أوائل مؤرخيهم عبد الرحيم بن عبد الله بن أبي زُرعة البرقي المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة روى السيرة النبوية ومغازيها عن ابن هشام مؤرخها بالفسطاط، ويبدو أن أخاه أحمد رواها معه عن ابن هشام، ويقال إن لأحمد كتابا في التاريخ دون إشارة إلى موضوعه، ويذكر ابن ناجي في معالم الإيمان مؤرخين في أجدابية، هما أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٣٨٤ وأبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٤٣٢ وولدت في طرابلس بمؤرخين لها، هما الحسن بن فراج المتوفى سنة ٥٢١ وعلى بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي المتوفى سنة ٥٣٣. ومن المؤرخين المهمين في القرن العاشر الهجري كريم الدين البرموني المصراقي المتوفى سنة ٩٩٩ للهجرة، وأبوه مصرى نزل مصراته مع الشيخ زروق في عودته من مصر، وقد بدأ كريم الدين تعلمه في زاوية الشيخ زروق ثم تركها إلى زاوية الشيخ المحجوب، وشغف بالتاريخ وله فيه كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار، وفيه عرف بطائفة كبيرة من الأتقياء الصالحين وبأنساب الأشراف في طرابلس وأنساب بعض القبائل العربية وله بجانب هذا الكتاب كتاب عن عبد السلام الأسمر الصوفي معاصره المار ذكره بين المتصوفة.

ويشتهر بين علماء نفوسة الإباضيين مؤرخان، أولهما أحمد بن سعيد الدرجيني الفقيه الإباضي في القرن السابع وله كتاب طبقات المشايخ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، وفيه عرض تراجم مفصلة لأئمة المذهب الإباضي رتبها في طبقات كل طبقة تضم خمسين عاما حتى نهاية القرن السادس الهجري، والثاني أبو العباس بدر الدين أحمد بن عثمان بن عامر الشماخي المذكور بين الفقهاء الإباضيين وله في تاريخ الأئمة الإباضية كتاب «السير»، وفيه يعرف بالمذهب الإباضي منذ نشأته ويترجم لرجالته حتى أوائل القرن العاشر الهجري.

## الفصل الرابع

### الشعر والنثر

١

#### تعرب<sup>(١)</sup> ليبيا

أخذت ليبيا والبلدان المغربية تدخل في الإسلام منذ فتحها العرب، ومنذ اعتنقته ليبيا لم تقم فيها أى حركة ثورية ضد العرب، كما حدث أيام كسيلة والكاھنة في إفريقية التونسية والجزائر، وحتى هما لم يعودا إلى شق عصا الطاعة منذ عهد حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ). ومع ذلك فإن الإسلام عمَّها بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول الهجرى حتى يكون قد تغلغل إلى جميع البقاع في المغرب، بين الحضر شمالا والبدو جنوبا وفي السهول وعلى سفوح الجبال وفي الهضاب وفي الصحارى، وهو ما ملأ نفوس المؤرخين الغربيين حيرة، فإن الفينيقيين أقاموا بين البربر قرونا، ولم يستطيعوا نشر دينهم ولغتهم فيهم بهذه الصورة الجماعية، وبالمثل الرومان، وظلت المسيحية التى حاولوا نشرها بين البربر غريبة ولا تُعرفُ إلا في بعض البلدان الشمالية ويتأثير جاليات رومانية فيها. وأخذت تنسحب وتتقوض أمام المد الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى. ولا ريب فى أن مرجع ذلك إلى أن دين الإسلام دين الفطرة الإنسانية، ويخلو من نظرية التثليث المعقدة عند المسيحيين، وأيضا فإنه يحرر البربر وغيرهم من فكرة الاستعباد للرومان وغير الرومان ممن يستولون على الديار ويتملكون كل ما فيها من الخيرات وطيبات الرزق، ثم هو لا يظلم أهل البلاد المفتوحة أى ظلم مالى أو غير مالى، وهو يسوى بين أتباعه من العرب وبين مسلمى البلدان المفتوحة فى جميع الحقوق: فى الغنائم وفى الضرائب وفى مختلف الشئون.

ظلت ليبيا طوال القرن الأول الهجرى مركزاً مهما للجيوش العربية، وكان كل جندى فيها

للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ ليبيا  
للدكتور إحسان عباس وكتاب النشاط الثقافى فى  
ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر.

(١) انظر فى تعرب ليبيا الجزء السادس من تاريخ  
ابن خلدون وكتاب وصف إفريقيا للوزان ورحلة  
العبدى وكتاب ورقات عن الحضارة العربية

يحاول تحفيظ بعض البربر الليبيين القرآن وتعليمهم مبادئ الدين الحنيف والعربية، والفرائض المكتوبة عليهم وينبغي أن يؤديها على خير وجه، ولم تلبث الكتابية أن أسست في المدن وغير المدن، مما أسرع بأهل ليبيا إلى دخول الدين الحنيف أفواجاً بعد أفواج، ومما أسرع بهم إلى التعرب الاختلاط بالعرب والمصاهرة بينهم وبين أسرهم. وأيضاً مما أسرع بهم إلى التعرب هجرات مبكرة للقبائل والعشائر العربية نزلت ديارهم، إذ يذكر اليعقوبي المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري أنه سكن جبل برقة الشرقي عشائر يمنية من الأزد ولخم وجذام والصدف وغيرهم وسكن جبل برقة الغربي عشائر من غسان والأزد وتُجيب، ونزلت الرمادة عشائر من بني مدلج وبليّ وجهينة، ونزلت ودّان في الهضبة جنوبي طرابلس عشائر سهمية وحضرمية، وكل ذلك عمل على المزج بين العرب والليبيين، ولا نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس الهجري حتى يحدث طوفان الهجرة الأعرابية الكبرى لبني سليم وبني هلال من صعيد مصر إلى ليبيا والديار المغربية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع، ونزلت أمواج بني سليم - وخاصة بني قرة منهم - في برقة، وتغلغلت أسراب منها في ليبيا إلى إقليم طرابلس في الغرب، ومعها عشائر من بني هلال. وأعد هذا الطوفان الأعرابي الكبير ليبيا ليتكامل تعربها، إذ انصهر البربر بها في الأعراب، وأصبحوا معاً شعباً عربياً كبيراً في تقاليد وعاداته وتناول حياته اليومية وفي أزيائه وملابسه وطعامه وفي أحزانه وأتراحه وفي أفراحه وأعراسه، وتعربوا أيضاً في الأخلاق والشيم الكريمة من المروءة والنجدة والفروسية، ولم تتعرب برقة وحدها هذا التعرب الواسع في جميع مناحي الحياة، بل تعربت أيضاً طرابلس وسكان إقليمها من أفراد قبيلة هواة البربرية، ويشهد بذلك ابن خلدون قائلاً عنهم في الجزء السادس من تاريخه: «إنهم صاروا في عداد الناجعة من عرب بني سليم في اللغة والزّيّ وسُكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرّق بينهم» ويشهد ابن خلدون نفس الشهادة لبني يفرن في جبل نفوسة قائلاً: «إنهم تبدّوا مع بني سليم، ونسوا رطانة الأعاجم وتكلّموا بلغات العرب، وتحلّوا بشعارهم في جميع أحوالهم». واتسع هذا الشعور بالعروبة بين البربر، فإذا هم ينسبون أنفسهم إلى القبائل العربية شمالاً وجنوباً، وكانت هواة تنسب نفسها إلى اليمن كما يقول اليعقوبي. وبذلك لا نبالغ إذا قلنا إن بربر ليبيا تحوّلوا شعباً عربياً تاماً منذ نزل بديارهم بنو سليم وبعض عشائر من بني هلال، فقد أصبحوا عرباً ديناً إذ اعتنقوا الدين الحنيف، وعرباً أسلوب حياة وعادات وتقاليد، وعرباً زياً وملبساً ومطعماً، وعرباً لغة، كما لاحظ ابن خلدون.

ويبدو أن انتصار العربية على اللغة الوطنية المغربية في ليبيا وغيرها من بلدان المغرب كان حاسماً منذ اعتناق البربر للدين الحنيف، وكانوا يسمون لغتهم - كما يقول الحسن الوزان - أوّال أمازيغ أى اللغة النبيلة، وسماها العرب اللغة البربرية، وكانت لهجات شتى. وفي العصر

الحديث اكتشفت نقوش في إقليمى تونس والجزائر وفي الصحراء الكبرى تدل على أن البربر عرفوا الكتابة، غير أنه لم يؤثر عنهم أى كتاب دينى ولا أدبى ولا عملى زراعى مثلا، ومعنى ذلك أن البربرية لم يكن لها تراث تستطيع أن تلقى به العربية، بحيث يمكن أن يحدث صراع بينها وبين العربية، ومن أجل ذلك لم تقاوم العربية أى مقاومة، بل سرعان ما قهرتها واحتلت ألسنة أهلها وأصبحت لغة الحياة فى ليبيا وغيرها من البلدان المغربية. ولكن هل حدث فيها ما حدث مثلا فى مصر من حدوث تحريفات فى الكلم العربية أهل لظهور اللغات العامية. وكلام ابن خلدون عن هوارة سكان إقليم طرابلس وبنى يفرن سكان جبل نفوسة يدل على أنه لم تشع فى ألسنتهم عامية مستحدثة، إذ قال إنهم استبدلوا من رطانة البربر فصاحة العرب، مما يؤكد أن الفصحى شاعت فى ليبيا وظلت فى ألسنة أهلها طويلا.

وإذا كان ابن خلدون شهد لأهل طرابلس من هوارة ولبنى يفرن فى نفوسة بأنهم لم يكونوا يقلون فصاحة عن بنى سليم فإن العبدريّ الرحّالة المغربي يشهد لبرقة - حين مرّ بأحيائها فى رحلته سنة ٦٨٨ - بفصاحة أهلها فصاحة تامة، إذ يقول:

«كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم الآن على عربيتهم، لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون. وقد سألت بدويا لقيته يسقى إبله فى «الخصوى» على ماء يقال له أبو شمال: هل نورد على أبو شمال، وذكرته بالواو فى موضع الخفض على عادة أهل المغرب، فقال لى: نعم تطنون أبا شمال، وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول. وليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك. ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجاج معكم شىء تبيعونه، وأثبت النون وسكّن الهاء للوقف. ورأيت أعرابيا منهم قد ألحّت عليه امرأة تسأله (شيئا) من طعام يأكله. فقال لها: والله ما تذوقينه، فأتى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النون وسكّن الهاء. وسمعت شخصا ينشد فى الركب مكترى راحلة، ويقول: مَنْ يُكرى زاملة، فسمعه بدوى، فقال له: أعتدك الزاملة؟ فقال: نعم: فلا تقل من يكرى وقل: مَنْ يستكرى. وذكر لى بعض أصحابنا ممن حجّ معنا أن شخصا شرب من بئر، فقال: فى هذا الماء رائحة الحبل، وحركّ الباء بالفتح على لغة أهل المغرب يعنى الرشاء المستسقى به، فسمعه أعرابى، فقال له: ومن أين جاءت رائحة الحبل إلى الماء، فأشار المغربى إلى الرشاء، فقال له الأعرابى، قل الحبل ولا تقل الحبل. وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل المغرب بتفسيره فهم - حتى الآن - يتحاورون به على سجيّتهم، فمن ذلك أن شخصا منهم وقف على موضع نزولى من محلة الركب، وكانت التربة (قناة الماء) منه بعيدة، فقال لى: يا سيدى تدعى أظهر يعنى أخرج، وسألت

شخصاً منهم عن الطريق، فقال لى: إذا ظهرتم من الغاية فخذوا صَوْبَ (ناحية) كذا وكذا يعنى إذا خرجتم منها، وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب فى تفسير قول عروة بن الزبير رضى الله عنه: لقد حدثتني عائشة - رضى الله عنها - زوج النبي ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يصلى العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر.. وأتوا عليه بشواهد وأمثال. وسمعتُ صبياً منهم ينادى فى الركب: يا حجاجُ مَنْ يَشْتَرى الصَّفِيفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس، فقلت له: اللحم معك، فقال: نعم وأبرز لحم ظبى مقدَّد (مَجْفَف) وهذا اللفظ (أى الصَّفِيف) ذكره الإمام مالك فى الموطأ وقال بإثر الحديث: الصَّفِيفُ القديد. وسألتُ شخصاً عن ماء هل هو مَعِين (سائل) فقال لى: هو ماءٌ عِدُّ (جار) وهذا اللفظ فسَّره أبو عبيد فى غريبه، وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى».

وإنما نقلت هذا النص بطوله من رحلة العبدى - مقارنا بصورته فى كتاب ورقات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - لأهميته، ولأنه يثبت أن أهل بركة كانوا لا يزالون يتكلمون بالفصحى حتى أواخر القرن السابع وكانت فصحايم تتفوق على فصحي أهل الحجاز، معللاً العبدى ذلك بأنهم لا يختلطون بغيرهم اختلاط أهل الحجاز بالحجاج من كل فجٍّ وطريق، ويقول إنهم لا يزالون يتمسكون بالإعراب مع سقوطه حينئذ من الألسنة فى بلدان العالم الإسلامى فى المغرب - كما يقول العبدى - وفى غير المغرب إلا فى زيبىد باليمن كما أوضحنا ذلك فى حديثنا بالجزء الخامس من هذه السلسلة. ويضرب مثالا لبدوى أثبت فيه نون الرفع فى المضارع ونصب المفعول وهو «أبا» فى قوله للعبدى: «تطئون أبا الشمال» ويعلق العبدى على ذلك قائلاً: «ليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك» ومثل المغرب مصر فى لغتها العامية. وذكر مثلاً ثانياً أثبت الأعرابى فيه ياء المخاطبة مع نون الرفع فى قوله «تدوقينه» والاثنتان يحذفان فى العامية المصرية والمغربية ويورد مثلاً على دقة الحس اللغوى وأن بدوى سمع شخصاً يقول من يُكرى زاملةً أى بعيراً راحلاً، ويُكرى معناها يؤجر، فسمعه بدوى، فقال له أعندك الزاملة؟ فقال له نعم، فنبَّهه إلى أنه يستخدم فعل يكرى وهو يريد يستأجر، فقال له لا تقل: من يكرى وقل من يستكرى أى يستأجر. وذكر العبدى أنه سمع بدوى يقول أظهر بمعنى أخرج، ويعلق على ذلك بأن لفظه ظهر بهذا المعنى ورد فى حديث نبوى وعُدَّ غريباً، ولذلك أكثر أصحاب الغريب فى الحديث النبوى من الإتيان له بالشواهد والأمثال، ثم يذكر أن صبياً نادى فى الركب من يشتري الصَّفِيفَ؟ ولم يفهم من معه معنى الصَّفِيف وهو اللحم المقدد، وفهمه هو لأنه قرأه فى كتاب الموطأ للإمام مالك وتفسيره له بأنه القديد، ومن ذلك أنه يسأل شخصاً عن ماء هل هو مَعِين أى سائل فقال له عِدُّ أى جار، وقد عرف معناها لأنه قرأها عند أبى عبيد القاسم بن سلام فى كتابه «غريب الحديث». ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الأول من كتابه الورقات بعد أن نقل هذا الفصل الطريف من رحلة العبدى: «إن

مما نقلناه من رحلة العبدري وما سنذكر من أقوال أهل برقة فيما بعد يتضح لك أن لهجة هؤلاء الأعراب لم تتغير وأنها إلى الآن قريبة جداً من أمها الفصحى - ويستدل على ذلك ببعض الأشعار الشعبية لأهل برقة بعد الاحتلال الإيطالي لوطنهم، ملاحظاً أن اللهجة الليبية الحديثة عربية خالصة وإن اعترأها ما اعترى سائر اللهجات العربية من إهمال الإعراب. وأضاف الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى هذه الملاحظات في الجزء الأول من كتابه الورقات ملاحظة مهمة في الجزء الثالث منه، إذ قال إن استخدام نون النسوة مع الأفعال في مثل: «يأكلن - يشربن - يغزلن» منتشر في كلام الأعراب بنواحي طرابلس وبرقة، وهي ماثورة في أقوالهم الشعرية. ويبدو أن أهل ليبيا ظلوا يحافظون بقوة على الفصحى - بعد الهجرة الأعرابية إلى ديارهم - قرونا متطاولة ربما امتدت حقبا بعد شهادة العبدري في أواخر القرن السابع الهجرى.

## ٢

نشاط<sup>(١)</sup> الشعر والشعراء

لعل أول ما أنشد من الشعر في ليبيا كان على لسان الشعراء الوافدين عليها مع الجند الفاتح لها وللبلاد المغربية، ونرمز لهم بالشاعر الهذلي المشهور أبي ذؤيب، فقد خرج مع عبدالله بن الزبير في جند عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى فتح إفريقيا سنة ست وعشرين وأعجب بشجاعة ابن الزبير حين فتك في موقعة ضارية بوالى البيزنطيين: جريجوريوس وتسميه العرب جرجير، ومن قوله في الإشادة ببطولته:

وصاحب صدق كسيد الضرا ء ينهض في الغزو نهضا نجيجا

والسيد: الذئب، والضراء: شجر يتوارى فيه وهو أفتك الذئب في الجزيرة العربية. وكثير من أمثال أبي ذؤيب الشاعر النابه استقروا في برقة وطرابلس ينشدون أشعارهم وينشرون الإسلام ويأخذ البربر عنهم القرآن الكريم والعربية. غير أنه لم يكن يهمهم - فيما يبدو - أن تحمل عنهم أشعارهم أو أن تذكر أخبارهم، فهم من عامة العرب المسلمين، وهم آخر من يفكر في هذا الشرف. ومن نزل ليبيا من الشعراء الناهيين دُعبل الشاعر العباسى، نزلها في العقد الثالث

(١) وخلوف والودانى والحريدة (قسم شعراء مصر) فى ابن البرقى.

(١) انظر الأغاني فى أبى ذؤيب ودعبل والحلة السيرة فى عبد الله بن محمد الأغلبي وابن سودة وخليل بن إسحق وإنباه الرواة فى المكفوف

من القرن الثالث، نزلها على إثر خلاف بينه وبين والى مصر، وكان قد ولاه أسوان فتركها واتجه إلى ليبيا والبلاد المغربية، ويبدو أنه حاول الرحلة عن طريق واحة سيوه، واتجه منها إلى واحات ليبيا، وربما كان يقصد القيروان لمدح أمراء الأغالبة، غير أن الموت أدركه في زويلة عاصمة فزان، فلم تحظ به ليبيا ولا حظى به الأغالبة.

وكانت طرابلس قد أصبحت تابعة للأغالبة في إفريقية التونسية، بينما تبعت برقة مصر، ويتولى طرابلس بعض شعراء الأغالبة مثل عبد الله بن محمد الأغلبى واليها لابن عمه أبى الغرانيق سنة ٢٥٩ وكان - مع اهتمامه بالشعر - يعنى بالفقه والحديث النبوى، وعزله عنها أبو الغرانيق وولاه صقلية ثم أعاده إليها، ولم يلبث أن ولاه القيروان، ولم يذكر مترجموه له سوى قطعة أرسل بها إلى صديقه موسى بن مرزوق لما بلغه نبأ عزله عن طرابلس وله يقول:

قد أتى في الكتاب ما قد علمنا من تناءٍ ورحلةٍ وفراقٍ  
فعليك السلام إن فراقى قد دنا والفراق مرُّ المذاق

وكان على شاكلته في نظم الشعر ابن عم له هو محمد بن زيادة الله والى طرابلس لإبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦٢ - ٢٨٩ هـ) وكان عالماً وشاعراً خطيباً، وله كتاب راحة القلب والزهر. وأشعر منه ومن سالفه أحمد بن سفيان بن سواده الأغلبى الذى ولى طرابلس وأعمالها سنوات كثيرة. وأنشد له ابن الأبار قصيدتين حماسيتين يقول في إحداها:

قَرَّبُوا الأَبْلَقَ إنِّى أَعْرِفُ الخَيْلَ العِتَاقَا  
وعليها أصرع الأبـ طال طُنْناً واعتاقا  
وأروى من نجيع الـ هـام أسيافا رفاقا

وليس بين أيدينا ما يؤكد أن هؤلاء الولاة الأغلبيين الشعراء أحدثوا في طرابلس حركة أدبية أغدقوا فيها الأموال على الشعراء كما كان يصنع قبلهم يزيد بن حاتم المهلبى حين ولى القيروان سنة ١٥٤ فإنه أحدث فيها حركة أدبية واسعة نثر فيها على الأدباء أموالاً طائلة، ومع ذلك نظن ظناً أن تولى هؤلاء الولاة الأغالبة الشعراء لطرابلس كان له بها أثر غير قليل، إذ نجد الشعر يسيل على السنة بعض الليبيين من اللغويين والفقهاء وغيرهم، من ذلك أن إسحق بن خنيس هجا العالم اللغوى عبد الله بن محمود المكفوف بقصيدة طويلة قال فيها:

ألا لُعنَتْ سِرَّتْ وما جاء من سِرَّتِ فقد حلَّ من أكنافها جبلُ الممَّتِ

فقال فيه المكفوف:

إن الحُنَيْسَى يهجونى لأرفعهُ إخساً حُنَيْسٌ فإنى غيرُ هاجيكا



لم تبق مثَلَبَةٌ تُحصى إذا جُمعتُ من المثالب إلا كُلُّها فيكا

ويقول مترجمو المكفوف السُّرقي إن له أشعاراً فصيحةً وأراجيز غريبة، وقد سقطت جميعاً من يد الزمن ولم يصلنا منها شيء. وكان يعاصره خليل بن إسحق شاعر المهدي الفاطمي وابنه القائم وسنفرد له ترجمة عما قليل. وولتقى بخلوف بن عبد الله البرقي النحوي المقرئ نزيل صقلية، وكان يعيش في أواسط المائة الخامسة وله ترجمة في إنباه الرواة للقفطي، ومن قوله:

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مُشْتاقاً كَثِيرَ الْوَجْدِ تَوَاقِياً  
سَنُوْلاً دَاعِيَا لَكَ هِـ أَصَالَا وَإِشْرَاقِياً  
بَأَنْ تَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ مِـ لِلْأَقْرَانِ سَبَاقِياً

والقطعة رقيقة وهي تدل على حس دقيق وذوق مرهف وقدرة على صياغة الكلام صياغة رشيقة، وله:

يَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ دَهْرٌ كَمْ تَقِيْمُ عَلَى الْغَرَاةِ  
إِذْ جَمَعْتَ شَمْلِكَ لِلشَّتَا تِـ وَرَبِحْتَ مَالِكَ لِلخُسَارَةِ

والبيتان في الدعوة للزهد والانصراف عن حطام الدنيا والاعتزاز بما في يده منها، فليس في شمله إلا الشتات والفراق وليس في يده إلا الضياع والخسارة. وكان يعاصره أبو الحسن علي بن أبي إسحق الوداني صديق ابن رشيق وصاحب الديوان بصقلية ومن شعره:

مَنْ يَشْتَرِي مَنِي النَّهَارِ بَلِيلَةً لَا فَرْقَ بَيْنَ نَجْمَيْهَا وَصِحَابِي  
دَارَتْ عَلَى فَلَكَ الزَّمَانُ وَنَحْنُ قَدْ دُرْنَا عَلَى فَلَكَ مِنَ الْآدَابِ  
وَدَنَا الصَّبَاحُ - وَلَا أَتَى - وَكَأَنَّهُ شَيْبٌ أَطْلُ عَلَى سَوَادِ شَبَابِ

والألفاظ منتقاة والصور بديعة فلا فرق بين النجوم المتألقة ووجوه صحابه المشرقة وقد دارت الليلة على فلك الزمان ودار مع صحابه على فلك الآداب، وهي مشاكلة بديعة. وقرب الصباح ويقول: لا أتى في خفةٍ وعذوبة، ويتصوره بأضوائه التي تتفقت في آخر تلك الليلة كأنه شيب مشتل يطل على سواد شباب. وولتقى بشاعر برقي أقام بالقاهرة طويلاً مما جعل العماد يترجم له بين شعراء مصر في الخريدة هو أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن البرقي المتوفى سنة ٥٢٢ ومن شعره الطريف الذي أنشده العماد:

رَمَانِي الدَّهْرُ مِنْهُ بِكُلِّ سَهْمٍ وَفَرَّقَ بَيْنَ أَحِبَابِي وَبَيْنِي  
فَفِي قَلْبِي حَرَارَةٌ كُلُّ قَلْبٍ وَفِي عَيْنِي مَدَامِعُ كُلِّ عَيْنِ

والبيتان في غاية الرقة مما يدل على شاعرية خصبة مرهفة، وهي شاعرية أتاحت له أصدقاء مصريين تبادلوا معه مثل هذين البيتين الرقيقين. وكان يعاصره شاعر نفوسى إباضى هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، وله مراثية بديعة يرثى بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل، وفيها يتحدث عن تقواه وبره وذكائه:

مَنْ لِلصَّلَاةِ بِجَوْفِ لَيْلٍ مُظْلِمٍ      وَاللَّيْلِ أَسْوَدَ حَالِكَ غَرِيبُ  
أَوْ لِلصِّيَامِ إِذَا تَطَاوَلَ يَوْمُهُ      وَامْتَدَّ طَرْفَاهُ وَهَاجَ هَلِيبُ  
أَوْ لِلْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ بَعْدَهُ      وَتَوَاتَرَتْ فِي الْعَالَمِينَ حُرُوبُ  
أَوْ لِلْأُمُورِ إِذَا تَفَاقَمَ حَوْلَهَا      أَهْلَ النَّهْيِ وَالرَّأْيِ - بَعْدَ - غَرِيبُ

وكأنما يفتقد بموت شيخه من يصلى آناء الليالى المظلمة الحالكة ومن يصوم في الأيام الطويلة الملتهية أو من يأخذ بيد اليتامى والأرامل في الحروب الضارية ومن يحل الأمور المشككة حين يعزُّ الرأى الصائب المحكم. وحرى أن نتوقف قليلا لترجم لشاعر أنجبته طرابلس في حقها الأولى.

### خليل بن إسحق

هو أبو العباس خليل بن إسحق بن وُرد، ترجم له ابن الأبار في كتابه الحلة السَّيراء ترجمة ضافية افتتحها بقوله: «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها (أيام الأغالبة) وكان في أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت في المساجد» وما إن انتهى حكم الدولة الأغلبية سنة ٢٩٧ وتحوَّلت مقاليد الحكم إلى عبيد الله المهدي الفاطمى، حتى رحل إليه وانضوى تحت لوائه، وانتقض أهل بلدته: طرابلس سنة ٢٩٩ على واليهم الفاطمى فأرسل إليهم المهدي ابنه أبا القاسم لمحاربتهم وردَّهم إلى الطاعة، وفي ركابه خليل، فحاصروهم أبو القاسم حتى اضطروا إلى الاستسلام، وكشَّر لهم خليل عن أنيابه الغليظة التي كان يخفيها، وتولى تعذيبهم، لآتأخذه فيهم - وهم أهله - شفقة ولا رحمة، وأغرهم ثلاثمائة ألف دينار. وما توفى سنة ٣٠٢ حتى يرسل المهدي ابنه أبا القاسم الملقب بالقائم في جيش لمحاربة أهل مصر، فلقق به خليل بن إسحق في الإسكندرية فولاه القيام على أموال الجيش، وعاد القائم بجيشه، وعاد معه خليل، فقدم على خيل إفريقية، وجعل أمر جندها إليه مع النظر في البحر وشئون الأسطول الفاطمى. وفي سنة ٣٢٥ ولَّاه القائم الفاطمى صقلية، فاستحال حاكما لها باغيا طاغيا أشد ما يكون البغى والطغيان، وأهلك أهلها جوعاً وقتلاً وجار فيها أشد ما يكون الجور والظلم، مما جعل كثيرين من أهلها يفرّون إلى بلاد الروم. وعزله الخليفة القائم عنها، وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية

مفتخراً: «المكثر يقول إني قتلت من أهل صقلية وأهلكت ألف ألف، والمقلل يقول ستمائة ألف». وكان حرياً بالقائم أن ينزل به عقاباً صارماً، ولكن بدلاً من ذلك أخرجه إلى مدينة القيروان سنة ٣٣٣ في ألف فارس لقتال أبي يزيد الصُفري في القيروان، فحاصره أبو يزيد فيها واعتقله وسفك دمه وصلبه. وأنشد له ابن الأبار قصيدة ومقطوعتين في مديح المهدي الفاطمي وابنه القائم، وكأنما كان يقف شعره على مديحها زلفى وتقرباً إليها، والقصيدة في مديح عبيدالله المهدي نظمها على شاكلة قصيدة مشهورة لمروان ابن أبي حفصة صاغها في مديح المهدي الخليفة العباسي، بدأها مثله بالتشبيب وبكاء الأطلال والديار قائلاً:

قِفْ بالمنازل وأسألنْ أطلالها	ماذا يضيرك إن أردتْ سؤالها
هل أنت أول من بكى في دِمْنَةٍ	دَرَسَتْ وَغَيَّرتِ الحوادثُ حالها <sup>(١)</sup>
يا دارَ زينبٍ هل تردِّين البُكا	عن مُقلَّةٍ سفحتُ عليك سِجالها <sup>(٢)</sup>
بُدِّلتْ بالإنسِ الخرائدُ كالدمى	وَحَسَّ الفلَاةِ ظِباءُها ورِثالها <sup>(٣)</sup>
ولقد عهدتُ لآلِ زينبٍ حَبْرَةً	فيها ودُنيا أقبلتْ إقبالها <sup>(٤)</sup>
بيضاءَ ناعمةً يجول وشاحها	وتَهزُّ دِقَّةً خَضرها أكفالها <sup>(٥)</sup>
ولها قوامٌ كالقضبِ وفوقه	جَعَدُ تصافح كفه خَلخالها <sup>(٦)</sup>
وكانَ في فيها بُعَيْدُ رُقادها	عَسلاً أصاب من السماء زَلالها <sup>(٧)</sup>
ولقد عصيتُ عواذلي في حُبِّها	والنفسُ تعصى في الهوى عُدَّالها

والأبيات تسيل عذوبة، إذ عرف خليل بن إسحق كيف يصطفى لها الألفاظ وكيف يلائم بين جرسها، مع خلاوة الصوت، ومع تشابك الكلمات في كل بيت، وكان كل كلمة لبَّت قرينتها، واستجابت لصاحبها وجارتها، وحقا الصور في الأبيات ألمُّ بها الشعراء أو طالما ألمُّ بها الشعراء قبله، غير أنه أعاد عرضها عرضاً يستهويك بصياغته وما يبيث فيه من الجناسات والطباقات. ويخرج إلى المديح منشداً:

صَلَّى الإلهُ على النبيِّ محمَّدٍ      وعلى الإمامِ وزاده أمثالها

(١) الدمنة: آثار بالدار.

(٢) السجال جمع سجل: الدلو المملوءة.

(٣) الخرائد جمع خريدة: اللؤلؤة والمرأة

الجميلة. الدمى: جمع دمية: التمثال الجميل.

الرنال جمع رأل: فرخ النعام.

(٤) حبرة: مسرة.

(٥) أكفالها جمع كفل: عَجَز الإنسان.

(٦) جعد يريد الشعر وضافره.

(٧) الزلال: الماء العذب الصافي.

إن الإمام أقام سنة جدّه للمسلمين كما حذوت نعالها  
 أحيا شرائعها وقوم كتبها وفروضها وحرامها وحلالها  
 وهدى به الله البرية بعدما طلب الغواة الظالمون ضلالها  
 إن الخلافة يابن بنت محمد حطت إليك - عن النبي - رحالها

وهو يزعم أن الله - جلّ جلاله - يصلى على إمامه كما يصلى على نبيه، بل يزعم أنه يزيد صلاة إلى صلاة، ويقول إنه أقام سنة جدّه حذوك النعل بالنعل أو كما نقول مطابقا لها أشد المطابقة، ويزعم له أنه أحيا الشريعة وقوم كتبها وأزال عنها عوجها وانحرافها، كما قوم فروضها وحلالها وحرامها، وكل تلك مبالغات شائنة، وكأنه يدبر الدين الحنيف ويصرفه، وقد هدى الله به الناس كما هداهم برسوله. ولم يسق ابن الأبار مديح القصيدة تامة، ولعله صنع ذلك لما في بقية القصيدة من مبالغات شديدة الإفراط في تصوير قدسية المهدي، وحسنا صنع. وله في القائم وقد فصده الطبيب أو بعبارة أخرى أخرج مقدارا من دم وريده للعلاج:

قل للطبيب الذي أوصى ليفصده رفقًا ولا زلت بالإسعاد ترتفق  
 كيف استطعت ترى بالله طلعته ومن سنا نوره ما يشرق الأفق  
 أم كيف تُخرج من كفّ تقبلها دما ومنها بحار الجود تتدفق  
 إنى لأعجب من كفّ مسست بها خير الورى كيف لم ينبت بها الورق<sup>(١)</sup>

وهو يدعو في البيت الأول للطبيب متلظفا أن يظل الإسعاد يرافقه ويحانس بين أول الشطر الثاني ونهايته جناسا سائغا، وما يلبث في البيت الثاني أن يبالغ في مديح القائم بمبالغة مفرطة، إذ يجعل ضوء النور في وجهه نور الأنوار الذي يعم الآفاق، وكأن نور وجهه من نور الله ومشكاته في الكون. وحين أمر القائم أن يخرج في ألف فارس ليحارب أبا يزيد محمد بن كيداد الصفرى كتب إليه مودعا:

وما ودعت خير الناس طرا ولا فارقته عن طيب نفس  
 وكيف تطيب نفسي عن حياتي أفارقها وعن قمرى وشمسي  
 ولكنى طلبت رضاه جهدي وعفو الله يوم حلول رمسي<sup>(٢)</sup>  
 فعاش مملكا ما لاح شمس على الثقلين من جن وإنس

وهو يجعله في أول الأبيات خير الناس طرا، وكان قد جعله خير الورى في آخر الأبيات

السالفة، وهما صفتان للرسول ﷺ يتغنى بهما الشعراء في مديحه، ويتصوره حياته، وكأنه هو الذى يدبرها، إنه نور حياته، ويقول إنه يطلب رضاه على نحو ما يطلب المسلمون رضا ربهم. وكأنى به يظن أنه هو الذى سيمنحه عفو الله يوم حلوله فى قبره. وهى مبالغات ستتضخم فيما بعد عند ابن هانيء الشاعر الأندلسى فى مديحه للمعز الفاطمى وترهاته ومبالغاته الملحده فيه.

## ٣

الشعراء فى عصر<sup>(١)</sup> الدولة الحفصية

عُنيَت هذه الدولة بالحركة الأدبية، وحظيت - لعهدها - بغير قليل من النشاط والانتعاش، وكان للشعر والشعراء من ذلك نصيب موفور، إذ فتحت الدولة الحفصية الأبواب للشعراء فى إفريقية التونسية وطرابلس كى يفدوا عليها مادحين، وينالوا جوائزها السنية، وكان مؤسسها أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد شاعراً فسنَّ للحكام الحفصيين من بعده نثر الجوائز والعطايا على الشعراء، مما جعلهم يتكاثرون. وستترجم لثلاثة منهم: إياضى وطرابلسيين. وقد ثار عليه نائير طرابلسى هو يعقوب بن أبى يعقوب سنة ٦٣٩ وقتل هو وأتباعه، وُصِّلت جثتهم بباب هوارة، ونصبت رءوسهم فى تونس، فهناً أبى زكريا الحفصى بالقضاء على تلك الثورة شاعر طرابلسى يسمى أبى زيد عبد الرحمن بن محمد الأصولى بقصيدة طويلة صَوَّر فيها المصير المشؤوم لهذا النائر وصلبه: ملقباً له بالفاطمى:

لقد عَجَلتَ للفاطمى فطامه  
رجا رفعةً فاعتاض فيها بمنصبٍ  
يرى شُرفات السور قد قمن حوله  
ضُحى فليحِرَّ الشمس لَعَجُ إهابه  
وكم رام تشييد القصور فحلها  
فدونك يا يعقوب عُقبى منافقٍ  
وما سوَّغته درها البيض والسُمرُ  
نماه به للجذع مَنْصُبك الحرُّ  
يَصْحَن لأمرٍ منه أكذبه الأمر  
وللريح لا للروح فى جسمه كَرُّ<sup>(٢)</sup>  
وأعظم ما يرجوه - لو أُسِفَ - القبرُ  
إلى النار عُقباهَا، إذا ضَمَّكَ الحَشْرُ

الملحق بكتاب الدعائم، والنشاط الثقافى فى ليبيا.

(٢) لعج إهابه: حرق جلده.

(١) انظر فى الشعراء التالين رحلة التجانى، ما عدا فتح بن نوح، وانظر فيه الجزء الثالث من كتاب الإباضية فى موكب التاريخ لمعمر، وديوانه

والأبيات تحمل شماتة مرة بهذا النثر، فقد عَجَّل أبو زكريا بفظامه، فلم يطب له شيء من أمنيته، إذ سرعان ما قضت عليه وعلى أتباعه الرماح والسيوف، وكأنما أراد رفعة فناها ولكن على جذع نخلة، ولكأنما الشرفات من حوله تصيح به: ياهول ما حاولت، وتلك جثته مصلوبة وحرَّ الشمس يحرق إهابه وجلده، والريح أو الرياح تَسْفِي عليه من كل جانب، وكم أَمَل أن تنجح ثورته ويسكن القصور المشيدة، وها هو أعظم ما يرجوه قبر يضم جسده وأشلاءه وتلك عاقبة ثورته في دنياه أما في أخراه فعاقبتها نار حامية. ونتوقف قليلا لنترجم للشعراء الثلاثة الذين أشرنا إليهم آنفا، وهم فتح بن نوح وابن أبي الدنيا وابن معمر.

### (أ) فتح بن نوح الإباضي

هو أبو نصر فتح بن نوح النفوسى، من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى ولد ونشأ بجبل نفوسة، ورعاه خير رعاية علمية وأدبية خاله أبو يحيى زكريا بن إبراهيم البارونى، وكان مع شعره وأدبه عالما بالمذهب الإباضى متعمقا فيه، وكان يدرس للشباب صباحا، وفى المساء بعد صلاة العشاء يلقي فى الناس بالمسجد فى نفوسة دروسا عامة، وأكثر أشعاره فى الموعدة بحكم أنه كان واعظا حقيقيا، إذ كان ما يزال يعظ الناس كل مساء، ومن قصيدة يصور فيها نفسه:

أنا المتيم لا باليوسفيات	ما نهنتنى إليها قط هماتي <sup>(١)</sup>
بل تيمتى فنون العلم أطلبها	ما النفس باقية فى هيكل الذات
لست الغداة بصب خاضع طمعا	فى وصل غانية أرجو مودات
بل فى منادمة الأخيار راغبة	نفسى إلى أجل يفضى بموتات

فهو لا يشغل بحب يوسفيات فاتنات، ولم يحدث أن هباته وطموحاته كفته أو زجرته عنها، لأنه لا يفكر فيها أى تفكير إذ شغله عنها العلم ومعرفته أن كل ما عليها فان وأنه لا يبقى للإنسان إلا عمله، وإنه لذلك لا يهوى غانية ولا يتدلل لها راجيا منها المودة والعطف، فلذته فى دنياه إنما منادمة التقاة الأخيار، حتى يوافيه أجله. وتكثر فى مواعظه المخمسات على نحو ما تكثر عند الأندلسيين، وله مخمس أدواره موزعة على جميع حروف الهجاء، وفى أول كل دور حرف القافية على هذا النمط:

حاء حذار - واسمعن يا صاح - من سحر ثغر الأبرق الوضاح<sup>(٢)</sup>

الجميل البسام.

(١) اليوسفيات: صواحب يوسف الفاتنات.  
(٢) الأبرق هنا: الثغر. الوضاح: صفة للثغر أى

يلهيك تخلصاً عن الأرباحِ عما قليل أظت صفر الراح<sup>(١)</sup>  
من صالح الأعمال جمّ الحاب<sup>(٢)</sup>

خاء خبت نار امرئ شماغٍ يفخرُ بالأنجارِ والأسناخ<sup>(٣)</sup>  
ما الفخرُ إلا للفتى النواخِ حيث التقى مخيمُ الأشياخ<sup>(٤)</sup>  
أولى النهى والعزمِ والألبابِ

وهو يحذر صاحبه من سحر نثر المرأة الجميلة، إذ يخلب له ويلهيه عن أرباح الأعمال الصالحة، فيعود صفر الكف من الصالحات مملوءة بالآثام والذنوب، ويقول: خمدت نار شخص شامخ بأنفه كبيراً واستعلاء، يفخر بالأصول والأنساب، وليس ذلك بفخر، إنما الفخر للفتى المقيم حيث منزل الأشياخ من التقى والصلاح أولى العزم والعقول الراجحة. وفي مخمس ثانٍ له ينشد:

وأول ما أوصى به في مخمسي لباس سراويلِ التقى خيرِ ملبسِ  
به ساد أقوامٌ من الجنِّ والإنسِ وليسوا ذوى مال ولا بدوى فلسِ  
ولا نيل ما نالوا ببيضٍ ولا سمر

بذلك أوصى الله من كان واعياً من أهل القرون السالفة الخواليا  
ونادى به أهل العصور البواقيا وقال: اتقون اليوم حقَّ تقايا  
يطاع فلا يعصى وشكرٌ بلا كفرٍ

وهو يقول: أول ما يوصى به في مخمسه أن يلبس الإنسان سراويل التقوى ولا يخلعها عن جسمه ونفسه أبداً فهي خير ملبس، وطالما ساد بها أقوام من الجنِّ والإنس وأصبحوا من أكبر الأثرياء وليسوا بأصحاب أموال كثيرة ولا قليلة، ولا نالوا ما نالوا من غنائم حرب بالرماح والسيوف، ومع ذلك هم أغنى الأغنياء. ويقول إن تلك وصية الله أوصى بها ذوى الألباب من أهل القرون السالفة، وبالمثل من أهل العصور الباقية، إذ قال - عز من قائل - اتقون اليوم حق تقاي، وطاعته واجبة وشكره فرض بلا كفر. وقرأ مخمسته مؤسس الدولة الحفصية أبو يحيى زكريا، فعرها بمخمس ثان. وله مرثية بديعة في خاله مربيّه وراعيه أبي يحيى زكريا بن إبراهيم، وفيها يقول:

أحرى وأجدرُّ للأجفان والمقلِّ تقنى بكاء على الإسلام لم تبلى<sup>(٥)</sup>

(٤) النواخ: المقيم.

(١) أظت: صرت.

(٥) تقنى: تحمر - تيل: تنزف الدمع مدراراً.

(٢) الحاب يريد الآثام، جمع حوبة (أى إثم).

(٣) الأنجار والأسناخ: الأصول والأعراق.

دَعَهَا تَسِيلُ أَسَالُ اللَّهِ مَقْلَةً مَنْ  
أَبْعَدُ مَاغَابَ بَدْرُ الدِّينِ فِي جَدْتِ  
كَيْفَ الْبِقَاءِ لَطَرْفٍ زَالَ نَاطِرُهُ  
زُرْ سَاحَةَ السَّفْحِ وَأَسْفَحْ عِنْدَهَا حَزْنَآ  
أَعْنَى الْوَلِيِّ أَبَا يَحْيَى الَّذِي حَيَّيْتُ  
يَسْطُو عَلَيْهَا بِسَطْوِ الْعَتَبِ وَالْعَدَلِ<sup>(١)</sup>  
يَهْنَا الْحَيَاةَ بَنُو الْآدَابِ بِالْأَمَلِ<sup>(٢)</sup>  
حِينَ اعْتَرَتْهُ بَنَاتُ الدَّهْرِ بِالسَّمَلِ<sup>(٣)</sup>  
دَمْعًا يَزِيدُ عَلَى التَّسْكَابِ وَالْهَطَلِ  
صَوَى الْعُلُومِ بِمَحْيَاهُ وَلَمْ يَوُلْ<sup>(٤)</sup>

وهو يبكى خاله، ويقول إنه أحرى وأجدر للأجفان والمقل أن تيكى دما على الإسلام وفقيده، ويعجب أن لاتذرف الدمع مدارا، ويدعو على من يعاتب الناس على بكائهم عليه ويعذلهم لانها، حتى ليرتمى لهم حزنا موجعا كحزنه، ويقول إن بنى الآداب بعد أن غيب عنهم لن يهنتوا بأمل ولا بأمنية، وإنه لم يعد يرى من حوله، إذ أصابته بنات الدهر ونكباته في ناظره وكأنا فقأت عينه بحديدة محماة. ويطلب إلى رفاقه أن يزوروا معه القبر ويسكبوا دموعهم هناك، فقد توفي أبو يحيى زكريا الذى طالما أتت منارات العلوم وصواها في حياته، وقد مات ولم يعد. ويمضى الشاعر في مراثية خاله منشدا:

يَا غُرْبَةَ الدِّينِ بَعْدَ الشَّيْخِ مُفْتَقِدَا  
لَا عَنْ تَرَاضٍ جَرَى حَكْمَ الْمُنُونِ بِهِ  
قَسْرًا عَلَى الْأَسَدِ فِي الْأَغْيَالِ وَاغْلَةً  
كَمَثَلِهِ فَلْتَلِدْ أَنْثَى مَفَاخِرَةً  
يَا أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمَبْدَى شَمَاتَتَهُ  
يَا وَحْشَةَ السَّيْرِ الْغَرَّا عَنْ الْأَوَّلِ  
قَدَمًا جَرَى فِي نَبِيِّ اللَّهِ وَالرُّسُلِ  
وَفِي الذُّرَى لَوْعُولٍ صَعْبَةَ السُّبُلِ<sup>(٥)</sup>  
أَوْ لَا فَلَآ وَلَدْتُ عَنْ آخِرِ الطُّوْلِ<sup>(٦)</sup>  
مَهْلًا بِفِيكَ تَرَابُ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وهو يببالغ إذ يجعل الدين بعد وفاة خاله يعود غريباً، ويبدو من الشطر الثانى أن خاله كان يعنى بالسير التاريخية، ويعود إلى المبالغة فى البيت إذ يقرن وفاة خاله بوفاة الرسول ﷺ ووفاة الأنبياء! ويقول إن حياً لا يستعصى على الموت، لا الأسد فى أغياها ولا الوعول فى ذرى الجبال وقممها العالية، وبنوه به ويفاخر، إذ يقول مثله فلتلد الأمهات وإلا فلا تلد إلى آخر الدهر، ويدعو على الشامتين بموته. ولعل فىما أنشدناه من شعر فتح بن نوح ما يصور ملكته الشعرية الخصبه.

(١) يسطو: يبطش ويقهر. العذل: اللوم  
(٢) جدت: قبر  
(٣) بنات الدهر: نكباته. سمل العين: فقوها  
(٤) صوى: أعلام ومنارات. يؤل: يرجع  
(٥) أغيال جمع غيل: بيت الأسد. الوعول جمع  
وعل: تيس الجبل  
(٦) عن آخر الطول: يريد إلى آخر الدهر  
بسمار محمى.



## (ب) ابن أبي الدنيا

هو أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدقي الطرابلسي المولود بطرابلس سنة ٦٠٦ وفيها نشأ ونهل من حلقات علمائها وأدائها، وارتحل إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمع إلى كثير من العلماء، وعاد إلى تونس في عهد مؤسس الدولة الحفصية أبي زكريا (٦٢٥ - ٦٤٧ هـ). ونال حظوة عنده، ورجع إلى بلده: طرابلس فترة، واستدعى إلى تونس، فولى بها الخطط الرفيعة إذ ولى قضاء الجماعة، كما ولى الخطابة بالجامع الأعظم وغير ذلك من المناصب حتى وفاته سنة ٦٨٤ للهجرة. وله تصانيف ومؤلفات قيمة، منها: العقيدة الدينية وشرحها وجلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس وكتاب مذكر الفواد في الحض على الجهاد. ومرّ في حديثنا عنه بين الفقهاء أنه كان يدرس لطلابه في بعض دروسه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان للجويني إمام الحرمين وكتاب المستصفي للغزالي. وبجانب هذه الثقافة الدينية المتعمقة كان شاعرا، وفيه يقول التجاني في رحلته: «من فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة في الأدب». وقد أشد له بعض أشعاره، وذكر أن له قصيدة طويلة افتتحها بقوله:

بحمد الله نبتدىءُ الأمورا ونختم آخرا فيه الحبورا

ولم يذكر التجاني سوى المطلع، ويبدو أنها كانت موعظة طويلة، وقد سقطت من يد الزمن وربما سقطت له معها أشعار أخرى له في المواعظ والدعوة إلى الزهد، وما أنشده له التجاني قوله:

طرقُ السلامة والفلاح قناعةً      ولزومُ بيتِ بالتوحُّشِ مؤنسٍ  
يكفيه أنسا أن يكون أنيسه      آئُ القرآن ونوره في الجندس<sup>(١)</sup>  
وإذا رأته عيناه إنساناً أتى      فلينفرنْ نفورَ ظبي المكنس<sup>(٢)</sup>  
ولقلماً ينفكُ صاحبُ مقولٍ      من زلةٍ أو عثرةٍ في المجلسِ

ويبدو أن الأبيات مقتطعة من قصيدة طويلة في النصيح بالقناعة فهي الطريق الذي لا يخطئ إلى السلامة والفلاح، والعاقل من اعتزل الناس ولزم بيته منقطعاً إلى الائتناس بمجالس الذكر الحكيم ومناراته الساطعة في الليالي الشديدة الظلام. ويدعو إلى النفور من الاجتماع بأي إنسان

(١) الجندس: الليل الشديد الظلام.

(٢) المكنس: الكناس وهو مأوى الظبي في

خشيةً لدغاته التي يصيب بها مَنْ حوله، وكأنما يرتسم في مخيلته قول القائل:  
 عَوَى الذَّنْبُ فاستأنستُ بالذنبِ إذ عَوَى      وصَوَّتْ إنسانٌ فكدتُ أطيْرُ  
 ويقول أخيراً منفراً من مجالسة الناس إن الجلوس إليهم قد يؤدى إلى عثرات اللسان وزلاته  
 منك أو منهم. فأولى لك أن تبتعد عنهم وعن مجالسهم، وأن تعزلهم معصمابيتك حتى لا تغلط  
 وحتى لا تسمع غلطا من إنسان. وولى المستنصر الحكم بعد أبيه أبو زكريا، وأحس ابن أبي  
 الدنيا بجفوة منه، وأنه ربما أسرَّ في نفسه شيئا منه، فكتب إليه يستعطفه:

أمولائى مازلتمُ تنيلون عيـدكم      ضروباً من النعماء جَلَّتْ عن المِثْلِ  
 ولم يبق إلا العفوُ وهو أجلُّ ما      يُنال فأكملُ لى به مِنْحَةَ الفُضْلِ  
 فما العيشُ فى الدنيا بغير رضاكمُ      بـصافٍ ولا طعمُ الحياةِ بِمُحَلُولِى  
 وقد كدَّرَ الإِعراضُ صَفْوَ معيشتى      فأنكرتُ أحوالى وأنكرنى أهلى

وابن أبي الدنيا يعترف للمستنصر الحفصى بأنه ما يزال يغمره بنعم لا مثيل لها ولا قرين،  
 ويتوسل إليه أن يئن عليه بنعمة كبرى، هي نعمة العفو، حتى يكمل بها ما يمنحه من أفضالٍ  
 كثيرة، ويقول له إن الحياة بدون رضاكم تكدرت مياهاها، ولم يعد في طعمها شىء من الحلاوة،  
 ولقد بدل إعراضكم عنى معيشتى، حتى أصبحت أنكر أحوالى، بل إن أهلى أنكرونى لما يعترينى  
 من قلق وضيق لم يألوه منى. ويستمر في استعطافه منشداً.

ولى أملٌ يقضى بغفران زَلَّتِى      وبالـعفو عن جُرمى وبالصَّفح عن فعلى  
 بقيتَ تزيد الملك عِزًّا وبهجةً      وتَحِمى رسومَ الفضل والدين والعدلِ  
 ولا يُخِطَّنِى منك عفوٌ ورحمةٌ      فإنهما ما أخطأ أحدا قَبِلى  
 وصَلَّى إلهُ العرشِ بدءًا وعودةً      على المصطفى من خلقه خاتم الرُّسلِ

وهو يسأل المستنصر ضارعا أن يغفر له زلته ويعفو عن جرمه ويصفح عن فعله الذى  
 اقترفه، ويأخذ في الدعاء له أن يظل يزيد الملك عزا وأبهة وهجة ومسرة ويحمى رسوم الفضل  
 والإحسان والدين الحنيف والعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه، وهو بهذا الدعاء  
 وما يسوق فيه من صفاته فى رأيه يحاول أن يستدر عطفه ويسأله العفو، بل يسأله الرحمة وأن  
 يرق له قلبه، ويقول له إنك دائما تسبغها على الناس، فلا تحرمنى منها، ويختم دعاءه بالصلاة  
 على الرسول ﷺ، وكأنما يذكره ليكون شفيعاً عنده. وأسدل عليه المستنصر عفو، وعاد إليه  
 رضاه. ولعل فيما أنشدت له من أشعار ما يصور شاعرية غزيرة خصبة، وأنه كان يعرف كيف  
 يصطفى ألفاظه ومعانيه فى لغة شعرية مصفاة، وبدون ريب كان معروفا بقدرته فى حوكِ الكلم،

مما أتاح له أن يشغل منصب الخطابة في الجامع الأعظم، كما أتاح له هذه الأبنية الشعرية المحكمة فكراً وصياغة.

### (ج) ابن معمر

هو أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي، كان فقيهاً ممتازاً وشاعراً نابهاً مثل ابن أبي الدنيا معاصره، وفيه يقول التجاني في رحلته: «أحد أرباب الرتب الجامعين بين رياسة الفقه ورياسة الأدب. ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ وقرأ بها يسيراً، ثم توجه إلى (مدينة) المهديّة (بتونس) للقراءة بها على الفقيه أبي زكريا البرقي» ويقول أيضاً: «كان فقيهاً مفوهاً خطيباً لسنا» وطمحت نفسه للنزول بتونس عاصمة الدولة الحفصية لعله يأخذ مكانه بها بين فقهاؤها وأدبائها ونزلها. ولفت إليه الأنظار بتعمقه في المذهب المالكي، مما أتاح له أن يتولى مناصب متعددة في دولة الخليفة المستنصر الحفصي (٦٤٧-٦٧٥هـ) إذ أسند إليه منصب القضاء في كثير من بلاده في إفريقية التونسية وفي الجزائر مثل باجة التونسية وبجاية الجزائرية. وولى خطة أو منصب العلامة الكبرى في ديوان الإنشاء، كما ولى النظر في خزانة الكتب، ويقول التجاني: «كان في لسانه فضول كثير امتحانه به والتعرض له بسببه» فعلاً نُقل إلى المستنصر عنه ما جعله يسخط عليه وينفيه إلى مدينة المهديّة سنة ٦٦٧ ويعفو عنه، ولكن بعد عام كامل. وتوفى المستنصر وخلفه ابنه الواثق (٦٧٥ - ٦٧٨هـ) فأُسند إليه النظر في خزانة الكتب بتونس، ويبدو أن فضول لسانه عاد إليه فغضب عليه رئيس الدولة ابن أبي مروان، فأدخله السجن تأديباً، ثم رُدّت إليه حريته إلى أن فارق دنياه سنة ٦٨٣ للهجرة. وأنشد له التجاني بعض أشعاره، من ذلك قوله متغزلاً:

لولا احورارُ جفونٍ أودَعَتْ سَقْمًا	ما أمطرتُ سَحْبٌ أجفاني الدموعَ دَمًا
ولا وقفتُ أَصِيلًا نَا بِرَبِّعِكُمْ	ولا سقيتُ رَبَاهُ من دمي دِيمًا <sup>(١)</sup>
ولا نثرتُ عقيقَ الدمعِ في طَلَلٍ	منه أذيعُ الذي قد كان مُكْتَمًا
شَمَلُ السَّلْوِ شتيتُ بعد بُعْدِكُمْ	وطالما كان قبل اليوم مُلْتَمًا
البيّنُ يقطعُ منه كلُّ مُتَّصِلٍ	والشوقُ يَنْثُرُ منه كلُّ ما انتظما
والوَجْدُ شَادَ بجسْمي ما يهدِّمه	أو على ما بنى فيه وما هدمًا

وهو يقول لولا جمال الحور وما أودع العيون مما يشبه السقم ما هطلت سحب أجفاني بدم الدموع القاني ولا وقفت في الأصيل بربعكم ودياركم أسقى رباها أمطاراً من دمي، ولا نثرت

(١) أصيلانا: أصيلاً. ديمًا: مطر غزير.

مُحَمَّرَ الدَّمْعِ فِي طَلَلِ ذَاغٍ مَنِ فِيهِ مَا كُنْتَ أَكْتَمَهُ وَأَدَارِيهِ، وَقَدْ فَارَقَنِي السُّلُوكَانَ لَا يَبَارِحُنِي وَقَطَعَ  
الْبَيْنَ وَالْفِرَاقَ مِنْهُ كُلِّ مَا كَانَ مُتَصِلًا وَنَثَرَ مِنْهُ كُلِّ مَا كَانَ مُنْتَظِمًا وَالْوَجْدَ آخِذًا بِجَسْمِي بَيْنِي  
وَيَهْدِمُ مَسْبِيًا لِي التِّيَاعَا شَدِيدًا لَا أَكَادُ أَطِيقَهُ، وَيَسْتَمِرُّ ابْنُ مَعْمَرٍ فِي غَزَلِهِ:

يا مَنْ يَلُومُ عَلَيَّ مَا جَلَّ مِنْ أَسْفَى	هَذَا الْيَسِيرُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كُنْتُ
مَا خَطَطَ النَّوْمُ فِي جَفْنِي رَسَمَ كَرَى	إِلَّا مَحَا السُّهْدُ مَا قَدْ خُطَّ أَوْرُسِمَا
أُنْبِيكُمُ أَتْنِي مِنْ يَوْمِ بَيْنِكُمْ	مَازَلْتُ لِلسُّهْدِ وَالتَّذْكَارِ مُلْتَزِمَا
أُرْتَاخُ إِنْ هَبَّ رِيحٌ مِنْ جَنَابِكُمْ	أَوْلَاخُ بَرَقَ بِذَاكَ الْأَفْقِ وَابْتَسِمَا
أَمَا وَمَنْ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ مُقْتَدِرًا	وَحَبِّكُمْ وَكَفَى بِالْحَبِّ لِي قَسِمَا
مَا رَامَ قَلْبِي اصْطِبَارًا بَعْدَ بَعْدِكُمْ	وَمَا تَأَخَّرَ بِي مِنْ وَجْدِهِ قَدَمَا

وهو يقول لمن يلومه على ما يظهر من عظيم الوجد واللوعة إن ذلك بعض ما أكتمه من  
حُرْفَةِ الْحَبِّ، وَيَشْكُو مِنَ السُّهْدِ مَفْكَرًا فِيمَنْ يَجْهَنُ حَتَّى يَقُولُ إِنْ مَا قَدْ يَخْطِطُهُ النَّوْمُ فِي جَفْنِيَّ  
مِنْ أَثَرِ لِلنَّعَاسِ يَمُحُو السُّهْدَ خَطُوطَهُ وَرَسُومَهُ مَحْوًا، فَسُهْدُهُ وَتَذْكَارُهُ لِمَنْ يَجْهَنُ يَلَازِمَانَهُ وَإِنَهُ  
لِيَشْعُرُ بِرَاحَةٍ مَا مِثْلُهَا رَاحَةٌ حِينَ تَهَبُ رِيحٌ مِنْ جِهَتِهِنَّ أَوْ يَلُوحُ بَرَقٌ مِنْ أَفْقِهِنَّ مَبْتَسِمًا وَكَأَنَّمَا  
يَحْمَلُ أَثْرًا مِنْ ابْتِسَامِهِنَّ، وَيَقْسِمُ بِرَبِّهِ الْمُقْتَدِرِ وَبِحَبِّهِ أَنْ قَلْبَهُ لَمْ يَحَاوِلْ صَبْرًا عَلَيَّ فِرَاقَهُنَّ  
وَبَعْدَهُنَّ، وَلَا يَزَالُ يَلْتَاخُ وَجِدًا وَهِيَامًا. وَالْأَبْيَاتُ تَسِيلُ عَذُوبَةً مَعَ مَا تَشْفَعُ بِهِ مِنَ التَّصَاوِيرِ،  
مِمَّا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ مَلَكَّتِهِ الشَّعْرِيَّةِ وَأَنَّهَا تَوَاتِيهِ بِمَا يَرِيدُ مِنَ الْأَخْيَلَةِ وَمِنَ الْأَلْفَاظِ السَّهْلَةِ الَّتِي  
تَبْدُو لِسَهُولَتِهَا وَقُرْبِهَا مِنَ اللَّغَةِ الْمَأْلُوفَةِ كَأَنَّهَا طَوْعُ الْيَدِ، وَهِيَ لَا تَطَاوَعُ إِلَّا الشَّاعِرَ الْأَصِيلَ  
الَّذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يُوَثِّرُ فِيكَ بِتَّصَاوِيرِهِ وَبَلِغَتِهِ السَّلْسَلَةِ، وَمِنْ رَقِيقِ غَزَلِيَاتِهِ قَوْلُهُ:

آهًا نَرَدُّدًا لَوْ تَشْفَى لَنَا كُرَبًا	وَبِالتَّعَلَّاتِ نَحْيًا لَوْ قَضَتْ أَرْبَا <sup>(١)</sup>
وَبِالْأَمَانِي يَنْسَالُ الْقَلْبُ بُغْيَتِهِ	وَقَدْ تَحَقَّقَ مِنْ مَعْتَادِهَا كَذِبًا
يَرْتَاخُ إِنْ لَاحَ بَرَقٌ مِنْ جِهَامَتِهَا	وَمَا تَرَاءَى لَهُ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَا <sup>(٢)</sup>
يُسْرًا إِنْ مَدَّ يَوْمًا حَبْلَ مُنْيَتِهِ	وَمَا تَطَاوَلُ إِلَّا جُدًّا وَانْقَضَابًا <sup>(٣)</sup>
إِنْ عَزَّ مَا يَبْتَغِيهِ فَهَوَّ فِي هَرَجٍ	وَيَخْتَشِي الْفَقْدَ إِنْ مَا يَبْتَغِي قُرْبًا <sup>(٤)</sup>

(٣) جُدُّ وَانْقَضَابٌ: انْقَطَعُ.

(٤) هَرَجٌ: اخْتِلَاطٌ.

(١) التَّعَلَّاتُ: مَا يَتَعَلَّلُ بِهِ الشَّخْصُ وَيَتَلَهَّى. أَرْبَا:

حَاجَةٌ.

(٢) الْجِهَامَةُ: الْعَبُوسُ.

وهو يقول إنه لا يزال يرُدُّ لفظه آه تعبيرا عن وجده الملتاع غير أنها لا تشفيه من كرب الوجد ولوعاته، ولا يزال يعلل نفسه وينيها باللقاء، غير أن التعلات لا تقضى مأربا ولا حاجة وإن القلب لا يزال ظامئا متلهفا إذ لا يسعفه إلا سراب الأمانى الكاذب الخادع، وقد يلوح له أمل، وسرعان ما يتوارى كالبرق يختفى بمجرد ظهوره ولمعانه - إنه يعيش بالأمانى في اللقاء، فهي حسبه، على أن حبلها لا يُدَّ ولا يطول إلا جُدَّ وانقطع، ولا يزال عقله في اختلاط، كلما شعر أن أمنيته لن تتحقق، وحتى إن ظن أنها اقتربت لا يزال في خوف من ابتعادها بل من فقدتها فقدًا لا أوبة معه. ويستمر ابن معمر في غزله منشدا:

وارحمتاه لقلبي كم أجشمه	أما يذيب من الأضداد ما صلبا
وكم يعاني مللمات بأيسرها	يهون الأمر من دنياه ما صعبا
وكم يلجج في أفكاره لججا	سودا توجج في أحشائه لهبا
وكم تهب سموما من تنفسه	لو استمرت لما هبت نسيم صبا
أستغفر الله لا أشكو الزمان ولا	أبدي - إذا طرقت أحداثه - رهبا
ولا أئن لحظ منه أعورنى	ولا أسر إذا ماء المنى انسكبا
أنى يسر لبيب أن رأى حلما	وكيف يطرب من خمر الفنا شربا

وهو يأسى لقلبه وما يجشمه من متاعب حب تذيب الصخر الصلد الصلب وما يحمله من مللمات يعانى منها أشد العناء، وإن أيسرها ليهون أى أمر صعب من دنياه ما ظلت صعوبته راسخة جائزة فيه، فما بالنا بأثقال تلك المللمات وما تحمل من صعوبات لا تطاق، وما أشقى قلبه بها جميعا وما أعظم عناءه، وكم يخوض هذا القلب من أفكاره لججا شديدة السواد توجج نيران وجد في أحشائه ماتى تلتهب التهايبا، وإنما لتقذف بسموم من تنفسه لو استمرت - كما يزعم - لمنعت نسيم الصبا اللبّن من الهبوب. ويعود ابن معمر إلى نفسه، ويستشعر قوة عاتية، ويستغفر الله فإنه لا يشكو الزمان ولا يصيبه جزع من أحداثه، ولا يئن لحظ فاته منه، ولا يحزن لمخطوب طرقت ولا يفرح لأمانى طوقته، ويقول كيف يسر لبيب عاقل رأى حلما تراءى له وكيف يطرب لمسرة من مسرات الدنيا من شرب من كأس الفناء وأسكره. وله وقد أبل الخليفة الحفصى - ولعله المستنصر - من مرضه.

الله أنعم بعد اليأس بالفرج  
يا أزمة الدهر عند الشدة أنفرجى  
شكر الخلائق لا يكفى لأيسر ما  
كفى وسكن من هرج ومن رهج<sup>(١)</sup>

(١) هرج ورهج: شغب واختلاط.

أَبَقِيَ الْأَنْبَاءَ بِإِبْقَاءِ الْإِمَامِ فَكُمْ بِصَوْنِهِ صَانَ مِنْ مَالٍ وَمِنْ مُهَجِّ  
إِذَا رَعَى اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ رَاعِيَهُ لَمْ نَأْسَ مِنْ فَقْدِ ذِي قَدْرٍ وَلَا هَمِّجٍ

وهو يقول إن الله أنعم على الرعية بعد يأسها بنعمة الفرج وكشف الغم الذي اعتراها بمرض الخليفة، ويتجه إلى أزمت الدهر يسألها أن تنفرج وتنكشف وتنحسر عند الشدة أو الشدائد إلى غير رجعة، ويقول إن شكر الرعية لا يفي بهذه النعمة الكبرى نعمة شفاء الخليفة من مرضه وتهدئة ما كان قد حدث فيها من اختلاط واضطراب بسببه. ويفزع ابن معمر إلى المبالغة أو قل يتمادى فيها، إذ جعل بقاءه بقاء للرعية وصونا لأموالها ونفوسها، ويجعله راعيا للإسلام ويرفعه فوق أفراد الرعية درجات. ولعل فينا أسلفت من أشعار ما يصور شاعرية ابن معمر وأنه يعد بحق أشعر شعراء ليبيا حتى عصره لحسن صياغته وروعة تصاويره ودقة أفكاره.

## ٤

## الشعراء في العهد العثماني

مرَّ بنا أن العثمانيين استولوا على طرابلس في أواسط القرن العاشر الهجري، وقد ضمَّ محمد الساقزلي والى طرابلس برقة إلى ولايته بعد نحو قرن، وبذلك أصبح ليبيا حاكم عثمانى واحد يتخذ طرابلس عاصمة له، وكان حكامها يتخذون التركية لغة رسمية لدواوينهم، وأخذوا مع الزمن يقيمون مدارس في ليبيا ولكنها كانت تصب عنايتها على تعليم التركية لتخريج موظفين للدواوين يساعدون في تصريف شئون الولاية. غير أن الثقافة الإسلامية العربية ظلت ترعاها المساجد والزوايا. وكانت ليبيا قد أخذت تشغل منذ القرن الثامن الهجري بالتصوف وزواياه وشيوخه، واتسع انشغالها بذلك منذ حكمها العثمانيون في أواسط القرن العاشر الهجري أو بعبارة أدق منذ حكموا طرابلس، إذ كثر الشعر حينئذ على لسان الصوفية، غير أن الكثرة الغامرة منه عامية، وما ليس عاميا يكثر فيه اللحن، ومن يضاف إليه أشعار كثيرة من دراويشهم عبد السلام الأسمر المتوفى سنة ٩٨١ وكانت له زاوية بمدينة زليطن على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن الزهد والتصوف، وتكثر العامية الليبية في أشعاره ويكثر فيها الخروج على العروض، وربما لم يكن هو نفسه السبب في ذلك، فقد تحول كثير منها شعرا شعبيا، فرجما عبث به الرواة والمنشدون من العوام، ومن أهم أشعاره قصيدة نظمها في التسعين من عمره، ونقتطف منها بعض أبيات تستقيم فصاحة وعروضا<sup>(١)</sup>:

(١) انظر القصيدة في كتاب الشيخ سيدى

عبد السلام الأسمر لإسحق المليجي ص ٣٠٤.

شربتُ شرابَ العزِّ من خَمْرَةِ الصِّبَا      سقانيه محبوبى بسرَّ العِنايةِ  
وبانتُ لى الأنوارِ وانكشفَ الغِطَا      وألهمتُ أسراراً بسرَّ الجِلالَةِ  
ونمَّقتُ منشوراً إلى كلِّ عاشقٍ      بأنهمُ حزبي وأهلُ إرادتى

وكان الشطر الأول في هذه الأبيات مضطرباً وأصلحته ليستقيم الوزن. وكان للشيخ أتباع كثيرون جاءوه من كل فج في ليبيا وتونس والبلاد المغربية، وأقاموا له - حين توفى - مأتماً كبيراً أنشد فيه بعض مرثيته مراثى مضطربة الوزن والصيغة، وإنما ذكرت بعض أشعاره لأدب على تدهور التصوف لغةً ووجداً ملتاغاً، فالأبيات لا تحمل أى وجد، إنما هو ظاهر مما كان يردده الصوفية قديماً من كلمات الشراب والخمرة وانكشف الغطاء والعشق وما إلى ذلك. وقد أحوالوا الزوايا في ليبيا وبلاد المغرب من دور عبادة ونسك وتجمع فيها لجهاد أعداء الله أو قل أحوالوا كثيراً منها إلى دور شعوذة واعتقاد في شيوخها بأنهم أولياء الله يطلعون على الغيب وتجري على أيديهم أعظم الخوارق، واستخدموا فيها حلقات الذكر مع التثني والنشوة بالاستماع إلى أناشيد صوفية ممسوخة ومع استخدام الدفوف والبنادر ونفس زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزليطن استحالت إلى هذه الصورة، فقد كان يستخدم في زاويته الدف والبندير والأناشيد والتثني في الذكر، مما أثار عليه حملات شعواء من فقهاء عصره، وهو لا يبالي، بل يوهم أتباعه أنه ناظر وجادل نفراً منهم وتبعوه، يقول في نفس القصيدة:

وكم من فقيه كان ينكر حالنا      فصار بفضل الله من أهل حَضْرَتِي  
فأعطى له التصريف حياً وميتاً      وصرتُ إمامَ الوَقْتِ شَيْخَ الطَّرِيقَةِ

وهو يزعم - زعماً باطلاً - أن من تبعه من الفقهاء أصبحوا من الأولياء، وأصبح لهم التصرف في القضاء أحياء وأمواتاً مثله، وهى شعوذة ملأها أمثاله نفوس العامة في ليبيا والعالم العربي: أن زيارة قبور الأولياء والمتصوفة تنفعهم وينبغى أن يقدموا لها النذور، وهى لا تنفع ولاشفع، إنما ينفع الإنسان - ويشفع له - عمله. ولكن إذا كان التصوف ساء سلوكاً في العصر العثماني بليبيا وهبط شعراً فإن المديح النبوي ظل له غير قليل من الرونق عند شاعر ليبي لُقِّبَ بالبُهلول، وهو - لغةً - الجامع لخصال الخير وسنترجم له، وتنبه بترجمة أحمد بن عبدالدايم.

(أ) البهلُولُ<sup>(١)</sup> الطرابلسي

هو أحمد بن الحسين الملقب بالبهلُول، وُلد بطرابلس حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١١٣هـ/١٧٠٢م ولما نهل من حلقات الشيوخ فى مسقط رأسه، وعبَّ منها ما شاء، رأى أن يرحل إلى القاهرة للتزود من أعلام الأزهر الشريف وظل فترة به ملازما حلقتى إمامى المالكية فيه: الشيخ محمد الخرشى والشيخ عبدالباقى الزرقانى، ولكل منها شرح على مختصر الشيخ خليل بن إسحق فى الفقه، والشيخ خليل - بدوره - فقيه مالكى مصرى، وقد طارت شهرة مختصره فى البلاد المغربية إلى اليوم، وتفتحت موهبة البهلُول - حينئذ - فأنشأ قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه طرابلس، وفيها يقول:

طرابلسُ العرَّا تُرى لى عَوْدَةٌ      إليك وهل يدنو الذى كان قد ذهبُ  
سقى الجانبَ الشرقى منك سحابةٌ      ولازال فيك من رباح الصِّبا مهبُ  
بديعةٌ حُسنِ زادها الله بهجةً      وآمن أهلها من الخوف والشَّعبُ  
وكيف بدارٍ قد حوت كلَّ رُقعةٍ      يقوم لهم فى العلم باعُ وفى الأدبُ

ورجع إلى طرابلس بعلم غزير وأدب وفير وملكة شعرية خصبة، ولم يسخرها فى مديح حكام بلده، وإنما سخرها فى مديح صفوة الخلق سيد ولد آدم محمد ﷺ، ونظم فى ذلك ديوانا، قصائده محمَّسات موزعة على الحروف الهجائية، وأضاف إلى تلك الحروف الثمانية والعشرين: «لا» فأصبحت تسعة وعشرين حرفا، ولكل حرف قصيدته وهو قافيتها وكل قصيدة تتألف من عشرين دورا، أو قل كل محمَّس، وقد عُرف شعراء المغرب والأندلس بهذه المحمَّسات العشرينية، وعلى شاكلتهم ألف البهلُول أو نظم هذا الديوان، ويقال إنه نظم محمَّساته على أساس قصيدة عياضية، وهى لا توجد بين قصائد القاضى عياض إمام مدينة سبتة المشهور وربما كانت لعياض آخر، إذ يتسمى باسمه كثيرون بين مغاربة وأندلسيين، وأول دور فى المحمَّس الأول يجرى على هذا النمط:

أدوبُ اشتياقا والفؤاد بحسرةٍ      وفى طىِّ أحشائي توقدُ جمرة  
متى ترجع الأحباب من طول سفرةٍ      أحبةٌ قلبى عللوني بنظرةٍ  
فدائى جفاكم والوصول دوائى

لأحمد النائب الأنصارى.

(١) انظر فى البهلُول ديوانه ومقدمته لمحققه:  
الظاهر الزاوى وكتابه أعلام ليبيا، والمنهل العذب



وقافية الشطر الخامس همزية ومثلها جميع الشطور الخامسة في أدوار المخمس، وإلى قافية هذا الشطر يُنسبُ المخمسُ جميعه. والأدوار العشرة الأولى في كل مخمس تتخذ الغزل موضوعا لها بينما الأدوار العشرة الثانية في مديح المصطفى ﷺ كما يقول محقق الديوان الأستاذ الطاهر الزاوي. ونظن ظنا أن وراء الظاهر في العشرة الأولى نفحات من الغزل الصوفي الحسي الذي نقرؤه في ديوان ترجمان الأشواق لابن عربي إذ يتشابه معه في أنه يجمع في غزله ما يختلج في قلوب المحبين العذريين إزاء محبوباتهم من لواعج الحب والافتتان بجماهن وسحر عيونهن وورد خدودهن، ودائما محبوباتهم في ارتحال وفراق وبين، وهم مسهدون يبكون بدموع غزار، ولا يبلغ المحب مراده من الوصال، وهو - لذلك موجع الفؤاد، إذ لاشفاء له بلقاء أو ما يشبه اللقاء، بل قطعة متصلة، والحب - بل العذاب - يتجدد ألوانا. وجميع العشرينيات عند البهلول تبتدئ بهذا الغزل الملتاع، وما يؤكد تأثره في غزله بالغزل الصوفي ذكره في مخمسه الخائي معروفا الكرخي الصوفي وتلميذه السري السقطي والجنيدي تلميذ السري، والثلاثة من صوفية القرن الثالث الهجري المشهورين، وهو ما يجعلنا نزع أن شعاعات من الغزل الصوفي الحسي سقطت في الأدوار العشرة الأولى بمخمساته من مثل قوله في مخمسه السيني:

نفوسٌ عزيزاتٌ ترى من أذلها      وسفك دماها في الهوى من أحلها  
وبى عادة كالشمس تمنع وصلها      سمحت بنفسى في هواها لعلها

تدوم على حفظ المودة والأنس

تحمل قلبي في هواها تحيةً      ولم ترع بالتفريق وداً وصحبةً  
أنادى عساها أن تفرج كربةً      سقتني كئوساً بالمحبة صرفة  
ثملت بها سُكراً وغبتُ على جسسى

وظاهر الدور الأول كأنه غزل طبيعي لمحِبٌ يتذلل لمن تدلّه في حبها وأصابته بسهامها حتى كأنما سفكت دمه غير مبالية بحبه، وتمنع وصالها، وتمنع في هجرانها، وهو لا يزال يأمل أن تراجع نفسها وتذكر له أيام المودة والأنس، وهي معان يقولها الغزلون العذريون ولكن تأمل في الدور الثاني وماذكر فيه من كئوس المحبة وارتوائه منها صرفة صافية وكأنما ارتوى من كئوس المحبة الربانية التي طالما ردها الصوفية، ويقول إن نشوة السكر غلبت عليه حتى غاب عن جسسه، وكأنه يعنى فكرة الفناء الصوفية في الذات العلية إذ يبلغ الصوفي من محبته لربه غيابه عن جسسه، فقد أصبح روحا فانية في ربه لا يشعر بشيء في الوجود سواه وسوى محبته التي استغرقت حواسه حتى كأنما أصبح في غيبوبة مطلقة. وحقا لا يعن البهلول في غزله الحسي الذي يقدم به المديح النبوي كل هذا الإمعان الصوفي، ولذلك نقول إن في غزله بعض شعاعات من المحبة الصوفية.

والأدوار العشرة الثانية في مخمسات البهلول خصَّها بمديح الرسول ﷺ، ويفيظ في ذكر معجزاته التي تتحدث عنها السيرة النبوية مثل انصداع إيوان كسرى وانطفاء نار فارس عند مولده ومثل شقَّ جبريل لصدره ووضع النور الربَّاني فيه بمنازل مرضعته حليلة السعدية، وشكوى الصحابة إليه من قلة الماء في بئر صغيرة كان يتوضأ منها، ففار الماء وتكاثر ببركته وما قيل من أن الغزاة كلمته وكذلك الذئب والضب، ومعروف أن معجزة الرسول الكبرى إنما هي القرآن الكريم ورسالته العظيمة التي وضعت أسسا قويمية هداية البشرية . ويذكر البهلول مرارا وتكرارا إسراء الرسول على البراق إلى بيت المقدس وصلاته فيه إماماً للرسول، ومعراجة إلى السموات السبع وما غشيه من الأنوار القدسية عند سِدْرَةِ المنتهى وما يني يتحدث عن محبته للرسول مصورا فضائله وشماله المثالية السامية، ضارعا إليه دائما أن يكون شفيعه يوم المحشر، وتراءى في جوانب من مديحه النبوى شعاعات من فكرة الحقيقة المحمدية التي تغنى بها الحلاج والبوصيرى لما جاء في الأثر من قول الرسول ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكان حقيقته أقدم من حقيقة آدم وخلقه، وكأنه المبدأ لكل النبوات والرسالات، وفي ذلك يقول البهلول في مخمسة الخاني:

سما مَجْدُهُ بين الأنام وفخرُهُ      وقد جَلَّ من بين البرية قَدْرُهُ  
له المنصبُ الأعلى لقد تمَّ نصرُهُ      ختامٌ وإن كان المقدمُ ذكره  
أخيراً وإن كان المبدأ في النَّسخ

فالرسول ﷺ - مع تأخره في الرسالة - متقدم في الرتبة على جميع الرسل والأنبياء، بل إنه المبدأ لهم جميعا، فمن رسالته استمدت جميع الرسالات، وكأنما نسختها منذ الأزل، بل إن الوجود جميعه ليستمد منه، إذ هو نور الله، وكل نور في الوجود يستمد من نوره، يقول:

نبيُّ تسامى في الأنام بمجدهِ      لقد ضاءت الآفاقُ من نور سَعْدِهِ  
وما ذكاءُ أو الشمس في أضوائها الزاهية إلا فيض من نور وجهه وطلعتة السنية، يقول:  
له الشرفُ العالی بفخرٍ وسؤددٍ      ذكاءٌ بدت من نورِ وجهِ محمدٍ

فالرسول ﷺ منشأ النور في الوجود وإن نور وجهه ليشاهد في كل نور: في الشمس وغير الشمس، إذ هو الحقيقة الأزلية أو النور الأزلي الذي يضيء الكون والآفاق منذ الأزل أضواء نيرة غامرة.

وأدوار المخمسات في ديوان البهلول تفيض بالسلاسة والعدوية دون أى غرابية في كلمة أو صيغة، مما جعل أهل ليبيا - فضلا عن أهل طرابلس - يشغفون بالديوان ومخمساته لما يشيع فيه من السهولة والوضوح والصفاء الموسيقي، واعتادوا أن يقيموا لإنشاده حفلات تبدأ من

غرة شهر ربيع الأول كل عام حتى اليوم الثاني عشر يوم مولد المصطفى ﷺ، وربما صحبت الإنشاد ألحان بعض الآلات الموسيقية. وكانت للبهلول - بجانب هذا الديوان النبوي - أشعار تعليمية في فقه مذهب مالك وفي العقائد ولم تصلنا، وكانت له مقامات على نمط مقامات الحريري سقطت - بدورها - من يد الزمن ويكفيه فخرا ومجدا هذا الديوان النبوي الذي صوّر فيه مشاعره الصوفية ومحبه المتقدة بين جوانحه لصاحب الرسالة المحمدية.

### (ب) أحمد<sup>(١)</sup> بن عبد الدائم

هو أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، ولد بطرابلس ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات علمائها، وتفتحت موهبته الشعرية، وكان فقيها ومؤرخاً غير أن الشعر هو الذي جذبته، وكان معاصراً لأحمد القرماني والى طرابلس (١١٢٣ - ١١٥٨ هـ) فأخذ يديج فيه بعض المديح وحدث في أثناء ولايته سنة ١١٤١ هـ/١٧٢٨ م أن قام أسطول فرنسي بمظاهرة أمام طرابلس وأرسل قبطانه إلى القرماني بشروط ينبغي أن يرضخ لها وإلا ضرب المدينة بقذائفه، ولم يرضخ القرماني ولا قبل الشروط، رافضاً تهديد القبطان ووعيده، وضرب الأسطول طرابلس بقذائفه أربعة أيام طوالاً، وأرسل القبطان أو قائد الاسطول الفرنسي بعدها خطاباً يحث فيه القرماني على الصلح غير أنه صمم أن لا يستسلم، وكان الاسطول قد دمر أكثر من ثلث المدينة إذ ألقى عليها نحو ألفي قنبلة، واستنفد ماله من القذائف، فلم يجد قائده بدا من فك الحصار عن طرابلس وعودته إلى بلاده. كل ذلك حدث والخليفة العثماني لا يحرك ساكناً ولا يحاول الثأر لطرابلس من الفرنسيين. فنظم ابن عبد الدائم قصيدة يستثيره فيها ضدهم محاولاً أن يملأه حمية وحماسة بمثل قوله فيها:

يا واحدا مافي البسيطة مثله      ملك الملوك بتاجه المتكّل  
أو ما يغيظك حال قلعتك التي      فازت بفتحك في الزمان الأول  
إنّا لنرجو منك أخذ الثأر من      شعب الفرنسييس اللثيم الأردل

وكان العبدري المغربي قد نزل طرابلس في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٨ ويبدو أنه أصابه حيف من بعض أهلها. فعَمَّ المدينة وأهلها جميعاً بدم شديد ضمنه رحلته المغربية، ذمَّ المغيظ المحنق، ولا نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الدم، وردَّ عليه رحالة مغربي مواطن له زارها بعده، هو ابن عبد السلام الناصري، إذ دافع عنها دفاعاً حاراً في رحلته الحجازية الكبرى، واستشهد على

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم كتاب التذكار  
فيمن ملك طرابلس من الأخيار لابن غلبون  
وأعلام ليبيا للطاهر الزاوي والمنهل العذب لأحمد  
النائب الأنصاري.

مدحها بأشعار لمغاربة في تقريرظها وتقريرظ أهلها، ومن قوله: «وحسن أخلاق أهلها وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها امتلاً به الخافقان، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح، وما زالت الأشراف تُهَجَى وتمدح». وابن عبد الدائم أحد من امتعضوا امتعاضاً شديداً من ذم العبدرى لها ولأهلها، مما جعله ينظم قصيدة في الرد عليه، كان لها دوى غير قليل، وفيها يقول:

طرابلسٌ لا تقبل الدَّمُ إنها	لها حسناتٌ جاوزت سيئاتها
إذا أمها من قد نأته بلادُه	وأوحشه ذو أمرها من مُحاتها
تطامن عن نفسٍ ومالٍ وعشرةٍ	ويُضحى بعزٍّ مائوى بجهاتها
لها همةٌ تعلقو لتأييد سُنَّةٍ	بحفظ مبانيتها وجمع رواتها

وهو يقول إن طرابلس لا تُدَم ولا تُهَجَى، فحسنتها أكثر من سيئاتها ومحامدها أكثر من أن تحصى، ويذكر أن الغريب الطريد من بلاده وحكامها الجائرين إذا نزلها أمن على نفسه وماله وأهله، ويشعر بعز مابعد عزال طوال إقامته، وبنوه بهمتها في العلوم وخاصة في تأييد السنة بحفظ نصوصها وأسانيد رواتها. والقصيدة في تسعة وعشرين بيتاً وقد شرحها مواطنه ابن غلبون المتوفى سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٤ م في كتاب سماه: «التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار». وشعر القصيدة وأختها السابقة متوسط، وكان طرابلس وليبيا جميعاً استبقنا نهضتها في الشعر إلى عصرهما الحديث عند رفيق المهدي ونظرائه.

## النثر

من المؤكد أن ليبيا أنتجت نثراً كما أنتجت شعراً غير أن نثرها لم تحتفظ به الكتب إلا قليلاً جداً إذ كثيراً ما نقرأ في كتب التراجم لهذا الطرابلسي أو لهذا البرقي رسالة أو مقامة، ويكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر المقامة ولا تذكر الرسالة، وبالمثل نسمع عن هذا الفقيه الكبير أو ذلك أنه تولى قضاء طرابلس والخطابة أو تولى الخطابة بالجامع الأعظم في تونس ولا تذكر لهذا ولا لذلك خطبة. وقد يكون من أسباب عدم الاهتمام بتسجيل فنون النثر في طرابلس وبرقة وغيرها من مدن ليبيا أنه لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب وتحميه وتحث بتشجيعها له وحاجتها إليه نهضة أدبية واسعة كما حدث في تونس وغير تونس من البلدان العربية، ولو أنه نشأت في

طرابلس أو برقة دولة وأنشأت لها ديوان إنشاء لتألق لها كتاب ناهيون يدبجون رسائل سياسية بديعة تلفت معاصريهم وتجعلهم يسجلونها لهم وليت ذلك فيها نشاطا أدبيا جما في النثر لا في فن الرسائل وحده بل أيضا في مختلف الفنون النثرية. ومع ذلك فقد بقيت من النثر اللببي قطع صغيرة وشظايا متفرقة من وصايا الفقهاء والزهاد ونصائحهم من مثل قول عبد الجبار السرقى المذكور بين الفقهاء الزهاد والمتوفى سنة ٢٨١. «مَنْ قَلَّ كَلَامُهُ قَلَّتْ آثَامُهُ - الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام - من زَمَّ (صان) لسانه كَثُرَ في الدنيا والآخرة أمانه». - وسئل الزاهد عبد الله بن إسماعيل البرقى المار ذكره والمتوفى سنة ٣١٧ عن كثرة بكائه خشية وتقوى، فقال: «إِنَّمَا جُعِلْتُ عَيْنَايَ لِلْبُكَاءِ، وَلِسَانِي لِتَعْظِيمِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا وَتَحْمِيدِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ، وَبَدَنِي لِلتَّرَابِ وَالْبَلْبِي، وَقَلْبِي لِلخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، لَمْ أُخْلَقْ لِلعِبِّ وَلَا لِلهَوَى، وَإِنَّمَا خُلِقْتُ لِلعَمَلِ الصَّالِحِ».

وكان الإباضية أكثر احتفاظاً بأقوال أئمتهم، ونجد في كتاب السير للشماخي خطبة لأبي الخطاب المعافى الثائر بطرابلس سنة ١٤٠ وهى فصيحة، غير أنها شديدة البساطة ولا تعنى بجمال الصباغة، إذ ارتجلها في مخاطبة الجيش الذى وجهه لإخراج الصفرية من القيروان. ويذكر الشماخي نصاً من أقصر الرسائل المتبادلة بين متوعد لأهل نفوسة وبجيب له، إذ كتب الأول مهددا ومنذرا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهما عبارتان قرآنيتان، فأجابه محمد بن جنون الشروسي النفوسى من القرآن أيضا: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نَبْتَعِهِمُ الْآخَرِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾. ونرى الشاعر فتح بن نوح الإباضى الذى ترجمنا له بين شعراء الدولة الحفصية يعارض أبا العلاء المعرى فى كتابه الوعظى: «ملقى السبيل» الذى جعله على الحروف الأبجدية، وفيه يذكر سجعات نثرية قليلة ويتبعها بيتين بنفس معناها، وهو ماتقيد به فتح بن نوح فى معارضته إلى نهاية الحروف الهجائية بادئاً بيتين بقافية الهزمة، ودائما يذكر البيتين أولا ويتلوها بالسجعات الوعظية، ومن سجعاته قوله:

«كُلُّ مَنْ غَدَا عَلَى ظَهْرهَا<sup>(١)</sup> وَرَاحَ، مَشغُولُ الْبَالِ مَا اسْتَرَاخَ، حَتَّى الْأَجْنَةُ فِي الْأَرْحَامِ، مِنْ بَنِي سَامٍ وَيَافِثٍ وَحَامٍ، كُلُّ أَهْدَافِ السَّهَامِ، أُرُونِي خَلْقًا خَلُوا، وَسَلِيمَ الْخَاطِرِ سُفْلًا وَعُلُوًّا، وَهِيَهَاتَ لَنْ تَرَى إِلَّا نِضْوًا<sup>(٢)</sup>، فَإِنَّا لِلَّهِ.. لَمْ نَرِ إِلَّا عِبْدَ آمَالٍ، وَعَابِدَ مَالٍ، وَفَاسِدَ أَعْمَالٍ، وَمَتَصَنَعَا بِأَسْمَالِ<sup>(٣)</sup>، فَسَدَ الْعِمْرَانَ وَالْبَيْدَ، وَأَشْرَفْنَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ لَيْبِدٌ» والسجعات تطير عن الفم بخفة لعدوبتها، وهو يعرف كيف يصطفى ألفاظه ومعانيه بحيث تلذ السامع وتمتع عقله، مضيفا إليها

(١) ظهرها: يريد ظهر الدنيا وسطحها الذى نعيش عليه.  
(٢) نضوا: مجهدا مهزولا.  
(٣) أسمال جمع سمل: ثوب خلق بال.

بعض محسنات البديع وطبائقاته من مثل: «غدا - راح. وسُفلاً - عُلوًا» وجناساته من مثل: «عبد آمال - عابد مال. والبيد - لبيد) وتساويره من مثل: «أهداف السهام - نضوا» ولا نشعر في شيء منها جميعا بتكلف أو تصنع فما تميز به من حسن البيان، ويشير إلى بيت لبيد العامري المشهور:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم      وبقيتُ في خَلْفِ كجلدِ الأجرِبِ

ومن طريف سجعته قوله في بعض هذا الوعظ:

«صين الدين والعرض، ومؤدى الواجب والفرض، ومطيع ديان السماء والأرض، وحوشي من اللوم من ليس على الدنيا بهجوم، ولا للورى بظلم». وقوله:

«لو علم الغابر، مصرع العابر، وفهم مضمون المقابر، ما أغضى جفنًا على سنة (نعاس)، ولا أدخر شهرًا لسنة. حبذا من اعتنى بذا، وهجر الحنا والبذا (البذاء) وأغضى على القذى، وآمن الناس من الأذى».

والسجعات في غاية السلاسة والرشاقة وحسن النسق في الجرس، بحيث تستهويك وتخلب لبك، وهي ملحقة بالديوان، وإنما لحرية بأن تحقق مع مايسبقها من أشعار وعظية وتنشر نشرة مستقلة.



القسم الثاني

تونس





# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية<sup>(١)</sup>

جلب هذا القطر قديما بحسن موقعه على البحر المتوسط وكثرة خيراته الفينيقيين ومن بعدهم الرومان فالواندال فالروم البيزنطيين، وهو يقع في المنطقة الوسطى من الشمال الإفريقي بين البحر المتوسط في الشمال والشرق وليبيا في الجنوب الشرقي والصحراء في الجنوب الغربي والجزائر في الغرب. وتبلغ مساحته نحو مائة وخمسة وعشرين ألف كيلومتر مربع. وتدخل إليه جبال أطلس من الجزائر قرب مدينة تبسة في الجنوب الغربي، وتصعد بعض فروعها إلى الشمال الشرقي مارّة بجبل زغوان شمال القيروان وتعطف منها مرتفعات - في شكل تلال - إلى بنزرت. وتمتد سهول تحت أقدام جبال أطلس وخاصة في الشمال. وليس في الاقليم التونسي نهر كبير سوى نهر مجرّدة المنحدر من الغرب إلى الشمال الشرقي في اتجاه تونس، وسهوله من أخصب السهول، وتنتج مقادير ضخمة من الحبوب سوى ما ينمو فيها من الزروع والغروس. وتمتد في الساحل على طول البحر المتوسط أراض خصبة وافرة السكان والعمران. ووراء قابس في الساحل الشرقي إلى شط الجريد وواحاته تتراعى في الجنوب أراض منبسطة واسعة في وسطها مراعى كثيرة وبعض المزارع، وغربيها بقاع شاسعة من الحلفاء وتوجد بعض السبخات، وشرقيها منطقة نفزاوة. ومدينة توزر هي قاعدة منطقة أو شط الجريد الذي تلتف به غابة واسعة من النخيل، ومياهها تنبع من الرمل وتتجمع خارجها، وتتشعب في جداول عليها أرحاء صنعها ابن الشباط المهندس في القرن السابع الهجري، وتوزر من قديم تُعدّ من أهم البلاد التونسية لإنتاجها الوافر من البلح والتمور فضلا عما بها من البساتين والفواكه المتنوعة وفي الشمال الشرقي من توزر مدينة قفصة، ويقول جغرافيو العرب إنها من أكثر بلاد الله فُسْتقا، وكان

ترجمة الدكتور حمادى الساحل (نشر دار الغرب الإسلامي) ٣١٣/١ وما بعدها ومادة تونس في دائرة المعارف الإسلامية، وما بها من مراجع.

(١) انظر في جغرافية تونس أو الاقليم التونسي كتابات ابن رسته وابن حوقل وأبي عبيدالكبرى والشريف الإدريسي، وهذه تونس للدكتور الحبيب ثامر. وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي ليرنشفيك

يُحمل منها إلى سجلماسة في المغرب الأقصى ومدن الأندلس. وكانت تمدّ القيروان بأصناف التمور والفواكه. ومدن نهر مَجْرَدَة هي مدن الحبوب ومن أهمها مدن الكاف وسليانة وتبرسُوق وباجة غربي تونس وبينهما نحو مائة كيلو متر، ويقول البكري إنها كثيرة الأنهار (لعله يريد جداول المياه) وهي على جبل في هيئة الطيلسان، واشتهرت قديما بإنتاج الحبوب، وخاصة القمح، ولذلك سموها قديما باجة القمح. وغمرُ بالساحل من الغرب ابتداء من مدينة بنزرت، وهي ثغر في أقصى الغرب التونسي على البحر المتوسط في موقع ممتاز، تحف بها مزارع مثمرة وغابات كثيفة. وتشتهر بإنتاجها من الحبوب والبقول والزيتون، فضلا عن أنها ميناء تجارى مهم، وفي شرقيها بحيرة ويقول عنها الإدريسي: فمها متصل بالبحر المتوسط وكلما دخلت في البر اتسعت وكلما قربت من البحر ضاقت، ويصاد بها أنواع كثيرة من الأسماك. وكان بجانبها محارس أو رباطات ينزلها النساك المجاهدون في سبيل الله لحماية تونس من القراصنة والغزاة. وغمضى شرقا على الساحل في الشمال، فتلقانا تونس على خليجها، وقد بناها حسان بن النعمان والى إفريقية (٧١ - ٨٥ هـ) بالقرب من قرطاجة الفينيقية، متخذا منها دار صناعة كبيرة لبناء أسطوله. واتخذها عاصمة، غير أن الولاة والحكام بعده تركوها إلى القيروان التي كان قد بناها عقبة بن نافع بين سنتي ٥٠ و ٥٥ للهجرة واتخذها هو ومن بعده عاصمة لإفريقية، حتى إذا استولت الدولة الحفصية على صولجان الحكم في الاقليم اتخذت تونس عاصمة للبلاد، وماتزال هي العاصمة إلى اليوم. وإلى الشرق من خليج تونس خليج الحمامات وبينها شبه جزيرة من أخصب الأراضي التونسية، وتكتظ بغابات الزيتون وبساتين الفواكه وخاصة البرتقال.

وتلقانا بعد خليج الحمامات في الشرق مدينة سوسة، وقد اتخذتها الدولة الأغلبية منذ أواخر القرن الثاني الهجري دار صناعة لسفن أسطولها الحربي، وبواسطة هذا الأسطول استطاعت تلك الدولة الاستيلاء على صقلية سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م وعلى مالطة سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م ويقول ابن رسته في كتابه: «الأعلاق النفيسة»: إن ساحل سوسة كثير السواد من الزيتون والكروم والأشجار، وبه قرى كثيرة يتصل بعضها ببعض، وهي - مثل بنزرت - يصاد بها أنواع مختلفة من الأسماك، وخاصة من الحيتان. وجنوبي سوسة مدينة المنستير وكانت في الأصل محرسا كبيرا أو رباطا بناه هرثمة بن أعين والى الرشيد لحماية الساحل وحراسته وظلت تتسع مع الزمن إلى أن أصبحت مدينة كبيرة. وإلى الجنوب منها مدينة المهديّة التي بناها المهدي مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بتونس، بناها على نتوء صخري بالساحل لتكون حاضرة له ودار صناعة لأسطوله، ويقول البكري إنها من أعاجيب الدنيا. وإلى الجنوب منها صفاقس وهي مدينة تجارية مهمة، وتحيط بها أشجار الزيتون والفواكه، وفي كتاب الحلل السندسية أنه يصاد بها أنواع من السمك تفوق الحصر، وبيحرها صوف تصنع منه ثياب رفيعة، وقد يوجد في بحرها صدف يشتمل

على لؤلؤ صغير الحب، وأمامها جزر قرقنة ويشتهر سكانها بصيد الإسفنج. وإذا سرنا نحو الجنوب لقيتنا مدينة قابس متوسطة خليجها ويصاد فيه الإسفنج أيضا بكثرة، ويكثر بها النخيل والعيون الجارية، ويقول البكري إن اللوز كثير بها وبالمثل جميع الثمار، ويكثر بها التوت، وحريرها أطيب الحرير وأرقه. وإلى الجنوب الشرقي من خليجها جزيرة جربة الكبيرة الخصبة. وإلى الجنوب منها منطقة نفزاوة المشهورة بواحاتها وتشتهر ناحية طرة فيها بصنع الزجاج من قديم لوجود الكارتز هناك بكثرة. والأشجار والزروع تحيط بالاقليم التونسي على امتداد سواحل شمالا وشرقا وفي حوض نهر مجردة غربا وفي واحات نفزاوة وشط الجريد. والمنطقة الوسطى وحدها منطقة المراعى وفيها تنتقل القبائل الرحل.

ومناخ القطر التونسي - في جملته - مناخ البحر المتوسط دافئ معتدل، ونزول الأمطار بها يختلف كثرة وقله حسب أنحائها، وهى تكثر في الشمال شتاء، وتقل قلة شديدة في الجنوب، وتختلف درجة الحرارة فيها باختلاف البقاع ووقوعها على الجبال وسفوحها وفي السهول الزراعية ويقرب البحر أو في داخل الصحراء.

## ٢

التاريخ<sup>(١)</sup> القديم

كانت تعيش في القطر التونسي وغيره من أقاليم المغرب - في العصور السحيقة - قبائل لا حضارة لها سماها الرومان باسم البربر، وحوالى القرن العاشر قبل الميلاد ارتاد سواحل إفريقيا الفينيقيون بحثا عن مواقع غنية بالخيرات يُرسون بها سفنهم للتبادل التجارى، وكانوا شعبا ملاحيا احترف التجارة، وأعجبهم ساحل الإقليم التونسي، فاتخذوا فيه مواقع لإقامات مؤقتة يتبادلون فيها السلع التجارية مع أهله وسكانه. ومع الزمن ومرور دوراته المتعاقبة رأوا أن يقيموا لهم في ذلك الإقليم مدينة تكون لبعض أسرهم مستقرا كما تكون مركزا ثابتا لمتاجرهم. وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أسسوا لهم مدينة غربى مدينة تونس الحالية سموها قرطاجنة، وأخذت تزداد قوة، وأخذ بحارتها وتجارها ينشئون لهم مراكز تجارية جديدة في الساحل الإفريقى مثل بجاية وشرشال في الجزائر وطنجة في

(١) المغرب الكبير للأستاذ محمد على دبوب (طبع مطبعة  
الخليى في القاهرة)

(١) انظر في تاريخ الإقليم التونسي القديم  
خلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى  
عبدالوهاب (طبع تونس) والجزء الأول من تاريخ

المغرب الأقصى ونزلوا ساحل إسبانيا في الجنوب الشرقي والغربي وأسسوا لها مدينتين: قرطاجنة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسي.

وكان الفينيقيون أصحاب حضارة، ومعروف أنهم اشتقوا لهم من حروف الهيروغليفية المصرية أبجديتهم التي نشروها في البلاد التي نزلوها قديما كما نشروها في العالم القديم. وقد نزل قرطاجنة التونسية كثير من أسرهم، وخالطوا السكان الإفريقيين، وامتزجوا بهم مصاهرة وغير مصاهرة، بحيث أصبحت لهم في قرطاجنة دولة كبيرة، كما أصبح لهم شعب ضخم يتألف منهم ومن البربر، واتسعت في تجارتهم مع المراكز التجارية التي أنشئوها في المواقع المذكورة آنفا وفي فرنسا وصقلية، وجابت قوافلهم الصحراء في الجنوب وجملت من السودان الرقيق والعاج والتبغ. ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، حتى نجد روما تحاول أن تخضع من شوكة نفوذهم في البحر المتوسط، وسرعان ما نشبت الحروب بين الطرفين وظلت أكثر من مائة عام ابتداء من سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وكان ميدانها لنحو عشرين عاما جزيرة صقلية موضع النزاع بين القوتين الكبيرتين، وأذعن قرطاجنة في نهايتها للصالح، وعادت الحرب بينها للنشوب سنة ٢١٨ قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٢٠٢ إذ باءت حملة هانيبال الكبرى بالإخفاق، وكان قد كوّن جيشا ضخما اقتحم به جبال البرانس وجنوبي فرنسا وشمالى إيطاليا محاولا أن يفتح روما، غير أن الأقدار لم تسعفه، وبعد ذلك بنحو خمسين عاما نشبت بين روما وقرطاجنة حرب ثالثة ظلت ثلاث سنوات من سنة ١٤٩ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد انتهت بانتصار روما وتدميرها نهائيا لقرطاجنة الفينيقية. وكانت حضارتها قد استقرت في الشمال التونسي قرونا وأجيالا متعاقبة، وكانت حضارة متقدمة لا في شئون الملاحة والتجارة فحسب فهم أساتذتها في العالم القديم بل أيضا في صناعة السفن والمعادن والزجاج وفي زراعة الحبوب والبقول وأشجار الفاكهة وغراسة الزيتون والمظنون أنهم نقلوه - كما نقلوا كثيرا من أشجار الفاكهة - إلى إفريقية في تونس وغيرها من موطنهم الأصلي في الشام، ومن أكبر الأدلة على اهتمامهم بالشئون الزراعية في إفريقية التونسية أن نجد عالمهم الزراعى الكبير: ماجون (Magon) يؤلف أقدم كتاب عالمي في الزراعة وغراسة الأشجار وقد نقله الرومان إلى اللاتينية حينما قهروا القرطاجيين التونسيين واستولوا على البلاد منذ سنة ١٤٦ قبل الميلاد. كما استولوا على مافيها من كنوز العلم والعرفان وكنوز الخيرات والطيبات.

ومنافسة لقرطاجنة الفينيقية وهياكلها الضخمة ومبانيها السامقة أقام الرومان لهم بجانيها قرطاجنة جديدة شادوا فيها هياكل ومعابد ومباني بأسقة كما شادوا مسرحا للتمثيل وملعبا لمصارعة الحيوان وبعض الحمامات. وكانوا يحكمون قرطاجنة والقسم الشمالى من الاقليم التونسي مباشرة، وما وراءه في نفس الإقليم وفي نوميديا (القسم الشرقى من الجزائر) كان

يحكمه ولاية تابعون لهم من البربر، واشتهر من بينهم والٍ يسمى يوغرطة حارب الرومان وحاول الاستقلال ببلاده ووقع في أيدي أعدائه فسجنوه بروما إلى أن قضى نحبه سنة ١٠٦ قبل الميلاد. وأخذت البلاد تستكين لروما، وأخذ بعض البربر ينشأ بها ويتعلم فيها مثل يوبا الثاني المتوفى سنة ٢٢ للميلاد. وهو جزائري، وقبره بالقرب من شرشال، وله مؤلفات مختلفة باللاتينية في تاريخ الرومان وفي الجغرافية والموسيقى. واندمج بعض البربر في الحياة الرومانية واستطاعوا الوصول إلى أعلى الوظائف في الدولة، حتى ليصبح أحد أباطرة روما ويجلس على عرشها سنة ١٩٣ للميلاد بربري من مواليد لمطة على الساحل الإفريقي ويقال: بل من مواليد لبدة بجوار طرابلس، وهو سبتيموس سيفيروس. وتابعت روما قرطاجة في العناية بالزراعة في إفريقية التونسية وشق القنوات بها وإقامة السدود والخزانات والصهاريج والمواجل، مما جعل الزراعة تزدهر بها في زمنهم الذي امتد نحو ستة قرون طوال. وتظل التجارة مزدهرة بها أيضا وتظل القوافل تتحدر إلى الجنوب لحمل السلع من السودان. وقد نزلتها - وعاشت فيها - أسر رومانية كثيرة. وحين اعتنقت روما المسيحية حاولت نشرها فيها، وابتنت لها بعض الكنائس، ويبدو أنها عملت على نشر لغتها اللاتينية، وقد ظلت حية في بعض الألسنة بعد الفتح الإسلامي - كما سنرى - قرونا طويلة، وسنرى بعض الأمراء الأغالية يتعلمونها، كما تعلمها المعز لدين الله الفاطمي.

وتأخذ الأحوال في روما تسوء، حتى إذا مضينا في القرن الخامس الميلادي زادت سوءاً على سوء، مما جعل أحد ولايتها في إفريقية المسمى بونيفاس يخرج عليها ويستغيث بقبائل الواندال الجرمانية التي كانت قد استولت على إسبانيا، وتقدم تلك القبائل، وتعيث في إفريقية التونسية دمارا وفسادا لمدة مائة عام من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٤ للميلاد، خربت فيها كل - أو أكثر - ما كانت تزدهى به البلاد من أسباب الحضارة والعمران مما أقامه بها الفينيقيون والرومان إلى أن خلاصها منهم القائد البيزنطي بليزير Bélisaire سنة ٥٣٤ للميلاد، وأصبحت إفريقية التونسية - من حينئذ - تابعة لقيصر بيزنطة (القسطنطينية) ويسمى العرب سكان هذه الدولة باسم الروم. وكانت بيزنطة تولى على إفريقية حاكماً عاماً يلقب بالبطريق Patricius مقامه بقرطاجة، وأسندت إليه إصدار الأوامر والإشراف على الموظفين وعلى أداة الحكم والشئون المالية، وكانوا يتبعون سياسة خرقاء ظالمة في فرض الضرائب الفادحة والجبايات والإتاوات الباهظة. ولم تكن بيزنطة - وبالتالي حكامها - بنشر لغتها اليونانية في البلاد على نحو ما عنيت روما وحكامها - من قبل - بنشر اللغة اللاتينية، فلم تكن اليونانية تتجاوز السنة الموظفين والجنود البيزنطيين، وظلت اللاتينية هي اللغة المسيطرة في المدن الإفريقية: في قرطاجة وسوسة وغيرها بسبب ما كان فيها من جاليات رومانية كبيرة.

## الفتح<sup>(١)</sup> - بقية الولاية - الدولة الأغلبية

### (١) الفتح

كان يحكم قرطاجة وإفريقية قبيل الفتح العربي بطريق بيزنطى يسمى جريجوريوس وسماه العرب جرجير، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب على أكبر دُرتين في تاجها: الشام ومصر صمّم على الاستقلال، فخلع طاعة بيزنطة وضرب الدنانير باسمه، وبينما هو غارق في حلمه إذا الجيش العربي الفاتح للشام ومصر يستولى على بركة وطرابلس وتوابعها في سنتي ٢٢-٢٣هـ/٦٤٢-٦٤٣م. ويتوفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويخلفه عثمان بن عفان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويأمره بغزو إفريقية، فيسير إليها في عشرين ألفاً من الصحابة والتابعين يتقدمهم نفر من الصحابة أو من أبناء كبارهم، مثل ابن أبي سرح الصحابي وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن جعفر وعبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، ولذلك سُمى الجيش جيش العبادلة، ووصلت طلائع الجيش إلى إفريقية التونسية في سنة ٢٧هـ/٦٤٧م واستولت على قابس، وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لا بد أن سينازلونه، فانسحب من قرطاجة إلى الداخل محتمياً بحصن أنشأه البيزنطيون إلى الجنوب الغربي من القيروان يسمى سُبَيْطَلَة وجمع إليه جيشاً جراراً من البيزنطيين والبربر، يقال إنه كان مائة ألف، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون وقتل جريجوريوس في المعركة، قتله عبدالله بن الزبير، وفتحت إفريقية التونسية أبواب مدنها لسرايا الجيش العربي الباسل، وأسرع البيزنطيون والبربر في كل مكان إلى طلب الصلح، وصالحهم القائد ابن أبي سرح على مقدار من المال، وكانت الواقعة حاسمة، فلم تقم بعدها لبِيزنطة قائمة، ويقال إن ابن أبي سرح ترك بعد ذلك القطر التونسي وعاد إلى مصر دون أن يولى عليها أحداً وهو قول غير صحيح، لأنه لم يحدث أن العرب في فتوحهم الأولى فتحوا

الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) وتاريخ ابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار والحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب

(١) راجع في الفتح وبقية الولاية والدولة الأغلبية كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وتاريخ الطبرى وابن الأثير وتاريخ إفريقية والمغرب للرفيق القيرواني (قطعة منه طبع تونس) ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجي ورياض النفوس للملكي والبيان المغرب لابن عذارى والقسم

بلدا وفرضوا عليها إتاوات وضرائب وتركوها وانصرفوا، وكأن فتحنا لم يحدث، مما يجعلنا نرجح ما قاله بعض المؤرخين من أنه خلف عليها نافع بن عبد القيس الفهري، وكان يتخذ زويلة التي فتحها في حملة عمرو بن العاص مقرا لحكمه في طرابلس وبعد ضم إفريقية التونسية إليه. ولإقامته في زويلة ظنَّ خطأ أن ابن أبي سرح لم يترك وراءه في إفريقية التونسية عاملا، ويبدو أن الخليفة عثمان بن عفان ولي عليها بأخرة من أيامه سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج السكوني. وتحدث فتنة عثمان فيعود، وتضطرب الأمور في إفريقية كما اضطربت في الولايات الأخرى.

ولما استقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان أرسل إلى إفريقية جيشا عداده عشرة آلاف بقيادة معاوية بن حُديج سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وعلم قيصر ببيزنطة بهذا الجيش فأرسل إلى قرطاجة نجدة بحرية والتحم بها وبمن انضم إليها من البربر معاوية بن حديج وهزمهم هزيمة ساحقة لم يعد البيزنطيون بعدها يقدمون لعون قرطاجة، واستشهد في هذه الغزوة أبو زمعة عبيد الله البلوي الصحابي، وكلف معاوية عبد الله بن الزبير بفتح سوسة ففتحها وفتح عبد الملك بن مروان بنزرت.

وولى معاوية عقبة بن نافع الفهري على إفريقية سنة ٥٠هـ/٦٧٠م وبمجرد وصوله إليها رأى أن الحكم العربي لا يثبت فيها ولا يستقر إلا إذا أنشئت بها مدينة عربية تكون معسكرا للجيش العربي الذي تتغلغل جنوده في إفريقية بحيث تكون دارا لأسرهم وقاعدة لنشر الدين الحنيف ولغته العربية، واختار للمدينة موقعا على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وسماها «القيروان» أى المعسكر، وبدأ فيها بإنشاء الجامع المنسوب إليه في وسطها، وبنى بجواره دار الإمارة، وأحاط بها سورا، وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى وظلت أم المدن في إفريقية قرونا متطاولة في العلم والثقافة وفي التجارة، واستغرقت عمارتها منه خمس سنوات حتى سنة ٥٥هـ/٦٧٤م وأصبحت مركزا لتحركات الجيش الفاتح بعد أن كان مركز تلك التحركات برقة وزويلة. وعزله معاوية وولاهها أبا المهاجر في نفس السنة المذكورة آنفا، ومن أعماله الجليلة فتحة لجزيرة شريك وإدخاله جميع بلاد الجريد في الإسلام، وبالمثل جميع بلاد الجزائر وتغلغل فيها بجيشه إلى تلمسان حيث دارت بينه وبين قبيلة أوربة البرنسية وزعيمها كُسيَلة معركة انتصر فيها وأسر كُسيَلة فعامله معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام واعتنقته معه قبيلة أوربة. ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد فيعيد عقبة بن نافع ثانية واليا على إفريقية سنة ٦٢هـ/٦٨١م واستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان واتجه بجيشه إلى شط الجريد وأذعن له، كما أذعن الزاب في الجزائر ومضى يجاهد في سبيل الله إلى أن وصل إلى البحر المحيط، فأدخل فيه قوائم فرسه ورفع يده إلى السماء قائلا بأعلى صوته: «اللهم إني أشهدك أنى وصلت براية



الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك» وكرّر راجعا بعد أن دوّخ القبائل المغربية ودانت له، وكان قد وُيخ كُسيّلة زعيم قبيلة أوربة في أول ولايته الثانية لوقوفه قديما ضد الإسلام، وأسرها في نفسه هو ومن غضبوا له من البربر الذين لم ينسوا قوميتهم البربرية، وصمّ كسيّلة على الثأر، حتى إذا تقدم عقبة جيشه بالزاب في عودته، وبقي في نفر قليل معه إذا كسيّلة الأثيم يحاصر عقبة مع جمع من الروم ومن قومه سنة ٦٤هـ/٦٨٣م ويهجمون عليه وعلى من معه من أصحابه وكانوا نحو ثلاثمائة، وقتلوهم قتال الأبطال، وتكاثروا عليهم فاستشهدوا جميعا، ودفنوا في نفس المكان -نصر الله وجوهمهم- وأقيم على قبر عقبة مسجد يعرف باسمه، وهو من المزارات الكبرى في المغرب. واتسعت ثورة كُسيّلة، وتبعته جموع غفيرة من البربر دخل بها القيروان، وتراجع الجيش العربي بقيادة زهير بن قيس إلى برقة انتظارا لجيش عربي يقدم عليه للقضاء على تلك الثورة، وتصادف أن ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز كانت قد بدأت وشغل بها مروان بن الحكم حتى إذا أصبحت الخلافة خالصة لعبد الملك بن مروان وهدأت الأمور في المشرق أرسل إلى زهير سنة ٦٩هـ/٦٨٨م جيشا جرارا زحف به زهير إلى كُسيّلة وجموعه، فمزقهم شر ممزق، وقتل كسيّلة وخلق كثير من البربر، واسترجع زهير القيروان وتعقب المنهزمين في الجزائر إلى أن أخرجهم منها، وعاد إلى العاصمة ورتّب شئونها، ورأى أن يعود بعد هذا النصر العظيم إلى المشرق، وبينما هو في نفر قليل من صحبه عند برقة إذا هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين، أسروهم على حين غفلة، فنازلهم وكُتبت له الشهادة عند ربه، ويقول الرقيق القيرواني عنه: «كان زهير من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين».

وولى عبد الملك بعد زهير على إفريقية حسان بن النعمان سنة ٧١هـ/٦٩٠م وكانت لا تزال للروم جالية كبيرة في قرطاجة تتجسّس لبيزنطة وتعيثُ فسادا ضد العرب فحاصر البلدة وفتحها عنوة وأذعن من بها من النصارى، ولم يكد ينصرف عنها حتى تحصنوا بها فعاد إليهم وهدم حصون قرطاجة وأسوارها حتى لا يحميهم منه شيء، وفرّ منها كثيرون إلى البحر المتوسط وما وراءه، وطهر بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم وفرض الجزية على من ظل منهم ومن البربر على دينه المسيحي، واشتعلت في أوائل عهده فتنة في قبيلة جراوة الزناتية بجبال الأوراس في الجزائر تزعمتها امرأة بربرية اسمها «دهيا» وسماها العرب الكاهنة، ونازلها حسان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م ولم يكتب للمسلمين النصر، واضطر حسان إلى التراجع حتى مدينة سرت بليبيا، وظل بها خمس سنوات منتظرا مددا من مصر أو من دمشق، وأتاه في سنة ٨٠هـ/٦٩٩م مدد ضخم فاشتبك مع الكاهنة في معركة عنيفة قتلت فيها سنة ٨١هـ وأسلم ابنان لها فجعلها قائدين لجيش مكون من اثني عشر ألفا من العرب والبربر، وبذلك دعم نظرية

الإسلام في المساواة التامة بين العرب والموالي المسلمين بربراً وغير بربر فلا فرق بين عربي وبربري في جميع الحقوق حتى في قيادة الجيوش. وساد الأمن والنظام المغرب جميعه. واتجه إلى عمارة البلاد فجدد بناء الجامع الأعظم بالقيروان، ورأى بثاقب بصيرته ضرورة أن يكون لإفريقية التونسية ميناء بدلاً من قرطاجة، ولم يلبث أن اختار للميناء موضعاً بجوار قرية تسمى تينس أو ترشيش، وشق إلى البحر المتوسط قناة تدخل إليها السفن وتخرج منها وألحق بالميناء دار صناعة كبرى لإنشاء أسطول ضخم يحمي شواطئ الديار الإفريقية من غارات الروم، وجلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته في إنشاء تلك الدار والأسطول، وسمى الميناء تونس، ولم تلبث تونس أن أصبحت أما كبيرة من أمهات المدن المغربية إلى اليوم، وبنى بها الجامع الكبير المسمى جامع الزيتونة لزيتونة كانت فيه. واستحدث حسان للولاية تنظيمًا إداريًا وماليًا عممه في جميع البلاد المغربية، ونشر العربية في المغرب وجعلها اللغة الرسمية في جميع الدواوين، ونظم الجبايات في المدن ومع رؤساء القبائل، وقسم الأراضي التي كانت ملكاً للدولة البيزنطية بين صغار الفلاحين من البربر، مما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجا نصرة للدين الحنيف. وبكل ما قدمت عن حسان بن النعمان تعد ولايته على إفريقية خاتمة الفتح الذي بدأه عمرو بن العاص سنة ٢٢هـ/٦٤٢م فقد استقر الدين الحنيف في جميع البلدان المغربية واعتنقه المغاربة، لما تحمل تعاليمه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وبربرا وغير بربر.

### (ب) بقية الولاية

ويخلف حسان بن النعمان على المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦هـ/٧٠٥م وكان ماهرا في الإدارة وشئون الحرب وبدأ أعماله بتوجيه حملة إلى جبل زغوان - وأتبعها بحملات أخرى عادت بغنائم وافرة، ثم قام بحملته الكبرى التي اكتسحت المغرب حتى طنجة على المحيط وإقليم السوس في أقصى الجنوب. وأتم التنظيمات الإدارية لبلاد المغرب، إذ قسمه ولايات، وجعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولاته، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة، والمغرب الأوسط عاصمته تلمسان، والمغرب الأدنى عاصمته القيروان، ومدّه شرقا حتى شمل طرابلس وغربا حتى شمل نوامديا (قسنطينة وبجاية) وإقليم الزاب إلى نهر شلف في الجزائر، وجعل برقة ولاية قائمة بنفسها وعاصمتها برقة (المرج منذ القرن السابع الهجري) وأضاف إلى هذه الولايات ولاية جنوبي المغرب الأقصى، هي ولاية السوس الداخلة في الصحراء، وجعل عاصمتها سجلماسة، وولى عليها طارق بن زياد النفاوى البربري، ثم نقله إلى طنجة. وفي سنة ٩١هـ/٧٠٩م عزم على غزو إيبيريا، فأرسل إليها حملة استطلاعية بقيادة طريف، وهو أيضا بربري، فنزل بإيبيريا في موضع يقابل مدينة طنجة، سُمي جزيرة طريف لنزوله فيه، وعاد يحمل إلى موسى أنباء طيبة، فأرسل في السنة التالية طارقاً على رأس حملة كبيرة، وجاءته أنباء

فتوحاته، واستمدّه طارق، فذهب إليه على رأس حملة جديدة أتم بها معه فتح الأندلس. والحملتان الأوليان كانتا تتكونان من العرب والبربر، ونفس قائديهما: طارق وطريف كانا - كما أسلفنا - بربريين وبذلك خطأ بسياسة حسان خطوات، فجعل من البربر ولاة وقواد للجيش. ومنذ عقبة بن نافع كان البربر يشتركون مع العرب في حملاتهم الحربية وجهادهم في سبيل الله، مما يدل - بوضوح - على تغلغل الإسلام في نفوسهم، حتى أصبحوا سريعا من دعائه وحماته، وكانت كثرة جند موسى بن نصير منهم سواء في فتوحه لبقية المغرب حتى ديار السوس أو في فتوحه لإيبيريا.

وعزل سليمان بن عبد الملك قصر النظر موسى بن نصير عن إيبيريا والمغرب جميعا سنة ٧١٤هـ/٧١٧م ويصبح صولجان الخلافة بيد عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ/٧١٧م فيدخل إصلاحا كبيرا على أداة الحكم في الدولة إذ يأمر الولاية بالتسوية المطلقة بين العرب والموالي أو الشعوب المفتوحة في الخراج وجباية الأموال أخذا بتعاليم الدين الحنيف، ويرسل إلى إفريقية عشرة من الفقهاء على رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ويقال إنه أسند إليه الولاية، وكلفهم أن يعملوا على نشر الإسلام، وأسلم على أيديهم أفواج بربرية لا تكاد تحصى فضلا عن أنهم بثوا في الشباب فكرة التفقه في الدين، مما أعد أهل إفريقية التونسية والمغرب ليشاركوا سريعا في الدراسات الدينية.

ولا نكاد نمضي في القرن الثاني الهجري حتى يتوفى الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز، ويتولى بعده الخليفة الطائش يزيد بن عبد الملك، فيعزل ابن أبي المهاجر عن إفريقية ويولي عليها عاملا ظلوما غشوما هو يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج، فقدم إلى القيروان سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م وسرعان ما أخذ البربر بسياسة الحجاج في ظلم موالي السواد في العراق والتفريق بينهم وبين العرب في الخراج، مما يتعارض تعارضا شديدا مع تعاليم الإسلام في رفع الفروق بين المسلمين عربا وموالي، وكأنما عمى يزيد ابن أبي مسلم عن رؤية الفروق الواضحة بين الموالي الفلاحين في سواد دجلة والفرات من جهة والبربر من جهة ثانية، فإن البربر قبل ولايته كانوا قد أصبحوا مع العرب رفقاء سلاح وجهاد، وأتموا معهم فتح بقية البلاد المغربية وإيبيريا، مما جعل البربر - حين طفح الكيل - يجمعون على قتل يزيد بن أبي مسلم الباغي وقتلوه سنة ١٠٣هـ/٧٢١م وتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي، ويُذكر له أنه غزا صقلية سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م وأصاب منها غنائم وافرة، وولى بعده هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وأساء السيرة، فعزله وولّاه سنة ١١٤هـ سفيها كبيرا هو عبيدالله بن الحبحاب، ويُذكر له أنه جدد جامع الزيتونة وعنى بدار الصناعة وغزا أسطوله صقلية، غير أنه كان باغيا طاغيا هو وعماله، فتعسفوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر، وبلغ من سفه

عامله على طنجة عمر بن عبيد الله المرادى أن صرَّح بأنه يريد تخميس أراضى البربر أى أخذ حُمسها للدولة زاعماً أنها فيَّي للعرب وغنائم حرب لهم. وكان الخوارج صفرية وإباضية قد دأبوا منذ ولاية يزيد بن أبى مسلم وما أنزل بالبربر من حيف وعسف في شئون الخراج يدعون لعقيدتهم ومبادئها التى توجب التسوية بين العرب والموالى بربرا وغير بربر فى الشئون المالية ومناصب الدولة حتى منصب الخلافة، فهى ليست حقا لقريش وحدها دون العرب وبقية المسلمين بل هى حق لأكفأ المسلمين جميعا عربا وغير عرب حتى لو كان عبدا حبشيا، ووجد الخوارج فى بلاد المغرب تقبُّلا شديدا لمبادئهم بسبب سياسة ولاة بنى أمية الغاشمين فى القرن الثانى الهجرى، إذ رأى البربر - أو كثير منهم - فيها ما يخلصهم من ظلم الأمويين وعسف ولائهم. وأخذ جبل نُفوسة فى ليبيا يصغى للدعوة الإباضية، وهى دعوة معتدلة إذ تدعو لإمام يحقق العدالة والمساواة المطلقة بين المسلمين عربا وغير عرب، ولا تكفر المسلمين ولا تقتلهم إلا إذا بادروها بالقتال، واستجاب - أو أخذ يستجيب - المغرب الأقصى للصفرية، وهى دعوة متطرفة إذ تكفر المسلمين وتعد دارهم دار حرب، وتزعم دعوتهم بالقرب من طنجة بربرى من قبيلة مضغرة البُتريَّة هو ميسرة، وبايعه البربر وكوَّن منهم جيشا احتلَّ به طنجة، وفتك بعاملها العُشوم عمر بن عبيدالله المرادى، وهُزم ميسرة فى بعض الوقائع، فولت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ ولقيه جيش لابن الحبحاب فى الجزائر على نهر شلف، وهزمه خالد فى معركة عنيفة، سميت معركة الأشراف لكثرة من قُتل بها من أشراف العرب. وعزل هشام بن عبد الملك واليه ابن الحبحاب سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وولى على إفريقية كلثوم بن عياض القشيري يعاونه ابن أخيه بلج بن بشر، ويلتقيان بخالد بن حميد والصفرية جنوبي طنجة وهزمان ويقتل كلثوم، ويضطر بلج إلى العبور إلى الأندلس ببقية الجيش. ويولى هشام على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي، ويقدم إلى القيروان، وسرعان ما يستنفر الصُفريَّة لحره قائدان صفريان: عربى هو عكاشة بن محصن وبربرى هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى، وكانا قد اجتمعا فى الزاب بالجزائر، واتفقا على أن يسير عكاشة مع جيشه فى السهول شمالى جبال الأوراس ليهاجم القيروان من الجنوب ويسير عبد الواحد من ناحية قسنطينة ليهاجم القيروان من الشمال، وعرف حنظلة خطتها، فأسرع بلقاء عكاشة وهزمه هزيمة ساحقة، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان، فاستثار حنظلة فقهاءها، فخرجوا مع جيشه لمنازلته، وخرج معهم نساء القيروان حاملات للسلاح مستبسات للموت مع الجيش، فامتأ الرجال حمية ودارت الدوائر على عبد الواحد وجيشه من الصفرية، وحُمل رأسه إلى حنظلة فخرَّ لله ساجدا.

وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموى سنة ١٢٦ فطمع عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبه بن نافع فى الاستيلاء على ولاية إفريقية وأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م ففكر حنظلة

في حربه، وكان تقياً ورعاً، فكره أن يتقاتل المسلمون، وترك القيروان عائداً إلى المشرق. وصارت الخلافة إلى مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م فأقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية درءاً للانقسامات والفتن بها، ولأنه أعلم بثنونها إذ هي داره ودار جده عقبة بن نافع. ولم تلبث الإباضية أن ثارت بطرابلس سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م بإمامة عبدالله بن مسعود التجيبى فأرسل إليه عبدالرحمن أخاه إلياس، ففضى على ثورته، وبايع الإباضية بعده الحارث بن تليد بالإمامة، واتخذ وزيراً له عبد الجبار بن قيس المرادى، ونازلاً جيوش عبد الرحمن مرارا، واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وبذلك انتهت ثورتها. وفي نفس السنة قضى العباسيون على الدولة الأموية، فأقروا عبدالرحمن بن حبيب في ولايته على القيروان وإفريقية، وسمع بتجمع للصُّفريّة في تلمسان سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م ففاجأهم وهزمهم. وأرسل حملةً إلى صقلية وعادت بغنائم كثيرة، ومن أهم أعماله استيلاؤه على جزيرة قَوْصرة التي تبعد عن تونس نحو ثلاثين ميلاً، واستمرت تابعة للقيروان وإفريقية حتى تنازل عنها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية لفردريك الثاني ملك صقلية سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م. وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث وقتلاه سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م وتولى إلياس وقتله حبيب بن عبد الرحمن، وتولى مكانه، وفي سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ثارت عليه قبيلة ورّفجومة النفازية الصُّفريّة واستولت على القيروان منه واستباحتها، واشتبك معها حبيب سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م وقتلته، وظلت في القيروان تستحلّ المحارم وترتكب العظائم، فامتعض لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السَّمح إمام الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة، فخلّص القيروان منهم سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى، وأرسل المنصور العباسى محمد بن الأشعث والى مصر بجيش جرار إلى إفريقية، فنازل أبا الخطاب في معركة حامية الوطيس قتل فيها، وفرّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب في الجزائر وأسس للإباضية دولة في تيهرت استمرت حتى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م وتولى الأغلب بن سالم التميمى على إفريقية سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وقتل سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م في بعض حروبه، وخلفه عمر بن حفص المهلبى، وكان بطلامغوارا وابتنى بالزاب مدينة طَبنة، وثار عليه إباضية طرابلس بزعامة أبي حاتم وحاصروا القيروان، وخرج إليهم وقتل سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م.

وولى القيروان وإفريقية بعد ابن حفص المهلبى ابن عمه يزيد بن حاتم، وفيه يقول مؤرخ القيروان الرقيق: «كان كثير الشبه بجده المهلب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه، وقلم أظفار الصفرية في الزاب، وانسحبت فلولهم إلى ديار زناتة في الصحراء، كما قلم أظفار الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة وفتك بأبي حاتم الإباضى وصحبه هناك وبذلك ظلت لأهل السنة المنزلة العليا في القيروان وجميع بلاد المغرب. وقد ضبط أمور الدولة بمنتهى الحزم، ومن أعماله تجديده بناء جامع القيروان سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م وترتيبه للأسواق فيها، إذ أفرد لكل صناعة وتجارة

مكانا معيناً. وكان أديباً حفيواً بالشعراء يجزل لهم العطاء، وشدوا إليه الرحال من المشرق، وبذلك أحدث في القيروان حركة أدبية، وكان يعقد لها الندوات في دار الإمارة. ومما يروى من سيرته الزكية أنه رأى يوماً بإحدى ضواحي القيروان غنماً كثيراً فسأل عن صاحبه فقيل له إنه لابنه، فطلبه وعنفه على مزاحمته الرعية في صور التكسب وأمر بذبحها وتوزيعها على الناس. وظل والياً على إفريقية سبعة عشر عاماً حتى توفي سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وولى بعده أخوه روح بن حاتم سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وكان على الهمة عادلاً حسن السيرة، وفي أيامه ظهرت دولة الأدارسة بالمغرب وبويع إمامها الأول إدريس الحسنى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م وأسسوا مدينة فاس واتخذوها عاصمة لهم، وتوفي روح سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م ودفن مع أخيه في قبر واحد. وتولاها بعده نصر بن حبيب المهلبى وكان حسن السيرة، وعزله الرشيد وولى عليها الفضل بن روح، واضطربت عليه الأمور، فولى الرشيد عليها سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م هرثمة بن أعين وكان من كبار قواده وكان حسن السياسة والإدارة، وابتنى رباط المنستير بين سوسة والمهدية لحماية الساحل من غارات نصارى البحر المتوسط، وظلت الأبنية تتسع حوله حتى أصبح مدينة كبيرة في القرن السادس الهجرى. ولم يلبث هرثمة أن أثار العودة إلى المشرق سنة ١٨١هـ/٧٩٧م، وولى عليها الرشيد محمد بن مقاتل العكى ولم تحمد سيرته فعزله.

### (ج) الدولة الأغلبية

كان إبراهيم بن الأغلب التميمى قد ولاه هرثمة على الزاب، فضبطله بحزمه، وأعجب به هرثمة لقوة شخصيته، واستشار الرشيد هرثمة في وال كفاء يوليه إفريقية، فأشار عليه بإبراهيم وامتدحه له، وكانت إفريقية تكلف الدولة العباسية نفقات باهظة بما ترسل إليها من الجيوش، وكان والى مصر يرسل إلى واليها سنويًا مائة ألف دينار، وكان إبراهيم يتطلع لحكم إفريقية - مثل أبيه - وكان الرشيد يأمل في وال يريجه من نفقاتها الباهظة، ولم يجد بأساً من كثرة ثناء هرثمة على إبراهيم بن الأغلب في أن يوليه عليها وسراً إبراهيم، وقال له إننى لن أحتاج إلى ما ترسله مصر لإفريقية من أموال، وأتعهد أن أرسل سنويًا إلى بيت المال ببغداد أربعين ألف دينار، وكأنه وفر للدولة أو تعهد أن يوفر لها مائة وأربعين ألف دينار سنويًا، سوى ما كانت تكلفها الجيوش من أموال ونفقات ضخمة. وكان قد درس في شبابه بمصر وحضر حلقات فقيها: الليث بن سعد، مما أتاح له أن يكون فقيهاً مثل أستاذه، وكان الليث يعجب بتلميذه، مما جعله يهبه جارية، هى جلال زوجة وأم ابنه زيادة الله، وكان شاعراً خطيباً. واقتنع به الرشيد فكتب له العهد بولاية إفريقية سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعلها لعقبه يتوارثونها من بعده. ومن حينئذ بدأت شخصية إفريقية - وخاصة إفريقية التونسية - في الظهور، فقد أصبحت بها دولة مستقلة وإن ظلت تدين بالولاء اسمياً للعباسيين، وأخذت تعمل جاهدة على

النهوض بالبلاد نهضة حضارية قوية. وقد ساس إبراهيم إفريقية سياسة رشيدة، وصمم على أن تكون له قوة عسكرية تحميه هو وأسرته ممن كانوا لا يزالون بالقيروان من الخراسانيين وغيرهم من الجندة وكوثها من ثلاثة عناصر: البربر المستعربة والصقالبة الذين كان يجلبهم تجار الرقيق وزنوج السودان الذين كانت تجلبهم القوافل. وابتنى له ولأهل بيته ضاحية على بعد نحو أربعة كيلو مترات من القيروان، سماها «العباسية» ونقل إليها معسكرات جنده وخزائن السلاح والأموال كما نقل إليها حواشيه واتخذها دار إمارته. وظل يدير دفة هذه الدولة إدارة حازمة ويؤسس بنيانها الشامخ طوال اثني عشر عاما إلى أن توفي سنة ١٩٦هـ/٨١١م ويخلفه ابنه أبو العباس عبدالله، ولم يكن سيوسا ويتوفى سنة ٢٠١هـ/٨١٦م فيخلفه أخوه زيادة الله، وكان من أعلم أهل بيته فصيح اللسان بصيرا بشئون الإدارة والحكم، فثبت سلطان أسرته، وتغلب دائما على خصومه، وشجع العلم والعلماء. ومرّ بنا أن ولاية إفريقية حاولوا غزو صقلية مرارا، وكان زيادة الله عظيم المهمة، فأخذ يعد العدة لفتحها، بادئا ببناء سور حصين حول ثغر سوسة، وبنى بجوارها رباطا لحمايتها وحماية الساحل واتخذها مرساة لأسطول له، وبنى له فيها دار صناعة كبيرة، وأخذ يكثر من قطعه وسفنه، حتى أصبح أقوى أسطول حربي في البحر المتوسط، ويغزو به سردانية سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م ويعود محملا بالغنائم. ويرسل إلى صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جيشا بقيادة الفقيه أسد بن الفرات قاضي القيروان لفتحها، ونزل الجيش بمدينة مازر، والتقى بجموع الصقليين وهزمهم، وأخذ يستولى على حصون ومدن متعددة، وفي حصار سرقوسة شرقي صقلية توفي القائد العظيم أسد بن الفرات، ومضى الجيش في فتوحه. وهو حدث من أعظم الأحداث في تاريخ الأمة العربية، ولزيادة الله وقائده ابن الفرات مجده وشرفه. ويدل أكبر الدلالة على قوة هذا الأسطول الأغلبى الفاتح لصقلية أن نجد أهل مدينة نابولي في إيطاليا يستنجدون بزيادة الله ضد أعدائهم المجاورين لهم من الفرنج سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م وينجدهم الأسطول وتظل نابولي بأيدي جنوده وبحارته زمنا غير قليل. وجدّد زيادة الله بناء جامع عقبة في القيروان ولبيّ نداء ربه سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م وخلفه أخوه الأغلب، وفي عهده فتح الجيش أكثر ما بقى من صقلية سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م وتمكن الأسطول من الاستيلاء على مدينة بارى شرقي إيطاليا سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م واتخذها قاعدة حربية ومرساة لسفنه في البحر الإدرىاتي، ويتوفى سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م ويتولى مقاليد الحكم أخوه أبو العباس محمد، وفي أيامه أغارت بغتة سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م بعض سفن إيطالية على شواطئ الساحل ونهبت بعض أقوات السكان وأسرت عددا منهم، ساقتهم إلى إيطاليا عبيدا أرقاء وباعتهم في الأسواق، وغضب الأمير الأغلبى محمد حمية لمواطنيه، فأمر الأسطول بخروج قطع منه لغزو إيطاليا وأرست عند مصب نهر تيبير المنحدر من جهة روما، وانتشر جنودها في ضواحي روما واقتحموها عنوة واستولوا على بعض ما في كنيسة الكبرى من تحف، وظلوا يترددون عليها

وعلى أنحائها نحواً من شهرين، وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى، ويتوفى الأمير محمد سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ويتولى ابن أخيه أحمد وفي أيامه استولى المسلمون في صقلية على مدينة قصر يانّة المنيعة سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وأعاد بناء جامع تونس وزينه بقباب ونقوش وأعمدة رخام بديعة كما زين جامع عقبة في القيروان بقبة خارجة عن البهو ومحراب رخام مزودين بالنقوش، وبنى الماجل (الصهرنج) الكبير بالقيروان وماجل سوسة، وتوفى سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وخلفه ابنه زيادة الله الثاني، ودار العام، فتوفى، وتولى بعده ابن أخيه أبو الغرائيق سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م وفي عهده فتح الأسطول سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م جزيرة مالطة وظلت تابعة للقيروان نحو قرنين ونصف حتى استولى عليها روجار الأول ملك صقلية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ويتوفى أبو الغرائيق سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م ويخلفه أخوه إبراهيم وفي أيامه فتحت سرقوسة آخر معاقل الروم في صقلية سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م. وفي نفس السنة بنى مدينة رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبي القيروان، ونقل إليها أهل بيته ودار إمارته ورجال دولته وجنده، ويعد عهده من أزهى العهود علماً وحضارة في الدولة الأغلبية إذ بنى في عاصمته: رقادة بيت حكمة كبيت هرون الرشيد والمأمون في بغداد، وجلب إليه طائفة بارعة من العلماء أطباء ورياضيين وفلكيين وموسيقيين وألحق به مكتبة ضخمة، فتح أبوابها للطلاب والقصاص. وبعث بذلك في إفريقية التونسية نهضة علمية وثقافية واسعة. وأنشأ إبراهيم محارس ورباطات كثيرة على الساحل واستحدث فيها نظام إشارات بالأضواء ترسل تواتراً من رباط إلى رباط عند حدوث أى هجوم، بحيث إذا حدثت أى غارة بحرية للأعداء في أى بقعة على الساحل علمت بذلك في الحال جميع الرباطات والمحارس. وأصيب في أواخر ولايته بمرض السوداء، مما جعله يسفك دم كثيرين من أقاربه، وعلمت بذلك الدولة العباسية فأرسلت إليه سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م أن يعفى نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه عبد الله. وصدع لهذا الأمر، وسلم صولجان الحكم لابنه، وكأنما أراد أن يكفر عما صنع من سفك الدماء فرأى أن يمضى بقية حياته في الجهاد، وأعدّ أسطوله إعداداً كبيراً لغزو إيطاليا في نفس السنة، وعبر به مضيق مسينا قاصداً قَلْوَرِيَّةَ وأرض إيطاليا الجنوبية، واستولى على عدد من الحصون الإيطالية في الجنوب غير أن الموت باغته، فعاد به الأسطول إلى بالرم في صقلية ودُفن بها، ونقل ابنه عبد الله رفاتة إلى القيروان. وكان عبد الله على جانب كبير من التقوى والصلاح وكتب إلى عماله بالرفق في معاملة الرعية، وتوفى سريعاً سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م. وخلفه ابنه أبو مضر زيادة الله، وكان أبو عبد الله الصنعاني داعية عبيد الله الفاطمي قد نشر دعوته الإسماعيلية الفاطمية في كُتامة بالجزائر، ودخل في دعوته كثيرون، فكُون منهم جيشاً قضى به على دولة تيهرت الإباضية، وتقدم بجموعه من الجزائر قاصداً القيروان ولقيه جيش أغلبي في قرية الأُرْس، فهزمه، وأحس أبو مضر زيادة الله الأغلبى أنه لن يستطيع الصمود لأبني عبد الله الصنعاني داعية الفاطميين، فخرج عن ملكه فاراً إلى المشرق وتردّد بين مصر والشام في



انتظار نجدة من العباسيين، ووافاه الأجل بمدينة الرملة في فلسطين. وهكذا انتهت في إفريقية التونسية دولة الأغالبة التي استطاعت في نحو مائة عام أن تنهض بها نهضة حضارية ثقافية كبرى، كما استطاعت أن تكون لإفريقية وللعرب أكبر أسطول في البحر المتوسط لزمانها، ومن أعمالها المجيدة فتح صقلية ومالطة وتعريبها ونشر الإسلام بها آمادا طويلة إلى أن استولى عليها النورمان.

## ٤

### الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأعرابية

#### (أ) الدولة<sup>(١)</sup> العبيدية

كان أبو عبد الله الصنعاني قد تعرف على جماعة من قبيلة كُتامة الجزائرية في الحج وقدم معهم إلى ديارهم، وكان لسنا جدلا، فأعجب من اجتمعوا حوله من هذه القبيلة، ولما اطمان لهم أخذ يعلن بينهم أن آل البيت هم الأحق بإمامة المسلمين وخلافتهم، ودعا للرُضا المعصوم المستتر منهم صاحب الزمان، وأخذ المستجيبون له يتكاثرون ودخلت كُتامة في دعوته وطاعته فأخذ ينظمها تنظيما عسكريا، وزحف بها - كما أسلفنا - إلى إفريقية التونسية وهزم جيش الأغالبة في الأربس، وتقدم إلى القيروان ودخلها بجنوده واستولى على دواوينها وخزائنها، وكان قد أرسل إلى عبيد الله المهدي إمامه يستقدمه من سلمية في سوريا مقر الدعوة الإسماعيلية. وخوفا من ولاة العباسيين اتجه به رفاقه إلى سجلماسة مركز الصفرية في المغرب الأقصى فسجنه صاحبها، وخلصه أبو عبد الله الصنعاني، وقدم به إلى القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وسلمه مقاليد الحكم. وسمى المؤرخون دولته باسم الدولة العبيدية تمييزا لها في إفريقية من دولة أحفاده بمصر التي لقبوها باسم الدولة الفاطمية. وبايع أهل القيروان عبيد الله وتلقب بأمر المؤمنين. ويبدو أنه أحس في أبي عبد الله الصنعاني ندمه على ما أولاه من الخلافة والملك فبادر إلى سفك دمه على نحو ما صنع قديما المنصور العباسي بأبي مسلم الخراساني داعيتهم، وبين المؤرخين خلاف في نسب عبيد الله المهدي إلى البيت الفاطمي وهل هو علوي حقيقة أو غير علوي، وصحح نسبه

(١) الأبار وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب.

(١) انظر في الدولة العبيدية بتونس البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجي والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب وسيرة الأستاذ جوذر والحلة السيرة لابن

ابن خلدون. وأخذ يصرف الأمور في الدولة، وقرب منه قبيلة صنهاجة الجزائرية وأرسل زعيمها مصالة على رأس جيش إلى المغربين الأوسط والأقصى واستطاع الاستيلاء على مدينة فاس من الأدارسة الحسينيين. وأخذ دعاته يحاولون إقناع فقهاء السنة بمبادئ الدعوة الفاطمية وعقدوا لذلك مجالس تجرّد لهم فيها كبار الفقهاء في القيروان وناظرهم مناظرات حامية مبينين ما في الدعوة العبيدية الإسماعيلية من مبادئ تخالف الإسلام من مثل تقديس الخليفة العبيدي وأدعاء أنه الصورة المجسّدة لله في الأرض وأنه معصوم وأنه يعلم الغيب إلى غير ذلك مما كان يزعمه دعاة عبيد الله المهدي، وشعر أن القيروان ليست - بفقهاؤها وشيوخها - دار أمن له ولأسرته، فرأى أن يختار موزعا على الساحل لمدينة جديدة له، واختار رأسا بارزا بين سوسة وصفاقس، وأخذ منذ سنة ٣٠٣ يؤسسها، وتم له تأسيسها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وسماها المهديّة نسبة إليه ونقل إليها آلّه وجنده ودواوينه وأمواله واتخذها مقر حكمه. وكانت قد عصت عليه صقلية فردّها إلى طاعته وولّى عليها أحد عماله، كما كانت قد عصت عليه طرابلس وشبت بها ثورة إباضية، فردّها ابنه وولّى عهده القائم إلى الطاعة وأغرّمها ثلاثمائة ألف دينار، ومضى القائم في حملة إلى الإسكندرية والفيوم وعاد دون طائل، وفي سنة ٣١٥ خرج القائم إلى المغرب الأوسط وبنى مدينة المحمدية (المسيلة). وتوفى عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م وخلفه ابنه القائم، واهتم - مثل أبيه - بالأسطول وبعث على بعض قطعه وسفنه يعقوب بن إسحق فغزا جنوة وكرسিকা وسردانيه، وعاد بغنائم وافرة، وثار عليه سنة ٣٢٦هـ/٩٣٣م أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي من الصُفريّة النُّكاريّة الذين يستحلون سفك الدماء، وتبعه خلق كثير، وفي سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م زحف إلى إفريقية التونسية، واستولى على تبسة والأربس وباجة وتونس ورّقادة بجوار القيروان وعلى القيروان نفسها وحاصر المهديّة واستولى على سوسة، وتوفى القائم في أثناء ذلك سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وخلفه ابنه المنصور واستنجد بقبيلة صنهاجة، فجاءته وفكت عن المهديّة الحصار، وأرسل أسطوله إلى سوسة ونصرها ضد أبي يزيد واستبيح معسكره نهباً وإحراقاً واتجه إلى القيروان فمنعه أهلها من دخولها وظل المنصور يتعقبه، وظفر به في أرض كتامة بالجزائر في أول سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م. وأنشأ المنصور - ابتهاجاً بانتصاره عليه - مدينة بالقرب من القيروان سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م سماها «المنصورية». وولّى على صقلية ابن أبي الحسين الكلبي، وظلت إمارتها لعقبة حقبة طويلة. وتوفى سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م وخلفه ابنه المعز، وفي سنتي ٣٤٧ و ٣٤٨ دوّخ قائده جوهر الصقلي البلاد المغربية إلى المحيط، ودان له المغرب الأوسط (الجزائر) والأقصى. وبلغ المعز اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الإخشيدي ولانتشغال بغداد عنها بما كان بها من الفتن، فأرسل إليها قائده جوهر الصقلي في جيش جرار سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م فدخلها حتى الفسطاط دون مقاومة تذكر، وخطب جوهر في الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص بالفسطاط باسم المعز، وأقام بمصر الدعوة الفاطمية وأخذ في بناء

القاهرة، واستولى عسكره على الرملة وبعض بلدان الشام . وأرسل إلى المعز يحثه على القدوم إلى مصر فعزم المعز على المسير إليها، ورتب شئون الدولة في إفريقية، ورحل في موكب ضخم في شوال سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ونزل القاهرة التي بناها له جوهر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م وظلت مقر خلافته وخلافة الفاطميين من بعده إلى نهاية دولته، وكان محظوظا إذ أظلت خلافته البلاد العربية من الشام إلى السوس الأقصى.

### (ب) الدولة الصنهاجية<sup>(١)</sup>

لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر ونقل خلافتهم إليها فكر فيمن يوليه على إفريقية، وكانت قبيلة صنهاجة البربرية قد أيدت دعوتهم بزعامة شيخها زيرى في حرب الثائر الصُفري مخلد بن كيداد، وكان لزيرى اليد الكبرى في هزيمة مخلد وإنقاذ المهدي والقيروان منه وكافأه الخليفة المنصور على ذلك بتوليته على المنطقة الغربية في الجزائر، وفيها أسس مدينة أشير ودفع ابنه بلكين إلى تأسيس ثلاث مدن: الجزائر ومليانة جنوبي شرشال والمدية إلى الجنوب منها، وكان بلكين ذا بأس وحزم وشجاعة ونجدة مع إخلاصه للعقيدة العبيدية وتفانيه في نصرتها، فرأى المعز أن يُنيبه عنه في إفريقية، وأنزله القيروان وكناه أبا الفتح يوسف، ولم يجعل له ولاية على طرابلس وصقلية، وكان حريا أن يضيف إليه صقلية خاصة لأنها بعيدة عن مصر ولن يستطيع نجدها سريعاً لا هو ولا عقبه، وأيضاً فإنها تُعدّ امتداداً لإفريقية التونسية في البحر المتوسط وهى التي فتحتها وأدخلت بها سكانها والإسلام وحضارته فكان ينبغي أن يتركها لبلكين. وكان بلكين ثاقب البصيرة، فأخذ يعمل على إقامة دولة بربرية إسلامية في الديار المغربية، وهى أول مرة في التاريخ الإسلامى يتاح لبربرى من صميم أهل المغرب تأسيس دولة مغربية إسلامية، وكان الأمويون في الأندلس يثيرون أهل فاس والمغرب الأقصى على العبيديين واليهيم بلكين، فقاد جيشاً سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م لتأديب الخارجين على الدولة هناك، ودخل فاسا كما دخل أصيلا على المحيط الأطلسى. وتوفى سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م وخلفه في ولايته ابنه المنصور ونشبت حروب بينه وبين أعمامه، وانهمزوا ولحق بعضهم بالأندلس واتفق لهم - في عهد الطوائف - أن أسسوا لهم مملكة بغرناطة، واشتبك في حروب طويلة مع قبيلة زناتة، وأنهكتهم الحروب معها ومع أعمامه، فرأى أن ينسحب جنوده من المغرب الأقصى حتى يضع نهاية للحروب المستمرة مع زناتة، وقصر إمارته على إفريقية التونسية والجزء الشرقى من الجزائر حتى

وابن خلدون ومعالم الإيمان في معرفة أهل القيروان  
للدباغ وابن ناجي.

(١) راجع في تاريخ الدولة الصنهاجية البيان  
المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب  
أعمال الاعلام لابن الخطيب وتاريخ ابن الأثير

الزاب ووادي نهر شلف، وكانت جاءت هدية ثمينة من الخليفة الفاطمي بها قبيلة وزرافات تبارى الشعراء القيروانيون في وصفها، وتوفي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وخلفه ابنه باديس أبو مناد، ولما جاء تقليد الخليفة الفاطمي له أمور إفريقية سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م أقام بالمهدية موكبا استعرض فيه الجنود وسفن الأسطول وقذف النفاطون بالنار، ولعبت بين يديه القبيلة والزرافات وإبل شديدة البياض. واستقرت له الأمور في إفريقية التونسية، وثار عليه قبيلة زناته في المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م فسير إليها جيشا جرارا وجعل عمه حمادا قائده، وله ملك ما يفتحه، وانتصر عليهم، وعاد إلى قسنطينة، وأسس لنفسه قلعة حصينة نسبت إليه باسم قلعة بني حماد، وجعلها قاعدة لحكمه ومركزا لجيشه، ويبدو أن باديس ندم على ما تعهد به لعمه أن يمتلك ما يفتحه، فطلب إليه التنازل عنه، وأبى حماد، ونشبت بينها حروب كادت ترجح فيها كفة باديس، غير أن الموت عاجله - وهو يوشك على النصر - في المحمدية بالجزائر سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م.

وتولى المعز بعد أبيه باديس وكان في الثامنة من عمره فقام بشئون الدولة كبار رجالها وأعمامه ماعدا حمادا فإنه ظل مصما على الاستقلال بقلعته عن القيروان وابن أخيه المعز، واستولى على بعض مدن في الزاب، ونازله جيش للمعز سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م وهزمه فتقدم يطلب الصلح مع المعز حقنا للدماء على أن يظل مواليا له مع تمتعه بالاستقلال في قلعته ومنطقته. وانقسمت بذلك دولة صنهاجة إلى إمارة شرقية عاصمتها القيروان وإمارة غربية عاصمتها قلعة بني حماد، وبلغ المعز سن الرشد وكان يحسن تدبير الحكم فنبه ذكره وعلت شهرته وهادته الملوك على تنائى الديار، إذ جاءت هدية من السودان تحمل إليه عبيدا وزرافات وأسودا، وجاءته هدية من قيصر القسطنطينية، وجاءه تقليد من الخليفة الفاطمي بلقب شرف الدولة. وكان الشعب حانقا على العقيدة العبيدية لمبادئها المنحرفة عن روح الإسلام، وأخذت تنشب في القيروان ثورات على أتباع تلك العقيدة، فتابع المعز شعبه، وخلع طاعة الفاطميين في القاهرة، وحمل جميع رعيته على مذهب الإمام مالك الذي ارتضته المغرب وفقهاؤها منذ القرن الثاني الهجري، حتى إذا وافت سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م كشف القناع عن وجهه وأمر بقطع اسم خلفاء القاهرة الفاطميين من خطب الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسي في بغداد. وبذلك تطهر المغرب على يده من المذهب الشيعي الاسماعيلي الفاطمي. وحين جاءت هذه الأنباء الخليفة الفاطمي امتلا غيظا وموجدة، ففرض عليه أحد وزرائه المسمى باسم اليازوري أن يتخلص من جموع نجدية بدوية نزلت بشرقى النيل في الصعيد وأخذت تعيث فيه فسادا بدفعها إلى المغرب لضرب المعز بن باديس والقضاء على سلطانه ونفوذه، ولقى هذا العرض استحسانا من المستنصر، وأقبلت جموع هؤلاء الأعراب - وكانت تقدر بمئات الألوف - على ليبيا وإفريقية التونسية وواقعت المعز، وهزمته، واضطرته إلى إخلاء القيروان والانتقال إلى المهديّة - وكان عاملها ابنه تميم - فانتقل

بأهله وحاشيته إلى تلك المدينة، وظل بها إلى وفاته سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ودفن برباط المستير مع آبائه، وقد بلغت القيروان وإفريقية التونسية في عهده كل ما كان يأمله أهلها من تقدم في المدنية والحضارة والعلوم، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، كما ازدهرت النهضة الأدبية وتكاثر الشعراء كثرة مفرطة مما سنعرض له في غير هذا الموضوع. واستخلف على الدولة بعده ابنه تيمياً وانكشمت الدولة إذ لم يعد يتبع تيمياً منها إلا جزء من ساحل البحر المتوسط بين سوسة وقابس، وكان عالماً وشاعراً ومثالا للحاكم العربي الصلب وفي عهده أغار أسطول جنوى من ثلاثمائة سفينة على المهديّة سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ولم يلبث أن انصرف لشدة مقاومته وأغارت بعده ثلاث وعشرون سفينة إيطالية فهزم بحارتها وقتل كثيرين منهم وعادوا مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه. وفي أيامه استولى النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م على جزيرة صقلية وفي السنة التالية على جزيرة مالطة، ولم يكن يشاغب تيمياً أساطيل الغرب وقراصنته فحسب، فقد كان يشاغبه الأعراب المهاجرون إلى إفريقية التونسية، وظل صامدا على الرغم من قلة جنده وقلة موارده إلى أن توفي سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. وخلفه ابنه يحيى، وكان محبوباً من الرعية، وأنشأ أسطولا كبيراً غزا به جنوة وسردانية وعاد بأموال وغنائم وافرة وتوفي سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م وولى بعده ابنه على وقد أنشأ في عاصمته مدرسة للكيمياء عهد بها إلى الكيميائي الأندلسي أمية بن أبي الصلت ونابزه أحمد بن خراسان أمير تونس، فأرسل إليه جيشاً اضطره إلى إعلان الطاعة، وتوفي سنة ٥١٥هـ/١١٢١م وخلفه ابنه الحسن في الثانية عشرة من عمره، وفي أوائل عهده سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م هاجم أسطول نورمانى المهديّة، ولقيهم جنود الحسن وأنزلوا بهم مقتلة عظيمة، وعادوا خاسئين مدحورين. وأعد رجار الثانى أسطولا ضخماً مكوناً من ثلاثمائة سفينة وهجم به على المهديّة، ورأى الحسن أن لا طاقة لجنده القليلين ببقائه فانسحب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م من المهديّة حقناً للدماء، واستغاث بعبد المؤمن بن على أمير دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وكان النورمان قد احتلوا المهديّة فخلصها منهم سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وولى عليها الحسن بن على الصنهاجى وأشرك معه عاملاً من الموحدين، وبذلك انتهت الدولة الصنهاجية من إفريقية التونسية بعد ما أدى حكامها الأولون والأخرون من أعمال ومآثر جليلة.

### (ج) الهجرة<sup>(١)</sup> الأعرابية

أعلن المعز بن باديس استقلاله بالقطر التونسي عن الدولة الفاطمية بمصر، وأسقط اسم الخليفة الفاطمي المستنصر من خطب الجمعة، وأمر الخطباء أن يذكروا الخليفة العباسي القائم

(١) خير مصدر فصل القول في هذه الهجرة ابن

خلدون في الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق).

بأمر الله على المنابر، وجاءه منه تقليد يعترف له فيه بالاستقلال، وعلم بذلك كله المستنصر الفاطمي فاستشار وزراءه ماذا يصنع، وتقدم منه وزيره اليازوري. ذاكرا له أن خير تأديب للمعز يردعه أن نطلق عليه الأعراب البدو من قبائل سليم وهلال وزغبة ورياح الذين نزلوا في قفار الصعيد بين النيل وزروعه والبحر الأحمر، والذين يشكو الفلاحون المصريون من غاراتهم، فنكون قد تخلصنا منهم، وانتقمنا بهم من المعز وصنيعه. واستصوب المستنصر رأيه ومشورته، فاستدعى شيوخ هذه القبائل وعرض عليهم الهجرة إلى بلاد المغرب، ووعدهم أن يوليهم أعمالها، ومنح الشيوخ أعطيات كبيرة، ومنح كل أعرابي من عامتهم بعيرا ودينارا، وقال لهم المستنصر: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي» وكانوا يعدون بثبات الألو، فانصبوا على المغرب كسيل جارف، وبدأوا بأرض برقة وطرابلس فاستولوا عليها، وتقدموا فاحتلوا مدينة قابس، وحاول المعز بن باديس إيقاف هذا الطوفان المنهم على بلاده، فالتقى بجموعهم في موضع يسمى «حيدران» بين قابس وصفاقس ولكنه هزم وانسحب مع فلول جنده إلى القيروان. ورأى خطأ أن يستقدم بعض شيوخهم إلى القيروان ويزوجهم من كريماته، زُلفى لهم وقرى، ونصح ابنه تميم أن لا يستدعيهم، ولم يستمع لنصيحته، وجاءه وانتهبت جماعاتهم القيروان، واضطر إلى الانسحاب والالتجاء إلى المهديّة لحصانة قلاعها وأسوارها وكان قد ولّى تيميا عليها، فاتخذها قاعدة لما بقي من ملكة منذ سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. ولم يقض هؤلاء الأعراب المهاجرون على دولة المعز بن باديس وسلطانه فحسب، بل لقد قضا على كثير من الزروع والمنشآت وأحدثوا كثيرا من الاضطراب والفوضى، ووقفوا - إلى حين - النهضة الحضارية التي كان قد بثّها الأغالية في البلاد ونمتها الدولة الصنهاجية، وليس ذلك أيضا فحسب، فقد تحولوا بإفريقية التونسية من نظام الوحدة السياسية إلى نظام التفرق والتشتت، فلم تعد لها دولة واحدة منظمة ترعى مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولا متفرقة أو قل وحدات صغرى من الدول، على نحو ما كان يعيش هؤلاء البدو في قبائلهم من انقسامها إلى عشائر، وكما أن لكل عشيرة شيخها وحياتها المستقلة، كذلك أصبحت إفريقية التونسية إفريقيات وتحولت مدنها إقطاعيات وإمارات لنحو مائة عام ويلاحظ ذلك ابن خلدون قائلا: «لما تغلب العرب على إفريقية وانحلّ نظام الدولة الصنهاجية وانتحل المعز بن باديس من القيروان إلى المهديّة انتزى الثوار في البلاد» وكوّن كل ثائر في بلد دولة أو إمارة صغرى وراثية. وهكذا تأسس في البلاد - على هدى نظام العشائر المتفرقة - نظام أمراء الطوائف، ولكل أمير بلده أو إقطاعيته، وهو غالبا أمير أعرابي ورثت عنه أسرته إمارته، ونذكر من أهمهم: بنى الورد من لحم في بنزرت، وبنى جامع من بنى هلال في قابس، وبنجانهم أمراء بربريون مثل بنى الرند من مغراوة الزنانية بقفصة وبنى مليل من برغواطة بصفاقس، ومن أهم هذه الامارات الصغرى إمارة تونس وكانت لبني خراسان. وبدون ريب أضعف هذا التفتت إفريقية التونسية، مما جعل

النورمان- كما مرَّ بنا آنفا- يغزون المهديّة سنة ٥١٧ ويعيدون الكرة سنة ٥٤٣ بقيادة روجار الثاني ويظنون بها نحو اثني عشر عاما ويستولون على ساحل إفريقية التونسية الشرقي ومدنه: قابس وصفاقس والمنستير وسوسة، وينزل روجار في قصور المهديّة الشاخنة، ويتخذ فيها دواوين لحكم تلك المدن وإدارتها إلى أن خلصتها دولة الموحدين سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م. وكل ما حدث من ذلك إنما كان بسبب هجرة الأعراب الكبيرة إلى إفريقية وما نشأ عنها من تفتت قواها في عهد إماراتها أو دولها الصغرى، فإذا روجار الثاني ملك صقلية يغزوها ولا يجد على أسوارها من كانوا يحمونها ويسحقون أعداءها سحقا.

## ٥

دولة<sup>(١)</sup> الموحدين - الدولة الحفصية

## (أ) دولة الموحدين

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت المصلح الديني المغربي الذي زار المشرق وتلمذ فيه على الأشعرية وغيرهم، ورجع إلى المغرب، فنظم فيه ثورة واسعة ضد دولة المرابطين المغربية وفقهائهم المالكية، وتبعه كثيرون، وسُمي جمهورهم باسم الموحدين، وإليهم نُسبت الدولة. وبدأ منازلة المرابطين سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م غير أنه توفي سريعا فخلفه عبد المؤمن بن علي وهو يعد المؤسس الحقيقي لتلك الدولة، وقد استطاع القضاء على دولة المرابطين وأخذ يتملك الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وذكرنا - آنفا - أن الحسن بن علي آخر أمراء الدولة الصنهاجية استنجد به حين استولى منه روجار الثاني على المهديّة وساحل إفريقية التونسية الشرقي، وما إن علم بجلية الأمر حتى امتلأ غيظا ولباه بجيش جرار سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ومضى يفتح مدن المغرب الأوسط. الجزائر وبجاية وقسنطينة وبعض مدن إفريقية التونسية، وكان بنو خراسان يحكمون تونس ففتحها عنوة سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م ورافقه في هذه الرحلة أسطول كبير، وتقدم إلى المهديّة وحاصرها بجنوده برا وبأسطوله بحرا، وطال الحصار إلى ستة أشهر، واحتلها عبد المؤمن يوم عاشوراء سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وأقطعها الأمير الحسن بن علي الصنهاجي وأشرك في حكمها أحد الموحدين. ونقل عبد المؤمن عاصمة إفريقية التونسية منها إلى مدينة

(١) انظر في دولة الموحدين البيان المغرب والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة والمعجب للمراكشي وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي وأعمال

الأعلام لابن الخطيب والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للتناصري وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبدا لله عنان.

تونس، وتظل عاصمة للبلاد إلى اليوم ويقوم فيها دواوين الحكم، ويطبق فيها وفي ولايتها ما اتخذته في دولته بالمغرب من التراتيب المخزنية في تنظيم المصالح الحكومية وظلت هذه التراتيب قائمة إلى نهاية حكم الدولة الحفصية، ويتوفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م ويخلفه ابنه يوسف وتظل إفريقية التونسية هادئة لعهد حتى إذا كانت سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ثار عليه بنو الرُّند في قفصة بشط الجريد فخرج إليهم وتغلب سريعاً عليهم، وعاد إلى عاصمته: مراكش وتوفى سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب وكان من وزرائه الشيخ عبد الواحد جد الحفصيين، وكان تقي الدين بن أحي صلاح الدين الأيوبي فكر في الاستيلاء على ليبيا وإفريقية التونسية للاستعانة بهما في حرب الصليبيين، وكلف بهذه المهمة قراقوش وابن قراتكين، واستولى الأول على مدينة قابس واستولى الثاني على مدينة قفصة، وفي هذه الأثناء فكر بنو غانية ولاة المرابطين في جزر ميورقة ومنورقة ويابسة أن يثأروا لدولتهم من الموحدين، وتسلسل منهم إلى إفريقية التونسية على وأخوه يحيى يريدان أن يقيميا فيها دولة ويعدّاً جيشاً للانقضاض على الموحدين. وعلم يعقوب بما يحدث في إفريقية التونسية فخرج إليها في جيش جرار سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وظل طوال طريقه يبني في سائر أعماله المارستانات للمرضى والمساجد للمصلين وانقض على قفصة وقتل ابن قراتكين كما انقض على قابس ولم يجد بها قراقوش واستولى على أمواله وأهله مما اضطره إلى إعلان طاعته، أما ابنا غانية فحين علما بمقدم يعقوب انسحبا إلى شط الجريد وفيه لقي على مصرعه سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. وعاد يعقوب إلى عاصمته، وأخذ ينهك في الإعداد لموقعة الأرك التي سحق فيها سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م ملك قشتالة ألفونس الثامن ومن تجمع له من حملة الصليب الهولنديين والإنجليز، وازداد حينئذ عيث يحيى بن غانية واستولى على شط الجريد والقيروان وطرابلس وقابس وصفاقس وتونس، وتوفى يعقوب سلطان الموحدين سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م وتولى ابنه الناصر وظل يفكر في شأن يحيى ورأى أن يرسل حملة بحرية كبرى إلى أخيه عبد الله في جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) حتى يجتث جذور جرثومة الفساد واستولى عليها أسطوله سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وصمم بعد ذلك على قطع فروع الجرثومة في إفريقية التونسية واستئصال يحيى بن غانية، فخرج في جيش جرار ومعه وزيره أبو محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م وأوقع بيحيى هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة قابس، واسترجع مدينة المهديّة وغيرها من المدن التونسية، وعاد إلى مراكش سنة ٦٠٣ واستخلف أبا محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص على تونس (إفريقية التونسية) وطرابلس، وأخذ زمام الأمور بها يتجمع ويستقر في يده ويد أبنائه، وكأنما كان حكمه لتونس وطرابلس تمهيدا قويا لقيام الدولة الحفصية، وقد نازل يحيى بن غانية في نواحي طرابلس وهزمه وفرّ جريحا.



(ب) الدولة<sup>(١)</sup> الحفصية

استقام حكم عبد الواحد في تونس وطرابلس وأحبه الناس وعظّموه إلى أن توفي سنة ٦١٨ هـ/١٢٢١ م وخلفه ابنه عبدالرحمن، وعزله سريعا سلطان الموحدين وولى أخاه عبدالله، فعهد لأخيه أبي زكريا يحيى بحكم قابس سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م ولم يلبث أن غضب عليه ونهض لحربه، وخالفه بعض القواد، والتحقوا بجيش يحيى وتمت له الغلبة على أخيه، فدخل تونس سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٧ م وبايعته بمجرد دخوله، وأخذ يعمل على الاستقلال بولايته وكان مما حفزه على ذلك أن أبناء سلطان الموحدين يعقوب العظيم صاحب موقعة الأرك وأبناء عمومته أخذوا يتصارعون على الملك والحكم وأخذت دولة الموحدين تضعف ضعفا شديدا وسرعان ما قطع أبو زكريا اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة وجعلها باسمه سنة ٦٢٧ هـ/١٢٢٩ م وبذلك أعلن قيام دولته الحفصية واستقلاله نهائيا عن دولة الموحدين. وفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م وقع مع فريدريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - تفاديا لغارات أسطوله على ساحل تونس - معاهدة اعترف فيها بتملك فريدريك لجزيرة قوصرة (بنظارية) بعد أن ظلت تابعة لإفريقية التونسية خمسة قرون وكان من شروط المعاهدة أن تظل الدولة الحفصية تأخذ نصف جبايتها وظل هذا الشرط ساريا طوال حياة أبي زكريا، وبمجرد وفاته انتقض هذا الشرط وأجبر المسلمون فيها وفي مالطة وصقلية على الخروج منها جميعا إلى العدو الإفريقية، ومن بقى أجبر على اعتناق النصرانية. وظل أبو زكريا يتعقب يحيى بن غانية حتى توفي في برية تلمسان سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٣ م. وفي سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م بايعت تونس أبا زكريا ثانية، ويقال إنه أعلن حينئذ قطع اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة أو خليفتهم وذكر اسمه فيها. وكان بدء قيام الدولة الحفصية إنما كان في سنة ٦٣٤ هـ والرأى الأول أكثر سدادا.

وتعاظمت حملات نصارى الإسبان ضد عرب الأندلس وأخذت مدنهم الكبرى تسقط في

وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني  
عبدالوهاب وكتابه ورفقات عن الحضارة العربية  
وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي لروباربر نشفيك  
وراجع فيه خاصة علاقات حكام الدولة الحفصية مع  
أمراء وحكام صقلية وموانئ إيطاليا وفرنسا  
وإسبانيا.

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لابن  
عذارى وتاريخ ابن خلدون ومعالم الإيمان للدباغ  
وابن ناجي والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن  
أبي دينار ورحلة التجاني ورحلة العبدري والفارسية  
في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ والحلل  
السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج

حجورهم فأرسل إليه زيان بن مردنیش صاحب بلنسية سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وفدا يستجده  
لنصرته ضد أعداء الاسلام، كان فيه أبو عبدالله بن الأبار، وأنشده قصيدة فريدة منها قوله:

أدركُ بخيلك خَيْلَ اللَّهِ أندلسا إن السبيل إلى منجاتها دَرَسَا

ولبأهم بأسطول محمّل بالأغذية والأسلحة، ووقعت في أيدي النصارى. وقد ابتنى جامع  
القصبة في تونس وصومعته ونقش عليها اسمه، وحين تمّت أذن فيها بنفسه، وأنشأ في قصره داراً  
للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد في مختلف العلوم والآداب. وكان عادلا حسن السيرة  
كما كان فقيها وشاعرا أديبا، وكان يأخذ نفسه بالتقشف والزهد في متاع الحياة، وجمع للدولة  
بعدله وسياسته الرشيدة أموالا طائلة، وأخذت تونس (إفريقية التونسية) تستعيد مجدها  
وشخصيتها القوية أيام الأغالبة والصنهاجيين، ونفقت سوق العلم والأدب وكثر العلماء والشعراء  
وتوفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

وخلفه ابنه المستنصر محمد وكان أبوه عنى بتربيته فدبّر أمور الدولة تدبيرا محكما وانتعشت  
تونس في عهده. ولما قضى التتار في بغداد على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسي سنة  
٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأصبح المسلمون بدون خلافة وخليفة جاءته في سنة ٦٥٧هـ بيعة أمير مكة  
بالخلافة بإنشاء عبد الحق بن سبعين صوفيّ الأندلس، وكان مجاورا هناك فقرئت على الملأ  
واحتفل بها احتفالا عظيما، ومن حينئذ تلقب بأمر المؤمنين، وبابيه بنو مرين بفاس. وفي ذي  
القعدة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م غرّت الأمانى لويس التاسع بعد تنكيل مصر به وبحملته  
المشهوره، فقاد حملة كبيرة هاجم بها تونس برا وبحرا، وحاصرها ستة أشهر، ودفّن تحت  
أسوارها، وعادت الحملة مدحورة إلى البحر المتوسط وما وراءه بعد أن أغرمها المستنصر مالا  
كثيرا. ومن أعماله الجليلة بناء الحنايا التي كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجنة من زغوان  
في أيام الرومان وأصلح ما أفسده الزمن منها، ومدّها في تونس إلى السقايات المختلفة: جامع  
الزيتونة وغيره، وازدهرت الحياة والحضارة بتونس لعهد ازدهارا عظيما. وتوفى سنة  
٦٧٥هـ/١٢٧٦م وتولّى بعده ابنه يحيى الواثق وكان حسن السيرة غير أن عمه أبا إسحق  
إبراهيم ثار عليه سنة ٦٧٨ واستولى على أزمة الحكم، وخرج عليه في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م ثائر  
يسمى أحمد بن مرزوق المسيلي ادّعى أنه الفضل ابن أمير المؤمنين الواثق بن المستنصر، وتمكن  
من الاستيلاء على تونس بمساعدة أعراب قابس الهلاليين، وبعد سنة ونصف من حكمه تصدّى  
له الأمير عمر أخو الواثق وجمع له جموعا سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وقبض عليه وقتله، وتولى  
شئون الحكم. وسرعان ما خرج عليه بالجزائر ابن عمه يحيى بن إبراهيم واستقل ببجاية  
وقسنطينة، وتوفى عمر سنة ٦٩٤هـ/١٢٠٤م وخلفه أبو عبيدة محمد بن الواثق وحاول  
استرجاع القسم الشرقي في الجزائر وأخفق، وتوفى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م دون عقب واضطرت

الأمر في تونس، واستطاع أبو يحيى زكريا بن اللحياني أن يستولى على زمام الأمور سنة ٧١١هـ/١٣١١م وكان شيخا كبيرا، فتخلى عن الحكم لابنه أبي ضربة، وحاربه أمير قسنطينة الحفصي أبو بكر سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وهزمه وقبض على صولجان الحكم في تونس وتلقب بالمتوكل على الله، وخرج عليه بعض الأمراء من أسرته وأمدهم بنو زيان أمراء تلمسان من بني عبد الواد، فأصهر إلى سلطان بن مرين في المغرب الأقصى، وهاجم معه ديار هذه الإمارة أو المملكة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واقتسمها فيما بينها. وصفا له الجو حتى وفاته سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأخذ يعنى بالحركتين العلمية والأدبية وازدهرت لعهد، كما عنى بشئون الزراعة والصناعة والتجارة، فازدهرت جميعا، وما يدل على هذا الازدهار ما ذكره المؤرخون من أن عدد دكاكين العطارين وحدهم في أيامه بلغ في تونس سبعمائة دكان. وبويع بعده لابنه أبي حفص الثاني، وثار عليه أخوه أبو العباس. وانتهز السلطان المريني أبو الحسن فرصة هذه الفتن فاتجه في جيش جرار إلى تونس سنة ٧٤٨م وفتح بسلطانها أبي حفص، واستقام له ملك المغرب الأوسط، والأدنى لمدة سنتين ونصف، غير أنه لم يحسن السياسة مع الأعراب كما كان يحسنها سلاطين تونس فثاروا عليه ونازلوه في تونس وهزموه، وجاء الخبر بأن ابنه أبا عنان ثار عليه في مراکش، فعاد سريعا إلى عاصمته سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وعادت تونس للحفصيين، وتولى زمام الخلافة والحكم الفضل بن أبي بكر الحفصي، ودبر له الحاجب القديم الشرير ابن تافراجين مؤامرة قُتل فيها، وتولى أخوه أبو إسحق إبراهيم سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م واتخذ ابن تافراجين حاجب له، واضطربت عليه الأمور إلى أن توفي ابن تافراجين سنة ٧٦٦م ولم يلبث أن توفي سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. واستولى على زمام الأمور في تونس أبو العباس أحمد الحفصي سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٠م وهو من خيرة الحكام الحفصيين قمع الأعراب وأهل الفساد، واسترجع ما ضاع من الدولة في أثناء الفتن مثل المهديّة وسوسة وقابس وشط الجريد وجزيرة جربة، وساد الأمن والعدل فازدهرت البلاد. وفي أيامه غزا الجنويون والفرنسيون المهديّة في ثمانين قطعة، ودافعهم عنها جيشه وردهم على أعقابهم خاسرين، وتوفي سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٣م بعد ما أعاد لتونس ما كان لها من هيبة وقوة.

وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز، وفيه يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب: «هذا السلطان درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية، سار بعدل وتدبير وسياسة، فازدهت إفريقية (التونسية) في أيامه، وبلغت شأوا بعيدا في الثروة والعمران». وقد بدأ عهده بإخضاع طرابلس وقابس وقفصة والجريد وبسكرة والصحراء، وكان بنوسليم قد أكثروا من الثورات فقلّم أظفارهم، واستصرخوا سلطان فاس المريني بالمغرب الأقصى فأرسل لهم جنودا من عنده وانضم إليهم أمير بجاية الحفصي ابن أبي زكريا، واتجهوا بجموعهم إلى تونس سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م فهزمهم وقتل الثائر الحفصي، وصمم على الثأر من السلطان المريني،

فلما شارف عاصمته «فاس» أرسل إليه بالطاعة، فعفا عنه ونصحه أن يحكم بالعدل الذي لا تستقيم حياة الرعية بدونه. ورجع إلى عاصمته بعد أن دان له شمال إفريقيا بالسمع والطاعة. وفي سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م احتل ملك أرجون جزيرة جربة وأنجدها ولاد المحتلون بالفرار. وقد أنشأ طائفة من القلاع والمحارس لحماية السواحل والثغور، وبنى مارستانا للمرضى والعجزة، وأنشأ لنفسه قصرا بضاحية باردو في تونس وأحاطه بحديقة بديعة وشيد فيه خلفاؤه الحفصيون والعثمانيون قصورا وحدائق أنيقة. ومن مآثره الجليلة تشييده مكتبة لطلاب العلم في أحد أروقة جامع الزيتونة إلى الشمال وجمع لها آلاف من المجلدات وقفها عليها، وقد نحى عن كاهل الشعب كثيرا من الضرائب الفادحة وبسط العدل والأمن، وتوفي سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م.

وتولى بعده حفيده محمد المنتصر، وأنشأ مدرسة سميت المدرسة المنتصرية، وبنى زاوية الشيخ الصالح أحمد بن عروس وتوفي بعد عام وشهرين، وخلفه أخوه أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م وظل العدل والأمن والاستقرار الرعية طوال حكمه الذي امتد إلى نحو أربعة وخمسين عاما إذ توفي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م وقد قمع ثورة لعمه أبي الحسن في قسنطينة وبجاية، وثار عليه تلمسان وأعادها إلى طاعته، وكان أخوه المنتصر توفي ولم يكمل مدرسته المنتصرية فأكملها، وشيد لنفسه مدرسة كبيرة جعل فيها مسجدا للصلاة وغرفا للدراسة ومساكن للطلبة وسماطا يمتد كل يوم للفقراء، ووقف عليها ما يكفيها ويكفي من بها من العلماء والطلبة، وبنى ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن، وعنى بإنشاء مكتبة عمومية في أحد أروقة جامع الزيتونة، وأتمها بعده حفيده أبو عبدالله محمد، ونسبت إليه فسميت العبدلية. ومن حسناته كتابة مصحف بخط يده في عدة أسفار جعله بجانب نسخة البخاري التي وقفها أبوه في جامع الزيتونة. وخلفه حفيده أبو زكريا، لمدة ست سنوات، ووليها بعده أخوه أبو عبدالله محمد الذي أتم المكتبة العمومية التي ابتدأها جده كما أسلفنا.

وكانت الدولة العثمانية قد عظم شأنها وأصبح لها أسطول ضخم ينافس الأسطول الإسباني أقوى أساطيل أوربا حينذاك في البحر المتوسط، وكان لها أميران من أمراء البحر هما الأخوان: عروج وخير الدين ويسميه الإفرنج بربروسة، وكانا يشتغلان بالقرصنة لحساب الدولة العثمانية، وتقدما إلى الأمير أبي عبد الله محمد الحفصي المذكور آنفا طالبين منه الموافقة على أن يتخذا من جزيرة جربة قاعدة لأعمالهما البحرية ضد السفن الإسبانية لتخليص مدينة الجزائر من احتلال الإسبان على أن يكون له الخمس من غنائمها، وقبل منها هذا العرض، وظل ذلك مدة، وحدث أن استطاع عروج وخير الدين تخليص مدينة الجزائر فعلا من يد الإسبان واتخذها منذ سنة ٩١٦هـ/١٥١١م قاعدة لأعمالهما البحرية واستغنيا عن جزيرة جربة التونسية. وكانت الدولة التونسية قد أخذت في التدهور والضعف الشديد لعهد الأمير أبي عبد الله محمد، ورأى

ذلك خير الدين رأى العين، وتوفى الأمير أبو عبد الله سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م وخلفه ابنه الحسن فرأى خير الدين أن يزحف إلى تونس من الجزائر، ويضمها إلى الدولة العثمانية كما ضم إليها الجزائر، وزحف إليها فعلا واستولى عليها سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م فلجأ الأمير الحفصي الحسن إلى كارلوس الخامس ملك إسبانيا، فرآها فرصة عظيمة، وقدم معه سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م ودخل مع الحسن تونس عنوة، وفرّ خير الدين بجنده إلى الجزائر وأذن كارلوس لجنده بنهب تونس، فاستباحوا حماتها، وأجلس الحسن على عرشها وأشرك معه في الحكم أحد قواده، وعقد معاهدة معه بمقتضاها يتنازل للإسبان عن بعض المدن التونسية سوى ما اشترطه عليه من دفع أموال باهظة سنويا، وثار على الحسن ابنه أحمد حاكم عنابة (بونة) وانضم إليه كثيرون. وبعد قتال عنيف استولوا على تونس وسمّلوا عيني الحسن، ففقد بصره وفر إلى القيروان وتولى ابنه أحمد مكانه، واستولى الإسبان على المهديّة والمنستير وجزيرة جربة والقيروان وكان أهل طرابلس قد استغاثوا بالدولة العثمانية فأزاحت عنهم فرسان مالطا كما ذكرنا في حديثنا عن ليبيا. سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م بفضل أسطول درغوت الذي كان مرابطا أمام الجزائر، وقد استطاع أن يفتك المهديّة والقيروان وجربة والمنستير من أيدي الإسبان وأقام بكل منها حامية عثمانية ونائبا، وكان خير الدين (بر باروسة) قد حرّر الجزائر من الإسبان وأصبحت ولاية عثمانية، فأرسل الأمير أحمد الحفصي إلى واليها سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٠م أحد وزرائه يستنجد به ضد الإسبان، فانتهاز الفرصة وقدم بجيش استولى به على تونس وأخذ البيعة فيها للسلطان العثماني، فاستنجد الأمير الحفصي أحمد بالإسبان أعدائه فأعادوا الحماية وعرف الأمير أحمد خطأه، فترك الحكم لأخيه محمد سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م ورحل إلى صقلية وظل بها إلى مماته، وخضع محمد للحماية الإسبانية، وأشرك الإسبان في الحكم الكنت سيربلوني وازدادوا عسفا وعتوا، وتكررت استغاثة التونسيين بالدولة العثمانية، فأرسلت إليهم في سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م قوة عثمانية كبيرة بقيادة الوزير سنان باشا، ففتك بالحامية الإسبانية فتكا ذريعا وطردهم بقيتهم من البلاد إلى البحر المتوسط وما وراءه، وأرسل بالأمير الحفصي محمد إلى الأستانة فظل معتقلا بها إلى وفاته. وبذلك انتهت الدولة الحفصية بعد أن حكمت تونس نحو ثلاثمائة وخمسين عاما.

العهد<sup>(١)</sup> العثماني

كانت فاتحة أعمال سنان باشا بعد تحريره القطر التونسي أن أعلن إلحاقه بالدولة العثمانية، فأصبحت إحدى ولاياتها في إفريقية الشمالية الممتدة من مصر إلى الجزائر، وأخذ يرسى النظام الذي سيقوم على أسسه الحكم في تونس، فنظم الديوان الذي تجتمع فيه الهيئة الحاكمة للنظر في شئون الجند والولاية، وقدر الرواتب، ورتب لجباية الأموال مشرفا باسم الباي، وجعل للبلاد حامية عسكرية عددها أربعة آلاف جندي من الإنكشارية، وهم جند الدولة الذين كانت تربيهم تربية إسلامية عسكرية، وكانت تجلبهم من الأناضول ومن سبائها في أوروبا، وجعل على كل مائة منهم أميراً يسمى «الداي» وجعل عليهم رئيساً هو الأعغا، وانتخب بعض الأعيان من البلاد لمشاركة الديوان في الحكم، وضرب السكة باسمه. ولما أنهى كل هذه الترتيبات وخطب الخطباء في تونس باسم السلطان العثماني عاد إلى إستانبول دار دولته وحكومته. وعينت إستانبول لتونس واليا بلقب باشا، ولم يلبث الدايات أن شغبوا على الوالي سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م واتفق الرأي على اختيار أحدهم ليكون له الرأي النافذ في شئون الإنكشارية، وسرعان ما أخذ هؤلاء الدايات يتسلطون على الحكم في تونس ويعينون الوالي منهم وتضطر الدولة إلى قبول الواقع، وأول داي مهم منهم تولى شئون البلاد عثمان داي، وكان من خيرة الجند الذين رافقوا سنان باشا، وقد تولاهما سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م فسنن قوانين وطد بها الأمن والعدل في البلاد، وأشرف على القرصنة في البحر المتوسط وعظم حظ تونس من غنائمها الوافرة، وفي أيامه سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م أخرج الإسبان من بقى بديارهم من الأندلسيين إلا من تنصر أو تظاهر بتنصره، فهاجر منهم آلاف إلى تونس، وأكرمهم عثمان داي، إذ أقطع ذوى اليسار منهم ما اختاروه من الأراضى ووزع على المحتاجين منهم الأموال والتفقات فانتشروا في أرجاء البلاد وأخذوا يؤسسون فيها المدن والقرى وينشئون المصانع والمزارع والبساتين، وبذلك أحدثوا في إقليم تونس نهضة عمرانية وصناعية وزراعية، ويقال إن

ورحلتى العياشى والناصرى ودائرة المعارف الإسلامية في مادة تونس وما بها من مراجع تاريخية عن العصر التركي وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

(١) انظر في العهد العثماني بتونس كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار والحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج وذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجه تحقيق الطاهر المعمورى (طبع تونس)

المهاجرين منهم في عهد عثمان داي كانوا يبلغون ثلاثين ألفا، ولم يلبث أن توفي سنة ١٠١٩هـ/١٦١١م ودفن بزواوية ابن عروس. وخلفه يوسف داي، واستمر نزول المهاجرين الأندلسيين في البلاد وأفاءوا عليها عمراناً وقيراً، وقد استرد جزيرة جربة من والي طرابلس العثماني، واتفق على تسوية الحدود بين تونس والجزائر، ومن أعماله إنشاؤه جامع الكبير ومدرسة سميت المدرسة اليوسفية نسبة إليه، وتنظيمه أسواق المتاجر، ونشط الأسطول التونسي أيامه بقيادة قبطانه مراد، ويقال إنه غنم في إحدى غاراته البحرية تسعين سفينة. وتوفي يوسف داي سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م وخلفه القبطان مراد رئيس البحر، وفي أيامه تمتعت تونس بحياة رغدة آمنة فأحببه الناس، وعمل على أن تظل ولاية تونس في بيته فتنازل عن الحكم لابنه حمودة، وأقرت الدولة العثمانية صنيعه، وبذلك أصبح حكم تونس وراثياً في أسرته، وكان عهده وعهد ابنه حمودة عهداً هنيئاً في تونس واستطاعت كتبية الصباغية أن تقضي على العصاة قضاء نهائياً في عهد حمودة فأمنت السبل وعاش الناس في اطمئنان سابغ أوغامر في جميع أنحاء الإقليم، ومن أعماله بناء جامع بديع بجوار زاوية أحمد بن عروس وصومعة أنيقة للجامع الزيتونة ومارستان للمرضى، وعُني بقصور الحفصيين في باردو. واشتهرت زوجته عزيزة حفيدة الداي عثمان بأعمال بر كثيرة، من ذلك أنها حبست وقفاً كبيراً على مارستان كان خاصاً بمرضى الأعصاب، ولذلك سمي دار الدراويش، ومن الطريف أنها خصت قسماً من الوقف بالعود والرباب والضارين عليهما ترويحاً لأولئك المرضى، وبذلك سبقت الطب الحديث إلى تبين تأثير الموسيقى في مداواتهم وتهديئة أعصابهم. وتوفي حمودة المرادي سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م وخلفه ابنه مراد وكان حسن السيرة وقبض بقوة على زمام الأمور، وسمع بأن جنود الإنكشارية في طرابلس قتلوا الوالي فذهب إليهم ونكل بهم، وأجلس ابناً له في عمله. وتوفي سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٦م. وولى بعده خلف سيء شاع في أيامهم البغي والظلم، وتنازعوا في الاستيلاء على الحكم واستعان بعضهم بالجزائر، ودخلت جنودها تونس غير مرة، مما جعل الداي إبراهيم الشريف يفتك بآخر أمرائهم سنة ١١١٤هـ/١٧٠٣م. وبذلك انقرضت الدولة المرادية، وعاود الجزائريون الكرة على البلاد التونسية، وهزموا إبراهيم الشريف. وجزع أهل الحل والعقد في تونس من الشيوخ وغيرهم، واتفقت كلمتهم على إسناد الدولة للباي حسين بن علي وكان قد تقلد وظائف حربية وإدارية مختلفة للأسرة المرادية، ولم يجد بدا من النزول على رأيهم وإرادتهم. وفرح به أهل تونس وبايعوه في ربيع الأول سنة ١١١٧هـ/يوليو ١٧٠٥م. وبدأ أعماله بإصلاح سور تونس وتحصين قلاعها، ولم يلبث الجيش الجزائري أن خيم بالقرب من تونس فدارت الحرب وثبت التونسيون، وتقهقر الجزائريون إلى بلادهم. وأخذ الإقليم التونسي يعيش في أيامه حياة رغدة آمنة وانتعشت المزارع والمتاجر والمصانع، وأخذ يعني بإنشاء المدارس، فأنشأ في تونس مدرستين كما أنشأ مدرسة في كل من

القيروان وسوسة وصفاقس ونفظة، واتخذ قصر باردو مقرا لحكومته وبنى به قصرا ومسجدا. ورضيت عنه الدولة العثمانية فجعلت ولاية تونس وراثية في أسرته، ولم يكن له ولد في أول أمره فتبنى ابن أخيه علي بن محمد، وعُني بتربيته وجعله وليا لعهد ثم رزق بابنيه محمد وعلي، فنقل ولاية العهد منه إلى ابنه محمد الرشيد وجلب لعلی ابن أخيه من الدولة العثمانية لقب الباشا، ولكن عليا ظل غاضبا، ووصل إلى الجزائر، فشحجه حاكمها العثماني على مغاضبة عمه وأمه بجيش جرار، زحف به إلى الإقليم التونسي والتقى بجيش لعمه وانتصر عليه سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٥م ودخل تونس وتقلد شعار الولاية، وأصبح تابعا لوالی الجزائر العثماني يؤدي إليه الخراج، أما عمه حسين باي فإنه نجا مع ابنه إلى القيروان وأخذ يعد جيشا للقاء ابن أخيه حتى إذا كانت سنة ١١٥٣هـ/١٧٤١م التقى الجيشان جنوبي القيروان ودارت الدوائر على جيش حسين وقتل في المعركة. وأصبح علي واليا لتونس دون منازع. وكان البحارة الجنوبيون يقيمون في مرسى طبرقة بالشمال الغربي للقطر التونسي، فبعث ابنه يونس على رأس جيش شردهم كما شرد فرنسيين في قرية بجوارهم أقاموا بها مراكز تجارية. وحدث شقاق بين الابن وأبيه، وتحاربا ودارت الدوائر على ابنه. وكان علي باشا متعمقا في الدراسات اللغوية، وله شرح كبير على كتاب التسهيل لابن مالك في النحو، وجمع في قصر باردو مكتبة نفيسة، وأنشأ أربع مدارس بعاصمته: الباشية نسبة إليه والسليمانية ومدرستي بير الحجاز، وكان راعيا للأدباء والشعراء من أمثال علي الغراب ومحمد الورغي. وكان ابنا عمه حسين قد قرأ بعد مقتل أبيها إلى الجزائر مستنجدين بوالها التركي، وظلا هناك ستة عشر عاما استطاعا في نهايتها أن يقنعا والی التركي بأن يرسل معها جيشا لنصرتها على ابن عمها وأخذها بثأرها، وأرسل معها جيشا جرارا، حاصرا به تونس، ودافع ابن عمها على دفاعا مستميتا سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م وخرَّ صريعا في المعركة.

وتربع ابن عمه محمد الرشيد على كرسي تونس، وكان مولعا بالموسيقى والتلحين والضرب على مختلف الآلات، فترك تدبير شئون الدولة لأخيه علي، ولم يلبث أن توفي سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م وخلفه أخوه علي واهتم بتعزيد التجارة والزراعة والصناعة، وانتشر في القطر الأمن. وأنشأ في تونس محكمة شرعية ومدرسة لقبته بالجديدة، كما أنشأ تكية للضعاف والعجزة من الرجال والنساء، ولما تم بناؤها وأخذت تقدم الغذاء للمحتاجين قاد إليها جماعة من العُمى فاقدى البصر وجلس معهم وأطعمهم بيده. وحدث في أوائل حكمه سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م أن ألحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بممتلكاتها فلم تصادق الحكومة التونسية على هذا الإلحاق ولا اعترقت بالجنسية الفرنسية لأسرى تلك الجزيرة ممن حملهم إلى تونس أمراء البحر المتوسط وقراصنتها، وأعلنت فرنسا الحرب على تونس وأطلق أسطولها قنابل على ثغور المنستير وسوسة وحلق الوادي وبنزرت وبعد اتصالات أبرم الصلح بين فرنسا وتونس



بيارودو سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. ولما تقدمت به السن ووهن منه الجسم أشرك ابنه حمودة معه في الحكم، وكاتب الدولة العثمانية في ذلك فوافقت، وتوفي سنة ١١٩٦هـ/١٧٨٢م. وخلفه ابنه حمودة، وكان أبوه قد عُني بتربيته وإعداده لإدارة الحكم والدولة إدارة سديدة وفي عهده استأجر بحارة تونسيون من بعض بحارة البندقية سفينة لحمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقس، وعرَّج بهم البحارة على مالطة، فقبض واليها على التونسيين وزجَّ بهم في السجن بحجة ظهور وباء فيهم وأمر بإحراق ما معهم من السُّلع. وعاد التجار التونسيون إلى العاصمة تونس، وتظلموا لحمودة، فطلب من نائب جمهورية البندقية أن تؤدى جمهوريته قيمة ما ضاع على التجار التونسيين بمقتضى القانون التجارى، وأفضى هذا النزاع إلى إعلان تونس الحرب على البندقية سنة ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م وجهزت لذلك أسطولها، ورضيت البندقية بدفع الغرامة وانعقد الصلح بين الحكومتين. وفي سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م وفد على تونس والى طرابلس على القرمانلى فرارا من ثورة لعلى برغل فيها، فأحسن استقباله حمودة، وكان على برغل قد استولى أيضا على جزيرة جربة التونسية، فأرسل إليها حمودة الأسطول التونسي فاستردها بمجرد ظهوره أمامها، وأرسل أحد قواده على رأس جيش مع والى طرابلس فدحر على برغل وأقرَّ عليها على القرمانلى، وعاد الجيش ظافرا منصورا. ونشبت الحرب بينه وبين الجزائر سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٧م وكانت لهم الجولة الأولى وأعاد حمودة الكرة وانتصر جيشه انتصارا ساحقا. وكل ذلك يدل على أن تونس حظيت في عهد حمودة بمكانة دولية كبيرة.

وقد عم فيها الرخاء والأمن ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة بها نشاطا كبيرا إلى نهاية حكمه سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م وكان معاصرا لنزول الحملة الفرنسية مصر وانتصار المصريين عليها انتصارا حاسما سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م وهو انتصار هز العرب في جميع بلدانهم هزة عنيفة جعلتهم يستيقظون من سباتهم الطويل ويستشفون عصرهم الحديث مستشعرين فيه كياناتهم وهويتهم العربية الإسلامية، ونرى الباي حمودة يستشعر - بقوة - شخصية تونس ويحاول - جادا - أن يعيد إليها قواها التى طمرها العثمانيون حقا متوالية، فيأمر بتجنيد التونسيين وإشراكهم في الجيش والحكم مع الترك أو الحامية التركية، وضرب للتونسيين بنفسه مثلا وطنيا كريما في ملبسه ومطعمه، فلم يكن يلبس إلا من منسوجات تونس ولم يكن يطعم إلا من خيراتها وطيباتها متباهايا بذلك مفاخرا، وبذلك ابتدأ الداى حموده ببلده العصر الحديث في القرن التاسع عشر بدءا قويا سديدا.

## الفصل الثاني

### المجتمع التونسي

١

#### عناصر<sup>(١)</sup> السكان

البربر هم العنصر الأول الذي سكن القطر التونسي وعمر أرضه أجيالاً وقرونا قبل أن ينزله عناصر جدد، واختلف المؤرخون في أصلهم ونسبهم، ف قيل هم إفريقيون أصلاً وموطنا وقيل بل هم آسيويون، فمن قائل إن أصلهم من اليمن، ومن قائل إن أصلهم من العماليق انتقلوا من ديار الشام إلى إفريقية، ومن قائل إنهم أخلاط من كنعان والعماليق، ومن قائل إنهم من عرب الشمال من ولد قيس بن عيلان، ومن قائل إن جدهم مازيغ كان أخوا لفلسطين وأن أبناءه بارحوا الشام واخترقوا مصر إلى إفريقية، ومازيغ كان ابن كنعان بن حام، وهم بذلك حاميون لاساميون، ويعلق ابن خلدون على هذه الآراء وما يماثلها في بيان نسب البربر بأنها «أحاديث خرافة إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتمة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض (المغربية) لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذي يوجبنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم ولا يُحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب». ويضيف ابن خلدون إلى ذلك قوله «إن نسبة البربر يزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة يزعمون أنها من حمير، ومثل هواره يزعمون أنها من كندة ومثل زناتة يزعمون أنها من بقايا التبايعة.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذي شهدت به الرطانة والعجمة (في السنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب». وابن خلدون محق في وصف ذلك كله بأنه مزاعم وترهات، إذ لا حاجة للبربر بذلك كله، إذ هم شعب عريق أصيل مضاهٍ لشعوب العالم العريقة الأصيلة مثل

عبد الوهاب: الجزء الثالث، المغرب الكبير لرشيد الناضوري: الجزء الأول، كذلك تاريخ المغرب الكبير لدبوز وبرنشفيك ٣١٣/١ وما بعدها.

(١) انظر في عناصر السكان بتونس الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون، وكتاب ورقات عن الحضارة بإفريقية للأستاذ حسن حسني

العرب والمصريين والفرس والروم. أما تسميتهم باسم البربر فالملظنون أن الرومان - وربما اليونان - هم الذين أطلقوه عليهم أخذاً من الكلمة الإغريقية Barbarus ومعناها الأجنبي الذي يرطن بلغة غير مفهومة، إذ كانت لغة البربر - بالنسبة للرومان واليونان - أصواتاً مبهمه، والكلمة بهذا المعنى الإغريقي تلتقى بمعنى البربرة في العربية وهو المتممة بالكلام بحيث لا يفهمه السامع.

وظل البربر لا يتصلون بالشعوب القديمة آماداً طويلة حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد أو قبله أو بعده بقليل كان فينيقيون من سكان لبنان - وكانوا شعباً ملاحياً - يجوبون الساحل الإغريقي بحثاً عن مواضع يتبادلون فيها سلّهم وعروضهم مع البربر، وأعجبتهم تونس، فنزلوا بها، ومع مرّ عشرات السنين اتخذوا لأنفسهم فيها موطناً ومركزاً لتجارتهم، إذ أسسوا فيها مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية، واستوطنها كثير من أسرهم الفينيقية، وأنشأوا بها دولة وجيشاً منهم ومن البربر، وقد امتزجوا بهم وصاهروهم وعلموهم الملاحية والتجارة وتبادل السلع وفلاحة الأرض وغرس الأشجار، ونقلت إليهم قوافلهم المتعمقة في السودان كثيراً من الزوج، وفسحوا لبعض اليهود في النزول بمدينتهم. وبذلك أصبح يوجد فيها لعدهم أربعة عناصر من السكان: عنصر بربرى من سكانها الأولين وعنصر فينيقى وعنصر زنجى وعنصر يهودى، ويدور الزمن وتستولى روما على قرطاجة، وتبنى من أنقاضها قرطاجة جديدة، وتستوطنها أسراً رومانية كثيرة، وتضيف القوافل زنجياً جديداً كثيرين إلى البلاد، ويفد عليها منذ سنة ٧٠ للميلاد بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس أسر يهودية كثيرة. ويدور الزمن دورة ثانية وتستولى جموع الواندال على تونس سنة ٤٣٩ للميلاد، ويظلمون بها حتى سنة ٥٣٤ مضيئين إلى البلاد عنصراً ألمانيا جديداً، ويخلفهم البيزنطيون حتى سنة ٦٤٧ مضيئين بدورهم العنصر البيزنطى الإغريقى.

ثم يكون الفتح العربى، وتظل تقدّم إلى القطر التونسى جيوش لإكمال الفتح أو للقضاء على بعض الثورات طوال القرن الأول الهجرى، وتحمد ثورات البربر ضد الإسلام والعرب، وتشتعل في القرن الثانى ثورات الخوارج من البربر. وتظل الدولتان الأموية والعباسية ترسلان الجيوش لإخمادها، وكثير من جنود هذه الجيوش استقر في إفريقية التونسية وأصبحت مستقراً له منذ أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان في سنة ٥٠هـ/٦٧٠م فقد سكنها بعض الجنود الفاتحين وأسره و اتخذوها موطناً لهم ومقراً. وأخذ كثير من جنود هذه الجيوش يسكن في بعض بلدان تونس عاملاً على نشر الإسلام والعربية. وكانت هذه الجيوش تضم عناصر من العرب ومن البلاد الإسلامية المفتوحة: إيران وسكان الرافدين في العراق والشام ومصر وكل هذه العناصر أخذت تمتزج بالبربر في تونس امتزاجاً سريعاً بحكم ما يجمع بينهم من الدين واللغة،

ولم تشارك مصر في هذا الامتزاج بمن كان ينتظم منها في الجيوش العربية فحسب، بل شاركت أيضا في عهد حسان بن النعمان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م بألف أسرة قبطية طلبها للمساعدة في تأسيس دار صناعة لسفن أسطوله الذي سيحمى به سواحلها ويغزو جزر البحر المتوسط، وجاءته ووزعها بين تونس وقرطاج، ومنذ إبراهيم الأغلب يستكثر الأغلبية في الحرس من الصقالبة، وأيضا من الزوج، وكانوا لعهد إبراهيم أكثر من خمسة آلاف، ولكنرة خيرات تونس وطبياتها وحسن معاملة الإسلام للنصارى واليهود ظل ينزلها منها كثيرون.

وفي منتصف القرن الخامس الهجرى تدخل القطر التونسى جموع الهجرة الأعرابية التى تحدثنا عنها فى الفصل الماضى، التى كانت تبلغ - فيما يقال - نحو نصف مليون، ولا بد أن جماهير كبيرة منهم ألفت عصاها بتونس وبلدانها وسهولها وزروعها حتى لقد أصبحت بلدان مختلفة على الساحل وفى الداخل بأيديهم. وحقا سببت هذه الهجرة الكبيرة غير قليل من الاضطراب فى البلاد والفوضى، ولكن ربّ نعمة سببت نعمة، فإن هذه الهجرة أتمت بسرعة تعريب البربر والشمال الإفريقى المغربى جميعه، فإن من كانوا يستقرون فى البلاد المغربية من الجيوش العربية الغازية فى القرنين الأولين الهجريين كانوا قلة بالقياس إلى جموع البربر العديدة، ولذلك كان تعرب البربر بطيئا، حتى إذا حدثت هذه الهجرة تعرب البربر نهائيا وأصبحوا شعبا عربيا، إذ امتزجوا بالعرب معيشة ومصاهرة، حتى أصبح لا يوجد فرق بين عربى وبربرى، ويصور ذلك ابن خلدون فى قبيلة هواة قائلاً: إنهم صاروا فى عداد الناجعة (الرعاة) بنى سليم فى اللغة والزىّ وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب». وهكذا الأعراب مع البربر فى كل أرجاء المغرب، وفى الحق أن هذه الهجرة الأعرابية الضخمة لم تكن عنصراً جديداً أضيف إلى ما كان بتونس من عناصر، بل كانت شعبا أضيف إلى شعب واندمج فيه وأصبح الشعبان شعباً واحداً. ويستولى النورمان على صقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م.

ويعود إلى تونس كثرة من أبنائها الصقليين ولا تكاد تؤسس الدولة الحفصية حتى تحدث نكبة الأندلس الكبرى نكبة سقوط مدنها فى حجر الإسبان النصارى واحدة إثر أخرى، ويأخذ الأندلسيون فى الهجرة إلى المغرب الأقصى، ويتجه كثيرون منهم إلى تونس، ويرحب بهم مؤسس الدولة أبو زكريا وابنه المستنصر، ويفسحان لعلمائهم وأدبائهم فى الحركتين الأدبية والعلمية، كما يفسحان للزراع وأصحاب الصناعات منهم، وتأخذ أعدادهم فى التزايد طوال القرن السابع الهجرى، وخاصة مع سقوط البلدان الأندلسية مثل إشبيلية وبلنسية، وكان كثيرون من هؤلاء الأندلسيين المهاجرين يرجعون إلى أصول عربية وبربرية، وكان بينهم من يرجعون إلى أصول

مصرية أو شامية أو إيرانية، ممن قدم أبائهم من آسيا مع الجيوش الفاتحة للأندلس كما كان بينهم مسلمون يرجعون إلى أصول إيبيرية وقوطية واندالية من سكان إسبانيا القدماء، وكثر نزول هؤلاء المهاجرين الأندلسيين بتونس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويقال إنهم بلغوا حتى هذا التاريخ نحو مائة ألف أو يزيدون. وفي سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م نفى الإسبان بقية من كان بها من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بذلك، وقدم إلى تونس منهم في سنة واحدة لعهد عثمان داي نحو ثلاثين ألفاً، ورحب بهم كما مر بنا في الفصل الماضي، وهو ترحيب لا يستحق شكره من أجله وحده بل يستحقه أيضاً قبله التونسيون الذين أتاحوا لهم المعيشة الكريمة بينهم في المدن، حتى كان لميسورهم في تونس العاصمة حيان: حومة الأندلس وزقاق الأندلس، وتأسست للعمال والصناع قرى ومراكز بالقرب من العاصمة زاولوا فيها صناعاتهم من المنسوجات الحريرية وغيرها، وانزل القريون منهم في مناطق خصبة غزيرة المياه شمالاً على ضفاف نهر مجردة. ومن المؤكد أن الإسبان الذين احتلوا تونس نحو أربعين عاماً (٩٤٣-٩٨١هـ) لم يخلفوا وراءهم أسراً إسبانية حين طردهم سنان باشا إلى البحر المتوسط وما وراءه.

وكان الولاية في العهد العثماني يتخذون لهم حاميات عسكرية من الإنكشارية، وكانت تضم تركيا من الأناضول وأجناساً متنوعة من مختلف أنحاء الدولة العثمانية وأسرى جيوشها من الدول الأوروبية وكانت تربيتهم جميعاً تربية إسلامية عسكرية، وترسل ببضعة آلاف منهم إلى تونس وبالمثل إلى بعض البلاد العربية، وكانوا يتزوجون من تونسيات فربطتهم بتونس صلات عائلية وثيقة. واتسعت حركة القرصنة حينئذ لسببين: حذق العثمانيين بالبحارة، وقد استطاع خير الدين (بربروسه) وعروج وأمثالها أن يجعلوا البحر المتوسط في القرن العاشر الهجري بحراً عثمانياً، والسبب الثاني غيظ الأندلسيين المهاجرين من الإسبان والأوروبيين الذين كانوا يساعدونهم في الحروب، فكانوا يوغرون صدور البحارة الترك عليهم ليأسروهم ويسترقوهم، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر بالآلاف أحياناً، وكان كثيرون منهم: إسباناً وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ونورمانا يعتقدون الإسلام وتُردُّ إليهم حرياتهم ويكونون أسراً ويندمجون في أهل البلاد. وكانوا يتولون في تونس أحياناً مناصب عليا. وهذه العناصر الإفريقية والآسيوية والأوربية المفرطة في الكثرة، منذ أيام الفينيقيين إلى هذا العصر لها دالتان: دلالة أولى على وفرة طبيبات الرزق التي عُرفت بها تونس والتي جعلت كثيراً من الشعوب تتسابق على النزول بها وأحياناً على المكث بها حقبة أو حقبتين من الزمن ودلالة ثانية هي ما حملته تلك الشعوب إلى تونس من حضارات كان لها غير قليل من التأثير في حياتها مع الاحتفاظ دائماً بما لها من ذاتية وشخصية.

المعيشة<sup>(١)</sup>

عنى القطر التونسي - على مر الأزمنة بالزراعة، وقد أولاها الفينيقيون والقرطاجيون اهتماماً كبيراً، إذ رأوها تنتج وفرة من حبوب وبقول متنوعة، وقد حملوا إليها من موطنهم شجرة الزيتون، وربما أيضاً الكروم والتين واللوز، ويدل - في وضوح - على اهتمامهم بالزراعة أن أقدم كتاب عالمي فيها وفي غرس الأشجار ألفه عالم قرطاجي يسمى ماجن Magon وأن الرومان نقلوا عن قرطاجة هذا الكنز الزراعي النفيس إلى لغتهم حين استولوا عليها سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وعُنوا - مثل القرطاجيين - بالزراعة وحفروا لها القنوات لجلب المياه، وأقاموا بها الصهاريج والخزانات والأحواض، مما لاتزال شواهد قائمة في إفريقية التونسية. وظل أهلها في العهود الإسلامية يعنون بالزراعة، فهي معاشهم، ومنها قوتهم وزادهم. وقد عُنِيَ بها الأغلبية عناية كبيرة، ومما يدل على ذلك أنهم كَوَّنوا لرى الأراضى وجلب المياه وتخزينها في الصهاريج وتوزيعها في السقايات إدارة كبيرة، عُنِنوا لها مشرفاً سموه «صاحب المياه» واستغلوا في ذلك كل ما خلفه القرطاجيون والرومان والبيزنطيون في البلاد مع ما أضافوه من قنوات ودواليب وأحواض وخزانات جديدة، مما جعل البلاد التونسية تلقى في حجورهم بكل ما تستطيع من طيبات الثمار، وتزدهر فيها الزراعة وغرسة الأشجار ازدهاراً لعلها لم يبلغها في عصر من العصور، وأخذت البلاد تعيش في بُلْهنية من العيش، وأخذ الأغلبية يجنون منها أموالاً طائلة، ساعدتهم مساعدة عظيمة في بناء أسطوهم الذي فتحوا به صقلية ومالطة، كما ساعدتهم لا في بناء قصر أو قصور فحسب، بل في بناء مدينة هي العباسية ومدينة ثانية هي رقادة التي زارها أبو عبيد البكري، فقال في كتابه المسالك: «ليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرق نسيماً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، ويذكرون أن من دخلها لا يزال ضاحكاً مستبشراً من غير سبب»: «مدینتان كبيرتان بنتهما دولة الأغلبية التي أظلت البلاد التونسية قرناً من الزمان بفضل ما جنت من خيراتها. وإذا تركنا شمالي تونس إلى الداخل لقيتنا مدن في السباسب والواحات كثيراً ما نوه بها جغرافيو العرب ورَحَّالهم لما بها من البساتين المثمرة والكروم والمشمش والتين

(١) إفريقية وتونس لابن أبي دينار وكتاب ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

(١) راجع في المعيشة المسالك لأبي عبيد البكري ورحلة التجاني والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب وصف إفريقية للحسن الوزان والمؤنس في أخبار

واللوز والفسق، ويقولون إن بها غدرائاً وأباراً كثيرة. وبعض الجهات - وخاصة في النواحي الشرقية - مفازات شاسعة تنمو فيها الأعشاب والحشائش وترعاها قطعان الغنم والأبقار والإبل والحيل.

وظلت الزراعة مزدهرة في عصر الدولة الصنهاجية حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وأصابها غير قليل من الانتكاس مع الهجرة الأعرابية، حتى إذا كانت الدولة الحفصية وأخذ يعم الأمن والاستقرار في البلاد بعد حركات قراقوش وابني غانية عادت الزراعة في البلاد إلى الازدهار بفضل عناية مؤسس الدولة أبي زكريا بشئون الري وعناية ابنه المستنصر، ويقول ابن أبي دينار إنه أكمل بناء الحنايا والقنوات التي كان يجري عليها الماء إلى مدينة قرطاجة في الزمن الأول (لأيام القرطاجيين والرومان) وأصلح ما فسد منها، وأجرى الماء عليها من عيون جبل زغوان في الجنوب الغربي إلى تونس وجناتها وزروعها وسقاياتها وجامعها الكبير: جامع الزيتونة. وبنوه الحسن الوزان بما شاهد حول تونس في القرن العاشر الهجري من زروع وبساتين قائلا: «توجد في خارج تونس مزارع غاية في الإبداع تنتج فواكه رائعة بكميات قليلة ولكنها في غاية الجودة، وهناك عدد لا يُحصى من البساتين المزروعة بالبرتقال والليمون، وبالورود وبزهور جميلة أخرى، وفي المكان الذي يُدعى الباردو على الخصوص توجد البساتين والقصور الفخمة». وبنوه ابن أبي دينار في زمنه أوائل القرن الحادي عشر الهجري بجنات تونس وبساتينها، ويقول إن من رأى ثمارها وفواكهها يعجزه الوصف إذ لا تدخل تحت حصر» ويقول أيضا: «يدخل إليها في فصل الخريف أزيد من ألف حمل من العنب بخلاف ما يباع معه من تين وبطيخ وغيرهما». وبدون ريب كان للمهاجرين الأندلسيين إلى تونس فضل كبير في هذا الازدهار منذ عصر الدولة الحفصية، وازدادت الزراعة ازدهاراً حين ازداد المهاجرون منهم زيادة مفرطة في سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م وما بعدها لعهد الداى عثمان والداى يوسف كما مر بنا في الفصل الماضى، ويقال إن عددهم بلغ حينذاك أكثر من مائة ألف، وقد استقر كثيرون منهم - كما أسلفنا - في المناطق الخصبة الشمالية حول نهر مجردة، ونزل بعض منهم في أنحاء قليلة المياه فاستخرجوها عن طريق طواحين الرياح، ونزل بعضهم في أماكن صعبة بسفوح الجبال، واستطاعوا - بجدهم - أن يحيلوا كل ما نزلوا فيه واستقروا به إلى جنات وزروع وقنوات وعيون. وتلقانا أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والفسق في كل مكان كما تلقانا أشجار النخيل، وخاصة في الواحات ومنطقة شط الجريد. ويبدو أن الرومان تغلغلوا مع القوافل التجارية إلى هذه المنطقة وظل كثيرون منهم فيها بعد الإسلام لا قرنا بل قرونا متطاولة، حتى لرى التجانى الذى زارها في أوائل القرن الثامن الهجرى يقول في زيارته لها التى سجلها في رحلته: «إن أهل توزر (غربى شط الجريد) وأكثر بلاد الجريد من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامى» ويقول إن بعضهم كان لا يزال يتكلم اللاتينية.

وعرف القطر التونسي مختلف الصناعات - وخاصة اليدوية - من قديم كالتجارة والحدادة وعصر الزيتون واستخراج المعادن. وكان بها معادن كثيرة مثل الرصاص والحديد والزنك والزئبق والفضة والذهب أتاحت للقطر موارد مالية غير قليلة، حتى لنرى الأغلبية يخصصونها بإدارة يسندونها إلى موظف سموه: «صاحب المعادن» واشتهرت «قرطاجة» في غربى القطر بما كان يستخرج فيها من معدن الحديد، مما هباً لصناعات حديدية مختلفة مثل الأقفال والمفاتيح والأبواب والنوافذ، واشتهر «طرّة» من إقليم نفزاوة في الجنوب الشرقى للقطر بمعدن الكارتز، وهبياً بدوره لصناعات زجاجية وبلورية. ومن أهم الصناعات صناعة الخزف مطليا وغير مطلى وما يتصل بها من الآنية والأباريق والكيّزان والمواعين، ويقول ابن أبى دينار في فواتح كتابه «المؤنس»: «تُصنع بتونس آنية للماء من خزف شديد البياض في نهاية الرقة والشفافية لا يُعلم له نظير في سائر الأقطار». ومن الصناعات صناعة دبغ الجلود وكان ينتفع بها في صناعة السروج. ومن الصناعات عصر الزيتون في معاصر كثيرة معدة له، وتونس تشتهر بهذه الصناعة منذ عصر الرومان، وكانوا يرسلونه إلى روما في مواعين كبيرة، ويدل على كثرة معاصره في الحقب الاسلامية ما يذكره ابن أبى دينار وهو أن أباً يزيد مخلد بن كيداد - حين زحف على إفريقية التونسية في عهد الخليفة العبيدى القائم بأمر الله ودخل القيروان وتونس - نهب اثني عشر ألف جابية زيتا. ويقول الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقية الذى سجّل فيه زيارته لتونس: «على مسافة أربعة إلى ستة أميال حول تونس تنتشر مصانع عديدة لإنتاج الزيت لا لتموين مدينة تونس فحسب، بل للتصدير كذلك، ويُصنع من حطب الزيتون فحم يستخدم في المدينة، ويستعمل جزء منه في التدفئة».

وكانت صناعات المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والكتانية منتشرة في تونس وغيرها من بلاد القطر التونسي، ويقول أبو عبيد البكرى في كتابه المسالك عن النسيج بمدينة سوسة: «الحياكة بها كثيرة ويُغزل بها غزل تباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب». وينوّه الحسن الوزان في القرن العاشر الهجرى بما كان من النسيج في تونس وصناعته قائلاً: «غالبية سكان تونس من الحاكة (النساجين) وتصنع فيها كمية كبيرة من الأقمشة المتقنة كل الإبتقان والتي تباع في كل إفريقية، وهى مرتفعة السعر كثيرا لأنها ناعمة وممتينة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن النساء يتقنّ مهنة الغزل كل الإبتقان» ويرجع بنا الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى مدينة رقادة في عهد الأغلبية قائلاً: «كان بها دار الطراز وكانت مصنعا تنسج فيه الأكسية من الحرير والقطن والصوف، وكذلك العمائم والأحزمة إلى غير ذلك من الخلع التى يهبها الأمير (الأغلبى) في الأعياد وعند تقليد المناصب لأعيان الأمة ورجال الدولة، وكانت تُكتَب على هذه الخلع كتابات موشية بخيوط الحرير والذهب، وهى تقوم مقام الأوسمة في عصرنا الحديث».



ولابد أن الصناع كانوا يوشون ثياب النساء بهذه الخيوط وبخيوط أُخرى فضية لتكمل زينتهن بما لها من لمعان وبريق.

وكان الصانع التونسي يعنى بزركشة ماينسج من السجاجيد وخاصة للأمرء وأعيان البلاد، وكان يرسم عليها بعض الحيوانات أو بعض البلاد، ويذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أنه صُنِعَ للمعز الفاطمى قبل تحوله إلى القاهرة مقطع كبير رائع من الحرير الأزرق الملوّن المنسوج بالذهب وقد رُسِمت فيه صورة الأرض بكل ما تشتمل عليه من الأقاليم والمدن والأنهار والجبال وصورة الحرمين الشريفين. ولعل في عرضنا لذلك كله ما يدل على الرقى الحضارى الذى نعمت به تونس قبل العصر الحديث، وكانت الأخشاب فيها وافرة مما هياً للتفنن في صناعة الأثاث، كما هياً الزجاج والخزف للتفنن في صناعة المواعين والحرير والصوف والقطن والكتان للتفنن في الرياش وكل ما يلزم القصور والمنازل من فنون الزينة والزخرف .

ومن الصناعات التى كانت مزدهرة بتونس الوراقة أو صناعة الورق والكتابة فيه، ومعروف أن بغداد لم تعرفه إلا في عصر الرشيد، وقبل ذلك كانت الكتابة في الرق أو الجلد المهياً للكتابة وكذلك في البردى الذى كانت تستخدمه مصر منذ عصور الفراعنة، وهو نبات كانت تضم أوراقه الطويلة بعضها إلى بعض بطريقة خاصة، فيصبح صالحاً للكتابة فيه. وكان القطر التونسى يجلب النوعين من المشرق وكان اعتماده الغالب على الرقّ وجلب معها الأقلام والمداد. وتعرّف على صنعها، حتى إذا فتحت صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٨م وكان بها بردى كثير أخذوا - كما يقول ابن حوقل - يفتلون أكثره حبالا للسفن» وأقله كان يُصنع طوامير أو صحفا لدواوين الأمير الأغلبى ومنّ تلاه من حكام القطر التونسى، وأخذ الشعب التونسى يحسن صناعة الورق من الكتان ويسمى الكاغد نفس اسمه الذى نقله العباسيون مع الورق من الصين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن صناعته انتقلت من تونس إلى صقلية وعبرت صناعته مضيق ميسينا إلى سالرنو ف نابولى، فألمانيا حيث استطاع جوتنبرج بعد قليل اختراع الطباعة، وبدهى أنه لولا الورق ما اخترعت المطبعة. ومن الممكن أن تكون أوروبا عرفت الورق ونقلت صناعته عن الأندلس، غير أن الأستاذ عبد الوهاب يرجح معرفتها به عن طريق تونس وصقلية.

ومنذ فتح العرب القطر التونسى تُبني فيه المنشآت العمرانية وتشاد، ولا يشاد بناء مفرد أو قصر مفرد، بل تشاد مدن، بدأ ذلك عقبه بن نافع ببناء القيروان، وبنى تونس بعده بقليل حسان ابن النعمان، وبنى الأغالبة العباسية ورقادة، وأحالوا قرية سوسة على الساحل مدينة وثغراً ضخماً، وبنى عبید الله المهدي مدينة المهديّة وجعلها داراً لحكمه وثغراً لأسطوله، وأحال حفيده المنصور قرية صبرة بجوار القيروان إلى مدينة وسماها «المنصورية» نسبة إليه. وكانت المدينة

من تلك المدن حين تُبنى لا يُقْتَصَر فيها على قصر للحاكم، بل كانت تبني فيها قصور ومساكن لآل بيته ولجنده وحاشيته ودواوينه، ويبني فيها جامع كبير ويخطط شارعان متعامدان يقام عليهما حوانيت للصناع والتجار ومساكنهم، فهي مدينة كاملة. وكانت هذه المنشآت - بل المدن - العمرانية تحتاج إلى مالا يكاد يحصى من العمال والصناع، إذ لا بد لها ممن يقطعون الأحجار ومن يقطعون الرخام وينحتونه أعمدة للقصور وكذلك للمحارس والحصون التي كانت تشاد على طول الساحل التونسي باسم رباطات.

وكان يُبنى حول كل بلدة جديدة - وقد بُنِيَ حول بعض البلدان القديمة - سور ضخم لكي يحميها من الأعداء حين يهاجمونها وتقام فيه أبواب كبيرة مصفحة بالحديد. ولم يكن العمران حينئذ مدنا ومعقل وحصونا فحسب، بل كان أيضا صهاريج وأحواضا كبرى لسقاية الزروع والمساجد والشعب. وكل ذلك استلزم صناعات كثيرة من حدادة ونجارة وغير نجارة وحدادة سوى النقاشة واستخدام الفسيفساء (الموزايكو) في حيطان الغرف والسقوف والأروقة المختلفة الرسوم بما يترأى فيها من الأزهار والرياحين والمناظر البديعة، وزخرفوا بالفسيفساء أحيانا صهاريج الماء وأحواضه. وكان الحكام يبنون لأنفسهم قصورا شاهجة على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي من تشييد أبي فارس لقصره الضخم في إحدى ضواحي تونس المسماة باردو، وتوالت في الضاحية قصور للحكام من الحفصيين والعثمانيين كانت تبهر من يراها فضلا عن يزورها ويرى منحوتاتها ونقوشها البديعة. وحتى المنازل العادية للشعب كان أصحابها يتأنقون فيها، يقول الحسن الوزان عن منازل تونس: «لأكثر المنازل منظر بديع، وهي مبنية بحجارة مجهزة وجيدة النحت، وسقوفها مزدانة كثيرا بالفسيفساء وبالجص المجزّع، مع فن رائع، ومزوّقة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى.. وتبلطُ الغرف بمربعات من بلاط مطليّ بلون فاتح كما يبلطُ الصحن أيضا ببلاط مطليّ بالدهان. وبيوتها على العموم - وحيدة الطابق - ولها مدخل بديع.. ويلجأ كل واحد إلى جعل مدخل بيته أكثر أناقة وأكثر زينة. وبجانب منازل المدينة وقصورها كانت هناك دور صناعة خاصة بالأساطيل وحاجاتها وإعدادها في تونس وسوسة والمهدية، واستلزمت كثيرا من الخشب والحديد لصنع سفن الأسطول وأيضا من الحبال ونسيج الكتان لشراعات السفن وقلاعها، وبلغت سفن الأسطول في عهد الأغالبة ثلاثمائة سفينة، سوى ما كان يحتاج إليه الأسطول من الأسلحة والعتاد الحربي من مثل السيوف والرماح والأقواس والسهام والمنجنيقات وآلات هدم الأسوار، سوى بناء الأحواض الواسعة في الثغر لخدمة السفن.

وهذا الإنتاج الصناعي الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعي الكثير هيا تونس - منذ عصر القرطاجيين - لأن تصبح سوقا عالمية كبرى، فكانت ترسل بمنتجاتها شمالا إلى شعوب

البحر المتوسط الأوربية وشرقا إلى مصر والشام وتركيا وغربا إلى الجزائر ومراكش وإسبانيا وغربى أوروبا حتى إسكندناوة، ومنذ عصر القرطاجيين كانت قوافلها تتغلغل في فلات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربي محملة بالسلع التونسية من الزيتون وزيتته والنقل ومن المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية ومن السروج واللبود وأقال الحديد والمفاتيح والإسفننج الذى يصاد على الساحل والملح المطحون الذى يحمل من ملاحات تونس الكثيرة، وتعود محملة بالجلود وريش النعام والعاج أو ناب الفيل والتبر والرقيق الأسود الكثير. وذكرنا في الفصل الماضى أن إبراهيم بن أحمد الأغلبى استكثر من هذا الرقيق الزنجى في حرسه حتى بلغوا عشرة آلاف عدداً، ومنذ الأزمنة السحيقة كان يظل كثير من هذا الرقيق في القطر التونسى مما جعل لهم فيه - من قديم - بعض القرى. وطبيعى أن تنشأ في كل بلد تونسى سوق داخلية يشتري منها أهله ما يحتاجون إليه من الحبوب والثمار والخضر والصناعات المختلفة. وأول من أمر بتنظيم هذه الأسواق في القطر التونسى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤هـ) يقول أبو عبيد البكرى: «كان السُّمَّاط - وهو سوق القيروان - متصلا (أى دكاكينه متلاصقة) فيه جميع المتاجر والصناعات وهو الذى أمر بترتيبه هكذا». واتبعت الأسواق في تونس وغيرها هذا النظام، حتى إذا كان عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٦ - ١٧٠هـ) رتب أسواق القيروان. عاصمته ترتيبا جديدا، وفي ذلك يقول ابن عذارى في البيان المغرب: «قد مهَّد أمور لبلاد، ورتب أسواق القيروان، وأفرد لكل صناعة مكانا». ومعنى ذلك أنه جعل لكل صنعة مجموعة من الدكاكين خاصة بصناعتها وبيعها، ومحدثنا الحسن الوزان عن سوق تونس حين زارها، ويذكر أن أهم الأمكنة في سوق تونس مكان تجار المنسوجات، يقول: «وهناك سوق خاص في تونس يحوى عددا كبيرا من تجار القماش، ويعد هؤلاء أكثر أهل المدينة ثراء، ويشغل تجار آخرون وصناع معهم هذا السوق كالعطارين، وباعة الأشربة والترياقات، وباعة العطور والحرير، والخباطين والسراجين (باعة السروج) والفرائين (باعة الفراء) وباعة الفاكهة، والحلايين، وصناع الزلابية (حلواء) والقصابين (الجزارين) الذين يذبحون في فصلى الربيع والصيف من الخراف أكثر من سائر الحيوانات الأخرى، وثمَّ مَهَنُ كثيرة أخرى تمارَس في هذا السوق لا يتسع المقام لذكرها».

## الرّفه - المطعم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة

### (أ) الرّفه<sup>(١)</sup> - المطعم والملبس

مما يميز القطر التونسي كثرة الأمتعة والسلع والثمار والفواكه فيه، مما أتاح له - وخاصة في مدنه الشمالية حياة رافهة، ويصور ابن أبي دينار ما كان فيه أهل مدينة تونس من رفاهية في حياتهم بأن أغلبهم كانت لهم جنات وبساتين خارج المدينة، يقضون فيها الصيف والخريف مع أسرهم، فكانوا يبكرون في الذهاب إلى المدينة كل يوم حيث يزاولون أعمالهم ويعودون في المساء إلى بساتينهم وجناتهم ومن أجل ذلك كانت الدكاكين في أسواق تونس لا تفتح صيفا وخريفا إلا بعد طلوع الشمس.

ويقول الحسن الوزان إن الخبز ظريف جدا في تونس، وهو أبيض اللون ومخبوز بشكل حسن، ولا يُصنع من الدقيق فحسب بل يمزج معه السميد، وتبذل عناية كبيرة في إعداد عجينه إذ يضرب بمدقة شبيهة بتلك التي يضرب بها الأرز في مصر. ويذكر الحسن الوزان عقب ذلك وجبتين شعبيتين أولاهما تسمى البسيس، وهي وجبة خفيفة مؤلفة من دقيق الشعير المحلول بالماء ويوضع فيه قليل من الزيت أو شيء من عصير الليمون أو البرتقال، ومن عادة الباعة والصناع وسكان المدينة تناول هذه الوجبة في النهار، والوجبة الثانية تسمى البازين، وهي أفضل من سابقتها، وتُصنع من عجينة تُقلى في الماء، وبعد أن تنضج تُرصّ في وسط وعاء وتُسقى بالزيت أو بمرق اللحم. ويقول الحسن الوزان: هناك وجبات أخرى أكثر لذة في الطعم، ومن مطاعمهم لحم يسمى المروزية نسبة إلى مدينة إيرانية تسمى مرو والروز واللحم فيها يطبخ بأبزار تفوح، ويعدون أكلها عقب الإفطار في الصوم من التطيب. ومن طعامهم الزرير ويسمى في بعض البلدان باسم المويس وهو خليط من الأبزار والبهارات حار الطبيعة. ويصاد السمك على طول الساحل التونسي، وهو رخيص الثمن، ويصطادون منه أنواعا كثيرة منها نوع يسمى سبارس يصاد في صفاقس، وقد تكون الكثرة من سكان البلدة صيادين. ويشتهر سكان مدينة المهديّة بصيد الحوت، ولأهلها شغف بأكله وتفنن في طرق صيده. وكما تتنوع مطاعم سكان القطر

الحضارة العربية بإفريقية للأستاذ حسن حسني  
عبد الوهاب وبرنشفيك ٢٨١/٢ وما بعدها.

(١) انظر في الرّفه والمطعم والملبس الحديث عن مدينة تونس في كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وراجع في صفاقس، وكذلك كتاب ورقات عن

التونسي تتنوع حلواؤهم، ومنها المقروض ويقول برتشفيك إنه يصنع من السميد والتمر والعسل والبهارات ويقلى في الزيت وينوه به ابن أبي دينار، ويقول: هو أطيب حلوائهم وليس بعده شيء، ومنها الزلايية وهى حلواء من عجينة رقيق يصب في الزيت ويقلى ثم يصب في محلول السكر، ومر بنا - منذ قليل - أنه كان بتونس سوق خاصة للزلايية.

وإذا تركنا المطعم إلى الملبس وجدنا الحسن الوزان يقول: «أهل تونس طيبون للغاية ومحبتون كثيراً، ويلبس صناعاتها وتجارها وأثمتها وجميع موظفيها هنداماً جميلاً لائقاً، ويضعون فوق رؤوسهم قلنسوة مغطاة بقماشة طويلة، كما يضع العسكريون وموظفو البلاط قلنسوة على رؤوسهم ولكن بدون قماشة. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب كانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء ويكتسبون القشايية الصوفية. أما السيدات فيقول عنهن الحسن الوزان: إن لسيدات تونس هنداماً جيداً، وعندما يكن في الخارج يسترن وجوههن.. بوضع عصابة عريضة جداً من قماش فوق الجبين، وهناك حجاب آخر يدعى سفسارى يجعل من رؤوس النساء رؤوساً ضخمة كبيرة، ولا تعنى النساء إلا بزيتنهن وعطرهن، بدليل أن باعة العطور هم دوماً آخر من يغلق دكاكينهم» ولا بد أنهن كن يعنين بجواهرهن وكانت في تونس سوق لبيع الجواهر للنساء كى يكملن بها زينتهن. ويفصل القول فيما كان من تزيين النساء في ملابسهن لذلك العصر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب قائلاً: «أهم ما ورثت النساء عن أمهاتهن بالمهدية في ذلك العصر أنواع من الكساء والتطريز بالحريز على الثياب الداخلية مثل القمجة وغيرها، ومنها أنواع من الوشاح والحواشى الحريرية المزركشة بألوان متغيرة، ومن هذه الحواشى تحلى صدور بعض الثياب النسائية، وهى تحفة فنية». ويقول في موضع آخر عن حجاب النساء في الساحل التونسي إنهن عند خروجهن من بيوتهن يرتدين إزاراً أسود ولا يتركن ظاهراً من وجوهن إلا العيون.

### (ب) الأعياد

كتب ابن أبي دينار في كتابه: «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» فصلاً<sup>(١)</sup> طريفاً عن الأعياد في تونس وأن أهلها كانوا يخرجون فيها للزهوة والتملى بمواطن الجمال في ضواحي تونس، ويستهلها بعيد عاشوراء في اليوم العاشر من المحرم، وفيه ينفق التونسيون أموالاً طائلة في الأطعمة والفواكه والحلواء، وعادة في اليوم التاسع السابق له يطعمون الدجاج ويتحلون بالدودة وهى مثل الكنافة عند المصريين ويعبرون عما يأكلون من ذلك بقولهم: «الفطير

(١) انظر الفصل في أواخر كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار.

وما يطير» وما يطير الدجاج والفطير الدويذة. ومن رأى هذا العيد في تونس رأى العجب، فالحوانيت - وخاصة حوانيت الفواكه - تزين. وعادة يخرج الناس زكاة أموالهم في هذا اليوم، ولذلك يتكاثر فيه الإنفاق على المآكل والمشرب، وكل ينفق بقدر استطاعته ويبيع من آلات الطرب والملاهي للصبية ما يفوت الحصر.

ومن ذلك عيد المولد النبوي الشريف لسيد الكائنات ﷺ، وأول من عنى بإقامة الاحتفال به بين حكام الدولة الحفصية أبوفارس عبد العزيز في مطلع المائة التاسعة للهجرة، وأصبح ذلك تقليدًا سنويًا في ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول كل عام إذ توقد القناديل وتضاء الشموع وتزين المكاتب ويقام احتفال عظيم بدار نقيب الأشراف يحضره القراء والفقهاء والناس من أطراف البلد ويتعالى الغناء والأشعار والأناشيد بالمدائح النبوية، ويظل الاحتفال بهذا العيد في بعض زوايا تونس خمس عشرة ليلة متوالية تنشد فيها مدائح الرسول الكريم، ويهرع الناس للتفرج. وتُصنع في أثناء ذلك الأطعمة الفاخرة احتسابًا لوجه الله تعالى وقربي لحبيبه خير البرية.

ومن ذلك عيد الربيع أو عيد النيروز في أول مايو من كل عام، ويقول ابن أبي دينار إنهم كانوا ينفقون فيه أموالًا تفوت الإحصاء ويتفاخرون بصنع أطعمة باهظة التكاليف من مثل المرقاز، ويقول برتشفيك إنه نوع من النقانق، ويكثر من شراء الفواكه والرياحين والبقول، ويقول إن ما يباع في هذا اليوم من الفواكه والخضار والرياحين يبلغ مقدار ما تشتريه تونس في عام، ويذكر أنهم يجعلون من ذلك حوانيت في منازلهم يعلقون فيها جميع البقول والرياحين، ويقول إنهم يتجاوزون ذلك إلى الغناء وآلات الطرب فيجتمعون عند مكان يسمى بالوردة، وفيه يحتشد أهل الخلاعة والمجون من مغان ومطربين ومشعوذين، ويذهب كثيرون من أهل تونس للفرجة عليهم وشراء ما يُعرض من فاكهة وحلوى.

ويذكر ابن أبي دينار أنه كانت تقام أعياد في ليلة النصف من رجب والسابع والعشرين منه وليلة النصف من شعبان والسابع والعشرين منه. وكانت ليالي شهر رمضان تعدُّ عيدًا كبيرًا، وكانوا يحتفلون بها غاية الاحتفال ويقومون بواجب رمضان وواجب حقه أتم القيام، ويختم الإمام القرآن العظيم في صلاة التراويح بأغلب المساجد. وكان يقام احتفال كبير حين يختم صحيح البخاري، ويذكر ابن أبي دينار أن المنادى كان ينادى في سوق تونس بأن الختم لصحيح البخاري غدًا صباحًا أو عشية فيتسارع النساء والصبيان والخواص والعوام لذلك. وكان هذا نفسه يحدث في القاهرة حين تختم قراءة صحيح البخاري في الليالي الأخيرة من رمضان.

(ج) الموسيقى<sup>(١)</sup>

عقد الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب في الجزء الثاني من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» مبحثاً طويلاً رائعاً عن الموسيقى وآلات الطرب في القطر التونسي ذكر فيه أنه ليس لهذا القطر مآثر قديم ذو بال في الموسيقى، وأنه يتصل فيها مباشرة بالعرب. وقد عرف عن الفاتحين الأولين طريقة الحُداء التي اشتهر بها العرب من قديم، حتى إذا تولاه المهالبة وخاصة يزيد بن حاتم (١٥٤ - ١٧٠ هـ) استحالت القيروان إلى مركز نشاط أدبي عمن استقدمهم معه من الشعراء والمغنين من بغداد، فعُرفت من حينئذ بالقطر التونسي آلات الطرب مثل الطنبور والمزاهر (الدفوف) وشبّابات القصب. وازدادت في القيروان المعرفة بالغناء وآلات الطرب حين نزل بها زرياب على زيادة الله الأغلبى سنة ٢٠٥ وظل لديه أشهراً قبل رحلته المشهورة إلى قرطبة، وزيادة الله يستمع إلى ألعانه. ويُظنُّ أنه أخذت بعض الجوارى في القصر عنه شيئاً من تلاحينه، وما نلبث أن نسمع بأن في القيروان حياً خاصاً للملاهى والطرب، يقصده أهلها للفرجة وكان مجمعا للمغنين والضاربين على الآلات الموسيقية، وكان أهل الخلاعة والمجون يختلفون إليه، ويذكرون من أسماء المغنين فيه قاسما الجوعى وأبا شرف. ونغضى إلى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١-٢٨٩ هـ) فنجده يرسل سفارات متعددة إلى المشرق لتجلب إليه صفوة من العلماء والموسيقين ليحدث في رقادة - التي شادها بجوار القيروان - نهضة علمية وموسيقية، وجُلب إليه من بغداد مغن اسمه مؤنس، لُقن غناءه جوارى القصر في رقادة عاصمة الأغالبة وهو يقوم فيها مقام زرياب في قرطبة عاصمة الأمويين، وجُلبت لزيادة الله الأصغر آخر الأغالبة جوارٍ يُحسنُ الغناء من بغداد. ويتكاثر هؤلاء الجوارى المغنيات كما يتكاثر المغنون أو قل يأخذون في التكاثر لعهد العبيدين، وتتسع الموجة في عهد الدولة الصنهاجية وما كان في قصورها من مجالس الأانس ويشترك في الغناء غير تونسى يتقدمهم عبد الوهاب حاجب المنصور الأمير الصنهاجى (٣٧٤ - ٣٨٦ هـ) وكان شاعراً ويتغنى في شعره ويلحنه، ويتحدث مراراً مؤرخ القيروان إبراهيم الرقيق عن مجالس غنائه. ويفد على يحيى حفيد المعز بن باديس في عاصمته المهديّة (٥٠١ - ٥٠٨ هـ) أمية بن أبى الصلت الشاعر الأندلسى، وكان متقنا لعلم الموسيقى الأندلسية، فنقل إلى المغنين في المهديّة ألحان المغنين في الأندلس، ولحن لهم - على أساسها - الأغاني الإفريقية، ومن حينئذ أخذ الغناء في إفريقية التونسية وما يصحبه من موسيقى يزدهران، وما لبثت الهجرات الأندلسية المارة بنا - فيما أسلفنا -

وما به من مراجع وبرنشفيك ٤٣٢/٢ وما بعدها  
ووصف إفريقيا للحسن الوزان ص ٤٥٣-٤٥٤.

(١) انظر في الموسيقى الجزء الثاني من كتاب  
ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية

لعهد الدولة الحفصية أن زادت بها ازدهاراً. ومما يدل على هذا الازدهار في العهد الحفصي أنه كان للجيش فيه فرقة موسيقية تصحب أمير البلاد الحفصي في حفلاته وتنقلاته تمشي وراء الأعلام السلطانية تدق الطبول وتتفخ في البوقات، وذكر برنشفيك أن السلطان أبا فارس الحفصي (٧٩٥-٨٣٣هـ) ألغى ضريبة كانت تؤخذ من الموسيقيين والمغنيات المحترفات، وأهدى ملك نابولي آلة أورجن إلى ابن السلطان عثمان سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م ويذكر الحسن الوزان أن السلطان الحفصي أبا عبدالله بن الحسن الذي زار تونس في عهده سنة ٩٢٢ للهجرة كان يعيش بين المطربين والمطربات في قصره وبساتينه. ولا يعنى الولاة العثمانيون بالموسيقى إلى أن تولى رمضان باي (١١٠٨-١١١٠هـ) إذ كان خبيراً بأنواع الموسيقى ذات الأوتار وذات المزامير، وكان عارفاً للألحان ولوعا بالغناء، وجلب من بلاد النصارى الآلة الموسيقية المعروفة باسم الأورجن وكان مغنيه «مزهود» يطربه بتلاحينه عليه.

وتزدهر الموسيقى بتونس في العهد الحسيني العثماني منذ عهد الباي محمد الرشيد (١١٦٩ - ١١٧٢هـ) وكان يتقن النظم بالشعر العربي، كما كان يتقن الضرب على مختلف الآلات الموسيقية مثل العود والكمنجة، وجعله ولعه بالألحان والإيقاعات يؤلف بين الأغاني الأندلسية المعروفة في تونس باسم المألوف والألحان التركية. وقد أدخل فيها من تلك الألحان البشرف وهو افتتاح اللحن واستهلاله. وكان للبايات احتفال موسيقى يقيمونه ليلة العيد في باردو، وكان أشبه بموكب موسيقى كبير، ويحضر فيه كبار الفقهاء، فإذا صُلِّي المغرب مُدَّ سماط بأنواع الأطعمة وألوان الحلوى، ويجلس الباي في صدر السماط وتتوالى طبقات المدعويين، وبعد برهة يجلس الباي ببهوه، ويجلس عن يمينه وشماله الفقهاء والكتّاب، ويصطف باقي الناس صفين عن اليمين وعن الشمال، وتوقد الشموع ويؤتى بالمجامر يفوح منها الطيب والمسك، ثم يدخل المغنون من الترك بآلاتهم فيغنون باللسان التركي برهة ثم يخرجون ويدخل بعدهم المطربون والمغنون بالغناء العربي. وظلت هذه المواكب تعقد في مواسم الأعياد بباردو حتى نهاية هذا العصر.

وبجانِب هذه الحركة الغنائية عند سكان الحضر، وخاصة في تونس كانت هناك حركة غنائية بدوية عند أهل الوبر التونسيين حملها إليهم - كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - بنو سليم وبنو هلال في هجرتهم الكبيرة، إذ ظلوا يحافظون على أغانيهم التي ورثوها عن أسلافهم في بوادي نجد والحجاز، وقد لقنوها في بوادي تونس بعض عبيدهم وأرقائهم من أصحاب الأصوات الشجيّة، لينشدوها في الأعراس مصحوبين بعازفي الشبابات وضاربي الطبول. ويقول الأستاذ عبد الوهاب إن لهم عزفاً يسمى طرُق الصيد أي صيد الأسد، يُعرَف به على الشبابة البدوية، وفيه يقصون أفاصيهم الغرامية في وصف رحلاتهم مع محبوباتهم



ويتخلّلون مقاطع الأقصوصة بطرّق حوافر الخيل للأرض ونبیح الكلاب وزئیر الأسد، للدلالة على تطور الأحداث في القصة أو في الرحلة الغرامية فراراً من الأهلین لعدم رضا الأب عن زواج المتحابین، وكأنهم یتمثلون فیها قصص الغرام النجدية التي كان یحرّم فیها الأب النجدی الزواج بفتاته أو ابنته على من یتغزل بها من شباب القبيلة كما هو معروف في قصة لیلی العامرية وعاشقها ابن عمها قیس المجنون بها غراما وهياما.

### (د) مكانة المرأة<sup>(١)</sup>

مرّ بنا في حديثنا عن الملبس في القطر التونسي أن النساء في تونس والمهدية كن يبالغن في العناية بزینتهن وعطرهن وهندامهن، ولا نريد أن نعرض لذلك وما یمانله مما یتصل بمظهرهن، إنما نريد أن نقف عند مدى إحساسهن بكرامتهن، ویُصور ذلك بوضوح ما یروی من أخبارهن، فمن ذلك ما تذكره الروایات عن أبي جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية فإن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) كان قد أقام عیونا على أسرة إبراهيم بن محمد حفيد عبد الله بن العباس وإخوته لما كان یتلغه من نشاطه ويعرفه فيه من الحزم وبعد النظر أو لعله كان یتوقع من أبناء الأسرة أن یفكر أحدهم في الثورة على خلافتهم الأموية، ولم یوعز إلى عیونه بتعقب إبراهيم بن محمد وحده بل أيضاً بتعقب أخويه السفاح وأبي جعفر المنصور ویبدو أن المنصور رأى أن یتعد - لفترة - عن أنظار هؤلاء العیون، واختار القيروان لنزول بعض أقربائه فیها وتصادف أن رأى في مقامه لديه فتاة تسمى «أروی» أعجب بها، فطلب یدها فاشترطت علیه أن لا یتخذ معها سراری أو جوارى، وإن تسرّی علیها كانت عصمتها یدها، وانفصلت عنه، كما تجرى بذلك عادة القيروانیات من قديم، وقيل أبو جعفر شرطها، وعاد بها إلى أهله. وتطورت الظروف، وأصبح خليفة، وأنجب منها المهدي الخليفة بعده وأخاه جعفرا والد زبيدة حفيدة أروی وزوجة ابن عمها هرون الرشید الخليفة بعد أبيه، وورثت عن جدتها حصافتها. وقد برّ المنصور بوعدة لأروی، فلم یتزوج علیها إلى أن توفيت سنة ١٤٦ للهجرة، وكان قد أقطعها ضیعة، فوقفتها - كما یقول الأستاذ حسن حسنی عبد الوهاب - على ذریتها من الأرامل اللاتي یموت عنهن أزواجهن، وكذلك على العوانس اللاتي لم یتزوجن، حفظاً لكرامتهن وصيانة لهن، وهي مأثرة وبر رفیع بفلذات الكبذ من البنات سجّلته أروی في تاریخ المرأة التونسية، كما سجّلت شعورها بالكرامة في صورة نبیلة.

(١) الثاني قطعة من تاریخ إفريقية والمغرب للرقيق القيروانی ص ١٢٠ وما بعدها وفي الموقف الثالث ولاية خفاجة بن سفیان في صقلية.

(١) انظر في الموقف الأول القسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنی عبد الوهاب وفي الموقف

وموقف كريم ثان لنساء القيروان عامة حين استنفر عبد الواحد بن يزيد الهوارى وعكاشة بن محسن الصفرية في الجزائر للهجوم على القيروان، وكان الصفرية قد اشتهروا بسفك الدماء وهتك الحرم وسبيهن، وكان عبد الواحد قد اقترب من القيروان في ثلاثمائة ألف، وأخذ حنظلة بن صفوان والى القيروان يستعد للقائه، وما إن أخذ يعد صفوف جيشه لهذا اللقاء حتى فوجيء بنساء القيروان جئن للتحريض على الجهاد والاشتراك في الحرب، يقول الرقيق القيروانى: «خرج نساء القيروان فعقدن الألوية، وأخذن معهن السلاح، وعزمن على القتال واستسبلن للموت مع الرجال، وحلفن لأزواجهن: لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتلنه» وحين سمع الناس هذا الوعيد والتحريض الشديد من النساء وطنوا أنفسهم على الاستشهاد، فالموت أولى بهم من عار سبائ زوجاتهم، وانتهاكهن وبيعهن في الأسواق بيع الإماء. والتحم القتال وتداعى الأقران والأبطال، وانتصر حنظلة والجيش ونساء القيروان، وقتل عبد الواحد وقتل من جموعه مائة وثمانون ألفا، وهى مفخرة باقية للمرأة التونسية لاستشعارها - إلى أقصى حد - كرامتها وحميتها للوطن استشعاراً يسجله لها التاريخ في الأزمنة الإسلامية الماضية.

وموقف كريم ثالث للمرأة التونسية لا فى القطر التونسي بل فى صقلية، فإن واليها خفاجة بن سفيان كان قد شدد الحصار على أهل طرميس سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م وكانوا ينازلون جيشه نزالا ضارياً ورأوا أن يقفوا الحرب وطلبوا من خفاجة وفدا للمفاوضة، فأرسل إليهم وفدا على رأسه زوجته لمفاوضتهم، وهى أول سيدة عربية تتولى السفارة بين قومها وأعدائهم، واستقبلوها بحفاوة، ونزلوا على إرادتها فيما وضعته لهم من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت سفارتها نجاحاً عظيماً، إذ حققت دماء المسلمين وسلمتهم مفاتيح مدينة بأكملها ودخلوها صلحاً، وابن هذه السيدة البطل محمد بن خفاجة هو فاتح مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م إذ أعد لفتحها أسطولاً قضى به على حاميتها الرومية، وظلت مالطة تابعة لصقلية إلى أن استولى عليها النورمان بعد نحو مائتين وثلاثين عاماً. ومعنى ذلك كله أن للمرأة التونسية تاريخاً مجيداً فى العصور الإسلامية يصور حصافتها وكياستها وشعورها بكرامتها إلى أقصى حد.

الدين<sup>(١)</sup>

كان بربر القطر التونسي - مثل بقية البربر في الأقطار المغربية - وثنيين يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها القرابين، وكانوا يقدسون كثيراً من الأحجار والأشجار، وكان القرطاجيون وثنيين مثلهم، ويبدو أنهم أخذوا يفسحون لليهود في النزول بقرطاجة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يلبثوا أن عملوا على نشر اليهودية بين البربر، ولم يعتنقها إلا قليلون من البدو، وأخذ اليهود يقدون على القطر التونسي بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد حتى إذا كان الفتح العربي أخذوا يتكاثرون - مع السنين - في القيروان حتى كان لهم فيها حارة - أو كما نقول الآن حَيّ - وكان لهم مقبرة خاصة بهم، وأيضاً كان لهم سوق يسمى سوق اليهود، وكان لهم معبد يؤدون فيه شعائرتهم الدينية، وكل ذلك بفضل الإسلام وما بثه في المسلمين من روح التسامح مع أهل الكتب السماوية، وصدوراً عن هذه الروح كان علماءنا المتعمقون في علوم الأوائل يفسحون لهم في التلمذة عليهم وفي أخذ ما عندهم من هذه العلوم وما أضافوه إليها، مما جعل نفراً منهم في القيروان يتزودون من معارف أطبائها المسلمين ما أتاح لهم أن يصبحوا من كبار الأطباء على نحو ما سنعرف في فصل الثقافة.

وكانت المسيحية قد أخذت تنتشر منذ القرن الثاني للميلاد في قرطاجة وبعض بلدان القطر التونسي عن طريق بعض القساوسة من قبض مصر الذين حاولوا الدعوة لها مبكرين، وبذلك عُرفت فيها - أو أسست - كنيسة العقيدة الأرثوذكسية المصرية. وبعد ذلك حين اعتنقت روما العقيدة المسيحية أخذت تعمل على نشرها لا في إيطاليا وحدها بل أيضاً في الولايات التابعة لها، واتسع العمل على ذلك منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه في روما على أزمة الأمور سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها في قرطاجة وإفريقيا، وبذلك أصبح للمسيحية في القطر التونسي كنيستان: الكنيسة الأرثوذكسية القبطية السابقة،

كتب التاريخ وخاصة البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان لابن ناجي ورياض النفوس للمالكي وتاريخ ابن خلدون وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب.

(١) انظر في اليهود والنصارى كتاب ورفات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب في مواضع متفرقة وبرنشفيك ٤٢٩/١ وما بعدها وكتاب تاريخ المغرب الكبير لدبوز وراجع في الحركة الإسلامية

وكنيسة روما الكاثوليكية. وكان في القطر التونسي - حين الفتح - مسيحيون كثيرون، إذ كانت الجاليات والحاميات الرومانية مسيحية، وكانت روما قد نشرتها قبل الفتح في بقايا السلالات القرطاجية وبين البربر، واعتنقها كثيرون من الشعب البربرى في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى المساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه، غير أنهم عادوا فوجدوها دين حكامهم من الرومان الذين يظلمونهم ظلما فادحا في الضرائب وغير الضرائب، فانصرفوا عنها إلا قليلا منهم، ومع ذلك ظل قساوسة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يدعون لها، وتغلغلوا بدعوتهم حتى بلاد الجريد التى كانوا يسمونها قسطنطينية. وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون من هؤلاء المسيحيين يدخلون في الدين الحنيف طواعية، وبدون أى إكراه، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية ومن كل ظلم مع محوه لجميع الحواجز الطبقيه والاجتماعية بين أفراد الأمة، فهم جميعا متساوون في كل الحقوق وكل الواجبات، وبذلك نفهم كيف أوشك الإسلام في القرن الأول الهجرى أن يقضى على المسيحية قضاء مبرما في القطر التونسي مع أن العرب طوال هذا القرن وبعده رخصوا للمسيحيين التونسيين تجديد كنائسهم وتركوا لهم منتهى الحرية في إقامة طقوسهم وشعائرهم الدينية. ولولا أن عناصر مسيحية ظلت تنزل البلاد من وقت لآخر لانمحت المسيحية من القطر التونسي - أمام المد الإسلامى - محوا تاما، وأول ما كان من ذلك استقدام حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشاء دار الصناعة بتونس، وبذلك ظلت الكنيسة الأورثوذكسية حية في القطر التونسي. ويجلب إبراهيم بن الأغلب آفا من الصقالبة لحرسه، وجلب حفيده إبراهيم بن أحمد رهبانا من صقلية للمساعدة في الترجمة بدار الحكمة التى أسسها، مما أتاح للكنيسة الكاثوليكية أن تظل حية هى الأخرى، ويجلب العبيديون بدورهم صقالبة وصقليين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن المسيحيين وفدوا بكثرة في عهد الدولة الصنهاجية، وخاصة أن أمهات بعض حكامها كن مسيحيات ويتمتعن بحريتهن الدينية. وكانت في تونس حارة خاصة بالمسيحيين ومقبرة أيضا خاصة بهم وكنيسة يقيمون فيها شعائرهم، وأخذوا يتكاثرون حين عظم نشاط أمراء البحر العثمانيين وكانوا أسرى حقا، ولكن الدايات كانوا يساعدهم في أداء شعائرهم الدينية، ويدل على كثرتهم حينئذ ما يقال من أن مراد باى قبل أن يتولى الولاية سنة ١٠٢٢هـ/١٦١٤م حين كان أميرا للبحر جلب لتونس في إحدى المرات اثني عشر ألف أسير أوربى مسيحي.

ويأخذ البربر في اعتناق الإسلام منذ فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح القطر التونسي سنة ٢٧ للهجرة، واستقر العرب في بعض مدنه وأنحائه، ولم يكن العرب غزاة فاتحين فقط بل كانوا يعدون أنفسهم - قبل كل شىء - ناشرين للإسلام وهداه في أطباق الأرض، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) حتى نجد في جيشه كتيبة بربرية كبيرة تبلغ اثني

عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تشترك في فتوحه وجهاده في سبيل الله. وهى رمز قوى لاندماج البربر في الإسلام، فإنهم لم يسلموا فحسب بل أصبحوا من دعاة الإسلام وحماته، وقد اشتركوا بقوة في جيش طارق بن زياد الفاتح لإيبيريا، ونفس القائد: طارق كان بربريا، وولاه موسى بن نصير والى إفريقية بعد حسان على طنجة، ثم كلفه بفتح إيبيريا سنة ٩٢هـ/٧١١م وأخذت انتصاراته تتوالى، واستمد موسى بن نصير، فلحق به على رأس جيش مزيج من العرب والبربر وتم لها اكتمال الفتح المبين.

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى، حتى يصبح البربر لا في القطر التونسي وحده، بل في جميع بلاد المغرب شعبا إسلاميا لا يودى شعائر الإسلام وفروضه الدينية فقط، بل أيضا يعمل على نصرته الإسلام ونشره لا في ربوع المغرب وجباله الوعرة وصحاريه المترامية فحسب، بل أيضا في إيبيريا بأوربا، وهو ما أذهل جماعة المؤرخين والمستشرقين الغربيين، فإن الرومان ظلوا يحتلون البربر قرونا متطاولة وظلوا يحاولون نشر المسيحية في ديارهم، ولم يجدوا بينهم آذانا صاغية، وما هى إلا أن يغزوهم العرب، وإذا هم يفتحون أذرعتهم وأفئدتهم للإسلام، فيصبحون في نحو نصف قرن شعبا إسلاميا، إذ وجدوا الإسلام محررهم من الظلم والاستعباد اللذين طالما ذاقوها في حكم البيزنطيين والرومان تحت ظل المسيحية سوى ما تحمله تعاليمه للشعوب من العدالة بين الناس والمساواة ومحو كل الفوارق الطبقية والجنسية. وانضافت إلى ذلك تطبيقات ولادة القرن الأول الهجرى عقبة بن نافع وابن أبي المهاجر وحسان بن النعمان وموسى بن نصير لتعاليم الإسلام ومبادئه في حكم البربر بحيث أصبح البربرى يشعر أنه عضو عامل - كبقية الأعضاء عربا وغير عرب - في أسرته الإسلامية الكبرى، فله ما للعرب من الحقوق، وعليه ما عليهم من الواجبات، فهو يتولى حكم هذه المدينة أو تلك، وهو يقود الجيوش الإسلامية في المغرب وخارج المغرب، لا فرق أى فرق بين بربرى وعربى.

وتوّج عمل ولادة القرن الأول الهجرى في نشر الإسلام بين البربر بالبعثة التعليمية التى أرسلها عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان سنة مائة للهجرة على رأسها إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر، وأسند إليه ولاية المغرب وكانت البعثة مكوّنة من عشرة من صفوة الفقهاء في الأمة أرسلهم عمر لتفقيه البربر والعمل على نشر الإسلام بينهم، وأهمهم بالإضافة إلى إسماعيل عبدالله بن يزيد المعافرى المعروف بالحلبى، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وسعد بن مسعود التجيبى، وكل منهم بنى في القيروان دارا لمسكنه ومسجدا لصلاته واجتماعه بالبربر يفقههم في الدين وكتّابا لتعليم الناشئة مبادئ العربية وتحفيظها القرآن الكريم. وبذل كل منهم أقصى ما يستطيع في نشر الدين الحنيف، يتقدمهم في ذلك

إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر، وفيه يقول ابن عذارى: «ما زال إسماعيل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام، حتى أسلمت بقية بربر إفريقية على يديه في دولة عمر بن عبدالعزيز، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام».

وعلى هذا النحو أصبح البربر في نهاية القرن الأول الهجري شعبا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة فهو يتغلغل في ذات نفوسهم، ويتعمق قلوبهم وأفئدتهم، وخلف عمر بن عبد العزيز خلفاء أمويون ضلوا السبيل فولّوا على القيروان وإفريقية ولاية طاعين باعين أخذوا يفرقون بين العرب والبربر في الخراج، مما جعل البربر يفكرون في مخرج من هذا الظلم الفادح، وسرعان ما أخذ الخوارج الصفرية والإباضية ينشرون مبادئ عقيدتهما الآخذة بتعاليم الإسلام في التسوية بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج. ونكّب البربر بتولية عبيد الله بن الحبحاب القيروان وإفريقية، وكان هو ونوابه في إفريقية جميعها بمنتهى الحمق والسفاهة، فتمادوا في التفرقة بين البربر والعرب، وأخذت جموع كثيرة في المغربين الأقصى والأوسط تنضم تحت لواء الصفرية، وكانوا متطرفين تطرفا شديدا يستحلون من المسلمين سفك الدماء وسبى النساء واسترقاقهن، وانضمت جموع أخرى تحت لواء الإباضية في جبل نفوسة ولم يكونوا يستحلون - مثل الصفرية - سفك دماء المسلمين ولا سبى نسائهم. وثار الصفرية بالمغرب الأقصى وتقدم جيشان لهم إلى القيروان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م يريدون الاستيلاء عليها وهُزما هزيمة ساحقة. ودخلت قبيلة ورفجومة الصفرية القيروان سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وأخرجها منها أبو الخطاب الإباضي سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولّى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضي، وسرعان ما نازل جيش عباسي أبا الخطاب وقضى عليه، وفر عامله عبد الرحمن بن رستم إلى الجزائر وأسس في تيهرت دولة إباضية.

وكل هذه الإمامات للإباضية والصفرية بالقيروان لم تترك بها أي أثر، وكأنها كانت سحابات صيف لم تكد تلم حتى أقلعت، ولا نسمع عن أي أحد من القطر التونسي اعتنق إحدى هاتين العقيدتين. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت دارا كبرى للسنة، ولم تأبه بتعاليم الصفرية والإباضية، وقد امتشقت الحسام ونازلت الأولين منازل ضارية كما مر بنا في الفصل الماضي، بل لقد دمرت جيشين لها ومحقتها محقا ذريعا. وأخذت القيروان في أواخر القرن الثاني الهجري وطوال القرن الثالث بمذهبين من مذاهب أهل السنة هما مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك، وكان للمذهب الثاني غير قليل من الغلبة لكثرة فقهاءه. وما إن تستقر الأمور في القيروان لبني عبيد الفاطميين حتى يعلنوا عقيدتهم الشيعية، وحتى يأمر عبيدالله المهدي أول خلفائهم بتعطيل تعليم الشريعة والفقهاء على مذاهب أهل السنة، ويريد مذهبي مالك وأبي حنيفة، ومنع شيوخ المذهبين من إلقاء دروسهم في جامع عقبة فكانوا يقرئون تلاميذهم إما في بيوتهم وإما في حوانيتهم، وكانوا قد اضطهدوا

محمد بن اللباد رئيس المالكية، وسجنوه، وعادوا فردوا إليه حريته وألزموه الاعتكاف في بيته، فكان تلاميذه يقصدونه خفية ويقرون عليه في بيته، وكان ربيع القطان يقرئ تلاميذه في حانوته الذي يبيع فيه القطن. وظل العبيديون يحاولون القضاء على مذهبي مالك وأبي حنيفة، وعلماء السنة يقاومونهم مقاومة حادة وينازلون دعواتهم منازلات ضارية، وكان الفقيه سعيد بن الحداد يقود هذه المنازلات في أيام عبيدالله المهدي، وسمع به وبإسكاته الدعاة وإلزامهم الحجّة، فاستدعاه - كما يقول المالكي في كتابه «رياض النفوس» - وعرض عليه الحديث النبوي: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» فقال له سعيد: هو حديث صحيح قد رواه أهل السنة، فالتفت إليه وقال له: فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له سعيد: أعزّ الله السيد، لم يرد (الرسول) ولاية الرّق، إنما أراد ولاية الدين، فقال له عبيد الله المهدي: هل من شاهد يؤيد كلامك من كتاب الله عز وجل، فقال له: نعم، قال الله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ ثم قال سعيد: فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلى لم يكن نبياً إنما كان وزير النبي ﷺ. وبذلك أفحمه، فقال له انصرف. ولم تقف المسألة في العقيدة العبيدية الفاطمية عند محاولة الخلفاء العبيديين استعباد الناس، فقد حاولوا إقناعهم بأنهم الصورة المجسدة للذات العلية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً إلى غير ذلك من ضلالاتهم التي صورنا أطرافاً منها في كتابنا - بهذه السلسلة - عن مصر. وظلت القيروان تقاطع عقيدتهم إلى أن انتقلوا إلى القاهرة وعادت لمذاهب أهل السنة نشاطاتها وخاصة مذهب مالك، ولم يلبث المعز الصنهاجي سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م أن حمل الناس والفقهاء على اتباعه، فظل هو المذهب السني الأساسي في القطر التونسي إلى اليوم، وحققاً اشترك معه المذهب الحنفي أيام العثمانيين، ولكن ظل هو المذهب السني للجماهير التونسية.

٥

### الزهد والتصوف<sup>(١)</sup>

هذا القطر أو هذه الدار التونسية الكبيرة للدين الحنيف أخذت تتحول سريعاً إلى دار

الفلسفي والسني ما كتبنا عنها في الجزء الخاص بمصر من هذا التاريخ للأدب العربي وكذلك انظر في هذا الجزء ترجمة أبي الحسن الشاذلي.

(١) راجع في الزهد والتصوف كتاب رياض النفوس في التراجم وكذلك طبقات علماء إفريقية لأبي العرب ومعالم الإيمان لابن ناجي، وبرنشفيك ٣٣٢/٢ وما بعدها. وانظر في المنزعين الصوفيين:

كبرى لعبادة الله الواحد الأحد، وأخذت المساجد تُبنى في كل بقعة وفي كل بلد، وكان الفاتحون يُقرئون البربر القرآن ويفقهونهم في الدين وينشرون تعاليم الإسلام وما يدعو إليه من العبادة والنسك، وقد تميز أفراد البعثة التي أرسل بها عمر بن عبدالعزيز سنة مائة للهجرة بالزهد في عرض الدنيا الزائل، وكان منهم إسماعيل بن عبيد الذي اشتهر في القيروان باسم تاجر الله، لأنه كان يتجر ويجعل ثلث كسبه لله، ينفقه في وجوه الخير، وهو يمثل شخصية زهاد الدين الحنيف الأولين. فهو يعبد الله ويفقه الناس في الدين، ويحفظ الناشئة القرآن في كتاب، وهو لا يعيش كلاً أو عبثاً على الدولة ولا عالة على الناس، بل يتجر ويكتسب من التجارة ما يقيم به أوده، ثم هو يقوم بالواجب الأكبر عليه للأمة: واجب الجهاد لأعدائها وأعداء دين الله، وبأخرة من حياته في القيروان حمل سيفه وخرج مجاهداً لإعلاء كلمة الله في صقلية وغرق في البحر المتوسط سنة ١٠٧ للهجرة. وولتقى بعده في القيروان بزهاد كثيرين تعنى كتب الطبقات بالترجمة لهم والحديث عنهم، ومن أهمهم في أواسط القرن الثاني الهجري رباح بن يزيد اللخمي، وكان زاهداً وعباداً ناسكاً، ونوه به طويلاً أبو العرب في الطبقات والمالكي في رياض النفوس. وبالمثل نوهوا بالبهلول بن راشد وزهده وورعه، وكان يعاصرها على بن زياد أول من أدخل كتاب الموطأ لمالك بن أنس إلى إفريقية التونسية، توفي سنة ١٨٣ للهجرة، وله كتاب في الزهد، وبالمثل لعبد الملك بن أبي كريمة مولى إسماعيل بن عبيد تاجر الله كتاب في الزهد، وكان من أهل الفضل والورع.

ومن أهم ما سجلته كتب الطبقات هؤلاء الزهاد الورعين أنهم كانوا دائماً يخرجون في وقت من السنة للعبادة في الرباطات والمحارس التي كانت متخذة على طول الساحل التونسي لإقامة المجاهدين المتربصين بالقراصنة الغربيين أعداء الله حين يغيرون فجأة في موضع على الساحل التونسي الطويل. ومعروف أن زيادة الله الأول الأعلى حين أعد حملته المشهورة لفتح صقلية في سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جعل قائدها أسد بن الفرات قاضي القيروان وكبير فقهاءها في زمنه. وفي ترجمة سحنون أكبر فقهاء القيروان بعده أنه كان يرباط وقتاً في السنة بالقرب من ميناء سوسة، ومع أنه كان على شيء من الثراء كان يتخشن في ملبسه ومطعمه مع الورع الصادق والزهادة في الدنيا، وكان ابنه محمد الذي خلفه في حلقة لإقراء الطلبة يخرج وقتاً في السنة - مثل أبيه - للمرابطة وحراسة المسلمين، وتروى له مَقْتلة في قرصنة الروم، فقد تصادف أن لقيهم ذات مرة وقد أشرفوا - في غيبة الرجال - على نهب بعض الأموال وسبي الحريم فتقلد سيفه وأخذ بيده رحمة وامتطى جواداً له، وراه بعض المرابطين فأسرعوا إليه، وكبر وكبروا معه، واشتبكوا في حرب مع القراصنة، وأجهزوا على بعضهم، ففرت بقيتهم هاربة إلى البحر المتوسط وما وراءه. وإنما نسوق ذلك لندل على أن الزهاد والنسك في الحقب الإسلامية الأولى لم يكونوا



يعيشون للزهد وعبادة ربهم فقط، بل كانوا دائما يحملون السلاح ويتقدمون الصفوف في حرب أعداء الله والوطن، مؤمنين بأن جهاد أعداء الله لا يقل عن عبادته نسكا وقربى إليه. ولم يكونوا يعيشون عالة على المجتمع، بل كانوا دائما يحترفون حرفا تدبر عليهم أرزاقهم، على نحو ما مر بنا آنفا عند إسماعيل بن عبيد تاجر الله.

وأخذ هؤلاء الزهاد والعباد يتكاثرون في القيروان أثناء القرن الثالث الهجرى، حتى لئراهم يتخذون مسجدا سموه مسجد السبت، كانوا يقصدونه يوم السبت للذكر والعبادة، وكانوا ينشدون فيه الأشعار بتطريب فرادى وجماعة، وكان ذلك كان مقدمة لما سيصير إليه ذكر الله في البلدان المغربية، إذ سيصبح اجتماعات دورية للذكر في المساجد والزوايا بعد أن كان مرتبطا بجهاد أعداء الدين والوطن ومراقبتهم على الساحل التونسي الطويل في الرباطات والمحارس الكثيرة التي كانت تُعدّ بالعشرات. وحاول - مبكرا - يحيى بن عمر الكنانى المتوفى سنة ٢٨٩ للهجرة أن يقاوم الاجتماع المار للذكر في مسجد السبت، فألف كتابا يردهم عن هذا الطريق الذى ابتدعه ولم يستجيبوا إليه.

ومن يقرأ التراجم فى كتاب رياض النفوس للمالكى المتوفى سنة ٤٧٢ للهجرة وكتاب معالم الإيمان للدباغ وذيله لابن ناجى المتوفى سنة ٧٣٨ يلقاه كثير من الزهاد النسك وخاصة بين الفقهاء والتقاء، وأخذ التصوف ينشط فى الدولة الحفصية منذ مؤسسها أبى زكريا، وكان ورعا تقيا، وكان كلما بنى مسجدا نهض بأول أذان فيه قُربى لربه، وبنى أمراء الدولة كثيرا من المساجد فى تونس وبلدانها. وأخذ التصوف ينشط فى عهد تلك الدولة، وكان بعض أئمة الأندلسيين ينزلون القطر التونسي قبل تلك الدولة فى القرن السادس الهجرى، ومن نزل بها منهم أبو مدين شعيب، وهو من إشبيلية، أجاز البحر إلى المغرب، فاشتهر به خبره فى التصوف والنسك، وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م وله فيها زاوية كبيرة، وله أتباع كثيرون، وكان قد نزل بتونس فترة، وتبعه فى طريقته الصوفية غير تونسى، منهم أبو سعيد خلف بن يحيى التميمى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م والمدفون ببلدة جبل المنار بالقرب من قرطاجة، والبلدة مسماة باسمه وفى رأى أن أبا مدين كان ينزع فى تصوفه المنزع الفلسفى، وهو المنزع الذى بدأه الحلاج والذى كان أصحابه يؤمنون بالاتحاد بين المخلوقات والخالق جل شأنه أو بعبارة أخرى بين الإنسان وربه، واقترن بذلك الإيمان بالفناء فى الذات العلية، والباحثون فى هذا المنزع، منهم من يقف عند الظاهر من عبارات أصحابه وأشعارهم فينسبونهم إلى القول بالاتحاد مع الذات الإلهية وأكثر من ذلك بالحلول وأن الله يحل فى الإنسان وجزئيات الطبيعة، ويؤثر عن أبى مدين أنه كان يقول: «بى قل، وعلى دل، فأنا الكل» والعبارات قد تفسر بأن أبا مدين يؤمن بالاتحاد فى الذات العلية وحلها فيه وقد تفسر بأنه إنما يؤمن بالفناء فى الذات الربانية. وزار تونس بعده من أصحاب

المنزح الصوفي الفلسفي ابن عربي المرسى الأندلسي الناشئ بإشبيلية والمتوفى بدمشق سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وهو من أئمة هذا المنزح، وظل في تونس فترة أُلّف فيها كتابه: «الدوائر الإحاطية في مضاهاة الإنسان» ونظن ظنا أنه خَلَف بتونس بعض مريديه المعجبين به وبمنزعه.

ومن المؤكد أن هذا المنزح الصوفي الفلسفي لم يكتب له الشيوخ والانتشار في تونس، إنما الذي كُتِب له ذلك المنزح الصوفي السنّي الذي لا يؤمن أصحابه بحلول الذات العلية في جزئيات الكون ولا باتحادها معها أو مع الإنسان ولا بالفناء في الذات الربانية، فحسبهم محبة الله وذكره وتسيحه، وقد قام على هذا المنزح في القرن الخامس عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م والإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية السنّية في الظهور أثناء القرن السادس الهجري، ومن أهمها طريقتان: القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني مولدا الحسيني نسبا نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والطريقة الأحمدية أو الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي البغدادي المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م. ورحبت البلاد الإسلامية بهاتين الطريقتين، وأخذت تضيف إليها طرقا صوفية سنّية جديدة، وتجرد شيخ تونس هو الشاذلي أبو الحسن علي بن عبد الله الحسيني المنسوب إلى بلدة شاذلة بالقرب من مدينة تونس المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م لإنشاء طريقة صوفية سنّية، بجانب الطرق التي عمت وشاعت في البلدان العربية، وأخذ يحاول نشرها في تونس، وتبعه مريدون كثيرون رجالا ونساء، منهم على القرجاني وحسن السيجومي ولأ (السيدة عائشة المنوبية) المتوفاة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وهي من قرية منوية غربى مدينة تونس ولها زاوية كبيرة، ولبعض النساء ببلدتها اعتقاد فيها، ولذلك يزورها ويتوسلن بها لحاجاتهن: حمل وغيره. وفي تونس تعرف بتلميذه أبي العباس المرسى، وصحبه مع جمع من مريديه إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وسرعان ما أصبحت طريقته أهم الطرق الصوفية السنّية بمصر. وظلت طريقته حية بتونس مع طريقة القادرية السابقة لها، ومع طرق أخرى وفدت على تونس من المغربين الأوسط والأقصى مثل طريقة التجاني والطريقة العروسية للشيخ أحمد بن عروس المتوفى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م وله في تونس زاوية كبيرة.

وقد تكاثرت زوايا المتصوفة في تونس والأقطار المغربية كثرة مفرطة، وتحولت في الحقب المتأخرة إلى ما يشبه تكايا ينزلها مع الدراويش الجوالين كثير من المشعوذين الدجالين، وكان منهم من يدعى لنفسه الكرامات وأنه من أولياء الله، والله براء منه لانحرافه عن جادة الدين والتصوف السنّي الحقيقي.

## الفصل الثالث

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية<sup>(١)</sup>

(أ) فاتحون مجاهدون معلمون

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر للخليفة عثمان في جيش للمسلمين عداده عشرون ألفا للاستيلاء على إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/٦٤٧م والتقى بجيش والى بيزنطة الثائر عليها والمستقل بالبلاد: جريجوريوس وكان في مائة ألف من الروم والبربر، ونصر الله المسلمين، وقُتل جريجوريوس في المعركة وسحق جيشه سحقاً، وأخذت مدن إفريقية التونسية تفتح أبوابها للمسلمين. وعادة يذكر المؤرخون هذا الفتح المبين ولا يتحدثون عن جنوده وأنهم كانوا جنود الدين الحنيف خرجوا وحاربوا جهادا في سبيل نشره، بقيادة ابن أبي سرح أحد كتاب الوحي ومعه في المقدمة العبادلة: عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ويقال أيضا كان معهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن مسعود، ولذلك سمي جيش العبادلة وكلهم من تقاة الأمة الورعين. لم يخرجوا إلى إفريقية التونسية ابتغاء دنيا، إنما خرجوا للجهاد في سبيل الله ونشر دينه الحنيف في أرجاء إفريقية، وبضربة من يد عبد الله بن الزبير قتل جريجوريوس وبضربات من أيدي زملائه العبادلة وأيدي جند الدين الحنيف المجاهدين في سبيله انهزم الجيش الضخم ومن بقي من عساكره أصابهم رعب شديد واعتصموا بالمعاقل

للسيرافي وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي وانظر في جامع عقبة والزيتونة معالم الايمان لابن الدباغ وابن ناجي وكتاب ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وانظر المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار.

(١) انظر في الفاتحين المعلمين كتب التاريخ مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وقطعة من تاريخ إفريقية للرقيق القيرواني (طبع في تونس) ومقدمات الجزء الأول من رياض النفوس وراجع في النشأة العلمية طبقات أبي العرب والبيان المغرب لابن عذارى والحلة السيرة وأخبار النحويين البصريين

والحصون، ولم يلبثوا أن جاءوا إلى ابن أبي سرح مستسلمين طالبين الصلح فصالحهم، ودانت إفريقية التونسية للدين الحنيف وجنوده.

ونجد عند الفاتحين دائما هذا الشعور بأنهم مجاهدون في سبيل الله، فابن أبي سرح قبل منازلة جريجوريوس يخطب في الجيش محرضا على الجهاد، إنه ليس فتحا ولا غزواً إنما هو جهاد في سبيل إعلاء كلمة الدين الحنيف، ودائما نجد هذا الشعور ماثلا في أذهان الفاتحين وكان أول من تعمق في البلاد المغربية مجاهدا في سبيل الله حتى المحيط الأطلسي عقبة بن نافع، وقد أدخل فيه قوائم فرسه ورفع وجهه إلى السماء مناجيا ربه بقوله: «اللهم إني أشهدك أني وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يعبد أحد سواك» فهو وجنوده لم يكونوا غزاة للمغرب الأقصى يجمعون منه الغنائم، إنما كانوا جنوداً لله يريدون أن ينشروا دينه إلى أقصى الأرض المعمورة. وتوفي عقبة وثار كسيلة، ودخل بجموعه القيروان، وقتل زهير بن قيس القائد بعد عقبة به وبجيشه حتى إذا دان له المغرب أبي أن يظل حاكما له، وعاد إلى المشرق قائلاً: «إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن تميل نفسي بي إلى الدنيا فأهلك». فقيادة الجند الفاتحين للمغرب والجند أنفسهم لم يكونوا طلاب دنيا إنما كانوا مجاهدين يبتغون نشر الإسلام طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة، وهم لذلك لا يبالون بالموت، فقد باعوا أنفسهم لله، صفقة كللت غزواتهم في الفتوح الإسلامية بالانتصارات الحاسمة.

وتتضح خلال ذلك صفة ثانية لهم هي أنهم ناشرون للإسلام، فليس همهم من فتوحهم تملك الأرض وما عليها من طيبات الرزق، إنما همهم تملك القلوب للدين الحنيف، وهم لذلك يحاولون - كل بقدر إمكانه - تعريف البربر به وبتعاليمه، وأخذ يستجيب لهم البربر، لما وجدوا في عقيدته من بساطة، إذ لا تعدو الإيمان بوحداية الله. وليس فيها فكرة التثليث المعقدة عند النصراني، والله رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو عالم قادر شمل علمه - وشملت قدرته - كل ما في الكون، والمسلمون عربا وبربرا سواسية في جميع الحقوق والواجبات مع العدل المطلق الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه، ومع نحو جميع الفروق الطبقي والاجتماعية بين أفراد الأمة، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية. وقد أخذ هذا الجند الفاتح للمغرب المجاهد في سبيل الله يحاول - بكل ما يستطيع - نشر هذا الدين، فهم يحفظون البربر شيئا من القرآن، وهم يقفونهم على تعاليم الإسلام وهديه، وبذلك كانوا معلمين للبربر كما كانوا مجاهدين. ونجح تعليمهم سريريا، وأخذت جماعات كثيرة من البربر تعتنق الدين الحنيف لا اعتناقا ظاهريا، بل اعتناقا يتعمق منها القلوب والأفئدة، فإذا هي تخلص له، وإذا هي تحمل السلاح لنشره وحرب أعدائه وأعداء الله، فمن ذلك ما يقال في ولاية أبي المهاجر الإفريقية (٥٥-٦٦ هـ) من أن قبيلة أوربة اتحدت مع جيشه في الاستيلاء على الساحل الشمالي للجزائر. ويصبح البربر جزءا

لا يتجزأ من الجيش العربي لعهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ نراه يعين ابني الكاهنة التي قادت ثورة عنيفة ضد المسلمين قائدين في الجيش بعد إسلامها، وأدخل فيه كتيبة من البربر عداها اثنا عشر ألفا، وبذلك لم يعد في الجيش أى فارق بين العرب والبربر، فهم يجندون فيه ويتولون قيادة بعض فرقه الكبيرة. ويتولى بعده موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فيتخذ من البربر ولاية وقوادا مثل طارق بن زياد فقد ولاه طنجة ثم جعله قائداً للجيش الفاتح لإيريا وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألف جندي عربي واثني عشر ألف جندي بربري، وأمر موسى الجنود العرب أن يعلموا إخوانهم جنود البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين كما يقول ابن عذارى، وفي رواية أخرى: أن موسى ترك سبعين رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهؤلاء السبعون فقيها لا يعدون شيئا بالقياس إلى ما حدث حتى تاريخ ولاية موسى بن نصير من اندماج المغرب في الأمة الإسلامية. إذ أصبح يدين بدينها القويم ويتكلم كثيرون من أهله بالعربية وهو عمل ضخم لا ينهض به سبعون فقيها، إنما نهضت به الجيوش العربية الفاتحة للمغرب التي خرجت إليه للجهاد في سبيل الله، ولنشر دينه وتعاليمه، مما يجعلنا نزعم أن هؤلاء الجنود كانوا مجاهدين في نشر الدين الحنيف بالمغرب من جهة ومعلمين لأهله القرآن وتعاليم الإسلام من جهة ثانية.

#### (ب) النشأة العلمية

أخذ ينشأ في القيروان وتونس - منذ أواخر القرن الأول الهجري - جيل من مواليد إفريقية التونسية يكبُّ على حلقات العلماء الوافدين من المشرق ينهل منها مثل عكرمة مولى ابن عباس المفسر المشهور، ويقول المالكي في رياض النفوس إن مجلسه كان في مؤخر جامع عقبة في القيروان حيث كان يلقى دروسه على الناس في التفسير والحديث ومات سنة ١٠٥ للهجرة. وذكرنا في غير هذا الموضوع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى القيروان بعثة تعليمية مكونة من عشرة فقهاء اختارهم، ليفقهوا الناس في الدين وما يتصل به من تفسير للذكر الحكيم ومن شرح لبعض الأحاديث النبوية، وهم: إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي، وجعيل بن عمير، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري، وعبدالله بن يزيد المعافري، وسعد بن مسعود التجيبى، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى، وحبان بن أبي جبلة القرشى، وبكر بن سودة الجذامى، وموهب بن حُيى، وطلق بن جابان الفارسى. وأسند إلى ابن أبي المهاجر - بجانب عمله الدينى - ولاية إفريقية والمغرب كما أسند إلى جعيل بن عمير قضاء الجند، وبمجرد أن نزلوا القيروان اتخذ كل منهم داراً لسكناه ومسجداً لصلاته وتعليم الناس أمور دينهم وسنة رسولهم. وهؤلاء المعلمون الرسميون للدولة كان يشترك معهم في تعليم الشباب علماء آخرون من أهمهم يحيى بن سعيد الأنصاري الذي أرسله عمر بن العزيز عاملاً على الصدقات،

وكان محدثا كبيرا ومن روى عنه الحديث الأئمة أبو حنيفة ومالك والليث بن سعد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام. وقد نزل مدينة تونس وأخذ عنه شبابها الحديث يتقدمهم خالد بن أبي عمران التجيبى قاضى القيروان وزميلاه عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد.

والثلاثة من تلامذة يحيى بن سعيد الأنصارى والمعلمين العشرة الذين أرسلهم إلى القيروان عمر بن عبد العزيز وقد رأوا أن لا يكتفوا بما أخذوا عنهم بل ينبغى أن يضيفوا إلى ذلك رحلة علمية إلى مصر والحجاز والعراق للأخذ عن كبار الفقهاء والمحدثين وحملة العلم في تلك الديار. ولفت خالد بن أبي عمران التجيبى أنظار الليث بن سعد وعبدالله بن هبة في مصر ومالك إمام الحجاز، ورووا عنه بعض أحاديث، وهى في موطأ مالك مأخوذة عنه بسند يحيى بن سعيد المذكور آنفا. وعبدالرحمن بن زياد تولى القضاء بالقيروان مرتين كان أبوه من جند حسان بن النعمان ولد له سنة ٧٤ للهجرة وتوفى سنة ١٦١ وحل للقاء العلماء والمحدثين في مصر والشام والعراق والحجاز وعنه روى الحديث الفقيهان المصريان ابن هبة وابن وهب كما رواه عنه سفيان الثورى العراقى. وعلى بن زياد التونسي معاصره رحل بدوره إلى المشرق وتعلم في مصر لليث بن سعد وابن هبة وفي العراق لسفيان الثورى وحمل عنه كتابه المعروف باسم جامع سفيان وفي المدينة تتلمذ لمالك، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ في الفقه المالكى إلى المغرب، وكان يعاصره من الشباب العلمى في القيروان عبدالله بن فروخ الذى ثقف الفقه والحديث على شيوخ القيروان، ورحل إلى العراق ولزم أبا حنيفة فترة، ثم رحل إلى الحجاز ولقى مالك بن أنس وكان يكتابه، وهو أول من نشر فقه أبى حنيفة في القيروان.

وهذه النشأة للعلوم الدينية رافقتها في إفريقية التونسية نشأة العلوم اللغوية لسبب طبيعى، وهو أن من يريد حفظ القرآن ورواية الحديث النبوى لا يمكنه أن يتقن ذلك إلا إذا وقف على سُنن العربية وكانوا يستعينون على ذلك في أول الأمر برواية الأشعار، وكانت مدينتنا البصرة والكوفة جادتين في القرن الثانى الهجرى في وضع قواعد العربية، وولى القيروان والمغرب يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) وكان بحرا فياضا وصحب معه إلى إمارته المعمر بن سنان التميمى، وكان - كما يقول ابن الأبار في ترجمته بالحلة السيرة - من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» ومن صحبه يزيد كاتم سره أبو على الحسن بن سعيد البصرى، وهو من النحاة البصريين وكتاب الدواوين. وكان يزيد غيثا مدرارا في الجود والعتاء، كما ذكرنا، فأمه غير شاعر، كما أمه أو وفد عليه غير عالم نحوى ولغوى، ومن أمه يونس بن حبيب إمام البصرة في النحو واللغة، وتسامع به شباب القيروان فأكبوا عليه يأخذون عنه ما عنده، ووفد على يزيد من الكوفة قتيبة الجعفى وهو من نحاتها، وقد أفاد منه الشباب القيروانى وانتفعوا به، ووفد عليه

أيضا عياض بن عَوانة الكلبى النحوى الكوفى سنة ١٥٥ فرحَّب به، وخصَّه بتعليم أولاد أسرته وعنه أخذ أبناء القيروان النحو والعربية. وأخذ ينشأ في القيروان سريعا جيل يعنى برواية الأشعار والأخبار كما يعنى باللغة والنحو على شاكلة أمان بن الصمصامة بن الطرماح الطائى الشاعر المشهور في العصر الأموى، وكان الصمصامة هاجر إلى القيروان في أوائل القرن الثانى، وولد له فيها أمان، وكان راوية للغة والشعر كما يقول ابن حزم، وتتلذذ له كثيرون من شباب القيروان في النحو واللغة والأدب. وما نصل إلى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى يصح للقيروان نحاة بالمعنى الدقيق لكلمة نحاة من مثل عبد الملك المهري تلميذ أمان وعياض بن عوانة وغيرهما من النحاة والرواة، ويتكاثر النحاة في جيله وجيل تلاميذه.

(ج) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - جامعا عقبة والزيتونة - بيت الحكمة - الزوايا - المدارس

منذ استقر العرب في القيروان والبلدان بإفريقية التونسية أخذت تنشأ كتاتيب لتحفيظ الناشئة القرآن وتعليمهم مبادئ العربية - حتى يحسنوا أداء الآيات القرآنية - والأحاديث النبوية. ويبدو أنها أخذت تتكاثر منذ عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) وكان يتعلم فيها أبناء البربر والعرب جميعا، وظلت أساس التعلم في البلاد، مثلها في ذلك مثل جميع البلدان العربية، وتنبه الفقيه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة إلى أهمية التعليم في الكتاتيب وما ينبغى أن يؤخذ به في هذا التعليم من آداب ومن صفات في المعلمين وطرائق معاملتهم للناشئة، مما جعله يكتب فيه كتابا بعنوان «آداب المعلمين» وفيه يرسم لهم قواعد التربية للناشئة من أبناء المسلمين، وما ينبغى أن يتصفوا به في السلوك معهم وواجبات المعلم إزاءهم وأخذه لهم بالنهج السليم، وعنى بنفس الموضوع بعده أبو الحسن القابسى المتوفى سنة ٤٠٣هـ إذ ألفت فيه كتابا باسم «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» وهو أوسع من كتاب محمد بن سحنون وأكثر تفصيلا، وفيه تحدث عن آداب معلم الإناث وما يصلح أن يعلم للناشئة وما لا يصلح وسياسة المعلم في تعليم الصبية إلى غير ذلك من موضوعات طريفة.

وكانت الدار الثانية للتعليم بعد الكتاب المسجد، حيث كان الشيوخ يتحدثون في التفسير والحديث النبوى والفقه واللغة العربية والناس يتحلقون حولهم كما تتحلق الناشئة والشباب للتعلم وأخذ ما لديهم من تعاليم الدين وعلوم الإسلام والعربية. وقد أخذت تبني في القيروان وتونس وغيرها من البلدان مساجد كثيرة، ومرَّ بنا أن جميع أعضاء البعثة التى أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القيروان لتعليم الفقه والتفسير والحديث النبوى بنى كل منهم مسجدا وألحق به كتابا. أما الكتاب فلتحفيظ القرآن، وتتعدّد الصلاة في المسجد، ويجلس الشيخ في جانب منه يلقي بعض دروسه الدينية.

وهناك مسجدان بل جامعان كبيران تحولاً مع السنين إلى جامعتين عظيمين، وهما جامع عقبة بن نافع في القيروان وجامع حسان بن النعمان في تونس المسمى جامع الزيتونة، والجامع الأول بناه عقبة في تأسيسه للقيروان بين سنتي ٥٠ و ٥٥ للهجرة وجدده حسان بن النعمان في ولايته (٧١-٨٦هـ) وازداد العمران في القيروان وضاق بأهلها فوسعه عبيدالله بن الحبحاب في ولايته (١١٦-١٢٢هـ). ومنذ أنشئ هذا الجامع يتخذة الشيوخ من أهل العلم لمدارسة الناس في علوم الدين وتحول سريعاً مركزاً للعلوم الدينية يوم شيوخه الطلاب من كل أنحاء المغرب فضلاً عن أرجاء إفريقية التونسية، ولم يتأخر ذلك إلى القرن الثاني الهجري بعد توسعة ابن الحبحاب له، كما قد يظن، إذ بدأ ذلك فيه منذ إنشائه في القرن الأول، يدل على ذلك ما ذكره أبو العرب في طبقاته، وأشرنا إليه في غير هذا الموضع، من أن عكرمة مولى ابن عباس وتلميذه المتوفى في سنة ١٠٥ كان يجلس في مؤخره ويلقى على الناس دروسه في التفسير والحديث النبوي، ولا بد أن زخر الجامع بحلقات أخرى لشيوخ مماثلين في الفقه والتشريع الإسلامي، وأيضاً لشيوخ يروون الأشعار والأخبار، حتى إذا ظهرت نحل الخوارج أخذ دعواتها يدعون لها، وتكونت حلقات حول بعض هؤلاء الدعاة في جامع القيروان وخاصة حول عقيدة الإباضية. وحين ازدهرت الدعوة لمبادئ المعتزلة في القرن الثاني أخذت طريقها إلى جامع عقبة. وكان أهل السنة يضيقون بمناظرات الدعاة لعقائد الخوارج والمعتزلة، حتى إذا ولي سحنون إمام المذهب المالكي السني القضاء سنة ٢٣٤ للهجرة أمر بوقف مناظراتهم وإلغاء حلقاتهم، حتى لا يفسدوا - في رأيه - الناس والشباب. وأكبر الظن أنهم عادوا إلى الجامع بعد وفاته سنة ٢٤٠ يتحلقون فيه ويتجادلون. ونضى إلى قيام الدولة العبيدية في القيروان، فيحرم خلفاؤها تدريس الشريعة الإسلامية على مذاهب أهل السنة من مالكية وحنفية في الجامع، ويضطر الشيوخ إلى تدريسها للطلاب في بيوتهم وحواليتهم ويظل ذلك إلى مبارحتهم إفريقية التونسية وعاصمتهم المهدية إلى القاهرة، وتعود إلى الجامع حلقات أهل السنة وخاصة المالكية وتظل له مكانته الكبيرة في الحركة العلمية بالبلاد.

وجامع الزيتونة بتونس ظل مع جامع عقبة في القيروان يقود الحركة العلمية منذ القرن الأول الهجري في إفريقية التونسية، بناه حسان بن النعمان في ولايته (٧١-٨٥هـ) وجدده عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م للهجرة. وأعاد تجديده وزخرفه - كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - الأمير أحمد بن محمد الأعلى وأتم بنيانه أخوه زيادة الله سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م. وأضاف إليه بنو خراسان في إمارتهم لتونس بعض تجديدات، منها زيادة أبوابه إلى اثني عشر باباً بعد أن كانت ستة، ودخلت عليه تجديدات أخرى في الحقب التالية. وهو مثل جامع عقبة أخذت الدروس الدينية تعقد فيه منذ تأسيسه، وأخذ شباب تونس يختلفون إلى حلقات شيوخه، وأخذوا يتمون دروسهم فيه ويتخرجون مثل خالد بن أبي عمران التجيبى



قاضى القيروان المتوفى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م وهو أحد من سنوا لزملائهم في تونس والقيروان الرحلة إلى المشرق للتزود من حلقات علمائه، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع، واقتدى به في طلب العلم بالمشرق تلميذاه عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد، والثلاثة في الذروة من علماء إفريقية التونسية، وأمَّ الطلاب حلقاتهم بتونس من كل فج. وتكثر أساء فقهاء تونس ومحدثيها في القرن الثالث الهجري حتى إذا ولي الفاطميون بأخرة من هذا القرن عطلوا في جامع الزيتونة دراسات الفقه على أساس مذاهب أهل السنة، حتى إذا انحسر ظلهم عن المهديّة وغادروها إلى القاهرة عادت إلى الجامع حلقاته الدينية، وخاصة حلقات المذهب المالكي وشيوخه النابيين، وقد تهيأ له ولجامع عقبة من قديم أئمة في الفقه، وخاصة الفقه المالكي، وكذلك في الحديث لا يقلون فقها وعلماء عن نظرائهم في البلاد العربية. وقد نال جامع الزيتونة الحظ الأعظم أيام الدولة الحفصية إذ عيّنت عناية كبيرة بمبانيه ومكتباته وشيوخه وطلابه.

ومن دور العلم المهمة في إفريقية التونسية وإن لم تعمر طويلا بيت الحكمة الذي أنشأه إبراهيم الثاني الأغلبى محاكاة لدار الحكمة التي أسسها ببغداد هارون الرشيد ورعاها ابنه المأمون. وكان هذا البيت خاصا بعلوم الأوائل مثل دار الحكمة البغدادية، وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب مبحث قيم فيه بالقسم الأول من كتابه ورفقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية، وفيه تحدث عن تأسيس إبراهيم الثاني الأغلبى له، ونظامه وخزائنه وكتبه وإمداده سنويا بالعلماء والمخطوطات، إذ كان يرسل سنويا سفارة إلى بغداد لجلب إحصائيين في علوم الأوائل وشراء مخطوطات الكتب النفيسة في الطب والفلك والرياضة إلى غير ذلك. ويستظهر الأستاذ عبد الوهاب أن المترجمين فيه ترجموا أحيانا من اللسان اللاتيني بعض الكتب، ويقول إن هذا البيت أوجد النواة لمدرسة الطب القيروانية التي أثرت في الحركة العلمية بالمغرب، ويذكر أن قسطنطين القسيس المسيحي المولود بقرطاجة سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م والناشئ بالقيروان والمتلمذ لمشاهير أطبائها نقل كتبهم الطبية المهمة إلى اللسان اللاتيني في جامعة ساليرنو ومنها انتقلت إلى الجامعات الإيطالية وغير الإيطالية مما كان له أثره العميق في النهضة الثقافية بالبلاد الأوربية. ونمضى إلى عهد علي بن يحيى الصنهاجى أمير المهديّة (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) فنجدته ينشئ مدرسة للكيمياء زودها بما تحتاجه من آلات لتحليل المعادن وأدوات مختلفة للتقطير.

وأخذت تونس منذ القرن السابع الهجري تستكثر - مثل بقية بلدان المغرب - من زوايا المتصوفة، وتبعتها في ذلك بقية بلدان الإقليم التونسي وهي أشبه بمساجد صغرى تضم مباني للشيوخ والطلاب وتلقى فيها دروس العلوم الدينية واللغوية، مما جعلها تشارك في نشر التعليم بمستوياته المختلفة، وكان يلحق بها عادة كتاب لتحفيظ القرآن

الكريم . وفي عصر الدولة الحفصية تجددت الحركة العلمية تزدهر بفضل رعاية الدولة لها وما أنشأت من مدارس شارك فيها المهاجرون الأندلسيون إلى تونس، وأول مدرسة أسستها هذه الدولة مدرسة الشماعية أسسها أبو زكريا أول حكامها، وأسست الأميرة عطف أرملته المدرسة التوفيقية، وأسس أبو زكريا بن السلطان أبي إسحق مدرسة تالفة هي مدرسة المعرض بسوق الكتبيين، وأسست أخت السلطان أبي بكر مدرسة رابعة، وأسس الوزير ابن تافراكين مدرسة خامسة، وأسس السلطان أبي عبد الله بن أبي فارس المدرسة المنتصرية، وتوفي قبل أن تتم فآتم بناءها أخوه أبو عمرو عثمان على أكمل بناء وأتقنه ووقف عليها وقفا كافيا. ونمضى إلى العهد العثماني، ويظل للحركة العلمية نشاطها وخاصة حين قدم إلى تونس المهاجرون الأندلسيون سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م ويؤسس مراد باى الثانى مدرسة عرفت بالمرادية فى سوق القماش. وأسس الباي حسين بن على ثلاث مدارس: الحسينية والنخلة والمدرسة الجديدة، وأسس مدارس أخرى بالقيروان وسوسة وصفاقس ونقطة، وأسس ابن أخيه على أربع مدارس: الباشية فى سوق الكتبيين والسليمانية ومدرسة بير الحجار ومدرسة حوانيت عاشور. وبلغت المدارس فى تونس بأخرة من هذا العهد العثماني عشرين مدرسة.

#### (د) المكتبات

ومما عمل على أن تظل الحركة العلمية نشيطة فى القيروان وتونس وغيرهما من بلاد إفريقية التونسية على توالى الأزمنة تأسيس المكتبات العامة وفى الجوامع والمدارس والزوايا. وكانت دائما مفتوحة الأبواب للشيوخ والطلاب يفيدون منها، وفى مقدمتها المكتبة العتيقة بجامع عقبة فى القيروان، ولا بد أن كان الشيوخ فى القرنين الثانى والثالث للهجرة يهدون إليها نسخة أو أكثر من مؤلفاتهم، واهتم الأغلبية بها ووقفوا عليها كتبا كثيرة، ومثلهم الأعيان وأصحاب اليسار، ولا تزال إلى اليوم تروج بنفائس المصاحف المزخرفة وأمهات الكتب فى الفقه والتفسير والحديث والقراءات واللغة والأدب. ولما أنشأ إبراهيم الأغلبى الثانى بيت الحكمة بقيادة أسس فيه مكتبة ضخمة وأخذ يجمع إليها ذخائر الكتب وروائعها فى علوم الأوائل وغيرها من العلوم الدينية واللغوية، وحين بنى عبيد الله المهدي مدينة المهديّة نقل إليها كثيرا من روائع الكتب فى هذه المكتبة، وأسس حفيده المنصور مكتبة فى مدينة المنصورية وجلب إليها آلاف المخطوطات، ونقل المعز منها ومن مكتبة جده المهدي كثيرا مما كان بها من المؤلفات معه إلى القاهرة غير أن بقية فيها من الكتب ظل ينتفع بها طلاب العلم والعرفان. ومن المؤكد أن سوق الوراقين الذين ينسخون الكتب كانت رائجة، ويروى عن حمدون بن مجاهد الكلبي أنه قال: «كُتبت بيدي ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب» كما يروى عن أبى العرب التميمي صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس أنه قال: «كُتبت بيدي أربعة آلاف كتاب» واشتهر كثيرون بتكويهم لأنفسهم

مكتبات خاصة مثل أحمد بن علي بن حميد وكان أبوه من وزراء الأغلبية، وشغف بجمع الكتب، وبيعت مكتبته بعد وفاته بألف ومائتي دينار، وشغف عبد الله بن أبي هاشم التجيبى المتوفى سنة ٣٤٦ للهجرة بنسخ الكتب وجمعها، فلما توفى بلغ وزن ما عنده من الكتب سبعة قناطير جميعها بخطه ما عدا كتابين. وكثير من العلماء كانوا يحرصون على جمع الكتب وتكوين مكتبات لهم كبيرة، منهم الطبيب أحمد بن الجزار المتوفى بالقيروان سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م كانت له مكتبة ضخمة، إذ يقول ابن جلجل الأندلسي في كتابه طبقات الأطباء: إن وزن كتبه التي خلفها بلغ عشرين قطارا. ويروى أن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤هـ) أشفق على أبي بكر عتيق السوسى الفقيه الحافظ الورع حين علم بضيق ذات يده مما لا يمكنه من اقتناء الكتب، فأرسل إليه - كما في كتاب معالم الإيمان - مجموعة كبيرة من أمهات كتب العلوم الدينية حملها إليه عشرون حملا، ومعها رسالة رقيقة يقول له فيها: «هذه كتب في خزائنا ضائعة. وبقاؤها عندنا مما يزيدنا ضياعا، وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها» فالتمس الشيخ أن يكتب على كل جزء منها أنه موقوف على طلبة العلم، وأودعت جميعا بمكتبة جامع عقبة بالقيروان لينتفع بها الشيوخ والطلاب.

ولم تلبث سيول الأعراب الجارفة من بنى سليم وهلال أن اكتسحت القيروان بأخرة من أيام المعز بن باديس سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وتوقفت بالقيروان الحركة العلمية المزدهرة، وحاول على بن يحيى حفيد المعز الصنهاجى (٥٠٩-٥١٥هـ) أن يستردَّ المجد العلمى لإفريقية التونسية أو شيئا منه، فأنشأ بالمهدية مدرسة للكيمياء، كما مرَّ بنا، وألحق بها مكتبة، غير أنها لم تمكث سوى نحو ربع قرن. وظلت إفريقية التونسية مضطربة نحو قرن نهب فيه -أوضاع- كثير من الكتب النفيسة التي كانت مودعة في جامعي القيروان والزيتونة، حتى إذا كان عهد الدولة الحفصية وأخذ مؤسسها يستردُّ للبلاد ما كان بها من نهضة علمية أسَّس في القصة بعاصمة تونس مكتبة ضخمة جمع لها بقايا مكتبات الأغلبية والصنهاجين، وأضاف إلى ذلك كثيرا من الكتب والمؤلفات ويقال إنها كانت تحتوى ستة وثلاثين ألف مجلد، وظل خلفاؤه يعنون بجمع الكتب لها، وظل الشيوخ والطلاب ينتفعون بكتبها طوال أيام الدولة الحفصية، وكان بها كتب نفيسة كثيرة، حتى لنرى ابن خلدون يذكر أنه بعد تأليفه لمقدمته بقلعة أبي سلامة في الجزائر احتاج إلى مراجعة بعض أمهات الكتب، فولى وجهه إلى تونس ليطلع على ما يريد منها في المكتبة الحفصية. واشتهر السلطان أبو فارس عبد العزيز أنه حين صار إليه صولجان الحكم سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٤م عنى بتأسيس مكتبة تحت الصومعة بجامعة الزيتونة وقف كتبها على طلبة العلم، وجعل لها وقتا محدودا للاطلاع فيها كل يوم وجعل عليها قومةً ومناولين يناولون الكتب للطلبة ويردونها إلى مكانها بعد فراغهم منها، واشترط في وقفه أن لا يعار منها كتب في الخارج محافظة عليها وصيانة، وعنى بعده السلطان أبو عبد الله محمد بن الحسن بتأسيسه لمكتبة بنى لها مقصورة بطرف

صحن جامع الزيتونة، ونقل إليها كتب مكتبة أبي فارس وجعل لها وقتا محددا للاطلاع وقومة ومناولين وسميت نسبة إليه باسم المكتبة العبدلية. وبعث الإسبان حين استولوا على تونس - في القرن العاشر الهجري - بهذه المكتبة وعاثوا فيها فسادا، وأنقذ بعضهم منها كتباً أرسل بها إلى مكتبة الفاتيكان بروما، ولا تزال بها إلى اليوم. ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا ثقافة، فلم يعنوا بمكتبات تونس العناية الواجبة، حتى إذا قامت الدولة المرادية أخذ النشاط يعود إلى جامع الزيتونة ومكتبته، واطرد هذا النشاط في عهد الدولة الحسينية منذ استولى على مقاليد الحكم مؤسسها حسين بن علي إذ عين بالجامع أربعين مدرسا في مختلف العلوم الدينية واللغوية وأجرى لهم رواتب، وانتظم التعليم بالجامع منذ ذلك الحين.

## ٢

علوم<sup>(١)</sup> الأوائل

لا يُذكر أحد من أصحاب علوم الأوائل قبل أيام الدولة الأغلبية إلا ما يتردد في كتب التراجم عن أشخاص يسمونهم فقهاء البدن، ولم يكونوا أطباء بالمعنى الدقيق لكلمة طب، إذ كانوا يعتمدون على بعض المعارف والخبرات البسيطة. وأول ذكر للطب بمعناه الدقيق - وبالمثل لعلوم الأوائل - نلتقى به في عهد الدولة الأغلبية حينما أنشأ إبراهيم الثاني الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) في عاصمته رقادة بجوار القيروان بيت الحكمة الذي أُلْمنا به فيما أسلفنا، إذ استقدم له من بغداد الدارسين للطب وعلوم الأوائل كى ينهضوا بالدراسة فيه، وكان ممن استجابوا له في سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧م إسحق بن عمران، وكان حاذقا بالطب وعلوم الأوائل، وفيه يقول إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان: «كان إسحق طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الأدوية المركبة بصيرا بتفرقة العلل» ويقول ابن جلجل الأندلسى في كتابه طبقات الأطباء: «به ظهر الطب في المغرب وعُرفت الفلسفة» ويقول صاعد الأندلسى: «ممن اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعى إسحق بن عمران، وكان مقدما في جودة قريحته وصحة

الخامس من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان والقسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية. بإفريقية التونسية والعلم عند العرب لألدومبيللى وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى.

(١) انظر فى علوم الأوائل بإفريقية التونسية كتاب طبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والجزء الأول من البيان المغرب لابن عذارى وأخبار الحكماء للقفطى ومقدمة ابن خلدون، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ومعالم الإيمان لابن ناجى وبرنشفيك ٢/٣٨٧ وما بعدها. والجزء

علمه، وهو الذى ألف بين الطب والفلسفة بديار المغرب». وواضح أنهم جمعوا له بين الطب والصيدلة والفلسفة وعلوم الطبيعة، وهو - بحق - مؤسس مدرسة الطب وعلوم الأوائل بإفريقية التونسية، ومن تتلمذوا له فى الطب محمد بن الجزار وزياد بن خلفون، وفى الطب والفلسفة إسحق بن سليمان الإسرائيلى، وفى الفلسفة أبو سعيد الصيقلى، وألف مجموعة من الكتب فى الطب وغيره، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: المالمخوليا وفى مكتبة ميونخ مخطوطة منه، ويقول ابن جلجل فى هذا الكتاب: «لم يُسبق إسحق بن عمران إلى مثله، توفى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م. وكان يعاصره ويعمل معه فى بيت الحكمة فلكى من مواليد القيروان هو إسماعيل بن يوسف، رحل إلى العراق ودرس هناك علم الفلك والتنجيم، ويقول الزبيدى: «كان غاية فى علم النجامة» وحذق فى بغداد صناعة الطلاء المتصلة بتجميل وجوه النساء وأبدانها وتطريتها بصنوف من الطيب والعقاقير، وهو ما يسمى عند الغربيين باسم «المالكياج»، ولعلمه بهذا الطلاء والفلك اشتهر باسم الطلاء المنجم، وكان يشتغل فى بيت الحكمة بالفلك والرياضيات، ولما غلب الفاطميون على القيروان غادرها إلى قرطبة. وهو دليل على أن بيت الحكمة فى رقادة كما كان يعنى بالطب كان يعنى بالرياضيات، ونفس المشرف عليه وهو أبو اليسر رئيس دواوين إبراهيم الثانى الأغلبى كان يعرف بلقب الرياضى مما يدل على علمه بالرياضيات، ولا بد أن كان البيت يعنى أيضا بالكيمياء والطبيعات وأيضاً بالفلسفة، فقد وضع إسحق بن عمران فيه أساس الدراسات فى كل ذلك.

ومن الأطباء الذين لمع اسمهم أيام إبراهيم الثانى الأغلبى زياد بن خلفون، وكان طبيبا فى دمنة (مارستان) القيروان، وكان يذهب إليها فى أيام معينة من الأسبوع لزيارة من بها من المرضى، وكان يزور أيضا دار الجذماء لرؤية المصابين والكشف عليهم وتتبع مسيرة مرضهم، توفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م. وفى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م جلب أحد رسل زيادة الله الأصغر إليه طبيبا يهوديا ناشئا من مصر يسمى إسحق بن سليمان الإسرائيلى، تتلمذ لإسحق بن عمران فى بيت الحكمة حتى إذا توفى خلفه فيه، وسرعان ما انتهت دولة الأغالبة فخدم العبيديين منذ خليفته المهدى إلى المعز، ويقول فيه ابن جلجل: «كان مشهورا بالحذق والمعرفة، جيد التصنيف بالعربية بصيرا بالمنطق يعنى بالفلسفة متصرفا فى ضروب المعارف»، وعمر حتى بلغ المائة، وتوفى حول منتصف القرن الرابع، وأسند إليه يهود إفريقية رياسته الدينية، وله مؤلفات فى الطب بالعربية وترجمت سريعا إلى العبرية، ومن مؤلفاته العربية كتاب الحميات وكتاب البول وكتاب النبض وكتاب الترياق وكتاب بستان الحكمة وكتاب الأغذية والأدوية. ويشتهر فى القرن الرابع الهجرى طبيبان يهوديان من تلامذة إسحق بن سليمان الإسرائيلى هما دونش وموسى بن العزاز، ودونش من مواليد القيروان بأخرة من القرن الثالث الهجرى تخرّج على يديه إسحق بن سليمان الإسرائيلى فى الطب والنجوم والحساب والفلسفة، وكان يتقن العربية،

ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن ابن البيطار ينقل في كتابه عن الصيدلة أو الأدوية المفردة عن كتاب له يسمى التلخيص وَصَفه فيه لبعض النباتات، مما يدل على أنه كان كتابا في الأدوية المفردة، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب أن له كتابا في الحساب الهندى وكتابا ثانيا في الفلك وحركة الكواكب، وموسى بن العزار طبيب إسرائيلي، توفى بعد سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م وقد خدم هو وأبناؤه الدولة العبيدية وخلفاءها في المهديّة وبعد تحولهم إلى القاهرة وله كتاب باسم الأقرباذين أى الصيدلة، مما يدل على اهتمامه بتركيب الأدوية وطرق العلاج بها. ومن أطباء العبيديين الإفريقيين أعين بن أعين، وكان يحترف في القيروان طب العيون - ويسميه العرب - الكِحالة، ولما انتقل المعز إلى القاهرة انتقل في جملته، وكان ماهرا في معالجة الرمد المزمن، ومن شفى على يديه شيخ المالكية ابن أبى زيد، وله كُنَّاش في الطب وكتاب في أمراض العيون ومداواتها.

وتوارث الطب في القيروان - منذ عهد الأغالبة - أسرة بنى الجزائر، وأول من اشتهر بالطب فيها أبو بكر بن الجزائر تلميذ إسحق بن عمران طبيب بيت الحكمة كما يذكر ابن جلجل، ومثله أخوه إبراهيم وكان يُعنى بالكحالة أو طب العيون. وابنه أحمد المولود سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م بالقيروان أبرع أطباء الأسرة وقد توفى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م ومن طريف ما يروى عنه أنه بنى عند باب داره عيادة لاستقبال المرضى، وأفرد فيها قسما خاصا لصيدلية جعل لها فتى يسمى رشيقا، تعدُّ بين يديه جميع الأدوية من معجونات وأشربة ومراهم، وكان إذا فحص المريض ووقف على دائه وصف له في ورقة ما يناسبه من الأدوية، فيأخذها إلى رشيق ويعطيه دواءه الموصوف، بالضبط كما يحدث في عصرنا، فللأطباء عياداتهم وللأدوية صيدلياتها. وأحمد بن الجزائر يقوم في الطب بالقيروان مقام ابن سينا في إيران والزهرأوى في قرطبة. وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ترجمة ضافية له في القسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية تحدث فيها عن سيرته ومؤلفاته وفي مقدمتها كتابه: «زاد المسافر وقوت الحاضر» في علاج الأمراض مجلدان، ويقول عنه إنه «من أهم الكتب الطبية العملية التي وضعها المسلمون»، ويذكر أن قسطنطين المعروف باسم الحكيم الإفريقى عمد - حين رأس كلية ساليرنو في جنوبي إيطاليا - إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية ونسبه - كذبا وهتانا - إلى نفسه، ويلم بما كتب حول الكتاب من بحوث في العصر الحديث، ويذكر مؤلفات ابن الجزائر بأسمائها وقد بلغت سبعة وثلاثين كتابا في الطب والتاريخ والجغرافيا والأحجار الكريمة، وله بجانب كتبه الطبية الكثيرة كتابان في الصيدلة بعنوان: «البيغية في الأدوية» و«الاعتماد في الأدوية المفردة».

وتظل حركة علوم الأوائل التي غرس الأغالبة جذورها نامية في أرض القيروان الطبية.

ونلتقى بأبي عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس المتوفى سنة ٣٦٣ في عصر المستنصر الأموي، وله كتاب عن مسالك إفريقيا وممالكها انتفع به أبو عبيد البكري في كتابه «المسالك والممالك»، ويظل القيروان عصر الدولة الصنهاجية، وكل كتب القيروان العلمية النفيسة ترجمها القسيس قسطنطين سالف الذكر في أثناء رياسته لكلية ساليرنو ولدير جبل كاسينو، ولم يكد يترك كتابا علميا مهما لعلماء القيروان من أمثال إسحق بن عمران وابن الجزار إلا ترجمه هو ورهبان هذا الدير. وانتقلت ترجماته إلى العالم الغربي منذ القرن الحادي عشر الميلادي إذ توفي سنة ١٠٨٧هـ/١٠٨٧م وكان لتلك الترجمات، كما مر بنا، أثر بعيد في النهضة العلمية الأوروبية. وكان يعاصر الرياضي الفلكي الجزائري ابن أبي الرجال رياضى قيرواني، هو عبد المنعم بن محمد الكندي القيرواني المتوفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م وكان إماما في الرياضيات حاذقا في فك الأشكال الهندسية لإقليدس. ومررنا بنا - منذ قليل - أن الأمير علي بن يحيى الصنهاجي (٥٠٩-٥١٥هـ) أنشأ مدرسة للكيمياء في عاصمته المهديّة، وقد أشرف عليها كيميائي أندلسي كبير، هو أمية بن أبي الصلت، ولم تدم بعد وفاته طويلا، غير أنها تدل على ما ظل بالمهديّة والقيروان من روح علمية حتى مطلع القرن السادس الهجري.

ونلتقى في أوائل عهد الدولة الحفصية بعالم تونسى كبير هو التيفاشى الكيمياء أحمد بن يوسف المولود بقفصة التونسية سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وقد ولاه أبوزكريا خطة القضاء ببلدة قفصة وله رحلات كبيرة إلى الشام والعراق وإيران وأيضاً مصر واستقر بها حتى توفي بعد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وكان قد تعمق كل فروع الثقافة الإسلامية كما تعمق علوم الأوائل، ورأى أن يضع للدارسين في وطنه والأوطان العربية موسوعة تضم كل العلوم والفنون والتاريخ، وجعلها في أربعين كتابا، وأفرد منها كتاباً للطب والطبيعة ومظاهرها وكل ما فيها من نبات وحيوان ومعادن، وفي كل فرع من علم يذكر ما فيه لليونان والفرس وغيرهما من العجم والعرب، ومن كتب هذه الموسوعة كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار وهو في علم المعادن، وقد نشر في هولانده بالقرن الماضي مع ترجمة لاتينية، وحققه في مصر الدكتور محمد يوسف حسن ونشره مع مقدمة تحليلية. وله كتاب عن الغناء والموسيقى وآلات الطرب سماه: «متعة الأسماع في علم السماع»، وفيه تحدث عن تاريخ الموسيقى عند العرب وفي إفريقية التونسية وفي الأندلس على مر العصور حتى زمنه، وهو طرفة نفيسة، ونلتقى في عهد المستنصر بطيبيه: ابن أندراس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م وكانت له مشاركة في الرياضيات والمعقولات، ويشتهر حينئذ آل الصقلي الزيات بالطب وابن الكماد الرياضى بوضعه الجداول الفلكية قبل سنة ٦٧٩هـ/١٢٨١م. وكان يلمع من حين إلى حين عالم بعلوم الأوائل وخاصة في مجال الطب لحاجة الناس والبيمارستانات إليه، ونضرب مثلا لهم عبدالسلام بن ابراهيم الزيات الصقلي المتوفى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٣م وقد ألف ابنه أحمد المتوفى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م للسلطان

الحفصى أبى فارس عبدالعزيز - كما فى الضوء اللامع للسخاوى - مختصراً فى الطب بوجه إلى ثمانين باباً، ونضرب مثلاً ثانياً بطبيب هو عبدالرحمن بن أبى سعيد الصقلى المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ومثلاً ثالثاً هو أحمد الخميرى من أطباء تونس فى القرن العاشر الهجرى وله كتاب فى الطب والأطباء يسمى تحفة القادم.

ولم نعرض حتى الآن لعلم الجغرافية فى تونس، وتلقانا فى مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م فصول مختلفة فى حديثه عن العمران إذ يفرد فصلاً للحديث عن العمران فى الأرض وما بها من البحار والأنهار والأقاليم، وهو يعدها كرة، نصفها يابس ونصفه فقط المسكون أو المعمور، ويتحدث عن أقاليمها السبعة وانقسام كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ويقول صراحة إنه ينقل عن بطليموس الجغرافى المصرى القديم والإدريسى فى كتابه المشهور: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق الذى ألفه فى نحو منتصف القرن السادس لروجار الثانى النورمانى ملك صقلية، ويكمل حديثه الجغرافى فى ذلك عن الربع الشمالى من الأرض الأكثر عمراناً من الربع الجنوبى ويذكر مقتطفات من كتاب الإدريسى، ويضيف بعض معلومات عن جزر المحيط الأطلسى والسودان، وينقل عن ابن سعيد الجغرافى الأندلسى. وأهم من هذا الحديث الجغرافى الذى غلب عليه فى النقل حديثه الذى يعد سابقاً فيه تأثير البيئة الجغرافية فى حياة البشر وتأثير الهواء فى ألوانهم والجوع والخصب فى أبدانهم وأخلاقهم، وبجانب هذه الجغرافيا الاجتماعية عنده جغرافيا اقتصادية يصور فيها العمران البدوى والحضرى، ونصف الحضرى والمعاش وألوانه. وهذه الوجوه من الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية تعد الجوانب الجغرافية عنده.

ومعروف أن كثيرين من جغرافىي العرب عنوا بوضع خريطة للعالم، وكان بطليموس الجغرافى المصرى القديم قد وضع خريطة للعالم تدارسها علماء العرب فى عصر المأمون ووضعوا للعالم خريطة أكثر دقة، ومازال جغرافيو العرب يضعون خرائط على هدى خريطة المأمون حتى جاء الإدريسى المذكور أنفاً ووضع خريطته الكبيرة التى تراعى درجات الطول والعرض وقد أهداها إلى روجار الثانى الملك النورمانى. ونجد جيلين فى أسرة الشرفى بصفاقس فى الاقليم التونسى يعنيان بوضع خرائط للعالم ما بين عامى ٩٥٧هـ/١٥٥٠م و١٠٠٩هـ/١٦٠٠م تعد صوراً منقحة لخريطة الإدريسى كما يقول كراتشكوفسكى فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى، وقد وضع أولهم: على بن أحمد الشرفى الصفاقسى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م أطلساً فى ثمانى ورقات يصور بها سواحل البحر المتوسط وهى محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس. وفيها خريطة للقبلة وضحت عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة، ويليهما خريطة عامة للعالم ثم خرائط لسواحل إسبانيا وجزر البليار وسواحل إيطاليا ومعها جزيرتا كورسيكا وسردانيا والساحل



المقابل لإفريقيا ثم خرائط لسواحل البحر الأسود والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى والشام  
ومصر وخريطة لليونان وجزر الأرخيبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها، وخريطة لبرقة  
وطرابلس وتونس. وفي أوكسفورد خريطة للعالم رسمها أحد أبناء الأسرة سنة  
٩٧٩هـ/١٥٧١م. ويذكر كراتشكوفسكى خريطة للعالم لأحد أبناء الأسرة سنة  
٩٨٦هـ/١٥٧٩م. وكان آخرهم محمد بن على الشرفى الصفاقسى وله خريطة للعالم رسمها سنة  
١٠٠٩هـ/١٦٠٠م. وتدل هذه الخرائط على أن خريطة الإدريسى تحولت عند هذه الأسرة إلى  
أطالس وخريطة حائطية، وهو بلا ريب عمل جغرافى جليل لتونس.

## ٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد<sup>(١)</sup>

مرّ بنا حديث عن نشأة علوم اللغة والنحو بالقيروان وأنها اعتمدت على بعض رواة اللغة  
والشعر مثل أمان بن الصمصامة بن الطرماع، كما اعتمدت على بعض نحاة كوفيين وأفدين  
مثل قتيبة الجعفى وعياض بن عوانة، وسرعان ما ظهر جيل قيروانى خالص يعنى باللغة  
والشعر مثل أبى محمد عبد الله بن محمود المكفوف المتوفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وأصله من سرت  
بليبيا، ويقول القفطى: «كان من أعلم خلق الله تعالى بالعربية والغريب والشعر وتفسير  
المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها.. وله كتب كثيرة أملاها في اللغة والعربية والغريب،  
وله كتاب في العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه لما بين فيه وقرب، وعليه  
قرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب، وله أشعار فصيحة  
وأراجيز غريبة، وله كتاب في شرح صفة أبى زبيد الطائى للأسد جود فيه وحسنه. وكان يعاصره  
عبد الملك بن قطن المهرى القيروانى شيخ أهل اللغة والعربية وراوى القوم وعميدهم  
ورئيسهم كما يقول القفطى وكان من أحفظ الناس لأنساب العرب وأشعارهم ووقائعهم  
وأيامهم، وكانت الأشعار المشروحة تُقرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها، فلما  
دخلت هذه الأشعار مشروحة إلى القيروان نظر طلبة العلم من العربية فيها فلم يجدوا في شرحه  
خلافا لما قال أصحاب الشروح ولا وجدوا عليه في روايته وشرحه اللغوى شيئا من الخطأ، وهو

وكذلك ابن الأبار في الحلة السراء وابن عذارى في  
البيان المغرب وانظر المؤلفات المذكورة للحمصرى  
وابن شرف وابن رشيق في تراجمهم وراجع كتابنا  
المدارس النحوية في ابن عصفور ومراجعته.

(١) راجع في تراجم هذه الموضوعات طبقات  
النحويين واللغويين للزبيدى وإنباه الرواة للقفطى  
ومعجم الأدباء لياقوت وانظر في عبدالدايم بن  
مرزوق بغية المتلمس للضبى والصلة لابن شكوال  
وراجع الأنوذج لابن رشيق في المنوه بأشعارهم منهم

تلميذ لأمان بن الصمصامة وعياض بن عوانة وقتيبة الجعفي وكثير من الأعراب مثل أبي المنيع الأعرابي وغيره، غير أنه عُمر عمرا طويلا، إذ توفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م. ومن معاصريه أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم أبو بكر اللؤلؤي المتوفى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م وكان من العلماء النقاد في العربية والغريب والنحو والقيام بأكثر دواوين العرب، وهو تلميذ أبي محمد المكفوف المذكور آنفا، وألّف كتابا في الضاد والظاء فحسّنه وبيّنه. ولم تلبث القيروان أن أخرجت لغويا كبيرا طار اسمه في الآفاق هو القزّاز محمد بن جعفر التميمي المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م درس على شيوخ القيروان، ثم رحل إلى العراق فدرس على أئمة اللغة والنحو، ونزل في القاهرة أيام العزيز نزار (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) وعُرف فضله، فعين في دواوين العزيز، وألّف له - استجابة إلى طلب منه - كتابا في الحروف التي ذكرها النحاة في قولهم: إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريقة، فبيّن معاني الحروف مع ترتيبها على حروف المعجم، فبلغ الكتاب ألف ورقة، وقدم إلى العزيز صورة منه فأعجبه ورضيه. وتوفى العزيز فعاد إلى القيروان وشُغف به وبمجالسه الطلاب والمتأدبون لعلمه اللغوي الغزير وحسن تذوقه للأدب، ولم يكن ذواقة للأدب والشعر فحسب، بل كان أيضا ناقدا بصيرا وشاعرا مجيدا، وتخرج على يديه ابن شرف القيرواني الشاعر المبدع وابن رشيق الشاعر والناقد الممتع. وله في اللغة معجم سماه «جامع اللغة» وهو معجم كبير رتبته على حروف المعجم، ويقول يا قوت في معجم الأدباء عنه إنه يقارب في الحجم معجم التهذيب للأزهري، وله في الضاد والظاء وتبادلها في الكلمات مبحث كبير في ثلاثة أجزاء، وله المثلث في اللغة، وله كتاب ما أُخذ على المتنبي من اللحن والغلط، وكتاب العشرات يذكر فيه اللفظ ومعانيه المترادفة، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة، وله إعراب مقصورة ابن دريد وشرحها، وكتاب الحلى والشيات في أوصاف الآدميين طُبِع في صيدا بلبنان، وله شرح رسالة البلاغة في مجلدات، ومن كتبه الطريقة ضرائر الشعر، وهو دراسة تفصيلية لما يجوز للشاعر استعماله من ضرورات الشعر، وهو مطبوع بتونس. وولتقى بتلميذه الحسن بن محمد التميمي اللغوي النسابة، وكان القزّاز قد عنى به محبة له، فبلغ به نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب، وكان شاعرا ناهيا قوى الكلام خبيراً باللغة، وكان شديد الشغف بديوان ذي الرمة، وعنه أخذه الناس كما أخذوا دواوين الجاهلية. وكان يعاصره إسماعيل بن إبراهيم القيرواني اللغوي، تقدّم في علم الغريب وطلبه وعلو سماعه، وكان يبحث عن الشذوذ اللغوي بحثا شديداً، وإلى أمّهات كتبه ترجع - كما يقول القفطي - جميع النسخ وبها تُقابل وعليها تُصلح، وهو من مدّاح المعز بن باديس وفيه يقول:

بَدَّ الملوك جلالاً ومهابةً      وعلا على النُظراء والأشكال

ولتلقى بعبد الدائم بن مرزوق المتوفى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م كما في بغية الملتبس للضبى،

درس العربية على شيوخ القيروان وارتحل إلى المشرق وتجوّل في حلقات شيوخه بالبصرة وبغداد، ودخل الشام والتقى بأبي العلاء المعري، وأخذ عنه ديوانيه: سقط الزند واللزوميات، وعاد إلى بلده، ولم تلبث هجرة الأعراب أن اكتسحت القيروان فهاجر إلى الأندلس، ونزل المرية وإشبيلية، وهناك أخذ يلقى دروسه، ويروي أشعار أبي العلاء، ومن تتلمذ عليه عالم الأندلس اللغوي ابن السيد البطليوسى بشهادة ما يرويه عنه في كتابه: «الاقْتضاب في شرح أدب الكتاب» كما لاحظ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويقول إنه أول من أدخل شعر أبي العلاء إلى إفريقية والأندلس، وأكبر الظن أن نسخة سقط الزند التي شرحها ابن السيد وطبعت مع شروح السقط الأخرى في القاهرة مأخوذة عن نفس المخطوطة التي حملها ابن مرزوق عن أبي العلاء، وكأنه شرحه بمجرد أن سمعه من ابن مرزوق، وأظن نفس الظن إزاء شرح ابن السيد لطائفة كبيرة من شعر اللزوميات المطبوع في جزئين في القاهرة، إذ اعتمد في هذا الشرح - فيما أظن - على رواية اللزوميات التي سمعها عن ابن مرزوق، والأبيات - في رواية ابن السيد - تصحح كثيراً من أبيات اللزوميات المنشورة، ولعل محققاً تونسياً محظوظاً يجد في جامع الزيتونة أوجامع عقبه مخطوطة من اللزوميات مأخوذة - أو مروية - عن نسخة ابن مرزوق قبل مبارحته القيروان إلى الأندلس، ويمكن التأكد من ذلك يراجعته على شرح اللزوميات لابن السيد. وله معجم في اللغة وشرح على ديوان المتنبي.

ويلقانا في أوائل عهد الدولة الحفصية محمد بن أبي الحسين المتوفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م حاجب أبي زكريا مؤسس الدولة ووزير ابنه المستنصر، وهو من أسرة بني سعيد الغرناطية، وكان لغويا وشاعراً وكان ابن سيده الأندلسي قد رتب معجمه «المحكم» على أساس مخارج الحروف طبقاً لمعجم العين للخليل بن أحمد، فقلب ترتيبه إلى ترتيب معجم الصحاح للجوهري، وسمى صنيعه «ترتيب المحكم». وكان يعاصره عالم لغوي من علماء الهجرة الأندلسية في القرن السابع الهجري هو أحمد بن يوسف اللبلي الأندلسي المتوفى بتونس سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله على كتاب الفصيح لثعلب شرح سماه: «تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح» ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه ينقل فيه مراراً عن معجم القُرَاز: «جامع اللغة» وعن كتابه: «المثلث» كما ينقل فيه أيضاً عن معجم ابن مرزوق، وكان أعمال ابن مرزوق - وفي ظننا ما رواه من شعر أبي العلاء - كان لا يزال محفوظاً في موطنه حتى نهاية القرن السابع الهجري.

وكل من نظمناهم في سلك اللغويين - أو كثرتهم - يوصفون في كتب التراجم بأنهم كانوا نحاة كما كانوا لغويين غير أننا لاحظنا أنه غلبت عليهم مباحث اللغة، ومرّ بنا في الحديث عن النشأة اللغوية أنه كان بين اللغويين نحويان كوفيان استوطنا القيروان وقد خلف بعدهما جيل

قيروانى خالص عُنى بالنحو وتعليمه، منه حمدون محمد بن إسماعيل المتوفى بعد المائتين، وفيه يقول الزبيدى: «كان مقدما في العربية والنحو وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة منه باللغة، لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه ويستظهره» ويقول القفطى له كتب في النحو وأوضاع في اللغة، وكان أحد المتشدقين في كلامه والمتقعرين في خطابه. وكان يعاصره أحمد بن أبى الأسود النحوى القيروانى كان يقرئ النحو واللغة بمسجد قرب داره، يقول الزبيدى عنه: «له تصانيف في النحو والغريب ومؤلفات حسان، ويقول القفطى: كان غاية في علم النحو واللغة. ومن معاصريه عبد الله بن أبى حسان اليحصبى المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أعلامه في البصرة والكوفة، وعاد إلى القيروان فأفاد الطلاب بما حمل من النحو وقواعده. وينشط علماء النحو في القرنين الثالث والرابع للهجرة بالقيروان، ومنهم السبىخى أبو على النحوى الضرير المتوفى سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م وينوه المالكى في كتابه: «رياض النفوس» بمعرفته الواسعة باللغة والنحو وله كتاب أقيسة الأفعال. وكان يعاصره ابن الوزان إبراهيم بن عثمان المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م يقول الزبيدى عنه: «إمام الناس في النحو (بالقيروان) وكبيرهم في اللغة وعظيمهم في العربية والعروض، وانتهى في اللغة العربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما في زمانه فما يشك فيه أحد، حفظ كتاب سيبويه وكتاب المصنف في غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام وإصلاح المنطق لابن السكيت ومعجم العين للخليل بن أحمد وغير ذلك من كتب اللغة ثم كتب الفراء، وكان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضل المازنى في النحو وابن السكيت في اللغة، وكان يستنبط من مسائل العربية والنحو أمورا لم يتقدمه فيها أحد. واشتهر بعده عبد العزيز بن أبى سهل النحوى اللغوى القيروانى الضرير المتوفى بالقيروان سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م وكان شاعرا مطبوعا، ويقول ابن رشيق في وصفه: «كان مشهورا بالنحو واللغة جدا مفتقرا إليه فيها بصيرا بغيرها من العلوم.. ولا غنى لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، ولم ير ضرير أطيب منه نفسا ولا أكثر حياء. وكان يعاصره عبد العزيز بن خلوف النحوى، نوه ابن رشيق بشعره وقال له في سائر العلوم حظوظ وافرة، وحقوق ظاهرة، وأغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلق بها، وفيه ذكاء يخرج عن الحد المحدود. وولتقى بعلى بن فضال المتوفى ببغداد سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وهو من سلالة الفرزدق الشاعر الأموى المشهور ومن أبناء القيروان الناهيين في عصره غادرها مع الهجرة الأعرابية المشهورة إلى الشرق حتى نيسابور وغزنة، وعاد إلى بغداد، فضمه نظام الملك إلى مدرسته النظامية بها حتى وفاته، وهو مفسر كبير للذكر الحكيم، وله مصنفات مختلفة في الأدب والتاريخ، وكان إلى ذلك عالما كبيرا في النحو واللغة، ومما صنّفه في النحو «إكسير الذهب في صناعة الأدب» في عدة مجلدات وكتاب العوامل والهوامل وكتاب الإشارة إلى تحسين العبارة وشرح عنوان الإعراب والمقدمة وشرح معانى الحروف وغير ذلك وله كتاب في العروض.

ودرس مثله في النظامية ببغداد معاصره ومواطنه عبد الله بن مسلم القيرواني النحوي أبو محمد المتوفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ويقول القفطي: كان له معرفة بالنحو واللغة. وتكاد تتوقف الحركة العلمية في الدراسات النحوية نحو قرن أو تزيد بسبب الهجرة الأعرابية وماحدث بعدها من حروب قراقوش وابن قراتكين وابن غانية: على ويحيى.

وتنهض بالبلاد الدولة الحفصية ويعود إلى الحركة العلمية نشاطها، وخاصة في مدينة تونس عاصمة تلك الدولة، ويعدّها المهاجرون من الأندلس في صدر تلك الدولة من كبار العلماء والأدباء يوقود أدبي وعلمي جزل، فتزداد اشتعالا وضياء ونورا. ومن صفوة من هاجر إليها من نحاة الأندلس إمام كبير من أئمة النحو هو ابن عصفور الإشبيلي أبو الحسن علي بن مؤمن المولود سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م والمتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وقد رحّب به مؤسس الدولة أبو زكريا واتخذة أستاذا ومعلما لابنه وولى عهده المستنصر، وأسند إليه التدريس في جامع الزيتونة وفي مدرسته الشّماعية، وكان يدرس للطلاب كتاب سيبويه وكتاب الجمل للزجاجي والإيضاح لأبي علي الفارسي وله عليهما شرحان، كما كان يدرس لهم مصنفيه البديعين: المقرب في الصناعة النحوية والمتع في الصناعة الصرفية واتخذت أعماله في عصرنا موضوعات للحصول على الدرجات العلمية في الجامعات العربية لحسن عرضه لمسائل النحو وأبوابه حدودا وترتيباً وتقسيماً، وفي كتابنا المدارس النحوية ترجمة له وبيان لبعض آرائه التي انفرد بها بين النحاة، وأخذ عنه في تونس النحو تلاميذ كثيرون بحيث أصبحت له فيها مدرسة كبيرة، وتذكر أسماء نحاة في القرون التالية، ومن أهمهم في العهد العثماني محمد فتاة الفقيه في القرن الثاني عشر الهجري كان يقرئ الطلاب في جامع الزيتونة مغني ابن هشام في النحو ولعبد القادر الجبالي شرح على شواهد المغني في أربع مجلدات ولمحمد سعادة حاشية على الأشموني سماها تنوير السالك من شرح منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ولمحمد بن علي بن سعيد الحجري المتوفى سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حاشية مطولة على شرح الأشموني لألفية ابن مالك.

ومنذ نزول العرب واستيطانهم في إفريقية التونسية كان كثيرون منهم ينشدون الأشعار العربية ويروونها للأجيال الناشئة، وما يتقدم القرن الثاني الهجري حتى تتردد في كتب التراجم أسماء رواة للشعر كان يلتف حولهم الشباب في القيروان وغير القيروان لكتابة الأشعار وتدوينها، نذكر منهم سليمان بن حميد الغافقي، وله ترجمة في كتاب الحلة السيرة لابن الأبار، وهو ممن قدموا مع الحملات التي كان يوجهها الأمويون إلى القيروان والمغرب، وله مشاركة في الأحداث التي مرت بنا أيام عبدالرحمن بن حبيب وقتل أخيه إلياس له وعاش إلى أيام يزيد ابن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) ويقول ابن الأبار في التعريف به: «فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره وأحسن الناس لسانا وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها

وأشعارها.. حُمِلت عنه نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة، وروى له ابن الأبار شعراً في أحد موافقه مع بعض ثوار البربر. ومن هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار في القيروان الحكم بن ثابت السعدي، دخل إفريقية - كما يقول ابن عذارى - سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م مع جيش محمد بن الأشعث للقضاء على ثورة الإباضيين في طرابلس وتونس لعهد المنصور، وكان أحد قواد الجيش وبعد القضاء على تلك الثورة سكن القيروان، حتى إذا تولى الأغلب التميمي بعد ابن الأشعث شهد معه حرب بعض الثوار من البربر سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م وهو من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي المشهور، وكان شاعرا وراوي كبيراً للشعر، روى عنه أبناء القيروان كثيراً من أشعار الجاهليين والمخضرمين. ومن هؤلاء الرواة للأشعار الحسن بن منصور بن نافع المذحجي، وفيه يقول ابن الأبار: «كان بصيراً باللغة نافذاً في النحو عالماً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها». وحرى أن نضيف إلى هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار الجاهلية والإسلامية المعمر بن سنان التيمي القادم مع يزيد بن حاتم المهلبى في ولايته، وقد ذكرناه في نشأة العلوم اللغوية، وأيضاً لابد أن نضيف كبار الشعراء الوافدين على يزيد بن حاتم لمديحه مثل ربيعة الرقي وأيضاً الشاعر العباسى النابه وبالمثل من وفد عليه من اللغويين والنحاة أمثال يونس بن حبيب عالم البصرة النحوى واللغوى الكبير، فهؤلاء جميعاً شاركوا في رواية الشعر الجاهلي والإسلامى لشباب القيروان.

ومر بنا أن عبد الملك بن قطن كان يشرح أشعار الجاهليين والإسلاميين ويفسر معانيها وأنها حين نُقلت إلى القيروان ومعها شروحها وجد طلابه أن هذه الشروح تطابق شروحه. ولم تنقل إلى القيروان في القرن الثالث الهجرى الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية فقط، بل أخذت تنقل أيضاً دواوين الشعراء العباسيين ويشهد لذلك ما روى عن أبي اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء المتوفى سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م من أنه أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين (العباسيين) وأشعارهم، وهو لم يدخل دواوين أمثال بشار وأبي تمام فحسب، بل أدخل أيضاً رسائل أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وغيرهم، ومثل ذلك أصبح منذ القرن الثالث الهجرى مدّ أيدي المتأديين في القيروان وتلقاها أبصارهم عن طريق من كانوا يرتحلون إلى المشرق-أويقدون منه- ويحملون نفائسه من الدواوين والرسائل. ومن يقرأ المنتخبات الرائعة من الشعر والنثر التي جمعها أبو إسحق إبراهيم الحصرى المتوفى سنة ٤١٢هـ/ ١٤٢١م باسم «زهر الآداب وثمر الألباب» و«جمع الجواهر في الملح والنوادر» يعرف أنه لم يكن في المشرق ديوان لشاعر عباسى ولا رسائل لكاتب أموى أو عباسى ولا مجموعة في الشعر أو في النثر، لم يكن شيء من ذلك كله غائباً عن القيروان وأديبها الحصرى، فقد اختار في مجموعته السالفتين أروع وأبداع ما للمحدثين العباسيين من شعر ونثر وأخبار ونوادر وملح كما يقول، حتى لنجد عنده قطعاً من نصوص أدبية مفقودة إذ نراه مثلاً يختار لسهل بن هرون قطعاً

من قصصه الطريفة التي صاغها محاكاة لقصص كليلة ودمنة، والتي لا يوجد منها الآن في المشرق شيء. وقد ولد بقرية تسمى الحَصْر بجوار القيروان فنسب إليها، وهو أستاذ علمين من أعلام الأدب في القيروان: ابن رشيقي وابن شرف، وكان ودوداً ومألماً لشباب القيروان ومتأديبها، فكانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه كما قال ابن رشيقي وقال عنه أيضاً: إنه كان شاعراً ناقداً عالماً بتنزيل الكلام، وقد افتتح به كتابه الأنموذج في شعراء القيروان، وذكره مراراً في كتابه العمدة، واستشهد فيه ببعض أشعاره. وكان يحق - كما قال ابن رشيقي - ناقداً ذواقة للأدب، فجمع - وخاصة في زهر الآداب - فرائد بديعة من شعر المحدثين ونثرهم وأخبارهم، وكأنه أراد بذلك أن يكمل كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ رآه يشغله بكلام الإسلاميين والجاهليين، ولا يعنى بالعباسيين العناية الكافية فرأى أن يكمل مختاراته الجاهلية والإسلامية بمختاراته الشعرية والنثرية للعباسيين، ولاحظ ذلك ابن بسام في ترجمته بالقسم الرابع من كتابه الذخيرة. فقال: «عارض الحصري أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بزهر الآداب فلعمري ما قصر عن مده ولا قصرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه بكلام أهل العصر (يريد العباسيين) دون كلام العرب لكان كتاب الأدب، لا ينازعه ذلك إلا من ضيق عينيه الرمدم، وأعمى بصيرته الحسد». وهي شهادة قيمة بروعة الكتاب وروعة ما يحمل من النصوص العباسية شعراً ونثراً. وربما كانت أهم مجموعة أدبية بعده في القطر التونسي مجموعة الحماسة لأبي الحجاج يوسف بن محمد البياسي الأندلسي نزيل تونس المتوفى سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٦م وقد كتبها بتونس سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وقرأها الطلاب عليه، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية. وحاول ابن شرف القيرواني الشاعر المتوفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بالأندلس أن يكون له نصيب في عالم النقد، فكتب مبحثاً يسمى تارة أعلام الكلام، وتارة رسائل الانتقاد، وطبع بالعنوانين، تناول فيه الشعر والشعراء منذ الجاهلية إلى زمنه، وهو ملاحظات مجملية أكثر منه آراءً نقدية، أو هو انطباعات عن الشعراء في جمل مسجوعة، وكأنه يؤلف مقامة - لامبحثاً نقدياً - عن الشعراء، ومن قوله عن أبي نواس: «أول الناس في خرم القياس. وذلك أنه ترك السيرة الأولى وتكّبت عن الطريقة المثلى، وجعل الجد هزلاً صادف الأفهام قد كلت.. فتهادى الناس شعره، وأغلوا سعره، وشغفوا بأسخفه، وكلفوا بأضعفه» ويقول عن ابن الرومي: «شجرة الاختراع، وثمرة الابتداع، وله في الهجاء ما ليس له من الاطراء، فتح فيه أبواباً، وخلع منه أبواباً، وطوق فيه رقاباً، يطول عليها حسابه، ويمحق فيها ثوابه» وكأنه يقيس هجاءه بمقياس خلقي لا بمقياس فني، ويقول في المتنبي: «شغلت به الألسن، وسهّرت في أشعاره العيون الأعين، وكثر الغائص في بحره، والمفتش في قعره عن جمانه (لؤلئته) ودُرّه، وله شيعة تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتعاون في جرحه»، وهكذا آراؤه في الشعر انطباعات لا تحمل تعليلاً ولا دليلاً.

ولم تعن القيروان بالبلاغة كما عنيت بالنقد، وأكبر نقاد القيروان وبلاغيتها المعدودين في النقاد والبلاغيين الكبار ابن رشيق المتوفى بمازr في صقلية سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م وله كتاب «قراضة الذهب في صناعة الأدب» وهو في السرقات الشعرية، وله كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، وهو يجمع فيه بين النقد والبلاغة، ويقول فيه القفطى: «اشتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه وأحسن فيه غاية الإحسان» وقال القاضي الفاضل: «هو تاج الكتب المصنفة في هذا النوع» وقال فيه ابن خلدون في مقدمته: «هو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة - يريد صناعة الشعر - وإعطائها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». وهى شهادة قيمة. وكل من يقرأ الكتاب يعرف بوضوح أن ابن رشيق وضع بين يديه كل ما أنتج المشرق من مباحث ومؤلفات في النقد والبلاغة من مثل البيان والتبيين للجاحظ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة والبيدع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة ونقد النثر لابن وهب والموازنة للآمدى والصناعتين لأبى هلال العسكري وكتابات الحاتمى فى البيدع والبلاغة وأضاف إلى ذلك كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلى، وسوى من ذلك كله - وربما اطلع على كتب أخرى - كتابه الذى ذاع وشاع فى العالم العربى غرباً وشرقاً منذ تأليفه إلى اليوم لدقة منهجه وحسن تبويبه وترتيبه، ولما يحمل من مواد طريفة تحيط بالشعر وصنعه ونقده وفنون بلاغته، وقد بدأه بالدفاع عن الشعر والشعراء واضعاً الشعر فى مرتبة بلاغية أعلى من مرتبة النثر، ويفرد باباً لبلاغة اللفظ والمعنى قائلاً إنهما متلازمان، فاللفظ جسم وروحه المعنى، ويقول إن للشعر لغة خاصة به، ويعرض للمكثرين والمقلين من الشعراء وللمطبوعين والمتكلمين ولأصحاب مدرسة البيدع وللوزن والقافية وعمل الشعر وشحد القرىحة له ولافتتاح الشعراء قصائدهم بالنسب وللمبدأ والخروج من فاتحة القصيدة إلى موضوعها وللمخترع فى الشعر والبيدع، ويفضّل القول فى الاستعارة والتشبيه أهم ألوان البيان ويفيض إفاضة واسعة فى ذكر ألوان البيدع ومحسناته متأثراً بأبى هلال العسكري فى كتابه الصناعتين والحاتمى فى كتابه حلية المحاضرة، وقد اعتمد على الكتاب الأخير اعتماداً واسعاً فى حديثه عن ألوان البيدع وفنونه من مثل الجناس والطباق والمقابلة والتتيم والتسهيم والترصيع وصحة التقسيم إلى غير ذلك من محسنات كثيرة. وكان القيروانيين لم يجدوا حاجة إلى التأليف فى البلاغة وفنون البيدع بعده، وبالمثل فى نقد الشعر وصناعته، وقد تحدث حديثاً مستفيضاً عن موضوعات الشعر بادئاً بالنسب ومفصلاً القول فى كل موضوع تفصيلاً دقيقاً، وتحدث عن السرقات الشعرية، واتفق مع النقاد فى أن السرقة إنما هى فى البيدع المخترع الذى يختص به شاعر ويسرقه أحد الشعراء، لا فى المعانى المشتركة بين الشعراء، ويذكر ما يحتاج إليه الشاعر من المعارف والثقافة. والكتاب غنى بالأفكار والآراء النقدية، ومثله فى هذا الغنى كتابه: «أمؤذج الزمان فى شعراء القيروان» وقد جمعه من بطون المخطوطات وغيرها من الكتب وحققه



تحقيقا علميا سديدا الأستاذان محمد العروسي المطوى وبشير البكوش وقدا له بمقدمة قيمة. وقد استطاعا بدأبها العلمي جمعه من مخطوطات مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري والوافي بالوفيات للصفدي وغيرهما من المخطوطات والمصادر، وبذلك رَدَّاه إلى الحياة بصورة إن لم تكن طبق الأصل تماما، فهي مقارنة له أشد القرب، وفي الكتاب مائة ترجمة للشعراء من معاصريه، مما يدل على حدوث نهضة شعرية لعصره في القطر التونسي. وهو يستهل كل ترجمة لشاعر بسطور عنه وعن صفته وشعره ثم يورد ما اختاره من أشعاره مع بعض أحكام نقدية. والكتاب يؤرخ بدقة للحركة الأدبية في عصر الدولة الصنهاجية، وبعبارة أدق في عصر المعز بن باديس. ولا يلقانا بعد ابن رشيق ناقد كبير أو بلاغي كبير في القيروان أو تونس إلا ما كان من حازم القرطاجني نزيل تونس في عهد المستنصر بن أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وعاش حتى سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٦ م وله في النقد والبلاغة كتابه المعروف: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» وهو فيه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان وبدون ريب أفاد منه المتأدبون بتونس، وأنه أعاد لهم درسه مرارا، وقد تحدثت عنه في الجزء الخاص من هذه السلسلة بالأندلس.

## ٤

### علوم<sup>(١)</sup> القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

بمجرد أن أُسِّت القيروان وتونس كان هناك مقرنون كثيرون يُقرنون الناشئة في الكُتاتيب، ودائما أينما وُجد الفاتحون في صدر الإسلام والعصر الأموي دَوَّوا بالقرآن الكريم دوى النحل، وكان منهم دائما من يتجرّدون لتحفيظه للداخلين في الإسلام وإقراءهم آياته الكريمة، ومن الصعب التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم، فهم كالجنديّ المجهول، يُرى أثره ولا يُعرف اسمه، غير أن كتب التراجم أحيانا تذكر بعض الأسماء ممن حَظُّوا بإقراء القرآن في الأزمنة المبكرة،

(١) راجع في هذه العلوم طبقات أبي العرب ورياض النفوس للمالكي وطبقات القراء لابن الجزري ورحلة العبدري وطبقات المفسرين للسيوطي ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي ومقدمة ابن خلدون في العلوم والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون والحلل السندسية في الأخبار التونسية لأبي عبد الله السراج تحقيق الأستاذ محمد الحبيب الهيلة وذيل

بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجة تحقيق وتقديم الأستاذ الطاهر المعموري وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف وعنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم وأديب وكتاب وقرات للأستاذ حسين حسني عبد الوهاب والحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية (مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

من ذلك اسم أبي منصور مولى سعد بن أبي وقَّاص، وهو - كما في كتابي رياض النفوس والمعالم - ممن دخل إفريقية وسكن القيروان، وكان مقرئاً للقرآن ومحدِّثاً وفقهياً مفتياً. واجتماعُ الفقه ورواية الحديث النبوي مع إقراء القرآن الكريم لأبي منصور لا يستغرب، لأن التابعين من أمثاله كانوا يجمعون بين إقراء الناشئة والناس للقرآن وإسماعهم بعض الأحاديث النبوية وتفقيهم في الدين بمعرفة أحكامه وتعاليمه. وعلى هذه الشاكلة كان الفقهاء العشرة أعضاء وفد عمر بن عبد العزيز لسنة مائة للهجرة، فهم يقرئون الناس الذكر الحكيم ويروون لهم بعض الأحاديث النبوية ويعلمونهم أمور دينهم الخفيف. وعُنَى بعض القيروانيين بحمل قراءات القرآن عن نافع قارئ المدينة. وكان ورش المصري قد حمل قراءته فأخذتها جماعة من القيروان عن تلاميذه المصريين. ومن أهمهم في القرن الثالث الهجري محمد بن عمرو بن خيرون المتوفى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م. وقد حمل قراءة ورش، وقدم بها إلى القيروان كما يقول ابن الجزري في طبقاته، وكان الغالب على قراءة الناس فيها قراءة حمزة أحد القراء السبعة، ولم يكن يقرأ قراءة نافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون إلى القيروان اجتمع عليه الناس ورحل إليه القراء من آفاق المغرب، ومن مؤلفاته كتاب الابتداء والتمام وكتاب الألف واللام. وكما أخرجت القيروان إماماً لغويا هو القزاز، وإماماً ناقدًا بلاغيا هو ابن رشيقي، أخرجت إماما في القراءات، هو مكى بن أبي طالب القيسى المولود بالقيروان سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ولما استكمل القراءات بالقيروان رحل إلى مصر سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وتلمذ في القاهرة لشيخ قرائها ابن غلبون، وكان يعود إلى بلده ثم يرجع إليه، حتى أخذ كل ما عنده، وهاجر إلى قرطبة سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وظل يقرئ بها الناس حتى توفي سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وله في القراءات كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب ثان في أصول قراءة نافع، وكتاب ثالث في المدِّ لورش، وذكر له ابن خلكان عشرات من الكتب في القراءات والتفسير والفقه والعربية. وكان يعاصره أحمد بن عمار المهدي المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله كتاب الهداية في القراءات السبع وله عليه شرح كما يقول ابن الجزري وله كتاب الموضح في تعليل وجوه القراءات. وظلت قراءة الذكر الحكيم ناشطة في القيروان على مدار السنين، واشتهرت بها أسرٌ توارثتها جيلا بعد جيل، ويصور ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره العبدري في رحلته حين زار تونس في سنتي ٦٨٨هـ/١٢٩٠م و٦٩١هـ/١٢٩٢م والتقى بالرحالة التونسي أبي الحسن علي بن إبراهيم التجاني في مسجد إقرائه، ومما قال له: «أنا الثاني عشر مدرسا من آبائي على نسق كلهم قعدوا هنا» (أى في هذا المسجد) للإقراء، وهذا يعني أن بيت التجاني في تونس توارث الإقراء للقرآن طوال اثني عشر جيلا متعاقبين، وإذا حسبنا لكل جيل ثلاثين سنة على الأقل كان معنى ذلك أن الأسرة توارثت إقراء القرآن نحو ثلاثة قرون ونصف أى منذ منتصف القرن الرابع الهجري. ومن كبار القراء في العهد الحفصي أبو القاسم اللبيدي معاصر التجاني صاحب الرحلة، وكان الطلاب يقرءون

عليه مسجد إقرائه كتاب التيسير في القراءات السبع للداني. وأشهر القراء بعده محمد بن بدال المتوفى بمنتصف القرن الثامن الهجري وكان يدرس لطلابه قصيدة الشاطبي في القراءات: حرز الأمانى ويفسر أبياتها لهم، ولجمال ترتيله وحسن صوته كانت تُشَدُّ إليه الرحال لسماعه، وكان السامعون من حوله يُروون بين خاشع وباك وداع. وكان يعاصره محمد بن محمد بن حسين الأنصارى، وكان يقرئ تلاميذه بقراءة الأئمة الثمانية، ومنهم الفقيه الكبير محمد بن عرفة الورعنى الآتى ذكره بين الفقهاء والمتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري وكان مقرنا كبيرا ومجودا عظيما للقرآن الكريم. ويكثر في ترجمة العلماء أن يقال عنهم إنهم مجيدون في قراءة القرآن، ونجد في العهد العثماني وظيفة في جامع الزيتونة مخصصة لقراء القرآن العظيم على كرسى الجامع، ومن تولاها الشيخ على السويسى، وأيضا وظيفة أخرى لشيخ القراء ومن تولاها في القرن الثاني عشر الهجري مصطفى الأزميزلى، وكان يعاصر قاره باطاق وله كتاب في القراءات العشر سماه: «الجواهر النضرة والرياض العطرة في متواتر القراءات العشرة».

وطبيعى أن كانت الأجيال الأولى في القيروان وتونس التى اعتنقت الدين الحنيف وأخذت تحفظ بعض آيات القرآن تطلبت معرفة تفسير ما تحفظه، فكان المقرئون الأولون لهم يحاولون إفهامهم ما يحفظونه، وتنشأ في المشرق حركة واسعة في تفسير القرآن، ويشتهر عبد الله بن العباس الصحابى الجليل ابن عم الرسول ﷺ بإتقانه لتفسيره حتى ليصبح إماما كبيرا فيه، ويحمله عنه تلاميذ مختلفون، ويتوزعون بما حملوه في البلدان الإسلامية وتحظى القيروان بتلميذ بربرى له، هو عكرمة مولاة، ويقول أبو العرب في طبقات علماء إفريقية وتونس: «كان مجلسه في مؤخر المسجد الجامع (جامع عقبة بالقيروان) في غربى المنارة بالموضع الذى يسمى بالركيبية». وما من ريب في أنه كان يلقى في مجلسه على الناس تفسير مولاة ابن عباس للقرآن الكريم، وسمعه منه خلق كثير من أهل القيروان وغيرهم، وقد أدخل الطبرى تفسيره الذى حمله عن ابن عباس في تفسيره الكبير بحيث يمكن لباحث أن يستخرجه منه وينشره مستقلا، وما زال عكرمة يلقى دروسه حتى توفى سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م. ومن المفسرين للذكر الحكيم في القرن الثاني الهجرى يحيى بن سلام وقد حرره بالقيروان سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وكان الطلاب يقصدونه من كل فج لسماعه منه، ويذكر أبو العرب في طبقاته أن عيسى بن مسكين سمع تفسير ابن سلام من موسى بن جرير، كما يذكر أن أسد بن الفرات قاضى القيروان وفاتح صقلية المتوفى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م كان يفسر الذكر الحكيم في بعض مجالسه أو في بعض دروسه بجامع القيروان، وللمقرئ الكبير مكى بن أبى طالب المار ذكره كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في معانى القرآن وتفسيره وأنواع علومه: سبعون جزءا، وكتاب الإيضاح في ناسخ القرآن ومنسوخة ثلاثة أجزاء. ويلقانا في القرن الخامس لعهد الدولة الصنهاجية مفسر كبير هو على بن

فضال المتوفى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وله التفسير المسمى البرهان العميدي في عشرين مجلدا، وله تفسير ثان باسم الإكسير في علم التفسير: خمسة وثلاثون مجلدا، وله النكت في القرآن. وصنف كتابا في شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ومرَّبنا أن نظام الملك ألحقه ب مدرسته النظامية في بغداد يدرس لطلابها، وله كتب كثيرة في النحو ذكرنا بعضها في حديثنا عن النحاة في القيروان، ولعله كان يدرس في النظامية التفسير والنحو معا. ومن كبار المفسرين في أوائل عصر الدولة الحفصية عبد العزيز بن محمد القرشي المعروف بابن بزيمة المتوفى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وهو من كبار الفقهاء الحفاظ وله تفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية الأندلسي وطريقة الزمخشري وعليه تخرجت طائفة كبيرة من طلاب تونس في العلوم الدينية. ومن كبار المفسرين في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد النور التونسي تلميذ ابن زيتون المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م وله اختصار تفسير الفخر الرازي. وولتقى في القرن التاسع الهجري بمفسر من كبار الحفاظ هو محمد بن عمر الأبي المتوفى سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م تلميذ ابن عرفة، وله تفسير كبير للقرآن الكريم كان يقع في ثمان مجلدات. ولمحمد زيتونة المتوفى بالقرن الثاني عشر الهجري في العهد العثماني حاشية على تفسير أبي السعود. وبدون ريب كان المفسرون للقرآن الكريم يعرضون على الطلاب أمهات كتب التفسير المشرقية للطبري والزمخشري والفخر الرازي وغيرهم، وظل ذلك في العهد العثماني، إذ نجد الشيخ محمد الفاسي يدرس لطلابه تفسير البيضاوي، ولا بد أن غيره من كتب التفسير المهمة كان يعرض على الطلاب.

ويتكاثر المحدثون في القيروان وتونس كثرة مفرطة، ومن قدمائهم في القيروان حنش بن عبدالله الصنعاني، دخل إفريقية غازيا مع موسى بن نصير (٨٦ - ٩٦ هـ) وسكن القيروان وحديث بها، كما حدثت بها عكرمة مولى ابن عباس المار ذكره بين المفسرين. ولتلقى ببغثة عمر بن عبدالعزيز التي كانت مؤلفة من عشرة فقهاء، وجميعهم كانوا محدثين وقرءاء وفقهاء كما مرَّبنا وكان يعاصرهم عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة قاضي القيروان لعمر بن عبد العزيز ويحيى بن سعيد الذي أرسله عمر بن عبد العزيز عاملا على الصدقات، وكلاهما حمل عنه الحديث كما حمل عن معاصرها أبي غطيف بشر الهدلي، وهو يروى عن جماعة من الصحابة وخاصة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعليه اعتماده في الرواية. ولتلقى بمحدث تونس كبير سبقت الإشارة إليه هو عبد الرحمن بن زياد قاضي القيروان في عهد المنصور وقلنا عنه في النشأة العلمية إن ابن وهب وابن لهيعة الفقيهين المالكيين المصريين روىا الحديث عنه، وذكرنا معه هناك على بن زياد التونسي، وقلنا إنه أول من أدخل الموطأ للمالك وجامع سفيان الثوري في الحديث إلى إفريقية التونسية، وكان يعاصره المحدث عبد الرحمن بن الأشرس زميله في التلمذة على مالك. ولتلقى بالبهلول بن راشد المتوفى بالقيروان سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وهو تلميذ مالك بن أنس وسفيان الثوري، وتلمذ لبيث بن سعد فقيه مصر، وكان معروفا بالتقوى

والتمسك بالسنة، وتُقصَّ عنه في ذلك حكايات كثيرة، مما جعل أبا العرب والمالكي والديباغ يطيلون في الترجمة له. ومن المحدثين بعده يزيد بن محمد الجُمحى المستشهد في فتح صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان ثقة صدوقا كثير الحديث سمع من مالك بن أنس في المدينة وغيره من كوفيين وبصريين وشاميين. وكان يعاصره موسى بن معاوية الصمادحي المتوفى سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م وأكثر مثل الجمحى من الأخذ عن مالك والكوفيين والبصريين وغيرهم، وكان يربط بالمنستير على الساحل قرب القيروان في شهر رمضان، ويقول عنه سحنون إنه كان أطول رُفقتنا صلاة، وربما أمضى بعض الليالي مصليا. ومن معاصريه عون بن يوسف الخزاعي المتوفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م وكان إذا قال في كتبه «حدثنا» فهو سماع، وإذا قال «أخبرنا» فهو إجازة. ويزدهر مذهب مالك في القيروان منذ القرن الثالث الهجري، وكان العلم المنسوب بأعين أصحابه كتابه «الموطأ» وهو كتاب فقه وحديث، مما جعل فقهاء جميعا محدثين، ولذلك من الصعب أن نفرّد المحدثين من الفقهاء منذ هذا القرن.

ونكتفى بذكر ألمع المحدثين في القرون التالية، ومن المعهم وأنبههم في القرن الرابع الهجري أبو الحسن القابسي على بن محمد بن خلف المار ذكره في صدر حديثنا عن دور العلم، وإليه انتهى تدريس الحديث النبوي في القيروان وكان قد رحل إلى المشرق ورجع منه بكنوز نفيسة أهمها ما حمله إلى الطلاب والشيوخ في جامع الزيتونة من صحيح البخاري، وكان يدرسه للطلاب، وعنت به إفريقية التونسية بعده كما عنت بصحيح مسلم، وهما جميعا وكتب السنة الأربعة المشهورة: للترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة محل إجلال وتوقير في بلدان العالم الإسلامي جميعه، وللمازري محمد بن علي الصقلّي نزيل المهديّة وحامل لواء العلوم الدينية فيها وفي البلدان المغربية المدفون بالمنستير سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م شرح نفيس على صحيح مسلم سماه المعلم بفوائد مسلم، وشرحه القاضي عياض باسم إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، وللإبي التونسي المار ذكره بين المفسرين شرح على صحيح مسلم سماه: «إكمال الإكمال بفوائد مسلم» في سبع مجلدات جمع فيه بين شرح المازري، وشرح عياض، وشرح النووي. ومن كبار المحدثين في القرن الثامن شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي الأصل التونسي المولد والموطن المتوفى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. وكان يقرئ تلاميذه في جامع الزيتونة الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم. وتلتقى في أوائل العهد العثماني بالشيخ إبراهيم الرياحي وكان يدرس للطلاب شرح القسطلاني على صحيح البخاري، ويذكر ابن أبي دينار في أواخر كتابه «المؤنس» طائفة من كبار المحدثين في القرن الحادي عشر الهجري بتونس، منهم أبو العباس أحمد الشريف الحنفى وأبو الحسن على الغماد وسعيد المحجوز وأبو عبد الله محمد تاج العارفين العثماني، وممن يضاف إلى هؤلاء المحدثين من كتاب ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان محمد برناز، ومحمد قويسم، ومحمد فتاة ومحمد زيتونة.

وكان الفقهاء في أول الأمر يجمعون كما ذكرنا بين إقراء القرآن ورواية الحديث النبوي والفتوى فيما يجد من أمور الدين، ولذلك من الصعب أن نميز في القرن الأول الهجري وغير قليل من القرن الثاني بين الفقيه والمحدث والمقرئ، ونفس بعثة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة يقال عن كل منهم في كتب التراجم إنه يجمع بين هذه الصفات الثلاث أو قل إنها تصف بذلك نفرا منهم وتترك الباقيين لأنه معروف أنهم جاءوا لتحفيظ الناس والناشئة القرآن وتفقيهم في الدين بما يلقنونهم من تعاليمه ومن أحاديث الرسول ﷺ. ونقرأ عن علي بن رباح اللخمي أنه قدم إفريقية غازيا في عهد موسى بن نصير وأنه سكن القيروان واختط بها مسجدا ومنزلا لسكناه وأن أهلها تفقهوا عليه، وهو تابعي روى عن عمرو بن العاص وأبي هريرة وأبي قتادة وغيرهم من الصحابة، وبذلك نستطيع أن نعهده أول فقيه قيرواني. وجاء بعده خالد بن أبي عمران التجيبي، قدم أبوه مع جيش حسان بن النعمان واستوطن مدينة تونس، وولد له فيها خالد وحفظه أبوه القرآن وروى عنه وعن بعض القيروانيين الحديث ورحل إلى المشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومن عروة بن الزبير وله كتاب كبير عنهم في الحديث وروى له مالك في الموطأ بعض أحاديث نبوية سمعها - كما مر بنا - من يحيى بن سعيد في القيروان، وكان فقيها بصيرا بالفتوى وتولى قضاء تونس إلى أن توفي سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م. وتلتقى بعده بأبي كريب عبد الرحمن بن كريب قاضي القيروان وفقيهها المستشهد في حرب الصُفْرية سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م.

وأخذ كثيرون من القيروانيين يرحلون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولقاء مالك إمام دار الهجرة: المدينة، وسماع الموطأ منه، ولم يلبث نفر منهم أن تجردوا لحمل الكتاب، وسبق إلى ذلك علي بن زياد من أبناء تونس - كما مر بنا في غير هذا الموضع - فكان أول من جلبه إلى موطنه، وأخذ يدرسه في جامع الزيتونة، وحمله - أو أخذه عنه - كثيرون من تونس ومن القيروان ومن غيرها، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب توجد قطعة من روايته للموطأ في مكتبة القيروان العتيقة، ومر بنا تعريف به في النشأة العلمية، توفي عن سن عالية سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وذكرنا أنه كان يعاصره عبد الله بن فروخ، وكان أبوه خراسانيا قدم إلى القيروان في جيوش الأمويين وسكنها وولد له فيها عبد الله، وقد حفظ القرآن ثم تتلمذ على شيوخ بلده، حتى إذا أخذ ما عندهم اتجه إلى العراق، ونزل الكوفة وصحب الإمام أبا حنيفة مدة طويلة مكنته من أن يحمل عنه مذهبه الفقهي الحنفي، ولم يرجع إلى القيروان مباشرة بل عرَّج على المدينة وسمع الإمام مالكا وهو يلقي الموطأ، ورجع إلى القيروان، وأخذ ينشر في طلابه فقه أبي حنيفة، توفي سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م. وكان من أئمة الطلاب في زمنه وزمن علي بن زياد شاب تونسي هو أسد بن الفرات، كان أبوه خراسانيا، دخل تونس مع جيش ابن الأشعث

سنة ١٤٤هـ/٧٦١م واستوطن تونس، وولد له فيها أسد، وفيها نشأ وحفظ القرآن، ثم اختلف إلى علي بن زياد وابن فروخ، ورحل إلى الحجاز، فسمع من مالك الموطأ، ثم رحل إلى العراق فاستمع إلى أصحاب أبي حنيفة وخاصة أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني ونزل الفسطاط ولزم دروس عبد الرحمن بن القاسم إمام المذهب المالكي بعد أستاذه مالك ودون ما سمعه عليه في مدونة له تسمى الأسدية، وأخذ أسد يدرس في القيروان مدونة عن ابن القاسم لطلابه، وتولى القضاء لزيادة الله الأغلبى، فكان تارة يأخذ في قضائه بمذهب مالك وتارة بمذهب أبي حنيفة حسب ما يترأى له من الوجه الصحيح في الحكم. ومعروف أنه كان القائد في فتح صقلية، واستشهد بعد فتحه لبعض بلدانها سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م.

ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الثاني الهجرى حتى يكون الطلاب في تونس والقيروان عرفوا - معرفة جيدة - مذهب مالك عن طريق علي بن زياد وأسد بن الفرات، كما عرفوا مذهب أبي حنيفة عن طريق عبد الله بن فروخ وأسد بن الفرات أيضا وإن غلب عليه مذهب مالك. ومضى المذهبان يتعايشان في القرن الثالث الهجرى. ولكل منهما فقهاؤه، وكان مما مكّن للمذهب الحنفى في القرن الثالث أن الأغلبية كانوا يختارون غالبا القاضى من الأحناف، كما كان يصنع العباسيون، وكانت كثرة الفقهاء في القيروان تؤثر مذهب مالك. ونستطيع أن نميز بين فقهاء الأحناف المهمين حينئذ معمر بن منصور رفيق أسد بن الفرات في تلمذته على عبد الله بن فروخ، ومثله سليمان بن عمران، وكان يلزم أسد بن الفرات، ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد زيادة الله الأغلبى الأول أبو محرز محمد بن عبد الله الكنانى، وكان هو وأسد بن الفرات شريكين في القضاء بالقيروان، وتناظرا أمام زيادة الله في النبذ، فكان أسد يقول بتحريمه وأبو محرز يخالفه متابعا لرأى الأحناف وهم لا يحلونه مسكرا وإنما قبل إسكاره. ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد الدولة الأغلبية عبد الله بن محمد بن الأشج، قال الخشنى في طبقاته: كان مذهبه مذهب الكوفيين، توفى سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م. وكان يعاصره الفقيهان الحنفيان أبو العباس بن القيار، وأبو العباس بن عبدون القاضى، ويقول الخشنى عنه: «كان حافظا لمذهب أبي حنيفة، ولاة إبراهيم بن أحمد (الأغلبى) القضاء ثم عزله» توفى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م. ومنذ استولت الدولة العبيدية على القيروان من الأغلبية أخذ المذهب الحنفى يقل فقهاؤه ولما انتهت تلك الدولة أخذ المذهب المالكي في الغلبة عليه حتى إذا كان المعز بن باديس وحمل الناس والفقهاء على مذهب مالك دون غيره من المذاهب إرضاء للجماهير في رعيته قلّ في القيروان وإفريقية التونسية من يعنى بالمذهب الحنفى، ونستطيع أن نذكر منهم في أوائل عهد الدولة الحفصية محمد الزناتى إذ يقول صاحب الحلل السندسية إنه كان إماما في المذهب الحنفى. ويعود المذهب الحنفى إلى ما كان له من الازدهار في زمن الأغلبية أيام الحكم العثمانى، وبعبارة أدق منذ عهد يوسف داى (١٠٠٨هـ/١٥٩٩م - ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م) إذ

أصبح قاضي القضاة أو رئيسهم حنفياً، وُسِّمَ فيما بعد شيخ الإسلام، ولم يكن حكم للقاضي المالكي ينفذ إلا إذا وافق عليه القاضي الحنفي، وتبع ذلك أن أخذ المذهب الحنفي يدرس في تونس بالمدرسة الشماعية وغيرها. ومن مشايخ الحنفية في القرن الحادي عشر الهجري بالعهد العثماني ممن ذكرهم ابن أبي دینار في آخر كتابه «المؤنس» محمد بن شعبان إمام جامع يوسف داي، وأبو الحسن كرباسة المدرس بالمدرسة الشماعية، ويتكاثر بتونس فقهاء الأحناف منذ هذا التاريخ، ويضيف حسين خوجة في كتابه: بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان جعفر كرباسة. وتقطع أخبار من ينتمون إلى مذهب الشافعي، ويذكر عن سعيد بن الحداد الفقيه والمتكلم الكبير المار ذكره المتوفى في مطلع القرن الرابع الهجري أنه بدأ حياته مالكياً، ثم تحول إلى مذهب الشافعي ثم عاد إلى المذهب المالكي.

وكان المذهب المالكي قد أخذ في الازدهار بالقيروان وإفريقية التونسية منذ مؤسسه أسد بن الفرات بما كان يلقي على الطلاب من مدونته الأُسدية عن عبد الرحمن بن القاسم إمام المالكية بالفسطاط وكان يعاصره سحنون تلميذ علي بن زياد، وقد أخذ عن أسد بن الفرات مدونته وحملها معه إلى ممليتها عليه عبد الرحمن بن القاسم، وقرأها عليه، فأصلح له جوانب فيها، وعاد بها سحنون إلى القيروان، وأخذ يملئ هذه الصورة الجديدة من المدونة على الطلاب وجاءوه من كل فُج حتى قالوا إنه تخرج على يديه سبعمائة فقيه. ونسبت المدونة إليه - وكان ينبغي أن تنسب إلى عبد الرحمن بن القاسم - إذ أصبح اسمها مدونة سحنون، وطارت شهرتها في بلده والبلدان المغربية جميعاً. وهو أول من أقام نظام الحسبة في القيروان حين تولى قضاءها سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م إلى وفاته سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وخلفه في حلقة ابنه محمد المتوفى سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م ويذكر مترجموه له تأليف مختلفة ومرّبنا كتابه: «آداب المعلمين». وكان يعاصره محمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م وكان جيد القريحة غزير الاستنباط، وله كتاب في شرح مسائل مدونة سحنون، ويقال إنه لما تصفح محمد بن عبد الله بن عبد الحكم إمام المالكية في الفسطاط بعد ابن القاسم كتابه وبعض كتب محمد بن سحنون قال في كتاب ابن عبدوس: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقال في كتاب لابن سحنون هذا كتاب رجل سبّح في العلم سبحاً. وولتقى بعدها بيحيى بن عمر الكنافي المتوفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م وكان فقيهاً، وله كتاب في الرد على الإمام الشافعي، وكتاب ثان في الحسبة بعنوان: «أحكام السوق» وهو منشور.

وحين استولى العبيديون على القيروان اضطهدوا فقهاء المذهب المالكي إذ حاولوا نقلهم من المذهب المالكي السني إلى مذهبهم الإسماعيلي فعارضوهم، وناظروا دعواتهم مناظرات حادة، وكان من أهم المعارضين لهم والمناظرين المجادلين لدعاتهم محمد بن اللباد رئيس المالكية وإمامهم



بالقيروان، فسجنوه فترة، ثم ردوا إليه حريته على أن يلزم بيته ولا يلقى الطلاب في جامع عقبة، فكان يلقاهم في بيته كما مر بنا إلى أن توفي سنة ٣٣٣هـ/٩٤١م وله مصنفات مختلفة منها كتاب في الطهارة وكتاب في فضائل مالك. وانحسرت غمة العبيديين عن القيروان سنة ٣٦١هـ/٩٧١م برحيل المعز العبيدي إلى مصر. ولمع سريعا تلميذ لابن اللباد، هو عبدالله بن أبي زيد المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وإليه انتهت رئاسة المالكية بالقيروان والبلاد المغربية، وإليه رحل الطلاب من جميع آفاق المغرب، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه يعد المجدد للسنة ولمذهب مالك في المغرب بعد انحسار حركة التشيع، وله الرسالة الجامعة لعقيدة أهل السنة ردّها على الشيعة ولها شروح كثيرة، وله كتاب النوادر والزيادات على مدونة سحنون، ويقول ابن خلدون: «جمع فيها ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال». ومن تلاميذه أبو الحسن القابسي المار ذكره بين المحدثين. وتلتقى بعده بأبي عمران الفاسي المتوفى سنة ٤٣٠ ثم بأبي إسحق إبراهيم التونسي المتوفى بمنتصف القرن الخامس وله شرح على المدونة باسم التعليقة، كما تلتقى بأبي الحسن اللخمي المتوفى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وله كتاب التبصرة. ويلقانا بعده الإمام المالكي الحافظ المازري محمد بن علي الصقلي المذكور بين المحدثين، ويقول ابن فرحون عنه: إمام أهل إفريقية والمغرب، وصار الإمام لقباً له، فلا يعرف بغير الإمام المازري، درس الفقه والأصول وله فيها كتب قيمة.

وفي أواسط القرن السادس الهجري استولى عبدالمؤمن على الاقليم التونسي ولم يحاول -فيما يبدو- نشر المذهب الظاهري مذهب دولته فيه، واكتفى بأن يذكر في خطبة الجمعة اسمه أو اسم المهدي بن تومرت زعيم دولته ولذلك ظل المذهب المالكي مسيطرًا ولا نسمع عن أتبعوا المذهب الظاهري في عهدهم وعهد الدولة الحفصية التي خلفتهم إلا عن بعض أفراد اعتنقوا المذهب الظاهري من حين إلى حين.

ومن كبار فقهاء المالكية في القرن السابع الهجري الحافظ الفقيه عبد العزيز القرشي المعروف بابن بزيزة المذكور بين المفسرين ومن أهم تلاميذه أبو القاسم بن أبي بكر المعروف بابن زيتون قاضي تونس في صدر الدولة الحفصية المالكي المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م وهو محرر عقد الصلح بين المستنصر والجيش الفرنسي بعد موت لويس التاسع تحت أسوار قرطاجنة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. وفي أواخر هذا القرن السابع وصل من القاهرة كتاب مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي وشغل بشرحه علماء البلدان المغربية. وتلتقى في القرن الثامن بمحمد بن عبد السلام الهواري مجدد الحركة الفقهية كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وشيخ الجيل التالي المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م المتولى قضاء الجماعة، له شرح لمختصر ابن الحاجب يعد من أهم شروحه، كما يقول ابن فرحون، ومن أنبغ تلاميذه ابن خلدون المؤرخ والفقيه المالكي الكبير، وستترجم له بأخرة ن هذا الكتاب، ومن أنبغهم أيضا محمد بن عرفة الورغمي

المتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، شيخ شيوخ عصره، كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويفتح ابن فرحون ترجمته بقوله: «هو الإمام العلامة المقرئ الفروعى الأصولى البيانى المنطقى شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ، وله تأليف منها تقييده الكبير فى المذهب المالكى فى نحو عشرة أسفار، أقبل الناس على تحصيله شرقا وغربا». ومن تلاميذه فى القرن التاسع الهجرى محمد بن عمر الأبى المذكور بين المفسرين والمحدثين.. وله فى الفقه شرح على مدونة سحنون.

طبيعى أن يتراجع ازدهار دراسات الفقه المالكى فى العهد العثمانى، وخاصة منذ عد يوسف داي فى النصف الأول من القطن لحدادى عشر الهجرى، إذ أصبح رئيس القضاة حنفيا، وأصبح حكم القاضى المالكى لا ينفذ إلا بعد مصاده عليه، ويذكر ابن أبى دينار فى آخر كتابه المؤنس من فقهاء المالكية بالقرن الحادى عشر محمد فتاة المدرس فى جامع الزيتونة، ومثله سعيد الشريف وعبد القادر الجبالى، وتظل دراسة الفقه المالكى ناشطة فى جامع الزيتونة إلى العصر الحديث. ويضيف حسين خوجه فى كتابه ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان: سعيد الشريف ومحمد الحجيج وله حاشيتان على مختصر خليل فى الفقه.

ومن يقرأ كتب تراجم العلماء والفقهاء - منذ القرن الثانى الهجرى يشعر كأنما كانت القيروان مرآة للمذاهب الكلامية التى نشأت فى العراق، إذ كانت مبادئها ونظرياتها تثار فى القيروان، ويتحاور فيها ويتجادل كثيرون، ومن أوائل ما كان من ذلك الجدل فى مبادئ الخوارج، وخاصة مبادئ الإباضية والصفيرية التى اعتنقها كثيرون من أهل المغرب - منذ أوائل القرن الثانى الهجرى - وكانت قد اقترنت بها فى المشرق فكرة المسلم مرتك الكبيرة أما الصفيرية فذهبت إلى الحكم عليه بالكفر وغالت فى سفك الدماء كما مر بنا فى الفصل الماضى، وقالت الإباضية إنه كافر نعمة لا كافر ملة وحكمت عليه بأنه مسلم عاصٍ ولم تعد دار المسلمين - مثل الصفيرية - دار حرب، وذهب أهل السنة من الماكية وغيرهم إلى أنه مسلم فاسق، وذهبت المرجئة إلى إرجاء الحكم عليه لربه يوم القيامة، كما ذهبت إلى أنه يكفى فى الإيمان القول أى التلطف بالشهادتين، ولا ضرورة فيه للعمل، وهو أداء الفروض الدينية، بينما أهل السنة يرون أن الإيمان قول وعمل، فمن لم يؤدِّ الصلاة والفروض الدينية لا يعد مسلما. ويروى أبو العرب فى ترجمة يحيى بن سلام المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة والمذكور بين المفسرين أنه كانت تجرى مناقشات بمجلسه فى الإرجاء. وكان مذهب الاعتزال والمعزلة قد ازدهر بالمشرق فى القرن الثانى الهجرى وتجادل أهل البصرة وبغداد طويلا مبادئه الخمسة المشهورة وهى القول بالوحدانية وبأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالعدل على الله وأنه يعمل الأصلح لعباده، وأنه منفذ - لا بد - وعده ووعيده.

وينتقل هذا المذهب إلى القيروان ويتجادل أهل السنة مع معتنقيه، وفي خبر عند أبي العرب، أنه كان للمعتزلة بالقيروان سقيفة يجتمعون فيها، وتوقف شخص بإزائهم وهم يتجادلون يستمع إليهم.

وإذا مضينا إلى القرن الثالث وجدنا محنة خلق القرآن التي امتحن بها الفقهاء من أهل السنة في عصور المأمون والمعتصم والواثق ينتقل الجدل والحوار فيها إلى القيروان، فمنهم من يقول إن القرآن - كما قال أهل السنة - قديم، ومنهم من يقول - كما قال المعتزلة - إنه حادث مخلوق غير قديم. ويذكر أبو العرب في طبقاته مناظرة حدثت أيام زيادة الله الأغلبى (٢٠١-٢٢٣هـ) عن خلق القرآن كان الجعفرى يقول فيها إنه غير مخلوق، والعنبرى يقول إنه مخلوق. وفي طبقات أبي العرب أنهم كانوا يتجادلون كثيرا في التشبيه على الذات العلية. واتسع الجدل في ذلك كله بجامع عقبة، إذ كان لكل فرقة ممن ذكرناهم حلقة يجتمعون فيها ويتجادلون جدلا كثيرا. وكان أهل السنة يضيقون بهذا الجدل وما يحدثه من جلبلة وضوضاء في جامع عقبة حتى إذا تولى سحنون قضاء القيروان سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م «فرَّق - كما يقول مترجموه - حَلَقَاتِ أهل البدع منهم في المسجد الجامع وشرد أهل الأهواء وكانوا فيه حَلَقًا: من الخوارج: صُفْرِيَّةً وإباضية ومعهم معتزلة، يتناظرون ويظهرون زيفهم.. وأمرهم أن لا يجتمعوا فيه» وقد أتاح هذا الجدل الواسع للمعتزلة وغيرهم في القيروان حركة جدلية واسعة، حتى ليصف أبو العرب والخشنى في طبقاتها غير واحد بأنه كان من الجدلين المناظرين الذين يعرفون كيف يدفعون الخصوم بالحجج والبراهين الساطعة، ولم يصف بذلك المعتزلة أو كما يسميهم أحيانا العراقيين بل يصفان بذلك كثيرين من أهل السنة. ومن كبار متكلميهم المجادلين عن عقيدتهم المفحمين لخصومهم أبو عثمان سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد رأس المدرسة الكلامية بالقيروان كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وقال الخشنى في طبقاته: غلب عليه الكلام والجدل والمناظرة.. وله مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الاسلام والذَّبُّ عن السنة» ويصفه المالكي في رياض النفوس بأنه كبير المناظرين عن السنة وكانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يريد المعتزلة) القائلين بخلق القرآن من أهل القيروان، ويسوق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب من هذه المجالس مجلسا تحاور فيه مع عبد الله بن الأشج في خلق القرآن وأسكنه وقطعه، ولما سلط عبید الله المهدي داعيته أبا العباس المخطوم لجدال فقهاء القيروان ومحاولته إقناعهم بمبادئ دعوتهم الإسماعيلية كان أكبر من تصدَّى من أهل السنة له ولغيره من دعائهم في أربعين مجلسا سجل منها الخشنى في طبقاته أربعة مجالس ونسوق مثالا من هذه المجالس، فقد سأله أبو العباس المخطوم هل يجوز تقديم المفضول (أى أبى بكر وعمر في الخلافة) على الأفضل (أى على) فأجابه بمقال من القرآن هو قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبينهم إن

الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴿ يريد أنه فضله على النبي، والنبي أفضل منه، ودليل آخر ذكره من السنة وهو أن الرسول ﷺ أمر على جيش عمرو بن العاص فكان يقسم الفيء (الغنائم) ويأمر وينهى فيطاع ويصلى بهم الصلوات. وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر وهما جميعا أفضل منه. وعلى هذا النحو كان سعيد بن الحداد يجيب أبا العباس المخطوم ويحاوره حوارا منحرفا بأدلة قرآنية وأحاديث نبوية، ويضيف إلى ذلك حججا منطقية دامغة مما يجعله من كبار المتكلمين المدافعين عن عقيدة السنة لافي القيروان وحدها. بل في العالم الإسلامي جميعه. وإذا كانت القيروان عرفت المذاهب المبكرة في العراق للمعتزلة وغيرهم فإنها عرفت مذهب الأشعري الذي أخذ في الانتشار منذ القرن الرابع الهجرى حمله إليها أبو الحسن القابسي المذكورين المحدثين، والمتوفى سنة ٤٠٣ ومعلوم أن للأشعري نظرات دقيقة في التوسط بين القائلين بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة وبين القائلين من المعتزلة بالاختيار وحرية الإنسان في إرادته، وأيضا بين أهل السنة من مثل ابن حنبل القائلين بأن القرآن قديم والمعتزلة القائلين بأنه محدث مخلوق وقد أوضحنا مذهبه في حديثنا عنه في كتابنا: «العصر العباسي الثاني». ومن كبار الأشعريين القيروانيين محمد بن عتيق التميمي القيرواني أخذ علم الكلام بالقيروان عن أبي عبد الله بن الحسين بن حاتم صاحب أبي بكر بن الباقلاني (الأشعري) ورحل إلى بغداد ودرس بها علم الكلام بالمدرسة النظامية، وقال السلفي كان مشارا إليه في علم الكلام قال لي أنا أدرس علم الكلام منذ سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة توفى سنة ٥١٢هـ/١١١٨م. ولعل في كل ما قدمت ما يدل - بوضوح - على أن علماء القيروان استوعبوا جميع المذاهب الكلامية الشرقية، وعمّ المذهب الأشعري هناك منذ القرن الخامس الهجرى.

## ٥

التاريخ<sup>(١)</sup>

منذ الحقب الأولى في العهود الإسلامية يعنى أهل إفريقية التونسية بكتابة التاريخ، وأول

المغرب (طبع تونس) ومقدمة أنموذج الزمان لابن رشيق (طبع تونس) وابن خلدون ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي ورحلة التجاني والاحاطة للسان الدين بن الخطيب في يحيى بن خلدون ومقدمة تاريخه والتعريف بابن خلدون بقلمه والأدلة البيئية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية =

(١) راجع في المؤرخين التاليين طبقات أبي العرب ورياض النفوس للمالكي ومجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في سيرة المهدي لجعفر الحاجب ومقدمة سيرة الاستاذ جوذر المطبوعة بالقاهرة وكذلك مقدمة افتتاح الدعوة وطبقات الخشني وقطعة الرقيق القيرواني من كتاب تاريخ إفريقية

مؤرخ نلتقى به عيسى بن أبي المهاجر، حفيد أبي المهاجر والى إفريقية التونسية والمغرب (٥٥ - ٦١ هـ) توفى بأواخر القرن الثاني الهجري، وله كتاب مغازى إفريقية، وهو مفقود غير أن المؤرخين بعده ينقلون عنه نقولا مستفيضة على نحو ما نجد في طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب. والمؤرخ الثاني بعده عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى سنة ٢٢٢٧هـ/٨٤١م وله كتاب في أخبار إفريقية وحروبها ولمحمد بن زيادة الله الأغلبى المتوفى سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م كتاب في دولتهم الأغلبية، ولأبي على بن الوكيل القيروانى المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م كتاب في تاريخ إفريقية. وكل هذه الكتب التاريخية مفقودة. ولجعفر بن على الحاجب كتاب في سيرة المهدي الفاطمي ومن كتب التاريخ التي يظن أنها كتبت قبل انتقال العبيديين الفاطميين إلى مصر أو بعد انتقالم مباشرة سيرة الأستاذ جودز وافتتاح الدعوة الفاطمية والمجالس والمسائرات للقاضي النعمان القيروانى العبيدى، ومن الكتب التاريخية العبيدية كتاب لأحمد بن الجزار الطبيب القيروانى المشهور المذكور بين الأطباء وهو كتاب باسم تاريخ الدولة يريد الدولة العبيدية. ومن الكتب المهمة كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب محمد بن تميم القيروانى المتوفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م وهو منشور بتونس، ونلتقى بعده بكتاب طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى المتوفى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وهو مكمل لسالفه ومطبوعان معا بدار الكتاب اللبناني ببيروت، وللرقيق القيروانى صاحب ديوان الرسائل في عهد باديس الصنهاجى وابنه المعز المتوفى حول سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م كتاب مهم في تاريخ إفريقية والمغرب، وهو مفقود سوى قطعة منه نشرها د. منجى الكعبي بتونس تؤرخ لنحو قرن وربع من ولاية عقبة بن نافع إلى ولاية عبد الله الأغلبى وهو ابن إبراهيم مؤسس الدولة الأغلبية، ويلقانا بعده كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروانى لابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ومر بنا حديث عنه بين النقاد، وكان يعاصره أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المغلکی المتوفى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وله الكتاب البديع: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ويقدم في أوائله قصة الفتح العربى في إفريقية كاملة معتمدا في الأكثر من رواياته على المؤرخين القيروانيين السابقين له، وفي نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء يفرد فصلا لأهل العبادة والنسك، طبع القسم الأول منه في القاهرة وطبع القسم الثانى في تونس. ومن أهم كتب التراجم القيروانية والتونسية بعده كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بالدباغ المتوفى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وهو يعتمد

الإيمان بفتوحات آل عثمان ومقدمته وفيه ترجمة لمحمد السراج، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف.

=لابن الشماع (طبع تونس) والمؤسس لابن أبي ديتار والحلل السندسية للسراج، وذيل بشائر أهل

على المالكي إلى حد كبير وأكملة بإضافات وتعليقات أبو الفضل بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م والكتاب وإضافات ابن ناجي مطبوعان معا. وللتجاني عبد الله بن محمد المتوفى بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م رحلة مشهورة مطبوعة بتونس تجول فيها مع أبي يحيى اللحياني قبل سلطنته في البلاد التونسية حتى أقصى الجنوب وغربا حتى طرابلس وهو فيها يدون أخبار البلاد وأوصافها وعلماءها وعبادها بحيث أصبحت الرحلة تاريخاً علمياً وأديباً واجتماعياً للبلدان التونسية في مطالع القرن الثامن الهجري. ولأبي محمد عبد الله بن عبد البر التنوخي المتوفى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م تاريخ مرتب على السنين مثل الطبري. وليحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد بتلمسان حتى زمنه. ولعبد الرحمن بن خلدون أخيه المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م تاريخه المشهور «العبر» وبه جزآن عن البربر بإفريقية التونسية والبلاد المغربية وبها معلومات تاريخية طريفة عنهم وعن شعوبهم وقبائلهم ودولهم ينفرد بها لأخذه من مصادر مغربية لم يطلع عليها سواه. ولأبي العباس أحمد بن الشماخ المعروف بابن الهنتاتي المتوفى في أواخر القرن التاسع الهجري كتاب عن الدولة الحفصية باسم الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ألفه في أواخر سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م وللزركشي كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية وينتهي به في تاريخ الدولة الحفصية إلى سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، ولابن أبي دينار الذي كان حيا سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م كتابه النفيس: «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ولحسين خوجه المتوفى سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان وهو ترجمة لعلماء البلدان الكبيرة: القيروان وصفاقس وجربة وسوسة وتوزر وباجة، وخصّ تونس بالترجمة فيها لاثنتين وأربعين عالما دينيا. ولمحمد بن السراج المتوفى سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م الحلل السندسية في الأخبار التونسية يعنى فيه بالحديث عن المدن التونسية وعلمائها وأدبائها بادئا بمدينة سوسة.

## الفصل الرابع

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### تعرب القطر التونسي

كان البربر ينتشرون قديما في جميع الأراضى الممتدة غربى مصر من واحة سيوه إلى المحيط الأطلسى، وكانوا يتكلمون لهجات بربرية شتى رَدَّها علماء الأجناس واللغات القديمة إلى أصليين: لىبى فى شرقى تلك الأراضى ونوميدي فى أواسطها وغربيها، وهى لهجات تتحد جنسا وتتفاوت فيما بينها بحيث يصعب التفاهم بين سكان منطقة فى ليبيا كسكان جبل نفوسة وسكان منطقة فى الإقليم التونسى كسكان منطقة الجريد فضلا عن سكان المغرب الأوسط فى الجزائر والمغرب الأقصى فى المملكة المغربية.

ونزل الفينيقيون - كما مرَّ بنا - بساحل تونس، أو بعبارة أدق أخذوا يردونه منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، وكوَّنوا لهم غربى مدينة تونس الحالية مدينة قرطاجة حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ولعبت تلك المدينة فى المنطقة - كما أسلفنا - دورًا حضاريا عظيمًا إلى أن دحرها الرومان واستولوا عليها فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، ونشروا بالمنطقة لغتهم اللاتينية كما نشروا بها المسيحية حين اعتنقوها، وتهدبهم إمبراطورًا عظيمًا هو سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكاتبًا بارعا هو أبولى Abulée كما تهدبهم بعض القديسين مثل ترتوليان Tertulien. وتظل المنطقة تابعة لروماسته قرون طوال، وكانت تتبعها أيضا بقية الساحل الإفريقى من برقة إلى المحيط الأطلسى، مما جعل اللاتينية تسود فى كل تلك المناطق سواء فى شئون الحكم الرسمية أو فى شئون الدين ولذلك اضطر كثيرون من البربر فى تونس وغيرها من الأقاليم المغربية أن يتعلموا اللاتينية ويتقنوها تحدثا وكتابة. وقد نزلها الواندال الجرمانيون سنة ٤٣٩ وظلوا بها مائة عام يدمرون كل ما بها من مظاهر الحضارة والعمران إلى أن خلعتها منهم بيزنطة، وحاولت تنشر بها اليونانية غير أن اللاتينية ظلت هى اللغة المسيطرة على الألسنة وفى شئون الدين إلى أن فتحها العرب، وظلت فترة غير قليلة متداولة وخاصة فى قرطاجة وما حوالىها، ونراها لا تزال حية على بعض الألسنة فى قفصة جنوبى الإقليم التونسى

في القرنين السادس والسابع الهجريين كما يحدثنا عن ذلك الإدريسي والتجاني في رحلته، وإن كان من المؤكد أنه أصابها حينئذ غير قليل من التحريف بسبب اختلاط المتكلمين بها بسكان تلك المنطقة البربرية ولغتها.

وعلى الرغم من القرون المتطاولة التي عاشت فيها اللغة الفينيقية المتحضرة بالإقليم التونسي والقرون الأخرى التي عاشت فيها اللاتينية المتحضرة بهذا الإقليم وأتقنها كثير من البربر تكلموا وكتابة على الرغم من ذلك لم تتحوّل اللغة البربرية - لا في تونس ولا في أي إقليم آخر - إلى لغة متحضرة أيام الفينيقيين بحيث أصبح لها حروف استحدثها البربر يكتبونها بها، ومن ثمّ لم يتركوا قبل الإسلام أي أثر كتابي بلغتهم البربرية يمكن منه التعرف الدقيق على تاريخهم القديم، وقد رجع العرب في معرفته إلى الكتب والكتابات اللاتينية، وما يؤكد ذلك أننا نجد يامبسال ملك نوميديا البربري أيام الفينيقيين يحرر كتبه باللغة الفينيقية لغة قرطاج، كما نجد بين ملوكها أيام الرومان من يحرر كتبه باللاتينية أو الإغريقية، فلم تكن البربرية - قبل الفتح العربي الإسلامي - إذن لغة حضارية وكان كثيرون من البربر يعرفون اللاتينية كما أسلفنا وقد أخذت اللغتان تزايل السنة أهلها وتحل محلها العربية في تونس وغير تونس من أقاليم المغرب مع اعتناق السكان الإسلام واختلاطهم بالعرب عن طريق المصاهرة والمعايشة معهم، وخاصة في المدن التي نزلوها، إذ كان سكانها - لذلك - أسرع في التعرّب من سكان القرى الريفية والجبال والنجاد والبوادي، وكانوا يعدون في الإقليم التونسي وغيره بالآلاف، وقد بلغ عدد الجنود الفاتحين في عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين نحو مائة وخمسين ألفاً سوى من كان يرافقهم من النساء والأطفال، وما يذكر - بالثناء الجم - للفاتحين في العهود الإسلامية الأولى أنهم لم يكونوا غزاة يجمعون غنائم الفتح، كما يحاول المستشرقون أن ينعته، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف، وتسلّل منهم - كثيرون من مدن الإقليم التونسي وغيره من الأقاليم المغربية - إلى القرى والجبال والبوادي يدعون إلى دين الله بحمية وحاسة بالغة.

وقد جعلت تعاليم الدين الحنيف السامية وما يدعو من إخاء وتسامح ومعاملة حسنة شعوب البربر تقبل عليه، وخاصة بعدما رأوه يرفع عن كواهلهم ظلم الأمم السالفة التي كانت تعتصر لنفسها خيرات بلادهم وترهقهم بالضرائب الفادحة، مما دفع البربر - وخاصة في المدن - إلى الدخول في الدين الحنيف ومراً بنا أن قبيلة بربرية - هي قبيلة أوربة - اعتنقت الإسلام في عهد عقبة بن نافع حوالي سنة ٦٠ للهجرة. وكان البربر الذين أسلموا يقبلون على حفظ كثير من آي الذكر الحكيم واستظهار بعض الأحاديث النبوية، وكانوا يتلقّون ذلك في كتابات أخذت تنشأ سريعاً في المدن وبعض القرى الكبيرة، كما كانوا يتلقّون في حلقات كثيرين ممن



كانوا يعتلون بالمساجد منصات محاولين أن يعلموا الناس بعض تفسير القرآن شارحين لهم بعض الأحاديث النبوية مع التعرُّض لجوانب من تعاليم الدين الحنيف، وأخذ كثيرون في البوادي وسفوح الجبال يسعون إلى حفظ الذكر الحكيم كما مرَّ بنا في الحديث عن الثقافة وشغف عمر بن يَمَكْتَنَ بحفظ القرآن ومراجعته فيه الجنود العرب المارين بمنطقته حتى حفظه جميعه.

ومن المؤكد أن المدن التونسية - كما أسلفنا - أخذت في التعرب سريعاً عن طريق من نزلها من الجنود العرب طوال القرن الأول الهجري بعد الفتح وشرطاً من القرن الثاني، فهي لم تنتظر طويلاً حتى يتم لها التعرب. ومما لا ريب فيه أن القيروان التي أنشأها عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول الهجري لتكون معسكراً لجيشه كانت عربية خالصة منذ إنشائها، وتبعتها في التعرب مدن تونس وسوسة وفاقس وقابس، بحيث لا تقضى طويلاً في القرن الثاني الهجري حتى تصبح مدناً عربية خالصة، أما في الداخل والبوادي والجبال فقد ظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة.

وما نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس للهجرة حتى يأخذ الإقليم التونسي في إكمال تعربه، إذ اكتسحته موجات من قبائل هلال وسليم وزُغْبَة ورياح بأمر الخليفة الفاطمي المستنصر بالقاهرة - كما مر - للقضاء على دولة المعز بن باديس الصنهاجي انتقاماً منه لخلعه تبعية بلاده للدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية وإعلانه استقلاله وعودة الإقليم التونسي إلى مذهب أهل السنة. واستطاعت هذه الموجات البدوية الكثيفة أن تلجته مع أسرته للمقام بمدينة المهديّة وأن تجتاح القيروان وكل الإقليم التونسي بمدنه ووديانه وجباله وبواديه، وكانوا يبلغون نحو نصف مليون نسمة وامتزجوا بالبربر وتكوّن من الشعبين شعباً عربياً تام العروبة في اللغة والدين والزى والمطعم والعادات والأخلاق والمآتم والأعراس، واجتاحوا البلاد بإبلهم وخيلهم ورَجْلهم ونهبوا خيراتها عشرات من السنين، ومع كل ذلك حملوا إلى كل أنحاء الإقليم التونسي وأطرافه النائية اللغة العربية وفرضوها على البربر فرضاً عن طريق الامتزاج بهم ومصاهرتهم، حتى ليقول ابن خلدون - كما مر بنا في الفصل الماضي - عن قبيلة هواة البربرية التونسية إنهم «صاروا في عداد الناجعة (بني هلال وسليم) في اللغة وسكّنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بها فصاحة العرب فلا يكاد يفرّق بينهم» فهم قد أصبحوا - بفضل هذه الموجات البدوية من بني سليم وهلال وزغبة - عرباً في العادات وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وما ينساق في ذلك من الملبس والمطعم والأفراح والأتراح والسلوك والأخلاق، ويقول ابن خلدون إن رطانة البربر زابت ألسنتهم وحلت مكانها الفصحى، ونراه يقول في موضع آخر عن

هواره إنهم «تبدوا» مع الأعراب - ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم».

ولم تبد هواره التونسية أو تتعرب وحدها في الإقليم التونسي، بل تعرب الإقليم جميعه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في خلال قرن بل يزيد، إلى أن استولى على الإقليم زعيم دولة الموحدين المغربية عبد المؤمن بن علي، ولكن هل العربية التي حملتها قبائل هلال وسليم وزغبة إلى الإقليم التونسي هي الفصحى أو هي عربية دارجة عامية؟ ونرجح أنها الفصحى، ويدل على صحة رأينا أن القبائل من سليم وهلال وزغبة كانت قد انضوت تحت لواء الأعصم القرمطي حين غزا الشام ومصر سنة ٣٦٠ للهجرة ورأى الخليفة الفاطمي العزيز - حين صالحه - أن ينزلها في صعيد مصر، وحوّلهم بعده الخليفة الفاطمي المستنصر إلى تونس لضرب المعز بن باديس كما أسلفنا، وكانت الجزيرة العربية مصدرها لا يزال سكانها يحافظون على الفصحى بشهادة الجوهري في مقدمة معجمه الصحاح إذ يقول إنه أخذ اللغة عن أهلها مشافهة، وإنه طوّف في بلاد ربيعة ومصر، ونجد الباخري في كتابه دُمِيّة القصر المؤلف في منتصف القرن الخامس الهجري يترجم لشعراء كثيرين من قبائل نجدية شتى وينشد من أشعارهم، مما يدل على أن الفصحى كانت لا تزال حية بعد مغادرة بني سليم وهلال للجزيرة بنحو قرن، ويبدو أنها ظلت حية في الجزيرة العربية قرونا بعد ذلك، فإن عمارة اليمن يشهد - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - بأن تهامة والبادي وأهل الجبال في اليمن - لعصره بالقرن السادس الهجري - كانوا يتكلمون الفصحى ولا يلحنون في كلامهم. ومما لا شك فيه - إذن - أن قبائل بني سليم وهلال التي نزلت مصر وتركتها إلى ليبيا وتونس وماوراءها من بلاد المغرب لم تكن تنطق عربية مولدة أو عربية عامية، إنما كانت تنطق عربية فصيحة، ومن الخطأ أن يتشكك بعض الباحثين في صفاء عربيتهم مستدلا على رأيه بشعر القصص الهلالية المعروفة التي تحكى مغامرات أبي زيد الهلالي في شعر شعبي يختلف في صياغته - قليلا أو كثيرا - عن صياغة الشعر العربي الكامل الفصاحة فضلا عما يجري فيه من خلل الإعراب، غير أن هذا القصص نشأ في عصور متأخرة، حين أخذت لهجات شعبية تشيع في ألسنة أهل تونس وغيرها، ومما يؤيد رأينا أن نجد ابن خلدون ينشد قصيدة بديعة لأحد رؤساء قبيلة عوف من بني سليم، وكانت تستولى على ما بين قابس وسوسة، وهو عنان بن جابر، وكان أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية قد أوغر الصدور بين قبيلته وقبيلة علاق، فنشبت بينها معارك ضارية، وأغضب ذلك من أبي زكريا عنان بن جابر فرحل بقبيلته إلى صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) فكتب إليه محمد بن أبي الحسين وزير أبي زكريا قصيدة يعاتبه فيها على هجرته عن وطن آبائه، ويدعوه إلى العودة إليه، ثم كتب إليه قصيدة ثانية، فرد عليه عنان محزونًا لما اضطر إليه من فراق موطنه، وفيها يتحدث عن بسالة قبيلته في الحروب بمثل قوله:

وَكُنَّا إِذَا مَا الْجَيْشُ صُفَّتْ جَنُودُهُ      تَرَانَا عَلَى خَيْلٍ عِتَاقٍ ضَوَامِرِ  
نَخُوضُ وَغَاها وَالقَنَا تَقْرَعُ القَنَا      بِكُلِّ حُسَامٍ مَشْرِفٍ وَبَاتِرِ

وَسُجُّ القَصِيْدَةِ جَزَلٌ مَتِينٌ، وَهِيَ مَعْرَبَةٌ إِعْرَابًا تَامًّا، وَتَرْجَعُ إِلَى النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ السَّابِعِ الهَجْرِيِّ مِمَّا قَدْ يَدُلُّ - مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ - عَلَى أَنَّ قَبَائِلَ سَلِيمٍ - وَمِثْلَهَا غَالِبًا قَبَائِلَ هَلَالٍ - لَمْ تَزَالِ أَسْتَهْتَهَا الفِصَاحَةُ وَلَا أَصَابَهَا خَلَلُ الإِعْرَابِ فِي النُّطْقِ حَتَّى عَصَرَ عَنَانَ بِنِ جَابِرٍ. وَقَدْ يَسْنَدُ رَأْيُنَا - مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ - مَا حَكَاهُ العَبْدِيُّ فِي رِحْلَتِهِ عَنِ أَهْلِ بَرَقَةِ اللَّيْبِيَّةِ مِنْ أَنَّ «كَلَامَ عَرَبِ بَرَقَةٍ مِنْ أَفْصَحِ كَلَامِ عَرَبِيٍّ سَمِعْنَاهُ، وَيَقُولُ: وَعَرَبُ الحِجَازِ أَيْضًا فِصْحَاءُ، وَلَكِنْ عَرَبُ بَرَقَةٍ لَمْ يَكْثُرْ وَرُودُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَخْتَلَطْ كَلَامُهُمْ بِغَيْرِهِمْ، وَهُمْ الآنَ (فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ السَّابِعِ الهَجْرِيِّ) عَلَى عَرَبِيَّتِهِمْ لَمْ يَفْسُدْ مِنْ كَلَامِهِمْ إِلَّا القَلِيلُ، وَلَا يَخْلُونَ مِنَ الإِعْرَابِ إِلَّا بِمَا لَا قَدْرَ لَهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا يَعْربُونَ». وَيَسُوقُ العَبْدِيُّ أَمْثَلَةً مِنْ كَلَامِهِمْ سَمِعَهَا كَمَا رَوَاهَا وَفِيهَا يَحْتَفِظُونَ حَتَّى زَمَنِهِ بِالإِعْرَابِ. وَمِنْ بَقَايَا هَذَا الإِعْرَابِ - فِي رَأْيِي - احْتِفَاطُ قَبَائِلِ المَحَامِيدِ وَالمَرَازِقِ وَأَوْلَادِ يَعْقُوبَ وَغَيْرِهِمْ فِي النُّوَاحِي الجَنُوبِيَّةِ مِنَ الإِقْلِيمِ التُّونِسِيِّ - إِلَى اليَوْمِ - بِنُونِ النُّسُوءِ فِي كَلَامِهِمْ، فيقولون: «النَّسَاوِينِ يَشْرِبْنَ وَيَأْكُلْنَ وَيَغْزَلْنَ» وَلَا تَزَالُ هَذِهِ النُّونُ تَنْتَشِرُ فِي نُوَاحِي طَرَابَلُسَ وَبَرَقَةِ اللَّيْبِيَّتَيْنِ كَمَا يَقُولُ الأُسْتَاذُ عَبْدِ الوَهَّابِ.

وَلَيْسَ مَعْنَى كُلِّ مَا قَدَمْتُ أَنَّ العَامِيَّةَ العَرَبِيَّةَ لَمْ تَأْخُذْ طَرِيقَهَا إِلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ المَدِينِ فِي الإِقْلِيمِ التُّونِسِيِّ إِلَّا فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ، فَالمُظَنُّونَ أَنَّ هَذِهِ المَدِينِ مِثْلَهَا مِثْلُ الفُسْطَاطِ فِي مِصْرَ وَغَيْرِهَا مِنَ المَدِينِ العَرَبِيَّةِ اسْتُخْدِمَتْ مَبْكَرَةً لُغَةً عَامِيَّةً بِهَا غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ الأَلْفَاظِ البَرْبَرِيَّةِ المَحَلِّيَّةِ، وَخَالِيَّةِ مِنَ الإِعْرَابِ، مُتَخَفِّفَةً مِنَ الحَرَكَاتِ وَالمُتَمَسِّةِ بِالتَّسْكِينِ لِأَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ. وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ العَامِيَّةَ القَيْرَوَانِيَّةَ أَوْ التُّونِسِيَّةَ أَخَذَتْ تَشْبِيحًا فِي الأَلْسِنَةِ مِنْذُ أَوَائِلِ القَرْنِ الثَّالِثِ الهَجْرِيِّ وَأَنَّ فَاتِحِي صَقْلِيَّةِ مِنَ القَيْرَوَانِيِّينَ وَالتُّونِسِيِّينَ سَنَةَ ٢١٢ للهِجْرَةَ حَمَلُوهَا إِلَيْهَا، كَمَا حَمَلُوهَا إِلَى مَالِطَةَ حِينَ فَتَحُوهَا سَنَةَ ٢٥٥ للهِجْرَةَ لِعَهْدِ الأَمِيرِ الأَعْلِيِّ أَبِي العَرَانِيقِ، وَقَدْ ظَلَمُوا بِحُكْمِهَا حَتَّى سَنَةَ ٤٨٥ للهِجْرَةَ حِينَ انْتَزَعَهَا مِنْهُمْ رُوجَارُ النُّورْمَانْدِيِّ صَاحِبُ صَقْلِيَّةِ، وَظَلَّ المُسْلِمُونَ بِهَا تَحْتِ وِلَايَةِ النُّورْمَانْدِ نَحْوَ مِائَةِ وَسْتِينَ عَامًا إِلَى أَنْ أُجْبِرَهُمْ عَلَى مِبَارَحَتِهَا فِرِيدْرِيكُ الثَّانِي إِمْبَرَاطُورُ المَانِيَا سَنَةَ ٦٤٧ لِعَهْدِ المُسْتَنْصَرِ الحَفْصِيِّ كَمَا مَرَّ بِنَا، وَمِنْ حِينِئِذٍ أَصْبَحَتْ مَالِطَةُ مَسِيحِيَّةً خَالِصَةً، وَقَدْ ظَلَمُوا إِلَى اليَوْمِ يَتَدَاوَلُونَ فِي حَيَاتِهِمْ لَهْجَةً عَرَبِيَّةً مَالِطِيَّةً مُشْتَقَّةً مِنَ اللِّهْجَةِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ يَسْتُخْدِمُهَا آبَاؤُهُمْ وَبِحَقِّ يَقُولُ الأُسْتَاذُ حَسَنُ حَسَنِي عَبْدِ الوَهَّابِ: «إِنَّ بَقَاءَ هَذِهِ اللِّهْجَةِ فِي مَالِطَةَ لظَاهِرَةٌ عَجِيبَةٌ، بَلْ حِجَّةٌ قَوِيَّةٌ وَمَعْجِزَةٌ بِالعَاقِبَةِ فِي حَيَوِيَّةِ اللِّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَرَسُوخِهَا العَمِيقِ فِي قِرَارَةِ نَفُوسٍ مِنْ يَتَكَلَّمُ بِهَا مِنَ الأَجْيَالِ. أَلَا تَرَى هَذِهِ الجَزِيرَةَ المَسِيحِيَّةَ النُّحْلَةَ قَدْ تَعَاقَبَتْ عَلَيْهَا - مِنْذُ ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ - أُمَّمٌ وَدُولٌ مُتَعَدِّدَةٌ، آخَرَهُمُ الإِنْجِلِيزِيُّ وَوَدَّوْا لَوْ يَحْمِلُونَ أَهْلَهَا عَلَى

التخاطب بلغتهم، فلم يتهياً لهم ذلك، وبقي المالطيون محافظين على ما عندهم من العربية خلفا عن سلف، وإن في ذلك لذكرى لأولى الألباب».

وظلت العامية شائعة على ألسنة أهل القيروان والمدن الساحلية الشمالية إلى أن خففت من حدتها في منتصف القرن الخامس الهجري الزحفة الهلالية والسلمية، وقد مضى الزاحفون يعربون المناطق البعيدة والأطراف النائية التي لم يكن لها عهد بالعربية، وكان مما عمل على نشر العربية في الإقليم التونسي بعد هذه الزحفة هجرة الأندلسيين إليه في أوائل القرن السابع الهجري إذ يقول ابن خلدون: «إن ملكة العربية صحّت في إفريقية (تونس) بجلاء أهل شرقي الأندلس إليها» ومعروف أن هذا الجلاء كان في أوائل القرن السابع. على أننا لا نصل إلى أوائل القرن الثامن الهجري حتى يحدّثنا التجاني في رحلته عن شعراء سليميين وهلاليين اشتهروا بأشعارهم الملحونة، ويسمون القوالين. وأطال ابن خلدون في أواخر هذا القرن في الحديث عن هؤلاء الأعراب القوالين في تونس والبلاد المغربية، وكأن اللحن شاع على ألسنة الأعراب جميعاً في القرن السابع الهجري، وربما سبق هذا التاريخ في بعض الأنحاء وتأخر في أنحاء أخرى مثل عرب برقة بشهادة العبدري كما مر بنا. ويقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده لأشعار الأعراب وأهل الأمصار لعهد: «إنهم يقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراب على ما كان سلفهم المستعربون يأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء» ثم يقول: «وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم (أشعارهم) موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». وأخذت هذه العامية التونسية تتأثر بعد ابن خلدون بلغة من احتلّها من الإسبان ومن الترك على نحو ما مر بنا في حديثنا عن تاريخها، وبذلك احتوت العامية التونسية بعض رطانات في مقدمتها الرطانة البربرية التي امتزجت بها من قديم.

وإذا كان ابن خلدون لاحظ أن المهاجرين الأندلسيين القدامى في القرن السابع الهجري بثّوا روحاً وانتعاشاً في ملكة العربية التونسية فإن ملاحظته تنصبّ - فيما بعد - على المهاجرين الأندلسيين في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، إذ بثّوا نفس الروح والانتعاش، وحالوا بينها وبين الركود الأدبي الذي رافق العثمانيين في حكمهم للبلاد العربية الشرقية. ومن المؤكد أنه كانت هناك لغة عامية يتداولها الناس - كما مرّ بنا - وأخذت تشيع في البوادي والأنحاء البعيدة منذ القرن السابع الهجري، وربما قبل ذلك في بعض الجهات، غير أنه من المؤكد أنه كان للفصحى دائماً السيادة عليها، لأنها لغة القرآن الكريم والدين الحنيف ولغة الثقافة والعلم بمختلف فروعه، ولغة الأدب وروائعه الشعرية والنثرية.

كثرة<sup>(١)</sup> الشعراء

طبيعي أن يكون أول شعر ينشد في الإقليم التونسي بالقيروان وغير القيروان هو ما كان ينشده الجند الفاتحون، ومعروف أن الشعب ظل متصلا في هذا الإقليم وغيره من أقاليم المغرب، مما جعل الدولتين الأموية والعباسية ترسلان الجيوش إلى القيروان من حين إلى آخر حتى منتصف القرن الثاني الهجري. وكان في هذه الجيوش غير شاعر نابه تلقن عنه الشباب الإفريقي في القيروان وغيرها الشعر إما لهم مما نظموا وإما لغيرهم مما رَوَّه وأنشده، ولم تُعَنَ كتب التراجم منهم إلا بن اشتهر بينهم بقيادة أوولاية، ومن قدماء من ترجمت لهم أبو الخطَّار الحُسام بن ضرار الكلبي، وكان شاعرا مفوَّها وفارسا نابها بين أقرانه في القيروان، وولاه حنظلة بن صفوان والى إفريقية لهشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١٢٥ للهجرة وعُزل عنها سنة ١٢٨ فعاد إلى القيروان وسرعان ما توفي بها، وأنشد له ابن الأبار في كتابه الحلة السَّيراء أشعارا بديعة. ومن شعراء الجند الذين قدموا في عهد بني أمية سليمان بن حميد الغافقي وفيه يقول ابن الأبار: «فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره، وأحسن الناس وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها، ورواية لوقائعها وأشعارها، ويقال إنه توفي سنة ١٦٠ للهجرة وهو القائل:

وإنا إذا ما الحربُ أُسْعِرَ نارُها      لنَلْقَى المنايا دارعين وحُسْرًا

ومن شعراء الجند الذين قدموا إلى القيروان في عهد بني العباس الحكم بن ثابت السَّعدي من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي المشهور، قدم إفريقية في جيش محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ لعهد المنصور إغاثةً وعونا للأغلب التميمي والى القيروان، وأصبح من قواد جيشه، حتى إذا استشهد الأغلب سنة ١٥٠ للهجرة رثاه رثاء حارا، وكان الأغلب شاعرا، وتولى القيروان بعده عمر بن حفص المهلبى، واستشهد في بعض المعارك، فولاه أبو جعفر

(١) السندسية للوزير السراج ووفيات الأعيان لابن خلكان في تراجم حكام الدولة الصنهاجية ومقدمة ابن خلدون وتاريخه.

(١) انظر في الشعراء التالين الحلة السَّيراء لابن الأبار وأتمودج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيقي والبيان المغرب لابن عذارى والمخريدة (قسم شعراء المغرب - للعماد الأصبهاني) والحلل

المنصور يزيد بن حاتم المهلبى وكان غاية في الجود ممدحا، وظل واليا عليها من سنة ١٥٤ إلى وفاته سنة ١٧٠ واستطاع أن يتحول بها إلى بيئة كبيرة من بيئات الشعر والأدب واللغة في زمنه، وكان شاعرا مجيدا، ومن طريف شعره قوله في وصف كرم أسرته:

ما يَألف الدرهمُ المضروبُ خرقتنا إلا لَمأً قليلاً ثم ينطلقُ<sup>(١)</sup>

وقد جاء القيروان وفي صحبته المعمر بن سنان التيمي، من تيم الرباب، اتخذه زميلا له في طريقة ليؤنسه بطرائف الأخبار، ويقول ابن الأبار: «كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» وترجم ابن الأبار لابنه عامر، ويذكر بعض أشعاره، ويقول من أحفاده حمزة بن أحمد بن عامر وكان أدبيا ظريفا. وتسابق غير شاعر في الوفود على يزيد كما توافدوا قديما على جده المهلب في خراسان، ومنهم ربيعة الرقي الشاعر العباسي المشهور، وفيه يقول:

هو البحر إن كَلَفْتَ نفسَكَ خَوْضَهُ تهالكتَ في آدِيهِ المتلاطمِ

وهي قصيدة طارت شهرتها في العصر العباسي، وله فيه مدائح أخرى بديعة، ومن الشعراء الكبار الذين وفدوا عليه بالقيروان ابن المولى، وفيه يقول:

إذا تباع كريمةٌ أو تُشترى فسواك بائعها وأنت المشتري

ويقال إنه أعطاه على هذه القصيدة الرائعة كل ما كان في بيت ماله، ولابن المولى وربيعه الرقي ترجمتان مفصلتان في كتاب الأغاني، وقد أقاما عنده في القيروان طويلا والتف حولهما شباهما يروون عنها شعرهما وشعر معاصريهما. وذكر ابن خلكان في ترجمته بين من وفد عليه من الشعراء المشهر التيمي وأنه أغدق عليه مالا جزيلا.

ومر بنا في الحديث عن اللغويين أن كرم يزيد بن حاتم لم يجلب إلى عاصمته الشعراء فقط بل جلب إليها جلة من النحاة المشهورين مثل يونس بن حبيب وقتيبة الجعفي. وكانت قد أخذت تنشأ في القيروان طائفة من المعلمين الشعراء، منهم أمان بن الصمصامة بن الطرماح ويبدو أن أباه كان قد نزل القيروان في أوائل القرن الثاني الهجري واتخذ التعليم مثل أبيه حرفة له، وفيه يقول الزبيدي: «كان شاعرا عالما باللغة». وكان يعاصره معلم، يعكف شباب القيروان على أخذ اللغة والشعر منه، كما يأخذون النحو والعربية والأدب، هو عياض بن عوانة، ويقول الزبيدي إنه كان ينظم الشعر ويجود فيه. ولا نكاد نخطو في النصف الثاني من القرن الثاني

(١) خرقتنا: يريد ثيابنا

الهجرى حتى نرى أعمال اللغويين المقيمين والوافدين من أمثال أمان بن الصمصامة ويونس بن حبيب والرواة من أمثال المعمر بن سنان التميمي وسليمان بن حميد الغافقي ثمر ثمارا يانعة كثيرة في شباب ترسخ في نفوسهم فطرة العربية ويطلب كثيرون منهم التخصص في الفقه لاعلى أساتذته في القيروان وتونس فحسب، بل أيضا في الحجاز والعراق، من أمثال عبد الرحمن بن زياد وكان شاعرا وعلى بن زياد الذي أدخل لأول مرة كتاب الموطأ إلى المغرب، وقد توفي سنة ١٨٣ وكان يعاصره عبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم الرُّعَيْنِي الفقيهان القيروانيان المشهوران.

وعلى الرغم من أن إبراهيم بن الأغلب استقل بالقيروان سنة ١٨٤ وكوّن بها دولة الأغالبة التي ظلت بها أكثر من قرن وحققت لها نهضة ثقافية كما مر بنا في الفصل الماضي، على الرغم من ذلك فإن نهضة الشعر بها لا تتراءى لنا واضحة، إذ يظل أصحاب التراجم لا يعنون غالبا طوال هذه الدولة إلا بمن سال الشعر على لسانه من حكامها أو من أفراد الأسرة ومن شاركهم في هذه الموهبة من الفقهاء واللغويين. وكان إبراهيم بن الأغلب مؤسسها شاعرا، ويسوقون له أشعارا في الفخر، وكان قد نشأ بمصر وتزوج بها، وكان قد فارق زوجته وسار وحده إلى القيروان وحنّ إليها فأنشد:

ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةً      إلا وذكرُكُ يثني دائما عنقِي  
ولا ذكرتكِ إلا بتُ مُرتقبًا      أرعى النجوم كأن الموت مُعتنقِي

وكان حفيده الأمير أبو العباس محمد شاعرا (٢٢٦ - ٢٤٢) وهو الذي استولى على رومة فترة من الزمان ثم اضطرّ جيشه إلى الانسحاب لتكاثر من جاءها من نجدات المسيحيين، وله أشعار يفخر فيها بنسبه وأسرته، من مثل قوله:

أنا الملك الذي أسمى بنفسي      فأبلغ بالسمو بها السحابا  
أظللُ عشيرتي بجنّاح عِزِّي      وأمنحها الكرامة والثوابا

ومن أفراد الأسرة الشعراء أحمد بن سواده والى صقلية المتوفى سنة ٢٦٠ وله أشعار بديعة في الحماسة والفخر. ومن أفراد الأسرة أيضا مهريّة الأغلبية المتوفاة سنة ٢٩٥ ولها مرثية بديعة في رثاء أخ لها مات غريبا. ومن عُرف بالشعر ونظمه في عهد الأغالبة عيسى بن مسكين القاضي المتوفى سنة ٢٩٥ وشعره في التحسر على الشباب، وكان يعاصره الفقيه أحمد الصواف وشعره في الحكم والمواعظ. ومن اشتهر بالشعر من اللغويين في عهد الأغالبة الحسن بن منصور المذحجي، يقول ابن الأبار: «أقل ما تصرّف فيه الشعر وكان بصيرا باللغة نافذا في النحو عالما

بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها» ومن قوله في رثاء ابن عم له:

لَكَأَنِّي لَمَّا تَضَمَّنَكَ اللَّحْمَ دُيِّينٌ قَدْ فَارَقَتْهَا الشَّمَالُ

وأشعر منه، بل ربما كان أشعر اللغويين عامة في القيروان حتى نهاية عهد الأغالبة عبد الملك المهري أستاذ أهل اللغة والنحو والرواية في عهد الأغالبة، توفي سنة ٢٥٦ للهجرة، وله مرثية بديعة لسحنون، ومن تلاميذه الشعراء حمدون الملقب بالنعجة، وفيه يقول الزبيدي - كما مر بنا - شعره عليه أثر التكلف، أما في النحو والعربية والغريب فهو الغاية التي لا بعدها.

وننتقل إلى عصر الدولة العبيدية في القيروان والإقليم التونسي منذ سنة ٢٩٧ إلى سنة ٣٦١ وقد تحول به عبيد الله المهدي أول خلفائها هناك إلى عصر دعاية للمذهب الإسماعيلي الذي جاء يحمله، فكان فقهاؤه ودعاته يجادلون عنه فقهاء المذهب السني بالقيروان، وكانت القيروان سنية فكانوا يعقدون فيها المناظرات بينهم وبين أبي عثمان سعيد الحداد وغيره من فقهاء السنة القيروانيين العظام. ولأبي عثمان مع دعواتهم أربعون مجلسا حفظ لنا الحشني في طبقات علماء إفريقية - كما مر بنا - أربعة منها علا فيها صوته وفكره على دعواتهم. وطبيعي في هذا الجو المشحون بالجدل في حقائق المذهب الإسماعيلي أن يطمح خلفاء الدولة الفاطميون التونسيون أن يكون لهم أنصار من الشعراء يعتنقون دعوتهم ويدافعون عنها، وطبيعي أن ينثروا عليهم الأموال نثرا، وكما قال بشار قديما:

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الْحَبَّ بٌ وَتُعْشَى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ

وقد أكثر عبيد الله المهدي وخلفاؤه من نثر الحب، وتكاثرت طيور الشعراء من حولهم تلتقط هذا الحب في القيروان وفي المهديّة عاصمتهم الجديدة، وتبارى الشعراء من أمثال خليل بن إسحق الطرابلسي الذي عرضنا له في ليبيا وأمثال سعدون الورجيني القائل في مديح المهدي:

هَذَا الْإِمَامُ الْفَاطِمِيُّ وَمَنْ بِهِ أَمَنْتُ مَغَارِبُهَا مِنَ الْمَحْدُورِ

ويعضى قائلا إن مدن الشام والعراق لا بد أن تستسلم له حتى يسود فيها العدل الذي لا يستطيع الناس الحياة بدونه. وكان المهدي نفسه شاعرا، يحسن نظم الشعر، وتتداول الكتب قطعة طريفة تنسب له تارة وتارة أخرى تنسب إلى داعيته أبي عبد الله الصنعاني، وهي تمضي على هذا النحو:

مَنْ كَانَ مَغْتَبِطًا بِلَيْنِ حَشِيَّةٍ فَحَشِيَّتِي وَأَرِيكْتِي سَرَجِي  
مَنْ كَانَ يُعْجِبُهُ وَيُبْهَجُهُ نَقْرُ الدُّفُوفِ وَرَنَةُ الصَّنْجِ  
فَأَنَا الَّذِي لَا شَيْءَ يُعْجِبُنِي إِلَّا اقْتِحَامِي لُجَّةَ الْوَهْجِ



فهو يعيش حاملا سيفه وممتطيا سرج حصانه مزدريا حياة الترف واللهو والاستماع إلى الغناء ونقر الدفوف ورنات الصُّنوج، وكل ذلك يتركه وراءه، إذ لذته جميعها في قيادة الجيوش واقتحام لجج الحرب وهيبها المستعر، وهي أخلاقية مثلى لمؤسس دولة، وبحق أسس دولتهم العبيديَّة في الإقليم التونسي، وكان ابنه القائم شاعرا مثله، وله قصيدة حماسية خاطب بها العباسيين، مفتحها لها بقوله:

ألا إن حدَّ السيفِ أَشْفَى لذي الوَصْبِ      وأحرى بنيلِ الحقِّ يوما إذا طُلِبَ

وخلفه ابنه المنصور وكان جوادا ممدحا وفارسا مقداما، وقد استطاع في أول خلافته القضاء المبرم على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد كما مرَّ بنا في القسم التاريخي، وفيه يقول شاعره أيوب بن إبراهيم:

يا بنَ الإمامِ المرتضى وابنِ الوصيِّ (م) المصطفى وابنِ النبيِّ المرسلِ  
اللَّهُ أعطاك الخلافةَ واهبًا      وراك للإسلامِ أَمْنَعَ مَعْقِلِ

ولأبي القاسم الفزاري فيه قصيدة بديعة حين أمَّن أهل القيروان بعد ثورة مخلد بن كيداد سنعرض لها في غير هذا الموضع، ويتولى الخلافة بعده ابنه المعز، ويأتيه الشعراء من كل فجٍّ وفي مقدمتهم ابن هاني الأندلسي وله فيه قصائد طنانة، وقد ترجمنا له في قسم مصر، وحين فتح جوهر الصقلي مصر للمعز أنشده ابن هاني قصيدة افتتحها بقوله:

يقول بنو العباس هل فُتحتْ مصرُ      فقلَّ لبني العباسِ قد قُضِيَ الأمرُ

ومن أهم شعرائه على بن الإيادي، وسنخصه بترجمة.

وينتهي عصر الخلافة العبيديَّة في الإقليم التونسي سنة ٣٦١ بانتقال المعز الفاطمي إلى القاهرة واتخاذها عاصمة للملكة وملك أبنائه وأحفاده من بعده، ووقع اختياره على بلكين بن زيري الصنهاجي ليخلفه على الإقليم التونسي، فأسس بها دولة صنهاجية أتاحت للإقليم التونسي كل ما كان يحلم به من ازدهار فكري وأدبي. ومع أن المعز بن باديس غلب على أمره أمام موجات بني هلال واضطُرَّ إلى أن ينسحب إلى المهديَّة سنة ٤٤٩ فإنه استطاع هو وابنه تميم ومن خَلَفهما فيها أن يستتموا لهذا الإقليم كل ما كان ينتظره من نهضة أدبية وفكرية، وفي المعز يقول ابن خلكان: «كان محبا لأهل العلم كثير العطاء مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محط بني الآمال» ويقول في ابنه تميم: «كان محبا للعلماء، معظما لأرباب الفضائل حتى قصده الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصوري وأنظاره، وكان يجيز الجوائز

السنية ويعطى العطاء الجزيل» واقتدى به ابنه يحيى (٥٠١ - ٥٠٩) في سيرته، فكانت عنده جماعة من الشعراء - كما يقول ابن خلكان - قصوده ومدحوه وخلدوا مديحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، وله أيضا مدائح في ولده أبي الحسن علي (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وفي حفيده الحسن، وكان روجار صاحب صقلية قد استولى منه على المهديّة سنة ٥٤٣ واستردها منه عبد المؤمن أمير الموحدين سنة ٥٥٥. وسار الحسن سيرة آبائه في العناية بالعلماء والشعراء.

وعصر هذه الدولة الصنهاجية يعد عصر ازدهار للإقليم التونسي ولشعرائه، إذ أصبحوا يعدون بالعشرات، حتى لنجد ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ يؤلف فيهم كتابه: «أتمودج الزمان في شعراء القيروان» يضمه مائة ترجمة لشعراء قيروانيين في زمنه، وبينهم شاعرة مبدعة، وكان الكتاب مفقودا، واستطاع الأستاذان محمد العروسي المطوي وبشير البكوش أن يجمعا من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وغيره من المخطوطات التي احتفظت بترجمته، وأن يعيداه كأنما تركه ابن رشيق بالأمس، وهو عمل علمي جليل فضلا عما قدما له من دراسة وما ملأ به هوامشه من تحقيقات قيمة، وبذلك وضعا تحت يد الدارسين للنهضة الشعرية في القيروان أروع نص يمكنهم من تصوير هذه النهضة، ولم يحظ الإقليم التونسي بنص مماثل قبل ابن رشيق ولا بعده له خطورته، ويقال إنه كان له كتاب عن شعراء المهديّة سقط من يد الزمن، ولو أنه وصلنا لا تسعت تحت أعيننا صورة النهضة الشعرية في هذا الإقليم الشقيق لذلك العهد الصنهاجي، إذ الأتمودج لا يصور كل ذلك العهد، فقد كتبه ابن رشيق حوالي سنة ٤٢٥ ويغلب أن يكون كثير من المترجم لهم فيه قد عاشوا إلى منتصف القرن الخامس ورأوا موجات بني سليم وهلال تأتي على القيروان وكثير من المدن، ومع ذلك فقد انسحب المعز بن باديس إلى المهديّة، وخلفه عليها سريعا ابنه تميم من سنة ٤٥٤ هـ إلى سنة ٥٠١ ومرت بنا كلمة ابن خلكان عن تميم وكيف كان يُغدق الأموال على الشعراء والعلماء وكيف قصده الشعراء، من الأقاليم البعيدة فضلا عن إقليمه، ونهج نهجه ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن في نثر الأموال على الشعراء، ولا ين همديس الصقلي وأمّية بن أبي الصلت الأندلسي في الثلاثة مدائح رائعة، وبالمثل لمن كان يحف بهم من شعراء القيروان، غير أنهم جميعا لم يقيض لهم ما قبيض للمعز بن باديس من عناية ابن رشيق بالترجمة لشعراء القيروان والإقليم التونسي لزمنه.

وكان الإقليم التونسي منذ زحفة بني هلال وسليم قد تحول إلى ما يشبه عصر الطوائف المعروف في اليونان، ففي المهديّة أسرة المعز بن باديس وأبنائه، وفي تونس بنو خراسان كانوا عمالا للدولة الصنهاجية واستقلوا عنها منذ سنة ٤٥٨ وفي قفصة والجريد بنو الرند، وفي سوسة الهلاليون، ويشتهر آخر أمرائهم جبارة بن كامل بن سرحان البعيد الصيت بالجوهر وإغداقه

الأموال على الشعراء، ومن يده أخذها روجار الصقلي واستردها منه عبد المؤمن مع البلاد الساحلية. واستولى الهلاليون أيضا على قابس، إذ ظلت لبني جامع منهم حتى سنة ٥٥٤ واشتهر من أمرائهم بأخرة من أيامهم أبو الحملات مدافع، ومنها استنزله عبد المؤمن أمير الموحدين، وكان جوادا ممدحا، والتفَّ حوله كثير من الشعراء. ومن الغريب أن هذا العصر الذى توزع فيه الاقليم التونسي بلدانا وإمارات متعددة لم يضعف فيه الشعر بل ظل مزدهرا، وخاصة حول أمراء المهديّة وقابس وسوسة، إذ كان أمراء البلدان فيه يتنافسون في جذب الشعراء إليهم، وكلّ يحاول أن يجمع في بلده العديد منهم، ليتحدثوا عن مناقبه ومفاخره، وكانت تحف بتميم بن المعز في المهديّة كوكبة من الشعراء، منهم - كما في الخريدة - حميد بن سعيد، وكان من الشعراء المجيدين وهو الذى جمع شعر تميم، ومنهم - كما في الحلل السندسية - محمد بن حبيب القلانسي وأبو الحسن بن محمد الحداد، وولتقى بشعراء أمير قابس أبي الحملات مدافع آخر أمراء بني هلال بها، ومنهم جعفر بن الطيب الكلبي وسلام بن فرحان القابسي وهو من الشعراء المجيدين والسكدلى القفصى ويحيى بن التيفاشى، كما ولتقى فيها بشعراء جبارة بن كامل بن سرحان أمير سوسة المارّ ذكره، ومنهم أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر الهلالي وأبو الحسين بن الصبان المهديّ والتراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، وكان وراء هؤلاء الشعراء الذين سميناهم شعراء بارعون مثل تميم بن المعز صاحب المهديّة وعلى الحُصْرى المهاجر إلى الأندلس وأبي الحسن على بن محمد الخولاني المعروف بالحداد المهديّ المهاجر إلى الاسكندرية وأبي الفضل بن النحوى التوزرى وابن بشير المهديّ وعبد الله الشقراطسى ومحمد بن شرف المهاجر مع ابنه إلى الأندلس.

ويدخل الإقليم التونسي منذ منتصف القرن السادس الهجرى في حوزة الموحدين، غير أن ابني غانية وقراقوش يحدّثان فيه شغبا - كما مرّ بنا - ظل فترة طويلة، ويعيد الأمن فيه إلى نصابه والى الموحدين أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، وقد اتخذها عاصمة له، وظلت عاصمة للدولة بعده حتى سنة ٩٨١ حين انتهت دولة الحفصيين، بل لقد ظلت إلى اليوم عاصمة للإقليم التونسي. وكان أبو زكريا سيوسا حليما منصفا محسنا لتدبير دولته، وكان معدودا في العلماء وفي الشعراء وله شعر مدون مع إحسانه لاختيار الرجال الذين يديرون معه دفة الحكم، مما جعل أيامه خير أيام على الاقليم التونسي وأكثرها أرقا وجمعت دولته طائفة من كبار العلماء ونابهى الشعراء لا من الإقليم التونسي وحده، فقد نزل بدياره كثرة غامرة من علماء الأندلس وشعرائه مثل ابن الأبار وأحمد بن عميرة وحازم القرطاجنى وتظل هذه السيول الأندلسية وافدة على تونس في عصر ابنه المستنصر مثل ابن بُرْطلة رئيس الوفد الذى قدم إلى تونس سنة ٦٥٧ مبايعا المستنصر خليفة وأميراً، ومثله ابن القصير شاعر المستنصر وله فيه مدائح كثيرة، وعلى شاكلتها ابن أندراس أهم أطباء المستنصر. وهذه الأسماء

الأندلسية التي ذكرناها إنما هي رموز، فقد كان علماء الأندلس وشعراؤها الذين نزلوا بتونس وماوراءها من المدن لا يُحْصَوْنَ عدداً، وقد بعثوا فيها جميعاً حركة أدبية عظيمة، اقترنت بما كان في البلاد من نشاط أدبي، فإذا هي تبدأ - منذ الأيام الأولى للدولة الحفصية - في نهضة أدبية عظيمة، فإذا التفتنا إلى شعراء تونس وجدناهم كثيرين، مثل أبي طاهر الحميري المتوفى سنة ٦٣٩ وعنان بن جابر الهلالي المتوفى سنة ٦٤٥ وأحمد اللُّبَيَّاق المتوفى سنة ٦٥٩ وابن عُرْبِيَّة المتوفى مثله سنة ٦٥٩ ومحمد بن أبي الحسين وزير المستنصر المتوفى سنة ٦٧١. ووراء هؤلاء في القرن السابع الهجري غير شاعر مبدع مثل ابن الشباط التُوَزَّرِي المتوفى سنة ٦٨١ وله شرح وتحميس لقصيدة الشُّقْرَاطِسِي اللامية في المديح النبوي، وكان يعاصره ابن السَّمَّاط البكري المهدي المتوفى سنة ٦٩٠ وأشعاره جميعها مدائح نبوية رائعة. وتظل هذه النهضة الشعرية أيام الحفصيين مطردة في القرن الثامن الهجري، ويلقانا به شاعران من أسرة التجاني هما أبو الفضل وعبد الله صاحب الرحلة، وقد توفيا سنة ٧١٨ للهجرة، وثلثى بإسحاق بن حُسَيْنَة المتوفى سنة ٧٤٠ وبمحمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧، وما تلبث تونس أن تلتقى بدرتها اليتيمة ابن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ وهو نائراً أكبر منه شاعراً. وقلما نلتقى بشاعرهم في الحقب المتأخرة للدولة الحفصية، باستثناء الشهاب بن الخلوف المتوفى سنة ٨٩٩ وأبي الفتح بن عبدالسلام المتوفى سنة ٩٧٥. وفي رأبي أن ضعف الشعر لعهد الدولة الحفصية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يرجع إلى ما أخذ يسود منذ زمن ابن خلدون في الإقليم التونسي وبجاية بعامة من اللغة العامية التي لا تحتفظ بالإعراب في أواخر الكلمات، مما جعله يقول بمقدمته في الفصل الخاص بأشعار العرب وأهل الأمصار لزمه: «فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراب على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون بالخروج من فن إلى فن في الكلام.. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ماعدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». ويبدو أن هذه العامية غير المعربة اتسع استخدامها في الإقليم التونسي، مما جعل الناطقين بالشعر الفصيح المعرب يقلون، وكان زملاؤهم من أصحاب الشعر العامي المسمون بالقوالين يظهرون في العهد الأول للدولة الحفصية على استحياء غير أنهم أخذوا يتكاثرون منذ زمن ابن خلدون والقرن التاسع الهجري.

وكانت شئون الحكم في أواخر عصر الدولة الحفصية قد ساءت سوء شديداً واستعان بعض حكامها بالإسبان ونزلوا في ديارها - كما مرَّ بنا - منذ سنة ٩٤٢ وأخذت البلاد تعاني من ظلم الإسبان وعسف الحفصيين ويستولى العثمانيون سنة ٩٨١ على الإقليم التونسي ويظل يعاني من

سوء الحكم العثماني إلى أن تتولاه الدولة الحسينية منذ سنة ١١١٧ غير أن لهذا الحكم السيء حسنة فإن الإسبان أخرجوا من ديارهم من بقى بها من المسلمين سنة ١٠١٦ فاستقبلهم الحاكم التركي للإقليم التونسي: عثمان داي استقبالا كريما، وأوسع لهم في اقتطاع الأراضي ومزاولة الصناعات، كما أوسع للشخصيات الفكرية والأدبية اللامعة أن تزاول حياتها في تونس، وبذلك أخذوا يردون لها دورها الثقافي في العصر الصنهاجي وأوائل العهد بالدولة الحفصية غير أنه لم يتح لتونس حينئذ حكام يستطيعون أن يحققوا لتونس هذا الدور، حتى تولت الأسرة الحسينية شئون الإقليم، وكان مؤسسها مثقفا مستنيرا وكان أبنائه يحسنون العربية، بل كان ولي عهده من بعده: محمد الرشيد شاعرا وموسيقيا، وله ديوان شعر، وكما كان مولعا بالشعر كان مولعا بالغناء والموسيقى، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية. وبحق تفتتح هذه الأسرة الحسينية عصرا جديدا بتونس، ظل يواكبها إلى آخر هذا العصر وفترة في العصر الحديث، وكما أكثروا من إنشاء المدارس والاهتمام بجامعة الزيتونة وعلماؤها من كل صنف أكثروا أيضا من الاهتمام بالشعراء والأدباء، وبذلك ظلت بتونس حركة أدبية تراقفها طوال عصر الدولة الحسينية، ومن نلتقى به من شعرائها في أول العهد بها ابن أبي دينار صاحب كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس وأحمد برناز ومحمد الوزير السراج صاحب الحلل السندسية ومحمد الخضراوي ومحمد سعادة وإبراهيم بن القاسم الخراط، وأعلى منهم مرتبة في الشعر على الغراب الصفاقسي وله ديوان منشور ومحمد الورغي والطوير القيرواني ومحمد الشافعي وحمودة ابن عبد العزيز والحجري، ونلتقى بأخرة من العصر بمحمد ماضور القاضي وكان ينزع في شعره نزعة صوفية كما نلتقى بمحمد الأصرم والظاهر بن عاشور، ونجد عندهم معارضات كثيرة، والظريف أنهم يعارضون بعض شعراء الأندلس في قصائدهم مثل ابن زمرك.

## ٣

## أغراض الشعر والشعراء

أخذت الحركة الشعرية تهض في القيروان والمهدية منذ عصر الفاطميين أو منذ أوائل القرن الرابع، واتسعت في عصر الدولة الصنهاجية اتساعا كبيرا أتاح لابن رشيق أن يؤلف فيها كتابه الأتمودج الذي ترجم فيه لمائة شاعر وشاعرة، واتسعت مع تلك الحركة حركة نقدية خصبة، فألف ابن رشيق كتابه البديع: العمدة في صناعة الشعر ونقده.

ولم تتوقف موجات الحركة الشعرية مع الزحف الأعرابية لبني سليم وبني هلال، فقد ظلت منها - كما أسلفنا - أسراب في المهديّة وفي قابس وسوسة وعادت إلى الانتعاش مع الأزمنة الأولى للدولة الحفصية، وغذتها حينئذ هجرة الأندلسيين إلى تونس وما وراءها من البلدان،

وبالمثل غذتها هجرة ماثلة في القرن الحادى عشر الهجرى انتشلت الأدب شعراً ونثراً مما كان قد صار إليه من الضعف الشديد وغلبة العامية عليه. ولن نستطيع أن نفصل الحديث فى الحركة الشعرية لاتساع جوانبها ومناحى القول فيها، بل سنعمد إلى غير قليل من الاجمال فى عرض أغراض الشعر ومن جلى فى كل غرض، متخذين ممن نذكرهم رموزاً لمن عاصرهم - وكذلك لمن خلفهم - من الشعراء، ونستهل ذلك بالحديث عن غرض المديح والتأهين من شعرائه على مر العصور.

### شعراء المديح

أخذت سوق المديح تنفق فى الإقليم التونسى مع قيام الدولة العبيديّة التى كان خلفاؤها يتخذون منه منشورات للدعاية لحكمهم، ومرّبنا ذكر بعض مادحيهم، ومن أهمهم أبو القاسم الفزارى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ وله مدحة بديعة فى المنصور الفاطمى حين انتصر على مخلد بن كيداد الثائر الخارجى سنة ٣٣٦ هـ وفيها يذكر من اشتهروا فى الجاهلية والإسلام بالشرف والجود والبأس، ثم يأخذ فى مديح المنصور وأنه لا يقل عنهم بأساً وجوداً وشرفاً بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

كريمُ المساعى والأيدى سمّت به      أبوةٌ صدق من ذؤابة هاشم  
شريفُ الأدانى والأقاصى مهذبٌ      إذا ما عددنا فضل أهل المكارم

وكان يعاصره على بن الإيادى، وسنخصه بكلمة. ويدور الزمن وتلتقى بحكام الدولة الصنهاجية، وكانوا بحورا فياضة، فجدبوا إليهم الشعراء من كل بلدة ومكان فى الإقليم التونسى، وتجلّت مواهبهم الشعرية الحصبة فى مدائحهم، من ذلك قول ابن سفيان فى المنصور الصنهاجى المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة<sup>(٢)</sup>:

ومُعترِكِ ضاقَ الفضا فى مُقامِهِ      من الطّعن والأرض العريضة خاتم  
تجلّى لها المنصورُ فانجَابَ جُنْحُهَا      وليّته فى لثم التراب الجماجم<sup>(٣)</sup>  
قناتهم فى حيث لا السيفُ يَنْتَضِى      كأن ضياه فى التراقى تمانم<sup>(٤)</sup>  
كأن الطّلا وسَطَ العجاج خناصرٌ      وقد صيغ من بيض الفرند خواتم<sup>(٥)</sup>

(٣) الجنح: الظلام.

(٤) ينتضى: يُسَل من عمده.

(٥) الطلا: الأعناق. الفرند: السيف.

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى للاستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ٨٦.

(٢) أنموذج الزمان فى شعراء القيروان جمع وتحقيق محمد العروسى المطوى وبشير البكوش ص ١٠٠.

وتصوير الفضا وأنه ضاق بالقتلى تصوير قريب، غير أنه جعل الأرض كأنها تحولت خاتماً يختم على قتلى الأعداء، ويستمر فيجعل تناثر جماجمهم وروعوسهم على التراب كأنها تنفذ للمنصور أمراً بلثمتها للتراب، ويتصور ضياء سيوف جيشه في تراقبهم كأنه قائم، ويتسع به الخيال فيجعل أعناقهم وسط غبار الملحمة كأنها خناصر وقد أحاطت بها من بيض السيوف خواتم. وهى روغات متتابعة من الخيال البديع، وقد عقب ابن رشيق على الأبيات بقوله: «هذا كلام منتقى، ليس فوقه مرتقى». ويقول قرهب الخزاعي فى باديس بن المنصور<sup>(١)</sup>:

أبى مَنَادَ سَلَكْتُمْ سَنَنَ الْهُدَى      وَالْعَقْدُ مِنْكُمْ بِالْوَفَاءِ مُعَارُ  
وَكأنَ بَادِيسَ الْمَمْلَكِ فِيكُمْ      شَمْسُ الضَّحَى وَكَأَنْكُمْ أَقْمَارُ  
رَاقٍ تِلَاعَ الْعِزِّ يَحْمَى حَوْرَهُ      حَدُّ الْبَوَاتِرِ وَالْقَنَا الْخَطَّارُ  
وَحَدَا بِمَدْحِهِ جَازِعٌ فِي مَهْمِهِ      وَشَدَا بِهِ الْحَضَارُ وَالسَّمَارُ

والكلمات فى الأبيات رصينة، ولكن المعانى مطروقة فى المديح، فبنو مناد أسرة باديس يسلكون طريق الهدى، وهم أهل الوفاء، وباديس شمس وهم أقمار من حوله، وهو راق تلاح العز أى أعاليه حام لحوز ملكه ونواحيه بالأسلحة الفاتكة، وهو محبوب حتى ليحدو بمدحه فى القفار كل خائف وحتى ليشدو باسمه ويتغنى الحضار والسمار. ولإبراهيم بن القاسم القيروانى مدائح متعدده فيه وسنفرده بكلمة. وكان المعز بن باديس غيثاً مدراراً، حتى قيل إن الشعراء الذين مدحوه وحفوا به بلغوا المائة عدداً، ومن رائع مدائحه قول عبد العزيز بن خلف الحرورى<sup>(٢)</sup>:

لو يستطيع المعز لندخل الأموات من      نِعْمَاهُ فِيمَا نَالَتِ الْأَحْيَاءُ  
سَوَتْ رَعَايَاهُ يَدَا إِنْصَافِهِ      حَتَّى الشَّوَامِخُ وَالْوَهَادُ سَوَاءُ  
مَتَنُوعِ الْعِزْمَاتِ مَاءٌ مُغْدِقٌ      فِيهِمْ وَعَنْهُمْ صَخْرَةٌ صَّمَاءُ  
مَا أَنْتَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَمَا      بَعْضُ الْحَصَى الْيَاقُوتَةُ الْحَمْرَاءُ

فلو يستطيع المعز لنشر الأموات كى يقاسموا الأحياء من رعيته ما ينثر عليهم من نعماء، وإن يدى إنصافه لتسوى تسوية عادلة بين الأغنياء والفقراء من رعاياه، وإنه لمتنوع العزمات فهو على رعيته غيث مدرار، وهو على أعدائه صخرة صماء، وما يلبث الشاعر أن يأتى بصورة بديعة فالمعز حقاً واحد من الناس إلا أنه ينفرد عنهم كما تنفرد من بين الحصى الياقوتة الحمراء.

(٢) الأثمدج ص ١٦٣.

(١) الأثمدج ص ٣٢٥.

وفيه يقول ابن شرف القيروان<sup>(١)</sup>:

شهابُ الحرب مهلكٌ كلُّ باغٍ      ومحرقٌ كلُّ شيطانٍ رَجِيمٍ  
تَقَطَّعَ دونه البِيضُ المواضِي      وتُجْفَلُ منه إِجْفالُ الظَلِيمِ<sup>(٢)</sup>  
ويَجْلُو عنه ليلَ النَّقْعِ وَجَهُ      كَبِدِ التَّمِّ في الليلِ البَهِيمِ<sup>(٣)</sup>

فهو لا يهلك البغاة فحسب، بل يدمرهم ويحرق شياطينهم الملعونين، كأن لم يكونوا شيئا مذكورا، ومن دونه تقطع السيوف الحداد القاطعة، وتنفر منه نفور النعام في البوادي، حتى إذا أثير بالغبار الكثيف في الحرب تجلى وجهه كما يتجلى البدر في اكتماله بالظلام المعتم الداجي. وكان يعاصر ابن شرف الحسن بن رشيق القيرواني شاعر المعز وسنفرده بكلمة. وخلف المعز في المهديّة ابنه تميم، وكان محبا للعلماء ومعظما للشعراء وقصدوه من الآفاق البعيدة، وله أشعار جيدة، وفي عهده أغار أسطول النصارى على المهديّة وعاثوا فيها فسادا سنة ٤٨٠ هـ إلى أن انسحبوا منها بعد صلحهم مع تميم، ووصف شاعره أبو الحسن الحداد هذه الحادثة في قصيدة فائية استهلها بقوله<sup>(٤)</sup>:

أني يلمُّ الخيال أو يقفُّ      وبين أجفاننا نوى قُذْفُ

وخلف تيميا ابنه يحيى، وبه نزل أمية بن أبي الصلت الشاعر الأندلسي الكبير فأغدق عليه من إكرامه وكذلك ابنه علي وحفيده الحسن وأغدق عليهم من مدائحه، وبني علي أسطولا للقاء روجار وحماية المهديّة فتبارى الشعراء في مديحه بسببه من مثل محمد بن بشير المهدي وغيره، وكان متولى قابس رافع بن جامع الهلالي مدّ يده إلى روجار ضده وشدّ العرب فصمّ على فتحها وتم له ذلك سنة ٥١١ وتبارى الشعراء في تهنتته بهذا الفتح من مثل قول محمد بن بشير الذي يتهم رافعا بأنه أصبح نصرانيا<sup>(٥)</sup>

سَلْ رَافِعًا ما الذي أجري تنصُّرُهُ      وهل يَقي الذلَّ عنه من به وثَقَا  
لو لم ير الرومُ أهلاً والصَّليبَ أبًا      لم يَشْكُ من عيشه في قابسٍ رَنَقًا<sup>(٦)</sup>

يقول له إن حياته في قابس كانت صفوا هنيئة لولا ما كدرها من تعاونه مع روجار وأعوانه

(١) الأتمودج ص ٣٤٢.

(٥) قذف: بعيدة.

(٢) البيض المواضي: السيوف القاطعة. تجفل:

(٦) الحلل ٣٥٥/٢ وقابل بتاريخ الأدب التونسي

ص ١٧٦.

تفر وتفزع.

(٧) الرنق: الماء الكدر.

(٣) النقع: غبار الحرب.

(٤) الحلل السندسية ٤٦٨/٢. قذف: بعيدة.



من النصارى حتى لكأنما فارق دينه وتنصر بوقوفه مع أعداء الإسلام لا يذكر عهدا ولا ذمة.

وفي أواخر عصر الطوائف يلقانا مدافع بن رشيد من بنى جامع الهلاليين وكان شجاعا حتى لُقّب بأبي الحملات، كما كان جوادا ممدّحا، وذكر صاحب الخريدة من مداحه أبا محمد الكلبي والسكدلى القفصى ويحيى بن التيفاشى، وأهم شعرائه جميعا سلام بن فرحان القابسى جليسه ووزيره، وأنشد له العماد فى مديحه ميمية بديعة يقول فيها<sup>(١)</sup>:

هَنِيءٌ مُدَافِعٌ أَنْ اللَّهُ خَوَّلَهُ سَعْدًا يَنَالُ بِهِ كُلَّ الَّذِي رَامَا  
قُمْ فَافْتَحِ الْأَرْضَ فَالْأَمْلَاكُ كُلُّهُمْ سِوَاكَ أَضْحُوا عَنِ الْعِلْيَاءِ نُوَامَا

وكان فى نفس الحقبة أميرا على سوسة جبارة بن كامل بن سرحان البعيد الصيت المشتهر بالجود، وهو هلالي مثل مدافع أمير قابس وشاعره ابن فرحان، ومن مداحه أبو الحسين بن الصبان المهودى وفيه يقول<sup>(٢)</sup>:

فَتَى لِلْعَشِيرَةِ عِزٌّ لَهَا غَدَا لَجَمِيعِ الْبَرَايَا ثِمَالَا

فهو ثمال وغيث لا للعشيرة وحدها بل لجميع الناس، وأهم منه بين شعراء جبارة التراب السوسى، وسنخصه بترجمة موجزة.

ونضى إلى عصر الدولة الحفصية وكان مؤسسها أبو زكريا يحيى بن عبدالواحد، وكان شاعرا محسنا، وله أشعار حماسية جيدة فى موضوعات مختلفة، واهتم بالحركة العلمية والأدبية فى عهده، وفسح فيها وفى دولته للمهاجرين الأندلسيين، ولهم فيه ولمعاصريهم من التونسيين مدائح كثيرة، وهو جدير بها لما امتاز به من بعد النظر وحسن التدبير مع سمو الهمة، وكان يتلقب بالأمير فحسب، وعرض له بعض الشعراء بأنه ينبغى أن يتسمى بأمير المؤمنين قائلا<sup>(٣)</sup>:

أَلَا صِلْ بِالْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْتَ بِهَا أَحَقُّ الْعَالَمِينَ

فزجره زجرا شديدا، ولم يقبل منه ذلك. حتى إذا تولى ابنه المستنصر عمل على أن تأتبه البيعة بالخلافة كما مر بنا فى تاريخه، وكان ذلك من أسباب تكاثر العلماء والأدباء والشعراء فى تونس، إذ أصبحت تعدُّ نفسها - من بعض الوجوه - حامية حمى الإسلام. ومن أهم شعرائها ابن عُرَيْبِيَّةَ وسنخصه بكلمة. وحدثت نفس لويس التاسع بعد إخفاق حملته على مصر أن يغير على تونس سنة ٦٦٨ للهجرة وحاصرها نحو أربعة أشهر، وكان عداد جيشه الذى هاجم به

(٢) الخريدة ١/١٣٨.

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب) طبع تونس

(٣) اللحل السندسية ٤/١٠٢٤.

مصر سبعين ألفا فأصبح لا يُرى فيه إلا قتيل أو أسير أو جريح، وقيد لويس إلى دار تعرف بدار ابن لقمان والأغلال في يده وحارسه الطواشى صبيح، وافتك نفسه من الأسر بدية كبيرة، فقال للويس بعض التونسيين مشيرا إلى كارثته بمصر<sup>(١)</sup>:

يا فرنسيسُ هذه أخت مصر فتأهبَّ لما إليه تصيرُ  
لك فيها دارُ ابنِ لقمانِ قبرٌ وطواشيك مُنكرٌ ونكيرُ

وصدقت الأقدار قول هذا الشاعر التونسي فإن لويس دُفن تحت سور تونس، وعاد جيشه إلى فرنسا مخذولا مدحورا. ولم يخل حكم المستنصر من عصيان بعض القبائل عليه في الجهات النائية، وعصت عليه رياح في جهة بسكرة، ووصلت إليه جماعة منها على غير أمان، فصلب أبدانهم ببسكرة ورءوسهم بتونس، وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن أبي تميم الحميري مادحا للمستنصر<sup>(٢)</sup>:

ويا حُسنَ ما قرَّتْ به أعينُ الورى رءوسُ رياحٍ فى رءوسِ رماحٍ  
فهذى دماءُ المارقين مباحةٌ وهذا حِمى الإسلامِ غيرُ مباحٍ  
بمستنصرٍ يرْمى العدا بكتائبٍ نعم نواحي أرضهم بنواحٍ

ويظل خلفاء المستنصر معينين بالحركتين الأدبية والعلمية. ويشتهر بين كتاب دواوينهم وشعرائهم آل التجاني وتنبغ في الشعر بين نسائهم زينب بنت إبراهيم التجاني، ولهم أثر غير قليل في الحركة الأدبية حتى زمن الخليفين أبي عصيدة وأبي ضربة. واشتهر بين مداح الخلفاء في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، بل قبل ذلك بفترة عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة المتوفى بعد سنة ٧١٨ وسنخسه بكلمة، وكان يصادق كبير مشيخة الدولة أبا يحيى اللحياني الحفصي وتولى الخلافة حيناً. ومن خلفوه أبو بكر المتوكل، وكان شاعرا وفي شعره وشعر معاصريه من أهل تونس يقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار: «لأهل إفريقية (تونس) لطف أخلاق وشمائل بالنسبة إلى أهل برّ العُدوة (المغرب) وسائر بلاد المغرب بمجاورتهم مصر وقرىهم من أهلها ومخالطتهم إياهم ومخالطة من سكن عندهم من أهل إشبيلية من الأندلس وهم من هم خفة روح وحلاوة بادرة، وأهل انطباع، وكرم طباع، وإنهايك من بلاد من شعر ملكها السلطان أبي بكر المتوكل قوله:

الشاذلى النيفر وعبدالمجيد التركي ص ١٣٠.

(١) الحلل ١٠٣٢/٤.

(٢) الفارسية لابن منقذ تقديم وتحقيق محمد

مَواطنُنَا فِي دَهْرَهْنَ عَجَائِبُ وَأَزْمَانُنَا لَمْ تَعْدَهْنَ الْغَرَائِبُ  
مَواطنُ لَمْ تَحْكُ التَّوَارِيخُ مِثْلَهَا وَلَا حَدَّثَتْ عَنْهَا اللَّيَالِي الذَّوَاهِبُ

وقوله في الحماسة:

انظُرْ إِلَيْنَا تَجِدُنَا مَا بَنَا دَهْشُ وَكَيْفَ يَطْرُقُ أَسَدَ الْغَايَةِ الدَّهْشُ  
لَا تَعْرِفُ الْحَادِثَ الْمَرْهُوبَ أَنْفُسُنَا فَإِنَّا بَارْتِكَابِ الْمَوْتِ نَنْتَعِشُ

وقوله في الغزل:

عَسَى اللَّهُ يُدْنِي لِلْمَحِبِّينِ أُوْبَةً فَتُشْفَى قُلُوبٌ مِنْهُمْ وَصُدُورُ  
وَكَمْ مِنْ قَصِيٍّ الدَّارِ أَمْسَى بِحُزْنِهِ فَأَعَقَبَهُ عِنْدَ الصَّبَاحِ سُرُورُ

وإذا كان هذا رقّة طبع السلطان فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء<sup>(١)</sup>! ولعل هذا الحكم الدقيق لابن فضل الله العمرى خير رد على ابن خلدون المتوفى بعده بستين عاما وما ذهب إليه في مقدمته من عراقة العجمة في لغات أهل الأمصار، كما هو واضح - كما يقول - في لغات أهل إفريقية وأشعارهم، ويتسع بالتهمة في الإقليم التونسي قائلا: «ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها، ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن ماثلة إلى القصور». وابن فضل الله العمرى إنما يتكلم عن شعراء الإقليم التونسي فما بالنا بالقرون التالية لابن رشيق وابن شرف ومن بها من الشعراء التونسيين المجيدين المحسنين، من أمثال علي الحصرى وعبد الله الشقراطسى من شعراء القرن الخامس بعد ابن رشيق وابن شرف وأبي الفضل بن النحوى والتراب السوسى من شعراء القرن السادس وابن عُرَيْبَةَ والسَّمَّاط المهدوى من شعراء القرن السابع وعبد الله التجانى وابن حسينة من شعراء القرن الثامن، وجميعهم ممن تباهى بهم تونس، وستترجم لهم في الصحف التالية محاولين أن نوضح براعاتهم الشعرية، ونفس ابن خلدون كان شاعرا وله مدائح في السلطان أحمد معاصره، وهو لا يتفوق في شعره تفوقه في نثره، ولذلك سنترجم له بين الكتاب. وفي الحق أنه قسا في حكمه على شعراء تونس وبالغ في قسوته. وفي سنة ٨٣٨ تولى أبو عمرو عثمان حتى سنة ٨٩٣ وهو خاتمة خلفائهم الضابطيين للحكم وإدارته، وفي الحلل

(١) صبح الأعشى ١١٥/٥ وقارن بتاريخ الأدب

السندسية أنه ممدوح الشهاب ابن خلوف<sup>(١)</sup> الجزائري المتوفى سنة ٨٩٩ وله في مديحه<sup>(٢)</sup>:

تلقاه أنى حلَّ يبسطُ للقريِّ بسطًا يُظللُّها القنَّا الرِّيانُ  
شرفُ أتيه وبيتُ مُلكِ شامخِ فوق السَّمَاكِ غَدًا له إيوانُ

فهو جواد لا يزال جوده يفيض في كل مكان يحل فيه، ولا تزال رماح شجاعته وشجاعة جيشه تظله وتظل من حوله من رعاياه، شرف ناله من بيت ملك سامق، إيوانه فوق السماك في أعلى مكان. ويختتم العصر الحفصي بأبي الفتح بن عبد السلام الذي بكى الدولة الحفصية وتاريخها بكاء حاراً.

ويعود إلى المديح والشعر بعامة غير قليل من الانتعاش في عصر الدولة الحسينية، العثمانية كما أسلفنا إذ كان حكامها يولدون بتونس ويتربون فيها تربية عربية، وأخذوا يشعرون بأنهم تونسيون وأن واجبهم أن ينهضوا بتونس علمياً وأدبياً وهو ما وضعه نصب عينيه مؤسسها حسين بن علي، وبالمثل على ابن أخيه حين استولى على الحكم، ودارت الدوائر عليه لابن عمه محمد الرشيد، فاستولى على صولجان الحكم، وكان شاعراً بارعاً وموسيقياً ماهراً فبث في تونس حركة أدبية وموسيقية تحفق بالحياة، وسار سيرة أبيه وابن عمه في تشجيع العلماء والشعراء، ولم يلبث أن توفي فخلفه أخوه على الثاني، وتعرض حكمه لهزات عنيفة كانت له فيها دائماً الغلبة، وخلفه ابنه حمودة وكانت أيامه أيام رخاء وسر، ونعمت فيها الرعاية بالأمن والاستقرار ورخاء الأسعار وصلاح البلاد، فكان طبيعياً أن يكون القرنان الحادى عشر والثانى عشر الهجرى قرنى عمران وخصب في الحياتين العلمية والأدبية، غير أن تونس أصابها حينئذ ما أصاب البلاد العربية من تخلف في الحياة العلمية، فغدت تعتمد على المتون والشروح وكأن ابن خلدون لم يخلف وراءه فيها من ينهض بالحياة العلمية في المستوى الذى كتب فيه مقدمته، وأيضاً فإن الحياة الأدبية - وحياة الشعر خاصة - أصابها غير قليل من التخلف، إذ أخذ الشعراء يرتضون لأنفسهم الاكتفاء في كثير من الأحيان بأن يعارضوا هذا الشاعر أو ذاك من شعراء الأسلاف، فإن تركوا المعارضة فإلى تمسك شديد بفتون البديع وخاصة فن التورية، وبذلك ضيقوا على أنفسهم القنوات التى ينبغى أن يجرى فيها الشعر وملأوها بما لا يحصى من المحسنات البديعية، وهى محسنات كانت من الكثرة بحيث كادت تخنق الشعر خنقاً، ونصبح وكأننا فى حاجة إلى مصباح ديوجين لنجد شاعراً تونسياً يخلص أشعاره من هذه الأعشاب والمعوقات الضارة التى تكاد تفقدها الحياة، ومع ذلك لن نعدم أن نجد بين شعراء المديح من يخفف عن شعره عبء

(١) الحلل ١٠٨٤/٤.

ص ١٢٧.

(٢) ديوان شهاب الدين بن الخلوف (طبع تونس).

أعباء هذه المحسنات، من مثل قول السراج صاحب اللؤلؤ السندسية مهنتاً محمداً الرشيد بجلوسه على أريكة الولاية<sup>(١)</sup> :

أمير السعادة هنيكُم      شباب الولاية بعد المشيب  
وأيامُ ملكك ألبستها      على العز ثوب الجمال العجيب  
ملك يخال سنا وجهه      ضحى الشمس من فوق غصن رطيب

فقد رُدَّ إلى الولاية شبابها وألبسها ثوب الجمال العجيب، وكأنما سنا وجهه ضحى الشمس من فوق غصن رطيب. وهو مجرد كلام وليس فيه رصانة التعبير ولا دقة المعاني ولا دقة التصوير، إنه مجرد كلام منظوم على وزن وقافية. وبنفس الأسلوب يهنيء حمودة بن عبد العزيز محمداً الرشيد باى حين استولى على صولجان الحكم قائلاً<sup>(٢)</sup> :

الآن قد وافى الأمير وطاب لى      زمن الحسينى أن أبيت مسهراً  
الأروغُ الملك الرشيدُ محمد      أعلى الملوك ذُراً وأطيب عنصراً  
وأجل من جلى الخطوب وقد دجتُ      ليلاً وأفضل من يقود العسكراً  
بذل النوال كما استهلت ديمةً      وبكفه سيفُ يريك تسعراً

والأبيات ليس فيها روح وبعض ألفاظها قلق ولا يكاد يستقر في موضعه على نحو ما يتضح في كلمة «مسهراً» في البيت الأول وكلمة «تسعراً» في البيت الرابع، وبدلاً من أن يبيت هائناً لاعتلاء محمد الرشيد باى منصة الحكم يبيت مسهداً. وخير من هذين الشاعرين الطوير القيروانى في تهنتته لعلى باى الثانى حين انتصر على بعض خصومه وأذاقهم وبال عصيانه مستهلاً تهنتته الطويلة بقوله<sup>(٣)</sup> :

فَتَحَّ ونصرٌ وإسعادٌ وإقبالٌ      لمن له خضعتُ صيدٌ وأقبالٌ<sup>(٤)</sup>  
ومن له همّةٌ شماءٌ قد سُجِبَتْ      لها على الفلك الدوار أذبالٌ<sup>(٥)</sup>  
ومن سريرته طابتٌ وسيرته الـ      غرأء سارت بها فى الفلك أمثال  
علئ بن حُسينٍ من له فخرٌ      على الملوك وإعظامٌ وإجلالٌ

والقصيدة بها شيء من الرصانة يحول بينها وبين السقوط كسابققتها، وإن كانت لا تستمر في

(١) الأدب التونسي في العهد الحسينى ص ٤٠. (٤) صيد: جمع أصيد: السيد الشريف، أقيال: جمع قيل: ملك.  
(٢) نفس المصدر ص ٤٥. (٥) شاء: سامية.  
(٣) الأدب التونسي في العهد الحسينى ص ٤٥.

هذه الديباجة. وأكثر من هذه القصيدة رصانة وجزالة قصيدة لخليفة المشرق في نفس المدوح يحمسه ويستثيره فيها على منازلة خصومه مستهلا لها بقوله<sup>(١)</sup>:

قاتل بسعدك فالمعالي تنجدُ      واعزمُ فجدُّك لم يزل يتجددُ  
والحربُ أنتُ مُجيدُها ومجيلُها      والخلقُ تعلمُ والوقائعُ تشهدُ  
سمعتُ خيولك بالحروبِ فهزَّها      طربُ وباتتُ للصَّهيلِ تردُّدُ  
ما ذاك إلا أنها عودتُها      حمرُ الدِّماءِ حيثُ النجيعُ المورِدُ<sup>(٢)</sup>

ويستمر الشاعر طويلا في وصف معارك على باى وما يخوض فيها من الدماء إلى أعدائه وما يقطف من رءوسهم. والقصيدة حماسية قوية، ولم نشد شيئا من شعر الشعارين الرسميين على العراب الصفاقسى ومحمد الورغى، لأننا سنخصصها بترجمتين مجملتين. وتوقف الآن لترجم لبعض من مروا بنا من شعراء المديح، وسنحاول الإيجاز قدر المستطاع.

على<sup>(٣)</sup> بن محمد الإيادى

نشأ وتربى بتونس، وهو من أهم شعراء الدولة العبيديَّة بالقيروان والمهدية، وخدم الخلفاء: القائم والمنصور والمعز، وذكره محمد بن شرف فقال: «وأما على بن الإيادى التونسي فشعره المورد العذب، ولفظه اللؤلؤ الرطب، وهو بَحْتَرِيٌّ الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبِّب فيعشق ويحبِّب». ومن شعره في وصف أسطول القائم بالمهدية:

اعجبْ لأسطولِ الإمامِ محمدٍ      ولِحُسْنِهِ وزمانِهِ المُستَغْرِبِ  
لبستُ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ      يبدو لعين الناظرِ المستعجبِ  
من كل مُشْرِفةٍ على ما قابلتُ      إشرافَ صدر الأجدلِ المُتَنصِّبِ<sup>(٤)</sup>  
دهماءَ قد لبستُ ثيابَ تصنعٍ      تَسبى العقولَ على ثيابِ ترهْبِ<sup>(٥)</sup>

وتصويره للسفن بأنها منتصبية الصدر كالصقر تترقب ما تنقضُّ عليه تصوير بدیع، ويتصور اللون الأبيض في أعاليها كأنه ثياب ترهب، ويتحدث عن نار النفط التي تقذفها بألسنتها على الأعداء وعما يحفها من مجادف مصفوفة في الجانبين تطير بها في عباب البحر المتوسط طيرانا. ويطلق في وصف الأسطول متقلبا بين تصاویر رائعة وهى قصيدة بدیعة، ومثلها قصيدة ثانية

(١) الأدب التونسي في العهد الحسيني، ص ٤٥. للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ص ٩٦.

(٢) النجيع: دم الجوف.

(٣) انظر ترجمة الإيادى في تاريخ الأدب التونسي

(٤) الأجدل: الصقر.

(٥) دهاء: سوداء لطلاتها بالقار.

وصف فيها القصر الذى أنشأه المنصور بِصَبْرَةٍ إحدى ضواحي المهديّة، وفيه يقول:

بنى قُبَّةً للملك فى وسط جنَّةٍ لها منظرٌ يَزْهَى به الطَّرْفُ مُوْنِقُ  
لها جدولٌ ينصبُّ فيها كأنه حسامٌ جلاه القَيْنُ بالأرضِ مُلْصِقُ  
لها مجلسٌ قد قام فى وسط مائها كما قام فى فيضِ الفراتِ الخَوْرَنِقُ  
إذا بثَّ فيها الليلُ أشخاصَ نَجْمِهِ رأيتَ وجوهَ الزَّنجِ بالنارِ تُحْرَقُ

والصور بديعة فالجدول كأنه حسام جلاه القين أو الحداد فهو يلمع أشد اللمعان بما فيه من مياه، وهو مُلْقَى على الأرض بل ملصق بها لا يتركها أبداً، وقد قام وسط الماء مجلسها، وكأنه قصر الخَوْرَنِقُ الذى بناه المنذر بن ماء السماء قديماً على ضفة الفرات، حتى إذا دجا الليل وانتشرت النجوم على صفحة السماء رأيت وجوه الزنج تُحْرَقُ بالنار، وتتكاثر هذه الصور وما يماثلها فى شعر الإيادى مما يدلُّ بوضوح على ثراء ملكته الشعرية، وقد توفى سنة ٩٧٦هـ/٣٦٥م.

#### الكاتب<sup>(١)</sup> الرقيق إبراهيم بن القاسم القيروانى

نشأ وتربى فى القيروان وإليها نُسب، وهو شاعر باديس ورئيس الإنشاء فى الدولة الصنهاجية لمدة خمس وعشرين سنة، وهو مؤرخ إفريقية الكبير، وتاريخه فيها وفى المغرب فى عدة أجزاء، لم تنشر منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة، ويقول عنه ابن خلدون فى مقدمته: «الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد له» ويقول ابن رشيق: «هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه، تلوح الكتابة على ألفاظه، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتآليف الأخبار، وهو بذلك أَحَدُ الناس، وله فى باديس أشعار مختلفة منها قوله:

وما مثلُ باديسٍ ظهيرٌ خِلافةٍ إذا اختير يوماً للظهِيرة موضعُ  
نصيرٌ لها من دولةٍ حاتميّةٍ إذا ناب خطبٌ أو تفاقم مطمعُ  
حسامٌ أميرُ المؤمنين وسَهْمُهُ وسَمُّ زُعافٍ فى أعاديهِ مُنْقَعُ

فباديس ظهير الخلافة وعونها ونصيرها الأكبر حين تنوب كارثة أو يتفاقم خطب، إنه حسام أمير المؤمنين وسهمه وسَمُّ قاتل لأعاديهِ. وله قصيدة يصف فيها وقعة حربية استبسل فيها باديس بشلف قرب المحمدية (المسيلة) سنة ٤٠٥ وكتب له فيها النصر على أعدائه، يقول:

ص ٥٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٢١.

(١) انظر فى الكاتب الرقيق معجم الأدباء ١/٢٦٦

وفوات الوفيات ١/٤١ وابن رشيق فى الأنموذج

لم أنس يوماً بشلفٍ راع منظره  
والبيض في ظلمات النَّقْعِ بارقةٌ  
وقد بدا مُعلِّماً باديسٍ مُشتهراً  
وأى راحته لو فاض ناهلها  
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له  
وقد تضايق فيه ملتقى الحدق  
مثلُ النجوم تهاوت في دجى الغسق  
كالشمس في الجو لا تخفى عن الحدق  
وبأسها في الورى أشفوا على الغرق  
أبو مناد تبدي مات من فرق

وهو يصور في البيت الأول ما أخذ الناس من الفزع في أول المعركة، ويقول إن السيوف كانت تلمع وتبرق في ظلمات الغبار وكأنها نجوم تتهاوى في دجى الليل، ولم يلبث أن بدا باديس وسط ظلام المعركة وكأنه الشمس لا تخفى عن الأبصار، ويتجسد له الجود والبأس في راحته، فلو فاضت على الورى لأشفقوا على أنفسهم من الغرق في جوده وبأسه، وما يلبث أن ينفذ في مديحه لباديس إلى صورة طريفة، فلو تجسد الموت شخصاً، ثم قيل له هذا أبو مناد باديس مات من الفرق والفزع، وقد علق ابن رشيق على بعض أبيات القصيدة بقوله إنها بديعة «حسنا وملاحة وإيجازاً وفصاحة وليس في ألفاظ الكتابة العذبة مثل ما أتى به ولا مستزاد عليه، ألا ترى كيف تأتق فأغرب، وثق فأعجب». وله مدائح رائعة في محمد بن أبي العرب قائد باديس. وزار القاهرة وله قصيدة يتشوق فيها إلى أهلها ومنتزهاتها البديعة، وقد توفي حوالى سنة ٤٢٠هـ/١٠٣٠م.

ابن (١) رشيق

هو أبو على الحسن بن رشيق، ولد بمدينة المحمدية المعروفة الآن باسم المسيلة لأب رومى من موالى الأزدي سنة ٣٩٠ وكان أبوه يجتاز الصياغة فعلمه صنعته، وأحس الغلام بنزعة فيه إلى الأدب، فهاجر إلى عاصمة القيروان المشهورة به حينئذ سنة ٤٠٦ وأخذ ينهل من حلقات شيوخها ويختلط بالأدباء والشعراء القيروانيين، وأخذت ملكته الشعرية تتفتح، واشتهر بجودة الخاطر وحسن القريحة، حتى إذا كانت سنة ٤١٧ وكان المعز بن باديس قد بنى لنفسه بناء في صبرة: إحدى ضواحي المهديّة، رأى أن ينشده قصيدة، ومما قاله فيها:

يابن الأعزّة من أكابر حميرٍ      وسلالة الأملاك من قحطانٍ

خلكان ٨٥/٢ وشدرات الذهب ٢٩٧/٣ والنتف من  
أشعار ابن رشيق وابن شرف للمعنى ومجلد تاريخ  
الأدب التونسي للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب  
ص ١٨٣ وديوانه بتحقيق د. عبد الرحمن ياغى.

(١) انظر في ترجمة ابن رشيق آخر كتابه: أفودج  
الزمان في شعراء القيروان والحريفة للعماد  
الأصبهاني (قسم المغرب - طبع تونس) ٢٣٠/٢  
وإنباه الرواة ١/ ٢٩٨ ومعجم الأدباء ٨/ ١٩٠ وابن



من كُلِّ أبلَجٍ أمرٍ بلسانه يضع السيوف مواضع التيجان  
وأعجب المعز بالقصيدة، وشعر ابن رشيق باستحسانه لها، فحاول أن يتقرب منه بقصيدة  
لامية أكثر من القصيدة الأولى إبداعاً وافتناناً، فقيّد في ديوانه وأخذ الصلة منه، وحُمل على  
مركب تمييزاً له بين أقرانه، وفي مديحها يقول:

لُدُنُ الرماح لما تُسقى أسنتها من مهجة القَيْلِ أو من مهجة البطلِ  
لو أورقت من دم الأبطال سُمرُقنا لأورقت عنده سُمرُ القنا الدُّبَلِ  
إذا توجّه في أولى كتائبه لم تفرق العين بين السهْلِ والجبلِ  
فالجيشُ يَنْفُضُ حوليه أسنته نَفْضَ العُقابِ جناحيها من البللِ

فرماح المعز لُدنة لما يسقيها من مهج الملوك والأبطال، ولو أن الرماح تورق من دم الأبطال  
لأورقت رماحه الدقيقة، وما أعظم كتائبه إنه حين يتوجه في أولاهها لا تستطيع التفرقة بين  
السهل والجبل وما يلبث ابن رشيق أن ينفذ إلى صورة بديعة، فالجيش ينفذ من حول المعز  
أسنته نفض العقاب جناحيه من البلل ويقول ابن خلكان: هذا البيت من فرائده، وكان كثيراً  
ما ينفذ إلى مثل هذه الفرائد، فقد غاب المعز عن حضرته وكان العيد مطرا، فأنشد:

تجهّم العيدُ وانهلّت بوادره وكنت أعهدُ منه البشرَ والضحكا  
كأنه جاء يطوى الأرضَ من بُعدٍ شوقا إليك فلما لم يجدك بكى

وكان يعرف كيف ينفذ إلى هذه الصور البديعة، ويدعها إنما يرجع إلى ما تحمل من عنصر  
المفاجأة، ومن ذلك قوله في تميم بن المعز:

أصحُّ وأعلى ما سمعناه في الندى من الحَبَرِ المأثور منذ قديمِ  
أحاديثُ ترّوها السيولُ عن الحيا عن البَحْرِ عن كَفِّ الأميرِ تميمِ

وقد ظل مع المعز يؤلّف كتبه الرائعة: العمدة وغيره، حتى إذا كانت الهجرة الهلالية وتراجع  
أمر المعز بكى القيروان طويلا، ورحل إلى جزيرة صقلية واستقرّ بمدينة مازر إلى أن وافاه أجله  
سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وله في بكاء القيروان وما صارت إليه أشعار كثيرة بديعة.

### التراب<sup>(١)</sup> السوسى

هو من شعراء عصر الطوائف ومن أهل سوسة. الثغر المعروف على المتوسط إلى الجنوب

(١) انظر في التراب السوسى الخريدة ١٣٠/١

والحلل السندسية ٣١٠/٢.

الشرقي من تونس ومثلها مثل قابس دخلت في حوزة العرب الهلالية بعد زحفهم إلى الإقليم التونسي. وما زال يتوالى أمراء من عرب الهلالية منذ عهد تميم بن المعز، انتزعوها من أيدي الدولة الصنهاجية، وتملكها أخيراً جبارة بن كامل بن سرحان الهلالي الذي اشتهر بجوده، فأقبل عليه الشعراء يقدمون إليه مدائحهم وفي مقدمتهم شاعره التراب السوسي، وهو سوسي المولد والمربي والحياة والوفاء، وله فيه قصائد بديعة طوال إمارته لسوسه إلى أن استولى عليها روجار صاحب صقلية حين أخذ المهديّة من يد الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي سنة ٥٤٣ واستولى معها على بقية بلاد الساحل التونسي إلى أن خلاص عبد المؤمن سوسة والمهديّة وبلاد الساحل جميعاً من أيدي النورمان النصارى سنة ٥٥٥ ودخل جبارة في طاعته. وللتراب السوسي قصيدة بديعة في جبارة على نهج قصيدة مهبّار الديلمي: (بكر العارض تحدوه النعامي) ومقدمتها لا تقل عنها وجدا واضطرام الحبّ شوقاً وغراماً، كما لا تقل عنها نسقا موسيقيا بديعا، وفي مديحه لجبارة يقول:

مُقبِلُ القَلْبِ على سُبُلِ الهدى	معرضٌ عن كلِّ ماجرٍ الأثاما
ليس يندرى ما المزاميرُ ولا	يسمع الصنّجَ ولا ذاقَ المُداما <sup>(١)</sup>
وإذا استصرخته في حادثٍ	فعلى الحادثِ جرّدتَ حسّاما
بيته كعبةً بشرُ نُصبتُ	تفصمُ الغمَّ عن الناس انفضاما
لذوى الحاج زحامٌ حولها	زحمةُ الحجاج قد زاروا المقاما <sup>(٢)</sup>

وجبارة، - في الأبيات - يقبل على طرق الهدى ويعرض عن كل ما يجبر إثمها، كما يعرض عن كل لهُو من مزامير وخمر وضرب للصنّج، وإنه ليغيثك غوث السيف القاطع في أى حادث يعتريك. وما يلبث التراب السوسي أن ينفذ إلى صورة بديعة، فبيت جبارة كأنه كعبة تفصم الغم عن قاصديه من ذوى الحاجات. ويتخيل أنهم يزدحمون حول منزله ازدحام الحجاج حول الكعبة، وله في جبارة قصيدة ثانية وقف فيها طويلا عند أطلال صاحبتة وتحدث عن أيامها الخوالي ومن كان بها من الغانيات الفاتنات وأطال في وصفهن، وخرج إلى مديح جبارة بمثل قوله:

جبارة ابنُ كاملٍ	كهفُ الندى والكرم
العارضُ الذي إذا	أخلف صوبُ الدِّيمِ
سرتُ سحابُ جوده	من غيْثِهِ المُنْسِجِمِ
وأمرتُ من الحيا	نَهراً لكلِّ مُعِدِمِ <sup>(٣)</sup>

(٣) الحيا: الغيث.

(١) الدمام: الخمر.

(٢) المقام: مقام إبراهيم في الكعبة.

الفارسُ الذى إذا أُسرج كلُّ شَيْظَمٍ<sup>(١)</sup>  
 وسُلُّ كلُّ مُرْهَفٍ وسُلُّ كلُّ لَهْذَمٍ<sup>(٢)</sup>  
 تراه إن صاح بهم تحت وطيسٍ قد حَمَى  
 تراكبوا من خَوْفِهِ بَعْضًا على بعضهم

والأبيات تسيل عذوبة مع صور بديعة، فالعارض أو السحاب الذى يخلف صوب الدير والأمطار لا يزال يهطل بجانبه عارض جوده بغيته المدرار، حتى ليفيض أنهارًا من الحيا والغيث المتدافع لكل معدم، وحين يسرج كل فرس كأنه أسد ضخم، ويسل كل سيف حاد ولهزم قاطع ترى الأعداء حين يحمى وطيس الحرب ويصيح بهم يتراكبون بعضا على بعض فزعا منه ورعبا ما بعده رعب. والقصيدة توج بمثل هذه الصور البديعة، مع ما توج به من خفة في الموسيقى حتى لكأنما تطير عن الفم طيرانا، مما يرتفع بالتراب السوسى إلى منزلة عليا في عالم الشعر. وقد ظل الناس في الإقليم التونسى يغمون بإنشادها حتى أوائل القرن الثامن الهجرى، إذ يشهد التجانى بذلك في رحلته قائلا إن أعراب زماننا قد أولعوا بإنشادها وكثرة تردادها حتى عصره. ولعل في ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على صحة ما زعمناه في غير هذا الموضع من أن الفصحى كانت لا تزال تجرى في ألسنة الناس - وخاصة من الأعراب - حتى هذا التاريخ.

ابن عَرَبِيَّة<sup>(٣)</sup>

هو أبو عمرو عثمان بن عتيق المهدي، من شعراء المهديّة وفقهائها ومحدثيها الأعلام، ولد سنة ٦٠٠ وبها منشؤه ومرباه، وله كثير من المصنفات منها كتاب جوامع الكلم النبوية، وآثار السحابة في أشعار الصحابة، وله ديوان سماه قصائد المدح ومصائد المنح، وكانت له في أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية مدائح كثيرة، وقد استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزهة في روضه المسمى بأبي فهر، فنظموا في وصفه قصائد وقدموها إليه، وأجابهم عنها بأبيات تتضمن تفضيل قصيدة ابن عربيّة على قصائد من حضره من الشعراء قائلا:

ألا إنَّ مضمَارَ القريض لممتدُّ به شعراءُ السَّبْقِ أربعةٌ لُدُّ  
 فأما المجلَّى فهو شاعرٌ جمّةٍ أتى أوَّلًا والناسُ كلُّهمُ بَعْدُ

وجمّة من قرى المهديّة، وواضح أنه يريد بشاعرها ابن عربيّة، وله شعر طريف في

(١) الشيطان الطويل الضخم ويعنى به الفرس. ٥٠٣/٢ وما بعدها وكتاب الفارسية في مبادئ

(٢) لهزم: سيف قاطع. الدولة الحفصية ص ١١٣ ومجمل تاريخ الأدب

(٣) انظر في ترجمة ابن عربيّة الحلل السندسية التونسي ص ١٩٧.

التشوق إلى بلده، وهو ما جعله في أثناء مدحه لأبي زكريا يطلب إليه أن يوليه قضاء بلدته  
جمعة قائلا:

ذَكَرْتُ جَمَّةً وَالذَّكْرَى تَهِيحُ أَسَى      وَأَيْنَ جَمَّةٌ مِنِّي وَالْمُنْسْتِيرُ  
وَمَا مَنَى لِيَالِيهَا الَّتِي سَلَفَتْ      وَمَا هَوَايَ مَحَانِيهَا الْمَعَاظِيرُ<sup>(١)</sup>  
لَكِنْ بِهَا رَحِمٌ مَجْفُوعٌ يَيْسَتْ      مِنْ أَنْ تَقْرِبَنِي مِنْهَا الْمَقَادِيرُ  
فَإِنْ رَأَى مَنْ أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ      عَلَيْهِ لِي خَطَّةٌ فِيهَا فَمَا جُورُ

وكان ابن عريبة خير أبا زكريا بين قضاء جمعة أو قضاء المنستير بالقرب منها، وعينه قاضيا  
بتبرسق وظل بها إلى وفاته سنة ٦٥٩. ولما توفي أبو زكريا وتولى ابنه المستنصر نظم قصيدة  
رائعة جعل شطرها الأول عزاء في أبي زكريا وشطرها الثاني تهنئة للمستنصر، وتمضى على هذه  
الشاكلة:

وَلْتُنْ طَوَى بَدْرَ الْإِمَارَةِ مَغْرَبُ      فَلَقَدْ جَلَا شَمْسَ الْخِلَافَةِ مَطْلَعُ  
فَأَضَاءَ بِالْمَرْحُومِ ذَلِكُمْ الثَّرَى      وَأَنَارَ بِالْمَنْصُورِ ذَاكَ الْمَرْبَعُ  
بَسَطُوا لِسَانَ الشُّكْرِ فِيمَنْ بَايَعُوا      وَثَنُوا عِنَانَ الصَّبْرِ عَمَّنْ وَدَّعُوا  
وَرَأَوْا خِلَالَ مُحَمَّدٍ فَتَبَاشَرُوا      وَتَذَكَّرُوا يَحْيَى الرُّضَا فَتَفَجَّعُوا

ويقول الرواة إنها قصيدة طويلة، ويدل ما ذكره من أبياتها السالفة على مهارة ابن عريبة  
في الجمع بين التعزية والتهنئة في كل بيت من أبياتها. ولو وصلتنا القصيدة أو بعبارة أدق  
لو وصلنا ديوان ابن عريبة لاستطعنا أن نحكم على إبداعه الشعري بصورة أكثر دقة، ومع ذلك  
فالأشعار التي أنشدها له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب تدل على موهبة شعرية فذة، وإذا  
كان التراب السوسى يدل على خطأ حكم ابن خلدون في أن الشعر التونسي توقف بعد ابن  
رشيقي وابن شرف، فابن عريبة يدل بدوره على خطأ هذا الحكم.

عبد<sup>(٢)</sup> الله التجاني

هو عبد الله بن محمد التجاني، من أسرة ظلت راعية للأدب والثقافة منذ عهد مؤسس الدولة  
الحفصية أبي زكريا إلى عهد أبي يحيى زكريا الذي اشتهر باسم ابن اللحياني (٧١١-٧١٧هـ)

(١) محانيها: منعطفاتها.  
المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٢ وراجع  
الرحلة طبع تونس.

(٢) انظر في التجاني الحلال السندسية (راجع  
الفهرس) والقسم الثالث من كتاب الورقات

وقد ولد عيد الله حوالى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م ورعاه أبوه محمد خير رعاية، فأخذ ما عند أبيه وأسرته من الأدب والفقه، وانتظم مبكراً مثله فى ديوان الإنشاء وعُرف بالبراعة فى الشعر والترسل، وكان طموحه أوسع من ذلك، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين من أهل تونس والطارئين عليها. وانعدت صداقة وثقى بينه وبين أبى يحيى زكريا المشهور بابن اللحيانى كبير أمراء الدولة الحفصية، حتى إذا رأى هذا الأمير أن يقوم برحلة واسعة فى شرقى الإقليم التونسى وجنوبيه سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م اصطحبه معه فى تلك الرحلة التى ظلت سنتين ونصفاً، وفى نهايتها تجوّل معه فى الإقليم الطرابلسى، وأقام به التجمان مدة تحدتثنا عنها فى طرابلس وعمن أخذ عنه صحيح البخارى ومسلم، وعاد إلى تونس وأخذ فى تأليف رحلته الطريفة، وفيها يتحدث عن البلدان التى زارها مع ابن اللحيانى جغرافياً ونباتياً وتاريخياً مع عرض أعلامها من الفقهاء والمحدثين وأصحاب العربية والشعراء الأفاضل على مر العصور حتى عصره، ويذكر أن الأمير ابن اللحيانى فكر سنة فى الحج فجاءتهم الأنباء بمجاعة شديدة فى برقة، ويذكر أن ابن حُسَيْنَة نظم قصيدة ينهأ فيها عن الحج حينئذ، وينشد مطلعها، ويقول إنها سقطت من ذاكرته، غير أن له قصيدة جعلها معارضة لقصيدته، وينشدها، وفيها يقول مادحا ابن اللحيانى:

مولئى زهتِ الأيامِ بهِ	وتحلَّت من بعد العطلِ
شرفُ بالإرث تملكه	فتنقل أحسن منتقل
بأس كالنار إذا اضطربت	وندى كالعَيْث المُنهمِل
يُمضى الآراء مسددة	فى قول أفند أو عملِ
فأقم للدين تجدده	فى عزِّ باقٍ متصلِ
فشروط الحج قد ارتفعت	لزوال القُدرة والسُّبلِ

والقصيدة طويلة، وهى تدل على قدرة ملكته الشعرية إذ يندفع فيها ولايكاد يتوقف، ويقول لابن اللحيانى أقم فيكفى ما تقدمه للدين من خدمات، وقد ارتفع عنك الحج لفقد شرط الاستطاعة وأمن السبل. وتمتلىء الرحلة بأشعار يتبادها مع أصدقائه وأبيه وأفراد أسرته، من ذلك محاولة الشاعر ابن حسينة أن يتبادل معه الشعر، فأجابه مادحا:

أحمرز كلَّ منقبةٍ حميده	ومن لم نلفِ فى الدنيا نديده
أعنت على النظام يُحسن طبعِ	وأفكار مؤيدةٍ سيديه
وتسألنى الجوابَ وإن فكرى	ليُقصُر عن مجاريك المديده
فمهّد لى على التقصير عُذراً	وهون من مطالبك الشديده
ودم فى عزةٍ وبلوغِ قصدِ	وسعدٍ دائمٍ وعللاً جديده

وهو يعلى من شاعرية ابن حسينة ويجعله أكثر منه تفوقا في عالم الشعر، ولم يكن ابن حسينة يقلُّ عنه شاعرية وبراعة فيما يورد من أشعار له.

### على<sup>(١)</sup> الغراب الصفاقسى

منشؤه ومرباه مدينة صفاقس في القرن الثاني عشر الهجرى، وكان أبوه محمد في ثراء ونعمة مما أتاح له الاختلاف إلى حلقات العلماء والأدباء في بلده والنهل من ينابيع علمهم وأدبهم وانتقل إلى تونس، فحضر دروس علمائها المختلفين في المنطق والفلك وأصول الفقه والفقه المالكي والحديث النبوى والبلاغة والعربية، ويقال إن أصل مجيئه إلى تونس قضية شرعية في إرث أبيه وتعرف على رجالها: رجال الدواوين وساستها وقد وضع بين يدى ديوانه مقدمة طريفة ذكر فيها أنه كان في بدء حياته (بصفاقس على ما يظن) لا يزال حين تفتحت موهبته الشعرية ينتقل بين الجد والمجون إظهارا لمقدرته، وكثير منها لم يكن مطابقا للواقع بل على حسب ما يقتضيه المقام من المفاهكات أو محاكاة للبلغاء في بعض المطارحات. ويعود الغراب إلى ذكر ذلك في مقدمته لديوانه لعلى الثاني بن الحسين وقد سماه «ديوان بهجة النفس والعين في صفات الأمير على بن الحسين». وكان اتصاله برجال العصر من السياسة وكتابة الدواوين سلما طبيعيا لاتصاله بعلى الأول ابن الأمير محمد الذى استلب أولاد أخيه الحسين الحكيم إلى أن استرده محمد الرشيد وإخوته بعد عشرين عاما بفضل جيش جزائرى نصرهم على عمهم، واستقر الحكيم من حينئذ في يد الأسرة الحسينية. وقد أسند على الأول إلى الشاعر خطة العدالة التى كان يرنو إليها، وله فيه ثلاث مدائح، أهمها مدحة رائية، وفيها يقول:

مليك له فضلٌ ومجدٌ وسؤددٌ	وكلُّ مليكٍ عن معاليه يقصُر
له عِفَّةٌ مقرونةٌ بصيانةٍ	عن الفحشِ فى أفعاله وتطهُّرٌ
إذا وقعتْ أسيافه فى عِداته	رأيتْ رءوسَ المعتدين تطيَّرُ
إذا رفعَ الأعلامَ فاجزمُ بفتحهِ	لما أمَّ والجمعُ الصحيحُ يكسُرُ

عنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم أديب (طبع تونس) ٣٢/٢ وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ٢٣٩ وكتاب الأدب التونسى في العهد الحسينى للهادى الغزى (طبع تونس) ص ٩١.

(١) انظر في ترجمة الغراب مقدمته العامة لديوانه والخاصة التى وضعها بين يدى ديوانه الثانى في مدائح على باى بن الحسين وهو مضمَّن في ديوانه بتحقيق وتقديم محمد الهادى الطاهر المطوى وعمر ابن سالم (طبع تونس) وقد ضُمَّن الديوان رسائله ومقاماته، ومن الكتب التى اهتمت بالترجمة له كتاب

وإنما ذكرت البيت الأخير لأنه كان يتصنع أحيانا لقواعد النحو، فقد ذكر فيه الرفع والجزم والفتح والجمع الصحيح السالم والجمع المكسر، ولكن ذلك كله لم يفسد البيت عنده، وهو لا يكثر من مثل ذلك في شعره، فقول من قال إنه كان يكثر من التورية في شعره يريد مثل ذلك من التصنع لبعض مصطلحات العلوم وخاصة النحو وأنه يخرج بذلك عن الحد المحدود فيه مبالغة، إذ تتضح في شعره قوة شاعريته وأنه يتدفق فيه رغم ما قد يتصنع له من المحسنات وخاصة الجناس، وله مدحة لم يُجَلَّ منه بيتا من أبياتها وقد ذكر في فاتحتها أن ذلك طُلب منه. والحق أنه يتميز بشاعرية خصبة، وديوانه الثاني أنشأه في علي بن الحسين وقد استولى على صولجان الحكم بعد أخيه الرشيد من سنة ١١٧٢ حتى توفي سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩م وأهداه أكثر من ثلاثين مدحة الشاعر منه وعاش في زمنه حتى توفي الذي قلنا أنفاً إنه سماه: «ديوان بهجة النفس والعين في صفات الأمير علي بن الحسين» وله يقول في بعض مديحه:

إليه ففتح أن الإياب مغانم	مليك إذا الآمال منك توجهت
وهذا لجرح النائبات مراهم	بحلم وعدلٍ خصص، هذا لمن جنى
- وتجن عنهن - الكماة الضراغم <sup>(١)</sup>	له وثبات في وغي الحرب تنثنى
لما علقت بالعالمين مآثم	له عفة لو أنها في الورى سرت
فذاك له كف وذلك ساجم	إذا انبجست مزن السماء وكفه
بنا من جنان الخلد حفت تماثم <sup>(٢)</sup>	نعمنا به في ظل عيش كأنما

والقصيدة تتدفق برنات موسيقية بديعة، والألفاظ سلسلة عذبة، والتقسيم في البيت الثاني دقيق، فالعدل لمن جنى والحلم مرهم لجرح النائبات، وله وثبات في وغي الحرب يتحاشاها ويحيد عنها الشجعان شجاعة ضارية، ويبالغ في وصف عفته وأنها لو وزعت على العالمين ما كان في الدنيا مآثم، ويقول إذا انفجر مزن السماء بالغيث وكفه بالجوهر وتوقف المزن وكف فكفه تظل هاطلة ولا تتوقف أبداً، ويذكر أنهم نعموا بالأمير علي الثاني في ظل عيش ناعم رافه، حتى لكأنما يعيشون معه في جنان الخلد، وقد حفت معيشتهم بتماثم وتعويذات حتى لا تتبدل أبداً. ولعل صوت على الغراب الصفاقسي اتضح لنا الآن، وهو صوت فيه غير قليل من جمال العبارة وحسن الصياغة وأحيانا مع المبالغة الشديدة.

(٢) تماثم: تعاويز.

(١) الكماة الضراغم: الشجعان الأسود.

محمد<sup>(١)</sup> الوَرْغِيّ

هو محمد بن أحمد الوَرْغِيّ، نسبة إلى قبيلة وَرْغَة التي كانت تنزل قرب مدينة الكاف في الجنوب وقيل بل كانت تنزل على الحدود التونسية الجزائرية، ولا نعرف شيئاً عن ميلاده ولا عن نشأته، ويبدو أنه التحق أولاً بالكتاتيب، وحفظ فيها القرآن الكريم. ونفاجأ به في جامع الزيتونة بتونس يدرس على شيوخه الفقه والتاريخ وعلوم الحديث والتفسير والكلام والمنطق وعلوم العربية والبلاغة، ويُبْدَى من الذكاء ماجعله يجلس للتدريس بجامع الزيتونة. وجعلته نزعة الأدبية يختار العمل كاتباً في ديوان الإنشاء لعهد الأمير على الأول، ونال في عهده من الشهرة والجاه ماجعله كاتبه وشاعره الأول فلا يترك حادثاً ولا عيداً إلا ويدبج فيه مدحة، وتدور الدنيا دورات وإذ أولاد أخيه حسين يستردون السلطان المفقود، ويجلس على أريكة الحكم محمد الرشيد لمدة ثلاث سنوات ثم أخوه الأمير على الثاني حتى سنة ١١٩٦ ويوشك نجمه أن يأفل منذ ولاية الرشيد سنة ١١٦٩ فيسجن ويعذب، وما يزال يبعث بمدائح إلى أخيه الأمير على الثاني، ويتوسط له عند أخيه وترد إليه حريته، حتى إذا أصبح صولجان الحكم بيده قرّبه منه، ونظن ظناً أن لزوجته ابنة على الأول أثراً في قربه منه وقرب على الغراب الصفاقي كما مر بنا، مما جعله ينظمها بين كتابه وشعرائه. وظل الورغي يحظى بجوائز على الثاني حتى وفاته سنة ١١٩٠ للهجرة. ومدائحه منقسمة بين على الأول وعلى الثاني، ومن بديع ما له من مديح في على الأول قصيدته في إيقاعه بقبيلة النمامشة حين نهبت ركب حجيج من فاس وأزمها برد كل ما نهبته، وله يقول:

هو العزُّ في سُمْرِ القَنَا والقَوَاضِ	وإلا فما تُغْنِي صدورُ المراتبِ
وسِيَّانِ أَعْمَارُ الرِّجَالِ وَصِيْدُهَا	إذا لم يميِّزْ فَضْلُهَا بالتجاربِ <sup>(٢)</sup>
هو الملك الداعي إلى الحق وحده	وإن كثرتْ أهلُ الدواعي الكواذبِ
ومن عَرَفَ الأيامَ قصَّ غريبها	وفي قصص الباشا عيون الغرائبِ
ومن مثله يُدْعَى لكشف مَلَمَةٍ	إذا قال: واغوثاهُ أهلُ المصائبِ

(١) انظر في الورغي شجرة النور الزكية لمخلوف وعنوان الأريب لمحمد النيفر والجزء الثاني من تاريخ ابن أبي الضياف والورغي للحبيب ابن الخوجة ومجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٤٧ والأدب بتونس.

(٢) أعمار الرجال: من ليس لهم خبرة من العامة. الصيد: السادة.

(١) انظر في الورغي شجرة النور الزكية لمخلوف وعنوان الأريب لمحمد النيفر والجزء الثاني من تاريخ ابن أبي الضياف والورغي للحبيب ابن الخوجة ومجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٤٧ والأدب



ترى الخيل فى آثارهم مستطيرةً  
وما ارتفعت شمسُ الضحى قيْدَ رمحهم  
سحائبُ حَتَفٍ أُرْدِفَتْ بسجائب  
عن الأفق حتى أنشَبوا فى المخالبِ (١)

والأبيات حماسية والورغى يقول فيها إن العز فى الرماح والسيوف ولا فضل بين شجاع وجبان إذا لم تميزهما التجارب فى وطيس الحرب، ويصف علياً الأول بأنه يعيش للدفاع عن الحق وكشف الملمات عند أهل المصائب، ويقول إن خيل على الأول عصفت بأعدائه، وما زالت سحائب حتفها تعقبها سحائب حتف حتى دمرتهم، وما ارتفعت شمس الضحى قدر رمح حتى أنشَبوا فى مخالب فرسانه كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. وتختلف مدائحه فى على الثانى عنها فى على الأول فأكثرها استعطافات واعتذارات على شاكلة قوله:

يا أيها الملك الذى نَظَرَ السَّنا  
أنت الذى يَنْسَى الغريبُ بقره  
مالى أحاول شَرْبَةً من عفوكم  
إن كان لى الذَّنْبُ العَظيمُ فحلّمكم  
قال قَتِيلَةٌ للرسول «وربما»  
فى وجهه الأسنى فقالَ موفِّقُ  
أوطانه ويجودُ منه المُمْلِقُ  
فأُذادُ وهو على الوَرَى يتدقُّ  
يبلى به ذاك العَظيمُ ويُمَحِّقُ  
مَنْ الفتى وهو المَغِيظُ المُحَنِّقُ

والقصيدة من نفس الوزن والقافية اللذين اختارتهما قتيلة لبياء أبيها النضر بن الحارث ومقتل رسول الله له بعد غزوة بدر بالصفراء، ويقال إن رسول الله ﷺ حين سمع شعرها قال: أما إني لو سمعت هذا قبل مقتله لم أقتله، وتمثل الورغى فى البيت الأخير بجزء مؤثر من بيت لقتيلة، وكمالها:

ما كان ضَرْكُ لو مننتَ ورُبِّما  
مَنْ الفتى وهو المَغِيظُ المُحَنِّقُ

وكانه يلفت عليا الثانى إلى مدى تأثر الرسول باستعطاف قتيلة، وهو يتخذ وزن قصيدتها وقافيتها وسيلة إلى قلبه، ويتأثر ببعض معانيها، وله قصيدة فى مديح على الثانى تسيل عن ذنوبه وسلاسة بدأها بقوله:

حاجة المدح لِحُلُو الغَزَلِ  
حاجة الصَّبِّ لأولى القَبَلِ

حتى إذا استوفى الغزل فيها أخذ يدحه بانتصاره على بعض الثائرين مُسَبِّحاً عليه كثيراً من الشرائع مبالغاً مبالغات مفرطة. وكان لا يقل عن على الغراب الصفاقسى متانة أسلوب ورسالة صياغة وجزالة ألفاظ، ولم يستكثر مثله فى شعره من مصطلحات العلوم ومحسنات البديع.

## شعراء الفخر والهجاء

الفخر وما يتصل به من الحماسة من موضوعات الشعر القديمة، حتى لقد سمي أبو تمام مختاراته من الشعر حتى عصره باسم ديوان الحماسة إشارة إلى أنه الموضوع الغالب على الشعراء قديماً، ومدّ مختاراته إلى عصره، ودائماً يزدهر في البيئات الحربية التي تكثرت فيها الحروب، ولا نغلو إذا قلنا إن القيروان ظلت تشهد حروباً كثيرة في القرنين الأول والثاني للهجرة، واتصل شيء من ذلك في فتح صقلية سنة ٢١٢ ثم في فتح مالطة سنة ٢٥٥ وهاجها مخلد بن كيداد الصفرى في عصر القائم الفاطمي ثم كانت زحفة بنى سليم وهلال في القرن الخامس، ومنذ غلب روجار النورماندى على صقلية سنة ٤٨٤ كانوا ينازلون الساحل الشمالى للإقليم التونسى واستولوا على المهديّة مراراً. وفي القرن السادس الهجرى صليّ الإقليم نار الحرب التي أشعلها فيه قراقوش وابنا غانية، واستولى عليه الموحدون، ثم قامت الدولة الحفصية وكانت القبائل في الجنوب والجزائر ماتى تناوئها، ونزها الإسبان بأخرة من الدولة ثم العثمانيون. وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن الإقليم التونسى كان معداً دائماً ليزدهر فيه شعر الفخر والحماسة، وأول عصر ازدهر فيه هذا الشعر عصر الدولة الأغلبية إذ نجده على لسان مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب وحفيده أبى العباس بن الأغلب إذ يقول في قصيدة بناها على الفخر بالنسب والحسب<sup>(١)</sup>:

أنا الملك الذى أَسْمُو بنفسى فأبلغُ بالسّمُوّ بها السّحابا  
إذا نَقَبَتْ عن كرمى ومَجْدَى وجدَتْنى المِصْاصَةَ واللُّبابا

فهو يسمو بنفسه مصعداً في السماء حتى يبلغ بها السحاب، وهو المصاصة أو الجوهر واللباب من المجد والكرم، ويمضى متحدثاً عن سياسته وحسن تدبيره وشجاعته. وكان من بيته أحمد بن سواده الأغلبى المتوفى سنة ٢٦٠ وإلى الزاب وطرابلس وصقلية، وكان بطلاً في الحروب وله في جميعها وقائع مشهورة، وله شعر كثير يفخر فيه ببيأسه وبطولته وبلائه في الحروب من مثل قوله<sup>(٢)</sup>:

أنا مَنْ قد جال ذكرى وجَرى بين الأنام

(١) مجمل تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٩. (٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٣.

أركب الهول بكراً تى على الجيش اللهم<sup>(١)</sup>  
تعرف الأنسر بأسى فهى من فوقى حوامى

فقد طار اسمه وطار صيت شجاعته بين الناس بركوبه أهوال الحرب، وإن النسور لتعرف بأسه فهى ما تزال حائمة حول راياته، ولا تزال خلفه وأمامه تنتظر غداءها من أشلاء أعدائه ممن يذيقهم كأس المنون. وكان القائم بأمر الله، الفاطمى شاعرا مثل أبيه وله مثله شعر يفتخر فيه، من ذلك قوله، وقد غزا مصر مرارا ولم يكتب له النصر كما كتب فيها بعد لجوهر الصقلى، ومن قوله يذكر هذا الغزو أملا فى النصر<sup>(٢)</sup>:

فسرتُ بخيل الله تلقاء أرضكم وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب  
وأردفتها خيلا عتاقا يقودها رجال كأمثال الليوث لها خب<sup>(٣)</sup>  
فكان بحمد الله ما قد عرفتُم وفزتُ بسهم الفلج والنصر والغلب<sup>(٤)</sup>  
وذلك دأبى مابقيتُ ودأبكم فدونكم حربا تضرُم كاللهب

وهو يصور سيره بجيشه تلقاء مصر وقد تراءى الموت له ولرجالها، ولم ينكص، بل أردف خيله خيولا أخرى عليها رجال شجعان كأنهم الأسود، يثبون ويسرعون حتى تم له النصر، غير أنه اضطر إلى العودة بجيشه إلى المهديّة، وهو يتوعد خصومه بأنه سيظل يعاود الكرة عليهم وسيظل يشعل حربا تضطرم باللهب حتى يحقق ما يريد من النصر النهائي. وشاعر الفخر فى الدولة الصنهاجية تميم بن المعز وسنخسه بكلمة، ومن نلتقى بهم فى العصر أبو طاهر التجيبى، ومن طريف ما له فى عزة النفس<sup>(٥)</sup>:

إلى كم أقرُّ النفس فى المرتع المحلِّ وأقع من جدِّ المكاسب بالهزل<sup>(٦)</sup>  
أكلّف أقلامى مدى مُتاحلاً ولم أعتملُ مهري ورُمحى ولا نضلي  
ومن كلّف الأقلام لا البيض همّه أقمن به بين المذلّة والقل

فهو يرى نفسه بكتابات وأدبه قد أقام فى المرتع المجذب، إذ الأقلام لا تعود على صاحبها بحياة رافهة إنما الذى يعود عليه بذلك سلاحه، ويقول إن من كانت الأقلام لا السيوف مدى همّه فى الحياة أقام فيها بين الذل والفقر، وإنه حرى به أن يحمل سيفه حتى يُعدّ بين الأبطال

(١) اللهم: العظيم.

(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٨٣.

(٥) نفس المصدر ص ١٣٨.

(٦) المحل: المجذب.

(٣) خب: عدو سريع.

الشجعان ويعيش معيشة جديرة به. ويلقانا في أول الدولة الحفصية مؤسسها أبو زكريا، وله قصيدة حماسية طويلة يقول في فاتحتها<sup>(١)</sup>:

أَجِبْ دَاعِيَهَا فَالنجيبُ يُجيبُ      وشبَّ لظاها فالنخيبُ يخيبُ<sup>(٢)</sup>  
 وشمَّ عزمةً لا يغمز العجز ممتها      فذو العزم في اليوم العصب يصبُ  
 ولا تتبع العلياء إلا بأبيضٍ      لغريبه في هام الكماة غروب<sup>(٣)</sup>

وهو يدعو كل شخص إلى أن يخوض غمار الحرب، إذ لا يُنكل عنها إلا الجبان. ويتدرَّع بعزم قوى فصاحب العزم هو اللذي يصيب الهدف المأمول، ودائها تتسلح للعلياء بسيف حاد يقطع رءوس شجعان الأعداء قطعاً ولا يبقى منها بقية. وتلقانا عند شعراء هذه الدولة الحفصية أشعار حماسية كثيرة، ونجد ابن خلدون يشارك فيها واصفا شجاعة البدو وبطولة فرسانهم، وبالمثل نجد طائفة من هذه الأشعار عند شعراء العصر الحسيني، ومما يمثلها فيه قصيدة على الغراب الصفاقسي في الأسطول الذي أنشأه على الثاني الحسيني، وفيها يقول<sup>(٤)</sup>:

بشائرُ في الإسلام زادَ بها عزًّا      وآياتُ نصرٍ نورها يُذهب العجزًا  
 سوابحُ فلكٍ للمغانم أنشئت      يسابقُ أفلاكَ السما جريها وخزا  
 يفوزُ بأجرٍ منَ علاها ومغنمٍ      إذا ضربوا في البحر أو ركبوا غزًّا<sup>(٥)</sup>  
 إذا لقيَ الإسلامُ كُفراً ترى بها      جميعَ العدا أسرى وأعناقهم حزًّا

والقصيدة تموج بحماسة ملتتهبة، فالأسطول وسفنه بشرى للإسلام وآيات نصر مجيدله، وإن السفن لتسابق أفلاك السماء في جريها حتى لا يمكن أن يفلت منها العدو، وحتى إذا لقيته أصبح كل أفرادها إما أسرى وإما مذبحين ذبحا، فهم بين أسير وقتيل، وكان يعاصر على الغراب الأمير على الثاني الحسيني وله في الفخر شعر بديع وسنخسه بكلمة، ومن أنشد لهم الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أشعارا في الفخر ابن سعيد الحجري وحمودة بن عبدالعزيز.

وإذا تركنا الفخر إلى الهجاء لم نجد ابن رشيقي ولا من جاءوا بعده يتوسعون في الكتابة عن هذا الفن، إما لأن أهل الإقليم لم يكونوا يعجبون به، وإما لأن الشعراء أنفسهم لم يكونوا يعيشون له كما كان يعيش بعض الشعراء في العراق وفي الشام ومصر، ومع ذلك فقد توقف ابن

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٨.

(٢) النخيب: الجبان.

(٣) لغريبه: لجانيه. هام الكماة: رءوس

(٥) غزًّا: غزاة.

رشيق عند شاعر يسمى بكر بن علي الصابوني، وقال إنه كان صاحب نوادر وهجاء خبيث، ولم يكذب من هجائه إلا بأمثلة قليلة كان يسف فيها إسفاً شديداً، ونجد عند بعض هجائهم هجاء للفقهاء كالشأن في الأندلس من مثل قول أبي طالب الدلائني<sup>(١)</sup>:

لا تَكُنْ مِثْلَ مَعْشَرِ فُقَهَاءِ جَعَلُوا الْعِلْمَ لِلدَّرَاهِمِ صَيْدَا  
طَلَبُوهُ فَصَيَّرُوهُ مَعَاشَا ثُمَّ كَادُوا بِهِ الْبَرِيَّةَ كَيْدَا

وفي ظننا أن أحد الأسباب في انصراف الناس بتونس وغيرها من البلاد المغربية إلى المتصوفة أن وجدوهم زهاداً في كل ما بيد الحكام من أموال فاطمأنوا إليهم، ومما ساقه ابن رشيق في أمثوجه قول بعض الهجائين في أحد الكتاب<sup>(٢)</sup>:

وَكَاتِبٍ يَمَسُخُ مَا يَنْسَخُ جَمِيعُ مَا يَكْتَبُهُ يَفْسَخُ  
حِرْتُ فَلَا أَدْرِي أَثَوَابُهُ أَمْ عِرْضُهُ أَمْ حَبْرُهُ أَوْسَخُ

وقد عمم الوساخة في حبر الكاتب وعرضه وأثوابه، وبذلك لسعه لسعا شديداً، وأكثر منه لسعا وإيلاماً ما قيل في مصلوب، وهو قول قرهب الخزاعي، ويبدو أنه صلب معه آخرون بنفس تهمة المروق عن الدين<sup>(٣)</sup>:

مَا رَاقَبَ اللَّهَ فِي عِرْضِ النَّبِيِّ وَلَا خَافَ الْعِقَابَ وَلَا صَلَّى وَلَا سَجَدَا  
مَرَدَّتُمْ فَلَقَيْتُمْ بَطْشَ مُقْتَدِرٍ وَتَلَّكَ سُنَّتَهُ فِي كُلِّ مَنْ مَرَدَا

فهو - وأصحابه - مارقون ملحدون، يستحقون ما نزل بهم من عقاب أليم. وتخف حدة الهجاء في زمن الدولة الحفصية ويعود إلى الاشتعال في عصر الدولة الحسينية، وخير من يمثله محمد الرشيد الحسيني في هجاء ابن عمه على الأول وبيان عقوقه لعنه ونهبه للحكم منه ومن إخوته، وظل يكرر ذلك طويلاً في مثل قوله<sup>(٤)</sup>:

اسْتَأْصَلَ النَّاسَ نَهْبًا وَاسْتَبَاحَ دَمًا وَمَا نَجَا غَيْرُ مَنْ نَجَّتَهُ رِجْلَاهُ  
بَغَى عَلَيْنَا وَأَهْلِينَا وَشَتَّنَا وَعَمَّ بِالْجَوْرِ وَالْخُسْرَانَ أَعْمَاهُ  
قَدْ عَقَّ وَالِدَهُ وَالْعَمَّ يَا عَجَبًا حَتَّى ابْنَهُ بِسَهَامِ الْحَرْبِ أَصْلَاهُ

(٤) ديوان محمد الرشيد ص ٦٤ وانظر الأدب

(١) الأثودج لابن رشيق ص ١١٨.

(٢) الأثودج ص ٢٤٩.

(٣) الأثودج ص ٣٢٩.

التونسي في العهد الحسيني ص ٦٩.

وهو يهجو بظلمه وعسفه واستباحة أموال الناس ودمائهم وتشتيته له ولأخوته وفرارهم منه إلى الجزائر، مع عقوق ضخم لأبيه ولعمه الحسين وابن عمه، بل لقد ظل يوقد الحرب حتى نصر الله الشاعر وعاد إلى صولجان حكمه. وحرى أن نتوقف الآن قليلا لنخصه ونخص تميم بن المعز بكلمة.

### تميم<sup>(١)</sup> بن المعز الصنهاجي

كانت الدولة الصنهاجية تنسب نفسها وقبيلتها إلى حمير، وهو أثر من آثار التعرب الذي أحدثته الزحفة الهلالية في قبائل البربر، إذ انتسبت كل قبيلة إلى قبيلة عربية وخاصة القبائل العربية الجنوبية، وولد تميم لأبيه المعز بصرية (المنصورية) سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وعنى بتربيته وتنقيفه عناية واسعة، ولما بلغ سن الثالثة والعشرين فوَّض إليه حكم المهديّة، ولم تلبث الزحفة الهلالية أن قدمت إلى القيروان بدعوة من المعز لاستعانتهم بهم في حرب أبناء عمه بني حماد أصحاب القلعة المنسوية إليهم في الجزائر، ونصحه تميم أن لا يفعل ذلك ولكنه لم يستمع إلى نصحه فقدموا القيروان والإقليم التونسي وخرَّبوا كل ما نزلوا به، ولم يجد المعز بدا من أن يلجأ إلى تميم في المهديّة سنة ٤٤٩ وظل بها إلى أن توفي سنة ٤٥٤ وطالت إمارة تميم فيها وتمهّد سلطانه بها وظل ينازل بني هلال مراراً إلى أن توفي سنة ٥٠١ عن تسع وسبعين سنة. وانتجعه شعراء الأندلس والمغرب والشام فأجزل لهم العطاء سوى من كان ينتجعه من شعراء الإقليم التونسي أمثال أبي الحسين بن خصيب وأبي عبد الله محمد بن علي القفصي وأبي الحسن علي بن محمد الحداد، ومن مدحه من شعراء أبيه ابن شرف وعبد الكريم بن فضال وابن رشيق ومرّ بنا مدحه له. وكان مع شاعريته الفذة ناقداً مجيداً للشعر، قال ابن الأبار: كان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظهم، ويذكر أن شاعرا أنشده في وقت هرج:

تَبَّتْ لَا يَخَامِرُكَ اضْطِرَابُ      إِلَيْكَ تَمُدُّ أَعْيُنَهَا الرِّقَابُ

فقال له: أرايتني - ويحك - طرت خِفةً ورميت بنفسي من علو هذا القصر قلقتا واضطرابا، وسكّته ولم يسمع من قصيدته سوى هذا البيت. ورؤى له شعر كثير، من ذلك قوله يحمّس بعض القبائل لمنازلة الأعداء:

مَتَى كَانَتْ دِمَاؤُكُمْ تُطَلُّ      أَمَا فَيْكُمْ بِثَارٍ مُسْتَقِلُّ  
أَغَانِيُمْ ثُمَّ سَالُمٌ إِنْ فَشَلْتُمْ      فَمَا كَانَتْ أَوَائِلِكُمْ تُذَلُّ

الأعلام ٧٣/٣ ومجلد تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٨.

(١) انظر في ترجمة تميم الحلة السيرة ٢١/٢ وابن خلدون ١٥٩/٦ وابن خلدون ٣٠٤/١ وأعمال

وَنِمْتُمْ عَنْ طِلَابِ الْمَجْدِ حَتَّى  
وَمَا كَسَّرْتُمْ فِيهِ الْعَوَالِي  
كَأَنَّ الْعِزَّ فِيكُمْ مُضْمَجَلٌ  
وَلَا بِيضٌ تَفْلٌ وَلَا تُسَلُّ (١)

وتقيم يستثير حمية القبيلة بذكر الثأر الذي يشتعل له الغضب في صدر كل عربي، فالعار كل العار عند العرب أن لا يأخذوا بثأرهم وأن تُطَلَّ دماؤهم وتذهب هدرا دون مناضل عنها يقتحم لها الموت اقتحاماً. ويضرب للقبيلة على وتر ثان هو الذل، فالعربي الكريم لا يمكن أن يقبل الذل ولا الضيم، فقبل كل شيء عزة النفس، ومن أجلها تحطّم الرماح وتفل السيوف. ولا بد أن القبيلة امتلأت غيظاً وحقداً على أعدائها، واندفعت تطلب ثأرها وتحامي عن كرامتها وعزتها باذلة المهج والأرواح. وينشد متحمساً غاية التحمس:

بَكَرٌ الْخَيْلِ دَامِيَةِ النَّحُورِ      وَقَرَعِ الْهَامِ بِالْقُضْبِ الذُّكُورِ (٢)  
لَأَقْتَحِمَنَّهَا حَرْبًا عَوَانًا      يَشِيبُ هَوْلَهَا رَأْسُ الْكَبِيرِ (٣)  
فَإِذَا الْمَلِكُ فِي شَرَفٍ وَعِزٍّ      عَلَى التَّاجِ فِي أَعْلَى السَّرِيرِ  
وَإِذَا الْمَوْتُ بَيْنَ طُبَا الْعَوَالِي      فَلَسْتُ بِخَالِدٍ أَبَدَ الدَّهْوَرِ (٤)

فسيظل تميم يدفع الخيل في موقعة بعد موقعة وقد تلطخت نحورها وصدورها بدماء الأعداء، وسيظل يضرب في رءوسهم وأعناقهم بسيوفها الحادة مشعلاً مع أعدائه حروباً ضارية يشيب هونها كل من يراها، ويقول إنه لن يغادر ساحة هذا الشرف والعز، فإذا يحمي التاج على رأسه ويصونه، وإما الموت الزؤام بين الرماح والسيوف، أو بعبارة أخرى إما حياة شريفة عزيزة، وإما موت أيضاً شريف عزيز، موت الأبطال الكرام. ومن طريف ما لتميم في هجاء منافق:

رَأَيْتَكَ قَاعِدًا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ      وَأَنْتَ الشَّهْمُ فِي قَالُوا وَقَلْتُ  
وَأَطْوَارٍ لَهَا لَطْفٌ وَجِدْقٌ      وَالْفَاطِطُ تَنَمَّقَهَا وَسَمْتُ  
وَقَدْ يَعِدُّ الْوَعُودَ وَلَيْسَ يُوفَى      وَلَيْسَ بِقَائِلٍ يَوْمًا فَعَلْتُ  
كَخَزِّ الْمَاءِ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ      يَرُوقُ وَمَالِهِ أَصْلٌ وَنَيْتٌ (٥)  
كَذَلِكَ زَهْرَةُ الدَّفْلَى تَرَاهَا      تَشُوقُ الْعَيْنَ حَسَنًا وَهِيَ سُحْتُ (٦)

(٤) ظبا: جمع ظبة: حد الرمح القاطع.

(٥) خز الماء: الطحلب.

(٦) الدقلى: نبت مرزهره أحمر، السحت: الخبيث

الكريه.

(١) العوالى: الرماح. بيض: سيوف.

(٢) القضب الذكور: السيوف الحادة القاطعة.

(٣) الحرب العوان: الحرب المكررة مرة بعد

أخرى.

وهو يصوره يقعد عن كل خير، ويبادر بكلام فيه حذق ولطف وتنميق دون أن تكون فيه فائدة وإذا وعد أخلف ولم يوف بوعده، ولا خير عنده ولا غناء فيه كالخز الذي ينسجه الماء أحيانا على سطحه يروق النظر ولا أصل له، بل كزهرة الدفلى الحمراء تشوق العين ولا رائحة لها ولا عطر تنشره حولها

محمد<sup>(١)</sup> الرشيد الحسيني

من أهم ما يميز الحكم العثماني في عهد الدولة الحسينية التي امتد حكمها منذ سنة ١١١٧ للهجرة/ ١٧٠٥ للميلاد أن حسين بن علي مؤسسها مع أنه كان تركي الأصل كان تونسي المولد والنشأة واللغة فأخذ يعنى بتقاليد التونسيين هو وجميع أفراد أسرته كما عنوا بالحركة العلمية في جامع الزيتونة وفيها أنشئوا من مدارس كثيرة، وعنوا أيضا بالحركة الأدبية فضموا إليهم كثيرا من الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال والرواتب، وشاركوا بأنفسهم في الحركتين العلمية والأدبية، وقد اشتهر على<sup>\*</sup> الأول بشرح له على كتاب التسهيل لابن مالك كما اشتهر على الثاني بمدارسته صحيح البخاري غير تعمقه في النحو والفقه وأصول الدين والبيان كما تشهد مدائح الغراب الصفاقسي. واشتهر محمد الرشيد الذي استرد حكم تونس له وإخوته بأنه كان شاعرا فذا كما كان موسيقارا كبيرا، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية المسماة باسم المؤلف، وله ديوان شعر، ونراه فيه أيام غربته بالجزائر يفتخر بتونس وما نشر فيها أبوه من العلوم والآداب بمثل قوله عن تونس ويسميتها باسمها القديم: ترشيش:

أَقَمْنَا بِقَدْرِ الْجُهْدِ قَائِمَ شَرَعِنَا	فترشيشُ أضحى عِلْمَهَا يتدفقُ
وجرَّتْ ذِيوَلُ الفخر عن نُظْرَانِهَا	فلا الشأمُ يحكيها وما هي جِلْقُ
وما في جميع الأرض مصرُ يفوقها	وليس لنا نيلٌ عليها محلَّقُ
أبي الله أن تُمَحَى ديارُ أعرَّة	وتُدْرَسَ آثارُ المعاني وتُمَحَّقُ <sup>(٢)</sup>

فهو يفخر بأن أباه أقام في تونس الشريعة وأحيا بها الآداب حتى غدت تفاخر الشام وعاصمتها جلق أو دمشق، ويرفعها فوق جميع البلدان العربية، رغم أن ليس فيها كمصر نيل يتدفق، ويقول إن الله حفظها وصانها عن أن تعفى ديارها ورسومها. وتبتسم له الدنيا ويعود إلى تونس ويجلس على أريكنتها ويشعر بفخر لا يضاهاية فخر وينشد:

ومجل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٦.

(٢) تدرس: تحي.

(١) انظر في ترجمة محمد الرشيد المشرع الملكي والتاريخ الباشي والخلاصة النقية للباقي المسعودي



أَيْشِبْهُنَا فِي الْعَالَمِينَ قَبِيلُ      وَنَيْلُ عَلَانَا مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ  
أَرَى الْعِزَّ لَا يَأْوِي سِوَى بَيْتِ مَجْدِنَا      وَلَا فِي حِمَانَا يَسْتَنْدِلُ ذَلِيلُ  
وَإِنْ نَحْنُ سِرْنَا فِي كُمَاةِ جِيوشِنَا      فَللخَيْلِ وَقَعٌ فِي الثَّرَى وَصَهِيلُ  
تَكَادُ جِبَالُ الْأَرْضِ مِنْ عَظْمِ بَاسِنَا      تَذُوبُ عَلَى سَطْحِ الثَّرَى وَتَمِيلُ

وهو يرفع نفسه وأسرته فوق العالمين، فلم ينل أحد مانالوا من العلاء والمجد والعز، حتى إن أحدا في حاهم لا يمكن أن يصيبه أى أذى أو أى ذل. ثم يتحدث عن شجاعته وشجاعة جيوشه وكيف إذا سارت هزت الأرض خيولهم وزلزلتها زلزالا، بل إن الجبال لتكاد تميل أمام بأسهم وتذوب ذوبانا. وهو فخر لا يستغرب ممن دحر جيوش ابن عمه واسترد حكم أبيه لأسرته سنة ١١٦٩ للهجرة ولم يتمتع بنصره وحكمه طويلا فقد توفى بعد ثلاث سنين سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م.

## ٥

## شعراء الغزل

لا يكاد شاعر ينظم الشعر إلا وينظم في الغزل بعض أبيات له مصورا فيها حبه إزاء المرأة ومعبرا عن هذه العلاقة الإنسانية الخالدة. ويوج كتاب الأنموذج لابن رشيق بأشعار الغزل والحب، منها الطبيعي الذي يتدفق عن نفس صاحبه في سهولة وطواعية، ومنها المتكلف الذي يصنعه صاحبه صناعة. وأيضا منه المستقل بقطع مفردة، ومنه الذي يوضع تمهيدا لما وراءه من مديح وغير مديح. ولن نستطيع أن نعرض ما في الأنموذج من طرائف الغزل الكثيرة، ولكننا سنكتفى ببعض ما أنشده لكبار العلماء والشعراء، ممن أعجب بهم ابن رشيق مثل أبي عبدالله بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز المتوفى سنة ٤١٢ وكان لا يبارى في علوم اللغة والنحو والقراءات، ويشيد بجيد شعره وبلوغه فيه بالرفق والدعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني، ويذكر من بديع غزله<sup>(١)</sup>:

أَمَا وَمَحَلِّ حَبِّكَ مِنْ فُؤَادِي      وَقَدَّرَ مَكَانَهُ فِيهِ الْمَكِينِ  
لَوْ أَنْبَسْتُ لِي الْأَمَالَ حَتَّى      تَصِيرَ لِي عِنَانِكَ فِي يَمِينِي  
لَصُنْتُكَ فِي مَكَانِ سَوَادِ عَيْنِي      وَخَطْتُ عَلَيْكَ مِنْ حَذْرِ جَفُونِي  
فَأَبْلُغُ مِنْكَ غَايَاتِ الْأَمَانِي      وَأَمَّنُ فِيكَ آفَاتِ الظَّنُونِ

(١) الأنموذج ص ٣٦٦ وإنباه الرواة ٨٤/٣ ومعجم الأدياء ١٧/ وابن حلكان ٤/٣٧٤.

والقطعة طريفة، فهو يريد أن يضع صاحبته في سواد عينه ويخيظ عليها جفونه، حتى يحفظها ويصونها ويبلغ منها كل أمانيه، ويمضى في القطعة قائلاً إنها يخاف عليها من الخفي وراء الحائط العيون، وإنها كل دنياه. ويشيد ابن رشيق بابن البقال عبد العزيز بن أبي سهل الحشني النحوي اللغوي المتوفى سنة ٤٠٦ ويقول عنه: «كان شاعراً مطبوعاً يلقي الكلام إلقاءً ويسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب وقرب مأخذ الكلام، وينشد من غزله قوله<sup>(١)</sup>»:

يا غُصْنًا غُضًّا من الآسِ      ودرةً وهى من الناسِ  
صوْرِكِ اللهُ على صورةٍ      كانت بها أسبابٌ وسواسِ  
ترديدٌ ذكري لك في خاطري      أكثرٌ من ترديد أنفاسي  
نسيتِ وُدِّي وتناسيتني      وليس قلبي لك بالناسي  
وليس لي منك سوى حسرةٍ      تجولُ بين الشوق والياسِ

فغصن صاحبته كغصن الآس يتثنى لينا ونعومة، ويعجب أن تكون درة متألثة وهى من الناس، وقد صورت صورة جميلة كانت أسباب وسواسه واختلاط عقله، وإن ذكراها لتتردد في خاطره أكثر من تردد أنفاسه، وقد نسيت وده وتناسته وليس قلبه لها بالناسي، فقد حفرت صورتها فيه حفراً، ولم يبق له منها سوى حسرة تتردد بين الطمع في اللقاء واليأس. ويقول<sup>(٢)</sup> محمد بن علي الأزدي:

ترنو بأجفانٍ سُكارى بلا      سُكْرٍ من الحسنِ مراضٍ صحاحٍ  
احمرّاً - لِمَا استضحكتُ - خُدَّها      فلاحٌ ما بين الشقيق الأفاقِ  
بمهجتي أفدي التي صيرتُ      جسمي للأسقام منها مباحٍ  
ومن إذا رُمْتُ سلوا دَعَا      قلبي ولبي: حبها لابراحٍ

فهى ترنو بأجفان كأنها سكرى عليلة من الحسن وهى صحاح غاية الصحة، وضحكت واحمرّ خداهها، وكأنما ومض ثغرها المشبه للأفاح في نضاعة بياضه بين ورد الشقيق المتوهج حمرة على خدودها. وإنه ليفديها بمهجته رغم ما أصابت به جسمه من الأسقام، ويقول إذا أراد سلوا عنها نادى قلبه وعقله حبها لا تبرح أبداً. ويقول الأعلامي محمد بن سلطان شاكيا حبه وآلامه فيه<sup>(٣)</sup>:

(٣) الأتمودج ص ٣٨٤.

(١) الأتمودج ص ١٦٠ وإنباه الرواة ٨٤/٢.

(٢) الأتمودج ص ٤٠١.

مُقَلَّةٌ إِنْسَانُهَا غَرِقُ      حَشْوُهَا التَّسْهِدُ والأَرْقُ  
 وَصَابَاتٌ مَضَاعِفَةٌ      ودموعٌ ثَرَّةٌ دُفُقُ  
 وَحَشًا يَسْطُو بِهِ لَهَبٌ      عن قليلٍ سوف يحترق  
 وَفَتَى أَشْفَى عَلَى جُرْفٍ      من هلاكٍ مابه رَمَقُ  
 وَيَحَ أَهْلَ الحَبِّ وَيَحَهُمُ      لَيْتَ أَهْلَ الحَبِّ مَا خَلَقُوا

والشكوى بديعة، ومن شأنها أن تحنو صاحبته عليه لو سمعتها، ويقول ابن رشيق: «هذه هي الألفاظ العذبة الغزلة الرائقة التي تلتصق بالقلب وتعلق بالنفس، وتجري مجرى النفس، وهذه هي طريق الحذاق في التغزل خاصة لأن المراد منه استدعاء المحبوب واستعطافه برقة الشكوى ولطف العتاب وإظهار الألم والإقرار بالغلبة.

ومرّ بنا في حديثنا عن الغزل بالجزء الخاص من الأندلس أن أديبة متظرفة عفيفة تسمى حمدة من مدينة وادي آش كانت تهوى صديقة لها وأنها نظمت فيها مقطوعة غزلية بديعة تصف فيها فتنتها بحسنها وجمالها، وكانت لها أخت تسمى زينب شاعرة مبدعة. ومن الطريف أننا نجد في أوائل الدولة الحفصية شاعرة من بيت التجاني تسمى زينب بنت إبراهيم التجاني تفتن بشعر إحدى صواحبها فتقول في وصف حسنه وجمالها<sup>(١)</sup>:

إِذَا انْسَدَلَتْ مِنْهُ عَلَيْهَا ذُؤَابَةٌ      كَعُصْنِ أَرَاكِ عَانَقْتَهُ أَرَاقِمُ<sup>(٢)</sup>  
 أَثِيثٌ طَوِيلٌ فَهَوَ يَسْتُرُ جِسْمَهَا      إِذَا نَزَعَتْ عَنْهُ المَلَابِسَ أَسْحَمُ<sup>(٣)</sup>  
 كَأَنَّ الصَّبَاحَ ارْتَاعَ مِنْ خَوْفِ طَالِبٍ      بِشَارٍ فَالْوَى بِالذُّجَى يَتَكَّمُّ

وهي تصور ذوائب صاحبته أو ضفائرها كأنها أرقام أو حيات تعانق غصن أراك أو بعبارة أخرى تعانق قامتها الهيفاء الرشيقية، وتقول إن شعرها أثيث أو كثيف ملتف، وإذا نزعته عنها ثيابها بدا سواده على جسدها الأبيض الناصع، حتى لكأنه صباح أخذه الفزع من مطالب بثار، فاخبتاً في دُجى هذا الشعر، متخفياً ومتستراً ما استطاع.

ونختار ثلاثة من الشعراء الغزلين من العصور المختلفة غلب عليهم الغزل واشتهروا فيه، وهم على المحصرى في زمن الطوائف وأحمد الليلاني في زمن الحفصيين ومحمد ماضور في زمن الحسينيين.

(١) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية  
 (٢) أرقام: حيات.  
 (٣) أسحم: أسود.  
 ١٥٦/٣

هو علي بن عبد الغنى الفهرى الحصرى ابن أخت الحصرى صاحب زهر الآداب كان كفيفا، وخلف فيه عدوان الزحفة الهلالية على القيروان مرارة شديدة، فولى وجهه نحو الأندلس، وتهاداه أمراء الطوائف وخاصة المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وفيه يقول ابن بسام فى كتابه الذخيرة: «كان بحر براعة ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقيروان، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادته ملوك طوائفها تهادى الرياض النسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار فى الأنس المقيم». ولما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف استقر فى طنجة يقرئ بها القرآن إلى وفاته سنة ٤٨٨ وكان عالما فذا بالقراءات وطرقها، وله منظومة فى قراءة نافع، وكان شاعرا مبدعا، وله فى الشعر ديوان لم يصلنا، ومن رائع غزله قصيدته المرقصة:

يا ليل الصَّبِّ متى غَدُهُ	أقيامُ الساعة مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرْقَهُ	أَسْفُ لَلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فبكاه النُّجْمُ وَرَقَّ لَهُ	مما يَرَعَاهُ وَيَرْضُدُهُ
نصبتُ عَيْنائى لَهُ شَرْكًا	فى النُّومِ فَعَزَّ تَصِيدُهُ
يا مَنْ سَفَكَتُ عَيْناهُ دَمِي	وعلى خَدَيْهِ تَوْرَدُهُ
خَدَاكَ قَدِ اعْتَرَفَا بَدْمِي	فَعَلَامُ جَفُونُكَ تَجَحُّدُهُ
بِاللَّهِ هَبِ المِشْتاقُ كَرِي	فَلَعَلَّ خَيْالِكَ يُسْعِدُهُ

والقصيدة طويلة، وبلغ من روعتها أنه عارضها من شعراء العرب كثيرون آخرهم شوقى محاولين أن يقتبسوا منها شيئا من حسنها الموسيقى ومن معانيها البديعة، وهو يسأل ليل المحبوب عن غده، وهل سيستمر حتى قيام الساعة. وقد نام السمار، أما هو فيسهدده أسفه على الفراق وإنه ليبيكى بدموع غزار، حتى ليبيكى النجم له، وينام لماماً آملا فى رؤيته حلما فلا يراه. ويقول إن عينها سفكت دمه، وشاهده تورده خديها المعترفين به فقيم جحود جفونها، ويسألها أن تهبه نوما لعل طيفها يسعده. والقصيدة تكتظ بركة بالغة، وهى رقة تشهد له بشاعرية فذة، ومما أنشده له ابن بسام:

الرابع ص ٢٤٥ ومجلد تاريخ الأدب التونسى ص ١٥٨.

(١) انظر فى ترجمة على الحصرى معجم الأدياء ٣٩/١٤ وابن خلكان ٣/٣٣١ وجذوة الحميدى: ٢٩٦ وابن بشكوال فى الصلة والذخيرة القسم

رُدِّي حُشاشَةَ عاشقٍ مهجورٍ      بينَ الملوَمِ عليكِ والمعذورِ  
 ذَكَرَ الفراقَ فماتَ إلا شوقَه      وأولوُ الهوى مَوْتِي بغيرِ قبورِ  
 ودَّعْتُ مَنْ أهوى بل استودعْتُها      قلبِي وسِرُّ مدامي وزفيرِي  
 فبكتُ بِنَرَجِسْتَيْنِ خِفْتُ عليهما      نَفْسِي فلم أَلْتَمِ بغيرِ ضميرِي

وهو يسأل صاحبتة أن ترد عليه مهجته، بعد أن هجرته وفارقتة، وبحس كأنه مات، وما أهل الهوى إلا موتي بغير قبور، ويقول إنه ودَّعها بل لقد استودعها قلبه ودموعه وزفيره وحنَّ عليه فبكت، وهم أن يقبلها وتراجع خوفا عليها من نفسه الحار فاكتفى بأن يقبلها سرا في ضميره، وكان يميل إلى الجناس والتلاعب به حتى في الحب وفي القوافي كقوله:

إن كتمتُ الهوى فقد      صار سِرِّي علانيه  
 لسقامِ أذابني      وشحوبِ علانيه

فلم تعد هناك فائدة من كتمانها، فقد أصبح سره فيه ذائعا ومعروفا لسقامه وشحوبه الذي علاه، وكان يعرف كيف ينفذ إلى مثل هذا الجناس في قافية البيتين بخفة، مما يدل على قدرة شاعرية بديعة، مع ما يمتاز به شعره من طرافة الأخيلة وحلاوة الموسيقى.

### أحمد<sup>(١)</sup> اللُّليانيُّ

هو أحمد بن إبراهيم القيسي المشهور باسم اللُّلياني نسبة إلى قرية تسمى لليانة بالقرب من المهديّة، وقد نهل من حلقات شيوخها وأعلام أدبائها. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فغادر المهديّة إلى تونس، واختلط برجال الدولة، وطمحت نفسه إلى الثراء، فعمل في التجارة وكون بينه وبين تجار جنوة ومرسيلية علاقات تجارية أترى منها ثراء طائلا، وأوغر حساده صدر المستنصر عليه، فكان ذلك سببا في مصادرتة وإهدار دمه سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وله أشعار غزلية بديعة، منها قوله:

هذا العَدْبِيُّ وهذه نَجْدُ      أين الذي يَقْضِي به الوَجْدُ  
 ما هكذا حالُ المحبِّ إذا      أعلامُ رُبَعِ حبيبه تَبْدُو  
 سرَّحَ دموعَ العينِ مُبْتَدِرًا      وبذكرِ ماضِي عهدهم فاشدُّ  
 والثَّمَّ على شَعْفِ مواطنهم      إن عاتقَ عن مَقْصودك البُعْدُ

(١) انظر في ترجمة اللُّلياني الحلل السندسية ٥٠١٢.

ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٥.

ولعل ما نرجو تجود به كف الزمان ويسعد الجد

وهو يعجب فهذه ديار المحبوبة: العذيب ونجد، وهو لا يزال يبكي، وأن له أن يكف عن بكائه، فتلك أعلام ربع محبوبته تبدو، فحق له أن يسرح دموع العين ويشدو بذكر الماضي من عهد الأحبة، بل إنه ليدعو المحب إلى لثم مواطئ أقدامهم إن عاقه عنهم البعد ولم يستطع سريعا لقاءهم، ويأمل أن تجود له كف الزمان بأمنيته ويساعده الحظ في نيلها. ويقول متغزلا:

خلياني يا صاحبي ونجدا هجتما بالملام شوقا ووجدا  
فلنجد بين الجوانح ود مستجد مادام ربعا لسعدى  
لا تقولوا مرأى سعدى بعيد رب سعي أتى فقرب بعدا  
أهل ودى ما حلت عن حفظ عهدي وهوأكم ماغير النأى عهدا<sup>(١)</sup>

وهو يطلب إلى صاحبيه أن يدعاه ونجدا ويكفها عن لومها فإنه كالريح تزيد نار وده المستكنة بين جوانحه اشتعالا بتعلقه بسعدى، ولا تقولا إن ربع سعدى بعيد، فرب سعد حدث فقرب الربع والديار، ويلتفت إلى سعدى قائلًا لها إنه لا يزال على العهد ويقسم لها بحبها ما غير العباد له عهدا ولا حبا. ويلومه عذول في تعلقه بمحبوبته تعلقا مسرفا، فيقول له:

رد لى قلبى لتعذله فهو فى كفيه أجمعه  
لفظه در يساقطه ونطاق السمع يجمعه

فقلبه ليس معه ليعذله، بل هو مع صاحبتة، وإنه ليتراءى له جمال لفظها وهى تنثره دررا ونطاق سمعه يجمعها دررا وراء درر. ولعل فى ذلك كله ما يصور افتنانه فى غزله ورقته.

محمد<sup>(٢)</sup> ماضور

من أسرة فاضلة من الأسر الأندلسية التى نزلت الإقليم التونسى فى القرن الحادى عشر الهجرى واستقرت ببلدة سليمان، منشئة فيها كثيرا من البساتين وحقول الحبوب المتنوعة، وولد بتلك البلدة محمد لأبيه محمد ماضور أحد علمائها الأفاضل سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م وفيها منشؤه ومرباه على أبية وعلمائها حتى إذا أصبح شابا تحول إلى تونس وجامعتها الزيتونة، فنهل من حلقات علمائها، وأعجبهم فيه ذكاؤه، فأسندوا إليه - حين استكمل دراسته - الدرس للطلاب بتلك الجامعة، وعاد إلى بلدته «سليمان» إماما وخطيبا بجامعها، حتى إذا توفى أبوه حل محله فى

(١) حلت: تغيرت. النأى: البعد.

(٢) انظر فى ترجمة محمد ماضور مجمل تاريخ العهد الحسينى للهادى الغزى ص ١٠٤.

منصب القضاء ببلدته، وظل يليه إلى وفاته سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م.

وكانت موهبة محمد ماضور الشعرية قد تفتحت مبكرة، فعُرف بين الشعراء والأدباء برقة أشعاره، وقد خلف ديوانا لا يزال مخطوطا، ومعظمه غزل ينبئ عن حس مرهف، من مثل قوله:

إلى كم تجورُ ولا تنصفُ      وتهجرُ تيهًا ولا تعطفُ  
وحتى متى الهجرُ لا ينقضى      وإخلافُ وعدك لا يُخلفُ  
وقد عيلَ صبري وشقَّ الهوى      علىَّ وبى ريحُه تعصفُ  
وأسرُّ الهوى لَجَّ بى للتوى      وقلبي بنيرانه يرجفُ<sup>(١)</sup>  
ولبُّ سها واصطبارُ وهى      وشوقُ دهي القلبَ لا يُصرفُ

وهو يقول إن صاحبه تظلمه ولا تنصفه فدائما تهجره ودائما تخلف وعداها له، حتى نفذ صبره، وشوقه يتقد في فؤاده وإنه لأسير الهوى ويكاد يتلفه، بينما قلبه يتلظى بنيرانه، وقد سها لبه ووهى منه اصطباره، وشوقه لا يريم. ويقول:

ياظبيةً أشعلتُ فى القلب نيرانا      وخَلَفْتَنِي مع الأشواق حيرانا  
صبري ودمعى لما حملتُ من شغفى      هذا تلاشى وهذا صار غُدرانا  
ياشمسَ حُسنٍ تبدتُ فى ملاحظتها      هلا قرنتِ بذاك الحُسنِ إحسانا  
ما إن ذكرتِكِ إلا صرتُ من طربٍ      من طيب ذكراكِ ولهاننا ونشوانا

فصاحبه أشعلت في قلبه نيرانا لا تنطفئ أبداً، وقد تلاشى صبره وذرف الدمع مدرارا حتى ليستحيل غدرانا، ويستعطفها بحسنها الفاتن أن تقرن به إحسانا إليه ومودة، ويعترف بأنه أصبح من طيب ذكراها موها منتشيا. ويقول:

شوقى يزيد على طول المدى حرقاً      ياظبية الإنسِ رفقا بالذى عَشِقَا  
لله ذاك المُحيا نورٌ بهجته      يَغشى سَنَا القمر السارى إذا اتسقا  
يهواك لُبِّي وقلبي مع جوانحه      كذاك سمعى وطرفى كلما رَمَقَا

وهو يقول لصاحبه إن قلبه يزداد مع الزمن حرقا ولوعات مضنية، ويتوسل إليها أن ترفق بعاشقها، ويتولاه العجب لجمال وجهها ويتخيل كأنما القمر يستمد سناه وضوءه في ليلة اكتماله من نوره البهيج. ويقول لها إن كل ما فيه يهواها، يهواها لبه وقلبه وجوانحه وسمعه وبصره.

(١) التوى: الهلاك.

## الفصل الخامس

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغربية والشكوى والعتاب

كان كثير من سكان الإقليم التونسي يرحلون عن ديارهم إما طلبا للكسب وابتغاء الرزق وإما طلبا للعلم وابتغاء التعمق فيه وإما طلبا للجهاد في صقلية أو في الأندلس وابتغاء الاستشهاد في سبيل الله، ومن غادر القيروان إلى مجاهد صاحب دانية في شرقي الأندلس (٤٠٥-٤٣٦هـ) للجهاد ضد نصارى الشمال، ابن الصفار السوسى، وحين دخل عليه مدحه بقصيدة يائية حكي في فاتحتها حوار زوجته معه وقولها له: لمن تتركنى وتترك أطفالك يقول<sup>(١)</sup>:

بكتُ وشكيتُ واسترجعتُ وتوجعتُ      فَظَلْتُ لها مسترجعا متباكيا  
وقالتُ أما تنهاك أن تذكر النوى      نُهيى قد نهت عنك الصبا والتصايا  
ومن لصغارٍ من عيالٍ تركتهم      كزُغبِ القَطَا يبغون طُعما وساقيا  
ولن يجدوا للعيش بعدك لذة      ولن يشربوا من بعدك الماء صافيا  
فقلتُ لها إن الذى ليس غيره      إنه كفاهم حافظا ومراعيا

وهو يصور ساعة الوداع لزوجته وصغاره وهى تبكى وتتوجع، وهو يبكى، وتقول له ألم ينهك عقلك الذى طالما نهاك عن الصبا والتصايب. وتستعطفه بصغار فى المهدي كزُغب القَطَا لم ينبت بعد ريشهم، ولن يطيب لهم عيش بدونه، غير أن نداء الجهاد كان أقوى من نداء الأطفال فقال لها إني تركتهم لربي الكافي الحافظ الراعى. وكان شباب القيروان وغيرها من مدن تونس لا يزال يعدّ حقايبه للارتحال إلى المشرق للنهل من أسانذته فى مصر والحجاز والشام والعراق ولم يكن أبأوهم يقفون حجر عثرة فى طريقهم بل كانوا يشجعونهم للنهوض بهذه الرحلات العلمية، رغم ما يشعرون به من فقدهم وما يطوى فى ذلك من شوق وحنين، ومن خير ما يصور ذلك قول على الناسخ يخاطب ابنه وقد سافر إلى مصر وهو صغير السن ابتغاء العلم<sup>(٢)</sup>:

(٢) الأتمودج ص ٢٦٢.

(١) الأتمودج ص ٢٦٦.



يا دهرُ مالِك لا ترثني لمكتئِبٍ  
 لم يكف صَرْفَكَ صَرْفِي عن ذوى ثقتي  
 ابنُ وكان أبَا لى فى محبته  
 أمسيتُ فى وطنى فى مثل غُرْبته  
 والله ياولدى المجدوبَ من كيدى  
 فما الحياةُ إلى نفسى بِمُعْجِبَةٍ  
 ما باتَ منك خَلِيًّا قَطُّ من كُرْبٍ  
 حتى تعقَّبَ بالتفريقِ فى عَقْبِي<sup>(١)</sup>  
 أمسى بأرضِ الفِلا فَرْدًا بغيرِ أبٍ  
 يا مَنْ لمغترِبٍ باكٍ لمُغْتَرِبٍ  
 للرأى ذاك وإن أمسى به عطبي  
 إن لم تَجْزُ بِي أعلى السبعة الشُّهْبِ

وهو يعتب على الدهر أنه لا يبيت يوما خاليا من إحدى كربه وأنه لم يكف نوائبه صرفه عن ثقاته حتى تعقته في ابنه البار به فحرمته منه وكأنما ألفت به في فلاة دون أب يراه، ويشعر بفراق ابنه له كأنه أمسى غريبا في وطنه، وكان مغتربا يبكي بدموع اغزار مغتربا، ويتماسك الأب، أمام فلذة كيدته، فيقول له إن رأيك في الرحلة هو الصواب وإن كان فيه عطبي وتلفي، ويضع نصب عينيه طموحه الهائل، فالحياة لا تعجبه ولا ترضيه إلا إذا تعدت به أعلى الشهب السيارة الساطعة. ويعلق ابن رشيق على أبيات هذا الشاعر فيقول: «هذا كلام يظهر عليه التوجع والتفجع، وتشوبه رافة الإشفاق، ورقة الاشتياق، حتى تدرّ عليه الجفون بحلب الشئون (الدموع). وليس يخفى على أحد من يعرف الكلام حسن هذا التخريج والتلطف في الاعتذار عما فعل الغلام. وإن هذا الشعر ليهون رزية من أصابه مثل هذا المصاب في ولده، حتى يسهل على الآباء فقد الأبناء ويجسر الغلمان على مفارقة الأوطان». ومن تلهفوا على وطنهم تلهفا شديدا زمن الدولة الصنهاجية ابن عبدون الوراق السوسى، وسنخصه بكلمة. ولعل الحصرى الشاعر المبدع قطعة يتشوق فيها إلى القيروان وتونس حين إقامته بالأندلس، وهو فيها محزون حزنا شديدا وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

على العُدوة القُصوى وإن عَفَتِ الدارُ  
 وحقَّ بكاءُ العين والقلبُ مُسْعِدُ  
 شفى الله داءَ القَيْرَوَانِيْنَ بعدنا  
 وكيف غناء الطَّيرِ فى غير أَيْكها  
 ألا يا بروقا لُحْن من نحو صَبْرَةٍ  
 عسى فيك من ماء الحنِيَّاتِ شَرْبَةٌ  
 سلامٌ غريبٍ لا يثوبُ فيزْدأرُ  
 لمن باتَ مثلى لا حبيبٌ ولا جارُ  
 فقد مَرَضَتْ للقيروانين أبصارُ  
 وقد بَعُدَتْ منها فِرَاحٌ وأوكارُ  
 وليس لها إلا دموعى أمطارُ  
 ولو مثل ما يُوعى من الماء مِنقارُ

وهو يحیی العُدوة القُصوى: القيروان وديارها ويصرِّح بأنه يائس من العودة بعد أن أنزل بها

(١) صرفك: نوائبك وحدثانك.

(٢) الذخيرة ٤/٢٦٠.

أعراب سليم وهلال الدمار، وإنه ليبيكى بكاء لا ينقطع للوطن وما صار إليه من الوحدة الموحشة فلا حبيب ولا جار، ويدعو للقيروانيين: القيروان وتونس أو القيروان وصبرة المذكورة في الأبيات وكانت بلدة كبيرة قريبة منها، يدعو لها أن يزيلها ما غشى الأبصار فيهما من مرض الهدم والتخريب. ويعجب أن تغنى الطير في غير أيكها وقد بعدت عنها أوكارها وفراخها الصغار، إنه وأمثاله من شعراء العدو القصوى لا يستطيعون الغناء إلا أن يكون بكاء وأنينا. وتلوح له بروق من نحو صبرة وهي بروق خلب، ليس فيها أمطار إلا دموعه، ويتمنى جرعة ماء من حنيات تونس ولو قدر ما يحمل منقار طير من الماء حتى يشفى به أو صاب نفسه وفؤاده. ويقول الشاعر الحفصي ابن عُرَيْبَةَ يتشوق إلى المهديّة وأهله بها<sup>(١)</sup>:

أقول لركب قافلٍ عن معرّسٍ      بِجَمَّةَ تَرْدِي بِالْحَمُولِ مَشَاحِجُهُ<sup>(٢)</sup>  
 لك اللهُ أُمَّتَعْنَا عَنِ الْبَلَدِ الَّذِي      أَكَابِرُهُ أَسْلَافُنَا وَأَبَاجُهُ<sup>(٣)</sup>  
 وعن وطنٍ لولا العُلا وطِلابُها      لَعَزَّ عَلَيَّ مِثْوَايَ أَنِّي خَارِجُهُ  
 وشَاطِئُهُ أَنِّي تَنَوَّعَ حَسْنُهُ      وَخَضْرَمِهِ أَنِّي تَدَفَّعَ مَائِجُهُ  
 سلامٌ على المَهْدِيَّتَيْنِ ففِيهِمَا      أَبُ بِنْتُ عَنْهُ قَاصِرُ الْخَطْوِ هَادِجُهُ<sup>(٤)</sup>

وهو يقول لركب راجع من منزله آخر الليل بجمة جارة المهديّة، وبغاله تضرب الأرض بحوافرها لثقل ما تحمله: لك الله أخبرنا وأمتعنا عن البلد الذي يتميز رجاله ببليج وجوههم وطلاقتها وبشرها، وحدثنا عن هذا الوطن الذي اضطررنا إلى تركه في طلب العلا وعن شاطئه المتنوع الحسن وخضرمه أو بحره الذي تتدافع أمواجه. ويهدى المهديّة وأختها (صبرة) سلامه، ففيها أبوه الذي تركه واهن العظم قاصر الخطو يتهدج في مشيه مرتعشا، وإنه ليمتلئ عليه برا وشفقة. ويقول حمودة بن عبد العزيز أحد رجالات الدولة الحسينية المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٨ م متشوقا في الغربة إلى أهله بتونس<sup>(٥)</sup>:

مللتُ دهري وملّنتني حوادثُهُ      فبعدكم ليس لي في العَيْشِ مِنْ أَرْبٍ  
 لهفي على زَمَنٍ لابلٍ على سَكَنٍ      عَهْدَتُهُمْ مِنْتَهَى الْأَمَالِ وَالطَّلِبِ  
 كم ليلَةٍ بعدهم قد بُتُّ أَسْهَرُهَا      أَشَابَتِ الرَّأْسَ مِنْي وَهِيَ لَمْ تَشِبْ  
 كأنَّ أَفلاكها من طول ما انقلبتُ      أَلْقَتْ عَصَاها لِمَا لَاقَتْ مِنَ التَّعَبِ

(٣) أبالجه جمع أبلج: الناضر وجهه بشرا.  
 (٤) الهادج: الماشي متناقلا في ضعف وارتعاش.  
 (٥) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٥٨.

(١) الحلال السنديسية ٥٠٥/٢ ومجلد تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٧.  
 (٢) تردى: تضرب الأرض بالحوافر. المشاحج: البغال

وهو يقول إنه ملّ دهره وما تقلب فيه من أحداث السياسة حتى لم يعد له بعد أهله في العيش من أرب. ويذكر أيام أن كان يقضى زمنه مع أهله وهم كل مناه من دنياه، وقد أصبح بعدهم يعيش مسهدا مفكرا فيما بلته به الليالي، ويتخيل كأن أفلاكها من طول ما سارت ألفت عصاها واستراحت لا تبرح ولا تريم لشدة ما عانت من التعب والمشقة. وحرى بي في ختام حديثي عن الغربة وتشوق القيروانيين والتونسيين فيها إلى ديارهم أن أشير إلى أنهم كثيرا ما تشوقوا إلى الديار التي بارحوها إلى وطنهم، ومن أهم الأقطار التي كانت تملأ نفوسهم بها صباية بما تمتعوا به فيها وبمناظرها الطبيعية الفاتنة مصر، وكان الكاتب الرقيق الذي مرت ترجمته كثيرا ما يكلفه حكام الدولة الصنهاجية بسفارات إليها، وله رائية يتشوق فيها إليها وإلى ساكنيها أشاد بها ياقوت في ترجمته، وأهم منها قصيدة لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف باسم ابن النحوى، وكان قد حج، وفي رجوعه افتتن بمصر وبنيلها وطبيعتها فنظم تلك القصيدة يصور تشوقه إلى ديارها ومشاهدها الفاتنة وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

حَدَّثَانِي عَنْ نَيْلِ مِصْرَ فَإِنِّي      مِنْذُ فَارَقْتُهُ إِلَى الْمَاءِ صَادِي  
وَالرِّيَاضِ الَّتِي عَلَى جَانِبِيهِ      وَاجْعَلَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ زَادِي  
إِنَّ مِصْرًا لَهَا مَعَانٍ لِعَمْرِي      قَدْ تَأْتَتْ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ  
هَذِهِ الْأَرْضُ إِنَّمَا هِيَ نَادٍ      مِصْرٌ مِنْ بَيْنِهَا سِرَاجُ النَّادِي

وهو منذ فارق مصر ونبيلها الكوثر - كما يقول شوقي - ظامئ إلى جرعة ماء منها، وقد خلخته رياضها وورودها ورياحينها، ويقول إن مصر حظيت بعمان ومشاهد لم تحظ بها سائر البلاد، ويتصور المعمورة جميعها ناديا ومصر سراج النادى. وهى تحية كريمة لمصر من تونسى يوثق العلاقة بين الشعبين من قديم.

وتكثر الشكوى على ألسنة القيروانيين والتونسيين، مثلهم في ذلك مثل لِدَاتِهِمْ مِنْ شِعْرَاءِ الْأَقَالِيمِ الْعَرَبِيَّةِ، فَهَمَّ يَشْكُونَ مِثْلَهُمْ مِنَ الدَّهْرِ وَمَا يَصِيبُهُمْ مِنْ بِلَائِهِ وَأَرْزَائِهِ، وَيَشْكُونَ مِنَ الْإِخْوَانِ أَنْانِيَّتِهِمْ وَعَدَمِ وِفَائِهِمْ، وَمَنْ طَرِيفَ شِكْوَاهُمْ مِنَ الدَّهْرِ وَصُرُوفِهِ وَنَوَائِبِهِ قَوْلَ إِبْرَاهِيمِ الْحَمْرِيِّ صَاحِبِ «زَهْرِ الْآدَابِ» وَغَيْرِهِ مِنَ التَّأْلِيفِ الرَّائِعَةِ وَالتَّصَانِيفِ الْفَائِقَةِ كَمَا يَقُولُ ابْنُ بَسَامٍ<sup>(٢)</sup>:

تَلَاخِظْنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ شَزْرًا      كَأَنَّ عَلِيًّا لِلْأَيَّامِ وَتَرًا  
وَفِي عَيْنِي دَمُوعٌ لَيْسَ تَرَقًّا<sup>(٣)</sup>      وَفِي قَلْبِي صُدُوعٌ لَيْسَ تَبْرًا

(٢) الذخيرة القسم الرابع ص ٥٩٤

(٣) رقا الدمع: جف بعد جريانه.

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب - طبع تونس)

أَقْلَبُ فِي الدُّجَى طَرْفًا كَلِيلًا      إِذَا جَبَّ الظَّلَامَ عَلَيَّ زُرًّا  
 وَلَوْ نَشِرَ الذِّي أُطْوَى عَلَيْهِ      عَلَيَّ مِنْ تَحْتِيهِ الأَرْضُ طُرًّا  
 أَصَمَّ مَسَامِعَ الدُّنْيَا عَوِيلًا      وَهَزَّ جَوَانِحَ الأَيَامِ دُغْرًا

وهو يشكو شكوى مرة من صروف الدهر وكيف أنها تنظر إليه غاضبة كأن لها عنده ثأرا وما تزال النوائب تنزل به وما تزال دموعه لا تجف أبدا، وقد تصدع قلبه، ولا يبرأ من صدوعه أبدا، وأف للليل، فإنه لا يزال مسهدا فيه كلما زرَّ عليه رداء الظلام، ويقول إن ما يطوى عليه من الهموم لو وزع على جميع من تحتهم الأرض من الأنام لأصموا مسامع الدنيا عويلا وأنيئا ولهزوا ضلوع الأيام ذعرا وفزعا ما بعده فزع. ويقول تميم بن المعز شاكيا من الزمان وأرزائه<sup>(١)</sup>:

وَذِي عَجَبٍ مِنْ طُولِ صَبْرِي عَلَى الَّذِي      أَلَا قَى مِنَ الأَرْزَاءِ وَهُوَ جَلِيلُ  
 يَقُولُونَ مَا تَشْكُو فَقَلْتُ مَتَى شَكَا      شَبَا السَّيْفِ عَضْبُ الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلُ<sup>(٢)</sup>  
 وَإِنْ أَمْرًا يَشْكُو إِلَى غَيْرِ نَافِعٍ      وَيَسْخُو بِمَا فِي نَفْسِهِ لَجْهُولُ  
 عَذَابِي أَنْ أَشْكُو إِلَى النَّاسِ أَنْتَى      عَلِيلُ وَمَنْ أَشْكُو إِلَيْهِ عَلِيلُ

وهو يقول إن الناس يتعجبون من طول صبري على ما يصيبني من الرزايا والمصائب العظيمة، ويسألونني مم تشكو، وأجبتهم هل يشكو حد السيف القاطع، ولن أشكو؟ إن من يشكو إلى من لا يستطيع نفعه ويُسِرُّ إليه بما في نفسه دون فائدة لجهول بالناس وحقائقهم، وإنه ليعذبني أن أشكو إلى الناس أنتى عليل ومَنْ أشكو إليه مثل عليل ويقول ابن خلدون في شكوى الزمان<sup>(٣)</sup>:

إِلَى مَ مَقَامِي حَيْثُ لَمْ تُرِدِ العُلَا      مُرَادِي وَلَمْ تُعْطِ القِيَادَ ذَلُولُ  
 وَيَذْهَبُ لِي مَا بَيْنَ يَأْسٍ وَمَطْمَعٍ      زَمَانُ بِنَيْلِ المَعْلُوتِ بِخَيْلِ<sup>(٤)</sup>  
 أَمَا لِلْيَالِي أَنْ تَرُدَّ خَطُوبَهَا      فَفِي كَبْدِي مِنْ وَقْعِهِنَّ فُلُولُ  
 يَرُوعُنِي عَنْ صَرْفِهَا كُلِّ حَادِثٍ      تَكَادُ لَهُ صُمُّ الصَّلَادِ تَزُولُ<sup>(٥)</sup>

وحق ابن خلدون يشكو من أن العلا لا تعطيه ما يريد وأنه لا يجد في دنياه ذلولا تعطيه القيادة، ولا يزال بين يأس وطمع أو أمل، والزمان بخيل عليه بنيل المعالي، ويقول أما أن لليالي

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٩.  
 (٢) شبا السيف: حد طرفه. عضب: قاطع.  
 (٣) نفس المصدر ص ٢١٨.  
 (٤) المعلوات: المعالي.  
 (٥) الصلاد جمع صلد: الصخرة الصلبة.

أن تردّ خطوبها وكوارثها عنه وإن فلوها وشررها ليتضحان في كبده، وإن كثيرا من الأحداث لينزل به مما تكاد يتشقق له الصخر الصلب. ويقول ابن سعيد الحَجْرِيّ في العهد الحسيني المتوفى سنة ١٧٨٥ للميلاد<sup>(١)</sup>:

يطول عليّ الليلُ حتى كأنما لياليّ من فرَطِ الجوى ليلةَ الحشر  
ويُزعجني الإصباحُ حتى كأنما نهارى سيفُ سُلٍّ من حيث لا أدري  
خليليّ إن الدهر أبدي إساءتي وأظهرَ ما قد كان أضمرَ من مكرٍ  
وماضراً مثلي أن تلظّي بناره وهل ضرٌّ إبريزاً تلظّيه بالجمرِ

فليله يطول عليه من فرط الوجد حتى كأنه ليلة الحشر، ويزعجه الصباح حتى كأنما سيف نهاره سُلٌّ عليه من حيث لا يدري. ويخاطب صاحبيه، فالدهر قد أظهر ما كان يضر من مكر وأساء إليه إساءة بالغة، ويتماسك، ويجمع إرادته، ويعلن أنه لن يضره التلظى بناره، وهل يضر الذهب الخالص التلظى بالجمر وهيبه؟!؛

وعلى نحو ما أكثر القيروانيون والتونسيون من الشكوى سواء من الدهر أو من الناس أكثروا من العتاب وما قد يجر إليه من الاستعفاف، وهما بابان قديمان في الشعر العربي، ومن طريف ما للقرزاز من عتاب لأحد أصدقائه وكان قد أولم وليمة في ختان لابنه وابن أخيه ولم يدعه سهواً<sup>(٢)</sup>:

واحسرتا مات أترابي وأقراني وشئت الدهرُ أصحابي وأخداني  
وغيّرتُ غيرُ الأيام خالصتي والمنتضى الحرّ من أهلي وإخواني  
وصار من كنت في السراء أذكره بل لست أنساه في الضراء ينساني

وهو يتحسر على أصدقائه جميعا، إذ غيّرت الحوادث أخلصهم وأصفاهم وأعزهم، وصار من كان يذكره في السراء ولا ينساه في الضراء ينساه كأن لم يكن بينهم ودّ ولا صداقة. ومن طريف ما نقرؤه من عتاب في عصر الدولة الصنهاجية عتاب خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري لأخيها، وكانت شاعرة مجيدة وأعجبت بشاعر أندلسي نزل بديارها، وشبّب بها، فغار لذلك إخوتها فكتبت إلى كبيرهم<sup>(٣)</sup>:

أأخي الكبيرَ وسيدى ورئيسي ما بالُ حظّي منك حظُّ نَحيسِ

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٥٦. (٢) الأنموذج ص ١٢٤ والخريدة ٣٢٧/١.

(٢) الأنموذج ص ٣٦٨.

أبغى رضاك بطاعةٍ مقرونةٍ      عندى بطاعة ربِّي القدوسِ  
 فإذا زَلَّتْ وجدت حلمك ضيقاً      عن زَلَّتِي أبداً لفرطِ نحوسى  
 يا سيدي ما هكذا حُكِّمُ النهي      حقُّ الرئيس الرفقُ بالمرءوسِ  
 وإذا رضيت لى الهوانَ رضيتُهُ      وجعلتُ ثوبَ الذلِّ خيرَ لبوسِ

وخديجة تعاتب أخاها عتاباً رقيقاً فهو أخوها وسيدها ورئيسها وتشكو من حظها السيء معه، مع أنها تبغى رضاه وتطيعه طاعتها لرهبها القدوس، فإذا ودَّت شاعرا وجدت حلمه لا يسع ودّها ولا يغفره لها لفرطِ نحوسها، وتستعطفه فليس هذا حكم العقل ولا حق المرءوس على الرئيس من الرفق، وتحاول أن تميل قلبه إليها، فإذا كان قد رضى لها الهوان رضيتَه ولم تخلع عنها ثوب الذل يوماً. والقطعة رقيقة منتهى الرقة. وخديجة بجانب زينب التيجانية الشاعرة التي مر ذكرها في الحديث عن الغزل رمزان قويان لمشاركة نساء القيروان وتونس في الحركة الأدبية بالعصور الماضية. ويقول ابن رشيق معاتباً<sup>(١)</sup>:

أجِدُّكَ لم أجد للصبر باباً      فتدخله على سعةٍ وضيقِ  
 وإن أُصِبرُ فغن إفراطِ جُهدِ      وإن أَقلُّ فحسبُك من قَلوقِ  
 سأعرضُ عنك إعراضاً جميلاً      وأبدي صفحةً الوجه الطليقِ  
 ولا ألقاك إلا عن تلاقٍ      بعيدِ العهد بالذكرى سَحيقِ

فقد أعتته صديقه حتى لم يعد يجد للصبر باباً، ومع ذلك إن استطاع يوماً الصبر فعن فرط جهده، وحرى به أن يقلق أشد القلق، ويقول له سأعرض عنك إعراضاً جميلاً، وسألقاك بوجه بشوش حين يتصادف اللقاء، وقد بعدُ العهد بالذكرى بعداً شديداً. ويقول على الحُصرى معاتباً بعض خلانه<sup>(٢)</sup>:

بَرِمْتُ بما ألقاه ممن أوامقُ      وأوذيتُ حتى لأرى من أصادقِ<sup>(٣)</sup>  
 إذا ما امرؤُ أصفيتُهُ الودَّ واثقا      بِخَلَّتِهِ لم تَصْفُ منه الخلائقِ<sup>(٤)</sup>  
 فيا ليت شعري هل إلى الناس كلهم      أنا مذنبٌ أم ليس فيهم موافقُ  
 فلا أنا مسرورٌ بمن هو واصلى      جذارا ولا آسى على من أفارقِ  
 وإنى لمن يبغى انتقاصي لقامعُ      وإنى لمن يبغى وِدادى لوامقُ

(٣) أوامق: أبتادل معه الود.

(١) الأتمودج ص ٤٤١.

(٤) خلته: صداقته.

(٢) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٠.

وعلى الحصرى متبرم بأصدقائه لما يلقى من أذاهم، وقد يظن بشخص خيرا فيصفيه الود لما رأى من بعض صفاته، حتى إذا اختبره وجد أخلاقه كدرة غير صافية، ويعجب هل أساء إلى الناس جميعا حتى لا يجد بينهم صديقا موافقا، وجعله ذلك لا يُسرَّ بمن يحاول صداقته ولا يأسى على من ينقضها نقضا، ويعود فيقول إنه يجمع ويقهر كل من يحاول انتقاصه، وأما من يمد له يد الوداد فإنه يصبح وامقا له ومحبا. ويلقانا عتاب عنيف بين وزير المستنصر الحفصي محمد بن أبي الحسين وشيخ قبيلة سليم: عنان بن جابر، وسنخصه بكلمة، ويرسل شاعر العصر الحسيني الأول على الغراب الصفاقسي بمقطوعة شعرية لمحمد بن كمون يعاتبه لإبطائه في كتابة عقد له<sup>(١)</sup>:

يا أبا عبد الله حَتَّامَ أَسْعَى      لَكَ فيما أرومُ شهرا فشهرًا  
هل لهذا الوقوفِ منك وجرِّي      غايةً ينتهى لها الجرِّي أُخْرَى  
ما أرى فى قضاءٍ ما رُمَّتْ عُسْرًا      ولئن كان، إن للعُسرِ يُسْرًا  
ليت شعرى أفى وقوفك هذا      طولَ جَرِيٍّ تروم أم رُمَّتْ أجرا

وهو يعتب على الكمونى أنه دائم السعى له والإلحاح عليه لا يوما بعد يوم بل شهراً بعد شهر ليكتب له العقد، والكمونى يسوف ويماطل، ويقول له ليس فيما أريده عسر، وإن كان فإن للعسر يسرا، ويسأله هل تريد منى طول جرى لمزيد من الإلحاح أو تريد منى مزيداً من الأجر. وجرى بنا الآن أن نتوقف لنخص شاعر الغربة ابن عبدون بكلمة، وبالمثل شاعر العتاب الغاضب: ابن أبي الحسين.

ابن عبدون (٢)

هو محمد بن عبدون الوراق من أهل مدينة سوسة على ساحل البحر، وينوّه ابن رشيق بشعره قائلاً إنه «شاعر وطىء الكلام، كلف بعذوبة اللفظ والتسلل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جاش». وحدث أن توفيت زوجته وابنه في آن واحد، ففارق بلدته «سوسة» في سنة ٣٩٣ للهجرة ورحل إلى جزيرة صقلية ونزل على أميرها ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ومدحه، وكان قد أتاب عنه في الحكم ابنه جعفرًا منذ سنة ٣٨٨ لإصابته بالفالج، فألحقه بابنه، فأدناه وقربه، غير أنه سرعان ما حنَّ إلى بلده، فرفع إلى جعفر قصيدة يسأله فيها الرجوع إلى وطنه، وصوّر مدى رغبته في ذلك من خلال تشوقه إلى رؤية قصر طارق وكان رباطا بقرب سوسة، له

(١) الديوان ص ٣١٠.

والحلل السندينية ٣٠٧/٢ والمجمل في تاريخ الأدب

(٢) انظر في ترجمة ابن عبدون الأنموذج ص ٣٩٠ التونسي ص ١٠٨.

برج شديد العلو، ويصور حيننا متأججا في صدره إلى سكانه قائلا:

يا قَصْرَ طَارِقِ الَّذِي طَرَقْتُ      أَحْشَائِي فِيهِ بِلَابِلُ الصَّدْرِ  
وَاللَّهِ مَا قَصَّرْتُ عَنْ تَلْفٍ      لَكِنِّي قَصَّرْتُ بِالْقَسْرِ  
فَسَقَاكَ مُنْهَلُ الْحَيَا وَسَقَى      عَصْرًا تَقْضَى فِيكَ مِنْ عَصْرِ  
أَعْطَى عَهْدَ اللَّهِ صَفْقَةً مَنْ      أَعْطَى الْعَهْدَ بِجَانِبِ الْحِجْرِ  
لَوْ اسْتَطِيعَ سَبَحْتُ مِنْ طَرْبٍ      شَوْقًا إِلَيْكَ سَوَادَ الْبَحْرِ

وهو يهتف بقصر طارق المجاور لمدينته سوسة وما يثير في صدره من شجون، ويقول إنه لم يُقَصِّرْ إزاءه عن تلف وإنما قَصَّرَ قَسْرًا وجبرا، ويدعو له ولأيامه الخوالي فيه بالسقيا، ويعاهده عهد حجاج بيت الله الحرام عند الحجر أو الحطيم بجانب الكعبة المقدسة أنه لو استطاع لسبح إليه سواد البحر المتلاطم بين صقلية سوسة. ويقول ابن رشيق تعليقا على هذه المقطوعة: «رقة الشوق ظاهرة على هذا الشعر ولطف الحضارة مع مياه تكاد تتبع من جانبه، فهو أُنْدَى من الزهر، غَبُّ القطر، وأحلى من الوصل بعد الهجر». ولما سمع جعفر بن ثقة الدولة هذه الأبيات ازداد به إعجابا وفيه ضنائة، فمنعه من السفر، فكتب ابن عبدون إلى أبيه ثقة الدولة يسأله فيما سأل فيه ولده، ويشكر لما ناله لديها من الجود، ويتشوق إلى وطنه مجسداً شوقه في قصر طارق قائلا:

يا قَصْرَ طَارِقَ هَمِّي فِيكَ مَقْصُورٌ      شَوْقِي طَلِيقٌ وَخَطُوبِي عَنكَ مَأْسُورٌ  
إِنْ نَامَ جَارُكَ إِنِّي سَاهِرٌ أَبَدًا      أَبْكِي عَلَيْكَ وَبَاكِي الْبَيْنِ مَعْدُورٌ  
عِنْدِي مِنَ الْوَجْدِ مَا لَوْ فَاضَ مِنْ كَبْدِي      إِلَيْكَ لِاحْتَرَقْتُ مِنْ حَوْلِكَ الدُّورُ  
لَا هُمْ إِنْ الْجَوَى وَالْوَجْدُ قَدْ غَلَبَا      صَبْرِي فَكُلُّ اصْطِبَارِي فِيهِمَا زُورٌ

وهو يبت قصر طارق همه ويقول له إن شوقي لك حر طليق وخطوبى إليك مقيد مأسور، وإن نام جارك نوما هنيئا فإنى أتجرع سهراً مريراً أبكى فيه عليك بكاء لا ينقطع. ويذكر أن في كبده من لواعج الوجد وهيبه ما لو فاض على ما حول القصر من الدور لاحتترقت جميعا، ويفزع إلى ربه فإن ما يحمل من الجوى والوجد المتنازع قد غلبا صبره، ولم يعد يستطيع احتمالا لها. ومضى في القصيدة يمدح ثقة الدولة. ولم يجد عنده - كما لم يجد عند ابنه جعفر - مأموه، فاضطر إلى أن يخرج من صقلية خفية دون علمها. وعاد إلى سوسة، وبها توفي حوالى سنة ٤٠٠ هـ/١٠١٠م. وينشد له ابن رشيق مقطوعة بديعة في ملعب سوسة الروماني وفيها يتحدث عن شادوه وملكهم وجيوشهم، ويقول إن الأرض ضمتهم جميعاً:



طحتنهم طَحَنَ الرَّحَا فإذا الْإِنْدُ سَسَانُ والدهرُ صخرَةٌ وزجاجُ  
فالناس جميعا يطحنون طحن الرحا، بل لكأن الدهر صخرة، وهو يطحنهم بل يفتتهم كأنهم  
زجاج لا يعاد له سبك.

### محمد<sup>(١)</sup> بن أبي الحسين

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين العنسي كان أحد الرجالات دهاء وذكاء، وقربه منه  
أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية وابنه المستنصر. حتى كان كبير رجالاتهم ووزرائهم، وكان  
متفتنا في ضروب العلوم ومتعمقا في اللغة، وله معجم رتب فيه محكم ابن سيدة على نهج الصحاح  
للجوهرى بحسب أواخر الكلم، واختصره في معجم سماه الخلاصة. وكان مع ذلك سيوسا يحسن  
تدبير الدولة الحفصية ويقود جيوشها في المعارك الحربية، وما زال المستنصر حفيبا به إلى أن توفي  
سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م. وكان شاعرا مجيدا. وكان أبو زكريا يقرب منه شيوخ القبائل ومن بينهم  
عنان بن جابر زعيم عشائر مرداس من قبيلة بني سليم النازلين في قابس، وكانت له مكانة  
كبيرة عند أبي زكريا وصلات وعوائد. ويبدو أنه ظن به وبعشائر المردياتية بعض الظنون فأوقع  
بينها وبين قبيلة علاق ونشبت بينها معارك. وتنبه عنان بن جابر لصنيعه، فغضب غضبا شديدا،  
ورحل مع عشائره إلى بني هلال في الجزائر أو المغرب الأوسط، وعرف أبو زكريا خطأه فسأل  
وزيره ابن أبي لح ن أن يكتب إليه مسترضيا، وكان مما تبادل معه ابن أبي الحسين قصيدتان  
رائيتان، وابن أبي الحسين في قصيدته يعاتبه في شيء من اللين حيناً وفي شيء من الجفاء حيناً  
آخر، لعله يعود إلى صوابه ويرجع إلى موطنه، وله يقول مستطرداً من التشبيب إلى عتابه عتابا  
رفيقا:

فدونكم يا للرجال تحيةً  
فتى ما دعتُه زلةً فأجابها  
وقد كان بيني - يا عنان - وبينكم  
وفي كل عامٍ كان للجيش وقعةً  
تظللنا الراياتُ وهي خوافقُ  
مُخَصَّصَ بها عنى عنانُ بنُ جابرٍ  
فكيف طوى كَشْحًا على نفسِ غادرٍ<sup>(٢)</sup>  
بواطنُ صُنَّاهَا بِحِفْظِ الظواهرِ  
نجرٌ بها أذبالنا جرٌّ سادرٍ<sup>(٣)</sup>  
على كلِّ رِثْبَالٍ بِخَفَانٍ خادرٍ<sup>(٤)</sup>

(١) انظر في ترجمة محمد بن أبي الحسين القسم

(١) انظر في ترجمة محمد بن أبي الحسين القسم  
الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية  
بإفريقية ص ٧٥ وكذلك كتاب المجلد في تاريخ  
الأدب التونسي ص ١٩٩ ومنها نقتطف بعض  
أشعار ابن أبي الحسين.

(٢) طوى كَشْحًا: أضمر نية.

(٣) سادر: لايبالي بشيء.

(٤) الرثبال: الأسد والشجاع الجريء. خفان:

مأسدة. خادر: مقيم.

وهو يخص عنان بن جابر بتحية يستحقها. إذ هو فتي عزيز شريف لم يستجب يوماً إلى أى زلة تدعوه، ويعجب إذن كيف ولّى مغاضباً مطويا على الغدر بدولته، ويحاول أن يجذبه إليه، بما كان بينهما من صداقة ومن اشتراك في حرب أعداء الدولة سنويا جارّين أذبال الخيلاء بانتصاراتهم غير مبالين بشيء، والرايات تظلّ متحركة أبطال جيشهم بل ليوثه التي اندفعت من مأسدة خفّان المقيمة بها تريد أن تلتهم الأعداء التهاما، ويمضى ابن أبي الحسين معاتباً لعنان:

أذْكَرَكَ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا      وَإِنْ كُنْتَ عَنْهُ سَالِيَا غَيْرَ ذَاكِرٍ  
وَكُنْتَ تُجِيرُ النَّاسَ فِي خَيْرِ دَوْلَةٍ      فَأَصْبَحْتَ جَارَا فِي هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ  
وَكُنْتَ كَلَيْثِ الْغَابِ عَزَاً وَمَنْعَةً      فَصُرْتَ كَأَمْثَالِ الرَّثَالِ الْتَوَافِرِ<sup>(١)</sup>  
وَكُنْتَ نَزِيلَ الْمَلِكِ تَجْنِي ثِمَارَهُ      أَفَانِينَ مِنْ أَفْنَانَ رِيَّانَ نَاضِرٍ  
وَقَدْ كُنْتَ تَلْقَى الْعَزَّ تَحْتَ ظِلَالِهِ      فَهَا أَنْتَ تَلْقَى الذَّلَّ تَحْتَ الْهَوَاجِرِ

وهو يذكره بما كان بينه وبين رجال الدولة الحفصية من عهد وميثاق، وكأنه نسيها نسياناً تاماً، ويقرن حال العز القديمة لجابر بما صار إليه، فقد كان يجير الناس وأصبحت قبيلة هلال تجيره، وكان كالأسد عزا ومنعة فصار مثل النعام المنتثر في البوادي وكان يجنى ألوانا من ثمار ملك وطيد ناضر، وكأنما يحاول أن يؤنبه، فيقول له إنك طالما تمتعت بالعز في ظلال الملك الحفصي وها أنت تصطلي بالذل في هواجر المغرب الأوسط. ويعود إلى اللين مع عنان فيقول:

عَزِيزٌ عَلَيْنَا - يَا عِنَانُ - ضَلَالَةٌ      حَدُّتْ بِكَ لَا تَلْوِي عَلَى زَجْرٍ زَاجِرٍ  
فَدَيْتُكَ لَا تَشْرِ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى      فَدَيْتُكَ لَا تَشْرِ الْعَمَى بِالْبَصَائِرِ  
وَمَا الْعَرَبُ الْعَرَبَاءُ إِلَّا بَعْدَهَا      فَمَنْ كَانَ أَوْفَى كَانَ أَوْلَ فَاخِرٍ  
هَدَتْكَ الْهُوَادِي - يَا عِنَانُ - وَأَمْطَرَتْ      ذَرَاكَ الْغَوَادِي بَيْنَ بَادٍ وَحَاضِرٍ<sup>(٢)</sup>

وهو يتلطف له ذاكراً أن هجرته بعشائره كانت ضلالة لم يستمع فيها إلى نصح ناصح ولا إلى زجر زاجر، ويفدّيه بنفسه أن لا يشتري الضلالة بالهدى ولا العمى بالبصر وأن يتبع سنن آبائه بالوفاء بالعهد. ويدعو الله له أن يهديه وأن تمطر السحب الغادية أكناف دياره بادية وحاضرة. وقد رد عنان بن جابر عليه عنيفاً بقصيدة تُعدّ من درر الشعر التونسي، وفيها يذكر أنه لم يبرح موطنه إلا بعد أن ضاقت به الأرض كحلقة خاتم، وبعد أن تبين من أبي زكريا حالاً، لا يطيق احتمالها، فهاجر إلى بلد من بلدان بني هلال بن عامر لا يعرف أهلها الذل، ويذكر أنه إنما غادر

(١) الرثال: النعام.

(٢) هدتك الهوادي: يدعو له بالهدى. الغوادي:

موطنه صيانة لنفسه ولقومه من الأذى، ويفتخر بأنه ما من أحد من قومه إلا نال عزا ورفعة ويتحدّى من يعاديه، إذ يطنون أرضه بحوافر خيلهم ويقضون عليه قضاء مبرما. والقصيدة على لسان هذا البدوي عنان بن جابر السلمى تُعدُّ أحد البراهين القوية - كما مرَّ بنا - على خطأ ابن خلدون فيما زعمه من أن أعراب بنى سليم وهلال زايلت ألسنتهم الفصحى في أرجاء الإقليم التونسي منذ القرن السابع الهجرى بل ربما قبله بفترة غير قليلة.

## ٢

## شعراء الطبيعة

من قديم يتغنى الشاعر العربى بالطبيعة، ومعروف أن الشاعر الجاهلى لم يترك في بيئته الصحراوية زهرة ولا شجرة ولا سحابا ولا نجما ولا طائرا ولا حيوانا أليفا ولا وحشيا إلا تغنى به واصفا لجماله أو لسرعته أو لقوته، وتبعه الشعراء في العصور التالية يصفون الرياض والأنهار وما أودع على ضفافها من جمال، كما يصفون الحيوانات والطيور من كل نوع، ويصف إبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب الياسمين قبيل تفتحه قائلا<sup>(١)</sup>:

لقد راعَ رأسُ الياسمينِ منورًا      كأقراطِ درٍّ قُمَعَتْ بِعَقِيقِ<sup>(٢)</sup>  
يميلُ على ضعفِ الغصونِ كأنما      له حالِتا ذى غَشِيَةٍ ومُفِيقِ  
إذا الرِيحُ أدنته إلى الأرضِ خِلْتُهُ      نسيَمَ جنُوبٍ ضُمَّخَتْ بِخُلُوقِ<sup>(٣)</sup>

فالياسمين وهو يوشك على التفتح وقد انبثقت في أعلاه زهرة حمراء يروعك منظره، وكأنه أقراط ذهبية خُصِبَتْ بعقيق أو ياقوت، ومنه ما يميل منحنيا لضعف غصونه، ومنه ما يظل ثابتا في وقوفه، وكأنما له حالتا مغشى عليه ومفوق، وإذا مر به النسيم ظننته تعطر بخلوق أو طيب ذكى الرائحة. ويقول إبراهيم بن غانم الكاتب القيروانى واصفا النيل<sup>(٤)</sup> وكان قد أقام بمصر فترة وعاد إلى القيروان وتوفى بها سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.

النيلُ بين الجانبيين كأنما      صُبَّتْ بصفحته صفيحةٌ صَيَّقِلُ  
يأتيك من كَدْرِ الزواجرِ مدُّهُ      بممسكٍ من مائه ومُصَنَدِلِ<sup>(٥)</sup>

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١١٩.

(٤) الأنموذج ص ٥٠.

(٥) ممسك: مطيب بطيب المسك. مصندل: مطيب

(٢) العقيق: حجر كريم أحمر.

(٣) ضمخ: لطف. خلوق: ضرب من الطيب.

بطيب الصندل.

وَكأنَّ ضَوْءَ البدرِ في تمويجِهِ      برقٌ تموجٌ في سحابٍ مُسَبَّلِ  
وَكأنَّ نورَ السُّرُجِ في جنباتِهِ      زُهرُ الكواكبِ تحت ليلِ الأيلِ<sup>(١)</sup>

وهو يصور النيل بين شاطئيه كأنه سيف حداد بالغ في جلانه لشدة لمعانه، ويقول إن فيضانه يأتيك بلون كدر كأنه اختلط بمسك أو بشجر الصندل الأحمر، يشير بذلك إلى ما كان يختلط به في فيضانه من الطمي المائل إلى الحمرة، وكأن ضوء البدر على صفحة أمواجه برق يموج في سحاب يهطل مدراراً، وكان نور المصابيح في جنباته كواكب مشرقة لامعة في ليل شديد الظلام. ويقول عبد العزيز بن خلوف المتوفى حوالى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩م في وصف سحابة<sup>(٢)</sup>:

مرتجةً الأرجاء يَحْبِسُ سَيْرَهَا      ثَقُلُ فتعطيهِ الرياحُ سَراحا  
أخفى مسالكها الظلامُ فأوقدتُ      من بَرَقها - كى تهتدى - مِصباحا  
وَكأنَّ صوتَ الرعدِ خلفَ سحابها      حادٍ إذا وَنتِ الرَكائبُ صاحا

وهو يقول إنها سحابة مثقلة بمطر غزير، وكان ثقل ما تحمله يحبس سيرها، وتطلقه الرياح، فتسير وثيدة في ليلة داجية وكان الظلام أخفى مسالكها، فأوقدت من برقها مصباحا كى تهتدى به في سيرها، ويتصور كأن صوت الرعد فيها حاد خلفها إذا توانت الركائب وتباطأت صاح بها كى تمضى في سيرها مسرعة. وكان يعاصر هذا الشاعر ابن أبي حديدة وكان يعنى بوصفه للسحب والنجوم، وسنخسه بكلمة. ومعروف أن البحر المتوسط يمتد طويلا على شواطئ الإقليم التونسي شرقيه وشماليه من قابس إلى بنزرت، فكان طبيعياً أن يتعرض الشعراء في ثغوره المختلفة لوصفه، من مثل الشاعر أبي الحسين الكاتب، وكان حسن البصر بصناعة الشعر - كما يقول ابن رشيق - سالكا لجميع شعابها، داخلاً من جميع أبوابها متقنا لها في لطافة وحلاوة، وقد توفى سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م وفي البحر يقول<sup>(٣)</sup>:

انظُرْ إلى البحرِ وأمواجهِ      فقد علاها زَبَدٌ متسِقٌ  
تخالها العينُ إذا أقبلتُ      خَيْلاً بدتُ في حَلْبَةٍ تستبقُ  
حُمْراً ودُهْماً فإذا ما دنتُ      من شاطئِ البحرِ علاها بَلَقٌ  
ظهورها دُرٌّ وأكفألها      ألبسها الجريُّ صَيَّبَ العَرَقُ

وهو يصور أمواج البحر حين تعانق رمال الشاطئ وما يعلوها من زيد، ويخالها خيلا تستبق

(١) الأعمودج ص ٣٦٣.

(٢) ليل أيل: ليل شديد الظلام.  
(٣) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٣٣.

في حلبة، ويراها حين تعانق الرمال يعلوها لونان أسود منها وأبيض من الزبد مما يجعلها بقاء في مرأى العين، وكأنما الرمال تحيلها درا سائلا بيننا وأخرها يتصبب عرقا أو زبدا. وكان على بن حبيب التتوخي شاعراً عذب اللفظ - كما يقول ابن رشيقي - لطيف المعنى قليل التكلف، وقد توفي حوالي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م وله في تصوير المد والجزر عند صفاقس<sup>(١)</sup>:

بلدٌ يكاد يقول حبه من تزوره أهلاً وسهلاً  
وكانه والبَحْرُ يَحْسِبُ سِرّاً تارةً عنه ويملاً  
صَبٌّ يُريدُ زيارةً فإذا رأى الرُّقباءَ ولى

وهو تعليل طريف للمد والجزر أمام صفاقس التي ترحب دائماً بضيوفها، وكأنما أمواج البحر، حين تمتد أمامها وتقترب منها وسرعان ما تتراجع، عاشقٌ يريد زيارتها، ويرى الرقباء فيولّي راجعاً من حيث أتى.

ونلتقى بأبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وكان شاعراً مجيداً وناقداً بصيراً بالشعر، وله أشعار مختلفة في الحماسة ووصف آلات الحرب وغير ذلك، ومن شعره يصف حديقة ونهرها وأزهارها من الرياض التي أنشأها قرب عاصمته تونس باسم أبي فهر<sup>(٢)</sup>:

وسال نيمرُ الماء بين اخضرارها  
وإلا كما شقَّ الكَنهُورَ بَارِقُ  
وللترجسِ النَّضْرُ اصْفَرارُ تخالُه  
وللياسمينِ الغُضُّ في خُضْرٍ بُسْطُها  
معطرةُ الأردانِ يَفْغَمُ نَفْحُها  
فجاءَ كمثلَ الفَرْقِ بينَ الذَّوائِبِ  
وإلا كمثلَ الصُّبْحِ بينَ الغِياهِبِ<sup>(٣)</sup>  
كشمسٍ أُصِيلِ بينَ بيضِ السَّحابِ  
نَشائِرُ دَرٍّ أو سبائِكُ ساكِبِ  
يحييكِ عَرَفَ الطَّيْبِ من كلِّ جانبِ<sup>(٤)</sup>

فماؤها العذب ينساب بين خضرتها المائلة إلى السواد وكأنه فرق شعر في أعلى ضفائر أو كأنه برق في كنهور أو سحب متراكم أو كأنه ضوء صبح يشق غياهب الليل وظلماته. ويقول إن الترجس النضر المصفر يتهدل بين الأزهار البيضاء كشمس أصيل تنسدل على الطبيعة من خلال سحب بيضاء، وزهر الياسمين يتناثر على بسطها وكأنه تثار درٌّ أو سبائك صانع حاذق، والحديقة جميعها معطرة الجوانب، ونفحها يحمل أفاويه ذكية، ويحييك شذا طيبها من كل منعطف وركن. ويستمر أبو زكريا في مثل هذا الوصف بقصيدته. ومن وصف جنات «توزر» وحدائقها شاعرها

(١) الأتمودج ص ٢٨١ والحلل السندسية ٢/٣٢٦.

(٢) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٩.

(٣) الكنهور: قطع السحاب الضخمة.

(٤) الأردان: الأكام يريد أكام الزهر، يفغم

نفحها: تملأ المكان بأفاويه الطيب. عرف: شذا

ورائحة.

أبو علي بن إبراهيم، وسنفرده بكلمة. وبالتقرب من توزر شطّ الجريد وبه سَبِيخَةٌ إذا حاد سالكها عن طريقه غاص في رمالها ولم يرَ له أثر، وتسمى التاكمرت وماؤها ملح أجاج، وهو أَوْها شديد الحرارة مليء بالرمال العاصفة، وقد وصفها ابن حُسَيْنَة المتوفى حوالى سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م قائلاً<sup>(١)</sup>:

قطعنا التاكمرتُ سُرَى وسرنا  
فلا تسألُ لما قاسيتُ فيه  
فليلٌ لا تسيرُ به نجومٌ  
وأرياحٌ تصمُّ الأذنَ منها  
تصدُّ عن الطريقِ القصدِ قِصدي  
ولا أسطيعُ فتحَ العينِ فيها  
صبيحة يومنا حتى الزوال  
من الأهوالِ والكربِ الثقَالِ  
كأنَّ نيطتُ إلى بعضِ الجبالِ  
تهبُّ عن اليمينِ مع الشمالِ  
وتضربُ حرًّا وجهي بالرمالِ  
لبعضِ الأمرِ إلا باحتيالِ

يقول ابن حُسَيْنَة إنه قطع التاكمرت في ليلة وصبيحة يوم حتى الظهر وقد قاسى من الأهوال والكرب الثقيلة ما يعزّز وصفه، فالليل طويل حتى كأنما علقت نجومه ببعض الجبال فهي لا تتحرك، والرياح تهب ذات اليمين وذات الشمال محملة برمال تصك الآذان ضاربة الوجوه بحصبائها وملقية ستارة كثيفة على الأعين حتى لا يمكن فتحها إلا بضروب من الاحتيال. ويقول محمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م في وصف روض<sup>(٢)</sup>:

الروضُ أصبحَ يُجلى في غلاله  
وألقت القُضْبُ من أوراقها بسطًا  
وقبلَ الطلِّ خدَّ الأرضِ فابتسمتُ  
والوردُ لما اعتلى من فوق وجنته  
وأنشدَ الطيرُ فوق الغصنِ وأرتجلا  
وألبسَ الروضُ من أنواره حُلا  
أزهارها فغدتُ تزهو بحسنِ حلى  
ماءُ الحياءِ بدا في خدّه خجلا

فالروض يُجلى في أجمل ثيابه البديعة، والطير يتغنى فوق الغصون، وألقت الأغصان على الثرى بسطا خضراء من أوراقها، وليس الروض حلا من أنواره وأزهاره وقيل الطلّ خدود الأغصان فابتسمت أزهارها وافتخرت بأجمل حلى، أما الورد فقد اعتلى فوق وجنته ماء الحفر، فبدت حمرة الخجل في خدّه، ويقول الأمير محمد الرشيد الحسيني في وصف الربيع<sup>(٣)</sup>:

قَدِمَ الرَّيِّعُ وَوَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ  
فَتَدَقَّتْ أَنْهَارُهُ وَتَفْتَقَّتْ  
وَالطَّلُّ يَلْتَمُّ خَدَّهُ وَيَقْبَلُ  
أَزْهَارَهُ وَالذُّوحُ خَوْدُ تَرْفَلُ

(٣) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٨.

(١) الحلل السنديّة ٣٩٢/٢.

(٢) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٦.

بقلائدٍ موشيةٍ بزبرجدٍ      تيجانها بيد الرذاذ تكللُ  
والرعدُ يضربُ بالطبولِ وبرقها      كالشَّمعِ تُطفئهِ الرياحُ فيُشعلُ

فالربيع وقد بوجهه المتهلل يعانق الطلَّ ويقبله مرارا وتكرارا، والأنهار تدفقت والأزهار تفتحت والأشجار تتبختر بقلائد مزينة بزبرجد، بينما يتوجها المطر بالأزهار، وكأنما الرعد يضرب بطبول ابتهاجا بالربيع، وأمامه شموع البرق فرحة به، وكلما أطفأتها الرياح عادت أكثر اشتعالا وأوفر ضياء.

وإذا تركنا الطبيعة الصامتة إلى الطبيعة الحية وجدنا الشاعر التونسي يكثر - كما أكثر سلفه المشرقي من قديم - من وصف الحمام والديكة والفرس، وينشد ابن رشيق فيها جميعا أشعارا كثيرة، من ذلك ما أنشده لعنترة التيمي الذي كان مفتونا بالحمام الداجن، وفي صفات أحدها يقول<sup>(١)</sup>:

وأصفرَ فاقعٍ لا عيب فيه      يفوت - إذا ونى - عصفَ الجنوبِ  
كأن الشمسَ يوم الصَّحو أَلقت      عليه رداءها عند الغروب  
وتنظر شخصه الأُلحاطُ عشقا      كما نظر المحبُّ إلى الحبيب

فهو أصفر فاقع لونه لا عيب فيه، يفوت الريح حين يطير حتى لتعجز عن مدها، وكأنما الشمس أَلقت عليه رداء أصيلها الذهبي، وإنه ليفتن الأبصار حين تنظر إليه ويخلب لبها كما يخلب المحبوب لب محبه. ويقول ابن الغطاس في وصف طائفة من الحمام<sup>(٢)</sup>:

توسدَنَ مَطْوَى الجناح كأنما      لهنَّ حشايا فوقه ودَرائِكُ<sup>(٣)</sup>  
وملنَ على خُضرِ الغُصونِ كأنما      لهنَّ على قُصْبِ الأراكِ أرائِكُ<sup>(٤)</sup>  
ولا شدوَ إلا ما تصوغ لحونها      ولا دمعَ إلا من جفونِي سافِك

فقد اتخذن من أجنحتهن وسائد، وكأنها لهن كالحشايا والطنافس للإنسان، وقد اتخذن من غصون الأراك أرائك ومقاعد ينزلن عليها للراحة، وما أجمل شدوها وغناها وما تصوغ منها من لحون تثير فيه الشجن، وإن دموعه لتتنزل مدرارا. ويلتفت عبد الرازق بن علي النحوي إلى قمرى من الحمام على غصن شجرة ينوح فيخاطبه قائلا<sup>(٥)</sup>:

(١) الأعمودج ص ٣١٧.

(٢) الأعمودج ص ٢٣٤.

(٣) الأعمودج ص ١٥٦.

(٤) درانك: بسط وطنافس.

أقمرىَّ أَيْكَ الجزع هل أنت جازع      وهل لك إلفٌ نازحٌ عنك نازعٌ  
وفى لحنك المسجوع فى رَوْنِقِ الضحى      دليلُ أسىٍ لو أن جفنك دامعٌ  
أثار كمينَ الشوق أنك صادحٌ      وإن كان لا يدري مرادك سامعٌ  
كان نسيماً للشمال وللصبا      نسيبُ الصبا طيباً إذ الشَّمْلُ جامعٌ  
وإذ ليس سرٌّ للمسرَّةِ ذاتعٌ      وليس ذِمَامٌ بالمذمَّةِ ضائعٌ

وهو يخاطب قمرى أيك الجزع متعجبا ومتسائلا إذ يراه ينوح هل هو جزع لا يستطيع صبيرا على فراق أليفته وصاحبته التى نزحت بعيدا عنه مثله، ويقول له إن فى نبرات صوتك أسى وحرنا عميقا وإن جفونه لا تريحه بدموع تخففه عنه، ويذكر أنه أثار فى نفسه بصراحة كوامن حبه ولواعجه، وإن كان أحد لا يدري مقصدك من نواحك فقد استعدت لى ذكرى محببة، حتى كأنما تهب على صبا كنسيب الصبا طيبا حين كان الشمل ملتثما بالمحبوبة، ونعيش فى سرور دائم وعهد وثيق.

وسنخص عبد الواحد بن فتوح المتغنى بالديكة والحمام بكلمة. وأكثر شعراء القبروان وتونس من وصف الخيل وخاصة الفرس، إذ كانت أمتها أمة حرب ونزال، ومن ذلك أن أبا الحسين الكاتب الذى مرت بنا مقطوعة له فى وصف أمواج البحر يصف فرسا أشقر له قائلا<sup>(١)</sup>:

لى فرسٌ قد حسنتُ حاله      واستكملَ الإعجابَ إكماله  
أشقرٌ كالتبر جلا لونه      عن مخضه بالسبك صقاله  
كأنما البدر إذا مابدا      غرته والشمسُ سرباله  
كان فى حلقومه جُلجلا      حرَّكه للسَّمعِ تَصْهاله

وهو فرس بلغ الغاية من الحسن حتى ليعجب به كل من يراه، فرس أشقر شقرة ناصعة، جلاه فيها صانعه أتم جلاء، وكأنما البدر غرته البيضاء المشرقة وكأن الشمس رداؤه الذهبى الدررى، وكان فى حلقومه جرسا ما يزال يرن بصهيله، ومع هذه الأبيات أبيت أخرى بديعة، ويعلق عليها جميعا ابن رشيقي بقوله: «هذا شعر جمع شذور الحسن واشتمل على فنون الملاحه، حتى خلطت حقيقته بمجازه، وطوى إسهابه فى إيجازه، واشتبه حوكه بطرازه، ونهضت صدره بأعجازه، وأما التجنيس والطباق، والمقابلة والاتفاق، فمن حلاه المشهورة، وصفاته المذكورة».

وكان الخليفة الفاطمى بالقاهرة: نزار رأى أن يرسل إلى المنصور بن بلكين الصنهاجى واليه



على الإقليم التونسي وإفريقية سنة ٣٨٤ هدية سنية ومعها فيل وطائفة من الخيل وحمار مخطط بديع الشكل، فكان يخرج بها جميعا في مواكبه، ومثله ابنه باديس، وحفيده المعز، ومنذ المنصور يتبارى الشعراء في وصفها نافذين إلى تصاوير لها رائعة، من ذلك قول التونسي على بن يونس المتوفى سنة ٤١٠ في قصيدة يمدح بها المنصور واصفا هدية نزار وما كان بها من الخيل والإبل والفيل<sup>(١)</sup>:

جُرْدٌ سَبَقَ البرقَ غيرَ حوافلٍ      وجرينَ أبعدَ شأوهِ والأقربا  
يرقلنَ في حُللِ العراقِ وحليهِ      زهواً فتحسبهنَّ روضا مُعشبا  
ونجائبٍ مثلَ السفينِ ترى لها      تحتَ القبابِ تَغَطُّمًا وتغضبا<sup>(٢)</sup>  
يحملنَ من زِيِّ الملوكِ هودجًا      مثلَ القصورِ مُفَضًّا ومذهبا  
والفيلُ يَخْطُرُ بينها وكأنه      وكأنها طودُ أنافِ على رَبِي  
شرسٌ إذا أَحْفَظْتَهُ سهلٌ إذا      لاطفتَه صعبٌ إذا ما صوعبا

وهو يقول عن الخيل إنها جُرْدٌ قصيرة الشعر، وهي صفة من صفات الخيل الكريمة، ويقول إنها تسبق البرق غير حافلة به وتجري شوطيه الأبعد والأقرب، وإنها لتتبختر في سروج مزركشة ولجم محلاة بالجواهر، حتى لكأنك تنظر منها إلى روض زاهٍ بأزهاره. ويصف الإبل بأنها كالسفن ضخامة، وإنك لترى لها تحت الهودج هدير الغاضب وزمجرتة، وإن هودجها الضخمة لتزدان بفاخر الرياش المفضض والمذهب، والفيل يَخْطُرُ متهاديا بين تلك الإبل والخيل وكأنه جبل أشرف على رَبِي وتلال، ويصفه بأنه شرس إذا أغضبتة، سهل إذا لاطفته صعبٌ إذا ما أثرته. وأهديت من السودان في الجنوب زرافة إلى المعز بن باديس، فصورها شاعره ابن رشيقي تصويرا بديعا في قصيدة مديح له جاء فيها<sup>(٣)</sup>:

واتتك من كَسْبِ الملوكِ زرافةً      شتَّى الصِّفاتِ لونها أثناء<sup>(٤)</sup>  
تحتتها بين الخواقي مِشِيَةً      بادٍ عليها الكبرِ والخِيلاءُ  
وتمدُّ جيِّداً في الهواءِ يزينها      فكأنه تحت اللواءِ لواءُ  
حُطَّتْ مآخِرُها وأشرفَ صدرها      حتى كأن وقوفها إقعاء<sup>(٥)</sup>

وهو يقول للمعز أنتك زرافة ذات صفات شتى في لونها انعطافات أو بقع كثيرة حمراء

(١) الأتمودج ص ٣٠٠.

(٤) أثناء: يريد أنها ثنائية اللون.

(٥) الإقعاء: جلوس الرجل على مؤخرته ونصب

(٢) تغطمطا:

ساقيه وفخذه.

(٣) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٦.

وصفراء ودكناء ويميزها بين الخوافق أى الخيل المسرعة مشية خاصة يبدو عليها فيها الكبير والخيلاء والعجب الشديد، كما يميزها جيد طويل جدا ترفعه إلى أعلى، وكأنه لواءان ممتدان، وتُرى لطول يديها وقصر رجليها وإقبالها عليك بصدرها كأن وقوفها ضرب من الإقعاء أو الجلوس على المآخر مع نصب اليدين وهو تصوير بديع، ومثله تصويره لفحل الإوز، إذ يقول<sup>(١)</sup>:

نظرتُ إلى فحل الإوز فخلتُهُ      من الثقل فى وحلٍ وما هو فى وحلٍ  
ينقل رجليه على حين فترةٍ      كمنتل لا يحسن المشى فى النعلِ  
له عنق كالصولجانٍ ومحطمٍ      حكى طرف العرجون من يانع النخل<sup>(٢)</sup>  
يداخله زهوٌ فيلحظ من علٍ      جوانبه ألحاظ متهم العقل

وهو يجسد ذكر الإوز في مشيته المتناقلة كأنه يخطو في وحل، فينقل رجليه، أو كأنه لا يبس نعلا لا يحسن المشى فيه. وبعد أن جسّد مشيته هذا التجسيد الرائع، أخذ يصور خلقته فله عنق طويلة طول عصا الملوك المسماة بالصولجان، وله محطم أو منقار معقوف كعرجون النخل الذى يحمل شماريخه وقمره، ثم صور شموخه في وقفته فقال: كأنما يداخله زهو فينظر من أعلى إلى جوانبه نظر المشدوه الذى يظن أنه متهم العقل لطول نظره وإمعانه فيه. وحرى بنا أن نلم ببعض شعراء الطبيعة ممن ذكرنا أننا سنخص كلا منهم بكلمة مع ترتيبهم ترتيبا تاريخيا وهم عبدالواحد بن فتوح وصّاف الديكة والحمام وابن أبى حديدة وصّاف السحب والنجوم وأبو على بن إبراهيم وصّاف البساتين.

### عبد الواحد<sup>(٣)</sup> بن فتوح الرّواق

نشأته ومرباه بتونس وبها تأدب، ثم استوطن القيروان، وانتظم في سلك كتاب الدواوين، وفيه يقول ابن رشيق: «شاعر مفلق قوى أساس الشعر وأركانه وثيق دعائمه وبنائه، كأنه أعرابي بدوى يركب ظهر الشعر ويخوض بحر الفكر، يتكلف بعض التكلف، وفي قصائده طول، ويُعدّ من خيار طبقته» توفى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م. ومن شعره في وصف الديك:

وهبّ للأطيار ذو خبيرةٍ      منه بما يعرف من خبرها  
فنصّ جيّدًا ورقي منبراً      دار الذى عود من خدرها<sup>(٤)</sup>

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٧.

(٢) الصولجان: عصا الملك الرامزة لسلطانه:

محطم: منقار. العرجون ما يحمل التمر. العنق.

(٣) انظر في عبدالواحد بن فتوح الأتمودج

ص ٢٢٦ والمجمل في تاريخ الأدب التونسي

ص ١٣٥.

(٤) نص: رفع.

واستفتح الصوتَ بتصفيقه اسد  
فبَلْبَلِ البَلْبَلِ في غُصْنِهِ  
كأنما تُوجُّ يا قوتةً  
كأنما يَخْطِرُ في حُلَّةٍ  
استفتح ذات الطَّارِ في شِعْرها<sup>(١)</sup>  
وأرَّق الوَرْقاءَ في وَكْرها<sup>(٢)</sup>  
واتخذ الشَّنْفَيْنِ من شطرها<sup>(٣)</sup>  
من عَدْنِي الوَشَى لم يَشرها

وهو يقول إن الديك هبَّ للطير يريد أن ينافسه بما يعرف من خبره وتجربته فنصَّ جيده ورفعه ورقى منبرا في دار صاحبه وماعود من مسكنها، واستفتح الصوت بتصفيق جناحيه وتحريكهما كما تستفتح صاحبة الطار الضرب عليه تقمدا لما توقع عليه من أشعار. وما إن رفع الديك صوته وصياحه حتى اضطرب البلبل في غصنه وألمت به الوسواس، وحتى أرق الحمامة في وكرها، لحسن ما يسمعان من صياحه، ويخيل لمن يراه كأنما تُوجُّ يا قوتة ناصعة الأحمرار. وسقط منها لأذنيه قرطين بديعين، وإنه ليخطر ويتبختر في حلة مزركشة كأنها صنعت من وشى عدن، غير أنه لم يشرها، إذ هي منحة إلهية منحها في خلقه. ويقول في وصف حمام:

يجتابُ أُرْدِيَةَ السَّحابِ بخافقٍ  
لو سابقَ الرِّيحَ الجنوبَ لغايةٍ  
يَسْتَقْرِبُ الأَرْضَ البسيطةَ مذهباً  
ويظلُّ يَسْتَرَقِي السَّماءَ بخافقٍ  
يبدو فيعجب من يراه لحسنه  
مُتَرَقِّقٌ من حيث دُرَّتْ كأنما  
كالبرق أومضَ في السحاب فأبرقا  
يوماً لجاءك مثلها أو أسبقا  
والأفقَ والسُّقْفَ الرَفيعةَ مُرتقى  
في الجوّ تحسبهُ الشهابَ المُحرِقا  
وتكاد آيةً عتقه أن تنطقا  
لبس الزجاجة أو تجلببَ زنبقا

وهو يقول إن الحمام لا يزال يقطع بخافقه أو جناحه أودية السحاب رداء وراء رداء، وكأنه برق يومض ووبرق ويلمع للناظرين، ولو سابق الريح لغاية أو مقصد ما تأخر عنها بل ربما سبقها، وهو يعيش في الأرض ويتخذها مسكناً ومأوى ومع ذلك يرتقى ويصعد إلى الآفاق والسقف العليا، ويظل مصعداً بجناحه في السماء حتى ليظنُّ أنه شهاب فيها سيسقط على الأرض، ويقرب ممن يراه فيعجب بحسنه وتكاد آية عتقه أن تنطق بجمال منظره، ويقول إنه مترقق متلألئ أينما درت ببصرك حوله ظننت كأنما تدور حول زجاج دريٍّ أو حول زنبق رجراج بهي. ويعلق ابن رشيقي على هذه الأبيات بقوله: «لا أعرف أحدا وصف الحمام بمثل هذه الصفة».

(٣) الشنْفَيْنِ: القرطين.

(١) تصفيقه: تحريك جناحيه.

(٢) بلبل خير.

هو أبو العباس أحمد بن القاسم اللخمي، أحد الكتاب النابيين في الدولة الصنهاجية وظل يعمل فيها بديوان الرسائل بجانب ابن رشيق وابن شرف إلى أن توفي حوالي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ويبدو أن منشأه ومرباه في القيروان، ويقول فيه ابن رشيق: «شاعر فكه الشعر رائق التشبيه مولع به قليل التكلف قوى المنهج والظرف، ممن رفض الم والهجاء، وكان يخبّر التصنيع خبرة جيدة ولا يركبه إلا في الأماكن التي تصلح له كما شرط حذاق المتقدمين، وله بديهة مرضية. وله في وصف سحاب:

يَأْرَبُّ مُتَأَقَّةً تَنْوُءُ بِثِقْلِهَا      تَسْقَى الْبِلَادَ بَوَابِلٍ غَيْدَاقٍ<sup>(٢)</sup>  
 مَرَّتْ فَوَيْقَ الْأَرْضِ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا      وَالرَّيْحُ تَحْمِلُهَا عَلَى الْأَعْنَاقِ  
 وَدَنْتْ فَكَادَ التُّرْبُ يَنْهَضُ نَحْوَهَا      كُنْهُوضٍ مُشْتَاقٍ إِلَى مُشْتَاقٍ  
 فَكَأَنَّمَا جَاءَتْ تَقْبَلُ تَرِبَهَا      أَوْ حَاوَلَتْ مِنْهُ لَذِيذَ عِنَاقٍ

وهو يقول: رب سحابة ملآنة مطرا تنوء بثقلها منه تسقى البلاد منه بوابل غزير، ويتخيلها كأنها امرأة جميلة تمر على الأرض تسحب ذيلها من المطر المتدفق والرياح يحملها على الأعناق إجلالا لها، ويقول إنها دنت من الأرض فنفض التراب لها نهوض مشتاق إلى مشتاق، وكأنما جاءت محمولة على الريح لتقبل تربها، بل لكأنما تحاول منه عناق محب لمحبوبة غابت عنه طويلا. وله في النجوم:

وَلَقَدْ حَمَىٰ عَنِ مَقْلَتِي كَرَاهِمَا      وَرُقُّ لَهْنٍ عَلَى الْأَرَاكِ حَنِينُ  
 فِي لَيْلَةٍ لِبَسِ الْحَدَادِ هَوَاوَاهَا      فَكَأَنَّمَا هُوَ رَاهِبٌ مَحْزُونُ  
 قَدْ رَضَعَتْ زُهْرُ النُّجُومِ سَمَاءَهَا      فَكَأَنَّمَا هِيَ لَوْلُؤُ مَوْضُونُ<sup>(٣)</sup>  
 وَكَأَنَّمَا خَلَلَ الظَّلَامَ رَوَانِيَا      أَحْدَاقُ رُومٍ مَا لَهْنٌ جَفُونُ<sup>(٤)</sup>  
 وَكَأَنَّمَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ عَلَى الدُّجَى      بَحْرٌ أَحَاطَ بِهَا وَهَنَّ سَفِينُ

وهو يقول إن حنين حمامات على الأراك ملتاعة نحى النوم عن عينيه في ليلة لبس الهواء فيها ثياب الحداد في دجاها فكأنما هو راهب محزون أشد الحزن، وقد رصعت النجوم المضيئة

(٣) موضون: متراكم.

(٤) روانيا: ناظرات.

(١) انظر في ابن أبي حديدة الأتمودج ص ٧١

والمجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤١.

(٢) متأقة: ممتلئة. غيداق: كثير.

المشرقة السماء وكأنما هي لآلى تتداخل في نسيجها المحكم، ولكأنها وهي ترنو خلال الظلام أحداق روم ليس هن جفون فهي ما تنى رانية مديمة نظرها، ولكأنما الفلك المستدير على الدجي بحر أحاط بتلك النجوم وهن سفن الله. كأن لا فارق كوني بين البر والبحر والسماء عند ابن أبي حديدة وغيره من الشعراء التونسيين، فهم يتغنون بسفن البر من الإبل، ويتغنى ابن أبي حديدة بسفن السماء من النجوم.

### أبو علي بن إبراهيم<sup>(١)</sup>

لم يزد صاحب الحلل السندسية في التعريف به عن قوله إنه كان كاتباً، وأكبر الظن أنه توزري الأصل، والتحق بدواوين الدولة الحفصية في القرن السابع الهجري. وتوزر هي عاصمة واحات الجنوب التونسي، وكان لها نهر ينقسم إلى ثلاثة أنهار كبار، وكل نهر من الثلاثة ينقسم إلى ستة جداول، وأتاح لها ذلك أن يكثر بها النخيل والبساتين، ولأبي علي بن إبراهيم وصف رائع لها ولنخيلها وبساتينها وجداول مياهها ضمَّنه قصيدة له رائعة، ومن قوله في نخيلها:

النَّخْلُ مِثْلُ عِرَائِسٍ مَجْلُوءَةٍ فِي سُنْدَسِيَّاتِ اللَّبَاسِ تَبَخَّرُ<sup>(٢)</sup>  
 وكأنما نُظِمَ الحُلِيِّ لَنَحْرِهَا مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبْرَجِدٍ يَتَخَيَّرُ  
 وترى الزَّبْرَجِدَ عَسْجَدًا وَيَوَاقِتًا ذَا أَحْمَرٍ قَانَ وَهَذَا أَصْفَرُ<sup>(٣)</sup>  
 أَحْلَى مِنَ العَسَلِ المَصْفَى طَعْمُهُ وَمَذَاقُهُ لَا يَدْعِيهِ السُّكَّرُ

وهو يقول كأن حدائق النخل بتوزر فرح كبير يضم ما لا يكاد يحصى من عرائس تجلي في ثياب سندسية اللون تتبختر فيها، وقد استدارت حول نحورها عقود متخيرة من اللؤلؤ المضيء في أول نشأة البلح وإنما لتستحيل إلى زبرجد أخضر، ويستحيل الزبرجد إما عسجدا ذهبيا وإما ياقوتا قانيا، ومنه الرطب وغير الرطب، وإن طعمه لأحلى من العسل، مع مذاق بديع لا يستطيع السكر أن يدعيه لنفسه لجماله وحسنه. ويصف بساتين توزر وأشجارها وأزهارها، فيقول:

الدَّوْحُ قَدْ لَبَسَتْ غَلَاتِلَ سُنْدَسٍ تَخْتَالُ فِي أَيْدِي النِّسِيمِ وَتَخْطُرُ<sup>(٤)</sup>  
 حَلَّتْ هَوَادِيهَا عَقُودُ أَزَاهِرٍ فَتَبَرَّجَتْ عُجْبًا لِمَنْ يَتَبَصَّرُ<sup>(٥)</sup>  
 والطيرُ قَدْ رَقِيَتْ مَنَابِرَ قُضِيهَا خَطَابُهَا تَشْدُو بِلَحْنٍ يَسْحَرُ

(١) انظر في أبي علي بن إبراهيم وقصيدته الحلل:

(١) انظر في أبي علي بن إبراهيم وقصيدته الحلل السندسية ٤٣٥/٢.

(٢) تبختر.

(٢) سندسيات: نسبة إلى السندس وهو الديباج.

(٣) العسجد: الذهب.

(٤) غلاتل: جمع غلالة: ثوب رقيق. تخطر:

(٥) هودايا: مقدماتها.

والقضبُ يُثْبِتُهَا النَّسِيمُ فَتَنْثَنِي      بَعْضُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا وَيُقَهِّقِرُ  
كَعَقَائِلٍ تَبْغِي السَّرَارَ فَتَلْتَقِي      لِصَغَا الْحَدِيثِ وَتَارَةً تَتَأَخَّرُ<sup>(١)</sup>

فالشجر الملتف قد لبس ثيابا رقيقة من السندس الأخضر، وهو يختال في أيدي النسيم ويتبختر، وقد حلت مقدماته عقود زهر منمقة تبرج فيها لناظريه أيما تبرج، والطير قد صعدت إلى منابر غصونها، وخطباؤها تتغنى بلحن ساحر يخلب الألباب، والغصون يشينها النسيم فتنتشى وكأنما يقبل بعضها بعضا ثم يتقهقر أو كأنهن سيدات يردن المسارة ببعض الحديث فتلتقى مصغية إلى الحديث تارة، وتارة تتأخر، ويستمر أبو على قائلا:

الأَرْضُ عَاطِرَةٌ تُزَفُّ كَأَنَّمَا      غَشَى نَوَاحِيهَا عَيْبِرٌ يُنْشَرُ  
وَتَأْرَجَتْ أَرْجَاؤُهَا فَكَأَنَّمَا      مِسْكٌ يَضُوعٌ خَلَالَهَا أَوْ عَنْبِرٌ<sup>(٢)</sup>  
وَكَأَنَّ رِيحَانَ الْحَيَاةِ وَرَوْحَهَا      مُسْتَنْشَقٌ مِنْ عَرْفِهَا وَمَعْطَرٌ<sup>(٣)</sup>  
وَكَأَنَّمَا كُسِيَتْ بِسَاطِ زَبْرَجِدٍ      نُشِرَتْ يَوَاقِيتُ عَلَيْهِ وَجَوْهَرٌ

فالأرض جميعها عاطرة وكأنما تُزَفُّ في عُرْس لها، وكل نواحيها ينتشر فيها عبير ذكي، وكل أرجائها تفوح بصنوف من الطيب والمسك والعنبر، وكأن أريج الحياة ونسيمها العطر مستنشق من شذاها العطر، وكأنما اكتست ببساط من الزبرجد تناثرت عليه جواهر ويواقيت من كل صنف، ويمضي أبو على واصفا جداولها بمثل قوله:

المَاءُ تَشَعَّبَهُ إِلَيْكَ جَدَاوُلُ      قَدْ مَدَّهَا النَّهْرُ الزَّلَالُ الْأَكْبَرُ<sup>(٤)</sup>  
صَافٍ عَلَى صِفَةِ الْمَهَا يَجْرِي عَلَى      رَمْلِ النَّقَا عَذْبٌ قَرَّاحٌ كَوْثَرٌ<sup>(٥)</sup>  
وَكَأَنَّمَا حَصْبَاؤُهُ فِي رَوْنِقِ الْ      سَاءِ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ جَوْهَرٌ

والماء تشعبه وتوزعه جداول: ثمانية عشر كما أسلفنا، وقد أمدها النهر الكبير بمائه الزلال العذب البارد السلس، والماء في منتهى الصفاء، كأنه مهأ أو بلور ناصع، وهو يجري على رمل يشبه رمل النقا الذي يذكره العشاق النجديون، وهو عذب قراح أو خالص، بل هو كوثر كثر الفردوس وكأنما حصباؤه جواهر تناثر من عقود كثيرة. وأبو على بدون ريب شاعر بارع براعة فائقة.

- (١) عقائل: جمع عقيلة: السيدة الكريمة. السرار: المناجاة وكتمان الحديث. صغا الحديث: سماعه.  
(٢) تأرجت: فاحت. يצוע: يفوح.  
(٣) عرفها: شذاها.  
(٤) تشعبه: تفرقه. الزلال: العذب الصافي.  
(٥) المهأ: البلور. قراح: سائغ. كوثر: حلو والكوثر: من أنهار الفردوس.

## شعراء الرثاء

## (أ) رثاء الأفراد

للعرب - منذ الجاهلية - في رثاء الأفراد تراث ضخم، وهو يتخذ عندهم ثلاثة ألوان هي الندب والتأبين والعزاء، والندب هو البكاء على ذوى الرحم من الأهلين والأقارب ممن لبوا نداء ربهم وغادروا الفانية إلى الباقية، والتأبين هو بكاء الشخصيات الفذة الحربية أو السياسية أو العلمية أو الأدبية بذكر فضائلهم وخسارة المجتمع والأمة فيهم، والعزاء استرسال في الحديث عن الحياة والموت وبيان أن الحياة ظل متنقل سرعان ما ينحسر عن صاحبه، فالجميع إلى فناء وعدم، وكثيرا ما يختلط العزاء بالتأبين والندب. وكل هذه الألوان الثلاثة مبثوثة في مراثى القيروانيين والتونسيين، وتأخذ في الكثرة منذ عصر الأغالبة، ويتوفى فيه سحنون إمام المذهب المالكي ويؤبنه تلميذه عبد الملك المهري بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

ولى - لعمرى - بأرض الغربِ قاطبةً      مَيَّتْ له البدوُ والحُضارُ قد خَشعا  
لِلَّهِ أنت إذا ما هابَ فاصِلَةٌ      من القضاء كليلُ الحدِّ فارتدعا  
هناك برزّت يا سَحْنونُ منفردًا      كسابق الخيل لما بان فانقطعوا  
فاذهب فقيدًا حَبَاكَ اللهُ جَنَّتُهُ      واحصُدْ من الخير ما قد كنتَ مُزدرعا

وهو يقول إن أهل البدو والحضر جميعا قد خشعوا حين سمعوا بوفاة فقيه الغرب قاطبة، ويقول ما أعظمك حين كنت قاضيا تقضى بالحق على كل متهم فيرتدع ويزدجر، وبنوه بقضائه وأنه سبق فيه مجليا كل عالم في عصره، وما أعظم الخسارة في فقده ويدعو الله أن يفسح له في فراديسه وأن يجزيه الجزاء الأوفى عما غرس وقدم بين يديه. ولما توفى ابنه محمد رثاه أحمد بن أبي سليمان داود الصواف بمرثية بلغت ثلاثمائة بيت، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

ألا أيُّها النَّاعى الذى جَلَبَ الأسى      وأورثنا الأحرانَ لا كنتَ ناعيا  
نعيتَ إمامَ العالمين محمَّدًا      وقلتَ مَضَى من كان للدين راعيا  
ومن كان حَبْرًا عالِمًا ذا فضيلَةٍ      نقيًّا رَضِيًّا طاهرًا القلبَ زاكيا

والشاعر يبكى فى محمد بن سحنون إمامته الدينية وفقهه وعلمه ونقاء صدره وطهاره قلبه

(٢) رياض النفوس ٣٥٧/١.

(١) رياض النفوس للمالكي ٢٩٠/١.

وفضيلته أو فضائله. ويتوفى يحيى بن عمر إمام المذهب المالكي في سوسة سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ويرثه سعدون الوريثي بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

عينُ أَلَمٍ بِهَا وَجَدْتُ فَلَمْ تَنَمْ      تبكى بِدَمْعٍ كَقَطْرِ الدَّرِّ مُنْسَجِمٍ  
عجبتُ أنْ لَمْ أُمَّتْ حَزْناً وَقَدْ دَفَنْتُ      كَفَايَ فِي التُّرْبِ أَنْقَى العَرَبِ والعَجَمِ  
يا مَوْتُ أَتَكَلَّتْنا يَحْيَى وَكانَ فَتَى      في بَلَدَةِ العَرَبِ مِثْلَ البَدْرِ في الظُّلَمِ  
مَنْ كانَ مِنْ بَعْدِ سَحْنونٍ لَنَا خَلْفًا      مَنْ كانَ في الحَقِّ مِثْلَ الصَّارِمِ الخَذِيمِ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه بات مسهدا محزوننا يبكي بدمع لا ينقطع، ويعجب أن لم يميت حزنا وقد دفنت كفاه في التراب يحيى بن عمر أنقى العرب والعجم، وبلتفت إلى الموت لائها، فقد أفقدهم يحيى وكان فقيها لا نظير له، وكان مثل البدر يحسر الظلمات عن الناس، إذ كان خلفا لأستاذه سحنون، وكان في إحقاق الحق وإبطال الباطل مثل السيف الحاد القاطع. وحظيت الأسرة الأغلبية الحاكمة حينذاك بشاعرة تسمى مهربة الأغلبية، توفيت حوالى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م وكان لها أخ ناسك يسمى أبا عقال هاجر إلى مكة ومات بها غريبا عن وطنه ودياره، وله مواضع كثيرة أنشدها المالكي في الرياض وقالت أخته نادية له باكية<sup>(٣)</sup>:

ليت شِعْرِي ما الذى عاينْتَهُ      بعد طول الصَّومِ مَعَ نَفْيِ الوَسَنِ  
مَعَ نُزُوحِ النَّفْسِ عَن أوطانها      والتخلُّى عَن حبيبٍ وَسَكَنِ  
يا شقيقاً ليس في وَجْدِي به      عِلَّةٌ تَمْنَعُنِي مِنَ أَنْ أُجَنِّ  
وكما تَبَلَّى وجوهٌ في الثَّرَى      فكذا يَبْلَى عليهنَّ الحَزَنُ

وهي تتجه بالسؤال إلى شقيقها ماذا رأى في بلاد الغربية بعد ما عانى من طول الصوم والسهاد ومع حرمانه من وطنه وتخليه عن سكنه وأحبابه، وتحزن عليه حزنا عميقا فلن تراه، وتظل مواجدها معلقة به حتى لتشعر أنها ستجن، وتعود إلى نفسها، فكما تبلى وجوه في الثرى يبلى الحزن وتبلى لوعته.

ولكراهية أهل السنة في القيروان للبيديين ومذهبهم الإسماعيلي انضموا إلى مخلد بن كيداد الثائر البربري الصفري على القائم بأمر الله العبيدى في حصاره للمهدية سنة ٣٣٣م وقتل في هذا الحصار شيخ كبير من شيوخ أهل السنة هو أبو الفضل المسمى، فرثاه تلميذه أبو القاسم الفزارى، بمثل قوله<sup>(٤)</sup>:

(١) رياض النفوس ٤٠٥/١.  
(٢) الصارم الخذيم: السيف القاطع.  
(٣) رياض النفوس للمالكي ٤٣٦/١ والمجمل  
(٤) المجمل ص ٨٧.



بنفسى صريع جالت الخيل حوله  
ولست له أبكى ولكن لمعشر  
وللعلم والإسلام والدين والتقى  
مضى علم العلم الرفيع وطالما  
بمعتريك الأبطال أي صريع  
أصيبوا به من فردٍ وجميع  
وطول احتمالٍ واضطناع صنيع  
أصاب قنأة الموت كل رفيع

وهو يتمنى لو استطاع أن يفدى هذا الشيخ الصريع بروحه، ويتصوره والخيل تجول حوله في معركة الأبطال، ويقول إنه لا يبكي له ولكن يبكي لخسارة معشر فجعوا فيه، كما يبكيه للعلم والإسلام والدين والتقى وطول ما أدّى واحتمل في سبيل طلابه وأهل القيروان، وإن كان قد فقد علم العلم الرفيع فطالما أصابت رماح الموت العلماء من أمثاله. ويؤيّن ابن الخواص الكفيف أبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى إمام المالكية ورياستها بالمغرب في زمنه أبا محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م وفي تأيينه يقول<sup>(١)</sup>:

كادت تميد الأرض خاشعة الرئي  
عجبا أيدي الحاملون لنعشه  
علما وحلما كاملا وبراعة  
وسعت فجاج الأرض سعيا حوله  
يكونه ولكل باك منهم  
وتمور أفلاك النجوم الطلع<sup>(٢)</sup>  
كيف استطاعوا حمل بحر متمع<sup>(٣)</sup>  
وتقى وحسن سكينه وتورع  
من راغب في سعيه متبرع  
ذل الأسير وحرقة المتوجع

فالأرض تكاد تضطرب وتخرج خاشعة الرئي لهول موته، وبالمثل أفلاك النجوم الساطعة، ويعجب الشاعر متسانلا أي عرف الحاملون لنعشه أنهم استطاعوا حمل بحر ممتلئ علما وحلما وبراعة وتقى وحسن سكينه وجمال تورع، وقد اكتظت فجاج الأرض وطرقها الواسعة بالمشيعين الذين جاءوه محزونين عليه بكونه خاشعين متوجعين ملتاعين. ويحكي غير واحد عن أبي طالب الدلائى الشاعر في الدولة الصنهاجية أنه فقد من أحبته نيفا وأربعين غريقا في البحر - ربما كانوا ذاهبين إلى صقلية - فصار شعره رثاء كله فجعوا عليهم ووفاء لهم<sup>(٤)</sup>، من ذلك قوله في أحدهم:

نأى يسرورى وصبرى معاً  
وأبقى فؤادى عليه صديعا

(٤) انظر في هذا الخبر وأبيات الدلائى الأنموذج

(١) الأنموذج ص ١٥٣.

(٢) تورع: توج.

(٣) متمع: ممتلئ.

ومات فمات سُرورى به وُصِّتْ حىاتى فماتنا جىمعا  
أصابته عىنٌ من الحادثات أصاب العمى ناظرىها سرىعا

وهو يقول إنه حين فارقه أخذ سروره وصبره على بعده معه، وكأنما ترك جرحا بفؤاده، ولم يلبث أن مات غريقا فمات سرور الشاعر، وكان قد صان حياته من الرحيل معه، وشعر كأنه مات معه. ويقول كأن عينا من الحادثات أصابته، ويدعو عليها بالعمى جزاء وفاقا لها، ويقول ابن رشيقي تعليقا على الأبيات: «هذا هو التفجع والتوجع الذى يقطع القلوب حشرات، ويذهب العيون عبرات». وينشد من مرثيه بيتين، هما:

أودعته بطنَ الثرى وتركته فى رَمْسِهِ والموت ما لا يُنكرُ  
قدمته ولو أنى أنصفته ماكنت عنه ساعةً أتأخرُ

فهو قد أودعه فى رسمه أو قبره ببطن الأرض. والموت حق لا أحد ينكره، ويقول كأنه قدمه إلى الموت ولو أنه أنصفه لرافقه ولم يتأخر عنه ساعة. ويقول ابن رشيقي: «هذه أنفاس مشتعلة عن نفس مشتعلة قد دلّت على ما فى الصدر دلالة الشواظ على الجمر». ويموت لابن عبدون الذى مرت ترجمته بين شعراء الغربية ابن وكانت قد ماتت قبله زوجته ويكيها بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

قبرٌ بسوسة قد قبرتُ به النهى أدرجتُ قلبى فى مَدَارِجِ لحدّه  
صمتُ علىّ مسامعى فى رَجَّةٍ وُصِّعْتُ من صَعِقِ الصُّراخِ ورَعْدِهِ  
وجهدتُ أن أبكى فلم أجِدِ البُكا فسكتُ سَكْتَةً صارمٍ فى غمدهِ  
هَبْنى بكيت له وما يُجِدَى البُكا ماءً بخدّى والترابُ بخدّه  
هيهات قد منع الهدو لناظرى قبران ذا ولدٌ وذاك لودّه<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه دفن النهى والعقل السديد فى قبر بسوسة، وكأنما أدخل قلبه فى ثنايا لحدّه، ويقول كأنما سُدتْ أذناه حين سمع رجّة موت زوجته وابنه، بل لكأنما أصابته صاعقة من صعق الصراخ ورعده، وكأنما غشى عليه فلم يستطع بكاء، وأخذ إلى الصمت إخلاد سيف فى غمده، وماذا يجدى سلّ سيف فى الموت؟ وماذا يجدى البكا وعلى خده دموعه والتراب بخد ابنه، ويقول لقد منع النوم لعيني قبران: قبر ابني الحبيب، وقبر زوجتي المحبوبة. وقال على الحصرى الذى

(٢) الهدو بتشديد الواو: النوم.

(١) انظر الأموذج ص ٣٩٤

مرت ترجمته بين شعراء الغزل يبكي أباه حين ودّع قبره عند رحيله إلى الأندلس<sup>(١)</sup>:

أبي! نَيْرُ الأيامِ بعدك أَظْلَمًا      وَبِنْيَانُ مَجْدِي يَوْمَ مِتَّ تَهْدَمًا  
وَجِسْمِي الَّذِي أَبْلَاهُ فَقَدْتُكَ إِنِ أَكُنْ      رَحَلْتُ بِهِ فَالْقَلْبُ عِنْدَكَ خَيْبًا  
وَقَى اللهُ عَيْنِي مَنْ تَعَمَّدَ وَقْفَةً      بِقَبْرِكَ فَاسْتَسْقَى لَهُ وَتَرَحُّمًا  
وَقَالَ سَلَامٌ، وَالثَّوَابُ جَزَاءَ مَنْ      أَلَّمَ عَلَى قَبْرِ الْغَرِيبِ فَسَلَّمَ

وهو يخاطب أباه محزونًا قائلاً إن الأيام النيرة بعد فقدته أظلمت وتهدم بنيان مجده وعزه يوم موته، وإن كنت راحلاً عنك بجسمي الذي أضناه فقدك فإن قلبي عندك مخيم مقيم، ويدعو لمن يقف على قبره مستسقيًا مترحمًا مسلماً راجياً أن يجزيه الله خير الجزاء. ويقول ابن بسام منشداً الأبيات السالفة إن المحصرى لم يكتف بها في وداعه لقبر أبيه، فقد طأطأ رأسه ومدّ يده إلى التراب حول القبر، قائلاً:

رَحَلْتُ وَههنا مَثْوَى الْحَبِيبِ      فَمَنْ يَبْكِيكَ يَا قَبْرَ الْغَرِيبِ  
سَأَهْلُ مِنْ تُرَابِكَ فِي رِحَالِي      لَكِي أَغْنَى بِهِ عَنِ كُلِّ طِيبِ

والبيتان مؤثران - كالأبيات السابقة - تأثيراً عميقاً لكل من فقد أباه واضطر إلى فراق قبره بعد موته. وكان على المحصرى في الذروة من شعراء القبروان المبدعين. ومات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، ونظم فيه ديواناً على حروف المعجم سماه «اقتراح القريح واجترح الجريح» ومن قوله فيه وقد بلغ به الحزن أقصى غايته<sup>(٢)</sup>:

دَوَى رِيحَانِي الْأَرْجُ      وَضَاقَ بِخِلِّي الْفَرَجُ<sup>(٣)</sup>  
ذَبِيحٌ طُلَّ مِنْهُ دَمٌ      وَلَمْ يُقَطَّعْ لَهُ وَدَجُ<sup>(٤)</sup>  
عُرُوقُ النَّاسِ كُلَّهُمْ      إِلَى عِرْقِ الثَّرَى تَشِيحُ<sup>(٥)</sup>  
بَنُو الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ      لِقَلَّةِ هَمِّهِمْ هَمُّجُ  
وَهَلْ هِيَ غَيْرُ دَارِ أَدَى      إِذَا دَخَلُوا بِهَا خَرَجُوا  
تَأْمَلْ كَيْفَ تَأْكُلُهُمْ      وَهَمُّ وَلَدُهَا نُتَجُوا

(٤) الودج: عرق في العنق إذا قطع الذابح انتهت الحياة

(٥) تشيح: تلتف وتعود.

(١) انظر في رثاء علي المحصرى لأبيه. الذخيرة

لابن بسام ٢٧٠/٤

(٢) انظر في الأبيات التالية للذخيرة ٢٧٤/٤

(٣) الأرج: العطر.

يقول إن ريحانه العطر ذوى فجأة، وضاق بابنه الفرج من سقمه ومرضه، ولا يلبث أن يصرخ، فهو لم يمت حتف أنفه، بل مات ذبيحا وطلّ دمه وأهدر دون أن يُقَطَّع منه عرق العنق الذى لا تبقى مع قطعه حياة، ويعود الحصرى إلى نفسه، فالناس جميعا ميتون وكلهم راجعون إلى عرق الثرى الذى يتشابك مع عروقهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى خلق آدم إذ قال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون﴾. ويعجب لأبناء الدنيا وقلة همهم كأنهم هج لا يعون حياتهم، ويقول إنها دار أذى وإنهم لا يلبثون حين يدخلون بها أن يخرجوا منها، بل تأمل كيف تأكلهم مع أنهم أبناؤها وكأنها هرة تلد أبناءها وتقتضهم. ونمضى إلى العاص الحسينى ويتوفى الشيخ محمد زيتونة العالم الجليل سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م ويرثيه الشاعر محمد الخضراوى بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

قلب يذوبٌ ومهجة تتقطعُ      وأسى يزيدٌ ومقلةٌ لا تهججُ  
ولهيبٌ نيرانٍ تضرمُ وقدها      يصلى بجمرتها الحشا والأضلعُ  
وتلهفٌ وبُكاٌ وفرطٌ كآبةٍ      ومدامعٌ مسفوحةٌ لا تقلعُ  
فعليه فلتبك الأنامُ جميعهم      وعليه فليتوجع المتوجعُ

وقلب الشاعر يذوب حزنا لموت العالم الكبير ومهجته تتقطع حشرات ويزداد أسى وحزنا ويبيت مسهدا، وكأنما اضطرم لهيب نار فى دخائله احترق حشاه وأضلعه بجمرته الموقدة، ويزيد به التلهف والبكا والكآبه ولا تقلع الدموع بل تنهمر انهماارا لما نعى الناعى إمام العلماء وشيخ الأنام ومفرغهم فى الفتوى ومسائل الدين، وعليه فليبك الناس جميعا ويتوجعوا لفقده ويتفجعوا مرارا وتكرارا.

ويرثى محمد الورغى فى العصر الحسينى الأمير محمد الرشيد، ويجمع فى مرثيته بين التعزية فيه وتهنئة أخيه على خلفه بمثل قوله<sup>(٢)</sup>:

من أين أدركه الحماُ ودونه      حزمُ السّلاحِ وحومةُ الحُرّاسِ  
أتغافل البوّابُ أم سبقت له      قبل الهجوم يدٌ مع العُساسِ  
جهدَ الزمانُ ولو درى بمقامه      ما ساقه قسراً إلى الأزماسِ<sup>(٣)</sup>  
كادتُ عراً الإسلامُ تنقضُ بعده      لولا مقيم الدين بالقسطاسِ  
ما أخلق الملك العليُّ عمادهُ      بعلىّ الشهمِ النزيه الباسِ

(٣) الأزماس: جمع رمس: القبر.

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص ٥٧

(٢) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص ١٧٠

وهو يعجب من أن الموت أدرك محمداً الرشيد وسلاحه وحرسه من حوله لحمايته، ويتساءل هل تغافل الحمام أو الموت البواب أو سبقت له يد عند الحراس، ويقول إن الزمان لودرى بمقامه ما ساقه قهراً إلى القبور، وإن عراً الإسلام الوثقى لتكاد تنقض بعده لولا قيض لها مقيم الدين بالعدل والقسطاس، على أخوه، وما أجدر الملك الرفيع عماده به لخلقه الكريم.

### (ب) رثاء المدن والدول

هذا الضرب من الرثاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية على نحو ما هو معروف عن الأسود بن يعفر وراثته لدولة المناذرة في الحيرة ولما قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاهها أبو العباس الأعمى المكي. وحين حاصر طاهر بن الحسين قائد المأمون ببلاد في حرب الأئمين ورمها بالمجانيق وكثر فيها الحرق والهدم بكاهها غير شاعر عباسي بكاء مرّاً وتقدم مع الزمن إلى سنة ٢٥٧ وهاجم البصرة الزنج ويحرقون مسجدها الجامع ويحيلونها أنقاضاً، وبكاهها الشعراء وفي مقدمتهم ابن الرومي الذي تفجع لها وتوجع مستصرخاً لها الخليفة وجيوشه والأمة، ولبّاه الموفق أخو الخليفة، وظل ينازل الزنج نزالاً عنيفاً حتى قضى نهائياً على ثورتهم سنة ٢٧٠. ويدور الزمن دورات، وإذا أعراب بني سليم وهلال يزحفون إلى القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وينازلهم صاحبها المعز بن باديس الصنهاجي، ويلحقون به هزيمة شديدة، ويضطر إلى ترك القيروان لهم وينحاز إلى المهديّة عند ابنه حاكمها تميم، ويدخلون القيروان فيحيلونها أنقاضاً، ويقضون على حضارتها، ويفرّ منها كثير من علمائها ونابهي شعرائها، ومن غادرها ابن رشيق، ونراه يصف تلك النكبة في قصيدة طويلة، ومن قوله الحزين فيها<sup>(١)</sup>:

المُسلمون مقسّمون تنالهم	أيدى العُصاة بذلّةٍ وهوانٍ
يَسْتَصْرخون فلا يُغاثُ صرِيخهم	حتى إذا سَئِموا من الإِرنانِ <sup>(٢)</sup>
خرجوا حُفَاةً عاندينَ برَبِّهم	من خَوْفهم ومصابِ المَلّوانِ <sup>(٣)</sup>
هربوا بكلِّ وليدٍ وفَطيمةٍ	وبكلِّ أزملةٍ وكلِّ حَصانِ <sup>(٤)</sup>
فترفّقوا أيدي سبّا وتشتّتوا	بعد اجتماعهم على الأوطانِ <sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن المسلمين تقسموا فرقا بينا أيدى العصاة للرحمن تنالهم بغير قليل من الذل والهوان، وهاهم أهل القيروان يستصرخون فلا يغاث صرِيخهم حتى إذا بَحَّتْ أصواتهم من

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٥  
 (٢) الإرنان: الصياح والصراخ.  
 (٣) الملوان: الليل والنهار  
 (٤) حصان: سيدة عفيفة  
 (٥) يقال: تفرّقوا أيدي سبّاً إذا تشتتوا في أرجاء الأرض

الصراخ ولا مغيث ولا مستجيب خرجوا على وجوههم يَعدون حفاة عائدين برهيم من القتل والأسر وما يأتي به الملوان أو الليل والنهار من مصائب ونكبات، ويقول إنهم فروا من الأعراب بكل مولودة ومفطومَة وبكل أرملة وكل عفيفة رجاء أن يحموهن من السبي والهوان، وتفرقوا وتشتتوا في البلاد وتشتت معهم العلماء والشعراء. وكان يعاصره ابن شرف، وله بدوره في القيروان حينئذ بكاء وتفجع مرير، وسنخسه بكلمة. ومن نديها وتذكر إخوانه بها وقد رحل عنها إلى الأندلس على الحصرى، وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

ألا سَقَى اللهُ أرضَ القيروان حَيًّا      كأنَّهُ عَبَراتُ المستهلَّاتِ  
فإنها لِدَةُ الجَنَّاتِ تُرَبَّتُها      مِسْكِيَّةٌ وَحَصَّاهَا جَوْهَرِيَّاتُ  
إلا تَكُنْ في رَبَّاهَا رَوْضَةٌ أَنْفُ      فإنما أوجُهُ الأَحبابِ رَوْضاتُ<sup>(٢)</sup>  
لايَسْمَتَنَّ بها الأَعْداءُ أَنْ رُزِتْ      إن الكسوفَ له في الشمسِ أوقاتُ<sup>(٣)</sup>  
هل مطمَعٌ أن تُردَّ القيروانُ لنا      وَصَبْرَةٌ وَالْمَعْلَى فَالْحَنِياتُ

وهو يدعو للقيروان بالسقيا الوافرة كدموعه الغزيرة التي لاتزال كلما ذكرها استهلَّت فإنها رفيقة الجَنَّاتِ، تربتها مسك وحصاها جواهر لامعة، وإلا يكن في رباهها الآن بعد أن خربها بنوسليم وهلال روضة جديدة بديعة فأوجه الأحباب بها روضات فاتنة، ويذكر ما أصاب القيروان من خراب فيقول: لا يشمت بها الأعداء لأن رُزيت ونكبت فإن الشمس الساطعة يلم بها الكسوف أحيانا، فهو رزء إلى أجل، وتعود بعده القيروان إلى حضارتها وازدهارها المعهود. ويتمنى أن تعود سريعا إلى أهلها هي وصبرة وغيرها من المواضع والمدن. ومرَّ بنا أن عبدالمؤمن بن علي أمير الموحدين استولى على مدينة قابس من يد مدافع بن رشيد الهلالي بعد موقعة هُزم فيها مدافع وفر إلى أعراب طرابلس ثم لحق بعبد المؤمن في مدينة فاس فأكرمه وأسكنه بها، وكان ممن فرَّ بعد الموقعة أبو ساكن عامر بن محمد من عشيرة مدافع وأبعد في فراره حتى دمشق وهناك بكى قابس وأيام حكم عشيرته لها. ومن قوله<sup>(٤)</sup>:

يا حارِ طَرْفِي غيرَ هاجِعٍ      والدَّمْعُ من عينيَّ هامِعٌ<sup>(٥)</sup>  
إني من الشُّمِّ الأَلَى      شادوا العُلاءِ أبناءِ جامع  
ولقد مَلَكنا قايِسًا      بالمَشْرِفيَّاتِ القواطِعِ

(٤) الخريدة ١٣٩/١ وما بعدها والحلل السندسية.

(٢) ٣٥٧/٢ وما بعدها.

(٥) هامع: سائل

(١) الذخيرة ٤/٢٧٧

(٢) أنف: مزدهرة جديدة

(٣) رزيت: نزل بها رزء: مصيبة

تسعين عاما لم يكن فيها لنا أحدٌ منازعٌ  
عَبْتُ بنا أيدي الزمان وأحدثتُ فينا البدائع

وحارٍ مرخمةً أي ياحارث، وهو يشكو من أنه يبئ مسهدا ودموعه تهمي لا تتوقف لسقوط قابس في أيدي الموحدين وانتهاء حكم دولتهم من بني جامع الهلاليين، ويقول إنه من الشم العظام الذين شادوا العلا ورفعوها إلى السماء أبناء جامع الهلاليين الذين ملكوا مدينة قابس بسيوهم الحادة القاطعة تسعين عاما متصلة لم ينازعهم فيها أحد، وأخيرا عبثت بهم أيدي الزمان فأخرجتهم من قابس وتركوها إلى الأبد. ويكي الدولة الحفصية في أواخر أيامها وحاضرتها تونس محمد بن عبد السلام وسنخسه بكلمة بعد ابن شرف.

### ابن<sup>(١)</sup> شرف القيرواني

هو أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي الأجدابي المولود بالقيروان حوالي سنة ٣٩٠ ويبدو من نسبته إلى قبيلة جذام أنه من أبنائها إما صليبة وإما ولاء، كما يبدو من تلقيه بالأجدابي أن أصل أسرته من أجدابية بليبيا ونزلت القيروان وعلى كل حال هو قيرواني المولد والمنشأ والمربي، ويذكر ياقوت في صدر ترجمته له أنه درس على أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي. وكان القابسي شيخا جليلا من شيوخ القيروان في الفقه والتفسير والحديث، وتوفي سنة ٤٠٣ فلزم تلميذه أبا عمران الفاسي يأخذ عنه ما عنده كما لزم القرزاز عالم النحو واللغة بالقيروان في زمنه وأيضا لزم أبا إسحق إبراهيم الحصري المتوفى سنة ٤١٣ صاحب زهر الآداب، وكان حبيبا إلى نفوس شباب القيروان قريبا إلى قلوبهم، فكان يجتمع معهم عنده ويتهل من معارفه الأدبية الكثيرة. وتفتحت ملكته الأدبية مبكرة، وألف في نقد الشعراء منذ الجاهلية مصنفا موجزا وصف كثيرين فيه وصفا مجملا سماه «رسائل الانتقاد» وهو أشبه بمقامة.

ويبدو أنه أخذ يحظى بمكانة مرموقة في الشعر مما جعله يتعرف على رئيس ديوان الإنشاء للمعز بن باديس الصنهاجي على بن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م وأعجب بمدائحه فيه، فرأى أن يقدمه إلى المعز، ونال استحسانه، وأصبح من شعراء الدولة يتغنى بانتصاراتها على

(١) التونسي ص ١٥٠ وابن شرف القيرواني للدكتور طه الحاجري (طبع بيروت).

(١) انظر ترجمة ابن شرف في الذخيرة ١٦٩/٤ وما بعدها والمخرودة ٢٢٤/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ٩٤/٢ والأمموزج ص ٣٤٦ والمجمل في تاريخ الأدب

قبائل زناتة ولواتة، ويغدو على المعز في المناسبات المختلفة بمدائحه مع قرينه ورفيقه ابن رشيق، وكان المعز أديبا ويعقد ندوات يحضرها ويحضرها بعض العلماء والأدباء، وأصبحت شاعرية المقربين، وجرَّ ما ينظمه في مديحه إلى شيء من المنافسة بينها، وجرَّت المنافسة إلى شيء من الجفوة ثم الخصومة، وفرعا أحيانا إلى التهاجي وأخذ كل منها يتعقب سقطات صاحبه، ويكتب في ذلك رسائل وخاصة ابن رشيق. وكثيرا ما كانا يعودان إلى التصافي والمودة - وبينما هم في ذلك إذا بالزحفة الهلالية تدمر القيروان فيتركها الشاعران مع المعز إلى المهديّة، وسرعان ما ينزلان صقلية، ويظل بها ابن رشيق، أما ابن شرف فيرحل عنها مع أسرته إل الأندلس، ويبدو أنه لقي مع أطفاله الصغار عنقا في رحلته بحرا وبراً، ويصورهم في بعض شعره حماما ضل أوكاره وكلما أفرعهم شيء تزاخوا على ضلوعه، وحضنه لا يسعهم - إذ كانوا تسعة، فهذا يثبت عليه وذاك يُزلق عنه، وهو حان مشفق عليهم. وينزل المريّة في الأندلس برحاب المعتصم بن صمادح ويمتدحه وينال عطاياه ويرسل ببعض قصائده إلى المعتضد أمير إشبيلية، وظل ينتقل بين أمراء المدن الأندلسية ببلنسية ومرسية وبظليوس وطليلة والوزير ابن السقاء بقرطبة وينال عطاياهم إلى أن توفي سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. ولم يكن ابن شرف شاعرا فحسب، بل كان أيضا صاحب شعور رقيق رقة مفرطة، كما كان صاحب حس مرهف إلى أبعاد حد، ويتضح ذلك في وصفه لنكبة القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م حين نزل بها الأعراب الهلاليون، وأخذوا يفتكون برجها ويسبون نساءها ويهدمون دورها ويأتون على كل ما كان بها من مظاهر الحضارة وال عمران، وله فيها وفيها نزل بها وداهما من الخراب قصائد رائعة، يقول في إحداها - وهي رائية - إنه لم يبق بها سراج مضىء سوى النجوم ولم يعد ينطق فيها خليط معاشر ولا عاد يُرى فيها أحد من نساها الجميلات فقد رحلن عنها وأصبحن بيتن على فرش الحصى يتغطين بأسمال بالية. ومن رائع تصويره لما حلّ بالقيروان من عدوان هؤلاء الأعراب الجفاة يوم غزوهما لها ويصور هذا اليوم الأسود قائلا:

بعد يومٍ كأنما حُشِرَ الخلد      قُ حُفَاةً به عَوَارِي رَجَلِي  
ولهم زحمةٌ هنالك تَحْكِي      زَحْمَةَ الحَشْرِ والصَّحَائِفُ تُتَلِي  
وعجيجٌ وضجّةٌ كضجيج الـ      حَخْلِقِ يَبْكُونُ والسَّرَائِرُ تُبَلِي<sup>(١)</sup>  
من أَيَّامِي وراءهن يتامى      مُلثُوا حَسْرَةً وشَجْوًا وثُكْلًا<sup>(٢)</sup>

(٢) أَيَّامِي: جمع أيم: العزب من الرجال والنساء.  
ثكلا: فقدا للولد

(١) في القرآن في وصف يوم القيامة أنه ﴿يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ﴾ وتختبر.



وَتَكَالَى أَرَامِلًا حَامِلَاتٍ طِفْلَةً تَحْمِلُ الرِّضَاعَ وَطِفْلًا<sup>(١)</sup>

لقد كان يوماً عصيباً لا كمثلته يوم، يوماً حُشر فيه أهل القيروان حفاة عراة راجلين، يتدافعون في زحام رهيب كزحام الحشر يوم البعث حين تتلى الصحائف، وصياح وضجيج وبكاء من كل جانب كأنه يوم الحشر حقاً يوم تُبلى وتبدو السرائر، ونساء أيامي غير متزوجات اكتظوا حسرة وحزناً وتكالى فاقدمات لأزواجهن أرامل مرضعات يحملن طفلات أو أطفالاً. ويستمر ابن شرف باكياً ما نزل بالقيروان قائلاً:

نادباتٍ، عَفْرَاءُ تُسَعِدُ سَعْدَى	وسعادٌ تجيب بالنَّوحِ جُملاً <sup>(٢)</sup>
ليس منهن من تودّع جاراً	لا، ولا حُرْمَةً تشيعُ أهلاً
فإذا القفرُ ضمهم فوق الدهر	رُ لهم غير ذلك النبل نَبلاً <sup>(٣)</sup>
من ثعابين حاملين نيوباً	عُصلاً: ذابلاً ونَبلاً ونَصلاً <sup>(٤)</sup>
وشياطينَ رامحين يُلاقو	ن بِجُونِ الفلَا مساكين عَزْلاً <sup>(٥)</sup>

وهن نادبات، عفراء تساعد سعدى فى الندب والبكاء وسعاد تجيب جملاً بالنواح والعيول، وليس منهن من تقف لتودع جاراً ولا سيدة تودّع أهلاً، وإذا الخلاء ضمهم صوب الدهر لهم نبلا غير ذلك النبل من ثعابين حاملين نيوبا صلبة: رماحا ونبالا ونصالا، وشياطين تطعن بالرماح فى سود الفلوات، مساكين عَزْلاً دون سلاح. ويبكى ابن شرف رجال القيروان الذين ولوا منها فرارا، قائلاً:

وإذا نَجَّتْ المقاديرُ منهم	راحلا بالخلاص يحمل رَحْلاً <sup>(٦)</sup>
لقى الهونَ والمذلةَ أنى	كان من سائر البلاد وَحْلاً
وترى أشرفَ البريةِ نفساً	ناكساً رأسه يلاطفُ نَذْلاً
مَرْقُوا فى البلاد شرقاً وغرباً	يَسْكُبونَ الدموعَ هَطْلاً وِوَبْلاً <sup>(٧)</sup>

والرجال إن نجت المقادير منهم راحلا ومعه رحله وما استصحبه فيه من الأوعية لقى الهوان والذل أنى كان وأين حل، وترى أشرف البرية وأعزها نفساً ناكساً رأسه يلاطف أحد هؤلاء

- (١) تكالى جمع ناكلة: فاقدة الولد.  
 (٢) عفراء وسعدى وسعاد وجل أساء نساء.  
 (٣) فوق: سُدّ.  
 (٤) عصلاً معوجة يريد صلبة. ذابلاً: رماحاً دقيقاً.  
 (٥) رامحين: يحملون الرماح، جون: سود من كثرة  
 الفبار.  
 (٦) الرحل: ما يحمل على الدابة للركوب أو من متاع وأثاث.  
 (٧) مَرْقُوا: تفرقوا. هطلا: متتابعة، وبلا: منهمة.

الأندال، ويا للحسرة لقد مُزّق وفُرّق أهل القيروان في البلاد شرقا وغربا، وإنهم ليسكبون الدموع متتابعة ومدرازا. ولا ريب في أن ابن شرف استطاع أن يثار لقومه وأهله من سكان القيروان من هؤلاء الأعراب الجفاة الغلاظ ثارا خالدا على مر الزمن بفضل شاعريته الفذة النادرة.

### محمد<sup>(١)</sup> بن عبد السلام

هو أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام مولده ومنشؤه ومرباه بتونس في القرن العاشر الهجري اختلف في شبابه إلى حلقات العلماء بجامع الزيتونة، وكان ذكيا فحمل عنهم معارفهم وأخذوا ينوّهون به وخاصة في الأدب، ولمع اسمه بين أدباء تونس وشعرائها، ولما احتل الإسبان مدينة تونس وأخذت تصدر منهم المظالم التي سجّلها التاريخ غضب ابن عبد السلام لمدينته وقومه وصمّ على مغادرة البلاد واتجه إلى الشام واتخذ دمشق مقرا له، وأخذ يقرئ بها للطلاب العلوم المختلفة ونصوصا جيدة من الأدب إلى أن توفي سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م ودُفن بباب الفراديس، وله قصيدة طويلة أرسل بها من دمشق إلى أهله يتشوق فيها إلى وطنه، ويبيكي تونس ودولتها الحفصية، وهو يستهلها بيث أشواقه قائلا:

سلوا البارق النجدى عن سُحْبِ أجباني  
ولا تسألوا غير الصّبا عن صبابتي  
وكم نحوكم حمّلتها من رسالتي  
وناشدتها بالله إلا تفضّلت  
تحية مشتاقٍ إلى ذلك الحمى  
وعما بقلبي من لواعج نيران  
وشدة أشواقى إليكم وأشجاني  
مدونة في شرح حالى ووجدانى  
بتبليغ أحبّابى السلام وجيرانى  
وسكّانه والنازحين بأطعان<sup>(٢)</sup>

وهو يطلب إلى أهل بلدته تونس الحبيبة أن يسألوا البرق المقبل من نجد مثوى الحب عما يذرف من دموع حنيننا إليهم وعما يضطرم في قلبه من نيران الشوق ولواعجه، ويقول لهم: لا تسألوا غير الصّبا - التي طالما ذكرها النجديون المحبّون - عن أشواقى وصبابتي وأشجاني، وكم حملتها إليكم من رسالة مفعمة بمشاعرى الوجدانية، وقد ناشدتها الله واستحلفتها به أن تفضّل بتبليغ أحبّابى وجيرانى التونسيين سلامى وإنها لتحية مشتاقٍ إلى ذلك الحمى وسكّانه وإلى النازحين عنه في الأَطعان والهواج ويقول.

(٢) أظعان جمع ظعينة: الراحلة يرحل عليها،  
والهودج.

(١) انظر في ترجمته وشعره المجلد في تاريخ  
الأدب التونسي ص ٢٣٠.

سقى الله هاتيك الديار وأهلها  
 وحياً ربوع الحي من خير بلدة  
 هي الحضرة العليا مدينة تونس  
 لها الفخر والفضل المبين بما حوت  
 سحائب تحكى صوب مدمعى القانى<sup>(١)</sup>  
 تخيرها قديماً أفاضل يونان  
 أنيسة إنسان رآها بإنسان<sup>(٢)</sup>  
 من الإيس والحسن المنوط بإحسان

وهو يدعو الله أن يسقى تلك الديار وسكانها بسحائب تحكى ما ينهل من مدمعه القانى، ويسأل الله أن يحيى تلك البلدة العظيمة التى تخيرها قديماً فضلاء اليونان، إنها المدينة العليا تونس مؤنسة كل إنسان يراها بعينه، وإن لها الفخر والفضل البين بما حوت من رجال الإيس ومن الحسن البارع. ويسترسل باكيا الدولة الحفصية بها قائلاً:

لقد حلّ منها آل حفص ملوكها  
 وسادوا بها عظم الملوك وشيدوا  
 وكان لهم فيها بهاء وبهجة  
 وكان لهم فيها عساكر جمّة  
 وكانت على الأعداء فى حومة الوغى  
 مراتب تسمو فوق هامة كيوان<sup>(٣)</sup>  
 بها من مباني العز أفخر ببيان  
 وحسن نظام لا يُعاب بنقصان  
 تصول بأسيافٍ وتسطو بمران<sup>(٤)</sup>  
 تصول بأبطالٍ وتسطو بشجعان

وهو يبكى الدولة الحفصية مشيداً بملوكها الذين سمت مراتبهم فوق رأس كوكب كيوان أو زحل، وسادوا أكثر الملوك وشادوا بها من قصور العز أفخر القصور وكان لهم فيها حسن وبهجة وجمال، وكانت لهم جيوش كثيرة تصول وتقهر بسيوفٍ ورماح صلبة، وكانت تسطو على الأعداء فى ساح لوغى والحرب بأبطال لا يماثلهم أبطال، ويبكى ما كان بتونس من علم وعلماء وأدب وأدباء قائلاً:

وكانت لطلاب المعارف قبلة  
 وكان لأهل العلم فيها وجاهة  
 ومن أدباء النظم والنثر معشر  
 وما برحت فيها محاسن جمّة  
 لما فى جماها من أئمة عرفان  
 وجاءه وعز مجده ليس بالفانى  
 يفوق بناديبها بلاغة سحبان  
 وفى كل نوع أهل حنق وإتقان

وهو يبكى حركتها العلمية والأدبية، ويذكر كيف كان الطلاب يؤمون أئمتها من كل فج كما يذكر ما كان لعلمائها عند حكّامها وأهلها من جاهٍ وعزٍّ مجده لا يفنى، ويشيد بأدبائها من

(٣) كيوان: زحل.

(١) صوب هنا: سيل.

(٤) المران: الرماح.

(٢) إنسان الثانية: إنسان العين وهو الحدقة.

الشعراء والكتّاب وبلاغتهم التي تفوق بلاغة سحبان المشهور بحسن بيانه في أوائل العصر الأموي، وينوّه بما كان بها من محاسن حضاريّة وصناعات بدیعة قام عليها أهل حذق واقتنان وإتقان. ويأسى لهذا المصير المحزن الذي أصاب مدينة تونس قائلاً:

فُشَّتْ ذاك الأُنسُ من بعد جَمَعِهِ      كما انتشرت يوماً قلائدُ عِقيانِ  
فأعظمُ برزءٍ خَصَّ خَيْرَ مدينةِ      وخيرَ أناسٍ بين عُجمٍ وعُربانِ  
لعمري لقد كادتُ عليها قلوبنا      تَضُرُّمُ من خَطْبِ عليها بنيرانِ  
وما الدَّهرُ إلا هكذا فاصطبرْ له      رزيةً مالٍ أو تفرِّقْ خِلانِ

وهو يقول إن كل هذا الأُنس الذي كانت تحظى به مدينة تونس وكل هذا الجاه والمجد تفرّق وتشتت كما تشتت وتنتثر قلائد أو عقود ذهبية بدیعة، وما أعظمه من رزء فادح نزل على خير مدينة وخير أناس بين الأعاجم والعرب، وإن قلوبنا لتضطرم عليها نيراناً ملتهبة. ويعود إلى نفسه فيقول إنه ليس أماناً إلا الصبر حتى تنجلي عن مدينتنا تلك الغمرة. وهي حقيقة الدهر، فهو دائماً يرزأ المدن كما يرزأ الناس إما في مال وإما في فراق إخوان وخلان.

## ٤

### شعراء الوعظ والتصوف

#### (أ) شعراء الوعظ

القرآن الكريم دائماً يعظ ويدعو الإنسان إلى التفكير المتصل في ملكوت السموات والأرض ليعلم أن له خالقا أحكم صنعه، ودائماً ينبه إلى أعمال وأقوال من العبادات التي تطهر نفسه كما ينبه إلى أنه حرّم الفواحش ما كبر منها وما صغر وأنه ينبغي أن يسلك طريق الفضيلة والتحلّي بالخلق الحسن حتى ينال رضا ربه نابذاً كل الرذائل ومراقباً ربه في كل ما يأتي من قول أو فعل. ويبدئ القرآن ويعيد في عقيدة المعاد وأن الناس سيبعثون جميعاً يوم القيامة وكلّ يحاسب على أعماله ويجزى عليها فيما إلى نعيم الله ورضوانه وإما إلى جحيمه وعذابه. وشرّع الله الخطاب الواعظة في صلاة يوم الجمعة كل أسبوع وصلاة العيدين، وواعظ الأمة الأول الرسول ﷺ وتلاه الخلفاء الراشدون يعظون الناس، وبالمثل خطباء الأمة في مشارق العالم الإسلام ومغاريبه، وتكاثر الوعاظ - مع مر الزمن - يعظون الناس في المساجد، وللإقليم التونسي مثل غيره من الأقاليم الإسلامية نشاط واسع في هذا الجانب، ويكتظ كتاب رياض النفوس للمالكي بأسماء وعاظ كثيرين كانوا يعيشون معيشه تقشف وزهد، رافضين متاع الدنيا

طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة. وساعد على انتشار هذه الروح الدينية هناك كثرة المحارس أو الرباطات التي أقيمت على طول الساحل التونسي للعبادة والنسك وحراسة البلاد من القراصنة وأعداء الله الروم وغيرهم. ولم يكن هناك فقيه كبير إلا ويقوم بها بعض أشهر سنويا للدفاع عن الوطن حين يباغته عدو أو قرصنة، واشتهر سحنون إمام المذهب المالكي في المغرب جميعه بأنه كان يربط وقتا في السنة بالمنستير قرب مدينة سوسة، وكان واعظا وزاهدا كبيرا وكثير من تلاميذه كانوا واعظا زاهداً واشتهر منهم شاعران فقيهان واعظان، هما أبو العباس بن زرزور وأحمد الصواف، أما ابن زرزور فأكثر من الشعر في توحيد الله والرد على المارقين والملحدين، وأما أحمد الصواف فله شعر كثير في المواعظ وسنخسه بترجمة. ويلقانا بعده ابن الرايس الفضل بن نصر المتوفى سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م وهو من أفذاذ الشعراء والعلماء، وله يعظ من قصيدة<sup>(١)</sup>:

ماذا تريك حوادث الأزمانِ      وصروفها وطوارقِ الحَدَثانِ<sup>(٢)</sup>  
والجارياتُ السَّبعُ في الفلِّكِ الذي      يجري بتقديرِ العظيمِ الشانِ  
من خَفْضِ أعلامٍ وَرَفْعِ معاشِرِ      وزوالِ سلطانِ إلى سلطانِ  
أما الزمانُ فواعظُ لك صرْفُهُ      لو كنت متعظاً بِصَرَفِ زمانِ

وهو يقول: ها هي حوادث الأزمان ونوابها وحوادث الليل والنهار وما تجرى به الكواكب السيارة في الفلك بتقدير الله وما يتصل بذلك من الهبوط بأناس والارتفاع بآخرين وزوال سلطان إلى سلطان، كل ذلك هو الزمان، وحرى بك أن تتعظ بصرفه وبما يجرى به من محن وخطوب. ولا ريب في أن حلقات الوعظ الكثيرة التي كانت منبئة في القيروان وغيرها منذ القرن الثالث بل قبله هي التي أعدت لكثرة الوعظ على السنة الشعراء. ويقول عبد الله بن رشيقي المتوفى سنة ٤١٩/١٠٢٩م<sup>(٣)</sup>:

خيرُ أعمالك الرِّضا      بالمقادير والقضا  
بينما المرءُ ناطقٌ      قيلَ قد كان فأنقضى

وهو يدعو إلى الرضا بالقضاء فلن يستطيع أحد أن يبدل حكما له، وإذن لا بد أن يقبل كل ما ينزله به، فذلك هو عين العقل والصواب. ويخوف عبدالله بن رشيقي من الموت إذ ما يلبث أن ينزل بالإنسان، فيقال: قد كان حيا وانقضى أجله وانتهى. ويقول على بن أبي الرجال رئيس

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٨٨. والنهار.

(٢) صروف جمع صرف: نواب الحدثنان: الليل (٣) الأنموذج ص ١٩٢.

ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية المتوفى سنة ٤٢٦ للهجرة<sup>(١)</sup>:

أَمَّنُ الزَّمَانَ زَمَانَةَ الْعَقْلِ فَأَخْشَ الْإِلَهَ وَحُلَّ عَنِ الْجَهْلِ<sup>(٢)</sup>  
واعلم بأنك في الحساب غداً تُجزى بما قدمت من فعلٍ

وهو يقول إن من يأمن الزمان لا يُعدّ صحيح العقل، بل لكأنما عقله به آفة، وأى زمان إننا نحى فيه حياة قصيرة أو طويلة ثم نلقى الله فحري بكل شخص أن يخشاه وأن يتخلص مما على عقله من غشاوة الجهل فإنه معروض على ربه في الحساب غداً ويجزى بما قدمت يده من عمل طيب أو سيئ. ويقول على بن حبيب التوخي المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م واعظاً<sup>(٣)</sup>:

للمرء في أيامه واعظٌ لو فكَّرَ المغرورُ في رَمْسِهِ<sup>(٤)</sup>  
كم من قرير العين في غِبْطَةٍ أعراه صَرْفُ الدهر من لِبْسِهِ  
ففارق الأحباب عن كُرْهِهِ واستبدلَ الوَحْشَةَ من أَنْسِهِ  
ياربِّ غُفْرَانَكَ يَرْجُو الذي أسرف في الدنيا على نفسه

وهو يعظ المغرور بأنه لو فكر في رمسه أو قبره وأنه مدفون به غداً لطأطأ من غروره، وتذكركم من شخص كان مسروراً في نعمة وحياة رغدة طيبة جرّده حادث الدهر من ذلك كله، ففارق الأحباب مكرها مرغماً وأصبح في حفرة مظلمة لا أنيس ولا رفيق. ويتجه الشاعر إلى ربه معترفاً بما أسرف على نفسه من الذنوب راجياً منه الغفران. ويقول عبد الله التجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المديح من قصيدة وعظيمة طويلة<sup>(٥)</sup>:

بادرْ إلى التقوى بدارَ مُسَارِعِ وانهضْ إلى الطاعات نهضَ سِبَاقِ  
واغنم من الأيام مهلة ساعية قبل التفاف السَّاق منك بساقِ  
يا أيُّها الإنسان إنك كادحٌ كَدْحًا وأنت لما كدحت مُلَاقِ  
والمرء مجزئٌ بما هو فاعلٌ وجزاؤه جارٍ على استحقاقِ

وهو ينصح من يخاطبه بالمبادرة إلى التقوى وعبادة الله بدارَ مسارعٍ عجل، وبالنهوض إلى

(١) المجلد ص ١٢٩.

(٤) رمس: قبر.

(٥) اللحل السندسية ٥١٦/٢ والمجلد في تاريخ

(٢) زمانة: مرض. حُل: تحول.

الأدب التونسي ص ٢١٣.

(٣) الأنموذج ص ٢٨١ واللحل السندسية ٣٣٤/٢

والمجلد ص ١٣٤.

أداء الطاعات نهوض من يريد الحصول على قصب السبق، وينصحه كذلك أن لاتفلت منه مهلة ساعة أو لحظة دون أن يعبد الله حق عبادته قبل أن يوافيه القدر ويبعث يوم القيامة يوم الهول الأكبر والتفاف الساق بالساق كما جاء في وصف يوم البعث بسورة القيامة. ويستعين عبد الله في البيت الثالث بالآية القرآنية في سورة الانشقاق: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ فالإنسان عامل في دنياه وسيلقى جزاء ما عمل من خير أو شر في أخراه، إذ كلُّ يُجْزَى بعمله وينال ما يستحقه من ثواب أو عقاب. وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الصواف ومواعظه.

### أحمد<sup>(١)</sup> الصواف

هو أحمد بن أبي سليمان داود الصواف، ولد سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ودخل الكتاب مثل لداته وحفظ فيه القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات المحدثين والفقهاء، ولزم حلقة سحنون وكان من أقرب تلاميذه إليه لما عهد فيه من ذكاء، وفي كتاب الحلل السندسية روايات مختلفة له عن أستاذه تتصل ببعض أخباره وبعض الأحاديث النبوية. وكان ثقة في الفقه والعلوم الإسلامية، وروى كثيرا من الشعر غزى به ملكته الشعرية، وكان يوصى طلبته بالوقار والتعفف ومجالسة العلماء ومجانبة الأشرار، وكان كثير التأمل في ملكوت السموات والأرض، ونقش على خاتمه: «أحمد تفكر تعتبر» ويؤثر عنه أنه كان يقول: أنا حُبْسُ (موقوف) وكتبي حبس على طلبية العلم، فهو محبوس على عبادة ربه ونسكه وكتبه محبوسة على طلاب العلم والمعرفة، وكان شاعرا جيدا وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره في الحكمة والعظة المحسنة، وعاش طويلا حتى وافاه الأجل سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م ومن وعظه:

تركتُ تكاليف الحياة لأهلها      وجائتُها طوعًا فجانيني الردى  
أراني بحمد الله في المال زاهدًا      وفي شرف الدنيا وفي العزّ أزهدا  
تخليتُ عن دُنْيَايَ إلا ثلاثةً      بدفاتر علمٍ ثم بيتًا ومسجدًا

وهو يقول إنه لم يتعلق بشيء من تكاليف الحياة ومتاعها، ولذلك بارك الله في حياته وجانبه الموت، ويصرح بأنه زاهد في كل ما يطمع فيه الناس من المال ومن الشرف والعز والمجد فكل ذلك لا يعتد به إنما يعتد بثلاثة لا غير: بدفاتر العلم ومدارسته وبالمسجد يتبتل فيه إلى ربه وبيت يأوى إليه، فتلك الثلاثة هي غناه وسعادته وكل ما يقنتيه من دنياه. ثم بقول:

(١) انظر في أحمد الصواف رياض النفوس السندسية (انظر الفهرس).  
لللكي ٤٠٧/١ وما بعدها والمجلد ص ٦٩ والحلل

ألم تر أن الدهر يقرى أهيله  
فما حل قوم فيه إلا بفجعة  
وكم قد رأينا من عزيز مشرف  
أنته المنايا وهو في حين غفلة  
هموماً وأن العيش صار منكداً<sup>(١)</sup>  
وأنت لأخرى فيه منتظر غدا  
بيت مقراً في القباب ممهداً  
فأضحى ذليلاً في التراب مؤسداً

وفيم تعلق الناس بالدنيا؟ إن الدهر لا يزال فيها يقرى الناس - ويطعمهم - هموماً هما من بعد هم، وقد صار العيش فيها نكداً كله، وهل أحد فيها إلا أصابته فجعة أو مصيبة موجعة من موت صديق أو قريب، وإن الكأس التي ذاقوها ليذوقها كل شخص بدوره، وكم قد رأينا من عزيز له شرف لا يدانيه شرف يترك ذلك كله حين يوافيه القدر إلى قبر ممهد بين القبور، وإنه ليموت على حين غفلة من أهله وأصفيائه، ويدفن في التراب ويتوسده ويصبح فيه أسيراً ذليلاً لا شرف ولا طنافس، ولكن تراب بجانبه تراب. وقال مبتهلاً إلى ربه في ختام قصيدة له طويلة:

أجرني من عذابك واعف عني  
فإني قد كبرت ورق عظمي  
وكن لي منك يا أملئ مجيراً  
وجئت إلى فنائك مستجيراً

فهو لا يخاف الموت ولا يرهبه، ولذلك لا يعد المشيب نذيراً له بل بشيراً، إذ سيلقى ربه، وعاش حتى توفي في السابعة والثمانين من عمره.

### (ب) شعراء التصوف

مر بنا في الفصل الأول كيف أخذت تنشط حركة الزهاد والنسك في القيروان وتونس وغيرها من بلدان الثغور على الساحل التونسي منذ أواخر القرن الثاني للهجرة، إذ بُني بجوار هذه الثغور رباطات - وتسمى هناك محارس - للمجاهدين في سبيل الله ضد القراصنة وكانت أشبه بحصون كبيرة إذ كان بعضها يبلغ نحو ثلاثين غرفة ومعها مسجد وحمامات وأحواض مياه، وكثيراً ما كان يُلحقُ بها إسطلب للخيل حتى يتمرن العباد فيها والناسكون على الفروسية ولقاء العدو، وطبيعي أن كان بها بعض الأسلحة. وأعطت هذه المحازس أو الرباطات الفرصة لكي تتكون طبقات من النسك الذين وهبوا نفوسهم للنسك ولجهاد أعداء الله، وكان الفقهاء - حتى كبارهم من أمثال سحنون إمام المذهب المالكي في الفقه - ينزلونها فترات ويلقون بها محاضرات ودروساً من شأنها أن تزيد النسك نسكاً وأن تدلح الحماسة في قلوبهم لحماية الإقليم التونسي.

(١) يقرى: يطعم.



وصحنا الآن جانب النسك والعبادة، وقد أخذ كثيرون في تلك المحارس يعيشون للنسك الخالص وحكاكهم في ذلك بعض سكان القيروان وغيرها من المدن. وكان التصوف قد أخذ يشيع في المشرق وانثى عنه ضرب فلسفى آمن بالحلول على نحو ما هو معروف عن الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ للهجرة، وظلت القيروان ومحارس الساحل التونسى بعيدة عن هذا التصوف الفلسفى، غير أنه مع الزمن أخذ يظهر فيها من استغرقوا في الزهد والنسك، حتى ليتمكن أن نسميهم متصوفة، غير أنهم متصوفة سنيون، وهو تصوف فردى فلا طريقة صوفية للمتصوف ولا مبادئ خاصة يتخذها لطريقته الصوفية مثل أبي عقال المار ذكره غلبون بن الحسن بن غلبون من أسرة الدولة الأغلبيية من أبناء مدينة رقادة بالقرب من القيروان، وكان عابدا ناسكا، وهاجر إلى مكة واختارها دار مقام له إلى أن توفى، وله أشعار زايدة كثيرة عليها مسحة من التصوف أنشد منها المالكى في رياض النفوس مقطوعات متعددة<sup>(١)</sup>.

ومن متصوفة هذا الدور محرز بن خلف المتوفى سنة ٤١٣ وأبو الفضل بن النحوى المتوفى بعده بقرن. وسنخص كلا منها بكلمة. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت لا تعرف التصوف الفلسفى ولا الطرق الصوفية حتى منتصف القرن السادس الهجرى إلا ما كانت تقرؤه في الكتابات المشرقية، وتنتشر موجة التصوف الفلسفى غربى الإقليم التونسى بمدينة بجاية إذ ينزلها أبو مدين شعيب المتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م وكان يشوب تصوفه شىء من النزعة الفلسفية، وتبعه كثيرون في الجزائر والمغرب وزار تونس، وتبعه فيها غير تلميذ مثل أبى سعيد خلف بن يحيى التميمى المولود سنة ٥٥١ والمتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. ويبدو أن عقيدته الصوفية لم ترسخ في القيروان، وزار تونس - بعده - محبى الدين بن عربى المتصوف الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ وأقام بها مدة التف فيها حوله بعض الأتباع، وأهم منه ومن أبى مدين تأثيرا في الإقليم التونسى أبو الحسن الشاذلى المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م والناشئ فيه بشاذلة إحدى بلدانه واتجه إلى التصوف مبكرا، ورحل إلى المشرق وتعرف فيه على أحد معتقى الطريقة الرفاعية، وهى إحدى الطرق الصوفية السنية التى ظهرت بالمشرق في القرن السادس الهجرى، وعاد إلى المغرب واتجه غربا إلى فاس ولقى فيها عبد السلام بن مشيش أحد أتباع طريقة أبى مدين، فلزمه مدة، ثم تركه إلى شاذلة وعاش بها فترة، وكان يتركها، أحيانا إلى تونس وينشر فيها دعوته، وتبعه فيها أصحاب كثيرون وكان يهاجم الخانقاهات والتسول بقوة، وتعرف على تلميذه أبى العباس المرسى وأعجب كل منها بصاحبه. ويبدو أنه رأى أن يتسع بدعوته إلى طريقته، فصمم على مغادرة تونس إلى الاسكندرية وصحب معه

(١) رياض النفوس للمالكى ٤٣٧/١ - ٤٤٢

أبا العباس المرسى وجمعا من مريديه ونزلها سنة ٦٤٢هـ، ويقال إنه ترك في تونس خمسين تلميذا متصوفا من أتباعه مثل على القرجاني وعائشة المنوبية<sup>(١)</sup> وطريقته أقرب إلى الطرق الصوفية السنية منها إلى الطرق الصوفية الفلسفية، وشاعت طريقته لا في الاسكندرية وحدها، بل أيضا في القاهرة والمدن المصرية المختلفة، بفضل تلميذه السكندري ابن عطاء الله، وقد تولى مشيخة الطريقة بعد وفاة أبي العباس المرسى سنة ٦٨٥هـ وله فيه وفي الشاذلي كتابه الرائع لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن» وقد ساق فيه أربعة أورداد للشاذلي، وأخذت تتولد من هذه الطريقة بمصر طرق جديدة مثل الطريقة الوفائية، وكلها تنزع منزعا سنيا. وظلت الطريقة الشاذلية تشيع في عصر الدولة الحفصية، وأخذت تشيع معها طرق صوفية مختلفة. ولا بد أن نشير إلى اهتمام هذه الدولة ببناء الزوايا في تونس لكبار المتصوفة، حتى اكتظت بها المدينة كما لا بد أن نشير إلى ما ذكرناه في الفصل الأول من أن المتصوفة في العهد الحفصي انحرفوا عن واجبه من الجهاد ضد أعداء الله وعاشوا عالة على الدولة والأمة مردين للعامة كلمات القطب والأبدال والكرامات. وتتوقف قليلا لتتحدث عن صوفيين سنيين مبكرين هما محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى.

### محرز<sup>(٢)</sup> بن خلف

هو محرز بن خلف بن رزين من ذرية أبي بكر الصديق رضى الله عنه، نشأته ومرباه بتونس، ولا بد أن كان والده من فضلائها، وقد عكف على حلقات الشيوخ بها ينهل من معينهم في الفقه والتفسير والحديث النبوى، وأيضا في علوم العربية. ولم يحاول بعد أن فرغ من تعلمه وأخذ ما عند الشيوخ أن يجلس إلى حلقة يعلم فيها الطلاب الناضجين من الشباب، بل رأى أن يعنى بتعليم الناشئة العربية وأصول الدين الحنيف وتعاليمه، وكان يسلك في ذلك طرقا تعليمية حميدة مما جعل الناس يطلقون عليه اسم المرزى محرز. وكانت مدرسته في مدينة تونس معروفه باسمه، دفن فيها، وكان تقيا صالحا يتوفر على عبادة ربه والنسك له، مما لفت إليه أنظار مواطنيه، وجعلهم يحسنون الاعتقاد فيه، حتى أطلقوا عليه اسم الولى الصالح، وظل هذا الاعتقاد يلازم التونسيين بعد وفاته عن سبعين عاما ونيف سنة ٤١٣ حتى لقبوه بسلطان المدينة، لقب خصوه به دون غيره من الصوفية أصحاب الزوايا الكثيرين في البلدة. ونسوق بعضا من كلام صاحب الحلل السندسية في ترجمته له إذ يقول عنه: «الشيخ الأستاذ الذى شحن بنفحات عوارفه الأبواب، وتغذى من الإخلاص بخالص اللباب، وفتح له بحضرة اللطائف أعرض باب.. ألا وهو الحجاب الإحاطى بقصور العرفان والكوكب الذى قصر عن مشاهدته العيان، والكهف

(١) من قرية منوبة بالقرب من تونس. والمجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١١٦.

(٢) انظر في محرز الحلل السندسية ٨٧٤/٤.

الذى استظل تحت جناح مدده الملوان (الليل والنهار).. المالكى مذهبا الصوفى دأبا البكرى (نسبة إلى جده) نسابا.. وهى مبالغة واضحة، غير أنها تدل - من بعض الوجوه - على مدى اعتقاد التونسيين فيه. ومن قوله فى الدنيا وتصاريدها وتقلباتها:

أبدت لنا الدنيا زخارف حُسنها      مكرًا بنا وخديعةً ما فترت  
وهى التى لم تحل قط لذائق      إلا تكدر طعمها فتمررت  
خداعةً بجمالها إن أقبلت      فجاعةً بزوالها إن أدبرت  
وهابةً سلابةً لهباتها      طلايةً لخراب ما قد عمرت  
فإذا بنت أمرا وتم بناؤها      نصبت مجانقها عليه فدمرت

وهى عظة بديعة، يقول: لا تغتر بما تيديه لك الدنيا من زخارفها وزينتها، فذلك مكر منها وخديعة لا تقصر فيها، إنها لم تصف وتحل قط لذائق إلا تغير طعمها وتمرر مرا شديدا، وحذار من إقبالها بحسنا عليك فإنها لا تلبث أن تدبر عنك وتفجعك فيها أعطتك، إنها وهابة غير أنها سرعان ماتسلب ما وهبتك، وإنها لتخرّب ما عمرته لك، وإذا شادت أمرا ورفعته عاليا سرعان ما تصب مجانيقها عليه وتدمره تدميرا كأن لم يكن شيئا مذكورا. ويحاول أن يعزى المظلومين قائلا:

إذا ظالم قد عاهد الظلم مذهبًا      وجار غلواً فى علو اكتسابه  
فكله إلى ربّ الزمان وجوره      سيبدى له ما لم يكن فى حسابه  
فكم ذا رأينا ظالما متجبراً      يرى النجم تهبها تحت ظل ركابه  
فلما تمادى واستطال بجوره      أناخت صروف الحادثات بيباه  
وعوقب بالذنب الذى كان يجتنى      وصب عليه الله سوط عذابه

وهو يقول للمظلوم إذا رأيت ظالما باغيا غلا وجار فى بغيه وعدوانه فاصبر ودعه إلى صرف الزمان وتقلبه فإنه سيريه ما لم يكن يخطر على باله، وكم رأينا ظالما عاتيا بلغ من عتوه وتجبره أن كان يرى النجم كأنه يمشى فى ركابه، ولما تمادى فى عتوه وبغيه وظلمه نزلت النكبات بيباه وأقامت به لا تيرحه فعوقب عقابا أليبا بذنبه الذى جناه بعمى بصيرته وصب الله عليه سوط عذابه جزاء وفاقا لظلمه وبغيه. وله موعظة جعل موضوعها مدينة قرطاج عاصمة الفينيقيين، ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون، وتحدث عن عظمة الأولين البحرية وبناء الثانين للطباطرو (للتياترو) وبناء حناياها لتوصيل مياهها وتشبيدهم للقصور، ويقول إن كل ما عاشت فيه كل تلك الدول المختلفة أصبح أطلالا دوارس، ويختمها بقوله عن حكامها جميعا واعظا ومنها إلى أنه لابقاء لشيء فى الحياة:

لقد وُسِّدوا بعد الحرير جنادلاً ولم يُغْنِ عنهم ما بنَوْهُ وشيَّدوا ولم يستطيعوا للحوادث مدْفَعاً وما مُتَّعوا في الدهر مَع من تمتعاً ولن تَسْمَعوا إلا الصدى بعد هاتفٍ مجيباً له ثم الرياح الزُعازعا<sup>(١)</sup>

وهو يقول إن حكامها بعد معيشتهم في القصور الباذخة وما كانوا يتوسدون من الحرير والإستبرق والطنافس أصبحوا يتوسدون الصخور والتراب، وعبثا حاولوا أن يدفعوا عنهم حوادث الدهر إذ خروا صرعى جميعا، ويلتفت الشيخ محرز إلى صاحبيه هاتفا إن جزتما بربوعها الدارسة نادياتي وتسمعا فإنكما لن تسمعا إلا صدى نداءكما ورياحا عاصفة، إذ أصبحت تلك المدينة ذات التاريخ العريق والأبنية الشامخة أطلالا عافية ورسوما دائرة، وهذه هي الدنيا كل شيء فيها إلى بلى وفناء

### أبو الفضل<sup>(١)</sup> بن النحوى

هو أبو الفضل يوسف بن محمد الذى عُرف باسم ابن النحوى، مولده ومرياه بمدينة توزر قاعدة بلاد الجريد فى الإقليم التونسى وتركها شابا إلى القيروان لينهل من حلقات شيوخها وصحب اللخمى وأخذ عنه صحيح البخارى، ولما توفى لزم تلميذه المازرى حامل لواء الفقه المالكى، وحمل عنه مصنفاته الفقهية وأماله فى الحديث النبوى، ونزل قلعة بنى حماد وأقرأ أو درس بها للطلاب وجال فى أنحاء المغرب، وأقرأ فى سجلماسة وفى فاس، وعاد إلى قلعة بنى حماد وتصدر فيها للتدريس بقية حياته إلى أن توفى عن ثمانين عاما سنة ٥١٣هـ/١١٢٠م، وكان لا يقبل من أحد عطاء ولا من حاكم راتبا، وظل يعيش طوال حياته من دخل مزرعة له بتوزر. وكان مثالا رفيعا للعلماء وعلى سنن الصالحين، قال عياض: «كان من أهل العلم والفضل، شديد الخوف من الله، غالب حاله الحضور معه تعالى». وله قصيدة استغاثية بديعة تسمى «المنفرجة» طارت شهرتها فى الآفاق وفيها يقول:

اشتدَّى أزمَةٌ تَنفَرِجِي      قد آذَنَ لَيْلِكِ بِالْبَلَجِ<sup>(٣)</sup>

تاريخ الأدب التونسى ص ١٧٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٠٩/٥ وذكر لقصيدته المنفرجة شروحا كثيرة منها شرح للنقاوسى البجائى وشرح لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى كما ذكر لها تشطيرات وتخميسات مختلفة. (٣) البلج: ضوء الصباح.

(١) الزعازع: الشديدة  
(٢) انظر فى أبى الفضل بن النحوى الخريدة ٣٢٥/١ وعنوان الدراية للغبرينى ص ١٩٤ والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن منقذ ص ٢٦٨ وكتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ١٩٥/١ وما به من مصادر والمجمل فى

وظلامُ الليل له سُرُجٌ حتى يغشاه أبو السُّرُجِ (١)  
 وسحابُ الخير له مطرٌ فإذا جاء الإِبَّانُ يجي (٢)  
 وفوائدُ مولانا جُمَلٌ لسرورِ الأنفسِ والمهجِ  
 ولها أَرَجٌ مُحَيٌّ أبداً فاقصد مَحْيَا ذاك الأَرَجِ (٣)  
 والخلقُ جميعاً في يَدِهِ فَذَوُّ سَعَةٍ وَذَوُّ حَرَجِ (٤)

وهو يسلم أمره إلى ربه مؤمناً بأن أى أزمة أو كارثة مهما اشتدت لا بد أن تنفرج، وأن ليلها ليوشك أن يتلوه البلج أو ضوء الصباح، ونفس ظلام الليل الداجي له سرج من النجوم حتى يغمره ضوء الشمس أبو السرج، وإن كل شيء له أوان، وما أسرع أن يهطل سحاب الخير حين يأتي إبَّانه وأوانه، وإن نعم الله لتأتى جُملاً تترى لتضيء النفوس والأرواح ولها شدَى عطر محي دائماً فاقصده واحرص عليه حتى تحيا حياة هنيئة، وارض بقضاء الله في قسمته الخلق بين مَوْسِعٍ - ومضيقٍ - عليه في الرزق، فلذلك حكمته. وفيها أيضاً يقول:

وإذا انفتحتُ أبوابُ هُدَى فاعجلْ لخزائنها وِلَجِ (٥)  
 ولطاعته وَصَبَّاحَتِهَا أنوارُ صباحِ مُنْبَلِجِ (٦)  
 من يخطبُ حورَ العِينِ بها يظفرُ بالحورِ وبالغَنَجِ (٧)  
 وكن المرضيُّ لها بتقيُّ ترضاه غَدًا وتكون نَجِي

وهو ينصح مخاطبه إذا انفتحت أمامه أبواب الهدى أن يسارع إلى ولوجها ودخولها ليهنأ بطاعة ربه وأنوارها المضيئة المشرقة، وليكون من أهل الجنة ومحظى بالحور ودلاهن وجمالهن، وهولن ينالهن إلا بتقى الله حق تقاته وعبادته له حق عبادته. ويوصيه بتلاوة القرآن الكريم والتهجد قربي لرضوان ربه. والمنفرجة في أربعين بيتاً، كلها بهذه اللغة السلسلة العذبة وهذه الموسيقى ذات الألحان البديعة. وكان أبو الفضل صوفياً بحق، يأخذ نفسه بالتقشف ويلبس خشن الصوف، ويعبد الله كأنه يراه أو كما قال عياض كأنه حاضر معه، وله يضرع إلى الله تعالى في بعض تهجده:

- 
- (١) سرج: يقصد النجوم. أبو السرج: ضوء الشمس.  
 (٢) الإبان: الأوان.  
 (٣) أرج: عطر.  
 (٤) حرج: ضيق.  
 (٥) وليج: ادخل.  
 (٦) صباحة: إشراق. منبلج: مضىء.  
 (٧) الحور العين: نساء الجنان كما في القرآن.  
 الغنج: الدلال.

لبستُ ثوبَ الرَّجَا والنَّاسُ قد رقدوا  
 وقلتُ يا سيدي يا مُنتَهَى أُملى  
 أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها  
 وقد مدت يدي للضرِّ مُشْتَكِيًا  
 وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجْدُ  
 يا مَنْ عليه بكشف الضرِّ أعتدُ  
 مالى على حَمَلها صَبْرٌ ولا جَلْدُ  
 إليك يا خير من مُدَّت إليه يَدُ

وهو يضرع إلى ربه لابساً ثوب الرجاء والأمل والناس نيام قائماً بين يديه يشكو متضرعاً متذللاً إلى سيد الكون ومنتهى أمله في دنياه أن يكشف عنه الضر وكل ما يعلمه مما لا طاقة له ولا صبر ولا جلد على حمله، ويقول ضارعاً شاكياً لقد مدت يدي إلى خير من تمد له الأيدي فلا تردني عن بابك خائباً. واكشف عني ما أصابني من ضر بفضلك وإحسانك وإنعامك.

## ٥

## شعراء المدائح النبوية

الرسول ﷺ المثل الأعلى الكامل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهم حين يحجون يقصدون إليه في المدينة لزيارة قبره العطر، وما من مسلم إلا وهو يتمنى هذه الزيارة الشريفة، فإن أقدته - أو منعه - الضرورة وكان شاعراً دبج قصيدة يتشوق فيها إلى اكتحال عينيه برؤية قبر حبيب الله وصفيه: الرحمة المهداة والنعمة المسداة إلى أمته المخصوص بالإسراء ليلاً إلى بيت المقدس ومعراجه أو رقيه إلى السموات السبع، الذي خُصَّ بالقرآن الكريم معجزته الكبرى التي ليس لها سابقة مماثلة ولا لاحقة، مع ما اتصف به من خلق رفيع يعجز البيان عن وصفه، ومع رسالته الإلهية الهادية التي تحقق للناس السعادة في الدارين. وقد دبج حسان وكعب بن زهير وغيرهما في حياته قصائد بديعة في مديحه، وتكاثرت سيول هذا المديح بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلى اليوم على السنة شعراء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً بحيث تكون نهرًا عظيمًا لكل بلد أو قطر إسلامي جدوله المتدفق فيه. والإقليم التونسي كغيره من الأقطار الإسلامية له جدول تترقق فيه المدائح النبوية. ولن نستطيع أن نعرض ما قاض على السنة شعراء القيروان وتونس من هذه المدائح، وخاصة في العصر الحسيني - لكثرتها، ولذلك ستكتفي باتنين من العصور المختلفة اشتهرت مدائحها النبوية، وهما عبدالله الشقراطسي وابن السَّمَط المهدوي.

عبد<sup>(١)</sup> الله الشُّقْرَاطِيسِي

هو عبد الله بن يحيى بن علي الشُّقْرَاطِيسِي نسبة إلى قلعة رومية أقيمت قديماً بالقرب من قفصة تسمى «شُقْرَاطِس». ومولده ومرباه في «توزر» مثل أبي الفضل بن النحوى، وهو يسبقه بنحو خمسين عاماً إذ توفي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. ولما بلغ مبلغ الشباب رأى أن يكمل دراسته في القيروان، فاختلف إلى شيوخها، وأخذ ما استطاع منهم حتى غدا فقيهاً محدثاً، وحجَّ، وعاد فعين قاضياً في بلده توزر إلى وفاته، وكان مع قيامه فيها بالقضاء يدرس للطلاب وينشر العلم ما استطاع، ويقال إن ابن النحوى درس عليه. وقد طار صيته في أنحاء العالم العربي بقصيدة فريدة في ١٣٣ بيتاً نظمها في مديح الرسول ﷺ، استهلها بقوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ	مَنَا بَاعَثَ الرَّسُلَ	هَدَى بِأَحْمَدَ	مَنَا أَحْمَدَ السَّبِيلِ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ	مَنْ بَدِئَ وَمَنْ حَضَرَ	وَأَكْرَمَ الْخَلْقِ	مَنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ
تَوْرَاةُ مُوسَى	أَنْتَ عَنْهُ فَصَدَّقَهَا	إِنْجِيلُ عَيْسَى	بِحَقِّ غَيْرِ مَفْتَعَلِ
ضَاءَتْ لِمَوْلِدِهِ	الْآفَاقُ وَاتَّصَلَتْ	بُشْرَى الْهَوَاتِفِ	فِي الْإِشْرَاقِ وَالطُّفْلِ <sup>(٢)</sup>

وهو يحمد الله باعث الرسل إلى الأمم أن بعث الرسول إلى أمته المحمدية هادياً لها إلى خير السبيل أو الطرق وإنه لأفضل البرية جمعاء متبديّة ومتحضرة وأكرم الخلق جميعاً حفاةً ومنتعلين، ويقول إن توراة موسى بشرت به وصدقها الإنجيل، مشيراً بذلك إلى آية سورة الأعراف وأنه من تشملهم رحمة الله ﷻ الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر\* ويقول إن الآفاق أضاءت لمولده ودقت البشائر فى الإشراق والظلام. ويمضى فى ذكر معجزات مولده ومعجزاته فى حياته وفى الهجرة وما خصه الله به من عروجه إلى السماء. ويعود إلى تفصيل القول فى معجزاته ومعجزته الكبرى القرآن، ويلم بأذى قريش لمن اتبعوه وهو لا يزال بمكة وخاصة بلالا، ويذكر انتصاره على قريش ببدر إذ حطم جيشهم حطماً، وأسر نفراً من أشرفهم، وبكى أهل مكة من رجال ونساء بدموع غزار، ويذكر يوم فتح مكة، وقد جاءها الرسول فى عديد من الجنود من يشرب

(١) انظر فى الشقراطسى الوفيات لابن منقذ طبع بيروت) ص ٢٥٢ وعنوان الأريب ٤٢/١، ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٦٣ وبروكلمان ١٠٨/٥ وذكر أن للشقراطية شرحاً لابن الشباط

(٢) التوزرى مواطنه المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، كما ذكر لها تخصيصات لابن الشباط وغيره.

(٢) الطفل: الظلام.

ومختلف القبائل، ورأت قريش أن لا قبيل لها بلقائه، فاستسلمت ودخلت في دين الله، يقول:

ويومَ مكة إذ أشرفت في أممٍ  
خوافقُ ضاق ذرعُ الخافقين بها  
ويضيقُ عنها فجاجُ الوعثِ والسَّهْلِ (١)  
في قاتمٍ من عجاج الخيلِ والإبلِ (٢)  
عَرَمَرَمٍ كزهاء الليلِ مُنْسَجِلِ (٣)  
في بهوِ إشراقِ نورِ منكٍ مكتملِ  
والعيسُ تنثال زهواً في أعتتها (٤)  
وذاب يذبل تهليلاً من الذُّبْلِ (٥)  
له النبوة قبل العرش في الأزَل  
الملك لله هذا عزٌّ من عُقدت

وهو يتحدث عن يوم فتح مكة ومع الرسول أمم من يثرب والقبائل تضيق عنها فجاج الأرض العسرة والممهدة السهلة، خوافق متحركة ضاقت بها لكثرتها طاقة المشرق والمغرب، وقد عقدت حركة الخيل والإبل عليها غباراً كثيفاً، وإنه لجيش ضخم متسع الأرجاء له لجب وصخب عرمرم أو شديد، كزهاء الليل ومقداره، تنصب قطعه انصباباً، والرسول - ﷺ - على رأس هذا الجحفل، يحف به بهاء ونور منه مكتملان والخيل تحتال في أعتتها ومسيرتها زهواً، والعيس أو الإبل تتابع سائرة في مضاعف من جدها أو أزمته، وأهل تهلان رافعا صوته بذكر الله من طرب وفرح، وذاب يذبل خوفاً من الرماح وكثرة السلاح، وهذا عز لا يمانله عز، عز من كتبت له النبوة في الأزل البعيد قبل خلق العرش وتكوينه. ويتحدث عن الانتصارات في الفتوح الإسلامية في أنحاء المعمورة في العراق وديار الفرس والترك والصين وبلاد النوبة والزنج ومصر والمغرب، كما يتحدث عن منزلة الرسول ﷺ عند الله واختصاصه بالشفاعة للعباد خلاصاً من هول المحشر، ويطلب منه الشفاعة ومن الله الغفران.

- (١) فجاج الوعث: الطرق العسرة.  
(٢) ضاق ذرع الخافقين: ضاق وسع المشرق والمغرب. عجاج الحرب: غبارها.  
(٣) جحفل: جيش ضخم. قذف: بعيد. لجب: صباح. عرمرم: شديد. زهاء الليل: مقداره. منسجل: منصب ومصوب.
- (٤) العيس: الإبل. تنثال: تسيل وتنصب. رهوا: بطيئة أو متتدة. ثنى الجدل: الأزمة المزدوجة الطاقات.  
(٥) تهلان ويذبل: جبلان عند مكة. الذبل: الرماح.



## ابن السماط المهدي

هو أبو يعقوب يوسف بن علي بن عبد الملك بن السماط البكري، ولد بالمهدية سنة ٦١٣ وبها منشؤه ومرباه، من بيت علم وفضل وثناء، وتفتحت شاعريته مبكرة، وكان من نعم الله عليه أن قصر شعره على مدح الرسول ﷺ، فلا يوجد له في غير هذا المديح شعر إلا التافه النزر مما قاله في صباه، ويقول صاحب الحلل السندسية: «هو عالي الطبقة في الشعر جدا، وشعره مدون مشهور». وظل يجيا في المهديّة يمدح الحضرة النبوية حتى وافاه الأجل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م واحتفظ له صاحب الحلل السندسية بخمس قصائد نبوية باهرة، وفي ثانيها يقول متشوقا إلى يثرب وزيارتها الشريفة:

رَعَى الحَقوق - كما علمت - حقيقُ  
والصبر عن وادى العقيقِ عُقوقُ (٢)  
ولأهل ذِيك الحمى بقلوبنا  
شغفٌ يسوق نفوسنا ويشوقُ  
ولذكرهم بَرْدٌ على طيِّ الحشا  
تُشْفى به مرضاهم وتُفِيقُ  
قومٌ بهم طاب النسيمُ بطيبةِ  
حتى اتنى كالمسك وهو فتيقُ (٣)  
وغدا تراها للشفاهِ مَراشِفًا  
وبقاعها كلُّ البقاعِ تفوقُ  
ومزارها أشهى إلى عُشاقها  
من شاطيءِ ياوى إليه غريقُ

وهو يقول إن للزيارة النبوية حقوقا ينبغي أن تؤدى، وإن الصبر عن زيارة وادى العقيق بالمدينة المنورة ليعد عقوقا، وإن لأهل هذا الحمى بقلوبنا شغفا وشوقا شديدا ولذكرهم برداً على الأحشاء حتى لكانه دواء يشفى المرضى من عللها الدفينة، قوم بهم ذكا النسيم وطاب بطيبة أو يثرب، حتى أصبح كالمسك حين يسطع شذاه، وإن تراها ليود الناس حبا في الرسول أن يرشفوه بشفاهم رشفا، وإن عشاقها في المعمورة ليتمنون زيارتها يطلبون بها النجاة كما يتمنى الغريق شاطئا ياوى إليه من الهلاك. ويقول في القصيدة الرابعة:

أعد الحديثَ فليس بالمملولِ  
عن خَيْرِ مبعوثٍ وخَيْرِ رسولِ  
وأملًا مسامعنا بطيبِ حديثه  
فهو الشفاءُ لحرِّ كلِّ غليلِ (٤)  
وإذابٌ عليه مصليا ومسلما  
فكذا أتى فى محكم التنزيلِ

(٢) وادى العقيق: واد بالمدينة.

(٣) طيبة: المدينة. فتيق: ساطع الرائحة.

(٤) غليل: شدة العطش وحرارته.

(١) انظر في ابن السماط المهدي الحلل

السندسية ٥٠٨/٢ وما بعدها وشجرة النور الزكية

١٩٢/١ ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٠٨.

واخْصُصْ بترَدَادِ السَّلَامِ ضَرِيحَهُ  
 قَمَرٌ لَهُ هَضْبَاتُ مَكَّةَ مَطْلَعُ  
 فِي كُلِّ شَارِقَةٍ وَكُلِّ أَصِيلٍ<sup>(١)</sup>  
 وَالرَّوْضَةُ الْفَيْحَاءُ أَفْقُ أَفُولٍ<sup>(٢)</sup>  
 فِي الذُّكْرِ وَالتُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ  
 هَذَا الْفَخَارُ وَمَنْ يَكُنْ ذَا وَصْفِهِ  
 فَالْمَدْحُ فِيهِ كَقَطْرَةٍ فِي النَّيْلِ

وهو يطلب من صاحبه أن يعيد الحديث مراراً وتكراراً عن خير رسول ومبعوث أهدى إلى البشرية، وأن يملاً المسامع بحديثه الطيب الذكي فإن فيه شفاء من حرارة كل ظمأ شديد، وأن يدأب ويجد في الصلاة والسلام على الرسول اتباعاً لهدي القرآن القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ويقول لصاحبه خُصَّ بترداد السلام وتكراره قبره كل صباح وكل مساء، وإنه لقمربدر طلع من هضبات مكة وأفقها، وأقل أو غرب في أفق يثرب في الروضة الفيحاء ذات الشذى العطر، ويذكر أن نعوت كماله نصَّ عليها التنزيل كما جاء بآية سورة القلم في خطابه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ كما نصَّت عليها التوراة والإنجيل وكما جاء بآية سورة الأعراف السالفة في تعليقنا على بعض أبيات عبد الله الشقراطسي. ومضى ابن السماط في القصيدة يعدد شمائله الرفيعة وبعض معجزاته، وقال هذا هو الفخر الحقيقي ومن يكن هذا وصفه فالمدح فيه كقطرة -حقاً- في نهر النيل. ونبويات ابن السماط تتميز بلغة سلسة عذبة منتهى العذوبة والسلاسة.

(٢) الروضة الفيحاء: لعله يشير إلى قول الرسول ﷺ ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة.

(١) الأصيل: وقت اصفرار الشمس قبيل الغروب.

## الفصل السادس

### النثر وكتابه

١

#### الخطب والوصايا

معروف أن الإسلام فرض في صلاة الجمعة الأسبوعية والعيدين: الفطر والأضحى خطبتين للوعظ والنصح للمسلمين، وظل يتولى ذلك في تونس وإقليمها كبار الفقهاء الوعاظ من علمائها الأبرار، غير أنه لم يصلنا من هذه الخطب ما نستطيع به الحديث عنها وعرض بعض نصوصها. وطبيعي أن يكون لولاتها في القيروان وقادتها في الحروب أو على الأقل لبعضهم خطب من حين إلى آخر، وأقدم خطبة وصلتنا عن ولاتها خطبة موسى بن نصير التي خطبها بجامعة القيروان حين دخلها سنة ٨٥ في أول ولايته على إفريقية وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

«أيها الناس! إنما كان قبلي على إفريقية أحد رجلين: سالم يجب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكَلِّمَ<sup>(٢)</sup> ويحب أن يسلم، أو رجل قليل المعرفة راض بالهوان، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السَّهْرَ، وأحسن النظر، وخاض القَمْرَ<sup>(٣)</sup> وسمت همته، ولم يرض بالدون من المغنم، لينجو ويسلم، دون أن يكلم أو يكلم.. إن ظفر لم يزهه الظفر إلا حذرا، وإن نُكِبَ أظهر جلادة وصبرا.. وبعد فإن من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويُدَلُّ منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وأيم الله لا أريم<sup>(٤)</sup> هذه القلاع والجبال الممتعة حتى يضع الله أرفعها، ويُدَلُّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو أجمعها، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين».

وبدأ موسى بن نصير بالجيوب في الإقليم التونسي مثل جبل زغوان، ثم أخذ يمتد بفتوحه العظيمة حتى دان له المغرب جميعه، وكان شديد الطموح فمدَّ بصره وراء المغرب إلى شبه جزيرة

(٣) القمَر: الشدائد.

(٤) أريم: أترك.

(١) تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني

عبدالوهاب ص ٢٦.

(٢) يكلم: يجرح.

إيبيريا وأرسل إليها طارق بن زياد وتبعه، وأتم فتحها ناشرا فيها الإسلام، كما عمل على نشره في ديار المغرب من برقة إلى المحيط، وافتتح له إقليما كبيرا في أوروبا، ولم يترك قلعة ولا حصنا لا في المغرب وحدها كما قال في خطبته بل أيضا في إيبيريا مما جعله بحق من أكبر قواد العرب على مر التاريخ. ومن كبار القواد في الإقليم التونسي بعده أسدين الفرات أمير الجيش الفاتح لصقلية سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م وحين دقت الطبول واليوقات ونشرت الألوية واستعدت السفن لمغادرة ميناء سوسة للفتح تلفت حوله وخطب الجنود، وكان من قوله<sup>(١)</sup>: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أيها الناس! ما ولى لى أب ولا جد ولاية قط، ولا رأى أحد من سلفى هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأفلام، فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وثابروا عليه تنالوا به الدنيا والآخرة».

وكان أسد شيخ فقهاء المالكية في القيروان، واختاره الأمير زيادة الله الأعلى لقيادة الجيش، وهو ينصح بالثابرة في العلم وتدوينه، فإن من يثابر في تحصيله ويسهر الليالي يحظى بكل ما يتمناه، وقد مضى حين أرسى أسطوله على شواطئ صقلية يفتح المدن والقلاع واتجه إلى قاعدتها الكبرى: «سرقوسة» في شرقها، وحاصرها واستشهد في حصارها ودُفن تحت أسوارها، وتم فتح جميع مدنها بعده.

ومن المؤكد أن خطبا كثيرة ألقاها حكام الإقليم التونسي في أول حكمهم - وربما في أثنائه - ولكن الكتب التاريخية والأدبية لم تحتفظ بها، وأيضا لا يد أن كثيرا من الوصايا في الدول التي حكمت الإقليم التونسي أوصى بها الآباء الأبناء من بعدهم سقطت من يد الزمن فيما عدا وصية أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية لابنه وولى عهده المستنصر، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

«اعلم - سددك الله وأرشدك، وهذاك لما يُرضيك وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة - أن أول ما يجب على من استرعه الله في خلقه، وجعله مسئولاً عن رعيته في جُل أمرهم ودقّه<sup>(٣)</sup> أن يقدم رضا الله في كل أمر يحاوله.. واعلم أن الأمر إذا ضاق بمجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزامة<sup>(٤)</sup> وأخذ الرأي من عقلاء الدولة ورؤسائها، وذوى التجارب من نبيائها، ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه.. ولا تسمع أقوال الغالطين المغلطين بأنك أعظم الناس قدرا، وأكثرهم بدلا، وأحسنهم سيرا، وأجملهم صبورا، فذاك غرور وهتان وزور.. وعليك بتفقد أحوال رعيّتك، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحدا فيهم، ومهما دعيت لكشف ملمة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيرا ولا صغيرا إذا عدل عن الحق،

(١) الحلال السنديية ٧٥٣/٣.

(٢) دقه: دقيقه.

(٣) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٧.

(٤) الحزامة: الحزم.

ولا تقتصر على شخص واحد في رَفَع مسائل الرعيَّة والمتظلمين، ولا تقفُ عند مُرادِهِ فيهِم، واتخذ ثقاتٍ صادقين مصدِّقين لهم في جانب الله أوفر نصيب.»

والوصية طويلة، وهي أشبه بدستور يضعه لولى عهده، لِيتمسك به في حكمه من بعده، وواضح أنه يطلب إليه أن يكون محمود السيرة وأن يجعل رضا الله نصب عينيه في تدبير أمور رعيته وإذا نزلت به شدة استعان بالصبر والحزم وبرؤساء الدولة ونبهاؤها المجريين وعمل بمشورتهم ونصيحتهم، ويحذِّره من الاستماع إلى من يتملقونه في حاشيته زورا وبهتانا ابتغاء القربى إليه والزلفى لديه، والحاكم الحصيف يبعد عنه هؤلاء المنافقين المرئيين. ويوصيه بتفقد أحوال الرعية وأن لا يغفل عن مصالحها ولا يتسامح مع من يعتدى عليها ويسارع إلى كشف كل ملامة تتعرض لها، ويأخذ على يد كل ظالم، ولا يقتصر في رفع مسائل الرعية إليه على شخص بعينه خشية أن يكون مغرضا فيما يعرض عليه، لذلك ينبغي أن يشرك معه آخر أو آخرين، حتى لا يتعرض في فهم هذه المسائل لغش أو خديعة، وينبغي أن تكون حاشيته مؤلفة من ثقات صادقين لا يحوم حولهم شك أو ريبة.

ونرى ابن خلدون حين نزل القاهرة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٤م يجلس للتدريس بالجامع الأزهر ويتصل بالسلطان المملوكى برقوق فيكرمه ويوفر له الراتب شأنه مع أهل العلم، ويتوفى البساطى أستاذ المدرسة القمحية المالكية، فيعيّنه مكانه في شهر المحرم سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م ونراه في يوم جلوسه للتدريس بها يخطب خطبة طويلة يستهلها بالحمد لله مطيلا في نعوته القدسية كما يطيل في الصلاة على الرسول والرضا عن آله وصحبه، ويتحدث عن الملة الإسلامية وانتصار أهلها على الفرس والروم فتوحهم العظيمة، ويشيد طويلا بملوكها وبدولة الممالك ونصرتهم للإسلام وإنشائهم للمدارس وتعميرهم للمساجد وعنايتهم بالعلم والعلماء ويشيد بالسلطان برقوق وأعماله وأفضاله عليه. وختل وظيفة أستاذ الحديث في مدرسة صرغتمش بجوار جامع ابن طولون، فولاه برقوق تلك الوظيفة فاختر كتاب الموطأ للإمام مالك ليحدث به للطلاب في شهر المحرم سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وحين جلس للتدريس بها ألقى خطبة طويلة، وبعد حمد الله فيها والصلاة على رسوله والثناء على السلطان برقوق قال إنه قرَّر للقراءة في دروسه كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس لأنه من أصول السنن وأمّهات كتب الحديث، وأفاض في الحديث عن مالك ونشأته وسيرته وتأليفه لكتابه الموطأ، ثم أخذ يعدُّ الطرق لرواية تلامذة مالك عنه الكتاب، وانتقل إلى بيان سنده للكتاب والشيوخ الذين أخذه عنهم بتونس والأندلس والمغرب في بلدانه المختلفة، ويذكر مع كل طائفة منهم شيوخم وسندهم في الرواية، ويضيف طرقا أخرى، مما جعل سامعيه في هذا المجلس يرمقونه بالثجلة إلى أبعاد مدى. وإنما أطلت في بيان ذلك لأدل على أن علماء تونس - فيما يبدو - كانوا يأخذون في

درسهم الأول بجامعة الزيتونة بهذا التقليد من الخطبة الطويلة عن الكتاب الذي سیدرسونه للطلاب، وإن لم تصلنا خطبهم العلمية كما وصلتنا خطب ابن خلدون، إذ سجلها بنفسه في ترجمته<sup>(١)</sup> عن حياته، ويقول إنه أعدّها، وهي مكتوبة بأسلوب أدبي مسجوع بليغ.

## ٢

## الرسائل الديوانية

عرفت القيروان الدواوين منذ أنشأها فيها واليها حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ أقام بجانب دار الإمارة ديوانا للجنود وديوانا للخراج وديوانا للرسائل على شاكلة دواوين الخلافة في دمشق، غير أنا لا نسمع عن كاتب كبير تولى ديوان الرسائل قبل خالد بن ربيعة كاتب عبد الرحمن بن حبيب الوالي في القيروان من قبل مروان بن محمد، ويذكر البلاذري أنه كانت بينه وبين عبد الحميد الكاتب المشهور كاتب مروان بن محمد مودة ومكاتبة، وأنه - بفضل هذه المودة - أقرّ الخليفة عبد الرحمن بن حبيب على ولاية القيروان<sup>(٢)</sup>، ويذكر ابن النديم في الفهرست خالدا بين الكتاب قائلا: «خالد بن ربيعة الإفريقي مترسل بليغ نشأ في الدواوين، وله رسائل مجموعة في الأدب نحو مائتي ورقة<sup>(٣)</sup>».

وجميع رسائل خالد بن ربيعة سقطت من يد الزمن وسقط معها جميع الرسائل الديوانية في القيروان إلى أن نلتقى بإبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية ونراه يتبادل مع خريش الكندي أحد قواد الجنود الناثر عليه بتونس سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م رسالتين أولاهما لخريش يتهدده فيها ويطلب منه طاعته له، ويرد عليه إبراهيم بن الأغلب برسالة يقول فيها<sup>(٤)</sup>:

«من إبراهيم بن الأغلب إلى خريش رأس الضلال سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن مثلك مثل البعوضة التي قالت للنخلة وسقطت عليها: استمسكي فإني أريد الطيران، فقالت النخلة: ما شعرت بسقوطك فيكرّبي طيرانك».

ولا نعرف هل كتب إبراهيم بن الأغلب هذه الرسالة بنفسه أو كتبها له أحد كتاب دواوينه وتُعنى الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦هـ) بكتاب دواوينها وتأخذ في النهوض بها، ومن اشتهروا

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٤٠.

(٢) الفهرست (طبع القاهرة) ص ١٧٧.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري (طبع القاهرة) ص ٢٨٠ وما بعدها.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٤٢.

من كتبها أبو العباس البريدى محمد بن حيون رئيس ديوان الإنشاء لعهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ). وقدم على إبراهيم من بغداد أبو اليسر الشيبانى إبراهيم بن محمد، وكان قد غضب على البريدى فأقامه مقامه على ديوان الإنشاء بعاصمته «رقادة» وهو أهم كتاب هذه الدولة وسنخسه بكلمة. وكانت الدولة الصنهاجية تعنى بدواوينها ورأس ديوان الإنشاء بها لمدة ربع قرن الكاتب الرقيق القيروانى، كما رأسه على بن أبى الرجال، وهما من الكتاب البلغاء، غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ ببعض ما دبجاه من الرسائل. ومع ذلك فإن أمير المهديّة الحسن حفيد تميم بن المعز حين هزم أسطول الملك روجار الثانى أمام عاصمته سنة ٥١٧ كتب إلى سائر الجهات كتباً منها كتاب يقول فى بعض فصوله<sup>(١)</sup>: «إن صاحب صقلية لَجَّ فى طغيان غيِّه، واستمر على عدوانه وبغيِّه، وحمله سوء تدبيره، وفسادُ تقديره، على اهتضام جانب الإسلام، وتوهم أن ذلك سهلُ الملتمس قريبُ المرام، فاستجاش وحشده، واستغزر واستمدَّ، ولما استتبت فى ظنه أموره، وكمل تدبيره، الذى كان فيه تدميره، سير أسطوله نحو المهديّة - حماها الله - فى نحو ثلاثمائة مركب، حُمِل على ظهرها ثلاثون ألف راکب، وزهاء ألف فارس وكان إقلاعه فى طالعٍ مقارن للنحوس، قاضٍ عليه بإتلاف الأموال والنفوس، فمن أول ما أنشأه الله فيه من صنعه الجميل، وأظهره من عنايته التى لا يُؤدّى حقها بغير الشكر الجزيل، أن أرسل عليهم ريحا صيرت جميعهم إلى التّبار<sup>(٢)</sup>، ونابت فى إهلاكهم مناب زُرُق الأسنّة وبيض الشّفار.. واستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا فأقبلوا أفواجا أفواجا، وجاءوا بجيء السيل يعتلج<sup>(٣)</sup> اعتلاجاً، ويتدفق أمواجاً، وكلهم على نياتٍ فى الجهاد خالصة، وعزائم غير راهبة من مواقف الموت ولا ناكصة، ووصل الأسطول المخذول بمن أسلمه السّوق إلى حد الحسام، وتخطّاه الغرق من الحِمَام إلى الحِمَام<sup>(٤)</sup>، ونزلوا على عشرة أميال من المهديّة بجزيرة هنالك فتسرّع إليهم من جُندنا ومن انضاف إليهم من العرب المنجدة لنا طائفة أوسعت أعداء الله طعنا وضرباً، وملأت قلوبهم خوفاً ورُعْباً. فلما عاينوا ما نزل بهم، أنزلوا عن ظهور مراكبهم، ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، وكانت نحو خمسمائة فرس.. فأكذب الله ظنونهم، وخيّب آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم.. فولوا أدبارهم يرون الهزيمة غنيمة، والهرب غلبة، وتركوا كثيراً من خيلهم وأسلحتهم نهباً مقتسماً، وقيئاً<sup>(٥)</sup> مقتنياً»

ومضى الكتاب يذكر أن الجيش النورمانى كان قد استولى فى أول نزوله على قصر الديماس بين المنستير والمهديّة، وكانوا قد أنزلوا به مائة منهم فاستؤصلوا عن آخرهم. والكتاب يتميز

(٤) الحمام: الموت.

(٥) قيئاً: مغنياً.

(١) الحلال السندسية ٤٧٢/٢.

(٢) التبار: الهلاك.

(٣) يعتلج: يجتمع.

بألفاظ منتخبة مختارة، وليس فيها غريب مهجور، والأسلوب فيه مسجوع، ويطرده في يسر، مما يدل على ما حازته كتابة الرسائل الديوانية في العهد الصنهاجي من تقدم ورقي.

ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية وتحدث نهضة حقيقية في ديوان الإنشاء بفضل من عمل فيه من كبار الكتاب الأندلسيين المهاجرين إلى تونس من أمثال ابن الأَبَّار ومحمد بن الحسين بن أبي الحسين وزير مؤسس الدولة أبي زكريا وابنه المستنصر وأيضا بفضل طبقة بارعة من الكتاب التونسيين أمثال أبي العباس أحمد بن إبراهيم الغساني المتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وقد جُمعت له خِطَّة العلامة وخِطَّة الإنشاء وابن الحَبَّاب محمد بن يحيى المُعَاقرى وأبي بكر بن خلدون وله كتاب في النظم الحفصية لا يزال مخطوطا وفي معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مخطوطة منه، وفي الورقة رقم ٥٣ يتحدث عن طريقة المخاطبات الصادرة عن الخليفة الحفصي قائلا: «في مخاطبة من الأمير الأعظم إلى غيره تقول: من فلان باللقب: أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وتعدُّ آباءه الخلفاء إذا لم تذكر اللقب، فإن ذكرته جعلته جملة، وذكرُ اللقب أحسن في الحاليتين، ثم تقول أيدهم الله بنصره وأمددهم بمعونته إلى الشيخ أبي فلان أو إلى أبي فلان أو إلى الأشياخ والأعيان والكافة من بنى فلان أدام الله كرامتهم وتوفيقهم بتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله. وبعد تمام الصِّدر تكون الوصية بتقوى الله وبما يجب. هذا إذا كان كتابا، وإذا كان صكًا، ويسمى الآن ظهيرا فلا يكون فيه صدر ولا وصية ولا اسم المكان الذي كُتب منه»

وكان أبو بكر بن خلدون يعمل في دواوين أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، ونرى القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ يؤكد استمرار هذا التقليد في الكتابة الديوانية التونسية حتى عصره إذ يقول في كتابه صبح الأعشى عن رسم المكاتبة الواردة إلى القاهرة عن صاحب تونس: «عادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ من عبد الله الفلاني مع ذكر لقب الخلافة: أمير المؤمنين بن فلان، ويقال في كل أب من آبائه: أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له. إلى أخينا فلان، ويؤتى بالسلام والتحية، ثم يتخلَّص بالبعديَّة إلى المقصد ويختتم الكتاب<sup>(١)</sup>». ويورد القلقشندي عقب ذلك مباشرة رسالة من الخليفة الحفصي المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله الحفصي (٧٧٢ - ٧٩٦هـ) إلى السلطان برقوق يهنئه فيها باسترداده عرش سلطنته سنة ٧٩١ وهي تستهل بهذه الصورة:

«من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله ابن مولانا الأمير أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الإسلام، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام، إلى أخينا الذي لم نزل



نشاهد من إخائه الكريم، في ذات الربِّ الرحيم، قبلةً صفاء لم تغيرها يدُ بعاد ولا انتزاح، وتناثر من حفظ عهده، والقيام بحق وده، على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح، ونبادر لما يبعث القلوبَ على الائتلاف، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف، وإن شحطت الدارُ وتناوت الصور والأشباح، ونعترف بما له من مزيد الإعظام بمجاورة البيت الحرام، والقيام بما هنالك من مطالع الوحي الكريم ومشاعر الصلاح، ونَجْتَلِي من أنوائه الكريمة الشريفة، ومطالعه العالية المنيفة، وجوه البشائر رائعة الفرر والأوضح.. ونبتهل إلى الله بالدعاء أن يخبرنا عنه، ويطلعنا منه على ما يقرُّ عيون الفوز ويشرح صدور النجاح، السلطان الجليل الطاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبي سعيد برقوق»

وواضح أن الكاتب الحَفِصِي لم يكتف في مستهل رسالته بالأسجاع الحائية، فقد ضمن كل سجعة سجتين داخليتين، وكأن السجع في الرسائل الحفصية أصابه ما أصاب السجع في الرسائل الديوانية - منذ القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي - من تطويل لتضم السجعة تحت جناحيها سجتين داخليتين كما في هذه القطعة من الرسالة. ويمضي في الرسالة فيحمد الله ناظم الشمل وجابر الصَّدْع الذى قرن بالْعَسْرِ يَسْرًا. ثم يصلى ويسلم على الرسول الذى صدعت بالحق آياته، وقامت بحجة دعواه معجزاته.. ويضيف الصلاة على آله وأصحابه أولياء دينه الكريم وولاته، وأنصار حزبه المفلح ومُحَمَّاتِه، وليوث دفاعه في صدور الأعداء وكلماته. ويدعو الكاتب لخليفته، ويذكر للسلطان برقوق أنهم ظلوا حين عُزِل عن السلطنة يدعون له أن يُردَّ الأمر إلى نصابه، ويُطيل في تهنئته بنصره، ويُشيد برسالة السلطان برقوق إليه بأنه استعاد سلطانه، ويذكر انتصاراً لأسطوله أذ أغار على بعض جزر البحر المتوسط وكان صاحبها أغار على الساحل التونسى، يقول:

فلم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حَرَمَهُ وِحْمَاه، ونَطْرُق طروقَ الغارة الشَّعْواءِ بِلادَهُ وقُراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يدها إلى أن ذاقوا من ذلك وِبَالَ أمرهم، وتعرَّفوا عاقبة مكرهم. وكان من جرائرهم المعترضة شَجًّا في حلوق الخُطَّار<sup>(١)</sup>، ومتجسِّمى الأخطار، ورُكَّاب البحار، من الحجاج والتجار، جزيرة غودش<sup>(٢)</sup> وبها من أعداء الله جُمٌّ كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم متن أسطولنا المنصور غِرْبَانًا<sup>(٣)</sup> نَعَقَتْ عليهم بالمنون، وعرَّفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون.. وسارت تحت أجنحة النجاح إليها، إلى أن رمت مَخَالِبَ مَرَّاسِيهَا عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بُهَّت الذى كفر، وودَّ الفرارَ والحينَ (الموت) يناديه

(٣) غربانا: سفنا مقلية بالقار.

(١) الخطار: المتحركين بحرا.

(٢) لعلها جزيرة رودس.

أين المفرّ، فلما قضى السيفُ منهم أو طاره، وشفى الدينُ من دمائهم أوارَه<sup>(١)</sup>: جمعوا منهم عدداً يُنيف بعد الأربعمئة على الأربعين، وجاءوا بهم في الأصفاد مقرّنين، وامتلاّت بغنائهم - والحمد لله - أيدي المسلمين، وانقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين». وإنما ذكرنا هذه القطعة الطويلة في ختام الرسالة لندل على براعة كاتبها وأنه لم يكن يقلّ عن كتاب المشرق بياناً وبلاغة. وفي ذلك ما يدل على أن الكتابة الديوانية في العهد الحفصي رقيت رقياً بعيداً وأن كتابها لم يكونوا يقلّون عن نظرائهم في المشرق فصاحةً لفظاً ورسالةً مع اصطفاء الكلام والملاءمة بين الكلمة والكلمة والسجعة والسجعة بحيث يجد القارئ لرسائلهم لذة وامتعة مع ما يجد فيها من الحقائق التاريخية كهذه الغارة على جزيرة غودش، غير أن الزمن لم يحتفظ بها جميعاً، فضاقت فيما ضاع من نصوص أدبية تونسية.

## ٣

## الرسائل الشخصية

إذا كان جمهور الرسائل الديوانية القبروانية والتونسية سقط من يد الزمن فإنه احتفظ بكثير من الرسائل الشخصية، ومن أوائل ما يلقانا منها رسالة استعطاف لداود القبرواني المتوفى حوالى سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م وكان قد تقلد ديوان الرسائل لمحمد بن مقاتل العكّى فلما عزل وتولى على القبروان وإفريقية مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م اختفى داود أياماً وكتب - من مخبئه يستعطف ابن الأغلب - رسالة يقول فيها<sup>(٢)</sup>: «ذنبى عظيم، وخناقى ضيق، وحجتى ضعيفة، وعفو الأمير وطوله<sup>(٣)</sup> أعظم من ذلك كله، فإن تداركنى الأمير - أعزّه الله - بما أوّملُ فذلك الذى يشبهه وينسبُ إليه وأرجوه منه، وإن يعاقبُ فيالذنب الذى اجترمته<sup>(٤)</sup> وهو أحقُّ بانتشالي من زلتى، وإقالتي<sup>(٥)</sup> عن عترتى.. والأميرُ أولى فىّ، وأنظرُ منى لنفسى، وأعلى بما سألتُهُ ورغبتُ إليه فيه عيناً ويدا، والله ولىُّ توفيقه فيما عزم عليه من ذلك. أتمّ الله على الأمير نعمته» فعفا عنه الأمير إبراهيم بن الأغلب وقرّبه منه، واستكتبه، وعهد إليه فى مهماته واتخذه مستشاراً فى أموره، وكان نعم الناصح له الأمين. واشتهر ابنه إبراهيم بإتقان الكتابة وعُين مثل أبيه فى الدواوين الأغلبية. وإذا مضينا إلى عهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١-٢٨٩) وجدناه يسخط على كاتبه الخاص البريدى محمد بن أحمد بن حيون المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ويزج

(٤) اجترمته: اقترفته.

(١) أواره: ناره.

(٥) إقالتي: الصفح.

(٢) المجلد فى تاريخ الأدب التونسى ص ٤٥.

(٣) طوله: فضله.

به في غياهب السجون، فيرسل إليه رسالة طويلة مستعظفا، وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

«لكرم العفو وعلو قدره وجليل خطره تسمى الله عز وجل به فسمى نفسه: ﴿العفو الغفور﴾ والطبع البشري مركب على النقص، مقرون بالزلزل.. ولست - أيد الله الأمير - ممن يدعى العصمة والبراءة من الهفوة، ولست أمت<sup>(٢)</sup> إليك إلا بفضلك على، وإحسانك إلى.. وإن من غرس غرسا فواجب أن لا يجتته (يقطعه) وإن أبطأ بسوقه<sup>(٣)</sup> بل يمه بمدد موارده العذبة حتى تمتد خيطانه<sup>(٤)</sup> وتورق أغصانه. أعاذك الله - بما أودعك من معالي الأخلاق - من ترك العفو عن مقرر معترف لا يعرف إلا فضلك، ولا يرجو إلا عدلك.. فالحظني بعين عفوك، وأضف<sup>(٥)</sup> (أسبغ) على ستر نعمتك».

ويبدو أن ذنب البريدي كان كبيرا فلم يلب له قلب إبراهيم الثاني الأعلى ولا صفح عنه، بل أمر بقتله وسفك دمه. وتكثر الرسائل الشخصية في عصر الدولة الصنهاجية، وسنخص إبراهيم الحصري صاحب زهر الآداب بكلمة عنه وعن رسائله. وثلثي با بن شرف القيرواني المترجم له بين أصحاب المراثي للمدن والدول، وكما كان شاعرا مبدعا كان ناثرا مبدعا، وقد رحل إلى الأندلس بعد ما نزل بالقيروان من طوفان الأعراب الهلاليين، كما أسلفنا، وترجم له ابن بسام في ذخيرته ترجمة ضافية، وذكر له فضلا من رسالة خاطب بها المظفر بن الأفتس أمير بطليوس، وفيها يقول<sup>(٦)</sup>:

«كتبت وشوقى إلى شرف لقياه، وشيم<sup>(٧)</sup> سقياه، شوق القارظين<sup>(٨)</sup> إلى سكون وسكني، والقيسين إلى ليلى ولبنى.. والله ببلوغ الأمل خير كليل، والشيخ يهدمه الشتاء وقد رأيت طوفان قرطبة يقيم دهرًا، وإنما أقام طوفان نوح شهرا». ويذكر له ابن بسام فصولا نثرية يبدو أنه حبرها للكتاب كي ينتفعوا بها في رسائلهم المختلفة في مديح أمير أو وزير أو قائد أو قاض أو كاتب أو فقيه زاهد، من ذلك فصل يصلح أن يكتب به إلى حاكم أو وزير، وفيه يقول<sup>(٩)</sup>:

«يقدم الحزم، ويثنى بالعزم، يشاور ذوى الألباب على أن رأيه لُبَاب، يثب وثوب اللبث،

- |  |   |
|--|---|
| (١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع | (٥) أضف: أسبغ.                          |
| الدار البيضاء) القسم الثالث ص ٣٠ وقارن       | (٦) الذخيرة ١٩٣/٤.                      |
| با بن عذارى ١١٥/١ ومجمل تاريخ الأدب التونسي  | (٧) شيم: بارد.                          |
| ص ٦٥.  | (٨) القارظان: جاهليان خرجا في طلب القرظ |
| (٢) أمت: أنتسب.                              | (شجر) ولم يعودا.                        |
| (٣) سوقه: ارتفاعه.                           | (٩) الذخيرة ١٨٤/٤.                      |
| (٤) خيطانه: فروعه.                           |   |

ويتدفق دُفوق الغيث، ويُرَواح بين العَجَل والرَّيْث، نومه غِرار<sup>(١)</sup> واضطرار، وحاجاته سِرار<sup>(٢)</sup> ثم اقتدار، لا تثبته الظلل ولا الظلال، ولا تطيبه<sup>(٣)</sup> الكليل ولا يتنبه الكلال (التعب). رأيه قَبْسُه (مصباحه) وعزمه فرسه، وبصيرته بَصْرُه، وصَدْرُه وِرْدُه وصَدْرُه<sup>(٤)</sup>».

وهذه المقدره الأدبية الديدعة تتوالى هذه الفصول النثرية في المديح للحكام والوزراء ورجال الدولة من قواد وقضاة وكتّاب، ويورد له ابن بسام فصولا أخرى في الذم لا تقل عن الفصول السابقة في روعتها الأدبية، وفي أول فصولها يقول<sup>(٥)</sup>:

«فلان غوره أقرب قريب، وقلبه مورود القلب<sup>(٦)</sup>، فسرايره مكشوفة، ودخيلته معروفة، كتمانُه إخبار، وتدبيره إدبار، رأيه وراء، وساحته عراء، جسّه هامد، وفهمه جامد، لا يعرف الرشد من العي، ولا يفرّق بين التقبيل والكي، طلل بال، لا يخطر على بال، الشمس عنده سُها<sup>(٧)</sup> والحُمق نهي<sup>(٨)</sup>. لا يعلم رأسه، من أين أنفاسه، ولا يدرى دماغه، أين أضداغه».

والفصل يوج كسابقه بالسجع المختار والألفاظ المنتخبة والطباقات والجناسات وناهيك بما يحمل الفصل في سجعه من روعة، مما يزين وقعه في الأذن والنفس، إذ ما تزال الإرنانات متصلة في الكلام، وما يزال جرسها يمتع الأسماع والأفئدة، مع ما يبهر من الألفاظ الثلاثية التي تطير عن الأفواه في خفة. ويلقانا بعد ابن شرف على الحصرى الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل، وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وأورد له فصولا من بعض رسائل، استهلها بالفصل التالى له من رسالة<sup>(٩)</sup>.

«السلام عليك أيها القلب الثانى، والبعيد الدانى، الراقى فى ساء المعالى، الواقى من داء اللبلى، أول من عددت، وأفضل من أعددت، ومن لازال النسيم فى البكر والعشيات، يهدى إليه أطيب التحيات، ومن جعلت وقاءه، ولا عدمت لقاءه، وإذا كان الكريم سالما، كان الزمان مسالما».

وفى سجعه نفس العذوية التى مرت فى سجع ابن شرف، وفيه الطباقات وكثير من الجناسات، ومع كثرتها لا يشوبها أى تكلف، وكأنه يستمدّها من نبع فيّاض لا ينضب، وكانت قد نشبت بينه وبين ابن الطراوة النحوى الأندلسى المشهور المتوفى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م خصومة

(١) غرار: قليل.

(٢) سرار: كتمان.

(٣) لا تثبته الظلل ولا الظلال أى حياة الدعة،

ومثله لا يطيبه أى لا تستميله الكليل/الأستار/أى

أنه لا يستنيم حياة الدعة والحمول بل يقتحم

المخاطر والمهالك، ويجد فى هذا الاقتحام متاعه.

(٤) صدره ورده وصدره كأنه النبع الذى يرده

(٥) الذخيرة ٤/١٨٨.

(٦) القلب: البئر.

(٧) سها: نجم صغير أى أنه لا يميز.

(٨) نهي: عقل.

(٩) الذخيرة ٤/٢٤٧.

ومخاطبات نال كل منها فيها من صاحبه، ويذكر ابن بسام له فصلا من إحدى مخاطباته ورسائله إلى ابن الطراوة، وفيه يقول<sup>(١)</sup>:

«ما حياقي بين الحيات، وثباتي في الجميع أو الثبات<sup>(٢)</sup> وقد حانت وفاة الوفاء، وخانت صفات الصفاء، وأرداني<sup>(٣)</sup> الزمان بأردانه<sup>(٤)</sup> وأعياني بتقلب أعيانه. الجاهل هو الحاظي<sup>(٥)</sup> والعالم ميخوس الأحاظي<sup>(٦)</sup>.. وما أضحكني ملء في، وأطاشني وليس الطيش في، هذا المنتحوي<sup>(٧)</sup> المنتحوي<sup>(٨)</sup> نظمت قصيدة سميتها سهم الشهم، وضمنتها مسائل لا تخفى على أولى الفهم، فما بلغت حتى دمغته<sup>(٩)</sup> وألقاها كأنها حية لدغته. أيها المموه بجهله، والمدعى العلم وليس من أهله، سكرت فصحوك لا يجديك.. وكأني بمن ضمك قد ضامك (ظلمك)، وبين لك قد لامك. وزعم هذا الأهوج الأعوج أنه لم يعرف رسمى، ولا سمع باسمي، كأنما ولد بالأمس، أو بعث من الرمس (القبر)، أو عمي عن الشمس».

وكأنما بلغت القيروان في القرن الخامس عند ابن شرف وعلى المصري كل ما كانت تحلم به من روعة وإبداع في الكتابة الأدبية وأسجاعها القصيرة وألفاظها المنتخبة الرشيقة، ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية، ويرسل أبو الفضل التجاني المتوفى سنة ٧١٨ رسالة إخوانية يتودد فيها إلى ابن عمه عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة في أثناء رحلته بالقسم الجنوبي من الإقليم التونسي آملا في لقاء قريب به، وفيها يقول<sup>(١٠)</sup>:

«هذا الزمن الذي أوقع ريبا واشتعل الرأس به شيبا، سرعان ما تتقهقر القواطع منه مقصرة، وتمحو ليله آية النهار مبصرة، وتلقى حبله من سقط الفرقة مضغة، ويرجع راجع الشباب صبغة الله (ومن أحسن من الله صبغة) وإذ كان يعيده حامل كلام، ويرده أصل سلام، فما ظنك به حين يلتقى المقيم والآيب، وتقبل الركائب، وتراج من جذب البري<sup>(١١)</sup>، ويراح<sup>(١٢)</sup> إلى جنة القرب ونار القري<sup>(١٣)</sup> حينئذ تتصل الأفراح، وأنشد:

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَاخُ<sup>(١٤)</sup>»

والقطعة مسجوعة وتحمل كثيرا من الصور وبها طباقات وجناسات واقتباس من الذكر

- |                         |   |
|-------------------------|---|
| (١) الذخيرة ٢٤٩/٤.      | (٩) دمغته: آلت دماغه.                     |
| (٢) الثبات: الجماعات.   | (١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢١١.      |
| (٣) أرداني: أهلكني.     | (١١) تراج: تستريح. البري جمع برة وهي حلقة |
| (٤) أردانه: أكامه.      | من نحاس ونحوه توضع في إحدى فتحتي أنف      |
| (٥) الحاظي: المحظوظ.    | البعير لجذبه بزمام منها لتذليله.          |
| (٦) الأحاظي: المحظوظ.   | (١٢) يراح: يرجع.                          |
| (٧) المنتحوي: من النحو. | (١٣) القري: الطعام يقدم إلى الضيف.        |
| (٨) المنتحوي: المتعاطف. | (١٤) يراح: فراق.                          |

الحكيم واستشهاد ببيت سعد بن مالك في حرب بكر وتغلب معرّضاً فيه بالحارث بن عباد حين اعتزل هذه الحرب، وهي تصوّر براعة كاتبها الأدبية، وكان يتقلد رياسة ديوان الإنشاء أيام الخليفة الحفصي أبي يحيى زكريا المشهور بالليحاني وابنه محمد الملقّب بأبي ضربة. ومن كتاب الرسائل الشخصية في هذا العصر ابن خلدون، وسنخسه بكلمة. وتتكاثر الرسائل في العصر العثماني، من ذلك رسالة تعزية لعلی الغراب الصفاقسي يعزى صديقا له في أمه ومن قوله فيها<sup>(١)</sup>:

«ترك القلب بعد المسرة أسيفا، وقرع الأسماع قرعاً عنيفا، ذكر ما أصبت به في مبدأ لَوْحَتِكَ<sup>(٢)</sup>، وَمَنْبَت دَوْحَتِكَ، ومنبع مَشْرَبِكَ، ومطلع كوكبك، حيث أجابت الدواعي العُلُوِيَّة، إذ قالت لها ﴿أرْجِعِي إلى ربك راضية مرضية﴾.. فعزّ علينا - والله - هذا المصاب، وبلغنا من الحزن بهذا الرُّزءِ<sup>(٣)</sup> النصاب (الغاية).. فتأسَّ يا أخى بصبر ذوى الألباب، وأدّخر ما أصبت به عند الله ليوم الحساب، فلا يخفاكم ما أُعِدَّ للصابرين من الأجر والثواب ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أحسن الله لك بها العزاء، وجازاك الله أفضل الجزاء».

والتكلف واضح في هذه الرسالة، وعلى الغراب يكثر في كتاباته من صور التصنع المختلفة، وسنعود إلى بيان ذلك في الحديث عن مقاماته، ولمحمد ماضور المترجم له بين شعراء الغزل رسائل شخصية متعددة، من ذلك رسالة في تهنئة صديق بالإبلال من مرض، وفيها يقول<sup>(٤)</sup>:

«سلام أعلى وأغلى، وأجلى وأحلى، وأبقى وأنقى، من سلام شائق لمشوق، وواقق لموموق، أخصُّ به حضرة الموسم بصدق الإخاء، في الشدة والرخاء، لازالت عيون السعادة تلاحظه، وأيادى الإيادة (التأييد) تفاوضه بمنة الله تعالى، أما بعد فإني أحمد الله لى ولك على العافية الكافية، والنعمة الضافية الوافية، أمدها الله علينا امتداد رحمته، وأبقاها لدينا بقاء كرامته ومنته».

ولغه ماضور سهلة وليس فيها لفظ غريب ولا تكلف، وهي مسجوعة، مثلها في ذلك مثل الرسائل الشخصية في عصرها وقبل عصرها، إذ لم يستجيب الكتاب إلى دعوة ابن خلدون بتخليص الرسائل من السجع، وكأنها كانت صرخة في فلاة، والرسالة مكتظة بالجناسات زينة الكتابات الأدبية هي وأخواتها من المحسنات البيعية. وله من رسالة يعزى صديقا في رُزءِ أصابه<sup>(٥)</sup>:

«كتابي هذا عن نفسٍ مستطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شعاره بُرّحاء (شدة) الجوى تفجعا لما فجعك، واشترাকা في عظيم المصاب معك، وأسفا على من فقدناه فقدان

(١) انظر ديوان على الغراب الصفاقسي (٣) الرزء: المصيبة.

ص ٣٩٣. (٤) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٦٣.

(٢) لوحتك: خلقتك ووجودك. (٥) نفس المصدر ص ٢٦٤.

السمع والبصر، ورُمينا فيه بأعظم الحوادث والغير، وأى رُزء ما أفضعه في القلوب، وأى خطب ما أشنعه في الخطوب.. وقد رماني ساعد الزمان حين رماك، وأصماني سهمه كما أصماك.. لا أعاد الله عليك بعد هذا الخطب خطبا، ولا أرجف لك قلبا».

والاستعارات في التعزية والجناسات تخلو من التكلف، والسجع ينزلق في الرسالة - كسابقتها - عن اللسان بخفة، والألفاظ فيه متآخية كأنما بينها رحم وقرابة، لما بينها من تلازم في الجرس ييسرها في النطق على اللسان، ويزينها في السمع للأذان.

## ٤

## المقامات

فن المقامة فن عربي عباسي ابتكره بديع الزمان عارضا فيه حيل الأدباء السيارين المحترفين للكُدية أو الشحاذة الأدبية عن طريق ما يخلبون به الناس من فصاحتهم، وقد كتب مقاماته بأسلوب قصصي، واتخذها جميعا راوية هو عيسى بن هشام وبطلا هو أبو الفتح الإسكندري، وعيسى يروي في كل مقامة حيلة لأبي الفتح مع شيء من حواراه معه في أساليب أدبية مسجوعة بديعة. وتلقانا في القيروان وتونس رسائل أدبية يسميها أصحابها مقامات، وهي لا تقوم - كما قامت عند بديع الزمان والحريري بعده - على الكدية أو الشحاذة الأدبية، مما يجعل في تسميتها مقامات ضربا من التجوز. ومن أقدمها في القيروان رسالة نقدية لابن شرف سماها «رسائل الانتقاد» عرض فيها نحو أربعين شاعرا منذ العصر الجاهلي حتى عصره، وأتبع ذلك ببحث في سقطات عدد من الشعراء وعيوبهم. وأحكامه على الشعراء مجملة وغير معللة غالبا، وهي بذلك ليست مقامة وإنما هي رسالة نقدية ولانسمع بعد ذلك عن عمل لقيرواني حاكي به قصص الشحاذة الأدبية عند بديع الزمان والحريري، حتى إذا كنا في العصر العثماني وجدنا غير شاعر ينسب إليه بعض المقامات، وأول ما يلقانا من ذلك ثلاث<sup>(١)</sup> مقامات للشاعر على الغراب الصفاقسي المترجم له بين شعراء المديح، وأولها تسمى المقامة الباهية نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد الباهي في إتمامه مدرسة أحدثها لعهد الأمير على باي الأول، وقد حدثه بها أبو الصلاح مسعود عن أبي الثناء محمود الذي روى له أخبار تونس مفيضا في مديحها ومديح الأمير على باي الأول. ثم يفيض في وصف المدرسة ومبانيها وغرفها وصفا مسهبا، ثم يطنب في تهنئة الشيخ الباهي وابنه بإتمام المدرسة ويختتم المقامة بقصيدة في مديح الشيخ. وواضح أن هذه المقامة ليس لها من فن المقامة شيء، أما في حقيقتها فإنها رسالة تهنئة للشيخ الباهي المسماة باسمه. وسمى مقامته الثانية باسم المقامة الهندية نسبة إلى الهندي وهو التين الشوكي، وكان شخص ذمه فأخذ يبدئ ويعيد في وصفه ووصف نموه على شجره قبل قطفه والالتذاذ

(١) انظر المقامات في ديوانه ص ٣٣١ وما بعدها.

بطعامه، وحاكى المقامة أبوسنان الهندي عن أبي عاصم الهندي، وليست مقامة إنما هي رسالة في وصف التين الشوكي، ومقامته الثالثة اتخذ موضوعها عباءة كان كلّف حمودة بن عطاء الله بحملها وغسلها فأبطأ بها عليه، فكتب إليه هذه المقامة مداعبا، وفيها يقول:

«المستؤل من على همتكم وشريف حُرمتكم أن العباءة إذا كانت في دائرة الوجود وعلى الوجود مشتملة، فأسرِعْ إنفاذها على الحال اللازمة لها أو المنتقلة، وإلا فأخبرنا لنعرض عنها ونقول: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ فإن الشتاء أرسل يخبرنا بموافاته.. وهذه العباءة غاشية<sup>(١)</sup> لجميع أهل بيتنا في البرد، كافية للجمع منهم والفرد، ومنذ فقدت زمن ذلك الحر الكثير، لم يسألني عنها منهم صغير ولا كبير، بل كلما أمال النوم رقابهم غلقوا أبوابهم ﴿وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ ولما أن قطب وجه الشتاء وعَبَسَ، وقد أصبح أنفه يتنفس، صاروا كلما أقبلت ليلة شاتية، تتقلب جنوبهم في المضاجع كل ناحية، وقاموا قبل الفجر يسألونني ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وجعلوا يتأسفون على فقرهم إليها ويقولون: ﴿يا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾.

وليس الحديث عن هذه العباءة مقامة إنما هو رسالة أراد بها إلى الدعابة، ونراه في هذه القطعة من الرسالة يقتبس مرارا من القرآن الكريم آيات يزين بها أسلوبه، وهو يكثر من ذلك في مقاماته كما يكثر من التصنع لمصطلحات العروض والعلوم وخاصة النحو. وفي هذه القطعة من مصطلحاته الحال اللازمة والمنتقلة، وأيضا فإنه يكثر من التوريات، ويتكلف لذلك كله في صور مختلفة.

وللشاعر محمد الورغي ثلاث<sup>(٢)</sup> مقامات أيضا، سمي أولها الباهية، وهي تتطابق مع المقامة الباهية لعلى الغراب في أنها تتخذ موضوعها مديح الشيخ الباهي وابنه اسماعيل وهي بذلك مثل مقامة الغراب رسالة لا مقامة. وسمى مقامته الثانية الورغية كتبها حين ختن على باي الثاني أولاده وأولاد أخيه محمد الرشيد، وفيها يفتخر بشعره ويضع نفسه فوق شعراء عصره، ويعارض قصيدة أحدهم ويتناولها بالنقد، وهي أيضا لا تشبه فن المقامة في شيء إلا في نسبتها إليه. وسمى المقامة الثالثة المقامة الخمرية كتبها حين هدم الأمير على باي الثاني الحانات في عاصمته تونس، وجعل بطلها سعد السعود مكنيا به عن نفسه، وحاور فيها فتاة رامزا بها عن تونس، ويستهلها بقوله<sup>(٣)</sup>:

«يارواة الأخبار، وحمة القول المختار، شمل الله جمعكم بسلام، وجمع شملكم في دار السلام<sup>(٣)</sup>. خَيْرُ المتكلمين مَنْ حَدَّثَ بما نفع، وخير السامعين من أحرز وجمع، وخير ما قيل من

(١) الغاشية: الغطاء. في العهد الحسيني ص ١٥٤ وما بعدها.

(٢) دار السلام: الجنة.

(٣) انظر في هذه المقامات كتاب الأدب التونسي



الكلم، ما يقال لقائله: سَلِّمْ، فاسمعوا الآن لحديث حسن، تخيرته في سالف الزمن: كنت ممن حُبِّبَ إليه معاناة الأسفار، وخَفَّفَ عنه مفارقة الأوكار، ورأى أن من العجز تفضيل داره على دار، وأن من الأسر اتخذ خليفة أو جار، وأن يقعد عن كَسْبِ يحويه ليوم تظهر فيه مساويه، فشدت على وسطى أطمارى<sup>(١)</sup>، وشمَّرت لقطع المفاوز بإزارى» ويقول إنه رأى من البلاد ألوفا، وخالط من أهلها صنوفا، حتى ألقى عصاه بتونس ويسمى فتاة فيها أعجب بها «تونس» ويجرى على لسانها بعض أحوالها ويستطرد إلى مديح حاكمها على باى الثانى ويصفها لعهد على لسان فتاته، مشيدا بها وبه قائلا إنها:

«محط الرحال، ومطمح الآمال، تجارتها نافقة، مبانيتها رائقة، وسلعها ثمينة، ومياها التي عمَّت بها معينة، ومساجدها معمورة، وبركاتنا منشورة، ومرتبَّاتنا لمدرسيها جارية.. وأما خراج بلاده، فقد زاد على معتاده، لكثرة العمارة، بحسن سياسة الإمارة».

وتطلب إليه الفتاة أن ينشئ قصيدة في مديح الأمير على باى الثانى لهدمه حانات العاصمة، وينظم فيه قصيدة. وواضح أن هذه المقامة مثل أختيها أشبه برسالة منها بمقامة، ونلاحظ أن لغته في مقاماته أخف وأعذب من لغة على الغراب في مقاماته. ومثل مقاماتها مقامة لحمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. ولعل فيما قدمته مايدل على أن فن المقامة لم يزدهر لا في تونس ولا في القيروان. بينما ازدهرت فنون النثر الأخرى وخاصة الرسائل الديوانية والشخصية، وحرى بنا أن نترجم لأشهر الكتاب ممن سميناهم، وهم أبو اليسر الشيبانى وإبراهيم الحصرى وابن خلدون.

## ٥

## كبار الكتاب

أبو اليسر<sup>(٢)</sup> الشيبانى

هو إبراهيم بن محمد الشيبانى ولد سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م ببغداد وبها المنشأ والمربي واختلف إلى حلقات شيوخها من المحدثين والفقهاء واللغويين أمثال المبرد والأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة، وبدا فيه ميل مبكر إلى الأدب جعله يلقي كبار الشعراء بها من أمثال البحرى وابن الرومى

(١) أطمار جمع طمر: الثوب البالى.

لابن عذارى (طبع مكتبة صادر ببيروت) ٢٥٤/١

(٢) انظر في ترجمة أبى اليسر الشيبانى التكملة

ونفع الطيب للمقرى وورقات عن الحضارة العربية

لابن الأبار (طبع مدريد) ١٩٠/١ والبيان المغرب

بإفريقية ٢٤٤/١.

ويحمل عنهم دواوينهم، ويبدو أنه عمل في دواوين الدولة العباسية فترة مع سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأمثالهما. وكان فيه ميل إلى الرحلة ولعله عرف ارتحال زرياب إلى الأندلس ومحقق لنفسه من النجاح العظيم لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) فرأى أن يؤم بدوره قرطبة، وقدمها في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) وطوّف في أنحاء الأندلس، ثم رأى أن يغادرها، ولا نعرف أسباب ذلك، وركب البحر إلى إفريقية، وقصد الأمير الأغلب إبراهيم الثاني (٢٦١-٢٨٩هـ) فلقبه لقاء حسنا، وعمل بدواوينه ولم يلبث أن اتخذ رئيسا لديوان الرسائل لم يجد عنده من الأدب الرفيع والترسل البليغ والشعر الرائق مع حصافة الفكر ومكارم الأخلاق، ويبدو أنه هو الذي دفع إبراهيم الثاني إلى تأسيس بيت الحكمة في عاصمته رقادة، حتى إذا تولى زيادة الله الثالث عهد به إليه مع رياسته لديوان الانشاء، ويقول الكاتب الرقيق مؤرخ القيروان المشهور إنه هو الذي أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وأخبارهم، واستمرت له منزلته الرفيعة عند الأغالبة حتى إذا انتهت دولتهم سنة ٢٩٦ وخلفتها في إفريقية الدولة الفاطمية أقره عبيد الله المهدي في عمله مستعينا به في توطيد حكمه، ولم يلبث أن توفي سنة ٢٩٨هـ/٩١١م بعد أن لقن ابنه وعددا من أبناء رقادة والقيروان أصول الكتابة الديوانية، ويذكر من ترجموا له مؤلفات لغوية وأدبية مختلفة، منها: سراج الهدى في معاني القرآن وإعرابه ومشكله، ومسند في الحديث، وكتاب لقط المرجان على شاكلة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ويقال إنه كان أكبر منه حججا. وخلف بجانب ذلك مجموعة من الرسائل الثرية البليغة، واتخذ لبعضها أسماء مثل المرصعة والمدبجة والوحيدة والمؤنسة. وهو صاحب الرسالة العذراء التي نسبها محمد كرد علي إلى إبراهيم بن المدبر في كتاب رسائل البلغاء خطأ، وفي كتاب صبح الأعشى نصوص منها منسوبة إلى أبي اليسر مما يؤكد نسبتها إليه كما في كتاب العصر العباسي الثاني ص ٥٢١ وأشار إلى هذه النسبة الدكتور محمد طه الحاجري في كتابه دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب ص ١٠٧ ووثق نسبتها إلى أبي اليسر الدكتور محمود مكى في بحث قدمه إلى المجمع اللغوي.

والرسالة طويلة وتعرض بدقة موازين البلاغة وأدوات الكتابة، وهي - في رأينا - أول رسالة عرضت في تفصيل صناعة الكتابة الديوانية، ويذكر في مطلعها أن شخصا طلب إليه أن يعرفه بأداب الكتاب، ويطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء ودراسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والمخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وأمثالهم ورسائلهم وعهودهم، مع التزود بالنحو والصرف واللغة والفقه. ويقول إن من يريد التفوق في صناعة الكتابة ينبغي أن يحسن اقتباس آي القرآن الكريم ووضعها بدقة في مواضعها وكذلك الأمثال والأشعار. ونشر أنه يستمد من الجاحظ

كثيرا من أفكاره عن الكتابة الأدبية، وقد طالب - كما طالب الجاحظ من قبله - بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس، وبالمشاكل بين الألفاظ والمعاني حتى توضع الألفاظ في مواضعها. ونراه لا يرتضى - مستضيئا بآبن قتيبة - عبارات في الدعاء مثل: «أبقاك الله طويلا» فخير منها «أطال الله بقاءك» إذ العبارة الثانية في رأيه أرجح وزنا وأنبه قدرا. ويطلب إلى الكاتب أن لا يستعمل الدعاء: «جُعلت فداك» لأنه ابتذل حتى مجَّته الأفواه، كما يطلب إليه أن يعرف لكل كلمة مكانها، ويضرب مثلا لتوضيح رأيه هو أن شخصا كتب إلى داود بن خلف الأصفهاني صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر هذه العبارة: «وإن قال كذا فقد خرج عن الملة، والحمد لله» فقال له داود متعجبا من وضع الحمد في عبارته: «وتحمد الله على أن تخرج امرءا مسلما من الإسلام، هذا موضع استرجاع وللحمد مكان يليق به، وإنما يقال في المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويقول أبو اليسر إنه يوضع مع ذكر الشكوى مثل: «والله المستعان» ومع ذكر البلوى: «نسأل الله صرف السوء» ومع ذكر النعم: «الحمد لله».

ويستضىء بالجاحظ في النهي عن الإيجاز المفرط في الرسائل والألفاظ المشتركة والمبهمة، ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث يشير الكاتب في صدرها إلى المراد منها. ويفيض في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بريه، ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطبيها ويلفت إلى كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قيل: لكذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كان الباقي أقل من النصف قيل: لكذا ليلة بقيت. ويعود إلى الحديث عن وضع الألفاظ في مواطنها بكل دقة وينهى من ليست له موهبة في الكتابة عن الانتظام في هذه الصناعة.

وينقل عن الجاحظ إعجابه بالكتاب إذ التمسوا من الالفاظ ما ليس متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا، ويبين أهمية الرسائل المحبرة تحبيرا جيدا في استنزال الجبايرة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللجبة، وينقل عن البيان والتبيين للجاحظ نقولا كثيرة مثل تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة والصحيفة التي دوتها عن الهنود في البلاغة، وأيضا ما سجله الجاحظ عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين. وتأثير الجاحظ وآبن قتيبة واضح في الرسالة، وللجاحظ النصيب الأوفر. ولعل في هذا التلخيص المجلل إجمالا شديدا للرسالة العذراء لأبي اليسر الشيباني ما يوضح كيف أنه عنى عناية واسعة بنقل تقاليد الكتابة في بغداد إلى إفريقية كما عنى زرياب قبله بنقل تقاليد الغناء البغدادي إلى الأندلس، وبدون ريب يفتتح أبو اليسر الشيباني في إفريقية للكتابة الديوانية عصرا جديدا بأكمله.

إبراهيم<sup>(١)</sup> الحُصْرِي

هو أبو إسحق إبراهيم بن علي المشهور بالحُصْرِي نسبة إلى قرية بحداء القيروان اسمها الحُصْر، قال ابن رشيق في التعريف به إنه «نشأ على الوراقاة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزيق جامع القيروان فكان الجامع بيته وخزانتة، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه. ونظر في النحو والعروض. ولزمه شبان القيروان، وأخذ في تأليف الأخبار وصنعة الأشعار، مما قرَّبه إلى قلوبهم، فرأس عندهم، وشرف لديهم. ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها واثالثت (انهالت) الصلات عليه، مات بالمنصورة (بالقرب من القيروان) سنة ٤١٣ وقد جاوز الأشد. وكان شاعرا نقادا عالما بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة تشبُّها بأبي تمام في أشعاره، وتتبع آثاره، وعنده من الطبع مالو أرسله على سجيته لجرى جرَى الماء، ورق رقة الهواء». ويتبع ابن رشيق في الثناء عليه ابنُ بسام في الذخيرة قائلا إنه كان صدر الندى ونكتة الخبر الجلي، وديوان اللسان العربي، راض صعبه، وسلك أوديته وشعابه، وجمع أشاتته وأحيا مواته». وللحُصْرِي مؤلفات أدبية بديعة، أهمها زهر الآداب وثمر الألباب المنشور في أربع مجلدات، عارض به كتاب البيان والتبيين للجاحظ كما يقول ابن بسام «وما يقصر عنه مداه، ولا قصرت خطاه، ولم يورد فيه كلام العرب كما صنع الجاحظ، وإنما أورد روائع العباسيين من الشعراء والكتاب حتى عصره، وكاد لا يترك لهم مقطوعة شعرية بديعة ولا رسالة أدبية رائعة إلا دونها، يسعفه ذوق مصفى وحس دقيق وشعور رقيق، وأكثر من الاختيار لبديع الزمان فلم يترك له رسالة بليغة ولا مقامة باهرة في رأيه إلا دونها في كتابه، ونعجب أن يقدم لشباب الأدباء في الإقليم التونسي مقامات بديع الزمان، ولا يصدرون عنها في صنع مقاماتهم، غير أنهم إن كانوا عزفوا عما في مقاماته من الكدية والشحاذة الأدبية فما لاشك فيه أنهم مضوا يستوعبون ويتمثلون ما قدمه لهم من غذاء الشعر والنثر العباسي الرفيع، وهو غذاء ظل يحيا حياة متصلة في جيله والأجيال بعده، ومن أجله كان الشباب في إفريقية التونسية يلزمونه في حياته ويلزمون آثاره بعد مماته، إذ كان له من التأليف بجانب زهر الآداب كتاب الجواهر في الملح والنوادر وكتاب المصون والدرر المكنون وكتاب النورين أو نور الظرف ونور الطرف، وجميعها مختارات من رسائل وأشعار «أندى - كما يقول ابن بسام - من نسيم الأسحار، وأذكى من شميم الأزهار» وقد عرض منها فصولا بديعة. وتهنأنا الفصول التي اختارها من رسائله، وما اختاره له من رسالة إخوانية قوله:

خلكان ٥٤/١ والوافي للصفدى ٦١/٦.

(١) انظر في ترجمة الحُصْرِي الأتمودج ص ٤٥ والذخيرة ٥٨٤/٤ ومعجم الأدباء ٩٤/٢ وابن

«قد تقاربت الصفات، وتوازنت الذنوات، وتكاشفنا لما تعارفنا، ورفعت الخلوة حجاب الاحتجاب، وحطت الخلطة لثام الاكتتام، وكنا مع طول الامتحان والاختبار ومدة الالتباس والاختيار، ننعق من ارتفاع القناع بلمحة، ومن اتقاد الزناد بقدحة، ونبرز العبارات، من معارض الإشارات، وغوامض الاستعارات، في طراز يدق عن مسرى السحر، ويرق عن مجرى الخمر.. ونختلس حركات البيان، في سكنات الزمان، كما اختلس اللفظ المحبب الكتوم، فهلم الآن إلى التصريح دون التعريض، والتصحيح دون التمريض، وتعال نتلاطف، ونتكاشف، إذ قد لبسنا ثوب الأمان من الزمان».

والجناسات كثيرة في الرسالة، وبالمثل الطباقات في السطور الأخيرة، والاستعارات كثيرة كثرة مفرطة، وكأنه لم يكن يكثر من هذه المحسنات البديعية في الشعر فحسب، كما قال ابن رشيقي، بل كان أيضا يكثر منها في النثر. ومن فصل في الإشادة بكتابة كاتب يقول:

«إذا بدأ القلم الأعلى براحتيه مطرزا لرداء الفخر بالظلم  
رأيت ما اسود في الأبصار أبيض في بصائر لحظها للفهم غير عم  
كروضة خمرت في وشى زهرتها وافتر نوارها عن ثغر مبتسم

وتبرجت في حللها وحليها، وابتهجت بوسميتها<sup>(١)</sup>، ووليها<sup>(٢)</sup>، فاجتنبت ما اشتبهت من خزامها وعرارها<sup>(٣)</sup>، واجتليت ما رأيت من خيريتها وبهارها<sup>(٤)</sup>، ولثمت خدود وردها وسوسانها<sup>(٥)</sup>، ورشفت ثغور أقاجها وحوذانها<sup>(٦)</sup>، والتقطت مالا تخلق<sup>(٧)</sup> الأيام بهجته، ولا تغير الأعوام جدته، من نور<sup>(٨)</sup> يقطف بالأسماع والأبصار، وزهر يتناول بالخواطر والأفكار، وسرحت الطرف، فيما يفوت الوصف، من غرائب إبداع، وعجائب اختراع، لم تفتريها<sup>(٩)</sup> الأسماع».

والفصل مليء بالاستعارات فسطور كتابة هذا الكاتب تطرز بسوادها أو ظلمها رداء فخره، وما أشبه كتاباته بروضة تتمايل أغصانها بوشى زهرها، وتتلا لأ البسمات على ثغور نوارها. ويمضي في وصف الروضة طويلا مصورا بأزهارها كلماته، وكأنما أكب على خدود وردها يلتمه

- (١) الوسمى: أول المطر. الولي: المطر بعد المطر.  
(٢) الحزامي والعرار: نباتات طيبة الرائحة.  
(٣) الخيري: زهر أصفر، والبهار: زهر أبيض وهما عطران.  
(٤) السوسن: زهر متعدد الألوان جذاب عطر.  
(٥) أقاح جمع أقحوان: زهر عطر يشبه الثغر، والحوذان: نبات عشبي زهره طيب الرائحة.  
(٦) تخلق: تبلى.  
(٧) نور: زهر.  
(٨) تفتريها: تتعود عليها.

وعلى ثغور أقحوانها يرشفه، وظل يقطف من زهر خواطر هذا الكاتب وأفكاره العبيقة، مسرّحاً الطرف فيما يفوت الوصف. ويقول الحصرى من فصل مقذع في الهجاء:

«هو كليل الخاطر سقيم النفس، صدى القريحة عديم الحس، ذو طبع جاس<sup>(١)</sup>، وفهم قاس.. قد تعود لىّ الألسن بالسباب، وغمّز الأعين على الصحاب، واستعمل الملقّ والكذاب، فهو بين جاهل متغافل، قد حشى قلبه ريناً، وملىء لسانه مينا<sup>(٢)</sup>، وبين من سمانم نائمته تلذع، وعقارب مكايده تلسع.. قد أسكرته خمرة الكبر، فخيّل إليه أن كسرى حامل غاشيته، وأن قارون وكيل نفقته، وبلقيس إحدى داياته».

وذمّ هذا الأديب المتعالى الدعىّ شديد الإيلام، إذ لم يترك فيه الحصرى شيئاً من نفس أو حسّ أو طبع أو ذهن أو خلق إلا وجّرحه، وكأنما يريد أن يمزقه تمزيقاً، ووصّفه بالكبر والتعالى حتى ليخال أن كسرى ملك الفرس من حشمه الذين يحملون من ورائه غاشيته وأن قارون صاحب الكنوز المشهور وكيل على نفقته، وأن بلقيس ملكة اليمن من حواضنه. ومضى يذكر له أنه يخال شعراء الجاهلية الكبار امرأ القيس والنابعة وزهيرا ليسوا شيئاً مذكوراً بجانبه. والرسالة طويلة ونظن طناً أن ابن زيدون استضاء بها في رسالته الهزلية. ولعل فيها قدمت من هذه الفصول ما يشهد له بأنه كان كاتباً مبدعاً إبداعاً رائعاً لا بما كان يزين به كتاباته من محسنات البديع فحسب، بل أيضاً بما كان ينتخب من الألفاظ مسويًا منها دُرّاً متلاحقة.

### ابن<sup>(٣)</sup> خلدون

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى التونسى، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م حتى إذا أيفع قرأ القرآن العظيم على أبى عبد الله بن برّال، وبعد أن استظهره قرأه عليه بالقراءات السبع المشهورة وبقراءة يعقوب أحد العشرة، وعرض عليه الشاطبيتين فى القراءات وكتاب التقصّى لأحاديث الموطأ لابن عبد البر وكتاب التسهيل فى النحو لابن مالك ومختصر ابن الحاجب فى الفقه، وفى خلال ذلك تعلم صناعة العربية على والده

(١) جاس: غليظ.

(٢) رينا: دنسا. مينا: كذبا.

ودائرة المعارف الإسلامية فى ابن خلدون، وكتاب ابن خلدون: حياته وتراثه الفكرى (طبع القاهرة) وأعمال مهرجان ابن خلدون فى يناير سنة ١٩٦٢ بالقاهرة ودراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى (طبع القاهرة) وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد وافي (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢١٨.

(٣) انظر فى ترجمة ابن خلدون كتابه: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وهو سيرته بقلمه (طبع القاهرة) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ١٤٦/٤ والحلل السندسية ٦٦٥/٣ وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطله حسين ترجمة محمد عبد الله عنان وبرتشفيك ٤٠٥/٢ وما بعدها

وعلى الشيخين الحصائري والزُرزالي، وعلى إمام العربية والأدب بتونس أبي عبد الله بن بحر وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة للأعلم وكتاب الحماسة وشعر أبي تمام وطائفة من أشعار المتنبي وسقط الزند للمعري ولازم مجلس المحافظ ابن جابر الوادي آشيً وسمع عليه صحيح مسلم، وكتاب الموطأ، وأجازه إجازة عامة. وأخذ الفقه عن جماعة منهم أبو القاسم محمد بن القصير قرأ عليه كتاب التهذيب للبرادعي ومختصر المدونة وتفقه عليه، وفي خلال ذلك كان يحضر مجلس الإمام محمد بن عبد السلام، وعليه سمع كتاب الموطأ. ولما ملك السلطان أبو الحسن المريني تونس سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م أحضر معه جماعة كبيرة من علماء فاس، فاستمع إليهم وانتفع بهم، وبخاصة من الشيخ أبي عبد الله الأبلبي التلمساني تلميذ ابن البناء المراكشي، وعنه أخذ الأصلين والمنطق وسائر الفنون الحكيمة والتعليمية.

وواضح من ذلك أن ابن خلدون كان - منذ نشأ - يكبُّ على تحصيل العلوم بل يلتهمها التهاما، وقد لفت إليه معاصريه منذ حداثة، مما جعل أبا محمد بن تافراكين المستبد بالدولة بعد رحيل السلطان أبي الحسن المريني عن تونس يستدعيه سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م لكتابة العلامة عن الخليفة الحفصي أبي إسحق وهي وضع كلمة «الحمد لله والشكر لله» بقلم غليظ بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مكاتبة، وفي سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٣م استدعاه السلطان المريني أبو عنان فارس لينتظم في سلك رجال دولته، ولبَّاه، فأكرم وفادته عليه، وعهد إليه سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٦م بالكتابة والتوقيع بين يديه، ونفَس عليه بعض من حوله هذه المكاتبة عند السلطان وأخذوا يدسُّون عليه فاعتقله السلطان سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م وظل في معتقله حتى توفي سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ووردت إليه حريته بعد وفاته، ولحق بالسلطان أبي سالم وولاه كتابة السر والإنشاء حتى توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ودخل بعده إلى غرناطة بالأندلس واحتفى به سلطانها ابن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب، وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير، وأرسله السلطان سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م في سفارة إلى ملك قشتالة، ونجح في سفارته وسرعان ما أخذ أهل السعيات يفسدون ابن الخطيب عليه، وأحسَّ منه شيئا من الانقباض لم يكن عهدُه فيه، وكانت قد وردت عليه كتب من الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية يستدعيه، فصمم على مغادرة غرناطة وركب البحر سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م إلى بجاية، واحتفل أميرها ورجال دولته به، وخَلع عليه، وأخذ يستعين به في تدبير حكمه، وأسند إليه خطابة الجامع، ودرَّس للطلاب، وقُتل وخلفه أخوه، وأحسَّ بالسعيات تكثُر ضده، وجاءه كتاب من السلطان أبي سمو صاحب تلمسان في الجزائر سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م يستدعيه - وهو بمدينة بَسْكرة - لحجابه، فلبَّاه، وظل عنده حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م إذ استدعاه السلطان المريني عبدالعزيز ليعمل معه، وارتحل إليه، غير أنه توفي قبيل قدومه عليه، ولقيه الوزير أبو بكر بن غازي لقاء كريما، وأحسَّ بدسائس تُحاك ضده من

حواله، فرحل إلى غرناطة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م رحلته الثانية، وسرعان ما أخذ أهل الدولة بفاس يدسون ضده عند سلطانها ويحثونه على إعادته إلى تلمسان، وعاد إليها وأحس ريبة من أبي هو سلطانها لتركة له وعمله مع الدولة المرينية، فخرج من تلمسان واتجه إلى أحياء أولاد عريف في البادية فأكرموه، ومكث بينهم مع أسرته أربعة أعوام، نزل فيها مع أهله بقلعة ابن سلامة في جبل بني راشد وأسكنوه فيها قصرا، اختلى فيه لوضع أصول كتابه العبر ومقدمته. وأحس أنه محتاج إلى مطالعة أمهات الكتب في مكتبات الدولة الحفصية في تونس ليستعين بها في تاريخه منقحا ومصححا وارتحل في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م يريد تونس ولقى في سوسة سلطانها. فراجعته وذكر له أنه يريد الرجوع إلى تونس مسكن أبائه، فجهزه إليها، وعاد إلى عشه الذي درج منه، وكان السلطان قد أمر نائبه فيها أن يبني له منزلا كريما مع راتب كاف. وعاد السلطان الحفصي إلى عاصمته، وأخذ يستشير في شئون الدولة، وطلب إليه الإكباب على تكملة تاريخه، وأكمله وأهدى الخزانة الحفصية الكبيرة منه نسخة، وأحس بسعايات ضده عند السلطان الحفصي فقرر مغادرة تونس متعللا بالحج وركب البحر إلى الإسكندرية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م ودخل القاهرة وانهاled عليه طلابها يريدون الاستماع إليه، فانتصب للتدريس بالجامع الأزهر، يقرأ لهم كتاب الأصول للإمام المصري المالكي ابن الحاجب، وأخذت شهرته تنتسع في أروقة العلماء والأمراء، ولقى السلطان المملوكي برقوق فأنسه ووفر راتبه، وولاه التدريس في المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو أهم مدارس الفقهاء المالكية بمصر. والتمس منه ابن خلدون أن يرسل إلى الخليفة الحفصي بتونس رسالة يرجوه فيها أن يرسل إليه أسرته بحرا، وأرسلها، غير أنه لم يكتب له أن يري أحدا من أهله، فقد غرقت السفينة بكل من كان فيها، وحزن حزنا شديدا. وكان برقوق قلده قضاء القضاة المالكية سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م بالإضافة إلى تدريسه في المدرسة القمحية وكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابه في أهله وولده، وعظم جزعه، فاعتزم الخروج من منصب القضاء والخلوص للعبادة والتدريس، وظل مترددا، حتى إذا عرف برقوق رغبته أخلاه من هذا المنصب سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م. ومكث بعد عزله منه نحو سنتين في حال رفعة وعز من تردد الطلاب والعلماء ووجوه القاهرة إليه، وتوجه إلى أداء فريضة الحج سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م فقضى النسك وعاد إلى القاهرة محفوبا بمحبة الناس وتجلتهم له إلى أن رأى السلطان أن يقلده القضاء ثانية في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م وصرف عنه في سنة ٨٠٣. ولم يلبث أن خرج مع السلطان فرج للقاء تيمور لنك وإعصاره التتارى، وهزم فرج وجيشه بالقرب من دمشق وخرج ابن خلدون مع وفد للقاء تيمور لنك والتفاوض معه في تسليم دمشق ووعظه وعظا طويلا استطاع به أن يفديها من النهب والسلب وما كان يأتي جيش تيمور لنك من الفطائع، وعقد صلح بين السلطان فرج وتيمور لنك. وعاد ابن خلدون إلى القاهرة واستقبل بحفاوة بالغة، وأعيد إلى القضاء في نفس السنة، وصرف في السنة التالية، وأعيد فيها،



وصرف سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م وأعيد سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وليّ نداء ربه - وهو قاض - في السنة التالية.

وقد بهر ابن خلدون معاصريه ومَن جاءوا بعدهم إلى اليوم بتاريخه الذي سماه: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» وهو ثلاثة أقسام في سبعة كتب، والكتاب الأول مقدمة في الفلسفة الاجتماعية في مجلد كبير، والكتاب الثاني في أربعة مجلدات تتناول أخبار العرب في المشرق، والكتاب الثالث في مجلدين يتناولان تاريخ البربر، وهو حجة في تاريخهم، وأيضاً فيها كتبه عن تونس وصقلية والأندلس. والدافع الذي دفعه إلى كتابة مقدمة مسهبة لتاريخه ما لاحظته عند المؤرخين قبله من قبولهم كثيراً من الأخبار الزائفة والخرافية وخضوعهم للأهواء وبعض النحل دون تصور واضح للقوانين الاقتصادية التي تحكم المجتمعات الإنسانية، فأراد أن يقفهم على هذه القوانين ومدى سيطرتها على الظواهر الاجتماعية والسياسية، وبذلك فسر التاريخ على أسس تطور الأوضاع الاقتصادية لا على أسس تطور الأوضاع السياسية كما تصوره اليونان. والمقدمة في ستة أبواب، وأولها يتحدث عن العمران البشري وضرورة الاجتماع الإنساني ومن قوله في ذلك.

«إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنيٌّ بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان ورَّكبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما رُكِّب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فَرَضُه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. هَبْ أنه يأكله حَباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله إلى أعمال أخرى أكثر من هذه: من الزراعة والحصاد والدَّراس الذي يخرج الحب من غلاف السُّنبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن توفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بُدَّ من اجتماع القُدْر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه».

ويقول إنه إذا حصل للبشر هذا الاجتماع أو المجتمع وتم لهم العمران كان لا بد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وهذا الوازع إما يكون بواحد منهم له عليهم الغلبة والسلطان، وإما بشرح مفروض من عند الله يأتي به واحد

منهم متميز بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم له الحكم فيهم من غير إنكار. ويفيض في الحديث عن العمران بالأرض وأقاليمها ومدى تأثير البيئة في السكان سواء في الألوان أو في الأخلاق.

والباب الثاني يتناول العمران البدوى مع مقارنات بالعمران الحضارى وبيان أن الأمم الوحشية تتغلب على مالا يبلغها في الوحشية من الأمم، ويقول إن الانغماس في الترف من عوائق الملك، وإن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب، وإن تغلب العرب على الأوطان يسرع إليها بالخراب وإنهم أبعد الناس عن سياسة الملك. وظن بعض الباحثين أنه يريد العرب عامة، وهو إنما يريد الأعراب المتبدين الجفافة من أمثال بنى هلال وبنى سليم الذين سبق أن تحدثنا عنهم وعن سيولهم التي قدمت إلى إفريقية وخرّبت القيروان وغيرها من المدن في القرن الخامس الهجرى.

والباب الثالث عن الملك وأصنافه وأنه يحصل بالعصبية وحين يسود فيه الترف يفضى إلى الهرم، ويقول إن الدول تنتقل من البداوة إلى الحضارة وإن لها أعماراً مثل الأشخاص، ويتحدث عن الخلافة وانتقالها إلى الملك كما يتحدث عن تستعين بهم الدول من الوزراء والحجاب والعمال والكتاب ورجال الشرطة وقواد الجيش، وعن الحروب والجباية والمكوس، ويقول إن التجارة من السلطان مفسدة للرعية، وبالمثل تفرده هو وحاشيته بأكبر نصيب من دخل الدولة. وليس شيء يؤذّن بخراب العمران مثل الظلم، ولا بد للعمران البشرى من سياسة عادلة ينتظم بها أمره. والباب الرابع عن البلدان والأمصار وما يجب مراعاته في أوضاع المدن، ويقول إن الحضارة غاية العمران غير أنها تعدّ لفساده. والباب الخامس عن المعاش (الاقتصاد) ووجوهه من الكسب ويقول إنه: «إما أن يكون بالاستيلاء عليه من يد الغير على قانون متعارف ويسمى مَغْرَمًا وجباية وإما أن يكون باقتناص الحيوان الوحشى وأخذه برُمته ويسمى ذلك اصطياًداً، وإما أن يكون من نتاج الحيوان الداجن كاللبن من الأنعام والحريز من دوده والعسل من نحله، وإما أن يكون من الزُّرع نباتاً أو شجراً ويسمى ذلك فلاحاً أو فُلْحًا، وإما أن يكون من الأعمال الإنسانية في مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياسة وفروسيبة وأمثال ذلك، وإما أن يكون من البضائع وأعدادها للأعْواض<sup>(١)</sup>، ويسمى ذلك تجارة». ويفصّل القول عن الفلاحة وعن التجارة وأصنافها وما يحدث فيها من الاحتكار، ويقول إنه يعود على صاحبه بالتلف والخسران، وإنه هو الذى اعتبره الشارع أخذ أموال الناس بالباطل، ويُفيض في الحديث عن أمهات الصنائع ويذكر من بينها صناعة التوليد وصناعة الطب ويفصّل القول فيهما كما يفصله في صناعة الغناء وأنغامه وآلاته وتطوره من الجاهلية إلى زمنه.

(١) الأعواض جمع عوض: البديل في التجارة.

والباب السادس مقصور على العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويتحدث عن العقل التجريبي وعلوم الأنبياء وأن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب وأن العلم والتعليم طبيعيان في العمران البشرى وأن العلوم إنما تكثر حين يكثر العمران وتعظم الحضارة، ويُفيض في الحديث عن أصناف العلوم بادتًا بالعلوم الإسلامية: علوم القرآن من التفسير والقراءات وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله وعلم الكلام وعلم التصوف ومذاهب الوحدة والحلول فيه، ويتسع بالحديث في علوم الأوائل من الحساب والهينة والمنطق والطبيعات والطب والفلاحة وعلم الإلهيات وعلم الكيمياء والفلسفة عارضا في كل علم تاريخه وأشهر أعلامه. وينتقل إلى علوم اللسان العربي: علم النحو وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب ويقول «إنه لا موضوع له يُنظرُ في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، ويقول إن لغة العرب من أهل الحضرة والأمصار لزمته مغايرة أو مخالفة للغة مضر الفصحى، إذ اتخذ كل مِصر وكل بلد لنفسه لغة عامية عربية مستقلة به، ويتحدث عن صناعة الشعر والنثر وأشعار العرب والأمصار لزمته والموشحات والأزجال وغيرها من فنون الشعر المستحدثة كالمواليا. وبذلك كله وضع ابن خلدون في مقدمة تاريخه لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني علم الاجتماع بأركانه وقواعده وقوانينه أو كما يسميه علم العمران البشرى سابقا بذلك علماء الغرب الذين لم يعنوا به بعده إلا بنحو أربعة قرون، وهو بحق عبقرى فذ لا لتونس وحدها بل للعرب جميعا في كل مكان وزمان.

وواضح من حياة ابن خلدون أنه عمل بدواوين حكام مختلفين، وهو بذلك يعدّ من كتّاب الدواوين، وكان السجع قد شاع في كتاباتهم بحيث لا يكتبون رسالة ديوانية إلا مسجوعة سجعًا تاما، وليس ذلك فحسب، بل كانوا يضيفون إلى السجع المحسنات البديعية، ورأى أن ينحى هذه الطريقة عن كتابته الديوانية، وأن يكتب بالأسلوب المرسل محاكيا عبد الحميد الكاتب والجاحظ وأضربها من قداماء الكتاب البلغاء، ويصرح بذلك في كتابه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، إذ يقول فيه: «لما استعملني السلطان أبو سالم [المرينى] في كتابة سرّه والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته كان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل دون الأسجاع لضعف انتحائها وخفاء العالى منها على أكثر الناس بخلاف الكلام المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغربا بين أهل الصناعة». ونراه في المقدمة يهاجم الكتابة الديوانية المسجوعة بعنف في الفصل الذى عقده لانقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر، ويقول: «استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية.. واستمروا على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية.. وهجروا المرسل وتناسوه.. ووجب أن تنزّه المخاطبات السلطانية عنه.. والمحمود فيها الترسل، وأما إجراؤها على هذا النحو المقفى فمذموم، وما حملهم عليه إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطائهم الكلام حقّه في

مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل، وجبروه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب (المحسنات) البديعية». وهو يضم إلى مهاجمة الأسجاع في المكاتبات السلطانية مهاجمة المحسنات البديعية التي أكثر منها المتأخرون، وعاد إلى هذه المهاجمة في الفصل الذي عقده في المقدمة بعد ذلك للمطبوع والمصنوع من الكلام، وقال إن تلك المحسنات تغلب اليوم على أهل العصر، وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون ويعدون ذلك من القصور عن سواه وليس بين أيدينا رسائل ديوانية لابن خلدون إلا ما ذكره في كتابه: «التعريف» من فصل في رسالة أرسل بها إلى ملك المغرب أبي سعيد عثمان بن أحمد المريني يخبره فيه بأحوال تيمور والتتار منذ جنكيزخان وفيه يقول:

«كنت في العام الفارط توجهت صحة الرُكَّاب السُّلْطاني (الناصر فرج) إلى الشام عندما زحف الطُّرَّ إليه من بلاد الروم (آسية الصغرى) والعراق مع مَلِكِهِمْ تَمْرُو استولى على حلب وحماة وحمص وبعليك وخرَّبها جميعا، وعانت عساكره فيها بما لم يُسَمَّع أشنع منه، ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق وأقام في مقابلته نحوا من شهر، ثم قفل راجعا إلى مصر، وتخلَّف الكثيرُ من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلفين، وسمعت أن سلطانهم تَمْرُ سأل عني، فلم يسعني إلا لقاؤه، فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقامت عنده خمسة وثلاثين يوما، أبأكره وأراوحوه، ثم صرَفني وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر.. ثم رجع آخِراً إلى بلاده، والأخبارُ تتصل بأنه قصد سَمَرْقَنْدَ، وهي كرسِيُّه (عاصمة ملكه) - والقومُ في عددٍ لا يسعه الإحصاء، إن قَدَّرْتُ أَلْفَ أَلْفٍ (مليون) فقير كثير، ولا تقول أنقص، وإن خِيَمُوا في الأرض ملأوا السَّاح (الساحات) وإن سارت كتابتهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء، وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران وابتلائهم بأنواع العذاب على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادي الأعراب».

والفصل - على هذه الشاكلة - مكتوب بأسلوب مرسل دون أى تكلف لسجع أو لمحسن بديعي. وكان يستخدم هذا الأسلوب في رسائله الشخصية على نحو ما يتضح في رسالة أرسل بها إلى لسان الدين بن الخطيب رداً على رسائله الموشاة بالسجع والبديع، وقد دون الرسالة ورسائل ابن الخطيب في كتابه: «التعريف» ويقول ابن خلدون إنه تفادى في رسالته السجع خشية القصور عن مساجلة ابن الخطيب في رسالاته المسجوعة، وهي مجاملة لابن الخطيب، والحقيقة أنه نحى السجع عن كتاباته في الرسائل الشخصية والديوانية جميعا، ودعا الكتاب - إلى ذلك - كما أسلفنا - في مقدمته غير أنهم ظلوا لا يستمعون إليه في جميع البلدان العربية، إلى أن تحررت الكتابات ديوانية وغير ديوانية من السجع والمحسنات البديعية بمصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتبعته البلدان العربية.



القسم الثالث

# صَقْلِيَّة



# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية<sup>(١)</sup>

صقلية جزيرة كبيرة تقع في منتصف البحر المتوسط، فتقسمه إلى شطرين شرقي وغربي، ويكاد يتلاقى شمالها الشرقي بإيطاليا فبينها مضيق مسيني الذي لا يكاد يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات. بينما يتسع البحر المتوسط بينها وبين تونس وطرابلس حتى ليبلغ عرضه نحو مائة وعشرين كيلو متر تقريبا أو يزيد وبخاصة أمام طرابلس. وهي في الداخل مرتفعات وهضاب ووديان، وعلى مرتفعاتها أقيمت مدنها الداخلية لتكون حصينة. وفي جنوبيها إلى الغرب مدينة جرجنت، والشاطئ الغربي والجنوبي الغربي موانئها لا تصلح للملاحة، وإذا تغلغلنا نحو الشمال الغربي وجدنا مروجاً ومرعى متسعة، ونمضى نحو الشمال فنجد ثغر أومرفاً طرابنش، وتوجه غرباً في الساحل الشمالي وهو ساحل صخري جبلي، وملتقى بخليج تام الاستدارة، ويلقانا بعده خليج مدينة بلرم (Palermo) عاصمة صقلية الإسلامية ولا تزال عاصمتها إلى اليوم، ووراءها تنحسر الجبال ويلقانا سهل من أخصب السهول، ونستمر في السير على الساحل الصخري الجبلي حتى تلقانا مسيني على مضيقها. ونسير من مدينة سيني متجهين إلى الجنوب شرقي صقلية في ساحل جبلي صخري وملتقى بثغر أو مدينة طبرمين، ونمضى حتى قرب ثغر أو ميناء قطنية حيث يصبح الساحل رملياً، ويصب فيه بعض الجداول. وإذا مضينا في اتجاهنا نحو الجنوب لقينا ثغر سرقوسة الذي أنشأه اليونان، وبه ولد العالم الإغريقي الفيزيقي المشهور أرشميدس، وبها قتل سنة ٢١٢ ق.م.

وأعلى جبال صقلية جبل إتنا في أقصى الشمال، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة متر

المدني (طبع الجزائر) وكتاب العرب في صقلية  
للدكتور إحسان عباس (طبع دار المعارف -  
القاهرة).

(١) انظر في جغرافية صقلية صورة الأرض لابن  
حوقل ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق في  
اختراق الآفاق للإدريسي وكتاب المسلمون في  
جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق



تقريبا، ويجلُّ هامته شيب أو تلج أزلى، بينما يعلو جوفه بنار لا تخمد أبدا، وكأنه شيخ رحيم قاس في آن واحد، وقسوته لا توصف، إذ يظل يلقى بحممه مغيظا محنقا أياما، وتغطي حُممه الأرض بطبقة خصبة. وتمتد شمالي الجزيرة سلسلة جبال من الشرق إلى الغرب، أكبر الظن أنها امتداد لجبال الأبنين في إيطاليا وجبال الأطلس في شمالي إفريقيا، وهي جبال صخرية جرداء عارية مما كان يُنتظر لها من زينة النباتات الخضراء، وطبقتها الخارجية تتكون من حجارة كلسية وبعض أنواع الرُخام الرفيع، ومنها تتكون بعض جبال فرعية، تنحدر صوب الجنوب ومن أهمها الجبال التي أنشئت فوقها مدينة قصر يانة وسط الجزيرة، والجبال التي تتجه نحو مدينة جرجنت. وهذه الجبال غنية بالحزف والرخام والملح المعدني والجص، وكل ذلك يكون ثروة طبيعية مهمة لصقلية، ويوجد الكبريت قرب جرجنت وحول قطنية وبلرم.

ومناخ صقلية في جلته معتدل، وفصل الشتاء فيها ليس قارس البرد بفضل الجبال الشمالية التي تحميها منه، وهو يمتد فيها من شهر نوفمبر حتى شهر مارس، وفصل الصيف معتدل الطقس إلا ما يهب عليها فيه من رياح السموم التي تأتيها من إفريقيا. ويكفي لنتصور اعتدال المنحج فيها أن درجة الحرارة في بلرم لا ترتفع عن ٢٦ درجة صيفا ولا تهبط عن ١١ درجة شتاء، ولذلك سميت بلاد الربيع الأبدى.

واعتدال مناخها هيأها لأن تنمو فيها مختلف الزروع والغروس، وتكثر الأمطار في ساحلها الغربي والشمالي وقد نقل إليها القرطاجيون القمح والزيتون والإغريق الكرمة، ونقل إليها العرب النخيل والليمون واللوز والفسق والتين ومختلف الأزهار، وأيضا الموز والبرتقال، وبها بعض مراعي في سهولها هيأت لكثير من قطعان الغنم والماعز والحنازير. ويكثر في سواحلها صيد البحر بمختلف أنواعه.

## ٢

التاريخ<sup>(١)</sup> القديم

استوطن صقلية في أقدم عصورها شعب الصيقول (Les Sicules) ومنه اشتق اسمها، ومنذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد أخذ يفد عليها غزاة من الشرق أو الجنوب أو الشمال، فكانت

وكتاب العرب في صقلية ص ٢٥ وما بعدها وتاريخ صقلية الإسلامية في القسم الثالث من كتاب وركات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ٤٣٥/٣ وما بعدها.

(١) انظر في التاريخ القديم لصقلية كتاب تاريخ مسلمي صقلية لميخائيل أماري: Amari: Storia Dei Musulmani Di Sicilia وكتاب المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٩ وما بعدها

تخضع لهم بحكم أنها جزيرة صغيرة لا يمكنها مقاومة هؤلاء الغزاة. ولها قبل الفتح الإسلامي تاريخ قديم، وبعده تاريخ نورمانى سنلم بأحوال المسلمين فيه. وأول من سكنها - كما قلنا آنفا - شعب الصيقول، وكان الفينيقيون - منذ نشأتهم على صفحات التاريخ - شعبا تجاريا يجوب سواحل البحر المتوسط، ويؤسس له عليها قواعد تجارية، وقد نزلوا سواحل صقلية وأسسوا لهم في شمالها قاعدة هي بِلْرْم. ومضت على ذلك قرون، وإذا اليونان يتبعونهم في الاستيلاء على ساحلها الشرقى ويؤسسونهم به قاعدتين في القرن الثامن قبل الميلاد هما سرقوسة وقطانية، وسرعان ما تحولتا مدينتين كبيرتين، وصعدوا إلى الشمال وأسسوا مدينة مسيني. وفي هذه الأثناء كانت دولة قرطاجة في الشمال التونسي آخذة في القوة ومددت ذراعها إلى صقلية تريد أن تستولى عليها من الإغريق وظلت الحرب بينها في مدّ وجزر وانتصار وانهازم إلى أن استطاعت قرطاجة أن تفرض سيادتها على الجزيرة سنة ٢٦٤ قبل الميلاد. غير أن القرطاجيين لم يكادوا يجوزونها لأنفسهم حتى نشبت حروب عاتية بينهم وبين الرومان، وعبثا حاولوا إنقاذها، فغادروها سنة ٢٤٢ قبل الميلاد، وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية، وأصابها ما أصاب أهل روما منذ القرن الثالث الميلادى من التدهور والفتن والفساد الأخلاقى. ولما سقطت روما تحت أقدام المغيرين الشماليين لم تلبث أن سقطت بدورها تحت ضربات الواندال الذين استولوا على إفريقية التونسية، وقد أرهاقهم لمدة نحو قرن بالضرائب الفادحة، وأذاقوهم ضروبا من العسف والظلم والاستبداد لا تطاق.

وتسترجع بيزنطة في عهد جستنيان صقلية، إذ كلّف قائده بلزاريوس بالاستيلاء على الجزيرة من الواندال كما استولى على إفريقية الشمالية وكانت المدن خالية من حاميات واندالية، ما عدا بلرم، فقد كان بها حامية لهم، وكانت أسوارها منيعة، فقاومه فترة ثم استسلمت مثل أخواتها الصقليات، وفرحت جميعها بنزول الجيش البيزنطى فيها واستبشرت لخلاصها من ظلم الواندال وتعسفهم في جمع الضرائب، غير أنهم لم يلبثوا أن شعروا بأنهم تخلّصوا من ربة عسف إلى ربة عسف جديد، إذ أصلاهم ولاء بيزنطة طوال ثلاثة قرون عبثا ثقيلًا من الضرائب الفادحة، فقد فرضوا عليهم ضريبة على الأملاك وضريبة على الرؤوس وضريبة على التجارة أو الصناعة وضريبة للجيش أو ضريبة دفاع وضريبة للملاحين وضريبة للموظفين. ولم تكن الدولة البيزنطية وحدها هي التي تجنى الضرائب من صقلية، فقد كانت تجنيها معها الكنيسة: كنيسة روما وميلانو وراقنا، وكان للكنيسة الأولى الحظ الأوفر، إذ كان لها إقطاعات كثيرة موزعة حول بلرم وقطانية وسرقوسة وجرجنت، وكان يديرها قسيسان أحدهما في بلرم والثاني في سرقوسة. وكان همُّ كل منها أن يجمع أكثر ما يمكن من الضرائب، وبالمثل كان وكلاء كنيسة ميلانو وراقنا، وكان يُرسل إلى روما سنويا أسطولان محمّلان بالقمح في الربيع وفي الخريف، وكانت تُرسل إلى راقنا سفن محملة ببنات القناطر من القمح والفواكه والخضراوات والجلود المدبوغة والحريير

والمواد الصوفية، والفلاح الصقلي يتصبب عرقا، ويجمع الضرائب وكلاء الكنائس المذكورة مرة ويجمعها وكلاء الدولة البيزنطية مرة، دون رحمة أو إشفاق. وكانت روما في أثناء ذلك تُرسل إلى صقلية بكثير من العبيد، وأضافت إليهم من كانت تنفيهم من المذنبين ومقترفي الجرائم والجنود المتمردين. وكل ذلك عمل على إضعاف شخصية صقلية في العهد البيزنطي - كما يقول أماري - وأزهق فيها الشعور بالكرامة الإنسانية ولم يبق فيها منه بقية.

## ٣

الفتح<sup>(١)</sup> العربي وعهد الدولة الأغلبية

بينما هذا الظلام يطبق على صقلية ويطبق معه الضنك والضييق والإعس إذا بالعرب يفتحون ديار إفريقية التونسية المواجهة لصقلية ويستولون على جميع بلاد المغرب، وكان طبيعيا أن يفكروا في السيطرة على البحر المتوسط وعلى جزره: صقلية وغيرها، وتبعوا لخطتهم الحربية في التعرف على أحوال البلاد قبل غزوها نراهم يرسلون سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م حملة استطلاعية إلى صقلية بقيادة عبد الله بن قيس، وبعد تعرفه على سواحلها الجنوبية عاد إلى إفريقية التونسية، وأرسلت بعد ذلك حملات بحرية ماثلة بقيادة محمد بن أوس الأنصاري وبشر بن صفوان الكلبي، وتبعهم جميعا في تلك الحملات سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م حبيب بن أبي عبيدة حفيد عقبة بن نافع مؤسس القيروان، واضطر إلى العودة سريعا لاضطراب الأحوال في إفريقية التونسية ويقول ابن عذارى إن ابنه عبد الرحمن غزا بعده صقلية ثم سردانية وقاتل بها حتى صالحه أهلها. وهذه الحملات المبكرة نُبّهت الدولة البيزنطية إلى أن تحسب حساب الغزو العربي المفاجيء، فأحالت صقلية إلى قاعدة حربية تمتلئ ثغورها ومدنها وقلاعها وحصونها بالعتاد الحربي الوافر.

وكان من أهم الأسباب التي أسرعت بفتح صقلية أن قائدا بيزنطيا يسمى أوفيموس (Euphemius) وتسميه المصادر العربية فيمى ثار على قسطنطين بطريق صقلية، فأمرته حكومة

الحضارة العربية بإفريقية والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدني والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الفتح والعهد الأغلبى البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب والمؤنس لابن أبي دينار والجزء الثالث من كتاب ورفات عن

القسطنطينية بالقبض عليه وتعذيبه، وعلم فيمى بذلك الأمر، فرأى أن يستنجد بالأمير زيادة الله الأغلبى حاكم إفريقية التونسية ضد البطريق وحكومته، واستجاب إليه زيادة الله إذ رأى في ذلك فرصة لا تعوّض للاستيلاء على صقلية، فأعدّ سريعا جيشا لفتحها، ورأى بكياسته أن يسند قيادته إلى أسد بن الفرات القاضى وشيخ فقهاء المالكية بالقيروان.

وأقلع الأسطول الأغلبى بقيادة أسد بن الفرات من ميناء سوسة في منيصف ربيع الأول من سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان يحمل عشرة آلاف مقاتل، وأرسى بعد ثلاثة أيام على ساحل صقلية عند مدينة مازر في الجنوب الغربى، واستطاعوا في وقت قصير الاستيلاء على بعض المدن والحصون الجنوبية، وتقدموا إلى الساحل الشرقى حتى حاصروا مدينة سرقوسة قاطعين نحو مائتى كيلو متر إليها، وتعززوا بمدد جديد إليهم من إفريقية. وكان أسد يباشر الحصار بنفسه ويضيق على المدينة، وانتشر مرض بين صفوف الجند العرى أودى بحياته العظيمة، فلبى داعى ربه في ربيع الثانى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م ودُفن تحت أسوار سرقوسة. وخلفه على قيادة الجيش محمد بن أبى الجوارى، واستولى على جرجنت في الجنوب بالإضافة إلى مازر، وأخذ يستعد للهجوم على مدينة قصر يانة، وكانت الحملة قد أصابها عناء شديد بسبب المعارك المتصلة، وأوشكت على الانسحاب إلى إفريقية، غير أن ما نذروا أنفسهم له من الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام تحت راية الشيخ أسد بن الفرات كان يطرد اليأس من نفوسهم ويشدّ أزرهم إلى أبعد حد، ولم يلبث الأمل أن ملأ نفوسهم إذ رفدهم مدد جديد من إفريقية ومن أسطول لشرفان المجاهدتن الأندلسيين سمع بحملتهم، فجاؤا يؤيدهم، وتوفى قائدهم محمد بن أبى الجوارى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م فأرسل إليهم الأمير زيادة الله الأغلبى قائدا جديدا هو زهير بن عوف، فصمم على الاتجاه إلى الشمال وغزوا بلمر وحاصرها برا وبحرا وضيق الخناق عليها، وفي أثناء ذلك استولى على ماسينى سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م ومازال يزداد شدة في تضيق الحصار على بلمر إلى أن استيأس منها الروم، فغادروها بحرا وبراً، تاركين المدينة مفتوحة أمام جيش المسلمين فدخلها في رجب سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م وكان بها سبعون ألفا قبل الحصار فلم يجد الجيش بها سوى ثلاثة آلاف كما يقول ابن الأثير في تاريخه. واتخذها المسلمون هناك عاصمة لحكمهم في الجزيرة كما كانت عاصمة لمن قبلهم، وظلت كذلك لمن بعدهم، وأخذوا في تشييد القصور بها والمساجد والحمامات والفنادق وإقامة الأسواق بها والحدائق حولها، وحولوها مركزا علميا يبت إشعاعات نوره إلى ظلمات القرون الوسطى في أوروبا.

وتوفى هذا القائد المجاهد العظيم زهير بن عوف سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م وولى صقلية بعده أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب واهتم بالحرب البحرية ونازل سفن البيزنطيين غير مرة وانتصر عليها، بل حطمها حطما، وبذلك أصبحت للأسطول الإسلامى الصقلى سمعة كانت

تُدخل الرعب والفرع في قلوب الأعداء، وكانت مطامح المسلمين المجاهدين تتجه صَوْبَ إيطاليا القريبة ديارها من مَسِينِي فجهز أسطولا أرسل به صوب قَلَوْرِيَّةَ بجنوبي إيطاليا فنزل بها الجند المسلمون ووصلوا إلى نهر البو سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م. ويتوفى أبو الأغلب سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م ويتولى صقلية العباس بن الفضل ويجهز أسطولا لغزو قَلَوْرِيَّةَ سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م. ويقيم بها بعض الحاميات، وخرجت مَسِينِي بعون من الروم عليه فأعادها سنة ٢٤٢ وأخذ يفتح الحصون في الداخل الواحد بعد الآخر، وفتح جفلود (شفلودي) على البحر بالشمال في نفس السنة، وشدَّد الحصار على قصر يانَةَ المنيعَة في وسط الجزيرة، واستسلمت سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م بعد جهاد عتيف، وبنى العباس فيها تَوًّا مسجدا، ونَصَب فيه منبرا وخطب فيه الجمعة. ولعل في ذلك دلالة واضحة على أن قواد الفتوح في صقلية وجنودها المسلمين كانوا يعدون غزو مدنها وحصونها جهادا في سبيل الله. وأزعج أَخْذُه لمدينة قصر يانَةَ الكبيرة المحصنة بيزنطة فأرسلت أسطولا يحمل مددا كبيرا من الرجال والمؤن إلى سرقوسة، والتقى به الأسطول الإسلامي الصقلي ونشبت بينها معركة عنيفة انتصر فيها الأسطول الإسلامي، واستولى على مائة من سفن الأسطول البيزنطي، ولأذ الباكون بالفرار، ويقول ابن الأثير إن المسلمين لم يستشهد من جنودهم في هذه المعركة البحرية سوى ثلاثة، وكان الجنود البيزنطيين لم يلبثوا حين رأوا أسطول المسلمين وجنوده البُسلَاء أن ألقوا سلاحهم وسفنهم وفروا من المعركة منهزمين.

ولم يلبث هذا القائد المجاهد أن لَبَّى نداء ربه سنة ٢٤٧هـ/٨٦٢م ويتولاها خفاجة بن سفيان سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م ويحتل مدينة نُوْطِس في شرقي الجزيرة إلى الجنوب، وكان أهل طبرمين ينازلون المسلمين نزالا مستميتا، ورأوا أن يجنحوا إلى السلم بعد أن أعياهم القتال وطلبوا إلى القائد خفاجة أن يرسل إليهم وفدا للصلح فأرسل إليهم وفدا يفاوضهم وعلى رأسه زوجته، ومرَّ بنا في إفريقية التونسية إلى أي حد كانت المرأة التونسية تحافظ على كرامتها ومدى ما كان لها من منزلة في نفوس التونسيين بالقيروان وغير القيروان، وهذه إحدى نسايتهم تتولى السفارة لأول مرة بين قومها وأعدائهم لتضع شروط الصلح، وهي بذلك تعد أول سفيرة عربية، واستقبلها الأعداء بحفاوة واستجابوا لما وضعته من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت السفارة نجاحا عظيما، فدخلها المسلمون صلحا. ولابن هذه السيدة محمد الذي كان يناضل نصارى صقلية نضالا عنيفا الفضل في استيلاء المسلمين على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فإنه جهز أسطولا لفتحها ونزلها، وقضى على الحامية الرومية فيها واستولى عليها وجعلها تابعة لصقلية. ونزلتها جالية تونسية أشاعت بها لهجتها العربية، ودارت السنة فأرسلت بيزنطة أسطولا تبغى استردادها، ولم يكد يظهر له في مياهها الأسطول الإسلامي الصقلي حتى ألقى الرعب والفرع في قلب كل من فيه، فولَّوا على وجوههم فرارا دون أن يخوضوا معركة، وظلت مالطة تابعة لصقلية نحو مائتين وعشرين عاما إلى أن استولى عليها

النورمان مع استيلائهم على صقلية، ولغتها إلى اليوم لهجة عربية تونسية محرفة حُرِّفَت بِمَرِّ الزمان، وعبثا حاولت الدول التي استولت عليها - ومعها إنجلترا - أن تترك لغتها كما تركت الإسلام وتتخذ في ألسنتها مكانها اللغة الإيطالية أو اللغة الإنجليزية، وباءت كل هذه المحاولات في القرون الثمانية الماضية بالفشل، مما يدل على قوة العربية وحيويتها، وأن قوما إذا اتخذوها لا يمكن أن يتحولوا عنها - مها دخل عليها من التصحيف والتحريف خلال قرون متطاولة - إلى لغة أخرى لسلاستها وعذوبة جريانها في الألسنة.

ويتوفى خفاجة وابنه محمد، وتوول ولاية صقلية إلى أحمد بن عبد الله الأغلبى، وكان بطلا مقداما فصمم على فتح سرقوسة، وكانت بيزنطة لا تزال ترسل إليها بالنجدة تلو النجدة، وكلما انهزم لهم أسطول جهزوا لها أسطولا آخر، وحاصرها أحمد، واستمر الحصار تسعة أشهر من أوائل المحرم إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧ م ثم اقتحمها بمجانيقه وخيله وجنده، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت الأمرين من الجوع ودك الأسوار وسقوط القلاع، وبعد أن لقي حتفه من المدافعين عنها أكثر من أربعة آلاف جندي بيزنطى. وولى صقلية سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١ م محمد بن الفضل فجعل همه القضاء على معقل مهم للروم هو قلعة الملك وكان من فيه يُكثرون من الإغارة على المسلمين ويقضون مضاجعهم، والتقى الجمعان بقرب المعقل وحمل وطيس الحرب وانجلت عن انتصار عظيم للمسلمين واندحار شديد لأعدائهم إذ قتلوا منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف ودخلوا القلعة تخفق على رؤوسهم رايات النصر.

وولى إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على صقلية، وفي أيامه سنة ٢٧٥ نشبت معركة عنيفة براً وبحرا بين الروم والعرب، فإن الدولة البيزنطية أرسلت بأسطول ضخم إلى صقلية، ولقيه الأسطول الإسلامى الصقلى واحتدمت المعركة، وكانت كارثة الروم هائلة وإذ قتل منهم سبعة آلاف وغرق خمسة آلاف ولاذ من كتبت له الحياة بالفرار. وانتزه المسلمون هذه الفرصة من النصر على الأسطول البيزنطى، وهاجموا قَلَوْرِيَّةَ في جنوب إيطاليا تاديبا لمن يحشدهم الروم فيها لإمداد حاميات المدن والحصون التي لم يستسلم من فيها للمسلمين.

وفي سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٧ م استدعى الأمير إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله إلى صقلية وتنازل له عن صولجان الحكم في القيروان وإفريقية التونسية، وصمم على أن يقضى بقية أيامه مجاهدا في صقلية، واتجه إلى سوسة في ثوب مرقع علامة الزهاد، وأبحر منها على رأس جيش قوى إلى بلرم، وكان قد أعدَّ إعدادا قويا بالأسلحة والعتاد، وسار على رأسه لغزو مدينة طبرمين شرقى الجزيرة إلى الشمال أمنع المراكز التي لا تزال باقية للروم في الجزيرة، وكانوا لا يزالون يرسلون إليها بالإمدادات. وهاجمها ودارت رحى الحرب عنيفة بين الفريقين. وأحس شيئا من التخاذل في صفوف جيشه لاشتداد وطيس الحرب فجمعهم، وأمر قارئاً أن يقرأ عليهم بصوت مرتفع

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ لَوْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾. ولعل في ذلك ما يؤكد مرة أخرى أن غَزْوَ صقلية وفتح بلدانها إنما كان جهادا في سبيل الله ونشر دينه الحنيف. وبمجرد أن استمع الجند إلى هذه الآيات الكريمة وارتسم أمامهم الفردوس وما أُعدَّ فيه للمجاهدين امتلثوا حماسة وانقضوا على أعداء الله ودينه الحنيف، فانتهزوا انهمازا ساحقا، وأصبحت مدينة طبرمين أمام جيش المسلمين مفتحة الأبواب ولا حامى ولا مدافع، وارتعدت فرائص إمبراطور بيزنطة كما روى ذلك ابن الأثير وابن خلدون وأُعلن في القسطنطينية الحداد سبعة أيام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك. وسار إبراهيم بن الأغلب توا إلى مدينة رمطة آخر معاقل الروم شرقى الجزيرة جنوبى طبرمين، ففتحوا له أبوابها سريعا واستولى عليها دون قتال. ولم تكف إبراهيم بن الأغلب هذه الانتصارات، فقد ركب البحر مع جنده من مسينى إلى شبه جزيرة قَلُورِيَّة جنوبى إيطاليا، واخترقها بجنده مستوليا فيها على كثير من الحصون، ونصب الحصار على قلعة كسننتة (Consenza) المنيعة شمالي قَلُورِيَّة وضيق عليها الحصار، غير أن مرضا ألم به في أثناء ذلك، فأسلم روحه إلى بارئها تحت أسوار هذه القلعة، ونُقل رفاته إلى بلرم ثم نقله ابنه أبو العباس إلى القيروان.

ولعل في كل ما قدمت ما يَصُورُ الدور التاريخي المجيد الذي نهضت به الدولة الأغلبية في القرن الثالث الهجرى الذى ظلَّ فيه صولجان الحكم بإفريقية التونسية في يدها، فقد أضافت إلى البقاع الإسلامية جزيرتين كبيرتين: صقلية ومالطة، وظلت تجاهد في سبيل الله بصقلية وتعدُّ الأساطيل لمنازلة الأسطول البيزنطى وتتكلم به وتمزق سفنه شرمزق. وبدأت تلك الحرب بشارة تميزها وأنها حرب جهاد ونشر للإسلام، إذ كان قائد الحملة شَيْخَ الإسلام وإمام المالكية وقاضى قضاتها أسد بن الفرات، وكان يشترك في هذا الجهاد غير واحد من أمراء الدولة الأغلبية، حتى إذا أوشكت شمس دولتهم على الغروب خلع إبراهيم بن الأغلب زى الإمامة والسلطان ولبس زى الزهاد المجاهدين في سبيل الله، وأبلى في الجهاد بصقلية وقَلُورِيَّة بلاء عظيما.

العهد<sup>(١)</sup> العبيدي - عهد بني أبي الحسين الكلبيين

## (أ) العهد العبيدي

انتهى عهد الدولة الأغلبية في القيروان وإفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وانتقلت البلاد إلى عهد جديد هو عهد الدولة العبيدية وانقسم الناس بين راضين عن العهد الشيعي الجديد وساخطين على هذا العهد وهم فقهاء أهل السنة ومن كان يجلبهم من العامة، وكان لذلك تأثيره في صقلية، وانضاف إليه أنه برزت في نفوس كثيرين هناك فكرة الاستقلال والانفلات من التبعية الإفريقية، وأيضا فإن بعض الولاة كان يعدُّ صقلية كأنها كنز ألقى إليه، وينبغي أن يأخذ لنفسه منه كل ما يريد من مال وثروة، وقد تفاعلت هذه العوامل بعضها مع بعض وأدت إلى اضطراب وفتن كثيرة في السنوات الثلاثين الأولى من حكم العبيديين لإفريقية التونسية، وأسرع عبيد الله المهدي بإرساله إلى صقلية واليا وقاضيا يحكمانها بمبادئ الفقه الشيعي ويحاولان أن ينشرا فيها الدعوة العبيدية الشيعية، وثاروا على أول ولاته وثانيهم، وولوا عليهم من أنفسهم واليا هو أحمد بن زيادة الله ابن قرهب، فاشترط عليهم أن يعلن ولاءه للدولة العباسية، وكانت عامتهم سنية فارتضوا ذلك وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله يضع إمارة صقلية تحت سلطانه، وخطب له وقطع خطبة المهدي الفاطمي. وأرسل إليه المقتدر بألوية سود وخلع سود وطوق ذهب، وكان للمهدي العبيدي أسطول بمرسى لمطة فأحرقه وقتل قائده. وثار عليه أهل جرجنت وصقلية جميعها فحاول الهروب إلى الأندلس فأسره أهل صقلية هو وابنه وقاضيه وبعثوا بهم إلى المهدي سنة ٣٠٤ فصلبهم وانتهت بذلك حركة ابن قرهب. وأرسلت صقلية تطلب من المهدي واليا وقاضيا وأنهم في غير حاجة إلى جند، فتنبّه إلى ما يريدون من الاستقلال فأرسل إليهم من الكتامين حملة تؤدّبهم، وولى عليهم في سنة ٣٠٥ سالم بن أبي راشد، وكان جبّارا عاتيا وظالما عسوقا، فأخذ يُنزِل صورا شديدة من التنكيل لا بالأفراد فحسب، بل أيضا بالمدن، وهو تنكيل أدّى بأهل صقلية إلى الإمعان في مقاومته فتارت عليه جرجنت، وتبعته بلرم،

الخطط والنويرى في المكتبة الصقلية وأبا الفدا في حوادث سنة ٣٣٦ وسفرنامه لناصر خسرو، ورياض النفوس للمالكي.

(١) انظر في العهد العبيدي وعهد بني أبي الحسين المراجع المذكورة في عهد الأغالية والحلة السراء لابن الأبار في الخلفاء العبيديين و خليل بن إسحق واماظ الحنفا بأخبار الخلفاء للمقریزی وكتابة



فأرسل إلى الخليفة العبيدي القائم يهول عليه الأمر ويقول إن أهل صقلية خرجوا عن طاعته، فأرسل إليه سنة ٣٢٥ جندا جديدا يقوده خليل بن إسحق، واستقبلوه بالشكوى من سياسة سالم وبطشه، يظنون أنه سيرتق الفتق ويصلح الأمر، وسرعان ما خيب ظنونهم إذ رأوه يهدم أسوار بلرم ويبني عند المرسى مدينة جديدة لخاصته وجنده وسلاحه ويحصنها مسماها باسم: «الخالصة» وأرهب أهل بلرم إرهابا شديدا في بنائها. وثار عليه جرجنت واستعدت لحربه، فسار إليها سنة ٣٢٦ وحاصرها ثمانية أشهر، ودخل الشتاء ففك عنها الحصار. وفي سنة ٣٢٧ ثارت عليه جميع القلاع وسكان مازر، وكاتب أهل جرجنت إمبراطور بيزنطة يستجدون به، فأمدهم بالرجال والطعام. واستجد خليل بالقائم فأمدّه بجيش ضخم أخذ يحاصر به المدن والقلاع سنة ٣٢٨ وحاصر جرجنت وضيق عليها الخناق حتى سنة ٣٢٩ وفر كثير من أهلها إلى بلاد الروم وتنصر كثير منهم وهو لا يرعوى ولا يزدجر، بل يزداد ظلما وإرهاقا للأرواح إلى درجة لم يُسمع بها من والٍ مسلم لا قبله ولا بعده. وبعد أربعة أعوام عاد إلى إفريقية، فحمل معه جماعة كبيرة من كبراء الجزيرة وأعيانها وعلماؤها، وبين أمواج البحر أمر بثقب مراكبهم، فغرقوا جميعا فيه غير مراعاة عهدا لهم ولا لآبائهم الذين فتحوا صقلية وجاهدوا في سبيل نشر الإسلام فيها بدمائهم وأرواحهم، وإنما لصفحة سوداء له وعار في جبينه لا يمكن أن تطمسه الأيام.

### (ب) عهد بني أبي الحسين الكلبيين

ولّى الخليفة العبيدي القائم على صقلية بعد خليل بن إسحق واليا جديدا هو عطاف الأزدي فاستمر في سياسة الظلم والقمع، وطّفح الغضب بالمدن الصقلية وفي مقدمتها بلرم، وثار جميعا في سنة ٣٣٥ ثورة كبرى عامة، والتجأ عطاف إلى قلعة الخالصة وامتنع فيها، واجتمع رأى وجوه بلرم وغيرها من المدن على أن يذهب وفد إلى الخليفة الفاطمي الجديد المنصور ويطلب إليه أن يقوم الحكم في صقلية على أسس راسخة من العدل الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه ومن الحرية في العقيدة فلا يتعرض حاكم وزبائنه لأهل السنة وأيضا الحرية في المعاملات فلا يُغتصب من أى تاجر ولا من أى شخص ماله. وكان الخليفة المنصور حسيفا، فرأى أن سياسة الخليفين قبله وما أرسلاهم من ولاية جبارين كانت سياسة جائرة باطشة إلى أقصى حد، ورأى أن يقنع بالسيادة الاسمية على صقلية إرضاء لأهلها، وعهد بالولاية عليها لقائد من خيرة قواده سنة ٣٣٦ هو الحسن بن على بن أبي الحسين الكلبي. ومنذ هذا التاريخ أصبح حكم صقلية وراثيا في أسرته، وأخذ يحكمها حكما عادلا رشيدا، وتصادف في أول حكمه أن غلاما من غلمانه اغتصب إحدى جواريه، فأمر بقتله حتى لا تسوّل لأحد من جنده وغلمانه نفسه بالاعتداء على الحرمات، وأكبر الناس ذلك منه واستبشروا به. ولما رسخت قدمه في بلرم

قبض على مدبري الفتنة فيها من بنى الطبرى وصادر أموالهم. واطمأن له الناس والتفوا حوله، وحاول إمبراطور بيزنطة في أول حكمه أن يسترد ما استولى عليه الصقليون من شبه جزيرة قَلُورِيَّة، وأرسل لذلك أسطولا فردّه على أعقابهم مخذولا، وشيّد مسجدا بها بمدينة رجيو (Reggio) ترسيخاً لحكم المسلمين لها وتثبيتا، وأجبر الروم في مدينة تارنته Tarente على أداء الجزية. وجمع هذا الوالى وقيل بل ابنه أحمد ثلاثين رجلا من وجوه صقلية وسار بهم إلى الخليفة العبيدىّ فى المهديّة بإفريقية وبايعوه وخلع عليهم الخليفة. وهو رمز لدخول الجزيرة فى المذهب العبيدى، ونرى ابن حوقل - وهو من دعاة الفاطميين - يذم الصقليين ذما شديدا، مما قد يدل على أن العامة فيها لم تعتق هذا المذهب.

ويتوفى الحسن سنة ٣٤١ ويخلفه فى حكم صقلية ابنه أحمد، وكان يشاركه فى الحكم والتدبير فاتبع سياسته العادلة الرشيدة وكانت رمطة قد خرجت على الدولة فاسترجعها، وركب البحر إلى قَلُورِيَّة وأحرق أسطول بيزنطة وأسر قائده وأرسل به مع عدد كبير من الروم إلى المعز، وشعرت بيزنطة بأن أملها فى صقلية أصبح من إحدى المستحيلات فأرسلت إلى المعز وفدا يطلب الصلح حاملا إليه هدايا ثمينة، وتعاقد الوفد معه على ترك الجزيرة له، فى مقابل إخلاء المسلمين مدينتى طبرمين ورمطة لنصارى الجزيرة، وارتضى ذلك المعز، وكانت غلظة كبيرة من أغلاطه. وأخذ المسلمون يتلكئون فى تسليم المدينتين وعُزل أحمد بن الحسن سنة ٣٥٨ وكان حسن السيرة كما يقول ابن خلدون وولّى الجزيرة سنة ٣٥٩ أخوه أبو القاسم على بن الحسن، وكانت مسيئى خرجت على الدولة واتخذها العدو مركزا لأعماله ضد المسلمين، فنازها وحاصرها حتى أعلنت الطاعة، واستعاد مدينة رمطة وأمر بتجديد بنائها، ونازل الروم بقَلُورِيَّة ومن عاونهم من الألمان والنُرمَان، واستشهد فى إحدى المعارك الطاحنة سنة ٣٧٢ ونقل المسلمون رفاتة إلى صقلية. وولى بعده من الأسرة الكلبية أحد أبنائها: جعفر بن محمد وكان من أصحاب الرأى والتدبير، فأخذ يحكم صقلية حكما عادلا نزيها. وحدث فى عهده أن جارية صقلية للخليفة الفاطمى العزيز وكانت محببة عنده وكان لها أخ راهب بصقلية فتوسلت إليه أن يرجع إلى النصارى فيها قلاع طبرمين ورمطة وأجابها إلى مطلبها وكتب إلى واليه جعفر يأمره بإخلائها لنصارى الجزيرة، فراجع الخليفة بدهائه حتى عدل ن مطلبه. وتوفى سريعا سنة ٣٧٥ وتولى الجزيرة بعده ثقة الدولة أبو الفتح يوسف بن عبد الله سنة ٣٧٧ وهو من خيرة الولاة الكليبيين، وفيه يقول ابن خلدون: «أنسى بجلالته وفضائله من كان قبله منهم» ويقول لسان الدين بن الخطيب فى أعمال الأعلام: «كانت أيام الناس فى مدته على أفضل ما يشتهون، وقد ضبط الجزيرة ضبطا محكما وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف. وعمّ العدل والرخاء والأمن كل جهات الجزيرة» ولم يتحرك فى وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها، وزار القاهرة، واستقامت الأمور فى عهده أعظم ما يكون من الاستقامة، وكانت دار

ولايته أو إمارته في بلرم مقصد الشعراء والأدباء والعلماء، وهو ممدوح الشاعر الجزائري المشهور ابن قاضي ميلة، وما زال يسوس الجزيرة وأهلها خير سياسة حتى أصابه الفالج سنة ٣٨٨ وعطل جانبه الأيسر، واتفق الناس معه على تسليم صولجان الحكم لابنه جعفر، وثار عليه أخوه على وانضم إليه البربر والعبيد، وانتصر عليه جعفر فقتله، وأمر بقتل العبيد ونفى الجند البربري من صقلية، وجعل جنده جميعا من أهل صقلية المسلمين، فقلَّ بذلك جنده - كما يقول البكري - وأعدَّ لانهيار ملكه. وسخط عليه أهل صقلية لتغاضيه عن كاتبه حسن الباغاني في عسفه في جباية الضرائب، وزادهم سخطا عليه استخفافه بشيوخ بلرم: فحاصروه وشدّدوا الحصار عليه، فخرج إليهم أبوه في محفّة، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، فاحتفوا به، وطلبوا إليه أن ينصفهم منه، واتفق معهم على أن يعزله من ولايته عليهم ويولّي أخاه الأكحل، وارتضوه أميرا بعد أخيه، ولم يلبث الأكحل أن أشرك ابنه جعفرا معه في الحكم، وكان غرّاً تنقصه الخبرة، فاتبع سياسة حمقاء هي التفرقة بين الإفريقيين والصقليين في المعاملة المالية، واستجار الصقليون من ظلمه بالمعز بن باديس حاكم إفريقية التونسية سنة ٤٢٧ فأرسل معهم ابنه عبد الله في جيش عداة ستة آلاف نصفه من الفرسان، وانضم إليه أهل الجزيرة، وسرعان ما ندموا وتنكروا لعبد الله بن المعز، فعاد مع جيشه إلى إفريقية، وولّوا عليهم صمصام الدولة شقيق الأكحل. ولم تطل مدته، إذ ثار عليه أهل بلرم، وخلعوه.

وتدخل صقلية بعد خلع الصمصام في عهد يمكن أن يسمى عهد أمراء الطوائف، وفيه ضاعت كل ممتلكاتها في قَلَوْرِيَّةَ بايطاليا، وأخذ قواد الثورة على الصمصام يستقلون ببلدانهم مكونين فيها إمارات، وكانت بلرم من نصيب محمد بن الثمنة أحد القواد، وضمَّ إليه مدينة سرقوسة، واستقل ابن متكود من قواد الثورة بمدن: مازر وطرابنش والشاقة ومرسى على في الغرب والجنوب الغربي، واستقل ابن الحواس على بن نعمة من قواد الثورة أيضا بمدنتي قصريانة وجرجنت، وتفاقت الفتن وسوء الأحوال في الجزيرة، ونشبت الحروب بين هؤلاء الأمراء، وأشدّها ما كان بين ابن الثمنة وعلى بن نعمة. وهُزم ابن الثمنة هزيمة ساحقة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م فاستغاث بالنورمان، وكان ذلك إيذانا قويا بضياح الجزيرة من أيدي المسلمين.

## التاريخ النورمانى - أحوال المسلمين

### (أ) التاريخ<sup>(١)</sup> النورمانى

النورمان قبائل متبربرة سقطت من شمالى أوربا على شريقها وغربها مهاجمة ومكتسحة، وقد اكتسحت الشمال الغربى لفرنسا. واضطر ملك فرنسا إلى إقطاعهم الإقليم المشتق من اسمهم «نورمانديا» فتأقلموا فيه وانتهى عدوانهم. واتجهت جماعات منهم إلى إيطاليا واستولت على أجزائها الجنوبية، وتوالت الفرصة أحد ملوكهم المسمى روجار الأول كى يستولى على صقلية بخيانة أحد أبنائها: «ابن الثمنة»، إذ ساومه فى عونه ضد على بن نعمة على أن يفتح له أبواب مدينة مسينى واحتلها واتخذها قاعدة لأعماله الحربية فى الجزيرة، غير أن ابن الثمنة توفى فى العام التالى، وكان جيش روجار قليلا فلم يسارع إلى فتح مدن صقلية. واستصرخ المسلمون فى صقلية تميم بن المعز أمير المهديّة فى إفريقية التونسية لينقذهم من براتن روجار والنورمان فأنجدهم بأسطول يقوده ابنه: أيوب وعلى، ونزل أيوب فى الجنوب بمدينة جرجنت ولقيه على بن نعمة لقاء حسنا، بينما نزل أخوه على فى بلرم، واستبشر الناس واستعدوا مع عسكريهما لجنود النورمان، غير أن على بن نعمة صاحب جرجنت عاد فظن الظنون بهذا الجيش الغريب، وانضمّ الأخوان إلى حربه، وسقط فى المعركة. وقامت فتنة بين أهل جرجنت والجيش الإفريقى، وكان النورمان قد جمعوا جمعها ولقوا هذا الجيش وهزموه، واضطرّ أيوب وعلى أن يعودا إلى إفريقية التونسية بمن بقى من جيشها سنة ٤٦١ للهجرة، واندفع روجار والنورمان يحتلون المدن فى الجزيرة، وبدءوا بمدينة بلرم وحاصروها بحرا وبراً خمسة أشهر وأهلها يقاومون، وخنقهم الجوع، وظلوا لا يبالون به إلى أن فشا بينهم وباء، ودخلها النورمان سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م ينهبون ويفتكون بشبابها الباسل ويتوزعون بينهم الصبية لبييعوهم عبيدا، وأحال روجار مسجدها كنيسة. وسلّمت مازر سريعا خوفا من أن يصيبها ما أصاب بلرم وتبعثها قطانية فى الشرق، غير أن بقية مدن صقلية ظلت تقاوم النورمان عشرين عاما طوالا، وكان من أشدها

ابن خلدون والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس والجزء الثالث من كتاب وركات عن الحضارة العربية بإفريقية ص ٤٥٧ والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى.

(١) انظر فى التاريخ النورمانى بصقلية بن الأثير ورحلة ابن جبير والمكتبة الصقلية لأمارى وكتابه تاريخ مسلمى صقلية المار ذكره وكتاب Freeman Edward, History of Sicily, Oxford, 1891 وتاريخ

مقاومة لهم سرقوسة بفضل بطلها ابن عباد الذي نظّم المقاومة فيها وفي ولاية نوطس. وبعد خمس سنوات من الاستيلاء على بلرم استولى روجّار على ثغر أو مدينة طرابنش في الغرب وهدم سورها ووزّع أرضها على أتباعه. وبعد سنتين من استيلائه عليها استولى على طبرمين في الشرق. وكان ابن عباد بطل سرقوسة استطاع الاستيلاء على مدينته وجَهَّز روجّار الأول أسطولا ضخما هاجم به سرقوسة بعد أربعة عشر عاما من استيلائه على بلرم وظلت الجبهة الشرقية تقاومه مقاومة عنيفة مع سرقوسة غير أن كفة الأسطول النورماني علت أخيرا على سفن ابن عباد، وكان يقودها بنفسه وكلما غرقت سفينة من سفنه انتقل إلى أخرى، وزلّت به القدم في إحدى قفزاته، فتلقته موجات البحر منحنية لبطولته، وشيَّعته إلى قرارها شهيدا، ولولا ذلك لظلت سرقوسة تقاوم النورمان طويلا. وحاصر النورمان مدينة جرجنت ثلاث سنوات طوال إلى أن اضطرتها المخصصة والجوع إلى الاستسلام، وظلوا بعدها يحاصرون مدينة قصر يانّة وهي تضرب أروع الأمثلة في مقاومتهم مقاومة باسلة حادة إلى أن سلّمها لهم سنة ١٠٩١هـ/١٠٩١م أميرها ابن حمود، وخشى على نفسه من أهلها أن يفتكوا به فلجأ إلى روجّار وتنصّر فيها يقال خاسرا بذلك بلده ودينه. واستسلمت مدينتا نوطس في الجنوب الشرقي وبشيرة في الجنوب. وبذلك استولى روجّار على الجزيرة جميعها وأقل نجم الإسلام بها سنة ١٠٩٢هـ/١٠٩٢م وبالمثل استولى على مالطة سنة ١٠٩٣هـ/١٠٩٣م، وظل ملكا عليهما وعلى بعض أجزاء في جنوبي إيطاليا نحو عشرين عاما حتى سنة ١١٠١هـ/١١٠١م. وخلفه على حكم صقلية روجّار الثاني وطال حكمه خمسين عاما ونيفا (١١٠٢هـ/١١٠٢م - ١١٥٤هـ/١١٥٤م) وبينما كان حكم أبيه يعد دورا من أدوار الفتح الحربي وتثبيت الحكم النورماني في الجزيرة كان حكمه يعد دورا حضاريا للنورمان - عن طريق العرب- إذ تحضروا في الجزيرة وامتدت آثار ذلك في الغرب، وبالمثل حكم ابنه غليوم الأول حتى سنة ١١٦٦هـ/١١٦٦م وحفيده غليوم الثاني حتى سنة ١١٨٩هـ/١١٨٩م. وتولى بعد ذلك ابن عمه طانكرد لمدة أربع سنوات ثم ابنه غليوم الثالث، وتطورت الظروف واستولى أباطرة ألمانيا على صقلية وأصبح فردريك الثاني ملكا عليها (١١٩٤-١٢٥٠م).

وحرى بنا قبل أن نترك الحديث عن الحكم النورماني بصقلية أن نذكر أنه ظلّ لأسطول صقلية الإسلامية طويلا استعلاء في البحر المتوسط بحيث كان يُعدُّ من شمالي مصر إلى الأندلس بحيرة عربية، ومرّ بنا أنه حطم الأسطول البيزنطي مرارا حتى اضطروا أن يرسلوا وفدهم خانعين مستذلين إلى المهديّة يطلبون الصلح. وهذه المكانة للأسطول الإسلامي الصقلّي ضاعت بضياع صقلية، واستحالت إلى مكانة للأسطول النورماني الصقلّي بحيث أصبح البحر المتوسط بين صقلية ومصر بحيرة نورمانية، وساعدت على ذلك هجرة القبائل العربية من بني سليم وهلال إلى أفريقية التونسية وقضاؤها على الدولة الصنهاجية بالقيروان وانحيازها إلى

المهدية، فلم يعد عندها من المال ما تستطيع أن تُعَدَّ به أسطولا ضخما يقف لأسطول النورمان، وكان للدولة العبيدية أسطول قوى أيام مقامها بالمهدية حتى إذا بارحها المعز الفاطمي إلى مصر لم تعد تلك الدولة تُعنى بأسطولها إلا بعض سفن تحرس سواحلها، ويدل على مدى ما كان يشعر الخلفاء الفاطميون تجاه النورمان الصقليين وأسطولهم من خزي أن نجد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ) حين يستولى روجار الثاني على جزيرة جربة التونسية لا يكتب إليه مهديدا متوعدا، بل يكتب إليه متخاذلا ردًا على رسالة له كما سجل ذلك القلقشندى في الجزء السادس من صبحه ص ٤٥٨ قائلا: «وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحته من عدوان أهلها.. واجترائهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها.. فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية<sup>(١)</sup>». وبدلا من أن يعد أسطولا لإخراج النورمان على وجوههم من صقلية التي طالما طعم هو وآبؤه من خيراتها وطيباتها أرسل إليه هذا الخطاب المخزي. ومن الغريب أن الحملات الصليبية بدأت بعد تمام استيلاء النورمان على صقلية بسبع سنوات، وقد ظللنا ننازها نزالا عنيفا قرنين من الزمان والبحر المتوسط بحيرة نورمانية، وهم يغدون فيه ويروحون، ولو أن أسطول صقلية الإسلامية كان لا يزال قائما لفلَّ من قوتهم بل لأغرق كثيرا من سفنهم المتجهة إلى ساحل الشام ومصر، بل أيضا إلى ساحل تونس على نحو ما هو معروف من حملة لويس التاسع عليها وموته تحت أسوارها سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. ويتضح من ذلك أن صقلية لم تكن جزيرة إسلامية فقدوها المسلمون فحسب بل كانت درعا كبيرا لهم يحمي ثغورهم على سواحل المتوسط، حتى إذا سقط هذا الدرع أخذ الصليبيون يجوبون المتوسط وأخذ النورمان الصقليون يغيرون على سواحل إفريقية التونسية، وكانت آخر غاراتهم وأشدّها على تلك السواحل غارتهم سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م في عهد روجار الثاني وابنه غليوم واغتصابهم لمدينة المهديّة وغالب المدن الساحلية الشرقية: قابس وصفاقس وسوسة، وكان ذلك بعد احتلال جربة التي هناهم بها الخليفة الفاطمي بقليل. وكان ذلك بسبب ما حدث في إفريقية التونسية من قيام عصر أمراء الطوائف بعد الهجرة الهلالية السلمية وتنايد هؤلاء الأمراء وتجارهم ومحاولّة بعضهم الاستعانة بصاحب صقلية ضد إخوته وأهله. ولولا أن قيّض الله لإفريقية التونسية عبد المؤمن أمير الموحدين بالمغرب، ففضى فيها على هؤلاء الأمراء المتنازعين وقهر نصارى النورمان المستولين على الساحل التونسي ومدنه وعلى جربة وطرابلس لظلوا بها طويلا إذ أخرجهم على وجوههم، وسحقهم سحقا ذريعا بحيث لم يعد النورمان بعده يحاولون احتلال الساحل التونسي.

(١) صبح الأعشى ٤٥٩/٦.

## (ب) أحوال المسلمين

لما فتح النورمان صقلية الإسلامية ظلوا طوال فتحهم لها يشعرون أنهم دخلاء غرباء على من فيها من المسلمين والعناصر الأخرى الصقلية الأصيلة والإغريقية والرومية وغير الرومية، وعمق هذا الشعور في نفوسهم أنهم لم يكونوا متحضرين وواجهتهم مدن إسلامية متحضرة في سكانها وفي نظمها فلم يكن أمامهم إلا أن يحاولوا الانتفاع بحضارتها، غير أنهم كانوا مشبعين بدعوات وإيجاءات من بابا روما ضد الإسلام والمسلمين لتمكين سلطان المسيحية فيها واستتصال جذور الإسلام منها، وهو ما يلاحظ على تصرفات روجار الأول فيها، إذ أنزل بالمسلمين بها في حكمه الذي امتد نحو ثلاثين عاما صورا مختلفة من التنكيل، وأول ما يلاحظ من ذلك أنه عمم نظام الإقطاع في الجزيرة، فكان يقطع أنصاره وجنوده والأساقفة والقساوسة ما يفتحه من البلدان، ويعدُّ مَنْ يفلح أو يزرع تلك الممتلكات من المسلمين عبيدا يهدون مع الأرض إلى صاحب الإقطاع، على نحو ما صنع بمدينة قطانية حين فتحها، إذ جعل أهلها المسلمين عبيداً مسترقين ومنحها إقطاعاً للأسقف هناك. وكانت هذه أول ضربة أنزلها بأعدائه المسلمين. والضربة الثانية أنه قرَّر على المسلمين عامة دفع جزية، وظلوا يدفعونها حتى نهاية الحكم النورمانى. والضربة الثالثة أنه أسكن الروم والفرنجة مع المسلمين ولم يترك لأحد منهم - كما يقول ابن الأثير - حَمَاماً خاصاً به - ولا دُكَّاناً ولا طاحوناً ولا فرناً. ويقول بعض الباحثين المعاصرين إن هذا إنما يصدق على جماعات الفلاحين أو من أحاطهم الفتح مسترقين، وهو تخصيص لا يقتضيه كلام ابن الأثير. ويقول آخرون دفاعاً عن الملك النورمانى روجار الأول إنه لم يشرد المسلمين عن مدن صقلية ولو كان يريد التنكيل بهم حقاً لشردهم، وينسبون أنه كان لا يستطيع تشريدهم وإخراجهم من البلاد، لأنهم كانوا الأداة التى تزرع فيها وتصنع وتنتج ولو شردهم لأصبحت خراباً ولجفت ضرعوها ولم يعدَّ يجد فيها ما يحميه هو وجنده وشعبه من الجوع والمسغبة.

ومع أن ابنه الملك روجار الثانى (٤٩٤-٥٤٨هـ) وحفيده غليوم الأول (٥٤٨-٥٦١هـ) كانا لا يقسوان على المسلمين قسوته ظلت في عهدهما آثار من هذه المعاملة الظالمة للمسلمين صورها في رحلته ابن جبير الذى زار صقلية في أيام الملك غليوم الأول، إذ يقول عن مدينة مسينى إنها: «معمورة بعيدة الصلبان، يمشون في مناكبها ويرتعون في أكفافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسنوا السيرة في استعماهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاة (جزية) في فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها» فتملك الأرض في مسينى - مع سعتها - كان محرماً على المسلمين، فهم يشتغلون في مسينى عمَّالاً ولا يتحولون بحال مَلَكا.

ويقول ابن جبير عن مسلمي بلرم إن لهم أرباضا (ضواحي) انفردوا بسكنائها عن النصارى، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم إلا في الأعياد، فهم ممنوعون من صلاة الجمعة. ويحدثنا عن فتى بمسني كان يخفى إسلامه متمسما باسم عبد المسيح وأنه احتفى به وبين كان معه حتى إذا لم يجد حوله من يتهمه بإفشاء سره محافظة على نفسه من النصارى سألهم عن مكة ومشاهدها المعظمة ومشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبروه وهو يذوب شوقا وتحرقا إلى مشاهدة تلك الأماكن، وغبطهم على رحلتهم إلى مشاهدتها، وقال: أما نحن فكاتمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا. ومما يذكره ابن جبير مما يدل على اضطهاد المسلمين وإدخالهم في النصرانية قسرا أن فقيها حدثه في مدينة طرابنش أنهم ظلوا يطاردونه بمطالبته بأموال يكتنزها في رأيهم حتى أظهر لهم أنه فارق دينه الحنيف، ولكي يقنعهم بذلك حول مسجدا له بجوار داره إلى كنيسة، فكفوا عنه وقال إنه يكتنم إيمانه! وذكر أنه لقي زعيم المسلمين المعروف في تلك الديار باسم ابن حجر ممدوح ابن فلاقس الشاعر الإسكندري. فقال له إنهم ظلوا يوالون عليه مصادرات بلغت ثلاثين ألف دينار، وما زال يتخلى عن جميع ممتلكاته وعقاراته حتى أصبح بدون مال، ومما قال له: «كنت أود لو أباغ أنا وأهل بيتي لعل البيع يخلصنا مما نحن فيه ونصبح في بلاد المسلمين». ويروي ابن جبير قصة تقطع نياط القلوب حسرة إذ يقول إن أحد أعيان الجزيرة وجهه ابنه إلى حاج من أصحابنا الحجاج راغبا إليه في أن يقبل منه بنتا له عذراء صغيرة السن قد راهقت الإدراك، فإن رضىها تزوجها، وإن لم يرضها تزوجها، ممن يرضاه لها من أهل بلده. طمعا في التخلص من هذه الفتنة. وطاب الأب واخوتها بذلك نفسا لعلهم يجدون يوما السبيل إلى التخلص إلى بلاد المسلمين. وتاجر (طلب الثواب) هذا الحاج المرغوب إليه بقبول ذلك، وأعان ابن جبير ومن معه على اغتنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة، يقول ابن جبير: «وطال عجبنا من حال تؤدي بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة في القلب وإسلامها إلى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها، كما استغربنا حال الصبية، صانها الله، ورضاه بفرق أهلها رغبة في الإسلام واستمساكا بعروته الوثقى».

وهل بعد ذلك من دليل على أن النورمان عاملوا المسلمين في صقلية بمنتهى الظلم والقسوة والعتو والبغي حتى يفارقوا دينهم الحنيف كرها، ومن عجب أن يكتب المؤرخون الغربيون أبناء عمومته أنهم عاملوا المسلمين بتسامح لا حد له وبعدل مابعده عدل، فنصدقهم، وهم قد عاملوهم بوحشية ماثلتها وحشية واستذلوهم ونهبوا حريتهم التي خلقهم الله بها وأحالوهم - أو أحالوا الشطر الأكبر منهم - عبيدا مسترقين.

وازدادت هذه الوحشية ضراوة في عهد أباطرة الألمان حين استولوا على صقلية سنة



١١٩٤هـ/١١٩٤م فإنهم أخذوا ينزلون بأهلها من المسلمين - بتأثير الكنيسة - صورا فظيعة من الاضطهاد والتكيل، ومنعواهم منعا باتا من حمل السلاح، وفرضوا عليهم - كما يقول الأستاذ الجليل حسن حسنى عبد الوهاب - أن يُعمد أبناؤهم مثل أبناء النصارى: أمرٌ لا راداً له من البايادون استحياء، كما فرضوا عليهم أن يضعوا على صدورهم قطعة من النسيج الأحمر طولها شبر وعرضها إصبعان للتمييز بينهم وبين النصارى، وهاجرت كثرة من مسلمى صقلية - وخاصة من التجار والصناع - إلى الساحل التونسى والبلاد الإفريقية، فرارا من هذا الظلم الذى لا يطاق، وبقيت قلة مستضعفة - وخاصة من أهل الأرياف - تتحمل هذا العذاب والهوان، وتعامل معاملة العبيد الأرقاء. وحين صارت إفريقية التونسية إلى إبنى زكريا الحفصى وعلم بما يقع على تلك القلة من الظلم فى أبشع صورته كاتب فردريك الثانى إمبراطور المانيا وملك صقلية ليرفع هذا الظلم عن مسلمى الجزيرة، وعقد معه معاهدة تضمن لهم الحرية الدينية، حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٥م رجع الظلم والعدوان الذى لا يطاق، واستغاثوا بالمستنصر بن أبى زكريا، فاتفق مع فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك صقلية سنة ٦٤٧ على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، وبالمثل إخلاء مالطة من كل من بقى فيها من المسلمين.

## الفصل الثاني

### المجتمع الصقلي والثقافة

١

المجتمع الصقلي<sup>(١)</sup> في العهد العربي

ظل المسلمون في صقلية - طوال حكمهم بها - لايزيدون عن نصف سكانها وكانت مجمعا لعناصر شتى مسيحيين من سكانها الأصليين الصيقول ومن النورمان والإغريق والصقالبة ومن بقايا الفينيقيين والقرطاجيين مع قلة من اليهود وكانت لهم حارة في بلرم وقلة من الزوج ونزل أكثر البربر.. نواحي مآزر وجرنت. وكان في كل بلد من يملكون الإقطاعات الكبيرة ومن يملكون القطع الصغيرة، وكان الولاة يكتنزون لأنفسهم كثيراً من الذهب والفضة، ويقال إن واليها ثقة الدولة حين ارتحل إلى مصر كان معه ٦٧٠ ألف دينار سوى آلاف الخيل والبغال، ويبالغ ابن حوقل فيقول إن أهلها فقراء بينما نجد الإصطخرى يقول: «في صقلية من الخصب والزروع والمواسى والرقيق ما يفضل سائر الموانى المتاخمة للبحر» ونفس ابن حوقل يعدد الأسواق في بلرم ويبلغ بها نحو الثلاثين إذ كان بها سوق الزياتين والدقاقين والصارفة والحدادين والصيادلة وبائعى القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة وباعة الريحان والجزارين والخبازين والعطارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين، وكان بها للقصابين نحو مائتى حانوت لبيع اللحم ويجاوزهم القطنون والحلاجون والحداءون». وفي ذلك مايدل على انتعاش الحركة التجارية في بلرم وأن سكانها لم يكن يعمهم الفقر كما يقول ابن حوقل، وبالمثل بقية المدن في صقلية.

والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس: الفصل الثاني من الكتاب الأول، وكتاب وركات عن الحضارة العربية بإفريقية، الفصل الخاص في الجزء الثالث بتاريخ صقلية الإسلامية.

(١) انظر في المجتمع الصقلي في العهد العربي صورة الأرض لابن حوقل ومسالك الممالك للإصطخرى ونزهة المشتاق والنويرى والمكتبة الصقلية وإنباه الرواة في ترجمة ابن البر ١٤٦/٢ ورياض النفوس للمالكي وسفر نامه لناصر خسرو

وكانت الجزيرة موزعة قبل فتح المسلمين لها إلى ولايتين كبيرتين: ولاية بلرم وولاية سِرْقوسة، ووزعها المسلمون بعد الفتح إلى ثلاث ولايات كبيرة: شرقية وجنوبية غربية ثم غربية وتضم الشمال. وجعل المسلمون لكل ولاية واليا يدير أعمالها ومعه عدد من العمال يساعدونه في تصريف هذه الأعمال، وكان كل وال يسمى قائدا، ربما لكثرة ما كان ينهض به من الحروب ضد الحصون في إقليمه. وكان في كل ناحية وكل بلد قاضٍ ومعه كاتب لتقييد الأحكام. وكان قاضى بلرم يفصل في القضايا المهمة، ولذلك كان يسمى المفتى. وكان السكان المسيحيون في الجزيرة يمثلون ما يقرب من نصف سكانها وعاملهم الولاية المسلمون ونوابهم بمنتهى العدل والتسامح طبقا لتعاليم الإسلام فكان الثرى يدفع سنويا للدولة ٤٨ دينارا والفرد في الطبقة الوسطى يدفع ٢٤ دينارا، بينما يدفع من يكسب عيشه بعرق جبينه ١٢ دينارا فحسب. ولم تكن تؤخذ ضريبة من الرهبان والقسس والنساء والعجزة والأطفال، فهم جميعا مُعْفُون من الضرائب إعفاء تاما. وكانت الضريبة السالفة تسمى خراجا وهى في حقيقتها ضريبة دفاع. وحافظ المسلمون في صقلية - كما حافظوا في كل ديارهم - على مؤسسات المسيحيين الدينية من كنائس وغير كنائس، كما حافظوا لهم على قوانينهم الدينية والمدنية وعلى محاكمهم الخاصة، وأتاحوا لهم الحرية التامة في أداء شعائهم الدينية.

وطبىعى أن تكون بصقلية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم وتدير شئونه، فكان بها ديوان المحاسبة الذى يقوم بأعمال وزارة المالية في عصرنا، فيه خزانة الدولة، وفيه موظفون يراجعون ما يجمعه المحتسبون في المدن والأعمال المختلفة من الضرائب. ويقول ابن حوقل إن الضرائب فيها كانت تضم: «خمسة ومستغلاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة في كل سنة على أهالى قَلْوَرِيَّة وقبالة الصيد وجميع المرافق». ولم يسمِّ ابن حوقل. الدواوين التى كانت تشرف على جمع هذه الضرائب الكثيرة، ومن الممكن بالمقابلة على النصوص الصقلية أن نعرف بعضها على الأقل فكان عندهم ديوان الخمس المشرف على ما يجمع من غنائم الحرب، فإن للدولة - كما هو معروف - خمس ما يجمع من الغنائم كما تقرر ذلك سورة الأنفال، وكان عندهم ديوان الممتلكات العقارية المستغلة. وديوان اللطف وهو ديوان الهدايا التى كانت ترسل سنويا للخليفة الفاطمى فى المهديّة والقاهرة، وديوان الجوالى وهو ديوان الجزية التى كانت تؤخذ على الرءوس أو على الجماجم كما يقول ابن حوقل. وكانت تُفرضُ ضريبة على الوارد من البحر، وإما كان لها ديوان خاص وإما كانت تضم إلى ديوان المستغلات، وقبالة الصيد أى ضمانها مبلغ معين ولعلها كانت تضم أيضا إلى ديوان المستغلات، ولعله هو المسمى فى بعض النصوص باسم ديوان التحقيق. وكلمة: جميع المرافق عند ابن حوقل تدل على أنهم كانوا يأخذون ضريبة على كل المنتجات وخاصة الصناعية إذ كان للصناعة ديوان خاص وقد يسمى ديوان الطراز. وكان من أهم الدواوين عندهم ديوان الإنشاء

ويتولاه أبلغ الكتاب مثل ابن الطوبى في عهد ثقة الدولة وأبنائه. ويبدو أنه كانت في بلرم طبقة من الشيوخ وبعض الأعيان يرجع إليها الوالى للمشورة في بعض القضايا العامة أو بعض الأحكام، وكانت تبرز حين يُؤخَذُ الرأى فى والى صقلية الجديد، وكثيرا ما كان يؤخذ برأىها فيه كما كان يؤخذ برأىها فى ضبط أموال الدولة.

وكانت الزراعة فى صقلية تُغَلُّ محصولا كبيرا من القمح الذى أدخله فيها القرطاجيون وكان يغطى أجزاء كبيرة فيها بردائه الذهبى كل عام، وكانوا قد أدخلوا فيها غرس شجر الزيتون كما أدخل الإغريق غرس الكروم، وعينها يفضل عنب اليونان، ونقل العرب إليها كثيرا من الزروع مثل القصب والأرز والقطن والبصل وكثيرا من الأشجار مثل النخيل والليمون واللوز والفسق وكثيرا من الفواكه مثل التين والبرتقال والتوت وكثيرا من الخضروات ومن الرياحين. وفى سبيل خدمة الزراعة والحصول على إنتاج وافر حفروا القنوات والترع التى ماتزال موجودة بها إلى اليوم، واستعملوا طواحين الماء والمخزانات لتوزيع المياه على الزرع والبساتين كما استعملوا النواعير والمواسير المعقوفة التى توجه مجارى المياه كما يشاءون. وبذلك أحال العرب صقلية إلى مزرعة كبيرة، تتخللها الحدائق والبساتين البديعة. وكان بها مراعى واسعة يربى بها الماعز والأغنام والمواشى، وكانت بها خيول مشهورة فى عهد البيزنطيين، وأدخل فيها العرب خيولهم، وتفوقت على الخيول البيزنطية.

وكانت فى صقلية بعض صناعات قبل نزول المسلمين بها، ولكن صناعاتها ازدهرت فى أيامهم ازدهاراً واسعاً بما ألقته الأرض إليهم من مناجمها فى حجوهم من الذهب والفضة والنحاس والكبريت سوى منتوجات الثروة المعدنية من الشبِّ والقَطْران ومنتوجات البحر المتوسط حولها من التِنِّ والمرجان ومختلف الأسماك. وأدخل المسلمون إليها صناعة الحرير وتطريز المنسوجات وتزيين السجاجيد بالنقوش البديعة وزرقة الثياب والجلود المصبوغة وإتقان صناعة الحلى. واشتهر ما كان ينتجه المسلمون من الكتان فى الجزيرة شهرة واسعة، ويشيد بكتانها ابن حوقل جودة ورخصا، ويقول إن نسيجه مما يقطع قطعين وكان يباع بمصر من خمسين رباغيا إلى ستين، ويقول ناصر خسرو: يُجَلَّبُ من صقلية كتان رقيق وثياب منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير مغربية، وفى خطط المقرئى أنه وجد لعزة بنت المعزى خزائنها ثلاثون ألف شقة صقلية. وكان قَطْعُ الأخشاب فى غابات جبل إتنا والغابات الشمالية يعود بغير قليل من الربح، وكانت صناعة السفن رائجة، وكان يُجَلَّبُ لها الخشب من جفلود والحديد من بلهرا. وكانت بالجزيرة بقاع يكثر فيها البربير، وهو البردى، وكانت مصر من قديم تصنع منه الورق للكتابة عليه، ونقل العرب عنها هذه الصناعة وكان الورق المتخذ منه لكتابة المنشورات والوثائق يسمى باسم الكاغد، ونقلت الدولة الأغلبية صناعته عن مصر إلى إفريقية

التونسية وأدخلتها إلى صقلية، فكان يصنع لها فيها الكاغد أو الطوامير لكتابتها الرسمية، وما فضل عن حاجتها يفتله صنّاعُ جبالاً للمراكب ولغيرها. واجتازت صناعة الطوامير من مضيق مَسِينِي إلى سالرنو Salerno بإيطاليا وتغلغت - في عهد النورمان - إلى الشمال ومدينة نابولي، واجتازتها إلى أوروبا الوسطى وألمانيا وهو فضل كبير لمسلمي صقلية على الحضارة الإنسانية، فلولاهم ما عرفت ألمانيا الورق ولا صناعته، ولا أتيح فيما بعد - لعالمها الفذ «جوتنبرج» - اختراع الطباعة.

ولا ريب في أن صناعة صقلية الإسلامية المزدهرة وازدهار إنتاجها الزراعي أهلها لأن تزدهر بها التجارة، وقد مرت بنا كثرة الأسواق في بلرم حتى لتبلغ نحو ثلاثين سوقاً، وكان بسوق القصابين أو الجزارين وحدهم - كما مرّ بنا - نحو مائتي محل أو دكان. وأتاح ذلك لصقلية ثراء واسعاً، أما ما يقوله ابن حوقل من فقر أهلها فكان داعية للفاطميين ووجد عامة الناس هناك تنفر من العقيدة الفاطمية وتتعلق بمذاهب أهل السنة فحمل عليهم، ولم يحمل عليهم من ناحية ما وصمهم به من الفقر المادى فحسب فقد حمل عليهم أيضاً من ناحية الفقر الخلقى، فوصفهم بالخبث واللؤم وقلة الذكاء ونقص المروءة وشدة الجهل، وهو متهم في كل ما وصفهم به من الناحية الخلقية وأيضاً من الناحية الدينية فقد رامهم بضعف دينهم لأنهم - في رأينا - لا يدينون بالمذهب الفاطمي الإسماعيلي، بينما يصفهم غيره بنظافة الثياب وحسن الصور إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة. والحق أن ابن حوقل في ذلك كله مغرض، ومن يقرأ وصف مدنها عند الإدريسي يراه يشيد بقصورها وبساتينها وأسواقها مبهوراً بما فيها من حركة تجارية واسعة لا في بلرم وحدها بل في كل المدن التي زارها وخاصة مَسِينِي وقطانية وسرقوسة ونوطس وجرجنت ومازر وأطرابنش، وإذا كان الإدريسي زارها في العصر النورماني فإننا نجد أماري ينقل في المكتبة الصقلية عن الراهب ثيودوسيوس - وكان قد أسر في سرقوسة بالقرن التاسع الميلادي سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م زمن الأغالبة ونقل منها إلى بلرم - أنه تحدث بإعجاب عما شاهده من القصور في المدينتين كما تحدث عن أسواق بلرم وكثرة من فيها من جميع الأجناس الأوربية والإفريقية والآسيوية، ويقول نوبل دي فرجى في كتابه «العالم» إن تجارة صقلية بلغت أيام المسلمين ازدهاراً عظيماً لم تدرکه في تاريخها لا قبلهم ولا بعدهم. وعلى الرغم من عوادي الأيام على قصور المسلمين ومساجدهم ومبانيهم فيها لا تزال في بقاياها وأروقتها الباقية ما يشهد بأن شعباً عظيماً سكن تلك الجزيرة وشاد فيها روائع من القصور والأبنية الفخمة برخامها وفسيفسائها ونقوشها البديعة، مما بهر فون شاك وتجرد له سنوات طوالاً يصفه في كتابه: الفن العربي في إسبانيا وصقلية. ومن القصور المشيدة التي خلفها المسلمون ببلرم قصر العزيز الذي بناه الأمراء الكلبيون وقصر القبة وقصر المنصورية وقصر الفوارة شرقي بلرم، وسنذكر طرفاً مما نظمه فيها بعض الشعراء في غير هذا الموضوع.

وطبيعي أن يكون للزهد والتصوف مسارب في الحياة بصقلية الإسلامية، وكان القضاة والفقهاء في طليعة من يمثلون الزهد والتقشف والانصراف عن متاع الحياة طلباً لما عند الله من ثواب الآخرة، وولتقى في أول نزول المسلمين في صقلية بقاضيه ابن أبي محرز، وكانت تُضْرَبُ بعدله ونزاهته وتقواه الأمثال، وكان قد عاد إلى القيروان قبيل وفاته، فأوصى عمر أخاه أن يكتفم خبر موته حين ينزل به القضاء، خوفاً من أن يكفنه ويدفنه الأمير الأغلبى وينفق ثمن ذلك عليه من بيت مال المسلمين، فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شيء، وأنفذ أخوه وصيته، وتعجب الناس من ورعه حتى في موته. ويذكر صاحب رياض النفوس عن القاضى أبي عمرو ميمون بن عمر المتوفى سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م أنه ولي قضاء صقلية، فاجتاز بمدينة سوسة، فقال: يا أهل سوسة انظروا هذا كسائى وهذه فروق وهذا خُرج فيه كتبى وهذه الجارية السوداء تخدمنى ومعها جُبَّة وكساء، فبهذا رحلت عنكم، فانظروا بأى شيء أرجع. فلما وصل إلى بلرم قالوا له: هذه دار القضاء (وكانت واسعة) تنزل فيها، فتركها ونزل في دُويرة (صغيرة) لطيفة، وكانت الجارية السوداء تغزل وتتبع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك. ومرض ولم يخرج ثلاثة أيام فدخلوا عليه لعيادته فوجدوا عند رأسه وسادتين محشوتين تَبْنًا وتحتة حصيرة من البردى. وعاد إلى بلده عن طريق سوسة فاستقبله بعض أهلها، فقال: يا أهل سوسة كما غادرناكم نعود إليكم: هذه جُبَّتى وكسائى وخُرْجى فيه كتبى، وهذه السوداء تخدمنى.

والقاضيان: ميمون وابن أبي محرز مثلاً راعان لمن كان يزهد من أهل صقلية وقضاتها وفقهائها في متاع الحياة مكتفياً بأقل القليل من عيشته راضياً بحياة التقشف بل واجداً فيها متاعه فليس له مأرب سواها، ومن يمثل ذلك من أهل صقلية ما رواه المالكى في رياض النفوس عن أبي الحسن الصقلى الحريرى من أنه قضى عمره - أو شطراً كبيراً منه - صامتاً لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوّه وتواجد وقال: «وَأَذْهَابَ عَمْرِى فِي خُسَارَةٍ». وقد ظل الزهد في صقلية الإسلامية فردياً، ولم يتحول إلى حركة واسعة بحيث تنشأ عنه حركة صوفية، وحقاً قد يوصف بعض الصقليين بأنه صوفى دون أن يعنى الوصف بذلك الحقيقة الصوفية إنما يعنى العبادة، وربما كان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يسلك هناك فى عداد الصوفية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الذى حجَّ وسمع العلماء بمكة سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م ويوصف بأنه «إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة» وله مؤلفات مختلفة تدل على أنه كان ينزع نزعة صوفية، منها: «الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار وصفة الأولياء ومراتب أحوال الصفاء والشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل التستري». وبتدار الكتب المصرية منه مخطوطة فى ستة أجزاء وعبد الرحمن فيه فقيه يتمسك بمذهب أهل السنة مستشعراً دائماً القرآن الكريم والسنة النبوية، والكتاب إلى أن يكون زهداً وتقشفاً فى الحياة أقرب منه إلى أن يكون تصوفاً بالمعنى الدقيق. وظل التصوف بعد البكرى فى صقلية

لا ينفك عن الفقه والحديث ومذهب أهل السنة غير متخذ منهجاً عملياً من التصوف، على نحو ما يلقانا عند الفقيه الحافظ السمنطاري، فقد صنف في الرقائق وأخبار الصالحين كتاباً كبيراً، كان في عشرة مجلدات، سماه: «دليل القاصدين» كما ذكر ذلك ياقوت عند ذكره بلدته «سمنطار». وبذلك لم يكن - في رأينا - للتصوف حياة في صقلية الإسلامية إلا هذه الحياة السنوية الملتزمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتي تدفع الفقهاء إلى التأليف النظري في التصوف بمعناه العام أكثر مما تدفع إلى التطبيق العملي.

## ٢

المجتمع<sup>(١)</sup> الصقلي في العهد النورماني

من قديم كان يقال إذا كانت روما فتحت أثينا حربياً فإن أثينا فتحتها حضارياً بأدبها وفلسفتها وروعة فنونها، وهو ما نستطيع أن نقوله عن النورمان وصقلية الإسلامية فإن النورمان فتحوا صقلية الإسلامية حربياً، وفتحتهم صقلية الإسلامية حضارياً، إذ كانوا شعباً متبربراً ليس له حضارة ولا عهد له بأى حضارة، فلما نزلوا صقلية بهرثم الحضارة الإسلامية فيها، واجتمعت أسباب كثيرة لكي يَحْنُوا رءوسهم أمام من بها من المسلمين، فقد كانوا قلة ضئيلة بالنسبة إلى سكانها، وكانوا لا يعرفون شيئاً من نظمها الإدارية ومن تراتيب أهلها في الزراعة والصناعة وأسباب العمران، فاضطروا إلى استبقائهم لينتفعوا بهم في شئون الصناعة والزراعة وتشديد القصور والمباني الباذخة. ومع ذلك فإن الملك روجَّار الأول الفاتح لم يحسن معاملتهم بتأثير الكنيسة كما أسلفنا فإذا هو يحيل كثيرين منهم في المدن والقلاع والحصون المفتوحة عَنوةً إلى عبيد مسترقين، وإذا هو يطبِّق عليهم نظام الإقطاع مسرفاً في تطبيقه، وإذا هو لا يترك لأحد منهم لا أرضاً متسعة فحسب، بل أيضاً لا حَماماً - كما يقول ابن الأثير كما مرَّ - ولا دُكَّاناً ولا طاحوناً ولا فُرناً، وأسكن معهم في الحقول الروم والفرنجة - كما يقول ابن الأثير - حتى يتعلموا منهم طرق الفلاحة والقيام على الزروع والغروس كما حدث في قطانية وغيرها من المدن ومن الحصون والقلاع التي بلغت ثلاثمائة وعشرين عَدّاً. ويبدو أنه أخذ يثوب إلى رشده، فخفف من هذه المعاملة الصارمة للمسلمين وخاصة في بلرم وفيمن اتخذهم جنداً في

المشتاق للإدريسى والعرب في صقلية للدكتور  
إحسان عباس والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب  
إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدني.

(١) راجع ابن الأثير في الجزئين العاشر والحادي عشر، وتاريخ ابن خلدون وأماري في المكتبة الصقلية وتاريخ مسلمي صقلية وفرمان في كتابه السالف: تاريخ صقلية ورحلة ابن جبير ونزهة

جيشه وأسطوله، ومع ذلك فقد فرض عليهم - كما فرض على مسلمي الجزيرة عامة - أن يدفعوا جزية، ولم ينتبه إلى أن المسلمين لم يكونوا يفرضونها ضريبة عامة على الرءوس من حيث هي ضريبة، وإنما كانوا يفرضونها على غير المحاربين ضريبة دفاع عنهم، ولذلك لم يكونوا يفرضونها على القساوسة والرهبان والعجزة والنساء والأطفال، فهي ليست عندهم ضريبة اضطرار، إنما هي ضريبة دفاع لجيش المسلمين الذي يحمي النصارى وبحارب دولهم، نصيباً مما يحتاج إليه في حربه من المؤن وعُدّة السلاح، أما هو فجعلها ضريبة اضطرار عامة، مع استخدامهم في الجيش والأسطول والدفاع عن الجزيرة. وكان ابنه الملك روجار الثاني قد نشأ نشأة صقلية عربية، فإن اللغة النورمانية لم يكن بها علم ولا فلسفة ولا فكر ولا أدب، فاضطر أبوه إلى تعليمه العربية اللغة المتحضرة، وتنفس في الحضارة الإسلامية التي كانت مسيطرة على الجزيرة بروحها وتقاليدها، وأخذت هذه الحضارة تؤثر في حياة النورمان الغالبيين كما أخذوا يُقيدون من نظمها وتراتبها الإدارية، وبالمثل من شئون الزراعة والصناعة والجيش، وفيه يقول ابن الأثير: «سلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب (ما يركبه) والحجاب والسلاحية والجائندارية وغير ذلك، وخالف عادات الفرنج في ذلك كله فإنهم لا يعرفون شيئاً منه، واتخذ الملك روجار الثاني ديوان المظالم الذي كان شائعاً عند الحكومات الإسلامية الصقلية فنقله عنهم كما نقل عنها ديوان التحقيق. وديوان الجزية وديوان الصناعة، ومنه يتفرع ديوان الطراز الخاص بالمنسوجات المطرزة بالذهب وغيرها، وأيضاً ديوان المستغلات من تجارة الموانئ الصادرة والواردة وصيد البحر. وكان في بلاطه. نفر من علماء العرب ومفكرهم وأرباب الأدب والصناعة، وكان هناك ديوان عام ينظر في أمور الدولة اشترك فيه بعض العرب. وخلفه ابنه الملك غليوم الأول، وكان قد تعلم العربية وحذقها مثل أبيه، ويقال إنه كان يعتمد في كثير من المهمات على مسلمي صقلية، وإنه فتح في وجوه مناصب الدولة يتولونها وقرب منه بعض العلماء المسلمين وبعض رجال الأدب والفكر. وقد دفع هو وأبوه النورمان إلى اقتباس الفنون والعلوم والعناصر الأساسية للحضارة الإسلامية، فتحضروا بعد أن كانوا قوماً متبذّين ونقلوا حضارتهم إلى إيطاليا فكانت بذلك من أسباب انبعاث النهضة الإيطالية بها في القرن الخامس عشر قبل غيرها من الأمم الغربية، وهو تأثير عميق لصقلية الإسلامية في النهضة الأوروبية الوسيطة، وينقل الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب عن دى سلان وصف البلاط النورمانى في عهد غليوم الأول وأبيه روجار الثاني إذ يقول: «إن كل شيء في البلاط النورمانى أصبح يذكر بالعادات والتقاليد الشرقية من حجاب وغللمان وعبيد إلى خصيان (سود وبيض) وقيان وعازفين، ومن حريم إلى مراسم وتشريفات». ولم تكن اللغة العربية لغة التخاطب فحسب، بل كانت أيضاً لغة الثقافة، وكانت المراسيم تصدر عن الديوان الملكي باللغة العربية ثم تنقل إلى اللاتينية أو اليونانية، كما كانت النقود منقوشة بالخط الكوفي» ومرّ ابن جبير بالجزيرة بعد عودته من الحج في أيام غليوم



الأول حوالى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م فنوه بأنه يتخذ من فتیان مسلمین مجابیب حُجَّابَه ووزراءه وعیون دولته وعمالته فی الجزيرة، ویقول إنه کثیر الثقة بالمسلمین وساکن إلیهم فی أحواله والمهم من أشغاله وله جملة من العبيد السود المسلمین وعلیهم قائد منهم. ویقول إن أهل دولته من المسلمین یلوح علیهم روتق ملکه، لاتساعهم فی الملابس الفاخرة والمراکب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشیة والعبيد والأتباع، ویقول عن غلیوم الأول: «لیس فی ملوک النصارى أترف فی الملک ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو یتشبه بملوک المسلمین فی الانغماس فی نعیم الملک وترتیب قوانینہ ووضع أسالیبه وتقسیم مراتب رجاله وتفخیم أبهة الملک وإظهار زینته، ویذکر ابن جبیر حین مرَّ ببلده أنه کان فی نحو الثلاثین سنة من عمره وأنه یتقن العربیة قراءة وكتابة، والعلامة التي یضعها علی رأس مناشیره ورسائله: «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبیه روجَّار الثاني: «الحمد لله شکرًا لأنعمه». ومما یدل علی مدى انغماس النورمان فی الحضارة الإسلامیة التي كانت منبثَّة فی الجزيرة أن زیَّ النساء النصرانیات فی بلرم کان نفس زی النساء المسلمات، ویقول ابن جبیر إنهن فصیحات الألسن بالعربیة الشریفة طبعًا (اللغة الأولى فی الجزيرة حینذاك) وإنه رأهن فی عید الفطر قد خرجن فیہ ولیسن ثیاب الحریر المذهب والتحفن للحف (الملاءمات وما یشبهها) الرائقة وانتقبن بالنَّقَب الملونة (أی أنهن کن محجبات تمامًا مثل المسلمات) وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لکنائسهن حاملات جمیع زینة نساء المسلمین من التحلی والتخضب والتعطر».

ومن دلائل الانغماس الواضح فی الحضارة الإسلامیة لعهد غلیوم الأول ما یذکره ابن جبیر من أن جواریه وحظایاه فی قصره کنَّ مسلمات جمیعهن، وأن الجاریة النصرانیة من الفرنجیات إذا وقعت فی قصره أصبحت مسلمة بفضل من فیہ من الجوارى المسلمات. ولم یکن غلیوم ولا أبوه یتعرضان - فیما یظن - لأداء شعائر من فی بلاطها وبلدتها أو عاصمتها بلرم من المسلمین، وربما کان تسامح غلیوم فی هذا الجانب أقوى وأوسع من تسامح أبیه فقد کان من فی بلاطه من الفتیان یصوم الأشهر تطوعًا وطلبًا للأجر والثواب، وكان إذا دخل وقت الصلاة یمخرجون من مجلسه فرادی فیؤدونها، وهو لا یتعرض لهم أی تعرض. ویقول ابن جبیر إن بلرم كانت غاصة بالمسلمین وهم فیها أرباض أو ضواح ینفردون فیها بسکناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، ویقول إن لهم مساجد یمرونها ویقیمون الصلاة فیها بأذن مسموع، وإن لهم قاضیا یتقاضون أمامه، ویذکر أن المساجد کثیرة، وكان یحفظ فی أكثرها القرآن. علی أنه یعود فیذکر أن صلاة الجمعة كانت محرمة علی سکان بلرم - كما مرَّ بنا - بسبب الخطبة الدینیة التي تسبقها إذ كانت محظورة علیهم.

وحرى بنا أن نتوقف لنعود إلى المقالة الشائعة بین المؤرخین، من أن النورمان عاملوا مسلمی

صقلية معاملة حسنة وأنهم سمحوا لهم بحرية العقيدة مستدلين على ذلك بما يقول ابن جبير وغيره عن بلاط روجار الثاني وجليوم الأول من أنه كان بلاطا عربيا إسلاميا في نظر أمراء المسيحية، وهو إنما كان كذلك بحكم تبدى النورمان وشعور هذين الملكين بحاجتها وحاجة شعبها إلى تشرب الحضارة الإسلامية العربية، ولذلك أحسنا معاملة المسلمين وسمحا لهم - على الأقل في بلرم - بإقامة شعائرهم الدينية والأذان والصلاة في المساجد، وبالمثل سمحا بذلك لمن شعرا بحاجتها إليه في بلاطها وحياتها من الفتيان ومن الجوارى والحظايا. أما بعد ذلك فكانت المسألة تتوقف على كثرة المسلمين في البقاع والمدن، فقد اتجه ابن جبير بعد زيارته لبلرم إلى زيارة مدينة طرابنش، ولاحظ أن جميع سكان الطريق بين المدينتين مسلمون يفلحون الأرض في ضياع ومحارث ومزارع متصلة، واقترب من مدينة ثرمة في الشمال، وكان الإعياء قد أخذ منه فبات بقصر قريب منها داخله مساكن وعلالي مشرفة، وهو كامل مرافق السكنى، وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، وبات فيه أحسن مبيت وأطيبه وسمع أذان الفجر - وكان قد طال عهده بسماعه كما يقول - وأكرمه القائمون عليه وصلى به الفريضة والتراويح إذ كان في رمضان، وأكبر الظن أنه كان محرسا للمدينة وبني على شاكلة المحارس في الساحل التونسي، وانتهى إلى طرابنش ورأى ما للمسلمين والنصارى فيها من مساجد وكنائس، ورأى المسلمين يصلون يوم العيد بالطبول والبوقات وعجب من ذلك.

وقبل أن نستمع إلى ابن جبير فيما ذكره بتلك البلدة من الفتنة في الدين الحنيف نتوقف قليلا عند سياسة الملك، روجار الثاني، فقد ظل معتمداً لإجراءات الإقطاع التي فرضها أبوه روجار الأول في البلاد والحصون التي فتحت عنوةً، ولما هاجم أسطوله الساحل التونسي واستولى على مدينة بونة (عنابة) ترك أميره فيليب جماعة من العلماء والنسّاك يخرجون منها إلى القرى المجاورة بأهلبيهم وأمواهم، فلما عاد قبض عليه لرفقه وحسن صنيعه بجماعة من المسلمين وجعل الأساقفة والقسس والرهبان يحاكمونه فحكموا عليه حكما ظالما بحرقه، كما نص على ذلك التجاني في رحلته. فلم يكن روجار الثاني يؤمن بحرية العقيدة كما يحلو لمؤرخي الغرب - وتابعهم مؤرخو العرب - القول بذلك. ونفس غليوم الأول الذي أشاد ابن جبير بمعاملته لمن في بلاطه من المسلمين ومن في قصره من الجوارى والحظايا المسلمات حدثت مذبحة للمسلمين ببلرم في أيامه، إذ أمر وزيره مايون بنزع السلاح من أيدي المسلمين سنة ١١٦٠/٥٥٦م فثار المسلمون ضد هذا الأمر، وانتهز المسيحيون الفرصة فسفكوا دماء كثيرين منهم في شوارع بلرم وفي الدواوين والخوانيت والفنادق كما سفكوا دماء جماعة ممن كانوا في القصر، وقتل في هذه الواقعة الشاعر القفصي يحيى بن التيفاشى كما قتل - في ظن أمارى - الإدريسي الجغرافي، وهو ما يؤكد أن استخدام غليوم الأول للمسلمين في القصر إنما كان ضرورة حضارية، اضطرت إليها الحضارة الإسلامية التي قهرته وقهرت شعبه. ومرت بنا - منذ قليل - أخبار عن ابن جبير

تدليل على أن حرية المسلمين في إقامة شعائرهم الدينية لم تكن مكفولة تماماً على نحو ما أوضح ذلك على لسان عبد المسيح في مسيئتي وفقهه مدينة طرابنش وزعيم المسلمين بها ابن حجر والمسلم الصقلي الذي اختار أن يُحرّم من ابنته وأهداها زوجة إلى أحد الحجاج مع ابن جبير حتى لا تذوق ما يذوقه مع إختوتها من العذاب الأليم.

ويتضاعف الظلم الغاشم مع استيلاء أباطرة الألمان على صقلية - كما مرّ بنا في الفصل الأول - ويفر من صقلية آلاف من المسلمين إلى إفريقية التونسية، ولا يبقى بها إلا من عجزوا عن الفرار والرحيل ويصبحون بها مستعبدين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام للسادة الفرنجة ولا يكفل لهم شيء من الحرية الدينية، واستغاثوا بأبي زكريا مؤسس دولة الموحدين فعقد مع فردريك الثاني الإمبراطور الألماني، وتعهد له فردريك فيها بضمان تلك الحرية، ولم يطبّق هذا التعهد، وازداد العسف والظلم الغاشم، واستغاث المسلمون هناك بالمستنصر ابن أبي زكريا، فعقد مع فردريك على إجلاء المسلمين نهائياً من صقلية، وحلّوا بتونس في سواحلها ورحّبت بهم المدن الساحلية وعاشوا في أمان، ويقال إن فردريك أجلى من بقى بجزيرة مالطة من المسلمين إلى أمالفي Amalfi جنوبي إيطاليا، وبمر الزمن تنصرت ذرارهم.

## ٣

الثقافة<sup>(١)</sup> في العهد العربي

دائماً تتحرك الثقافة الإسلامية مع الجيوش العربية الفاتحة، فبمجرد أن يفتح جيش عربي بلداً يقيم فيه مسجداً تُحطّبُ فيه خطبة الجمعة وتؤدّى الصلوات الخمس، ويدخل أهل البلد المفتوح في الإسلام أو كثيرون منهم، وتنشأ كتابات لتحفيظ الداخلين في الإسلام شيئاً من سور القرآن وتعليمهم وتعليم ناشئتهم مبادئ الكتابة العربية وشيئاً من الشعر العربي لتستقيم العربية في ألسنتهم. وكان هؤلاء المسلمون الجدد والعرب يتحلّقون حول الشيوخ في المساجد يأخذون عنهم تعاليم الإسلام، وكان من هؤلاء الشيوخ من يعرض الأسدية لأسد بن

الرواة للقفطي وبغية الوعاة للسيوطي وطبقات القراء لابن الجزري والديباج المذهب لابن فرحون والصلة لابن بشكوال والحلة السبزي لابن الأبار والقسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالعهد العربي البيان المغرب لابن عذارى ومعجم الأدباء ومعجم البلدان في سمنطار لياقوت وتنقيف اللسان لابن مكى وتاريخ الحكماء للقفطي وصورة الأرض لابن حوقل وطبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والمخريدة للعماد الأصبهاني: الجزء الأول وإنباه

الفرات قائد الحملة الذي قضى نحبه في حصاره لسرقوسة وهي تصور مذهب مالك من إملاءات أستاذه عبد الرحمن بن القاسم بمصر، حتى إذا شاغت مدونة سحنون - وهي أيضا من إملاءات ابن القاسم - في القيروان والبلاد المغربية أخذ الشيوخ في صقلية يلقنونها الناس والطلاب هناك.

ومع أن المسلمين في صقلية ظلوا أشبه بمعسكر حربي لا يزالون ينتظرون النداء للحرب صباح مساء، ولا يزالون يُشهرون سيوفهم مع أول صارخ، ومع أن الصرخات كانت لا تتي ترتفع، ومع أنهم ظلوا يفتحون الحصون طوال عهدهم بها ولا يكادون ينتهون من حرب حتى يبدؤوا حربا جديدة، مع ذلك كله استقروا بالمدن التي فتحوها، وكوّنوا لأنفسهم فيها ولايات إسلامية، ونقلوا إليها الحضارة العربية وكل ما اتصل بها من عمران وبناء منازل وقصور فخمة، ونهضوا بالزراعة والصناعة والتجارة، كما نهضوا بالثقافة في مختلف فروعها وعلومها وفنونها. ولم يكتف الشباب المسلم الصقلي بما كان يحصله من ذلك على علماء سرقوسة وجرجنت ومازر وبلرم وغيرها من المدن فقد كانوا يرحلون إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها، وكان كثيرون من علماء القيروان وشيوخها يعبرون البحر لتزويد الطلاب هناك بما أحرزوا من العلوم وصاغوا من المؤلفات. وكأنما كانت صقلية - طوال العهد الإسلامي - بلدا تونسيا، فكل ما في القيروان من كتب ومصنفات وعلوم وآداب يرحل مع التونسيين المهاجرين إليها ومع أبنائها في حقائبهم حين عودتهم إلى بلدانهم. وليست المسألة إذن أن كتابا نثر على اسمه في النصوص الصقلية مثل كتاب الملخص للقابسي الذي لخص فيه ما اتصل إسناده من أحاديث كتاب الموطأ لمالك، حتى إذا وجدناه هو أو غيره من الكتب سجلنا به وبها ما نُقل إلى صقلية من المصنفات العلمية، والمسألة كانت أوسع من ذلك إذ لم يُؤلف في القيروان كتاب مهم إلا نُقل إلى صقلية، وقد يحمله نفس مؤلفه على نحو ما هو معروف عن كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، فقد ارتحل إليها بعد الهجرة الهلالية إلى موطنه، وحمل إليها معه هذا الكتاب النفيس الذي يُعدُّ أروع ما وضعت المغرب والأندلس في النقد الأدبي والبلاغة ومحسناتها من كتب، ولا ريب في أنه كان له أثر بعيد في نهضة صقلية الأدبية.

وعلى نحو ما تبادل العلماء والأدباء في صقلية الرحلة مع علماء وأدباء القيروان كذلك تبادلوها مع علماء وأدباء المشرق والأندلس، بل كان بعض الشباب الأندلسي يقصد إلى صقلية للاستماع إلى هذا العالم أو ذاك ممن بلغت شهرتهم العلمية الأندلس، وكثيرا ما كان يقصد بعض علماء صقلية الأندلس فيجد شهرته سبقته إليها. وكانت رحلة الطلاب الصقليين إلى مصر والمشرق كثيرة، ونزلها غير عالم وأديب من المشرق من مثل أبي محمد إسماعيل بن محمد النيسابوري، وأخذ عنه - كما يقول ابن ظافر في كتابه بدائع البدائه - غير واحد كتاب

اليتيمة للثعالبي، ومثل على بن حمزة اللغوي فقد ذكر ياقوت في ترجمته أنه كان راوية لديوان المتنبي وأنه رحل إلى بلرم في صقلية وظل فيها يروى للطلاب ديوان المتنبي ويشرحه إلى أن توفي سنة ٣٧٥هـ/٩٨٦م ويبدو أن دواوين أخرى كثيرة دخلت إلى صقلية، فابن مكي يذكر في الباب الأربعين من كتابه «تثقيف اللسان ما كان يخطئ فيه المغنون من أشعار كثيرٍ وذى الرمة وجريز وابن الرومي والشريف الرضي. ويقول القفطي بكتابه تاريخ الحكماء في ترجمة أبي سليمان المنطقي عن كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي: إنه خاض كل بحر وغاص كلُّ لُجَّة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة منه بخط بعض أهل جزيرة صقلية، وهو قوله: «ابتدأ أبو حيان كتابه الإمتاع صوفيا وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحقاً». وفي ذلك ما يدل على أن كتب الفكر العميق المشرقية - مثل كتب أبي حيان - كانت تحت أعين الصقليين. وما ذكرناه أو أشرنا إليه من ذلك إنما هو رموز لما نُقل إلى صقلية من نفائس الكتب الأدبية والفكرية، ولا بد أن كانت نفائس الكتب التونسية والمشرقية في التفسير والحديث النبوي والفقهاء تنقلُ بدورها إليها.

ومن المؤكد أن الحركة العلمية كانت نشيطة بها، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يقوله ابن حوقل في كتابه صورة الأرض من أنه كان بها ما يزيد على مائتي مسجد، ويقول أيضا - ونقل ذلك عنه ياقوت في معجم البلدان - إن في بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم، ولا بد أن كانت لهم حلقات كثيرة في المساجد يحاضرون بها الناس في مختلف فروع الثقافة الإسلامية. ومن طريف ما يذكره ابن حوقل أنه رأى بها كُتَّابا به خمسة من المعلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكُتَّاب أو مدير هذه المدرسة، ويقول إن صبيان الكُتَّاب كثيرون وإنهم يبلغون أحيانا ثمانين طالبا في الحلقة الواحدة أو الفصل الواحد، وهي بذلك ليست كتاتيب - كما يقول - إنما هي مدارس، وقد أهلت لنشاط علمي واسع في بلرم، وعلى شاكلتها كانت المدن الأخرى في صقلية.

وحرى بنا أن نستعرض النشاط في العلوم المختلفة بصقلية الإسلامية، ونبدأ بعلوم الأوائل، وكانت - في رأينا - نشيطة بصقلية، إذ كان ما يقرب من نصف سكانها من الإغريق والرومان وكان لهم تراث قديم بلغتيها الإغريقية واللاتينية، وحثق كثيرون منهم العربية وحثق بعض العرب لغتيها بحكم الامتزاج والاختلاط والتعامل اليومي بين السكان، ودفع ذلك إلى التبادل عن طريق الترجمة بين التراث الإغريقي اللاتيني والتراث العربي، ومن أهم من عنوا بذلك الرهبان الصقليون، فكانوا ينقلون عن العربية بعض نفائس تراثها كما كانوا ينقلون إليها بعض نفائس التراث الإغريقي اللاتيني ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الجزء الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية

بإفريقية التونسية من أن الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد (٢٧١ - ٢٨٩ هـ) مؤسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة تخرّب بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية التي اطلع عليها، وكلّف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية وألحق بهم بعض علماء اللغة من الإفريقيين، وعهد إليهم بمهمة تنقيح عباراتهم وسبكها في قالب عربي صحيح» ويستظهر أن يكونوا قد نقلوا إلى العربية كتاب بليوس (Plinius) في علم النبات، ويذكر ابن جلجل في كتابه طبقات الأطباء أنه هاجر إلى قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) من صقلية طبيب يدعى أبا عبد الله كان يتكلم اليونانية ويعرف أسماء العقاقير والأدوية، فضمه الناصر إلى علماء قرطبة وأطبائها ليكون عوناً لهم في ترجمة كتاب ديوسقوريدس المؤلف بالإغريقية عن الأدوية والنباتات. وقد مضت صقلية تعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب في الترجمة. وكما كان التراث اللاتيني الإغريقي العلمى يترجم إلى العربية كان التراث العربى العلمى يترجم بدوره إلى اللاتينية. وكان الأطباء قد أخذوا يتكاثرون في القيروان منذ أيام الأغالبة، فتكاثروا بصقلية مجارة لأختها القيروان واطرد ذلك في القرون التالية، وما يول عليه الفصل الذى عقده ابن مكى في كتابه: «تثقيف اللسان» لبيان أغلاط الأطباء في صقلية، واشتهرت في القرن الرابع الهجرى بأنها بيئة فلسفية، مما جعل سعيد بن فرحون التجيبى الملقب بلقب الحمار السرقسطى يلجأ إليها حين أصابته محنة أيام المنصور بن أبى عامر فى أواخر هذا القرن كما يقول صاعد فى كتابه طبقات الأمم وظل بها إلى وفاته، وكان يحسن الفلسفة والموسيقى جميعاً وله فى علوم الفلسفة رسالة بدیعة سماها شجرة الحكمة. وبجانب فلاسفة أو متفلسفة صقلية كان هناك مهندسون ورياضيون من مثل العالم الرياضى عبد العزيز المعافى وله ترجمة فى الخريذة، وتؤكد القصور الباذخة فى بلرم التى تغنى بها شعراء صقلية واصفين فخامتها وزخارفها وحدائقها النظرة وفوارتها البديعة مهارة مهندسيها البارعين، وبهرت قصور بلرم وغيرها من مدن صقلية فون شاك بفسيفسائها ورخامها وأبهائها وغرفها ونقوشها، وظل يدرسها سنوات طوالاً كما مر بنا فى غير هذا الموضوع وسجل ما بهره من مشاهدتها فى كتابه الفن العربى فى إسبانيا وصقلية.

وتنشط صقلية الإسلامية فى الدراسات اللغوية والنحوية، وتمدها فى تلك الدراسات روافد من الخارج، فقد نزلها موسى بن أصبغ المرادى القرطبى الذى رحل فى طلب التعمق فى اللغة إلى المشرق، ودخل العراق وتلمذ لعلمائه اللغويين وخاصة ابن دريد صاحب معجم الجمهرة، ولم يعد إلى وطنه وإنما عاد إلى صقلية واتخذها موطناً له كما يقول السيوطى فى البغية، وتلاه صاعد اللغوى الأندلسى المشهور بكثرة تلاميذه الأندلسيين رحل إليها فى أوائل الفتنة التى نشبت بقرطبة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ورجع إلى الأندلس ولم يلبث أن عاد إلى صقلية وتوفى بها سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م كما ذكر القفطى فى إنباه الرواة. ومن علمائها فى اللغة والنحو على بن

حبيب اللغوى الصقلى أحد رجال اللغة المعدودين والعلماء بها المبرزين، ومنهم طاهر بن محمد الرقباني الصقلى اللغوى، ويقول القفطى عنه: لم يكن في زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها، ونثرها ونظامها، وقصدته العلماء من كل مكان فلقوا منه بحرا خضرا (واسعا) وعلى شاكلته ابنه على بن طاهر الرقباني، وكان حافظا للغة وأيام العرب، جامعا لأدوات الأدب. وما نلبث في القرن الخامس أن نلتقى قبل الغزو النورمانى بعلم كبير من أعلام اللغة والنحو تكونت له بها مدرسة لغوية كبيرة هو محمد بن على بن الحسين بن البر التميمي، وُلد بصقلية في أواخر القرن الرابع الهجرى، حتى إذا أخذ ما لدى شيوخها من اللغة والنحو رحل عنها إلى المشرق للتزود منها، وألقى عصاه بالقاهرة، وتلمذ فيها ليوسف النجيرمى المتوفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م وهو أهم من روى عنه المصريون كتب اللغة ودواوين الشعراء، يقول ابن خلكان: «أكثر ما تُروى الكتب القديمة في اللغة والأشعار العربية وأيام العرب في الديار المصرية من طريقه» وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرج في أوثق صورة ممكنة، وبجانب الدواوين التي أخذها عن النجيرمى وفي مقدمتها ديوان ذى الرمة أخذ في القاهرة عن صالح بن رشدين ديوان المتنبي الذى سمعه مباشرة من المتنبي وشرحه له، وأخذ أيضا في القاهرة عن ابن بابشاذ مقدمته المشهورة في النحو، وعاد إلى موطنه، واتخذ مدينة مازر مقاما له، وأكرمه صاحبها ابن متكود وقرّبه منه، وتحوّل إلى مدينة بلرم سنة ٤٥٠ واتسعت شهرته وجاءه الطلاب من كل فج صقليين وغير صقليين، ومن الصقليين على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع وسنعود إلى الحديث عنه في أيام النورمان، ومن تلاميذه غير الصقليين عبد الله بن إبراهيم الصيرفى ومنه سمع ديوان المتنبي سنة ٤٥٩، ومنهم عبد المنعم بن من الله القروى المعروف بابن الكماد وقد ألمنا به في كتابنا عن الأندلس وردّه الفحّم على رسالة ابن غرسية، وحرى بنا أن نذكر أن من تلاميذه الصقليين عمر بن خلف المشهور باسم ابن مكى الصقلى مصنف كتاب تثقيف اللسان الذى سجل فيه الأغلاط التى سمعها من أفواه العلماء وغيرهم ونراه يقول في مقدمته إنه عرضه على أستاذه ابن البر «الإمام الأوحّد والعلم الفرد، فأثبت ما عرفه وارتضاه، ومحا ما أنكره وأباه». وقد وُزِع ابن مكى كتابه على خمسين بابا تحدث فيها عن التصحيف والتبديل والزيادة والنقص في الأسماء وكذلك الزيادة والنقص في الأفعال وتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث إلى غير ذلك من صور الغلط على ألسنة الخاصة والعامة، وأضاف إلى ذلك فصولا طريفة عن أخطاء القراء والمحدّثين والفقهاء والأطباء. والكتاب يدل على أنه كان في صقلية حينئذ حركة لغوية خصبة بثها ابن البر في تلاميذه كى يخلصوا الألسنة من أغلاطها وخاصة ألسنة العلماء. وما توفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م حتى يبارح ابن البر صقلية إلى الأندلس، ويبارحها تلميذه ابن مكى إلى تونس، ويقول العماد الأصبهاني عنه في ترجمته بالخرّيدة: «ولى قضاء تونس وهو فقيه محدث خطيب لغوى، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة

مأثور مروى، وله خطب لا تقصّر عن خطب ابن نباتة». وابن نباتة أكبر خطيب أنتجه المشرق، وكان خطيب سيف الدولة في حربه لبيزنطة. ولعل في هذه الشهادة لخطيب من صقلية ما يحو محوا ما زعمه ابن حوقل عن خطيب شاهده ببلرم يوم جمعة يجزم الأسماء مع الوصل ويحجّر الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، وليس في المستمعين له من مسلمى بلرم من يعترض عليه، مع أنه ظل يخطبهم نحو عامين! وذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان مغرضا في كل ما وصف به صقلية لأنها كانت ترفض المذهب الشيعي الإسماعيلي مذهب الدولة الفاطمية، فإتهاماته لها ولخطبائها اتهامات زائفة، وسنراها تنتج في مجال الدراسات الدينية والأدب شعرا ونثرا ما يؤكد بطلان إتهاماته.

ويدل ما قدمنا على أنه وصلت الشباب الصقلي مجموعة اليتيمة للثعالبي وديوان ذى الرمة وغيره من شعراء الجاهلية والإسلام، كما وصلتهم دواوين عباسية مختلفة لأبي تمام وابن الرومي والمتنبى وأضرابهم، ولا بد أن وصلهم كتاب البيان والتبيين للجاحظ وما به من خطب ومجموعة زهر الآداب للحصري، وما من شك في أن أكثر مجاميع الأدب المؤلفة في المشرق وصلتهم ومرّبنا أن ابن البرّ كان يروى بين ما يروى من الكتب والدواوين كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وكل ذلك كان له تأثيره في نشوء ذوق أدبي عام في صقلية بين الشباب والشيوخ، ولا بد أن اطلعوا على بعض الكتابات البلاغية والنقدية في المشرق بدليل استخدام شعرائهم وكتّابهم لمحسنات البديع، وبدليل ما في أشعارهم من عذوبة وسلاسة، وكان حظ الشباب في صقلية عظيما إذ نزل ابن رشيقي في أواخر أيامه بمازّر واتخذها مقاما له إلى وفاته سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وظل هناك سنوات يدرس للطلاب كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده ويعد من أروع كتب الأسلاف في النقد وفي بيان المحسنات البلاغية إن لم يكن أروعها كما يقول ابن خلدون، وقرأه عليه ابن متكود والى مازر بشهادة نسخة من الكتاب وقعت للقفطي كما يقول في ترجمته بكتابه إنباه الرواة وأخذ الطلاب في صقلية بمازّر وغير مازر يتدارسونه في حياته وبعد وفاته. ومعنى ذلك أن صقلية أتيح لها من المختارات الشعرية والنثرية ما أتاح لأدبائها ملكات أدبية خصبة كما أتيح لها من كتب البلاغة والنقد، وفي مقدمتها كتاب العمدة ما أتاح لأدبائها جمال الصياغة ودقة الذوق الأدبي ورهافته.

وإذا تركنا الدراسات النقدية واللغوية في صقلية الإسلامية إلى الدراسات الدينية وجدنا من كبار قرائها في القرن الرابع الهجري محمد بن خراسان كما في طبقات القراء لابن الجزري، طلب العلم بمصر وفيها درس القراءات والحديث النبوي وتلمذ لأبي جعفر النحاس وكتب عنه مصنفاته وقرأها عليه وكان بينها كتابه إعراب القرآن، وظل مقرئا متصدرا بصقلية إلى أن توفي سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وقد بلغ ستا وتسعين، ومن روى القراءة عنه يوسف بن حبيب وغيلان بن



تيم. وطبيعى أن تزدهر قراءة القرآن في صقلية مثلها في ذلك مثل جميع البلاد الإسلامية، وكانت مثل تونس والبلاد المغربية - تقرأ بقراءة ورش المصرى عن نافع وعادة يوصف المقرئ بأنه مفسر للقرآن مما يدل على أن المقرئين للذكر الحكيم في صقلية كانوا كثيرا ما يعنون بتفسيره حتى تفهم الناشئة ما تحفظه منه، ونجد حمل محمد بن خراسان المار أنفا لكتاب إعراب القرآن للنحاس يحدث في صقلية نشاطا في هذا الموضوع فإذا أبو طاهر إسماعيل بن خلف الصقلى المتوفى سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣م يؤلف كتابا في إعراب القرآن كان في تسع مجلدات، وستترجم - فيها بعد - لابن ظفر الصقلى وله في التفسير ثلاثة كتب.

وعلى نحو ما كان إقراء الذكر الحكيم وإعراجه وتفسيره ناشطا في صقلية كانت - بالمثل - رواية الحديث النبوى، إذ كان حفاظه النابهون كثيرين من مثل أبى بكر الحصائرى، ومن أهم حفاظها عتيق السمنطارى وقد نوه به ياقوت في الحديث عن بلدته «سمنطار» في كتابه «معجم البلدان» وكان قد لزم حلقات الشيوخ في بلرم حتى أخذ ما عندهم، وارتحل إلى لقاء الشيوخ ونزل مدينة الرسول ﷺ، واتسع في رحلته فأخذ عن شيوخ اليمن وفارس وخراسان والشام ومصر، وكان يلقي في تلك البلدان بجانب شيوخ الحديث وحفاظه العباد والنسك ويكتب ما يسمعه من الفتنين، وصنف كل ما جمعه عنهم، كما صنف في الفقه تأليفاً كان في غاية الترتيب والبيان. وكان يدرس لتلاميذه في صقلية الحديث النبوى وكتاب الموطأ في الفقه المالكى، وتوفى سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧١م حين احتل روجار الأول ملك النورمان بلرم.

وأكثر فقهاء المالكية بصقلية كانوا محدثين لأن الموطأ مالك كتاب فقه وحديث وكان نشاط الفقه بصقلية واسعاً جداً، وهياً لذلك أن كان قضاة صقلية - منذ أول الأمر - يحاضرون الناس في الفقه المالكى عمدتهم في القضاء يتقدمهم في ذلك سالم بن سليمان الكندى الذى ولى القضاء في صقلية سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤م وقد عمل بكل جهده على نشر مذهب مالك في صقلية كما في كتاب رياض النفوس. ونزلها تلميذ من كبار تلامذة الإمام ابن أبى زيد فقيه القيروان المتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦م هو البراذعى خلف بن أبى القاسم وكان زملاؤه من فقهاء القيروان يزورون عنه، فلم تحصل له بها رئاسة، فرحل إلى صقلية، وقصد أميرها في بلرم، فحصلت له عنده مكانة طيبة، وعنده ألف كتابه التهذيب في اختصار مدونة سحنون في الفقه المالكى يقول ابن فرحون وعليه معول الناس في صقلية والمغرب والأندلس، وطارقت شهرته في العالم الإسلامى وكتبت له شروح مختلفة، وألف بصقلية أيضا كتابا في التمهيد لمسائل المدونة وكتاب الشرح والتتمات لمسائل المدونة، وله أيضا اختصار الواضحة من كتب الفقه المالكى يقول ابن فرحون: وعليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة وكان ابن أبى زيد قد جمع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتابه النوادر فنقل البراذعى معظمه في كتابه على المدونة. ويبدو أنه توفى بصقلية في أوائل القرن الخامس الهجرى.

ومن فقهاء صقلية بعده محمد بن يونس التميمي من مدينة مازر المتوفى سنة ٤٥١ وقد لقب بالإمام الأكبر لتبحره في الفقه المالكي وجاءه الناس للفتوى، وله مؤلف جيد في مسائل كتاب الموطأ للإمام مالك، وله إضافات مفيدة وتعليقات علمية جيدة على مدونة سحنون. وكان يعاصره عبد الحق بن محمد القرشي الصقلي، لزم حلقات الشيوخ في بلده حتى ارتوى منها، ورحل للحج ولقاء الشيوخ والفقهاء الكبار والتقى بأبي ذر الهروي شيخ المالكية في هراة وبالقاضي عبد الوهاب المالكي شيخهم في العراق كما التقى في حجة ثانية بإمام الحرمين الجويني وسأله عن مسائل أجابه عنها وسجل ذلك في أحد كتبه، وكان يدرس لطلابه في بلرم مدونة سحنون التي جمعت أصول المذهب المالكي، يقول ابن فرحون أيضا عنه: «كان مليح التأليف، ومن مؤلفاته كتابه «النكت والفروق لمسائل المدونه» ويقول ابن فرحون أيضا إنه «عاد إليه بالتغيير والتبديل ورجع عن كثير من اختياراته وتعليقاته» وله كتاب في الفقه المالكي كبير باسم «تهذيب الطالب» وله استدراك على تهذيب المدونة للبراذعي وله كتاب في بسط ألفاظ المدونة، وكان أعماله الفقهية انحصرت في خدمة مدونة سحنون. وحاز شهرة كبيرة في حياته وكان كثير الارتحال، فدرس عليه في القيروان - كما في الصلة لابن بشكوال - ابن الحياض ومحمد بن نعمة الأسدي، ودرس عليه في صقلية من الأندلسيين أبو بكر بن الحصار، وهاجر إلى الأندلس من تلامذته الصقليين - ثابت الفقيه الصقلي، وتوفى بالاسكندرية سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ويبدو أنه رحل عن بلرم بمجرد استيلاء روجار الأول ملك النورمان عليها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م.

## ٤

الثقافة<sup>(١)</sup> في العهد النورماني

دخل النورمان صقلية والحركة العلمية بها مزدهرة، وهاهم ما رأوا فيها من حضارة ومدنية إسلاميتين، وشعروا بوضوح أنهم في حاجة، بل في أشد الحاجة إلى أن يجلسوا من سكانها العرب مجلس التلامذة من أساتذتهم في الزراعة والصناعة والتجارة وفي الثقافة والعلوم والفنون المختلفة، ودفع روجار الأول ابنه روجار الثاني إلى تعلم العربية وإلى الإكباب على علومها وفنونها، وبالمثل دفع روجار الثاني ابنه غليوم الأول إلى التزود من هذه العلوم والفنون ما وسعه

والقسم الثالث من ورقات عن الحضارة في إفريقيا التونسية، والعلم عند العرب لألدومبيلي ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار، والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالعهد النورماني نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدرسي ورحلة ابن جبير، وخطط المقرئ، والخريدة للعماد الإصهاني، وإنباه الرواة للقطبي، وطبقات القراء لابن الجزري، وابن خلكان، ومقدمة ابن خلدون،

التزود وحث بدوره ابنه غليوم الثاني على استيعابها ما أمكنه، ويحدثنا الإدرسي في فواتح كتابه «نزهة المشتاق» عن مدى ما أحرز روجار الثاني من هذه الفنون والعلوم قائلا: «أما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تُدرِكُ بِعَدِّ، ولا تُحَصَّرُ بِحَدِّ، لكونه قد أخذ بكل فن منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقدح المعلى» ويقول ابن جبير - كما مر بنا - عن غليوم الثاني: «له الأطباء المنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذُكر له طبيب أو منجم اجتاز ببلده أمر يماسكه، وأدر له أرزاق معيشته، حتى يسليه عن وطنه. وأحس روجار الأول - منذ أول الأمر - بالحاجة إلى ترجمة الكتوز العلمية النفيسة من العربية إلى اللاتينية، حتى يحوز النورمان لأنفسهم هذه الثروات العلمية، ولم يلبث أن أتاح له ذلك نصراني يسمى قسطنطين الإفريقي ولد بمدينة قرطاجة التونسية سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م وثقف العربية وأتقنها، واختلف في القيروان إلى أصحاب علوم الأوائل في الطب والرياضة والفلك، ورحل إلى القاهرة وفيها استكمل معرفته بالعلوم المذكورة، وعاد إلى بلده: قرطاجة وتركها إلى صقلية في عهد روجار الأول وعرف منه حاجته إلى ترجمة كل ما كتبه العرب عن الطب، فرجع إلى القيروان، وجمع منها أنفس ما كتبه أطباؤها العظام، وعاد إلى روجار الأول يبيشره بأنه اصطفى له أفضل وأنفس ما لأطباء القيروان والعرب عامة من كتب طبية وغير طبية، فأسس له دَيْرَ جبل كاسينو بالقرب من مدينة سالرنو في جنوبي إيطاليا فتولى رياسته وأخذ يُفَرِّغُ رهبانه بتعلم العربية حتى إذا تعلموها أغراهم بترجمة مصنفاتها الرياضية والفلكية والطبية إلى اللاتينية، ودُرِسَ ما ترجموه في كلية سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوربية، ومما يدل على ذلك أبلغ الدلالة في المجال الطبي أن نجد فردريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا يسنُّ لائحة خاصة لمزاولة العمل الطبي في مملكته يفرض فيها على كل طبيب يعمل بها أن يحصل على إجازة الطب من كلية سالرنو، وكان ذلك قبيل عصر النهضة الأوربية، فكان له تأثير بالغ فيها. ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في القسم الأول من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية»: «جدير بالملاحظة أن جُلَّ ما ترجمه قسطنطين من الكتب العربية إلى اللاتينية أو حاول تقليده والوضع على غراره إنما كان مستمدا من مصنفات أطباء قيروانيين مثل إسحق بن عمران وأحمد بن الجزار، كما أنه اعتمد في الفلك وعلم الهيئة على كتاب البارح في الفلك والنجوم لعلى بن أبي الرجال القيرواني». وكل ذلك كان يصب في صقلية أخت القيروان، ويبدو أنها اشتهرت في الفلك والهندسة بعلماء ومهندسين أفاضل، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - أننا نجد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ/٩٩٦م - ٤١١هـ/١٠٢٠م) حين ينشئ مرصده في القاهرة يرسل إلى صقلية، في طلب حدائقها في الهندسة والتنجيم، ويوافيه أبو محمد عبد الكريم المهندس الصقلي، ويتوقف العماد الأصبهاني في القسم الخاص بصقلية ليقول عن هذا الشاعر أو ذلك إنه رياضي أو منجم فلكي أو مهندس

مثل عبد العزيز المعافى وكان من علماء الرياضيات ومثل ابن القرنى وكان منجبا حاسبا،  
ومثل محمد بن عيسى الفقيه وكان مهندسا منجبا وشاعرا بارعا.

ومعروف أن روجار الثانى ملك صقلية النورمانى استدعى الشريف الإدريسى إلى «بلرم»  
عاصمته، وطلب إليه أن يؤلف له كتابا فى الجغرافيا، فألف له كتابه الرائع: «نزهة المشتاق فى  
اختراق الآفاق» وهو أكمل كتاب جغرافى ألفه العرب، وظل عند الأوربيين أهم مرجع فى علم  
الجغرافيا إلى القرن السادس عشر، وقد أتم الإدريسى تأليفه سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م وترجمت  
قطع كبيرة منه إلى مختلف لغات العالم. وطلب منه روجار الثانى خريطة للعالم فنقشها على كرة  
من الفضة وزن ثمانمائة أوقية، ورسم عليها جميع الأقاليم التى كانت معروفة لعصره، وهما عملان  
باهران من أعمال العبقرية العربية. وكان حريا بالإدريسى أن يقدمهما إلى حاكم عربى فى  
عصره لا لحاكم نورمانى نهب هو وأبوه صقلية العربية وقد وجه إلى المهديّة بالإقليم التونسى  
اسطولا مكونا من ثلاثمائة سفينة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واستولى عليها وظل بها اثنى عشر عاما  
حتى خلصها عبد المؤمن سلطان الموحدىن. وظل الإدريسى فى بلرم أيام غليوم الأول وله ألف  
كتابا سماه «روض الأانس ونزهة النفس، وقد وضع فيه الإدريسى - كما يقول الدومبيللى -  
خرائط أصغر سعة ومقياسا، وخرائطه جميعا تقوم على تحديد درجات الطول والعرض، ويقال  
إنه توفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م والمظنون أنه قتل فى ثورة للنورمان حينئذ على العرب فى بلرم.

ويلقانا فى العهد النورمانى غير عالم لغوى ونحوى، ومن نحاتها ولغوييها الذين ظلوا بها ولم  
يبرحوها على بن بشرى اللغوى الصقلى ويقول القفطى: «كان فى النظم والنثر سابقا  
لا يجارى، وفى اللغة والإعراب لا يبارى» ومنهم عمر بن حسن النحوى الصقلى يقول  
القفطى: «شيخ فى اللغة والنحو طويل الباع فيها، أخذنا ورؤيا عنه تصدر للإفاده ببلرم» ومنهم  
محمد بن زيد الطرطائى الصقلى «آخذ من كل العلوم بالحظ الوافى، متقدم فى علم الأوزان  
والقوافى». ومن بارحوا صقلية - فى العهد النورمانى من كبار اللغويين والنحاة على بن  
عبد الرحمن الصقلى العروضى، يقول عنه القفطى: «نزىل الإسكندرية عالم بعلمى النحو  
والعروض قيم بها. بليغ فيها، مشارك فى جميع الأنواع الأدبية، متصدر لإفاده الطلاب». ومنهم  
ابن القطاع على بن جعفر التميمى المولود سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م تلميذ ابن البر، وكان مثل  
أستاذه عالما لغويا كبيرا، ومازال بصقلية يدرس ويؤلف لطلابه حتى إذا كانت سنة  
٥٠٠هـ/١١٠٦م انتقل إلى مصر فاحتفى به أهلها، وتصدر للتدريس والافادة إلى أن توفى سنة  
٥١٥هـ/١١٢١م ومن تصانيفه كتاب تهذيب أفعال ابن القوطية فى اللغة وهو خير من كتاب ابن  
القوطية وكتاب أبنية الأسماء يقول ابن خلكان جمع فيه فأوعى. وكان كتاب الصحاح للجوهرى  
بمصر - كما يقول القفطى - لا يروى إلا عن طريقه عن ابن البر، وكان له كتاب نفيس فى

شعراء صقلية سماه: «الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة» وفي دار الكتب المصرية مختصر له، ونقل عنه العماد الأصبهاني في الخريدة: قسم صقلية طائفة كبيرة من شعرائها البارعين. ومن هؤلاء النازحين عن صقلية في العهد النورماني على بن ابراهيم النحوي الصقلّي المعروف بابن المعلم، كان مجيدا للغة والنحو وتصدر للإفادة فيها، بارح صقلية واستوطن مصر إلى أن توفي بها سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧ م. ومنهم عثمان بن علي السرقوسي الصقلّي النحوي، كان عالما نحويا مقرنا للقرآن الكريم، وله حاشية على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، وكانت له في جامع الفسطاط حلقة للإقراء وانتفع به الناس ونقلوا كلامه وكتبوا تصانيفه، وله مختصر كتاب العمدة لابن رشيقي زاد به أبوابا أُخِل بها مؤلفه وهي واقعة موقعا جيدا من التصنيف. وحقا كان النشاط العلمي لهؤلاء النحاة واللغويين الصقليين خارج جزيرتهم، ولكني ذكرتهم لأدل على مدى ما حدث بالحركة العلمية في صقلية من خمود وقف ما كان ينتظر لها من ازدهار عظيم بسبب استيلاء النورمان عليها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة الدينية وبدأنا بالقراءات القرآنية وجدنا لصقلية إماما كبيرا من أئمتها هو عبد الرحمن بن عتيق المقرئ المعروف بابن الفحام المولود بسرقوسة سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م وقد رحل من صقلية إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م في طلب القراءة القرآنية على أئمتها المصريين وظل يأخذها عنهم حتى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م ومن شيوخه فيها ابن نفيس تلميذ عبد المنعم بن غلبون شيخ القراءات بمصر، وتلمذ لابن بابشاذ وأملى عليه شرح مقدمته المشهورة في النحو، وعاد إلى بلده، ولم يلبث أن نزلها النورمان فبارحها إلى الإسكندرية واتخذها موطنًا له، وكان من أعلم القراء بالقراءات ووجوهها، ولم يلبث أن أصبح شيخ القراء بالإسكندرية علما ودراية، وألف فيها كتابه «التجريد في بغية المرید» وبها توفي سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢ م.

وكان كثير من القراء لا يزالون يلقون على طلاب صقلية دروسا في التفسير، ويلقانا في منتصف القرن السادس الهجري مفسر صقلّي كبير هو ابن ظفر وهاجر منها إلى الشام وسترجم له في حديثنا عن النثر الصقلّي، وتظل رواية الحديث النبوي ناشطة في العهد النورماني، ويلقانا فيه إمام من أئمته، هو المحافظ محمد بن علي بن عمر التميمي المعروف باسم المازري نسبة إلى مسقط رأسه في مدينة مازر بصقلية، وقد لزم حلقات شيوخها حتى اكتمل مرباه العلمي، وهاجر منها إلى الإقليم التونسي، وتولى القضاء في القيروان ثم في المهديّة، وبها ألقى عصاه إلى أن توفي سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١ م عن ثلاث وثمانين سنة ودُفن برباط المُستَير وفيه يقول ابن خلكان هو أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث، ويقول المقرئ في أزهار الرياض ناعتا له: «الإمام المجتهد أبو عبد الله المازري عمدة النظار، ومحور الأمصار، المشهور

في الآفاق والأقطار حتى عُدَّ في المذهب المالكي إماماً. وله في الحديث النبوي شرح جيد على صحيح مسلم سماه كتاب «المعلم بفوائد مسلم» وفيه يقول ابن خلدون في المقدمة: «أما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به.. وأملى الإمام المازري من كبار فقهاء المالكية عليه شرحاً سماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه. وكان العلماء في عصره يتسابقون إلى أخذ الإجازة عنه برواية هذا الشرح وبقية كتبه، ومنهم القاضي عياض الإمام المشهور وقد بنى على شرحه لصحيح مسلم شرحاً سماه «إكمال المعلم بفوائد مسلم». وللمازري بجانب هذا الشرح مصنفات في الفقه المالكي وعلم الأصول، من ذلك شرحه لكتاب التلقين للقاضي المالكي عبد الوهاب ويقال إنه ليس للمالكية كتاب مثل شرح كتاب هذا القاضي وشرح البرهان في الأصول لإمام الحرمين الجويني. وهو بحق يعد خاتمة الفقهاء والمحدثين بصقلية.

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### نشاط الشعر

كانت صقلية جنةً من جنان العالم الإسلامي بما كانت تحمل فوق حقولها من رداء القمح الذهبي ورياءات الكروم والبرتقال ومزارع القطن الزمردية وبساتين النخيل والموز والفواكه والزهور الأرجة، والحيل الكريمة، ومعادن الذهب والفضة والكبريت والنحاس ومصانع الأقمشة والحريز المزركش. لقد كانت حديقة كبيرة في البحر المتوسط لم يحسن الخلفاء العبيديون بعد الدولة الأغلبية القيام عليها فضلا عما تبعها من شبه جزيرة قَلُورِيَّة في إيطاليا.

وطبيعي أن يتغنى بهذه الحديقة الفاتنة كثير من الشعراء، ونلاحظ أن هذا التغنى تأخر نحو قرن فقد تأخر طوال حكم الدولة الأغلبية، إذ كانت في صراع مستمر مع كثير من المدن والحصون، ومع ذلك مدّت ذراعها إلى جنوبي إيطاليا واستولت على قَلُورِيَّة. وتستولى الدولة العبيديَّة على مقاليد الأمور بإفريقية التونسية وتحمّد حركة الفتوح في الجزيرة وكأنما لم تكن تعنيها في قليل ولا كثير، حتى إذا تركت شئونها السياسية والإدارية إلى بني أبي الحسين الكلبيين أخذت الجزيرة تشعر معهم بشيء من الاستقلال، كما أخذت تشعر بشيء من شخصيتها، وعادت لها الحماسة الإسلامية، وأخذت هذه الدولة تعنى بفتح ما تبقى من البلدان والحصون في صقلية وفي قَلُورِيَّة.

وتزدهر الحركة الشعرية في صقلية لعهد هذه الدولة، وخير كتاب كنا نطلع منه على هذا الازدهار لو أنه لم يسقط من يد الزمن هو كتاب «الدرّة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة» لابن القطاع على بن جعفر السعدى الذى توفى بمصر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، فقد كان يشتمل على مائة وسبعين شاعرا، وكأنه أراد أن يناقش بكتابه كتاب الأنموذج لابن رشيق الذى اشتمل على مائة شاعر فحسب، صور بهم الحركة الأدبية في إفريقية التونسية، ولو أن كتاب ابن القطاع وصلنا لاستبانَت الحركة الشعرية بصقلية الإسلامية تمام الاستبانة إذ قصره على تلك الحركة وحدها، ولم يدخل عليه أحدا من العصر النورمانى. وفي المكتبة التيمورية مختصر للكتاب اختيار أبى إسحق بن أغلب، قال في مقدمته له إنه ذكر فيه سبعة وستين شاعرا فقط،

ولا يوضِّح على أى أساس اختار من اختار وأهمل من أهمل، والنسخة بها نقص في تضاعفها وفي آخرها، بحيث لم يبق فيها سوى ٤٣ شاعرا، وحَدَفَ ما وضعه ابن القطاع مع الشاعر من مقدمات كانت حرية أن تفيد الباحثين في دراستهم لشعراء صقلية الإسلامية في عصر الكليبيين. وهناك اختيار ثان لعلى بن منجب الصيرفي المصري المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة من كتاب الدرّة الخطيرة ضمنه تسعة عشر شاعرا، وهو منشور في عنوان الأريب المطبوع بتونس للشيخ الجليل محمد النيفر التونسي. وبجانب اختيارات ابن منجب الصيرفي وأبي إسحق بن أغلب من الدرّة الخطيرة تلقانا اختيارات العماد الأصبهاني منها في كتابه الخريدة، وبلغ ما اختاره منها ٤٤ شاعرا مجموعة في الجزء الأول المنشور وبعدها في نفس الجزء شاعر من الدرّة الخطيرة ص ٣٢٧ من طبعة تونس ثم شاعران آخران ص ٣٣٥، ٣٣٦ وربما كانا أيضا من شعراء الدرّة. ويبدأ العماد الحديث عن شعراء الخريدة بشاعر يقول إن أبا الصلت أمية بن أبي الصلت الأندلسي سماه في رسالته المصرية، البُلنوبي أبا الحسن على بن عبدالرحمن بن أبي البشر الكاتب الصقلي الأنصاري، ويفيض في ذكر غزلياته، ثم ينقل عن ابن بشر بن المهدي من كتابه المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر أحد عشر شاعرا كلهم من العصر النورماني، ويضيف إليهم في ص ٢٧٣ ترجمة لأبي الضوء سراج بن أحمد بن رجاء الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بشر بن المهدي فيكون مجموع ما ساقه عن ابن بشر بن رجاء الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بشر بن المهدي فيكون مجموع ما ساقه عن ابن بشر بن رجاء الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بشر بن المهدي فيكون مجموع ما ساقه الخريدة من شعراء صقلية نحو ستين شاعرا وإذا حاولنا أن نرصد بينهم أول من له صلة بالولاية الكليبيين لقينا القاسم بن نزار الكليبي يعاتب ابن عمه الأمير أحمد بن الحسن بن أبي الحسين الكليبي (٣٥٤-٣٥٨هـ) على جفائه له وهو عتاب فيه مرارة شديدة إذ يقول<sup>(١)</sup>:

إني متى يجفو الحبيب      بُ وصلت جفوته بيّن  
ومنتعت عيني أن ترا      ه ولو رآته فقات عيني  
ووضعتُه دون الحضيض      ض لو أنه في الفرقدين  
وقطعتُه لو كان يُش      به أحمد بن أبي الحسين

وأكبر الظن أن الأمير أحمد بن الحسن بن أبي الحسين لم يكن فظا فقد كان قائد أسطول صقلية قبل توليه زمام الأمور بها، وكان يتعامل مع الناس تعاملًا كريما، ونرى المعز يستقدمه إلى المهديّة، ويوليه قيادة أساطيل الدولة، ويولي مكانه أخاه على بن الحسن (٣٥٩ - ٣٧٢ هـ).

(١) الخريدة للعماد الأصبهاني (طبع تونس)



ومن مادحيه سهل بن مهران، وعُرف بأنه كان ممن يطيلون فيجيدون. وولى - بعد علي - صقلية جعفر بن محمد فحسنت به الأحوال واستقامت الأمور إلى أن توفي سنة ٣٧٥ وخلفه أخوه عبد الله ولم تطل مدته إذ توفي بعد عامين، وولى بعده ابنه يوسف، وكان عادلاً حسن السيرة فأحبه الناس ولقبه الخليفة الفاطمي بلقب ثقة الدولة وعمّ الرخاء والأمن في أنحاء الجزيرة وفي عهده وصل حكم الكلبيين فيها إلى القمة المبتغاة من المجد والعزة، ووفد عليه الشعراء من إفريقية التونسية ومن الجزائر يدحونه وفي مقدمتهم محمد بن عبدون السوسى الذى ترجمنا له بين شعراء تونس وأطلنا في بيان صلته بثقة الدولة وابنه جعفر، وعلى شاكلته شاعر الجزائر أبو محمد عبد الله بن محمد التتوخى المعروف بابن قاضى ميله، وله في ثقة الدولة مدحة ضافية، ومن شعراء صقلية الذين دُبجوا فيه المدائح الطوال ابن القرقورى وهاشم بن يونس ولهما في الخريدة مدحتان في ثقة الدولة نوّها فيها بشجاعته وبأسه، وعلى شاكلتها شعر مشرف بن راشد، وإن لم يسم بمدوحه، ومن شعرائه الحسن بن محمد الطوبى، وله مدحة في المعز بن باديس، ومنهم محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلى صاحب ديوان الإنشاء، وله في ثقة الدولة مراثية استهلها بقوله: (حنانيك ما حى على الدهر يسلم). وأخذت الولاية الصقلية تتضعض في عهد ابنه جعفر ثم في عهد أخيه أحمد الأكل، ومن شعرائها المشرف بن راشد وابن الخياط، وثار عليه الصقليون كما أسلفنا واستغاثوا بالمعز بن باديس صاحب القيروان وإفريقية التونسية، ثم عادوا فولّوا عليهم صمصام الدولة وسرعان ما يثور به الصقليون وتدخل صقلية في عصر أمراء الطوائف، وأصبح لكل أمير شاعره أو شعراؤه، فمحمد بن القاسم بن زيد ينحاز إلى علي بن نعمة صاحب جرجنت وقصريانة، وعبد الحليم الصقلى إلى ابن متكود في مازر وابن الخياط إلى ابن الثمنة في بلرم، وملتقى بعد ذلك بالشعراء الذين بكوا صقلية ومدنها حين سقطت في حجر النورمان من أمثال أبي محمد القاسم بن عبد الله التميمى وابن حمديس. وحرى بنا أن نتوقف الآن لتتحدث عن شعراء الشعر الصقلى موزعين على موضوعاته.

## ٢

## شعراء المديح

ظل المديح يدبج في أمراء الأسرة الكلبيّة طوال حكمها لصقلية، غير أن كتب المختارات لم تعرض علينا منه إلا شظايا: بيتا أو بيتين من القصيدة مع عرضها في الغالب لمقدمتها من الغزل وغير الغزل، وكانت صقلية قد أخذت تكتنط بالشعراء منذ عصر ثقة الدولة يوسف بن عبد الله الكلبي (٣٧٧-٣٨٨هـ) وجاءه من يدحونه من الجزائر وإفريقية التونسية كما أسلفنا وكثّر من يدحونه في صقلية نفسها من أبنائها الشعراء مثل أبي الفتح محمد بن الحسين بن القرقورى

الكاتب، وله يعتز به وبما ينال من عطاياه في التخلص إلى المدح من قصيدة<sup>(١)</sup> :

وماذا عليهم أن أجودَ بتالدي وأقنِي طَريفِي قبلَ يومِي وأُتلفُ<sup>(٢)</sup>  
لهم ما اقتنوا فليَحْرِصوا في أدخارِهِ ولي كنزُ شعرٍ لا يبيدُ ويوسفُ

ويوسف هو يوسف بن عبد الله ثقة الدولة، وهو يقول لخصومه الذين يعنفونه لتبذيره أمواله إنه لا يخشى شيئا من هذا التبذير طالما ينظم مدائحه المطولة في يوسف ويسبغ عليه عطاياه. وأكبر الظن أن ما ساقه العماد للمشرف بن راشد وهاشم بن يونس من مديح لقائد بشجاعته إنما يريدان به ثقة الدولة، وهي أبيات محدودة. ومن شعراء ثقة الدولة علي بن الحسن الطوسي، وكان يلازمه ونراه بعد وفاته يعبر البحر إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية التونسية، وله يقول من مدحة رصع بها ديوانه كما يقول العماد<sup>(٣)</sup> :

إليك مُعزُّ الدينِ وابنَ نَصيرِهِ حملتُ عقودَ المدحِ بعد انتخاها  
وأثوابَ حمدٍ حُكَّتْ أثوابَ وشيها على ثِقَةٍ مني بِعُظْمِ ثوابِها

وكان الشعراء في صقلية وإفريقية التونسية كثيرا ما يتبادلون ممدوحيهم، فالشاعر القيرواني يعبر البحر لمدح الوالي أو الأمير الكلبي كما عبّره محمد بن عبدون السوسي، والشاعر الصقلي يجتاز بدوره البحر ليمدح الأمير القيرواني أو الأمير المشهور في عصر أمراء الطوائف ويلقانا بأخرة من عصر الكلبيين ابن الخياط، وسنخصه بكلمة، وتلتقى بعده بجعفر بن الطيب الكلبي، وكان شاعرا مجيدا، وله قصيدة بديعة يمدح بها مدافع بن رشيد الهلالي أمير قابس في آخر عهد أمراء الطوائف، وله يخاطب ناقته فيها<sup>(٤)</sup> :

سأنزل عنك في مرعى خصبٍ وماءٍ باردٍ عذبٍ فتراتٍ  
بأرضٍ مدافعٍ مأوى الأمانِي وقَتالِ السنينِ المُجَدِّباتِ  
فيحملُ عنك همِّي فوق طَرفِ سَبُوقِ من خيولِ سابقاتِ<sup>(٥)</sup>  
أغرُّ تخاله ريحا أعيرتُ قوائِمَ باللُّجَيْنِ محجَّلاتِ<sup>(٦)</sup>  
لقد أطمعت في جدواك حتى سباعُ الطَّيرِ من بعضِ العَفَاةِ<sup>(٧)</sup>

وهو يقول لناقته إنه سينزل عنها في مرعى مدافع الخصب حصن الأمانى وقَتالِ السنينِ

- (١) الخريدة ٩٦/١.  
(٢) تالدي: مالى القديم. طريفى: مالى الجديد.  
(٣) الخريدة ٧٣/١.  
(٤) الخريدة ١١٣/١.  
(٥) طرف: فرس كريم.  
(٦) أغر: له غرة بيضاء. قوائم محجلة: بيضاء أو بها بعض بياض. اللجين: الفضة.  
(٧) جدواك: عطائك، والعفاة: طلاب المعروف.

العجاف المجذبات، فيحمله فوق حصان سبوق أغرّ قوائمه محجلة بلجين يخطف الأبصار، ويقول له لقد أطمعت في كرمك الفيّاض حتى إن سباع الطير لتلتزمك وتلتزم جيشك لما تعرف من كرمك وفتكك المستمر بالأعداء، حتى لكأنها من طلاب النوال.

ويُظَلُّ العهد النورمانى صقلية، وكان المظنون أن لا يجد الشعراء المسلمون الذين ظلوا هناك ملوك النورمان، ويبدو أنهم كانوا يفرضون على الشعراء تمجيدهم، وكانوا يضطرون إليه أحيانا لأنهم أسرى في أيديهم ويريدون أن يفكوا عن أقدامهم أغلال الأسر، على نحو ما نجد عند أبي حفص عمر بن حسن النحوى في مديحه لروجار الثانى وهو فى قبضة سجنه قصيدة له وفيها يقول<sup>(٤)</sup>:

يهتَزُّ للجَدَوَى اهتزاز مَهْنَدٍ      يهتَزُّ فى كَفِيهِ يوم جِلادِهِ  
ويضئُ فى الدِّيَجور ضوءُ جبينِهِ      فتخالُ ضوءَ الشمس من حُسّادِهِ

وأظنها كانت فدية لتحريره وأنه ردّ إليه حريته. ويدل على ما نقول من أن الشعراء المسلمين كانوا يضطرون أحيانا إلى مديح روجار أن نجد شاعرا يسمى عبد الرحمن بن رمضان المالطى استنفذ معظم شعره - كما يقول ابن بشرى - فى مدح روجار الإفرنجى المستولى على صقلية يسأله العودة إلى مدينة مالطة، ولا يحصل منه إلا على المغالطة<sup>(٢)</sup>. غير أننا نجد ثلاثة شعراء يشيدون لروجار الثانى بقصوره - وفى قصريه: القبة والمنصورية يقول عبد الرحمن بن محمد البشيرى<sup>(٣)</sup>:

وقصورٍ منصوريّةٍ      حطّ السرورُ بها مَطِيهِ  
أعجبُ بمنزلها الذى      قد أكمل الرحمنُ زِيَهُ  
ورياضه الأنفِ التى      عادتُ بها الدنيا زَهِيَهُ<sup>(٤)</sup>  
وأسودُ شاذرَوَانِهِ      تَهْمى مياها كوثرِيَهُ<sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن السرور ألقى عصا تسياره بهذه القصور لجماها وينوه بمكانها وما حولها من الرياض وأزهارها العطرة وحللها البهية، وما بها من الأسود التى تجم المياه من أفواهاها فى شكل بديع وكنا نؤثر له أن لا يزعج باسم الرحمن ومياه الكوثر نهر الجنة فى قصيدة يقدمها لملك نصرانى. وحين قدّم قصيدته إلى ابن بشرى ليسجلها فى كتابه: «المختار من النظم والنثر لأفاضل العصر» سأله أن يعارضه بقصيدة على وزنها وروّها فقال<sup>(٦)</sup>:

- (١) الخريدة ٤٥/١ وإنباه الرواة ٣٢٨/٤ (٤) الأنف: الجديدة.  
والجدوى: العطية والمهند: السيف.  
(٢) الخريدة ٢١٠/٢.  
(٣) الخريدة ٢٣/١.  
(٤) الشاذرون: مقدم البيت. تهى: تصب.  
(٥) كوثرية: كأنها من مياه نهر الفردوس: الكوثر.  
(٦) الخريدة ٢٤/١.

لِلَّهِ مَنْصُورِيَّةٌ رَاقَتْ بِبَهْجَتِهَا الْبَهِيَّةُ  
 وَبَقِصْرُهَا الْحَسَنِ الْبِنَا وَالشَّكْلَ وَالْغُرْفَ الْعَلِيَّةُ  
 وَبَوْحِشِيهَا وَمِيَاهُهَا الْغُزْرُ الْعُيُونُ الْكُوْثَرِيَّةُ  
 وَقَدْ اِكْتَسَتْ جَنَاتُهَا مِنْ نَيْتِهَا حُلًّا بِهِيَّةُ

ويقول العماد: اقتصرت من القصيدتين على ما أوردته، لأنهما في مدح الكفار فما أثبتته، ونحن بدورنا إنما اقتطفنا بعضا مما أنشده من قصيدتي الشاعرين، وقصر ثالث هو قصر الفؤارة شرقي بلرم، وقد عني روجار الثاني - فيما نظن - ببركة بجواره أمر أن يوضع فيها السمك من كل نوع وأن تحف بها الأشجار والأزهار بحيث تصبح متنزها بديعا وفي الفؤارة ورياضها يقول عبد الرحمن بن أبي العباس الأطرابنشى<sup>(١)</sup>:

فَوَّارَةٌ الْبَحْرَيْنِ جَمَعَتْ الْمُنَى عَيْشٌ يَطِيبُ وَمَنْظَرٌ يُسْتَعْظَمُ  
 وَكَأَنَّ أَغْصَانَ الرِّيَاضِ تَطَاوَلَتْ تَرْنُوْا إِلَى سَمَكِ الْمِيَاهِ وَتَبَسُّمُ  
 وَكَأَنَّ نَازِيحَ الْجَزِيْرَةِ إِذْ رَهَا نَارٌ عَلَى قُضْبِ الزَّبْرِجِدِ تُضْرَمُ  
 وَكَأَنَّمَا اللَّيْمُونُ صَفْرَةٌ عَاشِقٍ قَدْ بَاتَ مِنَ أَلَمِ التَّوَى يَتَأَلَّمُ  
 وَالنَّخْلَتَانِ كَعَاشِقَيْنِ اسْتَخْلَصَا حَذَرَ الْعِدَا حِصْنًا مَنِيعًا مِنْهُمْ  
 يَا نَخْلَتِي بَحْرِيْ بِلَرْمٍ سَقِيْتُمَا صَوَّبَ الْحَيَا بِتَوَاصُلٍ لَا يُضْرَمُ<sup>(٢)</sup>  
 هُنَيْتُمَا مَرَّ الزَّمَانِ وَنَلْتُمَا كُلُّ الْأَمَانِي وَالْحَوَادِثُ نُومٌ

والبحرين يريد بها بحر البركة وبحر خليج بلرم، وهو يشيد بالبركة وما عليها من أشجار تطاولت أغصانها بأزهارها لترسل ببسماتها إلى سمك البركة، ويتخيل النارج نارا مضرة على قضب زبرجدية، والليمون يحيط بها وقد علا وجهه صفرة العشاق، وتستريحه النخلتان المغروستان على حافة البركة وكأتما هما بقية للعرب وصحرائهم في الجزيرة ويتخيلهما كعاشقين، استخلصا لهما حصنا منيعا في عنان السماء ولا يستطيع الأعداء الوصول إليه، ويستمر في الدعاء لهما أن يرعاهما المطر بتواصل لا ينقطع أبدا، وأن تظللهما الهناءة على طول الزمان وكل ما تصبوان إليه، وتظل الحوادث نائمة عنها لا تناهها أي نيل. ويبدو أن الشاعر لم يتماد في مديح روجار كما تمادى عبد الرحمن البشيري وابن بشرون المهدي، ولذلك لم يعلق عليه العماد بتعليق مماثل، ونعجب أن لا يستنكف هؤلاء الشعراء المسلمون من مديح ملوك النصارى الذين نهبوا منهم الأرض وأحالوها أنهارا من دماء أهلهم، ولكن ربما ألجأتهم إلى ذلك ضرورة من أسر أو تعذيب أو معاملة سيئة، ولن نستطيع بحال الاعتذار عن الشريف الأدريسى وذهابه إلى

(٢) الحيا: الغيث. يصرم: يقطع.

(١) الخريدة ٢٥/١.

روجار الثاني حين استدعاه وتأليفه له - أو إهدائه إليه - كتابه المشهور في الجغرافيا الذي مر حديثنا عنه ووضعه له خريطة العالم. وتتوقف قليلا للحديث عن ابن الخياط شاعر المديح في زمن الكلبين.

### ابن (١) الخياط

شاعر من شعراء الكلبين في عهدهم الأخير، ولا نعرف شيئا عن نشأته كأكثر شعراء صقلية الإسلامية، ونراه يمدح من أمرائهم الأكل الملقب بمؤيد الدولة (٤١٠ - ٤٢٧ هـ) كما يمدح أخاه صمصام الدولة (٤٢٧ - ٤٣١ هـ) وفي مدحها معا يقول:

كلاهما زين أخوه به كما يزين الفرقد الفرقد<sup>(٣)</sup>  
من تره منفردا منها في مجلسٍ قلت هو السيد

فهما فرقدان أو كوكبان لا يتميز أحدهما عن صاحبه وكل منهما عليه سياء السيادة والشرف، ونراه حين شغبت صقلية على الأكل في سنة ٤٢٧ يعزيه عن شعبهم بمثل قوله:

أرى كل شيء له دولة لحكم التعاقب فيها عمل  
فلا تفرحن ولا تحزنن لشيء إذا ما تنهى انتقل

فالدول لا تظل لأحد، بل تتعاقب كما يتعاقب الليل والنهار والحاكم العاقل لا يجزن إن عبس له القدر، كما لا يفرح له حين يتسم، إذ لا شيء من عبوسه ولا من ابتسامه باق، بل الكل إلى زوال. ونراه يتعلق بمدح قائد من قواد الدولة كانت لقبته بلقب انتصار الدولة، ويصور شجاعته وبأسه في الحروب منشدا:

ويارب يوم له مسعر إذا خمدت ناره أوقدا<sup>(٣)</sup>  
تخاف به الرجل من أختها ولا تأمن اليد فيه اليد  
ترى السيف عريان من غمده وتحسبه من دم مغمدا

فهو مسعر حرب بوقدها كلما خمدت أو خبت، ويكاد الخوف والفرع يخنقان محاربيه حتى لتتخوف الرجل من أختها واليد من شقيقتها لما يأخذ الناس من الهول، وترى السيف فتخاله

(١) انظر في أشعار ابن الخياط شرح صديقه التجيبي القيرواني للمختار من شعر بشار، وراجع ترجمة إحسان عباس له في كتابه: العرب في صقلية ص ٢٠٧.  
(٢) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي.  
(٣) مسعر: موقد.

عريان من غمده بينما هو مغمدم ومغمور من دم الأعداء. ويصور أحد أعدائه وقد أخذه الهلع من كل جانب:

ظنَّ الإمارةَ ظلَّةً فإذا بها حربٌ يكادُ أوارها يتأججُ<sup>(١)</sup>  
ومهنداتُ كالعقائِقِ ماؤها مترقرقٌ ولهيبها متأججٌ  
لا تستقرُّ العينُ فوق مُتونها فكأنما هي زئبقٌ مُترجرجٌ  
في موطنٍ سلب الحليمِ وقاره فكأنما هو مستطارٌ أهوجٌ

فهذا الخارج ظن الإمارة ظلة يستظل بها ويستريح عندها فإذا هي نار حرب متأججة. وإذا السيوف يلمع عليها ما يشبه الماء بل ما يشبه النار المضطربة، والعين لا تستطيع استقراراً فوق متونها لأنها زئبق مترجرج، في ساحة حرب تسلب الحليم وقاره حتى ليغدو كأنه مستطارٌ أهوج من شدة الهول والفرع. وتولى الحكم بعد الأكلح صمصام الدولة لمدة أربع سنوات وضاعت الجزيرة من يده ودخلت في عصر أمراء الطوائف وأخذ ابن الخياط يعزى أمراء بني أبي الحسين الكلبيين بمثل قوله:

لِيُسَلِّكُمُ أَنْ الْجَزِيرَةَ بَعْدَكُمْ  
كَمَا قِيلَ فِي الْأَمْثَالِ لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ<sup>(٢)</sup>  
تَرَكْتُمْ بَقَايَا حُسْنِكُمْ فِي خَرَابِهَا  
كَمَا ذَبَلُ النُّوَارِ فِي خَلَلِ الْحُمَمِ<sup>(٣)</sup>  
وَجُوهٌ كَأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَائِهَا  
تَرَقَّرِقُ حَيَاءً وَامزَجَ الْحُسْنَ بِالكَرْمِ  
كَأَنَّهُمْ فَوْقَ الْأَسِيرَةِ أَنْجَمٌ<sup>(٤)</sup>  
سَعُودٌ وَفِي الْهَيْجَا ضِرَاغِمَةٌ بِهِمْ<sup>(٤)</sup>

فالجزيرة قد تعرّت بعد الكلبيين من بهجتها وأصبحت عارية من حسنها لحما على وضم، وإن شعبها لا يزال يكنّ لكم حبا وكأني به ذبل كما يذبل النوار في أثناء الحمم المنتهية، ويقول ما أروع وجوه الكلبيين، لقد كان الحياء يترقرق فيها، وكان الحسن يمتزج بالكرم، وكانوا فوق الأسرة والعروش وبأيديهم صولجان الحكم كأنهم نجوم ساطعة في السلم، وفي الهيجاء أسود لا يماثلها أسود. ولا نعرف شيئاً عن مولد ابن الخياط ولا عن وفاته، ويبدو أنه عاش في عصر أمراء الطوائف حتى زمن محمد بن الثمثة حاكم بلرم، غير أنه لم يلحق عصر روجار وأبنائه، وربما كان قد ترك صقلية إلى القيروان قبل هذا التاريخ.

(٣) الحمم: الفحم والرماد.

(٤) بهم، جمع بهمة: الشجاع.

(١) أوارها: نارها.

(٢) لحم على وضم: ما يوضع عليه اللحم.

مثل للدلالة على أنه لم يعد لها واق.

## شعراء الغزل

هذا هو الموضوع الأساسي لشعر صقلية الإسلامية سواء فيما اختاره لها ابن القطاع أو ابن بشرون المهدوي أو العماد الأصبهاني، وهو موضوع إنساني نجده دائماً في جميع البيئات الإسلامية، إذ يتغنى الشعراء بحبهم للمرأة ويتفننون في هذا التغنى بصور مختلفة، لعلها تعبرهم التفاتة أو تذكر لهم عهداً أو تفي لهم بوصل أو بوعد، من ذلك قول أبي الحسن علي بن الحسن بن الطوبى أحد شعراء ثقة الدولة<sup>(١)</sup>:

ما أحسبُ السحرَ غَيْرَ مَعْنَاهَا	والعنبرَ الجَوْنَ غيرَ رِيَاهَا <sup>(٢)</sup>
إنا جهلنا ديارها فَبَدَا	من عَرَفَهَا ما به عَرَفْنَاهَا <sup>(٣)</sup>
كأنما خَلَفْتُ بساحتها	منه دليلاً لكل مَنْ تاهَا
وأغبط الماء حين تَرُشِفُه	إذ كان دوني مقبلاً فاهَا
وما تنائي على قلائدها	إلا بأن أشبهت ثناياها

وكان ابن الطوبى قد عبر البحر إلى القيروان في أيام المعز بن باديس فاصطفاه لنفسه، ومرت بنا إحدى مدائحه له، وكان المعز كثيراً ما ينشد البيت الرابع من هذه المقطوعة لرقته وعذوبته وهي جميعها في غاية النعومة والسلاسة، حتى لتكاد ألفاظها تطير عن الفم طيراناً لما فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويذرف الدموع مدراراً، فذلك نصيبه وحظه في دنياه. وهذه الصورة الطبيعية من الغزل نصادفها عند غير شاعر صقلى، من ذلك قول مستخلص الدولة عبد الرحمن بن الحسن الكلبي ممدوح ابن الخياط<sup>(٤)</sup>:

قلتُ يوماً لها - وقد أخرجتني -	قولةً ما قدرت أنفكُ عنها
أشتهى لو ملكتُ أمركِ حتى	أمر الآن فيك قَهراً وأنهى
فيك - ثم أعرضت - ثم قالت	خُنْتَنِي في محبةٍ لم أخنها

وهي رقة شعور واضحة، فإنها لم ترتض منه أن يملك أمرها ويأمر فيها قهراً وينهى، وأين الحب؟ لقد خانته، ولذلك بكت بكاء مراراً، إنه لم يعد عاشقاً بل أصبح سيّداً يريد أن يسترقها ويستذلها. ويقول أبو محمد جعفر بن الطيب الكلبي<sup>(٥)</sup>:

(٤) الخريدة ٨/٨٥.

(٥) الخريدة ٨/١١٤.

(١) الخريدة ٨/٧٤.

(٢) رياهها: شذاها العطر.

(٣) عرفها: شذاها وعطرها.

فأرقتكم لا عن قِليٍّ وتركتكم  
وفقدتكم من ناظري فوجدتكم -  
رَغماً على حكم الزمان الجائر  
- لما أردت لقاءكم - في خاطري

فقد فارق صاحبه لا عن بغض ولكن نزولاً على حكم الزمان الظالم، وفقدها من ناظره وأمام عينيه ووجدها بطلعتها السنية في خاطره، وهي فكرة رقيقة ودقيقة. ويقول الفقيه عبد الرحمن بن أبي بكر السرقوسي<sup>(١)</sup>:

أسارقه اللحظ الخفيّ مخافةً  
وأجهد أن أشكو إليه صابقي  
عليه من الواشين والرقباءِ  
فيمنعني من ذاك فرطُ حيائي  
سأكنم ما ألقاه من حرقِ الأسي  
عليه ولو أني أموت بدائي

فهو يسارق صاحبه اللحظ خشية أن يتنبه بعض الواشين والرقباء، ويجهد في أن يشكو إليها صابته فيمنعه فرط حيائه، وسيظل يكتنم ما ينطوي عليه قلبه من حرق الأسي ولوعاته مؤثراً أن يموت بدائه. ومثل هذه القطعة اليائسة قطعة لابن الخياط يقول فيها.

ليس إلا تنفسُ الصعداءِ  
مَنْ رسولِي إلى السماءِ يؤدي  
وبكائي وما غناءُ بكائي  
لي كتابا إلى هلال السماءِ  
كيف يَرَقِي إلى السماءِ كثيفُ  
يسلك الجسمَ في رقيق الهواءِ  
عجز الإنسان أن شوقِي إليها  
فعسى الجن أن تكون شفائي  
أم ترى الجن تتقى شُهْبَ الرَّجْمِ  
فدعني كذا أموت بدائي

وصاحبه في السماء فكيف يرقى إليها في الهواء جسم كثيف لإنسان فيفكر في الجن، غير أن الجن حرّم عليها الصعود في السماء، وشهب الرجم لها بالمرصاد وستلقاها بالموت الزؤام، ويأس فلا الجن تنفعه ولا الإنسان ويذرف الدموع مدراراً، فذلك نصيبه وحظه في دنياه.

وإذا تحولنا إلى العهد النورماني لقينا عبد الحلیم بن عبد الواحد السوسي الأصل الإفريقي المنشأ الصقلي الدار، وهو من سكان مدينة بِلْرَم، وله مقطوعتان غزليتان طريفتان، يقول في أولهما<sup>(٢)</sup>:

قالت لأترابٍ لها يشفَعَن لي  
وحياة حاجته إليّ وفقره  
قول امرئٍ يُزهِى على أتراهِ  
لأواصلنَّ عَذابه بعذابه



ولأمننَّ جُفونَهُ طَعَمَ الكَرَى  
ولأمزجنَّ دموعَهُ بشرابه<sup>(١)</sup>  
لِمَ باحَ باسمي بعد ما كتمَ الهَوَى  
دَهْرًا، وكانَ صِيانتي أُولَى به

وهي تعلم مدى حبه لها وشغفه بها، وكان يكتُم حبه ولا يصرِّح باسمها، فلما صرَّح به وأعلن حبه لها غضبت غضبا شديداً وصممت على الانتقام منه أشد الانتقام، إذ ستواصل عذابه بعذابه وستمنعه النوم وتمزج دموعه بأى شراب يشربه، حتى تأخذ بثأرها من بؤحه باسمها بعد كتمانها دهرًا، وكان أولى أن لا يصرح به أبداً. ويقول في الأخرى<sup>(٢)</sup>:

شكوتُ فقالت كل هذا تبرُّماً  
فلما كتمتُ الحبَّ قالت: لشدُّ ما  
فأذنو فتقصيني فأبعدُ طالباً  
فشكواي تُؤذيها وصبري يسوؤها  
فيا قوم هل من حيلةٍ تعلمونها  
بحبِّي أراح الله قلبك من حُبِّي  
صبرتُ وما هذا بفعلٍ شجى القلبِ  
رضاها فتعتدُّ التباعد من ذنبي  
وتُخرج من بُعدي وتنفر من قربي<sup>(٣)</sup>  
أشيروا بها واستوجبوا الأجر من ربِّي

وهو لا يعرف كيف يرضى صاحبه، فإنه إذا شكَا من حبها عدت ذلك تبرماً ودعت له أن يريه الله من حبه، وإذا كتم شكواه وحبه قالت له: ما أشد صبرك وليس هذا من ديدن المحب العاشق. ويقول إنه يدنو فتقصيه، فيبعد آملاً في رضاها، فتعد بعده أو تباعده من ذنوبه عندها، وهو حائر فشكواه تؤذيها وصبره يسوؤها، ويؤلها بعده وتنفر من قربه، ويسأل من حوله هل من حيلة له في إرضائها ويدعو لمن دله على حيلة أن ينال جزاءه من ربه. وله بيتان بديعان يصور فيهما حال صقلية وقد نهكتها حروب النورمان<sup>(٤)</sup>:

عشقتُ صِقْلِيَّةً يافِعاً  
فما قُدِّر الوصلُ حتى اكتهلتُ  
وكانتُ كبعض جنان الخلودِ  
وصارت جهنم ذات الوقودِ

فصقلية الجنة البدیعة بقصورها وحقولها وزروعها وثمارها وأزهارها الزاهية أصبحت في عهد النورمان بحروبيهم وفتكهم برجالها وشبابها جهنم المتقدمة المشتعلة التي تلتهم كل سكانها، ولحمد بن عيسى بن عبد المنعم من غزلية رائعة كان يغني بها هناك<sup>(٥)</sup>:

مولايَ يا نورَ قلبي  
أما ترى ما بجسمي  
ونورَ كلِّ القلوبِ  
من رِقَّةٍ وشُحوبِ

(٤) الخريدة ٢٢/١.

(٥) الخريدة ٣٦/١.

(١) الكرى: النوم.

(٢) الخريدة ٢٢/١.

(٣) تخرج: تضيق.

فَلَمْ يَخْلُ بِوَصْلِي      وَليْسَ لِي مِنْ ذُنُوبِ  
 وَمَا لِسُقْمِي شِفَاءٌ      وَلَا لَهُ مِنْ طَبِيبِ  
 وَلَا لِدَائِي دَوَاءٌ      إِلَّا وَصَالَ الْحَبِيبِ

والقطعة جديرة بأن يغنى بها، لخفتها في السمع وعذوبتها وتعبيرها عن الحب الذي أضناه ببساطة، وفيه هذا البخل بالوصل، وليس له من ذنوب، والبيتان الأخيران في غاية الرشاقة مع النعومة ومع الخلاوة في السمع التي تشيع في كل الأبيات. وتتوقف قليلا للحديث عن الشاعر البُلنوي وغزلياته.

### البُلنوي (١)

هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الأنصاري، ولد بمدينة بلنوبة Villanova في صقلية، فنسب إليها، وعلى شاکلة لداته اختلف إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، ولزم الشيوخ حتى ثقف ما عندهم في اللغة والنحو، وهاجر إلى مصر وعنى فيها بتدريس العروض والنحو في كتبها المشهورة حتى توفي سنة ٤٤٢ للهجرة ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت بصقلية مبكرة ونشر رزيتانو قطعة من شعره باسم ديوان البُلنوي، وافتتح العماد تراجم الشعراء في صقلية بترجمته، وبها مختارات كثيرة من غزلياته، وهو في غزله يصور ما يتسم به الغزل عند شعراء صقلية من التجاني عن الغزل المادى الحسى وما يتصل به من وصف الجسم إلى الغزل المعنوى وما يتصل به من رقة الحس والشكوى من عذاب الحب والسهر وبعد الحبيب وهجره وما يجره ذلك على المحب من الضنا والنحول والسقم الذى لا شفاء منه، ومن طريف غزله:

إِلَيْكَ أَشْكُو عَيْونَا أَنْتِ قَلْتِ لَهَا      فَيَضِي فَقَدْ فَضَحْتِنِي بَيْنَ جُلَاسِي  
 وَمَا تَرَكْتِ عَدُوًّا لِي عَلِمْتِ بِهِ      إِلَّا وَقَدْ رَقَّ لِي مِنْ قَلْبِكَ الْقَاسِي  
 فَإِنْ رَضِيتِ بَأَنْ أَلْقَى الْحِمَامَ فِيهَا      أَهْلًا بِذَاكَ عَلَى الْعَيْنِينَ وَالرَّاسِ

فهى التي أمرت عيونه أن تظل تذرف الدمع شوقا إلى لقائها، حتى فضحته بين جلاسه من صديق وعدو فالكل يرق له من قلبها المتناهى في القسوة، وهو بذلك راض أن يظل مستجيبا لها ويظل الدمع يترقرق في عيونه، حتى لو رضيت بأن يموت في سبيلها، فسيقبل الموت بمنتهى

ونشر رزيتانو ديوانه بالقاهرة سنة ١٩٦٨.

(١) انظر في البُلنوي إنباه الرواة ٢٩٠/٢ والخريدة للعماد الأصبهاني ٥/١ والعرب في صقلية

الرضا. ويقول :

أترانى أحياء إلى أن يعودا      نازح لم يدع لعيني هجودا  
كيف أرجو الحياة بعد حبيب      كان يومى به من الدهر عيدا  
أشتهى أن أبوح باسمك لكن      لقتنى الوشاة فيك الجحودا

وهو يظن أنه لن يجيء حتى يعود حبيبه لطول سهاده وما يعانى منه، حتى ليتصور أنه ميت لا محالة. فقد ذهبت أيام لقائه به التي كان يعدها أعياداً، وإنه ليشتهي أن يبوح باسمه أو اسمها ولكنه يخاف الوشاة، وكأنما علموه الجحود ونكران الحب. ويقول:

أما تعطينن على خاضع      لديك يُناجيك مُستعظفا  
إذا كتبت يدهُ أحرُفاً      إليك مَحَا دَمْعُهُ أَحْرُفاً  
ولو كنت أملك غَرَبَ الدموع      منعتُ جُفونى أن تَنْرِفاً<sup>(١)</sup>

وهو يشكو لصاحبه حبه متذللاً مستعظفاً، ويقول إنه كلما كتب لها سطرًا فى رسالة محت الدموع سطرًا سابقاً له، ولو كان يملك مصدر دموعه لمنع جفونه أن تذرف الدمع مدراراً، وصورة السطر الذى يكتب والسطر الذى تمحوه دموعه فى الرسالة بديعة. ويقول:

هجرتك يا سُؤلَ نفسى ولى      فؤادُ متى تُذَكِّرى يَخْفُقِ  
وما ذاك منى أطْرَاحُ الملولِ      ولكنه نظرُ المشفقِ  
كما تتركين برودَ الشرا      بِ ظمأى مخافة أن تَشْرِقى

وهو يقول إنه هجر سُؤلَ نفسه حُبَّ قلبه لا مللاً ولكن إشفاقاً عليها أشد الإشفاق، كما تترك وهى شاعرة بحرقه العطش كوباً من الماء البارد الذى يطفىء غلة ظمئها خوفاً من أن تشرق بها وتغص غصة مؤذية شديدة. وكان يدرس العروض لطلابه، فرأى أن ينظم لهم مقطوعة غزلية ثلاثية الشطور، والشطر الأول فيها من مجزوء الخفيف والثانى من مجزوء الرمل والثالث من مجزوء المجتث بحيث إذا ضمَّ شطر إلى أخويه أو إلى أخيه نتج وزن جديد، وهى تجرى على هذه الشاكلة<sup>(٤)</sup>:

وغزالٍ      مشنَّفٍ<sup>(٢)</sup>      قد رَئى لى بعد بُعدى  
لما رأى ما لقيتُ

(٢) مشنف: متخذ قرطاً.

(١) تذرف: تسيل.

مثل روض مفوّفٍ<sup>(١)</sup> لا أبالي وهو عندي  
في حبّه إذ ضنيتُ

وهي غزلية للتدريس، وإن شكا فيها بعد المحبوبة وجفائها وامتناعها، ومن هذا الباب عنده مقطوعات يجمع فيها حروف المعجم أو يلفز فيها. وفي الحق أنه يصور الغزل الصقلي المعنوي تصويراً بديعاً بما نجد عنده من الصباية واللهفة على لقاء المحبوبة وكثرة الشجى لهجرها والحزن حتى ليكاد يموت المحب في إثر محبوبته ضنا وسقما وبكاء متصلاً.

## ٤

## شعراء الفخر

من موضوعات الشعر العربي القديمة الفخر، وكان كثيراً جداً في الجاهلية، لأن القوم كانوا يقتتلون، وكان الشعراء من ورائهم يحمسونهم في القتال، وكان من المقتتلين أنفسهم شجعان يذودون عن القبيلة ويفتخرون بشجاعتهم ومآثر قبائلهم، فكثرت شعر الفخر والحماسة حينئذ، وكان المظنون، والسيوف في صقلية دائماً مشرعة وقلما توضع في أغمادها أن يكون شعر الفخر والحماسة فيها كثيراً، غير أن ماروي منه قليل، وقد يرجع ذلك إلى ابن القطاع الصقلي وابن بشرون المهدي، فإنهما لم يرويا منه إلا القليل وخاصة ابن بشرون فإنه كاد أن لا يروى منه شيئاً في العهد النورمانى، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن العرب كانوا مهزومين، ففيم الفخر وفيم الحماسة، أما في العهد السابق لذلك فإن نفسيتهم كانت قوية، ونجد ابن القطاع يسوق لهم فخرًا وحماسة من حين إلى آخر، من ذلك قول أبي عبد الله محمد بن علي بن الصباغ الكاتب<sup>(٢)</sup>:

قَوْمِي الَّذِينَ إِذَا السَّنَابُكَ أَنْشَأْتُ      دُونَ السَّحَابِ سَحَابًا مِنْ عَثِيرٍ<sup>(٣)</sup>  
بَرَقَتْ صَوَارِمُهُمْ وَأَمْطَرَتْ الطُّلِي      عَلَقًا كَثْرَثَارَ الْحَيَا الْمَتَفَجِّرِ<sup>(٤)</sup>  
الْوَاتِرِينَ فَلَا يُقَادُ وَتِيرُهُمْ      وَالْفَاتِكِينَ بِحِمِيرٍ وَبَقِيصِرِ<sup>(٥)</sup>  
وَالْمَانِعِينَ جِمَاهُمْ أَنْ يُرْتَعَى      وَالْحَاسِمِينَ لِكُلِّ دَاءٍ يَعْتَرَى

فقومه حين يشتد وطيس الحرب وتنشأ سنابك الخيل سحابا من غبارها تبرق

- (١) مفوّف هنا: جميل.  
(٢) الخريدة ٨٤/١.  
(٣) السنابك جمع سنيك: طرف الحافر. عثير: غبار.  
(٤) علقا: دما غليظا. ثرثار الحيا غزير الغيث.  
الطلي: الأعتاق.  
(٥) الواترين: القاتلين. لا يقاد وتيرهم: لا تؤدى دية قتيلهم.

سيوفهم وتطر أعناق الأعداء سيولا من دم متفجر أنهارا، وإنهم ليَتِرون أعداءهم ويفتكون بهم دون أن يُطلب منهم - لبأسهم - وتر أوثار، وطالما فتكوا بأقيال حمير وفرسان قيصر، وقد اشتهروا بأنهم المانعون حمهم فلا تستطيع قبيلة أن تقترب منه وترعاه، وإنهم ليحسمون كل شر ويقضون عليه قضاء مبرما. وسنخص معاصره أبا الحسن على بن الحسن بن الطوبى بكلمة. ويقول أبو على أحمد بن محمد بن القاف الكاتب<sup>(١)</sup>.

سأكرم نفسي جاهدا وأصونها      وإن قرحت من ناظري جفونها  
ولست بزورٍ لمن لا يزورني      ولا طارحا نفسي على من يهينها

فهو سيكرم نفسه إلى أقصى حد ويصونها عن أن تتعرض لإهانة مها كلفه ذلك من السهاد، ولن يزور من لا يزوره إكراما لنفسه أن تمسها إهانة بأى صورة من الصور. ويقول الفقيه المحدث أبو محمد عمار بن المنصور الكلبي وكان من أفاضل العلماء وسادات الأمراء<sup>(٢)</sup>:

تقول: لقد رأيت رجال نجدي      وما أبصرت مثلك من يمان  
ألفت وقائع الغمرات حتى      كأنك من رذاهها في أمان<sup>(٣)</sup>  
إلى كم ذا الهجوم على المنايا      وكم هذا التعرض للطعان  
فقلت لها: سمعت بكل شيء      ولم أسمع بكلمة جبان

وهي ترفعه فوق رجال نجد واليمن جميعا، فليس مثله بينهم شجاع، وتقول إنه ألف وقائع الحرب حتى كأنه من موتها في أمان، بل إنه ليهجم على الموت هجوما ضاريا متعرضا للطعان غير جزع ولا وجل، ورد عليها قائلا إنه سمع بكل شيء إلا أنه لم يسمع بكلمة يمانى جبان. ونقف عند ابن الطوبى قليلا.

أبو الحسن<sup>(٤)</sup> الطوبى

هو أبو الحسن على بن الحسن بن الطوبى الذى تقدم ذكره فى المديح والغزل، وفيه يقول العماد الأصبهاني نقلا عن ابن القطاع: «إمام البلغاء وزمام الشعراء مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين، ومعتمد سلاطين» يقول فى قصيدته التى مدح بها المعز بن باديس ومر ذكرها:

الردى: الهلاك.

(١) الخريدة ٨٧/١.

(٤) انظر فى أبى الحسن الطوبى الخريدة ٧٢/١.

(٢) الخريدة ١٠١/١.

(٣) الغمرات: الشدائد ويريد شدائد الحروب.

وإما المنى أو فالمنيّة إنها حياةٌ لبيب لم ينل من لُبّها  
وهل نعمةٌ إلا ببؤسى وإنما عذوبةٌ دنيا المرء عند عذابها

فإما تحقيق المنى والحصول عليها وإما الموت الزؤام، وهل نعمة إلا مصحوبة ببؤس وشقاء، وإنما عذوبة دنيا الإنسان في عذابها، وهو بذلك صاحب نفس كبيرة، ويصورها في الأبيات التالية:

أعددتُ للدهر إن أَرَدْتُ حِوَادِثَهُ عَزَمَا يَحُلُّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنَاعِقِدَا  
وصارمًا تتخَطَّى العَيْنَ هِزَّتَهُ كَأَنَّمَا ارْتَاعَ مِنْ حَدِيدِهِ فَارْتَعِدَا  
وذابلًا توضح العلياء ذبَالَتَهُ كَأَنَّهَا نَجْمٌ سَعِدَ لَاحٍ مَنفَرِدَا<sup>(١)</sup>  
وتشرةٌ ليس للريح المضى بها إِلَّا كَمَا عَرَضَتْ لِلنَّهْيِ فَاطْرَدَا<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه أعد للدهر حين تنزل به حوادثه عزمًا يحل كل شدائده، وسيفا قاطعا تتخطى هزته العيون، وكأنما أخذه وجل من حدّيه القاطعين فارتعد، ورحما يوضح العلياء حده القاطع وكأنه نجم سعد يكتب له دائما النصر والظفر، ودرعا تشبه طياتها موجات مياه الغدير حين تحركها الرياح ويقول.

سَلِ اللَّيْلِ عَنِّي هَلْ أَنَا مُ إِذَا سَجَى وَهَلْ مَلَّ جَنبِي مُضْجَعِي وَمَكَانِي  
عَلَى أُنْتَى جَلْدٌ إِذَا الضَّرُّ مَسَّنِي صَبُورٌ عَلَى مَا نَابَنِي وَعَرَانِي

وهو يقول لصاحبه: سل الليل عنى فإنى دائما يقظ، ودائما يجفو جنبى المضجع والمكان، وإننى لجلد أحتمل كل ضر يمسنى، صبور على كل ماينوبنى، أحتمل من ذلك ما يطاق وما لا يطاق، حتى يأتى الله بالفرج.

## ٥

## شعراء الوصف

الشاعر العربي - من قديم - يصف كل ما حوله من الإنسان وغير الإنسان من الحيوانات والنباتات والأزهار، وقد مر بنا فى المديح وصف قصور روجار: القبة والمنصورية والفوارة عند البشيرى والطرابنشى وما حف بالأولين من بركة وبها جميعا من رياض، ولأبى الحسن بن الطوبى فى وصف الثريا<sup>(٣)</sup>:

(٣) الخريدة ٨/٨٠.

(١) ذابلا: رحا. ذبالته: حده القاطع.

(٢) نثرة هنا: درعا. النهى: الغدير.

انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ كَيْفَ بَهَجَتْهُ  
وَلِلثَرِيَا عَلَيْهِ تَنَكُّتُهُ  
كَأَنَّهَا وَهَى فِيهِ طَالَعَةٌ  
قَمِيصٌ وَشَى وَتَلَكُ عُرْوَتُهُ

فالسماء بنجومها كأنها قميص وشى بديع والثريا عروته المضيئة الجميلة، وسنخص أخاه أبا عبد الله بن الطوبى بكلمة لإكثاره من الأوصاف والتشبيهات فى الطبيعة وغير الطبيعة. ويقول مشرف بن راشد<sup>(١)</sup>:

وروضةٍ بِالْحَزْنِ مَمْطُورَةٌ  
بكى عليها الغيث فاستضحكتُ  
لم تنتهبها أَعْيُنُ النَّاسِ  
عن نَرَجِسٍ غَضٌّ وعن آسٍ

وكان يكثر من استخدام الطباق كما فى البيت الثانى، وجعل الروضة تضحك أو تبتسم عن نرجس غض وعن آس، ويقول ابن متكود صاحب مازر فى عهد أمراء الطوائف واصفا النيلوفر<sup>(٢)</sup>:

كئوسٌ من يواقيتِ  
وتفتِّح عن دنائيرِ  
وفى جنباتها زَهْرٌ  
كألسنة العصافيرِ

والنيلوفر هو اللوتس عند المصريين القدماء والبشنيين عند أهل الريف المصرى، وحين تفتتح تتدلى من جنباتها أزهار - كما يقول ابن متكود - مثل ألسنة العصافير. ويقول ابن القطاع فى وصف رمانة<sup>(٣)</sup>:

كَأَنَّهَا حُقَّةٌ من عَسَجِدٍ ملئتُ  
من اليواقيتِ نثرًا غير منظومٍ

وهى صورة بديعة، ويفتح ابن القطاع صحفا غير قليلة لمديح المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات وذمهم، من ذلك ذم البلنوبى لمغن فى قوله<sup>(٤)</sup>:

ولنا مغنٌ لا يزا  
ل يَغِيظُنَا ما يَفْعَلُ  
غَنَى ثَقِيلاً أَوَّلًا  
وهو الثَّقِيلُ الأَوَّلُ

والثَّقِيلُ الأَوَّلُ نغمة موسيقية معروفة عند العرب، وهى مكررة مئات المرات فى كتاب الأغاني واستغلها البلنوبى فى هجاء هذا المغنى، والتورية واضحة ونراه يمدح راقصة من راقصات صقلية قائلاً<sup>(٥)</sup>:

(٤) الخريدة ١٣/١.

(٥) الخريدة ٦/١.

(١) الخريدة ٩٣/١.

(٢) الخريدة ١٠٣/١.

(٣) الخريدة ٥٣/١.

هَيْفَاءُ إِنْ رَقِصْتُ فِي مَجْلِسٍ رَقِصْتُ      قُلُوبٌ مِّنْ حَوْلِهَا مِنْ جَذْعِهَا طَرَبًا  
خَفِيفَةُ الْوَطءِ لَوْ جَالَتْ بِخَطُوتِهَا      فِي جَفْنِ ذِي رَمَدٍ لَمْ يَشْتَكِ الْوَصْبَا

فالقلوب ترقص مع رقصها، وهي خفيفة الوطاء للأرض في رقصاتها حتى لو جالت بخطوتها الخفيفة في جفن أرمد لم يحس بها فحسب، بل أيضا أزالته عنه ما يشكو من وصب الرمد - ويقول أبو بكر محمد بن علي الكموني في وصف راقص<sup>(١)</sup> :

مَا إِنْ رَأَيْتَ كِرَاقِصٍ      مُسْتَنْظَرٍ فِي كُلِّ فَنٍّ  
يُحْكِي الْغِنَاءَ بِرَقِصِهِ      كَمِرَاقِصٍ يُحْكِي الْمَغْنَى  
رَجُلَاهُ مَزْمَارٌ وَعَو      دٌ فِي نِهَائِهِ كُلُّ حُسْنٍ  
فَهُوَ السَّرُورُ لِكُلِّ عَيْدٍ      نِ وَالنَّعِيمُ لِكُلِّ أُذُنٍ

وتدل المقطوعة دلالة قاطعة على أن الغناء كان قد ارتقى في مصاحبة الرقص فنونا من الرقي، حتى ليقول ابن الكموني عن هذا الراقص أن رجله كانتا مزمارا له وعودا فهو يوقع على ضرباتها غناءه ويلحنه تلحينًا دقيقًا، فهو سرور برقصه لكل عين، وهو نعيم بغنائه لكل أذن. وتتوقف لتحدث عن أبي عبد الله بن الطوي وبراعته في الوصف.

### أبو عبد الله<sup>(٢)</sup> بن الطوي

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الطوي، كان صاحب ديوان الإنشاء في عهد ثقة الدولة وأبنائه - كما يقول العماد - ومن ذوى الفضائل البلغاء، طيبًا، مترسلا، شاعرا. ويقول القفطي: «مقيم بصقلية يتولى الإنشاء نحوى أربى في النحو على نفظويه وفي الطب على ابن ما سويه، وكلامه في نهاية الفصاحة وشعره في غاية الملاحه وله مقامات تزرى بمقامات البديع وإخوانيات كأنها زهر الربيع. كان بصقلية سنة خمسين وأربعمائة وأظنه عاش بعد ذلك مدة، وأورد ابن القطاع من نظمه كل مليح الحوك، صحيح السبك، فمن ذلك قوله في نرجس:

أُرِيدُ لِأَشْفِي سَقَمَ قَلْبِي بِنَرْجَسٍ      فَيَذْبُلُ إِنْ صَافَحْتَهُ بِتَنْفُسِي  
لَهُ مَقْلَةٌ كَالْتَبْرِ، وَالْجَفْنُ فَضَةٌ      وَقَدْ كَفُضَ الْبَانِ فِي ثَوْبِ سُنْدُسٍ

ويدل العماد على براعته في هذا الوصف للنرجس بأنه أتى فيه بأربع تشبيهات، كما يتضح في

الخريدة ٥٥/١ وإنباه الرواه للقفطي ١٠٧/٣  
والمكتبة الصقلية ٥٨٩.

(١) الخريدة ١٠٤/١.

(٢) انظر في ترجمة أبي عبدالله بن الطوي



البيت الثاني، وهي تشبيهات دقيقة. ويقول في نار فحم والشرار يتطاير من حولها:

ونار فحمٍ ذى منظرٍ عجبٍ      يطرد عنه الشرار باللهب  
كأنما النار مبردٌ جعلتُ      تبردُ منه بُرادةَ الذهبِ

فلهب النار يطرد الشرار من حولها، كأنما النار مبرد يبرد من الفحم برادة ذهبية، وقد راعى النظير في البيت الثاني، فالنار مبرد وهي تبرد من الفحم برادة الذهب، ويقول في مديح مغنٍ.

إذا غنى يُزيل الهمَّ عنا      ويأتينا بما نهواه منه  
له وترٌ يطالب كلَّ همٍّ      بوترٍ فالهموم تفرُّ عنه

فهو مغن حاذق يعرف ما تهواه النفوس ويعرضه على سامعيه، وكأنما لعوده وتر يطالب كل هم في نفوس الناس بوتره أو ثأره، فالهموم تفر عنه منطلقة إلى غير مأب. ويذم في مقابل هذا المغنى مغنين آخرين من برد غنائهم يجعلون الصيف شتاء ويحولون الأعراس ماتم، وفي أحدهم يقول، وهو أخف ما قال:

لنا مغنٌ غنأه      يعود شراً عليه  
لم يأت منزل قومٍ      فعاد قطُّ إليه

فبمجرد أن يسمعه أهل منزل يزورون عنه ولا يعودون إلى طلبه مرة أخرى. وكان يُغرب أحياناً في أوصافه مدحا وذما، وقد وجد الناس يمدحون البياض في المرأة ويذمون السواد، فرأى أن يعكس عليهم القضية قائلاً:

شبهات المشيب تعاف نفسى      وأشباه الشيبه هن حور  
سواد العين نور العين فيه      وما لبياضها في العين نور

فهو يرى بسواد عينيه لايباضها، ولذلك يعاف البياض رمز المشيب والشيخوخة، كما يعاف معه المرأة البيضاء، بينما يحب السواد رمز الشيبه ونضرة الحياة ويحب المرأة السوداء. وكانت لديه قدرة في حسن التعليل كقوله في فص أحمر:

حمرتى من دم قلبى      أين من يندبُ أيننا  
أنا من أحجار أرضٍ      قتلوا فيها الحسينا

وربما كان في ذلك مايدل على أنه كان متشيعا يعتنق المذهب الإسماعيلي الفاطمي. ومن حسن تأتبه في التصوير قوله في لحية كبيرة غطت وجه صاحبها:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بلحيةٍ  
عَرَضْتُ كَلْحِيَةَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ  
سَدَّتْ عَلَيْهِ وَجْهَهُ فَكَأَنَّمَا  
عَيْنَاهُ فِي ثُقْبَيْ كِسَاءٍ أَسْوَدٍ

فهي قد سترت وجه صاحبها حتى لم يعد يبدو منها إلا العينان، وكأنها ثقبان في كساء أسود. وكما كانت لحية جعفر بن محمد تؤذيه كذلك كانت لحية حمدون، وفيها يقول:

لِحْيَةُ حَمْدُونَ دَثَارٌ لَهُ  
تُكِنُّهُ مِنْ شَدَّةِ الْبَرْدِ  
كَأَنَّمَا - إِذْ غَابَ فِي وَسْطِهَا -  
قَطِيفَةٌ لَفَّتْ عَلَى قَرْدٍ

فلحية حمدون كأنها دثار أو ثوب تكنه من قسوة البرد، وكأنها إذ غاب في وسطها ولم يعد أحد يرى له أثرا قطيفة لفت لا على إنسان بل على قرد. ونختم تصاويره بتصويره لراقصة صقلية:

راقصةٌ كَالْغَصْنِ مِنْ فَوْقِهِ  
تَلْهَبُ مِثْلَ النَّارِ فِي رَقْصِهَا  
كَأَنَّمَا فِي رِجْلِهَا عَوْدُهَا  
سَاحِرَةٌ الرَّقْصِ غُلَامِيَّةٌ  
إِذَا بَدَتْ تَرْقِصُ مَا يَبِينُنَا  
بَدْرٌ مَنِيرٌ تَحْتَ ظُلْمَاءِ  
وَهِيَ مِنَ النَّعْمَةِ كَالْمَاءِ  
وَزَامِرٌ يَتَّبَعُ بِالنَّاءِ  
مِنْهَا دَوَائِي وَبِهَا دَائِي  
يَرْقِصُ قَلْبِي بَيْنَ أَحْشَائِي

وهي راقصة قوامها كغصن البان ووجهها كالبدر المنير، وكأنما تجمع النار والماء في رقصها، تجمعها بحركاتها وتثنياتها وكأنما توقع حركات أرجلها على عودها وزامر يتبعها بالنأي وإنها لساحرة في رقصها، وبإحدى يديها داؤه، وبالثانية دواؤه. وإن القلوب لترقص مع رقصها وإيقاعاتها المبدعة فيه.

## الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

### شعراء الرثاء

من موضوعات الشعر القديمة الرثاء، وهو يتخذ ثلاثة اتجاهات: اتجاه الندب والتوجع لفقد المصاب، وعادة يكون من الأهل وخاصة الأخ والولد، واتجاه التأبين وهو ذكر فضائل الموت وبيان خسارة القبيلة أو الأمة فيه، والعزاء وهو التعزى عن المصاب في الميت بأن الموت كأس دائر على الجميع لا يفلت منه أحد. ويقول الحسن بن إبراهيم الشامي الكتاني<sup>(١)</sup>:

فلا البؤس مدفوع بما أنت جازعٌ      ولا الخيرُ مجلوبٌ بعلمٍ ولا فَهْمٍ  
وإن الحريصَ العمرَ يُلقيه جِرْصُهُ      إلى حُفرةٍ جَوْفاءِ واهية الرَضْمِ<sup>(٢)</sup>  
تعلّمُ بأن الموت أزينُ للفتى      وأهونُ من عيشٍ يَشِينُ ومن وَصْمٍ

وهو يقول إن الحزن لا يدفعه الجزع والمرء لا يعرف ماكتبه القدر ولا أحد يستطيع أن يحمي نفسه من الموت، فالحريص كغير الحريص لا بد أن يُلقَى يوماً في حفرة واهية الرضم أو واهية الصخور والحجارة، وإن الموت لأزين للفتى من عيش نكد يعيشه ووصم يشينه - ويقول عمر بن الحسن بن الفوفى الكاتب فى مطلع مرثية<sup>(٣)</sup> له:

للموتِ ما يولدُ لا للحياةِ      وإنما المرءُ رهينُ الوفاه  
كأنما يَنشره عمره      حتى إذا الموت أتاه طَواه  
من تَرَمَ أيدي الدُّهرِ لا تُخطه      والدُّهرُ لا يخطيُّ من قد رماه  
نَفْسُ الفتى عاريةٌ عنده      ما بخلُهُ بالردِّ إلا سَفَاهِ<sup>(٤)</sup>

وهو يستهل مرثيته بالعزاء وأن الموت مكتوب على الإنسان منذ مولده، وكأنه يولد للموت

(١) الخريدة ١/٩٩.

(٢) الخريدة ١/١٠٣.

(٣) الرضم: انضمام الحجارة بعضها إلى بعض.

(٤) سفاه: سفاهة.

لا للحياة، ويظل منذ خطواته الأولى في دنياه رهين الوفاة، وما أشبهه بثوب ينشره عمره حتى إذا الموت أتاه طواه إلى الأبد، ومن ترمه أيدي الدهر تصبه ولا تحطئه أبداً، فإن الدهر لا يخطئ البتة فيمن قد رماه، وكأنما نفس الفتى عارية عنده ولا بد أن تسترد وما يخله بردها إلا حق، لأنها لا بد أن تعود إلى بارئها. ويظل الرثاء في عهد النورمان. وسنخص محمد بن عيسى بكلمة فيه، ويلقانا به عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن السوسى، ومالطة مسقط رأسه وبها تهذب وقرأ على أبيه الأدب، ثم سكن بلرم واتخذها داراً، ووجد بها قراراً، وله مرثية في بعض رؤساء المسلمين بصقلية تدل على ماحواه من فضائل، وهى مرثية طويلة، استهلها<sup>(١)</sup> بقوله:

رِكَابُ الْمَعَالِي بِالْأَسَى رَحْلَهُ حَطًّا      وَطَوْدُ الْعُلَى الْعَالِي تَهْدَمُ وَانْحَطًّا  
وَكَيْفَ لِنُورِ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ عَوْدَةً      وَهَذَا مَنَارُ الْمَجْدِ وَالْعِزِّ قَدْ قُطِّعًا<sup>(٢)</sup>  
أَصِيبَ فَمَا رَدَّ الرَّدَى عَنْهُ رَهْطُهُ      بَلَى أَوْدَعَ الْأَحْزَانَ إِذْ وَدَّعَ الرَّهْطًا<sup>(٣)</sup>  
فِيَارِزُهُ مَا أَنْكَى وَيَا حُزْنَ مَا أَبْكَى      وَيَا ذَهْرُ مَا أَعْدَى وَيَا مَوْتَ مَا أَسْطًا<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إن ركاب المعالي حط رحله بالحزن الطويل، وقد تهدم طود العلا السامى ولن يعود أبداً، وكيف يعود نور الشمس والبدر وهذا منار المجد والعز قد استوصل استئصالاً، أصابه الموت فما ردت عنه عشيرته ولا أهله، ودعهم وأودع في قلب كل منهم جرة حزن لا تنطفئ أبداً، فيارزه ما أشد نكايتك، ويحزن ما أشد ما تثير من البكاء، ويادهر ما أشد عدوانك، وياموت ما أشد سطوتك، وكأنما كان يبكى فيه رؤساء صقلية المسلمين بصقلية جميعاً. ونعجب إذ نجد أبا الضوء سراج بن أحمد بن رجاء يعزى روجار الثانى عن ابنه روجار بمرثية باكية، وفيها يقول<sup>(٥)</sup>:

خَبَا الْقَمَرُ الْأَسْنَى فَأَظْلَمَتِ الدُّنَا      وَمَادَ مِنَ الْعُلِيَاءِ وَالْمَجْدِ أَرْكَانُ<sup>(٦)</sup>  
تَخَطَّفَهُ رَيْبُ الْمَنُونِ مَخَاتِلًا      عَلَى غِرَّةٍ إِنْ الْمَنُونِ لِحَوَانُ<sup>(٧)</sup>  
فِيَالِكَ مِنْ رُزْءٍ عَظِيمٍ وَحَادِثٍ      يَعْزُّ لَهُ صَبْرٌ وَيَعْوِزُ سُلْوَانُ

وقد ذهب يقيم الدنيا ويقعدها لموت ابن روجار الثانى وأنه حرى أن تهمل له العيون وتحترق الأكباد وتعظم الأشجان وأن تبكى عليه خيماته وقصوره وسيوفه ورماحه وأن تعاف

- (١) الخريدة ٤٦/١.  
(٢) قُطُّ هُنَا: انطفاً.  
(٣) الردى: الهلاك. الرهط: الجماعة والعشيرة.  
(٤) ما أسطا: ما أشد بطشك.  
(٥) الخريدة ٢٧٧/١.  
(٦) خبا: خفت. الأسنى: على الضوء، الدنى:  
جمع دنيا. ماد: مال.  
(٧) مخاتلا: مخادعا.

خيله للجم والأرسان، وما نوح الحمام إلا له، وما كان أفظع يومه، لكأنه كان يوم الحشر. كل ذلك ولا يرجع أبو الضوء إلى نفسه ويستنكف من تقديم هذا العزاء لملك نصراني. ونتوقف قليلا لتحدث عن محمد بن عيسى ومراثيه.

### محمد<sup>(١)</sup> بن عيسى

هو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم يقول القفطي عنه: «من أهل صقلية من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ماهر فيها قيمٌ بهما مذكور بين الحكماء هناك بأحكامهما»، ويقول العماد نقلا عن ابن بشر: «كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس، منجم، لغارب (لكاهل) الفصاحة متسنم، في ملتقى أولى العلم كمي (شجاع) مُعلم (معروف). ويقول إن ابن بشر ورد من شعره ما يهز أعطاف القلوب مراحا (مرحا) ويدير على الأسماع من الرحيق المختمو راحا. ويعجب العماد بمراثيه وينقل قطعة طويلة من إحداها، وفيها يقول:

عزَّ العزَاءُ وَجَلَّ البَيْنُ والجَزَعُ	وحلَّ بالنفسِ منه فوقَ ما تَسَعُ
مَنْ لليتامى وأبناء السبيل وهم	قد ارتووا من أياديه وقد شبعوا
بكنه شمس ضحاه واختفت جزعا	والفيت تحت سترٍ للغميم تطلُّعُ
سعوا مشاة وهم في الزرى أغربة	مسودة من وراء النعش تتبع
ولم يكن لهم بالعيد من فرح	ولا لهم في التسلى بعده طمع

فالعزاء في موت هذا الشخص صعب إذ عظم فيه الجزع وحلَّ بالنفس حزن لا تطيقه. ويكي فيه الشاعر مواساته لليتامى وأبناء السبيل والبؤساء الذين طالما أسبغ عليهم من أفضاله، ويقول إن الشمس توارت باكية وراء سحاب لتطلع على جنازته الضخمة، وقد سعت الجموع وراء نعشه تلبس السواد بعد أن كانت تلبس البياض وكأنما كانت حائم وانقلبت غربانا، وجاء العيد سريعا فلم يفرحوا فيه ولا فزعوا إلى شيء يتسلون به، إذ غمرهم لموته حزن شديد. ويقول إن أعماله الطيبة ستفسح له في الفردوس الأعلى:

جاءت ملائكة الرضوان معلمةً      بأنه لجنان الخلد مرتفع

والخريدة ٣٤/١ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة محمد بن عيسى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (طبع ليبزج) ص ٢٨٩

فيها لأنفس أهل الفضل مرتب<sup>(١)</sup>  
وغصّة في لهاه ليس تبتلع<sup>(٢)</sup>  
أكبأدنا في لظى أنفاسها قطع

وقد أعدت له أعماله غرّفًا  
يا فجعة لم تدع في العيش من أرب  
أضرمت نارا على الأحشاء موصدة

فملائكة الرضوان نزلت لتستقبله وتأخذه إلى الرفيق الأعلى وجنان الخلد، إذ أعدت له أعماله الخيرة بها غرفا في عليين. ويعود على بن عيسى إلى التفجع على الميت قائلا إن الفجعة فيه لم تدع في الحياة من أمل فقد ماتت معه كل الآمال، وأودع موته غصصا لا يطيق أحد ابتلاعها، وقد أضرم في الأحشاء نارا متقدة تتقطع في لظاها الأكبأد حسرة عليه. ويختار العماد من مرثية ثانية لمحمد بن عيسى مقاطع، وفيها يقول:

وركنُ المعالي والجلال قد انفضّا  
شكائمه إذ منه أهدمت الرّكضاً<sup>(٣)</sup>  
وأجفانها تنشق عنها لكي تنضى<sup>(٤)</sup>  
مشاهد لم تُخط القيامة والعرضاً  
ومبرم أمر فيه حوله نقضا

شهابُ المنايا من سماء الردى انفضّا  
بكته المذاكي المقرّبات وقطعت  
وكادت سيوفُ الهند تندقُ حَسرةً  
شهدنا على قربٍ بمشهد موته  
أعادَ سرورَ العيدِ حُزنا مماته

فشهاب الموت قد انقض على هذا الميت من سماء الهلاك، وانهدم بذلك ركن المعالي والجلال، وإن الخيل الكريمة أو المكرمة لتبكي فروسيته، وقد قطعت الشكائم، إذ لم يعد يركض عليها لقتال أعدائه، وإن سيوف الهند لتندق حسرة عليه، وإن أعمادها لتتنشق عنها لكي ينتضيها فارسها المغوار. ويصف الشاعر جنازته ويقول كأنها كانت يوم الحشر ازدحاما وهولا، وأعقب موته العيد فلم يعرف الناس فيه سرورا ولا استطاعوا أن يبرموا أمرا من أمورهم، إذ انتابهم حزن عميق. ويصور الشاعر مدى الحسارة فيه قائلا:

لنا فَعِدْمنا كل عيشٍ به يُرضى  
غدا الكلُّ منا طرفه اليوم قد غصّا<sup>(٥)</sup>  
فأضحى على أقدائه اليوم قد أغضى<sup>(٦)</sup>

لقد مات فيه عُدّة أي عُدّة  
وأبصارنا كانت تسامى له وقد  
وقد كان طرفي ليس يُغضى على القدى

فقد ماتت في هذا الفقيده عُدّة ضخمة للمسلمين في صقلية النورمانية، إذ عدم الشاعر وغيره

(٤) أجفانها: أعمادها. تنضى: تسَلّ

(٥) غصّ الطرف: خفضه

(٦) أغضى يغضى: أغمض

(١) مرتب: مقام طيب.

(٢) لهاة كل ذى حلق: الجزء المشرف عليه في

أقصى سقف الفم.

(٣) المذاكي: الخيل. المقرّبات: المعدة للركوب

من المسلمين هناك كل عيش كانوا يقنعون به وبعد أن كانت أبصارهم تتطَّلَع إلى الفقيد معلِّقة به أمانيتها أخذت اليوم تفرض منها خشوعاً، وكان طرف الشاعر لا يغضى على القذى فأصبح اليوم يغضى على أقذاء كثيرة.

## ٢

## شعراء الزهد والوعظ

زاهد الأمة الأول وواعظها الرسول ﷺ وتلته طبقات من الزهاد والوعاظ كانت تقرن وعظها وزهدا بالعبادة والنسك، ونجدهم في جميع البيئات الإسلامية، وفي كل زمن. وتوج بمواعظهم وكلماتهم الزاهدة الكتب من مثل البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحصري، وتجري على ألسنة الشعراء في صقلية الإسلامية أبيات تتصل بالوعظ والزهد، من ذلك قول أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الغنى المقرئ الواعظ<sup>(١)</sup>:

أيا من نال في الدنيا مناهُ      تأهبٌ للفراق وللرحيل  
ولا تفرح بشيءٍ قد تناهى      فما بعد الطلوع سوى النزول

وهو ينصح من نال في الدنيا كل أماله أن يتأهب لفراقها بالصلاة والنسك، ويقول له لا تفرح بشيء بلغ نهايته، فلم يعد أمامك بعد المنزلة التي سعدت إليها إلا النزول إلى قبرك الموحش. ويقول جعفر<sup>(٢)</sup> ابن الطيب الكلبي:

ومغتبطٌ بعيشٍ غير باقٍ      يروم سلامةً تحت الهلاكِ  
ألا يا حارٍ قد حارتُ عقولُ      وعلتُ بالقليل عن الحراكِ  
وقد نصبتُ لك الدنيا شباكا      فإياك الدنوُّ من الشباكِ

وهو يعجب لمن يفرح بعيش لا يدوم وكأنه يروم سلامة تحت هلاك محقق، ويعجب لأناس غرهم ما حصلوا عليه من قليل في الدنيا فسكنوا إليه ولم يتحركوا لقضاء ما عليهم من الحقوق لربهم، وينصحهم أن لا يقتربوا من شباك اللذات والشهوات التي نصبتها لهم الدنيا، حتى لا يقعوا فيها عن غير بصيرة. ويقول أبو عبدالله محمد بن قاسم بن زيد اللخمي الكاتب القاضى مناجيا ربه<sup>(٤)</sup>:

(٣) حار: مرخم حارث

(٤) الخريدة ١١٨/١

(١) الخريدة ١١٠/١

(٢) الخريدة ١١٤/١

يأرب صفحا وغفرانا ومعدرةً  
مذنب كثر منه المعاذير  
رجاؤه فهو محزون ومسرور

وهو يطلب من الله الصفح والعفو والغفران لما ارتكب من الذنوب، ويفكر في أمره فيراه يبكي لكثرة ذنوبه ويضحك لرجائه لربه، وكأنه يجمع بين نقيضين، فهو دائما محزون لمعاصيه ومسرور لما يأمل عند الله من العفو والمغفرة، ولأبي حفص عمر بن حسن بن الطبريق، وكان من أهل الدين والورع والعفاف<sup>(١)</sup>:

سيلقى العبد ما كسبت يده  
ويقرأ في الصحيفة ما جناه  
ويُسأل عن ذنوب سالفات  
فيبقى حائرا فيما دهاه  
فيأذا الجهل مالك والتمادى  
ونار الله تحرق من عصاه  
فعول في الأمور على كريم  
توحد في الجلالة في علاه  
وأمل عفوّه وافزع إليه  
وليس يخيب مخلوق رجاه

وهو يقول إن كل إنسان سيحاسب يوم القيامة وتعرض عليه صحيفة حاملة إليه ما كسبت يده في دنياه، ويسأل عما ارتكب من ذنوب وآثام فيرتج عليه، ويختار فيما اقترفه، وواجب أن لا يتمادى الإنسان في غيه ويذكر الجحيم المعدة للعاصين، ولا ييأس من رحمة ربه الكريم قابل الذنب والتوب الذى يعفو عن عباده الآثمين، ولا يخيب مخلوق رجاه. ويقول أبو عبدالله بن الطوبى<sup>(٢)</sup>:

يحبُّ بنو آدمٍ ربهم  
ولكنهم بعدُ يعصونه  
وإبليسُ قد شربوا بغيضه  
وهم بعد ذاك يُطيعونه  
فهذا التنافي فما بهم  
يرون الضلال ويأتونه

وهو يعجب لمن حوله، فهم يعلنون حبهم لربهم ويعصونه، كما يعلنون بغضهم لإبليس ويطيعونه، وإنه لتناقض ما بعده تناقض، فما بهم يرون الضلال وانحرافه بهم عن الطريق المستقيم ويأتونه. ويقول في مقطوعة ثانية<sup>(٣)</sup>:

لو قلت لى أى شىء  
تَهوى؟ لقلت خلاصى  
فلات حين مناص<sup>(٤)</sup>  
الناس طرأ أفاع

(٣) الخريدة ٧٢/١

(٤) مناص: ملجأ

(١) الخريدة ١٠٦/١

(٢) الخريدة ٦٤/١



نَسُوا الشَّرِيعَةَ حَتَّى تَغَامَزُوا بِالْمَعَاصِي  
يَا وَيْحَهُمْ لَوْ أَعَدُّوا لَهَوْلَ يَوْمِ الْقِصَاصِ

وهو يقول إن المجتمع فسد، والناس فيه جميعا أفاع ويتمنى منهم الخلاص، إذ نسوا الشريعة وأوامر الدين وإنهم ليتغامزون على ارتكاب المعاصي في غير خوف من الله ولا من يوم القيامة يوم يؤخذ العاصون بالنواصي والأقدام ويقول: يا ويحهم لقد كان حريا بهم أن يُعَدُّوا ليوم القصاص، يوم يُسأل كل شخص عما قدمت يداه. ويبدو أن ظاهرا من التصوف كان قد دخل صقلية الإسلامية في زمنه، فأناس يلبسون مرَقَعَاتِ الصوف، وأناس يغنون على صفوف الذكر، وآخرون يصيحون ويرقصون، فقال<sup>(١)</sup>:

ليس التصوف لبس الصوف ترقرقه  
ولا صياح ولا رقص ولا طرب  
بل التصوف أن تصفو بلا كدر  
وأن تُرَى خائفا لله ذا ندم  
ولا بكاؤك إن غنى المغنونا  
ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا  
وتتبع الحق والقرآن والديننا  
على ذنوبك طول الدهر محزوننا

فالتصوف ليس لبس مرَقَعَاتِ الصوف والبكاء حين سماع المغنين والرقص والطرب وأن يقع المتصوف مغشيا عليه أو كالمغشى كأنه صار مجنونا، بل التصوف الصفاء الديني واتباع الكتاب والسنة والخوف من الله والندم على الذنوب. ومن الوعاظ قبل العهد النورماني عمر بن خلف بن مكى، وسنفرده بكلمة، ويقول ابن القطاع<sup>(٢)</sup>:

تنبه أيها الرجل النؤوم  
وقد أبدى ضياء الصبح عما  
فلا تفرورك يا مغرور دُنِيَا  
ولا تخبط بمعوج غموض  
فقد نجمت بعارضك النجوم  
أجن ظلامه الليل البهيم<sup>(٣)</sup>  
غرور لا يدوم بها نعيم<sup>(٤)</sup>  
فقد وضع الطريق المستقيم

وهو يقول تنبه أيها الرجل الذى اعتاد النوم عن أداء فروض دينه وعبادة ربه، فقد ظهرت نجوم الشيب بعارضيك. وأبدى ضياء الرشاد عما أجن ليل الشباب البهيم من ظلام الغى، فلا تغتر يا مغرور بدنيا خادعة لا يدوم بها نعيم ولا تخبط - كالأعمى - في طريق معوج غامض، فقد وضع أمام عينيك الطريق المستقيم. ونلم بعمر بن خلف بن مكى وماله من مواعظ.

(٣) البهيم: المعتم

(٤) غرور: خادعة

(١) الخريدة ٧٢/١

(٢) الخريدة ٥٥/١

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكي، منشؤه ومرباه وشيوخه في صقلية وفي مقدمتهم ابن البر اللغوي، وعليه تخرج ويذكر في مقدمة كتابه اللغوي النفيس: «تثقيف اللسان» أنه عرضه عليه فما أقره أبقاه وما أنكره أخلا الكتاب منه، وأدى به فقهه وعلمه إلى تولى منصب القضاء في بلده، وقد خرج منها إلى تونس قبيل استيلاء النورمان عليها، واستوطنها وولى قضاءها وخطابة جامعها، وينقل العماد عن ابن القطاع تقديمه له بقوله: «انتقل إلى تونس، وولى قضاءها، وهو فقيه محدث، خطيب، لغوي، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مروى، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة، تُعجب رواته، ومن قوله:

يا حريصاً قطع الأيام في      بؤس عيشٍ وعناءٍ وتعَبٍ  
ليس يَعدوك من الرزق الذي      قَسَمَ اللهُ فأَجْمَلُ في الطَّلَبِ

وهو يدعو إلى القناعة والزهد والرضا بما قسمه الله للإنسان، فإن أحداً لن يصيبه ضياع، بل الكل سيكفل له رزقه، ولا داعي للعناء الشديد في طلبه ولا للحرص أكثر مما ينبغي، فما قَدَّر لك سيأتيك. ويقول مذكراً بالموت داعياً إلى التقوى والعمل الصالح:

عجبا للموت يُنسى      وهو ما لأبدٍ مِنْهُ  
كيف تنساه وقدجا      ءتكَ رُسلٌ من لَدُنْهُ  
سوف تلقى الوَيْلَ إن جئ      تَ بعذرٍ لم تُبِنْهُ  
وترى جسمك في النا      ر غدا إن لم تَصُنْهُ  
والذي ينجو من النا      ر أخو التقوى فَكُنْهُ

وهو يعجب لمن ينسى الموت وهو مكتوب على الإنسان، وقد جاءته رسل من لدن الله تهديه إلى الرشاد، ويقول إن من لا يستطيع أن يقدم عذرا عن سيئاته سيلقى الويل والعذاب الشديد، أو من لا يصون جسمه بالعمل الصالح ستكون النار مصيره، إذ لا ينجو منها إلا أخو التقوى والعمل الصالح، وحرى بك أن تسلك مسالك التقوى والهدى، فإن في ذلك الفوز الكبير. ويدعو إلى العزلة عن الناس والاكتفاء بأقل ما يمكن من العيش وبمصاحبة الكتب، ولا تعلق رجاءك بأحد، يقول:

(١) انظر في ابن مكي الخريدة ١٠٦/١ وإنباه الرواة للقفطي ٣٢٩/٢ والمكتبة الصقلية ٥٩٧، الدكتور رمضان عبد التواب

اجعلُ صديقَكَ نَفْسَكَ      وجوفَ بيتِكَ جِلْسَكَ<sup>(١)</sup>  
 واقنَعْ بِخُبْزٍ وَمِلْحٍ      واجعلُ كتابَكَ أَنْسَكَ  
 واقطعْ رجاءَكَ إلا      من يصرفُ نَفْسَكَ  
 تَعِشْ سَلِيمًا كَرِيمًا      حتى توافيَ رَمْسَكَ<sup>(٢)</sup>

وهو ينصح الإنسان أن لا يتخذ صديقا له إلا نفسه، فليس من صديق حقيقي تستطيع الاستعانة به حين يلم بك خطب من الخطوب، بل إنه ليدعوه إلى اعتزال الناس جميعا ولزوم بيته، حتى لا يصيبه أذاهم، وينصحه بالزهد في متاع الحياة والرضا بأقل القليل: بخبز وملح فهما حسبه، وهما يكفيايه أن يريق ماء وجهه في طلب ما فوقها من طيبات الدنيا. ويقول له: اكتف بالكتاب، واتخذ صديقك وأنيسك فإنه سيضيف إليك معرفة، ولن يؤذيك أى أذى ولن يضرك أى ضرر، وينصحه أن يقطع رجاءه من الناس، فليس بينهم من يحقق له رجاء إلا إذا ألجأته الضرورة لمن يصرف أمره، ويقول له إذا اتبعت هذه النصيحة من الزهد في متع الحياة وعشت متقشفا ترضى بكسرة أو قطعة من الخبز واكتفيت بإدامها من الملح، ولم تتخذ لك صديقا سوى الكتاب، ولا أملت من أحد شيئا عشت أسعد السعداء حتى وفاتك. ويقول:

مَنْ كان منفردا في ذا الزمان فقد      نجا من الذلِّ والأحزان والقلِّقِ  
 تزويجنا كركوب البحر ثم إذا      صرنا إلى ولدٍ صرنا إلى العَرَقِ  
 وهو يمتدح العزلة والانفراد عن الناس حتى عن تكوين الأسرة، ويتمثل الزواج كركوب البحر ومخاطره من العواصف، ويتصور الأولاد ومطالبهم ومتاعبهم في الحياة عواصف مائتة تتناول راكب البحر وسفينته، حتى يغرق.

### ٣

#### شعراء التفجع والحنين واللوعة

استحالت صقلية في العهد الإسلامي إلى جنة فيحاء من جنات المسلمين بمدنها وحصونها التي تُعد بالعشرات، بل بالمئات، وبحقولها وزروعها من كل صنف، وبحدائقها وثمارها من كل لون، وبأزهارها الأرجة التي تعطر جميع الأنحاء فيها والأرجاء. وبينها كانت تعيش في أمن ورفاهية إذا أمراء الطوائف يقيمون لهم فيها عروشا وإمارات ويدب بينهم الشقاق وتتكاثر الفتن. ويشهر الإخوة المسلمون السلاح بعضهم على بعض، ويتسلل ابن الثمثة حاكم بلرم الخائن إلى روجار وروبرت ابني طنكراد (Tancrede) أميرى قَلُورِيَّة وأنكبُرْدَة في جنوبي إيطاليا مستنجدا بها ضد

(٢) رمسك: قبرك

(١) حلسك: مكان إقامتك لا تبرحه

حاكم مدينة قصر يانة وينجده روجار، ويستولى على مسيني ثم على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وكان ذلك إنذاراً باحتلال الجزيرة وضياعها، فلم يمر عشرون عاما حتى أخذت مدنها فيها تتساقط في حجر روجار، وأصبح المسلمون يقلبون أكفهم على ما أنفقوا فيها وأنشئوا بها من حضارة وقصور وزروع وحدائق ذات بهجة، وأخذ كثير من علمائها وشعرائها يودعونها، منهم من يتماسك مثل أبي العرب<sup>(١)</sup> الصقلي الذي رحل عنها إلى الأندلس منشدا:

أهمُّ ولي عَزْمَانِ عَزْمٌ مَشْرُقٌ      وَأَخْرَ يُعْرِي هَمَّتِي بِالْمَغَارِبِ  
ويا وطني إن بِنْتَ عَنِّي فإِنِّي      سَأَوْطُنُ أَكْوَارِ الْعِتَاقِ النَّجَائِبِ<sup>(٢)</sup>  
إذا كان أصلي من ترابٍ فكلُّها      بلادِي وكلُّ العالمين أقاربي

وكان لا يدري حين فراقه للجزيرة هل يتجه شرقا أو يتجه غربا إلى الأندلس، واختار الاتجاه إلى الغرب. ويتخيل كأن الوطن هو الذي بان عنه بكثرة ما فيه من الفتن والحروب مما اضطره إلى مفارقتها وتوطنه في رحال الإبل النجبية باحثا عن وطن جديد، ويخفف الأمر على نفسه، فإذا كان أصله من تراب وكل البلاد تحمل التراب فهي جميعا بلاده، وكل من فيها من العالمين من أقاربه وذوي رحمه، وإذا كان أبو العرب متماسكا هذا التماسك في اضطرابه إلى النزوح عن وطنه فقد كان هناك من لا يزال يحن إليه مثل عمر بن رحيق الذي نشأ وترى في بلرم، حتى إذا استولى عليها روجار والنورمان رحل عنها، ولا تزال ماثلة نصب عينيه، ولا يزال يحن لها ولأهله، ولا يزال حباها يضطرم في حنايا فؤاده وهتف<sup>(٣)</sup>.

نفسى تحنَّ إلى أهلى وأوطانى      وهل رأيتم محبًّا غير حنانِ  
كانوا بقلبي أحياءً وفي كَبِدِي      نارٌ تَأْجَجُ من شجوى وأحزاني  
عزَّ اصطباري لرُزءٍ قد دُهَيْتُ به      وبانَ عني لَوْشِكِ الْبَيْنِ سُلُوَانِي

فهو يحن إلى أهله ووطنه حنين ملتان فقد هما، وكانوا ماثلين تحت بصره وفي قلبه، فغابوا عنه وتأججت نار بكبده من شجوه وأحزانه التي يكتوى بها فؤاده، ويقول إنه رزء ومحنة دهته، وعز عليه أن يتحملها وكيف يتحملها؟ لقد نفذ صبره، وفارقه سلوانه، ولم يبق له إلا الحزن الممض والشجى الموجه، وأكبر شاعر توجع وتفجع على فقدان صقلية ابن حمديس، وهو جدير بأن نفرده بترجمة.

(٣) الخريدة ٢/٢٨٩

(١) الخريدة ٢/٢٢٢

(٢) بنت: بعدت. أكوار جمع كور: الرُّحْل

ابن (١) حمديس

هو عبد الجبار بن حمديس، ولد بمدينة سرقوسة الواقعة شرقي صقلية سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٦ م لأسرة على شيء من الثراء والعلم والفضل، واختلف مثل لداته إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم، وتحوّل منه إلى حلقات الشيوخ، ونزعت به ميوله إلى الأدب والشعر، ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، وتكونت له رفقة كانت تأخذ بنصيب غير قليل من اللهو والذهاب إلى الحانات والأديرة لشرب الخمر والمتاع بالفناء. وكانت بلرم قد سقطت في يد روجار والنورمان، وبدا في الأفق أنهم يتأهبون للاستيلاء على سرقوسة وغيرها من بلاد الجزيرة، وأخذ يعدّ نفسه - مثل أقرانه - للقائهم برا وبحرا، ونفاجأ به في نحو الرابعة والعشرين من عمره يُصِرُّ على أن يغادر بلده إلى الأندلس مارا بإفريقية وتيمم بين المعز مرورا سريعا وربما كان السبب الحقيقي في مغادرته بلده لا فرارا من معركة صقلية وسرقوسة مسقط رأسه ضد النورمان، ولكن طلبا للشهرة في عالم شعري مزدهر، يأمل أن يتحقق له فيه ما يتمناه لنفسه من مكانة أدبية مرموقة بين شعراء الأندلس الذين كانت أسماؤهم تدوّى في العالم العربي، ولعله من أجل ذلك اختار النزول بأهم بيئة شعرية في الأندلس، إذ كان بها أكبر راع للشعر بين أمراء الطوائف، ونقصد المعتمد بن عباد. وحط رحاله في بلدته إشبيلية سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م ولزم باب قصره فترة، وبعث إليه ببطاقة شعرية يقول فيها:

أيا مُولِي الصُّنْعِ الجميل إذا أنتشَى      ويا مُسَدِي النِّيلِ الجزيل إذا صَحَا  
وفي كل أرضٍ من نَدَاهُ حديقةٌ      تَضَوُّعَ مسكا نَوْرُها وتفتَحَا<sup>(٢)</sup>  
أُفْرَدُ بالحِرمَانِ من كل عاطلٍ      تَطوَّقُ من نُعماك ثم توشَّحَا<sup>(٣)</sup>

وما إن قرأ المعتمد البطاقة حتى أعجب به واستدعاه محتفلا باستقباله ومنحه جائزة سنوية، وطلب إليه أن يظل في حضرته، وظل بها يمدحه بقصائد طوال في مناسبات مختلفة، وكانت إشبيلية في عهد المعتمد تعيش عيشة لاهية فشارك في هذه المعيشة وتمتع بمناظرها الطبيعية البديعة، وأتاه نعي أبيه فحزن لوفاته وراثه بقصيدة باكية استهلها بقوله:

(١) انظر في ابن حمديس، الخريدة ١٩٤/٢ والذخيرة ٣٢٠/٤ وابن خلكان ٢١٢/٣ والجزء الأول من عنوان الأريب لمحمد النيفر (طبع تونس) بتحقيقه وتقديمه له ودراسة الدكتور إحسان عباس في كتابه العرب في صقلية ص ٢٣٥ وديوانه

بتحقيقه وتقديمه له.

(٢) تَضَوُّعَ: ذكّت راتحتہ

(٣) تَطوَّقُ من الطوق وتوشح من الوشاح كناية

عن إسباغ نعمه عليه

أتانى بدار النوى نعيه فيا روعة السمع بالداهيه

وكان يسمع أخبار مسقط رأسه سرقوسة ومقاومتها العنيفة للنورمان بقيادة بطلها ابن عباد فيهتز طربا ويكبر عنده الأمل في ضرب النورمان الضربة القاضية، وبالمثل كانت تأتيه أخبار ابن حمودة في قصر يانة ومنازلته للنورمان منازل ضارية، فيعظم عنده الأمل في طرد النورمان من صقلية، ويرسل إلى قومه يحضهم على جهاد العدو الغاشم ويحثهم على منازلة العدو منازلة حاسمة، فلها عليهم جميعا حقوق، وواجب أن ينصروها ولا يخذلوا حتى الذمء الأخير:

ولله أرض إن عَدِمْتُمْ هَوَاءَهَا  
وعزُّكُمْ يُفْضِي إِلَى الذَّلِّ والنَّوَى  
أَعَنْ أَرْضِكُمْ يُغْنِيكُمْ أَرْضٌ غَيْرِكُمْ  
تَقِيْدُ مِنَ القَطْرِ العَزِيْزِ بِمَوْطِنِ  
فأهواؤُكُمْ فِي الأَرْضِ مَنثورَةٌ النَظْمِ  
من البَيْنِ ترمى الشَّمْلُ مِنْكُمْ بما ترمى  
وكم خَالَةٌ جَدَاءٌ لم تُغْنِ عَنْ أُمَّ (٣)  
وَمُتْ عِنْدَ رِبْعٍ من رِبوعِكَ أَوْ رَسْمِ  
فلن يَسْتَجِيْزَ العَقْلُ تَجْرِبَةَ السَّمِّ  
وإياك يوما أن تَجْرِبَ غُرْبَةً

وهو ينصح الباقيين بعده في سرقوسة وغير سرقوسة أن لا يفكروا في مبارحتها حتى لا يعدموا هواءها الذي يتنفسونه ويحيون به ولا عزهم الذي يعيشون فيه وإلا تحولت حياتهم إلى ذل وهوان، وهل تعنى أرض عن أرض الوطن، وهيب بكل صقلى مسلم أن يقيد نفسه بموطنه، وأن يظل يدافع عنه حتى يموت عند ربع من ربوعه أو عند رسم من رسومه، ويحذره من الهجرة عنه والإفشاء إلى غربة، هي سم قاتل. ويعتذر لنفسه مرارا عن مبارحته الوطن في وقت محنته وأنه لا يستطيع العودة إليه، لما يُعَدَّقُ عليه المعتمد بن عباد من أفضل متصلة. وفي رأينا أن العائق الأهم عن عودته لوطنه إنما كان المجد الأدبي الذي أخذ شعره يحققه له في الأندلس، وبذلك تحققت أمنيته الكبرى من مبارحة الوطن. وكأنما قيده هذا المجد بإشيبيلية فلا يستطيع منها خلاصا وحراكا. وتسقط في أيدي النورمان سرقوسة مسقط رأسه سنة ٤٨٢ وتسقط بعدها قصر يانة سنة ٤٨٤ ويتلاشى من نفسه ونفس كل صقلى الأمل في استرداد صقلية، وينظم قصيدة جنازية يودعها بها قائلا:

أَعَادِلُ دَعْنِي أَطْلِقِ العَبْرَةَ التِي  
لَقَدَّرْتُ أَرْضِي أَنْ تَعوَدَ لِقَوْمِهَا  
وكيف وقد سِيَمَتْ هَوَانًا وَصِيَّرْتُ  
إِذَا شَاءَتِ الرَهْبَانُ بِالضَّرْبِ أَنْطَقْتُ  
عَدِمَتْ لَهَا مِنْ أَجْمَلِ الصَّبْرِ حَابِسًا  
فَسَاءَتْ ظَنُونِي ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَائِسًا  
مَسَاجِدَهَا أَيْدِي النَّصَارَى كَنَائِسًا  
مَعَ الصَّبْحِ وَالْإِمْسَاءِ فِيهَا النَّوَاقِسَا

أرى بلدى قد سامه الروم ذلّةً وكان بقومى عزّه متعاعسا<sup>(١)</sup>  
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذلك الخوف منهن لابساً

وهو يقول لصاحبه دعنى أذرف الدموع التى لم يعد لها حابس من الصبر، إذ ظل سنين طويلة يظن أن صقلية ستعود إلى أهلها، فخاب ظنه، بل لقد أصبح يائساً يأساً مرا، فقد صهلت خيل النورمان فى كل أنحاءها، وسيمت هواناً ما بعده هوان، وأى هوان أعظم على نفس المسلم من أن يرى بلده تسقط فى حجر النصارى ويحولوا مساجدها كنائس، ويضرب الرهبان فيها النواقيس صباح مساء، لقد سام الروم صقلية الإسلامية ذلةً ماثلاًها ذلة، صقلية التى كانت تعتر بمسلميها عزة لا تدانيها عزة. وكان النورمان فى جنوبي إيطاليا إذا سمعوا اسمها ارتعدت فرائصهم خوفاً ورعباً، فإذا الأمر ينعكس ويصبحون هم مصدر الخوف لأهل صقلية الإسلامية.

ويفيض ابن حمدى فى الحديث عن بأس أهل صقلية المهيضة وجهادهم اليائس حين كانوا يسوقون أمامهم فرائس قلووريةً وبطارقتها وأشاوسها أسارى منكسين ومعهم نساؤهم حواسر. وليتأن الجيش النورمانى فى خطوه، فإنه يمشى فى بلاد تحت أرضها شجعانها الذين طالما أذلوا أهل قلووريه، ولو شقت القبور عنهم لخرج إليهم منها أسد كاسرة غاضبة، غير أن الغيل غابت ليوثه فتبخرت فى أرجائه الذئاب.

ويحدث عقب ذلك أن يخلع يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد سنة ٤٨٥ من إمارته فى إشبيلية وينفيه إلى أعماق فى مراكش ونرى ابن حمدى يزوره بها ويحاول أن يخفف عنه ماداه، منشداً رداً على شعر كتب به إليه مستيئساً:

أتيأس فى يوم يناقض أمسه وزهر الدرارى فى البروج تدور<sup>(٢)</sup>  
ولما رحلت بالندى فى أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير  
رفعت لسانى بالقيامة قد دنت فهذى الجبال الراسيات تسير

ورضوى جبل بالمدينة، وثبير: جبل بمكة، وهو يقول له ينبغى أن لاتيأس من أن يتغير الحال، فالكواكب الساطعة لا تثبت بل تدور فى بروج متعددة، ولما رحلت بالجو الفياض فى أكفكم وكأنما تحرك جبلا المدينة ومكة المقدسان صحت إن القيامة قد دنت فهى الجبال الراسيات تسير كما جاء فى الذكر الحكيم نعتاً ليوم البعث.

ويتصل بأبى القاسم بن عشرة قاضى «سلا» على المحيط ويتجه إلى بجاية بالجزائر ويمدح المنصور بن الناصر بن علئاس (٤٨٣ - ٤٩٨ هـ) ويولى وجهه نحو المهديّة وتقيم بن المعز بن

(٢) الدرارى: الكواكب.

(١) متعاعسا: متخلفاً.

باديس ويلقاه لقاء حسنا، ويظل يتردد بين البلديتين ويضفي مدائح على يحيى بن تميم بن المعز وابنه من بعده على وحفيده من بعدهما الحسن ويكتظ الديوان بمديحهم جميعا، ويمدح بنى خراسان في تونس ويظل يتردد على بجاية يمدح بعض رجالاتها من بنى حماد. ومنذ أن هاجر من صقلية لم ينسها يوما وظلت لا تبرح ذاكرته حتى أنفاسه الأخيرة، ومحصّها بعد سقوطها بأشعار مؤثرة يبكيها ويبكي أيام مجدها، من ذلك قصيدة باثية في مديح تميم بن المعز وفيها يقول:

تَدْرَعْتُ صَبْرِي جُنَّةً لِلنَّوَابِ فَإِن لَّمْ تُسَالِمْ يَازَمَانَ فَحَارِبِ

وهو إنما يتدرع صبره ويحتمى به استسلاما، فإن الزمان أدار معه معركة حامية الوطيس فقد فيها كثيرا من أهله وحماة بلده، بل لقد فقد بلده نفسها غير مبق له على أي شيء، إلا أن ينتقل في صحارى إفريقيا وسهوبها ولا أليف ولا أنيس:

وَلَا سَكَنُ إِلَّا مَنَاجَاةَ فِكْرَةٍ كَأَنِّي بِهَا مُسْتَحْضِرٌ كُلَّ غَائِبِ  
وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ يُرْهَبُ شَرَّهُمْ تَجَنَّبْتُهُمْ وَاخْتَرْتُ وَحْدَةَ رَاهِبِ  
وَحَتَّى خِيَالُ كُنْتُ أَحْظَى بَوَصلِهِ لَه فِي الْكَرْيِ عَن مُضْجَعِي صَدُّ عَاتِبِ  
فَهَلْ حَالٌ مِّنْ شَكْلِي عَلَيْهِ - فَلَمْ يَزُرْ - قِصَافَةُ جَسْمِي وَأَبْيَاضُ ذَوَائِبِي<sup>(١)</sup>

فلم يعد له سكن يسكن إليه إلا أن يناجي فكره مستحضرا ما غاب عنه خاليا بنفسه ومعتزلا للناس، بل لكأن كل شيء من حوله يعتزله حتى الطيف الذي كان يسعده وصله في نومه وأحلامه انقطع عن مضجعه صادًا عنه لا يزوره، فهل تغير شكله عليه وماحدث له من نحافة جسمه وبيضاض شعره، فلم يعد يعرفه ولم يعد يلقيه، ويذكر إخوان الصفاء وليالي الأنس بصقلية. وكان يتمنى لو استطاع الرجوع، غير أنها أصبحت مسترقة للأعداء:

وَلَوْ أَنَّ أَرْضِي حُرَّةً لِأَتَيْتُهَا بِعِزْمٍ يَعُدُّ السَّيْرَ ضَرْبَةً لِأَرْبِ  
وَلَكِنَّ أَرْضِي كَيْفَ لِي بِفِكَأَكْهَا مِّنَ الْأَسْرِ فِي أَيْدِي الْعُلُوجِ الْغَوَاصِبِ  
لَثَنَ ظَفْرَتْ تَلِكِ الْكَلَابُ بِأَكْلِهَا فَبَعْدَ سَكُونٍ لِلْعُرُوقِ الضَّوَارِبِ<sup>(٢)</sup>

فعائقه إلى أرضه أنها استعبدت وأصبحت ملكا لغير أهلها، بل لقد أسرت ووضعت الأغلال في أيديها وأرجلها، ولم تعد تستطيع خلاصا ولا فكاكا ولا تحررا، وقد ظفرت بها كلاب الأعداء تنهشها بعد جهاد أهلها لهم جهادا عنيفا، ويمر بفتنتهم قبل غزو النورمان مرورا خاطفا ويفيض

عن هود مقاومة أهل صقلية بعد الجهاد العنيف.

(١) قضافة: نحافة.

(٢) كنى ابن حمديس بسكون العروق الضوارب



في الحديث عن بطولتهم في حروب الروم وكيف كانوا يموتون موت البسلاء الشجعان:

يموتون موت العِزِّ في حَوْمَةِ الوَغَى إذا مات أهل الجبن بين الكواعب<sup>(١)</sup>  
 حَشُوا من عَجَاجَاتِ الجِهَادِ وسَائِدًا أُعِدَّتْ لهم في الدَّفْنِ تحت المناكب<sup>(٢)</sup>  
 فغاروا أَفولَ الشَّهْبِ في حُفْرِ البَلْبِ وأبقوا على الدنيا سوادَ الغياهب<sup>(٣)</sup>

لقد أبلوا بلاء عظيمًا في حرب الروم قديمًا بَقْلُورِيَّةٍ وحديثًا بصقلية، وما منهم إلا من يقدم نفسه فداءً لوطنه، وما منهم إلا من واقع الروم مرارا وتكرارا حتى اجتمعت له وسادة من غبار وقائعه أُعِدَّتْ له ليتوسدها في قبره، وما زالت بهم البطولة المتناهية حتى أفلوا - أفول النجوم - في حفر البلبى مخلفين وراءهم على آفاق الدنيا سواد حزن وتكل لا يشبهه سواد. ويلتفت إلى داره الغريقة بنوطس وسرقوسة، ويستودعها الله ويستمطر لها السحاب الممطر، وهتف:

ألا في ضمانِ الله دارِ بِنُوطَسٍ ودرتَ عليها مُعْصِرَاتُ الهواضبِ<sup>(٤)</sup>  
 أمثلها في خاطري كلِّ ساعةٍ وأمرى لها قَطَرَ الدُمُوعِ السَّوَائِبِ<sup>(٥)</sup>  
 أحنُّ حينَ النَّيْبِ للموطنِ الذي مغاني غوانيه إلى جِوَاذِي<sup>(٦)</sup>

وهي تَمَثَّلُ له ليل نهار وصباح مساء في خواطره، بل إنها لتمثل له كل ساعة وكل لحظة، ويذرف لها الدموع السواكب مدرارا، ويحن - حنين الإبل - للموطن الذي نبتت فيه، وإن مغانيه ومنازله لتجذبه إليها جذبا، وكأنما أودعها فؤاده ويريد أن يسترده، حتى لا يحيا جسمه بدونه ودون خفقاته. وله في صقلية قصيدة ثانية هائية يستهلها بقوله:

قَضْتُ في الصَّبَا النَّفْسُ أوطارَهَا وأبلغها الشيبُ إنذارَهَا<sup>(٧)</sup>

وهي أشبه بشریط لذكريات صباه وشبابه في سرقوسة، ويذكر مجالس هوه بها ويتذكر ليلة ساهرة والندامى من حوله وساقية تزرر بكفها أزارها:

تدير بياقوتية درةً فتغسُّ في مائها نارَهَا

ويشربها رفاقه، ويمعنون في الشرب، ويذهبون إلى دير، يحتسون الخمر، ويطلق في وصف

(١) حومة الوغى: أشد موضع في الحرب.

(٢) عجاجات جمع عجاج: غبار.

(٣) الغياهب جمع غيهب: الظلام الشديد.

(٤) المعصرات: السحب الممطرة والهواب.

السحب يدوم مطرها أياما ولا يقلع.

(٥) أمرى: أسكب وأذرف.

(٦) النيب: النوق. مغاني: منازل.

(٧) أوطارها جمع وطر: البغية والحاجة.

مجلس الطرب، ويذكر ما فيه من الغناء والرقص والشموع المتقدة قائلاً:

لقد سَكَنْتُ حركاتِ الأسي      قيانٌ تُحَرِّكُ أوتارها  
فهذي تعانقُ عودًا لها      وتلك تقبِّلُ مِزمارها  
وراقصةٍ لقطنُ رِجلِها      حسابٌ يدُ نَقَرَتْ طَارها  
وقُضِبَ من الشمعِ مصفرةٍ      تريك من النار نُورَها  
كأنَّا نُسَلِّطُ آجالها      عليها فتمَحِّقُ أعمارها

وإن للغناء هناك من القيان لنشوة تسكن حركات الأسي في النفس أو تارها بما تصب في الأذان من نغم بديع، والعود مسند إلى صدر قينة كأنه يعانقها، وقينة أخرى كأنها تقبِّلُ مِزمارها، وراقصة كأنما تَلْقَطُ قدمها نقر صاحبها بيدها على طارها، متفنتة في حركاتها، والشموع متقدة طول هذا المجلس اللاهي، وكأنما آجالها تنقص أعمارها تدريجاً حتى تتمحق. وينتهي شريط الذكريات ويحُنُّ إلى صقلية مستودع صباه وشبابه وليالي أنسه ومرحه، وهتف.

ذَكَرْتُ صَقْلِيَّةً وَالْأَسَى      يهَيِّجُ لِلنَّفْسِ تَذْكَارَها  
وَمَنْزِلَةً لِلتَّصَابِي خَلَّتْ      وَكَانَ بَنُو اللَّهِوَ عَمَّارَها  
فَإِنْ كُنْتُ أُخْرِجُ مِنْ جَنَّةٍ      فَإِنِّي أَحَدْتُ أَخْبَارَها  
وَلَوْ لَا مَلُوحَةٌ مَاءِ الْبُكَاءِ      لَخَلَّتْ دَمُوعِي أَنهَارَها

وهو يذكر صقلية ومنازل صايه وشبابه فيها والحزن يقطع نياط قلبه عليها حسرة ولوعة، ويقول إنها لجنة عظيمة أخرجت منها، وحرى بي أن أحَدْتُ أخبارها وأبكيها بدموع غزار، ويذكر أنه سببها عشرات السنين بأنهار من الدموع لا تتوقف سيولها. ولعلها توقفت قليلاً حين أهبجه انتصار جيش الحسن بن علي بن يحيى بن تميم سنة ٥١٧هـ/١١٣٧م على جيش الملك روجار الثاني في وقعة الديماس بمنتصف الطريق بين المنستير والمهدية على الساحل التونسي، وكان روجار يرغب الاستيلاء على المهديّة، فَرَدَّ جيشه مدحوراً إلى صقلية، وأشاد ابن حمديس بهذا الانتصار إشادة رائعة في قصيدة له رائية يمدح بها الحسن بن علي بن تميم مهنتاً له بالنصر على الأعداء من النورمان:

لِيَهْنِكَ فَتَحُ أَوْلَغِ السِّيفِ فِيهِمْ      وَلاَحِ بَوَاجِهِ الدِّينِ مِنْ ذِكْرِهِ بِشْرُ<sup>(١)</sup>

(١) أولغ السيف فيهم: جعله يلبغ ويشرب من

ودون مَرَامِ الرُّومِ فيما سَمَوْا له  
 وكم من فريق منهم إذ تَمَرَّقُوا  
 فَسَلَّ عَنْهُمْ الدِّيمَاسَ تَسْمَعُ حَدِيثَهُمْ  
 هناك شفى الإسلام منهم غَلِيلَهُ  
 أَعَارِبُ جَدُّوا في جهادِ أعاجِمِ  
 قلاتدُ أَعْناقِي هي القُضْبُ البُتْرُ<sup>(١)</sup>  
 له غَرَقٌ في زَخْرَةَ المَوجِ أو أُسْرُ  
 فهِم بالمَواضِي في جَزيرته جُزْرُ<sup>(٢)</sup>  
 بَطْنِ له بَتْرٌ وَضَرْبٌ له هَبْرُ<sup>(٣)</sup>  
 خَنَازِيرٌ شَبَّتْ حَرْبُهَا أُسْدٌ هُصْرُ<sup>(٤)</sup>

وهو يهنته بهذا الانتصار المروِّع الذي جعل السيوف تلغ في دمائهم وتشرب منها مرتوية، وكأنا ابن حمديس نفسه هو الذي يشرب منها محاولاً أن يشفى غليله من النورمان وقد استبشر وجه الدين بشراً لا يماثله بشر. ويقول إن فيما تطلعونوا إليه من استيلائهم على الساحل التونسي قلاتد من الرماح استأصلت أعناقهم وتمزقوا كل ممزق، ووقع منهم فريق في قبضة الأسر وفريق غرق في زخرة الموج، وسَلَّ عنهم حصن الديماس الكبير يبيك أن عيدا كبيرا نصب لنحرمهم وذبحهم في جزيرته بالسيوف المواضي، وهناك شفى الإسلام غليله وغيظه بطعن وضرب يقطعان أجسادهم تقطيعاً، ويحيي الجيش الباسل إنه جيش أعراب صدقوا في حملتهم العنيفة على الروم الخنازير، وإنما لحملة أُسْدٍ افترستهم، أسد أعز الله بها الدين الخفيف. والقصيدة من أروع القصائد في جهاد أعداء الإسلام وتدمير جيوشهم تدميراً لا يكاد يبقى منهم باقية.

ولم يلبث أن عاد إلى حزنه على وطنه الضائع، وعاد إلى شعوره بغرته، وهو شعور لازمه طول حياته، وطالما رده في قصائده وجاءه وهو في سن الثمانين نعي ابنته، ولم تكن تظن أنه على قيد الحياة فبكاها بقوله:

أراني غريباً قد بكيت غريبةً      كلانا مشوقٌ للمواطن والأهل  
 بكتني وظننتُ أنني متٌ قبلها      فعشتُ وماتت - وهى محزونةٌ - قبلي

واجتمع عليه حزنه في فلذة كبده بحزنه في وطنه أو فردوسه المفقود، ودار به العام فلبى نداء ربه سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣ م في بجاية، وما تعرف العربية شاعراً عاش يتفجع على وطنه ويحنُّ إليه كما تعرف في ابن حمديس، إذ كان يشعر شعوراً عميقاً بأنه كان كل شيء في دنياه، بل كان فردوسه الذي أخرج منه كما أخرج أبوه آدم قديماً من الفردوس، ويشعر كأنما أتى ذنباً كبيراً كذنب أبيه آدم، بل لكأنما غربته المستمرة وتطوافه في الأفاق إصرار منه على ارتكاب هذا الذنب:

(١) القضب البتر: السيوف القاطعة.  
 (٢) المواضي: السيوف. جزر جمع جزور: الذبيح.  
 (٣) هبر: قطع، واستئصال.  
 (٤) هصر جمع هصور: مفترس.

ألم تر أننا في نوى مستمرّةٍ نروح ونغدو كالمصرّ على الذنبِ

وديوان ابن حمديس ديوان ضخم وقد حققه تحقيقا دقيقا الدكتور إحسان عباس وهو يوج بقصائد المديح كما يوج بقصائد الغزل ووصف الطبيعة والخمر ومجالسها، وكأنما يريد أن يغرق فيها لوعاته على ضياع صقلية وظلت تشتعل في دخائله إلى آخر أنفاسه، وللصيد أراجيز بديعة في الديوان وبالمثل للرتاء وخاصة لمن فقدهم من أسرته وذوى رحمه، ونلمح من حين إلى آخر مقطوعات في الزهد لعله نظمها بأخرة من حياته، وغرض وحيد من أغراض الشعر العربي لم ينظم فيه بيتا هو الهجاء، إذ كان يترفع عن الشتم والبذاءة، يقول:

إني امرؤ - وطباع الحق تعضدني -  
مطهر العرض لا أدنو من الدنس  
فما أحرك في فكّي عن غضبٍ  
لسان منتهش الأعراض منتهس

فهو طاهر النفس يسمو عن كل دنس فضلا عن دنس الهجاء، وهو حلیم لا يغضب غضبا يخرجه عن طوره، فينتهك أعراض الناس ويمضغ لحومهم موجدة وغلا، وليس ذلك عن ضعف في شاعريته، بل هو العفو والصفح عن مقدرة، يقول:

إني امرؤ لا ترى لساني  
منظماً ما حيث هجوا  
كم شاتم لي عفوت عنه  
مصمماً في اللسان نهوا  
لو شئت صيرت بالقوافي  
غارة هجوى عليه شعوا  
ومزق القول منه عرضاً  
لا يجد المدح فيه رفوا

فقد عاهد نفسه أن لا ينظم هجاء طوال حياته، وأن يعفو عمن يشتمه، ولو أراد للتابعات على خصمه حملات شعواء من هجائه ولمزق عرضه وهتكه هتكا لا يمكن أن يرفوه مديح أو يرتق فتوقه صنيع. وفي ذلك دلالة واضحة على نبل خلقه وسمو نفسه.

وكان خياله خصبا إلى أبعد حد مما جعله ينفذ إلى كثير من الصور المبتكرة الفريدة، وهي تلقانا في جميع أعراض شعره مفاجئة لنا، مما يحدث تأثيرا بعيدا في نفس قارئه كقوله في الغزل:

زادت على كحل الجفون تكحلاً  
فيسم نصل السهم وهو قتل

والشعراء قبله كانوا يتحدثون عن سهام العيون وأنها قاتلة، وزاد ابن حمديس أن سهام عيون صاحبه أشد قتلا وفتكا بما أضافت إليها من تكحل جعلها سهاماً مسمومة، ما إن تصيب شخصا حتى تفقده حياته، ويقول في نهر لعله نهر إشبيلية مصورا خير مياحه:

جريح بأطراف الحصا كلما جرى  
عليها شكاً أوجاعه بخريره

وهو خيال بديع، فأطراف الحصا كأنما تجرح النهر وكلما جرى عليها شكا جاعه بخيريه،  
 وكأنما هي أوجاع ابن حمديس لفراقه وطنه إلى الأبد، ومن تلك الصور الفريدة قوله في  
 البرد:

نَشَرَ الْجَوُّ عَلَى الْأَرْضِ بَرْدًا      أَيُّ دَرٍّ لِنَحْوِرٍ لَوْ جَمَدُ

وكان السماء لا تمطر بردًا وإنما تمطر دررا تطوق عقودها جيد الطبيعة بلألئها المتساقطة من  
 أصداف السحب. ويطول بنا القول لو أردنا أن نعرض فرائد ابن حمديس ما يفجأ به قارئه  
 من الصور والمعاني المبتكرة. وهو بحق يعد في الذروة الرفيعة لا من شعراء صقلية وحدها، بل  
 أيضا من شعراء العرب والأندلس قاطبة.

## الفصل الخامس

### النثر وكتابه

#### نشاط النثر

من المؤكد أن النثر الفنى من رسائل وغير رسائل نهض في صقلية كما نهض الشعر، وكما نهضت العلوم الدينية، ومن يرجع إلى الخريدة ومن ترجم لهم من الشعراء هناك يجده يذكر في عنوانات الشعراء أنهم كتاب، ذكر ذلك مع خمسة عشر شاعراً، ونوه في غير كاتب بإحسانه في الكتابة كأن يقول في البشيرى الشاعر الكاتب: «باعه في الترسل أمد، وخاطره في النثر أحد» ويقول في على بن الحسن بن الطوبى: «مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين» يشير بذلك إلى أنه من كتاب الدواوين، ويصف نثره بأنه جواهر، ويقول عن ابن القرقورى إن ابن القطاع أثنى على نظمه ونثره كثيراً، كما يقول إن ابن القطاع ذكر عن هاشم بن يونس الكاتب أنه صاحب ترسل ومقامات وعن محمد بن الحسن الطوبى أنه كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء مترسلاً شاعراً، ويقول القفطى عنه: عالم بالرسائل، وكلامه في نهاية الفصاحة، وشعره في غاية الملاحه، وله مقامات تُزرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع».

وكل ذلك يدل على أن صقلية حازت لنفسها في النثر نشاطاً واسعاً، بل إن من كتبها - كما يقول القفطى - من كانت مقاماته تزرى بمقامات البديع، وسقطت تلك المقامات من يد الزمن كما سقطت معها الرسائل البديعة شخصية ورسمية مما دبَّجه الكتاب هناك قبل العصر النورمانى وأيضاً ما كتبوا ودبَّحوا من أعمال أدبية متنوعة، ولولا أن ابن بسام ترجم لبعض من غادروا صقلية من الكتاب البارعين قبيل العهد النورمانى مثل ابن الصباغ، وسنخسه بكلمة. وأيضاً لولا أن ابن بشرى المهودى زارها في عهد روجار الثانى واحتفظ في ترجمته لبعض شعرائها - وأقصد عيسى بن عبد المنعم وابنه محمد - ببعض رسائلها ما استطعنا التعرف بوضوح على ما حظى به النثر هناك من نهضة ورقى، وسنراها واضحين عند كاتبها المتأخر ابن ظفر، وسنفرده بترجمة قصيرة.

أما عيسى بن عبد المنعم فيذكر العماد عن ابن بشرى أنه: «كان كبير الشأن، ذا الحجة والبرهان، فقيه الأمة، وأمثل الأئمة، له المعانى الأبيكار البعيدة مرامى مرامها، والألفاظ التى هى

كالرياض جادها هامى رهامها (غيتها)» ويقول العماد إنه أورد من كلامه ما يأسو سماعه الكلوم (الجروح)، ويجلو سناً إحسانه العلوم، ويحكى درر الأصداف ودرارى (كواكب) النجوم.. ويذكر له العماد فصولاً من ثلاث رسائل، أولها في براعة صديق له في خطه الرائع وبلاغته البديعة، ومن قوله فيها:

« نظرت من الكتاب إلى خط موصوف، معتدل الحروف، أملس المتون، مفتح العيون، لطيف الإشارات، دقيق الحركات، لين المعاطف والأرداف، متناسب الأوائل والأطراف، يروق العيون حسنه وشكله، ويعجز المحاول صنع، متضمنا معاني كأنها رُقية الزمان، وُصْمَتَة (الهيئة) الأمان.. وقلت سبحان ربي القيوم: ﴿أفسحُ هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ أكل هذا الإحسان، في طاقة الإنسان.. ثم رجعت إلى نفسى، وثاب إلى جِسى، فقلت عند سكون جاشى (نفسى) وثبوت طيشى، وإفراخ روعى وذهاب دهشى، إن من دبّ في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بلبانها، وجرع من درّها (لبنها الكثير) وصحب السادات مقتبلا (شابا) والأيجاد مكتهلا لخليق أن يحلّ من الفضل وسائطه ويجمع قطريه، بل يستولى على غواربه (أعالیه) ويملك شطريه».

وانتخاب الألفاظ واضح في الرسالة مع المقدرة البينة على وصف الخط البديع وما يحسن عيسى بن عبد المنعم من وصف بلاغة صاحبه، مع ما يزين وصفه من سجع أحيانا وهو سجع طبيعي لا تكلف فيه، إذ يأتي به في تضاعيف الكلام دون محاولة التعمل له، وليس ذلك كل ما يزين به وصفه فهو يزينه بعبارات تصويرية كوصفه المعاني في رسالة صاحبه بأنها «رقية الزمان ووصمة الأمان» وكوصف صاحبه بصور متلاحقة إذ يقول إنه «دبّ في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بلبانها، وجرع من درّها. ويقتبس العماد فصلا من رسالة ثانية لعيسى بن عبد المنعم أسقط فيها حرف الألف واللام مشيدا في مطالعها:

«رقتى نحوك سيدى وسندى، وذُخرى وعُضدى، ومن بَدَّ<sup>(١)</sup> وبزَّ.. فذُدهره، ووحيد عصره، وغريب زمنه، ونسيج وحده، مدّ ربيّ مُدَّتكَ في مربوب (دائم) نعمته، ومدد نُصْرَتَه، وكبّت من نكب<sup>(٢)</sup> عن ودك بعظيم ذُخْرَه (المدخلك) ومخوف زجره.. وسوَّغك من ضَرْب<sup>(٣)</sup> نعمه بهنيّه، ومريّه<sup>(٤)</sup>، ومتعك من موفور قَسْمَه<sup>(٥)</sup> بحميده، ومزيده».

ولا يحسّ القارئ للرسالة بما تكلفه عيسى بن عبد المنعم من إسقاط الكلمات ذات الألف واللام لمقدرته البيانية، وكأن كتاب صقلية لم يتأثروا في كتابة رسائلهم بأسلوب السجع الذى عمّ في المشرق منذ أواسط القرن الرابع الهجرى، بل تأثروا أيضا بما شاع في كتابة الرسائل من

(١) بدّ: سبق. بزّ: غلب.

(٢) نكب: انحرف.

(٣) الضرب: عسل النحل.

(٤) مريه: سائقه.

(٥) قسّمه: ما يقسمه للناس.

ضروب تصنع مختلفة كأن تخلو الرسالة من حرف معين كهذه الرسالة أو يطرد حرف معين في جميع ألفاظها على نحو ما صورنا ذلك مرارا في عرضنا للكتابة الأدبية بالمشرق وفي الأندلس. وأحكم عيسى بن عبد المنعم في هذه الرسالة انتخاب الألفاظ والأسجاع، ولم يكتب بالسجع من حيث هو، بل طلب فيه القصر حتى تكون الرسالة وافرة النعم، وعنى في السجع بتصاوير كثيرة. ورسالة عيسى بن عبد المنعم الثالثة في العتاب وفيها يقول:

«لولا أن ذنوب الحبيب، تصغر عن التائب.. لكان لنا وللرئيس مجال واسع ومتسع بالغ فيما أتاه، إن لم نقل جناه، وفيما وعد فأخلف، إن لم نقل الذنب الذي اقرتف، ومهما أجللنا قدره عن أن ينسب إليه خلف الوعد وإن كان جليلا، ما عذره إذ لم يكتب بوجه العذر أنه ما وجد سيلا، وقد كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نقتنع بأمانى التلاق».

والعناية بانتخاب الألفاظ والأسجاع واضحة في الرسالة، مع رهافة الشعور في مثل قوله: «ذنوب الحبيب، تصغر عن التائب» وقوله: «كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نقتنع بأمانى التلاق».

وقد ترجمنا لابنه محمد بين الشعراء وعرضنا هناك إشادة ابن بشرون به في الفصاحة والقفطى به في علوم الأوائل، وألمنا ببعض مراثيه البديعة، وساق له العماد عن ابن بشرون فصولا من ثلاث رسائل، مثل أبيه، وأولاها في التشوق إلى صديق عزيز، ومن قوله في صدرها: «أخى ومولائى علّ الدهر يجمّعنا بمنزلٍ عن جميع الشرّ مُبتعدٍ شوقى إلى لقائك شوق الظمآن إلى الماء الزلال (العذب الصافى) وارتياحى إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصّحة والإبلال، وتلهفى على فراقك تلهف الحيران، وتأسفى على بعدك تأسف الوهّان، لكننى إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل، يمازج قلبى سرورا، ويخالط شوقى بهجة وحبورا.. فأفرع إلى الدعاء لمقدر الأمور، الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) أن يحسن لنا العقبى، ويقضى لنا بالحسنى، ويُسبل علينا من العافية سترًا سابغا ضافيا، ويوردنا من السلامة موردا سائغا صافيا، وأن يقرب بك الاجتماع، حيث يوجد الاستمتاع، بما تقربه الأعين ويلد الأسماع».

ومحمد لا يقل عن أبيه عيسى بن عبد المنعم في براعة اختياره للألفاظ وروعة انتخابه للتصاوير، مع حسن الأسجاع وكأنه يريد أن يرضى الأذن بما تجد في الألفاظ من جمال الجرس، وفي المعانى والتصاوير من الحسن الفائق، وربما تفوق في ذلك كله على أبيه. وله من رسالة في عتاب بعض خلصائه:

«قد عاملنى في مشاهد هذه الأيام، التى قمعت (قهرت) الخاص والعام، بأشياء لو جرت بينى وبينه على خلوة لعددها من لذيد الأنس، لكنها أتت فى الملاء (أشرف الجماعة) بما ألم النفس، واحتملت ذلك منه، رجاء أن يقلع عنه، فازداد لجانة، وازدادت حراجة (ضيقا) حتى استفحل



الثُّغَاة (التافهون) علىّ بسبب ذلك المزاح، واستنسر البغاث إلىّ وهزّ الجناح.. وأعرضت عن أشياء لو شئت قلتها، ولو قلتها لم أبقُ للصالح موضعاً، وأنا أحرص على صحبته ومن يرهاها حق رعايتها.. فأحب أن يحسن الظن بي، والذكر عني، فإن فعل ذلك فعل الأشكل (الأشبه) به، والأليق بأدبه، والأولى بجميل مذهبه. وقد أطفأت هذه المعاتبه ناراً مؤصدة (مطبقة) وبردت من صدري غلّة موقدة».

والرسالة عتاب لشخص لا يعرف متى يمازحه، إذ يمازحه بما قد يقبله منه في الخلوة، أما أمام الناس فإن المزاح يصبح كأنه هزء به وسخرية منه، ولذلك يؤلمه، ومع ذلك يقول إنه يحتمله رجاء أن يكف عنه ولكنه لا يكف، حتى تعاضم من لا وزن لهم عليه، وحتى «استنسر البغاث» وهو مثل يضرب لمن استشعر العزة بعد الهوان، إذ البغاث من أضال الطير فشعر كأنه أصبح نسراً. وأضاف محمد بن عيسى إلى ذلك إضافة بديعة، إذ قال إنه استنسر وهز الجناح كناية عن شعوره الشديد بالعزة إزاءه. ومع ذلك كله يصفح محمد بن عيسى عن هذا الصديق الثقيل، إذ التزم له التجلة أمام الناس. والرسالة تتخفف من السجع أحياناً، مما يدل على أن محمد بن عيسى لم يكن يتكلفه دائماً، وكأنما كان يجرى على لسانه عفواً. وله من رسالة في الشكر لشخصية مهمة يثنى على حضرتها قائلاً:

«إن غرّس فضلها السابق إليه أثمر عنده شكراً وحماً، وأنبت لديه محبة ووداً، وإنه من موالاتها لعلى صراط مستقيم، ومن الإقرار بفضلها لعلى منهج قويم، ومن الدعاء لها لعلى حال مقيم، وكيف لا يكون كذلك وقد صيره سالف إحصانها في الرّق، وملكه فارط امتنانها ملك المستحق، فهو لا يفتر من جميل شكرها لساناً، ولا يخلى من خلوص ودّها جناناً».

والفصل - على شاكلة فصليه السالفين - في دقة اختياره للألفاظ والأسجاع حتى تنزلق عن الألسنة في يسر، وحتى يحسن وقعها في الأسماع، وهو لذلك لا يزال يلازم بين اللفظ واللفظ، وبين المعنى والمعنى وبين الصورة والصورة، حتى يلذ الآذان والألسنة والأذهان حين تقرأه أو تصغى إليه. وحرى بنا أن نتوقف قليلاً بإزاء الكاتبين الصقليين: ابن الصباغ وابن ظفر.

### ابن<sup>(١)</sup> الصباغ الصقلي

هو أبو عبدالله محمد بن الصباغ، من أدباء صقلية وكتابها البارعين، تألق اسمه فيها لأواخر عهد بني أبي الحسين الكلبيين بالقرن الخامس الهجري، وحين اضطربت صقلية بعدهم واستقل

محمد بن علي بن الصباغ الكاتب وقال عنه: كان في عهد ابن رشيقي المتوفى سنة ٤٥٦هـ وقال كانت بينها مراسلات.

(١) انظر في ترجمة ابن الصباغ الذخيرة ٣٠٨/٤ ولعله هو نفسه الذي نقل ترجمته العماد عن الدرّة الخطيرة لابن القطاع ص ٨٣ باسم أبي عبدالله

كل قائد فيها بمنطقته غادرها إلى الأندلس، واستوطنها، وفيه يقول ابن بسام: «أحد أدباء وقته المشاهير، وكلامه يعرب عن أدب كثير وحفظ غزير». ويعرض طائفة من فصول رقاعه ورسائله، من ذلك فصل من رقعة وجه بها إلى ابن الشامي متولى الأرض التي كانت تتملكها الدولة في المدن التي افتتحت عنوة، راغبا في أن يكلم له أمير صقلية صمصام الدولة آخر الأمراء الكلبيين الذي تولى الجزيرة بعد أخيه الأكلح سنة ٤٢٧ كي يحرر له أرضا للدولة كان اشتراها مما عليه من ضريبتها، وربما من دين للدولة كان لا يزال مدينا به، ويمضى صدر الرسالة على هذا النمط:

«إذا الحاجات عَيَّ بها رجالٌ  
وكان قضاؤها صعبَ المرامِ  
وقلتُ حيلةَ الشُّفَعاءِ فيها  
فحاولُ نُجْحَهَا بِنَبِيِّ الشَّامِي  
درارِي العُلا حَفَّتْ بيدِ  
منيرٍ في سماءِ المجدِ سامِي

ويعلم - أدام الله تمكينه - مذهبي في التخفيف، وحمل مئونة التكليف، إلا فيما تلجىء الضرورة إليه، ويحمل الاضطهاد عليه، وكنت من ترفيه النفس عن الامتحان، والقناعة بما تسمح به نفس الزمان، في حالة يعلم - حرس الله مجده - تقلبي في أثنائها، ومقبلي (قبولتي) في أفيائها (ظلالها) حتى عرض لي من سوء القضاء، ما أجار بالنار من الرمضاء (شدة الحر) فسؤل لى الحرص الذى ما شمت (رأيت) له بارقا، والطمع الذى ما ركبت قط له عاتقا (منكبا) النظر فى إحداث بستان فى خرائب أخرى مالى، وشغلتنى عن كثير من أشغالى، وصرت منفقا ما جمعت فى الغربة والوطن، وكسبت فى الإقامة والظعن (الارتحال) بين جدار فيها أهدمه، وغار أردمه، وأرض أرفع مرة وهادها، وأخفض تارة نجادها (مرتفعاتها) حتى استوت ساحاتها وتوطدت (تمهدت) وغابت مغاراتها وتغطت، وانكشطت أسنمتها وانحطت... ولا يُقدَّر على سقى دوحاته، ولا يتوصَّل إلى إحياء مواته، إلا بدولاب (ساقية) وجابية (حوض) يأخذان الماء أخذة رابية (شديدة).. ومتى أعلم الأمير أن هذه الخرائب التي عانى وليه غراسها لا يُرتجى لها عمارة تعود بفائد، ولا ينتفع الديوان منها بدرهم واحد، وساكنوها منذ أعوام ما أدى واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولا رتاجا (بابا كبيرا) فهم بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأب (الحشائش) قبل الحب».

والرسالة قطعة أدبية بديعة، وهى مكتوبة بأسلوب السجع الذى يمتع اللسان بنطقه والآذان بسماعه، وتكتظ بصور تتعاقب فيها ومشاهد بديعة كمشهد إصلاح ابن الصباغ للأرض وإعدادها للزرع بين جدار يهدمه وغار يردمه ونجاد يخفضها ووهاد يرفعها حتى غابت مغاراتها وانكشطت أسنمتها وانحطت. فهو ليس حائك أسجاع وراسم تصاوير فحسب، بل هو أيضا

مصور يعرف كيف يعرض عليك مشهدا بأكمله كأنك تبصره وتراه. وهو إلى ذلك خفيف الظل يعرف كيف يسرك بالكلم، وكيف يورد عليك ما يضحك سنك على نحو ما صور ساكني أرضه وبستانه، فمنذ أعوام لم يؤد واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولا رتاجا، وإنهم - لفقروهم المدقع - ليأكلون الشجر والأبّ ومراعيه كالأنعام قبل الثمر والحب. ولا بد أن ابن الشامي ومصصام الدولة ضحكا طويلا حين وصلا في الرسالة إلى هذا المشهد المضحك . وهذا الجانب الفكه في ابن الصباغ اتضح بصورة أوسع في رسائل ساقها له ابن بسام حين استوطن الأندلس وصحب هناك الأديب أبا حفص القعيني، وكانت فيه بدوره دعاية، وحدث أن ماتت له هرة، فجلس للعزاء عنها تماجنا، فما كان من ابن الصباغ إلا أن كتب له رسالة عزاء فيها، ومن قوله في بعض فصولها:

«الحياةُ لبني الدنيا مراحل، والمنايا لجميعهم مناهل، والأعمار، كالأسفار، منها القريب الوصول، العاجل الحلول، ومنها البعيد الشقة، الشديد المشقة، أنفاس معدودة، وآجال محدودة، وليس ينج من محتومها أحد، ولا لمخلوق منها مُلتحد (ملجأ). وانتهى إلى - جعل الله الصبر الجميل سبيلك، وأطفأ ببرد السُلوان غليلك - نَبأُ جَلَل، وخطب معضل، وهو مصابك بشقيقة نفسك، وموضع راحتك وأُنسك، وربيبه جِجْرِك وحجرتك، وآلة حِيطتِك على حِطتِك (قمحك) وكالئة (حافظة) ذخائرِك وقُنيتِك (ما تقتنيه) واستحواذ فجيعتها على لُبِّك، وما عاجلتها به من ذرور (ما يُدر من العطور على الميت) وحَنوط (ما يخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسادهم) وإشفاقك من إسلامها إلى التراب، وإبقائك إياها طويلا في المحراب، وألَّتِك (حَلِفِك) عليها لتدعون إلى جنازتها أمّتا، يَشَقُّقَن (أى النساء) عليها جُيوب المذارع (فتحات الثياب) وَيُفَضِّن من الوجد بها غُرُوبَ (دلاء) المدامع، وَيَعُولن عليها بالصراخ والنَّياح، وَيُذَرِّين (يرسلن) لمصرعها شعورهن مع الرياح».

وابن الصباغ عزى أبا حفص القعيني في هرته، وكأنها كانت شقيقة نفسه وموضع راحته وأنسه، كما يقول، أو كأنها كانت محبوبة عزيزة، وهو يبدأ رسالته بأن هذه حالة الدنيا فهي دائما إلى فناء، أنفاس معدودة وآجال محدودة، ويدعو الله له أن يلهمه الصبر الجميل على فجيئته ويطفىء ببرد السلوان غليله، ويعزّيه في ربيبة حجره وحجرته، وإضافة حجرته إلى حجره بديعة. وتترأى لنا في الرسالة روح الفكاهة والسخرية مجسدة، وخاصة حين يحدثننا أن القعيني أقسم ليعقدن لها أمّتا كبيرا تُشَقِّ فيه جيوب النساء على محبوبته ويفضن الدمع ويرسلنه وجدا على هرته. ويعولن عليها بالصراخ والنواح. ولا نصل إلى هذه القطعة من الرسالة حتى نفرق في الضحك، ويستمر قائلا للقعيني:

«ولستُ بناسٍ ذكر تلك المُلح التي كتبت لي تصف من أخلاقها وآدابها، والمِدَح التي أوردت

في أعراقها وأنسابها، والغرائب التي ذكرت عن قوتها وأيدها، وجيلها وكيدها، ومكرها بالفار وصيدها.. ذات ناب مطلول (عجيب) وساعد مفتول، وخصر مجدول (صلب) ريانة (ممتلئة) الكاهل، ظمآنة الأسافل، تستضيء من عينيها بأنور من الصباح، وتعنّد من مخالباها بأمضى من السلاح».

وابن الصباغ يستمر في روحه الفكهة، فيزعم أن القعيني طالما حدّثه عن أخلاقها وآدابها وأعراقها وأنسابها ومكرها بالفار وصيدها له في لمحة، ويشيد بجمال تكوينها وقوة بصرها ومخالباها. وهى روح فكهة بديعة لابن الصباغ، مع القدرة البارعة على انتخاب اللفظة وأختها والسجعة وشقيقتها مع إحكام التصاوير والمشاهد. وحدث أن كانت لصديقه القعيني جارية سوداء كلف بها ثم باعها، وندم فحاول استرجاعها، فزعم مشترها أنها حامل، وتولاه الأسف، ونظم في ذلك أشعاراً كثيرة، فكتب إليه ابن الصباغ رسالة فكهة يقول فيها:

«نقل إلى بعض من يعرف أحوالك، ويشارف فعالك خيراً يُصمّ السَّمع، ويضيّق الذَّرْع (الطاقة الواسعة) وذلك أنك أخرجت عن ملكك ضفدعتك المريعة (المفرعة) فتناولها من استحسنت غُدْرانها، وبلغك من إقبالها عليه، وانصرفها بكلّيتها إليه، ما أضرم قلبك شوقاً لا تحبو ناره، وسلّ الوجد بها عَضْباً (سيفاً) لا يبنو غِراره (حدّه) فأنشرت (بعثت) للناس من نفسك (توبة) الأخيلىة، وأحييت لهم منك مجنون (قيس) العامرية، وعضضت على بيعها أناملك، وأنضيت (أهزلت) في طلبها زواملك (إبلك) وأطلت في وصف شوقك لها وأوجزت، وقصدت (نظمت القصائد) في ذكر الأسف عليها ورجزت (نظمت الأراجيز) وجمعت لها من المحاسن ما افترق، وفتحت من البدائع فيها ما انغلق.. فأصبحت والظنون بك مرّجة (متكلمة) والألسنة عنك مترجة، والأقوال فيك كثيرة، والأيدى إليك مشيرة، فنهنه (أزجر) قلبك، وراجع ليك. واذكر خلقها وخلّقها، وتأمّل وجهها وعنقها، وانظر خدّها وقدها، وهل شيء مما يُستملح عندها؟! فهنيئاً أبا حفص راحة بصرك من شخصها المقيت، وفراغ قلبك من الكبد بخلقها المميت.. وكأني بك قد أنشدت بيت ابن الرومى فيمن لا يشبهها إلا في سواد الجلد، ولا يشركها إلا في النسبة إلى الجد، إذ يقول:

أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ      صِبْغَةَ حَبِّ القلوبِ والحَدَقِ

هيات.. ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة».

وابن الصباغ يتهم بصديقه القعيني مراراً وتكراراً، إذ يصور عشقه لجاريته وما يضرم في قلبه من نار لا تحبو، حتى لكأنما بعث من نفسه توبة بن الحمير عاشق ليلي الأخيلىة وقيساً عاشق ليلي العامرية، وبذم الجارية ذمّاً شديداً ترويحاً عن صاحبه حتى يسلوها ويمسك عن ذكرها

وينساها كما نسيته. وهو يسوق ذلك في لغة عذبة صافية وفي عبارات مسجوعة مصورة منمقة بالغة الروعة، وراجعه القعيني برقعة انتصر فيها لنفسه، فأجابهُ الصقلي برقعة على شاكلة رفته السابقة، وإن ما دونه ابن بسام من رقعهِ ورسائله ليصور للنثر الأدبي في صقلية نهضة وازدهاراً.

### ابن<sup>(١)</sup> ظفر الصقلي

هو حجّة الدين أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المشهور باسم ابن ظفر الصقلي، وُلد بصقلية سنة ٤٩٧ في أيام ملكها النورمانى روجار الثانى، رحل من بلده صغيراً في طلب العلم، ويقال إنه نشأ في مكة، ولا نعرف كيف انتقل إليها، وبارحها إلى مصر ثم إلى إفريقية، وأقام بالمهدية مدة في زمن الحس بن على بن تميم آخر ملوكها الصنهاجيين، وشهد بها الحروب بين روجار الثانى ملك صقلية والحسن المذكور، كما شهد أخذها منه واستيلاء النورمان عليها سنة ٥٤٣ ورحل إلى صقلية وفيها تعرف على قائد مسلم من قوادها يسمى محمد بن أبى القاسم القرشى، وبقي عنده فترة أكرمه فيها غاية الكرم، مما دفعه إلى تصنيف أربع مؤلفات أهداها إليه جميعاً، ولم يحتفظ الزمن باثنين منها، وهما أساليب الغاية في إحكام آية ومثى الاستئناف للمعونة والإشراف، واحتفظ باثنين طبعاً ونشراً هما: أبناء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع، وسنلم بها عما قليل، وعاد من صقلية إلى مصر، ورحل منها إلى حلب وأقام فيها بمدرسة ابن أبى عصرون، ووقعت فيها فتنة بين الشيعة وأهل السنة نهبت فيها كتبه، فخرج منها إلى مدينة حماة فصادف من أهلها وطلابها قبولا فسكن بها، ويقول العماد الأصبهاني: «كان إمام وقته في التفسير والأدب، رأيته بحماة مقبياً، ونفوس طلبة العلم إليه هيباً (عَطْشِي) وأجرى له راتب في ديوان حماة، غير أنه كان دون الكفاف»، فلم يزل يكابد الفقر إلى أن لَبِيَ نداء ربه سنة ٥٦٧ للهجرة. وكان قصير القامة تفتحمه العين، غير أنه كان علامة في التفسير واللغة والأدب غزير التأليف والتصنيف، وإن كانت أكثر مصنفاته ومؤلفاته سقطت من يد الزمن، ومنها في التفسير ثلاثة كتب: التفسير الكبير وينبوع الحياة وإكسير كيمياء التفسير، وحاشية على كتاب درة الغواص للحريرى ردَّ فيها عليه، والمطول شرح مقامات الحريرى، والمختصر شرحها أيضاً، والتنقيب على ما في المقامات من الغريب، وخير البُشْر بخير البشر ذكر فيه الإرهاصات التي كانت بين يدي ظهور الرسول ﷺ، وأرجوزة في الفرائض، وكتاب الاشتراك اللغوى، وكتاب ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه وكتاب القواعد والبيان في

١٤١/١ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسى  
 (طبع القاهرة) ٣٤٤/٢ وبغية الوعاة للسيوطى ٥٩  
 والمكتبة الصقلية لأمارى ٦٠٥، ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٧١.

(١) انظر في ترجمة ابن ظفر الحريدة قسم  
 الشام ٤٩/٣ وابن خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدباء  
 ٤٨/١٩ وإنباه الرواة ٧٤/٣ والروافى للصفدى

النحو. وتلم بكتاييه البارعين في الأدب وهما أنباء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع.

### أبناء نجباء الأبناء

كتاب تربوي عرض فيه نجابة الصفوة من أبناء الأمة العربية في حداثتهم، وأضاف إليهم بعض من عرفوا بنجاتهم في الصغر من الفرس وزراء للعباسيين أو ملوكا في القديم، واستهله بأخبار الفريدة اليتيمة المهداة إلى الأمة الإسلامية محمد ﷺ وبعض ما ذُكر عنه قبل بعثته، تيمنا بذكره العطر، ثم وزع الكتاب على أربعة أصناف ممن رُويت الأخبار عن نجابتهم في صغرهم، والصنف الأول عشرة ممن كرمهم الله بصحابة رسوله، وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب والعباس عم الرسول والحسن والحسين حفيده والنفس الزكية محمد بن علي ومعاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن الزبير، والصنف الثاني في ذكر طائفة من أبناء الصحابة النجباء وغيرهم مثل عبد الملك بن مروان ويزيد بن المهلب والمأمون، والصنف الثالث للنجباء في الصغر من الزهاد والمتصوفة، والصنف الرابع للنجباء من عرب الجاهلية في الحداثة مثل ليبيد ومن ملوك الفرس مثل بهرام جور. ويقول ابن ظفر في مقدمة الكتاب: «وبعد فهذا كتاب أودعته من أبناء نجباء الأبناء ما هو كشررة من ضرام (نار مضطربة) بل كقطرة من رهام (غيث منهر) لأنني قصدت به تلقيح همة غلام، وتنقيح فطنة كهام (بليد). فغرضه من الكتاب تعليمي، ليبعث الهمة في الناشئة بما يعرض عليهم من همم نظرائهم، وليشحذ أذهانهم بما يعرض عليهم من فطن قرنائهم. وأيضا ليتخذوا من خلقهم وحسن سلوكهم أمثلة رفيعة يقتدون بها في حياتهم، ونضرب لذلك مثلا بما ساقه في الصنف الثاني مما يدل على نجابة الفضل وجعفر ابني يحيى البرمكي ووزيرى هرون الرشيد فيما بعد. وعادة إذا كان الحديث عن شخص يجعل له عنوانا: دُرّة زين لُقرة عين، وإذا كان عن شخصين مثل الفضل وأخيه جعفر يجعل العنوان: درتا زين لقرتي عين أى لمسرتي الأب والأم، ويذكر أن ابن صاحبة لأمها سألها عن ابنيها أيها يفضل صاحبه قاتلا إن الناس يختلفون فيها منهم من يقدم الفضل ومنهم من يقدم جعفرا، فقالت له: أحدثك عنها واقض أنت.

«إنها كانا يوما يلعبان في داري، فدخل أبوهما يحيى، فدعا بالغداء وأحضرهما، فطعما معه ثم أنسها بحديثه، فقال لهما أتلعبان بالشطرنج، فقال جعفر وكان أجراها: نعم، قال فهل لا عبت أخاك بها قال جعفر: لا، قال: فالعبا بها بين يدي لأرى لمن الغلب، فقال جعفر: نعم - وكان الفضل أبصر منه بها - فجيء بالشطرنج، فصُفّت بينها، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل، فقال له أبوه: مالك لا تلاعب أخاك، فقال: لا أحب ذلك، فقال جعفر

إنه يرى أنه أعلم بها فيأنف من ملاعبي، وأنا لأعبه مخاطرة (قمارا) فقال الفضل: لا أفعل، فقال أبوه: لاعبه وأنا معك، فقال جعفر: رضيت، وأبى الفضل، واستعفى أباه فأعفاه. ثم قالت الأم للسائل: قد حدثتك عنها فاقض، فقال: قد قضيت لجعفر بالفضل على أخيه، فقالت له: لو علمت أنك لا تحسن القضاء ما حكمتك أفلا ترى أن جعفرا قد سقط أربع سقطات تنزه الفضل عنهن، فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج وكان أبوه صاحب جد، وسقط على التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغلبيه والتعرض لغضبه، وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه. والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم، فناصر (عادى) صفاً فيه أبوه وأخوه، فقال السائل [حين سمع منها ذلك] أحسنت والله. ثم قال لها: عزمت عليك أخيريني هل خفى مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه، فقالت له: لولا العزمة ما أخبرتك، إن أياهما لما خرج قلت للفضل خالية به: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك؟ فقال أمران: أحدهما لو أنى لاعبته لغلبيته فأخجلته، والثاني قول أبى: لاعبه وأنا معك، فبا يسرنى أن يكون أبى معى على أخى. ثم خلوت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف، وأبوك صاحب جد، فقال: إني سمعت أبى يقول: نعم هو البال المكدود، وقد علم ما نلقاه من كد التعلم والتأدب، ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعب بها، ولا أن يبادر فننكر، فبادرت بالإقرار إشفاقاً على نفسى وعليه، وقلت إن كان توبيخ فديته من المواجهة به. فقلت له: يا بنى فلم تقول: لأعبه مخاطرة، كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله؟ فقال: كلا، ولكنه يستحسن الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين (الرشيد) فعرضتها عليه، فأبى قبولها، وطمعت أن يلاعبنى فأخاطره عليها وهو يغلبنى، فتطيب نفسه. فقال لها السائل: ما كانت هذه الدواة؟ فقالت إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظر إليها، فوهبها له. ثم قالت: قلت لجعفر: هبك اعتذرت بما سمعت، فما عذرک من الرضا بمغاضبة أبيك حين قال: لاعبه وأنا معك، فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا، فقال: عرفت أنه غالبى ولو فتر لعبه لتغالبت له مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه. فقال لها السائل مادحا للأخوين ومعجبا: بَخِ بَخِ هذه والله السيادة، ثم قال لها: أكان منها من بلغ الرشد، فقالت له: يا بنى أين يذهب بك؟! أخبرك عن صبيين يلعبان، فتقول أكان منها من بلغ الرشد، لقد كنا نهى الصبى - إذا بلغ العشر وحضر من يُستحى منه - أن يبتسم».

وهذه الدرّة - كما يسميها ابن ظفر - أو هذا الخبر عن الفضل بن يحيى البرمكى وأخيه جعفر بلسان أمهما يصور مدى براعة ابن ظفر الأدبية فى السرد الأسلوبى لأخبار نجباء الأبناء بحيث لا يتجد عنده أى غرابة فى لفظة ولا أى التواء فى عبارة، بل تجد أسلوباً مطرداً متسقاً

يروع بحسن اتساقه، فإذا أنت تركت ذلك إلى ما يشتمل عليه هذا الخبر من تربية وجدته يصور إلى أبعاد حد الفطنة التي ينبغي أن يتحلّى بها الناشئة إزاء إخوتهم ورفقائهم بحيث لا ييدر منهم لهم ما قد يؤذيهم، والخبر بحق يجسّد آداب الأخوة كما يجسّد التربية الرشيدة للأمّ وما أروع قول الأمّ: لقد كنا ننهى الصبي - إذا بلغ العشر وحضر من يُستحى منه - أن لا يبتسم». وهي صحيفة تربوية بديعية في آداب الأخوة خاصة وآداب السلوك عامة.

### سلوان المطاع في عدوان الأتباع

كتاب نفيس في التربية السياسية ترجمة المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، وقد استهله ابن ظفر بشكر القائد الصقلي محمد بن أبي القاسم القرشي الذي صنعه له سنة ٥٤٥هـ ويقول في خطبته أو مقدمته إنه عمد فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها، ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها، فتوسع في التعبير بألفاظه عنها والتفنن بقوى فطنته فيها، وكسا جسمها حلل الآداب الملوكية، وقلد عواتقها بسيوف المكايد الحربية. فالكتاب إذن ليس رواية عن كتب غيره السابقة، بل هو من تأليفه وصنعه نثرا وشعرا وحكما وأمثالا وقصصا، وهو فيه يكثر من ضرب الأمثال تارة على ألسنة بعض الحيوانات مثل كليلة ودمنة، وتارة على ألسنة شيوخ حكماء ووزراء دهاة من الفرس والعرب، وقد يتوسع بذكر قصص عن ملوك اليونان وبالمثل عن ملوك الفرس. وقد يستطرد من قصة إلى قصة أو من مثل إلى مثل على طريقة كتاب كليلة ودمنة. وإذا كان كتاب أنباء نجباء الأبناء في السلوك الاجتماعي والخلقي وآدابها فإن هذا الكتاب في آداب السياسة وما ينبغي أن يكون عليه الحاكم من الرفق بالرعية والعدل والإنصاف وما ينبغي أن يتخلّى عنه من البغى والطغيان والعسف والظلم. والكتاب موزع على خمس سلوانات: السلوانة الأولى في التفويض، والثانية في التأسى، والثالثة في الصبر، والرابعة في الرضا، والخامسة في الزهد. وعادة يبدأ السلوانه بأى من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية، ويعلق عليها تعليقات طريفة، ثم يفضى إلى غرضه في الكتاب من ضرب الأمثلة والقصص الحيوانية والإنسانية تبصرة وعظة للحكام، حتى يتبعوا الصراط السويّ في تدبير حكمهم وشئونهم مع سياسة الرعية سياسة حكيمة محكمة.

وابن ظفر يذكر في مستهل سلوانة التفويض لأحكام الله قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون التي وردت في الذكر الحكيم وكيف أن الله تقدس اسمه وقاه سيئات ما مكروا، ويذكر بعض أسجاع وأبيات حكيمة، فمن النثر قوله:

معارضة العليل طبيبه، توجب تعذيبه... إنما الكيس (العاقل) الماهر، من استسلم في قبضة القاهر - إذا التبست الموارد بالمصادر، ففوّض إلى الواحد القادر.



ومن الشعر قوله:

ياربِّ مغتبطٍ ومغف      جوط برأى فيه هُلكه  
علمُ العواقبِ دونه      سترٌ وليس يرام هتكه  
ومعارضُ الأقدارِ بأل      آراءِ سَيءٍ الحالِ ضنَّكه

ويذكر مازقين لخليفتين: أموى وعباسي، هما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والمأمون وكيف أن لقاءهما بشخصين محنكين بصراهما بما ينبغي أن يتخذا من سياسة إزاء باغيين عليهما، أما شيخ الوليد فقد عرض عليه مازقا مماثلا لجده عبدالملك بن مروان وكيف أن شيخا كبير السن لقيه وهدها إلى ما ينبغي اتخاذه من السياسة والتدبير حتى ينتصر على عدوه الباغي، وضرب له مثلا أو قصة عن ثعلبين وحية وكيف أن الباغي تدور عليه الدوائر، وأما شيخ المأمون فضرب له مثلا من بغي فيروز الملك الفارسي على ملك الهياطلة الذي كان قد أسره في بعض الحروب ورد إليه حريته بعد أن عاهده على أن لا يغزو بلده ولا يقصدها بسوء، ودارت الأيام بعد رجوعه إلى دار ملكه فصمم على غزو ملك الهياطلة وبلاده، وفي طريقة بغي أحد فرسانه على مسكين فقتله، وتصدَّى له أخوه يريد مصارعتة، وخوفه الناس منه، فقال لهم: دعوني وإياه فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لا بس درع الشك وأنا لا بس درع الثقة، وهو مقاتل بسيف البغي وأنا مقاتل بسيف الحق، وانتصر الحق على البغي وقتل أخو المسكين الفارس أو الإسوار العظيم من أساورة فيروز. ويقول الشيخ للمأمون إن فيروز لم يتعظ من هذا الحادث ومضى حتى وطىء كثيراً من أرض ملك الهياطلة، والتقيا ودارت الدوائر على فيروز وجنده ثمره بغيه وعدوانه. ولقيت مقالة الشيخ قبولا لدى المأمون على إرسال الجيوش للباغي عليه، وكان أخاه الأمين الذي نكث عهد أبيه أن يكون المأمون ولي عهده والخليفة بعده، فنكث العهد ونسبت بينها الحرب ضارية وانتصر جيش المأمون وقتل الأمين الذي لم يرع لأبيه عهده ولا خاف تبعه نكته.

وخلال هذه الأمثال أو القصص التي ضربها الشيخان للمأمون والوليد تتعاقب حكم كثيرة طريقة لتوعية الحكام بأداب الحكم وما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم من السياسة الحكيمة للرعية ومع الأعداء. من ذلك قول ابن ظفر: «الرأى سيف العقل - كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام - من دلائل الوفاء بر الآباء والأمهات وصلة ذوى القربات - الباغي باحث عن مدية حتفه بظلفه ومترد في مهاوى تدميره بمساوى تدميره - الهوى طاغية فمن ملكه أهلكه - الهوى كالنار إذا تحكمت انتقادها عسر إخمادها، وكالسيل إذا اتصل مده تعسر صده».

ودائماً تلقانا مثل هذه الحكم في الكتاب، و تنتقل معه إلى سلوانة التأسي، وقد أدارها على قصة طويلة لسابور الملك ووزيره وحيله واستطرد في أثنائها لقصتي فتى وفتاة و فرس وخنزير وينثر في تضاعيفها كثيراً من الحكم السياسية والاجتماعية مثل قوله: مَنْ غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، وَمَنْ غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الحلم اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة، ومن غرس المداراة اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقت، ومن غرس الحرص اجتنى الذل، ومن غرس الطمع اجتنى الخزي، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد. ويقول: تتميز الملوك على السوق بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذات الملك تتميز بخمس خصال: رحمة تشمل الرعية، وتغطية تحوطهم، وصوله تدبُّ عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحزم ينتهز به الفرص. ويقول في سلوانة الصبر التالية:

صبر الملوك ثلاثة قوى: قوة الحلم وثمرتها العفو، وقوة الكلاءة (الرعاية) والحفظ وثمرتها عمارة المملكة، وقوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات وفي حُماة المملكة الإقدام في المعارك، ولا يراد من الملك الإقدام في المكافحة، فإن ذلك من الملك تهور وطميش وتغريز، وإنما شجاعته ثباته حتى يكون قُطباً للمحاربين ومعقلاً للمنهزمين، وهذا ما دام بحضرته من يثق بذبِّه عنه، ودفاعه دونه، وحمايته له. ومما قاله في هذه السلوانة: صلاح الملك: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منها بغير عنف، والتودد بالعدل، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم.

وتلى ذلك سلوانة الرضا، ومن حكمه فيها الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولا يخفى عن البصائر الباصرة - أمران يسلبان الحر كمال الحرية: قبول البر، وإفشاء السر - كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار - مَنْ لزم الرقاد عدم المراد - كن من عينك على حذر، فرب جنوح حين (هلاك) جناه جموح عين - السامة من أخلاق العامة - ما أحرى الملوك بأن يحرم المأمول. ومن قوله في سلوانة الزهد الأخيرة:

يا متعباً كدَّه الجِرُّ      صُ في الفضول وكاده  
لو حزت ما حاز كسرى      وما حوى وأفاده  
ما كنت إلا معنيُّ      ومغرماً بالزَّيَّاد  
لم يصفُ في الأرض عَيْشُ      إلا لأهل الزهاده

ودائماً يضع مثل هذه الأبيات في صدر كل سلوانة، مما يصور شاعرية خصبة لديه بجانب ما يسوق من حكم مسجوعة في عبارات محكمة، وأيضاً ما يسوق من أمثال وقصص في أساليب متناسقة، تصور حساً دقيقاً وذوقاً مصفى وقدرة على الحوار الأدبي البارع.

## ملحق

### ابن قلاقس الإسكندري<sup>(١)</sup> في صقلية

#### لعهد غليوم الثاني

مرّت بنا ترجمة ابن قلاقس الإسكندري في الحديث عن تاريخ الأدب العربي بمصر، وهناك ألمنا برحلته إلى صقلية في إيجاز، وحرى بنا الآن أن نفصل الحديث فيها بعض الشيء تنمة للكلام عن صقلية، وقد رحل إليها في سنة ٥٦٣ للهجرة، وهو في نحو الثلاثين من عمره وظل بها نحو سنتين، وحرار الدارسون له في تبين أسباب تلك الرحلة ودوافعها، غير أن من يتعقب أشعاره وأخباره يعرف أنه كان على صلة وثيقة بالرشيد بن الزبير أحد أعلام الثقافة والأدب والشعر في عصره حين ولي النظر بثغر الإسكندرية في الدواوين السلطانية سنة ٥٥٩ للهجرة وكان قد وضع يده في يد صلاح الدين الأيوبي حين ولاه عمه أسد الدين شيركوه الإسكندرية في أثناء حربه مع شاور وزير الفاطميين وأعوانه من الصليبيين سنة ٥٦٢ وتطورت الظروف حينئذ وعاد صلاح الدين مع عمه شيركوه إلى الشام وتركا مصر. ولم يكن هم شاور بعد خروجهما من مصر في تلك المرة إلا طلب من انضموا إلى صلاح الدين من رجال الدولة في الإسكندرية وفي مقدمتهم الرشيد بن الزبير، وسارع الرشيد فاختبأ في إحدى الدور بالمدينة فترة، وقبض عليه وقتل في شهر المحرم سنة ٥٦٣ ونرى ابن قلاقس يرسل إليه في محبته قصائد يستهل إحداها بقوله:

تدائنت داراً والوصولُ سُسُوعُ      فخلُّك ذو الودِّ الوصولُ قَطُوعُ

وهو يقول له إن دار محبتيك قريبة، غير أن الوصول بعيد، وكأنه يخشى أن يزور الرشيد فيتنبه رجال شاور إلى محبته، ويقول له: خلُّك الودود الوصول يُرى كأنه لم يثبت على ودك وإخائك، ولعله يريد نفسه، وفي رأينا أن هذه الصلة بين ابن قلاقس والرشيد الذي كان في مقدمة الثائرين على شاور وانحاز إلى صلاح الدين وما حدث من طلب شاور له، ومقتله هذه الصلة هي التي جعلت ابن قلاقس - في رأينا - يفكر في الرحيل عن الإسكندرية خشية أن يلقي نفس المصير على يد رجال شاور، إما لصداقته للرشيد وإما لأنه كان ممن التفوا حول

شعر ابن قلاقس الإسكندري وآثاره النثرية للدكتور محمد زكريا عناني (طبع دار المعارف) وترسل ابن قلاقس الإسكندري تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع (طبع الرياض) وكتاب العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧ وما بعدها.

(١) انظر في رحلة ابن قلاقس إلى صقلية كتاب خريدة القصر: قسم شعراء مصر (طبع القاهرة) ١٤٦/٨ وما بعدها وكتاب الزهر الباسم والعرف الناسم في مديح الأجل أبي القاسم لابن قلاقس تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع (نشر جامعة الملك سعود) والنصوص الصقلية من

صلاح الدين في مقامه بالإسكندرية حينئذ. وأخذ يفكر إلى أين يرحل ورأى أن يرحل بعيدا عن مصر وديارها، وصمَّ على الرحيل إلى صقلية، وكان قد سمع ممن يلمون بمجالس شيخه السلفي أحيانا من أهل صقلية في ذهابهم إلى الحج أو في عودتهم منه - يزعم المسلمون بجزيرتهم أبي القاسم ابن الحجر بن حمود بن محمد القرشي وكرمه الفياض وفي كتابه الرائع: الزهر الباسم والعرف الباسم في مديح الأجل أبي القاسم الذي وصف فيه رحلته إلى صقلية وسجل مدائحه في أبي القاسم بن الحجر نراه يذكر أنه كان قد أرسل إليه مدحة سنة ٥٦١ فكان طبيعيا أن يفكر في النزول بجزيرته فرارا من شاور ورجاله. ونزل في غُرَّة شعبان من سنة ٥٦٣ في مدينة مسيني في الشمال الشرقي من صقلية، وأعجب بموقعها من البحر المتوسط وبمشاهدها الطبيعية ومبانيها الرائقة، مما جعله يتشد في وصفها قوله:

بلدٌ أعارته الحمامة طَوْقَهَا      وكسَاهُ حُلَّةَ ريشه الطاووسُ  
فكأنما الأزهارُ منه سُلَافَةٌ      وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كئوسُ

ومكث بها فترة قليلة، واتجه غربا إلى العاصمة «بلرم» على الساحل الشمالي للجزيرة، وأحسن استقباله أبو القاسم بن الحجر بن حمود القرشي وظل حفيا به طوال مقامه بالجزيرة، وكان زعيم المسلمين في الجزيرة، كما أسلفنا، ومن كبار رجالات الدولة لعهد الملك غليوم (غليوم) الثاني وأخذ ابن قلاقس يتعرف عن طريقه إلى بعض رجال الدولة النورمانية، وكأنما كان من واجب من ينزل صقلية من الشعراء المسلمين أن يمدح ملكها النورماني وبعض رجال دولته، ومر بنا أن عبد الرحمن بن رمضان المالطي استنفذ أكثر شعره في مديح روجار وأن ابن بشرون المهدي التونسي مدح روجار الثاني، وقد مدح ابن قلاقس غليوم (غليوم) الثاني بقصيدة ميمية روتها إحدى مخطوطات الديوان، وله يقول:

كذا فليكنْ عزمُ الملوكِ وقلمها      ترى ملكا يأتي بمالك من عزم.

وفي القصيدة مبالغات مفرطة في مديح غليوم، وكان حريا بابن قلاقس أن يأنف من أن يسبغها على ملك مسيحي نهب هو وآبؤه الجزيرة من أهلها المسلمين، ولكن ربما دفعته إلى ذلك ضرورة لبقائه في الجزيرة دون تعرض له أولادن برحيله، ولعل نفس الضرورة هي التي دفعته لمديح جردنا أحد رجال الدولة النورمانية ويصفه بأنه وزير، وربما كان قائما على شئون الأمن، وفيه يقول:

وجردنا المدائحَ فاستقرت      علي أوصاف جردنا<sup>(١)</sup> الوزير  
فنظمتنا المفاخر كاللآلي      وحلينا المعالي كالنحور

(١) في الزهر الياسم: يزجرد.

وأعجبُ ما جرى أنا أمنا  
رأى منه المليكُ جلي أمين  
فصدّره على الديوان سَطْرًا  
ومدّ على الرعيّة ظلّ عدلٍ  
ونحن بجانب اللَّيْثِ الهصور<sup>(١)</sup>  
بَرِيءِ النَّصْحِ من سَقَمِ الضميرِ  
هو البَسْمُ الذي فوق السطورِ  
وقاهم لَفْحَ ألسنةِ الهجيرِ

والقصيدة تطفح بالمبالغات المرفقة مثل قصيدة غليولم (غليوم) الثاني. وشخصية ثالثة من شخصيات الدولة النورمانية هي شخصية غارات بن جوش، ولم ينظم فيه قصيدة إنما كتب إليه رسالة شكر، يقول فيها إنه فارق حضرته: «ممتلىء اليد نعمة، والقم نعمة، والناظر أموالا، والناظر أموالا، اصطناعا منها (أى الحضرة) وتفضلا أبى الله أن يصدر إلا عنها».

وإذا رجعنا إلى راعيه أبى القاسم بن الحجر الذى قصد الجزيرة من أجله وجدناه يلقب بالقائد، وكان من الأثرياء ذوى الإقطاعات الواسعة، ويذكر ابن جبير في رحلته أنه رأى له ولأهل بيته قصورا أنيقة في بلرم، وقد أضفى على ابن قلاقس من الإكرام والأموال مما جعله يلهج بالثناء عليه في قصائد كثيرة بل ما جعله يؤلف فيه كتابه الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم» ويشيد في مطلع الكتاب به إشادة رائعة، ثم يصف ركوبه البحر المتوسط نثرا مسجوعا بديعا وشعرا رائعا من مثل قوله:

الناس كَثُرٌ ولكن لا يقْدُرُ لى  
أقلعتُ والبحر قد لانتْ شكائمه  
فعاد - لاعاد - ذاريجٍ مدمرةٍ  
ونحن في منزلٍ يسرى بساكنه  
إلا مرافقةُ الملاحِ والحادى  
جدا وأقلعَ عن موجٍ وإزبادٍ  
فاسمَعُ حديثَ مقيمٍ بيته غادى  
كأن حالاتنا حالاتُ عبّادٍ  
لا يستقرُّ لنا جنْبُ بمضجيه

وهو يقول إن كثيرين من الناس مقيمون لا يبرحون ديارهم وأوطانهم، أما هو فقدّر له أن يرافق الملاحين في لجاج البحار وحداة الإبل في فيافي الصحارى، ثم يقول إن السفينة أقلعت رافعة شراعها وقد سكن البحر وكفّ عن موجه وإزباده، وسارت السفينة في عرض البحر المتوسط، وما هى إلا ساعات حتى هبت ريح عاصفة أشد العصف، كأنها أخت ريح عاد الموصوفة في الذكر الحكيم بأنها صرصر شديدة البرد عاتية ويتصور السفينة منزلا غير أنه منزل لا يستقر، وكأنه ساكن مقيم وبيته منطلق به، وهو ومن حوله لا يستقر لهم جنب في مضاجعهم بهذا المنزل لكثرة تمايله، وكأنما هم عبّاد فهم بين راكم وساجد منكفء على جبينه. وما زالت تلك

(١) الهصور: المفترس.

حال السفينة وسكانها والبحر المتوسط وجنونه حتى اقتربت السفينة من الجزيرة وثرغ مسيني في أقصى الشمال الشرقي، وحينئذ كست البحر الرُخاء (الريح اللينة) ثوب وقارها، وأمسكت الزَّعْرُعُ (الريح العاصفة) عنه كأس عُقارها (خمرها) وصحا بعد جنونه وسكره» كما يقول ابن قلاقس.

ومضى العماد في الخريدة يقتبس من كتاب الزهر الباسم بعض المدائح التي نظمها ابن قلاقس في أبي القاسم بن الحجر، ويتضح منها ومما تحدث به عن أبي القاسم في الكتاب أنه لم يكن قائداً أو مساعداً من مساعدي الدولة فحسب، بل كان أيضاً على رأس دواوين الدولة، ومعروف أن تلك الدولة كانت تتخذ العربية لغة رسمية لها أو على الأقل كانت مكاتبتها في الدواوين لا تقل عن مكانة اللغة النورمانية، ونرى ابن قلاقس يشيد ببراعة أبي القاسم الكتابية حتى ليقول: «إن ألبس قلمه المداد عَرِي من الفصاحة قَسُ إِياد، وإن أنطق طِرُسَه الرسائل، أحرَسَ عن الخطابة سحبان وائل، يلزم لديه ابن العميد، سَمَتَ العبيد، ويفدو عليه عبد الحميد غير حميد، ويقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ونهاية الصائغ أنه بألفاظه صائغ». وهو بذلك يرفع بلاغته الكتابية فوق بلاغة قس الإيادي خطيب الجاهلية وسحبان وائل خطيب العصر الأموي وعبد الحميد الكاتب المشهور في الدولة الأموية وابن العميد والصاحب بن عباد الكاتبين الفذين للدولة البويهية والصائغ الكاتب البغدادي المعروف في القرن الرابع، وكان من الصابئة ويستغل اسمه في أنه إزاء بلاغة أبي القاسم يصبأ أو يكفر ببلاغته. ومن قوله فيه بأولى مدائحه، وفيها يصف البحر وركوبه وصفاً بديعاً:

أنت في الفضل في بني الحجر السَّا	دَة مثلُ الياقوت في الأحجار
وبيئناك طَيْرُ يُمْنٍ وَسَعْدٍ	أَصْفَرُ الظَّهْرِ أَسْوَدُ المنقارِ
قلمٌ دَبَّرَ الأقاليمَ فَالْكُتُّ	بُ به من كتائب الأقدارِ
يا طرازَ الديوانِ والمُلكِ أصبحَ	تَ طرازَ الديوانِ في الأشعارِ

والبيت الأول بديع، فبنو الحجر السادة أحجار كريمة، وهو بينهم ياقوت متوهج، وبيئناه قلم كأنه طير ين وسعد، جلده - أو كما يقول ظهره - أصفر ومنقاره أسود، وهي إشارة بديعة إلى أنه يُقَمَسُ في مداد أسود، ويقول: إن هذا القلم يدبرُّ أقاليم الجزيرة بما يكتب من رسائل ديوانية مختلفة، سياسية وغير سياسية يصرفُ بها أمور سكان الجزيرة المسلمين، وهنته بأنه زخرف الديوان والمُلك النورماني، وانضاف إليه أنه أصبح زخرف ديوانه وأشعاره. ويقول في قصيدة أخرى:

قد أقسم الحمدُ لا يُشيرُ إلى غير أبي القاسم بن حمود

فى يده للنوال معركة  
وتلتقى كُتِبُهُ الكتائب فى  
بكل لفظٍ كأنه نفسُ  
صَحَّتْ معانيه فأنقَسَمَن إلى  
وربما استضحك الخميسُ بهِ  
أرَدَى بها البُخْلُ صارُمُ الجودِ (١)  
جيشٍ من الخَطِّ صائِدِ الصَّيدِ (٢)  
غيرِ مملٍ بطولِ ترديدِ  
فضلِ ابتكارٍ وحُسنِ توليدِ  
عن أَهْرَتِ الماضينِ صَنِيدِ (٣)

فالحمد لا يعرف طريقا إلى أحد يستحقه سوى ابن حمود أو ابن الحجر الذى أقام للجود معركة تلمع فيها السيوف القاطعة للرقاب: رقاب البخل والشحّ اليغيض، وإن رسائله لتخضع لها كتائب الجيوش المسلحة، وبعبارة أخرى تخضع لجيش من الخط والكتابة البليغة التى تستنزل العصاة العتاة، بكل لفظ يلذ للسان والآذان بحسن جرسه وروعة معانيه المولدة والمبتكرة. وليس ذلك كل ما يميز ابن حمود فإنه يتميز أيضا بالبأس والشجاعة حتى لكأنه أسد يمزق فرائسه بماضغيه أو أنيابه، أسد صنديد، شديد غاية الشدة. ولا بن قلاقس مدائح وأشعار كثيرة بديعة فى ابن الحجر، من ذلك قوله:

إن ابنَ حمودٍ له راحةٌ  
فى كلِّ يومٍ لوفودِ الندى  
للمال من راحته عندهم  
ولو أعار الليلَ آراءه  
تستجلب الحمدَ من المرزَمِ (٤)  
بيابه مُجْتَمِعُ الوفودِ  
أضعافُ ما للماءِ من زَمَزَمِ  
ما احتاج ساريه إلى الأنجمِ  
تُنطِقُ بالشكرِ فَمَ الأبْكمِ

وهو يقول إن راحة ابن حمود ما تزال تهطل بالجود، حتى لكأنما تريد أن تجلب لنفسها الحمد من نوء المطر وغيثه المدرار، ويبالغ فى مديحه فيقول كل يوم تجتمع الوفود ببابه وتأخذ من ماله أضعاف ما يأخذ الناس من ماء زمزم، ولو أنه أقرض الليل آراءه ما احتاج ساريه إلى نجوم تهديه فى جنح الظلام. فضائل ليس لها مثيل تكاد تنطق فم الأبكم بالشكر والامتنان. ونراه يقوم برحلة بحرية إلى سرقوسة فى شرقى صقلية، ويبدأ فيها بمدينة ثرمة فى الشمال شرقى بلرم، وغادرها سريعا لحرارتها الشديدة حتى لكأنه شرب فيها ماء المهل أو شراب الكفار فى جهنم أو كأنما طعم شجرة الزقوم طعام الكفار فى النار الحامية، واتجه شرقا إلى جفلود، وشاهد رياضها

(١) صارم: سيف.  
(٢) الصيد جمع أصيد: السيد.  
(٣) الخميس: الجيش. أهرت الماضين: واسع  
(٤) المرزم: نوء كثير المطر.

(٤) المرزم: نوء كثير المطر.

وما يحفّ بالعيون فيها من حورعين، غير أنه أسرع في مغادرتها إسراع من يُطلب بالدين أو كمن يُطلب في صقلية بالدين مشيراً بذلك إلى اضطهاد المسلمين فيها، ويقول إنه نزل ثغر مسيني وظل فيها تسعين يوماً عند جلف ثقيل الظل لا يحفّ أبداً حتى لو طار بجناحي جبريل، وركب السفينة أو المجنونة كما يسميها على ماء مجنون حتى ليظن أنه سيكون طعاماً للحيتان، وينزل سرقوسة أخيراً ويجد فيها الملجأ الأمين. والقصيدة وصف بديع لرحلة بحرية في صقلية، وقد أتبعها بوصفه لرحلة برية من سرقوسة إلى بلرم حيث راعيه الأمين أبو القاسم بن الحجر، ولا يتضح سبب رحلته إلى سرقوسة وعودته، وفي رأبي أنه كان يبحث في الثغور التي مرّ بها عمن يحدثه عن مصر وأحوالها وهل لا يزال شاوور وأعوانه متسلطين فيها على الحكم، وكان أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قد عادا إلى مصر سنة ٥٦٤ في قدمتها الثالثة، وسرعان ما قبض على شاوور وقتل وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين وتوفى، وتولاها صلاح الدين. وأكبر الظن أن كل ذلك علم به ابن قلاقس، فاطمأن وصمّم على العودة إلى وطنه بعد وداع راعيه أبي القاسم وأصدقائه في بلرم من مثل هبة الله السديد الحضري وله فيه مدائح بديعة ومثل الفقيه أبي الحسن علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي، ويقول عنه في كتابه الزهر الباسم: «هو حدقة العلم الناظرة، وحديقة الأدب الناضرة» ويسوق ابن قلاقس في الكتاب ما كان بينها من مكاتبات شعرية قبيل رحيله، وله يقول مودعا:

تَخَذْتُكَ مِنْ صَقْلِيَّةٍ خَيْلًا      فَكُنْتَ الْوَرْدَ يُقَطَّفُ مِنْ قَتَادِ  
وَسَمْتِكَ بَيْنَ أَهْلِهَا صَفِيًّا      فَكُنْتَ الْجَمْرَ يُقْبَسُ مِنْ زِنَادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو صقلية وأهلها بأنهم شوك وابن خلف وحده هو الورد، ولا أنهم زناد صلد لا يخرج منه شرر وهو وحده الجمر، وكل ما في الأمر أنه مدحه مودعا وبالغ في مدحه. وابن قلاقس أشعار متعددة في وصف مجالس الشراب بصقلية ووصف المغنين بها والراقصات من مثل قوله:

ومغنٌّ تناولتْ يَدَهُ الْعَو      دَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ  
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْمَزَامِيرِ أَسْرَى      بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ  
وَصَبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طُرَرَ اللَّيْلِ      لَ جَمَالًا عَلَى الْوَجْهِ الصُّبْحِ  
يَبْعَثُ الرِّقْصُ مِنْهُمْ حَرَكَاتِ      سَرَقَتْ بَعْضَهَا طِوَالَ الرِّمَاحِ

وهو يقول إن صوت المغنى وهو يضرب على العود صوت مفرح ونسيم أنغام المزامير من حولهم تسرى في أجسامهم سريان الأرواح، وراقصات فاتنات تنهدل خصل الشعر على جباههن وهن يتننن ويتحركن حركات رشيقة، وكأنما سرقت الرماح في أيدي المحاربين بعض



حركاتهن ورشاقتهن. وقد رحل عن صقلية والصلة بين أبي القاسم والدولة صلة طيبة، وبتأثير من الوشايات صودرت أمواله بعد رحيل ابن قلاص وإقطاعاته وأُغرم ما يزيد على ثلاثين ألف دينار، وزار ابن جبير الجزيرة وقد عُفي عنه وعاد إلى سابق العهد به، ولذلك يقول ابن جبير عنه حينئذ إنه زعيم أهل الجزيرة من المسلمين وسيدهم. وعاد ابن قلاص إلى القاهرة سنة ٣٦٥ قبل تولي صلاح الدين وزارة العاضد الفاطمي فمدحه ومدح رئيس الدواوين، القاضي الفاضل، وكأنما ظن أن الأحوال في مصر لاتزال غير مستقرة فرأى أن يزور اليمن، وربما كان الذي حببه في زيارتها صديقه الرشيد بن الزبير الذي كان قد زارها وتقلد أحكامها وقضاءها فترة كما يقول ياقوت، وفي أثناء عودة ابن قلاص منها سنة ٥٦٧ أسلم روحه إلى بارئها بثغر عيذاب على الساحل المصري للبحر الأحمر وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

## خاتمة

تحدثت - في الصحف الماضية - عن ليبيا في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي تونس وصقلية من الفتح العربي إلى العصر الحديث. وعرضت جغرافيتها وتاريخها القديم وأنها ظلت تستقبل الحضارات الفينيقية والقرطاجية واليونانية والرومانية والبيزنطية دون أن تضيف إليها شيئا، وألمت بفتح العرب لها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتعاقب الولاة عليها في العصرين الأموي والعباسي، وتبعية طرابلس للدولة الأغلبية في القيروان منذ سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م إلى ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م بينما كانت برقة تتبع مصر. ويتبعان جميعا الدولة العبيدية، ويسترد بلكين الصنهاجي تبعية طرابلس إلى القيروان ويؤسس بها بنو خزرون دولة ظلت خمسين عاما، وتعمها هي وبرقة الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجري، وقد أحالوا معظم ليبيا إلى مشيخات بدوية، وبعث فيها فسادا قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وتتبع برقة مصر في عصر الأيوبيين والمماليك، ويوكلون عنهم بني عزاز في حكمها وجبايتها، وتتبع طرابلس الدولة الحفصية في تونس، ويؤسس بها بنو عمار دولة لهم من سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م إلى ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م وتعود للحفصيين ويستولى عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١م ويتركها سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م لفرسان مالطة، ويخرجهم منها الأسطول العثماني سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م وتظل للعثمانيين، ويتولاها منهم أحمد القرمانلي سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ويجعلها وراثية في أبنائه إلى أن استردها العثمانيون منهم سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وسكان ليبيا - من قديم - ينقسمون إلى حضر في المدن على الساحل وما وراءه من بساتين وزروع، وإلى بدو رُحَّل في منطقتي شبه الصحراء والصحراء الليبية المترامية الأطراف. وقد نزلتها عناصر جنسية كثيرة بجانب سكانها البربر من فينيقيين وإغريق ويهود ورومان وزنوج وعرب وترك وجلبهم المسيحي الأوربي من القرصنة. وبجانب النشاطين الزراعي والرعوي وصيد الأسماك والإسفنجة على السواحل نمت بليبيا صناعات يدوية كثيرة مثل عصر الزيت ونسيج الملابس والأبسطة ودبغ الجلود واستخراج الملح من السواحل. وكان البربر وثنيين،

ونزل بديارهم اليهود، وحاول الرومان وكنيسة الإسكندرية نشر المسيحية بها وخاصة في المدن الشمالية واكتسحها الإسلام، ودخل فيه سكانها أفواجا، حتى أصبح دينهم في كل مكان كما أصبحت العربية لسانهم، وشاع المذهب الإباضي في جبل نفوسة وطرابلس، وحاول العبيديون - حين أقاموا دولتهم في القيروان - نشر عقيدتهم الإسماعيلية الشيعية في ليبيا، ورفضها سكانها، وعلى مر العصور آثرت ليبيا مذهب مالك السنّي، وتبع بعض أهلها في العهد العثماني المذهب الحنفي غير أن مذهب مالك ظل هو المذهب الغالب على الليبيين. ونرى كثيرين من الليبيين - على مر العصور - يؤثرون الزهد في متاع الحياة والتقشف طلبا لما عند الله من الثواب ونعيم الفردوس، وشاعت بينهم في الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

ومنذ الفتح العربي ودخول ليبيا في الإسلام كان فاتحوها يعملون - بكل ما وسعهم - على نشر الدين الحنيف بها، وسرعان ما شاعت فيها الكتابات لتحفيظ القرآن الكريم، كما استدارت في المساجد حلقات الشيوخ يلقنون الناس شيئا من تفسير الذكر الحكيم ومن الحديث النبوي وقواعد الفقه وتعاليم الإسلام، وأخذ بعض أبناء ليبيا يطلبون السعة في الزاد العلمي، فرحلوا إلى المشرق للتزود من حلقات علماء العربية وعلماء الفقه والدراسات الدينية، وعُتوا خاصة بالأخذ عن الإمام مالك فقيه المدينة وتلاميذه المصريين. وأخذت تنمو العلوم الإسلامية واللغوية في ليبيا على مر الزمن وازدهرت في عهد الدولة الحفصية بما أنشأت من مدارس وما نشأ من زوايا كانت تُعنى بدراسة العلوم، وأصاب الحركة العلمية غير قليل من الحمود والركود في عهد الدولة العثمانية.

وإذا تعقبنا العلوم والعلماء في ليبيا على مر القرون لاحظنا أنه لم ينشأ فيها نشاط في علوم الأوائل، بخلاف العلوم اللغوية والدينية فقد اشتهر فيها كثيرون في مقدمتهم الأجدابي اللغوي في القرن الخامس الهجري والمقرئ مؤمن بن فرج في القرن الخامس الهجري أيضا والحافظ المحدث الكبير أحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع الهجري وعلى شاكلته ابن عبيد في القرن السابع، ويتكاثر الفقهاء السنيون مثل ابن المنمر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع، وبالمثل فقهاء الإباضية، ومنهم عمرو بن فتح النفوسى في القرن الثالث والجيطالى في القرن الثامن.

وأسرعت ليبيا في التعرب لسببين : كثرة من نزل بها من القبائل وكثرة من استقر بها من الجند، وأتمت تعربها هجرة الأعراب الكبرى من بنى سليم وبنى هلال وامتزج الشعبان: البربري والأعرابي وأصبحت شعبا واحدا في الأخلاق والعادات والفروسية والنجدة والرّى والمأكل والأفراح والأحزان، وسرعان ما انتصرت العربية على البربرية. ويشهد الرحالة العبدري في أواخر القرن السابع لأهل برقة بالفصاحة ولا تزال لغتهم في التخاطب إلى اليوم

أقرب إلى الفصحى من لغة أى بلد عربى. ولم تحدث فى ليبيا قبل عصرها الحديث نهضة أدبية واسعة، ومرجع ذلك إلى أنها لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء ولا أنشئ فيها ديوان يعبث فيها حركة نثرية أدبية، وأول شاعر بها ينال شيئاً من الشهرة خليل بن إسحق فى القرن الثالث الهجرى، ويتكاثر شعراؤها فى القرن السابع من أمثال فتح بن نوح الإباضى وابن أبى الدنيا وابن معمر، وأهم شعرائها فى العهد العثمانى البهلولى الطرابلسى، وله ديوان كله مدائح نبوية، ومن الشعراء بعده أحمد بن عبد الدائم. وتشير كتب التراجم بأن لهذا الكاتب الليبى أو ذاك رسالة أو مقامة، وتكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر منها شيئاً، ولفتح بن نوح الإباضى الشاعر كتاب كله وعظ على شاكلة كتاب ملتقى السبيل لأبى العلاء المعرى.

## ٢

وانتقلت فى القسم الثانى من هذا الجزء إلى تونس فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ودخول أهلها فى الإسلام أفواجا وظل مدة يتعاطم فيها وفيما وراءها من بلاد المغرب. ومن ولايتها الأولين وولاية المغرب جميعه عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس وناشر الإسلام فيه وفى المغرب جميعه حتى المحيط، ووليها للعباسيين يزيد بن حاتم المهلبى وأحدث بها حركة أدبية خصبة، وتولاها إبراهيم بن الأغلب للرشيد سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م ويجعلها الرشيد وراثية فى أبنائه، وتظل تلك الدولة الأغلبية حتى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م ومن أعمالها الجليلة فتح صقلية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م وفتح مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م ونشر الدين الحنيف واللغة العربية بها، وتحلف الدولة العبيدية تلك الدولة إلى أن انتقل الخليفة العبيدى المعز إلى القاهرة سنة ٣٦١ هـ/٩٧١ م وجعل حكم إفريقية التونسية بعده لقبيلة صنهاجة وزعيمها بلكين، وظلت تلك الدولة الصنهاجية موالية للخلفاء الفاطميين فى القاهرة إلى أن أعلن المعز بن باديس الصنهاجى استقلاله عن خلافتهم سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م وقبل بل فى سنة ٤٣٩ أو ٤٤٠ وغضب الخليفة الفاطمى المستنصر، فسلب عليه أعراب بنى سليم وبنى هلال النازلين شرقى الصعيد، وكانوا نحو نصف مليون، فاكتسحوا ليبيا وإفريقية التونسية، وحاربوا المعز فى القيروان وهزموه، واضطروه إلى الانزواء فى مدينة المهديّة، واستقل بعض الولاة فى مدن إفريقية التونسية وأنحائها بالحكم، وقام فيها نظام أمراء الطوائف إلى نحو قرن. ونزل روجار الثانى النورمانى ساحل تونس سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م واستولى على المهديّة وطرده منها عبد المؤمن أمير دولة الموحدين المغربية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وعات بها فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وخلصها منهم الموحدون والدولة الحفصية، وازدهرت الحياة بها فى أيام

الحفصيين، وحاصر لويس التاسع تونس، وقبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م وخلصها من الإسبان الأسطول العثماني سنة ٩٨١ هـ/١٥٧٤ م وأصبحت تابعة للدولة العثمانية وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وتوارثها أبناؤه وحسين بن على وبالمثل توارثتها أسرته حتى العصر الحديث. ونزل إفريقية التونسية - بجانب سلالات البربر العريقة بها - عناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجنية ويهودية وزنجية ورومانية وألمانية من الواندال وبيزنطية وعربية ومن كان في جيوش العرب من الشعوب الإسلامية ونزلتها عناصر أندلسية وتركية وأوربية مسيحية ممن كان يأسرهم القراصنة، ومع كل هذه العناصر ظلت للعنصر البربرى الغلبة، وظل يفرض عليها شخصيته وهويته. وتروج إفريقية التونسية - من قديم - بطيبات الرزق من الزروع وأشجار الزيتون والفاكهة والنخيل، وتروج مراعيها بقطعان الغنم والأبقار والخيل والإبل. وتكثر بها الصناعات اليدوية مثل عصر الزيتون ودبغ الجلود وصناعة الزجاج والبلور والخزف والمنسوجات على اختلاف أنواعها والورق وكل ما تحتاج إليه المنشآت العمرانية. وأهلها هذه المنتجات الصناعية والزراعية وما كان يرد إليها من إفريقيا السوداء لتكون سوقا تجاريا عالميا. وهياها كل ذلك لرفه واسع في المطعم والملبس وما يتصل بذلك من كثرة الاحتفالات والأعياد والعناية بالموسيقى وآلات الطرب. وحظيت المرأة في هذا المجتمع بمكانة كريمة.

وكان البربر قديما وثنيين، ونزلت بينهم جماعات من اليهود، وحاولت نشر دينها اليهودي فيهم واستجابت لها أقلية، واستولى الرومان على ديارهم وأخذوا يحاولون - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر الدين المسيحي بها وتأسست بعض الكنائس والأسقفيات، واعتنقه بعض البربر - وخاصة في المدن الشمالية، وظلت في العهود الإسلامية عناصر صقلية مسيحية تنزل بالبلاد، وعناصر أخرى ممن كان يأسرهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين السماوى الوحيد الذى عمم - بعد الفتح - إفريقية التونسية وجميع البلدان المغربية لتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ولبساطته ومحوه الفوارق الطبقيّة بين أفراد الأمة. واختارت إفريقية التونسية مذهب مالك الفقهى السنى، وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى، وعاد إلى الظهور أيام العثمانيين. ولم تنجح في إفريقية التونسية مبادئ الإباضيين ولا مبادئ العبيديين الإسماعيلية الشيعية، ومن قديم يتكاثر بها الزهاد وكثرت فيها - منذ القرن السابع - الطحق الصوفية.

ونشطت الحركة العلمية في إفريقية التونسية منذ الفتح، وكان يقودها في أول الأمر الفاتحون بنشرهم للدين الحنيف وتعاليمه، وما نكاد نقبل على القرن الثانى الهجرى حتى ينشأ جيل من أبناء البربر والعرب يطلب المزيد من العلم، ويرحل في طلبه إلى المشرق للقاء أبى حنيفة ومالك

ويحمل مذهبها إلى مدينتي القيروان وتونس، ويساعد في ازدهار الحركة العلمية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة في القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشأه الحفصيون من مدارس ومكتبات. وتعنى إفريقية التونسية بعلوم الأوائل ويؤسس فيها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٧١-٤٨٩هـ) بيت الحكمة للعناية بتلك العلوم، وتشتهر القيروان بأطباء كبار كان لهم تأثير عظيم في النهضة الغربية كما تشتهر بفلكى جزائرى كبير هو على بن أبى الرجال كان له تأثير قليل في علم الفلك الأوروبى. وتؤسس الدولة الصنهاجية مدرسة في الكيمياء، وينبع في الدولة الحفصية كيميائى هو التيفاشى، وملتقى فيها بأطباء رياضيين متعددين وبيعض الجغرافيين. ويكثر علماء اللغة والنحو في العهد الصنهاجى من مثل القزاز والحصرى، ويضع ابن عصفور أسس مدرسة نحوية تونسية، ويقود ابن رشيق بكتابه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية واسعة، ويشتهر في القراءات ابن خيرون حامل قراءة ورش عن نافع إلى موطنه، ولا يلبث أن يظهر إمام كبير من أئمة القراءات هو مكى بن أبى طالب. ومن أوائل المفسرين عكرمة مولى ابن عباس ومن كبارهم في القيروان على بن فضال وابن بزيزة ويكثر الحفاظ المحدثون ومن كبارهم القابسى في القرن الرابع والمازرى في القرن السادس، ويتعايش في الفقه المذهبان: المالكى والحنفى وفقهاؤهما في القرنين الثانى والثالث من أمثال سحنون المالكى وعبد الله بن فروخ الحنفى، ثم تصبح الغلبة للمذهب المالكى منذ أخذ المعز بن باديس الناس والفقهاء به، ويعود المذهب الحنفى إلى الظهور في عهد العثمانيين، وتكون له الكلمة العليا في الفتوى والقضاء. وكل ما كان موضعاً للمناظرة والجدل من المذاهب الكلامية في المشرق انتقل إلى المغرب سواء في ذلك مذاهب الخوارج والمرجئة والمعتزلة، وأخذ المذهب الأشعرى يعم منذ القرن الخامس الهجرى. ونشطت الكتابات التاريخية في القيروان عن مغازى إفريقية والدولة الأغلبية وأمرائها والدولة العبيدية وخلفائها وعن علماء إفريقية وتاريخهم وتاريخ المغرب وعن شعرائها وعمن كان بها من الزهاد وكبار العلماء وعن دولة بنى عبدالواد بتلمسان، ولابن خلدون تاريخه العظيم ومقدمته النفيسة، ويلقانا بعده كتاب الهنتاقى عن الدولة الحفصية وكتاب ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، وكتاب السراج: الحلل السندسية وكتاب حسين خوجه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، وفيه ترجمات لفقهاء البلدان الكبيرة.

وعلى الرغم من أن اللغة البربرية ظلت تعايش لغتين متحضرتين هما الفينيقية واللاتينية فإنها لم تتحول قديماً إلى لغة متحضرة لها أبجديتها وكتابتها التاريخية، وكان من يتحضر من البربر أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل أيام الرومان، وكثيرون منهم كانوا يتقنون اللاتينية نطقاً وكتابةً، وظلت من ذلك بقية بعد الفتح، وسريعاً أخذت البربرية لغة الشعب واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل محلها العربية حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف

القرن الخامس الهجري اختلط البربر بالأعراب وكوّنوا شعبا عربيا واحدا في حياته ولغته ودينه. وظلت الكثرة من الأعراب تنطق بالفصحى نطقا سليما حتى القرن السابع الهجري، وسرت إليهم عدوى العامية فهجروا الإعراب، ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلم والأدب الرفيع، وغذاها المهاجرون الأندلسيون في القرن السابع ثم في القرن التاسع والحادي عشر بغذاء قويم بثّ فيها روحاً وغير قليل من الانتعاش. ويكثر الشعراء في إفريقية التونسية منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى في أواسط القرن الثاني الهجري، وكان أمراء الدولة الأغلبية وخلفاء الدولة العبيدية شعراء وأجزلوا العطايا لمادحيهم، وينهض الشعر في زمن الدولة الصنهاجية، ويقال إن مادحي المعز بن باديس بلغوا المائة عدداً، وكان ابنه تميم شاعرا ومقصدا للشعراء من كل بلد مغربي ومشرقي وكان ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن غاية في الجود، فقصدهم غير شاعر، ولابن حمديس وأمّية بن أبي الصلت الأندلسى فيهم مداخل رائعة، ويتكاثر الشعراء حول أمراء الطوائف مثل سلامة بن فرحان شاعر أبي الحملات أمير مدينة قابس والتراب السوسى شاعر جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة. ومن شعراء هذا العهد على المصرى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر في العهد الحفصى ويرفده جدول أندلسى، ومن شعرائه جابر بن عنان وابن عرّيبية وابن حُسَيْنَة وابن السماط المهودى واللّليانى وغيرهم كثير، ومنذ القرن الثامن الهجري يزاحم الشعر الشعبى الملحون الشعر، ويهاجر كثير من الأندلسيين إلى إفريقية التونسية في القرن الحادى عشر ويسترد الشعر شيئا من حيويته ونشاطه في العصر العثمانى، وخاصة منذ عهد الأسرة الحسينية.

وتظهر في كل غرض من أغراض الشعر طائفة من الشعراء المبدعين، ودائما كانت سوق المديح نافقة، ومن أعلامه الذين ترجمنا لهم على بن محمد الإيادى، والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسى وابن عرّيبية وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى. ومن أعلام الفخر المهين تميم بن المعز ومحمد الرشيد الحسينى. ومن أعلام الغزل على المصرى وأحمد اللّليانى ومحمد ماضور. ومن أعلام شعر الغربية والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبى الحسين. ومن أعلام شعر الطبيعة عبد الواحد بن فتوح وابن أبى حديدة وأبو على بن إبراهيم. ومن أعلام شعر الرثاء للأفراد والمدن والدول ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبد السلام. ومن أعلام الوعظ أحمد الصواف، ومن أعلام التصوف محرز بن خلف، ومن أعلام المديح النبوى الشقراطسى والسماط المهودى. وكل هؤلاء الشعراء حاولت تبين شخصياتهم، مع عرض أهم روائعهم الشعرية.

ونفض النثر في تونس على لسان الولاة والقواد، وتأسست بها - مبكرة - الدواوين، ونفض أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الانشاء في عهد الأغالبة بالكتابة الديوانية وكون فيها

مدرسة كانت لها تقاليد متبعة، وفي صبح الأعشى رسالة ديوانية بليغة من العهد الحفصي. وكثرت الرسائل الشخصية، وهي مسجوعة، وبها - في الحقب المتأخرة - كثير من التكلف. وتلقانا بعض مقامات، وهي لا تتناول حياة أديب متسول وخذعه الكثيرة لجذب السامعين، إنما هي موضوعات أدبية رليان التفنن في الكتابة الأدبية، وترجمت لثلاثة من الكتاب البارعين أبي اليسر الشيباني رئيس ديوان الإنشاء في عهد الأغالبة وإبراهيم الحصري صاحب زهر الآداب، وابن خلدون الكاتب التونسي الفذ.

## ٣

وتحدثت - في القسم الثالث من هذا الجزء - عن جزيرة صقلية وجغرافيتها وتاريخها القديم إلى أن فتحها العرب أيام الأمير زيادة الله الأغلب سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وظلوا طويلا يفتحون مدنها وحصونها وينشرون العربية والدين الحنيف في ربوعها. واستولوا على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشروا بها - مثل صقلية - الإسلام والعربية، ولا يزال أهلها - حتى اليوم - يتكلمون لكنة عربية تونسية دخلها - مع طول الزمن - كثير من التحريف - وغزوا قَلُورِيَّة في جنوبي إيطاليا، وظل للدولة الأغلبية فيها شطر بل أشطار طوال مدة حكمهم. وولى على صقلية للدولة العبيدية ولاية أساءوا السيرة إلى أن وليها للخليفة العبيدي المنصور قائد من خيرة قواده هو الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م فجعلها وراثية في أبنائه، وساء حكمهم في القرن الخامس الهجري، وثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى إمارات طوائف لكل بلدة أمير، واختارت بلرم قائدا من قواد الثورة هو ابن الثمنة، وكان شؤما على الجزيرة كلها فإنه تحارب مع أمير قصر يانة وهُزم، فاستغاث بالنورمان في قَلُورِيَّة بجنوب إيطاليا، وأغاثه روجار الأول، وسرعان ما استولى على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م ويحاول الاستيلاء على بقية مدن صقلية وتم له ذلك في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ويدور العام فيستولى على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. ورأى شعب صقلية العربي يفوق شعبه مدنية وحضارة واتقانا للزراعة ولكثير من الصناعات اليدوية فأخذ يصانعه للإفادة منه مع التنكيل به في صور شتى، وحاول ابنه روجار الثاني وحفيده غليوم الأول التخفيف من هذا التنكيل الغاشم، ولكن ظل الاضطهاد قائما كما يصور ذلك ابن جبير في رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول، وازداد الاضطهاد ضراوة حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فراسل فردريك الثاني واتفق معه على إجلائهم إلى إفريقية التونسية. وأجبر فردريك من بقى بمالطة من المسلمين على مبارحتها إلى مدينة أمالفي Amalfi جنوبي إيطاليا وكانت صقلية موزعة بعد الفتح العربي إلى ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية وال



يديرها ومعه مساعدون وكل منهم يسمى قائدا ولكل ولاية قاض أو قضاة، وعامل المسلمون المسيحيين معاملة سمحة إلى أبعد الحدود، وحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية ومحاكمهم الخاصة. وكان بكل ولاية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم، ومن أهمها ديوان المحاسبة القائم على جمع الضرائب. وكانت صقلية مملأى بالزروع وأشجار الزيتون والفاكهة وبالغنم والخيول، وكانت الصناعات مزدهرة بها وخاصة صناعة المنسوجات وصناعة الورق التي انتقلت إليها من القيروان ونقلتها إلى أوروبا لتلهم - فيما بعد - جوتنبرج - اختراع الطباعة. وتلتقى فيها بعض الزهاد مثل القاضي ميمون وابن أبي محرز وبعض من ينزعون في نسكهم منزع التصوف مثل أبي القاسم عبد الرحمن البكري.

وقد فتح النورمان صقلية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، مما جعل ملوكها يكبون على تعلم العربية ليقروا ذخائرها العلمية، وتعلموا من المسلمين شئون الزراعة والصناعة ونظمهم الادارية والديوانية، واتخذوا العربية في مراسيمهم الحكومية، ومع ذلك لم تكن إقامة المسلمين لشعائرهم الدينية مكفولة وساموهم غير قليل من الخسف والاضطهاد بشهادة ابن جبير لما شاهده في الجزيرة. ودائما تنزل الثقافة الإسلامية البلدان المفتوحة مع الجيوش العربية، وهو ما حدث سريعا في صقلية، وكان بعض أبنائها لا يكتفون بما يأخذون عن شيوخها، فكانوا يرحلون - استزادة في العلم - إلى القيروان ومدوا رحلتهم أحيانا إلى المشرق، ورحل إليهم بعض العلماء القيروانيين والمشاركة، ويقول ابن حوقل إنه كان في بلرم وحدها مائتا مسجد وثلاثمائة معلم. وعنيت صقلية بعلوم الأوائل، وكان نصف سكانها مسيحيين وكانوا فئتين: فئة تتكلم اللاتينية وفئة تتكلم الإغريقية، وكان بين قساوستها من يستطيع الترجمة من اللاتينية والإغريقية إلى العربية مما جعل الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى حين أسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة وعنى فيه بعلوم الأوائل يستعين ببعض الرهبان الصقليين في ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية إلى العربية، ونظل نسمع عن إتقان بعض أطبائها من العرب للغة الإغريقية وعن نزول بعض متفلسفة الأندلس بها، وتتردد في الكتب أسماء لبعض من كانوا فيها من الأطباء والرياضيين والمهندسين والفلكيين.

وعُنيت صقلية برواية الدواوين وأمهات الكتب الأدبية كما عنيت بالعلوم اللغوية واشتهر من لغوييها ابن البر الذي رحل إلى مصر وحمل منها كثيرا من دواوين الشعراء وأسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكى صاحب كتاب تثقيف اللسان، ونزلها ابن رشيق، وقاد فيها بكتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده حركة أدبية نقدية مثمرة. ونشطت بصقلية الدراسات الدينية ومن كبار قرائها في القرن الرابع محمد بن خراسان، ومن كبار مفسريها ابن ظفر، ومن كبار محدثيها عتيق السمنطاري ومن فقهاؤها المهمين البراذعى

ومحمد بن يونس التميمي وعبد الحق بن محمد القرشي. وظلت الحياة العلمية مطردة النمو في عهد النورمان، وكانوا يهتمون خاصة بعلوم الأوائل، ويتكاثر في عهدهم من ينعت بأنه رياضي أو فلكي أو طبيب، واستدعى روجار الثاني الجغرافي العربي الإدريسي ليصنف له كتابا في الجغرافيا، فألف له كتابين جغرافيين: كبيراً وصغيراً وضمنهما بعض الخرائط، ورسم له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان أولى للإدريسي أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية البديعة لحاكم عربي في عصره لا لحاكم نورماني. وتظل العلوم اللغوية والإسلامية ناشطة في العهد النورماني، غير أن علماء أعلاما كبارا بارحوا صقلية فرارا من الظلم النورماني مثل ابن القطاع الصقلي نزيل القاهرة وإليها حمل عن أستاذه ابن البر معجم الصحاح للجوهري، ومثل ابن الفحام أحد أئمة القراءات نزيل الإسكندرية، ومثل ابن ظفر مفسر القرآن الكريم نزيل حماة بالشام ومثل الإمام الفقيه والحافظ الكبير المازري نزيل القيروان والمهدية.

ويزدهر الشعر بصقلية في عهد بني أبي الحسين الكلبيين: ويسجل لها ابن القطاع مائة وسبعين شاعرا في كتابه: «الدرة الخطيرة في المختار من شعراء لجزيرة»، غير أن الكتاب سقط من يد الزمن فلم يصلنا، ونقل عنه العماد في الخريدة تراجم لسبعة وأربعين شاعرا، وأضاف إليهم البلنوبي بن أبي البشر، كما أضاف إليهم اثني عشر شاعرا من كتاب ابن بشرون المهدي: «المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر». ونظم شعراء صقلية في مختلف أغراض الشعر العربي، وعرضت ذلك مفصلا مع الترجمة في كل غرض لأهم شعرائه، وقد ترجمت في المديح لابن الخياط وفي الغزل للبلنوبي وفي الفخر لأبي الحسن الطوبى وفي الوصف لأبي عبد الله بن الطوبى وفي الرثاء لمحمد بن عيسى ولغيرهم في الزهد والوعظ وفي التفجع والحنين واللوعة ولابن حمديس وأشعاره الرائعة.

وتحدثت عن النثر وكتابه بصقلية، ويدل تنويه كتب التراجم بما لكتابها من مقامات ورسائل على أنها حظيت فيها بأعمال قيمة، غير أن الزمن أضعافها، واحتفظ ابن بشرون في ترجمته لشعرائها ببعض رسائلهم الشخصية وعرضتها مع التعليق عليها، وترجمت لكاتبين من كتابها المبدعين هما ابن الصباغ وابن ظفر. وأضفت ملحقا عن زيارة ابن قلاووش الإسكندري لصقلية وأشعاره هناك.



## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- التطور والتجديد في الشعر الأموي  
الطبعة التاسعة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر  
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث  
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر  
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث  
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر  
بني أمية  
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:  
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره  
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور  
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة  
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية  
● في النقد الأدبي  
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده  
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية  
● البلاغة: تطور وتاريخ  
الطبعة الثامنة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية  
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

- في الدراسات القرآنية  
● سورة الرحمن وسور قصار  
عرض ودراسة  
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي  
● العصر الجاهلي  
الطبعة الرابعة عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي  
الطبعة الثانية عشرة ٤٦٦ صفحة
- العصر العباسي الأول  
الطبعة الحادية عشرة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني  
الطبعة السابعة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات  
الجزيرة العربية - العراق - إيران  
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات  
الشام  
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات  
مصر  
الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات  
الأندلس  
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية  
● الفن ومذاهبه في الشعر العربي  
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي  
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة

- تجديد النحو
- الترجمة الشخصية
- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً
- الرحلات
- مع نهج تجديده
- الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة
- الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

### في التراث المحقق

- تيسيرات لغوية
- المغرب في حل المغرب لابن سعيد
- المجموعة نوايغ الفكر العربي
- ابن زيدون
- الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
- الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
- الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة
- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
- في مجموعة فنون الأدب العربي
- الرثاء
- الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
- كتاب الرد على النحاة
- المقامة
- الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
- الدرر في اختصار المغازي والسير
- لابن عبد البر
- الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات
- النقد
- الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
- الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

### في سلسلة «أقرأ»

- العقاد
- البطولة في الشعر العربي
- الطبعة الخامسة
- الطبعة الثانية
- معى (١)
- معى (٢)
- الفكاهة في مصر
- الطبعة الثانية
- الطبعة الأولى
- الطبعة الثالثة

# فهرس

الصفحة

١٧ - ٥	..... مقدمة
١٠٥ - ١٩	..... القسم الأول - ليبيا
٤٤ - ٢١	..... الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ
٢١	..... ١ - الجغرافية
٢٣	..... ٢ - التاريخ القديم
٢٦	..... ٣ - من الفتح العربي إلى منتصف القرن الخامس الهجري
٣٢	..... ٤ - من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجري
٣٩	..... ٥ - في العهد العثماني
٥٩ - ٤٥	..... الفصل الثاني: المجتمع الليبي
٤٥	..... ١ - عناصر السكان
٤٧	..... ٢ - المعيشة
٥٠	..... ٣ - الدين
٥٢	..... ٤ - الإباضية والشيعة
٥٣	..... (أ) الإباضية
٥٥	..... (ب) الشيعة: الدعوة العبيدية
٥٧	..... ٥ - الزهد والتصوف
٧٧ - ٦٠	..... الفصل الثالث: الثقافة
٦٦ - ٦٠	..... ١ - الحركة العلمية
٦٠	..... (أ) فاتحون وناشرون للإسلام
٦٢	..... (ب) الكتاتيب
٦٢	..... (ج) المساجد
٦٣	..... (د) الرحلة في طلب العلم والواقدون
٦٣	..... (هـ) المدارس
٦٤	..... (و) الزوايا
٦٥	..... (ز) خمود في الحركة العلمية
٧٠ - ٦٦	..... ٢ - علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض
٦٦	..... (أ) علوم الأوائل
٦٦	..... (ب) علوم اللغة والنحو والعروض

## الصفحة

٧٠	٣ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
٧٧	٤ - التاريخ
١٠٥ - ٧٨	الفصل الرابع: الشعر والنثر
٧٨	١ - تعرب ليبيا
٨٨ - ٨٢	٢ - نشاط الشعر والشعراء
٨٥	خليل بن إسحق
٩٧ - ٨٨	٣ - الشعراء في عصر الدولة الحفصية
٨٩	(أ) فتح بن نوح الإياضي
٩٢	(ب) ابن أبي الدنيا
٩٤	(ج) ابن معمر
١٠٣ - ٩٧	٤ - الشعراء في العهد العثماني
٩٩	(أ) البهلول الطرابلسي
١٠٢	(ب) أحمد بن عبد الدائم
١٠٥ - ١٠٣	٥ - النثر
٣٢٧ - ١٠٩	القسم الثاني - تونس
١٠٩	الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ
١١١	١ - الجغرافية
١١٤	٢ - التاريخ القديم
١٢٤ - ١١٤	٣ - الفتح - بقية الولاية - الدولة الأغلبية
١١٤	(أ) الفتح
١١٧	(ب) بقية الولاية
١٢١	(ج) الدولة الأغلبية
١٣٠ - ١٢٤	٤ - الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأعرابية
١٢٤	(أ) الدولة العبيدية
١٢٦	(ب) الدولة الصنهاجية
١٢٨	(ج) الهجرة الأعرابية
١٣٦ - ١٣٠	٥ - دولة الموحدين - الدولة الحفصية
١٣٠	(أ) دولة الموحدين
١٣٢	(ب) الدولة الحفصية
١٣٧	٦ - العهد العثماني
١٦٥ - ١٤١	الفصل الثاني: المجتمع التونسي
١٤١	١ - عناصر السكان

## الصفحة

١٤٥	٢ - المعيشة .....
١٥١	٣ - الرفه - المطعم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة .....
١٥١	( أ ) الرفه - المطعم والملبس .....
١٥٢	( ب ) الأعياد .....
١٥٤	( ج ) الموسيقى .....
١٥٦	( د ) مكانة المرأة .....
١٥٨	٤ - الدين .....
١٦٢	٥ - الزهد والتصوف .....
٢٠١ - ١٦٦	الفصل الثالث: الثقافة .....
١٧٤ - ١٦٦	١ - الحركة العلمية .....
١٦٦	( أ ) فاتحون مجاهدون معلمون .....
١٦٨	( ب ) النشأة العلمية .....
	( ج ) دور العلم: الكتابات - المساجد - جامعة عقبة والزيتونة -
١٧٠	بيت الحكمة - الزوايا - المدارس .....
١٧٣	( د ) المكتبات .....
١٧٥	٢ - علوم الأوائل .....
١٨٠	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد .....
١٨٨	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام .....
١٩٩	٥ - التاريخ .....
٢٥٠ - ٢٠٢	الفصل الرابع: نشاط الشعر والشعراء .....
٢٠٢	١ - تعرب القطر التونسي .....
٢٠٨	٢ - كثرة الشعراء .....
٢١٦	٣ - أغراض الشعر والشعراء .....
٢١٧ - ٢٣٦	شعراء المديح .....
٢٢٥	على بن محمد الإيادي .....
٢٢٦	الكاتب الرقيق إبراهيم بن القاسم القيرواني .....
٢٢٧	ابن رشيق .....
٢٢٨	التراب السوسي .....
٢٣٠	ابن عرّية .....
٢٣١	عبد الله التجاني .....
٢٣٣	على الغراب الصفاقي .....
٢٣٥	محمد الورغني .....



## الصفحة

٢٤٤ - ٢٣٧	٤ - شعراء الفخر والهجاء .....
٢٤١	تيم بن المعز الصنهاجي .....
٢٤٣	محمد الرشيد الحسيني .....
٢٥٠ - ٢٤٤	٥ - شعراء الغزل .....
٢٤٧	على الحصري .....
٢٤٨	أحمد اللباني .....
٢٤٩	محمد ماضور .....
٣٠١ - ٢٥١	الفصل الخامس: طوائف من الشعراء .....
٢٦٢ - ٢٥١	١ - شعراء الغربة والشكوى والعتاب .....
٢٥٨	ابن عيدون .....
٢٦٠	محمد بن أبي الحسين .....
٢٧٣ - ٢٦٢	٢ - شعراء الطبيعة .....
٢٦٩	عبد الواحد بن فتوح الزواق .....
٢٧١	ابن أبي حديدة .....
٢٧٢	أبو علي بن إبراهيم .....
٢٨٧ - ٢٧٤	٣ - شعراء الرثاء .....
٢٧٤	( أ ) رثاء الأفراد .....
٢٨٠	( ب ) رثاء المدن والدول .....
٢٨٢	ابن شرف القيرواني .....
٢٨٥	محمد بن عبد السلام .....
٢٨٧	٤ - شعراء الوعظ والتصوف .....
٢٩١ - ٢٨٧	( أ ) شعراء الوعظ .....
٢٩٠	أحمد الصواف .....
٢٩٧ - ٢٩١	( ب ) شعراء التصوف .....
٢٩٣	محمز بن خلف .....
٢٩٥	أبو الفضل بن النحوي .....
٣٠١ - ٢٩٧	٥ - شعراء المديح النبوية .....
٢٩٨	عبد الله الشقرطيسي .....
٣٠٠	ابن السماط المهدي .....
٣٢٧ - ٣٠٢	الفصل السادس: النثر وكتابه .....
٣٠٢	١ - الخطب والوصايا .....
٣٠٥	٢ - الرسائل الديوانية .....

## الصفحة

٣٠٩	٣ - الرسائل الشخصية .....
٣١٤	٤ - المقامات .....
٣١٦	٥ - كبار الكتاب .....
٣١٦	أبو اليسر الشيباني .....
٣١٩	إبراهيم الحصرى .....
٣٢١	ابن خلدون .....
٤٢١ - ٣٢٩	القسم الثالث - صقلية .....
٣٤٨ - ٣٣١	الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ .....
٣٣١	١ - الجغرافية .....
٣٣٢	٢ - التاريخ القديم .....
٣٣٤	٣ - الفتح العربى وعهد الدولة الأغلبية .....
٣٣٤	(أ) الفتح العربى .....
٣٣٩	٤ - العهد العبيدى - عهد بنى أبى الحسين الكلبيين .....
٣٤٣	٥ - التاريخ النورمانى - أحوال المسلمين .....
٣٤٣	(أ) التاريخ النورمانى .....
٣٤٦	(ب) أحوال المسلمين .....
٣٦٩ - ٣٤٩	الفصل الثانى: المجتمع الصقلى والثقافة .....
٣٤٩	١ - المجتمع الصقلى فى العهد العربى .....
٣٥٤	٢ - المجتمع الصقلى فى العهد النورمانى .....
٣٥٨	٣ - الثقافة فى العهد العربى .....
٣٦٥	٤ - الثقافة فى العهد النورمانى .....
٣٨٩ - ٣٧٠	الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء .....
٣٧٠	١ - نشاط الشعر .....
٣٧٢	٢ - شعراء المديح .....
٣٧٨	٣ - شعراء الغزل .....
٣٨٣	٤ - شعراء الفخر .....
٣٨٤	أبو الحسن الطوبى .....
٣٨٥	٥ - شعراء الوصف .....
٣٨٧	أبو عبد الله بن الطوبى .....
٤٠٨ - ٣٩٠	الفصل الرابع: طوائف من الشعراء .....
٣٩٠	١ - شعراء الرثاء .....
٣٩٢	محمد بن عيسى .....

## الصفحة

٣٩٤	.....	٢ - شعراء الزهد والوعظ
٣٩٧	.....	ابن مكي
٣٩٨	.....	٣ - شعراء التفجع والحنين واللوعة
٤٠٠	.....	ابن حمديس
٤٢١ - ٤٠٩	.....	الفصل الخامس: النثر وكتابه
٤٠٩	.....	نشاط النثر
٤١٢	.....	ابن الصباغ الصقلي
٤١٦	.....	ابن ظفر الصقلي
٤١٧	.....	أبناء نجباء الأبناء
٤١٩	.....	(١) سلوان المطاع في عدوان الأتباع
٤٢٨ - ٤٢٢	.....	(ب) ملحق: ابن قلايس الإسكندري في صقلية لعهد غليوم الثاني
٤٣٧ - ٤٢٩	.....	خاتمة

١٩٩٢ / ٣٧٨٣	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3678-0	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١٦٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

تاريخ  
الأدب العربي

١٠

عصر  
الدول والإمارات

الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الأولى



دارالمعارف



---

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

١

هذا الجزء الأخير من تاريخ الأدب العربي خاص بالجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان بدأتها بالحديث عن الجزائر وجغرافيتها وتاريخها القديم أيام الفينقيين والرومان والوندال والبيزنطيين وولاتها أيام الدولتين الأموية والعباسية وتبعية القسم الشرقي منها لتونس أيام الدولة الأغلبية وتأسيس الخوارج الإباضيين للدولة الرستمية في تاهرت ، وأسس إدريس الحسنى دولة الأدارسة في فاس ، وقضت الدولة العبيدية على الدول الثلاث : الأدارسة والرستمية والأغلبية ، واتخذت القيروان عاصمة لها ثم المهديّة . ويتحول المعز العبيدي بتلك الدولة إلى القاهرة وتشتهر باسم الدولة الفاطمية وينيب عنه في تونس والبلاد المغربية ولكن الصنهاجى ، وجعلها وراثية فى أبنائه ، وتتطور الظروف ويعلن المعز بن باديس حفيده استقلاله بالمغرب وتونس وإسقاط الدعوة العبيدية من بلاده ، فيسلط عليه الخليفة الفاطمى المستنصر أعراب بنى هلال وبنى سليم النازلين بشرقى الصعيد ، وكانوا نصف مليون أو يزيدون ، فزحفوا على ليبيا وتونس ، واستولوا على القيروان وغيرها من المدن ، وأهلكوا الحرث والنسل . وكان حماد بن بلكين عم المعز بن باديس استقل فى بجاية شرقى الجزائر واستطاع أبنائه أن يداوروا بنى هلال وتسلم لهم دولتهم إلى أن قضى عليها عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وأسس أحد ولاته الدولة الحفصية فى تونس وشرقى الجزائر . وفى نفس التاريخ قامت دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان وغربى الجزائر ، وتدهور الدولتان منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى الإسبان على مدن متعددة، فى الساحل الجزائرى، شرقية وغربية ، وينضب للجزائر بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين . وتحرر الساحل الجزائرى فيما عدا مدينتى المرسى الكبير ووهران ، وتححر مدينة المرسى الكبير سريعا ، وتبعت الجزائر الدولة العثمانية وظلت تابعة لها إلى أن احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م.

وتنزل الجزائر - مع أهلها من البربر - عناصر من أجناس آسيوية وإفريقية وأوربية : فينيقية وقرطاجية ورومانية ويهودية وألمانية من الوندال وبيزنطية ثم حملة مشاعل الدين الحنيف من

جنود العرب والشعوب الإسلامية التي انتظمت في جيوشهم . وظل ينزلها في المدن الساحلية بعض اليهود، وهاجر إليها جمهور السكان في صقلية حين استولى عليها النورمان وكتلة كبيرة من مسلمي الأندلس حين استولى عليها نصارى الإسبان ، وجلب إليها قراصنتها كثيرا من نصارى أوروبا كما جلب إليها ولاتها العثمانيون حاميات من الإنكشارية: ترك وغير ترك ، وكل هذه العناصر ذابت في الجزائر لما تمتاز به من قوة الشخصية .

وأساس المعيشة في الجزائر زراعة القمح والشعير ورعى الأنعام ، وتكثر بها أشجار النقل والفواكه من كل صنف ، كما تكثر الصناعات اليدوية وصناعة الحلى وأواني الخزف والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والحربية ، ومعاصر الزيتون كانت منتشرة في بلدان مختلفة ، ومواد البناء كانت متوفرة ، ولذلك كثرت إقامة المدن الجديدة ، وكثر على السواحل صيد السمك والحيتان . وازدهرت التجارة واتسع الثراء وجرَّ إلى رفه في الملابس والمأكل والمسكن ، حتى لشعر إزاء تلمسان وبعض المدن أنها متحضرة حضارة حقيقية . ويتم هذه الحضارة وما طوى فيها من رفهٍ عناية الجزائريين بالموسيقى . وعرفت الجزائر الديانتين النصرانية واليهودية ، ولا يكاد يمر نصف قرن - بعد الفتح - حتى يصبح شعبها إسلاميا عربيا ، وكانوا سنية على مذهب مالك إلا ما كان من تاهرت وقيام دولة الإباضية فيها لنحو قرن ونصف . وتكاثر في محيط تلك الدولة المعتزلة وحملوا السلاح ضد الإباضية ولم يكتب لهم النصر . ونشط المذهب الحنفي في عهد العثمانيين، ولكن عامة الجزائريين ظلت مالكية إلى اليوم . وشاعت في الجزائر نزعة صوفية : ونزلها بعض أصحاب التصوف الفلسفي الأندلسي وفي مقدمتهم أبو مدين شعيب ، غير أن التصوف السني هو الذي ساد في الجزائر وانتشرت طريقتاه القادرية والشاذلية .

وكان أول من قام على الحركة العلمية بالجزائر الفاتحون الناشرون للإسلام ، إذ كان الجندي الفاتح بمجرد أن يضع قدمه في بلدة أو قبيلة يأخذ في تحفيظ معتقدي الإسلام القرآن الكريم أو بعض سوره وبعض كلم العربية في التخاطب وفروض الإسلام ونوافله . وأخذت الحركة العلمية في الجزائر تنمو سريعا بفضل الكتابيب والمساجد وما بها من حلقات الشيوخ حيث تلقى محاضرات في مختلف العلوم الشرعية واللغوية . وزاد الحركة سرعة في النمو تأسيس المدارس والزوايا وإنشاء المكتبات فيهما وفي المساجد ، وكانت ترعى الحركة العلمية الدول التي نشأت في الجزائر ، الدولة الإباضية في تاهرت ودولة بني حماد في بجاية وقلعتها ودولة بني زيان أو بني عبد الواد في تلمسان ، وكان من العوامل القوية في نشاط الحركة العلمية بالجزائر نزوح الأندلسيين إليها بالآلاف في القرن السابع الهجري والحادي عشر . وعرضت عندها الأعلام في علوم الأوائل الرياضية والفلكية والطبية وفي الفلسفة وعلم المنطق ، وبالمثل

فى علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة ، وفى علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ . ومع كل عِلْمٍ من عشرات هؤلاء الأعلام فى الميادين العلمية أهم كتبه ، ومع كل عِلْمٍ ما يصور تطوره فى مختلف العصور ،

وكانت اللاتينية منتشرة فى الساحل الشمالى للجزائر قبل الإسلام ، وكان الشعب الجزائرى يتكلم البربرية لغة آباءه وقومه ، وأخذت العربية تقهر اللغتين فى السنة البربر ، لأنها لغة دينهم الحنيف ، وبدون ريب تعربت المدن الكبيرة منذ القرن الثانى للهجرة ، وخاصة المدن الشمالية أما فى الداخل والجبال فيظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية فى حياتهم اليومية. وأتمت الزحفة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى تعرب الجزائر ، والمظنون أن لغة الأعراب الفصيحة أخذت تفسد منذ القرن السابع وأخذ ينشأ شعر شعبى على نحو ما نعرف فى قصة الهلالية ، غير أن الشعر الفصيح ظل هو المسيطر ، وله الكلمة العليا ، وقد أخذ يكثُر شعراؤه ، وذكرتُ أعلامهم فى الدول والعصور المختلفة . ثم أخذت أفصلُ الحديث عن شعراء المديح وأهمهم على مر الزمن والدول ، وترجمت منهم لعبد الكريم النهشلى وعبد الله بن محمد التنوخى ( قاضى ميلة ) وابن خميس ومحمد بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى والشهاب بن الخلوف ومحمد القوجيلى . وعرضت شعراء الفخر ، ومن أعلامه أبوحمو موسى الثانى ، وبالمثل شعراء الهجاء ، ومن كبار الهجائين بكر بن حماد التاهرتى وسعيد المنداسى ، كما عرضت أصحاب الشعر التعليمى ومن أفذاذهم عبد الرحمن الأخرى ناظم السلم المرونق فى علم المنطق. وتحدثت عن شعراء الغزل على مر العصور وترجمت لأهم أعلامه : محمد بن أحمد الأرىسى وابن على ، وعرضت شعراء وصف الطبيعة مع الترجمة لإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى وتحليل ملحمة فى الصيد . وتناولت شعراء الرثاء على مر الزمن ، وترجمت لعلمه : محمد بن على بن حماد القلعى . وعرضت شعر الزهد والتصوف وترجمت لعلمين هما أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجى وإبراهيم التازى . وتحدثت عن شعراء المدائح النبوية على مر التاريخ الجزائرى ، وترجمت لمحمد بن عبد الله العطار ، وله ديوان فى المديح النبوى الشريف .

وتحدثت عن الخطب والوصايا فى عهد الدولة الرستمية وفى بجاية وتلمسان مع الإمام بكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وهو وصية كبيرة قدمها أبوحمو موسى الثانى لابنه : أبى تاشفين . وعرضت الرسائل الديوانية فى عهد الدولة الإباضية والدولة الحمادية ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبالمثل فى العهد العثمانى ، كما عرضت الرسائل الشخصية ، وحللت رسالة ابن الربيب المشهورة ملاحظا شيوخ السجع فى الرسائل الشخصية حتى نهاية العهد العثمانى . ويكتب الأدباء مقامات أشبه برسائل أدبية يتناولون فيها بعض الموضوعات دون أى اهتمام بتقاليد مقامات الهمدانى والحريرى القائمة على الكدية والشحاذاة الأدبية .



وترجمت بعد ذلك لأعلام الكتاب الجزائريين ، وهم أبو القاسم عبد الرحمن القالمى والوهرانى وأبو الفضل بن محشرة .

## ٢

وانتقلت إلى المغرب الأقصى وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم زمن الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ، وأتمَّ العرب فتح المغرب الأقصى ونشر الإسلام به فى الأعوام السبعين المتممة للقرن الأول الهجرى وجند الولاة العظام حينئذ بعض الشباب المغربى فى الجيش العربى فأصبحوا رفقاء سلاح للعرب واختاروا منهم بعض الولاة والقواد ، غير أن ولاة بنى أمية فى القرن الثانى الهجرى انخرقوا عن هذه السياسة التى يأمر الدين الخفيف باتباعها فى الشعوب الإسلامية الجديدة ، فأذاقوا أهل المغرب خسفا وظلما ، وانتهز الفرصة الصفرية من الخوارج وأرسلوا دعواتهم إلى المغرب الأقصى ، وتبعهم كثيرون ونشبت حروب متعددة بين صفرية المغرب وولاة بنى أمية إلى أن قضى على ثورتهم فى الشمال وانسحبوا إلى سجلماسة وقامت بها حكومة بنى مدرار الصفرية ، وقضى عليها أمويو الأندلس . واستطاع إدريس سليل الحسن بن على بن أبى طالب أن يكون فى فاس دولة الأدارسة ، وهى أول دولة إسلامية عربية فى المغرب الأقصى ونشرت به الإسلام والعلوم الإسلامية والعربية، وقضى عليها فى القرن الرابع الهجرى . وتُظِلُّ دولة المرابطين المغرب الأقصى فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وتحدث به نهضة علمية وأدبية، وتنقذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان وتشر الإسلام فى ربوع إفريقيا المدارية ، وتخلفها دولة الموحدىن محاولة أن تنشر لزعيمها ابن تومرت عقيدة متأثرة ببعض مبادئ الشيعة والمعتزلة ، وتبلو هذه الدولة بلاء حسنا فى إنقاذ ساحل ليبيا وإفريقيا التونسية من النورمان والتنكيل بنصارى الإسبان فى غير موقعة وخاصة موقعة الأرك التى سُحقوا فيها سحقا . وتخلفها دولة بنى مرين ولها دور عظيم فى منازلة نصارى الأندلس والدفاع عن غرناطة ، غير أنها تخاذلت فى أواخر أيامها إزاء الاحتلال البرتغالى لبعض الموانى على المحيط والزقاق . ونوهتُ بشاين مغربيين قاوما البرتغاليين مقاومة عنيفة . وقاومهم الوطاسيون فرع من بنى مرين بقدر استطاعتهم ، وخلفهم السعديون ومحقوا البرتغاليين محقا فى معركة وادى المخازن وقتل ملكهم وأخذوا ينسحبون من الموانى التى استولوا عليها . وقاومهم الصوفية ومن أهمهم أبو عبد الله محمد العياشى محرر العرائش وأزمور والجديدة وإن كانوا عادوا إليها بعده . وقامت الدولة العلوية ومن أهم حكامها إسماعيل محرر طنجة والعرائش وحفيده محمد بن عبد الله محرر الجديدة . ويعتلى عرش تلك الدولة الحسن بن محمد سنة ١٨٧٣ ويقود نهضة حضارية وفكرية ، وفى رأينا أن عهده يعد بدء العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

وعناصر السكان في المغرب الأقصى هم البربر سكانه منذ العصور السحيقة ومن استقر بديارهم من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ثم العرب ومن انتظم في جيوشهم من الشعوب الإسلامية الآسيوية والإفريقية ، والأندلسيون المهاجرون إلى المغرب الأقصى في عهد الحكم الرضوي بالقرن الثاني الهجري ومن هاجر بعدهم في القرنين السابع الهجري والحادي عشر ، واليهود ومن نزل منهم بالمغرب في عهد الفينيقيين والرومان والعهد الإسلامي ، والنصارى وظلت منهم بقايا في المغرب من الرومان والبيزنطيين ، واتخذ المنصور الموحدى حرسا من الروم عداده خمسمائة ، وجلب القراصنة من البحر المتوسط كثيرا من نصارى أوروبا . وكان أهل المغرب الأقصى يعيشون على زراعة القمح والشعير والذرة والبقول والخضر ويكثر الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والبحيرات والأنهار كما يكثر صيد البر من الحيوانات الوحشية : النعام والوعول والبقر الوحشى ، وتكثر أشجار الفواكه من جميع الأصناف والنخيل والنقل وأشجار النيلة للصبغة ، وتكثر المعادن وخاصة الحديد ، وصنعوا في بنى يازعة « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وتكثر مواد البناء مما هيا لبناء بعض المدن والمنشآت العمرانية الكثيرة ، وتكثر المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية . وكان بمراكش حديقة للحيوان الوحشى . وازدهرت التجارة ازدهارا عظيما وكثر ثراء الناس في المدن الكبيرة والموتى ، وكان بفاس مائة خمم ومائتا فندق ، وعظم الرفه فى الملبس والمأكل ولعب التسلية وأقام سلاطين فاس مسرحا لصراع الرجال والثيران مع الأسود ، وعنوا بالموسيقى عناية واسعة . وكانت المرأة فى المجتمع المغربى تحظى بمكانة عظيمة ، وكانت كثيرات منهن عالمات وأديبات وطبيبات ، وكان لبعض فضلياتهن ندوات أسبوعية يلتقى فيها الشعراء ويحاورنهم ويتقدن بعض أشعارهم ويمنحهم جوائز نفيسة ، وكان منهن من تحاضر النساء فى الفقه كما يحاضر العلماء فيه الطلاب ، وألمت بشيوع المذهب المالكى الفقهى . وفصلت القول فى عقيدتى الصفرية والمعتزلة اللتين انتشرتتا فترة فى المغرب الأقصى وفى مذهب الظاهرية وازدهاره فى عصر دولة الموحدين ، وألمت بمركبى الزهد والتصوف وانتشاره . وتناولت الحركة العلمية وكيف أن الفاتحين كانوا ناشرين للإسلام ومعلمين ، وتحدثت عن دور العلم من الكتائب والمساجد والمدارس والزوايا والمكتبات وعن إنماء الدول المختلفة للحركة العلمية وما كان لنزول الأندلسيين فى المغرب الأقصى من عمل فى هذا الإنماء وبعث حركة تعليمية واسعة فيه . وعرضت علوم الأوائل وأعلامها فى الرياضيات والطب والفلسفة وعلم المنطق ، وتحدثت عن أعلام علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة وبالمثل تحدثت عن أعلام علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ ، ومع كل علم من هذه العلوم جميعا بيان واضح عن تطوره على مر العصور ، ومع كل عالم أهم أعماله .

وكان المغرب الأقصى قد أخذ فى التعرب منذ دخول جماهيره فى الإسلام ، وأسست دولة

الأدارة في فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م وكانت دولة عربية إسلامية ، فعلت - بقوة - على تعريب المغرب الأقصى ، وعُنت بفتح الكتائب في المدن وتحفيظ الناشئة بها القرآن الكريم وأنشأت في المساجد حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية ، وبذلك رسخت العروبة ورسخ الإسلام في المغرب الأقصى . وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجري غير أن عشائر قليلة منها تسربت إلى المغرب الأقصى . ويدور الزمن ، ويدخل المرابطون المغرب الأقصى ويظهرونه من الروافض ومن نحلة برغواطة الضالة وأخذ الأندلسيون في عهد تلك الدولة يندمجون في سكان المغرب الأقصى وكان لذلك أثره في تعريبهم إذ كانت الأندلس عربية خالصة . وينقل عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى ألفا من قبائل الأعراب في الجزائر : من قبائل الأثيج وزغبة ورياح وقره ، امتزجوا بسكانه ، وفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م استصرخ عبد المؤمن أعراب بجاية والجزائر للجهاد في الأندلس ولبأه كثيرون ، ولنفس الغاية دعا ابنه يوسف قبيلة رياح فلباه حشد ضخم منهم ، ونقل ابنه يعقوب بقايا قبائل الأثيج ورياح وجشم إلى المغرب الأقصى: أنزل قبيلة رياح منطقتي الهبط في الشمال وأزغار في الغرب وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة في الغرب والأثيج في منطقتي دكالة وتادلة ، وانساح كثيرون من هؤلاء الأعراب في ديار المغرب الأقصى ، وبذلك كله تعرب المغرب الأقصى نهائيا .

ويكثر الشعراء منذ عصر الدولة الإدريسية ويتكاثرون كثرة مفرطة في عصر دولة المرابطين وماتلاها من عصور ، وعرضت أعلامهم المهمين في كل تلك العصور وما كان بها من دول ، وتحدثت عن شعراء الموشحات وتلمذة شعراء المغرب الأقصى لشعراء الأندلس في فن التوشيح وظهور وشاحين مغاربة نابيين ، وترجمت منهم لابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور ، كما تحدثت عن شعراء الأزجال ، وترجمت من بينهم لابن عمير وابن شجاع التازي . وعرضت شعراء المديح وترجمت من بينهم لابن زنباع وابن حبوس والجرأوي وابن عبد المنان والهوزالي وأحمد بن القاضي والدغوغى والبوعناني ، كما عرضت شعراء الفخر والهجاء وترجمت للشاذلي ولأصحاب الشعر التعليمي وترجمت لعبد العزيز الملووزي وابن الونان . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت لأبي الربيع الموحدي ولعمر السلمي ، وبالمثل تحدثت عن شعراء الوصف وترجمت لعبد العزيز الفشتالي ، وعرضت شعراء الرثاء وترجمت لابن شعيب الجزنائي وأبي علي اليوسى الحسن بن مسعود ، وشعراء الزهد والتصوف وترجمت لابن المحلى ، وشعراء المدائح النبوية وترجمت لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

وتركت الشعر إلى النثر وكتبه ، وبدأت بالخطب والمواعظ مع بيان أهم الخطباء والوعاظ ، وتحدثت عن الرسائل الديوانية وأهم كتابها مع عرض بعض الرسائل في مختلف العصور والدول ، وبالمثل تحدثت عن الرسائل الشخصية وعن المقامات وأهم نماذجها وكتابها ، وعرضت



الرحلات المهمة وفي مقدمتها ر- ابن رشيد ورحلة العبدريّ ورحلة العياشي ، وألمت برحلات أخرى مختلفة مثل رحلة الوزير الغساني ورحلة محمد بن عثمان المكناسي ثم ترجمت لكبار الكتاب ، وهم : القاضي عياض وأبو جعفر أحمد بن عطية وابن بطوطة ومحمد بن علي الفشتالي ومحمد بن الطيب العلمي .

### ٣

وتحولت إلى موريتانيا فعرضت جغرافيتها وسكانها من قبائل صنهاجة الصحراوية ونفوذ الإسلام إليهم منذ عقبة بن نافع وقيام إمارة لهم في أودغشت حتى منتصف القرن الرابع الهجري ونزول الشيخ عبد الله بن ياسين بينهم وتسميته لهم باسم المرابطين ودفعه لهم للجهاد في السودان الغربي وتطهير قائدهم أبي بكر بن عمر للمغرب الأقصى من دعوة الروافض ودعوة قبيلة برغواطة الضالة ، ورجوعه إلى السودان المداري لنشر الإسلام وتركه المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن تاشفين . وأنقذت دولة المرابطين أو دولة صنهاجة الموريتانية بقيادته الأندلس حين استصرخه أمراؤها ضد نصارى الإسبان. وضمّها إلى دولته . وبذلك يكون لصنهاجة موريتانيا ثلاثة أعمال كبرى : تطهير المغرب الأقصى من الدعوات الضالة وإنقاذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان ، ونشر الإسلام في شعوب السودان بإفريقيا المدارية . ويبدو أن دولة المرابطين في موريتانيا تفككت بعد وفاة البطل المغوار المجاهد أبي بكر بن عمر ، وتبع بعض مدنها غانة ، ويفر بعض الفقهاء من عاصمتها كومي صالحو إلى مدينة ولاته حين غزتها قبيلة الصوصو ، وبالمثل من تنبكتو حين غزتها مالي . ويمر بها جيش أحمد المنصور السعدي في غزوه للسودان المداري ، وينقل إلى موريتانيا كثيرا من قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها، ويكون لذلك تأثير واسع في موريتانيا وتعريبها نهائيا ، وتنشأ بين قبائلها وعشائرها حروب متصلة ولا تقوم فيها حكومة منظمة حتى العصر الحديث .

وكان سكان موريتانيا يتألفون من قبائل صنهاجة وعبيدها ، ونزلها كثيرون من قبائل المعقل العربية وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأوداية ، ويعيش السكان على زراعة الشعير والدخن والقمح ورعى الأنعام متنقلين بها وراء الكلاً ، ومن أهم ما يزرعون النخيل ليقتاتوا بتمورها ، وأهل المدن والزروع أحسن حالا من أهل المراعي . ولهم مع أهل السودان المداري تجارة واسعة بالملح ويبيعونه لهم بأثمان مرتفعة ، ذهل لها ابن بطوطة في رحلته إلى السودان الغربي في إفريقيا وكأنه لم يكن يعرف مدى حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية في ديارهم ، وأنه هو الشيء الوحيد الذي يحفظ الماء في الجسم فلا يتبخّر سريعا . وتلى تجارة الملح في الأهمية تجارة الصمغ . وليس لهم نقود ، وإذا لم يكن معهم ملح أو صمغ يشترون بهما ما يريدون قدموا

للبيع الثمن أغناما . وصناعاتهم أولية ، ومعيشتهم بدوية ، ولهم سادة وشيوخ وقد تعين القرية أو البلدة قاضيا ، والزواج شرعى مالكي ، والصدقات والجهاز بحسب العرف .

ولم يدخل الإسلام بلدا إلا رافقه التعليم والعلم ، إذ كان المسلمون لا ينزلون بلدا أو يفتحونه إلا أقاموا فيه مسجدا وأخذوا يدعون للإسلام ويحفظون الناس القرآن وينشئون لهم الكتاتيب ، وتحول الناشئة بعد حفظ القرآن إلى حلقات العلماء فى المساجد يدرسون عليهم شيئا من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى والفقہ كما يدرسون عليهم العربية ، وكل ذلك حدث فى موريتانيا مثلها فى ذلك مثل بقية البيئات الإسلامية ، وقد تحول أهلها إلى مجاهدين فى سبيل الله ينشرون الدين الحنيف ويعلمونه فى السودان الغربى . وكانت تلك حركة دينية تعليمية كبرى لصنهاجة فى القرن الخامس الهجرى وبعده ، وحاولت أن تعرف إلى علماء موريتانيا قبل القرن العاشر الهجرى الذى استكملت فيه تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، وكانت النساء هن اللاتى يقمن على تحفيظ الصبية القرآن الكريم إلى الثانية عشرة من عمرهن ، وبعد هذه الدورة فى الكتاتيب ينتقلون إلى حلقات الشيوخ . والبلدان تختلف فيما يدرسه الصبى بعد ذلك مباشرة فبلاد تبدأ بالفقہ وكتبه ، وبلاد تبدأ بالعربية ودواوين الشعر والعقيدة الأشعرية . ولم تكن هناك حكومة تنفق على التعليم ، فكان العلماء مثل الطلاب يعملون لكسب عيشهم . وذكرت أهم الكتب التى كانوا يتدارسونها فى مختلف العلوم والآداب ، وعرضت أعلام العلماء فى قراءة القرآن الكريم وتفسيره وفى الحديث النبوى والفقہ وفى العربية وعلم الكلام .

وتحدثت عن تعرب موريتانيا وأنه بدأ بطيئا ، وأخذ فى النمو مع حركة الشيخ عبد الله ياسين ويبدو أن ولاته سبقت غيرها من المدن إلى هذا التعرب بفضل ما قام بها من حركة علمية غير أن الكثرة فى موريتانيا - وربما أيضا فى ولاته - كانت تستخدم اللغة البربرية فى حياتها اليومية حتى إذا انتشرت القبائل الحسانية وأخواتها من قبائل المعقل العربية تم تعربها ولكنها لم تنطق العربية ، إنما نطقت العامية العربية التى كانت شائعة على ألسنة عرب المعقل . وأخذت فى استعراض شعراء الموضوعات المختلفة ، وبدأت بشعراء المديح ، وترجمت لابن رازكه ومحمد اليدالى الديمانى وحرم بن عبد الجليل العلوى ، وعرضت شعراء الفخر والهجاء ، وترجمت للمختارين بون ومحمد بن سيدى الأبييرى ، وبالمثل شعراء الرثاء ، وترجمت لباب بن أحمد ييب العلوى . وتحدثت عن شعراء الغزل ، وترجمت للأحول الحسنى ومحمد بن الطلبة يعقوبى ويقوى الفاضلى ، كما تحدثت عن شعراء التصوف وترجمت للمختار الكنتى والشيخ سيديا ، وعن شعراء المدائح النبوية ، وترجمت لمولود بن أحمد الجواد يعقوبى ولمحمد بن محمد العلوى ومحمد بن حنبل الحسنى ، وبالمثل تحدثت عن الشعراء والشعر التعليمى ومنظوماتهم العلمية .



ومضيت إلى السودان وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم وعلاقته بمصر الفرعونية منذ عهد الأسرة الأولى ، وكانت أراضي السودان فى حوض النيل تسمى أرض النوبة ، وبها تكونت ثلاث دول : نوبية شمالية ووسطى باسم مقرة وجنوبية تحت الخرطوم باسم علوة ، وتنصرت هذه الدول معتنقة المذهب اليعقوبى المصرى . وفى سنة ٦٥٢/هـ٣١م أرسل إلى النوبة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر لعثمان حملة توغلت حتى دنقلة . وأخذت تنزل إقليم البجّة شرقى السودان قبائل وعشائر عربية سيطرت على معدن الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى ميناء عيذاب ، وتغلغل المسلمون فى أرض النوبة لعهد الفاطميين حتى علوة فى الجنوب . وتنشب حروب بين النوبة والمماليك وتقوم فى دنقلة أول دولة إسلامية سنة ٧١٦هـ/١٣١٧م وتأخذ المسيحية فى التضائل بإقليمها وإقليم علوة . وكان انتشار الإسلام فى غربى السودان أسرع منه فى بلاد النوبة ، نشره هناك تجار الكانم والبرنو وكتلة ضخمة من قبيلة زواوة البربرية وعرب الشاوية، وتكونت فى إقليمى وادان ودارفور مملكة إسلامية منذ القرن الخامس الهجرى . وتقوم دولة الفونج الإسلامية فى سنار أوائل القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى لمدة ثلاثة قرون ، وتتخذ العربية لغة رسمية لها وتحدث فى البلاد نهضة علمية وأدبية وتضعف فى أواخر أيامها . ويفتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠م ويضم إليه مينائى مصووع وسواكن على البحر الأحمر ، وأهم من خلفه الخديوى إسماعيل ، وينشئ خمس مدارس فى العواصم الكبرى ويشارك السودانين فى الحكم ويستولى على مرتفعات إريتريا ، وأخطأ بتعيينه صموئيل بيكر ثم غردون الإنجليز حاكمين لإقليم منطقة البحيرات فى أعالي النيل . ويقوم المهدي بحركته الدينية الإصلاحية ويدين له السودان بجميع أرجائه ، ويخرج منه الجيش المصرى ، ويتوفى المهدي سريعا ويخلفه عبد الله التعايشى وينتصر على الحبشة مرارا ، ويمد المصريون خطا حديديا من وادى حلفا إلى أبى حمد ليساعد جيشهم فى تحركاته ضد التعايشى ، وكان يقوده كتشنر الإنجليزى ، وانتصر على جيش التعايشى نصرا حاسما فى أم درمان، وتوفى التعايشى وقام فى البلاد الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى أول سنة ١٨٩٩ للميلاد، وبمقتضى وثيقة سياسية جمعت مقاليد الحكم فى السودان لحاكم إنجليزى كان أشبه بحاكم مستقل، ووضعت للسودان نظم جديدة للشئون المالية والإدارية والتعليم والقضاء والمصالح الحكومية، وأنشئت كلية غردون حتى إذا كانت سنة ١٩٢٤ للميلاد قامت فى السودان ثورة ضخمة تعد بدءاً لعصره الحديث .

ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا ، وإن بقيت بعض جيوب مسيحية ووثنية ، وفسحت دول الفونج الإسلامية للتصوف والصوفية وانتشرت الطريقتان القادرية والشاذلية وعمت النزعة الصوفية فى جميع أرجاء السودان . وكانت للمرأة السودانية

مكانة مهمة اجتماعية وروحية ، فكانت تحضر دروس العلماء وحلقات الصوفية وتنظم بين مريديهم وتنشد أحيانا في حلقات الذكر . وكان بعض الصوفية يتشدد في العهد الذي يلزم به أتباعه كعهد أحمد ود مريم الذي يدل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية خلقية قويمة . وشجع محمد علي الطرق الصوفية المصرية على أن ترسل بعض دعواتها إلى السودان . وأرسل الشيخ أحمد بن إدريس الصوفي المكي أحد دعائه إلى السودان وهو محمد عثمان الأميرغنى ، فنشر طريقته من وادي حلقا إلى دنقلة وفي كردفان . ونزلت السودان طرق صوفية كالطريقة السماتية ، وهي فرع من القادرية . وظهر المهدي بطريقة جديدة دعا فيها إلى ستة مبادئ هي : الزهد ، والعمل بالشرعية المحمدية ، والأخذ بالبساطة في الحياة ومتاعها ، ونبذ جميع الطرق الصوفية ، ونبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة ، والهجرة إلى مراكز دعوته . وظلت هذه المبادئ حية في عهد خليفته التعايشي وانتهت الدعوة بوفاة . وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها القديم .

وكانت الناشئة في السودان تحفظ القرآن الكريم في الكنائس والخلوات ، وتنتقل بعد ذلك إلى دراسة العلوم بالمساجد والزوايا على شيوخ بلغت حلقات بعضهم ألف طالب أو تزيد ، وظلت الحركة العلمية في عهد دولة الفونج نشيطة بل مزدهرة وأرخ لها ود ضيف الله في كتابه الطبقات ، وفيه ترجم لنحو مائتين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وأفاض في ذكر من درسوا من علماء السودان في الأزهر والمدينة بالحجاز كما أفاض في ذكر علماء الأزهر الذين رحلوا إلى السودان لتعليم أبنائه شريعة الإسلام وعلوم العربية والكلام والأصول والمنطق . ولما فتح محمد علي السودان شجع علماء الأزهر على الهجرة إليه ، ويقال إنه شجع بعض الطلاب السودانيين على الالتحاق بمدرسة المتديان ، وأنشأ الجامع العتيق بالخرطوم ليكون معهدا دينيا كبيرا على غرار الأزهر ، وأنشأ خليفته وحفيده عباس الأول مدرسة بالخرطوم جعل ناظرها رفاة الطهطاوي ، وأغلق المدرسة سعيد خليفته ، غير أن إسماعيل أمر بإنشاء خمس مدارس في عواصم المديرية ومدرسة سادسة في مدينة سواكن . ووقف المهدي هذا النشاط التعليمي حتى إذا قام الحكم الثنائي المصري الإنجليزي عاد وازداد إذ أنشئت كلية غردون وكثرت المدارس الحكومية وغير الحكومية وأنشئت مدارس أولية ووسطى فنية ، وأنشئت مدرسة للبنات ثم أربع أخرى ، وتعددت مدارس الإرساليات الدينية ، وأنشئ معهد ديني في أم درمان ، ونما التعرف على الثقافة الغربية الحديثة وتعلم اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، وأنشئ نادٍ للخريجين تبارى فيه الخطباء ، ينادون بالإصلاح الاجتماعي والسياسي .

وكان أول نزول للعرب المسلمين بالسودان في حملة وجه بها عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي الخليفة عثمان على مصر ، وتوغلت الحملة - كما ذكرنا - حتى دنقلة وأخذ كثير من قبائل

العرب وعشائرها ينزل بين قبائل البجة في شرقي السودان وأسلمت منها قبيلة الحدارب كما ذكر ذلك المسعودي في القرن الرابع الهجري ، وظل الإسلام - ومع العربية - ينتشر في قبائل البجة ببطء ، وبالمثل في بلاد النوبة . أما في الغرب فكان التعرب سريعا بفضل الكتلة الضخمة من قبائل زاوية البربرية وشاوة العربية النازلة في دارفور بالقرن الخامس الهجري . ونشرت دولة الفونج العربية في ربوعها ، وبالمثل مملكة تغلي في جبال النوبا وسلطنة دارفور وفي كردفان . ولا نصل إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حتى يكون السودان تعرّب ما عدا بعض الجبال الشاهقة في أقصى الغرب ومنطقة الغابة في الجنوب وقبيلة الأمرار البجاوية . وعرضت شعراء المديح وترجمت للشيخ حسين زهراء والشيخ محمد عمر البنا ، وشعراء الفخر والحماسة وترجمت للشيخ يحيى السلاوي السوداني ولعثمان هاشم ، كما عرضت شعراء رثاء الأفراد وترجمت للشيخ محمد سعيد العباسي وبالمثل شعراء رثاء المدن . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت للشيخ أبي القاسم أحمد هاشم ، وعن شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن ، وترجمت للشيخ عبد الله البنا وصالح عبد القادر ، وعرضت شعراء التصوف وشعراء المدائح النبوية ، وترجمت للشيخ عمر الأزهرى والشيخ عبد الله الرحمن . ولم أؤرخ للنثر الأدبي السوداني قبل العصر الحديث إذ تكثر فيه الألفاظ العامية في عصر الفونج ، وكتبت بعض رسائل فصيحة في القرن التاسع عشر ، ولكنها من القلة بحيث لا تتيح لباحث دراسة خصبة فيها . وقد تأخرت نهضة النثر السوداني حتى عصر السودان الحديث إذ نشأت فيه المقالة الأدبية والأقصوصة والقصة والمسرحية .

ومصادر ومراجع كثيرة قديمة وحديثة أفدت منها فوائد شتى في تأليف هذا الجزء ، وخاصة ما كتبه الأعلام المعاصرون في كل بلدة من البلدان عن الحياة الأدبية فيه ، إذ كان لي منارات تهديني الطريق . وبذلك انتهت هذه السلسلة المستوعبة بأجزائها العشرة دراسة تاريخ الأدب العربي وأعلامه من الشعراء والكتاب قبل العصر الحديث ، وعנית بأن أعرض لكل أديب روائع أدبه . وذكرت بجانب ذلك أعلام الفلسفة والعلوم المتنوعة من علوم الأوائل والعلوم الإسلامية وعلوم العربية والتاريخ في كل بلد عربي على مر الزمن . وبذلك تحمل هذه الموسوعة تاريخ الأمة العربية الأدبي والفلسفي والعلمي والحضاري قبل العصر الحديث ، مبتغيا بذلك خدمة العروبة والإسلام ، والله ولي الهدى والتوفيق .

القاهرة في أول سبتمبر سنة ١٩٩٥م

شوقي ضيف



القسم الأول

الجزائر





# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

١

### الجغرافية<sup>(١)</sup>

تتوسط الجزائر في الشمال الإفريقي بين المغرب الأدنى : تونس شرقا والمغرب الأقصى : مراكش غربا ، ولذلك سماها جغرافيو العرب المغرب الأوسط . ويحدها شمالا البحر المتوسط ويمتد عليه ساحلها نحو ١٢٠٠ كيلومترا ، وهو ساحل صخري حجري ، ولذلك تقل عليه - بل تنعدم - الخلجان العريضة ، وعلى منعطفات فيه أو خلجان صغيرة نشأت موانئ الجزائر ، وأهمها من الشرق إلى الغرب عنابة ( بونة قديما ) فإسكيكدة ، فجيبل ، فبجاية ، فدلس ، فالجزائر ( المدينة ) فشرشال ، فتنس ، فأزرو ، فوهران ، فالمرسى الكبير .

وتلى الساحل من الشرق إلى الغرب جبال أيدوغ المشرفة على عنابة ، ثم زكار والظهرة بين مدينة الجزائر وميناء أزرو ، ثم الطرارة إلى الغرب . وجنوبي تلك الجبال تمتد من الشرق إلى الغرب سلسلة جبال الأطلس التلي بادئة بجبال مجردة ، فجبال البابور ، فجبال الجرجرة شمالا والبيان جنوبا ، فجبال تيطرى وشماليتها جبال مدينة البليدة ، ثم جبال الونشريس ، فجبال سعيدة ، فجبال الضاية ، فجبال تلمسان . وتكتظ مناطق تلك الجبال بسهول واسعة وعيون ونهيرات وبعض أنهار ، مما جعلها أوسع مناطق الجزائر عمراناً ، وإذا كان ساحل الجزائر يتميز بكثرة حدائقه وبساتينه فإن تلك المناطق التلية تتميز بغاباتها وزروعها وأشجارها المثمرة ومن أهم مدنها قالمة وقسنطينة في الشرق ، ومليانة جنوبي شرشال وتلمسان في الغرب .

وتمتد جنوب هذا الأطلس التلي هضبة كبيرة ، وهي قفار واسعة ينبت بها شجر الحلفا وعشب كثير في الربيع فتؤمها قطعان الأغنام والماشية من الجنوب للرعى حتى اقتراب زمن الشتاء ، فتسحب إلى ديارها ومواطنها جنوبا . وتطوق الهضبة سلسلة جبال الأطلس الصحراوي ، ومن أهم أجزائها شرقا جبال أوراس ، وإلى الشمال من تلك الجبال جبال

لابن حوقل وكتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المديني ( طبع الجزائر ) وكتاب تاريخ الجزائر لمبارك الميلي ( طبع الجزائر ) ص ٢٧ وما بعدها ومادة الجزائر في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في جغرافية الجزائر كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ( مقتبس من نزهة المشتاق للإدريسي ) طبع ليدن ، وكتاب صورة الأرض

الحضنة ، وأنشأ في أحد سهول الخليفة الفاطمي المهدي مدينة المسيلة ( المحمدية قديما )  
وشرقي سهلها خرائب مدينة طُبنة عاصمة الزاب أيام الدولة الأغلبية التونسية ، وإلى الجنوب  
من المسيلة قلعة بنى حماد عاصمة دولتهم . وإذا مضينا بعد جبال الأوراس غربا في سلسلة  
جبال الأطلس الصحراوية لقيتنا جبال الجلفة ، فجبال عمور ، فجبال القصور . وجبال هذه  
السلسلة أعلى وأضخم من جبال الأطلس التلي وكثير منها جبال جرداء .

وإذا انحدرنا من هذه الجبال نحو الجنوب لقيتنا الصحراء الكبرى ، ويسمى القسم الشرقي  
منها أرض تُقَرْت ، وبه واحات متناثرة تكثف بالنخيل ويعض الأشجار المثمرة ، وإلى الغرب  
من هذه القسم الصحراوي الشرقي أرض ميزاب وعاصمتها غرداية ، وهي أكثر جدبا من  
القسم الشرقي ، وإليها هاجر الإياضيون حين دالت دولتهم في تاهرت ، وقد حفروا بها آلاف  
الآبار ، وأحالوا بقاءها منها كثيرة إلى واحات غنية بالنخيل والحدائق والبساتين ، وبذلك بثوا  
فيها غير قليل من الحياة والحضارة وال عمران .

والأمطار تبدأ في الجزائر منذ شهر أكتوبر وتغزر في شهر يناير بالمنطقة الساحلية ومنطقة  
الأطلس التلي ، وتأخذ في القلة بالهضبة الوسطى بين سلسلتى جبال الأطلس التلية والصحراوية ،  
وتكاد تنعدم في أكثر أجزاء الأطلس الصحراوي وجنوبيه في الصحراء الكبرى . ولقلة الأمطار  
داخل الجزائر لم تتكون بها أنهار كبيرة ، إنما تكونت غالبا نهيرات ومجار للمياه قصيرة ،  
وهي جميعا لا تجرى إلا في الشتاء فصل الأمطار، ومنها مايتجه إلى البحر المتوسط ، وقد تتجه  
إلى البحيرات المالحة في الهضبة أو إلى الصحراء حيث تغيب في طبقات الرمال . وأهم أنهارها  
مجردة في الشرق ، وينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب ، وهو كثير المنعرجات في مجراه  
الجبلي ، ويخترق شرقي الجزائر متجها إلى الديار التونسية حتى مصبه بالقرب من قرطاجنة في  
البحر المتوسط ، ويعد نهرا تونسيا أكثر منه جزائريا لمسيرته الطويلة في الديار التونسية . وأطول  
أنهار الجزائر الداخلية نهر شلف وينبع من جبال عمور في الأطلس الصحراوي ، ويتجه إلى  
الشمال ، وترفده نهيرات كثيرة ، ويخترق منطقة الأطلس التلي ، ويتجه شرقا ثم يغير اتجاهه  
إلى الشمال ، وعند مدينة مليانة جنوبي شرشال يتجه إلى الغرب حتى مدينة مستغانم ويصب  
في خليج أزرو . ووراء هذين النهرين الكبيرين نهيرات كثيرة أو أنهار ومجار صغيرة منها  
نهر سيوز النابع من الجبال المتاخمة لقسنطينة ويصب في البحر المتوسط بالقرب من عنابة ،  
ونهر العروش ومصبه بالقرب من إسكيدة ، ونهر الرمل أو الوادي الكبير ويرفده بومرزوق  
المخترق لقسنطينة ويصب شرقي جيجل ، ونهر الصمام ومصبه بالقرب من بجاية ، ونهر  
حميز ومصبه في خليج مدينة الجزائر ، ونهر الحراش ويخترق سهول المتيجة ومصبه قريب من  
مدينة الجزائر إلى غير ذلك من نهيرات ، كلها غير صالحة للملاحة. والنهيرات الداخلية ، منها



نهر جدى الذى يمر بمدينة الأغواط ويصب فى بحيرة ميغليخ، ونهر ميا ومصبه سبخة ورقلة إلى غير ذلك من نهيرات داخلية ، وتتجه إلى الصحراء الكبرى نهيرات كثيرة، تغيب فى الرمال ومنها تنبع فى الصحراء الآبار الفوارة الارتوازية.

وراء الموانى على الساحل سهول تُعد لنمو أشجار النارج والليمون والفواكه ، وفى الأطلس التلى سهول واسعة متقطعة ، تزرع بها الحبوب والغروس ، وأكثر سكان الجزائر يعيشون من خيراتها . وتتسع السهول جنوبى عنابة ومدينة الجزائر وفى تلمسان ، وتزرع الحبوب فى وديان الأطلس التلى ، ومن أهم مناطق زراعتها شرقى الهضبة بين ذراعى الأطلس التلى والأطلس الصحراوى ، وبالمثل منطقة وهران والقسم الغربى من الجزائر . ولاختلاف الطقس فى الجزائر تلتقك على جبالها وسفوحها أشجار مختلفات ، ففى السفوح النخيل ، وفوقها أشجار الفواكه من مثل التين والخوخ ، وفى أعلاها أشجار الزيتون والنقل . وتشغل الغابات مساحات شتى فى الأطلس التلى وجبال أوراس الصحراوية ، وعليها جميعا فى أماكن مختلفة تترأى أشجار القرو والأرز والصنوبر وخاصة فى جبال الأوراس والونشريس . ويكثر النخيل فى الواحات ومعه بعض الفواكه وخاصة فى بسكرة . وفى الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والأطلسية الصحراوية بحيرات عدة ، من أهمها بحيرة الحضنة .

والطقس على الساحل الجزائرى معتدل مثل سواحل البحر المتوسط عامة ، والسهول الداخلية وراء وهران حارة جافة . وجبال الأطلس التلى معتدلة صيفا باردة. شتاء ، والثلوج تتوج الجبال أحيانا فى الشتاء ، وتتجمد المياه فى قسنطينة نحو شهرين كل عام . ومناخ الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والصحراوية قارى ، شديد البرد شتاء شديد الحر صيفا . ومناخ جبال الأطلس الصحراوية والنواحي الجنوبية المنحدرة منها والمترامية فى الصحراء شديدة البرد شتاء ، وتشتد الحرارة فى الصحراء بالصيف شدة لا تطاق .

## ٢

### التاريخ<sup>(١)</sup> القديم

يتوغل تاريخ الجزائر فى العصور القديمة السحيقة إلى آماذ بعيدة ، ويأخذ هذا التاريخ فى الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشاميين لسواحل إفريقيا فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع

(١) وتاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الميلي : الكتاب الأول فيه وأبوابه الثمانية .

(١) انظر فى تاريخ الجزائر القديم والحديث تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبورز ( طبع القاهرة ) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى ( طبع دار المعارف بالقاهرة )

السكان . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عريقا يحترف التجارة ، ومضوا طويلا يتعرفون على المواقع التي تلائمهم في سواحل إفريقيا ، وبمرور الزمن ودوراته المتعاقبة أقاموا مدينة قرطاجنة بالقرب من مدينة تونس الحالية ، ونزلت فيها منهم جالية فينيقية كبيرة ، وأداهم البحث عن أماكن صالحة مماثلة في شمالي الجزائر لتبادل السلع مع السكان إلى موقعين مهمين هما بونة ( عنابة الحالية ) وجيجل ، وأضافوا إليهما - فيما بعد - مواقع أو مدنا جديدة هي إسكيكدة وبجاية وشرشال ، واتخذوا من سكانها جميعا إدارات تدين لهم بالولاء ، واختلطوا بهم وبثوا فيهم حضارتهم الفينيقية ، ونقلوا إليهم - كما نقلوا إلى قرطاجنة وإقليمها - من ديارهم الأصلية في الشام أشجارا متنوعة من الفاكهة والنقل ، وعلموا كثيرين من أهل الجزائر لغتهم وما استحدثوه من حروف الكتابة الفينيقية التي نشروها في العالم القديم .

ولما نشبت الحرب بين قرطاجنة وروما وظلت طويلا من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد استطاعت روما أن تستميل سكان الجزائر وملكهم ماصينصا ، حتى إذا علت كفتهم في الحرب وتغلبوا نهائيا على القرطاجيين فرضوا على الجزائر وماصينصا ملكها الولاء لهم ، ورضخ إلى أن قضى نجبه ، وخلفه ابن أخته يوغورطة وكان بطلا مغوارا ، فأنف من التبعية للرومان ونازلهم مرارا ، غير أن صهره ملك موريتانيا خانه وسلمه إليهم سنة ١٠٦ قبل الميلاد . وحكم بعده ملوك أو أمراء جزائريون كانوا يعدون موظفين رومانيين أكثر منهم حكاما جزائريين ، ومن أهمهم يوبا الأول وابنه يوبا الثاني الذي نشأ في روما حتى أصبح كأنه مواطن روماني ، وجعلوه ملكا على نوميديا أخذا من اسم كان يطلقه الجزائريون على القسم الشرقي من ديارهم أو لعله اشتق من لفظة نوماد الإغريقية وتعني الرعاة الرحل ، واتخذ شرشال عاصمة له ، وضموا إليه - فيما بعد - موريتانيا الشرقية والغربية من وهران في غربي الجزائر إلى أقصى بلاد المغرب على المحيط الأطلسي ، ولم يلبث الرومان بعده أن ضمّوها إلى إمبراطوريتهم ، وأخذوا يولون عليها حكاما رومانيين تابعين لروما أو لحاكم قرطاجنة الكبير . وتوغلوا في ديارها جنوبا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ماأسسوه من مدن في الداخل إلى مسافات بعيدة عن الساحل مثل تبسة الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا جنوبي جيجل وبها أطلال لمبنى كان يقوم على أعمدة رخامية ، ويقول الحسن الوزان : على تلك الأعمدة كتابات لاتينية ، وكان اسمها الروماني نيفسته ، وفي شماليها الشرقي واحة بسكرة ، واسمها الروماني فيسيكرا وهي قرية جزائرية عتيقة . وجنوبي بسكرة نفطة وبها آثار وأطلال رومانية ، وإلى الجنوب من جيجل في الداخل قسنطينة وكان اسمها أيام الفينيقين سرتا ، وكانت بها أسرة سيفاكس التي أسست لها مملكة في الجزائر ، ومنها انحدر ماصينصا الذي وضع يده في يد الرومان - كما أسلفنا - للقضاء على القرطاجيين ، وخرّبت سرتا في بعض ثورات الجزائريين على الرومان ، وأعاد الرومان بناءها في عهد الإمبراطور قسطنطين ( ٣٠٦ - ٣٣٧ م ) . وسموها قسطنطينة وسمّاها العرب قسنطينة ،

والأطلال والآثار الرومانية كثيرة في مدن الجزائر الداخلية . وأرهق الرومان الجزائريين طوال حكمهم بصور شتى من العسف والظلم والضرائب الفادحة مع نهب طبيبات الأرض من الحبوب والزيتون . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمي أخذت في نشرها بإمبراطوريتها والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التي استوطنت المدن الجزائرية ، فبُنيت الكنائس والأسقفيات في غير مدينة لا في المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا في المدن الداخلية مثل قلعة جنوبي عنابة ( بونة قديما ) وبها آثار رومانية ، ومثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر في تلك المدن بعض القديسين مثل أوغسطين قديس بونة في القرن الرابع الميلادي ، ويُعدُّ بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة ووعاظها البارعين .

ومع نهاية العقد الثالث للقرن الخامس الميلادي تكتسح البلاد موجات الوندال التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ، وتظل نحو مائة عام تخرب في الجزائر وتدمر كل ما أسسه بها الفينيقيون والرومان من منشآت العمران والحضارة إلى أن خلصتها منهم الدولة البيزنطية سنة ٥٣٤ للميلاد على يد القائد البيزنطي المشهور بليزير ، وأصبحت الجزائر - من حينئذ - تابعة لتلك الدولة ، ولم تحاول أن تنشر بها لغتها اليونانية على نحو ما نشر بها الرومان لغتهم اللاتينية وظلت هي المسيطرة في البلاد طوال العهد البيزنطي . وكان عهدهم لا يقل عسفا وظلما عن عهد الوندال ومن قبلهم الرومان ، وكانوا يحكمون الجزائر بولاية تابعين لحاكم قرطاجة الكبير الملقب بالطريق ، وكان اسمه بأخرة من عهدهم جريجوريوس ، وسماه العرب جرجير ، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب منها على أكبر دُرَّتَيْن في تاجها : الشام ومصر صمَّم على الاستقلال عنها بما تحت يده من إفريقية التونسية والجزائر وقامت خصومة عنيفة بينه وبين الدولة البيزنطية وخلع طاعتها وضرب الدنانير باسمه .

### ٣

الفتح والولاية - الأغالبة - الإباضية - تلمسان  
( أ ) الفتح<sup>(١)</sup> والولاية

بينما جريجوريوس غارق في حلمه بتكوين دولة له مستقلة في البلاد المغربية إذا عمرو بن العاص والى مصر لعمر بن الخطاب يقدم على رأس جيش عربي مجاهد في سبيل الله لتعقب الروم في برقة وديار المغرب تأميناً لحدود مصر في أواخر سنة ٢١ للهجرة ، وسرعان ما يستولى على برقة وزويلة حاضرة فزان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢م وبعد أن رتب شئون الحكم فيهما تقدم غرباً

للبلادري ومقدمات كتاب رياض النفوس للمالكي،  
والجزء الثاني من تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبور  
وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلي.

(١) انظر في الفتح والولاية: فتوح مصر والمغرب لابن  
عديالحكم والكامل في التاريخ لابن الأثير، والبيان المغرب  
لابن عداري، وتاريخ ابن خلدون، وفتوح البلدان



ففتح طرابلس سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . ويعود عمرو إلى مصر ويتوفى الخليفة عمر ويخلفه عثمان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويستأذن عثمان فى غزو إفريقية التونسية ، وأذن له ، وانضم إلى جيشه بعض أبناء كبار الصحابة ، ودق الجيش أبواب إفريقية التونسية سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧ م واستولى على مدينة قابس . وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن يفتروا دياره وكان قد ترك عاصمته قرطاجة واحتمى بحصن أنشأه الروم فى الداخل جنوبى القيروان يسمى سيطلة خوفاً من أن يهاجمه بقرطاجة أسطول الروم ، وجمع إليه جيشاً ضخماً من الروم وغيرهم استعداداً لمنازلة العرب وسرعان ما أداروا معه معركة حامية ، ودارت عليه وعلى جيشه الدوائر وقتل فى المعركة ، قتله عبد الله بن الزبير ، وكانت معركة حاسمة ، قضت على الروم فى إفريقية التونسية وفتحت بلدانها أبوابها للجيش العربى إلا ما كان من قرطاجة فقد ظلت بها حامية رومية ، ورجع ابن أبى سرح إلى مصر وترك عليها نافع بن عبد القيس الفهرى ، ويولى عليها عثمان سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن خديج ، ويبدو أنه عاد منها أيام فتنة عثمان ، وأعادها إليها معاوية بن أبى سفيان ، فنزل الروم فى بنزرت وركبوا البحر فارين ، وولاها بعده معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ / ٦٧١ م وكان قد شهد فتح برقة وطرابلس وقابس والديار التونسية ، وكان قائداً حريئاً ممتازاً بعيد النظر ، فرأى أن يتخذ لجيشه العربى مدينة تكون مستقراً له وداراً لا يرحها ، وأخذ تروا فى بناء مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ / ٦٧٦ م وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة ودوراً لقواده وجنوده ، وبنى حولها سوراً منيعاً ، وأصبحت عاصمة للمغرب . غير أنه لم يلبث أن عُزل وولى المغرب بعده أو بعبارة أدق إفريقية التونسية أبوالمهاجر ، وصمم على فتح نوميديا أو القسم الشرقى من الجزائر ، وتقدم فيه بجيشه حتى بجاية ، وواصل سيره إلى موريتانيا الشرقية حتى تلمسان ، وهو ينشر الإسلام ، وسكان الجزائر يقبلون عليه .

ومضى يتغلغل فيها وكانت الزعامة بها حينئذ لقبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، وكان قد جمع الجموع من البربر والروم ، والتقى به أبوالمهاجر فى تلمسان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انهزم فيها جيش كسيلة ، ووقع فى الأسر ، فعامله أبوالمهاجر معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام ، وأخذت أفواج من قبيلته الكبيرة تدخل فيه . وعُزل أبوالمهاجر سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٣ م وتولى مكانه عقبة بن نافع ، وكان قائداً حريئاً باسلاً ، غير أنه لم يكن سيوساً ، فأساء إلى كسيلة مما جعله يصرُّ على الانتقام منه ، واستخلف عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى وخرج إلى الجهاد فى سبيل الله ، فاقترح بلاد الزاب فى وسط الجزائر يخالفه النصر ، ومضى يفتح بقية الجزائر والمغرب الأقصى حتى طنجة قاعدته ، وفتح السوس الأدنى والأقصى واتجه إلى المحيط قبل قوائم فرسه منه ، ونادى ربه قائلاً : « اللهم إني أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك » وفى عودته رصده كسيلة وقومه ، حتى

إذا تقدم جيشه وبقي في جمع قليل حاصره واستشهد البطل المغوار هو ومن معه سنة ٦٣ هـ . ومضى كسيلة بجموعه حتى استولى على القيروان ونصب نفسه ملكاً على البلاد ، وتراجع زهير بن قيس إلى برقة منتظراً لمدد ضخم ، وكان قد توفي يزيد بن معاوية واضطربت الأمور حتى إذا أصبح زمام الخلافة بيد عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشاً وولاه على المغرب سنة ٦٩ هـ / ٦٩٠ م وواقع كسيلة ، وأنزل الله نصره عليه وعلى المسلمين وقُتِلَ في الواقعة كسيلة المرتد الباغي الأثيم . ورأى زهير بعد هذا النصر العظيم أن يعود إلى المشرق ، وبينما هو في نفر قليل من أصحابه عند برقة - وقيل عند طرابلس - إذ هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين فنازلهم وكتبت له عند ربه الشهادة .

وفي سنة ٧١ يرسل عبد الملك بن مروان إلى المغرب حسان بن النعمان أحد ولاة القيروان العظام في القرن الأول الهجري ورأى في بدء حكمه بثاقب بصيرته أن البلاد لن تهدأ مادامت قرطاجة لم تستسلم وما دامت بها الجالية الرومية الكبيرة التي تنزلها ، والتي تتجسس منها لحساب بيزنطة والتي تعيث وتفسد في البلاد موغرة صدور البربر على العرب بكل وسيلة ، فحاصرها وافتتحها وقرت كثرة الروم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وهدم أسوارها حتى لا يتجمعوا فيها مختبئين مرة ثانية ، وطهر ميناء بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم ، وفرض الجزية على من بقى على دينه المسيحي منهم ومن البربر . ومنذ أوائل عهده اشتعلت فتنة كبرى بقبيلة جراوة من قبائل زناتة بجبال أوراس في الجزائر بزعامة كاهنة هناك ، ونازلها بجيش جرار قرب باغاية شمالي جبال الأوراس وانهزم المسلمون وطاردتهم حتى قابس ، ومكث بمدينة سرت في ليبيا خمس سنوات ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك ، وجاءه مدد ضخم سنة ٨٠ واشتبك مع الكاهنة في حرب ضروس بجبال الأوراس ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فانهزمت الكاهنة مع جيشها ، وولت وجهها نحو تبسه هاربة ولحقتها كتيبة فتكت بها ، واستأمن إليه من بقى من جيشها على الإسلام فأمنهم وأمن سكان أوراس الجزائريين جميعاً على أن يكون منهم اثنا عشر ألفاً مجاهدين معه ، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم وولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس ، وأكرمهم وأكرم أبناء الكاهنة ، فملك قلوب الجزائريين وساد الأمن والهدوء . وكان حسان سيوسا ، فنظم البلاد تنظيمًا إداريًا وماليًا محكمًا إذ دوّن الدواوين : ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . وأصلح القنوات للري ، وأقام لإفريقية التونسية ميناء جديدًا ليكون قاعدة لأسطول لها يحمي السواحل من غزوات الروم ، مما جعله ينشئ مدينة تونس ، ويلحق بها دار صناعة كبرى ، وسرعان ما أنشأ أسطولاً ضخماً وضرب للبلاد سكة جديدة .

وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٦ فعمل على استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب ، وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ثم قام بحملته الكبرى فاكتسح بلاد المغرب حتى طنجة وإقليم

السوس ، وولى على طنجة طارق بن زياد مولاة البربري . وكان يترك في النواحي التي لم يتم إسلامها من يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم كثير من البربر في أيامه . وأتم التنظيم الإداري لبلدان المغرب ، فقسمه إلى ولايات ولكل ولاية قاعدتها وحاكمها ، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة ، وغربي المغرب الأوسط ( الجزائر ) عاصمته تلمسان ، وشرقي المغرب الأوسط ( إفريقية التونسية ونوميديا الجزائرية وطرابلس ) عاصمته القيروان ، وجعل لبلاد السوس جنوبي المغرب الأقصى ولاية مستقلة عاصمتها سنجلماسة ، وجعل إقليم برقة ولاية مستقلة عاصمته برقة . وقام بعمل عظيم مع مولاة طارق والي طنجة إذ فتح إسبانيا ونشرا الإسلام بها في إقليمها الجنوبي والأوسط المسمى - فيما بعد - باسم الأندلس ، وهو شرف للبطلين لا يماثله شرف .

وعزل الخليفة سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير . ويعد عهد موسى بن نصير نهاية الفتح العربي للربوع المغربية ونشر الإسلام في جميع أرجائها . وقد خلفه محمد بن يزيد مولى قريش سنة ٩٧ للهجرة وكان حسن السيرة - كما يقول الرقيق القيرواني - عادلا رفيقا كل الرفق بالرعية . ويصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين سنة ٩٩ فيصلح أداة الحكم في الدولة ، ويرسل إلى إفريقية والقيروان بعثة من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الحنيف في الديار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر والي القيروان بين فترتي عقبة بن نافع الذي فتح المغرب الأقصى ونشر به الدين الحنيف ، وكان الحفيد مثل جده تقوى وسياسة حكيمة ، فأصلح الجباية بالمغرب وسوى فيها - كما أمر عمر بن عبد العزيز - بين البربر والعرب ، وعمل بقوة - مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر - على نشر الدين الحنيف في المغرب ، ودخله منهم أفواج لا تكاد تحصى . وتوفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ للهجرة ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، فعاد ولاته إلى الخسف والظلم في جمع الضرائب والأموال من الولايات المغربية ، وقد اختار للمغرب يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ فساس المغرب بسياسة الحجاج الغاشمة التي قامت على التفرقة بين العرب والموالي المسلمين في العراق ، غير ملاحظ أن أهل المغرب من البربر انتظموا في سلك الجيوش التي أتمت فتح المغرب الأوسط والأقصى وأنهم كانوا الأكثرية في الجيش الذي فتح إيبريا وأدخل الشطر الأعظم منها في الدين الحنيف ، وبذلك أصبحوا - بالقياس إلى العرب - رفقاء سلاح وجهاد ، ولم يلبث البربر أن أجمعوا على قتله ، فقتلوه سنة ١٠٣ للهجرة ، وكان ذلك درسا ليزيد بن عبد الملك ، فولى على المغرب في نفس السنة بشر أين صفوان الكلبي ، وكان رءوفا بالرعية ، وأرسل حملة من العرب وإخوانهم البربر لغزو صقلية سنة ١٠٧ وعادت الحملة بغنائم وفيرة ، وتوفى سنة ١٠٩ للهجرة ، فولى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمي سنة ١١٠ وأخذ البربر بالرفق والمعاملة الحسنة ، وأرسلت



حملة إلى صقلية وعادت في ربح عاصفة فغرقت كثرة منها . وتولَّى بعده عبيدالله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة ، فأعاد بناء جامع الزيتونة بتونس الذي بناه حسان ، ولم يلبث أن أساء السيرة هو وعماله في جميع أنحاء المغرب ، إذ تشددوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر ، ورفضوا - في إصرار غريب - التسوية بين العرب والبربر في الشؤون المالية كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، وبلغ من تهور عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وسفهة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعماً زعماء آثماً أنها فقيء للعرب وغنائم حرب لهم . وكان طبيعياً أن يثور البربر على هذه السياسة الغاشمة الظالمة ، وكان دعاة الخوارج صُفْرِيَّة وإباضية قد أخذوا ينشرون في المغرب مبادئهم التي تحتم التسوية بين العرب والموالي المسلمين في جميع الشؤون المالية وفي الخلافة فهي حق لجميع المسلمين بحيث يتولاها أكفأهم جميعاً عرباً وموالى . واعتنق البربر في جبل نفوسة بليبيا العقيدة الإباضية المعتدلة التي لا يكفر أصحابها إخوانهم المسلمين ولا يقاتلونهم إلا إذا بادروهم بالقتال ، بينما اعتنق المغرب الأقصى عقيدة الصُفْرِيَّة الذين يكفرون غيرهم من المسلمين ويوجيئون على أنفسهم حربهم ، وتزعَّم الدعوة لتلك العقيدة بالقرب من طنجة على المحيط بربرى من قبيلة مضغرة البُتْرِيَّة يدعى ميسرة ، وبايعه البربر واتخذوه إماماً لهم ، وكوَّن منهم جيشاً ضخماً احتلَّ به طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٦م وقتل عاملها الغشوم عمر بن عبيد الله المرادى . ولم يلبث أن هُزم في بعض معاركه مع جيوش ابن الحبحاب فظن به بعض أنصاره الخيانة فقتلوه ، وولت الصُفْرِيَّة في المغرب الأقصى عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ إماماً لها وقائداً ، وأخذ يعدُّ العدة للقاء جيش ابن الحبحاب ، والتقى به في الجزائر على نهر شلف شمالى تيهرت ، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصُفْرِيَّة وقُتل فيها كثيرون من أشرف العرب ، ولذلك سُمِّيت معركة الأشرف . ويعزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب ، ويولَّى المغرب كلثوم بن عياض القشيري وشدَّ أزره بابن أخيه بلج بن بشر ، ويقدمان إلى المغرب الأقصى في جيشٍ ضخيم ، ويديران مع خالد بن حميد إمام الصُفْرِيَّة جنوبي طنجة معركة ضارية ، ويهزمان ويتوفى كلثوم ، فينسحب بلج ببقية جيشه إلى مدينة سبتة ، وتحاصره الصُفْرِيَّة فيها وتشدد الحصار ويضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس ، ويثور البربر في المغرب بجميع دياره . ويولى هشام عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وأمدّه بجيش جرَّار . وعرف أن قائدين صُفْرِيَّين هما عكاشة بن محسن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى حشداً جموع الصُفْرِيَّة في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا أن يسيرا في طريقين لمهاجمة القيروان : عبد الواحد من الشمال وعكاشة من الجنوب ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة ومزق جيشه ، وأخذ يستعد في القيروان لمنازلة عبد الواحد ، واستثار الفقهاء لحربه ، فانضموا إلى جيشه ووزع عليهم السلاح ، وبرزت النساء مع الجيش حاملات السلاح وامتلاً الجيش حمية ، ودارت المعركة فسُحق جيش عبد الواحد

وحملت رأسه إلى حنظلة فخر الله ساجداً . وقُبل الوليد بن يزيد الخليفة الأموي سنة ١٢٦م فأحسَّ عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بدنو أجل الدولة الأموية فأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م وكان حنظلة تقياً فكره أن يتقاتل المسلمون وعاد إلى المشرق . ولما أصبح صولجان الخلافة بيد مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م أقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على المغرب دَرءاً للفتن هناك ، ولأنه أعلم من غيره بشئونها إذ هي داره ودار جده عقبة بن نافع ، وثارت الإباضية بطرابلس سنة ١٣٠هـ بقيادة عبد الله بن مسعود التجيبي وأحمد الثورة ، وبايع الإباضية هناك الحارث بن تليد بالإمامة واتخذ عبد الجبار بن قيس المرادي وزيراً له ومستشاراً ، وأدارا الحرب مع جيوش عبد الرحمن واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م . وفي نفس السنة تحولت الخلافة إلى العباسيين فأقروا عبد الرحمن بن حبيب في ولايته ، وسمع بتجمع للصفرية بتلمسان في الجزائر سنة ١٣٥هـ ففاجأهم وكُتب له النصر عليهم . وأرسل حملة إلى صقلية رجعت بكثير من الغنائم ، واستولى على جزيرة قوصرة التي تبعد عن الشاطيء التونسي نحو ثلاثين ميلاً ، وتنازل عنها - فيما بعد - أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية بتونس لفرديريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة « ملك صقلية » سنة ١٢٢٨هـ/١٢٣٠م . وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث فقتلاه سنة ١٣٧هـ وتولى بعده إلياس ، وقتله ابن أخيه : حبيب بن عبد الرحمن وتولى مكانه ، ولم تلبث قبيلة ورفجومة النفاوية الصفرية الغالية أن هاجمته واستولت على القيروان واستباحتها سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وحاول حبيب أن يستردها سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م ففتكت به ورفجومة . وكانت قد استحلت المحارم في القيروان فغضب أهلها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية بطرابلس وجبل نفوسة ، فهاجم ورفجومة وخلص منها القيروان سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم أحد قواده ، ولم يلبث محمد بن الأشعث والي مصر أن قدم على رأس جيش ضخم ، فاشتبك مع أبي الخطاب في معركة ضارية قتل فيها أبو الخطاب ، وفر إليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب في الجزائر وأسس في شماليه دولة للإباضية بمدينة تاهرت ظلت بعده حتى سنة ٢٩٦هـ . وولى ابن الأشعث على الزاب الأغلب بن سالم التميمي ولم يلبث أن تولى على المغرب الأدنى سنة ١٤٨هـ/٧٦٢م ويقتل في بعض حروبه سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ويتولى على المغرب عمرو بن حفص المهلبى ( هزارمرد ) باتى طنبنة بالزاب ، ونازل في الجزائر الصفرية والإباضية بتاهرت ، وثارت عليه إباضية طرابلس وحاصرت القيروان وخرج إليها واستشهد في المعركة سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م . وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤هـ ويقول عنه الرقيق القيروانى : « كان كثير الشبه بجده المهلب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه وكان خبيراً بشئون الإدارة فرتب القيروان وسوقها ، كما كان خبيراً بشئون السياسة والحرب ، فقلم أظفار الصفرية في الجزائر ولم يعد لهم نشاط إلا في ديار زنانة بالصحراء ، وقلم بالمثل أظفار الإباضية ، فلم يعد لهم نشاط إلا في تاهرت وجبل نفوسة ،



وهدأت الأمور بإفريقية واستقرت طوال عهده ، وكان أدبيا ، وأسبغ عطاياه على الشعراء ووفدوا عليه من المشرق ، وأحدث في القيروان حركة أدبية واسعة ، وجدّد جامع عقبة الأعظم بها ، وازدهر في عهده العمران . وظل واليا على إفريقية التونسية ونوميديا أوشرقي الجزائر حتى قسنطينة والزاب ستة عشر عامًا كانت أعوام رخاء وهدوء بالمغرب إلى أن توفى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وتولى بعده أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عن أخيه شجاعة وبطولة وحنكة سياسية ، ونعمت إفريقية التونسية والزاب في أيامه باطراد الهدوء والرخاء وفي عهده تأسست الدولة الإدريسية الحسنية في ولىلى جنوبي طنجة بالمغرب الأقصى ، وتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩١م وخلفه ابنه الفضل حتى سنة ١٧٩م وخلفه هرثمة بن أعين أحد قواد الدولة العباسية العظام ، ونشر في الاقليم التونسي والطرابلسي الأمن والنظام ، وبنى مدينة المنستير وقصرها الكبير سنة ١٨٠م واختار للزاب واليا إبراهيم بن الأغلب التميمي ، وأعجب بشجاعته وحسن سياسته ودهائه ، وعاد إلى بغداد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م وخلفه محمد بن مقاتل العكبي إلى سنة ١٨٤م وكان ضعيفا سىء السياسة . واستشار هرون الرشيد هرثمة فيمن يوليه المغرب ويحسن القيام عليه وقمع ثوراته ، فأشار عليه بإبراهيم بن الأغلب وامتدحه له طويلا ، فارتضى ولايته عليه منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعله له ولأبنائه من بعده آملا أن يكون به أسرة حاكمة له حكما سديدا كحكم المهالبة المذكورين آنفا .

### ( ب ) الأغالبة<sup>(١)</sup>

كانت الجزائر تحظى حينئذ في شريقها ( نوميديا القديمة ) بدولة الأغالبة المستقلة ، وكان منذ الفتح تابعا للقيروان ، وكان يمتد غربى الإقليم التونسي إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شاملا قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمته طنبنة . ونعم هذا القسم من الجزائر في عصر الدولة الأغلبية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه في ذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان وما تحقق لحكامها الأغالبة من مجد حربى عظيم باستيلاء الأمير زيادة الله الأغلبى على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونقله هو وخلفائه من أسرته إليها الدين الحنيف العظيم والحضارة العربية المزدهرة وكل ما ارتبط بها من العلوم والصناعات . وكان ذلك فتحا عظيما للدولة الأغلبية ورعاياها في الإقليمين التونسي والجزائرى ، فرحل منهم كثيرون إليها ينعمون بما فيها من طبيبات الأرض ، مما عاد على التونسيين والجزائريين بخير وفير ، مع شعورهم بغير قليل من العزة . وظل هذا الشعور يزداد قوة طوال أيام الأغالبة بفضل أسطولهم العظيم وغزواته

لمبارك بن محمد الميل والجزء الأول من كتاب ررقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وما كته فيه عن أمرائها .

(١) انظر فى الأغالبة المصادر السابقة والجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب والحلة السيرة لابن الأبار ، وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث

لبارى فى شرقى إيطاليا ولروما نفسها ، ولحصون وبقاع إيطالية كثيرة جنوبيها ، واستولى على مالطة سنة ٨٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشر بها الإسلام وحضارته الباهرة . وتبلغ هذه الدولة التونسية الجزائرية أعظم قسط من الحضارة والمدنية فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى ( ٨٢٦١هـ/٨٧٤م - ٨٢٨٩هـ/٩٠١م ) إذ يؤسس فى مدينته رقادة التى بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت فى البلاد المغربية ، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة ، وقاد إبراهيم الأسطول بنفسه إلى جنوبى إيطاليا ، واستولى فيه على طائفة كبيرة من الحصون . وكل ذلك كان يملأ الرعية فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر بالبهجة . وكان الأغلبة على وعى كبير بالسياسة وتدير شئون الحكم ، فكانوا يولون على شرقى الجزائر فى طئنة ولاية يحسنون إدارة الحكم ، وكانوا يمنحونهم سلطة إدارية واسعة ، وكان قاضى القيروان يولى على البلاد قضاة نزهين ثقة يحكمون بين الناس بالعدل والإنصاف لافرق بين عربى وبربرى ، بل مساواة تامة فى الحقوق والواجبات ، فازدهرت الحياة فى شرقى الجزائر - لعهد الأغلبة - وازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارا رائعا .

### ( ج ) الإباضيون<sup>(١)</sup>

تأسست الدولة الإباضية فى القسم الغربى من الجزائر الداخلى قديما فى موريتانيا الشرقية ، أسسها عبد الرحمن بن رستم فى منطقة جبلية وعرة متخذاً مدينة تاهرت عاصمة لها ، ولما أبكر أتباعه من الإباضية أعلنها سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وقد أقامها على أسس مبادئ الإباضية المثالية إذ جعلها ديمقراطية يولّى الإمام فيها بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب واشترط فى الإمام أن يكون عادلا منتهى العدل عالما بالإسلام وتعاليمه حق العلم عاملا بمبادئه التى تكفل بدقة مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، ويأبى الإمام بيعة عامة بعد انتخاب الشورى له ، ويستشير فى الأمور المهمة « الشراة » وهم عظماء المذهب الإباضى وعلماءه ، كما يستشير فى الأمور العامة سادة القوم والقبائل ، ويعين القضاة بعد استشارة الشراة ، ويضبط الحكم عن طريق نوعين من الشرطة : شرطة تقوم بالحراسة والمحافظة على الأمن ، وشرطة تسمى شرطة الحسبة تشرف على الأسواق وتحكم فى خصوماتها وتطوف فى المدينة أو القبيلة ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . وتداول الإمامة فى تاهرت ستة أئمة ، أولهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة حتى سنة ١٧١ وكان يتميز

الثالث من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دهبز والأرهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ص ٤٣٦ وما بعدها .

(١) انظر فى الدولة الإباضية بتاهرت كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصعير بتحقيق الدكتور ناصر والأستاذ النجار والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشماخى وتاريخ الجزائر لأحمد توفيق المدنى والجزء

بالعدالة والتقوى وسعة العلم ، واختارت شورى الإباضية بعده ابنه عبد الوهاب وظل إماما للإباضية حتى سنة ٢١١هـ/٨٢٧م غير ملاحظين أن ذلك يفضى بالإمامة إلى أن تكون وراثية ، مما يناقض إنكارهم لنظام الخلافة الوراثي ، وأدّى ذلك إلى انشقاق في صفوف الإباضية هناك إذ نشأت بينهم طائفة تسمى النكارية أنكرت إمامة عبد الوهاب الوراثية . وتمردت عليه في شمالي الدولة فرقة الواصلية المعتزلة نسبة إلى زعيم المعتزلة في البصرة واصل بن عطاء وحاربها وقضى على فتنها ، وانضم إلى مذهبه الإباضي جبل أوراس أو بعضا منه ، وخلفه ابنه أفلح حتى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وكانت النكارية لا تزال تشاق جماعة الإباضية شاهرة السلاح فأدار معها حربا انتهت بمقتل قائدها وتشتت أنصاره في البلاد والقبائل ، وخلفه ابنه أبو اليقظان حتى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وأخذت الدولة في الضعف وتفاقم في عهد ابنه أبي حاتم وأبي اليقظان . وكان أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي الفاطمي قد نشر الدعوة الفاطمية في قبيلة كتامة وأيدته في القضاء على الدولة الرستمية نهائيا سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م . ومما يذكر لهذه الدولة تنشيطها التجارة إلى الصحراء الإفريقية المدارية في بلاد تشاد والنيجر ومالي وفولتا وإلى السودان النيلي في مناطق كردفان ووادي . وقد عنت الدولة عناية واسعة بحراسة السبل وإقامة الفنادق والمحطات وحفر الآبار للقوافل وحراستها ، وأهم من ذلك أنها أقامت في الواحات وفي كثير من الجهات زوايا بها مساجد لنشر الإسلام في كل البقاع التي كانت تنزلها القوافل ، وهي خدمة دينية وحضارية كبرى . ولما قضى على الدولة الإباضية في تاهرت انحاز الإباضيون في الجزائر إلى الجنوب - حتى اليوم - في أرض ميزاب والواحات مثل بسكرة والأغواط وغرداية وورجلان . وتبع سقوط الدولة الرستمية سيطرة المذهب السني - وخاصة مذهب مالك - على البلاد وعلى مراكز التجارة والزوايا في الصحراء الإفريقية المدارية والسودان النيلي .

#### ( د ) تلمسان

في أقصى الغرب من الجزائر تقع تلمسان وإقليمها ، وكان بها من قديم بنو يفرن الزناتيون مؤسسوها وكانوا يعتنقون مذهب الصفرية الخوارج ، وشدوا أزر ميسرة في حربه ضد جيش ابن الحبحاب كما شدوا أزر الإمام الصفرى بعده خالد بن حميد . ونراهم في سنة ١٤٨ يبايعون بالإمامة الصفرية رجلا منهم هو أبو قرّة اليفرنى الزناتى ، ويُعدّ في سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م جيشا كبيرا لمنازلة الأغلب بن سالم التميمي في ولايته على المغرب الأدنى ( الإقليم التونسي وشرقي الجزائر ) ويبلغ النبا الأغلب فيقدم إليه بجيش جرار ، حتى إذا اقترب منه هرب وتفرقت عنه جموعه . ويتولى المغرب الأدنى سنة ١٥١هـ/٨٦٨م عمر بن حفص المهلبى ويأخذ في إعداد جيش لمنازلة أبي قرّة ويحصن طنبنة عاصمة الزاب ، وكان أبو قرّة أعد جيشا كثيفا لملاقاته ، وتقدم إلى طنبنة ، غير أن خلافا دبّ في جيشه ، وتفرقت عنه جنوده . واضطر عمر بن حفص



إلى العودة إلى القيروان لبلوغه نبأ ثورة قبيلة هوارة بطرابلس عليه ، وانتهاز أبوقرة غيابه عن طَبنة فهاجمها ، وكان عمرين حفص ترك بها المهناً مع قطعة من جيشه ، فاشتبك مع أبي قرّة فهزّمه وولّى الأدبار وأخذ المهنا عسكره بكل ما فيه . ولا نعود نسمع بثورة لأبي قرّة ، وتظل تلمسان خاضعة لقبيلة بنى يفرن الزناتية حتى تأخذها منهم قبيلة مغراوة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م . ولما أسس إدريس الأول الحسنى دولة الأدارسة فى ولىلى بإقليم فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ودار العام واشتدت شوكته رأى الزحف على تلمسان وماجاورها من قبيلة مغراوة ، وعلم بزحفه محمد بن خزر المغراوى فخرج إليه حين اقترب من البلدة ، وبايعه هو وجميع وجوه تلمسان ، وعيّنهُ إدريس والياً عليها وأمره ببناء مسجد لها وعاد إلى ولىلى وتوفى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وخلفه ابنه إدريس الثانى حتى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وكان فقيهاً وراوياً للحديث وشجاعاً مقداماً فى مهام الأمور ، وهو الذى بنى مدينة فاس واتخذها عاصمة للدولة ، ونزل تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات نظّم فيها شؤونها الإدارية والمالية ومحا منها دعوة الصفرية . ونزلها - كما يقول ابن خلدون وبعض المؤرخين - عمه سليمان بن عبد الله ، ويبدو إن إدريس الثانى أو ابنه محمد تركها له فتملكها وبايعه أهلها ، وتوارثها هى وإقليمها فى الجزائر عنه أبناؤه وأحفاده إلى أن أخذها منهم مؤمى بن أبي العافية فى القرن الرابع ثم تصير للدولة العبيدية .

#### ٤

### الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد ( أ ) الدولة العبيدية<sup>(١)</sup>

لم يلبث أبو عبد الله الشيعى أن دخل القيروان وقضى على الدولة الأغلبية ، وبذلك يكون قد قضى فى عام واحد على الدول الثلاث التى كانت تنقسم الجزائر : دولة الأغلبية فى شرقها ودولة الإباضيين بتاهرت فى وسطها ودولة الأدارسة من أبناء سليمان بن عبد الله فى غربها ، وبذلك دانت الجزائر للدولة العبيدية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فكان يديرها المهدي الفاطمى من القيروان ثم من مدينة المهديّة التى بناها بجوارها عاصمة له ولمن بعده ، ونالت الجزائر فى أيامه رخاء وأماناً وانتعشت التجارة بينها وبين الصحراء المدارية والسودان ، وأيضاً بينها وبين أوروبا ، وبنى عامله على الزاب على بن حمدون الزناتى بسهل الحضنة مدينة المسيلة ( المحمدية ) سنة ٣١٥ ، ويتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م . ويخلفه ابنه القائم وفى أيامه أخذ تآثر بربرى من الخوارج يُعدّ العدة فى الجزائر للانتفاض عليه والثورة يُدعى أبابيزيد مخلد بن كيداد ،

لابن حماد وافتتاح الدعوة للقاضى النعمان وكتابه المجالس والمسائرات وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى ص ٥٠٢ وما بعدها .

(١) انظر فى الدولة العبيدية اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء للمقرئى وكتابه الخطط والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم

أصله من مدينة توزر التونسية في بلاد الجريد ، وكان في أوائل حياته يحفظ الصبية والغلمان القرآن الكريم في مدن مختلفة بتونس والجزائر ، ونزل تاهرت في أواخر أيام الرستمين ، ويقول المؤرخون إنه اعتنق عقيدة الإباضية النكارية ، وأخذ يجتمع إليه كثيرون من قبيلته زناتة ومن البربر الخوارج إباضيين وصفريين ، وكون منهم جيشا لقي به قبيلة كتامة في الأرس وغير الأرس وهزمها مرارا . وكان يبيع لجيشه نهب البلاد وحرقتها وسبى النساء وقتل الأطفال مما يؤكد أنه لم يكن إباضى العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويبدو أنه قرأ عن الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سبى النساء وقتل الأطفال ، فالتدى بهم ، وبس القدوة . وماتوا في سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م حتى يحشد جيشا ضخما يستولى به على كثير من البلدان في الجزائر والإقليم التونسي ، ويتقدم بجيشه حتى مدينة رقادة بالقرب من القيروان وينهبها ، ويقتل واليها العبيدى خليل بن إسحق . ويقصد القيروان ويستولى عليها وينضم إلى جيشه أهل السنة من سكانها يريدون الانتقام من العبيدين لمحاولتهم فرض عقيدتهم الإسماعيلية عليهم ومحو مذاهب السنة من مثل مذهب مالك ، وزحفوا معه إلى أسوار مدينة المهديّة عاصمة العبيدين وحاصرها . وتوفى الخليفة العبيدى القائم في أثناء حصاره لها سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وخلفه ابنه الخليفة المنصور، وظلت الحرب بينه وبين ابن كيداد سجالا، واستصرخ زيرى زعيم صنهاجة في الجزائر، فلبى صراخه ، وانهمز ابن كيداد هزيمة ساحقة ، وولى الأديبار إلى الجزائر، والخليفة المنصور من ورائه يتعقبه في باغاية بجبال الأوراس وغير باغاية إلى أن جاءوه به مكبلا بالأغلال ، ففتك به سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وبالقضاء على ثورته انتهت ثورات الخوارج في الجزائر .

### ( ب ) الدولة<sup>(١)</sup> الصنهاجية

إذا كانت قبيلة كتامة الجزائرية هي التي لعبت الدور الأول في نصرة أبي عبد الله الشيعي على دول الجزائر الثلاث : الأدارسة في تلمسان والإباضيين في تاهرت والأغالبة في القسم الشرقي من الجزائر فإن قبيلة صنهاجة هي التي كان لها الدور الأول في القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الصُفري ، والقبيلتان جميعا كانتا تحتلان شمالي الجزائر : كتامة إلى الشرق وصنهاجة إلى الغرب ، وكانتا تأخذان بحظ من الحضارة ، وهما من قبائل البرانس المتحضرة . وكانت قبيلة زناتة تحتل الجنوب الجزائري ، وهي من قبائل البُتر المتبدية ، وكانت شعبها

تراجم باديس والمز وتميم وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلي ص ٥٢٩ وما بعدها .

(١) انظر في الدولة الصنهاجية الكامل لابن الأثير والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وابن خلكان في

وفروعها تمتد إلى تلمسان والمغرب الأقصى غربا وإلى جنوبي الإقليم التونسي وطرابلس شرقا .  
وولى الخليفة الفاطمي المنصور زيري الصنهاجي على المنطقة الغربية في الجزائر وحين تولى  
المعز الخلافة العبيدية سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م أبقاه عليها ، وكان مثل قبيلته على حظ من الحضارة  
ويتضح ذلك في بنائه مدينة أشير إلى الشمال الشرقي من تاهرت سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م واتخاذها  
عاصمة له ولقبيلته ، ودفع ابنه بلكين - فيما بعد - لتأسيس مدينة الجزائر على البحر المتوسط  
ومدينة مليانة جنوبي شرشال على الضفة الشرقية لنهر شلف ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقي  
من مليانة . وساعد زيري جوهر الصقلي في سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م في حملته التي استولى بها  
على جميع بلدان المغرب الأقصى ما عدا سبتة وطنجة اللتين كانتا تدينان بالولاء لعبد الرحمن  
الناصر الخليفة الأموي في قرطبة . وكان جوهر الصقلي قد استولى على مصر للمعز سنة  
٣٥٩ هـ / ٩٦٨ م وشاع عقب ذلك أن الخليفة العبيدي المعز سيرك عاصمته المهدية في إفريقية  
التونسية إلى مصر ، وسيولى زيري على المغرب جميعه نائبا عنه ، فامتعض لذلك جعفر بن  
علي بن حمدون الزناتي والي الزاب للمعز سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م وكانت بينه وبين زيري ضغائن  
وأحقاد وعداوة ، ولم يلبث أن جمع عسكره وسلاحه وأمواله وخرج من مدينة المسيلة عاصمة  
ولايته التي بناها أبوه في ولايته عليها كما مر بنا ، واتجه إلى قبيلته : زناتة خالعا طاعة المعز ،  
واحتفت به قبيلته وملكته عليها ، واستطاع في سنة ٣٦١ أن يجمع منها جيشا ضخما وزحف  
به على أراضي صنهاجة ، وعلم زيري فجمع رجاله بسرعة ، والتقى به ، واشتبك الخصمان  
ورجحت كفة جعفر بن علي وزناتة وقتل زيري في المعركة . وكان ابنه بلكين في أشير وجاءه  
نبا مصرع أبيه ، فأعد العدة سريعا للأخذ بثأر أبيه ، والتقى بزنانة ومزق جموعها ونكل بها  
تنكيلا شديدا ، وبلغ انتصاره عليها المعز ، فأقره على ولاية أبيه وأضاف إليه الزاب وتاهرت  
وسائر أعمال المغرب . وقبل مبارحة المعز المهدية إلى مصر ولاءه على إفريقية التونسية والمغرب  
جميعه في ذي الحجة لسنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م مع استثناء طرابلس وصقلية ، وكان ينبغي أن  
يرك له صقلية لأنها بعيدة عن مصر ، ولن تستطيع حمايتها عند الضرورة .

وأخذ بلكين ينهض بمسئوليات الحكم في المغرب ويرتب شئونه ، وهو بربري مغربي من  
صنهاجة ، وقد مضى يعمل على تأسيس دولة صنهاجية مغربية يتوارثها أبناؤه ، وهي أول مرة  
في التاريخ الإسلامي تنشأ دولة مغربية إسلامية فيه ، وتتوالى بعدها دول مغربية كبيرة ، مما يجعل  
حكم بلكين للمغرب فاتحة انتقال الملك والسلطان فيه من العرب إلى البربر وبعبارة أدق إلى  
زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، وهو تطور طبيعي إذ ظل البربر ، وبعبارة أخرى أبناء المغرب ،  
يتدربون قرونا - طوال الحكم العربي - على النظم الإسلامية في إدارة الدولة وأخذوا يحكمون  
أقاليمها المختلفة . وأن تنشأ لهم دولة مغربية أو دول من ذات أنفسهم ، أما ما يقوله مارسيه  
في كتابه : « البربر المسلمون في العصور الوسطى » وكتابته : « بلاد المغرب الشرقية » من أن



هذا التحول في المغرب من حكم العرب إلى البربر كان نفورا من العرب وكرها لهم وتحقيا لآمال البربر في الاستقلال عن العرب ودولهم فإن ذلك كله ليس بصحيح ، إنما الصحيح أنه تطور طبيعي لتمرّن البربر على أساليب الحكم وبناء الدول ، وأيضا بناء المدن ، ومرّبنا آتفا بناء على بن حمدون لمدينة المسيلة وبناء زيري لمدينة أشير وبناء بلكين لمدينتي الجزائر ومليانة .

واتخذ بلكين القيروان عاصمة له ، وتوفى الخليفة العبيدي المعز سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وتولّى ابنه العزيز وثبته في ولايته وأضاف إليه طرابلس وإقليمها . وثارت في أوائل عهده بالجزائر تاهرت وباغاية وتلمسان واستسلمت له سريعا ، وكانت الخلافة الأموية بقرطبة لا تزال توزع لزناتة وتلمسان وسجلماسة وفاس بالثورة على الخلافة العبيدية وبلكين ، وقاد في سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٩ م جيشا كثيفا إلى تلك الأنحاء ، واستسلمت له جميعا . وتوفى في أثناء عودته من المغرب الأقصى سنة ٣٧٣ للهجرة ، وخلفه ابنه المنصور في أوائل سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م فعقد لأخيه يطوفت على أشير عاصمة صنهاجة . وكان المنصور بن أبي عامر المستبد بحكم الأندلس باسم خليفته الشرعي المؤيد قد أعان زيري ابن عطية زعيم زناتة على بسط سلطانه على سجلماسة ، وبالمثل على فاس واتخذها عاصمة له ، فأمر المنصور أخاه يطوفت أن يقود جيشا إلى المغرب الأقصى ليسترجعه من زيري ، وصدع بأمره ، غير أن زيري هزمه وعاد إلى أشير يجر أذيال الهزيمة . وكان المنصور رجل سلم فصم أن تضع الحرب أوزارها بين قبيلته صنهاجة وقبيلة زيري زناتة فلا يعودوا إلى القتال ، وأعلن أن تلك آخر حرب بين القبيلتين حتى ينهى الحروب العقيمة التي أنهكت قواهما طويلا . وعرف العزيز الفاطمي في القاهرة هذا النبأ فغضب لما يؤدى إليه من ضياع المغرب الأقصى نهائيا ، فأرسل إلى كتامة في الجزائر داعية يسمى أبا الفهم الخراساني سنة ٣٧٦ لتأليبها على المنصور ، وظل سنة يثير الكتامين ويجمعهم حوله ، ولقيه المنصور هو وجموعه في سطيف شرقي تاهرت وقضى عليه . وأدت سياسته الحكيمة مع زناتة إلى أن تنضم إليه جماعة منها سنة ٣٧٩ بزعامة سعيد بن خزررون فولاه على طنبة ، وتوفى سنة ٣٨٢ فولّى ابنه فلّلا مكانه . وعم الجزائر الأمن والهدوء في بقية أيامه وتوفى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م وخلفه ابنه باديس في الثالثة عشرة من عمره فدبّر له أمور الدولة في إفريقية التونسية والجزائر أعمامه ، وخاصة يطوفت في تاهرت وحمادا وقد ولاه على أشير سنة ٣٨٧ . وماتوا في سنة ٣٨٩ حتى يُعيد زيري بن عطية صاحب فاس جيشا ضخما ويحاصر يطوفت في تاهرت ، وينجده سريعا حماد كما ينجده باديس بجيش يقوده محمد بن أبي العرب ، ويضع القادة الثلاثة الخطط ويشنون هجوما على زناتة ، وتدور عليهم الدوائر ، ويولي جيشهم الأدبار تاركين وراءهم مضاربهم وما فيها من الأموال والسلاح غنيمة لزناتة وزيري . وبلغ باديس الخبر فخرج على رأس جيش للقاء زيري ، وعلم به فعاد إلى فاس ، وخرج عليه فلّقل بن سعيد فظلت فرق من الجيش تطارده ، وفرّ إلى طرابلس سنة ٣٩١ واستوطنها . وجاءه خبر

فى نفس السنة من عمه حماد أنه قضى على الثائرين من أعمامه عليه بقتله ماكسن وأولاده ورحيل زاوى بن زيرى وإخوته إلى الأندلس ، وكان لهم فى الفتنة التى نشبت بقرطبة وقضت على الخلافة الأموية دور فى غاية السوء . وفى نفس السنة توفى زيرى بن عطية صاحب فاس والمغرب الأقصى وتنفست صنهاجة وحماد الصعداء ، وعادت زناتة فى سنة ٣٩٢ إلى مهاجمة صنهاجة فى أشير ولكن بطلها زيرى كان قد توفى فهزمتها حماد هزيمة ساحقة .

( ج ) بنو حماد<sup>(١)</sup>

كان حماد - كما يقول لسان الدين بن الخطيب - نسيج وحده وفريد دهره شجاعا حصيفا ، قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب « الجدل » وفكر جادا فى الاستقلال عن ابن أخيه : باديس وتكوين دولة له ولأبنائه فى الجزائر ، وكان أول ما فكر فيه بناء قلعة تكون عاصمة للدولة ، ولم يلبث أن بنى فى سنة ٣٩٨ قلعة بنى حماد على منحدر وعرف فوق سفوح جبال كيانة على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على بعد ٢٦ كيلومترا من المسيلة ( المحمدية ) وأحاطها سريعا إلى مدينة تكتظ بالأحياء والفنادق والمساجد تتوسطها قصبة أو عبارة أخرى حصن منيع ، ولا تزال خرائبها وأطلالها قائمة إلى اليوم . وصمم حماد على إعلان استقلاله . وماتوا فى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م حتى يعلن استقلاله عن باديس فى القيروان وعن الدولة العبيدية وعقيدتها الشيعية المتطرفة ويدعو للعباسيين على المنابر معتنقا لمذهب أهل السنة . وصمم باديس على حربه ، وأعد جيشا ضخما لمنازلته سنة ٤٠٦ واتجه به إلى القلعة وهزمه بجوارها ، وفر حماد إلى القلعة تاركا خيامه ومضاربه . وتوفى باديس فى نفس السنة وخلفه ابنه المعز فى الثامنة من عمره ، ودبر له شئون الحكم أعمامه ورجال دولته ، وانتهز حماد الفرصة واستولى على مدينتى المسيلة وأشير عاصمة صنهاجة وحاصر باغاية ، فزحف إليه جيش للمعز سنة ٤٠٨ للهجرة وهزمه فى معركة عنيفة ، وفر على وجهه إلى القلعة محتما بها ، ولم يجد بدا من طلب الصلح ، وتم ، وبمقتضاه يستقل حماد وأبناؤه بأشير والمسيلة وطبنة والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وكل ما يفتحونه فى المغرب الأقصى . وانقسمت دولة الصنهاجيين بذلك إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين فى القيروان بإفريقية التونسية ، ودولة آل حماد بن بلكين بالقلعة فى الجزائر .

وتعدّ دولة حماد وأبنائه فى القلعة أول دولة جزائرية فى العصور الإسلامية بأدق معنى لهذه الكلمة ، وحقا سبقتها الدولة الرستمية فى تاهرت ، كما مر بنا ، ولكن مؤسسها كان فارسى الأصل ، وحكمها هو وأبناؤه من بعده . وكانت اللغة البربرية تشارك اللغة العربية فى أيامهم

القلعة وبجاية لإسماعيل العربى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٦٠٢ وما بعدها وراجع مادة : « بنو حماد » فى دائرة المعارف الإسلامية.

(١) انظر فى بنى حماد الكامل لابن الأثير والجزء الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب والبيان للمغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وكتاب دولة بنى حماد ملوك



وَأَلَّفَ بِهَا كَثِيرًا مِنَ الْكُتُبِ وَخَاصَّةً فِي الدَّعْوَةِ الْإِبَاضِيَّةِ ، أَمَا الدَّوْلَةُ الْحَمَادِيَّةُ فَكَانَتْ لِأَسْرَةٍ مِنْ صَمِيمِ الْبَرْبَرِ وَيُوتَهُمُ الْعَرِيقَةُ فِي صَنْهَاجَةَ ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ دَوْلَةُ بَرْبَرِيَّةُ بِحَمَّةَ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهَا اتَّخَذَتْ الْعَرَبِيَّةَ لِسَانَهَا وَلُغَةً رَسْمِيَّةً لَهَا ، وَعَمِلَتْ - بِكُلِّ وَسِيلَةٍ - عَلَى نَشْرِهَا لِأَنَّ الْعَاصِمَةَ فَحَسِبَ ، بَلْ أَيْضًا بَيْنَ الْقَبَائِلِ ، وَعَمِلَتْ أَيْضًا - بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعَتْ - عَلَى إِزْدِهَارِ نَهْضَةٍ فِي بِلَادِهَا أُدْبِيَّةً وَعِلْمِيَّةً وَحَضَارِيَّةً .

وعاش حماد هاتفا بقلعته ودولته حتى سنة ٤١٩ هـ وخلفه ابنه المسمى بالقائد ، ووسَّع حدوده في المناطق الشرقية للمغرب الأقصى ، ونشب نزاع وبينه وبين ابن عمه المعز سنة ٤٣٢ هـ وزحف إليه بجيش ، ولم تقع بينهما حرب ، وعادت العلاقات بينهما طيبة كما يقول ابن خلدون ، وتوفي القائد سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وخلفه ابنه محسن وخرج عليه بعض أعمامه وتغلب عليهم ، وكانت مدة ولايته قصيرة : تسعة أشهر ، وتولى بعده بُلُكَيْنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَمَادٍ سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م . وكان المعز بن باديس في القيروان قد خلع سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م طاعة الفاطميين العبيديين وقطع اسمهم من خطبة الجمعة وجعل مكانهم فيها اسم الخليفة العباسي وحمل الناس على الرجوع إلى مذهب مالك الذي يرتضيه فقهاؤهم ، وبذلك تطهر المغرب من عقيدة الإسماعيلية الفاطمية ، وجُنَّ جنون المستنصر الخليفة الفاطمي العبيدي بمصر فأشار عليه أحد وزرائه المسمى اليازوري أن يتخلص من جموع كبيرة من بني هلال وسليم كانت نزلت بشرقى النيل في الصعيد بدفعها إلى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، وكانوا يعدون بمئات الألوف ، فاكسحوا برقة وطرابلس وإفريقية التونسية ، ولم يستطع المعز بن باديس دفع هذه السيول الجارفة فانحاز إلى المهديَّة سنة ٤٤٩ هـ وبقي بها إلى نهاية حكمه ووفاته سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م . وكانوا بدوا غير متحضرين ينهبون ويخربون المدن ويفسدون الزروع ، وانصبَّ منهم إلى الجزائر لعهد بلكين سيل هلالى جارف على رأسه قبائل أثبج وعدى وعامر ، وحاولت زناتة في تلمسان بزعامة أبي سعيد الخزري أو الخزروني أن تكبح جماح هذا السيل فقتل زعيمها وتشتت جيشه ، أما بلكين في القلعة فرأى من الخير أن يترك للأثبج وعدى الأرياف ينهبون فيها ، وتحالف معهم لحرب المغرب الأقصى وزحف عليه بجيش ضخم ودخل مدينة فاس . وفي عودته فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس جنوبي وهران وقتله ثأراً لأنخت له كان بلكين ظن أنها هي القاتلة لزوجها ، وكان شقيقاً له ، وأعلن نفسه حاكماً للقلعة وصنهاجة مكانه سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م .

والناصر بن علناس أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرها دهاء وحنكة سياسية ، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة ، ولم يشمل الجزائر جميعها فحسب ، فإن انحياز المعز بن باديس وابنه تميم إلى المهديَّة وأحوازها جعل حكمه يمتد من حدود المغرب الأقصى إلى القيروان

وصفاقس ، ولعل ذلك ما أوغر عليه صدر تميم ، فأوعز إلى أمراء بني رياح أن يهاجموا الناصر قبل أن يفتك بهم ، ونازلهم في سببة شرقى الجزائر ودارت عليه الدوائر ، غير أن الناصر استطاع أن يسترد ما كان معه من البلدان في الاقليم التونسي حتى القيروان . وكان يحدث شغب في كثير من البلدان ويستطيع الناصر القضاء عليه ، وصافته زناة ، وعادت العلاقات حسنة بينه وبين تميم بن المعز . وكان بعيد النظر فعمل على التسامح مع المسيحيين ببلاده حتى يشعروا بالأمان ، ويعظم إنتاجهم وعملهم فيها ، وأرسل إلى البابا جريجورى السابع بتكريس قسيس يسمى سرفاند أسقفا لأبرشية بونة وافتدى جميع الأسرى المسيحيين في بلاده أو مملكته . وكان لذلك أثر طيب في نفس البابا فأجابه إلى تكريس سرفاند ورد عليه سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م برسالة لطيفة قال فيها إن المسلمين والمسيحيين جميعا يؤمنون بإله واحد خالد . وخوفا على القلعة عاصمة الدولة من أن يصيبها من التخريب على أيدي العربان من بني هلال ما أصاب القيروان وغيرها من مدن إفريقية التونسية بنى بجاية على البحر المتوسط في الشمال سنة ٤٦١ هـ لتكون عاصمة جديدة للدولة ، وعنى بتخطيطها وتشيد قصور شامخة فيها وظلت بعده تشتهر بما فيها من مساجد ومدارس وفنادق وحمامات ومستشفيات .

وخلفه ابنه المنصور سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م وفي أول حكمه ازداد ضغط القبائل الهلالية عليه واضطرته إلى أن تتقاسم معه نصف غلة الأرض ، مما جعله يصمم على هجران القلعة إلى مدينة بجاية سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م . وخلال الستين اللتين قضاهما في القلعة شيد عددا من القصور ، حتى إذا اتخذ بجاية عاصمة له شاد بها طائفة من القصور أهمها قصر اللؤلؤ ، وخرج عليه بعض الثوار في بونة وقسنطينة ، وعادتا إليه ، واشتبك مع زناة في الجنوب الغربى ورد المرابطين إلى المغرب الأقصى بعد أن استولوا على تلمسان وتقدموا إلى مدينة الجزائر . وظل سيد الجزائر دون منازع إلى وفاته سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . وتولى الدولة بعده ابنه باديس ، وكان فظا سريع الغضب ، وتوفى بعد ستة أشهر من حكمه ، وولى بعده أخوه العزيز ، وعمل على عودة السلام بين قبيلته صنهاجة وقبيلة وامانو الزناتية وتزوج بنت زعيمها ماخوخ ، وكانت أيامه هادئة وآمنة . وعنى بتشجيع الحركة العلمية والأدبية وإعداد بجاية لإيواء اللاجئين من الأدباء والعلماء الذين غادروا القلعة إلى عاصمته حين تدهورت وأصبحت نهبا للأعراب ، وكانوا قد أخذوا يتوغلون من جبال البابور إلى بونة . وتوفى العزيز سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م وخلفه ابنه يحيى ولم يستطع إعادة الدولة إلى ما كانت عليه إذ اتسعت زغبة وغيرها من القبائل الهلالية في التخريب والقضاء على العمران في الجزائر وخوفا على ما في القلعة من ذخائر وطرف ومن أدوات ترف وبذخ نقلها يحيى إلى بجاية سنة ٥٤٣ للهجرة .

## دولة الموحدين - الدولة الحفصية - بنو عبد الواد ( أ ) دولة<sup>(١)</sup> الموحدين

لم يلبث عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى أن دخل بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م واصطحب يحيى معه إلى عاصمته مراکش ، واتسع في إكرامه . وبذلك انتهت دولة بنو حماد في الجزائر ، وكان حكامها يأخذون بأسباب من الحضارة ، وكانوا بصيرين بشئون الحكم ، وعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ، وأحدثوا في القلعة وبجاية عاصمتيهما نهضة في الآداب والعلوم والتحضر بلغت شأواً عظيماً ، وعنوا بالصناعة والزراعة والتجارة مع إفريقيا والسودان في الجنوب ومع أوروبا في الشمال ، وكان أسطولهم التجارى يمتد عبر عباب البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا والأندلس ، وأقاموا له ببجاية دار صناعة بحرية كبرى تمده بالسفن ، وقد عقدوا مع الدول البحرية الأوربية معاهدات تجارية . وبدون ريب كان لهجرة الأعراب البدو من بنو هلال واكتساحهم للزاب بإبلهم وخيلهم ورجلهم في القرن الخامس الهجرى أثر غير قليل في إفساد الزاب ، وحدثت الطامة في القرن السادس الهجرى إذ أخذوا يتقدمون إلى الأطلس التلى وجبال البابور وامتدوا شرقاً حتى سهول بونة ( عنابة ) وأصبح بنو حماد وبجاية في حاجة إلى من ينقذهم ، وأنقذهم عبد المؤمن خليفة الموحدين في مراکش . وكان يعرف خطورة الهلاليين على البلاد ، فأدار معهم معركة حاسمة بالقرب من سطيف جنوبى بجاية ومزقهم تمزيقاً وطاردهم فلوهم حتى تبسة جنوبى باغاية . وتعد هذه المعركة نهاية المعارك الكبرى للهلاليين في الجزائر ، وأخذوا بعدها يتأقلمون ويتغربون أو يصبحون جزءاً من الشعب المغربى ، وانتفع بهم عبد المؤمن في حروبه بالأندلس وكذلك ابنه يوسف وحفيده يعقوب وخاصة في معركة الأرك المشهورة . وكان نورمان صقلية قد استولوا على المهديّة سنة ٥٤٣ وبالمثل على طرابلس وطلب أهلها من عبد المؤمن النجدة ، فسار سنة ٥٥٣ بجيش ضخم وأسطول كبير إليهم ، وقلم في الجزائر وإفريقية التونسية أظفار الأمراء المستبدين بالبلاد ، وحاصر المهديّة ثم طرابلس برا وبحرا سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وفر النورمان خاسئين مدحورين ، ويطبق في الأقليمين التونسي والجزائرى ما اتخذته في المغرب من التراتيب المخزنية في إدارة الحكم ، وظلت قائمة إلى نهاية الدولة الحفصية . وتظل الجزائر هادئة في عهده وعهد ابنه يوسف الذى خلفه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وتوفى يوسف ويخلفه ابنه يعقوب

الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عتّان .

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب لابن عذارى وكتاب المعجب للمراكشى والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون وكتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة وتاريخ



سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م. وفي عهده ثار عليه بنو غانية ولاة المرابطين في جزيرة ميورقة، ونزل منهم على وأخوه في الجزائر والإقليم التونسي محاولان أن يقيما فيهما دولة لمقاومة دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ويعدا جيشا لحربهم . وأحدث على قلاقل كثيرة في الساحل الجزائري بين بجاية ومليانة وكذلك في الساحل التونسي، فخرج إليه يعقوب بجيش جرار سنة ٥٨٣ وظل طوال مسيرته إليه في بلدان الجزائر وتونس بيني المساجد كما بينى المستشفيات، وعلى بن غانية يفر أمامه إلى أن لقي مصرعه، وعاد يعقوب إلى عاصمته. وخلف على في شغبه على الموحدين أخوه يحيى وظل يستعين بالعصابات الهلالية، ومرة ينتصر ومرة ينهزم حتى توفي في بيرة تلمسان سنة ٦٣١.

### ( ب ) الدولة<sup>(١)</sup> الحفصية بتونس

في هذه الأثناء قامت الدولة الحفصية ، وكان مؤسسها أبو زكريا بن عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص واليا للموحدين على إفريقية التونسية ، واستطاع أن يخضع الجزائر ، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته ، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفاً شديداً ، فاستقام له حكم البلدين حكماً رشيداً يقوم على نشر العدل والأمن في البلاد ، وحين نشأت الدولة المرينية ظلت تعلن البيعة والولاء له حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٨ م وكذلك لابنه محمد ، وكان التار قد قضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وأصبح المسلمون بدون خلافة ، فانتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعمل بعض أتباعه على أن تبايعه مكة بالخلافة وبايعته ، وتسمى باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله ، وكان عهده في الجزائر شرقاً وغرباً - كعهد أبيه - عهد رخاء واستقرار إلى وفاته سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٥٨ م . وقامت منافسات على الحكم بين أبنائه واقتتلوا وأخذ حكم الدولة ينحسر عن غربى الجزائر كما أخذ المرينيون يتخلصون من الولاء لهم ، واقتحم الجزائر أبو يحيى أخو السلطان يوسف بن يعقوب المرينى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م ودخل بجاية وخرّب بستانها المسمى بالبديع وعاد أدراجه . وانتهى من حينئذ حكم الدولة الحفصية بالجزائر ، فلم تعد تمتد سلطانها على تاهرت وشرشال ومدينة الجزائر ، إذ تراجع حكمها - حتى نهاية أيامها في القرن العاشر الهجرى - إلى بجاية وسطيف وبسكرة وقسنطينة والزاب . وفي الأكثر كانت تفرض تلمسان في عهد بنى زيان سلطانها على الجزائر الغربية وأحيانا كان يفرضه عليها بنومرين وقلما كانت تفرضه الدولة الحفصية . وحاول الخليفة الحفصى أبو عصبدة تلافى هذه الخصومة سريعاً ، فأرسل في سنة ٧٠٣ وفداً

الحفصية لابن الشماخ والفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الملى .

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى والأدلة المينة النورانية في مفاخر الدولة

إلى السلطان المريني لتحسين العلاقات بينهما ، وتحسنت وتعددت بينهما السفارات . وأخذت الدولة الحفصية تزداد ضعفا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، مما جعل السلطان المريني أبا الحسن يجتاح تلمسان والجزائر ويدخل تونس سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ويظل بها سنتين ، ويعلم بثورة أبي عنان ابنه عليه في المغرب الأقصى فيعود إلى بلاده . وتعود للحفصيين دولتهم في طرابلس وتونس والجزائر الشرقية حتى بجاية ، ويحاول أبو عنان - بعد توليه الحكم - الاستيلاء من جديد على تونس ويكسح الجزائر سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ويوجه إلى تونس حملة بحرية لمعاونة القوات البرية . ويستولى عليها لمدة شهرين ، إذ يضطر إلى مبارحتها لثورة قبيلة رياح عليه ويهدم حصونها في الزاب ، ويعود إلى فاس عاصمته . وتستعيد الدولة الحفصية مدنها في الجزائر الشرقية وتحسن العلاقات بينها وبين الدولة المرينية . وتعود إليها قوتها في عهد السلطان الحفصى أبي فارس عبد العزيز فيعد سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م جيشا جرارا يفتح به غربي الجزائر وتلمسان حتى إذا اقترب من فاس يريد غزوها أرسل إليه صاحبها أبو سعيد عثمان المريني رسالة يقول فيها : « إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطتكم وجميع ماتأمروننا به نمثله » وكانت الرعية شكت من ظلمه فأمره أبو فارس بالعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وعاد إلى عاصمته تونس . ويتولى الحكم بعده حفيدة أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م وامتد حكمه إلى خمسة وخمسين عاما نعمت فيها تونس والجزائر الشرقية بالأمن والعدل والرخاء ، وثارت عليه تلمسان فاسترد ولأها لدولته وهو خاتمة الخلفاء الحفصيين المهمين ، وتوفى سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م وأخذت الدولة بعده في التدهور وأخذت تستقل عنها بعض البلاد في إقليم الجزائر الشرقية .

( ج ) بنو عبد<sup>(١)</sup> الواد بتلمسان

لم تفصل القول حتى الآن عن تلمسان ، وكان بنو زناتة يسيطرون عليها ، ومر بنا أن الأدارسة استولوا عليها ، وأن الفاطميين أخضعوها لهم بعدهم ، وانحسرت عنهم دولتهم ، أو ثاروا عليها ، مما جعل صنهاجة بزعامه بلكين تغزوهم سنة ٣٦٨ للهجرة ويثأرون لأنفسهم بزعامه زيري بن عطية سنة ٣٨٩ وتهزمهم صنهاجة سنة ٣٩٥ وتظل زناتة مسيطرة على تلمسان إلى أن يستولى عليها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين بمراكش سنة ١٠٨١ هـ / ١٠٨١ م وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء دولتهم ، وتبع بعدهم دولة الموحديين . وقربوا منهم بنو عبد الواد الزناتيين . وفي سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ولوا منهم جابر بن يوسف

(١) انظر في بنو عبد الواد أربني زيان كتاب تاريخ بنو زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التتسي تحقيق د. محمود بو عياد وكتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بنو عبد الواد ليحيى بن خلدون تحقيق د. عبد الحميد

حاجيات وكتاب الاستقفا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ ابن خلدون وكتاب أبو حمو موسى الزياتي للدكتور عبد الحميد حاجيات وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلي

على تلمسان. فأخذ يعمل على الاستقلال ببلده عن الموحدين ، غير أنه توفي سريعا ، وخلفه بعض أفراد من أسرته ، وصارت سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م إلى يَغْمُرَاسِن فأعلن استقلاله عن الموحدين ، ونصَّب نفسه أميراً للمسلمين ، وسير إليه أبو زكريا الحفصي أمير إفريقية التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاء ، وعاد بجنده . وزحف إليه السعيد الموحدى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وانتصر عليه يغمراسن . ونشبت بينه وبين قبيلة المعقل وغيرها من القبائل الصحراوية حروب كثيرة ، وجعل بينه وبينها قبيلة بنى عامر لتندراً خطرهما ، وواقع مرارا بعض أعمال تلمسان فى غربى الجزائر ، وتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد أن ثبت فى تلمسان دعائم الملك لأبنائه . وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان ، وقد وسَّع أطراف مملكته فى غربى الجزائر حتى جبال ونشريس ومدينة المدية فى الأطلس التلى جنوبى مدينة الجزائر ومدينة تنس على الساحل غربى شرشال . وغزا تلمسان لعهدده سلطان الدولة المرينية يوسف خمس مرات هزم فى أربع منها وفى الخامسة حاصر تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وظل محاصرا لها ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ومات أبو سعيد فى الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وأعقبه ابنه أبو زيان وتوفى كمدا مثله سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وفى نفس السنة توفى السلطان المرينى يوسف وفك المرينيون الحصار عن تلمسان ، وكان وليها أبو حمو موسى الأول فاشتغل بتثبيت ملكه وغزا غربى الجزائر واستولى على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يستولى على بجاية وقسنطينة واغتيال سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان مولعا بتشيد القصور ونزل قسنطينة وأفسد الزرع ، واستولى على بجاية من الدولة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بنى مرين أصحابه فتشفع له سلطانهم أبو الحسن ، فرد أبو تاشفين رسله إليه أسوأ رد . فحاصر تلمسان ، وبنى أمامها مدينة غريبها لسكناه سماها المنصورة وضيق عليها الحصار وشد الخناق ستين حتى دخلها عنوة سنة ٧٣٧هـ وقاتل أبو تاشفين وأبناؤه دونها وقتلوا جميعا ، وبذلك انتهت دولة بنى عبد الواد الأولى بتلمسان بعد أن حكمتها مائة عام ونيفا .

وأخذ أبو الحسن المرينى يستولى على بعض البلدان فى غربى الجزائر . وفى سنة ٧٤٨ عين ابنه أبا عنان على تلمسان وما صار إليه من بلدان الجزائر ، وزحف شرقا إلى تونس واستولى عليها من السلطان الحفصي وظل بها ما يقرب من ستين ، وعصته القبائل العربية فى تونس ونازلته وهزمته ، وجاءته أخبار بأن أبا عنان ابنه غادر تلمسان إلى فاس العاصمة ودعا لنفسه فيها فبارح تونس سريعا إلى فاس ، وفى هذه الأثناء انتهز أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما : أبو سعيد وأبو ثابت واستوليا على تلمسان سنة ٧٤٩ واشتركا فى حكمها ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ نازلهما السلطان المرينى أبو عنان واستولى منهما على تلمسان ، ونرى الشاب الزياني أبا حمو موسى الثانى يفر إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين . وفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جهَّز أبو حمو موسى الثانى جيشا من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج



منها المرينيين وأعادها إلى أسرته . ولم تتسم الدولة حينئذ دولة بني عبد الواد ، بل تسمت باسم دولة بني زيان نسبة إلى أحد الجدود الأولين ، وهو أبو يغمراسن مؤسس الدولة الأولى ودبر أبوحمو أمور الدولة تدييرا سديدا ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية ، وكان شاعرا ، واتخذ هو وخلفاؤه لقب أمير المؤمنين واصطنعوا بها لها نظاما شبيها بنظم الخلافة في الشرق فصل القول فيه الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا قائلا إنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قسموا الإدارة قسمين إدارة عسكرية وإدارة مدنية ، وعلى رأس الأولى القائد ، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ، ومن ورائهما خازن المال أو الصراف الذي يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة . وتوفى أبوحمو موسى الثاني سنة ٧٩١ وتنازع أبناؤه وتقاتلوا في سبيل الاستيلاء على الحكم ، ومن أهمهم أبو زيان استولى على مقاليد الحكم سنة ٧٩٦ وكان عالما شاعرا وتهادى مع السلطان المملوكي برقوق وقتل سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م بيد أخيه أبي محمد عبد الله وحكم تلمسان حتى سنة ٨٠٤ وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بابن خولة إلى سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م وأخذ يكثر في الأسرة القتل والخلع ، وتدخل الدولة الحفصية لنصرة الأخ على أخيه أو القريب عما أو غير عم على القريب . وفي سنة ٨٢٧ استولى السلطان أبو فارس الحفصي على تلمسان ، واتسع من حينئذ تدخل الدولة الحفصية في تولية حكام الدولة الزيانية، وقد ولي عليها أبو فارس الحفصي أبا مالك عبد الواحد وقتل سنة ٨٣٣ وتولاها أحمد العاقل ابن أبي حمو ويتولاها المتوكل بعده سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١م وثار عليه محمد بن غالية وقضى على ثورته وتاريخ وفاته شديد الغموض .

وأخذت دولة بني زيان بتلمسان وغربي الجزائر تتدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجري ، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية في شرقي الجزائر وتونس وطرابلس ، وكان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس ، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس ، فرأى أن يستأنف الحروب الصليبية بتعقبهم في تلك السواحل ، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمي ثغورها على البحر المتوسط ، واستولى في الساحل الغربي للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربي من وهران سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وأيضا على مستغانم ومدينة الجزائر إلى الشرق من وهران ، واستولى في الساحل الشرقي للجزائر التابع للدولة الحفصية على بجاية سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وأيضا على ثغرى جيجل وعنابة ، وكأنما أصبح الساحل الجزائري جميعه غربا وشرقا في قبضته ، إذ أهمل التلمسانيون والحفصيون الرباطات والمحارس الساحلية التي أكثر الأسلاف من إقامتها على البحر المتوسط حماية للبلاد من قراصنة الغرب .

العهد<sup>(١)</sup> العثماني

وفي هذه الأثناء كان يجوب البحر المتوسط بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين ( بربروس ) وكانا قد تطوعا بنقل الأندلسيين المطرودين من غرناطة وإقليمها إلى سواحل البلاد المغربية ، وغضبا غضبا شديدا لاستيلاء النصارى الإسبان على سواحل الجزائر الإسلامية والبلدان المغربية وصمما على إنقاذها منهم ، واتفقا مع الخليفة أبي عبد الله الحفصي أن يتخذوا جزيرة جربة في تونس قاعدة لضرب الأسطول الإسباني وتحرير الساحل الجزائري . ولم يلبثا أن استوليا من الإسبان على مدينة الجزائر سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م وأخذوا يديران منها معارك حامية مع الإسبان ، اشترك معهم فيها الجزائريون والأندلسيون المهاجرون الموتورون من فرديناند والإسبان ، وحملت المعارك وأخذت بعض الموانئ الساحلية تسقط في حجر البطلين ، وتوفى عروج قبل الأوان ، ومضى خير الدين في حملاته ، ورأى - بثاقب نظره - أنه لا يستطيع إقامة ملك تركي مستقل بالجزائر ، فأرسل إلى السلطان العثماني بولائه له هو وفتوحاته في الساحل الجزائري ، وقيل منه ذلك ، وسماه : « بايلاريك » أي أمير الأمراء ، وأمهده بجند وأسطول ، وبذلك دخل الأتراك الحرب ضد الإسبان المعتدين ، واستطاع خير الدين ( بربروس ) حتى سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٦م أن يحرر الساحل الشرقي والغربي من الجزائر ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ودمر الأسطول الإسباني في مواقع عديدة . وبذلك وقف هذه الحرب الإسبانية الصليبية ، وأنقذ الإسلام في إفريقيا ، وأسس بقوة السلاح - في الجزائر - دولة إسلامية عثمانية . وظلت الملحمة الحربية دائرة في الجزائر بين النصرانية تمثلها إسبانيا والإسلام يمثلها الترك . ويخلف خير الدين ( بربروس ) ابنه حسن ، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاريك مثل أبيه ، وكان على شاكلته بطلا مقداما . وشنَّ شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م حملة بحرية على مدينة الجزائر ظل يستعد لها طويلا ، وما إن ألم أسطوله بها حتى سُحق سحقاً أمام المدينة ، وغنم الباييلاريك حسن والجزائريون والأندلسيون المهاجرون كل ما كان بالأسطول من سلاح وآلات وعُدَد . واستولى الباييلاريك حسن على المرسى الكبير وهدمه ، كما استولى عنوة على كل المواضع التي كان يحتلها الإسبان هناك ما عدا وهران ، فقد بقيت في يد الإسبان حتى سنة ١١١٩هـ / ١٧٠٧م إذ استطاع القائد أوزن حسن في عهد الباشا محمد بكداش فتحها وطرد الإسبان منها ، وعادت إليهم سنة ١١٤٤هـ / ١٧٣٢م إلى أن طردوا

القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري للدكتور  
أبي القاسم سعد الله ومادة الجزائر في دائرة المعارف  
الإسلامية .

(١) انظر في العهد العثماني بالجزائر كتاب الجزائر  
لأحمد توفيق المدني وكتاب تاريخ الجزائر  
لعبد الرحمن الجيلالي وكتاب تاريخ الجزائر الثقافي من



منها نهائيا في عهد الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م . وفي عهد البايلاريك حسن عاد الإسبان بعد هزيمة شارل الخامس بقيادة الكونت دالكادوت سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٧م وأداروا معركة عند مدينة مستغانم شرقي المرسى الكبير وسرعان ما اندحروا وقُتل قائدهم وفروا إلى البحر وما وراءه ، وهو ما حدث للأسطول الداتماركي سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م ولحملة أدريلى الإسبانية آخر القرن الثاني عشر الهجرى .

ويذكر للبايلارريك حسن بن خير الدين أنه بسط الحكم التركي أو العثماني على الجزائر جميعها على الساحل والجبل التلى والداخل ، وكان ملوك تلمسان الزناتيون يناورونه - كما ناوروا أباه خير الدين - فتارة معه وتارة مع الإسبان ، وسُم أهلها من هذا الصنيع ، وأنتى مجلس علماء تلمسان بخلع الحسن آخر ملوكهم سنة ٩٦٢ فالتجأ إلى إسبانيا وبها قضى نحبه ، وأظلَّ الحكم العثماني تلمسان منذ هذا التاريخ مثل أخواتها من المدن الجزائرية . وكانت تحدث أحيانا مناوشات حربية بين الجزائر والدولة العلوية فى المغرب الأقصى ، ولعل أهمها ما حدث زمن إسماعيل العلوى فى سنتى ١١٠٢هـ/١٦٩١م و ١١١٤هـ/١٧٠٣م إذ باءت بالإخفاق الذريع محاولاته فى نزع إقليم تلمسان من الجزائر العثمانية .

وقد وضع البايلاريك خير الدين للجزائر العثمانية ناموس الحكم وقوانينه ورتب الدواوين وقدر الرواتب ، وخلف حامية عسكرية عثمانية من الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية الذين كانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وكانوا من الأناضول أو من رعاياها . وفى الأكثرية كانوا من سباياها فى أوربا ، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداى . وخطب الخطباء فى بلدان الجزائر باسم السلطان العثماني وضربت السكة باسمه ، وتولى أربعة بلقب البايلاريك ( أمير الأمراء ) حتى سنة ١٥٨٧هـ/١٥٩٥م ، وكانوا أشبه بحكام مستقلين يديرون شئون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثماني الأعظم ، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرق مجندة من العرب ، وخاصة من قبائل التل وزواوة .. وأقلق استقلالهم الدولة العثمانية فى الآستانة ، فرأت أن يتحول الحكم فى الجزائر من البايلاريك إلى الباشا وظل عهد الباشوات حتى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وكان الباشا يولّى لمدة ثلاث سنوات ، وقد تجبره الإنكشارية وروساؤها إلى العودة قبل ذلك ، مما جعل مددهم قصيرة وحاولوا لذلك جمع ثروات طائلة ، وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على أزمة الحكم ولم يعد للباشوات إلا بعض المهام التشريعية حتى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م واختل الأمن فى هذا العهد ، واغتيل الأغوات جميعا ، واغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين باسم الدايات حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م واختفت الباشوات فلم يعد الباب العالى العثماني يولى منهم أحدا ، إذ أصبح الداى الذى ينتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق فى الجزائر ،

وكانوا يولونه ويخلعونه وفقا لأهوائهم ، ويستجيب لهم الباب العالي ، وبلغوا حتى الاحتلال الفرنسي ثمانية وعشرين دايا ، اغتيل نصفهم . وأخذ الحكم يفسد ، وزاد في فساده أن القرصنة التي كانت مصدر دخل كبير للدولة في القرنين السادس عشر الميلادي والسابع عشر ضعفت وتضاءلت لسيطرة الدول الأوربية العظمى على البحر المتوسط ، وعوض ذلك الدايات بكثرة السلب والنهب من الجزائريين مما أدى إلى فساد الحكم العثماني في هذا العهد - وخاصة في أواخره - فسادا شديدا . وكانت سلطة الدايا - كما قلنا - مطلقة ، وكان يعاونه في الحكم مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته ، وهو أشبه بمجلس وزراء ، وكان يتألف من ستة : الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية ، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية ويشرف على القرصنة ، والقبودان وهو القائد للأسطول وجند البحر ، والخزنجي وهو وزير المالية ، وخوجة الخول وهو جابي الضرائب وشيخ المدينة المشرف على القضاء والشرطة ، والباش كاتب وهو رئيس الديوان ومعهم بعض كبار رجال الدين وتقيب الأشراف . وبجانب هذا الديوان أو المجلس مجلس الديوان العسكري ويتألف من رؤساء الجنود ، ومجلس الرياس البحري ويتألف من قواد البحر ، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير . وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضي الحنفي ، وكان في أول الأمر يأتي من الآستانة مع الوالي ، ويعاونه في المجلس قضاة مذهبي الحنفية والمالكية . وكانت تعرض على المجلس بعض أحكام القضاة مما يستوجب إعادة النظر ، وهو أشبه بمجلس استئناف شرعي . وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى : ولاية قسنطينة في الشرق ، وولاية تيطرى في الوسط وعاصمتها مدينة المدية ، وولاية غربية وكانت عاصمتها مدينة مزونة ثم معسكر منذ سنة ١١٢٢هـ / ١٧١٠م ثم وهران منذ سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات - أو كما كانت تسمى البكويات نسبة إلى البك حاكمها من قبل البايلاريك أو الباشا أو الأغا أو الدايا ، وكان لكل بك سلطة واسعة في ولايته . وكانت صلته بالحاكم العثماني في مدينة الجزائر تنحصر في شيئين أساسيين هما : جباية الأموال في ولايته وأداؤها للخزينة العامة ، وجمع الجند الذين ينبغي أن يرسل بهم للخدمة في الجيش ، وكانوا جندا معاونا يعاونون في الأزمات تحت قيادة الضباط العثمانيين . وكانت بالجزائر قبائل كثيرة في الأطلس التلي ووراءه وبالمثل في الأطلس الصحراوي ووراءه في الصحراء الجنوبية ، وكانت هذه القبائل قسمين : قسما تتفاوت تبعيته للدايا أو للعثمانيين قوة وضعفا ويدفع العشور وضرريته تسمى لازمة ، وقسما مواليا للدولة معفى من الضرائب ما عدا الرسوم القانونية ، وتسمى قبائله باسم قبائل المخزن ، وكانت تمتد الدولة العثمانية في الجزائر بالمخارين وجباة الضرائب وموظفي الشرطة المحافظين على الأرض في البلاد . ودعموا دائما شيوخ القبائل ، فكانوا يقطعونهم الأراضي ويمدونهم ، - إذا شاءوا - بالحاميات العسكرية ،

وفرضوا على أنفسهم تجلة علماء الدين ، وأشركوا بعض كبارهم فى ديوان الحكم ، كما مر بنا ، وبالمثل كانوا يجلبون المتصوفة ويحمون طرقهم ويطلبون منهم البركات والعون على الرعية . وكان العثمانيون طوال حكمهم للجزائر يستأثرون بكل مناصب الدولة ، مع أنهم دخلوها بطلب من أهلها لعونهم ضد الغزو الإسباني ، وهم إخوانهم فى الدين ، والعدو عدو لدينهم معا ، فكان ينبغى أن يطبقوا تعاليم الإسلام وأن يوثقوا الأخوة بينهم وبين الجزائريين وأن يشاوروهم فى الحكم وأن يفسحوا لهم فى تولى مناصب الدولة الرفيعة . ونعجب إذ نراهم يعاملون الجزائريين معاملة المنتصر للمهزوم . وكثيرون من القوة الإنكشارية ورؤسائها تزوجوا من جزائريات ، ومع الزمن نشأت طبقة من الأبناء آباؤهم عثمانيون وأمهاتهم جزائريات ، وكان العثمانيون يسمونهم كراغلة جمعا لكراغلى ، وجعلوهم أدنى منهم مرتبة فلا يولون منصبا رفيعا من مناصب الدولة ، فضلا عن منصب الداى الحاكم للبلاد باستثناء البايلاريك حسن بن خير الدين ، فقد كانت أمه جزائرية . وفى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) تمرد الكراغلة فقبضوا على رؤسائهم ونكّلوا بهم ، وبذلك أوصدوا الأبواب فى وجوههم ، فلم يتولوا المناصب العليا فى الدولة مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين . وكان الجزائريون يثورون أحيانا على العثمانيين ، غير أن لهب الثورة كان ينطفئ سريعا ، ومن أهم ثوراتهم ثورة زواوة سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م بسبب ضرائب جديدة فرضت عليها وظلت الثورة نحو عام وقضى عليها حين جندت لها الدولة جيشا جرارا .

وكانت الجزائر قد مُنيت - منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) بعهد الدايات وفى عهدهم أخذت تشيع الرشوة ويشيع الظلم واغتصاب الجنود الإنكشاريين من المواطنين الأموال عسفا دون أى مراعاة لدين أو خلق . وظل الدايات يعيدون عن الشعب الجزائرى لا يعرفون لغته ولا عاداته وتقاليده وطرق معيشتة ، ولم يحاول أحد منهم أن يجعل حكم الجزائر وراثيا فى أبنائه كما فعل بايات تونس وباشوات طرابلس ، ولو حدث ذلك لأصبح الحكم العثمانى فى الجزائر شيئا فشيئا وطنيا على نحو ما حدث فى تونس وطرابلس . وما نصل إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ( الثامن عشر الميلادى ) حتى يهبط الدخل العام للدولة بسبب ضعف القرصنة كما أسلفنا وما تجبى الدولة منها من أموال . ولم تكن القرصنة فى نظر الجزائريين والترك لصوصية بحرية كما قد يظن ، بل كانت فريضة جهاد إزاء دار الحرب الأوربية النصرانية ، وظلت موردا مهما للجزائر منذ القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر . وكان القراصنة الجزائريون والترك والمهاجرون من الأندلس يغيرون على سواحل إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا ويعودون بغنائم وأموال وافرة . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) كانت تقاومهم أساطيل إنجلترا وفرنسا ، غير أن الدول والإمارات الأوربية الصغيرة مثل السويد والدانمارك وهولندا وناپولى ظلت طويلا تدفع للدولة الجزائر العثمانية إتاوة سنوية نظير ضمان



قراصنتها لسلامة رعاياها ، وكان القراصنة يجلبون إلى الجزائر مئات بل آلاف من الأسرى الأوربيين المسيحيين ، وكثيرا ما كانت تكتظ موانئ الساحل الجزائري بأفواج منهم ، وكانوا يعاملون - حسب تعاليم الإسلام - معاملة كريمة ويؤدون شعائرهم الدينية في حرية تامة ، في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تخير الأندلسيين فيها بين التنصر أو الموت ، وراكلة بأقدامها حقوقهم الإنسانية المشروعة . واعتنق كثيرون من هؤلاء الأسرى الدين الحنيف ، وآثروا البقاء في الجزائر ولم يقبلوا الرجوع إلى أوطانهم وبلدانهم الأوربية .

وبينما كانت الجزائر العثمانية تعاني من أزمة اقتصادية خانقة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الثالث عشر ( أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ) بسبب تضائل موارد القرصنة إذا شركتان يهوديتان ليهودي يسمى نفتالي تسيطران على اقتصاد البلاد وتمتصان خيراتها منذ سنة ١١٩٥هـ/١٧٨٠م وما يزال سخط الجماهير والإنكشارية العسكرية يزداد على هذا الرجل حتى إذا كانت سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثاروا عليه وعلى اليهود ثورة عنيفة فقتلوه مع كثيرين من إخوانه في الدين . وفي سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م حطم الداى على خوجه النفوذ التركي باعتماده على الجند الزواوى الجزائرى الوطنى ، وبذلك أخذت الحكومة العثمانية في الجزائر شكلا وطنيا كان له فرحة عميقة في نفوس الجماهير ، ولم تبق للعثمانيين في الجزائر إلا سلطة اسمية ، وتوفى على خوجة سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م . وولى الجزائر بعده وزيره حسين دايا ، وفي هذه السنة اتخذ مؤتمر لاشايل قرارا بإلغاء القرصنة ، وذهب إلى الجزائر وفد إنجليزي فرنسي لإقناع الداى بإلغائها نهائيا ، غير أنه أصر على إبقائها مع كل دولة لا تؤدى للجزائر إتاوة لسلامة سفنها ورعاياها . وكانت الشركتان اليهوديتان المذكورتان آنفا مدينتين للداى والجزائر بنحو مليونين ونصف من الفرنكات ، وكانتا تدينان فرنسا بنحو سبعة ملايين لصفقات من القمح اشتريتها ، وقررت في سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أن تدفع للشركتين مبلغ أربعة ملايين ونصف ، وكان الداى أبلغها ماله على الشركتين من دين حتى تحتفظ عندها بدينه عليهما ، ولم تعره التفاتا مما أثار غضبه ، وفي استقبال الداى لرجال السلك السياسى بأبريل سنة ١٢٤٣هـ/١٩٢٧م تحاور مع القنصل الفرنسى ويقال إنه أثار حفيظته فصاح به مشيرا بمروحة في يده مسها طرفه وطرده . وعُدت فرنسا تلك إهانة وطلبت من الداى اعتذارا علنيا ، فلم يعتذر . وفي يونية من هذه السنة أعلنت الحرب على الجزائر وحاصرتها لمدة ثلاث سنوات وأخذت في الإعداد لحملة عسكرية ، وفي مارس سنة ١٨٣٠هـ/١٢٤٥م قال شارل العاشر ملك فرنسا في خطاب العرش : إنه سيقوم بعمل لترضية الشرف الفرنسى فيه فائدة للمسيحية ، وكأنه عد حربه للجزائر حربا دينية بين المسيحية والإسلام . وفي آخر مايو سنة ١٨٣٠م ألق وزير الحرب الفرنسى دى بورمون بأسطول حربى ضخم أرسى بسيدى فرج بالقرب من مدينة الجزائر ، ودارت معارك ضارية لمدة شهر اضطر الداى بعدها إلى الاستسلام في الخامس من

شهر يوليه وأُجبر هو والإنكشارية على الرحيل عن البلاد . وبذلك انتهت مدة العثمانيين في الجزائر بعد أن استمرت أكثر من ثلاثمائة عام وبدأ الاحتلال الفرنسي الآثم وظل الجزائريون يجاهدون الفرنسيين جهادا عنيفا أبلوا فيه بلاء عظيما تحت راية البطل المغوار الأمير عبد القادر حتى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولم تسقط الراية من أيدي المجاهدين فقد تسلمتها لالا فاطمة في شرقي الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وحملها سي سليمان وبيته من عشيرة سيدي شيخ لمدة عشرين عاما منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م كما حملها مُقراني وأخوه في منطقة قسنطينة لمدة عامين . وهذه الحركات التحررية جميعها مكانها في صحف تاريخ الأدب الجزائري في العصر الحديث .

## الفصل الثاني

### المجتمع الجزائري

١

#### عناصر<sup>(١)</sup> السكان

البربر هم العنصر الأول الذي ملأ بقبائله وشعوبه ويطونه السواحل والسهول والتلال والجبال والهضاب من إقليم الجزائر ، مثله في ذلك مثل بقية أقاليم المغرب ، واختلف المؤرخون طويلا في نسب البربر من الأمم القديمة ، فقيل إنهم أخلاط من اليمن في آسيا ، وقيل إنهم من لحم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس ، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوكها من المقام بها ، فعبروا النيل إلى ديار المغرب وانتشروا في أرجائها ، وقيل إنهم من ولد القبط المصريين ، وقيل هم من ولد جالوت ولما قتل رحل بهم إفريقيش من ساحل الشام إلى ديار المغرب وأسكنهم إفريقيا ، وقيل هم قبائل شتى من حمير اليمنية ومضر العدنانية والقبط والعمالقة والكنعانيين ، وقيل إنهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح ، وكان مازيغ أخوا لفلسطين ، وبارح أبناؤه الشام إلى ديار المغرب فهم حاميون . ويعلق ابن خلدون على هذه الأقوال في أنساب البربر وما يماثلها بقوله : إنها « أحاديث خرافة » ، إذ مثل هذه الأمة ( البربرية ) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور ، والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذي يجوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم ، ولا يُحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب » . ويذكر ابن خلدون أن من النسلين البربر من يزعم في بعض قبائلهم وشعوبهم أنهم من حمير اليمنية مثل لواته وهوارة وزناتة ، ثم يقول : الحق الذي شهدت به الرطانة والعجمة ( في السنة البربر ) أنهم بمعزل عن العرب » . وابن خلدون محق في قوله إن ذلك كله خرافة وترهات ومزاعم باطلة ، ولا حاجة - أي حاجة - للبربر به ، إذ هم شعب عريق لا يقل عراقة عن العرب والمصريين والفرس والروم ، عاشت

تاريخ المغرب لرشيد الناضوري وتاريخ المغرب في القديم والحديث لمبارك الميلي وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وكلمة الجزائر في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في تلك العناصر الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان والبيان المغرب لابن عذارى والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ المغرب الكبير للبوز والجزء الأول من

قبائله فى ديار المغرب : جزائر وغير جزائر من عصور سحيقة ، وهم لا يمتون إلى الساميين عربا وغير عرب بأى عرق ، وأولى أن يُعدّوا حاميين إفريقيين ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلدون يقول عن اقتناع : « والحق الذى لا ينبغي التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » ويؤيد رأى ابن خلدون ما ترجمه الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة الحامية من أن بينهما تشابها فى النظام الفعلى وفى بعض الصيغ مما يؤكد أن البربر من الحاميين .

وكما أن فى نسب البربر اختلافا فى الآراء كذلك كلمة البربر نفسها ، فمن قائل إن البربر هم الذين سمو أنفسهم بهذا الاسم من قديم ، ومن قائل إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان البلاد المغربية لعدم فهمهم للغتهم ، ومنه قالوا « بربر » الشخص إذا تمتم بالكلام ولم يعرف السامع المراد ، ومن قائل إن الكلمة من أصل لاتينى هو بربروس Barbarus وهو من لا يفهم كلامه ، وأطلق الرومان الكلمة على شعوب البربر ، لأنهم يتكلمون بلغة لا يفهمونها ، ولعل هذا القول أكثر الأقوال سدادا ، لنزول الرومان فى المغرب من قديم ، وعنهم أخذها العرب وأطلقوها على سكان المغرب جميعا .

وما زال البربر بعيدين عن الشعوب القديمة لا يتصلون بها حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده بقليل - أخذ الشعب الفينيقي اللبناى - وكان شعبا يحترف الملاحة - تجوب أسراب منه سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم وتبادل السلع مع السكان من البربر ، واختاروا قرطاجة فى الإقليم التونسى فنزلوا بها أو قل اختاروا موقعها فأسسوا به أول موطن إفريقى لهم ، وأخذوا يبحثون سريعا عن مواطن لهم فى ساحل الجزائر ، فاختاروا بونة ( عنابة ) وجيجل وبجاية وشرشال وإسكيكدة غربيها وأخذوا يختلطون بسكان تلك المدن وينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية ، ويعلمونهم الزراعة وغراسة الأشجار . ويُظنّ أنهم نقلوا إلى الجزائر أشجار الزيتون والنقل والفاكهة ، وعلموا الجزائريين أيضا الملاحة والتجارة وكانت قوافلهم تجوب الجنوب وتحمل منه بعض الزنوج ، وسمحوا لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالنزول فى مدنهم . وبذلك كانت تعيش فى الجزائر لعهد الفينيقيين عناصر من اليهود والزنوج بالإضافة إليهم وإلى البربر .

وينشب صراع هائل بين قرطاجة وروما وينتهى سنة ١٤٦ قبل الميلاد باستيلاء روما على المدن الفينيقية فى الإقليمين الجزائري والتونسى ، ويستوطن هذه المدن كثير من الأسر الرومانية ، وتكثر روما من قوافلها إلى الجنوب ، وتعود محملة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون فى الزراعة والرعى . ومنذ سنة ٧٠ للميلاد يفد على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية بعد تدمير الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس . وتستولى جموع الوندال الألمان من روما على الإقليمين



الجزائري والتونسي في سنة ٣٩: للميلاد ، وتظل بها نحو مائة عام إلى أن يخرجهم منها قائد بيزنطي سنة ٥٣٤ للميلاد ، ويخلفهم البيزنطيون وجنودهم وموظفهم الإغريقيون . ومعنى ذلك أنه كان يعيش في الجزائر بالقرن السادس الميلادي سبع سلالات : سلالة أساسية من البربر أصحاب البلاد ثم سلالات من الفينيقيين والزنوج واليهود والرومان والوندال الألمان واليونان .

ويقتحم العرب أسوار الجزائر حاملين مشاعل الدين الحنيف ، وتظل تقتحمها جيوش عربية لإكمال الفتح وللقضاء على ما ينشب بها من ثورات طوال القرن الأول الهجري ، وتستجيب الجزائر لدعاة الدين الحنيف ولولاتها العظام في هذا القرن الذين سوّوا فيه بمنتهى العدل بين الجنود المسلمين الفاتحين وبين من يسلم من البربر في جميع الحقوق والواجبات : في الضرائب وفي دخول الجيش والجهاد . ويتولى المغرب مع فواتح القرن الثاني الهجري ولاية طغاة بغاة أخذوا يحرمون البربر من حقوقهم التي شرعها الإسلام ، مما جعل بعض البربر يعتقدون مذهبي الإباضية والصفيرية اللذين يريان التسوية المطلقة بين البربر والعرب في الخراج وغير الخراج وحتى في الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش وحدها ، وهبت ثورات متعاقبة منذ سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م يقوم بها أتباع الصفيرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبى ( ١٥٤ - ١٧٠ هـ ) . وإنما نذكر ذلك لندل على أن الجيوش العربية ظلت تقدم إلى الجزائر منذ الفتح ، وكان كثير من جنودها جميعا يقيمون في الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية ، ولم يكونوا جميعا عربا بل كان بينهم كثيرون من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران ، ومن كل هذه العناصر استقرت سلالات في الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجا سريعا بحكم ما يجمع بين الجانبين من الدين واللغة . وأخذ ينزل في المدن الساحلية بعض المسيحيين واليهود لما رأوا في الإسلام وأصحابه من المعاملة السمحة .

وحول منتصف القرن الخامس الهجري تحدث هجرة قبيلتي بني هلال وسليم إلى الإقليمين التونسي والجزائري انتقاما من المعز بن باديس حين وقف الدعوة العبيدية الفاطمية وخلع طاعة الخليفة وانضوى تحت لواء الخليفة العباسي ، وكان آباء هاتين القبيلتين قد وضعوا أيديهم في أيدي القرامطة ضد الدولة الفاطمية ، فلما استسلموا لها أنزلتهم في القفار بين النيل والبحر الأحمر ، ورأى وزير خبيث للمستنصر أن يستخدمهم ضد المعز بن باديس ووعدهم بامتلاك دياره ، فانقضوا عليها واكتسحتها سيولهم اكتساحا حول منتصف القرن الخامس ، مما اضطره إلى الانسحاب من القيروان إلى المهديّة ، وتدافعت سيول من هلال وبطونها : أثيج ورياح وعامر ومعقل وعدى ، وكذلك من سليم وعشائرها : دياب وزغبة وعوف ومرداس والطرود ، وكانوا بدوا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهبون ويتلفون الزروع ، ورأى صاحب قلعة بني



حماد أن يترك لهم الريف . وبدون ريب أحدثت هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب في الجزائر ، غير أنها أفادتها فائدة كبرى إذ أكملت تعريبها وكانت قد أخذت في التعرب منذ القرن الأول الهجري واستيطان كثير من الجنود المسلمين لها ، وقد تحولوا ينشرون الإسلام ومبادئ العربية وأخذ ذلك يتسع مع الزمن . غير أن تعرب الجزائريين كان لا يزال محدودا ، حتى إذا حدثت هذه الهجرة الأعرابية الكبيرة لمئات الألوف من العرب ، إذ لم يلتق بذلك بضعة آلاف من الأعراب بالشعب الجزائري ، بل التقت به مئات الألوف ، بل التقى شعبان : الشعب البربري صاحب الديار والشعب العربي المهاجر ، ولم يلبث الشعبان أن اندمجا وأصبحا شعبا واحدا دينه واحد ولغته في الغالب واحدة ، إذ ظل هناك من يحافظون على لغتهم البربرية وخاصة في أوعار الجبال ، ومع ذلك كانوا يستخدمون مع قومهم اللغة التي تكونت فيما بعد ، ونقصد العامية المشتقة من العربية . وقد أصبحت الكثرة الكاثرة من الجزائريين عربيا في اللغة والزيّ وعادات المآتم والأفراح ، بل لقد أصبحت الجزائر جميعها شعبا عربيا ضخما بفضل هذه الهجرة الأعرابية .

وما نصل إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م حتى يستولى النورمان نهائيا على جزيرة صقلية وفي العام التالي يستولون على جزيرة مالطة ، وينزح إلى الجزائر وتونس كثير من المسلمين في الجزيرتين فرارا بدينهم من اضطهاد النورمان ، وكانت كثرتهم - إن لم يكن جمهورهم - من أبناء إفريقية التونسية من سلالات الفاتحين للجزيرتين وكان بينهم بعض أبناء الجزيرتين ممن اعتنق آباؤهم الدين الحنيف . ونمضى إلى القرن السابع الهجري وتسقط بلدان أندلسية كثيرة في حجر نصارى الإسبان الشماليين ، وينزح كثيرون من مسلمي الأندلس إلى الجزائر وبلدانها. وإذا كانت الهجرة الأعرابية أفادت الجزائر اكتمالا في التعرب فإن الوفود المسلمة التي نزحت إليها من الأندلس أفادتها في الزراعة والصناعات المختلفة : صناعة النسيج وغيره ، وأفادتها فوائد كثيرة في حياتها العلمية والأدبية ، إذ نزح إليها كثير من العلماء وشاركوها في حياتها العلمية كما شاركها في حياتها الأدبية كثير من أدباء الأندلس الذين هاجروا إليها واتخذوها دارا ومقاما . واتسع نزوح من بقى بالأندلس من المسلمين منذ سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٩ م حين نفى الإسبان من كان لا يزال بالأندلس من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بأنه نصراني وتضاعفت إفادة الجزائر من هؤلاء النازحين - كماخوانهم السالفين - في العلوم والآداب والزراعة والصناعات وما حملوا من الأندلس إلى الجزائر من مدينتهم الأندلسية العظيمة . وقد نزح معهم كثيرون من اليهود فرارا من عسف الإسبان وبطشهم .

وكان الولاية في العهد العثماني يحيطون أنفسهم بحاميات عسكرية من الإنكشارية ، ومعروف أنها كانت تتكون من الترك في الأناضول ومن أجناس شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن

أسرى جيوشها الغازية في البلاد الأوربية ، وكانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وترسل إلى الجزائر - كما ترسل إلى ولاياتها الأخرى - بضعة آلاف منهم ، وكانوا يتزوجون من جزائريات أحيانا مما جعلهم يرتبطون بأسرهن وبالجزائر ارتباطا وثيقا . والمجتمع الجزائري لا تتداخل فيه سلالات هذه العناصر الكثيرة فحسب ، فإن القرصنة جلبت إليه كثيرا من العناصر الأوربية ، ومرّ بنا أنها أخذت تتسع اتساعا شديدا منذ استطاع خير الدين وعروج أن يجعلوا من البحر المتوسط في القرن العاشر الهجرى بحرا عثمانيا ، وكان النازحون المسلمون من إسبانيا يمثلون قلوب البحارة الترك حماسة ليتسعوا ما استطاعوا بالقرصنة انتقاما من الإسبان والأوربيين ، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر المتوسط بالآلاف إسبانياً وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ، وكان كثيرون منهم يعتنقون الإسلام وتُرَدُّ إليهم حرياتهم ويصبحون جزائريين دينا ولغة ، ويندمجون في أهل البلاد اندماجا تاما .

وواضح أن الجزائر دخلتها من قديم عناصر كثيرة إفريقية وآسيوية وأوربية بجانب سكانها الأصليين من البربر ، وقد فتحتها وعاشت فيها أم كثيرة : فينيقيون ورومان ووندال وبيزنطيون وعرب وترك ، وقد أفادت منها جميعا في نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعتها . وكان كل من ينزلها من هذه الأمم ويستوطنها لا يلبث أن ينفصل عن موطنه ويزايد صبغته الأولى ويذوب في الجزائر لما تتميز به من قوة الشخصية والهوية الراسخة .

## ٢

### المعيشة<sup>(١)</sup>

كان أساس المعيشة في الجزائر الزراعة ورعى الأنعام ، وتأتى بعد ذلك الصناعات اليدوية والملاحة وما ارتبط دائما بها من الصيد في البحر ومما تحولت إليه في أواسط العصر من القرصنة . والإقليم يموج بطيبات الرزق ، ونستطيع أن نتمثل ذلك بوقوفنا أولا عند النواحي الزراعية في مدن الساحل الشمالى ثم في المدن الداخلية وما وراءها من المدن الصحراوية . وإذا سرنا في الساحل من الشرق إلى الغرب لقيتنا مدينة القالة ، وكانت تسمى قديما مرسى الخزر ، وتليها مدينة بونة ومرّ بنا أن القديس أوغسطين كان أسقفا لها في عهد الرومان ، وهي تقع وسط سهل زيرجدى بالقرب من مصب نهر سيوز وبها صهاريج رومانية قديمة . وكان الرومان

تحقيق الأستاذ محمود بو عياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجمة د . عبد الرحمن حميدة ( نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

(١) راجع في المعيشة كتاب أبي عبيد البكري : المسالك والممالك وابن حوقل بنفس العنوان ( وصفة المغرب وأرض السودان ومصر - مقتبس من كتاب زهرة المشتاق ) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد بتحقيق إسماعيل العربي ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ بنى زيان للتنسى

يسمونها هييون ثم أصبحت بونة العربية . وسميت فيما بعد عنابة لكثرة ثمر العناب بها ويجفف ويصدر ، ويقول ابن حوقل : إنها ذات أسواق حسنة ، والأرض المحيطة بها ذات تربة خصبة ، وتنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة ، ويقول الحسن الوزان : « الأرض المزروعة خارجها تبلغ أربعين ميلا طولا وخمسة وعشرين ميلا عرضا ، وكل الأراضي ممتازة لزراعة القمح ، ويملك أهلها من قبيلة مرداس العربية أعداد كبيرة من الأبقار والثيران والأغنام » . وإلى الغرب منها ميناء جيبل وأرضها وعرة ، كما يقول الحسن الوزان غير صالحة إلا لزراعة الشعير والكتان والقنب ، وبها كثير من شجر الجوز والتين . وغربها بجاية وكانت أكبر ميناء في الساحل الجزائري ، ويقول الإدريسي : الخنطة والشعير موجودان فيها بكثرة والتين وسائر الفواكه . وإلى الغرب منها مدينة الجزائر ، وهي ثغر روماني جدد بنائه بنو مرغنة ، ثم زيري بن مناد سنة ٣٥٦ للهجرة ويقول الحسن الوزان : « حولها الكثير من البساتين والأراضي المزروعة بأشجار مثمرة ويمر بجوارها من الجانب الشرقي نهر نصبت عليه طواحين ، وسهول منطقتها جميلة جدا ولاسيما سهل المتيجة ويبلغ طوله حوالي خمسة وأربعين ميلا بعرض مقداره ستة وثلاثون ميلا حيث ينمو قمح وفير للغاية من أجود الأنواع » . وغربها مدينة شرشال وهي ميناء فينيقي روماني ويقول الإدريسي : بها مياه جارية وآبار عذبة وفواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وبها كروم وبعض أشجار التين . ويقول الحسن الوزان إنها كانت قد هُجرت في أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وفاس وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقطت غرناطة بأيدي النصارى في عام ١٤٩٢/١٨٩٧م فقصدتها كثير من الغرناطين ( الأندلسيين المسلمين ) فأعادوا بناء قلعتها وقسم كبير من منازلها وزرعوا أراضيها . وإلى غربها مدينة تيس ، وهي ميناء فينيقي قديم ، ويقول الإدريسي : بها من الفواكه كل طويفة ومن السفرجل الطيب المعتق ما يفوق الوصف في صفته وكبره وحسنه ، ويقول الحسن الوزان تنتج أرضها الكثير من القمح والكثير من العسل . وكانت قد خربت فأعاد إليها مهاجرو الأندلس الغرناطيون العمران والزراعة مثل أختها شرشال . وغربها مدينة وهران ويقول الإدريسي : « على مقربة منها نهر عليه بساتين وجنات ، وبها فواكه كثيرة وأهلها في خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة والبقر والغنم فيها رخيصة وبالثلثين اليسير » . وكانت وهران قرية صغيرة حتى إذا كانت الهجرة الأندلسية نزحها كثيرون من الغرناطين وأسسوا وهران الحديثة .

وإذا تركنا مدن الساحل الشمالي إلى ما وراءه وسرنا فيه من الشرق إلى الغرب لقيتنا قلعة جنوبي بونة أو عنابة وهي مدينة فينيقية قديمة ، ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدني إنها اشتهرت بتربية نوع من البقر يعد من أجمل أنواع البقر الموجود في الجزائر ، وبه صفات لا توجد في غيره ، ويذكر أنه يوجد بقربها حمام بديع يدعى حمام المسخوطين وبه مياه معدنية تفور من



عشرة عيون شديدة الحرارة وهي تتراوح بين ٩٤ و ٩٨ درجة ، ولها قيمة طبية عالية » .  
ونلتقى بعدها بمدينة نقاوس ويقول الحسن الوزان إنه يمر بجوارها نهر تقع مزارع التين والجوز  
على ضفافه ، ويشتهر تين المنطقة بأنه أفضل أنواع التين وينقل منها إلى قسنطينة ، وحول نقاوس  
سهول جيدة صالحة لزراعة القمح . وتلقانا مدينة قسنطينة وهي مدينة فينيقية رومية ، جدد  
بناءها الإمبراطور قسطنطين فنسبت إليه ، وهي - كما يقول الأستاذ المدنى - أم المدن بالناحية  
الشرقية الجزائرية ، وكانت تتبع صاحب القيروان وتونس ، وكان ينزل بها نائبه ، وكانت  
لذلك مركزا كبيرا للإدارة ، ويقول الحسن الوزان : جميع الأراضي الزراعية الواقعة حول  
المدينة طيبة وخصبة ويبلغ محصولها ثلاثين ضعفا لما بذر فيها ، وتوجد بساتين جميلة جدا فى  
السهل على طول النهر الذى يمر بأسفلها وبجوارها نبعان : نبع ساخن ونبع بارد بجانبه بناء  
من الرخام . وعلى بعد ٥٠ كيلومترا منها مدينة ميلة وهي مدينة رومانية ، ويقول الحسن الوزان  
إن منطقتها ذات إنتاج غزير من التفاح والكمثرى والثمار الأخرى . وغربها جنوبا مدينة  
المسيلة ( المحمدية ) وهي مدينة رومانية وسهولها مشهورة بإنتاج القمح والشعير والفواكه ،  
كما تشتهر بتربية الحيوانات : البقر والغنم والخيول ، وبنهرها سمك صغير مزدان بخطوط حمراء ،  
ويقول الإدريسي إنه لم ير فى المعمورة سمكا على صفته . وإلى الشرق منها طبنة عاصمة الزاب  
الأعلى شرقى شط الحضنة المالح وتقع على نهر يسقى بساتينها وزروعها وحقول الخنطة والكتان  
ومختلف أنواع الفواكه . وشمالى طبنة والمسيلة مدينة سطيف وهي مدينة رومانية وتتوسط  
منطقة من أغنى مناطق الجزائر الزراعية . وإلى الجنوب من قسنطينة باغاية وبجوارها نهر يسقى  
بساتينها وحقولها الواسعة المنتجة للحبوب من القمح والشعير ، وسكانها إباضيون انحازوا إليها  
بعد سقوط تاهرت فى آخر القرن الثالث الميلادى . وإلى الجنوب شرقا من باغاية تبسة ،  
وتشتهر بكثرة الفواكه وبالجوز ، وبنوّه أبو عبيد البكرى بكير حجمه وطيبه . وإلى الجنوب  
الغربى منها مدينة بسكرة وتقع فى أشهر الواحات الجزائرية ، وكان الرومان يسمونها فيسيكرا  
وكان بها قديما أسقفية ، وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع وأصحابه كما مر بنا فى الفصل  
الماضى ويكثر بها النخل والزيتون ومختلف الثمار ويشيد البكرى بآبارها الكثيرة . وإذا اتجهنا  
إلى الشمال الغربى التقينا بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإباضية ، وهي على سفح جبل  
يسمى جزول وكان يجرى بجوارها نهر يروى زروعها وبساتينها التى وصفها البكرى بقوله :  
« فيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما » وبنوّه الإدريسي  
بمزارعها وحقولها وما اشتهرت به من تربية الأنعام والخيول ، ويقول إنها وافر العسل والسمن .  
وإلى الشمال منها مدينة مليانة وهي مدينة رومانية قديمة تشرف على نهر شلف وحولها بساتين  
زاخرة بالفواكه وقرى عامرة ومزارع واسعة ، ويقول الإدريسي عنها : حسنة البقعة كريمة  
المزارع وتقع على نهر يسقى مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرحاء على نهرها » . وعلى بعد

مائة وأربعة وسبعين كيلومترا من وهران تقع مدينة تلمسان الكبيرة بين جبال تزدان بالخضرة والخمائل النضرة وسهول مكتظة بالزروع والبساتين الخلافة ، يقول ابن حوقل فيها : مدينة لطيفة قديمة ولها أنهار جارية وعليها أرحية وفيها فواكه كثيرة وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ، ويقول الحسن الوزان : « توجد في خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية في الأناقة ، ومن عادة سكان المدينة قضاء الصيف فيها حيث ينعمون بأكبر متعة ، فلهم فيها بساتين فاخرة تنتج أعنابا من كل الألوان وذات نكهة رائعة ، وكرزا من كل نوع تبلغ وفرته حدا لم أر له مثيلا في أى مكان آخر ، وتينا شديد الحلاوة أسود اللون كبير الحجم يجف ليؤكل في الشتاء ، ودراقا ، وجوزا ولوزا وبطيخا وخيارا وثمارا أخرى مختلفة » وعلى نهرها العديد من طواحين القمح . وإذا توغلنا جنوبي تاهرت لقيتنا واحة الأغواط بنخيلها الكثير ، وإلى الجنوب منها منطقة ميزاب ومدنها وأهمها غرداية ويكثر بها النخيل والحدائق والبساتين ، ومن ورائها ست قرى واحة النخيل والفواكه ، وأهلها جميعا إياضيون وكان آبائهم حين قضى على الدولة الرستمية في تاهرت انسحبت كثرة منهم إلى ورقلة ( ورجلان ) في الجنوب الشرقي من الجزائر ، ولما غادروها إلى بلاد ميزاب بقيت منهم بقية قليلة وحل محلهم في تلك الواحة كثير من الزنوج . وشرقي بلاد ميزاب وادي سوف وهو بلاد واحات شاسعة تمتد من أراضي ميزاب إلى أراضي الجريد في تونس ، وتنتج واحاته تمرا بديعا . وطبيعي أن تغطي الهضاب الصحراوية الكثيرة في جنوبي الجزائر أثناء الربيع أعشاب ونباتات ، ويتنقل البدو فيها لرعى أغنامهم وإبلهم ، وينقسمون إلى بدو أو رعاة شبه مقيمين إذ يقل ظعنهم وهم المجاورون لتخوم جبال أطلس والجبل التلي ، وبدو أو رعاة رحل وهم المتنقلون في الهضاب والصحارى ، وهم جميعا يمدون مدن الجزائر بكثير من قطعان مواشيهم .

ومن قديم تعنى مدن الجزائر بالصناعات اليدوية كالحداثة والتجارة والحياكة واستخراج المعادن وتصنيعها وخاصة الحديد ، وكانت بونة ( عنابة ) تشتهر بمصانعه ، ومنها الرصاص والزنك في جبال الونشريس ونواحي سطيف ، وكان بجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل والسفن وكانت تلك الدار تستمد الخشب من أوديتها وجبالها ، كما كان بها معدن الحديد اللازم لتلك الصناعة وكان الزفت والقطران البالغوا الجودة يجلبان إليها من أقاليمها كما يقول الإدريسي ، وكان بها من الصناعات طرائف كثيرة ، واشتهر ميناء دليس غربي بجاية بأن أكثر سكانه - كما يقول الحسن الوزان - من الصباغين لكثرة ما فيها من الينابيع والجداول ومثلها في ذلك ضاحية تلمسان المسماة مدينة عباد . ويتوقف الحسن الوزان مرارا عند بعض المدن ليقول إن كثيرين - أو الكثرة - من سكانها صناع ، ويذكر عن صناع تلمسان أنهم يحيون حياة هادئة ممتعة وينعمون بأوقات لراحتهم ويلبسون ثيابا لائقة وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس ، فيستخدمون قلنسوة دون ثنيات ويلبسون أحذية تصعد حتى أواسط سيقانهم ، وكانت

تلمسان تشتهر بصناعة الجلد ، ويقول ابن سعيد الأندلسي : « منها تُحمَلُ أُلجَم الخيل والسروج وما يتبع ذلك » مما يدل على ما كان بها من مصنع للحديد .

وكانت تنتشر في أنحاء الجزائر المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريرية ، واشتهرت بونة ( عنابة ) بمنسوجاتها الكتانية ، ويقول الحسن الوزان إن أكثر سكان وهران من الصناع والحاكة . ولما سكن الأندلسيون الغرناطيون في هجرتهم الكبرى إلى الجزائر مدينة شرشال نهضوا فيها بصناعة الحرير إذ وجدوا بجوارها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود فربوا فيها دود القز ، واتسع إنتاجهم من المنسوجات الحريرية . ويذكر الحسن الوزان كثرة ما بمدينة قسنطينة من الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا وكذلك الكتانية ، ويقول الحسن الوزان : في مدينة ميلة عدد كبير من الصناع ولاسيما الذين يعملون في نسج الأقمشة من الصوف التي تصنع منها أغطية الأسيرة . ويطيل الحسن الوزان في تلمسان من وصف أكسية الصوف والجلد والقطن ووصف المعاطف . وقد اشتهرت نساء المدن الجزائرية بصناعة التطريز على الأقمشة الحريرية والجلدية ، وتحتفظ المتاحف الجزائرية بمجموعات منها لا تزال أسلاكها الذهبية والحريرية والقطنية تومض كأنما وضعت عليها بالأمس .

ويكثر الحسن الوزان وغيره من المتحدثين عن المدن الجزائرية عن كثرة من بها من الصناع والحاكة ، وقلما يذكرون ما يقومون به من الصناعات والحياكات ، ويذكر الوزان عن أهل مليانة أنهم جميعا من الصناع ومن الحاكة ومن الخراطين الذين يصنعون أواني جميلة من الخشب . وكان أهل الجزائر يصنعون بجانبها أواني جميلة من الخزف الملون والجص المجزغ ، ولا بد أن تفننوا طويلا في صناعة الحلى إرضاء للمرأة ، وبالمثل في صناعة أحذيتها وأحذية الرجال . وكانت معاصر الزيتون منتشرة في بلدان كثيرة ، وكان الزيت لذلك يصدر بكثرة من الجزائر . ولا بد أن صناعة الورق من الكتان كانت منتشرة وخاصة في المدن الكبرى وفاء بحاجة العلماء والطلاب وبماتبت في الجزائر من نهضة علمية وأدبية واسعة .

ومنذ القرون الإسلامية الأولى تشاد في الجزائر المنشآت العمرانية ، ولا يشاد بناء مفرد أو أبنية مفردة فحسب بل تشاد مدن بمساجدها وقصورها وفنادقها وحماماتها ومارستاناتها فقد بنى فيها الخليفة العبيدي المهدي سنة ٣١٣ مدينة المحمدية أو المسيلة . وبنى زيري الصنهاجي والى الجزائر من قبل الخليفة العبيدي المنصور « أشير » إلى الشمال الشرقي من تاهرت ، وبنى ابنه بلكين مدينة الجزائر ومدينة مليانة جنوبي شرشال ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقي منها ، وبنى حماد بن زيري قلعة ضخمة شمالي المسيلة عاصمة لدولته وجدّد الناصر الحمادي مدينة بجاية وأحضر لها العمال والمهندسين ومواد البناء واتخذها عاصمة للدولة . وكل حاكم منهم كان يعنى بإنشاء قصور كثيرة في عاصمته على نحو ما نقرأ في دولة بني زيان ملوك تلمسان ،



وبخاصة فى تاريخ عبد الرحمن أبى تاشفين ( ٧١٨-٧٣٧هـ ) فقد كان مولعا بتشييد القصور - كما يقول يحيى بن خلدون - مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأسارى الأجانب وغيرهم من نجارين وبناءين ومبطلين للخزف وزواقين ، وشاد قصورا عدة : دار الملك ودار السرور وأبا فھر وغيرها والصهريج الأعظم الذى لا يزال موجودا - كما يقول الأستاذ محمود أبو عياد - غربى المدينة . وإذا كان بناء ثلاث قصور استلزم آلافا من العمال فما بالنا بمن بنوا مدنا بقصورها ومساجدها وكل منشآتها العمرانية . وكل هذه القصور والمدن استلزمت صناعات كثيرة من نجارة وحدادة ونقاشة وقدرة على استخدام الفسيفساء ( الموزايكو ) فى الحيطان والسقوف والأروقة مع رسوم مختلفة من الرياحين والأزهار ، ونضرب مثلا لروعة العمارة فى مدن الجزائر بقول الحسن الوزان عن مدينة بجاية المبنية فوق سفح جبل شديد الارتفاع على ساحل البحر المتوسط إنها تمتد من حيث العرض على خاصرة الجبل امتدادا كبيرا خارقا للعادة ، وسائر بيوتها جميلة ، وهى مجهزة بالجوامع بشكل طيب والمدارس التى يكثُر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم ، كما تحوى أيضا زوايا للمتعبدين المسلمين ، وحمامات وفنادق ومارستانات وكلها عمارات حسنة البنيان وأسواقها جميلة حسنة التنسيق ، وتقوم المدينة كلها على تلال صغيرة حتى إنه ليتعذر السير بضع خطوات بدون صعود أو نزول . وإلى جانب الجبل - أو جانبها - توجد قلعة كبيرة ذات جدران متينة ، وتزدان بالكثير من الفسيفساء وبالجص المجزَع وبالأخشاب المحفورة بالنقوش التى تعلوها رسومات عجيبة بلون أزرق سماوى ، حتى لتساوى هذه الأشغال الفنية من حيث القيمة أكثر من البنيان ذاته . وإنما نقلنا هذا النص الطويل لندل بوضوح على ارتقاء صناعة المدن والقصور فى الجزائر وكيف أنه رافقها ارتقاء فى الحفر والنقش والزينة بالفسيفساء والرسومات العجيبة باللون الأزرق البهيج ، وقد خلبت بروعتها وحسنها لبَّ الحسن الوزان كما خلبه جمال البيوت وعمارته وعمارة جميع المؤسسات وحتى الأسواق . وكل ذلك إيمانها به فى بجاية وغيرها من مدن الجزائر أيد بالغة المهارة فى العمارة وكل ما يتصل بها من زخرف وزينة .

وهيّا هذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى القطر الجزائرى لأن تصبح موانيه أسواقا عالمية ، فكانت تصدر منتجاتها شمالا إلى الغرب وشرقا إلى تركيا والشام ومصر ، ومنذ عصر الفينيقيين كانت قوافلها تعبر فلولات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع الجزائرية من المنسوجات على اختلاف أنواعها صوفية وكتانية وقطنية ومن النقل جوزا وغير جوز ومن الزيتون والزيت ومن السروج واللبود والمفاتيح وأقفال الحديد ، وتعود محملة بالعاج وريش النعام والتبر والجلود والرقيق السودانى . ونستطيع تصور الحركة التجارية ومدى نشاطها إذا رجعنا إلى ما كتبه الحسن الوزان وغيره عنها فى الموانى والمدن الكبرى ، فمن ذلك ما يقوله عن ميناء القالة ، وكانت تعرف باسم مرسى الخزر : « إن أهلها يقومون

بتجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من الشمع ولديهم كمية كبيرة من الجلود ويقايضون هذه المنتجات بالسلع التي يجلبها الجنويون ( تجار جنوة ) الذين يترددون على مينائهم . ويقول الوزان عن أهل بونة إنهم يبيعون كمية كبيرة من أقمشتهم الكتانية ، ويقول عن أهل سكيكدة إن سكانها يزاولون التجارة بكثرة مع الجنويين فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم بالمقابل أقمشة ومنتجات أوربية أخرى . ويذكر عن ميناء جيغل غربيها أنه يوجد به الكثير من شجر الجوز والتين وتنقل ثمار هذا الشجر إلى تونس . وكانت بجاية سوقا تجاريا كبرى ، وفيها يقول الإدريسي : « السفن إليها مقلعة ، ولها القوافل متجهة ، والأمتعة إليها بحرا وجوا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة » . ومن أجل هذه الحركة التجارية الواسعة فيها عقدت الدول البحرية الأوربية مع بجاية في عصر الدولة الحمادية قديما معاهدات تجارية . ويقول الإدريسي عن ميناء تينس : « به فواكه وخصب وإقلاع وحط ، وبه الخنطة وسائر الحبوب تخرج منه إلى كل الآفاق في المراكب » . وكان ميناء وهران سوقا كبيرة . ويقول الوزان : كانت وهران مقصد التجار القطالونيين ( الإسبان ) والجنويين ( الطليان ) ولا زال فيها - لعصره في القرن العاشر الهجري - بيت يُدعى بيت الجنويين لأنهم كانوا يسكنون فيه . وكانت قسنطينة في الداخل مركزا تجاريا كبيرا ، ويقول الوزان : « فيها عدد كبير من الباعة الذين يزاولون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا ، ويصدر بعض التجار الزيت والحريير وكذلك الأقمشة الكتانية ، ويبيع كل ذلك بالمقايضة مقابل التمور والعبيد . ويجتمع أهل قسنطينة مرتين في العام في قافلة تجارية ، ونظرا لكثرة تعرضهم لهجمات الأعراب يصطحبون معهم بعض رماة البنادق من الأتراك الذين ينالون أجرا طيبا على ذلك . ولا يدفع تجار قسنطينة رسم دخول إلى تونس ( إذ كانت جزءا من مملكتها ) ولكنهم يدفعون عند خروجهم من قسنطينة مقدار اثنين ونصف بالمئة من قيمة بضائعهم » . ويقول الحسن الوزان عن تجار تلمسان إن متجرهم إنما هو الرحلة إلى السودان وجلب منتجاته ، وبها كما يقول بضعة فنادق من بينها اثنان لسكن التجار البنادقة والجنويين .

ولإتمام بيان وجوه المعيشة والكسب في الجزائر كان كثير من سكان المدن الشمالية الساحلية يشغلون أنفسهم بصيد السمك والحيتان من البحر المتوسط ويقول الحسن الوزان عن أهل دليس إنهم يصيدون بالشباك الكثير منه وينطبق ذلك على أهل الموانئ الشمالية جميعا . واشتهرت مدينة القالة المسماة قديما بمرسى الخزر بكثرة ما بساحلها من المرجان ، وهو شجر في البحر لين أبيض اللون ، وإذا ضربته الهواء احمرَّ وصلب ، ويقول الحسن الوزان : ليس لأحد من أهل القالة الحق في صيده أو التقاطه من الساحل حين تقذف به الأمواج إلى البر لأن سلطان تونس أعطى هذا الساحل بالتأجير إلى أهل جنوة الإيطاليين . وهو تصرف مخطيء لأن ذلك



من شأنه أن يطمع الجنويين أو غيرهم في احتلال ذلك الجزء من البلاد ثم في احتلال البلاد جميعها حين تحين الفرصة ، على نحو ما سؤل الشيطان ذلك لفرنسا بالأمس .

٣

### الثراء<sup>(١)</sup> - الرفه - الموسيقى ( أ ) الثراء

طبيعي أن أهلت التجارة الواسعة في موانئ الجزائر الساحلية أهلها ليكونوا أثرياء ، وكل ثراؤه حسب قدرته في التجارة وحسب نشاطه ، ونضرب مثلا لذلك مدينة القالة التي كان يتجر أهلها مع الجنويين في الشمع والجلود كما مر بنا ، ويقايضونهم عليهما بما يحملون من السلع ويقول الحسن الوزان : « لا يوجد هلى الساحل مدينة أكثر غنى من هذه المدينة ، فهي تبيع من تجارتها مع الجنويين ( تجار جنوة ) ضعف قيمة ما تعطيه لهم ، ثم تبيع بالقطاعي في الجبال المجاورة لها البضائع التي جلبها الجنويون وتجننى من ذلك كسبا ضخما . ومثلها في هذا الاتجار والغنى بقية الموانئ الشمالية ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بعبارات كثيرة كأن يقول البكرى عن بونة ( عنابة ) إنها كثيرة اللحم واللبن والعسل ويقول الوزان إن أهلها يبيعون كمية كبيرة من الأقمشة الكتانية وكل أراضيها ممتازة لزراعة القمح ويمتلك أهلها عددا كبيرا من الأبقار والثيران والأغنام ، وتنتج المواشى كمية ضخمة من السمن . وكل تلك مؤهلات كبيرة للثراء . ويقول الوزان عن أهل بجاية إنهم مياسير وعلى قدر كبير من الغنى ومر بنا أنها كانت مركزا تجاريا ضخما وأن السلع كانت تباع فيها بالأموال المقنطرة . ولم يكن أهل مدينة الجزائر يقلون ثراء عن أهل بجاية ، واتسع ثراؤهم في العهد العثماني اتساعا كبيرا ، وبالمثل أهل وهران . وينوه الوزان بثناء قسنطينة وكثير من المدن الداخلية ويقول عن تجار تلمسان إنهم أغنياء جدا بما يملكون من عقار ومتاع ونقود وهم ذوو هندام جيد ، وينوه - كما مر بنا - بالصناع وثيابهم اللاتفة ، ويقول أفضل الناس كساء في تلمسان الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون لما كانوا يتقاضون من رواتب عالية ، ويذكر أن العساكر يتقاضون أجورا مرتفعة . ويذكر عن أهل ميزاب أنهم أغنياء لأنها كانت مركز التلاقي التجارى بين تجار مدينتي بجاية والجزائر وتجار بلاد السودان ، ويقول عن مدينة ورقلة ( ورجلان ) الداخلة في الصحراء

الساعة ٤٠/٢ ونقلها عنه التنسى في تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ونقلها عن التنسى المقرئ في نفع الطيب وأزهار الرياض . وراجع في الموسيقى وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني .

(١) انظر في الثراء المصادر السالفة في المعيشة وخاصة كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونفس المصادر تراجع في الرفه ويراجع معها كتاب ينية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد في وصف للثكافة أو

الكبرى إن أهلها من كبار الأغنياء لأنها مركز تجارى يتبادل فيه تجار البربر من قسنطينة وتونس منتجات بلادهم بالسلع التى جلبها تجار بلاد السودان .

وزاد فى ثراء سكان المدن الشمالية الساحلية - على مر العصور - تحول بعضها إلى ما يشبه قاعدة للقرصنة فى البحر المتوسط ، ونقرأ أخبار هذه القرصنة منذ أيام الدولة الحمادية ، فقد كان من قراصنة الجزائر من يتخذ بونة ( عنابة ) فى عهدهم مركزاً ينطلق منه للقرصنة ، ومثلها بجاية عاصمة الحماديين وظل ذلك دأب أهلها طويلاً ، ويقول الحسن الوزان : « كان أهل بجاية على قدر كبير من الغنى ، فكانوا يسلحون مراكب وسفنا حربية ويرسلونها لغزو إسبانيا ولجلب غنائم البحر من السلع والرقيق رجلاً ونساءً » وكثير منهم كانوا يسلمون ويصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق ، واتسعت هذه القرصنة فى الموانئ الشمالية حين استقر بها الغرناطيون والأندلسيون فى هجرتهم الكبرى أواخر القرن التاسع الهجرى وكان يحفزهم عليها محاولتهم الانتقام من نصارى إسبانيا الذين أخرجوهم من ديارهم ومواطنهم فى الأندلس ، ولم يلبث أن ظهر خير الدين ( بربروس ) وعروج القائدان التركيان البحريان العظيمان واستوليا على الجزائر ، وأخذ خير الدين يطرد الإسبان من الموانئ التى كانوا قد استولوا عليها واستطاع خلال عشرين عاماً أن يطهر الساحل الجزائرى منهم واستدار بالبحارة الترك ومن انضم إليهم من المهاجرين الأندلسيين يتوغل فى البحر المتوسط ، وظل ذلك طوال هذا العصر حتى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وظلت بجاية والجزائر ووهران تستقبل جميعاً غنائم البحر من السلع والرقيق وبالمثل غنائم ميورقة ومنورقة والساحل الإسبانى . ولكى يتضح لنا مدى هذه الغنائم ينبغى أن نعرف أنه كان يُجلبُ أحياناً فى الغزوة البحرية الواحدة مئات من رقيق النصارى رجلاً ونساءً سوى ما كان يجلب من الغنائم ، وكان ذلك مصدر ثروة واسعة لقراصنة الساحل الجزائرى من جهة وللدولة نفسها من جهة ثانية ، مع ما كانت تموج به الجزائر من طيبات الرزق فى الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة الواسعة .

### ( ب ) الرِّفْه

معروف أن الغنى الواسع يجر إلى الرِّفْه ورغد العيش ، ولم يكن هذا الغنى أو الثراء خاصاً بفرد أو أفراد قليلين فى المدن الجزائرية ، بل كثيراً ما كان يشمل كل أفراد المدينة فالجميع فى يسار وبلهنية وسعة من العيش تتيح لسكان المدينة رفاهية واسعة ، ومن خير المدن التى تصور ذلك مدينة نقاوس ، وفيها يقول الحسن الوزان : « مدينة رومانية على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من مدينة المسيلة ، وسكانها أغنياء شرفاء كرماء ويلبسون ثياباً لائقة مثل سكان بجاية ، وبالبلدة بيت معد لسكنى الغرباء وفيها مدرسة للطلاب الذين جرت العادة أن يعفوا من نفقات الكساء والغذاء ، كما أن فيها جامعا جميلاً فسيحاً جداً ومجهزاً بكل ما تمسُّ الحاجة إليه ،

والنساء هنا جميلات ، لون بشرتهن أبيض ، وشعورهن فاحمة ولامعة ، لأنهن يكثرن من التردد على الحمامات ويعتنين بأنفسهن كثيرا ، وبيوتها جميعا من طابق أرضى واحد ، ومع ذلك أنيقة جدا وبهيجة المنظر ، لأن لكل بيت منها حديقة مليئة بالزهور المتنوعة لاسيما من الورد والرمان والبنفسج والقرنفل وأزهار أخرى لا تقل عنها بهاء ، ولجميع البيوت عيون ماء تُسقى منها . وعلى الجانب الآخر من الحديقة تكعيبة بديعة تعطى فى الصيف ظلًا ظليلا ومنعشا . ولذلك فإن من ينزل فى نقاوس يود لو يبقى فيا حينا طويلا من الدهر ويأسف لاضطراره إلى مغادرتها لما لقيه من أهلها المضيافين من حفاوة وترحاب . ونقاوس لم تكن ميناء تتوسط حقول عنب مثل بونة مثلا ولا كانت تتلقى غنائم البحر مثل بونة وموانى الساحل الشمالى ، إنما هى مدينة عادية فى البقاع الداخلية تعيش على ما تنتجه سهولها من قمح ومزارعها من تين وجوز ، مثلها فى ذلك مثل بلدان عادية كثيرة فى الجزائر ، ومع ذلك فيها دار ضيافة لإكرام الغرباء ومدرسة مجانية تكفل لطلابها الكساء والغذاء وجامع فسيح جميل مجهز بكل متطلباته ونساء جميلات ، والبيوت جميعا من طابق أرضى واحد ، فليس بينها قصر أو قصور ، بل الجميع سواء فى المسكن والمعيشة ، ولكل بيت حديقته المكتظة بالأزهار العطرة وتكعيته التى تتيح لساكنيه فى الصيف ظلًا ظليلا منعشا . ولكأن الحسن الوزان يصف فردوساً من فراديس الجنان امتلاً برفاهية لا حد لها ولا نهاية ، وإنه لآسف أشد الأسف لمبارحته لها . وتلك كانت مدن الجزائر وقراها قبل أن يحتلها الفرنسيون ، وبون بعيد بين نقاوس الأمس ونقاوس أيام الفرنسيين وما نزل عليها من بلاء حين وطقتها هى وأمثالها أقدام المحتلين الباغين . وبدون ريب كانت مدن - أو على الأقل بعض المدن وخاصة الساحلية بل أيضا الداخلية يغمرها مثل هذا الرفه الرائع . ويتوقف الحسن الوزان مرارا أمام بعض المدن التى بهرته مبانيتها ليقول إنها بديعة ، ومن قوله عن بجاية : « سائر بيوتها جميلة » ويذكر جوامعها ومدارسها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها ويقول : « كلها عمارات حسنة البنيان » ويقول عن وهران : إنها مجهزة بكل العمارات والمؤسسات التى تميز مدينة حضرية كالجوامع والمدارس والمارستانات والحمامات والفنادق . ويفيض فى الحديث عن رفه أهل تلمسان ، ومما يذكره بها خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية . ومرُّ بنا ما ذكره من أن سكانها يقضون الصيف فى كور بديعة لهم فيها منازل غاية فى الأناقة ومن حولها بساتين فاخرة تنتج كرزاً وأعناباً من كل الألوان ودراقاً وجوزاً ولوزاً وثماراً مختلفة ، وينوه بملابس أهلها من صناعات وغير صناعات ومن أساتذة مدرسين وقضاة ، ويتسع فى الحديث عن البلاط الملكى بها وموظفى الدولة ورئيس التشريعات ، وكأنا بإزاء عاصمة دولة حديثة متحضرة غاية التحضر ناعمة بغير قليل من الرفاهية .

ويدل أبلغ الدلالة على ما نعمت به تلمسان من رفه أيام دولة بنى زيان ما نفذ إليه عالم



رياضي عظيم بها يسمى أبا الحسن علي بن أحمد الملقب بابن الفحام من صنع منكانة أو ساعة كانت دقاقة ، وقد وضعها في خزانه كبرى ذات تماثيل فضية محكمة الصنع ، وبأعلاها أيكة - أو شجرة ملتفة - تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما ثعبان نافذ من كوة بجذر الأيكة يحاول الصعود ينتظر غفلته ، وبصدر الخزانة أبواب موصدة بعدد ساعات الليل الزمانية - إذ كانت توضع في الاحتفال الكبير بليلة المولد النبوي زمن أبي حمو موسى الثاني ( ٥٧٦٠هـ / ١٣٥٩م - ٧٩١هـ / ١٣٨٩م) - ويصاقب ( يجاور ) طرفي هذه الأبواب بابان مغلقان أطول من الأبواب الأولى وأعرض ، وفوقها جميعا دون رأس الخزانة قمر مكتمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ويسامت ( يوازي ) أول كل ساعة بابها المرتج ( المغلق ) فينقض من البابين الكبيرين عقابان بظفري كل واحد منهما صنجة من الصفر يلقيها إلى طست مجوف من النحاس بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرن وينقض الثعبان على أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، وهناك يفتح باب الساعة الراهنة ( الحالية ) وتبرز منه دمية على هيئة جارية بخصرها حزام كأظرف ما أنت راء ، يمينها صحيفة فيها رقم ساعتها ( العاشرة مثلا ) منظوما ، ويسراها موضوعة على فمها ، وكأنها تعلن عن الساعة على استحياء . ومن يزور مدينة بيرن عاصمة سويسرا سيأخذه -مرافقه السويسري قبيل الساعة الثانية عشرة إلى مشهد ساعة كبيرة مثبتة على برج شاهق وفي الجزء العلوي منها مهرج يدق جرسين قبيل دق الساعة لجرسها معلنة الثانية عشرة ، وفي الحال يصبح ديك على اليسار ويحرك أحد جناحيه ، ويواجهه تمثال أسد مايزال يحرك رأسه وتمثال عمدة يحرك عصاه وتدور مجموعة من اللبية ، وفي الساعة الثانية عشرة تماما تدق الساعة ويصبح الديك ويحرك أحد جناحيه كأنه يهم بالطيران . وهذه الساعة السويسرية التي يفتخر السويسريون باختراع أحد مواطنيهم لها سنة ١٥٣٠ للميلاد ليست أروع ولا أبدع من ساعة ابن الفحام التي اخترعها قبلها بقرن ونصف مما يدل على ذكائه الوقاد من جهة وعلى ما أصابه الجزائريون في تلمسان من رفة من جهة ثانية .

( ج ) الموسيقى

ليس بين أيدينا أخبار عن تعلق أهل الجزائر بالموسيقى والغناء في الحقب الأولى من هذا العصر ، وإذا رجعنا إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وجدناه يصف أهل بجاية بأنهم « ميالون إلى المرح وإلى الموسيقى والرقص ولاسيما الأمراء » . ويقول عن سكان ميناء دلس الواقعة غربي مدينة بجاية إنهم « لطفاء ويحيون حياة مرحة ويجيدون كلهم تقريبا الضرب على العود وعلى القاتون » . ولم يصور لنا الوزان حياة المرح ومختلف وسائله عند أهل بجاية كما لم يصور رقصهم وأوقاته ، ومع أنه ذكر آلتى العود والقاتون الموسيقيتين اللتين كان يضرب عليهما جميع أهل دلس لم يذكر هل كانوا يصحبون هذا الضرب بتلاحين لأشعار ينشدونها أو يغنونها دائما أو في بعض الأحوال .

وأكبر الظن أن الجزائر ظلت طويلا تعتمد على موسيقاها والضرب على العود والقانون على ألحان بسيطة ، حتى إذا كانت هجرة الغرناطين الكبرى إليها بعد سقوط عاصمتهم غرناطة في أيدي فردناند وإيزابيلا نقلوا معهم إلى مدنهم التي استوطنوها وخاصة على الساحل الشمالي موسيقاهم الأندلسية ، ولا نعرف إلى أي حد امتزجت هذه الموسيقى بموسيقى الجزائر المحلية ، وكانت الموسيقى الأندلسية موسيقى راقية ذات قواعد وقوانين في تلاحينها وذات رُقْم مضبوطة ( أي نُوت جمع نوتة ) وكانت تصحبها أغان أندلسية بهيجة أو شجية من الغزل وغير الغزل . ولم تلبث الموسيقى التركية أن انتقلت بدورها إلى الجزائر في العهد العثماني عن طريق الطاقم الموسيقى العسكري الذي كان يلزم الوالي وما يحمل من آلات النفخ والدق . وأخذت تتسع معرفة الجزائريين بالموسيقى التركية وآلاتها وقواعدها في التنغيم والتلحين . وهذه الموسيقى التركية وأختها الأندلسية التحمتا بما كان في الجزائر من موسيقى أولية ، وتألفت من ذلك كله منذ القرن الحادي عشر الهجري الموسيقى الجزائرية بطوابعها وخصائصها الموسيقية ، وقد أدخل الجزائريون في ديوان موسيقاهم مصطلح البشرف وهي كلمة تركية معناها الافتتاحية ولا ينشد معها أو يغنى كلام ثم تتوالى الأدوار في الموسيقى ، وكل دور يسمى نوبة ، ولكل نوبة اسمها الخاص وتلاحينها . وتعتمد الموسيقى الجزائرية على الآلات الموسيقية التالية : الناي والعود والرياب والقانون والكمنجة والطبل والدربكة والطار والمزمار .

وبجانب هذه الموسيقى الجزائرية التي كانت تشيع بين الحضر في المدن الجزائرية كان للبدو من الأعراب أغانيهم البدوية التي توارثوا طرائق التنغيم بها وإنشاءها من آباؤهم في الجزيرة العربية، وقد أخذوا يستعيدون تلك الطرائق في هضاب الجزائر ومراعيها الواسعة التي كانوا ينتقلون فيها، وأخذها عنهم جيرانهم من البربر المتبدلين مثلهم، وكانوا ينشدونها مع طبل وزمر أحيانا في أسماهم وحفلات اعراسهم وأفراحهم واستقبالاتهم للحجاج بلهجاتهم البدوية الدارجة.

#### ٤

الدين - المالكية والحنفية - الإباضية - المعتزلة  
( أ ) الدين<sup>(١)</sup>

كان البربر في القطر الجزائري - مثل إخوانهم من البربر في الأقطار المغربية - وثنيين

كتاب دولة بني حماد لإسماعيل العربي وفي نشاط القرصنة وصف إفريقيا لدapper وكلمة الجزائر في دائرة المعارف الإسلامية وفي اعتناق البربر للإسلام وتحولهم إلى شعب عربي مسلم مواضع مختلفة في كتاب البيان المغرب لابن عذارى وغيره من كتب التاريخ السابقة .

(١) راجع في الدين قديما الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وفي اليهود والنصارى تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وفي علاقة الناصر بن علناس الحمادي بابابا جريجوار السابع

يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة وقيمون لها المعابد ويقدمون إليها القرابين ويوقدون لها النار لحراستها ويقدمون كثيرا من الأحجار . ونزل بديارهم الفينيقيون وكانوا مثلهم وثنيين وكذلك القرطاجيون . وأخذ اليهود يهاجرون إلى بلدان الجزائر بعد استيلاء الملك الكلداني بختنصر على بيت المقدس ، ولهم هجرة إليها ثانية حين هدم الإمبراطور تيتوس هيكلهم ببيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد . وحاول يهود الهجرة الأولى والثانية أن ينشروا دينهم اليهودي بين البربر ، واستجاب لهم بربر مختلفون في جبال الأوراس ، وما زالت توجد آثار للقبائل البربرية التي اعتنقت اليهودية وتمسكت بها إلى اليوم . وفي ذلك ما يفسر وجود بعض اليهود البدو الذين يلبسون ملابس البربر المسلمين ويعيشون معيشتهم . ولهم هجرة ثالثة إلى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية ، حين أنزل الإسبان بهم بعد سقوط غرناطة أهوالا من العذاب وأوصدت أوروبا أبوابها دونهم فلم يجدوا لهم ملاذا سوى الجزائر وشقيقاتها العريبات المسلمات وعاملوهم معاملة الإسلام السمحة ولم يشعروهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه ، بل فسحوا لهم في المعيشة وكانوا يعدون بالآلاف في قسنطينة والجزائر وغيرها من المدن الكبرى مثل تلمسان ، ويقول الحسن الوزان : كان بها خمسمائة بيت من اليهود ، وما زالت المدن الجزائرية تفسح لهم في المعيشة بها ، حتى إذا كانوا في أواخر هذا العصر احتكروا التجارة والأعمال المالية وثار الشعب الجزائري فخففوا قليلا من وطأة احتكارهم وسرعان ما استعادوا احتكارهم ونفوذهم المالي على نحو ما عرضنا ذلك في الفصل الماضي .

وأخذت المسيحية تنتشر في الجزائر منذ القرن الثاني للميلاد ، وأخذ انتشارها يتسع منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه في روما على صولجان الحكم سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها في إفريقيا والبلاد التابعة لروما ، وتكاثرت الأسقفيات والكنائس في المدن الساحلية وفي الداخل فقد كان لهم أسقفية في بونة ( عنابة ) وكان القديس أوغسطين أسقفها وكانت في قسنطينة أسقفية ثانية وكذلك في باغاية ، وكانت هي وأمثالها تتبع كنيسة روما . ويظن أن المسيحية سقط منها بعض التأثير إلى القبائل الرحل في الجنوب إذ توجد بعض كلمات في لغة الطوارق ترجع إلى أصل مسيحي مثل اسم ميسى ومعناه عندهم إله وأنجلوس ومعناه عندهم ملاك . ولكن من المؤكد أن البربر ظلوا - قبل الإسلام - لا يقبلون على المسيحية لصعوبة تصورهم لعقيدة التثليث المسيحية المعقدة ولأن حملتها من الرومان كانوا يذيقونهم قهرا وبطشا شديدا ، فظلوا منصرفين عنها ، ومن اعتنقها منهم ظل يعتنقها اعتناقا ظاهريا دون أن تحتل قلبه وفؤاده ، وظل يشعر أنها ديانة رومانية أوربية غريبة عليه . ومع ذلك فإن الجاليات والأسر والحاميات الرومانية ومن تنصرت من القرطاجيين كانوا كثيرين مما أتاح لتأسيس بعض الأسقفيات والكنائس وبدون ريب حاول بعض القساوسة الدعوة للمسيحية -جاهدين في أرجاء البلاد حتى صحاريها . وبعد الفتح العربي أخذ كثيرون ممن



اعتنقوها يعتنقون الدين الحنيف ، وأقبلت عليه جموع البربر وجماهيرها ، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية واسترقاق وظلم مع محوه لجميع الفوارق الطبقية والاجتماعية بين رعيته فهم جميعا سواء فى الحقوق والواجبات ، وهذا هو التفسير الصحيح لقضاء الإسلام على المسيحية فى القطر الجزائرى وغيره من الأقطار المغربية ، مع ملاحظة أن العرب عاملوا من ظلوا على مسيحيتهم من الروم وغيرهم معاملة سمحة كما يقضى بذلك دينهم وجعلوا لهم حقا مفروضا إقامتهم لشعائر دينهم المسيحى وتجديد كنائسهم ولم يمسوا أى مس حرمتهم الدينية . وظل ذلك لافى القرون الأولى بعد الفتح فحسب ، بل أيضا فى جميع القرون ، حتى لنجد الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد فى بجاية والقلة يرسل - كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضى - خطابا رقيقا إلى البابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية بين سنتى ١٠٧٣ و ١٠٨٥ خطابا رقيقا يطلب إليه فيه تكريس القديس سرفاند أسقفا على أبرشية بونة ( عنابة ) وأرسل إليه معه بهدايا نفيسة ، وأهم من ذلك أنه افتدى جميع الأسرى المسيحيين الذين جلبهم القراصنة إلى مملكته وأرسل بهم إليه . وكان لذلك أجمل وقع فى نفس البابا وكبار رجال الكنيسة فى روما ، وأرسل إليه مع الأسقف الجديد لبونة برسالة تفيض بشكره وشكر القسيسين وأشرف روما لهذا العمل النبيل محيا عقيدة المسلمين التى تشترك مع عقيدة المسيحيين - كما يقول - فى الاعتقاد بالله واحد خالد . وإنما سقت ذلك لأدل على مدى المعاملة الطيبة للمسيحيين فى الجزائر ، وكانت لهم فى مدينتها الكبيرة بعض الأحياء ، كما كان لهم - مثل اليهود - مقابر خاصة . ومررنا أن القرصنة اتسعت منذ القرن العاشر إلى نهاية هذا العصر ، مما أدّى إلى وفود آلاف من الأسرى المسيحيين على الجزائر من مختلف مناطق البحر المتوسط ( إسبان وفرنسيين وإيطاليين وكريتيين وصقليين ويونان ) وكانوا يعدون رقيقا فى خدمة الدولة أو فى خدمة بعض الأعيان ، وكانوا يزاولون الزراعة وحرف الصناعة والبناء ويزعم دابر Dapper فى وصف إفريقية أنه كان بمدينة الجزائر ستة آلاف أسرة من هؤلاء المسيحيين الأسرى ممن جلبهم القراصنة ، وكان كثيرون من هذا الرقيق المسيحى الأسير يسلمون وتردّ إليهم حرياتهم ويكفون أسرا ما زال بعضها يحمل اسم بلدهم الأصلى ، وعمل بعضهم فى الدولة وارتقى إلى المناصب الرفيعة .

ومنذ فتح المسلمون المغرب الأوسط أو إقليم الجزائر ، والبربر يسارعون إلى الدين الحنيف واعتناقه ، ويبدو ذلك واضحا فى عهد أبى المهاجر دينار ( ٥٥ هـ / ٦٧٤ م - ٦٢ هـ / ٦٨١ م ) إذ يرجع إليه الفضل فى فتح جميع الجزائر ونشر الدين الحنيف فيها وكانت قد فتحت بعض أرجائها وأخذ أهلها يتعرفون على الإسلام ويدخلون فيه ، فأتى ذلك كله ، متخذاً له جيشاً جراراً من العرب والبربر المسلمين . وسمع أن الروم وبعض البربر يتجمعون لحربه فى مدينة ميله إلى الجنوب الشرقى من بجاية ، فنازلهم واحتل البلدة واتخذها مركزاً لأعماله الحربية وظل

فيها عامين ، تخرج فيهما سراياه للفتح بعد الفتح . وكانت الزعامة في الجزائر حينئذ لقبيلة أوربة البرنسية ورئيسها أو زعيمها كسيلة وكان نصرانيا وأخذ يستعد استعداداً واسعاً للقاء أبي المهاجر ، ولقيه بجيش كثيف من الروم والبربر بالقرب من تلمسان ودارت عليه وعلى جيشه - كما مر بنا في الفصل الماضي - الدوائر ، ووقع أسيراً فعامله أبو المهاجر معاملة سمحة ، جعلته يدخل - وتدخل معه قبيلته أوربة - في الدين الحنيف . وخلف أبا المهاجر في ولاية القيروان والبلاد المغربية عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ / ٦٨٣ م فرأى أن يقتحم الجزائر والمغرب الأقصى جميعاً ، وأعد جيشاً ضخماً أخذ يهزم به البربر ومن اجتمع إليه من الروم حتى أوطأ حافر حصانه مياه الأطلسي . ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد المغربية جميعها من أدناها إلى أقصاها بلاداً إسلامية . غير أن عقبة كان قد عامل كسيلة الأوربي معاملة أغضبتة وصمم على الانتقام ، حتى إذا كان عائداً بالجيش في المغرب الأوسط وتخلف عنه مع فرقة صغيرة بالقرب من طبنة هجم عليه كسيلة مع جنود من الروم والبربر كان قد أعدهم لمثل هذه الفرصة ، واستشهد البطل العظيم عقبة . وانتقم له خليفته زهير بن قيس فنازل كسيلة في موقعة ضارية خرب صريعاً فيها وتفرق من معه في البلاد والجبال . وعاد زهير فتولى البلاد المغربية بعده حسان بن النعمان فرأى أن يفتح قرطاجة التي كان ينزل فيها الروم ويحاولون الاتصال بالبربر للحرب والإفساد ، وفر كثير من الروم إلى البحر ومن بقي منهم فرضت عليه الجزية . وكانت كاهنة بربرية تزعم البربر في جبال أوراس بالجزائر قد أعلنت الحرب على حسان والعرب ، ولقيها حسان ولم يكتب له النصر فانسحب انتظارا لمدد يأتيه من الخليفة عبد الملك بن مروان وأتاه المدد سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م فنازلها وسحق جيشها سحقاً ذريعاً وأمن من بقي منه وأمن سكان أوراس في الجزائر جميعاً وولى أكبر أبناء الكاهنة على قبيلته جراوة وجبل أوراس ، واتخذ من قومه كتيبة في جيشه عددها اثنا عشر ألفاً . ومن حينئذ أصبحت الجزائر عربية إسلامية تعتنق الدين الحنيف وتجاهد في سبيله عن إيمان وإخلاص . ويخلف حساناً على القيروان والبلاد المغربية موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م فيمكن لهذا الامتزاج التام بين العرب والبربر في الجيش وحكم المدن وفي جميع الحقوق والواجبات ، ويعمل بكل ما استطاع على نشر الدين الحنيف بين البربر ، ويتوَّج ذلك بالبعثة التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لنشر الدين الحنيف وتعاليمه في البلاد المغربية .

وبذلك أصبحت الجزائر - مثل بقية البلاد المغربية - عربية إسلامية ، وحقا ولي على البلاد المغربية منذ أوائل القرن الثاني الهجري ولاية أمويون باغون أساءوا حكم البربر سوءاً شديداً فلم يسووا بينهم وبين العرب في الحقوق وظلموهم في الخراج والضرائب ظلماً شديداً ، وعرفوا دعوة الخوارج وما يدعون إليه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عرباً وغير عرب في كل الحقوق حتى في ولاية الأمة وخلافتها أو إمامتها ، فليس من الحتم أن يكون الخليفة قرشياً بل



يتولى الخلافة أكفأ المسلمين ولو كان عبداً جشياً ، وسارع إليهم دعاة مذهبي الإباضية والصفيرية ، وكان المذهب الأول معتدلاً وقرياً من مذاهب أهل السنة ، وتبع دعائه جبل نفوسة في طرابلس واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة في تاهرت ، وبذلك كثر أتباع هذه الفرقة الخارجية وسنخسها فيما يلي بمحدث مستقل ، أما فرقة الصفيرية فكانت فرقة متشددة غاية التشدد وكانت تستبيح دماء المسلمين ، وتأسست في سجلماسة والمغرب الأقصى ، فلم يتبعها جزائريون إلا ما كان يحدث أحيانا من مرور جيوشها بأراضي الجزائر في ذهابها لحرب ولاية المغرب أو لحرب الدولة العبيدية ، فكان ينضم إليها بعض الجزائريين . وتناح محدودة في الجزائر هي التي شاعت فيها الدعوة الإباضية ، ومعنى ذلك أن الجمهور في الجزائر ظل سنيا وظلت الجزائر دارا كبيرة للمذاهب السنية .

### ( ب ) المالكية<sup>(١)</sup> والحنفية

ظل شرقي الجزائر طويلا جزءا لا يتجزأ من ولاية القيروان ، وكانت قد سبقت - كما مر في القسم الخاص بالإقليم التونسي - إلى الاعتماد في الفقه على مذهب مالك ، وفتحت أبوابها للمذهب الحنفي وخاصة في عهد الأغلبة الذين تابعوا بغداد في اتخاذ القضاة غالبا من بين فقهاء الأحناف حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، إذ خيمت - حينئذ - العقيدة الشيعية على الإقليمين الجزائري والتونسي ، وكادت تتوقف فيهما دراسة الفقه السني المالكي والحنفي حتى إذا فارقوا المهديّة إلى القاهرة في أواخر العقد السادس من القرن الرابع عادت إلى الفقهاء السنيين حريتهم ، وأخذوا يعنون بدراسة الفقه المالكي ، وتولى المعز بن باديس شؤون القيروان وشرقي الجزائر سنة ٤٠٦ هـ واشتد في عهده تدمير أهل القيروان من ذكر الخطباء على المنابر أسماء الخلفاء العبيديين والدعاء لهم في خطب الجمعة ، وبلغ بهم الأمر أن قطعوا صلاة الجمعة احتجاجاً على الدعوة والدعاء لهم فيها ، ويقول ابن عذارى إن بعضهم كان إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، وانصرف ، فصلّى الظهر . وانتهى الحال إلى تعطيل الجمعة في القيروان زمننا ، وأخذت تقوم مشادات عنيفة بين أنصار السنة وأنصار الدعوة العبيدية الشيعية منذ سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م وفي نفس هذه السنة قتلت العامة من أنصار العبيديين خلقا كثيرا رجلا ونساء ونهبوا دور قوم منهم وأموالهم . ومن حين إلى حين كانت تثور بهم العامة في القيروان وأيضا في المهديّة عاصمة العبيديين ومديتهم المنصورية حتى إذا كانت

المغرب لابن عذارى والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وانظر في تعليقه لاتباع أهل المغرب مذهب مالك مقدمته في الحديث عن علم الفقه وراجع المذهب الحنفي في العهد العثماني بالجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي في العهد العثماني لأبي القاسم سعد الله .

(١) انظر في المالكية الجزائريين كتاب رياض النفوس للمالكي والدياج المذهب لابن فرحون وفي المالكية المصريين الكبار المذكورين كتاب حسن المحاضرة للسيوطي وراجع في قرار المعز بن باديس بقطع الدعوة العبيدية وحمل أهل المغرب على مذهب مالك البيان

تقصر الفتوى والقضاء على فقهاء المذهب الحنفي ، وكان كبير المفتين أو أصحاب الفتوى عندهم يلقب بلقب شيخ الإسلام وما إن استقر الحكم العثماني حتى أشرك الولاة العثمانيون مع القاضي المالكي قاضيا حنفيا ، وكان يأتي في أول العهد من إستانبول . وكان حكم القاضي المالكي لا يصبح نافذا إلا إذا وقع عليه القاضي الحنفي ، وتبعت هذا القضاء الحنفي مدارس تعنى بالفقه الحنفي ، وأخذت تنشأ فئة كبيرة من فقهاء ومدريسيه ، وبعد أن كان القاضي الحنفي يأتي في صدر العهد العثماني من إستانبول أخذ أولو الأمر يعينون القضاة من أسر حنفية توارثت المذهب في الجزائر .

### ( ج ) الإباضية<sup>(١)</sup> والصفيرية

الإباضية - قديما - من فرق الخوارج الذين أنكروا التحكيم الذي ارتضاه علي بن أبي طالب في الحرب الدائرة بينه وبين معاوية في صيفين ، وقالوا إن الخلافة - أو إمامة المسلمين - لا يصح أن تقصر على قريش ، إذ ليست حقا لها ، بل هي حق لله ، وينبغي أن يتولاها خير المسلمين تقوى وإقامة للعدل ولو لم يكن قرشيا بل لو كان عبداً حبشيا ، وحاربهم علي بن أبي طالب وهزمهم ، وظلوا بعده يقاومون الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية ، وانقسموا فرقا كان من أكثرهم غلوا فرقتا الصفيرية والأزارقة الذين عدوا دار المسلمين دار حرب ينبغي حربهم وجهادهم ماداموا يستسلمون لحكام الأمويين والعباسيين القرشيين الجائرين ، وتبع فرقة الصفيرية كثيرون في سجلماسة والمغرب الأقصى وحملوا السلاح ضد حكامهم من العرب وخاضوا معهم حربا طاحنة ، وكانت جيوشهم تمر أحيانا بالجزائر قاصدة القيروان مقر الحاكم الأموي والعباسي ومن بعدهما الحاكم العبيدي لحربه ، وكان يتبعهم بعض العامة من الجزائر ، ولكن جماهير الجزائر ظلت بعيدة عن اعتناق هذه العقيدة الخارجية الغالية .

وإذا كانت الجزائر لم تعتنق العقيدة الصفيرية فإن جماعات فيها اعتنقت العقيدة الإباضية ، وتأسست لها دولة في مدينة تاهرت ، حتى إذا قضى عليها أبو عبيد الله الشيعي داعية المهدي العبيدي انسحب منها الإباضيون إلى باغاية وورقلة ، ثم تجمعوا في غرداية وقرى ميزاب ، ولا يزالون إلى اليوم في كل هذه الأنحاء . وفرقة الإباضية لم تكن تغلو - من قديم - غلو فرقة الصفيرية ، فهي لا تعدّ دار المسلمين دار حرب ولا تحمل السلاح لقتالهم وسفك دمائهم مثل الصفيرية ، إلا أن يضطروها إلى ذلك ، وهي لا تعدّ - مثل الصفيرية والأزارقة - مرتكب الكبيرة كافر ملة يجب قتله ، إنما هو كافر نعمة فلا ينبغي قتله ، وهم يتوارثون مع إخوانهم السنيين

لأحمد توفيق المدني والجزء الثاني من تاريخ المغرب الكبير  
لدبور .

(١) انظر في الإباضية والصفيرية كتاب الملل والنحل  
للشهرستاني وراجع في الإباضية السير للشماخي  
والأزهار الرياضية لسليمان - الباروني وكتاب الجزائر

سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ثارت بهم العامة ثورة دامية سفك فيها كثير من الدماء في الحواضر والبوادي ، ولم يتمكن المعز من إيقافها ، فرأى نزولا على إرادة شعبه نبذ الدعوة العبيدية أو الفاطمية علانية وخلع طاعة خلفائها في القاهرة ، وأمر بأن يحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م وقيل بل في السنة التالية ، وأمر أن يخطب على المنابر باسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله وجاءه منه تقليد يعترف له فيه باستقلاله . ومن حينئذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهي السني الذي تتبعه البلدان المغربية وجماهيرها علا في الإقليم التونسي وشرقي الجزائر فحسب ، بل في جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضا في طرابلس وبرقة وأخذ يدرس في كل بلد مغربي وكثر فقهاؤه كثرة مفرطة .

ويقول ابن خلدون - في المقدمة - إن أهل المغرب اختاروا مذهب مالك دون غيره من المذاهب السنية كالمذهب الحنفي والمذهب الشافعي لأنه مذهب أهل الحجاز الذين تجمعهم بهم البداوة ، وفي رأينا أن هذا التعليل غير دقيق ، لما سئرى عما قليل من شيوع مذهب الاعتزال في الجزائر - ومثلها المغرب الأقصى - ومعروف أن البصرة هي التي وضعت دون الكوفة لأن عقلها - كما قلت في كتاب المدارس النحوية - كان أدق وأعمق من عقل الكوفة لاتصالها بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليوناني ، ولذلك وضعت أصول الاعتزال . فالتعليل لاختيار أهل المغرب مذهب مالك بالبداوة تعليل لا يستقيم ، وأولى من ذلك أن يعلل إثارهم لمذهب مالك من قديم ، لأنهم كانوا يقصدون إلى المسجد الحرام للحج ويزورون المدينة دار الهجرة وكان مالك إمام المدينتين غير مدافع وإمام أهل الحجاز ، فجلسوا إلى محاضراته في المدينة دار الرسول ﷺ منذ أواسط القرن الثاني للهجرة وحملوا عنه موطأه إلى القيروان وتدارسوه فيها كما تدارسوه على تلاميذه المصريين النابيين يتقدمهم عبد الرحمن بن القاسم ، وكان قد فرغ على المذهب فروعا في مدونة له حملها عنه أحد تلاميذه القيروانيين : سحنون ، وأذاعها في طلابه ، وأصبحت في البلاد المغربية : الجزائر وغير الجزائر أمّا للمذهب المالكي مثل كتاب إمامه الموطأ ، وظل المغاربة بعد سحنون يلتمسون المذهب المالكي عند أئمتهم المصريين الذين خلفوا عليه ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ هـ / ٨٠٦ م وخلفه على إمامة المذهب المالكي بالفسطاط أشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م وتولاها بعده عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م وإمام المالكية بعده في الفسطاط أصبح بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م فكل هؤلاء الأئمة كان يرحل إليهم شباب المالكية المغاربة للتزود في المذهب من حلقاتهم العلمية ، كما كانوا يتزودون من تلامذة سحنون في ديارهم المغربية ، وتوالت طبقات فقهاء المالكية في الجزائر إلى اليوم .

وقد أخذ المذهب الحنفي وفقهاؤه ينشطون في العهد العثماني إذ كانت الدولة العثمانية



ويصهرون إليهم ، ولذلك يرى بعض الباحثين المعاصرين منهم أنهم ليسوا خوارج إذ لا يخرجون على الدين الحنيف وتعاليمه إنما هم فرقة إسلامية كانت - ولاتزال - ترى أن تكون الخلافة - أو إمامة المسلمين - جمهورية ، فالمسلمون يختارون لها أكفأهم وأولاهم بحكمهم وتحقيق العدل بينهم ، وهم - إلى ذلك يختلفون مع أهل السنة مالكية وغير مالكية وجوها من الاختلاف ، من ذلك أنهم - مثل المعتزلة - ينفون تشبيه الله بالمخلوقين نفياً مطلقاً ، والآيات القرآنية التي قد يفيد ظاهرها ذلك تووّل كما أوّلها المعتزلة ، وهم مثلهم يرون أن صفات الله عين ذاته الكاملة كإلا مطلقاً ويرون أن مرتكب الكبيرة إن مات على غير توبة خلد في النار ، بينما يذهب أهل السنة إلى أن أمره مفوض إلى مشيئة ربه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إِنِ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ . ويذهبون إلى أن الإيمان لا يكفى فيه القول وحده ، بل لابد من العمل معه بحيث لا يعد المسلم مؤمناً إلا إذا أدى جميع الفروض الدينية . وكان أهل السنة يرون أن تظل الخلافة في قريش ، بينما يرى الإباضية - كما أسلفنا - أنها حق للمسلمين جميعاً يتولاها أصلحهم لها. وكلها خلافات يمكن عدّها خلافات فرعية لفرقة إسلامية .

( ٥ ) المعتزلة (١)

أخذ واصل بن عطاء إمام المعتزلة بل مؤسس مذهب الاعتزال يتألق - في أواخر العصر الأموي - في عملين كبيرين : وعظه المؤثر في الناس ودعوته لهم أن يعتنقوا مذهبه في الاعتزال ومبادئه التي كان يدعوها ، وفي مقدمتها مسألة مرتكب الكبيرة وهل يعد مؤمناً أو كافراً ، وكانت المرجئة تعدّه مؤمناً وكان الخوارج من الصفرية والأزارقة يعدونه كافراً وكان أهل السنة يعدونه مؤمناً فاسقاً ، وعدّه الإباضية كافر نعمة لا كافر ملة ، ونفذ واصل إلى القول بأنه في منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر ، وأضاف إلى هذا المبدأ في الاعتزال أربعة مبادئ أخرى هي وحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، ومربناً أن الإباضية يأخذون بهذا المبدأ الاعتزالي ، ومبدأ ثان هو العدل على الله وتترتب عليه حرية الإرادة عند الإنسان بحيث يحاسب على عمله فلا جبر ولا قدر مقدور كما يرى ذلك أهل السنة والإباضية ، ومبدأ ثالث انفاذ الوعد بثواب المتقين المؤمنين والوعيد بعذاب العصاة الكافرين ، ومبدأ رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان واصل ينفذ إلى القلوب بوعظه المؤثر وإلى العقول ببراهينه الساطعة لمبادئه الاعتزالية ، وأعجب به في المجالين شباب موطنه البصرة إعجاباً شديداً ، واتخذهم دعاة يدعون إلى نخلته الاعتزالية ، في أطراف الأرض ويصور ذلك صفوان الأنصاري في مدحته له التي أنشدها الجاحظ في أوائل الجزء الأول من بيانه قائلاً :

مجادلاتهم للإمام الإباضى عبد الوهاب وعلماء الإباضية  
وثورة جموعهم عليه الجزء الثالث من تاريخ المغرب  
الكبير لدبور .

(١) انظر في مبادئ المعتزلة الملل والنحل للشهرستاني  
وكتابتنا عن العصر العباسي الأول ، وراجع في قصيدة  
صفوان الجزء الأول من البيان والتبيين ، وانظر في

له خلفَ شَعْبَ الصِّينِ فِي كُلِّ ثُغْرَةٍ      إِلَى سَوْسِهَا الْأَقْصَى وَخَلْفَ الْبِرَابِرِ  
رَجَالَ دَعَاةٍ لَا يَفْلُ عَزِيمَهُمْ      تَهَكُّمُ جَبَّارٍ وَلَا كَيْدُ مَاكِرِ  
وَأَوْتَادُ أَرْضِ اللَّهِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ      وَمَوْضِعُ فِتْيَانِهَا وَعِلْمُ التَّشَاجِرِ

ويصفهم صفوان بالقدرة على التشاجر والجدال وقرع الحجّة بالحجة البيّنة ، ويصفهم فى أبيات تالية بروعة البيان والخطابة ويقول إنهم رسله ودعاته وحاملو مبادئ الاعتزالية إلى أطراف الأرض فى أقصى الشرق حتى الصين وفى أقصى الغرب حتى بلاد السوس وقد استطاع هؤلاء الدعاة لوصل أن يجذبوا إلى نخلته الاعتزالية جماعات فى الجزائر شمالا بين ميناءى مستغانم وهران وجنوبا فى وادى ميزاب بمدينة العظنا ، ولانزال لهم مقبرة بها ، ونجد المناظرات محتدمة فى تاهرت بين الإباضية والمعتزلة المقيمين شمالها وكانوا يبلغون ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم ، واشتعلت هذه المناظرات فى عهد إمام الإباضية عبد الوهاب ( ١٧١ - ٢١١هـ ) ونازله هو وعلماء دعوته أحد علماء هؤلاء المعتزلة وهزمهم جميعا ، واستنجد عبد الوهاب بعلماء نفوسة فى طرابلس وأرسلوا إليه شيخا منهم يسمى مهدى ، وتناظر مع عالم المعتزلة مناظرات حادة ، ولم تلبث المعتزلة أن حملت السيوف لقتال الإباضية ، ولم يكتب لهم النصر كما يقول مؤرخو الإباضية ، ولو كُتب لهم لتكونت فى الجزائر دولة اعتزالية لأول مرة فى التاريخ العربى . ويبدو أن الدعوة الشيعية التى قضت على الدولة الإباضية فى تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضت أيضا هناك على الدعوة الاعتزالية لافى الجزائر وحدها بل أيضا فى المغرب الأقصى .

## ٥

### الزهد<sup>(١)</sup> والتصوف

أخذت تشيع فى الجزائر نزعة مبكرة للزهد فى متاع الحياة العاجل والإقبال على العبادة والنسك طلبا للثواب عند الله فى الآجل . وكان مما عمل على إشاعة الزهد والتقوى فى نفوس الجزائريين الوعّاظ فى أيام الجمع بالمساجد وفى غير أيام الجمع إذ كانوا مايزالون ينقرون الناس من ملذات الدنيا مذكّرين لهم بيوم القيامة وما ينتظر العصاة فيه من العذاب الأليم والتفاحة من النعيم المقيم ، مستشهدين لهم بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التى تصور عذاب الجحيم ونعيم الفردوس ، حاثين لهم على القناعة بالكفاف من العيش وطيباته فتلك هى الوجهة المفلحة

فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم تراجم عن أعلام الصوفية ، وانظر فى صوفية الأندلس المذكورين كتابنا عن الأندلس وما فيه لهم من مراجع .

(١) تقيض تراجم الفقهاء والمحدثين الجزائريين فى كتاب عنوان الدراية للغبرنى والدياج المذهب لابن فرحون بأخبار زهد الزهاد . وفى كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات التادلى وكتاب البستان

والصفقة الراجعة . لذلك لا نعجب أن يتكاثر الزهاد في البلاد المغربية بالجزائر وغير الجزائر وأن ينعت العديد من الفقهاء والمحدثين بالزهد في خيرات الحياة وإيثار التقشف والرضا بالقليل . وتظل موجة الزهد حادة في الجزائر ، وتندافع معها موجة تصوف منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى ( ١٥٤ - ١٧٠هـ ) وبنائه على الساحل التونسي لرباط المنستير الذى آوى إليه كثرة من العباد لحراسة الساحل التونسي ، وأخذت تبنى رباطات أخرى على سواحل البلاد لحمايتها من قراصنة أمم البحر المتوسط الأوربية . وكان ينزلها كثير من النساك والفقهاء للإسهام فى هذه الحماية قيامًا بحقوق الدين والوطن ، واستحالت هذه الرباطات قرونًا إلى دور عبادة ونسك كبرى . ومنذ القرن السادس الهجرى يتخذ بعض النساك لهم فى المدن مراكز يتابعون فيها نسكهم وما قد يُلقون من دروس إن كانوا فقهاء أو محدثين ، وسميت هذه المراكز رباطات وزوايا ، ويتبرع كثيرون لبعض هذه المراكز ، فيتضاعف حجمها ويتضاعف مريدو الشيخ الناسك وقصّاده . وأخذت هذه الزوايا والرباطات تتكاثر مع الزمن لا فى المدن فحسب ، بل أيضا فى سفوح الجبال وفى الهضاب والصحارى البعيدة القاحلة .

وكانت الطرق الصوفية قد شاعت فى المشرق على نحو ما هو معروف عن الطريقة القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م والطريقة الرفاعية المنسوبة إلى أحمد بن على الرفاعى العراقى المتوفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٨٢م . وأخذت هاتان الطريقتان تشيعان فى جميع البلاد الإسلامية ، وكان أتباع الطريقة القادرية فى الجزائر أكثر عدداً . وتصوف الطريقتين جميعا تصوف سنى . وكان يجرى بجانبهما فى المشرق تيار من التصوف الفلسفى الذى يفسح لفكرة الحلول الإلهى فى الكائنات كما يفسح لفكرة الاتحاد الصوفى مع الذات العلية ، وهو تيار قديم فى التصوف منذ الحلاج مؤسسه المتوفى سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م وأخذ أتباع هذا التصوف الفلسفى يتكاثرون فى الأندلس منذ القرن السادس الهجرى على نحو ما بسطنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس ، وقد تحدثنا هناك عن أبى عبد الله الشوذى الإشبلى وتلميذه إبراهيم بن دهاق المتوفى سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م كما تحدثنا عن ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بدمشق وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م بمكة . وهم جميعا من أصحاب التصوف الفلسفى ونزلوا جميعا فى تلمسان ، وبها تتلمذ ابن دهاق على أبى عبد الله الشوذى ونزل بها فترة ابن عربى وابن سبعين وتجولا فى بعض مدن الجزائر ، ونزلها قبلهم جميعا الصوفى المشهور وبخاصة فى الجزائر أبو مدين شبيب وستترجم له بين شعراء التصوف وتصوفه فلسفى ، وقد استوطن بجاية وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م .

وهذا التصوف الفلسفى لم تتكون حول أئمة طرق صوفية ، فقد ظلت تلك الطرق تخص التصوف السنى وتكونت معها فى القرن السابع الهجرى طريقة صوفية سنية مغربية هى طريقة



أبي الحسن علي بن عبد الله الحسني الشاذلي المتوفى سنة ٥٦٥٦/١٢٥٩م ولم يكد يدعو إليها في شاذلة بالقرب من تونس وفي تونس نفسها حتى تكاثر أتباعه في البلاد المغربية ونزل القاهرة مع تلميذه أبي العباس المرسي ، وكتب لطريقته أن تصبح أهم الطرق الصوفية السنية لا في مصر وحدها ، بل أيضا في الجزائر وجميع البلاد المغربية . ويتكاثر شيوخ الصوفية وزواياهم في الجزائر منذ القرن الثامن الهجري ويعنى بعض المؤرخين بالترجمة لهم وفي مقدمتهم يحيى بن خلدون إذ نراه في كتابه « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » يسوق ترجمات لمائة وتسعة من العلماء وأهل التقوى والصلاح ، ويتكاثر رجال التصوف في القرن التاسع الهجري ويزدادون زيادة مفرطة في العهد العثماني ، لعنايته بالتصوف وتقريبه لهم وإغداقه الأموال على زواياهم وكان الولاة العثمانيون يزورونهم ويتبركون بهم ويزورون أضرحة المتوفين منهم ، ودخلت معهم إلى الجزائر الطرق الصوفية التي اشتهرت ببلادهم مثل البكداشية والنقشبندية والمولوية أتباع جلال الدين الرومي ، ولكن الطريقتين الشاذلية والقادرية ظلتا تجذبان إليهما كثرة من الأتباع . وأخذ بعض أتباع الشاذلية يؤسس لنفسه فيها طريقة فرعية جديدة ، بحيث أصبحت هي والطرق التي اشتقت منها مثل المليانية والزيرية والرحمانية والدرقاوية أهم الطرق التي استوعبت جماهير الجزائر في المدن والقرى والهضاب والصحارى . ولا بد أن نشير إلى أن هذه الفئة من المتصوفة اندس بينها كثيرون في الحقب الأخيرة من هذا العصر يدعون لأنفسهم التقوى وهي منهم براء ، بل لقد كانوا يدعون أنهم أولياء يكشفون الغيب وينسبون لأنفسهم الكرامات ، واندس معهم كثيرون من الدراويش الجوالين والمشعوذين الدجالين ، مما جعل عبد الكريم الفكون يؤلف كتابه : « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو في ثلاثة فصول أولها فيمن لقيه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن كانوا قبل زمنهم ممن نقلت إليه أحوالهم وصفاتهم . والفصل الثاني في التشبهين بالعلماء والصلحاء ، والفصل الثالث في المبتدعة « الدجاجلة » الكذابين على طريقة الصوفية . والفصلان الثاني والثالث مليئان بنقد متصوفة عصره من أدعياء العلم ودجاجلة الشعوذة الصوفية الذين يتخذون الرقص الصوفى أو ما يسمى بالذكر والتغنى عليه بضاعة لهم يستغلون بها العامة مع تحالفهم عليها مع أصحاب الحكم والسلطان ، ويصبح ضد البدع والخرافات ، ويدعو إلى الاجتهاد واستخدام العقل والعمل بالكتاب والسنة .

## الفصل الثالث

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

( أ ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

عجب كثير من المستشرقين في السرعة التي انتشر بها الإسلام في الجزائر وغيرها من أقطار المغرب ، إذ لم يمض نحو قرن أو بعارة أدق لم يمض القرن الأول الهجري ، حتى أصبحت الأقطار المغربية أقطاراً إسلامية ، ومبعث العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا - وحدهم - في البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم وديانتهم وعاداتهم ، وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظل تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشمالي ، وحاولوا نشر المسيحية في تلك المدن ، ولم يعتنقها فيها من البربر إلا قليلون . ونزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقي ، وكان تأثيرهم في المدن الشمالية محدوداً . وظل البربر بعامة محافظين على دينهم الوثني ولغتهم وعاداتهم ، حتى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته ، وكان لذلك عاملان : عامل الإسلام نفسه وتعاليمه الدينية البسيطة وما فرضه على الفاتحين من العرب والمسلمين أن يعاملوا الأمم المفتوحة معاملة سمحة وأن يصبح للمسلمين منها أو بعارة أدق من يسلمون منها كل ما للفاتحين من حقوق ، فلا عبودية ولا استعمار ولا استنزاف لخيرات البلاد ولا استعباد لفرد فضلاً عن شعب ، فالجميع متساوون ، وقد محيت بين المسلمين الجدد من البربر والفاتحين كل الفوارق الجنسية والاجتماعية . والعامل الثاني هو الفاتحون أنفسهم ، إذ لم يكونوا يفتحون للغنائم والسلب والنهب ، ولم تكن تلك أمنيتهم حينما خرجوا من ديارهم للفتوح في الأقطار المغربية وغيرها ، إنما كانت أمنيتهم أن ينتظموا في جيوش المجاهدين في سبيل الله ابتغاء نشر دينه الحنيف في أرجاء الأرض .

كان الجندي في الجيش العربي الناتج بمجرد أن يضع قدمه في بلدة جزائرية أو مغربية أو في أي قبيلة جبلية أو صحراوية يحاول أن يُدخل في الدين الحنيف من يأنسون إليه من البربر ، فيحفظهم فاتحة الكتاب وبعض كلم العربية في التخاطب . وأخذت الكتابات تنشأ



سريعا فى كل مكان لتعليم البربر فروض الإسلام وتحفيظهم بعض سور القرآن . وأخذ الولاية يسندون نشر الدين الحنيف بوسائل كثيرة ، ومن أهمهم فى هذا الجانب حسان بن النعمان ( ٧١-٨٦هـ ) وكان قد ثار عليه شطر كبير من الجزائر فى جبل أوراس قاده قبيلة جراوة وزعيمها الكاهنة : « داهية » وأشعلت جميع الجزائر نارا ، وامتدت نار ثورتها حتى طنجة فى أقصى المغرب ، وساعدها الروم ، وواقعت حسان بن النعمان سنة ٧٧ للهجرة وهزمته ، وظل ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان سنوات ، وبمجرد أن جاءه نازل الكاهنة وجموعها ودارت عليها الدوائر . وبإلهام من الإسلام وتعاليمه فى معاملة البلاد المفتوحة جند حسان من هذا الجيش الجزائرى المنهزم اثنى عشر ألفا أدخلهم فى الجيش العربى للمشاركة معه فى الجهاد بنفس الأعطيات والرواتب والحقوق للجند العربى وليس ذلك فحسب ، فقد عدَّ أرض الجزائر - والمغرب عامة - فتحت صلحا لا عنوة ، وهى بذلك تظل لأهلها مع ما يؤدون عنها من خراج أو زكاة ، وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإنه ولَّى على قبيلة جراوة وجبل أوراس واليا بربريا هو أكبر أبناء الكاهنة « داهية » . وكل تلك كانت بواعث فعالة لدخول الجزائريين والمغاربة فى دين الله أفواجا ، فلم يعودوا مستعبدين لفاثحين فينيقيين أو رومان أو بيزنطيين يظلمونهم ويرهقونهم بالضرائب المتنوعة ، بل أصبحوا أحرارا فى ديارهم ولهم مال للفاثحين من الحقوق ، فهم إخوة دين حنيف وهم زملاء سلاح وهم حكام أنفسهم . وبهذه السياسة الحصيفة الرشيدة انفتحت قلوب البربر فى الجزائر وغير الجزائر لدين الله القويم . وخلف حسانا موسى بن نصير ( ٨٦-٩٦هـ ) فوثق هذه السياسة وزادها ضبطا وإحكاما ، إذ جاس خلال الديار المغربية حتى أقصاها فى الغرب ، وفى كل بلد وفى كل قبيلة خلف معلمين يحفظون الناس القرآن ويعلمونهم فروض دينهم وتعاليمه ، واتخذ للبربر ولاية من ذات أنفسهم ، ومن أهمهم طارق بن زياد والى طنجة الذى عهد إليه بفتح الأندلس وعبر إليها بجيش من العرب والبربر ، وتبعه موسى بن نصير بجيش مماثل ، مما يدل بوضوح على اندماج البربر فى العرب دينا وجهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف .

ولا تبلغ سنة مائة للهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى نجده يكلف عشرة من الصفاة فى فقهاء التابعين بالذهاب إلى إفريقيا لاستكمال نشر الإسلام فيها وتعليم البربر شريعة الإسلام وما تقوم عليه من الإيمان بوحداية الله وغير ذلك من أصول العقيدة الإسلامية وأيضا ما تقوم عليه من العبادات والفرائض ، واختار أحدهم ، وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ليكون الوالى على جميع البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ويقول عنه ابن عذارى : « ما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقيتهم على يديه » وعلى أيدي معاونه من الفقهاء التسعة الذين اصطفاهم عمر بن عبد العزيز لهذه المهمة ، وهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى وعبد الله بن يزيد المعافرى الحبلى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وحبان بن أبى جبلة وبكر بن سودة

الجدامي وجعثل بن عمير وموهد بن حى المعافى وطلق بن حابان وسعيد بن مسعود التجيبي وكل منهم كان فقيها يتقن معرفة الشريعة ويروى الحديث النبوي عن الصحابة من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانوا يحسنون تفسير القرآن الكريم ، وقد تحولوا جميعا مع إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر في إفريقية إلى معلمين يفقهون البربر أمور شريعتهم ، وأتاهم البربر من كل فج من الجزائر وغير الجزائر يدرسون عليهم الشريعة الإسلامية ، وعنوا بتحفيظهم القرآن الكريم . واتخذ كل منهم بجانب المسجد الذى بناه كتابا لتحفيظ الناشئة القرآن . فأسلمت وتفقهت على أيديهم جموع كبيرة من البربر ، وهم يُعدّون - بحق - المعلمين الأولين للبربر تعاليم الشريعة الإسلامية ، وبهم تمّ العمل الكبير من نشر الجيوش العربية وولاية المغرب من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير الدين الخفيف فى ربوع المغرب جزائر وغير جزائر ، وانضمت الأمة البربرية إلى الأمة العربية فى دين واحد وعقيدة واحدة .

( ب ) دور العلم : الكتابات - المساجد - المدارس - الزوايا - المكتبات

### الكتابات

أخذت تتأسس عقب الفتوح الإسلامية فى بلدان الجزائر كتابات لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة العربيتين وتحفيظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وتعريفهم بما ينبغى أن يعلموه من فروض الإسلام وتعاليمه . وكانت هذه الكتابات تُبنى مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد ، وأخذت المعارف فى هذه الكتابات تتسع بمر الزمن ، فشملت مبادئ الحساب وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ولكن العناية الكبرى إنما كانت تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان فى نفوس الناشئة ، وتأتى بعد ذلك مدارس الحساب وغيره من مبادئ العلوم ، وكانت الكتابات منبثة فى المدن والقرى وفى كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت فى المدن كثيرة مفرطة ، حتى كانت تعد بالعشرات فى طبة وقسنطينة وبونة وبجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب فى بسكرة وغير بسكرة .

### المساجد

كانت الناشئة حين تنهى حفظها للقرآن الكريم وبعض متون الحديث وتتعرف على مبادئ العربية والعلوم فى الكتابات تتجه إلى حلقات المساجد وما يلقى فيها الشيوخ من الدروس فى موضوعات كثيرة ، فى مقدمتها تفسير الذكر الحكيم ، ورواية الحديث النبوى ، والفقه

وما يصور من تعاليم الشريعة ، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين والفتوح الإسلامية والأمة العربية ، وكان من هؤلاء الشيوخ من يقدم في دروسه أوليات المواد والعلوم في الدراسات الدينية والدراسات النحوية واللغوية وكأنه هو ومن يماثلونه يشبهون معلمى التعليم الثانوى فى عصرنا ، حتى إذا أتقنها الناشء وفقهها حق الفقه انتقل إلى حلقات شيوخ أعلى فى المستوى العلمى ، يلقون محاضرات متعمقة فى تفسير الذكر الحكيم ، ويقراءون - ويشرحون - بعض كتب الحديث النبوى المهمة ، ويلقون على الطلاب كتاب الموطأ لمالك أو ما يماثله حتى يتسع فهمهم وفقههم لتعاليم الإسلام فى فروض الدين ووجوه المعاملات ، ويحاضرهم فى قواعد العربية ، ويقراءون لهم بعض كتبها المهمة مع الشرح والتفسير ، كما يقرأون لهم بعض كتب الشعر والنثر محاولين أن يغرسوا فى نفوسهم السليقة العربية وأن يصبحوا قادرين على نظم الشعر والكتابة الأدبية . ومع مر الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة فى الجامع الأعظم أو الكبير بالمدينة تدرس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطب والفلسفة ، وبذلك كان الجامع الأعظم فى كل مدينة جزائرية يعد جامعة كبرى لدراسة العلوم النقلية والعقلية . وكانت تلحق به وبعض المساجد أبنية أو زاوية بها غرف معدة بالأثاث والفرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ ، ويقوم عليها من يعد لهم الطعام ومن يخدمهم . وكان يُنفق على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة فى الرزق يتنافسون فيما يجسسون عليها من عقارات . ومن التوابع الضرورية للجوامع والمساجد الثريات والمصاييح المضيئة والميضات للوضوء والطهارة .

## المدارس

بجانب الجوامع والمساجد أخذت تنشأ منذ عصر الحفصيين فى القرن السابع الهجرى المدارس فى القسم الشرقى من الجزائر الذى كان تابعا لهم ، أسوة بما أسسوا من مدارس فى عاصمتهم تونس ، حتى إذا استولت دولة بنى زيان على مقاليد الحكم عُنِي بعض حكامها بتشيد المدارس فى عاصمتهم تلمسان ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة . وأول مدرسة أسسوها مدرسة أولاد الإمام أسسها أبوحمو موسى الأول ( ٧٠١-٧١٨هـ ) للفقهاء أبى زيد وأبى موسى ابنى الإمام الخطيب أبى عبد الله ، وأسس بعده ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ( ٧١٨-٧٣١هـ ) المدرسة التاشفينية ، وأسس أبوحمو موسى الثانى ( ٧٦٠-٧٩١هـ ) المدرسة اليعقوبية ، وأسس أحمد العاقل مدرسته الجديدة ووقف عليها أوقافا جليلة ، وأسس أبو الحسن مدرسة خامسة بالعباد ضاحية تلمسان . ويذكر الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا أنه شاهد بتلمسان حين زيارته لها حوالى سنة ٩٢٠ للهجرة خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا ( لعلها المدارس السابقة ) ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية . وأخذت



المدارس تتكاثر في العهد العثماني بالجزائر لا في العاصمة : مدينة الجزائر وحدها بل أيضا في المدن المختلفة مثل قسنطينة ، وكان بها وحدها سبع مدارس . وكان يقوم على التدريس في مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة في العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق ، وكانت تنفق عليها الدولة أحيانا . وفي أكثر الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذوو اليسار عليها ، وكانت تلحق بها مبان لسكنى الطلبة الغرباء وكانت تزود بكل ما يلزمهم من مطعم وملبس وأثاث ويمن يخدمهم ويوفر لهم النظافة والراحة .

## الزوايا

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن الهجري الزوايا في أنحاء البلاد المغربية جميعها جزائر وغير جزائر ، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدّي فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء ( الزهاد ) ، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بدروس العلوم الدينية واللغوية وعلى طلابها الغرباء والنازلين بها من الفقراء ، وكانت بذلك دار تعليم ودار عبادة ، وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذي أقامها ، فينصب له ضريح فيها وتقام عليه قبة ، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به ، ويعد مؤسس الزاوية المسئول الأول عنها ، وترث ذريته القيام عليها ، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة . وكانت الزوايا بجانب أنها دور عبادة تعنى بإلقاء المحاضرات في الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة ، فهي دور عبادة وتعليم ، وتحول كثير منها - وخاصة في المدن الجزائرية - إلى ما يشبه مدارس عالية . وكان كثير من التلامذة يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة ، وكما كانت تعنى بتعليم الناشئة كانت تعنى بتنوير العامة ، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر في منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ، ويقال إنها بلغت في مدينة الجزائر نحو ١٥ زاوية ، وبلغت في قسنطينة نحو ١٦ زاوية ، أما في تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية .

## المكتبات

في كل مسجد - من قديم - كانت الزوايا تتخذ المكتبات ، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوي أمهات الكتب في الفقه وغير الفقه ، وكانت الدولة تساعد في شرائها ويساعد ذواليسار ، وكثيرا ما كانت توقف أو تحبس لطلاب العلم وشيوخه ، واشتهر إبراهيم الثاني الأغلبى باتخاذها في عاصمة رقادة بقرب القيروان بينا أو مؤسسة سماها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة . وكأنما أراد بها أن ينافس الدولة الرستمية في تاهرت التي عنيت منذ إمامها عبد الرحمن بن رستم ( ١٦٠-١٧١هـ ) بإنشاء مكتبة كبيرة في عاصمتها وتبعه خلفاؤه يعنون بها ، ويذكر عن ابنه عبد الوهاب ( ١٧١-٢١١هـ ) أنه أرسل إلى بعض

الإباضيين في البصرة بألف دينار ليشتروا له كتباً بها ، فاشتروا له كثيراً من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيراً كما يقول الباروني في الأزهار الرياضية . وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة الكتب مسمين لها باسم المعصومة حتى بلغت ثلاثمائة ألف كتاب في الدراسات الدينية واللغوية والرياضية وغير الرياضية من علوم الأوائل ، وهالت أبا عبيد الله داعية العبيديين حين استولى على تاهرت سنة ٢٩٦ للهجرة ، فأمر بإحراقها ما عدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من طب وغير طب .

وظل الاهتمام بجمع الكتب لمكتبات المساجد مطرداً في عهد الدولة الحمادية ، ولها وللمدارس والزوايا في عهد الدولة الزيانية . وينوه المؤرخون بما كان في زاوية إبراهيم التازي بالقرن التاسع الهجري من خزائن متعددة مكتظة بالكتب العلمية . وظلت - طوال القرون المختلفة في العصر - الكتب تهاجر مع طلبة العلم الوافدين على المشرق إلى الجزائر ، وظلت تودع في المكتبات المختلفة للزوايا والمدارس والمساجد . ومن يقرأ تراجم العلماء في كتاب مثل عنوان الدراية يشعر أنه لم يولف في المشرق ولا في تونس والأندلس كتاب مهم إلا نقل إلى الجزائر : في القراءات والتفسير أو الحديث النبوي أو الفقه المالكي أو النحو أو الأصول أو المنطق أو علوم الأوائل وخاصة كتب الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وبالمثل كتب ابن رشد الأندلسي . فالتيار العلمي في الأقطار العربية كان جارفاً ، وكانت كتبه شرقاً وغرباً تصبُّ في مكتبات كل بلد عربي جزائر وغير جزائر ، فيما بها من مساجد وزوايا ومدارس . وكثير من الأسر التي كانت تتوارث العلم اشتهرت باقتنائها مكتبات كبيرة مثل أسرة الفكون في قسنطينة ، وكان بالجزائر هواة للكتب ينفقون في جمعها أموالاً طائلة ، وكانوا منبئين لا في المدن فحسب بل أيضاً في الواحات والصحارى ، ويذكر العياشي في القرن الحادي عشر الهجري برحلته أن مكتبة شيخ يسمى محمد بن إسماعيل تيكوران كانت تضم نحو ألف وخمسمائة كتاب ، فما بالنا بما ضمته مكتبات المساجد والمدارس والزوايا .

### ( ج ) نمو الحركة العلمية

أخذت الحركة العلمية تنمو في الجزائر منذ القرن الثاني الهجري ، وخاصة منذ عهد الدولة الأغلبية إذ كانت ترعاها في شرقي الجزائر في بونة ( عنابة ) وقسنطينة وطبنة وغيرها من البلدان . وتأسست منذ سنة ١٦٠ للهجرة في غربي الجزائر بمدينة تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وظلت طوال قيامها حتى سنة ٢٩٦ للهجرة ترعى العلم والعلماء ، ويعدُّ الأستاذ محمد علي ديبوز في الجزء الثالث من كتابه : تاريخ المغرب الكبير عشرات منهم قائلاً إن الدولة الرستمية كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها ، وزخرت بهم مدنهم وقراها ، حتى

ليعدون بالثبات . وخلفت الدولة الرستمية دولة بني حماد واتسع سلطانها ، فشمّل الجزائر أو أكثرها ، وقد بنى حماد مؤسسها قلعة سنة ٣٩٨ على منحدر جبلي بالقرب من المسينة ( المحمدية ) وسرعان ما أصبحت مدينة عربية ضخمة ، يقول ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه إن « حمادا استكثر في القلعة من المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لرواج أسواق المعارف والحرف والصنائع بها » وظلت - من حينئذ - مركزا كبيرا للدراسات الدينية واللغوية ، حتى بعد انتقال الناصر الحمادي منها سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م إلى عاصمته الجديدة : بجاية وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم مناظرات في مجالسهم وبعثوا في القلعة ثم في بجاية نهضة علمية وأدبية ، وأمّ حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمديس مادمح المنصور بن الناصر بن علناس ( ٤٨١ - ٤٩٨ ) بالقصائد الطنانة في مدحه ووصف قصوره ، واشتهر ابنه العزيز ( ٤٩٨ - ٥١٨هـ ) بأن بلاده كانت سلاما وأمانا وأن العلماء - كما يقول ابن خلدون - كانوا يتناظرون في مجالسه وقد بذل جهودا خصبة في إنماء الحركة العلمية ببجاية ، حتى أصبحت مركزا علميا ضخما لا بعلمائها المحليين فحسب ، بل أيضا بوفود العلماء المنتقلين إليها من القلعة ووفودهم اللاجئة إليها من الأندلس والبلاد المغربية ، واطردت هذه المكانة العلمية لبجاية بعد سقوط دولة بني حماد سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م إذ اشتهرت بها طائفة أو طوائف من العلماء والأدباء وظل يفد عليها غير عالم وأديب وخاصة من الأندلس ، ويوضح ذلك كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية للغيريني إذ ترجم فيه لأكثر من مائة عالم من علماء بجاية في القرنين السادس والسابع للهجرة ، وهؤلاء هم المشهورون ووراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة . ويدل على كثرة غير المشهورين ما رواه الغيريني عن أبي على المسيلي المتوفى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م من أنه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا » ويعلق الغيريني على كلمته بقوله : وإذا كان من المفتين ببجاية تسعون فكيف يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركهم . وظلت النهضة العلمية بها مزدهرة في القرون التالية وزارها الحسن الوزان حوالي سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م وقال إنها « مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التي يكثر فيها الطلاب وأساتذة الشريعة والعلوم سوى الزوايا للنسك المتعبدين » .

ومنذ سنة ٦٣٣هـ / ١٢٤٠م نشأ في تلمسان دولة بني زيان ، وقد بثت فيها نهضة علمية وأدبية رائعة ، ويقول التنسي في كتابه تاريخ بني زيان ملوك تلمسان عن مؤسس الدولة : يَغْمُرُاسِن ( ٦٣٣ - ٦٨١هـ ) إنه كان له في أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهل ، ومن استقدمهم إبراهيم بن يخلف



التنسي وأقطعه إقطاعات واسعة ، ولما اشتهرت عنايته بأهل العلم والأدب وفد عليه من الأندلس أبو بكر بن خطاب الكاتب، فأكرمه، وجعله رئيس ديوانه . ويقول التنسي عن حفيده أبي حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) إنه كان محبا للعلم وأهله معتنيا به قائما بحقه، ولما وفد عليه الفقيهان أبو زيد وأبو عيسى ابنا الإمام محمد بن عبد الله من أهل برشك بالقرب من تنس على الساحل الشمالي للجزائر احتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التي سميت مدرسة أولاد الإمام فنشرا بتلمسان كثيرا من العلوم، وكان ابنه أبو تاشفين حفيبا مثله بالعلم وأهله ولما وفد عليه الفقيه أبو موسى عمران المشدالي الزواوي احتفى به وولاه التدريس بمدرسته التاشفينية الجديدة. وكان على شاكلته أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ) في رعاية العلم والعلماء، وكان أديبا وشاعرا بارعا وله كتاب نظم السلوك في سياسة الملوك ضمنه بعض أشعاره، وهو أول من احتفل من ملوك الدولة بليلة المولد النبوي، وبلغ من احتفائه بالفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي أن بنى له مدرسة ليلقى فيها دروسه. ويشيد التنسي بأبي زيان محمد بن أبي حمو (٧٩٦-٨٠١هـ) قائلا إنه « كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجفانه، فلم تخلُ حضرته من مناظرة ولا عمرة إلا بمذاكرة ومحاضرة، وكتب يده نسخا من القرآن الكريم ونسخة من صحيح البخاري ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، ووقفها جميعا بخزائنه في مقدم الجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان ، وألف كتابا نحا فيه نحو التصوف ، سماه « كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة » ووجه هدية إلى برقوق سلطان مصر ومعها قصيدة بديعة .

وينوه التنسي بأبي مالك عبد الواحد (٨١٤-٨٣٣هـ) قائلا: « في أيامه نفق (راج) سوق الأدب ، وجاء بنوه إلى بابه ينسلون (يسرعون) من كل حدب (موضع) فينقلبون بجر (مملوئي) الحقائق ظافرين بجزيل الرغائب (بوافر العطايا). ونرى يحيى بن خلدون في كتابه «بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد يعدد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء الصالحين ويبلغ بهم مائة وتسعة وجمهورهم من العلماء الذين دوى صيتهم، وإذا كان عددهم قد بلغ ذلك في عهد يحيى بن خلدون المتوفى في أواسط عصر الدولة الزيانية حول سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م فإن عددهم - لاشك - تضاعف بعده ، وبلغ بعددهم بعده ابن مريم في أوائل القرن الحادي عشر الهجري في كتابه : « البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » مائة واثنين وخمسين عالما . وأخذت تلمسان - كما أخذت بجاية - تراجع علميا وثقافيا في العهد العثماني ، إذ أصبحت مدينة الجزائر العاصمة ، وأخذت تجذب إليها العلماء والأدباء وإن ظلوا مبعوثين في عاصمتي بني حماد وبني زيان وبونة ويسكره وغيرها ، وخاصة قسنطينية إذ ظل بها في العهد العثماني نشاط علمي غزير .

ولم أتحدث - حتى الآن - عن هجرات الأندلسيين إلى الجزائر منذ هزيمة دولة الموحديين في واقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م فقد بدا لكثيرين منهم أن المستقبل ينذر برجحان كفة إسبان وقرب استيلائهم على البلدان الأندلسية ، وأخذ نفر منهم غير قليل يهاجر إلى البلاد المغربية باحثا له عن وطن جديد يلتجئ إليه ، وأخذت مدنهم تتساقط في حجر إسبان منذ العقد الرابع من القرن السابع الهجري ، وسقطت جوهرتهم الكبرى قرطبة ، وتبعتها في السقوط دانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس وبلنسية ثم مرسية . وكانت كل مدينة أندلسية تسقط ينزح منها إلى مدن الجزائر وغيرها من المدن المغربية أندلسيون كثيرون ، وكان الأثرياء منهم والعلماء ينزلون مدن الساحل الشمالي في الجزائر وينزل معهم بعض أصحاب الحرف والصناعات . أما أهل القرى الأندلسية فكانوا ينزلون في السهول والوديان - وربما نزلوا في سفوح الجبال كما كانوا ينزلون في الأندلس - وكانوا يعنون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين . وأخذت تكتظ بهم المدن الشمالية مثل وهران ومستغانم وبونة ( عنابة ) وبجاية ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية بالقرن السابع الهجري سيجد من بينهم أكثر من عشرين عالما وأديبا نزحوا من الأندلس إلى بجاية حينذاك وملئوها علما وأدبا ، وكانوا من العوامل الفعالة في نهضتها العلمية والأدبية . وتهبط إلى الجزائر من الأندلس موجة ثانية كبيرة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويستوطنون المدن الساحلية المذكورة آنفا وأخواتها على الساحل الشمالي مثل شرشال ويقول الحسن الوزان « إن كثيرا من الغرناطيين قصدوها وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعها وزرعوا أراضيها ، وزاولوا فيها أعمال صناعة الحرير لأنهم وجدوا بها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود وتحسنت أحوالهم يوما بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألفا ومائتين من البيوت وتوطنوها مثل إخوانهم في المدن الجزائرية الأخرى ، ونوا كثيرا من سفن الملاحنة لمطاردة السفن الإسبانية في البحر المتوسط والاستيلاء على ما فيها من غنائم انتقاما من فرديناند واستيلائه على غرناطة . ويدور الزمن دورة حتى سنتي ١٠١٦ - ١٠١٧هـ/١٦٠٨ - ١٦٠٩م فينفي ملك إسبانيا كل من بقى في إسبانيا من المسلمين ، وتتجه أفواج كبيرة منهم إلى المدن الجزائرية ، ويتخذوها وطنا ثانيا لهم ، وقد نقلوا معهم كل حضارتهم ومدنيتهم مما كان له تأثير واسع في الجزائر أثناء العهد العثماني . وقد بعثوا فيها حركة تعليمية واسعة منذ جاءت أعدادهم الكبيرة بعد سقوط غرناطة ، وكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإلتفاق على فقرائهم وإنشاء المدارس كمدرسة مازونة ومدرسة الأندلسيين في مدينة الجزائر ، ولا بد أن كانت لهم مدارس في المدن الأخرى ، وكانوا يجسسون عليها أموالا أو عقارات للإلتفاق منها على الأساتذة والطلاب . وتنبه العثمانيون لقدرة الأندلسيين التعليمية ، فكانوا يعينون منهم كبار المعلمين في المدارس ويفرضون لهم رواتب مجزية .



علوم<sup>(١)</sup> الأوائل

اهتمت الجزائر - كما اهتمت البلدان العربية المختلفة - بمدارسة علوم الأوائل من فلسفة وطب وغير طب، وانصببت عناية علمائها خاصة على ماسموه علوم التعاليم ، يقصدون بها علوم الرياضيات وما يتصل بها من حساب وجبر وهندسة وفلك . ولم يحدث بين الفقهاء وهذه العلوم وما يتصل بها من الفلسفة والطب أى تخاصم أو تقاطع طوال هذا العصر ، بل إن من يرجع إلى تراجمهم سيجد كثيرين من كبارهم ينعتون بأنهم سادوا أهل عصرهم فى العلوم العقلية أويقال إن فلانا بَدْ فقهاء عصره فى علوم التعاليم أو كان مستبحرا فى فنونها إلى غير ذلك من نعوت تدل على أخذهم منها بحظ وافر، وكثيرا ما يجمع الفقيه المشهور بين الفقه والطب.

وأول رياضى فلكى نلتقى به فى الجزائر على بن أبى الرجال التاهرتى الذى هاجر من بلدته تاهرت إلى القيروان وأصبح معلما ومربيا لحاكمها الصنهاجى المعز بن باديس ثم وزيرا له ورئيسا لديوان الإنشاء حتى وفاته سنة ١٠٣٤هـ/١٠٣٤م وباسمه ألف ابن رشيق بعض مؤلفاته الأدبية مثل كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » . وهو أول مغربى تعمق علم الفلك والتنجيم وألف فيه كتابه : البارع فى علم الفلك الذى ترجمه قسطنطين الإفريقى إلى اللاتينية فى القرن الحادى عشر الميلادى وتناقلته اللغات الأوربية المختلفة وانتفع به العلماء الغربيون الفلكيون أيما نفع . وظل الجزائريون يعنون بعلم الفلك وغيره من العلوم الرياضية مثل محمد بن يحيى النجار التلمسانى المتوفى سنة ١٣٤٨هـ/١٣٤٨م وكان إماما فى النجوم وأحكامها ، وكان يعاصره محمد بن إبراهيم الآبلى المتوفى سنة ١٣٥٦هـ/١٣٥٦م الذى فاق أهل زمانه فى جميع العلوم العقلية ، وهو شيخ ابن خلدون وأحد معلميه . وكتب عالم قسنطينة المشهور ابن قنفذ المتوفى سنة ١٤٠٨هـ/١٤٠٨م شرحا على أرجوزة فلكية لابن أبى الرجال ضمنه جداول فلكية . ومن أهم الفلكيين فى القرن التاسع بعده الحباك محمد بن أحمد المتوفى سنة ١٤٦٣هـ/١٤٦٣م وله منظومة فى الإسطرلاب الفلكى عدت - منذ زمنه - ألفية لعلم الإسطرلاب كألفية ابن مالك فى النحو . وقد شرحت مرارا ومن شرحها الفقيه الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ١٤٩٠هـ/١٤٩٠م وظلت تدارس حتى نهاية هذا العصر . ومن الأعمال الفلكية بعده

والبستان فى ذكر الأرياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لأبى القاسم سعد الله ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل تويهض .

(١) انظر فى ابن أبى الرجال دائرة المعارف الإسلامية وراجع فى غيره عنوان الدراية للغيربى وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ومقدمة عبد الرحمن بن خلدون فى علمى الهيئة والعدد وبنية الرواد لأخيه يحيى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وروفيات ابن قنفذ

منظومة السراج لعبد الرحمن الأخرى التي ألفها سنة ١٥٣٢/٩٣٩م وقد شرحت مراراً وطبعت في مصر مع شرح لها من تأليف سحنون الراشدي . وفي العهد العثماني ألف محمد الصخرى الجزائرى سنة ١٠٤٣/١٦٣٣م كتاباً في علم الإسطرلاب سماه : « القلادة الجوهريّة في العمل بالصفحة العجمية » جعله في مقدمة وخمسة عشر باباً وخاتمة ، ولعبدالرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠/١٧٥٦م مؤلف في علم الفلك وآخر في علم الإسطرلاب .

ومنذ نظم عبد الله بن الحجاج بن الياسمين المغربى المتوفى سنة ٦٠١/١٢٠٤م منظومة الياسمينية في الجبر والمقابلة وكذلك منذ ألف أبو العباس بن البناء المراكشى المتوفى سنة ٧٢١/١٣٢٦م كتابه : « تلخيص أعمال الحساب » وعلماء الجزائر يتدارسون العملين للطلاب ويشرحونهما ، وللفقيه سعيد العقبانى التلمسانى المتوفى سنة ٨١١/١٤٠٨م شرح على كل منهما ، ولعاصره ابن قنفذ القسنطينى شرحان على تلخيص ابن البناء سمي أحدهما شرح التلخيص ويقال « التمحيص في شرح التلخيص » وسمى الثاني : « حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب » . ومن شرح التلخيص معاصرهما على بن موسى البجائى المتوفى سنة ٨١٦/١٤١٤م ونظم ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢/١٤٣٨م كتاب التلخيص شعراً . ونزل البلاد المغربية القلصادى على بن محمد القرشى الغرناطى المتوفى ببجاية سنة ٨٩١/١٤٨٦م وكان رياضياً كبيراً وظل المغاربة يتداولون كتبه وخاصة كتابه : « كشف الجلباب عن علم الحساب » . وفي أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجرى عني عبدالرحمن الأخرى القسنطينى بعلمى الحساب والفرائض وألف فيهما منظومة سماها « الدرّة البيضاء » طبعت مع شرحها بمصر .

ويبدو أنه كان للهندسة حظ غير قليل من الجزائريين . وقد مر بنا في الفصل الماضى كيف أن عالماً تلمسانياً رياضياً ومهندساً كبيراً فى زمن أبى حمو موسى الثانى ( ٧٦٠ - ٧٩١هـ ) هو أبو الحسن على المعروف بابن الفحام اخترع ساعة دقاقة عجيبة فى أعلاها أليكة تحمل طائراً معه فرخاه احتضنهما تحت جناحية وثعبان خارج من كوة يخاتله فيهما ، وقمر تكتمل دورته كل تمام ساعة أمام باب مغلق فيفتح وينقض منه عقابان وينهش الثعبان أحد الفرخين فيصفر الطائر أبوه . ويفتح باب الساعة الذهبية ، وتترأى جارية جميلة بيدها صحيفة تعلن رقم الساعة ، والساعة تدق . ومن المهندسين المهمين فى القرن التاسع الهجرى الفلكى المار ذكره الحباك ، وله كتاب فى شكل من الأشكال الهندسية هو الربع المجيب يقول فى مقدمته : « لما كان الربع المجيب أحسن الآلات شكلاً وأحقها عملاً وأخفها حملاً ، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس فى خاطرى أن أقيد عليه رسالة تذكرة لنفسى ولن شاء الله من جنسى » وقد جعله - كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله - فى مقدمة وعشرة أبواب تناول فيها الجيب وجيب التمام والسهم والقوس والقطر والدائرة والارتفاع

الذى لا سمت له إلى غير ذلك من مباحث هندسية مع بيان حركات الشمس والقمر ومعرفة مواقيت الصلاة .

ورأينا فى القسم الخاص بتونس أنه كان بها نهضة كبيرة فى دراسة الطب منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وامتدت إلى القرن العاشر ، وكان القسم الشرقى من الجزائر حتى قسنطينة وبجاية مندمجا فى الإقليم التونسى إلى نهاية القرن الرابع ، وقامت فيه دولة بنى حماد ، وتكاد تستولى على أكثر الجزائر ، وعينت بتشجيع العلوم والآداب ، فكان طبيعيا أن تعنى بالطب ، ويلقانا من أطبائها فى القرن الخامس الهجرى ابن النباش محمد بن عبد الله البجائى ، وكان يعنى بعلم الطب وعلاج مرضاه عناية شديدة ، ومن أطباء هذه الدولة فى القرن السادس ابن أبى المليلح ويقول العماد الأصبهاني فى الخريدة إنه كان طبيبا ماهرا وشاعرا مجيدا ، غير أن اشتهاره إنما هو فى الطب. وملتقى فى قلعة بنى حماد بصيدلى هو أبو جعفر القلعى عمر بن اليدوخ وكان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، ومن مؤلفاته حواش على كتاب القانون فى الطب لابن سينا. ومن أطباء بجاية فى القرن السابع ابن أندراس محمد بن أحمد الأموى أندلسى من مدينة مرسية هاجر منها إلى بجاية فى عشر السنين وستمائة مستوطنا وكان يدرس للطلاب الطب ويقرئهم كتبه ويقول الغيرينى إنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا فى الطب وجملة من كليات القانون، وكان يحضر دروسه نبهاء الطلبة ويشير فيها من الأبحاث الطبية ماتعجز الكتب عن بيانه، وكان متوليا لطب الولاية ببجاية مع بعض خواص الأطباء بها ، وله رجز نظم فيه بعض الأدوية، واستدعاه المستنصر الحفصى إلى تونس ولم يلبث أن توفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . وكان يعاصره محمد بن يحيى بن عبد السلام وكان له حظ من الطب علمى وعملى ، وكان مزاولا له يعالج المرضى . ومنتقل إلى تلمسان فى عهد الدولة الزيانية ، ومن أطبائها المهمين محمد بن أبى جمعة التلاسى أحد أطباء أبى حموموسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وكان شاعرا مجيدا. ويذكر عبدالباسط بن خليل المصرى الذى زار تلمسان فى أواخر القرن الثامن الهجرى وسجل زيارته لها فى رحلته أنه رأى فيها طبيين : طبيبا مسلما هو محمد بن على بن فشوش وهو أحد أطبائها فى تدريس الطب ومزاولة المهنة، وطبيباً يهوديا وفد على تلمسان من الأندلس يسمى موسى بن صمويل ويعرف بابن الأشقر اليهودى ويقول إنه كان ملازما لسلطان تلمسان محمد بن أبى ثابت (٧٩٦-٨٠١هـ) . ومن تلاميذ ابن فشوش فى القرن التاسع الهجرى أبو الفضل محمد المشدالى، وكان يعاصره إبراهيم بن أحمد الثغرى وله معجم صغير فى الطب. وملتقى فى العهد العثمانى بعد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٦٥م وله كتاب الجواهر المكنون من بحر القانون فى الطب وفروعه ، وقد طبع منه قسم خاص بالصيدلة يسمى كشف الرموز.

وإذا تركنا العلوم الطبية والرياضية إلى الفلسفة وبدأنا ببجاية التى كانت عاصمة للدولة الحمادية التقينا فيها بنزيلها الأندلسى الحرالى على بن أحمد من قرية من قرى مدينة مرسية المتوفى



سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ويقول الغريزي إنه كان أعلم الناس بالطبيعات والإلهيات ، وإنه كان يقرأ عليه مع بعض الطلاب كتاب النجاة لابن سينا فيوضح منه ما يلقى ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه . ونزل بجاية بعده من مالقة أحمد بن خالد المتوفى حوالى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت له مشاركة فى الفلسفة فى الطبيعات والإلهيات ، وكان طلاب بجاية يقرءون عليه كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا من فاتحته إلى خاتمته . وكان يعاصره ابن أساطير على بن عمران الملياني المتوفى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م وهو من تلامذة الحرالى ومن خواصهم ، وكان الطلاب يقرءون عليه أيضاً كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا . ونمضى إلى تلمسان فالتقى بالشريف الحسنى التلمساني المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م والذي انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب ، ويقول يحيى بن خلدون إنه لم يكن يعزب عن علمه فن عقلى ولا نقلى ، وكانت تقرأ عليه كتب ابن سينا من مثل الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء كما كانت تُقرأ عليه تلاخيص ابن رشد لفلسفة أرسطو وبعض كتب التعاليم الرياضية فضلاً عما كان يُقرأ عليه من كتب الدراسات الدينية وما كان يلقى من محاضرات فى تفسير الذكر الحكيم .

ومنذ القرن التاسع الهجرى يقل القول بأن هذا الفقيه أوذاك درس الحكمة أو درس معقولات الحكماء أو له مشاركة فى الحكمة أو كان حاذقاً فى الطبيعات والإلهيات أو كان يقرأ عليه كتاب النجاة أو كتاب الشفاء لابن سينا فقد أخذ يحل محل ذلك أنه من أهل الورع والنسك أو من أهل التصوف أو أنه من المتصوفة أو الأولياء الكبار مكاشف يتبرك به أو أنه متصوف من أهل العرفان أو أنه من العلماء الصالحين الأولياء أو زاهد ورع ذو كرامات أو من أهل الخلوة ترك الدنيا وما فيها أو سالك طرق المتصوفة أو سنن الفضلاء الصالحاء الأمجاد إلى غير ذلك من نعوت تدل على انغماس الفقهاء مع الشعب فى التصوف وطرقه الكثيرة التى عمت الجزائر وخاصة الطريقة الشاذلية وفروعها المتعدده ، وكلما قطعنا شوطاً أو شطراً من الزمن فى العهد العثماني ازدادت موجة التصوف - كما مر بنا فى الفصل الماضى - حدة ، وازدادت المؤلفات فيه وفى شيوخه وأقطابه وفرة .

على أن فرعاً من فروع الفلسفة ظل مزدهراً فى حلقات الشيوخ بالجزائر حتى نهاية هذا العصر ونقصد علم المنطق ، وقد ألف فيه الحرالى المار ذكره كتاباً سماه « المعقولات الأول » . وألف الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كتاباً فى المنطق سماه : « الجمل فى المنطق » تداوله علماء الجزائر سريعاً يدرسونه للطلاب ويشرحونه . ويقال إنه لم يكن يوجد ببجاية فى القرن السابع الهجرى أعلم بكتاب الجمل للخونجى من عبد الوهاب بن يوسف المتوفى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م . وللشريف الحسنى التلمساني المار آنفاً شرح للجمل ، يقول ابن مريم فى كتابه البستان إن العلماء انتفعوا به وأكبوا عليه قراءة ونسخاً . ولابن قنفذ القسنطينى شرح

له ، ولسعيد العقباتي معاصره شرح له كان يتداوله العلماء والطلاب ، وشرحه محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره وسمى شرحه : « نهاية الأمل في شرح الجمل للخونجي . ولمحمد بن يوسف السنوسي المحدث المتوفى سنة ١٤٨٩/٨٩٥م ثلاثة أعمال في المنطق : مختصر له فيه شرح مرارا ، وشرح على الجمل للخونجي ، وحاشية على شرح إيساغوجي في المنطق للبقاعي . وللفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المتوفى سنة ١٥٠٣/٩٠٩م ثلاثة أعمال أيضا في المنطق : مختصر فيه وشرح الجمل للخونجي ومنظومة فيه سماها فتح « الوهاب » وكتب لها ثلاثة شروح . وكان عبد الرحمن السيوطي المصري المشهور معاصره كتب كتابا نهى فيه عن الاشتغال بعلم المنطق وذكر فيه بعض ما قاله العلماء في ذمه ، فكتب إليه قصيدة بديعة يدافع فيها عن علم المنطق وأنه الحق أو يهدى إلى الحق بدلالاته وأشكاله المنطقية السديدة . وقد ظل علم المنطق يدرس في الأزهر كما يدرس في الجزائر وشُغف الأزهريون والجزائريون بمنظومة فيه لعبد الرحمن الأخصري القسنطيني الجزائري المتوفى سنة ١٥٤٦/٩٥٣م وسماها السلم وشرحها وهي في مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقال إنه نظمها في الحادية والعشرين من عمره ، ووضعت عليها شروح كثيرة لجزائريين ومصريين كما وضعت حواش كثيرة من أهمها حاشية الفقيه الكبير سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦/١٦٥٥م ويقول في مقدمته لها إنها « إضافة لشرح الأخصري على منظومته كالتذييل لما أغفله في شرحه ، مظهرا لمقاصده ومستخرجا بعض فوائده » . وظل يدرس مع السلم في الجزائر مختصر السنوسي في المنطق وتوضع له بعض الشروح مثل شرح عبد الرزاق بن حمادوش ، المار ذكره سماه « الدرر على المختصر » . وظلت لسلم الأخصري وشروحه وحواشيه الشهرة المدوية .

### ٣

#### علوم<sup>(١)</sup> اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد

أخذت الجزائر تعنى بعلم اللغة منذ أُمُّ بها أبو علي القالي في طريقه إلى الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ، ونرى بين تلاميذه تلميذا جزائريا هو إبراهيم بن عبد الرحمن التنسي وقد حمل عنه كتابه الأمالي ومحاضراته في اللغة ، ونجد مدينة طبنة عاصمة الزاب تعنى بمادة اللغة ومدارسها ، وينبغ فيها زيادة الله بن علي الطيبي نزيل قرطبة في عهد المنصور بن أبي عامر وزير

الخلف برجال السلف للحنفاوي . وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وراجع في النهشلي الأنموذج لابن رشيق ص ١٧٠ وكتاب العمدة في مواضع متعددة . ونشر الدكتور المنجي الكعبي كتابه المنع .

(١) انظر في علماء اللغة والنحو والعروض والبلاغة إنباد الرواة للقنطري ربيعة الرواة للسيوطي وعنوان الدراية للغبريمي ربيعة الرواد ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهيض ، وتاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله ، وتعريف

الخليفة المؤيد منذ سنة ٣٦٦ إلى ٣٩٢ فاحتفى به . يقول ابن بسام فى الذخيرة إنه اتخذهُ نديمه إذ كان من أمتع الناس حديثاً وأنصعهم ظرفاً ، وأحذقهم بالملاطفة وآخذهم بالقلوب ، وكان عالماً لغوياً يقول القفطى : « كان من أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار ، روى الناس عنه علماً كثيراً ، وكان كثير الإغراب » توفى سنة ١٠٢٤هـ/١٠٢٤م ونشأ ابنه عبد الملك - وكان محدثاً - تنشئة لغوية جيدة حتى ليقول السيوطى فى البغية إنه كان إماماً فى اللغة له رواية وسماع . وتنهض الدولة الحمادية بالقلعة عاصمتها الأولى وبجاية عاصمتها الثانية نهضة علمية خصبة حتى نهاية مدتها سنة ٥٤٧ وتظل النهضة مطردة فى العاصمتين وتجذبان كثيراً من علماء الأندلس ، كما مر بنا ، فضلاً عن علماء المدن والأصقاع الجزائرية . وينزل بجاية المحدث الأندلسى الكبير عبد الحق الإشبلى المتوفى سنة ١١٨٥هـ/١١٨٥م ويتولى بجامعة الأعظم الخطبة وصلاة الجمعة كما يتولى بها القضاء ، ويؤلف فى غريب القرآن الكريم والحديث النبوى كتاباً ضخماً فى ثمانية عشر مجلداً سماه الحاوى ضاهى به كتاب الغريين فى القرآن والحديث للهروى . وللغوى التلمسانى محمد بن عبد الحق المتوفى سنة ١٢٢٧هـ/١٢٢٧م كتاب فى غريب الموطأ للإمام مالك . وكان يعاصره يحيى بن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ١٢٢٨هـ/١٢٣٠م من كبار علماء العربية ، وكان قد أخذ يكثر فى الجزائر نظم العلوم والمعارف ، وقد نظم معجم الجمهرة فى اللغة لأبن دريد ، وحاول نظم معجم الصحاح للجوهرى ولم يكتب له أن يتمه .

وكان محمد بن الحسن بن ميمون القلى المتوفى سنة ١٢٧٣هـ/١٢٧٤م يقرأ للطلاب ببجاية كتاب الأملى للقالى وكتاب زهر الآداب للحصرى ومقامات الحريرى ومنتخبات من شعر أبى تمام والمنتبى ، وكان شاعراً ونحوياً كبيراً مثل ابن عبد المعطى . وكان يعاصره أحمد بن يوسف اللبلى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ١٢٩١هـ/١٢٩٢م وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب وكتاب فى التصريف ضاهى به كتاب الممتع لابن عصفور . ومن لغوى القرن السابع الهجرى ونحاته الكبار يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يدرس لطلابه فى بجاية شعر أبى تمام والمنتبى والأشعار الستة برواية الشتمرى المسندة إلى الأصمعى ، وهى دواوين امرئ القيس وزهير والنابغة وطرفة وعترة وعلقمة ودواوين أبى العلاء : سقط الزند واللزوميات والحماسة للتبريزى والمرزوقى وإصلاح المنطق لابن السكيت والأملى لأبى على القالى والمقامات وغير ذلك من الكتب الأدبية . ولعل فى عمل ابن يخلف اللغوى ببجاية ما يدل بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمدارسة كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلية وغير الجاهلية . ولابن مالك كتاب لامية الأفعال عُنَى به غير جزائرى ، ولابن العباس محمد التلمسانى المتوفى سنة ١٤٦٧هـ/١٤٦٧م شرح عليها نوّه به معاصروه . وتكثر الشروح للأشعار وخاصة قصيدة البردة النبوية للبوصيرى ، ومن أهم شروحها شرح سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ وشرح ابن مرزوق الحفيد



المتوفى سنة ٨٤٢ وشرح القلصاى المتوفى سنة ٨٩١ . وتتكاثر الشروح اللغوية فى العهد العثمانى ومن أهمها شرح عبد الكريم الفكون على أرجوزة المكودى الفاسى فى التصريف ألفه سنة ١٠٤٨ للهجرة ، وكتب محمد بن بدوى الجزائرى سنة ١١٢٧ رسالة الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء . وبأخرة من العصر كتب محمد بن أحمد الجليلى الملقب بأبى راس المتوفى سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م كتابا لغويا فى نقد القاموس المحيط سماه : إضاءة القابوس على كتاب القاموس .

وعلى شاكلة ازدهار الدراسات اللغوية فى الجزائر منذ القرن السابع الهجرى تزدهر الدراسات النحوية وحامل لوائها فى هذا القرن يحيى بن عبد المعطى الزواوى المار ذكره بين اللغويين والمتوفى بالقاهرة بعد أن تصدر لتدريس النحو واللغة بها فى الجامع العتيق : جامع عمرو ، وله فى النحو ألفية على غرارها نظم ابن مالك ألفتة ، ومن مؤلفاته النحوية شرح لكتاب الجمل للزجاجى وحواش على كتاب أصول النحو لابن السراج ، وكتاب فى النحو سماه العقود والقوانين ، وله كتاب فى شرح أبيات سيويه . ولعبيد الله النفزى الشاطبى نزىل بجاية المتوفى بها سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م شرح على كتاب المفصل للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة وكان يتقن شرحه ودرسه للطلاب .

ومن كبار نحاة بجاية فى القرن السابع لغويها المار ذكره يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يشرح لطلابه الكتب التالية : كتاب الجمل للزجاجى وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب المفصل للزمخشري ومقدمة ابن بابشاذ النحوى المصرى وقانون أبى موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١١م أو متنه النحوى المقتضب الذى أخذه عن ابن بربى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م . وكان يعاصره محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المار ذكره آنفا بين اللغويين وهو من قلعة بنى حماد ، وكان لغويا ونحويا كبيرا مثل ابن يخلف ، استوطن بجاية ، وعاش يدرس لطلابها ويقول تلميذه الغبرينى فى ترجمته : « كان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم ، وتجرى فيه المذاكرات المختلفة فى التفسير والحديث وأبيات الغريب من الأشعار ، ويعرض من المعانى والأفكار ما لا يكاد يوجد مثله فى نوادر الكتب ، وكان قويا فى علم التصريف ومجبا للتعليل ، جاريا فى ذلك على سنن أبى الفتح بن جنى ، وكان كثير التلامذة والأصحاب ، وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، ويقوم على جميعها أحسن قيام ، وهو أفضل من لقيت فى علم العربية » . ويذكر الغبرينى من كتب النحو التى كان يدرسها ابن ميمون القلعى للطلاب كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب سيويه والمفصل للزمخشري وقانون أبى موسى الجزولى المسمى بالجزولية . ومن نحاة بجاية فى القرن السابع عبد الله بن محمد الأغماتى نزىل بجاية ، وكان فى علم العربية بارعا ، وكان يفقه كتاب سيويه فقها حسنا ، إذ كان من أعلم الناس به ، وكان يقرن مسائله بعضها إلى بعض ويدرك مقاصده

إدراكاً دقيقاً ، ويقول عنه الغبريني ناقلاً عن بعض تلاميذه : « أما كتاب مفصل الزمخشري وقانون أبي موسى الجزولي فكانا عنده من المبادئ دالاً بذلك على تعمقه لكتب النحو ومسائله وقواعده » . ولمحمد بن عبد الرحمن الخزرجي قاضى بجاية المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م شرح محكم على الجزولية ، وكان يدرسها للطلاب دراسة جيدة . وللفقيه الكبير ابن قنفذ أحمد بن حسن القسنطيني المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٩م الإبراهيمية فى مبادئ علم العربية ، وله على ألفيه ابن مالك شرح سماه « آية السالك إلى ألفية ابن مالك » . وكان ابن مرزوق الحفيد يقرأ لطلابه - أو يُقرأ عليه - كتاب سيويه وكتاب الإيضاح لأبي على الفارسى والألفية وكتاب التسهيل لابن مالك والكافية لابن الحاجب وكتاب المغنى وأوضح المسالك لابن هشام . ولمعاصره إبراهيم بن فائد القسنطيني المتوفى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م شرح على ألفية ابن مالك ، ومنذ ألف ابن آجرؤم الصنهاجى الفاسى المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م متنه البديع فى النحو المسمى الآجرؤمية . والعلماء فى الجزائر وغير الجزائر يتناولونه بالدرس والشرح ، ومن شروحه فى الجزائر شرح المحدث الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وشرح معاصره القلصادى الأندلسى نزيل تلمسان وبجاية المتوفى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م .

ويظل علماء النحو فى العهد العثمانى يعنون بشرح متن الأجرؤمية وألفية ابن مالك ، ومن شروح الأجرؤمية حينئذ شرح محمد بن محمد الصباغ القلعى من نحاة القرن العاشر الهجرى ، ونظمها فى القرن الثانى عشر خليفة بن حسن القمارى فى أرجوزة قيل إنه « يرقص لها المبتدى لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها » . ومن نحاة الجزائر المهمين فى القرن الحادى عشر يحيى الشاوى المتوفى سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م ومن مصنفاته حاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر فى أصول النحو استضاء فيه بكتاب الاقتراح للسيوطى . ويكثر الشارحون لشواهد كتب النحو ، ولأبى القاسم بن محمد البجائى من نحاة القرن الحادى عشر الهجرى شروح لشواهد ثلاثة من كتب ابن هشام ، هى القطر وشدور الذهب والقواعد الصغرى .

وبعض النحاة كان يدرس العروض لطلابه ، ولذلك يُنعتُ بالعروضى مثل عبد الله بن محمد القسنطيني المتوفى بأخرة من القرن السادس الهجرى ، ويحيى بن عبد المعطى المذكور بين النحاة واللغويين منظومة فى العروض بجانب ألفيته فى النحو ونظمه اللغوى لمعجم الجمهرة . وينظم ضياء الدين الخزرجى السبتي فى عصر الموحدين قصيدة فى العروض فى نحو مائة بيت ضمَّنها قواعد علم العروض والقوافى ، وطارت شهرتها وسميت الخزرجية نسبة إليه ، وينسبها بعض الباحثين المعاصرين خطأً لابن أبى الجيش وليس هو صاحب الخزرجية . وشغف بها الجزائريون وتناولها كثير من أعلامهم بالشرح مثل ابن قنفذ المذكور بين النحاة وسمى شرحه :



« بسط الرموز الخفية فى شرح عروض الخزرجية » وشرحها ابن مرزوق الحفيد وسمى شرحه :  
« المفاتيح المرزوقية فى استخراج رموز الخزرجية » وشرحها القلصادى ، وله بجانب شرحها  
مختصر فى العروض . ومن شروح العهد العثمانى على الخزرجية شرح لسعيد قدورة الحفيد  
المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وشرح ثان لبركات بن باديس المتوفى فى أوائل القرن الثانى  
عشر الهجرى .

وكانت الجزائر - فيما يبدو - تعتمد فى دراسة البلاغة على ما كتبه ابن رشيق المتوفى سنة  
٤٥٦هـ/١٠٦٣م فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان قد طار صيته لافى  
القيروان وحدها بل فى جميع البلدان الغربية والمشرقية . وأخذت تشيع شرقا وغربا دراسة  
المتون البلاغية وشروحها فى القرن السابع وما بعده منذ وضع السكاكى مصنفه أو كتابه المفتاح  
وعرض فيه علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما دراسة للمحسنات اللفظية والمعنوية ، وخلفه  
الخطيب القزوينى وصنع لعرض السكاكى هذه العلوم فى القسم الثالث من كتابه المفتاح  
تلخيصا ، ولم يلبث أن بسط قضاياها فى كتاب ثان سماه الإيضاح ، منذ ذلك ودارسو البلاغة  
العربية فى الجزائر وغير الجزائر يُعَنَوْنَ عناية واسعة بكتابه المذكورين ، وخاصة بالتلخيص إذ  
أخذ يتجرد غير عالم فى كثير من البلدان العربية لشرحه . وكان الفقيهان الكيران التلمسائيان  
ابنا الإمام أبوزيد عبد الرحمن بن محمد الشريف التلمسانى وأخوه أبو موسى عيسى رحلا إلى  
المشرق فى شبابهما لأوائل القرن الثامن الهجرى للتزود من حلقات علمائه ولقيا فى رحلتهم  
بدمشق أو فى القاهرة الخطيب القزوينى قاضى القضاة بهما فى عهد الناصر بن قلاوون ،  
فحضرا دروسه وحملوا عنه مصنفيه البلاغيين : متن التلخيص وكتاب الإيضاح ، وأذاعهما فى  
موطنهما ، وكان الجزائر اشتغلت بهما عقب تأليفهما سريعا مثل مصر والبلدان المشرقية ،  
ونرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٧١ كما مر بنا يعنى بالتلخيص  
والإيضاح جميعا ويأخذهما عنه الطلاب ، وبالمثل كان يدرسهما للطلاب بتلمسان الحافظ الكبير  
ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢ وضم إليهما كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع  
لبدر الدين ابن النحوى الكبير ابن مالك المتوفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م . ولمعاصره إبراهيم بن  
فائد شرح وضعه على متن التلخيص ، وشرحه أيضا محمد بن عبد الكريم المغيلى . ويضع  
عبد الرحمن الأخرى فى أوائل العهد العثمانى صاحب متن السلم فى المنطق كتابا مختصرا  
فى علوم البلاغة سماه : « الجوهر المكنون فى الثلاثة فتون : المعانى والبيان والبديع » وشرح  
مرارا ، ومن شروحه شرح محمد بن يوسف الثغرى المتوفى سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م سماه :  
« موضح السر المدفون فى الجوهر المكنون » ويضع على بن عبد القادر المشهور باسم ابن الأمين  
حاشية على شرح السعد التفتازانى لمتن التلخيص .

وتُهدى مدينة المسيلة ( المحمدية ) فى الجزائر إلى القيروان ناقدًا مبكرًا فى أواخر عهد المنصور بن بلكين ( ٣٦٨ - ٣٨٦ هـ ) هو عبد الكريم النهشلى ، وكان شاعرا يحسن الكتابة كما كان شاعرًا مجيدًا فألحقته الدولة بدواوينها وظل بها إلى أن توفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م . وله فى النقد كتاب يعد باكورة الكتابات النقدية فى البلاد المغربية هو كتاب المتمع فى علم الشعر وعمله . ونشر الدكتور منجى الكعبى اختيارا منه لأحد الأدباء السابقين يقع فى خمسمائة صفحة حققها تحقيقًا علميًا جيدًا . ويدل هذا الاختيار على أن النهشلى بنى الكتاب على منتخبات شعرية ونثرية تتخللها نظرات نقدية ، ووزع المنتخبات على أبواب متعاقبة انتفع بها ابن رشيق فى تأليفه لكتابه : « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » كما أوضح ذلك الدكتور منجى فى هوامش التحقيق ببيان ما يلتقى فيه الكتابان من أبواب ونصوص مختلفة منذ الصفحة الثالثة من المتمع إذ نقل ابن رشيق عن عبد الكريم ما قاله من أن « أصل الكلام منشور ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقتها ووقائعها وتضمن مآثرها ، إذ كان المنطق هو المؤدى عن عقولهم ، وألستهم خدم أفئدتهم » وتبعه ابن رشيق فقال : « وكان الكلام كله منشورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها وذكر أيامها الصالحة » . ويعقد عبد الكريم ص ٢٤ فصلا فى فضل الشعر ، ويتابعه ابن رشيق بفصل مماثل يردد فيه ما يقوله ( انظر صفحتى ٢٤ و ٢٥ ) . ومن الحق أنه قد يصرح به ولكن فى مواطن معدودة من العمدة ، وقد يأخذ عنه أبوابا مثل باب ألقاب الشعراء ص ١٩٢ وهو فى العمدة ( تحقيق محبى الدين عبد الحميد ) ٣٣/١ وباب احتماء العرب بالشعر وذبحهم به عن الأعراض ص ٢٢٠ وهو عند ابن رشيق فى ٤٩/١ وباب الأنفة من السؤال ص ٢٤٩ وهو عند ابن رشيق باب التكسب بالشعر والأنفة منه ص ٦٣ ويقول الدكتور منجى فى الهامش : « وتجد عند ابن رشيق فصولا كثيرة من هذا الباب ضمن أبواب أخرى لها علاقة به مثل باب الاقتضاء والاستنجاز فى الجزء الثانى من العمدة . ومن ذلك باب فىمن نوه به المدح وحطه الهجاء ص ٢٤٣ وهو عند ابن رشيق ٢٩/١ . ومن ذلك باب فيه النهى عن تعرض الشعراء ص ٢٧٩ وهو عند ابن رشيق ٥٩/١ . والكتاب يحمل فى كل باب وفى كل موضوع نصوصا أدبية : شعرية ونثرية بديعة تدل - دلالة واضحة - على ما كان يمتلكه عبد الكريم النهشلى من ذوق أدبى مرهف مع حسن العرض . ويبدو أن أصل الكتاب كان يحمل بعض نظرات نقدية بارعة لم يعن صانع المختار من الكتاب بإثباتها ، بدليل ما سجل ابن رشيق منها ، إذ عقد فى الجزء الأول من العمدة فصلا للقديما والمحدثين ذهب فيه مذهب ابن قتيبة فى أنه ينبغى أن لا يقدم فى الشعر القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته ، إذ المعول فى ذلك على جودة الشعر لا على قدمه أو حداثته ، ولا يلبث أن يقول : « ولم أر فى هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم ( النهشلى ) فإنه قال :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويُستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الخذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحدُّ الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت في بلد ألقاظ لا تستعمل كثيرا في غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادير حكاياتهم . قال : والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوحش المستكره ، ويرتفع عن المولد المتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة . »

فبعد الكريم يرى أن الجودة في الشعر تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأن المدار فيها ليس على القدم والحدائثة ولا على بلد شرقا دون بلد غربا إنما المدار فيها على حسن النسق وجمال الصياغة بحيث لا يكون الكلام حوشيا جافيا ولا مولدا سفسافا غثا بل يكون رصينا جزلا أو رقيقا سلسا مع ما يحمل من تلاوين التشبيهات والاستعارات البارة . ونمضى مع ابن رشيق في الجزء الأول من كتابه العمدة فنجده يعقد بابا في الشعراء والشعر يذكر فيه عن عبد الكريم قوله : « الشعر أصناف ، فشر هو خير كله ، وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثّل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول في الأوصاف والنوع والتشبيه وما يفتن به من المعاني والآداب ، وشعر هو شر كله ، وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس ، وشعر يتكسب به ، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه . »

وهي أنواع تستقصى أغراض الشعر ، فمنه الخير الذي يهدى إلى السنن القويم من الزهد والسلوك المستقيم إيثارا لما عند الله من الثواب على متاع الحياة الفاني، ومنه ما تستريح إليه النفس من وصف الطبيعة ومن الحكم والمعاني الطريفة، ومنه ما هو شر خالص وهو الهجاء المقذع الذي ينتهك الأعراض، ومنه ما يتكسب به ، وهو شعر المديح الذي يعود على صاحبه بالنفع في كل سوق. ويعقد ابن رشيق عقب هذا الباب بابا لحد الشعر وبنيته، ويذكر فيه لعبدالكريم قوله : « يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهم ، ثم يفرع من كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المرائي والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهم الغزل والطرده والخمر والمخمور . » وفنون الشعر الأربعة التي ذكرها عبدالكريم نقلها عن ابن وهب في كتابه نقد النثر ، وقد عرف كيف يرد إليها كل أغراض الشعر ، فالمدح منه الرثاء إذ هو مديح لميت ، ومنه الفخر إذ هو مديح للشاعر الذي نظمه ، مديح لنفسه ، وكذلك الشكر مديح لمن يقدم إليه وعرفان بفضلته ، ومن السهل إدخال الذم في الهجاء أما العتاب والاستبطاء فيدخلان فيه بشيء من التوسع إذ قد ينقلبان هجاء . وبحق تدخل الأمثال في الحكمة كما يدخل فيها



التزهيد والوعظ لأنهما يقومان على ضرب الأمثال والتأمل في مصير الإنسان وما ينتظر من السعادة أو الشقاء في الآخرة ، ويدخل في اللهو الانشغال عن الحياة الجادة بالغزل أو بالصيد أو بالخمر أسوأ صور اللهو الماجن .

وواضح أننا عرفنا عن طريق الفِقْر الثلاث السالفة التي نقلها ابن رشيقي عن كتاب المتع في علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي جانباً من نظراته النقدية التي ضمنها كتابه ، ونظن أننا أنه كان في الكتاب نظرات نقدية أخرى مماثلة أهمها - كما ذكرنا - صانع هذا الاختيار الذي حققه ونشره الدكتور منجي الكعبي . ولم يظهر بعد عبد الكريم في الجزائر ناقد على شاكلته إلا ما كان من ظهور ابن رشيقي الناقد الفذ مواطنه الذي ولد مثله بالمسيلة الجزائرية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعه وهي الصياغة وهاجر في سن السادسة عشرة إلى القيروان فتأدب بها ونضجت فيها موهبته الأدبية والنقدية وظل مستوطننا لها بقية حياته بحيث عُدَّ من أهلها وأدبائها ، ولذلك تحدثنا في القسم الخاص بالإقليم التونسي عنه وعن كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده الذي يُعدُّ بحق أروع عمل نقدي أنتجته البلدان المغربية طوال هذا العصر .

#### ٤

### علوم<sup>(١)</sup> القراءات والتفسير والحديث والفقهاء والكلام

يعكف المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، وحين نشأت فيه القراءات أخذ يحملها عن أئمتها في المشرق مقرئون كثيرون في المغرب ولا بد أن

والخشني والرياض للمالكي وما ذكر من مصادر الإباضية والدياج المذهب لابن فرحون وعنوان الدراية وما ذكر معه من المصادر في المحدثين ، وعلم الفقه في مقدمة ابن خلدون . وراجع في المذاهب الكلامية وخاصة الاعتزال والأشعرى ما كتبناه عنهما في العصرين العباسيين الأول والثاني وكذلك ما كتبناه في تونس وانظر في مبادئ الإباضية دبور في تاريخ المغرب الكبير ، وراجع في الاعتزال ونشره في المغرب والجزائر لعهد واصل مؤسسه كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة بتحقيق فؤاد سيد . وانظر في المناظرة بين إباضية تاهرت والمعتزلة ونشوب الحرب بينهما أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير ، وانظر في تأليف علم الكلام وكثرتها البستان وتعريف الخلف ، وتاريخ الجزائر الثقافي ، وراجع في كتابات الإباضيين في علم الكلام كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني .

(١) راجع في القراء غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجوزي وعنوان الدراية في علماء بجاية للغيريني وبغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي وتاريخ الجزائر الثقافي للدكتور سعد الله . وانظر في المفسرين عنوان الدراية وبغية الرواد والبستان وتعريف الخلف برجال السلف وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني في الحالة العلمية في الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لسعد الله . وراجع في المحدثين طبقات أبي العرب والدياج المذهب لابن فرحون والجزء الأول من الذخيرة لابن بسام في أسرة بني الطنبي وعنوان الدراية وبغية الرواد والوفيات لابن قنفذ والبستان وتعريف الخلف وكتاب الجزائر للمدني وتاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله . وانظر في الفقهاء طبقات أبي العرب

كان للجزائر حظ كبير من هؤلاء المقرئين مثل بقية البلاد الإسلامية ، ويذكر ابن الجزرى من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى عبد الحكيم بن إبراهيم نزىل بجاية تلميذ ابن خيرون كبير القراء فى القيروان وقد حمل عنه قراءة ورش المصرى عن نافع وهى القراءة التى لا تزال فى البلاد المغربىة إلى اليوم . ومن كبار القراء فى القرن الخامس الهجرى يوسف بن على بن جبارة من بسكرة عاصمة الزاب ، وله كتاب الكامل فى القراءات العشر ، ويقول ابن الجزرى إنه طاف البلاد فى طلب القراءات ، ويذكر فى كتابه الكامل إنه لقي ثلاثمائة وخمسة وستين مقرئاً من شيوخ القراء وذكر منهم فى كتابه مائة واثنين وعشرين شيخاً . ومن قراء القرن السادس ابن عفران محمد بن عبد العزيز وعنه حمل القراءات محمد بن عبد الله القلى المتوفى سنة ١٢١٤هـ/١٢١٤م ويقول الغبرنى إنه جلس للأستاذية ببجاية وأقرأ الناس وانتفعوا به . وكان يعاصره ببجاية المقرئ أحمد بن محمد المعافى قرأ عليه عالمٌ واستفاد منه خلق كثير ، وله مختصر كتاب التيسير للدانى فى القراءات السبع ، وبالمثل أحمد بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٦٧٤ وله كتابان فى قراءة ورش . ومن قراء القرن السابع الذين ذكرهم ابن الجزرى فى غاية النهاية سعيد بن على بن زاهر المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م استوطن بجاية وأقرأ بها الطلاب ، ومثله محمد بن صالح الكنانى المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٧م ولى إقامة الفريضة والخطبة بجامع بجاية الأعظم ماينيف على ثلاثين عاماً ، وكان مع إملائه القراءات يقرأ للطلاب مفصل الزمخشرى ودواوين الأشعار الستة وأبى تمام والمتنبى . ومن مقرئى القرن الثامن الهجرى محمد بن محمد بن غريون البجائى تلميذ محمد بن صالح الكنانى وأستاذ محمد بن محمد البانيقى ببجاية ، وكان يقرئ القراءات الثمان . ومن المقرئين فى منتصف القرن الثامن أحمد بن محمد الزواوى مقرئ قسنطينة ، ومن مقرئى النصف الثانى من هذا القرن يحيى بن موسى الغمارى مقرئ ببجاية . وكان يعاصره يعقوب بن على الصنهاجى شيخ أهل تلمسان فى القراءات .

ومن كبار القراء فى القرن التاسع ابن مرزوق الحفيد ، وله فى القراءات أرجوزة فى محاذة الشاطبية المشهورة ، وتلاه فى العناية بالقراءات بأخرة من القرن محمد بن يوسف السنوسى وله شرح كبير على الشاطبية ومختصر فى القراءات السبع ، وكان يعاصره محمد بن أحمد المصمودى وله فى القراءات رجز باسم : « المنحة المحكية لمبتدىء القراءة المكية » عرض فيها الخلاف بين قراءة ابن كثير المكى ونافع المدنى ، ومن معاصريه محمد بن شقرون الوهرانى وله كتاب تقريب النافع فى الطرق العشر ( طرق الروايات ) لنافع ، وهى أكثر من ذلك فى حديث ابن مجاهد عن أسانيد قراءة نافع فى مقدمته لكتابه : « السبعة » . واشتهرت زواوة فى العهد العثمانى بكثرة المقرئين فيها ، ومن أشهرهم فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر محمد بن صولة وكان الطلاب يأخذون عنه القراءات السبع . ولا بد أن كان بالجزائر مقرئون آخرون فى

زواوة وغيرها يتجاوزون القراءات السبع إلى ما بعدها من القراءات العشر ، وربما إلى ما وراءها من القراءات .

وللجزائر نشاط في التفسير مماثل لنشاطها في القراءات ، وخاصة منذ القرن السادس الهجري ، وفيه نلتقى بيوسف بن إبراهيم الوردجاني الإباضي المتوفى ببلدته : ورجلان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ويذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر أنه كان له في التفسير كتاب كبير في ٧٠ جزءاً . ويتكاثر المفسرون بالجزائر منذ القرن السابع ، ومنهم علي بن أحمد الحرالي نزيل بجاية المار ذكره ، ويقول الغبريني : « له تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير فتكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا » ومن مفسري القرن السابع بتلمسان ابن أبي العيش الخزرجي محمد بن عبد الرحيم وفيه يقول يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد : له مشاركات في فنون العلم وكان مؤلفا متقنا فسر الكتاب العزيز . ومن مفسري القرن الثامن الهجري الشريف الحسني التلمساني محمد بن أحمد إمام المغرب قاطية ، وفيه يقول ابن مريم : « فسر القرآن في خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجاب ، وكان عالما بحروفه ونحوه وقراءاته وبيانه وبلاغته وأحكامه ومعانيه » . ومن مفسري القرن التاسع سعيد العقباني المتوفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م وله تفسير لسورة الأنعام والفتح والفاحة أتى فيه بفوائد جلية ، ولإبراهيم بن فائد المتوفى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م تفسير للقرآن الكريم . وملتقى بالمفسر الكبير عبد الرحمن الثعالبي التلمساني المتوفى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وله تفسير دوت شهرته في عصره والعصور التالية اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطية الأندلسي ورجع فيه إلى عشرات من كتب التفسير ، يقول في مقدمته : « ضمته - بحمد الله - المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جملة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته ورويته عن الأثبات ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود في المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عولت ، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل » وقد سمي تفسيره : « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » . وقوله إنه رجع في التأليف إلى مائة تفسير يدل - بوضوح - على أن المشرق لم يؤلف تفسيراً مهما إلا نقله الشيوخ إلى الجزائر . ولا يختص هذا العمل من نقل التراث العلمي المشرقي إلى الجزائر بالتفسير وحده ، فقد عم هذا التراث في القراءات والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام والتاريخ وكتب النحو ومعجم اللغة ، بفضل طلاب العلم الجزائريين وشيوخه البررة الذين ظلوا يحملونه طوال القرون الماضية إلى بلدان الجزائر وغير الجزائر من الأقاليم المغربية . ولمحمد السنوسي مختصر حاشية التفتازاني على تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف . ومن تلاميذ الثعالبي محمد بن عبد الكريم المغيلي المار ذكره ، ومن مصنفاته : « البدر المنير في علوم التفسير » . وملتقى في العهد العثماني يحيى الشاوي المار ذكره المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م وله في



التفسير كتاب فى أجوبته على اعتراضات أبى حيان الأندلسى فى تفسيره المحيط على عبد الحق بن عطية والزمخشرى . وبأخرة من هذا العصر نلتقى بمحمد بن أحمد بن عبد القادر الملقب بأبى راس ، وله تفسير فى ثلاثة مجلدات .

وزخرت الجزائر بالنشاط فى دراسات الحديث النبوى مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد الإسلامية فكثرت بها المحدثون من أبنائها والنازحين إليها من الأندلس والبلدان المغربية والمشرقية ، ومن أوائل الوافدين عليها من المحدثين أبو معمر عباد بن عبد الصمد التميمى من أهل البصرة كان قد لقى الصحابى أنس بن مالك وعليه معتمده وكذلك لقى الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح التابعين وروى عنهم جميعا الحديث وقدم البلاد المغربية فأخذ الحديث عنه أنس بكثرون فى طرابلس والقيروان وقسنطينة وبها توفى ، ويقول أبو العرب فى طبقاته إنه روى مناكير فى الحديث عن أنس لم يروها غيره ولكنه مشهور بكثرة من أخذ الحديث عنه . ومن بكروا فى النزوح إليها من الأندلس سعيد بن فحلون نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م عن ثلاث وتسعين سنة ، وكان قد رحل إلى المشرق وحمل عن النسائى كتابه السنن أحد كتب الصحاح الستة المشهورة ، وكانت إليه الرحلة للسمع من البلدان الأندلسية . وفى نفس هذا القرن الرابع استوطن أحمد بن نصر الداودى تلمسان حتى وفاته سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م ، وكان فقيها كبيرا وله شرح على صحيح البخارى سماه النصيحة . واشتهرت فى طينة عاصمة الزاب فى القرون الأولى أسرة بنى الطنبى برواية الحديث النبوى ، ومنها عبد الملك بن زيادة الله الطنبى نزيل قرطبة المتوفى سنة ٤٥٧ . ومن محدثى القرن السادس بتلمسان يعقوب بن أحمد ، لقى بمرسية فى الأندلس أبا على الصدقى سنة ٥١١ وعاد إلى تلمسان فحدث الطلاب بها إلى وفاته . ومن كبار المحدثين فى نفس القرن عبد الحق الإشبلى نزيل بجاية المتوفى بها المار ذكره ، وله الأحكام الكبرى فى الحديث ست مجلدات والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والجمع بين الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم . وكان يعاصره مواطنه أبو بكر بن سعادة الإشبلى نزيل تلمسان المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ويقول ابن مريم : « كان ضابطا نقادا محدثا على الرواية » ومن تلاميذه ابن أبى العيش الخزرجى . ومن محدثى الإباضيين يوسف بن إبراهيم الوردجلى المار ذكره بين المفسرين وله ترتيب مسند الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م . ومن محدثى القرن السابع أبو زكريا الزواوى استوطن بجاية وتوفى بها سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وكان يُقرأ عليه صحيح البخارى إلى وفاته عن سن عالية . ومن محدثى هذا القرن فى مدينة الجزائر محمد بن قاسم بن منداس المتوفى بها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م وكان يعكف على تدريس علوم الحديث . وكان يعاصره فى بجاية على بن فتح بن عبد الله المتوفى بها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٥م واشتهر بسنده العالى لصحيح البخارى الذى أخذه فى رحلته إلى المشرق ، إذ أخذه عن أبى محمد بن يونس عن أبى الوقت وروايته إحدى الروايات الأساسية

التي اعتمد عليها اليوناني في إخراج صحيح البخاري وتحقيق نصوصه ، وسمع أبو الوقت روايته عن أبي الحسن الداودي عن ابن حموية عن محمد بن يوسف الفرّيرى عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري . وهو سند عال لصحيح البخاري ، تسامع به الأندلسيون فرحلوا إلى بجاية لأخذ رواية صحيح البخاري عنه لقصور سندهم له عن هذا السند . وكان يعاصره أحمد بن محمد بن السراج الإشبيلي نزيل بجاية المتوفى سنة ١٢٥٨/٥٦٥٧م وكانت له في الحديث رواية عالية . وكان يعاصرها حسن بن علي بن قنقد محدث بلده : قسنطينة المتوفى بها سنة ١٢٦٥/٥٦٦٤م . وتوفى بمطلع القرن الثامن المحدث الفقيه قاضي الجماعة ببجاية أحمد بن محمد الغبريني صاحب كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية .

ومن محدثي القرن الثامن الهجري محمد بن يحيى الباهلي البجائي المتوفى سنة ٧٤٤ ومحمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني المتوفى سنة ١٣٧٨/٥٧٨٠م ويقول ابن قنقد في كتابه الوفيات : كان له طريق واضح في الحديث وأُسمِعنا حديث البخاري وغيره ، وله شرح جليل على كتاب عمدة الأحكام في الحديث ، وأيضا شرح على كتاب الشفاء للقاضي عياض . وفي سنة ٧٨٤هـ توفى محدث قسنطينة وقاضيها حسن بن ميمون بن باديس . ومن كبار المحدثين في القرن التاسع الهجري محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الملقب بالحفيد إشارة إلى أنه حفيد ابن مرزوق الخطيب ، الحافظ المحدث الثقة جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية ، وكان لا يترك علما عقليا ولا نقليا إلا ألف فيه ، فهو يؤلف في المنطق كما مر بنا وفي النحو وفي الفقه وينظم في علوم الحديث أرجوزتين كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ويدرس للطلاب الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود وعمدة الأحكام في الحديث سوى الأمهات في الفقه المالكي والنحو والعربية والبلاغة . وكان يعاصره أحمد بن زاغو المتوفى سنة ١٤٤٢/٥٨٤٥م وله شرح على صحيح البخاري وشرح على صحيح مسلم . وولتقى بأخرة من هذا القرن بالإمام محمد السنوسي ، وله مختصر لشرح الأئبي على مسلم ، وشرح خصه بمشكلات البخاري ومختصر لشرح الزركشي عليه . وولتقى في العهد العثماني بأسماء علماء كثيرين يدرسون للطلاب بعض أمهات كتب الحديث وخاصة صحيح البخاري ، وكانت تقام المهرجانات لختمه في رمضان . وكان ابن أبي جمرة قد عُني بوضع مختصر لصحيح البخاري فشرحه عبد القادر المجاجي . ويضع بأخرة من العصر عبد العزيز الثميني الإباضي مختصرا لحاشية مسند الربيع بن حبيب في ثلاثة أجزاء ، ويضع معاصره أحمد بن عمار حاشية على صحيح البخاري .

ومنذ الفتح الإسلامي يتجرد كثيرون من الجيوش الفاتحة لنشر الإسلام في الجزائر وغيرها من البلاد المغربية وتعليم أهلها الشريعة الإسلامية وتحفيظهم القرآن الكريم . ومررنا في هذا



الفصل كيف أن موسى بن نصير ( ٨٦-٩٦هـ ) ظل خلال مسيرة جيشه حتى المحيط يترك في كل بلد مغربي في الجزائر وغير الجزائر معلمين يحفظون أهله القرآن ويقفونهم على تعاليم الإسلام وعلى قواعد العربية . ويظل معلمون قائمين بذلك طوال القرن الأول الهجري ، وكان عمر بن عبد العزيز في آخر هذا القرن قد أرسل إلى القيروان عشرة من الفقهاء ليعلموا الناس فروض الشريعة ، ومنذ هذا الحين أخذت تزدهر في القيروان - عاصمة المغرب جميعه حينذاك - الدرايبات الفقهية ، وأخذ كثيرون من أهل الجزائر يؤمنونها ليحسنوا معرفة الفقه ويشوها في بلدانهم ، وكان منهم - من يقتدى بشباب القيروان فيرحل إلى المشرق للنهل من حلقات فقهاء الكبار في الحجاز والعراق وخاصة حلقة الإمام مالك بن أنس ( ٩٣-١٧٩هـ ) . ومن أوائل الجزائريين الراحلين إلى المدينة للاستماع إليه والتلمذة عليه أبو القاسم عبد الله الزواوي . وولتقى مع أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة بفقهاء جزائري هو إبراهيم الطنبلي الذي كان يشارك أسد بن الفرات في القضاء .

وكانت الدولة الرستمية الإباضية قد نشأت منذ أواسط القرن الثاني وتولى أمورها الإمام عبد الوهاب ، وهو من أوائل الفقهاء الإباضيين إذ ينسب إليه الأستاذ دبور في تاريخ المغرب الكبير كتاباً يجمع فتاويه الشرعية لأتباعه يسمى نوازل نفوسة . واشتهر قضاة مالكية في أواسط القرن الثالث ولأهم سحنون في بعض مدن الجزائر حين أصبح قاضي القيروان : عاصمة الإقليم التونسي وشرقي الجزائر حينذاك منهم حمدون قاضي طنبنة وعلي بن منصور قاضي ميله ويحيى بن خالد السهمي قاضي الزاب ، وكانوا جميعا يعنون بنشر الفقه المالكي الذي درسوه على أستاذهم سحنون . ومن الفقهاء الجزائريين في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عبد الملك بن سيانح أستاذ فضل بن سلمة البجائي المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م وكان من أعرف الفقهاء باختلاف أصحاب مالك ، وكان يُرْحَلُ إليه للسمع منه ، أقرأ - ودرّس - بالمسجد الجامع في بجاية ، وله مختصر لمؤنة سحنون فقيه القيروان ومختصر ثان لكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة المعاصر لسحنون والمتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقد زاد فيه من فقهه كثيرا ، وله مختصر ثالث لكتاب الفقيه المالكي المصري ابن المواز . وولتقى في القرن الخامس بمروان بن علي نزيل بونة ( عنابة ) المتوفى قبل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله شرح على الموطأ لمالك نوه به ابن فرحون .

وفي نفس القرن الخامس يلمع بين الإباضيين فقيه يسمى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادي ميزاب من جبل نفوسة بليبيا . ويقال إن أباه هو الذي أسس هيئة العزابة في بلدان قري ومدن ميزاب ، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور المتوفى سنة ٥٠٤هـ/١١١١م كما يذكر معمر في كتابه الإباضية في موكب التاريخ ، وهي هيئة دينية عليا تشرف على جميع شئون المجتمع الإباضي في كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتي

وناظر الأوقاف ومؤدب الناشئة والمؤذن والإمام . وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين في كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو في ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبيين أفعال العباد . ومن كبار فقهاء المالكية في القرن السادس أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي قنون المتوفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م وله المقتضب الأشفي في اختصار المستصفي للغزالي . ومن فقهاء الظاهرية عبد الله بن جيل الوهراني الظاهري المذهب قاضي عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . ومنهم ميمون بن جبارة المتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م قاضي بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه معيار المعالم والمقاصد للغزالي ، ومنهم محمد بن علي بن مروان بن جيل قاضي الناصر الموحدي المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م .

ومن فقهاء الإباضية في هذا القرن يوسف بن إبراهيم الوردجاني المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وهو تلميذ أحمد بن محمد بن بكر السابق ذكره بين المفسرين - المحدثين ، وله كتاب العدل في أصول الفقه في ثلاثة أجزاء وكتاب مرج البحرين . ومن كبار فقهاء المالكية في القرن السابع الهجري أبو زكريا الزواوي البجائي المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٥م ومنهم محمد بن عبد الحق التلمساني المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م وله في الفقه : المختار في الجمع بين المتقى للباجي والاستذكار ، وكتاب غريب الموطأ ، ومنهم أبو الحسن علي المشهور بابن الزيات مستوطن بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه تهذيب مدونة سحنون وكتاب التلقين لعبد الوهاب إمام المالكية وكتاب التفريع لابن الجلاب وكتاب الرسالة لابن أبي زيد . ومنهم إبراهيم بن أبي بكر التلمساني المتوفى بأخرة من سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وكان فقيها نابها ، وله في الفرائض أرجوزة لُقبت بلقب « التلمسانية » وهي ضابطة للفرائض محكمة عجيبة الوضع كما يقول ابن فرحون ، وشرحها غير فقيه جزائري مثل ابن زاغو والحبك .

ومن فقهاء بجاية المهمين أبو علي ناصر الدين الزواوي وهو الذي جلب إلى بجاية والمغرب مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي آخر المائة السابعة ومن هذا التاريخ عكف عليه أهل بجاية والمغرب يدرسونه ويشرحونه . ومن كبار الفقهاء في القرن الثامن الهجري أبو زيد بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م وأبو موسى بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م نزلا تلمسان أيام أبي حمو موسى الأول ( ٧٠١-٧١٨هـ ) فبنى لهما المدرسة المعروفة باسم مدرسة أبناء الإمام كما مر ، وكان يعاصرهما عمران المشدالي المتوفى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م ويقول يحيى بن خلدون : « لم يكن في معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك وحفظا لأقوال الصحابة وعرفانا بنوازل الأحكام وصوابا في الفتيا » وفي كتاب تعريف الخلف برجال السلف مناظرة بينه وبين أبي زيد الإمام موضوعها الفقيه المصري عبد الرحمن بن القاسم الذي حمل عنه سحنون المدونة المنسوبة إليه خطأ وهي من إملاء أستاذه عبد الرحمن .

وقد تناظر الفقيهان في عبد الرحمن بن القاسم هل هو مقلد أو هو مجتهد . وقال عمران  
إنه مجتهد اجتهادا مطلقا بدليل مخالفته للمالك في كثير من المسائل . وتلتقى في القرن الثامن  
بالإمام العالم الفذ فارس المعقول والمنقول محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني المتوفى سنة  
٧٧١هـ/١٣٧٠م ومر ذكره في علوم الأوائل وبين المفسرين وإليه انتهت إمامة المذهب الفقهي  
المالكي في عصره ، وكان مع علمه الواسع بالفقه عالما بأصوله ، ومن مصنفاته مفتاح الوصول  
في بناء الفروع على الأصول طُبّق فيه الأصول على مسائل الفقه ، ويقول ابن خلدون إنه ملأ  
المغرب معارف وتلاميذ . ومن فقهاء هذا القرن عبد الرحمن الوغليسي المتوفى سنة  
٧٨٦هـ/١٣٨٥م شيخ العلماء في بجاية وعالمها ومفتيها ، وله « الجامعة في الأحكام الفقهية  
على مذهب الإمام مالك ، وتسمى : « الوغليسية » نسبة إليه .

ومن كبار فقهاء القرن التاسع الهجري أحمد بن حسن المشهور باسم ابن قنفذ قاضي قسنطينة  
المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي وشرح ثانٍ  
على كتاب التفريع لابن الجلاب المالكي وشرح ثالث على الأرجوزة التلمسانية باسم معونة  
الرائض في مبادئ الفرائض . ومن فقهاء القرن الكبار محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره في  
علوم الأوائل وبين العروضيين والبلاغيين والمحدثين ، وله : شرح على باب الطهارة بمختصر  
خليل بن إسحق الفقيه المصري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ . ومنذ ألف خليل هذا الكتاب  
الموجز وشروحه تتكاثر في الجزائر كما تتكاثر شروح مختصر ابن الحاجب الفقيه المصري المالكي  
المتوفى قبله بنحو قرن . ومن الفقهاء أحمد بن زاغو التلمساني المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م ،  
ومن تأليفه شرح التلمسانية في الفرائض .

ونلتقى بعبد الرحمن الثعالبي كبير المفسرين في العصر ، ومن مصنفاته الفقهية شرح ابن  
الحاجب الفرعي في سفرين ، وجواهر المدونة وعيون مسائلها في سفرين ، وجامع الأمهات  
في أحكام العبادات . ويلقانا بعده تلميذه وتلميذ ابن زاغو الفقيه يحيى المازوني المتوفى سنة  
٨٨٣هـ/١٤٧٩م وله الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، جمع فيه فتاوى الفقهاء المتأخرين من  
أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين . ونلتقى في أواخر القرن التاسع  
الهجري وأوائل العاشر بالفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م حامل  
لواء المذهب المالكي في أيامه ، وكان يدرس لطلابه مدونة ابن سحنون وابن الحاجب الفرعي  
ومن مؤلفاته : تعليق على ابن الحاجب الفرعي والقواعد في الفقه والفروق ، وأهم مؤلفاته المعيار  
المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب في ستة أسفار ، وهو موزع على أبواب  
الفقه في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية .

ونمضي إلى العهد العثماني في الجزائر وكان سلاطين آل عثمان يرسلون مع ولايتهم قضاة



أحنافاً ، وعادة كانوا يعودون مع الولاية بعد حكمهم نحو ستين ، ويأتى الوالى الذى خلفه ومعه قاض جديد ، وبعد عدة أجيال كان يدرس لهم الفقه الحنفى فى بعض المدارس والجوامع أخذ ينشأ فى الجزائر علماء أحناف من أبناء العثمانيين المولودين فيها . وأخذ الولاية يولون منهم القضاة دون حاجة إلى جلب قضاة من العاصمة : إستانبول ، وأول قاض حنفى جزائرى هو الحسين بن رجب الذى تولى القضاء سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م وكان القاضى الحنفى يسمى المفتى وشيخ الإسلام ودائماً كان بجواره فى المدن قاض مالكى ، إذ كانت جماهير الشعب مالكية ، وله بدوره حق الفتوى ، وإذا اختلف مع القاضى الحنفى عُقد لهما مجلس من العلماء للمناظرة ومن انتصر منهما أُخذَ بفتواه وقد يعزلان معا ويولّى غيرهما .

وعلى الرغم من كثرة الدروس فى المذهب الحنفى لم ينشط أصحابه فى التأليف إذ ظلوا طويلاً يمشون ستين فى الجزائر ويعودون إلى إستانبول فلم تهيأ لهم الفرصة حينئذ للتأليف طوال القرن الحادى عشر الهجرى إنماتهيأ ذلك حين أصبح القضاء يختارون من أبناء العثمانيين الجزائريين ، ويوضح ثبت فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مدد توليهم فى القرن الثانى عشر الهجرى وكيف كانت تتوارث وظيفة القضاء الحنفى بعضُ الأسر مثل أسرة العنايى ولها نشاط محمود فى التأليف ، وعلى شاكلتهم عبد القادر الراشدى القاضى الحنفى فى أوائل القرن الثانى عشر ولكنه عُنى بمباحث علم الكلام . أما الفقه المالكى فظل التأليف بالعهد العثمانى متصلاً فيه وخاصة فى وضع الشروح والحواشى ونظم المتون ، ولمصطفى الرماضى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر حاشية على شرح لمختصر خليل بن إسحق ، ونظمه أحمد البونى المتوفى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م تيسيراً لحفظه على الناشئة ، ولعبد الرحمن الأخرى صاحب متن السلم فى المنطق مختصر فى العبادات شرحه عبد الكريم الفكور ( الحفيد ) المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م ولعبد الرحمن البيدرى التلمسانى ياقوتة الحواشى على شرح الإمام الخراشى لمختصر خليل فى أربعة أسفار فرغ منه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م ونظم المختصر خليفة بن حسن القمارى فقيه بسكرة وفرغ من نظمه سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٩م .

ومن كبار فقهاء الإباضية فى العهد العثمانى عبد العزيز الثمينى المتوفى سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وله كتاب النيل فى ثلاثة أجزاء وهو مرجع أساسى فى الفقه الإباضى وفروعه فى العبادات والمعاملات ، وهو يقوم عند الإباضيين مقام مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى وشروحه وحواشيه . وأكمله بكتابه : الورد البسام فى رياض الأحكام ، وله مختصر المنهاج فى علوم الشريعة فى أربعة أجزاء وكتاب الألواح فى الفقه وكتاب التاج فى حقوق الأزواج وفيه يعرض الحقوق الزوجية وقضايا الأسرة إلى غير ذلك من كتب فى المنطق وعلم الكلام وأصول الدين .

ومرّ بنا في القسم الخاص بالإقليم التونسي وما كان يتبعه من شرقي الجزائر أن كل ما كان يتحاور فيه علماء الكلام من مرجئة وجبرية ومعتزلة انتقل هناك مبكرا ، وكان المعتزلة قد انضموا قديماً في البصرة إلى جيش إبراهيم بن عبد الله الحسني في حربه لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي سنة ١٤٥ ولم يكتب له الظفر بل دارت عليه وعلى أخيه محمد النفس الزكية في المدينة الدوائر ، وأخذ المنصور يتعقب أبناء الأسرة هو وخلفاؤه ، فهرب إدريس أخوهما إلى المغرب ، وغلب على مدينة فاس وأحياها وأسس هناك دولة الأدارسة . وكان دعاة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وصلوا إلى هذه الأنحاء وأصبح لهم في كورتى طنجة والبيضاء أتباع كثيرون ، فوضعوا أيديهم في أيدي إدريس ، وأعانوه في تأسيس دولته كما أعان - من قبل - معتزلة البصرة أخاه إبراهيم في ثورته على المنصور ، ونراهم يتكاثرون في شمال الجزائر الغربي لعهد عبد الوهاب أمير الدولة الرستمية ( ١٧١ - ٢١١هـ ) ، وعقدت مناظرات طويلة بينهم وبين علماء دولته الإباضية ، وأعلن الحرب عليه منهم نحو ثلاثين ألفا ولم يقدر لهم النصر فهزموا ولم تقم لهم بعد ذلك في الجزائر قائمة . وطبعي أنهم كانوا يعتقدون مبادئ المعتزلة الخمسة المشهورة ، وهي التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقين فهو ليس جسماً ولا ما يشبه الجسم ، والعدل مما يترتب عليه نفى سيطرة القدر على إرادة الإنسان حتى يكون مسئولاً عن أعماله مما يستوجب له الثواب والعقاب ، ورحمة وعد الله - جلّ شأنه - بالثواب ووعيده بالعقاب فلا تبدل لهما ، مما يترتب عليه عقاب مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب وأتاب ، ونفذوا في مناقشة الحكم عليه إلى مبدئهم الرابع وهو أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الكفر والإيمان بينما قال أهل السنة إنه مؤمن فاسق ، وقالت الإباضية إنه كافر لكن لا كفر ملّة بل كفر نعمة ، والمبدأ الخامس الذي اعتنقته المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويبدو أن أبا عبيد الله الصنعاني الداعية الإسماعيلي العبيدي كما قضى على الدولة الرستمية في تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجري قضى أيضاً على الدعوة الاعتزالية ، فلم نعد نسمع عن جماهير تعتنقها في الجزائر والمغرب ، إنما يلقانا من حين لآخر بعض أفراد من العلماء يعتقدونها .

وكان أبو الحسن القابسي المتوفى بالقيروان سنة ١٠١٢/٤٠٣ قد حمل مذهب أبي الحسن الأشعري الكلامي إلى القيروان وأشاعه فيها وشاع في الجزائر بعده إلى نهاية هذا العصر ، ومذهبه يقوم على التوفيق بين آراء المعتزلة وأهل السنة ، فإذا قال أهل السنة بالقضاء والقدر في أفعال الإنسان وقال المعتزلة بل الإنسان هو الذي يخلق أفعاله قال إنها لله خلقاً وتقديراً والإنسان كسباً وإرادة ، وإذا قال أهل السنة القرآن أزل غير مخلوق وقال المعتزلة إنه محدث مخلوق قال إنه قديم وحادث فالفاظه دلالات على كلام الله الأزل والدلالات مخلوقة محدثة والمدلولات قديمة أزلية ، إلى غير ذلك من آراء مثل تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وكان يعاصر الأشعري الماتريدي السمرقندي المتكلم ، ومذهبه مثل مذهب الأشعري في التوفيق بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، ولم يشع مذهبه في العالم العربي إنما الذي شاع مذهب الأشعري حتى في بيئة الماتريدي في خراسان ، ومن أكبر مؤيديه هناك إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م الذي رأس المدرسة النظامية في نيسابور ، ويتردد اسم كتابيه البرهان والإرشاد في أصول الدين في تراجم عنوان الدراية للغبريني في القرنين السادس والسابع وتراجم الكتب التالية . وحاول جزائريون كثيرون أن يكتبوا في علم الكلام - أو كما يسمى أحياناً علم التوحيد - وخاصة منذ القرن التاسع الهجري ، وكانت تكتب فيه قصائد وتشرح ، ولعل أحداً لم تنل أعماله من الشهرة فيه ما ناله الحافظ محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م كما مر بنا في علوم الأوائل وهو من كبار المفسرين والمحدثين ، ويعد كبير علماء الجزائر في زمنه ، وقدم له أحمد بن عبد الله الجزائري قصيدته في علم التوحيد المسماة باسم « القصيد في علم التوحيد » فشرحها وشاعت باسم الجزائرية وأيضاً شرح لتلميذه أحمد بن عبد الرحمن الحوضي في نفس الموضوع أرجوزته : « واسطة السلوك » ، ثم رأى أن يؤلف في نفس الموضوع فألف فيه ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها ، والعقيدة الوسطى وشرحها ، ثم العقيدة الصغرى وشرحها .

وهذه الأعمال سيطرت في مباحث علم الكلام على الدارسين منذ وضعها وطوال العهد العثماني لا في الجزائر وحدها بل في بلدان المغرب والعالم الإسلامي ، وقد وضعت على العقيدة الصغرى شروح لا تكاد تحصى ، يتقدمها شرح تلميذه محمد بن عمر الملالى وشرح عمر الوزان في قسنطينة وتلميذه عبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم في المنطق وشرح ابن مريم صاحب كتاب البستان المتوفى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وشرح سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م وشرح مصطفى الرماصي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وشرح خليفة القمارى بأخرة من هذا القرن إلى غير ذلك من شروح للعقيدة الصغرى ، سوى ما وراءها من شروح للعقيدتين الآخرين ومن كتب أخرى في علم الكلام أو علم التوحيد .

وللاباضيين نشاط واضح في هذا العلم من قديم ، على نحو ما نجد عند عبد الكافي الورجلاني في القرن الخامس الهجري ، إذ له « الموجز في علم الكلام » كتاب في جزئين ، وتلميذه يوسف بن إبراهيم الورجلاني « الدليل والبرهان » في علم الكلام ، ولعمرو بن جميع فيه مختصر باسم « متن عقيدة التوحيد » عُنِيَ به علماء الإباضية وشرحوه مراراً ، ولعبد العزيز الثميني كتاب « معالم الدين » في علم الكلام وأصول الدين .



التاريخ<sup>(١)</sup>

نلتقى فى التاريخ بكتب مختلفة ومن أوائلها كتاب « أخبار الأئمة الرستمين » لابن الصغير ومعروف أنها دولة إباضية أقامها عبد الرحمن بن رستم وأبناؤه من سنة ١٦٠ للهجرة إلى سنة ٢٩٦ للهجرة ، وقد ألمنا بها فى حديثنا عن تاريخ الجزائر ، وكتاب ابن الصغير يتهى حول سنة ٢٩٠ فى حكم أبى حاتم يوسف ( ٢٨١ - ٢٩٤هـ ) . ولم يكن ابن الصغير إباضيا غير أنه يعرض أخبار الدولة وأئمتها عرضا حياديا ويصور ما كان يأخذ به أئمتها الرعية من العدل وما كانوا يحاولونه من ازدهار الأحوال الاقتصادية والفكرية ، كما يصور ما حدث من مناظرات بين المذهب الإباضى ومذهب المعتزلة مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وكان المظنون أن يعنى بعض الجزائريين بتاريخ دولة بنى حماد فى القلعة وبجاية ، فيكتب تاريخها مفصلا ، غير أنه تكفل بذلك البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب .

أما تاريخ دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان فقد عنى بتاريخها وعرض حكامها وأعمالهم مؤرخان : يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسى ويتوسط بينهما ابن قنفذ ولكن لا يكتب عن الدولة الزيانية وإنما يكتب عن الدولة الحفصية بتونس . أما يحيى بن خلدون المتوفى سنة ١٣٧٩/٥٧٨٠م فيؤلف كتابا عن دولة بنى زيان باسم « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد الحميد حاجيات ، والكتاب فى القسم الأول يتحدث عن أصل قبيلة بنى عبد الواد وماضيها والبلاد التى حكموها وعاصمتهم تلمسان ويستطرد إلى ذكر علمائها وصلحائها وترجم لمائة وتسعة منهم ثم يتحدث عن الدول التى ملكت تلمسان قبل بنى عبد الواد واستقرارهم بنواحيها . وفى القسم الثانى يترجم لمؤسس الدولة يغمراسن وخلفائه حتى استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان وعودة الحكم إلى بنى عبد الواد . ويخص القسم الثالث بالحديث عن عهد أبى حموالثانى حتى سنة ١٣٧٥/٥٧٧٦م .

وكتب ابن قنفذ القسنطينى المتوفى سنة ١٤٠٧/٥٨٠٩م كتابا مجملا عن الدولة الحفصية فى تونس بعنوان : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية . ثم يكتب محمد بن عبد الله التنسى المتوفى سنة ١٤٩٩/٥٨٩٩م كتابا تاريخيا أدبيا بعنوان « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » وجعله فى خمسة أقسام كبيرة وزعها على أبواب ، والقسم الأول فى سبعة أبواب قدّم فى ستة أبواب منها لتاريخهم بحديث طويل عن أسلافهم ونسبتهم إلى قريش وآل البيت وتاريخ الأدارسة فى المغرب . وهى أبواب تسبق الباب السابع الخاص بتاريخ بنى زيان ملوك

(١) انظر فى التاريخ الكتب المذكورة خلال هذا الحديث .

تلمسان ، ويتهى القسم الأول فى الكتاب ، ويتبعه بأربعة أقسام فى السياسة وفى طرفٍ من الأخبارِ والنوادر من الثر والشعر . ونشر الباب السابع من القسم الأول الخاص بتاريخ ملوك بنى زيان حتى عصر المتوكل (٨٦٦-٨٧٣هـ) الدكتور محمود بوعباد محققاً له ومعلقاً عليه ومقدماً له .

ونمضى إلى العهد العثمانى فىكتب إبراهيم المرينى البجائى كتاب عنوان الأخبار فيما مر على بجاية من الأخبار فى القرن العاشر الهجرى مؤرخاً مامراً بها من الأحداث فى استيلاء العثمانيين عليها بعد استيلاء الإسبان ، ويكتب معاصر له يسمى بركات الشريف كتابا يصور فيه هزيمة شارل الخامس أمام مدينة الجزائر واستيلاء خير الدين ( بربروس ) عليها ويتحدث عنه وعمن خلفه من ولاة العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى . والكتابان المذكوران لم ينشرا حتى الآن . ويستولى محمد بكداش على مدينة وهران من يد الإسبان سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م فىكتب محمد ميمون عنه وعن هذا الفتح كتابا باسم : التحفة المرضية فى الدولة البكداشية ، ويستعيدا الإسبان سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م ويستردا الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م وتنظم فى فتحه لها قصائد كثيرة .

وتكتب فى السيرة النبوية مؤلفات كثيرة فى العصور المتأخرة وربما كان أهمها عنوان الأنوار فى آيات النبى المختار لعبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وتنظم فى الرسول مدائح كثيرة تناول سيرته وتشرح شروحا مطولة ، ولأحمد البونى فى العصر العثمانى سيرة نبوية بديعة باسم تنوير السريرة بذكر أعظم سيرة .

ومنذ القرن السابع الهجرى تتكاثر كتب التراجم عن العلماء فى البلدان الكبرى بالجزائر ، ومما نشر منها كتاب « عنوان الدراية فىمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لأحمد الغبرينى المتوفى سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م وبينهم كثيرون من علماء المائة السادسة .

ويكتب محمد بن مرزوق جد المرازقة المتوفى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩ م كتابا عن السلطان أبى الحسن المرينى باسم « المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن » انتهى منه سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م لخص فيه تاريخ الدولة المرينية ثم أرخ لأبى الحسن تاريخاً مفصلاً . ولا نبأنا إذا قلنا إن أروع ما خلفه الجزائريون فى التراث العربى التاريخى والحضارى كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبى الحسن على الخزاعى التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٨ م والكتاب نفيس إلى أبعد حد ، إذ يصور تاريخ الحضارة الإسلامية فى أقدم عهودها وما يتصل بها فى عهد الرسول وصدر الإسلام من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكتاب بحق مفخرة من مفاخر علماء الجزائر فى العصور الماضية .



ويؤلف ابن القنفذ المار ذكره كتاب الوفيات لأعلام الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين  
استهله بانتقال سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم رتبته على العقود أو على  
العشرات في كل مائة يذكر أشهر من توفوا فيها حتى العشرة الأولى أو العقد الأول من المائة  
التاسعة أو بعارة أدق إلى قبيل وفاته سنة ٨٠٩ وقيل بل سنة ٨١١ للهجرة وكان له كتاب في  
طبقات علماء قسنطينة وهو مفقود ، وحقق له الأستاذ محمد الفاسي وأدولف فور كتابه أس  
الفقير وعز الحقير في رجال من أهل التصوف كأبي مدين شعيب وأصحابه . ومن حيث  
يتكاثر تأليف الجزائريين في المتصوفة كثرة مفرطة ، من ذلك ترجمة ابن مرزوق الحفيد المتوفى  
سنة ١٤٣٢/٥٨٤٢م للشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجي . وكان الشيخ محمد السنوسي المتوفى  
سنة ١٤٩٥/٥٨٩٥م محدثا وفاقها كبيرا وكان فيه نزوع قوى إلى التصوف وترجم له غير  
واحد من تلاميذه ومن ترجم له منهم أحمد العبادي ومحمد بن عمر الملاتي وسمى ترجمته :  
« المواهب القدسية في المناقب السنوسية » ولابن سعد المتوفى سنة ١٤٩٥/٥٩٠١م كتاب  
النجم الثاقب في الصلحاء والمتصوفة بعامة ، وله كتاب روضة النسر في مناقب الأربعة  
المتأخرين : محمد الهواري وإبراهيم التازي والحسن أركان وأحمد الغماري .

ويكسب العلماء في العهد العثماني على الترجمة لمشايخ الطرق . ومن أهم كتب التراجم  
التي تجمع في هذا العهد بين العلماء والمتصوفة كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان  
لابن مريم وهو كتاب نفيس انتهى من تأليفه ابن مريم سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م . وهناك كتابان  
لا يقلان نفاسة عن كتاب البستان بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا ، هما أزهار الرياض في أخبار  
عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض « وكتاب نفع الطيب في أخبار الأندلس وابن  
الخطيب لأحمد بن محمد المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م وهو يترجم في القسم الثاني  
من أزهار الرياض لحافظ سبته وفتيها : عياض كما يترجم في القسم الثاني من نفع الطيب  
لابن الخطيب أما في القسم الأول في الكتابين فيفيض في أخبار الأندلس وتراجمها بحيث  
يصبح الكتابان موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ ، وقد نقل فيهما عن  
كتب فقدت أو فقد الكثير منها مع مر الزمن وقد أشرت في سنة ١٩٥٣ حين نشرت ما بقي  
من أوراق كتاب المغرب في حلي المغرب من أخبار الأندلس لابن سعيد في مجلدين أنه كاد  
ينقلهما إلى نفع الطيب ، ومع ذلك تظل له أهمية كبيرة في التعريف بالأندلس وتاريخها  
الحضاري . وولتقى بعده في العهد العثماني بكثيرين يترجمون لكبار المتصوفة وخاصة أصحاب  
الزوايا في كتب وأراجيز على نحو ما يلقانا لأحمد بن قاسم البوني بأوائل القرن الثاني عشر  
المجري في أرجوزته : الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة ( عنابة ) وهي أرجوزة طويلة .  
وللبوني كتاب في تراجم مشاهير النحاة سماه « فتح المستبين في تراجم بعض مشاهير النحاة  
واللغويين » .

## الفصل الرابع

### نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب<sup>(١)</sup> الجزائر

ذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان بالجزائر قبل الفتح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة ، جمهورها من البربر ومن نزلوا بديارهم من الفينقيين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين ، ثم نزلها العرب ومن انتظم في جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية : من إيران والعراق والشام ومصر ، وظلت جيوش متعاقبة تنزلها في العهدين الأموي والعباسي ، كما ظلت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر في البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسي محتلطة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية . وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغته هناك ، هما تعاليم الإسلام السمحة التي حررت البربر من ظلم الدول السابقة التي احتلت ديارهم قرونا متزاولة وأرهقتهم بضرائب باهظة مع العسف والبغي الشديد ، وليس ذلك فحسب ، فقد رأوه ديناً قويمًا يسوي بين أتباعه في جميع الحقوق ، والعامل الثاني سياسة ولانته وخاصة في القرن الأول الهجري وما كفلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق : في الجهاد وفي غنائم الحرب وفي الولاية على القبائل والمدن . وعنى موسى بن نصير الوالي هناك ( ٨٦-٩٦ هـ ) بأن يعهد في الأنحاء التي لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، ودخلت جماعات بربرية كثيرة لعهد في الدين الحنيف ، وانضم كثيرون من البربر إلى جيوشه في فتوح المغرب ، وفتح الأندلس بقيادة قائد منهم هو طارق بن زياد على نحو ما هو معروف . وعنى عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة - كما مر بنا - لنشر الإسلام هناك بأخرة من القرن الأول الهجري . وينحرف حكام بني أمية - منذ أوائل القرن الثاني - عن جادة الإسلام الرشيدة في حكم الشعوب التي اعتنقت ، ويثور البربر في الجزائر وغير الجزائر ، وتقدم إليهم جيوش مختلفة وتظل منها بقايا كثيرة في ديارهم . ويحدث ذلك نفسه في أوائل عهد العباسيين ، حتى إذا ولي يزيد بن حاتم المهلبى ( ١٥٤-١٧٠ هـ ) هدأت المغرب في الجزائر وغير الجزائر وعم الأمن والرخاء في البلاد ، ويؤسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية منذ سنة ١٨٤

(١) راجع النصوص عن ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه .

ويقول ابن خلدون : « في أيامه انخفضت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا الدين ،  
فضرب الإسلام بجِرائه » أى ثبت واستقر نهائيا في الديار المغربية .  
ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، ويحدث حدث كبير أتمّ تعرب البربر في الجزائر  
وغير الجزائر ، فإن المعز بن باديس الصنهاجى حاكم برقة وإفريقية التونسية وشرقى الجزائر  
للدولة العبيدية الفاطمية فى القاهرة نقض طاعته لتلك الدولة ، وحول الدعوة فى ولايته إلى  
الخلافة العباسية وأرسل إلى الخليفة العباسى القائم أبى جعفر بن القادر ببيعته له ودعا له على  
منابر القيروان وغير القيروان سنة ٤٣٨ وأرسل إليه القائم بالتقليد وبالخلع ، وعرف ذلك  
الخليفة العبيدى الفاطمى المستنصر وصمم على الانتقام منه . وكان القرامطة قد اشتبكوا فى  
حرب سنة ٣٥٩ مع الخليفة الفاطمى العزيز نزار فى فلسطين ومدخل مصر ، وكانت تؤازرهم  
قبيلتا سليم وهلال اللتان كانتا تزعجان قوافل الحجاج حول المدينة ، فلما انتصر عليهم العزيز  
أنزل هاتين القبيلتين فى الصحراء الشرقية بالصعيد بين النيل والبحر الأحمر ، وكانتا تحدتان غير  
قليل من الإضرار بسكانه ، فأشار على الخليفة الفاطمى العزيز وزيره اليازورى أن يصطنع  
مشايخ هاتين القبيلتين وأن يغريهم بالهجرة إلى المغرب مع من يوالونهم من البدو وقال له إن  
ظفروا بالمعز بن باديس الصنهاجى صاروا أولياء للدولة وعمالا لها بتلك الأنحاء النائية ، وإلا دبرنا  
له ما يقضى عليه ، وأعجبت المستنصر الفاطمى تلك الفكرة ، فاستقدم شيوخ القبيلتين وعرضها  
عليهم سنة ٤٤١ للهجرة فقبلوها ، وفرض لكل بدوى مهاجر بعيرا ودينارا . وعبرت سيولهم  
النيل سنة ٤٤٢ واندفعت إلى برقة وما وراءها من البلاد المغربية كالجراد المنتشرا لا يمرون بشيء  
إلا أتوا عليه كما يقول ابن خلدون ، واستولت سليم على برقة جميعها وبعض البلدان الشرقية  
لإفريقية التونسية ، واتجه بنو هلال إلى إفريقية ووصلوا القيروان سنة ٤٤٣ للهجرة ونازلوا  
المعز بن باديس ، وتمت لهم الغلبة واحتلوا القيروان وغيرها من البلدان التونسية وخرّبوا المباني  
وطمسوا معالم الحسن والروثق فيها ، وأهلكوا كثيرا من الزروع فى الريف ، حتى أصبحت  
بياب ومفاوز كما يقول ابن خلدون . ولما تمّ استيلاؤهم على البلاد التونسية اكتسحت سيولهم  
الجزائر واقتسمتها القبائل الهلالية وبعض عشائر من سليم ، وظلت تتقاتل مع القبائل الجزيرية  
هناك فى السهول وخاصة زناتة وصنهاجة وعشائرها حتى عجزوا عن مدافعتهم ، ونازلوا  
الناصر بن علناس الحمادى صاحب القلعة وخرّبوا جنباتها وجنابات طبنة والمسيلة ( المحمدية )  
وغيرهما . ويقول ابن خلدون إنهم أزعجوا ساكنى هذه البلدان وكل ما يتصل بها من المنازل  
والقرى والضياع حتى أصبحت قاعا صخيفا ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى هجر الناصر بن  
علناس سكنى القلعة واختط بشاسل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لسكنه ، ونزلها  
بعده ابنه المنصور فرارا من ضيم هؤلاء الأعراب ، واتخذ كثيرون من البربر الجبال والمرتفعات  
الوعرة حصونا منيعة لهم . أما هم فقتسموا السهول الخصبة التى احتلوها واستقروا فيها شمالى



البلاد وأواسطها ، وبمرور الزمن اختلطوا بالبربر وصاهروهم . وتنبه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين لهم فنازلهم في الأربعينيات من القرن السادس حتى إذا تغلب عليهم أخذ يصانعهم هو وابنه يوسف وحفيده المنصور وجندوا منهم كثيرين أشركوهم في حرب نصارى الأندلس وأبلوا فيها بلاء عظيما ، وأنزلوا عشائر كثيرة منهم في الشمال الغربي لمراكش ، واستوطن كثير من منهم إقليم وهران وكان لهم فيما بعد أثر عظيم في مجاهدة الإسبان مع بنى زيان .

وهذه الهجرة الأعرابية الضخمة التي يقول المؤرخون إن عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابي والتي انتشرت في الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم في إتمام تعرب المغرب واصطبغته بصبغة عربية كاملة ، ويصور ذلك ابن خلدون في حديثه عن بعض القبائل البربرية مثل بنى يفرن إذ يقول إنهم « نسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعائرهم في جميع أحوالهم » ويقول عن قبيلة هواة إنهم صاروا في عداد الناجعة ( طلاب المراسم ) من عرب بنى سليم في اللغة والزى وسكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم . وهو قول يعم جميع البربر في سهول الجزائر ومدنها إلا من اعتصم بالجبال والأنجاد الوعرة ، أما عامة البربر فقد أصبحوا عربا في اللغة والدين والزى والعادات وأساليب الحياة والخصال الكريمة من المروءة والفروسية ، أو بعبارة أخرى أصبح المغرب جميعه في الجزائر وغير الجزائر شعبا عربيا عظيما وتغلغل الشعور بعروته في أعماقه ، مما جعل قبائل البربر في جميع الأثناء المغربية شرقا وغربا تصطنع لها أنسابا إلى القبائل اليمينية والمضرية وتكلم العربية إلا في أنحاء من الجبال لتوعر مسالكها وفي بعض جهات نائية اعتنقوا الإسلام وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية مع غيرتهم وحميتهم للدين الخفيف .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الجزائر - منذ هذه الهجرة الأعرابية الكبرى - أخذت تصطنع العربية لغة هؤلاء الأعراب في لسانها ، وعمت بين جماهيرها في الزاب وقسنطينة وبونة ( عنابة ) والمدن الساحلية التي سكنها هؤلاء الأعراب . والمظنون أنها ظلت فصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل ، ثم أخذت تتحول حتى في السنة الأعراب أنفسهم إلى لغة عامية تفتقد الإعراب وكانت أكثرتهم في الجزائر من القبائل الهلالية ، ونزلت منها الأثبج في الشمال ومنها دريد ، وقد نزلوا بين بونة ( عنابة ) وقسنطينة ، وانتشرت بطونهم غربى قسنطينة ونواحي جبال أوراس ، ونزلت زغبة في القفار من نواحي تلمسان ، ونزل بتورايح الهلاليون في قسنطينة بينما نزل بنوعامر في وهران وأنحائها . ويسهب ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه في توزيع القبائل الهلالية في الجزائر من بونة إلى تلمسان ، وفي أثناء ذلك يقول : ول هؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق في الخبر يزعمون أن الشريف ابن هاشم

كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح أصهر إلى أحد رجالات وشيوخ بني هلال الحسن بن سرحان في أخته الجازية ، وولدت منه ولدا سمته محمدا . ثم حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة ، فأجمعوا على الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحتالوا عليه في استرجاع الجازية ، وطالبتة بزيارة أبيها ، فأزارها إياهم ، ولم يلبثوا أن ارتحلوا به وبها وكموا عنه مقصودهم من رحلتهم موهين عليه بأنهم يياكرون به للصيد والقنص ثم يعودون إلى منازلهم ، ورآهم يبعدون في ارتحالهم ، ولما تبين له أنهم مكروا به فارقهم إلى دار ملكه في مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دفين ، وكلفت بحبه على الرغم من اقترانها ببعض أبناء عموماتها في مسيرتها معهم إلى إفريقية ، إذ ظلت تذكره إلى أن ماتت . يقول ابن خلدون إنهم يتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفى على أخبار قيس ( صاحب ليلي ) ويروون كثيرا من أشعار الحكاية محكمة المباني متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء ، وإنما أخلوا فيها بالإعراب فقط .. والخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب .. وفي هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية ، ولذلك لا يوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم وحروبهم مع زناتة ( في المغرب ) وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، لكننا لا نثق بروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه ، وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل . والحكاية التي يتحدث عنها ابن خلدون هي حكاية الهمالية المعروفة في الملحمة المشهورة باسم « سيرة بني هلال » وتعرف أيضا باسم قصة أبي زيد الهمالي ، وكانت إلى عهد قريب ينشدها شخص يسميه المصريون باسم الشاعر على ربابة في مقاهي مصر وبلدانها المختلفة . والتاريخ الحقيقي للرحلة الهمالية إلى إفريقية وسببها ذكرناه فيما أسلفنا ، غير أن ما وضع للحكاية أو الملحمة من قصة زواج الجازية الهمالية بشكر بن أبي الفتوح أمير مكة الحسنى ( ٤٣٠-٤٥٣ هـ ) يبدو أنه صحيح وقد أنجب منها ابنه محمدا الذي خلفه في الحكم ، ويبدو أيضا أنها زارت أبيها وعشيرتها حين كانوا ينوون الرحلة مع القرامطة لحرب الفاطميين ، وارتحلت معهم . والحكاية أو القصة تجعلها بطلتها ، وتروى على لسانها أشعرا بدیعة ، من ذلك قولها لولدها أو غلامها الصغير ناصحة مُرْشدة :

ولا خير في الطفل الصغير إذا نشأ      وكانه رَقَادًا كثير همائده  
وإما يمت يرتاح من عيشة الردى      وإلا يَعدُّ كالصقر مالى مخالبه

وهي تقول لطفلها لا خير ولا نفع فيمن ينشأ نواما كسولا ، يرضى بالجلوس ولا يخرج في طلب الرزق ، وحرى بالشخص أن يمضى شرقا وغربا طالبا معاشه مقطعا في ذلك أوعية زاده غير مبق منه شيئا . وإما أن يموت فيرتاح من المعيشة التعسة الضنك ، وإما أن يعود كالصقر

الجراح بصيده وقد ملأ مخالفه . وينشد ابن خلدون لبعض بني دريد الهلالين من عشيرة الجازية مفاخرًا بساداتها مع حنينه إلى القيروان حين نزلوا بها في أول قدومهم إلى الإقليم رامزا لها بصبرة التي بناها في جنوبيها المنصور العبيدي :

دريدٌ سرّاءُ البدو للجود منقَعٌ      كما كلُّ أرضٍ منقَعُ الماء خيارُها  
وهم غرَّبوا الأعراب حتى تعرّفَتْ      بطرُقِ المعالي ما يوفّي قصارها  
وطرّوا طريقَ البارمين ثنيّةً      وقد كان ماتقوى المطايا حجارها

والشاعر يقول دريد الراحلة أشرف البدو ومنقَع الجود ينهل منه كل ظامئ ، وهم أصحاب الفضل في قيادة الهلالين إلى ديار المغرب حتى تعرفوا طرق المعالي المفرطة الطول الشاقة وقد طرّوا أي مهّدوا طريق البارمين إلى الجزائر وأنحاء بونة وما بها من ثنيات وممرات في الجبال وكانت المطايا والإبل لا تستطيع السير فيه لكثرة مابه من الحجارة والصخور ، فأصبح ممهدا ذلولاً . والأبيات فصيحة وتجرى على سنن العربية في الإعراب ، ولا ندرى هل أشعار القصص في الهلالية بدأت معربة ثم فقدت الإعراب مع الزمن أو أنها وضعت غير معربة ، ومن المؤكد أنها لم توضع عقب الرحلة والاستقرار في المغرب مباشرة ، بل وضعت بعد ذلك حين أخذت تسود العامية في الأفواه بالقرن السادس وما بعده ، وبها كثير من الأشعار البليغة بما تحوى من العبارات الرصينة والمشاعر الرقيقة والصور البديعة . ومن هذا الميراث عن الأعراب ما دخل على اللغة البربرية من ألفاظ عربية سليمة اقتترضوها من الفصحى وتبلغ في بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة .

ويعقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً في أشعار العرب المستعجمة أو المستحدثة بالعامية لعهدده في القرن الثامن الهجري فيقول : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراب على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والمجاء ، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ؛ ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد باسم الأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب لأشعارهم . ولهم فن آخر في كلامهم كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصّباً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة قبله في رويته ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت ( دور ) إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمربعات والمخمسات التي أحدثها المتأخرون من المولدين . ولهؤلاء العرب ( البدو ) في هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون



( المتخلفون ) . والكثيرون من المتحلين للعلوم لهذا العهد - وخصوصا علم اللسان - يستنكرون هذه الفنون التي لهم إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أتشد ، ونعتقد أن ذوقهم إنما نبا عنها واستهجنها لفقدان الإعراب منها .. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ( ساكنة ) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب » . وينشد ابن خلدون طائفة من أشعار الملحمة الهلالية على لسان الشريف ابن هاشم بيكي الجازية أخت الحسن بن سرحان ، ويذكر ارتحالها مع قومها إلى المغرب وعتابا منه لزوجها ماضي بن مقرب ورتاء بعض شعرائهم للزنتى خليفة ، ويسوق أشعارا أخرى لشعرائهم . ومن الصعب التمثل بأبيات منها لأنها غير مضبوطة بالشكل ، ولأن كثيرا من الكلم فيها أصابه غير قليل من التحريف ، بحيث يصعب فهمها ونطقها نطقا سليما . وكما تقدمنا في الزمن بعد عصر ابن خلدون في القرن التاسع الهجرى يتكاثر هذا الشعر العامى أو الشعبى . ويزداد طغيانه على الشعر الفصيح في العهد العثمانى ، وكان ينظم فى المولد النبوى وفى الجهاد الحربى للأجانب وفى الأزمان الاقتصادية والأحوال المعيشية . ولسعيد المنداسى مدحة نبوية عامية سماها « العقيقة » عنى بها غير شارح ، ومن شرحها ابن سحنون . واشتهر بتلمسان فى القرن الثانى عشر الهجرى ثلاثة شعراء شعبيون هم : محمد بن مسائب وابن التريكى والزناقى ، ولهم أشعار دينية مختلفة ، سوى ما لكل منهم - كما فى كتاب تاريخ الجزائر الثقافى - من رحلة حجازية منظومة

ومن الحق أن الشعر العامى الشعبى فى الجزائر سواء نظم على لسان البدو من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن لم ترجح يوما كفته على كفة الشعر الفصيح ، والجزائر فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تُعنى الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح . ومن الحق أيضا أن الهجرة الأعرابية الكبرى إلى الجزائر استطاعت - منذ القرن الخامس الهجرى - أن تفرض لغتها العربية على سكان البوادر وسفوح الجبال والسهول والحواضر بفضل امتزاج هؤلاء الأعراب بالبربر فى المعاش وعن طريق المصاهرة ودفعهم إلى التخاطب بالعربية مما جعل اللغة البربرية تتفهم وتراجع أمامها إلى الجبال والمعازل النائية المنيعة ، ومع ذلك لحقتها العربية هناك واستولت على ألسنة كثيرين من أهلها ، بل لقد استولت على اللغة البربرية هناك فأشاعت فيها كثيرا من ألفاظها ، مما جعل سكان الجزائر - منذ أواسط القرن الخامس الهجرى أو بعد ذلك بقليل - يعدون شعبا عربيا تاما فى دينه الخفيف ولغته وثقافته وآدابه وأشعاره ، مع ما اقتبسوه من معيشة هؤلاء الأعراب ومن تقاليدهم وعاداتهم فى حياتهم الاجتماعية ، وكل ذلك استقر وثبت ثبوت الراسيات .

## كثرة الشعراء

طبيعي أن لا نلتقى بشعراء كثيرين في الجزائر طوال القرن الأول الهجري وشرط غير قليل من القرن الثاني إلا ما كان يجري على ألسنة بعض نزلائها من العرب ، حتى إذا تأسست الدولة الرستمية في تاهرت ( ١٦٠-٢٩٦هـ ) وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين ، حينئذ أخذ جيل ناشيء يتقنها ويتقن نظم الشعر ، وكان من حكام هذه الدولة من أحسن نظمه ، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي ( ٢١١-٢٤٠هـ ) وله قصيدة طويلة في الدعوة إلى العلم والتعلم وبيان منزلة العلماء . وكانت الأسرة الرستمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية ، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة ، وأنتجت الجزائر في عهدها أكبر شاعر عرفته في القرن الثالث الهجري ، ونقصد بكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م وكان له ديوان شعر كبير ، وعاصره شاعر يسمى ابن حزاز التاهرتي .

وكان القسم الشرقي من الجزائر - حينئذ - تابعا للدولة الأغلبية في القيروان ، ثم تبع الدولة العبيدية مع الجزائر جميعها ثم أصبح تابعا للدولة الصنهاجية وحكامها في القيروان ، ولذلك كان شعراؤه يرحلون إلى العاصمة المذكورة حين تفتتح ملكاتهم الشعرية ، إذ كانت مركز الحركة الأدبية في الدولة ، وقد يظلون بها ويتخذونها موطناً لهم ، كما حدث لابن رشيق ، وهو ما جعلنا نسلكه بين شعراء القيروان لأن مرباه الأدبي تكامل فيها . ومنهم من نظن أن مرباه الأدبي تكامل في الجزائر ثم هاجر منها إلى القيروان أو غيرها ، مثل محمد بن الحسين الطنبلي الذي هاجر بأسرته الطنبلية إلى قرطبة في الأندلس واستقر بها . ومن نزل القيروان بعد نضجه الأدبي في موطنه بالجزائر عبد الكريم النهشلي المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وهو من المسيلة ( المحمدية ) ومنهم ابن قاضي ميلة المعاصر للنهشلي ، والحسن بن محمد التميمي المعروف باسم ابن الربيب المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م وهو من تاهرت ومثله علي بن أبي الرجال الفلكي المشهور المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فهو أيضا تاهرتي .

وكان حماد بن بلكين قد عقد له أخوه المنصور على مدينتي أشير والمسيلة ( المحمدية ) وضم إليهما أيام ابن باديس المغرب الأوسط وأخذ يفكر في الاستقلال عن باديس والقيروان واختط مدينة القلعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وتمّ لها استقلاله سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م كما مرّ بنا في الفصل الأول ، واستكثر حماد في القلعة من المساجد والفنادق ، واتسعت في التمدن ، وكان مثقفا قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل ، وعنى في قلعته بالحركة العلمية ، ورحل إليها من الثغور القاصية - كما يقول ابن خلدون - طلاب العلوم . وتبعه أبناؤه وأحفاده في الدولة الحمادية بالقلعة ثم ببجاية منذ نقل إليها المنصور بن علناس ( غلاء الناس ) عاصمة الدولة



سنة ٤٨٣ ومع ذلك ظل للقلعة نشاطها العلمي والأدبي حتى الحقب المتأخرة من هذا العصر ، كما ظل نفس النشاط لبجاية بعد قضاء دولة الموحدين على الدولة الحمادية سنة ٥٤٧/١١٥٢ م . ومن المؤكد أن القلعة وبجاية أُنتجتا كثيرا من الشعراء والعلماء في عهد الدولة الحمادية ، وذاعت للحركتين العلمية والأدبية شهرة غير قليلة مما جعل غير عالم وشاعر يرحل إليها مثل ابن حمديس الصقلي الذي أقام في بجاية فترة لعهد المنصور الحمادى ( ٤٨١-٤٩٨ هـ ) وله فيه وفي وصف قصوره مدائح بديعة . وإلى المنصور التجأ عز الدولة بن صمادح بعد قضاء يوسف بن تاشفين المرابطى على دولة أسرته في مدينة المرية ، فأكرمه وقلده ولاية دلس على البحر المتوسط غربى بجاية وظل بها إلى وفاته ، وكان شاعرا وله شعر يشكو فيه من الدهر وأحداثه . ومن كبار الشعراء الذين نزلوا بقلعة بنى حماد واستوطنوها أبو الفضل يوسف بن محمد التوزرى التونسي ، وبها تصدر للتدريس حتى وفاته سنة ٥١٣/١١١٩ م وهو صاحب قصيدة الاستغاثة المشهورة باسم المنفرجة السائرة فى الآفاق . ومعروف أن العماد الأصبهاني ترجم فى كتابه « الخريدة » لشعراء العالم الإسلامى فى عصره بالقرن السادس الهجرى ، ومن ترجم له من شعراء الدولة الحمادية فى عهدها الأخير يوسف بن المبارك وله مدحة جيدة فى أمراء تلك الدولة ، وابن أبى المليلح الطبيب شاعر الأمير الحمادى : العزيز ( ٤٩٨-٥١٥ هـ ) وطيبه الخاص ، وعلى بن الزيتونى وأنشد له مقطوعة فى مديح قاض ، والفقيه عمر بن فلفول كاتب الأمير الحمادى يحيى بن عبد العزيز ( ٥١٨ - ٥٤٧ هـ ) وأنشد له مقطوعة غزلية .

وفى السنة المذكورة سنة ٥٤٧/١١٥٢ م قوّضت دولة الموحدين بقيادة أميرها عبد المؤمن دولة بنى حماد نهائيا فى بجاية والقلعة وإقليمهما ، وظلت الحركتان الأدبية والعلمية مزدهرة بهما على الرغم مما أحدث على بن غائية من اضطراب فى الجزائر ، إذ فاجأ أسطوله الذى جلبه معه من ميورقة سنة ٥٨٠/١١٨٤ م بقيادته مدينة بجاية واستولى عليها . وطوال النصف الثانى من القرن السادس أخذ بعض متصوفة الأندلس ينزلون مدن الجزائر ، وأخذت تشيع فيها منذ هذا التاريخ حركات صوفية واسعة ، ونمتها عند الجزائريين الطرق الصوفية السنية التى شاعت بديارهم : شاذلية وغير شاذلية ، ومن كبار نزلائها من صوفية الأندلس أبو مدين شعيب نزيل بجاية ، وسمع به المنصور أمير الموحدين أو خليفتهم ، فطلبه ، وفى طريقه إليه توفى بتلمسان سنة ٥٩٤ ومنهم أبو عبد الله الشوذى الصوفى نزيل تلمسان ، ومنهم أيضا يحيى الدين بن عربى وقد قام بسياحات متعددة فى بلدان المغرب والجزائر ، ونزل بجاية ولزم أبا مدين شعيب الصوفى فترة معجبا به وبطريقته الصوفية ، ثم ولّى وجهه نحو المشرق : مصر والحجاز والشام . ومن شعراء الجزائر فى عهد الموحدين الحسن بن الفكون القسنطينى الشاعر المبدع المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى ، ومعاصره محمد بن على بن جبل الوهرانى قاضى تلمسان ثم قاضى الجماعة بمراكش توفى سنة ٦٠١ وله مدائح فى الخليفة المنصور الموحدى ، ومنهم أبو عبد الله بن الحجام

التلمساني المتصوف المتوفى سنة ٦١٤ ومحمد بن علي بن حماد القلعي المشهور بمراثيه للدولة الحمادية المتوفى سنة ٦٢٨ .

وتتقاسم الجزائر - منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري - الدولة الحفصية في الشرق : قسنطينة وبجاية وما إليهما ، ودولة بني زيان أو بني عبد الواد في الغرب : تلمسان وما إليها . وينزلها من صوفية الأندلس ابن سبعين نزيل بجاية ، كما ينزلها أبو الحسن الششتري ، ويقال إنه تلمذ لأصحاب أبي مدين شعيب ومريديه واعتنق طريقته الصوفية ، ولقي ببجاية ابن سبعين وأعجب به ولزمه فترة ، ورحل إلى المشرق . وكان لهما ولمن سبقهما من صوفية الأندلس إلى النزول بالجزائر وكذلك لشيوع الطرق الصوفية وانتشارها بها أثر عميق في موجات التصوف التي عمت في البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، وولتقى - منذ هذا القرن - بشعر صوفي كثير على السنة الجزائرين . وظلت الدولتان : الحفصية والزيانية تتقابلان في الجزائر طوال ثلاثة قرون ، ومن الشعراء لعهدهما في القرن السابع الهجري عبد الله بن نعيم الشاعر الصوفي المتوفى سنة ٦٣٦ ومحمد بن أحمد الأريسي وله غزليات وخمريات ، وعبد الله بن محمد بن علوان وهو من شعراء المديح النبوي ومحمد بن يحيى بن عبد السلام وهو من شعراء المديح ، ومحمد بن الحسن القلعي المتوفى سنة ٦٧٣ وهو من شعراء الزهد والمديح النبوي وعبد الحق بن ربيع الصوفي المتوفى سنة ٦٧٥ . وكل هؤلاء الشعراء بجائيون ، ومثلهم عبد المنعم بن محمد الغساني نزيل بجاية وهو من أهل مدينة الجزائر وله مشاركة في المديح النبوي توفى سنة ٦٨٠ وإبراهيم بن أحمد بن الخطيب الشاعر الصوفي وعبد الرحمن بن أبي دلال وهو من شعراء المديح . ومن شعراء تلمسان عفيف الدين التلمساني الصوفي المتوفى بدمشق سنة ٦٩١ وأبو العيش الخزرجي محمد بن عبد الرحيم وله في التصوف شعر كثير .

ويفتح القرن الثامن بمحمد بن محمد العطار ودواوينه النبوية المتوفى سنة ٧٠٧ وهو من مدينة الجزائر ، وكان يعاصره في تلمسان ابن خميس المتوفى سنة ٧٠٨ وله شعر تصوف وزهد ومديح كثير ، وعاصره في مليانة أحمد بن علي الملياني المتوفى سنة ٧١٤ وله فخر بديع ، ومن شعراء هذا القرن محمد بن عمر المليكشي من مدينة الجزائر المتوفى سنة ٧٤٠ وله غزليات متنوعة ، وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة ٧٧٠ وله مدائح نبوية وغير نبوية وابن أبي حجلة التلمساني نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٨٠ ومعاصره يحيى بن خلدون شاعر أبي حمو موسى الثاني ومؤرخ الدولة الزناتية المتوفى في نفس السنة . ويزدهر شعر المولديات الذي ينشد في مولد الرسول ﷺ ومن كبار ناظميه شاعرا الدولة محمد بن يوسف الثغري ومحمد بن أبي جمعة التلالسي . ومن شعراء القرن أيضا الأمير الزياني أبو حمو موسى الثاني ( ٧٦٠-٧٩١هـ ) وله شعر فخر كثير وكان ابنه أبو زيان محمد شاعرا ، توفى سنة ٨٠١ . وولتقى في القرن التاسع

وبعده حتى العهد العثماني بشعراء كثيرين ، ومن كبارهم ابن قنفذ القسنطيني المتوفى سنة ٨٠٩ وله أشعار دينية ، وابن مرزوق الحفيد التلمساني المتوفى سنة ٨٤٢ وله منظومات تعليمية كثيرة ، والصوفي الكبير إبراهيم التازي المتوفى سنة ٨٦٦ وله أشعار صوفية بديعة ، والرياضي المشهور محمد بن أحمد الحباك المتوفى سنة ٨٦٧ وله منظومة فلكية في الإسطرلاب ، وأبو عبد الله بن البنا وله غزل بديع . وأحمد بن عبد الله الجزائري المتوفى سنة ٨٨٤ وله منظومة في علم التوحيد ومرثية بديعة لأستاذه عبد الرحمن الثعالبي ، ومحمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ وله منظومتان في علم التوحيد باسم السنوسية الكبرى والسنوسية الصغرى ، ومحمد بن عبد الجليل التنسي مؤرخ دولة بني زيان المتوفى سنة ٨٩٩ وله مدحة طويلة في الأمير الزياتي المتوكل وأبنائه ختم بها تاريخه ، وكان يعاصره الشهاب بن الخلف القسنطيني المتوفى أيضا سنة ٨٩٩ شاعر السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان ، وعاصرها محمد بن عبد الرحمن الحوضي المتوفى سنة ٩٠٠ ويشتهر بمرثية له في أستاذه السنوسي ، وله غزل ومدح نبوي وغير نبوي ، وكان يعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى سنة ٩٠٩ وله - كما أسلفنا - قصيدة مشهورة أرسل بها إلى السيوطي في الدفاع عن علم المنطق وضرورة تعلمه . ومن معاصريه إبراهيم بن أحمد الفجيجي صاحب قصيدة في الصيد مشهورة ، وعنى ابن أخيه بشرحها سنة ٩٨٦ وسمى شرحه : « الفريد في تقييد الشريد » وسنعرض للقصيدة وشرحها في غير هذا الموضع . ونمضي إلى العهد العثماني وملتقى في القرن العاشر الهجري بمحمد بن علي بهلول المجاجي المتوفى سنة ١٠٠٢ وله شعر صوفي كثير ومنظومات علمية ، ولتلميذه أحمد المانجلاتي مرثية بديعة فيه وتنسب خطأ إلى سعيد قدورة ، وللمانجلاتي مدح نبوي كثير وديوانان وموشحات . وملتقى بعبد الرحمن بن موسى المتوفى سنة ١٠١١ وله قصائد متوسطة في الحث على الجهاد وفي الاستغاثة بالله ورسوله . وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البوني المتوفى سنة ١٠١٨ وله شعر كثير في الخمر ، وتلاههم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ وكان يعاصره يحيى بن أبي راشد وله أشعار في الجهاد وفي وصف مدينة تلمسان ، ومحمد بن رأس العين المتوفى حوالي سنة ١٠٦٠ وهو من شعراء الموشحات والمزل والمجون . وجاء في إثره عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية في نقد المتصوفة المتوفى سنة ١٠٧٣ وله ديوان في المدح النبوي . وكان يعاصره محمد القوجيلي المتوفى سنة ١٠٨٠ وله مدح ورتاء وغزل . ويلقانا في القرن الثاني عشر الهجري محمد بن أحمد البوني المتوفى سنة ١١١٦ وله منظومات علمية كثيرة كثرة مفرطة ، ومحمد بن محمد بن علي مفتي الجزائر الحنفي وله شعر كثير في جهاد الإسبان وانتصار بكداش عليهم وفتح لوهراة سنة ١١١٩هـ/١٧٠٨م وقد قيلت فيه وفي هذا الفتح مدائح لشعراء جزائريين كثيرين سجلها ابن ميمون في كتاب له سماه « التحفة المرضية » . ومن شعراء هذا القرن أيضا أحمد بن عمار المفتي المالكي المتوفى في أوائل



القرن الثالث عشر الهجري ، وله موشحات نبوية بديعة ، ومنهم أحمد بن سحنون شاعر الباي محمد الكبير صاحب الفتح الثاني لوهران بعد أن استردّها الإسبان سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م وتغنى بهذا الفتح النهائى لوهران كثير من الشعراء الجزائريين وسجل أشعارهم ابن سحنون فى كتابه « الثغر الجمائى » .

### ٣

#### شعراء المديح

يُعَدُّ المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربى على مر العصور ، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغنى بطولات فرسانهم وشجعانهم فى الحروب ومكارم ساداتهم وخصالهم الحميدة فى السلم والحرب ، وظل لكل عصر أبطاله وسادته وأمرأؤه وحكامه ، وتفنن الشعراء فى وصف البطولات الحربية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكام العادل الرشيد على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة . وطبيعى أن يكون للجزائر حظ فى هذا الوصف منذ تكونت فى تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وكان من أمرائها من يجرى الشعر على ألسنتهم مثل أفلح بن عبد الوهاب ( ٢١١ - ٢٤٠هـ ) وله قصيدة - كما مر بنا - فى العلم والتعليم والترغيب فيهما ، وهى رمز لعناية تلك الدولة بالحركتين العلمية والأدبية فى تاهرت ، ويلقانا من مبكرى شعرائها أحمد بن فتح التاهرتى وابن حزاز ، وأهم شعرائها - حيثئذ - بكر بن حماد ، وتصبح تاهرت - ومثلها الجزائر جميعها - تابعة للدولة العبيدية فى المهديّة ، ويأمر المهدي العبيدى قائده على بن حمدون الزناتى بتأسيس مدينة المسيلة ( المحمدية ) واتخاذها عاصمة لإقليم الزاب فى الجزائر بدلا من طنبنة سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م . وكان قد نشأ تنافس بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى الأندلس وبين المهدي العبيدى وخلفائه العبيدين فى البلدان المغربية . ونرى أسرة طنبنية تهاجر من موطنها إلى قرطبة سنة ٣٣١ بزعامة مؤسسها بالأندلس محمد بن الحسين الطنبنى ويرحّب عبد الرحمن الناصر به ويمن قدم معه من أهله ، ويصبح من شعرائه وبطانته ، ويكثر من مديحه ، حتى ليقول ابن حيان إن مدائحه فيه تملأ ديوانا كاملا ، ويقرّبه بعده ابنه الحكم المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٥هـ ) حين استولى على صولجان الخلافة بعد أبيه ، وكان كلما قدم على المستنصر عيد مدحه بقصيدة طويلة ، ونراه فى عيد الفطر لسنة ٣٦١ ينشده قصيدة جيمية مهيبا الناس لما كان يريد المستنصر من تولية ابنه هشام - وكان لا يزال طفلا - ولاية العهد قائلا له<sup>(١)</sup> :

(١) نظر المتنبس لابن حيان ( تحقيق د . عبد الرحمن الحجى ) ص ٨٣ .

حَصَّنْ بِهِ دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ  
لَهَجَتْ بِيَعْتَهُ الْنَفْسُ فَأَخَذَهَا  
عَسْوَدُ النَّبِوَّةِ وَالْخِلَافَةُ أَصْلَهُ  
وَارْزَمُ الْمَشَارِقِ بِاسْمِهِ فَلَيَفْتَحُنْ  
وَأَقِمَّ بِهِ أَوَدَ الزَّمَانِ الْأَعْوَجِ  
مَنْ وَاجِبَ الْأَشْيَاءِ لَوْ لَمْ تَلْهَجْ  
وَالْفَرْعُ مِنْ تِلْكَ الْعُرُوقِ الْوُشْحِ (١)  
مَا بَيْنَ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الرَّخِجِ (٢)

وواضح أنه كان يضع نفسه في خدمة الخلافة الأموية بالأندلس ومناصرتها والاحتطاب في حبليها إلى أن توفي سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م . وكان قد هاجر معه إلى قرطبة أخوه علي وأنجب ابنا له هو أبو مضر زيادة الله ، وعنى بتربيته وأصبح - فيما بعد - نديما للمنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد ثم لولديه من بعده عبد الملك المظفر وأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وحين قام بالحجابة بعد وفاة أخيه أرغم الخليفة هشام المؤيد على أن يعهد إليه بولاية العهد ، ولما دخلت الوفود عليه للتهنئة كان مما هنأه به (٣) :

تَخَيَّرَ اللَّهُ وَالسُّلْطَانُ لِلْأَمْرِ  
اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ يَحْفَظُهُ  
وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَّاهُ اللَّهُ مِنْ كَرَمِ  
وَخَصَّهُ بَعْلُو الْقَدْرِ وَالْهَمَمِ

وكان صنيع شنجول المذكور سببا في القضاء عليه وفي فتنه قضت على الدولة الأموية في الأندلس، وكان حريا بالشاعر أن يترث وأن لا يكيّل الشاء لشنجول، إذ مضى يمدحه بقصائد أخرى. وكان لزيادة الله ابن يسمى عبد الملك عنى بتأديبه ويقول ابن سعيد بترجمته له في كتابه المغرب إنه كان إماما في علم الحديث وكان شاعرا وأشعر منه ابن أخيه علي بن عبدالعزيز، وفيه يقول الحجاري إنه أشعر بني الطنبلي وأنشد له ابن سعيد أشعارا في الخمر والغزل. وإذا كانت طنبنة عاصمة الزاب القديمة أهدت إلى قرطبة أسرة بني الطنبلي في القرن الرابع الهجري وكل ما نظمه أفرادها من الشعر فإن قرطبة بدورها لم تلبث بعد نزول تلك الأسرة فيها بقليل أن أهدت إلى المسيلة عاصمة الزاب الحديثة وواليتها من قبل العبيديين منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م جعفر بن علي بن حمدون وكان قد خلف فيها أباه الذي أسسها - كما مر بنا - وكانا قد اتسعا فيها بالعمران وأصبحت مدينة شامخة وقصدها الشعراء والعلماء ، ومن اختارته قرطبة لقصد جعفر فيها شاعرها الفذ ابن هانيء ، وله فيه مدائح رائعة خلدت اسمه ، ومن قوله فيه (٤) :

المشْرِقاتُ النِّيرَاتُ ثَلَاثَةٌ  
الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

بولاية العهد في أعمال الأعلام لابن الخطيب ٩٤/٢  
وما بعدها ولقب الشاعر محرف .  
(٤) راجع أشعار ابن هانيء في ديوانه المطبوع بالهند .

(١) الوشج : المتلفة المشابكة .  
(٢) بلاد الرخج : بلاد بالقرب من مدينة كابل في أفغانستان .  
(٣) انظر البيتين التاليين وأبياتا أخرى في تهنئة شنجول

ويقول مخاطبًا له في إحدى مدائحه :

لَمْ تُدْنِي أَرْضٌ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا  
رَأَيْتُ حَوْلِي وَفَدَا كُلُّ قَبِيلَةٍ  
أَرْضٌ وَطَمَّتْ الدَّرُّ مِنْ حَصْبَائِهَا  
جِئْتُ السَّمَاءَ فَفَتَحَتْ أَبْوَابَهَا  
حَتَّى تَوَهَّمْتُ الْعِرَاقَ الزُّبَابَ<sup>(١)</sup>  
وَالْمَسْكَ تَرَبًّا وَالرِّيَاضَ جَنَابًا

وسمع بالشاعر ومدائحه في جعفر الخليفة المعز العبيدي الفاطمي فطلبه منه ، ولم يستطع مخالفته فجهزه إليه ، وأحس حينما بعد عن المسيلة والزاب كأنما فارق فردوسه ، وصور ذلك في إحدى قصائده منشدا :

خَلِيلِي أَيْنَ الزُّبَابُ مِنِّي وَجَعْفَرُ  
وَقَبْلِي نَأَى عَنِ جَنَّةِ الْخَلْدِ آدَمُ  
وَجَنَاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عَنْهَا وَكَوْثَرُ  
فَمَا رَاقَهُ مِنْ جَانِبِ الْأَرْضِ مَنْظَرُ

وهو يتحسر على فراقه للزاب وجعفر ، فقد فارق جنة الخلد ونهرها « الكوثر » كما فارقهما أبوه آدم قبله ، ولم ينفعه ندمه ولا أسفه ولا تحسره ، ولا راقه بعدهما مشهد في الأرض ولا منظر . وإذا كانت الجزائر أهدت إلى الشعر العربي شاعرا كبيرا في القرن الثالث الهجري هو بكر بن حماد فإنها أهدت إليه في النصف الثاني من القرن الرابع شاعرين كبيرين هما عبد الله بن محمد التنوخي المعروف باسم ابن قاضي مدينة ميلة الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة قسنطينة ، واشتهر بمدحة فائقة مدح بها والي صقلية يوسف ثقة الدولة وسنخسه بترجمة . والثاني عبد الكريم النهشلي المسيلي شاعر المنصور الصنهاجي وابنه باديس ، وسنفرده له ترجمة . وقادت الدولة الحمادية في القلعة وبجاية طوال القرن الخامس الهجري حركة أدبية وعلمية نشيطة ، وارتحل إلى أمرائها الشعراء ليمنحهم الجوائز والصلوات من أمثال ابن الفكاه أبي القاسم عبد الخالق القرشي القيرواني مادح الناصر بن علناس ( ٤٥٤ - ٤٨١ هـ ) وفيه أنشد<sup>(٢)</sup> :

قَالَتْ سَعَادٌ وَقَدْ زُمْتُ رَكَائِبُنَا  
فَقُلْتُ تَاللَّهِ لَا أَنْفَكَ ذَا سَفَرٍ  
حَتَّى أَقْبَلَ تُرْبَ الْعِزِّ مُتَّصِرًا  
مَهَلَا عَلَيْكَ فَأَنْتِ الرَّائِحُ الْغَادِي  
تَجْرِي بِي الْفُلُكُ أَوْ يَحْدُو بِي الْحَادِي  
بِالنَّاصِرِ بْنِ عَلْنَّاسِ بْنِ حَمَّادٍ

وكان ابنه المنصور ( ٤٨١ - ٤٩٨ هـ ) كاتبًا شاعرًا وفيه يقول ابن خلدون : « هو الذي حضر ملك بني حماد وصير بجاية دار المملكة وجدد قصورها وشيد جامعها وتأنق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وبنى في بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون » . ونزل به عبد الجبار بن حمديس شاعر صقلية الفذ فقلده صلوات سنية وقلده ابن حمديس قصائد باهرة ،

(١) الزاب : أرض سهول في وسط الجزائر وراء جبال الأوراس شرقا .  
(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب ( طبع الدار البيضاء ) ٩٦/٣ زمت ركائبا : شدت بالزمام استعدادًا للرحيل .

منها رائية بديعة يصف فيها أحد قصوره وما امتد أمامه من بهو يتوسطه حوض كبير به نافورة تحملها مجموعة من الأسد المذهبة تمج المياه البلورية من أفواها إلى بركة محيطة بها ، وفوقها شجرة ذهبية ترصع أغصانها طيور بمناقيرها مياه كمتناثر اللآلئ الصافية ، يقول<sup>(١)</sup> :

قصرٌ لو أنك قد كحلت بنوره  
أذكرتنا الفردوسَ حين أرتبنا  
فلكٌ من الأفلاك إلا أنه  
وضراغمٍ سكنت عرين رثاسية  
وكانما غشي النضارُ جسومها  
وبديعة الثمرات تعبر نحوها  
قد صوفحت أغصانها فكأنما  
خرسٌ تعدُّ من الصفايح فإن شدت  
أعمى لعماد إلى المقام بصيرا  
غرفا رفعت بناءها وقصورا  
حقر البدورَ فأطلع المنصورا  
تركتُ خريزَ الماء فيه زئيرا<sup>(٢)</sup>  
وأذاب في أفواهاها البلورا<sup>(٣)</sup>  
عينايَ بحرَ عجائب مسجورا<sup>(٤)</sup>  
قبضتُ بهنَّ من الفضاء طورا  
جعلتُ تغرُدُ بالمياه صغيرا

وأبيات القصيدة جميعها درر نفيسة على هذه الشاكلة ، حتى ليقول المقرئ بعد إنشاده لها في كتابه « نفع الطيب » : « لم أر لهذه القصيدة في لفظها ومعناها من نظير » . ومعروف أن العماد الأصبهاني ترجم في كتابه الخريدة لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري ، وقد ترجم لنفر<sup>(٥)</sup> من شعراء الدولة الحمادية نقل ترجماتهم عن كتاب المختار من النظم والنثر لابن بشر بن المهدي القيرواني مع نعتهم لهم بأنهم من المقلين ، وهم ثلاثة : علي بن الزيتوني الشاعر ويوسف بن المبارك وابن أبي الميخ الطيب ، وقال عن علي بن الزيتوني إنه شاعر المغرب الأوسط ( الجزائر ) وأديبه ، وألمعيه وأرييه ، وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وأنشد له قطعة من قصيدة في مدح قاض ، وفيها يقول :

نهأه عن محارمه نهأه  
وشدَّ به عرى الإسلام حتى  
أمينٌ عدله غمر البرايا  
لقد ظفرت يدٌ علقت نداه  
وقرَّه لخالقه ثقاه<sup>(٦)</sup>  
رأينا النُّججَ وانعقدت عُراه<sup>(٧)</sup>  
فما يُخشى على أحدٍ قضاه  
ومن ناواه قد تبت يده<sup>(٨)</sup>

(١) ديوان ابن حمديس ( تحقيق د. إحسان عباس ) .

(٢) عرين الأسد : مأواه .

(٣) النضار : الذهب .

(٤) مسجورا : مملوءا .

(٥) نفر : مائة .

(٦) النضار : الذهب .

(٧) عرى الإسلام : موثيقة التي لا تفصل عنه .

(٨) تبت : خسرت خسرا كبيرا .

(٩) انظر فيهم وفي الأشعار التالية الخريدة ( قسم



وكان يوسف بن المبارك من موالى بنى حماد ، وله فيهم مدائح مختلفة ، من ذلك قوله في بعض قصائده يخاطب الأسرة :

ما منكم إلا همائم حوى      مناقباً جلى ومجدا صراح<sup>(١)</sup>  
وتبذلون الرُفدَ يوم الندى      وتَسعرون الحرب يوم الكفاح<sup>(٢)</sup>  
وترفعون الجار فوق السُّها      وتكرمون الضيف مهما استماح<sup>(٣)</sup>  
لا زلتُم تجنون زهر العُلا      في معرض العزِّ بحمد الصُّفاح<sup>(٤)</sup>

أما ابن أبي المليلح فكان اشتهاره بالطب أكثر من اشتهاره بالشعر إذ كان طبيبا ماهرا ، ويقول العماد إن له مقطعات في الغزل جالبة للحب سالبة للبدن ولم يرو منها شيئا له، إنما روى قطعة من قصيدة يهنيء بها الأمير عبدالله بن العزيز الحمادي في أحد الأعياد واصفا فيها خيله، يقول:

وجالت به جردُ المذاكى كأنها      عذارى ولكن نطقهنَّ تحمحم<sup>(٥)</sup>  
وصفراء كالنَّبرِ العتيقِ صقيلةٍ      ودهماء يتلوها كُميتٌ وأذهم<sup>(٦)</sup>  
وأشقرَ لو يجرى مع البرق جهده      لكان له يوم الرُّهان التقدّم  
وحامٌ كواء النَّصر يتبع رايةً      بها العزُّ معقودٌ عليها متمم<sup>(٧)</sup>

ويترجم العماد في نفس الجزء السالف من خريدته لشاعرين من شعراء القلعة الحمادية قدما إلى مصر في أواخر عهد تلك الدولة هما محمد بن عبدالله بن زكريا القلعي الأصم وعلي بن إسماعيل القلعي، أما محمد فينقل عن كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان للرشيد بن الزبير المؤلف حول منتصف القرن السادس الهجري أنه قال عنه: « كان جيد الشعر، وارى<sup>(٨)</sup> زناد الفكر » وأنشد له قطعة في وصف فوارة من قصيدة في مديح كرامة بن المنصور بن الناصر بن علناس وفيها يقول:

وحاكية بالماء لَوْنِ اضطرابه      قواماً وحُسناً حين يبدو ويوبص<sup>(٩)</sup>  
قضيبةً لَجِينِ المَعِ الصَّقْلُ مَتْنَه      وأخلصه في السَّبِكِ من قبلُ مخلص<sup>(١٠)</sup>  
تسامى قليلاً ثم عاد كأنه      جمانٌ حوالها على الماء يرقص<sup>(١١)</sup>  
كأن نوالاً من يمين « كرامة »      يمدُّ به إذ لا ترى الماء ينقص

(١) جلى : عظيمة ، صراح : خالصا .

(٢) التبر : الذهب . صقيلة : مدربة . دهماء : سوداء .

كُميت : أحمر ضارب إلى السواد .

(٣) حام : دار .

(٤) وارى : متقد .

(٥) يوبص : يرق ويلمع .

(٦) لَجِين : فضة .

(٧) جمان : لؤلؤ .

(١) جلى : عظيمة ، صراح : خالصا .

(٢) الرُفد : العطاء . تسعرون : توقدون .

(٣) السها : كوكب صغير خفى الضوء . استماح :

اتسع في الطلب .

(٤) الصُّفاح : السيوف .

(٥) المذاكى : الخيل المدربة . التحمحم : صوت الخيل

دون العالى .



وينقل العماد عن ابن الزبير أنه كان ميخوس الجَدَّ<sup>(١)</sup> وأنه ورد إلى الإسكندرية ومصر (الفسطاط) وأقام بهما زمانا لا يجد من يروى ظمَّاته ويسدُّ خلَّته<sup>(٢)</sup>، وعاد إلى المغرب ونزل بيني الأشقر في طرابلس الغرب، وامتدحهم بقصيدة ميمية فأحسنوا صلته وعظموا جائزته، ومن قوله في مدحهم:

وفى ذا الحِمَى المأمول يأمنُ خائفٌ      وفى ذا الندى المعول ينقعُ حائمٌ<sup>(٣)</sup>  
عَضَّدْتُمْ عَلَى أَحْسَابِكُمْ بفعالكم      كما عضدتُ أسَّ البناءِ الدعائم<sup>(٤)</sup>  
على كلِّ أرضٍ من نَدَائِكُمْ مياسمٌ      وفى كلِّ نَادٍ من ثَنَائِكُمْ مواسم<sup>(٥)</sup>

وأما علي بن إسماعيل القلعي فينقل العماد عن الرشيد بن الزبير أنه كان من الواردين أيضا على مصر وأن الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) استوزر أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، وكان هو وأبوه وجده سنين، ويبدو أنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر، فأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطب يوم الجمعة للحافظ وأن يسقطوا من أذانهم للصلاة: «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» شعار الفاطميين، وتنبه أنصار الفاطميين وشيعتهم فقتلوه، ويقول ابن الزبير إن علي بن إسماعيل القلعي نظم في هذا الحادث قصيدة مدح بها الحافظ ومن قوله فيها:

وليلٍ صَحِبْتُ السَّيْفَ يَرْعَدُ حَدُّهُ      وقد شَابَ فِيهِ مَفْرَقُ الصَّعْدَةِ السَّمْرِ<sup>(٦)</sup>  
إلى أن بدا وجه الصَّبَّاحِ كأنه      لحافظِ دِينِ اللّهِ آيَةُ الكِبْرِي  
ويعلق العماد على وصف الخليفة الحافظ بأنه حافظ لدين الله قائلا: «أستغفر الله من ذلك فإنه لم يكن حافظا وإنما كان مضيقا».

وتقضى دولة الموحدين وزعيمها عبد المؤمن على الدولة الحمادية في بجاية وتصبح الجزائر تابعة لها، ويشتهر بها حيثُذ شاعران: الحسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف باسم ابن الفكون وسنخسه بترجمة، ومحمد<sup>(٧)</sup> «بن علي بن مروان بن جيل الحمداني الوهراني الأصل الناشئ بتلمسان، وكان فقيها نابها تولى قضاء تلمسان ثم استتدبه المنصور الموحدى (٥٨٠-٥٩٥ هـ) لقضاء الجماعة بمراكش وظل حميد السيرة مشهورا بالعدل في أحكامه، وعزله المنصور بعد فترة، وأعاد ابنه الناصر إلى أن توفي سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ومن مدائحه للمنصور قوله:

(٦) الصعدة: القناة.  
(٧) انظره في بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١/١١٣ والمعجب للمراكشي ص ٢٦٤ و ٣١٢ والتكملة لابن الأبار رقم ١٠٦٣.

(١) الجد: الحظ.  
(٢) خلته: حاجته.  
(٣) ينقع حائم: يروى ظامىء.  
(٤) عضدتم: أعتتم.  
(٥) مياسم: جمع ميسم: علامة وأثر.

أَسِيدُنَا يَا بِنَ الْإِمَامِينَ أَمْرُكُمْ      مَنْوُطٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا عَنَّهُ مَعْدَلُ  
نُصِيرْتُمْ لِأَنَّ الْحَقَّ أَنْ ظَهَرَهُ      وَنَاصِرُهُ فِي اللَّهِ مَا كَانَ يُخْذَلُ  
مَلَأْتُمْ بِسَاطِ الْأَرْضِ عَدْلًا وَمَا بَقِيَ      فَأَخْبَارَكُمْ فِيهِ تَسِيرٌ وَتُنْقَلُ

ويؤسس أبو زكريا منذ سنة ٦٢٥ بتونس الدولة الحفصية وتتبعها بجاية وقسنطينة وشرقي الجزائر إلى ما بعد مليانة ، بل حتى أحيانا إلى مدينة الجزائر شمالا وحتى مدينة ورقلة جنوبا ، وكانوا يتخذون للمدن الكبرى : قسنطينة وبجاية وبونة ولاية حفصيين . وظلت لبجاية أهمية كبيرة طوال القرن السابع الهجري ثم خلفتها قسنطينة أو بعبارة أدق نازعتها الأهمية ، فقد ظلت في كليهما حركة أدبية وعلمية نشيطة ، على الرغم من أنه لم تنشأ فيهما ولا في شرقي الجزائر عامة دولة كبيرة كدولة بني حماد في بجاية التي قضى عليها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحديين ولا كدولة الزيانيين في تلمسان التي سلم بها بعد قليل ، ولا يلقانا في بجاية وقسنطينة وشرقي الجزائر شعر مديح في حاكم كبير ، وحقا يلقانا شعر مديح يتعلق بصداقات مثل قول محمد بن يحيى بن عبد السلام في صديقه علي بن سيد الناس وعشيرته<sup>(١)</sup> :

شَمْسُ السَّعَادَةِ لَأَسْنَا النَّبْرَاسِ      حَلَّتْ بِأَفْقِ عَلِيِّ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ  
مِنْ مَعْشَرِ بَذَلِ النَّوَالِ شِعَارِهِمْ      وَهَمَّ الْأَسْوَدُ لَدَى احْتِدَامِ الْبَاسِ  
فَالْبَسُ رِذَاءَ الْفَخْرِ جَرَّرُ ذِيْلَهُ      وَانْعَمَ بِطَيْبِ الْعَيْشِ وَالْإِيْنَسِ

وأهم شاعر مديح أنتجه شرقي الجزائر في عهد الدولة الحفصية شهاب الدين بن الخلوف القسنطيني شاعر السلطان أبي عمرو عثمان ، وسنخصه بترجمة عما قليل .

وتؤسس بتلمسان الدولة الزيانية منذ سنة ٦٣٣ ويقود يَغْمُرَاسِنَ مؤسسها وأبناؤه وأحفاده نهضة علمية وأدبية عظيمة فينشئون المدارس ويكثرون في مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم ، ويتخذون المفتين من كبار الفقهاء كما يتخذون الأطباء ويتغنى بمدائحهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، ومن أول ما يلقانا من ذلك قصيدة لشاعر يَغْمُرَاسِنَ حين هاجمه السعيد الموحدى صاحب مراکش سنة ٦٤٦ وانتصر عليه يغمراسن ، وفيها يقول مهنئا له بالانتصار<sup>(٢)</sup> :

بُشْرَى بِعَاجِلِ فَتْحِ أَوْجِبِ الْعُرْسَا      وَأَسْفِرِ الدَّهْرُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَبَسَا<sup>(٣)</sup>  
فَتَحُّ تَبَجَّسَتْ الْأَنْوَاءُ صَادِقَةً      بِوَدْقِهِ وَمَحَّتْ أَنْوَارُهُ الْغَلَسَا<sup>(٤)</sup>  
فَتَحُّ تَفْتَحُ بِبَابِ السَّعْدِ عَنْ كَتَبِ      عَنْهُ وَأَنْجَزَ فِيهِ الْيُمْنُ مَا التَّمَسَا<sup>(٥)</sup>  
فَتَحُّ جَرَى فِي الْوَرَى مَجْرَى الْحَيَاةِ فَقَدْ      سَرَى فَمَا زَجَ مَنَا النَّفْسَ وَالنَّفْسَا

(٤) تبجست : تفجرت . الأنواء : الأمطار ، ودق المطر : شديده . الغلس : ظلمة آخر الليل .  
(٥) كتب : قرب .

(١) عنوان الدراية ص ٣٤٣ .  
(٢) انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتسي ( تحقيق محمود بوعبياد ) ص ١١٩ .  
(٣) أسفر : انكشف . عبس : قطب وجهه وتجههم

والقصيدة جيدة وفيها يشير الشاعر إلى تطور الأحداث في الحرب ومقتل السعيد الموحدى ويشيد بشجاعة الجيش التلمساني وبأس فرسانه ، وكان من جملة الذخائر التي استولى عليها يَغْمُراسن من محلة الأمير الموحدى السعيد والتي بعد بها صيته وضخم ملكه كما يقول التنسي العقدُ اليتيم المشتمل على عشرات من خرزات الياقوت والدرر الثمينة بل على مئات كما يقول ابن خلدون في تاريخه، وعضاد<sup>(١)</sup> الزمرد ، وأنفس من ذلك وأعظم مصحف عثمان بن عفان الذي خطه يمينه ، وكان قد صار إلى بني أمية ، ونقل إلى عبد الرحمن الداخل في قرطبة فوقه بجامعها وغشاه بصفائح الذهب ونظم في مواضع منها لآلىء نفيسة وأحجار ياقوت وزمرد . وكان أبناؤه يقدمونه أمامهم في أسفارهم قائلين بحقه إلى أن كان من نعم الله على يغمراسن أن حظى به ، إن صح ما قاله يحيى بن خلدون وغيره من المؤرخين . ولا تلبث تلمسان أن تنجب الشاعر البارع ابن خميس كاتب أبي سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) وشاعره ، وسنفرده له ترجمة . وكان يعاصره ابن أبي حجلة الذي ترجمنا له في الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة ، وكان قد رحل في بواكير حياته إلى الحج واستوطن مصر وولى إحدى مشيخات الصوفية وكان يزرى على أصحاب الوحدة من الصوفية ، وله مدائح نبوية متعددة وكتب أدبية متنوعة ، منها سكردان السلطان أي إثناء السكر ، وديوان الصبابة أهداهما للسلطان حسن المملوكي ، مضمنا فيهما بعض مدائحه فيه من مثل قوله في الكتاب الأخير :

ملكٌ أسودُ الغاب تحذرُ بأسَهُ      لأن ملوك الأرض طراً تحاذرُهُ  
وأى كماً لم يرغهم نزالُهُ      وأى مكانٍ ما علتُه منابره

ولعل حاكماً من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما مدح أبو حمو موسى الثاني ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) الذي خلص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أديباً فذاً وشاعراً ماهراً ونهضت تلمسان في عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وتمدائحها فيه التنسي في كتابه : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح » وسنخصه بترجمة بين شعراء الفخر ، ومن مداحه وكتابه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل العصامي ومحمد بن قاسم ، ومن مداحه أيضاً محمد بن أبي جمعة التلالسي أحد أطبائه ، وفيه يقول في قصيدة<sup>(٢)</sup> :

مطاع شجاعٌ في الوغى ذو مهابة      حسامٌ على الباغين في الأرض قد سلاً  
له راحةٌ كالغيث ينهلُ ودقها      وصارمٌ نصرٍ مرهفٌ الحدُّ لأفلاً  
إمامٌ حباهُ اللهُ ملكاً مؤزرًا      فلا ملكٌ إلا لعزته ذلاً  
من الزاب وافانا عزيزاً مظفراً      يجرُّ من النصر المنوط به ذيلاً

(٢) بغية الرواد ١ / ٩٠ .

(١) العضاد : الخلية توضع في العضد .



لطاقته كل الأنعام تبادرت  
لقد جبر الله البلاد بملكه  
فياسعُد من وافى وياوئح من ولى  
به مُلكتُ أمنا به ملكتُ عدلا

والقصيدة بديعة وقد استهلها التلالسي بوصف طبيعة تلمسان الجميلة ، ونوه بوجود قبر الصوفي الكبير أبي مدين شعيب فيها ، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ في مدح أبي حمو واستيلائه على تلمسان من يد الدولة المرينية قهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح . وله موشحة أنشدها المقرئ في أزهار الرياض يجمع فيها بين مديحه ومديح الرسول الكريم ، ومن مديحه له فيها<sup>(١)</sup> :

من لم يزل يسمو إلى المعالي كل حين  
ذاك أبوحمو المولى أمير المسلمين  
طاعته غنم نلنا بها دنيا ودين

وكان أبوحمو استن في تلمسان الاحتفال بليلة مولد سيد المرسلين ، وكان المنشد يستهلّ الحفل بإنشاد مدح النبوة ، ثم يظل ينشد طويلا ما رُفِع إليه من مدائح شعراء البلاط في أبي حمو وفي الرسول الكريم ، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات ، وظل ذلك تقليدا بعده ، وسترجم لشاعرين من شعرائه عما قليل ، هما يحيى بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغري . ومن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبوزيان محمد الثاني ( ٧٩٦ - ٨٠١ هـ ) وكان كلنا بالعلم والأدب - كما مر بنا في غير هذا الموضع - وراجت سوقهما في عهده ، وكان شاعرا كما كان عالما ، وتهادى مع السلطان المملوكي برقوق ( ٧٨٤ - ٨٠١ هـ ) والطريف أنه وجّه إلى برقوق مع هديته قصيدة من نظمه استهلها بتصوير أشواقه وحنينه إلى زيارة المصطفى والبقاع المقدسة ، ومن قوله بها في مديح السلطان برقوق<sup>(٢)</sup> :

ملك به نام الأنام وأمنت  
والملك ضخم والجناب مؤمل  
والصنع أجمل والفخار مؤمل  
ياخادم الحرمين حق لك الهنا  
سبل المخاوف، لا يخاف سبل  
والفضل جم والعطاء جزيل  
والمجد أكمل والوفاء أصيل<sup>(٣)</sup>  
وحباك من روح الإله قبول

ومن انتعش الأدب في أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزياني ( ٨١٤ - ٨٢٧ هـ ) ويقول التنسي إن الأدباء جاءوا إلى بابه ينسلون من كل حدب<sup>(٤)</sup> فينقلبون بجر<sup>(٥)</sup> الحقائب ، ظافرين

(٤) ينسلون من كل حدب : يسرعون من كل طريق .  
(٥) بجر الحقائب : مملوئي الحقائب ، كناية عن كثرة العطاء .

(١) أزهار الرياض ٢٤٧/١ .  
(٢) تاريخ بني زيان للتنسي ص ٢٢٥ .  
(٣) مؤمل : أصيل .

بجزيل الرغائب ، ويضرب مثلا لمادحيه من غير التلمسائين قصيدة لشاعر فاسي يسمى علي العشاب يهته فيها ببعض فتوحه قائلا<sup>(١)</sup> :

ملكٌ تجلَّلُ بالمهابة وارتدى      وسما فدانٌ له الزمانُ الأَسعدُ  
كم بيَّنتُ آراؤه من مشكلٍ      واللَّهُ يكفلُ ملكه ويؤيدُ  
ملك أبي الرحمنُ إلا نصره .      فمن الذي يُخفي سناه ويحمد

وربما كان أهم حاكم زياتي بتلمسان بعده المتوكل ( ٨٦٦ - ٨٨٠ هـ ) ويعنى الفقيه التنسي بوضع كتاب أرخ فيه له ولأسرته - كما مر بنا - سماه نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة في مدحيه ومدح أبنائه الستة ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

حَوَى في صباه من وثاقة رأيه      مع الحزم ما لم تحوه اللممُ الشُّمطُ<sup>(٣)</sup>  
هو البحر جودًا من جميع جهاته      فمعروفه لُجٌ وإحسانه الشُّطُ  
وكلُّ بني الآمال ساعون نحوه      كذا كلُّ من أضناه من دهره قَسَطُ<sup>(٤)</sup>  
وبرز من بين الملوك مجليًا      وأعطاه ربُّ العرش فوق الذي أعطوا

وتضعف الدولتان الزبانية والحفصية مع أوائل القرن العاشر الهجري ويستولي فرديناند ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر . ويتصدى له خير الدين ( بربروس ) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م وما يزال خير الدين ينازله مستوليا منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ويضيف إقليم الجزائر إلى الدولة العثمانية ، ويخلفه عليه ابنه حسن ، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على منازلة الإسبان ، ويسترجع منهم في سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م المرسى الكبير والجزء الأعلى من وهران ، ويهته الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

هنيئا لكم باشا الجزائر والغرب      بفتح أساس الكفر مرسى قُرى الكلبِ  
وأبقاك ربي فاتحًا لحصونهم      وكهفا منيعا ذا عتوٌ وذا ضُرب

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة ، فسحقها البايلاريك حسن . وتظل وهران مع الإسبان ، وما يزال الشعراء يستحثون الولاة العثمانيين في فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذي يستحث الداى « باب حسن » على فتحها في حماسية طويلة منشدا :

(٤) قسط : جور وظلم ، وهى من ألفاظ الأضداد .

(٥) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن

مريم ص ١٣٢ .

(١) التنسي ص ٢٣٨ .

(٢) التنسي ص ٢٦٥ .

(٣) اللمم الشُّمط : المختلط فيها سواد الشعر بياضه .

نادتك وهران قلبُ نِداها      وانزلُ بها لا تقصدنَ سواها  
 واستدع طائفةَ العساكر نحوها      يغزونها ولينزلوا بفناها  
 أضحي الصليب مؤيدا والدينُ قد      درستُ معالهُ فلست تراها  
 فاذعُ الغزاةَ لغزوها مستنجدا      وانهض إليها وانزلنَ مرساها

وعلى شاكلته محمد القوجيلي .. وسنخصه بكلمة . ويتولى محمد بكداش مقاليد الولاية سنة ١١١٨ هـ / ١٧٠٦ م فيعظم الأمل في نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم في فتح وهران ، ويهتته يحيى بن أبي راشد مشيدا به في مثل قوله :

ملك تفرّد بالكمال ولم يكن      لكماله في السالفين مثالُ  
 دانت له الأيام طرّاً مثلما      دانت لليث الغابة الأشبالُ  
 خضعت لسطوته الملوك وسلّمت      لجلاله الأمراء والأقيال<sup>(١)</sup>

ويكثر الشعراء من استنارة بكداش . ويدور العام الأول من حكمه ، ويفتح وهران عنوة سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م وكان أديبا يجمع النثر والخطابة والشعر ، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب في تهنتته بهذا النصر العظيم ، وجمع محمد بن ميمون ما نظم فيه من شعر منذ ولايته في كتابه « التحفة المرضية في الدولة البكداشية » وجعله في ست عشرة مقامة . ومن شعرائه أحمد بن قاسم اليوني ومحمد القوجيلي والمستغامي وابن علي الذي هنأه تهنته حارة مصورا كيف يسحقهم سحقا لا يبقى ولا يذر بمثل قوله :

إمام سقى الكفار كأس منيةٍ      لهم شبةً بالنمل والسيف حاطمُ  
 ومزقهم في الأرض كل ممزقٍ      فربعمهم - بعد العمارة - طاسم<sup>(٢)</sup>  
 وعاد لوهران السنية فخرها      وعاد إليها عهدُها المتقادم

ويتوفى بكداش سريعا سنة ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م . ويسترد الإسبان وهران وتظل في حوزتهم حتى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ لعهد الباي محمد الكبير ، فيفتتحها نهائيا ، وكانت الحياة الأدبية نشطت لعهدده والتف حوله غير شاعر مثل أحمد القرومي ومحمد بن الطيب المازري وأحمد بن عمار ، ومن أهمهم أحمد بن سحنون كاتبه ، وله في فتحه لوهران أرجوزة طويلة افتتحها بقوله :

حمدا لمن آزر نصر الدين      ودان ناصرته أسنى الدين  
 وفتح الأقطار بالجهاد      حتى غدت لينة المهاد

وشرح الأرجوزة شرحا أدبيا تاريخيا سماه : « الثغر الجُماني في ابتسام الثغر الوهراني » وصف فيه الفتح وسيرة الباي والشعراء الذين مجّدوه وبعض أشعارهم في تهنتته بالفتح ،

(٢) طاسم : دارس .

(١) الأقيال : جمع قيل : ملوك اليمن .

ووصف منشئاته العمرانية وخاصة الجامع الكبير الذي ١٥  
أحمد القرومي :

وترى المدرس قد علا كرسية  
تحويه مدرسة غدت آثاراً

وكانت عقيدة الأشعري قد شاعت  
منذ القرن الخامس الهجري . ويعترف ابن  
في زمنه لغلبة العجمة على الألسنة ، فصا  
ويمدحون « ويضيف أن الشعر الفصيح شاع  
والمعاني .

ويكثر في العهد العثماني مديح التلامذة لشيخوهم على نحو ما يلقانا عند محمد القوجا .  
في مديحه لأستاذه علي بن عبد الواحد الأنصاري  
الشعر المتبادل بين العلماء في الجزائر وبين عمداء بوس -  
أن نتوقف لترجم لبعض شعراء المديح .

### عبد<sup>(٢)</sup> الكريم النهشلي

ولد ونشأ في مدينة المسيلة ( المحمدية ) بالجزائر الشرقية في أرض الزاب . ربيها  
مرباه وتلمذته لشيخوهم في الأدب وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، مما جعله يترك بلدته إلى  
القيروان العاصمة ، ولا يلبث أن ينتظم في دواوين الدولة الصنهاجية ، ويقال إنه كتب لتميم بن  
باديس بن المنصور ، غير أنه كتب للمنصور بن بلكين من قبله ثم لباديس من بعده وأصبح  
شاعرها . ومر بنا أن له في الشعر والنقد كتابا سماه الممتع وأن ابن رشيق نقل عنه في كتاب  
العمدة في « صناعة الشعر ونقده » وذكره مرارا وترجم له في كتابه الأنموذج ومما قاله عنه  
أنه : « كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها »  
ويدل كتابه الممتع على ثقافة واسعة بالشعر سعة لا حدود لها كما يدل على ذوق أدبي مرهف مع  
البصر بنقد الشعر وأحكام النقاد عليه . ويقول ابن رشيق إنه توفي بالقيروان أو مدينة المهدية  
سنة ١٠١٤/٥٤٠٥م وأنشد له أبياتا من قصيدة في مديح المنصور بن بلكين وما ذكر فيها من  
هدية أرسلت إليه من الخليفة الناطمي العزيز نزار سنة ٩٩٤/٣٨٤م وكان بها طائفة من

(٢) انظر في ترجمة عبد الكريم النهشلي المراجع التي  
سبق ذكرها في هامش ص ٨٩ .

(١) انظر تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور أبي القاسم  
سعد الله ٢٧١/٢ .



الخيل الكريمة والإبل البخاتي النجبية وحمارا مخططا من حمر الوحش وفيلا ضخما ، ووصفها  
النهشلى جميعا وصفا بارعا ، استهله بقوله :

هتتك أمير الجود خير هدية      تقدمها الإيمان واليمن والفخر

ومضى يصف الهدية ، وكان حريا بابن رشيق أن ينشد شيئا من مديحه الذي كان يبرع فيه  
براعة فائقة كما تشهد بذلك بائية له فى المنصورين ولكن أنشد منها طائفة كبيرة فى كتابه  
المتع ، وفيها يصور هبة مجلسه منشدا :

ومجلس موقور الجلالة تشنى      عيون الورى عنه وينبو خطبها  
ترى فيه رفع الطرف خفضا كأنما      لحاظ الرجال رية تستريها  
إذا حكمتها ظلت نواسج عبقر      حواسد مدسوسا إلى عتابها  
على ملك تهندي إلى مكرماتيه      عقائل أشعار يرف شباها  
هامم دعت كناه قاصية العلا      فلباه منها صفوها ولبابها

فهو مجلس مخفوف بالجلال حتى لتتنى عنه العيون مهابة ويتعثر الكلام فى الأفواه وينخفض  
الطرف رية يستشعرها . وإذا حاك قصيدته الرائعة فيه ظلت نواسج عبقر تحسده على إحسانه  
فيها إحسانا يفوق كل وصف ، وما تزال نفائس الأشعار تزف إليه ، وإنه لهما تستجيب إليه  
ذروة العلا فينال منها صفوها ولبابها الخالص ويقول :

إذا ورد المنصور أرضا تهلت      وجوه رباها واستهل رباها<sup>(١)</sup>  
إذا اغبرت الآفاق بلى سواؤه      ثراها بأيد ما يجف رغبها<sup>(٢)</sup>  
كأن العوالى الزرق عنه مضأوها      وخضر السحاب من نداء عباها<sup>(٣)</sup>  
فمن يوليه سعدا ينله ومن يرد      يسه شقوة تخلع عليه ثيابها  
يحل بنا - ما حلها - البر والتقى      ويخضر من بعد اصفرار جنبها

فما ينزل المنصور أرضا حتى تمتلىء رباها بشرا ويسقط بها الغيث مدرارا ، وما إن تغبر  
الآفاق وتجف الديار حتى يهطل عليها من سماء ما يرويهما ويحيلها أرضا سهلة خصبة . ويقول  
كأن أسنة العوالى أو الرماح الزرق من مضائه وعزمه ، وكأن غيث السحاب المنهمر من نداء  
وكرمه الفياض ، وإن من يمنحه سعدا ينله ومن ينزل به شقاء يصبه ، وإن أى أرض يحل بها  
يحل فيها التقى والرحمة والربيع الزاهى ، ويمضى قائلا :

وما بلد لم يوتك الطوع أهلها      بآمنة أن لاتدك هضابها  
تخط بها الأسد الضواري خواضعا      لديك ولو أن الكواكب غابها

(٣) الغوالى : الرماح . عباب السحاب : الأمطار  
المنهمرة .

(١) الرباب : السحاب .  
(٢) الرغب بفتح الراء : الأرض اللينة السهلة .



ولو أنها عاصتك غير مجيبة  
تهابك آفات الخطوب فتتهى  
أجابتك من تحت السيوف رقابها  
ولانتهى عن خبطة فهابها  
وماحك أحناء الضلوع نقافها  
وخيلك تامور النفوس شرابها<sup>(١)</sup>

وهو يقول للمنصور إن بلدا لم تستسلم لك ولم تأتك طاعة أهلها لا تأمن أن تدك هضابها  
دكا كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وإن الأسد الضارية المفترسة بها لتخط لديك خواضع مهما  
كان غيابها وغيلها بعيدا ولو أنها أعلنت عصيانك لأجابتك رقابها من تحت السيوف ذليلة خاتمة ،  
وإن الخطوب - مهما عظمت - لتهابك ، بينما أنت لا تهاب خطة ، إذ لا تزال تيرم الخطط ،  
وتلك رماحك لا تزال تضرب في أحناء الضلوع ، ولا يزال شراب خيلك دم الأعداء . والقصيدة  
مكتوبة بلغة جزلة رصينة وكأنها تفرع الآذان قرعا بموسيقاها اللجة ، وكأنما تمتلىء برعد  
قاصف . وبدون ريب كان عبد الكريم النهشلي شاعرا مبدعا .

عبد<sup>(٢)</sup> الله بن محمد التوخى ( ابن قاضى ميلة )

تقع ميلة فى الشمال الغربى لقسنطينة والجنوب الشرقى من بجاية ، وبها نشأ عبد الله بن  
محمد التوخى فى بيت علم إذ كان أبوه قاضيا ، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضى ميلة ، ويقول  
ابن رشيق إنه صحب أباه إلى جزيرة صقلية ، فاتصل عن طريقه بواليتها ثقة الدولة  
( ٣٧٩-٣٨٨هـ ) وكان حسن السيرة ، ضبط صقلية وساس رعيته سياسة عادلة حبيته إليها ،  
ودوخ الروم واستقامت له فيها الأمور ، وكان كريما كرما فياضا فقصده كثيرون من كل  
فج ، فأكرمهم وفى مقدمتهم قاضى ميلة . وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا ، فمدحه بقصيدة  
فائية بارعة ، فقرب منزلته ومنزلة أبيه وأجزل صلته ، ويبدو أنهما لم يمكنا طويلا بصقلية .  
وأشاد بابن قاضى ميلة من ترجموا له ، فابن رشيق يقول فيه : « شاعر لسن مقتدر يؤثر  
الاستعارة ويسلك طريق ابن أبى ربيعة وأصحابه فى نظم الأقوال والحكايات ، وله فى الشعر  
قدم سابقة ومجال متسع ، وربما بلغ فى الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب ، وهو لهج بذلك  
طالب له » . ويقول ابن بسام فيه : « ضرب فى الأدب بأعلى قدح وافتر عنه على أوضح  
صبح » . ونوه ابن خلكان بفائيته فى ثقة الدولة ، ويقول أحببت إثباتها لحسنها وغرابتها ،  
وأنشدها . وهو يستهلها بغزل حوارى لصاحبة له التقى بها محرمين فى الحج ، وهو غزل بديع  
سنذكر طرفا منه فى غير هذا الموضع ، وخرج منه إلى مديح ثقة الدولة والى صقلية فى يوم  
عيد من أعيادهم ، وفيه يقول :

ص ٢٠٩ وابن خلكان ١٥٩/٦ راجع ٨٤٣/٥  
والذخيرة لابن بسام ٥٢٩/٤ .

(١) النقاد : مضرب الرماح . تامور : دم .  
(٢) انظر فى ابن قاضى ميلة أنموذج الزمان لابن رشيق

أغرُّ قُضاعيُّ يكاد نوالُهُ  
سَعَى وَسَعَى الأملاكُ في طلب العُلا  
ويقظان شاب البطش بالبرِّ والتقى  
حسامٌ على من ناصب الدين مصلتٌ  
يسايرُهُ جيشان : رأى وفيلقٌ  
مطلٌّ على من شاءه فكأنما  
لكثرة ما يدعو إلى الشُّكر يجحف<sup>(١)</sup>  
فهاز وأكدوا إذ أخفَّ وأقطفوا<sup>(٢)</sup>  
بكفئِهِ ما يُرجى وما يُتخوَّف  
وسترٌ على من راقب الله مُغذِفٌ<sup>(٣)</sup>  
ويصجبه سيفان : عزمٌ ومرهفٌ  
على حكمه صرْفُ الردى يتصرفُ

وهو يقول إن كثرة نواله وعطائه تكلف من الشكر ما لا يكاد يطاق لعظم ما ينثر من أمواله على الناس ، وقد سعى وسعى الملوك من حوله في طلب العلا فهاز وخابوا إذ أسرع فسبقهم وأبطأوا فتخلفوا ، وإنه ليقظان دائما يجمع بين البر والتقوى والبطش الشديد ، ففي كفيه ما يرجى من الجود ويخشى من البأس العنيف ، وإنه لحسام مسلول على أعداء الدين وستر مسبل على أوليائه ، يرافقه جيشان من حزمه وجنده ، وسيفان : سيف مرهف وسيف من عزمه ، وكأنما ينزل صرف الهلاك على رأيه ويتصرف على حكمه ، ويدعو له الله أن يرعاه :

رَعَى اللّهُ مَنْ تَرَعَى حِمَى الدّين عَيْنُهُ  
وَمَنْ وَعَدُهُ فِي مَسْرَحِ الحَمْدِ مَطْلُقٌ  
وَمَنْ يَضْرِبُ الأعداءَ هَبْرًا فَتَشْتِي  
رماهم بِمَجْرٍ ضَعُضَعَ الأَرْضَ رِزَهُ  
كَأَنَّ الرُّدَيْنِيَّاتِ فِي رَوْنِقِ الضُّحَى  
يَعُودُ الدُّجَى مِنْ بِيضِهِ وَهُوَ أَيضٌ  
ويحمى حِمَى الإسلام والليلُ أَعْضَفُ<sup>(٤)</sup>  
وإيعاده في ذمّة الحلم موقِفُ  
صناديدهم والبيضُ بالمهام تقذِفُ<sup>(٥)</sup>  
كَأَنَّ الروابي منه بالنَّبْلِ تَدْلُفُ<sup>(٦)</sup>  
أراقمُ في طامٍ من الآل تزحفُ<sup>(٧)</sup>  
ويبدو الضحى من نَقْعِهِ وَهُوَ أَكْلَفُ<sup>(٨)</sup>

وهو يدعو الله أن يحمى حامى الدين والإسلام والليل أشد ما يكون ظلاما ، الوافى بوعده والممسك بوعيده يمسك به حلمه ، وإنه ليضرب الأعداء ضربات متوالية والسيوف تقذف بالرءوس إذ رماهم بجيش كثيف تهتز الأرض تحت أقدام خيله حتى لكأن الروابي تقدم إليها ، وكأن الرماح أراقم تزحف في أمواج من السراب ، وشاب الدجى ، وبدا الضحى كلفا مغبرا في احمرار لكثرة النقع وغبار الحرب ، ويقول :

(١) أى يكلفهم ما لا يطيقون .  
(٢) أكدوا : خابوا . أخف : أسرع . أقطفوا : أبطأوا .  
(٣) مصلت : مسلول . مغذف : مسبل .  
(٤) أعضف : مظلم شديد الإظلام .  
(٥) هيرا : ضربا . البيض : السيوف .  
(٦) ماجر : جيش كثيف . رزه : أصواته . تدلف : تسير مبطئة .  
(٧) الردينيات : الرماح . أراقم : حيات . الآل : السراب .  
(٨) النقع : غبار الحرب . أكلف : كدر .

فياثقةَ الملك الذى الملك سَهْمُهُ      يَراشُ لأكباد الأعدى ويُرْصَفُ<sup>(١)</sup>  
هنيثاً لك العيدُ الذى منك حُسْنُهُ      يروقُ ومن أوصافك الغرُّ يوصف  
بدا مُعلَمَ الأرجاء يُزْهِى كأنما      على عِظْفِهِ وَشَى العراق المشْفُفُ<sup>(٢)</sup>  
أتى بعد حول زائراعن تشوْفِ      وقد كان ذا طَرْفٍ للقياك يَطْرَفُ  
فطوْقَتَهُ عِزًّا وشَفْتَهُ بهِ      فلاحُ لنا وهو المحلَى المشْفُفُ<sup>(٣)</sup>  
ولا زلت تُسْتَجْدَى فتولى وترتَجَى      فتكفى وتُسْتَدْعَى لخطبٍ فتكشف

وهو يقول له ياثقة الملك لا زال سهم ملكك يُسَدِّدُ إلى أكباد الأعدى فينفذ فيها ويُبصمها  
وهنيئاً لك العيد الذى يستمد منك حسنه وأوصافه البديعة ، وإنه ليمتلىء زهوا بما على جوانبه  
من وشى العراق الشفاف الرقيق ، وقد ظل حولا يتطلع إليك ويتمنى زيارتك ، فحليته بطوق  
رائع وقُرْطٍ بديع ، فلا زلت تستحذى فتتعم وترتجى فتلبى وتستدعى لخطب فتكشف نوازه .  
وأشد ابن رشيح من مديحه قوله :

طَبُّ بأدواء الجهاد إذا      صَدَمَ العجاجُ قوادمَ النَّسْرِ  
وإذا احتبى فى شَمْلَةٍ ضربتُ      يبيضُ النَّوالُ جماجمَ الْفَقْرِ  
يَنْدَى وأيدى المزنِ جامدة      ويلينُ عند قساوة الدهر

فصاحبه يعرف كيف يشفى أدواء الجهاد حين تشتد الحرب وتخدم ويصدم عجاجها  
وغبارها الكثيف قوادم النسور وأجنحتها المحلقة . هذا شأنه فى الحرب أما فى السلم فلا تزال  
سيوف نواله وعطائه تضرب جماجم الفقر ، وإن يديه لتجودان جودا متصلا حين تشح أيدى  
السحاب ، وإن جانبه ليلين لواردية عند قساوة الدهر وشدته . وواضح ما يتميز به ابن قاضى  
ميلة من التعمق والبعد فى التصاوير .

ابن<sup>(١)</sup> خميس

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الحميرى الحَجْرَى الرُّعَيْنَى التلمسانى ، ويتضح  
من نسبه أنه ينمى إلى حمير من عرب اليمن فى الجنوب ، وبالذات من حَجْر ذى رُعَيْن ،  
وذكر ذلك فى شعره مفاخرها به قائلا :

عمل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وتقديمه له عن  
حياته وشعره . وراجع ما ذكره من مصادر بحثه وخاصة  
الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ونقح الطيب وأزهار  
الرياض للمقرئ ٣٠١/٢ وما بعدها .

(١) يراش ويرصف : يسدّد .

(٢) المشفّف : الرقيق .

(٣) شفتته به : زينته بقرط .

(٤) انظر فى شعر ابن خميس وترجمته ديوانه باسم  
المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس من

وإن انتسبتُ فإني من دوحية      تنفياً الأنسابُ برَدَ ظلالها  
من حميرٍ من ذى رُعَيْنٍ من ذُرّاً      حجرٍ من العظماء من أقبالها<sup>(١)</sup>

ولد بتلمسان سنة ١٣٥٣/هـ ٦٥٠م أو قبلها بقليل ، وبها كان منشؤه ومرباه ، ولا نعلم شيئاً عن أسرته وأكبر الظن أنه كان من أسرة متواضعة ، وقد أقبل على حلقات العلماء ينهل منها ، وسرعان ما عُرف بين أقرانه بذكائه . وتفتح موهبته الأدبية ، ويصبح من كتاب ديوان الإنشاء في عهد السلطان التلمساني يَغْمَرَسَن ثم في عهد ابنه أبي سعيد عثمان ( ٦٨١ - ٧٠٣هـ ) وقد التقى بالعبدي الرحالة وأكثر العبدي من مجالسته ورواية أشعاره في رحلته وأثنى عليه . وحدث في أواخر عهد هذا السلطان سنة ٦٩٨ أن حاصر السلطان يوسف بن عبد الحق المريني تلمسان ومات سلطانها أبو سعيد في أثناء الحصار كذا سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م . ونجد ابن خميس يغادر تلمسان في نفس السنة إلى سبتة على مضيق جبل طارق ، ويستظهر ناشر الديوان ومحققه المقدم له الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن يكون ذلك بسبب نصيحة قدمها ابن خميس إلى أولى الأمر التلمسانيين بالدخول في طاعة المرينيين مما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يفكرون في قتله ، وأحس بذلك ففر عن تلمسان ، وهو ينشد :

وأغروا بنفسى طلابيها      سراً فجاءوا لقتلى صُراحا  
فشاورتُ نفسى في ذا فما      رأت لى بغير الفلاة فلاحا

وقد فرَّ ابن خميس إلى الفلاة ثم إلى سبتة وأمرائها من أسرة بنى العزفى فرحبوا به وأغدقوا عليه من نوالهم وأغدق عليهم من مدائحه ، وكان قد عزم على الإقامة بها وإقراء طلابها ، غير أن بعض الماكرين من شيوخها دسوا عليه أسئلة نحوية على لسان الطلاب فلم يعجبه المقام بها ، وجاز الزقاق إلى مالقة بالأندلس فغرناطة أواخر سنة ٧٠٣هـ وكان يحكمها حينئذ الأمير محمد الثالث ( ٧٠١ - ٧٠٨هـ ) ووزيره أبو عبدالله بن الحكيم وكان أدبياً وراعياً للأدباء من أمثال عبد المهيمن الحضرمي وأبي العباس العزفى فما إن وفد عليه ابن خميس حتى ألحقه بمجلسه وأسبغ عليه عطاياه ، وأخذ ابن خميس يضيف عليه مدائحه ، وجال في المرية وغير المرية بعض جولات غير أن استقراره كان في غرناطة بجوار راعيه ابن الحكيم ، ويقال إنه كان يقرئ فيها العربية مع ملازمته لمجالس ابن الحكيم ، وحين دبر خصوم الوزير لمقتله وقتلوه قتلوا معه شاعره ابن خميس يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٩م .

ويعد ابن خميس أهم شعراء المائة السابعة في الجزائر بل في المغرب عامة ، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب إنه « فحل الأوان في المطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » ويقول ابن خاتمة : « كان - رحمه الله - من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، يصرف العويص ،

(١) حجر ذى رعين : قبيلة بنية . أقبالها : أمراؤها وملوكها .



ويرتكب مستصعبات القوافي ، ويطير في القريض مطارَ ذوى القوادم الباسقة والخوافي «  
 ولقبه يحيى بن خلدون بشاعر المائة السابعة الدُّبَّاج الذى لانظير له، ويقول محققه إنه « يمتاز فى  
 شعره على الخصوص بظاهرتين : الجانب القصصى وغبابة الألفاظ ، وقلَّ من شعراء القرن  
 السابع من يضارعه فى قوة العارضة وخصب القرينة وفيض الخاطر وطول النفس ، وندر من  
 يماثله فى سلاسة المبنى وسلاسة المعانى». والقصص عنده قصص تاريخى ولذلك يحتاج قارؤه  
 فى فهم بعض اشعاره إلى الرجوع للمصادر التاريخية ، وكان يكلف بالغريب قائلاً فى بعض  
 شعره :

ما ذاق طعمَ بلاغيةٍ من ليس للوحشى ماضغٌ

ولم يكن يعممه فى أشعاره ، وكأنما كان يريد باستظهاره أحيانا العودة إلى الصياغة الشعرية  
 القديمة إمعاناً فى العروبة . ولم يكن يفرغ إلى الغريب دائماً إنما كان يفرغ إليه فى مخاطبة  
 بنى العزفى وابن الحكيم لما عرفوا به هم ومجالسهم من اتساع الثقافة اللغوية . ومن أشعاره  
 فى بنى العزفى خائية طنانة استهلها برثاء تلمسان وما أصابها من حصار السلطان يوسف  
 المرينى منذ سنة ٦٩٨ وتعلل معاهد أنسه بها ، ويلوم بنى زيان لتشتيتهم له ولأمثاله ممن  
 نصحوهم بالدخول فى طاعة المرينيين حتى يفكوا عنهم هذا الحصار الذى طال أمده ، ويخرج  
 إلى مدح سبته وبنى العزفى منشداً :

تركتُ لِمِينَا سَبْتَةَ كُلِّ نَجْعَةٍ	كما تُرِكَتُ لِلْعِزِّ أَهْضَابُهَا الشُّمُخُ <sup>(١)</sup>
وَأَلَيْتُ أَنْ لَا أُرْتَوَى غَيْرَ مَائِهَا	ولو حلَّ لى فى غَيْرِهِ الْمَنُّ وَالْمَذَخُ <sup>(٢)</sup>
فَأَمْلَاكُهَا الصَّيْدُ الْمُقَارِلَةُ الْأَلَى	لِعِزِّهِمْ تَعْنُو الطَّرَاخِمَةُ الْبُلُخُ <sup>(٣)</sup>
كَوَاكِبُ هَدَى فِى سَمَاءِ رِيَاةِ	تَضَىءُ فَمَا يَدْجُو ضَلَالٌ وَلَا يَطْخُو <sup>(٤)</sup>
بَنُو الْعَزْفِيِّينَ الْأَلَى مِنْ صُدُورِهِمْ	وَأَيْدِيَهُمْ تُمَلُّ الْقَرَاطِيسُ وَالطَّرِخُ <sup>(٥)</sup>
رِيَاةُ أَحْيَارٍ وَمَلِكُ أَفْضَلِ	كِرَامٍ لَهُمْ فِى كُلِّ صَالِحَةٍ رَضَخُ <sup>(٦)</sup>

وهو يقول إنه ترك لميناء سبته كل ما يرجى من نجعة ومعروف ، كما تُرِكَتُ للعز وديانها  
 الشامخة ، وآلى أن لا يرتوى بغير مائها حتى لو عرض له فى غيرها غسل المن المذكور فى  
 القرآن وغسل الرمان ، فحسبه أن ينعم بقاء ملوكها العظام الذين يخضع لهم الأشراف المزهوون ،  
 وإنهم لكواكب هدى فما يظلم ضلال ولا يعتم ، علماء أجلاء تمتلئ القراطيس والطوامير

(١) النجعة: المعروف والكلأ . أهضابها : هضباتها .  
 الشمخ : العالية .  
 (٢) المن والمذخ : نوعان من العسل .  
 (٣) الصيد المقارلة : السادة العظام . تعنو : تذل .  
 الطراخمة البلخ : الأشراف المتكبرون .  
 (٤) يطخو : يظلم .  
 (٥) الطرخ : القطعة من الخوص ، ويريد الطوامير لأنها  
 كانت تصنع من ورق اليردى .  
 (٦) رَضَخُ : عطاء .

بعلمهم ، أختيار أفاضل كرام ، لهم فى كل صالحة من عمل رضح أو عطاء جليل ، ويقول لهم :

يَحْيَى الْعَرَفِيِّينَ ابْلُغُوا مَا أَرَدْتُمْ      فمادون ما تبغون وَخَلَّ وَلَا زَلْخُ<sup>(١)</sup>  
 وَلَا تَقْعُدُوا عَمَّنْ أَرَادَ سِجَالَكُمْ      فما غرثكم جُفُّ وَلَا غَرَفَكُمْ وَضَنْخُ<sup>(٢)</sup>  
 وَخَلُّوا وَرَاءَ كُلِّ طَالِبٍ غَايَةَ      وتيهوا على من رام شأوكم وانخوا<sup>(٣)</sup>  
 وَلَا تَذَرُوا الْجَوَازِءَ تَعْلُو عَلَيْكُمْ      ففى رأسها من وطء أسلافكم شَدْخُ<sup>(٤)</sup>

وهو يقول لهم إن الدنيا تبلغكم كل ما أردتم من منى وآمال فخذوا منها ما تشاءون فما عائق يحول بينكم وبين ما تتمنون وتأملون ولا تلتفتوا إلى من ابتغى مفاخرتكم بأعماله ، فما دلوكم خال ولا غرثكم قليل ، واخلوا وراءكم كل طالب غاية وتيهوا وامتلئوا افتخاراً على من يروم أن يبلغ شأوكم من المجد والفخار ، ولا تدعوا الجوزاء تشعر بأنها تعلو عليكم ففى رأسها من وطء أسلافكم شدوخ وشروخ . ويمدح ابن الحكيم الوزير الغرناطى فى شعبان سنة ٧٠٦ للهجرة بقصيدة همزية يستهلها بمحنيين وشوق ظامىء إلى تلمسان ويخلص إلى مديح الوزير منشدا :

ولولا جوارُ ابنِ الحكيمِ محمدٍ      لملفات نفسى من بنى الدهر إقماء<sup>(٥)</sup>  
 حماني فلم تنشب محلى نوائب      بسوءٍ ولم ترزأ فوآدى أرزاء<sup>(٦)</sup>  
 دعانى إلى المجد الذى كنت آملا      فلم يك لى عن دعوة المجد إبطاء<sup>(٧)</sup>  
 وبوانى من هضبة المجد تلعة      يناجى السها منها صعودٌ وطأطاء<sup>(٨)</sup>  
 يشيعنى منها إذا سرت حافظ      ويكلونى فيها إذا نمت كلاء<sup>(٩)</sup>  
 ولا مثل نومى فى كفالة غيره      وللذئب الماء وللصل الماء<sup>(٩)</sup>  
 إذا كان لى من نائب الملك كافل      ففى حيثما هوئت كين وإذفاء

وهو يعترف بما للوزير ابن الحكيم الغرناطى عليه من منة مشكورة، فلولا لساقي إليه الناس ما يشعره بالذل فقد حماه منهم ومن نوائب الدهر ومحنه ، بل لقد دعاه إلى ما كان يتمنى من مجد وأنزله من هضبته مكانا عليا يناجى منه نجم السها صعودا وهبوطا ، وحافظ يشيعه إذا سار وحافظ يكلوه ويسهر عليه إذا نام ، لا كمثل من لا يرعون من يحمونهم من الذئاب والأفاعى ، بل رعاية وكفالة تامة وكين مريح يرد البرد ودفء ما بعده دفاء . وله وراء ذلك فى ابن الحكيم مدائح تموج بالغريب وبالصور البديعة ، فقد كان مصورا بارعا ، وكان يخف عليه الجناس

- (١) زلخ : تزحلق .  
 (٢) السجال : المفاخرة . الغرب : الدلو الكبير .  
 جف : خال . وضخ : قليل .  
 (٣) شأوكم : مداكم وغايتكم . انخوا : تيهوا وتكبروا .  
 (٤) الجوزاء : كوكب معروف . شدخ : شرخ وجرح .  
 (٥) إقماء : إذلال .  
 (٦) لم ترزأه أرزاء : لم تصبه مصائب .  
 (٧) تلعة : ربوة . طأطاء : هبوط .  
 (٨) يكلونى : يرعانى ويحفظنى . كلاء : حافظ .  
 (٩) الماء : انتقاض .

والطباق حين يريد هما ، وهو يعد في الذروة من شعراء المغرب عامة والجزائر خاصة وستنشد له أشعارا في الطبيعة وفي النزعة الصوفية إذ كان فنا كبيرا في كل ما ألم به من موضوعات .

### محمد<sup>(١)</sup> بن يوسف القيسي الثغري التلمساني

أهم شعراء الجزائر في المائة الثامنة لعهد أبي حمو موسى الثاني، وكان يعاصر كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبي جمعة التللسي وعبد المؤمن بن يوسف المديوني ومحمد بن صالح الشقروني وابن ميمون السنوسي ومحمد بن علي العصامي ويحيى بن خلدون وغيرهم كثير. وليس بين أيدينا ما يشير إلى التكوين الأدبي للثغري ، غير أن بيئته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء ، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبي يختار للعمل في دواوين الدولة ، واختير الثغري وأصبح كاتب الإنشاء لأبي حمو الثاني، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثاني ( ٧٦٠-٧٩١هـ ) يرفعى الأدباء ويجزل لهم العطاء ، وكان أدبيا كما كان شاعرا كبيرا فطبعي أن يعنى بالأدباء والشعراء لعهدده وأن يكون لشاعره محمد بن يوسف الثغري حظ كبير من هذه العناية . وكان قد استنَّ الاحتفال بالمولد النبوي منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية وكذلك شعراؤه وفي مقدمتهم الثغري ، وكانوا يستطردون فيها من مدح الرسول ﷺ إلى مديحه ، وسنلم بذلك في حديثنا عن المديح النبوي إنما تهمنا الآن مدائح الثغري في أبي حمو موسى الثاني وابنيه أبي ناشفين وأبي زيان، ومن قصيدة يمدح فيها أبا حمو :

يا إمام الهدى وشمس المعالي	وغمام الندى وبدر النوادي
لك بين الملوك سر خفي	ليس معناه للعقول بيادي
وكان البلاد كفك مهما	كان فيهما ينتمى لعناد
لم تزل دائما تحن إليكم	كحنين السقيم للعواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا	طاعة أرغمت أثوف الأعدا
فأريحوا الجياد أتعتموها	وأقروا السيوف في الأغمار

وهو يشيد به ، فيجعله إمام الهدى وشمس المعالي وسحاب الكرم والبدر المضيء الهادي ويقول إن له سر اخفيا بين الملوك جعله محبوبا من شعبه ، وكأنما يقبض على البلاد بكفه ، بل هي كفه ، حتى لو كان فيها خارج عليكم ، وإنها لاتزال تحن إليكم حنين السقيم للعواد ،

فهارسهما) وكذلك فهارس الجزء الثامن من نفع الطيب وأزهار الرياض ٢/٣٢٩ وما بعدها .

(١) انظر في محمد بن يوسف الثغري التلمساني كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٢٩٤ وبنية الرواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بنى زيان لمحمد بن عبد الله التتسي ( انظر



فأنت بلسمها المداوى الشافى . ويقول إن البلاد جميعا تطيعك فأرح الجياد التى طالما أتعبتها وأقر السيوف فى أغمادها وعش قرير العين مطمئن البال . وله فيه من أخرى أشاد فيها بتلمسان ومشاهدها إشادة بديعة ، وفيه وفى قبيلته بنى عبد الواد يقول :

فُرسانُ عبد الوادِ آسادُ الوغى	حاموا الذمارِ أولو الفخارِ الأطولِ
وإذا أمير المؤمنين رأيتَه	فالثم ثرى ذاك اليساط وقبَل
بُشرى لعبدالوادِ بالملك الذى	خلصوا به من كل خطبٍ مُعضلِ
وكفاهمُ سعدًا أبوحمو الذى	يحمى حماهم بالحسامِ الفِصلِ
وبحسنِ نيتِه لهم وبجدهُ	وبسعدِه وسعيه المتقبَلِ
ذو الهمة العُليا التى آثارها	حلَّت به فوق السَّماكِ الأغرلِ

وهو يشيد بفرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون الحمى ، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة ، وبشرى لعبد الواد ملكهم الذى خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة ، ويكفيهم سعدا أنه أبو حمو حامى حماهم بشجاعته الباسلة وهمته القعساء التى حلَّت به فوق نجم السماء المصعد فى السماء . وكان مايزال ينظم مولديات فى احتفال أبى حمو بليلة المولد النبوى وكان يستطرد فيها إلى مديحه دائما بمثل قوله فى إحداها :

ظفر التقى والعدل من موسى الرضا	بالجوهر الفرد الذى لا يُتأم
ياأيها الملك التقى ومن له	شرفٌ على سَمَكِ السَّماكِ مخيم
أعطيتَ بالعدل الخلافة حقها	فملوكها فى حقها لك سلّموا
جودٌ وإحسانٌ وقصدٌ فى الهدى	حسنٌ و عقد فى التقى مستحکم
وتواضعٌ يعلى وقدرٌ يعتلى	وندى يدِ تَهْمى وبشرٌ ييسم
والحلمُ أوسع والجناب مؤمّل	والعزُّ أمنع والسجّية أكرم

وهو يقول إن التقى والعدل جميعا ظفرا من أبى حمو بالجوهر الفرد الذى لا نظير له ، وإن تقاه ليخلع عليه شرفا يسمو به فوق نجم السماء الأعلى ، وبالمثل عدله الذى يسبغ على الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلمون لك عن يد ، وهذا أنت جود وإحسان وهدى وتقى وتواضع ومكانة كبيرة وكرم يهمل ويهمل وبشر ييسم وحلم أوسع وكنف مؤمّل وعز منيع وسجايا كريمة . ويظل يرصف له فضائل كريمة كثيرة . ويتحول الثغرى بعد أبى حمو الثانى شاعرا لابنه أبى تاشفين (٧٩١-٧٩٥هـ) وينشده مولديات يستطرد فيها إلى مديحه من مثل قوله فى الاحتفال بليلة سابقة لليلة المولد الشريف :



إمامٌ تولَّى اللهُ تشييدَ فخريه  
يعدُّ إلى الأعداء كلَّ كِيَّةِ  
يُهَابُ وَيُرْجَى فِي جلالِ جماله  
فيا مالكا يحمي الرعيَّةَ رعيُّه  
ويكفلهم بالعدل والفضل والندي  
فما شئت من مجدٍ ومن كرمٍ عِدُّ  
بها الجرُّدُ تَرْدِي والقوارسُ كالأسدِ  
كليثٍ وغيثٍ في وعيدٍ وفي وعدٍ  
ويحييهم بالبذل والعيشة الرغدِ  
ويشملهم بالجدود والرفق والرُفْدِ

وهو يمدح أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض ، ويقول إنه يعد إلى الأعداء كتائب تضرب خيلها الأرض بجوافرها الصلبة ويضرب فرسانها الأعداء ضربات مصمية ، وإنه ليهاب كليث في وعيده ويرجي كفيث في وعده ، ودائما يحمي الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرفق والجدود والكرم المدرار . ويلحق الشاعر عصر أبي زيان ( ٧٩٦ - ٨٠١ هـ ) وفيه يقول من ميلادية طويلة :

لئن كان بحرا في العلوم فإن في  
وما همُّه إلا كتابٌ وسنةٌ  
فَنَسَخُ كتابِ اللهِ جَلُّ جلاله  
وَمَنْ كان يعتدَّ الشفاءَ شفاءه  
ولم أدر والأوراقُ راقَتْ بخطه  
ألا هكذا فليسم للمجد مَنْ سَمَا  
بَنان يديه للندي أبحرا عَشرا  
ينسخهما قد أحرز الفخر والأجرا  
وَنَسَخُ البخاري ضامنان له النَّصْرَا  
فمن علل الأوزار في نسخته يثرا  
أمسكا على الكافور يُنثرُ أم جيرا  
ويُجرى لآساد الفضائل من أجرى

وكان أبو زيان كلنا بالعلم كما وصفه التنسي ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة ومحاضرة ، وكان غيثا مدرارا في الجود والكرم ، وجعل همه - كما يقول الثغري والتنسي - كتابة نسخ من المصحف الشريف ، وتحتفظ الخزانة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة ، وهي على رق غزال ومحللة بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب . وكتب نسخة من صحيح البخاري ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض . ويحق ما يقوله الثغري من أن من يعتد شفاء القاضي عياض شفاء له يبرأ به من جميع الأوزار فما بالك بمن يعتد بالبخاري وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم . ويقول الثغري إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا مشورا على الكافور ، وما أعظمه من مجد حققه لنفسه أبو زيان ، وهو مجد خليق بأن يتسابق إليه المتسابقون ويتنافس فيه المتنافسون . ولم تذكر المراجع متى توفي الثغري ، وأكبر الظن أنه توفي في آخر القرن الثامن لوفى أوائل التاسع الهجري .

## الشهاب<sup>(١)</sup> بن الخلوف

هو شهاب الدين أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن الخلوف لقباً الحميري نسباً ، ولد لأبيه في قسنطينة سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م وقصد بابه بعد ولادته تَوَّأ لأداء فريضة الحج ، وظل مجاوراً بمكة أربع سنوات ، وبارحها إلى مدينة بيت المقدس واستقر بها حتى توفي سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م . وفيها نشأ ابنه الشهاب ، فحفظ القرآن واختلف - بعد حفظه - إلى حلقات الفقهاء واللغويين والقراء وغيرهم من العلماء ، واستوعب كثيراً مما عندهم ، وشُغف - منذ صباه - بالأدب شعراً ونثراً كما يحكى الدكتور هشام بوقمرة محقق ديوانه في مقدمته له ، إذ ذكر أن الشاعر قال في إحدى مخطوطات ديوانه : « كنت عَجِينٍ ولع بعصفورى النظم والنثر في الصبا ، مستوهباً من دوحتهما نسمتي القبول والصبا ، مقتطفاً لزهريتهما من رياض الآداب ، ملتقطاً لدرتيهما من أصداف الطلاب<sup>(٢)</sup> ، لا أسلك وادياً لم يترنم فيه حمامهما ، ولا أعكف على حديقة لم يمطر فيها غمامهما ، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما<sup>(٣)</sup> ولا أخوض بحراً لم تتكون فيه جواهرهما إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب ، واحتويت من كنانتيهما<sup>(٤)</sup> على كل سهم مصيب » . وسرعان ما تفتحت موهبته الشعرية ، وأعجب بشعره أبوه ، فأمل أن يكون له شأن بين شعراء تونس ، فنصحته بالهجرة إليها في تاريخ غير معروف ، ويظن أنه هاجر إليها في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ يظفر بغير قليل من إعجاب الأدباء ، مما أتاح له وهو في السادسة والعشرين أن يكون في مقدمة المهتمين لسلطان تونس عثمان الحفصي ( ٨٢٨ - ٨٩٣ هـ ) باقتران ابنه وولي عهده المسعود من ابنة عمه سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م وأعجب به السلطان وابنه المسعود فعاش في حاشيتهما واتخذ المسعود كاتباً له ، وكان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، ولذلك كان يلقب في حياته بصاحب الصناعتين . ويشكو مراراً وتكراراً في مدائحه للسلطان عثمان وابنه المسعود من حساده ومنافسيه ، ومن أهمهم زميله في الكتابة بديوان المسعود الشاعر محمد الخير الملقى الذي كان يكثر من معارضة أشعاره . وظل ابن مخلوف يلازم المسعود حتى سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣ م إذ يعزم فيها على أداء فريضة الحج ، ويؤديها ويظل في القاهرة نحو أربع سنوات تنعقد فيها الصداقة بينه وبين مؤرخ مصر الكبير السخاوي صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وقد ترجم له فيه ، ويقول عنه إنه : « حسن الشكل والأبهة ظاهر النعمة طلق العبارة بليغ بارع في الأدب ومتعلقاته »

(١) الديوان الدكتور هشام بوقمرة ( طبع تونس ) وله طبعة قديمة في القرن الماضي غير محققة .  
(٢) الطلاب : المطلوب .  
(٣) زواهر : جمع زاهر : النجم المضيء .  
(٤) الكنانة : جعبة السهام .

(١) انظر في ترجمة الشهاب بن الخلوف رحلة عبد الباسط بن خليل المصرى إلى المغرب ودرة المجال لابن القاضي والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي وشذرات الذهب لابن العماد وبيل الابتهاج للتبكي واتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف وتاريخ الأدب التونسي لحسن حسنى عبد الوهاب ومقدمة محقق

ويصفه بالظرف وحسن الهيئة . وعاد إلى تونس سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧ م ويعود إلى الكتابة عند المسعود ، ويقول الدكتور هشام بوقرة إن المسعود جفاه سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٤ م ولم يلبث أن رضى عنه سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦ م وظل كاتباً له حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م وفى نفس السنة توفى السلطان عثمان الحفصى ، وخلفه حفيده يحيى بن المسعود بوصية منه ، ولم يدر العام حتى قتل فى معركة مع ابن عمه عبد المؤمن والى بجاية ، واستولى عبد المؤمن على صولجان الحكم فى تونس ، ولم يهنأ به طويلاً فقد ثار منه زكريا بن السلطان يحيى المقتول فى أوائل خريف العام التالى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م واستولى على أزمة الحكم ، وصور ذلك ابن الخلوف فى رائية له يمدحه بها قائلاً :

حُزَّتْ الخِلافةَ عاصباً لا غاصباً      والحق ورتك النفيس المدخر

وهو يقول له إنك حزت الخلافة أو السلطنة عاصباً أى عن طريق الإرث عن الآباء لا غاصباً عن طريق الظلم والعدوان ، واجتاح تونس سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م طاعون توفى فيه السلطان زكريا وأيضاً توفى فيه الشهاب بن الخلوف ، وربما توفى قبله بقليل . ونجده لا يكفى بما ينظم من الشعر فى أغراضه المعروفة من المديح والثناء والغزل والخمريات والوصف وغير ذلك من الأغراض التى رتب عليها الدكتور هشام بوقرة ديوانه ، إذ نظم كثيراً من الشعر التعليمى وله فيه منظومات كثيرة ، فقد نظم كتاب المعنى لابن هشام كما يقول مترجموه وله فى النحو أيضاً منظومة فى صيغ الأفعال ، ونظم كتاب التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى ، وله بديعية صور فيها ألوان البديع ومحسناته لعصره ، وله أرجوزة فى علم الفرائض ، وله فى العروض تحرير الميزان لتصحيح الأوزان . وله بجانب ديوانه المذكور آفا ديوان فى المدائح النبوية سماه « جَنَّا الجنتين » ويشيد مترجموه به إشادة رائعة . ونراه يستهل ديوانه العام قبل أغراضه المختلفة ببعض قصائد وأزجال وموشح فى المديح النبوى ، ويبدو أن له كثيراً من الأزجال فى أغراض مختلفة ، وبالمثل له موشحات متعددة . وهو مداح كبير ، وقد ظل طوال أربعين عاماً يمدح السلطان عثمان الحفصى وابنه المسعود فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، ويلزمهما ملازمة المتنبى لسيف الدولة ، ومن قوله فى السلطان عثمان :

إمامَ بَراهِ اللّهُ أُولى عِبادِهِ	بِحَقِّ وَأَهْدَاهِمَ لِأَوْضَحِ حُجَّةِ
تَوَمَّلْ نِعْمَاهُ وَيُخَشَى انْتِقَامُهُ	لِطَالِبِ سِلْمٍ أَوْ لِطَالِبِ فِتْنَةٍ
يَصُولُ وَيَحْمَى شِرْعَةَ نَبَوِيَّةِ	بِسُمْرِ رِشَاقٍ أَوْ بِيِضِ جَلِيَّةِ <sup>(١)</sup>
لَهُ دَوْلَةٌ أَرَبَتْ عَلَى كُلِّ دَوْلَةٍ	بِتَأْيِيدِ أَرَاءٍ وَتَأْيِيدِ نُصْرَةٍ
يَحْنُ إِلَى الْمَعْرُوفِ حَتَّى يُنِيلَهُ	كَأَنَّ مَشْتاقاً لَوْصَلَ الْأَحْيَةَ

(١) السمر : الرماح . البيض : السيوف .



وهو يقول إنه إمام اختاره الله لرعيته لأنه أولاهم بحق الخلافة وأهداهم لأوضح حجة دامغة ، وإنه ليوزع نعماءه وعطاياه على طلاب السلم المطيعين بينما ينزل نقمه على طلاب الفتن العاصين ، وإنه ليحمي الشريعة النبوية ويدود عنها بالرماح والسيوف المصمية ، وإن دولته لتسمو على كل الدول بالآراء الصائبة والانتصار الساحق ، وإنه يصبو دائما إلى بذل المعروف والأعمال الخيرة كما يصبو المحب إلى وصل محبوبته ، ويقول فيه من أخرى :

تملك رِقَّ الجود واستخدم الغنى	فلم يبق عانٍ يشتكى أُمَّ الفقير <sup>(١)</sup>
إذا مادعاه العسرُ يا محيي الوفا	بدا فدعاه اليسرُ يا قاتل العسر
رَوَى الفضلُ أخبارَ التقى عن كإله	كأنم عن طيب الرُّبى طيبُ النُّشر <sup>(٢)</sup>
لقد ذُكرتُ للأولين فضائلُ	ولكن هذا الفضل لم يجز في ذكر
سخاءٍ يد تروى الجداول ماءها	عن السيل عن قطر الغمام عن البحر
ومجدٌ كما تروى الأشعة نورها	عن البرق عن زهر النجوم عن البدر
وحسبك يافرع المكارم والعللا	أصول زكت في روضة المجد والفخر

وهو يصفه بأنه استرق الجود وامتلكه وأصبح الغنى أو الثراء له خادما يرسله ويوزعه كيف شاء حتى لم يبق بائس يشتكى أُم البؤس والفقر ، ويتخيل أن العسر ناداه يا محيي الوفاء ، ولم يكذب ويبدو ويظهر حتى ناداه اليسر يا قاتل العسر : كناية عن كرمه الفياض ، ويقول إن الفضل والتقوى ينمان عن كإله ونبيل خلقه وشمائله كما ينم الشذى العطر عن طيب الرُّبى وأزهارها الأرجة ، وينوه بفضله ويقول إنه يفوق فضائل الأولين ، فلم تنطق الألسنة بفضله يمانه ، ويشيد بسخائه وكرمه ، ويقول إن مياهه لتغمر أنحاء تونس وكأنما تفيض عن سيل ، عن غمام منهمر ، عن بحر تندفق أمواجه ، وهي مبالغة شديدة . ومثل ذلك قوله إن مجده كما تروى الأشعة نورها الساطع عن البرق عن النجوم المضيئة عن البدر ، ويقول له حسبك الأصول التي نمت في روضة المجد والفخر الذي ليس مثلها فخر ولا مجد . وله ينشد في إحدى مدائحه :

ملك إذا هز الحسام بكفه	خرت لبارق رَعده الخُرصان <sup>(٣)</sup>
لو فرقت عزماته وهباته	في الناس لم يك باخل وجبان
ويرى العواقب في صحيفة فكره	فكأنما أفكاره كهُمان
تُعزى إلى الغيث السكوب هباته	هيهات أين الغيث والظوفان
يُصغى الزمان لأمره ولنهيته	وتطيع الانس لحكمه والجان

(٣) الخرصان : السيوف يريد سيوف الأعداء .

(١) عان : بائس فقير .  
(٢) النشر : الرائحة الذكية الساطعة .

وتراه ما بين الأسنة سافرا  
أنت الإمام ومن عداك رعية  
كالبدر دارت حوله الشهبان<sup>(١)</sup>  
أنت المقدم والورى أعوان

وهو يقول له إنه مفرط الشجاعة حتى إذا صال في ميادين الحروب وهز حسامه سقطت  
السيوف من أيدي أعدائه هيبة ورهبة ، ويمضى الشاعر في مبالغاته فلورزعت هباته وعزماته  
في الناس لم يبق بخيل ولا جبان ، ويبلغ من نفاذ بصيرته أن يتنبأ بعواقب الأمور وأن تحدث  
طبق تنبؤه ، حتى لكأن تنبؤاته أفكار كهان يصرون الغيب ويخبرون به ، وإن هباته لتعزى  
إلى الغيث المنهمر ، بل أين الغيث منها والطوفان ، وقد بلغ من عظم السلطان أن أصبح الزمان  
يصدر عن أمره ونهيه وأصبحت الإنس تطيع حكمه والجنان ، وإنه ليخوض الحروب بين  
السيوف والرماح بوجه مشرق كالبدر تحفّ به النجوم الساطعة ، ويقول له إنك الإمام والرعية  
من حولك أعوان ونصراء . وله في مديحه موشحة بديعة ، يقول في تضاعيفها :

قابل النور ظلمة الخلك  
ورقا النجم ذروة الفلك  
بأبي عمرو الرضا الملك  
من روى المجد عن علا عمر  
وسرى في النهى على قدر  
لو رأى البدر وجهه الطلقا  
لو رأى الغيث جوده الغدقا  
فاق خلقا وقد حوى خلقا  
بوا الملك رتبة الظفر  
ومحى عزمه دجى الغير

بمصباح منير<sup>(٢)</sup>  
خائفا مستجير  
من سعي الهجير<sup>(٣)</sup>  
يطريق الصبحاح  
بمطايا الفلاح  
لاعتراه السجود  
لاستحى أن يجود  
قارتنه السعد  
بعوال الرماح  
بصبح الصفاح<sup>(٤)</sup>

والموشحة طريفة ، وهو يستهلها بوصف الطبيعة وصفا بديعا ويخرج منه إلى مديح أبي  
عمرو عثمان الحفصي وكأنما يتخذ من نور الفجر رمزا لحكمه الرشيد ، وكان الوقت صيفا  
والقيظ شديد الحرارة ، فقال إن النجم علا ذروة الفلك مستجيرا بالسلطان أبي عمرو المحبوب  
من نار الهجير ، ويقول إنه روى مجده عن آبائه المنتسبين إلى عمر بن الخطاب نسبة صحيحة  
أو بطريق الآثار الصفاح كما يقول ، ويمضى في مبالغاته فلورأى البدر وجهه المستبشر لخر  
ساجدا ولورأى الغيث جوده المدرار لعلاه الخجل والاستحياء ونوه به خلقا وخلقنا ، ويدعو

(١) الشهبان جمع شهاب : النجم المضيء والشعلة  
الساطعة .

(٢) المنير : نصف النهار في القيظ .

(٣) الهجير : السيوف . الغير : الأحداث .

(٤) الصفاح : السيوف . الغير : الأحداث .

(٢) الخلك : سواد الليل

له أن يقترن هو وحكمه بالسعود . ولعل صوت الشهاب بن الخلوف اتضح لنا اتضاحا تاما ، وهو صوت يكتظ بالعدوية والسلاسة وصفاء التعبير ويجمع بين الرقة والمتانة ، وكأنما يستمد من معين لا ينضب ، معين زلال ممتع دون أن يكلفك أى عناء فى فهم لفظة أو عبارة ، إذ كان يشغف بالوضوح التام كل الوضوح .

محمد<sup>(١)</sup> القوجيلي

من كبار شعراء مدينة الجزائر فى القرن الحادى عشر الهجرى لعهدا العثمانى ، ولا تعرف شيئا واضحا عن نشأته ، غير أن من المؤكد أنه عكف على حفظ القرآن الكريم فى صباه مثل لداته ، حتى إذا أتقن حفظه وجوَّده على قرائه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الفقه والحديث النبوى والعربية والأصول والتوحيد والبيان والبلاغة ، وتميز فى علمه بالفقه والشريعة ، مما أعدّه ليصبح قاضيا من قضاة الدولة . وشغف مبكرا بالشعر ، وأخذ ينهل من دواوينه حتى استقامت له ملكته الشعرية . وسرعان ما أصبحت ملكته خصبة ، واتجه بها أول ما اتجه إلى المشاركة فى الشؤون السياسية والتعبير عن أمانى أمته الجزائرية ، وكان من أهم أمالها فى بواكير شبابه تخليص وهران من أيدي الإسبان الذين طال احتلالهم لها منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، ونراه حين ولى الجزائر أحمد باشا سنة ١٥٩٩/هـ ١٠٠٧م يهتف بولايته ويحضه على الجهاد ضد الإسبان حتى ينهزم جمعهم فى وهران ويولون عنها فرارا ، بل حتى يسحقهم سحقا لا يبقى منهم باقية ، يقول :

فرحتَ جزائرنا بكم وتأنستُ	بمقامكم فيها بحال حُبور <sup>(٢)</sup>
فلتلتفتْ نحو الجهاد بقوة	والكفرِ فاقطعْ أصله بذكور <sup>(٣)</sup>
وبغرّينا وهرانُ ضيرسٌ مؤلمٌ	سهلٌ اقتلاعٍ فى اعتناءٍ يسير
فانهضْ بعزمك نحوها مستنصرا	بالله فى جدٍ وفى تَشْمِير
بعساكرٍ مثل السيول تراحمتْ	للسبق تحت لوائك المنصور

ونرى القوجيلي يتحول من دعوة الوالى لجهاد الإسبان وفتح وهران إلى نصحه بأن يصرف للعلماء والأدباء شعراء وكتابا إعانات تعينهم على العيش الكريم ، إذ كان ولاية العثمانيين على الجزائر لا يفهمون العربية ، فكانوا لا يعنون برجال الدين فضلا عن الشعراء والكتاب وساعد على ذلك أن ديوانهم - حينئذ - كان تركيا خالصا ، فلم يعد للأدب ولا للعلم سوق رائجة فى عهدهم ، مما جعل القوجيلي يدعو الوالى الجديد إلى تلافى ذلك حتى لا تتكسر الحركة العلمية والأدبية ، وإنه ليهتف بالوالى العثمانى :

(٢) حبور : سرور .  
(٣) الذكور جمع ذكر : السيف الصلب القاطع .

(١) انظر فى ترجمة محمد القوجيلي كتاب أشعار جزائرية تحقيق د . أبو القاسم سعد الله وما ذكره عنه فى كتابه تاريخ الجزائر الثقافى ( انظر الفهرس ) .

العلمُ ميراثُ النبوة ناله  
كم في بلادك من نجيب حافظٍ  
ومحققٍ ومدققٍ ومناظرٍ  
لكنهم فقدوا الإعانة واغتمدوا  
ضاعوا وجاعوا لا محالة وابتلوا  
قومٌ لهم حظٌ من التنويرِ  
ومشاركٍ في النظم والمثورِ  
من كل دراك الحِجَى نحريرِ  
ما إن يراعيهم ذور التأميرِ  
في ذا الزمان الصعب بالتقيرِ

وهو يقول له إن العلماء ورثة الأنبياء ، وكم في البلاد من حافظ محدث وشاعر وكاتب وفقه محقق وعالم مدقق ومناظر يدرك براهين الحجى والعقل نحرير حاذق في عمله كل الخدق ، غير أنهم فقدوا ما يسد رمقهم ، وابتلوا في العصر بالتقير والتضييق عليهم في النفقة ، إذ لا يراعيهم أمراؤهم أو ذور التأمير .

ويصبح القوجيلي قاضيا في تاريخ غير معروف ، وتدل تلك الوظيفة على ما حاز لنفسه من الدراسات الدينية وخاصة الفقه وما عرف به من القدرة على الفتوى السديدة ، وأكب على دراسة الحديث مما جعله ينظم عملا شعريا حول الجامع الصحيح للبخارى سماه : « عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع » وهو منظومة في مخرجى أحاديث البخارى وعدد الأحاديث التى لكل منهم مع بيان المكث منهن والمقل فى السند على ما أورده ابن حجر المصرى وزاد عليه تراجم الرواة . ويبدو أنه كان يضيف إلى اشتغاله بالقضاء اشتغاله بتدريس الفقه والحديث للطلاب . ويتولى صديق له الفتيا يسمى أبا عبد الله محمد بن قرواش ، ويتصادف حدوث زلزال عند توليه ، فيتطير من ذلك ، فيمدحه بقصيدة محاولا فيها أن يجعل الزلزال بشرى لفرح الأرض بتوليه هذا المنصب الدينى الجليل قائلا :

إهنا أبا عبد الإله بخطبة  
والأرض قد فرحت بما خوئتم  
وتحركت أرجاؤها طربا بكم  
بل إنما ماست لذلك نخوة  
جاءتكم وهى لدى الزمان جمال<sup>(١)</sup>  
مرحت بسائطها ومال جبال<sup>(٢)</sup>  
ما مسها رجف ولا زلزال  
حتى لقد رقصت بنا الأطلال<sup>(٣)</sup>

والآيات تدل على أن ملكته الخيالية كانت خصبة ، وأنه كان يعرف بها كيف يجعل ما قد يظن أنه نحس أو شوم فألا حسنا لفرح وسرور وحياة هنيئة طيبة . وانعقدت صداقة متينة بينه وبين الفقيه الحافظ على بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى الذى هاجر بأسرته من مدينته سجلماسة بالمغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر حوالى سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م واتخذها وطنا ثانيا له حتى وفاته سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م وكان عالما متبحرا فى جميع العلوم الدينية

الأرض .

(٣) ماست : اختالت .

(١) يريد بالخطبة منصب الفتوى .

(٢) خوئتم : أعطيتم . ويريد بسائطها : التبسط من



واللغوية والبلاغية ، وطارت شهرته في إقليم الجزائر والمغرب الأقصى وقصده الطلاب من كل فج ، ونرى القوجيلي يمدحه بقصائد متعددة . وهي ظاهرة كبرى في العهد العثماني بالجزائر أن نرى الشعراء منصرفين بمدائحهم عن الولاة العثمانيين إلا قليلا ، لأنهم كانوا تركا ولم تكن كثرتهم تفهم العربية فضلا عن إحسانها ، فقل منهم من فتح أبوابه للشعراء إلا نفرا محدودا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ولذلك انحاز الشعراء الجزائريون بمدائحهم عن الولاة العثمانيين وأخذوا يسبغونها على الشيوخ من العلماء الأجلاء ، على نحو ما نرى عند القوجيلي في إكثاره من مديح الحافظ الفقيه علي بن عبد الواحد الأنصاري ، يمدحه - كما يمدح أمثاله من الشيوخ - لا طلبا لنوال أو عطاء ، وإنما تجلّة وعرفانا لهم بالفضل وما أوتوا من العلم النافع . ومن مديح القوجيلي للشيخ الأنصاري قوله في إحدى مدائحه :

أبو الصلاح عليّ في الكرام علا	من لا يماثله في الناس من أحد
بحرّ طمى فرمى ذرّاً للقطب	غيث همى فتما نفعاً لمجتهد <sup>(١)</sup>
أكرم بمجلسه السامي فقد ظهرت	لنا به نفحات العون والمدد
تلاطمت فيه أنواع العلوم كما	تلاطم البحر بالأمواج والزبد
من يخرم الرى من صافى مشاربه	يعض من ندم في شفة ويد

وهو ينعت الشيخ الأنصاري بالصلاح حتى يجعله آياه ويرفعه درجات فوق الناس قائلا إنه لا يماثله أحد من العلماء ، يريد من نظرائه الفقهاء ، ويشيد بمجلسه العلمي وما يعرض فيه من نفحات العلوم ، بل يقول إنه تتلاطم فيه تلاطم الأمواج والزبد في البحر المتوسط ، ويقول إن من لا ينهل من صافى علومه يندم ندما شديدا . وله يقول في مدحة ثانية :

علامة أحياء العلوم وقد	خفيت معانيها على الكثير
يا طالباً للعلم هل لك في	رشد وفي الإكثار من خير
اقصد لمجلسه نل شرفاً	وتحوز فخراً أيما فخر <sup>(٢)</sup>
إن جئت مجلسه تجد عجا	منه العلوم تفيض كالبحر
بدراية ورواية ثبتت	بصحيح إسناد عن الغر <sup>(٣)</sup>

وهو يشيد بعلمه وتناهيه فيه أو بلوغه منتهاه ، حتى ليعده محبباً له ، وينصح طالب العلم أن يقصد إلى مجلسه لينال شرف العلم وفخره ، إذ سيجده يفيض على طلابه بسيول من علومه وسيجده يجمع بين الدراية والرواية ، وبعبارة أخرى بين المعقول والمنقول ، فهو من أهل الاجتهاد والرواية الوثيقة بأساتيد صحيحة عن رواة أعلام . وكانت قد حدثت اضطرابات في

(١) الأمر لضرورة الشعر .

(٢) الغر : الثقات .

(١) طبا : امتلاً . مى : سال .

(٢) رفع تحوز ولم يجزمها عطفاً على فعل تل في جواب



العقد الحادى عشر الهجرى وظن أن الباب العا

ونرى القوجيلى يذهب إلى إسطنبول على

من السلطان - وكان حينئذ محمد خان الرابع - موافقته على إصدار فرمان بتولية يوسف با

وما إن يضع القوجيلى قدمه فى تلك المدينة حتى يتجه بقصيدة إلى مفتى إسطنبول أبى سعي

يمدحه بها ويسأله أن يكون شفيح وفده

فيها :

سعدتَ فدمٌ فى العزِّ واستكمل العلياً

وكن ملجأً للوافدين فمن يُعِنُّ

شكايتنا مما دهانا بقطرنا

وكم من أميرٍ ظنَّ يكشفُ ضرَّه

وأولاهمُ فى العزمِ والحزمِ والوفا

فكن عوننا عند الخليفةِ وأمضينُ

سمى الذى فى السجن قد عبّر الرؤيا

بنا بين أيدينا لحضرتة العلياً

وهو يدعو للمفتى أبى سعيد بدوام العز واقتناء الرفعة والشرف ويرجوه أن يكون ملجأً

للوفد الجزائرى وعونا فى إنجاز مهمته عند الخليفة مشيراً إلى الحديث النبوى : « إن الله فى

عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » ويقول إن شكايتنا مما نزل بقطرنا الجزائرى مشيراً إلى

المنازعات فى السلطة وصراع الإنكشارية العثمانية ، وكل وال يظن أنه سيتلافى الاضطرابات

بها حتى إذا تولاهما عجز عن إصلاحها . وقال إن أصلح أمير لحكمها سمي الذى أول الرؤيا

فى السجن لصاحبيه أى أنه يوسف باشا سمي يوسف الصديق عليه السلام . ويطلب إلى المفتى

أن يتقدم وفدهم لدى الخليفة شافعاً لهم عنده فى تحقيق ما يأملون . ولا نعرف شيئاً عن القوجيلى

بعد هذه الوفادة ، وقد نجح فى مهمته ، وتولى يوسف باشا أمر الجزائرى . وعاد إلى موطنه ،

وظل به حتى وفاته سنة ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م وهو يعد من أتبه شعراء العهد العثمانى .

٤

شعراء الفخر والهجاء

( أ ) شعراء الفخر

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربى فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء طوال العصور

التالية إلى اليوم مثاليتهم وأخلاقهم الرفيعة من مثل المروءة والكرامة والجود والشجاعة إلى غير

ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة ، كما يتغنون عصبياتهم ومشاعرهم القومية ، ومن طريف

(٣) يلقى من ألقى : وجد . وهى : ضعف .

(١) المعلوات جمع معلوة : الرفعة والشرف .

(٢) ألقى : الضلال .

ها يلقتنا في الجزائر من فخر قول شاعرها ابن أبي الرجال الشيباني وزير المعز بن باديس مفتخرًا بقومه<sup>(١)</sup> :

يا آل شيبان لا غارت نجومكم  
 أنتم دعائم هذا الملك مذ ركضت  
 المنعمون إذا ما أزمة أزمست  
 سيوفكم أفقدت كسرى مرزبه  
 ولا خبت ناركم من بعد توكيد  
 قبل الخيول لإبرام وتوكيد  
 والواهبون عتيقات المزاويد<sup>(٢)</sup>  
 في يوم ذى قار إذ جاءوا لموعد

وهو يفتخر بقومه من آل شيبان ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة في سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متقدة لا تنطفىء أبداً ، إذ هم دعائم الملك العربي منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد الموائيق ، وقد اشتهروا بما ينعمون في الأزمات ويهبون من العطايا الجزيلة ، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذى قار الذي نكلوا فيه بالفرس تنكيلا شديداً : منقبة عظيمة لقبيلته شيبان في الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ . ونرى الحسن بن الفكون القسنطيني المتوفى بأوائل القرن السابع الهجري يفتخر ببلدته « بجاية » ومسقط رأسه قائلا<sup>(٣)</sup> :

دع العراق وبغداداً وشامهم  
 برّ وبحرٍ ومرجٍ للعيون به  
 حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع  
 والنهر كالصلب والجنات مشرفة  
 إن تنظر البرّ فالأزهار يانعة  
 يا طالبا وصنفها إن كنت ذا نصف  
 فالناصرية ما من مثلها بلد  
 مسارح بان عنها الهم والنكد  
 حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد  
 والنهر والبحر كالمراة وهو يد  
 أو تنظر البحر فالأمواج تطرد  
 قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

وهو يفضل الناصرية أو بجاية على بغداد ودمشق ، ويقول إنه ليس مثلها بلد جمعت بين البر والبحر ومشاهد مرج بأشجاره ونباتاته البديعة التي تزيل الهم والنكد حيث مجتمع الحب والهوى الطلق الذي يستروحه المحبون ، وحيث الثراء والمنى والعيشة الطيبة ، والنهر يجري كصلب أو أفحوان ، والجنات تحفه من كل جانب ، وكأنما البحر مرآة والنهر يدها الثابتة . إن تنظر إلى البر راعتك أزهاره ، وإن نظرت إلى البحر راعتك أمواجه المطردة ، وهي - بإنصاف - جنة الخلد ، وفيها الأهل وفلذات الكبد من الولد أو الأولاد . ويقول أحمد<sup>(٤)</sup> بن علي الملياني المتوفى سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٦ م :

(٣) تعريف الخلف ١٣٥/٢ .  
 (٤) تعريف الخلف ٦٨/٢ .

(١) المتخيات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ .  
 (٢) المزاويد جمع مزود : وعاء الزاد .

العزُّ ما ضُرِبَتْ عليه قبالي  
والزهرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتي  
فالمجد يمنع أن يزاحمَ مؤردى  
وإذا بلسوتُ صنيعةً جازيتها  
وإذا عقدتُ مودَّةً أجريتها

والفضلُ ما اشتملتُ عليه ثيابي  
والمسكُ ما أبداهُ نَقْشُ كتابي  
والعزمُ يأبى أن يُسامَ جنائي  
يجزِيلُ شكري أوجزِيلُ ثوابي  
مجري طعامي من دمي وشرابي

وهو يفخر فخرا مسرفا ، فالعز ما ضربت عليه خيامه ، والفضل ما اشتملت عليه ثيابه ، والزهر كلماته مما كتبه قلمه ، والمسك نقش كتابته ، وبلغ من المجد أن لا يزاحمه أحد في مورده كما بلغ من العزم أن لا يُرعى جنبه ، فحماته لا يسام ولا يضام ، وإذا اختبر صنيعة أو معروفا بادر بالشكر وجزيل الثواب ، وإذا عقد مع شخص مودة كانت غذاء لروحه وجرت مجرى الطعام من دمه وشرابه . ويفتخر ابن خميس شاعر تلمسان بعروته ودينه الحنيف ، منشدا :

إنا - بني قحطان - لم نُخلَقْ لغد  
بسيوفنا البيض اليمانية التي  
تأبى لنا الإحجام عن أعدائنا  
أنصار دين الهاشمي وحبّه  
وحماته بنفوسهم ونفيسهم  
من التبابعة الذين يبابهم  
ولأمرهم كانت تدين ممالك الب  
أبوابهم مفتوحة لضيوفهم

ير غياث ملهوف ومنعة لاجي  
طبعت لحز غلاصم ووداج<sup>(١)</sup>  
يوم اللقاء طهارة الأمشاج<sup>(٢)</sup>  
وحماته في الجحفل الرجراج<sup>(٣)</sup>  
من غدر مغتال وسورة هاج<sup>(٤)</sup>  
كانت تنيخ جباة كل خراج<sup>(٥)</sup>  
لدنيا بلا جبر ولا إخراج  
أبدا بلا قفل ولا مزلاج

وهو يفخر بأصوله من بني قحطان اليمين الذين إما خلقوا لغياث الملهوف وحماية اللاجيء لهم بسيوفهم اليمانية التي صيغت لقطع الرقاب ، وإن أتسايهم لتأبى لهم الإحجام عن لقاء أعدائهم وسحقهم ، ومعروف أن أنصار الرسول ﷺ من أهل المدينة كانوا يمينين أو من أصول يمنية ، وهو لذلك يفخر بنصرتهم للرسول وأنهم كانوا حماته حين تنشب الحروب حموه بنفوسهم وبكل ما يملكون من غدر مغتال ومن حدة هاج إذ كان منهم حسان بن ثابت وغيره من شعرائهم الذين كانوا يذودون عن الرسول وصحبه ضد شعراء قريش وأهاليهم . ويفخر بأن منهم قديما التبابعة ملوك اليمن وأمرائها في الجاهلية الذين كان يُجيبى لهم الخراج من أنحاء دولتهم ، وكانت ممالك الدنيا تدين لهم طوعا لا قسرا ، وبلغوا من جودهم أن كانت

(١) طبعت: صيغت. الغلاصم جمع غلصمة : الخلق .  
الوداج : عرق في العنق إذا قطع انتهت حياة المذبوح .  
(٢) الأمشاج جمع مشج : النطفة .  
(٣) الجحفل الرجراج : الجيش الذي لا يكاد يسير  
لكثرته  
(٤) سورة : حدة  
(٥) تنيخ : تنزل .

أبوابهم مفتوحة لضيوفهم دائما لا تغلق أبدا . ويعتلى عرش دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية أكبر شعراء الفخر في الجزائر على مر العصور ، وأقصد أبا حمو موسى الثاني ، وحرى أن أقف قليلا لأترجم له وأعرض أطرافا من فخره .

### أبو حمو<sup>(١)</sup> موسى الثاني

ولد أبو حمو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن في أواخر مقامه بخرناطة في بلاط سلطانها أبي الوليد بن فرج سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م وفي تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول ( ٧١٨ - ٧٣٧ هـ ) ولّبوه وأكرمهم وأعلى مكائهم بين أمراء الأسرة ، وبذلك كان منشأ أبي حمو موسى ومرباه الأول في تلمسان حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس ، وعلى شيوخها أتم أبو حمو موسى تعلمه ، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عميه أبي سعيد وأبي ثابت سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م حتى إذا فتك بهما السلطان أبو عنان المريني سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م رأينا أبا حمو موسى يقصد تونس وسلطانها أبا إسحق فأكرمه غاية الإكرام ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧ م واستولى فيها السلطان المريني أبو عنان على تونس ارتحل أبو حمو مع السلطان الحفصي إلى إقليم الجريد جنوبي الإقليم التونسي ، واضطرت الظروف أبا عنان بالعودة إلى فاس مع جيشه في السنة التالية ، وعاد السلطان الحفصي وأبو حمو موسى إلى تونس ، والتف حوله عرب الدواودة وأخذ يستعين بهم في مطاردة المرينيين ، وسارعت إليه قبيلة بني عامر شيعة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة ، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد الهلالية وهزمهم هزيمة ساحقة ، وجاءه عقبها نبأ وفاة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذي الحجة سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٨ م فصمم على أخذ تلمسان ، وبايعه جميع من كان معه في الخامس من محرم سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وجد في السير مع جموعه من العرب وغيرهم ، وتسامح به كل من كان في طريقه إلى تلمسان ، وكان أبو عنان ولي عليها ابنه محمداً وترك معه حامية ، فحاصره أبو حمو مدة كانت فيها مناوشات ، وتيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنازلة أبي حمو ، فطلبوا الأمان ، وأسلموا تلمسان إليه وبايعه أهلها حين دخلها في غرة شهر ربيع الأول ، ويقول التنسي إنه « ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاً عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه ، وعاق يرضيه ، وسيف لحماية الدين يُنضيه ، وسبيل إلى رضاء الله تعالى ورسوله يقضيه » . وقد غير اسم الدولة ، إذ

ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسي ص ١٥٧ وما بعدها وكتاب أبو حمو موسى الزياني : حياته وأثاره للدكتور عبد الحميد حاجيات .

(١) انظر في ترجمة أبي حمو موسى الثاني تاريخ ابن خلدون والجزء الثاني من بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بني زيان



كان اسمها بنى عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم ، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان والديغمراسن مؤسس الدولة . وقد أعاد لها عزها وسلطانها واسترد لها بلداتها في الجزائر : وهران والجزائر وتونس ، وكثرت الحروب في أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية . وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبي سعيد وانصاعت له قبيلة عامر واستولى على مدينتي المدية ومليانة ، ونشبت بينه وبين أبي حمو وقائع ، واستطاع أبو حمو القضاء على ثورته في أواخر سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م وانهز السلطان عبد العزيز المريني فرصة تضعضع جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م وظل أبو حمو يتنقل في الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المريني سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م فعاد إلى عاصمته تلمسان ، وتبدأ منافسات بين ابنه وولى عهده أبي تاشفين وإخوته ويُغتال يحيى بن خلدون كاتب أبي حمو ومؤرخه في مؤامرة دبرها ولى العهد سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩ م حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م أغار السلطان أبو العباس المريني - واستولى - على تلمسان ، غير أن الأحداث في عاصمته فاس اضطرتته إلى العودة إليها سريعا ، وعاد أبو حمو إلى تلمسان . وتساء العلاقات سوءا شديدا بين ولى العهد أبي تاشفين وإخوته ، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبي تاشفين سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ويتجه إلى الحج . وما إن نزل بجاية حتى غير رأيه ، واتجه إلى تلمسان ، واستثار كل من كان في طريقه وأقبل إليها بجموعه ، وعلم ابنه أبو تاشفين ، فلاحق بفاس واستعان بسلاطنتها المريني ، وأعانه بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتلوا قتالا شديدا وكبا الفرس بأبي حمو وتوفى . وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزيانية وقد نهض بالعلم في دولته واشتهر بها كثير من العلماء في مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذى بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات للشيخ والطلاب . وكما نهض بالعلم نهض بالأدب ، ومن كتبه وشعرائه محمد بن يوسف الثغرى الذى مرت ترجمته ، ومنهم محمد بن على العصامى ومحمد بن صالح شقرون ، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوى احتفالا عظيما ، كان يبدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل وكان يُدعى إليه الناس من العامة والخاصة ، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن شعراء المدائح النبوية . وكان أديبا بارعا وله كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وسنلم به فى حديثنا عن النثر فى الجزائر . وكان يحسن نظم الشعر ، واحتفظ يحيى بن خلدون بكثير منه فى الجزء الثانى من كتابه بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، وجمع منه كثيرا الدكتور عبد الحميد حاجيات فى كتابه عن أبي حمو موسى ، وهو موزع بين فخر ونبويات مع مرثيتين لأبيه . ونراه عقب استقراره فى تلمسان وتماثل الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آباءه وكيف أخذ يعد جيشا لمنازلة المرينيين من قبيلة عامر واقتحامه للزاب وورقلة والحمادى

والتقاءه بالجنود المرينيين ويطشه بهم وتقدمه إلى وادى يسر ودخوله تلمسان عنوة ، وينهى القصيدة منشدا :

نظمتنا شتيت الملك بعد افتراقه  
شددنا له أزرا وشيدنا بناءه  
فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة  
وجاءت لنا من كل أوب ووجهة  
وقمنا بأمر الله في نصر دينه  
وفي كف ما قد أحدثت من مظالم

وهو يفتخر بأنه أعاد للملك الزياني المنهوب نظامه وسلطانه ، وشد أزره وقوته وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة ، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بابه معلين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه ، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية ووجهة تبايعه طوعا ، وإنه ليقوم بنصر دين الله ونشر العدل فى ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المرينيون من مظالم ، ويفتخر فى قصيدة ثانية من وزن المتدارك بسياسته الرشيدة فى الحكم قائلا :

أنزلت الناس منازلهم  
أحمى المظلوم وأنصره  
وأنا للحرب كعنترها  
وأنا موسى وأبو حمو  
سيفى إن صلت بقائمه  
وكذا كفاى إذا انبسطت

وتركت الظالم فى وجل  
وأقيم الحق على عجل  
وأنا فى السلم أخو جدل  
أصلح للملك ويصلح لى  
أدنى المراق إلى الأجل  
من كان مقلأ عاد ملى

فهو يسوس رعيته سياسة حميدة ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع ، وهى سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وإنه ليحمى المظلوم من ظالمه وينصره عليه ، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم ، وإنه شجاع شجاعة عتربن شداد فى الحرب ، أما فى السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة ، ويقول أنا أبو حمو موسى أصلح للملك بعدلى وحكمى التويم ويصلح لى ، وإنه لبطل فى الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين ، أما فى السلم فغيث بدرار وإن كفيه لتشران الأموال نثرا ، حتى ليصبح المقل الفقير مليئا ثريا ، ويقول مناخرا :

وما يسوى العلياء همنا جلاله  
بروق السيوف المشرفيات والقنا  
إذا هام قوم بالحسان النواعم  
أحب إلينا من بروق المباسم

وأحسنُ من قَدِّ الفتاةِ وخذها  
وأما صهيلُ السابحاتِ لدى الوغَى  
قدودُ العوالى أوخدودُ الصوارمِ<sup>(١)</sup>  
فأشجى لدينا من غِناءِ الحمائمِ  
إذا نحن جرَدنا الصوارمِ لم تعدْ<sup>(٢)</sup>  
لأغمادها إلا بجزْ الغلاصمِ<sup>(٣)</sup>

وهو يقول عن نفسه وقومه إذا كان الناس يهيمون بالحسان الجميلات فإننا لا نهيم إلا بالعلياء والمجد والشرف ، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفاتنة ، وأحسنُ عندنا من قَدِّ الفتاة وقوامها وخذها الجميل قدود الرماح وخذود السيوف الصوارم القاطعة ، وإن صهيل الخيل في الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذى طالما تغنى به الشعراء ، وترانا فى الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأغمادها إلا بجز الغلاصم والرقاب ، ويمضى فى القصيدة قائلا :

ألا أيها الآتى لظِلِّ جَنابنا  
وقوبلتَ منا بالذى أنتَ أهلهُ  
نزلتَ برَحْبٍ فى عِراضِ المكارمِ<sup>(٣)</sup>  
وفاض عليك الجود فيضَ الغمامِ  
بهمتُنا العلياً سمونا إلى العُلا  
وكم دون إدراكِ العُلا من ملاحمِ

وهو يشير من ينزل بجانبهم وفى كنفهم أنه ينزل برحب أو واسع فى عرصات أو ساحات المكارم ويقابل بما يليق به ، ويفيض عليه الجود فيض السحاب المطل . ويقول إنهم لذور همم عالية سمت بهم إلى العلا وكم دون إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة ، ويقول مفاخرًا فى انتصار له على الدولة المرينية :

لقد نهضتُ بعونِ الله متكلاً  
بعسكرٍ لَجِبِ ضاقَ الفضاءُ به  
على الإلهِ ومن يرموه لم يخبِ  
كالبحرِ أعظمُ به من عسكرٍ لَجِبِ  
من كلِّ لَيْثٍ شجاعِ فارسِ بطلِ  
حامى الذمارِ من الأعجامِ والعربِ<sup>(٤)</sup>  
على سوابقِ خيلِ ضميرِ عُربِ  
تزهى بحليتها كالخردِ العُربِ<sup>(٥)</sup>  
بها وطننا بلاداً لاسيل لها  
وما أردنا تناولناه من كُتبِ<sup>(٦)</sup>

وهو يقول إنه نهض لحرب المرينيين مستعيناً بربه متكلاً عليه راجياً النصر منه ، ومن يرجوه لا يخيب رجأؤه ، وقد نالهم بعسكر كثير ضاق الفضاء به ، وكأنه بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من العجم والعرب ، يركبون إلى الحرب خيولاً ضامرة نجبية

(١) العوالى : الرماح . الصوارم : السيوف .  
(٢) الغلاصم جمع غلصمة : ملتقى اللهاة والمرىء .  
وهى تقطع مع الرقبة .  
(٣) عراض جمع عرصة : الساحة .  
(٤) الذمار : الحمى وما يحميه الإنسان من الأهل والولد .  
(٥) الخرد جمع خريدة : الجميلة .عرب : معجبة بنفسها .  
(٦) كتب : قريب .

تزهي بجمالها زهو الجميلات المعجبات بحسنهن. ويقول إنهم يطئون بحوافرها بلادا بعيدة يذللونها تذليلا ، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها وانتقادت إلينا انقيادا . وجمع الحافظ التنسي فيه كتابا سماه: «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح».

### (ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم في الشعر العربي ، وكان في الأصل لعنات يصبها الشاعر على القبيلة المعادية أو على سيدها راجيا أن تنزل بهم المقادير هزائم متوالية ، وتحول من هذه اللعنات إلى ذم شديد على لسان الشاعر الجاهلي ، فما يرجعون من حروبهم حتى يسئل شعراؤهم على أعدائهم ألسنتهم ملحقين بهم مثالب شتى . ومعروف ما كان بين مكة والمدينة لعهد الرسول ﷺ من أهاج ينظمها شعراؤهما عقب كل معركة . واستحال الهجاء في العصر الأموي على لسان الفرزدق وجرير إلى ما يشبه مناظرة حادة في بيان فضائل ومساويء عشيرتيهما وقبيلة تميم التي كان يدافع عنها الفرزدق وقيس التي كان يدافع عنها جرير . وظل الشعراء لعصرهما يكثران هم وشعراء العصر العباسي الأول من الهجاء ، وتحول عند الأخيرين إلى بيان المساويء الفردية والاجتماعية في المهجوع مع التهوين منه والإيلام وإيلاما شديدا ، وطار شرر كثير من هذا الهجاء إلى الأقاليم العربية . وكان قد بارح المغرب إلى بغداد الشاعر الجزائري بكر بن حماد التاهرتي وهو أول شاعر جزائري له أهاج مختلفة ، وستترجم له عما قليل ، وكان يعاصره ابن خزاز التاهرتي في القرن الثالث الهجري ، وكان قد نزل مدينة تنس شمالي تاهرت على البحر المتوسط ، فقال يأسى على بعده عن مسقط رأسه هاجيا تنس ومقامه فيها<sup>(١)</sup> :

وأصبحتُ عن دار الأحبّة في أُسرٍ	نأى النوم عني واضمحلت عُرَى الصبرِ
وأسلمني مرُّ القضاء من العُذْرِ	وأصبحت عن تاهرت في دار غربة
يُساقُ إليها كلُّ منتقص العُمُرِ	إلى تنس ذات النحوس فإنها
ويأوى إليها الذئب في زمن الحرِّ	بلادٌ بها البرغوثُ يحمل راجلا
يروحون في سكرٍ ويغدون في سكرٍ	ترى أهلها صرعى ومن أمِّ مِلْدَمِ

فالنوم بُعد عن عينه لا يلم بها وفرغ منه الصبر ، حتى ليشعر كأنه في أسر بعيد عن دار الأحبّة : تاهرت ، إذ أسلمه مر القضاء إلى دار غربة إلى تنس ذات النحوس التي لا يدفع إليها إلا منتقص العمر ليشقى بما فيها من براغيث ، وإن الذئاب لتملاً عرصاتها صيفا ، أما أم مِلْدَم أي الحمى ، فكل أهلها من صرعاها ، وإنها لتخدر عقولهم وكأنهم في سكر دائم . ولمحمد بن الحسيني الطنبلي في أحد خصومه<sup>(٢)</sup> :

(١) الأزهار الرياضية للاروني ص ٤٧ .

(٢) الجذوة للحميدى ص ٥٠ .



ووغدٍ إن أردت له عقاباً      عفى عن ذنبه حسبي وديني ،  
يوتئني بغيةٍ مستطيلٍ      ويلقائي بصفحةٍ مستكينٍ .  
وقالوا قد هجاك فقلت كلبٌ      عوى جهلاً إلى ليث العرين

وهو يقول عن خصمه إنه رذل دنيء إن فكرت في عقابه عفا عن ذنبه شرفي وديني ، يأكل لحمه غائباً ويلقاه خاضعاً ذليلاً ، ومماثلة إلا مثل كلب يعوى إلى أسد في عرينه ومأواه . وكانت أسرة هذا الشاعر قد هاجرت إلى قرطبة في أوائل القرن الرابع ، ومنها عبد الملك الطيبي المحدث جليس المنصور بن أبي عامر ، ويروى أن المنصور عدا على شخص يسمى الحذلمى في مجلسه وضربه ضرباً موجعا ، فقال عبد الملك متشفياً فيه وهاجياً<sup>(١)</sup> :

شكرتُ للعامريِّ ما صنعا      ولم أقل للحذلمى لَعَا  
ليثُ عرينٍ عدا لعزته      مفترساً في وجاره ضبعا  
وَدِدْتُ لو كنت شاهداً لهما      حتى ترى العين ذلَّ من خضعا  
إن طال منه سجوده فلقد      طال لغير السجود ماركعا

وهو يشكر العامري ولا يقول للحذلمى : لعا أى أقال الله عثرتك ، ويصور العامري ليث عرين افترس ضبعا في وجاره أو بيته ومأواه ، ويقول ليته كان حاضرا ليري ماركب الحذلمى من الذل والهوان ، ويرميه بأنه كثيرا ما ركع في غير الصلاة ، يريد أنه عاهر الخلوة ، وهو هجاء مقذع . وكانت الجزائر وغير الجزائر من البلاد المغربية تعتنق مذهب الأشعري غالبا ، وبلغ من تغلغل عقيدته في نفوسهم أن نرى ابن مرزوق الخطيب الجزائري المتوفى سنة ١٣٧٠هـ / ١٧٧١م يغضب حين سمع قول الزمخشري في كشافة معرضا بأهل السنة بل هاجيا هجاء قبيحا قائلا :

وجماعةٍ سموا هواهم سنةً      وأراهم حُمرا لعمري موكفةً  
قد شبَّهوه بخلقِهِ وتخوَّفوا      شنعَ السورَى فتستروا بالبلكفه

وهو يقول إن جماعة سميت هواها الذي تعتنقه سنة ، وهم حُمَر ، عليها وكُفُّها أو برادعها ، إذ شبهوا الله بخلقه ، فقالوا إنه يُرى متسترين بالبلكفة أو بقولهم إنه يرى بلا كيفية حتى ينفوا عنه التشبيه بالآدميين ، وردَّ على الزمخشري كثيرون من أهل الجزائر وغيرهم ، وردَّ ابن مرزوق الخطيب معنفاً له ولأصحابه من المعتزلة جميعا قائلا :

(١) الذخيرة لابن بسام تحقيق د.إحسان عباس ٥٤٣/١ .

وجماعة عُرِفَتْ لعمري بالسَّفَه  
 عدلت عن النهج القويم فلقبت  
 ضللت وقالت لن يرى ربُّ الورى  
 وكذلك أسلمت الأمور لنفسها  
 كيف السبيل لصرفها عن غيرها  
 وتمسكت بضلال أهل الفلسفه  
 عدلية وعدولها عن معرفه  
 يوم الجزاء وألزمت نفي الصفه  
 هيهات تنقذ نفسها من متلفه  
 والعدل يمنع صرفها والمعرفه

وابن مرزوق الخطيب يرمى المعتزلة بالسفه ، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدون إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية ، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جل شأنه ، ويقول إنهم ضلوا حين نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إنها رؤية بلا كيفية . وينعى على المعتزلة قولهم بنفى الصفة عن الله وقولهم إن صفته هي عين ذاته . ويستبعد أن يستطيع المعتزلة إنقاذ أنفسهم من تلف العقيدة ويتمنى لو وجد سبيلا أو طريقا لهداهم ، ولكن كيف ذلك وهم يؤمنون بالعدل على الله وغير ذلك من مبادئهم المخالفة لمبادئ أهل السنة . ونمضى إلى العهد العثماني وملتقى فيه بابن علي المفتي الحنفي في القرن الثاني عشر الهجري ، وكان شاعرا بارعا ونراه يهجو خصومه وحساده قائلا :

نصبوا جبائل مكرهم وتعرضوا  
 من كل أهوج أرعن الأخلاق قد  
 أجلاف هذا العصر حقاً لو رأوا  
 إن أنكروا فضلي لخبث طباعهم  
 بسهامهم للنجم في كيوانه  
 أرتبي على فرعون مع هامانه  
 حسان ما جنحوا إلى إحسانه  
 فالدر ليس يعز في أوطانه

وهو يقول إنهم نصبوا جبالات مكرهم وأرسلوا على سهام هجائهم ولكن أتى لهم ، إنهم يحاولون أن يصيبوا نجما لا يستطيعون الوصول إليه ، نجما شديد البعد هو كيوان أو زحل وهل منهم إلا أهوج أو أحمق قد زاد على فرعون ووزيره هامان في بهتانه ، إنهم أجلاف لا يقدرون الشعر ولا الشاعر حتى لو كان حسان بن ثابت شاعر الرسول في روعة بيانه ، ويقول إنهم إن أنكروا فضلي لخبث طباعهم وضمايرهم ، فالدر لا يُعرف فضله في وطنه . وكان ولاية العثمانيين يبطشون أحيانا بالجزائريين ، وكان الشعراء يوجهون إليهم سهام هجاء كثيرة من شعرهم الفصيح والشعبي على نحو ما كان يصنع سعيد المنداسي ، وهو حري بالترجمة له مع بكر بن حماد التاهرتي الذي مر بنا ذكره .

بكر<sup>(١)</sup> بن حماد التاهرتي

تقع تاهرت مسقط رأس حماد في الجنوب الغربي من مدينة الجزائر ، ومررنا في غير هذا

والحديث المبارك المجلد ٤٥٣/٢ . وقد جمع ديوانه وشرحه  
 وقدم له محمد بن رمضان شارش باسم الدر الوقاد من  
 شعر بكر بن حماد التاهرتي .

(١) انظر في ترجمة بكر رياض النفوس للمالكي ومعالم  
 الإيمان للنباغ ٩٢/٢ والأزهار الرياضية لسليمان  
 الباروي ٧١/٢ وما بعدها وتاريخ الجزائر في القديم

الموضع أن عبد الرحمن بن رستم أقام بها الدولة الرستمية ، وكان يعتنق مذهب الخوارج الإباضية ، وأتته جموع الخوارج من كل مكان في المغرب . وكان أئمة هذه الدولة - على شاكلته - يفسحون لأهل السنة والمعتزلة في مدينتهم ، وفيها ولد بكر بن حماد سنة مائتين للهجرة ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة ، ولا نعرف شيئا عن أسرته . ويبدو أن أباه لم يكن إباضيا ، وكانت بتاهرت حركة علمية خصبة بثتها فيها الدولة الرستمية ، ووجهه أبوه إلى العلم ، فحفظ القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات العلماء وشُغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكرة ، كما شغف بحلقات المحدثين ، ونراه يرحل في سن السابعة عشرة إلى القيروان فالبلاد المشرقية ، يأخذ الحديث واللغة ، وأوغل في رحلته حتى البصرة وفيها تتلمذ على مسدّد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده في الحديث النبوي ، وسيعنى فيما بعد بإذاعته في الديار المغربية . وتتلمذ على شيوخ البصرة في اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابي ، ودفعه طموحه إلى أن يذهب إلى بغداد ، وفيها لفت أبا تمام وغيره من شعرائها الكبار بمهارته في الشعر ، ففسحوا له في مجالسهم ، وتعرّف على دعبل هجاء الخلفاء : المعتصم العباسي وغيره ، ويبدو أن الفتى الجزائري مدح المعتصم وأجزل له في العطاء مما جعله يخاصم دعبلا ، وربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونراه يحرّضه على عقابه والقصاص منه قائلا :

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه      ويمشي على الأرض العريضة دعبيل  
أما والذي أرسى ثيرا مكانه      لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل  
ولكن أمير المؤمنين بفضله      يهيم فيعفو أو يقول فيفعل

وكأنه في الكلمة الأخيرة من أبياته يحرّض المعتصم على الفتك بدعبل ، ويقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات قال له : لقد قتلته يا بكر ، وكأنا أعجبتك كلمة أبي تمام - حبيب بن أوس - فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبي تمام قائلا :

وعاتبني فيه حبيب وقال لي      لسانك محذور وسمك يقتل  
وإني - وإن صرفت في الشعر منطقي -      لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

ولم يطل بيكر المقام في بغداد ، فقد عاد إلى الديار المغربية سريعا واستقر في القيروان عاصمة المغرب الأدنى ( الإقليم التونسي ) واختلف إلى حلقات شيوخين كبيرين فيها هما سحنون صاحب المدونة في فقه مالك الذي كانت شهرته تدوى في المغرب ، والثاني محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعي وكان قد تتلمذ لعبدالله بن وهب المحدث المصري صاحب كتاب الجامع في الحديث ، وعنه أخذه بكر بن حماد ، كما أخذ في البصرة مسند مسدّد بن مسرهد . ويبدو أنه أخذ يعنى بعد وفاة شيخه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدّد وجامع ابن وهب وإملاهما على الطلاب في القيروان ، وقد نال في دراسته للحديث النبوي شيئا من

الشهرة في زمنه ، إذ يقال إنَّ الحافظ الأندلسي الكبير قاسم بن أصبغ ( ٢٤٤ - ٣٤٠هـ ) حضر دروسه وأخذ عنه أحد الكتّابين المذكورين آنفاً أو هما معا .  
 وكان بكر مع تدرسه الحديث النبوي يمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان ، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوماً الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد ( ٢٦١ - ٢٩٠هـ ) في قصره حاملاً إليه بعض مديحه حسب عادته ، فمنعه الحاجب وقال إن الأمير مشغول الآن بجواريه ، وأمر أن لا يصل إليه أحد ، فكتب بكر أبياتاً في رقعة ، وتلطف إلى الحاجب في إيصالها إليه ، وفيها :

خُلِقْنَ النسوانى للرجال بليَّةً      فهنَّ موالينا ونحن عبيدُها  
 إذا ما أردنا الورْدَ في غير حينه      أتتنا به في كل حينٍ خدودُها

وبمجرد أن قرأ الأمير الرقعة أرسل إليه بصرَّة بها مائة دينار ، وإنما روينا هذا الخبر لندل به على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة بمدحهم ويشيونه على مديحه . وكان يزور تاهرت أحياناً للقاء أهله ومعارفه فيها ونراه بها في عهد أميرها الرستمي الإباضى أبى حاتم يوسف بن محمد بن الأفلح ( ٢٨١ - ٢٩٤هـ ) ويبدو أنه عاتبه على مديحه للأغالبة دون حكام بلده ، فقال له في مدحه :

أبا حاتمٍ ما كان ما كان بغضةً      ولكن أتت بعد الأمور أمورُ  
 فأكرهنى قومٌ خشيتُ عقابهم      فداريتهم والدائراتُ تدور

وكان يزور بعض الأمراء الأدارسة في المغرب الأقصى وينال جوائزهم، والمظنون أنه بأخرة من أيامه اختار المقام بتاهرت إلى أن لبيَّ نداء ربه سنة ٢٩٦ للهجرة .

وديوان بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن الأستاذ محمد بن رمضان شاوش استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره تتناول من أغراض الشعر العربي المهجاء والوصف والمدح والزهد مع الوعظ والاعتذار والرثاء ، وذكر في المهجاء المقطوعة السالفة في دعبل التي يخرض فيها الخليفة المعتصم على الفتك به. ويبدو أنه لم يكن يسلم من لسانه أحد، حتى المحدثون، إذ نراه يسلق شيخاً جليلاً من شيوخهم وحفاظهم هو يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م قائلاً :

لقد جفت الأقلامُ بالخلق كلهم      فمنهم شقىٌ خائبٌ وسعيدُ  
 أرى الخيرَ في الدنيا يقلُّ كثيراً      وينقص نقصاً والحديثُ يزيدُ  
 ولا بن معينٍ في الرجال مقالةٌ      سيُسال عنها والمليكُ شهيدُ  
 فإن يك حقاً قوله فهو غيبةٌ      وإن يك زوراً فالقصاصُ شديدُ  
 وكل شياطين العباد ضعيفةٌ      وشيطانُ أصحاب الحديث مريدُ



وهو يقول إن أقلام القضاء أحاطت بالخلق فمنهم شقى خاسر وسعيد فائز ، وإن الخير في الدنيا آخذ في القلة والنقص ، والحديث في ذلك يطول . ويتعرض ليحيى بن معين مؤسس نقد رجال الحديث مما هيا بقوة لنشوء علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ، وهو علم محص رواية الحديث النبوي الشريف ، ونفى عنها الزيف والكذب والتدليس ، وهل من يوثق راويا للحديث يكون مغتابا له أو يكون قد أولاه شرفا رفيعا ؟ ومعاذ الله أن يكون يحيى بن معين قد زور على راو صدوق للحديث تجريحا أو اتهاما بسوء ، ومعاذ الله ثانية أن يذكر بكر الشياطين وأن يلقب يحيى بأنه شيطان مرید أو خبيث للمحدثين ، نضر الله وجه يحيى بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوي والمحدثين . وكان عمران بن حطان الخارجي قد أشاد بشقى الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي بن أبي طالب ، وفي طعته له يقول (١) :

يا ضربة من تقى ما أراد بها  
إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا  
إني لأذكره حيناً فأحسبه  
أوفى البرية عند الله ميزانا

وسمع - أوقرا - البيتين بكر بن حماد السنبي فاستشاط غضبا وحمية للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريحا مع بيان ما للإمام علي من فضل عظيم في الإسلام ليبن مدى جناية ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول:

قل لابن ملجم والأقدار غالبه  
هدمت - ويلك - للإسلام أركاننا  
قتلت أفضل من يمشى على قدم  
وأول الناس إيماننا وإسلامنا  
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما  
سن الرسول لنا شرعا وتبينانا  
صهر النبي ومولاه وناصره  
أضحت مناقبه نورا وبرهانا  
وكان منه - على رغم الحسود له -  
مكان هرون من موسى بن عمراننا  
ذكرت قاتله والدمع منحدر  
فقلت سبحان رب الناس سبحانا  
أشقى مراد إذا عدت عشائرها  
وأخسر الناس عند الله ميزانا  
يا ضربة من شقى أورثته لظى  
مخلدا وأتى الرحمن غضباننا

وبكر يصور فضائل الإمام علي لجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه إذ هدم ركنا ضخما من أركان الإسلام ، وكان علي أول الناس إيماننا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين في جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوي : « علي مني بمنزلة هرون من موسى » . وإنه ليذرف عليه الدمع مدرارا ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قبيلته مراد وأخسر البرية ميزانا عند ربه ، ويالهها ضربة أو طعنة ستصليه نار جهنم خالدا فيها مع غضب الله عليه غضبا شديدا . وواضح أنها أهجية مريحة لسنبي ضد قاتل

(١) انظر كتابنا : العصر الإسلامي في ترجمة ابن حطان ص ٣٠٧ .

الإمام علي . ولعل في كل ما أسلفت ما يصور شعر بكر بن حماد ، وهو استهلال ميكر في القرن الثالث الهجري لما ينتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب .

### سعيد<sup>(١)</sup> المنداسي

هو سعيد بن عبد الله المنداسي الأصل التلمساني موطناً ومنشأً ، عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شيء عن أسرته ونشأته ، ولا بد أن نشأ مثل لداته يعنى بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من النوع الأول وشهره فيه قصيدة نبوية سماها « العقيقة » في نحو ثلاثمائة بيت . وكانت تلمسان في شبابه تغلى دائما بفتن واضطرابات ضد العثمانيين وظلمهم ، وكان أهلها يثورون ضدهم ويثور معهم الشاب سعيد المنداسي ، وكثيرا ما كان يذكي ثورة التلمسانيين بشظايا من شعره الشعبي ، وأحيانا يفرغ إلى سهام من الشعر الفصيح ، وخوفه كثيرون مغبة ذلك . وحدث أن أغار على تلمسان صاحب سجلماسة محمد بن الشريف رأس الدولة العلوية بالمغرب الأقصى في الخمسينيات من القرن الحادي عشر الهجري ، وأقام بها فترة قصيرة التحق فيها سعيد المنداسي بحاشيته ، وعاد معه إلى عاصمته ، ويقول صاحب الاستقصا إن المنداسي مدحه بقصائد شعبية كثيرة وإنه أعاد عليه كثيرا من نواله ، وخلفه أخوه الرشيد، وظل سعيد يقدم إليه مدائحه الشعبية ، والرشيد يقربه ويجزل له في العطاء حتى قال صاحب الاستقصا إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، وتوفي وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوي سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م واتسع في الاستيلاء على بلدان المغرب الأقصى وخلّص كثيرا مما كان منها شمالا بيد الإسبان . وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء ، وشيد كثيرا من الآثار ، مما جعل سعيداً المنداسي يتغنى طويلا بحمدية في شعره الشعبي ، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبغ عليه كثيرا من عطايه ، حتى ليقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه . وقد توفي الشاعر في عهده بسجلماسة ، ويقال بل إنه عاد إلى بلده وتوفي فيها ولا يعرف تاريخ وفاته ، واستظهر بعض الباحثين أنها كانت سنة ١٠٨٨هـ/ وربما كانت بعد ذلك بسنوات معدودة .

وشعر سعيد المنداسي سواء الشعر الشعبي والشعر الفصيح يتناول المدح كما أسلفنا والغزل

(١) وانظر في الدولة العلوية وعلاقة المنداسي بها الاستقصا في مواضع مختلفة .

(١) انظر في ترجمة سعيد المنداسي وشعره ديوانه تحقيق وتقديم الأستاذ راجح بونار ( طبع الجزائر ) .  
وراجع ديوان المنداسي في الأدب الشعبي لمحمد بخوشة .

والمدائح النبوية والموعظة والوصف ، وكان يكثر من الهجاء - قبل مبارحته تلمسان - للعثمانيين ،  
ومن قوله فى وصف أهاجيه :

كأن قوافى الشعر منى جنادلٌ وكفُ الزمان منجنيقٌ بها يرمى

وهو يقول إنه كان يرسلها جنادل على العثمانيين وغيرهم ، واضطرتته إلى مبارحة تلمسان  
خشية أن ينزل به العثمانيون عقابا أليما ، ومن أشد أهاجيه فيهم أهجية طويلة سماها : « الإعلام  
فيما وقع للإسلام » نظمها عقب مذبحه لحاكم تلمسان العثماني ، إذ سلط جنده على بعض  
أعلامها وعلمائها ، فسفكوا دماءهم بغيا وظلما وهدموا مبانيهم وسبوا نساءهم  
وذريتهم . وكان أحد الفقهاء المسمى ابن زاغو سوغ لهم ذلك فى فتوى جائرة ، فصب عليه  
وعلى العثمانيين فى أهجيته سياط هجائه غاضبا غاضبا شديدا ، وهو يستهلها بهجائهم بمثل  
قوله :

وأكبرُ شىءٍ أفسدته أكفهم تلمسانُ عَيْنُ الغربِ علما وإيمانا  
وكانت لهم لما أرادوا فسادها أراذلُ منهم كالبطارق أعوانا

وهو يقول إن أكبر شىء أو مدينة أفسدوها تلمسان حاضرة الدولة الزيانية أم مدائن  
الجزائر علما ودراسات دينية ، أفسدها منهم أراذل كبطارقة النصارى العتاة ، وابتغى للفقير  
ابن زاغو الذى قدم لهم فتوى سولت للحاكم العثماني جريمته الأثمة فيقول :

فقل لابن زاغو للضلال أئمةٌ تدبرُ - لحاك الله - ما قال مولانا  
ولا تركنوا - والركنُ منك سجيئةٌ - كأنك لم تسمع من الله قرآنا  
قتلتَ فحولَ العلمَ صبيرا ولم تزل على عهدك المعلوم فى الزينغ هيما  
فأيمتَ بالفتوى نساءً كريمةً ويطمتَ بالقول المضلل ولدانا

وهو يقول إن ابن زاغو الفقيه إمام لا من أئمة التقوى بل من أئمة الضلال والفساد فى  
الأرض ، ويتجه إليه قائلا : تدبر - قبحك الله - ما قال الله فى كتابه : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين  
ظلموا فتمسككم النار ﴾ أى لا تميلوا ، ويقول إنه دائما من المائلين إلى العثمانيين الظالمين ، وبس  
الميل لقد أفتيتهم بقتل العلماء العظام وما زلت على عهدك غارقا فى الزينغ والضلال ، لقد أيمت  
نساء وجعلتھن ثكلى فاقدرات لأزواجهن الذين يعولونهن باكيات عليهم نادبات ويتمت أطفالا  
صغارا لا تخاف الله ولا تخشاه . ويصور بعد ذلك فى الأهجية سفك العثمانيين لدماء العلماء  
وما حملوا من رءوس كم باتت ساجدة لله وكم ظلت تدرس الدين وكب التوحيد من مثل  
السنوسية الكبرى سوى من قيدهم بالأغلال وزجوا بهم فى السجون ، ويعود إلى تصوير  
فتوى ابن زاغو ويكويه بمثل قوله :



وقال اقتلسوا فالقتلُ يردُّعُ غيرهم  
تعالوا تروا ضليلَ في زى ناسكٍ  
وقد قدَّ ذاك الثوبُ من كل موضعٍ  
إذا شيسم منه الخيرُ فالبرقُ كاذبٌ  
ولا رَقَّ ذاك القلبُ منه ولا لانا  
يطولُ من ثوب الضلالة أردانا  
ومرَّ بأبصار الخلائق عُرَيانا  
وإن صال منه الرعدُ يهلك بُلدانا

ويقول إنه أفتى بقتل من سفكت دماؤهم لزجر غيرهم وردعهم لا يرعى فيهم عهدا ولا ذمة ، وكأنما قسا قلبه وخلا منه كل شعور حتى غدا كالحجر الصلد أو أشد قسوة ، ويعجب أن يتظاهر بالنسك وعبادة ربه وهو يطول من ثوب الضلالة أردانه أو أكمامه ، ويقول إن هذا الثوب قدَّ وشقق ومزق حتى أصبح - رغم لبسه له - عريانا ، وحتى لو روى منه برق خير فالبرق كاذب ، أما إذا أرعد فهلاك للبلاد والعباد . ويهيب الشاعر بأهل تلمسان أن يثوروا بالعثمانيين ثورة عنيفة ، ويتوعد ابن زاغو بما سيلقى عند ربه قائلا :

أيا آل دين الله مالى أراكم  
أما تذكرون الأهل والزمن الذى  
وهلا سألتكم عن يتامى تفرقت  
فقل لابن زاغورأس كل خطيئة  
ألا إنك الدجال للناس فتنة  
نيامًا وكان الطرفُ من قبل يقظانا  
عهدتم فذاك الوصلُ قد صار هجرانا  
أيادى سبًا فى الغرب أنثى وذكرانا  
قلبي تحسبون الفتك بالأهل سلوانا  
تأهب لزوح الله فالحينُ قد حانا

وهو يستصرخ أهل تلمسان ليهبوا من نومهم الطويل ويذودوا عن أهلهم وحریمهم الذين قتل العثمانيون أزواجهن ويتموا أبناءهن وتفرقوا فى البلدان مِرَقًا أناثا وذكورا ، ويقول لابن زاغو رأس هذه الخطيئة قلى وبغضا لك حين تتخذ الفتك بالأهل سلوانا ، إلا إنك الدجال الذى يموه الحق ويزين الباطل ويوقد الفتن ، فتأهب واستعد لإزاحة الله لك من على وجه الأرض ، فقد آن موتك ولم يعد لك مفر منه . وواضح أن سعيدًا المنداسى كان شاعرا بارعا ، ولم يكن يعيش بمعزل عن قومه ، فقد كان يشاركهم فى ثوراتهم على ظلم الحكام العثمانيين فى أيام شبابه ، وإن فاته أن يحمل السلاح فى وجودهم فإنه لم يفته أن يجعل من أبيات شعره الفصيح والعامى سهاما يسلطها على جباه العثمانيين ويقذفها على رؤوسهم وصدورهم محاولا - بكل جهده - أن يستثير مواطنيه من أهل تلمسان ضدهم حتى يذيقوهم نكالا ووبالا .

### الشعراء والشعر التعليمى

مرُّ بنا فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فيه هيا لاستحداث الشعر التعليمى الذى يعنى بنظم التاريخ والعلوم والقصص التعليمية ، وكان من السابقين إلى



ذلك أبان بن عبد الحميد ناظم قصص كلية ودمنة شعرا ، وله منظومات سقطت من يد الزمن في تاريخ ملوك الفرس وأيضا له منظومة في الفقه وأحكام الصلاة ، ونظم في هذا الفن التعليمي الأصمعي في الملوك والأمم البائدة كما نظم إبراهيم الفزاري منظومة طويلة في الفلك يقال إنها استوعبت عشر مجلدات .

ومنذ العصر العباسي الأول رسخ هذا الفن في الشعر العربي وأصبح أحد موضوعاته ، وقد اصطلح أبان وأصحابه في العصر المذكور على أن يُنظَمَ من وزن الرجز ، لأنه من أوفر أوزان الشعر العربي أنغاما ومن أكثرها قبولا للتغير في تفاعيله ، وهو بذلك أكثرها مرونة لحمل المعارف العلمية. وأخذت الأقاليم العربية تسهم في هذا الفن كلما اتسعت فيها الحركات العلمية وكثر علماءها ، إذ يرون أن يضعوا في علومهم منظومات لمساعدة الناشئة على حفظ قواعدها .

وأقاليم عربية تسرع في هذا الصنيع ، وأقاليم أخرى تتأخر قليلا أو كثيرا ، وولتقى في القرن الخامس الهجري بابن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م وله أرجوزة في الفلك والتنجيم ، ويلقانا في القرن السابع يحمي<sup>(١)</sup> بن عبد المعطى المولود سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م وهو من قبيلة زواوة البجائية ، وقد نشأ في بجاية ، وأتقن فيها علم النحو كما أتقن نظم الشعر ، غير أنه اتجه به نحو التمرن على نظم بعض المعارف ، ورحل إلى دمشق وسكنها وانتفع به خلق كثير ، ورغبه السلطان الكامل الأيوبي في الانتقال إلى مصر وانتقل إليها وتصدّر لإقراء الطلاب في الجامع العتيق ( جامع عمرو بن العاص ) وكان يقرأ لهم ألفيته التي نظمها في النحو ويفسر أبياتها لهم ، ولا يعرف متى نظمها ؟ هل نظمها قبل رحيله إلى دمشق أو بعد ذلك وما زال يقرئها الطلاب المصريين حتى توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وعلى غرارها نظم ابن مالك ألفيته المشهورة في النحو . ونمضى في القرن السابع وولتقى بأبي إسحق<sup>(٢)</sup> إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م وقد نظم في الفرائض ( علم الميراث ) وهو ابن عشرين سنة أرجوزة اشتهرت باسم التلمسانية ، وهي أرجوزة محكمة ضابطة لعلم الميراث عجيبة الوضع لم يصنف في فنها مثلها وقد طارت شهرتها في الجزائر وغير الجزائر وشرحت مرارا . ومن أكثر نظمهم في الشعر التعليمي ابن<sup>(٣)</sup> مرزوق الحفيد وله ألفية في القراءات في محاذة ألفية الشاطبي : حرز الأمانى ، وأرجوزتان في علم الحديث : كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ، وأرجوزة في تلخيص كتاب المفتاح في علوم البلاغة للقزويني ، وأرجوزة في الميقات أو الفلك

٢٧٤/١ ربيعة الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩/١ .

(٣) انظر ترجمته في البستان ٢٠١ - ٢١٤ راجع تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي ١٢٨/١ ونيل الابتهاج بطريرك الدياج لأحمد بابا ص ٣٠٥ .

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٣٥/٢٠ وابن خلكان ١٩٣/٦ .

(٢) راجع ترجمته في الدياج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة) بتحقيق د. محمد الأحمدى أبو التور

في ألف وسبعمائة بيت سماها المقنع الشافى ، وله أرجوزة في تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، وأرجوزة في نظم كتاب الجمل في المنطق للخونجى . ومن ناظمى الشعر التعليمى فى القرن التاسع بين أصحاب علوم الأوائى الحباك<sup>(١)</sup> محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وله أرجوزة فى الإسطرلاب كانت ألفية هذا العلم فى العهد العثمانى ، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وقد سماها : « بغية الطلاب فى علم الإسطرلاب » وفيها تحدث عن رسوم الإسطرلاب وأجزائه ومطالع البروج والجهات الأربع إلى غير ذلك من موضوعات علم الفلك . ومن ناظمى هذا القرن أحمد<sup>(٢)</sup> بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وله منظومة فى علم التوحيد أو علم الكلام استهلها بقوله :

الحمد لله وهو الواحد الأزل سبحاته جل عن شبه وعن مثل

نظمها فى مقبل عمره وسماها الجزائرية وأرسلها إلى العلامة محمد السنوسى فأعجب بها وشرحها ، وقد دوت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر ، وبالمثل شرح السنوسى أرجوزة فى نفس العلم لتلميذه محمد<sup>(٣)</sup> بن عبد الرحمن الحوضى، سماها واسطة السلوك افتتحها بقوله :

الحمد لله الذى دل عليه إيجادنا ثم افتقارنا إليه

وبعد فالتوحيد أشرف العلوم وهو أساسها الذى به تقوم

ولابن<sup>(٤)</sup> زكرى معاصرها المتوفى سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م أرجوزة فى نفس الموضوع شرحها الورتلانى . وحرى بنا أن نعرف أن الجزائر وكل بلاد المغرب - كما قلنا فى غير هذا الموضوع - كانت تعتق مذهب الأشعرى فى قضايا العقيدة وعلم التوحيد . ونمضى فى القرن العاشر الهجرى وملتقى بالفقيه أحمد<sup>(٥)</sup> بن الحاج البجائى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وقد رأى للشيخ السنوسى كتابين فى علم التوحيد باسم العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى ، فنظم الصغرى فى أرجوزة له ابتدأها بقوله :

الحمد لله الذى عرفنا بنفسيه وبالهدى شرفنا

وبعد فالمقصود من هذا النظام

من غير تبديل ولا تغيير سوى اختلاف اللفظ والتعبير

وله منظومات فى مسائل فقهية متعددة . ولكثيرين منظومات أو أراجيز فى علوم مختلفة ، على نحو مانرى عند عبد الرحمن الأخرى وسنخصه بكلمة أو ترجمة ، وكثيرا ما كانوا

(٤) انظر فى ابن زكرى البستان ص ٣٨ وعند سعد الله ٨٥/١ .

(٥) راجع ابن الحاج فى البستان ص ٨ - ٢٤ .

(١) انظره فى البستان ص ٢١٩ وتاريخ الجزائر الثقافى لسعد الله ١٠٩/١ وما بعدها .

(٢) راجع تعريف الخلف ٣٨/١ وسعد الله ٨٤/١ .

(٣) انظره فى البستان ص ٢٥٢ وعند سعد الله ٩٠/١ .

ينظمون في بعض مسائل العلوم الدينية واللغوية ، ولمحمد بن علي بهلول المجاجي في ألقاب الإعراب والبناء<sup>(١)</sup> :

مَنْ يَتَّبِعِ الْعِزَّ يَرْفَعَنَّ هِمَّتَهُ      بِالضَّمِّ عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ يَرَى عَجَبًا  
وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ يَنْصَبَنَّ مَنِيَّتَهُ      بَفَتْحِ بَابِ اللَّيْثِ الْمَوْتَ قَدْ نُصِبَا  
وَيَخْفِضُ النَّفْسَ لَا يَبْغِي لَهَا شَرْفًا      بِكَسْرِ شَهْوَتِهَا يَنْأَلُ مَا طَلَبْنَا  
بِذَا يَجْرُ لَهَا النَّفْعَ مُجَاهِدُهَا      فَإِنْ عَصَتْهُ رَمَى بِسَهْمِهِ عَطْبًا  
وَاجْزَمَ عَلَى اللَّهْوِ نَفْسًا طَالَمَا اضْطَرَبَتْ      وَبِالسَّكُونِ يَكُونُ الْجَزْمُ خُذْ أَدْبَا

وواضح أن ألقاب الإعراب تتوالى في الأبيات ، وهي الرفع والنصب والجر والجزم ، وبالمثل تتوالى ألقاب البناء ، وهي الضم والفتح والكسر والسكون . ونظم خليفة بن حسن القماري الأجرومية في قصيدة تسمى اللامية في نظم الأجرومية في النحو لابن آجروم الصنهاجي . وولتقى بأحمد<sup>(٢)</sup> البوني المولود سنة ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ م والمتوفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وذكر له الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف نحو ستين منظومة نقلها عن رسالته : « التعريف بما للفقير من التأليف » منها نظم السيرة الحمديّة ، ومما يتعلق بالقرآن الكريم نظم غريب القرآن في تفسير ابن عباس ، ونظم غريب العزيزي للقرآن العظيم المسمى تحفة الأريب بأشرف غريب ، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي وأكبر الظن أنها شمائل رسول الله ، ونظم تحفة الفكر لابن حجر ، ونظم الفرائض ( علم الميراث ) في رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ونظم الوغليسيّة في الفقه لعبد الرحمن الوغليسي المتوفى بيجاية سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م ونظم مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصري حامل لواء المذهب المالكي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م في عشرة آلاف بيت ، ونظم كتابه الجامع في ألف بيت ونظم الأجرومية في تسعين بيتا ، أما علم الكلام أو كما يسمى علم العقيدة في الجزائر فكاد لا يترك فيه كلاما لإمام مشرقى أو مغربى إلا نظمه ، فله نظم في عقيدة الماتريدي والطحاوي والغزالي وعبد القادر الجيلاني وابن عربي وأبي الحسن الشاذلي والعزّين عبد السلام والفتازاني والنسفي وابن الحاجب وعبد الكريم الفكون ، ونظم العقيدة الوسطى والصغرى للسوسى وعقيدة أبي مدين ، وكاد لا يترك كلاما لإمام من الأئمة الماضين سنين أو صوفيين إلا وضع فيه منظومة . وحرى بنا الآن أن نخص عبد الرحمن الأخضرى أحد أصحاب هذا الشعر التعليمي بكلمة .

عبد<sup>(٣)</sup> الرحمن الأخضرى

وُلد عبد الرحمن الأخضرى في بنطوس من قرى بسكرة في الزاب حوالي سنة

(٣) راجع ترجمته عند سعد الله ٥٠٧/١ وما بعد  
و ١٥٩/٢ ، ٤١٧ ، وما بعدها .

(١) تعريف الخلف ٤٤٨/٢ .  
(٢) انظر في ترجمته تعريف الخلف برجال السلف  
٥٢٢/٢ .



١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م. وبها حفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه تتلمذ لشيخوخها ولأبيه محمد وله حاشية على مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى . وبعد أن أخذ كل ما عند أبيه وأقرانه من فقه ولغة ارتحل إلى قسنطينة ، فأكبَّ على حلقات شيخوخها ، واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم أوائل وآداب تصوف وعلوم بلاغة ومنطق ، وعاد إلى موطنه يدرس لطلابه كل ما فقهه وتمثله من علوم مختلفة ، ويشيد مترجموه برسوخه فى العقول والمنقول ، وظل يرمى طلابه إلى أن توفى سنة ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م . وشغف بنظم العلوم ، فألف مجموعة من المتون يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا ، منها فى الفلك منظومة السراج وقد شرحها سخون بن عثمان معاصره ، ومنها الدرّة البيضاء فى الحساب وعلم الفرائض وجعلها فى ثلاثة أقسام : قسم خاص بالحساب ، وقسم خاص بالفرائض ( علم الميراث ) وقسم خاص بقسمة التركات . وطبعت مع شرحها فى القاهرة ونصّ فى الطبعة على أن شرح قسم الفرائض من عمل المؤلف الأخرى . وله فى التصوف منظومة سماها القدسية ، وهى فى آداب السلوك ونكران البدع ، وشرحها حسين الورتلانى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م وسمى شرحه الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية ، ونظم الأخرى تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى وسمى منظومته الجواهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع ، وشرحها فى القاهرة الشيخ أحمد الدمهورى فى القرن الماضى .

وأهم منظومات الأخرى فى العلوم منظومته فى علم المنطق ، وقد سماها : « السلم المروتنق فى علم المنطق » وهى أرجوزة فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقول فى آخرها أنه نظمها وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وشرحها ، وطارت شهرتها ووُضعت عليها شروح كثيرة ، ويستهلها بقوله :

الحمد لله الذى قد أخرجنا	نتائج الفكر لأرباب الحجبا
وحطّ عنهم من سماء العقل	كل حجاب من سحب الجهل
حتى بدت لهم شمس المعرفة	رأوا مخدراتها منكشفه
نعمه جلّ على الإنعام	بنعمة الإيمان والإسلام
من خصنا بخير من قد أرسلنا	وخير من حاز المقامات العُلا
محمد سيّد كل مقتضى	العربى الهاشمى المصطفى

وقد بدأ أرجوزته بالحمد لله والثناء عليه . والحجا : العقل ، وفى البيت الأول براعة استهلال إذ أشار بنتائج الفكر لأرباب العقل إلى موضوع الأرجوزة وهو علم المنطق ، ومضى فى البيتين الثانى والثالث يكمل معنى البيت الأول بما رفع الله من الحجاب عن قلوب أولى الألباب حتى ظهرت لهم شمس المعرفة ورأوا مخدراتها وعرائسها المستورة منكشفة . ويحمد الله

على إنعامه بنعمة الإيمان والإسلام ، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين العربي القرشى المصطفى من بنى هاشم لرسالته العظمى . ويمضى فى هذه المقدمة قائلاً إن المنطق زمام للعقل كما أن النحو زمام للسان ، ويوزع الأرجوزة على فصول متوالية ، وأولها فصل عن جواز الاشتغال بالمنطق كما قال الغزالي خلافا لابن الصلاح والنواوى ، إذ به تصحح الأفكار ويهتدى فيها إلى الصواب . ويضع عنواناً : أنواع العلم الحادث أى العلم الإنسانى لا العلم الربانى وينشد :

إدراك مفرد تصوراً عُلِمَ      ودركٌ نسبةً بتصديقيٍّ وُسِمَ  
وقدم الأول عند الوضع      لأنه مقدم بالطَّبْعِ  
والنظري ما احتاج للتأمل      وعكسه هو الضرورى الجَلِي

وهو يقول إن العلم قسمان : إدراك مفرد ويسمى تصوراً كإدراكنا معنى الحيوان أو الإنسان أو الإخلاص ، وإدراك نسبة ويسمى تصديقا مثل « العالم حادث » فنسبة الحدوث إلى العالم تصديق وإدراك العالم فى نفسه وكذلك الحدوث تصور ، فالتصور يسبق دائما التصديق على وجه الإثبات كما فى المثال السالف أو على وجه النفى كقولنا : « العالم غير حادث » . والتصديق إما جازم وهو التصديق اليقيني مثل « الشمس تطلع كل يوم » وهو حكم لا يتغير ، وإما غير جازم مثل : « السماء تمطر غداً » وهو حكم يقارنه احتمال : ظن أو وهم . والعلم الحادث قسمان : ضرورى ونظري ، والضرورى ما يدرك بدهشة بلا تأمل كقولنا : « الكل أعظم من الجزء » و « الواحد نصف الاثنين » والنظري ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقولنا : « الأرض كروية » و « الصبر مفتاح الفرج » . ويجمل الأخصرى الدلالة الوضعية أو اللفظية بقوله :

دلالة اللفظ على ما وافقه      يدعونها دلالة المطابقيه  
وجزئه تضمنا وما لزم      فهو التزامٌ إن بعقلٍ التزم

وهو يقول إن الدلالة إما دلالة مطابقة كدلالة الحيوان المفترس على الأسد . وإما دلالة جزئية أى دلالة الجزء فى ضمن الكل كدلالة الأسد على الحيوان لأنه من أفرادهِ . وإما دلالة التزام كدلالة العمى على البصر ودلالة الدخان على النار . ويوجز بيان الكل والكلية والجزء والجزئية فى فصل على هذا النمط :

الكلُّ حكْمًا على المجموع      ككل ذلك ليس ذا وقسوع  
وحيثما لكل فردٍ حكْمًا      فإنه كَلِيَّةٌ قد عُلْمًا  
والحكم للبعض هو الجزئيه      والجزء معرفته جَلِيَّة

وهو يذكر أن الكل هو المجموع المحكوم عليه كقولك « طلاب الجامعة مجتهدون » ،

ففيهم من ليس مجتهدا ، والكلية الحكم الشامل لكل فرد في المجموع كقولك : « كل إنسان يقبل للعمل » . والجزئية الحكم على بعض الأفراد كقولك : « بعض طلاب الجامعة مجتهدون » والجزئية ما تركب منه ومن غيره كالسماز والخيط للحصير والمبتدأ والخير للجملة الاسمية . ويعقد فصلا للتعريفات والحدود قائلا :

معرفة إلى ثلاثة قسم	حد ورسمي ولفظي علم
فالحد بالجنس وفصل وقعا	والرسم بالجنس وخاصة معا
وناقص الحد بفصل أو معا	جنس بعيد لا قريب وقعا
وناقص الرسم بخاصة فقط	أو مع جنس أبعدن قد ارتبط
وما بلفظي لديهم شهرا	تبديل لفظ برديف أشهر

والأخضري يقول إن التعريفات خمسة أقسام : حد تام وهو التعريف بالجنس والفصل وهو الصفة الملازمة التي لا يشترك فيها أحد مع المعرف مثل : « الإنسان حيوان ناطق » أي ذو عقل مفكر . والحد الناقص هو التعريف بالفصل وحده مثل ناطق أو بالفصل مع الجنس البعيد مثل : « الإنسان جسم ناطق » . والرسم التام التعريف بالجنس القريب والخاصة وهي صفة غالبية غير ملازمة وقد تكون مشتركة كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك لأن من النسانيس والقردة ما قد يضحك . والرسم الناقص إما بالخاصة فقط مثل ضاحك أو مع جنس بعيد مثل الإنسان جسم ضاحك . والتعريف اللفظي أو باللفظ التعريف بالمرادف الأشهر مثل تعريف الغضنفر بأنه الأسد . وواضح مدى إحكام عبد الرحمن الأخضري للتعبير عن مسائل علم المنطق وقواعده بمتهى الوضوح ومنتهى الدقة فى الإيجاز والاختصار . وهو - بحق - يعد فى طليعة المجيدين لنظم العلوم لافى الجزائر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . وقد أكب كثيرون على شرح هذا المتن البديع فى علم المنطق فشرحه سعيد قدورة فى الجزائر وشرحه فى مصر الملوى شرحين كبيراً وصغيراً ووضع عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجورى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٦ م وطبعت مع تقرير عليها للشيخ محمد الإنبايى سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م . وشرحه الشيخ أحمد الدمهورى وطبع شرحه مع شرح الناظم الأخضرى سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٧ م وهى صورة من التواصل العلمى بين مصر والجزائر . ومر بنا أن الجزائر ظلت تعنى طويلا بكتابات ابن الحاجب وخليلى بن إسحاق المصرين فى الفقه المالكى .

## الفصل الخامس طوائف من الشعراء

### ١

#### شعراء الغزل

يُعَدُّ الغزل من أهم الموضوعات التي شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث ، فمن قديم يتغنون بعاطفة الحب الخالدة ، ويصورون مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة وما يكون بينهم وبينها من لقاء ووداع ووصال وهجران ، وهم تارة سعداء بوصالها وتارة أشقياء يشكون الهجران والحرمان ، ويتمنون ولو نظرة من بعيد ، وكأنها الفردوس الذي حرموا منه ، وهم يألمون لذلك أشد الألم مع الإكثار من الاستعطاف . والغزل من قديم نوعان : نوع مادي يعنى فيه الشاعر بتصوير المرأة تصويراً حسياً صادراً فيه عن الغريزة النوعية وما تتطلب من المتاع المادي ، ونوع عذري طاهر يتسامى فيه الشاعر إلى بث الوجد الذي يصل إلى بناره في دخائله وبلوغاته لوعات لا تنتهى ، وهو يتغنى فيه بمحبوبته ظامناً إلى رؤيتها ظمناً متصلاً متضرعاً ، وكأنها ملاك من عالم غير عالمه ، ودائماً يبكى بدموع غزار . وهذا النوع الثانى من الغزل القائم على الحرمان وعلى السمو فى الحب هو الغالب على غزل شعراء الجزائر ، وما من شاعر جزائرى مشهور إلا نجد عنده من هذا الغزل إشعاعات كقول عبد الكريم النهشلى (١) :

يشكو هواك إلى الدموع متيمٌ      لم يبق فيه للعزاء نسيئٌ  
لولا الدموع تحرقت من شوقه      يوم الوداع قبابكم والعيسُ

وهو يقول إنه ودّع صاحبتة ولم يعد يستطيع أن يقدم شكواه إلا دموعه ، وقد أضناه الحب ، ولم يعد فيه إلا نسييس أو بقية من الروح ، ولولا الدموع وطوفانها لتحرقت بنار حبه قبابها وخيامها وهوادجها والعيس أو الإبل الظاعنة عليها . والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حمامة وسمعها تترنم وتنوح ، فتأثر وأنشد (٢) :

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(١) أنموذج الزمان لابن رشيق ص ١٧٦ .



أواجدةٌ وجدى حمائمٌ أَيْكَة ُ  
 نشاوى وما مالتُ بخمرٍ رقابها  
 تميلُ بها مَيْلَ التّزيفِ غصونُها  
 بسواكٍ وما فاضتُ بدمعِ عيونها  
 أعيدى حماماتِ اللّوى إن عندنا  
 لشجوك أمثالا يعسود حينها<sup>(١)</sup>

ويتساءل النهشلي هذه الحمام تداخلها مواجد مثل مواجده ، وإن غصون الأيكة لتمايل بها ميل التزيف أو السكران المنتشى ، وإن الحمام نفسها لنشاري سكارى وما شربت خمرا ، وإنها لبواك تثير الشجون وما بكت عيونها ، وإنه ليلتمس منها أن تعيد بكاءها ونواحيها فإنها تثير فيه نفس الشجر وما يعتاده من الحنين والشوق . ولتلقى بابن قاضي ميلة وقصيدته الفائية التي نوه بها ابن خلكان والتي مدح بها ثقة الدولة أمير صقيلة ، وقد استهلها بغزل حوارى على طريقة عمر بن أبى ربيعة أبدع فيه كل الإبداع ، ونقطف منه الأبيات التالية<sup>(٢)</sup> :

ولما التقينا محرمين وسيرنا  
 نظرتُ إليها والمطى كأنما  
 فقلتُ أما منكن من يعرفُ الفتى  
 أراه إذا سيرنا يسيرُ جِذاءنا  
 فقلتُ لتربيتها أبلغاها بأننى  
 وقولا لها يا أمَّ عمرو أليس ذا  
 وفى عَرَقاتٍ ما يخسِرُ أننى  
 فأوصلتنا ما قتله فنبسَمَتْ  
 وقد أُنذر الإحرامُ أنَّ وصالنا  
 بلبّيك ربّنا والركائبُ تعسِفُ<sup>(٣)</sup>  
 غواربُها منها معاطِسُ رُعْفُ<sup>(٤)</sup>  
 فقد رابى من طول ما يتشوفُ<sup>(٥)</sup>  
 ونوقفُ أخفافُ المطى فيوقفُ<sup>(٦)</sup>  
 بها مستهامٌ قالتا نلتطفُ<sup>(٧)</sup>  
 منى والمنى فى خيفه ليس تُخلفُ<sup>(٨)</sup>  
 بعارفةٍ من عطف قلبك أسعَفُ<sup>(٩)</sup>  
 وقالت: أحاديث العيافة زُخرفُ<sup>(١٠)</sup>  
 حرامٌ وإننا عن مزارك نصدِفُ<sup>(١١)</sup>

وابن قاضي ميلة يذكر التقاءه بصاحبه وهما محرمان يلبيان ربهما قائلين ليك اللهم ليك ، وكل منهما يركب مطية مجهدة كبقية مطايا الحج والعرق يسيل منها مدرارا ، وهو ما يزال ينظر إلى صاحبه ، سائرا بجوارها ، وكلما توقفت مطاياها وصحبها توقّف ، فقال لصاحبتها وقد دنا منهما أبلغاها بأننى هائم بها ، وقولا لها إننا سننزل منى ، وينبغى أن تحقق لى فى خيف

(١) اللوى : ما التوى من الرمل أو منقطعه .  
 (٢) انظر فى القصيدة ابن خلكان ١٥٩/٦ والأنموذج ص ٢١١ والذخيرة ، القسم الرابع ص ٥٣٣ .  
 (٣) الركائب جمع ركوبة من الدواب والإبل . تعسف : تسير فى الطريق على غير هدى .  
 (٤) معاطس جمع معطس : الأنف . رُعْف جمع راعف : تسيل . الغارب فى البعير : ما بين السنام والعتق .  
 (٥) يتشوف : يشرف وينظر .  
 (٦) أخفاف : جمع خف وهو للبعير كالحافر للفرس .  
 (٧) لتربيتها : المماثلين لها فى السن . مستهام : هائم أى مشغوف حبا .  
 (٨) منى بكسر الميم : ينزل بها الحجاج فى أيام التشريق . خيف منى : منحدرها .  
 (٩) عارفة : الجميل والإحسان . عَرَقات : جيل به مرضع وقوف الحجاج .  
 (١٠) العيافة هنا : التنازل .  
 (١١) نصدِف : نعرض ونميل .



منى اللقاء ، وسنقف بعدها فى عرفات ، فهل تجود على بملاقة ، وحدثاها عنه فابتسمت  
وقالت تلك أحاديث عيافة وكهانة وتقاؤل مزخرف . وإنما محرمان والإحرام يحرم وصالنا ،  
وإنى لصادفة عنه مزورة ، ولن ألقاه ، وتمضى قائلة إن قذفنا للجمرات ليخبرك بأن كلامنا  
سيقذفه البعد والنوى إلى ديار متباعدة . ويسوق الغبريني فى كتابه « عنوان الدراية » غزليات  
طريفة لشعراء بجاية ، منها قول<sup>(١)</sup> محمد بن يحيى بن عبد السلام :

ألا بأبى من لا أرى فى الهوى سوى      محيَّاهُ شمساً أو سناً تُغمره بَرِّقاً  
ولا خمراً إلا من لَمَاهُ ولحظه      ولا غُصْنَ إلا القَدْ لا ما ارتقت رَزَقاً  
لكن لدغت قلبى عقاربٌ صدغهِ      فريقتهُ التُّرْيَاقُ لى وبها أرقى  
تعلّمت من عينيه عشقى لحسنهِ      فَلِلَّهِ الحَاظُّ تعلمنى العِشْقَا  
ولو أن هاروتاً رأى سحرَ طرفهِ      أقرُّ بأن السحر من لحظه اشتقاً  
فيا طامعاً فى الوصل منه تسلُّ هلُّ      سمعتَ بأشراك تُصاد بها العنقا

وهو ينوه فى أول الأبيات بجمال صاحبه التى يرى

ولا خمرة مسكرة إلا من سمرة شفيتها ولحظ عينها . ١٥

لا ما ارتقت الورقاء من قدود الأغصان الجميلة . ويقول لـ

على صدغها فإن ريقها الترياق والبلسم الذى يُرقى به لشفا . ١٦

الذى ألقى فى فؤاده عشقها ، وما أيدعه ، فلو أن هاروت الساحر المذكور فى المر

رأى سحر عينها لأقر بأن السحر مشتق منه . ثم يُلقى اليأس فى قلوب من يطمعون فى

وصلها ، فيقول هل يمكن لأحد أن يصيد العنقاء الطائر الخرافى بشباكه وأشراكه . وكان

يعاصر هذا الشاعر فى بجاية محمد بن أحمد الأريسي وله غزليات رقيقة ، وسترجم له عما قليل .

ونَهضت الدولة الزيانية : دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة

الأدبية فى زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس وله غزليات رقيقة بديعة كثيرة ، من ذلك قوله<sup>(٢)</sup> :

نظرت إليك بمثل عيني جُوذِرِ      وتبسمت عن مثل سيمطى جَوْهَرِ<sup>(٣)</sup>  
عن ناصع كالدرد أو كالبرق أو      كالطلع أو كالأفحوان مؤشِّرِ<sup>(٤)</sup>  
تجرى عليه من لَمَاهَا نُطْفَةٌ      بل خمرةً لكنها لم تُعَصِّرِ<sup>(٥)</sup>

والقلادة .

(٤) مؤشر : مفلج .

(٥) ألمى : الشفتان . نطفة : ماء صاف .

(١) عنوان الدراية للغبريني ص ٣٤٢ .

(٢) الديوان ص ١١٠ وانظر بغية الرواد ليحيى بن

خلدون ص ١١١ .

(٣) الجوذِر : ولد البقرة الوحشية . السمط : العقد

لو لم يكن خمرا سلافاً ريقها  
وكذاك ساجي جفنها لو لم يكن  
لو عجت طرفك في حديقة خدّها  
لرتعت من ذلك الجمي في جنّة  
تزرى وتلعب بالنهي لم تحظر<sup>(١)</sup>  
فيه مهند لخطها لم يحذر<sup>(٢)</sup>  
وأمنت سطوة صدغها المتنمر<sup>(٣)</sup>  
وكرعت من ذلك اللما في كوثر<sup>(٤)</sup>

وابن خميس يشبهه عيني صاحبه بعيني جوذر وأسنانها في ثغرها بعقدى جوهر ويقول إنه ثغر ناصع البياض كالدر أي اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كزهر الأقحوان الأبيض المفلج الأوراق كأسنان هذا الثغر المفلجة ، وهو ثغر يجرى عليه من شفتي صاحبه نطفة ( قطرات ) سائغة من الريق بل خمرة ، وإن لم يعصرها خمرة تلعب بالعقول ، غير محرمة ، ولو لم يكن في فاتر جفنها سيف لحظها يحميها ما حذرت ، ولو أتيح لك أن تعطف طرفك في خدّها وجماله المتنوع ، وكأنه حديقة باهرة ، وأمنت بطش عقرب صدغها المتنمر نعمت بجنة رائعة ، ونهلت من لماها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس . ويمضي ابن خميس في هذا الغزل قائلا :

طرتك وهنا والنجوم كأنها  
ييضاً إذا اعتكرت ذوائب شعرها  
طرحت غلاتها فقلت سبيكة  
منحتك ما منعتك يقظاناً فلم  
هاجست بلابل نازح عن إلفه  
حصباء ذر في بساط أخضر<sup>(٥)</sup>  
سفرت فازرت بالصباح المسفر<sup>(٦)</sup>  
من فضة أو دمية من مرمر<sup>(٧)</sup>  
تخلف مواعدها ولم تنغير  
متشوق ذاك الحشا متسر<sup>(٨)</sup>

وهو يقول إن صاحبه طرته أو زارته في منتصف الليل والسماء تتشر لآلى نجومها في بساطها الأخضر ، ويقول إنها إذا أحست بكثافة شعرها وكشفت عن وجهها أزلت بالصباح المضيء الجميل ، أما إذا خلعت غلاتها فإنها تبدو كأنها سبيكة من فضة أو دمية من مرمر ، ويقول إنه لم ير شيئاً منها يقظان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق تتقد أحشائه وتشتعل حبا وهياما . ولابن خميس غزل كثير في مطالع مدائحه يصف فيه لوعات حبه وما تكن ضلوعه من مواجعه ، وقد يحيله غزلا صوفيا بديعا . ولمحمد<sup>(٩)</sup> بن عمر المليكشي البجائي المنتسب إلى مدينة الجزائر والمتولى خطة الإنشاء بتونس والمتوفى بها سنة ٧٤٠ للهجرة قوله :

- (١) سلافا : خمرا خالصة . تحظر : تحرم .  
(٢) ساجي : فاتر . المهند : السيف .  
(٣) عجت : عطفت .  
(٤) رتعت : نعمت . كرتعت : نهلت .  
(٥) وهنا : نحو نصف الليل .  
(٦) اعتكرت : تكاثرت . ذوائب : ضفائر . سفرت :  
كشفت وجهها .  
(٧) الغلالة : ثوب رقيق .  
(٨) بلابل : هموم وشجون . متسر : متقد .  
(٩) تعريف الخلف برجال السلف ١٧٦/١ .

رضًا نلت ما ترَضِين من كل ما يُهَوَى  
وصفحًا عن الجاني المسيء لنفسه  
قفى أتشككى لوعة البين ساعة  
قفى ساعة في عَرَصَة الدار وانظري  
وكم قد سألت الرِّيح شوقًا إليكم  
فيا رِيحُ حتى أنتِ ممن يغارُ بي  
خلقت ولى قلب جليدًا على النوى

وهو يلتمس رضا صاحبه وأن لا تقفه شاكيا من حبه متذلا ، وأن تصفح عما قد تظن من تجنيه فكفاه ما يلقي من محنة الحب ، ويسألها أن تقف ليشكو لها لوعة البين والبعد ساعة أو بعض ساعة آملا أن لا يكون هذا آخر العهد بلقائها ونجواها ، بل إنه يسألها أن تقف لحظة في ساحة الدار وتنظر إلى ما اعتراه في محنة الحب وبلواه ، ويقول إنه ليسأل الريح المقبل من دارها عنها فلا تمن عليه ولا تعطف ، فحتى الريح تغار منه ، ويخال كأنها أخت ليلي معشوقة المجنون ساكنة نجد ، وحتى نجد تهواها وتهيم بها ، ويقول إن قلبه يتحمل النوى والفراق ، ولكنه لا يتحمل فقد الأحبة . وكان يعاصره بتلمسان أبو عبد الله محمد بن البناء ويقول يحيى بن خلدون عنه إنه « كاتب شاعر متخلق ظريف » وينشد من غزله (٣) :

عيدٌ وغيْدٌ وعودٌ وابنةُ العودِ  
وشادنٍ خنثٍ الأعطاف من ترفِ  
يَجْنِي فتمحو جناباه محاسنهُ  
لما سأله عن خمرٍ بريقتهِ  
وسألنيهِ وصُدغيهِ فقال لنا  
باليلةً جمعتُ شملي بها عودي<sup>(٤)</sup>  
علقتُهُ بدرتمٍ فوق أملود<sup>(٥)</sup>  
وللجمال شفيحٌ غيرُ مردود  
يحميه بالبيض من أجفاته السود<sup>(٦)</sup>  
هذي المدامةُ من تلك العنايد<sup>(٧)</sup>

وهو يذكر ليلة عيد اجتمع له فيها فتيات حسان والعود يترنم وابنة العود يريد الخمر بنت شجرة العنب وفتاة جميلة ناعمة الأعطاف تعيش في ترف ونعيم شغف بها ويقدها الرشيق وكأنها بدر فوق غصن ناعم ، وكم جنت عليه ومحاسنها تشفع لجناباتها شفاعا لا ترد ، ويتمنى لو ارتشف من خمر ريقها ولا يستطيع إذ تحميه سيوف مسلولة من أجفاتها السود وعقربى

(٥) شادن: ولد الظبية. خنث: لين وناعم. الأعطاف: الجوانب. بدرتم: بدر كامل. أملود: غصن ناعم لين .  
(٦) البيض : السيوف .  
(٧) السالف والسالفة : صفحة الجيد وجانبه .

(١) عرصة الدار : ساحتها .  
(٢) ألوى : عطف .  
(٣) بغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٤ .  
(٤) عيد جمع غادة : الفتاة الناعمة .

صدقها. وصفحتي جيدها الجميلتين ، ويقول إنهم لما سألوها عن خمر ريقها قالت لم مدلة  
 إن هذى المدامة من تلك العناقيد . وينشد يحيى بن خالدون<sup>(١)</sup> للشاعر موشحة محكمة الصنعة  
 مثل مقطوعته السالفة وفيها يقول :

بدرٌ أزراره تبتدت فلكا      قلبى ملكا  
 عيناه مع الهوى دمي سفكا      فيه اشتركا  
 قد أشبهت المها لحظا فتكا      والخال حكى  
 مسكا مستمسكا على سوسان      غَضٌ عَيْقٍ<sup>(١)</sup>  
 يُهْدَى كنسيم جنّة الرضوان      للمنتشِقِ

هو يقول كأنها بدر وأزرارها الفلك ملكت قلبه واشتركت عينها مع الهوى فى سفك  
 دمه وقد أشبه لحظها الفاتك لحظ البقر الوحشى حسنا وجمالا ، وحكى الخال مسكا على  
 سوسان أبيض غضٌ عَطِيرٌ ، يُهْدَى كنسيم الفردوس الذكى للمنتشق . وللشهاب بن الخلوف  
 غزليات كثيرة وهى تشغل فى ديوانه نحو مائة وعشرين صفحة سوى ما يودعه مقدمات  
 مدائحه من غزل رقيق ؛ ومن طريف غزله قوله<sup>(٢)</sup> :

إذا القمريُّ غرَّدَ فى الغصونِ      أعانَ المستهَامَ على الشُّجونِ  
 وإن نأحَ الحمامُ بكيتُ وجداً      بُعِزْنَ سحائبِ الدَّمعِ الهُتونِ<sup>(٣)</sup>  
 وقاك الله هل أبصرت صبأً      حزينَ القلبِ مقروحِ الجفونِ  
 تطارحه الصبابةُ بالتصايى      وتُسَلِّمهُ الأمانى للعَنونِ<sup>(٤)</sup>  
 ينوحُ على الديار وساكنيها      إذا ما النوقُ سارت بالظُّعونِ  
 ويكتسِم فى حشاه الوجْدَ سِراً      فتظهرهُ المدامعُ فى العيونِ

وهو يقول إن قمرى الحمام يترنم فى التصون بتغاريده يثير الشجون فى قلوب المحبين ،  
 وحين ينوح الحمام يبكى وجداً ويذرف الدموع مدارارا . ويدعو لمخاطبه أن يقيه الله من الحب  
 وأوصابه ، ويسأله أرأيت مغرماً حزين القلب قريح الجفون من كثرة البكاء ، يمينه الشوق أن  
 سيُصْنِي صاحبه ، وما يزال يتمنى ذلك حتى الموت . وترحل صاحبه مع أهلها وتسير النوق  
 بالظعون أو الهواجج ، ويكتسِم نار وجده ووجهه فى صدره وأحشائه ، وتعلن سره دموعه المنهلة  
 الغزيرة. ونمضى إلى العهد العثمانى وممن نقرأ له غزلا طريفا فيه محمد القوجيلى من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

(١) غض : حديث . عيق : عطر .

(٢) الديوان ص ٣٥٧ .

(٣) مزن جمع مزنة : مطرة . الحتون : الغزير .

(٤) الصبابة : الحب والشوق .

(٥) أشعار جزائرية ص ١٣٠ .



الحبُّ صعبٌ والرقيبُ أَعَانَهُ      والدمعُ باحٌ يذًا الهوى وأبَانَهُ  
والحبُّ يستدعى القلوبَ إلى الهوى      فتجيبُهُ منقاداً ولَهَانَهُ  
وبجسمي المُنْضَى فتساةً غازلتُ      قلبَ الكئيبِ بأعينِ فتَانَهُ  
خرجتُ مع الأترابِ بين أزهْرِ      فكأنها بدرٌ تكَلَّلُ بآتَانَهُ<sup>(١)</sup>

وهو يقول إن الحب صعب والرقيب يعين جذوته اشتعالا ، وهو لا يخفى فالدمع دائما يروح به ويعلنه إعلانا ، ويذكر أن الحب يستدعى القلوب إلى العشق فتلبيه خاضعة ولهانة وقد غازلته فتاة جميلة أضنته وشغفته حبا يسحر عيونها حين رآها مع أترابها الفاتنات وكأنا وجهها بدر يتوج قامتها الرشيقة . ولسعيد المنداسي معاصره قصيدة نبوية يستهلها بغزل ويطول فيه طولا شديدا . وهي منسوبة في كتاب تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن عبد الرحمن الحوضي وبالمثل في تاريخ الجزائر الثقافي والغالب أنها للمنداسي لوجودها في ديوانه، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

أَرَذَاذُ الْمُرْنِ مِنْ عَيْنِي نَزَلُ      أَمْ دَمَوْعُ الشُّوقِ إِذْ رَقُّ الغَزْلِ<sup>(٣)</sup>  
أُبْعِينِي دِيمَةً وَكَأَنَّهُ      أَمْ شَعِيبٌ لِلنَّوَى مِنْهَا أَنْبَزِلُ<sup>(٤)</sup>  
دَعُ - عَذُولِي - اللُّومُ إِنِّي شَاتِقُ      رَقُّ طَبْعِي حِينَ صُنْعِي فِي الأَزْلِ<sup>(٥)</sup>  
مَا الهوى إِلَّا عَذَابٌ لِلْفَتَى      أَوْ يَخْفَى إِنْ بَقَلِبِ المَرْءِ حَلٌّ  
لَا تَلْمَنِي دُونَ عِلْمٍ - عَاذِلِي -      فَيَسْمَعِي صَمَمٌ عَمَّنْ عَاذِلٌ  
كَمْ دَمَوْعٍ مِنْ عَيْونِي أَنهَمِرْتُ      لِعَيْونٍ مِنْ عَذَابٍ لَا تَمَلُّ  
مَنْ دَعَانِي البَيْنُ وَالدَّمْعُ عَلِي      صَخْنُ خَدِّي وَبِلُّ يَهْمِي وَطَلُّ

ويستمر هذا الغزل إلى نحو ستين بيتا كلها بهذه الموسيقى العذبة وهذه اللغة المتخبة الصافية ، والشاعر يتساءل عن الدموع المنهمرة من عينيه أهي قطرات سحاب هاطل أم دموع شوقه تتقاطر متوالية ، وهل حقا بعينه سحابة سائلة أو مسيل للنوى انشق ، ويقول لعاذله لا تلمني فإني رقيق الطبع منذ صُنْعِي فِي الأَزْلِ ، وهل الهوى والحب إلا ألم للفتى وعذاب متصل إن حل بقلب لا يخفى ، فلا تكرر عليّ لومك دون علم بحقيقة الحب ، فبأذني وقر لا أسمعك ، وكأنا تخاطب حجرا أصم ، وكم أسراب دموع سالت من عيوني وصاحبتي لا تمل هذا

(١) البانة : مفرد البان وهو شجر لين القوام كالصنصاف تشبه به الجميلات في الطول واللين .  
(٢) الديوان الشعبي للمنداسي نشر محمد نجوشه ص ٨٣ . وديوانه الفصيح تحقيق رابح بونارص ص ٣١ .  
(٣) رذاذ : قطرات .  
(٤) ديمة : مطر . وكانة : سائلة . شعيب : مسيل .  
(٥) الأزل : القدم ، أول الزمان .

العذاب . ومد دعاه الفراق والدمع يجرى على خديّه وكأنه مطر منصبٌ وطلّ ماينى يتقاطر ويتساقط . ومن أهم شعراء الغزل فى الجزائر الأريسي وابن على وحرى أن نخصّ كلا منهما بترجمة مفردة .

### محمد<sup>(١)</sup> بن أحمد الأريسي

من شعراء بجاية فى القرن السابع الهجرى ، ولا نعرف شيئاً عن تاريخ مولده ولا عن نشأته وتعلمه ، غير أنه من بيت علم وفقه فقد كان جده الأريسي فقيهاً ببجاية وكان اعتماد قاضياها أبى محمد بن حجاج المتوفى بعد سنة ٦٤٠ للهجرة عليه وعلى الفقيه أبى على بن عزون وبينهما كان جلوسه إذ كانا المشاورين له . وعكف الحفيد فى كتاب على حفظ القرآن ثم أخذ ينهل من حلقات الشيوخ فى موطنه دارساً عليهم الفقه حتى برع فيه ، وبالمثل درس عليهم الأدب . وتفتحت موهبته مبكرة فى الشعر والنثر ، مما سلكه بين الكتاب ، ولمع اسمه بينهم حتى أصبح رئيس كتبة الديوان ببجاية ، وكما كان يتقن الكتابة والنثر كان يتقن الشعر ، وكان يسلك فيه طريقة المتنبى بينما كان صاحبه أبو عبدالله محمد بن الحسن التميمى القلعى يسلك طريقة أبى تمام ، كما يقول الغبريني ، وكانا يتراسلان بالأشعار وكل منهما يجاوب صاحبه على طريقته ، ويقول الغبريني عن الأريسي : « كان سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه من غير تكلف .. وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر » وأنشد له الغبريني مطلع مدحة وقصيدتين غزليتين ، وفى المطلع يقول :

ونادى خطيبُ الورق يدعو هديله	وغنى فأغنى عن ضروب التلاحين <sup>(٢)</sup>
وذكر أيام الصبابة والصبأ	ولذة عيشٍ كان لى غير ممنون <sup>(٣)</sup>
فيا ساكنى نجد أطرق حيكم	وأرجع مغلوباً بصفقة مغبون
ويا ساكنى الجرعاء إن كان عندكم	نصيبٌ من الصبر الجميل فواسونى <sup>(٤)</sup>
تركتُ فوداى عند خيمة زينب	وماسحرُ عينيها على بمأمون
أغارت عليه حين لم يلف ناصرًا	وأغرته بى حتى تعلم يجفونى

فخطيب الحمام دعا الهديل ليتغنى بصوته الجميل فتأثر به الشاعر وذكره أيام الصبا والحب ولذة عيش هنئ متصل ، وثار منه كمين الوجد ، فنادى أهل صاحبتة من ساكنى نجد متذلاً ، أيطرق حيههم ويرجع مغلوباً مغبونا ، وبالمثل نادى ساكنى حياها فى الجرعاء بنجد هل عندهم

(٢) الورق جمع أورك وورقاء : الحمام . هديله : قرينه من الحمام .  
(٣) ممنون : منقطع .  
(٤) الجرعاء : من مواضع نجد .

(١) انظر فى محمد الأريسي ترجمته فى عنوان الدراية ص ٣٣٧ وترجمة جده ص ٢٤٩ وترجمة أبى عبدالله محمد بن الحسن التميمى فى ص ٧٢ وراجع فى الشاعر تعريف الخلف ٣٥٦/٢ .

له نصيب من الصبر يواسونه به ، ويقول إن فواده تخلف عنه عند خيمة زينب الساحرة العينين ، وقد أغارت عليه ولا ناصر له ، وأغرته به حتى جفاه وأبى الرحيل معه . ويقول الأريسي في قصيدته الغزلية الأولى :

لعلك بعد الهجرِ تسمعُ يا بدرُ  
أبيتُ كما ترضى الكآبةُ والأسى  
إذا قنطتُ نفسي ينادى بها الرِّجا  
ولا أنسَ يوماً للسرورِ ويئتنا  
ووالله ما أدري لطيبِ حديثها  
خليلى قولاً إن بدا لكما الحمى  
على مَ تناسيتم حديث عهدكم

بوصلٍ فقد أودى بمهجتي الهجر<sup>(١)</sup>  
وأضحى كما تهوى الصبايةُ والفكرُ  
رويدك كم عُسرٍ على إثره يسر<sup>(٢)</sup>  
عتابٌ كبرد الماء لكنه الجمرُ  
أضمن سحراً لفظها أم هو السحرُ  
أهليل الحمى مشغوفكم مسه الضرُّ  
وليس له ذنبٌ وليس لكم عذرُ

والأريسي يتدلّل لمحبوته أن تسمح له بالوصل فقد كادت مهجته أو روحه أن تزهق وإنه ليبيت كئيباً محزوناً ويضحى مفكراً مهموماً ، وينادى الرجاء عليه لا بد بعد العسر من اليسر . ولا ينسى يوم لقاء مع صاحبه كان يوم سرور لا حد له ، مع ما شابه من شظايا عتاب كالجمر أو أشد ، ومع ذلك لا يدري لجمال حديثها أضمن سحراً أو هو السحر نفسه ، وينادى صاحبه إن المأ بالحمى أن يقولاً لأهلها إن المشغوف بفتاتكم مسه الضر وأصابه الضنا ، وقد نسيتم عهدكم دون عذر لكم ودون ذنب جناه . ويستهل قصيدته الغزلية الثانية بقوله :

أهل الحمى هل لكم عن قصتي خبرُ  
وفي ضلوعي نيرانٌ يضرُّمها  
لما رأيت بدورَ الحى سافرةً  
ولا عواملٍ إلا من قدودهم  
سألتك الله يا حادى المطى بهم  
عرج على فلى قلبٌ يميل إلى  
وأنت - يا سعد - إن غنت ظباؤهم

وإن ليلى بيللى كله سهرُ  
دمع على صفحات الخد ينهمرُ  
عن النقاب بدا لى أنه السفرُ  
ولا صوارم إلا ما انتضى الحور<sup>(٣)</sup>  
رفقا على لعل الصدغ ينجبرُ  
حديث من قتلوا منا ومن أسروا  
فقف تعاین فوادى كيف ينفطر<sup>(٤)</sup>

والشاعر يعرض قصته على أهل الحمى وأن حبه لليلى يشغف قلبه حتى ليبيت مسهداً ، وفي ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده . ورأى بدور الحى سافرة فعرف أنها تستعد للسفر ، وتراءت له قدودهن كأنها أسنة رماح تصيب قلوب الرجال ،

(١) أودى به : أهلكه وذهب به .

(٢) قنطت : بست .

(٣) العوامل : أسنة الرماح . انتضى الصارم : سل

السيف .

(٤) ينفطر : يتشقق .

وكأنما حَوَّرَ عيونهنَّ يسلاً سيوف مصمّية ، ويسأل حادي المطى يرفق به لعل الصّدع الذي أحدثته صاحبه في فؤاده ينجبر ، كما يسأله أن يميل بالركب عليه فقلبه يتمنى لو سمع حديث من قتل منهم ومن أسرن ، وإن تغنين فقف ليرى فؤاده كيف ينفطر ويتصدّع ألماً . ويعرض حواراً لصاحبه معه منشداً :

تقول والحسنُ يُطغيها فتظلمني      ولا مؤازرَ إلا صارمٌ ذكراً<sup>(١)</sup>  
دع الحسامَ وضعْ حمل السلاح فما      في كل وقتٍ يفيد الحزم والحذرُ  
ما للمهندِ حكيمٌ في محلتنا      بل للمنهّد فيها الحكمُ والنظرُ<sup>(٢)</sup>  
فإن طمعتَ بلينٍ في لسواحظنا      فنحن أهلُ قلوبٍ مثلها الحجر  
وإن حلتُ لك ألفاظٌ نردّها      ما بيننا فهناك الصّابُ والصّيرُ<sup>(٣)</sup>  
فأرحمَ شبابك وارحلْ دون مغلبةٍ      واقبلْ من الحسن ما أعطاكه النظر

حدثته صاحبه كما يقول وهي شاعرة بحسنها حتى يجعلها طاغية ، وكان يحمل سيفاً فقالت له ليس للسيف حكم في منازلنا وإنما الحكم والرأى القاطع للفتاة ، وإن أطمعتك لين في نواظرنا فنحن أهل قلوب كاللحجارة أو أشد صلادة وصلابة ، وإن أطمعتك ألفاظ حلوة نرددها بيننا فوراها الصّاب والصبر شديدا المرارة مرارة لا تطاق ، فأرحم شبابك وارحل دون قهر ، واكتف من الحسن بالنظر إليه . وهذه الأبيات التي أجزاها الأريسي على لسان صاحبه لتملأ نفس قارئه إعجاباً بخصب شاعريته .

ابن<sup>(٤)</sup> علي

هو محمد بن محمد بن محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العليج ، وذكر العليج في آياته يدل على أن أسرته عثمانية وأن جده يوسف العليج من أوائل العثمانيين النازلين بالجزائر حين أصبحت ولاية عثمانية . وغلب عليه اسم ابن علي مما يدل على أن أحد آياته كان يسمى علياً ، ويؤكد ذلك أن شاعراً هو محمد الشباح سمى أباه في مدحة له كما جاء في مجموعة أشعار جزائرية محمد بن علي قائلاً :

وسمى غوث الغرب من مجاجةٍ      وافاك من ربّ العُلا إقبالُ

ويريد الشباح بسمى غوث الغرب من مجاجة محمد بن علي المجاجي ، فاسمه إذن بشهادة هذا الشاعر ابن علي ، وإما أن يكون علي أباه أو أحد أجداده ، وسقط من سلسلة نسب الشاعر .

سعد الله في مجموعة أشعار جزائرية ص ٢١ وما بعدها  
وكتابه تاريخ الجزائر الثقافي ٣١١/٢ وفي مواضع  
متفرقة . وقد حقق ونشر مجموعة كبيرة من أشعاره  
في مجموعة أشعار جزائرية .

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .  
(٢) المهند : السيف . المنهد : الناقد : الفتاة .  
(٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصير : عصارة  
شجر مر .  
(٤) انظر في ترجمة ابن علي ما كتبه د . أبو القاسم



واشتهرت هذه الأسرة بنظمها للشعر منذ رمضان بن يوسف ففى مجموعة أشعار جزائرية أبيات له فى الحث على طلب العلم، وكذلك لمحمد المهدي قصيدة ضمنها شكوى إلى علماء إسطنبول وأبيات لوالد الشاعر، فهو من بيت شعر وأدب، وأيضاً فإن بيته كان بيت فقه حنفى وقضاء وفتوى، يدل على ذلك بوضوح أن جده محمد المهدي عُيِّن مفتياً للحنفية سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ولقب بشيخ الإسلام وهو لقب كان يتلقب به المفتى الحنفى فى الجزائر طوال العهد العثمانى وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى أواخر العقد السابع من القرن الحادى عشر الهجرى. وطبعى أن يكون والد الشاعر فقيهاً على غرار أبيه، إذ نرى الشباح ينوه فى مدحته له بقوله:

العالم العلامة القطب الذى ضربت بحسن صنيعة الأمثال

ولا نعرف متى ولد الشاعر ، ويبدو أنه ولد فى أواخر القرن الحادى عشر، كما قال الدكتور أبو القاسم سعد الله ، مستدلاً على ذلك بأنه كان أحد من هنأوا محمد بكداش والى الجزائر بفتحه لوهران وانتصاره فيه على الإسبان سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧.

وعهدى بحور الشعر عنى أذودها زمانا

وكأنه قد عالج الشعر قبل عام فتح وهران مما يدل على أن من عمره على الأقل . وكان يكبُّ على حلقات فقهاء المذهب الذكر الحكيم مما أهله فيما بعد ليدرس للطلاب التفسير ، خطيب المسجد الكبير يعظ الناس كل جمعة مواظم مؤثرة .

مفتياً حنفياً للجزائر ويلقب بشيخ الإسلام ، ويظل شاغلاً هذا المنصب حتى وفاته سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م . ويعد ابن على فى الذروة من شعراء الجزائر فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وكان ينظم فى المدح والمنشآت ووصف الطبيعة والثناء ، وأكثر من شعر الغزل إكثاراً يسبق فيه شعراء عصره ، وجمع لنفسه ديواناً ضم أشعاره وأشعار بعض معاصريه وأشعار آباءه ومعاصريهم فى القرن الحادى عشر الهجرى . وسقط هذا الديوان من يد الزمن غير أن أكثره - أو كثيراً منه - ماثوث فى المجموعة التى أشرنا إليها المنشورة باسم أشعار جزائرية . ويبدو أنه أخذ ينصرف عن نظم الغزل حين ولى الخطابة والتدريس فى المسجد الكبير ، وولى منصب الإفتاء الجليل ، ويصرح بذلك قائلاً :

لولا - وحقك - خطبة قلدها زهرت بها فى الخافقين شموعى

ومنابر فيها رقيت إلى العلا وقد استدار بها كئيفُ جموع

لنحوت منحنى العامرى صباية ولكان من حرق الجوى مشفوعى

وهو يقول لولا خطبة الفتوى - على المذهب الحنفى - التى تقلدتها وتلاأت وتألقت بها شموعى فى الجزائر ، ولولا منابر فيها سعدت بها إلى العلا بوعظى الجموع الكئيفة من أهل

الجزائر لظلمت أنظم غزلا عذريا عفيفا مثل غزل قيس العامري مجنون ليلي كله صباية وهيام  
وحرقت من الحب والوجد تضطرم اضطراما ، وله يتغزل :

يميناً لقد عزت على المطالبُ  
فسبحان من سواك في الحسن صورة  
مراشف من شكل العقيق مصوغة  
وصدرٌ بدت رمأتاه كحقتي  
تحوم عليها الشمس غيري كهيئة  
وقد حاولوا مني التسلي بغيرها  
وهل يستوى المصباح والشمس في السنا  
وهل يستوى بدرُ السما والكواكب

وهو يعجب بسحر عيني صاحبه في البيت الأول وبجمالها في البيت الثاني الذي تعترف  
به الحور الجميلات الشابات ، وكان مرآشفها مصوغة من فصوص العقيق ، ويلتئم بها مبسم  
الآليء البديعة ، وينوه بجمال صدرها ونحرها وترائبها ، ويقول إن الشمس تغار من جمالها  
وتشعر بغير قليل من الحزن حين تراها وتجاذبها ثوب ضوئها ، وتحاول تجنبها شعورا منها  
بأنها أروع وأبهج . ويظن غير واحد أنني أستطيع التسلي عنها بغيرها وخابت ظنونهم جميعا ،  
وهل يمكن أن يتساوى المصباح والشمس أو يمكن أن يتساوى البدر في تمه وإكاله بالكواكب  
والنجوم ؟ ! . ومن غزلياته قوله :

أغصون تأودت أم قدودُ  
أم وجوه بدت لنا أم بدورُ  
في سماء الجمال تسطع نورا  
كم لها في الأسود من فتكاتٍ  
سحرتلك العيون فيه تناهت  
جتنا وجنتيه عند بتاني  
أم ورودُ تفتحت أم خدودُ<sup>(٥)</sup>  
طالعسات يحفهن السعودُ  
ويقلي منها - الزمان - وقود  
وبروق - من صدها - ورعودُ  
وتفانت زيانب وهنودُ  
وجنا الجنتين عنى بعيد<sup>(٦)</sup>

وهو لا يدري أيرى قدودا وقامات لهؤلاء الحسان أم يرى غصونا تشني دلالا ، وهل يرى  
خدودا فاتنة بحمرتها أم ورودا تفتح جمالا ، وهل يرى وجوها فاتنة أم بدورا يحفها السعد بل  
سعد السعود ، وكأنها كواكب تسطع في سماء الجمال نورا ، ولقلبه منها وقود مايني مشتعلا ،  
وكم لها في الأسود من فتكات وكم لها بروق ورعود ، وإن سحر عيونها ما بعده سحر ، ذاب

(١) كواعب ، جمع كاعب : الفتاة الشابة .  
(٢) العقيق : حجر كريم أحمر تتخذ منه الفصوص .  
(٣) لجين : فضة .  
(٤) السنا : الضوء .  
(٥) تأودت : تفتت .  
(٦) الجنا : كل ما يجنى من الشجر .

فيه سحر العيون جميعا وسحر كل زينب وهند ، ويقول إنه لا يستطيع الدنو أو القرب من وجنتها فضلا عن أن يقتطف منهما شيئا ، وهو لذلك يتعذب عذابا شديدا ، وربما كان أهم الغزلين في عصره .

٢

### شعراء وصف الطبيعة

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل إقليم ، فدائما الشعراء يتغنون بما تقع عليه أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار ، وما يروعه من مشاهد الحياة المتحركة في الطير والحيوان الوحشي والأليف . وولتقى بيكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ومقطوعة له في الطبيعة الصامتة إذ يصف البرد في بلدته تاهرت عاصمة الدولة الرستمية قائلا<sup>(١)</sup> :

ما أحشنَ البردَ ورَبَعَاتَهُ      وأطرفَ الشمسَ بتَاهِرَتِ  
تبدو من الغيم إذا ما بدت      كأنما تُنشرُ من تَحْتِ  
فنحن في بحر بلا لجةٍ      تجرى بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ  
نفرح بالشمس إذا ما بدت      كفرحة الذمي بالسبت

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته في تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجبة دائما من وراء الغيم وكأنما تنشر من وراء تخت أو ستر صفيق ، وأنا لنشعر لشدة البرد كأننا في بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودي يوم السبت يوم عيده الأسبوعي . ولبكر مقطوعة حزينة يبكي بها بلدته تاهرت حين خربها في سنة ٢٩٦ هـ أبا عبيد الله داعية العبيدين وقضى على الدولة الرستمية بها ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

زُرْنَا منازلَ قومٍ لم يزورونا      إنا لفي غفلةٍ عما يقاسونا  
لو ينطقون لقالوا الزادُ ويحكمُ      حلُّ الرحيلُ فما يرجو المقيمونا  
الموتُ أجحفَ بالدينا فخرَّبها      وفعلنا فعلُ قومٍ لا يموتونا  
فالآن فابكوا فقد حقَّ البكاء لكم      فالحاملون لعرش الله يكونا  
ماذا عسى تنفع الدنيا بأجمعها      لو كان جُمعَ فيها كثرُ قارونا

وهو يقول إنا زرنا منازل قوم في قبورهم قضى عليهم أبا عبيد الله ولا نعرف ما يقاسون ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للآخرة فقد حل بالمقيمين الرحيل عما قليل، وقد استأصل الموت أهل

(١) ديوان بكر بن حماد : نسخة مصورة طبع الجزائر (٢) الديوان ص ٩٠ .

تأخرت وخربها، ونحن لانتعظ كأننا لن نموت، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يكون عليكم  
ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تأخرت جمعوا فيها كنز قارون فكل شيء فيها  
صار إلى فناء. ولابن قاضي ميلة المترجم له بين شعراء المديح في وصف عود وما صار إليه من  
التغنى عليه<sup>(١)</sup>:

جاءتْ بعودٍ يُناغيها ويُسعدُها      انظرْ بدائعَ ما يأتي به الشجرُ  
غنَّتْ عليه ضروبُ الطيرِ ساجدةً      حيناً فلما ذوى غنى به البشرُ  
فلا يزال عليه - أو به - طربُ      يهيجُه الأعجمان: الطيرُ والوترُ

فقد كانت ضروب الطير وصنوفه تغنى على هذا العود، وهو موصول بشجرته، فلما قُطع  
منها وذوى غنى عليه البشر بما شدوا عليه من أوتار، وكأنما يهيجه طوال حياته أعجمان:  
الطير قديما والوتر حديثا. ويبدو أن سمك القرش المقترس كان يتراءى أحيانا في مياه تونس  
فقال ابن قاضي ميلة يصفه<sup>(٢)</sup>:

وأشغى بفقيه مثل المدى      طويلُ القرا مدمجُ الأعظم<sup>(٣)</sup>  
تصرفه في ضمان المياه      ومهجه في يد الخضرم<sup>(٤)</sup>  
يخاف الهواء ويخشى الضياء      وإن كان أجراً من ضيعم<sup>(٥)</sup>  
له داخل اليم بطشُ الأسود      وتصحبه مشية الأرقم

وقد وصف ابن قاضي ميلة القرش وصفا دقيقا فقال إنه مختلف الأسنان وإن بفقيه مثل  
المدى أو السكاكين وإنه طويل الظهر مدمج العظم واللحم، ولا يعيش إلا في الماء يخاف الهواء  
والضياء، وإن كان أجراً من أسد فاتك، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل في داخله  
متلويًا في مشيته كالأفعوان. وكان يعاصر ابن قاضي ميلة عبد الله بن محمد الجراوى وسنخسه  
بترجمة. وأهدى نزار الخليفة الفاطمي في القاهرة المنصور بن بلكين سنة ٣٨٤ هدية فيها خيل  
وإبل وحمار وحشى مخطط وفيل، ووصفها جميعا عبد الكريم النهشلي، وفي الخيل يقول<sup>(٦)</sup>:

ويُلَقُّ تقاسمَ الدُجْنَةِ والضُّحَى      فمن هذه شطرٌ ومن هذه شطرٌ  
وصُفْرٌ كأن الزعفرانَ خضابُها      وإلا فمن ماء العقيق لها قشرٌ  
وشُهْبٌ من اللُّجِّ استعيرت متونها      ومن صور الأقمار أوجهها قمر<sup>(٧)</sup>  
عليها السروجُ المحكماتُ إذا مشت      بها خيلاء الخيل رنحها كبرٌ

والخيل بينها بلق يلتقى فيها السواد بالبياض، وكان الظلمة والضحي اقتسما لونها فلكل

(٥) ضيعم: الأسد الواسع الشدق.

(٦) الأنموذج ص ١٧٣.

(٧) قمر: مشرقة كالقمر.

(١) ابن خلكان ٥ / ٣٤٨.

(٢) الأنموذج ص ٢١٣.

(٣) أشغى: متخالف الأسنان. القرا: الظهر.

(٤) الخضرم: البحر: متعاطم الموج وتلاطه.



منهما نصيب ، ومنها صفر كأنما خُضِبَتْ بالزعفران والآن بقشر من ماء العقيق ، ومنها شهب يختلط فيها بياض الشعر بسواده ، وكأنما استعيرت ظهورها من لُجِّ الليل وظلمته الشديدة السواد أما أوجهها فمضيئة ضياء الأعمار الساطعة ، وتمشى مزهوة مشية خيلاء متعالية ، ويقول في الفيل الذي كان مصاحباً للهدية<sup>(١)</sup> :

وأضخمُ هنديُّ النَّجارُ تُعِدُّهُ      ملوكُ بني ساسانَ إن رابها أمرُ  
يجيءُ كَطَوْدٍ جائلٍ فوق أربعِ      مضبِّرةٌ لُمَّتْ كما لُمَّتِ الصُّخْرُ<sup>(٢)</sup>  
له فخذان كالكتيين لبدا      وصدْرٌ كما أوفى من المُضْبَةِ الصَّدْرُ  
ووجهٌ به أنفٌ كراورقٍ خمرةٍ      ينال به ما تُدركُ الأنملُ العَشْرُ<sup>(٣)</sup>

والنهشلى يقول عن الفيل إنه ضخم هندي الأصل ، كانت تعده ملوك الفرس حين يريها أمر . ويشبهه بجبل يتحرك فوق أربع مكتنزة اللحم والعظم تضامت أجزاءها تضام أجزاء الصخر ، وله فخذان كأنهما كتبان متراكان وصدور عريض متسع ، ووجه به أنف طويل طول عنق إيريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بأنامله العشرة . وولتقى فى بلاط بنى حماد ببجاية بالطيب ابن أبى المليلح شاعر الأمير العزيز الحمادى ( ٤٩٨ - ٥١٥ هـ ) وله يصف خيوله وموكبه فى قصيدة عيدية منشدا<sup>(٤)</sup> :

وجالتُ به جردُ المذاكى كأنها      عذارى ولكن نُطْقُهُنَّ تَحْمَحُمُ  
بصفراء كالتيبر العتيقِ صقيلةٍ      ودهماء يتلوها كُمَيْتٌ وأدهمُ  
وأشقرَ لو يجرى وللبرق جهدهُ      لكان له يوم الرُهانِ التقدُّمُ  
وجاء لواءُ النصرِ يتبع رايةً      بها العزُّ معقودٌ عليها متمُّ

وهو يقول : جالت بالأمر خيل كريمة مدربة كأنها لم تترك لأول مرة : صفراء كالتيبر ودهماء كالليل يتلوها كميته وأشقر ، ولو أن الأشقر سابق البرق لسبقه ، وجاء موكب الأمير تقدمه راية العز والنصر .

وإذا اتجهنا إلى تلمسان الثقينا بشاعرها فى القرن السابع الهجرى ابن خميس ، وكان قد بارحها إلى الأندلس ، وله قصيدة بديعة يتشوق فيها لرؤية مشاهدتها ومنتزهاتها فى مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

(٤) الخريدة ١ / ١٨٤ .  
(٥) الديوان : النسخة المصورة ص ٨٥ .

(١) الأنسودج ص ٧٥ .  
(٢) مضبيرة : مكتنزة اللحم  
(٣) الراورق : إيريق الخمر .

تلمسانُ جادتهاُ السحابُ الدَّوَالِحُ  
 ففى كلِّ شَفْرِ من جفونى ماتحُ  
 كمتُ هواها ثم برح بي الأسي  
 لساقية الرومى عندى مزبنة  
 وكم لى عليها من غدو وروحة  
 ظبساء مغايتها عواطٍ عواطٍ  
 تقتلهم فيها عيون نواظرُ  
 وإن أنس لا أنس الوريط ووقفة  
 مُطلاً على ذاك الغدير وقد بدت  
 أمأوك أم دمعى عشية صدقت  
 لئن كنت ملأنا بدمعى طافحاً

وأرست بواديهما الرياحُ اللواتحُ<sup>(١)</sup>  
 وفى كل شطرٍ من فوادي قادح<sup>(٢)</sup>  
 وكيف أطيع الكتمَ والدَّمعُ فاضح  
 وإن رغمتُ تلك الروابى السوايح<sup>(٣)</sup>  
 تساعدنى فيها المنى والمنائح<sup>(٤)</sup>  
 وطيرُ مغايتها شوادٍ صوادح<sup>(٥)</sup>  
 وتبكيهم منها عيون نواضح<sup>(٦)</sup>  
 أنافح فيها روضه وأنافح<sup>(٧)</sup>  
 لإنسان عيني من صفاه صفائح<sup>(٨)</sup>  
 علية ما قال العذول المكاشح<sup>(٩)</sup>  
 فإنى سكرانٌ بجبك طافح

وابن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالغزل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائما وتظل بواديهما الرياح الملقحة المنتجة ، ويقول إن فى كل حرف من جفونه ماتح يملأ دلاءه بدموعه شوقا إليها وفى كل شطر من فواده قادح لنيران الوجد والحب ، وكم كم حبه ووجده غير أن دموعه تفضحه ، فلم يعد بُدُّ من إعلانه ، ويذكر مشهد القناة المسماة بساقية الرومى وإن عتبت عليه الروابى من حولها ، ويذكر كم له فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحسانها يبدن له العطف ، والطير من حوله ترقص وتصدح وتغنى ، وهن يقتلن بجمالهن من يطيل النظر إليهن ، وينصرفون عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى متزه الوريط وما كان ينافحه فيه ويفاوحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح الغدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية صفائح الدروع ، ويسأله أبك ماؤك أم دمع عيني عشية صدقت علية ما قال العذول المعادى ، ولئن كنت ملأنا بدمعى طافحاً به فإنى سكران طافح بجبى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر<sup>(١٠)</sup> :

- (١) الدوالح : المثقلة بالأمتار . اللواتح : الملقحة بما تحمل من أمتار وغير أمتار .
- (٢) الشفر : حرف الجفن . ماتح : نازع للدلو من البئر . قادح : أى للتار .
- (٣) ساقية الرومى : قناة جميلة بمشاهد الزروع حولها . السوايح : المعرضة .
- (٤) المنائح جمع منيحة : العطية .
- (٥) مغايتها : منازلها . عواط : لا تستصعب .
- (٦) نواضح : جمع ناضح تنزف كل ما بها من دموع .
- (٧) الوريط : متزه . أنافح : أستخرج نفعه وشذاه وكذلك أنافح .
- (٨) صفاه : يريد ماءه الصافى .
- (٩) المكاشح : البغيض .
- (١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٢٧ .

لقد بَلَّ أَرْدَانَ الثَّرَى دَمْعُ مُزْنَةٍ  
 وَجَرَّ عَلَى هَامِ الرَّبِيِّ ذَيْلَ وَبَلِهِ  
 وَخَطَّ بِطِرْسِ الْجَوِّ سَطْرًا مَذْهَبًا  
 وَشَابَ لَجِينِ الطَّلِّ عَسْجِدُ بَارِقٍ  
 وَدَارَ بِسَاقِ الْغَصَنِ خَلْخَالُ جَدْوَلٍ  
 تَنَاطَرَ فِي أُسْلَاكِهَا فَتَنَظَّمًا<sup>(١)</sup>  
 فَدَبَّحَ أَثْوَابَ الرَّبِيعِ وَسَهْمًا<sup>(٢)</sup>  
 فَنَقَطَهُ قَطْرُ الْغَمَامِ وَأَعْجَمًا<sup>(٣)</sup>  
 فَدَنَّرَ أَزْهَارَ الرَّيِّعِ وَدَرَّهَمًا  
 كَمَا سَوَّرَ التَّجْعِيدُ لِلنَّهْرِ مِعْصَمًا

وهو يقول إن دموع السحابة بلت أحكام الربى وتناثرت في أسلاكها وانتظمت ، وسحب المطر على رعوس الربى ذيل وبله فزبن ثيابها وخططها تخطيطا بديعا ، وخط على صفحة الجو سطرا مذهبا نقطه قطر الغمام ، وشاب لجين الطل المتلألئ عسجد البرق ، فاستحالت أزهار الربيع دنائير ودراهم ، واستحال ما في الجدول من تجعدات للرياح خلاخيل لسيقان الغصون على نحو ما جعلت تجعداتنا للنهر أساور تزين معصمه . واشتهر إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي التلمساني بأخرة من عصر الدول الحفصية بقصيدة طويلة في مائتي بيت وأربعة عشر وصف فيها صيد الصقر ، وسنخسه بكلمة . ونمضى إلى العهد العثماني ، ومن طريف ما قرأ فيه وصف ابن أبي راشد لمدينة الجزائر في الربيع ، وفيه يقول<sup>(٤)</sup> :

سقى المطرُ الهطال أرضًا تشرفتْ  
 بمزغنة الفيحاء تظهر من مدى  
 وحيث الربيع الغضُّ تم شبابه  
 تريك احمرارا في ايضاض كأنها  
 دواليبها تسقى الغصون فتشنى  
 فتبصر أغصان الحدايق سُجْدًا  
 وما هي إلا جنة قد تارَّجتْ  
 بمصر غدت للفضل والفخر جامعة  
 ترى كسقيط الثلج بيضاء ناصعة<sup>(٥)</sup>  
 ترى أرضها تبدى النضارة ياتعه  
 دماء على أرض من الثلج واقعه  
 حائمها تشدو على القضب ساجعه .  
 تميد من الصوت الحنون وراكعه  
 مباخرها بالطيب والمسك ساطعه

وابن أبي راشد يدعو بالسُّقيا لمدينة الجزائر التي أصبحت مصرا وعاصمة لقطرها في عهد العثمانيين وغدت جامعة للفضل والفخر ، ويظل المطر يهطل على مزغنة الفيحاء ، وكأنه يسميها باسمها القديم ، ويقول إن مبانيها جميعا بيضاء يياض الثلج المتساقط الناصع ، وإنها لثرى في الربيع وقد لبست ثوبا من رفاة العيش والنضارة ، وترى ورودها الحمراء تكسو ورودها البيضاء ، وسواقيها تروى بساتينها والحمام يشدو على الغصون مبهيجا ، وكأنما الأغصان تستمع إلى صوتها الحنون الشجي ، فماتزال بفعل الرياح ساجدة راکعة ، وما مدينة الجزائر

٣٠٧/٢

(٥) مزغنة: القبيلة التي بنت مدينة الجزائر وقد تسمى باسمها .

(١) اردان جمع رذن : كم .  
 (٢) دبج : زين ونقش . سهم : خطط .  
 (٣) طرس : صفحة . أعجمه : أزال عجمته بنقطه .  
 (٤) تاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبي القاسم سعد الله

الإجته ، قد فاحت مباخرها بالطيب والمسك وسطع شذاها سطوعاً عظيماً . وحرى أن تفرد  
ترجمة لكل من عبد الله بن محمد الجراوى وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى .

عبد الله بن محمد الجراوى<sup>(١)</sup>

شاعر جزائرى من جراوة بين مدينة قسنطينة وقلعة بنى حماد ، تأدب فى مسقط رأسه جراوة  
داخل الجزائر ، وقدم إلى القيروان - كما يقول ابن رشيق - فى أوائل العقد الرابع من حياته، وتعلق  
بخدمة المعز بن باديس. ويقول ابن رشيق: كان شاعراً فحلاً وصافاً جيد الفكر والخاطر، تحسب  
بديهته رويته، يتحدر كلامه كالسيل ، وكان حسن الخلق جميل العشرة مزاحاً ، سأله أيوب بن  
يطوفت أحد رجال صنهاجة: أى بروج السماء لك؟ فقال : واعجبا منك ما فى الأرض  
بيت فكيف يكون لى برج فى السماء، فضحك، وأمر له بدار جواره . ويذكر ابن رشيق أنه:  
توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغت سنه نيفاً وأربعين سنة، وكانوا قد أغروا به القائد  
حماد بن سيف (العزير بالله) فدمر عليه من قتله ليلاً، وعرف خطأه فأسف عليه. وقد أشاد به  
ابن رشيق كما رأينا فى الشعر إشادة رائعة، ومما أشد له قوله البديع فى وصف ديك :

وكائن نَفَى النَوْمِ عن عُرْفَانِ	بديع الملاحاة حلوا المعانى <sup>(٢)</sup>
بأجفانٍ عَيْنِيهِ يا قوتانِ	كأن وميضهما جمرتانِ
على رأسه التاجُ مستشرفاً	كناج ابن هرمرز فى المهرجانِ
وقُرْطانٍ من جوهِرٍ أحمرِ	يزينانه زَيْنَ قُرْطِ الحَصانِ
له عُنُقٌ حولها رونقٌ	كما حوت الخمرَ إحدى القناني
ودارَ بُرائِلُهُ حولها	كما نورَتِ شَعْرَةَ الزعفرانِ <sup>(٣)</sup>

والجراوى يقول إن النوم انتفى عن الديك وظل مسهداً طوال الليل بديع الجمال حلوا  
المعانى وبأجفانه ياقوتتان تومضان كأنهما جمرتان وعلى رأسه تاج عرفه كناج ابن هرمرز  
فى احتفال يوم المهرجان، وله قرطان من ياقوت أحمر يزينانه كما يزنان المرأة العفيفة الطاهرة،  
ويستدير حول جده رونق من الجمال الرائع: وله ريش بديع زاہ زهو الزعفران، ويستتم  
وصفه للديك قائلاً:

ودارت بِجُوجِيهِ حُلَّةٌ	تروقُ كما راقك الخسروانى <sup>(٤)</sup>
وقام به ذنبٌ معجبٌ	كباقةٍ زهرٍ بدت من بنان
وقاس جناحاً على ساقه	قيس ستر على خيزران

(٣) برائله : ريش يستدير حول عنقه .

(٤) الجوجو : الصدر . الخسروانى : الطليسان .

(١) انظر ترجمة الجراوى فى الأنموذج ص ٢١٦ .

(٢) العرفان : الديك .



وصفُّق تصفيقٌ مستهترٌ بمحمرةٍ من بنات الدنانير  
وغردٌ تغريدٌ ذي لوعةٍ ييوح بأشواقه للغواني

يقول الجراوى : قد استدارت حلة بصدرة كما يروق الطيلسان الخسروانى ، وبداله ذيل زاه كباقة زهر ، ورفرف بجناحه على ساقه وكأنه مقيسٌ عليه كستر يُسدلُ على خيزران ، وصفقُ به تصفيقٌ مخمور ، وغرد تغريدٌ ملثاع ييوح للغواني بأشواقه الحارة .

إبراهيم<sup>(١)</sup> بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى

فجيج المنسوب إليها إبراهيم بن عبد الجبار هو وأبوه وأسرته فى أقصى الجنوب من تلمسان ، وكان أبوه فقيها ومفسرا وله تفسير للقرآن الكريم فى اثنى عشر جزءا ومختصر لحياة الحيوان ، ونشأ ابنه إبراهيم على غراره يعنى بتحصيل العلوم ، ورحل فى سبيل العناية بها إلى فاس وتلمسان ولقى علماءهما وأخذ عنهم ، ويقال إنه رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها . وعاد إلى موطنه ، وله منظومتان : منظومة فى علم الصيد بالصقور سماها روضة السلوان وهى فى مائتى بيت وأربعة عشر ، ومنظومة ثانية فى الفقه سماها مفيدة الولدان . وكان حيا سنة ٩٢٠ وتوفى بمدينة جى ببلاد السودان الغربى القديم . وشرح قصيدة الصيد ابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار سنة ٩٨٦ . ويستهل أبو إسحق إبراهيم الفجيجى مطولته ببيان منافع الصيد فى عشرين بيتا ويتلوها بصفات الصائد فى اثنى عشر بيتا ، ومنها العفة والنزاهة وعدم الاختلاط بأهل اللؤم والغيبة ، فلا سوء عشرة ولا هتك هية . ويصف الصقر بمثل قوله :

طويلٌ ثلاثٍ لا كطول بُغائها  
رحيبٌ ثلاثٍ وهى ما هى كفه  
عظيم ثلاث : رأسه ثم فخذُه  
له عُدَّةٌ من نفسه فى مخالبٍ  
يُمناه بارقٌ محيطٌ بزنده  
كذلك فى يُسراه ثانٍ وجلجلٌ  
جناحٌ وعُنقٌ ثم طالت أصابع<sup>(٢)</sup>  
وما بين منكيه والصدر واسع<sup>(٣)</sup>  
ومنسرةٌ لجزرٍ ما هو صارع<sup>(٤)</sup>  
شديدٍ سوادها ، حدادٍ ، لواسع<sup>(٥)</sup>  
من الفضة البيضاء كالسيف لامع<sup>(٦)</sup>  
تلونٌ بالإبريز أصفر فاقع<sup>(٧)</sup>

(١) انظر فى إبراهيم الفجيجى وترجمته شرح ابن أخيه  
أبى القاسم محمد بن عبد الجبار لقصيدته المسمى الفريد  
فى تقييد الشريد وتوصيد الويد بتحقيق الدكتور عبد  
المهادى التازى، وراجع تعريف الخلف ٧/٢ ولأبى راس  
شرح عليها باسم الشقائق النعمانية فى شرح الروضة  
السلوانية.  
(٢) البغاث : من ضعاف الطير .  
(٣) رحيب : متسع .  
(٤) المنسر من الطير كالشفة من الإنسان . جزر : نحر .  
صارع : فاتك .  
(٥) حداد : قاطعة . لواسع : تلسع كالعقرب .  
(٦) بارق : خلخال لامع .  
(٧) الجلجل : الجرس الصغير . الإبريز : النعب  
الخالص .

إذا انقضَّ خلتَ البرق والرَّيحُ عاصفًا      ورعدًا به رَجَزٌ على الصَّيدِ واقِعٌ<sup>(١)</sup>  
دوىُّ جلاجِلٍ ولمعُ خلاخلٍ      وخَفَقُ جناحِ كلِّ ذلكِ فاجِع

والفجيجي يقول إن صقره يحوز صفات الصقر الحميد فهو طويل الجناح والعنق والأصابع ، وهو واسع الكف والصدر بعيد ما بين المنكين عظيم الهامة ممتلىء الفخزين صلب المنقار لجَزْر ما يفتك به ، وعُدَّتْه مخالبه الشديدة السواد القاطعة التي تلسع لسع العقارب ، وفي يمينه خلخال لامع من الفضة بزنده ، وفي يسراه خلخال وجرس صغير أصفر مموه بذهب فاقع ، وإذا انقض على فريسته من الطير ظننت البرق والرَّيح والرعد كل ذلك هجم عليه ، ولا تسمع سوى دوى جلاجِل ولمع خلاخل وخفق أجنحة ، كل ذلك ينقض على الفريسة . ويصور الفجيجي انقضاضه على طائر الجباري منشدا :

ويلجأ لآتٍ حين يَأويه ملجأً      فلا الأرضُ تنجيه ولا الجوّ مانعُ  
ذوأتُهُ في كفٍّ من لا يُقِيلُه      يساق بها للموت وهو يوادعُ  
وتندبُه حُبَّارِيَّاتُ الفَنِّه      بفيفاءٍ مَجْهَلٍ وهنَّ جوازِعٌ<sup>(٢)</sup>  
نوائِحُ أعرابٍ على الطُّبْلِ حَلَقَةٌ      يحاجِلُنَ مجنونًا لمن تواجِع  
شَقَقْنَ جيوبًا ناشراتِ الرءوسِ قد      جرحنَ خدودًا ما لهنَّ براقِع

والفجيجي يقول إن الجباري كان يطلب ملجأ حين رأى الصقر ، وضاق عليه الجو بأعاليه وضافت عليه الأرض بجبالها الشاهقة وما رَحُبَتْ ، وأخذ الصقر بذوابة رأسه وريشه الطويل ، ولم يعد يجد مناصا ولا خلاصا منه فهو يوادعه موادعة اليائس من الحياة ، وتندبه حباريات ألفنه متجرعات عليه غصص الجزع . وشبههن الفجيجي بنوائح الأعراب حين يتحلقن على الطبل بحرقه الحزن ، ويحاجلن ندائبهن الذي يزيد في حزنهن ويشعله في نفوسهن ، ويشققن جيوبهن وينشرن شعورهن ويخمشن وجوههن السافرة حزنا على فقيدهن . ويمضى الفجيجي متمنيا لو عادت أيام الصغر أو أيام الشباب ويذكر مواضع كثيرة في الربيع والشتاء كان يرودها للصيد ويندد بمن كانوا يتلومونه لاهتمامه به ، ويقول إن مثلهم مثل من لا تحركه بهجة الربيع ولا متعة العود والموسيقى وكأنهم لم يشعروا يوما بالحب والهوى . ويفيض في عرض فقه الصيد وما أحلّه الشارع منه وما حرّمه وواجبات القانص إزاء ذلك وأجناس صيده في البر ، ويتجه إلى قارىء قصيدته بعد نحو مائتي بيت قائلا :

أَتَيْتُكَ بالتحقيقِ نظما فخذُ بهِ      ودَعُ عنك ما سِواه فهو جَعاجِعُ  
فدونكها من بحرِ فكري دُرَّةٌ      تفجّر منها للعلومِ يَنابِعُ  
فمن كان ذا جدٍّ وعيٍ خِصْبَ حكمةٍ      ومن يتغ الإحماضَ فالمرجُ واسع

(٢) فيفاء : صحراء واسعة .

(١) رجز : شدة في الصوت .

فقل روضة السلوان إن شئت في اسمها  
ولا تعدون عينك عنها لكونها  
وكم رمية لغير رام فقرطست  
فأعضوا على ما كان واغفوا وساحوا  
وقل رجم الرحمن من هو ساجع  
بمدت بدويئة وأنى واضع  
وأخرى لرام أخطأت هل تنازع ؟  
وإن كان خسرقت فليداركته رافع

وهو يقول لقارىء قصيدته إنه أتاه من وصف الصقر وأحواله وأحكام صيده وفقهه وأحكامه  
بملا مزيد عليه في التحقيق ، ودع سواه من الجعاجع التي لا فائدة فيها ولا طائل وراءها ،  
وقد غصت عليها في بحر فكري واستخرجتها لك درة تتفجر بكثير من المعارف عن الصيد  
وفقهه ، فمن كان صاحب جد وعى منها حكمة ، ومن كان صاحب لحو وجد فيها مبتغاه ،  
وسمها باسمها : « روضة السلوان » وقل رحم الله ناظمها رحمة واسعة ، ولا تحقرها لأنها تتناول  
موضوع الصيد البدوي وأنى ناظمها ، وكم رمية قرطست وأصابت الهدف وكم رميات أخرى  
انحرفت عن الهدف والغرض المقصود ، وذلك فضل الله يمن به على من يشاء . ويطلب من  
قارئه في تواضع أن يغض الطرف عن حقواته ويعفو ، وإن كانت في قصيدته زلة فليتداركها  
بلطفه .

### ٣

#### شعراء الرثاء

الرثاء من أغراض الشعر القديمة ، والشاعر فيه إما أن يتفجع على الميت ويكيه ويتوجع  
لفقده ويسمى ذلك ندبا ، وإما أن يكي فيه خلاله ومناقبه التي حرم منها المجتمع ويسمى  
ذلك تأيينا ، وإما أن يفضي إلى ذكر الموت وأنه حوض لا بد للحى من وروده ، ويسمى ذلك  
عزاء ، وقد يمزج الشاعر بين نوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثلاثة . ويلقانا الرثاء  
مبكرا في الشعر الجزائري على لسان بكر بن حماد شاعر تاهرت في القرن الثالث الهجري ،  
وكان قد مات له ابن فندبه طويلا بمثل قوله يخاطب نفسه وقد وقف على قبره<sup>(١)</sup> :

قف بالقبور فنادِ الهامدين بها  
من أعظم بليت فيها وأجساد  
قوم تقطعت الأسباب بينهم  
من الوصال وصاروا تحت أطواد  
كيف البقاء وهذا الموت يطلبنا  
هيهات هيهات يا بكر بن حماد  
بيننا ترى المرء في لهو وغى لعب  
حتى تراه على نعش وأعواد

وهو يقول قف بالقبور ونادِ بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد فقد تقطعت أسباب الوصال  
بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب ، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا في كل لحظة ،

(١) الديوان ص ٨١ .

وبينما المرء لايه عنه في لهو وفي لعب إذا هو محمول على نعش وأعواد وآلة حذباء تقذف به في مهاوى القبور . ويكي ابنه طويلا بمثل قوله<sup>(١)</sup> :

بكيْتُ على الأُحْبَةِ إذ تولَّوا      ولو أني هلكتُ بكوا علياً  
فيا ولدي بقاؤك كان ذُخْراً      وفقدك قد كوى الأكياد كياً  
كفى حزنًا بأنى منك خلُّو      وأنتك ميّتٌ وبقيتُ حيّاً  
ولم أك يائساً فيسنتُ لسا      رميتُ التُّربَ فوقك من يديّاً

وهو يكي أحبه وقلدة كبده بكاء حارا ، وقد كان بقاء ابنه ذخرًا لا يمائله ذخر له وقد كوى فقده كبده كياً مؤلماً أشد الألم ، ويقول إنه يكفيه حزناً أن مات ابنه وأنه عاش بعده يتلظى موجدة وحزناً ، ولم يك يعرف اليأس إلا حين فقده ، ورمت يدها عليه التراب فأظلمت الدنيا في عينيه . ولابن الرّيب يرثي خمسة من القواد في عهد باديس ( ٣٨٦ - ٤٠٦ هـ ) غامروا بأنفسهم في معركة خاسرة بالزّاب ، وفيهم يقول مصوراً بأنفسهم<sup>(٢)</sup> :

أبت لهم أن يرتضوا الضيم أنفس      كرام رأيت رمياً بها الموت أحرماً  
فهبوا وما هابوا الردى فتدرعوا      على خطرٍ قطعاً من الليل مظلماً<sup>(٣)</sup>  
وهونٌ وجدى أنهم خمسة مضوا      وقد أقصوا خمسين قرماً مسوماً<sup>(٤)</sup>  
وكان عظيمًا لو نجوا غير أنهم      رأوا حُسنَ ما أبقوا من الذكر أعظماً  
أبوا أن يقرؤوا والقنا في نحورهم      وأن يرتقوا من خشية الموت سلماً  
ولو أنهم فرؤوا لفرؤوا أعزة      ولكن رأوا صبراً على الموت أكرماً

وهو يقول إن أنفس هؤلاء القواد الخمسة كانت من الشعور بالعزة والكرامة بحيث أبت لهم أن يفرؤوا بها عن الحرب فرموا بها في أتونها وضرامها غير هائين وتدرعوا طائفة من الليل ومضوا يتقدمون حتى لم يجدوا متقدماً وحتى تقطعت السيوف في أيديهم . خمسة أبطال قتلوا خمسين شجاعاً معلماً من الأعداء ، وكانوا يستطيعون النجاة ولكنهم رأوا الضرب في الأعداء حتى النفس الأخير فإن في ذلك ذكراً عاطراً باقياً لهم . وتكاثر عليهم الأعداء وأخذتهم الرماح من كل جانب وأبوا أن يفرؤوا خشية الموت ، ولو فرؤوا لفرؤوا أعزة بما أذاقوا أعداءهم من كثرة القتل والظعن ، غير أنهم رأوا أن يصبروا وأن يموتوا في ميدان الحرب ، لينالوا شرف التضحية بالنفس . ويقول ابن قاضي ميلة في وصف غريق بالبحر<sup>(٥)</sup> :

وما زلتُ أستسقى له القطرَ دائباً      وأستودع السريحَ السلامَ المجددّاً

(٤) أقصوا : قتلوا . قرماً : شجاعاً . مسوماً : معلماً  
(٥) الأنموذج ص ٢١٥ .

(١) الديوان ص ٨٥ .  
(٢) الأنموذج لابن رشيق ص ١١٣ وما بعدها  
(٣) الردى : الموت . قطعاً : طائفة .



فكان الذي استسقيت أول خاتلٍ له والذي استودعت من أعظم العبد<sup>(١)</sup>  
فتى فإظ بين المساء والريح روحه وما زاره أهل ولا زار ملحدًا<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن الذي كان يستسقى القطر له ويستودع له الريح السلام حين تمر بدياره كان  
الماء أول خاتل غادر له إذ أتاه من حيث لا يشعر ، وكان الريح من أعظم أعدائه ، وقد فاظت  
روحه بين الماء والريح وصعدت إلى بارئها ، وما زاره أهل ، ولا زار لحدا ، فقد ذهب أدراج  
أمواج البحر ولم يبين له أثر . وولتني في بجاية بمحمد بن علي بن حماد في القرن السابع ومراثيه  
للدولة الحمادية ، وسنخسه بترجمة . وكان السلطان أبو حمور موسى ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ )  
شاعراً وممرت له ترجمة في الفصل الماضي ، ومن قوله يرثي أباه<sup>(٣)</sup> :

قد كان لي في الدنيا أب يساعدي فصار تحت الثرى في لحده اكتفا<sup>(٤)</sup>  
مددت في ظل نعماء يدي زما وولت من رفته في دهرى التحفا  
يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلدًا يا فقد يوسف إن الصبر عنك غفا  
ما مثل يوسف مفقود لفاقيه ولا كموسى أخسرق قد إذا وصيفا  
يا قبر يوسف لا تعدوك هامية من الغمام ولا زال الثرى وجفا<sup>(٥)</sup>

وأبو حمور موسى يبكي أباه ويذكر كثرة ما كان يساعده به في الدنيا حرباً وسلماً ، ويذكر  
كم مدله يده فيملؤها له نعماً وتحفا ، وقد أصبح تحت الثرى يكتفه اللحد من جميع جوانبه ،  
وقد أفقده موت أبيه الصبر والجلد ، ويشيد به أباً مثالياً ويدعو لقبه أن تظل السحب واقدة  
عليه تهيم وتهطل ، ولا يزال الثرى أو القبر خافقاً . ويقول محمد بن يوسف الثغرى في تأيينه  
مواسياً أباه حمور موسى<sup>(٦)</sup> :

أسفا لمن فاق الملوك جلاله وديانة وبكل فضل حوى  
أنظم به من زاهد ومجاهد ومنيل رفد تارة ومنيب  
هوت النجوم الزاهرات لفقده وذوى من الأزهار كل رطيب  
وتغيرت شمس النهار له أسى وتبدلت من نورها بشحوب  
وبكت سيوف الهند في أغمادها بدم ، بماء فرفيدها مخضوب  
ولقد بكته جيساده بصهيلها وغدت تحن له حين النيب<sup>(٧)</sup>  
من للوفود إذا أوت لجنابه يلقاهم بالبشر والترحيب

والثغرى يجعله فوق الملوك جلاله ومهابة وديانة وبكل ضروب الفضل من زهد وجهاد

جانب.

(١) خاتل : غادر .

(٢) فاظ : مات . ملحد : لحدا .

(٣) كتاب أبو حمور موسى لعبد الحميد حاجيات ص ٣٣٦ .

(٤) الدنيا : جمع دنيا . اكتفه اللحد : أحاطه من كل

(٥) وجفا : خافقاً .

(٦) انظر الجزء الثانى من بغية الرواد ليحيى بن خلدون .

(٧) النيب : الإبل المعروفة بحنيتها إلى أولادها .

وكرم وإنبابة لله ، وكأنما هوت النجوم المتلألئة لفقده وذوت الأزهار الغضة ، وحتى شمس النهار تغيرت حزنا وتبدلت من نورها بشحوب . وإن سيوف الهند التي طالما شهرها على أعدائه لتبكيه يدم مخضوب بما يلمع على صفحاتها من تموجات الضوء ، وإن جياده لتنتظره مؤملة بصهيلها التي تعبر به عن حينها له أن يمتطيها للقاء الأعداء . ويتساءل الشاعر من سيلقى الوفود الكثيرة التي كانت تغد على بابيه بالبشر والترحيب وقضاء حاجاتها الكثيرة . ويقول الشهاب الخلوف شاعر السلطان عثمان الحفصي يكي ابنا له مات صغيراً<sup>(١)</sup> :

أصبتَ عينَ المها يا موتُ بالرَّمَدِ      وقد أهضتَ جناحَ المجدِ فأمَدِ<sup>(٢)</sup>  
 ناجزتَ في صرْفِ آجالٍ قد اقتربتُ      إذ لا تسلُّها إلا يداً ييدِ<sup>(٣)</sup>  
 كم زدتَ في نقصك العلياً جوى كبدِ      حرى فيا ليت لم تنقص ولم تزد  
 وكم تركتَ أباً يكي على وليدِ      أذقتَه طعمَ ثكلِ الأمِّ للولدِ  
 بُنيَّ ليتك لم تُخلقِ لِرَوى بلي      يا ليتني لم أسمِّ بالصبرِ عن شَهدِ<sup>(٤)</sup>  
 سقى الحيا قبرك الزاكي وواصله      سحابُ عفوٍ وغفرانٍ مدى الأبدِ<sup>(٥)</sup>

وهو يخاطب الموت لحزونا ويقول له اتند ، فقد أصبت عين الأم بالرمد لكثرة البكاء على من تفقدتهم وحطمت جناح المجد وناجرت في حدث الموت وأبيت إلا أن تستلم ابني يدا بيد ، وكم نقصت العلياً وزدت الكبد حزنا وحرارة ، وكم أذقت أباً فقده لابنه فذاق طعم حزن الأم حين تفقد ابنها . ويخاطب ابنه فليته لم يخلق لبلى جسده وعظامه حتى لايسام أبوه ولا يكلف الصبر على ما نزل به ، ويستسقى له السحاب وأن يمنحه الله عفوه وغفرانه .

ويكثر منذ أواخر عصر الدولة الحفصية رثاء التلامذة لشيخوهم الأعلام في تلمسان وغيرها من مدن الجزائر ، وكان من كبار علماء تلمسان في القرن التاسع الهجري محمد بن يوسف السنوسي نسبة إلى قبيلة مغربية وهو حسنى من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب ، وفيه ألف تلميذه الملالى كتاباً سماه « المواهب القدسية في المناقب السنوسية » وكان فقيهاً ، بل كان إماماً في الفقه وفي علم التوحيد وله فيه الكتاب المشهور عقيدة أهل التوحيد وشرح مرارا ، ورثاه تلميذه الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضي حين توفي سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م بقصيدة بديعة ، وفيها يقول<sup>(٦)</sup> :

(٤) وري بلي : اكتنام بلي . أسم : أكلف .  
 (٥) الحيا : الغيث . الزاكي الطاهر .  
 (٦) تعريف الحلف برجال السلف ص ٤٠٤ .

(١) الديوان ص ٢٥٠ .  
 (٢) أهضت : حطمت .  
 (٣) صرف : حدث . آجال : أعمار .

ما للمنازلِ أظلمتْ أُرْجَاؤُهَا  
 هذا الذى ورث النبىُّ فأصبحتْ  
 ودعا إلى التوحيد دعوةً مخلصٍ  
 يا أوحى العلماءِ يا علماً بهِ  
 مَنْ للتآليفِ التى أَلْفَتْهَا  
 مَنْ للعلومِ على اختلافِ فنونها  
 ياربُّ قَدُسُ رَوْحِهِ وَضَرِيحُهُ  
 والأرضُ رُجَّتْ حين خاب رجاؤها  
 عللُ الضلالِ بهِ استُفيد دواؤها  
 وإلى الشريعةِ فاستنار ضياؤها  
 كلُّ العلومِ بدتْ لنا أنحاؤها  
 يدي بها ما استشكلتْ قُرَاؤها  
 يدي لها نكتاً يروقُ سناؤها  
 ومن الجنانِ تحفه نَعْمَاؤها

والخوضى يقول إن الديار أظلمت والأرض كأنما زلزلت زلزالا عظيما بموت السنوسى الذى ورث الهدى عن الرسول الكريم فكأنما علل الضلال وجدت عنده أدواءها جميعا .  
 وعملان عظيمان له الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشريعة وفقهها المضىء ، بل لقد أضاء للطلاب كثيرا من أنحاء العلوم التى درسها لهم لا فى الفقه والتوحيد فحسب بل أيضا فى المنطق والقراءات والفرائض وغير ذلك مما درسه وألف فيه . ويتكاثر رثاء التلاميذ لشيخوخهم فى العهد العثمانى ، ونسوق من ذلك رثاء : شاعر مدينة الجزائر سعيد قدورة الذى اشتهر بشرحه لمتن السلم فى المنطق والمتوفى سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م فقد رثى أستاذه محمد بن على المجاجى وكان قد توفى مقتولا وفيه يقول (١) :

مصابٌ جسيمٌ كاد يُضمي مقاتلي  
 ومن لفنون العلم نحواً ومنطقاً  
 لمنزله كانت تُشدُّ رحالنا  
 أحقاً قتلت الألميَّ حمداً  
 قتلت امرءاً من شأنه العلم والتقى  
 ومالك يوم العَرَضِ إلا جهنم  
 عليه من الرحمن أوسع رحمة  
 ورزءٌ عظيمٌ قاطعٌ للمفاصل  
 وفقها وتوحيداً وفتوى لسائل  
 فمن راكبٍ يسعى إليه وراجل  
 على قول حق لا على قول باطل  
 فإنا خيرٌ مقتولٍ ويا شرَّ قاتل  
 تقاد إليها صاغراً بالسلاسل  
 وأزكى سلامٍ فى الضحى والأصائل

وسعيد قدورة يقول إنه مصاب جسيم ورزء عظيم أن يقتل هذا العالم الجليل دون ذنب جناه ، ويقول إلى أين يذهب طلاب العلم نحواً ومنطقاً وفقها وتفسيرا وتوحيداً ، وإلى من يرجعون فى الفتوى . وكانت تشد إليه الرحال من فجاج الأرض بين راكب وراجل ، ويعجب أن يقتله شخص وهو لا يصدر إلا عن حق لعلمه وتقاه ، وإنه لخير مقتول ، أما قاتله فشر قاتل ، ويتوعده أن يكون مصيره إلى جهنم يقاد إليها بالسلاسل والأغلال ، أما الشيخ المقتول

(١) تعريف الخلف ص ٤٤٢ .

فعلية من ربه أوسع رحمة وأظهر سلام وأعطره . وتوقف قليلا لترجم لشاعر بجاية محمد بن علي بن حماد .

### محمد<sup>(١)</sup> بن علي بن حماد القلعي

من أهل قلعة بني حماد وفضلائها ، قرأ بها وتفقه على علمائها ، ثم طلب المزيد فقرأ على علماء بجاية وكان بها أبو مدين شعيب فأخذ عنه كتابه : « المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى » وشرحه من فاتحته إلى خاتمته ، ولزم دروس عبد الحق الإشبيلي وأخذ عنه كتاب الموطأ للمالك وغيره من الكتب ، وحضر على جلة الشيوخ في بجاية وغيرها ، وكان له برنامج يشتمل على مائتين واثنين وعشرين كتابا مسندة إلى مؤلفيها ، ويبدو أنه كان ينزع نحو المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين ، ولذلك عيَّنه - في رأينا - قاضيا بالأندلس في مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوه منها سنة ثلاث عشرة وستمائة إلى سلا في المغرب على المحيط وظل بها إلى أن توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م . وكان شاعرا بارعا ، وله قصائد أو مرثى مختلفة يرثى بها دولة بني حماد التي أزالها الموحدون عن موطنه سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وفي إحداها يقول<sup>(٢)</sup> :

أين العروسان لا رَسْمٌ ولا طَلَلٌ	فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ
وقصر بلارة أودى الزمانُ به	فأين ما شادَ منه السادةُ الأولُ
وما ورا الكوكبِ العلويُّ معتصمٌ	وقد عَرَ الكوكبَ التغييرُ والبدلُ
وقد عفا قصر حمادٍ فليس له	رَسْمٌ ولا أثرٌ باقٍ ولا طَلَلٌ
وإن في القصرِ قصرَ الملكِ معتبرا	لمن تغرُّه الأيامُ والدولُ
وما رسومُ المنارِ الآن ماثلةٌ	لكنها نَبْدٌ يَجْرِي بها المثلُ
حتى المصلِّي أمَّحت آياته وعَفَّتْ	إلا جدارا وما طَلَّتْ به الطَّلَلُ <sup>(٣)</sup>
كرجعك الطُّرفَ كانت كلُّ آبدية	مما تراه كذاك العمرُ والأجلُ

وهو يقول أين القصران العروسان المبهجان ، لم يعد حتى رسم ولا طلل ولم يعد إلا الفضاء ، وقد أمَّحت قصر بلارة المجيد وما شاده فيه ملوكه الأول ، وأمَّحت قصر الكوكب العلوي وقصر حماد إذ لم يبق منه رسم ولا أثر ولا طلل ، وإن في ذلك لعبرة أي عبرة لمن ينتر بالأيام والدول ، وأين قصر المنار ؟ إنه لم يبق منه إلا آثار يتمثل بها الناس ، وحتى المصلى الذي كان يلحق بالقصور لم يبق منه إلا جدار وبقايا أطلال إذ سرعان ما زابته النعمة سريعا وزايلت كل آبدية

الجزائري للأستاذ محمد الطمار ص ١٢٣ .

(٢) الميلي ص ٦٣٤ والطمار ص ١٢٣ .

(٣) الطلل : جمع طلل .

(١) انظر في ترجمة محمد بن علي بن حماد عنوان الدراية

ص ٢١٨ وتعريف الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر

في القديم والحديث للميلي ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب



وغريبة مما كان في القصور من عجائب ونقوش ، فكل ذلك ذهب كرجعك الطرف إلى غير مآب كما تذهب الأعمار والآجال ، ويقول<sup>(١)</sup>

ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً  
وهل أسمعُ تلك الطيور عشيةً  
وهل أرددُ عين السلام على الصدى  
وأنظر طيقان « المنار » مطلةً  
فأبردُ من حرّ الضلوع النواهل<sup>(٢)</sup>  
على الوجنات الزاهرات الخمائل<sup>(٣)</sup>  
نجومٌ تبدتُ في سعود المنازل  
وأزلتني في غير تلك المنازل  
ستبقى بقاء الطالعات الأوافل  
فصبرٌ جميلٌ غير أن صبايتي

وابن حماد يتمنى في غربته الطويلة ببلاد المغرب والأندلس لو بات ليلة بوادي بجاية :  
وادي الهوى والحب بين جداولها يتسمع إلى الطيور وهي تجاوب البلابل في المساء ، ويتمنى  
أن يرد على عين السلام ليبرد صداه ويشفي ظمأه الطويل وحر ضلوعه ، وينظر طيقان المنار  
وهي مطلة على الخمائل المزهرة فوق الأرض الصخرية حول بجاية ، ويتصور كأن قباب هذا  
القصر التي كانت تشرف على ما حوله نجومٌ مسعدة . ويمتلئ شوقا وحنانا لبلدته بجاية فيقول  
إن ثنت الأيام أعتتني عنها إلى سلا وغير سلا من مدن المغرب والأندلس فسأفرع إلى الصبر  
الجميل ولكن صبايتي بيلدى وموطنى ستظل جاثمة في فوادي ما حييت ، وستظل باقية بقاء  
النجوم الطالعات الأوافل ، ويقول في عين السلام<sup>(٤)</sup> :

على عين السلام سلامٌ صبَّ  
تأود أيكها وجرت صباها  
وأبرد ما يكون الجو فيها  
وقد قام المنار على ذراها  
غذاه ماؤها العذب النميرُ  
وشم لها كما فتق العبيرُ  
وأندى حين يحتدم الهجيرُ  
كما قام العروس أو الأمير  
لديه والخورنق والسديرُ  
بناءً يزدري إسوان كسرى

وهو يرسل بالتحية إلى عين السلام التي طالما نهل من مائها العذب الصافي الزاكي ، وإن  
أيكها أو شجرها ليتثنى بفعل الرياح ويهب صباها عليلًا حاملا منها شذى عطرا ، وحين  
تشتد حرارة الهاجرة وراء بجاية في الصحراء تصبح بجاية أبرد وأندى ما تكون ، وإن  
قصر المنار ليقف في أعاليها وكأنه عروس ينتظر الزفاف أو أمير ينتظر الموكب الحافل ، وإنه

(٤) انظر في الآيات التالية الميلي ص ٦٣٤ والطمار  
ص ١٢٣ .

(١) المرجعين السالفين .

(٢) الصدى : العطش .

(٣) الوجنات : مرتفعات الأرض .

لقصر مشيد يُزْدَرَى بجانبه إيوان كسرى ، والخورنق والسدير : قصران كانا لملوك الحيرة في الجاهلية .

#### ٤

### شعراء الزهد والتصوف

#### ( أ ) شعراء الزهد

الزهد قديم في الأمة منذ العصر الإسلامي وزاهد الأمة الأول محمد ﷺ وكان كثيرون في أيامه يأتسون بزهده وتقشفه ، ويفرد الجاحظ للزهاد صحفا كثيرة في البيان والتبين حتى عصره ، ويتوالى مَنْ بعده في الكتابة عنهم ، ويلقانا منهم في المغرب كثيرون في كتاب رياض النفوس للمالكي ، يقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة ويرفضون الدنيا ، ودائما يذكرون الموت وأنه مقبل لا محالة وأن من واجب الإنسان أن يتدبر أمره وغده وأنه عما قريب محمول على آلة حدياء وسيلقى ربه ، وحرى بالإنسان أن يعمل لآخرته قبل أن يفجأه الموت ويأتيه على حين غيرة أو غفلة ، وفي ذلك يقول بكر بن حماد متحدثا عن الموت<sup>(١)</sup> :

لقد جمحتُ نفسي فصدتُ وأعرضتُ	وقد مرقتُ نفسي فطال مروقها <sup>(٢)</sup>
فيا أسفى من جُح ليلٍ يقودها	وضوء نهارٍ لا يزال يسوقها <sup>(٣)</sup>
إلى مشهدٍ لأبدٍ لى من شهوده	ومن جُرْع للموت سوف أذوقها
سحاب المنايا كل يوم مظلة	فقد هطلت حولي ولاح بُروقها
تجهمتُ خمسا بعد سبعين حجة	ودام غروب الشمس لى وطلوعها
وأيدى المنايا كل يوم وليلة	إذا فتقت لا يستطيع رتوقها
تصبح أقواما على حين غفلة	ويأتيك فى حين البيات طروقها

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيانا شديدا ، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكأنما زمامها بليل مظلم مما يؤسفها وإنها لا تتطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقى من الموت وجُرْعه وما سيحسونه ، وإن سحاب الموت ليظله ، وإنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين سنة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت وأيدى الموت من حوله إذا فتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتصبح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تمسيهم ، وما أحرانا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان . ويحدثنا صاحب

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢) جنح الليل : ظلامه .

(٣) جمحت : نفرت . مرقت : خرجت رعصت .

(٤) عنوان الدراية ص ٧١ .

عنوان الدراية عن الشيخ الفقيه النحوى اللغوى محمد بن الحسن بن ميمون القلعي البجائى ، وكان كثير التلامذة والطلاب وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، وكان يسلك فى شعره طريقة أبى تمام ، وتوفى سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م وله منظومات فى الزهد والمديح النبوى ، ومن قوله فى الزهد<sup>(٤)</sup> :

الخَيْرُ أَصْدَقُ فِي الْمَرَأَى مِنَ الْخَيْرِ	فَعَهْدُ الْعُذْرَةِ لَيْسَ بِالْعَيْنِ كَالْأَثْرِ
وَأَعْمَلُ لِأُخْرَى وَلَا تَبْخُلُ بِمَكْرُمَةٍ	فَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى حَدٍّ إِلَى قَدَرٍ
وَكُلُّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ	يَغْتَالُهُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ
هُوَ الْحِمَامُ فَلَا تُبْعِدُ زِيَارَتَهُ	وَلَا تَقُلْ لَيْتَنِي مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ
يَاوِيحُ مِنْ غَرَّةٍ دَهْرٌ فَسَرَّ بِهِ	لَمْ يَخْلُصِ الصَّفْوُ إِلَّا شَيْبًا بِالْكَدْرِ
تَنَافَسَ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عِلْمُوا	أَنَّ الْمَقَامَ بِهَا كَاللَّمْحِ بِالْبَصْرِ
انظُرْ لِمَنْ بَادَ تَنْظُرَ آيَةً عَجَبًا	وَعِبْرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَالْعَبْرِ

وهو يقول إن التجربة أصدق من الخبر إذ ما يُرى بالعين ليس كالأثر ، وأعمل لآخرتك ولا تبخل بصالحته ، فكل شيء مقدر ، وكل حى وإن طالت سلامته سيغتاله الموت فجأة بين ورده لشيء وصنّده عنه ، إنه الموت فلا تظن أن زيارته ستبطل عنك ، ولا تظن أنك تستطيع أن تكون على حذر منه ، وياويح من غرّة زمن سرّه ، فإن الصفو دائما يشاب بالكدر ، وياويح الناس فإنهم يتنافسون فى الدنيا وأمانيتها ومظاهرها وهم يعلمون أنهم راحلون عنها سريعا سرعة اللّمع بالبصر ، وانظر لمن باد من السالفين فإن فى ذلك عبرة لأولى الألباب . ويذكر ابن ميمون البجائى الملوك الهالكين : دارا الفارسى وذايزن اليمنى وهرقل البيزنطى وغيرهم فكلهم أفنأهم الدهر ولم تبق منهم إلا الأسماء والسير .

وتكثر الابتهالات إلى الله والاستغاثات والتوسلات على السنة الزهاد ، ويتسع ذلك فى العهد العثمانى ويتسع معه وضع الأذكار والأوراد ، ومن أطول الاستغاثات استغاثته<sup>(١)</sup> محمد بن حواء المستغانمى بربه ، وسميت الغوثية الكبرى فى الكرب والشدائد إذ تقع فى أربعمائة بيت ، بدأها بالحمد لله والصلاة على رسوله روح الوجود ومطلع الأنوار وقدوة الأقطاب ويخرج إلى دعاء ربه والاستغاثة به إلى أن قال<sup>(٢)</sup> :

يا سامع الدعاء يا قدير	يا من إليه ترجع الأمور
يا مالك الملوك يا جبار	أنصر ذليلا مساله أنصار

(٣) سعد الله ١٤٨/٢ .

(١) تعريف الحلف ٣٧٣/٢ .

(٢) نفس المرجع السابق .

ولعبد الكريم الفكون ، صاحب رسالة في التصوف ونقد رجاله وما صار إليه ، قصيدة يتوسل فيها إلى ربه جعل مطلعها<sup>(١)</sup> :

بأسمائك اللهم أبدى توسلا فحقق رجائي يا إلهي تفضلاً

وكرر التوسل في هذا العهد بين الفقهاء والشعراء جميعاً ، وللمفتي المالكي محمد بن الشاهد صاحب القصائد المولدية : توسل مطلعها<sup>(١)</sup> :

بأسمائك الحسنی فتحتُ توسلي ومنك رجوتُ العفو أسمى مطالبي

### ( ب ) شعراء التصوف

نزل الجزائر أئمة التصوف الأندلسيون منذ القرن السادس الهجري يتقدمهم أبو مدين شعيب<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م ويقال إنه من تلامذة الشيخ ابن حزمهم بفاس المتوفى سنة ٥٥٩ ولبس الخرقة على يد الشيخ أبي عبد الله الدقاق وسلك طريقته على يد أبي يعزى المتوفى سنة ٥٧٢ واستوطن بجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية ، وأرسل في طلبه سلطان الموحدين المنصور يعقوب فمضى إليه عن طريق تلمسان وتوفى بها وقبره بالعباد في جوارها ، ومن قوله : « بي قل ، وعلى دل ، فأنا الكل » وهي عبارة قد تفيد أنه كان يؤمن بالاتحاد بالله ، وربما كانت شطحة من شطحاته وكان تصوفه فلسفياً . ومن نزل تلمسان في القرن السادس أبو عبد الله<sup>(٣)</sup> الشوذى الإشيلي من كبار العبّاد العارفين ، ويروى تلميذه ابن دهاق المتوفى سنة ٦١١ أنه رآه بتلمسان في يده طبق به حلوى يبيعهما للصبيان الصغار وهم ينقرون له ويدور ويشطح ، وكان يمزج التصوف بالفلسفة ويقول بوحدة الوجود<sup>(٤)</sup> . ومن هؤلاء الأئمة النازلين بالجزائر محي<sup>(٥)</sup> الدين بن عربي المولود سنة ٥٦٠ والناشيء في إشبيلية ، وعلى متصوفها تلقن التصوف وفي سنة ٥٩٠ بارحها متجولاً في الأرض ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة ثم اتجه إلى المشرق . ومن نزل بجاية ابن<sup>(٦)</sup> سبعين عبد الحق وأبو<sup>(٧)</sup> الحسن الششتري ، ويروى أنهما التقيا وأراد الششتري أن يتركه إلى أصحاب أبي مدين فقال له : إن كنت تريد الجنة فسر إليهم ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم إلى . وكأنه لم يبق في القرنين السادس

(١) سعد الله ١٥٧/٢ .

(٢) اقتح الغبريني كتابه عنوان الدراية بترجمة ضافية لأبي مدين وانظر أنس الفقير لابن منقذ والبستان ١٠٨ والنشوف للتادلي رقم ١٦٢ .

(٣) انظر فيه البستان ص ٦٨ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٧ وكتابنا عن تاريخ الأدب العربي في الأندلس ص ٣٥٨ .

(٤) راجع كتابنا عن الأندلس وكتاب ابن سبعين

للتفتازاني ٧١ - ٧٥ .

(٥) انظر في ابن عربي عنوان الدراية ص ١٥٦ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٣ وما به من مراجع .

(٦) راجع في ابن سبعين عنوان الدراية ص ٢٣٧ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٥٩ وما به من مراجع .

(٧) انظر عنوان الدراية ص ٢٣٩ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٧ وما به من مراجع .



والسابع إمام من أئمة التصوف الأندلسيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية واستمعوا أشعاره . وهو ما جعل كثيرين من الجزائريين منذ القرن السابع الهجرى ينظمون أشعارا صوفية أو تنزع نحو التصوف كثيرا ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بهذه الصلة إذ يترجم الغبريني في عنوان الدراية لكل من ذكرتهم من أئمة التصوف الأندلسيين ماعدا الشوذى نزيب تلمسان وقد كتب عنه يحيى بن خلدون في تعداد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء والصالحين . وطبعي أن يكون أكثر المتأثرين بهؤلاء الأئمة من أهل بجاية التي نزل بها أبو مدين في القرن السادس ونزلتها بعده كثرة من هؤلاء الأئمة . وبدأ بعلى بن أحمد الحرالي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وفيه يقول الغبريني : « العالم المطلق الزاهد الورع ، ممن جمع العلم والعمل ، أما علمه فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها ، واستولى على كليتها : أما علم الأصول فأصول الدين وأصول الفقه وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه بالمعقولات الأول ، وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ، وكنا نقرأ عليه كتاب النجاة لابن سينا فيقرره ، ثم يوهنه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى ، تكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا . وله في التحقيق أو التصوف<sup>(١)</sup> :

ما لنا منا سوى الحال العدم	ولبارينا وجود وقدم <sup>(٢)</sup>
نحن بنيان بنته حكمة	ونخلق بالبنا أن ينهدم
أشرقت أنفسنا من نوره	فوجود الكل عن فيض الكرم
فترق النفس عن عالمها	باختباء ليس تدنيه الهمم
ليس يدري من أنا إلا أنا	ها هنا الفهم عن العقل انبهم
كلما رمت بذاتي وصلة	صار لي العقل مع العلم جلم <sup>(٣)</sup>
يقطعاني بخيالات الفناء	عن وجود لم يقيد بعدم

وهو يقول ما لنا إلا العدم منه جئنا وإليه نمضي ، ولبارينا وجود أزلى وقدم سرمدى ، وهل نحن إلا بنيان ، بنته حكمة عليا ، وكل بنيان مصيره أن ينهدم ، وهامى أنفسنا قد أشرقت من نور رب العزة ، وهل وجودنا إلا بفيض كرمه ، وإن النفس لترقى يوما عن عالمها الأرضي باختباء ما بعده اختباء ، وليس أحد سوى يدري حقيقتي حتى ليغمض الفهم وتحار العقول ، وكلما رمت وصلة بذاتي تصلني بربي وقف العقل مع العلم في طريقي يمزقاني بخيالات الفناء دون وجودي المأمول مع ربي الذي لم يقيد بفناء ولا بعدم . وكان يعاصره أبو العيش الخزرجي محمد بن أبي زيد المتصوف التلمساني وسنخسه بترجمة . ومن تلامذة الحرالي أبو زكريا

(٣) الجلم : المتص بقص به الصوف .

(١) عنوان الدراية ص ١٥٥ .

(٢) بارينا : خالقنا .

يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م وما زال به الحرالي حتى ظهر له بعض التحقيق ، واعتمد - كما يقول الغبريني - جادة الطريق ، وأنشده أبو زكريا - فى معنى ما ظهر له وبين له الحلح فيما لم يظهر له - هذه الآيات (١) :

جئت لك لئلى من مشى نقابها	طريقا وأبدت لمعة من جمالها (٣)
فطيت بها عيشا وتتهت لذادة	وفياك الإلماع برذ ظلالها (٣)
فكيف ترى ليلى إذا هى أسفرت	ضحاء وأبدت وارفا من دلالها
وكيف بها إن لم يغيب عنك شخصها	ولم تخل وقتا من منال وصلها
وكيف يكون الأمر إن أنت كنتها	وكانتك تحقيا فحلت لخالها

وهو يكنى عن الذات الإلهية باسم ليلى ، ويقول إنها كشفت قليلا من مشى نقابها وأبدت لمعة من جمالها فطاب بها عيشا وتاه لذة وكأنما أظله الإلماع بجمالها يرد ظلالها فكيف إذا أسفرت ضحى وأبدت ناضرا من دلالها ولم يغيب عنا شخصها ومنال وصلها ، واتحدت بها وأصبحت كأننى هى وتبدلت حالى . ويدون ريب تصوف أستاذه الحرالى أروع من تصوفه ، إذ تغيب فيه المادة والجس ، ولا تصبح الذات العلية ليلى ولا غير ليلى ممن يهيم بهن الشعراء ويتخذهن بعض المتصوفة رمزا للذات الربانية . وكان يعاصر يحيى بن زكريا فى بجاية عبد الحق بن ربيع العالم المحقق الصوفى المجتهد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٨٥ م وكان فقيها وعالما بأصول الدين وأصول الفقه والمنطق ، وله قصيدة صوفية طويلة أعجب بها أستاذه الحرالى . وانتقى منها طائفة من آياتها من مثل قوله (٤) :

سفرت على وجه الجميل فأسفرا	وبدا هلال الحسن منها مقمرا
ودنت فكاشفت القلوب بسرها	وسقت شراب الأنىس منها كوثرا
ورأيتها فى كل شىء أبصرت	عينائى حتى عدت كل مبصرا
وسمعت نطق الناطقين فكلهم	بالحمد والتسبيح عنها أخبرا
وبها فبيت عن الفناء وغصت فى	ماء الحياة مسرمدًا ومدهرا
إفصاح قولى لا يفى بمواجدى	وبيأته لا يستقل بما جرى
لو كان سر الله يكشف لم يكن	سرا ولكن لم يكن ليذكرا

وهو يقول إن الذات العلية سفرت وأشرقت فأشرقت الدنيا وبدا هلال الحسن منها كأنه البدر فى تيمه واكتماله ، ودنت فعرفت القلوب سرها وسقتها كوثرا من شراب الأنىس . وأحس كأنه يراها فى كل شىء من حوله ( فكرة الحلول التى يرددها بعض متفلسفة الصوفية ) وكان

(٣) فياك : أظلك .

(٤) عنوان الدراية ص ٥٩ .

(١) عنوان الدراية ص ١٠٣ .

(٢) مشى : منعطف .

كل شيء فيه أصبح مبصرا ، وسمع حمد كل ما فى الكون لربه وتسبيحه ، ويقول إنه فنى عن الفناء ، وهو بذلك يردد فكرة الفناء فى الذات الإلهية التى يرددها بعض متفلسفة المتصوفة . ويصرح بأن إفصاحه لا يفنى بمواجهه وكذلك بيانه ، ويقول إن سرالله فى الوجود لا يكشف ، ولو كشف لم يكن سرا غير أنه لا يكشف ولا يذكر . وعبد الحق بن ربيع بذلك كله أقرب إلى روح أستاذه الحزالى وتصوفه من زميله يحيى بن زكريا . ويقرب من روح الحزالى أيضا تصوف إبراهيم بن أحمد بن الخطيب ، ومن نظمه قوله<sup>(١)</sup> :

روضُ المعارفِ حَضْرَةُ العُرْفَاءِ	وَجَنَّا التَّفَكْرَ جَنَّةَ العُقْلَاءِ
ونعيمُ أهلِ الحقِ دَرَكُ حَقَائِقِ	لاحتُ بأفقِ القلبِ حالَ صفاءِ
فاقرأ سطورَ الكونِ فى منشورها	بِعيانِ عَيْنٍ أَوْ بِفَرْطِ ذِكَايِ
وانظر إلى الأكوانِ كيف تمايلتُ	طَرِبَا لِسُرِّ لَاحِ عِنْدَ خَفَاءِ
وأفاضَ عن بحرِ الجمالِ أهلةٌ	بهرتُ بِمَاسْمَنِ بَدْرِ سَمَاءِ
وتذكرتُ نجدا فهاجَ لذكره	وَجَدْتُ وَنَادَى الشُّوقَ بِالْبُرْحَاءِ <sup>(٢)</sup>
ورأتُ به كلُّ العوالمِ أَحْكَمَتُ	فَتَزَيَّنْتُ وَتَوَشَّحْتُ بِضِيَاءِ

وهو يقول إن حضرة المعلمين روض المعارف وجنات الفكر جنة العقلاء ، أما أهل الحق من المتصوفة فنعيمهم إدراك الحقائق التى تلوح بالقلب فى حال الصفاء . وتأمل فى الكون ، بل تأمل فى الأكوان وما تحمل من سر بل أسرار لرب الكون وما أفاض عن بحر جماله من أهلة تترى بهرت بدر السماء ، وتذكرت نفسه نجدا فهاج به وجد ملتاع وشوق مضطرم ورأت كل العوالم أحكمت وتزينت بلمعة من ضياء الله ونوره .

وإذا تركنا بجاية ومتصوفتها إلى تلمسان وجدنا المتصوفة بها فى القرن السابع قليلين بالقياس إلى بجاية ، ومن متصوفتها أبو عبد<sup>(٣)</sup> الله بن الحجام محمد بن أحمد بن محمد اللخمي واعظ أهل زمانه، حسن صوت وغزارة حفظ من سمعة واحدة لكل مايطرق أذنه، استقدمه المنصور الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى مراکش فاستوطنها وحظى عند المنصور والناصر والمستنصر ، وكان يتصدق براتبه ، ويجهز منه ضعيفات البنات ، وله فى الوعظ كتاب أسماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين ، توفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م ، ومما يؤثر من نظمه فى التصوف قوله :

غريبُ الوصفِ ذو علمٍ غريبِ	عليلُ القلبِ من حُبِّ الحبيبِ
إذا ما الليلُ أظلمَ قام ييكى	ويشكو ما يكنُ من الوَجِيبِ <sup>(٤)</sup>
يقطعُ ليله فكرا وذكرا	وينطق فيه بالعجب العجيبِ

(١) تعريف الخلف ٣٦١/٢ وفيه أنه ابن اللحام لا الحجام .  
(٤) الوجيب : الخفقان .

(١) عنوان الدراية ص ٢٣١ .  
(٢) البرحاء هنا : شدة الحب ولواعجه .  
(٣) انظر فيه بنية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٢/١

به من حُب سیده غَرامٍ      يجلُّ عن التطبُّبِ والطبيبِ  
ومن يكُ هكذا عبداً محبًّا      تطيب ثيابه من غير طيب

وهو يصف نفسه بفرابة الوصف والعلم واعتلال القلب من حب الحبيب ، ويقول إنه يتهدد ليلاً وهو يكي ويشكو ما يكن من خفقان قلبه ، وما يزال يقطع ليله فكراً وذكراً لربه مسبحاً مستغفراً وبه من حبه غرام يعز على التطبب والطبيب ، ومن يكن مثله عبداً محباً لائذاً بربه تطيب ثيابه من غير أن يمسه طيب . وتلتقى بعد ابن الحجام في تلمسان بالنصف الأول من القرن السابع الهجري بابن أبي العيش وسترجم له . وتضمن علينا كتب التراجم بشعر صوفى فى القرن الثامن حتى إذا كنا فى القرن التاسع الهجرى التقينا بصوفى كبير هو إبراهيم التازى نزيل وهران وسترجم له ، وينظم عبد الرحمن الأنخضرى قصيدة فى التصوف وأدابه يسميها القدسية .

ونمضى إلى العهد العثمانى فتكثر المنظومات فى الطرق الصوفية المشهورة وأصحابها وتكثر معها الشروح ونمثل لذلك بسينية ابن باديس فى طريقة عبد القادر الجيلانى البغدادى المتوفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م ومطلعها<sup>(١)</sup> :

ألا سِرَّ إلى بغدادَ فهى منى النفسِ      وحدثُ بها عن ثوى باطنِ الرئسِ

وشرحها أحمد بن محمد الحاج البجائى التلمسانى قاضى بجاية وسمى شرحه : « أنس الجليس فى جَلو الحناديس عن سينية ابن باديس » . وشرحت أيضا المنظومات فى التصوف وأحواله وفى مقدمتها منظومة « القدسية » لعبد الرحمن الأنخضرى ، شرحها الورتلانى وسمى شرحه : « الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألقاظ القدسية » . ويتكاثرفى العصر التصوف الشعبى والدرأوىش وتدخل عليه شعوذات هو منها براء . ونقف للترجمة لابن أبى العيش وإبراهيم التازى .

أبو العيش<sup>(٢)</sup> بن عبد الرحيم الخزرجى

هو محمد بن أبى زيد عبد الرحيم ( وفى بعض الروايات عبد الرحمن وفى بعضها عبد الحق ) بن محمد بن أبى العيش التلمسانى إشبلى الأصل وكان فقيها جليلا ، روى يبلده تلمسان عن أبى بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م وعن أبى عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى المتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م وعن أبى محمد بن حوط الله

٣٣٢ والقسم الأول من السفر الثامن من كتاب الذليل  
والتكملة لكتابى الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك  
المراكشى ( طبع المغرب ) ص ٣١٣ .

(١) سعد الله ١٣٦/٢ .. والرسم : القبر .  
(٢) انظر فى أبى العيش الخزرجى وشعره بغية الرواد  
ص ١٠٣ وتعريف الخلف ٣٤٢/٢ ونيل الابتهاج ص



المتوفى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٦ م وعن أبي عبد الله بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وكان عالما وأديبا بارعا الكتابة وشاعرا جيد الشعر ، صنف كتباً في أصول الفقه وعقائد أصولية في الدين ، وفسر القرآن الكريم وشرح الأسماء الحسنی ، وله في التصوف نظم كثير وكذلك في الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزيه الباري جل شأنه . ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته ولكن كثرة أساتذته الذين عاشوا بين سنتي ٦٠٠ و ٦١٢ يدلون بحياتهم على أنه عاش في القرنين السادس والسابع للهجرة . ومن قوله في التصوف :

اللَّهُ قُلٌّ وَدَعَّ الوجودَ وما حَوَى	إن كنت مرتسداً بلوغَ كمالِ
فالكلُّ دونَ الله إن حَقَّقْتَهُ	عدمٌ على التفصيل والإجمالِ
والعارفون فنوا ولمَّا يشهدوا	شيئاً سوى التكبرِ المتعاليِ
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا	في الحالِ والماضي والاستقبالِ
من لا وجود لذاته من ذاته	فوجوده لولاه عَيْنُ مُحالِ
فالمَحُّ بطرفك أو بعقلك هل ترى	شيئاً سوى فعلٍ من الأفعالِ
وانظر إلى أعلى الوجودِ وسفلهِ	نظراً تؤيِّده بالاستدلالِ
تجد الجميعَ يشير نحو جلاله	بلسانِ حالٍ أو لسانِ مقالِ
وجب الوجودُ لذاته وصفاته	فَرْدًا عن الأكفَاءِ والأمثالِ
يبقى وكلُّ يضمحلُّ وجوده	ما واجبٌ كَمَقْيَدٍ بزوالِ

والآيات من أول بيت إلى آخر بيت تقول ليس في الوجود سوى الله فتعلق به ودع ماسواه ، فالكل - كما يقول في البيت الثاني - عدم ، والعارفون من المتصوفة فنوا في ربهم ، ولم يشهدوا في الوجود سواه ، ويقول إن من لا وجود لذاته من ذاته كرب العزة فوجوده لولاه ضرب من المحال ، وانظر بعينك أو بعقلك هل ترى إلا فعلا من أفعاله : أعلى الوجود وسفله ، والجميع يشير نحو جلاله بلسان مقال معترف أو بلسان حال شبه معترف بأنه واجب الوجود لذاته وصفاته الإلهية ، متفردا بذلك عن الأشباه والأمثال ، فليس كمثلته شيء في الوجود ، إذ يبقى وحده ويفنى الكل ، فهو وحده واجب الوجود وكل ما عليها فان . ويستمر منشدا :

هو مُعْسِكُ الأشياءِ من علوِّ إلى	سُقْلٍ ومُبْدِعُهَا بغيرِ مثالِ
فاسكنْ إليه بهمةِ علويةِ	متزها عما سوى الفئصالِ
وهو الذي يُرْجَى ويُخشى لا تُلذُّ	بسواه في حالٍ من الأحوالِ
فالشرعُ جاء بذا وأسوارُ الهدى	قد أيدننه فَعِشْ خَلِيَّ البسالِ

وابن أبي العيش يقول إن الله هو الذى يمسك السموات وغير السموات أن تزول وهو الذى يبدعها على غير مثال مرسوم ، فاطمئن إليه بهمة روحية فإنه الفعال لما يريد ، وهو موضع الخوف والرجاء فلا تُلذَّ بسواه . جاء بذلك الشرع والحديث النبوى ، وتمسك بذلك تعش رضى النفس خلى البال . وله أبيات يصور فيها اعتزاله الخلق وانقطاعه إلى الحق رب الخلق يقول :

قنعتُ بما رُزقتُ فلستُ أسعى	لدارِ أبى فلانٍ أو فلانٍ
وآثرتُ المقامَ بكسْرِ بيتى	ولا أحدَّ أراهُ أو يرانى
ولا ألقى خليلاً غيرَ صبيرٍ	مُعِينٍ فى المعارفِ أو معانى
وقد أيقنتُ أن الرزقَ آتٍ	وإن لم آتِه سَعياً أتانى
وقد حققتُه فهما وعلمياً	وقد شاهدتُه رأى العيانِ
فلازمُ ذا بإخلاصٍ تُمكنُ	هنا وهناك من أسنى مكانِ

والقطعة مع ما تصور من الانقطاع إلى عبادة الله تصور مبدأ التوكل المعروف عند المتصوفة بحيث لا يفكرون فى رزق الغد وأن ما سيرزقون به آت لا ريب فيه ، وهو يقول إننى قانع برزقى ، ولست أحاول أن أتسول من فلان أو أبى فلان ، إذ تكفينى كسرة بيتى ولا أحد يرانى متذللاً لأحد ، ولا أبحث عن خليل يعينى ، غير صبر أستعين به فى دراسة المعارف أو بعض المعانى ، وقد أيقنت أن رزقى آتٍ سيعت إليه أو لم أسع ، عرفت ذلك وتحققت منه فهما وعلماً وخبرة . واعمل بذلك تحظ بأرفع مكان .

#### إبراهيم<sup>(١)</sup> التازى

هو إبراهيم بن محمد بن على التازى حفظ القرآن وأكب على دراسة العلوم ، وحج وحضر دروس الشيوخ فى مكة والمدينة وتونس وتلمسان ، وبدت فيه ميول قوية للتصوف وليس الخرقه من الشيخ صالح الزواوى بسنده إلى أبى مدين ، واشتهر بالتازى لولادته فى بربر تازا بالمغرب الأقصى ، وانتهى به المطاف إلى وهران ولقيه شيخها الصالح محمد بن عمر الهوارى لقاء حسناً ، وعنه ورث زاويته وطلابها بعد وفاته ، واشتهر ذكره ، ومن تتلمذ له الإمام السنوسى ، ويقال إنه هو الذى ألبسه الخرقه الصوفية . ويقول القلصادى إنه أقام معه فى زاويته ، ووجده معنياً بكلام شيخه الهوارى ، وكان يقول : العالم لا تعاديه - والجاهل لا تصافيه - والأحمق لا تواخيه . وتوفى إبراهيم التازى سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م ذكر ذلك

(١) انظر فى ترجمة التازى تعريف الخلف ١١/٢  
والبستان ص ٥٨ .

غير واحد ممن ترجموا له . وشعره الصوفي والتبوي كثير ويموج الأول بالدعوة إلى المحبة الربانية من مثل قوله :

أبعد الأربعين تروم هزلاً  
فخلّ حظوظَ نفسك والله عنها  
فما الدُّنيا وزخرفها بشيء  
فُتِبَ وانخَلَعَ عِذارك في هوى مَنْ  
جمالُ الله أكملُ كلِّ حُسْنٍ  
وذكرُ الله مرهمُ كلِّ جُرحٍ  
ولا موجودَ إلا الله حقاً  
وهل بعد العشيّة من عرارٍ  
وعن ذكر المنازل والديار  
وما أيّامها إلا عَواري  
له دارُ النعيم ودارُ نارٍ<sup>(١)</sup>  
فَلله الكمالُ ولا مُماري  
وأثَقُعُ من زلالٍ للأوار<sup>(٢)</sup>  
فدَعُ عنك التعلّق بالشُّنار<sup>(٣)</sup>

وهو يقول لصاحبه أتروم هزلاً بعد سن الأربعين ، والشطر الثاني شطريت للصمة القشيري ، والعرار نرجس برى ، يقول الصمة لصاحبه والإبل تسرع بهم إنه لن يتمتع بعد العشيّة بعرار فقد فات وقته ، كما فات وقت الهزل بعد الأربعين كما يقول التازي ، ويقول دع ما أنت فيه من غزل وتعلق بجمال المرأة ، فاللنيا ليست باقية ، وتعلق بمن لديه دار النعيم ودار الجحيم ، فجعله أعظم وأكمل من كل جمال ، وإن ذكره لشفاء لكل جرح ، وزلال بارد لكل عطش متقد ، إنه لا موجود سواه ، فدع عنك التعلق بما تعاب به ، ويُعدّ قبيحا منك أي قبح . وله :

حسامي ومنهاجي القويمُ وشرعتي  
محبةُ ربِّ العالمين وذكوره  
وأفضلُ أعمالِ الفتى ذكرُ ربه  
وما من حسامٍ للمريدين غيرُهُ  
وكم بددوا شملاً لذي جرّةٍ وكم  
وكم دافع الله الكريمُ بذكرهم  
وأفضلُ ذكرٍ دعوةُ الحيّ فلتكن  
فكثرةُ ذكرِ الشيء آيةُ حُبِّه  
ومنجاي في الدارين من كل فتنة  
على كلِّ أحياني بقلبي ومهجتي  
فكنْ ذاكراً يذكرك باري البرية  
وكم حَسَمُوا ظهراً لزارٍ وباهتٍ<sup>(٤)</sup>  
أبادوا عدواً منهم بمضرةٍ  
عن الخلق من مكروهية ومبيرة<sup>(٥)</sup>  
بها لهجاً في كلِّ وقتٍ وحالةٍ  
وحَسَبُ الفتى تشريفه بالمحبّة

هو يقول إن شجاعتي ومنهاجي القويم في الحياة وشرعتي ومنجاي في الدارين من كل

(٤) زار : عائب . باهت : منهش .

(٥) مبيرة : فاسدة ، مهلكة .

(١) خلع العذار : أراد به الشاعر الانهماك في الحب .

(٢) الأوار : حرارة العطش .

(٣) الشنار : العيب والقيح والعار .

فتنة كل ذلك في محبة رب العالمين واني لأذكره في كل حين بقلبي ومهجتى ، وهل في الدنيا عمل أفضل من ذكر الإنسان لربه ، فأذكره دائما ، اذكر خالق الخلق ومنشئهم ، وهل للمريدين تلامذة المتصوفة حسام سواه ، وكم قضوا على زار هازيء وباهت متعجب وكم بددوا جمعا جريئا وكم أبادوا عدوا لهم حاول أن يؤذيهم ، وكم دفع الله الكريم بذكرهم له عن الخلق من مهالك . وإن أفضل ذكر دعوة الله فكررها في كل وقت وإن كثرة ذكر الشيء لأكبر دليل على حبه ، وإن محبة الله لشرف للإنسان أى شرف . وله قصيدة صوفية ذاعت وشاعت في الجزائر باسم المرادية ، وتسمى أيضا باللامية ، استهلها بقوله :

مُرَادِي مِنَ الْمَوْلَى وَغَايَةُ آمَالِي      دَوَامُ الرِّضَا وَالتَّقْوَى عَنْ سُوءِ حَالِي  
وَإِسْقَاطُ تَدْيِيرِي وَحَوْلِي وَقَوْتِي      وَصِدْقِي فِي الْأَحْوَالِ وَالْفِعْلِ وَالْقَالِي

والتأزي يقول إنه يطلب من ربه دوام الرضا والعفو ، وإنه ليأمل منه أن يسقط عنه التدبير شأن الصوفية العظام فلا يفكر في شأن من أمور معاشه وحياته ، ولا حول ولا قوة حتى ولا صدق له في حال ولا في فعل أو قول . وقد شرحها محمد الصباغ القلعي في القرن العاشر الهجري بشرح سماه : « شفاء الغليل والفؤاد في شرح النظم الشهير بالمراد » سماها المراد استكمالاً للسجعة ولابن مريم عليها شرح كما ذكر في ترجمته له . ومنها في وصف المرید تلميذ الشيخ الصوفي وتابعه :

وَعَنَّمُ مَرِيدٌ فِي انْقِيَادٍ لِكَامِلٍ      لَهُ خَبْرَةٌ بِالرَّوْقِ وَالْعِلْمِ وَالْحَالِ  
هُوَ السِّرُّ وَالْإِكْسِيرُ وَالْكِيمِيَا لِمَنْ      أَرَادَ وَصُولًا أَوْ بَغْيَ نَيْلِ آمَالِ  
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ الشُّيُوخَ يَقْطُرْنَا      وَأَخْرَهُمْ شَيْخِي وَمَوْضِعُ إِجْلَالِي  
وَقَدْ قَالَ لِي : لَمْ يَبْقَ شَيْخٌ بَعَرْنَا      وَذَا مِنْذَ أَعْوَامٍ خَلُونَ وَأَحْوَالِ<sup>(١)</sup>  
يَشِيرُ إِلَى أَهْلِ الْكَمَالِ كَمَثَلِهِ      عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ الرِّضَا مَا تَلَا تَالِي

وهو يجعل المرید كأنه آلة مسخرة في يد شيخه الخبير بزمه وبالعلم وبأحوال التصوف ، إذ ينقاد له بكلية ولا يخرج بأى صورة عن إرادته . ويعظم الشيخ الصوفي إذ يجعله السر الإلهي والإكسير والكيمياء اللذين يحولان المعدن ذهبا ، ويده الأصول ومفتاح كل الآمال . وكنا نؤثر أن يترفع الشيخ التأزي عن مثل هذه الدعاوى في شيوخ الصوفية ، التي جعلت الناس يبالغون فيهم ويقولون بالقطب وما إلى القطب من الأبدال ، بل لقد أعد ذلك لظهور دجاجلة المتصوفة ومن يرتزقون باسم صوفي سني كبير . والتأزي يستمر فيقول إن الناس عدموا

(١) خلون : مضين . أحوال : سنوات .



في الجزائر شيوخ المتصوفة الحقيقيين وآخرهم كان شيخه محمد بن عمر الهواري الذي كان يقول له ذلك قاصدا به أهل الكمال من الصوفية أو الصوفية الحقيقيين .

٥

## شعراء المدائح النبوية

يأخذ شعراء المدائح النبوية في الكثرة بالجزائر والبلاد المغربية منذ القرن السابع الهجري، وخاصة منذ النصف الثاني منه، وفي مقدمتهم محمد بن الحسن بن ميمون القلعي البجائي الذي أنشدنا له مقطوعة طريفة في التصوف وكان يكثر من النظم فيه وفي المديح النبوية مثل قوله<sup>(١)</sup> :

أمن أجلى أن باتوا فؤادك مُغْرَمٌ	وقلبك خفّاقٌ ودمعك يسْجُمٌ <sup>(٢)</sup>
وما ذاك إلا أن جسمك منجدٌ	وقلبك مع من سار في الركب مُتَهَمٌ <sup>(٣)</sup>
وما ضرهم لو ودّعوا يوم أودعوا	فؤادي بتذكار الصبابة يُضْرَمٌ
وإني لأدعو الله دعوة مذنبٍ	عسى أنظر البيت العتيق والشم
فيا طول شوقى للنبي وصحبه	ويا شد ما يلقي الفؤاد ويكتم
إليك رسول الله أرفع حاجتي	فأنت شفيع الخلق والخلق هيم <sup>(٤)</sup>
وقد أثقلت ظهري ذنوباً عظيمة	ولكن عفواً الله أعلى وأعظم

وهو لا يخفى صباهه بأصحابه الذين فارقه موكبهم العظيم إلى الحج وزيارة الأراضي المقدسة وقلبه يخفق ودمعه يسجم ، فقد أنجد جسمه وفارق قلبه متهما مع من يرودون تهامة إلى مكة والمدينة ، ويقول ما ضر رفاقي الذين ستكحل عيونهم بنور هذه البقاع الطاهرة لو ودعوني يوم رحيلهم حين أودعوا في فؤادي نار الصبابة مضطربة ملتهبة ، واني لأدعو الله دعوة خاشع بل دعوة مذنب أن يتاح لنظري أن يكتحل بنور البيت العتيق وأقبل الحجر الأسود كما قبله الرسول الكريم ، وما أشد شوقى للرسول وصحبه ، وما أشد ما يلقي فؤادي وأكظم . واني يا رسول الله أتمنى عليك أن تشفع لي كما تشفع لجميع الخلق يوم القيامة ، وهم جميعا عطاش عطشا شديدا والحر من الزحام أخذ بخناقهم ، وقد أثقلت ظهري ذنوبى ، ولكن أملى في عفواً الله أكبر وأعظم . وكان عبد المنعم الغساني فقيه مدينة الجزائر وأديبها وشاعرها فصاحة لسان وإحكام بيان وتولى القضاء في بجاية مدة طويلة ، وتوفى في عشر الثمانين وستمائة ، ومن نبوياته قوله<sup>(٥)</sup> :

(١) عنوان الدراية ص ٧٠ .

(٢) يسجم : يسيل .

(٣) منجد : في نجد . متهم : في تهامة .

(٤) هيم : عطاش .

(٥) عنوان الدراية ص ١١٢ .

لكل نبي دعوة مستجابة  
إلى يوم لا يُغنى عن المرء منطق  
ويوم يفر المرء من وليه  
وكل نبي يسأل الله نفسه  
خلا شافع فينا كريم مشفع  
فيا ربه ببلغ عبئك قبره  
وجازِه عنا بالذي أنت أهله  
وسيدهم طمرا خباها لأمة  
فصيح ولا يُذلي البليغ بحجته  
حيب ولا يُجزى أب أبوتسه  
ويضرب صفحا عن سؤال لأمة<sup>(١)</sup>  
به يشمل الله العباد برحمته  
ليحظى بتقبيل لطاهر تربته  
أعز الورى أنت الكفيل بميته

وهو يقول إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وسيد الأنبياء جميعا محمد ﷺ خبا دعوته إلى يوم القيامة الموصوف في سورة عبس بقوله جل شأنه : إنه يوم الصاخة التي تصخ الأذان وتصمها ، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما ( يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ) وحتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أمهم إلا سيد الخلق جميعا رسول الأمة الإسلامية فيدعو الله متشفعا لأفرادها في هذا اليوم يوم المحشر الرهيب ، ويقبل الله شفاعته ، ويشمل بها العباد برحمته . ويتوسل الشاعر إلى ربه أن يبلغه المدينة ليحظى بتقبيل قبره الطاهر ، ويسأله أن يجزيه عن أمته بما هو أهله ، إنه خير الورى وهو الكفيل بإعطائه ما يتكافأ مع حقه وجزائه . وملتقى بإبراهيم<sup>(٢)</sup> بن أبي بكر التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م والذي افتتح به أبو القاسم الحفناوى كتابه : « تعريف الخلف » وله أمداح نبوية منها - كما ذكر من ترجموا له - المعشرات على أوزان العرب ، وكانت كل قافية تشتمل على عشرة أدوار ، وله مدحة في المولد النبوي ، ولم يذكر من ترجموا له شيئا من شعره في مدح الرسول ﷺ . ويلقانا بأخرة من القرن السابع ومطلع القرن الثامن محمد بن عبد الله بن محمد العطار وسنخصه بترجمة.

وكان المشرق قد استن الاحتفال بالمولد النبوي في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول في القرن الحادى عشر الميلادى بمصر أيام الفاطميين بطريقة رسمية ، وأول احتفال به بطريقة جماهيرية شعبية كان في إربل لأوائل القرن الثاني عشر الميلادى إذ احتشد له الحاكم الأيوبي والعلماء والشعراء والمتصوفة من مختلف البلاد العراقية وذبحت فيه ذبائح كثيرة وطاف الناس ليلا في مواكب بمشاعل متوهجة وشاع ذلك في البلدان . ونقله أبو العباس<sup>(٣)</sup> العزفى الشريف إلى سبتة مدينته ، وعنهما شاع في تلمسان وغيرها من البلاد المغربية . وكان الذى أشاعه فى

(١) يضرب صفحا : يعرض .

(٢) له ترجمة فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩ والإحاطة ٣٢٦/١ والبستان ص ٥٥ وتعريف الخلف

١٣/١ .

(٣) أزهار الرياض ٣٩/١ .

تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزيانية أبا حمو موسى ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) . يقول أبو عبد الله التنسي في كتابه<sup>(١)</sup> : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » ونظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان : إن أبا حمو موسى كان يقيم ليلة مولد المصطفى ﷺ ويدعو لها في احتفال كبير يحشد فيه الناس خاصة وعامة ، وما شئت من نمارق ( وسائل ) مصفوفة ومجالس مبنوثة وبسط موشاة ، ووسائل بالذهب مغشاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ، وتفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، رتب فيها الناس على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان لبسوا أقبية الخبز الملون ، بأيديهم مياخِر ومرشات ، ينال كل منها بحظه . ويعقب ذلك يبدأ المنشدون بأمداح المصطفى ﷺ ، وبمكفرات ترغّب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون في كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان خزانة المنجاة « الساعة الدقاقة » الموصوفة في الحديث عن الرفه بفصل المجتمع ، وقد زخرت ، ولها أبواب مغلقة على عدد ساعات الليل الزمانية ، وكلما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، ويفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وتبرز منه جارية بديعة ويدها اليمنى رقعة تشتمل على نظم فيه تلك الساعة ، ونسوق ما تقوله بعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل ، وجميع ما تقوله مدح في أبي حمو<sup>(٢)</sup> :

أمولاي يا بن الملوك الألى      لهم في المعالي سنى الرتب  
تولت ثلاث من الليل أبتت      لك الفخر في عجمها والعرب  
فدم حجة الله في أرضه      تنال الذي شئته من أرب

ولا يزالون في هذا الحفل النبوي إلى انبلاج عمود الفجر ونداء المؤذن حتى على الفلاح يبشر بصلاة الصباح. وكانت كل ليلة في المولد النبوي لكل عام تبدأ بمدحة نبوية، وتسمى المدحة في مولده ﷺ مولدية نسبة إلى أنها نظمت في مولده، ومن قول أبي حمو في إحدى مولدياته<sup>(٣)</sup> :

حياتي وموتي في هواكم وإننى      أعلل نفسي فيكم بالأمانى  
فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى      فإننى في بحر من الشوق لجنى<sup>(٤)</sup>  
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجوى      وحالى على حكم النوى غير مخفى

(١) الرياض ٢٤٣/١ وما بعدها وقارن بتاريخ  
بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان  
لأبي عبدالله التنسي ص ١٦٢.  
(٢) انظر في أبيات المنجاة طوال ساعات الليل أزهار  
الرياض ٢٤٦/١ .  
(٣) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان لأبي عبد الله التنسي  
ص ١٦٦ .  
(٤) لجنى : مترام الأمواج .

(١) أزهار الرياض ٢٤٣/١ وما بعدها وقارن بتاريخ  
بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان  
لأبي عبدالله التنسي ص ١٦٢.  
(٢) انظر في أبيات المنجاة طوال ساعات الليل أزهار

تناسيتم عهدى وحفظ مودتي  
وما أرتجى إلا شفاعته خير من  
به يرتجى العاصون غفران ذنبهم  
بمولده قد أشرق الكون كله  
وحبكم في القلب ليس بمنسى  
أتى بالهدى يهدى بدين حنفي<sup>(١)</sup>  
وما عملوا في الدهر من عمل سى<sup>(٢)</sup>  
وكل سنا شمس وبدر ودرى

فحياة « أبو حمو » وموته في هوى الرسول ﷺ ، وإن نفسه لتمتلىء إزاءه بما لا يحصى من الآمال ، ويستغيث بأهل نجد أن ينجدوه على الهوى فإنه غارق من الشوق في بحر لجى كثير اللجج لا أول له ولا آخر ، مقيم بأقصى الغرب في تلمسان يشكو الوجد ، وحاله من البعد غير خاف . وتتأبه لحظة شك ، فيقول : تناسيتم عهدى ومودتى ونار حبكم فى قلبى لا تخمد ولا تنطفىء ، وإن كلى رجاء أن يشفع لى خير مشفع أتى بالهدى وبدين حنفي مستقيم لا عوج فيه ، وإن العاصين ليقفون ببابه أملين فى شفاعته وأن يغفر لهم ربهم ما اقترفوا من آثام أو أعمال بالغة السوء ، وإنه لنور الوجود فمنه أشرق الكون كله ، ومنه ضوء كل شمس وبدر وكوكب درى . وللثغرى مولدية فى نفس السنة التى قال فيها أبو حمو مولديته السالفة وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

شمس الرسالة والنبوة والهدى  
هو رحمة الله التى يهمنى بها  
يا من له قبل الولاد وبعده  
أسريت للسبع الطباق فأقبلت  
وتبركت بصلاتك الأرسال إذ  
رفعت لك الحجب العظيمة فاعتلى  
حتى سمعت صرير أقلام بما  
تلك المراتب لم يكن لينالها  
بدر الجلالة نورها المتجسم  
فى الخلق بالحق المين ويحكم<sup>(٤)</sup>  
آيات إرشاد لمن يتوسم<sup>(٥)</sup>  
أملاكها طراً عليك تسلم  
صلت وأنت إمامها المتقدم  
بك للعلى ذاك المقام الأعظم  
فى اللوح محفوظاً تخط وترسم  
إلا النبى الهاشمى الأكرم

والثغرى يقول إن الرسول شمس الرسالة الساطعة وبدر الجلالة النير ونورها الدرى المتجسد ، إنه رحمة الله التى لا تزال تنصب فى الخلق بالحق وتحكم ، يا أيها الرسول العظيم الذى سبقته وجاءت معه آيات ومعجزات لمن يتوسم الخير ويأمله . وهل معجزة أعظم من معجزة المعراج واختراق السموات السبع والملائكة حافون به يسلمون عليه ، وهبط إلى بيت المقدس فأمم به الرسل ، إنه إمامهم المقدم الأعظم ، ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام وهى تكتب فى اللوح المحفوظ ما خط للناس ورسم لهم . وتلك المراتب العليا لم يكن ليظفر

(١) حنفي : مستقيم لا عوج فيه

(٢) سى : سىء وخفف للقافية .

(٣) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٧١ .

(٤) يهمنى بها : يصب بها وينشر .

(٥) يتوسم : يتفكر ويتأمل .



بها أحد إلا النبي العربي الهاشمي العظيم. ويذكر لنا يحيى بن خلدون في الجزء الثاني من كتابه بغية الرواد مولدية له ألقاها بين يدي أبي حموموسى سنة ٧٧٨ وفيها يقول مادحا الرسول الكريم:

سَيِّدُ الْعَالَمِينَ دُنْيَا وَأُخْرَى      أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِي الْعَالَا وَالسَّمَاحِ  
 صَفْوَةُ الْخَلْقِ أَرْفَعُ الرُّسُلِ قَدْرًا      وَسِرَاجُ الْهُدَى وَشَمْسُ الْفَلَاحِ  
 مِنْ رَقَى فِي السَّمَاءِ سَبْعًا طَبَاقًا      وَرَأَى آيَ رَبِّهِ فِي انْتِضَاحِ<sup>(١)</sup>  
 وَدَنَا مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ قُرْبًا      ظَانَفِرَا فِي الْعِلَا بِكُلِّ اقْتِرَاحِ  
 مَنْ يُجِيرُ الْوَرَى غَدًا يَوْمَ يُجْزَى      كُلُّ عَاصِرٍ وَطَائِعٍ بِاجْتِرَاحِ<sup>(٢)</sup>  
 مَنْ إِلَى حَوْضِهِ وَظَلُّ لِسَاوَاهِ      يَلْجَأُ النَّاسُ بَيْنَ ظَامٍ وَضَاحِ<sup>(٣)</sup>

ويحيى بن خلدون يقول إن الرسول سيد العالمين طرا دنيا وأخرى ، وأشرف الخلق وصفوتهم وأرفع الرسل قدرا ومنزلة عند ربه ، وسراج الهدى وشمس الفلاح ، من منحه الله معجزة المعراج الكبرى ، فصعد به سبع سموات طبقة بعد طبقة و ( لقد رأى من آيات ربه الكبرى ) كما جاء في سورة النجم ودنا منه أي من جبريل ( قاب قوسين أو أدنى ) أي قدر ذراعين تقريبا ظافرا من ربه بكل ما توصل به إليه ، منزلة لم يحظ بها رسول قبله . وحسبه من محبة الله له أنه سيكون المجير لا للطائعين فحسب بل أيضا للعصاة يوم الفرع الأكبر : يوم الحشر الموعود ، وسيقف على حوضه ويمتد عليه لواء معلم ويسقى منه أمته يوم القيامة . وعلى عادة أصحاب المولديات التي تلقى في الاحتفالات الكبرى بليلة المولد النبوي يستطرد يحيى بن خلدون في مولديته - كما استطرد الثغرى أيضا في مولديته - لمديح أبي حموموسى . وعادة يتقدم المديح النبوي في المولدية نسيب يكتظ بالوجد والصبابة وأحيانا يمزج ببعض الوعظ .

وكانت المدائح النبوية لا تزال تنظم بجوار هذه المولديات ، واشتهر بالنظم فيها غير شاعر مثل عبد الله البسكري الصوفي معاصر يحيى بن خلدون ، فهو من شعراء النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وله في مديح المدينة قوله<sup>(٤)</sup> :

دَارُ الْحَبِيبِ أَحَقُّ أَنْ تَهْوَاهَا      وَتَحِينَ مِنْ طَرْبٍ إِلَى ذِكْرَاهَا  
 وَعَلَى الْجَفُونَ مَتَى هَمَمْتَ بِزُورَةٍ      يَا بَنَ الْكِرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَغْشَاهَا  
 فَلَأَنْتَ أَنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيْبَةٍ      وَظَلَّلْتَ تَرْتَعُ فِي ظِلَالِ رَبَاهَا<sup>(٥)</sup>  
 مَعْنَى الْجَمَالِ مَنَى الْخَوَاطِرِ وَالَّتِي      سَلَبَتْ عَقُولَ الْعَاشِقِينَ حُلَاهَا

(١) رقى : صعد . طباقا : طبقة فوق طبقة .

(٢) اجتراح : اكتساب السيئات والحسنات .

(٣) ظام : في أشد العطس . ضاح : أصابته حرارة

الشمس .

(٤) تعريف الخلف ٢/٢٤٠ .

(٥) طيبة : المدينة .

لا تَحْسَبِ الْمِسْكَ الذَّكِيَّ كَثْرَتِهَا      هيهات! أين المسك من رِيَّاهَا<sup>(١)</sup>!  
طابتَ فإن تَبَغِ التَّطِيبَ يا فتى      فأدِمِ على الساعاتِ لثَمَ ثَرَاهَا

والبسكرى يقول إن دار الحبيب أحق دار بأن تهواها ويملاك الحنين شوقا إلى ذكراها ومتى هممت بزيارة أصبح واجبا عليك أن تغشى تلك الدار وتكتحل جفونك بمرآها وما أعظمك إذا حللت بها وتنقلت فيها ، إنها معنى الجمال وبها جميع منى الخواطر ، وطالما سلبت حللاها عقول عاشقها الهائمين بها وجدا وصبابة . وإن ترابها ليفوق المسك العاطر وهيهات ؟ أين المسك من شذاها الطيب ، لقد طابت فإن تبغ التطيب والتعطر فأدم تقبيل ثراها الذكي العطر . وتلقانا شروح كثيرة لبردة البوصيري في المديح النبوي ، من ذلك شرح لسعيد<sup>(٢)</sup> العقباني المتوفى سنة ٨١١ للهجرة وثلاثة<sup>(٣)</sup> شروح لابن مرزوق الحفيد أكبر وأوسط وأصغر ، وسمى الأكبر إظهار صدق المودة في شرح البردة ، وسمى الأصغر الاستيعاب لما في البردة من البيان والإعراب ، وشرح قصيدة الشقراطسي التونسي النبوية بشرح سماه المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطسية . وملتقى بالشهاب بن الخلوف بأخرة من القرن التاسع الهجري ، وله ديوان جميعه مديح نبوي ، ولم يُتَحَ لى أن أراه ، غير أن ديوانه الكبير المنشور بتونس به مجموعة من المدائح النبوية ، ونذكر منها توسلا بديعا بالرسول كى يغفر الله له ذنوبه ، وفيه يقول<sup>(٤)</sup> :

يا أرحمَ الرَّاحِمِينَ أَرْحَمَ وَجُدُ كَرَمًا      فَأَنْتَ أَنْتَ أَمَانُ الْخَائِفِ الرَّجِيلِ  
وَإِغْفِرْ بَطْهَ ذَنْبِي لَيْسَ يَغْفِرُهَا      إِلَّاكَ يَا غَافِرَ الْأَوْزَارِ وَالْخَطَلِ<sup>(٥)</sup>  
وَنَجِّنِي وَاعْفُ عَنِّي وَأُنِّبْنِي مِنْحًا      تَنِيلِنِي الْفَوْزَ فِي جِلِّ وَمُرْتَحَلِ  
وَصَلِّ رَبُّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرِّ      خَيْرِ النَّبِيِّينَ وَالْأَمْلاكِ وَالرُّسُلِ  
رُوحِ الْعَوَالِمِ سِرُّ الْكُونَ أَجْمَعِ      إِكْسِيرُ كَنْزِ الْمَعَالِي عِلَّةُ الْعَلَلِ<sup>(٦)</sup>  
عَلَيْهِ صَلَّى إِلَهُ الْعَرْشِ مَا اتَّضَحَتْ      آيَاتُ شَمْسِ الضُّحَى فِي دَارَةِ الْحَمَلِ<sup>(٧)</sup>  
وَاللهِ الْغُرِّ وَالْأَصْحَابِ مَا خَطَرَتْ      مَعَاظِفُ الْبَانَ فِي أَثْوَابِهَا الْخُضُلِ<sup>(٨)</sup>

وهو يدعو ربه أن يجود عليه بالرحمة ، فإنه أمان الخائف الفرع ، ويتوسل إليه بالرسول أن يغفر ذنوبه وآثامه ، وهل يغفرها سواه ؟ إنه الرحيم الغفار ، ويسأل رب العزة النجاة والفوز مقيما وراحلا ، كما يسأله أن يصلى على رسوله العربي خير النبيين والملائكة والرسل ، ويقول إنه روح الوجود وسر الكون ، وإكسير المعالي الذى يرفعها إلى الذرى وعلة العلل فى الوجود

(١) رِيَّاهَا : رائحتها الذكية الطيبة .

(٢) البستان ص ١٠٦ .

(٣) البستان ص ٢١٠ .

(٤) الديوان ص ٦٦ .

(٥) الأوزار : الآثام .

(٦) الإكسير : مادة تحول المدن ذها .

(٧) الدارة : الهالة . الحمل : برج الشهر الأول فى الربيع .

(٨) الخضل : الخضراء الندية .

جميعه . وهذا البيت يجمع كل ما قاله البوصيري وغيره عن الحقيقة المحمدية وأنها سر الكون وعلته ، ومنها يستمد نوره وضياءه . ويقول صلى عليه إله العرش طالما اتضحت شمس الضحى فى أزمئة الربيع أى طوال الدهر ، وصلى أيضا على آله الأشراف وأصحابه ما ظلت أغصان البان ريانة ندية أى على مر الزمن .

ونمضى إلى العهد العثماني ، وفيه يكثر المديح النبوى كثرة مفرطة حتى لينظم فيه كل شاعر مدحة أو أكثر ، وقد ينظم فيه ديوانا مثل عبد الكريم الفكون المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ / ١٦٦٢ م إذله ديوان فى المديح النبوى وقد رتبته على حروف المعجم ، وجعل مبدأ كل مجموعة من أبيات كل قافية حرفا من حروف : « اللهم اشفنى بجاه محمد أمين » وجملة حروف هذه الصيغة خمسة وعشرون حرفا ، فى كل حرف مثلها أبياتا فى قافية الهزرة خمسة وعشرون بيتا ، وهكذا إلى آخر الحروف ، وانتهى الفكون من نظم الديوان سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م وكان قد أصيب بشلل فى هذه السنة ألزمه الفراش ، فشفاه الله منه ، وله قصائد مختلفة فى التوسل إلى ربه . وكان يعاصره سعيد المنداسى التلمسانى الذى ترجمنا له فى شعراء الهجاء وكان يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من الشعر الأول ، واشتهر فيه بقصيدة نبوية فى نحو ثلاثمائة بيت سماها « العقيقة » وشاعت بين أهل الجزائر شيوعا كبيرا ، ولأبى راس عليها شرح سماه الدرّة الأنيقة ، ويقال له عليها سبعة شروح ، ولكل شرح عنوانه الخاص . وفى الديوان الذى نشره له الأستاذ راجح بونار أربع قصائد نبوية ، وقد أنشدنا قطعة من غزل أولها فى باب الغزل ، ومن قوله فى مديحها النبوى<sup>(١)</sup>

هل رأيتم أو سمعتم حسنا	فى الورى من حسنه الحسن اكتمل
أحمد المبعوث فىنا رحمة	خير من قام بحق وكفل
آية الله أمين صادق	وحبيب الله بر متفضل <sup>(٢)</sup>
قد تحلى - إذ تجلى - بذرة	بالبها من ربه عز وجل
فامتطى متن جواد للعلا	خافق كالبرق للوصل رقل <sup>(٣)</sup>
أم رسل الله ليلا وارلقى	للمنى يطوى من الساح الكليل <sup>(٤)</sup>
آدم المبرور صلى خلفه	وأولو العزم مصايح الملل
قد رأى من ربه مالا رأى	قبله طرف نبي مرسل

والمنداسى يقول : هل رأيتم أو سمعتم حسنا فى الورى ، كل حسن يستمد من أشعته النورانية ؟ إنه أحمد المبعوث رحمة هدية للعالمين ، أعظم من رعى الحقوق وأداها ، آية الله الأمين

(١) ديوان سعيد المنداسى تحقيق الأستاذ راجح بونار ص ٤٠ .

(٢) رقل : زها وتبخر فى سيره

(٣) رقل : زها وتبخر فى سيره

(٤) الساح : يريد السموات . الكليل : يريد الطباقي .



الصادق وحببيه البر المجاهد فى سبيله ، وقد حفه الله بهالة من البهاء ، فسخر البراق له يعرج به إلى السموات السبع ، وأمّ الرسل ليلا تكريما له . ويفيض سعيد المنداسى فى بيان معجزاته ، ثم يعود إلى معجزة المعراج ويقول إن الله خص به رسولنا من دون الرسل جميعا تكريما لا يماثله تكريم . ويتحدث المنداسى عن مولد الرسول فى مدحة نبوية ثانية قائلا<sup>(١)</sup> :

طَهَ الْأَمِينُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ      يَوْمَ التَّلَاقِ وَطَى الْخَلْقَ مَنْشُورًا<sup>(٢)</sup>  
 مَنْ سَبَقَ الرَّسُلَ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَزْلِ      فَضْلًا وَلِلْخَلْقِ بَعْدَ الرَّسُلِ تَأْخِيرَ  
 وَانْقِضَ إِيوَانُ كَسْرَى عِنْدَ مَوْلَاهِ      وَغَابَ مِنْ نَارِ وَسْطِ الْفُرْسِ تَسْعِيرًا<sup>(٣)</sup>  
 وَجَلَّلَ الْأَفْقَ مِنْهُ النُّورُ فِي سَحَرٍ      كَأَنَّ فِي الْفَجْرِ هَدَى الصَّبْحِ مَنْحُورًا<sup>(٤)</sup>  
 وَفِي السَّمَاءِ خِيُولَ الشُّهْبِ رَاكِضَةً      كَأَنَّهَا فِي وَغَى الْجُورِ الزَّنَائِيرَ<sup>(٥)</sup>  
 وَفِي الْمَنَازِلِ تَحْتَ الْعَرْشِ إِذْ عَلِمْتُ      بِمَوْلِدِ الْمُصْطَفَى الْوَلَدَانَ وَالْحُورَ  
 تَزِينَتْ وَازْدَهَتْ وَسَاغَ مَشْرَبُهَا      وَطَرَّبَتْهَا مِنَ الطَّيْرِ الزَّمَامِيرَ<sup>(٦)</sup>  
 حَوْلَ الْخِيَامِ الْغُصُونُ اللَّذْنُ سَاجِدَةً      وَلِلْمَلَائِكِ تَهْلِيلٌ وَتَكْبِيرَ

وهو يقول إن طه الرسول الأمين الذى تُرجى شفاعته يوم الحشر الأكبر يوم كل إنسان يرى عمله المطوى منشورا تحت بصره . قد سبق الرسل فى الخلق والقدم الأزلى كما أن الرسل سابقون فيه بقية الخلق . ولقد حدثت معجزات شتى يوم مولده ، فقد انقض إيوان كسرى وانطفأت نار الفرس المجوس بعد أن ظلت مشتعلة متوهجة قرونا ، وعم الأفق منه نور فى السحر ، حتى ظن أن هدى الإبل وغيرها إلى الكعبة ذبح فى فجر هذا النور استبشارا به . أما فى السماء فإن الشهب - ملأتها - زناير . ويقول إن الولدان والخور العين فرحت بمولد الرسول وتزينت وامتلات زهوا وسرورا وغتتها الطيور بمختلف الأغاني ، وحتى الغصون اللينة الناعمة حول الخيام سجدت لربها شكرا . وهللت الملائكة وكبرت تكبيرا .

وينقل أبو القاسم الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف عن أحمد<sup>(٧)</sup> بن عمار بترجمته أن مجلى حلبة المولديات ومقدم الجماعة فيها وإمام الصناعة وركاب صعابها ومذلها عاشق الجناب المحمدى ومادحه بلا معارض ، ومثلث طريقتى البوصيرى وابن الفارض ، الشيخ أبو العباس أحمد الماتجلاى ، أتخفه الله بمنفهي رضوانه ، وألحفه مطارف (حلل) التكريم فى

(١) ديوان سعيد المنداسى التلمسانى ص ٦٩ .  
 (٢) طى الخلق : الكتاب الذى كان مطويا عن الخلق .  
 (٣) تسعير : اشتعال وتوهج .  
 (٤) الهدى : ما يضحى به من الإبل وغيرها نسكا .  
 (٥) الزناير جمع زبور : حشرة تلسع .  
 (٦) الزمامير : يريد أصوات الطير وألحانها .  
 (٧) انظر تعريف الخلف ٨٩/٢ .

أعلى جنانه ، ويقول الحفناوى أثبت من مولدياته ما يطرب ويروق ، ويهر الشمس عند الشروق ، فمن ذلك قوله من موشحه<sup>(١)</sup> :

بِاللّهِ حَادِي الْقَطَارِ قِفْ لِي بِتِلْكَ الدِّيَارِ وَأَقْرَبِ السَّلَامِ  
سَلِّمْ عَلَيَّ عَرَبِ نَجْدٍ وَادْكُرْ صَبَابَةَ وَجْدِي كَيْفَ يُلَامُ  
مَنْ بَادَرْتَهُ الدَّمْعُ شَوْقًا لِتِلْكَ الرِّبْعِ مَعَ الْمَقَامِ

وهو ينادى بالله على حادى القطار أى القافلة أن يقف بديار الحبيب ويقرئه السلام ، ويسلم على عرب نجد ، أصحاب الصبابة والوجد ، ويتساءل كيف يلام من ابتدرته الدموع شوقاً لتلك الربوع وساكنها ومقامه العظيم . والمناجلاتى من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى وذكر ابن عمار أنه كان له ديوان نبوى جميعه قصائد مولدية تُزرى بالأزهار الندية ، ويقول : وجاء مصليا خلفه ( تالياله ) سحبان البلاغة وقسُ البراعة شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور باسم ابن على . وأتشد له موشحاً نبوياً على غرار موشح المناجلاتى وفيه يقول :

بِاللّهِ طَاوِي الْقَفَارِ عَرَجٌ بِذَلِكَ الْمَزَارِ حَيْثُ الْكِرَامِ  
عَرَجٌ يَرْبِعُ الْمَعَالِ وَابْرِدُ بِذَلِكَ الْوِصَالِ حَرَّ الْغِرَامِ  
حَسْبُ الْمَشُوقِ الْكَيْبُ أَنْ شَمَلْتَهُ بِالْحَبِيبِ لَهُ التَّامِ  
نَأَتْ عَلَيْنَا الدِّيَارُ وَفِي الْفَوَادِ جِمَارُ لَهَا أَنْضِرَامِ

وابن على يقول : بالله يا قاطع القفار عرّج نحو مزار الأحبة الكرام ، عرج نحو منزل المعالي وبرّد بهذا الوصال النار المضطربة فى الفؤاد وحسبى أن اجتمع شملى بالحبيب . ولقد بعدت عنا الديار ، وفى الفؤاد قطع من الوجد الملهب تضطرم نارا حامية . ولأحمد بن عمار نفسه فى موشحة :

يَا نَسِيمَا بَاتَ مِنْ زَهْرِ الرَّبِّيِّ يِقْتَفِي الرُّكْبَانَ  
أَحْمَلُنْ مِنِّي سَلَامًا طَيِّبًا لِأَهْلِيلِ الْبَانَ  
أَقْرَأُنْ مِنِّي سَلَامًا عَيْفًا إِنْ بَدَتْ نَجْدُ  
إِنْ لِي قَلْبًا إِلَيْهَا شَيْفًا شَفَّهُ وَجْدُ

وموشحته يهبط أسلوبها درجة عن الموشحتين السابقتين ، ومع ذلك كان يعد من كبار الشعراء فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وله شعر كثير فى الوصف وغيره من الموضوعات ، ويقال كان له ديوان فى المديح النبوى ، يشتمل على منظومات من القصائد والموشحات . وتحدث الآن عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله العطار أهم شعراء المديح النبوى الجزائريين .

(١) انظر فى المتطورة التالية وتاليها تعريف الخلف  
٩٠/٢ وما بعدها .

## محمد<sup>(١)</sup> بن عبد الله العطار

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن العطار ، هكذا نقلنا عنه في آخر ديوانه النبوي الذي سماه : « نظم الدرر في مدح سيد البشر » وسماه أيضا : « الورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين » والاسم الأول هو الذي اشتهر به الديوان لأنه أخف وأطرف ، وجاء في ختامه : « كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة الثاني من شعبان سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا أربع قصائد ، فإنها تقدمت على إنشائه أودعتها فيه ، وذلك بمدينة الجزائر ، جزائر بنى مزغنة من أقصى إفريقية من أرض متيجة » . ومتيجة هي الإقليم الذي تقع فيه مدينة الجزائر . وبذلك يكون قد فرغ من نظم هذا الديوان النفيس بمدينة الجزائر سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م ويقول المقرئ : « ليس هو بابن العطار المشرقي الذي كان معاصرا لابن حجة الحموي [المتوفى سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م] فإن ذلك متأخر عن هذا .. وهذا مغربي وذلك مشرقى فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان سوى في اشتراكهما بابن العطار » . ويذكر المقرئ - وتبعه في ذلك الحفناوي - أن محمد بن أحمد بن الأمين الأقسهري روى الديوان عن ناظمه ابن العطار وأنه قرأه عليه قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر في ذى القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائة . ويدل هذا النص على أن ابن العطار كان في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م قاضيا بمدينة الجزائر . وقد اطلع المقرئ على ديوانه ، وجاءنا منه ببعض روائعه ، بادئا بتسديس ، وقوافيه تكون عادة بعدد الحروف الهجائية ، ولكل حرف أربع شطور ، يليهما شطران ينتهيان بحرف يلتزم فيهما بكل دور كقوله في تسديس له<sup>(٢)</sup> :

صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ الْأَكْمَلِ	صَلُّوا عَلَى الرَّوْضِ الْبَهِيِّ الْأَجْمَلِ
صَلُّوا عَلَى الْهَادِي النَّبِيِّ الْأَحْفَلِ	المصطفى الأرقى لأنزه محفل
فيه تقدّم وحده تقديمًا	صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وهو يقول صلوا على البدر المنير الكامل والروض البهّي العاطر الهادي لأمته الخاني عليها والمحتفى بهداها ، المصطفى الذي صعد به ربه لأنزه وأروع مقام - تقدم فيه وحده دون الرسل جميعا يناجي وبه ، صلوا عليه وسلّموا تسليما . والشطر الأخير يكرر في كل دور مع شطر منته بالميم محدثا رنينًا صوتيًا بديعًا للتسديس . ويذكر المقرئ للعطار تسديسًا ثانيًا ، نذكر منه هذا الدور :

الخلف لأبي القاسم الحفناوي ٥٥٠/٢ .  
(٢) نفس المرجعين السابقين .

(١) انظر في ترجمة العطار نفع الطيب للمقرئ (طبعة  
د. إحسان عباس) ٤٨٠/٧ وما بعدها وكتاب تعريف

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَنَامَى فَخْرُهُ      صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَعَاظَمَ قَدْرُهُ  
 صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَأْرَجَ نَشْرُهُ      صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَنَاسَقَ دُرُّهُ  
 عَقَدَ السَّنَاءُ لِمَجْدِهِ إِكْلِيلًا      صَلُّوا عَلَيْهِ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا

وهو يقول صلوا على من فخره لا يقف عند حد بل كل يوم في نمو وازدياد لمحبة الخلق له ومحبة ربه . صلوا على من يتعظم قدره عند الناس وعند الذات العلية . صلوا على من عطره يفوح من كل جانب ، ومن لآلئ تعاليمه تترد لأتباعه في أنساق محكمة ، وقد عقد له الشرف والمجد تاجاً عظيماً ، صلوا عليه بكرة وأصيلا . ويختم بهذا الشطر كل دور مع شطر لامي قبله . ويث العطار في قصيدة له حيناً ظامناً إلى زيارة يثرب والرسول الكريم منشدا :

أهدت لنا طيبَ الروائح يثربُ      فهبؤها عند التنسّم يطربُ  
 رقت فرقاً من الصبابة والأسى      قلبٌ بنيران الإعساد يعذبُ  
 شوقاً إلى أسنى نبي حبه      يجلو على مرّ الزمان ويعذبُ  
 فزنا به بين الأنعام يديمة      أبدا علينا بالأمانى تسكبُ  
 حاز السيادة والكمال عمداً      فإليه أشتات المحامد تنسبُ  
 محبوبنا ونبيينا وشفيعنا      يدنى إلى ورد الرضا ويقربُ  
 إن طابت الأنفاس من زهر الربى      رياه أذكى في النفوس وأطيبُ

والعطار يقول إن يثرب أهدت لنا مع الرياح طيباً ، واختلاطها في هبوبها بالأرج يملأ قلوبنا طرباً ، ويقول إنها رقت ورق معها قلبي المعذب بالصبابة والوله شوقاً إلى أعظم نبي حبه دائماً عذب مستحب مهما كان الزمان مرّاً كريهاً ، ويقول إننا فزنا منه بسحابة لا تزال تسكب علينا بكل ما نريد من الأمانى . وقد حاز السيادة والكمال ، إنه محبوبنا ونبينا وشفيعنا يوم الفزع الأكبر ، وإن حبه ليدنى من رضا الله ، وحسبك بذلك نعمة كبرى . ويقول إن أريج زهر الربى لا يقاس في شيء إلى شذاه العطر ، إنه أذكى في النفوس وأطيب في القلوب . ومن قوله متشوقاً إلى طيبة وزيارة الرسول الكريم :

أبدا تشوقك أو تروقك يثربُ      فإلى متى يُقصيك عنها المغربُ  
 هي جنة في النفس يعذب ذكرها      والقرب منها والتداني أعذبُ  
 والشوق يثينا إليها كلما      وقف الحمام على الأراكة يخطبُ  
 يا حبذا في ربّ طيبة وقفة      بين الركائب والمدامع تسكبُ  
 حتى يرق للوعتى وصبابتى      ودموع عيني كل من يتغربُ  
 شوقاً لمن زان الوجود وحبه      يدنى إلى ربّ الرضا ويقربُ  
 خير الورى محبوبنا ونبينا      حزنا به الجاه الذي لا يسلبُ



فدائما تشوق العطار يثرب ودائما يقصيه عنها المغرب ، إنها الجنة التي يحلو له ذكرها ،  
والقرب منها والذنو أكثر حلاوة وعذوبة . وإنه ليحن إليها كلما سمع الحمام يشدو ويترنم  
على أغصان الأراك والأشجار . ويتمنى وقفة في ريع الأحبة ودموعه تهطل صببا ملتاغا حتى  
ليعطف عليه المحبون مثله ، شوقا للرسول الكريم الذي زان الوجود بطلعته السنية ، والذي  
يدنى حبه من رضا رب العباد ، خير الورى ، محبوب أمته ، ونبيها الذى حازت به جاهها  
ومكائنها العالمية . ويشيد بالرسول ويحمل السلام إليه من يزورونه من جيرانه وصحبه ،  
منشدا :

أَسْنَى النَّبِيِّنَ قَدْرًا نَوْرُهُ أَبَدًا	يزيد حُسْنًا على الأعمار باهرُهُ
وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجْمٍ	أَرَيْتُ عَلَى الرَّمْلِ أَضْعَافًا مَآثِرَهُ
رَوْضٌ مِنْ الْحَلْمِ غَضٌّ رَاقٍ مَنْظَرُهُ	بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ عَذْبٌ فَاضٌ زَاخِرُهُ
إِنْ جَادَ صَاحِرٌ بَلَقِيَاهُ الزَّمَانُ فَعِلُّ	إِلَى مَقَامِ حَبِيبِ أَنْتِ زَائِرُهُ
وَصَيْفٌ لَهُ حَالٌ صَبٌّ مُغْرَمٌ ذَيْفٌ	رَامَ الدَّنْوُ فَاقْصَتْهُ جِرَائِرُهُ <sup>(١)</sup>
وَإِذْكَرُ هُنَاكَ بَعِيدَ الدَّارِ غَرْبُهُ	غَرَبٌ فَمَا غَائِبٌ مِنْ أَنْتِ ذَاكِرُهُ
أَهْدِي السَّلَامَ بِلَا حَدٍّ وَلَا أَمِيدٍ	إِلَى مَحَلِّ رَسُولِ اللَّهِ عَامِرُهُ

وهو يصف الرسول بأنه أعظم النبيين قدرا ، ونوره يزيد حسنا على نور الأعمار حين تكون  
بدورا كاملة ، وهو أفضل الخلق عامة من عرب ومن عجم ، ومآثره أضعااف الرمل إحصاء  
وعدا ، وإنه لروض زاه من الحلم يروق منظره ، وبحر عذب من العلم يفيض زاخره . ويتجه  
إلى بعض من أسعدته الظروف بالرحلة إلى زيارته ، فيطلب إليه أن يصف له صبابته بزيارته  
وغرامه ، وكيف حاول الاقتراب منه وأبعدته ذنوبه ، ويقول له اذكر حال بعيد الدار عاجز  
عن الوصول إليه . وإنه ليهدى السلام إلى يثرب بلا حد ولا غاية ولا نهاية . ويتخيل نفسه  
وقد اكتحلت عيناه بطيبة وترابها ، فينشد مبتهجا :

وَلَمَّا بَدَتْ أَعْلَامُ طَيِّبَةَ قَصْرَتُ	مِنَ الشُّوقِ مَا قَدِ طَوَّلْتَهُ السَّبَابِ <sup>(٢)</sup>
وَقَفْنَا وَسَلَّمْنَا وَفَاضَتْ دَمْرَعُنَا	وَحْنَتْ إِلَى ذَاكَ الْجَنَابِ الرِّكَائِبُ
نَزَلْنَا وَقَبَلْنَا مِنَ الشُّوقِ تَرْبَهَا	وَطَابَتْ بِذَاكَ التُّرْبِ مَنَا التُّرَائِبِ <sup>(٣)</sup>
فَللَّعِينِ مِنْ تَلِكِ الْمَعَاهِدِ نَزْهَةٌ	وَلِلْقَلْبِ فِي تَلِكِ الرَّسُومِ مَآرِبُ
حَوَتْ سَيِّدَ الرُّسُلِ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ	لَهُ فِي مَقَامِ الْقُرْبِ تَقْضَى الْمَطَالِبُ
تَرْقَى إِلَى السَّيِّعِ الطَّبِيقِ وَمَا بَدَا	لَهُ فِي تَرْقِيهِ مِنَ الْحُجْسِبِ حَاجِبُ

(٣) الترائب : عظام الصدر .

(١) مغرم ذنف : أشقى على الهلاك . جرائره : ذنوبه .

(٢) السباسب جمع سبب : المفازة والقلاة .



لقد أشرقت شمسُ النهار بنوره      وبدرُ الدُّجَى لما بدا والكواكبُ  
أعللُ قلبي بالوصولِ لقبره      وإنْ غبتُ ما قلبي - وحقك - غائبُ  
وإني أناديه وإن كنتُ نازحاً      نداءً غريبٍ غرَّبتَه المنارُ  
والعطار يقول إنه حين بدت علامات طيبة أى المدينة قصرت خطا الشوق التي كانت قد  
طوّلتها مفازات الطريق في إفريقيا وجزيرة العرب ، وما أعظم فرحته - كما يقول - فقد وقفوا  
وسلموا على ربوع طيبة أو ربوع الحبيب ، وحننت معهم الركائب لهذه المنازل . ويقول إنهم  
نزلوا وقبلوا تراب طيبة العطر وطابت به صدورهم وأفئدتهم ، ونعمت العيون بمشاهد تلك  
المعاهد ونعمت القلوب ، إذ حوت تلك المعاهد سيد الرسل الذي تجاب عنده المطالب ، والذي  
صعد به جبريل إلى السموات السبع طبقة بعد طبقة ورُفعت من دونه الحجب . وإنه لنور  
خالص ، نور أزل ، ومن نوره تستمد الشمس والقمر والكواكب . وكأنما يفيق العطار من  
حلمه ، فيرى نفسه لا يزال في مدينة الجزائر لم يبرحها ، ويقول إنه يعنى نفسه بزيارة الرسول ،  
وإن غبت عنه فإن قلبي ليس غائباً ، وإني أناديه ، وسأظل أناديه نداءً غريب ظامئاً أشد الظمأ  
لرؤية قبره العطر الشريف .

## الفصل السادس

### النشر وكتابه

١

#### الخطب والوصايا

طبيعي أن تكثر الخطب والوصايا مع الدولة الرسمية منذ تأسيسها سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م إلى انتهاء مدة حكمها سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م إذ كانت دولة إياضية ، وكان أئمتها لا يزالون يدعون رعيتهم في محيطها بتاهرت وخارج محيطها إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية ، وقد يطلبون إليهم في بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولاتهم ، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ( ١٧١ - ٢١١ هـ ) حين ولي على تاهرت في غيبته عنها السمع بن أبي الخطاب نائبا عنه ، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها وخطبهم قائلا<sup>(١)</sup> :

« قد علمتم - معشر المسلمين - أن السمع وزيرى وأخص الناس بى وأحبهم إلى وأنصحهم لدولتى وأنى لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسى ، تميمما لرغبتكم ، وها أنذا قد وليته عليكم فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا » .

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع ولا لألوان البديع ، وهو بلغة جزلة مقبولة كلغة الخطب في الصدر الإسلامى الأول . وعلى شاكلة هذه الخطبة كانت الوصايا في أيام هذه الدولة كوصية عبدالله اللواتى وزير أفلح بن عبد الوهاب ( ٢١١ - ٢٤٠ هـ ) وهى تطرد على هذه الصورة<sup>(٢)</sup> :

« إبنى موصيكم إخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والإعلان ، وباتباع آثار أهل دعوة المسلمين ، فإن الاتباع أولى من الابتداع وعليكم بالائتمار لما أمر الله به من طاعته ، والانتهاى عما نهى عنه من معصيته ، فافتنوا آثار المسلمين فإن الله أوعد بالنار من خالفهم ، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، إذ قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

(١) انظر المغرب العربى : تاريخه وثقافته للأستاذ راجح بونارص ٥٥ .  
(٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر ص ١٨١ .

ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُؤَلِّه ما تَوَلَّى وَنُصِّلَهُ جَهَنَّمَ وساءت مصيراً ﴿١﴾ . فاتقوا الله إخواني واحذروا مخالفة آثار أئمتكم في القليل والجليل .. وعليكم بالحدز من الانهماك في الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال : أمنهمكون أتم فيها ( أى الدنيا ) بعد ماجتكم بها ( أى الرسالة ) بيضاء نقية حنيفة سمحة سهلة .

وهو يوصى بالتقوى واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية ، فإن الاتباع كما يقول أولى من الابتداع ، ولغته رصينة قوية ، يحتج بالقرآن والحديث النبوى ملوحاً بهما من بعيد على صحة معتقده . ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب ( ٢٤١ - ٢٨١ هـ ) وجَّهها إلى جميع رعاياه فى تاهرت وجبل نفوسة ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« إن أفضل ما تتواصى به العباد ويتحاضون عليه تقوى الله ولزوم طاعته ، والزجر عن معصيته ، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهمى للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار وتغير فيه الألوان ، ويشيب فيه الولدان ، و﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكَّارى وما هم بسُكَّارى ولكن عذاب الله شديد﴾ . واعلموا - رحكم الله - أن أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقضوا وقت الخلوف منهم ، فرحم الله امرءاً مسلماً احتسب نفسه ، وأرصدها لله فى طلب العلم والنقض على من ضادَّ الله وعدل عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وضادَّ المحققين من عباده ، حتى تكون كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى العليا والباطل زهوقاً . وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فافتقوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ، واحذرو الزيف عن طريقهم والميل عن مناهجم . »

وواضح أن الإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح يدعو فى عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية أن يرصدوا انفسهم ويحتسبوا للدفاع عنها ، ضد خصومها الذين عدلوا فى رأيه عن منهاج رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم ، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من مبادئ آمنوا بها مخالفين الجماعة . ولابنه أبى حاتم يوسف ( ٢٨١ - ٢٩٤ هـ ) عظة بديعة كان يخطب بها الخوارج الإباضية فى عهده أيام الجمعة وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« الحمد لله الذي ابتداء الخلق بنعمائه ، وتعمدهم جميعا بحسن بلائه ، لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ فقدرها أحسن تقدير ، واخترعها من غير نظير ، لم يرفعها بأعمدة تُدركُ بالمعينة ، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعونة ، وزينها للناظرين ، وجعل فيها رجوما للشياطين ( فتبارك الله أحسنُ المخالفين ) جعل القرآن إماما للمتقين ، وهدى للمؤمنين ، وملجأ للمتنازعين ، وحكما بين المتخالفين ، ودعا أوليائه المؤمنين إلى اتباع تنزيله ، وأمرهم عند التنازع في تأويله بالرجوع إلى قول رسوله ، فقال الله عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث في كتابة النثر الأدبي ، فقد بدأ بسيطا عند الإمام أبي اليقظان محمد بن أفلح ، واتسع هذا الرقى عند ابنه الإمام أبي حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب ، بل أيضا من حيث ما يشيع فيها من السجع ومن التوازن في العبارات والمقابلات الدقيقة . وتمضى بجاية وشرقى الجزائر في عصر الحماديين والموحدين ثم الحفصيين بالعناية في الخطابة والعظات ، وتتردد في الكتب أسماء خطباء في الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة ولكن الكتب لا تحتفظ حتى بشظايا من خطبهم ، سوى أن يقال مثلا إن فلانا ولي خطابة الجامع الأعظم ببجاية أو جامع القصبة بها أو جامع الموحدين وكان فصيح القلم واللسان . ويكتفون بذلك دون أن يذكروا شيئا من خطبه الفصيحة أو البليغة ، أو يقولون مثلا إن أبا تمام الواعظ الوهراني سكن ببجاية واشتغل فيها بالتذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى ، ولا تذكر لنا كلمة من مواعظه . ويمكن أن نجد صوراً من العظات في نثر الأذكار والأوراد التي كان يرددتها المتصوفة عقب الصلوات ، ونقتطف كلمات مما كان يردده علي بن أحمد الحرالي عقب صلاة الصبح إذ كان يجلس في مصلاه متربعا ويردد بعض أقوال له منها<sup>(١)</sup> :

« سبحان من سبقت رحمته غضبه ، سبحان من لا منجى ولا ملجأ إلا إليه ، يا مثبت القلوب ثبت قلبي . العقل أصل ديني ، الحب أساسي ، ذكر الله أسمى ، الثقة كنزى ، العلم سراجى ، الصبر ردائى ، الرضا غنيمتى ، الزهد حرفتى ، اليقين قوتى ، الطاعة حسبى ، الجهاد خلقى ، قرءة عيني في الصلاة » .

والمئات بل الآلاف من مواعظ الخطباء والأوراد والأذكار كانت تفرغ أسماع الناس كل يوم في بجاية وقسنطينة وغيرهما من بلاد الجزائر . وكان النساك وأهل الصلاح يكتبون أحيانا

(١) عنوان الدراية ص ١٥٢ .



وصية لربهم أن يرعى ذريتهم وأهلهم وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، من ذلك وصية رواها صاحب عنوان الدراية لابن نعيم الحَضْرَمِيّ المتوفى بقسنطينة سنة ٦٣٦ وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

« هذا ما أودع العبد الله الذى خلق الأشياء ، ورزق الأحياء ، وملك العالمين ، وحفظ السموات والأرضين ، أودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أخيه وجميع ما خوَّطهم من نعمه ظاهراً وباطناً ، وصير ذلك إلى أمانته ، وأسلمه إلى رعايته ، واستحفظه فى ذلك كله ، وتبرأ إليه من حوله وقوته ، ولم يرج سوى فضله وطوّله (أفضاله) هو الحفيظ الذى لا يهمل ، الوكيل الذى لا يغفل ، الجواد الذى لا يبخل ، الأول الذى ينعم ويتطول ، والأخير الذى لا يزال ولا يتحول » .

وألفاظ الوصية مثل ألفاظ الحرالى ألفاظ منتخبة مصفاة ، وقد يجيء فيها السجع عفوا دون قصد ، وهى تدل على أن النثر كان قد أخذ يتطور ، وأخذ أصحابه يعنون بالملاءمة بين اللفظة واللفظة إرضاء للسمع وإمتاعا للسامع بما يسمع أو يقرأ من الكلم .

وإذا تركنا بجاية والقسم الشرقى من الجزائر إلى قسمها الغربى وتلمسان خاصة رأينا صاحب بغية الرواد يسوق فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بجزئها الأول طائفة من مشاهير خطبائها ووعاظها مثل أبى عبدالله محمد بن أحمد الحجام المار ذكره بين شعراء المتصوفة والمتوفى سنة ٦١٤ ويسميه يحيى بن خلدون فى البغية : واعظ أهل زمانه ، ويذكر له - كما مر بنا - كتابا فى الوعظ اسمه « حجة الحافظين ومحجة الواعظين » . ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكُرهم صاحب بغية الرواد عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى المترجم لأبيه بين شعراء الصوفية ، وكان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه ، وكان يعاصره أبو محمد عبد الله المجاصى المتوفى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م وكان كثير البكاء فى وعظه حتى اشتهر بذلك ، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه ، وكانت له مواعظ قيمة . ومن الوعاظ بعده سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م خطيب الجامع الأعظم بتلمسان . ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأن منهم من كانت تقشعر من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة وكأنه يرى الجحيم تحت بصره ، ومنهم من كان يبكى سامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره . ومع ذلك لم تحتفظ العصور السالفة بشظايا - ولو قليلة - من خطبهم ومواعظهم .

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم ولا من شيوخ تلمسان

(١) عنوان الدراية ص ٣٣٢ .

لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حمو موسى الثاني ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) ابنه أبا تاشفين وسمّاها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وقد جعلها فى أربعة أبواب بين يديها مقدمة عن السياسة العملية ، والباب الأول نصائح فيما ينبغى على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش ، والباب الثانى خاص بقواعد الملك أو الحكم وأركانه ، وهى العقل والعدل وحسن السياسة والعناية بالمال والجيش ، والباب الثالث خاص بالصفات التى تزين الملك والحكم ، وهى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ، ويصرّح فى خاتمة الكتاب بأنه وضع لابنه أبى تاشفين ليتبع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه ومملكه ، ونقتطف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة<sup>(١)</sup> فى الحروب .

« يا بُنَيَّ إذا كان الملك شجاعا ، كان منصورا مطاعا ، ترهبه الأعداء ، وتطمئن إليه الأولياء ، يعتد به جيشه فى مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب . وإذا اقتحمت القتال ، واختلطت الأبطال بالأبطال ، فغائتك أن تكون حاكما على نفسك ، صابرا ثابتا فى جأشك<sup>(٢)</sup> ، ناظرا إلى ساقتك التى هى قلب جيشك ، فلتلزم بها الثبات ، ولا تترحزح إلى جهة من الجهات ، ولتشدّ بثباتك الأنجاد<sup>(٣)</sup> والحماة ، والمقاتلين الكُماة<sup>(٤)</sup> ، وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به ، ولا تنتقل بسببه ، فإن انكسر الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر فى مثل هذا عائد عليك بما يسر ، لأنه إذا كانت رايات القلب تخفق وطبوله تزأر كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للعسكر من الحين<sup>(٥)</sup> ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين » .

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت فى قلب جيشه ، وإذا رأى فى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر ، حتى لا يتشوش الموقف ويُظنّ أنه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة ويكتب للجيش النصر . ويوصى ابنه ان تظل رايات الجيش فى قلبه تخفق وطبوله تزأر ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة . ويستمر أبو حمو موضعا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأى الشديد ، أما بدونه فتكون مذمومة بل قد تصبح تهورا يؤدى إلى الهلك وإلى زوال الملك . ولا يلفتنا فى هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولفظ منتخب رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعاً محكما ، وهى شهادة قوية بأن النثر الأدبى رقى بالجزائر فى القرن الثامن الهجرى ، بحيث أصبح الكاتب يفكر فى جرس كلامه الذى يخلب به سامعه ،

(١) انظر قاعدة الشجاعة من الباب الثالث من كتاب واسطة السلوك .  
(٢) حاشك : قلبك .  
(٣) الأنجاد جمع نجد : الشجاع .  
(٤) الكُماة جمع كمي : المقدام المسلح .  
(٥) الحين : الهلاك .

وأيضاً ليس ذلك فحسب ، فإن الكاتب يلائم بين الكلمات فى السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفيقتها التى يحسن أن تصاحبها والتى تؤلف معها لونا من التجانس أو الجناس ، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه .

وإذا مضينا إلى العهد العثمانى سمعنا - كما سمعنا فى الحقب السابقة له - عن خطباء كانوا بارعين فى الوعظ ، وكان الناس يجتمعون لهم فى خطبة الجمعة وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر ، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ ، وقد أشاد الكاتب محمد بن ميمون فى القرن الحادى عشر الهجرى بخطابة الشيخ مصطفى بن عبد الله البونى قائلا : « له فى الخطب الساعد المشد ، والإلقاء الذى تميل إليه الهوادى ( الأعناق ) وتمتد ، والسكينة ( الوقار ) التى تجذب إليها الأبصار فلا ترتد ، ولم أر منذ عقلتُ بسنى ، وعلقت خطابته بذهنى ، أحق منه فى طريقة الوعظ والخطابة والإمامه ، ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامى لا جرم أنه استحوذ عليها ، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبابها .. وكذلك هو فى وعظه آية من آيات فاطره ، زعم من رآه أنه لم يسمع من حضرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه ، ولا من يدانيه إلا واحد من الأفاضل لم يكن بمماثل »<sup>(١)</sup> . وهذا الخطيب الممتاز الذى ليس له نظير فى وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى : مكة لم يؤثر عنه شيء من خطابته ، فما بالناب من لا يبلغون مبلغه من روعة الخطابة . ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضاعوا تراثا مهما من مواظب أدبية لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرخ للأدب الجزائرى تاريخا أكثر دقة .

## ٢

### الرسائل الديوانية

طبيعى أن لا توجد الرسائل الديوانية فى أمة إلا إذا وجدت فيها دولة ، واتخذت لها كتابا يكتبون عنها الرسائل الديوانية ، وكان قيام الدولة الرسمية فى تاهرت مبشرا بأن تصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة ، وقد توجد الدولة وتوجد الرسائل الديوانية ولا يوجد من يهتم بتسجيلها ، غير أننا نجد رسائل الدولة الرسمية تدون ويتناقلها كتاب متأخرون مثل الشماخى فى السير والبارونى فى الأزهار الرياضية ، فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب ( ١٧١ - ٢١١ هـ ) كتب بها إلى أهل طرابلس وكانوا يوالونه ، وكان واليه السمع بن أبى الخطاب توفى ، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه ، فكتب إليهم الرسالة التالية<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد فإنى آمركم بتقوى الله ، والاتباع لما أمركم به ، والانتهاى عما نهاكم عنه ، وقد

(١) تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور سعد الله ٢١٣/٢ . (٢) السير للشماخى (طبع قسنطينة بالجزائر) ص ١٨٠ .



بلغنى ما كتبتم إلى به من وفاة السمع واستخلاف بعض الناس « خلفا » له ورد أهل الخير ذلك ، فإن من ولى « خلفا » من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ، ومن أبى توليته فقد أصاب ، فإذا اتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمع على عماله التى ولى عليها إلا خلف بن السمع ، فحتى يأتيه أمرى ، وتوبوا إلى بارئكم ، وراجعوا التوبة ، لعلمكم تفلحون . »

والرسالة مع إيجازها تؤدي الغاية المطلوبة منها ، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين ويسميهم المسلمين ، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمع بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعرفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال ، ويطلب إليهم التوبة مما وقعوا فيه من إثم . وكان عهد ابنه أفلح طويلا ( ٢١١ - ٢٤٠ هـ ) ، وخرج عليه بعض الثوار ، منهم نفاث بن نصر من جبل نفوسة إذ كان يطعن فى إمامته ويكثر من نقده ، فتبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة التالية ، وهى طويلة ، ولذلك سنختصرها شيئا من الاختصار ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« أما بعد فالحمد لله المنعم علينا ، المحسن إلينا ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يهتدى مهتدا إلا بعونه وتوفيقه ، فله المنة علينا ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه ، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين ، وأئمتنا المهتدين .. قد كتبت إليك غير كتاب ، أنصح لك فيه ، وأدعوك إلى رشدك ، وفى كل ذلك لا يبلغنى من عمالنا فيك إلا ما أكره ، ولا أرضاء لك فى دين ولا دنيا ، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عمالنا ، أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين . وابتدع غير طريقتهم ، وسار بغير سيرتهم .. فكتبت إلى كتابا كأنك تسخط ذلك . أترى أتى أوأزر من ابتدع فى ديننا ؟ ما كنت بالذى يفعل ذلك ، ولا أوأزر من يسعى فى خلافنا ما كنا على الهدى . ثم قلت إنا أمرنا فى كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ( منك ) ومقصى من جماعتنا ، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع فى ديننا خلاف أسلافنا .. فهو محقوق بالبراءة ( منه ) ومقصى من جماعة المسلمين ، فإن تكن أنت منهم فأنت الذى أبحث لنا البراءة منك ، وأحللت بنفسك ما لا بد أن نفعله بك وبغيرك ، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء منه ، وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التى تستحقها وتستوجبها ... وإنى غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نخبه ، فننزلك من أنفسنا بحيث تحب ، والله المستعان . »

وأفلق متمكن من لغته بأروع مما تمكن أبوه عبد الوهاب ، إذ هى فى يده سلسلة القيادة ،

(١) الأزهار الرياضية ٢ / ١٩٥ .



وهو يصرفها كما يشاء ، ويجعل الله هو الذى اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفاث عليه خروج نفاث على طاعة الله وعصيانا لمشيئته وإرادته . وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية ، مما يدل على حنكته السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والتقريب مفتوحا على مصاريعه حتى يدخل إليه نفاث منه راضيا إذ ينزل منه بحيث الود والحب . ولأفصح رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام ، وأكرمنا بمحمد عليه السلام ، وأبقانا بعد تناسخ الأمم ، حتى أخرجنا فى الأمة المكرمة التى جعلها الله أمة وسطا شاهدة لنبينا بالتبليغ ، ومصدقة لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام منا من الله ورحمته ، وأرسل إلينا نبيه محمدا ﷺ بالهدى ، ووعدنا بالنصر على الأعداء ، وضمن له الفلاح والغلبة ، ووعدنا بالعصمة ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رَسُولَ اللَّهِ وَعَصَمَكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فأدى - عليه السلام - ما أمره الله به ، ونصح لأمة ، ودعا إلى سبيل ربه ، وجاهد عدوه ، وغلظ على الكفار ، ولان للمؤمنين ، فكان لهم - كما وصفه الله - رءوفا رحيمًا ، حتى انقضت مدته ، وفيت أيامه ، واختار له ربه ما عنده ، فقبضه محمود السعى مشكور العمل ﷺ ، فلم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها ، وأمر باجتنابها ، رحمة من الله بعباده ، فله الحمد على ذلك كثيرا . ثم أمر تعالى بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه ، والأخذ بأمره ، والانتهاى عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ، والقيام مع المظلوم ، والقمع للظالمين ، لكى لا تقوم للشيطان دعوة ، ولا تثبت لأهل حزبه قدم ، ولا ينفذ لهم حكم ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عماد الدين وإعزازه ، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة له تعالى . فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه ، وتقرّبوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته ، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب . »

وأفصح يقول فى عظته إن الرسول ﷺ بلغ الرسالة كما أمره ربه على خير وجه فبين لأمة الأوامر والنواهي الإلهية وجاهد الكفار ، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمة وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمع الظالمين . ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته ، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب .

وقضى أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدي على الدولة الرستمية سنة ٢٦٠ هـ / ٨٦٨ م ولم

(١) الأزهار الرياضية ٢ / ٢١٤ .

تقم في الجزائر دولة حتى إذا أصبحنا في أواخر القرن الرابع الهجري وتولى حماد بن بلكين شأن المغرب الأوسط عمل على الاستقلال وأسس دولة بني حماد في قلعة بجاية (٤٠٦-٥٤٧) وظلت يرثها الأبناء عن الآباء نحو قرن ونصف ، وكان آخر حكامها يحيى بن العزيز (٥١٨-٥٤٧هـ) ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وبلادها وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته . وكانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شئون الدولة ، وكان لها ديوان إنشاء نبع فيه بعض الكتاب ، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بابن دفرير ، ذكره صاحب الخريدة ، وقال عنه : أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية ، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادي وقد فر من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد فيها ببعض أمراء العرب القريين من دولته ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسر ، رضا وتسليما للقدر ، وتعويلا على جزائه الذي يجزي به من شكر ، ونصلي على النبي محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لاخ نجم بسحر ، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبج آثار من خان في دولتنا وضيع ، استفز أهل مولاتنا الشنان<sup>(٢)</sup> ، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران<sup>(٣)</sup> ، فأتوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا يصرون ، فكنا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ، ويفر من صيل<sup>(٤)</sup> خبيث إلى حية صماء ، حتى بُنيت مكرهم ، وأعجل عن التلافي أمرهم ، ورد وبال أمرهم إليهم . فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة ، وملنا إلى مظنة الأمانة ، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ، ونستفر من كنا نراه للمهم عدة ، وأنتم في هذا الأمر أول من يلهم الخاطر ، وتثنى عليه الخناصر . »

وابن دفرير في رسالته لا يهمل الأسجاع لا قليلا ولا كثيرا ، إذ يوفر لها ما يستطيع من السجع وجرس الكلام لا بين عبارة وتاليتها فحسب ، بل بين عبارة وتواليها من العبارات ، حتى يلذ الأسماع حين تصغى إليه والألسنة حين تنطق به ، مع العناية باصطفاء الألفاظ والملاءمة بين الكلمات . وذكر العماد في الخريدة من كتاب هذه الدولة الحمادية أبا القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بالقلمى الذي اتخذه عبد المؤمن سنة ٥٤٧ كاتبا له ، وظل يكتب له ولابنه يوسف من بعده إلى أن توفى وسنخسه بترجمة ، وكان يخدمه في عمله الكتابي عند الموحدين بجائى مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفى كتب مكانه لسلطان الموحدين يوسف ثم لابنه يعقوب حتى وفاته ، وسنفر له ترجمة ، وكان يعاصرهما ابن محرز الوهراني ، وسنفر

(١) الخريدة للعماد الأصبهاني (نشر الدار التونسية) (٣) الكفران : الجحود وإنكار المعروف

١٧٩ / ١

(٤) صل : أفعى .

(٢) الشنان : الحقد والضغينة .

له أيضا ترجمة . وظل بعض الولاة فى بجاية يهتمون باتخاذ بعض الكتاب المجيدين ، ويذكر من بينهم صاحب عنوان الدراية محمد الوغليسى فى القرن السابع ، ويقول : عليه كان المعتمد فى وقته فى المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا<sup>(١)</sup> .

وإذا تركنا بجاية إلى تلمسان وجدنا بنى عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية بزعامة يَغْمُرَّاسن منذ سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف ، ويمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين واتخذ أدبيا من أبرع الأدباء الأندلسيين كاتباً له هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقى من أهل مرسية ، كتب قبله لأمرأ غرناطة ونزل تلمسان فاتخذه كاتباً<sup>(٢)</sup> له ، غير أنه توفى سريعاً سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ولم يعن المؤرخون بذكر كتابه بعده إلا ما أشار إليه يحيى بن خلدون من أن الشاعر الكبير ابن خميس التلمسانى المترجم له بين شعراء المديح كان يكتب له ، وظل - كما يبدو - يكتب لابنه عثمان الأول ( ٦٨١ - ٧٠٣ هـ ) ونراه يترك تلمسان وعمله الكتابى بها فجأة سنة ٧٠٢ ويولى وجهه نحو سبتة ثم الأندلس ويتوفى فجأة . ومن أهم من خلفوه فى عمله الكتابى بتلمسان أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية المتوفى بأواسط<sup>(٣)</sup> سنة ٧٣٥ . وينزل مصر أديب تلمسانى هو ابن أبى حجلة المتوفى بها سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وفى كتابنا عن مصر دراسة عنه وتحليل لكتابه « ديوان الصبابة » . ويذكر صاحب بغية الرواد أن أباحمو موسى الثانى ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) اختار لكتابة العلامة المميزة لرسائل دولته أبا عبد الله محمد بن<sup>(٤)</sup> محمد بن المشوش ، وغالبا كانت تسند إلى صاحبها رياسة الدواوين . ونحن إنما نقف فى كتاب الدولة الزيانية على أسماء ، ولا نقف على كتاباتهم بحيث نستطيع أن نصفها وصفا دقيقا . وإذا كنا لاحظنا على كتاب بجاية فى عصر الدولة الحمادية شيوع السجع فى كتاباتهم فإن ذلك سيستمر عند أبى القاسم القالى والوهرانى وابن محشرة ، وقد لاحظناه عند أبى حمو موسى فى وصيته الطويلة لابنه ، وحتى المؤرخون من أمثال محمد بن عبد الله التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ويحيى بن خلدون لا يخلون كتابتهم التاريخية من السجع أحيانا وخاصة فى تقديمهم للأمرأ الزيانيين فإنهم يعنون فيه بجمال الجرس والملاءمة بين نهايات العبارات بحيث تزدان بالسجع حلية الأدب فى زمنهم .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأن الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية فى رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا فى عهود باشوات أو ولاة معدودين هم : محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد فى قسنطينة ،

(١) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .

(٢) بغية الرواد / ١ / ١١٦ والبستان ص ٢٢٥ .

(٣) بغية الرواد / ١ / ١٢٩ والإحاطة / ٢ / ٢٧٥ .

(٤) بغية الرواد / ١ / ١٢٣ .



فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذقون العربية . أما من عداهم فظل يتخذ التركية فى المعاملات الرسمية ، وبدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية التى كانت تلتف حولها طبقة من الكتاب الممتازين المتنافسين ، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه فى براعته الأدبية ، أما فى هذا العهد فلا تنافس ، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا . ومن رسالة لكاتب يسمى محمداً القالى قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« جَلَّ اللهُ تعالى مالك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أَرَادَهُ من إعزاز السادات الترك ، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الخنيف ، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف ، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف ، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار ، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد ، وأحمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد ، فسُلكت بهم السُّبُل وأمنت بهم البلاد ، لطفاً منه سبحانه بهذه الأقطار ، نسأل الله أن يبقى جنابهم السعيد عالياً على كل جناب ، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار .. وبعد فإن الله تعالى مَنْ عَلَى المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر ، المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر ، الإمام العادل ، السلطان الفاضل ، العالم العامل ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، الذى أطلعه الله فى سماء الجلالة بدرا ، ورفع له فى درجات الأمراء قدرا ، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلاً وذكر ، فأصبح الدين مبتهجاً بكريم دولته ، وجناب الكفر مهتضماً بعظيم صولته . »

وواضح ما يجرى فى الرسالة من التكلف الشديد ، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله : « وهم أصل للرفعة والتشريف . » ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجعة : « للعباد » واستعصت عليه سجعة الرء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيرادها بقوله : « الأقطار » . وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له المبالغة مع كثرة الأدعية . وكل ذلك تكلف وتمحل فى الرسالة ، وكأنما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة .

### الرسائل الشخصية

يبدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مبكر بتسجيل الرسائل الشخصية ، ولولا أن الإباضية

(١) تاريخ الجزائر الثنائى ٢ / ١٩٦ .

اهتموا بتدوين الرسائل الديوانية لحكام الدولة الرستمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة أبي علي ابن الريب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي الذي ترجم له ابن رشيقي في كتابه : « الأنموذج » وقال إنه تولى القضاء طويلا في بلدته تاهرت وإنه توفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٣٠ م ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها ، وإنما ذكرها ابن بسام في كتابه الذخيرة ، إذ قال في ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم : كتب إليه أبو علي بن الريب رقعة يقول فيها<sup>(١)</sup> :

« إني فكّرتُ في بلدكم أهلَ الأندلس ، إذ كان قرارة كل فضل ، ومقصد كل طرفة ، ومورد كل تحفة ، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تجلبُ ، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق<sup>(٢)</sup> ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ، ورفعهم من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب ، يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجع عندكم بذلك الجبان ، وأقدم الهيبان<sup>(٣)</sup> ، ونبه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العيى ، وشعر البكى .. وتنافس الناس في العلوم ، ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أعيانهم ، وقلدوا الكتب مآثر أقطارهم وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين ، و ( لسان<sup>(٤)</sup> صديق في الآخرين ) . وعلمائكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنّف ، أن يعنّف ، أو ( تخطفه<sup>(٥)</sup> الطيرُ أو تهوى به الرّيحُ في مكانٍ سحيق ) لم يتعب أحد منهم نفسا في [ جمع ] مفاخر [ أهل ] بلده ولم يستعمل نقسا ( مدادا ) في فضائل ملوكه ، ولا بلّ قلما بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضائه وعلمائه . على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساعا ، ولم تضيق عليه المسالك هنالك .

ولكن هم كل أحد منهم أن يطلب شأوا<sup>(٦)</sup> من تقدّمه من رؤساء العلماء ، ليحوز قصب السبق ، ويفوز بقده<sup>(٧)</sup> ابن مقبل ، ويأخذ بكظم<sup>(٨)</sup> دغفل ، ويصير شجى في حلق

(١) الذخيرة ١٣٣/١ .

(٢) تنفق : تروج .

(٣) الهيبان : الهائب الخائف .

(٤) اقتباس من سورة الشعراء .

(٥) اقتباس من سورة الحج .

(٦) شأوا : غاية .

(٧) ابن مقبل شاعر يمثل بقده في الفوز والظفر .

(٨) دغفل : نسابة كبير عند العرب ، يأخذ بكظمه :

يمثله في علم النسب ، وأصل الكلمة : يأخذ بكظمه

الإمساك على ما عند المرء من العلم وغيره .

أبي العميثل<sup>(١)</sup> ، فإذا أدرك بغيته ، واحترمته - بعد - منيته ، دُفن علمه معه ، ومات ذكره ، وانقطع خبره . ومن قَدَّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم ، فألفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدد طول الأبد . فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم ، وألفوا كتباً لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحاً راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث<sup>(٢)</sup> بيلدكم مصدر ، لأسمع بيلدنا من في القبور ، فضلاً عن في الدور والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذي سماه بالعقد<sup>(٣)</sup> . على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة<sup>(٤)</sup> عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ، لكنه أكثر وطول ، وأخطأ المفصل<sup>(٥)</sup> ، وأطال الهز بسيف غير مفصل<sup>(٦)</sup> ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعينهم ، وإغفال ما يهمهم . فأرشيد أخاك - أرشدك الله - إن كان عندك في ذلك الجليّة ، وبيدك فصل القضية ، إن شاء الله .

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام في الصياغة ، حتى ليقترّب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزاجية وكثرة الترادف ، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة ، وإن حدثت سبعة عفواً سرعان ما يعدل ابن الريب عن مثيلة لها إلى التعادل والترادف في العبارات . ونشعر بجانب ذلك أن الصياغة محكمة ، فالألفاظ جزلة مصقولة ، أحكم ترتيبها كما أحكم وضع الاقتباسين القرآنيين فيها ، مع الإطراف في الكنايات والاستعارات ، كعبيره في تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم ، إذ يقول : « كل امرئ منهم قائم في ظله لا يرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح » ويقول عن أهل الكتابة عن الكتاب والوزراء : إنه « لم ييلّ قلماً بمناقبهم » يقصد أنه لم يغمس قلمه في مداد للكتابة عنهم . ويترك الكناية إلى الاستعارة قائلاً : « على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه » . ويستغل ثقافته في التعبير عن الفوز والظفر ، إذ يقول : وليستغل قصب السبق ، ويفوز بقدر ابن مقبل الذي تغنى في شعره بفوزه ، ويأخذ بكظم دغفل كأنما يساويه في قدرته المشهورة بعلم الأنساب ، ويصبح شجى وغصّة في حلق أبي العميثل على نحو ما أصابه أبو تمام بغصّة مريرة حين ردّ عليه ردّاً منحماً . وتلطّف ابن الريب لمخاطبه أبي المغيرة بن حزم الأندلسي حين قال له :

(٤) واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة في وسط العقد .

(٥) المفصل : كل ملتقى عظمين في الجسد ويضرب التعبير مثلاً للخطأ الجسيم .

(٦) المفصل من السيوف : القاطع .

(١) أبو العميثل هو الذي تعرض لأبي تمام يقول له

لماذا لا تقول من الشعر ما يفهم فقال له : وأنت لماذا لا تفهم ما يقال .

(٢) نفث : نفخ .

(٣) هو كتاب العقد الفريد المشهور .



« لو نفت بيلدكم مصدر ( مريض بصدرة ) لأسمع بيلدنا من في القبور فضلا عن في الدور والقصور » . ثم أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم في الرسالة ، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسي ألف كتابا أديبا في مجلدات سماه العقد الفريد ، وهو مطبوع بمصر مرارا في أربع مجلدات كبار ، وفيه يعرض الثقافة الأدبية في المشرق ، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله ببعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسي يحيى الغزال ، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعله صاحب بن عباد حين اطلع عليه يقول : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . وابن الريب محق في اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتاب وشعر وشعراء ، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقى . على أن ابن الريب بالغ ، فإن وراء ابن عبد ربه كثيرين من الأندلسيين عنوا بعرض أخبار ولائهم وحكامهم ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ وفي كتابه تحدث عن تاريخ الأندلس حتى أيام معاصره : عبد الرحمن الأوسط ، ولأحمد بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة كتاب أخبار ملوك الأندلس ، ولابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ كتاب تاريخ افتتاح الأندلس يتحدث فيه من الفتح حتى نهاية أيام الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ وفي أخبار الفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف تلقانا كتب مثل كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى المتوفى سنة ٣٦١ ومن كتب الأطباء والصيدالة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومن كتب اللغويين كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ ومن كتب العلماء الأندلسيين عامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ . فالأندلسيون لم يقصروا في حق ملوكهم وعلمائهم كما تبادر إلى ظن ابن الريب ، وسيكترون بعد زمن ابن الريب من كتابة المجلدات الضخام فيهم وفي الشعراء كما نعرف مثلا عن المقتبس لأبي حيان والذخيرة لابن بسام .

ولا تسجل كتب التراجم والأدب في الحقب التالية رسائل شخصية جزائرية أدبية طريفة من طراز رسالة ابن الريب ، بل تظل مغفلة هذا النوع من الرسائل ، ومن المؤكد أنها أخذت تزدان بالسجع منذ ازدانت به الرسائل الديوانية الحمادية ، وكان مما عمل على ذلك أن الأندلس أخذت تُلقي بطائفة من صفوة كتابها منذ القرن السابع الهجرى إلى بجاية وشقيقاتها من مدن الجزائر ، وكان لبجاية منهم الحظ الأوفر ، فقد نزلها واستوطنها - على الأقل فترة طويلة - غير كاتب منهم ، وقد عرضنا في غير هذا الموضع لمن نزلها من المتصوفة وكيف كان لهم تأثير كبير في أهلها وفي شيوع الشعر الصوفى بينهم واستقرار كثير منه في صدورهم وأفتدتهم . ونلاحظ نفس الملاحظة على من نزلها من كبار الكتاب الأندلسيين واستوطنها إلى آخر حياته أو أقام فيها شطرا كبيرا من حياته ثم رحل عنها إلى تونس ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان

الدراية للغبريني الذي ترجم فيه للعلماء والأدباء بيجاية في القرن السابع وشرط من القرن السادس يحسُّ أن تراجم الكتاب مقسومة بين تراجم بجائية وتراجم أندلسية . وكان البجائيون أخذوا يتأقنون في كتابتهم الأدبية واندماج ذوقهم في الذوق الأندلسي الأنيق وأصبحنا بإزاء كتابة أنيقة عامة في الرسائل الشخصية والديوانية ، وحتى في كتب التراجم كما نجد في صدر كثير من تراجم الغبريني في كتابه عنوان الدراية ، وفي التعريف بملوك الدولة الزيانية عند يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسي .

فإذا قلنا إن الرسائل الشخصية أخذت تطبع في الجزائر - منذ القرن السادس الهجري - بطوابع السجع ، بل لقد كانت تضيف إلى ذلك حُلَى من المحسنات البديعية لم تكن مبالغين . ونمضى إلى العهد العثماني وتظل للرسائل الشخصية هذه السمات مع ما يداخلها من التكلف ، وكان أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب راسل عبد الكريم الفكون شيخ الإسلام بقسنطينة ، وظل حكام الجزائر العثمانيون يعينونه أميراً للحج عن بلده والجزائر عامة ، وكان المقرئ أرسل إليه بمنظومة في علم الكلام يتمنى أن يتلطف بصنع شرح لها ، فردَّ عليه برسالة أثبتتها المقرئ في نفع الطيب قائلاً في دياجتها إنها كتاب وافاه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وفقهها ، سلالة العلماء والأكابر ، وارث المجد كابرًا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله . وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون<sup>(١)</sup> :

« إني أحمد الله إليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فإني أحوجُّ الناس إليه ، وأشدهم في ظني إلحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسى الأمارة ، واستبطنت من دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرارة ، كأنما عميت عن الأهوال التي أشابت رءوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمل الرجال ، فتراها في لُجج هواها خائضة ، وفي ميدان شهواتها راکضة ، طغت في غيها وما لانت ، وجمحت فما انقادت ولا استقامت ... والله أسأل حُسنَ الألفاظ ، والسُترَ عما ارتكبناه من التعدي والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم ، ومن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم : سندا سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم .. وقد اتصل بيدي جوابكم ، أطال الله في العلم بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألقاظكم وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجنو<sup>(٢)</sup> لسماعه سُوطها ومأمولها .. وقد ذيلتموه بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها ، على أتي غير قائم بفرضها ونفلها ، فالله تعالى يمدكم بمعونه ، ويجعلكم من أهل مناجاته بحضرتة .. وظننا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى : « إضاءة الدجنة » تقييدا

(١) نفع الطيب ٢٣٨/٣ وانظر تعريف الخلف (٢) الجنو : الجلوس على الركبتين .



أرجو من الله فيه توفيقاً وتسديداً بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر  
لا على عظيم فكركم .. »

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت فى سابع أو ثامن رجب من  
عام ١٠٣٨ للهجرة . وواضح ما يجرى فى الرسالة من سجع متكلف وأنها تقوم على المبالغة  
المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف فى الشهوات والآثام ، لا لأن ذلك حقيقة  
ولكن لأنه يريد صنع سجعيات ، ويقول إن نفسه عميت عن الأهوال التى أشابت رءوس  
الأطفال وقطعت أعناق كُمل الرجال ، والمبالغات فى الرسالة أكثر من أن نخصيها أو نقف  
عندها ، وقد اجْتُلبت من أجل السجعيات ورفضها .

ودائماً نلتقى فى رسائل العهد العثماني بمثل هذه المبالغات حتى فى رسائل التعزية ، على  
نحو ما نجد فى تعزية للمفتى محمد بن حسين عزى بها عبد الرزاق بن حمادوش فى ابن له  
توفاه الله ، فكتب إليه<sup>(١)</sup> :

« بلغنا ما أحر الأذهان وأشجاها<sup>(٢)</sup> ، وأطار النوم من الأجفان وأبلاها ، وأضرم لواعج  
الأشواق ، وأذكى<sup>(٣)</sup> زواعج الاحتراق ، بالذى صدَّع أعشار<sup>(٤)</sup> القلوب ، وأفاض على صحن  
الخدِّ الدموع من الغروب<sup>(٥)</sup> .. حتى أدركتني محتك وموت ولدك فأخذتني الصدمة ، وهيجت  
لى المحنة ، فلقد رمانا الدهر بسهام صروفه فأصمانا<sup>(٦)</sup> ، وتعهدنا خطبه فهدَّ عروشنا وأركاننا .

والرسالة مبنية على المبالغة الشديدة فقد بلغه ما أشجاه وأغصَّه ، وأطار النوم من جفونه  
وجعلها بالية خلقة ، وهى مبالغة شديدة أتبعها بلواعج الأشواق ، ومكانها فى التعزية قلق وأشد  
منها قلقتا السجعة التالية لها . وقد بلغه ما صدع وشقق قطع قلبه . والمجىء بصحن الخد شديد  
التكلف . ويبدو أنه كان فقد عزيزاً قبل ذلك فتكسر النصل على النصل فى فؤاده ، وأصابته  
سهام الدهر فى الصميم كما أصابت ابن حمادوش ، وقد بالغ مبالغات شتى فى تصوير حزنه .  
ولعله حشدها من أجل السجع .

#### ٤

#### المقامات

يبدو أن الجزائر - مثل بقية البلدان العربية - عرفت المقامات مبكرة ، إذ كانت فناً جديداً  
أعجب به أدباء العرب فى كل مكان وأخذوا يتدارسونه ، وولتقى فى القرن السادس الهجرى

(٤) أعشار : قطع .  
(٥) الغروب : المآقى .  
(٦) فأصمانا : أصابنا فى الصميم .

(١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٢٠٥ .  
(٢) أشجاها : أغصَّها .  
(٣) أذكى : أرقد .

بجزائري يكتب في هذا الفن هو الوهراني المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وسنفر له ترجمة ، ويذكر الغبريني في كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريري للطلاب طوال القرن السابع الهجري مثل عبد الله بن نعيم الحضرمي ويوسف بن يخلف ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعي ، غير أن أدباء الجزائر قبل العهد العثماني لم يحاولوا محاكاة الوهراني في مقاماته ولا محاكاة كتابها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمذاني والحريري . أما في عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البوني ، إذ كتب سنة ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م مقامة<sup>(١)</sup> في أربع صفحات بعنوان: «إعلام الأخيار بغرائب الوقائع والأخبار» وهي في بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر ، ويستهلها بقوله :

« الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب ، والنوائب فضائل لذوى الأقدار والخطوب ، وسلط - سبحانه وتعالى - على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف ... وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرغوا أذهانكم وألقوا آذانكم ، وتأملوا ما يلقي إليكم من الخبر الغريب ، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب ، فقد ارتفعت الأشرار ، واتضعت أرباب المعارف والأسرار ، وانقلبت الأعيان ، وفشا في الناس الزور والبهتان ، وأهملت أحكام الشريعة ، وتصدّى لها كل ذى نفس للشر سريعة . بينما نحن في عيش ظله وريف ، وفي أمننا لذة بقراءة العلم الشريف ، إذ سعى في تشيت أحوالنا وقلوبنا ، وهتك أستارنا وغيوبنا ، من لا يخاف الله ولا يتقيه ، فرمى كل صالح وفقه ، بما هو لاقه ، واعتدّ في ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل ، وهم - والله - أوباش أراذل . وما كفاه بث ذلك في كل ميدان .. حتى أوصله لمسامع السلطان ، فلم تشعر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير ، بعزل صديقنا الشهير .. من خطة الفتوى ، مع أنه ذو علم وتقوى ، وتحيرنا من ذلك أشد التحير ، وتغيرنا بسببه أعظم التغير » .

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية وأقاصيص الأدباء السيارين الذين يجولون في البلاد متفاصحين بأديبهم ، محتالين على الناس حيلة شتى في أخذ دراهمهم ودنانيرهم ، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريري ، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس النمامين لذوى السلطان للوقية بينهم وبين بعض العلماء ، ولا مقامة ، ولا ما يشبه المقامة .

وبعد نحو عشر سنوات أو تزيد قليلا ألف محمد بن ميمون ترجمة لوالى الجزائر محمد بكداش سماها التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية ، وجعلها فى ستة

(١) انظر فى هذه المقامة تاريخ الجزائر الثقافى ٢١٨/٢ .

عشر فصلا ، وسمى كل فصل مقامة تحكى جانباً من سيرة الوالى العثماني محمد بكداش ( ١١١٧-١١٢١ هـ ) والمقامة الأولى أو الفصل الأول فى نبذة من أخلاق محمد بكداش ، ثم تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله . والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات ، أما بعد ذلك فهى ترجمة متكاملة لسيرة وال عثمانى وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعا ، وقديما كتب العتبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م سيرة محمود الغزنوى سجعا فى كتابه عنه الذى سماه اليمينى نسبة إلى لقب محمود الذى لقبه به الخليفة العباسى : يمين الدولة ، ونسج على منواله العماد الأصبهاني فى كتابه : « الفيح القسّى فى الفتح القدسى » وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعا . ولم يقتبس محمد بن ميمون فى كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده ، فقد اقتبس أيضا ألفاظا لغوية وأنواعا بديعية كما قال فى مقدمته .

ويقدم ابن حمادوش الجزائرى المتوفى بأخرة من القرن الثانى عشر الهجرى ثلاث مقامات فى رحلته المنشورة بالجزائر بتحقيق د . أبى القاسم سعد الله ، وأولها تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من غرائب ، يقول<sup>(١)</sup> :

« ومن غريب ما رأيت فى مرج طويل أنى رأيت غرّتين ، كل واحدة فى أفحوصها<sup>(٢)</sup> فوق الماء ، تحضن بيضها ، وشهد أهل الحى كبيرهم وصغيرهم أن الغر وأبا غطاس وطيورا أخرى لا تلد إلا فوق الماء فى الموضع الذى يكون عليه كقطعة حصير من الكلا<sup>(٣)</sup> ، ينون به أفحوصهم ويبيضون ويفرخون ، ولا يمسّ بيضهم الماء ، وإن مسّه الماء فسد ، وهو يئى بناء صحيحا جدا . وأتونا ببيض الغرّ ، معظمه كبيض الدجاج ، ولونه كلون بيض الحجل<sup>(٤)</sup> ، إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل ، وفيه نقط سود . والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء .. ومن غرائب ما رأيت أن فى هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير وبيضه ، ويعدّون ( يجتازون ) عليها من ناحية إلى أخرى ، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره ، وهى من حزم البردى<sup>(٥)</sup> ، يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وسطى ، ويعقدون حزمتين ، يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالا ، ووسطها منخفض ، ويجمعون بينها بالربط من مقدمها ، ويشدّون الكل بالربط بينها . ويركب فيها ، ويمسك الراكب فى يده عودا طويلا يكتد<sup>(٦)</sup> به ولا يقذف . »

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى ( طبع المكتبة الوطنية

بالجزائر ) ص ٧٣ .

(٢) أفحوص الطائر : مكان بيضه ورقاده عليه - والغرّ

نفس الطائر المعروف فى مصر .

(٣) الكلا : العشب .

(٤) الحجل : طير فى حجم الحمام .

(٥) قوارب النيل والبحيرات فى الدلتا كانت تصنع أيضا

من البردى أيام الفراعنة .

(٦) يكتد بالعود : يدفع القارب بعود فى يده وعلى

صدره كما فى مصر حين يقترب من البر .



وابن حمادوش يقول إن أغرب ما رآه في طريقه من تطوان إلى مكناسة طائرات من الغر في بركة بأحد المروج ، والغر معروف في مصر بنفس الاسم ويُرى كثيرا شتاء في الإسكندرية ودمياط وبورسعيد أو بعبارة أدق في البرك والبحيرات هناك . ويذكر للناس هناك قصة عنه : أنه يبنى أفحوصه أو مرقده للبيض على قطعة من حصير الكلا ، وإنه ما يزال يتعهد بيضه حتى لا يمسه الماء فيفسد ، وحتى يفرخ ، ويصف بيضه وصفا دقيقا ، ثم يذكر ما رآه في نفس المرج وبركته من قوارب صيد السمك والطيور وبيضه ، وكيف أنها كانت تصنع من نبات البردي ، وتُضَمُّ حزمه بعضها إلى بعض بجبال الدوم الرقاق ، وهي بذلك تشبه أدق الشبه قوارب الصيد أيام الفراعنة ، وتطورت هذه القوارب عند المصريين حتى أصبحت سفنا كبيرة تجرى في المياه بمجاديف متعددة ، ولم تكن أعواد القوارب التي رآها ابن حمادوش تقذف بمياه أي أنها لم تكن مجاديف ، إنما كانت ما يسمى في مصر عند صيادها وملاحها باسم مِدْرَى ، وهي عود طويل من خشب يدفع به النوتى القارب ، ممسكا به بيديه ودافعا له بصدرة بمتتهى ما يملك من قوة ، ليندفع القارب كما يريد . وليس في المقامة كدية ولا شحاذة أدبية بل هي وصف لطريق ومشاهده وصفا أدبيا . ولا يلبث ابن حمادوش أن يورد في رحلته مقامة ثانية باسم المقامة الهركلية ، ويستهلها قائلا<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله حدا بي حادى الرحلة إلى أن دخلت في بعض أسفارى هركلة<sup>(٢)</sup> ، فنزلت بها في خان<sup>(٣)</sup> كأنه من أبيات النيران ، أو كنائس الرهبان ، بل لا شك أنه من أبيات العِصيان ، فلذلك لا يُسَرُّ به الناظر ، ولا ينشرح له خاطر ، فاختصت منه بحجرة ، أو نقرة في حجرة ، وكأني وقعت من السماء في حفرة ، أو تبعت أفعوانا فدخلت جُحره ، فغلقت بابي ، لأحفظ حياتي وأؤمن جنابى ، من شدة أتعابى .. حتى مدَّ الليل جناحه ، وأوقد في السماء مصباحه ، وهدأت الأصوات ، وصرنا كالأموات ، وتوغلت في حباتل النوم ، ولم أدر ما هنالك من القوم ، ولم توقظنى إلا جلبة الأصوات ... وشددت الرحال ، وتهيأت للترحال » .

والمقامة ليس فيها إلا هذا الوصف للخان ، فهي أضعف من صاحبها أدبيا أو من حيث المشاهد الأدبية ، وسمى البلد هركلة ولعله يريد هرجلة لما سمع في الفندق من هرج وصياح وجلبة هنا وهناك ، مما جعله يشد الرحال ويعزم على الترحال . ويورد في رحلته مقامة ثالثة لكن لا في وصف بعض المشاهد أو المدن أو الفنادق ، وإنما في وصف زوجته التي كانت تمتلىء عليه سخطا كما يقول في رحلته حين تجده يخسر أمواله في التجارة ، وكذلك حين

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى ص ٧٨ .

(٢) خان : فندق .

(٣) هركلة : بلدة .

تجد علمه لا يروج ولا يردّ عليه ما يخسره ، مما كان يجعلها تعتمد إلى مغاضبته ، وفيها يقول في مقامه الثالثة التي سماها المقامة الحالية واصفا لها<sup>(١)</sup> :

« قُرِنْتُ بِجَارَةِ غِرَّةٍ<sup>(٢)</sup> ، عِشْتَهَا مَرَّةً ، آمَالُهَا ظَنُونٌ وَرَغْبَتُهَا فِيمَا لَا يَكُونُ ، الدَّهْرُ كُلُّهُ سَاخِطَةٌ ، وَمَطَالِبُهَا شَائِطَةٌ<sup>(٣)</sup> ، تَخْزِيكَ أَوْ تَحْرَجُكَ أَوْ تَحْزِنُكَ ، لَا تَطْلُبُ إِلَّا الْعَنْقَاءَ<sup>(٤)</sup> ، وَلَا تَرْغَبُ إِلَّا فِي الرَّخِّ<sup>(٥)</sup> ، وَلَا تَتَغَذَى إِلَّا بِيَيْضِ<sup>(٦)</sup> الْأَنْوَقِ ، وَلَا تَجْنِي إِلَّا ثَمْرَةَ الْخِلَافِ ، وَلَا تَرْكُنُ إِلَّا لِعَدَمِ الْإِسْعَافِ .. غَذَّتْهَا أُمُّهَا لَبِنَ الْقُرُودِ ، فَشَبَّتْ لَا تَأْلَفُ الْمَقْصُودَ .. يَدُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ ، وَتُصَيِّبِي السَّامِعِينَ ، يَصْبُو إِلَيْهَا الْحَلِيمُ ، وَيَرْنُو إِلَيْهَا الْكَرِيمُ .. أَشْبَهتْ فِي الْقَدِّ الْغُصْنَ الْقَوِيمَ ، وَالسَّمْهَرِيَّ<sup>(٧)</sup> الْمُسْتَقِيمَ ، وَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

أَسِيلَاتُ أَبْدَانٍ رِقَاقٌ خُصُورُهَا      وَثِيرَاتُ مَا التَّائَتْ عَلَيْهِ الْمَآزِرُ<sup>(٨)</sup>

كأنها درة مصونة ، أو جوهرة مكنونة .. فلذا اخترتها أما لأولادى ، ومنفقة<sup>(٩)</sup> لطارفي وتلادى علما منى أن الدنيا دار كدر ، وقليل فيها ما يسرّ ، نظرا لقول الصادق الصدوق : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .

وهو قضاؤه وقضاء كثيرين مثل ابن حمادوش يسيئون اختيار زوجاتهم ، لما قد يُصَيِّبُهُمْ فِيهِنَّ مِنْ حَسَنِ وَجَمَالٍ كَمَا أَصَابَ ابْنَ حَمَادُوشَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِنَاكَ زَوَاجَاتٌ كَثِيرَاتٌ جَمِيلَاتٌ خَلِقَةٌ وَخَلْقًا لِأَنَّهُنَّ مِنْ أَصْلِ كَرِيمٍ . وَقَدْ صَوَّرَ ابْنَ حَمَادُوشَ زَوْجَتَهُ غِرَّةً يَسْهَلُ انْخِدَاعُهَا ، بَلْ جَمَعَتْ السُّوءَ كُلَّهُ إِذْ عِشْتَهَا مَرَّةً ، وَدَائِمًا غَاظِبَةٌ سَاخِطَةٌ تَطْلُبُ مَا لَا يَتَأْتَى وَلَا يَكُونُ ، وَلَا تَتْرَكَ وَسِيلَةَ لِحْزَى زَوْجِهَا وَإِحْرَاجِهِ إِلَّا تَقْتَرِفُهَا ، وَدَائِمًا تَطْلُبُ مِنْهُ الْمُسْتَحِيلَ مِنْ مِثْلِ طَيْرِ الْعَنْقَاءِ وَالرَّخِّ الْأَسْطُورِيِّينَ وَيَيْضُ النَّوْقِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجِدَ . وَدَائِمًا الْخِلَافَ بَلْ لَكُنَّا تَجِدُ فِيهِ لَذَّتَهَا فَهِيَ تَجْنِيهِ وَتَقْطِفُهُ مِنْ كُلِّ وَادٍ وَمِنْ كُلِّ طَرِيقٍ ، وَلَكُنَّا غَذَّتْهَا أُمُّهَا بَلْبِنَ الْقُرُودِ فَهِيَ مَا تَنِي تَقْفِزُ مِنْ خِلَافٍ إِلَى خِلَافٍ وَمِنْ نَكْدٍ وَغَمٍّ إِلَى نَكْدٍ وَغَمٍّ . وَقَدْ يَكُونُ ابْنُ حَمَادُوشَ أَرَادَ أَنْ يُدَاعِبَ زَوْجَتَهُ ، فَجَرَّتْهُ الْمُدَاعِبَةُ إِلَى هَذِهِ الْمُبَالَغَاتِ الَّتِي اسْتَعْمَدَ فِيهَا مَحْفُوظَاتِهِ مِنْ مِثْلِ الْعَنْقَاءِ وَطَائِرِ الرَّخِّ وَيَيْضِ الْأَنْوَقِ وَثَمْرِ الْخِلَافِ أَوْ شَجَرِهِ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ عَادَ يَصِفُهَا بِصِفَاتِ جَمَالٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَيَجْعَلُهَا دَرَةً مَصُونَةً أَوْ جَوْهَرَةً مَكْنُونَةً . وَوَاضِحٌ

(٦) يَيْضُ الْأَنْوَقِ : يَيْضُ رَهْمِي لِأَنَّ النَّوْقَ لَا تَبْيِضُ .  
(٧) السَّمْهَرِيُّ : السَّيْفُ .  
(٨) أَسِيلَاتُ : نَاعِمَاتُ . وَثِيرَاتُ : مَمْلُكَاتُ . التَّائَتْ : التَّفَتُّ .  
(٩) فِي الْأَصْلِ : نَاقِقَةٌ .

(١) رِحْلَةُ ابْنِ حَمَادُوشَ ص ١٦٤ .

(٢) غِرَّةٌ : يَسْهَلُ أَنْ تَخْدَعُ .

(٣) شَائِطَةٌ : مُتَجَاوِزَةٌ الْحُدُ .

(٤) الْعَنْقَاءُ : طَائِرٌ خِرَافِيٌّ لَا وَجُودَ لَهُ .

(٥) طَائِرُ الرَّخِّ : طَائِرٌ خِرَافِيٌّ .

أن هذه المقامة الثالثة تبعد بدورها عن فن المقامة كما رسمه بديع الزمان والحريري ، وكان حربا بابن حمادوش أن لا يسمى تلك الأعمال الثلاثة مقامات . وكان الجزائر لم تعرف فن المقامة برسومه وتقاليده وخصائصه ، ولذلك يكون من الصعب أن يقال إنها شاركت فيه ، لأن أدبيا سمي عملا له مقامة أو سمّاها له آخرون ، بينما هو لا يمت إلى فن المقامة بصلة حقيقية .

٥

## كبار الكتاب

أبو القاسم عبد<sup>(١)</sup> الرحمن القالمى

أعفت كتب التراجم الحديث المفصل عن سيرة هذا الكاتب الفذ الذى تنبّه إليه عبد المؤمن سلطان دولة الموحدين حين استولى على بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وقضى فيها على الدولة الحمادية ، فألحقه بكتابه كما يقول عبد الواحد المراكشى ، ويذكر أنه من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكان من كتاب الدولة الحمادية وربما قرأ له عبد المؤمن رسالة عن يحيى بن العزيز آخر ولاية هذه الدولة إليه فأعجب بكتابته ، وكان قد استسلم له يحيى وصحبه معه إلى مراكش ، فربما هو الذى أشار عليه به . على كل حال صحبه معه عبد المؤمن - كما صحب يحيى - إلى مراكش ، وألحقه بكتاب الإنشاء فى ديوانه ، وكان يكتب معه فيه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش ، ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م وخلفه ابنه يوسف ظل يكتب له مع عبد الملك بن عياش ، ويبدو أنه لم يعمر طويلا فى عهده ، وأنه ظل فيه سنوات معدودة ، إذ لم تؤثر له رسالة عنه دُوّنت فى مجموع رسائل موحدية المنشور بالرباط ، وكل ما له فيه رسالتان عن عبد المؤمن ، يتحدث فى إحداهما عن تنكيله بالنصارى فى ضواحي قرطبة ، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربى وولوا على وجوههم مدحورين ، وفى الثانية يتحدث عن هزيمة الأعراب الملالين واستسلام الكثرة من القبائل للموحدين ودخولهم فى طاعتهم ، بحيث لم تدخل سنة خمس وخمسين وخمسمائة حتى اندمحو فى دعوة الموحدين والشعب المغربى بعد أن ظلوا يعيشون فسادا فى ديار المغرب نحو قرن كامل ، وهو يستهل الرسالة الثانية بقوله<sup>(٢)</sup> :

« من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته - إلى الطلبة والشيوخ والأعيان

(١) رسائل موحدية ( طبع الرباط ) رسالتان .  
(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ص ١١٣ .

(١) انظر فى القالمى كتاب الخريدة ١٨٠/١ وكتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى ( طبع القاهرة ) ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ وله فى مجموع



والكافة من الموحدين من أهل فاس ، أعزهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بحسنه - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذى تمم مقاصد أوليائه فيما اعتمده من إقامة أمره الواجب ، وأناف<sup>(١)</sup> بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب . وبلغهم فى أعدائهم - الذين ولوا أمر الله - وقد استقبلهم - جانبَ الإعراض والإدبار ، و ﴿بدلوا﴾<sup>(٢)</sup> نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ﴿﴾ - أمانى الظافر الغالب . ووكل بهم آيةً وكجوا ، وعلى أى مدرج درجوا من النصر المخالف المصاحب ما يكون لعامة أكنافهم ، وجنباة أوساطهم وأطرافهم ، عينَ المحافظ المراقب . ويمكن لهم إنقاذا لمقدوره ، وإفاضة لأشعة نوره ، أسباب التقلب فى أفياء<sup>(٣)</sup> الأمنة وظلال السكون من جانب إلى جانب ، وأحظاهم<sup>(٤)</sup> نعمةً منه وفضلا وقد فاءوا<sup>(٥)</sup> بشرف الفتح الجسيم<sup>(٦)</sup> ، واحتقاب<sup>(٧)</sup> الحظ العميم ، وابتغوا ﴿رضوان﴾<sup>(٨)</sup> الله والله ذو فضل عظيم ﴿﴾ وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظما إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب . والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر<sup>(٩)</sup> العاقب<sup>(١٠)</sup> ، الصادع<sup>(١١)</sup> بنوره الثاقب<sup>(١٢)</sup> ، لبابة<sup>(١٣)</sup> الانتخاب وسلالة الانتجاب من لوى بن غالب ، المنبعث لتتميم مكارم الأخلاق بما خصه من الضرائب<sup>(١٤)</sup> المقدسة والمناقب ، وعلى آله وصحبه أولى العزم العاكف الدائب ، والجدُّ الثابت اللازب<sup>(١٥)</sup> والأثرة ( المنزلة ) المشتملة على شرف المناسب ، وزلف المناصب . وأسأل الله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأمر الله وقد التفت حُجبُ الغياهب ، وتفرقت سبل المذاهب ، وخبط من ليل الحيرة فى حيث لا منقذ لجاء ولا مخلص لذهب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحِب<sup>(١٦)</sup> ، وأنقذ به من هوة العائر وشقا العاطب .

وهذه فاتحة الرسالة وهو يطيل فى تمجيدها وشكر الله على ما أتاح للموحدين من نصر عظيم ، وكأنه يجعل ذلك استهلالا وإرهاصا لموضوع الرسالة ، وهو هزيمة العرب الهلالية هزيمة ساحقة . ولا نكاد نقرأ فى التحميد حتى نلاحظ طول السجعة البائية التى بناها عليها ، بل لقد بنى عليها سجعات المقدمة جميعها فى التحميد والصلاة على الرسول الكريم والدعاء

- 
- (١) أناف : أشرف .  
(٢) الآية رقم ٢٨ فى سورة إبراهيم .  
(٣) أفياء : ظلال .  
(٤) أحظاهم : أتاح لهم حظوة .  
(٥) فاءوا : رجعوا .  
(٦) الجسيم : العظيم .  
(٧) احتقاب : ادخار .  
(٨) الآية ١٧٤ فى آل عمران .  
(٩) الحاشر : اسم من أسماء الرسول ومعناه الحاشد .  
(١٠) العاقب : اسم من أسماء الرسول ومعناه خاتم الرسل .  
(١١) الصادع : مبلغ الرسالة .  
(١٢) الثاقب : المصيب .  
(١٣) لبابة : خلاصة .  
(١٤) الضرائب : الطبايع والشمال .  
(١٥) اللازب : المتماسك .  
(١٦) اللاحِب : البين .

لابن تومرت مهدي الموحدين . وهذا الطول في السجعات قصد إليه قصدا ، لكي يضمن كل سجعة في داخلها سجتين أو أكثر . وهو يتدبّر ذلك منذ السجعة الثالثة : « ويلنهم في أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانب الإعراض والإدبار ، و ( بدلو نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ) أمانى الظافر الغالب . والسجعة بائية وفي داخلها سجتان رائيتان حتى تتشابك الكلمات في داخلها وتتعاقد ، فيتم بذلك تناسق صوتي بديع . وهو تناسق تضيئه آية قرآنية وتزيينه وتضيف إليه روعة . وتليها هذه السجعة : وركل بهم أية ولجوا وعلى أى مدرج درجوا ، من النصر المخالف المصاحب ، ما يكون لعامة أكنافهم ، وجنات أوساطهم وأطرافهم ، عين المحافظ المراقب » . وفي داخل السجعة البائية سجعة جيمية في أولها ثم سجعة ميمية ، وكان الكلمات داخل السجعة تريد أن تتعاقد عن طريق هذه الإرنانات المتلاحقة . وتكثر بجانب ذلك الصور والاستعارات ، ويكثر تلاحم الألفاظ لدقة انتخابها واختيارها مما يدل على أن القالمى كان كاتباً بارعاً حقاً .

والرسالة طويلة ، غير أنها - بجانب بلاغتها - ذات أهمية تاريخية فإن القالمى يذكر أنه لم يعد للقبيل الرياحى من بنى هلال المستولى على أنحاء كثيرة في الجزائر ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصى ويتتبع ، إذ لحقوا بقبيل العدم وأصبحوا كهشيم ألهبته نفحة ضرم ( شرر ) ولم يجدوا إلى مستخلص سبيلا ويتمثل بالذكر الحكيم : ( أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ) إلا ما كان من قبيلة بنى محمد الرياحية ، إذ ألقوا بمقاليد الانقياد ، وانخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مضافة<sup>(١)</sup> الغزو ومصابرة الجهاد . وأما قبيلة جشم فهم بمحلات أهل التوحيد معسكرون وعلى أعدل طريق المطاوعة والمتابعة مستمرين ، وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفياح<sup>(٢)</sup> ، وكل من هذين الحين : الجشمى والفخذ المحمدي الرياحى عزم - وعزم به - على أن تخطت إن شاء الله بالمغرب دارهم ، ويوماً هنا لك قرارهم ويقصر على خدمة هذا الأمر العزيز ( يقصد دعوة الموحدين ) جوارهم . فالحيان الأعرابيان الكبيران : فخذ بنى محمد الرياحى الهلالى وفخذ جشم سيختط لهما منازل فى الديار المغربية يكون فيها مستقرهم . وأما قبائل الأثيج وزغية فيقول القالمى عنهم إن أعيانهم وصلوا مراکش عاصمة الموحدين يمدون يد الاستتابة ، ويطلقون السنة الإنابة والعودة إلى الطاعة . يقول القالمى : « وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والإحساس ، ولا يجرى على أساليب القياس » . فإن من درس القرن السابق لتلك الحركة وتسلط الأعراب فيه على المغرب الأوسط وتونس يظن أنهم لن يغلبوا على ما فى أيديهم ، حتى كانت هذه الحركة لعبد المؤمن بعد أن

(٢) الفياح : المنداح ، الواسع .

(١) مضافة : معارفة .



استولى على بجاية سنة ٥٤٧ ، فإذا هو لا يصل إلى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م حتى حر في القلبي هذه الرسالة كما يقول في نهايتها حتى يكون قد قلم أظفار أعراب اغتالية في المغرب الأوسط ، وانسحبت منهم عشيرة المحمدية كما انسحبت قبيلة جشم وانضمتا إلى جيته وختط لهما منازل في الديار المغربية . وجاءته قبائل الأتبيج وزغبة معلنة طاعتها . واندمج الأعراب الذين عاشوا قرنا كاملا في المغرب الأوسط وتونس وبعض ديار المغرب يسلبون وينهبون ، اندمجوا في البربر وأصبحوا شعبا واحداً بفضل هذه الحركة المباركة لعبد المؤمن كما يقول القلبي . ورسائله لذلك بجانب أنها وثيقة أدبية تُعدّ وثيقة تاريخية في غاية الأهمية .

### الوهراني<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني ، منشؤه ومرياه في وهران الواقعة على البحر المتوسط غربي مدينة الجزائر ، وكانت فيها - مثل بقية بلدان الجزائر - حركة علمية وأدبية أنتجت غير فقيه وأديب . وتفتحت موهبة الوهراني الأدبية مبكرة ، ورأى - بعد نضجه وشهرته بالأدب - أن يرحل إلى مصر لعل أدبه يروج فيها ، فرحل إليها في عهد السلطان صلاح الدين ، ولقى وزيره الكاتب المشهور القاضي الفاضل ومن حوله من نبهاء الكتاب ، وأحس أن بضاعته لا تروج عنده ، فانصرف عنه وعن الكتابة الأدبية الجادة إلى الكتابة الهزلية . وعرف القاضي الفاضل فيه قدرته على الخطابة ، وكان كثير النزول بالشام مع صلاح الدين في حروبه للصليبيين ويبدو أنه استدعاه هناك - أو لعله هو الذي رحل إليها - فعمل على تعيينه خطيباً في جامع داريا بضواحي دمشق ، وظل في تلك الوظيفة حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م . ويقول ابن خلكان أنه لما علم قصوره عن طبقة القاضي الفاضل عدل عن طريق الجد وسلك طريق الخزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكال ظرفه ، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه ، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ، ولولا طوله لذكرته .

والمنام الذي يشيد به ابن خلكان في نحو أربعين صفحة من القطع الكبير ضمنه رسالة يرد بها على بعض أصحابه متماجنا بما ساقه من ألقابه العلمية والأدبية ومن كلام هزلي غلبه النوم في أثنائه ، فرأى في حلمه أن القيامة قامت وأن منادياً ينادى الناس هلموا إلى العرض على الله ويلبيه كثيرون بين قدماء ومعاصرين منهم الملوك والحكام والسلاطين والأدباء والشعراء والعلماء من العرب والعجم والفساق والصلحاء ، وهو دائماً يهذى ويهزل في لقاء كل من يلتم به أو يعمر

الوهراني ومقاماته ورسائله نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

(١) انظر ترجمة الوهراني عند ابن خلكان ٣٨٥/٤ وتعريف الخلف ٤٩٤/٢ . وحقق أعماله وطبعها في القاهرة إبراهيم شعلان ومحمد نعش باسم : منامات

عليه . ويرى بعض عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يرى مالك خازن النار ويحاوره ، ويرى الرسول مقبلاً في موكب عظيم من المقام المحمود يؤمُّ مورد الحوض الذي يسقى منه أمته . يقول<sup>(١)</sup> :

« لما انتهى إلى شاطئ المشرعة<sup>(٢)</sup> تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفي أيديهم الأمشاط وأخلت الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال : صلى الله عليه ، مَنْ هؤلاء ؟ فقيل له : قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم ، فتركوا المعاش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فيماذا كانوا ينفعون الناس ويعينون بني آدم ؟ فقيل له : والله ولا بشيء البتة ، ولا كانوا إلا كمثل شجر<sup>(٣)</sup> الخِرُوع في البستان ، يَشْرَبُ الماء ويضيق المكان . »

وهو نقد مغربي مبكر للصوفية وما يحملون من أمشاط لشعرهم وخلال لأسناتهم ولا عمل لهم ينفعون به الأمة ، إلا ما كان من البطالة والكسل والتمويه على العامة بما يؤدون لهم من أطعمة وأكسية متظاهرين بالعبادة والنسك في المساجد . وعلى نحو هذا النقد للصوفية ينقد كثيرين من معاصريه علماء وغير علماء كما ينقد كثيرين من القدماء ومواقفهم من علي بن أبي طالب في حرب صفين ومن الحسين في مقتله بكريلاء ، بينما نراه ينوه بالأيوبيين : أسد الدين شيركوه وأخيه أيوب وابنه صلاح الدين ، ولعله كان يحاول بذلك أن يتقرب من دولتهم . وربما كانت مقامته البغدادية الجادة أروع من هذا المنام الهزلي ، وهو يستهلها بقوله<sup>(٤)</sup> :

« لما تعذرت مآربي ، واضطربت مغاربي ، ألقىت حبلي على غاربي<sup>(٥)</sup> ، وجعلت مذهباً الشعر بضاعتى ، ومن أخلاف الأدب وضاعتى ، فما مررت بأمرير إلا حلت ساحتى ، واستمطرت راحتى ، ولا وزير إلا قرعت بابى ، وطلبت ثوابه ، ولا بقاضٍ إلا أخذت سيبه<sup>(٦)</sup> ، وأفرغت جيبه ، فتقلبت بي الأعصار ، وتقاذفتنى الأمصار ، حتى قربت من العراق وسئمت من الفراق ، فقصدت مدينة السلام<sup>(٧)</sup> ، لأقضى حجة الإسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضر ، و مكابدة العيش المر .. وتاقت نفسى إلى محادثة العقلاء ، واشتأقت إلى معاشرة الفضلاء ، فدللتى بعض السادة الموالي ، إلى دُكَّان الشيخ أبي المعالى ، فقال هو بستان الأدب ، وديوان العرب ، يرجع إلى رأى مصيب ، ويضرب فى كل علم بنصيب ، فقصدت قصده ، حتى جلست عنده ، فحين نظر إلى ، ورأى أثر السفر على ، بدأنى بالسلام ، وبسطنى بالكلام ، وقال : من أى البلاد خرجت وعن أيها درجت ! فقلت : من المغرب الأقصى .. وقال كيف معرفتك بدهرك ؟

(٥) الغارب : الكاهل : ألقى حبله على غاربه : ذهب

حيث شاء .

(٦) سيبه : عطاءه .

(٧) مدينة السلام : بغداد .

(١) انظر مقامات الوهراني ومقاماته ورسائله ٤٩ .

(٢) المشرعة : المورد .

(٣) شجر ررقه كورق التين ثمره مر .

(٤) مقامات الوهراني ومقاماته ص ١ .

ومن تركته وراء ظهره « . وسأله عن دولة الملتئمين ثم عن دولة الموحدين قائلاً : ما تقول في عبد المؤمن ( أول ملوك الموحدين ) وأولاده ، وسيرته في بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء ، مسلط على من فوق الماء ، خضع له ذور التيجان ، وخدمه الإنس والجان ، ولو أن للقلم لسانا ، وللورقة إنساناً<sup>(١)</sup> ، لتألمت ، وتظلمت ، ولأنشدتك في الملا<sup>(٢)</sup> قول الشيخ أبي العلاء<sup>(٣)</sup>  
 جَلَوْا صَارِمًا وَتَلَّوْا بَاطِلًا      وَقَالُوا صَدَقْنَا فَقَلْنَا نَعَمٌ<sup>(٤)</sup>  
 ولكن السكوت عن هذا أنجح ، ومسألة الأفاعى أصلح »

وأول المقامة شبيه بمقامات الحريري وبديع الزمان في تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدراهمهم ودنانيرهم . ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجالها ، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب ، وقد سأله بعد الملتئمين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صقلية النورماندى ، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها فى مصر إلى الدولة الأيوبية . ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدامه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بنى العباس ببغداد ، ويمتدح المستضيء الخليفة حيثذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه . ولعل أسلوبه اتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة ، إذ يتميز سجعته بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة ، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد . وتلك طريقته العامة فى رسائله الكثيرة ، إذ يخلط السم بالعسل ، وقد تصبح سما خالصا . وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضى الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم . ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة ، وحياته وتحليل أعماله خليقان بدراسة مفصلة .

### (ج) أبو الفضل<sup>(٥)</sup> بن محشرة

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن على القيسى المشهور باسم ابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية ، كان أبوه قاضيا بها وعنى بتربيته علميا وأديبا ، مما جعل الغبريني ينعته فى عنوان الدراية بأنه الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبىء الذكى السنّى القدر الكاتب البارع . وينعته عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » : ببراءة الكتابة وسعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ويقول الغبريني : « استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ( ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ ) إلى حضرته بمراكش وكان يجله لحسن سمته ورؤاه ووقاره ، وفى المعجب أنه كان يخدم أبا القاسم القالمى

(٥) انظر فى ابن محشرة عنوان الدراية ص ٥٣ والمعجب للمراكشى ص ٣١٧ ، ٣٣٨ ومجموع رسائل موحديّة ص ١٤٩ - ٢٢٨ .

(١) إنسانا : إنسان عين .

(٢) الملا : الجماعة .

(٣) أبى العلاء : أبى العلاء المعرى .

(٤) جلوا صارما : صقلوا سيفا وشحذوه .



إلى أن مات ، فكتب للخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانه ، وقد يدل ذلك على أن القالى - لا الخليفة يوسف - هو الذى استدعاه - ربما لمعرفته المظنونة بأبيه القاضى موطنه أو معرفته بفضله . ويقول الغبريني إنه ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م أو قبلها بقليل ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م غير أن المراكشى فى المعجب يقول إنه كتب للخليفة يعقوب الموحدى بعد كتابته لأبيه يوسف ، ولم يزل كاتباً له إلى أن توفى . ويقول أيضاً إنه كتب ليعقوب بعد وفاته أبو عبد الله بن عياش ، وفى التكملة<sup>(١)</sup> أن يعقوب استكتب ابن عياش فى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٤٠ م وكان هذه هى السنة التى توفى فيها ابن محشرة لا سنة ٥٩٨ كما توهم الغبريني .

ولابن محشرة فى مجموع رسائل موحدية تسع رسائل : رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدى تبدأ فى سنة ٥٨٠ وهى السنة التى توفى فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم ، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدى إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة فى سنة ٥٧٥ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قفصة جنوبى تونس وقضى على ثائر بها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها فى تلك الرحلة وأنه أغرامهم بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكراً لهم بجهاد آبائهم فى الفتح الإسلامية ، وأنهم لبوا دعوته ، يقول ابن محشرة على لسانه<sup>(٢)</sup> :

« جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح ( الهلالية ) فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومِنَّته الجسام ، ونُبِّهوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام ، وعُرِّفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس ، فقد طال استشراؤهم<sup>(٣)</sup> ، وأملى الله لهم فزاد عليه اجترأؤهم . ونُدبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضئهم وقضيضهم<sup>(٤)</sup> ، نفرة من انبت<sup>(٥)</sup> عن الوطن ، ونَبَد عُلُق المسكن والسكن ، وإن كانت هذه البلاد هى التربة التى مسَّت أولاً جلودهم ، وقضوا فيها من الشباب عهدهم ، فالذى يتقلون إليه من الرباط فى سبيل الله يجمع لهم الخير فى الدين والدنيا ، والشرف بالكون فى عداد كلمة الله العليا .. وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت<sup>(٦)</sup> فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفاظهم<sup>(٧)</sup> ، ومارت<sup>(٨)</sup> لنصر دين الله عزائمهم .. وقد سالت بهم

(١) التكملة ( طبع مدريد ) رقم ٩٥٢ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) استشراؤهم : اشتداد شرهم وتفاقمه .

(٤) بقضئهم وقضيضهم : بجمعهم ينتقض آخرهم على أولهم ويندفع .

(٥) انبت : انتطح ، وفى الأصل : أنبت .

(٦) تغلغلت : تعمقت ، وفى الأصل : تغلقت .

(٧) حفاظ جمع حفيظة : الحمية والغضب .

(٨) مارت : تحركت ، وفى الأصل : ثارت .

الأباطح<sup>(١)</sup> ، وامتلات بجمعهم الموامي<sup>(٢)</sup> الفسائح .. وإن جمعهم لتكاثر الحصى<sup>(٣)</sup> ،  
وتعاد<sup>(٤)</sup> الدبى ، وتملاً الغيطان<sup>(٥)</sup> والرئى .

ولغة الرسالة جزلة مختارة ، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوى من اللغة أساليب  
تروق القارئ بسجعها وورصانة ألفاظها عامداً فى أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التى  
يوردها بجملته أو جمل ترادفها ، فتزيدها إيضاحاً وبيانا كقوله فى أواخر ما اقتبس من رسالته :  
« وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ،  
وتغلغلت فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفائظهم ، ومارت لنصر دين الله عزائمهم » .  
والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين الحصيفة ، إذ لم يكتفوا بأن يستشعر  
أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب ، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم  
إلى الأندلس للاستعانة بهم فى الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان  
لهم أثر كبير فى رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى فى وقائعهم معهم ، واستن تلك  
السنة الخليفة يعقوب الموحدى مثل أبيه يوسف ، وبذلك انتصر فى موقعة الأرك المشهورة سنة  
٥٩١ هـ / ١١٩٤ م . ولم تفض هذه السياسة إلى انتصار الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف  
ويعقوب فقط فقد أفضت أيضا إلى كف أيدي الأعراب عن العبث لمدة قرن فى بلاد المغرب  
وخاصة فى الجزائر . وآخر رسالة لابن محشرة احتفظ بها مجموع رسائل موحدية كتبها -  
كما مر بنا - سنة ٥٨٦ على لسان يعقوب الموحدى إلى الطلبة - الموحدين - الأعيان والأشياخ  
والكافة بسببته يخبرهم فيها بغزوة جيشه لابن الريق النصرانى فى غربى الأندلس وتنكيله بمن  
معه واستيلائه على حصن عظيم من حصونهم يسمى طرش . وهو يستهل الرسالة بقوله<sup>(٦)</sup> :  
« الحمد لله الذى أرغم لهذا الأمر العزيز شمس المعاطس<sup>(٧)</sup> ، وألان بأيده قباج<sup>(٨)</sup> الجامح  
الشامس ، وأخضع لعزته وسطوته كل جيدٍ متناول ، وأخشع كل لحظ مشاوس<sup>(٩)</sup> ، وحكم  
بظهور أمره ، واستيلاء غلبته وقهره على ما توقل<sup>(١٠)</sup> فى الشمس الشوامخ وتوغل فى البيد  
البسابس<sup>(١١)</sup> ويسر له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزمامى البركة والسعادة ، ما تجاوز<sup>(١٢)</sup>

(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٢١٨ .

(٧) المعاطس جمع معطس : الأنف والمراد بشمس المعاطس  
الأعداء المستعلون .

(٨) قباج : عضد . الشامس : الجامح المستعصى .

(٩) مشاوس : متكبر .

(١٠) توقل : صعُد .

(١١) البسابس : القفر الخالية .

(١٢) تجاوز : راد عن .

(١) الأباطح جمع أبطح : المكان المتسع يمر به السيل  
ويترك فيه التراب والحصى .

(٢) الموامي جمع موماة : المفازة الواسعة ، وفى  
الأصل : المواهى .

(٣) الحصى : صغار الحجارة ، وفى الأصل : الحصر .

(٤) تعاد : تفاخر فى كثرة العدد ، والدبى : الجراد  
وفى الأصل : مُعاد الرئى .

(٥) الغيطان جمع غيط : المطمئن الواسع من الأرض .  
الرئى جمع ريد . ما ارتفع من الأرض .

تقدير المقدر وقياس القانس ، والصلاة على محمد نبيه المصطفى ، ورسوله الأكرم المُجْتَبَى ، المختار من أشرف المحاتد<sup>(١)</sup> وأطيب المغارس ، المسكت بفرقانه المعجز ، وبيانه الموجز ، كل نafs ، والمأحى بنور نبوته الخاتمة للمل ، وشريعته الناسخة للأديان والنحل ، مظلمات الغياهب<sup>(٢)</sup> ومد لهلمات الخنادس .

وابن محشرة في هذا التحميد وما تلاه من الصلاة على الرسول الكريم يختار حرف السين لسجعاته فيهما ، وبدءاً من السجعة الرابعة أخذ يطيل السجعة لتوازن العبارات أو التعبيرات داخلها بحيث تتشابه ألفاظها وتتعاقد في سجعات داخلية ، ليدل على مدى قدرته في السجع وصياغته ، وهو يضيف إلى ذلك عناية واضحة بالتصوير كما في قوله « ألان بأيده قباح أو عضد الجامح الشامس » وتتوالى كتابات وتصاوير مختلفة كقوله عن الرسول إنه من أطيب المغارس ومحا بنور نبوته مظلمات الغياهب ومدلهلمات الخنادس . ويقول - على لسان يعقوب - إن صاحب قشتالة المسيحي في الشمال حين علم بهذا الجيش سارع إلى إعلان تمسكه بعهده مع الموحدين وأنه مستعد من أجلهم لمحاربة أهل ملته ، فأمضى له يعقوب السلم . وبالمثل سارع صاحب ليون يطلب تجديد مهادنته ، وهادنه يعقوب ليفرغ لابن الريق النصراني في الغرب . ويصف ابن محشرة انتساف الجيش لزروعه في شتتين وإحراقه وتخريبه لمنازله وربوعه ، ويصور استيلاء جنوده على قلعة طرُش المنبعة ، بقوله<sup>(٣)</sup> :

« نهدوا<sup>(٤)</sup> إلى قلعة للأعداء تسمى « طرُش » على هضبة منيفة<sup>(٥)</sup> المراقب ، مسامية للكواكب ، قد انقطعت حافاتها ، وبعدت قذفاتها<sup>(٦)</sup> من كل الأرجاء والجوانب ، ولعظمتها ومكانها من نفوسهم أشبوها<sup>(٧)</sup> بالبناء الشامخ وحصنوها ، وألقوا بها جموعهم الموثنية<sup>(٨)</sup> ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم واثمنوها ، واعتدوها<sup>(٩)</sup> قفل بلادهم ، فخانتهم - بحمد الله - آمالهم التي أملوها<sup>(١٠)</sup> ، وكذبتهم ظنونهم التي ظنوها . ولقد كانت من المنعة بحيث لا ترام ، ولا يُهْتَضَم<sup>(١١)</sup> المتوقل فيها ولا يستضام ، ولا تثبت لمحاربها - لوعورة مراقبها<sup>(١٢)</sup> وجوانبها - الأقدام . لولا سعود هذا الأمر<sup>(١٣)</sup> الذي تؤيده الأقدار وتنجده الأيام ، والحمد لله

(١) المحاتد جمع محتد : الأصل .

(٢) الغياهب جمع غيبب والخنادس جمع خندس وهما الظلمة .

(٣) انظر مجموع رسائل موحدية ص ٢٢٣ .

(٤) نهد : نهض .

(٥) منيفة المراقب : عالية مواضع المراقبة .

(٦) قذفات جمع قذفة : جانب بعيد .

(٧) أشبوها هنا : حموها .

(٨) الموثنية : الملتفة .

(٩) اعتدوها : عدوها وفي الأصل : اعتدوا .

(١٠) بعد أملوها كلمة زائدة: «في استقصائه»: حذفت .

(١١) يهْتَضَم المتوقل : يقهر المقيم فيها . يستضام : يظلم .

(١٢) مراقبها : أماكن الصعود فيها وفي الأصل : مراقبها .

(١٣) هذا الأمر : هذه الدعوة دعوة الموحدين .

على ذلك حمدا تُستنجز به المن وتستدام ، لا ربَّ سواه . فنازلها الموحدون - أعزهم الله -  
أصدق نزال ، وضالوا على كفرتهم أعظم صيَّال<sup>(١)</sup> .. وعندما عضَّتْهم الحرب الضروس<sup>(٢)</sup>  
بنايها<sup>(٣)</sup> ، وجرَّعتهم أكوُسُ مرَّها<sup>(٤)</sup> وصابها .. رُغموا<sup>(٥)</sup> في أن يخرجوا بمحاششتهم ، ومن  
معهم من نسائهم وذرياتهم ، ويفرجوا للموحدين - أعزهم الله - عن كل ما اشتعل عليه  
حصنهم من أموالهم وأقواتهم .

والسجع مرصوف بإحكام والكلمات منتخبة بدقة والصور تتوالى بكثرة ، فقد ائتمنوا هذا  
الحصن وعدوه قفل بلادهم ، فخاتتهم آمالهم وكذبهم ظنونهم ، بفضل دعوة الموحدين التي  
تؤبدها الأقدار وتنجدها الأيام ، وعضَّتْهم الحروب الضروس بنايها وجرَّعتهم أكوُسُ مرَّها  
وصابها ، فولَّوا على وجوههم خاسئين مدحورين إلى غير مآب .

(٤) في الأصل : مقرأ .

(٥) في الأصل : رغبوا .

(١) في الأصل : مصال .

(٢) الضروس : العضوض المهلكة ..

(٣) في الأصل : بها .





القسم الثاني

المغرب الأقصى



## الفصل الأول

### الجغرافية والتاريخ

١

#### الجغرافية<sup>(١)</sup>

المغرب الأقصى أبعد أجزاء المغرب عن بلدان المشرق ، فهو نهايته الواقعة على المحيط الأطلسي غربا والبحر المتوسط شمالا ، وتحده الجزائر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا ، وسطحه في الجملة جبلي إذ تمتد فيه سلسلتان من الجبال تتصلان جيولوجيا بجبال الألب الأوربية ، وهما تمتدان فيه من الغرب إلى الشرق ، وأولاهما شمالية ، ويتفرغ منها في الشمال الغربي فرع جبال الريف الذي يتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي من مدينة سبتة جنوبي جبل طارق إلى مدينة مليلة غربي مصب نهر الملوية . ويمتد فرع محاذ له يسمى أطلس التل ، بينه وبين سلسلة جبال الأطلس الصحراوي هضبة وتكثر في هذا السطح الجبلي أنهار ونهيرات وسهول . وسلسلة الجبال في الأطلس الصحراوي شديدة الارتفاع وتتميز بكثرة المنحدرات الوعرة ، وتفرع منها سلسلة جبال صغيرة يسميها ابن خلدون جبال درن ، وكثير من جبال الأطلس الصحراوي تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

ولكى نتصور المغرب الأقصى جغرافيا ينبغي أن نعرض مناطقه ، وأول ما يلقانا منها في الشمال الغربي منطقة الهبط ، وتنتهي شمالا على مضيق جبل طارق وشرقاً على البحر المتوسط وغرباً على المحيط الأطلسي ، ومن أهم مدنها سبتة وطنجة شمالاً وتطوان على البحر المتوسط شرقاً وأصيلا على المحيط الأطلسي غرباً ومنطقة أزغار جنوباً ، ويبلغ طول الهبط نحو مائة ميل وعرضها نحو ثمانين ميلاً ، وتكثر فيها المجارى والنهيرات المائية وأرضها خصبة جدا ووافرة الإنتاج ، وسهولها وجبالها مأهولة بالسكان . ولعب سكانها دورا مهما في الدفاع عن غرناطة وإقليمها حين ظلت قرنين ونصفا تقاوم نصارى الإسبان الشماليين ، وخاصة سكان جبل ودراس البواسل ، وقد ظلوا يتداولون قصصا كثيرة في عبارات نثرية وقصائد شعرية عن

محمد عبد المنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصياد وكتاب  
رصف إفريقيا للحسن الوزان طبع جامعة الإمام محمد بن  
سعود الإسلامية .

(١) انظر في جغرافية المغرب الأقصى كتابات أبي عبيد  
البكري والإدريسي ( انظر جغرافية الجزائر ) وجغرافية  
الوطن العربي للدكتور محمد محمود الصياد وصورة  
الأرض لابن حوقل وملاحم المغرب العربي للدكتورين

بطولات بطل شعبي من أبطالهم يسمى « هلولا » وبطولته في المغرب الأقصى تماثل البطولات التي تحكى في فرنسا عن بطلهم رولان في ملحمة المشهورة ، وحرى بنا أن تكون لنا ملحمة مماثلة عن « هلولا » . وجنوبى هذه المنطقة على المحيط منطقة أزغار ، وهي سهل خصب وتكثر بها المدن والقرى والسكان ، وتمتد على المحيط نحو ثمانين ميلا ومن مدنها القصر الكبير وميناء العرايش ، ولكثرة زروعها تمون مدينة فاس ، ويولف شبابها زهرة الجيش الفاسى . وإلى الجنوب منها منطقة فاس ، وهي مدينة متحضرة من قديم أو بعبارة أدق منذ بناها إدريس مؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م وخطت في الحضارة خطوات واسعة منذ الدولة المرينية ، وهي تتوسط سهلا خصبا أتاح لسكان منطقتها معيشة طيبة لكثرة حقولها وبساتينها ومن مدنها مكناس وتنتج أرضها مختلف الفواكه والثمار ، ومن مدنها أيضا سلا وهي ميناء على المحيط ونشأت بجانبها مدينة الرباط ، ومدن كل هذه المنطقة تتميز بحضارة رفيعة . وجنوبى هذه المنطقة منطقة تامسنة وهي منطقة غنية وبها كثير من المدن والقرى ، تُعدُّ بالعثرات . وتنتهى في الجنوب بجبال أطلس التل ، ومن أهم مدنها أنفة وحلفتها حديثا الدار البيضاء ، وكانت أنفة مزدانة بجوامع وفنادق جميلة ، وهي ميناء على المحيط في وسط سهل كثير الزروع والحبوب . وإلى الجنوب منها منطقة دكالة ، وكان أهلها في العصور الوسطى متأخرين لا يعرفون طرق الزراعة وغرس البساتين ومن أهم مدنها آسفى . وتليها على المحيط منطقة حاحة وتعد امتدادا لمنطقة مراكش الداخلية ، وهي منطقة وعرة مليئة بالغابات والجبال والأودية المائية الصغيرة وتزدحم بالسكان ، وأكثر مدنها القديمة أصبحت أطلالا ، وتنتهى هذه المنطقة عند الأطلس الصحراوى . وتليها إلى الجنوب على المحيط منطقة السوس آخر المناطق الغربية للمغرب الأقصى ، وتقع وراء الأطلس الصحراوى جنوبا ، ويكثر فيها النخيل ، ومن أهم مدنها أغادير عند نهاية جبال الأطلس وقرب مصب نهر السوس ، ومنها أيضا ماسة على المحيط وتبوت في الشمال ، وأرض هذه المنطقة خصبة وتنتج كمية وافرة من الحبوب والفاكهة وخاصة من التين والعنب .

ونعود إلى أقصى الشمال على البحر المتوسط ، فنلتقى بمنطقة الريف متاخمة لمنطقة الهبط ، وتمتد شرقا نحو مائة وأربعين ميلا حتى نهر النكور وجنوبا نحو أربعين ميلا حتى الجبال التي تخاذى نهر الورغة الواقع في منطقة فاس ، وهي منطقة مليئة بالجبال والغابات شديدة البرودة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والتين ، ولكن القمح قليل . وليس في الجبال سوى مدن قليلة ، وأكثر السكان في مدن الساحل صيادون وملاحون ، وتنتج الجبال أو كثير منها الأعناب والزيتون والتين والكتان والسفرجل والليمون . وإلى الشرق على البحر المتوسط من هذه المنطقة منطقة غارت ، وتبدأ من نهر النيكور وتنتهى عند مصب نهر الملوية ، وتمتد جنوبا حتى محاذة جبال منطقة الحوز شرقى فاس وطولها نحو خمسين ميلا في أربعين ميلا عرضا ، وهي منطقة

شديدة الجفاف قليلة السكان وأهم مدنها مليلة على البحر المتوسط . وإلى الجنوب من إقليم غارت إقليم الحوز وهو يمتد شرقى منطقة فاس فى نحو مائة وتسعين ميلا طولاً ومائة وأربعين ميلا عرضاً ويشتمل على كثير من السهول والجبال الصحراوية أو جبال أطلس ، ومن أهم مدنها تازة وهى تعد الثالثة المدن فى ولاية فاس من حيث الحضارة والثقافة ، ولها أراض خصبة شديدة الاتساع ، والحياة مزدهرة فى كثير من مدن وجبال هذه المنطقة . وجنوبى الحوز منطقة تادلة ، وتشمل الإقليم من جنوبى نهر العبيد إلى نهر أم الربيع فى الشمال ، ولأهلها مهارة فى دبغ الجلود ونسج الصوف ، وأكثر السكان بالمدن والجبال فى رخاء ومن مدنها تفزة وأنزة . وغربى هذه المنطقة منطقة هسكورة وتبدأ من التلال الغربية فى دكالة وتمتد شرقى منطقة مراكش وتتجه إلى الجنوب ، ويعنى سكانها بصناعة الجلود لكثرة المعز بديارهم وأيضاً محصول الزيت ، ومن مدنها المدينة وتاغوداست وتغطى بعض جبالها الثلوج على مدار السنة . وإلى الجنوب منها منطقة جزولة شرقى السوس وغربى منطقة الدرعة ، وتوجد بهاعدة مناجم للنحاس والحديد ، أهلت السكان لصناعة كثير من الأوعية ويزرعون الشعير وعندهم الكثير من الماشية . وإلى الشرق من هذه المنطقة منطقة الدرعة وتمتد جنوباً إلى مسافة مائتين وخمسين ميلاً . أما السكان فيقيمون فى حوض نهرها وتمتد فيه حدائق النخيل . وفى الجنوب الشرقى من منطقة هسكورة منطقة سجلماسة ، وتمتد على طول نهر زيز ، وتتغلغل جنوباً إلى مسافة مائة وعشرين ميلاً حتى حدود الصحراء ، وأهل مدينة سجلماسة أغنياء لتبادلهم التجارة مع بلاد السودان ، وتكثر بمنطقتها التمور .

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور من بعض الوجوه أن جغرافية المغرب الأقصى معقدة لكثرة مناطقه واتساع أقاليمه التى تبلغ نحو خمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وجباله فى الشمال وفى أطلس التل والأطلس عالية علواً شاهقاً ، وهو علو هياً من جهة لتكوّن الثلج على قممها وذراها الشامخة ، كما هياً من جهة ثانية لكثرة نزول الأمطار بها ، وهى تنزل بها منذ شهر أكتوبر وتغزر فى الشتاء . وكثرة الجبال على سطحها هياً لأن تكثرت فيها الأنهار والنهيرات والمجارى المائية، ومعظمها تجرى طوال العام ، ومن أهمها نهر الملوية ، وينبع من منطقة فاس ويجرى إلى الشمال الشرقى ويصب فى البحر المتوسط شرقى مليلة ، ونهر سبو ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى مخترباً منطقة فاس وحوضه يعد أغنى أحواض المغرب الأقصى وأكثرها سكاناً ، ويبلغ إنتاجه أربعين فى المائة من إنتاج المغرب الأقصى ، ونهر أم الربيع وينبع من منطقة الحوز، ويتجه جنوباً ثم غرباً حتى المحيط ويغذى مناطق تادلة وتامسنة ودكالة، ونهر تنسيفت ويتجه من الشرق إلى الغرب ويخترب منطقتي مراكش وحاحة، ونهر السوس ويتجه إلى الغرب مخترباً شمالى جزولة والسوس ويصب فى المحيط بقرب أغادير .

والمغرب الأقصى كما يعتمد على الأنهار يعتمد على الأمطار ، وعلى الرغم من كثرة الجبال



على سطحه الأجزاء المهيأة للزراعة كثيرة ، وهي أولا سهول ساحلية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، والأولى محدودة المساحة وكأنها في بعض الأنحاء أشرطة ضيقة ، والثانية أكثر اتساعا ، ويتراوح عرضها بين ثلاثين وتسعين كيلومترا . وتبعد الموانئ على المحيط عن مصبات الأنهار لكثرة ما تحمل من الرواسب . وثانيا سهول نهريية وهي سهول كونتها الأنهار بكثرة ما حملت من الرواسب ، مثل سهول الأنهار المذكورة آنفا . وهي تصلح لإنتاج جميع الغلات الزراعية وغرس الأشجار وإقامة الحدائق والبساتين . وثالثا سفوح منحدرات الجبال . ورابعا تربة الأطلس التلي وبه سهول واسعة لزراعة الحبوب وغرس الأشجار . ولاختلاف الطقس بين الوديان والسهول والجبال ومنحدراتها تلتقك في المغرب مختلف أشجار الفواكه والنقل ، ويكثر النخيل في المناطق الجنوبية . والمناخ في جملته معتدل على السواحل وأحواض الأنهار إلا ما قد يميز بعض الجبال من البرودة الشديدة حتى لتوجهها الثلوج طول العام .

## ٢

### التاريخ<sup>(١)</sup> القديم

تاريخ المغرب الأقصى موغل في العصور السحيقة ، وأخذ يترأى على صفحات التاريخ مع ارتياد الفينيقيين لسواحل إفريقيا الشمالية أو بعبارة أخرى لسواحل البلاد المغربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد وقبله وبعده للبحث عن مواقع غنية بطيبات الخيرات والسلع يُرسون بها سفنهم ليتبادلوا مع أهلها وجوه التبادل التجاري المختلفة . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا يحترف التجارة ، وظلوا طويلا يحاولون التعرف على المواقع الملائمة لهم في الساحل الإفريقي الشمالي : وبمرور الزمن ومع كثرة البحث أعجبهم موقع بالقرب من مدينة تونس الحالية أقاموا فيه مدينة قرطاجنة ، وسكنتها منهم جالية فينيقية كبيرة ، أقامت بها دولة ظلت قرونا طويلة ، وأخذوا يبحثون لتجارتهم عن أماكن أخرى صالحة لتبادل السلع ، واختاروا في الجزائر بونة وجيجل وإسكيكدة وبجاية وشرشال ، ونشروا فيها جميعا حضارتهم الفينيقية ، وعلموهم غرس الأشجار وبعض شؤون الزراعة والرى ، ونقلوا إليهم من موطنهم القديم في الشام حول صور في لبنان بعض أشجار الفاكهة والنقل . واتسعوا في اتخاذا المواقع على سواحل البحر المتوسط الغربية لتكون مراكز لتجارتهم الواسعة ، فاتخذوا موقعا على الساحل الجنوبي الشرقي لإسبانيا سموه « قرطاجنة » واتخذوا موقعا مماثلا في الجنوب الغربي لإسبانيا سموه « قادس » ونما الموقعان وأصبحا مدينتين فينيقيتين كبيرتين ، وكان طبيعيا أن يبحثوا عن مواقع مماثلة في سواحل

(١) انظر في التاريخ القديم للمغرب الأقصى كتاب تاريخ المغرب الكبير - الجزء الأول لمحمد علي دبور - ( طبع القاهرة ) وكتاب مدينة المغرب العربي للأستاذ أحمد صقر .

المغرب الأقصى ، وأعجبهم موقع غربي مصب نهر الملوية سموه « روسادير » وهو نفس موقع مليلة الحالية وهو في صدر خليج يساعد على رسو السفن فيه ، وكأنا اختاروه للاتصال عن طريقه بسلع منطقة فاس الغنية . واختاروا في آخر ساحل المغرب الأقصى الشمالي موقعا مطلا على المحيط الأطلسي ويطل من الشمال الشرقي على مضيق جبل طارق ، سموه « طنجة » والسهل من ورائها خصب ومنتسح ووافر الغلات . وكما مدوا ذراعهم شمالا في إسبانيا إلى « قادس » مدوه جنوبا في المغرب الأقصى إلى أصيلا نحو سبعين ميلا من طنجة ، وهي في نفس إقليمها الخصب . وفي كل المواقع التي أقام الفينيقيون لهم فيها مدنا بالساحل المغربي جميعه استقرت حضارتهم الفينيقية قرونا وأجيالا متعاقبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل وفي القرون التالية . وكانوا شعبا عريقا في الحضارة لا في شئون الملاحة البحرية وبناء السفن فحسب ، بل أيضا في كثير من شئون الزراعة والصناعة : صناعة الزجاج الملون وغيره ، وبثوا ذلك كله بين كثيرين من سكان المغرب ، ولا بد أن بثوا بينهم أبجديتهم التي وضعوها على هدى الأبجدية الهيروغليفية المصرية ، بعد أن أدخلوا فيها غير قليل من التعديل بحيث صارت أساس الأبجديات العالمية ، وتعلم بعض المغاربة أبجديتهم ولغتهم ، ومعروف أنها لغة سامية . والتقى دين الفينيقين الوثني بدين المغاربة الوثني في كل مكان ، وكان سكان المغرب الأقصى - مثل بقية سكان المغرب والفينيقيين - يعبدون الشمس والقمر ، ويعتقدون بوجود أرواح مقدسة في بعض الأشجار والأحجار والطير والحيوان .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الفينيقين في عصرهم الممتد قرونا نقلوا المغرب الأقصى وغيره من البلدان المغربية من حياة البداوة إلى حياة جديدة من التحضر، فقد تعلم المغاربة على أيديهم كثيرا من شئون التجارة وزراعة الحبوب والبقول والخضر وغرس نباتين الفواكه وأشجار الزيتون وتربية المواشى وصناعة السفن واستخراج المعادن من الحديد والنحاس وغيرهما وصنع الأواني وحلى الزينة وحياسة الملابس والدباغة، وعرفوا منهم - فيما يظن - صناعة العطور والعقاقير .

ومن المراكز التي أسسها الفينيقيون لتجارتهم مراكز في شمالى صقلية من أهمها بالرم ، وتبعهم اليونان - فيما بعد - وأسسوا لهم مراكز في شرقي صقلية بمسينا وسرقوسة وقطانية ، وكان ذلك في نشوب الحرب بالقرن السادس قبل الميلاد بين الشعين أو الفثتين ، وظلت طويلا بينهما دون أن ترجح كفة إحداهما رجحانا نهائيا ومنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تتدخل روما وتحاول إزالة القرطاجيين الفينيقين من صقلية ومن الساحل الإفريقي ونشبت الحرب بين الفثتين لمدة نحو مائة وعشرين عاما ( ٢٦٤ - ١٤٦ ق . م ) ويكتب النصر أخيرا لروما وجيشها ، فيقضى على قرطاجة قضاء مبرما ، ويهدم مبانيها الشاهقة ، ويبنى بجوارها قرطاجة جديدة ، وتستولى روما على كل ما كان بيد القرطاجيين الفينيقين من بلدان وأقاليم في إفريقية

التونسية والبلاد المغربية ، وبذلك تبعتهم نوميديا بما تشمله من الصحارى فى غربى الجزائر وشرقى المغرب الأقصى حتى نهر الملوية وإلى الجنوب حتى سجلماسة ويقال إن قائدا روماتيا بناها وسماها سيجيلوم ماسة ، وحرّف الاسم مع الزمن إلى سجلماسة ، وبنى قواد آخرون مدنا فى نوميديا الجزائرية على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن تاريخها القديم .

وكما مدت روما ولاءها على المدن الجزائرية الفينيقية مدته أيضا على مدن الفينيقيين فى المغرب الأقصى : مليلة وطنجة وأصيلا ، وكان حكامها من البربر سكانها يتخذون عاصمة لهم طنجة . وكان المغرب الأقصى شرقى نهر الملوية يسمى موريتانيا الغربية ، أما موريتانيا الشرقية فكانت تتداخل مع نوميديا . وربما كان أهم حاكم قديم لموريتانيا الغربية هو بوكوس الأول ، وإليه أصهر يوغورطة حاكم نوميديا ، ودخل يوغورطة فى حروب مع الرومان فأعانتهم فى القبض عليه سنة ١٠٦ قبل الميلاد صهره بوكوس ، وخلفه ابنه بوغيد سنة ٨٠ قبل الميلاد وظل قائما عليها حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد فخلفه ابنه بوكوس الثانى حتى سنة ٣٣ قبل الميلاد . واستولى عليها الرومان بعده ، وفى سنة ١٧ قبل الميلاد جعلوا عليها بوبا الثانى صاحب نوميديا ، وخلفه عليها ابنه بطليموس حتى سنة ٤٠ للميلاد ، ثم جثم الرومان على المغرب جميعه . ونرى الرومان ينشئون فى المغرب الأقصى مدنا على ساحل البحر المتوسط مثل سبتة القرية من جبل طارق وكانوا يسمونها «سيفيتاس» واتخذوها مقرا لحكومتهم الرومانية فى المغرب الأقصى ، فهى متحضرة من قديم ، وعمالها مهرة فى صناعة النحاس والشعدانات ، وخارجها بساتين وحدائق بديعة . ولم يكتف الرومان بما كان على المحيط للفينيقيين من مدن مثل طنجة وأصيلا ، فقد توغلوا على ساحله إلى موقع سلا وبنوا فيه مدينتها قرب نهر أبى الرقراق على مسافة ميلين من المحيط ، بل توغلوا أكثر من ذلك إلى إقليم تامسنة، وبنوا على ساحل المحيط مدينة أنفة مدينة الدار البيضاء الآن، وهى فى سهل خصب صالح لزراعة كل أنواع الحبوب. وجاس الرومان خلال ديار المغرب الأقصى، بدليل أننا نجدهم يتفرجون على منطقة فاس وما بها من زروع مزدهرة ، وأعجبهم بجوارها جبل زرهون الذى يمتد نحو الغرب ثلاثين ميلا ويمتد عرضه إلى عشرة أميال، وهو مغطى بأشجار الزيتون ، وقد بنوا فوق قمته مدينة ولىلى ، والأرض حولها مزدانة بمزارع وبساتين بديعة ، وكان الوالى الرومانى يقيم إما فى هذه المدينة وإما فى مدينة سبتة. وأرهب الرومان سكان المغرب الأقصى بكثير من العسف والضرائب الباهظة، وكانوا ينهبون خيرات الأرض من الحبوب والزيتون وعصيره . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى حاولت نشرها فى أرجاء إمبراطوريتها والبلاد المغربية، غير أن من اعتنقوها من المغرب الأقصى كانوا قلة شديدة فى المدن الساحلية، وأكثرهم كان من الجاليات الرومانية والأجنبية. وظل البربر يقومون بفتن وثورات كثيرة فى أيام الرومان لكثرة مظالمهم وفداحة ما كانوا يفرضونه من الضرائب على الشعب البربرى وأبنائه ، وأخذت دولتهم تضعف منذ القرن الثالث



الميلادى وأخذت تسود الفوضى وتعم الثورات فى الإمبراطورية الرومانية والبلاد المغربية ، وتفاقم ذلك فى القرن الرابع الميلادى . وطمعت شعوب أوربا الشمالية فى اقتسام أراضى الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأخذت تكتسح أجزاء أوربية منها حتى إذا كانت سنة ٤٣٤ للميلاد اكتسح الوندال كل ما تملكه روما فى إفريقيا التونسية والجزائر ونوميديا ورحب بهم المغاربة وأعانوهم ضد الرومان ومكنوهم من الانتصار عليهم ، لما ظنوا فيهم من وقف الظلم الرومانى ورفعهم عن كواهلهم غير أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا الأمرين فى عهدهم الذى امتد نحو مائة عام إلى أن قضى على مجموعهم القائد البيزنطى : « بليزير » سنة ٥٣٩ للميلاد . وكانوا شعباً حريياً فلم يخلفوا فى المغرب علما ولا فنا ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظما . وخلفتهم فيه بيزنطة لنحو مائة عام أخرى ، واتسم عهدهم بالعسف والظلم كعهد الوندال والرومان . على أن الرومان حاولوا نشر المسيحية فى البلاد المغربية ونجحوا فى بعض المدن الساحلية كما مر بنا فى الجزائر وتونس ، كما نجحوا فى نشر لغتهم اللاتينية وخاصة فى المدن الساحلية ، أما بيزنطة فلم تحاول نشر لغتها ولا شىء من ثقافتها فى البلاد المغربية . وكانت تمد ذراعها على بعض المدن مثل سبتة على ساحل البحر المتوسط وربما مدته أيضا على بعض المدن على ساحل الأطلسى . وأكبر الظن أن الوندال لم يستطيعوا وضع أيديهم على المغرب الأقصى لبعده الشديد عن مراكز انتشارهم فى تونس والجزائر، ونظن ظنا أن قوط إسبانيا انتهزوا الفرصة فى أيامهم وأيام بيزنطة فاستولوا على أجزاء من ساحل البحر المتوسط ، وبنوا عليها مدينتى باديس وترغة بجانب مليلة الفينيقية التى كانت خاضعة لهم قبل الفتح العربى ، وبجانب سبتة وطنجة فى الشمال ومدن الساحل الغربى الفينيقية والرومانية مثل أصيلا - سلا - أنفة بنوا مدينة كونتى جنوبى مدينة آسفى فى منطقة دكَّاله كما بنوا مدينة مرامر فى الداخلى على مسافة نحو عشرين ميلا من كونتى . والقوط مثل الوندال لم يكونوا أصحاب حضارة ينشرونها فى البلاد التى نزلوها أو بنوا لهم فيها بعض المدن .

### ٣

الفتح والولاء - ثورة الصفرية - بنو مدرار - الأدارسة - بعد الأدارسة والمدرارين

( أ ) فتح<sup>(١)</sup> المغرب الأقصى وعصر الولاة

بدأت أولى محاولات فتح البلاد المغربية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ رأى عمرو بن العاص واليه على مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة تأمينا لحدود مصر الغربية أن يتعقب الروم

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فتوح البلدان للبلاذرى وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى والكامل لابن الأثير وتاريخ ابن خلدون والبيان المغرب لابن عذارى .

فى برقة وديار المغرب ، واستولى سريعا على برقة وزويلة عاصمة فزان سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م ودار  
 العام ففتحت له طرابلس أبوابها سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . وتوفى الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه  
 عثمان بن عفان فعزل عن مصر عمرو بن العاص ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ،  
 فاستأذنه فى معاودة فتح ديار المغرب ، وأمدّه بجيش كبير كان به عدد من الصحابة ، فالتحم  
 به ديار المغرب سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م ونازل والى بيزنطة جريجوريوس فى حصن داخل الإقليم  
 التونسى يسمى « سبلة » وسحق جيشه سحقا ، وقتل جريجوريوس فى ساحة المعركة ،  
 وفتحت جميع البلاد التونسية أبوابها لابن أبى سرح ما عدا قرطاجة إذ ظلت بها حامية رومية .  
 وتتبع إفريقية التونسية الخلافة الأموية ويتعاقب عليها الولاة ، حتى إذا وليها عقبة بن نافع سنة  
 ٥٠ هـ/٦٧١ م أنشأ مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م واتخذها قاعدة  
 للجيش العربية الفاتحة للمغرب ودارا للحكومة وتدير شؤونها ، وبعبارة أخرى اتخذها عاصمة  
 للمغرب وبنى فيها جامعا كبيرا ودارا للحكومة وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى ، وعُزل ،  
 وخلفه أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م فصمم على فتح نوميديا فى المغرب الأوسط وما وراءها  
 من الصحارى وظل يفتح البلدان حتى انتهى إلى موريتانيا الشرقية وتلمسان ، ولقيته قبيلة أوربة  
 ورئيسها كسيلة ، فهزمتها وأسر كسيلة واعتنق الإسلام واعتنقه معه كثيرون من قبيلته . وعُزل  
 أبو المهاجرين سنة ٦٢ هـ/٦٨١ م وولى مكانه عقبة بن نافع ثانية ، وهو يعد الفاتح الحقيقى  
 لديار المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه ، إذ قام بعمليات عسكرية واسعة النطاق ، وبدأ بالمغرب  
 الأوسط فانتزع ما كان لا يزال بأيدي البيزنطيين من الحصون فى إقليم الزاب ، وأوغل غربا ،  
 وأعلنت له قبيلة غمارة فى شمالى المغرب الأقصى بالريف والهبط ولاءها وهادنته وسالته ،  
 وأخضع ولىلى فى منطقة فاس ، وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وحاحة وجزولة  
 ونازلها واستسلمت . ثم سار إلى السوس آخر معاقل البربر فى المغرب الأقصى ، والنصر يواكبه  
 حتى بلغ ماسة على المحيط ، وأدخل فرسه فيه حتى بلغ الماء تلايب ( طوق ) الفرس وهتف  
 قائلا : « اللهم إني أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبدَ رب سواك » .  
 وكان قد أوغر صدر كسيلة فرصه فى طريق عودته ، حتى إذا سبقه الجيش فى الزاب بالجزائر  
 وكان فى فئة قليلة حاصره ، واستشهد البطل العظيم هو ومن كانوا معه سنة ٦٤ هـ/٦٨٣ م  
 واستولى كسيلة بجموعه على القيروان ، وتراجع زهير بن قيس خليفة عقبة عليها إلى برقة انتظارا  
 لمدد يأتیه ، وأتاه المدد مع توليته على المغرب سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م وينازل كسيلة ويهزمه ويقتل  
 فى المعركة . ويتولى القيروان والبلاد المغربية بعده حسان بن النعمان سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م وكان  
 سياسيا قديرا يحسن تدبير الحكم فدوّن دواوين للجند وللخراج وللرسائل ، وافتتح قرطاجة  
 وطرد منها جالية الروم التى كانت تتجسس لحساب بيزنطة وبذلك أصبحت إفريقية التونسية  
 خالصة للعرب ، وأنشأ مدينة تونس لتكون قاعدة لأسطولها ، وبنى بها دار صناعة تمد الأسطول

بما يلزمه من السفن ، ونشبت في أيامه ثورة عنيفة لقبيلة جراوة الزناتية بجبال أوراس ، وكانت تقودها كاهنة ، فنازلها ولم يكتب له النصر ، واضطر إلى الإنسحاب إلى « سرت » انتظاراً لمدد ، وجاءه جيش جرار فهزمها وقتلت في أثناء فرارها ، وصالحهم على أن يكون ابنها الأكبر الوالي عليهم وأن يجندوا منهم اثني عشر ألفاً ليكونوا جزءاً لا يتجزأ من جيشه ، وكانت سياسة حكيمة فقد أصبح أهل المغرب رفقاء سلاح وأصبح منهم ولاية لا فرق بينهم وبين العرب في شيء . وبذلك ملك قلوب المغاربة ، وأخذ انتشار الإسلام يتسع في المغرب الأقصى وفي كل مكان بالديار المغربية . وخلفه على القيروان وبلاد المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م فوضع نصب عينيه استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب الأوسط والأقصى وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ومعها فقهاء يعلمون الناس قواعد الإسلام وشريعته ثم نهض على رأس حملة كبرى اكتسحت البلاد المغربية حتى أقصى الغرب شمالاً في طنجة وجنوباً في إقليم السوس ، وخلف في النواحي التي لم يتم إسلامها فقهاء يعلمونهم شؤون دينهم وفروضه ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم في أيامه كثيرون من البربر وأتم التنظيم الإداري للديار المغربية ، فولاية لبرقة هي عاصمتها ، وولاية ثانية لإفريقية التونسية وشرقي المغرب الأوسط عاصمتها القيروان ، وولاية لغربي المغرب الأوسط عاصمتها تلمسان ، وولاية لبلاد السوس في المغرب الأقصى عاصمتها سجلماسة ، وولاية لبقية المغرب الأقصى حتى شماليه عاصمتها طنجة، ولكل ولاية حاكمها من العرب أو البربر ، وجعل حاكم طنجة بربرياً هو طارق بن زياد، وأكثر من ذلك جعله قائداً لفتح الأندلس ، وكان أكثر جيشه من البربر ، ومعنى ذلك أنه ألغيت كل تفرقة بين العرب والبربر بحيث أصبحوا سواسية في حكم المدن وفي قيادة الجيوش وفي الجهاد نصرة لدين الله وابتغاء نشره في أطباق الأرض طلباً لما عند الله من الثواب. وبذلك لم يعد هناك أي فارق بين العربي والبربري ، فهما أخوان مسلمان يعملان على إعلاء كلمة الله . ونستطيع أن نقول إن فتح العرب للمغرب الأقصى والديار المغربية تم في القرن الأول الهجري وكان تمامه على يد موسى بن نصير والفاطميين اللذين سبقاه حسان بن النعمان وعقبة بن نافع ولم يجعلوه فتحاً حريباً بل جعلوه فتحاً عقائدياً أخوياً لأمة وثنية أصبحت تدين بوحداية الله ، وأصبحت تستشعر أخوة للعرب أصحاب هذا الدين، فهي تشاركهم في العمل تحت لوائه جهاداً في سبيله ونصرة لعقيدته وتعاليمه.

وتوفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان قصير النظر فعزل البطالين العظميين : موسى بن نصير وطارق بن زياد عن عملهما في الأندلس وغير الأندلس ، وتوقف الفتح العربي في شمال إسبانيا وجنوبي فرنسا ، وخلفه عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، فحاول أن يصلح أداة الحكم في الدولة ، وولّى على القيروان وديار المغرب فقيهاً هو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر الوالي في فترتي عقبة



وأرسل معه تسعة من الفقهاء ، وكلفهم بالعمل جميعاً على نشر الدين الحنيف ، ودخله مغاربة كثيرون من كل أنحاء المغرب . وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز سريعاً ، وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى القيروان يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م . وبيدأ عهد جديد في المغرب لولاة بنى أمية ، عهد يقوم على الخسف والظلم للبربر في جمع الضرائب والأموال ، ولم يطق البربر الصبر على سياسة هذا الوالي الجائرة فقتلوه في السنة التالية ، وكان ذلك عبرة وعظة ليزيد بن عبد الملك فولى عليهم بشر بن صفوان وخلفه سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، ولا تؤثر لأحدهما أعمال جليلة يؤلف بها قلوب الرعية المغربية . ويتولى عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ويذكر له إعادة بناء جامع الزيتونة الذي بناه قبله حسان بن النعمان ، وقد ساس الرعية هو وعماله سياسة متعسفة ظالمة أشد الظلم ، إذ أزهقوا البربر بضراب فادحة ، وأبوا أن يسوا بينهم وبين العرب في الخراج وجميع الشؤون المالية ، كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، متعامين عن أنهم أصبحوا للعرب رفقاء سلاح وجهاد في الأندلس وفي المغرب نفسها ، وبلغ من سفه عامل طنجة القائم على شؤونها المالية أن أعلن للمغاربة هناك أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعماً زعماً كله إثم وكذب وبهتان أنهم قبيحٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

### (ب) ثورة الصفرية

لم يتنبه حكام بنى أمية وعمالهم في القرن الثاني الهجري إلى أن من الخطأ بل من أكبر الخطأ هذه المعاملة الظالمة للمغاربة بعدم التسوية بينهم وبين العرب في الشؤون المالية ، مع أنهم أصبحوا رفقاء سلاح وجهاد وأسهموا معهم في فتح الأندلس ونشر دين الله ، بل كان لهم في ذلك النصيب الأوفر ، وكان الإسلام قد استقر في ديارهم وأصبح لهم فيه شيوخ كثيرون يفقهون تعاليمه وما يفرضه من العدل والتسوية بين أتباعه ، لذلك انطوت نفوس كثيرين منهم على سخط شديد لحكام بنى أمية وعمالهم . وانضاف إلى ذلك أن كثيرين من أتباع فرقتي الصفرية والإباضية نزلوا المغرب فراراً من اضطهاد الأمويين ، واختار الأولون المغرب الأقصى واختار الثانون جبل نفوسة بجوار طرابلس ، ووجدت كل فئة منهما الجر مهيباً لترويج دعوتها القائلة برفع الظلم عن أبناء الأمة الإسلامية والتسوية بينهم جميعاً في الشؤون المالية ، وكأنما وجد مغاربة جبل نفوسة في الدعوة الإباضية مخلصاً لهم من ظلم حكام بنى أمية وبغى عمالهم ، وأحس مغاربة المغرب الأقصى في دعوة الصفرية نفس الإحساس . وملاً نفوسهما جميعاً إيماناً بدعوتيهما ما تقرران من التسوية حتى في تولى الخلافة فلا يصح أن تقصر على قریش ، بل هي حق للمسلمين جميعاً عرباً وغير عرب يتولاها أكفؤهم . ولم يعد في المغرب الأقصى شخص يسمع بدعوة الصفرية إلا ويستجيب إليها ضد من يسومونهم العذاب في سلب أموالهم

باسم الخراج سوى ما يكلفونهم من المغارم والجبايات مما كثر معه - كما يقول ابن خلدون -  
عَثِمهم في أموال البربر وجورهم عليهم ، بحيث أصبح لا مفر من ثورتهم على هؤلاء الحكام  
الباغين الظالمين المعطلين لتعاليم الإسلام . لذلك كان طبيعياً أن ينتشر في المغرب الأقصى مذهب  
الصفيرية وأن تعتنقه القبائل هناك ، تعتنقه قبيلة مضغرة وشيخها ميسرة وقبيلة مكناسة وشيخها  
سمكو بن واسول وقبيلة برغواطة وبعض قبائل زنانة وتغلغل في بعض المدن في جماعات السودان  
القاطنين جنوبي الصحراء وجميع أرجاء المغرب الأقصى . وأجمع دعاة الصفيرية فيه على زعامة  
ميسرة شيخ قبيلة مضغرة ، وبويع بالإمامة ، وزحف بجموع الصفيرية إلى طنجة ، فاستولى  
عليها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي ، وعين عليها والياً من قبله ، واتجه بجموعه إلى  
السوس فقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ودانت له ، وتمت له بذلك السيطرة  
على جميع المغرب الأقصى .

وعرف ذلك عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر بإرسال جيش بقيادة خالد بن حبيب الفهري  
فالتقى بميسرة وجيشه قرب طنجة ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة  
خالد ، فانسحب ميسرة إلى طنجة ، ولم يعجب ذلك أتباعه من الصفيرية ، فنحّوه عن قيادتهم  
وولوها خالد بن حميد الزناتي كما ولوه الإمامة سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م وأخذ يعد جيشاً للقاء  
خالد الفهري ، ونصب له ولجيشه كميناً على نهر شلف شمالي تاهرت ، ودارت معركة حامية  
انتهت بالقضاء على جيش خالد الفهري قضاء مبرماً وكان فيه كثير من أشرف العرب فسميت  
معركة الأشرف لكثرة من مات فيها من حماة العرب وفرسانهم وكآتهم وأبطالهم . وغضب  
هشام بن عبد الملك لهذه الهزيمة الساحقة ونحى عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية المغرب ، وولّى  
عليه كلثوم بن عياض القشيري ، وأعانه بابت أخيه بلج بن بشر ، وبعث معه جيشاً ضخماً  
عداده ثلاثون ألفاً ، وزحف بابت أخيه وهذا الجيش إلى خالد بن حميد الصفري بطنجة ، والتقى  
جنوبيها ، ودارت معركة ضارية انهزم فيها كلثوم وتوفى ، فلجأ بلج إلى سبتة بعشرة آلاف  
من جنده ، وحاصره خالد بن حميد والصفيرية ، واضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس .

ونشبت ثورات للبربر في جميع الديار المغربية ، وولّى هشام بن عبد الملك عليه حنظلة بن  
صفوان سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، وتطايّر شرر كثير من دعوة الصفيرية إلى المغرب الأوسط  
والأدنى ، وأخذ يعتنقها كثيرون في المغرب الأوسط بين قبائل نفزة وزنانة ، ويفاجأ حنظلة  
بقائدين صفيرين كبيرين هما عكاشة بن محصن الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهواري يحشدان  
جموع الصفيرية في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا على أن يتخذا طريقين لمهاجمة القيروان :  
عكاشة من الجنوب ، وعبد الواحد من الشمال ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة  
وسحق جيشه ، وعاد إلى القيروان وأخذ يستعد للقاء عبد الواحد ، ونجح في استمالة أهل  
القيروان وفي مقدمتهم الفقهاء ، ووزع عليهم جميعاً السلاح ، وبث القصاص والقراء يخرضون

على الجهاد ، وبرز نساء القيروان فعقدن الألوية وأخذن معهن السلاح ، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتله ، فملتأ الجيش حماسة وحمية ، ودارت المعركة وهزمت الصفرية هزيمة ساحقة قتل منهم فيها مائة وثمانون ألفا .

وكان المغرب الأقصى حينئذ هادئا بإمامة خالد بن حميد الزناتي ، وخلفه على إمامة الصفرية وزعامتهم أبو قرّة المغيلي ، ويقال إنه حضر مع عبد الواحد الهواري معركة القيروان وفر حين تراءت له الهزيمة . ونفاجأ سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م بقبيلة ورفجومة الصفرية أشد قبائل نفزة بأسا بأوراس تستولى على القيروان وتستحل المحارم وترتكب العظائم كما يقول الرقيق القيرواني إذ ربطوا دوابهم في المسجد وهتكوا عرض بعض النساء . وكل ذلك غريب على دعوة الصفرية فهي فقط تكفر مرتكب الكبيرة وتستحل قتال المسلمين ولكنها لا تستحل ارتكاب العظائم ، ولعل ذلك ما جعل أهل المغرب الأقصى فيما بعد ينصرفون عنها وعن دعواتها بينهم كما جعل أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري زعيم الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة حين علم بما يرتكبون من المآثم في القيروان ينازلهم ويقاتلهم حتى يقضى عليهم سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م وولّى عليها عبدالرحمن بن رستم أحد قواده . وسرعان ما يهزم والي القيروان العباسي الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب المعافري في موقعة فاصلة، وينسحب عبدالرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس به دولته الرستمية الإباضية في تاهرت. وعلى أثر ما حدث من هزيمة الصفرية في القيروان نجد أبا قرّة الصفري يكوّن له إمارة مستقلة بنواحي تلمسان. وفي الوقت نفسه نجد أحد زعماء الصفرية منذ التفافهم حول ميسرة، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول ينشئ للصفرية دولة في سجلماسة، ولم ينشئها في طنجة ولا في المناطق الساحلية والداخلية للمغرب الأقصى مما يدل على انصراف الناس فيهما عن تلك الدعوة ، وخاصة بعد ماشاع عنهم في احتلالهم للقيروان من استحلال المحارم وارتكاب العظائم وربط دوابهم في المساجد.

وعلم ابن الأشعث أن أبا قرّة يعدّ العدة في تلمسان لمهاجمة الزاب والقيروان ، فأرسل في سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م الأغلب بن سالم التميمي على رأس جيش لمواجهة قواته ، والتقى به وجموعه في الزاب ، واضطر أبو قرّة إلى الإنسحاب . وتولى المغرب عمرو بن حفص المهلبى سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ونازل الصفرية في الزاب ونكّل بهم ، وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م وكان بطلا مغوارا فقضى على الصفرية في المغرب الأوسط ( الجزائر ) قضاء نهائيا ، وحاولت ورفجومة الثورة فقمع حركتها سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م ويقال إنهم تفرقوا في القبائل بعد هذه الحركة ولم يعد لهم كيان قبلي مستقل . ونشعر بوضوح أنه لم يعد للصفرية شأن يذكر في المغربين الأوسط والأقصى بعد عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) فإن من بقي منهم انسحب إلى سجلماسة وحكامها الصفرية من بني مدرار .



## (ج) بنو<sup>(١)</sup> مدرار

استقر في أذهان كثيرين من الصفرية - وخاصة صفرية مكناسة - بعد إخفاق حملتي عكاشة وعبد الواحد على القيروان وكثرة من قتل فيهما من الصفرية حتى لقد بلغوا أكثر من مائة ألف صفري أنه ينبغي أن يبحثوا لهم عن مدينة نائية يصعب وصول الجيوش القيروانية العباسية إليها يتخذونها مأوى لهم ويعيشون فيها شبه منعزلين عن مسالك تلك الجيوش ، واختاروا سجلماسة لذلك سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م لأنها تقع في أقصى مكان بالجنوب الشرقي من المغرب الأقصى على نهر زيز والطرق المؤدية إليها شديدة الوعورة ، وتكتنفها متاهات من القفار . وكان الذي اختارها زعيم من زعماء الصفرية ممن أسهموا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد إمامي الصفرية ، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول الملقب بمدرار زعيم صفرية مكناسة ، وكان من حملة العلم وارتحل في سبيله إلى المدينة وإلى تونس ، وفيها تلمذ على عكرمة المفسر مولى ابن عباس وتلميذه ، وكان يعتنق دعوة الصفرية فحملها عنه تلميذه سمكو ، ورجع إلى قومه في مكناسة يشر بها ويدعوهم إليها ، فاستجاب له كثيرون وشاركوا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد كما أسلفنا . وكان حصيفا ، وكان قد درس مذهب الصفرية أو عقيدتهم ، ورأى من أسسها الأخذ بالتقية وأن من حق الصفري أن يعلن أنه مع الجماعة في الظاهر ويطن الدعوة الصفرية ، وكان لا يعد دار المسلمين أو دار الجماعة دار حرب ، بل يتعايش معهم ، والصفري لذلك من حقه القعود عن الحرب وأن لا يحمل السلاح في وجه المسلمين ، وهو ما آمن به ، وكأنه كره الحروب التي خاضها ميسرة وخالد بن يزيد ضد جيوش القيروان وأن يسلم المسلم السيف في وجه أخيه المسلم ، لذلك رأى أن ينحاز عن معاركهما الطاحنة إلى سجلماسة وتبعته كثرة من صفرية قومه أهل مكناسة ، وجاءته عناصر صفرية مختلفة من صنهاجة وزناتة وزنوج السودان من سكان الفيافي والصحراء بين سجلماسة وغانة ، وسرعان ما أصبحت مدينة كبيرة .

وكان سمكو الملقب بمدرار صالحاً تقياً متواضعاً ، فرأى أن يكون أول إمام في هذه الدولة سودانيا من رعوس الخوارج ، وهو عيسى بن يزيد ، وارتضته الصفرية وبايعته ، فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واستكثر من غرس النخيل والزروع . واتسع ثراء أهل سجلماسة لكثرة ما كانوا يتبادلونه - ويتجرون فيه - من السلع مع السودان . وظلت الصفرية - مع السنين - تنقم على عيسى بن يزيد - بعض تصرفاته ، حتى إذا كانت سنة ١٥٥ هـ / ٧٧١ م

( طبع ليدن ) ص ٦٠ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ( طبع الدار البيضاء ) ١٣٧/٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون ( طبعة بولاق ) ١٣٠/٦ وما بعدها .

(١) انظر في دولة بني مدرار بسجلماسة كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ( طبع باريس ) للبكري ص ١٤٨ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى ( طبع بيروت ) ص ٢١٥ وما بعدها وصفة المغرب للإدرسي

نحته عن الإمامة ، ونصبت مكانه أبا القاسم سمكو الملقب بمدرار حتى سنة ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م وظلت الدولة في أسرته ، ولذلك قيل لها دولة بنى مدارار ، وقد عمل على إرساء قواعد الدولة على أساس المبدأين اللذين أشرنا إليهما : مبدأ التقية ومبدأ القعود عن الثورة على حكام الجماعة الإسلامية وعملهم عباسيين وغير عباسيين ، وبذلك ضمن لسكان سجلماسة الصفرين أن يعيشوا معيشة هادئة آمنة لا يعكر صفوها حرب مع ولاة العباسيين ودولة بنى الأغلب التي قامت باسمهم في القيروان . وبهذا الموقف الذي وضع فيه سمكو الملقب بمدرار سجلماسة وسكانها من الصفرين نفهم ما يقوله ابن خلدون من أن سمكو مدارارا كان يخطب في عمله لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي ( ١٣٦-١٥٨ هـ ) وابنه المهدي ( ١٥٨-١٦٩ هـ ) . وتوالى أبناؤه وأحفاده من بنى مدارار يدعون في خطبهم لخلفاء بنى العباس ، وبذلك كفوا شر حروبهم وجيوشهم . واتخذت الصفرية في سجلماسة ابنه إلياس إماما بعده ، وتظل تنقم عليه وجوها من سياسته وتصرفاته ، وتُجمع أمرها في سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م على خلعه وتولية أخيه اليسع مكانه ، ويذكر البكري أنه هو الذي دبّر أمر خلعه أخيه ، وكان حازما يحسن تدبير الملك ، فأعد جيشًا قويا وسّع به أطناب إمارته ، واستطاع احتلال درعة وضمها إلى إمارته وأخذ الخمس من مناجم الفضة فيها ومعدن الذهب ، وبنى بجانب سجلماسة مدينة شيد قصورها واختط مصانع بها وأقام حول سجلماسة سورا لتحصينها جعل فيه اثني عشر بابا ، وأصهر بابنه مدارار للحاكم الرستمي عبد الوهاب ( ١٧١ - ٢١١ هـ ) في ابنته أروى توثيقا للعلاقة بين دولته الخارجية الصفرية والدولة الخارجية الرستمية الإباضية في الجزائر ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م فولى إمامة الصفرية بعده ابنه مدارار ، وطالت ولايته ورزق بابنين من الرستمية وقرينة لها صفرية ، وسمى كلا منهما ميمونا ، وكان يؤثر ابن الرستمية على أخيه ، وحاول أن يوليه مكانه سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م فأرغمته الصفرية على التنازل عن الإمامة لأخيه ميمون بن الصفرية ، فنفى أباه إلى بعض قرى سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م وظل هو يلى الإمامة حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٧ م وخلفه عليها ابنه محمد حتى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٤ م وخلفه ابنه اليسع ، وفي عهده نزل أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي الإمام العبيدي كتامة في الجزائر وظل فيها سنوات يث دعوته ، ونجح في بثها واستطاع تكوين جيش منها لمانزلة الدولة الأغلبية في القيروان ، وشعر بأنه يوشك أن ينجز مهمته لصالح المهدي ، فأرسل إليه يستقدمه ليشارك في الأحداث الأخيرة ، ولبّاه المهدي واصطحب معه رفقة من رجاله سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م والتزم التخفي من عمال الدولة العباسية في طريقه وسلك طرقا غير معهودة أدته إلى سجلماسة ، فأكرمه اليسع ، وبعد فترة ارتاب فيه ، فسجنه هو ورفقائه . وعلم بذلك أبو عبد الله الداعية العبيدي الشيعي ، فانتظر حتى انتصر على الأغلبة سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م وزحف إلى سجلماسة لإخراج عبيد الله المهدي من السجن وردّ حرته إليه ، وعلم اليسع بقدمه إلى سجلماسة ،



فخرج إليه بجيشه من مكناسة ودارت معركة كتب فيها النصر لأبي عبد الله الشيعي وجيشه ، وقتل اليسع في المعركة واستولت كتامة على سجلماسة ، وخرج المهدي ورفاقه من محبسهم ، وبايعه أبو عبد الله الشيعي ، وبايعه الناس وولى على سجلماسة واليا من كتامة ، وانصرف مع داعيته إلى إفريقية التونسية .

ولم تلبث صفرية سجلماسة أن انتقضت على والي المهدي الكتامي وقتلته هو ومن معه من كتامة سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م وبايعت الفتح بن ميمون بن الرستمية ، وتوفى سريعا فخلفه أخوه أحمد ، واستقام أمره وحكمه إلى أن زحفت إليه كتامة بقيادة مصالة بن حبوس سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م فافتتح سجلماسة وقبض على أحمد وولاه ابن عمه المعتز ، وتوفى سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م وبايعت الصفرية ابنه سمكو ، وكان لا يزال في المهدي ، فثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون ، وتلقب بالشاكر لله ، ورفض الدعوة الصفرية ، وأعلن الأخذ بمذاهب أهل السنة ، وكان عادلا منتهى العدل كما يقول ابن خلدون ، ويقال إنه دعا لنفسه بالخلافة ، ويقول ابن خلدون إنه دعا لبني العباس ، وأنه ضرب العملة باسمه . وظل يحكم سجلماسة حكما عادلا رشيدا إلى أن اكتسح جوهر الصقلي بجموعه الشيعية من كتامة وصنهاجة المغرب الأقصى ، واستولى - فيما استولى - على سجلماسة ، وأخذ حاكمها السني محمد بن الفتح أسيرا إلى رقادة بإفريقية التونسية ، وتوفى بها سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م . وثار الصفرية على والي جوهر الصقلي سريعا ، وبايعت أحد أبناء الشاكر لله ، وارتضى ذلك المعز العبيدي ، غير أن أخاله ثار عليه وقتله سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . وأخذ نجم قبيلة مكناسة في الأفول بينما أخذ نجم قبيلة زناتة في التآلق والسطوع . وكان أمويو الأندلس قد استطاعوا جذب مغراوة الزناتية إليهم ، وبمساعدهتهم زحف حزررون بن فلفول من أمرائها إلى سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م وبرز له المعتز مع قومه الصفرين من مكناسة ، وقتل وهزم قومه هزيمة ساحقة لم تقم لهم بعدها في سجلماسة قائمة ، وأقام حزررون بها دعوة الأمويين الأندلسيين ، وكانت أول دعوة أقيمت لهم في المغرب الأقصى .

( د ) الأدارسة<sup>(١)</sup>

معروف أن الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ثار على العباسيين بمكة أيام الخليفة العباسي المهدي في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وثار معه أهله وفي مقدمتهم

١٨٨/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٢/٤ وما بعدها والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة لإسماعيل العربي ( طبع بيروت ) .

(١) انظر في دولة الأدارسة كتاب المغرب للبكري وصفة المغرب للإدريسي وروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع ( طبعة الرباط ) ص ١٩ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها وأعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب

عماه : يحيى وإدريس ، وسرعان ما نازله جيش عباسى فى مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة يقال له : « فنج » ودارت الدوائر على الحسين ومن معه فقتل فى المعركة مع جماعة من أهل بيته ، وفر عمه يحيى إلى الديلم ، أما عمه إدريس ففر إلى مصر ، وكان على بريدها يومئذ شخص اسمه واضح ، وكان يتشيع ، فأتاه إلى مخبئه ، ووجد معه مولاه راشداً فنصحهما أن يحملهما على البريد إلى المغرب الأقصى بعيداً عن المهدي وعيونه ، وأخذاً بنصيحته ، ونزلاً فى ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م فى مدينة ولىلى بجبل نزهون على إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلى شيخ قبيلة أوربة ، وعرفه أمره ، فأجاره ، فبايعه وبايعته معه قبيلته ، وجمع على الدعوة إليه أيضاً قبائل زواغة ولواتة وغمارة ونفزة ومكناسة وكافة البرابز بالمغرب فبايعوه . ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا لا يزالون على دين المجوسية وإخوانهم المتهودين والمنتصرين فدانوا له وأسلموا على يديه . وفى سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة الزناتية وأميرها محمد بن خزر فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مغراوة فأمنه وأمن سائر زناتة وبنى مسجداً بتلمسان ونظم شعونها ورجع إلى عاصمته « ولىلى » ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م ويقال إن الرشيد أرسل إليه شخصاً أظهر له الولاء ، فقربه منه ، وانتهاز فرصة فسد إليه السم وكان فيه حتفه .

وكانت زوج إدريس حاملاً فاتفق أنصاره على انتظار وضعها ، وأنجبت ولداً سمته باسم أبيه إدريس فقام على تربيته خير قيام مولاه راشد ، وتوفى راشد سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م فجعلوا مكانه فى الوصاية عليه وإشرافه على تربيته يزيد بن إلياس ، حتى إذا بلغ الصبى الحادية عشرة بايعوه فى جامع ولىلى ، وشب ودان له المغرب الأقصى واستوزر مصعب بن عيسى الأزدي وأخذ يستكثر فى بطانته من العرب حتى بلغوا نحو خمسمائة وبهم عظم سلطانه . وقتل إسحق بن محمد بن عبد الحميد كبير أوربة لما علم من اتصاله بخصومه الأغالبة حكام تونس وشرقى الجزائر . ورأى أن مدينة ولىلى تضيق بحاشيته وأنصاره ، فصمم على بناء مدينة تسعهم ، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين ، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته ، فأخذ ترواً فى بناء مدينته : فاس سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م وتصادف أن كان فقهاء قرطبة حينئذ تائرين على الحكم الرضى لانهماكه فى ملذاته وفى اللهو والملاهى فاجتمع أهل العلم والورع من الفقهاء وحصره سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م وقتلهم فتغلب عليهم وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس والإسكندرية . ولا ندرى هل لحقوا بفاس فى أول بناء إدريس الثانى لها أو فى أثناء بنائها ، إذ نراه يتم شطرا منها سنة ١٩٢ هـ ويسمى العُدوة الأندلسية ، إما لأن الأندلسيين ساعدوا فى بنائه وسكنوه أو لأنهم سكنوه فحسب . وفى العام التالى بنى شطرا ثانياً مقابلاً للشطرا الأول وسمى عدوة القرويين أى المغاربة ، وجعل فيه مسكنه وإدارة حكومته ، وسمى الشطران جميعاً باسم فاس وظل يفصل بينهما طريق طويلاً . وغزا إدريس الثانى قبيلة مصمودة

ودانت لطاعته واستولى على أغمات سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م ثم غزا تلمسان وجدد مسجدها ومنبره وأقام بها ثلاث سنوات يدبر شئونها ، ومحا منها دعوة الصفرية ، واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالبة والعباسيين ، ولم يستطع الأغالبة منازل الأدارسة بعد هذا التاريخ وتوفى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م .

وخلف إدريس الثاني ابنه محمد بعهد منه ، فرأى تقسيم مملكة أبيه بينه وبين إخوته واختص نفسه بفاس وأعمالها ، وأعطى القاسم إقليم الريف والهبط بما فيه من سبتة وتطوان وطنجة ، وأعطى عمر بلاد صنهاجة وغمارة ، وداود هوارة وتازة ومكناس ، وعبد الله أغمات وبلاد المصامدة والسوس ، ويحيى أصيلا والعرائش وبلاد ورغة ، وحمزة وليلى وأعمالها ، وعيسى أزموور وتامسنة ، وأبقى تلمسان لأولاد سليمان بن عبد الله أخى جده إدريس . وخرج عيسى على أخيه محمد وطلب من القاسم حربه فامتنع وطلب ذلك من عمر فهزمه وأخذ ما فى يده وطلب إليه محمد حرب أخيهما القاسم لامتناعه عن حرب عيسى فحاربه وأخذ ما فى يده ، وبذلك اتسعت ولايته فشملت إقليم الريف والهبط وتامسنة وهو جد المحموديين الإدريسيين المتملكين لقرطبة فى أوائل القرن الخامس بالأندلس ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٤ م ولم يلبث الأمير محمد أن توفى سنة ٢٢١ هـ/٨٣٥ م وخلفه ابنه على فى التاسعة من عمره ، فقامت على تربيته الحاشية وظل حتى سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م وكانت أيامه أيام رخاء . وعهد لأخيه يحيى فاتسع سلطانه وعظمت فاس فى العمران وبنى بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد ، وهاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من القيروان من قبيلة هوارة - هى أم البنين الفهرية - ومعها أموال كثيرة أفادتها من ذويها ، واعتزمت إنفاقها فى وجوه الخير ، فاختطت سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م المسجد الجامع المشهور بعدوة القرويين وهو المسمى باسم جامع القرويين ، وتحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى فى فاس كجامعة الأزهر فى القاهرة ، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرنى أنه بنى مئذنته على رأس قرن من اختطاطه . وولى بعد يحيى ابنه يحيى المسمى باسمه فأساء السيرة وكثر عبثه ، فثارت عليه العامة ، واضطر إلى الانسحاب إلى العدو الأندلسية ، وبعد ليلتين من نزوله بها وافاه أجله ، وبذلك انقطع الملك فى الدولة من ذرية محمد بن إدريس الثانى .

وثارت الصفرية بجمال مديونة ودخلت عدوة الأندلس بفاس وقاومتها عدوة القرويين بقيادة يحيى بن القاسم بن إدريس وهزمتها وأخرجتها منها ، وتطورت الظروف فقام بالأمر فى فاس يحيى بن إدريس ابن عمر ، فملك جميع أعمال الأدارسة فى المغرب ، وخطب له فى سائرها ، وفيه يقول ابن خلدون : « كان أعلى بنى إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . وكانت الدعوة العبيدية قد نجحت واستطاعت



تقويض الدولة الأغلبية ، واستولى على صولجان الحكم في طرابلس وتونس والجزائر عبيد الله المهدي وطمح إلى ملك المغرب الأقصى ، فعقد لمصالة بن حبوس كبير مكناسة على رأس جيش ضخمة لمتازلة حكاه سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ونازل مصالة يحيى بن إدريس ، وارتضى إعلانه الطاعة للمهدي وخلع نفسه وإنفاذ البيعة فأبقى له مصالحة في فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب ، وعقد مصالة لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يومئذ على بقية المغرب الأقصى ، وعاد مصالة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فأغراه ابن أبي العافية يحيى فاستصفي أمواله ، وأجلى الأدارسة إلى الريف فنزلوا مدينة البصرة واختطوا بها حصن النسر سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة في فاس وانتهى معهم سلطان أوربة . وتجدد لهم ملك في سبتة وأصيلا وإقليم أو منطقة الهبط ، وكانوا يختارون شخصا يقدمونه عليهم مثل قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وتوفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م فانفقوا على تقديم أبي العيش أحمد بن قنون وكان يخطب لعبد الرحمن الناصر الأموي ، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهدا سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م واستخلف أخاه الحسن بن قنون واتصلت مشايخته للأمويين الأندلسيين إلى أن غزا المغرب بلقين ، فدخل في دعوة العبيديين مما جعل المستنصر الأموي يعد جيشا لحربه ، ونازله في عهد هشام المؤيد الأموي جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة في إقليم الهبط كما انتهت في فاس .

وأما سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى فإنه نزل تلمسان وتملكها من زنانة ودانت له وتركها له إدريس الثاني .، وتملك أنحاء من المغرب الأوسط ، وورث ملكه ابنه محمد واقسمه أبناءه ، وظلوا يتوارثون تلمسان وأرشكول وجراوة وتنس واستشعر بعضهم الولاء لبني أمية ، وأخيرا ضاع ما بيدهم ، جزء أخذه ابن أبي العافية وجزء استولى عليه أولياء الدعوة العبيدية .

وقبل أن تترك الدولة الإدريسية لابد أن نشير إلى أنها أول دولة أسست في المغرب الأقصى ، وكانت دولة إسلامية عربية ، وقد أسهمت بقوة في نشر الإسلام السني في المغرب الأقصى وتلمسان وتطهيرهما من الصفرية والرافضة وعنت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث النبوي وتفقيه الناس أمور دينهم ، وأخذت تتكون في مساجد المدن حلقات القراءة والمفسرين والمحدثين والفقهاء وعنى علماءها بتعليم المغاربة العربية وأصبح في المغرب مؤدبون ومعلمون مختلفون . وكانت الدولة عربية وفتحت أبوابها لشخصيات عربية كثيرة جاءت من القيروان ومن المشرق ، حتى قالوا إنه كان في بطانة إدريس الثاني - كما أسلفنا - خمسمائة عربي . وأخذوا يتكاثرون مع الزمن ، ولما ثار كثيرون من الفقهاء وأهل العلم والورع بقرطبة

على الحكم الرضى - كما أسلفنا - سنة ١٩٠ للهجرة وقتلهم وانتصر عليهم ، هدم دورهم ومساجدهم ، فلاحق كثيرون منهم بفاس ، وكل ذلك أسرع بعروبة المغرب الأقصى .

#### (هـ) فاس<sup>(١)</sup> وسجل ماسية<sup>(٢)</sup> بعد الأدارسة والمدرايين

انتهى حكم الأدارسة في فاس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م وتطورت بها ظروف مختلفة وجعلها العبيديون لموسى بن أبي العافية كبير مكناسة ، فظل مواليا لهم حتى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م إذ رأى أن يعلن ولاءه للخليفة الأموي بقرطبة عبد الرحمن الناصر . ودانت فاس بالطاعة للعبيديين سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٥ م وعادت إلى الناصر سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م فولّى عليها محمد بن الخير المغراوي ، واستدار العام فرأى أن يرحل إلى الأندلس للجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن سعيد ، وهو الذى شاد مئذنة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وافتتحها جوهر الصقلي باسم المعز العبيدى سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م وظلت الدعوة العبيدية قائمة له فيها حتى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م إذ أرسل الحكم المستنصر الخليفة الأموي فى قرطبة قائده غالبا إلى المغرب فدخل مدينة فاس وأعاد فيها الخطبة للأمويين . وفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م عادت للعبيديين ، ولم تلبث أن عادت للأمويين سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م وولى عليها المنصور بن أبي عامر زيرى بن عطية الخزرى المغراوي الزناتى وجعلها سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٨ م دار ملكه ، فعلا قدره وارتفع شأنه ، وملك مدينة تلمسان وبسط سلطانه على المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب فى الجزائر ، وأسكن قبيلته أنحاء فاس وبالقرب منها ورفع عن أحوازها بنى يفرن سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م فثاروا عليه وهزمهم وأسكنهم مدينة سلا على المحيط ، وابتنى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م مدينة وجدة . وفسدت العلاقات بينه وبين المنصور بن أبي عامر ، ونازله ودارت الدوائر على جيشه ، فأرسل إليه جيشا ثانيا بقيادة المظفر ، وتغلب المظفر عليه . وفى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م أصبح المظفر حاجبا للمؤيد هشام بعد أبيه المنصور بن أبي عامر فكتب للمعز بن زيرى بالولاية على فاس وسائر أعمال المغرب ، وظل المعز واليا للأمويين على فاس والمغرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م . وكانت الخلافة الأموية قد سقطت فى قرطبة فاستقل المعز بن زيرى بالمغرب وفاس حتى وفاته سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م وعاشت فاس أيامه فى رخاء ، وكان ممدحا يقدر الشعر والشعراء فقصدوه من مملكته ومن الأندلس . وخلفه ابنه دوناس إلى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م وفى عهده ازدهرت الحياة فى فاس ونما بها العمران وأصبحت مدينة واحدة بعد أن كانت عدوتين متقابلتين وكثر فيها بناء المساجد والحمامات والفنادق .

(١) انظر فاس فى هذه الحقبة بكتاب البيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها والأعلام لابن الخطيب ١٥٣/٣ وما بعدها رررض القرطاس ص ٨٣

(٢) راجع فى هذه الحقبة لسجل ماسية كتاب الأعلام لابن الخطيب ١٥٠/٣ .

وخلفه ابنه فتوح ، وفي أيامه ظهرت لتونة فى أطراف البلاد بقيادة عبد الله بن ياسين ، وخافها فترك مدينة فاس عاصمته لمعنصر بن حماد المغراوى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وافتتحها يوسف بن تاشفين سلما ، وعاد معنصر فتغلب عليها وخلفه ابنه تميم ، وزحف إليها يوسف بن تاشفين وافتتحها نهائيا سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م .

وأما سجلماسة فإن جوهرًا الصقلى حين افتتحها ولّى عليها مبادر بن زيرى إلى أن توفى فى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م فتولاها ابنه يصلتين الزناتى ، واستطاع الأمويون فى قرطبة أن يجذبوا إليهم قبيلة مغراوة وكبيرها حزرون بن فلفول ، فزحف إليها باسمهم سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م واستولى عليها وأقام بها الدعوة لهم ، وعقد له المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة الأموى المؤيد ومدبر دولته عليها وعلى جميع أعمالها هى ومدينة درعة ، وظلت فى أسرته المغراوية ، وتملكها ابنه مسعود سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م وغلب على جميع أعمالها هى ودرعة حتى توفى سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م وخلفه ابنه محمد لمدة قصيرة إذ توفى سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ووليها بعده ابنه مسعود . وكان أمر لتونة وشيخها الكبير عبد الله بن ياسين قد شاع فى البلاد ودانت له جميع الصحراء وبلاد السودان فكتب إليه فقهاء سجلماسة أن يغزوها ليرفع عنها العسف والجور ويطهرها مما بها من المنكرات ، ولبّاهم والتقى بمسعود وجموعه وهزم وقتل فى المعركة سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ودانت سجلماسة ودرعة للشيخ ابن ياسين بالولاء والطاعة ، فجعل عليها عاملا من لتونة وانصرف إلى الصحراء .

#### ٤

### المرابطون - الموحدون - بنومرين

#### ( أ ) المرابطون<sup>(١)</sup>

المرابطون صنهاجيون بدو كانوا يتنقلون وراء أنعامهم فى الرمال الصحراوية المتراامية بين جنوبي المغرب الأقصى وقبائل إفريقية المدارية السوداء حتى السنغال وغيرها من بلاد السودان ونفس كلمة السنغال خير شاهد على ذلك إذ هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين ، حين وصلوا إلى سواحلها فسموها Senhagal ثم أصبحت Senagal وظلوا دهورًا منتبذين العمران يعيشون على الأنعام وألبانها ولحومها ، وأخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم بين

دول المغرب الأقصى للسلارى وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ليوسف إشباهج ترجمة محمد عبد الله عنان . وقيام دولة المرابطين للدكتور حسن محمود ( طبع القاهرة ) وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان .

(١) انظر فى دولة المرابطين روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ وما بعدها وابن عذارى فى الثالث ( طبع باريس ) والرابع طبع بيروت وأعمال الاعلام لابن الخطيب ٢٢٥/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٨١/٦ وما بعدها والاستقصا فى أخبار



الأمم ، وكثروا في منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها كدالة ومسوفة ولطة وجزولة وملتونة وهي أهمها جميعا . وكان دينهم في جاهليتهم المجوسية مثل سائر البربر ، وأخذوا يدخلون في دين الله متأخرين في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، وتحمسوا له ، وجاهدوا في سبيله أمم السودان ودوحوهم وحملوهم على اعتناقه فدانت به كثرتهم ، وأدَّى الجزية منهم من لم يعتنقه . وكان لهم - بسبب اتساع منطقتهم - ملك ضخم توارثه ملوكهم ، وكان ملكهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري يحيى بن إبراهيم الكدالي ، وكان على شيء من التقوى فتجهز لأداء فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م وفي عودته منه لقي بالقيروان أبا عمران القاسي شيخ المذهب المالكي ، فاستمع إلى دروسه ، ولزمه فترة فأعجب به الشيخ وسأله عن موطنه ، فقال له إن الجهل فاش في الناس هناك وحبذا لو أرسلت معنا تلميذا لك يفقههم في الدين ، فعرض الشيخ رغبته على تلاميذه فلم يقبل أحد منهم الذهاب معه لتلك الغاية ، فكتب له رسالة إلى تلميذ له في سجلماسة هو وجاج بن زولو اللمطي لعله يقبل تلك المهمة ، فانتدب له وجاج تلميذا تقيا نابها من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولي ، وما إن نزل في قبائل صنهاجة المتبدية حتى أعجبوا به ، والتفوا حوله أول الأمر ، وعادوا فأنكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات ، وشعر باليأس فصمم على أن يتركهم وشأنهم ويقصر نفسه على النسك وعبادة ربه . وأشار عليه يحيى بن عمر أحد رؤساء ملتونة أن يتنسك معه في جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ونزلها معه وأقام فيها رباطا ، وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن في قلوبهم منقال حبة من إيمان لينسكوا معه في رباطه بتلك الجزيرة ، فلما بلغت عدَّتْهم ألفا قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون » أي المجاهدون في سبيل الحق وحمل كافة الناس عليه ، ولذلك سمو بهذا الاسم : المرابطون ، وغلب على تسميتهم بالملتومين ، وبحق ظلت هذه الدولة - طوال عهدها - دولة رباط وجهاد في سبيل الله .

وخرج عبد الله بن ياسين معهم ومع يحيى بن عمر اللمتوني ، وأخذ يُعِدُّ العدة للجهاد في سبيل الله ، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته ، وظل زعيمها الديني بينما كان يحيى بن عمر زعيمها الحربي واتجه شمالا فاستولى - كما مر بنا - على درعة وسجلماسة وإقليمها سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأصلح من أحوال هذه المنطقة وغير ما بها من المنكرات وأسقط عن الناس المغارم والمكوس . وكان استيلاؤه على هذه المنطقة حطما للحصار الشمالي الذي كان مضروبا على قبائل صنهاجة البدوية أو الصحراوية ، وعاد إلى الصحراء وتوغل في الجنوب فهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال وانتصر عليهم ، وكان ذلك حطما للحصار الجنوبي الذي كان مضروبا على صنهاجة الصحراوية ، فوصلوا إلى شعوب إفريقيا السوداء وأخذوا ينشرون فيها الدين الخفيف . ولم يلبث يحيى بن عمر أن توفي في نفس السنة ، فخلفه أخوه أبو بكر أحد كبار رجال العالم الإسلام المجاهدين في سبيل الله ، وبدأ

فندب المرابطين للجهاد في بلاد المغرب الأقصى فغزا بلاد منطقة السوس سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م واستدار العام ففتح من بلدانها ماسة على المحيط وتارودنت على نهر السوس ومحا أبو بكر منها دعوة الروافض وصعد إلى الشمال فاستولى على أغمات ، وحمس أنصاره من المرابطين لجهاد برغواطة الفاسقة ، وكانت مواطنها في ساحل المحيط في سلا بإقليم فاس وآنفة وآزمور في تامسنة وآسفي في إقليم دكالة ، وكانوا صفرية ، وكان كبيرهم طريف بن صبيح من قواد ميسرة الصفرى ، ويقال إنه تنبأ ، وتوالى أبنائه يتنبؤون ويشرعون لقومهم الشرائع ، وقاومهم الأدارسة والعبيدون والأمويون ، ولكن أحدا منهم لم يقض عليهم قضاء مبرما حتى نازهم أبو بكر بن عمر بجموعه من المرابطين في وقائع سحقهم فيها سحقاً ، واستشهد عبد الله بن ياسين في بعض تلك الوقائع سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ومازال أبو بكر يواقعهم حتى استأصل شأفتهم كما يقول ابن خلدون ومحاهم من الأرض محوا . وبلغه خلاف عنيف بين قبيلته ومسوفة في موطنهم بالصحراء ، فخشى مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م ليصلح ذات بينهم ، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومن ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين العظيمة قسمين : قسم جنوبى يجاهد في إفريقية المدارية بقيادة أبى بكر بن عمر وخلفائه من بعده ، واستطاع هذا المجاهد العظيم الاستيلاء من بلاد السودان على ٩٠ مرحلة في رواية وعلى مسيرة ثلاثة أشهر في بلدانها وأراضيها برواية أخرى . ومازال يجاهدهم هذا البطل المقدم حتى استشهد في إحدى غزواته سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م بعد أن ضرب أروع الأمثلة في نشر الإسلام والجهاد في سبيله . وأما القسم الشمالى من حركة المرابطين فكان بقيادة يوسف بن تاشفين وقد شمل ما استولى عليه المرابطون - قبل يوسف - وما سيستولون عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى من مثل تلمسان والأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين بطلاً شجاعاً حازماً مدبراً ملكه على خير وجه ، مجاهداً في سبيل الله طوال حكمه ابتغاء الثواب من ربه ، وكان بحق من كبار الشخصيات الإسلامية المؤسسة للدول والمدن ، ولم يكد يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يبتنى في السهل الواسع شمالى أغمات وجنوبى تهرتسيفت مدينة لتكون حاضرة لحكمه . وسرعان ما أخذ في بنائها سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وهى مدينة مراکش ، وقد شيدت وفق مخططات رسمتها طائفة من مهرة المهندسين وقامت على بنائها طائفة من العمال الحاذقين كما بنى بها المسجد الجامع وإدارة الحكم ، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والفنادق والحمامات ، وأصبحت إحدى مدن العالم الإسلامى الكبرى . وفى نفس السنة جند يوسف الأجناد حتى اكتمل له ما يزيد عن مئة ألف فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب الأقصى ، وقصد مدينة فاس فحارب القبائل حولها وانتصر عليها وافتتحها الفتح الأول ، ومضى يهزم القبائل ويفتح البلاد ، وفى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م استولى على بلاد غمارة في منطقة الريف إلى



طنجة ، وفتح مدينة فاس الفتح الثاني سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م وعاد إليها في السنة التالية فافتتحها عنوة وافتتح حصون نهر ملوية ، وأخذ كثير من البلدان يفتح له أبوابه دون حرب ، وفي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م فرّق عماله على بلاد المغرب وفي سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م استولى على طنجة ، وفي سنة ٤٧٢ أرسل قائده مزدلى إلى تلمسان فاستولى عليها ، وفي سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ضرب السكة أو العملة باسمه ، وفي السنة التالية فتح مدينة وجدة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شلف ، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربي من الجزائر ، وفي سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م فتح مدينة سبتة . وبذلك وحد المغرب الأقصى جميعه جنوبا حتى الصحراء الكبرى وغربا حتى المحيط وشمالا حتى البحر المتوسط ، ولم يكفه الاستيلاء على حدوده الشرقية غربي نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، فقد مدّه شرقا واستولى على شطر كبير من الجزائر كما أسلفنا . وكان واسع الأفق مؤمنا بأن العالم الإسلامي ينبغي أن يتوحد تحت راية واحدة هي راية الخليفة العباسي ببغداد ولذلك كتب إليه معلنا دخوله في طاعته ، وكتب إليه الخليفة مرحبا ومباركا له في مملكته ، واكتفى يوسف بأن لقب نفسه بلقب أمير المسلمين . ومما يدل على حسن إدارته وسياسته أنه كان يختار الولاة على ولايات مملكته الواسعة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والنزاهة ، وضمّ إلى كل وال فقيها أو أكثر ليكون مستشاره في أحكامه بحيث تمشي مع الشريعة الإسلامية ، ورفع عن كاهل الرعية المكوس والمغرم التي كان يتقاضاها منهم حكامهم السابقون . وكانت الأندلس - في القرن الخامس الهجري - قد أصبحت أندلسات وإمارات متعددة وأخذت تتنافس وتتحارب في هذا العهد الذي سمي عهد أمراء الطوائف ، ونشط أعداؤهم النصارى الإسبان في الشمال للانقضاض عليهم ، وأخذوا يؤدون إليهم - قهرا - إتاوات ومغرم شتى ، وخاصة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، واستطاع سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م أن يلتقم طليطلة أكبر إماراتهم دون حرب ، مع مساعدة أميرها القادر بن ذي النون على أخذ بلنسية . وشعر المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس بهذا الخطر الداهم وكذلك غيرها من الأمراء ، فاستصرخوا البطل المغوار يوسف بن تاشفين أن ينجدهم ضد ألفونس السادس قبل أن يتلعمهم كما ابتلع طليطلة ، وأرسلوا إليه - مستغيثين - نفرا من قضاة المدن الكبرى ، فأطلعوه على جلية الأمر ، فثارت حميته للإسلام والمسلمين في الأندلس ، كما ثارت حمية قومه المرابطين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ودينه الخنيف ، وأعد سريعا جيشا جرارا لمنزلة نصارى إسبانيا وأعد له أسطولا ضخما عبر الزقاق سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وأخلى له المعتمد صاحب إشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيشه ، واتجه لحرب عدو الله في طليطلة وانضم إليه المعتمد والمتوكل أمير بطليوس وعبدالله بن بلقين أمير غرناطة بجيوشهم ، وعلم ألفونس بمقدمه وأنه منازلها فاستغاث بملوك النصارى في إسبانيا وفرنسا

وإيطاليا وبالبا في روما وجاءته حشود من الفرسان ، والتقت الفئتان في موضع يُدعى الزلاقة شمالي بطليوس ، ودارت معركة حامية الوطيس مُزق فيها جيش ألفونس شر ممزق ، ويقال إنه كان مائة وثمانين ألف فارس ومئتي ألف راجل ، فنكّل جيش يوسف بن تاشفين بهذا الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرّ ألفونس على وجهه إلى طليطلة في شرذمة قليلة من الفرسان مشخنا بالجراح . وبلغت يوسف وفاة ابن له ، فاضطر إلى العودة إلى مراکش بعد هذا النصر المين ، ولو أنه تابع بعده زحفه إلى طليطلة لاستولى عليها . وفي سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م أخذ ألفونس يغير على إمارة المعتمد بن عباد عن طريق حصن ليط ، واستغاث بابن تاشفين ، فاجتاز الزقاق إليه وكتب إلى من سواه من أمراء الطوائف ليلتقوا للجهاد ضد ألفونس ، ولم يلبه سوى أمير مرسية وأسرّها في نفسه ، وانتصر أمير المسلمين وعاد إلى عاصمته مراکش . ودبّ الخلاف والشقاق بين أمراء الطوائف ومدّوا أيديهم إلى ألفونس يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون وخاصة عبد الله بن زيري أمير غرناطة فعبر يوسف الزقاق إلى الأندلس للمرة الثالثة ، وفيها خلع عبد الله بن زيري وأسرته عن غرناطة وأرسل بهم إلى مراکش . وترك وراءه صهره سير بن أبي بكر ليخلع أمراء الطوائف جميعا ومن أبي قاتله أو أخذه أسيرا ، وقتله المتوكل أمير بطليوس وقتله ، ونزله المعتمد أمير إشبيلية وأسرّه ونفاه مع أسرته إلى أغمات . واستولى المرابطون على المريّة وفر ابن صمادح إلى إفريقية كما استولوا على دانية وشاطبة وبلنسية سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وبذلك دانت لهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين - بنظره الثاقب - رأى أن تظل مع أمرائها من بني هود ، لتكون ثغرا حريبا حاجزا بين نصارى الشمال والأندلس . وفي سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م وقيل بل في سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م عبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة رابعة لأخذ البيعة لابنه علي . وفي سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م توفى البطل العظيم يوسف بن تاشفين وبويع لابنه علي بمراكش .

وكان علي مجاهدا كبيرا مثل أبيه وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م وجّه أخاه تميما الوالي على غرناطة بجيش إلى إقليش شرقي طليطلة ، ولقيه ألفونس وهزمه تميم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابنه الوحيد ولي عهده ، ومات بعد الموقعة بعشرين يوما متحسرا على هزيمته وفقد ابنه ، واستولى تميم على حصن إقليش وشنتبرية . وفي سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م عبر علي بن يوسف إلى الأندلس بجيش كثيف هاجم به طليطلة وفتح من أحوازها سبعة وعشرين حصنا وفتح مجريط - ووادي الحجارة . وفي السنة التالية فتح سير بن أبي بكر مدن شريش وبطليوس وبرتغال ويابرة وأشبونه وجميع بلاد الغرب . وفي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م توفى سير بن أبي بكر بإشبيلية وخلفه عليها محمد بن فاطمة حتى سنة ٥١٠ هـ . وفي السنة التالية ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م توفى القائد مزدلي غازيا ببلاد النصارى . وفي سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م تملك المرابطون جزائر البليار : ميورقة وأحتيا . وأخطأ علي بن يوسف فأخذ سرقسطة من حماها بني هود ، وسرعان

ما وقعت فريسة للنصارى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م . وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة عبر على بن يوسف إلى الأندلس ، ودوَّخ بلاد الغرب وفتح شتمرية . وفى سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول ملك أراجون للاستيلاء على مدينتهم ، فزحف إلى الجنوب ، وعلم المرابطون فردوه على أعقابه . وأجلَّوا عن غرناطة كل من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى مدينة سلا على المحيط فى المغرب وبالمثل إلى مكناسة . وفى سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٧ م هاجم تاشفين بن على النصارى وفتح ثلاثين حصنا فى الغرب . وفى سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م وجَّه على بن يوسف جيشا كثيفا بقيادة على بن غانية والى بلنسية ومرسية شرقى الأندلس إلى مدينة إفراغة شرقى سرقسطة ، فلقى جيشا لألفونس الأول ملك أراجون فنزله وهزمه هزيمة منكرة . وفى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م أخذ البيعة بمراكش لابنه تاشفين ، وتوفى على سنة ٥٣٧ هـ/١١٤٢ م .

وخلف تاشفين أباه عليا ، ولم يلبث الموحدون أن نزلوه سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م ودارت عليه الدوائر وتوفى برمضان من نفس السنة . وكانت دولة المرابطين دولة عظيمة عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربى بالسنغال وغير السنغال ، وقضت على الصفرية والنحل الضالة نخلة البجلية من السوس ونخلة برغواطة المارقة فى إقليم تامسنا وجعلت الإسلام فى المغرب الأقصى كله سنيا ، ووحدته بمجوده المعروف بها إلى اليوم ، وصانت الأندلس من الضياع ، فقد كانت سفينة توشك على الغرق ، فأنقذتها وردتها إلى مواصلة الحياة الأدبية والفلسفية والعلمية لأربعة قرون تالية . وقد شملت دولتهم - على اتساع أرجائها - عدالة وأمن لم يحظ بهما قطر فى أزمنتهم ، إذ كانت تمتد من ممالك النصارى فى شمال إسبانيا إلى السنغال فى الجنوب ، ولا مكس ولا مغرم ولا معونة فى بادية أو حاضرة إلا ما كان من الزكاة والعشر مما فرضه الإسلام ، والأسعار فى غاية الرخص ، والناس فى دعة ورخاء ورفاهية إلى أن ثار على الدولة مهدي الموحدون واستولى خليفته عبد المؤمن على صولجان الحكم من المرابطين .

### (ب) الموحدون<sup>(١)</sup>

أنشأ هذه الدولة بالمغرب الأقصى محمد بن تومرت فقيه من هرغة إحدى بطون مصمودة ، وهى إحدى القبائل الأربع الكبرى التى كانت تعيش فى مناطق هذا المغرب ، وهى غمارة

الموحدية والحفصية للزركشى ( طبع القاهرة )  
والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى  
وعصر المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة عنان  
ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس .

(١) انظر فى الموحدين كتاب المن بالإمامة لابن صاحب  
الصلاة ( طبع دار الغرب الإسلامى ) والمعجب  
للمراكشى ( طبع القاهرة ) والجزء الثانى من البيان  
المغرب ( طبع باريس ) وروض القرطاس لابن أبى زرع  
وتاريخ ابن خلدون ٢٢٥/٦ وما بعدها وتاريخ الدولتين



وكانت تنتشر في منطقة ، الهبط والريف ، وزناتة وكانت تنتشر في كثير من المناطق وخاصة حول حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه ، ومن فروعها مغراوة التي قضت على الأدارسة وبنى مدرار ، وصنهاجة في مناطق مختلفة ، ومعها صنهاجة المثلثون أصحاب دولة المرابطين ، ثم مصمودة وكانت تنزل في السفح الجنوبي لجبال الأطلس وسهوله ، وهي الجبال المسماة جبل درن ، وكانت تنتشر من آسفي في منطقة دكالة إلى حاحه على ساحل المحيط ومراكش والسوس وجزولة . وكانت تطمح إلى الملك كما ملكت قبلها صنهاجة وبعض فروع زناتة مثل بنى مدرار في سجلماسة . ومن فروع مصمودة هرغة وهتانة وتينملل ودكالة وهيلانة وغيرهم حتى ليصبحون معظم سكان المغرب الأقصى .

وولد لهذه القبيلة الكبرى محمد بن تومرت المرغى حول سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ونشأ كما ينشأ لداته فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء في بلدته ثم في مراكش حتى إذا بلغ نحو العشرين من عمره رحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، كما يقول ابن خلدون ، ومرّ بالأندلس ودخل قرطبة وهي دار علم ، ورحل إلى الإسكندرية وحجّ ودخل العراق ولقي جملة من العلماء . وكانت عقيدة الإمامية الاثني عشرية شائعة في بغداد ، فدرسها وعرف أنها تقوم على الإمامية أو فكرة إمامة أحد أحفاد علي عن طريق الوصية المتسلسلة إليه ، وأن المسلم لا يكون مسلماً حقاً إلا إذا فوّض أمره للإمام وبذل نفسه في سبيله ، فرأى أن يكون ذلك ركناً أساسياً في دعوته ، فهو إمام ، وهو يتصف بالصفات القدسية التي يتصف بها الإمام عند فرقة الإمامية الشيعية . ولكن كيف تكون إمامته والإمامة خاصة بالبيت النبوي ؟ فأكد أنه علوي فاطمي وذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان بن عبد الله أخي إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ، وكان قد ترك لأخيه سليمان وذريته تلمسان .

ولم يأخذ محمد بن تومرت عن الإمامية عقيدة الإمام الفاطمي أو العلوي وحدها ، بل أخذ معها فرعياً من المهديّة والعصمة ، أما المهديّة فيريدون بها الإمام الذي ينقذ العالم من الشرور والآثام ، فلقب نفسه بالمهدي أي الإمام الذي اختاره الله لتخليص العالم مما فيه من الموبقات والمعاصي ، وأما العصمة فيراد بها أن الأئمة معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب أي إثم أو إقرار أي ذنب ؛ مع الإيمان بأن الله أضفى عليهم صفات روحية قدسية ، وهي صفات تجعل طاعتهم فريضة على كل مسلم وأن عقيدته لا تتكامل إلا إذا فوّض أمره إلى الإمام وبذل نفسه في سبيله . ولكل ذلك سمي نفسه - وسماه أتباعه - الإمام المهدي المعصوم . كلمات ثلاث ولكنها كلمات في غاية الخطورة ، فهو الشخص الذي اختاره الله لعباده ليكون حاكمهم دينا ودنيا : حاكم مهدي ينقذ الناس من الظلم والمآثم ، وكلمته لا ترد فهو معصوم ولا يجري على لسانه إلا الحق ، والحق وحده . وألف ابن تومرت في هذه الصفات التي خلعتها على نفسه مستمداً لها من الإمامية الشيعية كتاباً في الإمامية افتتحه بقوله : « أعز ما يطلب » .

وبجانب هذه الأسس الثلاثة وهى أنه إمام مهدي معصوم يأخذ عن الفاطميين لعقيدته أساسا رابعا هو تنظيم دولته بحيث يكون على رئاستها إمام وتبعه طبقتان : طبقة الصحابة وهم عشرة مستشارون وطبقة الأنصار وهم خمسون وبجانب هاتين الطبقتين الطلبة وهم دعواتهم وكانوا يتعلمون أسس العقيدة ونشرها فى القبائل . ودرس وهو فى بغداد - مذهبي المعتزلة والأشعرية ، وعرف الأصول الخمسة التى يدين بها المعتزلة ، وهى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، وأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأعجبه المبدأ الأول وهو التوحيد ، وهو يعنى عند المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وكل آية فى القرآن الكريم يفهم منها مشابهة الله للمخلوقات مثل : ( يد الله فوق أيديهم ) تووّل ، فاليد فى الآية معناها القدرة ، وبالمثل الآيات الأخرى المماثلة . والأشعرية يلتقون مع المعتزلة فى هذا المبدأ وهو تنزيه الله عن التشبيه وكل ما يتعلق بالجسمية والتجسيد ، ومع أن ابن خلدون يقول إنه أخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد ، وألف فى العقائد على رأيهم رسالته المرشدة فى التوحيد ، مع ذلك نرى أنه ربما صرح باسم الأشعرية لأنه كان لهم شعبية بالمغرب كله لعصره وقبل عصره . وإنما دعانا إلى الزعم بأن ابن تومرت أخذ فكرة أو مبدأ التوحيد وما يتصل به من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات عن المعتزلة أنه استخدمها بنفس المعنى للدلالة على أتباعه ، فهم موحدون أى يؤمنون بأن الله لا يشبه المخلوقات بوجه من الوجوه وينفون عنه التجسيد بكل صورته . وكان يتهم المرابطين وشيوخهم بالقول على الذات العلية بالتجسيم وأنهم لذلك كافرون مارقون عن الدين ويجب نقض طاعتهم وقتالهم ، ومعاذ الله أن يكون المرابطون كفارا أو مجسمة وقد أدوا للإسلام خدمات كبرى إذ قضوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على مجوس برغواطة فى إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى واستتجد بهم أمراء الطوائف فى الأندلس ضد غارات الإسبان عليهم فعبروا إليهم وهزموا الإسبان هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاقة وكان لهم جيش فى موريتانيا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفريقيا ووسطها ، وبفضلهم تحولت غانة بلدا إسلاميا إلى اليوم ، وظلم ما قاله ابن تومرت عنهم من أنهم كفار مجسمة وكل ما هناك أن فقهاءهم كانوا سلفيين يتركون التأويل للآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الله مع تنزيهه ونفى التجسيد عنه ، وبذلك يتبين أن ابن تومرت لم يسم أتباعه باسم الموحدين عفا بلا قصد مما جعل مؤرخا يقول : « كان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه غير ذى معنى لأن كل المسلمين موحدون ، ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحدين » . فهى كلمة - كما رأينا - تؤدى معنى واضحا عنده وعند أتباعه . وفى رأى أن الذى وصل ابن تومرت بمذهب المعتزلة هم الإمامية لأنهم كانوا موصولين بهم من قديم ، وأحكم هذا الاتصال فى القرن الخامس الهجرى الطبرسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م وقد فسح فيه - كما ذكرت فى الحديث عن التفسير

في القسم الخاص بالعراق في هذه السلسلة - للتأثر بالمعتزلة في نفى التشبيه عن الذات العلية . ومبدأ ثان من مبادئ المعتزلة الخمسة أخذ به ابن تومرت وجعله جزءاً لا يتجزأ من دعوته ، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو ما ينبغي على كل مسلم أن يصدر عنه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإلا فبقلبه ، وهو أضعف الإيمان ، وجعل ابن تومرت ذلك شعاراً للدعوة . ويقول صاحب المعجب إنه أخذ عن المعتزلة القول بأن صفات الذات العلية من مثل قدير سميع عليم هي عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرية إنها زائدة على الذات .

ويعود ابن تومرت إلى المغرب وينزل طرابلس ويحاول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويلقى مقاومة ، ويتركها إلى بجاية ، ويلقى نفس المقاومة ، ويزداد أتباعه ويلتقى بعبد المؤمن بن علي الكومي من قبيلة كومية ، ويقال إنها زنازية ويقال بل مصمودية ، وصحبه إلى تلمسان ، والتف حوله كثيرون . وسار موكبه إلى فاس والمغرب الأقصى ، ونراه يظن أن أدوات الموسيقى منكر ، فيأمر أتباعه بتحطيمها . وينزل مكناسة ويلقى بها مقاومة فيتركها إلى مراكش ويلتقى في المسجد بأمر المسلمين علي بن يوسف ويعظه . وأخذ ينكر على الفقهاء أخذهم بالظاهر في تفسير الآيات التي قد يفهم منها التجسيد قائلين إن علم ذلك عند الله مع تنزيهه ونفى التشبيه عنه ، وهو قول أهل السنة ورماهم بالكفر كما رماه بالجمود لتمسكهم بمذهب مالك وفروعه ، وكان ذلك كان تمهيدا لتأخذ هذه الدعوة بمذهب داود الظاهري الذي يأخذ بالكتاب والسنة فحسب ، وناظره الفقهاء وانتصر عليهم ، ولحق بأغصان ثم بقبيلة هنتانة المصمودية وشيخها أبي حفص ، ونزل على قبيلته هرغة سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وبنى بها رباطا للعبادة ، واثالث عليه القبائل وخاصة من مصمودة ، وانتقل إلى جبل تينملل جنوبي منطقة مراكش ، وأخذ ينظم أتباعه في طبقات ، فأول طبقة إيت عشرة أو أهل عشرة وهم صحابته كصحابه الرسول ، وتليهم طبقة الأنصار إيت خمسين أو أهل خمسين . وكان يسمى حفظة المذهب وفقهاء الطلبة أي الدعاة ويسمى أهل دعوته الموحدين بالمعنى الذي أوضحناه . وأعد جيشا عداده ٤٠,٠٠٠ مقاتل من الموحدين وجعل عليه عبد المؤمن بن علي ، ولقيتهم جيوش المرابطين فهزمهم ، وتبعوهم إلى بحيرة مراكش ، ودفعوهم إليها وأثخنوا فيهم قتلا وسبيا وسميت هذه المعركة معركة البحيرة . ولم يلبث المهدي أن توفي بعدها بأربعة أشهر سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، وكم عبد المؤمن وأصحابه موته ثلاث سنوات يمؤون بمرضه حتى استحكهم أمرهم ، فأظهروا للناس موته وعهده لعبد المؤمن بن علي بخلافته .

وأجمع أصحاب ابن تومرت العشرة وأنصاره الخمسين والدعاة أو الطلبة وكافة الموحدين على البيعة لعبد المؤمن بن علي بمدينة تينملل سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م باسم خليفة ابن تومرت ، ولم يلبث أن أبعد في الغزوات في منطقة تادلة ، واستولى سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م على درعة ،



وتسابق الناس في المغرب الأقصى إلى دعوته وانتفض البربر في سائر أنحاء المغرب على المرابطين . ويتحاشى عبد المؤمن مقابلتهم في مراكش بعد هزيمة البحيرة المشهورة المارة ، ويقوم منذ سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م إلى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م بحملة كبرى يخترق فيها ممر تازا إلى تلمسان ويستولى على شطر كبير من المغرب الأوسط . وكان تاشفين بن علي بن يوسف يحاذيه ولا ينازله ، وفي هذه الأثناء توفي أبوه علي بن يوسف وولى الخلافة تاشفين ، وهاجم عبد المؤمن سبتة وامتنعت عليه ، وكان القاضي عياض هو الذي دافع عنها بقوة ، ولذلك سخط عليه الموحدون ، وظل عبد المؤمن يتابع تاشفين حتى حصره في مدينة وهران بالجزائر وبها توفي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م وبموته سقطت وهران ، وأخذت مدن المرابطين تسقط في حجر الموحدين مع ما أبدى المرابطون فيها من بسالة عظيمة ، وخاصة مدينتي فاس ومراكش . وقد ظل عبد المؤمن محاصرا لمراكش تسعة أشهر وهي تقاوم بزعامة أميرها إسحق بن علي بن يوسف وطال عليها الحصار وأجهد أهلها الجوع فاستسلموا في شوال سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ولم يبق الموحدون على أحد من المرابطين وقتلوا إسحق بن علي بن يوسف ، وانمحي - كما يقول ابن خلدون - أثر المرابطين من البلاد واستولى عليها الموحدون كما استولوا على تلمسان وعلى شطر كبير من المغرب الأوسط . ولن يقف ملك عبد المؤمن في بلاد المغرب عند هذا الحد ، إذ كان قد حدث منذ أواسط القرن الخامس أن اكتسحت أمواج الهلالية وبنى سليم طرابلس وإفريقية التونسية وشطرا كبيرا من المغرب ، وأعدت لظهور ما يشبه أمراء الطوائف في إفريقية التونسية مثل بنى خراسان في تونس وبنى جبارة في سوسة وبنى جامع في قابس وبنى الرند في قفصة . وكان بنو حماد في بجاية ، وكان المعز بن باديس وابنه تميم انحازا إلى المهدي على البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس ، وحمل ملوك صقلية النورمانديون بأساطيلهم على سواحل طرابلس واستولوا عليها كما استولوا على جزيرة جربة المقابلة لقابس ، وسرعان ما استولوا في سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م على المهدي وكثير من مدن إفريقية التونسية الشرقية مثل قابس وصفاقس والمنستير وسوسة ، وعلم عبد المؤمن ذلك كله فصمم على أن يجمع ديار المغرب كلها في قبضة واحدة ، حتى لا تسول الملوك صقلية نفوسهم الاستيلاء عليها ، فخرج من مراكش سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م في جيش جرار استولى به على بجاية عاصمة بنى حماد وخلعهم عن إمارتها واستسلمت له إمارات الطوائف الصغرى في إفريقية التونسية ، واستولى من النورمان على كل ما كان بأيديهم من مدن الساحل في طرابلس وإفريقية التونسية ، وبذلك تحققت على يده وحدة المغرب السياسية من طرابلس إلى المحيط .

و بمجرد أن توفي تاشفين بن علي بن يوسف وانتقل صولجان الحكم في المغرب الأقصى إلى الموحدين اختلت أحوال الأندلس ، بل لعلها اختلت من قبل ذلك في عهد علي بن يوسف منذ شغل المرابطون عن الأندلس بحرب الموحدين ، فاستولى النصارى على كثير من الثغور

المجاورة لبلدانهم . ورأى بعض أعيان البلاد فى الأندلس إخراج بلدانهم من ولاية المرابطين وإعلان استقلالهم بها ، وبذلك بدا فى الأندلس ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثانى ، وفى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م استولى صاحب برشلونة : ريموند على طرطوشة وجميع قلاعها وعلى لاردة وإفراغة ، واتفق أهل بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس على تولية عبد الله بن عياض وخلفه محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، ودانت له جيان وولى عليها صهره إبراهيم بن همشك ، وظل ابن مردنيش يقاوم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م ودخلت بلاده فى طاعة الموحدين وبالمثل جيان وابن همشك . وكان الموحدون يرسلون جنودهم منذ سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م إلى الأندلس واهتموا بالغرب فيها ، فدانت لهم إشبيلية وغرناطة . وكان ألفونس السابع قد استولى على المرية سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م فنازله عثمان بن عبد المؤمن والى إشبيلية ، وحاول ألفونس الدفاع بكل ما يستطيع ، ولم يفته دفاعه ولا جنوده فقد هزم هزيمة ساحقة توفى على أثرها ، وهو ثانى ملك نصرانى يقضى عليه المسلمون بعد قضائهم على جده ألفونس السادس بعد هزيمته فى أقليش وقتل ابنه فى معركة الطاحنة . وعبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح وبنى به مدينة ، ووفد عليه وجوه الأندلس من مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية للبيعة سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م وقدم له الشعراء مدائح رائعة وتوفى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م . وبحق استطاع إنشاء أكبر دولة عربية فى عصره إذ امتدت من المحيط الأطلسى إلى أنحاء طرابلس فى إفريقيا ومن ديار النصارى فى الأندلس إلى درعة والسوس فى المغرب الأقصى .

وخلفه ابنه يوسف وكان مثقفا ثقافة واسعة ، ثقفا فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذة إشبيلية عاصمة له هناك ، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت نائرا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل مؤمنا بمذهب أهل الظاهر الذين يرجعون فى فقههم إلى الكتاب والسنة فحسب كما هو معروف عن داود الظاهرى فى المشرق وابن حزم فى الأندلس . ومررنا أن من مبادئهم التوحيد وسموا به أنفسهم الموحدين أى الجماعة التى تنفى مشابهة الذات العلية للمخلوقين نفيا باتا ، ومبدأ ثالث هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما مررنا ، مع الإيمان بأن ابن تومرت كان إماما مهديا معصوما . ومع ذلك كله يزعم بعض المؤرخين المعاصرين أن دعوة الموحدين لم تقم على أساس مذهب دينى أو سياسى واضح لأنه غابت عنهم معرفة المبادئ التى قامت عليها هذه الدعوة .

وانتهت فى عهد يوسف فتنة ابن مردنيش وكذلك فتنة ابن همشك ودانت له الأندلس شرقا وغربا . وكان ألفونس إنريك Alfonso Enrique ويسميه مؤرخو العرب ابن الريق وهو صاحب قلمرية شمالى نهر تاجه بالقرب من المحيط ، استولى على أشبونة وشترين وقصر



أبى دانس منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وعبر يوسف إلى الأندلس فى سنى ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م و ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م لمجاهدته ومجاهدة النصارى واستولى على بعض الحصون .

وتوفى يوسف سنة ٥٨٠ هـ وخلفه ابنه يعقوب ، وفى عهده بلغت ثورة الموحدين على أصحاب المذاهب الأربعة فى المشرق وكتبهم ذروتها إذ كان قصده نحو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان الأيوبيون قد أرسلوا قراقوش لإحداث قلاقل فى طرابلس وتونس عليهما يتبعان مصر ويعينانها فى حروبها مع الصليبيين ، وفى الوقت نفسه نزل إفريقية التونسية بعض بنى غانية ( أمهم من غانة ) ولاة المرابطين على جزائر البليار لمحاولة تأليب أهلها وثورتهم على الموحدين ، واستطاع يعقوب القضاء على هذه القلاقل والفتن بحملة كبيرة اتجه بها إلى تلك الديار سنة ٥٨٣ هـ وأتم القضاء عليها نهائيا الولاية بعده . ووضع نصب عينيه الاستعانة بالهلالين وغيرهم من الأعراب فى إعداد جيش ضخم لمنازلة نصارى الإسبان من جهة ، وليفيد فى جيشه من بسالتهم المشهورة وليبعد عيهم وغاراتهم عن المغرب من جهة ثانية . وتوفى ابن الرنق ملك البرتغال سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وخلفه ابنه : سانشو فتمكن سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م بمساعدة صليبيين هولنديين وإنجليز من الاستيلاء على مدينة شلب ، فاستردها يعقوب سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م واستولى على عدد من الحصون ، وأخذ يعد لمعركة كبرى ، واستنفر العرب الهلالية والمغاربة وأهل الأندلس ، وسمع بذلك ألفونس الثامن صاحب قشتالة ، فاستعان بالبابا وملوك أوربا وحشد جموعه النصرانية فى سهل حول حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليلطة ومزقهم جيش المسلمين كل ممزق ، ولاذ ألفونس الثامن بالفرار نحو طليلطة مع عدد من فرسانه ، ولو أن يعقوب تبعه إلى طليلطة لاستولى عليها ، ولكنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين بغد موقعة الزلاقة ، إذ اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات . ومما يؤثر له أنه أصلح مسجد إشبيلية وبنى مثذنته المعروفة باسم الخيرالدا . وتوفى سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م .

وتولى بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بنى غانية ، واستولى على جزائر البليار سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وتتابعت هزائمهم فى طرابلس والمهدية وتونس . وعند تبسة فى إقليم الزاب ، وانسحب من بقى منهم إلى الصحراء . وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بنى غانية كان ألفونس الثامن يعد لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانه البابا وملوك النصارى وجاءه عبّاد الصليب سيولا وراء سيول ، والتقى النصارى بجيش الموحدين عند حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرك سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م ، ودارت الدوائر على الموحدين . وتوفى الناصر بعد الموقعة بشهور قليلة ، وكان ذلك إيذانا بانهيار الجبهة الإسلامية فى الأندلس . وخلف الناصر ابنه يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وثار عليه أهله وذوو رحمة فى الأندلس والمغرب

واضطرت في الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون على دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م وفقدت في أثناء ذلك مدن الأندلس حراسها وحماتها، فبين سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م وسنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م سقطت في حجور نصارى إسبانيا مدن الأندلس الكبرى : قرطبة وبلنسية ودانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس، وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م .

### (ج) بنو مرين<sup>(١)</sup>

بنو مرين قبيلة بربرية زناتية كانت تستوطن المغرب الأوسط ودفعها العرب الهلاليون غربا فاستقرت في حوض ملوية حتى منابعه وحوض نهر زيز شمالى سجلماسة ، وكانوا موالين للموحدين وأسهمت منهم طائفة كبيرة بقيادة أميرها « محيو » في موقعة الأرك المشهورة ، وقدمه المنصور الموحدي على جميع المتطوعين من زناتة للاشتراك في المعركة ، وأصابته في الموقعة جراحة مات منها شهيدا . وخلفه على الإمارة في قومه المرينيين ابنه عبد الحق ، وكان يطمح أن تصبح لقبيلته دولة مثل دولة لمتونة الصنهاجية أو دولة المرابطين ودولة هرغة المصمودية : دولة الموحدين . ودخل بجموعه لعهد المستنصر في وادي تازا وشرقي وادي سبو ، وواقعهم الموحدون سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م وهزمهم ، وتوفي فخلفه ابنه عثمان وأخضع بنو رياح الهلالية وتوفي فخلفه أخوه محمد ونازله الموحدون في مكناسة فهزمهم ، وتوفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٩م وتلاه أبو يحيى بن عبد الحق أخوه ، وهو المحقق لأمانى بنو مرين في تأسيس دولة لهم بالمغرب الأقصى ، إذ نصب الموحدين العداء ، واستولى منهم على مكناسة ، وهي أول قاعدة ملكها بنو مرين ، وقصد إلى مدينة فاس فبايعه أهلها طواعية راضين ، وعادوا فنقضوا بيعتهم ، وتحداه يَغْمِرَاسَن أمير بنو عبد الواد ، والتقى ، وانتصر بنو مرين ، وعاد ابن عبد الحق سريعا إلى فاس ، فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه العهود فقبل منهم وصفح عنهم ، ورحل إلى سلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها ، ونازل جيشا لبنو عبد الواد في طريقه إلى درعة وهزمه ، ودخل أهل درعة في طاعته ، وعاد إلى عاصمته فاس ، وتوفي سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ويعد - بحق - المؤسس لدولة المرينيين في المغرب الأقصى .

وولى إمارة المرينيين بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهدا كبيرا يرى فرضا عليه أن يجاهد نصارى إسبانيا ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية

التلمساني ( طبع الجزائر ) وزهرة الآس في بناء مدينة فاس لأبي الحسن الجزائى ( طبع الجزائر ) وروض القرطاس لابن أبي زرع والاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى للسلاوى .

(١) انظر في دولة بنو مرين روضة النسر في أخبار دولة بنو مرين لابن الأحمر ( طبع الرباط ) والذخيرة السية في تاريخ الدولة المرينية ( نشر ابن أبي شنب ) والسادس من تاريخ ابن خلدون والمسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن لابن مرزوق الخطيب

سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفي سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين ، وبذلك قضى نهائيا على دولتهم ، وبسطت الدولة المرينية سلطانها على المغرب الأقصى جميعه جنوبيه وشماليه حتى سبتة وطنجة . وابتهج الفقهاء بالدولة الجديدة ، لأنها خلصتهم من إجبارهم على مدارس المذهب الظاهري ورفضهم لمذهب مالك فقيه المدينة والحجاز الذي كان يعتنقه الفقهاء في المغرب منذ حياة صاحبه في القرن الثاني . وقد عادوا إليه وإلى مدارس كتبه الموطأ ومدونة سحنون التي أملاها عليه عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك وكتاب التهذيب للبراذعي الصقلي والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني وغير ذلك من كتب الفقه المالكي ومطولاته التي كان يجمع منها يعقوب الموحدي الأحمال ويحرقها يريد نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب . وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعد انتهاء عصر الموحدين وابتداء عصر المرينيين ، وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هي انشقاق على الجماعة ، وبذلك كان فقهاء المذهب المالكي من العوامل في تثبيت حكم المرينيين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق . ومنذ عهده بل قبله تلتحم الحروب بين بني مرين وبني عبد الواد وستظل تلتحم على مر السنين ، وكانت بين يعقوب ويغمراسن سلطان بني عبد الواد واقعة بأسلي قرب وجدة في الشمال سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م انتصر فيها يعقوب وحاصر تلمسان ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس ، وفي سنة ٦٧٢ هـ هاجم سجلماسة واستخدم في حصارها البارود لأول مرة في المغرب الأقصى وأذعن له ، وفي سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م بنى مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غربى المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ، ويمر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين ، والذراع الثاني للنهر يتفرع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثاني سيره وسط المزارع ، وجعلها مقر الحكومة الجديدة ، وسماها يعقوب المدينة البيضاء ولكن الشعب سماها باسم فاس الجديدة ، وجعلها ثلاثة أقسام ، قسم فيه قصوره وقصور أسرته ومعه حدائقه وبني فيه جامعا بديعا ، وقسم ثان به قصور قواده وشخصيات دولته ، وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات ، وبني في عدوة القرويين بفاس مدرسة كبيرة ، وبني مارستانا وزوايا ، وبني بجوار القصر الملكي دارسك العملة واختط سوقا للمدينة ونظمه تنظيما حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمينا يدمغ كل ما يُصنع من فضة أو ذهب في فاس بمنقاش ، وكان أهل فاس عرفوا - منذ هذا التاريخ على الأقل - نظام الدمغة . وتجهز يعقوب في سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٩ م لعبوره الثاني للزقاق على رأس جيش مريني لجهاد النصارى في إسبانيا وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى عاصمته فاس . وفي سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م نازل يغمراسن في ملعب الخيل بأحواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس . ولم يلبث أن أخذ يستعد لجوازه الثالث إلى الأندلس سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م ليجهاد نصارى إسبانيا واستولى على بعض حصونهم . وفي سنة ٦٨٥ هـ عبر الزقاق للجهاد مع صفوة مستبسة



من بنى مرين وأحرز نصرا مجيدا على نونيو جونزالث دي لارا nuno gonzalez de lara جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٦ م . وتوفى بأوبته فى الجزيرة الخضراء . وكل ما استولى عليه من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة، فهو لم يجاهد لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام نصارى الإسبان، وظل ذلك مبدأ ثابتا لحكام بنى مرين فى جهادهم لأولئك النصارى، فهم لا ييغون بجهادهم غنما. إنما ييغون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه إرضاء لله ورسوله. وتلك منة ليعقوب وخلفائه المرينيين .

وخلف يعقوب - بعهد منه - ابنه يوسف ، وسار سيرته فى الجهاد فعبير الزقاق إلى الأندلس مرارا ، كما سار سيرته فى العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ، ونازل عثمان سلطان تلمسان مرارا ، وفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م حاصرها وظل محاصرا لها ثمانى سنوات ، وفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م أسس أمامها مدينة المنصورة لمعسكره ، وشاد بها قصره وبنى بجواره جامعا عظيما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب ، وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور ، وغرسوا البساتين وأجروا المياه وأداروا على المدينة سورا ، وبنيت بها حمامات وفنادق ومارستان ، حتى إذا عادت لبنى عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها ، وتوفى عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م حزنا وكمدا ، وتوفى ابنه أبو زيان مثله كمدا سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م . ولم يلبث أن توفى يوسف بن يعقوب ، ففك المرينيون الحصار عن تلمسان ، ولا بد أن تذكر أن المرينيين حين حاصروا تلمسان استولوا على كل ما كان بيدها من مدن فى المغرب الأوسط بل ربما أضافوا إليها مدنا جديدة ، فقد استولوا على وجدة ووهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمدية وبجاية . وبعد يوسف رغب فى الاستيلاء على صولجان الحكم أخوه أبو يحيى وابنه أبو سالم وحفيده أبو ثابت عامر ، وأرسل عامر إلى بنى عبد الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم فى المغرب الأوسط فأيدوه ، وتم له الأمر ، ووفى لهم بالعهد ، وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة ٧١٤ هـ/١٣١٥ م .

وتوفى عثمان سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١ م وخلفه ابنه أبو الحسن على ، ويفكر فى الاستيلاء على تلمسان ويستولى على ندرومة ويحاصر وجدة سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م ويستولى على وهران وتنس ومدينة الجزائر ومليانة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م ويحاصر تلمسان ، ويعيد بناء المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه . ويفتح تلمسان سنة ٧٣٧ هـ ويأخذ بنى عبد الواد وأهلها بالرفق ويأخذ فى الاستيلاء على مدن الجزائر ، ويدخل بجاية ويضع عن أهلها ربع المترم وتدعن قسنطينة لطاعته ، ويقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التى نزلها ، وظل بها من سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م إلى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م . وفى شهر محرم سنة ٧٤٩ للهجرة هزم العرب أبا الحسن على القيروان هزيمة شديدة وربما كان من أسبابها

أنه كان في جيشه بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين ، وجميعهم سلب منهم ديارهم ، فعملوا على هزيمته وانتصار العرب . وشاع في المغرب الأقصى خبر بموته . فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وبايعه الناس . وفي شهر شوال من سنة ٧٥٠ هـ أبحر في أسطول ضخم إلى الجزائر ، وتحطم أسطوله بساحل زواوة في الجزائر ولم ينج إلا نفر قليل منهم ، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر . ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يجرمه من ولاية عهده ، وشغل الابن بأبيه حتى توفي سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥٢ م وتم له الأمر . وزحف إلى تلمسان سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م وكان يليها عثمان الثاني وأبو ثابت فاستولى عليها وقتل عثمان وفر أخوه أبو ثابت إلى شلف فأرسل إليه أحد قواده فاستولى على معسكره بكل ما كان فيه ، وفر أبو ثابت ثانيا وقتل في فراره ، واستولى أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة .

وتوفي أبو عنان سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م وهو آخر حكام بني مرين العظام ، وبويع لابنه أبي بكر السعيد وكان طفلا فظل في الحكم سنة ، وخلفه عمه إبراهيم لمدة سنتين . وطبعي وقد اضطرت الأمور أن تعود تلمسان لأهلها بني عبد الواد ، ويتولى أخوه لمدة سنة ، ويتولى بعده سلاطين ضعاف ، واختلت الأحوال وظلت الدولة تزداد اختلالا بتولى أناس غير أكفاء ، وازدادت الفتن الداخلية وظلت الحروب مشتتة بين بني مرين وبني عبد الواد وكثيرا ما تغلب الوزراء على الحكم فقدموا له الصبية والضعاف من ذرية عبد الحق ليخلو لهم الجو . وأخذ بعض الحكام في سجلماسة ومراكش وأطراف الدولة يحاولون الاستقلال عنها . وتفقد الدولة المرينية المغرب الأوسط وتعود إلى حدودها الأولى ، فقيم كان كل هذا الصراع بين المرينيين والتلمسانيين وحكامهم من بني عبد الواد . ولو فكر هؤلاء الحكام المسلمون في الأمر ومصصلحة الأمة لأغمدوا السيف ولم يسألوه على إخوانهم ، وإنما يسألونه على عدوهم من نصارى الإسبان الذين ينازلون المسلمين في الأندلس نزالا ضاريا . ومن الحق أن بني مرين أدوا دورا عظيما في الدفاع عن غرناطة . فقد ظلوا حتى أيامها الأخيرة يخوضون معها أو منفردين معارك طاحنة بذلوا فيها كل ما يستطيعون غير طامعين في غنم أو أي كسب مادي . ولا نمضي طويلا في القرن التاسع الهجري حتى نشعر بضعف المرينيين فقد استولى البرتغاليون منهم على سبتة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م إذ تحولت الحرب المقدسة إلى أرض المغرب . واستولى البرتغاليون على الدار البيضاء أو آنفه سنة ٨٧٤ هـ وعلى طنجة ومدينتي أصيلا والعرارش سنة ٨٧١ هـ / ١٤٧١ م . وخرجت عن طاعة الدولة مراكش ومنطقة الريف في الشمال وسجلماسة ودرعة والسوس في الجنوب ، ولا بد أن نذكر أنه إذا كانت الدولة المرينية ضعفت وتخاذلت إزاء هذا الاحتلال البرتغالي الواسع لموانئ المغرب على الزقاق والمحيط فإنه كان هناك من الشباب العربي دائما من يستبسلون في مقاومتهم وينزلون بهم خسائر فادحة في الأرواح، من مثل

أبي الحسن<sup>(١)</sup> على المنذرى، وكان قد قام بأعمال بطولية في حروب غرناطة مع النصارى ، وعز عليه أن لاتجد مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة من يدافع عنها ضد أعدائهم ، فانسحب إلى تطوان جنوبي سبتة على البحر المتوسط . وأخذ في تحصينها واجتمع له ثلاثمائة فارس ، وأخذ بهذه الكتيبة الصغيرة يغزو منطقة المدن الثلاث السابقة ويأسر كثيرين من نصارى البرتغاليين وينهك قواهم في أشغال التحصينات . ويقول الحسن الوزان في حديثه عن تطوان إنه زارها ورأى بها ثلاثة آلاف من عبيد النصارى ويقول إنهم كانوا يلبسون جميعا سترة من الصوف وينامون ليلا مقيدين بالأصفاد فى سراديب تحت الأرض . ومثله شاب<sup>(٢)</sup> إدريسي ذهب إلى غرناطة وانخرط لفترة من الزمن فى خدمة الغرناطيين حتى أصبح محاربا مجريا ، وعاد ليستقر فى جبل بنى حسن بالقرب من مدينة تطوان ، واجتمع إليه عدد من الفرسان ، وأخذ ينازل البرتغاليين فى المنطقة ويفتك بهم ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن جبل بنى حسن إن البرتغاليين يعرفونه جيدا ويعرفون بطولته ويسمونه باسمه على بن راش ( راشد ) وهو الشريف الإدريسي على بن موسى بن الرشيد . ولا بد أنه كان لشبان مغاربة أعمال كثيرة كأعمال الإدريسي والمنذرى غير أن المؤرخين قلما يثبتونها . ومر بنا الحديث عن بهلول وطلولته العظيمة فى عصر الموحدين . وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فيتولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ولم يكن بيدهم شىء من السلطان الحقيقى . وكان أولهم محمدا الشيخ منذ سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢ م حتى سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وخلفه ابنه محمد البرتغالى حتى سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م فأخوه بوحسون لمدة سنة فأحمد بن محمد البرتغالى حتى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م . وكان الكابوس البرتغالى يزداد فى عهدهم جثوما على ساحل المحيط ، وقد استولوا على ماسة فى منطقة السوس سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م وأختها أغادير فى منطقة السوس أيضا سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م وعلى آسفى فى منطقة دكالة سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م وعلى آزموور سنة ٩١٩ م وكانوا ينشئون فى كل مدينة حصونا للدفاع عنها ويقيمون فى كل مدينة حاكما عسكريا ، وكانوا كثيرا ما يغيرون على البلاد وراء الساحل فى الداخل وينهبون خيراتها . ولا بد أن تذكر أن الوطاسيين لم يبقوا مكتوفى الأيدي إزاء هذا السيل البرتغالى فقد أبلو فى جهادهم بقدر ما استطاعوا ولكن قدرتهم كانت محدودة ، إذ خرجت مراکش وأكثر أجزاء المغرب الأقصى عن نفوذهم ، وشغلتهم واستنفدت كثيرا من طاقتهم الفتن الداخلية الكثيرة ، حتى لم يعد لهم حول ولا قوة ، ولذلك كان طبيعيا أن تسقط فاس فى أيدي الأشراف السعديين سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٥٠ م وسلطانها - فى الواقع - انتهى قبل ذلك بسنوات طويلة .

(١) انظره فى كتاب وصف إفريقيا فى مدينة تطوان (٢) راجعه فى نفس المصدر فى بنى حسن ص ٣٢٣ .



## السعديون - الطرق الصوفية - العلويون

( أ ) السعديون<sup>(١)</sup>

السعديون ثاني دولة عربية علوية تقوم في المغرب الأقصى بعد دولة الأدارسة ، وكانوا ينتسبون إلى محمد النفس الزكية سليل الحسن بن علي بن أبي طالب . وكان السبب في قيام هذه الدولة أن البرتغاليين أخذوا منذ أوائل القرن التاسع الهجري المقابل للخامس عشر الميلادي يكثرون من حملاتهم على سواحل المغرب الأقصى في الشمال على الزقاق وفي الغرب على المحيط الأطلسي واستولوا على كثير من الموانئ المغربية خلال هذا القرن ، وتمادوا يستولون على مدن في القرن العاشر الهجري كما أسلفنا ، وكانوا كلما استولوا على ميناء ازداد غضب الشعب وازدادت حميته اضطرابا لمقاومة البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن الغالي . وآلم الشعب دائما أن لا يجد عند الوطاسيين قوة يستطيعون بها إنقاذ البلاد ، وظل يبحث عمن يقوده لحرب البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن ، وأخيرا عثروا على بغيتهم في شخص من أصل حسني شريف كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودنت على نهر السوس يسمى أبا عبد الله محمدا فأخذ الناس يبايعونه مستبشرين بنسبه الشريف . وحين تمت له البيعة تلقب بلقب القائم بأمر الله ، ونهض تورا لجهاد البرتغاليين ونودي به سلطانا في منطقة السوس سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وأخذ في محاربة البرتغاليين ورافقه النصر عليهم مرارا وتوفي سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وخلفه ابنه أحمد الأعرج ، وتابع سياسة أبيه في جهاد البرتغاليين واسترد منهم أغادير وماسة وسواحل السوس جميعها ، ودخل مراكش سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وبايعه المسيطرون عليها من قبيلة هنتانة المصمودية واتخذها عاصمة ولم تكد طلائع جيشه ترى في آسفي وآزمور بمنطقة دكالة حتى أخلاهما له البرتغاليون خوفا من القتل والسبي وفروا على وجوههم لا يلوون كما أخلوا مدينة أصيلا لضغط أهل منطقة الهبط عليهم ، وتوفي سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م وخلفه أخوه محمد المهدي وطرد البرتغاليين من آسفي وآزمور بعد عودتهم إليهما واستولى على مكناس ثم على فاس سنة ٩٥٢ إذ حاصرها ودخلها واعتقل الوطاسيين وأرسل بهم إلى ترودمت في السوس ، غير أن

مآثر الخليفة أبي العباس المنصور لأحمد بن القاضي ( تحقيق محمد زروق ) طبع الرباط ، ولابن القاضي أيضا جذوة الاقتباس ( طبع الرباط ) وكتاب نشر المثنى لأهل القرن الحادي عشر والثاني ( تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ) ( طبع دار الغرب ) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

(١) انظر في دولة السعديين كتاب المغرب في عهد الدولة السعدية لعبد الكريم كريمة وكتاب تاريخ الدولة السعدية لمجهول تحقيق كولان طبع الرباط ومناهل الصفا في أخبار الملوك الشرقا للفشتالي ( تحقيق عبد الله كتون ) والمغرب عبر التاريخ لإبراهيم حرقات ( طبع بيروت ) وتاريخ الأسرة السعدية للأفراني والمتقى المقصور على

واحدا منهم هو بوحسون كان قد لجأ إلى الترك في الجزائر واستعان بهم في الاستيلاء على مدينة فاس فأعانوه واستولى عليها ونودي به سلطانا ، فحاصره محمد المهدي واستولى منه على فاس وقتله . وأدى صنيع بوحسون بمحمد المهدي إلى تخلصه من الوطاسيين جميعا في ترودنت وبذلك أصبح المغرب الأقصى جميعه خالصا له . وكان فقيها وعلى معرفة بالأدب ، وكان واسع الأفق فأحسن تدبير الدولة ونظم شئونها ، وجعل لها موارد من الضرائب على الزراعة والصناعات تُعين حكامها السعديين على مقاومة البرتغاليين ، وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقي لدولة السعديين . ويقول خصومهم إن هذا اللقب دليل على أنهم ليسوا شرفاء من البيت النبوي ، إنما هم من بني سعد بن بكر القبيلة القيسية التي شرفت بحليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، والصحيح أنهم علويون من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، أما تلقيبهم بلقب السعديين فتعبير من المغاربة معاصريهم بأنهم سعدوا بهم ، كما يقول مؤرخهم الفشتالي في كتابه مناهل الصفا ، وأي سعد كان ينتظره المغرب في القرن العاشر الهجري أكبر من سعده بهم في تطهيرهم لسواحلهم من البرتغاليين ما عدا طنجة في الشمال . وخلف محمدا المهدي ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وظل يدافع البرتغاليين من جهة والترك في الجزائر من جهة ثانية ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء كثر فيها البنيان وال عمران وتوفى سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالمتوكل ، وكان لأبيه أخوان تغربا في الجزائر لدى الترك العثمانيين مدة ، وهما عبد الملك وأحمد ، وصمما أن لا يتنازلا عن صولجان الحكم والملك لابن أخيها ، وكان عبد الملك شخصية نابهة ، وكان يحسن الإيطالية والإسبانية ، وسافر إلى الآستانة ، وأخذ يلح في أن يرسل الترك معه جيشا للاستيلاء على فاس من يد ابن أخيه وعاد إلى الجزائر ، فأمدته واليها بكتيبة من الجيش التركي استعان بها على استرجاع فاس ، وبمجرد دخوله فيها فر ابن أخيه المتوكل وبايعه الناس وتلقب بالمعتصم سنة ٩٨٤ هـ / ١٥٧٧ م .

وكان عبد الملك المعتصم يحسن تدبير الملك ، فنظم أمور الدولة ولم يلبث أن نظم الجيش على طريقة الجيش التركي وما يتبع فيه من أساليب ، أما ابن أخيه محمد الذي لقب بالمتوكل فإنه حاول عبثا أن يشاغب عمه في منطقة السوس ، ولما أعياه ذلك لجأ إلى طنجة ، ولقى بها ملك البرتغال سباستيان ، فوضع يده في يده معاهدا له على حرب عمه عبد الملك ، وانتهاز الفرصة ملك البرتغال وجهاز جيشا قاده بنفسه ، يقال إن عدده بلغ ثمانين ألفا ، وانضم إليه محمد المتوكل مع من أغواهم ، ونزل البرتغاليون في ميناء أصيلا ، ورأى عبد الملك أن يطاولهم حتى يتوغلوا في داخل البلاد ، وتغلغلو إلى الجنوب حتى وصلوا إلى وادي المخازن بقرب مدينة القصر الكبير ، وتركهم حتى إذا عبروا جسر الوادي أمر بهدمه ، ثم لقيهم في جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ودارت معركة حاسمة سحق فيها الجيش البرتغالي سحقا ذريعا وقتل ملكه سباستيان ونصيره محمد المتوكل . وأثناء المعركة توفى عبد الملك المعتصم وفاة طبيعية



لأنه كان مريضاً وصمم على أن يحضر المعركة، وكان أخوه أحمد هو الذى يدبُّرها، وكنتم خبر وفاة أخيه عن الناس حتى لا يعكر عليهم فرحتهم بهذه المعركة الفاصلة : معركة وادى المخازن التى أعطت البرتغاليين درساً أن لا يفكروا مرة ثانية فى إنزال جيش لهم بالمغرب الأقصى، وأخذوا ينسحبون من المواقع التى استولوا عليها بشواطئ المحيط وأحياناً كانوا يتركونها لجارتهم إسبانيا .

وتولى بعده أخوه أحمد الذى اكتسب لنفسه فخرَ النصر المجيد فى معركة وادى المخازن ، إذ كان هو الذى أدارها ، وبايعه الناس مبتهجين به وتلقب بالمنصور ، وكان حاكماً عظيماً كبير الهمة بصيراً بشئون السياسة ، ومن أعماله إنشاء ما أسماه الديوان وهو مجلس شورى ينعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع - ويضم بعض رجال الدولة وبعض الشخصيات - للنظر فى الشؤون السياسية والمصالح العامة ، وأعاد تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا جامعاً فيه بين النظام المغربى والنظام التركى ، وكانت بعض أقاليم الصحراء فى الجنوب قد خرجت عن طاعته ، وخاصة إقليمى توات وتيكورارين فأرسل إليهما جيشاً قوياً أعادهما إلى طاعته . وكانت مملكته تتاخم فى الجنوب أقطار السودان فانتشر فيها الحديث عنه ، ودخل ملك بُرنو فى طاعته مما جعله يطمح للاستيلاء على السودان الغربى جميعه فأرسل إليه جيشاً ضخماً فى نهاية القرن العاشر الهجرى واستطاع الاستيلاء عليه ، وبذلك امتد نفوذه جنوباً إلى أقاليم سودانية لم يصل إليها نفوذ المغرب فى أى عصر قبله . ووضع يده على منابع الثروة الضخمة فى هذه البلاد ، حتى كان الذهب يُجنى إليه منها بالأحمال ولذلك لقب بالمنصور الذهبى ، ويقال إن عدد من كانوا يضربون السكة أو العملة الذهبية فى عهده بلغ ألفاً وأربعمائة . وهذا الغنى الطائل للدولة وتجارتها وأهلها هيأ لها ازدهاراً فى الحضارة وما يتصل بها من الصناعات وضروب الحياة ، وكثير حينئذ إنشاء القصور ومن أهمها قصر المنصور الذى سماه باسم البديع ، وقد استغرق بناؤه ثمانى سنوات ، وأنفق عليه أموالاً طائلة . وتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م .

وبعد وفاة المنصور تنازع أولاده الثلاثة : زيدان وأبو فارس ومحمد الملقب بالمأمون ، ونودى بزيدان سلطاناً فى فاس وبأبى فارس سلطاناً فى مراكش ، وتحاربا وانتصر أبو فارس ، غير أن أهل فاس فضلوا الخضوع للمأمون ، فنودى به سلطاناً سنة ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م واغتيل أبو فارس ، وحدثت طامة كبرى بتنازل المأمون لإسبان عن مدينة العرائش على ساحل المحيط جنوبى منطقة الهبط سنة ١٠١٨ هـ / ١٦١٠ م وبذلك عادت الاستعانة بالعدو الأجنبى ، ونشبت فتن واضطرابات ، ونودى بالابن الثالث للمنصور : زيدان سلطاناً ، وظلت الاضطرابات وتوفى سنة ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٨ م وتنازع الملك أولاده الثلاثة عبد الملك والوليد ومحمد شيخ وتوفى الأخير سنة ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤ م . وبوفاته ينتهى حكم هذه الأسرة ، وهو فى الواقع قد انتهى منذ تسليم المأمون ميناء العرائش لإسبان ، إذ اتسع نفوذ الطرق الصوفية وأصبحت هى التى

تدير الحكم في أكثر أجزاء المغرب الأقصى .  
(ب) الطرق<sup>(١)</sup> الصوفية

أخذت الطرق الصوفية تكثر في المغرب الأقصى منذ القرن الثامن الهجري ، مثله في ذلك مثل بقية البلاد المغربية ، وأخذت تكثر معها الزوايا ، وعادة يكون بها ضريح لمؤسسها الصوفى أو لصوفى كبير ومصلى ومساكن لبعض العلماء والطلاب الغرباء ، وكان أهل اليسار يقفون على هذه الزوايا أوقافا كثيرة ، وتلى فيها الأوراد وتقام الأذكار ، وقد تنعقد فيها بعض الدروس ، فتكون دارا للتعليم والوعظ والنسك . ولما فسدت الحياة السياسية فى أواخر عهد الدولة المرينية وضمف الحكام عن مواجهة أعداء الوطن البرتغاليين فى القرن التاسع الهجرى أخذ أهل المغرب الأقصى يلوذون ببعض أصحاب هذه الطرق آمليين أن يجدوا عندهم الحمية للذود عن دار الإسلام وإنقاذ الوطن من هذا البلاء المستطير ، والتف كثيرون منهم حول صوفى شاذلى صالح هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولى صاحب كتاب دلائل الخيرات المتوفى سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م متوسمين فيه أن يستجيب لهم ، واستجاب ، وتقدم مع جموع كثيرة من مرديه الصوفية وغيرهم يتصدى للبرتغاليين وينازلهم منازل ضارية . وبذلك حول الصوفية من جماعة تعيش للنسك وحده إلى جماعة مجاهدة فى سبيل الله تجاهد أعداء الدين والوطن من البرتغاليين النصارى ، وانتصر عليهم بمن آزره من الصوفية وغيرهم مرارا ، غير أن خائنا اغتاله ، ليقف جهاده . ولم تلبث الدولة السعدية أن قامت واستطاع حكامها البواسل أن يستردوا كل ما أخذه البرتغاليون واستولوا عليه من موانئ المحيط الأطلسى ومدنه كما أسلفنا وقد نازلوهم فى معركة وادى المخازن كما مر بنا ولم تلبث المعركة أن استحالت إلى ما يشبه مذبة كبرى للبرتغاليين ، فرؤوا إلى صوابهم ولم يعد يمر بخاطرهم أن يستولوا على أى ميناء مغربى على المحيط ، بعد أن كادوا يستولون على الساحل جميعه بمدنه وموانيه . وخاب الأمل فى أبناء المنصور الثلاثة كما مر بنا فقد تنازعوا على العرش ، وتنازل أحدهم - وهو المأمون - لإسبانيا عن مدينة العرائش جنوبى منطقة الهبط ولم يلبث الإسبان أن أسسوا لهم فى العام التالى بالقرب من مصب نهر سبو فى المحيط مدينة سميت المعمورة واسمها الآن المهديية وتنازل لهم البرتغاليون عن سبتة وطنجة فى الشمال وكذلك عن الجديدة فى منطقة دكالة وأزمور . وشق ذلك على المغاربة . ولاذوا - من جديد - بالتصوفة يأملون أن يرفع أحدهم لواء الجهاد للعدو الإسبانى فينضوا تحت لوائه ، واتسعت الفتن واتسع اضطراب الأمور ، وطمح كثيرون - حتى بين المتصوفة أصحاب الزوايا - أن يأخذوا بلادا أو أجزاء واسعة من الدولة التى توشك على

لأخبار دول المغرب الأقصى للسخارى ونشر المثنى لأهل القرن الحادى عشر والثانى للقادري تحقيق محمد حجى وأحمد التوفيق ( طبع دار الغرب ) .

(١) انظر فى الطرق الصوفية ونشاطها السياسى ما كتبه الدكتور محمد حجى عن الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى ( طبع الدار البيضاء ) والاستقصا

الاحتضار . ونكتفى بالحديث عن أحدهم وهو الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي مؤسس الزاوية الدلائية بتادلة سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وقد اتسعت حتى شملت مباني كثيرة ، وتكاثر بها العلماء المدرسون والطلاب ، وقد ثار الشيخ محمد الحاج علي الدولة السعدية في جبال الأطلس الوسطى سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م وتبعه كثيرون من البربر واستولى على سلا سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وزحف إلى مكناس وفاس سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وتملكهما وأقام الدولة الدلائية ، وقاومه محمد بن الشريف رأس الدولة التالية ، وستتم فيها الحديث عنه ، وعلى شاكلته صوفية من زوايا أخرى ثاروا على السعديين . وخير منهم جميعا وأعظم الشيخ الصوفي المجاهد البطل أبو عبد الله محمد العياشي الذي لجأ إليه أهل منطقة الهبط ، فتصدى للإسبان حتى خلص منهم مدينة العرائش ، كما خلص منهم مدينة آزموور في جنوبي تامسنة وخلص منهم الجديدة سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م ، ومع هذه الأعمال المجيدة امتدت إليه يد آثمة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م فقتلت البطل المنعدم النظير . ومن أهم رجاله وأعوانه الخضر غيلان الذي أرسله إلى منطقة الهبط لجهاد أعداء الله ، واستطاع الاستيلاء على مدينة القصر الكبير سنة ١٠٦٣ هـ/١٦٥٢ م .  
(ج) العلويون<sup>(١)</sup>

هذه ثالث دولة علوية في المغرب الأقصى بعد دولتي الأدارسة والسعديين ، ومؤسسوها مثل مؤسسي هاتين الدولتين من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكانت أسرتهما تعيش من قديم في منطقة سجلماسة ، وكان أهل المنطقة يرحبون بهم ويوسعون لهم في العيش معهم لنسبهم الشريف . وعندما ثار أبو الحسن ( بوحسون ) السملالي في مناطق الصحراء الجنوبية بالمغرب الأقصى واستولى على سجلماسة ودرعة والسوس أذعن له بالطاعة أبرز أفراد الأسرة حينئذ الشريف ابن علي ولم يلبث ابنه محمد أن رفض هذه الطاعة ، وحاربه السملالي فأسره وظل في أسره حتى افتكّه ابنه محمد المسمى باسمه . وعاد الأب في سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م إلى حرب السملالي واستطاع هزيمته في سجلماسة وتعبه في درعة وإقليم السوس حتى قضى على شره وشغبه . ولم يلبث الأب محمد بن الشريف أن هاجم محمداً الحاج رئيس زاوية الدلاء ورجاله ، وكان مستولياً على فاس ومكناس وحوض نهر سبو ، واستطاع محمد الحاج هزيمته سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م وعقد بينهما صلح على أن تكون منطقة الصحراء ( سجلماسة ودرعة ) إلى جبل بني عياش لمحمد بن الشريف ، وما يقع إلى الشمال من ذلك إلى حوض نهر أم الربيع إلى الغرب يكون لزاوية الدلاء ورئيسها محمد الحاج الدلائي . وحاول محمد بن الشريف

العلوية بالمغرب لكرول وكولان ( طبع باريس ) ونشر  
المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، والاقتضا  
لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي .

(١) انظر في العلويين أو الدولة العلوية الدرر الفاخرة  
بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زيدان ونزهة  
الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي للأفراني وتاريخ الدولة



الاستيلاء على تلمسان ، وسرعان مارده الأتراك العثمانيون حكام الجزائر . وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م وخلفه ابنه محمد ، وحدث شقاق بينه وبين أخيه الرشيد ، وتحاربا وتوفى محمد في أثناء الحرب ، فخلص الأمر للرشيد وتمت بيعته سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٥ م وكان قد تولى لاييه وأخيه على مكناس فاتخذها عاصمته واستولى على سجلماسة ، ولم يلبث أن استولى على فاس ومنطقتها في سنة ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٦ م من يد محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية وحلفائه من أعراب الأتبيج ، وفتح منطقتي الهبط ونودي به سلطانا على المغرب جميعه في السنة التالية . وصمم على هدم الزاوية الدلائية في منطقة فازاز شرقي ممر تازا ودخلتها جنوده سنة ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م وهدموها ولم يبقوا منها باقية ، واستسلم له محمد بن الحاج الدلائي فأرسل به مع أسرته إلى فاس حيث عاشوا في رعايته ، وتلطف مع شيوخ الزاوية فأرسل بهم إلى معاهد فاس وغيرها ليزاولوا نشاطهم العلمي . واستولى سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م على مراکش من يد أعراب الشبانات ، ولم يلبث أن فتح مدينة ترودنت وبقية مدن السوس ، وأذعن بالطاعة له أعراب المغرب الأقصى جميعهم من الهلالية في الشرق وقبائل حسان والمقل في منطقة درعة ، وأعلنت منطقة الريف في الشمال طاعتها له ، ماعدا مليلة وسبته اللتين كانتا قد استولى عليهما الإسبان ، وماعدا طنجة التي انتقلت إلى الإنجليز وبذلك أعاد الرشيد إلى المغرب الأقصى وحدته ، وهو يعد المؤسس الحقيقي لتلك الدولة العلوية .

وتوفى الرشيد سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م وخلفه أخوه إسماعيل وهو من أعظم سلاطين العلويين وطال حكمه نحو سبعة وخمسين عاما حتى سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م وكانت سنوات رخاء وخير وبركة للمغرب الأقصى ، وقد مدَّ حدوده شرقي نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، وثبتت تلك الحدود إلى اليوم ، كما مدَّ حدوده جنوبا متوغلا في بلاد السودان الغربي . وكون للمغرب الأقصى جيشا ضخما من البربر والأعراب والسود وكان يأتي بهم من فتوحه في السودان الغربي وحوض النيجر ، واتخذ لهم معسكرا يدربون فيه تدريبا عسكريا متقنا وبلغوا في حياته مائة وخمسين ألفا ، ووزعهم على القلاع بجميع أنحاء المغرب الأقصى للحراسة وأمن الطرق . وعاشت البلاد لعهدده في رخاء وطمأنينة وأمان وسخت الأرض بالخيرات . وأخذ إسماعيل يستكمل عدته لمنازلة الأجانب المحتلين لشواطئ المغرب الأقصى في الشمال والغرب ، وكانت كاترينا وارثة عرش البرتغال قدمت مدينة طنجة صداقا إلى زوجها شارل الثاني ملك إنجلترا سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م فانتقلت طنجة من أيدي الإسبان إلى أيدي الإنجليز ، واستطاع طرد الإنجليز منها سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م كما استطاع طرد الإسبان من المعمورة ( المهديّة ) شمالي مدينة سلا ، حتى إذا كانت سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م طردهم من مدينة العرائش ، وكان قد خلصها منهم العياشي ، وعادوا فاستولوا عليها ، ودق الشعب في المغرب الأقصى الطبول ابتهاجا بعودتها ، إذ كان قد أعلن من أجلها الحداد ، واتخذ لذلك شعارا أن يلبس

أحذية سوداء فلما استردّها إسماعيل نزعوا تلك الأحذية من أقدامهم وعادوا إلى لبس نعالهم الصفراء المغربية . وفي سنة ١١٠٤ هـ / ١٦٩٢ م طرد إسماعيل الإسبان من مدينتي أصيلا والعرائش ، وبذلك استرد للمغرب الأقصى ساحل المحيط جميعه وصدقت فراسة المغاربة للالتفاف حول أسرة علوية شريفة لإنقاذ المغرب الأقصى مما دهاه من كوارث مفجعة . وحاول السلطان إسماعيل فتح سبتة ومليلة وحاصر سبتة طويلا يريد أخذها من يد الإسبان ولكنهم ثبتوا فيها يعاونهم أسطولهم في البحر وقربها من ديارهم .

وتوفى - كما أسلفنا - سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م وتلاه عهد اضطرابات وفتن لتنازع أبنائه على الحكم وتدخل الجيش وأخذ يختل الأمن وينتشر الفساد وتشيع الفوضى وتسوء حالة البلاد الاقتصادية واستمر ذلك نحو ثلاثين عاما إلى أن أنقذ البلاد حفيد للسلطان إسماعيل ، هو محمد بن عبدالله الذي خلف أباه سنة ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م وكان قد أظهر في عهد أبيه قدرة سياسية حين عينه حاكما لمنطقتي مراكش وآسفي في دكالة ، ثم عينه قائدا فنظم الجيش وأقر الأمن في السوس ، وتابع بعد استيلائه على صولجان الحكم نشر الأمن في ربوع البلاد ، وتجوّل فيها متفقدًا لشؤونها وحصّن المدن الكبرى والثغور وشيّد بهما الأبراج والحصون وزوّدتهما بالمدافع والقوات العسكرية لحفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد ، وعنى بالأسطول فأمدّه بكل ما يلزمه من عتاد حربي ، وأضاف إليه طائفة من السفن ، وأمر أن يواصل البحارة والجنود فيه تدريبات ومناورات منتظمة على المتوسط والزقاق والمحيط . وكان البرتغاليون قد نزلوا في ميناء الجديدة ( المعمورة ) شمالي سلا سنة ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م فطردهم منها وابتنى ميناء الصويرة في منطقة حاحة غربي مراكش . ووثق علاقات دولته بالدولة العثمانية وتبادل معها الهدايا تأكيدا للمودة .

وتوفى سنة ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م وعادت البلاد إلى الاضطراب والفوضى في عهد ابنه اليزيد ولم يلبث أن توفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م وتولاها أخوه سليمان لنحو ثلاثين عاما ، ومُنَى في أوائل عهده بحروب متصلة بينه وبين أخويه هشام ومسلمة ، وخرج منها بعد طول عناء ، ليظل بقية أيامه ينازل بربر الأطلس التلي أو الأطلس المتوسط ، وولى بعده ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام حتى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م وشغل بثورات داخلية واحتل تلمسان حين احتلت فرنسا الجزائر ، وهزم في موقعة إيسلي . وخلفه ابنه محمد حتى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٤ م وقضى على ثورة الجيلالي الزرهوني واحتلت إسبانيا تطوان ثم انسحبت منها بمقتضى معاهدة . وتلاه ابنه الحسن وهو من أهم سلاطين الدولة العلوية وقد نشر الأمن في ربوع البلاد ، وأخذ يفتحها على الغرب فأرسل البعوث إلى أوروبا وأخذ يرقى بالبلاد حضاريا وفكريا ، وعهده الزاهر يعد - في رأينا - افتتاح العصر الحديث في المغرب الأقصى .

## الفصل الثاني المجتمع المغربي ١

### عناصر السكان

البربر هم العنصر الأصيل الذي عاشت قبائله ووطنه وعشائره - منذ آماذ سحيقه - في المغرب وسواحله وسهوله وجباله وهضابه ووديانه من برقة إلى المحيط الأطلسي واختلف مؤرخو العرب ونسابة البربر في الأصل الذي انحدروا منه اختلافات شتى استقصاها ابن خلدون في الجزء السادس<sup>(١)</sup> من تاريخه ، فقبل إنهم ساميون من ولد عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام ، وقيل بل من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل هم ساميون حقا ولكنهم عرب يمنيون من ولد النعمان بن حمير بن سبأ ، وقيل من لحم وجذام وقيل بل هم مضربون من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وقيل إنهم حاميون من مصرايم بن حام ، وقيل : بل من مازيغ بن كنعان بن حام . وكما اختلف المؤرخون والنسابة في أصلهم اختلفوا في موطنهم الأصلي وهجرتهم منه ، هل هو الجزيرة العربية أو اليمن أو الشام أو فلسطين ، واختلفوا فيمن أخرجهم منه ، قيل أخرجهم داود - بوحي نزل عليه - إلى ديار المغرب ، وقيل خرجوا بعد قتل داود لجالوت فأرّين إلى إفريقيا ، وحاولوا النزول بمصر فمنعهم القبط فاتجهوا إلى برقة وما وراءها وانساحوا في المغرب إلى المحيط ، وقيل بل الذي أخرجهم من الشام إلى إفريقيا يوشع بن نون ، وقيل : بل إفريقيش أحد ملوك التبابعة اليمنيين ، وقيل إنه ارتحل معهم في هجرتهم إلى المغرب حيان يمنيان : كتامة وصنهاجة . ويعلق ابن خلدون على كل هذه الأقوال وما يماثلها بقوله<sup>(١)</sup> : « إنها تكاد تكون من أحاديث الخرافة ، إذ مثل هذه الأمة ( الضخمة ) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانبا من الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور ( مثل الشام ) . والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام فما الذي يجوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم » . وابن خلدون محق في عد كل تلك الأقاويل من باب الخرافة سواء في ارتحال البربر من الشام أو غيرها إلى ديار المغرب أو في محاولة التعرف على الأصل الذي نشأت منه وتناسلت ذريتهم . والذي يؤكد المنطق والواقع أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين إليه من آسيا ، وليسوا ساميين إنما هم إفريقيون حاميون مما جعل

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٨٩/٦ وما بعدها .



ابن خلدون يقول : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أيهم مازيغ بن كنعان » . ويقول ابن خلدون إن إفريقيش - فيما يقال - هو الذي سماهم بالبربر لما سمع رطاتهم واختلاط أصواتهم . وأولى من ذلك ما يقال من أن الكلمة ترجع إلى أصل لاتيني هو Barbarus وهو عند الرومان من لا يفهم كلامه ، وربما وجدوا الكلمة على لسان المغاربة أنفسهم فأخذوها عنهم ، إذ سموا بها أنفسهم وشعوبهم ، أما القول بأن العرب هم الذين سموا بها الشعوب المغربية لعدم فهمهم لغتهم وأن من ذلك قولهم بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة فبعيد الاحتمال .

ويقول ابن خلدون إن شعوب البربر ترجع إلى مجموعتين ضخمتين هما شعوب البرانس وشعوب مادغيس الأبتير أو البتر ، وتجمع شعوب البرانس عند النساين عشرة شعوب أو قبائل كبرى هي مصمودة ، وصنهاجة ، وأوربة ، وعجيسة ، وكثامة ، وإزداجة ، وأوريغنة ، ولطة ، وهسكورة ، وجزولة . والقبائل التي اشتهرت منها بسكنى المغرب الأقصى هي مصمودة وكانت تسكن أربع مناطق هي : حاحة - السوس - مراكش - جزولة ، ومن بطونها غمارة وكانت تسكن منطقتي الريف والهبط وبرغواطة وكانت تسكن منطقتي تامسنة ودكالة . وصنهاجة ، ويقال إنها ثلث البربر وموطنها المغرب الأقصى والصحراء وراءه إلى السودان الغربي ، ومن بطونها لمتونة ومنها عشيرة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ومن بطونها أيضا بنو مزغنة منشئو مدينة الجزائر . وشعوب لطة وهسكورة وجزولة كانت مواطنها جميعا المغرب الأقصى ، وكان للشعوب الأخرى بعض بطون في المغرب مثل هوارة من أوريغنة . أما شعوب البتر فأربعة : نفوسة في طرابلس ، وإداسة وتختلط بطونها بهوارة ، وضريسة ، ولوا . ومن البطون الكبرى لهذه الشعوب من سكان المغرب الأقصى ورفجومة بأوراس ومضغرة ويسكنون ما بين فاس وتلمسان ، ومكناسة على نهر ملوية من سجلماسة إلى مصبها ، ومغراوة في فاس وسجلماسة وهي فرع من زناتة وكانت تسكن المغرب الأوسط وشطرا من المغرب الأقصى ومن بطونها يفرن وواسين ومنها بنومرين حكام المغرب الأقصى .

وظل البربر بعيدين عن الأمم القديمة لا يتصلون بهم أى اتصال حتى نزل بديارهم الفينيقيون في القرن التاسع قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده - وكانوا شعبا ملاحيا يحترف التجارة ، وأخذوا يبحثون في سواحل البلاد المغربية عن مواضع صالحة لرسو سفنهم كي يتبادلوا السلع مع أهلها ونزلوا قرطاجنة في تونس ، وأخذوا يبحثون عن مواطن أخرى على طول الساحل في الجزائر ثم في المغرب الأقصى على البحر المتوسط والمحيط وأنشأوا عليهما مدنا فينيقية هي مليلة على المتوسط وطنجة وأصيلا على المحيط ، ولا بد أن أثروا بحضارتهم الفينيقية في تلك المدن وأنحاءها المختلفة في أثناء القرون المتصلة التي خالطوا فيها السكان المغاربة ، ولا بد أن عرف المغاربة كثيرا من طرقهم في الزراعة والصناعة وخاصة في التعدين ، كما عرفوا أبجديتهم ولغتهم

وربما أتقنها منهم كثيرون . وتنشأ منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواسط القرن الثاني حروب بين قرطاجة عاصمة الفينيقيين وروما ويكتب النصر لروما ، وتؤول إليها ديار المغرب بما فيها من المدن الفينيقية ، وتصبح مليلة وطنجة وأصيلا تابعة لهم ، وينشئون على ساحل البحر المتوسط بقرب الزقاق مدينة سبتة وتوغلوا على المحيط ، وأنشأوا لهم موقعا أو مدينة هي سلا ، ومدينة ثانية أو موقعا هو أنفه ( الدار البيضاء ) ويتوغلون في الداخل وينشئون مدينة ولبلي . وظلوا في المغرب نحو ستة قرون إلا قليلا ، وطبيعي أن يؤثروا فيه بحضارتهم الرومانية وخاصة في المدن التي كان لهم فيها جاليات ولما اعتنقوا الدين المسيحي حاولوا نشره في البلاد المغربية وخاصة الساحلية . غير أن من دخلوا فيه من البربر - وخاصة في المغرب الأقصى - كانوا قلة ، فقد ظلت جماهير المغرب وثنية . واكتسح الوندال ما ملكته روما من البلدان المغربية ، وكانوا شعبا حريا غير متحضر فلم يتركوا فيها أثرا ، وخلفهم البيزنطيون ، ولم يحاولوا نشر شيء من ثقافتهم ولا حضارتهم في البلاد المغربية .

والعرب هم العنصر الثاني في المغرب الأقصى بعد البربر ، وقد جاءوا إلى المغرب في خلافتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لا طلبا للاستيلاء على ما فيه من طبيبات الأرض وثمارها وإنما طلبا لنشر دين الله حتى لا يعبد في الأرض إله سواه وحتى تعم تعاليمه الداعية إلى العدل والمساواة بين الناس ، وأخذ ولاة القرن الأول الهجري أنفسهم بتطبيق هذه التعاليم ، مما جعل المغاربة يدخلون في الدين الحنيف أفواجا . حتى إذا تكاثرت المسلمون منهم في عهد واليهم حسان بن النعمان كَوْن منهم كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا وولّى على قبيلة جراوة في الجزائر واليا منها . وهو رمز لما كان يأخذ به ولاة القرن الأول الهجري في المغرب من المساواة بين العرب والبربر في الجهاد والحكم . ويتسع ذلك في عهد خلفه موسى بن نصير ، إذ يولّى على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد ، ويعهد إليه بفتح الأندلس ، فيغزوها على رأس حملة أكثر جنودها من البربر ، ويلحق به على رأس حملة ثانية فيكمل الفتح معه . ويتقاسم شرف هذا الفتح عربي هو موسى بن نصير وبربري هو طارق بن زياد ، وجيش مؤلف من العرب والبربر . وبذلك لم يعد في ديار المغرب أي فارق بين عربي وبربري ، غير أننا لا نكاد نمضي في القرن الثاني الهجري حتى تنكب البلاد العربية بخلفاء أمويين لا يحسنون تدبير الملك فيولون على ديار المغرب ولاة جبارين يظلمون أهلها في الخراج وغير الخراج غير واعين لتعاليم الإسلام في المساواة والعدالة بين المسلمين ، ويبلغ السفه والعتة بوالى طنجة أن يصرّح بأنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعما زاعما مخطئا أنها غنائم حرب . وتنادى كثيرون من المغاربة كيف الخلاص من هذا الظلم الفادح ، وسرعان ما أخذ دعاة الخوارج من الصفرية والإباضية يوضحون لهم أن الخلاص الحقيقي إنما هو في اعتناق دعوتيهما التي تسوي بين المسلمين في جميع الحقوق . واعتنق مذهب الصفرية في المغرب الأقصى كثيرون وكونوا جيشا استولى على



طنجة وقتل واليها ، ونازلته جيوش الدولة الأموية مرارا ، وكان النصر حليفه ، ومر بنا - في الفصل الماضي - أن قائدين صفرين هاجما القيروان سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م وباءا بهزيمة ساحقة . وفي سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م هاجمت ورفجومة القيروان واستباحتها وخلصها منها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية في طرابلس . وتدور الأعوام وتنشأ الدولة الإدريسية ، وتأخذ في القضاء على الصفرية في شمالي المغرب الأقصى وينسحبون إلى سجلماسة ودولة بني مدرار . وأخذ إدريس الثاني (١٧٥ - ٢١٣ هـ) يستكثر من العرب في حاشيته حتى بلغوا خمسمائة . وهي أول دولة عربية إسلامية تنشأ في المغرب الأقصى وقد عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر حلقات القراءة والمحدثين والمفسرين والفقهاء في جميع مدننا والعناية بتعليم المغاربة العربية . وجاءها كثيرون من فقهاء تونس والمشرق ولاذ بها أربعمائة أسرة من أسر الأندلس الفقهية ، وجعلت عاصمتها عدوتين : عدوة للمغاربة سمها عدوة القرويين وعدوة للأندلسيين . ونمضى إلى منتصف القرن الخامس الهجري وتحديث الهجرة الأعرابية الكبرى لبني هلال وبني سليم إلى ديار المغرب ، ويقال إنهم كانوا نحو نصف مليون من الأعراب ، ويقال بل كانوا مليوناً أو يزيدون ، ولم يكونوا طلاب حكم وملك ، ولذلك لم يقيموا لهم دولة في المغرب ، إنما كانوا طلاب مواطن يقيمون فيها ، وانساحوا كسيل عرم في برقة وطرابلس وإفريقية التونسية والجزائر ، وكأنما وجدوا في كل ذلك ما يغنيهم عن الانسياح في المغرب الأقصى واكتساحه . ولا يمضى على هذا الطوفان للهلالين وبني سليم نحو قرن حتى يستنجد أهل طرابلس وإفريقية التونسية بعبد المؤمن بن علي سلطان الموحدين لاستيلاء النورمانديين بأساطيلهم على سواحل طرابلس وجزيرة جربة وميناء المهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية ورأى واجبا عليه أن ينقذ تلك البلدان وخرج بجيش ضخم إليهم وأخذ يستولى به على مدن الجزائر . وعلم وهو يبجاية أن القبائل الحلالية ، وهي الأثبج وزغبة ورياح وقرّة تتجمع مع صنهاجة لحربه ، وأرسل إليها جيشا نازحا ثلاثة أيام وانتصر عليها في اليوم الرابع وفر الأعراب تاركين وراءهم الأهل والمال ، فأمر بنقل النساء والأولاد إلى مراکش والعناية بهم . ولما أتم رحلته واسترد طرابلس والمهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية وعاد إلى عاصمته مراکش أمر أن يكتب إلى سادة بني هلال أن نساءهم وأولادهم في الحفظ والصيانة ، فوفدوا عليه وأكرمهم وردّ عليهم نساءهم وأولادهم وأسبغ عليهم أموالا وافرة ، ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بأسرهم ، ولما عزم على زيارة الأندلس سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م دعا عرب بجاية إلى العبور معه للأندلس للجهاد برسالة تلهب حماسة ختمها بأبيات من نظمه استهلها بقوله :

أقيموا إلى العلياء هوجَ الرّواحل وقودوا إلى الهيجاء جرّد الصّواهل

واستجاب له جمع ضخيم كما يقول صاحب المعجب<sup>(١)</sup> فأنزل طائفة بنواحي قرطبة وطائفة بنواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . وفي سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م وقد على الخليفة بعده ابنه يوسف حشد كبير من قبيلة رياح وضعوا أنفسهم تحت تصرفه وعبر كثيرون منهم معه إلى الأندلس . ولما خرج ابنه يعقوب المنصور لاسترجاع قفصة وقابس واستعادهما خرجت عليه في هذه الأثناء بقايا من قبائل رياح الهلالية وأخواتها من قبائل جشم والأثبيج ، فردهم إلى طاعته ، ولاذوا بدعوته ، فأمر بنقلهم إلى المغرب الأقصى لكف عدوانهم عن المغرب الأوسط ، وصدعوا لأمره ، فأنزل بنى رياح في مناطق الهبط وأزغار وفاس مما يلي سواحل طنجة إلى سلا ، وأنزل بنى جشم في تامسنة وما وراءها من الأراضي ، وأنزل الأثبيج في منطقتي دكالة وتادلة . ويبدو أن بطون بعض هذه القبائل تحركت من منازلها بعد عصر الموحدين إلى منازل جديدة استقرت فيها إذ يذكر الحسن<sup>(٢)</sup> الوزان في القرن العاشر الهجري أن بعض فروع رياح سكنوا منطقة دكالة وضواحي ميناها آسفي على المحيط وأن فروعاً أخرى سكنت منطقة حاحة وسهولها ، كما يذكر أن فرع المنتفق من أثبيج تحول شمالاً وسكن أزغار ، وأن فرع صبيح منها تحرك جنوباً وسكن السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ويقول إن يعقوب فتح لعامة العرب نوميديا أي الصحراء في جنوبي الجزائر متداخلة مع شطر من الصحراء في المغرب الأقصى ، ولعل ذلك ما جعل بعض بطون القبائل العربية أو الأعرابية في نوميديا ينزح إلى موريتانيا الشرقية ويتغلغل إلى وادي ملوية شمالاً ووادي أو نهر درعة جنوباً . ومن أهم هذه القبائل المعقل ، يقول ابن خلدون : « هذا القبيل لهذا العهد ( في القرن الثامن الهجري ) من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى ويتتهون إلى البحر المحيط من الغرب » ويطونهم كثيرة ، وتستولى على ملوية كلها إلى سجلماسة ، وتصعد إلى ممر تازا وأنحاء تادله وتلال مكناسة ، واستولت على السوس الأقصى وانتجعت في الرمال إلى مواطن الملتمين<sup>(٣)</sup> ، وولتقى بسليم قرب وادي درعة ، وتشتغل بالتجارة<sup>(٤)</sup> وتذهب مع سلعتها في قوافل إلى تمبكتو ، وأهلها أثرياء ولهم أملاك وأراض زراعية كثيرة في درعة . وكل القبائل التي ذكرناها أخذت بطونها تمتزج بأهل المغرب الأقصى بحيث أصبح عربياً ديناً ولغة .

والعصر الثالث في المغرب الأقصى هو الأندلسيون الذين أخذوا في الهجرة إليه منذ عهد الحكم الربيضي في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث إذ أوقع بفقهاء قرطبة وقعة الربيض المشهورة وأمر بطردهم من الأندلس ، وكانوا مع من اشتركوا معهم في الوقعة ألوفاً ، وذهب

(٢) انظر كتابه وصف إفريقيا ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) راجع ابن خلدون ٥٨/٦ .

(٤) وصف إفريقيا ص ٦٢ .

(١) انظر في استنفاة عبدالمؤمن للأعراب المعجب ص ٢٩٤ وانظر في استنفاة يوسف ويعقوب لهم وإسكان يعقوب لقبائلهم المغرب الأقصى ابن خلدون ٢٠/٦ ، ٢١ ، ٢٤ .

كثيرون منهم إلى الإسكندرية ثم تركوها إلى جزيرة كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ظلت بها أكثر من قرن إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وحشد كبير اتجه إلى فاس في المغرب الأقصى وكان إدريس الثاني ينيها فجعلها عدوتين : عدوة للمغاربة وعدوة للأندلسيين ، ويقال إنه نزلها منهم أربعمائة أسرة سوى من نزلوا في بلاد المغرب الأقصى الأخرى . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى فتسقط - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قرطبة وبلنسية ودانية وإشبيلية في حجر الإسبان ، ثم تسقط مرسية ، وتهاجر منها جميعا إلى المغرب الأقصى أفواج من الأندلسيين باحثة لها عن موطن جديد في فاس وفي غير فاس ، ويرحب بهم المغاربة ويفسحون لهم في أسباب العيش . وأخذت هذه الهجرة الأندلسية تتسع بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م وخروج العرب من الجزيرة الأندلسية فإن كثيرين منهم نزلوا المغرب الأقصى واتخذوه وطنا ثانيا لهم ، حتى إذا اتخذ فيليب الثالث ملك إسبانيا سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م قرارا بطرد كل المسلمين من إسبانيا التجأت منهم أفواج كثيرة إلى المغرب الأقصى متخذة منه شاطئ نجاة ، ورحب بهم المغاربة كما رحبوا - من قديم - بمن نزل بينهم لعهد الحكم الرضى ثم لعهد سقوط المدن الكبرى في القرن السابع الهجرى ، ثم لعهد سقوط غرناطة . ودائما كان الحضريون من الأندلسيين فقهاء وعلماء وأصحاب صناعات ينزلون المدن ويستقرون فيها وكان الفلاحون والزراع منهم ينزلون سهول المغرب الأقصى ووديانه وتلاله ، وارتقوا فيه بطرق الرى والزراعة والغرس التى ألفوها في الأندلس سواء فى السهول والوديان أو فى التلال أو فى مرتفعات الجبال، واختار كثيرون منهم - منذ سقوط غرناطة - منطقتى الريف والهبط فى الشمال . وتحول غير قليلين منهم إلى قرصنة يغيرون على سفن إسبانيا وشواطئها والسفن الأوربية انتقاما من إخراجهم كرها من وطنهم الأندلسى . وكانت هذه الأفواج الأندلسية أكثر حضارة وثقافة من المغاربة ، فأفادوا منهم حضاريا وثقافيا فوائد كثيرة بجانب الفوائد المادية والاقتصادية من الحرف والصناعات وأساليب الزراعة ، وبمرور الزمن اندمجوا فى الشعب المغربى اندماجا تاما . والعنصر الرابع اليهود وكان أول نزول لهم فى المغرب بالقرن الثالث ق .م على عهد الفينيقيين وكثر نزولهم فيه بعد تحطيم القيصر تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد ويبدو أنهم اختلطوا بالبربر إذ حاولوا نشر دينهم فيهم واعتنقه بعض البربر ، ولا بد أن دخل منهم كثيرون المغرب الأقصى فى أثناء المدّ الفينيقى والرومانى ، وظلوا بالمغرب بعد الفتح الإسلامى ناعمين بما يعطيه الإسلام لأهل الذمة : اليهود والنصارى من الحرية فى إقامة شعائرهم مع المعاملة الحسنة ، وربما نزع إليهم فى العهود الإسلامية يهود من فلسطين ، حتى إذا سقطت غرناطة أخذ ينزح إلى المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة يهود كثيرون ممن كان يضطهدهم نصارى إسبانيا كما اضطهدوا المسلمين ، وشملهم قرار فيليب الثالث المار ذكره بطردهم من إسبانيا مثل



المسلمين ، ولاحقهم بأنواع من التعذيب الشديد ، فالتجأ كثيرون منهم إلى المغرب الأقصى وانتشروا في مدنه وقراه من تخوم البحر المتوسط والمحيط إلى تخوم الصحراء . وفي كتاب وصف إفريقيا وحديث الحسن الوزان فيه عن المدن ما يصور مدى انتشارهم بعد سقوط غرناطة إذ يذكر أن في مدينة بادس على البحر المتوسط شارع طويل يسكنه اليهود يباع فيه الخمر ، ويقول الوزان إن لهم في منطقة حاحة بمدينة تدنست مائة بيت يهودي وبمدينة آيت دواد كثير من الصناعات اليهود يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصباغة والصبغة ، وفي درعة وسجلماسة كثير من صناعاتهم وتجارهم . ويقول الوزان لهم في تازة خمسمائة بيت ويعنون بصناعة الخمر من كروم البساتين فيها والمزارع . ويبدو أنهم كانوا كثيرين في فاس منذ القرن الثامن الهجري ، إذ يذكر الحسن الوزان في حديثه عن فاس أنهم كانوا يسكنون في فاس القديمة ونقلهم السلطان المريني أبو سعيد عثمان الذي تولى الدولة بين سنتي ٥٨٠١/١٣٩٨ م و ٥٨٢٥/١٤٢١ م إلى مدينة فاس الجديدة التي بناها مؤسس دولة بني مرين سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م وهم يشغلون فيها - كما يقول - شارعاً طويلاً جداً وعريضاً للغاية حيث تقع دكاكينهم وكنائسهم أو معابدهم ، ويذكر أن عددهم تزايد زيادة كبيرة حتى لم يعد من الممكن معرفة عددهم ، كما يذكر أن معظم الصاغة منهم . وإذا كان الوزان يلاحظ ازديادهم المفرط في زمنه لأوائل القرن العاشر الهجري بعد سقوط غرناطة فلا بد أن أعدادهم في فاس والمغرب الأقصى تضاعفت بعد طرد فيليب الثالث لهم من إسبانيا في القرن الحادي عشر الهجري ونراهم - منذ الدولة المرينية - يحاولون أن يكون لهم شيء من النفوذ عند بعض حكامها ، وبلغوا من ذلك أن اتخذ آخر سلاطينها عبد الحق وزيراً منهم يسمى هرون فثارت عليه العامة ومعهم الفقهاء والخطباء ، وعادوا في الدولة السعدية يتصلون بحكامها ، ونجحوا في أن تتخذ منهم سفراء إلى أوروبا وبعض من يمثلونها في الصفقات التجارية الكبرى . ولا بد أن نذكر أن المغاربة لم يلتحموا بهذا العنصر أي التحام ، فقد كان عنصراً دخيلاً عليهم لغة وديناً ويقول الوزان في حديثه عنهم بفاس إنهم كانوا محقرين من كل الناس .

أما النصارى فلم يكونوا يوماً عنصراً من عناصر السكان في المغرب الأقصى إذ كانوا دائماً وافدين عليه ، وفدوا أيام الدولتين الرومانية والبيزنطية ، ويبدو أنه كانت لهم جاليات في مدينة سبتة وغيرها ، يدل على ذلك من بعض الوجوه قول الوزان في حديثه عن فاس : « نجد بعض أسماء الأعياد التي اعتاد النصارى الاحتفال بها والتي لا يزال الناس يعملون بها اليوم ( في زمنه ) ولا يدرى أحدثيتها عن سبب التمسك بهذه الأعياد ، ففي كل مدينة مغربية يُحتفل ببعض الأعياد والعادات التي خلفها النصارى منذ الزمن الذي كانوا يحكمون فيه إفريقيا ، يريد زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية . ويدخل المغرب الأقصى في الإسلام ويجلو عنه نصارى الدولتين إلا قليلاً . ونمضى إلى عصر الموحدين فيذكر الحسن الوزان في حديثه عن مراکش أن

المنصور الموحدى بنى فى القصبة قصرًا للحرس من الرماة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يسيرون أمام موكب الخليفة حين ينتقل من مكان إلى مكان . وبعد خروج العرب من الأندلس نقل الإسبان والبرتغاليون الحرب الصليبية إلى سواحل البحر المتوسط والمحيط ، وكانوا يظلمون فيها - كما أسفلنا - سنوات تطول أو تقصر ، ثم يغادرونها قسرا أو جبرا ، وقد يستولون منهم على مئات يستخدمونهم عبيدا أو رقيقا ويكلفونهم بمختلف الأعمال من أبنية وتحصينات وغير تحصينات على نحو ما مر بنا من صنيع بطل تطوان فى ثلاثة آلاف أسير منهم كان ينهكهم فى أعمال التحصينات . وأخذ كثيرون من المسلمين المنفيين عن الأندلس بعد سقوط غرناطة وقرار فيليب الثالث المار يشتغلون بالقرصنة فى عرض البحر المتوسط وعلى سواحل إسبانيا انتقاما من ملوكها وكانوا يجلبون كثيرا من رقيق النصارى فى قرصنتهم ويستحيلون عبيدا ، وكان كثير منهم يسلم ، فينتهى رقه ويستحيل مسلما مواطنا .

## ٢

### المعيشة

مر بنا فى الحديث عن جغرافية المغرب الأقصى أن أراضيه خصبة ، ومن قديم كان أهله يعيشون على الزراعة ورعى الأنعام ، وإذا أخذنا نسير فيه من الشمال إلى الغرب على المحيط وبدأنا بمنطقة الهبط وجدناها وافرة الإنتاج من الحبوب ومختلف الثمار من الفواكه وخاصة البرتقال والكرز . وتليها منطقة أزغار ، وبها كثير من الحبوب والأقوات ، ويزرع بها القطن ، وبها كثير من الماشية والخيل والغزلان وأنواع ممتازة من الفواكه . وتجاورها منطقة فاس ، ويقول الحسن الوزان بحديثه عنها : فى القسم الجنوبى من المدينة كثير من الحدائق المليئة بأشجار مشمرة متنوعة وممتازة مثل أشجار البرتقال والليمون والأترج والزهور الجميلة من بينها الياسمين والورود والرتم الذى استورده الأندلسيون من أوروبا . وتحفل البساتين بقصور جميلة وبرك ماء وحنفيات ، وتحاط البرك بالياسمين وبالورود وبأشجار البرتقال ، وعندما يمر الإنسان فى فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم أعطر شذى ينبعث من كل جانب ، ولا يكاد يشبع نظر الإنسان من متعة جمالها وملاحتها ، وتشبه كل روضة من هذه الرياض جنة أرضية . وكان من عادة الوجهاء الإقامة فيها ابتداء من مطلع شهر نيسان ( أبريل ) حتى آخر أيلول ( سبتمبر ) . ويقول الوزان عن زروعها فى الشمال والشرق والجنوب : بها مزارع جميلة مليئة بالأشجار المشمرة من كل صنف ، وتخترق هذه المزارع بعض تفرعات النهر ، ولكثرة الأشجار يخيل للناظر إليها من بعد أنها غابة حقيقية ، وتنتج منها الثمار بوفرة ، وثمارها من نوع جيد ، ويقدر ما يباع فى اليوم بكل موسم خمسمائة حمل من الثمار فيما عدا العنب الذى لا يدخل فى هذا

الرقم . وإلى الغرب من فاس أرض واسعة عرضها خمسة عشر ميلا وطولها ثلاثون تكثر فيها العيون والجداول وهي خاصة بالجامع الكبير ( جامع القرويين ) ويزرع فيها الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والقنبيط وسوى ذلك من الخضراوات ، وتنتج هذه الأرض مقادير كبيرة ، وحتى لتقدر كمية إنتاجها بخمسة عشر ألف حمل في الصيف ومثلها في الشتاء . وتوجد في حضيض الجبال أشجار الزيتون والفواكه والأعشاب وهي شديدة الحلاوة . ومن مدن منطقة فاس مكناس ، ويقول عنها الوزان إنها تقع في سهل بديع وعلى مسافة ثلاثة أميال منها مزارع أشجار عديدة ثمارها ممتازة ولاسيما السفرجل وثماره فخمة جدا وزكية الرائحة ، وكذلك ثمار الرمان التي تبدو عجيبة في حجمها ونوعها لأنها تخلو تماما من البذور ، والخوخ الأبيض والأخضر إنتاجهما غزير جدا ، ويؤجنى العناب بمقادير وفيرة ، ويوجد الكثير من التين وعنب التكميات ، وتجنى مقادير كبيرة من المشمش والخوخ ومقادير لا تحصى من الزيتون ، والأراضي المحيطة بالمدينة خصبة جدا ، وتنتج كمية كبيرة من الكتان . وتنمو ببعض الأنحاء أشجار التوت وينتفع بها لتغذية دود القز . وأراضي منطقة تامسنة صالحة لزراعة كل أنواع الحبوب والبقول ، وبها كثير من البساتين . وتنتج الكثير من العنب والكرز والشمام ويزرع بها القطن بمقادير وفيرة ، وينمو بها نوع من البلوط ثماره حلوة . ومنطقة دكالة كمنطقة تامسنة خصبة ، وتنتج كميات وافرة من القمح والعسل والزيتون وبعض الفواكه مثل التين وبها كثير من الأبقار . وبجوارها منطقة حاحة ، وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير ، ويكثر فيها التين والدراق ، وإنتاج العسل بها وافر جدا ، وبها الكثير من المعز وقليل من الضأن والبقر والخيول . وتليها إلى الداخل منطقة مراكش وسط سهل خصب ، وكان في المدينة ( عاصمة المرابطين والموحدين ) بستان جميل واسع جدا مليء بكل أنواع الأشجار والزهور ، كما يقول الوزان ، وكان به حوض ماء مربع من المرمر في وسطه عمود يحمل أسداً من رخام منحوتا نحتا دقيقا يتدفق من فمه ماء صاف غزير ، وفي كل زاوية من زوايا الحوض الأربع فهد من رخام أبيض منقوش يبقع خضراء مستديرة . وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة للحيوان تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود واليوس الجبلية . وكان للأسود خاصة حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى . ومنطقة هذه المدينة تكتظ بالكثير من المياه والأنهار والعيون ، ولذلك تنتج القمح والحبوب بمقادير وافرة وتكتظ بالبساتين وثمارها كالعنب والتين والتفاح والكمثرى ، وبها كثرة من المعز والأنعام ، ويزرع بها الكتان والقنب ، وينمو في سفوح الجبال السفرجل وأشجار الزيتون والجوز ، وجنوبي حاحة على المحيط منطقة السوس ، ويكثر في أنحائها إنتاج القمح والشعير وقصب السكر كما يكثر النخيل والتمر والتين والعنب ، كما تكثر النيلة . والماشية - وخاصة في بعض الأنحاء - وافرة جدا وبالتالي يكثر فيها الصوف . ونصعد إلى الشمال على البحر المتوسط في أقصى الشرق إقليم غارت وتكثر فيه



الكروم والعسل والمعز والأغنام ، ولذلك يكثر فيه الصوف ، كما تكثر في بعض الأنحاء - مثل أزغار على المحيط - أشجار التوت وما يتغذى عليها من دود القز . ويجوار منطقة غارت إلى الغرب منطقة الريف على البحر المتوسط وتكثر فيها الفواكه وخاصة البرتقال والعنب والسفرجل والليمون ، كما يكثر العسل وأشجار الزيتون . وجنوب غارت منطقة الحوز وتنتج القمح والشعير والذرة وكميات وافرة من الكروم والدراق والتين والسفرجل المعطر والليمون وأيضا من الكتان والقنب ، وتكثر أشجار التوت في بعض المناطق ويتغذى عليها دود القز ، وبها كثير من الماشية وخاصة المعز والخيول والبغال . وجنوب الحوز منطقة تادلة وتكثر بها بساتين الكروم والتين وأشجار الجوز والزيتون الباسقة ، وتكثر فيها الأنعام والماشية والأغنام ولذلك إنتاج الصوف فيها وافر جدا وسفوح الجبال جيدة لرعى الماشية وإنتاج الشعير . وشرقي منطقة مراكش منطقة هسكورة وتكثر بها أشجار النخيل والزيتون والجوز والنيلة وبساتين الفاكهة الجيدة : مشمش وغير مشمش وخاصة الكروم وتنتج عنبا أحمر كبير الحجم كبيض الدجاج ، ويكثر فيها العسل ، ومن عسلها نوع أبيض كاللبن وهو ممتاز ونوع أصفر كالذهب ، كما يكثر فيها الزيت وطعمه طيب . ويكثر الغنم والمعز ، ويقول الوزان : لبعض أغنيائهم مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، ويبيعون صوفها ويتركون للرعاة الحليب والجبن . وشرقي السوس منطقة جزولة وتنتج كميات وافرة من الشعير وبها مراعي واسعة هيأت لوفرة من الماشية والأنعام والأغنام . وإلى الجنوب الشرقي منها منطقة درعة ، وشمالها على نهر زيز سجلماسة ، والمنطقتان تهتمان بتربية المعز والأغنام وتنتجان كميات وافرة من التمر لكثرة ما بهما من النخيل ، وللمر فيهما أنواع كثيرة فاخرة ، وكانت تنمو بهما الكروم والدراق .

ومن وجوه العيش والكسب في المغرب الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والأنهار ، ولا يكاد الوزان يترك مدينة كبرى أو صغرى على البحر المتوسط إلا يذكر أن بها صيادين أو أن أهلها جميعا صيادون ، من ذلك ما يذكره عن أهل ميناء بادس من أن صياديهما يحرصون على أن يحصلوا على كميات كبيرة من السردين وأسماك أخرى ، وعادة يحتاجون لمساعدة بعض الأشخاص لهم في سحب الشباك ، ويتركون لهم وللأشخاص الذين يوجدون هناك قسما طيبا من السمك الذي يصيدونه . ويقول عن أهل مدينة صغيرة تسمى تاغسة إنهم صيادون وملاحون . ولا بد أن كان كثير من سكان الريف والهبط يحترفون القرصنة زمن ازدهارها في المغرب الأقصى بالقرون التاسع والعاشر والحادي عشر ، وكانت كثرة القراصنة من الأندلسيين الذين اضطهدهم ملوك إسبانيا واضطروهم إلى الخروج من موطنهم في الأندلس . وضعفت القرصنة بعد ذلك وظل صيد السمك غالبا على منطقة الريف ، وكان يزاوله بعض السكان على المحيط ، كما كانوا يزاولونه في بعض الأنهار والبحيرات ، وأهم نهر كانوا ينزلون للصيد فيه نهر أم الربيع عند مصبه قرب مدينة آزموذج بمنطقة دكالة ، وكان يكثر في مياهه نوع من السمك

يسمى - كما يقول الوزان - الألوذ وكان موسم صيده يبدأ في تشرين الأول ( أكتوبر ) وينتهي في أواخر نيسان ( أبريل ) ويقول الوزان إنه كان يحوى من الدهن أكثر مما يحوى من اللحم . أما البحيرات فنمثل لها ببحيرة كانت بمنطقة دكالة أيضا فى حوض الجبل الأخضر ، وكانت تحوى كمية كبيرة من الأسماك مثل سمك الحنكليس ، وسمك الشبوط وأسماك أخرى ، وكلها ممتازة للغاية ، ويقول الوزان إن أحدا لم يكن يصيد بها وإن السلطان محمد بن محمد البرتغالى توقف بجوارها ثمانية أيام وأمر بالصيد فيها . وكما كانوا يجلبون صيد البحر كانوا يجلبون صيد البر بواسطة الأشراك ، وخاصة فى منطقة درعة حيث كانوا يصيدون الحيوانات الوحشية مثل النعام والوعول ويسمونها اللمت والبقر الوحشى ويسمونه ودان .

ومنذ القدم يعنى المغرب الأقصى بالصناعات اليدوية كالحداذة والتجارة واستخراج المعادن وتصنيعها وبخاصة الحديد ، وتنتشر مناجمه فى مناطق كثيرة ، وبخاصة فى منطقة غارت بالشمال ، فالوزان يقول إن مليلة كانت تنتج كمية كبيرة من الحديد ، وإن فى جميع الجبال المجاورة لجبل مدينة أمجاو مناجم حديد ، ويسكن المشتغلون بشئون هذه المناجم كثيرا من الدساكر والقرى فى المنطقة ، ويقول عن جبل بنى سعيد : تستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد ، ولكل رئيس من رؤساء المشتغلين بالمنجم وشئونه بيته بجوار المنجم ومصنعه الذى يصفى فيه الحديد ، وينقل الحديد إلى فاس على شكل سبائك ، وما لا يمكن بيعه يستخدم لصناعة أدوات من نوع الفئوس والمناجل والبلاطات التى يقطع بها الخشب . وفى منطقة الحوز بجبل بنى يستين عدة مناجم حديد على سفحه ، ويصنع الحديد ، وتعمل منه سبائك تُحذى بها الخيل ، ونفس السبائك تستعمل نقودا ، ويجنى هؤلاء الجبليون من هذا الحديد دخلا كبيرا لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة . ولكثرة الحديد فى المنطقة استطاع سكان جبل بنى يازغة صنع ما يشبه « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وسنصفه فى موضع آخر . وفى منطقة جزولة عدة مناجم للحديد والنحاس ويصنعون من النحاس أوعية عديدة يحملونها إلى مختلف الأنحاء . ويكثر صناع آنية النحاس بأفران فى منطقة درعة لأنها من السلع التى يحملونها إلى السودان ، وفيها عمال مهرة جدا فى الصناعات كصنع الشمعدانات والصحاف والمخابر والأشياء الأخرى ، وجميعها تباع كما لو كانت من فضة . ونعود إلى منطقة الحوز فى بلدة مزدغة تربة صلصالية يصنعون منها عددا لا يحصى من الأواني الخزفية ويبيعونها فى فاس ويسهل سهب المرجة الذى يبلغ حوالى ثلاثين ميلا عرضا وأربعين ميلا طولاً بين جبال الأطلس المحاطة بغابات ضخمة ينتج الفحمون هناك مائة حمل من الفحم ، ونلتقى بمثل هذا الفحم فى مدينة العرائش . وفى قصر المزاليق بسجلماسة منجم للرصاص وآخر للإثمد ( الكحل ) وتلقاها فى مدن كثيرة صناعة الشمع لكثرة إنتاج العسل فى غير بلدة ، ومعاصر الزيت لكثرة أشجار الزيتون فى معظم أنحاء البلاد ، وبالمثل دباغة الجلود ، وتوجد أشجار النيلة فى أماكن مختلفة



وخاصة السوس وهسكورة ، وكان يصنع الصابون في بلدان متعددة وخاصة في منطقة الريف ، وفي أماكن مختلفة وخاصة في منطقة الهبط خشب البقص في جبل بني واغرافت وتصنع منه الأمشاط في فاس وسلا . وفي بعض المناطق تكثر أشجار التوت لتغذية دود القز ، كما في مكناس وأزغار بمنطقة الحوز ، ويجمع منه الحرير . وفي منطقة الريف يشيع تمليح السردين إعداداً لبيعه ، كما يشيع فيها وفي المغرب قطع الأشجار الضخمة وإعدادها للتصدير أعمدة واللواح ، وبجانب ذلك يشيع صنع القوارب والطرادات في هذه المنطقة ومنطقتي الهبط وأزغار وكان لهما في ميناء بادس دار صناعة . وفي كل مدينة نجد الإسكافيين أو الحدائين والدباغين والسراجين .

وفي مدن كثيرة تنسج الملابس ، ينسجها عادة النساء ، وحيث تكثر زراعة القطن تكثر الأقمشة القطنية كما في أزغار وتامسنة وسلا ، وحيث تكثر الأغنام والمعز يكثر الصوف كما في منطقة السوس ، وتشتهر بنسيج نوع ناعم من الصوف كالجوخ وبالأقمشة الصوفية . وأيضا حيث تكثر زراعة الكتان تكثر الأقمشة الكتانية كما في السوس أيضا ، وبالمثل تجنى منطقة الحوز من الكتان كمية كبيرة ، ولذلك يحيك السكان - وخاصة في جبل مغسة الأقمشة الكتانية ، ويحصلون من أغنامهم في جبل بني يازغة على صوف شديد النعومة تصنع منه نساؤهم أقمشة كالحرير ، وبمدينتي تفضة وأفزة من منطقة تادلة أغنام مماثلة ، ونساؤهما ماهرات - كما يقول الوزان - في شغل الصوف ، ويصنعن منه برانس وخيمارات جميلة جدا ، وبذلك يربحن من المال أكثر من رجالهن إلى حد ما . وبالمثل بمنطقة هسكورة كمية كبيرة من الأغنام وتصنع من صوفها أقمشة جميلة جدا . ولكي نتصور مدى نشاط صناعة النسيج في المغرب الأقصى أسوق ما ذكره الحسن الوزان عنها في فاس ، فقد ذكر أن بها مائة وعشرين مؤسسة للنساجين وهذه المؤسسات أو المصانع أبنية كبيرة كل منها مؤلف من عدة أدوار مع قاعات فسيحة كقاعات القصور ، وتحوى كل قاعة عددا كبيرا من عمال نسج الكتان والقنب . وتلك هي الصناعة الرئيسية في فاس ويقال إنها تكفل العمل لعشرين ألف عامل .. ومن جهة أخرى كان يوجد مائة وخمسون مصنعا لقصارى ( مبيضى ) الخيوط ، ويقوم معظمها قرب النهر لبل الخيوط ودقها . وتتجهز هذه المصانع بالكثير من المراحل والخوابي المبنية لغلي الخيوط ولحاجات مهنية أخرى . والقنب هو الذى يتخذ منه الحبال . ولا بد أن كانت هناك مصانع أخرى لنسج الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية إلا إذا كانت تضمنتها المصانع السابقة .

ومنذ القرن الثانى الهجرى تُبنى في المغرب الأقصى المنشآت العمرانية التى لا تقتصر على بناء مفرد ، أو أبنية محدودة ، بل تتجاوز ذلك إلى بناء مدن بمساجدها وقصورها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها وأسواقها ، فقد بنى إدريس الثانى مدينة فاس أو بعبارة أدق ابتداء بناءها

سنة ١٩٢ وجعلها عدوتين أو شطرين : شطرا على الحافة الشرقية للنهر وشطرا إلى الغرب منه ، وبيض الحسن الوزان فى وصف جمال بيوتها وزينة حجارتها بالفسيفساء وطلاء سقوفها بطلاء لازوردى وذهبى وما فى الطوابق من شرفات كثيرة الزخرف ، ويسترسل فى الحديث عن دهاليزها وما بها من أعمدة رخام ودعائم مقوسة وسقوف مزينة بنقوش متنوعة الألوان ، ويتحدث عن مساجدها التى تبلغ ٦٠٠ مسجد وجامعها الكبير المسمى جامع القرويين وكان يوقد فيه كل ليلة ستمائة مصباح ، وكانت تلقى فيه الدروس على الطلاب ، وبذلك تحول - مثل الأزهر - إلى جامعة ضخمة . ويسط القول فى المدارس والمعاهد والمارستانات والحمامات والفنادق بفاس وسوقها الضخم وصناعه ودكاكينه ، ويطوف بنا فى أرجاء فاس القديمة وأختها الجديدة التى بناها بجوارها أول السلاطين المرينيين يعقوب بن عبد الحق ، وكيف استدار من حول المدينتين سور جعلهما مدينة واحدة . وقد بنى ابن هذا السلطان مدينة البصرة على مسافة ٨٠ ميلا من فاس إلى الشمال الغربى وعلى مسافة ١٥ ميلا جنوبى مدينة القصر الكبير فى منطقة أزغار وكان الأدارسة - فى أثناء حكمهم - يتخذونها مقرهم الصيفى . ونمضى إلى زمن المرابطين فيؤسس يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مدينة مراكش الكبرى وهى مثل فاس تعد من المدن الرئيسية فى العالم ، شيدها يوسف وفق مخططات وضعها مهندسون مهرة ، وكان لها أربعة وعشرون بابا وجدار سور غاية فى الجمال والمناعة كما يقول الوزان . ويصف جامعها الكبير وتزيين يعقوب المنصور الموحدى له بأعمدة جلبها من إسبانيا ، ويطيل فى وصف منارته التى شيدها له يعقوب ، وقد باعت زوجته نحليها الذهبية الخاصة والفضية وما تملك من أحجار كريمة وما قدمه لها يعقوب عند زواجه منها لصنع ثلاث تفاحات ذهبية توضع فوق قمة المنارة زينة لها ، ويطيل الوزان فى وصف قصبة مراكش . ويذكر أن الخليفة يعقوب المنصور بنى فيها اثنا عشر قصرا متقنة البنيان والزخرفة لحرسه وحاشيته ولحفظ السلاح ولأبنائه ولتعليمهم ، وكان بجانب هذه القصور - كما مر بنا - بستان وحديقة حيوان . وبنى يعقوب المنصور أيضا ثلاثة مدن ، هى القصر الكبير والقصر الصغير فى منطقة أزغار ومدينة الرباط العاصمة الحالية للمغرب الأقصى . وبنى هذه المدن وما دخل عليها من إضافات كان يستلزم آلافا من العمال والمهندسين والبنائين والحدادين والنجارين والزواقين المزينين للمباني بالفسيفساء وبأعمدة الرخام والدعائم المقوسة والخشب المزخرف بالنقوش والأصباغ والألوان البديعة .

وهذه الأعمال المعمارية الضخمة وما استلزمت من صناعات وصناع وما سبقها مما اقتبسته عن الحسن الوزان من الصناعات اليدوية التى كانت منبثة فى أرجاء المغرب الأقصى والصيد والإنتاج الزراعى المتنوع الوافر ، كل ذلك أعدا لتجارة نشيطة واسعة منذ القدم ، فقد كان الفينيقيون يتبادلون سلعهم مع المغرب الأقصى فى المدن التى أنشأوها على سواحله الشمالية والغربية ، وخلفهم الرومان يصنعون نفس الصنيع ، وربما عبرت قوافل تجارهما إلى السودان .

واستمر المغرب الأقصى يتبادل سلعه مع شعوب البحر المتوسط في العصور الإسلامية ، وكانت سفن البنادقة والجنويين ماتنى ذاهبة إلى موانئ البحر المتوسط آية منه محملة بمحبوب المغرب الأقصى وبالجلود وبالشمع وبخيوط الصوف ، كما كانت تحمل كثيرا من الأخشاب المعدة للتصدير بين أعمدة وأواح . وكثيرا ما كانت سفن البنادقة والجنويين تعبر الزقاق إلى موانئ المغرب الأقصى على المحيط لتبادل مع أهلها السلع ، وكان الجنويون والبنادقة جميعا يأتون بأقمشة ومنتجات أوربية مختلفة ويأخذون بدلها عن طريق المقايضة سلع المغرب الأقصى من القمح والشمع والجلود والصوف وغير ذلك . ويقول الحسن الوزان عن مدينة سلا على المحيط « إن الكثير من التجار الجنويين يقصدونها ويعقدون فيها صفقات مهمة ولهؤلاء التجار مستودعاتهم في كل من فاس وسلا ، وكانوا يثقون مع هذه المستودعات بعض أصحابها أو بعض مندوبي شركاتها لجمع ما يريدون من المحاصيل ، ويذكر الوزان أن جنويا ثريا من تجار جنوة مكث مع أسرته في فاس ثلاثين سنة حتى توفي . ولا بد أن كان للجنويين والبنادقة مستودعات مماثلة في موانئ المحيط والبحر المتوسط ، وقد انضم إليهم بعد خروج العرب من الأندلس البرتغاليون والإنجليز والفلمنك وخاصة في الموانئ التي احتلها الأولون . وثلاث مناطق كانت تتجرع مع السودان ، هي السوس وكانت تحمل إلى أهل الأقمشة الصوفية والكتانية والسكر الذي كانت تنتجه ، ودرعة وكانت تحمل إليهم أواني النحاس من أفران والتمور وبعض الأقمشة ، وسجلماسة وكانت تحمل إليهم التمور والأقمشة المختلفة والزيت والمفاتيح والأقفال وتعود قوافلها محملة بالتبر والعاج وريش النعام والرقيق . وكان تلك التجارة مع السودان تعود على تجار هذه المناطق الثلاث ، بثناء طائل . وكان إنتاج المناطق يختلف من منطقة إلى أخرى ، فتمور سجلماسة مثلا تقايض بالقمح وأواني النحاس وفي منطقة جزولة تقايض أوعية النحاس بالأقمشة والتوابل والخيول ، وبالمثل جلود التيران والشمع بجبل بني زكار ، وكان لكل بلد سوق ، ونسوق أسماء الدكاكين في سوق فاس .. لتعرف من خلالها على ألوان التجارات ، وهي تتوالى عند الوزن على هذا النمط : ثلاثون دكانا للمكبات ، مائة وخمسون لباعة الأحذية ثم باعة الأواني النحاسية ، خمسون دكانا لباعة الفواكه ، وبعدهم باعة الشمع وباعة الخيطان ، وعشرون دكانا لباعة الزهور ، وباعة الحليب ، وثلاثون دكانا لباعة القطن ، فدكاكين الأشياء المصنوعة من القنب : الحبال والخيوط وأرسان الخيل فصناع النطاقات الجلدية المطرزة بالحزير ، فصناع أعمدة السيوف والسكاكين فباعة الأواني الخزفية ذات الألوان الجميلة ولها مائة دكان فباعة الملح فباعة اللجومات والأعنة والسروج ولهم ثمانون دكانا فحظيرة يباع فيها الجزر واللفت فباعة الفول الأخضر ، فدكاكين لبيع اللحم المفروم ، فسوق العشالين للقنبيط وأنواع الخضر الأخرى وبه أربعون دكانا ، فباعة الزلاية ، فباعة اللحم المقلى والسماك المقلى ، فباعة الزيت والسمن والعسل والجبن والزيتون ، فالأطعمة المحفوظة ، فأربعون دكانا للجزارين وتُدبِحُ



الحيوانات فى مسلخٍ خاص ويفحصها المحتسب ويصنع لسعرها نشرة يُباع اللحم بموجبها . وبعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة ولها مائة دكان ، فشاحذو الأسلحة من سيوف وخنجر . فصيادو الأسماك من نهر فاس ونهر سبو القريب منها ، وهى ممتازة ، فصناع أقفاص الدجاج ولا تترك طليقة بل تحبس فى أقفاص حرصا على النظافة ، فباعة الصابون فباعة الدقيق فباعة القش فباعة خيوط الكتان ، ولصناعة الدلاء الجلدية أربعة عشر دكانا ، فصناع التروس والمجنّات ، فصناع سروج الخيل واللجامات ، فالحدادون الذين يعدون كسوة الخيل فصناع السروج . وبجانب هذه السوق سوق أخرى للتجار فى مدينة صغيرة بها اثنا عشر بابا وهى خمسة عشر حيا ، حيان للإسكافين أو الحدائين ، وحيان لتجار الأقمشة الحريرية وحيى لباعة النطاقات النسائية ، وحيان لباعة الأقمشة الصوفية ، وثلاثة أحياء للخياطين وحيان لباعة الأقمشة الكتانية والأقمشة النسائية ، وحيى لما يوضع على حواشى البرانس وأزرارها المصفورة من زخرفة وزينة . وإلى الشمال سوق العطارين والصيدلة وبه نحو مائة وخمسين دكانا ، ودكاكين العطارين غاية فى الزينة ، ويقول الحسن الوزان : لا أعتقد أن فى العالم كله سوق عطارين تماثل هذه السوق . وإلى جانبها دكاكين باعة الإبر ولهم خمسون دكانا ثم دكاكين الطحّانين والصبّانين فباعة الأقمشة القطنية ، فباعة الطيور الصالحة للأكل والعصافير المغرّدة فباعة القباقيب التى تلبس حين تكون الطرق موحلة ، فصناع السهام ، فخمسون دكانا لباعة المكائس ، فباعة صوف الخراف ، فصناع القفاف وقيود الخيل ، فصناع النحاس ودكاكينهم ، فباعة المكاييل وآلات الحلج والبرادة ، وباعة المحاريث والدواليب وعرائش العربات ، فسوق الصباغين . وهذا كله لخصته من وصف الحسن الوزان لسوق فاس بكتابه وصف إفريقيا لأدل على ما كان بالمغرب الأقصى من سلع لا تكاد تحصى وفرتها له أرضه الطيبة ، مما أتاح له فى التجارة من قديم نشاطا تجاريا واسعاً داخليا وخارجياً .

### ٣

الثراء - الرّفه - الموسيقى - المرأة

( أ ) الثراء

كان المغرب الأقصى كثير الخيرات والطيبات من الرزق ، فكثرت فيه الأثرياء من الأفراد والأقاليم ، وأما الأفراد فنستطيع أن نمثل لهم بمثالين ذكرهما الحسن الوزان ، أولهما وجيه رآه فى مدينة تاكوليت بإقليم حاحة كانت منزلته كمنزلة رئيس وزارة ، وكان يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم ويظل أثيرا لديهم ، وكان كريما ينفق الكثير - كما يقول الوزان - من الصدقات ، ويساعد أهل بلده بماله لقضاء حاجاتهم ، ولم يكن فى بلده إنسان

واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . والثاني في مدينة تاغوداست بمنطقة هسكورة وكان بها عدد من الشخصيات النبيلة ، ربما كان أنبلهم أميرها ، وهو - كما يقول الوزان - وجيه أسمى سخى سخاء كبيرا ، وكان لديه أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، يستمد منها دخلا كبيرا من شعرها وصوفها ، ويترك للرعاة الحليب والجبن ، ويقدمون له قدرا من السمن . ويجوار ثراء الأفراد كانت هناك مدن وأقاليم أو مناطق ثرية ثراء طائلا ، أما المدن فنستطيع أن نميز بينها مدن الموانئ ، إذ كان تجارها يثرون من تجاراتهم وحتى المدن التي كانت تقترب منها أو تجاورها كان ينالها نصيب من هذا الثراء مثل مدينة تاكوليت المذكورة آنفا فقد كانت تجاور ميناء أفور بمصب نهر التانسفت بقرب المحيط فعاد ذلك على أهلها بثراء كبير . وقد لا تكون للبلدة ميناء ولكن أهلها يزاولون التجارة مثل هادكيس جنوبي تاكوليت بنحو ثمانية أميال ، فإن أهلها كانوا تجارا ولذلك كانوا على غير قليل من الثراء ، ويقول الوزان كان لديهم خيول حسان وكانوا يتأنقون كل التأنق في ملابسهم . وما بالك بكبار التجار وأصحاب المصانع الضخمة في فاس عروس المغرب الأقصى وعاصمة الأدارسة والمرينيين ، وبدون ريب كان الأغنياء الموسرون فيها يعدون بالعشرات ، وذكر الوزان أنه كان بها مارستان جميل في الداخل والخارج ، وكان بها بعض غرف مخصصة للمجانين المخبولين ، وكان بها مائة حمام جيدة البنيان ، وللنساء حماماتهن الخاصة ، أما الحمامات المشتركة فتخصص فيها ساعات للرجال وساعات للنساء ، وحينما يغسل خدم الحمام شخصا يستلقى على ظهره أو بطنه ويقومون بتدليكه بنوع من المراهم منشطة وأحيانا بأدوات مثل كيس صوفى ينزع الأدران . وكان بفاس مائتا فندق يقول الوزان إنها كانت فخمة للغاية ويتألف الفندق من ثلاثة طوابق ، وبعضها فسيح جدا إذ يحوى مائة وعشرين غرفة أو أكثر ، وتتجهز جميعا ببيرك ماء وكل ما يلزمها ، ويقول الوزان إنه لم ير في إيطاليا أبنية تماثلها إلا في قصر الكردينال في دَيْر الحضر بروما ، ويقول إن أبواب الغرف كلها تطلُّ على ممشى ، ويشيد بالقصور التي بناها يعقوب بن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية ، وليست قصورا بل مدينة أضافها إلى فاس كما مرَّ بنا في حديثنا عن المرينيين في الفصل الماضي ، وقد أنفق سلطانها المريني أبو عنان على إنشاء معهد - كما يذكر الوزان - أربعمائة وثمانين ألف دينار ، مما يدل على ثراء واسع كانت تتمتع به الدولة المرينية . ومثل فاس مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والدولة السعدية ، ويتحدث الوزان عن جامعها ، ومازينه به المنصور الموحدى صاحب موقعة الأرك من أعمدة جلبها من إسبانيا ومن منارة كانت إحدى عجائب الدنيا وبنى بالقصبة اثني عشر قصرا ، ويقول إن إمبراطورته من ماسة في السوس إلى طرابلس يحتاج اختراقها طولا إلى تسعين يوما وعرضا إلى خمسة عشر يوما ، ولم تكن الدولة في عهد المنصور السعدى تقل إثراء عنها في عهد المنصور الموحدى فقد توسع في فتح بلاد السودان الغربى وكان الذهب يُجَبى إليه منها بالأحمال ، مما جعل العمال

فى دارسكته يتزايدون ، حتى قيل إنه كان فيها ١٤٠٠ عامل بيد كل عامل مطرقة لضرب  
الذنانير الذهبية ، ولذلك لُقّب بالمنصور الذهبى .

ويتوقف الوزان مرارا ليحدثنا عن ثراء المناطق فى المغرب الأقصى ، من ذلك ما يقوله عن  
منطقة بولوان فى منطقة دكّالة من أنه كان يسكنها عديد من النبلاء الكرام . وقد بنوا عمارة  
فيها غرف عديدة على نفقتهم لتكون دار ضيافة فاخرة ، وأرضهم خصبة وتنتج مقادير وافرة  
من القمح وعندهم ماشية لا عداد لها ، إذ لدى كل فرد منهم نحو مائة زوج من الأبقار ويحصد  
الفرد العادى مائة حمل من القمح ومنهم من يحصد منه ثلاثة آلاف حمل . ومثل منطقة دكّالة  
فى ثرائها منطقة هسكورة بأغنامها وما يُصنع منها من الأقمشة الصوفية الجميلة ومن الجلود  
المغربية وبها كثرة من محصول الزيت وتعنى بصناعة سروج الخيل . ويشمل الثراء كثيرا من  
نواحي منطقة تادلة ، وتشتهر مدينتا تفرزة وأفزة بصنع البرانس وهى نوع من العباءات أو الثياب  
تنسج قطعة واحدة مع قلنسوتها ويسلك فى العنق ويترك من أمام مفتوحا ، ولا يخاط منه  
إلا ما يقابل الصدر . ومنطقة فاس غنية جدا لوفرة حبوبها وثمارها وماشيتها . وبالمثل منطقة  
مكناس لثمارها العجيبة من سفرجل زكىّ الرائحة ورمان يخلو من البذور وعناب بديع مع  
وجود مختلف الثمار من الخوخ والمشمش والعنب والتين ، ومنطقة الهبط غنية لكثرة موانئها  
التجارية ، ولكثرة ما تنتجه كورها من الحبوب والثمار . وتتميز ثلاث مناطق هى : السوس  
وسجلماسة ودرعة بتجاراتها الواسعة مع السودان الغربى ، وتجار السوس يحملون إليه ما ينتجون  
من السكر والتمور وما يصنعون من الجوخ وأقمشة الكتان ، ويحمل تجار سجلماسة تمورهم  
والأقمشة القطنية والصوفية والمنتجات المغربية ، ويحمل إليهم تجار درعة تمورهم الفاخرة  
والمنتجات المغربية وما يصنعون من أوانى النحاس ، ويعودون جميعا محملين بالعاج والذهب  
وريش النعام والرقيق ، ويدرّ ذلك على تجار هذه المناطق ثراء واسعا .

### (ب) الرفه

هذا الثراء الطائل لبعض مدن المغرب الأقصى ومناطقها ودورها وبعض أفرادها من التجار  
وغير التجار يجرّ بطبيعته إلى غير قليل من الرفه . ومن يرجع إلى الحسن الوزان فى حديثه عن  
ملابس سكان فاس ويريد أعيانها ونبلأها يجده يقول إنهم أناس محترمون يلبسون فى الشتاء  
ثيابا من جوخ أوربية المنشأ ، ويتألف ما يلبسون من سترة ( جاكيت ) ضيقة ملتصقة بالجسم  
لها نصف أكمام ، تمرر من فوق القميص ، ويلبسون فوق تلك السترة ثوبا عريضا مخاطا من  
الأمم ( لعله المعروف عند المغاربة بالفشايية ، وهى ثوب له أكمام يسلك فى العنق ويخاط من  
أمام ولا يترك منه إلا فتحة العنق ) ويصنعون فوق هذا الثوب البرنس الذى وصفناه منذ قليل ،  
وقلنا إنه ينسج قطعة واحدة مع قلنسوته ولا تغطى الأذنين ، ويلفون فوق تلك القلنسوة عمامة



من قماش تُطَوَّى مرتين حول الرأس وتمر من تحت اللحية ، ويلبسون سروالا من كان ، ويضعون في أقدامهم خُفًا عندما يمتطون جيادهم شتاء . ويقول الوزان إن عامة الشعب يلبسون سترة وِبُرُنْسًا بدون الثوب ( القشائية ) الذى تكلمنا عنه . وربما كان أدق من ذلك ما ذكره فى بلدان مغربية أخرى من أن أهلها يلبسون كساء من صوف غير مخيط يشتمل به الرجال والنساء على نحو ما نرى عند قدماء المصريين . يقول الوزان : « وللنساء هندامٌ حسن جدا ، ويلبسن فى الشتاء ثيابا عريضة الأكماء مخيطة من الأمام كأثواب الرجال ، ويلبسن فى الصيف قميصا يطوِّقنه بزئار ، وعندما يخرجن من بيوتهن يلبسن سراويل طويلة تغطى كل أرجلهن وخِمَارًا يغطى الرأس وسائر الجسم ، ويتغطى الوجه بقطعة قماش كتانى ، ويضعن فى آذانهن حلقات ذهبية كبيرة مرصعة بحجارة كريمة بديعة جدا ، ويضعن أساور ذهبية فى معاصمهن . أما النساء من غير الشريقات فيلبسن أساور من فضة ويضعن مثلها فى أرجلهن . ودائما يشير الوزان فى البلدان المختلفة بأن المرأة كانت تزين بجلى فضية ، وكأنها كانت هى الحللى الشعبية الشائعة ، ومرَّبنا فى الحديث عن سوق فاس ما كان به من دكاكين كثيرة لبيع الأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية النسائية وما كان هناك من دكاكين لبيع النطاقات النسائية وكل فنون الزخرف من الزينة للملابسهن وكل أنواع العطاراة والروائح الفائحة .

ويتحدث الحسن الوزان عن الغذاء فيقول إن عامة الشعب تتناول اللحم مرتين فى الأسبوع أما الأعيان والأغنياء فيتناولونه مرتين فى اليوم حسب شهيتهم . ولهم ثلاث وجبات يومية : وجبة الصباح وتتكون من خبز وحساء من دقيق القمح وبعض الفواكه ، ووجبة الظهر وتتألف من خبز وجبن وزيتون وسلطة ، ووجبة المساء وتتألف من بعض الأطعمة ومن اللحم المسلوق ، والكسكسى وهم يواظبون عليه فى العشاء ، وقد يأكلونه فى الغداء ، وهو عجينة تحول إلى حبيبات ، وتطبخ بالبخار وعند نضجها تسقى بالسمن وبمواد مغلية مع اللحم .

وكان لا بد للمرفهين فى المغرب الأقصى من لعب يقطعون بها أوقاتهم ، وقد اختاروا لعبتى الشطرنج والنرد يتسلون بهما ، ومعروف أن لعبة الشطرنج تمثل صورة الحرب ، فهى حرب بين جبهتين وفى كل جبهة ملك ووزير وبعض القواد ويأذق أو عسكر وطبية للدفاع عنها ، وتحاول كل جبهة التغلب على مقابلتها ، ويكتب النصر لإحدهما كما فى الحرب تماما . أما النرد فتدل خطوطه الأربعة والعشرون على عدد ساعات اليوم ونصف الخطوط تدل على عدد شهور السنة ، وحجارته السود والبيض هى الليالى والأيام ، وتدلل قطعتا الزهر على حظوظ الناس فى دنياهم . وأنشأ ملوك فاس وسلاطينها لأهلها مسرحا لصراع الأسود ، وكان يصيدهم للسلطان قناصو جبل زرهون . وكان المسرح ساحة واسعة يصطف حولها أهل فاس للفرجة ، وكانت تُصَفّ فى الساحة عدة صناديق كبيرة يتسع داخل كل منها لرجل يقف فيه ويتحرك بسهولة ، ولكل صندوق باب صغير ويجلس فيه رجل مسلح ، وعندئذ يطلق الأسد - كما يقول الوزان -

حرًا في الساحة ، ويقوم أحد الرجال بفتح صندوقه وينطلق إليه الأسد حين يراه ، حتى إذا دنا منه أغلق الباب ، وكل رجل يصنع نفس الصنيع مثله ، حتى يغضب الأسد بل حتى يمتلىء غضبا ويشتد به غضبه وثورته ، وحينئذ يدخل ثور إلى الساحة ، وتنشب بينه وبين الأسد معركة دامية شديدة العنف ، والجمهور يهرج ويصفق ، وإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد المسرحي عند ذلك ، وإذا قتل الأسد الثور يخرج إليه الرجال المسلحون من صناديقهم لمبارزته ، وهم عادة اثنا عشر رجلا ، ومع كل رجل حربة تنتهي بنصل من حديد طوله ذراع ونصف ، وإذا بدا تفوقهم على الأسد واضحا نقص السلطان عددهم ، وإذا بدا أن الأسد يتفوق على الرجال عمد السلطان ومن معه إلى تسديد سهام إليه من أعلى شرفاتهم خشية أن يفتك بأحد المصارعين ، فيموت . وبذلك تنتهي اللعبة بين تصفيق الجماهير وما يتصل به من هرج ومرج ، ويمنح السلطان جائزة لكل مصارع : عشرة دنانير وكسوة جديدة .

### (ج) الموسيقى<sup>(١)</sup>

أول زمن للنهضة الموسيقية في المغرب الأقصى كان زمن الدولة السعدية ، إذ لا نلتقى بأخبار عن الموسيقى وأصحابها قبل هذا الزمن في القرن العاشر الهجري المقابل للسادس عشر الميلادي ، ومن المعروف أنه كان بالأندلس نهضة موسيقية مبكرة ، غير أنها ظلت بعيدة عن المغرب الأقصى وظل لا يعرف عنها شيئا إلا حين نزل بعض أهله هناك واستمعوا إليها ، وكأنما انتظر المغرب الأقصى حتى اكسحه الأندلسيون وهاجروا إليه هجرتهم الكبرى بعد سقوط غرناطة بأخرة من القرن التاسع الهجري واتسعت هذه الهجرة - كما مر بنا - في عهد فيليب الثالث لأوائل القرن الحادي عشر الهجري ، على أن النهضة الموسيقية أخذت تزدهر منذ عهد السلطان عبد الله الوطاسي المريني الملقب بالغالب (٩٦٤ - ٩٨١ هـ / ١٥٥٧ - ١٥٧٤ م) إذ نجد الموسيقيين المغاربة يحافظون على إيقاعات الموسيقى الأندلسية بكل نوبها أو قطعها الموسيقية الكبيرة العشر ، وهي رمل المائة - المائة - رصد الذيل - الأصبهان - الرصد - غريبة الحسين - الحجاز الكبير - الحجاز الشرقي - عراق العجم - العشاق . ويتألق حينئذ اسم موسيقار كبير هو الحاج علي البطلة من أهل فاس وحاشية السلطان عبد الله الوطاسي ، ويقال إنه أضاف إلى النوبات الكبيرة النوبة الحادية عشرة المسماة بالاستهلال ، وبذلك أصبحت إحدى عشرة ، وتبدأ النوبة بمقدمة موسيقية للجوقة يليها افتتاح على إحدى الآلات لرئيس الجوقة ثم توشية موسيقية للجوقة ، ثم تبدأ أنغام ميازين النوبة ، ولكل نوبة خمسة ميازين أو أقسام ، وهي

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل ( نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ) وراجع كناش الحائك محمد بن الحسين الحائك ( طبعة مصورة لورثة الحاج عبد السلام الرقيقراق . طبعة ١٩٨١ م ) .

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل ( نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ) وراجع كناش الحائك



البيسط والقائم والبطائحى والقدام والدرج. وتتخلل هذه الميازين بعض الإنشادات ينشدها موسيقار منفرد، وخاصة فى الموسيقى المصاحبة لقصائد المولد النبوى وهى فيها تكون من رقيق أشعار المتصوفة مثل الششتري، وفى غيرها تشيد بإيقاعات الميزان المسماة بالطبوع وأحيانا تكون غزلاً. والغرض من هذه الإنشادات الترويح عن المستمعين . والطبوع مفردها طبع وتقابل فى الموسيقى الأندلسية المغربية كلمة مقام المعروفة فى موسيقى المشرق العربى ، ومنها مفرد وهو العشاق وأخسين واحتصار والزور كند والأصبهان والمزوم والرمل والرصد والعجم والمجنب ، ومنها ممزوج ، وهو عراق العرب وعراق العجم والحجاز المشرقى والصيكة أو سلم الرست .

وحاول الموسيقيون المغاربة منذ عهد الوطاسيين المرينيين تكملة النوب كما رأينا عند الموسيقار الحاج على البطلة بإضافته نوبة الاستهلال المغربية الجديدة . ومنذ زمنه أضاف المغاربة إلى الميازين - وكانت أربعة - ميرانا جديدا هو الدرج نشأ عن الغناء الشعبى المردد فى حلقات الذكر بالزوايا . وأضافوا إلى ذلك بعض الآلات الموسيقية ، من ذلك الآلات النحاسية فى بعض الجوق العسكرية بالموكب السلطانى . واستمرت الآلات الوترية وفى مقدمتها العود والقانون ، والآلات النقرية وفى مقدمتها الدف والرق وأضيفت إليهما الدربوكة المغربية، وآلات النفع وفى مقدمتها الناي والمزامير . والفضل الأول فى تسجيل هذه الموسيقى الأندلسية المغربية يرجع إلى محمد بن الحسين الحائك الذى أثارته الحمية لما يخشى على تلك الموسيقى من الضياع لألحانها وأنغامها فانبرى سنة ١٢١٤ هـ/ ١٨٠٠ م لتأليفه فيها « كناش الحائك » مسجلا فيه نوبات تلك الموسيقى البالغة بنوبة الحاج على البطلة إحدى عشرة نوبة والميازين الخمسة التى تتألف منها أجزاء النوبة ، وطبوع هذه الميازين أو مقاماتها النغمية ، ويذكر مع كل طبع أو مقام شواهد من عدة موشحات أندلسية ومغربية ، وبذلك حافظت هذه الموسيقى على تلك الموشحات أو بعبارة أدق حافظ عليها الحائك ، وبذلك كان عمله فى كناشه مزدوجا فقد رسم فيه النظام الدقيق للموسيقى الأندلسية المغربية وحماه من الضياع كما أثبت فيه طائفة كبيرة من نصوص غنائية للموشحات الأندلسية والمغربية .

#### ( ٥ ) المرأة<sup>(١)</sup>

كانت المرأة المغربية تحظى بشعور كريم بكرامتها ، كما كانت تحظى بغير قليل من الحرية ، وهى حرية قلما حظيت بها أختها فى المشرق ، وكان لذلك أثره فى الحياة السياسية والثقافية ، ومن أوائل ما يلقانا من ذلك ما ذكرناه عن أم البنين الفهرية التونسية وتبرعها العظيم لبناء جامع

كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشى ( طبع الرباط ) .

(١) انظر فى المرأة المغربية مواضع مختلفة فى الجزء الأول من كتاب النبوغ المغربى فى الأدب العربى للأستاذ عبد الله كتون ، والقسم الثانى من السفر الثامن من

القرويين بفاس الذى سرعان ما تحول إلى جامعة كبرى بفاس إلى اليوم . وكانت زوجة يوسف بن تاشفين سيدة حصيفة وكانت تدبر معه دفة السياسة والحكم ، وكان رأيها دائما صائبا وانتفع بها فى حياتها فى تثبيت حكمه وملكه . وكانت لا تقل عنها حصافة وشعورا ببلعزة زينب بنت إبراهيم بن تافلويت زوجة تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة والأندلس ، وكانت تجيز الشعراء ، ولابن خفاجة الشاعر الأندلسى فيها قصيدة طنانة ، ولها أعمال برُّ كثيرة . وعلى شاكلتهما تميمية بنت سيد المرابطين يوسف بن تاشفين كانت من أهل الخير والصدقات . ومن فضلياتهن حواء بنت أخى يوسف بن تاشفين ، زوجة سير بن أبى بكر الذى ظل واليا على إشبيلية سبعا وعشرين سنة حتى سنة ٥٠٧ وكانت تقيم فى قصرها ندوة أسبوعية تحاضر فيها شعراء إشبيلية وتنقد بعض أشعارهم ، وتسبغ عليهم جوائز وعطايا كثيرة ، وللأعمى التطلبي فى مدحها قصيدة بديعة مذكورة بترجمته فى كتابنا عن الأندلس . ومن السيدات الفضليات فى عهد الموحدين زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين زوجة ابن عمها أبى زيد بن أبى حفص تلمذت فى علم الكلام لأبى عبد الله بن إبراهيم الأصولى وكانت عالمة نابهة الشأن . ومنهن من سيدات الشعب خيرونة الأشعرية ولها فضل فى نشر المذهب الأشعرى بين نساء مراكش ، ومنهن فى علم الحديث مريم بنت أبى الحسن صاحب المدرسة بسبته ، ومن المتصوفات - وهن كثيرات - منية بنت ميمون الدكالية ، ومن الأدبيات من بيت الحكام الموحدين رُميلة ، ومن سيدات الشعب أمة العزيز بنت أبى محمد بن الحسن السبئية وحفصة بنت القاضى أبى حفص بن عمر وأم النساء بنت التاجر الفاسى وكانت أديبة شاعرة . ومن السيدات الفضليات النابغات زمن المرينيين فى العلوم الدينية الفقيهة أم هانىء بنت محمد العبدوسى والفقيهة أم البنين جدة الشيخ زروق ورحمة بنت الجنان والدة الشيخ ابن غازى وغيرهن كثيرات فى الفقه والحديث النبوى ، ومن الأدبيات أم الحسن بنت أحمد الطنجالى وصفية العزفية من بيت العزفين وصبح زوجة أحمد بن شعيب الجزنائى ، واشتهرت فى الطب عائشة بنت الجيار السبئية . وبذلك لم يعد الطب خاصا بنساء بنى زهر كما كان الشأن فى عصر الموحدين ، فقد انتقلت معرفته والحذق فيه إلى النساء المغربيات فى العصر المرينى . ويذكر الوزان الذى زار منطقة درعة فى عصر الوطاسيين المرينيين نحو سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م أن نساءها يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للفتيات والفتيان . وحرى بنا أن نذكر فى عهد الوطاسيين السيدة عائشة بنت على ابن راشد مختط مدينة شفشاون لتحصين ناحيتها من نصارى سبته ، وقد تزوجت حاكم مدينة تطوان وتوفى فحكمت تطوان بعده وضبطتها خير ضبط وتصدّت لنصارى سبته بذكاء ودهاء وحسن سياسة وأعجب بشجاعتها السلطان أحمد الوطاسى فاقرن بها سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م .

ونلتقى فى عصر السعديين بسيدات فضليات كثيرات ، منهن سحابة الرحمانية السفيرة

إلى الأستانة يبشرى فتح تونس للدولة العثمانية طالبة جزاء حمل تلك البشارة مساعدة ابنها عبد الملك بكتيبة عثمانية من الجزائر في استعادة ملك والده وأجابتها الدولة العثمانية ، واستولى على صولجان الملك . وأبدت أخته مريم بسالة عظيمة في قيادتها بقصبة مراکش لثلاثة آلاف جندي من الرماة تحقق بهم النصر لأخيها عبد الملك . واشتهرت مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي بأعمال خيرية كثيرة ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دكالة ، واشتهرت بالعلم والتقوى عائشة بنت أحمد بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ المعروف . ومن السيدات الفضليات في عهد السعديين العريفة بنت خجور ولها فضل في تعليم الأسرة السعدية الصورة الحضارية للملابس والطعام والتعامل مع النساء إذ كانوا قد جاءوا إلى فاس من البدو . ومن السيدات الفضليات في عصر العلويين السيدة خنائة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل ، وكانت فقيهة عالمة وأديبة بارعة ، وكانت حسيمة تحسن إبداء الرأي وعرضه ، وكانت نعم الوزير لزوجها تشير عليه دائما بالرأي الصائب ، وحجت وأكثر في حجها من الصدقات وأعمال البر والخير ، توفيت سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م . ومن السيدات الفقيهات العالمات زوجة المختار الكنتي المتوفاة سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م وكانت تدرس للنساء مختصر خليل بن إسحق المصري في الفقه المالكي بينما كان زوجها المختار بن أبي بكر الكنتي يدرسه للرجال ، وترجم لهما في كتاب واحد ابنهما محمد ، وسمى كتابه : الطارفة والتالدة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة . ويذكر الأستاذ عبد الله كنون أنه كان هناك دائما معلمات في مجال التعليم الأولى يعلمن البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادئ العلوم الضرورية ، ولم يكن يخلوحي في المدن من دار فقيهة تنهض بهذا التعليم مما يدل على الدور العظيم الذي كانت تقوم به المرأة المغربية في تعليم النشء ونشر المعرفة .

#### ٤

### المالكية - الصفرية - المعتزلة - الظاهرية

#### ( أ ) المالكية

كان المغرب الأقصى يقتدى بإفريقية التونسية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، إذ كانت تعتبر الرائد للمغرب جميعه ، وكان علماءها في القرن الهجري الثاني يرحلون في كل عام لأداء فريضة الحج ، وكانت المدينة حتى زمن مالك تُعد دار الفقه ، وكان مالك نفسه إماما كبيرا من أئمتة ، يلقي فيه دروسه ويؤلف فيه كتابه الموطأ ، فكان علماء إفريقية يقصدونه لأخذ الفقه عنه وأخذ كتابه الموطأ ، وخلفه تلاميذه المصريون - وفي مقدمتهم عبد الرحمن



ابن القاسم - فكان الطلاب يرحلون إليه ويتلمذون عليه كما رحلوا وتلمذوا على أئمة الفقه المالكي بعده في مصر . فكان ذلك سبب ازدهار المذهب المالكي في إفريقية التونسية ، وكان كتاب الموطأ قد حُمل إليها فكان يدرس فيها ويُدرس معه كتاب في المذهب لتلميذه عبد الرحمن بن القاسم الذي فرّع فيه فروعاً كثيرة . سماه المدونة وحملها عنه سحنون إلى تلاميذه في موطنه ونسبت إليه باسم مدونة سحنون . وأخذ التلامذة من تونس إلى المحيط الأطلسي يقدمون إلى القيروان للتلّمذة على سحنون وأضرابه من حملة الفقه المالكي بعد وفاته سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . وكانوا يعودون إلى مواطنهم في المغرب الأقصى فيدرسون للطلاب المذهب المالكي ويشيعونه بين الناس في بلدانهم ، وأظن ظناً أن إدريس منشيء الدولة الإدريسية ومن خلفه من أبنائه وأحفاده كانوا يدفعون رعاياهم في المغرب الأقصى بفاس وغير فاس إلى التفقه بمذهب مالك دون غيره من المذاهب لموقفه المعروف مع محمد النفس الزكية حين أعلن بمكة الثورة على المنصور ، إذ أفتى الناس بالتحلل من بيعه الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م وفي السنة التالية بعد القضاء على ثورة النفس الزكية استدعى جعفر بن سليمان وإلى المدينة مالكا وجرّده من ثيابه ، وضربه بالسياط عقاباً على فتواه . وفرّ عقب إخفاق ثورة النفس الزكية عمه إدريس إلى المغرب الأقصى واستطاع تأسيس الدولة الإدريسية ، فكان طبيعياً أن يرعى مالك الفقيه الكبير فتواه لابن أبيه ، وأن يدفع الناس والعلماء والطلاب إلى التفقه بمذهبه ، مما جعل المذهب المالكي يشيع هتاتة بقوة منذ القرن الثالث الهجري .

ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى يصبح للمغرب الأقصى أعلامه في الفقه المالكي الذي يدرسونه في المدن وفي القبائل المختلفة ، ومنهم أبو هريرة البصري الذي أدخل كتاب ابن المواز الفقيه المالكي المصري إلى المغرب الأقصى لأول مرة وأيوب بن محمد فقيه المصامدة وأبي القاسم بن محرز فقيه المثلثين وعثمان بن مالك فقيه فاس ، وله تعليق على مدونة سحنون ، ودراس بن إسماعيل الفاسي تلميذ أبي بكر بن اللباد شيخ فقهاء المالكية بالقيروان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وله رحلة إلى المشرق حمل فيها من الإسكندرية كتاب ابن المواز ، وعبد الرحيم الكتامي تلميذ فقيه القيروان في النصف الثاني من القرن الرابع : ابن أبي زيد وأخذ عنه كتابه : النوادر والمختصر . وينشط المغرب الأقصى في دراسة الفقه المالكي لعهد المرابطين ، وكانوا يعينون فقيها مالكياً مع كل والٍ للملاءمة الأحكام في عهده للشرع . وسنعود للحديث عن نشاط الفقه المالكي لهذا العهد في الفصل المقبل ، ويضعف هذا النشاط في عصر الموحدنين لعنايتهم بنشر المذهب الظاهري ، وسنخص هذه العناية بحديث في غير هذا الموضوع ، ويعود إلى المذهب المالكي نشاطه وازدهاره في العصور التالية حتى العصر الحديث .

## (ب) الصفيرية<sup>(١)</sup>

معروف أنه تولى المغرب من طرابلس إلى المحيط في القرن الأول الهجري ولاة عظام طبقوا فيه تعاليم الإسلام القاضية بالمساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام ، وقد رأينا حسان بن التيمان (٧١ هـ / ٦٩٠ م - ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) بعد انتصاره الحاسم على الكاهنة يُدخل من قومها في جيشه كتيبة من اثني عشر ألف رجل تجاهد مع العرب في سبيل الله ، وليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه في جبل أوراس وبذلك ملك قلوب المغاربة وداثوا له بالطاعة حتى المحيط ، وخلفه موسى بن نصير (٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٤ م) فوضع التنظيم الإداري للمغرب وجعله خمس ولايات وخامستها هي المغرب الأقصى ماعدا السوس وجعل عليها واليا بربريا هو طارق بن زياد وعاصمتها طنجة ، فلم يعد هناك فارق بين أن يكون الوالي لأي ولاية عربيا أو بربريا مغربيا ، وكلفه بأن يفتح إيبيريا ، فأعدّ جيشا أكثره من البربر نحو اثني عشر ألف جندي ، وفتح الله له الجزء الجنوبي من إيبيريا ولحقه موسى بن نصير وأتما الفتوح معا . ومعنى ذلك أنه تم في عهد موسى بن نصير رفع جميع الفوارق بين العرب والبربر ، فقد أصبحوا جميعا متساوين في حكم الولايات وقيادة الجيوش والجهاد في سبيل الله ، وبذلك لم يصبح فتح الديار المغربية من برقة إلى المحيط فتحا حربيا ابتغاء المكاسب الدنيوية ، بل أصبح فتحا عقائديا لنشر الدين الحنيف وما ينبغى أن يستشعره أتباعه عربا وغير عرب من الأخوة في إعلاء كلمة الله .

ومُنيت الأمة الإسلامية بعد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بخلفاء أمويين منذ السنة الأولى في القرن الثاني الهجري ليسوا في مستوى أمانة الحكم التي ينبغى أن يتحملوها ، فقد ولي الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وسرعان ما ولّى على المغرب يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج فتعسف مع البربر في جمع الضرائب ناسيا أن البربر أصبحوا رفقاء سلاح مع العرب ، فقتلوه . وتوالى في عهد أخيه هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ / ٧٢٣ م - ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م) ولاة ليسوا في مستوى المهمة ، كان آخر المتعسفين منهم عبيد الله بن الحبحاب فأرهب المغاربة هو وعماله بالضرائب وبلغ من سفه عامله على طنجة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضي المغرب الأقصى أي أخذ خمسها للدولة . وبينما صَبِرُ المغاربة يكاد ينفذ إذا بدعاة مذهبي الصفيرية والإباضية يتشرون بينهم يدعونهم إلى الدخول في عقيدتهم التي تناقض عقيدة حكام بني أمية وترى في استيلائهم على الخلافة عدوانا على الأمة ، إذ ينبغى أن يكون اختيار الخليفة متحررا من كل قيد فلا يقصر على قريش ، بل يتولاها أشد الناس خوفا من الله وأكثرهم طاعة له وأحرصهم على الاستمسك بالدين وطاعة الله واتباع أحكام الإسلام ، ولو كان

(١) انظر في مذهب الصفيرية الملل والنحل للشهرستاني.

بربريا بل لو كان عبدا حبشيا . وأخذوا يحضونهم على كفاح بنى أمية وعمالهم ووصفهم بالفسق والمعصية ، واستجاب جبل نفوسة في طرابلس للإباضية ، بينما استجاب المغرب الأقصى للصفرية وكانوا أكثر تطرفا من الإباضية إذ كانوا يكفرون مرتكب الكبيرة ويوجبون قتله ، وعدّوا دار المسلمين دار حرب واستحلوا دماءهم وأموالهم وقتل نسائهم وذريتهم . ومرّ بنا حديث عن ثورتهم في شمالى المغرب الأقصى بقيادة ميسرة رئيس مضغرة ثم خالد بن حميد الزناتى وانتصارهم على جيوش عبيد الله بن الحبحاب والوالى الأموى بعده كلثوم بن عياض القشيري ، ثم ما كان من انتصار الوالى الأموى حنظلة بن صفوان على جيشين صفريين ، وأخيرا انتصار أبى الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية على قبيلة ورفجومة الصفرية حين استولت على القيروان ونكلت بأهلها ، وفى أثناء ذلك ينسحب سمكو بن واسول إلى سجلماسة وينشئ بها دولة صفرية كما مر بنا . ويبدو أن بقية المغرب الأقصى أخذت تنفر من عقيدة الصفرية ، وساعدت دولة الأدارسة الناس هناك فى القضاء عليها بتلك الأنحاء .

(ج) المعتزلة<sup>(١)</sup>

كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فى البصرة من أكبر الوعاظ فى عصره إن لم يكن أكبرهم ، وقد جعل للاعتزال أسسا خمسة ظلت قائمة فيه بعده ، وهى الوجدانية صفة ثابتة لله ، بحيث لا يشبه المخلوقات بأى صورة فليس كمثله شئ ، وما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مما قد يفيد تشبيها يجب تأويله ، مثل ( يد الله فوق أيديهم ) فمعناها قدرة الله فوق قدرتهم ، ثم هو واحد فصفاته مثل السميع ، البصير هى نفس ذاته . وأساس ثان أو مبدأ ثان هو العدل على الله ، ولذلك ينبغى أن يكفل لعباده ما هو أصلح لهم تحقيقا لسعادتهم . وأساس ثالث هو إنفاذ وعده للمؤمنين بأن لهم الثواب والنعيم المقيم والوعيد للكفار الآثمين بالعقاب وعذاب النار ، وأساس رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يحل لمسلم أن يسكت على جرم أو إثم ، وواجب عليه أن يأمر بكل ما هو خير . وأساس خامس هو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، واختلفت فى ذلك الجماعة الإسلامية اختلافا كبيرا ، فكانت المرجئة تعدّه مؤمنا وأهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا والخوارج : الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا إذ يرون العمل جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، أما واصل فكان يجعله فى منزلة وسطى بين الإيمان والكفر . وكان ماينى يخطب فى شباب البصرة واعظا ومؤيدا آراءه بالحجج والأدلة العقلية ، وفُتن به الشباب وأصبح له بينهم أتباع وأنصار كثيرون امتلأوا حماسة لدعوته الاعتزالية ، فرأى أن يتخذ منهم نفرا يتميز باللسن والفصاحة والخطابة والوعظ كما يتميز بالقدرة الجدلية على الدعوة للمبادئ الاعتزالية ، وفرّقهم

وطبقات المعتزلة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ص ٦٧ ،

١١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .

(١) انظر فى المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١  
وكتابنا العصر العباسى الأول ص ١٣٤ وفضل الاعتزال



على بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ، وإلى ذلك يشير تلميذه صفوان الأنصارى فى مدحه له قائلا :

له خَلْفَ شعبِ الصُّينِ فى كلِّ ثُغْرَةٍ      إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ  
رجالٌ دعاةٌ لا يُفْلُ عَزيمَهم      تهكُّمُ جبارٍ ولا كيدُ ماكرِ  
وأوتادُ أرضِ الله فى كلِّ بلدةٍ      وموضعُ قُتياها وعلمِ التشاجرِ

فهو قد أرسل دعائه الذين يفحمون خصومهم بالبراهين السديدة ويعلون عليهم كلما ناظروهم أو جادلوهم ويقول إن منهم دعاة تغفلوا فى بلاد البربر إلى منطقة السوس . وفى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة أن واصلا أنفذ إلى المغرب تلميذه عبد الله بن الحارث فتبعه الخلق ، وفيه أن المعتزلة حاربت مع إبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية حين ثار على أبى جعفر المنصور وأن بشيرا الرحال المعتزلى قتل معه فى موقعة باخمرا سنة ١٤٥ هـ وأن أبناءه لحقوا بالمغرب وغلبوا على مدن فيه أظهروا فيها دعوة الاعتزال . وفى الكتاب نفسه أن للمعتزلة فى بلد تدعى البيضاء مائة ألف يحملون السلاح يُعرفون بالواصلية ، وفيه أيضا أنهم كثيرون فى طنجة ، وأن رئيسهم هناك إسحق بن محمود بن عبد الحميد هو الذى أيد إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية حين ورد عليه وأنه أدخله فى الاعتزال وكان الدولة كانت دولة معتزلة ، وأظن فى ذلك ضربا من المبالغة وكانوا كثيرين فى بلاد إدريس الثانى ، ولعله كان يعطف عليهم لنصرة أسلافهم لإبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية ، ونجد ابنه محمدا يبنى جنوبى مدينة القصر الكبير مدينة يسميها البصرة ، ولعله بناها لهم ذكرى لمدينة أستاذهم واصل بن عطاء ومرّ بنا فى الجزائر حديث مماثل عن المعتزلة ، ولم يفكروا هنا ولا هناك فى دولة أو ما يشبه الدولة .

#### ( د ) الظاهرية<sup>(١)</sup>

الظاهرية أو أصحاب المذهب الظاهرى ينسبون إلى أبى سليمان داود بن على بن خلف الأصبهاني الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة وكان فى أول أمره فقيها شافعيًا يتعصب لمذهب الإمام الشافعى تعصبا شديدا ، ثم استقل عنه وأسس له مذهباً سُمى مذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب أساسه إنكار القياس فى الفقه ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ولا يحتكم فى الإلهى أو ما هو إلهى إلى العقل أو ما هو عقلى ، ويكفى لبيان الأحكام التشريعية ما فى القرآن الكريم والحديث النبوى من عموم ، وتأسيسا على ذلك ينبغى الوقوف عند ظاهر الكتاب

ص ٣٥٤ وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان :  
ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

(١) انظر النصوص الواردة فى المعيار للونشريسى ( طبعة  
حجرية بفاس ) ٣٦١/٢ وروض القرطاس لابن  
أبى زرع ١٩٥ والمعجب للمراكشى ( طبعة القاهرة )

والسنة وإغلاق الأبواب أمام القياس وجميع الآراء التي تُبنى عليه . وكتب لهذا المذهب أن يتحمس له عقل أندلسي هو عقل علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م وكان قد بدأ حياته الفقهية بدراسة مذهب مالك ثم تركه إلى مذهب الإمام الشافعي ثم أثر على مذهبيهما مذهب داود الظاهري ، ولابن حزم في الاحتجاج له ضد الأحناف والشافعية كتاب الإبطال للأصول الخمسة التي يأخذون بها ، وهي القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ، فكل ذلك يجب إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة .

وقد ازدهر هذا المذهب الظاهري في عصر دولة الموحدين ، إذ كانت تتخذة مذهباً فقهياً لها من دون المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة لمالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ، وحاول الأستاذ عبد الله كنون في الجزء الأول من كتابه : « النبوغ المغربي في الأدب العربي » الاستدلال بأن خلفاءهم أو حكامهم كانوا يدعون إلى الاجتهاد كأنه بذلك يريد نفي اعتناقهم لعقيدة الظاهرية ، ولا نستطيع أن نبطل شهادات القدماء الكثيرة بأن الموحدين كانوا ظاهريين ، من ذلك أن الونشريسي في كتابه المعيار نعت ابن تومرت بأنه ظاهري وأن ابن أبي زرع في روض القرطاس في سنة خمسين وخمسمائة يقول إن عبد المؤمن أمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث أي أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعاً وهي نفس نظرية المذهب الظاهري ، وفي المعجب يقول الحافظ أبو بكر بن الجرد : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب ( يوسف ) أول دخلة دخلت عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ( في الفقه المالكي ) فقال لي : يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أخذت في دين الله ، رأييت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتحت أين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي - وقطع كلامي : يا أبا بكر : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه ، أو السيف » . ويذكر صاحب المعجب أن ابنه يعقوب المنصور أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة لمالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وماجانس هذه الكتب ونحوها . ولقد شاهدت - أنا يومئذ بمدينة فاس - يوتى منها الأحمال فتوضع وتطلق فيها النار » ويعلق صاحب المعجب على ذلك بقوله : « كان قصده في الجملة محو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » ويقول ابن خلكان : « إنه أمر



برفض فروع الفقه كما أمر الفقهاء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب والسنة النبوية ولا يقلدوا أحدا من الأئمة المجتهدين القدماء بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم . ولعل في ذلك كله ما يثبت ثبوتنا قاطعا أن دولة الموحدين كانت تعمل على نشر المذهب الظاهري وتأمير العلماء برفض ماعداه من المذاهب ، وبحق يقول عبد الرحمن الفاسي في كتابه بيوتات فاس : « إن ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ، وجرؤا على ذلك سنين بطول إيالتهم ( حكمهم ) إلى أن انقرضوا ، أولهم فى ذلك مهديهم (ابن تومرت) أول ملوكهم» . وبمجرد أن انتهت دولة الموحدين عاد المذهب المالكي فى المغرب الأقصى إلى النشاط والازدهار حتى اليوم .

## ٥

### الزهاد - المتصوفة

#### ( أ ) الزهاد

المسلمون من قديم - يستشعرون الزهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى أملا فى السعادة بالدار الآخرة يوم القيامة ، يوم يحاسب كل امرئ على ما قدمت يداه ، فإن كان عمله صالحا وازدرى الدنيا وأقبل فيها على الزهد والتقشف كان جزاؤه من ثواب الله موفورا وسعد فى آخرته السعادة الكبرى . وكان ذلك شعار الصحابة فى الفتوح ، فهم لا يفتحون البلاد طلبا للمغانم وإنما لإعلاء دين الله ، ودائما نسمع بينهم عن كثير من الأتقياء ، فالآخرة هى التى تهتمهم ، ولم يكونوا زاهدين زهدا متطرفا ينسيهم الدنيا والعمل فيها ، بل كان غالبا زهدا معتدلا يعتد بالمصالح الدنيوية مع الاتجاه إلى الله ، مما جعلهم ينفقون أموالهم فى أعمال البر وعون الفقراء . ونجد هذا الزهد شائعا فى العالم الإسلامى . وقليلًا قليلًا أخذ أناس يستشعرون الزهد الخالص ، ويعيشون له منقطعين لعبادة ربهم ، ويمكن أن نجد أمثلة منهم فى جبال المغرب الأقصى الكثيرة حيث يعيشون على ما بها من ماء وثمار . وكان بين فقهاء المدن وأهلها أيضا كثير من هؤلاء الصلحاء الزهاد ، ونضرب مثلا لهم القاضى ابن محسود<sup>(١)</sup> الهوارى وكان من قضاة العدل وأئمة الفضل زاهدا فى الدنيا مقبلا على الله تعالى على قدم التجريد ، ولما مات لم يترك غير سجادة مصلاه وقعب يتوضأ فيه ومصحفه الذى كان يتلو فيه كتاب الله . ونضرب مثلا ثانيا بالتاجر محمد بن إبراهيم المهدي الفاسى الزاهد صاحب كتاب الهداية الذى أقام بجامع القرويين أربعين سنة لم تفته فيها صلاة جماعة ، وكان يملك أربعين ألف

حرزهم وعثمان السلالجي ويسكر . ومن مراجع تراجمهم التشوف وجذوة الاقتباس وسلوة الأنفاس .

(١) انظر فيه وفيمن يليه من الزهاد القرطاس لابن أبى زرع ص ١١٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠-٢٧٢ وفى هامش القرطاس مع ابن محسود وأبى جبل وابن

دينار أنفقها كلها في سبيل الخير ، وأصابته أهل مدينته : فاس مجاعة وكان عنده ألف وسق ( حمل بعير ) من تمر فباعه كله للمحتاجين الضعاف بوثائق وأخرهم بالثمن إلى أجل ، فلما حل الأجل استدعاهم إلى منزله ، فرمى بالوثنائق جميعا في الماء ، وقال لهم : أنتم منها الآن في حل ، فإني ما بعث لكم ولا أعطيتكم إلا مال الله تعالى . ويتعش الزهد في عصر المرابطين ، ونشعر إزاء كثيرين من زهاد هذا العصر أنهم كانوا مقدمات لانتشار نزعة التصوف في المغرب الأقصى مثل أبي جبل المتوفى سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م وكان كثير السياحة في الأرض . ويتكاثر الزهاد في عصر الموحدين مثل ابن حرزهم المتوفى سنة ٥٥٩ هـ وأبي عبد الله السلاجي الأصولي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومثل يسكر الغفجومي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وكان ورعا فاضلا ومثل أبي عبد الله المعروف بابن تخميسيت المتوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وكان كثير الورع شديد الانقباض عن الناس . ويكتظ كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م بكثيرين من الزهاد ، ألفه سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وهو يشتمل على مائتين وسبع وسبعين ترجمة أكثرهم من أهل مراکش ، غير أنه لم يترك بلدا في المغرب الأقصى إلا ذكر منها رجالا ، ويسميه في مقدمته صلحاء ، وهم في جمهورهم زهاد ونسك المغرب الأقصى حتى زمنه . وحرى بنا أن نذكر أن الشعراء أخذوا يفردون للزهد بابا في دواوينهم على نحو ما نجد عند أبي الربيع الموحدي . وكما يقفنا كتاب التشوف على الزهاد في عصر الموحدين نجد عبد الحق بن إسماعيل يؤلف في العهد المريني بأخرة من القرن السابع كتابا عن صلحاء أو زهاد الريف ، وفي الجزء الثاني من كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت تحليل له ، وهو يرمز إلى اطراد الزهد في عصر المرينيين ، وظل مطردا في عصر السعديين ويذكر الأستاذ كتون منهم الهبطي الطنجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م وينقل عن الدوحة أنه كان آية من آيات الله تعالى في الزهد واتباع السنة والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم ، ومثله ابن خجرو المتوفى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م ويظل للزهد رجاله المشهورون في عصر العلويين .

#### (ب) المتصوفة

... من قديم أخذ كثيرون من زهاد الأمة وأتقيائها يبالغون في نسكهم فاضين على أنفسهم تلاوة القرآن وذكر الله وتسبيحه ، كما فرضوا على أنفسهم المبالغة في التوكل على الله والثقة به ، ثقة تملأ النفس طمأنينة . ومع مرور الزمن أخذ كثيرون من هؤلاء الواثقين المتوكلين يهملون أمور الدنيا ومعاشهم ، فهم لا يهتمون بكسب القوت ، لأن السعى له يفضي إلى فقدان التوكل والثقة في الله ، ومع الزمن أخذوا ينبذون طيبات الدنيا ومباهجها مرددين قول الرسول ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا ( جائعة ) وتروح بطانا ( ممتلئة ) » . وأخذ هذا التعمق في التوكل والثقة بالله يتحول تدريجا إلى نزعة التصوف ،

ويقال إن مؤسسها هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ويقال بل مؤسسها الذي أودع فيها فكرة الحب الإلهي ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م . ولم يلبث أن ظهر الحلاج في مطلع القرن الرابع الهجري وظهر معه التصوف الفلسفي وكل ما يتصل به من أفكار الحلول والاتحاد مع الله ، وتظل أفكاره تشيع بين المتصوفة وتكون سببا في القطيعة بين الفقهاء والمتصوفة إذ يرمونهم بالكفر إلى أن ظهر القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري ، وأصلحا ما بين الفئتين ، وانقسم التصوف منذ هذا التاريخ إلى تصوف فلسفي به إشعاعات من أفكار الحلاج ، وتصوف سني أخذت تتكون فيه وتشيع طرق صوفية سنية مثل طريقة عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي . وأخذت الأندلس تتأثر بالتصوف على نحو ما هو معروف عن ابن مسرة ، وبعده عند ابن برجان وابن العريف ، ثم عند الشاذلي وابن عربي وابن سبعين والششتري على ما نحو ما أوضحنا ذلك في كتابنا عن الأندلس . أما المغرب الأقصى فإنما شاع فيه التصوف السني وما يمثله من مثل طريقة أبي الحسن الشاذلي .

وأول ذكر لمتصوفة المغرب نجده عند بعض من ترجموا لنسাকে ، وكان جمهورهم - في رأيي - نساكا يقصرون حياتهم على النسك والعبادة ، ومنهم كما جاء في كتاب النبوغ المغربي ابن حرزهم على بن إسماعيل المذكور بين الزهاد . وقد تعلم على يديه أبو مدين الصوفي المشهور وقرأ عليه كتاب الرعاية للمحاسبي . ونظن أنه كان عابدا ناسكا فحسب ، إذ يقول مترجمو أبي مدين أنه أخذ التصوف عن أبي عبد الله الدقاق الصوفي لا عنه . ومنهم أبو العباس السبتي المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ، وكان لا يترك لنفسه شيئا إلا قدر ما يقوته هو وأسرته في يومه والباقي يتصدق به ، وكان ناسكا ورده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، وكان باراً باليتامى والمساكين . وهي حياة زاهد في رأيي لا صوفى . ومثله عبد السلام بن مشيش الحسنى وكان تقيا صالحا عالما ، وسأله سائل عن أوراد يعمل بها ظانا أن له ورادا مثل الصوفية ، فقال مستنكرا أرسول أنا؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصي رافضا واحفظ نفسك من ابتغاء الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع بما قسم الله لك ، وهي إجابة زاهد لا صوفى ، وإن كان قد درس على يديه الشاذلي صاحب الطريقة الصوفية المشهورة . ومثله أبو الحسن المسفر معاصره وإن كان قد ذكر ابن عربي أنه لقيه في كتابه « محاضرات الأبرار » لأن مجرد لقاء ابن عربي له لا يدل حتما على أنه صوفى ، إنما هو ناسك . وربما كان الصوفي الحقيقي في عصر الموحدين يلنور بن ميمون أبو يعزى<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م عن مائة وثلاثين سنة ، أمضى منها عشرين سنة سائحا في الجبال بمنطقة مراكش ، ثم رحل إلى ساحل المحيط فأقام به ثمانى عشرة سنة لا يأكل إلا من نبات

(١) انظر في أبي يعزى ررض القرطاس ص ٢٦٧ وجذرة الاقتباس لابن القاضي ص ٣٥٤ .



الأرض . وإنما ترجح أنه كان صوفيا لأن مترجمي أبي مدين الصوفي المشهور يقولون إنه سلك الطريقة الصوفية على شيخ المشايخ أبي يعزى إلى أن وصل وحقق وأدرك ، ومن الصوفيين المشهورين في عصر المرينيين الشيخ زرّوق<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م وله نحو عشرين مؤلفا في التصوف منها قواعد التصوف وعدة المريد وعلى شاكلته أحمد الصومعي في عصر السعديين وله في أبي يعزى كتاب بعنوان : المعزا في مناقب الشيخ أبي يعزى وعدة مؤلفات أخرى في التصوف .

ونحن لا نصل إلى القرن التاسع الهجري في التصوف حتى يصيبه في المغرب الأقصى ما أصابه في البلاد الإسلامية الأخرى من كثرة المدّعين الجهلاء له ، وزعمهم أنه لا يحتاج إلى دراسة إذ تكفى فيه المعرفة الروحية الربانية ، وتخلي كثيرون منهم عن فروض الإسلام ونوافله ، فحسبهم العبارات والشعائر التي يأخذونها عن شيوخهم ، وأباحوا لأنفسهم كل المتع مقيمين لأنفسهم حفلات ذكر يتواجدون فيها وقد يشقون ثيابهم ويمزقونها بتأثير ما يسمعون من أغان على الذكر تصور الوجد اللتاع . وكان الناس يكبرونهم إذ يزعمون لهم أن بينهم القطب الذي اختاره الله ، كما يزعمون أن بينهم أربعين واصلين مثله يسمونهم الأوتاد ، وإذا مات التظب حل أحد الأوتاد محله . وما زاد في خروج الصوفية عن الجادة وتجاوزهم لحدود الشرع انتشار مذهب الملامية<sup>(٢)</sup> الإيرانية بينهم وهو مذهب كان معتقوه يصنعون كل ما يوجب اللوم لهم مما يعد محرما ومخجلا لأقصى درجة ، إذ يرون أن يشتهروا بين الناس أنهم لا يؤدون شعائر الدين وفروضه ، وإن أدوها فعلا ، كما يريدون أن يقنعوهم بأنهم لا يتمسكون بنواهيه ، حتى يذمهم الناس أشنع ذم ، وحتى يحتقروهم إلى أقصى حد ، وهم بذلك ملامية أى أهل الملامية ، تأخذ بهم من كل وجه ، ولذلك حاربت الدولة العثمانية هذه الجماعة بالجزائر في عهد الدولة السعدية أشد حرب حتى كادوا يقضون عليها . وللمنصور الذهبي رسالة إلى السلطان مرادخان العثماني يهنئه بالقضاء على تلك الفئة ، وحاربها هو في المغرب الأقصى ومن خلفوه من السعديين ولكن يظهر أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها قضاء مبرما .

على كل حال كان انتشار مذهب الملامية في المغرب الأقصى من أسباب انحراف التصوف والصوفية ، مما جعل كثيرين من العلماء يذمون ما آل إليه من تخطى الشريعة والخلق الحميد ، ويدعون إلى محاربة البدع التي شاعت فيه ، ويدعو إلى ذلك بعض الصوفية والنسك المتمسكين بأوامر الدين ونواهيه مثل الهبطى الطنجى المار ذكره فإن له ألفية بناها على النصح والإرشاد ونحمل فيها حملة شديدة على متصوفة عصره وما يرتكبون من المنكرات .

المغرب الأقصى ٦٩٠/٣ وما بعدها راجع تاريخ الأدب العربى فى إيران بالجزء الخامس من هذه السلسلة ص ٥١٧ ..

(١) راجع فى الشيخ زرّوق كتاب النبوغ المغربى ص ٢١٧ ، ٢٢٨ .

(٢) انظر فى الملامية كتاب الوافى بالأدب العربى فى

## الفصل الثالث

### الثقافة

#### ١

#### الحركة العلمية

( أ ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

مرّ بنا - في الحديث عن الثقافة بالجزائر - أن فتوح العرب للمغرب حولته بعد قرن واحد إلى شعب عربي ، وقد نزل الفيننقيون دياره وظلوا به نحو ستة قرون أو تزيد ، ولم يستطيعوا تحويله إلى لغتهم وحضارتهم ، وبالمثل ظل به الرومان ستة قرون أخرى - وخلفهم البيزنطيون نحو قرن - ولم يستطيعوا أن يحولوه إلى لغتهم ودينهم المسيحي وحضارتهم . وكأنما كانت هناك معجزة هيأت للمغرب - مهما اختلفت أقطاره وتباينت - هذا التحول إلى العرب والعروبة ، وليست المعجزة إلا أن العرب الفاتحين لم يكونوا يتغنون النهب والسلب لخيرات الأرض المفتوحة ، إنما كانوا يتغنون نشر الدين الخفيف ، مما جعل جماهيرهم تستحيل إلى معلمين يحفظون المغاربة بعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض مبادئ العربية وبعض تعاليم الإسلام . ومن تمام هذه المعجزة أن المغاربة وجدوا هذا الدين السّمح يسوّى بين حملته الفاتحين وبين الشعوب المفتوحة ، فلا سيد ولا مسود ولا استتزاز لخيرات البلاد ، والجميع عربا ويربرا متساوون في الحقوق والواجبات فأخذوا يدخلون فيه أفواجا : فوجا وراء فوج .

وكان هذا الدين الخفيف يدعو بقوة إلى العلم والتعليم ، ومعروف أن أول ما أنزل منه على الرسول ﷺ : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فالدعوة إلى العلم والتعليم تقترن بأول ما نزل من الذكر الحكيم . ويشيد القرآن بالعلم والعلماء مرارا في مثل : ﴿ وقل رب زدني علما ﴾ ومثل : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ . ولذلك لا نعجب إذا رأينا الفاتحين في الأقطار المغربية يتحولون إلى معلمين للشعوب البربرية ، يعلمونها مبادئ الإسلام والعربية ، ويتجرد منهم كثيرون للجلوس في غرف ملحقة بالمساجد أو في المساجد نفسها لتعليم القرآن وسموها الكتائب ، وكانوا يلتقون عليهم فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار .

وأخذ كثيرون يتجردون لإلقاء المواعظ في المساجد وتفسير بعض السور والآيات الكريمة وذكر بعض الأحاديث النبوية مع شيء من التعليق عليها وبعض الأحكام الفقهية . وبذلك نشأ

التعليم في الأقطار المغربية - مثل بقية الأقطار العربية - معتمدا على الكتاتيب لتعليم الناشئة وعلى المساجد ليتلقى فيه من يكبرونهم دروساً في التفسير والحديث والفقه والعربية ، وتمضى هاتان الصورتان من التعليم ، حتى إذا كنا في القرن الخامس أخذت تنضم إلى الكتاتيب والمساجد مؤسسة جديدة هي المدارس والمعاهد ، ويتنافس معلموها أو شيوخها وشيوخ المساجد ، مما أثرى الحركة العلمية ، حتى إذا كنا في القرن الثامن الهجري أخذت تظهر مؤسسة ينافس شيوخها شيوخ المدارس والمساجد ، وهي مؤسسة الزوايا ، وحرى أن نخص كل دار من هذه الدور العلمية بكلمة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - المدارس - الزوايا - المكتبات

### الكتاتيب

انتشرت الكتاتيب - منذ القرن الأول الهجري - في كل بلد وقرية كبيرة أو صغيرة في الوديان وعلى سفوح الجبال ، ويقول ابن خلدون بمقدمته في الفصل الخاص بتعليم الناشئة في الكتاتيب « إن هذا التعليم شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده عن طريق آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » . ثم يقول : « إن مذهب أهل المغرب (الأقصى) الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذ الناشئة في أثناء دراسته برسم ألفاظه ، ويقول إنهم لا يخلطون ذلك بتعليم شيء من حديث أو فقه أو شعر حتى تجاوز الناشئة حد البلوغ إلى الشبية ( الشباب ) ، بخلاف أهل إفريقية التونسية فإنهم يخلطون في تعليمهم للناشئة القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها .

فالكتاتيب في المغرب الأقصى إذن لم تكن تعنى بشيء سوى تحفيظ القرآن وتعليم رسم الآيات وما يتصل بذلك من الخط ، ويقول الحسن الوزان في حديثه عن الكتاتيب بفاس إن بها مائتي كتاب ، ويشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا في كتاب معين ، وإنما يستعين بالواح خشب كبيرة تكتب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات . ويختم الناشء القرآن في نحو سبع سنوات ، ويعلمه المعلم الخط ، وحينما يصل إلى إجابة جزء لا بأس به من القرآن يقدم أبوه هدية لمعلمه ، وحينما يختمه يصنع أبوه وليمة فاخرة لكل زملائه في الكتاب ، ويقدم لمعلمه كسوة جديدة . ويقول الوزان إن للناشئة - مثل طلاب المعاهد - يومين في الأسبوع للراحة لا يختلفون فيهما إلى الكتاتيب .



ويذكر الأستاذ كنون - كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع - أن المرأة المغربية هي التي كانت تقوم في ميدان التعليم الأولى بتعليم الناشئة ذكورا وإناثا ، وأنه لم يكن يخلو حَيَّ من دار معلمة وتسمى فقيهة ، ويذكر الحسن الوزان عن مدينة في إقليم نوميديا أن النساء فيها هن اللاتي يعلمن الأولاد ذكورا وإناثا حتى سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن ذلك كان سنة متبعة في المغرب الأقصى جميعه من قديم .

### المساجد

كانت الناشئة حين تنجز حفظها للقرآن الكريم تتجه إلى حلقات الشيوخ في المساجد لتتلقى ما يُلقى بها من تفسير للذكر الحكيم ورواية للحديث النبوي وتعاليم للشريعة ودراسات للعربية وتاريخ للرسول والأمة العربية . وكان القائمون على الدروس في هذه الموضوعات يختلفون ، فمنهم من يعطى مبادئ في هذه الدراسات ، ومنهم من يعطى دروسا متعمقة لمن ثقفوا المبادئ واستوعبوا وخاصة في الجوامع الكبيرة بكل بلدة . وكانت هذه الجوامع تعد مراكز الإشعاع الفكري في كل مكان ، وملتقى بها في كل بلدان المغرب الأقصى الكبرى مثل سبتة وطنجة وأصيلا وتازه وسجلماسة . ويذكر الحسن الوزان أن في فاس ستمائة مسجد منها خمسون كبيرة جميلة البنيان مزدانه بالأعمدة والفسيفساء والخشب المنقوش مع تليطها بالرخام أو ما يشبهه من الميورقي .

ويفصّل الحسن الوزان الحديث عن جامع القرويين بفاس الذي بُني في عهد الدولة الإدريسية سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م ويُعدّ أقدم جامعة علمية في العالم العربي . وعلى نحو ما أحدث الأزهر في القاهرة من نهضة علمية في مختلف العصور كذلك أحدث جامع القرويين نهضة مماثلة لا في فاس وحدها بل في المغرب الأقصى جميعه . ويذكر الوزان أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلا ونصفا وأن له واحدا وثلاثين بابا كبيرا عاليا ومنارته عالية جدا ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج ، وعلى طول الجدران كراسي من مختلف الأنواع ، يلقي منها طائفة من الأساتذة على الشعب محاضرات روحية في أمور دينه وشريعته . وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهى بعد شروق الشمس بساعة . وقد ألف الدكتور عبد الهادي التازي عن هذا الجامع موسوعة كبيرة تحدث فيها بالتفصيل عن جوانبه المعمارية والثقافية ومكانته في العلم والفكر المغربيين في مختلف الأزمنة . وعلى نحو ما ذكر الحسن الوزان من تفصيلات عن جامع القرويين دون تفصيلات مماثلة عن جامع علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وقد هدمه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين وشيّد مكانه جامعا آملا أن يشيع عليه اسمه محل اسم علي بن يوسف ولكن الناس ظلوا يسمونه باسمه القديم ، وبنى عبد المؤمن جامعا بجوار قصبة مراكش ، وقد اعتنى به حفيده يعقوب وزينه بأعمدة جلبها من الأندلس ، وشيّد له منارة في منتهى

الروعة كمنارة الخيرالدا التي شيدها في جامع إشبيلية، وترى زوجته بعد أن شيدها أن تبيع حليها الذهبية الخاصة وما تملك من أحجار كريمة وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها ، وتأمّر - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - أن يصنع بثمانها جميعا ثلاث تفاحات ذهبية تعلق قمة المنارة ليكتمل رونقها . وطبيعي أن تزدهر الدراسات الدينية واللغوية بهذين الجامعين في عصر الموحدين وبعدهم وأن ينافسوا جامع القرويين في الحركة العلمية ، وتنافسهم معها الجوامع الكبرى في سجلماسة وتارودنت ومكناس وتازة وسبتة وطنجة وأصيلا وسلا . وكانت لهذه الجوامع أوقاف تدرّ عليها ما يفى بالنفقة على شيوخها وتلاميذها .

### المدارس

معروف أن أول من أشاع نظام المدارس في المشرق نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) إذ شيّد طائفة منها في بلدان مختلفة بالعراق وإيران ، ووقف على كل مدرسة أوقافاً كثيرة تفي بتفقات أساتذتها وطلابها ومكباتها وعيّن في كل مدرسة أساتذة في مختلف العلوم الدينية واللغوية والرياضية وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تسمى بالنظامية ، وأشهرها نظامية بغداد ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ ووصف ما بها من الحياة العلمية . وطارت شهرة هذه المدارس النظامية في العالم الإسلامي منذ تأسيسها ، ونرى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الحصيف (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ) يؤسس بمدينة فاس مدرسة عُرفت - كما يقول الأستاذ كتون في النبوغ المغربي - باسم مدرسة الصابرين .

ونظن ظنا أنه لا بد أن شيّد مدرسة ثانية في عاصمته مراكش . فإذا تحولنا إلى عصر الموحدين وجدنا الأستاذ المنوني يذكر في كتابه : « حضارة الموحدين » : أن عبد المؤمن مؤسس الدولة أسس في مراكش مدارس ، منها مدرسة لإعداد الموظفين في الدولة ، ومدرسة خاصة بتعليم أمراء الموحدين ، وأسّس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة ، وعُنى حفيده يعقوب الموحدي بتأسيس المدارس لا في المغرب الأقصى فحسب ، بل أيضا في إفريقية التونسية والأندلس . ويتحدث الحسن الوزان عن مدرسة شيّدت في عهد الموحدين - ولعلها شيّدت في عهد يعقوب - بقصبة مراكش ويقول إنها أشبه بمؤسسة ، إذ يلحق بها مساكن للطلاب ، وفي رأيه أنه كان بها مساكن أيضا للأساتذة . ويقول إنها تشتمل على ثلاثين غرفة وفي الطابق الأرضي قاعة كانت تُلقَى فيها الدروس في الماضي ، وكان التلميذ في هذه المدرسة يُعْفَى من المصاريف ، ويُعطى كسوة ، وكان الأساتذة يتقاضون راتباً شهريا فيها بين مائة ومائتي دينار حسب طبيعة الدروس التي يقومون بها . ويذكر أن مبنى المدرسة كان مزينا بالفسيفساء البديعة وزخارف متنوعة . ويقول الوزان إنه كان بها في الماضي عدد كبير من الطلاب ، وقلوا الآن أي في القرن العاشر الهجري قلة شديدة ، ويقول في القصبة قصر مزخرف كان مدرسة لأبناء الخليفة



وأبناء أسرته . وبأخرة من عهد هذه الدولة نجد المحدث الكبير أبا الحسن الشاربي السبتي المتوفى في سنة ٦٤٩ يشيد مدرسة بسبته ويقف عليها من خيار أملاكه وعقاراته ما يفى بالإفاق عليها ، ويلحق بها مكتبة نفيسة .

واتسع تشييد المدارس وتأسيسها في عهد الدولة المرينية ، ويقول ابن مرزوق في كتابه عن السلطان أبي الحسن المريني المسمى بالمسند الصحيح أن السلطان عثمان أبا سعيد والد أبي الحسن أنشأ بفاس مدرستي العطارين والمدينة البيضاء الملحقه بفاس وأن أبا الحسن ابنه أنشأ مدرسة الصهريج في الشطر الأندلسي ومدرسة داخل جامع القرويين في الشطر المقابل وتعرف باسم مدرسة مصباح أول أساتذتها ، وأنشأ مدرسة ثالثة في الوادي كما أنشأ في كل بلد من بلدان المغرب الأقصى وما تبعه من بلدان المغرب الأوسط ( الجزائر ) مدرسة : في مكناس وتازة وسبته وأنفة وأزمور وأسفي وأغمات ومراكش ووقف عليها أوقافاً كثيرة وألحق بها مكتبات نفيسة . ويقول الحسن الوزان بأخرة من عهد المرينيين إن في فاس وحدها إحدى عشرة مدرسة ، وقد تحوى المدرسة مائة غرفة أو أكثر ، ولجميع الأساتذة رواتب ممتازة ، ويذكر أن بمكناس ثلاث مدارس وكذلك بتازة ، ويذكر طريقة التعليم في تلك المدارس لعهدده ، فيقول إن الأستاذ يكلف تلميذا في بدء الدرس بقراءة النص ، ثم يأخذ في تفسيره وبيان دلالات كلمه مضيفا إليه بعض آرائه مع بيان ما يوجّه إلى النص من اعتراضات ، ويتحاور الطلاب ويتناقشون في معاني النص ودلالاته ، ويشترك الأستاذ معهم في المناقشة والحوار . وواضح أنه لم ينته العصر المريني إلا وكان المغرب الأقصى في أواخر هذا العصر قد اكتظ بالمدارس وبما تخرج من شباب العلماء في كل فن وعلم ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين لا يعنون بالحديث عما أنشأ السعديون والعلويون فيما بعد من مدارس إذ كانت سنة أوفريضة متبعة .

### الزوايا

لم يكن المغرب الأقصى يعرف الزوايا المتعلقة بالمتصوفة والنسك قبل القرن السابع الهجري إذ كان يطلق عليها اسم أربطة جمع رباط مثل رباط عبدالله بن ياسين الذي تنسك فيه مع بعض رفاقه كما مرّ في حديثنا عن قيام دولة المرابطين . وربما كانت أول زاوية عرفها المغرب الأقصى زاوية أبي محمد صالح التي أقيمت في منتصف القرن السابع الهجري بمدينة أسفي على المحيط : ويقال بل كانت تسمى رباطا وأن الزوايا إنما أخذت تعرف بالمغرب الأقصى في القرن الثامن الهجري على نحو ما يذكر ذلك ابن مرزوق في كتابه عن السلطان المريني أبي الحسن وإنشائه الزوايا ، ومع ذلك لم يذكر له زاوية أنشأها ، وذكر زاوية أبي زكريا يحيى بن عمر بسلا .

وفي كتاب الشعر الدلائلي للسيد عبد الجواد السقاط زاوية أسست بدرعة في القرن الثامن

الهجرى باسم زاوية سيد الناس محمد ﷺ . وأخذت الزوايا تتكاثر فى المغرب الأقصى منذ القرن العاشر الهجرى حينما ضعفت الدولة المرينية وأخذ البرتغاليون والإسبان يستولون على أطراف المغرب الأقصى على المحيط والبحر المتوسط وكأنما المغاربة يمسوا من الدولة وحكامها ، فأخذوا يلتفون حول شيوخ المتصوفة أملين أن يجدوا بينهم من يصلح أحوال البلاد ومن يحسن قيادتهم ضد أعدائها الخاسئين ، وأسهموا بقوة فى بناء الزوايا بكل بلدة ، وكانت الزاوية تضم الشيخ ومريديه ، وأخذت سريعا لا تقتصر على مكان للعبادة بل أصبحت أشبه بمسجد وتضم إليها مباني لسكنى شيخها أو شيوخها ومريديهم . وأيضا فإنها لم تعد مكانا للنسك فحسب بل أصبحت مكانا للتعليم ومدرسة يتخرج فيها كثيرون ، وكانت تلقى بها خطب حماسية لإلهاب حمية الشباب فى مقاومة الأعداء المحتلين للديار والانقضاض عليهم والعصف بهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ومرّ بنا مدى جهاد هذه الزوايا وأصحابها فى طرد المحتلين والتنكيل بهم ، وطبيعى أن يُعدّ فى كل زاوية طعام لمن بها ولقصدادها . وعدّ الأستاذ عبد الجواد السقاط فى مقدماته للزاوية الدلائلية أربعين زاوية منتشرة فى بلدان المغرب الأقصى وصحاره ، وفى رأينا أنها تزيد عن ذلك كثيرا . وتحول بعضها إلى ما يشبه مؤسسة كبيرة ، بل مدينة تامة على نحو ما يلقانا فى الزاوية الدلائلية وقد أفرد الأستاذ السقاط مجلدا كبيرا للحديث عن الحركة الشعرية بها وقدم لها بمقدمة عن تاريخها والجوانب الثقافية إذ كانت تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكأنها جامعة صغرى مما يدل بوضوح على إسهام الزوايا بالمغرب الأقصى فى الحركة العلمية بجانب العناية بالأدب والشعر .

### المكتبات

لا ريب فى أن المكتبات تعد أعظم المؤسسات العلمية ، إذ تحمل التراث العلمى والأدبى جميعه للأمة وتفتح أبوابها يوميا وتقدم كنوزها لطلاب العلم والأدب وشيوخهما ، ولن أستطيع تصوير أهميتها فى سطور معدودة ومعروف أنه كان بكل جامع فى كل بلد مكتبة ، وقد أحصى الدكتور محمد حجي فى كتابه : الحركة الفكرية فى المغرب لعهد السعديين اثنتى عشرة مكتبة عامة بفاس منها اثنتان إحداهما مكتبة القرويين المليئة بالنفائس والكنوز من مثل تاريخ ابن خلدون بخطه ، وعدّ بمراكش أربع مكتبات ويزاوية الدلاء مكتبة وبالمثل فى بعض المدن الكبرى . وعدّ من المكتبات الخاصة خمس عشرة مكتبة ، منها مكتبة آل الغرديس بفاس استعان بها فقيه الجزائر الكبير أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ٩١٤ فى تأليف موسوعته الفقهية الكبرى : « المعيار » المنشورة فى ستة مجلدات . وكان قد أورثهم جدّهم فى القرن الرابع الهجرى بكار بن عيسى الغرديسى شرفا عظيما إذ كان أول من حمل صحيح البخارى إلى المغرب الأقصى وعنه حمله كثيرون .

## (ج) نمو الحركة العلمية

تأخذ الحركة العلمية بالنمو في المغرب الأقصى منذ قامت الدولة الإدريسية ، فإنه نزل بفاس في عهد إدريس الثاني كثيرون من أهل الأندلس الذين قادوا الثورة ضد الحكم الرئضي ويقال إنهم كانوا نحو أربعمئة أسرة وكان بينهم كثيرون من الفقهاء ، إذ كانوا هم أصل تلك الثورة ، وشغلوا شطرا من فاس سمي بالعدوة الأندلسية ، وسرعان ما أخذ فقهاء الجامع يلقون فيه دروسهم منذ أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة ، حتى إذا كنا في منتصف هذا القرن- و بنت السيدة الجليلة فاطمة أم البنين الفهرية جامع القرويين في عدوة فاس المغربية المقابلة أخذ شيوخ الجامعين يتنافسون في تعليم الشباب الفاسي ، ويظل لهذا النشاط العلمي آثاره في المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الإدريسية بفاس في أواخر القرن الثالث الهجري ، ويعود هذا النشاط بقوة في عهد المرابطين الذين قاموا بإنقاذ المغرب الأقصى مما كان فيه من فئات ضالة كبقايا الصفرية في سجلماسة وبعض الأنحاء والمعتزلة في البصرة والشمال الغربي وكالبرغواطية في تامسنة وكالجلية الشيعية الروافض في ترودنت بالسوس وبذلك وحّدوا المغرب الأقصى وأخذوا يردونه إلى أحضان السنة باعثن فيه حركة علمية ناشطة ، وما إن توافى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وحتى ينزل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على رأس جيش ديار الأندلس ويهزم ألفونس أمير قشتالة ونصاري الإسبان وأوربا معه هزيمة ساحقة في الزلاقة ، ويضم الأندلس إلى دولته المغربية . ومن حينئذ تنمو الحركة العلمية في المغرب الأقصى نموا واسعا ، إذ أخذت تلتحم تدريجا بالحركة العلمية الأندلسية ، فقد أخذ علماء الأندلس يفدون عليه ، كما أخذ طلابه وعلماءه يفدون على الأندلس ، وكان يوسف بن تاشفين بعيد النظر ، فعمل على جلب علماء الأندلس إلى عاصمته مراكش حتى ليقول صاحب المعجب : « انقطع إليه من جزيرة الأندلس من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه علي ( ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م ) من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » وفي موضع آخر يقول : « لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » .

ومنذ هذا التاريخ يصبح المغرب الأقصى والأندلس دار علم وأدب واحدة ، وكثير من العلماء والأدباء في القطرين قضوا شطرا من حياتهم في وطنهم والشرط الآخر في الوطن الثاني . وتنبه إلى ذلك مؤلفو كتب التراجم كما سنرى عما قليل . ويتحول الحكم إلى الموحدين ، ويقول صاحب المعجب عن عبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولتهم : « كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجري عليهم



الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم » . واتخذ - حسب تعليمات أستاذه ابن تومرت - عشرة مع خمسين من الأشياخ بينهم رؤساء القبائل وطائفة كبيرة من الدعاة كانوا يسمون باسم الطلبة ، وكانوا يعدُّون للدعوة إعداداً علمياً . ويقول صاحب المعجب عن ابنه يوسف سلطان الموحدين إنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منه كما يقول - إما البخارى وإما مسلم .. مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى علم النحو ، وتعلم الفلسفة وجمع كثيرا من أجزاءها وكتبها واجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموى ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب ، وكان ممن صحبه من العلماء المتقنين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبئه عليهم ويحضه على إكرامهم ، وهو الذى نبهه على أبى الوليد بن رشد . وفى أيام ابنه يعقوب بلغت دعوة الموحدين ضد أصحاب المذاهب الأربعة الذروة إذ أمر بإحراق كتب الفروع عامة سواء للمالكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية ، وكان قصده نحو مذهب مالك وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، وأمر المحدثين بجمع أحاديث من كتب الصحاح الستة وسنن البزار وأبى شيبة والدارقطنى والبيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، وكان يمليه بنفسه على الطلبة ويأخذهم بحفظه . ولا بد أن نذكر ما أسلفناه من أنه تم فى عهد الموحدين الامتزاج العلمى والأدبى بين القطرين المغربى والأندلسى حتى لرى كتاب التراجم الأندلسيين حين يؤلفون كتابا يمزجون فيه بين علماء القطرين إذ يجعلونه لهما جميعا على نحو ما يلاحظ فى كتاب الصلة لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م وكانت عناية المرينيين بالعلم وأهل الأدب لا تقل عن عناية الموحدين ومر بنا ما حكاه ابن مرزوق والوزان عن عنايتهم بتشيد المدارس وفرض الرواتب فيها للأساتذة والإنفاق على الطلاب وكسوتهم ، ويطيل الوزان الوصف لمعهد بناه السلطان المرينى أبو عنان (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م - ٧٥٨ هـ / ١٣٥٨ م) ويذكر أن فيه ثلاثة أروقة مسقوفة تتحلى بجمال لا يتصوره عقل ، والأعمدة منمنمة بألوان متباينة والقناطر بين الأعمدة مكسوة بالفسيفساء وبالذهب الخفافى وباللازورد ، والسقف من خشب مجزغ ، ويختم وصفه الطويل للمدرسة بأن نفقاتها ارتفعت إلى أربعمائة وثمانين ألف دينار .

ومنذ أوائل هذه الدولة يشعر المغاربة بتعمق أنهم والأندلسيين الذين هاجروا إليهم بعد سقوط مدنهم الكبرى فى حجر الإسبان إخوة تجمعهم أواصر كثيرة ، بل لقد كان هذا الشعور يتعمقهم منذ عصر دولة المرابطين غير أنه ازداد عمقا بكثرة من هاجر إليهم من إخوانهم الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى ، وهو ما جعل المغربى من أمثال محمد بن عبد الملك

المراكشي حين يؤلف كتابه الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة يجعله قسمة بين الأندلسيين والمغاربة ، وللأندلسيين الشطر الأكبر . وأخذت تتسع الهجرة من الأندلس ، حتى إذا كانت سنة ٨٩٧ هـ وسقطت غرناطة بدأت هجرة أندلسية كبرى إلى مدن المغرب الأقصى . وتلتها الهجرة أيام فيليب الثالث حين أمر سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م بطرد الموريسكيين من جزيرة الأندلس . وكان لهذه الهجرات الأندلسية الجماعية في أواخر أيام المرينيين وزمن السعديين أثر بعيد في نمو الحركة العلمية بالمغرب الأقصى ، ولذلك نرى خطأ كبيرا في قياس المغرب الأقصى على بلدان الدولة العثمانية في المشرق العربي وخمود الحركة العلمية بتلك البلدان لأن فوارق كانت تفرق بين المغرب الأقصى وبينها ، أهمها ما ظل ينزله من جموع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة على مدى سنوات طويلة متعاقبة . وينوه ابن القاضي في كتابه عن المنصور الذهبي السعدي (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م - ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م) بشغفه الشديد بالعلوم على اختلافها ورعايته للعلماء والأدباء . وينوه الأستاذ عبدالله كنون في الجزء الأول من كتابه النبوغ المغربي بالخلفاء العلويين : الرشيد (١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م - ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) ومحمد بن عبد الله (١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م) ونهضتهم العلمية بالمغرب الأقصى . وفي كل ما قدمناه ما يدل - بوضوح - على أن الحركة العلمية المغربية كانت دائما بأعين الحكام المغاربة ، فهم يتعهدونها ويقدمون لها كل ما يستطيعون من عون مادي ومعنوي .

## ٢

### علوم الأوائل

ليس بين أيدينا معلومات واضحة عن علوم الأوائل ونشاط علماء المغرب الأقصى فيها زمن المرابطين إلا ما ذكر من أن بعض الأطباء الأندلسيين نزلوا مراكش لرعاية يوسف بن تاشفين وابنه على رعاية طبية ، ومنهم أبو العلاء<sup>(١)</sup> بن عبد الملك بن زهر ، وله في الطب تصانيف متعددة وقد أمر السلطان علي بن يوسف حين توفي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م بجمع كتبه الطبية ونسخها في السنة التالية لوفاته ، ومن أهمها كتاب التذكرة ونشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ للميلاد ، ونظن ظنا أن بعض المغاربة تتلمذ عليه حين نزوله في مراكش وربما تبعه إلى بلدته إشبيلية ليكمل تعلمه عليه .

ولا يلبث الموحدون أن يستولوا من المرابطين على صولجان الحكم وتزدهر علوم الأوائل

(١) انظر فيه كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

فى عهدهم ، مما يدل على أن المغاربة كانوا قد أخذوا يدرسونها منذ عهد المرابطين ، وقاد حركة ازدهار هذه العلوم فى المغرب الأقصى يوسف<sup>(١)</sup> بن عبد المؤمن الموحدى (١١٦٢/٥٥٨م - ١١٨٥ / ٥٨٠ م) ، إذ تعلم الفلسفة منذ أن كان حاكماً لإشبيلية فى عهد أبيه عبد المؤمن ، واصطفى لنفسه حينذاك طبيبه الفيلسوف أبا بكر بن طفيل واصطحبه معه إلى مراكش حين استولى على صولجان الحكم ، وكان لا يكاد يفارقه ، ورغبه فى جمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها - كما يقول صاحب المعجب - ما يقرب مما جمعه الخليفة الأموى المستنصر (٣٥٠ هـ / ٩٦١ م - ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م) فى الأندلس ، وكانت مكتبته تعد أغنى مكتبة فى زمنه تحوى كتب الفلسفة . وكما كان ابن طفيل يجلب إليه الكتب الفلسفية وما يتصل بها من علوم الأوائل كان يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبئه عليهم - كما يقول صاحب المعجب - ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وله فى الفلسفة والطب والفلك كتب مختلفة . وشكا إليه يوسف قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص وسأله أن يقوم بذلك فاعتذر بعلو سنه ، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن ينهض بهذا العمل ، فنهض به على خير صورة ممكنة ، إذ وضع شروحا مطولة ومتوسطة ومختصرة لكثير من مؤلفات أرسطو .

وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية وترجمت معها مؤلفاته الفلسفية مثل تهافت التهافت الذى ردّ فيه على تهافت الفلاسفة للغزالي ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . وأخذت كتبه تدرس فى الجامعات الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولولاها لما فهم الغرب فلسفة أرسطو بالإضافة إلى ما كان لمؤلفيه الأخيرين من أثر عميق فى حركة التحرر الدينى الأوروبى . وهى يدّ لابن رشد لا على الفكر الأوروبى وحده بل على الفكر العالمى جميعه .

وكل آثار ابن رشد وابن طفيل وغيرهما من فلاسفة الأندلس مثل ابن باجة أستاذ ابن طفيل أحدثت فى المغرب الأقصى نهضة علمية فى مختلف علوم الأوائل وخاصة فى الرياضيات التى شغف بها المغاربة ، وفى مقدمتهم عبدالله بن محمد بن حجاج المشهور باسم ابن الياسمين<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م وله منظومة فى الجبر والمقابلة وأخرى فى أعمال الجذور ، وكان يعاصره على بن محمد بن فرّجون القيسى القرطبى نزىل فاس المتوفى مثله سنة ٦٠١ هـ وله كتاب<sup>(٣)</sup> لباب اللباب فى بيان مسائل الحساب . وتدل القصور المختلفة التى بناها المنصور

(٣) راجع الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى  
٢٧٥/٥ .

(١) انظر فى يوسف وأخباره مع ابن طفيل وابن رشد  
المعجب فى مواضع متفرقة ( راجع النهرس ) .  
(٢) انظر حضارة الموحدين للمنونى ص ٧٤ .



يعقوب الموحدي في قصبة مراکش والمسجد الذي بدأه جده عبد المؤمن وأضاف إليه زينات وإضافات وعمد وغير عمد ومأذنته البديعة على أنه كان بمدينة مراکش حينئذ كثير من المهندسين المواطنين والمجلوبين من الأندلس المستوطنين فيها ، ومما أحدثوه في المسجد الكبير مقصورة يجلس فيها الخليفة وحواشيه يوم الجمعة وكانت ميكانيكية مثبتة بعجلات في أسفلها ولها ست أذرع وتمتد بفواصل متحركة<sup>(١)</sup> .

ومن كبار الرياضيين الفلكيين حينئذ أبو علي الحسن المراكشي مؤلف كتاب المبادئ والغايات في علم الميقات ويذكر صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما ألف في هذا الفن ، وينقل عنه الأستاذ عبد الله كنون أن أبا علي المراكشي رتب هذا الكتاب على أربعة فنون هي الحسابات في نحو ثمانين فصلا ، ووضع آلات الإسطرلاب ولها سبعة أقسام ، وللعمل بها خمسة عشر فصلا ، والدربة عليها في أربعة أبواب أو فصول<sup>(٢)</sup> .

ونمضى إلى عصر المرينيين وولتقي في علم الفرائض أو الموارث - وكانوا يلحقونه بالرياضيات - بإبراهيم بن أبي بكر التلمساني نزيل سبتة الذي مر بنا في الجزائر وله في الفرائض أرجوزة سميت التلمسانية شرحت في سبتة وغير سبتة مرارا ، ولابن الشاط المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م « غنية الرائص في علم الفرائض » . ولتقي بمفخرة المغرب في الرياضيات ابن البناء<sup>(٣)</sup> أبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م والمتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م وقد بلغ الغاية في مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وبرع إلى الغاية في العلوم الفلسفية ولاسيما في الرياضيات والفلك ، وله في الحساب والجبر التلخيص في أعمال الحساب وعليه يعتمد الطلاب في جامع أو جامعة القرويين بفاس إلى اليوم ، وشرحه بكتاب سماه رفع الحجاب . وطارت شهرته في حياته وقصده الطلاب من كل فج ، وتخرج رياضيون ماهرون على يديه مغاربة وجزائريون مثل الآبى محمد بن إبراهيم التلمساني ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م . ولابن البناء في الفلك كتاب اشتهر في عصره وبعد عصره سماه اليسارة في تعديل السيارة وله المدخل إلى علم النجوم . ويلمع اسم اللجائي الفاسي عبد<sup>(٤)</sup> الرحمن بن أبي الربيع المتوفى سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م في الرياضيات والهيئة أو الفلك وقد ابتكر إسطرلابا يلصق في جدار ، والماء يدير شبكته على الصفيحة بحيث يعرف منه مدى ارتفاع الشمس وما مضى من النهار كما يعرف مدى ارتفاع أى كوكب ليلا .

جذوة الاقتباس ونيل الابتهاج ودرة الحجال وأزهار الرياض . وانظر في مؤلفاته النبوغ المغربي ٢٣١/١ .  
(٤) انظره في الدررة لان القاضي ٨٢/٣ والجذرة ٤٠٢/٢ وكون ٢٢٤/١ .

(١) انظر المنونى ص ٧٦ ، ٨٠ .  
(٢) راجع الجزء الأول من النبوغ المغربي لكون ص ١٦٦ .  
(٣) لابن البناء ترجمات كثيرة في الكتب السالفة مثل

ويلقانا بعده عبد<sup>(١)</sup> الرحمن الجادري المتوفى سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م مؤقت جامع القرويين - بفاس ، وله روضة الأزهار في علم الليل والنهار ، وكتاب ثان جمع فيه بين العمل بآلة الإسطرلاب وبالصفحة الشكازية وبربع الدائرة وطريقة العمل بالحساب والجداول . ومن علماء الهندسة في العصر المريني ابن لبون التجيبي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م وله كتاب الإكسير في الأشكال الهندسية .

وكان الخليفة المنصور الذهبي السعدي مكباً على كتاب إقليدس يحل أشكاله ، ولأحمد بن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م شرح باسم فتح الخير بحسن التدبير لفك رموز الإكسير لابن لبون السالف<sup>(٢)</sup> . وللبعقيلي<sup>(٣)</sup> أبي زيد عبد الرحمن الجزولي المتوفى سنة ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٧ م شروح فلكية على اليسارة في تعديل السيارة لابن البناء وروضة الأزهار للجاردى وهو الذى أحدث الساعة الرخامية بجامع تارودنت . ولمحمد<sup>(٤)</sup> بن قاسم بن القاضي المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م كتاب البرق الوامض فى الحساب والفرائض . وأهم الرياضيين فى عصر العلويين الرودانى محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وله إسطرلاب مبتكر مكون من كرتين ، وفى كتاب النبوغ المغربى وصف<sup>(٥)</sup> مفصل له . ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن المغرب الأقصى ظل ناشطاً فى الدراسات الرياضية والفلكية والهندسية طوال الحقب الماضية .

وطبيعى أن ينشط المغرب الأقصى فى الطب والصيدلة لضرورتهما فى العناية بحياة الناس ، ومرراً بنا أن أبا العلاء<sup>(٦)</sup> بن زهر الطبيب كان طبيباً ليوسف بن تاشفين وخليفته من بعده ابنه على ، مما يؤكد نزوله فى مراكش لرعايتهما الصحية ، ونزلها بعده ابنه عبد الملك الذى كان طبيباً للمرابطين ثم للموحدين إذ توفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م وهو أهم طبيب عربى كلينيكى أو عملى بعد الرازى .

واتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الفيلسوف ابن طفيل طبيباً بينما اتخذ ابنه يعقوب أبا بكر بن زهر طبيباً الخاص ، وكانت أخته أم عمرو طبيبة ماهرة وكانت تعنى صحياً بزوجة يعقوب ونساء الأسرة الموحدية ، وكان ابنه عبد الله طبيب الناصر بن يعقوب الموحدى . وأحصى الأستاذ المتونى فى كتابه « حضارة الموحدين » نحو عشرين<sup>(٧)</sup> طبيباً وصيدلياً أندلسياً

(٥) انظر وصف هذا الإسطرلاب عند الأستاذ كتون ص ٢٩٤/١ .

(٦) انظر فى أطباء أسرة بنى زهر كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

(٧) راجع حضارة الموحدين للأستاذ المتونى ص ٨٨ وما بعدها .

(١) انظر مظاهر الثقافة المغربية للدكتور ابن شترن ص ٢٢٠ .

(٢) راجع الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ص ١٥٧/١ .

(٣) نفس المصدر ١٥٨/١ وانظر النبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كتون ص ٢٦٤/١ .

(٤) النبوغ ص ٢٧٠/١ .



نزلوا مراکش لخدمة الخلفاء الموحدين . ويذكر بالمثل الأطباء المغاربة الذين أتقنوا الطب والصيدلة في عصر الموحدين ، ومنهم يحيى بن محمد السلوى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، والشريف الإدريسي المتوفى حوالي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م وله كتاب فى الصيدلة أو مفردات الأدوية ، وأحمد بن عبد الملك الجذامى الناشئ بسبته والمتوفى بمراكش سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م . وقد أفاض المراكشى فى كتابه المعجب فى وصف اليمارستان الذى شيده المنصور ، ويقول إنه أجرى عليه ثلاثين ديناراً كل يوم للإلتفاق ، وإنه كان به قسم للصيدلة وعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، ويذكر أن يعقوب كان يعود مرضى المارستان كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . ويبدو أن أبا إسحق إبراهيم الدانى البجائى كان أول رئيس لليمارستان كما يفهم من ترجمة ابن أبى أصيبعة له فى كتابه طبقات الأطباء وأن رياسته ظلت فى بيته فترة .

ويذكر الدكتور شقرون فى كتابه مظاهر الثقافة المغربية ستة<sup>(١)</sup> من الأطباء المشهورين فى العصر المرينى ربما كان أهمهم أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسى الذى اشتهر بتعمقه فى الفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، وكان طبيباً فى البلاط المرينى زمن السلطان أبى سعيد عثمان وابنه أبى الحسن وقد اصطحبه معه حين غزا تونس ، وبها توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م وكان طبيباً بارعاً كما كان شاعراً بارعاً . ومن أكبر الدلالة على كثرة الأطباء فى العصر المرينى أن نجد مؤلفاً مجهولاً لكتاب « بلغة الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذى نشره الأستاذ محمد بن تاويت فى العدد التاسع من مجلة تطوان يذكر سبعة من الأطباء بمدينة سبته ، بينهم طبيبة بارعة هى عائشة<sup>(٢)</sup> بنت الجيار ، ويقول :

« قد كان بسبته فى هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجّارين - يريد الصيادلة العشّالين - سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكانة مبلغ هؤلاء ( السبعة ) تركت ذكرهم » ، وإذا كان هذا العدد من الأطباء بإحدى مدن المغرب الأقصى فما بالناس بمن كان بفاس من الأطباء والصيادلة ، ولا بد أن كانوا كثيرين ، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس فى الداخل أو فى داخلها مارستانات بديعة وعدة مارستانات أخرى خارج أبوابها ، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلى وطبيب إن لم يكن يحتاج إلى عدد من الأطباء والصيادلة .

ويعرض الدكتور محمد حجى مؤلفات<sup>(٣)</sup> الأطباء والصيادلة ، ويبدأ بالوزير الغسانى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م ومما يذكر له حديقة الأزهار فى شرح ماهية العشب والعقار وهو

(١) مظاهر الثقافة المغربية : دراسة فى الأدب المغربى  
فى العصر المرينى ص ٢٢٧ .

(٢) الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٦٠/١  
وما بعدها .

(٣) النبوغ المغربى ٢٢٥/١ .

معجم صيدلى نباتى ، ويذكر للطبيب عبد الغنى بن مسعود الزمورى كتابا فى الطب بعنوان : القول المفيد فى علاج الحصى بقول سديد ، وكتابا فى الصيدلة بعنوان خواص النباتات ، شرح فيه الأدوية باللسان اليونانى والسريانى والفارسى والعجمى ، كما يذكر للطبيب أبى الغول الفشتالى أرجوزة طبية فى ألف بيت وأربعمائة وعشرة ، ويذكر أيضا للطبيب على بن إبراهيم أرجوزة فى علاج العيون وأدائها وأخرى فى الأعشاب وخواصها فى شفاء الأمراض .

وينبغ فى عصر العلويين غير صيدلى وطبيب ، منهم عبد<sup>(١)</sup> القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وله فى الصيدلة مؤلفات متعددة سوى منظومة سميت بالشقرونية فى ٧٠٠ بيت فى الأغذية والأدوية ، ومنهم عبد<sup>(٢)</sup> الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م وهو من أسرة فاسية اشتغلت بالطب ، وإليه انتهت رئاسة الطب فى زمنه ، وله مؤلفات ومنظومات طبية مختلفة ، ومنهم عبد<sup>(٣)</sup> الله بن عزوز المراكشى المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م وله فى الصيدلة كتاب باسم كشف الرموز فى الأعشاب الطبية وكتاب فى الطب باسم ذهاب الكسوف . ولعل فى كل ما ذكرت ما يصور - بوضوح - عناية المغاربة ببحوث الطب والصيدلة طوال العصور السالفة .

ويلحق بعلوم الأوائل علم المنطق الذى يعرف به الصحيح من الفاسد فى التعاريف والبراهين والأقيسة ، وهو يشترك فى العلوم كلها ، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ . والمنطق علم يونانى الأصل وضعه أرسطو ورتب فصوله وقضاياه ترتيبا محكما ، ونقله العرب منذ القرن الثانى الهجرى وتداوله علماءهم وأقطارهم ، وأصبح يدرس فى جوامعها الكبيرة أو جامعاتها ، حتى إذا نشأت المدارس فى القرن الخامس الهجرى أخذت تدارسه ويضع فيه أفضل الدين الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م كتابا موجزا باسم الجمل وتطير شهرته فى العالم العربى بجميع أقطاره شرقا وغربا ويأخذ علماء المغرب - كعلماء المشرق - فى مدارسته وشرحه لطلابهم . ومن عرفوا بدراسة المنطق بأخرة من عصر الموحدين ، وربما لحق عصر المرينيين ، عبد<sup>(٤)</sup> الله بن محمد الأغماتى من أهل أغمات من المغرب الأقصى من علماء القرن السابع الهجرى ، وينعتة الغبريني بأنه المنطقى النحوى ويقول عنه : كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده ، وله تحصيل لعلم المنطق .

ونلتقى فى أوائل عهد المرينيين بمحمد<sup>(٥)</sup> بن على بن يحيى المدعو بالشريف قاضى الجماعة

(٤) انظر الأغماتى فى عنوان الدراية للغبريني ص ٢٢٣ .

(٥) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ٢٨١/٤ وانظره فى بغية الوعاة للسيوطى .

(١) النبوغ المغربى ٢٩٩/١ والحياة الأدبية بالمغرب فى عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٢٠٧ .

(٢) النبوغ المغربى ٣٠٠/١ والأخضر ص ٢٣٩ .

(٣) الأخضر ص ٣٦٦ .

بها المتوفى بمراكش سنة ٦٨٢ واشتهر بأنه كانت له مشاركة في علوم الأصول والكلام والمنطق والحساب ، وتتردد هذه الشهرة في ترجمة كثيرين بالعصر المريني . ويذكر الدكتور محمد<sup>(١)</sup> حجى في العصر السعدي لعبد العزيز المكناسي المتوفى حوالي سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م أرجوزة في المنطق في مائة وستة عشر بيتا وأرجوزة أخرى لعبد الرحمن البعقلي المار ذكره ، ولعلهما أرادا مضاهاة عبد الرحمن الأخرى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م في أرجوزته المنطقية المسماة باسم السلم وقد نالت شهرة واسعة في العالم العربي ووضعت لها شروح كثيرة ، ويذكر الدكتور حجى لمحمد بن عبد الله الهبطي مباحث الكلية والجزئية .

ويعرض الأستاذ عبد الله كنون طائفة<sup>(٢)</sup> كبيرة من المنظومات والشروح والحواشي والدراسات المنطقية في عصر العلويين ، نذكر منها أرجوزتي القادرية لعبد السلام القادري المتوفى سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٩ م والخريدة لحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م . وشرح سلم الأخرى الجزائري اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م وشرح السلم أيضا بناني . ومن الحواشي حاشية على شرح سعيد قدورة الجزائري لسلم الأخرى لابن منصور الشفشاري المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م وحاشية أخرى له على شرح البناني للسلم . وكل ما تقدم دليل على أن المغرب الأقصى ظل يعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب على مر السنين .

### ٣

#### علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة

أخذ المغرب الأقصى يُعنى بعلوم اللغة والنحو منذ القرن الخامس الهجري ، بل ربما بدأت العناية بهما منذ قيام الدولة الإدريسية وبعثها بفاس والمغرب الأقصى عامة حركة علمية قوامها العلوم الدينية وما يتبعها من علوم اللغة والنحو ومدارسة ما ألف فيهما مما هيا لنشوء طائفة مبكرة من الكتاب والشعراء . ولاشك أن لمعلمي الكتاتيب ومقرئي القرآن فضلا كبيرا في هذا الجانب إذ كانوا يأخذون الناشئة بتعلم العربية ومعرفة بعض الألفاظ القرآنية ودلالاتها اللغوية وكذلك ألفاظ بعض ما يلقون عليهم من الأشعار . ولا نغلو إذا قلنا إن قراء الذكر الحكيم كانوا دائما لغويين ونحاة ونرمز إلى ذلك في عصر المرابطين بمروان بن عبد الملك بن سَمَجون المتوفى بطنجة سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م فقد ذكر عنه ابن عبد الملك المراكشي أنه تصدّر قديما لإقراء القرآن ، وكان مقرئا مجودا إذا حظ من الشعر يذهب فيه إلى التعمير<sup>(٣)</sup> وكان لغويا يستظهر الغريب في أشعاره إلى حد التعمق اللغوي البعيد .

(٣) الذيل والتكلمة لابن عبد الملك المراكشي . ٣٧٢/٢/٨ .

(١) راجع حجى ١٥٩/١ .

(٢) النبوغ العربي ٣١٤/١ .



ونمضى فى عصر الموحدىن ونلتقى بمحمد<sup>(١)</sup> بن أحمد بن هشام المشهور باسم ابن هشام اللخمي مستوطن سبته المتوفى سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م وكتابه فى لحن العوام الذى سماه « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » كتاب نفيس ، حققه الدكتور خورسيه بيرث لاثار تحقيقا علميا قيما وطبعه معهد التعاون مع العالم العربى بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية فى مدريد . ومن قوله فى مقدمته : « أول ما يجب على طالب اللغة تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التى حُرِّفَتْها العامة عن موضعها وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب فى ناديتها ومجتمعها » وبدأ الكتاب بمراجعة الزيدى الأندلسى فى كتابه لحن عامة زمانه وتخطئته لها فى ألفاظ للعرب فيها لغتان وبين ما وقع فيه من السهو والغلط ، وذكر بعده أوهام ابن مكى الصقلى فى كتاب تثقيف اللسان . ثم عقد بابا لما جاء فيه عند العرب لغتان أو أكثر ، واستعملت منهما العامة لغة ضعيفة ، وربما عدلت إلى اللحن . وأتبعه باب لما تلحن فيه العامة ولا دليل عليه من لسان العرب وبياب لما جاء لشيئين أو لأشياء فقصره على واحد وبياب لما تمثلت به العامة محرفا فى صيغته عن صيغته الأصلية عند الشعراء . والكتاب فى نحو ٤٣٠ صفحة رجع فيها مؤلفه إلى أبيات شعرية وأراجيز شغلت قوافيها فى فهارسه خمس عشرة صفحة من امرىء القيس إلى الشريف الرضى فى آخر القرن الرابع الهجرى . ولا يشك قارؤه فى أن المؤلف رجع فى هذه الدراسة إلى أمهات الكتب اللغوية ، وقد وضع لها المحقق فهرسا تضمن نحو خمسين كتابا كما وضع فهرسا لمن ذكر فى الكتاب من اللغويين حتى ليبلغون فيه نحو تسعين . ولابن هشام اللخمي بجانب هذا العمل اللغوى القيم كتاب ما وقع فى أبيات كتاب سيويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل ، وله شرح فصيح ثعلب وهو كتاب لغوى ملئ بالألفاظ الغريبة ، وله أيضا شرح مقصورة ابن دريد ، وهما من مراجعه فى كتابه عن لحن العامة . ويلقانا بعده من اللغويين فى عصر الموحدىن أبو ذر مصعب<sup>(٢)</sup> بن محمد بن مسعود الخشنى الجياني الأصل المستوطن لفاس وكان عالما لا يبارى فى اللغة ونحويا أدبيا وكفاه شرفا شرحه لغريب السيرة النبوية العطرة ، وعليه اعتمد كل من نشرها فى العصر الحديث . ومن لغويى هذا العصر محمد<sup>(٣)</sup> بن عيسى بن أصبغ المشهور باسم أبى عبد الله بن المناصف المتوفى بمراكش خطيبا بجامع بنى عبد المؤمن لسنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م وكان فقيها نظارا جانحا إلى الاجتهاد مائلا إلى القول بمذهب الشافعى مناظرا عليه ، وكان حافظا للغات مليئا من الآداب شاعرا مجيدا مرجزا مطبوعا ، وله أرجوزتان لغويتان : « المذهبة فى نظم الصفات من الجلى والشيات » وهى أرجوزة ألفية نظمها بمراكش ، وتلاها بأجوزة ثانية سماها المعقبة لكتاب المذهبة فى الأنعام والظباء وحرر الوحش والنعام وما يتعلق

(١) انظر فى ابن هشام اللخمي التكملة ٢٧٠ وبغية

. ٦٣٦

الوعاء ٤٨/١ .

(٣) انظر فى ابن المناصف ابن عبد الملك المراكشى

. ٣٤٥/٢/٨

(٢) انظر ترجمته فى التكملة : ٧٠٠ وجذوة الإقباس

بها . ومن لغوي عصر الموحدين يوسف<sup>(١)</sup> بن موسى الهواري المتوفى بمراكش سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وفيه يقول ابن عبد الملك إنه كان ماهرا في علوم اللسان أدبا ولغة ونحوا ويذكر له أبياتا في ترتيب حروف معجم العين للخليل وأبياتا أخرى في ترتيب حروف الصحاح للجوهري .

ونمضى إلى العصر المريني وملتقى بالشاعر مالك<sup>(٢)</sup> بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ونظمه لغريب القرآن الكريم ولفصيح ثعلب ، ولا تلبث أن نلتقى بأبي القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسن المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وله شرح على مقصورة حازم القرطاجني سماه : « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » وهو منشور ، وملتقى بأبي زيد المكودي الفاسي المتوفى سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤ م وله البسط والتعريف في علم التصريف ونظم العرب من الألفاظ وشرح كتاب المقصور والمدود لابن مالك . وأخذت منذ العصر المريني تؤلف كتب مختلفة في غريب الحديث مثل « تحفة الناظر في غريب الحديث » للرعييني الفاسي ، ومثل شرح غريب الموطأ لمالك وصحيح البخاري وكتاب الشهاب لابن منصور المغراوي السجلماسي . وتكاثرت الشروح والحواشي في العصر السعدي للقوائد النبوية مثل البردة والهمزية للبوصيري ومقصورة المكودي في المديح النبوي وبعض كتب اللغة مثل الصحاح للجوهري وبعض القوائد المشهورة مثل لامية العرب ولامية العجم وبعض الدواوين وخاصة ديوان المتنبي ، وشُرحت لامية الأفعال لابن مالك والشافية لابن الحاجب . وتظل هذه الاتجاهات في التأليف اللغوي طوال عصر العلويين ، ويؤلف ابن زاكور<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م شرحا على حماسة أبي تمام باسم عنوان النفاسة في شرح الحماسة وشرحا على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم مقياس القوائد في شرح ما خفى من القلائد ، وشرحا على لامية العرب باسم تفريج الكرب بشرح لامية العرب ، ويؤلف محمد بن الطيب الشرقي المتوفى سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م شرحا على كتاب الزهر للسيوطي باسم المسفر عن خبايا الزهر ، وحاشية على القاموس المحيط للفيروزبادي باسم إضاءة الراموس حاشية على القاموس وشرح على لامية الأفعال وضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس وحاشية على درة الغواص للحريري ويعدُّ الأستاذ عبد الله كنون شروحا وحواشي أخرى في اللغة لكثيرين<sup>(٤)</sup> .

وكان النشاط في النحو لا يقل عن النشاط في اللغة إن لم يزد عليه زيادة كبيرة ، وأول نحوي كبير نلتقى به في عصر المرابطين الحسن<sup>(٥)</sup> بن علي بن طريف المتوفى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م

بالجزء الأول ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ .

(٣) انظر النبوغ المغربي ١/٣٢٣ .

(٤) راجع النبوغ المغربي ١/٣١٥ .

(٥) النبوغ المغربي ١/١٠٠ .

(١) راجع في يوسف ابن عبد الملك المراكشي

٤٣٧/٢/٨ .

(٢) انظر في أعمال مالك والشريف الحسن والمكودي

والرعييني والمغراوي النبوغ المغربي في مواضع متفرقة

ظلَّ يدرس النحو طوال عمره بسبته ، وهو أستاذ القاضي عياض وغيره من علمائها في عصر المرابطين ، وولتقى بعده بعلي<sup>(١)</sup> بن محمد الجذامي الملقب الذي سكن سبته واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م وكان يقرئ بها الذكر الحكيم لطلابه ويدرس لهم قواعد العربية ، ومثله أحمد<sup>(٢)</sup> بن الحطيئة الفاسي المتوفى زمن الموحدين سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م إذ كان مقرئاً للذكر الحكيم كما كان نحوياً . ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المقرئين يعدون نحاة ، إذ كانوا يحفظون الصبيان ويقفونهم على حدود العربية كي ينطقوا بآي الذكر الحكيم نطقاً سليماً .

ولا يلبث أن يظهر في المغرب الأقصى نحوي مهم هو عيسى<sup>(٣)</sup> الجزولي المتوفى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م وهو خريج ابن بري العالم النحوي اللغوي المصري المتوفى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فقد حج ومرَّ بالقاهرة وأعجب فيها بمحاضرات ابن بري في النحو وكان يدرس للطلاب كتاب الجمل للزجاجي ويناقش مسائل النحو فيه وقضاياها وانتظم الجزولي بين طلابه ، وسأله عن مسائل نحوية فأجابه عليها ، وأثبت كل ما دار في محاضراته وكل ما أدلى به ابن بري من أفكار أو بعبارة أدق أثبت ما أدلى به في « مقدمة » عاد بها إلى بلده وأخذ يدرسها للطلاب في المغرب والأندلس ، ويعرّف به ابن عبد الملك في الذيل والتكملة بقوله : جالب الكراسة المشهورة في العربية عن أبي محمد بن بري نحويّ الديار المصرية قدم عليه ولازمه ، ومن كلام ابن بري المذكور على الجمل « للزجاجي » كتب ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالبه أبي موسى الجزولي باسم « الجزولية » ، ويقول القفطي إنه كان إذا سئل هل هي من تأليفك أجاب : لا ، لأنها في واقع الأمر من تأليف ابن بري الذي كان يلقيه على طلابه في محاضراته ودروسه ، ويقول القفطي أيضاً : فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة . وفي هذا كله ما يدل على أن المقدمة إنما هي محاضرات لابن بري ، وعلى عادة التلامذة حين يكتبون ما يسمعون من أساتذتهم في المحاضرة ويتركون بعض قطع منها وبعض عبارات حدث ذلك نفسه في المقدمة التي حملها الجزولي عن أستاذه ابن بري ، ولو كان مؤلفاً لها لخلت مما في بعض عباراتها من غموض وما فيها من رموز وإشارات . على أن في ذلك ما يدل بوضوح على أن عيسى الجزولي كان تلميذاً باراً لأستاذه ابن بري ، فرأى أن يحتفظ في المقدمة بنصوص كلامه ولا يضيف إليها شيئاً ، فبدت فيها بوضوح هذه العيوب التي ذكرها القفطي . ومهما يكن فإنها هدية من مصر عن طريق ابن بري للمغرب الأقصى وقد عنى بها وشرحها كثيرون في المغرب والأندلس وفي مقدمتهم الشلويني الأندلسي . وينزل المغرب الأقصى ابن خروف إمام النحو الأندلسي المشهور ، ويترك

(١) انظر ابن عبد الملك المراكشي ٢٨١/٥ . المدارس النحوية ص ٣٠٠ والذيل والتكملة لابن

عبد الملك ٥٤٧/٢/٨ .

(٢) راجعه في إنباه الرواة في طبقات النحاة ٣٩/١ .

(٣) انظر الجزولي في إنباه الرواة ٣٧٨/٢ وكتابنا



فيه تلامذة حملوا عنه كتاب سيبويه وشرحه له ، منهم ابن رحمون عبد الرحمن بن محمد المصمودى ، وكان من عليّة شيوخ سبته ، توفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م ومنهم محمد بن يحيى العبدري الفاسى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م .

ونلتقى فى أوائل عصر المرينيين بمحمد<sup>(١)</sup> بن الحسن الفهرى المعروف بابن المحلى وكلمة المحلى فى المغرب الأقصى تعنى - كما يقول ابن عبد الملك المراكشى - أن أباه كان قوالا يغبى فى المحافل والأسواق . وكان محمد من تلاميذ ابن خروف وله تقييدات على كتاب سيبويه توفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦١ م . وما تلبث فاس أن تخرج إماما نحويا مهما هو ابن آجروم<sup>(٢)</sup> محمد بن محمد بن داود الصنهاجى المتوفى بفاس سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وآجروم كلمة بربرية معناها الفقير الصوفى . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته وشيوخه ، ويقال إنه لقى أبا حيان النحوى الأندلسى بمصر وأخذ عنه فى طريقه إلى الحج . وقد طارت شهرته فى العالم العربى بمتن أو مختصر فى تعليم النحو للناشئة ، ويقال إنه وضعه لابنه أبى عبد الله ، وظلت طويلا الجوامع الكبرى والمدارس تفتح تعليم النحو بهذا المختصر الذى يجمع المعالم الأساسية للنحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكف وكان الأزهر - إلى عهد قريب - يجعله أول ما يدرس لطلابه فى علم النحو لإمامه بقواعد النحو فى ترتيب بديع ، ويقول السيوطى فى ترجمته له بكتابه بغية الوعاة : إنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبّر عن الجر قسيم الرفع والنصب بالخفض ، كما عبّر الكوفيون وقال مثلهم فعل الأمر مجزوم لا مبنى كما يقول البصريون ، وذكر بين الأسماء الجازمة « كيفما » وهى لا تجزم فى رأى البصريين . وأولى من رأى السيوطى أن يقال إنه بغدادى مثل الزجاجى وأبى على الفارسى يختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية ما يراه الأدق والأوفق ، فقد قال مع البصريين إن المنصوب بعد كان خبر لا حال كما يقول الكوفيون ، وقال فى التوابع البدل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون ، وقال المنادى فى مثل يازيد مبنى على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون . ومن طريف تيسيراته للنحو أنه قال إن المضارع بعد كى ولامها ولام الجحود وحتى والفاء والواو منصوب بهذه الأدوات لا بأن مضمرة بعدها ، وبذلك أخذت فى وجوه تيسير النحو التى قدمتها إلى مجمع اللغة العربية وأقرها . ولم يهتم بمتن الأجرومية العالم العربى وحده فقد اهتم بها العالم الغربى أيضا ، فطبعتها المستشرقون مرارا وترجموها إلى لغاتهم : اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وكانت أولى طبعاتها عندهم فى روما سنة ١٥٩٢ للميلاد . ولابن العبدى معاصر ابن آجروم فى قواعد العربية كتاب الكليات النحوية ، وكان ابن<sup>(٢)</sup> هانىء اللخمي السبتي معاصرها المتوفى سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م من أئمة العربية ، وكان يدرس النحو للطلاب ، ومن

(٢) انظره فى النبوغ المغربى ١/٢٢٠ .

(١) الذيل والتكملة ٨/٢/٥٢٠ .

مؤلفاته النحوية شرح كتاب التسهيل لابن مالك . ولأبي القاسم الشريف الحسنى السبتي المار ذكره بين اللغويين شرح أيضا على التسهيل ، وكان يدرس لطلابه ألفية ابن مالك .

ومن كبار النحاة فى عصر السعديين أحمد<sup>(١)</sup> بن قاسم القدومى المتوفى سنة ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م أستاذ الخليفة المنصور الذهبى السعدى ووصف بأنه نحوى زمانه غير مدافع وقال ابن القاضى إليه انتهت رياسة النحو فى عصره ، وله حاشية على شرح الألفية للمرادى فى أربعة أجزاء . ومن أهم النحاة بعده قاسم<sup>(٢)</sup> بن محمد بن القاضى المكناسى المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م وله شرح على ألفية ابن مالك انتفع به طلبته وشرح آخر على الأجرومية انتفعوا أيضا به ، وله أبيات فى الأفعال التى على حرف واحد يعلمها طلابه ، منها قوله فى الفعلين : قى وعى<sup>(٣)</sup> :

إني أقول لمن تزجى وقايتُهُ      قِ المستجيرَ قياهُ قوه قى قينا  
وإن هم لم يعوا قولى أقول لهم      ع القول ويك عياه عوه عى عينا

ويكثر النحاة فى العصر العلوى ، ومنهم ابن الطيب الشرقى المار ذكره فى اللغويين ، وله شرح<sup>(٤)</sup> الكافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك وحاشية على التسهيل لابن مالك ، وحاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وحاشية على المغنى لابن هشام ، وشرح الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى ، وعنى بشرح كثير من الشواهد مثل شواهد الكشاف للزمخشري وشواهد البيضاوى المفسر وشواهد التوضيح لابن هشام وشواهد التلخيص للقرظوبى ، ويفيض الأستاذ عبدالله كنون فى ذكر كتب النحو المؤلفة والشروح والحواشى ومؤلفيها فى العصر بجانب ما ذكره من أعمال ابن الطيب الشرقى ، مما يدل على اتصال النشاط فى الدراسات النحوية بالمغرب الأقصى طوال الأزمنة الماضية .

وكان الدارسون للنحو فى كل تلك الأزمنة يعرضون - أو يعرض كثير منهم - على طلابهم عروض الشعر العربى كى يحسنوا النطق به إذا أنشدوه ، ولكى يعرفوا بدقة موازينه وقواعدها إذا أرادوا صنع شىء منه أو نظمه ، وأول ما نلتقى به من كتب هذا العلم كتاب فى عصر الموحدىين لأبى ذر مصعب الخشنى الذى مر ذكره فى أول الحديث عن اللغويين . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بمالك بن المرهل الذى مر ذكره فى الحديث عن اللغويين ، وله أرجوزه

(١) الخليفة المنصور لابن القاضى ( طبع الرباط ) ص ٧٩٠ .

(٢) المتقى ص ٧٩١ .

(٤) راجع التبوغ المغربى فى مؤلفات ابن الطيب الشرقى

وغيرها من مؤلفات العصر .

(١) انظر فى القدومى درة المجال ١٥٦/١ رروضة  
الأس للمقرى ص ٣٤ .

(٢) راجع فى قاسم بن محمد روضة الأس ص ٢٢٥  
والصفوة لليفرنى ص ٩٥ والمتقى المقصور على مآثر



في علم العروض ورسالتان<sup>(١)</sup> في وزن الرباعيات وهما تعرضان وزنين للرباعيات أو الدوبيت كما سماها الإيرانيون ومعنى دو عندهم اثنان ، والوزن الأول فعلن متفاعلن فعولن فعْلن والوزن الثاني فعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن . وكان ضياء الدين الخزرجي قد ألف متنا أو منظومة في هذا العلم فشرحها أبو القاسم الشريف المار بين اللغويين وسمى شرحه باسم رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجي ، وهو أول من شرحها شرحا وافيا . ولابن رشيد محمد بن عمر الفهرى السبتي الرحالة المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م كتاب في القوافي سماه : وصل القوادم بالخوافي في ذكر أسماء القوافي ، وكتاب ثان سماه باسم كتاب في العروض . ويذكر الدكتور حجي للعصر السعدي كتابين<sup>(٢)</sup> في علم العروض : كتابا لابن غازي باسم « إمداد بحر القصيد ببحر أهل التوليد » ويقصد بأهل التوليد المولدين من الشعراء ، وبيحريهما أو بوزنيهما بحر أو وزن المتدارك ، وهو وزن محدث في العصر العباسي ، وبحر أو وزن الدوبيت أو بعبارة أخرى الرباعية ووزنها أيضا محدث . وقد ذكرت في العصر العباسي الأول أنها بدأت مع بشار وأنها كثرت عند أبي نواس وأبي العتاهية وضربت لها بعض الأمثلة ومنذ القرن الخامس الهجري يتخذ لها وزنان كما أسلفنا ويُن ذلك غاية التبيين مالك بن المرحل في الرسالتين اللتين ذكرناهما آنفا . والكتاب الثاني الذي ذكره الدكتور حجي كتاب كافية النهوض في صناعة العروض لعبد العزيز الرُّسْموكي . وتلتقى في العصر العلوي بمحمد بن زاكور المذكور بين اللغويين ، وله شرح على منظومة الخزرجية باسم : « النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية » كما تلتقى بمحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م وله مقصورة في العروض والقوافي .

وظل المغرب الأقصى يتدارس ما أنتجه المشرق في علوم البلاغة والبديع من أعمال قيمة عند أمثال ابن المعتز وقدامة وابن وهب والحاتمي والآمدى والعسكري والباقلاني وابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي وابن أبي الإصبع ، مضيفين إلى ذلك مدارس بعض أعمال مغربية وخاصة كتاب العمدة لابن رشيق ، وقد يتناولون أعمالا سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشيد بشرحه لكتاب في التجنيس أو الجناس . ولم يلبث المغرب الأقصى أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع علمين فذنين ، هما ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م العالم الرياضي البارِع الذي لا تزال كتبه أو بعضها تدرس إلى اليوم في المغرب الأقصى المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م ، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصاري السجلماسي ، ولا نعرف شيئا

(١) مجلة المورد بغداد .

(٢) انظر الحركة الفكرية ١٥١/١ .

(١) انظر تعريفا بالرسالتين في الجزء الخاص بالعراق في المجلد الخامس من تاريخ الأدب العربي ص ٣٢٨ وهما منشورتان في العدد الرابع من المجلد الثالث من

عن تاريخ مولده ووفاته سوى أنه أملى كتابه في البديع أو أنهى تأليفه سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م مما يؤكد أنه كان معاصراً لابن البناء .

ومر ذكر ابن البناء في حديثنا عن علوم الأوائل ، وقلنا هناك إنه بلغ الغاية في مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وفي العلوم الفلسفية ولاسيما في الرياضيات والفلك . وعلى نحو ضبطه لقوانين الرياضة ضبط قواعد النحو في كتاب سماه الكليات النحوية ، وأكبر الظن أنه وزع قواعد النحو فيه على كليات عامة تستقصى كل كلية مجموعة من قواعده . وبالمثل صنع بالبديع في كتابه : « الروض<sup>(١)</sup> المريع في صناعة البديع » والمريع أى الخصب وكلمة البديع عنده تعنى بالضبط ما عناه بها ابن المعتز في كتابه « البديع » إذ ساق فيه الصور البيانية من تشبيه وغير تشبيه والألوان البديعية من طباق وغير طباق والأصباح البلاغية في علم المعاني ، إذ ذكر بين محسنات الكلام الالتفات ورد الأعجاز على الصدور وتجاهل العارف وتأکید المدح بما يشبه الذم والعكس والخروج من معنى إلى معنى ويشمل الاستطراد . وبذلك تضمن كتاب ابن المعتز علوم البلاغة جميعا وكان الزمخشري أول من ميز بين علمي البيان والمعاني كما جاء في مقدمة تفسيره : « الكشاف » وجعل علم البديع ذيلا لهما كما يقول السيد الجرجاني في شرحه لكتاب المفتاح للسكاكي . وبهذا التصور كتب السكاكي وتوالت بعده الكتب البلاغية تجمع بين هذه العلوم لثلاثة : البيان والمعاني والبديع ، غير أن بعض علماء البلاغة رأى أن يعود إلى التعبير بكلمة البديع عن كل هذه العلوم على نحو ما يلاحظ عند ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م في كتابه « بديع القرآن » . فكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء - تعنى علوم البلاغة من بيان ومعان وبديع ، وقد بلغ تعداد محاسنها وقواعدها عند ابن أبي الإصبع في كتابه : « بديع القرآن » مائة قاعدة ونيفا ، وبلغت في كتاب ثان له باسم : « تحرير التجبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » مائة وخمسا وعشرين قاعدة . وكأما رأى ابن البناء بعقله المنطقي أن يسر تصورهما على الدارسين بوضع كل مجموعة من القواعد الجزئية الكثيرة عند البلاغيين في قاعدة كلية تجمعها أو قل تجمع ما رآه حريا ببيانه وتوضيحه ، وهو يقدم لكتابه بتوطئة - أو كما نقول الآن بتمهيد - يتحدث فيها عن تأليفه للكتاب وغرضه منه قائلا : « غرضي أن أقرر في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع [فيها] تعريفا غير مخل ، وتأليفا غير ممل ، يصغر جرمه ويكثر علمه .. ومنفعته في زيادة المنة ، وفهم الكتاب والسنة » ويريد بزيادة المنة زيادة القدرة على فهم البلاغة القرآنية والنبوية وتلى ذلك ثلاثة أبواب : والباب الأول مقدمات في الدلالة والكلام والبديع وهو في ثلاثة فصول أولها يتناول الدلالة وارتباطها باللفظ والمعنى في أقسامها ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ رضوان بنشقرن في الدار البيضاء بالمغرب الأقصى .

والفصل الثاني فى أقسام الكلام من حيث الصياغة إلى منظوم ومشور ومن حيث المخاطبات إلى برهان وجدل وخطابة وشعر ومغالطة ، ومن حيث الواقع إلى حقيقة ومجاز ، ومن حيث مواجهة المعنى للغرض إلى القواعد الكلية الأربع التى سيعرض لها فى الباب الثانى ، ومن حيث دلالة على المعنى إلى القواعد الكلية الثلاث التى يذكرها فى الباب الثانى . والفصل الثالث فى صناعة البديع ، وفيه يذكر أن البلاغة قد تكون فى الإيجاز أو فى المساواة أو فى التطويل ، أما الفصاحة فصفة للفظ وسهولة مخارجه وعدوته فى السمع ، والصناعة المتكفلة بذلك هى صناعة البديع التى تعرض القوانين الكلية وما يندرج تحتها من الجزئيات . ويحاول أن يصل بين البديع وبين البلاغة والبيان . وفى الباب الثانى يتحدث عن أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى ، ويجعله فى أربعة فصول أو أربع كليات عامة الفصل الأول أو الكلية الأولى فى الخروج من شىء إلى شىء وتشمل ما يسمى بالتخلص من موضوع إلى موضوع كما تشمل الإدماج وهو أن يدمج المتكلم غرضاً فى غرض والتفريع والاستطراد والخروج من إثبات شىء إلى نفيه أو العكس والاعتراض والالتفات . والفصل الثانى أو الكلية الثانية تشبیه شىء بشىء ، وتشمل صور التشبيه التشابه فى النسب ويدخل فيها مراعاة النظير والمقابلة والطباق . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة تبديل شىء بشىء وتشمل الاستعارة والتمثيل وتبادل الكلى مع الجزئى والعكس وتبادل الحقيقة مع المجاز والواجب مع الممكن وإبدال المدح بصورة الذم والعكس والخبر مع الطلب والعكس وما كان مع ما يكون والعكس . ويفسح لمسألة لغوية هى وصف المؤنث بصيغة المذكر والعكس مثل امرأة صبور ورجل علامة . والفصل الرابع أو الكلية الرابعة تفصيل شىء بشىء ويدخل فيه التقسيم والتشكيك والتضمين أو الإيحاء ثم الاتساع بدلالة البيت دلالات مختلفة ، والتوضيح ، وهو مصطلح غير واضح فى التعبير عن مراده ، وهو عند الرماني حسن البيان . والباب الثالث أقسام اللفظ من جهة الدلالة على المعنى وهو فى ثلاثة فصول ، الفصل الأول أو الكلية الأولى عن الإيجاز وأدخل فيه الحذف اللغوى كحذف العائد والمضاف والصفة والموصوف . والفصل الثانى أو الكلية الثانية عن الإكثار ومنه الاستظهار وهو استغناء القول عن تكملته ومجىء الصفات أو النعوت للتخصيص بعد النكرات وللتعيين بعد المعارف ، ومنه التذييل والتميم أو التكميل والتسوير وهو التعميم بعد التخصيص أو العكس ، ومنه الترادف . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة التكرير ومنه قبيح ومفيد ، ويكون للتقرير أو للتأكيد أو للمقايضة أو للتصدير أو للترديد ، ومنه المشترك اللغوى والبياني ، ومنه التجنيس وفرعه نحو اثني عشر فرعاً . وإنما أطلت فى عرض هذا الكتاب لأدل بوضوح على أن ابن البناء استطاع أن يخضع البديع أو البلاغة للمنطق ، وإن جعل لها سبع كليات تضمنت أبواب علم البديع أو علوم البلاغة كما كان يتصورها عصره منذ ابن أبى الإصبع مع إضافة بعض مسائل لغوية وأظهر فى ذلك ذكاء وبراعة فائقين وقد حقق الكتاب تحقيقاً سديداً وقدم له بدراسة



قيمة الأستاذ رضوان بنشقرون رادًا كثيرا من مسائله إلى كتب المشاركة البلاغية والعمدة لابن رشق .

وعلى ضوء هذا الكتاب وإخضاع علم البديع فيه للمنطق مع إدخال بعض المسائل اللغوية على المصطلحات البديعية ألف معاصرا لابن البناء هو أبو محمد القاسم السجلماسى كتابه : « المنزوع البديع فى تجنيس أساليب البديع<sup>(١)</sup> وكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء وابن أمي الإصبع وابن المعتز - تشمل كل صور البيان وألوان البديع ومحسنات المعانى ووجوهها البلاغية المختلفة ، وواضح من اسم الكتاب أنه أراد أن يجارى ابن البناء فى وضع جنس كل لى لمجموعة من قواعد البديع الجزئية الكثيرة ، ورأى أن يخالفه فى الأجناس التى جعلها كليات وعنوانا للفصول السبعة فى البابين الثانى والثالث فى كتابه ، وهى عنده عشرة هى : الإيجاز - التخيل - الإشارة - المبالغة - الرصف - المظاهرة - التوضيح - الاتساع - الأثناء - التكرير . وهو يلتقى مع ابن البناء فى الإيجاز ويدخل فيه الحذف اللغوى مثله ، غير أن ابن البناء يستنبط منه أربع صيغ بلاغية بينما يستنبط السجلماسى أكثر من عشر صيغ بلاغية ، وتقسم فى أثناء ذلك الصيغ تقسيمات كثيرة ، إذ ينقسم الجنس إلى فروع والفرع ينقسم إلى فريعات أو غصون ، والغصون تنقسم إلى غصينات دون أن تميز هذه الأقسام المتولدة والمتنوعة بأسماء تعينها ، فمثلا عنده المفاضلة ويعنى بها النقص عن المضمون فى الكلم : نوع من الإيجاز ، وهى نوعان وكأنها جنس متوسط ، والنوع الأول من نوعها الاختزال ، والاختزال بدوره نوعان: اصطلام أى قطع وطر ، وحذف وهو بدوره نوعان : إطلاق وانتهاك ، والانتهاك أنواع . وهى صعوبة واضحة فى الكتاب ، غير أن فيه ذكاء بارعا وقدرة منطقية إلى أقصى حد ممكن . وترك جنس الإيجاز إلى جنس التخيل وما يتصل به من التشبيه والاستعارة والمجاز وهو يقابل عنده الفصل الأول من الباب الثانى عند ابن البناء الخاص بكلية التشبيه ، والتعبير بالتخيل أدق غير أنه لم يضع فيه الكناية ، إذ عقد لها الجنس الثالث فى كتابه ، ولكن لا باسمها وإنما باسم الإشارة ، والبلاغيون قبله يدخلون فى أنواعها كل ما سماه من أنواعها وفروعها ما عدا حذف الحروف من الكلمة المذكور فى آخر جنسها أو حذف بعض الجمل ويسمونه باسم الاكتفاء . والجنس الرابع عنده المبالغة ، وأحسن حين جعل لها جنسا خاصا وقد بدأها بالصيغ اللغوية المستعملة فى المبالغة مثل حَسَّان - طُوال - رَحْمَن - شَرِّير غير أنه استكثر من أنواعها حتى بلغت نحو المائة واستغرقت اللغة - فيما بعد صفحات كثيرة كما فى ٣٠٦ إلى ٣٠٨ وأيضا فإنه أدخل فيها كثيرا من صيغ المجاز المرسل كتسمية السبب باسم المسبب وعكسه وتسمية الشىء بأولاه وبعقباه . والجنس الخامس الرصف ويعنى به نسق الكلام وترتيبه ، ويدخل فيه التسهيم ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ علال الغازى فى مكتبة المعارف بالرباط .

وهو أن يشهد أول الكلام بآخره كما يدخل فيه التقسيم والمقابلة والالتفات أو مراجعة المعنى الماضى . والجنس السادس المظاهرة ويدخل فيها المطابقة وهى الجناس باللفظ المماثل ، والمكافأة وهى الطباق وتشمل المقابلة ، كما تدخل المقايضة فى مثل قوله عز وجل : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾ ويسميه ابن أبى الإصبع فى كتابه بديع القرآن : « العكس والتبديل » وتدخل المزاوجة وهى بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع ( ص ٢٨ من بديع القرآن ) كما يدخل التصدير وهو رد الأعجاز على الصدور عند ابن أبى الإصبع فى كتابه تحرير التحبير ص ١١٦ ، ويقول إن المتأخرين سموه التصدير ، ويدخل الترديد وهو بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع ( ص ٩٦ من بديع القرآن ) . والجنس السابع التوضيح ، وكان ينبغى أن يسميه حسن التوضيح لأن التوضيح من حيث هو لا يعد بديعا ، ولذلك سماه الرماني حسن البيان وفى رأى أن السجلماسى تابع فى ذلك ابن البناء غير أنه تحدث عنه كتوع فى الفصل الرابع أوالكلية الرابعة الخاصة بتفصيل شىء بشىء وجعل منه التفسير كما صنع السجلماسى ، وكان حريا به أن يجعله فرعا لأحد الأجناس كجنس الرصف . والجنس الثامن الاتساع وهو أن يحتمل القول أو البيت معنيين أو أكثر ، وذكره ابن أبى الإصبع ( ص ١٧٣ من بديع القرآن ) كما ذكره ابن البناء فى الفصل الرابع أو الكلية الرابعة من الباب الثانى فى كتابه ، ولم يتسع السجلماسى بالحديث فيه ، وكان حريا أن لا يعقد له جنسا مستقلا . والجنس التاسع الاثناء ، وهو بأنواعه الأصلية والفرعية يقابل الفصل الأول أو الكلية الأولى من الباب الثانى عند ابن البناء وهى الخروج من شىء إلى شىء . وربما كانت تسمية الكلية على هذا النحو أدق من تسمية الجنس عند السجلماسى .

والجنس العاشر التكرير وهو نفس الكلية الأخيرة عند ابن البناء ، والتجنيس مفرع عنده إلى نفس فروعه عند ابن البناء ، وهما يلتقيان فيها مع ابن أبى الإصبع ( ص ٢٧ من بديع القرآن ) وص ١٠٢ من تحرير التحبير ) . ومواضع الالتقاء بين ابن أبى الإصبع والسجلماسى كثيرة ، وبيانها يحتاج إلى مقابلات وتفصيلات لاتسعها هذه الدراسة . وإنما ذهبت إلى أن ابن البناء هو الذى ألف كتابه أولا ثم ألف السجلماسى كتابه لأنه أخذ منه فكرة الجنس الكلى للقواعد البديعية ، وفكرة إدخال مسائل لغوية كثيرة فى دراسة البديع ، مع الاشتراك فى أسماء بعض الأجناس والكليات والمصطلحات وفى كثير من التعريفات والأمثلة والشواهد ، وكأن ابن البناء هو الذى بدأ فكرة الكليات التى صدر عنها فى كتابه الكليات النحوية وفى هذا الكتاب الخاص بالبديع . والسجلماسى هو الذى انتهى بها إلى الغاية - على هدى علم المنطق - إذ استحالت فكرة الكلية عنده إلى فكرة الجنس وأنواعه ، ومضى فى الكتاب يطبق المنطق بقضاياها ومقولاته وأقيسته ولا يخفى ذلك بل يصرح به مرارا ، حتى لينقل كلامه بنصه مرارا ( انظر الفهرس ) وما لاريب فيه أن السجلماسى حاول جاهدا أن يمنطق البديع ، وتم له ذلك ، غير أنه توسع

فى التفريعات على نحو ما يتضح فى تفريعاته على الإيجاز والمبالغة والمظاهرة والتكرير ، ولعل ذلك كان أهم سبب فى أن الكتاب لم يكتب له ولا منهجه الذبوع والانتشار فى حلقات دراسة البلاغة والبديع فى البيئات العربية حتى فى بيئة المغرب الأقصى نفسها مع أن فيه أمثلة وشواهد بديعية رائعة تشهد للسجلماسى بحسن ذوقه ورهافة حسه البديعى أو البلاغى . وقد بذل الأستاذ علال الغازى جهدا واضحا فى تحقيقه لهذا الكتاب ودراسته وما صنع له من فهارس مختلفة .

ونعجب أن ينصرف المغرب الأقصى - بعد السجلماسى - عن الإكباب على كتابه بالدرس والشرح وأن يعنى - مثل مصر والشام - بدراسة كتاب التلخيص للقزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٨٩ م ولعلى الياصلاتى فى العصر السعدى حاشية على شرح السعد لتلخيص القزوينى وهو تلخيص لعلوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، ولحمدون بن الحاج فى العصر العلوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م حاشية على الشرح المختصر لسعد الدين التفتازانى لتلخيص القزوينى . ومن يرجع إلى الفصل الذى عقده حاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » لتلخيص القزوينى يشعر أنه أصبح المسيطر على كل الأبحاث البلاغية فى العالم العربى ، وقد أقبل عليه الشراح يشرحونه يشرحه المغربى والمصرى والعراقى وغيرهم وقد يضعون على الشروح شروحا ، ويسمونها حواشى ، بحيث أصبح هو وتلك الشروح والحواشى المادة الأساسية لتعليم البلاغة بفروعها المختلفة من بيان ومعان وبديع فى جميع الأقطار والبلدان العربية .

#### ٤

### علوم<sup>(١)</sup> القراءات والتفسير والحديث والفقہ والكلام

يعنى المغرب الأقصى - من قديم - بقراءات القرآن الكريم ، ومن أهم قرائه - قبل عصر المرابطين - أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى ، أخذ القراءات عن أئمتها فى القيروان ومصر ومكة وبغداد ، وأقرأ الناس بالقيروان مدة . وكان يعاصره سليمان بن أحمد الطنجى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م رحل إلى مصر وبرع فى القراءات كما يقول ابن الجزرى . ونزل سبته

النبوغ المغربى لعبد الله كنون وحضارة الموحدين لمحمد المنونى ومظاهر الثقافة المغربية فى الأدب المغربى بالعصر المرينى لمحمد بن شقرون والحركة الفكرية بالمغرب لمحمد حجى والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة المغربية للأخضر .

(١) انظر فى تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين طبقات القراء لابن الجزرى والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والدياج لابن فرحون والمتقى المتصور على مآثر الخليفة المنصور السعدى وما وضع محققه فى هوامشه من مصادر لبعض الأعلام وكتاب



قبل عصر المرابطين على بن عبد الغنى الحصرى المتوفى بطنجة سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م وله قصيدة رائية مشهورة فى قراءة نافع . وملتقى فى عصر المرابطين بالمقرئين : مروان بن سمجون المتوفى سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م ولى الصلاة والخطبة بسبته وتصدر قديما لإقراء القرآن وكان - كما يقول ابن الجزرى - مقرئا مجودا لغويا ، وعلى بن محمد الجذامى نزىل سبته المتوفى سنة ٥٣٠ هـ أقرأ بها القرآن ودرّس العربية زمانا ، وأبو بكر محمد الفلّقى نزىل فاس المتوفى بها سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م وكان إماما فى صناعة الإقراء ، وله كتاب فى القراءات سماه : الإيماء . ومن القراء فى عصر الموحدين على بن محمد بن هذيل المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م وإليه انتهت رئاسة الإقراء فى شرقى الأندلس ، وعلى بن أحمد الكنانى المستوطن لفاس المتوفى بها سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م التزم الإمامة بمسجده فى فاس والإقراء فيه ستا وستين سنة ، وابن خير محمد المتوفى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م وهو من أئمة المقرئين والمحدثين ، ولد ونشأ بفاس واستوطن إشبيلية ، وله فهرسة مشهورة ومنشورة بشيوخه وما اطلع عليه من كتب ، وكانت له أسانيد فى القراءات متواترها وشاذها فى مجلد خاص . ومن القراء فى هذا العصر عبد الرحمن الجذامى المتوفى سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م تصدّر للإقراء بسبته فى مسجد زقاق الخشالين نحو من ستين سنة ، وابن الصقر محمد بن أحمد الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م وكان مقرئا مجودا محدثا متسع السماع ، ويحى بن محمد الهوزنى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م تصدّر للإقراء بسبته وله أرجوزة فى غريب القرآن ، وعلى بن محمد بن يوسف الفهمى المتوفى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م سكن سلا ثم مراكش وكان قائما على القراءات آية من آيات الله - كما يقول المراكشى - فى حسن الصوت ضريرا وسمعه المنصور يعقوب صاحب موقعة الأرك فأخذ بلبه طيب نعمته ، فقربه واستخلصه لتعليم أبنائه وبناته ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الفاسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ويقول ابن الجزرى إن له شرحا على الشاطبية .

ومن القراء فى عصر المرينيين ابن رشيد صاحب الرحلة المشهورة المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م بمراكش وكان يروى قصيدة حرز الأمانى المعروفة باسم الشاطبية . وابن آجروم معاصره المار ذكره بين النحاة وله شرح على الشاطبية ، وابن برى التازى على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م وله منظومة فى قراءة نافع أحد القراء السبعة سماها الدرر اللوامع . وابن هانىء محمد بن على اللخمى السبتي المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م وكان أستاذا فى القراءات والنحو ، وأبو القاسم بن عمران الحضرمى السبتي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م وله كتاب الكافى فى القراءات ، ومحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز المتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٦ م صاحب كتاب مورد الظمان فى حكم رسم أحرف القرآن أتى فيه بزوائد على سابقه ، وله شرح على قصيدة الحصرى فى القراءات . ومن القراء فى عصر السعديين محمد بن أبى جمعة الهبلى الصماتى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م مؤلف

كتاب وقف القرآن ذكر فيه الكلمات القرآنية التي يوقف عليها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، ولا يزال العمل جاريا في المغرب الأقصى إلى الآن في كتابة المصاحف على ما وضعه ودوَّنه في هذا الكتاب . ولأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ هـ / ١٦٠٧ م إتقان الصنعة في قراءة السبعة ، ولعبد الواحد بن عاشر أستاذ القراءات المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م شرح على مورد الظمان في حكم رسم أحرف القرآن للخراز . ومن القراء في عصر العلويين عبد الرحمن بن القاضي المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م وله منظومة في القراءات السبع ، ومنظومة ثانية في رسم المكى في القرآن ، وكتاب في قراءة ابن كثير عالم أم القرى ( مكة ) وكتاب بيان الخلاف والشهير والاستحسان وما أغفله مورد الظمان لابن الخراز . وعبد الرحمن المنجرة الصغير المتوفى سنة ١١٧٩ هـ / ١٧٦٦ م وله حاشية على شرح التونسي المسمى الطراز في شرح ضبط الخراز في رسم أحرف القرآن ، وله أيضا حاشية على شرح عبد الواحد بن عاشر المسمى فتح المنان على مورد الظمان للخراز ، ولمحمد بن عبد السلام الفاسي حاشية على شرح الجعبري على الشاطبية المسماة حرز الأمانى ، وله كتاب في تجويد القرآن ، وكتاب ثان في طبقات المقرئين وكتاب ثالث في مخارج الحروف .

وظل المغرب الأقصى يعتمد في تفسير القرآن الكريم على ما ألفه المشرق فيه من كتب حتى إذا كنا في عصر المرابطين أخذ يظهر فيه بعض المفسرين مثل أبي بكر السبتي محمد بن يعلى المعافري خال القاضي عياض ، وله تفسير لم يتم . وينشط غير عالم مغربي لتفسير الذكر الحكيم في عصر الموحدنين مثل عبد الجليل القصرى من أهل مدينة القصر الكبير المتوفى بسبته سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وله تفسير للقرآن كان يقع - فيما يقال - في ستين مجلدا ، وابن مصالة الفازازى المكناسى المستوطن بأخرة « فاس » المتوفى بعد سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م وكان طوال حياته معنيا بتفسير القرآن ، وأبى الحسن بن الحصار على بن محمد الأنصارى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م سكن سبته ومراكش وغيرها وله الناسخ والمنسوخ في القرآن ثلاث نسخ : الأكبر والأوسط والأصغر ومقالة في إعجاز القرآن وأنشد له ابن عبد الملك المراكشى قصيدة رائية في اثنين وعشرين بيتا نظمها في المدنى والمكى من سور القرآن ، ومحمد بن يوسف المزدغى المتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٨ م أقرأ بسبته وفاس وولى الخطبة والصلاة بجامع القرويين فيها إلى وفاته ، وله تفسير حفيلى مفيد انتهى فيه إلى سورة الفتح . ومن المفسرين في عصر الدولة المرينية أحمد بن فرتون السلمى الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م وهو تلميذ ابن مصالة المار ذكره وله كتاب الاستدراك والإتمام بما فى كتاب السهيلي : التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن العزيز من الأسماء والأعلام ، ومحمد بن على بن العابد الأنصارى الفاسى نزيل غرناطة وبها كتب لابن الأحمر ، وله اختصار الكشاف للزمخشري مع تجريده من آرائه الاعتزالية توفى سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م ولابن البناء المار ذكره



فى الرىاضىن والبلاغىن الباء فى البسملة ، وتفسىر الاسم فىها ، وتفسىر سورة الكوثر ، وتفسىر سورة العصر ومتشابه اللفظ فى القرآن ، وتسمىة الحروف وخصىة وجودها فى أوائل السور ، وحاشىة على الكشاف للزمخشرى . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بأبى القاسم السلوى وله تفسىر للقرآن الكرىم .

ومن المفسرىن فى العصر السعدى ابن الحاج الشطىبى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٣ م وله اللباب فى مشكلات الكتاب ، وللمنصور الذهبى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٦ م حاشىة على الكشاف للزمخشرى وبالمثل لمحمد بن عبد الله الرجراجى قاضى تادلة تلمىذ أبى العباس المنجور ، ومن مفسرى العصر عبد الله بن طاهر الشرفى المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وله الدر الأزهر فى مناسبات الآيات والسور ، وعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وله حاشىة على تفسىر الجلالىن ، وعلى بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى ، وله تفسىر للقرآن الكرىم ، وتوفى سنة ١٠٥٤ هـ/١٦٤٥ م .

ومن المفسرىن فى عصر العلوىن إدرىس العراقى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله حاشىة على تفسىر الثعلبى ، وابن عجبىة المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م وله البحر الملىد فى تفسىر القرآن المجدى ، وكان يعاصره الطىب ابن كىران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م وله تفسىر سورة الفاتحة ، وتفسىر جزء من سورة البقرة ، وتفسىر من سورة النساء إلى سورة غافر . وكان يعاصرها حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله تفسىر بعض سور القرآن الكرىم وحاشىة على تفسىر أبى السعود وحاشىة أخرى على تفسىر البىضاوى ، ولعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م حاشىة على تفسىر الجلالىن .

وینشط المغرب الأقصى فى روىة الحدیث النبوى ویشتهر فىها بالقرن الرابع الهجرى أبو محمد الأصىلى عبد الله بن إبراهىم المتوفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م وهو منسوب إلى مدىنة أصىلا على المىط الأطلسى وبها نشأ وارتحل فى طلب الحدیث إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق فلقى شىوخ القىروان ومصر وحج فلقى بمكة سنة ٣٥٣ أبأ زىد المروزى وحمل عنه البخارى ، وكان يعد من كبار رواته ، ولقى بها الأبهرى رىس المالکىة ، وروى كل منهما عن صاحبه كما لقى الدارقطنى المحدث الكبرى ، وروى كل منهما أيضا عن صاحبه ، وسمع منه البخارى ، ثم سمعه من أبى أحمد الجرجانى ، وعاد یحمل نسخة وثیقة صحیحة من البخارى أدق صحة ، ونزل الأندلس وأمه العلماء والطلاب من كل بلد ، یحملون عنه صحیح البخارى ، ویدل بوضوح على مدى صحتها أن الیونىنى الدمشقى فى القرن السابع الهجرى حین أخرج نسخة من صحیح البخارى صحیحة كل الصحة جلب أصل الأصىلى ، وكان أحد أربعة أصول

اعتمد عليها في المقابلة واتخذ حرف ( ص ) رمزاً له طوال مقابلاته على نحو ما يتضح في طبعة مصر لصحيح البخارى منذ القرن الماضى .

ونلتقى بعده ببيكار بن برهون بن عيسى الغرديس السجلماسى ، وكان قد حجّ ولقى بمكة أبانر الطروى وسمع منه صحيح البخارى ، وعاد إلى المغرب يملئ رواية البخارى عنه . ورواية أبى ذر كانت أحد الأصول الأربعة التى اعتمدها اليونينى فى مقابلاته لإخراج نسخته من صحيح البخارى على أدق صورة علمية ممكنة ، وتسامع العلماء والطلاب فى المغرب الأقصى بروايته ، فرحل إليه كثيرون من المغاربة والأندلسيين يأخذونها عنه وبذلك حظيت المغرب من قديم بروايتين أصيلتين من روايات صحيح البخارى ، وكان ابن الغرديس لا يزال على قيد الحياة سنة ٤٨٦ هـ مما يجعله أول محدث كبير يلقانا فى عصر المرابطين . ومن تلامذته يوسف بن عيسى بن الملجوم المتوفى سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م وقد أجاز له سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م وحضر ابن الملجوم مع يوسف بن تاشفين موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وكان ابنه عيسى محدثاً على مثاله ، وسمع منه ومن شيوخ عصره ورحل إلى سجلماسة . وسمع ابن الغرديس وأخذ عنه . وتُهدى سبته فى عصر المرابطين القاضى عياض إلى علوم الحديث وروايته وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م وبذلك يكون قد لحق عصر الموحدين إذ عاش فى عصرهم بقية قليلة نحو خمس سنوات ، ومولده بسبته سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م وله فى الحديث النبوى كتب مختلفة ، منها كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، وشرق هذا الكتاب وغرب ، وكُتبت له شروح كثيرة ، ومنها إكمال المعلم بصحيح مسلم ، والمعلم لشيخه المازرى الصقلى المتوفى بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وقد أضاف إلى شرحه لمسلم زيادات وإضافات ، ومنها مشارق الأنوار فى تفسير غريب الحديث بكتبه الصحاح الثلاثة : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، ويشمل ضبط ألفاظها وتفسيرها مع التنبه على مواضع الأوهام والتصحيقات .

ومضت رواية الحديث النبوى والتأليف فيه يزدهران فى عصر الموحدين ، إذ كان خلفاؤهم يعنون به بل كان منهم من يكثر من مدارسته ، حتى نُسب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين : صحيح البخارى أو صحيح مسلم كما يقول صاحب المعجب ، وكان ابنه يعقوب على غراره ، ونال عنده طلبه الحديث ما لم ينالوه فى أيام أبيه وجده كما يقول صاحب المعجب . ويقول ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس عن ابنه المأمون إدريس (٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م - ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) إنه كان إماماً فى الحديث ولم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب صحيح البخارى وسنن أبى داود . ومن كبار المحدثين فى عصرهم أبو عبد الله بن الغازى السبتي محمد بن الحسن ، وكان راوية للحديث واستقضى ببلده سبته ، توفى سنة ٥٩١ هـ / ١١٠٤ م ومنهم على بن عتيق المتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وكان محدثاً

راوية مكثرا عنى بالحديث طويلا ، ومنهم محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي المتوفى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م رحل في طلب الحديث النبوي إلى بلاد إفريقية التونسية والبلاد المصرية ودمشق وكان محدثا حافظا ذا كرا للحديث ورجاله وطبقاتهم وتواريتهم ، ومن مصنفاته « اللمعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأولاده السبعة » ومنها الأغذية مما جاء في الحديث ، ومنها تحفة الطالب ومنية الراغب في الأحاديث النبوية العلية السنية ، ومنهم أبو عبد الله بن الصيقل محمد بن عبد الله الحسيني القاضي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م كان راوية للحديث حافظا لتونه بصيرا بعلمه عارفا برجاله وطبقاتهم وتواريتهم ، عنى بذلك أتم عناية ودرس الحديث ببلده فاس واستدرك على عبد الحق في كتابه الأحكام الكبرى أحاديث كثيرة ، ومنهم أبو الحسن ابن القطان على بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م كان مستبحرافى علوم الحديث بصيرا بطرقه عارفا برجاله مميذا صحيحه من سقيمه ، وله في الحديث مصنفات نافعة ، منها نفع الغلل في الكلام على أحاديث السنن لأبى داود في ثلاثة أسفار ضخمة ، ومنها كتاب في الرد على ابن حزم في كتابه المحلى مما يتعلق به من علم الحديث ، ومنها كتاب حافل جمع فيه الحديث الصحيح محذوف السند ، كمل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة في نحو عشرة مجلدات ، وله أحاديث في فضل التلاوة والذكر ، ومقالة في نعت المحدثين الحديث بأنه حسن . ومن محدثى عصر الموحدين عمرو بن دحية الكلبي السبتي المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م تجول كثيرا في بلاد الأندلس والشمال الإفريقي والمشرق واستقر أخيرا في القاهرة وأسند إليه السلطان الكامل رياسة دار الحديث وكانت له عنده حظوة عظيمة ، ومن مصنفاته الآيات البيئات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ، والمستوفى في أسماء المصطفى ، ومنهم أبو عبد الله بن المواق المراكشى قديما الفاسي حديثا المتوفى سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م وله شرح الموطأ وشرح مقدمة صحيح مسلم وتعقيب على كتاب شيخه أبى الحسن بن القطان في نقده لكتاب الأحكام الكبرى لعبد الحق أظهر فيه دقة معرفته بصناعة الحديث وعلمه مع براعة تعقيباته . ومنهم أبو الحسن الشارى على بن محمد المتوفى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥٢ م وكان محدثا راوية مكثرا ثقة عاكفا على العلم جماعة لنفائس الكتب انتقى منها جملة وافرة وقفها على مدرسة شيدها بسبته ، ووقف عليها من أملاكه ما يفى بنفقاتها ونفقات المدرسين فيها والطلاب ، وهى منقبة عظيمة له . ومنهم أبو الحسن بن قطرال قاضى الموحدين في بلدان أندلسية ومغربية كثيرة المتوفى سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م وكان محدثا راوية ثقة فيما يحدث به صحيح السماع .

ومن أهم المحدثين في عصر المرينيين أبو عبد الله الأزدي محمد بن عبد الله السبتي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م روى عن علماء بلدته ، ورحل إلى الأندلس وأخذ عن شيوخها ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة وافرة من شيوخ مصر والإسكندرية ودمشق وحران والموصل



وبغداد وواسط ، وعاد إلى بلده سبعة فروع عنه كثيرون من أهلها ونزلاتها ، وكان راوية  
مكثرا ثقة ، وكثير من مروياته عن أستاذه ابن الغازي السبتي المار ذكره . ومنهم ابن رشيد  
المار ذكره بين القراء ، وله السنن الأئمة في السند المعنعن والمحكمة بين مسلم والبخاري ،  
ومنهم ابن الشاط قاسم بن عبد الله السبتي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م أقرأ - عمره -  
بمدينة سبته ، وله حاشية على صحيح مسلم . وشرح كتاب الشفا للقاضي عياض غير محدث ،  
ومنهم في القرن التاسع الهجري الزموري وابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م . ولابن  
هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م اختصار فتح الباري على صحيح البخاري لابن حجر .  
ومن المحدثين الكبار في العصر السعدي سقن العاصمي السفياني عبد الرحمن بن علي  
القصري المتوفى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م رحل إلى المشرق في طلب الحديث سنة  
٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م وأخذ عن تلاميذة ابن حجر : زكريا الأنصاري وغيره من الشيوخ المصريين ،  
وتجول في السودان الغربي ورجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م وأخذ في إلقاء الحديث  
على الطلاب حتى وفاته . ومن أهم تلاميذه أحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م ويذكر  
في فهرست شيوخه أنه قرأ عليه أو سمع منه كتب الصحاح الستة سوى مصنفات في الحديث  
أخرى مما حمله عن المشاركة والمخاربة ، مما يدل على اتساعه في الرواية . ومن محدثي العصر  
محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٤ م ، وكان إماما في رواية الحديث وكان  
يقرى تلاميذه صحيح البخاري ومسلم والشفا لعياض ، ومنهم عبد الرحمن العارف المار  
ذكره بين المفسرين وله حاشية على صحيح البخاري .

ومن المحدثين المهمين في عصر العلويين محمد بن سليمان الروداني المتوفى سنة  
١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وله الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ ، ويقصد بالكتب الخمسة صحيح  
البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن النسائي ، وله كتاب ثان جمع  
فيه بين أربعة عشر كتابا من كتب الحديث سماه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد  
ضم فيه إلى الأصول الستة السابقة مسند الدارمي ومسند ابن حنبل ومسند أبي يعلى الموصلي  
ومسند البزار ومعجم الطبراني الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير . ومن محدثي العصر إدريس بن  
محمد الحسيني الفاسي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وله شرح شمائل الترمذي ، وشرح  
الأحاديث المائة الأولى من الجامع الصغير للسيوطي وتخريج أحاديث الشهاب القضاعي والدرر  
للوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع . ومنهم التاودي بن سودة المتوفى سنة  
١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م وله زاد المجد الساري لمطالع البخاري ، وشرح الأربعين النووية .

ونشط المغرب الأقصى - منذ القرن الرابع الهجري - في الفقه نشاطا عظيما ، ودائما إذا  
أطلقنا الفقه في أي بلد مغربي ولم نخصه فإنه يراد به الفقه المالكي ، إذ عملت أسباب

مختلفة في أن يصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهي المنتشر بالمغرب في كل البيئات وكل الأوساط وكل البلدان ، وقد يلقانا من حين إلى آخر فقيه شافعي ، إذ كان شباب العلماء يرحلون إلى مصر ، وكان المذهبان المالكي والشافعي يتنافسان فيها ، فربما اختلف بعض هؤلاء الشباب إلى حلقات الشافعية وأعجبهم مذهب الشافعي ، وقليل جدا من كانوا يعتقدون هذا المذهب على مر الحقب . وأهم فقيه مالكي نلتقى به في المغرب الأقصى بالقرن الرابع الهجري دراس بن إسماعيل الفاسي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، ويقال إن الفقيهين القيروانيين المشهورين أبا الحسن القابسي وابن أبي زيد تلمذا له ، كما يقال إنه هو الذي أدخل مذهب مالك إلى المغرب الأقصى وأنهم كانوا قبل ذلك على مذهب أبي حنيفة الذي كان يدعو إلى اعتناقه الأغلبية في القيروان . وبعد دراس يلقانا تلميذه عبد الرحيم بن أحمد الكتامي المعروف باسم ابن العجوز السبتي المتوفى سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م لازم ابن أبي زيد القيرواني مدة وسمع منه كتابه : النوادر والمختصر ، وملتقى بأبي عمران الفاسي المار ذكره بين القراء ، وإليه انتهت رئاسة الفقهاء في القيروان ، وكان يعاصره عبد الله بن غالب المتوفى سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م صحب ابن أبي زيد بالقيروان وتفقه عليه ، وكان يعاصرها عثمان بن مالك الفاسي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م زعيم فقهاء المغرب الأقصى في وقته ، وله تعاليق على مدونة سحنون .

ويدخل عصر المرابطين ومن فقهاء مروان بن سمجون المار ذكره بين القراء ، وكان فقيها محدثا مفتيا . ويلقانا بعده علي بن القاسم رأس أسرة بني القاسم بن عشرة بسلا المتوفى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م وكان فقيها حافظا ومحدثا ووجيه أهل بلدته استقضى بها وأورث عقبه سوؤدا وشرفا . وكان يعاصره أبو عبد الله التميمي الفاسي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وهو شيخ القاضي عياض الذي افتتح به فهرسته . ومن فقهاء عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن العجوز المتوفى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م كان يدرس لطلابه المدونة واستقضى للمرابطين في عدة بلدان بالأندلس والمغرب . ومنهم عبد الله بن علي بن سمجون المتوفى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م وكان فقيها حافظا للفروع عارفا بإقراءها وتدريسها والفقهاء فيها ، ولاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء الجزيرة ونقل منها إلى غرناطة سنة ٥٠٨ هـ وظل بها إلى وفاته . ومنهم موسى بن عبد الرحمن الصنهاجي المتوفى بمراكش وهو قاضيا سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م وكان عالما بالأحكام مقدما في معرفتها حافظا للرأى ورعا .

ومع أن دولة الموحدين كانت تعتق في الفقه المذهب الظاهري وتدعو إليه ، كما مر بنا في الفصل الماضي . فقد ظل المذهب المالكي حيا طوال العصر ، غير أن كتب التراجم لا توضح مدى حياته ولا مدى حياة المذهب الظاهري ، إذ ترجم لفقهاء العصر ترجمات عامة ، ولا نعرف أيهم كان ظاهريا وأيهم كان مالكيًا . وأومن بأن الكثرة من القضاة كانت ظاهرية

فضلا عن كان منهم يتولى منصب قاضى القضاة ، إذ الناس على دين ملوكهم ، ولعل خير مثال لقاضى القضاة الظاهري يوضح ما نزع أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء قاضى القضاة أو رئيسهم فى عهد المنصور يعقوب ، فإنه فجر - على هدى المذهب الظاهري فى الفقه - أكبر ثورة على سيويه ونحاة المشرق بكتابه : « الرد على النحاة » إذ صوّب فيها سهامه على نظرية العامل التى تعد الأساس الذى أقام عليه النحاة بناء النحو مقدّرين أن العامل هو الذى يصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وهو الذى يترتب عليه ما لا يكاد يُحصى من تقديرات وتعليقات وأقيسة مع ما يضاف إلى ذلك من تمرينات افتراضية . وابن مضاء فى هذه الثورة على النحو وقواعده متأثر فى ذلك كله - كما قلت فى تحقيق الكتاب - بالفقه الظاهري وما ينكره على المذاهب الفقهية المشهورة من الاعتماد على الأقيسة والتعليقات مما أدى فى التشريع - كما أدى فى النحو - إلى ركام هائل من الافتراضات .

وإنما سقت ذلك لأدل على أن دولة الموحدين كانت جادة فى اعتناق المذهب الظاهري وكان قضاة القضاة جادين معها فى هذا الاعتناق حتى أن قاضيا منهم يريد أن يطبقه على علم النحو وقواعده . وبالمثل كان كثير من القضاة أنفسهم يعتقدون هذا المذهب ، غير أن كتب التراجم - كما قلت - لا توضح ذلك ، وأنا أعرض طائفة من فقهاء العصر ، محاولا أن أتبين الظاهريين بينهم ، وأول من نقف عنده ابن الرمامة المتوفى سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م وهو من قلعة بنى حماد استوطن مدينة فاس ، واشتهر فضله فاستخلصه على بن يوسف بن تاشفين لنفسه ، واستخدمه قاضيا لنفسه وطالت حياته حتى لحق عصر الموحدين ، وكان شافعي المذهب فلم يكن ظاهريا ولا مالكيًا . وولتقى بعبد الرحيم بن عمر الحضرمي الفاسي المتوفى سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م وكان فقيها مالكيًا كما ينص على ذلك ابن عبد الملك المراكشي ، وكان من أهل التقوى وألف كتابا فى المذهب المالكي .

ويلقانا بعده عمر بن عبد الله بن صمم القرشي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م ، روى عن كثيرين من بينهم ابن مضاء قاضى القضاة الظاهري ، ويقول ابن عبد الملك إنه صنف فى شواذ المذهب المالكي مصنفا ، ولا ندرى هل كان مالكيًا أو كان ظاهريا ينتقد مذهب مالك . وكان يعاصره على بن خيار الفاسي المتوفى سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م وكان فقيها محدثا مشاورا ( أى مما يرجع إليه القضاة فى الفتوى ) ويقول ابن عبد الملك إنه كان رافضا التقليد ميالا إلى النظر والاجتهاد متفننا أى أنه كان متصفا بنفس الصفات التى يدعو إليها المذهب الظاهري وأنصاره مما يؤكد أنه كان ظاهريا .

ونلتقى بعده بأبي عبد الله بن الصيقل المار ذكره بين المحدثين وقد تقلد منصب قاضى القضاة بعد ابن مضاء إلى أن توفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وخلفه فى منصبه الفقيه ابن دافال موسى بن



عيسى بن عمران حتى وفاته سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م وتقلد المنصب بعده الفقيه على بن محمد بن أبي عشرة ، ونفس منصبهم يؤذن بأنهم كانوا جميعا ظاهرية . ويختم فقهاء الظاهرية في عهد الموحدين بأبي الحسن بن القطان المار ذكره بين المحدثين ، ولا نستدل على ذلك فقط بما ذكره ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته من أنه كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة بني عبد المؤمن وأنه حظى كثيرا . المنصور فابنه الناصر فالمستنصر بن الناصر فعبد الواحد أخى المنصور فالمعتصم بن الناصر ، بل نستدل بما هو أهم . فإن من ترجموا له ذكروا أنه رأس طلبة العلم بمراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة وما ذلك ، إلا لأنه سخر نفسه للدعوة بل ليصبح شيخ طلبتها ، وكانوا يطلقون اسم الطلبة على دعواتهم . وكان لا يزال يقرأ لهم كتب ابن تومرت ويفسر لهم ما فيها من مبادئ الدعوة . وأيضا مما يؤكد ظاهريته وانتصاره للمذهب الظاهري ما ذكر من أن أبا على بن الطوير المراكشي عمر بن محمد الصنهاجي معاصره الفقيه المالكي ألف كتابا في إثبات القياس الذي ينكره الظاهرية على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة : مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ، فردّ عليه باسم الظاهرية منكر القياس بكتاب سماه المنزع في القياس لمناضلة من سلك غير المذهب ( الطريق الواضح السديد ) في إثبات القياس .

وانتهى عصر الموحدين وبدأ عصر المرينيين وفيه توقّف في القضاء العمل بالمذهب الظاهري وعاد للمذهب المالكي سلطانه كاملا في القضاء والفقه ، ومن فقهاء حينئذ محمد بن إبراهيم الغساني التاجر بمدينة آسفي المتوفى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م كان بعد الفراغ من مجلس تدريسه الموطأ والسير والنحو يقعد في حانوته لإدارته وكسب عيشه . ومنهم أبو الحسن الصغير الزرويل على بن عبد الحق المتوفى سنة ٧١٩ هـ / ١٣٢٠ م القاضي بتازه ثم بفاس وله تقييد على المدونة . ومنهم تلميذه الشطبي محمد بن على بن سليمان المتوفى غريقا في أسطول أبي الحسن المريني سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م وكانت له حظوة عنده وكان يقرأ عليه . ومنهم تلميذه القباب أحمد بن قاسم المتوفى سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م قال فيه ابن الخطيب في الإحاطة : « صدر من صدور عدول الحضرة الفاسية ، فقيه نبيل مدرك جيد النظر شديد الفهم ، وله شرح مسائل الفقيه ابن جماعة المصرى في البيوع ويقول ابن فرحون في الديباج إنه شرح مفيد ، وله أيضا شرح قواعد الإسلام للقاضي عياض ، وفتاوى مجموعة نقل عنها الونشريسي في كتابه المعيار . ومنهم محمد بن الفتوح المتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م وهو الذى أدخل مختصر خليل بن إسحق إلى المغرب الأقصى . ومنهم محمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م وله شفاء الغليل فى حل مقفل خليل ، بين فيه - كما يقول الأستاذ كنون - هفوات بهرام ، والمواضع المشككة فى مختصر خليل ، وله أيضا تكميل التقييد أكمل به تقييد أبى الحسن الصغير على المدونة .

ومن أهم الفقهاء في عصر السعديين اليسيتي الفاسي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٥٩ هـ/١٥٥١ م وهو منسوب إلى قبيلة بربرية تسمى يسيثن بالثناء أو بالتاء وكان فقيه فاس ومفتيها ، ومنهم مبارك بن علي الجزولي المتوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ويقول أحمد بن القاضي إن قراءته لمختصر خليل في الفقه المالكي بصورة تحرير المسائل فقط كعادة أهل مصر والمشرق . ومنهم المنجور أحمد بن علي المار ذكره بين المحدثين وهو أستاذ المنصور الذهبي وأجازته إجازة عامة في فهرسه ، وله في الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق . ومنهم عبد الواحد الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م وكان عالماً بالفقه مستحضراً لمسائل خليل دعواً على الإقراء والتدريس ، ومنهم يحيى بن محمد السراج الفاسي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م وكان يدرس لطلابه مختصر خليل بن إسحق المالكي المصري وشيئاً من ألفية ابن مالك والمغنى .

ومن الفقهاء المهمين في عصر العلويين عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م وله كتاب باسم المسائل الفقهية عرض فيه العبادات الدينية ، وأجوبة فقهية عن طائفة من النوازل . ومنهم المسناوى الدلائي محمد بن أحمد المتوفى سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م وله رسالة نصرة القبض في الرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض ، وصرف المهمة إلى تحقيق معنى الذمة . ومنهم أبو علي الحسن بن رحال المتوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله حاشية كبيرة على مختصر خليل وحاشية أخرى على شرح الخرشي عليه ، وله أيضاً حاشية على شرح ميارة لتحفة ابن عاصم ، ومنهم التاودي بن سودة المذكور بين المحدثين وله حاشية على شرح الزرقاني المصري لموطأ مالك ، وإتحاف الناظر والسامع بشرح مسائل الجامع لخليل وشرح تحفة ابن عاصم وشرح الأربعين النووية ، وشرح الزقاقية لأبي الحسن علي بن قاسم الزقاق الفاسي المتوفى سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م .

ولابد أن نشير - وقد أنهينا الكلام عن الحركة الفقهية - إلى ظاهرة مهمة كان لها تأثير في ازدهار الفقه وفتاويه ، ونقصد ظاهرة المحاماة والمحامين بجانب القضاة ، وهي التي استتبع في المغرب كما في الأندلس ظاهرة التوثيق فكان هناك موثقون وكانت هناك كتب للتوثيق يؤلفها الفقهاء الخبراء بالقضاء والفتوى وهي توضح كيفية كتابة العقود في المعاملات وغيرها كالمزارعات واستثمارات العقار . ويكرر الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا الحديث عنهم في عهده لأوائل القرن العاشر الهجري<sup>(١)</sup> .

وآن أن نتحدث عن أصحاب علم الكلام أو علم العقيدة كما يسميه المغاربة ، وقد مر بنا في الفصل الماضي حديث عن المعتزلة : الفرقة الكلامية المشهورة في القرن الثاني الهجري وأن

(١) وصف إفريقيا ص ٣٤٠ .



داعيا لواصل بن عطاء رأس الاعتزال أو دعاة هاجروا إلى المغرب الأقصى واستطاعوا أن يدخلوا في عقيدة الاعتزال جموعا كبيرة منه ببلدة عُرفت بهم تسمى البيضاء وأنهم أيضا استطاعوا - فيما يقال - إدخال إدريس مؤسس الدولة الإدريسية في عقيدتهم ، وأن محمد ابن إدريس الثاني بنى لهم بلدة بالقرب من مدينة أصيلا سماها البصرة إحياء لذكرى واصل البصرى مؤسس الاعتزال في البصرة بالعراق .

ويبدو أن الاعتزال في المغرب الأقصى أخذ - فيما بعد - يتلاشى وتلاشت مدينتهم « البصرة » معهم فلم يعد لها أثر . والمهم أن المغرب الأقصى عرف عقيدة الاعتزال الكلامية مبكرا ، ومعروف أنها تقوم على خمسة مبادئ هي - كما مر بنا في الفصل الماضي - وحدانية الله بحيث لا يشبه المخلوقات ، وأيضا وحدانيته في صفاته بحيث تُعدُّ نفس ذاته ، والعدل على الله فهو لا يظلم بحال ، وإنفاذه وعده في النعيم ووعيده في الجحيم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر .

ودارت معارك عنيفة بين أهل السنة والمعتزلة القائلين بأن الإنسان حر مختار في إرادته وأعماله وأن ما جاء في القرآن الكريم من آيات تفيد التجسيد على الذات العلية تؤوّل فمثل ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ تعنى أن قدرته فوق ما لهم من قدرة ، وأهل السنة القائلين بأن إرادة الإنسان وأعماله بقضاء الله وقدره يقولون إن مثل قوله تعالى : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ تؤمن بها حسب الظاهر ولا نعرف كيفية هذه اليد ، حتى إذا ظهر أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م نفذ إلى تأسيس مذهب كلامي جديد متوسطا فيه بين المعتزلة وأهل السنة إذ ذهب في مسألة أفعال الإنسان إلى أنها لله خلقا وصنعا وللإنسان كسبا وإرادة ، ووافق المعتزلة في تأويل الآيات التي تفيد التجسيد على الذات العلية . ومر بنا أن المعتزلة كانوا يرون أن صفات الله مثل السميع البصير هي عين ذاته بينما كان أهل السنة يرون أنها زائدة على الذات قائمة بها وأخذ الأشعري فيها برأى أهل السنة . وحاول التوفيق بين الطرفين المتعارضين في مسائل أخرى ( انظرها في كتاب العصر العباسي الثاني ص ١٧٧ ) . وعمّ مذهبه في العراق والشام ومصر ، وحمله إلى إفريقية التونسية أبو الحسن القابسي وأبو عمران الفاسي ، وأصبح هذا المذهب : مذهب الأشاعرة المذهب الكلامي السائد في البلدان المغربية .

ونجد في عصر المرابطين علماء يعرضون هذا العلم : علم الكلام أو العقيدة على طلابهم مثل أبي القاسم المعافري السبتي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ومثل أبي بكر السبتي المار ذكره بين المفسرين . وندخل في عصر الموحدين ومر بنا أن ابن تومرت مؤسس دعوتهم زار العراق وجلب منه إلى عقيدته مبادئ من الشيعة والمعتزلة ، فمن الشيعة أخذ ثلاثة مبادئ : مبدأ الإمام ومبدأ ظهور المهدي الذي يصلح العالم في آخر الزمان ويسمى الإمام المهدي ومبدأ

العصمة من الوقوع في الآثام وقد أطلقها جميعا على نفسه ، فتلقب بلقب الإمام المهدي المعصوم ، وكان يرفع لذلك نسبه إلى الرسول ﷺ كما في المعجب للمراكشي . وأخذ من المعتزلة مبدأ توحيد الله أو وحدانيته بحيث لا يشبه المخلوقات ولا يجوز عليه التجسيد بأي صورة من الصور وما جاء في القرآن من آيات يفهم من ظاهرها التجسيد تؤول على نحو ما صنع ذلك المعتزلة . وشركت الأشعرية المعتزلة في اعتناق مبدأ عدم التشبيه على الله ، وكانت المعتزلة تمد هذه الوحدانية إلى الصفات - كما مر بنا - فهي عين ذاته لا قائمة بها كما يقول أهل السنة والأشعري فمثلا الله عليم سميع بصير أي أن ذلك عين ذاته . وأخذ ابن تومرت بذلك كله ، أي أنه أخذ مبدأ الوحدانية عن المعتزلة بخدافيره ، كما أخذ عنهم فكرة أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر ، وأيضا فإنه أقام دعوته - كما يقول صاحب المعجب - على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو أحد مبادئ المعتزلة المذكورة آنفا . وله في الدعوة إلى نخلته مصنفات هي : أعز ما يطلب ، الإمامة ، العقيدة المرشدة . ومن أكبر الدعاة لعقيدة ابن تومرت البيدق وله مصنف فيه ومصنف ثان في دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن بناهما على الدعوة للموحدين ، ومن كبار دعواتهم عبد الله بن حماد بن زغبوش الكناسي وله مصنف في إثبات الهداية الموحدية بالاستقراء من الكتاب العزيز . ومن أهم دعواتهم أبو الحسن بن الإشيلي على بن محمد بن خليل اللخمي نزيل مراكش ، وكان متحققا بعلم الكلام كما يقول ابن عبد الملك المراكشي ، ويقول إنه صنف كتابا سماه « المعراج » قدم به على الخليفة عبد المؤمن الموحد سنة ٥٤١ للهجرة ، فحظي عنده ورقاه إلى رتب عليّة نال بسببها دنيا عريضة<sup>(١)</sup> ، ولعل الكتاب كان في الدعاية لعقيدة الموحدين ، إذ نراهم يسندون إليه القيام على إرشاد دعواتهم المسمّين بالطلبة ، وكان يقرأ لهم كتب ابن تومرت صاحب الدعوة ، ويقول ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالإمامة أنه سمع عليه مع هؤلاء الطلبة كتب ابن تومرت : عقيدة التوحيد ، وهي المسماة العقيدة المرشدة ، وكتاب العقيدة المباركة المسماة بالطهارة ، وكتاب أعز ما يطلب بقرأة أبي عبد الله بن عميرة . ويقول ابن صاحب الصلاة إن القارئ كان إذا قرأ فصلا مما ذكرته هذه الكتب من عقيدة الموحدين شرح أبو الحسن بن الإشيلي غامضها وفتح أفعالها على الطلبة حتى يدللها ويبينها أتم بيان<sup>(٢)</sup> .

ومن خلفوا أبا الحسن بن الإشيلي وقاموا على بث تعاليم دعوة الموحدين في طلبتهم أو بعبارة أدق في دعواتهم أبو الحسن<sup>(٣)</sup> بن القطان المار ذكره بين المحدثين وقد ذكرنا هناك أن من ترجموا له قالوا إنه : « رأس طلبة العلم بمراكش » ويعنى هذا أنه كان يقوم على إرشادهم - فكان

وما بعدها .

(١) الذيل والتكملة ٣٠٤/١/٥

(٢) المن بالإمامة تحقيق د . عبد الهادي التازي ص ١٦٠ (٣) نظر ترجمته في الذيل والتكملة ١٦٥/١/٨ .

يشرح لهم كتب ابن تومرت ويفسرها لهم ، كما كان يشرح لهم مذهب الظاهرية ، ويحتج كما أسلفنا لما يذهبون إليه من إبطال القياس في الأحكام الفقهية والاختصار على الكتاب والسنة . ومن علماء الكلام في عصر الموحدين عثمان السلالجي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م وله في عقيدة الأشعرية منظومة سماها البرهانية في العقيدة الأشعرية ، ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م وكان ماهرا في علم الكلام ، ومثله معاصره على بن عتيق الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م ومنهم أبو الحجاج نموى الفاسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م روى عن السلالجي البرهانية . وكان مبرزا في علم الكلام ، ومنهم أبو الحسن بن الحصار المار ذكره بين المفسرين وله في علم الكلام مصنف مفيد ومقالة في الإيمان والإسلام وعقيدة سماها تلقين الوليد وخاتمة السعيد ، ومنهم يوسف بن محمد المكلاى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م وكان مبرزا في علم الكلام .

ومن أصحاب علم الكلام في عصر المرينيين أبو الحسن الطنجى اليفرنى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م وله شرح على البرهانية للسلالجي سماه : « المباحث العقلية في شرح معانى العقيدة البرهانية » . ومنهم أحمد زروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م وله شرح العقيدة القدسية . ومن المتكلمين في العصر السعدى اليسينى محمد بن عبد الرحمن الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله رسالة في خلف الوعيد . ولأحمد المنجور المار ذكره بين المحدثين شرحان على العقيدة الصغرى والكبرى للسنوسى وله شرح مقاصد ابن زكرى في التوحيد . وللحفصى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م شرح العقيدتين الكبرى والصغرى في التوحيد للسنوسى ، وتتكاثر شروحهما في العصر كثرة مفرطة . ومن أصحاب علم الكلام في عصر العلويين عبد القادر الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله كتاب العقيدة . ومنهم أبو على الحسن اليوسى المار ذكره بين علماء المنطق ، وله شرح على السنوسية الصغرى وحاشية على شرح السنوسى للعقيدة الكبرى ولمحمد المهدي الفاسى المتوفى سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٨ م النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة في مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة ومررنا بتوفيق الأشعرى فيها بين المعتزلة وأهل السنة . ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م حاشية على شرح السنوسى لعقيدته الكبرى .

## التاريخ

نشط المغرب الأقصى في كتابة التاريخ منذ عصر المرابطين ، ومن أهم من كتب عن دولتهم يحيى بن الصيرفى المؤرخ الغرناطى ، فقد ألف عنهم كتابا باسم دولة لمتونة ، وهو -



وإن كان غرناطيا - نزل مراكش طويلا ، إذ يذكر في ترجمته أنه كان من موظفي أمرائها ، وتوفى سنة ٥٥٧ عن تسعين سنة . ومنذ عصر الدولة اللمتونية أو دولة المرابطين يصبح تاريخ الأندلس جزءا متما لتاريخ المغرب الأقصى . وكان يعاصر ابن الصيرفي القاضي عياض السبتي المار ذكره بين المحدثين وله ترجمة للرسول ﷺ باسم كتاب الشفا كما مر بنا ، وكتاب فى أعلام مذهب مالك باسم المدارك وكتاب فى شيوخه باسم الغنية .

وتكاثرت فى عصر الموحدين كتب السيرة النبوية العطرة وكتب تاريخ دولة الموحدين وكتب التراجم والفهرسة ، أما السيرة فيكتب فيها محمد بن قاسم بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م كتاب اللمعة فى ذكر أزواج النبي ﷺ وأبنائه السبعة . ولأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م الدر المنظم فى مولد النبي المعظم ، ولابن دحية المار ذكره بين المحدثين كتاب التنوير فى مولد السراج المنير ، وكتاب سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب وكتاب المستوفى من أسماء المصطفى ، والابتهاج فى المعراج ، وله التحقيق فى مناقب أبى بكر الصديق ، وله فى التاريخ العام النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، وتاريخ الأمم فى أنساب العرب والعجم ، وأعلام النصر الميين فى المفاضلة بين أهل صفين .

ونلتقى فى تاريخ دولة الموحدين بثلاثة من مؤرخى الدولة الرسميين بجانب اثنين من المؤرخين غير الرسميين ، وأول المؤرخين الرسميين البيذق وله كتاب عن ابن تومرت ودعوته وكتاب ثان عن دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة . ويكتب مؤرخ رسمى ثان من حواشى الدولة ورجالها المقربين هو عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجرى كتابا عن دولة الموحدين حتى عصره باسم : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أمة وجعلهم الوارثين » مشيرا بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ويدل عنوان الكتاب أنه شديد التعصب لتلك الدولة كما هو واضح فى قسمه الثانى الذى بقى لعصرنا من تاريخه والذى تحتفظ به مكتبة البودليانا فى أوكسفورد ، ويشمل تاريخ دولة الموحدين من سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م إلى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م وحقق هذا القسم الدكتور عبد الهادى التازى مع مقدمة قيمة ونشره فى دار الغرب الإسلامى . وهو تفصيل لأحداث السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة وعشر سنوات لأحداث السنوات العشر الأولى من حياة ابنه يوسف . ونلتقى بمؤرخ غير رسمى هو عبد الواحد المراكشى الذى كان حيا فى العقد الثالث من القرن السابع الهجرى ، وله كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » من لدن فتح الأندلس حتى

سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وهو يعرض فيه تاريخ الأندلس ودولة المرابطين ، ويفصل القول في دولة الموحدين بقلم مؤرخ حصيف محايّد دون المبالغة التي نلمسها عند البيهقي وابن صاحب الصلاة .

وما نلبث أن نلتقى بالمؤرخ الرسمي الثالث لدولة الموحدين وهو أبو محمد حسن بن أبي الحسن علي بن القطان المتوفى حوالي منتصف القرن السابع الهجري وكان من رجال الدولة ، ومر بنا ذكر أبيه أبي الحسن بين المحدثين وبين دعاة الموحدين إذ كان من كبار دعواتهم . وأكبر الظن أن ابنه كان مثله من دعواتهم كما سيتضح عما قليل فقد صنف كتابا باسم نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، وسقط الكتاب من يد الزمن إلا قطعة من سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م وحققها تحقيقا سديدا مع مقدمة قيمة الدكتور محمود مكى وقد كان متحاملا على دولة المرابطين تحاملا شديدا حتى جعل حكماها مجسّمين للذات العلية وكفارا مع ما لهم من خدمات عظيمة للإسلام وانتصارات كبرى على النصارى في الأندلس ، ولكنه التعصب البغيض . وعرض في كتابه ترجمة ضافية لابن تومرت أشاد فيها به وبدعوته ، حتى ليرفع نسبه إلى رسول الله ﷺ ويطلق الحديث عن أنه معصوم وعن كرامات عبد المؤمن ، ويذكر أن ابن تومرت فرض على أصحابه أن يقرأوا بعد صلاة الصبح كل يوم حزبا من القرآن الكريم ، وحزبا له ضمنه حديثا عن القدر والإيمان وأنه الإمام المهدي الواجب اتباعه وكفر من لم يطعه ولم يصل عليه هكذا يقول أبو محمد بن القطان .

والترجمة دعاية سافرة لابن تومرت ودعوته ، ولا بد أن بقية الكتاب المفقودة كانت على هذه الشاكلة من المبالغة المفرطة في الدعاية للموحدين . ونضم إلى هذه الكتب التاريخية كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، وهو تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . وهو أهم مصدر تاريخي لهما ، ونشرت منه أولا أجزاء متفرقة ، وأمكن أخيرا نشر أربعة أجزاء منه في بيروت . ونشر القسم الخاص منه بالمرابطين والموحدين في طبعة جديدة بدار الغرب الإسلامي في بيروت وهو أوسع وأدق مصدر للدولتين . ونضم أيضا إلى الكتب السالفة كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع الدار البيضاء وهو عن دولتي المرابطين والموحدين . ومن كتب التراجم في هذا العصر كتاب المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم بن عبد الكريم وله أيضا بستان العابدین وريحان العارفين في ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلوة . ومنها التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م ولابن المواق المار ذكره بين المحدثين شيوخ الدارقطني ، ولأحمد بن يوسف ابن فرتون الفاسي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال وهو مصدر أساسي لابن الزبير في كتابه

صلة الصلة ، وتكثر الكتب المسماة بالفهارس والبرامج عن الشيوخ لمؤلفيها وما حملوا عنهم من الكتب .

ونمضى إلى عصر المرينيين وملتقى بأبى عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م وموسوعته : الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة ، وهى موسوعة كبرى طبع منها بعض أجزاءها بتحقيق د . إحسان عباس والجزء الثامن فى مجلدين بتحقيق د . محمد بنشريفية ، وهو من أهم مراجعى فى الحركة الثقافية حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وما نلبث أن نلتقى بابن أبى زرع الفاسى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م وقيل بل توفى سنة ٧٤١ وهو صاحب كتاب « روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وهو أجمع تاريخ للمغرب من قيام الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ من سنوات عهد السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب ، وكان يعاصره ابن هانىء اللخمي السبتي المار ذكره بين النحاة صاحب كتاب الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة ، وكان فى عصرهما أبو الحسن الجزائى صاحب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . وملتقى فى القرن التاسع الهجرى بالحضرمى وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسببته من العلماء والصلحاء والعباد ، وله بلوغ الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسببته من مدرس وأستاذ وطبيب فرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م ويلقانا محمد بن غازى المكناسى المار ذكره بين الفقهاء وله الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، ولمجهول كتاب الذخيرة السنوية فى أخبار الدولة المرينية والموجود منه ينتهى عند سنة ٦٧٩ للهجرة .

ونلتقى فى عصر السعديين بابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٩ م وله كتاب دوحة الناشر فى علماء القرن العاشر وهو منشور بتحقيق الدكتور محمد حجي . ويلقانا أحمد بن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٧ م وله ترجمة للخليفة المنصور الذهبى باسم المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ، وله درة الحجال فى أسماء الرجال ، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، وغنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض . كما يلقانا عبد العزيز الفشتالى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وله كتابه مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون . وينبغى أن نضم إليهم أحمد بابا التنبوكى السودانى نزيل مراكش المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣ م وفيها ألف نيل الابتهاج وهو تذييل لكتاب الديباج لابن فرحون وألف أيضا كتاب كفاية المحتاج اختصارا لكتابه السابق . ويختم مؤرخو العصر بأحمد المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣٢ م وله أزهار الرياض فى أخبار عياض ، والموسوعة الأندلسية : « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب « ألفه بالقاهرة ، وله أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . ودائما تؤلف فى المغرب الأقصى كتب برامج وفهارس كثيرة .

ومن أهم المؤرخين فى عصر العلويين أبو عبد الله محمد الإفرائى المراكشى المتوفى بعد سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وله « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » فى تاريخ الدولة السعدية وصدر الدولة العلوية ، وأيضا « صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادى عشر » ومثله فى الأهمية ابن الطيب القادري المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م وله نشر المثنى فى أخبار أهل القرن الحادى عشر والثانى ، وتذييل على كفاية المحتاج لأحمد بابا .



## الفصل الرابع

### نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب المغرب الأقصى - كثرة الشعراء

( أ ) تعرب المغرب الأقصى

مرُّ بنا . فى الفصل الثانى - أنه كانت تعيش فى بلاد المغرب - من قديم - سكان من قبائل البربر الكثيرة ، وأنه نزلتها قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة ، منها الآسيوى مثل الفينيقيين والقرطاجيين واليهود ، ومنها الأوربى مثل الإغريق والرومان والفندال . وفى الفتح نزلها عرب من آسيا قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضرىون ، ونزلها معهم من كان فى جيوشهم من إيران والعراق والشام ومصر ، ممن تم تعربهم وحسن إسلامهم . ولم يفتحوا جميعا المغرب ابتغاء الاستيلاء على طبيئاته وخيراته ، وإنما فتحوه ابتغاء نشر الدين الحنيف ، فهم فاتحون ومجاهدون فى سبيل الله وسبيل دينه القويم يريدون أن ينشروه فى أطباق الأرض . وسرعان ما أخذ المغاربة يدخلون فيه أفواجا ، لما رأوا فى تعاليمه من تسوية مطلقة بين أتباعه ، بحيث يصبح لمن يعتنقه من البربر وغيرهم جميع ما للعربى الفاتح من الحقوق فى شئون المال وغير شئون المال ، وبحيث يعم العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . وقد حُكموا قبل العرب بالفينيقيين والرومان والإغريق ، وجميعهم كانوا يرهقونهم بضرائب فادحة ، وكانوا يسومونهم صورا مقبته من الظلم التعس والقهر البشع ، وما إن فتح العرب البلاد المغربية حتى ارتفع عنها القهر والظلم والضرائب الباهظة وحلَّ مكان ذلك كله العدل التام الذى يكفل للناس حقوقهم دون أى ظلم أو حيف ويسوى بينهم فى مواجهة الحياة بقسطاس سليم . وليس ذلك كل ما راعهم فى الدين الحنيف فقد راعتهم فيه أيضا بساطته الروحية بالقياس إلى المسيحية التى ظل الرومان والإغريق يحاولون نشرها فى ديارهم ، إذ ليس فيه فكرة التثليث المعقدة فى المسيحية ، إنما هو إله واحد يدبر الكون ، ولا معبود سواه من أوثان وأحجار وكواكب مما كانت تعبده جماهير البربر قبل الفتح العربى . لذلك لا نعجب إذا رأينا البربر فى القرن الهجرى الأول يقبلون جماعات ووجدانا على اعتناق الإسلام ، بفضل حملته من الفاتحين الذين تحولت كثرتهم إلى ما يشبه معلمين يعلمون إخوانهم من البربر تعاليم دينهم الحنيف .



وصدّر ولاية القرن الأول الهجري عن تلك التعاليم في معاملتهم لهم معاملة تقوم على الإخاء والعدل والمساواة ، فقد مر بنا أن حسان بن النعمان ( ٧١ - ٨٦ هـ ) اتخذ من قبيلة جراوة الزناتية كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا ألحقها بجيشه ، وبذلك أصبح البربر المسلمون رفقاء سلاح للعرب ، يقتسمون معهم بالسوية غنائم الحرب ، وليس ذلك فحسب فإنه ولّى على تلك القبيلة ابنا للكاهنة التي هزمها في معركة ضارية ، وبذلك أصبح البربر يقودون الكتائب في الجيش العربي ويتولون بعض الولايات مثل إخوانهم من العرب تماما ، وكان من تديره السياسى الحكيم أن وزع على صغار الفلاحين من البربر مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التى كانت تمتلكها الحكومة البيزنطية ، مما جذب إليه وإلى الإسلام قلوب البربر ، ووضع الخراج على الأرض بعدالة تامة وبدون أدنى ظلم أو عسف . ودعم العربية إذ دون الدواوين وجعلها اللغة الرسمية ، فأضاف حاجة البربر إليها فى تخاطبهم مع الحكومة العربية وولاتها الكثيرين إلى حاجتهم إليها فى أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تعد جزءا لا يتجزأ من اعتناق البربرى للدين الحنيف . وخلف حسانا موسى بن نصير على ولاية المغرب ( ٨٦ - ٩٦ هـ ) فأحكم مثله المساواة التامة بين العرب والبربر فى جميع الحقوق وجميع الشؤون الخاصة بالحكومة ، وقد فتح منطقة زغوان وصار على رأس جيش عربى بربرى حتى المغرب الأقصى يرتب شؤون الولايات التى قسم إليها المغرب ، وقد جعل منها للمغرب الأقصى ولايتين : ولاية السوس أو سجلماسة فى الجنوب وولاية طنجة فى الشمال ، وجعل على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد الورفجومي ، وأبقى معه - فى قول بعض المؤرخين - تسعة وعشرين ألف جندى : سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر ما يتيسر من القرآن الكريم وتعاليم الإسلام . وفى سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م كتب موسى إلى طارق أن يغزو الأندلس - أو بعبارة أدق - إيبيريا ، فجهز جيشا عداده اثنا عشر ألفا اجتاز الزقاق إلى إيبيريا ، ونزل فى مكان سُمى باسمه جبل طارق ، وفتح طارق فى برهة قصيرة شطرا كبيرا من إيبيريا ، واستمد موسى ، فتبعه موسى بجيش ، وأتما معا فتح إيبيريا .

وإنما سقنا ذلك كله لندل على أن البربر أصبحوا سريعا منذ القرن الهجرى الأول أمة عربية تدين بالإسلام وتنطق جماهير كبيرة منها العربية ، وما نكاد نتقدم فى العقد الثانى للهجرة حتى يتولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م فينقض سياسة ولاية المغرب قبله ويأخذ فى فرض الضرائب الباهظة على البربر ، فما يستدير عام ولايته الأول حتى يقتلوه ، وما هى إلا سنوات حتى تولى على المغرب فى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م عبيد الله بن الحبحاب ، فأوحى إلى عماله فى جميع أنحاء المغرب أن يفرقوا بين البربر والعرب فى الخراج وجميع الشؤون المالية ، واستشعر البربر فى ذلك عسفا لا يطاق ، وكان قد نزل بديارهم كثيرون من الخوارج وخاصة من فرقتى الصفرية والإباضية ، وكثر الأولون فى المغرب

الأقصى والثانون في جبل نفوسة بليبيا وأعجب البربر بمادئهما وما تقرّر من التسوية المطلقة بين العرب والموالي بربرا وغير بربر في شئون المال والضرائب وشئون الحكم حتى في تولي الخلافة ، فينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين عربيا أو بربريا أو عبدا حبشياً . واعتنق المذهب الصفري كثيرون من أهل المغرب الأقصى ، وتولّى زعامتهم ميسرة ثم خالد بن حميد الزناتى ، وواقعوا جيوش الدولة وانتصروا عليها مرارا ، وانسحب منهم سمكو بن واسول فكون دولة صفرية في سجلماسة ظلت حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ، أما صفرية الشمال في طنجة وإقليمها فقد ظلت تنازل الولاة في عهد بنى العباس حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) . ويطيب لبعض المستشرقين أن يجعلوا من اعتناق البربر لمبادئ الخوارج في النصف الأول من القرن الثانى الهجرى دليلا على أن المغاربة أو البربر حاولوا أن يرفضوا الإسلام حينئذ والعروبة معه ، وهو رأى مخطيء أشد الخطأ ، لأن البربر لم يفكروا يوما في رفض دينهم الحنيف الذى اعتنقوه ولا في رفض العربية التى تغلغت في أعماقهم وعبروا بها عن مشاعرهم وعواطفهم وأهوائهم ، إنما كل ما هناك أنهم ثاروا على الظلم والعسف فى جمع الضرائب المجحفة التى ينكرها الإسلام كما ينكر التفرقة بين العربى المسلم والبربرى المسلم فى الحقوق المالية وغير المالية ، فتورثهم إنما كانت مطالبة شرعية بتطبيق مبادئ دينهم وما ابتغاه من العدل المطلق بين أتباعه عربا وبربرا وغير بربر . ومن أكبر الدلالة على مدى ما حدث بين البربر من شعور عميق بالتعرب أن نجد قبائلهم جميعا تحاول كل منهم - منذ القرن الثانى الهجرى - أن تلفق لها نسبا يصلها بالعرب ، ومر بنا فى الفصل الثانى أن قبائلهم كانت ترجع إلى جذمين أو أصليين كبيرين هما البرانس والبتر ، وكانت البرانس تحاول الانتماء إلى العرب القحطانيين ، بينما كانت القبائل البتر تحاول الانتماء إلى القبائل العدنانية .

وما نتقدم فى المغرب الأقصى إلى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م حتى نجد إدريس بن عبد الله الحسنى يصل بفراره من وجه العباسيين إلى مدينة ولى وينزل على إسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة ويعرفه بنفسه فيكرمه إكراما لا مزيد عليه ويطلعه على سره وأنه يريد أن يؤسس للعلوين بالمغرب الأقصى دولة ، فجمع له عشائر قبيلته وبايعته ، وسمعت به قبائل زواغة ومكناسة وغمارة وعشائر من زناتة فوفدت عليه وبايعته ولم يلبث أن جهز جيشا نازل به تادلة جنوبى ولى وتامسنة على المحيط ، وكان بعض أهلها لا يزال وثيا أو يؤمن باليهودية أو المسيحية ، ففتح حصونهم وأسلموا جميعا . وبذلك تأسست دولة الأدارسة فى ولى وسرعان ما أسس إدريس الثانى خليفة أبيه إدريس مدينة فاس فى سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م .

وكانت تلك الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية عربية تأسست فى المغرب الأقصى ، ومضى إدريس الثانى وأبناؤه وأحفاده إلى نهاية دولتهم سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦ م ينشرون الإسلام السنى فى تلك الديار ويظهرونها من الصفرية والرافضة ، وفتح إدريس الثانى أبواب دولته لوفود شخصيات

عربية من القيروان والمشرق ، ووفد عليه مئات أسكنهم في أحد شطري مدينة فاس وسمى لذلك باسم العدو القروية ، ولما أخفقت ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى وطردهم منها ولّى مئات منهم وجوههم نحو مدينة فاس فأسكنهم إدريس الثاني الشطر المقابل لعدو القرويين، وسمى لذلك العدو الأندلسية . وأخذ الأدارسة منذ أيامهم الأولى يعنون بفتح الكتائب في المدن وتخفيف الناشئة القرآن الكريم ، وأخذت تنشأ في المساجد سريعا حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية والنطق السديد بها ، وبذلك كله رسخ الإسلام ورسخت العروبة في المغرب الأقصى إلى الأبد . وأخذت الدراسات الدينية واللغوية تنشط فيه لعهد الأدارسة وبعد عهدهم ، ولا يلبث كثيرون من طلاب العلم فيه يريدون أن يتزودوا بأكبر حظ فيفدوا على القيروان ومصر وبلاد المشرق للاستماع إلى كبار العلماء فيها مالكية وغير مالكية ويعودوا بما حملوه من العلم إلى بلدانهم يعلمونه فيها ، وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى يصبح للمغرب الأقصى علماؤه وفقهاؤه ومحدثوه الذين تعنى كتب التراجم بإعطاء معلومات عن حياتهم مثل دراس بن إسماعيل الفاسي ومعاصره أبي جيدة وغيرهما كثيرون .

وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى حول منتصف القرن الخامس الهجري وتنزل قبائلها وعشائرها في برقة وتونس والجزائر شرقا وغربا وقلما تسقط عشائر منها إلى المغرب الأقصى ، وكان مستمرا في نشاطه العلمي والأدبي بفضل جامع القرويين أو جامعته الكبرى التي أنشئت سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م وكانت سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان تسمى أم البنين الفهرية بنت هذا الجامع فاستحال - من حيثذ - سريعا إلى جامعة ، وهي تعد أقدم جامعة إسلامية عربية في العالم العربي ، ومضى العلماء فيها يعنون بالعلوم الدينية واللغوية ونشرها تلاميذهم في أرجاء المغرب الأقصى . ونمضى مع التاريخ حتى القرن الخامس الهجري ، فدخل الفقيه الجليل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة في جنوبي المغرب الأقصى ليحفظهم القرآن الكريم وكان حصيفا سيوسا بعيد النظر فعمل على تثبيت دعائم الإسلام في السوس ودرعة وسجلماسة وما وراء تلك البلدان في الصحراء المترامية ، وكوّن من صنهاجة جيشا لردع ما انتشر في بعض بلدان المغرب الأقصى من الزيغ والفساد ، وبدأ بمدينة تارودنت ومن بها من روافض سُموا باسم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلي الرافضي الذي نزلها في القرن الرابع الهجري وأشاع فيها نخلته المارقة ، فحاربهم عبد الله بن ياسين وانتصر عليهم وردهم إلى الإسلام السني ، ومضى إلى تامسنة ونازل فيها برغواطة التي كانت قد اعتنقت نحلة زائغة ضالة ، وأنزل الله عليه النصر المبين ، غير أنه استشهد في المعركة لسنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وله فضل تطهير البلاد من الفرق والنحل الضالة وفضل تأسيس دولة المرابطين . وكان يلي أمرها - حين وفاته - أبو بكر بن عمر اللمتوني ، فأسلمها إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فاستولى على مدينة فاس وبني مراکش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وجعلها عاصمة للدولة ، أما أبو بكر بن عمر فمضى



إلى الجنوب فى الصحراء يجاهد فى سبيل الله ونشر دينه حتى بلغ السودان ونهر النيجر ، وتوفى سنة ٤٨٠ ، وصار كل ما فتحه يدين بالولاء ليوסף فعظم أمره وشأنه . ومن سياسته الرشيدة أنه كتب إلى الخليفة العباسى ببغداد يبايعه ويطلب منه تقليدا بولايته على ما يده من البلدان وخاطبه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وثبت له هذا اللقب من حينئذ ، وبذلك أدخل المغرب الأقصى فى إطار الجامعة الإسلامية العربية ، واستصرخه أمراء الأندلس ضد نصارى الإسبان الشماليين ، فعبر الزقاق بجنوده ، وسحق أعداء الإسلام فى وقعة الزلاقة المشهورة فى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وأخذ الأندلسيون من حينئذ يندمجون فى سكان المغرب الأقصى بالزيارة والمصاهرة وخدمة دولة المرابطين والعمل فيها كتابا وقضاة وموظفين وعلماء يفدون على جامعة القرويين ومساجد مراكش وستة وطنجة وأصيلا وغيرهما من بلدان المغرب مما كان له أثر بعيد فى استكمال تعريبها .

وتحول مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى إلى دولة الموحدين ، ومر بنا فى الفصل الثانى - أن القبائل الهلالية بالجزائر : الأثيج وزغبة ورياحا وقرة وضعت يدها فى يد صنهاجة لحرب عبد المؤمن فأرسل إليها جيشا هزمها وولت على وجوهها لا تلوى على شىء تاركة وراءها نساءها وأولادها ، فأمر بحملهم إلى مراكش وأجرى عليهم نفقات واسعة ، وكتب إلى أمراء تلك القبائل المنهزمة بأن أبناءهم فى الحفظ والصون . وبذل لهم الأمان والكرامة ووفدوا عليه ، فرد عليهم نساءهم وأولادهم وأجزل لهم فى العطاء ، واحتفى بهم ، فملك قلوبهم ، ويقال إنه أحلفهم على السمع والطاعة له وعونه على الجهاد فى الأندلس مع القبائل المغربية ، وفى عودته من فتح المهديّة سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م نقل من تلك القبائل الهلالية ألفا من كل قبيلة وأسكنهم البلاد المغربية منتويا بنظره الصائب أن يعدهم عن الجزائر حتى تتخلص من عيّنهم فيها وأن يشغلهم بالجهاد فى الأندلس . وأتاح ذلك للمغرب الأقصى جمهورا كبيرا منهم امتزج بسكانه وأنسى كثيرين منهم الرطانة البربرية وأبدلهم منها الفصاحة العربية . وفى سنة ٥٥٨ عزم عبد المؤمن على الجواز إلى الأندلس فأرسل إلى الأعراب فى بجاية وإقليمها يستصرخهم إلى الجهاد فى سبيل الله بالأندلس فاستجاب له منهم - كما يقول صاحب المعجب - جمع ضخم ، فأنزل بعضهم نواحي قرطبة وبعضهم نواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . ودعا ابنه يوسف الخليفة بعده قبيلة رياح بالجزائر لنفس الغاية ، فوفد عليه منهم حشد ضخم وضعوا أنفسهم - كما مر بنا - تحت تصرفه ، وعبر كثير منهم معه الزقاق للجهاد فى الأندلس . وخرجت بقايا رياح وجشم والأثيج فى الجزائر على ابنه يعقوب ورددوا إلى طاعته ، ونقلها إلى المغرب الأقصى فأنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط وأزغار ، وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة وقبيلة الأثيج منطقتى دكالة وتادلة . وأخذ كثير من عشائر هذه القبائل ينساح داخل البلاد وعلى المحيط وفى السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ومنح يعقوب نوميديا أى الصحراء جنوبى

الجزائر والمغرب الأقصى لعامة العرب ، وتغلغلوا إلى وادي ملوية ودرعة ، وتغلغلت قبيلة المعقل في زمن ابن خلدون بقفار المغرب حتى المحيط . ومعنى ذلك كله أن بربر المغرب الأقصى اختلطوا اختلاطا واسعا بأعراب الجزائر عن طريق التعايش والمصاهرة والسكنى واتصل ذلك قرونا بحيث استحال سكان المغرب الأقصى شعبا عربيا لغة ودينا وتناولا للحياة إلا في بعض الجهات النائية في شواحق الجبال بأوراس والصحراء . وبكل ما قدمت يتضح أن لدولة الموحديين فضلا عظيما في تعرب المغرب الأقصى بما نقلت إلى أقاليمه من جموع العرب النازلين في الجزائر وأكبر الظن أنها لم تكن غايتها نقلهم إعدادا لجهاد الإسبان النصراني فحسب ، بل كانت غايتها أيضا تعريب المغرب الأقصى نهائيا بما أتزلت فيه من جموعهم الهائلة . أما ما يقال من أن ابن تومرت كان يؤلف كتبه بالعربية والبربرية وأنه كان يحاضر الجماهير باللغتين وأن الدولة - في بدء عهدها - بدلت الخطباء والأئمة في جميع البلاد ، وأنها اشترطت أن لا يؤم الناس ولا يخطبهم إلا من يحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت باللسان البربري . فلم يكن ذلك منها سياسة رجعية كما يقول بعض المعاصرين إنما كان ذلك منها حرصا - والبربرية لا تزال منتشرة في المغرب الأقصى - على إيصال عقيدة الدولة إلى العامة المغربية ، وكان لا يزال فيها جماهير بربرية لا تحسن العربية .

### (ب) كثرة الشعراء

تبدأ الحركة الأدبية في المغرب الأقصى مع نشأة الدولة الإدريسية أواخر القرن الثاني الهجري إذ كان بين أمرائها شعراء متعددون يتقدمهم إدريس الثاني (١٨٦ - ٢١٣ هـ) وتلاه من أبنائه وأحفاده وأسرته غير شاعر ، وأخذ الشعر يجرى على السنة بعض الشعراء المغاربة يمدحون به الأدارسة على نحو ما نجد عند إبراهيم بن أيوب النكوري ، وكانوا يهجون به خصومهم من البرغواطيين وغيرهم . ويظل الشعر يسيل على السنة بعض الشعراء في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، حتى إذا كان القرن الخامس الهجري طارت شهرة بعض الشعراء إلى البلدان العربية وخاصة الأندلس ، إذ نجد ابن بسام يترجم في الذخيرة لابن القابلة السبتي ويحيى بن الزيتوني الفاسي وللغني أبي بكر المرادي ويذكر أنهم وفدوا على الأندلس مادحين لأمرء الطوائف ، وأن آخرهم أتتجع أمراء المرابطين بالمغرب الأقصى في أوائل دولتهم ، وولاه محمد بن يحيى بن عمر اللمتوني قضاء معسكره المجاهد في بلاد السودان ، ويقول : « أخرجت مما وجدت من شعره ونثره ما يستخفُّ رواسي الجبال ، ويستوفى ضروب السحر الحلال » . وينزل طنجة في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري الشاعر القيرواني علي بن عبد الغني الحصري المبدع في شعره ، وتكوّنت حوله سريعا ندوة أدبية . ونمضى إلى عصر المرابطين ، فيشتهر لعهدهم ابن زبناح والقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ويترجم عماد الدين الأصفهاني

في كتابه الخريدة لنفر من شعراء المغرب الأقصى لعهد المرابطين ، هم اليمان بن فاطمة  
وعبد الله بن حماد المراكشي وعبد المؤمن بن يحيى السجلماسي ومحمد المكناسي المعروف بلقب  
ينطلق وحماد بن الرفا الفاسي وعلي بن يقظان السبتي القائل :  
أحسنُ إلى مصرٍ حينَ متيمٍ بها مستهَامَ القلبِ محترقَ الكبِدِ  
وهو حب قديم بين مصر وشعراء المغرب الأقصى .

ويأخذ الشعراء هناك في التكاثر منذ عصر الموحدين وكانت الدولة حفية بهم وبالحركتين  
العلمية والأدبية ، وكان عبد المؤمن المؤسس للدولة وحفيده يعقوب شاعرين ، وكان ينظم  
الشعر غير أمير موحدى ، ومن شعراء تلك الدولة عثمان بن عبد الله السلالجي المتوفى سنة  
٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومحمد بن حبوس المتوفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م وأبو الربيع الموحدى  
المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وابن الياسمين المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وأبو حفص  
عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وابن تولو القرشى التينملى المتوفى بمصر سنة  
٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م وفي نفس السنة محمد بن علي السلالقى ، وأبو العباس الجراوى المتوفى  
سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وعبد الواحد المراكشي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م وابن دحية  
المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م وابن الخبازة ميمون الخطايبى المتوفى سنة  
٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م وابن العابد الفاسي المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م وابن عبدون  
المكناسي المتوفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وابن المحلى المتوفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م والخليفة  
المرتضى الموحدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م .

ورعت الدولة المرينية الحركتين الأدبية والعلمية وكثر الشعراء فى عهدهما وفى مقدمتهم  
شعراء البيت المرينى من أمثال عبد الواحد بن يعقوب وعمر بن عثمان والسلطانتين أبى الحسن  
وأبى عنان وأخيه عبد العزيز ، وولتقى بعشرات من الشعراء من أمثال محمد بن عمر الدراج  
المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م وعبد العزيز المزورى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م  
ومالك بن المرهل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م وابن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب  
الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م وأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ /  
١٣٠٨ م ومحمد بن عمر بن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م والرحالة القاسم بن يوسف  
السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م وابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م وابن  
شعيب الطيب الأديب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م مثل عبد المهيمن الحضرمى ، ومحمد بن  
عبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م ومعاصره منديل بن آجرؤم وأبو القاسم  
الشريف المتوفى سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م وأبو عبد الله الزناتى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م  
ومحمد بن مصادف المتوفى سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٢ م وفى نفس السنة أحمد بن عبد المنان ، وعبد الرحمن



المكودي المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ومحمد بن جابر المكناسي المتوفى سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م وأحمد الحباك المتصوف المتوفى سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م والبهلول الوطاسي وإبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م ومحمد بن أحمد بن غازي المتوفى سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م وابن يجيش المتوفى سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م وفي نفس السنة الغزالي الفاسي وأحمد الدقون المتوفى سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م وعلى بن موسى بن هرون المتوفى سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م وعبد الواحد الوانشرسي المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م ومحمد بن عبد الرحمن الكراسي المتوفى سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م وغير هؤلاء كثير .

وخلفت الدولة السعدية الدولة المرينية ومضت ترعى العلماء والأدباء ، وبلغ السلطان المنصور الذهبي الغاية في ذلك ، إذ فتح السودان وجاءته منه كنوز الذهب فألقى بكثير منها في حجور الفقهاء والشعراء الذين كان يجمعهم إلى مجالسه ، وكانت مجالس علمية أدبية يتناظر فيها العلماء في الفقه وفي الحديث والتفسير ومختلف فروع العلم إذ كان - كما يقول ابن القاضي في كتابه درة الحجال - له قدم راسخة في كل فن من معرفة الشعر والخبر والمنطق والمعاني والبيان والأصليين والفقه واللغة والتفسير والحديث وعلومه والحساب والهيئة والهندسة والنحو وغير ذلك وكان شاعرا كما كان عالما وعمّ بنوالة الشعراء والعلماء ، فازدهرت لعهد هذه الحياتان العلمية والأدبية ازدهارا لعل المغرب الأقصى لم يعرفه من قبله . ونلتقى في عصره وعصر الدولة السعدية عامة بكثير من الشعراء مثل القصري الفاسي المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٩ م ومعاصره سعيد الحامدي المتوفى بعده بقليل وأحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م ومحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م ومعاصره داوود الدغوشي ، والزموري المتوفى سنة ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢ م ومحمد بن عبد الواحد الحسني وأخيه أحمد المتوفين سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م وعلى بن منصور الشيطمي المتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م والزرهوني المتوفى سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ومحمد بن علي الفشتالي المتوفى سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م وأحمد بن القاضي صاحب درة الحجال المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م وعبد العزيز الفشتالي وعلى بن أحمد الشامي المتوفين سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م ومحمد الوجدي الغماد المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وابن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م وأبي عبد الله المكلاطي المتوفى بعد سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م ومحمد المسناوي الدلائي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م والطيب بن المسناوي المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م . ومن ذكر أيضا في عصر الدولة السعدية عبد الواحد الحميدي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وعبد الواحد السجلماسي مفتي الحضرة أيام المنصور سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٧ م ومحمد بن عمر الشاوي سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م وإدريس بن راشد الحسني سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م ومحمد بن يعقوب الآيسي سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م

وأبى على المسفيوى سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م ويسوق المقرئ أسماء طائفة كبيرة من الشعراء فى كتابه : روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ومنهم من تقدم ذكره آنفا مثل عبد العزيز الفشتالى والموزالى وابن القاضى ، وعن لم يتقدم ذكره أحمد بن الغرديس التغلبى وأحمد بن محمد الآيسى ومحمد بن عبد العزيز الفشتالى وأحمد المرید المراكشى وأبو القاسم الوزير الغسانى وعلى بن عمران السلاسى ومحمد بن رضوان النجارى وعبد العزيز الجيار والحسن بن يوسف الزينى .

وترعى الدولة العلوية بدورها الحركتين العلمية والأدبية ، ومن الشعراء لعهدا محمد بن محمد بن أبى بكر الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م وأحمد الدغوغى معاصره ، وعبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م وأبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ / ١٠٧٩ م والرودانى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وعبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م والحسن اليوسى الصوفى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٢ م ومحمد البوعنائى المتوفى بعد سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م وأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م وعبد السلام القادري النسابة المتوفى سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م ومحمد بن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م وأحمد بن عبد القادر التاستاوى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م والحسن بن رحال المعدانى المتوفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وعبد القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ ومحمد الحاج الدلائى المتوفى سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م ومحمد بن زكري المتوفى سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وعلى مصباح الزرويلى المتوفى سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م وعبد الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م وعبد المجيد الزبادى المتوفى سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م ومحمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م وأحمد الهلالى السجلماسى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م وأبو مدين الفاسى المتوفى سنة ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م وابن الرنان المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م ومحمد بن الطيب القادري المتوفى بنفس السنة وأبو حفص عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م والتهامى بن الطيب أمغار وأحمد بن المهدي الغزال المتوفيان سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م والتاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ومحمد بن عثمان المكناسى المتوفى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م ومحمد الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ومحمد الرهونى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م وحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م ومحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٤ م والعربى المسارى المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٥ م وابن عمرو الرباطى المتوفى سنة ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٧ م .



## شعراء الموشحات والأزجال (أ) شعراء الموشحات

أخذت تنشأ - منذ عصر دولة المرابطين - علاقات أدبية بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وقدم من الأندلس إلى دياره بعض شعراء الأندلس بحثاً عن رعاة لشعرهم ، وكان بينهم غير وشاح ، وأول وشاح أمّ تلك الديار علي بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الكفيف المهاجر إلى الأندلس منذ سنة ٤٥٠ للهجرة فقد عبر الزقاق ثانية إلى طنجة سنة ٤٨٣ وأمضى بها الشطر الأخير من حياته وكان وشاحاً وشاعراً بارعاً فالتف حوله كثيرون من شباب طنجة ينشدون أشعاره وموشحاته وقد أنشد الصفدى إحداهما فى كتابه : « توشيح التوشيح » . وأوغل بعده ابن اللبانة الوشاح المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة فى ديار المغرب حتى بجاية فى الجزائر ونزل على أميرها باديس الحمادى (٤٩٨ هـ) ومدحه بموشحة بديعة أنشدها صاحب فوات الوفيات فى ترجمته . وأهم منه ابن بقى الوشاح الأندلسى نزيل سلا - بجوار الرباط على المحيط - على بنى عشرة قضاتها ، وكانوا بحورا فىاضة فى الجود فغمروه بعطاياهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخويه أحمد ويوسف ، وله فيهم موشحات كثيرة ، إذ أقام لديهم مددا متطاولة . وظل وراء هؤلاء الوشاحين الراحلين أو المهاجرين وشاحون كثيرون فى الأندلس يهدون موشحاتهم إلى حكامها من الأمراء المرابطين مثل ابن باجة المتفلسف وموشحاته البديعة فى أبى بكر بن تيفلويت المرابطى والى سرقسطة .

وعلى هذا النحو أخذت تتوثق الصلة بين الوشاحين الأندلسيين والشباب المغربى ، فإذا من هؤلاء الشباب من يعكف على موشحات الحصرى وابن بقى وابن باجة وأضرابهم حتى تمثل عذوبة النغم فيها وحسن اختيار الألفاظ وأخذ ينشئ على غرارها موشحات مغربية تفيض نعومة وسلاسة وحلاوة جرس ، ولم يتحقق ذلك توطأ فى عصر المرابطين القصير ، إنما حدث منذ أول عصر الموحدىين التالى لعصرهم على لسان ابن عرلة ، وسنفرده له ترجمة ، وتلاه غير وشاح مثل أبى حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٢ غير أنه لم تؤثر له موشحة . وجاء بعده فى العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى وجميع موشحاته نبوية فى مديح الرسول ﷺ ، وسنخصه بترجمة - وملتقى أواخر عصر المرينيين زمن الوطاسيين بوشاح بارع هو ابن سعيد عثمان المكناسى ، وله موشحة نبوية بديعة أنشدها ابن القاضى فى كتابه عن الخليفة المنصور والمقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض ، يستهلها بقوله<sup>(١)</sup> :

(١) انظر المنتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ص ٨٢١ وأزهار الرياض ٢٢٩/٢ .

يا عَرِيبَ الحى من حَتَّى الحِمَى      أُنْتَسِمُ عِيدى وَأُنْتَسِمُ عُرْسِى  
وهو استهلال رائع لما سيتلوه من المديح النبوى وقد عارض بها موشحتين قفلهما سبنى  
لابن سهل وابن الخطيب ، وهما بالترتيب : هل درى ظبى الحمى - وجادك النيث . وفى  
نهاية الموشحة يقول :

هِمَّتْ فى أَطْلالِ لَيْلى وَأنا      ليس فى الأطلال لى من أَرَبِ  
ما مرادى رامةً وَالْمُنْحَى      لا ولا لَيْلى وسُعْدَى مَطْلَبِى  
إِنما سؤلى وَقَصْدِى وَالنَّبى      سَيْدُ العُجْمِ وتاجُ العَرَبِ  
أحمدُ المَخارُ طَه مَنْ سَمَا      الشريفُ بنُ الشريفِ الكَيْسِ  
خاتمُ الرُّسُلِ الكَرِيمِ الْمُتَمَى      طاهرُ الأُصْلِ زكى النَّفْسِ

فهو إن هام صبابة بأطلال ليلى ليس له من مأرب فيها ولا فى تغنيه برامة والمنحنى حيث  
اللقاء المأمول ولا مطلبه ليلى ولا سعدى ولا غيرهما ممن يذكرهن إنما سؤله وقصده وكل مناه  
رسول الله سيد العجم وتاج العرب . والموشح بالغ الروعة ، ويذكر له الأستاذ ابن تاروت  
موشحا على غراره ختمه بهذا الابتهاج لربه :

طامعٌ فى رَحْمَةِ اللهِ وما      خاب عَيْدٌ طامعٌ لم يَأْسِ  
يا إلهى جُدْ علينا كَرَمًا      يا كَرِيمًا قَبْلَ أَنْ تُخَذَ الأَنْفَسِ

وما من مسلم إلا ويطمع فى رحمة الله الغفور الرحيم .

ويكثر الوشاحون فى عصر السعديين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور الذهبى ، وكان  
واسع الثقافة عالما مؤلفا ، كما كان أديبا شاعرا ، وازدهر العلم والأدب فى المغرب الأقصى  
بأيامه ، واستحالت مجالسه إلى مناظرات علمية متعمقة ومساجلات شعرية مع وفرة جوائزه  
وعطاياه ، وبنوه المؤرخون غربا وشرقا به ، وعليه قصر ابن القاضى كتابه : المنتقى المقصور  
على مآثر الخليفة المنصور تحدث فيه عن نسبه وحسبه وشيوخه وخلافته وسياسته وشمائله  
الحميدة وتعظيمه الميلاد النبوى وغزواته وعلو همته ، ويلم من حين إلى حين ببعض أشعاره ،  
ويذكر أن له موشحات كثيرة ، وينشد له موشحة ، يقول المنصور الذهبى فى غصنها الأخير<sup>(١)</sup> :

قلتُ لسه وقد نَهَدُ      وجدَّ فى حَرَبِى<sup>(٢)</sup>  
وغلَّبَ الظُّبىُّ الأَسَدُ      ففازَ بالغَلَبِ  
الشمسُ بُرْجُها الأَسَدُ      فاسعَ إلى قلبى

وهو يستغل ما يقوله الفلكيون من أن برج الشمس الأسد ، فيقول لصاحبه وقد اكتمل

(٢) نهدت الجارية : اكتمل شبابها .

(١) المنتقى ص ٦٦٢ .

لها شبابها وجدت في حربه غلب الظبي الأسد ، إذ الظبي شمس سناً جمالا ، ولا بد أن تحمل الشمس في برجها برج الأسد ، وواضح أنه يكنى عنها بالظبي وعنه بالأسد تظرفا . وكان أحمد بن القاضى وشأحا ، أنشد له المقرئ في ترجمته بكتابه : « روضة الآس العاطرة الأنفاس » موشحا نبويا ، استهله بقوله (١) :

لاَهْتَزَّازَ البَانِ وَقَتَ السَّحْرِ هَامَتِ الأرواحُ  
وَقِيَانُ الطَّيْرِ فَوْقَ الشَّجَرِ تجلب الأفرحُ  
يَا شَقِيقَ الرُّوحِ هَاتِ القَدْحَا من دنان الحان  
قَهْوَةً تُكْسِبُ قَلْبِي الفَرْحَا تطربُ النُّشْوَانُ  
كُلُّ مَنْ دَارَتْ عَلَيْهِ شَطْحَا مِنْ يَدَيَّ وَسَنَانُ (٢)

وواضح أنه استهل المدحة النبوية بالحديث عن الطبيعة الفاتنة وقت السحر وقد هامت بها الأرواح ، والطير فوق الشجر تصدح بأغانٍ تجلب الأفرح . ويلتفت إلى ساقى الخمر الصوفية في السحر يطلب إليه أن يناوله قدحا دهاقا منها يشبع في قلبه الفرح والبهجة ، وكل من دارت عليه كأنما يغيب عن نفسه فيشطح شطحات متوالية . ويتجه في الغصن الأخير من الموشح للرسول منشدا :

يَا رَسُولَ اللَّهِ غَوْتُ وَمَدَدُ يَا مَنِيعَ الجَارِ  
أَنْتَ - وَاللَّهِ - الكَرِيمُ المَعْتَمَدُ لَنزِيحِ الدَّارِ  
كُنْ شَفِيعِي يَا نَبِيًّا لَا يُرَدُّ إِنَّكَ المَخْتَارِ

وهو يسأل الرسول استغاثة ومددا لا ينقطع ، إذ هو الغيث المذرار ، ويضرع أن يكون شفيعه ، ويشير إلى أن شفاعته في أمته يوم الحشر لا ترد . ونمضى إلى عصر العلويين فنلتقى بوشاح بارع هو ابن زاكور وسنفرد له ترجمة ، ويلقانا بعده محمد بن الطيب العلمي تلميذه ، وموشحاته تموج بالعدوية ، غير أنه اتجه بها نحو الخمر والمجون . وحرى بنا أن نتوقف قليلا للحديث عن ابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور .

ابن (٣) غرلة

لسنا نعرف شيئا عن نشأته ، إنما نفاجا به في عصر عبد المؤمن (٥٢٤هـ / ١١٣٠م - ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) ، وأغلب الظن أنه عاش شطرا من حياته في عصر المرابطين ، وهو أول مغربي تمثل الموشحات والأزجال ، ويقول صفي الدين الحلبي في كتابه : « العاقل الحالى » إنه

الحلى تحقيق د . حسين نصار ، نشر هيئة الكتاب ( راجع الفهرس ) . وانظر موشحته في النبوغ المغربى ٣٢٠/٣

(١) روضة الآس ص ٢٦٣ .

(٢) وسنان : فاطر الطرف .

(٣) انظر في ابن غرلة كتاب العاقل الحالى لصفي الدين

كان ينظم الموشح والزجل والمزمن في القنن أي أنه كان يلحن أحيانا في الموشح ويعرب في الزجل ، والمزمن من الزنمة وهو المستلحق بالقوم ، فالموشح والزجل المزنمان كل منهما مستلحق بأصله . ويقول صفى الدين إنه كان يلحن أحيانا في الموشح ويعرب في الزجل قصدا منه واستهتارا ، ويقول : إذ القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته في كتابه : « دار الطراز » . ويقول صفى الدين مسترسلا : ومن موشحاته المزمنة الموشحة الطنائة الموسومة باسم « العروس » وفيها يصور عشقه لرؤيلة أخت عبد المؤمن الموحدى خليفة الموحدين ، وقد قتله بسببها لما وقع في نفسه من مطلعها وما يليه من اجتماعه بها . ويقال إنه كان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة ، وكانت هي أيضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة تنظم الأزجال الرائقة الفاتقة ، وينشد صفى الدين مطلع الموشحة وما يليه على هذه الشاكلة :

مَنْ يَصِيدُ صَيْدًا	فَلْيَكُنْ كَمَا صَيْدِي
صَيْدِي الْغَزَالَةَ	مَنْ مَرَاتِعِ الْأَسَدِ
تَنْشِي رُويدَا	كَيْفَ لَا أَصُولُ
تَعَجِّنُ الْغِلَالَةَ	ظِيئَةَ تَجُولُ
	صَاغَهَا الْجَلِيلُ
	إِذْ تَمِيسُ فِي الْبُرْدِ
	وَالرُّدَا مَعَ النَّهْدِ
	رُبَّ ذَاتِ لَيْلَةٍ
	وَالرَّقِيبُ فِي غَفْلَةٍ
	رُمْتُ مِنْهَا قُبْلَهُ
قِرٌّ قِرٌّ وَإِهْدَا	لَا تَكُنْ مُتَعَدِي
تَكْسِيرُ النَّبَالَا <sup>(١)</sup>	وَتَفْرُطُ الْعَقْدِ

وواضح في الموشح العذوبة والسلاسة وصفاء الألفاظ وحسن انتخابها .

وواضح أيضا ما في القفل الأخير من لحن في شطريه الثاني والرابع : « لا تكن متعدي - وتفراط العقد » والأصل : « لا تكن متعديا - وتفراط العقد » بفتح الدال ، وهو لذلك موشح مزمن ملحق بالموشحات المعربة . ويقال إن ابن غرله حين قدم ليقبل نظر في الناس من حوله وارتجل فقرة أنشدها من نفس وزن هذا الموشح يستنجد بعشيرته لتأخذ بثأره قائلا :

(١) النبلا : الأسار بالمغربية الدارجة .



خَدُّهَا الْأَسِيلُ      بَدَتْ مِنْهُ أَنْوَارُ  
 طَرَفُهَا الْكَحِيلُ      سَلُّ مِنْهُ بَتَّارُ  
 هَا أَنَا الْقَتِيلُ      فَهَلْ يُؤْخَذُ النَّارُ  
 قَدْ أُسِرْتُ عَبْدًا      وَلَمْ أَكُنْ بِالْعَبْدِ  
 مَتًّا لَا مَحَالَهُ      فَاطْلُبُوا دَمِي بَعْدِي

وفى كتاب العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات لفيليب الخازن موشح لابن نباتة ص ٧ وقيل إنه لابن غرلة وموشح ثان لابن غرلة ص ٢٣ وقيل إنه لصدر الدين بن الوكيل وموشح ثالث لأحمد بن حسن الموصلى ص ٦١ وقيل إنه لابن غرلة . والإجماع منعقد على أن له موشح العروس السالف ، وهو يصور مهارته فى اصطفاء اللفظ العذب والملاءمة بينه وبين غيره فى حسن الجرس وحلاوة النغم .

### ابن (١) الصباغ

يقول المقرئ فى الجزء الثانى من أزهار الرياض : « هو الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى » ويذكر المقرئ أنه قرأ له موشحات فى كتاب ألفه بعض الأئمة ورفعها للسلطان المرتضى الموحدى (٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م - ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) وأكثر المؤلف فيه من موشحاته وأشعاره فانتخب المقرئ منها غرراً من الموشحات وهى اثنتا عشرة موشحة وقصيدتين ومخمسا وجميعها فى المديح النبوى وآخر ما أورد له قوله :

تَرَكْتُ امْتِدَاحَ الْعَالَمِينَ وَوَلَدْتُ مِنْ      مَدَائِحِ خَيْرِ الْخَلْقِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى  
 سَأَجْعَلُهَا كَهْفَى وَحِصْنَى وَمَلْجَأَى      لَعَلَى بِالْأَمْدَاحِ أُسْتَوْجَبَ الْعِتْقَا

وموشحاته وقصائده فى الذروة من المديح النبوى ، وهو يث فيها هياما ملتاعا لأنه لا يستطيع المثول فى حضرة الرسول ﷺ وزيارة قبره الشريف واكتحال عينيه بنوره . ويشكو شكوى مرة من البعد عن محبوبه ويأمل دائما أملا حارا فى القرب منه ولقائه كما يأمل فى شفاعته من عذاب النار التى لا تطاق . ودائما يتمنى وقفة فى ذلك الحمى وتلك الربوع ، ودائما يتجدد شوقه وتتجدد صبايته ويتجدد هيامه ، ويرسل أناته وزفراته ولوعاته ودموعه المنهمرة ، يقول فى مطلع أولى موشحاته :

أَلْفَ الْمُضْنَى الشُّجُونَا      وَارْتَضَى الْأَحْزَانَ دِينَا  
 فَوْقَ صَفْحِ الْوَجْتَيْنِ      أَرْسَلَ الدَّمْعَ الْهَتُونَا

(١) انظر فى ابن الصباغ وموشحاته أزهار الرياض ٢٣٠/٢ وما بعدها .

يَقْطَعُ الأَيَّامَ حُزْنًا      وَبُكَاءَ وَعَوِيلًا  
فَارْحَمُوا صَبًا مُعْنَى      قلبه يُذَكِّي غَلِيلًا  
مُلْهَبَ الأَحْشَاءِ مُضْنَى      بِالنَّوَى أَضْحَى عَلِيلًا  
ذَابَ شَوْقًا وَحَنِينًا      وَسَقَامًا وَأَيْنِسًا  
وَشُئُونُ الْمُقْلَتَيْنِ      تَسْكَبُ الدَّمْعُ المَعِينَا<sup>(١)</sup>

ومنذ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد اعتاد بعض الشعراء الذين نظموا في الخمر والمجون أن ينظموا بعض زهديات مكفرة عن أشعارهم الماجنة ، وصنع ذلك بعض الوشاحين ، ونرى ابن الصباغ ومعاصره ابن عربى يخرجان بعض موشحاتهما الدينية بخرجات لموشحات ماجنة نظمها بعض الوشاحين ، ونفس هذه الموشحة الأولى لابن الصباغ ختمها بقوله :

وَبَلِينَا      وَابْتَلِينَا      وَاشْ يَقُولُ النَّاسُ فِينَا  
قُمْ بِنَا يَا نَوْرَ عَيْنِي      نَجْعَلُ الشُّكَّ يَقِينَا

وهذه الخرجة لموشح ابن الصباغ هي نفس خرجة ابن بقى للموشحة الثامنة في جيش التوشيح وهي موشحة ماجنة وفيها يقول ابن بقى في أول أغصانها :

قَمْ بِنَا نَجْلُو الكُوسَا      تَحْتَ أَظْلَالِ السَّحَابِ  
نَتَعَاطَاهَا عَرُوسًا      حَلِيهَا دَرُّ الحَبَابِ  
قَهْوَةٌ تُعْطَى النُّفُوسَا      عَزُّ أَيَّامِ الشَّبَابِ

وكأن ابن الصباغ يريد أن يكفر لابن بقى عن موشحته باستعارته لخرجتها ، ولعله يريد أيضا أن يلفت عنها الشباب وقد دارت في أفواههم إلى موشحة نبوية لعلها تدور مثلها على شفاههم . وموشحته الثانية في التشويق إلى مكة وطيبة على ساكنها الصلاة والسلام . ختمها بخرجة استعارها من موشحة لابن خزر البجائي منشدا كما يقول عند المقام النبوى :

تَغْرُ الزَّمَانَ المَوَافِقَ      حَيَّاكَ مِنْهُ بِأَيْتِسَامِ

وكأن نزول ابن اللبانة الوشاح الأندلسى ببجاية لم يذهب هدرا ، فقد نشأ بها - فيما بعد - ابن خزر على غراره . وكما أن ابن خزر نشأ على غرار ابن اللبانة فإن ابن الصباغ نشأ - في رأينا - على غرار ابن بقى الذى أقام طويلا فى سلا والمغرب الأقصى ، وسنراه ينظم موشحات مكفرة عن بعض موشحات أخرى . ولم يوضح المقرئ هل ابن الصباغ مغربى أو أندلسى ويؤكد أنه مغربى أن كتب التراجم والموشحات الأندلسية لم تذكره ، ونفس تكفيره عن موشحة لابن خزر البجائى يدل أو يؤكد أنه مغربى ، وموشحاته إنما عُرفت فى مراكش بتقديمها للمرتضى الموحدى . وتدل خاتمة موشحته الثالثة أنها مكفرة عن موشحة لابن بقى فى التغنى

(١) شئون العين : مجارى الدمع . المعين : السائل الغزير .

بمدح بنى عشرة قضاتها وخاصة يوسف بن القاسم بن عشرة . والموشحة الخامسة مكفرة أيضا لموشحة لابن بقي جعل خرجتها خاتمة لموشحة له على هذا النمط :

ليتني رَمَلَه على شَطِّ الْبَحْرِ يا ابني أو أطوم<sup>(١)</sup>  
وترى عينيَّ مذ تفلحُ سَحْرُ لبلاد السروم

والخرجة ذكر أولها في نهاية موشحة ابن الصباغ ، وكان كاتب النسخة لم يعن باستكمالها وهي كاملة في موشحة دينية مكفرة عند ابن عربي<sup>(٢)</sup> - وبالمثل الموشحة السادسة خاتمتها مشتركة عند ابن الصباغ وابن عربي<sup>(٣)</sup> وتجرى على هذه الصورة :

جَنَانُ يا جَنَانُ اجن من البُستانِ الياسمينِ  
وخَلُّ الرِّيحانِ بجرمة الرُّحمنِ للعاشقين

وقال الدكتور سيد غازي إنها خرجة لابن بقي في إحدى موشحاته<sup>(٤)</sup> . واجتماع ابن الصباغ وابن عربي في اقتباس هاتين الخرجتين من ابن بقي قد يدل على أن أحدهما حاكي صاحبه . وخاتمة الموشح التاسع عند ابن الصباغ فاتحة لموشحة ابن باجة في مدح أبي بكر بن تيفلويت حاكم سرقسطة المرابطي :

جَرِّرِ الذَّيْلَ أَيما جَرِّرِ وصيل الشُّكرَ منك بالشُّكرِ

والشطر الثاني في الأصل : « وصيل السكر منك بالسكر » وعدله ابن الصباغ ليتلاءم مع موشحه النبوي . واستعار ابن الصباغ خاتمة الموشحة الثانية عشرة الأخيرة من مطلع زجل للزجال المشهور البعبع مع شيء من التعديل على هذه الشاكلة :

يا فلانُ إن زُرْتَ حَبِيبِي إفتل اذنو بالرُّسَيْلا  
ليشْ أخذ عُنُقَ الخُشَيْفِ وسَرَقَ فَمَّ الحُجَيْلا

وأصل المطلع عند البعبع :

يا ليتني إن ريتُ حَبِيبِي إفتل اذنو بالرُّسَيْلا  
ليشْ أخذ عُنُقَ الغَزَيْلِ وسَرَقَ فَمَّ الحُجَيْلا

والرُّسَيْلا هي الرُّسَيْلة تصغير رِسْلة أي تودة وتمهل ، يريد أن يعرف حبيبه في ترفق معاتباً له ، والخشف ولد الظبية والحجلة طائر في حجم الحمام : والموشحات حب وهيام

(١) أطوم : سلحفاة .

(٢) انظر ديوان ابن عربي ص ١٢١ وكتاب في أصول

(٣) راجع ديوان ابن عربي ص ٨٦ .

(٤) انظر في أصول التوشيح ص ١١٠ .

توشيح نذكتور سيد غازي ص ١٠٨ .

بالرسول صلى الله عليه وسلم وصباية استحالت عند ابن الصباغ تراويل بديعة ، إذ استقر حب الرسول في قلبه واستأثر بكل ما فيه من شعور وعاطفة وهوى .

ابن (١) زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسي ، ولد حوالي منتصف القرن الحادي عشر الهجري وتوفي سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م وأكباً على الأدب والعلوم العربية منذ نعومة أظفاره ، وتفتحت شاعريته ومواهبه الأدبية مبكرة ، ولم يلبث أن أصبح إمام الشعراء والكتاب في عصره ، ولم يقف بشعره عند القصيد فقد نظم كثيرا من الموشحات ، ولذلك سمي ديوانه : « الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض » ، وله أعمال أدبية متعددة منها شرح على ديوان الحماسة سماه عنوان النفاسة ، وشرح على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم شرح ما خفى من القلائد وشرح على لامية العرب . ومن موشحاته موشح غزلي مطلعته :

مَنْ عَلَّمَ الْغَزْلَانَ      الْفَتَكَ بِاللَّيْثِ الْجَرِي  
وَسَلَّطَ الْعَيْنَانَ      عَلَى قُلُوبِ الْبَشَرِ

اللَّهُ فِي الصَّبِّ الْكَمِيبِ  
هَجْرُكَ لِلنَّفْسِ مَذِيبِ  
أَنْكِرِ لِلْبُؤْسِ سَلِيبِ<sup>(٢)</sup>

يَا ضَرَّةَ الشَّمْسِ  
يَا مَنِيَةَ النَّفْسِ  
حَدَّثْنِي حَدْسِي

عارض بهذا الموشح الغزلي موشحا لابن سهل ، وقد جعل مطلعته : « ليل الهوى يقظان » خرجة لموشحه ، وهو في الموشح جميعه كما في هذا المطلع يختار اللفظ السهل الذي يعجب ويروق دون تكلف أو تصنع . ويقول متغزلا في مطلع موشحة أخرى :

أدر الكاسات من خمر اللعس	يا لها من راح	تحكى الجئنار <sup>(٣)</sup>
واسقنيها خمرة تجلو النفس	علني أرتاح	من حر الأوار <sup>(٤)</sup>
بأبي ظبي رماني بسهام	ريشها الأهداب	تبرى الأفتده <sup>(٥)</sup>
مُزِقُ الْقَلْبُ الْكَلِيمِ الْمَسْتَهَامِ	إذ رنا وانساب	سيف جردده <sup>(٦)</sup>
عنبري الخال مسكي الخيام	يذهل الأبواب	در نضده

(٣) اللعس : سمرة جميلة في باطن الشفة . الجئنار : زهر الرمان .

(٤) أوار الحب والنار : شدتهما .

(٥) تبرى : تنحت .

(٦) الكليم : الجريح .

(١) راجع في ترجمة ابن زاكور النبوغ المغربي في الأدب العربي ٣٢٥/١ وقد نشر الأستاذ عبد الله كتون منتخباً من ديوانه وانظر فيه وفي موشحاته الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاريت ٧٧٩/٣ وكتون في النبوغ المغربي ٣٢٥/٣ وما بعدها .

(٢) حدسي : ظني وفراسي .



هتُ وجدا من سناه المقتبسُ      من سنا الإصباح      أو بدر أنارُ  
لاح حين افتسرُ ثغرُ كالمقبسُ      أزهرُ وضاح      أذكى زند نارُ<sup>(١)</sup>

والكلمات سلسلة حلوة تلذ الألسنة حين تنطق بها والآذان حين تصيخ إليها لرشاقتها من جهة ولما تشتمل عليه من تصاوير ممتعة من جهة ثانية . وله في مطلع موشحة يصف فيها الربيع :

قد اكتسى العريان      من مائس الأغصانُ      بالسُّندسِ  
وطررُ البستان      بالسورِدِ والريحانُ      والترجسِ  
هبتُ به الأزهار      بنسمة الأسحار      من الوَسَنِ  
وهاجت الأطيَّار      برائق الأشعار      أم الحسنِ  
تسبَّح الجبَّارُ      الواحد القهار      مولى المِنِّ

والشطور قصيرة وقصرها يزيد سلاسة ألفاظها ونعومتها جمالا وحسنا ، ودائما تلقانا في موشحاته هذه اللغة العذبة المصفاة المنتقاة ، إذ كان يعرف كيف ينتخب ألفاظه وكيف يلائم بينها في الجرس الموسيقى ملاءمات ممتعة .

#### (ب) شعراء الأزجال

الأزجال جمع زجل وهو في اللغة التطريب وسمى به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقابل للموشحة ، وقد نشأ بعدها في الأندلس بنحو قرنين ، حتى إذا كان عصر المرابطين كان الزجل قد استوى على سوقه وأصبح له زجالوه المشهورون كما للموشحات وشاحوها المشهورون ، ويبدو أنه دخل المغرب الأقصى مع الموشحات ، إذ يذكر صفي الدين الحلبي عن أول وشاح مغربي مشهور ، وهو ابن غرله ، أنه كان ينظم الموشح والزجل كما مر بنا ، ويقول عن رُميلة محبوبته أخت عبد المؤمن إنها كانت تنظم الزجل ، ويذكر لها مطالعا في زجل نظمته في ابن غرلة قائلة :

مَشَى السَّهْرُ حيرانُ      حتى رأى إنسانَ عيني وَقَفُ

ويتحدث ابن خلدون<sup>(٢)</sup> في مقدمته عن الزجل في الأندلس وأعلامه ، ويستطرد إلى الحديث عنه في المغرب الأقصى فيقول إن أهله استحدثوا فنا منه كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية ( يريد العامية ) وسموه عروض البلد ويذكر أن أول من أشاعه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، وسنفرده له ترجمة ، ويقول ابن خلدون إن المغاربة ولعوا به وجعلوه أنواعا ، منها المزدوج والملعبة والغزل ، ويذكر من كبار زجاليتهم ابن شجاع التازي

(١) أزهر : مضيء . وضاح : مشرق . أذكى :  
أوقد . الزند : الحجر أو العود الذي يقده به النار .  
(٢) مقدمة ابن خلدون ( طبع دار المعارف )  
ص ١٣٥٧ .

وستترجم له ، ويذكر منهم أيضا الكفيف الزرهوني المكناسي ويقول إنه أبدع في مذاهب هذا الفن ، ويذكر له زجلا في رحلة السلطان أبي الحسن المريني بجيشه إلى فتح إفريقية يريد أن يضم المغرب بعضه إلى بعض في وحدة مغربية ، وفتحها ونزل تونس ولم يلبث أعراب بنى سليم وإخوتهم من بنى هلال أن نصبوا لجيشه شركا في القيروان ودارت عليه الدوائر وعمى أمره على شعبه ، وانبرى الكفيف الزرهوني يعيب عليه في زجله غزوته إلى إفريقية التونسية وما كان من هزيمة الجيش في القيروان ، ويعزى الشعب عنها بما وقع لغيرهم من الشعوب ، وفيه يقول<sup>(١)</sup> :

عسكرُ فاس المنيرة الغراء	وين سارت بو عزائم السلطان
أحجاجاً تخللوا الصحرا	ودوا سرح البلاد مع السكان <sup>(٢)</sup>
عن جيش الغرب جيت يسألكم	المتلوف في إفريقيا السودا
لو كان ما بين تونس الغربا	وبلاد الغرب سد الإسكندر
لابد للطير كان يجي بنبا	أو يأتي الریح عنهم بفرذ خير
ما اعوصنها من أمور وما شرا	لو تقرا كل يوم علي الويدان <sup>(٣)</sup>
لجرت بالدم وانصدع حجرا	وهوت الأجراف وجفت الغدران

وهو يبكي عسكر فاس الغراء وتغريز السلطان ويسأل الحجاج الذين جابوا الصحارى عن الجيش التالف في إفريقية التونسية السوداء ويقول لو كان بين تونس وبلاد المغرب الأقصى سد الإسكندر أو سد يأجوج ومأجوج لحمل الطير الخبر عن هذا الجيش المريني الذي انبهم أمره ، وما أصعبها وشرها من أمور لو تقرا على الآذان لجرت العيون بالدم وتشققت الأحجار وهوت أجراف المضاب والجبال وجفت الغدران فيالقول المصاب ويا لنداحة الفاجعة المؤلمة . ولم يرزق المغرب الأقصى في هذا العصر الوسيط الذي نعنى بدرسه بزجال كبير بعد الكفيف الزرهوني ، وحرى بنا أن نترجم لابن عمير وابن شجاع التازي .

ابن عمير<sup>(٤)</sup>

ليس بين أيدينا عن حياة ابن عمير إلا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته إذ قال : إنه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس واستحدث لهم فنا من الشعر في أعاريض مزدوجة كالמושح نظموا فيه بلغتهم الحضرية واستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم وكثر شيوخه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ، ونظموا بجانب المزدوج أنواعا

(١) المقدمة ص ١٣٦٠ وانظر النبوغ المغربي ٣/٣٣٧ .

(٢) ودوا : أرسلوا . السرح : الزروع ودوابها .

(٣) الويدان : يريد الآذان .

(٤) انظر في ابن عمير العاقل الخالي ( راجع الفهرس )

ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٧ وما بعدها .

أخرى ، وكلها صور من الأزجال وأشكال . ونجد المصادر التاريخية والأدبية لا تعنى بابن عمير إلا ما كان من صفى الدين الحلى فقد ذكره مرارا فى كتابه العاطل الحالى ، وذكر مطالع خمسة أزجال له وجزءا من زجل ليس مطالعا ونعتقد أنه كان أمامه ديوان ابن عمير الزجلى وأخذ منه الأمثلة التى ضمنها كتابه ، ومن مطالعه التى ذكرها فى ص ٣٢ :

أنكرتُ شيبى مَنْ بُلِيَتْ بِبِهَا      كلٌّ من عاش يشيبُ  
إنما هى ملاحسة البستان      بالنسوار العجيبُ

ولاحظ صفى الدين أنه خفف الواو فى كلمة « النوار » فلم ينطقها مشددة كما فى أصلها ، بل نطقها مفتوحة مخففة . ومن مطالع أزجاله التى أنشدها له فى ص ٥٦ قوله :

يا حبيبَ قلبى تعطفُ      بعض هذا الهجر يكفأ  
دموغ عيني ما ترقا      وهيبَ قلبى ما يطفأ

ولاحظ صفى الدين أن كلمة يكفأ محرّفة عن « يكفى » بقلب الياء ألفا لتماثل الألف فى كلمة « يطفأ » . وأنشد ابن خلدون له زجلا طويلا لعله مما سماه عروض البلد يقول فى مطالعه :

أبكاني بشاطى النهر نوح الحمام	على الغصن فى البستان قريب الصباح
وكفّ السحر تمحو مِداد الظلام	وماء الندى يجرى بثغر الأقاح
باكرتُ الرياض والطلّ فيه افتراق	سرّ الجواهر فى نحور الجوار
ودمغ النواير ينهرقُ انهراق	يحاكى ثعابين حلقت بالثمار
لَووا بالغصون خلخال على كل ساق	ودار الجميع بالروض دُور السوار
وأيدى الندى تخرق جيوب الكمام	وتحملُ نسيم المسك عنها رياح
وعاج الضياء يطلى بمسك الغمام	وجرّ النسيم ذيلو عليها وفاح

والزجل مكتظ بصور فريدة من ابتكار ابن عمير ، فمداد الظلام الأسود يمحوه كف السحر الأبيض ، ويشبه الشعراء الأحقوان بالثغر فيضيف ابن عمير أن ماء الندى يجرى فيه ، ويقول باكرت الرياض والطل يتساقط والجواهر كأنها مسرورة بمكانها من نحور الجوارى الفاتنات ، والسواقى تذرّف الدمع مدرارا وكأنما يحاكي الماء فى قنواته أفاعى تريد أن تحلق بالثمار وقد استوت الغصون خلاخيل على سيقان الأشجار ، ودار كل ذلك فى الروض دور السوار ، وينفذ إلى تصوير مبتكر فأيدى الندى فى الصباح الباكر كأنما تخرق كمام الزهر بل جيوبه ، وتحمل عنها الرياح نسيم المسك العاطر ، وأخذ الضياء يعمه الغمام ، أو كما يقول ، يطلى بمسك الغمام ، وجرّ النسيم ذيل رداؤه عليه وفاح وسطعت رايحته سطوعا شديدا . وتمتلىء بقية الزجل بمثل هذه الصور البديعة فى حوار رائع بين ابن عمير والحمام . وبحق

كما يقول ابن خلدون استحسّن أهل فاس أزجال ابن عمير وشغفوا بها وفتنوا فتنة شديدة ومضوا  
ينظمون على نهجه وطريقته .

### ابن<sup>(١)</sup> شجاع التازي

لم يذكر عنه ابن خلدون شيئا إلا أنه من فحول الرجالين بالمغرب الأقصى وقال إنه من  
أهل تازا ثم أنشد له زجلين ، والزجل الأول أشبه بنقد اجتماعي ، وفيه يقول :

المال زينة الدنيا وعزّ النفوس      ينهى وجوهاً ليست هي باهياً  
فها كل من هو كبير الفلوس      ولؤه الكلام والرّبة العاليا  
يكبروا من كثر مالو ولو كان صغير      ويصغروا عزيز القوم إذا يفتقر  
حتى يلتقي من هو في قومة كبير      بمن لا أصل عندو ولا لو خطر  
أدى صارت الأذئاب أمام الرءوس      وصار يستمدّ السواد من الساقيا  
ضعف الناس عمل ذا أو فساد الزمان      ما ندريو على من نكثروا ذا العتاب  
أدى صار فلان اليوم يصبّح بوفلان      ولو ريت وكيف حتى يردّ الجواب

وواضح أنه يقول إن الموازين الاجتماعية اختلت ، فأصبح المال هو كل شيء : زينة الدنيا  
وعزّ النفوس حتى ليضفي البهاء على الوجوه غير البهية ، وها أنت ترى الناس يقدمون الثرى  
في الكلام ويولونه الرتبة العليا ويكبرونه ولو كان صغيراً ويصغرون عزيز القوم إذا افتقر ، حتى  
اختلطت المقاييس وأصبح كبير القوم يقرون بمن لا أصل له ولا خطر من الأثرياء ، وبذلك  
تقدمت الأذئاب الرءوس وتُرى هل هذا من ضعف الناس أمام الثراء أم من فساد الزمان ، لقد  
أصبح من لم يكن له لقباً يمنح الألقاب ويقال له أبو فلان إجلالا وتوقيرا ، وقد امتلأ غرورا  
حتى إنه لا يرد الجواب . والزجل الثاني الذي ذكره ابن خلدون موضوعه الغزل ، ويستله  
على هذه الصورة :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان      اهل يا فلان لا يلعب الحسن بيك  
ما منهم مليح عاهد إلا وخنان      قليل من عليه تحيس ويحيس عليك  
يتيهوا على العشاق ويتمنعوا      يتعمدوا تقطيع قلوب الرجال  
وان واصلوا من حينهم يقطعوا      وان عاهدوا خانوا على كل حال  
ومهدت لومن وسط قلبي مكان      وقلت لقلبي اكرم لمن حلّ فيك  
وهون عليك ما يعتريك من هوان      فلا بد من هول المسوى يعتريك

وما بعدها والنبوغ المغربي ص ٣٣٥ وما بعدها .

(١) انظر في ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٨



وهو يدعو في أول زجله إلى البعد عن الحسان الملاح لأنهن يَخُنُّن من يعاهدنه ولا يجسن أنفسهن على من يصفيهنَّ الودَّ ، ودائما يَتَهَنَّ على عشاقهن ويتمنعن ويجدن متاعا في تقطيع قلوبهم ، وإن واصلوا لم يلبثن أن يهجرن ، ولا عهد لهن ولا أمان . ومع كل هذه النصائح يقول إن واحدة منهن صبته وملأت قلبه حبا وهياما وأوصى بها قلبه حتى لو أذاقته هوانا بعد هوان !

٣

### شعراء المدح

المدح من أقدم موضوعات الشعر العربي ، وهو يحمل أمجاد الأمة على مر التاريخ ، ونراه دائما على ألسنة الشعراء في كل قطر وعصر يتغنون بالأمجاد التي يحققها الخلفاء والحكام ، ونراه في المغرب الأقصى منذ نشأت دولة الأدارسة ، وفيهم يقول - كما عند أبي عبيد البكري - إبراهيم بن أيوب من نكور في الشمال الشرقي للمغرب الأقصى على المتوسط ، ولعلها في إدريس الثاني :

أيا أُملى الذى أبغى وسولى      ودُنِيَّائى التى أرجو ودينى  
أأحرّم من يمينك رىّ نفسى      ورزقُ الخلق من تلك اليمين  
ويُحجّبُ عن جبينك طرفُ لحظى      ونورُ الأرض من ذاك الجبين  
وقد جبتُ المهامة من نكورٍ      إليك بكل ناجية أمون<sup>(١)</sup>

وابن أيوب لا يمدح فحسب ، بل يبالغ في مديحه ، إذ يجعل نور الأرض - فى المشارق والمغرب - يستمد من جبين ممدوحه الإدريسي . ونمضى بعد الأدارسة فى عصر أمراء الطوائف ولا نجد إلا شظايا متناثرة من بعض المدائح ، ونجد ابن القابلة السبتي يمدح قائدا ولعله من قواد المرابطين فى أول دولتهم ، ولم يبق من مدحته إلا ما أنشده ابن بسام فى الذخيرة من قوله فى بعض انتصاراته ووصفه لقتلاه<sup>(٢)</sup> :

تركهم نهبَ الفلاة ووحشها      شعورهم شعت وأوجههم غبر  
تظلُّ سياحُ الطير عاكفة بهم      على جثثٍ قد سلَّ أنفُسها الذعرُ  
وقد عوضتهم من قبورِ حواصلها      فى من رأى مينا يطيرُ به قبر

وهو يقول إن أرواحهم لم تسلها السيوف ، وإنما سلها الذعر من الممدوح وجيشه قبل السيوف ويقول إن الطير عاكفة على أجسادهم تأكلهم أكلا لَمًا ، وكأنما لم يعد التراب

(١) المهامة : القفار والغلوات . ناجية : ناقة سريعة . (٢) الذخيرة ٣٨١/١/٤ .

أمون : لا تعثر ولا تفتن .

قبورهم ، بل أصبحت قبورهم حواصل الطير. ويقول الحصرى نزيل سبتة يصف بأس المرابطين وشجاعتهم :

بنو الحربِ غَدَّتْهُمُ لَبانٌ تُدِيهاُ      وما استعذبوا منهن إلا العَلاقِمَا<sup>(١)</sup>  
يَحْتُونُ لِلهَيْجاءِ جُرْداً سَلاهِيا      وَيَنْضونُ في البِداءِ بَزْلا صَلاَدِما<sup>(٢)</sup>  
إِذا طَعَنوا بِالسْمَهريَّةِ خَلتْهُم      ضِراغِمُ تُغْرِى بِالقَلِلوبِ أراقِمَا<sup>(٣)</sup>  
وَإِنْ كَرَّ مِنْهُمُ ذُو لِثامٍ مَصمَّمٌ      غدا لَمِ الهِجاءِ بِالسيفِ لاثِما<sup>(٤)</sup>

والحصرى يقول عن المرابطين إنهم بنو الحرب رضعوا لبان ثديها ، مستعدين منها العَلاقِم وأشدّها مرارة كناية عن حسن بلائهم في الحروب الضارية ، وإنهم ليحشون لها خيلا جرّدا مقدّمة ويضنون في البوادي إبلا متينة صلبة ، وإنك لترى الرماح في أيديهم يدسونها - كأنها أفاع - في قلوب أعدائهم ، وإنك لترى المثلّم منهم إذا صمم وكرّ كأنما يريد أن يقبل الحرب بسيفه ، الذي يستأثر منه بكل مشاعره . وأنشد المقرئ في الجزء الرابع من أزهار الرياض للقاضي عياض السبتي مقطوعة بديعة يهنيء بها - كما نظن - على بن يوسف بن تاشفين بزفاف ولي عهده تاشفين على عروسه منشدا :

لِيَهِنَ العُلا أَنْ زُفَّتِ الشَّمسُ لِلبَدْرِ      وَحَلَى جَيدَ المُلْكِ بِالأَنجَمِ الزُّهْرِ  
وَقَرَّتْ عَيونُ المَجدِ آيَةً قِرَّةً      يَومِ تَعالَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الدَّهْرِ  
لَدُنْ ساعَةٍ أَفضتُ إِلى كُلِّ بَغِيَّةٍ      كما اَعْتَلقَ الغَواصُ بِالدَّرَةِ البِكرِ  
قَرانُ كَلا السَّعَدَينِ فيهِ تَلاقِيا      كما يَلتَقِى في المَقَلَّةِ الشُّفْرُ بِالشُّفْرِ  
لِتَجْرَ المَنيُّ في حَلبَتِيهِ مُغَدَّةً      فَحَقَّ لَها في مِثْلِ ذَلكِ أَنْ تَجْرى<sup>(٥)</sup>  
بِسَعْدِ أَميرِ المُسلمينِ تَطَلَّعَتُ      أُساريرُهُ تَندى بِمَائيَّةِ البِشْرِ<sup>(٦)</sup>  
تَمَنّاهُ نَجَلُ المُلْكِ حَظّا مَمْتَعًا      بَعزُ إِلى عِزٍّ وَقَدَرٍ إِلى قَدَرِ

وهو يقول : لتهنأ العَلا فقد زُفَّتِ الشَّمسُ الساطعة إلى البدر المنير ، وزين جيد الملك بالأنجم الزهر المتلألئة ، وأصبح المجد قرير العين يوم زفاف تسامى على الدهر ، حين أتاحت لولى العهد كل أمنية ، وظفر بها ظفر الغواص بالدرة اليتيمة ، وإنه لقران تلاقى فيه سعدان كما يتلاقى في العين الجفنان ، ولتجر المني في حلبتيه وتمرح ما شاء لها المرح ، فذلك سعد أمير المسلمين ، وتلك أساريره يترقرق فيها رونق البشر ، وهو كل ما كان يتمناه نجله حظا سعيدا هائلا بعز

(٤) ذر لثام : كان المرابطون يضعون لثاماً على وجوههم ، ولذلك سماوا المثلّمين . لاثما : مقبلاً .  
(٥) مغدة من أغذ السير إذا أسرع فيه .  
(٦) أسارير الوجه : محاسنه . مائية : رونق .

(١) العَلاقِم : جمع علقم : شديد المرارة .

(٢) حرّدا : قوية . سَلاهِيا : طويلاً . ينضون : يهزلون . بزلا : إبلا ناضجة متينة . صَلاَدِما : صلبة .  
(٣) السمهريّة جمع سمهري : الرمح . ضراغم : أسد .  
أراقم : جمع أرقم : أُنخبث الحيات والأفاعي .

إلى عز وتجلة إلى تجلة . وترمز هذه المقطوعة إلى ما أصاب الشعر المغربي من نهضة منذ عصر المرابطين ، وستترجم لابن زنباع أحد شعرائه . ونمضى إلى عصر الموحدين وولتقى بابن حبوس شاعر عبد المؤمن والجرأوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور وحفيده الناصر ، وسنفرد لكل منهما ترجمة . : كان عبد المؤمن قد استوزر أبا جعفر بن عطية واستكبه ، ثم جرت له محنة معه فزجَّ به في سبب السجون وقتله ، وأرسل إليه ، وهو سجين يستعطفه ، أبياتا شعرية افتتحها بقوله<sup>(١)</sup> :

عظنا علينا أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد صادفتنا سهام كلها غرض	ورحمة منكم أوقى من الجن <sup>(٢)</sup>
من جاء عندكم يسعى على ثقة	بنصره لم يخف بطشا من الزمن
أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم	من دون من عليهم لا ولا ثمن
وخن من بعض من أحييت مكارمكم	كلنا الحياتين من نفس ومن بدن
وصيبة كفراخ الورق من صير	لم يألفوا النوح في فرع ولا فن <sup>(٣)</sup>
قد أوجدتهم أياد منك سابغة	والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وهي أبيات تلين القلوب القاسية وتملؤها رحمة وبراً وإشفاقاً ، ولكن قلب عبد المؤمن لم يكن له ولا أخذته فيه رافة ولا رحمة ، وظل غاضباً عليه حتى أذاقه حتفه . وكان ابنه يوسف محبوباً من شعبه وكان عالماً واسع المعرفة وقرب المتفلسفة والشعراء منه ، ولأبي حفص عمر السلمى مدحة طويلة فيه أنشدها المقرئ في أزهار الرياض استهلها بقوله<sup>(٤)</sup> :

اللَّهُ حسبك والسبع الحواميم	تغزو بها سبعة وهي الأقاليم
سبع المثاني التي لله قمت بها	عليك من سيرها نصر وتقديم
وأنت بالسور السبع الطوال على	كل الوري حاكم بالله محكوم

ولعل يوسف كان أمضى من حكمه سبع سنوات ، فخال الله يرعاه والسور الحواميم السبع كأنما يغزو بها العالم وأقاليمه السبعة كما كان يظن الجغرافيون حينئذ ، والسبع المثاني وهي سورة الفاتحة التي لا يزال يقوم بها مصليا لربه وداعيا تحفظه وتكفل له النصر والتأييد . وتؤكد السور السبع الطوال : البقرة ، وتالياتها حتى التوبة أنك محكوم وحاكم بكتاب الله وما جاء فيه من الإخاء بين المسلمين والمساواة والعدل الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه . ومضى عمر السلمى في قصيدته يسترسل في بيان تعمق يوسف في العلم وتدقيق الخير على رعيته من يده ، ويقول مبالغاً إن الشرق والغرب والبحر والبر من سهل وجبل يدين له ، ويشيد بعلمه وكرمه

(٣) الورق : الحمام . فنن : غصن .

(٤) أزهار الرياض ٣٦٢/٢ .

(١) النبوغ المعري ١٦٦/٢ .

(٢) الجن جمع حنة : الوقاية .

واقدامه فى الحرب وشدته على العصاة ، ويختم القصيدة بمبالغات طالبا إلى سامعيه أن يجثوا على الركب إعظاما ليوسف . وبحق يمجّد انتصار يعقوب بن يوسف فى موقعة الأرك التى سحق فيها نصارى الإسبان ومزق جموعهم تمزيقا ، وكان حريا بابن سعيد أن ينشد القصيدة كاملة فى كتابه الغصون اليانعة ، ومما أنشده قوله ليعقوب<sup>(١)</sup> :

أطاعتك الذوابل والشفار	ولبى أمرك الفلك المدار <sup>(٢)</sup>
بيشرى مثل ما ابتهجت رياض	وسعد مثلما وضع النهار
وفتح مثلما انفتحت كمام	وشقت عن صدور مَهَّما صدار <sup>(٣)</sup>
وآمال كما مدت ظلال	وأفعال كما مدت بحار
وأعلام بنصرك خافقات	لها فى كل جو مستطار
ليهنى أرض أندلس بدور	من السراء ليس لها سيرار <sup>(٤)</sup>

وهو نصر عظيم فى الأرك طوّق يعقوب يمجّد وفخر لا يماثلهما فخر ومجد . وكانت دولة الموحدين دولة ظاهرية كما مر بنا فى الفصل الثانى ، وكانوا يدعون إلى المذهب الظاهرى وإلى نذب كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ويسمونها كتب الفروع . ولا نصل إلى عصر يعقوب حتى تبلغ هذه الثورة على كتب المذاهب الأربعة الكبرى غايتها فيأمر بإحراقها بعد أن يجرد ما فيها من آى القرآن والأحاديث النبوية وأن يُحمّل الناس على الظاهر من الذكر الحكيم والحديث الشريف ، وينوه بذلك غير شاعر فى مديحه ، من ذلك قول قاضى قضاته أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان كما جاء فى الغصون اليانعة لابن سعيد<sup>(٥)</sup> :

نصيرتُم لأن الحق آن ظهوره وناصيره فى الله ما كان يُخذل  
قطعتُم فروعًا قد أضرت بأصلها ألا هكذا من كان بالعدل يشمل

والأصل الذى يقصده هو القرآن والحديث النبوى الذى يأخذ بهما الظاهرية . ويقول ابن سعيد فى الغصون اليانعة إن لابن الياسمين قصيدة منصورية يذكر فيها قطع المنصور الاشتغال بكتب الفروع أى كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية ، وينشد منها قوله<sup>(٦)</sup> :

أسيدنا قد وردتُم بنا  
نبتتُم مقالة هذا وذا  
موراد كنا عليها نحوم  
فزال المرء وقل الخصوم

(٤) السرار : آخر ليلة فى الشهر يريد أنها بدور منيرة من المسرة والرخاء لا يعقبا أى ظلام .

(٥) الغصون اليانعة ص ٣٠ .

(٦) الغصون اليانعة ص ٤٧ .

(١) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ص ٩٦ .

(٢) الذوابل والشفار : الرماح والسيوف .

(٣) الصدار : ما تلبسه المرأة على صدرها .



وَأَثَبْتُمْ قَوْلَ مَنْ لَفِظَهُ      هُوَ الشَّرْعُ وَالْحَقُّ مِنْهُ يَقُومُ  
فَلَا زَلْتُمْ لِكَمَالِ الْمُدَى      وَإِحْيَاءِ دَارِسِ دَرَسِ الْعِلْمِ

وهو يشير إلى ما كان قد أمر به يعقوب الفقهاء في أيامه من جمع الأحاديث الصحيحة من مصنفات عشرة ، هي كتب الصحاح ماعدا ابن ماجة والموطأ وسنن الزيار ومسنن ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ، فجمعوها له فكان يملئها بنفسه على الطلبة ويجعل لمن حفظها مكافأة سنية .

ونمضى إلى عصر المرينيين وأول شاعر كبير نلتقى به في عهدهم مالك بن المرحل ، وهو شاعر أهم سلاطينها في أوائل عهدها يعقوب بن عبد الحق ( ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م ) وله يهنته بافتتاحه مدينة مراكش<sup>(١)</sup> سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م :

فَتَحَّ تَبَسَّمَتِ الْأَكْوَانُ عَنْهُ فَمَا      رَأَيْتَ أَمْلَحَ مِنْهُ مَبْسِمًا وَفَمَا  
فَتَحَّ كَمَا فَتَحَ الْبَسْتَانَ زَهْرَتَهُ      وَرَجَّعَ الطَّيْرُ فِي أَفْئَانِهِ نَعْمًا  
فَتَحَّ كَمَا انشَقَّ صَبْحٌ فِي قَمِيصِ دُجَى      وَطَرَّفَ الْبَرْقُ فِي أَرْدَانِهِ عِلْمًا  
أَضْحَتْ لَهُ جَنَّةُ الرُّضْوَانِ قَدْ فَتَحَتْ      أَبْوَابَهَا وَفَوَّادُ الدُّنْيَا قَدْ نَعِمًا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا مَا وَعِدْتَ بِهِ      يَا خَيْرَ مَنْ وَلِيَ الدُّنْيَا وَمَنْ حَكَمًا  
لَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعَدًّا كَانَ وَعَدُهُ      فَاشْكُرْ يَضَاعَفُ لَكَ الْحِظُّ الَّذِي قُسِمًا  
سَبْحَانَ مَنْ بِجَمِيعِ الْفَضْلِ أَفْرَدَهُ      وَمَنْ حَبَّاهُ السَّجَايَا الْغُصْرُ وَالشُّيْمَا

وهو يمجد فتح يعقوب المريني لمراكش مدينة المغرب الأقصى الكبرى أعظم تمجيد ، فقد ابتسمت لفتحه الأكوان ، كما يتفتح البستان المونق عن زهراته ، والطير تصدح مبتهجة على أغصانه وكأنما فتحت له أبواب الفردوس ، ونعم فؤاد الدين بهذا النعيم العظيم . والشاعر يحمد الله أن تحقق ليعقوب كل مأموله من ربه ، مما لا يسعه معه إلا مضاعفة الشكر ، والله جل في علاه جدير بكل حمد إذ أفرد به بكل فضل وحباه بكل سجية وشيمة شريفة . ويعقوب من سلاطين المسلمين الذين يستحقون هذا الثناء لا بفتحه مراكش ، ولكن لأنه رصد نفسه وجيشه المغربي لجهاد نصارى الإسبان ، وقد جاز لهم بجيشه الزقاق أربع مرات : سنة أربع وستين وسبع وسبعين وإحدى وثمانين وأربع وثمانين قبل وفاته بعام واحد ، وفي كل مرة كان يسحقهم سحقاً ، وبذلك أعز الإسلام والمسلمين في غرناطة والعدوة الأندلسية ، وكان كل ما يغنمه يقدمه لسلاطينها من بنى الأحمر بنفس راضية . وكان يسمى بالسلطان المجاهد والملك العابد لربه . وللقاضي أبي عبد الله القشتالي يستمنح<sup>(٢)</sup> أبا عنان ( ٧٤٩ - ٧٥٩ هـ ) :

(٢) النبوغ المغربي ٢٢٠/٣

(١) انظر النبوغ المغربي ٢١٢/٣ .

أيا إماماً ندى كفيه قد وكفاً  
وكيف أصرف وجه القصد عن ملك  
ما إن شكوت بما أضنى تطلبه  
ولا وقتت عليه متهى أمل  
فى كل يوم له تجديد عارفة  
وليس ممن يرى أن لا يُتيح يداً  
حسبى اعتصامى بجلب منكم وكفى  
ما صد عنى سناً بشر ولا صرفاً  
إلا وجدت به لى من ضنأى شفا  
إلا قضى وطرا منه وما وقفا<sup>(١)</sup>  
مهما انقضت هذه لهذه اثتفا<sup>(٢)</sup>  
حتى يقام له بشكر ما سلفا

وهو يقول لأبى عنان إن ندى كفيك قد سال وفاض على جميع الناس ، وحسبى أننى  
أعتصم منك بعهد ومودة باقية ، ولن أنصرف عن قصدك وكيف أنصرف وأنت دائماً تلقانى  
ببشر وترحاب وما شكوت ضنا إلا شفيتى منه ، ولا أملت فيك أملاً إلا حققت لى شطرا  
منه ، وفى كل يوم يتجدد منك عارفة وإحسان وما ينقضى إحسان حتى تستأنف إحسانا آخر ،  
وإنك لتقدم أفضالك غير منتظر على فضل شكرا . وسنفرده لأحمد بن عبد المنان شاعر أبى عنان  
ترجمة . ولمحمد بن أحمد الشبوكى يمدح أبا فارس المرينى قائلاً<sup>(٣)</sup> :

هو الإمام الذى من أم ساحته  
ومن تخلف جهلاً عن إجابته  
قل للذى عنه أقصته جرائمه  
زرّ حضرة الملك الميمون طالعه  
فطبعه الصّفح والمعروف شيمته  
جادت عليها بجدواها أنامله<sup>(٤)</sup>  
سارت إليه على علم صواهله<sup>(٥)</sup>  
وعقلته عن العلياً معاقله<sup>(٦)</sup>  
تحظى بما أنت فى ذنباك آمله  
والحلم والصون والتقوى شمائله

فهو الإمام الذى يغمر من يقصده بعطاياه ، والجاهل هو الذى يتخلف عن إجابته فتغزوه  
خيوله وجيوشه ، وما أحرى من أبعده عنه جرائمه وحبسته عن العلياء من الصلة به معاقله أن  
تبتسم له الدنيا وتتحقق له آماله إذ طبعه الصّفح والغفران وشيمته زرّع المعروف والحلم والصيانة  
والتقوى ومخافة الله .

وإذا انتقلنا إلى عصر السعديين التقينا بمعركة كبرى بينهم وبين البرتغاليين فى وادى  
المخازن بقرب مدينة القصر الكبير سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م وكان يقود جيش البرتغاليين  
ملكهم سباستيان وكان السلطان عبد الملك السعدى مريضاً وحضر المعركة أخوه أحمد ،  
ومن قائل كان الجيش البرتغالى ثمانين ألفاً ومن قائل كان مائة ألف ، أسير أكثرهم ، وقتل  
ملكهم فى المعركة وتوفى السلطان عبد الملك وتولى أخوه أحمد الملقب بالمنصور الذهبى .

(٤) أم : قصد . جدواها : عطاياها .

(٥) صواهله : خيله .

(٦) عقلته : حبسته .

(١) وطرا : مأربا .

(٢) عارفة : مكربة . اثتفا : استأنف .

(٣) النبوغ المغربى ٢٢١/٣ .

وللشعراء فى هذه المعركة والإشادة ببطولة المنصور فيها قصائد كثيرة ، منها قصيدة داود بن عبد المنعم الدغوغى ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

جَنَا النَّصْرُ مَا بَيْنَ الظُّبَا وَالْكَنَائِنِ  
وماذا يفيد الجيش إن كان ربه  
يُسْرَبُ نَحْوَ الْمَغْرِبِينَ جنوده  
وخيم فى تلك الجهات وعينه  
وشبت لظى الهيجاء ليس وقودها  
وذلك يومٌ مثل بدرٍ وصنوه  
لقد ذاق فيه البردقيز من الردى  
على سابقات المذكيات الصوافن<sup>(٢)</sup>  
كسيبسطيان عند وادى المخازن  
كمثل الدبا عن ماخرات السفائن<sup>(٣)</sup>  
لمراكش الحمراء لا لتطوان  
سوى أنفس الشجعان وسط الميادين  
حين بأيدى المؤمنين الميامن  
جزاءً مناحيس خزايا ملاعن<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إن ثمار النصر دائما تجلبها السيوف وكنائن السهام على سابقات الخيل الفتية القارحة ، ولكن ماذا يفيد الجيش إن كان قائده مثل سباستيان عند وادى المخازن ، وقد ظل يدفع بجنود مثل الدبا أو الجراد من السفن ماخرات المحيط ، وخيم فى تلك الجهات وعينه على المدينة الكبرى مراكش لا على تطوان أو غيرها . وشبت المعركة وقودها البرتغاليون وإنه ليوم نصر عظيم للمسلمين كيوم بدر وصنوه يوم حين ، وذاق البرتغاليون فيه من الموت أصنافا عقابا وتنكيلا مناحيس مستخزين . ومعركة ثانية كبرى خاضتها جيوش المنصور الذهبى لكن لا فى الشمال، وإنما فى الجنوب ببلاد السودان ، فقد أمر سنة تسعمائة وثمان وتسعين بتجهيز جيش لغزو بلاد السودان ، ففتحها واستولى على إقليم توات فى الجنوب الشرقى للمغرب وإقليم تيجورارين شمالى إقليم توات، وغير ذلك من البلاد ، وتوغل فى السودان وألقى فى حجره بذهب كثير أثرت به الدولة، وفى هذا الفتح يقول الشيطمى<sup>(٥)</sup> أحد قواد المنصور :

سهمٌ من الغرب قد أصمى الأسود إذ  
وحين صموا عن الإنذار أسمعهم  
تراه ينفث من أفواهها بردًا  
مدافع أبطلت للسهود حكمتها  
وما استقاموا إلى أن جرّدت لهم  
صموا وهم حيث بحر النيل مورود<sup>(٦)</sup>  
صواعقًا ينداها الموت معقود  
ينقض حيث فؤاد القرين مرصود<sup>(٧)</sup>  
فلم يفيد معها نفث وتعقيد<sup>(٨)</sup>  
بيض وأشرعت السمر الأماليد<sup>(٩)</sup>

(٥) الوافى بالأدب العربى لابن تاريت الطنجى ٦٧٨/٣ .  
(٦) أصمى : أصاب إصابة قاتلة . صموا : لم يسمعوا .  
(٧) بردا : يريد الشاعر بارودا .  
(٨) النفث والتعقيد يراد بهما تعاريف السحر .  
(٩) ييض : سيوف . سمر أماليد : رماح لينة فاتكة .

(١) النبوغ المغربى ٤٣/٣ .  
(٢) جنا : ثمرة . الظبا : السيوف . الكنائن جمع كنانة : وعاء السهام . المذكيات : الخيل القارحة .  
الصوافن جمع صافن : يريد المتأهية للحرب .  
(٣) الدبا : الجراد . ماخرت السفينة : شقت الماء .  
(٤) البردقيز : البرتغاليون .

والشيظمي يتصور كأن سهما انصبَّ من المغرب ففضى على السودانيين إذ أصابهم - وهم حاشدون على نهر النيل - ما يشبه الصمم ، فلم يسمعوإ إنذار المدافع المدوى وما تنفث من أفواهاها من قذائف قاتلة ، مدافع أبطلت للسود حكمتهم فلم ينفعهم نفث ولا تعويذات ، وسرعان ما قومتهم السيوف والرماح واستلموا خانعين . وشعراء المنصور كثيرون وستترجم لشاعريه الهوزالى وأحمد بن القاضى .

واستولى المنصور على مدينة أصيلا من أيدي البرتغاليين ، وهنأه بذلك الشعراء ، ويتوفى ويتنازع أولاده بعده على الحكم ، ويتنازل أحدهم - وهو المأمون - عن مدينة العرائش ، لإسبان وأسسوا لهم بالقرب منها مدينة المهديّة . واستولوا على سبتة وطنجة من أيدي البرتغاليين كما استولوا على الجديدة وأزمور ، وتعلق أمل الناس بالمتصوفة فى مقاومة البرتغاليين وإسبان ، وانتعشت الزاوية الدلالية فى تادلة إلى أن دمّرها السلطان العلوى الرشيد سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٩ م ونقل شيوخها. وفى مقدمتهم شاعرها الكبير اليوسى إلى فاس . وأهم من هذه الزاوية وشيوخها فى مقاومة الإسبان الشيخ الصوفى أبو عبد الله محمد العياشى الذى تصدّى - ومعه جماعات الفدائيين المجاهدين - لإسبان ، فخلص منهم مدن العرائش وأزمور والجديدة وتوفى سنة ١٠٥١ هـ / ١٦٤٢ م واستولى الخضر غيلان أحد رجاله - فيما بعد - على مدينة القصر الكبير . وفى العياشى يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاى مصورا محبة الشعب له لجهاد أعدائه وأعداء الدين الحنيف<sup>(١)</sup> :

حديثُ العلا عنكم يسيرُ به الركبُ	وينقله فى صُحفهِ الشرقُ والغربُ
وحبُّكمُ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ	تُنالُ به الزُّلفى من الله والقربُ
وأنت رفيعٌ من أصولٍ رفيعةٍ	نجومُ الدياجى فى الأنام لها سربُ <sup>(٢)</sup>
سمى رسولِ الله ناصرُ دينهِ	تجلّى بكم عن أفقه الشكِّ والريبُ

وكما تغنى الشعراء طويلا فى العهد السعدى بانتصارات المنصور الذهبى كذلك تغنوا فى العصر العلوى بانتصارات السلطان إسماعيل العلوى (١٠٨٤هـ/١٦٧٢م - ١١٣٩ هـ/١٧٢٧م) فقد استرد المهديّة من إسبان سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وطنجة من الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م والعرائش من إسبان سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م وأصيلا سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م . وكان لاسترداد العرائش فرحة كبيرة فى قلوب الشعب إذ كانوا من شدة الحزن والأسى لاستيلاء إسبان عليها أن لبسوا الأحذية السود ، ولم يخلعوها من أرجلهم إلى أن استردها السلطان إسماعيل فلبسوا الأحذية الصفرة . وأتخذت مدينة العرائش وما تم من استعادتها على يد السلطان إسماعيل محورا

(١) الوافى لآين تاريت ٧٢٩/٣ .

(٢) سرب : جماعة .



تدور من حوله مدائح وتهنئاته ، من ذلك تهنئة لمفتى فاس عبد الواحد البوعناني وسنخصه بكلمة . واستثاره عبد السلام جسوس إسماعيل حتى يسترد سبته من يد الإسبان كما استرد العرائش ، يقول<sup>(١)</sup> :

رفعت منازل سبته أقوالها      تشكو إليكم بالذي قد هالها  
فلقد قضيتم للعرائش حاجة      مع طنجة فاقضوا لذي آمالها  
إن لم تكونوا آخذين بثارها      من ذا يفك من الوثاق جبالها  
فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا      حتى تراهم نازلين جبالها

وليوسف بن محمد الشوذري أرجوزة صور فيها معركة العرائش مشيدا فيها ببطولات المجاهدين ، ومن قوله في وصف الخطة الحربية<sup>(٢)</sup> :

قد حل نصف الجيش أرض الساحل      مقابل المرسي لمنع الداخل  
ونصفه حل على سور البلاد      طوقها بأسرها طوق القلاد  
لما رأى الكفار ما أذهلهم      وشدة الأمر العظيم هالهم  
وكان بالمرسي مراكب لهم      موثوقة دارت بها جبالهم  
ارتقبوا الليل وقد جن الظلام      واختلسوا في زورق مثل السهام

وهو يقول إنهم فرّوا ليلة خلصة في زوارق حملتهم في الظلام الدامس المعتم إلى سفنهم ، فطاروا بها إلى المحيط فارين من وجه الموت المرعب المخيف . وحرى بنا أن نترجم لمن وعدنا بالترجمة لهم .

ابن زباع<sup>(٣)</sup>

من أهل طنجة كما يقول القلقشندي ، اختلف إلى الكتاب حتى حفظ القرآن ، ثم شغف بحلقات العلماء حتى أتقن العلوم الدينية والعربية وعلومها البيانية واللغوية ، وترجم له الفتح بن خاقان في القلائد ، ومن قوله في التعريف به : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وأرجازها » وأضاف أنه عالم بالطب « موفق العلاج ، واضح المنهاج » . وقد يفهم من ذلك أنه توسع في الاطلاع على علوم الأوائل واختار منها الطب فتمعقه كما تعمق الفقه والدراسات الدينية مما جعل دولة المرابطين تختاره قاضيا بطنجة كما اختارت

تأريث ٣١/١ وما بعدها والنيوغ المغربي للأستاذ عبد الله  
كنون ١٠١/١ والتعريف بالقاضي عياض لابنه محمد ،  
تحقيق د . بنشريفية ( طبع الرباط ) .

(١) الوافي ٨٤١/٣ .

(٢) الوافي ٨٤٥/٣ .

(٣) انظر في ترجمة ابن زباع وشعره القلائد ( طبع  
تونس ) ص ٢٥٩ وصبح الأعشى والوافي للأستاذ ابن

صديقه عياضا قاضيا في سبته . وحكى ابن القاضى عياض فى كتابه الذى قصره على التعريف بأبيه أن أبا الحسن بن زنباع كان بينه وبين أبيه فى الشبية إخاء كبير ، وفى الكبر وقع بينهما تقاطع إذ بلغ عياضا عنه كلام ساءه ، فعاتبه واعترف ابن زنباع بالفضل له . وفى ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على حسن خلقه . وربما نقله المرابطون قاضيا فى بعض المدن الأندلسية مما جعله يقترب من المعارك التى سجل فيها قوادهم انتصارات ضخمة على نصارى الإسبان ، ومن قوادهم العظام : سير بن أبى بكر وابن عائشة أخو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأخوه تميم ومحمد بن الحاج وابن فاطمة أبو محمد عبد الله ومزدلى ، ولكل منهم جهاد وفتوحات عظيمة ، ويقول ابن زنباع ممجدا بطلا من هؤلاء الأبطال لدولة المرابطين منوها بفتح تم على يده :

لذا تُصان السيوفُ فى الخِلَلِ	ويفخر الخَطُّ بالقَنَا الذُّبُلِ <sup>(١)</sup>
وتُكْرَمُ الخيلُ فى مرابضها	برّ الفتاة العَرُوبُ بالرجل <sup>(٢)</sup>
ويُقَطَفُ النُّبْعُ كالحواجبِ أو	أخنى وتمهى السهامُ كالمقل <sup>(٣)</sup>
ويؤثر الشُّرَّةُ الكمى إذا	خُيرَ بين الدروعِ والحُلَلِ <sup>(٤)</sup>
فَنَحَّ به أثارَتِ البلادِ كما	أشرفت المقربياتُ بالنَّهْلِ <sup>(٥)</sup>
هُدَّتْ له الرومُ هدَّةً ملأتْ	قلوبَ أبطالهم من الوَجَلِ <sup>(٦)</sup>
فما أطاقوا الولوجَ فى نفقِ	وما أطاقوا الصعودِ فى جبل <sup>(٧)</sup>
كأنهم والرماحُ تحفزهم	جَرىُ فصالٍ سلكنَ فى الوَحَلِ <sup>(٨)</sup>

وهو يقول لمثل هذا النصر تصان السيوف فى أغمدها ، ويفخر الخط برماحه الفاتكة ، وتكرم الخيل فى مرابطها ، بر الفتاة الكريمة بالرجل المحتاج لمعرفها وبرها ، وتقطف أعواد شجر النبع اللينة حتى تصبح قسيًا كأقواس الحواجب ، وترقق السهام وتسدد إلى صدور الأعداء كما تسدد سهام الأعين الفاتنة إلى القلوب ، ولمثل هذا النصر يؤثر الشجاع حمية الحرب وهولها إذا خير بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإنه لفتح مبين أدركت

- |   |   |
|---|---|
| (١) الخلل جمع خلة : غمد السيوف . الخط : أرض كانت تنسب إليها الرماح الخطية . القنا : الرماح . الذبل : الحادة . | (٤) الشرة : شدة الحرب وشدة القتال . الكمى : الشجاع .  |
| (٢) مرابضها : أماكن مقامها . العروب : الجميلة الأصلية .   | (٥) أثارَت البلاد : أدركت لها ثأرها . المقربات : الخيل العطشى طوال ليلة . النهل : الشرب الأول . |
| (٣) النبع : شجر تقطف غصون منه لينة كالحواجب . تمهى : ترقق منها السهام وتسدد .                                 | (٦) الوجل : الفزع .   |
|   | (٧) الولوج : الدخول .   |
|   | (٨) فصال جمع فصيل : ولد الناقة أو البقرة .  |

به للبلاد ثأرها من أعدائها ، وإنما لتستشرف به فتوحا متوالية كما تستشرف الخيل الكريمة التي ظلت تعدو ليلة طويلة ظامئة إلى الماء أنها ستتهل منه إذ تراه فجأة أمامها ، ولقد سُحِقَ الروم سحقاً ملاً قلوب أبطالهم بالوجل والفرع فما استطاعوا الدخول في نفق ولا الصعود في جبل حتى لكأنهم فصال أو أولاد نوق يسرون في وحل ، ولا يستطيعون السير ، بل يتعثرون ويقعون بالعشرات في شباك الأسر . وبطولة ثانية صورها لمعركة أخرى من معارك المرابطين ، وفيها يقول :

سَلَّ الحَرْبِ عَنْهُمْ وَالسِّيَوفُ جَدَاوِلُ	تَدَفَّقَ والأرْمَاحُ رُقْطُ تَنْضِنُضٍ <sup>(١)</sup>
وبالأرض - من وقع الجياد - تَمَدَّدُ	ولكنه - فيما تروم - تَقْبُضُ
وبالأفق للنَّعِ المَثَارِ سَحَابٌ	مَوَاحِضُ لَكِنْ بالصَّوَاعِقِ تَمَخَّضُ <sup>(٢)</sup>
وقد سَهَكَتْ تحت الحديد من الصَّدَا	جسومٌ بما عُلَّتْ من المسك تُرْحَضُ <sup>(٣)</sup>
وأشرفتِ البِيضُ الرِّقَاقُ على الطَّلِي	لتكرع فيها والرءوسُ تَخْفَضُ <sup>(٤)</sup>
فلمستَ ترى إلا دمَاءَ مِرَاقَةٍ	تخاض إلى أكباد قوم تَخْضُخَضُ <sup>(٥)</sup>

وابن زنباع يقول سل الحرب عن شجاعة المرابطين وبأسهم ، والسيوف في أيديهم كأنها جداول تندفق بالدماء ، والرماح تلوكها وتستحيل رقطا ملطخة بها ، والأرض تحت حوافر خيلهم كأنها تتمدد ، وهي في الواقع تُطَوِّى طياً ، وبالأفق للغبار المثار سحاب حوامل صواعق مهلكة من الأسلحة والعتاد الحربى وقد تغيرت أجسام الأبطال تحت الحديد من الصدا بما تُغسل به من المسك مرارا ، وفي أيديهم السيوف وقد سلت على أعناق الأعداء كأنما تريد أن ترتوى منها بينما تهوى الرءوس إلى الحضيض ، فلمست ترى إلا أنهارا من الدماء تُقْتَحِمُ إلى أكباد الأعداء .

وكان حريا بالفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان أن يضيف في ترجمة ابن زنباع إلى هاتين البطولتين للمرابطين ما وصفه من بطولات أخرى لهم في الأندلس ، وعلى الأقل كان ينبغي أن يورد قصيدتى البطولتين اللتين ذكرهما كاملين وأن يذكر القائدين اللذين يمدحهما ابن زنباع بقصيدتيه وموقعيهما الحربيتين ، وسنلتقى بابن زنباع في عرضنا لأشعار الغزل والطبيعة لتتضح شخصيته الشعرية .

(١) رقط : جمع أرقط : ما كان بلونه بقع مثل النمر .  
تنضض : تلوك .  
(٢) النقع : غبار الحرب . مواخض : حوامل .  
تمخض : تحمل .  
(٣) سهك الشيء : تغيرت رائحته . علت : الشرب  
الثانى بعد النهل . ترحض : تغسل .  
(٤) البيض الرقاق : السيوف . الطلي : الأعناق .  
كرع : شرب .  
(٥) مراقبة : سائلة . تحاض : تقتحم . تخضخض :  
تخوض في أكبادهم

## ابن (١) حبّوس

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبّوس ، ولد بفاس سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وبها منشؤه ومرباه في الكتاتيب وحلقات العلماء ومجالس الأدباء ، حتى أصبح متفنا في الكلام واللغة والبيان ، وتفتحت شاعريته مبكرة في صباه ، ورحل إلى تلمسان وظل بها فترة ، وعاد إلى مراكش في عهد المرابطين وأصبح في طليعة شعرائهم ، وندت منه ترّاهات جعلته يرح مراكش إلى الأندلس ويظل بها إلى أن علا نجم عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واستولى على مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م فعاد إليها واستوطنها ، ولزم الدروس التي كان يلقيها عبد المؤمن على طلابه وأتباعه ، وألقى بين يديه قصيدة أنشدها صاحب نظم الجمان لعلها أولى مدائح له ، وفيها يقول :

بخليفة المهديّ سيّدنا اغتدى	نهجُ العلوم معبداً ومذلاً
واقيتُ حضرته المقدّس ترّتها	فاذا الذي أبصرتُ لن يُتخيلاً
وسمعتُ كلّ مذاهب الحق التي	ما إن ترّى عن مُقتضاها معدّلاً
وبصرتُ بالطوسيّ يفهقُ حوله	وأبى المعالي مُجيباً ومنفصلاً
فالحقُ بحضرته السنيّة واستمع	للقول واحذر - ويك - أن تتقولاً
فيها كمالُ الدين والدنيا معاً	وسعادةُ الأرواح في أن تكملأ

وهو يقول إن نهج العلوم أصبح ممهداً ومذلاً بفضل عبد المؤمن خليفة المهدي ، ويصف حضرته بأن ترابها مقدس ، وأن ما رآه بها من علم عبد المؤمن أوسع من أن يحيط به خيال ، ويقول إنه سمع منه كل مذاهب الحق من دعوة الموحدين التي لا يجوز العدول عن مذاهبها ومبادئها ، وكأنما بصر بالغزالي الطوسي وبيانه الغزير الرائع وبأبي المعالي الجويني إمام الحرمين وفكره الثاقب ، فالحق به وبحضرته ودعوته التي تحقق لك كمال الدين والدنيا معاً .

وبذلك لم يكن مادحا لعبد المؤمن فحسب ، بل كان أيضاً داعية لمبادئ الموحدين ودعوتهم ، فهو شاعره ، وهو داعيته ، وكان عبد المؤمن يشغف بشعره ، فلزمه في حركاته وسكناته ، وإن سار كان في ركابه ، على نحو ما نراه معه في فتحه لبجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وله في حصار عبد المؤمن لها جيمية يقول في مطلعها مخاطباً حاكمها الحمادي يحيى بن العزيز :

كوديرا ( رقم ١٠٥٥ والمطرب لابن دحية ص ١٩٩  
والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ( طبع بيروت )  
ص ٧١ والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى  
للأستاذ ابن تاروت ٩١/١ - ١١٥ والتبوغ المغربي  
للأستاذ كتون ١٧٦/١ ، ٢٣/٣ ، ١٩٦ .

(١) انظر في ترجمة ابن حبوس وأشعاره الذيل والتكملة  
لابن عبد الملك المراكشي ٢٩٣/١/٨ ، وزاد المسافر  
لصفوان ونظم الجمان لابن القطن تحقيق د . محمود  
مكي ( طبع بيروت ) ص ١٧٤ والمعجب للمراكشي  
( طبع القاهرة ) ص ٢٨٢ والتكملة لابن الأبار ( طبعة



شُدَّتْ إِلَيْكَ عَلَى الرِّيحِ سَرُوجُ      أَيْنَ الْفِرَارُ بِأَهْلِكُمْ يَا جُوجُ

ثم اتجه بالخطاب إلى عبد المؤمن فقال :

عصفتْ بدعوتك الرياح الهوجُ      وسَطًا بِأَمْرِكَ ذَابِلٌ وَوَشِيحٌ<sup>(١)</sup>  
وتقدّمتك إلى العدو مهابةً      يَشْفَى بِهَا فِي سَدِّهِ مَا جُوجُ

وهو يشير بياجوج وماجوج إلى ما جاء في سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج وأتتهما مفسدون في الأرض وأن قومهم لجنو إلى ذى القرنين ليرفع عنهم فسادهم ، يقول جلّ شأنه : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ وكان إفسادا كبيرا حلّ بيجاية جعل أهلها يستغيثون بعبد المؤمن ليرفع عنهم هذا الإفساد الذميم ، ويسمى الشاعر يحيى بن العزيز تارة باسم يأجوج وتارة باسم مأجوج . ويفتح عبد المؤمن بيجاية ، ويعود إلى عاصمته مراکش ، ويستقبل في شهر شوال سنة ٥٥٢ مصحف عثمان الذى أمر بنقله من قرطبة إلى مراکش ، ويمتدحه ابن حبّوس بهذه المناسبة منشدا من قصيدة :

سيشكر المصحفُ إكبابكم      عليه إذ أوجده الفقدُ  
مصحف ذى النورين عثمان ما      كان لكم عن صونه بُدُ  
ما اختار شيئا مؤتسا غيره      حين أتى - واقترب - الوعدُ  
أوسعتم الدنيا أطراحا وما      كان لكم إلا بهِ وجدُ  
يحنو عليه العطف منكم ولا      يُغِيثُهُ الْإِشْفَاقُ وَالْوُدُ  
ألبستموه جليّة لم يكن      يسمح للكفُّ بها الزندُ

وهو يبالغ إذ يقول إن المصحف سيشكر له عنايته به ونقله إلى مراکش لصونه خشية فقده ، وهو مصحف عثمان الذى استشهد وهو بين يديه يتلو فيه ، وقد اتخذه مؤتسه فى اللحظات الأخيرة من حياته وإنكم لتشفقون به أكبر الشغف . ودفعته مبالغاته فى مدح عبد المؤمن إلى أن يقول إنه يحنو على المصحف بعطفه ، ودائما يودّه ويشفق عليه . وله فى المصحف أخرى زاد فيها من مثل هذه المبالغات وأفرط ، وأشار ابن حبّوس فى البيت الأخير إلى تجديد عبد المؤمن لدفتى المصحف وتحليتهما بالجواهر النفيسة بحيث لم تعد الكف الواحدة تستطيع حمله . وكان النورمان قد استولوا على المهديّة وطرابلس واستغاث

(١) ذابيل : سيف . وشيخ : رح .

أهلها بعد المؤمن فللباهم بجيش جرار قلم به أظفار أمراء الجزائر وإفريقية التونسية الخارجين عليه وفتح المهديّة سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وطرد النورمان منها ومن سواحل إفريقية التونسية وطرابلس . ويهنته ابن حبوس بفتح المهديّة مقارنا في مطلعها بين المهدي العبيدي الذي بناها واختار لها لوقت بنائها برج الأسد وبين عبد المؤمن الذي خلصها من النورمان :

بطالع الأسدِ اختطّ البناءَ بها      لكنك الأسدُ الدّامي الأظافيرِ

ويقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة : « بعد انصراف عبد المؤمن من فتح المهديّة سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م فارقه ابن حبوس وعاد إلى مسقط رأسه فاس فاستوطنها » ويبدو أنه كان يرحل إليه من فاس مادحا بمثل قوله في إحدى مدائحه :

أمير المؤمنين لقد أضاء الـ      زمانُ بنور عدلك واستنارا  
لكم شرقا البلاد ومغرباها      وأمركم مع الفلك استدارا  
ومن قد فرّ عنكم من عدو      فنحوكم إذا يبغي الفرارا  
واسو خوقتم أعلام رضوى      لما سكنت ولا وجدت قرارا

والمبالغة واضحة في الأبيات ، فالفلك يجرى طوع أمره ، ومن فرّ عنكم لا بد أن يفر إليكم إذ تملثون عليه جميع مسالكه ، وحتى لو خوّف عبد المؤمن جبال رضوى الراسخة في المدينة من قديم ما استقرت ولا وجدت لها قرارا . وصاحب المعجب محق حين يرى عنده هذه المبالغات المفرطة فيشبهه بابن هانيء في مديح المعز الفاطمي وما يضمنه من تهويلات وقفعات . ونراه يرافق عبد المؤمن في أواخر سنة ٥٥٥ حين عبر الزقاق من سبتة إلى مرفأ جبل طارق ، واحتفل الناس بقدم عبد المؤمن احتفالا عظيما ، ولما أذن للشعراء بالإنشاد بين يديه أنشده شعراء كثيرون أندلسيون ومغاربة وفي مقدمتهم ابن حبوس : ومن قوله في قصيدته :

بلغ الزمانُ بهديكم ما أملا      وتعلّمت أيامه أن تعدّلا  
وبحسبه أن كان شيئا قابلا      وجد الهداية صورة فتشكّلا  
ولأنتم الحقّ الذي لا يُمترى      فيه وليس بجائر أن يُجهّلا  
ولأنتم سِرُّ الإله وأمركم      ملأ العوالم مجملا ومفصّلا  
عزّلت ولاة الحسّ عن إدراكه      فهو المنزه حسبه أن يعقلا

ولو أننا لم نعرف ناظم هذا الشعر ومدوحه وسمعناه لظننا أنه ابن هانيء يمدح المعز الفاطمي لهدايته للزمان وتشكيكه له مع العدالة ، وإنه للحق الذي لا شك فيه بل سر الإله ، وأمره يملأ العالم وإنه ليعز على الحسّ أن يدرك كنهه إنما يدركه العقل . وأنشد له ابن عبد الملك قصيدة في دعوة الموحدين والزهد والتمسك به ، وفيها هاجم الفيلسفة والمتفلسفة ، وله أشعار بديعة في الوصايا والأمثال وذم الزمان والاعتبار ، وعاش حتى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

## الجرّاوى<sup>(١)</sup>

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوى ، من قبيلة جراوة بتادلة ، سكن مدينة فاس ، وبها منشؤه ومرباه ، ويقول ابن خلكان : كان نهاية فى حفظ الأشعار القديمة والمحدثة ، وجمع كتابا يشتمل على فنون الشعر سماه صفوة الأدب وديوان العرب ، وهو عند أهل المغرب كحماسة أبى تمام عند أهل المشرق ، وكان شاعرا نابها مدح بشعره عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابنه الناصر ، توفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م . وقد اتصل بعبد المؤمن منذ سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م إذ نراه يكتب على لسانه قصيدة يحث فيها الأعراب الحلالية لتلبية دعوة عبد المؤمن لجهاد نصارى الأندلس استهلها بقوله :

أحاطت بغايات العُلا والمفاخرِ على قدم الدنيا هلالُ بن عامرٍ

وشارك الأعراب فى حروب الأندلس وجاءت عبد المؤمن البشرى بتحرير بطليوس واستردادها من ابن الرنك وهناه الجرّاوى بقصيدة طويلة مطلعها :

نصرٌ بكل سعادةٍ مقرونٌ نالتُ به الدُّنيا الهنا والدينُ

ويفتح عبد المؤمن المهديّة مستردا لها من أيدي النورمان بعد أن ظلوا فيها وفى ساحلها اثنى عشر عاما طوالا ، ويهنته الجرّاوى بتائية يقول فيها :

اهنأ إمامَ الهدى فالعدلُ منبسطٌ والدينُ منتظمٌ والكفرُ أشتاتُ

وينتصر جيش عبد المؤمن ومن معه من كتائب الأعراب فى السنة التالية على نصارى الإسبان فى موقعة فحص بلقون ، ويهنته الجرّاوى برائية وفيها يقول :

أعليتَ دينَ الواحدِ القهارِ بالمشرفيّة والقنسا الخطارِ<sup>(٢)</sup>

لوراء موسى ما فعلتَ وطارق زريّا بما لهما من الآثارِ<sup>(٣)</sup>

أتممتَ ما قد أمّله ففاتهم من نصرِ دينِ الواحدِ القهارِ

بعرابِ خيلٍ فوقهن أعاربُ من كل مقتحمٍ على الأخطارِ

وهو يبالغ مبالغة مفرطة حين يعلى عبد المؤمن على موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحى الأندلس العظيمين ، وإنما سقنا الأبيات لثبث معها البيت الرابع الشاهد على اشتراك الحلالية فى حرب الأندلس المظفرة أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . ويصبح الجرّاوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن الحظيّ لديه ، وكان لا يبرح مجلسه ،

(١) ٢٢/٣ ، ١٩٨ وما بعدها ، ٢٥٣ .

(٢) القنالخطار : الرماح شديدة الطعن. المشرفية: السيوف.

(٣) راء : رأى .

(١) انظر فى الجرّاوى وترجمته وشعره البيان المغرب لابن عذارى وابن خلكان ١٢/٧ ، ١٣٦ وزاد المسافر والغصون اللبانة والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ، وراجع الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاروت ١١٦/١ وما بعدها والنبوغ المغربى ١٧٩/١ ،

ونراه فى ركبته حين جاز إلى الأندلس سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٩ م وكان قد جمع جموعه يريد منازل محمد بن سعد بن مردنيش ، ونازله أخوه عثمان صاحب غرناطة وتوفى ، فبايع أبناؤه يوسف وانتهت ثورته . ونرى الجرأوى يمدحه فى هذه الأثناء بقصيدتين يقول فى إحداهما مشيراً إلى المتمردىن عليه :

تَسْأَلُ المَارْقِينَ بِكُلِّ أَرْضٍ      ولا طارتُ - ولا نقلتُ - خطاها  
ويقول فى الثانية :

لو كانت الجوزاءُ من أعدائه      لم تنجُ من غاراته الجوزاءُ  
وكانت آخر معارك جيش الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف معركة البيوج فرناندو بن ألفونس سنة ٥٦٩ وفيها كان النصر حليف الموحدين ووقف الجرأوى بين يدى يوسف ينشده مدحة طنانة ، وفيها يقول :

عن أمركم يتصرف الثقلان      وينصركم يتعاقب الملوان<sup>(١)</sup>  
ويما يسوء عدوكم ويسركم      تتحرك الأفلاك فى الدوران  
جاهدتم فى الله حق جهاده      ونهضتم بحماية الإيمان  
وتركتم أرض العدى وقلوبهم      فى غاية الرجفان والخفقان  
وغزاهم الدين الحنيفى الذى      كُتب الظهور له على الأديان

والبيتان الأولان من نوع مغالاة ابن هانئ فى المعز الفاطمى ومدىح ابن حبوس فى عبد المؤمن مما مر بنا وأشرنا إليه . وهو يضيف على يعقوب - كما أضفى على أبيه يوسف وجده عبد المؤمن - غير قليل من القدسية وقد مدحه مرارا حين انتصر أسطوله على ابن غانية فى بجاية ، وحين واقعه جيشه وهزمه ، وحين فتح قفصة جنوبى إفريقيا التونسية ، وحين قضى على بعض الثوار . وفى سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م استرد يعقوب مدينة شلب بغربى الأندلس ، وعاد يعقوب إلى عاصمته مراكش ، وهنأه الشعراء بهذا النصر المبين ، وأنشده الجرأوى قصيدة يقول فيها :

إيابُ الإمام حياة الأمم      توالى السرور به وانتظم  
وجادَ به الأرض صوب الحيا      وجلى الظلام به بدر تم<sup>(٢)</sup>  
فشكراً لخيلى وفلكى دنت      بمستأصل الظلم ماحى الظلم  
إذا حلَّ فى بلدة أمرعت      فطاب جناها وفاح المشم<sup>(٣)</sup>  
وقام بأقطارها عدله      وصوب نداءه مقام الديم<sup>(٤)</sup>  
سل الدهر عن بطشه بالعدا      تجب من وراء الدروب العجم

(٣) أمرعت: أخصبت. جناها: ثمرها. المشم: الشذا.  
(٤) نداء: كرمه. الديم جمع ديمة: المطر يطول فى سكون .

(١) الثقلان: الإنس والجن. الملوان: الليل والنهار.  
(٢) صوب الحيا: انكباب الغيث. بدرتم: البدر فى اكتماله .



وإياب يعقوب - في رأى الجراوى - ليس حياة لشعبه فقط ، بل هو حياة الأمم جميعا ، إذ وجود الأرض غيث منهمر ، ويضيء الظلام بدر فى اكتماله ، فشكرا للسفن التى عبرت بها المجاز وللخيل التى حملت لا مستأصل الظلم وناشر العدل فحسب ، بل أيضا من يمحور الظلام بنوره ، وإن البلاد لتخصب وتطيب ويفوح شذاها حين يحل فيها ، وينتشر العدل الذى لا تطيب حياة الناس بدونه ويعمُّ الكرم الفياض . وسل الدهر عن قهره للأعداء تجيك من وراء اللروب جموع إسبانيا متوجعة مما يذيقها من البطش الشديد . ولم يلبث نصارى الإسبان أن توجعوا توجعا أليما سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م فإن ألفونس الثامن ملك قشتالة علم أن يعقوب يعد لمعركة كبرى استنفر فيها المغاربة وأعراب الحلالية وأهل الأندلس فاستصرخ البابا وملوك أوربا وحشد جموعه عند حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليطلة . وسحق جيش يعقوب تلك الجموع سحقاً ذريعا ، وفرَّ ألفونس على وجهه لا يلوى حتى طليطلة ، وكان نصرا عظيما أعاد للذاكرة موقعة الزلاقة وبطلها يوسف بن تاشفين وتغنى الشعراء بها وببطلها يعقوب طويلا ، وللجراوى فيها قصيدتان يقول فى أولهما :

هو الفتحُ أعمى وَصَفُهُ النَّظْمُ والنِّثْرَا	وعمتُ جميعَ المسلمين به البِشْرَى
وأنجدَ فى الدنيا وغازَ حديثه	فراقت به حُسْنَا وطابتُ به نَشْرَا <sup>(١)</sup>
تميزُ بالأحجال والغُررَ التى	أقلُّ سَنَاهَا يَهْرُ الشمسَ والبَدْرَا <sup>(٢)</sup>
لقد أورد الأذفونش شيعته الرِّدَى	وساقهمُ جهلا إلى البَطْشَةِ الكِبرى <sup>(٣)</sup>
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى	تبرا منهم حين أوردهم بَنْرَا
فدارت رَحَى الهيجا عليهم فأصبحوا	هشيما طحيناً فى مهبِّ الصَّبَا يُذْرَى <sup>(٤)</sup>
يطير بأشلاءٍ لهم كلُّ قَشْعَمٍ	فما شئتَ من نَسْرِ غدا بَطْنُهُ قَبْرَا <sup>(٥)</sup>
يُيمنُ الإمام الصالح المصلح الرُّضَا	نضا سيفه الإسلامُ فاستأصل الكفْرَا <sup>(٦)</sup>

والجراوى يقول إنه فتح أعظم من أن يحيط بوصفه شعر ونثر وقد عمت به البشرى والفرحة جميع المسلمين وملأت تباشيره الدنيا بهضابها وسهولها فازدانت به حسنا وطابت نشرا وعطرا ، وإنه لفتح محجل أغر يبهز ضوءه الشمس والقمر ، فقد أورد ألفونس ملك قشتالة وطليطلة أنصاره مورد الردى والحلاك ، ودفعهم دفعا إلى البطشة الكبرى ، فذاقوا ما ذاقه قريش يوم بدر ، إذ دارت رَحَى الحرب على جثثهم وأصبحوا أشلاء وطحيننا تذروه الرياح ، وشبعت منهم الضباع والسباع ، وغدت بطون النسور لأشلائهم قبورا طائرة . وكل ذلك ييمن طالع

(١) أنجد وغاز : ملأ المرتفعات والسهول . نشرا :  
رائحة عطرة .  
(٢) الأحجال: بياض فى السيقان. الغرر: بياض فى  
الجباد.  
(٣) الردى : الحلاك .  
(٤) الهيجاء : الحرب . يذرى : يطير فى الهواء .  
(٥) قشعم : نسر مسن .  
(٦) نضا : سل .

الإمام يعقوب الصالح المصلح الرضا المرضي الذي سلَّ الإسلامُ سيفه فاستأصل به الكفر من جذوره وكاد لا يبقى منه بقية .

ويتوفى البطل المغوار يعقوب سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ويخلفه ابنه الناصر لدين الله ، وتؤخذ له البيعة فيهنئه الجراوى بقصيدة طويلة ، يقول فيها :

هِيَ بَيْعَةٌ أَحْيَا إِلَاهُ بِهَا الْوَرَى وَحَمَا بِهَا دِينَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى

وهو دائماً يردُّد فيه وفي آبائه أن الله اختارهم ليتكامل للدنيا وجودها وللناس حياتهم بما يشيعون فيها من العدل والكرم الفياض ، ودائماً يردُّد أنهم حماة الدين الحنيف وأن الدهر يصدع لمشيئتهم . ويستولى الناصر على ميورقة من يد ابن غانية فيهنئه بقصيدة مطلعها :

لَكَ النَّصْرُ حَزْبٌ وَالْمَقَادِيرُ أَعْوَانُ فَحَسْبُ أَعَادِيكَ انْقِيَادٌ وَإِذْعَانُ

كما يهنئه بقصيدة أخرى حين استولى على منورقة ، وظل يمدحه إلى وفاته سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م .

#### ابن عبد<sup>(١)</sup> المنان

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الأنصارى الخزرجي ، من أهل مكناس ، تفتحت مواهبه الأدبية مبكرة ، فجرى الشعر على لسانه ، واستخلصه لنفسه السلطان أبو عنان المريني ( ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م - ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م ) فاتخذته كاتبه في الدواوين كما اتخذه شاعره ، وله فيه مدائح بديعة ، وكتب بعده للسلطين : أبي بكر السعيد لمدة عام فعمه أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن فأخيه تاشفين سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م فأبي زيان سنة ٧٦٣ فعمه عبد العزيز سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م وابنه أبي زيان سنة ٧٧٤ فأبي العباس أحمد المستنصر سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وظل يعمل مع السلطين حتى وفاته سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م . ونوه به وبشعره ونثره كل من ترجموا له ، من ذلك ما نقله الأستاذ ابن تاويت من وصف تلميذه ابن جابر الغساني له بقوله : « رافع راية الأدب والشعر في عصره ، القدوة الأختل ، المتفنن الأكمل ، كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمزايا السنوية » . ويبدو أن أهم مدائحه إنما كانت في السلطان أبي عنان ، ونراه حين قضى على أحد الثوار وثورته قضاء مبرما ، يقول من قصيدة طويلة يهنئه فيها بالنصر وعيد الأضحى معا :

القاضي ١٢٤/١ وأيضاً درة البحال ٥٣/١ والنبوغ المغربي ٢٣٨/١ و ١١٤/٣ ، ١١٥ ، ٢١٦ والوفائي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ٤٩٣/٢ .

(١) انظر في ابن عبد المنان وترجمته وشعره كتاب نثير فرائد الجمان لابن الأحمر ( طبع دمشق ) ص ٣٤٨ وجذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام مدينة فاس لابن

مليكُ ملوكِ الأرضِ أوحدها الذي  
غمامُ النَّدىِ الهطالِ والجوُّ أغبرٌ  
إذا ما تراءى البدرُ يوماً ووجَّههُ  
لعمري لقد زنتَ الخلافةَ فاغتندتُ  
ورأقتُ بك الدنيا جمالاً وبهجةً  
وهنتتَ عيدَ النَّحرِ والفتحِ إنه  
بقيتَ لدينِ اللهِ رذءًا وعصمةً

به عَلتِ العلياءُ وافتخرَ الفخرُ  
وليثُ الفِداِ والبيضُ قانيةٌ حُمُرُ  
تَحيرتُ الأبصارُ أيُّهما البدرُ  
يقصُرُ عن أوصافها النظمُ والنثرُ  
فاظلامها صَبِحَ وإصباحها بشرُ  
لك العيدُ منه والعيدا لهم النَّحرُ  
فما غيرُ عَلِيكَ الزمانُ له ذُخرُ

وهو يجعل أبا عنان ملك الملوك الذي سمى به العلياء وافتخر الفخر ، إنه غمام الكرم المنهمر في الأيام المجدية ، والليث المفدى والسيوف ملطخة بالدم القاني . وحين يطلع على الناس هو والبدر تحار الأبصار أيهما البدر الساطع ، وقد زان الخلافة حتى أصبح كل مديح شعرا ونثرا يقصر عن وصفه لها . وحسنت بك الدنيا وازدانت حتى غدا ظلامها صباحا وصباحها طيبا ذكيا ، وإن الله ليزف لك الفتح والنصر المبين بينما يقدم لأعدائك النحر والذبح ، ويدعو له أن يظل معينا وعصمة للدين الحنيف ، ويظل الزمان له ذخرا مطيعا . وفي إحدى مدائحه يصف الساعة التي نصبها أبو عنان على واجهة مدرسته بفاس . وأهم منها قصيدته التي مدحه بها ووصف فيها صراع الأسد مع ثور أمامه ، وكان يُعقدُ لذلك حفل كبير ، وفيه ينزل الأسد ثورا حتى إذا خيف على الثور منه أن يصرعه تصدى له مخاتل في أكرة مستديرة من خشب معدة لذلك يحركها شخص في وسطها ، وفي يمينه حديدة يطن بها الأسد حين يهجم عليه طعنات متوالية ، ويتعلق بها الأسد يريد أن يظفر بهذا المخاتل ، فتدور به مع الأكرة وتجهز عليه . والقصيدة طويلة ويصف فيها ابن عبد المنان صيد الأسد في الفلاة وإحضاره لمنزلة الثور ، وهو يكثر فيها من الألفاظ الغريبة على عادة شعراء المقصورات منذ منشئها ابن دريد ، وخاصة في وصفه للثور والأسد والمخاتل وأكرته وما نشب حينئذ من عراك عنيف ، ونذكر بعض أبياته في المنازلة بين الثور والأسد إذ يقول :

ومدرَّبُ الرُّوقينِ أَصْفَرُ فاقِعٌ  
ما زال يدعو للَنزالِ أسامةُ  
ولقد أراه مكانَ مَصْرَعِهِ وقد  
وعَدًا له والظنُّ يقضى أن يُرى  
جالتُ عليه صَدْمَةٌ من حارثِ

راق النواظرَ نضرةً لما بدأ<sup>(١)</sup>  
ولقد أشار بظِلْفِهِ لما دعا<sup>(٢)</sup>  
أومى بساحِ القصرِ ينكتُ في الثرى<sup>(٣)</sup>  
وقد اعتلاه فكان عكسًا ما قضى  
تنسيك صدمة حارثِ يوم الوغى<sup>(٤)</sup>

(١) ينكت : يتقض الثرى بحافره .  
(٢) حارث : من أسماء الأسد - الوغى : الحرب .

(١) الروقين : القرنين .  
(٢) أسامة : من أسماء الأسد وألقابه .



أعجب بها من صدمة قد عفرت ليد الهزير وأوهنت منه القوى<sup>(١)</sup>

وهو يشيد بقرنى الثور المدريين على الطعن وشدته ، ويقول إنه راق النواظر بلونه الأصفر الفاقع وما إن رأى الأسد حتى أخذ ينكت الأرض بظلفه استعدادا للنزال . ويخال الشاعر كأنما يشير بذلك إلى المكان الذى سيصراع فيه الأسد فى ساحة المعركة أمام قصر أبى عنان ، ويصدم الأسد الثور صدمة شديدة تنسيك صدمة البطل حارث يوم الحرب الضارية ، وما أعجبها من صدمة ، فقد عفرت لشدتها ليد الأسد وأوهنت قواه لصلابة الثور ومتانة بنيانه . ويعرض علينا نزال المخاتل فى أكرته للأسد ، قائلا :

وضبارم رخب اللبان ثقله	صهب متين خلقها عبل الشوى <sup>(٢)</sup>
يفتر عن ناب كأطراف القنا	يئضا وينضو مخلبا حاد الشبا <sup>(٣)</sup>
ومخاتل فى جوف دائرة طوت	أضلاعها منه على شههم فتى
يحكى بها رأيا بيضة سبب	لم تنفرج عنه فأنفذا كوى <sup>(٤)</sup>
يمشى الهوينى وسطها فتقله	عدوا وما إن تشتكى ألم الوجى <sup>(٥)</sup>
حسب الغضنفر مرتقاها كعبة	فدنا يطيل بها الطواف وقد سعى <sup>(٦)</sup>
أمسى صريعا والدماء سلافة	أتراه سكرامال من تلك الطلا <sup>(٧)</sup>

وهو يصور الأسد بأنه واسع الصدر تحمله قوائم صهباء مفتولة الأطراف متينة ، ويفتر فمه عن ناب كأطراف القنا فى شدة الطعن ويسل مخلبا حاد الشبا كأطراف السيوف وأسلاها الفاتك . وينازله فتى شجاع داخل أكرة يحكى بها ولد نعام فى بيضة بفلاة لم تفرج عنه ، فأنفذ بها كوى وثقوبا - ويظل يمشى بها فى تودة - وهى تحمله فى قوة لا تشتكى عرجا ولا ألما ، وكأنما يحسبها الأسد كعبة يريد أن يطوف بها ويسعى ، ويعلق بحديدة فتاها . وما تزال تمزق جسده حتى تصرعه ، ويفرق فى دمائه . ونقد القصيدة الأستاذ محمد بن تاويت ، وأعلى عليها مدائح أخرى لابن عبد المنان، وربما كان موضوع القصيدة ، وهو وصف المصارعة بين الثور والأسد، هو الذى أدى إلى وجوه النقد التى لاحظها الأستاذ ابن تاويت . على أنه يذكر لابن عبد المنان أنه الشاعر المغربى الوحيد الذى وصف لنا هذه المنازلة بين الثور والأسد ، والتى تعد هى وأخواتها فى غرناطة أما لمصارعة الثيران المعروفة لهذا العصر فى إسبانيا . ولابن عبد المنان وراء مدائحه الرائعة غزليات ومولديات بديعة .

(١) الهزير : أيضا من أسماء الأسد .

(٢) ضبارم : من أسماء الأسد - رخب اللبان : واسع

الصدر . عبل الشوى : مفتول الأطراف .

(٣) ينضو : يسل . الشبا : الطرف .

(٤) الرأل : ولد النعام . السبب : الفلاة .

(٥) ثقله : تحمله . الوجى : العرج .

(٦) الغضنفر : من أسماء الأسد .

(٧) الطلا : الخمر .



## الهوزالى<sup>(١)</sup>

هو محمد بن علي الهوزالى شارح ديوان المتنبي الملقب بالنابغة ، ترجم المقرئ فى كتابه « روضة الآس » لأبيه على وقال إنه من كتاب الإنشاء بالحضرة الفاسية وبنته بيت صلاح ودين ، وأنشد نبذة من أشعاره ، وكأنه ورث ابنه محمدا الشعر ، وقد أكب فى شبابه على كتب الفقه والشعر ، ولم يلبث أن أصبح من قضاة الدولة السعدية كما أصبح شاعر خليفتها المنصور ، ومن تعريف درة الحجال به : « الأديب الناظم النائر نابغة زمانه ، أخذ عن أبي العباس المنجور ، وله معرفة بالبيان والنحو وله نظم رائع ، وهو قاضى سكتاتة » وذكره عبد العزيز الفشتالى فى كتابه المناهل مرارا ، ويقول عنه : « صاحبنا الفقيه القاضى شاعر الدولة مفتى الحضرة » ويقول عنه محمد بن عيسى الصنهاجى فى مقامته التى عرف فيها بأدبائه عصره : « أخو علقمة وليد ، وذو المقول المحيى المييد ، جزالته فى وصف المهامه والقفار وذكر المُرْخ والعقار ، وعلى ذلك فرمحه فى المدح مقوم الأنايب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين ( المتنبي ) وحيب ( أبى تمام ) . وابن عيسى يرفعه إلى مرتبة عالية فى الشعر ، فهو أخو علقمة الشاعر الجاهلى الفحل وليد أحد شعراء المعلقات ، وشعره يرفع ويضع أو كما يقول يحيى ويبيد ، وأساليبه فيه جزلة رصينة ويتعلق بوصف القيافى والقفار ، ورمحه لذلك فى الشعر رمح متين لا يقصر فيه عن شاعرى العصر العباسى الكبيرين المتنبي وحيب . وجمهور شعره فى مديح المنصور ، ويستهلله بوصف بطولته فى واقعة وادى المخازن المشهورة ضد البرتغاليين التى مرت بنا وكانوا نحو مائة ألف - فيما يقال - فسحقهم جيشه المغربى بين قتيل وأسير بحيث كاد أن لا ينجو منهم أحد ، ويصور المنصور فى المعركة وهو يصول ويجول مجندلاً للبرتغاليين ومنظما لكتائب جيشه قائلاً :

وقد سَفَرَتْ بين الكُماة المداعس<sup>(٢)</sup>  
كما رُبَّسَ المرجانَ فى السلكِ رابِس<sup>(٣)</sup>  
بها الشُّركُ حتى آخِرَ الدهرِ تاعسُ  
عييدُ العَصَا ما ناسَ فى الأرضِ نائِس<sup>(٤)</sup>  
برمَّتْهم صُلْبائِهم والكنائِسُ  
فتخرسَ فى الأديارِ تلكَ النواقِسُ<sup>(٥)</sup>

لعمرك لا أنساه يوماً شهدته  
يربُّسُ للإقدامِ كلَّ كتيبةٍ  
وحسبك فى وادى المخازنِ وقعةٍ  
بها عرفتُ أبناءُ عيصٍ بأنهم  
فدانوا له حتى توقعَ بطشَه  
فلا زالت التليثُ تُقرَعُ باسمه

(٢) الكماة : الشجعان . المداعس جمع مدعس . الرمح الغليظ الحاد

(٣) يربس : ينظم ويرتب .

(٤) أبناء عيص : يريد البرتغاليين . عييد العصا : مسترقون أزلأ . نائس : متحرك .

(٥) التليث : يريد عقيدة التليث عند النصارى .

(١) انظر فى ترجمة الهوزالى وأشعاره كتاب الدررة لابن القاضى ٢٣٣/٢ وكتابه المتقى ص ٦٧٢ وما بعدها والمناهل للفشتالى نشر كنون فى صفحات مختلفة ( انظر الفهرس ) والنبوغ المغربى لكونون ٢٦٣/١ و ٢٢٣/٣ والوفائى لابن تاروت ٦٥٥/٣ ، ٦٧٢/٣ والحركة الفكرية فى عهد السعديين لحجى ٤٠٨/٢ .

وللهوزالى فى هذه الموقعة التى أذاعت وأشاعت بطولة المنصور فى حرب البرتغاليين غير قصيدة يمجّد فيها تلك البطولة من مثل قوله فى قصيدة عينية :

لَمْ يَأَلُ بِسْتِيَانُ فِي اسْتِصْرَاحِهِ      صُهِبَ الْأَعَاجِمُ مِنْ بِلَادِ شُسُوعٍ<sup>(١)</sup>  
فَتَجَشَّمُوا الْبَحْرَ الْمَحِيطَ وَمَا دَرَوْا      بِمَحِيطِ بَحْرِ مِنْ عَوَالِ شُرُوعٍ<sup>(٢)</sup>  
وَكَتَائِبَ حَقَّقَهُ مَنُصُورِيَّةٌ      تَنْقَادُ بِالْأَسَدِ الْغَضَابِ الْجَوْعِ  
صَبَّتْ عَلَى الْكُفَّارِ - صَبًّا - عَارِضًا      هَطِيلًا وَلَكِنْ بِالسُّمُومِ النَّعِّعِ<sup>(٣)</sup>  
فَتَرَكْنَ عِبَادَ الْمَسِيحِ كَأَنَّهُمْ      أَعْجَازُ نَخْلِ بِالسِّيُولِ مَقْلَعِ  
لَا زِلْتَ فِي أَفْقِ الْخِلَافَةِ نِيرًا      تَخْتَالُ بَيْنَ كَوَاكِبِ لَكَ خُضْعِ

والهوزالى يذكر أن ملك البرتغال « بستيان » ما زال يستصرخ الأعاجم من البلاد الأوربية الشاسعة ، ولّبوه متجشمين المحيط الأطلسى إلى وادى المخازن ، وما دروا أنهم سقطوا فى محيط من رماح شرع مسددة ، تحفه كتائب المنصور يقودها أسد غضاب جوع تريد أن تقضمهم قضمًا ، صبت عليهم سحابا هطلا من الرماح والسيوف ، شربوا منه سما ناقعا قاتلا ، وإن ساحة الحرب لتمتلىء بقتلى عباد المسيح ، وكأنهم أعجاز نخل رمت بها سيول غزيرة ، ويدعو للخليفة أن لا يزال بدرا ساطعا تحف به الكواكب من قواده وكأته . وبعد هذه الموقعة باثنتى عشرة سنة عام ٦٩٨ جهز المنصور السعدى جيشا ضخما - كما مر بنا - لغزو السودان ، واستولى على إقليم توات وأقاليم أخرى وجاءته سيول من الذهب كان لها أثر بعيد فى انتعاش البلاد اقتصاديا لعهدده ، ويهينى الهوزالى المنصور بهذا الفتح العظيم منشدا فى وصف كتائبه :

غَدَتْ تَحْمَلُ الْمَوْتَ الزَّوَامَ يَحُوطُهَا      وَيَكْنُفُهَا يُمْنٌ يَشِيعُهُ نَصْرٌ<sup>(٤)</sup>  
فَحَلَّتْ بِأَرْضِ السُّودِ لَمْ يَشْرَ عَزْمَهَا      مَهَالِكُ صَدَّ عَنْ مَسَالِكِهَا الذَّعْرُ  
لَقَدْ ذَكَرَ الْحَبْشَانُ مِنْ وَقَعِهَا بِهِمْ      وَقِيعَةَ يَوْمِ الْفَيْلِ لَوْ يَنْفَعُ الذِّكْرُ  
هَنِيئًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ قَضَى      عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَاكَ أَسْيَافُكَ الْبُتْرُ<sup>(٥)</sup>  
وَدُمٌّ لِفَتْوحٍ يُسْتَحَثُّ لِنَيْلِهَا      إِلَى كُلِّ قَطْرِ مِنْكَ ذُو لَجْبٍ مَجْرٌ<sup>(٦)</sup>

وهو يصور الكتائب تحمل إلى السودان الموت العاجل السريع يحوطها اليمن ويشيعها النصر ، وقد مضت فى هذه البلاد السودانية ومسالكها الوعرة المخيفة لا يصد عزمها أى مهالك أو معوقات ، وهى وقائع لا شك أن السودانيين - أو الأحباش كما يقول - يذكرون وقعة الفيلة حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل قضت

(٤) الموت الزوام : العاجل السريع .

(٥) البتر : الحادة القاطعة .

(٦) ذو لجب مجر : جيش كثيف ذو ضجيج .

(١) بستيان : سياستيان : ملك البرتغاليين .

(٢) عوال : رماح . شرع : مسددة .

(٣) عارضا : سحابا . السموم النع : المهلكة .

عليهم قضاء مبرما ، وبالمثل قضى جيش المنصور على كل ما التقى به من جيوش السودانيين . ويهنيء المنصور بانتصار كُماته وفرسانه ، ويدعوه أن تدوم مثل هذه الفتوح العظيمة بما يوجه إليها من جيوشه الباسلة . وما يترك الخوزالي حادثة في عهد المنصور إلا وينشده فيها قصيدة غراء ، كما لا ينزل به مرض ويشفى منه إلا ويسارع بتهنئته ، وهو بحق يعد شاعر المنصور السعدي في عصره إلى وفاته سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٤ م .

### أحمد<sup>(١)</sup> بن القاضي

هو أحمد بن محمد بن أبي العافية المشهور بابن القاضي ، من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٩٦٠ للهجرة ، وحفظ القرآن الكريم مثل لداته ، وأكب على حلقات العلماء ببلدته فاس ينهل من حلقاتهم العلوم المختلفة من فقه ونحو ولغة وعروض وأدب وتاريخ وحساب وهندسة ومنطق وبلاغة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء مشيخة العلوم والتلقى عن أئمتها ، ونزل مصر وأقام بها فترة يأخذ عن علمائها ويحمل إجازاتهم ، وعاد إلى المغرب ورجع إلى مستقره بفاس ، ثم وفد على مراکش ، وأثنى عليه للمنصور الذهبي عبد العزيز الفشتالي وغيره من حاشيته فألحقه بحضرته . وفي سنة ٩٩٤ عاودته فكرة الرحلة إلى المشرق لينشر به مآثر المنصور ومفاخره وفتوحه ، واستأذنه في ذلك فأذن له ، ورأى أن يسلك طريق البحر المتوسط من تطوان ، ولم يلبث أن اعترضه هو ومن معه قراصنة الإسبان فأسروهم ، ونقلوه إلى مالطة وظل بها أسيرا نحو عام في بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق . وعلم بأسره المنصور . فكتب إلى حاكم تطوان كي يعمل على فدائه ، وافتداه بمال كثير ، وعاد إلى حضرة المنصور وهو يحمل له هذا الجميل العظيم ، وأداه نبله إلى أن يكتب عنه كتابه : « المتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور » وهو سيرة له رائعة ، نشرت في مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد زروق ولم يكتب بذلك ، فقد ألف لخزائنه كتاب درة الحجال في أسماء الرجال ذيل به على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حتى زمنه ، وأيضا كتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس . وقد استقصى الأستاذ زروق مؤلفاته في مختلف العلوم والفنون وبدأها بمجموعة كتب التاريخ والتراجم وتلاها بمجموعة ثانية في مؤلفاته في الفقه ومجموعة ثالثة في مؤلفاته في الحساب والهندسة ومجموعة رابعة بمؤلفاته في المنطق . وجعله بصره بالفقه يتولى القضاء ملازما حضرة المنصور طوال حكمه حتى سنة ١٠١٢ للهجرة ، وتفرغ بعد ذلك للتدريس حتى وفاته سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م وكما كان

وراجع المصادر الكثيرة التي ذكرها الأستاذ زروق في دراسته له التي قدم بها تحقيقه للمتقى وانظر الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ٧٠٦/٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن القاضي وأشعاره روضة الآس للمقرى ص ٢٣٩ ونشر المثاني ٢١٣/١ وصفوة من انشر ص ٧٧ ومناهل الصفا للفشتالي بتحقيق كنون



علما بفنون كثيرة كان شاعرا ، وخصَّ المنصور الذهبي بكثير من شعره منذ أن كان في الأسر ،  
إذ أرسل إليه قصيدة حينئذ ، يستعطفه بها لتخليصه من أسره ، وفيها يقول :

بحق الذي أولاك ملكا فنَجَّني من الهلك يا قَصد الأسير المكبل  
وكن يا إمام العدل في عونِ خائِرٍ أسيرٍ كسيرٍ ذى جناحٍ مذل

ومنذ عاد ابن القاضي إلى حضرة المنصور الذهبي ، وهو يلزمه ويقدم له مدائح في كل  
نصر لجيوشه وكل مناسبة . وكانت وقعة وادي المخازن لا تبرح ذاكرة البرتغاليين وكانوا  
لا يزالون يحتلون مدينة أصيلا على المحيط ، وأحسوا أن المنصور يريد الاستيلاء عليها ، فخشوا  
أن يواقعوه فيحدث لهم ما حدث في وادي المخازن من تمزيقهم كل ممزق ، قرأوا أن ينسحبوا  
منها ويتركوها للمنصور . ويهنئه ابن القاضي بهذا الفتح الذي أتاه دون أي حرب ودون أن  
يُسَلَّ سيف وتراق الدماء ، يقول :

يا أيها المنصورُ أبشِرْ بالعلا      الله بلِّغ في العدا المأمولا  
أنضاكمُ سيفا لحتفِ عِدائِهِ      وبكم غدا سيفُ الردى مفلولا  
وهزمتُمُ الشركَ المبينَ بعزمكم      من غير ما سيفٌ يُرى مسلولا  
وأذبتُمُ كَيْدَ الخبيثِ مهابةً      وفتحتُمُ آرامه أصيلا  
وغدت من الناقوسِ صِفْرا بَلْقَعَا      يتلى بها قرآننا ترتيلا  
أبشِرْ لسواءِ الفتحِ معقودٌ لكم      واشكرْ إلهك بكرةً وأصيلا

وهو يبشر المنصور بمعال لا تنتهي ، فالله حافظه ويبلغه في عداه كل ما يأمل من نصر  
وفتح ، وقد منحكم سيفا لحتف الأعداء ، وفل لكم سيف الردى والهلاك فهزمتم الشرك  
بعزمكم دون سيف سلتموه ، وذاب كيد الخبيث الصليبي مهابة ، ففتحتم عقر داره : أصيلا  
وأصبحت خلاء من ناقوس النصارى ترتل فيها أي القرآن ترتيلا . ويفتح المنصور فتحه العظيم  
في السودان سنة ٩٩٨ للهجرة ، ويهنئه بهذا الفتح في قصيدة طويلة ، وفيها ينشد :

بشراك بِالْفَتْحِ المبينِ المتأخ      قَطَفْتَهُ بين القنا والصفاخ  
وليَهْنِكَ النَّصْرَ الذي حُرْتَهُ      دون الملوك في مغاني الكفاح  
واسعدُ فقد دانت ملوك الورى      لما رأت في الانقياد النجاح  
والطاهرُ المنصور من هاشمٍ      واسطةُ العقد وبجرُ السماخ  
رُجَّتْ بلادُ السود من جُنْدِهِ      وافتتحتُ بالسيف أيُّ افتتاح  
فتحٌ ميينٌ هو تاريخُهُ      ينمو على الأرض مديدَ الجناح  
لا زالتِ الأقطارُ تُعنو لكم      من سَعْدكم طولَ المدَا تُسْتَباح

وهو يهنيء المنصور بالنصر الذي قطنه بأسلحته من الرماح والسيوف وحازه من دون الملوك في منازل الكفاح ، وإنه لخرى أن يسعد فقد دانت له الملوك وألقت له عن يد صاغرة ، وإنه للطاهر المنصور من ذرية هاشم وبيته النبوي ، وإنه لجوهرة العقد الثريدة وبحر السماح وغيته المدرار ، وإنه لفتح سيظل ينمو ويمد جناحه فيشمل كل ما حول المغرب الأقصى من الديار ، ويدعو له أن تظل الأقطار تفتح أبوابها لجيوشه طوال الدهر لسعده العظيم الذي لا يحد . وقد أشار في الآيات إلى أن المنصور من بيت بنى هاشم بيت النبوة ، وهو يردد ذلك في مدائحه مرارا وتكرارا بمثل قوله :

الملكُ أصبح ثابتَ الأساسِ      باين النبيِّ الطاهر الأنفاسِ  
يروى أحاديثُ العلا عن مُرسَلٍ      طهرتْ خلائقه من الأذناسِ

وكانت الأسرة السعدية تنتسب إلى الرسول الطاهر ، فمضى يديء في هذا النسب الشريف ويعيد منوها ومشيدا بصور مختلفة .

#### الدغوغى (١)

هو أبو العباس أحمد الدغوغى ، من شعراء الزاوية الدلائية في القرن الحادى عشر الهجرى ، ومراً بنا في الفصل الأول أنه أسس هذه الزاوية في بادية تادلة أبو بكر الدلائى سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٧ م وأن محمدا ابنه نهض بها إذا استكثر فيها من عمارة الدور والدكاكين وسائر المرافق ووقف على شيوخها وطلابها ما يكفيهم من مئونة . وأمها كثيرون من علماء المغرب يدرسون فيها ويتحلق من حولهم الطلاب ، وسرعان ما أصبحت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة والأدب ، ولولا تعرضها لمسائل السياسة لظل لها في الأدب وشئون الثقافة دور مهم ، إذ قضى عليها المولى رشيد وهدم عمارتها سنة ١٠٧٩ للهجرة ونقل شيوخها وعلماءها إلى فاس . والمهم أن محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسسها الحقيقى كان يحفُّ به كثيرون من الشعراء في مقدمتهم أحمد الدغوغى الذى قصر عليه جمهور أشعاره ، حتى ليصبح شاعره الرسمى الذى ينطق باسمه في مواقفه العلمية وجهاده نصره للدين الحنيف ، ويصوره زعيماً دينياً أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وكان لوعظه أصداء بعيدة في القبائل المتبدية إذ تستجيب له مدعنة مستشعرة له الولاء ، ولدعاته الذين ينهونهم عن اقتراف الآثام والتوبة منها والعمل الصالح . وللدغوغى يمدحه :

(١) انظر في الدغوغى وترجمته وأشعاره كتاب الشعر الدلائى لعبد الجواد السفاط « طبع الرباط » وراجع في الزاوية الدلائية كتاب الدكتور حنى عنها ( طبع الرباط ) .

يا أحلمَ الحلماءَ أحرَمَهم إذا ما الرأى رُدُّ إلى مشورة حازم  
صُلِّ واغْلَظَنَّ في الله واسْطُ مجاهدا بحسام عزمك ذى الذؤاب الحاسم  
واقطعَ حِبَالَ خِبَالِ كُلِّ معارضٍ ومعانِدٍ للحقِّ غيرِ موائم  
فإلامَ تبرحَ في الضلالِ قبائلٌ من عُربِ مغربنا سُدَى وأعاجم  
وإلى سيادتكَ السنيَّةِ ينتهى نصحُ الوَرى ولأنتَ أعلمُ عالمِ  
والدينُ أنتَ إمامه ورئيسُهُ والدهرُ عبْدك وهو أطوعُ خادم

والدغوغى يصور محمد بن أبى بكر حليما فهو لا يأخذ أتباعه والقبائل من حوله بالشدة ، ويقول له لك أن تصول وتجول وتغلظ في الدعوة لله وتقه رخصومها بحسام عزمك الحاد ولتقضى على كل معارض لك ومعاند للحق لا يدعن له . ويحمل على القبائل الخارجة عن ولائه التى لا تبرح مهالك الضلال ، الأعجمية منها والمهملة التى لا يصلها دعائه ، وينوه بسيادته السنية وعلمه وإمامته وطاعة الدهر له كيفما أمره . وثار فى الصحراء أبو الحسن السملالى وعاث فيها فسادا ، ففزع إليه كبارؤها وسادتها يستنجدون به لإحباط ثورته ، ففكر فى جمع جيش لخره ثم عدل عن ذلك إلى طريق الوعظ والإرشاد حتى لاتراق دماء المسلمين ، واستجاب لدعائه السملالى وحُقنت الدماء ، فأنشده الدغوغى قصيدة منوها بصنيعه ، وفيها يقول :

كم وِلْدَةٍ لولاكمُ فى بِلْدَةٍ يَتَمَّتْ وغودرتِ المِواطنِ عاقِبَةُ  
ولكم بكمِ عمرتِ مواطنُ طالما أقوتُ وتألَّفها الذئابُ العاويَّةُ  
هذا لسانِ الحقِّ ينشدُ إنما شمسُ الهدى للمهتدينِ دِلائِيه  
بِكْرِئَةِ الأبراجِ مشرقُ سعدِها بمحمدىُّ الرشدِ غرباً باقِيه  
ولعلمه وحلمه والحكمه حِكْمٌ تفوقُ الحِصرَ لا متناهيه

وهو يصف محمد بن أبى بكر الدلائى بأنه دائما يحمى الصغار الأبرياء من حرب آبائهم ولولاه لتتيموا وأصبحت المواطن خالية من آبائهم ، وكم به عمرت بلاد ومواطن كانت تُقفر فى عهد غيره وتسكنها الذئاب العاوية ، وإن لسان الحق لينشد إن شمس الهدى للناس جميعا دلالية الموطن بكريه الأبراج ، مشرقها دائما فى المغرب أو الغرب بمحمد بن أبى بكر ، وينوه بعلمه وحلمه وعدالة حكمه . خلال وشمائل تفوق الحصر لا متناهية . ودائما ينوه بكرمه وجوده وأنه غيث مدرار بمثل قوله :

يا مَنْ إذا تربتُ يمينيُّ كان لى نَشْرُ ثناه غِنِيٌّ فلستُ أَعولُ<sup>(١)</sup>  
ما المألُ من أملٍ إليك أمانى حَسْبى رضاك فهل إليه وصولُ  
فرضاكَ كل غنيمَةٍ فى ضمِنه حتى الثراءُ به رضاكَ كَفيلُ

(١) أَعول : أفقر .

ولقد أفادني الفصاحة. جودكم وأنا امرؤٌ حَصِيرُ اللسانِ كَلِيلُ  
فَعَجَزْتُ عن نطقٍ بحسنِ كَمَالِكُمْ وكذا سواي فما عساه يقول

والقطعة تصوره مريدا وتلميذا لشيخه محمد بن أبي بكر ، وإنه ليشعر في عمق حين يعول ويفتقر أن ثناءه على شيخه غنى ما بعده غنى ولا ثراء ، ويعلم أنه يمدحه لا لعطاياه ، وإنما طلبا لرضاه ، فرضاه كل ما يريد من غنمه ، وإنه ليحمل إليه ثراء ما بعده ثراء ، كما يعلن أن جود ابن أبي بكر هو الذي حل عقدة لسانه وكان عَيِّياً كليلًا فأصبح فصيحًا ، ومع ذلك فإنه يعجز عن بيان كمال أستاذه ، بل إنه كمال لا يستطيع هو ولا غيره تصويره . وكان ابن أبي بكر يختم صحيح البخاري مرة كل عام ، ويحتفل بهذه المناسبة ، وينشده الشعراء مدائح مختلفة ، وينشده الدغوشي في أحد احتفالاته :

نال البخاريُّ منه	سَبَّحًا وَغَوْصًا مَرَامَةً
فَنَابَ فِي السَّبْحِ عَنْهُ	وَقَامَ غَوْصًا مَقَامَةً
أَكْرَمَ بِسَوْقِ بَدِيعٍ	لِلْمَكْرَمَاتِ أَقَامَهُ
فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ	وَقَفًّا إِذَا الْغَيْرُ سَامَهُ
فَجَوْهَرُ الْفَضْلِ فَرْدٌ	تَأْبَى الْمَعَالَى اقْتِسَامَهُ

وهو يقول إن صحيح البخاري حظي منه بسبح في أحاديثه وغوص ما يماثلهما سبح وغوص ، ويقول إنه أقام للمكرمات سوقا عظيمة ، جعلت الثناء وقفاً عليه دون غيره ممن قد يتغيه ، إذ جوهر الفضل فرد ، وتأبى المعالي أن يكون قسمة بينه وبين سواه . وعلى هذا النحو كان الدغوشي شاعر محمد بن أبي بكر وداعيته ولسانه الناطق عن ميوله وأهوائه .

### البوعناني<sup>(١)</sup>

هو عبد الواحد بن محمد البوعناني مفتي فاس في عهد المولى إسماعيل العلوي (١٠٨٤ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) وهو يعد أهم حكام الدولة العلوية ، وفي عهده نهض المغرب الأقصى نهضة ثقافية وأدبية ، واستعادت البلاد ذكرى واقعة وادي المخازن ضد البرتغاليين في أوائل العهد السعدي إذ آذن المحتلين الأوربيين للبلدان المغربية بحرب تسحق ضلوعهم سحقًا . وأخذت تلك البلاد تسقط في حجره وحجر المغاربة واحدة تلو أخرى ، وكان أول ما حازه منها - كما تقدّم - المهديّة سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨١ م وتلتها طنجة سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م ثم حاز العرائش سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م واستدار العام فحاز أصيلا ، وكان حريًا أن يواكب هذه الفتوح قصائد حماسية وملحمية كثيرة . وربما

. ٢٣٢/٣

(١) انظر في البوعناني رقصيدته كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ٨٣٩/٣ . والتبوغ المغربي



كان خير ما نظم فيها مدحة للبوعثاني يشيد فيها بفتح المولى إسماعيل لمدينة العرائش ، وهو يفتتحها بقوله :

ألا أبشرُ فهذا الفتحُ نورُ      قد انتظمت بعزمكمُ الأمورُ  
وطيرُ السَّعدِ نادى حيث غنى      قد انشرحتُ بفتحكمُ الصدورُ  
وقد وافتكمُ الخيراتُ طراً      وطابَ العيشُ واتصلَ السرورُ  
وجاهدتُمُ وقاتلتُمُ فأنتم      لدينِ اللهِ أقمارُ تُنيرُ  
وأطلعتُمُ صوارمكمُ نجومًا      لدى هيجاءِ صاحبها كفورُ  
وأنتَ البدرُ يومَ السلمِ حسناً      وفي يومِ الوغى الأسدُ المصورُ<sup>(١)</sup>

والشاعر فرح بهذا الفتح المبين ، حتى ليراه نورا يغمر سناه البلاد والعباد ، وكل شيء من حوله فرح ، فالطير تتغنى ، وقد انشرحت الصدور بما وضع عنها إسماعيل من أثقال كانت تعاني منها عناء شديدا ، وأي أثقال أشد من احتلال الوطن واعتصار طيبات الرزق فيه ، وقد رُدَّتْ إلى أهلها وطاب العيش واتصل السرور بفتح العرائش وفتح طنجة والمهدية قبلها ، وقد جاهدتم أصحاب الصليب ، وانتصرتم لدين الله الحنيف ، وكأنكم أقمار تشع من حولها أضواء منيرة ، وكأنما سيوفكم نجوم تحف بكم ، وإنك للبدر المنير في السلم حسنا وفي الحرب الأسد المصور ، ويمضي منشدا :

وفي ثغر العرائش قد تبدى      لقدركمُ على الشُعري الظهورُ  
فَهَرَّتْهُمُ بأبطالِ عظامِ      على الهيجاءِ كلُّهُمُ جَسورُ  
وكم رأسٍ من الكفار أمسى      قطيعَ الرأسِ مجرورا يَخُورُ<sup>(٢)</sup>  
وكم أسرى وكم قتلى بأرضِ      وكسِمَ جَرَحِي دماؤُهُمُ تفورُ<sup>(٣)</sup>  
تمرُّ بها الطيورُ فتنتقيها      وبات الذئبُ وهو لها شكورُ  
وأضحى الناسُ كلُّهُمُ نشاوي      على طربٍ وما شربتُ خمورُ

وهو يقول للمولى إسماعيل لقد بدا واتضح لقدركم في ثغر العرائش النصر المبين ، فقد قهرتم العدو بالمغاربة الأبطال ممن تدربوا على الحروب ، فكلهم جسور على القتال لا يتخاذل أبدا ، وكم رئيس من الكفار أمسى مقطوع الرأس أو مجرورا يتخبط في دمه صائحا ، وإن الأسرى والقتلى لأكثر من أن تُحصَى سوى الجرحى ودمائهم المتدفقة ، ولكأنك أقيمت للطير مأدبة تتخير منها غذاءها ، وقد تجمعت عليها الذئاب ، وهي تعوى كأنها تشكرك ، وأضحى الناس

(١) المصور : المقترس .

(٢) تفرور : تتدفق .

(٣) رأس : يريد رئيسا . يخور : يصيح .



نشاوى من الفرحة بهذا النصر لا من خمر ذاقوها ، ولكن من تصر تفوق نشوته نشوة الخمر  
فرحا وسرورا . ويقول :

فبُشْرَاكُمْ بهذا الفتح نورٌ      وبشراكم بما من الغفور  
به زادت مآثركم علواً      وقد عظمت به لكم الأجور  
ألا يا أهل سبته قد أتاكم      سيف الله سلطان وقور  
إذا ما جاء سبته في عشيٍّ      تُزَفُّ له إذا كان البكور  
ووهراً تنادى كل يومٍ      متى يأتي الإمام متى يزور  
فيهزمكم ويقتلكم ويسبي      وسيف الحق في يده ينور<sup>(١)</sup>

وهو يشير المولى إسماعيل بأن هذا الفتح نور من عليكم به الله الغفور فزاد مآثركم وأمجادكم  
سما ، وعظم لكم به الأجر والثواب ، وكانت سبته لما تفتح ، فشر بها تهب في وجه الإسبان  
مهددة لهم بالمولى إسماعيل وما يحمل من سيف الله الذى لا يفل أبدا ، وكأنما حين يأتيها مساء  
تُزَفُّ إليه بكورا منكما بالمتحدين لها من الإسبان وبالمثل وهران وكانوا قد استولوا عليها ، تناديه  
صباح مساء كى يهزمهم ويقتلهم بسيف الله الذى لا يزال يضيء في يده ، ويختم قصيدته  
بقوله :

أيا مولاي قم وانهض وشمّر      لأندلس فأت لها الأمير  
وجاهدهم وحاربهم وفرق      جموعهم فرتكهم النصير  
ولا يمنع بفضل الله منها      كما قد قيل بر أو بحور  
بقُرْطَبَةِ تنال المجد طرا      ويأتى العز والملك الكبير

وتصور هذه الأبيات مدى طموح البوعناني حين رأى فتوح المولى إسماعيل تتوالى فيحته  
لا على أخذ سبته ووهران فحسب ، بل أيضا على استرداد الأندلس حيث ينال العز والمجد طرا  
بعودة قرطبة إلى حمى العرب والعروبة .

#### ٤

#### شعراء الفخر والهجاء

#### ( أ ) الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى القديمة منذ الجاهلية ، وقد ظل حيا فيه على توالى العصور ،  
والشاعر يفخر فيه بشمائله الرفيعة الفردية من المروءة والكرم والوفاء وما يماثل ذلك وبعصبية  
القبلية والقومية وبشجاعته وبسالته الحربية . ونراه على ألسنة شعراء المغرب الأقصى منذ ابن زبناح

(١) ينور : يضيء وينير .

فى عصر المرابطين ، وهو يفتخر فى بعض غزله لصاحبه بأنه يمنى من حمير وأنهم سيأخذون منها بثأره ويصور لها بأسهم فى الحرب . ويأخذ الفخر عند شاعر الموحدىن : ابن حبوس شكل نصائح يوصى بها الشعراء بل معاصريه جميعا أن يمثّلوها ليصونوا بها مروءتهم ، ويتخذوها شعارات ترسم لهم مثالية خلقية كريمة من مثل قوله (١) :

رد الطّرقَ حتى توافى الثّميرا      فربّ عسيرٍ أتّاح اليّسيرا<sup>(٢)</sup>  
وأرسلَ قلوّصك طورا شمالا      وطورا جنوبا وطورا دبوراً<sup>(٣)</sup>  
وطرّ حيث أنت قوىّ الجنا      ح لا عذرَ عندك أن لا تطيرا  
ولا تقعنّ وأنت السّلي      سم حيث تضاهى المهيض الكسيرا  
وذو العجز يرّضعُ ثدياً حدورا      وذو العزم يرّضعُ ثدياً درورا<sup>(٤)</sup>

وأول شعار رسمه للشخص كى يحصل على ما يريد مهما يكن عسيرا صعبا أن يتحمّل شرب الماء العكر حتى يصل إلى ما يريد من الماء العذب الصافى وشعار ثان أن يرسل ناقته شمالا وجنوبا وفى كل اتجاه حتى يتحقق له أمله ، فلا بد له من العناء ولا بد له من الضرب على أبواب الآمال حتى تفتح على مصاريعها ، ولا بد له من الطيران بعيدا فى آفاق الدنيا حتى يقع على ما يتمناه ، وعيب أن تكون أجنحته قوية ولا يطير شأن المهيض الكسير ، فالآمال إنما تؤخذ مغالبة وعزما مضطرا ، وكأنما العاجز فى الدنيا يرضع ثديا شحيحا ، بينما القادر المملوء إرادة وعزيمة يرضع ثديا داراً له بكل ما يريده من دنياه . ويقول القاضى أبو حفص عمر بن عمر السّلمى المتوفى سنة ٦٠٤ للهجرة (٥) :

نهائى جلمى فلا أظلم      وعزّ مكائى فلا أظلم  
ولأبدٍ من حاسدٍ قلبه      بنور مآثرنا مظلم  
رحمتُ حسودى على أنه      يقاسى العذاب وما يرّحم  
هجانا افتراءً ولسنا كما      يقول ولكن كما يعلم

والقطعة ردّ بها على بعض من آذاه بهجائه ، وكان كبير النفس ، فردّ عليه بما يتفق مع شخصيته وسمو نفسه ، فقال إن مروءته وحلمه يمنعانه من أن يظلم أحدا وإن ما له من سمو المكانة يمنع أن يتعرض شخص له بظلم أو هجاء ، ولا يسلم مثله من حاسد يحسده على مآثره ومكارمه ، وإنه ليرحم حاسديه لما يقاسون من عذاب الحسد وما يصيبهم به من الكمد ، ويقول إن حاسده يهجوه افتراء . وضمّن ذلك سخريّة لاذعة إذ قال إنه ليس كما يقول حاسده

(٤) حدورا : شحيحا .

(٥) النبوغ المغربى ٧١٨/٣ .

(١) النبوغ المغربى ٧١٧/٣ والوافى ١١١/١ .

(٢) الطرق : الماء العكر . الثّمير : الماء الصافى .

(٣) الدبور : ريح تهب من الغرب . القلوّص : الناقة .

ولكنه كما يعلم من منزلته الرفيعة . ويقول أبو العباس أحمد بن علي الملياني رئيس ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي يعقوب المريني<sup>(١)</sup> :

والفضلُ ما اشتملتُ عليه ثيابي	العزُّ ما ضُربتُ عليه قبائي
والمسكُ ما أهداه نِقْسُ كتابي <sup>(٢)</sup>	والزهرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتي
والعزمُ يأتي أن يُضام جنابي	والمجد يمنع أن يزاحم موردي
بجميل شكري أو جزيل ثوابي	وإذا حمدتُ صنيعَةً جازيتها
مجري طعامي من دمي وشرابي	وإذا عقدتُ مودَّةً أجريتها
ثأرا فأوشِكُ أن أنال طلايبي	وإذا طلبتُ من الفراقِد والسُّها

وهو فخر يصور نفسا نبيلة إلى أقصى حد ، نفسا تستشعر العز كأنما ضرب الشاعر عليه قبابه فأصبح ملازما له لا يغادره ، ومثله الفضل الجائم في ثيابه ، أما الزهر وشذاه فما تكببه يراعته أو قلمه من الشعر ، وأما المسك وعطره فما يكتبه من رسائله البليغة ، وإن المجد ليقف حائلا لمن يريد أن يزاحمه في مورده العذب ، ويأتي العزم أن يصاب جنبه بأى ضميم وإذا قدم له شخص صنيعة أو جميلا جازاه بشكره أو بثوابه الجزيل ، وإذا عقد مودة لشخص جرت في دمه مجرى طعامه وشرابه . وهي صورة بديعة . وإذا طلب من الكواكب ثأرا نال مطلبه سريعا . ويقول أبو علي اليوسى الدلائلي المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة<sup>(٣)</sup> :

إنا أناسٌ لست تُبصرنا	نتحِينُ الطَّعْمَ التي تُزرى <sup>(٤)</sup>
يَعْرِى الفتى ويجوعُ وهو يُرى	متجمُّلا بالصَّبْر والبشر
والحرَّةُ الشَّمَاءُ رتِّما	جاعتُ ولم تُرضِعِ على أجر <sup>(٥)</sup>
والحرُّ ليس حياته بسوى	عزُّ الجناب ورفعة القدر
لا بالطعام ولا الشراب ولا	استلقائِهِ بأرائكٍ وثر <sup>(٦)</sup>

فهو من قوم لا يتحِينون المطاعم التي تزرى بمن يطعمها، وإن الفتى منهم ليعرى ويجوع ومع عُريه وجوعه يُرى مُزدانا بالصبر متحليا بالبشر ، ومثله الحررة ترى شماء متسامية وتجوع ولا تأكل بثديها فذلك موت زؤام ، والحر مثلها يستشعر العزة ورفعة القدر فهما متاعه من دنياه لا الطعام ولا الشراب ولا المقاعد الوثيرة . ولعمر<sup>(٧)</sup> الفاسي المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م :

(١) النبوغ المغربي ٤٢/٣ .  
(٢) نقس : مداد .  
(٣) النبوغ ١٦٧/٣ .  
(٤) الطعم جمع طعمة : ما يطعم .  
(٥) الشماء : المترفة المتسامية .  
(٦) أرائك وثر : مقاعد متركة .  
(٧) النبوغ المغربي ٤٩/٣ والحياة الأدبية في المغرب للدكتور محمد الأخضر ص ٣١١ .

قل لمن يعلو على النا  
ليس من شأني فخار  
ما فخار المرء إلا  
وسجايا ومزايا  
س بآباء سراً  
بعظام ناخرات  
بعلم زاخرات  
وهبات وافرات

وهو يقول إن الفخر الحقيقي لا يكون بالانتساب إلى الآباء والأجداد الرؤساء والعظام البالية في المقابر ، وإنما يكون بما وعى المرء وتعمقه من العلوم وبخصاله الحميدة وما منحه الله من الهبات الوافرة ، ويقول ابن زكري الولى حاثاً على اقتحام الصعاب في طلب المجد<sup>(١)</sup> :

المجد حيث مدار السبعة الشهب  
وهمة المسرء لا تعدو بصيرته  
كل له أرب لكن أخو قصر  
إن كان لا بد للإنسان من أمل  
هيات يدركه من لم يكن بأبي  
بقدر نظرتة يسمو إلى الطلب  
في الهم ليس له في الجد من أرب  
فليأمل المجد فوق السبعة الشهب

وهو يقول إن المجد ليس شيئاً هينا ، بل هو شيء في منتهى الصعوبة ، وعلى طالبه أن يعرف أنه لا بد له من الطيران فيه والصعود حتى يبلغ الكواكب السيارة السبعة ، ويقول الشاعر إنه لا يدركها من لا يشعر بشمم وإباء لا حد لهما . ويذكر أن كل شخص يحصل في دنياه على ما يطلبه بقدر همته ، ويقول إن من همته قصيرة لا ينال مأرباً كبيراً ، وإذا كان كل إنسان له أمل لا يزال يتمناه ، فلتسّم نفسه ويأمل المجد لا في الأرض ولكن فوق السبعة الشهب . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً عند الشاذلي الدلائي وقصيدة بديعة له في الفخر .

### الشاذلي<sup>(٢)</sup>

هو محمد بن أحمد بن الشاذلي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م . لم يولد لأبيه في عهد الزاوية الدلائية ، وإنما ولد له بعد خروج أهله وآبائه منها . حفظ القرآن الكريم ، وأكب بعد حفظه له على علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم البلاغة المختلفة ، ومضى يتزود بالأدب ، ولم تلبث شاعريته أن استيقظت فيه ، فأخذ ينظم الشعر في أغراضه المختلفة ، واشتهرت له قصيدة في الفخر يستهلها بحوار بينه وبين سيدة يمضى على هذه الشاكلة :

ما إن يعيبك فقد الحلى والحلل  
ورب جاهلية هبت تعاتبني  
قالست رأيتك ذا قول مجبره  
إن أنت بالهمم الشماء كنت ملى  
أن كنت- عن غمر عيش- موثر الوشل<sup>(٣)</sup>  
أزهي من الروض غب الواكف المطلق<sup>(٤)</sup>

القليل.

(٤) مجبرة : منمقه . غب الواكف المطلق : عقب السحاب المطر .

(١) الرافى ٨٥٦/٣ .  
(٢) انظر في الشاذلي كتاب الشعر الدلائي ( راجع الفهرس ) والنوغ المغربي ٤٧/٣ .  
(٣) غمر العيش: رافهه وواسعه. الوشل: الماء الضحل



وفى الملوك له كُفءٌ فأمهم حتى يعيدوك ذا خيلٍ وذا خولٍ<sup>(١)</sup>  
ولستُ أصغى وإن لجت لتعدل بي عن منهج الصون بالنتاب والعدل  
وإن من كرمي بُخلى بشعري عن تقريظ ذي كرمٍ أو ذم ذي بخلٍ

وهو يقول إن الشخص لا يعيه فقد الحلى والحلل أو بعبارة أخرى فقد الثراء إذا كان مليئا  
بالهم السامية الرفيعة ، ويقول : رب جاهلة عاتبتني لانصرافي عن رافه العيش واكتفائي بالوشل  
القليل منه ، بينما أملك بيانا بليغا أزهى من أزهار الروض عقب السحاب الهاطل ، وتقول في  
الملوك من يستحقه ، فاقصدهم حتى يثروك ويصبح لك خيل وخدم كثيرون . ويقول إنه  
لا يصغى لمثل هذه العاتبة مهما لجت وألحت إذ تريد أن تعدل به عن منهج الاحتفاظ بمروءته ،  
وإن خلاله الكريمة لترفعه عن مديح الملوك والكرماء وعن هجاء البخلاء الأشحاء ، وما يلبث  
أن يعلن لعاذلته قوله :

ولن ترينى مذيلا - ما حيث - له في غير ذكر الوغى والأعين النجل<sup>(٢)</sup>  
يأبى إياي وأبائي ويأنف لي مجد أناف - ولم يقنع - على زحل<sup>(٣)</sup>  
نفس الكريم تعاف الورد يصحبه ذل على ظمأ في الجوف مشتعل  
لو كنت سائل غير الله لم أسأل غير المذاكي وغير البيض والأسل<sup>(٤)</sup>

وهو يقول لصاحبته إنه لن يتدل شعره إلا في الحماسة والحرب الضارية وإلا في الغزل  
بالحسان ذوات الأعين النجل الفاتنة ، وإن آبائي وإبائي يأتين أن أمتهن شعري وأهينه في مديح  
أو هجاء ، وبالمثل مجدى الذى بلغ عنان السماء ، وظل في ارتفاعه حتى أشرف على الكوكب  
البعيد : زحل . ويقول إن نفس الكريم تعاف أن يرد على ماء فيه ذل أو ما يشبهه ، مهما كان  
ظامئا ومهما كان الظمأ يشتعل في جوفه . وما يلبث أن يقول إنه لو سأل غير الله لم يسأله  
نوالا ولا عطاء ، وإنما يسأله خيلا وسلاحا وسيوفا . ويمضى في قصيدته منشدا :

لا ترض بالعيش في ظلّ الهوان وخض لنيل عز غمار الموت والشكل<sup>(٥)</sup>  
فليس يدرك بالجبن البقاء ولا الإقدام يقضى بما لم يقض في الأزل  
وهو يوصى كل من حوله أن لا يرضوا بعيش في ظل هوان وذل ، وأن يخوضوا في سبيل  
العز غمار الموت وفقد الأهل ، فالبقاء لا يدرك بالجبن ، ونفس الإقدام لا يغير قضاء كتب  
في الأزل وقدر على الإنسان . ويستمر قائلا :

(٤) المذاكى: الخيل. البيض والأسل: السيوف والرماح.  
(٥) الشكل : فقد الأهل والأحبة .

(١) أمهم : اقصدهم . خول : خدم وعبيد .  
(٢) مذيلا : مبتذلا ومهينا . النجل : الواسعة الجميلة .  
(٣) أناف : أشرف .

حَلَبْتُ شَطْرِيَّ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ عَدَمٍ      وَمِنْ يَسَارٍ وَمِنْ صَابٍ وَمِنْ عَسَلٍ  
فَمَتَا بَطِرْتُ لِإِثْرَائِهِ وَلَا حِسْبِي      بَدَتْ بِهِ خَلَّةٌ تَتَّسَابُ مِنْ خَلِّ (١)  
وَكُنْتُ إِمَّا بَدَا لِي مِنْ حَلِيٍّ عَطَلٌ      الْفَيْتُ مِنْ حَلِيٍّ فَضَلِيٍّ غَيْرَ ذِي عَطَلٍ  
وَشَى الْمَهْنَدُ يَدُو فَوْقَ صَفْحَتِهِ      يَغْنِيهِ عَنِ شِيَةِ الْأَغْمَادِ وَالْحَلَلِ  
وهو يقول إنه طالما جرب صروف الدهر وأحداثه من فقر وغنى ومن مر وحلو فلم يلحقه  
بطر ولا استخفاف لإثراء ولا بدا خلل في حسبه وشرفه ، وكان إذا أصابه عطل من حليّ  
الغنى شعر أن حليّ فضله يزينه . ويضرب مثلا لذلك السيف فإن الوشى الذي يزينه يبدو على  
صفحته مما يلمع عليها ويبرق لا على غمده وما يزدان به من بعض النقوش . والقصيدة بديعة  
في كل ما يتصل بها من الألفاظ والصور والمعاني .

### (ب) الهجاء

الهجاء من موضوعات الشعر العربي ، الموهلة في القدم ، وكان أصله لعنات يستنزلها الجاهلي  
من آخته على من يعاديهم من الأفراد أو من يعاديهم مع قبيلته من القبائل والعشائر . وتطور من  
اللعنات إلى الذم بالصفات المرذولة من مثل البخل والجبن والغدر ، واستحال عند جرير والفرزدق  
إلى مناظرات واسعة في أمجاد قيس وتميم وسادتهما ، مما أوضحناه في كتابنا : « التطور  
والتجديد في الشعر الأموي » . ومنذ العصر العباسي الأول أخذ الشعراء يتفننون في وصف  
المهجو بالدناءة والقذارة ، مع ما قد يذكره عنه الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين .  
وظل كثيرون من الشعراء - على مر العصور - يكثرون منه بحيث يمكن تلقيبهم بجماعة  
الهجائين ، وقد يفرضونه على حياتهم ويعيشون له ، وهو ما نفتقده عند شعراء المغرب الأقصى ،  
إذ كان الشاعر المغربي يلم به في لحظة من لحظات غضبه ثم ينصرف عنه إما رعيًا للذمام  
والمواطنة وإما تساميا بنفسه عنه . ويلقانا منه في أول الأمر أحاج لبعض من كانوا يتنبئون  
ويشيرون مع بعض أتباعهم حروبا تدور فيها عليهم الدوائر ، من ذلك قول سعيد بن هشام  
المصمودي في هزيمة برغواطة مع متنبها أبي عفير (٢) :

قضى قبل التفريق فآخبرينا      بقول صادق لا تكذينا  
بأمر برابرة خسرنا وضلنا      وخابوا لا سقوا ماءً معينا (٣)  
يقولون النبيُّ أبو عفيرٍ      فأخزي الله أم الكاذبينَا  
ألم تسمع ولم ترَ يوم «بَهتِ»      على آثار خيلهم رَيْنَا (٤)

مياه عذبة.

(٤) بهت : مكان المعركة .

(١) بطرت من البطر ، وهو الاستخفاف بالشيء .

(٢) النبوغ المغربي ٢٥١/٣ .

(٣) ماء معينا: من مياه الجنة أولعل الشاعر يريد كل

رَيْنَ الْبَاكِيَّاتِ بِهِمْ تُكَالِي وَعَاوِيَةَ وَمَسْقَطَةَ جَنِينًا<sup>(١)</sup>

وهو يعيرهم بيوم « بهت » الذي هزموا فيه مع نبيهم أبي عفير ، ويقول لأهل برغواطة إنهم خسروا وخابوا وضلوا ضلالا مبينا إذ تبعوا متنبئا كذابا من أعداء الله ورسوله ودينه الخفيف ، فأخزاهم الله ، وحرّمهم مياه الجنة المعين الصافي العذب . ولقد كتب الله عليهم هزيمة ساحقة لهم ولنبيهم يوم بهت ، وفرت خيلهم لا بفرسانهم إذ قتلوا شرقتل وإنما بنسائهم يعولن ويبيكين ويندبن من فقّذتهم من الأزواج والأبناء ، وبلغ من حزنهن أن الحوامل منهم لكثرة عويلهن كن يسقطن أجنّتهن فزعا ورعبا . وكثيرا ما كان يعدل الهاجى عن هجاء شخص بعينه إلى هجاء قومه أو هجاء بلدته من مثل هجاء الجراوى - وقيل إنها لغيره - بنى غفجوم قومه متوسلا بذلك إلى هجاء أهل فاس وخاصة عشيرة بنى ملجوم إذ يقول<sup>(٢)</sup> :

يا بنَ السبيل إذا مررتَ بتادِلا لا تنزلنَّ على بنى غفجوم  
أرضٌ أغارَ بها العدوُّ فلن ترى إلا مجاوية الصدى لليوم  
قومٌ طوّروا ذكرَ السماحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم  
لاحظْ في أموالهم ونوالهم للسائل العافى ولا المحروم<sup>(٣)</sup>  
لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصراخ بدعوة المظلوم  
يا ليتنى من غيرهم ولو اننى من أهل فاس من بنى الملجوم

وهو يقول للضيف الطارق المار بمدينة تادلة لا تفكر فى النزول على بنى غفجوم لبخلهم وشحهم ، وإنها لأرض كريهة خربها الأعداء حتى لا تجد فيها إلا صياح اليوم وأصداءه ، ولقد طوّروا راية السماحة والخلق الكريم بينهم ونشروا لواء اللوم والدناءة غير مستجيبين لطالب معروف ولا لفقير محروم . وهم فى غاية الجبن ، حتى إنهم لو استبيح حريمهم ما ثاروا وليته لم يكن منهم لما يحملون من هذه المساوىء الذميمة حتى لو كان من أهل فاس وبنى الملجوم اللؤماء ، وهى سخرية لاذعة . وكاد الهجاءون لا يتركون بلدة دون هجاء ، فهم يهجون مراكش ويهجون مدينة القصر الكبير وغيرهما من مدن المغرب الأقصى الجميلة . ولهم فى الهجاء طرائف ، فمن ذلك هجاء ابن حبّوس شاعر الموحدين لفنه الشعرى قائلا<sup>(٤)</sup> :

يا غرابَ الشعر لا طِرْ تَ ومُنيتَ الوقوعا  
فإذا استيقظَ شَهْمٌ قَرِمٌ زدتَ هجوعا  
هَبْكَ لا تَقْنِصُ عَزَا لِمَ تَقْنِصْتَ الخضوعا

(٣) السائل العافى : طالب المعروف .

(٤) الوافى ١١٠/١ .

(١) ثكالى جمع ناكل : فاقدة الزوج أو الولد .

(٢) النبوغ المغربى ٢٥٣/٣ .

رمت أن ترقى سريعا      فتردّيتَ صريعا<sup>(١)</sup>  
 ربما اصطاد بُغاثُ      شيئا واصطدتَ جوعا<sup>(٢)</sup>  
 ولقد غال حَيييا      منك ما غال صريعا

وهو يختار للشعر من الطير الغراب الذي كان يتشاءم به العرب ، وكأنه مصدر شوّم كبير ، ولذلك يتمنى له أن تقصر به أجنحته ، فيقع ويطيل الهجوع حتى لو استقبله سيد شهيم ويعجب أنه لا يقتنص عزا فلماذا يقتنص الخضوع ، مهما أمّل معه الرقى السريع إذ سرعان ما يهوى صريعا . وقد يصيد شويعر ، بينما لا يصيد الشاعر الكبير سوى الجوع والحرمان ، بل لقد يغتاله المديح كما اغتال أبا تمام الملقب بحبيب ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني الشاعرين المبدعين اللذين أضاعا شعرهما في الثناء على ممدوحيهما . وكان ابن حبوس ظريفا فلم يتعرض لشخص بعينه ، وإنما تعرض بعامة للحاسدين والهجائين والعيّابين الذين يكثرون بين الناس منشد<sup>(٣)</sup> :

أَعِدُّ لِنَاجِيكَ عَصَا      وَأَقْضِمِ مَا ضِيغِيكَ حَصَا<sup>(٤)</sup>  
 وَغَمُضْ عَيْنِكَ النَّجْلَا      ءَ حَتَّى تُنَعَّتَ الْحَوْصَا<sup>(٥)</sup>  
 وَهَزْ لِمَعَشِرٍ سَيْفَا      وَهَزْ لِآخِرِينَ عَصَا  
 لَقَدْ رَخُصَ الْإِخَاءُ وَأَهْدُ      وَنُ الْأَعْلَاقُ مَا رَخُصَا  
 وَقَدْ ذَهَبَ الْوَفَاءُ فَلَا      يَقُولُ مَغَالِطٌ نَقْصَا

وهو ينصح الشخص أن يعد عصا لكثرة الناجين حوله الذين ينكرون فضله ، ويقول أطعم من يمضغون لحمك هاجين وذامين حصا ، وغمض عينك البصيرة عن أخلاق الناس الذميمة حتى تنعت بالحوص وضيق العين وأئك لاتكاد تبصر شيئا . والناس صنفان : صنف يلقي بالسيف وصنف يلقي بالعصا . ولقد رخص الإخاء حتى ابتذل ولم يعد موجودا وذهب معه الوفاء كاملا دون أوبة . وللمالك بن المرحل المريني المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة قصيدة تصور زواجه بمدينة سبتة من امرأة وصفت له بالجمال والحسن البارع ووجدها قبيحة بالغة القبح ، ويطيل في وصف ما قيل له من جمالها الساحر ، وبالمثل في وصف قبحها وأنها قرعاء حولاء فطساء صماء بكماء عرجاء ، ويقول إنه ولّى هاربا منها حين لاح الصباح ، وهي قصة أراد بها إلى الهزل والمجانة .

(٤) أفضم : أطعم : ماضيغك : الذين يمضغونك  
 ذامين .  
 (٥) الحوص : الأحوص وهو ضيق مؤخر العين .

(١) ترديت : سقطت .  
 (٢) البغاث : طير صغير .  
 (٣) النبوغ المغربي ٢٥٢/٣ .



## الشعراء والشعر التعليمي

الشعر التعليمي من الموضوعات الشعرية التي ابتكرها الشعراء في العصر العباسي الأول بتأثير اتساع الثقافة ورفق الفكر العربي ، إذ أخذ بعض الشعراء ينظم في التاريخ وبعض العلوم ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم عن الفارسية قصص كليلة ودمنة ، وقد اقترح له هو ومعاصروه نمطا مستحدثا من الشعر هو نمط الشعر المزدوج الذي ينظم مع وزن الرجز ، وتتحدا القافية به في شطري كل بيت . وأخذ هذا النمط من الشعر التعليمي يشيع في البلدان العربية منذ القرن السادس ، فنظم به كثير من المتون العلمية ، وألفت لها شروح كثيرة . ولم تبق بلدة عربية إلا وشارك علماءها في نظم هذه المتون وفي وضع شروحها ، وأكثروا من نظم مسائل الفقه والنحو والتصريف . وكان للمغرب الأقصى في ذلك مشاركة خصبة ، ومن كبار الناظمين به لهذا الشعر التعليمي محمد بن أحمد بن غازي من العصر المريني ، وله فيه منظومات تعليمية في التاريخ ومختلف العلوم ، ومنها منظومته المنية في علم الحساب . وكثر هذا الشعر في العصر السعدي ، ونجد المقرئ في كتابه روضة الآس ينشد للشعراء من معاصريه أشعارا تعليمية متنوعة في مسائل العلوم . ولشعراء المغرب الأقصى - في مختلف العصور - شعر كثير في الوصايا والحكم ، ولعمر الفاسي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قصيدة في الأمثال والحكم نظمها على مثال لامية العجم ، غير أنه وقف بها عند نحو ستين بيتا ويهمننا في العرض الأدبي لهذا الشعر أن نقف عند منظوماته التاريخية والعامية في الأدب ، ونختار لذلك شاعرين هما عبد العزيز الملزوزي وابن الونان .

### عبد<sup>(١)</sup> العزيز الملزوزي

مكناسي الأصل وأكبّ منذ نعومة أظفاره على التثقف بالعلوم اللغوية والشعر العربي حتى تفتحت موهبة الشعر فيه ، وقدم إلى المنصور يعقوب المريني فأعجب به وأصبح شاعره ، وهو لا يكتفى بمدح العام له ، بل ينظم فيه وفي أسرته ملاحم تاريخية بارعة ، من ذلك ملحمة الكبرى : « نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك » وهي منظومة تاريخية يعرض فيها التاريخ من أعتق الأزمنة ، حتى زمن يعقوب المريني ، وفي فاتحتها يقول :

الحمد لله مغيث الدين بالملك المنصور من مرين

ولا يلبث أن يقول :

المغربى ٢٣٦/١ ، ٢٩/٣ .

(١) انظر في ترجمة الملزوزي وشعره التاريخي الإحاطة لابن الخطيب ٢٠/٤ والوافي ٣٦٥/٢ والنبوغ

سميتها من حسنها نظم السلوك  
وأذكرُ الأمر على الترتيب  
من عهد آدم إلى زماننا  
أختمها بالغر من أملاكنا  
في الأنبياء والخلفاء والملوك  
مختصرا بأحسن التقريب

وهو يمضي في سرد التاريخ منذ أقدم العصور ، حتى إذا وصل إلى دولة بنى مرين ومليكتها يعقوب المنصور أخذ يفصل الحديث في تاريخه وأحداثه ومجالسه ، وكأنما هو الغاية المبتغاة من تأليف منظومته ، وفيه يقول :

قد ألبس الوقار والسكينة  
حتى إذا ما حان وقت الظهر  
يقتى إلى وقت صلاة العصر  
فينصف المظلوم ممن ظلمه  
وأمن الغرب من الفساد  
وخضعت مرين تحت قهره  
ورفع الظلم عن الرعيه  
وحل في مكانة مكينه  
قام إلى بيت الندى والفخر  
يأتي بقصد نهيه والأمر  
ولم يزل إلى صلاة العتمه<sup>(١)</sup>  
ونشر العدل على العباد  
وأذعنوا لنهيه وأمره  
وقمع الطغاة في البريه

وهو يصور يعقوب المنصور المريني يحفّ به الوقار والجلال والسكينة ، ويحلّ في مرتبة رفيعة ، حتى إذا حانت صلاة الظهر أسرع إلى مسجده يؤديها ، ويأتي بعد صلاة العصر لإبرام أوامره ونواهيهِ وإنصاف المظلومين ، ويظل حتى صلاة المغرب ، وقد نشر الأمن في البلاد وأخلاها من الفساد ، ونشر العدل في الناس ، وخضعت له قبائل مرين وأذعنّت له ، ورفع عن الرعية كل ظلم عانت منه وقمع الطغاة الذين ظلموها ظلما فادحا .

وينظم الملزوزي قصيدة تاريخية ثانية في المنصور يعقوب وجهاده لإسبانيان في ديارهم نصرية لبنى الأحمر أمراء غرناطة ، وقد بدأ هذا الجهاد سنة ٦٦٤ للهجرة إذ عبر الزقاق على رأس قوة مرينية كما مر بنا في الفصل الأول ونكل بإسبانيان ، وعاد إلى هذا الجهاد مرارا سنة ٦٧٧ وسنة ٦٨١ واستولى على بعض حصونهم سنة ٦٨٥ وكان كل ما يحوزه من حصونهم وبلدانهم ، يقدمه إلى بنى الأحمر في غرناطة متنازلا عنه لهم . فهو لا يجاهد نصارى إسبانيان بقصد تكوين دولة عربية جديدة في الأندلس ، وإنما يجاهدهم انتصارا لدينه ، إذ رأى بنى الأحمر يتخاذلون عن جهادهم وخشى عليهم عواقب هذا التخاذل ، فامتعض للإسلام وأخذ ينازل إسبانيان بجيوشه المرينية ، وينزل بهم ضربات متوالية . والملزوزي يبدأ قصيدته بحمد الله جلّ في علاه وتمجيده ، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتا يختتمها بنعمته الكبرى على المسلمين بإرساله فيهم الرسول ﷺ وما خصّه به من الإسراء والمعراج ، ويلم بتحريضه لأتباعه على جهاد الكفار ،

(١) العتمة : الظلام .

وينوه بخلفائه الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة ومن اقتفوا سيرتهم حين كان الإسلام شامخا ويقول إنه انسحق بعدهم مشيرا إلى إخراج الإسبان للمسلمين من الأندلس ، حتى صار بالمغرب الأقصى غريبا ، إذ استكان سكانه - كما يقول - إلى القعود عن الجهاد ، إلى أن استولى على صولجان الحكم يعقوب المنصور المريني ، فإذا هو ينازل الإسبان بقواته المرينية وقواده من أبنائه وأبناء رعيته نزالا ضاريا طوال عشرين سنة والنصر يواكبه . وهذه القصيدة التاريخية الثانية للملزوزي تغني بهذه الانتصارات ليعقوب على الإسبان ، وتفصل أحداثها وما غنم يعقوب من الحصون الإسبانية هو وأبناؤه وقواده وما أنزلوه بهم من هزائم ساحقة في نحو مائة بيت ، يستهلها الملزوزي بقوله في يعقوب ونزاله المتكرر للأعداء :

ولم يُعَلِّمَ جِهَادًا لِلْأَعَادَى	بهذى الأرض يُحْتَسَبُ احْتِسَابَا
إِلَى أَنْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ فِيهِ	لِيعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ بَابَا
لِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْعَدْلِ مَلِكًا	بِهِ انْسَلَبَتْ يَدُ الْكُفْرِ انْسِلَابَا
وَلَمْ نَرْ قَبْلَهُ فِي الْعَصْرِ مَلِكًا	أَرَانَا فِي الْعِدَا الْعَجَبَ الْعُجَابَا
دَعَا لِلَّهِ دَعْوَةً مُطْمَئِنًّا	لِمَوْلَاهُ دَعَاءً مُسْتَجَابَا
فَلَبَّى اللَّهَ دَعْوَتَهُ وَسَنَّى	لَهُ الْحُسْنَى وَجَنَّبَهُ الصُّعَابَا <sup>(١)</sup>
فَجَازَ الْبَحْرَ مُجْتَهِدًا مَرَارَا	يَقُودُ إِلَى الْعِدَا الْخَيْلَ الْعِرَابَا <sup>(٢)</sup>

وكانني بالملزوزي حين نفى أن يكون قد سبق يعقوب جهاد من المغرب الأقصى لنصارى الإسبان إنما يريد أنه لم يحدث جهاد لهم في عهد الدولة المرينية قبله ، إذ نحن نعرف جهاد الموحدين لهم قبل تلك الدولة وما أنزلوا بهم في الأرك وغير الأرك من هزائم ساحقة . ويقول إن الله فتح له في الجهاد بابا بل أبوابا ، ويشيد بعده ومحقه لجيوش الإسبان محقا ، وكانما دعا الله أن ينصره واستجاب دعائه ، فيسر له الحسنى من الفتوح حين جاز الزقاق مرارا للجهاد ، يقود إلى الأعداء الخيل العربية الأصيلة فألبسهم هو وبنوه وقواده ذلا مابعده ذل . ويسترسل في ذكر الوقائع وقوادها وكيف أوسعوا بعض بلاد الإسبان حرقا وانتهابا ، ويتحدث عما ساقوه من الغنائم والأسلاب مع الإشادة بيعقوب وبلائه البلاء المستطاب ، ويختم قصيدته مخاطبا بنى مرين بقوله :

هنيئا يا مرينُ لقد علوتم	على الأملاك بأسًا وانتجابا <sup>(٣)</sup>
وفاخرتم بمولانا البرايا	فأعطوكم قيادا وانغلابا
أبعد الفئس وابن الفونس يغي	رضاكم لا يخاف به العتابا <sup>(٤)</sup>

(٣) انتجابا : نجابة واصطفاء .  
(٤) يريد الفونس العاشر وابنه شاتو .

(١) سنَى : يسر  
(٢) العراب : الكريمة الأصيلة .

فحزبُ مرينَ حزبُ الله يحمي      حمى الإسلام لا يخشى عقابا  
إذا سَلُوا السيوف ترى الأعدى      وقد حَلُّوا الرُّبىَ مَدَّتْ رقابا

وهو يهنيء مرين بهذا المجد الحربى الذى سمت به على الأملاك شجاعة وانتجابا ، وقد فاخرتموهم بسلطانكم يعقوب فاستسلموا لكم مغلوبين على أمرهم ، وهذا ألفونس العاشر وابنه يمدان يديهما للصلح . وإن حزبك لحزب الله الذى يحمى ديار الإسلام ، وبمجرد أن ينزل أعداء الدين يلتمسون الربى هلعا ، ويستسلمون بين قتيل وأسير . وفى شعر الملزوزى - كما رأينا - غير قليل من النصاعة والسلاسة ، وقد لبيّ نداء ربه سنة ٦٩٧ للهجرة .

ابن (١) الونان

هو أبو العباس أحمد بن محمد الونان الحميرى الفاسى من نابهى شعراء العصر العلوى ، تألق اسمه فى عصر السلطان محمد بن عبد الله (١١٧١ - ١٢٠٤ هـ) وهو من صفوة السلاطين العلويين نهض بالمغرب الأقصى وطرد البرتغاليين من الجديدة سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م وعنى بالحياة الثقافية والأدبية . ولابن الونان فيه مداخل متعددة ، وكان أبوه مقربا إلى السلطان ، وكان ظريفا فسامه أبا الشمقمق . وأول منظومات ابن الونان فيه أرجوزة سماها الشمقمقية ، ويقال إنه حاول أن يصل إلى السلطان لينشدها ، ولم يتح له ذلك ، فترصد موكبه يوما وصعد على ربوة ، ونادى بأعلى صوته عليه :

يا سيّدى سيّطَ النبى      أبو الشمقمق أبى

فطلبه السلطان ، وصحبه معه إلى القصر وأصبح من حاشيته . والشمقمقية أرجوزة فى ٢٧ بيتا ، للسلطان محمد منها ٢٧ بيتا ، وبقيتها موسوعة أدبية ، استهلها بالرحلة فى مجاهل الصحراء واصفا ركبَ النوق الذى كان فيه ، وظل فى أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديها طالبا إليه أن لا يكلفها فى السير بما لا تطيق جامعا لها فى وصفها كثيرا من أوابد اللغة . ويصف صاحبة له فى ٢٥ بيتا ويورد فى وصفها المادى طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فسيشنّ على قومها غارة بفرسان من خير يعرب . ويسترسل فى فخره بأبائه وقبيلته اليمينية فى نحو خمسة وثلاثين بيتا ، ويفضى إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم فى نحو تسعين بيتا ، وهى لب الأرجوزة ، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمى ، ويمدح الشعر وشاعرية أبى الشمقمق ، وكأنما الأرجوزة كانت منتهية فى هذا الجزء منها ، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله .

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة فى الأرجوزة فحسب ، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب

وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكون ،  
وانظرها فى النبوغ المغربى ١٧٨/٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن الونان وشعره الوافى ٨٦٢/٣  
والحياة الأدبية فى المغرب عند الدكتور الأحضر ص ٢٩٨



القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسي يكمل بهم المعاني في أبياته . وهو ما جعل أدباء المغرب يهتمون بكتابة شروح لها متعددة ومن أهمها شرح السلاوي وشرح عبد الله كنون ، ونقتبس منها أبياتا سهلة لندل بها على خصب شاعريته فمن ذلك قوله فيمن سماها لُبني :

تَسْبِي بَشَغْرِ أَشْنَبٍ وَمَرْشَفٍ      قَدْ ارْتَوَى مِنْ قَرْقَفٍ مَعْتَقٍ<sup>(١)</sup>  
 وَزَادَ مَسْكَ الْخَالِ وَرَدَّ خَدَّهَا      حُسْنًا وَقَدْ عَمَّ بِطَيْبِ عَبِقِ  
 وَقَبَّلَتْ أَقْدَامَهَا ذَوَائِبُ      سَوْدٌ كَقَلْبِ الْعَاشِقِ الْمُحْتَرِقِ  
 كَمْ أَوْدَعَتْ فِي مَقَلَّتِي مِنْ سَهَرٍ      وَأَضْرَمَتْ فِي مَهْجَتِي مِنْ حُرْقِ  
 وَلَا يَزَالُ فِي رِيَاضِ حُسْنِهَا      يَسْرَحُ فِكْرِي وَيَجُولُ رَمَقِي

فهي تخلب من يراها بجمالها الجميل وريقها الذي كأنه من خمر معتقة ، وقد زاد مسك الخال ورد خدورها حسنا بشذاه العبق ، وقبّلت ضفائرها أقدامها وهي شديدة السواد كقلب عاشقها المحترق ، وقد أودعت مقلته سهرا متصلا ، وأضرمت في مهجته حرقا متقدة ، وإن فكره ليسرح دائما في رياض حسننها ويجول معه ما بقي من شعوره بالحياة . والقطعة تموج بالصور والأخيلة . ومن قوله في الأرجوزة مفاخرها :

سَلِّ ابْنَ خَلْدُونَ عَلَيْنَا فَلْنَا      يَمِينِ مَائِرٍ لَمْ تُمَحَقِ  
 بِهِمْ فَخَرْتُ ثُمَّ زِدْتُ مَفْخَرَا      بِأَدْبَى الْغَضِّ وَحُسْنِ مَنْطَقِي -  
 وَزَانَ عِلْمِي أَدْبَى فَلْسِنِ تَرِي      مَنْ شِعْرُهُ كَشِعْرِي الْمَنْمَقِ  
 فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِيحِي يُشْتَفَى      بِهِ كَمَثَلِ الْعَسَلِ الْمَرُوقِ  
 وَإِنْ هَجَوْتُ فَهَجَائِي كَالشَّجَا      يَقِفُ فِي الْحَلْقِ وَمِثْلِ الشَّرْقِ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول سل ابن خلدون عنا ويريد سل تاريخه وما اشتمل عليه من أسماء آبائه ومآثرهم وأمجادهم ، ويذكر أنه يفخر بهم ويزداد فخرا بأدبه وحسن بيانه ومنطقه ، وقد زان علمه أدبه ، ولن ترى لأحد شعرا كشعري المنمق ، فإن مدحت فمد يحي مثل العسل المصفي ، وإن هجوت فهجائي غصص تعترض في الحلق ويشرق أو يغص بها المهجوون . وتوفي ابن الونان سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة ، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكتظ بالألفاظ الحوشية ، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكذب القارئ ويجوجه فيها إلى كثير من الشرح والبيان .

(١) ثغر : فم . أشنب : رقيق . مرشف : اللقم وما به  
 (٢) الشجا : ما يعترض في الحلق . الشرق : القصّة .  
 من ريق . قرقف : خمر .

## الفصل الخامس طوائف من الشعراء

### ١

#### شعراء الغزل

الغزل من أهم موضوعات الشعر العربي ، وقد نظمه شعراؤهم في جميع عصورهم وأقاليمهم مصورين فيه عاطفة الحب الإنساني وما تثير فيهم من المشاعر والخواطر . والشاعر تارة سعيد بحبه في وصاله ووداعه ، وتارة شقى محروم يتضرع ويستعطف ويتمنى ولو نظرة من بعيد . وقلما لا يتغنى شاعر عربي بالحب ، فالشعراء جميعا يتغنون به حتى الفقهاء ومثلهم العلماء من كل صنف . ولكل وطن عربي مجلداته في هذه العاطفة الخالدة وللمغرب الأقصى بدوره مجلداته ، إذ نجده على ألسنة كثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء معبرين فيه عن لحظاته الهنيئة من لقاءات صواحبهم ولحظاته المرة من هجرهن وانصرافهن عنهم دون وداع أو ما يشبه الوداع . وأول ما نلتقى به منهم في عصر المرابطين بالمائة الخامسة للهجرة ابن القابلة السبتي إذ يقول<sup>(١)</sup> :

ووجه غزالٍ راقٍ حُسْنًا أديمُهُ      يَرَى الصَّبُّ فِيهِ وَجْهَهُ حِينَ يُصِيرُ  
تَعَرَّضَ لِي عِنْدَ اللِّقَاءِ بِهِ رِشًا      تَكَادَ الحَمِيًّا مِنْ حَيَّاهُ تَقَطَّرُ  
وَلَمْ يَتَعَرَّضْ كَمَا أَرَاهُ وَإِنَّمَا      أَرَادَ يُرِينِي أَنْ وَجْهِي أَصْفَرُ

وهو يقول : بلغ وجه صاحبتة من الجمال وشفافيته أن يظن مبصره أنه يرى فيه وجهه ، وهي غزال أو رشا يكاد يحياها يقطر خمرا يتشى به مبصر وجهها كما يتشى بشرب الخمر . ويتلطف فيقول إنها لم تتعرض له ليرى ما في وجهها من بدائع الحسن ، وإنما ليشعر بما حدث له في قلبه من شدة الخفقان وفي وجهه من شدة الاصفرار حياء منها وانبهارا . ويقول ابن زنباع شاعر هذا العصر<sup>(٢)</sup> :

لَمَّا كَانَ فِي قَلْبِي كَرِيْقُكَ فِي فَمِي      غَيْرِي يَقْسُو الحُبُّ مَرُّ المَطْعَمِ  
فَأَدِرُّ عَلَى بِمُقَلَّتِيكَ كَهَوَسِهِ      حَتَّى يَدْبُ خُمَارُهُ فِي أعْظَمِي<sup>(٣)</sup>

(٣) الخمار : الانشَاء بالخمر .

(١) الذخيرة لابن بسام ٣٨١/١/٤ .

(٢) تلائد العقيان ص ٢٦٤ .

إن التلدد في هواك تلذذ  
يا أيها القمر الذي إنسانه  
لم أبد حبك غير أن جوانحي  
لا ذنب لي عليم الذي أسرته  
فتلافني قبل التلاف فياني  
لو كان أقتل من زعاف الأرقم<sup>(١)</sup>  
يرمى أناساً للعيون بأسهم  
فاضت به فيض الإناء المفعم  
نظرا ولم أرمز ولم أتكلم  
من حمير وسيأخذونك في دمي

وهو يخاطب صاحبه فيقول لها : غيرى يقول الحب مر ، أما أنا فأقول حبك في قلبي  
حلو كريقك في فمي ، ويتمنى عليها أن تدير كهوسه بعينيها الفاتتين ، حتى يتشى بخماره  
المتع . ويقول لها إن التلدد أو العذاب في حبها له في نفسه لذة لا تماثلها لذة ، حتى لو كان  
قاتلا مثل سم الأفعوان . وإنما لقمر يرمى إنسان عينها بأسهم تصيب أفدة الرجال ، ويقول  
لها إني لم أفش حبك غير أن جوانحي اكتظت به حتى فاضت به فيض الإناء المملوء إلى حوائيه ،  
ولا ذنب لي كما تعلمين فياني أسرت إليك نظرا لم يره أحد ، ولم أنبئ به أحدا . ويتوسل  
إليها أن تتلافاه فتصله وتلقاه قبل هلاكه . ويقول إنه من حمير ، وإن لم تستجب له وتركته  
يهلك فسيدركون فيها ثار الأسد الضرغام . ويقول القاضي عياض<sup>(٢)</sup> :

يا راحلين وبالفؤاد تحمّلوا  
أما الفؤاد فعدكم أنباؤه  
أترى لكم علم بمنتزح الكرى  
أردى بعزيمة صبره وإيائه  
ما ضرركم ، وأضنكم بتحية  
إن البخيل بلحظة أو لفظه  
أبرى لكم قبل الممات قفول  
ولواعج تتابيه وغيليل<sup>(٣)</sup>  
عن جفن صب لي له موصول  
طرف أحم ومبسم مصقول<sup>(٤)</sup>  
يحى بها عند الوداع قليل  
أو عطفة أو وقفة لبخيل

والقاضي عياض يقول إنهم رحلوا بصاحبه ورحل فؤاده معها ، ويتمنى لو عادوا به مماته  
ويقول إن عندهم أنباء فؤاده وما يضطرب فيه من آلام الحب وحرقة ، ويسألهم ألهم علم بالنوم  
الذي نزع عن جفون محب ، ليله موصول بالسهر والسهاد ، ولقد ذهب بصيره وإيائه عين  
ذات سواد جميل وفم يرتسم عليه ابتسام لطيف ، ويقول : ما ضرهم لو نؤلوه ما طلب  
وما أبخلهم بتحية ترد الحياة إلى قليل ، ويقول إن من لا تنيل صاحبها لحظة لقاء أو لفظه وداع  
أو عطفة أو وقفة لشديدة البخل على من يكون لها حيا يستأثر بأفئدتهم وقلوبهم . ويتكاثر  
الغزل في عصر الموحدين ويبرز فيه أو يشتهر شاعران هما أبو الربيع سليمان الموحدي وأبو حفص

(٣) لواعج : آلام .

(٤) أحم : أسود .

(١) التلدد هنا : العناء . زعاف الأرقم : سم الثعبان .

(٢) انظر التعريف بالقاضي عياض لابنه محمد ، تحقيق

د . بشريفة .

عمر بن عمر السلمى ، وسنخض كلا منهما بترجمة . ومن شعراء العصر ابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة ، ومن غزلياته قوله<sup>(١)</sup> :

يا جِيرَتِي وَمَنْ اسْتَجَرْتُ بِهِمْ	مِنْ جَوْرٍ عَزَّهُمْ عَلَى ذُلِّي
عَوَّضْتُمُونِي بِالْوِدَادِ قَلِّي	وَأَبْدَلْتُمْ الْإِنْصَافَ بِالْمَطْلِ <sup>(٢)</sup>
مَا هَكَذَا فَعَلُ الْكِرَامِ بَمَنْ	مِنْهُمْ تَعَوَّدُ أَجْمَلُ الْفِعْلِ
عَلَّقْتُ حَبْلَ مَحَبَّتِي بِكُمْ	بِحَيَاتِكُمْ لَا تَقْطَعُوا حَبْلِي
مَا كَانَ أَنْدَى ظِلِّ عَيْشَتِنَا	إِذْ كَانَ مَنَظْمًا بِكُمْ شَمْلِي
عُودُوا إِلَى عَادَاتِ وَصْلِكُمْ	لَا تَحْرَمُونِي لَذَّةَ الْوَصْلِ
وَإِذَا أَيْتِمَ غَيْرَ جَوْرِكُمْ	فَالجَوْرُ مِنْكُمْ غَايَةُ الْعَدْلِ
إِنْ شَتَّمْتُ قَتْلِي فَهَذَا أَنَا إِذَا	لَا تَحْذَرُوا مِنْ طَالِبِ ذَحْلِي <sup>(٣)</sup>

وهو يقول إنه يستجير من جور صاحبه وشعورها بالعزة على ذله وهوانه فقد أبدلته بالمودة بغضا وبإنصاف اللقاء ونعيمه مطلا ، وليس ذلك بفعل الكرام ومن عودته أجمل الفعل ويذكر أنه علّق محبته بها أو بهم - كما يقول - فلا تقطعوا حبلى ، وما كان أجمل عيشتنا حين كنا نتنظم معكم فى جماعة واحدة . ويضرع إليها - أو إليهم - أن لا يجرموه لذة الوصل ، وحاشاكم أن تعقبوا الإخصاب والود بالجذب والبغض . وحتى إذا أبوا غير ظلمه فإنه يعده غاية العدل ، وإن أرادوا قتله فليقتلوه غير حذرين فليس وراءه من يطلب ثأره . وملتقى فى أوائل العصر المرينى بالشاعر الفذ مالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ومرّ بنا أن الأستاذ هلال ناجى نشر له فى المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد رسالتين فى عروض الدوبيت أو الرباعيات ، عُنِي فى أولهما بوزنه على فَعْلُنْ متفاعِلنْ فعولنْ فعْلنْ ، وفى ثانيتهما بوزنه الثانى فعْلنْ فعْلنْ مستفعلنْ مستفعلنْ ، وأنشد له الأستاذ عبد الله ككون فى عروض الوزن الأول للدوبيت مجزوءًا غزلية يقول فيها<sup>(٤)</sup> :

يا عاذلتى إليك عني	لا تقربُ ساحتى العواذِلُ
مهلا فدمى له حلالٌ	ما أقبلُ فيه قولَ قائلٍ
قد نمُّ به شَذَا الغَوالى	إِذْ هَبُّ وَنَمَّتْ الغلائِلُ <sup>(٥)</sup>
والسَّحْرُ رسولُ مُقَاتِلِيهِ	ما أقربُ عهدَه بيبالٍ
والرَوضُ يُعيرُ وَجَنَّتِيهِ	وَرَدًّا كهواى غيرَ حائلٍ
يَسْبِيكُ برقة الحواشى	عشقا ولطافة الشمائل

(١) الوافى ٣٣٢/١ والنبوغ المغربى ٦٨/٣ .

(٢) قلى : بغضا .

(٣) ذحل : ثار .

(٤) النبوغ المغربى ٦٩/٣

(٥) الغوالى جمع غالية : الطيب . الغلائل : الثياب .



وهو يقول لعاذلته ابتعدى عنى، فساحتى لاتقربها العواذل، وإن دمتى لصاحبتى حلال ولا أقبل فيه قول قائل. وإن روائح الغوالى أو الطيب لترافقتها وتنم عنها ثيابها ، وإن عينيها لترسلان سحرا كأنه مجلوب توا من بابل بلدة الساحرين هاروت وماروت ، وكأنتى بالروض يعير وجنتيها وردا بديعا لا يذبل أبدا كحبها ، وإنها لتسيك بلطفها ورقتها ولطف شمائلها ، مما يجعلك تعشقها عشقا متصلا . ويقول عبد المهيمن الحضرمى الوزير المرنى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة<sup>(١)</sup> :

كانوا نعيمَ فؤادى والحياةَ له	فالآن كلُّ وجودٍ بعدهم عَدَمٌ
بانوا فعاد نهارى كله ظلماً	وكان قُرْبَهُمْ تُمَحَى به الظلمُ
والعينُ منى لا ترقا مداغها	كأنها سحبٌ تهْمى وتنسجمُ
تبكى عهدَ وصالٍ منهمُ سلفتُ	كأنما هنَّ فى إنسانها حلُمُ
لكن ضحكتُ سروراً بالوصالٍ لقد	بكيت حزنا عليهم والدموعُ دَمُ
هم علمونى البكا ما كنت أعرفه	يا ليتهم علمونى كيف أتسمُ

وهو يفدى بنفسه عهدا جميلا استطاب له العيش فيه وجيرةً كان يأنس بوصولهم ، وكانوا نعيم فؤاده وحياته ، ورحلوا فأصبح كل وجود بعدهم كأنه عدم ، وأصبح النهار كله ظلمات بعضها فوق بعض وكان يمحي بقربهم كل ظلمة وكل ظلام ، وإنه ليكيهم ولا تجف دموعه كأنها سحب تهْمى مدرارا ، وعينه تبكى عهدا يبدو فى إنسانها وكأنما كان حلما ، ولكن ضحك سرورا بهم قديما لقد أصبح يكيهم بدموع قانية كأنها دماء مسفوحة ، ويقول إنهم علموه البكا ولم يكن يعرفه ، ويتمنى لو كانوا علموه كيف يتسم إذا نزلت به الحن والخطوب . ونمضى إلى العصر السعدى وولتقى فى كتاب روضة الآس للمقرى بمحمد الوجدى العماد المتوفى سنة ١٠٢٢ للهجرة ، وله من قصيدة غزلية<sup>(٢)</sup> :

إن الرشاقة واللطافة والصبَّاء	حاةً والحلاوة والملاحة والحورُ
صيغتُ لمن أهوى وألبسُ سُندساً	منها ودياجاً عليه قد ظهر
وإذا نظرت لوجهه ولعينه	قلت الجمال من الخدود قد انفجر
عيني وأذنى فى النعيم بنظرة	وبلفظية منه وقلبي فى سقر
هل عطفة أو زورة أو وقفة	أو لفظة تقضى بإدراك الوطر

وهو يجمع لصاحبه فنون الحسن من الرشاقة واللطافة والصباحة والحلاوة والملاحة وحور العين الفاتنة ، وكأنما صيغ لها من كل ذلك سندسا ودياجا لبسته ، وإنك لتخال كأنما الجمال اجتمع بكل فتنه فى وجهها ، وإنه ليخال كأنما عينه حين تنظر إليها وأذنه حين تصغى لها ، كأنما هما فى نعيم الفردوس ، بينما قلبه فى جحيم من الحب ولوعاته ، ويتمنى عطفة منها إليه

(٢) روضة الآس ص ٧٤ .

(١) التبوغ ٧٢/٣ والواقى ٣٣٢/١ .

أوزورة أو وقفة ، أو حتى لفظة يدرك بها مناه . ويقول أبو سالم العياشي المتوفى سنة ١٠٥١ للهجرة في وداعه الرائع<sup>(١)</sup> لزوجته :

ولم أنسها يقظانة الحم في الحشا      ميللة الأشجان وسنانة الطرف  
تقول وقد حلّ الرحيل أهكذا      تحمّلى ثقل الفراق على ضعفى  
أترك أفراحاً كزغب القطا وما      رحمتَ بِنِكَ إذ سلوتَ عن الإلف<sup>(٢)</sup>  
فقلتُ لها كفى الملام فأعرضتُ      كخشفِ النقا تستعرضُ الدمعَ بالكف<sup>(٣)</sup>  
فودّعتهما والقلبُ منطبقٌ على      أساه ودمعى لا يملّ من الوكف<sup>(٤)</sup>  
عليك سلامٌ لا زيارةً بيننا      مع البعد إلا أن أزور مع الطيف

وهو يقول إنه ودعها صباحا وأشجانها تملأ صدرها ، ولا تزال سنة من النوم عالقة بطرفها ، وتقول له وقد أزع الرحيل : أتركنى أحمّل أثقال الفراق على ضعفى . أترك أبناء صغارا كأولاد القطا لم يطل ريشهم ، فهلا رحمتهم حين سلوتنى ولم ترحل ؟ فقلت لها كفى عن الملام ، وظلت تذرّف الدمع . وودعها وقلبه يكتظ بالأسى والحزن ، ودمعه يتقاطر ولا يكف ، وسلم عليها ، وهو يقول فى نفسه لن أزورك مع البعد إلا أن أزورك فى الحلم مع الطيف . ويتكأثر الغزل فى العصر العلوى ، ومن مختاره قول أبى عبد الله الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة<sup>(٥)</sup> :

من لى بها تختال فى حليها      كروضية تختال فى زهرها  
فبشرها أرحب من بشرها      ونشرها أطيب من نشرها<sup>(٦)</sup>  
وخذها أبهج من ورددها      ونورها أطف من نورها<sup>(٧)</sup>  
وقدّها أرفع من غصنها      ووجهها أبيض من فجرها  
العيش والجنّة فى وصلها      والموت والنيران فى هجرها

وهو يحب لصاحبه أشد الحب ، ونترأى له فى حليها تختال كروضية فى زهرها ، ويستمر فى المقارنة ، فبشرها وتهلّل وجهها أرحب من بشر الروضة وتهللها ، وعطرها أطيب من عطرها وخذها يفوق ورددها فيما يبعث فى نفس الناظر إليها من البهجة والسرور . ونورها يفوق زهر الروض لطفًا وحسنًا ، وقدّها نحيل ممشوق أرفع من غصن الروضة ، ووجهها يفوق فى بياضه بياض فجرها ، وما وصلها إلا الحياة والفردوس وما هجرها إلا الموت والجحيم .

(١) النبوغ المغربى ٨٧/٣ .

(٢) نشرها : شذاها وعطرها .

(٣) خشف النقا : ظبية الرمل .

(٤) الوكف : تقاطر الدمع .

(٥) النبوغ المغربى ٩٢/٣ .

(٦) زغب القطا : أولاده الصغار قبل أن يطول ريشهم .

(٧) خشف النقا : ظبية الرمل .

(٨) الوكف : تقاطر الدمع .

وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء شاعرين غزلين كبيرين من شعراء عصر الموحدين ، هما أبو الربيع الموحدي وعمر السلمى .

أبو الربيع<sup>(١)</sup> الموحدي

هو أبو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن، فهو من أسرة الموحدين الحاكمة، وقد عنى أبوه بتربيته، فنشأ أدبيا شاعرا ، ولا يُعرفُ تاريخ ميلاده ، والمظنون أنه ولد حوالى منتصف القرن السادس ، وعاش حتى أوائل القرن السابع إذ توفى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ونرى العلاقة سيئة بينه وبين ابن عمه الخليفة يعقوب فى أوائل توليه الحكم (٥٨١ - ٥٩٥ هـ) ومازال يستعطفه حتى عفا عنه وأصبح من كبار رجال دولته ، وأخذ يعقوب يكلفه بكثير من الأعمال المدنية والحربية فأداها على خير وجه ، وجعلته هذه الصلة بابن عمه والدولة يعيش فى رفاهية من العيش ، مما جعله يكثر من الخمرىات كما جعله يعيش لعواطفه الشخصية وخاصة فى الحب والغزل ، وهما يستغرقان الشطر الأكبر من ديوانه من مثل قوله :

حَسْبُ الهوى من قتيل الحب مَصْرَعُهُ      وَحَسْبُهُ منه ما تحويه أضلعُهُ  
قالوا تعزُّ وقد بانوا فقلت لهم      كيف العزاء وأدنى البين أوجعه  
لا عذَّب الله قلبا بالفراق ولا      سقاه من صابه ما يتُّ أجرعُهُ  
لا تعذلونى فما أصغى لعذلكم      صمَّتْ عن العذل أذنى ليس تسمعه

وهو يقول يكفى المحب مصرعه وما تحويه منه أضلعه، وهو يحاول كتمان أساه وضناه، وعبثا يستطيع ذلك ويقول الناس له تعزُّ عن صاحبك حين رحلت ، ويجيبهم كيف أتعزى ومواقع البين أخذة يتلايبي، ويدعو الله أن لا يعذب بالبين والفراق قلبا ولا يسقيه ما يتجرعه من المرِّ والعذاب، ويقول لعذاله لا تعذلونى فلست أصغى إلى عذلكم إذ أصاب أذنى صمم فلا تسمعه. ويقول:

كيف التصبرُ والأشواقُ تزدادُ      والدارُ تنأى وما للوصل ميعادُ  
وكلما قربتُ منى دياركمُ      ينأى المزار كأنَّ القرب إبعادُ  
والقلب فى حرقٍ والجفنُ فى أرقٍ      وللبلابل إصدارُ وإيرادُ<sup>(٢)</sup>  
إنى وإن فاتنى عيدُ برئعكمُ      حسبى بلقيالكُ أعراسُ وأعيادُ

إنه لا يستطيع صبرا عن رؤية صاحبه ، فالأشواق تزداد ، ودارهم تبعد ، وليس للوصل ميعاد . ويقول إن ديارهم كلما قربت منه نأت الزيارة ، وكأن القرب تحول نوعا من الإبعاد ، وقلبه فى حرق من الحب ، وجفنه فى أرق والبلابل أو الشجون تقلقه ، ويقول إنه إن فاته العيد فى ديارهم ، فلقاؤها أعراس وأعياد تنتظره . ويقول :

(١) انظر فى ترجمة أبى الربيع الموحدي وأشعاره الوافى ص ١٨٤ - ٢٢٧ ودراسة للدكتور عيسى الجرارى ،  
وديوانه منشور .  
(٢) البلابل: الشجون. إصدار وإيراد : رواج ورجوع .

الشوقُ يزدادُ إذ تدنو بك الدارُ  
ما باختيارى نأتُ بى الدارُ يا أملى  
ما سرتُ ميلاً ولا جاوزتُ مرحلةً  
ولا نظرتُ إلى شىءٍ فأعجبني  
اللهُ يعلمُ أن القلبُ عندكمُ  
ما ضر طيفُكمُ لو زارنى بدلا  
الذنبُ للنومِ لا للطيفِ يا سكنى  
فهل على الشوقِ أعوانٌ وأنصارُ  
وليس غير دُنُوئى منك أختارُ  
إلا وفى النفسِ من تذكاركُم نارُ  
مذ فارقتُ وجهكُ المحبوبَ أبصارُ  
وإن تناءتُ به عن إلفه الدارُ  
منكم وطيف حبيب النفسِ زوارُ  
وكيف يطرقتى والنوم فرارُ

وشوقه يزداد كلما دنت منه دارها وكأنما له أنصار وأعوان يساعدونه ، ويقول إنه ليس باختياره بعد دارها عنه ، إذ يختار دائما دنوها وقربها ، ويقول إنه لم يسر ميلا ولا مرحلة إلا وتشتعل ذكراها فى نفسه ، ولم يشغل نظره بشىء بعد رؤية وجهها المحبوب ، ولكنما رحل عنه قلبه معها ، ويعجب أن طيفها لا يزوره بينما طيف الأحبة دائما زوار للمحبين ، ويعتذر عنه ، فالذنب للنوم لا للطيف ، لأنه لا ينام إذ يبيت دائما مسهدا لا يفكر فى شىء سواها . ويقول:

يا مزعم البين فى ترحالك الأجلُ  
إنى لأعظم أن تمضى وتركنى  
فلا تروغ فؤادا أنت ساكنه  
لم يدر قومك ما ذا فى ترحلهم  
سروا - بزعمهم - ليلا وما علموا  
وأنت لاهٍ بحب البين مُشتغلُ  
والدمع يهمنى ونار الوجد تشتعل  
بالين منك فإنى والة خجلُ  
من الذنوب ولو يدرون ما رحلوا  
بأنهم فى فؤادى حيثما نزلوا

وهو يخاطب صاحبه المصممة على الرحيل ، ففى رحيلها موته إذ سترحل بحبيبة قلبه ، وهو يعظم أن ترحل وتركه لعذابه ، والدمع يهطل ونار الحب والوجد تشتعل ، ويقول لها لا تروغى فؤادى بالين فإنى فى غاية الحزن وأكاد أجن ، ولم يدر قومك ما فى ترحلهم من الذنوب والآثام بسببى ولو عرفوا ذلك ما رحلوا ، وقد ساروا ليلا وما علموا أنهم دائما فى فؤادى أذكرهم وأذكرك ذكرى متصلة . ويقول :

أقول لركبٍ أدلجوا بسُخيرةٍ  
وأملأ عيني من محاسن وجهها  
فإن هى جادت بالوصال وأنعمتُ  
وقفتُ بها أشكو وأسكبُ عبيرةً  
فأومتُ برخصٍ من بنانٍ مخضبٍ  
وقالتُ أيكى البين من قد أراده  
قفوا ساعةً حتى أزورَ ركبها  
وأشكو إليها أن أطالت عتابها  
وإلا فحسى أن رأيتُ قبابها  
على غير بينٍ ما عرفتُ انسكابها  
وحطتُ على البدر المنير نقابها  
ويشكو النوى من قد أثار غرابها



وهو يضرع إلى ركب صاحبه الذي سار بها سحرا أن يتوقف ساعة ليزور ركبها ويملاً عينه من محاسن وجهها ، ويشكو إليها طول عتابها ، فإن هي نعمت بالوصول فيها وإلا فحسبه أن رأى قبابها وخيامها ، ويقول إنه وقف بها يشكو ويسكب عبراته التي لا يسكبها في غير بين ، وكأنما عطفت عليه فأومت بيتان غضُّ مخضب وقد وضعت نقابها على وجهها المنير كالبدر في اكتماله ، وعاتبته قائلة أتبكي من الين وأنت الذي أردته وتشكو النوى والفراق وأنت الذي أثرت غرابه . وواضح أنه يتميز بموسيقى عذبة وقلمها يُضنى في شعره أو في حبه ، لأنه أمير مترف ، وشعره لذلك ليس فيه تعمق في وصف دقائق الحب ومعانيه .

### عمر<sup>(١)</sup> السلمى

هو أبو حفص عمر بن عمر السلمى ، ولد بأغمات سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، وعنى به أبوه ، وصنجه معه وهو قاض بفاس فأكبَّ بها على حلقات الفقهاء والأدباء ، وأعدّه إكبابه على الفقه والحديث النبوى ليتولى منصب القضاء فى تلمسان وفاس وإشبيلية . وكان مع إحسانه للفقه والفتاوى الدينية شاعرا مجيدا ، وله مدائح فى يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، واشتهر فى البيهتين : المغربية والأندلسية بشعره فى الغزل ، وأخذه عليه بعض المترمين ولم يُصنغ لهم ، ويقول مترجموه إنه كان يعنى بمسكته وملبسه وزينته عناية الشعراء الثنائين من أمثاله ، ومن غزلياته قوله :

أعيدك يا سليمى من سليم	قتلت فتاهم وحر الزعيم
قتيل الحب لا يودى وعاني	ه لا يفدى ولا فيه الخصوم <sup>(٢)</sup>
ومالى طالب بترات قتلى	إذا قتل الغرام فلا غريم
فؤادى سار نحوك عن ضلوع	بها يا ريم حبك لا يريم <sup>(٣)</sup>
وإدك صح فى قلب سقيم	كطرفك صح ناظره السقيم
إذا أعرضت تسود الأمانى	وإن أقبلت تبيض الموم
وما حبي لها إلا عذاب	عليه من نضارتها نعيم

وقد اختار لصاحبه اسم سليمى ليجانس بينها وبين اسم قبيلته سليم وفى ذلك تكلف واضح ، ويلقب نفسه بالزعيم فخرا لا يستحب فى الغزل ، ويقول لما إن قتيل الحب لا يؤخذ بثأره ولا يفدى ، وإنه ليس له طالب بثأره إذا قتله الغرام ، وحبها مستقر بين ضلوعه لا يبرحها .

(١) نظر فى ترجمة السلمى وأشعاره أزهار الرياض ٣٦١/٢ وما بعدها والذيل والتكملة لابن عبد الملك فى ٢٢٢/١/٨ والفصون الياقة لابن سعيد والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ١٦٨/١ وما بعدها والنبوع

المغربى ٦٢/٣ وما بعدها .

(٢) لا يودى : لا يؤخذ بثأره .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

وإنما سماها في البيت الرابع ريمًا ليجانس بين اسمها والفعل في آخر البيت ، ويقول إن قلبه سقيم مثل طرفها ، ويعنى في البيت السادس بالطباق بين اسوداد الأمانى وايضاض الهموم ، ويقول إن عذابه في حبها عليه أثارة من نضارتها . وفي رأى أن السلمى لم يكن على طبيعته حين نظم هذه المقطوعة ، ولذلك تكلف فيها ألوانا من التكلف . ويقول :

أغارَ على الصبِّ مَنْ أُنِّبَهُ      هو الحبُّ مَنْ يُطْفِئُ أَلْهَبَهُ  
نأى القلبُ عني وشوقى معى      فإللهُ أمرى ما أعجبه  
يحنُّ فؤادى إلى قاتلى      كذاك الهوى عند من جرَّبه  
يجود لمُسْخِطه بالرضا      ويطلبُ راحةً من أتعبه  
إذا شفَّ قلبى غرامُ الهوى      دعا بالنعيم لمن عذَّبَهُ

وهو يقول إن شخصا نزل بالحب أنبه ، وكأنه لا يعرف أن من يريد أن يطفىء الحب بالتأنيب أو باللوم يشعله ، ويعجب أن قلبه رحل مع صاحبتة ولا يزال ما كان يختلج فيه من أشواقه معه ، وإن فؤاده يحن دائما إلى رؤية صاحبتة قاتلتة شأن المحبين جميعا . ويجود المحبوب بالرضا لمن أسخطه ، ويطلب الراحة لمن أتعبه ، ويقول إن الغرام كلما أضنى قلبه وشفه دعا بالنعيم لمن عذبه . وهى رقة واضحة فى الغزل . ومن قوله فى جمال الأعرابيات بالقياس إلى الحضريات مستلهما المتنبي وإعجابه المعروف بالبدويات :

مَهَا الْقَفْرِ لَا دُمِيَّةُ الْمُرْمِرِ      وفى العُربِ لا فى بنى الأصْفَرِ<sup>(١)</sup>  
بِنَفْسِي يَعْافِرُ تَلْكَ الْخِيَامِ      وَمَسْرَحُهَا فى النَّقَا الْأَعْفَرِ<sup>(٢)</sup>  
مَلَاعِبُ يَصْبُو إِلَيْهَا الْحَكِيمِ      وَيُسَلِّبُ فِيهَا فِؤَادُ الْجَرِي  
وفِيهَا الظُّبَاءُ بِنَاتُ الْأَسْوَدِ      غِيَارَى مَتَى بَغَمَتَ تَزَارُ<sup>(٣)</sup>  
فَخَيْسُ الْهَزِيرِ كِنَاسُ الْغَزَالِ      بِهِ الشُّبُلُ نَاشٍ مَعَ الْجُوذْرِ<sup>(٤)</sup>  
يُخَالِسُهَا نَظْرًا تَحْتَهُ      غَرَامٌ بِهِ الْحَى لَمْ يَشْعُرْ  
وبالْلَحْظِ يُقَدِّحُ زَنْدُ الْهَوَى      فَطَرَفٌ غَيْرِ وَفِؤَادُ بَرِي

وهو يفضل جميلة القفر البدوية على دمية المرمر الحضرية ، ويكفى أن يسميها دمية فليس فيها حيوية البدوية ولا نضرتها ، ويقول إنه يفدى بنفسه وروحه ظباء تلك الخيام وملاعبها فى الرمل المغير . ويقول إنها ملاعب تجذب الرجل الحكيم وتسلب فؤاد الجرىء الشجاع ، فيها الظباء كريمات الرجال الأسود اللائى إذا صحن ظننت أنهن يزأرن ، وكأنما بيت هذا

(١) بنو الأصفر : الروم وأمثالهم من الإسبان .  
(٢) اليعافير جمع يعفور : الظبي وولد البقرة الوحشية .  
(٣) بغمت : صاحت .  
(٤) خيس الهزير : أجمة الأسد . الكناس : بيت  
الغزال . الجوذر : ولد البقرة الوحشية .

الغزال . أجمة أسود ، به الشبل ناشيء مع بنت عمه التي تشبه ابنة البقرة الوحشية ، وكل منهما يختلس النظر إلى الآخر تعبيرا عن غرام مكنن لا يشعر به الحى ، وباللحظ وحده يضطرم الهوى ، وطرف يغرى به وفؤاد لا يزال طاهرا بريئا . وهى لوحة بديعة لفتيات البادية . ومن قوله متغزلا :

هذا فؤادى أقصدته الأسهمُ      من ذا يرى تلك الجفونَ ويسلمُ<sup>(١)</sup>  
يا غرةً حكيمَ الجمالِ لها على      شمس الضحى وأصابَ فيما يحكم  
يُضحى الخلى إذا رآها عاشقا      والعقل توقظه اللحاظُ النُّومُ  
وكان قامتها وتغمةً لفظها      غصنٌ عليه بلبلٌ يترنمُ

فقد أصابت فؤاده الأسهم المصوبة من عيني صاحبتة ، ويقول إن أحدا لا يسلم من تلك السهام إذا نظر إلى جفونها الجميلة ، ويقول إنها غرة شديدة البياض حتى ليحكم الجمال لها على شمس الضحى ، وهو مصيب فى حكمه ، وإن الخلى الذى لم يتعود الحب حين يراها يصبح عاشقا للحاظها الفاترة الجميلة ، ويشطح به الخيال ، فيقول إنه يخيل إليك وقد رأيت قامتها المشوقة تصدح بالغناء أنك ترى غصنا يتغنى فوقه بلبل جميل - ويقول :

همُ نظروا لواظها فهاموا      وتشربُ عقلَ شاربها المدامُ  
يخاف الناسُ مُقاتها سواها      أيدعُرُ قلبَ حامله الحُسام  
سما طرفى إليها وهو بالكِ      وتحت الشمسِ ينسكبُ الغمام  
وأذكر قدها فأنوحُ وجدا      على الأغصانِ تتدبُ الحمام  
وأعقب يئنها فى الصدرِ غمًا      إذا غربتْ ذكاءُ أتى الظلام

وهى قطعة بديعة بتصاويرها الرائعة ، فحين نظروا إلى لواظها سكروا وهاموا كشارب للخمر لم تبق له من عقله شيئا ، والناس لفتنة عينها يخافون من النظر إليها وطبعى أن لا تخاف لأن الحسام لا يخيف حامله . وقد نظر إليها طرفه باكيا ، وكأنها الشمس ينسكب تحتها الغمام ، ويقول إنه يذكر قدها المشوق فينوح كما ينوح الحمام على الأغصان ، وإن بينها وبعدها أنشأ فى صدره غما كما ينشأ الظلام حين تغرب الشمس . وهى مقابلات فى غاية الطرافة وتدل على شاعرية خصبة . وقيل وفاته سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م نظم أشعارا زاهدة كثيرة .

٢

## شعراء الوصف

الوصف قديم فى الشعر العربى يصف فيه الشعراء الطبيعة برياضها وأزهارها وحيوانها وصحرائها وزروعها حتى إذا تحضروا وصفوا القصور وأدوات الحضارة وملاهيهم المختلفة ،

(١) أقصدته : أصابته .

ولم تقع أعينهم على شيء من أرض. أو سماء إلا سجلوه ووصفوه ، يصفون الأنهار والبحار والسفن كما يصفون النجوم والشمس والقمر والسحب والأمطار والطير . وكما وصفوا السهول والوديان وصفوا الجبال والكثبان والأشجار والغابات . ونجد الوصف على كل لسان منذ عصر المرابطين ، من مثل قول القاضي ابن زباع في وصف الربيع<sup>(١)</sup> :

أبدت لنا الأيام زهرة طيبها      وتسرّبت بنضيرها وقشيبها  
واحتزّ عطف الأرض بعد خشوعها      وبدت بها النعماء بعد شحوبها  
وتطلّعت في عنفوان شبابها      من بعد ما بلغت عتيّ مشيبها  
وقفت عليها السحب وقفة راحم      فبكت لها بعيونها وقلوبها  
فعبجت للأزهار كيف تضحكت      بكائها وتباشرت بقطوبها  
وتسرّبت حللا تجرّ ذبولها      من لدمها فيها وشقّ جيوبها<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن الأيام أبدت لنا أروع طيب لديها : طيب الربيع ، ولبست أروع حللها وأجدّها ، واحتزت جوانب الأرض خصبا بعد جدبها ، وتراءت النعماء فتية بعد شحوبها ، وتطلّعت لمفاتنها في عنفوان شبابها بعد أن كانت شابت وبلغت من شيخوخة الجذب عتيّا ، فقد وقفت عليها السحب راحمة لها عاطفة وبكت لها بكاء حارّا ، ويقول إنه عجب للأزهار تضحك وتبتهج لبكائها وعبوسها ، وسرعان ما لبست حللا سابغة بما حدث لها من ضرب الأمطار لها وشق مداخلها . ولما جاء الموحدون بالقاضي عياض مغلولا من سبتة إلى مراكش ومر بواد يقال له « داي » سمع قمرية تسجع ، فقال<sup>(٣)</sup> :

أقمرية الأدواح بالله طربي      أنا شجن بالنوح أو بغناء<sup>(٤)</sup>  
فقد أرقنتني من هدليك رنة      تهيج من برحي ومن برحائي<sup>(٥)</sup>  
لعلك مثلي يا حمام فإني      غريب بداي قد بليتُ بداء  
فكم من فلاة بين داي وسبتة      وخرق بعيد الخافقين قواء<sup>(٦)</sup>  
يذكرني سح المياه بأرضها      دموعا أريقته يوم بنت ورائي  
ويعجبنى في سهلها وحزونها      خمائل أشجار ترف رواء<sup>(٧)</sup>  
لعل الذي كان التفرق حكمه      سيجمع منا الشمل بعد تناء

وهو يقول لقمرية الأشجار طربي أخاهم وشجن بالنوح أو بالغناء فقد أسهرني من غنائك رنة هيجت من شدائدي ، لعلك مثلي غريبة تنوحين على قرينك وأولادك ، وكم من فلاة بين

(١) قلائد العقيان ص ٢٥٩ .

(٢) لدم : ضرب .

(٣) المنتقى لأحمد بن القاضي ٥٤٧/١ .

(٤) الأدواح جمع دوحه : الشجرة العظيمة .

(٥) برحي وبرحائي : شدائدي .

(٦) خرق : مفازة . قواء : مقفر .

(٧) ترف : ناضرة . رواء : منظرها جميل .



داى وسبته وكم من مفازة متباعدة الجانبين مقفرة ، وإن سحَّ المياه بأرضها ليذكرنى دموع زوجتى وأولادى ورائى يوم رحلت ، ورائى لتعجبى خمائل داي الناضرة ذات المنظر الجميل ، ولعل الله الذى حكم بالتفرق بينى وبين أهلى يجمع الشمل بعد فراق وتعدٍ بعيد . ويقول أبو الربيع الموحدى فى وصف الربيع<sup>(١)</sup> :

حَيُّ الرِّبِيعِ بِمَا وَشَّتْ أَزَاهِرُهُ      وَتَنظَّمَتْ مِنْ أَكَالِيلِ عَلَى الشَّجَرِ  
وَدَبَّجَتْ فَوْقَ مَتْنِ الرُّوضِ مِنْ حُلَلٍ      وَتَمَقَّتْهُ بِاللَّوَانِ مِنَ الزَّهْرِ  
مِنْ نَرَجِسٍ سَاحِرِ الْأَلْحَاطِ ذِي غُنْجٍ      وَمِنْ أَقَاحِ نَقِيِّ الثَّنَجِ ذِي أُشْرِ<sup>(٢)</sup>  
بِمَا تَضَوَّعَ رَوْضُ الزَّهْرِ غَيْبًا حَيًّا      تَأْكُدُ الشُّكْرُ لِلنَّعْمَى عَلَى الْبَشْرِ  
لَا يَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّ الرُّوضَ فَاحَ لَحْمٍ      طَوْعًا وَلَكِنَّهُ يُثْنَى عَلَى الْمَطْرِ

وهو يطلب من كل قارىء له أن يحيى الربيع بما وشت ونقشت أزاهره وبما نسقت من تيجان الزهر على الشجر وبما زينت الروض من حلل وتمقتها باللوان من الزهر : من نرجس مدل ساهر الألحاط ومن أقاح ذى حروز نقي الثغر ، وقد وجب الشكر على الناس لهذه النعمة العظيمة مما ينشر روض الزهر عقب الحيا أو المطر من عطر زكى ، ولا يظن الناس أن الروض فاح به لحم ، وإنما فاح به ثناء وشكرًا للمطر . ويقول أبو القاسم الشريف السبتي المشهور بالغرناطى المتوفى سنة ٧٦٠ فى ناعورة<sup>(٣)</sup> ( ساقية ) :

وَذَاتِ سِيرٍ إِذَا حُتَّتْ رَكَائِبُهَا      حَتَّتْ فِرَاقَتَكَ فِي مَرَأَى وَمُسْتَمِعٍ  
كَأَنَّهَا فَلَكَ دَارَتْ كَوَاكِبُهُ      عَلَى الرِّيَاضِ بِنُوءٍ غَيْرِ مُنْقَشِعٍ  
تَمَائِلُ السُّحْبِ صَوْبًا بَلِ تَخَالَفُهَا      إِذَا اسْتَهَلَّ حَيًّا الْمَتَانَةَ الْحَمِيعَ<sup>(٤)</sup>  
هَذَى مِنَ الْمَاءِ تَعْلُو كُلَّ مُنْخَفِضٍ      وَتَلِكُ تَنْزِلُ مِنْهُ كُلُّ مُرْتَفِعٍ

يقول إنها إذا أسرعت دواليبها سمعت صوتا فيه حنان فراقتك فى منظرها وصوتها ، وكأنها فلك دارت كواكبه أو دواليبه على الرياض بمطر مستمر لا ينقشع . ويقول إنها تماثل السحب فيما تسقط من مطرها ، ويعود ، فيقول بل تخالفها إذا انهمرت أمطارها ، فالناعورة تسقى كل منخفض بينما السحب تسقى المرتفعات من الجبال والتلال . ويقول فى وصف سفينة تمخر به البحر :

وْغَرِيَّةِ الْإِنْشَاءِ سِرْنَا فَوْقَهَا      وَالْبَحْرِ يَسْكُنُ تَارَةً وَيَمُوجُ  
عُجْنَا نَوْمًا بِهَا مَعَاهِدًا طَالَمَا      كَرَمْتُ فَعَاجَ الْأَنْسُ حَيْثُ تَعُوجُ  
وَأَمْتَدُّ مِنْ شَمْسِ الْأَصِيلِ أَمَامَنَا      نَوْرًا لَهُ مَرَأَى هُنَاكَ بِهَيْجِ

(٣) انظر فى هذه الأبيات وتاليها الرافى ٤٣٥/٢ .

(٤) المتانة الجمع : السحابة الهائلة .

(١) الرافى ٢٠٥/١ .

(٢) أشر : حروز . والشعراء يشبهون الثغور بالأقاح .

فكان ماء البحر ذائب فضة قد سال فيه من النصار خليج وهو يقول إنها سفينة بديعة الصنع سرنا عليها والبحر تارة يسكن وتارة يموج ، وعرجنا نؤم أماكن طيبة وعرج معها الأنس ، وامتد أمامنا من شمس الأصيل نور بهيج ، وكان ماء البحر فضة ذائبة امتدت فوقه شمس الأصيل فاستحال خليجا من النصار أو الذهب . ويقول عبدالمهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة في وصف السحر وانبثاق أضواء الفجر<sup>(١)</sup> :

ترأى سحير والنسيم عليل	وللنجم طرف بالصباح كليل
وللفجر نهر خاضه الليل فاعتلت	شوى أدهم الظلماء منه حُجول <sup>(٢)</sup>
فمزق ساجى الليل منه شرارة	وخرق ستر الغيم منه نُصول
تبسم ثغر الروض عنه ابتسامة	وفاضت عيون للغمام همول <sup>(٣)</sup>
ومالت غصون البان نشوى كأنها	يدار عليها من صباه شمول <sup>(٤)</sup>
وغنت على تلك الغصون حمائم	لهن حفيف دونها وهديل <sup>(٥)</sup>
إذا سجعت في لحنها ثم قرقرت	يطيح خفيف دونها وثقيل <sup>(٦)</sup>

وهو يقول إن السحر ترأى ومعه نسيم رقيق وأصاب طرف النجم ببعض الكلال ، وكأنما الفجر نهر خاضه الليل فاعتلى أطراف حصان الظلماء بياض في قوائمه ، ومزقت منه شرارة سكون الليل وخرق ستار الغيم منه ما يشبه نصول الرماح ، وتبسم ثغر الروض ، وفاض الغمام بسيول من المطر ، وانتشت غصون البان وكأنما يدار عليها كئوس من ريح الصبا الجميلة ، وأخذ الحمام يغنى على الغصون ، ويُسمع حفيفه وهو يسقط على الأغصان وترانيمه ، ويقول إن الحمام إذا ترنمت ورددت صوتها فاق لجماله الخفيف والثقيل مما يلحنه المغنون . وينشد أحمد بن يحيى الشفشأوى المتوفى أيام المنصور السعدى سنة ١٠٠١ للهجرة في روض<sup>(٧)</sup> :

أما ترى الطير بالأدواح ساجعة	أدمت أناملها أوتار عيدان
تحكى مزامير من لان الحديد له	تشدو بالاجزال فى رصد زويدان <sup>(٨)</sup>
تنفى عن الصب ما بالقلب من كرب	بل ترك الصب فى تيه الهوى عانى
والبان يرقص من ترجيعها طربا	والزهر يفتّر عن أنغار مرجان
والماء منسكب والظل منسحب	وللنسيم هبوب يُنعش الفانى

وهو يقول إن الطير يترنم فى الأشجار وقد أدمت أناملها الحمراء ما تقف عليه متغنية من

- (١) الوافى ٤٤٦/٢ .  
(٢) شوى : أطراف ويريد القوائم . حجول : بياض .  
(٣) همول : دافقة .  
(٤) شمول : خمر .  
(٥) هديل : صوت الحمام .  
(٦) قرقرت : رددت . يطيح : يسقط .  
(٧) النبوغ المغربى ١٣٧/٣ .  
(٨) الرصد والزويدان : من ألحان الغناء .

أوتار العيدان تحكى بغنائها مزامير داود الذى ألان له الله الحديد ، وتشدو بأنغام الرصد والزيدان ، وتنحى عن الحب ما بقلبه من كُرب الحب بل تجعله كأنه أسير لجه يردد صبايته فيه ، والبان يرقص من ترديد صوتها وترنمها طربا ، والزهر يضحك عن ثغور لؤلؤية ، والأمطار تنسكب والظل ينسحب ، ويهب نسيم منعش . ونمضى إلى بواكير العصر العلوى ، ويقول أبو على اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة فيما بين الزهر والمطر من علاقة قديمة<sup>(١)</sup> :

إن بين الغمام والزهر الغم	ضُ لرحما قديمة وإخاء
بان إلفٌ عن ألفه فتواري	فى الثرى ذا وذاك حل السماء
فإذا ما الغمامُ زارتُ جنابا	آذنتُ فيه بالحبيب اللقاء
ذكرتُ عهده القديم فحننتُ	عند لقياه فاستهللتُ بكاء
فترى الزهرَ بارزا من خبايا	هُ يحى الوفود والأصدقاء
راقصا والصبا تهنيه والور	قُ غوانى القيان تشدو غناء

وهو يقول إن بين الغمام والزهر مودة قديمة وإخاء ، وقد بان كل عن صاحبه فالزهر تواري فى الثرى والغيم تعالى فى السماء ، فإذا ما الغمام زار ناحية آذنت حبيبها فيه باللقاء ويذكر الغمام عهده القديم فيكى بمطر منهمر ، وترى الزهر بارزا من كل مكان يحى وفود أصدقائه من الأمطار ، وكأنه يرقص ويرج الصبا تهنيه ، والحمام قيان الرياض يشدو غناء . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ للهجرة يصف روضا<sup>(٢)</sup> :

مدٌ للسُّلوان أشراك النَّظَر	فى ابتهاج الروض من وجد المطر
وتلق الأنسَ عن آسِ الرُّبى	وارو طىَّ النور عن نشر السَّحر
وارتشف ثغراً أقاح باسمَا	واصطبج بالطلُّ من كأس الزهر
والثِّمَّ وجة المنى مستبشرا	حيث رامَ الغصنُ تقبيلَ النَّهر
وجلا الورد خدودا أُشْرِيتُ	خمرة العقيان من فرط الخفر
وحبا الخيرى أنفاس الصبا	نفحاتٍ أنشرت ميثَ الفكر
وانبرى النسرِينُ يُهدى ذهبا	فى صحافٍ مُترعاتٍ من درر
نظمتُ فى جِیده أنداؤه	عقدَ دُرُّ كَلما ماسَ انتر

وهو معجب بروض بديع ، ويقول : مدٌ فيه جبالات النظر لعلك تجلب لنفسك شيئا من ابتهاج الروض بما سقط عليه من المطر ، وتلق الأنس فيه عن آس الربى البديع ، وتمتع بروائح النور أو الزهر التى نشرها فى السحر ، وارتشف السرور من ثغر الأقاح الباسم .

(١) النبوغ المغربى ١٤١/٣ .

(٢) النبوغ المغربى ١٣٩/٣ .

وليكن صبوحك بالطل تنعم برؤيته في كئوس الزهر ، ولتشم وتقبّل وجه الأمانى مستبشرا ،  
حيث كل شيء من حولك ينعم بالقبّل كما تقبّل الأغصان النهر ، وأبدى الورد خدودا  
مشربة بحمرة الذهب من فرط الحياء والخفر ، وآثر زهر الخيريّ أنفاس الصبا بنفحات  
تُحيى ميت الفكر ، وأخذ زهر النسرين يهدى ذهباً في صحاف مليئة بالدرر ، ونظمت  
الأنداء في جيد الروض عقد لآلئ كلما تحرك انتثر . وحرى بنا أن نتحدث عن وصاف  
كبير في العهد السعدي .

### عبد<sup>(١)</sup> العزيز الفشتالي

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي ، أباه من قبيلة فشتالة في الشمال الغربي  
لفاس ، ولذلك نسب إليها ، وقد ولد سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وتوفى سنة  
١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م ، وتلمذ لأئمة عصره من الفقهاء والنحاة واللغويين ، وأقبل على حفظ  
الشعر والنثر حتى نضجت ملكته الأدبية ، مما جعله يلتحق بدواوين الدولة السعدية ،  
وأعجب به المنصور الذهبي ، فجعله على رأس دواوينه ، وأخلص له أشد الإخلاص ، فعاش  
يقدم له مدائحه ، ويؤرخ لدولته المنصورية السعدية ، ووصفه المقرئ في كتابه : روضة  
الآس بقوله : « وزير القلم الأعلى ، الوارد من البلاغة والبراعة المنهل الأحلى ، نشأة الدولة  
المنصورية ( دولة المنصور الذهبي ) وكاتم أسرارها ، ومنزل القوافي من قنيتها ومستعبد  
أحرارها ، المقدم في الفضائل والمحسن » . ويقول أحمد بن القاضي عنه في كتابه سيرة  
الحجال : « فقيه أديب ، نثر ناظم ، على الهمة ، متين الحرمة ، فصيح القلم ، زكى  
الشيم ، ركن البلاغة والبراعة ، وفارس الدواوين والبراعة » . وكما كان رئيسا لدواوين  
المنصور كان شاعره الرسمي ، وكما كان شاعرا كاتباً أو أديبا كان عالماً مؤرخاً لدولة المنصور  
وترجم لمعاصريه في كتابه « مناهل الصفا » وهو أحد المصادر التي نرجع إليها في العصر .  
وله ميلاديات نبوية كثيرة سوى الغزليات والمرثى ، وله أمداح سياسية كثيرة للمنصور ،  
وبجانب ذلك له أشعار في وصف قصر المنصور المسمى بالبديع ومبانيه وقبه وما ازدان به  
من التماثيل والنقوش ، مما يدلّ - بوضوح - على مدى الحضارة المترفة التي اتصف بها  
عصر المنصور الذهبي . وفي الإشادة بقصر البديع يقول عنه في كتابه : « المناهل » : إنه  
من الآثار التي لم يخلق مثلها في البلاد .. وإنه المثل المضروب في الأرض عظمة وضمخامة ،  
وجلالة وفخامة ، وتفننا وتأنقا ، وفي وصف مبانيه يقول :

والنبوغ المغربي ٤١٢/١ ، ١٢٨/٣ وما بعدها والوفائي  
٦٨١/٣ وما بعدها . وراجع ديوانه مع دراسة له بتحقيق  
السيدة نجاة المريني .

(١) انظر في ترجمة الفشتالي وأشعاره روضة الآس ص  
١١٢ ردة الحجال ١٣٠/٢ والمتقى ( انظر الفهرس )  
ونشر المثاني ٢٤١/١ وخلاصة الأثر للمحبي ٤٢٥/٢



سَلَبْتُ تَمَائِلَهَا الْحِجَا لِمَا اغْتَدتْ  
 وَلَقَدْ تَشَامَخَ فِي الْعَلْوِ سِمَاكُهَا  
 وَسَمَا إِلَى الشُّهْبِ الزَّوَاهِرِ فَاغْتَدَى أَلْ  
 أُضْنَى الْغَزَالَةَ حُسْنُهُ حَسَدًا لَذَا  
 وَانْقَضَتْ الزُّهْرُ الْمُنِيرَةُ إِذْ رَأَتْ  
 تَزْهَوُ بِحَسَنِ طَرَاذِمِهَا تَذْهِيبًا<sup>(١)</sup>  
 فَجَرَى عَلَى الْفَلَكِ الْمُنِيرِ جَنِيًّا<sup>(٢)</sup>  
 إِكْلِيلٌ مِنْهَا تَاجُهَا الْمَعْصُوبَا<sup>(٣)</sup>  
 أَبْدَى عَلَيْهَا لِلْأَصِيلِ شَحْوِيًّا<sup>(٤)</sup>  
 زَهْرَ الرِّيَاضِ بِهِ يَنُورُ عَجِيًّا<sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن تماثلها ( تماثلها والصور المنقوشة في القصر ) سلبت العقول بما تزهو به من طرزها المذهبة ، وقد تمادى في الارتفاع سماكها حتى غدا القصر كأنه مجنوب تابع للفلك العلوي ، وظل في ارتفاعه حتى استقر بين النجوم ، وأصبح كأنه المجموعة النجمية المسماة بالإكليل ، بل غدا كأنه تاجها المعصوب . وناهيك بحسنه ، فقد أضنى الشمس وبدا شحوبها واضحا في وقت الأصيل ، أما النجوم المنيرة فانقضت إذ شاهدت أنوار زهر رياضه تضيء ضياء عجيبا . وله مما كُتب على بهو في القصر بمرمر أسود في مرمر أبيض :

لِلَّهِ بَهْوٌ عَزُّ مِنْهُ نَظِيرُ  
 رُصِفَتْ نَقُوشُ بِنَاهِ رَصْفَ قَلَائِدِ  
 فَكَانَهَا وَالتَّبْرُ سَالِ خِلَالِهَا  
 شَأْرُ الْقُصُورِ قُصُورُهَا عَنْ وَصْفِهِ  
 فَإِذَا أُجِلَّتِ اللَّحْظُ فِي جَنَابَتِهِ  
 صُفَّتْ بِضِفَّتِهَا تَمَائِلُ فَضَّةِ  
 مَا بَيْنَ آسَادِ يَهِيحُ زَيْرُهَا  
 لِمَا زَهَا كَالرُّوضِ وَهُوَ نَظِيرُ  
 قَدْ نَضَّدَتْهَا فِي النَّحُورِ الْحُورِ<sup>(٦)</sup>  
 وَشَى وَفِضَّةُ تُرْبِهَا كَافُورِ<sup>(٧)</sup>  
 سَيَّانُ فِيهِ خَوْرَنْقُ وَسَدِيرُ  
 يَرْتَدُّ وَهُوَ بِحَسْنِهِ مَحْسُورِ<sup>(٨)</sup>  
 مَلِكَ النُّفُوسِ بِحَسْنِهَا تَصْوِيرِ<sup>(٩)</sup>  
 وَأَسَاوِدِ تُسَلِّي لَهْنَ صَفِيرُ

وهو يقول ما أروعها بهوا يعز نظيره لما يجرى فيه من نضرة وجمال ، وقد صُفَّتْ نقوش بنائه تصفيف قلائد سوتها على النحور فاتنة أو فاتنات ، وكأن هذه النقوش والتبر يسيل خلالها وشى بديع ونقوش على فضة شديدة البياض كزهر الكافور . إن البديع ليسمو على كل القصور حتى على قصرى الخورنق والسدير اللذين كانا بقرب الحيرة في الجاهلية ، وحين تجيل البصر في جوانبه يرتد حسيرا كليلاً لروعة ما تشاهد ، وقد صفت بصفة هذه النقوش صور فضية تخلب الأبواب بجمال تصويرها سوى ما تراه هناك من آساد يخيل إليك أنها حية تزار وجماعات

- (١) تماثلها : تماثلها المنقوشة في القصر . الحجا : العقل .  
 (٢) جنيا : محاذيا له .  
 (٣) الشهب : النجوم . المعصوب : المعقود .  
 (٤) الغزاة : الشمس .  
 (٥) ينور : يضيء .  
 (٦) نضدتها : نسقتها .  
 (٧) التبر : الذهب .  
 (٨) محسور : كليل ضعيف .  
 (٩) تماثل : تماثل ونقوش .

من الطير كأنها تصفر صفيرا متصلا . ويتسع في وصف قبة القصر ، وما تشرف عليه من  
النهر والأزهار ، ويستهل وصفه بقوله على لسانها :

سموتُ فخرٌ البدرُ دونيَ وانحطاً      وأصبح قرص الشمس في أذني قرطاً  
وصنعتُ من الإكليل تاجاً لمفرقي      وينطت بيَ الجوزاء في عنقي سيمطاً<sup>(١)</sup>  
ولاحت بأطواق الثريا كأنها      بثير جمانٍ قد تتبعته لقطاً  
وعديتُ عن زهر النجوم لأنني      جعلتُ على كيوان رَحلي منحطاً<sup>(٢)</sup>  
وأجريتُ من فيض الساحة والندي      خليجا على نهر المجرة قد غطى

والقبة تقول إنني سموت وتعاليت في السماء ، فسقط البدر دوني وأصبح قرص الشمس  
في أذني قرطاً ، وجعلتُ من نجوم الإكليل تاجاً لمفرق رأسي ، وتعلقت نجوم الجوزاء في  
جيدي عقدا ثمينا ، ولاحت في الأعلى الثريا ونجومها وكأنها فتات فضة تعقبته لقطاً ،  
وتجاوزتُ النجوم إلى كيوان ( زحل ) ووضعت عليه رَحلي ، وأجريت من الساحة والندي  
خليجا غطى على نهر المجرة في السماء وفاقه . ويستمر في وصف النهر الذي تشرف عليه  
القبة :

تَضَنُّضٌ ما بين الغُروس كأنه      وقد رقرقتُ حصابؤه حية رقطاً<sup>(٣)</sup>  
حواليه من دَوْح الرياض خرائدٌ      وغيدٌ تجرُّ من خمائلها مرطاً<sup>(٤)</sup>  
إذا أرسلتُ لُذْنَ الفروع وفتحت      جنى الزهر لاح في ذوائبها وخطاً<sup>(٥)</sup>  
يرنحها مرُّ النسيم إذا سرى      كما مال نشوانٌ تشرب إسفنطاً<sup>(٦)</sup>  
يشقُّ رياضاً جادها الجودُ والندي      سواءً لدهها الغيثُ أسكب أم أبطاً  
وسالتُ يسئلسال اللجين حياضه      بحارا غدا عرضُ البسيط لها شطاً<sup>(٧)</sup>  
تطلُّعُ منها وَسَطٌ وَسَطاه دميةٌ      هي الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطاً<sup>(٨)</sup>  
حكمتُ وحيابُ الماء في جنباتها      سنا البدر حلُّ من نجوم السما وَسَطاً

وهو يقول إن النهر تجرى مياهه بين الغروس كأنه وقد تبدت حصابؤه حية رقطاً ،  
وحواليه شجر بض ناعم كالخرائد والغيد الحستوات اللاتي يتأنقن في ثيابهن ، ويخيل إليك  
إذا تفتح الزهر في أعالي فروعها اللدنة كأنه وخط شيب يجتمع فيه السواد والبياض ، ويميلها  
النسيم مترنحة إذا مر بها كما مال مخمور شرب خمرة الإسفنت المعتقه ، وإنه ليشق رياضاً يهطل

(١) نطت : علقت . سيمطاً : عقدا .

(٢) كيوان : كوكب زحل .

(٣) تضننض : سال . رقرقت : لمت . رقطاء : بلونها تنقط .

(٤) خمائلها : حللها . مرط : ذيل طويل للثوب .

(٥) ذوائبها : نواصيها . وخطاً : شيا .

(٦) الإسفنت : خمر معتقة .

(٧) اللجين : الفضة . البسيط : المنبسط من الأرض .

(٨) الغمط : الانتفاص .

عليها جود المنصور الذهبي وعطاياه . ولذلك سواء لديها أسرع الغيث الحقيقي في انسكابه أو أبطأ ، وتلك حياضه تسيل بأسراب الفضة بحارا تسقى الزروع ، وتزين تلك الحياض دمية جميلة كأنها الشمس لا تخشى كسوفها ولا غمطا ( انتقاصاً ) ، ويقول إن هذه الدمية وما يتناثر حولها من حباب الماء كالبدر ومن حوله النجوم وسط السماء . ويعود إلى وصف القبة منشدا :

إذا غازلتها الشمسُ ألقى شعاعُها	على جسمها الفضي نهرًا بها لُطًا <sup>(١)</sup>
توسمتُ فيها من صفاء أديمها	نقوشًا كأن المسك ينقطها نقطًا
إذا اتسقت بيضُ القبابِ قلادةً	فإنى لها في الحسن دُرَّتُها الوُسْطَى
تكفني بيض الدُمى فكأنها	عذارى نضت عنها القلائد والرِّيطا <sup>(٢)</sup>
قدودٌ ولكن زادها الحسن عُرْيها	وأجملَ في تنعيمها النحت والخرطا
نمت صعدًا تيجانها فتكسرت	قواريرُ أفلاكِ السماء بها ضغطا
فيالك شأوا بالسعادة أهلاً	بأكنافه رَحْلُ العلاء والهدى حُطًا <sup>(٣)</sup>

وهو يقول إذا انعكست على القبة أشعة الشمس خلت كأن نهرًا من الضياء والنور التصق بها مقابلا للنهر الذي يجري . بجوارها ، وخيّل إلى من صفاء يياضها وما عليه من النقوش كأنما نقطها المسك ، ويقول إذا تحولت القباب البيضاء في أعالي القصور العظيمة قلادة كانت دُرَّتُها الوسطى وقبتها الفريدة التي لا تماثلها قبة . ويقول على لسانها إن الدمى البيضاء أحاطت بي عارية ، وكأنها عذارى خلعت عنها القلائد والثياب وكل زينة ، قدود ممشوقة وقد زادها العرى حسنا ، والنحت والخرط نعومة ورشاقة ، وتعالى تيجانها صاعدة في السماء حتى حطمت قوارير أفلاكها من النجوم والكواكب ، وما أعظمها قبة شامخة أهلة بالسعادة وقد هبط في أكنافها وجوانبها رَحْلُ العلاء والهدى ، ويمضي منشدا :

وكعبة مجدي شادها العز فانبرت	تطوف بمغناها أماني الوري شوطا
ومسرح غزلان الصريم كناسها	حنايا قباب لا الكيب ولا السقطا <sup>(٤)</sup>
فلكن به ما طاب لا الأتل والخمطا	ووسدن فيه الوشي لا السدر والأرطى
ثراه من المسك الفتيت مدبر	إذا ما زجته السحب عاد بها خلطا
وإن باكرته نسمة سحرًا سرى	إلى كل أنف عرف غيره قسطا
أقرت له الزهراء والخلد واتنت	أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا

وهو يقول يالك قبة كأنها كعبة رفعها العز في عنان السماء وإن أماني الناس لتطوف بها

(١) لُطَ بها : التصق .  
(٢) الريط : ملاءة .  
(٣) الشأو : الحمة العظيمة ويريد بناء القبة الشامخة .  
(٤) الصريم : القطيع . كناسها : يتها . السقط : منقطع الرمل .

شوطا وأشواطا رجاء أن تتحقق على يد المنصور ، ويقول يا لها مسرحا أو كناسا أو بيوتا للغزلان من الدمى والتماثيل القائمة فيها . وإنما لتلوك ما طاب لها لا ما تلوكه غزلان البوادي من شجر الأثل والخمط ، وإنما لتتوسد الوشى المنمق لا شجر البوادي من السدر والأرطى ، وأما الثرى فإنه من فتات المسك وإن المطر ليختلط به حين يسقط فيصبح خِلْطًا أو أخلاطا من الطيب ، وحين تباكره نسمة سحرا تضوع رائحته ، ويأخذ كل أنف منها قسطا أو حظا ممتعا ، ويقول إن قصر الخلد ببغداد وقصور الزهراء بقرطبة لتعترف بعظمة هذا القصر وأن أوامير كسرى لتعبطه . ولعل في كل ما قدمت ما يصور شاعرية الفشتالي وأنه كان يعنى بالجزالة والرصانة في أسلوبه كما كان يعنى بالصورة البيانية .

٣

### شعراء الرثاء

الرثاء قديم في الشعر العربي ، ونجده - منذ الجاهلية - يتخذ صوراً ثلاثة هي الندب ليكاء ذوى القربى من الآباء والأبناء والإخوة ، والتأين لذكر فضائل الميت تصويراً لخسارة المجتمع فيه ، والعزاء بذكر الموت وأنه سنة من سنن الحياة ، لا مفر لإنسان منه ، ونجد هذه الصور الثلاثة في شعر المغرب الأقصى بمختلف عصوره . ومن أوائل ما يلقانا من صور الندب بكاء أبي الربيع الموحدى لأخيه ، وفي بعضه يقول<sup>(١)</sup> :

أتانى نعي ضاق صدرى بحمله	وصدرى - كما قد تعلمان - رحيبٌ
فمرّ بقلبٍ لم تدمل قروحهُ	كما مرّ بالجمر الدفين هبوبٌ
فحتى متى تبرى الرزايا سهامها	وتقصدني عمدا بها فتصيبُ
وحتى متى ألقى رزايا ممضةً	يكاد لإحداها الحديدُ يذوبُ
ولكن قضاء الله حتمٌ فليس لي	سواه على حمل الخطوب حسيبُ
يقولون لي صبراً وناراً تلهفى	لها بين أحناء الضلوع وجيبُ

وهو يقول لصاحبيه إن نعي أخيه أتاه فضايق به صدره الرحيب ، وقد أثار الجمر الدفين من أحزانه وكأنه ربح عاصفة ، وأصاب قروحه التي لم تبرأ ، فعادت تأله ، ويقول إلى متى تقصدني الرزايا بسهامها فتصينني في الصميم ، وحتى متى توجعني ، ولو أن إحداها نزلت بحديد صلب لأذابته غير أنه قضاء الله المحتم وينبغي للإنسان أن يتقبله راضيا بما قضى به ربه حسيبه ، ويقولون لي صبرا ونار تلهفى على أخي تضطرم وتلدع في أحناء ضلوعي . ويعزى ميمون الخطابي ( ابن خبازة ) المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة ابن الجدة عظيم إشبيلية في ابنه ، ويستهل عزاءه بقوله<sup>(٢)</sup> :

(٢) النبوغ المغربي ٢٧٣/٣ .

(١) الوافي ١٩١/١ .



أرَجَّةُ الصُّعْقِ يَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ      أم دَكَّةُ الطُّورِ يَوْمَ الصُّعْقِ فِي الطُّورِ  
 أم هُدَّةُ الأَرْضِ إِظْهَارًا لِمَا زَجَرَتْ      بِهِ الخَلِيقَةَ مِنْ إِيقَاعِ مَحْذُورِ  
 أم الكَوَاكِبُ فِي آفَاقِهَا انْتَشَرَتْ      وَبَاتَتِ الشَّمْسُ فِي طَيِّ وَتَكْوِيرِ  
 مَا لِلنَّهَارِ تَعَرَّى مِنْ ثِيَابِ سَنَّا      وَشَابَةَ اللَّيْلَ فِي أَثْوَابِ دَيَّجُورِ  
 أَصِيخٌ لِتَسْمَعِ مِنْ أَنْبَاءِهَا نَبَأٌ      يَطُوي مِنَ الأَنْسِ فِيهَا كُلَّ مَنْشُورِ  
 وَافِيٌ مَعَ العِيدِ لِإِعَادَتِ مَضَاضَتِهِ      فَشَابَ سَلْسَالَهُ الأَصْفَى بِتَكْدِيرِ<sup>(١)</sup>  
 نَوَّارَةٌ عِنْدَمَا رَاقَتْ بِدَوْحَتِهَا      أَهْوَتْ إِلَى التُّرْبِ مِنْ بَيْنِ النَوَاوِيرِ  
 جَارَ الذَّبُولِ عَلَيْهَا عِنْدَ مَا مَلَأَتْ      مِعَاطِسَ الدَّهْرِ مِنْ طِيبٍ وَتَعْطِيرِ

وهو يتصور كأن موت هذا الشاب رجّة الصعق يوم ينفخ في الصور ، فيصعق من في السموات والأرض ويهبون من مراقدهم ليوم القيامة ، أو كأنه دكة الطور حين طلب موسى من ربه رؤيته ، أو كأنما الأرض هُدَّت وتناثرت الكواكب وكُوِّرت الشمس ، كما جاء في الذكر الحكيم عن يوم القيامة . وهي مبالغات يتحملها الشعر وحتى النهار تعرّى من ثياب ضيائه وغطاه الليل بظلامه . ويقول لمخاطبه : أرهف سمعك لنبا طوى كل أنس وكل سرور ، نبا وافي في أواخر رمضان مع العيد ، فكدر كل صاف فيه ، وما النبا ؟ زهرة حينما زهت وتفتحت على شجرتها وراقت الأعين والأنفُس سقطت إلى التراب من بين أخواتها من الزهرات والنواوير ، وجار الذبول عليها فهوت عندما ملأت أنوف الدهر من أريج طيبها وعطره . ويفضى إلى عزاء ابن الجد بأن كل ما على وجه الأرض فانٍ ، فينبغي أن يسلم الأمر لربه ، إذ كل شيء يفنى بتدبير محكم ، وما الكون إلا صحيفة كبرى والناس فيها أحرفه بين محو ومبتور ، فلا تخذعك الليالي ، ويورد عليه أسماء بعض الملوك والأنبياء ، ممن طواهم الدهر وبادوا ، ويقول له في خاتمة قصيدته : سلّم للقضاء تسليم مأجور مثاب على تسليمه . ولابن رشيد المتوفى حول سنة ٧٢٠ للهجرة قصيدة بكى فيها ابنه محمدا بكاء مؤثرا يقول فيه<sup>(٢)</sup> :

شبابٌ تَوَى شَابَتْ عَلَيْهِ المَفَارِقُ      وَغُصْنٌ ذَوَى تَاقَتْ إِلَيْهِ الحِدَائِقُ<sup>(٣)</sup>  
 عَلَى حِينِ رَاقِ النَّاظِرِينَ بُسُوقَهُ      رَمْتَهُ سَهَامٌ لِلعَيُونِ رِوَاشِقُ<sup>(٤)</sup>  
 مُحَمَّدٌ إِنْ الصَّبْرُ فِيكَ مُصَارِمٌ      مُحَمَّدٌ إِنْ الوَجْدُ فِيكَ مِصَادِقُ<sup>(٥)</sup>

(٤) بسوقه : ارتفاع شأنه

(٥) مصارم : مقاطع .

(١) مضاضته : أله .

(٢) الوافي ٣٩١/٢ .

(٣) توى : ملك .

وتالله ما لي بعد عيشك لذة      ولا راقني مرأى لعيني رائق  
 فإن ألتفت فالشخص للعين مائل      وإن أستمع فالصوت للأذن طارق  
 وإن تفرع الأبواب راحة قارع      يطير عندها قلب لذكرك خائف  
 فيا واحدا قد كان للعين نورها      وكل ضياء بعد بُعدك غاسق<sup>(١)</sup>

وهو يبكي ابنه ، يقول شباب هلك شابت عليه الرؤوس وغصن ذبل كانت الحدائق النضرة تتوق إليه ، وكان الناظرون قد راقهم شبابه وذكأوه ، وكأنما رمت سهام للعيون سريعة النيل من ترميه ويقول له إنني لا أستطيع فيك صبيرا ، وإن الحزن فيك لا يفارقني ، ولم أعد أجد في عيش بعدك لذة ولا عاد يروقني شيء يعجب العين . وإنك لتملأ كل ما حولي ، فإن ألتفت أشعر كأن شخصك مائل أمامي ، وإن أستمع أشعر كأنني أستمع صوتك ، وإن يفرع الأبواب أحد أشعر كأنك أنت الذي يفرعها فيخفق قلبي ويطير ، كأنه يريد أن يلفاك . ويقول إنه كان نور عينه ، فأصبح كل شيء بعده مظلم لا يراه . ويقول أبو بكر بن شبرين السبتي المتوفى سنة ٧٤٧ للهجرة يؤمن العالم الجليل مواطنه ابن هانيء وقد استشهد في حصار جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م<sup>(٢)</sup> :

قد كان ما قال البريد      فاصبر فحزنك لا يفيد  
 أودى ابن هانيء الرضا      فاعتادني للثكل عيد  
 بحر العلوم وصدرها      وعميدها إذ لا عميد  
 قد كان زينا للوجود      دقيه قد جمع الوجود  
 العلم والتحقيق وال      توثيق والحسب التليد  
 أودى شهيدا باذلا      مجهوده نعم الشهيد  
 فلئن بليت فإن ذكر      رك في الدنيا غص جديد  
 وتعهدت من المهيب      من رحمة أبدا وجود

وهو يخاطب نفسه قائلا : قد كان حقا ما قال البريد من استشهاد ابن هانيء ، فلتصبر ، فالحزن لا يفيد فقد استشهد ابن هانيء الذي كان تمثالا للرضا والقناعة ، فنزل بي من فقده ما يعتادني من فقد الإخوان والأحباب من حزن ، ولقد كان للعلوم بحرا لا يسبر غوره وإماما أو عميدا لا يماثله عميد ، بل لقد كان زينا للوجود جميعه ، وكأنما جمع فيه الوجود ما شئت من علم وتحقيق وكتابة للوثائق الشرعية مع الحسب القديم الأصيل ، وقد توفي شهيدا باذلا

(٢) النبوغ المغربي ٣/٢٧٧ والرواني ٢/٤٥٨ .

(١) غاسق : مظلم .

روحه في جهاد أعداء الدين ، فنعمت الوفاة ونعمت الشهادة ، ولكن بلى جسده فإن ذكره استظل تتجدد خالدة . ويدعو له ربه أن يتعهد برحمته وكرمه ، إنه نعم الرحيم الكريم . وفي النبوغ المغربي للشيخ القصار في رثاء أبويه مرثية ، يقول فيها<sup>(١)</sup> :

زُرُّ والديك وقفْ على قَبْرَيْهِمَا	فكأنني بك قد نُقلتَ إليهما
كانا إذا ما أبصرا بك علةً	جزعاً لما تشكو وشقَّ عليهما
كانا إذا سمعنا أئنيك أسبلاً	دَمْعِيهما أسفاً على خَدَيْهِمَا
وتمنياً لو صادفا لك راحةً	بجميع ما يحويه مُلكُ يديهما
بُشْرَاك إن قَدِمْتَ فعلا صالحا	وقضيتَ بعض الحق من حَقِّيهِمَا
وقرأتَ من آي الكتاب بقدر ما	تسطيعُه وبعتَ ذاك إليهما

وهي مرثية للأبوين فريدة في العرية ووصية لكل ابن توفي أبواه أن يزور قبريهما فإنه موشك على اللحاق بهما ، ويقول لكل ابن إنهما كانا عطفين عليك عطفًا لا حدَّ له ، فكانا إذا رأوك مريضاً تشكو جزعاً لشكواك جزعاً ما مثله جزع ، وإذا سمعنا أئنيك من علة ذرفاً دموعهما على خَدَيْهِمَا مدراراً ، وتمنياً لو أتيتك لك راحتك بجميع ما يملكون في دنياهم . وبُشْرَاك بما سينالك من جزاء ربك إن عملت فعلاً صالحاً وقضيت بعض ما لوالديك من حقوق ، وأول حق لهما أن تقرأ ما تستطيع من آيات القرآن الكريم وتهديه إلى روحهما ، ليتقبلهما الله قبولاً حسناً . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م في العصر العلوي يرثي سيدة فاضلة من أهله<sup>(٢)</sup> :

سَقَى الرحمنُ قَبْرًا ضَمَّ شَخْصًا	تَسْرِبِلُ بالمكارم وارْتَدَاهَا
وَنَضَّرَ مَضْجَعًا لِفَتَاةٍ صِدْقٍ	حَوَى غُرْرَ الفضائل إذ حَوَاهَا
لقد كانت تحضُّ على المعالي	وتندب للمكارم من أباهَا
وألبسها المنون حلى كسوفٍ	فهلأ فضلها الوافي حمَاهَا
فكم أحييت مواهبها كيبًا	أحلتها النوائب في حمَاهَا
وكم ريتُ بأنعمها يتيماً	قلته أمه حتى سلاها
لئن ماتت فما ماتت حلاها	وإن أودت فما أودى علاها

وابن زاكور يدعو الرحمن لقبر هذه السيدة بل الفتاة الكريمة التي لبست حلال المكارم أن ينزل عليه غيث الرحمة ، وينضُر مضجعا ويملاه رونقا ، إذ هي فتاة صدق وفضائل عظيمة ، ولقد كانت تحض كل من حولها على المعالي والأعمال السامية ، وقد طوى الموت شمسها

(١) النبوغ المغربي ٢٨٠/٣ .

(٢) النبوغ المغربي ٢٩٩/٣ .

الساطعة ، ولم يحمها فضلها ولا كرمها مما نزل بها من كسوف ، ولكن ماتت فكم أحييت مواهبها وعطاياها تَعِسًا وأتقذته مما ينمره من كآبة وهم ، وكم حنّت على يتيم ورعته حين نبذته أمه ، وحقا إن ماتت فما مات ما كان يزينها من أفضال وسمو لا نظير له . وفي زيارة مقبرة يقول الطيب بن مسعود المريني المتوفى سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م<sup>(١)</sup> :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ أَذَاوِي بِهَا	قِسَاوَةَ قَلْبِي الَّتِي أَجِدُ
وَقَمْتُ أَسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا	وَهِيَهَاتَ لَا خَيْرَ يَجِدُ
رَأَيْتُ مَصَارِعَهُمْ عِبْرَةً	تُذِيبُ حُشَاشَةَ مَنْ يَشْهَدُ
أَقَامُوا قَلِيلًا وَقَدْ رَحَلُوا	وَوَغَابُوا وَبِالْعَوْدِ مَا وَعَدُوا
دَعَاهُمْ عَلَى الرَّغْمِ دَاعِيَ الرَّدَى	فَلَبَّوهُ حِينَ انْقَضَى الْأَمَدُ
وَقَدْ هَدَمَ الْمَوْتُ لَذَاتَهُمْ	وَوَغَّرَ عَيْشُهُمُ الْأَرْغَدُ
وَحَلَّوْا بَطُونَ الثَّرَى تَحْتَهُمْ	تَرَابٌ وَفَوْقَهُمْ جَلَمَدُ

وهو يقول إنه أتى القبور يداوى بها قساوة قلبه ، وأخذ يسأل عن أهلها ، ولا نبأ ولا خير عنهم ، ويقول إن مصارعهم عبرة لمن يفكر فيهم حتى لتذوب روحه أسى ، فقد أقاموا في دنياهم ورحلوا عنها وغابوا دون وعد بالرجوع أو الإياب ، وقد دعاهم داعي الهلاك فلبوه حين انقضى الأجل ، وقد أتى الموت على لذاتهم ، وبُدِّلَ عَيْشُهُمُ الرَّغْدَ الْهَنِيءَ وَحَلَّوْا بَطُونَ الثَّرَى ، تَحْتَهُمْ تَرَابٌ وَفَوْقَهُمْ صَخُورٌ ، فَحَرَى بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَبَّرَ وَيَتَعَبَّرَ . ولعل مصباح الزرويلي المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة في تأيين الفقيه جسوس الشهيد<sup>(٢)</sup> .

حَلٌّ بِالدِّينِ يَا لِقَوْمِي بِلَاءُ	أَحْجَمْتُ دُونَ وَصْفِهِ الشُّعْرَاءُ
قُتِلَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ الْأَرْضِ ظُلْمًا	فَبِهِ لِلْإِسْلَامِ حَقُّ الْعِزَاءُ
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ أَسْتَا	ذَا أَعَزَّتْهُ السُّنَّةُ السَّمْحَاءُ
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ لِلشَّرِّ	عَ حُسَامًا تَهَابُهُ الْأَمْرَاءُ
قَتَلُوهُ أَنْ كَانَ لِلْحَقِّ قَوًّا	لَا وَمَا إِنْ تَضَلَّهُ الْأَهْوَاءُ
يَا لَهَا مِنْ مَصِيبَةٍ سَارَ فِي الْأَر	ضِ وَفَوْقِ السَّمَاءِ بِهَا الْأَنْبَاءُ
عَمَّتْ الْمُسْلِمِينَ رُزْءًا فَأَضْحَتْ	كُلَّ عَيْنٍ مِنْهُمْ عَرَاهَا الْبِكَاءُ

والزرويلي يجعل موت الفقيه جسوس بلاء حل بالدين الخفيف ، فقد قتل ظلما أفقه الأرض وأعلمها ، وإن الإسلام ليعزى فيه . ويقول إنهم قتلوه ، إذ رأوه يحمي الشرع والسنة النبوية ، وكان يقول الحق ولا يخشى فيه أحدا . ويقول ما أعظمها مصيبة سارت بها الأنبياء وطارت

(١) النبوغ المغربي ٢٩٨/٣ .

(٢) النبوغ المغربي ٢٨٤/٣ .



كل مطار في الأرض وفي السماء ، ويقول إنها فاجعة عمت المسلمين وملأت عيونهم بالدموع مدرارا . وتتوقف قليلا لتحدث عن شاعري الرثاء : ابن شعيب الجزنائي وأبي علي اليوسي .

### ابن<sup>(١)</sup> شعيب الجزنائي

هو أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي ، منشؤه ومرباه في مدينة تازا ، ووفد على مدينة فاس فُعرف فضله ، والتحق بدواوين أبي سعيد المريني ثم ابنه أبي الحسن ، وكان بين العلماء الذين رافقوه في فتحه لتونس ، وبها توفي سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بعلوم الأوائل ، وحذق الطب والفلك والكيمياء والصيدلة ، وفيه يقول ابن مرزوق : « أبو العباس أحمد بن شعيب الفقيه المشارك التعاليمي الفاضل الطيب الأديب النباتي النخبة ، أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه ، طبقة عالية في قرض الشعر وإمام في التعاليم ( علوم الأوائل ) وواحد في المعرفة بالأشجار والنبات » . وفي الإحاطة أنه كان يحفظ عشرين ألف بيت للمحدثين وأنه تسرى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجوارى حسنا فأدبها حتى أحسنت العربية ونظمت الشعر وكان شديد الحب لها وتوفيت وكان بعد وفاتها لا يُرى إلا في تأوه دائم ، وله أشعار بديعة في رثائها ، ومن قوله فيها :

أعلمت ما صنع الفرا	قُ غداة جدُّ بها الرفاق
ووقفت منهم حيث للـ	نظرات والدمع اتساق
سبقت مطاياهم فما	أبطأ بنفسك في السباق
أولى بجسمك أن ير	قُ ودمع عينك أن يُراق
أما الفؤاد فعندهم	دَعُه ودَعْوَى الاشتياق
واها لسالفة الشبا	بِ مضت بأيامى الرفاق
أبقت حرارة لوعة	بين الترائب والتراق

وهو يقول لمخاطبه أعلمت ما صنع فراق « صبح » بي غداة أسرع بي الرفاق ، لقد وقفت منهم أفكر في صاحبتى وأطيل النظر وعيناي تترقرقان بالدموع ، وعرفت أنها تركتني إلى غير آياب فأولى بجسمي أن يَضُنِّي صباة بها وأولى لعيني أن تسيل دموعها سيلا لا ينقطع ، أما الفؤاد فعندهم ، ودعه ، وما أشد حسرتي على أيام الشباب السالفة التي ذهبت بما كنت فيه من متاع ولم تبق لي إلا حرارة لوعة في صدرى بين الترائب والتراقى لا تبرحني ، ويكي صبحا في مرثية أخرى قائلا :

٣٧٥ والواقى ٤٢٤/٢ والنبوغ المغربي ٢٣٧/١ ،  
٧٤/٣ ، ٢٧٧/٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن شعيب الإحاطة للسان الدين  
بن الخطيب ٢٧٢/١ ونيل الابتهاج للتبكي ص ٦٨  
والمسند في ترجمة أبي الحسن المريني لابن مرزوق ص

يا صاحبَ القبرِ الذي أعلامُه      درستُ ولكنْ حبهُ لم يدرُسِ  
 ما اليأسُ منكِ على التصيرِ حاملي      أيأسيتني فكأنتي لم أيأسِ  
 لما ذهبتِ بكلِّ حُسْنٍ أصبحتُ      نفسي تعانى شجْوَ كلِّ الأنفسِ  
 يا صبحُ أيامي لبالِ كلِّها      لا تنجلي عن صبحك المتنفِّسِ

وهو يخاطب صاحبه قائلاً إن ما حول قبرك من معالم درست وأمحت ولم يدرس حبك ولم ينمخ في قلبي ، وإن اليأس منك ومن لقائك لا يحملني على التصير ، وقد أيأستني من لقائك وكأنتي لم أيأس ، ولما ذهبت بكل حسن وجمال أصبحت كأنتي أحمل أحزان كل المحبين الذين غادرتهم كل محبوباتهم الحسنات ، ويقول لها إن أيامي كلها بعدك أصبحت كأنها ليل متصل لا يتنفس ولا يشرق فيه صباح . ويخاطب قبرها منشدا :

يا قبرَ صبحِ حلِّ في      ك لمُهجتني أسنى الأمانى  
 وغدوت بعد عيائها      أشهى البقاع إلى العيانِ  
 أخشى المنيّة إنها      تُقصى مكانك عن مكاني  
 ، كم بين مقبورِ بفا      من وقابرِ بالقيروان

وهو يذكر لقبر صبح إنه حلّ فيه أجمل الأمانى - كانت - لمهجته وروحه ، ولقد أصبحت بعد عيائها أشهى البقاع إلى العيان والمشاهدة ، وإنى لأخشى الموت أن يباعد بين مكانك ومكاني ، ويقول إنها توفيت بفاس وكان في القيروان مع أبي الحسن المريني في رحلته ، ومن رثائه لصاحبه قوله :

يا غائبا في الضمير ما برحا      داني محلُّ الهوى إذا نَزحا  
 لم تضر الصبرَ عنك جارحةٌ      ولا فؤادي لسولة جَنحا  
 مُستغبرُ المزنِ فيكِ أدمعه      يظلُّ يبيكك كلما سَفحا  
 ولا أرى البرق عاد مبتسما      بعدك بل زندُ شوقه قدحا  
 وما تغنى الحمام من طربِ      بل يُعلن النوحَ كلما صدحا

وهو يقول لصاحبه إذا غبت ونزحت لا تزالين دانية منى ولا يزال محل هواك قريبا من نفسي ، ومعاذ الله أن تضر الصبر عنك جارحة أو أن يجنح فؤادي إلى سلوان أو عزاء . وإنه ليطلب إلى المزن أن تسبل حتى تفيض أدمعه ويظل يبيكك غيظها ، وإنه ليرى البرق فيه كأنه زند شوقه يقدح نارا وشرارا ، ويقول إن الحمام لا يتغنى من طرب أو فرح وإنما ينوح كلما صدح نوحا متصلا . وظل مأتَم صاحبه صبح قائما وهو ينوح فيه ويندبها حتى أنفاسه الأخيرة .

أبو علي<sup>(١)</sup> اليوسى : الحسن بن مسعود

أهم شعراء الزاوية الدلائية ، ولد سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م ، ونشأ نشأة متواضعة ، وشغف بالعلوم الإسلامية واللغوية ، ورحل في طلبها وتعددت رحلاته إلى مراكش وسوس ودرعة وسجلماصة . وفي نحو العشرين من عمره استقر في الزاوية الدلائية واختلف إلى حلقات علمائها يتزود منهم ، حتى إذا شهدوا له بنبوغه وتفوقه تصدر للتدريس ، وظل ناعما فيها بالتدريس إلى سنة ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م ، وهي السنة التي استولى فيها السلطان الرشيد العلوى على الزاوية الدلائية بعد هزيمة أهلها أمامه ، وقد أخذ كل ما كان فيها من مال وسلاح وكل ما فى الخزائن من الكتب ، وأمر شيوخها: اليوسى وغيره بالرحيل إلى فاس ، وهدمها ولم يبق منها بقية . وأخذ اليوسى يحاول استعادة مكانته العلمية فى فاس ، وأخذ يناله غير قليل من الشهرة ، وأقبل على دروسه الطلاب وشاعت مؤلفاته . ونزل مراكش بأخرة من حياته وتصدر فيها للتدريس ، وحظى برضا حكام الدولة العلوية وخاصة السلطان إسماعيل . وأدى فريضة الحج وعاد منه ليسلم روحه إلى بارئه سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م . وكان شاعرا بارعا ، وله ديوان شعر مطبوع يشهد له - كما يقول الأستاذ ابن تاروت - بمكانة ممتازة فى قرض الشعر الجزل وفى أسلوبه الأخاذ بسحر بيانه الباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده رائية طويلة رثى بها الزاوية الدلائية ، وهو يستهلها بقوله :

أَكْلَفُ جَفَنَ الْعَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ الدَّرَا      فَيَأْبَى وَيَعْتَاضُ الْعَقِيقَ بِهَا جَمْرًا<sup>(٢)</sup>  
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكْتُمَ الْوَجْدَ سَاعَةً      فَيُنْفِشِي وَإِنْ اللَّوْمُ آوِنَةٌ أُغْرَى  
وَكَانَتْ عَيُونُ الْحَادِثَاتِ غَوَافِلًا      زَمَانًا وَخَطْبُ الدَّهْرِ كَانَ بِنَا غَيْرًا<sup>(٣)</sup>  
عَدَتْ غُدْوَةٌ أَيْدَى الْحَوَادِثِ فَانْتَلَتْ      خَلَاهَا فَعَادَتْ بَعْدَ نَضْرَتِهَا غَيْرًا<sup>(٤)</sup>  
وَأَبْدَلْنَ مَانُوسَ الدِّيَارِ وَأَهْلَهَا      بُوْحَشٍ وَحَوَّلْنَ الْأَهْيَلَ بِهَا قَفْرًا<sup>(٥)</sup>  
فَلَا جَفَنَ إِلَّا وَهُوَ مُغْضٍ عَلَى الْقَدَى      وَلَا عَيْنَ إِلَّا مِنْ تَجِيعِ الشُّجَا حَمْرًا<sup>(٦)</sup>

وهو يقول إنه كلف عينيه أن تنثر لآلىء الدموع على الزاوية الدلائية فأبى إلا أن تنثر دموعا كالعقيق الأحمر بل لكأن العقيق استعاض بها جمرا مشتعلا ، ويسألها أن يكتم الوجد والحزن لحظة أو لحظات فيفشيان همه وغمه ، وكان اللوم يغرى على الإفشاء أكثر فأكثر . وكان الأحداث كانت غافلة عنها ، وكان خطب الدهر كان غافلا بدوره ، وإذ أيدى الحوادث تأتي

(٣) غرًا : غافلا

(٤) اختلت : قطعت . الخلا : النبات الرطب .

(٥) الأهيل : المأمول بالسكان .

(٦) التجيع : الدم . الشجا : الهم والحزن .

(١) انظر فى ترجمة اليوسى وشعره : عبقرية اليوسى للدكتور عباس الجزارى والزاوية الدلائية للدكتور محمد حجي ص ٩٧ وكتاب الشعر الدلائلى لعبد الجواد السقاط (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى ٢٨٥/٣ والوافى ٧٤٠/٣ .

(٢) العقيق : حجر كريم أحمر .

عليها وعلى ما حولها من الكلاً والنبات فإذا هي أرض جرداء بل لقد أصبحت فقرا ، وأبدلت بأهلها الناعمين وحوشا ، ولا جفن إلا وهو مليء بالقذى ولا عين إلا وهي من الحزن حمراء كالدم . ويكى ما كان فيها من رياض وغير رياض منشدا :

رياض إذا أبصرتها ونشقتها	فلا تذكرن نجدا ولا تذكرن شجرا <sup>(١)</sup>
فمن لى بواديهما إذا فاح رنده	ومن لى بمرعاها إذا أطلع المشرا <sup>(٢)</sup>
ومن لى بروضاتٍ يفوق ضياؤها	على الشمس حسنا كلما ابتهجت زهرا
وهل نفحة تكفينى المسك فائحا	وهل شربة تكفينى الشهد مستمرا <sup>(٣)</sup>
وهل وقفة بين الطلول التى قضت	صروف الليل فى معالمها نذرا
هنالك إخوان الفؤاد وفية	هم للحشا خمرا فما يطلب الخمرا
وتأى عجلا عنهم مثلما نأى	أبو صيبة عنهم إذا يمّم القبرا
بها هامت الأرواح من قبل خلقنا	ومن بعد ما كنا وإذا نبلغ الحشرا

وهى رياض إذا أبصرتها ونعمت بشذاها الذكى لم تعد تذكر ديار نجد الحبية ولا ديار الشحر بجوار حضرموت ، ومن لى بواديهما إذا سطعت رائحة شجر الرند فيه ، ومن لى بمراعيها حين تنبت نباتها الأخضر الجميل ، ومن لى بروضات بهيجة الزهر بها وإن ضياءها ليفوق ضياء الشمس بهاء وحسنا ، وهل نفحة منها كالمسك فائحا وهل شربة فيها كالشهد . أستطيع أن أنعم بها ؟ . لقد أصبحت طلولا ، ويتمنى وقفة بطلوها حيث كان إخوان ، حديثهم كأنه الخمر فى لذتها ونشوتها ، ولقد بعدنا عنهم سريعا كأب فارق صبيته عجلا قاصدا قبره ، ويقول إن أرواحهم بها هامت قبل خلقهم وبعده ، وسيظلون يهيمون بها إلى يوم الحشر . ويفضى إلى حشود من الحكم يبدوها بأن الدهر لا يبقى على أحد ، وكم من عظيم كان يعتلى حصنا شامخا هوى به وكم من ملك أصابه بالأرزاء وقهره وأذله . وقدما دارت صروفه على دارا ملك الفرس وأذل بنى ساسان بعد عز لا يماثله عز ، وجر ذيله على الغساسنة وملوك الحيرة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس والمعتمد بن عباد المنفى إلى أعماق بمراكش ، فهل يشك أحد فى صولات الدهر ؟ . إنه دائما يصول حتى على المحيين إذ يحيل الوصل بينهما هجرا . ويقول :

فلا تركن للدهر إن نعيمه	ظلال سحاب يمسح السهل والوعرا
ملول فما باق على عهد خلة	ولا مستديم فيك يسرا ولا عسرا
ولا تأمن أبناءه إن تحبوا	إليك فمن يشبه أباه فقد برا
متى ما ارتجوا رغبة منك تقرّبوا	إليك وأبدوا خالص الود والبرا <sup>(٤)</sup>

(٣) مستمرا : مريتا سائغا .

(٤) رغبة : أمنية .

(١) الشحر : إقليم على المحيط بجانب عمان .

(٢) المشر : النبات الأخضر .



وأخفوا ذمياً كان فيك وأظهروا  
 وإن لم يرجوا منك خيرا رأيتهم  
 إذا ما رأوا ذا الوفر لا ذوا بذيله  
 وإن بصُروا بالمملق اهتزأوا به  
 وهو ينصح من يقروه أن لا يعول على الدهر ويركن إليه . فإن نعيمه كظل سحاب لا يلبث  
 أن يزول ويمحى ، وهو ملول الطبع لا يبقى على شيمة ، ولا يستديم فيك ما يمنحك من  
 يسر ، وحتى العسر أيضا لا يديمه ، فكم من معسر فتح عليه أبواب اليسر . ويقول إن أبناءه  
 من الناس لا يؤمنون حتى لو تحببوا إليك وأظهروا المودة ، فهم جميعا غادرون ، ويذكر أنهم  
 إذا رجوا منك جميلا تقربوا إليك وتظاهروا لك بالود والبر الصافى ، ونفوا عيوبك وأظهروا  
 محامدك وقالوا إن محاسنك لا تجحد ، وإن لم يرجوا منك صنع جميل رأيت منهم جفاء وإعراضا  
 عريضا ، أما الغنى ذو الوفر فإنهم يلوذون به حتى لو لم يصيبوا منه قطرة من خير ، وأما المملق  
 الفقير فإنهم يهزءون به ويعرضون عنه مغاضيين . ويستمر ناصحا قائلا :

وإن الفتى بالنفس لا اللبس مجده  
 وإن الغنى ما أورث المرء فى الورى  
 وإن تُعوز النعمى فجُدْ ببشاشة  
 ومن للهوى ألقى القيادة فقد هوى  
 ومن يصطنع عرفا إلى غير أهله  
 ومن لا يُجنب قوله دنس الخنا  
 ومن يدخر تقوى إلهه وذكره  
 ومن يغن بالمولى فلن يعدم الغنى

فما شان درأ كَوْنُ أصدافه كُذرا  
 محامد فى الدنيا وعُلياء فى الأخرى  
 فخيرُ القيرى أن تبذل الرُخبَ والبشرا  
 ولو أنه فى المجد قد وطىء النسرا<sup>(٣)</sup>  
 فليس بلاقٍ من جزاءٍ ولا شكرا  
 فلا يمتعض يوما إذا سمع الهجرا<sup>(٤)</sup>  
 على كل حالٍ يحمد السعَى والدُخرا  
 إذا لم يجد يوما لُجينا ولا نضرا<sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن مجد الشخص بنفسه لا بلبسه وزيه ، ويضرب مثلا بأن الدر أو اللؤلؤ  
 لا تشينه كدورة أصدافه ويذكر أن الغنى الحقيقى للمرء هو الذى يكسبه المحامد فى الدنيا والعلية  
 فى الآخرة ، وينصح قارئه إن لم يجد ما يبدل لضيوفه من القيرى ، فخير منه أن يلقى ضيوفه  
 بالبشر والبشاشة والترحيب وحسن اللقاء ، كما ينصحه أن لا يلقى قياده للحب ويخضع له فإنه  
 يهوى به مهما بلغ من المجد والسؤدد ، ويقول إن من يقدم صنيعا أو جميلا إلى غير أهله فلن  
 يقدموا له جزاء ولا شكورا ، ويذكر أن من لا يخلو كلامه من الألفاظ السيئة الذميمة لا يمتعض

الغاية .

(١) لا تمرى : لا تجحد .

(٢) النظر الشزر : النظر بمؤخر العين كناية عن الازدراء

والغضب .

(٣) النسر : كوكب . وطىء النسر : كناية عن بلوغ

(٤) الهجر : الكلام البذى اللميم .

(٥) اللجين : الفضة . النضر : يريد الذهب .

ولا يضق صدره بما يسمع من الألفاظ القبيحة . وأعظم ما يدخره الإنسان لنفسه تقوى الله ، إذ يحمد الناس تقواه ويؤجر عليها خير أجر ، ويقول إن الغنى الحقيقي هو الغنى بحمد الله لا الغنى بالفضة والذهب . وإنما سقنا بعض أبيات من هذه القصيدة ، وهي تشهد لصاحبها ببراعة فائقة فى الشعر ونظمه .

#### ٤

### شعراء الزهد والتصوف ( أ ) شعراء الزهد

الزهد أساس كبير فى الدين الخفيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول ﷺ ، إذ عاش عيشة تقشف وزهد فى متاع الحياة الدنيا ، وتبعه فى هذه المعيشة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسراهم ، حتى لا يكونوا عالة وعبئا على المجتمع . وأخذ كثيرون من التابعين يؤثرون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف . وكان - ولا يزال - مما أضرم جذوته وَعَظُّ الوعاظ الكثيرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامى ، فهم يندرون ويخوفون من عذاب الجحيم ، ويشرون الأتقياء والصالحين بأن لهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفضهم المتاع الدنيوى وإقبالهم على العبادة والنسك ابتغاء لما عند الله من الثواب والرضوان الأكبر .

والمغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعباد ، وكان مما عمل على كثرة الزهاد فيه والنسك الجبال الكثيرة التى كانت تتيح لهم العزلة عن الناس للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التى يقتاتون بها ، ويحدثنا الحسن الوزان عن كثيرين منهم ، رآهم منهمكين فى العبادة لربهم على رءوس الجبال كالجبل<sup>(١)</sup> الأخضر قرب آزمور ، ورأى فى قلعة أغمات ناسكا ومعه مائة من تلاميذه ، ويقول إنه نزل بضيافته ثمانية أيام . وأيضا مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاجىء للعبادة ، تبنىها لهم الدول المختلفة ، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا ، ومع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس مُلحقة بها مباني للشيخ والطلاب وتكفيهم مئوتهم ، فكان كثيرون منهم يتحولون زهاد ونسكا .

وذكرنا فى حديثنا عن الزهد فى فصل المجتمع المغربى أسماء طائفة من الزهاد الأولين قبل عصر المرابطين ، وفيه وبعده . ويهمنى الآن أن نعرض لشعرائهم ، وربما كان أهمهم فى عصر المرابطين السللاجى عبد الله بن عثمان المتوفى - كما فى روض القرطاس - سنة ٥٦٤ للهجرة وهو إمام أهل المغرب فى علوم الاعتقاد ، وأنشد له صاحب الوافى هذه الأبيات<sup>(٢)</sup> :

(١) رصف إفريقيا للوزان ص ١٦٩ .

(٢) الوافى ١ / ٣١٥ .

إذا العلمُ لا تَغشَى غرائبه قلى  
ولا أنا ممن جاوز الدَّرْبَ تاهضاً  
ولا كان حظيُّ منه إلا حكايةً  
ولا تَرْضَ بالحظِّ الخسيسِ سفاحةً  
تجافوا عن الدار التي أصبحوا بها  
وإن كان لا ينجيك إلا ركوبُها

ولا شاقني منه إلى المتهل العذب  
إليه ، ولا أرضى مقامي من ربي  
على الناس أتلوها فحسبي إذن حسبي  
فمثلك مَنْ قد حلَّ في المنزل الرَّحْبِ  
على غُرْبَةٍ واستوطنوا حضرة القرب  
فماذا التجافى عن مجاورة الرَّبِّ

وهو يقول إن العلم الذي يلوكه لطلابه من الفقه وغير الفقه لا يتغلغل في قلبه ولا يدفعه إلى منهل النسك العذب ، ويقول إني بعيد عن درب النسك وإته لا يرضى مقامه من ربه وما العلم الذي يلقيه الشيوخ على الطلاب إلا روايات عن الأسلاف ، فلا ترض بهذا العلم وحده واطلب العلم - أو بعبارة أدق - النسك الذي يجياه العباد النسك الذين انصرفوا عن الدار الأولى : الدنيا إلى حضرة القرب من الرب . ولعل في هذه الأبيات ما يدل على أن حركة الزهد في المغرب الأقصى كانت إرهاباً لما سيشتيع فيه من الحركة الصوفية . ومن كان ينزع إلى الزهد في عصر المرابطين القاضي عياض ، وله يقول مبتهلاً إلى ربه<sup>(١)</sup> :

إليك بَسَوْتُ بذنبي  
وامننْ عليّ بلطفٍ  
فقد ركبْتُ ذنوباً  
وجئتُ أطلبُ توباً  
فاقبلْ بفضلِكَ توبِي  
وعافني واعفُ عني

فاغفرْ خطاياي ربي  
تَجَبَّرْ به صدعَ قلى  
سوَدتُ منهنَّ كُتبي  
إذ ضاقَ بالذنبِ رَحْمِي  
واغفرْ بِرُحْمِكَ ذنبي  
فأنتَ ياربُّ حَسْبِي

وهو يعترف لربه بأنه يرجع إليه مذنباً آملاً في أن يغفر له خطاياها ، إنه غفار الذنوب ، ويدعو أن يمنَّ عليه بلطفه المعهود حتى يجبر به ما حدث في قلبه من صدع ، فقد ارتكب ذنوباً كثيرة ، سوَدت كعبه التي سيتلقاها يوم القيامة . ويقول إنه جاء ضارعاً إلى ربه يطلب منه أن يقبل توبته ، ويغفر ذنبه برحمته ، فهو أرحم الراحمين . ويسأله العافية والعفو عنه ، فإنه ربه قابل التوب وغافر الذنب . ونمضي إلى عصر الموحدين ، ونقرأ عند القاضي عمر الفاسي المار ذكره في الغزليين<sup>(٢)</sup> :

أيها المغتر بالزمن  
حبُّك الدنيا وزيتها  
ظَلَّتْ والحالة شاهدة

في هواه خالغَ الرِّسْنَ  
فقتة عمَّتْ بالفتنِ  
عاكفا منها على وثنِ

(١) التعريف بالقاضي عياض ص ٩٧ .

(٢) الوافي ١ / ١٧٩ .

فَاهْجُرْنَهَا إِنْ زَيْتِنَهَا      زِينَةُ شَانَتْ وَلَمْ تَزِنْ  
 خَدَعْنَا إِنَّهَا قَبَحَتْ      بَاطِنَا فِي ظَاهِرٍ حَسَنٍ  
 وَلِتَقْدُمَ مَا تُسَرُّ بِهِ      قَبْلَ طَوْلِ الْبَثِّ وَالْحَزَنِ  
 فَكَأَنَّ أَحْرَاكَ مَاتِرِحَتْ      وَكَأَنَّ دُنْيَاكَ لَمْ تَكُنْ

وهو يخاطب الذي غره الزمن وغرته الأيام ، فأكب - غير مُرَعٍ ولا مزدجر - على اللهو والمجون خالع الرسن ، والكلمة كناية عن إكبابه عليهما ، ويقول له إن حبك الدنيا ومتاعها وزيتها وكل ما يعجبك فيها فتنة أصابتك بما لا يحصى من فتن الدنيا ، ويذكر له أنه ظل عاكفا على الدنيا عكوف عابد الوثن عليه ، وينصحه أن يهجرها وأن لا تغره زيتتها ، فهي زينة قبيحة تشين صاحبها ، وقد خدعنا ظاهرها البراق ، وهي في غاية القبح ، وإن واجبك أن تقدم إلى ربك ما تُسرُّ به في المستقبل لا ما يجزنك ويملوك هما في آخرتك ، فتلاف شأنك قبل مبارحتك دنياك إلى الدار الآخرة . ويقول أبو الربيع الموحدى المترجم له بين الغزيرين يخاطب نفسه<sup>(١)</sup> :

يَا نَفْسُ حَسْبُكَ مَا فَرَطْتَ فَازْدَجِرِي      عَنِ الذُّنُوبِ فَإِنَّ الْقَبْرَ مَثْوَاكَ  
 خَافِي الْإِلَٰهَ لَمَّا قَدَّمْتَ مِنْ زَلَلِي      وَاعْصِي هَوَاكَ فَإِنَّ اللَّهَ يَرَعَاكَ  
 إِنَّ الْهَوَى قَلَمًا تُجَدِي هَوَادَتَهُ      وَهُوَ الَّذِي عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ أَقْصَاكَ  
 لَشِدُّ مَا تَعْلَمِينَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا      مَا كَانَ أَحْرَاكَ بِالْأَجْدَى وَأَوْلَاكَ  
 إِلَى مَ تَلْهَيْنَ عَنْ قَوْلِي مِغَالِطَةً      وَتَوَقَّنِينَ بَأْسِي غَيْرُ أَفَّاكَ<sup>(٢)</sup>  
 أَصْنِي إِلَى فَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ      أَلْقَى إِلَيْهِ صَرِيحَ النُّصْحِ إِلَّاكَ  
 تَوْبِي إِلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُهَا      وَاسْعَى بِجَهْدِكَ فِي تَحْسِينِ عُقْبَاكَ

وهو يقول لنفسه : يكفيك ما فرطت من الذنوب ، وينبغي أن تقلعي عنها فإن مثواك الأخير القبر ، وخافي ربك لما قدمت من عثرات ، واعصي هواك فإن الله يراقبك ويعلم ما ارتكبت من الخطيئات ، وإياك وطاعة هواك لما يقدم لك من متاع ، فإنه هو الذي أضلك وأبعدك عن طريق الرشاد ، وما أعظم الفرق بين الضلال والهدى ، وما أحراك أن تتمسكي بالهدى ، وحتى متى لا تسمعين لنصحي وأنى لا أكذبك ، إنه جدير بك أن تصغي إلى وإلى نصحي ، فإنك أقرب شيء إلى وليس في الأرض من أسدى إليه النصح سواك ، فتوبى إلى الله توبة حقة حتى يقبلها منك ، واعمل بجهدك على أن تحسنى عُقباك وترضى ربك . ومن كبار الزهاد عمر بن محمد القيسي المراكشي الفاسي الأصل المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة وكان أدبيا

(٢) أفاك : كذاب .

(١) الوافي ١ / ٢٤٩ .



بارع الكتابة طيب النفس نفاعا بجاهه وذات يده ، وكان شاعرا مجيدا ، وجمع دفترا فيما نظم في التهجد وقيام الليل أجاد فيه الاختيار ، ومن نظمه فيه قوله<sup>(١)</sup> :

ذهب الظلامُ وأنت جِدْعُ راقِدُ      وأتى الصبأحُ وأنتَ صَخْرُ جامدُ  
 وختلتُ على الإظلامِ منك مناسكُ      وختلتُ على الإصبأحِ منك مسأجدُ  
 وأولوا التهجدِ ليلهم ما منهمُ      لله إلا رآكعُ أو سآجدُ  
 وهجعتَ - يا مغرورُ - ليلك كلهُ      وعليك من عين الإله شوأهدُ  
 فانظرُ لنفسك قبلَ حينِ مماتها      إن المماتَ على البريئة وافدُ  
 وتذكرُ السفرَ البعيدَ وطوله      من غير زادٍ والمجالُ فدأفدُ<sup>(٢)</sup>  
 واذكرُ نُشورك بعد موتك فجأةً      وصحائفُ الأعمالِ منك تشأهدُ<sup>(٣)</sup>

وهو يُهيب بالغافل عن نسك التهجد أن يقوم شطرا من الليل مصليا لربه مسبحا له ذاكرا ، ويقول له إنك تنام طوال الليل كجذع راقد ممدود حتى الصبأح ، وكأنك صخر جامد لا حس ولا حركة ، وتلك المناسك : مناسك التهجد خالية منك مساء ، وتلك المسأجد خالية منك صباحا ، وأصحاب التهجد يُحيون ليلهم بالركوع والسجود لربهم بينما أنت هاجع في فراشك أيها المغرور المذموم ، وإنه لحرى بك أن تنظر لنفسك وتتعهدا بالتقوى قبل مماتك ، إذ كل من عليها فإن ، وتذكر سفرك البعيد إلى يوم القيامة ورحلتك فيه دون زاد ، في مجال مقفر : واذكر بعثك بعد موتك وعرض صحائف أعمالك على ربك العلى القدير . وكان يعاصره وتوفى بعده بعام واحد عام ٦٢٧ للهجرة ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى صاحب أول كتاب تحدث عن زهاد المغرب الأقصى ومتصوفته وهو كتاب « التشوف لمعرفة أهل التصوف » وقد اتسع في تصوره لأهل التصوف ، إذ جعل كتابه - كما يقول في مقدمته « يشتمل على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل » مما جعل تراجم الكتاب تتسع لتشمل الزهاد والمتصوفة وأهل الصلأح من العلماء والفقهاء ، وبذلك نفهم كثرة التراجم فيه ، إذ بلغوا كما يقول مائتين وسبعة وسبعين شخصا ، ويقول إنه سيخصه بمراكش وأعمالها ، غير أنه حين مضى فيه رأى أن يضم فيه كثيرين من بلدان المغرب المختلفة . والكتاب مهم لأنه يعطى صورة واضحة عن أوائل زهاد المغرب ومتصوفته حتى نهاية القرن السادس الهجرى مثل من سميناهم في حديثنا عن الزهد في المجتمع المغربى ، مثل أبى الحسن بن حرزهم وأبى يعزى بلنور بن ميمون ، ويذكر بعض أشعارهم كهذه الأبيات التى ذكرها لابن تاخميست المتوفى سنة ٦٠٨ للهجرة .

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (٢) فدأفد جمع فدأفد : الفلاة .  
 (٣) نشورك : بعثك . ٢٣٦/١/٨

ولما ركبت البحرَ نحوكَ قاصدا  
دعوتك بالإخلاص والموجُ طامحُ  
أيا منقذ الغرقى ويا ملهمَ التقى  
لوجهك ذلَّ البرَّ والبحرُ خاضعُ  
ولم أر غير الله مالا ولا أهلا  
يصدق وداي لم يكن قبل معتلا  
ويا صمداً يبقى إذا أذهب الكُلا  
وحقٌ لهذا الخلق أن يالف الذلا

وهو يتهل لربه ذاكرًا أنه حين ركب البحر أسلم نفسه له ولم يعد يذكر أهلا ولا مالا  
سواه ، وحين هاج البحر وهاجت أمواجه دعا ربه مخلصا صادق الوداد أن ينجيه ضارعا إليه  
قائلا : يا منقذ الغرقى ليس سواك ينجى يا ملهم المتقين تقواهم ، ويا مقصودا يبقى بعد أن  
يفنى كل من على الأرض ، لوجهك يا ذا الجلال ذلت الأرض وخضع البحر ، وحق للناس  
أن يتذللوا لك تذلا ما بعده تذلل فانت المنجى والمنقذ ومغيث المستغيثين .

ونلتقى في أواخر القرن السابع بعد الحق بن إسماعيل وكتابه عن صلحاء منطقة الريف  
المحاذية للبحر المتوسط شمالى المغرب الأقصى ، وكان كتابه عنهم يكمل كتاب التشوف لمعرفة  
أهل التصوف الذى عنى - فى الأعم الأغلب - بمنطقة مراكش كما أسلفنا ، وقد جعله فى  
ثلاثة أقسام قسم عن المقامات الصوفية ، وقسم عن الخضر عليه السلام ، وقسم عرف فيه  
بصلحاء الريف ، وهم عنده ستة وأربعون ترجم لهم ، وأتبع كل شيخ بأبيات يصف فيها زهده  
أو تصوفه ، ومن قوله فى ترجمة سعيد المسطاسى يصف زهده وزهد أمثاله<sup>(١)</sup> :

زهدوا يريدون النجاة وأصبحوا  
وطعامهم فى الأرض نبتٌ يابسُ  
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما  
لهم سوى التوفيق شىءٌ حابسُ  
فجئناهم من كل سهوٍ سالمٌ  
ولسانهم عن كل عيبٍ نابسُ

فهم قد زهدوا فى الدنيا ومتاعها يريدون النجاة فى الآخرة من عذاب النار ، وطعامهم  
مما تنبت الأرض من النباتات ، لا يفكرون فى لحوم ولا فى طعام مطبوخ ، فحسبهم ما يجدونه  
على وجه الأرض من النبات ، وقد رفضوا الشهوات جميعا فى دنياهم ، ولا شىء يجبسهم  
سوى عبادة ربهم ، وأذهانهم بريئة من كل سهو ولسانهم لا ينس بعيب . وبجانب هذه المقطوعة  
من نظم عبد الحق بن إسماعيل مقطوعات تبدو فيها الروح الصوفية سنعود إليها فى حديثنا عن  
التصوف ويلقانا أبو العباس الشريف السبتي المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة وقوله فى ثقته بربه<sup>(٢)</sup> :

وثقتُ بالله ربي  
والله كافٍ وواقٍ  
ولستُ أخشى إذا ما  
بلغتُ فيها مرادى  
وحسبى الله حسبي  
دافع كل خطبٍ  
وثقتُ بالله ربي  
مهناً مع صحبى

(٢) الوافى ٤٨٤/٢ .

(١) الوافى ٥٠٦/٢ .

وهو يقول إنه وثق بالله ربه ، وحسبه هذه الثقة فليس فوقها ولا بعدها ثقة والله كافيي وحاميني وواقيني ودافع عني كل خطب وكل بلاء أتعرض له ، ولذا لا أخشى أحدا ولا أخشى شيئا ، فقد وثقت بالله ثقة لا حدا لها ، ثقة بلغت فيها كل مرادى وكل ما أؤمله في حياتي ، مما يحق لي أن أهدأ بها مع صحبي الذين يثقون في ربهم . وولتقي بأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن يجيش المتوفى سنة ٩٢٠ للهجرة ، وله في معارضة قصيدة ابن النحوى المذكور في تونس<sup>(١)</sup> :

اشتدّي أزمّة تنفّرجي	قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة	فاصبر ففسى التفريج يجي
مولاك ارغب فإجابته	للمضطرين على درج
وألح عليه بمسألة	فهو الجواد فسئل وهيج
أخلص فيما تدعوه وقل	يسر عسرى وأزل حرجي
لا حيلة لي لا قوّة لي	إلا بك يا محي المهج

وهو مؤمل في رأيه ولا يئأس أبدا ، ولذلك يقول أيتها الأزمة المارة بي اشتدى ومهما اشتدت فلا بد من الفرج وانخسارك عني ، ويتجه إلى قارئه ، فمهما اشتد بك خطب أو حادثة فادحة فلتصبر فعسى الفرج يأتيك سريعا . واقصد مولاك بالسؤال أن يلفظ بك فإجابته للمضطرين قرية المنال ، ولتدعه ولتلع عليه في الدعاء ، إذ هو الكريم الذي لا حد لكرمه ، فسئل وكرر السؤال ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وأخلص في دعائك والرفق إليه ، وقل رب يسر عسرى وأزل ما أنا فيه من حرج وضيق واكشف غمتي ، إنه لا حيلة لي ولا قدرة إلا بك يا محي المهج والأرواح ومغيث المضطرين المكروين . ويقول أحمد دادوش مناجيا ربه<sup>(٢)</sup> :

تستر العيب تغفر الذنب تعطى	تمنع العبد ، كل حكمك عدل
تجبر الكسر تبدل العسر يسرا	تكشف الضر كل ذلك بذل
لم تزل محسنا غنيا كريما	أنت هو الخالق المعز المذل
فقراء وأغنياء على البسا	ب وقوف لهم خضوع وذل

وهو يذكر لله صفاته الربانية ، فهو يستر العيب ويغفر الذنب ويعطي من غير حساب ويمنع لا راد له ، وكل أفعاله عدل مطلق ، إنه يجبر الكسر الذي لا يمكن جبره ، ويبدل العسر يسرا ويكشف الضر ، وكل ذلك كرم ليس وراءه كرم ، وسبحانك ما أعظم شأنك لم

(٢) الوافي ٨٣٥/٣ .

(١) الوافي ٦٠٥/٢ .

تزل محسنا لعبادك غنيا جوادا ، فأنت الخالق المعز المذل ، وقد عم امتناتك وعمت عطايك كل الخلق ، وما هم فقراء وأغنياء يقفون ببابك خاضعين . ولأحمد بن عبد العزيز الهلالي في العصر العلوي المتوفى سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م هذا الدعاء<sup>(١)</sup> :

لك الحمدُ كلُّ الحمدِ يا راحمَ الضُّعْفِ      ويا دائمَ الإحسانِ والرفقِ واللُّطْفِ  
لك الحمدُ ثم الشُّكْرُ دونَ نِهايَةٍ      على نعمٍ جَلَّتْ عن العَدِّ والوصفِ  
إليك مَدَدْنَا الكَفَّ كَيْما تُمدِّنا      بما نرتجى يا مالِك البَسْطِ والكَفِّ  
فعاغٍ ودافعٍ وراحمٍ ياربُّ واكفِّنا      بحفظك ما نخشى فغيرك لا يكفى  
وأبقِ علينا السُّتْرَ فى كُلِّ حالَةٍ      بفضلِكَ فى الدنيا والآخِرَى بلا كَشْفِ  
وأعظمٍ وأعزُّ - يا عزيزُ - جَنابنا      وحُطْنا من الخذلانِ والضَّيْمِ والخَسْفِ  
وزدنا من الخَيْراتِ فوقَ مَرامنا .      بفضلِكَ - يامولَى - تعالى عن الكَيْفِ

وهو يضرع إلى ربه قائلا لك الحمد يا راحم الضعفاء ويا دائم الإحسان وما يطوى فيه من الرفق واللطف ، لك الحمد والشكر الذى لا نهاية له على نعم أسبغتها على ، وهى تجلُّ عن أن تعدَّ أو توصف ، وإليك مددنا الكف داعين كى تعطينا ما نأمل يا مالك الإعطاء والمنع فامنحنا العافية وادفع عنا كل بلاء واحمنا منه يارب واحفظنا من كل ما نخشى وأدم علينا السر فى الدنيا والآخرة ، وأعظم وأعزز حمانا وحطنا برعايتك من الخذلان والضيم والخسف وزدنا من طيبات الرزق فوق ما نريد بفضلك يا مولانا يا من تعاليت عن كل كيف وكل شبه بال مخلوقات . وأشعار الزهاد فى المغرب الأقصى طوال عصوره لا تكاد تحصى .

### (ب) شعراء التصوف

التصوف - فى حقيقته - مبالغة فى الزهد والنسك وعبادة الله ، ولذلك يعدُّ كل ما ذكرناه من شعر الزهد مقدمة للتصوف ، فالمتصوف من بالغ فى زهده وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلًا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته . ومن قديم أو بعبارة أدق منذ القرن الرابع أخذت تشيع فيه طريقتان : طريقة فلسفية يتعمق الصوفى بها فى الحب الإلهى حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلّاج فى القرن الرابع الهجرى ثم من تابعوه أمثال ابن عربى . ومن حين إلى حين يلقانا بعض هؤلاء الصوفية المتفلسفين على نحو ما أوضحنا ذلك فى الجزء الخاص بالأندلس ، وكان كثيرون من أصحاب هذا المنزع الأندلسيين ينزلون فى المغرب ، وهو ما هيا لظهور أمثال أبى مدين . غير أن هؤلاء فى رأى كانوا شذوذا على الطريقة السنية

(١) النبوغ المغربى ٣/٣٠٨ .



التي اعتنقها صوفية المغرب الأقصى ، إذ شاعت فيه منذ القرن السابع الهجري الطريقة السنية الصوفية المعروفة لأبي الحسن الشاذلي . ونحن نجد مقدمات هذا التصوف السني القائم على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل والثقة فيه المفرطين على السنة كثيرين من الشعراء . ولعل ذلك ما جعل ابن الزيات يتوسّع في كتابه « التشوف لمعرفة أهل التصوف » فيسلك فيه صلحاء المغرب وزهاده من العلماء والفقهاء الورعين ناظما لهم بين من سماهم أهل التصوف . وكانت كثرة الوعظ في المساجد لأيام الجمع وغير أيام الجمع من أهم العوامل - كما أسلفنا - في ازدهار الزهد ونزعة التصوف السني في المغرب ، ولذلك كثر في كتب التراجم نعت كثيرين بأنهم صوفية ونضرب مثلا للوعاظ بابن الحجام محمد بن أحمد اللخمي المكناسي وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي : « كان فاضلا صالحا زاهدا ذا حظ من الأدب وقرض الشعر مال إلى طريقة الوعظ والتذكير فرأس فيه أهل عصره بحسن الصوت وغزارة الحفظ وإتقان الإيراد والصدق والإخلاص في وصاياه وتذكيره ، فنفخ الله به خلقا كثيرا في بلاد شتى .. وله كتاب حفيظ في الوعظ سماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين في مجلدين ضخمين ، وله يصف نفسه ومحبه لربه التي تعد أس التصوف وجوهه<sup>(١)</sup> :

غريبُ الوصفُ ذو علمٍ غريبِ	عليلُ القلبِ من حبِّ الحبيبِ
إذا ما الليلُ أظلم قام ييكي	ويشكو ما يُكِنُّ من الوجيبِ
يقطعُ ليله ففكرا وذكرا	وينطق فيه بالعجب العجيبِ
به من حبِّ سيده غرامٌ	يجلُّ عن التطبُّب والطبيبِ
ومن يك هكذا عبدا محبباً	يطيب ترابه من غير طيب <sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن وصفه وعلمه في حبه لربه غريب ، ويشكو في حبه من علة قلبه كما يشكو المحبون ، ويقول إنه يظل طوال الليل قائما ييكي ويشكو من شدة حبه ولهيبة ، وإنه لا يزال طوال ليله يفكر ويذكر ربه ، ويقول إن غرامه بربه لا ينفع فيه تطيب ولا طيب ، كما يقول إن من يحب ربه هذا الحب المفرط يطيب مكانه في حياته وفي قبره من غير طيب . ووعظ بإشبيلية في الأندلس ، ويذكر بعض مستمعيه هناك أنه كان من استحكام تأثيره في الناس وانفعال القلوب لتذكيره بمقام تكلُّ العبارة عن وصفه ، ويقول : شاهدته في إشبيلية ، وقد ندبَ الناس إلى افتكاك أسارى لدى النصراري ، فتسارع الناس إلى بذل ما حضرهم ، وخلع كثيرون بعض ما كان عليهم من الثياب ، فعهدى بها قد تراكمت أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأبصار ، سوى ما وُعد به من الحاضرين ، وتجمّع من أثمان تلك الثياب مال جسيم .

ولو قال ، « تطب أثوابه » أو ما هو على وزنه لتفادى هذا الخطأ .

(١) الذيل والتكملة ٢٦٧/١/٨ وما بعدها .

(٢) لاحظ ابن عبد الملك أن فعل الشرط في البيت

« يك » مجزوما وجوابه « يطيب » مرفوعا

ويعقوب المنصور الموحدى المتوفى سنة ٥٩٥ للهجرة هو الذى جلبه إلى أهل حضرته مراکش ليستمعوا إلى وعظه ، وظل هو وخلفاؤه يوالونه بعطاياهم الجزيلة ، ولم يكن يدخر منها شيئا إذ كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين وفى تجهيز الفقيرات إلى أزواجهن حتى وفاته بمراكش سنة ٦١٤ للهجرة . وإنما استطردت فى الحديث عنه لأوضح سيرة واعظ زاهد بل صوفى مبكر من صوفية المغرب الأقصى ومدى إخلاصه فى وعظه وزهده وتصوفه . وكان الوعاظ من حوله كثيرين فى كل بلد مغربى . وثلثى فى أواخر عصر الموحدى بصوفى كبير هو ابن المحلى وسنخسه بترجمة مفردة . ومر بنا فى الزهد حديث عن عبد الحق بن إسماعيل فى العصر المرينى وكتابه - المار ذكره - عن صلحاء الريف الشمالى وترجمته فيه لسة وأربعين من صلحائهم ويصفهم بأنهم أولياء وكأنه يعدهم جميعا من المتصوفة ، وعادة يتبع الترجمة بأبيات من إنشائه وقد استشهدنا فى الزهد بمثال منها ، وكثرتها تعمها الروح الصوفية على نحو ما يبدو من المقطوعات التى اقتبسها منه الأستاذ محمد بن تاويت فى كتابه الوافى<sup>(١)</sup> ، من ذلك قوله من قصيدة فى ترجمة أبى القاسم بن الصبان الفاسى :

الأنسُ بالله العظيم وذكرُهُ      مما يزيد أولى التقي إيماننا  
من كان نورُ الحق أيده غداً      ولهان من شغفٍ به هيماننا  
سرُّ الحقيقة لا يفوز بنيله      غير امرئٍ مستنزلٍ كتماننا  
لا يحرز الفضلَ المين سوى الذى      ملك العلوَ مطهراً جثماننا

وهو يقول إن الأنس بالله والخلو به وتسييحه وذكره مما يزيد المتقين إيماننا برهم ، ويصف الصوفى الذى يؤيده نور الحق جل جلاله فإنه يصبح به شغوفاً ولهان هائماً ، غير أن ذلك إنما يفوز به وسر الحقيقة فيه من يكتمه مخافة أن يعلن حبه لربه للناس ، وما شأنهم ؟ فيضيع منه ما حباه به . ويقول إنه لا يحرز هذا الفضل الصوفى إلا العالم الطاهر النقى الورع . وينعت المتصوفة ويعرف بهم فى قوله بترجمة محمد اليستنى البطوى :

علمُ اليقين أناهم ما أمَلُوا      فدرّوا به عينَ اليقين وحَقُّهُ  
سَلَبُوا فغابوا عن وجود نفوسهم      فوجودهم محوٌ يلازم مَحَقُّهُ  
لم يعرفوا هَجْراً ولا وَصْلاً ولا      معنىً يبيِّن قربه أو سُحَقُهُ  
وكأنما أسرارهم بقلوبهم      درُّ مصونٍ لا يفارق حَقُّهُ

ويقول إن الصوفية هم الصفوة التى منحها الله علم اليقين ، فعرفته حق المعرفة ، ويذكر أنهم سلبوا الشعور بالمحسوسات من حولهم ، فغابوا حتى عن الشعور بوجودهم ، وكأنما

. ٥١٢-٥٠٥/٢

(١) انظر فى أشعار عبد الحق بكتابه صلحاء الريف كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى

وجودهم انمحي انمحاء تاما ، فلم يعودوا يشعرون بشيء سوى ربهم الذي استغرقهم وفتوا في جلاله ، وهم بذلك محبون حبا من نوع خاص حبا إلهيا ، لا هجر فيه ولا وصل ولا شيء سوى النعيم بالفناء في الذات العلية ، وهم لا يذيعون أسرار هذا الفناء ولا ذلك الحب إذ يكتمونها في حقائق صدورهم وقلوبهم . ويصفهم مرة أخرى في ترجمة إبراهيم بن صالح من وجوه الزمة منشدا :

أهل الحقيقة إن نظرت وجدتهم      متسرلين بكل فضل باهر  
قهروا نفوسهم ففازوا بالمنى      من جود رب ذي جلال قاهر  
وتجوهروا بلطائف فتكلفت      تيجانهم بزبرجد وجواهر

فهم أهل الحقيقة الربانية إن تأملتهم وعرفتهم حق المعرفة وجدتهم مزدانين بحل من كل فضل باهر ، وقد استطاعوا أن يقهروا نفوسهم ويردعوها عن كل متاع دنيوي ففازوا بأمانيتهم من عطايا رب جواد ذي جلال وإكرام لا حد له ، وكأنما بث فيهم ما جعلهم يستحيلون جواهر متألقة ، بل كأنما نظم على تيجانهم الصوفية الإلهية روائح الزبرجد والدرر النفيسة . وينعت أحدهم بحسن توكله على ربه ، وهو مبدأ أساسى فى التصوف قائلا :

حسن التوكل فى القفار أناله      حالاً بها قد سره ما ناله  
جعل الآلة له سيلا فى الفلا      سببا فحقق فى الخلاص مناله

فهو قد أحسن التوكل على ربه ، فرزقه فى القفر بما سد رمقه وسره فى حياته الإلهية ، وحقق له الخلاص من الدنيا وترهاتها . ويدور الزمن دورات وملتقى بابن جابر محمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٢٧ للهجرة وكان له نزوع نحو الزهد والتصوف ، ومن قوله (١) :

نظرت إلى الوجود بعين قلبى      فلم أر فيه غير الله وحده  
فتيق بالله وأرج الله وأعمل      للقاء الله تأمن كل شدة

وقد يظن من البيت الأول أنه ممن يؤمنون بالحلول وأن الذات الإلهية تحمل فى كل مظاهر الوجود ، لذلك لا يرى فيه سواه ، ويطلب إلى مخاطبه أن يكون دائما واثقا فى الله لا يرجو ولا يأمل فى أحد سواه ، ويعمل لآخرته حتى يأمن عذابه ويدخل جناته ، وله فى التوكل على الله حق التوكل :

على قدر نية أهل التوكل      ليعطيهم الله منه المعونه  
فإن صحح العبد إيقانه      كفاه المهيمن هم المشونه

وهو يقول : بمقدار توكل العبد على ربه يمنحه العون والرعاية ، وإن صحح يقينه وأخلص

(١) انظر فى هذه المتطوعة وتاليتها كتاب المتقى لابن القاضى ٤٠٥/١ .

في توكله عليه كفاه هم العيش ، إذ هو المهيم على كل عيش وكل شيء . ويقول عمر الفاسي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة<sup>(١)</sup> .

الْجَأُ إِلَى اللَّهِ فِي أَمْرٍ تَحَاوَلُهُ      وَإِبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَوْلٍ وَمِنْ حَيْلٍ  
وَكَيْلٍ إِلَى اللَّهِ كُلَّ الْأَمْرِ وَاعْتَنَ بِهِ      . عَمَّنْ سِوَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ وَلِيٌّ

وهو يدعو قارئه إلى اللجوء لله في كل أمر يحاوله ويبرأ إليه من كل قوة وكل حيلة ، ويتكل عليه اتكالا صادقا مخلصا في كل أمر ، وليكتف به عمن سواه ، فإنه خير المعينين على تحقيق الآمال ، وهو في ذلك يصدر عن مبدأ التوكل الصوفي . ونرى محمد بن عبد السلام بن ناصر الرحالة يصدر عن مبدأ الثقة في الله الصوفي بمقطوعة في أحد عشر بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

لِلَّهِ فِي الْخَلْقِ مَا اخْتَارَتْ مَشِيئَتُهُ      مَا الْخَيْرَ إِلَّا الَّذِي يَخْتَارُهُ اللَّهُ  
إِذَا قَضَى اللَّهُ فَاسْتَسَلِمَ لِقُدْرَتِهِ      مَا لِأَمْرٍ حَيْلَةٌ فِيمَا قَضَى اللَّهُ  
تَجْرَى الْأُمُورُ بِأَسْبَابِهَا عِلَلٌ      تَجْرَى الْأُمُورُ عَلَى مَا قَدَّرَ اللَّهُ  
إِذَا ابْتُلِيَتْ فَتَقُ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ      إِنْ الَّذِي يَكْشِفُ الْبَلْوَى هُوَ اللَّهُ  
إِنْ الْأُمُورُ إِذَا ضَاقَتْ لَهَا فَرْجٌ      كَمْ مِنْ أُمُورٍ شَدَادِ فَرْجِ اللَّهِ  
اللَّهُ لِي عُذَّةٌ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ      أَقُولُ فِي كُلِّ حَالٍ حَسْبِيَ اللَّهُ

فهو يسلم أمره لربه مؤمنا بأن الخير ما اختارته المشيئة الإلهية له ، ويقول إنه ينبغي الاستسلام لقضاء الله ، فليس لشخص حيلة فيما قضى الله وقدره على عبده ، ويذكر أن الأمور تجري بأسباب ولها علل قد تغيب معرفتها عن الإنسان فيما قدر له ، وينصح المرء إذا نزل به بلاء أن يثق في الله ويرضى به ، فإنه هو الذي يكشف غمة البلوى عنه ، ولا ييأس أبدا فإن الأمور مهما ضاقت ومهما اشتدت لا بد أن يزيحها من لدن الله فرج ، ويقول إنه يتخذ الله عدة له في كل نائبة وكل كارثة معلنا دائما في صدق وإخلاص أن الله حسبه . ونقف قليلا لتحدث عن صوفي مبكر في عصر الموحدين هو ابن المحلى .

ابن المحلى<sup>(٣)</sup>

هو محمد بن حسن بن عمر الفهري ، من أهل سبتة ، كان أبوه قوَّالاً يغنى في المحافل والأسواق - والمتلبس بذلك يعرف في المغرب بالمحلى - وقد ولد له محمد سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ونشأ نشأة أدبية وعلمية ممتازة أصبح بها من كبار أساتذة سبتة ، وكان أدبيا بليغا ناظما ونائرا ، فقيها عاقدا للشروط نحويا ماهرا برع في الأدب ودرسه للطلاب عمره مع الفقه ومسائل

(٣) راجع في ترجمة ابن المحلى وشعره الصوفي كتاب صلة الصلة لابن الزبير ، كتاب الذيل والتكملة ٢٨٩/١/٨ والوفى ٣٤٩/١ .

(١) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ٣١٠ .  
(٢) انظر د . محمد الأخضر ص ٣٧١ .



الشرية ، وكان حسن القيام على تفسير القرآن مذكرا ، وعقد له حلقات مدة فاتفع به خلق كثير ، وكان واعظا ولوعظه تأثير كبير فى سامعيه . وظل يعظ الناس طويلا بمسجد مقبرة زقلا فى سبتة ، وولى القضاء بها سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م وظل يليه محمود السيرة مشهورا بالعدل إلى نهاية عمره سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . وكان شاعرا ، وتعمفته النزعة الصوفية ، وله فيها غير قصيدة ، من ذلك قوله فى إحدى قصائده :

[ هل يرح ] العشق قلبا أنت مطلبه  
 وكيف يرجو وصالاً من تبعده  
 يا مَنْ أناجيه والأشواق توهمنى  
 كم طيبة لك بالأطاف توجدها  
 ومِنَّةُ الجود تُذنيه فتؤنسه  
 منى أنت وحسبى أن تكون منى  
 كُنْ كيف شئت فما لى عنك منصرف  
 أو يُذهب الشوقُ روحا أنت مذهبهُ  
 أو كيف يخشى بعداً من تقرُّبه  
 نيلَ الوصال كأنَّ الشوق يوجهه  
 عند اللقا وفنائى فيك أطيبه  
 وخشية الردِّ تُقصيه فتحجبه  
 يا واهبا رغبائى قبلَ أرغبه  
 فالعبد ليس سوى مولاه مطلبه

وهو يقول إن حبه للذات العلية لن يرح فواده لأنه مطلب قلبه وأمنيته . ولن يذهب الشوق روحا ، الله مذهب وعقيدته . فحبه لربه لن يفارقه أبدا ، ويتجه إليه مخاطبا كيف يرجو الوصل من تبعده ، بل كيف يخشى البعد من تقرُّبه . ويقول إنه يناجيه ، وتوهمه أشواقه أنه سينيله الوصل كأن مجرد الشوق يوجهه ، ويعترف بأنه ينثر عليه كثيرا من الأشياء الطيبة ، ويقول إن أطيب ما تفضل به ربه عليه فناؤه فيه ، فهو يفنى بحبه فى الذات الإلهية ، ودائما تقرُّبه من ربه منحة الجود ، فيشعر بأنس لا حد له ، وفى الوقت نفسه يخشى الرد وأن يقصيه فيحجبه عنه ، ويقول إن ربه مناه وحسبه أن يكون أمنيته أو مطلبه . ويذكر أن الله دائما يحقق له رغباته حتى قبل أن يفكر فيها ، ويقول سواء قبله أو رفضه فليس له منصرف عنه ، إذ هو عبده الذى يطلب القرب من مولاه دائما أبدا . ويقول فى قصيدة أخرى :

فوادى منقادٍ إليكم مذللٌ  
 وهل من سبيلٍ أن أطيرَ إليكمُ  
 وأرحشتمُ فالكلُّ فى الأذن نائحٌ  
 خرستُ عن الشكوى إليكم مهابةً  
 ويا عجبا أنى أسيرٌ وأنسى  
 إذا هزَّ أربابَ السماع تواجدٌ  
 وها أنا عند الباب مُنوا أو اطرءوا  
 ومالى - إذا لجَّ العذول - جماحُ  
 وقد حُصَّ بى ريشٌ وقُصَّ جناحُ<sup>(١)</sup>  
 لدى وآفاق الوجود فساح  
 وألسنُ حالى بالغرام فصاح  
 أناشذكُم أن لا يُتاح سَراح  
 فحظى منه زفرةٌ وصياح  
 فما لى عنه - كيف كان - براحُ

(١) حُصَّ : حُلِقَ وتُف .

وهو يقول إن فؤاده منقاد إلى ربه منذل حبه ، وليس له - إذا لج العذول اللائم - جماح عنه ولا انفكاك منه ، بل إنه ليرتضى أن يطير طيرانا إلى الذات العلية غير أن ريشه حصّ وجناحه قصّ ، يكنى بذلك عن أنه مقصر في نسكه ، ويقول إنه طال نأى الله عنه وينوح ويسمع نواح الكون وصياحه من كل جانب مشاركة له في وجدته وما يجد في غرامه يره . ويذكر أنه خرس عن الشكوى لمحبه مهابة وحياء ، وهو يذوب حبا وغراما ، ويعجب أنه أسير ، ويناشد ربه أن لا يسرحه ولا يرد إليه حرته ، بل يظل في أسره . ويذكر أنه حين يهز أرباب السماع للشعر الصوفي تواجد ، فإنه يظل من بينهم يرسل الزفرات والصيحات هائما بحب ربه ، ويقول إني سأظل واقفا بعتبة الباب سواء من الله عليه بالقبول أو حرمة وطرده ، ولن يرحها أبدا . ومن قوله في إحدى قصائده :

غرامى دعائى والعذولُ نهائى	فوجدتُ وعذلتُ كيف يجتمعانِ
أما علما أنى على الشحط والنوى	مقيمٌ وأنى والهوى أخوانِ
يقولان لى : من ذا دعاك لما نرى ؟	فقلت دعائى حبه فدعائى
أعلل نفسى بالسلسو تعللا	وتلك أمان ما بهن أمانى
إذا خفق البرق اليمانى بأفقتكم	أقابل ذلك الخفق بالخفقانِ
رعى الله جيران العذيب وأهله	وإن أترعونى من هوى وهوانِ
لئن حجبوا عن ناظرى فكأنهم	لقلبي يراهم فيه رأى عيان

وهو يقول إن غرامه بحب الذات العلية يدعو للاستغراق فيه ، بينما يلومنى عذول ، والعذول والوجد أو الهيام لا يجتمعان ، ويقول إنه ملازم للحب فى النأى والبعد ، وإنه والهوى أخوان فكيف يظن أحد أنهما سيفترقان ، ويقول له صاحبه : ما الذى دعاك لما نرى ؟ فأجابهم دعائى حبه ودعائى أو أتركاني ، ويذكر أنه يعلل نفسه أحيانا بالسلسو ، ولكن أتى له . ويتحدث كشاعر عذرى فيقول إني إذا خفق البرق اليمانى بأفقتكم خفق قلبي معه ، ويدعو لجيران العذيب فى نجد وأهله أن يرعاهم الله وإن ملأوه من شراب الهوى والهوان ما ملأوه ، ويقول إن غابوا عن ناظرى فإن قلبي يراهم متجسدين فيه رأى عيان . ويستمر منشدا :

أورى بسلم العذيب وحاجر	وتلك مغان ما لهن معانى
وأذكر سكان العذيب تسرا	وما ذكر سكان العذيب بشانى
ولكن بقلبي من هو الحب كله	ومن ذكره فى خاطرى ولسانى
حبيب إذا لاحظت لم أر غيره	على أنه إذ لا أراه يرانى
ومن فضله وجدى به وتولهى	ومن جوده ما أشتكى وأعانى
وطرت على حبي له وكأنما	برانى لمعنى الحب حين برانى

وهو يقول إن مثله مثل شعراء الصوفية يذكر أماكن المحبوبات التي يذكرها أصحاب الغزل العذرى ، وهى فى واقع الأمر منازل وأماكن ليس لها معنى عند الصوفية إلا معنى التواجد والشوق للمحجوب ، ويقول إنه إنما يذكر سكان العذيب تسترا وتواجدا وليس ذكرهم من شأنه ، وإنما هو إعلان لحبه وهيامه بربه ، وإنه ليحل هواه فى قلبه حتى ليصبح هو الحب كله ، وإنه ليذكره دائما فى خاطره وعلى لسانه ، وإنه لحبيب لا أرى غيره فى الوجود إذا نظرت من حولى ، ومع أنى لا أراه يرانى ، ومن فضله على هيامى به وتوهمى ، ومن كرمه ما أشتكى منه فى حبه وأعانى . ويشعر فى هيامه كأنما يطير إلى ربه طيرانا ، وكأنه براه أو خلقه ربه لحبه ، وهو حب صوفى سنى وليس فيه أى أثر للنزعة الفلسفية عند المتصوفة .

٥

### شعراء المدائح النبوية

يشغف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بسيرة رسول الله ﷺ ، ومنذ أرسل وبعث وهو مهوى أفئدتهم ، يمدحونه ويتغنون بمحبته ومناقبه ومعجزاته، ويتوسلون به إلى ربهم ويتشفعون مؤمنين بأنه المثل الكامل فى الورع والتسك والعمل بتعاليم رسالته. وإذا كان قد تغنى بمدحيه أفراد فى حياته، فإن الأقاليم الإسلامية تغنت به وبسيرته وبشمالته فى كل بلد وكل عصر. والمغرب الأقصى مثله مثل الأقاليم العربية جميعا أكثر من التغنى بمدحيه ورسالته منذ عصر المرابطين الذى أخذ فيه الشعر المغربى يزدهر ويتكاثر ويشترك فيه كثيرون، على نحو ما يلقانا فى أرجوزة تشتمل على نحو سبعة آلاف بيت لمحمد بن عيسى بن المناصف القرطبى الأصل المتوفى بمراكش سنة ٦٢٠ . ومن أوائل من نجده شغوفًا بالسيرة النبوية الكريمة وبنضائل رسول الله القاضى عياض وكتابه «الشفاء» فى السيرة النبوية العطرة مشهور. وله فى زيارة الرسول ﷺ (١):

قِفْ بِالرُّكَّابِ فَهَذَا الرَّبْعُ وَالِدَارُ	لَا حَتَّ عَلَيْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ أَنْوَارُ
بُشْرَاكَ بِشْرَاكَ قَدْ لَاحَتْ قِيَابُهُمْ	فَانزَلْ فَقَدْ نَلْتَا مَا تَهْوَى وَتَخْتَارُ
هَذَا النَّبِيُّ الْحِجَازِيُّ الَّذِي شَهِدْتَ	لَهُ بِتَقْدِيمِهِ رُسُلًا وَأَخْبَارُ
هَذَا الشَّفِيعُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ	لِلْمُذْتَبِينَ إِذَا مَا اسْوَدَّتِ النَّارُ
بَادِرٌ وَسَلْمٌ عَلَى أَنْوَارِ رَوْضَتِهِ	قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَا تَشْغَلْكَ أَعْدَارُ
يَا خَيْرَةَ الرُّسُلِ يَا أَعْلَى الْوَرَى شَرَفًا	قَدْ أَثْقَلْتَنِي آثَامًا وَأَوْزَارُ
فَكُنْ شَفِيعِي لَمَّا قَدِمْتُ مِنْ زَلَّلِي	وَمِنْ خَطَايَا فَإِنَّ السَّرْبَ غَفَّارُ

وهو يستوقف الركب أو القافلة فقد وصلوا إلى دار المصطفى ﷺ ولاحت أنوار من قبله

(١) الوافى ٥٦/١ .

عليهم ، ويقول لنفسه بشراك فقد لاحت قباب الضريح النبوي ومسجده ، وينبغي أن أنزل من فوق بعيري ، فقد نلت ما أهوى وأوثر ، فهذا النبي الحجازي الذي تهفو إليه القلوب والذي بشرت به الرسل وأخبار الكتب السماوية ، وهو الشفيح للمذنبين من أمته حين تتأجج نار الجحيم وتقول هل من مزيد . ويقول لكل مسلم : بادر وسلم على أنوار روضته التي قال فيها النبي ﷺ : ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ، وينبغي أن يزورها ويكتحل بأوارها قبل مماته ، ولا تشغله عن الزيارة القدسية أعدار . ويتجه بالخطاب إلى الرسول : يا خيرة الرسل وصفوتهم وأسمى الوري شرفا أتقلنتي آثام وأوزار كثيرة ، فكن شفيعي لما قدمت من عثرات وخطيئات عند ربي ، وإنه للغفار العظيم . ومن توسلات القاضي عياض الطريفة قوله متوسلا بالرسول الكريم<sup>(١)</sup> :

إليك مددت الكف أستمطر الفضلا	وأستكشف البلوى وأستعطف الطولا
دعوتك مضطرا فعبجل إجابتي	بتفريج كرب طالما واصل الهولا
وأنت ملاذى يا مرادى وسيدى	فساخ مسيئا قد جنى الجد والهولا
نداء من الأعماق يا فائق النوى	ويا سامع النجوى ويا من هو الأعلى
يتيم من الطاعات عفوك يرتجى	فيه الفقر والإفلاس والفقد والذلا
بجاه رسول الله فارحم تضرعى	ونفس همومى كلها الفرع والأصلا
لجأت إلى باب الكريم لفاقتى	فليس لنا مغن سواه ولا مولى
وصل على قطب الوجود محمد	صلاة تعم الرسل والصحب والأهلا

وهو يتوسل ضارعا إلى الرسول الكريم قائلا : إليك مددت كفى أستمطر وأستزل الفضل طالبا كشف ما نزل بي من البلوى مستعظفا التفضل الكريم ، ويقول قد دعوتك مضطرا فأجب دعائى عاجلا بتفريج كرب طالما شقيت به وبلغ بي هولا ما مثله هول ، وأنت يا سيدى رسول الله ملاذى وملجئى ومقصدى ، فساحنى : ساع مسيئا طالما تجنى فى جده وهزله . ويستغيث بربه قائلا : إنه نداء من أعماق الأعماق فى نفسى يا فائق الحب عن النبات والنوى عن النخيل وسامع النجوى الخفية يا ربي الأعلى إننى يتيم من الطاعات ، والذنوب تثقل ظهري ، فارحم تضرعى تجاه رسول الله ، وفرج همومى جميعا الفرع منها والأصل وقد لجأت إلى بابك أيها الكريم لفاقتى وإنك وحدك المغنى وليس لنا مولى سواك . ربي صل على قطب الوجود ومداره وسيده صلاة تعم الرسل وصحبه وآله .

(١) الوافى ٥٧/١ .



ونمضى إلى عصر الموحدين وتلتقى بميمون بن علي الصنهاجي الفاسي المشهور باسم ميمون بن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر الشهير بابن خبازة ، لملازمته إياه وله مدحة نبوية طويلة . وستترجم له عما قليل . وتدخل في عصر المرينيين ويلقانا في أوائله مالك بن المرحل ومدائحه النبوية وسنخصه بترجمة ، وتلتقى بأبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٣٣ من أهل سبتة الذي أنشأ في بلدته - وبالتالي في المغرب الأقصى - الاحتفال بالمولد النبوي وكان قد سبقه إلى ذلك أبو سعيد كوكبوري صاحب مدينة إربل . وأكبر الظن أن الذي ألهمهما ذلك احتفال المسيحيين بميلاد عيسى في الحروب الصليبية بالشرق واحتفال المسيحيين به في الأندلس . واستنَّ أبو العباس العزفي أن ينشد الشعراء فيه مدائحهم النبوية وتسمى الميلاديات ، وكان لمالك بن المرحل غير ميلادية أنشدها في احتفال أبي العباس العزفي . وتعنى الدولة المرينية - طوال القرن الثامن - بهذا الاحتفال ، إذ يقول الحسن الوزان في كتابه : وصف إفريقيا : « كان من عادة الحاكم في أزهي أيام الدولة المرينية أن يحتفل بالمولد النبوي فيدعو إلى قصره العلماء وأهل الأدب في مدينته : فاس ، وكان الشعراء المجلون يُلقون في هذه المناسبة قصائدهم بحضور الحاكم ، وكان المنشدون يقفون فوق مصطبة عالية . وفي نهاية الحفل استنادا إلى حكم أشخاص من ذوى الخبرة كان الملك المريني يمنح لأكثر الشعراء نبوغا وتفوقا مائة دينار وحصانا وجارية وكسوة ، ويعطى كل شاعر من الشعراء الآخرين خمسين دينارا فينصرف الجميع وقد حصل كل منهم على جائزته أو مكافأته » . ويقول الوزان تنمة لذلك إنه كان ينادى في أيامه أوائل القرن العاشر الهجري على الشاعر الذي ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعرا بأنه أمير الشعراء لذلك العام<sup>(١)</sup> . ولا ريب في أن هذا الصنيع كان يحدث تنافسا حميدا بين شعراء فاس عاصمة المرينيين . ويشير الأستاذ ابن تاويت إلى مدحة نبوية للرحالة العبدري في أواخر القرن السابع الهجري وميلادية لمحمد بن يحيى العزفي أنشدها في احتفال لأبي سالم المريني ، ويذكر لعبد الرحمن المكودي المتوفى سنة ٨٠٧ للهجرة مقصورة ويأخذ في تحليلها . وفن المقصورات قديم بدأه ابن دريد بمقصورة في مديح أمير ساماني مملأها باللفظ الغريب واختار لها وزن الرجز . ونظم حازم القرطاجني مقصورة في مديح أبي زكريا الحفصي .. غير أن المكودي أول مغربي نظم مقصورة من الرجز في مديح المصطفى وضمنها طائفة من الألفاظ الغريبة ، ووصف في مطالعها الرحلة إلى الحجاز وألم بذكريات شبابه في موطنه وضمنها كثيرا من الحكم ومن الحديث عن غزوات الرسول وعن مصير بعض الدول الإسلامية والدول التي أدال الله منها للإسلام مثل دولتي الأكاسة والقياصرة وعرج على بعض الدول العربية البائدة القديمة ، ومن قوله في مديح الرسول ﷺ :

(١) وصف إفريقيا ( طبع السعودية ) ص ٢٦٣ .

وليس ذُخْرِي غير مدح أحمدٍ      سيّد أهل الأرض طُرّاً والسّما  
وأصبح الدين القويم قيماً      سما على الأديان طُرّاً وعلا  
وكم له من آيةٍ بيّنةٍ      ومعجزاتٍ مثل إشراق الضحى

ويغلب على المقصورة السرد مما يفقدها في كثير من جوانبها الجمال الشعري . وكما مدح الرسول في العصر المريني بالمدائح الشعرية مدح بالموشحات ، ومن أطرفها موشحة ابن سعيد المكناسي المذكورة في الحديث عن الموشحات ص ٣٨٣ .

وتعنى الدولة السعدية باحتفالات المولد النبوي وخاصة حاكمها المنصور الذهبي ، وتكثر فيها المدائح النبوية المسماة بالميلاديات ، وعادة يستطرد الشاعر فيها إلى مدح الحاكم ، ويقول المقرئ في كتابه : « روضة الآس » : « ما قيل في الموالد النبوية التي احتفل لها هذا الخليفة المنصور لا يمكن حصره » ثم يذكر أنه كانت تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها في فاس ، حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها في ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة من النحاس المحكم الصنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة في السماء كالمنارة ، ويحشر الناس إلى ذلك ، ويُذعَى المنشدون للأشعار وتثر عليهم الفضة ، ويأمر لكل شخص منهم بكسوة وجوائز قد تبلغ الآلاف<sup>(١)</sup> . ويضيف عبد العزيز الفشتالي في كتابه مناهل الصفا إضافات كثيرة في هذا الاحتفال الذي كان أشبه بعيد ضخم يمتد طوال الليل ، وكان المنصور يبدأ الاحتفال الرسمي به بعد صلاة الفجر وقد اصطفت جذوع الشموع أمام قبة قصره منافسة للنخيل والمآذن في الضخامة مختلفة الألوان من بيض لؤلؤية وحمرة أرجوانية وخضر سندسية ، ويغصّ السرادق المنصوب للناس بالشرفاء والقضاة والفقهاء والكتاب والشعراء والقراء وبعد فراغ الواعظ من فضائل الرسول ﷺ وسرد معجزاته يقدم أهل الذكر والإنشاد ، ثم تتعالى الأصوات بمدائح الرسول المسماة بالمولديات أو الميلاديات نسبة إلى مولده أو ميلاده الشريف ، ثم يتبعهم أهل الذكر بالرقيق من كلام الشيخ الصوفي الأندلسي أبي الحسن الششتري ، ثم يُنشدُ الشعر . والمتبع في الإنشاد أن يقف بإزاء الشاعر مسمع ينيه الشاعر عنه في إنشاد قصيدته ، ويعود الشاعر إلى مكانه . ويذكر الفشتالي الوليمة المهيأة للعيد ، ويقول بعد أيامها توزع صلوات الشعراء وعليها توقيعات الخليفة المنصور . ويسوق عبد العزيز الفشتالي بعض ما كان ينشد في هذا العيد لعهد هذا الخليفة<sup>(٢)</sup> . وبكتاب روضة الآس للمقرئ نحو عشرين ميلادية لشعراء مختلفين أنشدت في هذا العيد أيام المنصور منها خمس لعبد العزيز الفشتالي شاعره وكتابه ،

ص ٢٢١ وما بعدها .

(١) روضة الآس ص ١٣ .

(٢) انظر مناهل الصفا تحقيق الأستاذ كون

وأهم ميلادياته نونية ، يستهلها باستيقاف ركب متجه إلى الأرض الطيبة : أرض الحجاز ، ويتمنى زورة للرسول الكريم تشفى جفونه القريحة بنظرة يغمرها النور النبوي ويحیی ربوع مكة والمدينة القدسية التي تلت بها الملائكة أفانين ذكر وقرآن ، ثم يقول<sup>(١)</sup> :

مَحْمَدٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرَهَا      وَسَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَانِ  
وَمَنْ بَشَّرَتْ بَيْعَتَهُ قَبْلَ كَوْنِهِ      نَوَامِيسُ كَهَّانٍ وَأَخْبَارُ رُهْبَانِ  
وَإِنْ كَتَبَ اللَّهُ أَعْظَمُ آيَةٍ      بِهَا افْتَضَحَ الْمِيَانُ وَابْتَأَسَ الشَّائِي<sup>(٢)</sup>  
نَبِيُّ الْهُدَى مَنْ أَطْلَعَ الْحَقَّ أَنْجَمًا      مَحَا نَوْرَهَا أُسْدَافَ إِفْكٍ وَبِهْتَانِ<sup>(٣)</sup>  
لِعَزَّتِهِ ذُلُّ الْأَكَّاسِرَةِ الْأَلَى      هُمْ سَلَبُوا تَيْجَانَهُمْ آلُ سَاسَانِ  
وَأَحْرَزَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِيِّ بِالظُّبَا      تَرَاثَ الْمَلُوكِ الصُّيْدِ مِنْ عَهْدِ يُونَانَ<sup>(٤)</sup>

وهو يقول محمد خير العالمين وسيد أهل الأرض من الإنس والجن ، إنه صفوة خلق الله ومن بشرت بأنه مبعوث شرائع الكهان وأخبار الرهبان ، فقد كان العالم ينتظره لينقذه مما يعانيه من هوان وظلم وضلال . فأرسله الله رحمة وهداية للعالمين ، وللإنس والجن يحمل في يده وصدرة معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذي لا تماثله معجزة سابقة ولا لاحقة ، وبها افتضح الكذابين المفترون والحاقدون الشائون . نبي الهدى الهادي الذي أطلع الله به نور الحق ليمحو به كل كذب وبهتان . ولعزته ذل الأكاسرة الساسانيون وألقوا عن يد وهم صاغرون ، وتملك الدين الحنيف بالظبا والسيوف تراث سادة الملوك القياصرة من عهد يونان والزمن القديم . وللتاساوتى المتوفى سنة ١١٢٧ للهجرة مدحة نبوية في أربعمئة بيت ، يجعل مقدماتها لمديح موطنه وتاريخ الإسلام وبعض دوله ، ويخص المديح النبوي بثلاثمئة بيت من ذلك قوله<sup>(٥)</sup> :

أَيَخَاطِبُ الْعَبْدُ الَّذِي لَعِبْتُ بِهِ      شَهَوَاتُهُ صَدَّرَ الصَّدُورِ الْأَوْحِدِ  
نَكْنَ تَحَقَّقَ بِالْأَدَلَّةِ عِنْدَنَا      لَا شَخْصَ أَحْلَمَ فِي الْوَرَى مِنْ أَحْمَدِ  
أَنْتَ الْمُؤَمَّلُ فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا      أَنْتَ الْجَوَادُ الْغَيْثُ لِلْمُسْتَرْفِدِ  
أَنْتَ الَّذِي مِنْ أُمَّ بَيْتِكَ رَاغِبًا      وَلَوْ اقْتَضَى أَمْرًا عَظِيمًا يَسْعَدُ  
أَنْتَ الَّذِي سَعِدْتُ بِكَ الْأَشْيَاءُ قَا      طَبِئَةً وَمَنْ يَقْصِدُ سَعِيدًا يَسْعَدُ

وهو يعجب - لكثرة ذنوبه - من جراته على مخاطبة أعظم مخلوق بشرى ، ويعود إلى نفسه فيقول إنه تحقق لديه بالأدلة أن رسول الله أحلم من علي وجه الأرض ، ولذلك قصدته وهو يعلم أنه حلیم كريم آملا في ذرة من حلمه وكرمه ، ويتجه له بالخطاب قائلا : إنك

(١) شعر عبد العزيز الفشتالي بتحقيق نجاته المريني

ص ٤٢٠ وما بعدها .

(٢) الميآن : الكاذب . الشائىء : المغض .

(٣) إفك : كذب .

(٤) الصيد : ذوى السلطان .

(٥) الوافى ٧٧٢/٣ .



المؤمل المرجو في الشدائد والكوارث كلها ، وإنك الغيث المدرار الذي يجزل العطاء لمسترفده وطالب البر منه . ويقول له إن من قصد بيتك تنيله ما طلب مهما كان جسيما ، وأنت مصدر السعادة البشرية فليس غريبا أن من يقصدك يسعد في الدنيا والآخرة . وتتكاثر المدائح النبوية والتوسلات بالرسول ﷺ في العصر العلوي . ومن أجمل التوسلات توصل أنشدته الأستاذ ابن تاويت للشاعر محمد البوعصامي ، وفيه يقول<sup>(١)</sup> :

سُحِّي بدمع كالعقيق مَحَاجِرِي شوقا لطيفةً والعقيق وحاجر<sup>(٢)</sup>  
 تلك المعاهدُ حين أظهرَ دينه ربُّ البريةِ بالرسولِ الطاهرِ  
 سرُّ الوجودِ محمدٌ خيرُ الوريِّ والمتقى من كلِّ أصلٍ طاهرِ  
 مَنْ قد تجلَّتْ طيبةُ الزهراءِ بهِ وزهتْ ففاقت كلَّ روضٍ زاهرِ  
 وسمتْ على الفردوسِ حقًا واكتستْ حُلَّ السُّنَا من شأنه المتواترِ  
 وتواضعتْ لمعالم الهادي بها الـ آفاقُ كالفلكِ المحيطِ الدائرِ

وهو يقول لعينيه اذرفا دمعاً أحمر كالعقيق شوقاً لطيفةً ومنازلها مثل العقيق وحاجر التي كانت قائمة حين بعثه الله برسائه الكبرى ، وإنه لسر الوجود خير الوري المختار من كل أصل شريف طاهر ، وقد تجلَّتْ به طيبة : المدينة وسبقت جميع المدن ، وزهت حتى فاقت كل روض ناضر ، وحق لها ، بل لقد سمت على الفردوس ، واكتست حُلَّ الشرف بفضائله المتواترة ، وتواضعت لها الآفاق كالفلك المحيط بقطب الدائرة . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً لترجم ليمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

### ميمون<sup>(٣)</sup> بن خبازة

هو ميمون بن علي الصنهاجي الفاسي الساكن بأخرة في مراكش ، ويسمى ابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة لملازمته إياه . من شعراء عصر الموحدين ، ويقول ابن عبد الملك المراكشي في كتابه « الذيل والتكملة » : كان أدبياً شاعراً مفلحاً من أكبر أعاجيب الدهر في سرعة البديهة ، ناظماً أو ناثراً ، مع الإجادة التي لا يجازي فيها والتفنن في أساليب الكلام معربه وهزله .. ذا مشاركة حسنة في علم الكلام وأصول الفقه ، وتنسك وتصوف وقتاً ، ووعظ .. وعارض ابن الجوزي في بعض فصوله فأجاد . وعبر إلى الأندلس وظل في رعاية والي إشبيلية أبي العلاء بن المنصور زمناً ، وله فيه مدائح كثيرة وله في غيره مدائح مختلفة

والتكملة ٣٨٨/٢/٨ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٧٨/٢  
 وتحفة القادم ١٥٤ ودرة الحجال رقم ٣٧٢ والنبوغ  
 المغربي ١٨٠/١ ، ٢٠٢/٣ والوافي ٣٢٢/١ .

(١) الوافي ٨٢٣/٣ .  
 (٢) طيبة : المدينة . العقيق : موضع في المدينة .  
 والحاجر : منزل في طريق مكة .  
 (٣) انظر في ترجمة ابن خبازة وشعره كتاب الذيل

وكان يأتي في مدائحها بما لم يسمع قبله ولا يُطَمَع في لحاقه ، سرعة ارتجال وحسن اقتنان  
وبراعة إنشاء ، وتولى حاسبة السوق في مراكش لعهد الخليفة المأمون الموحدى ووقف معه في  
ثورته على دعوة ابن تومرت كما أسلفنا وله يهجو ابن تومرت :

وجد النبوة حُلَّةً مطويةً لا يستطيع الخلقُ نَسَجَ مِثَالِهَا  
فَأَسْرَ حَسَوًا فِي ارْتِغَاءِ يَتَغَى بِمِحَالِهِ نَسَجًا عَلَى مِثْوَالِهَا

وَأَسْرَ حَسَوًا فِي ارْتِغَاءِ مِثْلٍ يَضْرِبُ لِلشَّخْصِ يَظْهَرُ أَنَّهُ يَشْرَبُ الرِّغْوَةَ ، وَهُوَ يَنَالُ مِنَ  
اللَّبَنِ . وَتَوَفَى ابْنُ خِبَازَةَ فِي أَوَائِلِ سَنَةِ ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ، وَهُوَ مَدْحَةٌ نَبْوِيَّةٌ رَائِعَةٌ دَوَّتْ شَهْرَتُهَا  
فِي عَصْرِهِ وَبَعْدَ عَصْرِهِ ، يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا :

حَقِيقٌ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ المَعَالِيَا	لَتُنْفَى فِي مَدْحِ الحَيِّبِ المَعَالِيَا
وَنَجْمَعُ أَشْتَاتَ الأَعَارِيضِ حِسْبَةً	وَنَحْشُدُ فِي ذَاتِ الإِلَهِ القَوَافِيَا <sup>(١)</sup>
وَنَقْتَادُ للأَشْعَارِ كُلِّ كَتِيبَةٍ	لِنَصْرِ المَهْدِيِّ وَالدِّينِ تُرْدِي الأَعَادِيَا <sup>(٢)</sup>
لِنُطْلِعَ مِنْ أَمْدَاحِ أَحْمَدَ أَنجَمًا	تَلُوحُ فَتَجْلُو مِنْ سَنَاءِ الدِّيَاجِيَا
سَهَوْتُ بِمَدْحِ الخَلْقِ دَهْرًا فَهَذِهِ	سَجُودِي لِحَبْرِي كُلِّ مَا قُلْتُ سَاهِيَا
رَسُولٌ بَرَّاهَ اللهُ مِنْ صَفْوِ نَوْرِهِ	وَأَلْبَسَهُ بُرْدًا مِنَ النُّورِ ضَافِيَا <sup>(٣)</sup>
وَمَا زَالَ ذَاكَ النُّورُ مِنْ عَهْدِ آدَمِ	يُنِيرُ بِهِ اللهُ العَصُورَ الخَوَالِيَا

وهو يقول إنه ينبغي أن أستجيب للمعالي فأنفى في مدح الرسول الكريم سيد الوجود  
المعاني وأجمع أشتات الأشعار احتساباً لله وأحشد القوافي إخلاصاً له ، وأقتاد كئيب الشعر  
لنصرة الدين وتدمير أعاديته ، ولنبدي من أمداحه نجومًا تجلو من نوره الدياجي المظلمة .  
ويعتذر عن تمضية عمره في مدح الحكام والأمراء ساهيا عن مدح الرسول الكريم ، وهو يقدم  
تلك المدحة بأخرة من حياته جبراً لما سها عنه قديماً . ويقول إنه رسول عظيم خلقه الله من  
صَفْوِ نَوْرِهِ وَأَلْبَسَهُ مِنَ النُّورِ حِلَّةً سَابِغَةً ، وَظَلَّ هَذَا النُّورُ المَحْمَدِيُّ البَاهِرُ يُنِيرُ العَصُورَ الخَوَالِيَا .  
وَتَطِيلُ مِنَ الأَبْيَاتِ التَّالِيَةِ فَكْرَةُ الحَقِيقَةِ المَحْمَدِيَّةِ الَّتِي تَغْنَى بِهَا الحِلَاجُ وَالمُتَصَوِّفَةُ بَعْدَهُ ، وَهِيَ  
حَقِيقَةُ تَوْذُنِ بَانَ الرَّسُولِ أَقْدَمَ فِي خَلْقِهِ المَعْنَوِي أَوْ الرُّوحِي مِنْ خَلْقِ الأنْبِيَاءِ . وَيَقُولُ مِيمُونُ  
فِي قَصِيدَتِهِ : بِفَضْلِهِ تَابَ اللهُ عَلَى آدَمَ وَأَنْقَذَ نُوحًا وَخَلَصَهُ مِنَ المَوْجِ العَاتِي وَحَمَى إِبْرَاهِيمَ  
الْخَلِيلَ مِنَ النَّارِ حِينَ أَلْقَاهُ أَعْدَاؤُهُ فِيهَا ، وَمَنْ أَجَلَهُ أَفْتَدَى إِسْمَاعِيلَ الذَّبِيحَ . وَحِينَ وَضَعَ أُمُّهُ  
لَهُ حَفَّتْ بِهِ الأَمْلَاقُ وَأَعْوَلَ إِبْلِيسُ اللِّعِينَ وَتَنَبَّأَتْ بِهِ الأَحْبَارُ وَالكُهَّانُ وَتَدَاعَى إِيوَانُ كَسْرَى .  
ثُمَّ يَمْضِي فِي الحَدِيثِ عَنِ سِيرَتِهِ مِنْذُ كَانَ فِي المَهْدِ ، وَحَمَلَتُهُ السَّيِّدَةُ حَلِيمَةُ لَتَرْضِعُهُ وَيَذْكَرُ

(٣) ضافيا : غامرا .

(١) حسة : احتساباً لله .

(٢) تردى : تهلك .

ما رُويَ من شق جبريل وميكائيل لصدره وإيداعهما فيه النور الهادي ، ويتحدث عن رحلته إلى الشام ولقائه لبحيرا الراهب ونسطور راهب بصرى الذى بشره ببعثته ، وما كان من تحنُّه فى حراء واختيار الله له كى يبلغ رسالته ، ويذكر إسرائه ومعراجه إلى السموات ومناجاته لربه . ويأخذ فى سرد معجزاته منذ بدء هجرته ونسج العنكبوت لبيوته على غار حراء حتى لا تظن قريش أن به الرسول وصاحبه الصديق ، ويستطرد إلى بعض ما تذكره كتب السيرة النبوية من الآيات والمعجزات ، ويعرض فى نهاية مدحته معجزة الرسول الكبرى : القرآن الكريم ، منشدا :

وآياته جلَّتْ عن العَدِّ كَثْرَةً  
وأعظُمها الوَحْيُ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ  
تحدَّى به أهلَ البيان بأسرهم  
وجاء به وَحْيًا صريحًا يَزِيدُهُ  
تضمَّنَ أحكامَ الوجودِ بأسرها  
وأخبر عما كان أو هو كائنٌ  
وما كتبتُ يُمناه قطُّ صحيفةً  
عليه سلامُ الله لازال رائحًا

فما تبلغ الأقوالُ منها تناهيا  
فبلغ عنه آمرا فيه ناهيا  
فكلهم ألقاه بالعجز وانيا  
مرورُ الليالي جدَّةٌ وتعاليا  
وحكمَ القضاءِ مثبتا فيه ناهيا  
يرى ماضيا أو ما يرى بعد آتيا  
ولارىءَ يوما للصحائف تاليا<sup>(١)</sup>  
عليه مدى الأيام حقا وغاديا

وهو يقول إن معجزات الرسول ﷺ أكثر من أن تُعدَّ وتحصى ، وإن الأقوال مهما تكاثرت لا تستطيع أن تحيط بها ، وأعظمها القرآن المعجزة الكبرى التى ليس لها مثال سابق ولا مثال لاحق وإنه ليحمل أوامر الله ونواهيه وقد تحدى الرسول به أهل البيان من العرب فكلهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يمثله ، بلاغة تأخذ بالألباب . وقد تضمن أحكام الوجود جميعها ، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا ، وأخبر الله فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلية . وكل هذا البيان المعجز حمله الرسول ، وهو لم يخطِّ صحيفة يمينه ، ولا شوهده يوما تاليا للصحف أو الصحائف ، إنه النبى الأمى العظيم ، سلام الله عليه سلاما دائما من أمته ومحبيه .

مالك<sup>(٢)</sup> بن المرحل

سببى النشأة والمربى ولد سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ، وقال ابن عبد الملك المراكشى فى الجزء الأول من الذيل والتكملة إنه مالقى ، ولعله يريد أنه ولد

(١) روى : رضى .  
والجذرة لابن القاضى ٣٢٧/١ ونفع الطيب (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكتون ٢٢٥/١ والجزء الثالث فى مواضع مختلفة والواقى ٣٣٨/١ وما بعدها .

(٢) انظر فى مالك بن المرحل وحياته وأشعاره الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والصلة لابن الزبير والإحاطة لابن الخطيب ٣٠٣/٣



بمالقة . وكان مثقفا ثقافة واسعة بمختلف العلوم مما جعله ينظم غزوات السيرة النبوية وفصيح ثعلب ، وله نظم فى الفرائض والقراءات وغير ذلك ، ومدح أمراء الأندلس والمغرب الأقصى واشتغل فى بلدته سبعة مدة بالتوثيق وولى القضاء لبنى مريم مرات فى غرناطة وغيرها ، ومدَّ له فى حياته إذ توفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ويقول ابن عبد الملك : « إنه كان مكثرا من النظم مجيدا سريع البديهة مستغرق الفكرة فى قرضه ، لا يفتر عنه حينما من ليل أو نهار ، شاهدت ذلك معه ، ويقول إنه لا يقدر على صرفه عن خاطره وإخلاء باله من الخوض فيه ، واشتهر نظمه وذاع شعره ، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المسمعين ( المنشدين ) والمغنين وهجيرا ( ملازم ) الصادرين والواردين ووسيلة المكدين ( السائلين ) وطرارز أوراد المؤذنين » . وذكر له ابن عبد الملك فى الجزء الأول من كتابه « الذيل والتكملة » قصيدتين فى مثال النعل النبوى . وله فى مدح الرسول ﷺ غير قصيدة ، وتتخذ أنماطا ثلاثة : النمط المعروف فى القصائد العربية ، ونمط يسمى العشرى لأن وحداته تتألف من عشرة أبيات ، ونمط ثالث يسمى العشرينى لأن وحداته تتألف من عشرين بيتا ، والأبيات فى النمطين الأخيرين تنتهى بقافية واحدة وتبتدىء بحرف القافية . ومن أهم مدائحه النبوية : « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدنيا والأخرى » وقد رتبها على حروف المعجم ، ولكل حرف عشرون بيتا ، وهى بذلك مكونة من عشرينيات ، ويقول فى العشرينية الهمزية الأولى :

إلى المصطفى أهديتُ غُرُّ ثنائى	فيا طيبَ إهدائى وحُسْنِ هِدائى <sup>(١)</sup>
أضفتُ إلى ميلاده غزواته	وما عَن لى من آيةٍ وأيائى <sup>(٢)</sup>
أردتُ رضا رُبى بها فهو أرتجى	وربى كريمٌ لا يُضيع رجائى
إمامُ هدىِّ صلّى النبؤن خلفه	وصلّى عليه أهلُ كلِّ سماء
أضاءتْ به الدنيا فمن وجهه سرى	إلى الشمس والأقمار كلُّ ضياء
أنا بقرآنٍ كريمٍ مفصلٍ	جلا صدأ الأذهان أى جلاء
أترجون فى يوم القيامة غيره	إذا قيل هل للناس من شُفعا
إليه يشير ابنُ البتولِ إذا رأى	ضجيجَ الورى فى حيرة وعناء <sup>(٣)</sup>

وهو يقول أهديت إلى النبى الذى اصطفاه الله أجمل ثناء فياطيبه ويا طيب هداى وطريقتى ، وقد أضفت إلى ميلاده غزواته وما عرض لى وأهمته من معجزاته ، وأردت بذلك رضا ربى راجيا أن يتقبل منى هذه المدحة لرسوله ، وهو كريم لا يخيب رجاء راج من عباده . ويقول إن الرسول إمام هداية كبرى للبشرية وقد صلى الأنبياء خلفه ليلة الإسراء ،

(٣) البتول : السيدة مريم أم عيسى الرسول .

(١) هدائى : هداى وطريقتى .

(٢) أيائى : جمع آية أى معجزة .

والملائكة في كل سماء يرددون الصلاة عليه مشيراً إلى الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ويقول إن الدنيا أضواء بنوره ، ومنه نور الشمس والقمر وكل نور ، والبيت يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة ، وهي أن كل نور في الكون يستمد من نوره ، وكل وجود يستمد من وجوده ، إذ هو سابق في خلقه المعنوي أو الروحي لكل وجود وكل نور . ويذكر معجزته الكبرى التي جاء بها معجزة القرآن الكريم وما يحمل من أروع صور البيان والبلاغة التي تجلو - بحق - صدأ الأذهان ، ويذكر يوم القيامة وموقف الناس فيه وقد طال بهم انتظار الحساب ، وكلما سألوا رسولا أن يشفع لهم عند الله في بدء الحساب اعتذر ، واعتذر معهم المسيح ابن مريم البتول مع إشارته لهم أن يسألوا الرسول الشفاعة عند ربهم ، ويتقبل الله شفاعته . ويقول في عشرية همزية :

أمالى إلى قبر النبى مبلغ	ثناء فقد أفنى الزمان ذمائي <sup>(١)</sup>
أمانى كانت لى زيارة قبره	وأرضى روض يانع وسمائي
إمام جميع المسلمين محمداً	وأكرم مبعوث من الكرماء
أمان الورى مما يخافون حبه	فيا حب شغيع أدمعى بدمائي
أماه الأسى عيني وسعر أضلعي	فخذ بيدى يا راحم الرحماء <sup>(٢)</sup>

وهو يقول : أمالى من مبلغ ثنائى إلى الرسول ، وقد فنى عمرى حتى الذماء الأخير ، وقد كان من أمانى فى شبابه أن تكحل عيناي بزيارة القبر الذكى ، إنه إمام المسلمين وهاديهم إلى رضوان الله وجناته ، وأكرم رسول بعثه الله للخلق رحمة بهم ، وإن حبه لأمان للمسلمين من كل ما يخافون ، فيا أيها الحب المقدس امزج أدمعى بدمائى شوقاً إليه وشغفاً به ، فقد ملأ الحزن عيني بالدموع واتقدت نيران الحب النبوى فى أضلعي ، فخذ بيدى وأعنى يا أرحم الرحماء . ومالك - مثل ابن خبازة - فى الذروة من شعراء عصره .

أضلعي : أوقدها ناراً .

(١) النماء : قوة القلب وبقية الروح .  
(٢) أماء الأسى عيني : ملأها دموعاً كالسيل . سحر



## الفصل السادس النشر وكتابه

١

### الخطب والمواعظ

طبيعي أن تكثر الخطب والمواعظ في المغرب الأقصى كثرتها في بلدان العالم الإسلامي جميعا ، إذ كانت تكرر في كل مسجد أسبوعيا في صلاة الجمعة وبالمثل في صلاة العيدين ، وربما كانت كثرة تكرارها هي السبب في أنه لم يتجرد أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما ، ومع ذلك فقد أثرت بعض خطب قالها بعض الحكام أو بعض كبار الوعّاظ . ومن أوائل ما نلتقى به منها خطبة إدريس الثاني في دولة الأدارسة سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م حين فرغ من بناء مدينة فاس وحضر صلاة الجمعة فقد صعد المنبر وخطب الناس الخطبة الأولى قائلا<sup>(١)</sup> :

« اللهم إنك تعلم أني ما أردت بيناء هذه المدينة مباحاة ولا مفاخرة ولا سُمعة ولا مكابرة ، وإنما أردت أن تُعبد فيها ، ويُتلى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سُكَّانها وقُطَّانها للخير وأعنهم عليه ، واكفهم مئونة أعدائهم ، وأدرِّ عليهم الرُّزق ، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق ، إنك على كل شيء قدير . »

وهذه الخطبة المأثورة عن إدريس الثاني إنما هي قطعة من خطبته ، وفيها يعلن أنه لم يبن فاسا مباحاة ولا ابتغاءً لشهرة ، إنما بناها ابتغاء لوجه الله وثوابه حتى يعبد فيها ويتلى كتابه وتقام حدوده وسنة رسوله الكريم ، وتحققت سريعا نيته ، فقد أقامها مدينتين متقابلتين : مدينة القرويين من أهل المغرب ومدينة الأندلسيين الذين لجئوا إليه زمن الحكم الرضوي في الأندلس وثورة الفقهاء عليه ونفيه لطائفة كبيرة منهم ، فنزلت كثرتهم المدينة الغربية ولم يلبث أن شُيد في مدينة القرويين الجامع المشهور باسمها : جامع القرويين وأصبح أقدم جامع في إفريقيا للدراسات الدينية إذ بُني الجامع الأزهر بعده بنحو مائة عام . وازدهرت في جامع فاس هذه الدراسات حتى العصر الحديث . ودعا إدريس لسكان فاس دعوات كريمة . أن يوفق الله أهلها للخير ويمدهم بعونه ويكفيهم مئونة أعدائهم ، ويوفّر الرزق لهم ويقيهم الفتنة والشقاق .

(١) النبوغ المغربي ٣٣/٢ .

وكان حكمه حكما عادلا رشيدا . وهدم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ما كان بين مدينتي فاس من أسوار وجعلهما مدينة واحدة ، وأقام على النهر الفاصل بينهما جسورا يمكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى بسهولة .

ومرّ بنا في نشأة دولة المرابطين أن أصلهم من قبيلة صنهاجة التي كانت تشغل الصحراء جنوبى المغرب وبعض بقاع إفريقيا المدارية السوداء حتى السنغال ، وكانوا يعيشون معيشة بدوية واتخذوا اللثام على وجوههم شعاراً لهم ، ولذلك يسمون الملتّمين ، ولم يكونوا يعرفون تعاليم الإسلام معرفة قديمة ، فجلب لهم رئيسهم يحيى بن إبراهيم الكدالى - كما مرّ بنا - الشيخ عبد الله بن ياسين ليقفهم بدقة على تعاليم الإسلام وسرعان ما أصبح زعيمهم الدينى بجانب يحيى الكدالى الزعيم الحربى ، ودفعهم الشيخ ابن ياسين جنوبا لنشر الإسلام وشمالا لجمع كلمة المسلمين فى تلك الأراضى النائية . واستولت صنهاجة بزعامته الدينية على إقليمى سجلماسة والسوس ، ودفعها شمالا على المحيط لقتال برغواطة وكانت قد ظلت - منذ الأيام الأولى للدولة الأدارسة - خارجة على الإسلام ، وتنبأ فيها متبعون وآمنوا بهم ، واتجهت إليهم جيوش صنهاجة .. وتوفى يحيى الكدالى فخلفه فى القيادة الحربية لصنهاجة أخوه أبو بكر واستطاع استئصال شأفة البرغواطيين سنة ٥٥٣ غير أن عبد الله بن ياسين طعن طعنة قاتلة فى إحدى المعارك سنة ٥٥١ فخطب فى صنهاجة وهو مشرف على الموت ، ومما قال فى خطبته ، وكان قد سماهم المرابطين أى للجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه<sup>(١)</sup> :

« يا معشر المرابطين ! إنكم فى بلاد أعدائكم ، وإنى مئت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ربحكم ، وكونوا ألفةً وأعوانا على الحق وإخوانا فى ذات الله تعالى . وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يؤتى ملكه من يشاء ويستخلف فى أرضه من أحب من عباده . ولقد ذهبت عنكم فانظروا من تقدّمونه منكم يقوم بأمركم : يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فيئكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم » .

وهو يناديهم باسم المرابطين حثا على جهاد برغواطة المارقة ، ويقول لهم إنكم تواجهون أعداءكم فاحذروا أن تجبنوا فى حربهم ، فيقضوا عليكم القضاء الميرم ، وينصحهم أن يتعاونوا على نصرة الحق وأن يكونوا إخوانا فى ذات الله ينشرون دينه الخفيف ، كما ينصحهم أن يتعدوا عن هذا المرض الخبيث : مرض التحاسد على طلب الرياسة ، فإنه لم يهلك الدول العربية مرض مثله ، ويقول إن الله يؤتى ملكه من يشاء فلا داعى للتحاسد والتباغض . ويقول : لقد انتهيت وذهبت عنكم فاختراروا لكم زعيما عادلا ذا بأس وقوة يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم

(١) النبوغ المغربى ٣٤/٢ .

قسمة عادلة ما تغنمون من عدوكم وتؤدون إليه زكاتكم . وهكذا ظل الشيخ عبد الله بن ياسين ينصح للمرابطين حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

ومر بنا أن محمد بن تومرت المصمودى مؤسس دعوة الموحدين قد اقترض لنفسه من دعوة الشيعة الإمامية التي تعرّف على مبادئها أثناء مقامه بالعراق ثلاثة مبادئ هي أنه إمام ومهدى ومعصوم ، واقترض من مبادئ المعتزلة التي تعرف عليها هناك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومبدأ التوحيد ، وهو عند المعتزلة يعنى نفى التشبيه بالمخلوقات عن الذات العلية نفياً باتاً معارضين بذلك أهل السنة الذين يرون عدم تأويل الآيات القرآنية التي يفهم منها التشبيه مع الإيمان بترك ذلك لله جلّ شأنه . ومن خطبة لابن تومرت قوله<sup>(١)</sup> :

« إن الله - سبحانه وله الحمد - منّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصّكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيدِهِ ، وقبّض لكم من ألقام ضلّالاً لا تهتدون ، وعمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ولا تُنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل ، وترهات ، أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم . ذلك بما كسبته أيديكم وأضرته قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد » .

وابن تومرت فى هذه القطعة من خطبته يشير إلى مبدئين تعتنقهما جماعته هما المبدآن الاعتزاليان اللذان أشرنا إليهما : مبدأ التوحيد ، ويقول إن الله خصّهم من بين أهل العصر بحقيقة توحيدِهِ ، ويقصد - كما قلنا آنفاً - أنه منزّه عن التشبيه بالمخلوقات ، ويقول إن الله خصّهم بذلك من بين أهل العصر ويريد المرابطين وفقهاءهم من أهل السنة الذين لا يتأولون آيات التشبيه المذكور فى القرآن الكريم من مثل ( يد الله فوق أيديهم ) ويقولون علم ذلك عند الله بينما يتأول المعتزلة اليد بمعنى القدرة . والمبدأ الاعتزالي الثانى الذى أشار إليه ابن تومرت هو ما يزعمه دائماً من أن خصوم جماعته من المرابطين لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، أما أتباعه الموحدون فهم - فى رأيه دائماً - يأمرّون بالمعروف وينكرون المنكر ، ولا يلبث أن يسميهم - لعدم أخذهم بهذين المبدئين - مارقين عن الدين خارجين عليه ، ينبغى حربهم ومحو سلطانهم ، ويعدّ أصحابه بأنهم سيزيلون هذا السلطان ويرثون أرضهم وديارهم .

وكان الموحدون يدعون للأخذ فى الفقه بمذهب داود الظاهرى القائل بإلغاء الإجماع

(١) النبوغ المربى ٣٦/٢ .



والقياس أو الاجتهاد العقلي في الأحكام الفقهية والاكتفاء بالكتاب أى القرآن والسنة أى الحديث النبوى . وأخذ بهذا المذهب فى كتبه ابن حزم النقيه الأندلسى وأخذ به الموحدون كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وانتصر للموحدين كثيرون من الشعراء والكتاب والفقهاء والخطباء . وللقاضى أبى حفص عمر السلمى خطبة يتصر فيها للمذهب الظاهرى ضد المذاهب الأخرى ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإتهم عن عقولهم حدثوا ، أتوا من الافتراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة . الأنبياء ونورهم - لا الأغبياء وغرورهم - عنهم يتلقى ، وبهم يدرك السؤل : ( عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ) الدين عند الله الإسلام ، والعلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ ، ما ضرَّ مَنْ وقف عندهما ما جهل بهما . »

وظن بعض من قرأ فى هذه الخطبة كلمة القدماء أنه يريد الفلاسفة وهو إنما يريد الأسلاف من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فهو يدعو دعوة الموحدين من إهمال فقههم وفتاويهم جميعاً ، والرجوع إلى الكتاب والسنة كما يقول الموحدون وأهل الظاهر فى عصره ، وهو لا يخفى ذلك بل يعلنه إعلاناً ، إذ يقول « العلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ » ويقول فى موعظة له<sup>(٢)</sup> : « لا علم إلا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة . »

ونلتقى بالمتصور المربنى يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م وكان بطلاً مغواراً وكأنما نذر نفسه لحرب نصارى إسبانيا مساعدة للمسلمين وبنى الأحمر فى إقليم غرناطة . وكان لا يزال يعد العدة من الخيل والسلاح ويعبر الزقاق مع جنوده الأشداء لغزو حصون النصارى بإسبانيا ومدنهم ، وكان ما يأخذه منهم يعطيه لبنى الأحمر ، أمراء غرناطة فهو لا يحاربهم طلباً للمغنم ، وإنما لما عند الله من ثواب المجاهدين فى سبيل دينه ونصرته . وأول سنة عبر فيها الزقاق بجنوده سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م وعاد إلى عبوره بجيش كثيف سنة ٦٧٧ وأبلى فى الحرب حيثئذ بلاء عظيماً ، وبالمثل فى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م واستولى على بعض حصونهم وتركها لبنى الأحمر ، وفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م عبر الزقاق لجهاد النصارى وهزم نونيو جونزالث دى لارا جنوبى قرطبة هزيمة ساحقة . وفى أوبته أدركته المنية بالجزيرة الخضراء ، وله من خطبة يحث فيها جيشه على الجهاد<sup>(٣)</sup> :

« يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين : إن هذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، ألا إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، فخذوا فى طلابها ، فإن الله ( اشترى من المؤمنين أنفسهم

(١) النبوغ المغربى ٣٧/٢ .

(٢) أزهار الرياض للمقرئ ٣٥٩/٢ .

(٣) النبوغ المغربى ٣٨/٢ .

وأموالهم بأن لهم الجنة ) فشمروا عن ساعد الجدِّ ، معاشر المسلمين ، في جهاد المشركين .  
فمن مات منكم مات شريداً ، ومن عاش عاش غانماً مأجوراً حميداً ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا  
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

وهي كلمة فصلت من قلب مجاهد صادق أبلى في سبيل دينه ونصرته بلاء عظيماً ، ويشير  
جيشه بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبال الشهداء المبرورين ، كما وعد الله عباده المجاهدين  
المؤمنين ، ويدعوهم إلى الجهاد بكل ما يملكون من قوة ، فإن من قُتل منهم شهيداً فاز برضوان  
ربه ، ومن عاش غنم من العدو غنماً كبيراً ، وأثابه الله ثواباً عظيماً . ويذكرهم بآية كريمة  
تدعو إلى الصبر في الحرب والمرابطة للعدو حتى النصر العظيم .

ومما أثر من خطب يوم الجمعة ومواعظها لأبي عبد الله محمد الرهوني الفقيه المالكي الكبير  
المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م وكان قد اشتغل بالخطابة الدينية والموعظة ، وله مجموعة  
في خطب الجمعة ، ومن خطبة له في التذكير والترغيب<sup>(١)</sup> :

« أيها الناس : حَصِّص<sup>(٢)</sup> لكم الحق فتبصروا ، وتبين لكم الرشد من الغي فالزموا الطاعة  
وتذكروا ، وحملتكم على سلوك الطريق المستقيم فاستقدموا ولا تتأخروا ، وحذرتكم من العدول  
عنه فخافوا الله واحذروا ، وأسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة فاعرفوا حقها واشكروا ،  
واعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ، وإياكم والتقصير في العمل فلن تسعدوا مع التقصير  
أو تُعذروا ، وكونوا من قوم أشرقت لهم أنوار الهداية فأبصروا ، وتليت عليهم آيات الله فتدبروا ،  
ولا تكونوا ممن استعبدتهم الدنيا فشرّبوا من كئوس حبّها حتى سكرّوا ، وقطعوا أعمارهم في  
اتباع شهواتها فخابوا وخسروا ، وانتهجوا سبيل الذين استعدوا لمواطن القيامة كأنهم شاهدوا  
أهوالها وحضروا ، ورأوا عذاب النار فكفّوا أنفسهم عن سوء وانزجروا ، وسمعوا ما أعدّ الله  
لأوليائه في الجنة فاجتهدوا بالطاعة وبادروا » .

وواضح أن الرهوني يحسن رصف السجع في خطبه ، ويحاول أن يستتم جرسها بما التزم  
في نهاية عباراتها من حرف الراء المضمومة ، فهو يريد أن يخلب الأسماع بحسن بيانه وإحكام  
التقابل في نهايات الأسجاع ، وليس ذلك فحسب ، فهو يعنى بلغته فيختار لها ألفاظاً رصينة  
جزلة تحسن وقعها في آذان المستمعين . وهو بجانب عنايته باختيار ألفاظه وانتخابها يوفر فيها  
ألواناً من الطباق المستحسن مثل : « بين لكم الرشد من الغي » وقوله : « فاستقدموا ولا تتأخروا »  
وقوله : « وأسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة » . ولا ريب في أن الرهوني كان خطيباً فذاً

(٢) حصص الحق : ظهر .

(١) النبوغ المغربي ٤١/٢ .

وكان يؤثر بخطابته ووعظه في سامعيه تأثيرا بعيدا ، وهو خطيب مغربي من خطباء كثيرين كان لهم نفس هذه الروعة في الخطابة والوعظ .

٢

## الرسائل الديوانية

أخذت الرسائل الديوانية تزدهر في المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين واستدعائه أبا بكر بن القصيرة رئيس ديوان المعتمد بن عباد وتكليفه برياسة ديوانه في مراكش عاصمته ، وكان آية في البيان والبلاغة ، فأرسي في الديوان المراكشي تقاليد الكتابة الديوانية الأندلسية ، وظل رئيسا لهذا الديوان حتى وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة ، وظلت له رياسته في عهد ابنه علي حتى وفاته سنة ٥٠٨ للهجرة . واحتفظت الذخيرة لابن بسام برسالتين<sup>(١)</sup> له كتبهما على لسان يوسف بن تاشفين ، أولاهما موجهة إلى صاحب قلعة بني حماد في الجزائر ، والثانية موجهة إلى ابن حمدين محمد بن علي حين ولي القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ، وله يقول فيها :

« استشهد الله يهدك ، واستعن بالله يُعِينك في صدرك ووردك<sup>(٢)</sup> وتول القضاء الذي ولاك  
الله بجِدٍّ وحَزْمٍ ، وجَلْدٍ وعزم ، وأمض القضايا على ما أمضاه الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ،  
ولا تبال برغمٍ راغم ، ولا تشفق من ملامة لائم ، وآس<sup>(٣)</sup> بين الناس في وجهك وعدلك  
ومجلسك ، حتى لا يطمع قوى في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . ولا يكن عندك  
أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، وانصح  
لله تعالى ولرسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن  
يُسَلِّموا لك في كل حق تُمضيه ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تُقضيه . ونحن أولا وكلهم  
آخرا مذ صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين عليك في حق . والعمال والرعية كافة سواء  
في الحق » .

وواضح أن ابن القصيرة يتأثر في رسالته إلى القاضي ابن حمدين برسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حين يدعو إلى المساواة بين الناس في وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع قوى في حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله ، وحين يقول له : « لا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » . ومن الطريف في الرسالة أن يوسف بن تاشفين يجعل القاضي فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطين

(٣) آس : سؤ .

(١) الذخيرة ، القسم الثاني ص ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) صدرك : ما تصدر عنه . وردك : ما ترد إليه .



وفوق الرعية ، فليس لأحد من كل هؤلاء الحق في أى اعتراض على القاضى فى حكم من الأحكام ، فمنذ صار ابن حمدىن قاضى الجماعة فى قرطبة أصبحوا جميعا خاضعين له . وهو جانب مشرق فى القضاء الإسلامى ، نجده فى كل بلد وكل دولة ، إذ كانت مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من النفوذ والسلطان . وعنى الدكتور محمود مكى فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامىة بمدرىد بتحقيق مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفىن ( ٥٠٠ - ٥٣٧ هـ ) بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الرسالة الثالثة عشرة . والرسالة السابعة فى المجموعة أشبه بمنشور وجهه على بن يوسف إلى أهل الأندلس بطاعة الوالى وأن لا يخالفوا عليه أو يعصوه فى أمر ، إذ يقول فيها<sup>(١)</sup> :

« إن الوالى النائبُ عنا فى تدبىركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، وقد فوضنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دقه وجله ، وقله<sup>(٢)</sup> وكثره ، وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نُمضى ما وقعه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاه كائنا ما كان إلا أن يتولاه ، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه : بلساننا يتكلم ، وعمّا فى جناننا يترجم ، وعلى ما يوافقنا يُسدى ويلحم<sup>(٣)</sup> .

وهذا التفويض للوالى فى الأحكام من حسن السياسة ، فالحاكم الكبير - مثل على بن يوسف - يتضامن مع ولاته فى كل ما يفعلونه ويقولونه ، حتى تنتظم أمور الرعية ، ولا يتخذ الشذاذ الفرصة للخلاف مع الوالى مما قد يؤدى إلى الثورة . غير أنه كان ينبغى أن ينصح الولاة - مع ذلك - بالعدل مع الرعية ونصفه المظلوم والضعيف ، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية حتى يسمعوا شكوى كل مظلوم أو متظلم . ويقول عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفىن إنه اجتمع له ولابته على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار<sup>(٤)</sup> ، وفى حديثه عن أمير المسلمين على بن يوسف يقول : « لم يزل من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك كأبى القاسم بن الجدد المعروف بالأحذب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبهم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحق له ذلك إذ هو أحد من انتهى إليه علم

(١) المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامىة

(٢) يُسدى ويلحم : يسج .

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٧ .

بمدرىد .

(٢) الدق والقل : القليل . الجل : الكثير .

الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى<sup>(١)</sup> ، وله ديوان رسائل يدور بأيدي أدياء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصوبه إماما يقتفونه . وبمعهد المخطوطات بالقاهرة التابع للجامعة العربية نسخة من هذا الديوان ، وله أربع رسائل ديوانية فى مقال د . محمود مكى فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية بعنوان : « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ونذكر قطعة من إحدى هذه الرسائل كتبها سنة ٥٠٧ للهجرة على لسان على بن يوسف بن تاشفين ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس لحثهم على جهاد النصارى الإسبان وتعريفهم بأنه عزم على خوض معركة حامية الوطيس معهم ، وفى أولها يقول :

« كتابنا - أعزكم الله بتقواه ، وكنفكم بظل ذراه ، ووفر حظوظكم من حسناه - من حضرة مراکش - حرسها الله - يوم الاثنين من منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يدي حركتنا بمن الله فاتحتها وعقبها . وقد قرعنا الظنايب<sup>(٢)</sup> ، وأشرعنا الأنابيب<sup>(٣)</sup> ، وضممرنا اليعاسيب<sup>(٤)</sup> ، واستنفرنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نية ، وصدق حمية ، فى نصر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يضام ، أو يناله من عدوه اهتضام<sup>(٥)</sup> . ونحن - وإن كنا قد بالننا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد ، ما يُرى على الحصر والتعداد ، فإننا نعتقد اعتقاد يقين بقول رب العالمين ، فى كتابه المين : ﴿ قُلْ مَا يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ : إن استنفر الدعاء ، واستفتح أبواب السماء ، بخالص الثناء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدعاء ، فيما أعضل<sup>(٦)</sup> من الأدواء . »

ولعل فيما سبق من قيام كبار الكتاب فى الأندلس على الكتابة فى ديوان المرابطين بمراكش عشرات السنين ما يدل على أنهم وضعوا تقاليد الكتابة فى هذا الديوان وأرسوها فيه وظلت راسخة بعد عهدهم فى عهد الموحدين ومن جاء بعدهم ، ويتوقف القلقشندى فى كتابه : « صبح الأعشى » ليدكر التقاليد المتبعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، ولا ريب فى أنها موروثه عن العهد السابق لهم عهد المرابطين ، ويقول القلقشندى إنها كانت تتخذ أحد أسلوبيين<sup>(٧)</sup> : إما أن تفتح بلفظ من فلان إلى فلان ، وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويدعى له بما يليق به ، ثم يؤتى بالسلام ، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبى ﷺ والترضية عن الصحابة ثم عن إمامهم المهدي ، ثم يؤتى على المقصود ، ويختم

(١) المعجب ص ٢٣٧ .

(٢) قرع الظنايب كناية عن الإسراع إلى الحرب .

(٣) أشرعنا الأنابيب : سدنا الرماح .

(٤) ضممرنا اليعاسيب : ذلنا الخيل للحرب .

(٥) اهتضام : ظلم .

(٦) أعضل : أعجز . الأدواء : الأمراض .

(٧) صبح الأعشى ٤٤٣/٦ .



بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه . ويمثل القلقشندى لهذا الأسلوب برسالة عن عبد المؤمن بقلم أبي جعفر بن عطية إلى محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش ، وسنعود إليها عما قليل . والأسلوب الثاني في المكاتبة لعهد الموحدين - كما يقول القلقشندى - أن تفتح المكاتبة بلفظ أما بعد ، والأمر فيه على نحو ما تقدم في الأسلوب قبله بعد البعدية . ويمثل لهذا الأسلوب الثاني برسالة عن المستنصر بالله (٦٠٩ - ٦٢٠هـ) إلى بعض نوابه ، ومثلها رسالة عن يوسف ابن عبد المؤمن بقلم أبي الحسن بن عياض ، وسنعرض لها عما قليل .

ويذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه : « المعجب » كتاب الإنشاء لعبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ، وهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وسنخصه بترجمة ، وكتب له بعده - كما يقول - أبو القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة<sup>(١)</sup> . وكتاب الإنشاء في عهد ابنه يوسف - كما يقول المراكشي - هم أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالمى كاتب أبيه أيضا وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالمى إلى أن مات فكتب مكانه<sup>(٢)</sup> . وواضح أن ابن محشرة والقالمى من بجاية ، ولذلك ترجمنا لهما في الجزء الخاص بالجزائر . وكتاب ابنه يعقوب - كما يقول المراكشي - أبو الفضل جعفر بن محشرة ، وكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل بُرْشانة من أعمال مدينة المرية ، ولم يزل كاتباً له ولابنه محمد (الناصر) ولابن ابنه يوسف<sup>(٣)</sup> (المستنصر) إلى أن توفى سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ م . وهؤلاء هم كتاب الدولة المهمين حتى العقد الثالث من القرن السابع قبل نشوب الخلاف والفتن والحروب بين أبناء أسرة عبد المؤمن وقبل خروج الأندلس من طاعتهم .

ونشر المستشرق بروفنصال مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، وهو مملوء بالتصحيح ويحتاج إلى تحقيق ويشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، منها ست عشرة لأبي جعفر أحمد بن عطية على لسان عبد المؤمن ، وسنفرده له ترجمة ، ومنها ثلاث لأخيه أبي عقيل عن عبد المؤمن ، ولم يذكره المراكشي بين كتابه ، وثلاث أخرى لأبي الحسن بن عياش أولها عن عبد المؤمن والاثنان الأخريان عن ابنه يوسف ، ورسالة لأبي الحكم بن المرخي عن عبد المؤمن ولم يذكره المراكشي أيضا بين كتاب عبد المؤمن ، وثمان رسائل لابن محشرة عن يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، وثلاث رسائل لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن

(٣) المعجب ص ٣٣٨ .

(١) المعجب للمراكشي ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) المعجب للمراكشي ص ٣١٦ وما بعدها .

عياش من أهل بُرْشانة كما أسلفنا : رسالة عن يعقوب واثنتان عن ابنه الناصر ، ويقول ابن الأبار في ترجمته له بكتابة التكملة إن السلطان ( يعقوب ) بالمغرب استكتبه في سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة<sup>(١)</sup> إذ كان صاحب القلم الأعلى - كما يقول ابن الخطيب في الإحاطة - على عهد المنصور وابنه الناصر ونضيف أيضا على عهد المستنصر حتى سنة ٦١٨ كما مرُّ بنا ، ويقول ابن الخطيب إنه كان لا يكلم أحدا من الناس إلا بكلام معرب . ويقول المراكشي في المعجب : جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلخوا مسلكه لما رأوا من استحسان خلفاء الموحدين لطريقته<sup>(٢)</sup> : وفي رأينا أنهم اتبعوا طريقته في الكتابة هو وكبار الكتاب الأندلسيين المذكورين منذ عصر المرابطين كما قلنا آنفا . وذكرنا أن أبا الحسن بن عياش له في مجموع الرسائل الموحدية ثلاث إحداهما على لسان عبد المؤمن وهي تتبع الأسلوب الثاني الذي ذكره القلقشندى مبتدئة بالبعدية على هذا النحو<sup>(٣)</sup> :

« أما بعد حمد الله الذي عمَّ بنوآله ، وخصَّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الأكرمين وآله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكماله ، المؤيد بالآيات العصمية ، والبيئات الحكمية ، في كافة أقواله وأعماله ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم أعمالا زاكية نامية ، وآمالا في بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية - من حضرة مراكش - حرسها الله - وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدها الأعلى<sup>(٤)</sup> ، وتوجب على [ أهل ]<sup>(٥)</sup> الاتصال حظوة الامثال<sup>(٦)</sup> لأهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم [ وعدا<sup>(٧)</sup> ] حتما مقضيا ، ووعدا [ حتما<sup>(٨)</sup> ] مأثيا بين خير الآخرة وخير الدنيا . وبشوت هذه القاعدة تستوثق<sup>(٩)</sup> أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة ، وتستنُّ اطرادا واتساقا على طريقة واحدة . »

وفي جميع الرسائل في هذه المجموعة الموحدية نجد الصلاة على ابن تومرت والإشادة به وأنه الإمام المهدي المعصوم مستعيرة هذه الألقاب كما مرُّ بنا من الشيعة الإمامية ، ويضيف أبو الحسن عبد الملك ( بن عياش أنه قام بإتمام أمر الله وإكماله ) يشير بذلك إلى المبدئين المتممين لدعوته : مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومبدأ التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقات . ويجعل أبو الحسن كوافل العصمة شاملة لعهد عبد المؤمن ، ويسميه مع شيوخ الموحدين أهل كلمة الله العليا ، وكلمته - في رأيه - إنما هي دعوة الموحدين بمبادئها التي ذكرناها . والرسالة

(١) التكملة لابن الأبار ( طبع مدريد ) رقم ٩٥٢ .  
(٢) المعجب ص ٣٣٩ .  
(٣) مجموع رسائل موحدية ( طبع الرباط ) ص ٩٣ .  
(٤) القده الأعلى : الحظ الأوفر ، وأصله أهم قدهح  
الميسر .  
(٥) زيادة للسياق .  
(٦) في الأصل : الاحتصال .  
(٧) زيادة بدلالة السياق .  
(٨) في الأصل : تستوثق .

موجهة من عبد المؤمن إلى طلبة ( دعاة ) بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول رسالتهم في غزواتهم للروم. ويحرضهم على حربهم واستئصال شأفتهم وجذورهم . ولأبي الحسن عبد الملك بن عياش رسالة<sup>(١)</sup> عن يوسف بن عبد المؤمن إلى محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش الثائر في شرقي الأندلس يدعوه سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٤ م إلى الدخول في طاعة الموحدين ، وهي في فاتحتها تتبع الأسلوب الأول الذي ذكره القلقشندي ، وتستهل بهذه الصورة :

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته - إلى أمير شرق الأندلس أبي عبد الله محمد بن سعد - أمدّه الله بتوفيقه ، وأعزّه بطاعته وتقواه - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلّي على سيدنا محمد نبيّه ورسوله ، والحمد لله الذي أقام لأمره الذي هو سفينة النجاة ، وعصمة المحيا والممات ، دعاةً يأخذون بالحجز عن النار ، ويقيمون لمن ضلّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهدى علم وأرفع منار ، ويتقدمون في إبلاغ حجته ، وإيضاح محجّته<sup>(٢)</sup> ، يبالغ الإندار والإعذار ، ويصرفون بما أودعوا من سرّه المكنون ، لبثه في الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار ، الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضى بهذه الخليقة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار ( الآخرة ) وصلّي الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار ، ولباب الاجتباء والاختيار ، المحبوس<sup>(٣)</sup> بمعدن بيته الأشرف ، ونسبه الأشهر الأعراف ، سرّ هذا النبا السيار وارث ذلك المقام الذي هبّت تباشيره بأسماع ذوى الإصاحبة<sup>(٤)</sup> لمواقع الاستبشار ، ورضى الله عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله على أوفى الاعتقاد بتأييد الله وأتم الاستظهار ، الماضي قُدماً في التصميم وإنفاذ العزيم<sup>(٥)</sup> على أمر طلق وأبعد مضمار ، المعان فيما دعا إليه ، ونبه عليه ، بالعصمة التي لا تضرّه معها إياة آباء<sup>(٦)</sup> ولا كفر كفار . وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ، ممشّي أمره العزيز على ما له<sup>(٧)</sup> من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيمه على حدوده المكلوذة الملحوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكل معنى تتوجّه إليه داعية الاستبصار . »

وهو يحمد الله في فاتحة الرسالة لإسناده الأمر إلى يوسف بن عبد المؤمن وشيوخ الموحدين ، ويسميهم دعاة ، ويقول إنهم يحجزون بدعوتهم الناس عن النار ويقيمون لهم أهدى علم وأرفع

(١) تنظر مجموع رسائل موحديّة ص ١٤١ وما بعدها .

(٥) في الأصل : العزيم .

(٦) في الأصل : آباء .

(٧) في الأصل ماله .

(٢) في الأصل : نجحته .

(٣) في الأصل : المخبوء .

(٤) في الأصل : الإصاحبة .



منار حتى لا يضلُّوا الطريق السوي المستقيم عن الهداية الراشدة الصحيحة ، وسرها المكنون ، لنشرها في السهول والحزون وكل مكان حتى يسعد الناس في الدنيا والآخرة ، ويشيد بالرسول الكريم ثم يدعو لابن تومرت الله ليرضى عنه ، ويسميه الإمام المعصوم المهدي المعلوم . والرسائل الموحدية جميعا تذكره في فاتحتها وتضفي عليه هذه الصفات التي أضفاها على نفسه مقترضا لها من بيعة الشيعة الإمامية ، ويقول إنه قام بدعوته ونشرها في الناس بتأييد الله ، وإن عبد المؤمن خليفته سار على هداية وما وضع للدعوة من المبادئ والمراسم المحفوظة . ونراه يقول في وصف ابن تومرت في الرسالة : « إن رسول الله ﷺ بَشَّرَ بعلامات المهدي وأخبر عن أماراته الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل » وكان ابن تومرت لفق له نسبا - كما يقول المؤرخون - يصله بالرسول ﷺ ويقول أيضا عنه : « القائم في آخر الزمان بعد شمول الضلالة وتلد ( تلبث ) الحيرة وتموج الفتنة وارتفاع العلم وفسوؤ الظلم . فظهر لما خصه الله به من الهداية ، وعلمه من الحكمة ، وأحلّه مقام العصمة ونوّه<sup>(١)</sup> من معقل الإمامة ، وخرق له من العادات ، وأجرى على يديه من الآيات ، ما صدق ما نطقت به الآثار ، وتضمنته الأخبار ، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة ، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة » . ويشيد بدعوته وأنها ستظل قائمة إلى قيام الساعة ، كما يشيد بيوسف خليفة أبيه عبد المؤمن الناشر لدعوة ابن تومرت والحامل العباد على طريقته المنصور المظفر دائما .

وتظل الرسائل الموحدية تبنى وتعيد في فواتحها بالإشادة بابن تومرت وأنه الإمام المهدي المعصوم إلى أن تولى المأمون إدريس الخلافة سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، فأعلن إلغاء هذه الألقاب لابن تومرت وأزال اسمه من السكة وخطبة الجمعة ، وأذاع في الدولة رسالة بذلك من إنشائه ، يقول فيها<sup>(٢)</sup> :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين إلى الطلبة ( دعاة الموحدين ) والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم<sup>(٣)</sup> الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام<sup>(٤)</sup> ، وإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا - وللحق لسان ساطع وحكم قاطع ، وقضاء لا يُردّ ، وباب لا يُسدّ ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكّل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم ( يقصد أنه تكلم في المهد ) الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها .. كما أزلنا لفظ العصمة عن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه .. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ،

(٣) أوزعهم : ألهمهم .

(٤) الوسام : الحسان .

(١) في الأصل : نواه .

(٢) النبوغ المغربي ١١١/٢ .

فما الظن بمن لا يدري بأى يد يأخذ كتابه ، أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، وسقطوا فى ذلك وزلوا ، اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار .

غير أن عهد المأمون سرعان ما انقضى وعاد الخلفاء وشيوخ الموحدين إلى أن ابن تومرت هو الإمام المهدي المعصوم ، وظلت دعوته حية إلى أن قضت عليها الدولة المرينية . ويقول القلقشندي بعد عرضه لأسلوبى الرسائل المستخدمين أيام الموحدين : « ثم طرأ بعد ذلك الإكثار من الألقاب لخلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم والمبالغة فى مدحهم وإطرائهم<sup>(١)</sup> » وفات القلقشندي أن يذكر أيضا الإكثار من ألقاب المرسل إليه إذا كان حاكما كبيرا ، ويوضح ذلك فى عصر الدولة المرينية رسالة للسلطان أبى الحسن المرينى كتبها إلى السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون خادم الحرمين حينذاك فى شأن ركب الحجاج المغاربة ومصحف خطه بيده ووقفه على الحرم النبوى الشريف ، والرسالة تستهل على هذه الصورة<sup>(٢)</sup> :

« من عبد الله على أمير المسلمين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، مالك العدوتين ( المغرب والأندلس ) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأيد مقامه ، وفسح - لفتح معاقل الكفر ، وكسر جحافل الصفر - أيامه . إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد المرابط المؤيد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضحخم الأوحد ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، محبى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حائز ملك الأقطار ، مفيد الأوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكُرج والتتار . »

ويستمر طويلا فى إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوى فيها من مبالغات ، ويذكر أن أباه قلاوون العظيم ويكيل له هو الآخر الألقاب . ويدعو له ويسلم عليه قائلا : « أبقى الله ملكه موصول الصولة والاعتدار ، محمى الحوزة حاميا للديار ، حميد المآثر الماثورة والآثار ، عزيز الأولياء فى كل موطن والأنصار ، سلام كريم ، زك عميم ، تشرق إشراق النهار صفحاته ، وتعبق عن شذا الروض المعطار نفحاته ، يخص إخوانكم العلى ، ورحمة الله وبركاته . » وتمضى الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها ، والسجع فى الرسائل بالمغرب قديم منذ عصر الموحدين .

ويظل فن الرسائل مزدهرا فى عصر السعديين ، ويجمع الأستاذ عبد الله كنون طائفة كبيرة

(٢) التبوغ المغربى ١١٥/٢ .

(١) صبح الأعشى ٤٤٦/٦ .

منها وينشرها باسم رسائل سعديّة ، ومنها رسالة بقلم عبد العزيز الفشتالي صاحب القلم الأعلى ورئيس ديوان الإنشاء في عهد المنصور الذهبي وهي موجّهة على لسانه إلى « سكية » أمير كاغو عاصمة السودان الغربي الذي تولى الحكم هناك سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م قبل غزو المنصور لبلادها واستيلائه عليها وخلعه سنة ٩٩٩ للهجرة ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« إلى كبير كاغو وأميرها ، ومالك زمام أمورها وتدبيرها ، والمرجوع إليه - عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأثيل<sup>(٢)</sup> الأحفل - الأمر - سكية ، وصل الله كرامته ، وجعل التقى سمته وعلامته ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، أما بعد حمد الله مسهل المرام ، وميسر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيح الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام ، والرضا عن آله الأئمة الأعلام ، وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذائبين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم ( جناب المنصور الذهبي ) بالعز السامي المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ، فإننا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والإقبال دائمة الهبوب بالبكر والأصال ، والله المنة . »

ويذكر الفشتالي بعد ذلك الغرض من رسالته ، وهو أن معدن الملح في بتغازي ( بين تمبوكتو ودرعة في جنوبي المغرب الأقصى من إيالة المنصور الذهبي وفي حكم إمامته وأنه يختص بيت مال المسلمين ، ولذلك رأى المنصور أن يضع عليه خراجا ينفع المسلمين ويضر أعداء الله الكافرين ، ويذكر له أنه جعل الخراج مثقالا على كل جمل من سائر الإبل التي تحمل هذا المعدن ، ويقول له إن ما سنحصل عليه من الأموال سيصرف في سبيل الغزو والجهاد وفي أرزاق العساكر الأجناد ، التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتدناها لحياطة البلاد والعباد . ثم يقول محببا له في الرضا عن دفع بتغازي لهذا الخراج : إن هؤلاء الجنود الذين سيأخذون أرزاقهم أو بعبارة أخرى رواتبهم من هذا الخراج هم « جنود الله التي لولاها - وما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة ، وضربت في وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام في عقر داره - لفاض عليكم طوفانه السائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوب<sup>(٣)</sup> » هائل ، وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نتم في كفالتها آمين ، وفي حياطتها وادعين ومطمئين . ويطلب إلى سكية الإسعاف والإسعاد وأن لا يسعى فيما يبطل هذه الفريضة من الخراج التي تعود بالنفع على الإسلام وتؤيد حزب الله في مواصلته لقتال عبدة الأصنام .

(١) راجع الرسالة في كتاب رسائل سعديّة لكتون (٢) الأثيل : الأصيل .

ص ١٣٢ . (٣) الشؤبوب : الدفعة من المطر .



والرسالة مسجوعة في لغة رصينة امتاز بها الفشتالي - في شعره كما مر بنا - وفي رسائله ونثره .

وتظل في العصر العلوي الرسالة الديوانية محبرة يسجع فيها الكتاب ويتأنقون صوراً مختلفة من التائق . ويشير من كتبوا عن التاريخ الأدبي لأيام العلويين إلى رسائل دينية كتبها السلاطين العلويون ، وقلما استشهدوا بشيء منها ، وينوهون برسالة كتبها محمد بن إدريس العمراوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ م بلسان السلطان العلوي عبد الرحمن بن هشام إلى ابنه الأمير محمد بشأن الحملة التأديبية الموجهة إلى قبيلة زمور وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقاً ، وحملاًهم على الاستقامة بالإرهاب بالشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقاً ، فلم يرد الله بهم خيراً لفساد نيتهم ، وخبث طويتهم ، واتكأهم على حوكم وقوتهم ، وما رأوا منا شيئاً وسداداً ، إلا ازدادوا شدة وفساداً ، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشاداً ، إلا أظهروا تطاولاً وعناداً ، وما أحرنا الفئمة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاءً وإلهاً ، إلا ظنوا ذلك عجزاً وضعفاً ، قد طمس الإعجاب منهم بصرا وسمعا ، ولم يروا أن الله قد أهلك قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا » .

### ٣

#### الرسائل الشخصية

طبيعي أن تكثر الرسائل الشخصية في المغرب الأقصى منذ القرن السادس الهجري لاكتظاظه بالكتاب منذ ذلك الحين ، ومن طريف ما نلتقى به في القرن السادس رسالة للقاضي أبي موسى بن عمران المتوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م كتب بها إلى ابن له بفس في طلب العلم ، وهي تمضي على هذه الصورة<sup>(٢)</sup> :

« إلى ولدي .. هداه الله وصانه ، وجمّله بالعلم والتقوى وزانه . كنبته إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله - تعالى - تيسر الأمور ، ويتكاتف السرور ، وإذا وجدتمكم - على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العقلاء - جازيتكم بما يُرضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنيتكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تُنال بالراحة ، وأن العلم ، لا يُنال براحة الجسم ، فادرس تروس ، واحفظ تحفظ ، واقرا ترق . ومهما ركنت إلى الدعة كنت في

(١) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (٢) النبوغ المغربي ١٦٥/٢ .

للدكتور الأخضر ص ٤١٢ .

أهل الضَّعة . وما رأيت الناس مجتمعين على حَمْدِهِ فاجتلبه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمِّهِ فاجتنبه ، والأعدل الأقسط ، أن تسلك السبيل الأوسط :

وما المرءُ إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل »

والرسالة من والد فقيه قاض يأمل لابنه مستقبلا علميا يرفعه بين العلماء ، وهو يدعو له أن يتجمل بالعلم والتقوى ويزدان بهما ، فهما الزينة الحقيقية للإنسان ، ويقول له إنه سيكافئه مكافأة ترضيه ، إذا وجدته على ما يتمناه له من حسن الحفظ والأداء اللغوى للكلام ، ويذكر له أن ما يتمناه الشاب فى المستقبل من الراحة والطمأنينة لا ينال براحة الجسم والكسل ، ويقول له : ادرس وتعمق فى الدرس حتى يأتى يوم ترؤس فيه أقرانك واحفظ المتون والعلوم تحفظ ، وأكب على القراءة يرق فكرك وترق بين الناس ، أما إذا ركنت إلى الكسل والدعة كنت من أهل الضَّعة والانحطاط والخسة . وإذا رأيت الناس يجمعون على مدح شيء وحمده فاجتلبه واكتسبه ، وإذا رأيتهم يجمعون على ذم شيء فاجتنبه وابتعد عنه . ويقول له إنه ينبغى لك دائما أن تتخذ لنفسك فى الحياة السبيل الأوسط ، حتى لا يتلومك أحد على الإفراط والمبالغة فى شيء ولا على التفريط والتقصير فى شيء ، فخير الأمور الوسط . ويذكر له أن كل شخص يضع نفسه فى المنزلة التى يختارها لنفسه ، وينبغى أن تضع نفسك دائما فى خدمة الأعمال الطيبة الصالحة . ويرسل أبو القاسم الحسنى الشريف فى العهد المرينى قصيدة مع رسالة فى شبابه إلى ابن هانىء السبتي الذى مر بنا أنه توفى شهيدا فى جبل طارق سنة ٧٣٧ هـ / ١٧٣٧ م ويرد عليه ابن هانىء برسالة طويلة جاء فيها<sup>(١)</sup> :

« هذا - بنى - واصل الله لى ولك علو المقدار ، وأجرى - وفق أو - فوق إرادتك وإرادتى لك جاريات الأقدار ، ما سنج به الذهن الكليل ، واللسان الفليل ، فى مراجعة قصيدتك العراء ، الجالبة السراء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيح<sup>(٢)</sup> والأسلوب ، المتحلية بالحلى السنية ، العريقة المنتسب فى العلاء الحسنية .. وإنك واحد حلبة البيان ، والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القدم ، وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوَحَقُ فصاحة ألفاظ أجدها حين أوردتها ، وأسلفتها حين أرسلتها ، وزنتها حين وزنتها ، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها ، وأصلتها<sup>(٣)</sup> حين فصلتها ، ونظام جعلته بجسد البيان قلبا ولِعصمه قلبا<sup>(٤)</sup> ، وهَصَرَتْ حدائقه غلبا<sup>(٥)</sup> ، وارتكبت رويّه صعبا .. بنى ! كيف رأيت للبيان هذا الطوع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صفوان بن إدريس ، ومحلّ

(١) النبوغ المغربى ١٥١/٢ .

(٢) المهيح : الطريق البين .

(٣) أصلت : أبرز .

(٤) القلب : السوار يكون نظما واحدا .

(٥) هصر : جذب وأمال . غلبا : كثيرة الأشجار .



دعواه بين رحلة وتعريس<sup>(١)</sup> ، كم بين ثغاء بقر الفلاة وزئير ليث الفريس<sup>(٢)</sup> ، كما أتى أعلم قطعاً وأقطع علماً ، وأحكم قضاءً وأقضى حكماً ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائعة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المتسخة بها فريدته لذهب عرضاً وطولاً ، ثم اعتقد لك اليد الطولى ، وأقرّ فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك الغايات والأطماع ، ونسى كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربّه من الألهية .

ويبدو أن أبا القاسم الحسنى الشريف نظم قصيدته معارضة لقصيدة بديعة لصفوان بن إدريس الذى شهد له أقرانه ومعاصروه الأندلسيون بالبراعة الشعرية الفائقة ، وسموا قصيدته القصيدة اللؤلؤية ، ولعله أرسل بها مع قصيدته المعارضة إلى ابن هانئ السبتي ليشهد له بتفوقه . وهو يستهل رسالته لأبى القاسم بأن قصيدته تأخذ بمجامع القلوب ، ويشيد ببلاغته وأنه واحد حلبة البيان ، والسابق يوم الرهان ، إذ هو الأرسخ قدما مما يجعل صفوان بن إدريس السابق الأقدم يشهد له بروعة بلاغته . وبنوه ابن هانئ بفصاحة ألفاظه وبراعة معانيه ، ويقول أين بيان صفوان بن إدريس من بيانك ، ويبالغ فى ذلك قائلاً إن بيانه كثغاء أو صياح بقر الفلاة بينما بيانك كزئير الأسد وهو ينهش فريسته . وزعم له أن صفوان لو استمع إلى قصيدته البارعة وفريدته التى عارضه بها لنسخت قصيدته كما تنسخ الريح آثار الديار ولأقرّ لك بالبراعة الشعرية وأن قصيدتك تفوق قصيدته اللؤلؤية ، واستغفر ربه من دعواه .

وكان ابن الخطيب أديب غرناطة المشهور فى القرن الثامن الهجرى يكتب أدباء المغرب الأقصى المشهورين ويساجلهم بالشعر تارة ، وبالرسائل تارة أخرى ، ومن أرسل إليهم إحدى رسائله ليساجله أبو جعفر الجنان المكناسى محاولاً أن يحرك قريحته الأدبية ، فرد عليه برسالة استهلها بثلاثة أبيات مشيدا فيها ببيانه ، وفيها يقول منوها برسالته إليه<sup>(٣)</sup> :

« جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد ، وأقمت بها على معارفك الجمّة دلائل وشواهد ، واقتنصت بشوارد بديهتك من المعالى أوابد شوارد ، وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتني من إجراء ظالعى فى ميدان ضليعها<sup>(٤)</sup> ، مقابلة الشمس النيرة بالسراج عند طلوعها ، فأخلدت<sup>(٥)</sup> إخلاذ مهيب الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكى<sup>(٦)</sup> السلاح ، وعلمت أننى إن أخذت نفسى بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتى للمساجلة ، كنت كمن كلف الأيام رجوع أمسها ، أو طلب ممن علت السماء محاولة لمسها .. ثم إن أمرك - يا سيدى -

(٤) الظالع : الأعرج . الضليع : القوى المتين .

(٥) أخلد : سكن وفكر .

(٦) شاكى السلاح : كامل السلاح .

(١) تعريس : إقامة .

(٢) الفريس : ما يفترس من الحيوانات .

(٣) النبوغ المغربى ١٥٥/٢ .

لا يُحَلُّ وثيقُ مُبرمه ، ولا يَحُلُّ نَسْخُ محكمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد في نفسه حرجا من فضائك ، ورجوت حُسْنَ تجاوزك وإغضائك ، أبفأك الله قطبا لفلك المكارم والمآثر ، وفَصًّا لخاتم المحامد والمفاخر .

وهو يشيد ببيان ابن الخطيب في رسالته ، ومعروف أنه أحد بلغاء الأندلس بل العرب قاطبة ، وأبو جعفر يحكم اختيار ألفاظه وسجعاته ، ويضيف إلى ذلك تشبيهات واستعارات بارعة ، من ذلك تشبيهه في جذبته له لمساجلته بمن يحاول أن يجرى فرسا ظالعا أعرج مع فرس ضليع قوى متين أو بمن يحاول مقابلة الشمس المنيرة عند طلوعها بسراج لا يكاد ضوءه في نورها يبين ، وسكن محسًّا كأنه مهيض الجناح ، بل لقد جمع نفسه وقرر الفرار من المساجلة فرار الأعزل من حامل السلاح وشاهره ، ويخال نفسه إن أدلى دلو قريحته عازما على المساجلة كان كمن يكلف الأيام أن ترد أمسها عليه ، بل كمن يطلب من شخص لمس السماء يديه . ثم يعود إلى نفسه فيرى أن ليس من حقه أن ينقض أمرا لابن الخطيب أو ينسخ حكماله ، فامتثل راجيا منه تجاوزه وإغضائه عن ضعفه في البيان ، ويدعو الله أن يبقى ابن الخطيب قطبا للمحامد والمآثر وفَصًّا نفيسا لخاتم المكارم والمفاخر . وكان ابن الخطيب في عصره يُعَدُّ زعيم الأدب والأدباء ، وأهدى إليه أبو القاسم الشريف الحسنى ديوانا له سماه جهد المقل ، ومعه الرسالة التالية<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله الكبير المتعال المسئول أن يعصمنا من خطل القول وزلل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال . هذه أوراق ضممتها جملة من بنات فكري ، وقطعا مما يجيش به بعض الأحيان صدرى ، ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الإضراب ، ولزمت في دفنها وإخفائها دين الأعراب ، ولكنني آثرت على المَحْوِ الإثبات ، وتمثلت بقولهم : « إن أحسن ما أوتيته العرب الأبيات . وإذا هي عُرضت على ذلك المجد ، وسألها كيف نجت من الوأد ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فنائكم إلى معرْسٍ ومَقِيلٍ<sup>(٢)</sup> ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنم قليل الهدية منى إن جهد المقل غير قليل ، فحسبها شرفا أن تبوات في جنابك كفا ودارا ، وكفاها فخرا ومجدا أن عقدت بينها وبين فكرك عقدا وجوارا » .

وهو يقول إن أوراق الديوان تضمنت طائفة من بنات فكره ، ولو أخذ نفسه بالحزم لا تمتع عن كتابتها كل الامتناع ، بل لمحاحا محوا ، غير أنه عاد فآثر على المحو الإثبات وتمثل بقولهم إن أحسن ما أوتيته العرب أبيات يقدمها الشاعر بين يديه . ثم يذكر أنها إن عُرضت

النهار .

(١) البوغ المغربي ١٧٦/٢ .

(٢) معرْس : مبيت . مقيل : مكان في القيولة بنصف

عليه ، وسألها كيف نجت من الواد عرف أنها آوت من حرمة إلى ظل ظليل ، وحلت من فناء داره وساحتها إلى خير معرّس ومقيل ، ويقول إن كرمه سيجعله يغضى عن عيوبها ، وحسبها شرفاً أنها نزلت من جنبه دارا ، وكفاها مجد وفخرا أن انعقد بينها وبين فكرك جوار حميد وعقد وثيق . ولابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م رسالة فكهة كتب بها إلى أبي الحكم بن مسعود الشاهد بالمواريث ، ويفتحها بقوله (١) :

« أطال الله بقاء أخى وسيدى لأهل الفرائض يحسن الاحتيال فى مداراتهم ، وللمتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أقلامه مُشْرِعة (٢) لصرم (٣) الأجل المنسأ (٤) ، معدة لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصلصال والحمأ ، فمن مئت يُغسل وآخر يُقبر ، ومن أجل يُطوى وكفن يُنشر .. وكلما خربت ساحة ، نشأت فى الحانوت راحة ، وكلما قامت فى شِعْب (٥) مناحة ، اتسعت للرزق مساحة » .

وتمضى الرسالة فى مثل هذه الفكاهة وشاهد المواريث يسأل عن العقار والأملك ، ويقول عن المتوفى إنه ذكر فى الأسماء الخمسة مع ذو فقيل ذو مال ، وأرجل أعوانه تدب إلى الأسفاط ديب الصقر إلى الحجل (٦) ، وحضر الموروث والمكسوب ، ووزن بالأرطال ، وكيل بالأفداح ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته ، والمشرف يشرف فتسقط سبحة ، وتقسم التركة ويحضر الورثة . وكل ذلك فى أسلوب فكه بديع .

وتظل الرسائل الشخصية فى العهدين السعدى والعلوى تكتب بهذا الأسلوب المسجع البديع ، والكتاب يتبارون فى انتخاب ألفاظهم وصياغاتهم انتخابا يروق ويروع .

#### ٤

### المقامات والرحلات

#### ( أ ) المقامات

المقامات جمع مقامة ، وهى من أهم فنون النثر العربى ، ابتكرها بديع الزمان الهمذانى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، عارضا أفاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون فى

(٤) المنسأ : المؤجل .

(٥) شعب : طريق .

(٦) الحجل : جمع حجلة : طائر فى حجم الحمام .

(١) النبوغ المغربى ١٧٧/٢ .

(٢) مشرعة : مصوبة .

(٣) صرم : قطع .

عصره بالساسانيين الذين كانوا يحترفون الكُذبية أو الشحاذاة الأدبية في الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وحييلهم في أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، واتخذ بديع الزمان لمقاماته أدبيا متسولا كبيرا ، هو أبو الفتح الإسكندري وراويته يروي أقاصيصه وحييله يسمى عيسى بن هشام ، وشاعت مقاماته في العالم العربي . وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريري التي تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية . وكان كثير من العلماء والأدباء يعقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة ، وحاولت كل بلدة أن تُدلي بدلوها في هذا الفن ، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار . وأول ما يلقانا من ذلك في المغرب الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمي الوزير وصاحب القلم الأعلى في عهد أبي سعيد المريني ثم في عهد ابنه أبي الحسن المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وقد سماها « مقامة الافتخار بين العشر الجوار » وهن بيضاء وسمراء ، وطويلة وقصيرة ، وسمينة ونخيفة ، وعربية بدوية وحضرية ، وعجوز وصبية . وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها في حسنها . وقد لقيهن - كما يقول في مفتتح مقامته بوادي الجوهري في إحدى المدن ، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة . وكانت أول جارية تكلمت وطلبت المناظرة جارية يفوق ضياءً وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله الذي جعل البياض طراز كل جمال ، وشرف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزة لا تبيد ، وصير السمر لهم عبيد ، ألا وإن على قلبي جمرة ، من معاتبتك يا ذات السمر ، أعندك يا سمراء ما عندي ، وليس قدلك كقدتي ، ولا خدك كخدتي ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائبى<sup>(٢)</sup> كقطع الزجاج<sup>(٣)</sup> ، ورشح عرقى كمسك أذفر ، يرشح من تحت البرد والمغفر ، وثغرى أقحوان<sup>(٤)</sup> ، وديباج وجهى أرجوان<sup>(٥)</sup> ، وإن أسبلت<sup>(٦)</sup> شعرى المظفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قل للذي أزرى بأهل البياض ما أنت إلا باطل الإعتراض  
فورد خدتي أبدا زاهراً في كل فصل فوق خدتي رياض  
يا حاسدى مت كمدنا إنما تُجنى المنى من الخدود الغضاض<sup>(٧)</sup>

وتقدمت السمراء ، وحطت اللثام ، عن وجه شهي اللثام<sup>(٨)</sup> ، وأبلغت في السلام ، وأفصحت في الكلام ، وقالت :

(١) النبوغ المغربي ١٩٥/٢ والوافى ٤٤٩/٢ .

(٢) ذوائبى : صفائرى .

(٣) الزجاج : عتار أسود يصنع منه اللداد .

(٤) يشبه السمراء الثغر بالأقحوان ، وكان تلك الزهرة

تشبهه .

(٥) أرجوان : شجر له زهر شديد الحمرة .

(٦) أسبلت : أسدلت .

(٧) الغضاض : الناضرة .

(٨) لاللاثام : يريد الثقل .



الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرق بين الصور والألسنة والألوان ، وزين الأبيض بشعر كالفسق<sup>(١)</sup> ، وبأسوداد الحاجيين وسواد الخدق . وأجل ما يقف له العاشقون إجلالا ، ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالا : مسكة الخال ، وعقرب الدلال . ثم التفتت إلى البيضاء وقالت : يا أشبه شىء بجين الروم .. ما زال طعامك قليل الملح ، وجفنتك كثير الرشح ، ولبنك أذى ، وعسلى أما غذا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم التمر ، ثم أتشدت :

الحمد لله ليس التبر كالورق      قد أحسن الله فى خلقى وفى خلقى<sup>(٢)</sup>  
فالجسم منى نضار صيغ منظره      بمسكة فغدا طيبا لمتشيق  
يا من يعيرنا باللون إن لكم      جهلا يقود إلى الطغيان والحمق  
كم أسمر قلبه كافورة وله      من السعادة نجم لاح فى الأفق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها تبرقت بنقابها ، وسلّمت على الصفيين ، وقبّلت أسارى الكفين .

وواضح أن عبد المهيمن الحضرمي أجرى على لسان الجارية البيضاء النعوت التى تزينها فى الخلق والأخلاق مثل الحياء والكمال ، وتوسع فى وصف جمالها بذكر جمال القد والخد والجين والصفائر المفرقة فى السواد ، وذكر أن ثغرها أقحوان ووجهها أرجوان ، وأشاد بوردها وأنها يحيل حدودها رياضاً ناضرة . ويظن كأنها ضيقت طرق الكلام على صاحبها السمرء . غير أن عبد المهيمن ما يلبث أن يفتح لها الأبواب على مصاريعها ، لتجد مجموعة من الأدلة البينة والبراهين الواضحة على روعة السواد وجماله بشهادة قولهم : شعر كنتى الليل وإعجابهم بسواد الحاجيين وحدق العينين ، وبدليل إشادة الشعراء بالخال المشبه للمسك ، والشعر المتدلى إلى الخدود كأنه العقرب ، وتقول صاحبها إن اللبن الأبيض المشبه لك كثير ، أما العسل الأسمر المشبه لى فكثير الغذاء ، وتفخر عليها بأن لونها لون الخمر التى طالما تغنى بها الشعراء ، ثم أنشدتها شعرا يرفع التبر أو الذهب الذى يشبه لونها على الورق أو الفضة البيضاء التى تشبه لون صاحبها ، فجسمها هى نضار ، وصيغ - كالمسك - سوادا وعطرا ، وتقول لها ما أكثر السمر الذين تشبه قلوبهم ما يتخذ من شجر الكافور من مادة بيضاء بلورية ، بينما نجمه نجم سعيد كل السعادة . وتليهما جاريتان طويلة كاملة وقصيرة ، ومما تقوله الطويلة للقصيرة : « يا زريعة بأجوج ومأجوج ، إن الحلى على القصار كالدر فى نحر القرود ، وتقول لها القصيرة : « يا شقيقة الزرافة ، يا ناقة العشير ( الزوج ) وقصبة الشير ( حبل الغسيل ) .

(١) الفسق : ظلمة الليل .

(٢) الورق : الفضة .

وبلى ذلك مشهد السمينة والنحيفة أو بعبارة أدق مناظرتهما ، وتقول السمينة لصاحبها إنك منقوضة اللحم إذ حُرِّم عليك كما حُرِّم على بنى إسرائيل الشحم ، وتقول لها النحيفة إن قلبها بالعلف هائم ، كما تفعل البهائم . ونقرأ مناظرة العربية البدوية والجارية الحضرية وما تقوله الجارية العربية : نحن ربّات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جمالنا أبدع جمال ، ولساننا أفصح لسان . وما تقوله الحضرية : إن رُعيان الجِمال لا يفتخرون بحسن ولا جمال .

إلا إنما الحسنُ حسنُ الحَضْرُ علينا ومنا وفينا ظَهْرُ

وتناظرت العجوز والصبية ، وكانت العجوز مخضوبة البنان ، وليس لها أسنان ، وبدأت كلامها بقولها : « الحمد لله راحم الشيب ، وسائر العيب » وما قالته الصبية للعجوز : « أما رأيت شعري الفاحم ، وثغرى الباسم ، وغصنى الناعم » . وقالت لها العجوز : « بورك فيك من صبية ، وفي أفاظك الزكية » . واستدار الجوارى حول العجوز ، فقالت لهن : « سأقول بينكن مقالة إنصاف ، يقتضيها الحق وجميل الأوصاف » وقالت لكل منهن كلمة أرضتها ، وبذلك ارتفع بينهن العتاب واللوم . وإذا كان عبد المهيمن الحضرمى لم يحاول أن يحاكى بديع الزمان ولا الحريرى فى مقاماتهما فإن مقامته تُعدّ طرفة أدبية بديعة .

ونلتقى فى العصر السعدى بمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م ، وله مقامة نقدية عرض فيها طائفة من أدباء زمنه ، وعادة يسأل أين الأديب فلان ؟ ويجيب بسطور مسجوعة منوها بأدبه ، وقد يكون السؤال عن مفتٍ أو فقيه ويجيب ، ونذكر لذلك مثلا إذ يقول<sup>(١)</sup> :

« قلت : وأين الكاتب الأديب أبو العباس الغرديس ، فقال : الدر النفيس .. ووارث المجد الذى له التهويم<sup>(٢)</sup> والتعريس ، فعلٌ سوّده غير مقيس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإنه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رنّده وعرّاره<sup>(٣)</sup> ، فلا تسل عن النبيه والنباهة . والفضل هناك الحب الوضّاح ، والمجد الصّراح ، والأدب المزرى بالراح ، ممزوجا بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل ما يشاء الخاطر عنده يعثر » .

وعلى هذا النمط نعوت دائما مسجوعة تضاف للشخص تنويها به وثناء عليه ، وهى بذلك لا تعد مقامة إنما هى مقال عن بعض أدباء عصره وعلمائه . وأسلوب عبد المهيمن الحضرمى السابق فى مقامته القائم على المناظرة والمفاخرة شاع بين الكتاب المصريين فى زمن المماليك وشاع معه المفاخرة والمناظرة بين الأزهار فى ضروب من السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن

(١) التعريس : الإقامة .

(٢) الرند والعرار : من أزهار البوادي .

(١) انظر فى هذه المقامة كتاب الوافى بالأدب العربى

فى المغرب الأقصى ٦٩٩/٣ .

(٢) التهويم : النوم الخفيف ولعله يريد الارتجال .

مساوى لغرض الإفحام والغلبة . ويمكن أن نعد من هذا النوع مقامة محمد بن أحمد المكلاتي التي كتبها في أواخر العصر السعدي تحية محمد بن أبي بكر صاحب الزاوية الدلائية ، وسماها : « المقامة<sup>(١)</sup> الزهرية في مدح المكارم البكرية » ويجعلها على لسان شخص يسمى « بَسَام » يقول إنهم نزلوا روضا بهيا وأمطرتهم السماء مطرا باتوا فيه ، واستيقظ في السحر بين الضياء والغبش ، وخال كأن وجوه الروض تسيل دما ، وتوهمه من بقايا الشفق أسفر عنه ضوء الصباح ، وناداه أنا أخو الرياض الشقيق كم كسوته جمالا . يقصد أن ما يراه ويظنه دما إنما هو زهر شقائق النعمان . ويأخذ في الافتخار بحسنه ، ويجاذبه الفخر زهر النمام فعود البان الذي طالما وصف الشعراء بقده قُدود محبوباتهم الحسان ، والرجس يقول لغصن البان مفاخرها وواصفا نفسه :

« أما راقك الياقوت الأصفر ، وسط الدر الأبيض ، على الزمرد الأخضر .. شموا النرجس ، ولو يوما في السنة ، فأنا غذاء الروح ، لمن يغدو عنى ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرة دخان السراج ، وأخف على العشاق ، يوم التلاق ، وينشد قول بعض الشعراء :

وإذا قضيت لنا بعين مراقب يارب فلتك من عيون النرجس

ويعترض زهر البنفسج نائرا مفاخرها ، وقائلا له : لا يسلم لك فخر إلا على الورد فما لأمرك عليه من رد ، وينشد قول ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد

للنرجس الفضل المين وإن أبي أب وحاد عن الحقيقة جاحد

وما يلبث أن يدخل الورد في المعركة للرد على ابن الرومي ومن فضلوا عليه النرجس ، يقول المكلاتي :

وتدخل البنفسج « فأقبل الورد في جنوده ، ناشرا لراياته وبنوده ، محمراً الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من الترهات :

ولقد رأيت الورد يلطم خده ويقول وهو على البنفسج يخنق

لا تقربوه وإن تضوع نشره من بينكم فهو العدو الأزرق<sup>(٢)</sup>

وكيف يفخر النرجس من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلاطين :

إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما وضحت عليه دلائل وشواهد

فانظر إلى المصفر لونا منهما وافهم فما يصفراً إلا الحاسد

(١) انظر في هذه المقامة النبوغ المغربي ٢٠٨/٢ . (٢) تضوع نشره : فاحت رائحته .

ألم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليك القول الثقيل :

من فضل النرجس فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يرأس  
أما ترى الورد غدا قاعداً وقام فى خدمته النرجس

أنا مشرف الربيع . ومظهر ما له من البديع ، أنعش الأرواح ، وأنا عروس الأفراح ، نوافح  
ذكية<sup>(١)</sup> ، وروائح شذية<sup>(٢)</sup> ، أبديت ألوانا لأهل الأدب ، يقضون لها بالعجب ، فمنى الأبيض  
والأسود الخالك ، ومنى وراء ذلك : أصفر فاقع ، وما نصفه قان<sup>(٣)</sup> ونصفه ناصع ، وبالهند  
منى شجر يُخرج وردا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملك  
ملوكها ، ووسط عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهنى بوصف فضيلة وفضلى على كل الرياحين ظاهر  
زمانى على الأزمان بى متشرف وفخرى لمن يبغي التفاخر قاهر

وفخر الورد بديع ، وقد أنشد فيه المكلاى مآثر من الأشعار التى تشنى على الورد وتفضله  
على النرجس بل على جميع الأزهار . ونثر الفخر بل نثر المقامة جميعها بديع إذ كان يعرف  
المكلاى كيف يتخب ألفاظه وكيف يقابل بين سجعاته بألفاظ مألوفة ليس فيها غريب ولا شاذ  
نادر . وكانت تستمع إلى هذا الحوار حماسة مطوقة ، فأقبلت على الأزهار مفاخرة بدورها ،  
تقول :

« فباحث بشجنها ، وتكلمت على فننها ، وقالت : كلُّ يحاول جهده ، ويقول بما عنده ،  
إلى لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطبائنا منابر ، ولقياننا ستائر ،  
أليس رءوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإنا على ما زعمتم بنا من  
الجوى<sup>(٤)</sup> وتباريحه ، آخذون فى ذكر الله وتسييحه ، شغلنا بذلك فى الأسحار ، والعشى  
والإبكار ... ونشأت غمامة تصافح أهدابها الأرض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ،  
يحدوها الرعد ، ويستنجز منها الوعد ( وينشد ) :

وكأن صوت الرعد خلف سحابة حادٍ إذا وَّنت الركائبُ صاحا  
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت من برقها كى تهتدى مصباحا  
جادت على التلعات فاكتست الرى حُلا أقام لها الربيعُ وشاحا<sup>(٥)</sup>

فنترت بالأرض جواهر تغار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللبأت والنحور ،

(١) ذكية : ساطعة .

(٢) شذية : عطرة نسبة إلى الشذى .

(٣) قان : شديد الاحمرار .

(٤) الجوى : الوجد .

(٥) التلعات جمع تلعة : ما ارتفع من الأرض .

الوشاح : شريط عريض مرصع بالجواهر .



واختفت بعدما تجلّت ، وألقت على البطاح ما فيها وتخلّت ، ثم قالت : يا ذوات الأطواق ، البائحات بالأشواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالغدو والرواح ، بكاؤكن كذب ، ونوحكن لعب .. ما الفضل إلا لمن أحميا الأرض بعد أن كاد زرعها يهيج فد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ) فقلائدها مدبّجة ، ورءوس أشجارها متوّجة ، ولولاي لم يكن لكن مرعى ، ولا مسرح في الأرض ولا مسعى .. وطلعت الغزاة ، وهى فى مشيها مختالة . وقالت : أعمال كسراب ، وعارض منجاب ، إذا طلعت عليه الشمس ذاب ، ألم تعلموا أنى يوح<sup>(١)</sup> ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، ولولاي ما جرت الأنهار ، ولا تفتقت الأزهار . ويقول الراوى : إن جامع هذه الفضائل وإمامها عالم المسلمين .. محمد بن أبى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد ، ويقول بعد التنويه بفضائله إنه وقع التسليم بمناقبه ومناقب أبيه البكرية ، فطاف بالروض طواف الوداع عازما على أن يخدم جنبه بهذه الفكاهة .

وإنما أكثرت الاقتباس من هذه المقامة لأدل بوضوح على روعة ما جلبه فيها المكلماتى من أشعار وإبداعه فى نثرها المسجوع سجعاً يكظ بالعذوبة مع ماثبه فيه من ألفاظ قرآنية بديعة من مثل آية آل عمران : ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار﴾ وآية سورة الانشقاق فى وصف الأرض : ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ وآية سورة الحج : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ .

ونمضى إلى عصر الدولة العلوية وعهد سلطانها إسماعيل وما كان فيه من نهضة أدبية واشتهر بين الأدباء حينئذ محمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ للهجرة وسنفرده لترجمة بين كبار الكتاب ، وكان يعاصره محمد السنواى الدلائى المتوفى بعده بعامين سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٤ م وله مقامة سماها المقامة الفكرية يبكى فيها زاوية الدلاء حين هاجمها وخرّبها السلطان إسماعيل العلوى ، وهو يطيل الحديث عن متزهاتها ورياضها وأنهاها التى كانت تملأ بطاحها وتلالها ، ويشعر بخزن عميق حين يراها تحولت أطلالا عافية ، يقول<sup>(٢)</sup> :

« منازلها خاوية ، والذئاب فى أرجائها عاوية ، وليس بها إلا الغربان واليوم ، والحمام تنوح فى أطلالها وتحوم ، فخرجت منها ودموعى نهر غزير ، بقلب كسير » .

ونلتقى أخيراً بمحمد بن إدريس وزير السلطان عبد الرحمن العلوى المتوفى سنة ١١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ م وله مقامة يصف فيها حملة لتأديب إحدى القبائل ، ويصور مسيرتها بين الزروع والرياض ، وينسب الحديث فيها إلى نصر بن كرامة ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

(١) للدكتور محمد الأخضر ص ١٩٩ .

(٢) يوح : اسم للشمس .

(٣) انظر المقامة فى النبوغ الغربى ٢٤٣/٢ .

(٢) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية

« مطارف السندس بالآفاق قد نَشِرتْ ، وجيوش النُّور ( الزهر ) حُشِدتْ ألوانها  
وحُشرتْ :

والأرض تُجَلَى عروسًا في ملبسها      وشَتُّ حُلاها يَدُ الأنواء بالزَّهْرِ<sup>(١)</sup>  
والنسيم قد عَطَّر بنشره الأندية ، وغازل الأغصان فنازعها المطارف والأردية ، وجرَّ ذيل  
دلالة في الآكام والأودية :

والريح تَلِطُّمُ فيه أُرْدافَ الرُّبى      مرحًا وتلثمُ أوجُهَ الأزهارِ  
ومنايرُ الأغصانِ قد قامتْ بها      خطباءُ مفضحةً من الأطيهارِ

.. والناظر الأديب المتأمل ، ينشد قول المجنس الممثل .

إن هذا الربيع شيء عجيبٌ      تضحك الأرض من بكاء السماء  
ذهبٌ حيثما ذهبنا ودرُّ      حيث دُرنا وفضةٌ في الفضاءِ

والجيش المنصور بحر متلاطم الأمواج ، يسير فيملاً الفضاء ويغصُّ الفِجْاج ، ويقوم فيكون  
هالةً على بدر سعودٍ وشرف ، وسورَ حفظٍ لا يُعْرِفُ له طرف ، قد رُصَّتْ صفوفه ، وتعدَّدتْ  
ألوفه ، وتنوعتْ أجناسه وصفوفه .

والألفاظ والأسجاع والأبيات مختارة ، بحيث تغمرها السلاسة ورونق العذوبة ، مع حسن  
البيان ، مما يكسب العبارات بهاء . وبدون ريب تدل مقامات ابن إدريس والمكلاطي والحضرمي -  
كما دلت الرسائل والخطب السابقة - على نهضة النثر في المغرب الأقصى .

### (ب) الرحلات

أعدت فريضة الحج وزيارة القبر النبوي - من قديم - لمسيرة القوافل سنويا من المغرب  
الأقصى إلى مكة والمدينة ، مما جعل كثيرين هناك يشغفون بتلك الرحلة والكتابة عنها ، وأيضا  
فإن مراكز الثقافة تعددت ، فكان كثير من شباب المغاربة يودون لو تزودوا من هذه المراكز  
بما يأملون فيها من لقاء شيوخها بتنوع ثقافتهم ، وكانوا يشعرون أن من واجبهم التحدث  
عن هذه المراكز ومن التقوا بهم من شيوخها واستمعوا إليه وإلى ما دار أحيانا في بعض المجالس  
من حوار علمي أو أسئلة علمية . وبهذين الدافعين أخذ كثير يرحلون في هذه القوافل عبر  
البلاد المغربية ومصر والشام من أهل المغرب الأقصى ، وعنى بعضهم بوصف رحلته ووصف  
البلدان التي نزلها وحلقات الشيوخ الذين استمع إليهم .

(١) الأنواء : الأمطار .

## رحلة<sup>(١)</sup> ابن رُشيد

من أقدم الرحلات المغربية وأهمها رحلة ابن رشيد محمد بن عمر الفهرى ، وحدثنا عنها وعن مؤلفها الأستاذ محمد بن تاويت فى الجزء الثانى من كتابه « الوافى » ونقل عن ابن خلدون أنه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله كما نقل عن أبى البركات البلفيقي أنه من أهل المعرفة يعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون أدبيا خطيبا بليغا ، ينظم الشعر على تكلفه ويجود النثر ، ولد سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وتوفى حوالى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م بدأ رحلته فى الخامسة والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٣ وسجل فيها كل ما شاهده من البلدان والشيخوخ ومجالسهم وأخذ عنهم ، وسماها : « ملء العيبة ( الحقيبة ) فيما جُمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجيعة إلى الحرمين : مكة والمدينة » . وتعد مرجعا مهما لعلماء مصر والبلدان المغربية فى أواخر القرن السابع الهجرى ، إذ امتدت رحلته أربع سنوات ، وهى فى خمس مجلدات ولا تزال مخطوطة وربما كان طولها هو الذى منع حتى الآن من طبعها ، وأسلوبه فيها - كما يقول الأستاذ ابن تاويت - مرسل إلا فى وصفه لبعض الشخصيات العلمية أو لبقعة طيبة فإنه يصوغها سجعاً خالصاً كقوله عن حازم القرطاجنى :

« حبر البلغاء ، وبجر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدع ، وأما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمنفرد بحمل رايتها أميراً فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حماد<sup>(٢)</sup> راويتها وحمال أوقارها<sup>(٣)</sup> .

ويخص مصر بالجزء الثالث من رحلته ، ونسوق منه وصفه لمجلس لعالم مصر فى العربية لزمه : بهاء الدين بن النحاس الحلبي الأصل تلميذ ابن مالك وأستاذ أبى حيان ، يقول :

إنه « حضر درسا له ، فسأله ابن النحاس بعد تدخله فى مسألة نحوية : من أين قدومك ، قال ابن رشيد : قلت : من المغرب . قال : من الإسكندرية ؟ قلت : من أبعد ؟ قال : من تونس ؟ قلت : من أبعد ، قال : إذن من جُوا ( من داخل ) المغرب ؟ قلت : نعم ، فقال من أى بلاده ؟ قلت : من « سبّته » فكان أول ما فاتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع قلت : نعم ، فقال : ذاك شيخنا ، إفادة بوصول كتابه اليتيم إلى ، يريد شرحه

النوى . انظر أزهار الرياض ٣٤٧/٢ .

(٢) حماد هو حماد راية الكوفة المشهور .

(٣) أوقار جمع وقر : حمل .

(١) انظرها فى الوافى ٣٨٥/٢ وما بعدها . وتوسع

المقرى فى الحديث عنه وعن رحلته وشماثله وشيوخه غربا وشرقا وتأليفه ويقول إنه كان ظاهريا ثم يعلق على ذلك بأن المعروف أنه كان مالكيًا ويذكر عنايته بالحديث



لكتاب الإيضاح للفارسي .. ثم قال لي : أقرأت عليه ، قلت نعم قرأت : الجُمَل ( للزجاجي ) والإيضاح والكتاب ( لسيبويه ) فلما ذكرت الكتاب قال : فاعبر ( أى الحلقة يريد انتقاله إلى جواره ) وتلكأت في هذا العبور واستحييتُ منه ، ولكنه أصرَّ على أن أُعبر إليه ، وعبرت ، فأقعدني إلى جانبه ، فجلست مُغضياً ( منكمشاً ) حياءً منه ، فقال : اجلس متسعا ، فجلست وتمادى في الإقراء ، فاختلست الكلام - أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء عليهم - مع الذى كان عن يميني اختلاسا ، وسألته من الشيخ ؟ فقال : بهاء الدين بن النحاس ، والتفت الشيخ إذ رآني وثبت بين يديه ، فقال : لم ؟ ارجع إلى موضعك ، فقلت : يا مولانا لم يعرف المملوك مَنْ أنت ؟ ولو علم ما جلس هذا المجلس ( أى بجوارك ) وما تكلم ، فعزم على فى العود إلى مجلسي ، فعُدت ، وأشار بالاطمئنان فاطمأنت .

ولوصف ابن رشيد لهذا المجلس دلالات ، فقد كان شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وابن النحاس شيخ كبير ، بل علم النحاة فى عصره ، وحين عرف فيه بعض الفضل العلمى فى العلم الذى يلقيه : علم العربية ، طلب إليه أن يعبر الحلقة ويجلس بجواره رغم صغر سنه . وكان علماء القاهرة والإسكندرية دائما يكرمون من يفد على مجالسهم من المغرب الأقصى شبانا أو شيوخا ، وكانوا يتلمذون لهم ، ويطلبون منهم إجازات فى قراءة بعض مؤلفاتهم . ومن يرجع إلى ما كان يقرأ هناك من هذه المؤلفات سيجد كثرة غامرة من كتابات العلماء المصريين ومؤلفاتهم تقرأ هناك وقد تشرح مرارا ، ومن يتردد اسمه هناك فى الفقه المالكي والأصول ابن الحاجب وابن دقيق العبد والشيخ خليل والقرافى وغيرهم من جلة العلماء المصريين فى كل علم وفن . وبالمثل كانت مصر تتداول بعض المتون والمؤلفات المغربية . وهذا بهاء الدين بن النحاس يقرأ لمعاصره ابن أبى الربيع عبيد الله بن أحمد العالم النحوى الكبير الذى هاجر من إشبيلية حين استولى عليها الإسبان سنة ٦٤٦ للهجرة إلى سبتة وأقرأ بها العربية طوال حياته إلى أن توفى سنة ٦٨٨ للهجرة . ونرى ابن النحاس وقد قرأ له شرحه على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسي يتلطف فى السؤال عنه فيقول : « أيعيش سيدنا » ثم يعود فيقول لابن رشيد : ذلك شيخنا ، وقد جعله شيخه ، لا لأنه تتلمذ عليه مثل ابن رشيد ، ولكن لأنه قرأ له شرحه للإيضاح ، وفى ذلك ما يدل على مقدار إجلال أسلافنا من العلماء لمن يقرءون لهم بعض مؤلفاتهم فينعتونهم بأنهم شيوخهم ، وإن لم يلقوهم ، ولا حضروا لهم درسا فى مجالسهم العلمية . ويذكر الأستاذ ابن تاويت لابن رشيد نادرة حدثت له فى مدينة رابغ بالحجاز ، يقول :

« غريبة عنت لنا فى رابغ ، بل أغنت فى معنى قوله تعالى وأقنت : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ وذلك أنه

صحبنى فى الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، إلى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رابع ، رأيت عجبا من تخلل الوحوش والغزال والأرانب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون : حرام ، حرام ، والجوارح قد سلت .. فقال لى ذلك الشيخ تأمل تر عجبا ! هكذا جرت عادتنا فى هذا الطريق ، إذا مررنا به ونحن محرمون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عُدنا محلين لم نجد شيئا . فلما عدنا كان كما قال ، فبان لى من معنى الآية ما لم يكن عندى بالمشاهدة .

وينثر ابن رشيد فى رحلته ، بعض أبيات له ، تدل على أنه كان ينظم الشعر ، وهو شعر متوسط ، أما نثره سواء سجع أو استرسل طليقا من السجع نثر جيد . والرحلة تكتظ بمعارف كثيرة عن الحركة العلمية فى البلدان العربية وشيوخها لزمانه .

### (ب) رحلة<sup>(١)</sup> العبدري

هو أبو عبد الله بن محمد العبدري ، أصله من منطقة حاحة إحدى مناطق إقليم مراكش ، وهى منطقة وعرة تمتلئ - كما يقول الحسن الوزان - بالجبال العالية الصخرية وبالغابات والأودية المائية الصغيرة . ويبدو أنه نشأ فى حاحة وأكمل تعلمه على شيوخ مراكش ، وكان أدبيا يحسن نظم الشعر وصوغ النثر ، ولم يلتزم السجع دائما فى رحلته ، وقد بدأها - كما يظن - فى العقد الثالث من حياته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٩٠ م وقد استغرقت منه عامين طويلين ، وبدأها من حاحة موليا وجهه نحو شمالى الجزائر حتى مدينة مليانة ، ومر منها بالمدن فى الشمال حتى تونس ، ومنها إلى طرابلس فالقصر المصرى بادئا منه بالإسكندرية وأعجبته فأقام بها فترة ، ثم تركها إلى القاهرة وحمل عليها ، كما حمل على طرابلس من قبل ، واتجه منها إلى العقبة فأقليم الحجاز حيث أذى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول العطر ، وعلد من طريق فلسطين إلى مصر فالبلدان الإفريقية حتى بلدته ، ونراه أحيانا فى وصفه للبلدان يبالغ فى الثناء تارة ، وتارة ثانية يبالغ فى الذم والقدح ، وقد أضفى ثناءه على مدينة مليانة فى الجزائر ، وفيها يقول :

« مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مقصرة ، أشرفت من كتب على وادى ( نهر ) شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، فى روضة جملة الأزهار والطرف . فرعت ( امتدت ) فى سفح جبل حمى جَمادا أن يرام ، وشُرعت فى أصل نهر يشفى المقيم من الهيام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهى الناظر إليه وهو ريان الشروع ، ويقول : لورُشُّ به - لأفاق - المصروع ، وكان حصباءه

(١) انظر فى رحلة العبدري كتاب الوافى ٣٩٣/٢ وقد نشر الرحلة وحققها الأستاذ محمد الفاسى وهى مطبوعة فى الرباط .

جُمان والماء من فوقه دموع . ومليانة من المدن التي بناها الرومان قديما ، وهي على قمة جبل ، وبينها وبين شرشال على البحر المتوسط أربعون ميلا ، والجبل المشيدة عليه مليء بالينابيع ومغطى بأشجار الجوز . ويقول الحسن الوزان إن بيوتها متقنة وبداخلها فستقيات جميلة ، وسكانها في زمنه من الصناع والحاكة والخراطين ، وتشتهر بصنع أوان لطيفة من الخشب ، وكثيرون من أهلها يزرعون الأرض . وإذا كانت القاهرة لم تعجب العبدري فإن الإسكندرية أعجبتة وفيها يقول :

« مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كلُّ عنها ظُفر الزمان ونابه ، وفُلُّ منها جيش الحِذْثان وأحزابه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وكست لها في معاملاته سلعة ولا بضاعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرت كيده حتى اضمحلَّ سحره وبطل ، فلم تصغ أذنا إلى ما يوعد به من الخنا والخطل ، فهي واقفة وقوف الأطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير مناد<sup>(١)</sup> ، آخذة من الكفر وأهله بالمخنق<sup>(٢)</sup> ، حتى أبدلتهم من الصافي المروق الكدر المرتق<sup>(٣)</sup> ، فسامروا الأسف مسامرة الندى للمحلق<sup>(٤)</sup> ، ودجا عليهم ليل هم ادلمم بعد نهار سرور تآلق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم .. مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تُسفر عن مُحيا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج<sup>(٥)</sup> أحور ، تبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نور ، كأنه لم يغب عنها شخص الإسكندر<sup>(٦)</sup> ، بما ساس فيها من عجائب مبانها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفى فيها الإتقان حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطره الأعلام ، وصرت<sup>(٧)</sup> به على المهرق الأعلام . »

وكان العبدري يتخفف أحيانا من السجع ويرسل الكلام إرسالا ، ويمثل الأستاذ ابن تاويت لذلك بقوله في عمود السوارى بالإسكندرية :

« هو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة ( المأذنة ) المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا في غابة النخيل مرتفعا عنها ، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قامتين ، ولا يعلم كيف أقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والعواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن إقامته هنالك . »

(١) غير مآد : مستقيم .  
(٢) المحقق : موضع الخيل في العنق للحق .  
(٣) المرتق : المزداد الكدر .  
(٤) كريم جاهلي مدحه الأعشى بأن الكرم بيت معه .  
(٥) ساج : ساكن .  
(٦) الإسكندر هو الإسكند المقدوني مؤسس الإسكندرية .  
(٧) صُرَّت : صوتت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .



ولعله لم يظلم بلدا كما ظلم طرابلس ، فقد ذمها ذما بالغ فيه : ذم موقعها وبيعتها وذم أهلها ، وربما كان ذمه لطرابلس وغيرها مثل القاهرة يرجع إلى أنه لم يكن يخالط ذوى المروءة فيهما ومن يحمله على المدح لا على القدح ، أو كان يتعرف على أشخاص مذمومين فذم - دون ريث وتأن - البلد التي تأوى أمثالهم ، وقد نالت تونس منه الحظ الأوفر فى الشناء ، ومن قوله على لسانها :

أنا الغادة الحسناء فاق جمالها  
إذا الغانيات ارتدن وصف بعولة  
فما بى ولا فخر - إلى الزوج - من حوج  
فهم يردونى الدهر فوجا على فوج  
وإنى - إلى البيت العتيق - كسلم  
به يرتقى من فى الحضيض إلى الأوج

### رحلة<sup>(١)</sup> العياشى

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى المولود سنة ١٠٣٧/١٦٢٨ م ، كان أبوه من شيوخ الزاوية الناصرية ، وعنى به فحفظه القرآن الكريم وثقفه بما يعرف من العلوم الدينية واللغوية ، وأرسل به إلى مدينة فاس ليتزود من حلقات علمائها ، وأخذ يبرع فى بعض العلوم ، وألف فى كثير من المسائل النحوية والفقهية وفى الحديث النبوى وفى التصوف ، وكان شاعرا وله مدائح نبوية كثيرة ، توفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م واشتهر برحلته إلى أداء فريضة الحج ، وهى رحلة موسوعية يعطينا فيها معلومات كثيرة عن البلدان التى نزل فيها والحركات العلمية بها ، ومن قوله فى حديثه عن إقامته بالمدينة المنورة :

« كانت مدة إقامتنا بالمدينة سبعة أشهر ونصف لأننا دخلناها - كما تقدم - فى الليلة الثانية من محرم ، وكان خروجنا منها إلى مكة فى السابع عشر من شعبان ، وكنا نسكن أولا فى محل نزولنا بجوار مشهد سيدنا إسماعيل ، كما تقدم ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس ، به أخلية للوضوء ، وبثران - كما تقدم - وكان قيم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين ، وهو الذى أنزلنا به ، وكان يتولى إصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يوتى به من الصدقة إليه ، ولأه ذلك مفتى المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه ، وانتفع بالباقي ، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة وبغيرها . »

وهكذا يجرى الأسلوب مرسلا حرا طليقا فى أكثر جوانب الرحلة ، وكأنما أخذ العياشى

(١) انظر فى رحلة العياشى الوافى ٧٦٣/٣ والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٩٠ .  
وطبعت الرحلة قديما بفاس ، وعنى بطبعها وتحقيقها الدكتور محمد حجي وألحق بها فهارس مهمة .

فى القرن الحادى عشر ىردّ على ما كتبه العبدرى عن طرابلس فى القرن السابع وذمه لها وقده فىها فقد زارها فى رحلته سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٥٠ م وىصفها قائلاً :

« كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهى مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة . ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ، ومعايها قليلة ، أئىقة البناء ، فسيحة الفناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار ، واسعة طرقها ، سهل طرقها ، إلى ما جُمع لأهلها من زكاء الأوصاف ، وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة ، وعلى المتعافى بأنواع الميرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ، ولو لمن استحق ملاما ، سيما مع الحجاج الواردين ، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون فى إكرامهم ، ولا يألون جهدا فى إفضالهم عليهم . ولهذا المدينة بابان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر . ولأمر هذه المدينة نكاية فى العدو - دمرهم الله - وله مراكب قلّ نظيرها معدة للجهاد فى البحر ، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة ، لا من سفن الجهاد ، فجزاهم الله خيرا ، وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين . »

#### رحلة<sup>(١)</sup> ابن ناصر

هو أحمد بن محمد بن ناصر رئيس الطريقة الناصرية بتمكروت ( قرية بوادى درعة جنوبى مراكش ) وقد ولد بها لأبيه شيخ الطريقة سنة ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م وعنى بتربيته وتنقيفه ، واختلف إلى حلقات العلماء بفاس ، وحج مرارا وكانت آخر حجة له سنة ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م وبعد هذه الحجة كتب رحلته ، وفيها سجل كثيرا عن الحركات العلمية فى البلدان العربية ، ولذلك ، تعد مصدرا مهما للتعرف على النشاط العلمى بها وشيوخها حينذاك . ومن قوله فى وصف موجة للحرارة عاناها مع رفاقه فى أحد شعاب الحجاز :

« نزلنا غربى الأكرة بين العشاءين ، وفى هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة ( ١١٠٩ هـ ) هبّت على الناس ريح السموم ، من نضيج اليخوم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ، وضاعت الحيل والإيناس ، واشتد العطش على الرجال والجمال ، يشرب كلُّ ، ولا يُغنى شربه ، بل يتزايد بتناول الماء كربه ، لا يبين القدح والماء عن فيه إلا وتزايدت حرارة العطش له . فبركت الإبل وفرّت لظلال الأشجار ، وتدخل رأسها فى أدنى ظل يبدو لها وإذا بركت لا تكاد

(١) انظر فى رحلة ابن ناصر والنص المقتبس منها كتاب الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٧٢ وما بعدها .



تقوم ولو قُطعت إربا إربا . واشتدت الحال وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه ، واغبرت الغرر وتغيرت ، واسودَّ أبيضها وتنكرت ، فترى الرجل لا باس به ( سليمان ) فإذا به يُخشى عليه الفوت ، فإذا أوتى بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثيرون ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحمالهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم ، فتاهت في الفلوات ، وذهبوا بأنفسهم في طلب النجاة . يومٌ يذكرُّ بالموقف والعرض ، ( في يوم القيامة ) وضاعت الدنيا على سعتها في الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السبيل إلى باطن الأرض ، الناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى . مات من المغاربة زهاء الستين بالعطش من نساء وصبيان ورجال وولدان .

وهذا اليوم الشديد الحرارة لم يحدث له في حجته الأخيرة إنما حدث له في حجته الثالثة سنة ١١٠٩ ورحلته بذلك تتضمن أهم المشاهد التي رآها أو صادفها في رحلاته المختلفة إلى الحج . والرحلة بأسلوب مرسل غير أنه يسجع فيها أحيانا على نحو سجعه في مشهد هذا اليوم الحار وهي طرفة من طرف الرحلات المغربية . وتوفى سنة ١١٢٩هـ/١٧١٧م .

#### رحلة<sup>(١)</sup> الوزير الغساني

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الملقب بالوزير الغساني وزير السلطان إسماعيل العلوي المتوفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٨ م وقد أرسله السلطان في سفارة إلى ملك إسبانيا للتفاوض في افتداء الأسرى المسلمين ومحاوله استرجاع الكتب العربية الباقية عندهم في المساجد الأندلسية القديمة ، ولما عاد إلى وطنه في المغرب الأقصى كتب رحلة وصف فيها إسبانيا سماها : « رحلة الوزير في افتكاك الأسير » وكان دقيق الملاحظة ، فحملت رحلته ملاحظات مهمة عن إسبانيا في الفترة التي زارها فيها ، وهي مكتوبة بأسلوب مرسل طليق لا أثر للصنعة فيه ، ومن قوله في استقبال الملك الإسباني له :

« حين قربنا من باب القصر لقينا وكيل الميوردوم .. فسلم ورحب ودخل بنا الدار .. فجعلنا نمرّ بجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ويقف كلٌّ عند حدّه ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة ببابها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحنى فلقينا أحسن الملاقاة .. ودخل بناقبة أخرى لها باب ، وفي هذه القبة وجدنا الطاغية واقفا على قدميه ، وقد جعل في عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هي عوائد ملوك العجم ، إذ هي عندهم بمثابة

(١) انظر في هذه الرحلة الحياة الأدبية في المغرب على بطنجة .  
عهد الدولة العلوية ص ١٥٦ وما بعدها . وهي مطبوعة

التاج ، وعن يمينه طبله من ذهب مرصَّعه أعدَّها - وصنعها - أيام مقامنا يعد وصولنا ، ليُجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسَلها أعزه الله تعالى .

### رحلة<sup>(١)</sup> محمد بن عثمان المكناسي

ولد محمد بن عثمان بمكناس في أواسط القرن الثاني عشر الهجري وتوفي سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م وكان أدبيا ، فعينه السلطان محمد بن عبد الله العلوي كاتباً في دواوينه ، ثم اختاره حاكماً لتطوان ، ثم عينه وزيراً ، وله رحلات متعددة ، طبعت جامعة الرباط منها رحلته إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا بدعوة من حكومة الجزائر سنة ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م لافتكاك الأسرى الجزائريين ورد حريتهم إليهم ، وقد سماها : « الإكسير في فكاك الأسير » ونشرتها أخيراً جامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان أدبياً شاعراً وكاتباً ومن قوله في وصف مَدْرِيد :

« هذه المدينة كبيرة غاية في الكبر وضخامة البناء حاضرة الحواضر ببلاد إسبانيا ، بنيت على ربوة ببابها وادي ( نهر ) مانسنارس زادها حسنا وبهاء ، وبهجة وسناء ، وقد غرسوا على جانب الوادي الذي من ناحية المدينة أشجاراً كثيرة مثل النشم وما أشبهه في غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيئون ظلها عشية وقت خروجهم ، يترددون على حاشية الوادي المذكور على أكداشهم ( دوابهم ) ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجليه . ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلائق أضعاف من تلقأنا بخارجها ، فسرنا في سكك متسعة وديار مرتفعة ، فجلُّ ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات ، لكل دار شراجيب مفتحة للأزقة ، مغلقة بالزاج عليها شبايك الحديد ، وأسواقها عامرة ، مشحونة بأهل الحرف والصنائع ، والتجارة والبضائع ، وجلُّ باعته من النساء » . وحسبنا ما تقدم عن الرحلات الحجازية والأوربية .

٥

## كبار الكتاب

### ( أ ) القاضي عياض<sup>(٢)</sup>

هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي علامة عصره ، استقرَّ أجداده قديماً في مدينة بسطة من أعمال غرناطة ، وانتقلوا إلى فاس أيام الأدارسة ، وبارحوها إلى مدينة سبتة بعد دخول بني عبيد الفاطميين المغرب في القرن الرابع الهجري ، وكان أول من نزلها من أجداد

( طبع الرباط ) وكتاب أزهار الرياض في أخبار عياض للمقرئ ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ، والنبوغ المغربي ١١/٢ وفي مواضع متعددة والوفاء ٥٢/١ .

(١) انظر الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر في سيرة عياض وأعماله كتاب ابنه محمد : التعريف بالقاضي عياض تحقيق الدكتور محمد بن شريفة

القاضي عياض جده عمرون ، وكان موسرا ، فاشترى بها أرضا وهي المعروفة باسم المنارة وبنى بها مسجدا وديارا وقفها على المسجد ، ووقف بقيتها مقبرة للدفن ، ووُلد له ابنه عياض ، وولد لعياض ابنه موسى وولد لموسى ابنه عياض سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ونشأ طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه - كما يقول ابنه - معظما عند شيوخه لما لاحظوا من ذكائه وإكبابه على الدرس إلى أن برع في زمانه ، وتفوق على أقرانه ، وكان من حفاظ القرآن الكريم ، لا يترك تلاوته والقيام على معانيه وإعرابه وشواهد وأحكامه كما يقول ابنه ، وكان - كما يقول - من أئمة زمنه في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه حاذقا بتخريجه ، كما كان فقيها حافظا لمسائل مدونة سحنون ومختصر ابن أبي زيد القيرواني ، وكان نحويا ريانا من الأدب شاعرا مجيدا من أكتب أهل زمانه خطيبا مفوها ، مقداما على الأمراء في استقضاء حوائج الرعية عندهم ، محببا في قلوب العامة والخاصة . ويضيف ابنه أنه أخذ عن أشياخ بلده ، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس سنة ٥٠٧ للهجرة ، وأخذ عن شيوخها ، وخرج إلى مرسية في أوائل سنة ٥٠٨ ولزم الحافظ الحسين بن محمد الصدفي فترة ، وأجازته جماعة كثيرة من أعلام<sup>(١)</sup> الأندلس وتونس ومصر والحجاز . وولى القضاء في بلدته سبتة سنة ٥١٥ للهجرة ونُقل إلى غرناطة قاضيا بها سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م وصُرف عنها سنة ٥٣٢ وعاد إلى قضاء سبتة سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م . وفي بدء دولة الموحدين غزا عبد المؤمن سبتة فردَّ جيشه أهل سبتة ومعهم القاضي عياض ، ولما قُتل تاشفين وقضى الموحدون على دولة المرابطين وفتحوا مدينتي فاس وتلمسان بايع أهل سبتة عبد المؤمن ، ولقيه القاضي عياض في مدينة سلا وهو يستعد لفتح مراكش فأجزل صلته ، ولما انتفضت الأندلس على عبد المؤمن بسبب ثورة محمد ابن هود ثارت سبتة - برأى القاضي عياض كما قيل - وحاربها عبد المؤمن وعادت إلى الطاعة ، واستدعى عبد المؤمن القاضي عياضا ، فأخذ من سبتة إلى مراكش مغلولا سنة ٥٤٢ للهجرة حتى إذا اجتمع بعبد المؤمن في مراكش واستعطفه ببعض منظومه ومنثوره عفا عنه على أبر وجهه وأكمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، كما يقول ابنه ، ومنزلته عنده تزداد كل يوم سما ورفعة إلى أن توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م . وكتب ابنه محمد فصلا عن مؤلفاته وأهمها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ودوت شهرة هذا الكتاب في العالم الإسلامي إلى اليوم ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك في خمسة أسفار ، وكتاب إكمال المعلم على صحيح مسلم ، وهو زيادة في الشرح على شرح المعلم بفوائد مسلم للإمام المالكي الصقلي محمد المازري دفين المنستير بتونس إلى غير ذلك من كتب نفيسة من أهمها كتاب له في النقد والبلاغة سماه « بغية الرائد » كتب عنه الأستاذ محمد بن تاويت فصلا في ترجمته

(١) راجع في هؤلاء الشيوخ كتاب ابنه السابق ص ١١٩  
وما بعدها والجزء الثاني من أزهار الرياض في مواضع متعددة .



بالجزء الأول من كتابه الوافي بالأدب في المغرب الأقصى وهو يعرض فيه بعض صور النقد والمحسنات البديعية من مثل الجناس والطباق والترصيع . وكان له كتاب خطب ومواظب دينية ، وهو مفقود ، وفي أزهار الرياض عن ابن خاتمة أن هذا الكتاب يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعيات ، وروى له ابنه في التعريف به خطبتين ، يقول في إحداها حاضاً على التقوى :

« أيها السامع قد أيقظك صرْفٌ<sup>(١)</sup> القدر من سِنَةٍ<sup>(٢)</sup> الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجه وعظاته ، فتأملْ حدوده وتدبر محكم آياته ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلُ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا ﴾<sup>(٣)</sup> أين الذين عَتَوْا عَلَى اللَّهِ وَتَعَظَّمُوا ، واستطالوا<sup>(٤)</sup> على عباده وتحكموا ، وظنوا أن لن يُقَدَّرَ عليهم حتى اصطَلِمُوا<sup>(٥)</sup> ، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ غرهم الأمل وكواذب الظنون ، وذهلوا عن طوارق الغير<sup>(٦)</sup> ورَبَّيَ الْمُنُونِ ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ - حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ فهدبوا - رحمكم الله - سرائركم بتقوى الله وأخلصوا واشكروا نعمته ﴿ وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ واحذروا نقمته ولا تعصوا واعتبروا بوعيده ﴿ قُلْ كُلُّ مَتْرَبٍصٍّ فَمَتْرَبُصُّوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى ﴾ وأنهضوا لطاعته هذه اللهم العاجزة ، واركضوا في ميدان التقوى تحوزوا قصب خصله<sup>(٧)</sup> الفائزة ، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزة ، وانتظروا قوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلِمِ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ذلك يوم تذهل فيه الأبواب وترجف القلوب رجفا ، وتبدل الأرض وتسنف الجبال نسفا ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا حرفا وحشير المجرمون يومئذ زُرْقًا ﴿ وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ فرادى ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ إن أحسن الهدى هدى محمد نبينا وأصحابه ، وأفضل الذكر ذكر الله وتلاوة كتابه ، جعلنا الله وإياكم ممن اهتدى بهديه ، وتأدب بآدابه ومن الذين قالوا : ﴿ سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة ، وارحمنا بالهداية والعصمة وأوزعنا<sup>(٨)</sup> شكر ما أوليت من نعمة ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

والعظة رائعة بما فيها من دعوة للتقوى وتحذير من وعيد الله ونقمته ، ومن غرور بالأمانى

(٥) اصطلموا : استأصلوا .

(٦) الغير : الأحداث .

(٧) خصله : فضله .

(٨) أوزعنا : ألهنا .

(١) صرف : أحداث .

(٢) سنة : غفلة .

(٣) ملتجدا : ملجأ .

(٤) استطالوا : تطاولوا واعتدوا .

والظنون الكاذبة والذهول عن يوم القيامة مع ما فى ذلك من كفران بنعمة الله ونعمه لا تحصى . وتتخلل العظة أو الخطبة الآيات القرآنية مؤكدة معانى عظته . ولغة العظة لغة جزلة مصقولة تشيع فيها مع الآيات ألفاظ قرآنية كثيرة . ويأسى من يقرأ هذه الخطبة وأختها الموجودتين فى كتاب التعريف بالقاضى عياض لضياع كتاب خطبه . والخطبة مسجوعة وكان يؤثر السجع فى خطبه وأيضاً فى رسائله على نحو ما نرى فيما أثبتته وسجلته منها ابنه محمد ، من ذلك رسالة يعاتب فيها صديقين له :

« ليت شعرى أَلْعَتَبُ أم أَعْتَبُ ، وأَعترف بالذنب أم أذنب ، لا جرم لو علمت لنفسى جرماً لجعلتُ عليها بَرْدَ الشراب حراماً ، ولسلبتها لذيد المنام غراماً<sup>(١)</sup> ، حتى يَفِىءَ إليها من وجدٍ عليها<sup>(٢)</sup> ، ويرضى عنها المتظلم منها ، بعلائكها ما هذا الجفاء ؟ وأين ما تدَّعيانه من الوفاء ؟ أحين جدت بنا الحال وشدت للنوى الرُحال ، ودعا بنا داعى الزمّاع ، ومَجَلت<sup>(٣)</sup> عين ويدّ للوداع ، اتخذتماني ظهرياً ، وصرت عندكم نسيّاً منسياً ، لا أعلم لكما علما ، ولا ألقاكم إلا حُلماً ، كأن شَمَلنا لم يزل مُتصدِّعاً ، وكأننا لَطول افتراق لم نَبِتْ ليلةً معاً ، ماذا يُريب الغريب فى إغباب<sup>(٤)</sup> الأحباب أمجالسة السلطان أو مؤانسة الأوطان ، أئبى المجد من ذلك وأبيت ، ولنا يا تَيْتُ بالعلاء بيت ، أم صدودٌ وملالٌ ينافيه ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقتيما ! من الذى يُعطى الكمال ؟ أم تَمُّ ذنب يوجب الصدود ، ويودى بودّ الودود ، أسمعاه ، لأرجع إلى المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عِوضَ الكتاب ، فأغذّر ولا أعدل<sup>(٥)</sup> وأنصف من نفسى وأعدل والسلام . »

ونسيج الرسالة نسيج جيد من الألفاظ والأسجاع مع ما يزينها من الجناسات والاستعارات والكنائيات ، مما يدل - بوضوح - على أن القاضى عياضاً كان يجبر أعماله الأدبية من رسائل وغير رسائل . والرسالة تحمل بجانب ذلك حساً مرهفاً ، لا بما يورد فيها من سجع قصير يطير عن الأفواه بخفة ، بل بما يصور من حسه الدقيق ، يمثل تعقيه على ما يظن صاحباه به من غلظ الخلال بقوله وقتيما ، ويستمر هذا الحس الدقيق فى بناء الكلم ببقية الرسالة ، وبدون ريب كان القاضى عياض أديباً كبيراً . ومن طريف ما نقرأ له فى مقدمة كتاب الشفاء تحميده لربه وتمجيده لرسوله إذ يقول :

« الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأحمى<sup>(٦)</sup> ، الذى ليس دونه منتهى

(١) غراماً : عذاباً وفى الأصل : عزماً .

(٢) وجد عليها : غضب منها .

(٣) مجلت : كَلت كناية

(٤) الإغباب : البعد فى الزيارة .

(٥) أعدل : ألوم .

(٦) الأحمى : الأمتع .

(١) غراماً : عذاباً وفى الأصل : عزماً .

(٢) وجد عليها : غضب منها .

(٣) الزمّاع : المضى فى الأمر . مجلت : كَلت كناية

عن الشيخوخة وفى الأصل : خجلت .

ولا وراءه مَرَمَى ، الظاهر لا تخيُّلا ولا وهما ، الباطن تقدُّسا لا عُدْمًا وَسِعَ كل شيءٍ رحمةً  
وعِلْمًا وأَسْبَغَ على أوليائه نعمًا عُمًّا<sup>(١)</sup> ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أَنفَسَهُم عَرِبا وَعُجْمًا ،  
وأزكاهم محتدًا وَمَنَمَى ، وأرجحهم عقلا وحلما ، وأوفرهم علما وفهما ، وأقواهم يقينا وعزما ،  
وأشدهم بهم رَافَةً وَرُحْمَى ، زكَّاهُ روحا وجسما ، وحاشاه عيبا ووصمًا ، وآتاه حكمة  
وحكْمًا ، وفتح به أَعْيُنًا عُمِّيًا وقلوبًا غُلْفًا<sup>(٢)</sup> ، وأذانا صُمًّا ، فأمن به وعزَّره ونصره من جعل اللهُ  
له في مغنم السعادة قسما ، وكذَّب به وصدف<sup>(٣)</sup> عن آياته مَنْ كَتَبَ اللهُ عليه الشقاء حَتْمًا ،  
﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ صَلَّى اللهُ عليه صلاة تَنُمُو وتُنَمَى ، وعلى  
آله وسلَّم تسليمًا .

والتحميد والتمجيد في لغة عذبة سلسلة ، سواء في الألفاظ أو في الأسجاع القصار مع  
ما يزينها من الألفاظ والآيات القرآنية ، وقد افتتح بهما كما أسلفنا كتابه الشفاء بتعريف حقوق  
المصطفى ﷺ .

#### (ب) أبو جعفر<sup>(٤)</sup> أحمد بن عطية

أول كتاب المغرب الأقصى النابيهين في ديوان علي بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين ،  
ويقال إنه ولد سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م وكانه كتب في هذا الديوان قبل العشرين من عمره ،  
وفيه تعرَّف على تقاليد الكتابة الديوانية التي أرساها في الديوان المغربي كتاب الأندلس أبو بكر بن  
القصيرة وابن أبي الخصال وعبد المجيد بن عبدون وأضرابهم ، ولما قضى الموحدون على دولة  
المرابطين فرَّ وغير هيبته ، وكان محسنا لرمي السهام ، فانتظم في الجيش الموحدى الذى خرج  
إلى مدينة سوس في الجنوب لقتال ثائر هناك ، وانتصر الجيش الموحدى وقتل الثائر وانهمز  
أنصاره ، فطلب القائد أبو حفص عمر إيتى كاتبها يحسن عرض المعركة ليخبر بها رئيس الدولة  
عبد المؤمن ومن معه من الموحدين ، فدلَّ على أبي جعفر ، وكتب له رسالة طويلة أعجبت  
عبد المؤمن ، فاستدعاه ، واستكتبه وزاده الوزارة إلى الكتابة ، لما رأى عنده من شجاعة قلبه  
وحصافة رأيه ، كما يقول المراكشى . ولم يزل وزيره إلى أن أغضبه فقتله ، وفي كتاب المعجب  
أن سبب قتله أنه كان قد تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين ، وكان أخوها يحيى فارسا  
وأبلى بلاء شديدا في مقاومة الموحدين ، وانقاد لهم حين تمَّ نصرهم وانضوى تحت لوائهم ،

(١) نعمًا عَمَّا : نعمًا كثيرة .

(٢) غلُفا : جمع أغلف : كأن على القلب غلُفا .

(٣) صدف : أعرض .

(٤) انظر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن عطية كتاب  
المنح لعد الواحد المراكشى ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

والإحاطة لابن الخطيب ١٣٢/١ - ١٣٩ والنبروغ  
المغربى ١٦٦/٢ والوفى ٢٥١/١ - وانظر فى رسائله  
مجموع رسائل موحديّة من إنشاء كتاب الدولة المؤمّنية  
( طبع الرباط ) .



فجعله عبد المؤمن قائدا على من دخل في عقيدة الموحدين من لتونة قومه ، ولم يزل مكرما عند عبد المؤمن إلى أن بلغت عنه أفعال وأقوال أحقته عليه . وتحدث عبد المؤمن بذلك في مجلسه فخشي أبو جعفر أحمد بن عطية على صهره يحيى من فتك عبد المؤمن به ، فقال لزوجته قولى لأخيك يتحفظ ، وإذا دعزناه غدا فليظهر المرض ، وإذا استطاع الفرار واللحاق بجزيرة ميورقة فليفل ( وكان صاحبها مارجا على الموحدين ) . وتمارض يحيى وزاره بعض أصحابه فأسر إليه ما بلغه عن صهره أبي جعفر ، فنقل الرجل ذلك إلى شخص من أبناء عبد المؤمن ، فأمر بالقبض على أبي جعفر وأخيه أبي عقيل الكاتب ولم يلبث أن أمر بقتلهما سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، واعتقل يحيى وظل في سجنه إلى أن مات ، ولم تأخذ عبد المؤمن في أبي جعفر وصاحبيه رافة ولا شفقة ولا رحمة .

وأبو جعفر أحمد بن عطية يُعدّ في الذروة من كتّاب عبد المؤمن ، ويشهد لذلك أن « مجموع رسائل موحديّة من إنشاء كتاب الدولة المؤمّنية » يشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، له فيها سبع عشرة رسالة ، ولو أنه ظل حتى نهاية عبد المؤمن لتكاثرت رسائله في تلك المجموعة ، ومن رسائله خمس موجهة إلى طلبة سبته من دعاة الموحدين بها ، وهو دائما يبلغ أهلها في تلك الرسائل انتصارات عبد المؤمن تلويحا لها بعد أن قامت بثورتها سنة ٥٤٣ هـ أن تلتزم بطاعة عبد المؤمن وعقيدة الموحدين وإلا أنزل بها عقابا أليما . وتبدأ هذه المجموعة للرسائل برسالة بقلم أبي جعفر بن عطية موجهة على لسان عبد المؤمن إلى طلبة سبته كي يبلغوها أهلها ، وفاتحتها على هذه الصورة :

« من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره وأمدّه بمعونته - إلى الطلبة ( الدعاة ) الذين بسبته وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعمامة - وفقهم الله وسدّدهم - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله مولى الرغائب ، ومُسْنَى<sup>(١)</sup> الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعيّن من حمده الواجب ، ونصلّي على محمد نبيّه العاقب<sup>(٢)</sup> ، وعلى آله وصحبه أولى المفاخر السنيّة والمناقب . ونصل [ بذلك ] الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المحرز شرف المبادئ والعواقب ، المجلّي بنوره الناقب حُجُب الظلام الواقب<sup>(٣)</sup> .. وقد وصلنا بحمد الله إلى مرآكش على أتم أحوال الظفر واليمن ، وعدنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ، وإطفاء نار الفتنة ببرّد الهدنة وسلامها ، وإصاق أنوف الكفرة المرتدين برغامها وقطع دابر القوم المجرمين .. وإن النعمة - وفقكم الله - بهذه الفتوح العميمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز ( يريد دعوة الموحدين ) ودان ، وتزيب بجلته البهية

(٣) الواقب : الشامل .

(١) مسنى : ميسر .

(٢) العاقب : خاتم الرسل .

فازدان ، فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهديّ - رضى الله عنه - العجب العُجاب ، وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب ، ودرّت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب ، وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين الخاسرين ، فمحقهم وطيسها الشديد الغلاب ، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب . ويقول عبد المؤمن في الرسالة لأهل سبته : حافظوا على القرآن والتوحيد .

وواضح أن عبدالمؤمن ينعت الخارجين عليه بأنهم كفرة مرتدون ، إذ ارتدوا عن دعوة الموحدين ، وكأنما أصبحت هي الإسلام ، فمن ارتد عنها ارتد عن الدين الخفيف . والرسالة في أوائلها تدعو بالرضا عن الإمام المعصوم المهدي ابن تومرت الذي أخرج بدعوته الناس من الظلمات . وما تلبث الرسالة أن تذكر أن هذا الفتح وغيره من الفتوح إنما هو من بركاته .

وفي الرسالة الرابعة المكتوبة بقلم ابن عطية والموجهة إلى يحيى بن غانية صاحب جزر منورقة الراض لدعوة الموحدين قطعة يصور عبد المؤمن له فيها ابن تومرت داعية الموحدين بهذه الصورة التالية :

« هذا الأمر ( يريد دعوة الموحدين ) - وفقكم الله - هو أمر المهدي - رضى الله عنه - حق فتأمل ، ومع معاملة الجلاء فلاظن ولا تخيل . والمهدي - رضى الله عنه - قد بشر به النبي - صلى الله عليه وسلم - في غير ما حديث ، وظهرت علاماته وآياته في قديم من أمره وحديث ، ودلّ على اسمه وزمانه وفعله ومكانه بأدلة رفعت الإشكال والتعسف ، فأتى - رضى الله عنه - كما نعت النبي عليه السلام - ووصف ، وقال - صلى الله عليه وسلم - فيه وفي طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهورَ الإشاعة والإذاعة ، وقضى بوجوب الائتمار والائتمام والطاعة ، وأخبر في جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة .. وقد تبين الصبح لدى عينين ، وجدع الحق أنف الكذب والمين ، وتجلت<sup>(١)</sup> الهداية ضد الضلال والرّين<sup>(٢)</sup> » .

وعبد المؤمن في هذه الرسالة ينعت ابن تومرت بما كان ينعت به عنده وعند دعاة الموحدين من تبشير النبي به ووصفه ، وما أوجب للمهدي من اتباع دعوته ، ومن لم يتبعها حكم عليه بالكفر والارتداد عن الدين الخفيف ، ويقول إنهم مأمورون بالقتال عليها إلى قيام الساعة . ورسائل ابن عطية في « مجموع رسائل موحديّة » مكتوبة بلغة مروّقة صافية مع السهولة والسلاسة وقصر الأسجاع في جوانب كثيرة من الرسائل ، مع تضمينها صوراً من الاستعارات ومن المحسنات البلاغية . واحتفظ له ابن القطان في كتابه نظم الجمان برسالة كتبها على لسان عبد المؤمن من تينملل حين زار قبر المهدي فيها لشهر ربيع الأول سنة ٦٤٥ وهي أشبه

(١) في الأصل : جلت .

(٢) الرين : الدنس .



بدستور لحكم أمراء الولايات المختلفة وأنه ينبغي أن يقوم على العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أرسلت نسخ منها إلى جميع الولاة . وحين زجَّ به عبد المؤمن في السجن أرسل إليه يستعطفه برسالة مشهورة استهلها بأبيات يسترحمه فيها وتلتها الرسالة على هذه الصورة<sup>(١)</sup> :

« تالله لو أحاطت بي كلُّ خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود ، وأنفتُ لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوح ، في الفلك إلى نوح ، وأبرمت لاحتطاب نار الخليل حبلا ، وبريتُ لقدار ثمود نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظهرت الأحزاب بالقصوى من العذوة ، وأبغضت كل قرشى ، وأحببت لأجل وَحْشَى كل حبشى ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة ، واعتلقتُ من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ، وقلت تقائلوا رغبة في الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر ، وغادرت الوجه من الهامة نخضيا ، وناولتُ من قرع سنَّ الحسين قضيبا ، ثم كنت بحفرة المعصوم لائذا ، وبقبر المهدي - رضى الله عنه عائذا ، لقد آن لمقاتلي أن تُسمع ، وأن تُغفر لي هذه الخطيئات أجمع ، مع أني مقترف ، وبالذنب معترف :

وعفوا أمير المؤمنين فمن لنا بردُ قلوبٍ هدَّها الخفقانُ

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته .

وهو يقول لعبد المؤمن لو أني سخرت بكل من في الوجود من خلق الله ، واستنكفت لإبليس من سجوده لآدم وأنكرت أن الله أوحى إلى نوح في فلكه ما أوحى ، وأبرمت حبلا للمحتطبين لنار إبراهيم الخليل ، وبريت لقدار ثمود عاقر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين التي أنبتها الله لتظله ، وأوقدت مع هامان لفرعون على الطين لينى له صرحا حتى يرى ربه كما زعم ، ولو أني السامري الذي قبض على شيء من دين موسى ثم كفر به ونبذه ودفع بني إسرائيل لعبادة العجل في غيبة موسى ، وكذبت على السيدة مريم العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة المقاطعة بين قريش وبين الرسول وصحبه قبل هجرته ، وظهرت الأحزاب وعاونتهم في حصار المدينة ، وأبغضت كل قرشى وأحببت لأجل وَحْشَى

(١) انظر في هذه الرسالة كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع ( طبع الرباط ) ص ١٩٦ وكتاب النبوغ المغربي للأستاذ كتون ١٦٦/٢ وراجع ترجمة ابن عطية في الإحاطة .

(١) انظر في هذه الرسالة كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع ( طبع الرباط ) ص ١٩٦ وكتاب النبوغ

الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد كل حبشي ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة أبي بكر وخلافته ، ولو أئى شحذت شفرة خنجر غلام المغيرة بن شعبة طاعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو لو أنه تعلق بشعبة في حصار عثمان من شعب الدار وقلت تقاتلوا على الدرهم والدينار وسفكوا الدماء وتركت الوجه الكريم لعلى بن أبى طالب خضيبا بالدماء ، وناولت يزيد بن معاوية قضيبا ليقرع السن - كما قيل - في ثغر الحسين . لو أنه صنع شيئا من ذلك ثم لاذ بحفرة ابن تومرت وقبره لقد آن أن تسمع لقولى وتغفر لى خطيئاتي وتعفو عني . ولم يلب له قلب عبد المؤمن بل ازداد قسوة وأمر بقتله . ولا يقلل من روعة هذه الرسالة أنه استوحاها من الرسالة الجدية لابن زيدون ، والحق أنه كان كاتباً بارعاً وأن رسائله تعد في الذروة من النثر المغربى فى مختلف عصوره .

### (ج) ابن<sup>(١)</sup> بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتى الطنجى المشهور باسم ابن بطوطة ، وُلد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م لأسرة كانت تشتغل بالفقه والدراسات الدينية وكانت فى بسطة وسعة من العيش ، واهتم أبوه - وكان فقيهاً - بتربيته فحفظ القرآن ، ودفعه لدراسة الفقه المالكى واستوعب ما عند شيوخه فى نحو العشرين من عمره ، وطمحت نفسه لتضاء فريضة الحج ، فخرج من بلده فى الثانية والعشرين من سنه مع رفقة ، واتجه معها شرقاً إلى الجزائر ونزلاً سنيها الشمالية ، وتنقل بين رفاق حتى تونس وفيها رأى الالتحاق بقافلة من قوافل الحجاج ، وعبر فيه فقهه فأقاموه قاضياً بينهم ، ونزلت القافلة الإسكندرية فطاف بمشاهدها وزار علماءها وعبادها وتعرّف على ناسك زاهد يسمى « الشيخ خليفة » وقال له : إنى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فأجابه : نعم . فقال له : « لا بد لك - إن شاء الله - من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » فعجب ابن بطوطة من قوله وكأنما تنبأ له أنه سيصبح رحالة كبيراً يطوف بلدان العالم الإسلامى حتى أقصاها وأنه سيمد رحلاته إلى الهند والصين . وترك الإسكندرية ميمماً وجهه نحو القاهرة ولم يذهب إليها مباشرة إذ طاف قبلها ببعض البلاد فى الوجه البحرى مثل دمنهور وفوة بالقرب من رشيد ودمياط والمحلة الكبرى . وفى فوة تعرف على شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدى ، وأكرمه وبات على سطح زاويته ، فرأى فى منامه حلماً عجيباً : أنه على جناح طائر عظيم ، يطير به فى سَمَت القبلة يتيامن ثم

وابن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل للدكتور حسين مؤنس ( طبع دار المعارف بالقاهرة ) .

(١) انظر فى ابن بطوطة ورحلته النبوغ المغربى ٢٢٢/١ ورحلة ابن بطوطة للدكتور شاكراً خصباك ( طبع بغداد )

يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يعد في طيرانه إلى ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة  
خضراء ويتركه بها . ويقص حلمه على الشيخ ويطلب إليه تأويله ، فقال له : سوف تحج وتزور  
النبي ﷺ وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتظل بها مدة طويلة .

وكان هذا التفسير لحلم ابن بطوطة وما حمله له الشيخ خليفة من السلام إلى إخوة له في  
الهند والسند والصين إرهابا ليصبح رحالة بل ليصبح أعظم رحالة عرفه العرب في تاريخهم  
الوسيط . ونزل القاهرة والفسطاط ، ثم أخذ طريقه إلى الحج عن طريق الصعيد وعيذاب على  
البحر الأحمر وفيها رأى الطريق البحري إلى جدة معطلاً لخروج قبائل البجة على سلطان مصر  
محمد الناصر بن قلاوون ، فعاد إلى الفسطاط ، واتجه إلى صحراء سيناء وتجول في بلاد الشام  
من بيت المقدس ومعان إلى حلب ، وخرج من الشام مع ركب من الحجاج إلى المدينة المنورة  
فمكة ، واتجه بعد أداء فريضة الحج إلى العراق وغربى إيران ونزل في النجف وواسط والبصرة  
وشيراز في إيران وبغداد وبلدان الموصل . وحج حجته الثانية وأقام بمكة سنة ، ورأى أن يزور  
اليمن وطاف ببعض بلدانها وعبر البحر إلى أفريقيا الشرقية وزار الصومال وزيلع ومقدشو ،  
وعاد إلى الجزيرة العربية مارا بشواطئها الجنوبية وظفار وعمان ودخل الخليج العربي وبعض  
بلدانه . وحج حجته الثالثة واتجه بعدها إلى مصر ، ولم يلبث أن رحل إلى آسيا الصغرى حيث  
بلدان السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوائل ، وأبحر إلى شبه جزيرة القرم وكانت تابعة لسلطان  
مغول القفجاق محمد أوزبك وتجول في بلاده وفي بلاد القوقاز والبلغار ، ورغب في أن يدخل  
بلاد الظلمة ( روسيا ) وعدل عن ذلك . وأنس به السلطان محمد أوزبك ويعده من أعظم  
ملوك الدنيا ، وأرسله في ركب مع زوجته بنت ملك الروم لزيارة أبيها في القسطنطينية فتعرف  
على بلدان الدولة البيزنطية . ويرحل إلى خوارزم ، ويدخل سمرقند ، ويتجول في بلدان خراسان  
مثل بلخ وبخارى وبلاد أفغانستان مثل هراة ، ويدخل إلى الهند في سنة ٥٧٣٤هـ / ١٣٣٣م  
ويكرمه سلطان السند أو البنجاب محمد شاه ويوليه قضاء دهلِي ويقيم بها ثمانى سنوات .  
وأرسله السلطان في وفد بهدية إلى ملك الصين ، وأبحر إلى قاليقوت إحدى ثغور الهند في  
الغرب ، وهبت عاصفة أغرقت المركب وأسرته والهدية ، ولم يرجع إلى السلطان ، ورحل إلى  
جزائر ذية المهل ( الملديف ) جنوبي الهند ، وتولّى القضاء بها عاما وبعض عام ، وتركها إلى  
الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، ويركب البحر وينزل سومطرة وجاوة ، ثم يتجه  
إلى الصين ويتجول في بلدانها ، ويعود إلى سومطرة ويمر بإيران والعراق والشام ومصر ،  
ويبحر من عيذاب لقضاء العمرة . ويصمم على العودة إلى موطنه ، ويصل إلى تونس ويركب  
منها البحر إلى الجزائر ويمر بسردانية وتلمسان ، ويصل إلى فاس سنة ٧٥٠هـ ويرحب به  
سلطانها أبو عنان ويلحقه بحاشيته . ولا يلبث أن يزور الأندلس ويتجول في بلدان إمارة بنى



الأحمر بغرناطة ، ويعود منها عازما على زيارة السودان الغربي ، ويدخل الصحراء إليه سنة ٧٥٣ ويتجول في بلدان مالي ويصل إلى تمبكتو على النيجر ، ويعود في أواخر سنة ٧٥٤ إلى المغرب . وكان السلطان أبو عنان معجبا أشد الإعجاب بما يقصه عن رحلاته فأمر كاتبه ابن جزي أن يساعده في كتابة رحلته التي سماها : « تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ونجد ابن جزي يقول في آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة » وكان فراغه من هذا التلخيص في شهر صفر سنة ٧٥٧ هـ / فبراير ١٣٥٦ م . ويبدو أن ابن بطوطة كان قد قيد رحلته في أسفار كثيرة وأن ابن جزي لخصها مما جعل بعض الباحثين يظن أنها من تحريره . وابن جزي نفسه يعترف بأن كل ماله إنما هو تلخيص واختصار لجوانب من تفاصيلها الكثيرة ، ولذلك نذهب إلى أنها مكتوبة في جملتها بأسلوب ابن بطوطة نفسه ، ونعده لذلك من كبار كتاب المغرب الأقصى . وهو لا يدخل بلدة إلا وصف سورها إن كان لها سور مثل الإسكندرية ودورها ومطاعم أهلها وملابسهم وأسواقها ومدارسها وعلمائها ونسآكها وحكامها وعادات سكانها وتجاراتها وزروعها وعملتها وكل ما يتصل بها ، وكيف لابن جزي بوصف ذلك وهو لم يشاهد شيئا منه . وكانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الحديث عن الزوايا والنسآك والأولياء وأصحاب الكرامات ، ونقتطف بعض ما جاء في رحلته الضخمة ، فمن ذلك قوله عن مصر :

« أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ( ذات المزارع والرياض الجميلة ) المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رَحْل الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة أماكنها ومكانها ، وشبابها يجده على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يرح عن منزل السعد » . والسجع قليل في الرحلة ، إذ لا يعدو المقدمة وكلمات قليلة تقال في وصف بعض البلدان ، والأسلوب العام أسلوب مرسل طليق اختاره ليكون دقيقا وواضحا في وصف مشاهداته .

ويقول عن أهل مصر إنهم « ذور طرب وسرور وحو » أما المدارس فلا يحيط أحد بها لكثرتها ، ويشيد بمارستان قلاوون وأن الواصف يعجز عن بيان محاسنه إذ أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويقول إن مجباه ( ما يجبي إليه وينفق عليه ) ألف دينار كل يوم . ويقول إن الزوايا الخاصة بالزهاد والمتصوفة تكثر في مصر كثرة مفرطة . وينزل آسيا الصغرى ويتجول في بلدانها ويصف مشاهدتها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ويتحدث عن حكماها من السلاجقة والعثمانيين ، ويعجب فيها بنظام للفتوة يقوم به فتيان على حسن الضيافة وإيواء

الغريب . ووجدتهم فى كل بلدة يتخذون لهم رئيسا كما يتخذون مقرًا يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وكان هذا النظام للفتوة هناك يسمّى « الأخيَّة » ويصفه قائلًا :

ذكرُ الأخيَّة الفتيان : واحد الأخيَّة أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالًا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة . والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة . وينى زاوية ويجعل فيها الفرش والسُّرج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معاشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشتررون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم . وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم ، فأكلوا وغنّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ( صباحا ) وأتوا بعد العصر إلى مقدّمهم بما اجتمع لهم ، ويسمّون الفتيان ، ويسمى مقدّمهم - كما ذكرنا - الأخى . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ( فى غربى إيران ) إلا أن هؤلاء أحبّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما وشفقة . وفى اليوم الثانى من يوم وصولنا .. أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى ( رفيق لابن بطوطة ) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه ( إذ تعلّمه فيما بعد ) وكان عليه أثواب خَلّقة ، وعلى رأسه قلنسوة بُد ( صوف ) فقال لى الشيخ أتعلم ما يقول الرجل فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد أن نكلفه ، فضحك الشيخ ، وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الأخيَّة ، وهو من الخرازين ( إسكافى ) وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدّموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل . فلما صلّيت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من تُرّيّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أنبوبٌ للفتيلة ، ويُملأ من الشحم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم وفيها مقراضٌ لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكلٌ بها ، ويسمّى عندهم الجراغجى . وقد اصطفى فى المجلس جماعة من الشبان ، لباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف ( جمع خفّ ) وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى

طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقرّ بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني ( ضرب من الحرير ) وسواه حسنة المنظر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقرّ بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحتهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل .

وبهذا الأسلوب المرسل في حبكة السرد ودقة الوصف تتميز كتابة ابن بطوطة في رحلته ، ويقول إنه كان بعد ضيافته في هذه الزاوية كلما نزل من بلاد الأناضول سأل عن الأخية ، وأحيانا كانوا لا ينتظرون حتى يسأل عنهم ، بل يسرعون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . ويذكر صناعاتهم وحاكم كل بلدة ومن حوله من الفقهاء والعلماء وما منحه من الهدايا والصلوات ، ودائما - كعادته في كل بلدة نزلها - يذكر حكايات النساء ومن فيها من أصحاب الكرامات المسمون بالأولياء . ويتقل إلى شبه جزيرة القرم وبلدان مغول القفجاق وسلطانها : محمد أوزبك وذهابه لزيارته في عاصمته « السرا » شمالي بحر خوارزم وكان معسكرا بجيشه قريبا منها ، وركب إليه مع حاكم شبه جزيرة القرم عربية تجرها الجياد « وعلى العربية شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد ( الصوف ) أو الملف ( الجوخ ) ، وفيها طيقان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرا ، ويكتب وهو في حال سيره » .

ووصل إلى معسكر السلطان وقال إنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله وتجره العربات . ودخل على السلطان محمد أوزبك فأكرمه . ويعدده من أعظم ملوك الدنيا ، ويصف مجلسه الذي كان يتخذه في كل يوم الجمعة بعد الصلاة يقول : « إنه يجلس في قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفي وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورءوسها مرصعة بالجواهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه زوجتان وكذلك على يساره ، وكلما جاءت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاج » . ويفيض في الحديث عن كل زوجة وجواربها ، ومماليكها وما أهديته . ويعرف السلطان رغبته في زيارة بلدان البلغار فيرسل معه من يهديه الطريق ، وحاول أن يدخل في إقليمي ويسوا ويورا ( روسيا ) في شمال البلغار حتى المحيط المتجمد الشمالي ويسميتها أرض الظلمة . ويعدل عن ذلك لعظم المثونة . ومن طريف ما قاله عنها مما سمعه من الناس : أن السفر إليها لا يكون إلا في عجالات صغار تجرّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة نبيها الجليد فلا يثبت فيها قدم آدمي ولا حافر الدابة ، والكلاب



لها الأظفار فثبت أقدامها في الجليد . ويصف العجالات التي تجرها الكلاب ومسيرتها . فحتى ما يسمعه عن بعض الأقاليم يعرف كيف يقصُّه بدقائقه . وتزور إحدى زوجات محمد أوزبك أباه ملك القسطنطينية فيرسله في رفقها يتجول في بلدان تلك الدولة ، ويعود إلى حاضرة السلطان ، وينوه بفتيه يسمى نعمان الدين الخوارزمي كان السلطان يزوره كل يوم جمعة فلا يقوم إليه ويقعد السلطان بين يديه ويتواضع إليه والشيخ يترفع عليه حتى إذا حضره المساكين والفقراء تواضع لهم وكلمهم باللفظ كلام .

ويطوف ابن بطوطة ببلدان سلاطين المغول في التركستان ويمر ببلدان خراسان وأفغانستان إلى الهند ، وعيناه الواسعتان ترصد وتسجل كل ما بها من أنهار وغروس وأشجار وحبوب وفواكه . ويعرض سكانها بعباداتهم وحكامها وضيافتهم له . ويعجب لحرق الهندوس لموتاهم بالنار وتحريق النساء مع أزواجهنَّ حين يموتون وتقربهم إلى إلههم بالغرق في نهر الكنج المقدس ، ولا يكتفى برواية ذلك بل يعرض في تفصيل مشاهد من ذلك عرضا بديعا . ويحتفى به الأمراء والقضاة والفقهاء في بلاد الهند حتى يصل إلى دهلي ( دهلي ) ويصف سورها ومزاراتها وجامعها ويذكر أن به ثلاث عشرة قبة وأربعة من الصحون ، وفي صحنه الشمالي صومعة ( معذنة ) لا نظير لها في بلاد الإسلام ورأسها من الرخام الخالص وتفاحتها ( رءوس أعمدتها ) من الذهب الخالص وسلمها واسع بحيث تصعد فيه الفيلة . ويتحدث عن علماء دهلي ونسائها وتاريخها منذ فتحها المسلمون وسلاطينها حتى سلطانها الأخير لأيامه محمد شاه ، كما يتحدث عن هذا السلطان وقصره ومجلسه وكثرة ما بخزائنه من الحلي والذهب ، ويقول إن سريره أو عرشه من الذهب الخالص وأن قوائمه مرصعة بالجواهر ، وأن طوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نصف ذلك ، ويطلق وصفه . ويخلع عليه الخلع السنِّيَّ وينعم عليه بوظيفة القضاء في عاصمته ، ويظل يتولاها ثماني سنوات كما مرَّ بنا . ويتحدث عن انتشار السحر في الهند ويذكر ما رآه من عجائب فيها . وينزل جزائر ذبية المهل ( الملديف ) ويفصل القول عن سكانها وملابسهم وعاداتهم في الزواج وغير الزواج . ويتجه إلى الصين وينزل سومطرة أو بلاد الجاوة ويصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، وفيها جميعا يقول :

« شجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف ( الخرشوف ) وأوراقها صغار رقاق ، واللبان صمغية تكون في أغصانها . وأما شجرة الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور في داخل الأنابيب . وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وأما أشجار القرنفل فهي ضخمة ، والمجلوب منها إلى بلادنا هو العيدان ، والذي يسميه أهل بلادنا نور القرنفل فهو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارج ، وثمر القرنفل هو المعروف في بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته » .

وينزل الصين ويقول : فى كل مدينة منها حى للمسلمين ينفردون فيه بسكناهم ومساجدهم ، ويقول إن لكل شخص من أهل الصين عكازاً يعتمد عليه فى المشى ، ويذكر أن الحرير عندهم كثير جدا وأنهم لا يتبايعون بالدينار والدرهم إنما بيعهم وشراؤهم بورق كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان ( وهم بذلك أول من تعامل بأوراق نقدية) وينوّه ببراءتهم فى التصوير ويطيل الحديث فى ذلك ، وقال إنهم يتخذون بيوتا لذوى العاهات . ويقص ما شاهده من عجائب هناك . ويعود من الصين إلى موطنه بعد أن أدّى فريضة الحج ، ويرحل رحلته الثانية إلى الأندلس ثم رحلته الثالثة إلى السودان الغربى على المحيط الأطلسى .

والرحلة تصور العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى أروع تصوير لا بقلم كاتب كبير فحسب بل بريشة فنان بارع وقد اهتم بها المستشرقون فنشروها مع ترجمتها للغاتهم كما نشروا منها قطعاً أو أقساماً مع ترجمتها والتعليق عليها .

#### ( د ) محمد<sup>(١)</sup> بن على الفشتالى

من قبيلة فشتالة التى كانت تنزل فى الشمال الغربى لمدينة فاس ، وهى قبيلة صنهاجية وقد ولد بها سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وتركها مبكراً للتزود من حلقات العلماء فى فاس ، وتفتحت موهبته الأدبية سريعاً ، فكان شاعراً كاتباً وعمل فى دواوين الدولة السعدية ، وعرف المنصور الذهبى فضله ، فما زال يرقى به حتى أسند إليه رئاسة القلم بديوانه ، واستعان فيها ببلديه ومواطنه عبد العزيز الفشتالى ، وهو يثنى عليه كثيراً فى كتابه : « مناهل الصفا » وكان المنصور الذهبى يأنس إليه ، ففسح له فى مجالسه الأدبية والعلمية وشارك فيما كان بها من مساجلات ، وكان ما يزال ينظم فيه مدائح بديعة فى مقدمتها مولدياته التى كان يلقيها فى احتفال المنصور بالمولد النبوى الشريف ، وفيه يقول أحمد بن القاضى فى كتابه : درة الحجال : « وزير القلم الأعلى الأديب البليغ الشهير الذكر بالمغرب ، وهو علم فى الفضيلة والسراوة<sup>(٢)</sup> ومكارم الأخلاق وكرم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، على الهمة ، كاتب بليغ أديب شاعر ، حسن الخط ، فصيح اللسان ، موثّر لأهل العلم والأدب » . ويذكره فى كتابه المنتقى مراراً بمثل قوله : « وزير القلم الأعلى ، وحائز القدح<sup>(٣)</sup> ، المعلى ، الكاتب الأعظم ، والخِضَمّ المفخّم ، الناظم الناثر ، وحائز قصبات السبق فى الدفاتر » . وكلفه المنصور الذهبى سفارة إلى الخليفة العثمانى مراد بن السلطان سليم فأداها على خير وجه ، وتعرف فى أثناء ذلك على الخفاجى

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على الفشتالى كتاب درة الحجال ١٩٠/٢ والمنتقى ٣٢٩/١ وريحانة الألبا للخفاجى ص ١٤٨ - ١٦١ والنبوغ المغربى ٢٧٥/١ لكنون وكتابه رسائل سعدية والواقى ٦٩٢/٣ .

(٢) السراوة : الشرف .

(٣) القدح المعلى : أكثر أقداح القمار نصيباً ويكنى به المكانة الرفيعة .



صاحب كتاب الريحانة وانعقدت بينهما صداقة مما جعل الخفاجي - وقد أعجب به - يترجم له في كتابه ، وفيه يقول : « وزير مولاي أحمد ( المنصور ) أديب فاس ، وريحانة فضلائها الأكياس<sup>(١)</sup> ، تقدم فيها متقلدا قلادة إنشائها ، فائقا برسائله على سائر أدبائها .. وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماك ، ورياض مشور تغرد حمائم قوافيه بمطرب الأسجاع . ويحتفظ كتاب « رسائل سعديّة » بكثير من رسائله إلى البلدان المغربية وياشوات الدولة العثمانية ووزرائها والجيش الجزائري . ويقول الأستاذ كنون في تقديمه لتلك الرسائل إن لمحمد بن علي الفشتالي منها ١٨ فصلا ومكتوبا ، من ذلك رسالة إلى أهل فاس أهل الحضرة السعدية يخبرهم فيها بفتوح السودان سنة ٦٩٨ للهجرة قاتلا<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد حمد الله الواسع الجود والعطاء ، المصرف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي سنّ تجهيز البعوث لتدويخ الأقطار ، بتوالي تكاثف القبائل والقطار<sup>(٣)</sup> ، والرّضا عن آله وصحبه الذين اقتفوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتنموا نشر نسيمه البليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم ( الفتح ) بما يزيد عزا وظهورا ، ويجعله في عين الوجود نورا ، فإننا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية ، ومجمع المفاخر القريبة والقصية : حمراء مُرّاكش ، حرسها الله . هذا وأنا ننهي إليكم - عرفكم الله عوارف آلائه الجسام ، وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحة القسام - بأنه لما انصبّ عزمنا الميمن في سالف التاريخ ، وتاقت هممنا العلية لتدويخ بلاد السودان بأنتم وجوه التدويخ ، وجّهنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة<sup>(٤)</sup> ، جملة يتكفل معها الإسعاد ، بكمال المراد ، ونبذة نُشرت عليها من ألوتينا الظافرة كل فتحاء<sup>(٥)</sup> قاهرة ، أطارها الثمن كل مطار ، ولجج بها الإقبال لجج القفار ، تخوض الآلا<sup>(٦)</sup> تترام أمواجه ، وتفتح بأبا طالما طلسم رتاجه<sup>(٧)</sup> ، فافتحم العساكر أحياء وجللا<sup>(٨)</sup> وارتندي من المهابة وبعد الصيت برودا وحللا ، حتى أدخل ريقه<sup>(٩)</sup> طاعة هذه الإيالة<sup>(١٠)</sup> من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوبرية من أعراب الكراع<sup>(١١)</sup> ، التي لم ترتض بولايته ولا طاعته ، جموعا كثيرة ينتهي التعداد بهم على حكم ما أدّوه من الزكاة الشرعية لسته وأربعين ألف خيمة . وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعض من كل ، وجزء من جل . وانتهى الغوص والإبعاد ، بما وجّهناه من الأجناد ،

(٧) الرتاج : الباب العظيم .  
(٨) الحلل جمع حلة : مجتمع البيوت والناس .  
(٩) ريقه : حبل .  
(١٠) الإيالة : إقليم من أرض الدولة .  
(١١) الكراع : عدة الجيش من الخيل والسلاح .

(١) الأكياس ، جمع كيس : الحصيف .  
(٢) رسائل سعديّة ص ١٩٢ .  
(٣) القطار : قوافل الإبل على نسق متظم .  
(٤) المنيفة : المتسامية .  
(٥) فتحاء : عقاب .  
(٦) آلا : سرايا .

بعد مَقَرَّةٍ من ثمانين مرحلةً في المفاوز الصعبة المجاز إلى بلاد السودان ، والأنحاء التي جَنَّا<sup>(١)</sup> طاعتها لهذه الإيالة - إن شاء الله - دان ، فتناهضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما ينيف<sup>(٢)</sup> على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب وأخلاق الأتباع ، وجيوش السودان ، فانتفخ هِرْهُم لِيَصُولَ ، وانتفض بَوْمُهُم يشير للعقبان بالنزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين ، وتدافع الجانبين . والغرض أن أنصار هذه المثابة وحُماتها قد مسَّهم النَّصَبُ بأوجه التأثير ، وأفنى جُلَّ خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفرَّ من أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام ، سوى سبعمائة رام ، وقُرْبَ عشرين فارسا ، وكان كلهم بالمكافحة والمنازلة ممارسا ، فهبَّ عليهم من رياح النصر كل صبا ، واتخذوا الشهامة والجلاد سبيلا ومذهبا ، فخفقت الأولوية العلوية بالنصر والظفر ، وأُنْبِتَ<sup>(٣)</sup> - بحمد الله - سلك انتظامهم وانتثر ، وأتى الحين والأسرُّ على جموعهم في الحين ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وإنما ذكرنا هذه الرسالة يتمامها لندل على أسلوب محمد بن علي الفشتالي المسجع ، وأنه كان يمتلك ناصية اللغة بما يؤلف من الألفاظ المصقولة الرصينة ، كما كان يعنى أحيانا بالجناس والاستعارات الملائمة كاستعارة العقبان لجنود جيشه ، وعبر عن سلوكهم الصحراء الجنوبية بأنهم « فتحوا بأبا طالما طلسم رتاجه ، فافتحم العسكر أحياء وجيللا ، وارتدى من المهابة ويُعد الصيِّت برودا وحُللاً » . ويقول عن أهل السودان الغربي في محاولتهم منازلة جند المنصور : « انتفخ هِرْهُم وانتفض بَوْمُهُم يشير للعقبان ( جنود المنصور ) بالنزول » . ولعل في هذه الاستعارات وما يماثلها في الرسالة ما يدل على أن الفشتالي كان يمتلك ذهنا خصبا . ومن رسائله رسالة بلسان المنصور يعزى فيها رئيس وزراء الدولة العثمانية سنان باشا في وفاة السلطان مراد خان ، وهي تستهل على هذه الصورة :

« الوزارة العظمى التي تُجال بأنظارها المسددة قِداح التدابير الجلائل ، والمنزلة التي لها وفور الاختصاص من أثره<sup>(٤)</sup> الإيالة العثمانية بأوضح الدلائل ، والمكانة التي ضَعُضَعَتْ عروش عظماء المشركين وطأطأت رءوس رؤساء الكفار ، والقطب الذي عليه في دولة بني عثمان أعظم المدار ، الوزير الأجل ، الأعظم ، الأفخم ، الكبير ، الخطير ، الأشمخ ، الأرسخ ، الأطول ، الأكمل ، المعْتَبَر ، المشتهر ، الحظي ، السرى<sup>(٥)</sup> ، الأقرب ، الأنجب ، الأثير ، الشهير ، الأخص ، الأخلص ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأنقى ، الأظهر ، الأطهر ، المثيل ، الحفيل<sup>(٦)</sup> ، سنان باشا أبقى الله حوزته<sup>(٧)</sup> محروسة ، وربوعه بالمسرات مأنوسة ... هذا

(٥) السرى : الشريف .  
(٦) المثيل : الفاضل . الحفيل : المحتفى به .  
(٧) حوزته : دياره .

(١) جنا : ثمر .  
(٢) ينيف : يزيد .  
(٣) انت : انقطع .  
(٤) أثره : خلاء .

وقد طنَّ بهذه الأقطار ، نبأً فظيع التذكار ، فُتت الأكياد ، وأذكى<sup>(١)</sup> - على التناهي - لواعج الفؤاد . خطبٌ جلال ، ورزءٌ فلٌّ ظبا<sup>(٢)</sup> الصَّفاح والأسل ، ذلكم ما نزل به القضا ، وانتهى فيه الأمد وانقضى ، وهو انتقال السلطان الجليل الضخم ذى البسطة فى السلطان ، والملك الموطد بتمهيد الأركان : الخاقان<sup>(٣)</sup> الأعظم ، والشاهق الأعصم ، السلطان مراد بن السلاطين الكبار .. وليس بمستنكر كونه - رحمه الله - لأهل التوحيد يدا ، ولهمم المسلمين مددا .. وإنا لله وإنا إليه راجعون من مواراة الحفر منه بدرا طالما ، وإغماذها سيفا كان فى حماية الدين قاطعا ... واللجأ فيه إلى الصبر الجميل ، والضراعة إلى الله فى الجزاء الجزيل ، علما أن لابقاء لمخلوق مع تهيب رواحل الليالى والأيام .

وهذه الرسالة بدورها تصور مهارة محمد بن على الفشتالى فى صوغ السجع ، وقد نعت سنان باشا فى أوائلها بنعوت متوالية جعلها جميعها مسجوعة ، فكل نعت يقترن بأخيه ، فى سجعات متعاقبة تكثر فيها الجناسات كما تكثر الاستعارات . ومضى فى الرسالة بعدما اقتبسناه منها يهنئ سنان باشا بتولى السلطان محمد بن السلطان مراد كرسى السلطنة العظمى بعد أبيه ، فقد آسى<sup>(٤)</sup> الدهر به . وبين رسائله رسالة على لسان المنصور إلى بدر الدين القرافى شيخ المالكية فى مصر ، وكان كثيرون من طلاب الفقه المالكى وشيوخه فى المغرب يزورون القاهرة للاستماع إلى محاضراته ويحملون عنه مؤلفاته ، ومن قول الفشتالى فى نعوته التى جعلها مقدمة لرسالته إنه « العمدة الراسخة البناء فليس إلا فى باب نعم اشتغاله ، والفذ الذى ما جرى التنازع فى الفهوم الدقيقة من أعراف النقدة الشوامخ ، إلا جاءت آيات غرُوصه وتحصيله لشبه الجموع نواسخ » وقد تصنع لإدخال بعض مصطلحات نحوية فى هذه السجعات هى : باب نعم والاشتغال والتنازع والنواسخ . وملتقى فى الرسالة بطرائف استعاراته ، ويذكر عن المنصور إقامته للرسوم الشرعية ، والشعائر المرعية ، وجميل الالتفات للمتفقهة فى الدين ولحملة الرواية فى حفظ سنة سيد المرسلين . وحقا نهض المنصور بالمغرب الأقصى نهضة علمية وأدبية كبرى ، مما جعل حلقات العلماء تزخر بالدروس والطلاب . وتتهى الرسالة بقول المنصور :

« وهؤلاء خدام جنابنا العلى واردون على تلکم الديار برسم جلب ما لعلکم تستفرغون فيه الوُسع من الكتب لخزائنا العلمية الحافلة .. وأما التشويق لموضوعكم ( لشرحكم ) على مختصر خليل فشىء لا يكيف ، ومعهود لا يحتاج أن يعرف ، وبودنا أن يكون من خزائنا الحافلة بحيث المراجعة والمعاهدة ، والحضور والمشاهدة . »

(١) أذكى : أرقد .

(٢) ظبا الصَّفاح والأسل : حد الرماح والسيوف .

(٣) الخاقان : لقب سلاطين الترك .

(٤) آسى : عزى وواسى .



والمنصور في هذه الخاتمة لرسالته يقول للقرافي شيخ المالكية في مصر أنه مرسل له ببعثة علمية لينتقى لها كتباً نفيسة ، مما ينبغي أن لا تخلو منها مكنتات فاس ، ويسأله أن يرسل إليه بمؤلفه أو بشرحه على مختصر خليل بن إسحق المصري في الفقه المالكي ، وكانت له شهرة مدوية في البلاد المغربية . ولعل في كل ما سبق ما يدل - بوضوح - على أن محمد بن علي الفشتالي كان كاتباً بارعاً ، وكانت وفاته سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م .

#### (هـ) محمد<sup>(١)</sup> بن الطيب العلمي

من الكتاب الشعراء في أوائل عصر الدولة العلوية ، لا يعرف تاريخ مولده ، ولكن يعرف تاريخ وفاته إذ توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وفي الطريق صعدت روحه إلى بارئها في القاهرة سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م وهو تلميذ الشاعر ابن زكور وحامل لواء الأدب المغربي بعده لا في فاس مسقط رأسه وحدها بل في المغرب الأقصى جميعه . ومثل لداته التحق بكتائب فاس لحفظ القرآن الكريم ، ثم أكبَّ على حلقات العلماء في جامع القرويين ، وتفتحت موهبته الأدبية مبكراً ، فنظم الشعر ، وأنشأ قصائد مديح للسلطان إسماعيل ، وطارت شهرته لا لما كان ينظم من أشعار فحسب ، فقد كان يجيد نظم المسمطات والموشحات كما كان يجيد التأليف الأدبي على نحو ما يتضح في كتابه « الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب » وقد عرض فيه اثني عشر أديبا من معاصريه ، لعل أشهرهم أستاذه ابن زكور ، وفيه يقول :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذي أرسخ في أرض الفصاحة أقدامه ، وأكثر وثوبه على حل المشكلات وإقدامه ، فتصرف في الإنشاء ، وعطف إنشاءه على الأخبار وأخباره على الإنشاء ، وقرع<sup>(٢)</sup> الرجال ، في ميادين الارتجال » . وله بجانب هذا الكتاب الطريف رسائل شخصية يزينها بسجعاته وما يختار لها من أشعار وبجناساته واستعاراته إذ كان أديب عصره غير منازع ولا مزاحم ، وإحدى هذه الرسائل موجهة إلى صديقه محمد بن العربي الشرقي ، وفيها يقول :

« بعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى وزيادة ، من السلام الذي طابت نفحاته ، وطالت غدواته وروحاته .. فإنه لما طال أمد الفراق ، وبلغت الروح التراقي وظن أنه الحين وقيل : مَنْ راقٍ ، فكرت فيمن يفك من يد الأشواق أسرى ، ويجبر بين الأصحاء كسرى فقلت :

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح      وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يسر

(١) انظر في ترجمة ابن الطيب العلمي ورسائله ومقامته النبوغ المغربي ١/٣٢٤ ر ٢/٢٢١ والوافي ٣/٧٨٩ .  
والدكتور الأخضر ١٧٧ .  
(٢) قرع الرجال : فاز عليهم .

فما عثرت بعد معاناة البين ، ومعاناة الدهر المفرق بين المحبين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استخرجت من بحور مددك بمداد أقلامك ، كنت ادخرتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقدتها بعد السرور بكونها      وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر  
فما زالت تذكّرني أيام الوصال ، وتقطع من غرائب البين وتخرسه إن صاح أوصال :  
ذكرت بها بعد التفرق ما مضى      زمان النقا والشىء بالشىء يُذكر  
إلى أن استولت على يد الضياع ، وأعقبت لى ذلك الأمن بالارتياح ، فأصبحت من فراقك  
ملتاعا بلوعتين ، واحترقت بجمرتين ، والتدغت من جحر مرتين :

وكنت كذى رجلين رجل مريضة      ورجلٍ رماها الدهرُ يوما فشلت  
غير أن الآمال كانت تشوّفني<sup>(١)</sup> ، والليالي لكتابك تشوّفتنى ، فكنت أصدّق فيك الأوهام ،  
وأعدّ حديثها من الإلهام :

صدقتُ وهمى فى الحديث ولم أقل      خبيرٌ رواه الوهمُ وهو ضعيفُ  
وهو فى مطلع رسالته يقتبس من سورة يونس : ( الحسنى وزيادة ) كما يقتبس من سورة  
القيامة : ﴿ إذا بلغت التراقي وقيل : من راق ﴾ ، ويتأثر بالحديث النبوى : « لا يلدغ المؤمن  
من جحر مرتين » ويتمثل بأبيات تتضح فيها رهاقة ذوقه وبصره بالشعر العربى ودقة اختياره ،  
ولغة الرسالة وأساليبها تكتظ بالسلاسة والعذوبة ، مع ما يشيع فيها من الجناسات والطباقات  
والاستعارات . وكل ذلك يرفع من نثره وبلاغته فيه . ومن آثاره النثرية مقامة بديعة سماها  
« مقامة الحجام » رواها عن بعض الظرفاء وأنا أوجزها فى السطور التالية :

استهلها بأنه جلس يوما مع جماعة من الأحباب .. يتذكرون ما مرّ فى أيام الشباب ،  
وكان بينهم شاب حسن الصورة إلا أن شعر شاربه طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألوه  
عن سبب طول شاربه ، فقال لهم : أنا أخيركم بخبر عجيب ، فقد صلّيت يوما صلاة الاستخارة ،  
فوجدتني مائلا إلى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حانونا بسوق التجار ، لبيع  
القماش ، والاستعانة به على المعاش ، وزيّنت الدكان ، وكسوته الستائر على أربعة أركان .  
فحاول يوما دخول الحمام ، فوجد فى طريقه جماعة من النسوة بينهن فتاة جميلة ، فتبعتها  
حتى دخلت دارا أنيقة ، ورأى أمام الدار خياطا يخيظ الثياب فى دكان . ويذكر الشاب أنه  
احتال على عقد صلة بينه وبين الخياط ، ونجح فى عقدها ، فأنبأه أن أباه خطيب البلد ، وهو  
كثير المال وليس له من أولاد سواها وخطبها كثيرون ، وردّهم ولم يسمح لها بالزواج ، وتلطف

(١) تشوّفتنى : تجعلنى أتطلع وأطمح .

له الشاب حتى أنس به ، فدله على عجوز مشهورة فى تزويج الفتيات ، ولقيته العجوز ، فوعدها بمال وتحف كثيرة إن هى نجحت فى وساطتها . وغابت عنه فترة وعادت إليه بعد شهر ، فأياسته منها ، فقال لها إني لا أريد منها سوى قُبْلَتَيْنِ ، وأعطاهما من الذهب ما أرضاها ، فعادت إلى الوساطة عند أم الفتاة ، وأقنعتها بقاء الشاب المتيم لابنتها ، واتفقا على أن يزورها فى صلاة إحدى الجمع وأبوها مشغول عنها فى المسجد . وفى يوم الجمعة المضروب دخل عند حجّام ليستتم حسن مظهره ، فوجد الحجّام شاربه طويلا فقصّ أطرافه ، وبدلا من أن يعطى الشاب الحجّام درهما أعطاه لارتبائه ديناراً ، فطار صوابه ، وخرج وراءه ، ولازمه ولاصقه طامعا فى دنائره حتى إذا دخل دار الفتاة ولول الحجّام وصاح ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول ألا منجد ألا منجد ألا منجد ألا منجد والعجوز راجفة والبنت واجفة<sup>(١)</sup> ومثلها الأم ، واجتمع الناس والحجّام يصيح : يا سيده ، يا مولاه ، وخرج الناس من صلاة الجمعة وتجمع الناس عند الدار ، ووصل الخبر إلى خطيب البلد فحضر ، وسأل الحجّام ما الخبر ؟ فقال له إن سيدى دخل إلى هذه الدار ومعه كيس فيه ألف دينار فطمعوا فيه فأدخلوه وقتلوه . ووجد الشاب فى الدار بثرا فرمى نفسه فيها ليختبىء عن عيون الناس ، ودخل الخطيب الدار ومعه الحجّام يبحثان عن الشاب ، وعرف الحجّام مخبأه فى البئر ، فسأل الخطيب أبو الفتاة الشاب عن سبب دخوله الدار ، فأجابه مموها عليه : دخلت لكى أسرق ، فحُمِل إلى الوالى على أقبح حال وأسوأ شأن ، وأمر بسجنه ، وبقي فى الحبس سنة . وكان المساجين يعرضون كل عام على السلطان فى شهر رمضان لينظر فى أمرهم ، وعرض عليه الشاب فسأله عن الأمر الذى حُبس من أجله ، فقال له ، إنها قضية أذكرها بين يديك لتحكم فيها ، وذكر له حكايته على وجهها الصحيح ، فأمر برد ماله كما أمر الخطيب أن يزوجه من ابنته ، ودفع له الصداق . وسلم الحجّام للشاب فصلبه على باب داره . ثم قال : وأنا من هذا الحين لا أقص شاربى أبدا .

وقارن الأستاذ محمد بن تاويت بين عناصر هذه المقامة لابن الطيب العلمى وبعض عناصر المقامة السنجارية للحريرى ، ولاحظ كثيراً من التشابه بين عناصر المقامتين حتى فى بعض العبارات والصيغ ، ونجد ابن الطيب العلمى يذكر عن بطلها أنه قصد مدينة سنجار بقصد التجارة ، وهى المدينة التى عقد عليها الحريرى مقامته السنجارية . ومقامة العلمى لا تدور على الشحاذة الأدبية مثل مقامة الحريرى . وقد أخلاها - كما ذكر الأستاذ ابن تاويت - من الألفاظ الغريبة الكثيرة التى استظهرها الحريرى فى مقامته ، وأجرى فيها روح الفكاهة مع السلاسة والعدوية على نحو ما يبدو فى القطعة التالية المقتطفة من أوائلها :

(١) واجفة : مضطربة .

« اتفق لي في بعض الأيام ضرورةً إلى دخول الحمام ، فوجدت في طريقي جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها قضيب البان ، فلمحت من تحت إزار معصمها وقد سطع صفاؤه ، وأبصرت من تحت النقاب جسمها وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون الدم ، وعجزت عن نقل القدم ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها إلى أين تريد ، فدخلت دارا يدل إتقان بابها ، على سعادة أربابها ، ونظرت فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خياط يخيظ في دكان ، وعنده من الصناعات والأعوان ، ذور أذقان ومردان<sup>(١)</sup> ، صنوان<sup>(٢)</sup> وغير صنوان ، فقلت في نفسي : من هذا الخياط أستفهم ، عما عليَّ أيهم . فرجعت إلى دكاني ، ثانياً عناني ، وأحضرت عدّة من التفاصيل ، وجئت بها إلى حانوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته وحوارته وآتسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجلت له من الأجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بمضوري ، واعتنى بأموري ، ووجدت عنده معرفة بالأدب ، وشكا إلى من ضيق الحال والسغب<sup>(٣)</sup> ، وأنشدني لنفسه من شعره المستعذب :

أنا الخياطُ لي رزقٌ ولكن أرى حالي من الإفلاس عبْرَه  
ذراعى فيه من فقري مقصٌ ورزقي خارجٌ من عينِ أبْرَه

فاستحسنت نظمه ، وحملت همّه وسألته عن صناعات دكانه ، وديار جيرانه ، فما زال يشير إلى كل دار ويشرح حالها ، ويعرّفني تفصيلها وإجمالها ، حتى أفضى الحديث إلى الدار التي اختارها ، وقصدي أن تتضح لي أخبارها ، فقال : هي دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتوقرة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهي روحه التي بين جنبيه ، والسواد الذي فيه نور عينيه ، وقد منعها الأزواج ولم يسمح لها بالزواج .  
والمقامة تجرى بهذه الروح الفكهة التي ترسم الابتسامة على الشفاه ، وهي سجع خالص ، سجع قصير يحدث ضروباً من التلازم الصوتي بين العبارات ويحسن جرسها ووقعها في الأسماع ، حتى لتنسب انسياب الجدول الرقراق المتدفق بالماء العذب القراح .

(٣) السغب : الجوع .

(١) مردان : جمع أمرد : شاب .

(٢) صنوان : شقيقان أو متماثلان .





القسم الثالث  
موريتانيا



## الفصل الأول

### الجغرافية والتاريخ

١

#### الجغرافية<sup>(١)</sup>

تقع موريتانيا في الشمال الغربي من إفريقيا جنوب المغرب الأقصى والجزائر ، وفي أقصى شمالها الشرقي الصحراء الغربية ، ويحاذيها في الغرب المحيط الأطلسي ، ويشغل الشرق منها دولة مالي ، وتحاذيها في الجنوب دولة السنغال واسمها تحريف لكلمة صنهاجة التي نزلت بها قبائلها البربرية وامتدت إلى نهر النيجر وشواطئه وإلى إقليم مالي .

وهي تشغل الجزء الغربي من الصحراء الكبرى التي تمتد حزاماً بين بلاد السودان والبلاد المغربية ، وتتأثر على رقعتها مناطق جبلية أشبه بهضاب متسعة ، وتلتقي فيها من حين إلى حين بآبار وواحات صغيرة ، وقد نُمضى مائة كيلومتر دون أن نعثر على بئر أو ماء ، مما يجعل القوافل المارة بها في حاجة إلى دليل يقودها لاسيما على الطرق التجارية الذاهبة إلى السودان والآية منه ، وسطحها رمال سائلة وكتبان متقلبة ، تنقلها الرياح والعواصف الشديدة من مكان إلى مكان ، وطُمرت - على مر العصور - كثير من القرى والبلدان ، والجو - وخاصة في الصيف - شديد الحرارة ، ويعتدل في المناطق الجبلية وعلى ساحل المحيط ، وتهب بها صيفا ريج السيروكو الحارّة والحملة بالرمال ، والأمطار بها قليلة قلة شديدة حتى لتندم في بعض الأثناء . وقد تصبح الصحراء جافة جداً وقاحلة جداً بالمنطقة الجنوبية الشرقية بين آبار أروان وآبار أزواد ، وهما في رمال كالحلة لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع ، وهما محطتان على الطريق التجاري إلى تمبكتو وبلاد السودان . وحينما توجد آبار تنشأ قرى وبلدان يكثر فيها النخيل والكلأ ، ويزرع تحت النخيل في الخريف الشعير والدخن والذرة وأحيانا القمح والبطيخ . وتنمو بموريتانيا أشجار صحراوية مثل السدر والطلح .

وفي أقصى الشمال الغربي لموريتانيا مدينة الساقية الحمراء التي أُسست سنة ١٨٨٤ للميلاد ،

وكتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط للأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطي

(١) انظر في جغرافية موريتانيا كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان في مواضع متعددة ورحلة ابن بطوطة في أواخرها حيث وصف رحلة له إلى السودان العربي

وفى الوسط إلى الغرب إقليم آدرار ، وهو جبال شامخة متصلة أشبه بهضبة كبيرة يسير الراكب فيها ستة أيام طولا وخمسة أيام عرضا ومن أهم مدن هذا الإقليم شنقيط وكانت العاصمة الثقافية لموريتانيا حتى نهاية القرن الماضى ، ويقال إنها شُيِّدت بواحة آبير فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وغلبت عليها الرمال فبنيت فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وكانت موريتانيا - من حيثئذ - تسمى بلاد شنقيط ، ويسمى شعبها الشناقطة ، وسميت فى القرن الحاضر باسم « موريتانيا » وهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الرومان عليها وعلى المغرب الأقصى . وتقع غربى شنقيط مدينة آطار التى بناها السماسدة فى القرن الماضى . وإلى الجنوب من شنقيط حصن أزكى ومدينة أودغشت اللذان اتخذهما المرابطون فى القرن الخامس الهجرى قاعدة لجيوشهما الناشرة للإسلام فى السنغال وغينيا ومالى . وفى الجنوب الشرقى من إقليم آدرار إقليم تكانت وهو مثله هضبة مرتفعة أو بعبارة أدق جبال متصلة عليها مدن وقرى أهمها مدينة تيججكة التى بنيت منذ ثلاثة قرون وهى كثيرة النخل والزروع ، ومن مدن الإقليم مدينة تيشيت فى منطقة رملية وعلى مقربة منها - كما يقول الحسن الوزان - رقعة صالحة للزراعة بها نخيل كثير ورقعة أخرى تزرع شعيرا ودَحْنًا . والماشية نادرة والغنم الصحراوى كثير . ويشتغل أهلها بالتجارة وحمل عروضها أو بضائعها بين السودان والمغرب الأقصى ، وهى - إلى ذلك - كانت محطة مهمة للقوافل التجارية . وإلى الشمال الشرقى من شنقيط مدينة وادان وهى مبنية على مرتفعات صخرية وتشرف على وادين بهما نخل كثير ، وأهلها أصحاب سَبْخَة إجْل فى الشرق المشهورة بمناجم الملح ومنها يُحْمَل إلى شنقيط وبلاد السودان . وحلّت محل مدينة تغازى التى كان يحمل الملح من مناجمها زمن ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى ، ونزل بها فى رحلته إلى السودان وفيها يقول : « من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقوفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها ، إنما هى رمل فيه معدن الملح يحفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نُحِتت ووُضعت تحت الأرض يحمل البعير منها لوحين ، ويأع الحمل منه فى ولاته بعشرة مثاقيل ذهباً وفى مالى بثلاثين مثقالاً ، ويُقطع قطعاً يُتباع بها كما يتباع بالذهب والفضة ، وقرية تغازى يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، ويقول الحسن الوزان إنه ليس لعمالها من أقوات إلا ما يُجَلَّبُ لهم من تمبكتو فى السودان أو الدرعة فى المغرب الأقصى الواقعتين على مسافة عشرين يوماً من تغازى ، وماء آبارها مالح . وفى الجنوب الغربى من موريتانيا مدينة بوتليميت ، وهى عاصمتها الثقافية الآن لوجود معهد إسلامى بها وتشتهر الأنحاء فى الجنوب الغربى بما فيها من مناجم الحديد وهى

تدرّ على البلاد خيرا كثيرا . ومن أهم مدن الجنوب الشرقى مدينة ولأته ، وكانت محطة مهمة للقوافل التجارية ، وكان بها حدائق نخيل وتنتب بقعتها الدخن وحبا مدورا أبيض اللون كما يقول الحسن الوزان ، وتعانى المنطقة - كما يقول - من ندرة اللحم ، وكان أهلها يقومون على إرشاد القوافل العابرة للصحراء وحمايتها حتى السودان وحتى المغرب الأقصى مما كان يدرّ عليهم خيرا كثيرا .

## ٢

### التاريخ<sup>(١)</sup>

كانت قبائل صنهاجة الصحراوية تنزل من قديم فى الشطر الغربى من الصحراء الكبرى جنوبى الجزائر والمغرب الأقصى قاصلة بينهما وبين القبائل السودانية المدارية ، وكانت بعض هذه القبائل تنحدر حتى ضفاف نهر السنغال ، ونفس كلمة السنغال إنما هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين حين نزلوا بسواحلها ، فسموها Senhagal ثم أصبحت Senegal . ويقول ابن أبى زرع إن صنهاجة الصحراوية تنقسم إلى سبعين قبيلة ، منها لتونة وكدالة ومسوفة ولمطة وبنو وارث ومنداسة ، وفى كل قبيلة بطون وعشائر أكثر من أن تحصى . وكثير منهم لا يعرفون حرثا ولا زراعا ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجاهدون فى السودان .

وظلت تلك القبائل تعيش فى الحزام الصحراوى الفاصل بين البلاد المغربية والسودان على أنعامها وألبانها ولحومها وصوفها وأوبارها متخذة منها الخيام ، وكانوا يضعون اللثام على رؤوسهم ووجوههم شعارا لهم ، ولذلك سما الملتصين . وأخذت أضواء الإسلام تنفذ إليهم منذ عهد عقبة بن نافع الفهري وولايته على الديار المغربية ( ٥٠ - ٥٥ هـ ) إذ أسلم على يديه منهم بنو وارث ، ومضوا يجاهدون السودانين الغربيين واتسع اعتناق تلك القبائل للإسلام فى عهد موسى بن نصير ( ٨٦ - ٩٦ هـ ) ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على مقاليد الحكم فى البلاد المغربية ( ١٢٧ - ١٣٧ هـ ) عنى بالطريق التجارى المار بقبائل صنهاجة

إفريقيا ، فى مواضع مختلفة ورحلة ابن بطوطة فى حديثه عن ولأته وكتاب مناهل الصفا للفشتالى ص ٥٨ وما بعدها . وكتاب الوسيط لابن الأمين الشنقيطى ، وإمبراطورية غانة الإسلامية وإمبراطورية مالى الإسلامية للدكتور إبراهيم طرخان .

(١) انظر فى تاريخ موريتانيا المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى وحديثه عن جارتها غانة وكتاب روض القرطاس لابن أبى زرع ( طبع الرباط ) ص ١٢٠ وتاريخ ابن خلدون ( طبع بولاق ) ١٨٢/٦ وحديث ابن حوقل عن السودان الغربى فى كتابه : « صورة الأرض » وراجع كتاب الحسن الوزان : « وصف



غربي الصحراء الكبرى ، إذ حفر عليه من سجلماسة في جنوبي المغرب الأقصى إلى بلاد السودان الغربي آبارًا للقوافل التجارية تنزل عندها وتأخذ كفايتها من الماء في مسيرتها الصحراوية .

وأخذ الإسلام يتسرب سريعًا إلى بلاد السودان الغربي عن طريق القبائل الصنهاجية في موريتانيا والتجار المسلمين ، ويقول أبو عبد الله البكري في كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب إن بني أمية أرسلوا جيشًا لفتح بلاد السودان ، واستقرت ذرية منه في بلاد غانة ، وكانت حينئذ تقع في شرقي السنغال الحديثة وجنوبي مالي الحديثة أيضًا ، وإذا صح ذلك فإن هذا الجيش حمل قديمًا إلى ديار السودان الغربي الدين الحنيف وبقي هناك من يدعو إليه ، ويتصل بذلك ما جاء في صبح الأعشى من أن أهل غانة أسلموا في أول الفتح . ونجد القبائل الصنهاجية - وخاصة لتونة - تتجمع في مدينة أودغست جنوبي منطقة آدرار وتحدث فيها ما يشبه إمارة - ويسمونها بعض جغرافيين العرب مملكة - ويذكر ابن أبي زرع من أمرائها أو شيوخها أو ملوكها - كما يقول - تيلوتان وكانت ولايته مسيرة ثلاثة أشهر في مثلها كلها عامرة ، وكان يركب في مائة ألف بعير ، وهو عدد ضخيم من الإبل ، وكان في زمن عبد الرحمن الداخل سلطان الأندلس ( ١٣٨ - ١٧٠ هـ ) وطال عمره إلى أن توفي سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م وكانت أيام حكمه خمسًا وستين سنة ، ودان له - كما يقول ابن أبي زرع - أزيد من عشرين ملكًا من ملوك السودان . ولم يكونوا ملوكًا بالمعنى الحقيقي لكلمة ملوك ، إذ لم تكن لهم حكومات ولا دساتير دول ، إنما كانوا زعماء لأقوامهم ، وربما كانوا شيوخ - أو سادة - قبائل ، وأكبر الظن أن في هذا العدد من الزعماء مبالغة . وخلفه حفيده الأثير بن فطر ، فقام بأمر صنهاجة الصحراوية أو الموريتانية خمسًا وستين سنة إلى أن توفي سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م وولى بعده ابنه تميم إلى أن توفي سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م . واضطربت شئون صنهاجة الموريتانية بعده فترة ثم اجتمعت على يروتان بن ونسبو بن نزار اللمتوني الأودغستي فملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) وابنه المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٥ هـ ) وكان يركب - مثل تيلوتان في مائة ألف بعير ، وكان حكمه مسيرة شهرين في مثلها ودان له عشرون ملكًا من ملوك السودان - مثل تيلوتان - يؤدون له الجزية ، وملك من بعده بنوه ثم افتقرت كلمة الصنهاجيين ، وعظم أمر مملكة غانة واستولت على أودغست ، وكانت تمون بلاد السودان بالملح الوارد إليها من تغازي ومن أجله استولت عليها غانة .

وتتجمع صنهاجة تحت لواء الشيخ أو الأمير أبي عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف باسم تاوشتا اللمتوني وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد والحج ، وظل أميرًا على صنهاجة الموريتانية مدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد في إحدى غزواته . وولى أمر صنهاجة

الموريتانية بعد تاوشتا اللمتوني صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي ، وخرج في سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية في رؤساء من قومه ، وفي عودته اجتمع في القيروان بأبي عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي بها المتوفى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م وعرفه بما في صنهاجة الصحراء الموريتانية من الجهل بشئون الدين الخفيف وتعاليمه ، وسأله أن يوجه معه أحد تلاميذه ليصّرهم بأمور دينهم ، وعرض الشيخ رغبته على تلاميذه ، فلم يستجب منهم أحد ، فكتب له رسالة إلى فقيه من تلاميذه بمدينة سجلماسة جنوبي المغرب الأقصى هو محمد وجاج أو وقاق بن زلو اللمطي . وطلب إليه في رسالته أن يعرض الأمر على طلابه ، لعل واحدا منهم يقبل المسيرة مع يحيى الكدالي ، وقبلها فقيه تقي ورع من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولي .

ورجع يحيى الكدالي إلى قومه الصنهاجيين بعبد الله بن ياسين فأخذ يحفظهم القرآن الكريم ويقفهم على تعاليم الدين الخفيف ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فالتفوا حوله ، وبعد فترة ازوروا عنه ، وتوفى حامي يحيى الكدالي فأجمعوا على الانصراف عنه لما يأخذهم به من مشاق التكاليف الدينية . وأخذ يفكر في تركهم والعودة إلى موطنه ، غير أن زعيما من لتونة الصنهاجية الموريتانية هو يحيى بن عمر أشار عليه أن يعتزل معه للعبادة والنسك في جزيرة على مقربة من مصب نهر السنغال ، ونزلاها معا ، ونزلا معا سبعة من قبيلة كدالة الصنهاجية ، وبنى بها عبد الله بن ياسين رباطا للنسك ، وأخذ يلتحق به عشرات من أشرف صنهاجة ، كان يفقههم في الدين ، حتى إذا بلغوا ألفا قال لهم : إن ألفا لن يُغلبوا من قلة ، وقد تعين علينا - أيها المرابطون - القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، وبذلك سماهم : المرابطين ، وغلب هذا الاسم على صنهاجة الصحراوية الموريتانية بجانب الاسم القديم : الملتمين ، وخرجوا معه ، وجعل أمرهم في الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ، وقتل هو ويحيى من استعصى على الحق من قبائل صنهاجة الموريتانية ، ومضيا في سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م يدعوان إلى الإسلام في سوداني التكرور وحوض السنغال الأدنى وما وراءه من بلاد السودان الغربي في غانة وغير غانة . وفي سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م كاتبهما فقهاء سجلماسة ودرعة جنوبي المغرب الأقصى وصلحاهما كي ينقذا البلاد مما فيها من المنكرات ومن ظلم الولاة والحكام ، فاتجها بجيش جرار إليهم ، وتم لهما النصر ، وأزالا ما بالبلدين من المنكرات وأسقطا ما كان بهما من المغارم والمكوس ، وجعلا عليهما عاملا أو واليا من لتونة ، وعادا إلى صحراء موريتانيا وإلى جهاد الوثنيين في بلاد السودان ، وتوفى الأمير يحيى بن عمر في شهر المحرم سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م وقدم الفقيه عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني مكانه وقلده أمر الحرب .

وكان أبو بكر بن عمر بطلا مغوارا ، وكان صالحا متينا الدين متورعا ، وسرعان ما تقدم بجيشه من آدرار وحصنى أزكى وأودغست فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى بلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ، وأخذ يستولى على بلدانها وقضى فيها على قوم من الروافض يقال لهم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلي الرافضى ، وكان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله المهدي الشيعى الإسماعيلى إلى إفريقيا ، وأشاع به مذهبه الرافضى ، وأخذت أجيال متعاقبة تتوارثه هناك إلى أن قاتلهم أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين وقتل منهم خلق كثير ، ورجع من بقى منهم إلى السنة ورأى الجماعة . وتلك أولى حسنات أبى بكر بن عمر والشيخ عبد الله بن ياسين فى المغرب الأقصى ، وأخذا يتغلغلان فيه شمالا واستوليا على أغمات وإقليم حاحة سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م كما استوليا على تادلة وإقليم دكالة ، وعرفا أن بساحلها على المحيط وساحل إقليم تامسنة قبائل برغواطة التى خرج بها عن جادة الدين الحنيف متنبعون ابتدعوا لهم شريعة ضالة كافرة - وتعاقبوا فيهم من قديم ، فقصدوا إليها فى مدينة آسفى على المحيط بإقليم دكالة وفى مدن سلا وآزمور وآنفة ( الدار البيضاء ) فى ساحل إقليم تامسنة ، وأخذا ينازلانها منازل ضارية ، وفى بعض المنازل والوقائع استشهد الشيخ العظيم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبنى مسجد على قبره . ومضى أبو بكر بن عمر يجاهد برغواطة ، حتى استأصل شأفتها ومحا دعوتها من المغرب الأقصى إلى غير رجعة . وتلك حسنة كبرى ثانية لأبى بكر بن عمر وصنهاجة موريتانيا . وبلغه سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م أن خلافا شديدا نشب فى صحراء موريتانيا بين قبيلتى لتونة ومسوفة ، وخشى افتراق الكلمة ، فخرج إليهما واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومنذ ذلك الحين انقسمت دولة المرابطين قسمين : قسما شماليا وقسما جنوبيا ، وقاد القسم الشمالى يوسف بن تاشفين ، وسرعان ما أسس فى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م عاصمة دولته : مراكش ، وفى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م استولى على مدينة تلمسان الجزائرية من أيدي بنى يعلى الخزرين ، وتوغل شرقها حتى مدينة الجزائر . واستصرخه بعض أمراء الطوائف فى الأندلس ، كى ينقذهم من براثن الإسبان الشماليين ، فجاز إليهم زقاق جبل طارق بجموع صنهاجة الصحراء الموريتانية ، وانتصر على الإسبان فى موقعة الزلاقة انتصارا حاسما سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٥ م ورأى من الضرورى القضاء على أمراء الطوائف حتى تعود إلى الأندلس وحدتها إزاء الأعداء المتربصين . وهذا الانتصار العظيم يعد حسنة كبرى ثالثة تضاف إلى صنهاجة الصحراء الموريتانية .

والقسم الجنوبى لدولة المرابطين ظل يقوده البطل المجاهد العظيم أبو بكر بن عمر الذى استطاع نشر الإسلام فى جميع أرجاء إفريقيا المدارية حتى أبواب إفريقيا الاستوائية وسياجها الضخم من الغابات الكثيفة ، وقد بدأ بالتكرور ومنطقة نهر السنغال الأدنى ، وانضموا إلى



جيشه فى حماس بالغ لنشر الإسلام فى ربوع السودان ، واستطاع الاستيلاء على غانة ونشر الإسلام فى أنحائها ، ويقال إن أميرها السوننكى أعلن إسلامه وأسلم معه كثيرون . وبالمثل نشر الإسلام فى أرجاء مالى وأرجاء صننى فى حوض النيجر الأوسط ، وحققا كل تلك البلدان كان قد دخلها الإسلام على أيدي التجار والقبائل الصنهاجية قبل أبى بكر بن عمر ، ولكن كانت كثرة أهلها ما عدا التكرور وثنية ، أما أبو بكر بن عمر فإنه أحالها بلادا وشعوبا إسلامية إلى اليوم وإلى أبد الأبدى . وكل ذلك بفضل هذا البطل الصحراوى الموريتانى المخلص لدينه الذى كان يحكم كل هذه الأقطار من منطقة الأدرار فى موريتانيا متخذاً أزكى وأودغست قاعدتين كبيرتين لحملاته الحربية جنوبا وشرقا . وكل ذلك يحسب له ولصنهاجة موريتانيا كما يحسب لها ما أدته من خدمات جلّى فى الأندلس وحماتها للإسلام هناك ضد أعدائه من نصارى الإسبان . وطبعى أن تسيطر صنهاجة موريتانيا فى أثناء ذلك على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب الأقصى وإفريقيا المدارية . واستشهد البطل العظيم أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م برمية سهم مسموم فى عودة له إلى الأدرار من غزوة مظفرة بعد أن أدى للإسلام خدمات جلّى وسّع بها داره الإفريقية وعلمه الضخم .

وأبو بكر - دون ريب - هو صاحب الفضل فى أن جعل كل الشعوب الإفريقية التى استولى عليها شعوبا إسلامية ، ودخلت إليها مع الإسلام اللغة العربية ، وظلت لغة العبادة والثقافة والتجارة إلى اليوم ، ولم يستطع الاستعمار إزاحتها عن مكانتها . وعادت هذه الشعوب إلى الاستقلال عن دولة المرابطين وصنهاجة موريتانيا بعد وفاة أبى بكر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، وازدهرت من بينها مملكة غانة وظلت صاحبة السيادة والنفوذ فى كل البلاد والأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى وتبعها الشطر الجنوبى من موريتانيا ومدينة أودغست ونيمة وولاته ، وانتسب حكامها - كما يقول الإدريسى - إلى الحسن بن على بن أبى طالب . وكانت قبيلة الصوصو تنزل جنوبيها وتخضع لها وتدفع إليها الجزية إذ كانت وثنية ، ومازالت تقوى حتى استطاعت القضاء على غانة والاستيلاء على عاصمتها كومبى صالح شمالى ياماكو عاصمة مالى الحديثة سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وفرّ من العاصمة فريق من المسلمين مع الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته فى الجنوب الشرقى لموريتانيا وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى إفريقية الغربية . وبعد نحو ثلاثين عاما استطاع مارى جاطة بطل دولة مالى القومى وأهم حكامها أن يغزو بلاد الصوصو ويقضى عليهم . وامتدت دولته حتى شملت حوض نهر السنغال ونهر غينيا ومعظم حوض النيجر الأوسط والأعلى ، وفى أوائل عهد أحد أحفاده وهو منسا سليمان ( ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م - ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م ) قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان ، وكانت أول مدينة نزل بها فى موريتانيا مدينة تغازى ، ومر بنا حديثه عن مناجم الملح بها ، وعجب

من انخفاض ثمنه في موطنه وارتفاعه في بلاد السودان ، وكأنه لم يكن يعرف شدة حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية في ديارهم إذ يحفظ الماء في الجسم فلا يتبخر سريعا ، وقال إن من يحفرون عليه عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية . ونزل مدينة ولاته ، ويذكر أن أكثر أهلها من قبيلة مسوفة ، وأنها كانت تتبع حينئذ سلطان مالي ، وأغلب الظن أن تبعيتها لمالي منذ عهد ماري جاطة ( ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م - ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م ) الذي وسّع حدود دولته - كما أسلفنا - إلى أقصى حد جنوبا وشرقا وغربا وكانت « ولاته » تابعة لغانة ومثلها مدينتا نيمة وأودغست ، فطبيعي أن تدين جميعا له ولما لبى بعده وحكامها التاليين . ويذكر ابن بطوطة عن ولاته أنها شديدة الحر وبها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ ، ولحم الضان بها كثير وثياب أهلها ثياب مصرية حسان ، ويقول إنهم مسلمون يحافظون على الصلوات ومثلهم نساؤهم ولهن جمال فائق ، ويذكر أنه أقام بها نحو خمسين يوما وأن أهلها أكرموا وفي مقدمتهم قاضيها وأخ له مدرس . ولا نعود نسمع عن ولاته في عهد دولة مالي ، وكانت قد أخذت في الضعف بينما أخذت صنغى في حوض النيجر الأوسط شرقي السنغال وغمبيا تقوى ، ولم تلبث أن استقلت عن مالي ، ثم أخذت تزداد قوة تدريجا في القرن التاسع الهجري ، وبلغت غاية قوتها في عهد أسرة إسكيا واستولى « سنّ على » ملكها على تمبكتو وأشعل فيها النيران سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م مما جعل فقهاءها وفي مقدمتهم عمر بن محمد أقيت يفرّون منها إلى ولاته واستولت هذه الأسرة على كثير من بلدان مالي ومدّت سلطاتها ونفوذها إلى ولاته وإقليمها في موريتانيا ، وكان حكامها بعد سن على متمسكين بالإسلام ، مما زاد في تعلق الناس بهم ، وخاصة بمحمد بن أبي بكر ( ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م - ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م ) الذي اتخذ مدينة تومبكتو على النيجر عاصمة له ، واستكثر من بناء المساجد والزوايا ، واستقدم لها الفقهاء والعلماء لتعليم الناس القرآن والفقه وأمور دينهم ، وزار الحسن الوزان ولاته في عهده وقال إنها تابعة لملك تومبكتو وتدفع له ضريبة محددة ، ومر بنا حديثه عنها في جغرافية موريتانيا ، وقال إن كل تنظيم مدنى مجهول في هذه المنطقة ، فلا قضاة ولا حكومة منظمة ، إذ كانت قبيلة مسوفة فيها لا تزال تعيش معيشة قبيلة .

ويبدو أن دولة صنغى لم تكف بولاء ولاته وأنها حاولت الاستيلاء على تغازى وما بها من مناجم الملح ، بل يقال إنها استولت عليها فعلا مما أغضب أحمد المنصور الذهبي سلطان الدولة السعدية في المغرب الأقصى ( ٩٨٦-١٠١٢ هـ ) فصمم على منازلها ، وأرسل إليها حملة سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٧٩ م في عهد حاكمها إسكيا داود وتغلغلت الحملة في بلاد السودان واضطر إسكيا داود أن يقبل التنازل عما بيده من بلاد موريتانيا والقبائل الصنهاجية ، وعادت الحملة بغنائم كثيرة وسمع بالحملة صاحب برنو شرقي صنغى وكأنما خشى على بلاده من الجيش السعدى ، فأرسل في أواخر سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٨٢ م بيعته للمنصور الذهبي مع هدية كبيرة

من فتيان العبيد والإماء ، وصمم المنصور على غزو صنغى واحتلال بلادها لما فيها من كنوز الذهب ومعادنه ، وأعدّ لذلك جيشا جرارا بقيادة جوّذر الأندلسى ، والتقى الجيش بعد رحلة شاقة مضية فى فيانفى الصحراء وقفارها بجيش إسكيا إسحق بن داود واستطاع هزيمته فى موقعة فوندى شمالى جاو ، ودخل المدينة فوجد أهلها غادروها واتجه جوّذر إلى تومبكتو العاصمة ، وأحس بخيبة أمل شديدة حين قيل له إن مناجم الذهب التى يقصدها لا تزال بعيدة جدا بُعد المغرب الأقصى عن تمبكتو . وأرسل بذلك إلى المنصور فغضب وعزله عن قيادة الجيش وأرسل مكانه محمود زرجون ، ويقال إنهم استولوا من قصور إسكيا إسحق بن داود على ما لا يحصى من الخلى والذهب وعاد الجيش محملا بغير قليل منهما ، مما أتاح للمنصور أن يبنى قصره « البديع » وينثر منه الكثير على الناس ، ولذلك سُمى المنصور الذهبى .

وأهم ما عاد على موريتانيا من انتصار هذا الجيش المغربى الضخم أنه رفع يد دولة صنغى عن البلدان الموريتانية التى دانت لها ، وأكثر من ذلك أهمية أن المنصور رأى أن يرسل إلى بلاد موريتانيا والسودان رجالا كثيرين وخيلا من عرب المعقل وجشم أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما استولى عليه جيشه من تلك الديار . ولّباه من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ، ونزلت عشائر منها فى شنقيط ، وإليها ينسب إدوعيش سكان تكانت وأبناء أحمد من دامان والترارزة فى الجنوب الغربى من موريتانيا ، وينسب إليها أيضا البرايش سكان تيشيت وحكامها والأوداية ونزلوا بين وادان وولاته وكان قبائل حسان تغلغلت فى كل بلدان موريتانيا ومناطقها ، وكان ذلك كسبا كبيرا لموريتانيا لأنهم عرب ، وأخذت تتعرب من حينئذ أى من أول القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى .

ومع أنهم استقروا فى مدن موريتانيا مع إخوانهم من القبائل الصنهاجية ، ولم يعودوا يسكنون فى خيام ، إنما يسكنون فى أكواخ ، ظلوا يعنون بتربية الإبل والخيل ، وظلوا يقودون حروبا مستمرة ، ويتسع أحمد بن الأمين الشنقيطى فى عرضها بكتابه الوسيط وتراجم أدباء شنقيط ، ونراه يقول عن حروب قبائل حسان إن الحرب أصل معهود بينهم فترى قبائلهم أو أقسامهم الكبيرة يحارب بعضها بعضا كما وقع بين إدوعيش سكان تكانت والترارزة سكان الجنوب الغربى إلى حدود السنغال ، وكما وقع بين إدوعيش وأبناء أحمد من دامان جيرانهم وكما وقع بين أحياء من عثمان سكان أدرار وإدوعيش ، وكما وقع بين الترارزة وأبناء عموماتهم البراكنة ، ويعرض لحروب الترارزة ، فيقول فى فاتحة عرضه : ما وقع بين الترارزة مع غيرهم لا يذكر ، بالنسبة لما وقع بين بعضهم وبعض ، وما يزال ابن الأمين الشنقيطى يعرض علينا حروب الموريتانيين وكيف أنها كانت تبدأ ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن . ولم تنج منها بلدة موريتانية ، ولا أفلت منها راغب فيها أو كاره ، وقد غلبت على حياتهم منذ القرن

الحادى عشر الهجرى ، بل فى رأينا منذ القرن العاشر ونزول قبائل حسان بينهم . ولعل ذلك ما حال فى موريتانيا بينها وبين قيام دولة فيها ، إذ لم تعمها وحدة بين قبائلها وسكان مدنها قبل القرن العشرين ، وكان لمدينة شنقيط فيها زعامة ولكنها لم تكن زعامة سياسية إنما كانت زعامة ثقافية . وظلت البلاد - منذ المنصور الذهبى - تستشعر شيئا من الولاء للدولة السعديين فى المغرب الأقصى ثم لدولة العلويين . ومازالت حياتها على النحو الذى قدمناه إلى أن داهمتها القوات الفرنسية سنة ١٩٠٣ للميلاد ووضعتها تحت الحماية ، وفى سنة ١٩٢٠ جعلتها مستعمرة فرنسية ، ومازال شعبها يجاهد الفرنسيين حتى أزاحهم عن دياره سنة ١٩٨٠ وأعلن قيام جمهورية موريتانية إسلامية فى البلاد .



## الفصل الثاني

### المجتمع والثقافة

١

المجتمع<sup>(١)</sup>

(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية

كان المجتمع في موريتانيا يتألف من قبائل صنهاجة وعبيدهم من السودان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون لهم بكثير من الأعمال في الزراعة وحفر الآبار وسقى المزروعات وكذلك في المراعى ورعى الأنعام ، ويقول ابن بطوطة في رحلته إلى السودان ونزوله بتغازى بلدة مناجم الملح إن عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية هم الذين يقومون باستخراجه من الأرض وإعداده لحمله إلى بلاد السودان . ونزل موريتانيا في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى كثيرون من قبائل المعقل الذين كانوا ينزلون بالقرب من مدينتى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى وخاصة قبائل حسان ، دفعهم المنصور الذهبى إلى الجنوب ليحموا فتوحه فى بلاد السودان واستقر كثيرون منهم فى موريتانيا مفضلين لها على بلاد السودان ، لأنها بسطحها الرملى الصحراوى تشبه البوادرى التى كانوا يستوطنونها جنوبى المغرب الأقصى . وأخذ كثيرون منهم يوثرون أرض المراعى يرعون فيها أنعامهم متنقلين فيها وراء الكلاً ، كما فى أرض تيرس الواسعة الواقعة غربى منطقة آدرار والممتدة جنوبا وغربا حتى المحيط الأطلسى ، وهى منطقة شديدة الخصوبة ، وهى قليلة المطر ، غير أنه قد يكثر فيها أحيانا بل ربما توالى ذلك فى سنوات متعاقبة ، ويسمون بها سنوات الخصب ، وتسمن فيها أنعامهم وإبلهم ، حتى ليرفعون عن ضرورهم ما يشدونها به من نسيج الحبال ، خوفا عليها من أن تفسدها كثرة اللبن ولذلك يتركون الفُصْلان ترضع أمهاتها متى شاءت ودائما يتفقد الرعاة الضروع حلبها ، وكثيرا ما يلقون باللبن على الأرض لعدم الحاجة إليه . ويكبر الفصيل سريعا حتى ليصبح صالحا للركوب فى سنة ولادته ، ويسبب هذا الخصب وغزارة المراعى فيه ربما ولدت الناقة لستين ونحوهما ، مما جعل الإبل فيها كثيرة ، حتى ليقولون إنها تنبت الإبل ، كما ينبت المطر النبات . وطبيعى

الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيط .

(١) انظر فى المجتمع الموريتانى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة وكذلك كتاب

أن تكثر المراعى فى صحراء موريتانيا ، وكما نلقاها فى تبرس نلقاها فى منطقة تيشيت وفى الصحارى الممتدة بين وادان شرقى شنقيط وبين ولاته فى الجنوب الشرقى وأيضا فى منطقة الحوض غربيها .

### (ب) الزروع والمراعى

وأقام كثيرون من قبائل المعقل وخاصة قبائل حسان والبراييش وأودية فى مدن موريتانيا ، وكانت قديما تشتمل على مسجد أو مساجد تتألف من أكواخ تبنى حول آبار فى وديان أشبه بواحات صغيرة . وأهم ما يزرعون فيها النخل ليقتاتوا من تموره ، وعادة يزرعون تحته الشعير وقد يزرعون الدخن والقمح ، ويقول الحسن الوزان عن تيشيت إنه يوجد قريبا رقعة صغيرة صالحة للزراعة ، زرعتها أهلها بالنخيل ، ورقعة أخرى يزرعونها شعيرا ودخنا يقيمون بها أودهم ، ويقول عن وادان إنه لا ينبت فيها سوى النخيل ، ويزارول أهلها الصيد للحيوانات الوحشية مثل الوعل والنعام ، وبها بعض الماعز ، ويقول عن ولاته إن أرضها تنبت الدخن والذرة . ويقول أحمد بن الأمين عن شنقيط إن بها نخلا كثيرا ، وبعض جبالها مزارع يزرع فيها القمح والشعير والدخن واللوبيا ، وأهل منطقة أدرار عامة يزرعون القمح والشعير تحت النخل ، ويزرعون فى الأودية والرمال نوعا يسمى فندى وهو بطيخ أبيض اللون وأخضر من أجود البطيخ ، ويصنعون من بذر الأبيض دقيقا يخلطونه بدقيق الدخن ويجعلون منه شبه العصيدة ، ويقول الشنقيطى عن مدينة تيججكة إنها على ضفة واد كثير النخل وفى شمالها مزارع للفندى والدخن ، ويقول عن تكانت إنها كثيرة الأشجار الصحراوية ويعدد أشجارها . وتلك هى صورة الزروع فى موريتانيا ، وليس منها شىء يصدر إنما هى لمعيشة أهلها وما يسد حاجتهم من الطعام . وأهل المدن والزروع بذلك أحسن حالا من أهل المراعى والأنعام ، إذ ليس من عاداتهم أكل الخبز أو هم غالبا لا يعرفونه ، إنما يعرفون حليب نوقهم ، ويقول الشنقيطى ربما يبلغ أحد الرعاة ستين عاما ولم يعرف الخبز ولا العصيدة فضلا عن أكلهما ، إنما يشرب اللبن أو يأكل التمر أو بعض لحوم الأنعام التى يرعاها .

### (ج) التجارة

من قديم أهم من الزروع والمراعى عند أهل موريتانيا التجارة مع أهل السودان . وأهم ما يتجرون به معهم الملح الذى كانوا يستخرجونه من مناجم تغازى حتى القرن العاشر الهجرى ، وأخذوا - فيما بعد - يستخرجونه من آجل شرقى وادان ، ويكاد كل أهل موريتانيا يتجرون فيه لكثرة العائد منه ، ويتجر فيه أهل شنقيط ووادان وتيججكة وولاته والحوض وتكانت ، ويكاد يباع فى أعماق السودان بوزنه ذهباً . ومر بنا قول ابن بطوطة فى زمنه إن الحمل منه أى حمل البعير وهو - كما قال - لوحان بعشرة مثاقيل من الذهب فى تغازى ، ووجده فى مالى

يباع بثلاثين مثقالا وقال إنه قد يباع فى مالى بأربعين مثقالا ، ومالى قرية من تغازى فما بالناس بما يباع به فى أراضى السودان البعيدة . وقال الشنقيطى إن كل ما عند أهل السودان من الخيل والثياب والزرور والعبيد كانوا يبيعونه - أو يبادلونه - بالملح . ومما يأتى به بائع الملح من هناك القماش المعروف بالأكحال وأردية يسمونها « ديماس وديسة » وبنائق والقول المعروف عند المصريين بفول السودان وعند أهل الشام بالفستق وعند أهل الحجاز باللوز الهندى . وهذه هى التجارة العامة فى موريتانيا وتليها التجارة فى الصمغ ، ويجنيه أهل القبلة من الأنحاء التى يكثر فيها القناد أو الشوك وكذلك أهل الحوض . ولم يكن أهل موريتانيا يعرفون النقود فكانوا يتبادلون فى الكثير الأكثر القماش الذى يحتاجونه للملابسهم بالغنم ، وكان الثلاثون ذراعا من القماش تسمى باسم البيصة ، وهى الوحدة التى يرجعون إليها فى ثمن الأنعام والعبيد فيقولون مثلا هل تبيع هذا العبد أو ذلك البعير أو هذا الثور بعشر بيصات أو يقولون مثلا بكم أشتري بالبيصة من الغنم فيقال ثلاث أو أربع ونحو ذلك . وإذا كان البيع أو التبادل بين الأنعام بعضها وبعض فيقولون مثلا ثمن هذا البعير أربعة عجول من البقر أو ثمانية من الغنم .

وليس فى موريتانيا سوى صناعات أولية بسيطة ، وكان فيها حدادون بسطاء يصنعون الفئوس والخناجر وآلات الحراثة ، وكان بها دباغون يدبغون الفراء وجلود الأنعام ، وبعض النساء كن يخطن ما يصنع من الجلود ، وكان بينهم من يصنع أواني الخشب ، وكل تلك صناعات يدوية أولية .

#### ( ٥ ) حياة يدوية

لم يكن فى موريتانيا حكومات منظمة ، فقد كانوا لا يزالون يعيشون معيشة بدوية فى المدن التى أقاموها وسكنوها . ومثل قبائل البدو كان هناك سادة وشيوخ لعشائرتهم يطيعونهم ، وكانت القبيلة أو البلدة تتخذ لها قاضيا ترجع إليه فى قضاياها ، وكانوا لا يرجعون إليه إلا فى المسائل الكبرى أو القضايا الكبرى كما إذا حدث قتل فكانوا يلجئون إليه للقصاص ، وحتى فى هذه القضية الكبرى كان سادة القبائل أو كما يسميهم الشنقيطى أمراء القبائل لا ينفذون الحكم ، أو يطيلون التنفيذ ليأخذوا الرشوة ، ويقول : « ربما أوعز الأمير إلى القاضى ليحكم بما يهوى » . وفى أحوال كثيرة لم يكن هناك قاض فكان المتنازعان يحتكمان إلى شخص ليستمع حججهما ، وقد يطلب من المدعى الشهود ، وتشترط العدالة فى الشاهد ، وإذا حكم رضى المدعى لحكمه إلا إذا أفتاه أحد العلماء بالخطأ فى الحكم ، وربما ظلت القضية سنوات حتى يتفق رأى العلماء فيها .

وكان الزواج عندهم - ولا يزال - على مذهب الإمام مالك لأنهم مالكية مثل بقية بلدان المغرب ، ومنهم من يأخذ الصداق كاملا ومنهم من يكتفى بنصفه ، ومنهم من لا يأخذه البتة ،

والجهاز بحسب العرف . وعلى وليّ الزوجة أن يقيم قبل بناء الزوج بها وليمة ، وتُحْمَلُ منها موائد إلى أقارب الزوج ، وتبعث الزوجة بتلك الموائد في كل عيد ، وتبعث نساؤهم بموائد مماثلة إلى الزوجة ، لتسود المودة والمحبة بينهم جميعا .

٢

## الثقافة<sup>(١)</sup>

### ( أ ) نشاط ديني تعليمي كبير

من المعروف أن الإسلام لم يدخل شعبا ولا بلداً إلا دفعهما دفعا إلى العلم والتعلم ، وقد كانت أول آيات نزلت منه على الرسول ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم﴾ وآيات قرآنية أخرى كثيرة تحض على العلم كما تحض عليه أحاديث نبوية متعددة .

ومعنى ذلك أن الإسلام والعلم متلازمان ، وأن العلم لا ينفك عنه أبدا ، وكان المسلمون الأولون بمجرد أن يفتحوا بلدا يقيمون فيه مسجدا ، ويقيمون بجانب المسجد كتابا لتحفيظ القرآن الكريم للناشئة ، حتى إذا حفظ الناشئ القرآن ورتلّه أو جودّه تحوّل إلى حلقة أحد العلماء في المساجد يأخذ عنه الفقه والحديث والعلوم الإسلامية . كما يأخذ عنه العربية وقواعدها وآدابها من شعر ونثر . وكما يحدث ذلك في المدن يحدث في أحياء البدو وبصور مختلفة ، هيأت دائما كما هيأت صور التعليم في المدن لظهور فقهاء يفقهون الدين الإسلامي وتعاليمه وما فرض من الصلاة والصيام والزكاة والحج وظهور نخاة ولغويين يحسنون العربية وقواعدها وتعليمها للناشئة .

وكل ذلك حدث في موريتانيا مع انتشار الإسلام في بلدانها وبين قبائلها البدوية منذ القرنين الثالث والرابع حين أصبحت هناك قبائل تعمل على نشر الدين الخنيف ، واتسع ذلك في القرن الخامس الهجري حين نزل الشيخ عبد الله بن ياسين في قبائل لتونة وأخواتها الصحراويات بموريتانيا : مسوفة وكدالة وجزولة ولطة ، وسمى أتباعه هناك المرابطين أي المجاهدين الذين رصدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ودينه ، ومضى مع يحيى بن عمر اللمتوني ثم مع أخيه أبي بكر يدعو أهل السودان الغربي - كما مرّ بنا - إلى الإسلام ،

(١) الثقافة العربية الإسلامية في كتاب الشعر والشعراء في موريتانيا للدكتور محمد المختار ولد إياه وكذلك كتابه دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا .

(١) انظر في ثقافة موريتانيا وصف إفريقيا للحسن الوزان في مواضع مختلفة من كتابه ، وراجع كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط سواء في التراجم أو في حديثه عن التعليم والعلماء والطلبة ، وبالمثل راجع فصل مظاهر



وتوفى - كما أسلفنا - فى جهاد برغواطة الضالة فى المغرب الأقصى وقضى عليها قضاء مبرما أبو بكر ، وعاد بشطر كبير من جيشه إلى قواعده بمنطقة أدرار فى موريتانيا وأخذ يعد حملاته إلى أنحاء السودان الغربى ، ودان له ودخل كثيرون من أهله فى الإسلام وتحولت كثرة من جيشه ، يعلمون أهل السودان الغربى شئون دينهم ، ويحفظونهم القرآن الكريم .

وذلك كان فضلا عظيما لصنهاجة موريتانيا ، وعاد كثيرون منهم إلى موريتانيا سوى من كانوا لا يزالون بها ، وفى كل بلدة وفى كل حى من أحياء القبائل البدوية كانت الناشئة تدوى - دوى النحل - بأى القرآن الكريم ، وكانوا - بعد ترتيبه أو تجويده - يلتحقون ببعض العلماء ، ولكن ليس فى أيدينا شىء سجلوه عن التعليم فى ديارهم ، إنما تلتقط - منذ القرن السادس الهجرى - أخبار العلماء وأسمائهم التقاطا ، كأن يقال إن غزو قبائل الصوصو لعاصمة غانة : كومبى صالح سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م جعل الشيخ إسماعيل وبعض علمائها يفرّون منها مع فريق من المسلمين إلى ولاته ، مما أحالها مركزا تجاريا مهما وأحدث بها حركة علمية نشيطة ، ولا نعود نسمع عن ولاته أخبارا ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م زارها ابن بطوطة ونوه بإكرام أهلها وقاضيه له ، ونمضى إلى سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م فيغزوسن على ملك صنغى تمبكتو ويشعل فيها النيران ويقتل خلقا كثيرا ، ويرحل منها فقهاؤها إلى مدينة ولاته وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت وأولاده وكلهم أصبحوا فقهاء ، ولقى بها فقيها ومحدثها الإمام الزمورى ، وأجازه كتاب الشفاء للقاضى عياض السبتي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وسمعه منه معه وأجازه صهره الفقيه المختار النحوى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . ويذكر الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف فقيها من فقهاؤها هو عبد الله بن عمر المسوفى المولود سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٢ م ويقول إنه كان غاية فى الزهد والورع . وكان يعاصره فى مدينة وادان الفقيه محمد بن أحمد بن أبى بكر الوادانى وله شرح على مختصر خليل فى مجلدين سماه « موهوب الجليل بشرح خليل » وكان حيا سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م . ويذكرون عن مؤسس مدينة تشيت فى القرن السادس الهجرى الشريف عبد المؤمن أنه كان تلميذا للقاضى عياض ولا بد أنه أسس فيها حركة علمية على عادة الفقهاء ، غير أنه ليس بين أيدينا شىء عنها وكذلك عن مثيلاتها فى شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا فى القرن العاشر الهجرى وما قبله من القرون .

### (ب) التعليم والطلاب والشيخ

الأخبار عن الحركة العلمية فى موريتانيا إنما تأخذ فى النمو منذ القرن العاشر الهجرى حين تم تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، ويسوق الشنقيطى فى كتابه تراجم أدباء شنقيط وكذلك الدكتور محمد المختار ولد إياه فى كتاباته أخبارا مختلفة عن تلك الحركة ،

فمن ذلك أنهم كانوا يختبرون الصبي إذا بلغ خمس سنوات من عمره في حفظ الأعداد الأولى من واحد إلى عشرة فإذا تعلمها وذكرها سريعا أخذوا في تعليمه الحروف الأبجدية ثم يعلمونه الحركات : الضمة أو الرفع والفتحة أو النصب والكسرة أو الجر ، ثم يحفظونه القرآن الكريم ، ويذكر الشنقيطي أن كثرة معلمى الصبية في هذه الدورة كُنَّ من النساء ، مما يدل على أن النساء في موريتانيا كن يتعلمن حتى يصبحن صالحات لتعليم الصبية . ويقول الحسن الوزان في حديثه عن مدينة تشيت إن « النساء هن اللائي يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات والفتيان » وبعد حفظ الصبي القرآن وتعليمه الكتابة يبدأ في الالتحاق بشيخ ليتعلم على يديه بعض العلوم . والبيئات تختلف في نوع العلوم التي يبدأ الصبي بتعلمها في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، بعد حفظ القرآن فأهل منطقتي آدرار وتكانت ومن حذا حذوهما يبدأون بتعليم الفقه على مذهب الإمام مالك في متن مختصر لعبد الرحمن الأخصري الجزائري ومنظومة لابن عاشر في الفقه ثم ينقلونه إلى دراسة رسالة ابن أبي زيد رئيس المالكية في القيروان والبلاد المغربية ، ثم يدرس مختصر خليل بن إسحق المالكي المصري وبعض شروحه . وبلدان أخرى يبدأ فيها الناشء بدراسة بعض دواوين العرب والعقائد الأشعرية وتآليف السنوسى الجزائرى في علم التوحيد ثم يقرءونه الفقه والنحو . وبلدان تبدأ بتعليم علوم البلاغة والمنطق .

ولم تكن هناك حكومة أو جهات تنفق على الطلبة والعلماء ، وكان الطلبة يؤمون - فى أحيان كثيرة - علماء بعيدين عن أوطانهم ، فكيف يتعيش الطالب الموريتانى إذن ، يقول الشنقيطي إن أكثر الطلاب يأخذ الواحد منهم بقرة حلوبا أو بقرتين وربما ثلاثا ، وإذا كان الشيخ صاحب إبل أخذ الطالب ناقة أو ناقتين وربما ثلاثا ، ويتجمع الطلاب ساعة الحلب ويتناول كل منهم ما يكفيه من اللبن . ويتناوبون رعى بقرهم ونوقهم ، ويأخذ راعيها معه كتابه أو لوحه ، ويقرأ فى الكتاب أو يحفظ ما فى اللوح ، وبالمثل يتناوبون سقى نوقهم أو بقرهم . ومع هذه المشقة كان طلاب موريتانيا يقبلون على دروس العلماء الكبار . وكان العلماء - مثل الطلاب - لا ينفق عليهم أحد ما يستعينون به فى حياتهم ومعيشتهم ، ولم يكن أحد من الطلاب يعطيهم شيئا نظير تعلمه ، بل على العكس كانوا يعطون المحتاجين من الطلاب بعض ما ينفقونه . ولم يكن فى موريتانيا مدارس بالمعنى المعروف إنما كان فيها محاضر منتشرة فى مدنها ومراعيها من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء غربا وفى الحوض جنوبا وفى الصحارى الشرقية حيث ترى شيئا بدويا كسائر البدو متقشفا فى ملبسه بالمراعى وبالمثل فى المدن ، وترى أمام بيته أو خيمته طائفة من الشبان كثيرة أو قليلة تسكن تحت الشجر أو تحت عريش من الخشب ، ومنذ الضحى يلتفون حول الشيخ ، وقد يدعوهم إلى بيته أو يلتقى بهم فى مسجد ، وقد يلقي الدرس جالسا أو قائما ، وقد يلقيه خارج بيته والمسجد ماشيا ، وقد

يقرأ الطلاب نصا بعينه مع شيخهم . وقد يُقرئهم ويعلمهم أشتاتا ، وهو الغالب ، فالطالب يختار مادة قراءته حسب حاجته من فقه أو نحو أو بلاغة ، وترى الشيخ مثلا يدرس لعشرة من الطلاب ألفية ابن مالك وطالب يقرأ من أولها وثان من وسطها وثالث من أواخرها ويشرح لكل طالب ما يقرؤه ، وهكذا في الفقه وغيره من العلوم . ومثلا ثانيا إذ يستمع الطلاب إلى شيخ يشرح نصا في مختصر خليل في الفقه ، إذا هو ينتقل إلى باب من ألفية ابن مالك ، ثم إلى درس في علم التوحيد أو في علم المنطق أو في العروض ، وقد ينتقل من ذلك إلى شرح بعض أشعار الجاهليين أو الإسلاميين . وتعجب إذ ترى هذا الشيخ العالم يسوق في الصباح بقرة إلى موضع للرعى ، والقدوم على عاتقه يقطع به أعوادا من الشجر لينى بها بئرا ، ويذهب إليه ليرى المكلفين بالعمل فيه ، ويعود - بعد ذلك - ليدرس لتلاميذه طوال النهار ، حتى إذا انتهى من صلاة العشاء ونام الناس أخذ يعنى بتصنيف كتاب له أو بالقراءة في بعض الأمهات والأصول من الكتب .

#### (ج) أمهات الكتب والمتون والشروح المتداولة

على سنة البلاد العربية جميعا حازت موريتانيا لنفسها كثيرا من أمهات الكتب ومتونها المشهورة وشروحها ، واعتمدوا في كثير منها على أعمال الأندلسيين والمغاربة وبالمثل أعمال المصريين إذ كان بعض شبابها يتلقى العلم عن أساتذته في البلاد المغربية والمصرية ، وطبيعي أن يكثر الواردون منهم على علماء فاس وغيرها من البلاد المغربية . وكان منتشرًا في مكاتب البلدان والقبائل في القراءات كتاب التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني وقصيدة « حرز الأمانى في القراءات » للشاطبي الضرير . القاسم بن فيرّه وهى ألف ومائة وسبعة وثلاثون بيتا ، ويقول ابن خلدون : « استوعب الشاطبي ما دوّنه الداني في القراءات بقصيدته ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس » .

وكانوا يعتمدون في التفسير كما يقول الدكتور محمد المختار - على كتاب التفسير الكبير لابن عطية الأندلسي قاضى المرية ، وهو من أهم الكتب في التفسير وسماه الوجيز في التفسير تواضعا وهو في مجلدات ضخمة ، ويقول ابن خلدون إنه لخص فيه التفاسير المأثورة كلها وتحرى الأقرب منها إلى الصحة . وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس . واعتمدوا أيضا على تفسير القرطبي المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » وهو في عشرين مجلدا سار فيه على نهج ابن عطية السني .

وكانوا يتداولون في الحديث النبوى كتب الصحاح الستة للبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأبى داود والنسائى ، ويقول الدكتور محمد المختار إن أهم محدث كانوا يعنون بكتبه



أبو الوليد الباجي الأندلسي ، وخاصة كتابه المتقى فى شرح الموطأ وتخریجه لما فيه من الأحاديث ، ويذكر أن الموريتانيين عنوا عناية خاصة بكتابه وبشعره وأدبه .

وكانوا يعكفون فى الفقه المالكي على منظومة ابن عاشر ورسالة ابن أبى زيد القيرواني ومختصر خليل بن إسحق وشروحه ، وعنوا بدراسة كتابات أبى عمرو يوسف بن عبد البر الذى تعزز به المالكية وكتاباته فى الفقه المالكي وفى مقدمتها التمهيد والاستذكار وكتاباته التاريخية وفى مقدمتها الاستيعاب فى تراجم الصحابة ، وبالمثل عنوا فى الفقه المالكي بكتابات ابن رشد الفقيه الكبير جد ابن رشد الفيلسوف وكتاباته الفقهية من مثل البيان والتحصيل ومقدماته على المدونة .

ومن كتب النحو التى كانوا يتداولونها متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجى ، وكان الأزهر فى مصر إلى عهد قريب يبدأ به دراسة النحو لطلابه ، وعنوا بألفية ابن مالك وشروحها وكتابها لامية الأفعال ، وعنوا بألفية السيوطى المسماة الفريدة وكتب نحوية مختلفة سيأتى ذكرها فى الترجمة لعلماء العربية .

وعنوا فى علم الكلام والتوحيد بالعقائد الأشعرية وكتابات السنوسى والجزائرية وإضاءة الدجئة للمقرى ، وكانوا يقرءون متن السلم للأخضرى فى المنطق . ودرسوا شرح الأعلام الشتمرى للشعراء الستة : امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة . وعرفوا أهم الكتب الأدبية ، وفى مقدمتها الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني والأمالى لأبى على القالى والكامل للمبرد وزهر الآداب للحصرى وبهجة المجالس لابن عبد البر وخزانة الأدب للبغدادى كما عرفوا دواوين كثيرين من الشعراء على مر العصور .

وهذا الحشد من المؤلفات التى كانت متداولة فى موريتانيا ، والتى عنى بإحصائها الدكتور محمد المختار فى مقدمات كتابه : « الشعر والشعراء فى موريتانيا » يدل بوضوح على أن موريتانيا - وإن لم تقم على شئونها قبل العصر الحديث دولة تنظم ثقافتها وحياتها العلمية - فإنها استطاعت بفضل عنايتها بالعلوم الإسلامية أن تصبح ذات ثقافة علمية قيمة وأن يصبح لها علماء فى مختلف فروع العلوم الإسلامية والعربية .

#### ( د ) أعلام العلماء فى موريتانيا

نتوقف قليلا لعرض أعلام موريتانيا من العلماء ممن ترجم لهم الدكتور محمد المختار ترجمات مفصلة فى كتابه : « دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا » وسنعرضهم عرضا تاريخيا موزعين على العلوم الإسلامية والعربية ونضم إليهم طائفة من العلماء المترجم لهم عند الشنقيطى فى القرن الثالث عشر الهجرى قبل العصر الحديث . ومن الصعب الدقة فى هذا

التوزيع لأن العلماء كانوا غالباً موسوعيين ، ولذلك كثيراً ما يقال عن العالم إنه فقيه محدث متكلم نحوي ، وتحار أي مجموعة من العلماء تضعه فيها ، أو يقال مثلاً إنه جامع لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة ، ومع ذلك سنحاول هذا التوزيع لنجد على أن النشاط كان متسعاً في مختلف العلوم .

#### (هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء

أول من يلقانا من علمائهم قراء الناشئة ويعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات من مثل محمد بن أبي بكر من ولاته المتوفى في القرن الثاني عشر الهجري وكان ملازماً لإقراء الناشئة ، صوفى النزعة . ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبي بكر التنواجيوى رحل إلى أحمد الحبيب اللمطى السجلماسى وقرأ عليه السبع وكان يدرس لطلابه الشاطبية ويفسرها لهم توفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيدىلى كان قارئاً بالسبع ، توفى سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩ م وظلت إمامة القراءات فى بيت التنواجيويين واشتهر بالإمامة فيها الشيخ أحمد بن محمد التنواجيوى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وكانت أكثر عبادته إقراء القرآن ، وقد أخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التنواجيوى .

ويذكر كثيراً عن هذا العالم أو ذاك أنه كان يفسر القرآن الكريم بجانب ما كان يلقى على طلابه من دروس فى الفقه أو فى النحو أو فى علم الكلام أو فيها جميعاً ، وكثيراً ما يُذكر مع المحدثين أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم ، واشتهر منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى محمد بن سعيد اليدالى الديمانى بتفسير قيم لكتاب الله العزيز فى مجلدين سماه « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » . ويلقانا بعده المختار الكتى وتفسيره للبسملة ولسورة الفاتحة .

ونلتقى بكثير من أئمة الحديث مثل محمد بن الحاج عثمان الجمانى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وهو تلميذ نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى مصر ، ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبى المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٠ م وله فى صحيح البخارى سند يصله بمؤلفه وله مصنفات كثيرة منها مقدمة فى الفقه فأرجوزة فى علم الكلام ، ومنهم سيد عثمان بن عمر المتوفى سنة ١١٢٨ هـ/١٧١٦ م بولاته ، وكان يقرئ صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك وفيها جميعاً وفى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض أجزى بروايتها جميعاً من جلة العلماء فى مصر والمدينة المنورة وموريتانيا . ومنهم عمر بن باب وكان يقرأ صحيح البخارى فى المسجد وسنذكره بين النحاة . ومنهم محدث مدينة أروان أحمد بن البشير حامل روايات صحيحى البخارى ومسلم والشفا ، وكان يضيف إلى الحديث

التفسير وقراءة نافع برواية قالون ، توفى سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧١ م . ومنهم أحمد بن خليفة محدث شنقيط المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م وكان يقرئ صحيح البخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض .

وللفقه أعلام كثيرون من الفقهاء كانوا منبئين فى كل بلد وكل حى من أحياء القبائل نذكر منهم الفقيه محمد الملقب بالتنبكتى المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤١ م وكان قاضى مدينة ولاته وعالمها ، ومنهم أحمد بن القاسم الحاجى فقيه وادان وله شرح على مختصر خليل بن إسحق ، توفى سنة ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٦ م وحمل عنه تلميذه أحمد أبو الأوتاد مختصر خليل وشرحه إلى تشيت . ومنهم سيد أحمد الولى بن أبى بكر المحجوبى قاضى ولاته وإمامها ومدرسها وكان ماهرا فى التفسير والنحو ويحفظ مقامات الحريرى ، توفى سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م . ومنهم الفقيه محمد بن أبى بكر الغلاوى وكان عالما بالفقه والنحو مطالعا على دقائقهما بصيرا بالفتوى فى النوازل مطالعا على كتب الفقه المالكى المعتمدة ، وله رسالة فى علم الكلام باسم عقيدة التوحيد ، توفى سنة ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧ م . ومنهم الفقيه محمد المختار ابن الأعمش وهو إمام كبير وتلاميذه كثيرون انبثوا فى أنحاء موريتانيا توفى سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٦ م . ومنهم الحسن بن أغيد فقيه تشيت ، درس وأفاد وأحيا بفتاويه سبيل الرشاد ، وكان يقال من فاته الحسن البصرى بمواعظه فعليه بالحسن اليوسى ( المترجم له فى المغرب الأقصى ) ومن فاته اليوسى فعليه بالحسن بن أغيد ، وكان إماما فى الفقه والحديث مستحضرا لهما مشاركا فيهما ، وكان قيما على مختصر خليل حسن الإقراء له ، وله منظومة فى مصطلح الحديث سماها روضة الأزهار وجعل عليها شرحا باسم قررة الأبصار ، وله منظومة أخرى فى التوحيد سوى فتاوى مفيدة ، توفى سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م . ومنهم محمد بن أبى بكر المحجوبى الولاتى فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة فى نسق وكان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة وله منظومة فى علم أصول الدين ، ولعلها فى التوحيد ، توفى سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م . ومنهم أحمد ابن إند عبد الله بن على المحجوبى ، وإليه انتهت رئاسة الفتوى والقضاء فى مدينة ولاته ، وله منظومة فى علم الكلام وأخرى فى الفرائض ( المواريث ) حجّ فى ركب من أهله ، ولقى كبار العلماء وأخذ عنهم ، توفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م . ومنهم سيد أحمد الشواف قاضى وادان كان فقيها محدثا وشيخا صالحا وله فتاوى فقهية ، وهو من تلاميذ الحسن بن أغيد فقيه تشيت ، توفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م مثل سابقه . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الجماني ، له فتاوى فقهية وهو أيضا تلميذ الحسن بن أغيد ، توفى سنة ١١٥١ هـ / ١٧٣٨ م . ومنهم الشريف أحمد بن فاضل ، وهو من تلامذة الحسن بن أغيد ، وكان إماما عالما ، وكان المنزوع إليه وإلى أخيه فى الفتيا ، وله ولأخيه فتاوى مجموعة ، توفى سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م . ومنهم محمد بن الحسن بن أغيد كان يتقن الفقه والحديث والنحو فيقرئ طلابه رسالة ابن أبى زيد



الفقهية ومختصر خليل ويحدث بصحيح البخارى ويدرس ألفية ابن مالك وكانت له حلقة كبيرة يؤمها الطلاب فى تشيت ، وكان يدرس للرجال نهاراً وللنساء ليلاً ، توفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومنهم الشريف حمى الله ابن الشريف أحمد الحسنى ، وكانت له فتاوى فقهية متداولة فى موريتانيا ، وله شرح منظومة الأوجلى فى التوحيد ونظم صغرى السنوسى فيه ، توفى سنة ١١٦٩ هـ/١٧٥٥ م . ومنهم إند عبد الله بن أحمد المحجوبى قاضى ولاته ، برع فى الفنون كلاماً وفقهاً وأصولاً ونحواً ومنطقاً ، له فتاوى فقهية وشرح على لامية الزقاق فى مجلد ضخمة ، توفى سنة ١١٧٢ هـ/١٧٥٩ م ومنهم سنير قاضى أروان وكان بحراً فى الرواية والدراية توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م . ومنهم عمر الخطاط ، كان من الفقهاء البارعين ، وكان يقرىء الطلاب مختصر خليل قراءة تحقيق ، وكثر تلاميذه وطلابه حتى ربما بلغوا فى حلقة المائة ، توفى سنة ١١٩٦ هـ/١٧٨٢ م ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن التشمشاوى الديمانى له شرح فى جزء على مختصر خليل فى الفقه المالكى سماه : « شفاء الغليل وراحة الغليل على مختصر الشيخ خليل ، توفى سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٨ م . ومنهم عبد الله بن أحمد الغلاوى البكرى ، فقيه أهل الحوض ، وله منظومات علمية كثيرة ، توفى فى صدر القرن الثالث عشر الهجرى . ومنهم عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوى فقيه تيججكه ، كان عالماً فقيهاً محدثاً أصولياً بيانياً مفتياً ومدرساً ، وله منظومات فى علم الحديث وفى علم البيان وأعجب به محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى فأهداه خزانه كتب كبيرة نفيسة جداً ، وحج واجتمع بعلماء القاهرة وسمع به محمد على والى مصر فأكرمه ، توفى سنة ١٢٣٣ هـ/١٨١٧ م . ويتكاثر الفقهاء فى القرن الثالث عشر الهجرى ومنهم باب بن أحمد ييب ، وله شرح على كتاب التحفة لابن عاصم ، وكان لبن فرحون انتهى فى ترجماته لفقهاء المالكية بكتابه الدياج عند القرن السابع فأكمل ترجمة نظرائهم من الفقهاء حتى القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وكان ابنه التجانى فقيهاً مثله درس عليه فى أول أمره وعلى والدته الصالحة العالمة خديجة بنت المختار بن عثمان ، وكان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وكان عالماً بفن السير والفقه والأصول والبيان والنحو والتصريف واللغة والمنطق ، وله نظم فى أزواج الرسول ﷺ وأولاده وله عليه شرح نفيس مجلد ، ونظم ورقات أبى المعالى إمام الحرمين فى علم الأصول ، توفى قبل أبيه بنحو عشرة أعوام . ومنهم الشيخ سيدى الأبيرى الكبير ، وكان عالماً بالفقه والنحو ودقائقهما وله شرح على مختصر خليل باسم مرآة النظر فى وجوه خبايا المختصر ، وشرح ثان على باب الفرائض منه ، توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م . ومنهم محمد بن محمد سالم المجلسى ، وله فى شرح مختصر خليل شرح باسم : لوامع الدرر فى هتك أستار المختصر ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م .

## ( و ) أعلام النحاة والتكلمين

نستطيع أن نقول إن كل هؤلاء الفقهاء كانوا يتقنون العربية وقواعدها النحوية إتقاناً حسناً ،  
ومن اشتهروا بعلم العربية وتعليمها المختار النحوى الذى رحل فرارا من سُنِّ على حين استولى  
على تنبكتوم مع صهره الفقيه المتقدم ذكره عمر بن محمد أقيت ونزل معه ومع أبنائه الفقهاء  
مدينة ولاته وظل بها يدرس النحو لطلابه إلى أن توفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . وتزدهر  
الدراسات النحوية منذ القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى وملتقى فى صدره  
بمحمد بابا بن محمد الأمين ، وله عدة مصنفات ، أهمها شرحه لألفية السيوطى فى النحو وسماه  
المنح الحميدة فى شرح الفريدة ، توفى سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م . ومن نلتقى به بعده من  
النحاة فى آخر القرن وصدر القرن التالى أبو بكر الطفيل بن أحمد وكان نحويا فقيها منطقيا  
ونظم كتاب قطر الندى فى النحو لابن هشام فى أربعمائة بيت ، توفى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م  
وكان يعاصره محمد بن موسى بن إيجل علامه تشيت وكان فقيها نحويا لغويا أصوليا بيانيا  
عروضيا منطقيا ، وله فى النحو أوراقه المشهورة التى انتفع بها طلبة موريتانيا سماها : « كشف  
النقاب فى قواعد الإعراب » وشرحها ، وله فى علم المنطق كتاب : « رتق الحجر العلق فى  
أصول وفصول المنطق » توفى سنة ١١١٧ هـ / ١٧٠٥ م . ومن نحاة القرن الثانى عشر منير بن  
حبيب الله ، له شرح مفيد على الخلاصة رتب فيه توضيح ابن هشام ، وكان يقرئ الألفية  
لابن مالك ، توفى سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م . ومنهم أحمد بن أحمد بن الإمام كان فقيها نحويا  
لغويا محققا ، وكان يقرأ لطلابه ألفية ابن مالك قراءة تحقيق وتدقيق ، توفى سنة  
١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م . ومنهم الشريف المختار بن أحمد بن الإمام أحمد الإدريسي كان هو  
وأخواه من العلماء النجباء ، وكان يقرئ تلاميذه ألفية ابن مالك مبستفيضا فى الشرح والتحقيق ،  
توفى سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٧ م ، ومنهم الإمام عمر م الولاتى ، كان نحويا لغويا أدبيا أخذ  
الناس عنه العربية وكان يقرئ طلابه الآجرومية وألفية ابن مالك ولايته فى التصريف قراءة  
ببحث وتحقيق ، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة ، توفى سنة ١٢٠١ هـ / ١٧٨٧ م .  
ومنهم عبد الله بن الطالب أحمد الشنقيطى ، كان عارفا بأصول الدين قارئاً فائقاً فى العربية  
وعلمو البلاغة لا يبارى - كما يقولون - ولا يجارى ، له مؤلفات مختلفة فى القراءات السبع  
والفقه والحديث ، وله شرح على الكافية لابن الحاجب ومقدمة فى النحو للمبتدئين ، وشرح  
على الألفية ، وله شرح كبير وصغير لقصيدة بانث سعاد وشرح للامية العرب ، وشرح على  
نظم التلخيص للقزوينى وشرح أخرى كثيرة ، توفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م . ومنهم  
محمد بن أحمد بن الطالب الأمين كان نحويا لغويا عروضيا متكلميا ، وكان يقرئ لطلابه فى  
النحو الآجرومية وألفية ابن مالك ولامية الأفعال ، وكان يقرئهم فى العروض متن الخرجية ،  
توفى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م . ومنهم المختار بن بون العالم النحوى الكبير ، وكان العلماء



قبله لا يكادون يتجاوزون ما فى الألفية وشروحها فنظم لهم وألف كتباً مفيدة ذكر فيها لكل مسألة الشواهد من كلام العرب ، فذلّل لهم بذلك النحو وقواعده ، واستقدمته قبائل الزوايا لتعليم أبنائهم العربية ، وله مقدمة فى النحو ألفها للمبتدئين ، توفى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م . وتعاقبت له مدرسة حتى نهاية هذا العصر قبل العصر الحديث وما فرض على موريتانيا من الحماية الفرنسية ، إذ تتلمذ له بلأً البوحسنى الشقراوى ، وكان عالماً مشهوراً ونحوياً كبيراً ، وهو أحد من تخرجوا على يديه ، ومن أهم تلاميذ بلأً عبد الودود بن عبد آل ، وهو - كما يقول الشنقيطى - نحوى شهير ، انفرد به من غير نكير ، أوضح للناس أسراره ، وأعلى مناره ، وبلغ فيه مبلغاً لم يبلغه غيره ، وتخرج على يديه الحسن بن زين ، ويقول الشنقيطى له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك ، وتخرج على يديه سيوبه البلاد ، يحظية بن عبد الودود ، توفى قريباً من سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م .

ومن العلوم التى اهتم بها العلماء فى موريتانيا علم الكلام أو التوحيد ويتردد فى نعت كثير من فقهاءهم ونحاتهم أنهم كانوا متكلمين ، ومن ألف فى علم الكلام مبكراً محمد بن أحمد الحسابى المعقل ، وله فيه شرح الصغرى للسنوسى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٩ م . وكان عمر الولاتى الملقب بالخطاط أشعريّ العقيدة ، وكان مداوماً على علم الكلام قراءة ونقلًا وتعليماً ، وكان يقول : لو علمتُ عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعرفها لرحلت إليه حتى أتعلّمها ، وكان يقرئ فيه كتب السنوسى ودليل القائد والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرى ، توفى سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م . ومنهم الطالب الأمين بن الحبيب الخرشى كان غاية فى علم التوحيد ، يقرئ عقيدة السنوسى المعروفة بأمر البراهين وعقيدته الصغرى وإضاءة الدجنة ومنظومة الجزائرى ودليل القائد قراءة تحقيق توفى سنة ١١٦٦ هـ / ١٧٥٣ م . ومن المتكلمين محمد بن يدفور قاضى تشيت ، وكان يقرئ طلابه عقائد السنوسى الخمس ودليل القائد وإضاءة الدجنة وجوهرة التوحيد ، كما كان يقرئهم قراءة نافع وألفية ابن مالك وقطر الندى لابن هشام ، وتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م . ومنهم الشيخ محمد بن عمر الخطاط الولاتى وطنا المالكى مذهباً الأشعريّ اعتقاداً الشاذلى طريقة ، أخذ العقيدة الأشعرية عن أبيه عمر والفقهاء والفرائض عن عبد الله بن أنى بكر الولاتى والمنطق والعروض عن محمد بن موسى بن إيجل الولاتى والحساب والفلك عن التقداسى ، وله مقدمة فى التوحيد سماها جوهرة الإرشاد ، توفى سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٨ م .

ومرّ ذكر المختار بن بون بين النحاة ، وله كتاب وسيلة السعادة فى علم التوحيد اختصر فيه تصانيف السنوسى الخمسة فى العقيدة مع بعض زيادات ، ويمكن أن يتخذ رمزا لكثير من علماء موريتانيا الموسوعيين ، فهو ينظم تلخيص القزوينى فى علوم البلاغة ، ومختصر

السنوسى فى المنطق وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى . وكثيرون كانوا يعنون بعلم المنطق إذ يُعرّف به الصحيح من غير الصحيح فى التعريفات والأدلة والأقيسة ، وهو علم يونانى وضعه أرسطو ، ومنذ القرن الثانى الهجرى تدارسه البيئات العلمية العربية ، فطبيعى أن يعنى به علماء موريتانيا . وبالمثل عنوا بعلوم البلاغة ، ونضرب مثلا ثانيا لهؤلاء العلماء الموسوعيين هو عبد الله بن محمد الشنقيطى ، فقد كان يقرئ تآليف السنوسى وإضاءة الدجنة فى علم الكلام ، وتفسير القرآن ، وصحيح البخارى ، وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى والسلم فى المنطق للأخضرى ومختصر السنوسى فى المنطق وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للسكاكى ، وله أجوبة فقهية ومشاركة فى النحو والعروض وحظ من علمى الحساب والهندسة . ونظّم كتاب التلخيص فى البيان والمعانى للقرظوبى فى نحو خمسمائة بيت وسماه نزهة المعانى فى ظهور البيان والمعانى ، وله تآليف فى المنطق ، توفى سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م .

وعنوا بالتاريخ ولأحمد البدوى يعقوبى منظومة جيدة فى غزوات الرسول ﷺ ، ومنظومة أخرى فى أنساب العرب ، ويكثر عندهم مثل هذه المنظومات .

ولعل فى كل ما أسلفت ما يصور بوضوح نشاط الحركة العلمية فى موريتانيا على الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة ترعى العلم وطلابه وعلماءه ، إذ تجردت له فى كل بلدة وكل قبيلة صفوة من العلماء الأبرار درستهم لشباب موريتانيا على مر الحقب والأزمنة .

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

#### ١

#### تعرب موريتانيا

أخذت العربية تغزو موريتانيا مبكرة على السنة بنى وارث الصنهاجين منذ أسلموا على يد عقبة بن نافع ( ٥٠ هـ / ٦٧١ م - ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ) وأخذ الإسلام ينتشر بين الصنهاجين في صحراء موريتانيا لعهد موسى بن نصير ( ٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٥ م ) وأخذ يتسع انتشاره بين القبائل الصنهاجية الصحراوية في القرون الهجرية الثانية والثالثة والرابعة . وكان يعتمد حينئذ على الصلوات الخمس وما يتلى فيها من القرآن ، وما يتلوه الشيوخ في المساجد من القرآن الكريم والحديث النبوي .

وكانت القبائل الصنهاجية تعتنق الإسلام في تلك القرون أو تأخذ في اعتناقه ، غير أنها لم تتداول العربية في لغتها اليومية ، إنما كانت تتداول لغتها البربرية ، حتى إذا كانت حركة عبدالله بن ياسين المارة منذ سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م أخذت القبائل الصنهاجية تعرف شريعة الإسلام معرفة صحيحة ، وأخذت تتحول إلى قبائل مجاهدة أو مرابطة تنشر تعاليمه في السودان الغربي المدارى ، وتحمل الجماعات المنحرفة الضالة في المغرب الأقصى من مثل البجلية والبرغواطية على اتباع نهجه القويم ، حينئذ أصبحت القبائل الصنهاجية في موريتانيا تمثل شعبا مسلما من شعوب العالم الإسلامى ، شعبا تُبنى في جميع أركانه المساجد ، ويقوم فيها أئمة وعاظ وشيوخ يقفون الناس على شعون دينهم ويحفظونهم بعض سور القرآن الكريم ، إن لم يكن القرآن جميعه ، كما يحفظونهم بعض الأحاديث النبوية .

وفى رأى أن قلة من الصنهاجين الموريتانيين حفت بهؤلاء الشيوخ وعرفت العربية ، ولكن الكثرة الصنهاجية ظلت تتداول اللغة البربرية ، ويخفف من حدتها تلاوة القرآن في المساجد ونزول بعض الشيوخ في البلدان الموريتانية مثل نزول الشيخ إسماعيل - كما مر بنا - فى ولاته سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وقيام القضاة فيها على تنفيذ أحكام الشريعة مثل قاضى ولاته الذى أكرم ابن بطوطة حين نزل بلده سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م ونوه بأخ له مدرس ، ويغزوسن على تمبكتو ويشعل بها النيران سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م فيفر فقهاؤها إلى ولاته وفى مقدمتهم الشيخ

عمر بن محمد أقيت مما أتاح لها أن تكون مركزاً لحركة علمية فى القرن العاشر الهجرى كما أتاح لأهلها فرصة واسعة للتعرب .

وبعد أكثر من قرن يرسل المنصور الذهبى السعدى حاكم المغرب الأقصى جيشا ضخما للاستيلاء على بلدان السودان الغربى كما أسلفنا ويفتحها ويجند عرب المعقل فى جنوبي المغرب الأقصى والجزائر لحراسة فتوحه ، وتنزل حسان موريتانيا وتستقر فيها قبائلها فى أدراروتيرس والجنوب الغربى من موريتانيا ، وتنزل قبيلة البرايث الحسانية فى مدينة تيشيت وقبيلة الأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين وادان وولاته . وهكذا تنتشر قبائل حسان العربية فى جميع موريتانيا ، ويتم بذلك تعربها كما تعرب المغرب فى منتصف القرن الخامس بالقبائل العربية من بنى سليم وهلال التى احتلت دياره وأرجاءه ، غير أن لسانهم الفصحى كانت قد عمت فيه عامية حسانية عربية خالفت من بعض الوجوه لسان أجدادهم فى بعض الأوضاع والتصاريف لاختلاطهم قرونا متوالية بالبربر . وقد نشرت هذه القبائل لغتها الحسانية العامية فى موريتانيا ، وهى عامية عربية . ومن الطريف أنها تحتفظ بالمشى بينما يسقط من عاميات أخرى كالعامية المصرية ، ولم تأخذ موريتانيا عنها هذه العامية العربية وحدها بل حملت عنها أيضا ما كانت تنظمه فى مواطنها من الملاحم والأناشيد والقصائد التى تشتمل على أغراض الشعر العربى من المدح والغزل والفخر والحماسة والهجاء والثناء . وعلى هذا النحو تعربت موريتانيا تعربا حسانيا ، فالألفاظ هى الألفاظ العربية والأوزان هى الأوزان العربية . ومعنى ذلك أن القبائل الحسانية الموريتانية كانت لا تزال تحتفظ بميراثها من الألفاظ وأوزان الأشعار وأغراضها ، مما يدل دلالة قاطعة على أنها كانت لا تزال تحتفظ بسليقتها العربية التى توارثتها منذ مئات السنين ، وهى سليقة تشهد بأن هذه القبائل لا تزال قبائل شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون . ومعروف أن الأمم إزاء الشعر تختلف ، فهناك أم شاعرة ، ومنها الأمة العربية ، فهى أمة شعر وشعراء ، مهما اختلف عليها من الأعصار ومن الخطوب والأحداث ، ومهما ظلت على فصحاها أو تطور بها الزمن ، واستخدمت لغة عامية مشتقة من فصحاها ومتصلة بها اتصال الفرع بأصله ، وحقا دخلت فيها بموريتانيا بعض ألفاظ بربرية وخاصة مما يتصل بتربية الخيل والإيل والبقر والزراعة والرعى ، غير أن ذلك لم يخرجها عن صورتها العربية .

وبذلك توارث سكان موريتانيا السليقة الشعرية العربية ، وعمل الإسلام فى أن تستم العامية الموريتانية على السنة كثيرين الفصحى إذ دارت على ألسنتهم فى حفظ القرآن الكريم وتعلمه وفيما أكبروا عليه من العلوم الإسلامية ، وقد مضوا يتعلمون العربية ويتعمقون فى دراسة أشعارها الجاهلية على مر العصور . وكانت المرأة - كما مر بنا - هى التى تقوم على تعليم الناشئة حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سواء الذكور أو الإناث ، تعلمهم الكتابة والذكر الحكيم ،



ما جعل التعلم في موريتانيا منذ القرن الحادى عشر الهجرى - وربما قبله - عاما في البلدان والقبائل جميعها بحيث يقول الشنقيطى : « لا يوجد من بين قبائل الزوايا ذكر أو أنثى إلا يقرأ أو يكتب ، وإن وُجد في قبيلة غير ذلك فإنه نادر بحيث لا يوجد في المائة أكثر من واحد على تقدير وجوده » . وكان الأمية تلاشت نهائيا في قبائل الزوايا ، وهى إن لم تنحسر في القبائل الموريتانية الأخرى نهائيا فإنها - هى والبلدان الموريتانية - كانت تسارع إلى التعلم ، يدل على ذلك فى مدينة ولاته مثلا أنها كانت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة العربية وأن علماءها كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، وأخذت شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا تراحمها فى هذا المركز أو فى هذه المكانة .

ولعل فيما ذكرنا ما يدل بوضوح على أن التعرب فى موريتانيا كان آخذا فى النمو السريع منذ القرن الحادى عشر الهجرى ، بفضل من نزل فيها من قبائل حسان وما بثوا فيها من الاستعداد للتعرب ، وبفضل إكباب أهلها على التعلم ، بحيث أصبح فيها كثرة من العلماء فى كل علم وكثرة مماثلة من شعراء الفصحى ، بل حتى يخيل إليك كأن الموريتانيين جميعا كانوا شعراء .

## ٢

### شعراء المديح

أكثر من يوجه إليهم المديح فى موريتانيا السادة والشيخوخ ، إذ يشكر الشاعر من يقدم إليه معروفا أو صنيعا مثنيا عليه ومادحا ، ويمدح التلاميذ شيخوخهم مصورين ما يتحلون به من علم وخلق رفيعين ، كما يمدح الشيخوخ زملاءهم منوهين بتعمقهم فى العلوم وخاصة العلوم الإسلامية ، وبأخلاقيتهم المثالية الرفيعة ، وكثيرا ما ينوه الشاعر بشعر زميله وتفوقه فيه ، وقد يمدحون قبيلة ذاكرين فضائلها ، وقد يمدحون أحد سلاطين الدولة العلوية فى المغرب الأقصى . ونعرض أطرافا من مدائحهم ، فمن ذلك مدح المأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م للمجيدرى بن حبيب الله وكان من أعلام العلماء فى موريتانيا كما كان شاعرا ، واتصل بالسلطان المغربى محمد بن عبد الله ( ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م ) ونال حظوة عنده ، وحين رحل إلى الحج أكرمه حاكم مصر ، وفى السلطان محمد يقول مشيراً إلى منزلته منه : وكان يباحثه فى كثير من الأفكار العلمية ويحمد له آراءه ، كما أشار إلى حملة طائفة من معاصريه الموريتانيين عليه لإنكاره علم المنطق الأرسططاليسى والنهى عن دراسته<sup>(١)</sup> :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار . ص ٢٣٣ .

بَلاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ  
وقد كان للإسلام بالنصح راعياً  
ولكن بيادى الرأى أو بإشاعة  
وما كان فى كلِّ العقائد لو ذرّوا  
قفوا فانظروا فى نكره أعتاد  
أبان السيوطى نهجهم فيه جملة  
وعاشره بالبحث حيناً من الدهر  
وناهيك من ذى فطنة عالم خبير  
تراماه عن قوس طوائف ذا العصر  
يخالف أسلاف الأئمة فى فتر<sup>(١)</sup>  
من الدين أم من منطق سيق للسبر<sup>(٢)</sup>  
وللقرطبي من قبله الأخذ بالحدّر

واليعقوبى ينوه بتكريم السلطان محمد بن عبد الله العلوى له ومعرفة بعلمه وفضله ، ويقول  
إنه عالم ذكى متعمق فى العلم ناصح للمسلمين ، ومن العجب أن ترميه جماعة - عن قوس  
واحدة - بأنه منحرف ، مع أنه متمسك كل التمسك بعقائد الدين لا يخالف أئمة  
السالفين فى قليل بل فى أقل القليل ، وكل ما فى الأمر أنه ينهى عن دراسة المنطق اليونانى ،  
وهى وجهة نظر يتفق معه فيها السيوطى المصرى والقرطبى الأندلسى . ويقول الشويرى أحد  
شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح حرم بن عبد الجليل العلوى  
واسمه محمد<sup>(٣)</sup> :

أحمدٌ أم ليثٌ غابٍ مقبلٌ  
قاضى قضاةٍ قد نمته مشايخٌ  
سهلٌ الجنابٍ يلينُ ما لا يتنه  
يا مَنْ سما فوق الكواكب مجده  
إن الكمال إذا يفوز به امرؤٌ  
وجيبته أم عارضٌ متهللٌ<sup>(٤)</sup>  
يسمو به حسبٌ ومجدٌ عدملٌ<sup>(٥)</sup>  
وإذا يسام الخسف ليثٌ مشيلٌ<sup>(٦)</sup>  
النجم وإن والسماك الأعزل  
فى هذه الدنيا فأت الأكمل

ويشيد بحرم قاضى القضاة ، ويجعله ليث غاب شجاعة وضراوة ، كما يجعل جيبته  
سحاباً متهللاً كناية عن كرمه المدرار ، ويشيد بأبائه وحسبه ومجده القديم ، ويقول إنه سهل  
الجناب سخى ، ولين مع مَنْ يلاينه ، أما إذا سامه شخص خسفاً أو ظلماً فإنه يصبح ليثاً  
هصوراً . ويذكر له أن مجده علا فوق الكواكب ، وأن النجم والسماك الجنوبي  
لا يلحقان شأوه ، وأنه إذا كان هناك شخص يفوز بنعت الكمال فأت الأكمل الذى لا يبارى  
ولا يجارى . ويقول محمد مولود المباركى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح  
محمد بن كمال<sup>(٧)</sup> :

(١) الفتر : ما بين الإبهام والسبابة فى القياس .  
(٢) السبر : الاختبار .  
(٣) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٣٩ .  
(٤) عارض : سحاب مطر .  
(٥) عدمل : قديم .  
(٦) سامه خسفاً : أذله أو ظلّمه . ليث مشيلٌ له أشبال  
وأولاد .  
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٢ .

يَلْقَى الْعُقَاةَ بِوَضَحٍ مَتَبَلِّجٍ      مَتَبَسُّمٍ يَسْتَبَشِّرُ اسْتِهْلَالَ (١)  
وَاللَّهُ إِذْ قَسَمَ الْمَكَارِمَ فِي الْوَرَى      أَوْفَى لَهُ مِنْ حَظِّهِ الْمِكْيَالَ  
لَوْ وَاجَهَ الْبَدْرَ الْمُنِيرَ بِوَجْهِهِ      لَغَدَا بِهِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ هَلَالًا  
أَوْ قَابَلَ الشَّمْسَ الْمَضِيئَةَ بِالضُّحَى      صَحْوًا لِأَلْبَسَ وَجْهَهَا أَجْلَالَ (٢)  
وَلَوْ أَنَّهُ وَازَنَتْهُ بِلَدَائِتِهِ      وَزَنُوا الْبَعُوضَ وَوَازَنَ الْأَجْبَالَ (٣)  
فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا      يَسْتَوْجِبُ الْإِكْرَامَ وَالْإِفْضَالَ

ومحمد مولود يمجّد في محمد بن كمال كرمه الفياض الذي يجعله يلقي السائلين بوجه مشرق سمح مبتسم مستبشر . ويقول إن الله إذ قسم المكارم في الناس وفي له حظها منها . ويعمد إلى المبالغة في مديحه ، فلو أنه واجه البدر المنير بوجهه لتصاغر أمامه وغدا هلالا ، ولو أنه قابل الشمس المضيئة ضحى والسماء مصحبة لباءت منه بكسوف ما مثله كسوف ، ولو أنك قارنته بأترابه لغدوا كأنهم بعوض أمام جبل أو جبال ضخمة ، فتبارك الله الذي تفضل عليه بكل هذه العطايا والمنح الجزيلة . ويقول على بن الأ من شعراء القرن الثالث عشر الهجري في مديح بني شعبان (٤) :

اليوم أصبح قد تفرّد بالعللا      والمجد سادتنا بنو شعبان  
النازلون من الثغور مخوفها      والقائلون هلم للضيفان  
وإذا الأمور تعاطمت وتشابهت      فصلوا الخطاب بحكمة وبيان  
كم فيهم من ناشئ ذي بهجة      يئدي دقيق الفهم بين معاني  
حفظ المسائل والعقائد فرعها      والأصل بعد فصاحة الألمان  
وحوى حديث المصطفى بنصوصه      وشروحه ومعاني القرآن  
قوم إذا ما أسنتوا جادوا كما      جادت سواكب صيب التهان (٥)

وهو يقول إن بني شعبان تفرّدوا بالعللا والمجد والنزال الضاري في الثغور المخوفة ، وهم ذور الوجوه المستبشرة في لقاء الضيفان ، وإذا الأمور ادلهمت وأشكلت نطقوا بفصل الخطاب في حصافة وحكمة وبيان رائع ، وما أروع ناشئتهم ، فكم من ناشئ دقيق الفهم منهم ، حفظ مسائل الفقه والعقيدة فروعها وأصولها وحفظ حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بنصوصه وشروحه كما حفظ معاني القرآن الكريم ، فما أعظمهم من قوم كرام وأي كرم إنهم إذا ما أجدبوا سنة استحالوا في الجود غيثا مدرارا ، كما تجود مواكب السحب المتراكمة

(١) العفاة : السائلون - متبلج : مشرق .

(٢) أجال : جمع جل : غطاء .

(٣) الأجال : جمع جبل .

(٤) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٧٥ .

(٥) أسنتوا : أجدبو . الصيب : السحاب المطر .

التهان : السائل بغيرارة .

المتدفقة . ويمدح الشاعر محمد بن محمد العلوى السلطان العلوى عبد الرحمن ابن هشام  
( ١٨٢٤ - ١٨٥٩ م ) قائلاً<sup>(١)</sup> :

خليفةُ مصباحِ الهدى وحفيدهُ  
غيورٌ على بيضاءِ ستتهِ التي  
أنامُ عيونَ الناسِ تحتِ عدالةِ  
فأصبحَ ثغرُ الأرضِ سوقاً وأصبحتِ  
حماها - حماه الله - أن تستيحبها  
وحى لعافى رَبِّعه المتقادم<sup>(٢)</sup>  
أبيحتُ لها - لولاه - كلُّ محارمِ  
وَقَتَ رِجْلَ سارى الليلِ لَدَغِ الأرقامِ<sup>(٣)</sup>  
مأسدُها مرعى المخاضِ السواهمِ  
من اعدائها دُهمِ الدواهى الدواهمِ

وهو يقول إن سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن خليفة مصباح الهدى جده العظيم أعاد الحياة لدارس ربع الهدى القديم ، وإنه غيور على السنة التي لولاه لأبيحت لها كل المحارم . وقد شملت عدالته كل الرعية وعمها أمن واسع وقى الناس لدغ الأفاعى الشريرة ، حتى لأصبح ثغر الأرض الحربى سوقاً آمنة ، وأصبحت المأسد المخيفة بأسدها مرعى آمناً للنوق الحوامل ، وحوى الأرض جميعها - حماه الله - من سود الدواهى العاشمة . وولتقى بأخرة فى العصر بمحمد بن حنبل البوحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م وقد أكثر من مديح الشيخ سيدياً ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه<sup>(٤)</sup> :

شيخُ سنأه وصيتهُ وندأه م  
شيخُ تجردٌ للجميلِ فدأبه  
ولنعمَ مرتادُ الأراملِ أتمُّ  
ولأنتِ أكرمُ ما حوتِ أقطارُها  
آلى الزمانِ أليَّةُ مبرورةُ  
ملءُ الأيدي والأبصارِ والآذانِ  
نفعُ الأنامِ وطاعةُ الرِّحْمَنِ  
والشُّعْثِ والأيتامِ والضُّيفانِ  
بل ما عليه تعاقبُ الملوانِ  
أن لا يكون من الورى لك ثانى

وابن حنبل يقول عن الشيخ سيدياً إن نداه أوجوده ملء الأيدي وسناه أو ضوءه ملء الأبصار وصيته ملء الآذان ، وإنه تجرد لصنع الجميل فعادته نفع الناس بكرمه الفياض وعبادة الرحمن ونسكه ، والأرامل تتراد منزله وتلمسه ، وكذلك أبناء السبيل الشعث المغبرون والأيتام والضيوف الكثيرون . ويقول له إنك أكرم من احتوته أقطار الأرض وتعاقب عليه الليل والنهار . وأقسم الزمان قسماً مبروراً صادقاً أن ليس لك فى الناس ثان يبلغ مبلغك . وتتوقف قليلاً للحديث عن ثلاثة من شعراء المديح .

(٣) الأرقام : الأفاعى .

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٦٨ .

(١) الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ص ٥٣ .

(٢) عافى : دارس .



## ابن رازك<sup>(١)</sup>

هو عبد الله بن محمد بن القاضي العلوي عبد الله المعروف باسم ابن رازك ، وهي أمه ، كان جده قاضي البراكنة الحسانيين ، ولد لأبيه في أرض القبلة جنوبي موريتانيا ، وبها منشؤه ، وطمحت نفسه إلى التزود من العلوم ورحل في تلقائها إلى شيوخها الأرائل حتى أتقن العربية والبيان والمنطق والهندسة كما أتقن الفقه والعلوم الإسلامية مما أتاح له أن يصبح قاضيا بموريتانيا ، وكان كثير الأسفار من القبلة موطنه إلى مكناسة في المغرب الأقصى عاصمة السلطان العلوي النابه إسماعيل ( ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م ) وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين ابنه محمد وكان عالما وشاعرا وولاه أبوه السوس ، وأعجب بابن رازك ووسع له في مجالسه كلما وفد عليه ، وأغدق عليه كثيرا من عطاياه ، إذ أهداه مكتبة نفيسة من كتب العلوم الإسلامية ومن دواوين الشعر العربي ، ولا ريب في أنه كان لها أعمق الأثر في ثقافة قبيلة ابن رازك وثقافة موريتانيا عامة ، وأنشد الشنقيطي قصيدتين لابن رازك في مديح الأمير محمد بن إسماعيل وفي أولها يقول :

فتى يستقلُّ البحرَ جودُ بنانهِ	على حالة استكثارِ حاتمِ الرُّشحا
وآياتُ علمِ أحمدَ الجهلَ نورها	وغاياتُ جدِّ ليس تطلُّبها مزحا
ورأى يُريه اليومَ ما في حشا غدٍ	ويكشفُ عنه من دُجى ليله جُنحا <sup>(٢)</sup>
وحزمٌ يهزُّ الراسياتِ ثباته	وعزمٌ يحاكي الزندَ ماضيه قدحا <sup>(٣)</sup>
ولم تُدعن الأعداءُ محضَ مودَّة	إليه ولكنَّ إنما كرهوا القرحا <sup>(٤)</sup>
مواصلةً حبلَ الجهادِ جياده	ووقفَ على غزو العدا عدوها ضبحا <sup>(٥)</sup>
فلا زلتَ للإسلامِ عيداً منغصاً	تنغصُ حُسنه السَّعانين والفصحا

وهو يصف الأمير محمد بن إسماعيل بالكرم الفياض حتى ليرى البحر جود بنانه قليلا بالنسبة إلى أعطياته على حين كان حاتم المشهور بجوده يستكثر الرشح ، مع دلائل علم راسخ أطفأ نوره الجهل في المغرب الأقصى إلى غير رجعة ، ومع غايات جد جادة إلى أقصى حد ، ومع رأى يصبره بما يأتي به الغد ، ويكشف له ما قد يكون حوله من ظلمات ، ومع حزم ثابت ثبوت الراسيات وعزم يحاكي سيفه الماضى الزند بشراره المميت ، مما جعل الأعداء تدعن له وتذل خشية ما ينزل بها من القرح والجراح ، وإن جياده لتواصل الجهاد والعدو في غزو الأعداء عدوا شديدا . ويدعو أن يظل محمد بن إسماعيل عيدا بهيجا للإسلام ومنغصا لأعياد

(٣) الماضى : السيف القاطع . قدح الزند : ضرب حجرية بعضهما ببعض لاستخراج النار منه .  
(٤) القرح : الجرح والهزيمة .  
(٥) ضحا : عدوا شديدا .

(١) انظر في ترجمة ابن رازك الوسيط للشنقيطي ص ١ - ٢٤ ، وص ٣٩٧ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٤٧ ، ٢٢٩ .  
(٢) جنح الدجى هنا : جانبه .

النصارى مثل عيد الشعانين الذى يسبق عيد الفصح بأسبوع . ويمدحه ابن رازكه فى القصيدة الثانية بمثل قوله :

هو الوارثُ الفضلُ النَّبِيُّ خالصًا      من العلم والعليا ومن طيبِ مَحْتَدٍ<sup>(١)</sup>  
ثمالُ اليتامى والأيامى مُوَكَّلٌ      بتفريجِ غَمِّاءِ الشَّجِيِّ المتكُودِ<sup>(٢)</sup>  
أغرُّ المَحْيَا طاهرُ البشرِ طاهرُ الـ      سَجَا يا كريمُ اليومِ والأَمْسِ والغَدِ  
حميدُ المساعى سار فى الرُّتَبِ العُلا      من المجدِ سَيْرَ السابقِ المتفَرِّدِ  
حَوَى شَرَفَ العلمِ الرفيعِ عِمادُهُ      إلى شَرَفِ البيتِ الكريمِ المصمِّدِ<sup>(٣)</sup>

ويقول لمحمد بن إسماعيل فى وصف تلك القصيدة :

عَرُوبٌ عروسُ الزىُّ أندلسيَّةٌ      من الأدبِ الغَضُّ الذى روضه ندى

وهو يمدحه بأنه علوى ورث الفضل النبوى من العلم والعلياء وشرف الأصل والنسب ، ويقول إنه غوث اليتامى والأيامى من النساء غير المتزوجات ، مفرج غمّ الحزين المملوء نكدا وهما ، أغر المحيا أى سمح الوجه مستبشر دائما طاهر الأخلاق والطباع كريم كرما متصلا فى أمسه ويومه وغده ، كل مساعيه تجلب له الحمد والثناء ، وإنه ليسير فى منازل المجد سير السابق المتفرد ، وقد تحلّى بشرف العلم الرفيع مع شرف بيت النبوة الكريم وإنه ليقصده الناس لتحقيق حوائجهم وأمانهم . ويذكر ابن رازكه فى أواخر قصيدته أنها عروس عربية جميلة من الشعر الناضر ، ويقول إنها أندلسية كشعر الأندلسيين المشهور بالروعة . ونشر عند شعراء موريتانيا بهذه الصلة الوثيقة التى تربطهم بالأندلسيين لقربهم من الأندلس فردوس العرب المفقود الذى أبلى فيه أجدادهم من الصنهاجيين بلاء عظيما أيام المرابطين . ونكتفى بما أسلفنا من مدح بديع لابن رازكه ، فقد اتضح لنا صوته وجمال شعره وما يتصف به من جزالة ونصاعة ، وسنعود إليه فى حديثنا عن الرثاء . توفى سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣٢ م .

#### محمد<sup>(٤)</sup> اليدالى الديمانى

من قبيلة ديمان إمام فى علوم الشريعة إذ له فيها تفسير قيم للقرآن الكريم سماه - كما أسلفنا - « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » وهو فى مجلدين وله مصنفات أخرى فى سيرة الرسول ﷺ وآداب السلوك وتاريخ الزوايا المشغوف أهلها بالعلم وتعمير الأرض ، وله كتاب فى مناقب وليهم : ناصر الدين صاحب الفتوحات فى السنغال . وهو إلى ذلك كان شاعرا فذا من شعراء موريتانيا ، وكان صديقا للقاضى ابن رازكه ، وفيه يقول :

(٤) انظر فى ترجمة اليدالى وشعره كتاب الوسيط

ص ٢٢٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٩ ،

٢٣١ .

(١) محند : أصل .

(٢) ثمال: غوث . الأيامى هنا : النساء غير المتزوجات .

(٣) المصمّد : المقصود لتفضاء الحوائج .

قاضي القضاة سراجٌ	لسُدفة الجهل جالى <sup>(١)</sup>
وسيفُ حقُّ على أهـ	لـ الزينغ والإعتزال
به العلومُ تحلَّت	أبهي حُلَى وجلال <sup>(٢)</sup>
قد فاز منها بما لم	يخطرُ لإنسِ يسال
مقامه في الأعراب	بِ والعقائد على
وفى البلاغة نظماً	وكلِّ سحرٍ حلالٍ
وفى العلوم جميعاً	وفى علوم الأوالى

واليدالي يمدح ابن رازكه بأنه سراج منير جلا ظلمة الجهل وبددها وأنه سيف حق في قضائه وأحكامه على أهل الزينغ والضلال وفي آرائه السنية ضد الاعتزال والمعتزلة ، وقد ازدانت به العلوم ولبست أحلى حُلِيِّها وأبهى حُلُلها وثيابها إذ ظفر منها بما لم يخطر بذهن إنسان ، ومقامه في أعراب موريتانيا وفي العقائد عال رفيع ، وبالمثل في الشعر الساحر الخلاب وفي العلوم جميعاً وعلوم الأوائل من هندسة وغير هندسة . وأجابه ابن رازكه بقصيدة بارعة نوه فيها بحله للغوامض المشككة في الفقه وغير الفقه وأنه سيف أشعري ماض في ردوده على المعتزلة ، وكانت جماهير العلماء في موريتانيا والمغرب جميعه تعتق العقيدة الأشعرية . وكان اليدالي ينشد:

ليس من أخطأ الصوابَ بمُخطِئٍ      إنَّ يوبُ لا ولا عليه ملامة  
 إنما المخطيءُ المسيءُ الذي إنَّ      وَضَحَ الحقُّ لِحَّ يَحْمِي كلامه

وهو يقول إن المخطيء هو من يتمادى في خطئه ، أما من يرجع عنه فلا لوم عليه ولا تثريب ، إذ الرجوع إلى الحق فضيلة . واليدالي في مديح أحمد بن هيبه البركنى الحسانى قوله من قصيدة طويلة :

ورثتَ العلا والعزَّ والمجدَ أحمدُ	وبذلَ الندى عن هيبَ مفخرة العَصْرِ <sup>(٣)</sup>
وإنك أسماهم علواً ورفعاً	بمنطقة الجَزَوا ومنطقة البَدْرِ
وأيامكم خُضْرُ جَنِينَا ثمارها	بأيدي المنى ما بين أوراقها الخُضْرِ
وقاك إله العرشِ يا أحمدُ الرَّذَى	وجُنبتَ أنواعَ المكاره والضُرِّ
وأولاك ربُّ الناسِ فى نَفْسِكَ المنى	وآلِكَ والأولادِ والمالِ والعُمْرِ

وهو يقول لأحمد بن هيبه إن العلا والعز والمجد والجود ورثتها جميعاً عن أهلك مفخرة العصر ، وإنك أسمى العشيرة البركنية رفعة وعلواً في منطقة برج الجوزاء الصاعد في السماء ومنطقة البدر المنير ، وأيامكم خضر سعيدة جنينا ثمارها بأيدي المنى من بين أعوادها وأوراقها

(٣) الندى : الكرم والجود .

(١) سدفة : ظلمة .

(٢) حلال هنا : جمع حلة : ثوب ضاف .

الخضر ، ويدعو له أن يقيه إله الكون الهلاك وينحى عنه أنواع المكاره والضرر ، ويعطيه ما يتمناه في نفسه وآله وأولاده وماله وعمره. توفي سنة ١١٦٦ هـ / ١٧٥٣ م وسعود إليه في حديثنا عن الفخر والثناء .

### حُرْم<sup>(١)</sup> بن عبد الجليل العلوي

ويقال له أيضا حرمة الله وحرمة الرحمن ، ولد لأبيه في أرض القبلة ، وبها نشأته ، وشغف بالعلوم اللغوية والإسلامية وطلبها عند شيوخ مدينتي شنقيط وآطار . وهو من تلاميذ المختار ابن بون في العربية ، وكان يتقن مختلف العلوم ، وبه انتفع خلق كثير في النحو والفقہ ، وكان شاعرا يؤثر في شعره الانسياب مع الطبع والسهولة في اللفظ ، على نحو ما نرى في قوله يمدح بُلًّا الشقراوى الحسنى مشيدا بعلمه وشعره :

إن بُلًّا مشايخ حين تَعُرو	شاردات تقوت أركى العقول
من فنون شتى تُعنى المعانى	من عويص المنقول والمعقول
يُسِفُّ السائلين عنه بما في	له لدى غلّة شفاء الغليل
إن يسير لا تنساب مجد رَعِيْلُ	كان بُلًّا دليلَ ذاك الرَعِيْلُ <sup>(٢)</sup>
شعره مطرب حَمِيَاهُ تَسْرِي	في عظام الجليس مثل الشمول <sup>(٣)</sup>
ينفث الدر واليواقيت إلا	أن للدر قسوة في التليل <sup>(٤)</sup>

وحرم يقول إن بُلًّا ليس شيئا واحدا بل هو عصابة من المشايخ وفضله يبدو حين تلم شارادات من العلوم لا تستطيع أركى العقول أن تفقه عويص المنقول والمعقول فيها ، فسرعان ما يشفى ظمأ السائلين بحلّه لعويصها وتذليله ، وما من سابقين يسيرون في ليل مداهم إلى مجد إلا كان دليل هؤلاء السابقين ، وناهيك بشعره فهو شعر مطرب تسرى شدة تلاجه في عظام السامع سريان الخمر في الجسد ، وإنه ليلفظ الدر واليواقيت الممتعة لقارته دون أى عناء . ويقول في مدح شعر الشويعر الحسنى :

معناه راق راق حُسْنَا لفظه	لله فكر جال فيه ومقول <sup>(٥)</sup>
يسدى ويلحم في البلاغة حائكا	حلا يتيه بها القريض ويرقل <sup>(٦)</sup>

(٥) مقول : لسان .

(٦) يسدى من السدا وهو الخيوط طولاً ، ويلحم : من اللحمه وهى الخيوط عرضاً . ويسدى ويلحم أى ينسج . يرقل : يجر ثوبه متبخترا .

(١) انظر فى ترجمة حرم وشعره كتاب الوسيط ص ٢٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥٨ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ .  
(٢) الرعيل : السابقون فى الجماعة .  
(٣) حمياه : شدته وسورته . الشمول : الخمر .  
(٤) التليل : العتق .



أَغْنَاهُ عَنْ تَعَبِ التَّعَلُّمِ طَبْعُهُ      إِنَّ الْعَوِيصَ لَهُ يَهْوُنُ وَيَسْهَلُ  
 إِنَّ الْبَلَاغَةَ فِي الْبَلِيغِ غَرِيزَةٌ      لَا بِالْعَلَّاجِ يَنَالُهَا الْمُتَطَفُّلُ  
 هَلْ مِثْلُ أَخْلَاقِ الْكَرِيمِ تَخَلَّقُ      لَا ، لَا ، وَلَا كَحَلِّ الْجَفُونِ تَكْحَلُ<sup>(١)</sup>

وهو يقول إن معاني شعر الشويعر راقية وألفاظه راتقة ، ويشيد بفكره ولسانه ، ويقول إنه ينسج ويحوك في شعره البليغ حللا يتيه بها الشعر عجباً ويجرُّها متبخترا ، وهو شاعر الطبع لا يتكلف في شعره ، وعويصه سهل عليه دون أي عناء . ويذكر أن بلاغة البليغ سليقة فيه وفطرة لا يوجدتها التعلم ولا التكلف ، وفرق بعيد بين شعر الطبع وشعر التكلف والتصنع كالفرق بين الأخلاق الطبيعية والتخلق وكحل الجفون الطبيعي والتكحل ، وكأنه يعبر عن منهجه في الشعر . توفي سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م وسنعود إليه في شعر الفخر والحماسة .

### ٣

## شعراء الفخر والهجاء

### ( أ ) شعراء الفخر

الفخر فن شعري قديم تغنى به الشاعر الجاهلي مضمورا فيه مثاليته الخلقية من الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة وما إلى ذلك من الصفات النبيلة ، كما تغنى بمكارم قبيلته ومحامدها وبأسها في الحرب . وظل الشاعر العربي - بعد العصر الجاهلي - يفخر بأخلاقه وشيمه الرفيعة من الوفاء والحلم والصبر في الشدائد والكرم ، ونما الشعر الحماسي في الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين العرب وأعدائهم على مر العصور . ونجده في موريتانيا على ألسنة كثيرين ، فمن ذلك قول محمد اليدالي مفاخرًا بقومه بني ديمان الحسانين<sup>(٢)</sup> :

وَنَحْنُ دِيْمَانُ أَقْطَابُ الرُّحَى وَبُنُو  
 نَحْنُ اِكْتَسِينَا الْمَعَالِي وَالْعُلَا - حُلَا  
 وَنَحْنُ كُنَّا عَلَى وَجْهِ الْعُلَا - غُرُوَا  
 وَكَانَ مَنْزَلُنَا فَوْقَ السَّمَاءِ كَمَا  
 حَزُنَا الْمَكَارِمَ وَالْمَجْدَ الْمُؤْتَلَّ وَالـ  
 دِيْمَانُ خَيْرُ بَنِي حَسَّانَ أَدِيَانَا<sup>(٣)</sup>  
 حَمْرًا وَدُرًّا وَيَاقُوتَا وَمَرْجَانَا  
 وَفَوْقَ هَامِ النُّدَى وَالْعِزُّ تَيْجَانَا<sup>(٤)</sup>  
 كُنَّا عَلَى وَجَنَاتِ الدَّهْرِ خَيْلَانَا<sup>(٥)</sup>  
 عَلِيَاءَ مِنْ سَالَفِ الدَّهْرِ إِلَى الْآنَا<sup>(٦)</sup>

(٤) غررا جمع غرة: سادة مشهورين . الندى : الجود .  
 (٥) السماك : برج أو نجم - خيلان جمع خال :  
 الحسنة على الوجنة .  
 (٦) المؤتل : الأصيل .

(١) تخلق الشخص : ظهوره بخلق لا ينطوى عليه .  
 الكحل : سواد الجفون خلقة .  
 (٢) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٣٤١ .  
 (٣) أقطاب الرحي : السيادة .

قلائدُ المجد في أعناقنا نُظِمَتْ      عَقْدًا وكنا لعَيْنِ الدهرِ إنسانا<sup>(١)</sup>  
لا يُلغَنُ مدانا مَنْ يفاخرُنَا      فضلا وعلما وإيمانًا وإحسانا

يقول إنا قبيلة ديمان أقطاب السيادة وخير قبائل بني حسان تقوى وصلاحا ، وقد اكتسبنا حلل المعالي والعلا وحليهما من در وياقوت ومرجان ، وارتسمنا على وجه العُلا غررا بيضاء مشرقة وفوق رعوس الجود تيجانا ، وكان منزلنا فوق نجم السماك في أعلى عليين ، وارتسمنا على وجنات الدهر خيلانا وحسنات ، وحزنا المكارم والمجد الأصيل والعلواء إلى اليوم . وقد نظمت في أعناقنا قلائد المجد ، وكنا - ومازلنا - إنسان عين الدهر وجوهرته الباصرة ، ولا أحد ممن يفاخروننا يبلغ مدانا تقوى وعلما وفضلا وإحسانا . وكرر هذا الفخر في قصيدة همزية . ونالتقى بعده بالمختار بن بون وسنخسه بترجمة ، ويقول حرم بن عبد الجليل الذي سبقت ترجمته مفاخرا بقومه أهل شنقيط وقد انتصروا في حرب على أهل وادان<sup>(٢)</sup>

سَمًا للمعالي مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ      وَيَسْمُو عَلَى آثَارِهِ مَنْ تَأَخَّرَا  
مَآثِرُهُمْ حَلَى الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ      عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ كَانَ مَصُورَا  
وَكَمْ مِنْ فَتَى مِنْهُمْ يَرُوقُكَ عِلْمُهُ      وَيَهْزِمُ مِنْ أَنْجَادِ وَادَانَ عَسْكَرَا  
وَيَجْعَلُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ مَهْنَدًا      طَرِيرًا وَفِي الْأُخْرَى كِتَابًا مَطْرَرًا<sup>(٣)</sup>  
يَحِبُّ الرَّدَى يَوْمَ الْوَعَى وَكَأَنَّهُ      إِذَا مَاتَ فِيهِ لَا يَزَالُ مَعْمَرَا

وهو يقول إن جميع الرجال في قومه شبانا وشيئا يسمون للمعالي وقد كثرت مآثرهم ، وإن الزمان ليتحلى بها ، ولو كان إنسانا لاتضححت مصورة على صدره ، وإن فتيتهم لعلماء يرووك في السلم علم كل فتى منهم ، بينما هو في الحرب بطل يهزم عسكرا من أبناء وادان . وتراه يحمل في إحدى يديه سيفًا ماضيًا وفي اليد الأخرى كتابًا بهيًّا . وإنه ليضحى بنفسه في سبيل قبيلته ، حتى لكأنه يريد الموت في الوغى من أجلها ، ومثله لا يموت بل يظل خالدًا في ذاكرة قومه . ويقول الأحول البوحسنى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م في الحروب التي وقعت بين قبيلته وبين العلويين إثر انتصار لهم في بعض المواقع<sup>(٤)</sup> :

هَمْ جَلَبُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ فَلَمْ نَزَلْ      نُبِيدُ وَنُقْصِي مِنْهُمْ كُلَّ جَانِبٍ<sup>(٥)</sup>  
لَدَى مَشْهَدِ دَارَتِ رَحَاهُ فَجَرَعَتْ      صَنَادِيدَهُمْ حَتْفًا مَرِيرَ الْمَشَارِبِ<sup>(٦)</sup>  
وَوَلُّوا سَرَاعًا مَدْبِرِينَ كَأَنَّهُمْ      بُغَاثٌ تَهَاوَى مِنْ صَقُورِ دَوَارِبِ<sup>(٧)</sup>  
وَقَهْرًا طَرَدْنَاهُمْ وَخُضْنَا حِمَاهُمْ      وَهَجْنَا هَمُومَ الْمُغُولَاتِ النُّوَادِبِ

(٥) الحرب العوان : المتجددة مرة بعد مرة .  
(٦) دارت رحى الحرب : نشبت وحميت . صناديدهم جمع صنديد : شجاع مفرط في الشجاعة .  
(٧) بغاث : طائر صغير . تهاوى : طار مسرعًا .

(١) إنسان العين : جوهرتها الباصرة .  
(٢) الوسيط ص ٢٩ .  
(٣) طريرا : ماضيًا . مطررا : عليه بهاء ورواق .  
(٤) الوسيط ص ٣١٠ .

ألا إنا نَحْمِي الحِمَى ونحوطُهُ  
ومَنْ شاءَ فلينظرْ عواقبَ معشرٍ  
ونزدادُ صبرا تحت كلِّ النوائِبِ  
جَنَى حَرِينا يَزْجُرُهُ سُؤْمُ العواقِبِ

و يقول إن العلويين هم الذين جلبوا هذه الحرب التي لا تزال تتجدد حربا بعد حرب ، ولا تزال تقتل فيهم ونقصى بعض كتابيهم في مواقع حامية الوطيس جرعت شجعانهم موتا مريرا ، فولوا مدبرين كأنهم بغاث طار مسرعا بعضه إثر بعض خوفا من صقور مدرية ، وقد هزمتهم قهرا وتغلغلنا في حماهم وهجنا نساءهم وأعولن يندبهم . وإنا لنحمي حمانا ونقيه ، وتزيدنا الحروب صبرا وشجاعة ، ومَنْ شاءَ فلينظر عواقب من نحاربهم ومدى ما جنته الحرب عليهم ، وإذن يزدجر لما يرى بعينه من سُؤْمِ العواقب . ويقول محمد بن الطلبة اليعقوبي المتوفى سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م مفاخرنا بينى عامر<sup>(١)</sup> :

وبنو عامرٍ همُ القومُ كلُّ الـ  
وبهاليلٍ كالمصايح زهراً  
دينهم حفظُ دينهم وعلاهم  
لا همُ يفرحون للخير إن مـ  
صحب الله جمعهم وحباهم  
وسقى الله حيث أمروا وساروا  
قوم والرأسُ والذرى والرؤايى  
من كهولٍ ججاجٍ وشبابٍ<sup>(٢)</sup>  
وعلمهم الكتاب والآداب  
سٌ ولا يَجْزَعون عند المصابِ  
بالرُضا عنهم وحسن المآبِ  
من حيا المزن مُدجِنات الذهب<sup>(٣)</sup>

وبنو عامر - فى رأى محمد بن الطلبة - هم القوم ولا قوم سواهم وهم الرأس والقمم والكتبان العالية ، وهم سادة مشرقون كالمصايح من كهول كرام وشباب ، دينهم حفظ عقيدتهم وعلاهم وعلوم القرآن الكريم والآداب ، لا يفرحون حين يصيبهم الخير ولا يجزعون حين تنزل بهم مصيبة ، ويدعو الله لهم أن يرضى عنهم فى اجتماعهم وتفرقهم وعند ما بهم وعودتهم ويسقى منازلهم ومسيرتهم من غيث السحب المتراكمة العظيمة . ويقول باب بن ييب المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م مفتخر<sup>(٤)</sup> .

ألوى بصبرك لاعجُ الأشواقِ  
يا مَنْ يسابقنى ويطلب عُثرتى  
وإذا المسائل أحجمت وتمنعت  
إن الأحيبة آذنوا بفراق<sup>(٥)</sup>  
إنى - لعمرُك - سابقُ السباقِ<sup>(٦)</sup>  
وأبتُ مشاكلها على الحُذاقِ<sup>(٧)</sup>

(٤) الوسيط ص ٣٦ .  
(٥) ألوى : ذهب . لاعج : واقد . آذنوا : أعلموا  
(٦) عُثرتى : خطئى .  
(٧) أحجمت : نكصت وتمنعت .

(١) الشعر والشعراء فى مورجانيا ص ٣٤٦ .  
(٢) بهاليل : سادة كرام ، ومثلها ججاج .  
(٣) حيا المزن : مطر السحاب . الذهب جمع ذهبة : السحابة .

أعملتُ سيفَ الفكرِ نحوَ عَوِيصِها      فحنتُ على خواضعِ الأعناقِ<sup>(١)</sup>  
فتبوح لي بسررائرِ مكتومةٍ      حتى عن الأسطار والأوراق

وهو يقول إن واقد الأشواق في صدره ذهب بصبره ، فإن الأحبة على وشك الفراق . ويأخذ في الفخر بنفسه ، فيقول لمن يسابقه وينافسه ويطلب عثرته وخطأه إنه سابق السباق ، وإن المسائل إذا استصعبت وتمنعت مشاكلها على الحذاق فلم يستطيعوا لها حلا أعمل سيف فكره في عويصها فجاءته خاضعة تبوح له بأسرارها المكتومة عن ظاهر المكتوب في السطور والأوراق . وتتوقف للحديث عن شاعرين من شعراء الفخر .

### المختار<sup>(٢)</sup> بن بون

ولد ونشأ في منطقة تجكانت الموريتانية ، وتلمذ للمختار بن حبيب وأخذ كل ما عنده ، وكان يتعثر في أول أمره ، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة في العربية وجاءه الطلاب من كل فج ، وسمعت به قبيلة إديقب اليعقوبية ، وهي من أهم قبائل الزوايا في مدارس العلوم ، فطلبت إليه أن ينزل بها ليأخذ عنه طلابها علم النحو وعلم الكلام أو التوحيد ، وكان لا يجارى فيهما ، وأقام عندهم مدة ، ثم حدثت بينه وبينهم مناظرات في بعض العلوم كان يقودها تلميذه محمد المجيدري ومولود بن أحمد وعادوا إلى استسماحه ، مستشهادين بقوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ فأجابهم بما أجاب به يوسف إخوته ، إذ قال ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . وعاد إلى موطنه وانتال عليه الطلاب ، وكان رفيقا بهم يجود لهم بما يملك ، وكثروا فرحل بهم إلى بئر في أرض تجكانت ، فشرعوا يبنون الأخصاص لسكناهم ، وكان لا يشتغل نهارا ولا ليلا إلا بتعليمهم . وله في النحو منظومة تسمى الإحمرار جمع فيها بين ما ذكره ابن مالك في الألفية وكتابه التسهيل وطبعت في مصر ، وله في النحو أيضا مقدمة ألفها - كما مر بنا - للمبتدئين ، وتكونت له في النحو مدرسة أهم تلاميذه فيها بلأ الشقراوى جعلناها خاتمة حديثنا عن علماء العربية بموريتانيا . وله من قصيدة يعتب فيها على قبيلة إديقب اليعقوبية وتلميذه محمد المجيدري ويفاخر بما أسدى إليه وإلى أبنائها من علم العربية قائلا :

فلا تنكروني آل يعقوبَ واذكروا      ليالي أجلو ما على الناس أظلما  
وحين أحلى منكم كل عاطلٍ      بدري وأسقى باردى كل أهيمًا<sup>(٣)</sup>

(١) حنت : مالت وعطفت .

(٢) انظر في ترجمة المختار بن بون وشعره كتاب الوسيط ص ٢٧٧ والشعر والشعراء في موريتانيا

ص ٣٤٢ .

(٣) الأهيم : العطشان عطشا شديدا .



وهو يقول لهم لا تنكروني بعد ما قدمت لكم من جميل واذكروا حلي لطلابكم المشكلات التي استصعبت وانبهت ، واذكروا ما زينت به من درر العلم أبناءكم وكيف أسقيتهم منه ما أطفئوا به ظمئهم إلى المعارف ، ويقول مفاخرًا بقبيلته وقومه :

ونحن ركبٌ من الأشواف منتظمٌ  
نتلو كتابَ إلهِ العرشِ كلِّ مَسَا  
ومن تكنُ همَّةُ الأقدارِ نُصْرَتَهُ  
وهمةٌ دونها هَامُ السماءِ وَمَنْ  
وهيبةٌ ملئتُ منها القلوبُ فلو  
ولا يُنهنهني عن حاجةٍ جزعٌ  
أجلُ ذا الخلقِ قدرا دون أدنانا  
وكلُّ يومٍ وَمَنْ نَلَقَى تَوْقَانَا  
لم تقدرِ الناسُ أن تُوهي له شأنَا  
هِمَّةٌ دونها هَامُ السَّمَا دَانَا<sup>(١)</sup>  
نظرتُ شَزْرًا إلى أَقْصَى الْوَرَى حَانَا<sup>(٢)</sup>  
ولا أَلَيْنُ وَإِنْ ذُو لُوثَةٍ لَانَا<sup>(٣)</sup>

وهو يفخر بقومه أو قبيلته فخرا مبالغا فيه إذ يجعل أعظم الناس قدرا دون أدنى شخص فيهم منزلة ومكانة ، ويقول إنهم مكبون على كتاب الله يتلونه مساء وكل يوم ، وينوه بشجاعتهم وأن القبائل تحذرهم وتتوقاهم ، ويذكر أن الأقدار دائما تنصرهم على أعدائهم ، ومن تنصره لا يستطيع أحد ولا قبيل أن يضعفها له شأنًا وهم مهايون هيبة ملئت منها القلوب مخافة ، حتى إنه لو نظر إلى عدو مغضبا هلك خوفا وفرعا ، ولا يعتريه إزاء حاجة يريدتها جزع ، وإنه صلب لا يلين ، إنما يلين الضعيف الواهن . توفي سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م وقبل بل قبل ذلك بسنوات .

#### محمد<sup>(٤)</sup> بن سيدي الأثيري

كان أبوه سيدي جوادا جودا عظيما إذ كان غيثا مدرارا ، وكان عالما تتلمذ لحرم بن عبد الجليل وبذ أقاربه ، وشغف بالتصوف فشد رحاله إلى الشيخ المختار الكنتي الصوفي ولازمه ستة أشهر ، توفي عقبها ، فلازم ابنه محمدا حتى برع في التصوف ومعرفة طريقه . ويقول الشنقيطي عن محمد بن سيدي إنه نشأ في نعمة عظيمة ورعاية من والده جسيمة ، ويقول إنه العلامة الأريب اللغوي الأديب ، ويتوسع في ترجمته إلى أكثر من عشرين صفحة ، ينشد فيها طرائف شعره ، ومما أنشده قصيدة له يسخر فيها من برددون موضوعات الشعر القديمة وخاصة الوقوف بالأطلال والبكاء بالديار ونعت المرأة والخمر ويعيب عليهم كثرة السرقات الشعرية . ومن قصائده قصيدة يدعو فيها للجهاد ضد أعداء الإسلام المغيرين على السواحل الإفريقية

(٤) انظر في ترجمة محمد بن سيدي الوسيط للشنقيطي ص ٢٤٣ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٥٧ ، ١٨٩ .

(١) دان : عز .

(٢) شزرا هنا : مغضبا . حان : هلك .

(٣) ينهنهني : يكفني - لوثة : ضعف رحمي .

المغربية ، وكأنه كان يُعدُّ شباب قومه لمنازلة فرنسا قبل فرضها الحماية على موريتانيا سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م وفيها يفخر بشجاعة قومه وحميتهم للإسلام قائلا :

وفتيان يرون الضيم صابا      وطعم الموت خرطوما عقارا<sup>(١)</sup>  
أحبوا الملة البيضاء فكانوا      عليها من مراودها غيارا  
بأيديهم مذربة طوال      ترى الأقران أعمارا قصارا<sup>(٢)</sup>  
جموع تهزم الأعداء قهرا      فتركهم جديسا أو وبارا<sup>(٣)</sup>  
بنصر الله واثقة يقينا      فلا تخشى من الخلق الجدارا  
لها إعلاء كلمته مرام      فلا غنما تروم ولا افتخارا

وهو يقول إن شباب قومه فتيان أشداء يرون الذل مرا لا يطاق شرايه ، أما الموت في ميدان الحروب فيرونها لذيذا لذة الخمر أو أعظم لذة . وقد أحبوا الدين الخفيف حتى إنهم ليغارون عليه غيرة العاشق على معشوقته ، وإنهم لشجعان بواصل بأيديهم سيوف ماضية ، ترى الأقران أن أعمارهم قصار بما تقطع من رقابهم ، وإنهم لجموع تعودوا النصر على أعدائهم حتى ليبيدوهم عن آخرهم فيصبحوا في عداد الأمم البائدة مثل جديس ووبار ، ودائما يثقون في نصر الله لا يخشون أحدا ، وقصدتهم إعلاء كلمة الله ودينه القويم دائما ، ولا غنما يريدون ولا افتخارا . ويعرض في قصيدة طويلة مذاكرته لزملاء أدباء يقفون على مذاهب الفقهاء المختلفة ومذهبي الأشعري وإمام الحرمين الجويني ومنازع الفرق الصوفية وأقوال الخليل وسيبويه والكوفيين وغيرهم في النحو ، ويتدارسون شعراء الجاهلية الستة المشهورين : امرأ القيس وزهيرا والنابغة وعلقمة وطرفة وعترة ، والمرقشيين الأكبر والأصغر والأعشى : أعشى قيس وأعشى باهلة والأعميين : بشارا وأبا العلاء ، وأبا نواس والمتنبي . وهي وثيقة مهمة بما كان يتدارسه الشباب الموريتاني من العلوم والشعر والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ثم يقول مفاخرًا بشمائله :

ومن يك راغبًا في القرب مني      يجدنني دون ماء المقتلين  
ومن يوتر قلاي فليس شيء      يواصل بينه أبدا وبينى  
ألاحظ من خليطي كل زين      كما أغضبي له عن كل شين  
ولا أصغى إلى العوراء حتى      يرى أنى أصم المسمعين<sup>(٤)</sup>  
وما جهل الجهول بمستغزى      ومالى بالذنية من يدئين

(٣) جديس ووبار : قبيلتان من العرب البائدة .  
(٤) العوراء : الكلمة السيئة . المسمعين مشى مسمع :  
الأذن .

(١) الضيم : الهوان . الصاب : المر . الخرطوم  
والعقار : الخمر .  
(٢) مذربة : من ضرب السيف والرمح : صار ماضيا .

وهو يفخر بأن من يوده يجده أقرب إليه من ماء عينيه ، ومن يوثر بغضه يقطع كل صلة  
تصله به ، ولا أرى من صديقي إلا ما يزينه وأتغاضى عن كل ما يشينه ، ولا أصغى إلى كلمة  
سيئة تقال عن أحد ، وأرى - حين تقال - كأني أصم لا أسمع شيئاً ، ولا تستفزني حماقة  
الأحمق ولا أقترف عملاً سيئاً ولا خسيساً ذميمة . وكان الشعر يتدفق على لسانه ، توفي سنة  
١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م .

### (ب) شعراء الهجاء .

الهجاء فن قديم منذ الجاهلية كانوا يصبونه على خصومهم وخصوم قبائلهم ، ولم يكف  
يسلم منه شريف في الجاهلية ، لكثرة ما كان بين القبائل من حروب ومناقسات . وبمقدار  
شرف القبيلة وأمجادها ومآثر ساداتها وفرسانها ومناقبهم يكون هجاؤها وما ينزل بها من  
سهامه ، واتصل هذا الهجاء في الإسلام وطوال العصور ، والمظنون أنه كان كثيراً في موريتانيا  
بسبب كثرة الحروب بين عشائرها وقبائلها واستخدامه سلاحاً بغض من شأن القبيلة المعادية  
وساداتها وشيوخها . ويقول الدكتور محمد المختار إنه تجنب أن يكتب عنه في كتابه الشعر  
والشعراء في موريتانيا خوفاً من إثارة الحفيظة في المجتمع الموريتاني المعاصر ولم يصرح بذلك  
الشنقيطي في كتابه الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، غير أنه - فيما يبدو - كان يرى رأى  
الدكتور محمد المختار ، ولذلك لم يأت منه إلا بأمثلة قليلة ، حتى عند شاعر هجاء كبير من  
شعراء الجيل الأول في صدر القرن الثاني عشر الهجري هو المصطفى بن أبي محمد المشهور  
بلقب بوفمين<sup>(١)</sup> المجلسي ، يقول : « كان هجاء ما نجا منه أحد » ثم يذكر أنه هجا إيدا  
بلحسن بقصيدة طنانة مطلعها :

أجسب أن لا يزأر الأسدُ الورْدُ      ذئابٌ عَوَتْ لما تغافلَتِ الأسدُ<sup>(٢)</sup>

ومنها :

وعقلُ الذي منهم يَشُدُّ عمامةً      كعقلُ الذي منهم يُشَدُّ له المَهْدُ<sup>(٣)</sup>

ولا يضيف إليه أبياتاً أخرى من القصيدة ، ويذكر الشنقيطي أنه نزل يوماً عند قبيلة إنتاب  
في موضع يقال له إنجول فلم يكرموه ولا اكرثوا به فقال يهجوهم :

دهرُ الدهارير لا أقتُ فيه لدى      إنتابَ يوماً ولا يقرب إنجول<sup>(٤)</sup>  
يومُ الإقامة فيهم خلته ظمأً      يومُ القيامة إذ يحكيه في الطول  
حتى تذكرتُ أن الناس قاطبةً      إذن تُسالُ وأنى غيرُ مسؤلٍ

(١) انظر ترجمته عند الشنقيطي ص ٣٤٨ .

(٢) الورد : الأشقر .

(٣) الذي يشد عمامة : الشيخ .

(٤) دهر الدهاهير : أول الدهر في الزمن الماضي .

وهو يقول إنه لن يقيم مدى الدهر عند قبيلة إيتاب ومنازلها في إنجول ، وقد أقام لديهم يوماً خاله لطلوه - وقد ظمىء فيه ظمئاً شديداً - يوم القيامة ، وظن أن الناس ذهبت تُسأل وبقي وحده . وقال في إدوداي إحدى عشائر بني ديمان - وقد نزل عندها - يهجوها :

يا رَبُّ ليلٍ بهيمٍ أليلٍ داجٍ      قد بَتُّ في ضيعةٍ لدى إدوداجٍ<sup>(١)</sup>  
حتى إذا ما دنا الإصباحُ نبهني      وغدُّ على لقمةٍ في قعرٍ مَجَّاجٍ

وقلب الياء من قبيلة إدوداج جيما محاكاة لبعض لغات العرب في هذا القلب ، وهو يقول إنه بات في ليل بهيم مظلم أشد الظلام بضيعة عند إدوداي ، حتى إذا اقترب الصباح نبهه وغد لعيم على لقمة غير سائغة في قعر إناء يَمُجُّ ما فيه ويلفظه لسوئه .

ويسوق الشنقيطي للمأمون اليعقوبي المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م مقطوعة من هجائه للمختار بن بون حين وقع الشقاق بين المختار وعصابة البعقوبيين وصاروا جميعاً يداً واحدة عليه كما مرَّ في ترجمته ، وله يقول موهناً علمه بمنطق أرسطو وبأحاديث الرسول<sup>(٢)</sup> :

أكثرَ حَزْكَ لو دريتَ مَفْصِلَهُ      فأذِرِ المفاصلَ قبلَ الحَزِّ واستَفِقِ<sup>(٣)</sup>  
ما الدينُ إلا الذي تَسْعَى لتوهنَهُ      آيُ النبيِّ وآثارُ الهسدي العَبِقِ<sup>(٤)</sup>  
لا كُلُّ خَبْطٍ عن اليونانِ مبتدَعٍ      قد سُنُّ بين أصولِ الدينِ مُختَلَقِ  
تَحْمِي قواعِدَ رَسْطاليسَ تحسبها      ديناً لك السويلُ نَبهناك فاستَفِقِ  
إن كنتَ توردُ نَسْخاً أو معارضةً      لذي الأحاديثِ فاذاكُرْ ما ترى وسُقِ  
وإن تكنَ قاصراً عن كونها ثبَتَتْ      فيما حوى شَرْحَهُ الحُفَاطُ في الورقِ  
فاعرفْ مقامك في دَرَكِ العلومِ ولا      تعرضْ لمن خاض فيها شاسعِ الشُّقِّ<sup>(٥)</sup>

وهو يصفه بأنه أكثر الحزُّ ولا يصيب المفصل ، وينصحه أن يعرف المفاصل حتى يحسن الحزُّ ، ويقول له ما الدين إلا الذي تسعى في توهينه من معجزات الرسول وآثار هداية العطر لا هذا المنطق المبتدع عن اليونان والذي تزججون به في أصول الدين ودراساته ، لذلك تدافعون عن قواعد أرسططاليس المنطقية وتتخذونها ديناً لكم وشعاراً . ثم يقول إن كانت الأحاديث التي تذكرها وتدرسها للطلاب مكتوبة أو مروية فاذا ذكر ذلك وسق أسانيدها ، وإن كنت تعجز عن إثبات سندها في كتب الأحاديث وشروحها فاعرف مقامك في معرفة العلوم ولا تتعرض لمن تعمقها ووقف على نواحيها وجوانبها المختلفة . والمأمون تجاوز حده في هذا الهجاء فلم يكن المختار بن بون ضعيف الأحاديث ولا كان واهن الدين ، وإعجاباً بمنطق أرسطو لايشينه ، فقد كانت دراسته عامة في جميع البيئات الإسلامية . ويصفه الشنقيطي في ترجمته بأنه « تاج

(١) بهيم : مظلم . أليل : شديد الظلمة . داج : معتم .

(٤) العبق : العطر .

(٥) الشقق : جمع شقة : الناحية يريد أنه متوسع في

العلوم .

(٢) الشنقيطي ص ٢١٧ .

(٣) المفصل : ملقى كل عظمين في الجسد .



العلماء.. ولا يوجد عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مسندهاته» .

#### ٤

### شعراء الرثاء

للرثاء عند العرب - منذ الجاهلية - ثلاث صور : صورة الندب وبكاء الميت والنواح عليه من ذوى القربى، وصورة التأين ورسم فضائل الميت لبيان خسارة القبيلة أو المجتمع فيه ، وصورة العزاء وبيان أن الموت كأس يتجرعه البشر جميعا ، فالكل ميت ولا بقاء لأحد ، وكثيرا ما تختلط هذه الصور فى المراثية الواحدة. وفى كل عصر وفى كل قطر تلقانا عشرات المراثى بل أحيانا مئاتها ، وهى كثيرة فى موريتانيا ، وقد عرض منها المرحوم الشنقيطى والدكتور محمد المختار عشرات ، ونعرض بعض أمثلة منها ، من ذلك قول ابن رازكه يرثى أعمر آكجيل التروزي<sup>(١)</sup> :

هو الموت عَضْبٌ لا تخون مضاربه	وحوضٌ زُعافٍ كلُّ من عاش شاربه <sup>(٢)</sup>
وما الناس إلا واردوه فسابق	إليه ومسبقٌ تخبُّ نجائبه <sup>(٣)</sup>
يجبُ الفتى إدراكَ ما هو راغبٌ	ويدركه - لأبدٌ - ما هو راهبٌ
وكم لابسٍ ثوبَ الحياة فجاءه	على فجأةٍ عادٍ من الموت سأل به
وما صان حبرا علمه وكتابه	ولا ملكا أعلامه وكتابه

وهو يبدأ مرثيته بالعزاء ، فالموت سيف وصلت على رقبة كل إنسان ، لا تخونه مضاربه ، وحوض سم قاتل ، كلُّ من عاش على ظهر الدنيا لابد شاربه ، والناس جميعا واردوه ، سابق إليه ومسبق تعدو به ركائبه . ويتعلق الإنسان فى دنياه بما يرغب فى تحقيقه ويدركه الموت الذى يرهبه ، وكم من لابس لثوب الحياة يفجؤه عادٍ من الموت يسلبه عنه ويخلعه . ولا يصون العالم الجليل منه علمه وكتبه ، ولا يصون الملك راياته وكتابه . ويرثى القاضى أحمد بن يوسف البوحسنى ويقول فيه مؤبنا<sup>(٤)</sup> :

فتانا ومفتينا المصيبُ وشيخنا	ونبراسنا فيما بهمَّ ويُسدِفُ <sup>(٥)</sup>
بصيرٌ بحلُّ المشكلات كأنما	يكاشفُ عن أسرارها ثم يكشفُ
تملك أطراف القضاء وفقهه	وما هو إلا مالكٌ أو مطرفُ <sup>(٦)</sup>

(٥) نبراس : مصباح . يسدِف : يظلم .  
(٦) مالك : الإمام مالك بن أنس . مطرف : قاضى  
صنعا المشهور .

(١) الوسيط للشنقيطى ص ١٥ .  
(٢) عضب : سيف قاطع . زعاف : سم قاتل .  
(٣) تخبُّ : تعدر . نجائبه : ركائبه .  
(٤) الوسيط ص ١٨ .

وهو يصفه بأنه المفتي المصيب والمصباح الذي يضيء ظلمات المشكلات العلمية ، وكأنما يُكشَفُ له أسرارها ويكشفها للناس ، وقد امتلك فتاوى القضاء وفقهه في أحكامه حتى لكأنه مالك مفتى المدينة أو مطرف قاضي صنعاء . ويقول محمد اليدالي الذي مرت ترجمته مؤنثا المختار بن الفاضل<sup>(١)</sup> :

وهيبة تملأ الأفكار والحدقا <sup>(٢)</sup>	لطفى على لودعى ذى ندى وتقى
وهمة علت العيوق والأفقا <sup>(٣)</sup>	وذى معارف ربانية وهدى
له فأضحى يرئى من به التحقا	علم الحقيقة والشريعة اجتماعا
ما معتفوه أتوه فاض واندفقا <sup>(٤)</sup>	وبحر جود وعلم زاخر وإذا
رضا الإله ، خديم الضيف إن طرقا <sup>(٥)</sup>	شعاره البر والتقوى ودينته

واليدالي يتحسر على موت ابن الفاضل ويقول إنه حاد الذكاء كريم صالح ، تملأ هيئته العيون والأذهان ، متصوف له معارف إلهية وهدى وعزيمة تعلق الأفق والنجوم ، وقد اجتمع فيه علم الشريعة والحقيقة الصوفية ، وبهما كان يربى تلاميذه ، وهو بحر زاخر للعلم والجود . وإذا ما أتاه سائلوه فاض عليهم بحر جوده وعلمه وتدفق من كل جانب ، شعاره الإحسان والتقوى ودأبه رضا الإله ، وإن ألم به ضيف كان خادمه : فرط جود وكرم . ويقول حرم بن عبد الجليل في رثاء مولود بن أجفغ العقبوي<sup>(٦)</sup> :

ولا فارق النور الغزاة والبذرا <sup>(٧)</sup>	أتعنون مولودا وما انقض كوكب
وما أبدت الأشرط آياتها الكبرى <sup>(٨)</sup>	ولا زلزلت زلزالها الأرض يومه
كأن صروف الدهر ما أحدثت أمرا <sup>(٩)</sup>	وما شغل الناس البكا عن أمورهم
فواضل شتى لا نطق لها حصرا	لقد غيبت من غاب عند مغيبه
فيا ليت أتى كان صدرى له قبرا	وطوبى لقبير أودعوه عظامه

وحرم يندب صديقه مولودا ويتفجع عليه ويبلغ من حزنه أنه يعجب كيف لم ينقض كوكب ولا فارق النور الشمس والقمر ولا زلزلت الأرض ولا أبدت الساعة أشرطها وعلاماتها الكبرى جزعا على موت مولود ، كما يعجب أن الناس لم يشغلهم البكا على الميت العظيم عن شئونهم ، كأن صروف الدهر ونوائبه ما أحدثت شيئا ، مع أنها غيبت من لا يستطيع أحد

(٦) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٩٦ .

(٧) الغزاة : الشمس .

(٨) الأشرط : علامات الساعة .

(٩) صروف الدهر : خطوبه ونوائبه .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٩٤ .

(٢) لودعى : عالم ذكى . ندى : كرم .

(٣) العيوق : نجم .

(٤) معتفوه : سائلوه وطلبو جوده .

(٥) ديدنه : دأبه وعادته .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبرا ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م - وكان شيخ طريقة وعالما فى الفقه والعربية والبلاغة - راثيا الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلًا<sup>(١)</sup> :

سهرتُ جفونك والمصاب مسهدُ	يرثى ليلتك السليم الأرمد <sup>(٢)</sup>
ورثتُ لك الخنساء ، بعد متمم	ورثى ليدي يوم فارق أربدا
لمصيبة صدمت فؤادى صدمة	كادت بنات الجوف منها تصعدُ
وجرى الدموع على الخدود كأنها	نظم جرى من سلكه متبددُ
وتصدعت كبدى لها وكأنما	بجوانحى منها حريق موقدُ
وإذا بكيتُ شجى عليه فإنه	تبكى وتندبه جموع حقد <sup>(٣)</sup>
ويكى عليه ليله ونهاره	والصوم ييكى والتهجد يرعدُ
وبكت بقاع كان يعبد ربه	فيها فيركع ما يشاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأنما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لدغ مرات ، وكان تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نورية ، وبكاء ليدي لأخيه أربد ، كل ذلك كان رثاء حاراً للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أوعاؤه منها تصعد ، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حباته ، وتشققت كبده ، وكأنما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهارا وتهجده ليلا ، ويستمر يذكر أن كل شىء ييكىه ، تبكيه صلاته ووضوءه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكانا مكانا ، ثم يقول - كما فى البيت الأخير - إنه عبد ربه فيها وركع وسجد له طويلا . والمرثبة بديعة . ومحمد بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشدا<sup>(٤)</sup> :

ما لراجى الخلود نيل الخلود	إن ورد المنون حتم السورود
أطيب الحياة والشيخ أمسى	غيبته مغيبات اللحدود
إن مالى من اصطبار تولى	إذ تولى إنسان عين الوجود
طود علم ينحوه كل مرید	من جماه يفر كل مرید <sup>(٥)</sup>
وإذا سد باب علم عويص	كان مفتاح باب المسدود
علم الأصل والفرع إلى أن	ليس فى العلم يتغنى من مزيد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .  
(٢) السليم : الملدوخ . الأرمد : من أصاب عينه الرمى .  
(٣) حقد : حاشدة .  
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .  
(٥) مرید : شيطان .

وهو يقول إن الخلود لا يناله أحد ، إذ كلُّ وارد على حوض الموت مسلم روحه إلى ربه ، ويقول إن الحياة أصبحت لا تطيب وقد مات الشيخ وغيبته اللحد ، وقد تولَّى عنى صبرى إذ فارقتى إنسان عين الوجود ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه طود علم كان يومه يريدون كثيرون ، ومن حماه وتقاه يفر الشيطان المريد ، وإذا سُدَّ باب علم عويص معقد كان مفتاح بابه المسدود فما يلبث أن يفتح على مصاربعه . وقد علم الأصول والفروع علما لا يلحقه فيه لاحق . وله مرثية أخرى فى محمد الدنبج التندغى . ويقول الشيخ سيدياً الكبير المتوفى سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٨ م فى رثاء الشيخ الصوفى المختار الكنتى وزوجه الصالحة<sup>(١)</sup> :

جادتُ سحائبُ رأفةِ الرحمن  
 ويوصفُ محضُ الودِّ والزلفى على  
 لاحاً وأحلاكُ الجهالةِ فحمةً  
 والدينُ منهدمُ القواعدِ مُركسٌ  
 ففدا منارُ الدين بعد تهدم  
 يهواملُ التكريم والرضوان<sup>(٢)</sup>  
 جدّين حلَّ حشاهما الشيخان<sup>(٣)</sup>  
 وملابسُ البدع الجدادِ مثان<sup>(٤)</sup>  
 بأخامص الطغيان والعصيان<sup>(٥)</sup>  
 ثبتَ الأساسُ مشيداً الأركان

وهو يدعو للشيخ وزوجته بأن تهمل عليهما سحائب رأفة الرحمن بمنهر التكريم والرضوان وبمحض الود والزلفى على قبريهما ، ويقول إنهما ظهرا ودياجى الجهالة فحمة ، وملابس البدع المحدثه لا تحصى ، والدين منهدم القواعد وعاليه مركس بباطن أقدام الطغيان والعصيان ، فأصبح بفضلهما منار الدين راسخ الأساس رفيع الأركان . ويقول محمد بن حنبل الحسنى فى رثاء الشيخ سيدياً الكبير<sup>(٦)</sup> المذكور آنفا :

أرى الملة البيضاء جلُّ مصابها  
 وقاستُ بفقد الشيخ وجدَّ مصابه  
 وأظلم وجهُ الأرض حتى كأنما  
 وزلزل أقطار البلاد فأصبحتُ  
 وزعزع أطام الهدى وحصونه  
 ففاضتُ مآقيها وطال انتحابها<sup>(٧)</sup>  
 بواحدتها لما تولَّى شبأها  
 تردتُ مدادا غوطها وجدأها<sup>(٨)</sup>  
 شواهقها مهتزة وهضابها  
 وقوض فسطاط العلا وقبأها<sup>(٩)</sup>

وهو يقول إن وفاة الشيخ سيدياً مصاب كبير لشريعة الدين الحنيف ، وكأنما قاستُ حزن سيدة فقدت واحدها أو ولدها الواحد ويقول إن وجه الأرض أظلم وارتدت رياضها

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١٦ .

القدم .

(٢) هوامل : مسائل .

(٣) جدّين : قبرين .

(٤) مثان : الخيمة الكبرية .

(٥) مثان : تتكرر وتتردد .

(٦) غوطها : رياضها . حدابها : كتبها .

(٧) مركس : مضروب . أخامص جمع أخصص : باطن

(٨) الفسطاط : الخيمة الكبرية .

(٩) القدم .



وكتبانها مدادا أسود شديدا ، وزلزلت أنحاء البلاد واهتزت جبالها وهضابها وزعزعت منازل الهدى وحصونه وهُدِّمت خيام العلا وقبابها . وهي مبالغات شديدة في الرثاء تعبيرا عن مدى الحزن الذي أصاب الشاعر والناس بوفاة هذا الشيخ الصوفي. وتتوقف قليلا إزاء أحد شعراء الرثاء .

### باب<sup>(١)</sup> بن أحمد ييب العلوى

كان أبوه عالما فاضلا ناسكا مشارا إليه - كما يقول الشنقيطي - في بلده وجيله ، ملحوظا بعين التعظيم في معشره وقبيله . ويقول عن باب إنه العالم الأوحى الذي أغار ذكره وأنجد . ومراً بنا أنه أكمل كتاب الدياج في تراجم فقهاء المالكية من القرن الثامن الهجرى حتى القرن الثانى عشر . ولما كُفَّ عمه - وكان قاضيا - أنابه عنه في قراءة الحديث للطلاب والناس حتى وفاته ، واشتد الخلاف بينه وبين ابن خاله حُرْم الذى مرت ترجمته في مسألة من مسائل الوقف ، وانضم إلى كل منهما طائفة من العلماء والشعراء ، وكان فقيها محدثا ناسكا . ويقول الشنقيطي عنه : قلما مات أحد من يشار إليه في قبيلته إلا رثاه ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م . ومن قوله فى رثاء عبد الله بن حرمة بن الصبار العلوى :

كان عبد الإله بَرًّا تقيًّا	نزى النفس طاهر الأثواب
صحب الصالحين وهو صغير	لم ينل منه عنوان الشباب
كان بَرًّا بأمه وأبيه	ورفيقا بجاره ذى الجناب <sup>(٢)</sup>
وهو فى لزبة الزمان ربيع	ذو جفان كأنهنَّ جوايى <sup>(٣)</sup>
كل يوم تراه يدرسُ علماً	وهو بالليل قائمُ المحراب

يقول باب إن عبد الله كان صالحا تقياً نزيها عن الصغائر طاهر الأثواب ، صحب الصالحين ناشئا فى شبابه ، وكان بارا بأمه وأبيه ورفيقا بجاره البعيد فضلا عن القريب . وفى أيام الشدة والجذب يصبح ربيعا للناس وتكتظ مائدته لهم بقصاع كالحياض مترعة بالطعام ، وفى كل يوم يدرس للطلاب والناس علما وفى الليل يخلص لربه مصليا فى المحراب . ويقول فى رثاء محمد بن أحمد الحسنى :

(١) انظر فى ترجمة باب وشعره الوسيط ص ٣٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠٦ وما بعدها .  
 (٢) ذى الجناب : يريد البعيد .  
 (٣) لزبة : شدة . الجفان جمع جفنة : القصعة . الجوايى جمع جايية : الحوض .

فعلُ الجليلِ جميلٌ فأرضَ ما فعلا  
واذكرُ مصيبةَ خيرِ الخلقِ تسَلُّ بها  
به تَيْتَمٌ - إذ أُودِيَ - بنو حسنٍ  
لو ساعدتني القوافي ما تركتُ لمن  
رَمَى بقلبك شَجْوًا أو رمى جَذَلًا<sup>(١)</sup>  
إذا عليك مُصابٌ معضلٌ نَزَلًا<sup>(٢)</sup>  
يُتَمُّ ابنِ يومينِ والعافون والنزَلًا<sup>(٣)</sup>  
يُرثي مقالا ولا يشفى لى الغُللا<sup>(٤)</sup>

وباب يدعو للرضا بقضاء الله وكل ما ينزله بالإنسان من حزن أو فرح ، ويقول إن مصيبة الأمة في خير الخلق رسولها الكريم يجعل كل فرد فيها يتعزى بها عن كل ما ينزل به من مصاب فادح أو كما يقول شديد عسر . وقد أصاب باليتيم من يعولهم من بنى حسن والسائلين والضيغان . ولو ساعدته القوافي ما ترك لراث أو نادب مقالا ، ومهما قال فلن يستطيع شفاء ما يكنه من حرارة الحزن عليه . ويقول في رثاء زوجته مريم بنت محمد مولود :

هَمْ تَأْوَبُهُ مِنْ بَعْدِ مَا هَجَعَا  
أَضْحَى الْفَوَادُ بِهِ مِنْ لَوْعَةِ خَبَلًا  
يَيْكِي عَلِيٍّ مَرِيْمٍ يَوْمًا وَحَقُّ لَه  
يَا لَيْلَةَ بَيْتِهَا جَنْبَ الْمَلِيحَةِ لَمْ  
حَتَّى دَعَاهَا إِلَى الْمَوْلَى الْمَهِيْمِ مَا  
يَا رَبُّ مَرِيْمٌ قَدْ وَافْتَكَّ وَافْدَةٌ  
قد بات منه يراعى النجمَ مَكْتَبًا<sup>(٥)</sup>  
والعَيْنُ تَسْكِبُ مِنْ تَذْرَافِهَا دَفْعًا  
أَنْ لَا يَزَالَ عَلَيْهَا بَاكِيًا وَجِعًا  
أَهْنَأُ وَقَدْ نَامَ عَنِ الْقَوْمِ مُضْطَجِعًا  
يدعو الملوك ويدعو الأعصمَ الصَّدْعَا<sup>(٦)</sup>  
فاجعل لها جَنَّةَ الْفَرْدُوسِ مُرْتَبِعًا

ومريم زوجة باب هصر الموت غصن شبابها في سن الواحدة والعشرين وقد تركت ولديها فاطمة وأحمد وقلبه مشغوف بهما ، وهو يقول إن همًا ظل يعاوده بعد هجوعه قليلا ، وظل سهران يراعى النجوم في غروبها وكأنما أصابه لشدة لوعته خبل ، وعينه تذرِف الدمع مدرارًا ، وييكى على مريم بكاء حارًا ويتوجع وما كان عليه أشد من ليلتها الأخيرة وهو بجوار محبوبته يتجرع الحزن وقد نام الناس جميعا ، ودعاها إلى ربها الموت الذى يدعو الملوك والوعول والوحوش الفتية ، ويدعو لزوجته ربه أن يدخلها فراديس الجنان . ويستمر في القصيدة ويدعو الله أن يلفظ بولديها وأن تصلى عليها الملائكة وحاملو العرش والأنبياء والمسلمون في صلاة الجمعة وحجاج بيت الله الحرام ، ويسترجع مستسلما للقضاء . والمرثية مؤثرة بالغة التأثير .

- (١) شجوا : حزنا . جذلا : مسرة .  
(٢) معضل : شديد أو لا يمكن البرء منه .  
(٣) العافون : السائلون .  
(٤) الغلل جمع غلة : حرارة العطش وتستعار لنار الوجد .  
(٥) مكتبا : مائلا إلى الغروب .  
(٦) الأعصم الصدع : الوعل الفتى القوى .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

فلما يخلو شعر شاعر موريتاني من أبيات ومقطوعات - وأحيانا قصائد - تصف تعلقه بفتاة في شبابه ، غير أن شاعرا لم يعيش لوصف الحب وتباريحه ، مثل شعراء الغزل العذرى في عصر بني أمية من أمثال قيس بن ذريح وجميل أو مثل شعراء الغزل الصريح أمثال عمر بن أبي ربيعة والعرجي ، إنما هي خواطر تلم بالشاعر الموريتاني إزاء عاطفة الحب الخالدة في الحياة الإنسانية . ودأب الشعراء على محاكاة أسلافهم من شعراء العرب في التقديم لقصائدهم الطويلة بذكر الأطلال ووصف الأظعان وما يتخلل ذلك من النسيب . ولن نقف في عرضنا للغزل الموريتاني عند هذا الجانب لأنه - في واقع - محاولة لمحاكاة القدماء وقلما حمل تصوير الموجدة الحقيقية إنما نعرض طائفة بديعة من أشعار الغزل التي انتخبها الدكتور محمد المختار ولد إياه في كتابه الشعر والشعراء في موريتانيا ، ومن أنشد له مقطوعات وقصائد طريفة في الغزل محمد بن محمدى وله من قصيدة بارعة<sup>(١)</sup> :

فيمن أهيمُ بها لوما ولو هاموا	فيمن أهيمُ بها لوما ولو هاموا
هام الفؤادُ بمن لولا ملاحظتها	هام الفؤادُ بمن لولا ملاحظتها
تلك التي من لها مسنى لم	تلك التي من لها مسنى لم
نام الأخلاءُ عن ليلى وأرقتني	نام الأخلاءُ عن ليلى وأرقتني
من لي بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما	من لي بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما
إن تمنع الوصلُ أيامَ لنا فعسى	إن تمنع الوصلُ أيامَ لنا فعسى

وهو يقول إن من حولي يلومونني في هيامي بصاحبتى ولو رأوا جماها الفاتن يوما لهاموا بها مثلي وكفوا من لومهم ، وقد هام الفؤاد بها لحسنها ولولاه ما سُفِّهت عقول العقلاء الذين شغفوا بها حبا . وتلك هي التي مسنى من جمال شفتيها وفتنتها ما يشبه الجنون وأصابني من سقم أجفانها ما لا يجد من الأسقام . ويعجب أن نام الأخلاء وهو مؤرق مسهد لأنه عاشق ،

أر شدة .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٩٦ .

(٢) لاما : سمة شفتيها . لم : طرف من الجنون

والعاشق لا يصدق في عشقه إن نام . ويتمنى وصل صاحبه ، ويقول ما أشبهه بالأحلام يراها  
الوسنان في نعاسه ، ويقول إن كانت أيام لنا لم تسمح بالوصال فعسى أيام أخرى تسمح  
باللقاء . وكان يعاصره محمد بن طلبة وسنفر له ترجمة . ويقول المختار<sup>(١)</sup> بن محمد الحسنى  
من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى :

شأن المحيين أن يبكوا وأن يقفوا	بين المنازل فابكوا بينها وقفوا
ما فى البكاء بها عارٌ ولا سرفٌ	بل البكاء على غير الهوى سرفٌ
إن لم تكن عبراتُ العينِ واكفةٌ	فيها ففى أى دارٍ بعدها تكيفٌ <sup>(٢)</sup>
والعينُ ما برحتُ من فيضِ عبرتها	إنسانها يختفى طورا وينكشف
تُسمى القلوبَ بسهمي لحظها عرَضاً	إن القلوبَ لسهمي لحظها هدَفٌ <sup>(٣)</sup>

وهو يقول لصحبه إن عادة المحيين إذا ألموا بديار محبوباتهم أن يستوقفوا الركب ويبكوا  
فقفوا وابكوا فى منازل صاحبتى ، وإن لم تسيلُ عبراتى ، ففى أى دارٍ غير دارها تسيل وإن  
عبراتى لتهمى حتى ليختفى إنسان عيني وراءها تارة ، وتارة ينكشف ، وإنها لتصيب القلوب  
بسهم لحظها دون قصد حتى لكأن القلوب دائما لها هدف . ويقول محمد<sup>(٤)</sup> بن حنبل الحسنى  
المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م :

اسكبى الدمع واهجرى النوم عيني	صرمت حبل الوصل أم حكيم <sup>(٥)</sup>
تلك من جرعت فؤادى كحوساً	من هواها تبيتنى كالسليم <sup>(٦)</sup>
لا تظن الظنون أن مقامى	بالينبيع لأطلاب العلوم
بل لغريبة تهب عشيياً	بشداها فأشتفى بالشميم
وأرى عين من رآها فأطفى	لهب الوجد من حشائى الكليم

وهو يطلب من عينه أن تسكب الدمع مدرارا وتهجر النوم هجرانا ، فقد قطعت أم  
حكيم ما كان بينها وبينه من وصل ، ويقول إنها جرعت كحوسا من حبها جعلته بيت  
طوال الليل كالمدرغ . ويذكر أنه ينبغى أن لا يظن أحد أن مقامه فى جوارها بالينبوع من  
أجل طلب العلوم ، وكان شغوفاً بها ، إنما هو من أجل استرواح الريح الغربية التى تحمل  
عطر أم حكيم فيشتفى بها أو ليرى عين من رآها فيطفىء نار الوجد المشتعلة فى حنايا  
أحشائه . وتتوقف قليلا إزاء بعض شعراء الغزل .

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٥ .  
(٥) صرمت : قطعت .  
(٦) السليم : المldrغ .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٣ .  
(٢) واكفة من وكفت تكف : تسيل .  
(٣) تسمى تصيب .



## الأحول (١) الحسنى

هو عبد الله الأحول الحسنى ، كان حسن الأخلاق عالماً باللغة ، ولما وقعت الحرب بين قومه وبين العلويين انحاز فيها إلى قومه وسلّم معهم سيفه ، ونظم فيها أشعاراً كثيرة ضد العلويين ، وما زال حاملاً سلاحه حتى قتل فى إحدى معاركها سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م وأنشد له الشنقيطى والدكتور محمد المختار قصائد ومقطوعات غزلية مختلفة منها قوله :

شدوا المهارى بأكوار وأحداج	وأدلجوا تحت ليل الليل داج <sup>(٢)</sup>
فأصبحت دورهم قفراً معطلة	تبكى دواعى هديل شجوها شاج <sup>(٣)</sup>
تلوح آثار من بانوا بمعهدا	مثل البرود وشتها كف نساج
فما علمت ولم أشعر بينهم	إلا بجون من الغربان شجاج <sup>(٤)</sup>
تباً لعيس نأت عنا بناعمة	غيداء ريانة الحجلين مغناج <sup>(٥)</sup>

والأحول يقول إن أهل صاحبه شدوا لإبل للرحيل ومعهن النساء فى الرحال والهواج ، وساروا فى ليل شديد الظلام وأصبحت دورهم خالية يبكى فيها الهديل وحمامته بكاء يثير الوجد والشجن ، وآثارهم فى الديار وكأنها ثياب زينها نساج بما فيها من رسوم وخطوط . وما أعلمنى بينهم وبعدهم إلا نعب غراب شديد السواد . ويقول هلاكاً لإبل بعدت عنا بحسنا ممتلئة الخلخالين ذات دلال يزيدا حسناً ، ويقول :

أمت معاهد سعدى باللوى درساً	من صوب ودق الغواذى بكرة ومساً <sup>(٦)</sup>
كم حاورتنى بها حوراء آنسة	غراء من حاورته منطلقاً أنسا <sup>(٧)</sup>
أهو بسعدى وسعدى لا يخيبها	نم المردين تخيبا من الجلماً <sup>(٨)</sup>
بيضاء من مد فيها العين فاقتبست	تحت الدجى من سناها أنكر القبسا
بل لورأها أهالى يوسف قطعت	منهم قلوب رجال لا أكف نسا

وهو يقول إن ديار سعدى صاحبه أصبحت عافية من طول ما انسكب عليها من أمطار السحب صباحاً ومساءً ، ويذكر صاحبه اللطيفة الحسنا وأنسه بها وبأحاديثها حين كانت

(١) انظر فى ترجمة الأحول وشعره الشنقيطى ص ٣٠٤ والدكتور محمد المختار ص ٨٤ وفى مواضع مختلفة .  
 (٢) المهارى : الإبل . الأكوار : الرحال . الأحداج : الهواج . أدلجوا : صاروا ليلاً . الليل : شديد السواد .  
 (٣) هديل : ذكر الحمام . شجوها : حزنها . شاج : كثير الحزن .  
 (٤) بينهم : يبعدهم . جون : أسود . شجاج : يكثر  
 من النعب والصباح .  
 (٥) العيس : الإبل . غيداء : حسنا . ريانة الحجلين : ممتلئة الخلخالين . مغناج : ذات دلال .  
 (٦) درساً : عافية . ودق : مطر . الغواذى : السحب .  
 (٧) حوراء : ذات حور فى عينيها وجمال . غراء : بيضاء .  
 (٨) يخيبها : يخذعها . المردين : المعجيين .

تلهو معه غير آبهة بكلام المعجبين النمّامين ، ويقول إن من يرنو إليها طويلا يشعر كأنما قبسَ من جمالها المضيء ما يفوق قبس النار حسنا وجمالا بل لو رآها رجال النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين أبصروا جمال يوسف لقطعوا قلوبهم افتتانا بها . ويقول :

غُرَاءُ لَا يَرْقُبُ الرَّاءُونَ وَجَنَّتْهَا  
لَمْ تَدْرِ هَلْ هِيَ مِنْ شَذْرِ مَرْكَبَةٍ  
إِلَّا تَنَى النُّورُ مِنْهُمْ حِدَّةَ النَّظْرِ  
أَمْ مِنْ صَرِيفٍ لُجَيْنٍ أَمْ سَنَا قَمَرٍ (١)  
مَنْ ذَا وَمَنْ ذَيْنُ وَسَمُ الدَّلِّ وَالْخَفْرِ  
كُلُّ تَلَابَسٍ إِلَّا أَنْ يَمِيَّزَهَا

فهى بيضاء لا يرمى المبصرون وجنتها النيرة إلا صرف نورها حدة النظر إليها لشدة سطوعه كسطوع ضوء الشمس . ويقول إن مبصرها لا يدري هل هى مركبة من قطع ذهب أم من قطع فضة أم من ضوء قمر ، وكأنما كل ذلك يلتبس بها إلا ما تتميز به من الدلال والحياء اللذين يزيدانها حسنا وبهاء .

#### محمد (٢) بن الطلبة يعقوبى

عشيرة يعقوبيين أو قبيلتهم فى شنيط ومراعى تيرس وريفها من سلالة عون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتاز يعقوبيون بالتعمق فى العلوم الفقهية واللغوية ، وكانت لهم مدرسة تعنى بتدريس هذه العلوم ، فتوارثوا التدريس فيها كما توارثوا القضاء ، وكان أبو الشاعر وجده مدرسين ، فهو من بيت علم ، وعنى أبوه بتربيته ، وكان يُدرّس للطلاب حينئذ المعلقات السبع ودواوين الشعراء الستة : امرئ القيس وزهير والنابعة وطرفة وعنترة وعلقمة ، وديوان ذى الرمة . وأضاف إلى ذلك الطلاب النابهون من أمثال محمد بن الطلبة ديوان الشماخ والأعشى وغيرهما من القدماء . وتمثل ابن الطلبة الشعر الجاهلى والإسلامى تمثلا لانكاد نجد له نظيرا بين شعراء البلاد المغربية على الأقل إن لم يكن بين شعراء العربية عامة ، وتقروءه وكأنك تقرأ لشعراء الجاهلية المفرطين فى استخدام الألفاظ الغريبة من مثل الحارث بن حلزة والشماخ وأضربهما من الجاهليين . وهياً لذلك عند محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا أن بيئتها كانت تشبه البيئة الجاهلية بصحاريها وبقبائلها الرُّحْل وراء المراعى ومساقط الغيث ، وبإبلها وأنعامها الراحية وبآبارها الآجنة وفى كل بقعة فى المراعى نجد أطلالا وآثارا لمن أقاموا بها فترة ثم زابلوها . وكما يكثر الشاعر الجاهلى من قطع المفاوز على ناقته كذلك يكثر الشاعر الموريتانى مستمدا من واقع حياته الذى لا يختلف عن واقع حياة الجاهليين ، وكاد محمد بن الطلبة لا يترك موضعا

(١) شذر: قطع الذهب . صريف لجين : قطع فضة .  
سنا : ضوء .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن الطلبة الشنيطى ص ٩٤

فى تيرس ومراعيها وريفها إلا تغنى به . وتغنى طويلا بمسيرة الظعن ، وبين الظاعنات محبوبته ، كما تغنى طويلا بحيوانات الصحراء من إبل وخيل وبقر وظباء ونعام وأتن وحشية مع حمارها ، فالحياة الصحراوية الجاهلية بحذافيرها يتمثلها محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا ، وكأنما أراد أن يثبت مدى صحراويته فى شعره فاختر قصيدتين للشماخ ولحميد بن ثور الصحابيين تكتظان بالغريب ويوصف الحياة الصحراوية وحيواناتها وطقونها وعارضتهما معارضة رائعة . وبالمثل عارض قصيدة للأعشى ، ولن نسوق أمثلة لغزله من هذه القصائد لكثرة الغريب فيها ، إنما نسوق له أمثلة من غزلياته الأخرى منحني ما ينظمه ممتلئا بالألفاظ الصحراوية الأبدية ، فمن ذلك قوله مخاطبا محبوبته التى يسميها أم المؤمنين :

كيف التجلّد لا تجلّد بعدما	شطت بأم المؤمنين نواها <sup>(١)</sup>
عوجى قليلا ريثما أشكو الذى	قد شف نفسي منكم وبراهها <sup>(٢)</sup>
ما كان ضرك لو رددت تحية	فيها لنفسي - لو رددت - شفاها
واها لما أبدى لنا يوم النوى	منها الوداع وقل منا واهها <sup>(٣)</sup>
يا ليت شعري والفراق موكل	بالعاشقين متى يكون لقاءها

وهو يقول كيف التجلّد للأسى والصبر بعدما أوغلت بها النوى وبعد الدار ، ويتمنى لو كانت وقفت له قليلا ليشكو لها شفوف نفسه وضنا جسمه بجبها ، ويقول إنه حيأها ولم تحيه ولو حيته لشفت نفسه مما يضطرم فيها من الألم ، ويتفجع لوداعها يوم الفراق ويتحسر متمنيا لقاءها بعد هذا الفراق . ويقول :

لا القلب عن ذكر أم المؤمنين سلا	ولا أرى عاذلاتي ترك العذلا <sup>(٤)</sup>
بل لا أرى لوم من يلحو ومن عذلا	إلا يزيد على الهمم والخبلا
ولا أراني أرى رسما ولا طللا	إلا وساءلت عنها الرسم والطللا
هى التى أنا لا أبغى بها بدلا	ونلى الوصل منها نيلى الأملا

فهو لن يسلو صاحبه مهما لامته اللائعات ، بل إن لوم من يلومه إنما يزيده هما وجنونا بجبها ، ويقول إنه لا يرى رسما ولا طللا إلا سأله عنها كأنما تملأ عليه جميع البقاع ، ويؤكد أنه لا يبغي بها بدلا لها إذ نيل وصلها نيل أمله فى دنياه . ويقول فيها :

(١) التجلّد : الاحتمال فى صبر . النوى : الفراق والبعث .  
 (٢) عوجى : توقى وميل . برها : نحلها .  
 (٣) واهها : كلمة تقال فى التفجع وفى العجب .  
 (٤) العذل : اللوم ، ومنه العاذلات .

إن قلبى متيِّمٌ بالحسانِ من ذوات الأحساب من حسانِ  
كلُّ بيضاءَ خَدْلَةَ الساقِ رُوْدٍ تَتَشَنَّى كأنها غُصْنُ بَانٍ<sup>(١)</sup>  
جعلتُ فوقَ نَحْرِها الشَّدْرَ والِدْرَ وناطتُ قلائدَ المَرْجانِ<sup>(٢)</sup>  
غيرَ أنى ما إن وجدتُ كأُمِّ الميؤمنين العُروبِ فى النُّسوانِ<sup>(٣)</sup>  
ولها منطقٌ لو اصغى له الرُّهبانُ أصبى مشايخَ الرُّهبانِ<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إن قلبه مشغوف بالحسان ذوات الحسب والنسب من قبيلة حسان الشنقيطية ، فكل فتاة بيضاء منها ممتلئة الساق شابة فاتنة تمايل تمايل غصن البان على شجرته ، وفوق نحرها شذور الذهب واللؤلؤ وقلائده ، وفاتنتهن أم المؤمنين الجميلة ذات المنطق الجميل الذى لو أرهف الرهبان السمع إليه لأصباهم ومالوا إليها إعجابا . ولابن الطلبة وراء ذلك غزليات كثيرة . وقد توفى سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م .

#### يقوى<sup>(٥)</sup> الفاضلى

ذكر الدكتور محمد المختار فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا طائفة من الشعراء الغزلين فى القرن الثالث عشر الهجرى وما لهم من قصائد ومقطوعات غزلية مثل المجدد المجلسى والمأمون اليعقوبى ومحمد بن السالم والمختار بن محمد الحسنى والهادى العلوى ومحمد بن بابكر ، وقال من أفضلهم وأجودهم شعرا يقوى الفاضلى الذى ذكر عنه أنه توفى سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م وقال إنه شاعر رقيق مطبوع ، وأنشد له قصيدتين غزليتين ، وفى أولهما يتغزل فى صاحبتة سليمانى منشدا :

زعمَ الجاهلون أنْ عهدًا  
أو منحتُ الوداد غير سُلَيْمِي  
ما تغيَّرتُ لا ولكنْ عدانى  
ومهاوٍ تهابُ - إن نظرتُها -  
قد تجشَّمتُ هولها أتخطى  
كنْ بينى وبينها أنساها  
لا ومنْ زَيْنِ السَّما وبناها  
عن لِقاها أجلُّ مما عداها<sup>(٦)</sup>  
عَيْنُ مجتازها الجليدِ سُرَّاهَا<sup>(٧)</sup>  
لسُلَيْمِي حتى دخلتُ حِماها

موريتانيا ص ٩٩ وما بعدها وانظر فى وفاته وتاريخها ص ٧٤ .

(٦) عدانى : شغلنى .

(٧) مهاو : جمع مهوى يريد مفازات يسقط فيها الإنسان ويهلك الجليد القوى : المتحمل للمشقة بصبر . السرى : السير ليلا .

(١) خَدْلَةَ الساق : ممتلئة . رُوْد : شابة جميلة . .

(٢) الشدر : قطع الذهب . الدر : اللالىء . ناطت :

علقت . المرجان : حجارة كريمة بيضاء وحمراء .

(٣) عروب : لطيفة .

(٤) أصبى: جعل مشايخ الرهبان تتصالي وتتكلف الهوى.

(٥) انظر فى غزل يقوى الفاضلى الشعر والشعراء فى



وهو يذكر أن من لا يعلمون مدى حبه لها ظنوا أنه نسي ما كان بينه وبينها من عهود أو أنه منح حبه لأخرى ويقسم بمن زين السماء بنجومها وكواكبها أنه ما نكث عهدا لها ولا تغير . إنما شغله عنها أخطر مما شغلها وما يقوم دون لقاتها من مفازات مهلكة ، يهاب الجليد الجريء الصابر السرى والسير فيها ليلا ، وقد تحمل هولها متخطيا من مفازة إلى أخرى حتى دخل ديارها وجماها ، يقول :

وتميّزتها فدلّ عليها في الدجى طيبُ نشرها وبرّاهها<sup>(١)</sup>  
 فعلتني مهابةٌ ووجومٌ من لقاها وما علاني علاها  
 وأشارت بأن في البيت ناسا ينشرون الحديث عمّن أتاها  
 قلت لأيا وصلتُ قلتُ تنحّ قبل دهياءَ معضلٍ ألقاها<sup>(٢)</sup>  
 وصفا بيننا الحديثُ وقالت لا تُعدّ مثلها وألقت عصاها<sup>(٣)</sup>  
 ثم يتنا بقية الليل نلهو بأحاديث لا يملّ جناها<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إنه بحث عن سليمى ودله في الليل طيب عطرها وأصوات أساورها وخلاخيلها ، ويذكر أنهما حينما تلاقيا علتها مهابة ووجوم . وأشارت إليه أن في البيت ناسا يذيعون الخبر عمّن أتاها وتخشاهم ، فقال لها لقد تحملت مشاق حتى وصلت إليك فقالت له : الزم ناحية لا تظهرك قبل أن ألقى داهية لا أستطيع النجاة منها ، ونازعها الحديث وصفا بينهما وقالت له لا تكرر مثلها ، وباتا بقية الليل ينعمان بأحاديث شتى . والقصيدة سلسلة مثل هذا الحوار بينه وبين سليمى . ويقول في قصيدته الثانية :

مغان سقاني الدهرُ فيها على الظما كحوس المنى من كل أحور أهيفا<sup>(٥)</sup>  
 لعمري لئن أمست عفاءً لفي الحشا لها منزل لم يعف قط وما عفا  
 وناهدة تجلّو أغرُ كأنما يترياقها صب المهيمن قرققا<sup>(٦)</sup>  
 على وجنتيها قد جرى متحيرا ولبتّها ماء الملاحاة والصفّا<sup>(٧)</sup>

يقول إنها مغان أو منازل طالما سقاه الدهر فيها - وهو ظامئ - كحوس المنى من كل بيضاء ضامرة الخصر فاتنة ، ويقسم إنها إن كانت قد عفت وأصبحت أطلالا فإن منزل صاحبه ودارها في حشاه لا يعفو أبدا . ويصف صاحبه بأنها شابة تفتّر عن ثغر مشرق وكأنما امتزج رضاب ريقها بخمر مسكرة ، ويقول إن رونق الملاحاة والصفّا يجري مترققا على وجنتيها ولبتّها الجميلة .

(١) نشرها : عطرها . البرى : الخلاخيل والأساور .  
 (٢) دهياء : داهية . معضل : شديدة .  
 (٣) ألقت عصاها : اطمأنت واستسلمت .  
 (٤) الجنى : الثمر الحلو .  
 (٥) أهيف : ضامر . ذكر الصفة لضرورة الشعر .  
 (٦) ناهدة : شابة . أغر : أبيض يريد ثغرا أبيض .  
 قرقف : خمر .  
 (٧) لبتّها : موضع القلادة من الصدر .

## شعراء التصوف

عرفت موريتانيا التصوف كما عرفته الأقاليم الإسلامية جميعا ، وكان يشيع فيه مذهبان : مذهب فلسفى يؤمن أصحابه بالاتحاد مع الله والفناء فيه وأيضا بحلولة فيهم ، ومذهب سنى يقف عند أداء الفرائض الدينية والنوافل والإخلاص العميق لله ومحبة صادقة . وطبعى أن لا يتعلق الموريتانيون بالمذهب الأول ، لأنهم لا يتفلسفون بل يعيشون معيشة أقرب إلى الفطرة ، فلم يعتنق المذهب الصوفى الفلسفى عندهم أحد ، ونفس معتنقيه فى الأقاليم الإسلامية الأخرى كانوا دائما أفرادا ولم يصبح موجة عامة فى أى بيئة عربية ، إنما الذى أصبح له ذلك المذهب الصوفى السنى ، وأخذت تظهر فيه طرق منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمها الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م وشاعت فى المغرب ، ونجد شعراء موريتانيا يذكرونها ويشيدون بشيخها أحيانا . وأهم منها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقد انتشر شيوخها فى البلاد المغربية ، وكانت أكثر شيوعا فى موريتانيا من الطريقة القادرية ، وأوسع منهما جميعا الطريقة التيجانية المنسوبة إلى أحمد التيجانى المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م إذ يبدو أنها انتشرت فى موريتانيا انتشارا واسعا لكثرة من نجدهم من الشعراء يشيدون بها وبمؤسسها ويدافعون عنها دفاعا حاراً ، من ذلك قول محمد بن عبد الله العلوى منوها بطريقته وولايته<sup>(١)</sup> :

طالغ جواهره واصحَب رسائله وما يث من الأنوار والحكم  
تجد ولأيته لاحت معالمها كما ترى فى الدجى نار على علم

وهو يشيد برسائله فى النزعة الصوفية ولعله يريد بجواهره ورده الذى يُقرأ فى الصباح ، وينوه بولايته التى شاعت له فى الآفاق كما تشيع أضواء نار على قمة جبل عال . ويقول عبدالله بن أحمد دام ، وهو من أتباع طريقته مثل سالفه المعاصر له مدافعا عنه ضد خصوم طريقته<sup>(٢)</sup> :

مَنْ كان فى مذهب التيجانِ مُمتَرِيًا      فإننى لكمال الشيخ معتقدُ  
مَنْ ينظرِ الكُتبَ التى أفادَ بها      ينظرُ كلامَ محقِّ كله رَشْدُ  
أما الذين تماطوا ورده فلقد      أعيا على العدِّ حصرا منهم العدُّ

(١) الشنقيطى ص ٣٣ .

(٢) الشنقيطى ص ٢٨٩ .

فهو من المعتقدين في إمامة أحمد التيجاني الصوفية وقطيته ويقول إن من ينظر في رسائله ومؤلفاته يعرف روعة كلامه وصدقه وتصوفه الحق ، ويذكر أن من اعتنقوا طريقته ويقرءون ورده يفوتهم العد والإحصاء . ويقول محمد بن عبد الجليل العلوي<sup>(١)</sup> :

إنا حماة طريق أحمد شيخنا ونجيب عنه المنكرين ومن جفا  
ونعد للهادي عليه صوارمًا وأسود غاب في الكريهة زحفا<sup>(٢)</sup>

وهو يذكر عن نفسه وشيخه التيجاني أنهم حماة طريقته يذودون عنها بالحجج الدامغة وبالسيوف القاطعة تحملها أسود غاب ضارية . ونقف قليلا بإزاء شيخين موريتانيين من شيوخ التصوف .

### المختار<sup>(٣)</sup> الكنتي

من ذرية عقبة بن نافع والى المغرب ومؤسس مدينة القيروان ، يقول الشنقيطي عنه : « كان من أفراد عصره علما وصلاحا ، ولم نر أحدا يطعن في ولايته سوى المختار بن بون كان يشدد النكير عليه لما بلغه من أن الشيخ الكنتي يسلبه . ورجع عن ذلك وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، ويقول الشنقيطي : « على أنه لا يوجد ولي إلا وتنكر عليه أشياء من العلماء » ومن نظر في كتبه ساء كانت في الحقائق الصوفية أو غيرها يتبين له فضله ، وفيه يقول محمد بن الأمين :

وأخرجه ذو العرش للناس نائبا عن المصطفى والأمر فاش وذائع  
ويُرَضَّع من تَدَى المعارف مَنْ أتى مُريدا ولم تُرَضِّعْ كذاك المراضعُ

وهو يقول إن الله أخرجه نائبا عن الرسول في هداية الناس ، وهي مبالغة واضحة . ويذكر أنه يغذى مريديه الكثيرين الذين يأخذون العهد عليه من المعارف الربانية غذاء لا يماثله أي غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وقد توفي سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٢ م . وله يدعو إلى العمل الصالح استعدادا للآخرة :

أيقظ جفونك إن القلبَ وسنانُ وصمَّ العزم إنَّ العزم كسلان<sup>(٤)</sup>  
وجِدَّ شوقا إلى أخراك مُبتدرا إن اللبيب إلى أخراه حنان<sup>(٥)</sup>  
واعمل لدار بها اللذات قاطبة رُوح وراح وراحات وريحان  
ظلٌّ وماءٌ وأزهارٌ مفتحة عن الكمام أشكالٌ وألوان  
قبعانٌ مسكٍ بها الأنهارُ جاريةٌ خمرٌ وماءٌ وماذِيٌّ وألبان<sup>(٦)</sup>

(٤) وسنان : نائم .

(٥) حنان : مشتاق .

(٦) ماذي : غسل مصفى .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٧٨ .

(٢) صوارم : سيوف قاطعة .

(٣) انظر ترجمة المختار الكنتي وشعره في الشنقيطي

ص ٣٦١ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٣٩٠ .

وهو يدعو النائمين عن العمل للآخرة أن يفتحوا عيونهم ويعزموا عزيمة صادقا على العمل لها والجد فيه فالعاقل من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة ، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات من راحة وخمر ومسرات وريحان عطر ، وظل وماء جار وأزهار عبقة أشكال وألوان وقيعان مسك تجرى من تحتها الأنهار وخمر غير مسكرة وعسل مصفى وألبان ، ويترسل في وصف من بالجنة من الحور العين منشدا :

بيضٌ نواعيمٌ أبكارٌ منعمَةٌ      تحار فيهن ألبابٌ وأذهبانُ  
يرفلن من سندس الفردوس في حلالٍ      من فوقها حلالٌ من تحتها بان<sup>(١)</sup>  
نشأنٌ وسطَ مقاصيرٍ مزخرفيةٍ      لم يطمئنها بها إنسٌ ولا جان<sup>(٢)</sup>  
ريقٌ لذيذٌ وأنفاسٌ معطرةٌ      ومنطقٌ ساحرٌ الألفاظ فتانُ  
مهورهن صلاحٌ دائمٌ وتقى      زهدٌ وصبرٌ وإخلاصٌ وإيمانُ

وهو يستمد في وصفه للحور العين من سورة الرحمن في القرآن الكريم ، فيقول إنهن بيض ناعمات أبكار مترفات تحار في جمالهن العقول والألباب يتبخترن في حلل الفردوس السندسية ، وقد نشأن في غرف مزخرفة ، لم يلامسهن إنس ولا جان ، ريقهن لذيذ ونفحهن شذى وعطر ، ويتحدثن حديثا ساحرا فتانا ، ومهورهن صلاح وتقى وزهد وتكشف وإخلاص لله ودينه الحنيف وإيمان صادق .

### الشيخ سيدياً<sup>(٣)</sup>

هو الشيخ سيدياً ( بتشديد الياء ومدّها ) بن المختار بن الهيب التندغى الأبييرى ، يقول الشنقيطى : « هو العلم الذى رُفِع على أهل قطره ، واستظلَّ به أهل دهره .. اشتغل في شبابه بالعلوم وبرع فيها بملازمته لأستاذه حرم بن عبد الجليل العلوى . ولما تضرع من علمه شدَّ الرحال إلى الشيخ المختار الكنتى بأزواد .. ولازمه ستة أشهر ، ثم مات الشيخ المختار فبقى عند ابنه محمد خليفته في الطريق الصوفى ، ولازمه عشرين سنة حتى برع في معرفة الطريق ، ورجع إلى قبيلته أولاد أبيير فتلقوه بما هو أهله واعترفوا بفضله . ولم تزل فضائله تنمو حتى أذعننت له قبائل الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يرد أمره ، وكان أهلا لذلك كرما وحلما وعلما ، ولم تزل الدنيا تنثال عليه . وجعلت العرب منزله في أرض شنقيط حرمًا آمنا ،

(١) برفلن : يتبخترن . بان : شحر يشبه به الحسان في

(٢) يطمئنها : يطمئنها .  
(٣) انظر في الشيخ سيديا الشنقيطى ص ٢٤٠ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٣٩١ وما بعدها وفي مواضع متفرقة .



ولم يكن يمضى عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضى جميع حوائجهم ومآربهم .. وكان تلاميذه ومريدوه يحاولون أن يقلل من هذا الكرم الفياض فلا يستمع إليهم إلى أن توفي سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م . وكان شاعرا بارعا ، وله من قصيدة :

رفعتُ إلى مولايَ جُلَّ شَكِيَّتِي وَأَمَلْتُ نَشْلِي عِنْدَهُ مِنْ بَلِيَّتِي  
بُلِيَّتُ وَهَلْ يُئَلَى مَرِيْدٌ بِمِثْلِ مَا بُلِيَّتُ بِهِ مِنْ خُبْتِ نَفْسٍ غَوِيَّةٍ  
حِجَابٌ عَمَّاها عَنْ شُهُودِ صِفَاتِها بِدِ حُجِيَّتٍ عَنْ مَشْهَدِ الْأَحْدِيَّةِ  
لِذَلِكَ أَنْتَ جِدُّها وَاجْتِهاذِها وَمَرْغَبُها فِي الْفانِيَّاتِ الدُّنْيَا  
صَحَتْ مِنْ سِحابِ الوارِداَتِ سِماوُها بِعَصْفِ رِيَّاحِ الْهاجِساتِ الرُّدِيَّةِ  
مَدَدَتْ. إِلَيْكَ الْكُفَّ يا خَيْرَ واهِبِ فِلا تَحْرِمِ الْخَيْرَ الْمُنْفاضَ يُدِيَّتِي (١)

وهو يقول إنه رفع شكواه إلى ربه ضارعا إليه أن ينقذه من بليته ، وهل يُئلى مرید محب ربه بمثل ما ئلى به من نفس خبيثة ممعنة في الغواية إمعانا حجبها عن مشهد الصوفى لأحدثه واتحاده بربه ، ويقول إنها جعلت كل همها واجتهادها في المتاع الفانى ، مما جعل الواردات الربانية تنحسر عن سمائها بهبوب رياح الخواطر الرديئة . ويضرع إلى ربه مادا كفيه أن لا يجرم يده من خيره الذى يفيضه على عباده ، ويريد الخير الصوفى من النسك له والاتحاد به والفناء فيه . وله دعاء طويل يستهله بقوله :

يا واسعَ الرَّحْماتِ يا فُتَّاحُ يا مَنْ دُعاهُ لِبابِهِ مِفْتاحُ  
يا بَرُّ يا رِزاقُ رِزقِكَ شامِلُ تُغْذِي بِهِ الْأرواحَ وَالْأشْباحُ  
يا فارِجَ الْهَمِّ الْمُرِبِّ وَكاشِفا كَرْبِ الْعبيدِ إِذا دَعَوْكَ وَباحِوا (٢)  
فَرِّجْ كِروِبَ الْمُسْلِمِينَ جَميعِهِمْ وَأَغِثْ بِما لَهمُ بِهِ إِصْلاحُ  
أنتَ الْمَغِيثُ وَأنتَ ذُو الرَّحْمىِ الَّتِي بَنزولِها شِدْدُ الْوَرىِ تَنزاحُ (٣)  
تلكَ الْأراضىِ وَهَدُّها وَنِجادُها جُرُّ بِها تَخافِقُ الْأرواحُ (٤)

وهو يدعو ربه قائلا : اشملى برحمتك الواسعة وافتح لى باب الرزق المغلق ، يا من يستجيب للداعين ، يا محسن ، يا رزاق رزقا شاملا للناس وغير الناس ، يا فارج هم المقيم وكاشفا غم العبيد فرج كروب المسلمين وأغثهم بما يصلحهم ، فأنت المغيث الرحيم الذى برحمته تنزل كل الشدائد . ويصور الشدائد فى شقريط ومراعى تيرس وريفها ، فالأراضى منخفضةاتها ومرتفعاتها أجذبت ، ولم يعد بها إلا رياح تهب يمينا وشمالا ويقول إن البهائم لا تجد ما ترعاه

(٤) جزر : مجلبة . تخافق : تضطرب . الأرواح : الرياح .

(١) يدئى : تصغير يد .

(٢) المرِب : المقيم .

(٣) شد جمع شدة .

وأصبحت عجافاً مهزولات ، ويضرع إلى ربه طويلاً أن يرسل على البلاد سحبا تتدفق بالأمطار ،  
فينبت الزرع ويمتلئ الضرع ، وتنشأ الرياض وتجدد الأشجار ويروى الظمان ويشبع الجائع  
ويعم رخاء لا يشوبه بؤس ولا شقاء .

### ٣

#### شعراء المدائح النبوية

بدأت هذه المدائح في حياة الرسول ﷺ على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة  
وكعب بن زهير وأضرابهم ، وأخذت تتكاثر في العصر العباسي على لسان أهل السنة مصورين  
في الرسول المثل الأعلى للمسلم في تقواه ونسكه ودعوته لرسالته وجهاده العظيم في نشرها ،  
وبالمثل على السنة الشيعة مرددين أن نوره المحمدي سرى في أئمتهم . وأخذ المتصوفة - منذ  
الحلاج - يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ مبدأ الوجود الروحي للحياة البشرية ،  
بل مبدأ النور والوجود في الكون . ويشيد المادحون له دائماً بمعجزاته المبثوثة في كتب السيرة  
النبوية وبمعجزته الكبرى الخالدة : القرآن الكريم . وعادة ينهون مدائحهم بالتماس الشفاعة  
منه يوم القيامة وأن يغفر الله لهم ذنوبهم . ومنذ نشط الشعر في موريتانيا نرى شعراءها - مثل  
شعراء الأقطار الإسلامية - يتغنون بمدح الرسول ﷺ مصورين سيرته ومعددين مناقبه ومعجزاته  
الباهرة وجهاده الرائع في نشر رسالته وجهاد أصحابه ، مع التوسل إليه في غفران ذنوبهم  
والشفاعة يوم العرض . وتكثر هذه المدائح في الشعر الموريتاني ، ونختار بعض أمثلة مع الترجمة  
لبعض من برعوا في نظمها ، فمن ذلك قول محمد بن عبد الرحمن الحسني - من شعراء القرن  
الثاني عشر الهجري - في مدح الرسول ﷺ (١) :

فإن لم تكن لي خيمةً حول رَمْسِهِ	فهذا هواهُ في فوَادِي خَيْمًا <sup>(٢)</sup>
ويا ليتَ خَدْيِي كانَ مَوْطِيءَ نَعْلِهِ	وصدري ضَرْجِيحًا جامعا منه أعْظَمًا
وما مثله البحرُ الخِضَمُّ تَكْرُمًا	ولا كَثَايَاهُ البروقُ تَبْسُمًا <sup>(٣)</sup>
ولو قِسْتَهُ ضَوْءًا وجودًا وجرأةً	بشمسٍ وضرغامٍ ووبلٍ متى هَمَى <sup>(٤)</sup>
لكنتَ كمن قد شبّه الشمسَ بالسُّهًا	وبالطُّلِّ وكَافًا وبالهِرِّ ضَيْغَمًا <sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن لم تكن لي خيمة أعيش فيها حول قبره فإن هواه خيم في فوادي واستقر  
به ، ويتمنى لو عاش في زمنه وكان خده موطيء نعله وصدرة قبراً لأعظمه العطرة ، ويقول

(٤) ضرغام : أسد . وبل : مطر غزير . همي : سال .  
(٥) السها : كوكب صغير . طل : مطر قليل .  
وكاف : مطر منهمر . ضيغم : أسد .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٤٣ .

(٢) رمسه : قبره .

(٣) الخضم : الواسع الزاخر .

إن البحر الواسع الزاخر لا يماثله كرما ولا البروق المضيئة تماثل ثناياه تبسما وإشراقا . ولو قاسه أحد بالشمس لكان كمن يقيس الشمس بنجم السُّها الضئيل ، ولو قاسه بالوبل والمطر الغزير لكان كمن يقيس الطلُّ بالغيث المنهمر ، ولو قاسه أيضا بأسد لكان كمن يقيس الهر بأسد شديد الضراوة . ولغالى بن المختار فال البوصادى - من شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى - مدحتان رائعتان فى الرسول يقول فى إحداهما<sup>(١)</sup> :

محمدٌ سيّدُ الكونين سيّدُ مَنْ	يَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْ حَافٍ وَمُتَّعِلٍ <sup>(٢)</sup>
محمدٌ سيّدُ الأقطارِ سيّدُ مَنْ	حَازَ الْعُلَا مِنْ ذَوَى الْأَمْصَارِ وَالنَّقْلِ <sup>(٣)</sup>
مَنْ لِلْعَصَاةِ شَفِيعٌ لِلْمُضَامِ جَمِئِي	لِلْمُسْتَتِينَ رِبِيعٌ كَالْحَيَا الْهَطِيطِ <sup>(٤)</sup>
لِلْمَهْتَدِينَ سَنًا لِلْمُرْمَلِينَ غِنِي	عَلَاؤُهُ فَوْقَ كُلِّ الْمُرْسَلِينَ عَلِيٍّ <sup>(٥)</sup>
بَدْرٌ حُلَاهُ بِهِ الْآفَاقُ حَالِيَةً	لِلْمَشْتَكِينَ مَنِيٍّ لِلْمُرْسَلِينَ وَليٍّ <sup>(٦)</sup>

وغالى يقول محمد سيد الدنيا والآخرة وسيد كل من يمشى على الأرض حافيا ومتتعلا وسيد الأقطار وسيد كل من حاز شرفا من البدو والحضر ، شفيع العصاة حمى لهم ، وللمجدين ربيع كالغيث المنهمر ، وهو نور مشرق للمهتدين ، وغنى للفقراء المعوزين ، ومنى للمشتكين السائلين وسيد الأنبياء والمرسلين ، إنه بدرٌ ازدانت بأضوائه الآفاق ، وقد علا علاؤه وشرفه فوق كل المرسلين . وللأحول الحسنى مدائح متعددة للرسول ﷺ ، ومن قوله فى إحداها<sup>(٧)</sup> :

قدوةُ الأنبياءِ قطبُ رَحَى الْكَوْ	نِ وَإِنْسَانٌ مُقْلَةٌ الْإِيجَادِ
وسراجُ الوَرَى الْمُنِيرُ الْمُحْيَا	وَبَشِيرُ الْوَرَى النَّذِيرُ الْعِبَادِ
وَكِتَابٌ عَلَيْهِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ	هُ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعِبَادِ
بَشَّرَتْ آيَةٌ وَأَنْذَرَتْ النَّا	سَ بُوْعِدِ الثَّوَابِ وَالْإِعَادِ
وَفَنُونَ مِنَ الْبَلَاغَةِ تُعْبَى	بَلْغَاءَ الْجِسَابِ فِي كُلِّ نَادِ

وهو يقول إن الرسول القدوة المثلى للأنبياء ومحور حركة الكون وإنسان عَيْنُ الْإِيجَادِ والخلق . وواضح أن هذا البيت الأول يستمد من فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود وروحه ، ويقول إنه سراج البشرية ذو الوجه المنير ، وقد أرسله الله بشيرا ونذيرا للناس ، وأنزل عليه القرآن شفاء ورحمة لهم يبشرهم بثوابه وينذرهم بإيعاده أو عقابه ، وقد حوى من فنون البلاغة ما أعجز البلغاء فى كل ناد وجماعة عن معارضته والإتيان بمثله . ويقول محمدى العلوى مولدية نبوية بديعة ، منها قوله<sup>(٨)</sup> :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٥٠ وما بعدها .  
(٢) الكونين : الدنيا والآخرة .  
(٣) ذور النقل : البدو الرحل .  
(٤) المستتين : المجدين . الحيا : الغيث .  
(٥) سنا : ضوء . للمرملين : للفقراء .  
(٦) حالية : مزدانة . ولى : سيد .  
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٦٥ .  
(٨) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧١ .

أهلا بشهر المولد	شهر العلاء والسودد	شهر النبي أحمد
أهلا بشهر الهادي	لنهج الرشاد	وقائد وحاد
أهلا بليل اثني عشر	فيه ويومه الأغر	وطيب ذلك السحر
	ونور أفقه الجلي	

والمدحة بديعة ، وهو يرحب بشهر المولد للنبي : شهر العلاء والفخر والمجد ، شهر الحبيب المصطفى شهر مولده : ربيع الأول ، شهر الهادي إلى الرشاد والقائد والهادي إلى الطريق المستقيم . ويرحب بليلة ميلاد الرسول ليلة اليوم الأغر الشريف الثاني عشر ، وبما نشر سحرها من طيب عطر ونور منتشر في أفقه بل في كل الآفاق . ويقول محمد بن الشيخ سيدي الأبييري خليفة أبيه في الطريقة الصوفية والمترجم له بين شعراء الفخر مدحة مولدية بارعة ، منها قوله (١)

أهلا بميلاد مولود به كملت	بشرى البشائر للهادي وللقروي
أكرم بها ليلة غراء ضاحية	فيها يتيمة سيمط اللؤلؤ اللأوي (٢)
أكرم بها ليلة غراء مظهرة	سر الوجود الذي فيه الوجود طوي
لولا ما أنزل الذكر الحكيم ولا	الدين القويم ولا ما في الصّاح روي
ولا أقيمت من الإسلام قاعدة	ولا بدا فضل سني على حشوي
ولا أبان بياني معانيه	ولا نحا النحو نحوي ولا لغوي
لولا لم يغلب الروم الغلاب ولا	ملوك ساسان تيمي ولا عدوي

وهو يهال لميلاد الرسول الذي به تمت بشرى البشائر لكل بدوي وحضري ، ويقول ما أكرمها من ليلة شريفة مضيئة بيتمة عقد اللؤلؤ الفريد المنتمى إلى لوي بن غالب جد الرسول ، وما أشرفها من ليلة أظهرت سر الوجود ومبدأه الذي استمد منه الكون وجوده ، إنه العلة الأولى والسر الأول في خلق الوجود ونشوء الكون ، وللرسول بذلك وجودان : وجود معنوي هو لب الوجود الكوني ووجود حسي مادي حين ولد ثم بعث للناس هاديا وسراجا منيرا . ويقول : لولا ما أنزل القرآن الكريم ولا الدين الحنيف أو شريعته القويمة ولا رويت أحاديثه في كتب الصحاح الستة : صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، ولولا ما أقيمت قاعدة للإسلام ولا عرف الناس فضل السني على

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٨٩ .

(٢) ضاحية : مضيئة . اللأوي : نسبة إلى لوي بن



الحشوى من أهل التجسيم والعقيدة الزائفة . ولولا بلاغة كتابه التي اهتدى بها البلغاء ما كان بليغ ، ولولا العلوم الكثيرة التي نشأت حوله ما كان نحوى ولا لغوى ، ولولا رسالته العظمى ما غلب الروم الأقوياء وملوك الفرس الساسانيين أبو بكر الصديق التيمى وعمر بن الخطاب العدوى . ويقول الشيخ محمد الشمشوى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٦ م صادرا عن فكرة الحقيقة المحمدية<sup>(١)</sup> :

ألا قد أقرُّ الكونُ أنُّ محمداً      لكلِّ فروع الفضلِ أصلٌ مقدَّمٌ  
فمنه استفاد الحسنُ كلُّ يتيمةٍ      من الدرِّ يُكسِّها غزالٌ منعمٌ  
ومنهُ استفاد الضوءُ وجهُ غزاةٍ      جنى الضوء منها زبرقانٌ ومِرْزَمٌ<sup>(٢)</sup>  
ومنهُ استفاد الأحقوانُ نضارةً      وحُسنَ جَمالِ الثُّغْرِ إذ يتبسَّمُ

وهو يقول إن الكون أقرَّ بأن الرسول ﷺ أصل كل ما فى الكون من فروع الفضل والجمال . فمنه استفادت الحسن كل درة يتيمة فى عقد على لبة سيدة جميلة منعمة ، ومنه استفادت الشمس ضوءها ، ومنه أخذ البدر ضوءه وكذلك نجوم المطر . ومن الرسول استفاد الأحقوان نضارته واستفاد كل ثغر لسيدة من جماله حين يتبسَّم . ونكتفى بما قدمنا من أمثلة المديح النبوى الموريتانى ، ونقف قليلا عند نفر من مجيديه .

### مولود<sup>(٣)</sup> بن أحمد الجواد اليعقوبى

يقول الشنقيطى فيه « هو العلامة النحرير ، واللغوى الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد .. من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون » المترجم له بين شعراء الفخر ، ويقول الشنقيطى أيضا : « كان مداحا لرسول الله ﷺ ، ومن ذلك قصيدته المعروفة بالمرجانية ، وفيها يقول :

أزكى صلاةٍ وتسليمٍ على قمرٍ      بدرٍ به قد أنارَ اللهُ أكوانهُ  
ياربُّ صلِّ عليه دائما أبداً      ما حلَّ أعراضُ هذا الكونِ أعيانهُ<sup>(٤)</sup>  
دينٌ حنيفٌ مَحَا الماحى به وعفا      آثارَ مَنْ كان فى خُسْرِ وأديانِه  
أنت الذى أزلفَ اللهُ الجنانَ لمن      وآلى وأبرزَ للعاديه نيرانه<sup>(٥)</sup>  
لو كان ذا الكونِ إنساناً لكنت له      طرفاً ولو كان طرفاً كنت إنسانه<sup>(٦)</sup>  
أنت السراجُ المنيرُ الذى أنارَ به      نورُ السمواتِ والأرضين أكوانه

(٤) لأعيان : المحسوسات . أعراض جمع عرض : ما قام بغيره من الصفات كالطول واليباض .  
(٥) أزلف : قَرَّب وقدم .  
(٦) الطرف : العين . إنسانها : سوادها المبصر .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٩٦ .  
(٢) الغزاة : الشمس . الزبرقان : البدر . المرزم : نجم من نجوم المطر .  
(٣) انظر فى ترجمة مولود وأشعاره الشنقيطى ص ١٩٠ وما بعدها .

وهو يصلي ويسلم على الرسول بدر الوجود الذي أنار الله به أرجاء كونه ، ويدعو الله أن يصلي عليه ما دام الكون قائما وما دامت الأعراض تتعلق بموجوداته . وينوه بالإسلام وأنه دين حنيف محا به الماحي ( من أسماء الرسول ) آثار الخسران والديانات الباطلة ، وقد قرب الله لمن والاه الجنان وأذاق أعدائه العاصين نيرانه ، ولو كان الكون إنسانا لكان عينه المبصرة ، أو لو كان عينا لكان إنسانها الذي ترى به الدنيا . ويلخص في البيت الأخير فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود ونوره وكل نور في السموات والأرض مستمد من سراجة ، فهو منبع كل نور . ويقول :

ما سُدُّ بابُ كريمٍ دون قارعِهِ      فاقْرَعْ تجدُ بابَ مُولى الأنعمِ أنفِرجا  
وارغبُ إلى ربِّك الأعلى ليجعلنا      مَن على النهج نَهجِ المصطفى دَرَجاً<sup>(١)</sup>  
نهج الذي أنزل الله الكتاب هُدًى      لنا عليه ولم يجعل له عِوجاً<sup>(٢)</sup>  
منه استفادَ النّبِيّونَ النبوةَ إذ      ما له ما لهم منها قد اختلجا<sup>(٣)</sup>  
ألا طَربْتُ ألا إني طَربْتُ إلى      مَن حُبّه مع لحمي والدمّ امترجا  
مَن للنبيين مَن للرُّسل أين لهم      مِن قابِ قوسين معراجٍ كما عرجا<sup>(٤)</sup>

وهو يقول اقرع باب الرب الكريم المنعم تجده قد انفتح ، وادعه أن يجعلنا ممن سار على نهج المصطفى وكتابه الذي أنزله الله عليه ولم يجعل له عوجا ولا التواء ، ويقول متمثلا فكرة الحقيقة المحمدية إنه مبدأ الأنبياء ، منه استفادوا نبوتهم التي خالجتهم في نفوسهم . ويذكر أن حب الرسول امتزج بلحمه ودمه ، ويقول إنه ليس للأنبياء والرسول معراجة الذي خصه الله به . ويشير إلى ما جاء في سورة النجم : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

#### محمد<sup>(٥)</sup> بن محمد العلوي

يقول الشنقيطي عنه : « برع في عنفوانه في العلوم وصرف همهته إلى نظم الشعر ، وبلغ صيته في قطره مبلغا لم يبلغه أحد ممن عاصره » . ولما بلغ نحو الثلاثين من عمره عزم على الحج ، ومر بمراكش ومدح سبطانها عبد الرحمن العلوي ( ١٨٣٤ - ١٨٥٩ م ) واحتفى به ، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين فبدأ بالزيارة ثم قضى حجه ، وفي طريقه من مكة إلى جدة توفي ، يقول الشنقيطي : كان حيا بعد سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م ويقول الدكتور محمد المختار

(٥) انظر في ترجمة محمد بن محمد العلوي الشنقيطي ص ٤٧ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٥١ وفي مواضع متعددة .

(١) درج : مشى وسار .  
(٢) عوجا : التواء وانحرافا واختلافا .  
(٣) اختلج في النفس : اضطرت به ، ومنه الخوالج .  
(٤) قاب : قنبر . عرج : صعد .

إنه توفي سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م وبذكر الشنقيطي أن ديوانه مجلد ضخمة ، وكان مدأحا بارعا للرسول ﷺ ، وفي إحدى مدائحه يقول :

وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى خَيْرِ الْوَرَى وَأَرَى  
وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى مُغْنَى الْفَقِيرِ أَلَا  
وَجَّهْتُ وَجْهِي لَدَى الْخَلْقِ الْعَظِيمِ وَذَى-ال-  
وَجَّهْتُ وَجْهِي لِمَحْمُودِ الْمَقَامِ وَمَقْد-  
مَنْ آيَهُ وَكفى الْقُرْآنُ مَعْجِزَةً  
يَكْفِيكَ أَنْ إِلَهَ الْعَرْشِ صُورُهُ  
لنفسى الفـوز بالمطلوب والظفرا  
إني لمعروفه من أفقر الفقرا  
مجد الصميم عديم الشكل والنظرا  
صود الأنام إذا الخطبُ الجليلُ عرّا  
ما كان من خارقٍ فى بدئه ظهرا  
كما يشاء ومنه صور الصورا

ويبدو أنه نظم القصيدة حين عزم على الحج والزيارة أو لعله كتبها فى طريقه إلى الزيارة ، وهو يقول : وجهت وجهى إلى خير البشرية ، وفى ذلك فوزى وظفرى بكل ما أطلب إذ وجهت وجهى إلى مغنى الفقير روحيا ، وإني لمن أفقر الفقراء إلى معرفته . إنه صاحب الخلق الرفيع والمجد المؤثل عديم النظير ، صاحب المقام المحمود والمقصود فى نوازل الخطوب ، ومن معجزاته الباهرة القرآن ، المعجزة الخارقة . وصور الشاعر فى البيت الأخير صورة وجوده المادى الحقيقى التى صوره الله فيها صورة رقيقة ، وصورة وجوده المعنوى الذى صور الله منه صور الموجودات ، وهو وجود يسبق خلق الكون وموجوداته . ويقول فى مدحة مولدية :

إنسانُ عَيْنِ الْكُونِ غُرَّةٌ وَجْهُهُ  
بَابُ الْإِلَهِ وَمُصْطَفَاهُ لَسْرُهُ  
مَنْ خَصَّهُ بِحُلَى الْكَمَالِ إِلَهُهُ  
يَا مَوْلِدَ الْهَادَى لَشَهْرِكَ نَفْحَةٌ  
أَكْرَمُ بِمَوْلِدِ ذَى الْخِتَامِ يَوْمُهُ  
حاوى التفرّد بالمقام الأرفع  
وسراجُ حجته الذى لم يُقشَعِ (١)  
والكونُ واقعُ أمرِهِ لم يوقع  
أرجَ الزمانِ بنشرها المتضوع (٢)  
وبشهره وبعامه والموضع

وهو يقول إن محمدا ﷺ إنسان عين الكون وغرّة جبينه المشرقة صاحب المقام الأرفع الفريد عند ربه ، باب رضاه وغفرانه ومصطفاه لسره ورسالته وسراج شريعته الذى لم تنحسر أضواؤه أبداً ، وقد خصه بالكمال الأسمى قبل حدوث الكون وخلقته . والشاعر بذلك يشير إلى حقيقته المحمدية الأزلية التى خلقت قبل خلق الكون ووجوده . ويقول إن لشهر مولده نفحة روحية ، تعطر الزمان بشذاها الفائح ، فما أكرم مولد خاتم الرسل ، وما أعظم شهره وعامه وموضع مولده .

(١) يقشع هنا : تنحسر أضواؤه .

(٢) أرج الزمان : تعطر . نشرها : شذاها الطيب .

## محمد<sup>(١)</sup> بن حنبل

يقول الشنقيطي في ترجمته : « كان محمد هذا من العلماء الأعلام ، واشتهر في اللغة . وكان نحوياً وله اليد الطولى في البيان . وكان حريصاً على طلب العلم ، يقال إنه مكث سبع سنوات منقطعاً لطلب اللغة » وأنشد الشنقيطي له قصيدة في مدح الشيخ سيدياً حضاً فيها على طلب العلم ومدارسته حضاً شديداً ، وله قصيدة يزرى فيها بأهل الجهل ومقصورة مدح بها الشيخ سيدياً عارض بها مقصورة أبي صفوان الأسدي وما تصور من حيوانات الصحراء وطيرها وما تحمل من ألفاظ بدوية أبدية مما يدل على ثقافته الأدبية واللغوية الواسعة ، وأنشد له الدكتور محمد المختار نبوية طويلة في نحو مائة وثمانين بيتاً ، وهي نبوية رائعة ، توفي سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م ومن قوله فيها مستمداً من فكرة الحقيقة المحمدية الأزلية :

طَه الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ مُحَمَّدٌ	تَاجُ الْخَلَائِقِ سَيِّدُ الْأَبْرَارِ
أَصْلُ الْوُجُودِ وَحَلِيَّةُ وَعْدَتِهِ	وَمُفِيضُ بَحْرِ الْجُودِ وَالْأَنْوَارِ
نُورُ السَّرَاجِ وَكُلُّ نَجْمٍ طَالِعٍ	مِنْ نُورِهِ وَالشَّمْسِ وَالْأَقْمَارِ
وَالْحُورِ وَالْوُلْدَانِ فِي غُرْفَاتِهَا	وَالدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالْأَزْهَارِ
وَالعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ وَالْأَلْوَاحِ وَالْأَبْصَارِ	قَلَامِ وَالْأَفْهَامِ وَالْأَبْصَارِ
وَالْمَسْكِ فِي فَارَاتِهِ وَالنَّدَى فِي	أَحْقَاقِهِ وَالرُّوضِ ذِي الْأَنْوَارِ <sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن طه هو محمد الصراط المستقيم الذي لا ينحرف أبداً تاج الخلائق سيد النساء . ويأخذ ابن حنبل في ذكر حقيقته الأزلية ، فهو أصل الوجود وزينته وعُدته ، ومفيض غيث كرمه وأضواء أنواره إنه أصل كل نور في السراج وفي النجوم والكواكب والشمس والأقمار ، وأصل كل جمال في حور الجنان وغلماها وفي اللؤلؤ والياقوت والأزهار ، وأصل كل وجود في العالم العلوي من عرش وكرسي وألواح وأقلام وفي العالم السفلي من أفهام وأبصار وهو طيب المسك في أوعيته وطيب الندى في حقايقه وشذاً الأزهار في روضها المونق . ويستمر ابن حنبل في نفس الفكرة قائلاً :

وَبِهِ نَجَا فِي الْفُلْكِ نُوحٌ وَأَهْلُهُ	وَنَجَا الْخَلِيلُ مِنَ التَّهَابِ النَّارِ
وَأَقَامَ آدَمُ فِي الْجَنَانِ وَزَوْجُهُ	وَبَنُوهُمَا فِي الْبَدْوِ وَالْأَمْصَارِ
وَيُؤْمِنُهُ قَبْلَ الْإِلَهِ مَتَابَهُ	مِنْ بَعْدِ مَكْرِ الْخَادِعِ الْغَرَّارِ <sup>(٣)</sup>

(٢) فارات المسك : أوعيته .

(٣) الخادع الغرار : إبليس .

(١) انظر في ترجمة ابن حنبل الحسنى وأشعاره الشنقيطي ص ٣١١ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٧٨ وفي مواضع مختلفة .



ونجا النبيحُ بذبحه من بعد ما أتحنى عليه بصارمٍ بتارٍ  
وبه سرى موسى الكليمُ بقومه وبه انفلاقُ الخضرِم الزخار<sup>(١)</sup>

وهو يردُّ الخلاص من كل ما نزل بالرسول إليه وكذلك كلُّ ما جرى على أيديهم من معجزات فهو سرُّ الوجود وكل ما فيه وكل ما حدث للأنبياء والرسول مستمد منه ، فبه نجا نوح ومن آمن به في الفلك من الفرق ، ونجا إبراهيم الخليل من النار واستحالت بردا عليه وسلاما ، وبه كرم آدم وزوجه بمقامهما في الجنة وأغواه إبليس فقبل الله بيمينه توبته وأكرم ذريته في البدو والحضر ، ونجا إسماعيل من ذبح أبيه إبراهيم ، ويمينه سار موسى الكليم بقومه ليلا ، وانفلق له ولهم البحر الواسع الزاخر فكان كل فرق كالجبل العظيم وغرق فرعون ومن معه . وعلى هذا النحو يطيل ابن حنبل في بيان الحقيقة المحمدية الأزلية ، فهو أصل كل موجود في الكون وأصل كل نعمة أسبغت على الرسل بيمينه وفضله . ويتحدث عن القرآن معجزة الرسول الكبرى قائلا :

وَأَتَى بِكُلِّ مَهِيْمٍ مَا إِنْ تَفِي  
آيَاتُ عَيْسَى وَالْكَلِيمِ بِجَنبِهِ  
سُورٌ كَأَشْبَاهِ الرِّيَاضِ تَضُوعَتْ  
وَتَنَاسَقَتْ أَلْفَاطُهَا وَتَنَاسَبَتْ  
وَطَوَّأَهَا كِقَصَارِهَا وَقَصَارُهَا  
كَالدَّرِّ يَبْرُزُ فِي نَحْوِ جَوَّارِ

فالرسول ﷺ قد جاء بمعجز من القرآن الكريم ، لا يستطيع البلغاء الفصحاء الإتيان بسورة من مثله ، ومعجزات عيسى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومعجزات موسى كليم الله من انفلاق البحر كل هذه المعجزات لموسى وعيسى بجانب معجزة القرآن الخارقة التي ليس لها سابقة ولا لاحقة كالمطر القليل بجانب السحاب المرعد الذي تنهمر أمطاره ، سور كريمة مثل الرياض تفوح بشذى الطيب ووعائه لدى العطار ، وألفاظها متناسقة تناسق اللآلئ في القلادة البديعة ، وطوالها مثل قصارها تشبه الدرر في نحور الجوارى الفاتنات .

٤

### الشعراء والشعر التعليمي

عرضنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن رقى الحياة العقلية حينذاك أدت إلى استحداث فن الشعر التعليمي ، وكان من السابقين إليه أبان بن عبد الحميد بترجمة كتاب كليله ودمنة عن الفارسية إلى العربية في نحو ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المنظوم من وزن الرجز وفيه

(١) الخضرم الزخار : البحر الواسع الطاغى موجه .  
(٢) مهيمن : قاهر معجز . لسن المناطق : السنة البلغاء .  
(٣) الطل : المطر القليل . مززم : سحاب ملء بالرعد . همار : مدرار كثير المطر .  
(٤) تضوعت : فاحت . شذا : عطر . العبير :  
الطيب . جونة : رعاء .  
(٥) التقصار : القلادة .

تختلف القافية من بيت إلى بيت ، مع اتحاد الشطرين المتقابلين فيها بكل بيت ، ونظم مزدوجات أخرى في التاريخ والفقہ . ومن حيث شاع هذا الفن الجديد في العراق وإيران والبيئات الإسلامية المختلفة ، وتكاثر منظوماته في الأندلس والمغرب ، وتأخذ في الظهور بموريتانيا في القرن الثاني عشر الهجري وسرعان ما تتكاثر كثرة مفرطة في القرن الثالث عشر ، ومن أمثلتها في أواخر القرن الثاني عشر نظم المجدري لما ورد عن العرب من كلمات على وزن فاعول ولما هاسين مثل طاووس وناقوس<sup>(١)</sup> . وملتقى بالمختار بن بون المتوفى حول سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م وله في النحو نظم سماه الاحمرار ذكر فيه من تسهيل ابن مالك ما لم يذكره في الألفية ، ومزجه بها مزجا جيدا يدل على مهارة تامة<sup>(٢)</sup> . وكان يعاصره عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م وقد نظم كتاب جمع الجوامع في أصول المذهب المالكي للسبكي وسمى نظمه مراقى السعود ، وألف شرحا لهذا النظم باسم نشر البنود يقول الشنقيطي : « لم يأت الزمان بمثله ، ولا جاد فيما مضى بشكله » وألف في علم البيان نظمه « نور الأقاح » ووضع له شرحا سماه « فيض الفتح » جمع من فنون البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع الدرّ الثمين ، ألغى فيه الغث وأخذ السمين ، وله في مصطلح الحديث نظم سماه « طلعة الأنوار » وضع عليه شرحا<sup>(٣)</sup> ولابنه محمد منظومة في الأفعال جمع فيها ما في التسهيل لابن مالك وما في لاميته وما في شرح بحرق اليماني للامية ، وشرح المنظومة ، وهو عمل لغوي بارع ، ويقول الشنقيطي معبرا عن إعجابه بهذا العمل : ناهيك به<sup>(٤)</sup> . ولعبد الله بن أحمد الغلاوي معاصر ابن الحاج وأحد أفراد زمنه في العلم وأعلم من بأرض الحوض منظومات<sup>(٥)</sup> متعددة ، منها منظومته لرسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي ، أنشد الشنقيطي من فاتحتها قوله :

ولم أكن جُدَيْلَ هذا الفنِّ      وما على كَوْمَةٍ لأنِّي<sup>(٦)</sup>  
شُغِلْتُ بالنَّحْوِ وبالبيانِ      و ( إنَّ هذان لساحران )

ويذكر الشنقيطي أنه نظم متنا في الفقه لعبد الرحمن الأخصري الجزائري صاحب متن السلم المشهور في المنطق ، وبدأ نظمه بقوله :

عبدُ الإلهِ الشنقيطِيُّ يشتري      بعقده المنظوم تَبْرَ الأخصريِّ

وقال إنه نظم أيضا متن الخرجية في العروض ، واستهل نظمه لهذا المتن بقوله :

الحمد لله على تخريجِي      مسائلَ العلوم بالتدرِجِ

(٥) انظر ترجمة الغلاوي عند الشنقيطي ص ٩١ وما بعدها.  
(٦) جديبل : خبير .

(١) الشنقيطي ص ٢١٥ .  
(٢) الشنقيطي ص ٢٨٠ - ٢٨١ .  
(٣) الشنقيطي ص ٣٨ - ٣٩ .  
(٤) الشنقيطي ص ٨٣ .

ويبدو أن منظوماته العلمية كانت سائغة جيدة ، ويقول الشنقيطي إنه همّ بنظم مختصر خليل في الفقه ثم صرفه عن ذلك صارف<sup>(١)</sup> .

وللتجاني بن باب المتوفى حول سنة ١٢٦٠ هـ منظومة في أزواج النبي ﷺ وأولاده من له ما لكريماته الطاهرات من بنين وبنات ، وله على هذه المنظومة كما يقول الشنقيطي شرح نفيس . وله أرجوزة نظم فيها ورقات الجويني إمام الحرمين في علم الأصول<sup>(٢)</sup> . واشتهر أحمد البدوي المجلسي بمنظومتين<sup>(٣)</sup> : منظومة في أنساب العرب سماها عمود النسب استهلها بقوله :

حمداً لمن رفع صيتَ العربِ      وخصَّهم بين الأنام بالنبي  
والمنظومة الثانية في غزوات الرسول ﷺ ، وينوه الشنقيطي بجودة نظمها وأنها تدل على تبحره في السيرة النبوية ، افتتحها بقوله :

حمداً لمن أرسل خيرَ مرسلٍ      لخير أمةٍ بخير الملل  
وأفضلُ الصلاة والسلام      على لبابِ صفوة الأنام  
وأُنشد له الشنقيطي قطعتين في غزوة الخندق وغزوة حنين . ومن أكثروا من الشعر التعليمي في النحو عبد<sup>(٤)</sup> للودود بن عبد آل من نحاة النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري وشعرائه ، وله مقطوعة في مد المقصور استهلها بقوله :

ومدُّ مقصورٍ خلافةً اشتهرُ      وفصلُ القراءِ تفصيلاً بهرُ  
ومضى في المقطوعة يذكر تفصيله لأحكام مد المقصور ، ويقول الشنقيطي : « له قصيدة غزلية في المصادر الغريبة ، وما ترك مسألة عويصة في النحو إلا نظمها أسلس نظم وأتقنه ، وعلى شاكلته المختار بن ألباء ، يقول الشنقيطي : توفي بعد سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٣ م وله أنظام كثيرة في النحو<sup>(٥)</sup> ، ومثلها الحسن بن زين تلميذ عبد الودود المتوفى قريباً من ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م يقول الشنقيطي : له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك مزجه بها ولولا أنه كتبه بالحمزة لا لبس بنظم ابن مالك ، وله أنظام كثيرة مفيدة ، وينشد بعض نظمه في مسائل نحوية<sup>(٦)</sup> .

(٤) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٧٤ .

(٥) الشنقيطي ص ٢٣٩ .

(٦) الشنقيطي ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(١) الشنقيطي ص ٩٢ .

(٢) الشنقيطي ص ٧٠ .

(٣) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٥٠ .





القسم الرابع

السودان



## الفصل الأول

### الجغرافية والتاريخ

١

#### الجغرافية (١)

السودان جنوبي مصر في القارة الإفريقية ، ويمتد على جانبي نهر النيل من وادي حلفا عند خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ٤٠-٣° إلى الجنوب ، وهي مسافة تقدر بحوالي ألفي ميل طولا وتبلغ المسافة من الشرق إلى الغرب نحو ألف ميل عرضا . وتبلغ مساحة السودان حوالي مليون ميل مربع ، وهو ثلاثة أقسام : السودان الشمالي الواقع بين وادي حلفا والخرطوم ، والسودان الأوسط الواقع بين الخرطوم وحوضي نهر السوبات ونجر الغزال ، والسودان الجنوبي الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبي لنهر النيل . وليس هناك حدود طبيعية بين السودان والكنغو ولا بينه وبين الحبشة ، وأتفق على خطوط فاصلة بينه وبين القطرين جميعا .

والصحراء تطل على جانبي النيل في السودان الشمالي وتتخللها تلال صخرية كثيرة ، أما في السودان الأوسط جنوبي الخرطوم فتقل التلال ، ويصبح السطح أشبه بسهول ، ويمتد السهل شرقا حتى مرتفعات الحبشة وجنوبا شاملا السودان الجنوبي حتى هضبة البحيرات الاستوائية . ويرفد النيل من الحبشة نهران : نهر النيل الأزرق ويصب فيه مياهه بالقرب من الخرطوم ، ونهر عطبرة ويصب فيه شمالى مدينة الدامر حاملا ذخيرة كبيرة من الطمي . وأخصب أجزاء السودان أوسطه أو بعبارة أخرى السودان الأوسط ، ففي شرقه حتى تلال الحبشة سهل طمى خصب يحتضنه النيل الأزرق من جهة والنيل الأبيض من جهة ثانية ، ويسمى أرض الجزيرة ، وتبلغ مساحته نحو مليون فدان وتوجد فيه الحبوب والقطن . وغربي السودان الأوسط سهول رملية تمتد حتى مرتفعات كردفان بل حتى جبل مرة في دارفور وما وراءه وأيضا حتى جبال النوبة وخط تقسيم المياه بين حوض النيل وحوض بحيرة تشاد . وهذا الغرب كله مراعى واسعة يتجول فيه أهله صيفا وراء قطعانهم من الأنعام : الإبل والأغنام ويزرعون في بعض البقاع الذرة والدخن ، ويعنى سكان جبال النوبة بالزراعة وخاصة زراعة القطن .

وفي الشرق الاقليم بين حوضي النيل الأزرق وعطبرة يسمى سهل البطانة وتكثر فيه التلال

للدكتور إبراهيم رزقانة ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في جغرافية السودان كتاب السودان وروادي النيل للدكتور محمد عوض محمد والجغرافية البشرية

كلما اتجهنا شرقا حتى مدينة كسلا ، وعندها يظهر خط الجبال الذى يفصل بين نهاية سهل البطانة وبداية جبال إريتريا . وفى هذا السهل مراعى واسعة ومناطق زراعية على شواطئ النيل ونهر عطبرة ويزرعون الحبوب والقطن .

وعلى شواطئ النيل فى السودان الشمالى تزرع الذرة ، وشرقى السودان الشمالى سهول تمتد شرقا حتى البحر الأحمر وشمالا حتى الصحراء الشرقية فى مصر ، وتسكنه قبائل مختلفة أهمها البجة وتكثر فيه المراعى ويعيش سكانه على الرحلة وراء أنعامهم من مرعى إلى مرعى . ويختلف فيه زمن نزول المطر فى الصيف يسقط فى الداخل ، ويتزايد من الشمال إلى الجنوب ، وفى الشتاء يسقط على الساحل والتلال الشرقية . وأهل البجة الشماليون يسمون البشاريين ، وأكثر عملهم فى مناجم الذهب ، وأهل العشائر القريبة من ميناء بورسودان على البحر الأحمر يعمل كثيرون منهم فيها ، والعشائر النازلة بين كسلا وسنكات فى الطريق إلى بورسودان يعملون فى دلتا خور القاش حيث يزرعون القطن والذرة ، وأبناء عمومتهم النازلون على حدود إريتريا يزرعون القطن فى دلتا خور بركة عند طوكر .

والسودان الجنوبي الممتد جنوبى نهر السوبات وبحر الغزال تغطيه الحشائش والأدغال شمالا ، ويتحول فى الجنوب إلى مستنقعات تغطيها الغابات والبردى وحشائش مختلفة . وتؤثر هذه النباتات تأثيرا كبيرا على مياه النيل المنحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الغزال إذ تفقد نحو نصفها بسبب سدود النباتات التى تعترض مسيرتها ، كما تعترض مسيرة بحر العرب المنحدرة مياهه شرقا إلى بحر الغزال . وتجري فى هذه المنطقة روافد عديدة للنيل وترتفع بها بعض أجزاء يبنى عليها سكانها قراهم ويرعون أنعامهم ، ويزرعون بعض بقاعهم ، مع ملاحظة أن المستنقعات تكثر كثرة مفرطة فى أقصى الجنوب . وبجانب الزراعة أحيانا والمراعى يصيدون من المياه الأسماك ومن الغابات المجاورة بعض الحيوانات وخاصة فى الأنحاء الغربية .

والمناخ فى السودان الشمالى شديد الحرارة صيفا . وهى شدة تظل من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر ، وتبلغ فى أكثر الأحيان ٤٠° م ويزيد الجو الحار قسوة وشدة ما تحمله رياح السودان المحلية المسماة بالهبوب من الرمال . والسودان الأوسط والجنوبى شديدا الحرارة أيضا إلا أن حرارتهما لا تبلغ فى الشدة مبلغ حرارة الإقليم الشمالى صيفا ، وأحر شهور السودان الجنوبي شهور يناير وفبراير ، ثم يأخذ مطر الصيف فى النزول فيقلل درجة الحرارة تدريجا . ودرجة الحرارة فى دارفور أقل منها فى كردفان والخرطوم لأنها أكثر منهما ارتفاعا فوق مستوى سطح البحر . والمطر فى السودان الجنوبي غزير ، ويبدأ فصله هناك من شهر مارس ، ويأخذ فى الازدياد بالأشهر التالية ويبلغ الذروة فى شهرى يولية وأغسطس ، ثم يأخذ فى التناقص حتى شهر نوفمبر ، وأشهر ديسمبر ويناير وفبراير هناك أشهر الجفاف .

## التاريخ

(أ) السودان في العصور<sup>(١)</sup> القديمة

يرتبط السودان في تاريخه السحيق بمصر منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين بعامل حفاظ تلك الأسرات على الأمن في جنوبي مصر وعلى طريق التجارة . وفي أخبار الأسرة الرابعة أن سنفرو قام بحملة في الجنوب ، لعلها كانت حملة تأديبية ، وتتجدد الصلات في عهد الدولة الوسطى بغرض السيطرة على أرض النوبة في الجنوب وأخذت هذه الصلات تتسع في عهد الدولة الحديثة إذ مدت سيطرتها إلى الشلال الرابع . وسميت الأراضي الممتدة إلى ذلك الشلال - منذ ذلك الحين - باسم أراضي النوبة وكانت قسمين شماليا وجنوبيا ومُصِّرت تماما في عهد تلك الدولة ، وسكن النوبة الجنوبية كوشيون طُبعوا بطوايح الحضارة المصرية كما تدل آثارهم المكتشفة في أراضيهم ، وكان الحاكم هناك يعد نائبا للملك مصر . ويدور الزمن دورات ويدخل الليبيون مصر ويطردون منها ، ويتسمى حكامهم باسم الملوك . وتلى ذلك حقبة غامضة لا نكاد نعرف عنها شيئا ، وتكونت حينئذ ثلاث دول نوبية : الأولى في الشمال وعاصمتها نوس وتسمى نوباديا بعد الشلال الأول والثانية في الوسط بإقليم دنقلة وتسمى مقرة . والثالثة جنوبي الخرطوم مباشرة وعاصمتها سوبا وتسمى عُلوة .

ولما اضطهدت روما المسيحية المسيحيين في مصر فرُّ كثيرون من معتنقي المسيحية إلى نوباديا دولة النوبة الشمالية ، وهناك أخذوا يدعون لدينهم المسيحي واعتنقه بعض النوبيين ، ولما أصبحت المسيحية في روما دين الدولة الرسمي في عهد قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد نشطت في نوباديا البعثات التبشيرية ، ومن اشتهروا بهذا النشاط التبشيري تيودور أسقف أسوان وفيلة ونزل نوباديا واختلط بالزعماء النوبيين فيها واعتنق كثير منهم الدين المسيحي كما اعتنقه كثير من أهل نوباديا .

واتسعت حركة التبشير للدين المسيحي في عهد الإمبراطور جوستيان ( ٥١٧ - ٥٦٥ م ) وكانت الكنيسة المصرية تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح ضد القائلين من كنيسة روما والقسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين . وحاول جوستيان أن يرسل بعثة إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته ، ووصلت إلى جزيرة فيلة مع أسقفها تيودور ، فجهزها ورافقها إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته وسارعت الكنيسة القبطية بإرسال بعثة للدعوة إلى عقيدتها برياسة جوليان ، ووصلت

والحديث لعم شقير والسودان في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في تاريخ السودان بالعصور القديمة كتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة ( نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ) وانظر تاريخ السودان القديم



البعثة إلى جزيرة فيلة وجهازها ورافقها إلى نوباديا ونجحت البعثة في مهمتها وأخفقت بعثة الإمبراطور جوستنيان ، وتوفي جوليان فعين مكانه أسقفا لبلاد النوبة لونغينيوس سنة ٥٦٩ للميلاد ، والتفوا حوله ، ودعاه ملك علوة في الجنوب ، فذهب إليها وأصبحت مسيحية يعقوبية تدين بعقيدة مصر في طبيعة المسيح الواحدة . وأخذت دولة مقرة تدخل بدورها في المسيحية ، ويقال إنها اعتنقت أولا فكرة الطبيعتين في المسيح ثم تركتها إلى فكرة الطبيعة الواحدة مثل نوباديا وعلوة ، ونظن أنها تأخرت في التنصر بعد نوباديا وعلوة وأنها أخذت بعد ذلك في التنصر تدريجا على مذهبها اليقوي ، وأنها لم تبدأ تنصرها على مبدأ الطبيعتين كما يقال . ويبدو أن مملكة نوباديا ذابت في مملكة المقرة ولم يعد هناك سوى مملكتين : مملكة مقرة ومملكة علوة ، وذلك إما قبيل الإسلام أو بعده بقليل .

### (ب) السودان<sup>(١)</sup> في العصور الإسلامية

ذكرنا في حديثنا عن فتح العرب لدول المغرب الأقصى أنهم لم يكونوا غزاة فاتحين طلبا لمغانم مادية إنما كانوا دعاة للإسلام مجاهدين ، ونرى عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي الخليفة عثمان على مصر بعد أن يتم له فتح ليبيا وتونس يوجه حملة إلى أرض النوبة سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م تتوغل حتى دنقلة عاصمة دولة المقرة واضطرت القائميين عليها إلى عقد معاهدة جاء فيها أن على أهل مقرة حفظ المسجد الذي بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإسراجه وأن لا يتعرضوا لمسلم يصل في فيه ، ويؤدوا لمصر سنويا ثلاثمائة وستين من شباب رقيقهم ذكرانا وإناثا ، وتعهدت مصر بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس . وظلت علاقات الدول الإسلامية في مصر بمملكة مقرة النوبية قائمة على أساس هذه المعاهدة نحو ستة قرون .

وكانت قبائل البجة السودانية تنزل في الصعيد بالصحراء شرقى أسوان إلى دهلك ( مضوع ) وقامت بغارات على أسوان في عهد المأمون العباسي فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢١٧ هـ / ٨٤١ م وهزمهم وأملى عليهم معاهدة قبلوها ، فيها أن يؤدي ملك البجة أو أميرهم خراجا سنويا : مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يقتلوا مسلما . وأهم من ذلك « أن عليهم أن لا يهدموا شيئا من المساجد التي بناها المسلمون في سائر بلادهم طولا وعرضا » مما يدل على أنه كان قد نزل بديارهم عرب مسلمون بنوا هذه المساجد ، وكانت قد نزلت بينهم - قبل هذا التاريخ فيما يبدو - قبائل أو بعبارة أدق جماعات

عبد المجيد عابدين ( طبع جامعة الخرطوم ) والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى محمد مسعد وكتاب العربية في السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في هذا الموضوع خطط المقرئ في مواضع متعددة وكذلك مرجع الذهب للمسعودي وتاريخ ابن خلدون والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة ص ٢٥ وما بعدها وكتاب دراسات سودانية للدكتور

من قبيلتي بليّ وجُهينة للرعى وللتجارة ولإستخراج الذهب فى منطقة العلاقى ، وعبرت البحر الأحمر جماعات من هوازن ونزلت فى إقليم البجة ثم رحلت إلى منطقة كسلا داخل السودان . ونجد البجة فى عهد المتوكل تعود إلى العصيان وتحاول الاستيلاء على مناجم الذهب فى العلاقى من أيدي العرب ، ويرسل إليهم المتوكل جيشا سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م بقيادة محمد بن عبد الله القمى ويتغلب عليهم ، ويطلب ملكهم الصلح على أن لا يتعرض للعرب العاملين فى معدن الذهب ويدفع الخراج المفروض سنويا . ويزور بغداد وتبهره حضارتها .

وعندما استولى أحمد بن طولون على زمام الحكم بمصر سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أرسل إلى بلاد البجة والنوبة حملة بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى واشترك فيها كثير من قبيلتي ربيعة وجهينة ، ونزل كثير من جنوده فى النوبة وأرض البجة . ويذكر المسعودى الذى زار مصر سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م أن ربيعة اختلطت بالبجة فى أرض المناجم وأصبحوا أسرة أو قبيلة واحدة . ويذكر المقرئى أن ابن طولون جند من النوبين أربعين ألفا ألحقهم بجيشه ، ولا بد أنهم جميعا أسلموا أو لعل كثيرين منهم كانوا مسلمين قبل استخدامه لهم . وبدون ريب هيا نزول القبائل العربية الكثيرة فى البجة والنوبة لاعتناق كثيرين منهما الإسلام ، ومع ذلك ظلت الكثرة فى النوبة مسيحية . ويزور بلاد النوبة فى أوائل عهد الفاطميين ابن سليم الأسوانى ، ويروى المقرئى عنه أن المسلمين هناك معززون وفى حالة استقرار وأن كثيرين من النوبين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم للعربية . ويذكر ابن سليم أن المسلمين تغلغوا فى الأراضى السودانية حتى علوة جنوبى الخرطوم ، واستطاعوا فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن ينوا لهم مسجدا فى سوبا عاصمة علوة . وكانت أم الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر الهجرى سودانية وبلغ المجندون من النوبة فى الجيش الفاطمى - بتشجيع منها - خمسين ألفا . وأصبح للعرب من بنى ربيعة - فى العهد الفاطمى - مساكن على وادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب على البحر الأحمر وما به من مناجم الذهب ، وفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م أعلن شيخهم دخوله فى طاعة الفاطميين فلقبه الخليفة الفاطمى المستنصر بلقب كثر الدولة وعرف قومه بالكنوز ، ولما استولى الأيوبيون على صولجان الحكم فى مصر من أيدي الفاطميين انسحب عرب الكنوز من حدود أسوان إلى بلاد النوبة . وكان ثغر عيذاب قد ازدهر منذ العصر الفاطمى بسبب احتلال حملة الصليب لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس وتحول الطريق الرئيسى لحجاج مصر والبلاد المغربية إليه .

وفى سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م أغار النوبيون على ميناء عيذاب ونهبوا متاجره وقتلوا القاضى والوالى عليه من قبل مصر لعهد الظاهر بيبرس ، وأغاروا على أسوان ونهبوا أسواقها ، وأرسل بيبرس فى السنة التالية حملة إلى النوبة يفوقها والى قوص ، ووصل إلى دنقلة وملك النوبة داود يفر أمامه . وجاء إلى القاهرة ابن أخته شكندة متظلما منه ، واتتهز الفرصة بيبرس ، فجهز له

جيشا مع بعض قواده ، ومضى الجيش حتى دنقلة ، ولقى داود وجماعته وهرب ، وتوج شكندة ( إسكندر ) ملكا على مقرة بنفوذ وقوة الجيش المصرى المملوكى مع إعلان أنه نائب للسلطان وعليه أن يرسل إليه نصف ما يجمعه من الضرائب والجزية على الشباب من غير المسلمين وكانت فى واقعها ضريبة دفاع ، وبذلك عدُّ أهل مقرة المسيحيين أهل ذمة . وتوفى شكندة سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧ م وتولى بعده أمير من البيت المالك دون رجوع إلى السلطان قلاوون الذى خلف الظاهر بيبرس فأرسل إلى بلاد النوبة حملة قضت على الملك الجديد ، ونصبت سمamon ملكا على مقرة ونائبا لقلاوون بنفس شروط شكندة السالفة غير أن سمamon لم يلبث أن أظهر عدم إخلاصه وولائه لقلاوون ، فأرسل إليه حملة تأديبية بقيادة أيديرم والى قوص ، وهزم سمamon وفر إلى الجنوب وأقيم مكانه ابن أخته ورأى قلاوون أن يبقى معه المملوك أيديرم .

وبعد عودة الجيش المصرى المملوكى اضطر سمamon الملك الجديد نائب قلاوون وأيديرم إلى العودة إلى القاهرة فجهز قلاوون حملة كبيرة لمنازلة سمamon سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٩ م ووصل الجيش دنقلة ففر سمamon أمامه متوغلا فى الجنوب ، وكان الملك الجديد توفى فى الطريق ، فُنصَّب ابن أخته بدنقلة ملكا على مقرة ، وبقيت هناك فرقة من الجيش المصرى مع أمير مملوكى . وعاد سمamon ثانية إلى دنقلة ، وقبض على الأمير المملوكى وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد ، وأرسل إلى قلاوون متعهدا له بأداء كل الالتزامات ، وقبِلَ قلاوون منه ذلك وتوفى وخلفه ابنه خليل فامتنع سمamon عن أداء الجزية والضرائب ، وجهاز له السلطان خليل حملة فرأى أمامها من دنقلة ، ونصَّب مكانه ملك جديد ، وكان الأمير عبد الله برشمبو لجا إلى القاهرة واعتنق الإسلام ودخل فى ولاء محمد الناصر بن قلاوون ، وكان من الأسرة النوبية المالكة فرأى الناصر تعيينه نائبا له فى دنقلة وملكا مسلما عليها لأول مرة سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م وأرسل معه حملة لتنفيذ ذلك ، وبذلك استولى على صولجان الحكم فى مقرة المسيحية أول ملك مسلم . ولم يلبث أن نازعه الملك شيخ ربيعة الملقب بكتر الدولة ، واستطاع القضاء عليه ، ونصَّب شيخ ربيعة نفسه ملكا على مقرة ، ودخلت معه إلى أرض النوبة قبائل عربية كثيرة عملت على نشر الإسلام فيها بحيث يأخذ المسيحيون هناك فى التضاؤل ، ولا يبقى منهم فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا عدد قليل جدا . وتلك حسنة واضحة لاقتحام القبائل العربية لأرض النوبة ، وهذه الحسنة رافقها توزيع أراضى النوبة بين القبائل العربية وقيام إمارات كثيرة صغرى فيها مما قضى نهائيا على مملكة المقرة .

وكانت الحدود الشمالية لمملكة علوة الواقعة جنوبى مملكة مقرة تسمى الأبواب وكان يقوم عليها حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان يرسل لسلطين المماليك بولائه ، وحين كان يعصى ملك مقرة هؤلاء السلاطين ويفرُّ إلى الأبواب كان كثيرا ما يقبض عليه ويرسل به إليهم . ومنذ قامت فى دنقلة دولة إسلامية سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م



أخذت تضعف صلوات مملكة علوة بالكنيسة اليعقوبية في الإسكندرية ، إذ قطع الاتصال بينهما فلم يعد يأتيهم من الإسكندرية أساقفة ، وأهمت الطقوس الدينية وهُجرت الكنائس . ورافق ذلك انتشار القبائل العربية من مقرة إلى أراضي علوة وسهولها وتغلبهم عددياً على سكانها وامتزجهم بهم ، كل ذلك أسرع بأهل علوة إلى اعتناق الإسلام : المسيحي منهم ومن كان لا يزال على دينه الوثني .

ولم أتحدث عن الإسلام في غربي السودان حتى الآن ، ومرّ بنا في حديثنا عن موريتانيا مدى نشر دولة المرابطين بقيادة أبي بكر للإسلام في إفريقيا المدارية وتغلغله به إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكانم ، وكان ملوك الكانم من الطوارق الملتزمين المسلمين وكانوا تجاراً من قديم واستطاعوا أن يسيطروا سلطان دولتهم الإسلامية من بحيرة تشاد إلى غربي السودان وأرض النوبة ، وكان لتجارهم عمل عظيم في نشر الدعوة الإسلامية غربي السودان ، وأهم من ذلك الكتلة الضخمة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التي كانت تنزل في إقليم فزان ، إذ هاجرت إلى إقليمى واداي ودارفور غربي الخرطوم وهاجرت معها كتلة من عرب الشوا أو الشاوية أى رعاة الشاة ومنهم في غربي السودان السلامات وخزام والجعادنة والحاميد والدكاكير ، وهاجر بعدهم من فزان أولاد سليمان حين استولى الأتراك العثمانيون على ليبيا وكوّن هؤلاء العرب ومن صحبهم من البربر مملكة إسلامية مبكرة في إقليمى دارفور وواداي بين سنتي ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م و ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م ومن سلاطين تلك المملكة سليمان وقد شملت سلطنته الكانم بجانب واداي وشطرا كبيرا من دارفور ، وورث عنه هذه السلطنة ابنه دونامة (٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م - ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) . وهذا بالإضافة إلى ما كان يمر بالسودان الغربي من حجاج إفريقيا المدارية . وكل ذلك عجل بانتشار الإسلام فيه .

وواضح من كل ما سبق أن الإسلام انتشر في السودان تدريجاً ، ويبدو أن انتشاره في غربي السودان كان أسرع من انتشاره في شرقيه وفي حوض نهر النيل السوداني نفسه ، ولم ينتشر - كما رأينا - بالسيف ، إنما انتشر بالموعظة والكلمة الطيبة .

٣

### (ج) دولة الفونج<sup>(١)</sup>

هي أول دولة إسلامية ذات نظم سياسية وإدارية تظهر في السودان الأوسط قاعدتها

القديم والحديث لعدم شقير وكتاب قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربي للدكتور عبد المجيد عابدين : فصل سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج .

(١) انظر في دولة الفونج مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية وكتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شبكة وانظر تاريخ السودان

سنار على النيل الأزرق ، واختلفت الآراء فى أصل الفونج ، فقيل إنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غربه فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقيل هم من الشلوك القاطنين فى جزر النيل الأبيض ، وقيل هم من أعلى النيل الأزرق من إقليم فازوغلى ، وكانوا هم ينسبون أنفسهم إلى العرب ، ويقولون إنهم من نسل بعض بنى أمية الذين فروا من الشام أثناء مذابح العباسيين لأبناء أسرتهم فى أول استيلائهم على الحكم ، وكانهم تغلغلوا فى الفرار حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق . وكانت العربية لغة دولتهم الرسمية ، وكانوا يكتبون بها وثائقهم وبذلك كانوا دولة عربية إسلامية ، وأول قيام تلك الدولة يؤرخ له بسنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وكان يرأسها ملك يسمى « عمارة دونقس » وكانت مملكة علوة فى سوبا قد تضعضعت ، فتحالف عمارة دونقس مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وشيخ قبائل العبدلاب ، وكان يسود المنطقة من التقاء النيلين الأبيض والأزرق مع الامتداد شمالا ، والتقى الحليفان مع قوات مملكة علوة وانتصرا عليها انتصاراً حاسماً ، وفرت فلولها إلى كردفان والصحارى وذاقوا فى سكان البلاد من المسلمين . وانتهت بذلك مملكة علوة واتخذ دونقس مدينة سنار عاصمة له ، وأصبح عبد الله جماع نائبا له فى الجزء الشمالى من الدولة . وحين استولى العثمانيون على مصر مدّوا حدودهم المصرية إلى مدينتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م وأقاموا فيهما حاميتين . واستطاع عمارة دونقس أن يقنع العثمانيين بأنه ملك مسلم وسكان بلاده عرب مسلمون ولا مبرر لأن يخشاهم العثمانيون .

ويخلف عمارة دونقس فى دولة الفونج ثلاثة ملوك لا يذكر لأحدهم عمل مهم ويخلفهم الملك دكين ودنايل سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٩ م وفيه يقول كاتب الشونة : « هو من أفخر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مضبوطة لا يتعدها أحد ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا ( حاكما ) معلوما وقتن لمن عاداته الجلوس بحضورته رتبا : الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه ، ومازال يُعنى بتمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ . ويتعاقب بعده ملوك لا أهمية لهم ويخلفهم عدلان وداى سنة ١٠١٩ هـ / ١٦١١ م ويذكر كاتب الشونة أنه حدثت فى عهده نهضة تعليمية وكان للشيخ عجيب رئيس عرب القواسمة والعبدلاب دور مهم فى تلك النهضة . ويبدو أنه ثار على عدلان وداى ، ونشبت معركة بين جيشه وجيش الفونج مات فيها وانهزم جيشه وفرت أسرته من عاصمته « قرى » إلى دنقله ، وتوسط الشيخ الصالح إدريس ود الأرياب عند عدلان وداى فأقام العجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب مكان أبيه شيخا أو أميرا على « قرى » وعادت إليها أسرته .

وفى نفس السنة صمم الفونج على خلع ملكهم عدلان وولوا مكانه الملك بادى سيد القوم

وخلفه الملك رباط وفي عهده حدثت حرب مع الحبشة سنة ١٠٢٧ هـ / ١٧١٨ م اُكفِت فيها الحبشة بما استولت عليه من بعض الغنائم ، وولى بعده ابنه بادي أبو دقن سنة ١٠٥٤ هـ / ١٧٤٥ م ويقول عنه كاتب الشونة : « هو من ذوى الشجاعة والكرم والهمم العالية ، وقد غزا النيل الأبيض وقتك بسكانه المعروفين بالشلوك وغزا جبال تقلى غربى النيل الأبيض بنحو مرحلتين ، وصالح ملكها على جزية سنوية جعلته تابعاً لمملكة الفونج . وبنى بعاصمته سنار جامعاً وقصراً لدواوين الحكومة ، وكان مكرماً لأهل العلم ، وكان يرسل بهدايا إلى علماء الأزهر ونظمت فيه عدة مدائح وخاصة من الشيخ عمر المغربي الأزهرى وفيه يقول من قصيدة طويلة :

هو الملك المنصورُ بادي الذي له مدائحٌ قد جلتْ عن العَدِّ والحَصْرِ

ودام حكمه نحو خمس وثلاثين سنة ، وخلفه ابن أخيه أونسه ود ناصر ، وفي عهده حدثت مجاعة ، وتم لقبائل الشايقية التي كانت تنزل فى شمالى السودان بمنطقة حلفا استقلالها عن العبدلأب وبالتالي عن سنار ، وكانوا أهل بسالة وشجاعة ، وكانت تقدمهم فى الحرب امرأة فاقت فى الفروسية وفنون الحرب نظراءها من الرجال وكانت تسمى عديلة ، وهى التى حرضت ابنها عثمان على خلع طاعة ودعجيب أمير العبدلأب ، ونشبت بينهما الحرب وانتصر عثمان ومنح ودعجيب الشايقية استقلالها . ونشطت فرنسا فى إرسال بعثات تبشيرية إلى الحبشة تريد أن تخرجها من مذهبها اليعقوبى القبطى فى المسيحية إلى مذهبها الكاثوليكى وباءت جميعاً بالإخفاق الذريع لا فى الحبشة وحدها بل أيضاً بين مسيحيى سنار . وتتطور الظروف فى دولة الفونج ، ويستولى على صولجان الملك فيها بادي أبو شلوخ سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م وتعود الحبشة إلى الشغب على حدود مملكة سنار ، وفى سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م سار ياسوس إمبراطور الحبشة على رأس جيش متجهها نحو مملكة سنار ، وأمر بحرق القرى السودانية وقتل الناس وأخذ إيلهم وأنعامهم ، وعسكر قسم كبير من الجيش الحبشى أمام سنار ولقيه جيشها وهزمه ، وكان الإمبراطور معسكراً مع بقية الجيش بعيداً فلما بلغته الهزيمة آثر السلامة وعاد بجيشه إلى بلاده . ويقول كاتب الشونة فى حديثه عن هذه الحرب ونهايتها : « فرح الملك بادي وأهل سنار ووفوا بندورهم وعملوا الموالد وذبحوا الذبائح وأقاموا ولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم ( الخليفة العثمانى ) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين » . ولم يحاول الأحباش بعد ذلك غزو السودان ودولة الفونج . وأخذت سياسة الملك بادي تسوء سوءاً شديداً وغير كثيراً من القوانين واستعان بأهل النوبة مفضلاً لهم فى الوظائف العليا على الفونج ، وغضب الشعب غضباً شديداً ، غير أنه انتظر نتيجة حملة كردفان سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م ونجحت الحملة وضمت كردفان إلى دولة الفونج ، وقرر الشعب وقادة الجيش خلع بادي وتولية ابنه ناصر ملكاً بعده .



وأصبح ملوك الفونج - منذ هذا التاريخ - ألعوبة في أيدي الوزراء من الهمج ، وكانوا جماعة أو قبيلة واضحة في سنار : وكان منهم الوزير الأول لبادى أبى شلوخ ثم لابنه ناصر وهو الشيخ محمد أبو لكيك ، أما جماعته وهم الهمج فيقال إنهم من الجعليين الذين كانوا ينزلون شمالى قبائل العبدلاب ، ويقال بل هم من أهل النوبة الذين أسكنهم الملك بادي أبو دقن فى قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص . والأصل الذى انحدر منه الشيخ محمد أبو لكيك يرجع إلى جعلى ، تزوج من نساء الأبواب . وقد مكنته مجموعة أخواله الأبواب من الاحتفاظ بإدارة الحكم وتدييره . وعزل الملك ناصر وتولى أخوه إسماعيل ، وتوفى الشيخ محمد أبو لكيك وتولى المشيخة بادي ود رجب ، وبدأ التنافس سريعا فى جماعة الهمج ، إذ أخذ غير واحد يستعين بمجموعته أو عشيرته ليستولى على الحكم ، وكثرت الانقسامات والحروب الأهلية فى الدولة إلى أن دخلت جيوش محمد على السودان سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م بقيادة ابنه إسماعيل كامل .

#### ٤

### محمد على والسودان - عهد إسماعيل

(أ) محمد على<sup>(١)</sup> والسودان

ترجع بعض المغريات التى جعلت محمد على يفكر فى فتح السودان إلى ما سمعه عن شبابه من الإخلاص والطاعة وشدة البأس ، فتمنى لو أتاحت لجيشه كتيبه أو كتائب سودانية بدلا من فيه من الترك والأرمنوط والألبان . ومن أهم المغريات أن المماليك الذين اضطهدهم فى مصر وأوقع بهم فى مذبحه القلعة المشهورة فر كثيرون منهم إلى السودان وخشى أن يكوّنوا دولة هناك تحمل السلاح ضده ، فرأى أن يتعقبهم ويقضى عليهم قبل استفحال أمرهم . فأصدر قرارا إلى محمد بك لاطوغلى بتجهيز الحملة ، فجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرمنوط والألبان وعربان البوادي ، ورُحّل الجيش إلى حلفا وعين محمد على ابنه الثالث إسماعيل كامل قائدا له وعين معه مساعدين من كبار القواد . وسار الجيش فى أرض النوبة ، وطلب إلى قبائل الشايقية تسليم خيولهم وأسلحتهم فأبوا وقالوا إنهم يدفعون ضريبة أو إتاوة فقط ولكن لا يدفعون خيولهم وأسلحتهم التى نشأوا يحملونها . وصمم إسماعيل كامل على حربهم ، وعلى الرغم من بسالتهم لم يستطيعوا الصمود لرصاص المدافع ، فاستسلمت طائفة منهم وطائفة ولّت وجوهها

(١) انظر مخطوطة كاتب الشونة : تاريخ السلطنة السنارية وإدارة المصرية ، والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة ، وعصر محمد على لعبد الرحمن

الرافعى ، وتاريخ السودان القديم والحديث لنوم شقير ، ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى مدينة شندى وفيها سلموا له ، وطمأنهم وأخذ في استمالتهم حتى ارتضوا أن ينضموا إلى جيشه . وكان المماليك قد انسحبوا إلى شندى وأثر عدد منهم التسليم لإسماعيل كامل ، وفرت طائفة منهم إلى كردفان ومنها اتجهوا إلى ليبيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك خبر . وطائفة اتجهت شرقا نحو الحجاز ، وانقطعت أخبارها . وسلم له الشايقية وحكام دنقلة وبربر وشندى والجعليين . وواصل إسماعيل كامل زحفه حتى نزل في مقرأم درمان الحالية ، وفيها وفد عليه أمير العبدلاب وسلم له في أوائل رمضان سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م وهرب منه بعض الناس ولقيه آخرون أعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم ، وزحف إلى الجنوب ، وكان يهدى كل من لقيه من الحكام كسوة وسيفا ، ولقيه ملك الفونج فأمنه وكساه ودخل مدينة سنار في الثاني عشر من رمضان . وبدون ريب كانت دولة سنار دولة عظيمة أدت للإسلام والعروبة خدمات جليلة لمدة ثلاثة قرون ورثاها بعض الشعراء .

وكان إسماعيل كامل قائد الجيش وهو في دنقله قد أعد حملة بقيادة محمد بك الدفتردار لفتح كردفان ولم يقبل حاكمها التسليم ، والتقى بجيش الدفتردار عند مدينة الأبيض ولم تصنع شيئا السيوف والحراب إزاء الأسلحة النارية ، واستسلمت إمارة كردفان . واستقر إسماعيل كامل في سنار ، وأخذ يرسل بالسرايا وتأثيه بالغنائم والأسرى . وزار إبراهيم باشا أخاه إسماعيل كامل في سنار ليعده العدة معه لإرسال السودانيين إلى أبيه ، وعاد سريعا . وفرض إسماعيل كامل ضرائب فادحة على السودانيين فغضبوا غضبا شديدا فاضطر إلى تخفيضها . وأحس بوخامة مناخ سنار فنزل واد مدني وبنى بها ثكنات للجيش ومكاتب للحكومة ، وصمم إسماعيل - بعد غيابه عن القاهرة مدة سنتين - أن يعود إليها ، ومر في عودته بنمر ملك شندى والجعليين ، وطلب منه أن يقدم إليه من الأنعام والنقود ما يبلغ نحو عشرين ألف جنيه ، وهو مبلغ تقصر عنه موارده أو هو مبلغ باهظ ، فلما راجعه قسا عليه ، فصمم نمر على الانتقام وأمر بوضع قصب جاف حول خيمته وأشعله وإسماعيل كامل نائم ، فمات بالاختناق سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م . وأعقبت ذلك حملات انتقامية للدفتردار قتل فيها آلاف غير من أسروا . وعين محمد علي لإدارة السودان عثمان بك ونزل في مكان الخرطوم الآن واتبع سياسة التنكيل بالسودانيين وماذنبهم ؟ ولكنه كان قصير النظر مثل الدفتردار ، وتوفى سريعا . وعين محمد علي خورشيد أغا حاكما لإقليم سنار ، وكان عليه أن يرجع الثقة للحكومة وأن يعيد إلى السودان من فر إلى الحبشة ملتجئا ونجح في تحقيق الغايتين ، واتبع في سنار سياسة عمرانية رشيدة ، ورأى أن تبنى الزراعة في السودان على الري المستديم مثل مصر وطلب عمالا منها يجيدون صناعة السواقي وطلب عمالا آخرين لحفر الترع ، واستحضر من مصر أغراس بعض الأشجار المثمرة وشجع زراعة النيلة وقصب السكر ، وطلب كباشا من مصر لتحسين سلالة الضأن في السودان . ورقي خورشيد إلى رتبة الميرمران ومنح لقب باشا . وبعد اثني عشر عاما من حكمه

عاد إلى مصر وحزن السودانيون لعودته إذ عرفوا فيه الحاكم العادل الذي أتساهم سنين الدفتردار الدموية ويقول كاتب الشونة عن عودته : « تجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الأهالي جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع » . وخلفه أحمد باشا أبو ودان وكان عهده استمرارا لعهد خورشيد وفيه يقول كاتب الشونة : « ضبط الحكومة أشد ضبط من غير إهمال ولا تفريط ، وأبطل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين في تسخيرهم في الأشغال وتسخير بهائمهم .. وبذلك ارتاحت الأهالي وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضي ورخصت الأسعار حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه ، وإن كانت أيام سلفه أيضا حسنة في نفسها » . وتوفي أحمد باشا أبو ودان ، فرأى محمد علي تقسيم السودان إلى مديريات وترجع كل مديرية رأسا إلى مصر ، ويتعاون المديرون في المصالح المشتركة ، وطلب إلى الحكومة العثمانية أن تضم مينائي مصوع وسواكن إلى السودان وأجابته إلى طلبه . ومنذ ولاية ابنه إسماعيل كامل كانت ترسل له جماعات ممن يؤسرون من السودانيين في الجبال لضمها إلى الجيش . وتبين خطأ هذه السياسة إذ كان كثيرون منهم يموتون في الطريق أو في معسكرات مصر . وانتظمت الإدارة منذ ولاية خورشيد بما أخذ به هو ومن جاء بعده من سياسة عمرانية قوية وتحسين الري والزراعة وزيادة الإنتاج الحيواني وجلب العمال المهرة من مصر لصناعة السواقي وحفر الترغ .

وخلف عباس الأول بن طوسون جده محمد علي سنة ١٨٤٨ وفي عهده أنشئت القنصليات في الخرطوم ، ومع أنه أغلق في مصر بعض المدارس أمر بفتح مدرسة كبيرة في السودان وعين رفاة الطهطاوى ناظرا لها . غير أن سعيدا حين خلفه أغلق هذه المدرسة ، وفي عهده أبطلت تجارة الرقيق السوداني نهائيا وزار السودان وأمر بإصلاح الأداة الحكومية في جمع الضرائب وخففها ، ورأى أن تبقى كتائب الجند في السودان وأن لا تسلط على الناس وأن يقف جمعها للضرائب ، وأمر بتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السودانيين على إنشاء الحدائق في منازلهم .

#### (ب) عهد إسماعيل<sup>(١)</sup> ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م )

كان أول ما عمله إسماعيل تعيين موسى باشا حمدي حكامدارا للسودان وبذلك أعاد للحكم هناك نظام المركزية أيام خورشيد ، وأشرك العنصر السوداني في الحكم فعين الشيخ أحمد أبو سن كبير قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وظل في وظيفته إلى أن توفي بعد عشر سنوات وأظهر قدرة ممتازة برهنت على كفاءة السودانيين الإدارية ، وطالبه إسماعيل بمعاملة السكان بالعدل والعمل على ازدياد العمران في السودان وتوسيع نطاق تجارته ، وأنشئت في السودان

وتاريخ السودان القديم والحديث لنوم شقير .

(١) انظر في السودان لعهد إسماعيل كتاب السودان عبر القرون لمكي شيكة وعصر إسماعيل لعبد الرحمن الراجعي



زمن حكمدارية موسى حمدى خمس مدارس فى عواصم المديرىات : بربر والخرطوم والأبيض وكسلا ودنقلة . وقد أمدت هذه المدارس النظامية الإدارة السودانية بحاجتها من الكتاب والمحاسين وعمال التلغراف وأحدثت نهضة فى الثقافة والأدب بعد أن كان العلم مقصورا على نخلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . وأمر إسماعيل بالإتفاق على المساجد وكتايب القرآن وفرض رواتب شهرية لها . وعين إسماعيل جعفر مظهر حكمدارا للسودان وكان على معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية فكان يجتمع عنده العلماء والأدباء للحوار والمناقشة وشاع فى أيامه الشغف بالعلم والأدب ، وأخذ بعض الشعراء ينظمون قصائد كانت تنشر فى الوقائع المصرية ، وأمر إسماعيل بالتوسع فى نطاق السودان : فى دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء . وتطورت الظروف فى بحر الغزال وعين الزبير السودانى مديرا له ، وساءت العلاقات بينه وبين الزريقات فحاربهم وانتصر عليهم سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٤ م وفر مشايخهم إلى سلطان دارفور فنازله الزبير وقتل فى إحدى المعارك ، ودخل الزبير عاصمته : الفاشر سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٦ م وضمت دارفور إلى السودان ، وكان ذلك من الزبير عملا جليلا .

أما خط الأستواء فقد ارتبط مصيره بإنجليزين أحدهما مكتشف مهم هو صموئيل بيكر مكتشف بحيرة ألبرت الأستوائية ، والثانى ضابط إنجليزى هو غوردون ، وكان صموئيل بيكر زار مصر فى أوائل سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٩ م بمعية ولى عهد المملكة الإنجليزية ، فتعرف عليه إسماعيل واختاره للقيام بحملة على خط الأستواء وضمه لمصر ، وارتضى ذلك صموئيل بكير وحرر معه عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه . وهى إحدى غلطات إسماعيل الكبرى أن يعهد إلى إنجليزى بفتح منطقة خط الأستواء ظانا أنه سيخدم مضر ، وأسر صموئيل بيكر فى نفسه أن يخدم بلاده بجعل منطقة خط الأستواء مستعمرة بريطانية لو استطاع ، ووضع نصيب عينية تأليب السودانين على مصر والمصريين ، وأنفقت الحملة ثمانمائة ألف من الجنيهات ، ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مطنونا ، وكل ما جتته مصر من الحملة طوال أربع سنوات تأسيس ثلاث محطات هناك فى غندوكرو وفاتيكو وفويرا ورفع أعلام مصرية عليها . وانتهى عقد بيكر وعاد إلى بلاده ، وبدلا من أن يعهد إسماعيل إلى مصرى أو سودانى بإتمام الفتح قدم إليه وزيره نوبار ضابطا إنجليزيا تعرف عليه فى السفارة الإنجليزية بالآستانة هو غوردون الذى خدم دولته فى حروب القرم وفى الصين ، فارتضاه إسماعيل ليتمم ما بدأه صموئيل بيكر فى منطقة خط الأستواء ، فنجح هناك فى تأسيس مجموعة من المحطات العسكرية ، وكان سياسيا ماكرا فجذب قلوب الناس إليه ، واضطر للدخول فى مناقشات مع أوغندة والبلدان المجاورة ، وأحس بالإرهاق فعاد إلى مصر مصمما على عدم العودة إلى السودان ، غير أن إسماعيل أقنعه بإكمال مهمته ، فوعده برجوعه بعد زيارته لبلاده . وكانت مصر استولت على سواكن ومصوع ودخلت كل المنطقة الشرقية فى السودان ،

وفى سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٤ م وصل المصريون إلى حدود الحبشة فنشبت حرب بينهم وبين الحبشة وتوفى ملكها يوحنا بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا فى سنتى ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م و ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٦ م وبذلك اتسعت إمبراطورية إسماعيل من البحر المتوسط إلى منطقة البحيرات فى أعلى النيل : ألبرت وفيكتوريا ومن سواحل البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع إلى دارفور شرقى بحيرة تشاد ، وبسطت حمايتها على خليج عدن وبوغاز باب المندب وعلى أوغندة ووصلت حدودها إلى المحيط الهندى ورأس جرفوس عليه . واعترفت إنجلترا بسُلطان مصر على الصومال . ويعود غوردون ويلقى إسماعيل سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٧ م بحضور وزيره شريف باشا ويجيبه إسماعيل إلى ما طلبه من تعيينه حكامداراً عاماً على السودان وأعطاه سلطات لم تعط لحكامدار قبله وينزل السودان ويبدأ بتفقد الشرق ، وفى مصوع جاءه خبر بالتمرد والعصيان فى إقليم دارفور وظل يعالج الأمور هناك فترة طويلة ، وشك فى إخلاص السودانين وفكر فى الاستعانة بإنجليز وأروبيين وهى فكرة خاطئة . وجاءه خبر تنازل إسماعيل صديقه عن الحكم وان ابنه « توفيق » خلفه ، فصمم على اعتزال العمل فى السودان ، إذ لن يظل متمتعاً بما أتاح له إسماعيل من سلطات واسعة . ومن المؤكد أن الحكم المصرى للسودان الشقيق أتاح له تقدماً فى العمران وزيادة فى الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية وازدهارا فى التجارة مع تأسيس المدارس للتعليم المدنى ونشر المعارف العلمية الحديثة .

## ٥

### حركة المهدي - خليفته عبد الله التعايشي

#### ( أ ) حركة (١) المهدي

المهدي هو محمد بن عبد الله ولد سنة ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م لأب كان يعمل نجاراً فى بناء السفن بمنطقة دنقلة ، وهاجر فى النيل جنوباً ونزل فى مدينة شندى وتركها إلى قرية شمالى أم درمان ، وتوفى . واحترف إخوة محمد مهنة أبيهم ، أما هو فكان يميل بفطرته نحو الدين ودخل خلوة حفظ فيها القرآن الكريم ، وبعد حفظه له التحق بشيخ أو بشيوخ يتعلم على أيديهم الفقه والتوحيد والنحو ويتلقن التصوف . وكان إخوته بعد وفاة والدهم نزلوا الخرطوم ونزلها معهم ، ولزم شيخاً صوفياً من أتباع الطريقة السمائية وعنه تلقن تلك الطريقة ، وأخذ يميل إلى النسك والعزلة ، واعتزل سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض

عهد الاحتلال لعبد الرحمن الراجحي ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى تلك الحركة كتابى السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعم شقير ومصر والسودان فى أوائل



وانصرف في كهف بها على شاطئ النهر للنسك والعبادة ، واختلف مع شيخه الصوفي الشيخ محمد شريف إذ وجدته يحتفل في ختان أحد أبنائه بصور من اللهو لم يَسْتَسِفْهَا تصوفه ، وبحث عن شيخ آخر من أصحاب طريقته السمانية جدد عليه العهد . وكانت أسرته تذكر أنها من سلالة الرسول ﷺ فأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء سرا بأنه المهدي المنتظر الذي بشر به الرسول ، وأعلن لهم أن الله خصه بذلك لنصرة الإسلام وأن النصر سيلازمه ، وأخذ مريدوه من السودانيين يتكاثرون ويلتفون حوله ، ولما اتسعت دعوته أرسلت إليه الحكومة قوة إلى جزيرة أبا فاستطاع بمن معه من الدراويش أن يقهرها ورأى المهدي أن يخرج من تلك الجزيرة لأنها مكشوفة ولا تساعد على التحصن ضد القوة الكبيرة التي سترسلها الحكومة واتجه إلى منطقة تقلى في كردفان ونزل في جبل قدير واستقر به ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة لقتاله وقضى عليها ، وعقب هذه الهزيمة لقوات الحكومة طلب رءوف باشا حاكم السودان إمدادات عسكرية من مصر وكان العرايون يسيطرون على الوزارة ، فرأوا إرسال عبد القادر باشا حلمي ، وقبل وصوله تألف جيش بقيادة يوسف باشا الشلالى لمنازلة المهدي سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م في مستقره بجبل قدير ، وهزم هذا الجيش مثل الحملتين السابقتين له ، وأكسبه هذا النصر أنصارا كثيرين ، وثار كثيرون معه في الجزيرة ولكن الحكومة أجمدت ثوراتهم وأعاد إلى الجزيرة عبد القادر باشا حلمي الهدوء . وفي سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م هاجم مدينة الأبيض واستولى عليها واتخذها مقرا له ، وجاءه مريدون كثيرون من أنحاء السودان يريدون رؤية « ولي الله ».

وكان الإنجليز قد احتلوا مصر فأرسلت حكومة الاحتلال عشرة آلاف جندي بقيادة هكس باشا الإنجليزي وهاجمت المهدي في الأبيض وأيدت بإداة تامة ، وغنم الأنصار أتباع المهدي غنائم كثيرة ، وأخذت الوفود تفد من جميع أنحاء السودان لمبايعة المهدي وأخذ النساء في الأفراح وفي أعمالهن من احتطاب وغيره يتغنين بالمهدي ومناقيه ، واضطربت الحكومتان المصرية والإنجليزية ورأى الإنجليز جلاء المصريين عن الخرطوم . وفي ديسمبر سنة ١٨٨٣ للميلاد استسلم للمهدي الضابط النمساوي سلاتين باشا حاكم دارفور باسم الحكومة المصرية بعد أن ظل ينازل أتباعه سنة كاملة دون جدوى . وعادت إنجلترا للضغط على مصر بالجلاء عن السودان وأصر شريف باشا على الاحتفاظ بالسودان ، واستقال في أوائل يناير سنة ١٨٨٤ وخلفه نوبار باشا ، ورأت الحكومة في إنجلترا أن غوردون هو الذي يمكنه إنقاذ الموقف وإجلاء الجنود المصريين عن السودان ، فقبل المهمة ظانا أنه يتمتع بشخصية شعبية في السودان ونسى أنه أغضب كثيرين منهم لمكافحته تجارة الرقيق ، ولم يكن يتصور مدى الحماسة الدينية التي أشعلها المهدي في نفوس السودانيين ، ووصل الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤ وأرسل تورا إلى المهدي خطابا يعينه فيه ملكا على كردفان وأعلن فيه أنه يبيع تجارة الرقيق ، وأجابه

المهدى طالبا منه الاستسلام والدخول فى الإسلام بينما كان هو يفكر فى منح السودان استقلالاً ذاتياً تحت نفوذ الحكم الإنجليزى ، وبدأ أنه من غير الممكن الاتفاق بين الرجلين ، ونشبت مناوشات فى الشرق عطلت الطريق إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة جراهام لم يكتب لها النجاح ، وسقطت مدينة بربر فى أيدي الأنصار أو المهديين ، وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة ولسلى وتجمعت قوة مصرية إنجليزية فى أسوان وحلفا وأخذت طريقها فى النيل وهزمت بعض قوات المهدي فى المراكز الأمامية ، وأخذ المهدي يعدّ جيشه للاستيلاء على الخرطوم ، وشاعره الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته :

الحربُ صبرٌ واللقاءُ ثباتُ      والموتُ فى شأنِ الإله حياةُ

وتجمع أتباعه جنوبى طابية أم درمان فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٤ للميلاد ولم يسرع المهدي فى فتح الخرطوم ورأى حصارها حتى تستسلم حقنا للدماء . وبلغ المهدي أن الحملة المصرية الإنجليزية وصلت المتمة فأمر بالهجوم على الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير قبل وصولها ، ودخلها الأنصار من ثغرة فى طرف الاستحكامات على النيل الأبيض وفتكوا بالحامية ، وقتل غوردون فى قصره . ودان للمهدى السودان بجميع أرجائه ، وانتقل بمعسكره إلى أم درمان وأذعنت له دنقلة وأخذت الحاميات المصرية تستسلم وأعلن الإنجليز إخلاء السودان من جنودهم . وما وافى اليوم الرابع من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ / الخامس عشر من يونية سنة ١٨٨٥ م حتى أصابت المهدي حمى التيفوس ولم تمهله إذ توفى بعد أسبوع . وأثرت له تعاليم من شأنها أن تجعل لدعوته أسسا واضحة ستحدث عنها فى الفصل المقبل وأثرت عنه بعض مواظم مثل قوله : « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتذلل والابتهاال والانكسار وانسكاب الدموع إن استطعتم مع توجه القلب إلى الله وقول لا عيش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقائك » .

(ب) عبد الله التعايشى<sup>(١)</sup> خليفة المهدي

استخلف المهدي - وهو يحتضر - عبد الله التعايشى يده المنى فى دعوته ، ونقل عاصمته إلى أم درمان : قلعة الخرطوم على الضفة اليسرى ، وكان قد هاجر إلى المهدي مبكرا وهو لا يزال فى جزيرة أبا وبيعه ، وأخذ المهدي يعتمد عليه فى الإدارة والتنفيذ ، فطبعى أن يعهد إليه بخلافته ، وكان عماده على أهل الغرب وخاصة على قبيلته البقارة الذين نقلهم إلى أم درمان ، ومنهم ومن الجعليين نظم قوته العسكرية . وجعل فى أول الأمر شئون الحكم والإدارة فى أيدي أسرة المهدي وسُموا الأشراف ، وندب التعايشى ستة عشر قاضيا للحكم بين الناس

وتاريخ السودان القديم والحديث لنوم شقير ومصر  
والسودان فى أرائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى .

(١) انظر فى التعايشى وخلافته للمهدى كتاب السودان  
عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة

بموجب الكتاب والسنة ، وقسم السودان إلى عمالات أو أقاليم ، وجعل على كل عمالة أو إقليم حاكماً ، يسيطر على الجيش والإدارة ومنع كل حاكم عدد من الموظفين يساعده في أعماله الإدارية ، واستحالت العاصمة أم درمان من معسكر إلى مدينة كبيرة .

وكانت مصر قد استردت حاميته من ميناء مصوع فاحتلها الإيطاليون واحتلوا أيضا إريتريا سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م وأسرع التعايشي وعين على مدينة القلابات عاملاً ناوش الأحباش وقتل في إحدى المعارك ، ويرسل إليها قائده أبا عنجة على رأس جيش كبير يتألف من نحو ستين ألف جندي لقتال الحبشة ، ولقيه جيش حبشي بقيادة الرأس عدار ومضى الأحباش بهزيمة قاصمة ، وتقدم المهديون إلى قندر ( غوندار ) عاصمة الحبشة حينذاك وأحرقوها . ومنذ سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م أصبح بحر الغزال دون حاكم يشرف على شئونه ، وبالمثل مديرية خط الاستواء وكانت سقطت في أيدي أتباع المهدي سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٨ م وضمها الإنجليز إلى مستعمرتهم أوغنده . وصمم يوحنا إمبرطور الحبشة سنة ١٨٨٩ للميلاد على أن يغسل عن جيشه عار هزيمة سنة ١٨٨٦ فحشد جيشه جميعه وتقدم به إلى القلابات لحرب المهديين أو الأنصار ، والتقوا به ودارت الدوائر على جيشه وجرح في المعركة جرحاً مميتاً وانسحب جيشه ووراءه الأنصار يقتلون ويأسرون ويستولون على غنائم لا تحصى من العبيد والجواري والأسلحة والخيول وتاج الإمبراطور نفسه ، وهو نصر رفع الروح الحربية والمعنوية في الأنصار إلى الذروة .

وصمم التعايشي على غزو مصر وإنقاذها من الاحتلال الإنجليزي وأعد ذلك في نفس السنة جيشاً بقيادة عبد الرحمن النجومي ، وهو من الجعليين ، وسار إلى الشمال متجهاً إلى أسوان ومصر ولكن حامية وادي حلفا أنزلت بجيشه خسائر فادحة ، وزادتها فداحة وجسامة معركة توشكي بعدها بحيث قضى على الجيش السوداني قضاء نهائياً . وفي السنة نفسها انتشرت في السودان مجاعة كبيرة ، وكان التعايشي محاطاً بالأعداء من كل جانب فلم يستطع تموين البلاد من الخارج . وفي سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٩٠ م أخضع التعايشي قبائل الشلوك أشجع القبائل السودانية الزنجية في الجنوب ودخلت عاصمتها فاشودة في طاعته ، وكان ذلك تعويضاً له عن خسائره في الشمال وفي المجاعة . واستطاعت قوة مصرية في سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م أن تهزم عثمان دقنة قائد التعايشي بالقرب من مدينة طوكر جنوبي سواكن واستردتها . وفي سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٤ م استولى الإيطاليون على مدينة كسلا السودانية بالقرب من حدود إريتريا . ونشبت حرب بين إيطاليا مالكة مصوع وكسلا وبين الحبشة في عهد إمبراطورها الجديد منليك سنة ١٨٩٥ للميلاد وأنزل الأحباش بالإيطاليين هزيمة ساحقة في غرة مارس سنة ١٨٩٦ عند مدينة عدوة ، وبذلك قضى على ما كان يتهدد أتباع التعايشي من خطر الطليان . غير أن خطراً أعظم أخذ يبدو في الأفق ، فقد رؤى إنشاء خط حديدي من وادي حلفا إلى مدينة أبي حمد بين الشلالين الرابع والخامس يمكن استغلاله في نقل الجيوش سنة



١٣١٣ هـ / ١٨٩٦ م وصدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى أو بعبارة أخرى قائده العام كتشنر لإعداد جيش لفتح السودان ، ومرّ الجيش بوادى حلفا ، واسترجع مديرية دنقلة . واستراح الجيش ثم وصل إلى أبى حمد فى أغسطس سنة ١٨٩٧ للميلاد ، وفى هذه السنة استولى الجيش المصرى على كسلا ورفع هناك العلم المصرى ، وتقدم كتشنر بالجيش وانتصر فى معركة عند عطبرة فى أبريل سنة ١٨٩٨ للميلاد ، ومضى فى زحفه حتى أم درمان ونشبت معركة حامية الوطيس فى شهر سبتمبر دارت فيها الدوائر على الأنصار . واتجه التعايشى إلى الغرب يريد أن يحتّمى به ، وظل أشهراً يعدّ العدة للقاء كتشنر ثانية ورفع كتشنر العلمين المصرى والإنجليزى على سراى الحكم فى الخرطوم ودارت موقعة بين التعايشى وبين بعض متعقبه من جند كتشنر فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى . وموته دانت البلاد للجيش الفاتح .

## ٦

### الحكم<sup>(١)</sup> الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان

رأينا كتشنر بمجرد دخوله الخرطوم يرفع على سراى الحكم العلمين المصرى والإنجليزى ، وكان كرومر المندوب السامى البريطانى قد استطاع أن يقنع نوبار باشا فى يناير سنة ١٨٩٩ للميلاد بتوقيعه على وثيقة الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى للسودان ، وعينت الوثيقة خط العرض ٢٢ شمالا حدا فاصلا بين مصر والسودان ، وأن يرفع العلمان المصرى والإنجليزى على جميع دور الحكومة وأن تكون الإدارتان العسكرية والمدنية بيد موظف ترشحه الحكومة البريطانية ويعينه خديوى مصر ، ويلقب بحاكم عموم السودان ولمنشوراته حكم القانون ولا يسمح لتمثيل قنصلى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء فى السودان . وواضح أن الحاكم العام يكون إنجليزيا وترشحه الحكومة الإنجليزية ، ومُنح سلطات كبيرة تجعله حاكما مستقلا . ورأى كرومر أن تكون مناصب المديرين والمفتشين للإنجليز ، أما المصريون فلهم إدارة المراكز والمأموريات . وربما كانت الحسنة الوحيدة فى هذه الاتفاقية أن السودان أعفى من الامتيازات الأجنبية . وعيّن كتشنر أول حاكم عام للسودان وقد جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء مدرسة ثانوية تسمى كلية ذكرى غوردون ، وبلغت التبرعات مائة ألف جنيه . وافتتحت المدرسة سنة ١٩٠٣ وأنشئت فيها أقسام متخصصة : قسم للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة ، وقسم للمهندسين وقسم للمعلمين ، وظلت مصر تعين السودان ماليا حتى سنة ١٩٥٤ ووُضعت نظم للشئون المالية والشئون الإدارية والتعليم

والسودان أوائل عهد الاحتلال للراقى ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة وتاريخ السودان القديم الحديث لنوم شقير وراجع فى استعادة السودان واتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ كتاب مصر

والقضاء والمصالح الحكومية . وترك كمشتر السودان فى ديسمبر سنة ١٨٩٩ وخلفه وينجت حاكما عاما للسودان حتى سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م ، وأنشئ - حسب الاتفاقية الثنائية - مجلس سنة ١٩١٠ باسم مجلس الحاكم العام . وعنى الحكم الثنائى بالمواصلات والبرق ( التلغراف ) ومُدَّت سكة حديد من وادى حلفا إلى الخرطوم وأضيف خط إلى سنار والأبيض وخط من عطبرة إلى سواكن على البحر الأحمر وأنشئ خط ملاحه نهزى من الخرطوم إلى بحر الغزال ، ووضعت مشروعات رى كثيرة بعد الدراسة ، منها مشروع الجزيرة المشهور وجُرِّيت زراعة القطن ونجحت نجاحا كبيرا ، وأسست مدارس أولية فى المدن الكبرى ، وأنشئت ورش صناعية ، وكان يقوم بالتعليم فى هذه المدارس معلمون مصريون أكفاء ، وأنشئت مدارس لتخريج المعلمين .

وقامت بعض ثورات محلية فى الحرب العظمى وسرعان ما كانت تخدم ، وبالمثل ما حدث من بعض الثورات فى جبال النوبة . وتضطرب العلاقة بين على دينار سلطان دارفور والحكومة ويحمل السلاح ضد الحكومة ويتوفى برصاصه طائشة سنة ١٩١٦ وتضم دارفور إلى السودان نهائيا ويصبح تاريخها جزءا من تاريخ السودان . ومع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نشط الوعى القومى فى السودان للمطالبة بحقوقه ثم كان مقتل السير لى ستاك حاكم السودان وسردار الجيش المصرى سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م وخرج الجيش المصرى - بضغط الإنجليز - من السودان فاندلعت هناك ثورة وطنية ضخمة تعد - بحق - بدء العصر الحديث فى السودان الشقيق .

## الفصل الثاني

### المجتمع السوداني - الثقافة

١

#### المجتمع<sup>(١)</sup> السوداني

رأينا في الفصل الماضي كيف أن الإسلام أخذ ينتشر في السودان وشرقيه تدريجا بفضل القبائل العربية الكثيرة التي نزلت في حوض النيل جنوبي حلفا وفي شرقيه بقبائل البجة واستغرق ذلك قرونا دخل فيها أهل النوبة في الدين الحنيف وقامت في دنقلة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م أول دولة إسلامية وأخذت صلة مملكة علوة جنوبي دنقلة بالكنيسة يعقوبية في الإسكندرية تتضاءل وأخذ أهلها يعتنقون الإسلام ، وكان انتشاره في غربي السودان أسرع بفضل كثرة من نزله من قبيلة زوارة البربرية وعرب الشاوية رعاة الشاة وأيضا بفضل تجار البرنو والكانم ، وتكونت سريعا في دارفور وواداي مملكة إسلامية أواخر القرن الخامس الهجري .

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجا في مملكة علوة وفي جبال النوبة وعلى شاطئ النيل الأبيض وفي جنوبي السوباط وبحر الغزال ، ولا نصل إلى القرن العاشر الهجري ، حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا وإن ظلت به بعض الجيوب المسيحية والوثنية ، وتأسس سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م دولة الفونج الإسلامية في مدينة سنار على النيل الأزرق وتنشر سلطانها على النيل الأبيض وعلى الجزيرة بينه وبين النيل الأزرق وعلى مملكة تغلي في جبال النوبة .

#### ( أ ) نزعة صوفية عامة

عملت دولة الفونج على نهضة دينية واسعة ، وفسحت للتصوف وطرقه في الانتشار بأنحاءها وكان أول من حاول نشره في ديارها الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي وكان قد تعرف عليه بعض حجاج السودان في أثناء حجه ، وأقنعه بالذهاب معه إلى سنار ونشر طريقته الصوفية بها ، وكان من أتباع الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلاني الحسيني نسبا المتوفى ببغداد

محمد فوزي مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعم شقير والترية في السودان لعبد العزيز عبد المجيد والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة ومنشورات المهدي .

(١) انظر في المجتمع السوداني كتاب الطبقات لود ضيف الله وتاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين وكتاب الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر للدكتور

سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م وله كتابان مطبوعان هما سر الأسرار والغنية لطالبي الحق ، وطريقته إحدى طريقتين صوفيتين سنيتين والثانية الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م أشاعتها بغداد في العالم العربي ، ويقول ابن تغرى بردى عن الجيلاني إنه « أحد المشايخ الذين طن ذكرهم في الشرق والغرب » .

ونزل الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي مدينة سنار حوالى سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م وأخذ يدعو للطريقة الجيلانية ، وحظيت دعوته بنجاح كبير فى دولة الفونج وبخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها سبع سنوات ، وجاءه السودانيون من كل مكان لينظمهم فى سلك الطريقة القادرية ، وأخذ العهد على كثيرين من أهمهم محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادق فى إقليم سوكنى بين واد مدنى والقضارف والشيخ عجيب الماتجلك جد العبدلأب وعبد الله دفع الله العركى جد العركين وبن النقا الضيرير جد اليعقوباب ويقال إن الشيخ البهاري قلده شعار الرياسة بعده فى دولة الفونج . وهؤلاء الأربعة سيطروا على السلطة الروحية وورثوها أبناءهم ، وارتحل الشيخ البهاري إلى تولى وأدخل فى الطريقة عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعته . وتفرعت عن هذه الطريقة فى أواخر دولة الفونج الطريقة السمائية على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م . وكل هؤلاء وذرياتهم ظلوا قائمين على الطريقة القادرية ناشرين لها ومسيطرين على السلطة الروحية فى السودان إلى اليوم .

وبجانب الطريقة القادرية الصوفية عرف السودان فى دولة الفونج الطريقة الشاذلية الصوفية ويبدو أن معرفته بهذه الطريقة تسبق زمنيا قيام دولة الفونج . فقد نزل أحد أتباعها المغاربة - وهو حمد أبو دنانة زوج بنت الشيخ محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات وداعية الطريقة الشاذلية فى المغرب منذ سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م . ومعروف أن أبا الحسن الشاذلى مؤسس هذه الطريقة نزل مصر ودعا إلى طريقته وتبعه خلق كثير ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وظلت طريقته إحدى الطرق الصوفية السنوية الأساسية فى مصر . ومن أهم دعائها فى السودان أيام الفونج الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى سنة ١١١٥ هـ / ١٧٤٣ م واشتهر بعده بالدعوة لها الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م وكان قد زار مصر والحجاز وأسس للشاذلية فرعا فى مدينة الدامر شمالى الخرطوم وسميت طريقته باسم طريقة المجاذيب ، ومعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب والشعور الباطنى الصوفى ، وهاجم الشاذلى بشدة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُّحَل . وبجانب هاتين الطريقتين كان بعض السودانين يأخذون طريقتهم الصوفية عن حجازيين فى أثناء حجهم أو عن مصريين فى أثناء دراستهم بالأزهر وأحيانا عن بعض أهل تمبكتو كما حدث للشيخ خوجلى عبد الرحمن الشاذلى المذكور



أنفا ، وقد جمع بين التصوف وعلم الكلام والفقہ ، أما التصوف فأخذه عن الشيخ أحمد التمبكتاوى نسبة إلى تمبكتو على النيجر الأوسط ، وأخذ علم الكلام عن الشيخ أرباب الخشن ، والفقہ على الشيخ الزين بن صغيرون . وكان يلبث الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه الطربوش الأحمر ، ويتعمم بالشيخان الفاخرة ، ويتبخر بالعود الهندي ويتعطر ، ويجعل الزباد الحبشى فى لحيته وثيابه ، ويقول إنه يقتدى فى ذلك بشيخ طريقته أبى الحسن الشاذلى إظهارا لنعمة الله ، فقيل له إن القادرية : إنما يلبسون الجيب والمرقعات فقال : ثيابى تقول للخلق : أنا غنية عنكم ، وثيابهم تقول لهم أنا مفتقرة إليكم .

وعمت فى زمن دولة الفونج ( ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م - ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م ) النزعة الصوفية كل أنحاء السودان ، وبحق ما لاحظته الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : « التربية فى السودان » من أن هذه النزعة كانت تعم حينئذ الحياة الدينية فى العالم الإسلامى وإنها « سيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار من العلماء من يعتقد أن علم الظاهر لا بد له من علم الباطن بل إن منهم من اعتبر أن علم الباطن هو العلم الحقيقى » ومما يدل على ذلك بوضوح ما يذكره ود ضيف الله عن الشيخ عبد الله العركى فإنه بعد أن تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر ذهب إلى غابة الهلالية وشرع فى التدريس وذاع صيته ، وقدم فى أيامه الشيخ تاج الدين البهارى فحاول أن يدخله فى طريقته القادرية الصوفية ، فامتنع ، وحين رأى ما لأتباع الشيخ من مكانة تحركت فى نفسه الرغبة فى أن ينضم إلى الطريقة القادرية ، وكان الشيخ البهارى رحل إلى مكة فسافر إليه وأخذ عنه الطريق . ومن ذلك أن نجد الشيخ المسلمى الصغير بعد أن قرأ مختصر خليل فى الفقہ المالكى وتفقه فى الدين رأى أن معرفته لا تتكامل إلا إذا دخل فى طريقة صوفية فذهب إلى الشيخ دفع الله العركى وقال له : « علمى ما نفعنى ، أتيتكم راغبا مددكم ، فسلكه فى الطريق وأدخله خلوة سبعة أيام ، وخرج منها « صوفيا » كاملا . ويذكر ود ضيف الله أيضا عن الشيخ أبى القاسم الوديانابى أنه تفقه على الشيخ صغيرون ، وسلك طريق الصوفية على الشيخ إدريس . ومن ذلك ما يقوله ود ضيف الله عن الشيخ محمد البنوفرى من أنه رحل إلى مصر ليقرا على علمائها مختصر خليل ، وبعد عودته إلى السودان صحب فى التصوف الشيخ إدريس ود الأرباب . ويكثر ود ضيف الله فى طبقاته من قوله عن هذا الصوفى أو ذاك إنه جمع بين الفقہ والتصوف .

ومما رفع من شأن الطرق الصوفية وأصحابها فى نظر أهل السودان وجعلهم يلتفون حولهم التفافا لم ينله أحد من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية أنهم رأوهم لا يعملون حسابا لذوى السلطان ، إذ كانوا لا يأخذون رواتب منهم ، كما رأوهم يتفانون فى خدمة أتباعهم وخاصة فى أيام الضيق والعسر الشديد . ويعرض علينا ود ضيف الله فى كتابه الطبقات صورا متعددة



توضح مدى ما كان ينهض به الشيخ الصوفى لأتباعه حين تحدث مجاعة كمجاعة نجيع أم لحم سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م فإن شيوخ الصوفية فتحوا حينئذ لأتباعهم خلواتهم وقدموا لهم فيها الطعام ، وكان بعضهم يظل يقدم هذا الطعام حتى فى سنوات الخصب مثل الشيخ ود حسونه ، ويقول عنه ود ضيف الله ، إنه كان يعنى بالفقراء ( أتباع المتصوفة ) فى الخلوات فيذبح لكل خلوة من خلواته شاتين فى كل يوم ، وكان عدد خلواته إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة .

ورأى أهل السودان أن هؤلاء الشيوخ لا يهابون ذوى السلطان ، وإذا كان لأحد منهم شيئا عند حاكم طلب إلى شيخه الصوفى أن يقضيه له ويلبى طلبه وسرعان ما يقضيه له الحاكم ، ومن ذلك أن الشيخ حمد المجذوب صاحب الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر اشتهر بأنه كثير الشفاعة لأتباعه عند الملوك والسلاطين وكانوا لا يردون له شفاعة . وكان كثير من الحكام يهابون هؤلاء الشيوخ هيبة شديدة ، وبلغ الشيخ خوجلى من الهيبة فى نفوسهم مبلغا كبيرا ، حتى قيل إن أكابر العلماء والسلاطين إذا جلسوا بمحضرتة كانوا كالأطفال من هيئته ، لذلك كانوا لا يعصون له ولأمثاله طلبا . ويذكر ود ضيف الله عن الشيخ إدريس أنه دخل سنار مقر الملك للشفاعة فى مصالح أتباعه إحدى وسبعين مرة . ويقول ود ضيف الله عن الشيخ بدرين سليمان العوضى إن قبائل العرب فى مدينة بربر وغيرها كانت لا ترد له شفاعة وكان له كرم وضيافة للوافدين .

وهذا وجه مهم من وجوه تعلق أهل السودان بالمتصوفة ، إذ كانوا يدافعون عن حقوقهم ويردون الظلم عنهم ويشفعون لهم ويغيثونهم كلما ألت بهم كارثة ويفتحون خلواتهم لإيواء الضعفاء منهم وإطعامهم . لذلك تعلق أهل السودان بهم وأخذوا يدخلون أفواجا فى دعوة كل شيخ وطريقته وانتهاج ما تأمر به فى العبادة والتقوى . وكان يغلب أن يختار الشيخ قرية يجعلها مركزا لدعوته ويبنى فيها مسجدا وخلواته ، وما يلبث أن يلتف به كثير من الأتباع ، ويأتيه الناس من القرى المجاورة ، كما حدث فى قرية العيلفون جنوبى الخرطوم فقد أسس بها الشيخ إدريس ود الأرباب مركز دعوته الصوفية ، وتوافد عليه الناس من كل فج سوادنى ، وأصبحت بعد قليل بلدة كبيرة متسعة الرقعة أهلة بالسكان ممن جاءوا يأخذون عنه الطريقة القادرية . ومن ذلك ما حدث لقرية الدامر حين اتخذها الشيخ حمد المجذوب مركزا لدعوته الشاذلية ، فقد وفد إليه الناس من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان ، ليأخذوا عنه تعاليم طريقته . وكثيرا ما يتوقف ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ليقول لنا إن هذا الشيخ أو ذلك شُدَّت إليه الرجال وضُربت إليه آباط الإبل . ويذكرون عن حلقة الشيخ أرباب الخشن أنها كانت تشتمل على ألف طالب من الفونج إلى البرنو غربا . وأسهم بعض المشايخ فى توسيع دائرة جماعاتهم الصوفية مثل الشيخ عبد الله الحلنقى إذ يذكر ود ضيف الله عنه أنه كان ينتقل بين « أبو حراز »

وإقليم التاكا في شرقي السودان ، وحظي عند العرب والفونج . وكان الشيخ ابو سرور الفضلي يتخذ مركز دعوته في الحلفاية شمالي الخرطوم مدرسا العقائد في خلواته ، ثم ينتقل إلى دارفور في أقصى الغرب ويدرس فيها لطلابه أو مريديه ثم لا يلبث أن يهاجر إلى دار صليح .

ويذكرون عن الشيخ العبيد أنه كان يتخذ قريتين مركزاً لدعوته ، وفيهما بنى مسجدين وخلواتهما وهما : النخيرة وأم ضبان ، وكان يقيم في الأولى فصلى الخريف والشتاء ثم ينتقل إلى أم ضبان وظل على هذه الحال إحدى وعشرين سنة . وكان للشيخ عبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد في دار الشايقية ومسجد في كورتى ومسجد في الدفار ، وكان يقرئ في كل مسجد أربعة شهور . وقد يرحل الشيخ بأهله وبعض مريديه من موطنه إلى موطن آخر لبث دعوته الصوفية فيه ، كما صنع الشيخ محمد بن دفع الله في رحيله بأهله من أبيض ديري شمالي الخرطوم إلى غابة رفاعة في وسط إقليم الجزيرة ، وأقام بين عرب رفاعة سبع عشرة سنة .

#### (ب) المرأة ومكانتها في التصوف

لم نعرض - حتى الآن - للمرأة السودانية وصلتها بالتصوف ، وكان لها غير قليل من المكانة الروحية والاجتماعية في عهد الفونج ، ويذكر ود ضيف الله أن فاطمة بنت سالم كانت واسعة الثراء وكان عبيدها تجار الهند والريف . وكان النساء في غربي السودان يشاركن الرجال في جميع أحوالهم ماعدا الحروب ، وبالمثل في قبيلة الرباطاب إذ كانت المرأة فيها تنوب عن الرجل في التعزية ، وكان لها نفوذ واضح في حفلات تنصيب الملوك بغربي السودان . ويدل بصفة عامة على ما كان للمرأة من سيادة في الأسرة استمرار انتظام الانتساب إليها فابنتها ينتسب إلى خاله يقول المقریزی عن البجة شرقي السودان إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، وكان يفضل في النوبة ابن الأخت على الابن في وراثة الملك ، وتأثر بهم في ذلك عرب جهينة حين اختلطوا بهم ، وكان ذلك شائعا في بعض جهات دارفور وكردفان ، وهو بقية في السودان من طور سيادة المرأة في الأسرة إذ كان الرجل في بدء الحياة الإنسانية معرضا للخطر لقيامه بصيد الحيوانات الوحشية وبالحرث وكانت هي المسئولة عن الأولاد ، وقد أبطل الإسلام نظام الأمومة ودعا إلى الأخذ بنظام الأبوة في الانتساب والميراث قائلا : ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

ولعل في ذلك كله ما يدل على ما كانت تحظى به المرأة في عهد الفونج من مكانة اجتماعية ، ولذلك كان طبيعيا أن تحضر دروس العلماء وحلقات الشيوخ ، ويدل على عنايتها بذلك عناية كبيرة ما ذكره ود ضيف الله عن حلقة الشيخ حمد ود أمريم من أن النساء اللائي كن يحضرنها وأخذ عليهن العهد وأصبحن من أتباعه كن أكثر من الرجال أضعافا مضاعفة ، وأكثرهن من

فزاره ، وهى قبائل كثيرة كانت تنتمى إلى جهينة . ويكفى هذا الخبر للدلالة على أن المرأة السودانية شاركت بقوة فى انتشار التصوف فى البلاد ، وكانت تحضر حلقات الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقوم امرأة - كما يقول ود ضيف الله - فتنشد والرجال يذكرون الله على إنشادها وصوتها ، والنساء من خلفها وقوف يستمعن إليها وينظرن إلى أزواجهن وأقاربهن ، وقد ينشد رجل والنساء يسمعن إليه مثل الرجال .

### (ج) التصوف والتربية الخلقية والدينية

كان لكل طريقة صوفية « ورد » يقرؤه أتباعها صباحا ولها مجالس ذكر يجتمع له أتباعها على الأقل ليلة كل أسبوع . ويذكر الرجال الله فى صفين متقابلين ومنشد أو منشدة ينشدان أشعارا تزيد الذكر حماسة . وكان الشيخ يأخذ على من يريدون الانتماء إلى طريقته عهدا على أن يقوموا بأداء فرائض الإسلام ونوافله وعبادة الله والتمسك بتعاليم كتابه وسنة رسوله ومراقبته فى السر والعلن ومجاهدة النفس ودفعها إلى الفضيلة والعمل على كل خير . وبذلك كان التصوف نوعا من التربية الخلقية المثلى فضلا عن التربية الدينية . وكان بعض الشيوخ حين يأخذ العهد على التابع أو المريد الجديد يفصل له المنهج الذى ينبغى أن يتقيد به ولا يعدل عن أى واجب فيه ، ويعرض ود ضيف الله تفصيلا لمنهج العهد الذى كان يلزم به حمد ود أمريم أتباعه ومريديه يقول :

« كان يأمر كل من أتاه وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها ، وهى الندم على ما فات من تضييع فرائض الله من مثل الصلاة والصيام والزكاة وغيرها مع الإخلاص لله تعالى فيما يفعل وترك الرياء والزنا والكبر والحسد والغيبة والنميمة والعُجب ، ولا يسعى بقدميه فيما لا يحل له ، ولا يسمع بسمعه ما لا يحل له ، وينهاه عن مخالطة الخلق المعتصين وأكل طعامهم وأكل طعام المستغرقين للذم . ويقول إن ذلك هو السنة التى سنها رسول الله ﷺ . وكان يأمر كل من تاب على يديه أن لا يزوج ابنته - أو من تعهد له بزواجها - من فاسق أو آثم كالحلاف البصر .. وكان إذا جاءه أحد لتلاوة القرآن يقول له لا تجوز لك قراءته وأنت جاهل بالفرائض وما فرضه الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة . وكان يأمر كل من تاب على يديه وعنده مال مغصوب أن يتصدق به ، ويأمره بالصيام حتى يذهب اللحم الذى ربي بالحرام ، ويأمر تارك الصلاة والصيام بقضاء جميع ما فاتهما . ويأمر تابعه بمواصلة ذوى الأرحام وأن لا يتكلف للأضياف بل يقدم لهم ما فضل من نفقته ونفقة عياله . وعلى مريده أن يصلى الأوقات الخمسة معه ويشترط ذلك على خدمه وعبيده ونسائه . وكان جيرانه شكر الله وعبد الكافى والفقير محمد ولد كوريب من شدة متابعتهم له إن قال لهم : انقلوا الجبل فإنهم ينقلونه . »



وإنما ذكرنا هذا العهد كاملاً لندل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية دينية وخلقية قويمية . وحقاً لم تكن كل العهود تشدد هذا التشدد ولكنها على كل حال كانت تلزم مرديها بسلوك ديني قويم فضلاً عن الأوراد والأذكار كما كانت تلزمهم بسلوك خلقى واجتماعى سديد فى العلاقات والمعاملات . وتسريت على السنة بعض شيوخ التصوف بعض ما كان يردده متصوفة بعض البلدان الإسلامية من مثل القطب والأوتاد والنجباء والنقباء ، وأيضاً عن الولاية وكرامات الأولياء من المتصوفة ، ويحكى ود ضيف الله عن الشيخ إدريس ود الأرباب أنه قال : « درجات الأولياء ثلاثة : كبرى ووسطى وصغرى ، فالصغرى أن يطيروا فى الهواء ويمشوا على وجه الماء وينطقوا بالمغيبات ، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشئ كن فيكون والكبرى درجة القطبانية » . وهى شعوذة ، وقد تكون قولاً نسب إلى الشيخ ولم يقله . ويردد ود ضيف الله فى حديثه عن الصوفية ذكر الملامتية ، وهى فرقة صوفية خراسانية كانت تستتر - فى زعمها - بفعل أشياء تغض من تصوفها وتجعل الناس يتلومونها وينكرون عليها ادعاء التصوف » . وهى فرقة ضالة ، ومن رحمة الله بأهل السودان أنه لم يظهر بينهم من اعتنق مبادئ هذه الفرقة سوى محمد المميم الذى زاد فى زواجه بالنساء على المقدار الشرعى المسموح به وهو أربع وليس ذلك فحسب فإنه جمع بين الأختين » وهو لا يعد بذلك من الملامتية إنما يعد خارجاً على الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه . وربما كان ما ذكر عن إسماعيل صاحب الربابة من أنه كان من الملامتية صحيحاً . على كل حال لم تشع مبادئ هذه الفرقة فى التصوف السودانى وظل تصوفاً سنياً منحرفاً عن شعوذات المتصوفين المتأخرين ، وظل يغذى أهل السودان بتربية دينية وخلقية واجتماعية قويمية .

#### ( د ) طرق صوفية جديدة

تأخذ دولة الفونج فى الضعف منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادى ويرى محمد على خديو مصر الاستيلاء على السودان ويرسل إليه حملة سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م ويستولى عليه كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ويحول الجند قرية الخرطوم إلى مدينة كبيرة وتصبح عاصمة السودان فى العهد العلوى وعرف محمد على مدى ما للطرق الصوفية من سيطرة على الشعب السودانى وحياته ، فشجع الطرق الصوفية بمصر على نزول بعض دعائها فى السودان ، من ذلك تشجيعه أصحاب الطريقة السعدية ، وهى من فروع الطريقة الرفاعية البغدادية الناشئة فى القرن السادس الهجرى كما مر بنا ، وشجع أصحاب الطريقة الرحمانية أو البدوية المنسوبة إلى أحمد البدوى وأصحاب الطريقة البرهانية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقى . واشتهرت بمكة حينئذ طريقة أحمد بن إدريس الفاسى المتوفى سنة ١٨٣٥ وأرسل إلى السودان قبل وفاته أحد أتباعه المسمى محمد عثمان الأميرغنى ، وأخذ ينشر طريقة شيخه فى السودان الشمالى من وادى حلفا

إلى دنقلة ، وتم له ذلك فرأى أن يذهب إلى كردفان ونجحت دعوته هناك . وشاعت في السودان الطريقة السمائية . ويبدو أن دعاة صوفيين مختلفين نزلوا في السودان أثناء القرن التاسع عشر للدعوة إلى طرقهم ، كما يقال إن الطريقة التيجانية دخلت مدينة بربر في السودان على يد داعيتها محمد المختار .

ومن المؤكد أن هذه الطرق الصوفية وما تكون حول كل طريقة وشيخها من جماعات اتسعت لكثير من القبائل عملت على إضعاف العصبية القبلية وأحلت محلها روابط الطرق الروحية الصوفية التي ربطت بقوة بين أفراد الشعب السوداني من عرب وغير عرب ، ونشرت الإسلام فيما بقي من جيوب وثنية بالسودان في جبال النوبة ، وبدون ريب سادت روح الإخاء والمودة بين أبناء الطريقة الصوفية . وكانت هناك قرى تنسب إلى شيخ واحد كقرية العيلفون التي كانت تنسب إلى إدريس ود الأرياب ، وقد نزلها وسكنها لعهد سودانيون لا يحصون من الشرق والغرب ووادى النيل بل نجد مدينة تدين بطريقة الشاذلية الصوفية هي مدينة الدامر التي دعا فيها الشيخ حمد المجذوب إليها وجاءه مريدوه من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان وأصبح سكان المدينة يتألفون من هؤلاء المردين . ومعنى ذلك أن قيام الطرق الصوفية في زمن دولة الفونج وانتشارها في السودان من حيث عمل على إضعاف ما كان به من عصبية قبلية ، وسادته روح صوفية عامة جمعت بين كل أفراد الطريقة الصوفية على البر والتعارف والرحمة والمودة . غير أنه مع مر الزمن أخذت هذه الطرق تتنافس وأخذت كل طريقة تزعم أنها خير من أختها وأنها هي وحدها التي تسير على الصراط المستقيم ، وانتهى ذلك بالطرق الصوفية إلى أن تصبح من عوامل الفرقة والتشتت بعد أن كانت -طويلا - من عوامل الألفة والوحدة .

#### (هـ) دعوة المهدي ومبادئها الستة

لا نصل إلى سنة ١٨٧٠ للميلاد حتى يظهر المهدي محمد بن عبد الله في جزيرة أبا في النيل الأبيض كما مر بنا في الفصل الماضي وأخذ يكتب مشايخ الطرق وبعض العلماء بأنه المهدي المنتظر والتف الناس حوله واتسعت دعوته ، فأرسلت إليه الحكومة قوة فقهرها ، وترك جزيرة أبا ونزل في جيل قدير بمنطقة تقلى ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة فقتل عليها كما قضى على جيش بقيادة يوسف الشلالى ، وأتاحت له هذه الانتصارات أنصارا كثيرين ، ولم يلبث أن استولى على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م وتعاضم شأنه وكثر أنصاره وجاءوه من كل أنحاء السودان ، وأرسلت حكومة الاحتلال الإنجليزي لمصر قوة بقيادة أحد قوادها فأيدت بإبادة تامة ، واستسلم له سلاتين حاكم دارفور في نفس السنة ، وحاصر الخرطوم ودخلتها جنوده في أواخر يناير سنة ١٨٨٥ للميلاد واتخذ قرية أم درمان عاصمة ، ودان له السودان

جميعه ، وهاجر الناس إلى أم درمان من كل الأنحاء لمبايعته وإعلان اعتناق دعوته ، ولم يلبث أن توفي في شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ونستطيع أن نتيين مبادئ دعوته من خلال منشوراته ، ومن أهم المبادئ التي دعا إليها أتباعه ومريديه الزهد في متاع الدنيا وكان ينصّ على ذلك في بيعة كل مبايع له ، إذ يقول في بيعته : « بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا بما عند الله » ويشرح هذا المبدأ مبينا أن عدم الأخذ به عند الملوك والأغنياء يشغلهم عن الدين والاهتداء بما جاء به الرسل ، يقول : « وأما الملوك والكبراء وأبناؤهم فصار شغلهم - عن الإجابة إلى الله والتلقى عن الرسل والمرشدين - بالجاه والمال والعز والثناء وحسن الصيت فلم يتركهم ذلك لأن يتنوروا بنور الحق لأن القلب صار ممتلئا بهذه الفانيات فلا محل فيه لقبول الباقيات ، وصار حرمانهم من الخير فيما يظنون أنه متعة لهم ، وإذا أراد الله بعبده خيرا فرغه من ذلك الخسيس » .

والمبدأ الثاني في دعوة المهدي العمل بالدين والشريعة المحمدية والخضوع لأوامر الله ونواهيه وأداء فروض الدين ونوافله والإخلاص في عبادته يقول في منشوراته : « لا نعمة إلا نعمة الدين ، ولا كرم إلا كرم التقوى ، ولا حسب إلا لامثال لأمر الله والتواضع حتى يكون الشخص بالنسبة إلى آحاد عباد الله كواحد منهم كما كانت حالة الصحابة .. فإن المؤمنين كاليدنين تغسل إحداهما الأخرى » . وهذا المبدأ أهم مبادئ دعوته لأنه كان يريد إقامة مجتمع إسلامي كبير ، ويصرّح بذلك لأتباعه ، بل دائما يكرره كقوله لهم : « إني قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لإقامة الدين ، وجئتكم داعيا إلى الله ومبليغا عنه ما حملته إليكم : اتبعوا آثار من سلف من المهتدين السابقين على نهج سيدنا محمد ﷺ .. وإنما قصدنا منكم المعاونة في تقويم الدين ، وإني - في ذلك - كواحد منكم » . والمهدي - بذلك - كان يريد أن ينشئ مجتمعا إسلاميا جديدا على أساس قويم من الدين ، وكان ثورته كانت ثورة إصلاح ديني لبناء دولة إسلامية كبرى تعود بالعالم الإسلامي إلى حياته الأولى : حياة التقوى والعبادة الصحيحة والأخوة في الدين التي هي - في رأى المهدي - أقوى من الأخوة في الأبوين . ولم يقيم المهدي في دعوته أي اعتبار لشيء سوى الدين الحنيف ، فلا اعتبار لنزعة قومية ولا لنزعة عنصرية ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أنه أرسل إلى الضباط الإنجليز وجنودهم منشورا يقول فيه : « إنكم إذا تدبرتم بعقولكم وتفكرتم في قدرة خالقكم .. علمتم أن مخالفته شنيعة ، ولا ينبغي لكم إلا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه إليه .. فهيا إلى ذلك فإن أسلمتم فلکم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا » . فالمدار في دولة المهدي إنما هو على التمسك بالدين ، ولا فرق بين عربي وغير عربي ولا بين سوداني وأوروبي . ومما يدل على أن الأساس الديني في الدعوة كان كل شيء ما يقوله نعيم شقير في الجزء الثالث من كتابه :



« تاريخ السودان القديم والحديث » . من أن المهدي جعل أتباعه مراتب بحسب تاريخ دخولهم في دعوته الدينية واعتناقهم لها ، فالمرتبة الأولى لأنصاره الذين التفوا حوله قبل إعلانه المهدي ، وهم أبكاره ، والمرتبة الثانية لأنصاره الذين آزره في جزيرة أبا في النيل الأبيض ، والمرتبة الثالثة لأنصاره الذين هاجروا إليه وهو في جبل قدير بتقلي ، والمرتبة الرابعة لأنصاره الذين هاجروا إليه في الأبيض ، ثم باقى الأنصار وهم أيضا طبقات بحسب أسبقيتهم في اعتناق دعوته .

والمبدأ الثالث في دعوة المهدي هو الأخذ بالبساطة في الحياة ومطاعمها ومشاربها ونبذ ما أدخله التيار التركي والأوربي في الحياة المادية الحضارية لأهل السودان في العادات والمآكل والمشرب والملبس والأفراح والمآتم . وهذا المبدأ يتفق في وضوح مع مبدأ الزهد والتقشف إزاء المتاع الدنيوى ، وقد أراد به أن يحمى البلاد من ترف الحضارات الأجنبية .

والمبدأ الرابع في دعوة المهدي نبذ أتباعه لجميع الطرق الصوفية المنتشرة في السودان ، وبذلك حل كل الطرق الصوفية ببلاده ولم يعد لها شيوخ ولا أتباع يتمنون إليها ، ولا عاد بينها تنافس مقيت ، كل يزعم أن طريقته هي طريقة الهدى السديدة وأن الطريقة أو الطرق الأخرى ضالة انحرفت عن طريق الرشاد القويم ، وبذلك لم تعد في السودان طريقة ولا دعوة دينية إلا دعوة المهدي وما وضعه لها من مبادئ .

ومبدأ خامس في دعوة المهدي هو نبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة المشهورين لأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وما بها من كثرة المسائل الفرعية ، مما لا يفيد فوائد مباشرة في فهم أركان العقيدة الإسلامية ، وقد استحالت هذه الكتب على مر الزمن إلى مجلدات تلو مجلدات وشروح تلو شروح يفرق المسلم في لججها وخضمها الزاخر ، ولا يكاد يتبين نور الدين ، إذ حجوا عنه الكتاب والسنة ، وزجوا به في هذا المحيط الواسع من كتب تعد بالآلاف تتناول مسائل متفرعة لا حد لها ولا حصر ، ويقول من الواجب إهمالها ووضع مذهب اجتهادى جديد في الفقه والعقيدة . ويشعر من يطلع على هذا المبدأ في دعوة المهدي أنه ربما كان متأثرا فيه بدعوة المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين في المغرب والأندلس إلى نبذ كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى لما بها من كثرة الفروع والعلل ، ولم يلبث خليفته يوسف بن عبد المؤمن ولجته يعقوب أن أحرقوا أحمالا من هذه الكتب .

ومبدأ سادس هو دعوة المهدي إلى الهجرة إلى المواضع التي اتخذها مراكز لدعوته اقتداء بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه ، وسمى أتباعه بالأنصار اقتداء بتسمية الرسول لأهل المدينة بالأنصار ، وحرّم الطرق الصوفية كما أسلفنا وحرّم على أنصاره أن يسموا أنفسهم الدراويش .

ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين طائفة كبيرة من السنن التي سنّها المهدي في المجتمع السوداني ، فمن ذلك إبطال الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ، وأقام الحدود الشرعية على شارب الخمر والزاني والسارق ، وأبطل السحر وكتابة الأحجبة والصراخ على الميت ، وخفض قيمة المهر إلى عشرة ريالات واثنتين للبكر وخمسة ريالات واثنتين للثيب ، وجعل وليمة العرس طبقاً من اللبن وآخر من البلح ، ومنع زيارة قبور الأولياء ، ووجه الناس إلى العناية بكتاب الله والسنة النبوية .

ودان له السودان جميعه في يناير سنة ١٨٨٥ وأعلن الإنجليز إخلاءه ، وقُدِّر له أن يتوفى سريعاً في سن الحادية والأربعين بشهر يونية سنة ١٨٨٥ للميلاد فلم يرافقه انتصاره الكبير ولا دعوته طويلاً ، ولم يكن لخليفته التعايشي علمه فأخذت الدعوة المهدية تضعف وقاد كمشتر حملة مصرية في أغسطس سنة ١٨٩٧ لفتح السودان واستطاعت فتحه والقضاء على التعايشي سنة ١٨٩٨ وقام في السودان حكم ثنائي مصري إنجليزي ، وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها قبل زمن المهدي بل ربما ازداد بعضها قوة ، وتحول أنصار المهدي إلى طائفة دينية كبيرة تواجه الطرق الصوفية .

## ٢

### الثقافة<sup>(١)</sup>

#### ( أ ) كُتَاب - زوايا - مساجد

عرفت السودان مبكرة الكُتَاب كما عرفته الأقاليم الإسلامية المختلفة في كل قرية ومدينة وتجمّع بدوى للمسلمين وقبائلهم التي نزلت السودان على مر العصور ، فكانت الكُتَاب تبنى ملحقة بالمساجد أو منفصلة أو يتخذ مسلم داره لتحفيظ القرآن الكريم الذي يعد حفظه أو على الأقل حفظ آيات كثيرة منه فريضة على كل مسلم ، ويطرد ذلك طوال الحقب الإسلامية . وعادة كان ذلك يستغرق من الصبي سبع سنوات أو تقل أو تزيد حسب قدرته على حفظ القرآن جميعه ، وكان يكتب كل يوم ما يمليه عليه الشيخ أو ما يكتبه من مصحف ، وبين يديه محبرة وعود رفيع مدبّب يكتب به واجبه اليومي ، حتى إذا حفظه سمعه منه الشيخ ، وقد يسمع منه جزءاً مما حفظ من القرآن لتثيته في ذهنه .

عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنوم شقير  
والسودان عبر القرون لمكي شببكة ومناهج الألباب  
المصرية لرفاعة الطهطاوي .

(١) انظر في الثقافة بالسودان طبقات ود ضيف الله  
وكتاب التربية في السودان لعبد العزيز عبد المجيد  
وتاريخ الثقافة العربية في السودان لعبد المجيد عابدين  
والثقافة العربية في السودان المعاصر لمحمد فوزى مصطفى



وبجانب الكتاب كانت هناك خلوات صغرى أشبه بالكتائب ، وقد تكون ملحقة بالمسجد وقد تكون منفردة ، وهي أيضا لتحفيظ القرآن الكريم ، وقد يتخذها بعض المتصوفة للعبادة والنسك ، والأكثر أن تكون كتابا ، وكانت الناشئة في دارفور تذهب إلى الكتائب والخلوات في الثلث الأخير من الليل ومعها حطب توقده ، وتأخذ في قراءة القرآن وكتابته وحفظه على ضوء ناره ، كما يقول عمر التونسي في الحديث عن دارفور برحلته إلى السودان ، لأن الناشئة هناك كانت تُشغَلُ نهارا برعى الغنم والبقر .

وبعد حفظ الصبي للقرآن الكريم ينتقل إلى حلقات الدراسة بالمسجد أو بالزاوية ، وكانت الزاوية تعنى بجانب العلوم الدينية ، بدراسات التصوف وكتب الصوفية . أما المسجد فقلما يعنى بهذه الدراسات إنما يصب عنانيه على علوم الشريعة وعلوم العربية وعلم الكلام والمنطق ، وعرفت السودان المسجد مبكرة ، إذ ينصّ عبدالله بن سعد بن أبي سرح في معاهدته لأهل النوبة في عهد الخليفة عثمان على وجود مسجد بديارهم وما يجب عليهم من رعايته وخدمته وإضاءته . وفي القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بنى العرب القاطنون على النيل الأزرق مسجدا في سوبا عاصمة علوة : المملكة المسيحية . ولا بد أن مساجد كثيرة بُنيت مع انتشار الإسلام في السودان وتغلغل القبائل العربية هناك . وكانت في دارفور مساجد كثيرة ، إذ كان في كل بلدة مسجد وقد يكون بها جامع ، وكانت الناشئة تتعلم فيه الكتابة وتتلو القرآن وتحفظه ، ولكل مسجد وجامع عالم يشرف على حفظ القرآن . ولصق المسجد والجامع خلوات للطلاب يحفظون فيها القرآن ويتعلمون أحيانا العلوم الشرعية ولكل مسجد وجامع مال من السلطان ينفق عليه وعلى طلابه وعلى عالمه ومدرسيه . والمسجد من قديم بجانب استخدامه لأداء الفرائض والنوافل كان يستخدم لنشر العلوم الدينية وعلوم العربية ، وكان الشيخ يجلس على رأس حلقة ، ويجلس التلاميذ من حوله فيما يشبه نصف دائرة . وليس هناك طريقة واحدة في التعليم يلتزم بها الشيوخ فقد يملون من الذاكرة والطلاب يقيدون ما يملونه ، وقد يقرأ الشيخ - أو أحد طلابه - فقرة في كتاب ثم يتناولها بالشرح والتوضيح ، وقد يلقي على طلابه محاضرة مكتوبة .

#### (ب) حركة علمية نشيطة في عهد الفونج

تظهر في السودان حركة علمية نشيطة طوال عهد دولة الفونج ، وقد أُرِّخ لها ود ضيف الله المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م في كتابه الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان ، وفيه ترجم لأكثر من مائتين وخمسين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وذكرناه مرارا وتكرارا في حديثنا عن المجتمع السوداني وما ساد فيه من نزعة صوفية ، وبالمثل يمدنا بمعلومات كثيرة عن الدراسات الدينية وما نزل

ديار السودان من علماء العالم الإسلامي ومن السودانيين الذين درسوا في الأزهر بالقاهرة وفي مكة والمدينة .

وكانت الطريقة المتبعة لتخريج الطالب إذنُ شيخه له برواية ما سمعه منه ، وقد يكتب إجازة له في نهاية المصنف الذي أذن له بروايته ، وقد يفرد لها ، وكانت هذه الإجازة تقوم مقام الشهادة النهائية التي يظفر بها الطالب في عصرنا . ويسوق ود ضيف الله صورة إجازة منحها الشيخ على الأجهوري شيخ الإسلام بالقاهرة للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم السوداني كتبها بخطه ، ويقول فيها بعد حمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : « قرأ على الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الكبابي نسبا البربري بلدا عقيدتي التي ألفتها في أصول الدين والتصوف وشرحها قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ، وحضر قراءتي في مختصر العلامة الشيخ خليل في فقه المالكية في نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور . وقد استخرت الله وأجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لي روايته بشرطه سائلا منه أن لا ينساني من الدعاء بسعادة الدارين .. وكب في آخر ذي الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » . ويلي ذلك إمضاء الشيخ على بن محمد المدعو بزوين بن عبد الرحمن الأجهوري المالكي .

وكان ملوك الفونج ونوابهم في الولايات كالشيخ عجيب في العبدلاب وولاية علوة يغدقون على العلماء . ووثق الملوك العلاقة بينهم وبين علماء الأزهر بما كانوا يرسلون إليهم من هدايا ، واشتهر الملك بادى الأول ( ١٠١٩ هـ / ١٦١١ م - ١٠٢٤ هـ / ١٦١٦ ) بكثرة ما كان يرسله إليهم من هدايا مع سفيره أحمد علوان ، وأهدوه بدورهم قصائد مديح متعددة ، أنشد منها نعوم شقير في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ السودان القديم والحديث » قصيدة للشيخ عمر المغربي . وكان الشيخ عجيب شديد العناية بالعلماء في إمارته ، وتشجيعا لطلاب مشيخته وطلاب دولة الفونج والسودانيين عامة حُبب إليهم أن يرحلوا في طلب العلم إلى الأزهر ، وبنى لهم فيه رواقا بجانب رواق الشام ورواق المغاربة ، وبنى لهم رواقا آخر في المدينة لينزلوا فيه ويأخذوا العلم عن الشيوخ هناك .

(ج) سودانيون أزهيون وعلماء مصريون

تخرج في الأزهر لعهد دولة الفونج سودانيون كثيرون ، ومن أعلامهم الشيخ محمود العركي في سنار العاصمة ، وكان قد رحل إلى مصر واختلف إلى شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ شمس الدين اللقاني إمام المالكية المتوفى بالقاهرة سنة ٩٣٥ وعمل بعد عودته على نشر المذهب المالكي في دولة الفونج ، ويقول ود ضيف الله إنه أول من نشر علوم الدين في أنحاء النيل الأبيض إذ لم يجد فيها مدرسة علم ولا قرآن . وكان الرجل يطلق زوجته ويتزوجها غيره في

نفس اليوم بدون العدة الشرعية ، فأبطل تلك العادة المحرمة ، وحمل الناس على حكم الشريعة وأن تنتظر المطلقة قبل زواجها الثاني حتى توفي عدتها . وأنشأ الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم الدين ، وبذلك أشبهت الخلوة عنده مدرسة ، وكان له ما بين الخرطوم وأليس الكوة خمس عشرة خلوة أو مدرسة .

ومن تخرج في الأزهر أولاد جابر الأربعة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، درسوا على الشيخ المالكي البنوفرى تلميذ عبد الرحمن الأجهورى ، وهو بدوره تلميذ شمس الدين اللقانى ، وكانوا أيضا من أسباب انتشار المذهب المالكي فى السودان ، وخاصة إبراهيم الذى نزل جزيرة ترنج ودرّس فيها مختصر خليل ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكي ، ويقول ود ضيف الله إنه أول من درّس مختصر خليل ببلاد الفونج وشدّت إليه الرحال ، ومن تلاميذه أربعون صاروا أعلاما ، منهم الشيخ الزين ولد صغيرون . وصار كثير من تلامذته شيوخا للإسلام فى بلدان مختلفة ، ويقول ود ضيف الله : فقهاء البلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين الشيخ أرباب الخشن ، وكان الطلبة فى حلقة يبلغون - كما يقول ود ضيف الله - ألف طالب ونيفا من دار مملكة الفونج إلى دار مملكة برنو على نهر النيجر . ومن تتلمذ للبنوفرى فى الأزهر أستاذ إبراهيم بن جابر المار ذكره الشيخ عبد الرحمن حموتو الخطيب ورفيقه الشيخ محمد سرحان ، ويذكر ود ضيف الله أنه كان يقول « محمد يصلح للتدريس لكونه يسأل عن تحقيق نصوص المتن ، وعبد الرحمن يصلح للفتوى لكونه يسأل عن معانى الشراح ويراجع آراءهم وفتاواهم . ومن تلقى العلم فى الأزهر من أعلام السودانين الشيخ حمد المجذوب وكان فقيها صوفيا ، ومر بنا أنه نشر الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر ، وظلت أسرته تقوم بعده على الطريقة الشاذلية ودراسة العلوم الدينية .

ومن العلماء السودانين الذين تخرّجوا فى الأزهر الشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، عُنِي بأن ينهل من حلقات شيوخ العربية الأزهرين ، وعاد إلى السودان وأخذ يدرس لطلابه - كما يقول ود ضيف الله - علوم النحو واللغة والمنطق ، وتتلّمذ عليه سودانيون كثيرون كان لهم دور عظيم فى نشر علوم العربية والبلاغة فى أنحاء السودان ، منهم الشيخ عبد الله بن صابون الذى اشتهر ببراعته - كما يقول ود ضيف الله - فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وعلم العروض ، وكان شاعرا ماهرا ، ومثله زميله الشيخ على ولد شاقعى ، وكان مثله شاعرا مجيدا .

وكثيرون من علماء مصر البررة رحلوا إلى السودان لتعليم السودانين شريعة الإسلام ومن ندب نفسه لهذه المهمة - كما يقول ود ضيف الله - محمد بن على بن قدم الكيمانى تلميذ الخطيب الشربيني إمام الشافعية بمصر المتوفى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م استوطن مدينة بربر إلى



أن توفي بها ، وقد درس عليه شيوخ كثيرون أخذوا عنه علم الفرائض والفقہ الشافعي من مثل الشيخ عبد الله العركي والقاضي دشين الشافعي وإبراهيم بن عبودي الذي اشتهر ببراعته في تدريسه لعلم الفرائض أو الموارث وفيه ألف حاشيته المعروفة باسم الفرضية . ولم يكتب لفقہ المذهب الشافعي أن يعم في السودان ، إنما الذي عم فيه فقہ المذهب المالكي للفقهاء المالكية الذين ذكرناهم ممن تلقوا المذهب عن أئمتهم في مصر ، ولأن نزلاء السودان من الحجاز والكتام والبرنو وغريهما ومن الليبيين والتونسين والمغاربة في حجهم وتجارتهم كانوا مالكية . فالمذهب المالكي هو الذي شاع وانتشر فقهاؤه بالسودان لعصر دولة الفونج .

ومن كبار فقهاء المالكية المصريين الأزهرين الذين رحلوا إلى السودان في عصر الفونج الشيخ محمد القناوي تلميذ الزرقاني الإمام المالكي الكبير استوطن مدينة بربر بين ديار الشايقية في الشمال ثم جزيرة سنار في الجنوب لأوائل النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، وبنى فيها مسجده ودرّس فيه رسالة ابن أبي زيد الفقيه القيرواني والعقائد ( في التوحيد ) وعلم النحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فنهض به في عفة ونزاهة « ومن أحفاده الشيخ محمد إكداوي نزيل مدينة شندی جنوبي مدينتي بربر وعطبره ، وفيها درّس في الفقہ المالكي رسالة ابن أبي زيد القيرواني مثل جده ، ودرّس النحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق ، وكان يجتمع في حلقاته طلاب كثيرون . ومن فقهاء مصر المالكية هناك الشيخ حامد اللين وكان يشتغل بتدريس رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقہ المالكي ، كما كان يشتغل بتدريس العقائد وعلم التوحيد ، وهو أول من أخصر شرح الزرقاني على مختصر خليل وبالمثل شرح الشيرخيتي المالكي على متن العشماوية .

ومن كبار العلماء المصريين الذين نزلوا السودان واستوطنوا مدينة بربر فيه الشيخ محمد المصري الذي عنى بدراسة علم التوحيد أو علم الكلام حتى وفاته سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م وكان محمد بن يوسف السنوسي الجزائري المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م ألف في علم التوحيد أو الكلام ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها والعقيدة الوسطى وشرحها والعقيدة الصغرى وشرحها ، وسيطرت هذه الأعمال في مباحث علم التوحيد أو الكلام على الباحثين منذ وضعها لا في الجزائر وحدها بل في بلاد المغرب ومصر والعالم الإسلامي . وكان الشيخ محمد المصري يدرس علم التوحيد للشباب السوداني من خلال هذه الأعمال وينفيض في شرحها ، ويقول ود ضيف الله إن له كتباً شأنها أن تكتب بماء الذهب ، منها شرح للعقيدة الوسطى للسنوسي ، وشرح للعقيدة الصغرى ، وكان السنوسي قد اختصر الصغرى وسماها أم البراهين فشرحها . وكان الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائري في عصر السنوسي ألف في العقيدة قصيدة فشرحها وشاعت باسم الجزائرية ، ونجد محمداً المصري يشرحها أيضاً - كما يقول ود ضيف الله -

ويشرح الأجرومية في النحو . وتلميذة الشيخ تمكي النحوى الرباطى شرحان على السنوسية :  
كبير وصغير .

وما حدث بين الطلاب السودانيين وانتظامهم فى الأزهر للتعليم وانتداب بعض خريجي الأزهر من المصريين أنفسهم لنشر الثقافة الدينية فى ربوع السودان حدث ما يماثله أو يقرب منه بين السودان والحجاز ، فقد كان للسودانيين رواق فى المدينة تنفق الدولة على من ينزل فيه للأخذ عن الشيوخ هناك ، ومن نزل من السودان الشيخ محمد بن عدلان الذى تتلمذ للشيخ عبدالله المغربى هناك ، وعاد إلى أرض الجزيرة فى السودان ، ودرّس للناس علم الكلام من خلال كتب السنوسى التى ذكرناها آنفاً ، ويقول ود ضيف الله إن مدار علم الكلام فى دار الجزيرة أو إقليمها على طلبته وتلامذة طلبته . ويذكر ود ضيف الله عن شيخ سودانى يسمى عمار بن شايقى أنه قرأ فى مكة علوم العربية . ويلم ود ضيف الله بأسماء علماء اليمن الذين نزلوا فى السودان واستوطنوه مثل الفقيهين حمد ولد زروق والشيخ جبارة . ويذكر ود ضيف الله طائفة من علماء المغرب الذين نزلوا فى السودان غير أنه لا يتوقف إزاءهم طويلاً لتعرف ما الذى كانوا يدرّسونه للطلاب فيما عدا التلمسانى ، إذ يقول إنه درّس لطلابه علم الكلام وعلوم القرآن وتجويده وترتيبه . ونظن ظناً أن التلمسانى كان أحد من أشاعوا قراءة ورش المصرى فى دارفور وكردفان ، إذ كانت مصر قد هجرتها من قديم وتمسكت بها البلاد المغربية والأندلس ، وشاعت فيما بعد بالسودان الغربى وبرنو والكاتم ، فشيوعها فى السودان إنما هو عن طريق من نزلها من المغاربة أمثال التلمسانى .

وحرى بنا أن نذكر مؤرخين سودانيين مهمين هما ود ضيف الله أو محمد بن ضيف الله الجعلى المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م صاحب كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان وهو كتاب نفيس ترجم فيه - كما ذكرنا - لنحو مائتين وخمسين صوفياً وعالمًا وشاعراً فى عصر دولة الفونج بسنار ، ولأهميته طبع أكثر من مرة ، وعليه اعتمدت فى دراسة الحياة الصوفية والعلمية أيام الفونج وبالمثل الحياة الاجتماعية وخاصة عن المرأة . وبلى هذا المؤرخ وكتابه فى الأهمية كتاب الشيخ أحمد كاتب الشونة - والمراد بالشونة مخزن الغلال - وهو فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ويبدو وأنه كان موظفاً فى تلك الإدارة ، فأرّخ لدولة الفونج فى سنار ولإدارة المصرية فى الخرطوم والسودان .

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن دولة الفونج أحدثت فى السودان نهضة علمية حقيقية كان عمادها القرآن الكريم وترتيبه وقراءته وتفسيره والحديث النبوى والفقهاء وما يتصل به من علم الأصول والعربية بعلومها المختلفة . غير أن الدولة ضعفت فى عهدها الأخير مما أتاح لمحمد على ضم السودان إلى مصر ، واستحالت الخرطوم إلى مدينة كبيرة ، وأصبحت عاصمة

للبلاد ، وعرف أن السودانيين شعب متدين ويعتق مناهج كثير من الطرق الصوفية ، فشجع أصحاب الطرق الصوفية بالقاهرة على النزول به ، وأرسل مع الجيش الذي وجه به إلى السودان ثلاثة من صفوة العلماء ، وهم القاضي محمد الأسيوطى الحنفى والشيخ أحمد البقلى الشافعى والشيخ أحمد السلاوى المالكى « ليكون - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - لكل مذهب من المذاهب الفقهية الشائعة شيخ يشرف على شئونه ، وحتى لا يُجبر معتق مذهب ( فقهي ) على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه » . وشجع محمد على علماء الأزهر على الهجرة إلى السودان خدمة للشريعة الإسلامية هناك ، وفتح أبواب الأزهر على مصاريعها للطلاب السودانين ورُتبت لرواق السنارين جرابة أو بعارة أخرى خبز لهم ، وأنشئ رواق لأهل دنقلة ورواق لأهل دارفور ورواق لأهل صليح . وفى أواخر عهد محمد على سنة ١٨٤٧ للميلاد أنشئ الجامع العتيق بالخرطوم ، وأريد به أن يكون مثل الأزهر جامعاً لأداء فرائض الصلاة ومعهداً دينياً كبيراً يدرّس فيه جلة من العلماء ، ومن ألقى دروسه ومحاضراته الدينية فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية والشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكر المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والسيد حسين المجدى والشريف المحرقى الشاذلى . ولا بد أن نشير إلى أن مصر جعلت المذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة وعلى رأس المحاكم الشرعية قاضياً حنفياً ، وعادة يكون مصرياً وظل ذلك فى عهد الفترة المهدوية وبعدها إلى سنة ١٩٤٧ للميلاد .

#### ( د ) التعليم المدنى الحديث وتوقفه

أخذت تنشأ فى عهد محمد على بالسودان مدن جديدة مثل الخرطوم وبعض مستشفيات ومنشآت عصرية ، وهاجر بعض الطلاب السودانين إلى القاهرة ليتحق بالمدارس والمعاهد الجديدة . ويذكر رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب المصرية أن محمد على اختار طائفة من ناشئتهم أدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادئ العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان قصده من ذلك أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية ، حتى إذا عادوا إلى السودان نشروها فى بلادهم . ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد أن بعثة من الطلاب السودانين تتألف من مائة طالب سافروا إلى مصر والتحقوا بمدرسة المتديان .

وإذا صحَّ ذلك تكون مصر قد أخذت بيد السودان لتنهض فيه سريعاً نهضة علمية مثل نهضتها ، ومع ذلك لا يذكر لمحمد على أنه أقام مدرسة نظامية فى السودان . وأول مدرسة تنشأ فيه أقامها خليفته عباس إذ أنشأ فيه مدرسة ابتدائية فى الخرطوم وجعل ناظرها رفاعة رافع الطهطاوى ، ونراه فى كتابه مناهج الألباب المصرية يشيد بالسودانيين وملكاتهم الخصبة وحسن استعدادهم للتمدن وللعلم والتعلم ، يقول :

« إن للسودانيين قابلية للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، يدل على



ذلك اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة في حسن التعلم والتعليم حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجسم الغفير ، فيعيّنه أهل بلده على ذلك بتوزيع الطلبة على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل واحد من الأهالي يخصه واحد أو اثنان ويقومون بشؤونهم مدة التعلم والتعليم . . ويبدو أن هذه الطريقة كانت قديمة منذ عهد دولة الفونج .

وولى سعيد قصير النظر بعد عباس فأغلق المدرسة ، وتولى بعده إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م فعين موسى باشا حمدي حكامدارا للسودان وأمره بإنشاء خمس مدارس في عواصم المديرية : الخرطوم وبربر والأبيض وكسلا ودنقلة ، وفتحت كل مدرسة أبوابها لاستقبال مائة تلميذ كى يحصلوا - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - العلوم والفنون النافعة ، وأنشئت مدرسة سادسة في سواكن . وأخذت - بعد ذلك - بعض الإرساليات التبشيرية تنشئ مدارس لها في الخرطوم . وكان لهذه المدارس جميعا أثر واسع في نشر الثقافة الحديثة بالسودان ، إذ كانت تتأثر بالحضارة الغربية والأفكار الأوربية .

وليس كل ما بين هذا التعليم الحديث في السودان وبين التعليم القديم في الخلوات والزوايا والمساجد من فروق تأثره بما في الغرب من حضارة وأفكار فإنه قام على مناهج محددة في كل سنة لكل علم ، وعلى مقررات واضحة في كل مادة مع العناية بتعلم لغة أجنبية ، بخلاف التعليم القديم ، فليس فيه مناهج محددة وليس فيه انتقال من صف إلى صف ، مما يقتضى تدرج التعليم ، بحيث يكون لكل علم في كل سنة مادة علمية تتلاءم مع سن الناشئ من الوجهة التربوية السديدة .

وعين إسماعيل جعفر مظهر بعد موسى حمدي حكامدارا سنة ١٨٧٣ ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية ، فبث في مسائلها جميعا نشاطا واسعا ، إذ فتح مجالسه للعلماء والأدباء يتحاورون معه ويتحاور بعضهم مع بعض في المسائل العلمية والأدبية ، وأحدث ذلك في الخرطوم والسودان حركة علمية وأدبية خصبة وأخذ بعض الشعراء ينشرون قصائدهم في الوقائع المصرية وكانت حينئذ جريدة مصر الكبرى . وبينما الحركة الثقافية الحديثة تنشط هذا النشاط وبينما المدارس الحديثة تخرج للإدارة السودانية كل ما تحتاج إليه من الكتاب والمحاسين وعمال التلغراف والموائىء إذا المهدي يقوم بثورته التي مرت بنا فيغلق كل المدارس ، وينهى عن التعلق بأى صورة من صور الحضارة المادية الأوربية والتركية في المأكل والملبس والأفراح والأحزان ، فأنصاره يبنون أن يرفضوا كل ما دخل على حياتهم من حضارة الغرب والترك ويعودوا إلى حياة الفطرة الأولى الإسلامية الخالصة . وبذلك ظلت السودان في أيامه منذ سنة

١٨٨١ وأيام خليفته التعايشى منذ سنة ١٨٨٥ حتى نهاية أيامه سنة ١٨٩٨ بعيدة عن كل تعليم حديث أو ثقافة حديثة تشوبها الحضارة الأوربية والتركية .

وبانتهاء العهد المهدي وقيام الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى فى السودان عادت الطرق الصوفية إلى نشاطها محاولة بكل ما تستطيع أن تسترد مكانتها التى كانت قد فقدتها . وأصبحت من حيثذ جماعة الأنصار المعتنقين للدعوة المهديّة طائفة دينية تقف فى مواجهة الطوائف الصوفية . وعاد مع الطوائف الصوفية تعليم الخلوة والمسجد والزاوية والتحق بعض السودانين بالتعليم الدينى فى الأزهر .

#### (هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدنى الحديث

أنشئ فى جامع أم درمان سنة ١٩٠١ معهد دينى لتدريس العلوم الدينية وعلوم العربية ، وفى سنة ١٩١٢ بُنى له مبنى مستقل بجوار مسجد جديد بأم درمان ، ووُضعت له نظم ومناهج كنظم ومناهج الأزهر ، وجُعِل التعليم فيه على ثلاث مراحل وكل مرحلة أربع سنوات ومع كل مرحلة شهادة ، وهى مرحلة أولى ومعها الشهادة الأولية ، ومرحلة وسطى أو ثانوية ومعها الشهادة الأهلية ، ومرحلة عليا ومعها الشهادة العالمية ، مثل الأزهر تماما ، وتفرعت من هذا المعهد معاهد أخرى فى المدن الرئيسية .

وكان لهذا المعهد أثر بعيد فى السودان إذ أخذ يزداد عدد خريجيه من حملة شهادة العالمية ، وعيّن كثيرون منهم مدرسين فى وزارة أو مصلحة المعارف وسدّوا حاجة المدارس الأهلية إلى معلمين للناشئة يدرسون لهم الدين والعربية ، كما سدوا حاجة المديرىات من المعلمين فى معاهدها الإقليمية . ولم يكن فى السودان من المدارس النظامية سنة ١٨٩٩ سوى مدرستين حكوميتين وبعض المدارس القروية ، فعمل الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى الجديد على إنشاء مدارس أولية ووسطى فنية ، وتأخر إنشاء مدارس للبنات ، وفى سنة ١٩١١ افتتح الشيخ بابكر البدرى المربى السودانى الفاضل مدرسة للبنات فى منطقة رفاعة بالجزيرة ، وأدخل فيها كريماته واقتدت به بعض الأسر ، فأدخلت معهن كريماتهن ، وأخذت مدارس البنات تزداد ، حتى بلغت فى آخر هذا العصر سنة ١٩٢٣ خمسا . ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أخذت الإرساليات التبشيرية تنشط فى فتح المدارس .

وكان أهم حدث فى التعليم المدنى إنشاء كلية غوردون ، وكان كشنر أول حاكم عام للسودان جمع من السودانين تبرعات لإنشاء كلية لذكرى غوردون وبلغت - كما أسلفنا - نحو مائة ألف جنيه ، ووضع الحجر الأساسى لها سنة ١٨٩٩ ورؤى - فى أول الأمر - أن لا يتعدى التدريس فيها المرحلة الابتدائية ، وافتحت فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وتقدم لها مائة



وخمسون تلميذا بينهم من المصريين والشاميين ٥٨ والباقون سودانيون ، وفي سنة ١٩٠٥ أنشئ بها قسم ثانوى ، مدته أربع سنوات ، مع دراسات خاصة لتخريج المدرسين والمترجمين والمهندسين والقضاة الشرعيين .

وأخذت تنشأ فى الخرطوم والسودان مدارس حكومية وغير حكومية تعنى بالتعليم الحديث وتزويد الطلاب السودانيين بتعلم اللغة الإنجليزية ، ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين عن محمد أحمد محبوب أحد الخريجين الأوائل من كلية غوردون قوله : « لم يكن بد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شباب السودان ، وساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة » .

ولابد أن نلاحظ أنه بجانب عمل المدارس وكلية غوردون فى نشر الثقافة الحديثة أخذ المعهد الدينى فى أم درمان يتسع بالثقافة الدينية الإسلامية ، وتخرج فيه كثيرون عنوا بالأدب العربى وإنماء دراسته فى السودان . ونشط الفكر السودانى بعامة وأخذت ترتسم أمامه مثل عليا فى الحياة والاجتماع ، وتأسس بأخرة من هذا العصر سنة ١٩١٨ بأم درمان ناد للخريجين يمثل الطبقة المثقفة فى السودان ، وأخذ الخطباء يعتلون منابرهم معبرين عن رعى جديد بشئون الأمة السودانية ومصالحها وشئون السياسة والفكر والثقافة ، وأخذ غير واحد ينادى بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مما أعدّ لثورة سنة ١٩٢٤ وهى - فى رأينا - تعد بدء العصر الحديث فى السودان .

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### تعرب<sup>(١)</sup> السودان

عرف السودان الجنس العربي قبل الإسلام بعدة قرون عن طريق التبادل التجارى بين الجزيرة العربية والشاطيء الإفريقى ، ويظن أن بعض ملوك حمير استولى على أجزاء من هذا الشاطيء أو من أرض الحبشة ، وتؤكد هجرة المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية من مكة إلى الحبشة أن أهل الحجاز كانوا يعرفون الشاطيء المقابل وسكانه من الحبشة والسودان . ولكن ليس هذا هو التعرب الذى نريده ، فنحن لا نريد معرفتهم بالجنس العربى ومتى بدأت ، إنما نريد تكلمهم بالعربية ومتى أصبحوا يُعدّون شعبا عربيا ، ولم يحدث ذلك إلا بعد إسلامهم وبعد هجرة قبائل عربية كثيرة إليهم .

وكان أول احتكاك بين العرب المسلمين وأهل السودان فى عهد الخليفة عثمان إذ أرسل إليه واليه على مصر : عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م حملة تغلغت فى مملكة مقرة الشمالية إلى عاصمتها دنقلة وكانت دولة مسيحية أدتحتها مصر قديما فى الدين المسيحى مثل مملكة علوة جنوبيها والحبشة . وانتصر الجيش المصرى انتصارا حاسما وعقدت بين مصر ومقرة معاهدة كان من بنودها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإضاءة السراج فيه ليلا . ونسمع عن عشائر من قبيلة بلى وجهينة نزلت فى قبائل البجة شرقى السودان ، وبالمثل عبرت عشائر من هوازن البحر الأحمر إليها . ويحدث أن تُغير قبائل البجة على أسوان فى عهد المأمون فيرسل إليها حملة تقهرها وتعقد معها معاهدة تنص على أن لا تهدم البجة شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر ديارها طولا وعرضا . وبذلك فتحت الأبواب على مصاريعها لنزول القبائل العربية بين أهل البجة ، ونزحت إليها عشائر كثيرة من قبيلة ربيعة

العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين ويعرض بالتفصيل دخول العرب فى السودان على مر التاريخ والطرق التى سلكوها إليه وما شاع فى السودان من العادات العربية وأمثال العرب ولغتهم .

(١) انظر فى تعرب السودان ما كتبناه فى الفصل الأول عن السودان فى العصور الإسلامية ودولة الفونج ، وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٩ - ٢٦ وتاريخ السودان القديم والحديث لنعم شقير ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب

عملت فى مناجم الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب ، واستطاعوا أن يدخلوا فى الإسلام من البجة عشائهم معروفة باسم الحدارب ، ويقول المسعودى هم وحدهم الفئة المسلمة فى البجة لزمه سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م ويدل على كثرتهم أن أحد زعماء ربيعة هناك بشر بن إسحق كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفاً من مقاتلة البجة وكلهم من الحدارب . وكانت لغة أهل البجة حامية وتسمى التبادوية ، وكانوا ينتشرون من عيذاب إلى كسلا ، وأخذ الإسلام - ومعها العربية - ينتشر بينهم مع مر الزمن ، ودخلت لغتهم من العربية ألفاظ كثيرة ، ولا يزال بعض البجاويين وخاصة فى الغرب يحتفظون بالتبادوية مع تكلمهم بالعربية ، يقول نعوم شقير عن قاطنى « سواكن » من البجة إنهم يتكلمون البجاوية فى منازلهم ومجالسهم الخاصة، ولكنهم فى المجالس العامة يتكلمون العربية.

وظلت مملكة مقرة النوبة المسيحية تقاوم الإسلام والعروبة قروناً ، وتغير على ميناء عيذاب المصرى وأسوان فى عهد الظاهر بيبرس ، فيرسل إليها حملة تأديبية ، وتتغلغل فى ديارها حتى دنقلة ، ويفرض عليها ولاءها لمصر وأن يكون ملكها نائباً فى النوبة عن بيبرس ، ويولّى عليها نائباً له ملكاً مسيحياً من أهلها وتظل تحاول الاستقلال عن مصر فى عهد قلاوون وتتطور الظروف فى عهد ابنه الناصر ويولّى عليها سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م ملكاً مسلماً من نفس الأسرة المالكة . وسرعان ما استولت على مملكة مقرة النوبة قبيلة ربيعة ونشرت بها الإسلام وبذلك انمحت مملكة النوبة المسيحية نهائياً ، وظلت مملكة علوة المسيحية جنوبياً تحاول مقاومة النفوذ الإسلامى إلى أن قضت عليها نهائياً دولة الفونج الإسلامية . ومعروف أن اللغة النوبية إحدى اللغات الحامية فى السودان . ولا يزال أهل بعض مناطقها يستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ودخلها كثير من الألفاظ العربية حتى لتبلغ كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين ثلاثين فى المائة من مجموع ألفاظها وكانوا يستعملون معها العربية .

وعوامل متعددة جعلت غربى السودان يعتنق الإسلام ، منها نزول تجار مملكة البرنو والكانم الإسلامية فى أسواق دارفور وكردفان ، ومنها مرور حجاجهم بتلك المنطقة ورؤيتهم لهم وهم يفرشون سجاجيدهم ويصلون داعين الله أدعيات مختلفة ، ومنها هجرة كتلة ضخمة من قبيلة زوارة المغربية المسلمة ومن عرب الشاوية ( رعاة الشاة ) إلى إقليمى دارفور ووادى فى القرن الخامس الهجرى ، وقد كونوا مملكة إسلامية كبيرة ، كان من ملوكها الملك سليمان وشملت مملكته الكانم ووادى وشطرا كبيرا من دارفور . وكانت تسود فى الغرب لغات حامية وبربرية على ألسنة المهاجرين إلى الغرب من زوارة وعربية على ألسنة الشاوية ونوبية على ألسنة التجور المهاجرين من دنقلة إلى دارفور . واختلف أهل الغرب ، منهم من يتكلم العربية إلى جانب لغته الأصلية : البربرية أو النوبية أو الحامية بجانب العربية ، ومنهم من يتكلم العربية وحدها مثل سكان قبيلة القمر إلا ما كان من جماعة أئى جوخة .

وواضح أننا لا نصل إلى القرن العاشر الهجري إلا وقد أخذت أجزاء من السودان تتعرب نهائياً مثل حدارب البجة ، وأجزاء أخرى أخذت تضيف العربية إلى لغتها الأصلية كما في البجة والنوبة وبعض جوانب الغرب في دارفور ، ما عدا سكان قبيلة القمر فإنهم تكلموا العربية ونسوا لغتهم الأصلية . وتؤسس دولة الفونج في سنار سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وتعلن أنها دولة إسلامية في نظمها السياسية والإدارية وأن العربية لغتها الرسمية وكتبت بها وثائقها ، وشجعت العلماء على تدريس الفقه والعلوم الإسلامية والعربية وأخذت تحدث نهضة علمية في بلادها التي امتدت شمالاً حتى الشلال الثالث وشرقاً حتى حدود الحبشة والبحر الأحمر وغرباً حتى بعض مناطق كردفان وجنوباً حتى منطقة نهر السوبات وبحر الغزال ، فكل هذه المناطق عمت فيها دولة عربية إسلامية - هي دولة الفونج - لمدة ثلاثة قرون ، بحيث نستطيع أن نقول إن السودان تعرب في عهد هذه الدولة . ومرّ بنا ما كان بها من طرق وتجمعات صوفية وما كان بها من نهضة ثقافية ، وتأسست في جبال النوبا غربي السودان الأوسط مملكة تغلي سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م وظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد عملت بقوة على إتاحة الفرصة للعناصر العربية بالتوغل في الشمال الشرقي من تلك الجبال ، ووضعت نصب عينها نشر الإسلام والعربية وشجعت القبائل العربية في حوض النيل وشرقي السودان على الهجرة إليها . وتأسست في دارفور سلطنة أسستها قبائل التجور القادمة من بلاد النوبة وقبائل الكنجارة القادمة من إقليم بحيرة تشاد ، ويبدو أنهم كانوا من عرب الحلالية الذين اكتسحوا تونس في القرن الخامس الهجري إذ كانوا ينتسبون إلى أبي زيد الحلالى . وقامت هذه السلطنة سنة ١٠٤٦ هـ / ١٦٣٧ م وظلت حتى سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م وتبعها وادى وبرنو في عهد ملكها الأول سليمان سلونج ، وعملت هذه المملكة طوال عهدها على نشر الإسلام والعربية ، ومثلها كردفان . وكان بدوى أبو صفية يأتي ببعض أهل جبال النوبا إلى مدينة الأبيض ، فيحفظهم القرآن الكريم والضرورى من الفقه وعلم التوحيد ، ويعيدهم إلى بلادهم لنشر الإسلام .

ويمكن القول أننا لا نصل إلى أواخر عهد دولة الفونج في أوائل القرن التاسع عشر الميلادى إلا وقد تعرب السودان ، ما عدا بعض الجبال الشاهقة المنعزلة التي لم يتح للقبائل العربية الاختلاط بسكانها مثل جبل مرة في أقصى الغرب وما عدا سكان قبيلة الأمرار من قبائل البجة بجوار الحبشة لوعورة المسالك إليها مما جعلها تتأخر في التعرب بالقياس إلى أخواتها من قبائل البجة . ووصل التعرب إلى بيئة الغابات في الجنوب عن طريق بعض القبائل العربية مثل البقارة في كردفان وبنى سليم عند كاككا على النيل الأبيض ، ولهم فضل تعرب الشلك ومثل اختلاط عرب الزريقات بقبائل الدينكا في بحر العرب . وأكثر أجزاء هذا التعرب كانت تستخدم لغاتها المحلية بجانب العربية ، وأخذ هذا التعرب يستقر ويتسع مع مر الزمن طوال القرن التاسع عشر .



## شعراء المديح .

من يقرأ كتاب الطبقات لودضيف الله يعرف أن الشعراء كانوا يكثرون من مديح ملوك الفونج منذ قامت دولتهم في سنار ، غير أن مدائحهم لم تكن من الجودة بحيث نستطيع عرض نماذج . كثيرة منها ، ونجد الشيخ الصوفى فرح ودكتوك المتوفى سنة ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م بعد قيام دولتهم بنحو قرن ينعى على الشعراء فى عهده وقوفهم المتكرر على أبواب ملوك الفونج أو سلاطينهم يستمنحونهم الهبات والعطايا قائلًا<sup>(١)</sup> :

يا واقفاً عند أبواب السلاطين . ارفق بنفسك من هم وتخزين  
إن كنت تطلب عزاً لافناء له فلا تقف عند أبواب السلاطين  
خلّ الملوك بدنياهم وما جمعوا وقم بدينك من فرض ومسنون  
استغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

والشيخ فرح ود تكتوك ينهى الشعراء عن الوقوف بأبواب السلاطين انتظاراً لأعطياتهم ويقول لهم : رفقاً بأنفسكم وما تحملونها من هم الانتظار لتلك الأعطيات ، ومن يطلب العز الخالد لا يقف بتلك الأبواب إنما يقف بباب ربه ، تاركاً للملوك دنياهم وما جمعوا مع أداء فروض دينه ونوافله ، مستغنياً بالله وما يرزقه عن دنيا الملوك كما استغنوا هم بدنياهم ومتاعها عن الدين . وقد أخذ شعر المديح يكثر فى السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان لثورة المهدي الحظ الأوفر فيه ، فقد حقق للسودان استقلالاً وانتصارات متعددة وكأما أعاد إليها الروح التى كانت فقدتها وجعلها تشعر بشخصيتها فى عمق ، مما جعل كثيرين من الشعراء يتغنون بمدحيه وانتصارات جيوشه بأثين فى ذلك غير قليل من الحماسة الملتهبة مشيرين إلى دعوته الدينية وأنه يأخذ فيها بهدى القرآن والسنة النبوية من مثل قول عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة<sup>(٢)</sup> :

ما هديته غير الكتاب وسنة والتاركون لذلك هم كفرة  
أجلى الصدا وأزاح أنواع الردى وسمت به فوق السما علياء  
أمست به آثار طة ونورها يعلو ولا يعلو عليه سناء  
فالمجد فيه مؤئل والفضل مند ه مؤئل والتاس فيه سواء

عبد الرحيم ( طبع الخرطوم ) ص ٨٣ وانظر شعراء  
الوطنية للدكتور صلاح الدين المليك ( طبع دار جامعة  
الخرطوم ، ص ٣٣٢ .

(١) انظر طبقات ود ضيف الله ( طبع صديق ) ص  
١٥ وشعراء السودان جمع سعد ميخائيل ( طبع  
القاهرة ) ص ٢٦٠ .

(٢) نقات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع لحمد

وهو يقول إن دعوته قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة النبوية ، ومن يرفض دعوته يكون كافرا ويصفه بأنه نَحَى الصدا والكدر عن وجه الحياة في السودان ونَحَى أنواع الهلاك والبوار ، ويقول إن علياءه علت به فوق السموات السبع ، وأمست آثار طه تتعالى ولا يعلو عليها سناء ولا نور ، ويذكر أن مجده أصيل والفضل منه مؤمل يشترك فيه السودانيون جميعا ، وسترجم عما قليل لشاعرين من شعراء المهدي هما : حسين زهراء ومحمد عمر البنا . وكان قائد جيش الأنصار عثمان دقنة في شرقى اليلاد بمدينة هندوب قرب مدينة سواكن ومعه فرق كبيرة من الجيش فبلغ التعايشي خليفة المهدي أن جيشا إنجليزيا يتقدم نحو سواكن ليفاجيء عثمان دقنة في هندوب ، فكتب إلى عثمان دقنة يأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو إلى شعاب الجبال ، ومباغتته هناك ، ونكل عثمان دقنة بالجيش الإنجليزي في هشيم ، وفي ذلك يقول محمد الطاهر المجذوب كاتبه في قصيدة حماسية<sup>(١)</sup> :

هندوب تعرف صبرنا	كيف ارتكبنا للمصاعب
وهشيم تشهد عزمنا	كيف أدرعنا للمصائب
يا طالما صدنا بها	صيد الغضنفر للثعالب <sup>(٢)</sup>
نحى لدين الله بل	في شأنه نلقى المعاطب <sup>(٣)</sup>
متوسلين إليه بال	مهدي وجهة كل راغب
وخليفة المهدي عب	سـ الله مفتاح المطالب

وهو يقول إن « هندوب » تعرف صبرنا في الحرب وكيف نعد العدة لها ، وتلك « هشيم » تشهد عزمنا المصمم وكيف أخذنا أهبتنا للحرب ، وكانت حربا ضارية صاد جيشنا فيها الأعداء صيد الأسد للثعالب . وإنا لنحى للدفاع عن دين الله معرضين أنفسنا للموت من دونه ، متوسلين لإلحنا بإمامنا المهدي وخليفته عبد الله التعايشي مفتاح كل مطلب للشعب السوداني . ويمدح المضوى عبد الرحمن الزبير باشا حاكم بحر الغزال للخديوى إسماعيل ، وكان قد نزل القاهرة بعد ثورة المهدي ، وكان من أنصارها وأرادت حكومة مصر محاكمته فتوسط له الزبير باشا فعفى عنه ، فامتدحه بقصيدة يقول فيها<sup>(٤)</sup> :

هو فخر سنار الذى عظمت به	وجده عم بها جميع السائح <sup>(٥)</sup>
وتواضعت عظامؤها لعلاه إذ	علموا بما أوتى من الفتح
من فطنة ونزاهة وشهامة	وشجاعة في الغارة الملحاح

(٤) نغشات اليراع ص ٩٧ . وشعراء الوطنية في السودان ص ٣٣٨ .  
(٥) جداه : عطاؤه .

(١) نغشات اليراع ص ٩٣ وانظر شعراء الوطنية في السودان ص ٩٠ .  
(٢) الغضنفر : الأسد .  
(٣) المعاطب : المهالك .

يحنو على مسكينهم بتعطفٍ      ويسدُّ ثلمهم يخفض جناح  
فلذا تراهم يلهجون بذكره      لا يطربون بغير هذا الراح<sup>(١)</sup>  
فالله يقيه ويجعل سعيه      في كل ما يهوى قرين نجاح

والمضوى يقول إن الزبير فخر « سنار » الذى أتاح لها عظمة ومجدا ، والذى عمَّ جوده بها جميع الساحات ، ويذكر أن عظماءها تواضعوا له لما أسبغ الله عليه من نعم : فطنة ونزاهة ومروءة . وإنه ليسد ثلمهم وكل ما ينزل بهم من خطوب مع تواضع شديد ، ولذلك يولعون بذكره ولا يطربون إلا لترداد اسمه وكأنه خمر مسكرة لهم . ويدعو له بطول العمر وأن يوفق فى كل ما يسعى إليه مقترنا بالنجاح المنشود . ويمدح عبد الرحمن شوقى السيد على الميرغنى ، وكان فيما يبدو رئيس الطائفة الميرغنية الصوفية - قائلًا<sup>(٢)</sup> :

بكم - آل طه ما حيت - متيمٌ      وفيك مديحى دون غيرك يا على  
ومن ذا يرى فى العمر وجهك مرةً      تقرُّ به عيناه يوماً وتمتلى  
فيسلو هوى آل النبى ، وحبهم      جرى فيه مجرى الروح فى كل مفصل  
وإنك للإسلام ركنٌ ومؤئلٌ      لتحفظه يا خير ركنٍ ومؤئل  
ورثت كريم المجد عن أكرم الورى      ونور الهدى عن وجهه المتهلل

وهو يقول إننى متيمٌ صباية بحب آل طه ، حبا يتعمقنى طوال حياتى ، وإنى لأقصر عليك - لهذا النسب الكريم - مديحى ، وإن من يرى وجهك فى حياته مرةً تقرُّ به عيناه وتمتلى فرحا ولا يستطيع سلوا عن حب آل النبى ، وكيف يسلوهم وحبهم يسرى فيه مسرى الروح فى أعطاف الجسد ومفاصله ، وإنك لركن للإسلام وحصن لتصونه ، يا خير ركن له وحصن ، وقد ورثت عظيم المجد عن أعظم الورى محمد ، وورثت نور الهدى عن وجهه المتهلل المضىء . وتتوقف قليلا لترجم لشاعرى المهدي : حسين زهراء ومحمد عمر البنا .

### الشيخ حسين<sup>(٣)</sup> زهراء

وُلد الشيخ حسين إبراهيم زهراء حوالى سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٣ م بقرية وادى شعير فى المسلمية جنوبى الخرطوم بنحو ١٥٠ كيلومترا لأبوين عباسيين ، وتوفى سنة ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م . عُنى أبوه بتعليمه لما لاحظ من فطنته وذكائه ، وبعد حفظه للقرآن الكريم أخذ ينهل من حلقات علماء الدين . وفى نحو العشرين من عمره رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وظل فيه سبع سنوات مكبا على حلقات شيوخه ، حتى إذا اكتمل زاده العلمى عاد

(٣) انظر فى ترجمة الشيخ حسين زهراء نفاثات اليراع ص ٨٩ وشعراء السودان ص ٦ وشعراء الوطنية ص ٦٥ ر ٣٢٢ وما بعدها .

(١) الراح : الخمر .  
(٢) شعراء السودان لسعد ميخائيل ( طبع القاهرة ) .  
ص ٢٠٢ .

إلى موطنه ، والتف حوله كثير من الطلاب السودانيين يفيدون من علمه . ولما قام المهدي بثورته ظل فترة ينتظر مصيرها ، حتى إذا انتصر المهدي على حملة هكس باشا الإنجليزي في الأبيض وأبادها وفد عليه ، فقابله بغير قليل من الحفاوة إلا أنه لم يسارع إلى تعيينه في وظيفة من وظائف دولته الكبرى ، فنظم قصيدة همزية طويلة بها تلميحات إلى ما ينبغي على المهدي من عناية بالعلماء من أمثاله وإسناد الوظائف المهمة إليهم . ويبدو أن المهدي لم يعجبه منه هذا التلميح ، وقدم إليه مدائح أخرى ، وظل غاضباً بصره عنه . حتى إذا تولى بعده رئاسة الدعوة المهدية خليفته عبد الله التعايشي استقدمه وعهد إليه بتدريس مادتي الحديث النبوي وعلم الفرائض ( الموارث ) . ونحلت وظيفة قاضي القضاة فعينه فيها ولقبه بلقب قاضي الإسلام ، وكان يُحق الحق لا يبالى بأحد ، فعرضت عليه قضية ومعها فتوى تهم الخليفة التعايشي ، فحكم فيها بالحق الذي يقتضيه الشرع . وعزله التعايشي فنظم فيه قصيدة هجاء فسجنه ، ويقال إنه منع عنه الأكل والشرب فتوفى صبوا . وكان شاعرا بارعا ، وقصيدته الهمزية في مدح المهدي طويلة ، ومن تلويحاته فيها له بما ينبغي في دولته من تقديم العلماء قوله في تضاعيفها :

برح الخفا ما الحق فيه خفاء	وتوالت الآيات والأنبياء
بالآية الكبرى التي بظهورها	كمل الرضا وانجابت الأسواء <sup>(١)</sup>
مهدى رب العرش منتظر الورى	والى الولي والأكرمون وراء
علماء أمة أحمد ناشدتكم	ردوا جوابي إنكم علماء
أرضى وترضون الضلال بعيد ما	ظهر الهدى وانجابت عنه قذاء
ويخيب ظني فيكم وعشيرتي	أتم ويقمع جمعنا الغرباء <sup>(٢)</sup>
جهل الولاة أمات دين محمد	وأديله ماتوا وهم أحياء

وهو يهمل لظهور الحق وتوالي العلامات والأنبياء بظهور الآية الكبرى المتجسدة في المهدي والتي كمل للشعب السوداني بها الرضا وانزاحت الأسواء والشور ، فقد أظهر رب العرش المهدي منتظر الأمة السودانية . ولا يلبث في الشطر الثاني أن يقول إنه يقدم من بادروا إلى بيعته ، بينما يؤخر الفضلاء ويعددهم وراءهم ، ويناشد علماء الأمة أترضون هذا الضلال ، بعدما اتضح الهدى وانحسرت الأقداء عنه ، ويخيب ظني فيكم ويقهرنا الغرباء ، ويتمادي الولاة في جهلهم . ويتساءل ثاية أمات شريعة محمد وأهلها من العلماء وهم أحياء . والقصيدة تحمل حملة عنيفة على المهدي وأوليائه وأتصاره الذين يقربهم قربي ربيعة . ويمدحه بقصيدة عينية يقول فيها :

(٢) بقمع : يقهر .

(١) أسواء جمع سوء



عمادُ الهدى أسُّ الجَدِّا معدُّ العِدِّا      بدأ وإليه الناسُ في الأرض نُجِّعُ<sup>(١)</sup>  
 ملاكُ أساطينُ الخلافةِ كفوُّها الـ      مُعدُّ لها الحصنُ الحصينُ الممنعُ  
 إمامُ الهدى الهادي لكلِّ ومرشدُ      بهامته التاجُ النفيسُ المرصعُ  
 به أُخبرتُ من قبلُ وقتَ ظهوره      صحاحُ رواها هيرزى ومُوضِعُ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن المهدي العماد الذي يقوم عليه الهدى وأُس العطاء وميت الأعداء ، ظهر والناس يطلبونه هو وعطاياه ، إنه ملاك ، ونعم الكفاء المعد لأعمدة الخلافة والحصن الحصين ، إمام الهدى الهادي المرشد لكل الناس ، وإن رأسه ليزدان بتاج الهدى النفيس المرصع . ويبالغ حسين زهراء مبالغة مفرطة إذ يقول إن أحاديث صحاحا بشرت به قبل ظهوره ، رواها محدث مقدم مسرع في خطاه . ويمدحه بقصيدة دالية ، وفيها ينشد :

الأمر جدُّ والخطوبُ جِدادُ      وجنودُ مهديِّ الوَرى أمجادُ  
 حربٌ بمحرابِ الهدى من بأسِه      بِشَتاتها تنزلُ الأطوادُ<sup>(٣)</sup>  
 لِمَ لا وأملاكُ السمواتِ العُلا      في جيشِ مهديِّ الوَرى أجنادُ  
 للحقِ جاء وللمنكرِ قاتلُ      وعلى الفِعالِ من المقالِ مزادُ

والقصيدة حماسية ، وبدأها حسين الزهراء بأن الأمر جد والخطوب متجددة وجند المهدي أمجاد أبطال ، وإن حربا يقودها المهدي من محراب الهدى لتتزلزل لها الجبال ، إذ ليس جندها من أسود السودان الأشداء فحسب ، فإن الملائكة من السموات الرفيعة تشترك معهم في الحرب تؤيدهم وتنصرهم ، ولا عجب فقد جاء المهدي لإقرار الحق وإزالة كل منكر ، وإن فعاله لأعظم من أن يحيط بها مقال .

### الشيخ محمد<sup>(٤)</sup> عمر البنا

ولد الشيخ محمد عمر البنا في رفاعة بإقليم الجزيرة سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م وتوفي سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م وحاول الاشتغال بالتجارة في مطالع شبابه وخسرت تجارته ، فتركها إلى حلقات الشيوخ ينهل منها ، وفي الثالثة والعشرين من عمره رحل إلى القاهرة واختلف إلى دروس شيوخه مدة غير قليلة ، وعاد إلى موطنه . ولما قام المهدي بدعوته هاجر إليه وبايعه وأخلص في بيعته ، وامتدحه وأصبح شاعره وشاعر دعوته ، ولزمه ولزم خليفته عبد الله

الشعر الحديث في السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٣٠ وما بعدها وفي مواضع مختلفة ( نشر معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية ) وشعراء الوطنية في السودان طبع دار جامعة الخرطوم ص ٨٨ و ٣١٧ وما بعدها .

(١) نجع جمع ناجع : طالب الكلاء .  
 (٢) هيرزى: شجاع مقدم. موضع : مسرع في خطاه .  
 (٣) الأطواد : الجبال .  
 (٤) انظر في ترجمة الشيخ محمد عمر البنا وشعره نقاشات البراع ص ١٠٠ وشعراء السودان ص ٢٧٣ ركتاب

التعايشي ، وقرّبه منه ، وجعله بمنزلة مستشار له ، ولما انتهى عهد التعايشي والدعوة المهدية عيّنته الحكومة الثنائية قاضيا ثم مفتشا للمحاكم الشرعية إلى أن لُبي نداء ربه . وكان شاعرا مجيدا ، بل كان أبرع شعراء السودان في زمنه ، ويتميز بأسلوب جزل رصين ، وشعره في المهدي والدعوة المهدية يكتظ بحماسة قوية على نحو ما نرى في تائيته التي طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الحربُ صَبْرٌ واللقاءُ ثباتُ	والموتُ في شأنِ الإلهِ حياةُ
والجبنُ عارٌ والشجاعةُ هيبةُ	للمرءِ ما اقترنتُ بها العزماتُ
والصبرُ عند البأسِ مكرمةٌ ومقد	دامُ الرجالِ تهابهُ الوقعاتُ
والفخرُ كلُّ الفخرِ بيعُ النَّفسِ للـ	سه العليُّ وأجرُها الجنّاتُ
إنَّ الجهادَ فضيلةٌ مرضيةٌ	شهدتُ بِمُحكَمِ أجْرِها الآياتُ
قد حازَ هذا الافتخارَ جميعه	صَحْبُ الإمامِ السادةِ القاداتُ

وهو يقول لأنصار المهدي محمسا لهم : الحرب صبر واللقاء ثبات واستماتة ، وإنها لحرب عظيمة في نصره دين الله ، والجبن والقعود عنها عار لا يمثله عار ، وما أعظم الشجاعة المقترنة بالعزيمة وما أعظم الصبر حتى الموت ، بل إن الموت ليهاب شجعان الرجال ، وإن بيع النفس لله العلي فخر لا يمثله فخر لعظم الأجر من الجنات ونعيمها الخالد ، إنها ليست حربا بل جهادا في سبيل الله ودينه الخفيف الذي نزل القرآن الكريم بمحكم أجره وثوابه من مثل قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ويقول إن هذا الفخر جميعه حازه صحب المهدي وقواده . ويشيد بجهادهم في نشر الدعوة المهدية منشدا :

قومٌ إذا حَمَى الوطيسُ رأيَهم	شَمَّ الجبالِ ، وللضعيفِ حماةُ
ولباسُهم سَرْدُ الحديدِ وبأسُهم	شهدتُ به يومَ اللُّقا الغاراتُ
وخلوقُهم صَدَأُ الدروعِ ، لحزمهم	قتلُ الأعداءِ عندهم عاداتُ
في السُّلمِ تلقاهمُ ركوعًا سَجْدًا	أثَرُ السجودِ عليهمُ وسماتُ
وتخالُّهم يومَ الجِلالِ ضراعِمًا	أَسَدٌ وَأَسْلُ رماحهم غاباتُ
ركبوا الجيادَ وغادروا شِلْوَ العِدا	رزقَ النُّسورِ ولحمُهم أقواتُ
والأرضُ سالتُ بالدماءِ وما بها	غيرُ الجماجمِ والشعورِ نباتُ

فهم قوم يواصل إذا دارت رحا الحرب رأيهم جبلا شاهقة لا ينالها أحد ، وهم مع ذلك حماة لكل ضعيف يأخذون بيده ، لباسهم دروع متينة النسيج ، والغارات تشهد بشجاعتهم الخارقة ، وليس لهم طيب إلا صدأ الدروع ، مع اكتمال حزم في قتل الأعدى والتكيل بهم .

أما فى السلم فدائما راكعون ساجدون لله وعلى وجوههم أثر السجود وعلاماته . ويوم التزال  
تظنهم أسدا وقد بدت رماحهم الطويلة فوقهم وكأنها غابة ضخمة . ويقول إنهم يبادرون إلى  
الحرب فيركبون خيولهم ، وما هى إلا ساعات يغادرون بعدها ساحة الحرب وقد خلفوا للنسور  
طعامها من لحوم أعدائهم ، وتسيل الأرض بدمائهم وكأنما أثبتت جماجم ورءوسا لكثرة  
القتلى . ويشيد البنا عقب ذلك بانتصاراتهم وإعلائهم لكلمة الله وإرضائهم لرسوله وقمعهم  
لأعدائهم ، ويحث المهدي على غزو الخرطوم وإخراج الغواة المفسدين منها ضاربا له المثل بجهد  
الرسول والصحابة ضد العتاة الظالمين ، ويهنيء الشهداء من جيشه ، فالخور العين تنتظر لقاءهم  
فرحا بهم ، والجنات ترينت لتدومهم . والقصيدة شعلة من الحماسة الملتهبة . وللبنا قصيدة  
يمتدح بها عثمان دقته قائد جيش المهديين فى شرقى السودان ، وفيها يصور بسالة جنوده  
منشدا :

بعثت لهم همم الجهاد ملابس النصر العزيز يمدّه التصويبُ  
وأمدّهم جيش الملائك ناشرا رايات نصر للبلاد تجوبُ  
فسيوفهم مسلولة ورماحهم مسنونة وعدوهم مرعوبُ  
وعدوهم دوماً يَغصُّ بريقه والرعبُ منهم للقلوب يُذيبُ  
إن نوزلوا كانوا الليوث معاركاً أو غولبوا فعدوهم مغلوبُ  
أو حوربوا فالرعبُ من أعوانهم دوماً وعقلُ عدائهم مسلوبُ

وهو يقول : كأنما همم الجهاد القعساء أرسلت إليهم ملابس النصر تراقفها إصابة الأهداف ،  
بل لقد زوّدهم جيش الملائكة برايات نصر نشرها فى البلاد ، وسيوفهم مسلولة من أغمادها  
ورماحهم مسنونة قاطعة ، وأعداؤهم غاصّون بريقهم من شدة رعبهم ، بل ليكاد الرعب يذيب  
قلوبهم . وإن نوزلوا فى معركة كانوا أسودا وإن غولبوا غلبوا وقهروا الأعداء قهرا ، أو حوربوا  
كان الرعب من أنصارهم دائما ، ودائما كان عقل أعدائهم مسلوبا من هول حربهم ونزاهم  
الضارى .

٣

### شعراء الفخر والحماسة

مرت بنا أشعار حماسية زمن الدعوة المهدية لمحمد الطاهر المجذوب ومحمد عمر البنا ،  
ونلتقى بالشاعر يحيى السلاوى السودانى يرحل إلى مصر للمشاركة فى الثورة العراقية ، وسنفرّد  
له ترجمة عما قليل ، نعرض فيها له قصيدة حماسية . وتلقانا عند عثمان هاشم حماسية بديعة  
فى حرب مصطفى كمال لليونان وإخراجهم على وجوههم مدحورين من الأناضول ، وستخصه

بترجمة ، ولغير شاعر سوداني فخر حماسي ، وهو يتخذ صوراً متعددة ، من ذلك فخر الشخص  
بنفسه وآبائه مثل قول عبد الله الكردزي المولود سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٤ م (١) :

إني ابن أثنى حرّة عربية	آبؤها بيض الوجوه فحول (٢)
إني عريق في النجار وأبلج	في برده كرم يكاد يسيل (٣)
تتميه للحى اللقاح عشيرة	وأب وقور ماجد بهلول (٤)
وأنا امرؤ زين المحافل شاعر	لي هزة نحو السماح تميل
هتفت بذكرى في البلاد قصائدي	وشداً بهن على الغصون هدليل

وهو يفتخر بأن أمه عربية وأن آباءه بيض الوجوه فائقون لأعمالهم الجليلة وأنه عريق  
في أصله مشرق الوجه ، غيث مدرار ، يكاد الكرم يسيل من برده ، يُنسب في عشيرته  
لحى لم يدن للملوك أبداً ، وأبوه وقور ماجد سيد ، وأنه لزين المحافل شاعر يهتز للشيم  
الكريمة من سماحة وغير سماحة ، وقد شاع ذكره في البلاد لقصائده البديعة ، وغنى بها  
على الغصون هدليل الحمام وكأنه يرددها في تلاحينه . ويقول على أرباب مفاخرها بنفسه  
فيما يقدم لوطنه (٥) :

إذا أنا لم أرفع إلى المجد موطني	فلا ساعدي يوماً علتة مناكبة
أقومي إن ميت اذكروني فإنما	حياتي وقف للعلا ومراكبه
ومالي مقسوم لكل عشيرتي	وصدرى رخب لا تضيق جوانبه
ولا أنا فعّال لشيء يشينني	ولست بعدال لخلي أعاتبه
هل الخير إلا أن تقوم بواجب	تساعد مسكيناً ويُعطى رغائبه

وهو يقول إنه حرى به الموت إن لم يعيش ليرفع من مجد وطنه وشأنه ، وحرى بقومه  
أن يذكره حين يموت ، فحياته كانت وقفاً للعلا وأسبابه . ويذكر أن لكل فرد في عشيرته  
حظاً في ماله ، وأنه حلیم لا يضيق صدره بشيء ، مكرم لنفسه لا يعمل شيئاً يشينه ،  
ومكرم لصديقه فلا يلومه ولا يعتب عليه في شيء ، ويقول إن الخير كل الخير أن تؤدي  
واجباً فتساعد مسكيناً ، وتحقق له بعض رغائبه وأمانيه . ويفاخر عبد الرحمن شوقي بجدوده  
في الزمان القديم (٦) :

(٤) قوم لقاح : لم يدنوا للملوك . بهلول : سيد كريم .  
(٥) شعراء السودان ص ٢٤٣ .  
(٦) نقات اليراع ص ١٨٣ .

(١) شعراء السودان ص ١٨٣ .

(٢) بيض الوجوه كناية عن حسن أفعالهم . فحول :  
متفوقون .

(٣) النجار : الأصل . أبلج : مشرق الوجه



زمانٌ تولى . كان فيه جدودنا  
 إذا ابتسموا فالخلد في بسماتهم  
 وإن عصروا عودَ الزمان أطاعهم  
 وإن ضربوا ذكوا القلاع بعزمهم  
 شمسُ سماءِ المجد أيان أشرقوا  
 لقد نصروا الدين الحنيف وسددوا  
 وناسوا فما جاروا ولا تبعوا هوى  
 إلى أن دعا داعي الردى فتابعوا  
 ليوثا يقودون الخميسَ العرمرما<sup>(١)</sup>  
 وإن عيسوا فالكون صار جهنما  
 ولأن لهم عاصيه حتى تقوما  
 وأومسوا إلى بنائها فتهدما  
 بدورُ الدياجي حيث كانوا وأنجما  
 إلى الكفر سهما في الفؤاد مصمما  
 ولا حملوا النفسَ الضعيفة مغرما  
 نجوما هوت فالكون أصبح مظلما

وهو يصور المجد التاريخي العظيم لأمتنا العربية في الأزمنة الغابرة ، ذاكراً أن زمانا مضى  
 كان جدودنا فيه أسدا ضارية ، إذا رضوا وابتسموا فكأنما فتحت أبواب الجنان ، وإذا عيسوا  
 ونازلوا قوما فقد أصبح الكون نارا حامية ، وإن عصروا عود الزمان انعصر لهم ، وإن عصا  
 قوموه حتى ينعصر ، وإن ضربوا ذكوت القلاع بعزمهم الجبار ، بل لو أشاروا إلى بنيتها لخرت  
 منقضاً . هم شمس سماء المجد في كل مكان يحلون فيه وبدور الدياجي في كل بقعة ينزلونها  
 ونجوم ساظعة ، وطالما نصروا الدين الحنيف وسددوا إلى صدور الكفر وأفتدته سهاما مصمية .  
 وساسوا الأمم والشعوب سياسة عادلة لا تميل مع الهوى ، مليئة بالرحمة للضعفاء فلا تحملهم  
 مغرما ، ودار بهم الزمان دورات إلى أن دعاهم داعي الموت فتابعوا نجوما تهاوت وأصبح  
 الكون مظلما . وينشد الشيخ محمد سعيد العباسي حماسية في الحرب الطرابلسية الإيطالية سنة  
 ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وقد انتصر الطرابلسيون في بعض المواقع ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

يروم بنو روما طرابلساً وقد  
 أثاروا وغي دارت راحاها عليهم  
 أعدوا لها من عدة الحرب كل ما  
 وقد زعموا أن سوف ينجح سعيهم  
 أيدوا فكانوا عبرة الناس بعدهم  
 غزوها بجيش ضاق ذرعاً به القفر<sup>(٣)</sup>  
 وراموا بها فخراً فقاتهم الفخر  
 يضيق به التعداد والبر والبحر  
 ولكنه زعم الأضاليل والهدر  
 وحلقت في آثار موتاهم النسر

وهو يقول إن أبناء روما قصدوا طرابلس بجيش كثيف ضاق به القفر وسعاً ، ودارت  
 رحا حرب ضارية أراد بها الطليان فخرا فقاتهم ، مع ما أعدوا للحرب من عدة وأسلحة لا يحيط  
 بها العد والإحصاء ولا البر والبحر ، وزعموا أن نصرهم قريب وهو زعم أضاليل وهذيان فقد

(١) الخميس العرمرم : الجيش الكثيف الكثير .

(٢) شعراء السودان ص ٢٨٨ وكتاب محمد سعيد

(٣) ذرعا : وسعا .

العيسى للدكتور أحمد عبد الله سامي ( طبع الخرطوم )

أيدوا عن آخرهم ، وأصبحوا عيرة وموعظة لكل معتد أثيم ، وحلقت فوق جثهم النسور  
وانقضت عليها انفضاضا . ويقول مفاخرا بشيمه الرفيعة وأجداده<sup>(١)</sup> :

ألقي بصبري حُسامَ الحادثاتِ ولى عزمٌ أصدُّ به ما قد يلاقيني  
ولا أتسوق لحالٍ لا ثلاثُها حالى ولا منزلُ اللذاتِ يُلهيني  
ولستُ أرضى من الدنيا وإن عظمتُ إلا الذى بجميل الذكر يرضيني  
وكيف أقبلُ أسبابَ الهوانِ ولى آباءُ صِدقٍ من الغرِّ الميامين<sup>(٢)</sup>  
النازلين على حكم العلاء أبداً مَنْ زَيَّنوا الكونَ منهم أى تزِين  
من كل أروعٍ فى أكثاده لِبِدِّ كالليث ، والليثُ لا يُغضى على هونٍ<sup>(٣)</sup>

والعباسى يقول إنه يتدرع أو يتسلح بصبر أمام جسام الحادثات فلا تنال منه ، ويصد بعزمه  
القوى ما يلقاه من خطوب ، ولا يتشوق لحال لا تتفق وحاله ، ومنزل اللذات لا يلهيه ، بل  
يكف نفسه عنه ، ولا يرضيه من دنياه إلا الذكر الجميل والعمل الحميد ولا يقبل هوانا وكيف  
يقبل هوانا أو ضيما ، وآباؤه آباء صدق من المشهورين ميمونى النقية الذين لا ينزلون أبدا  
إلا على حكم العلاء وقد ازدان بهم الكون زينة رفيعة ، من كل شجاع على كاهله لبد كآته  
ليث حقيقى ، والليث لا يغمض عينه ولا يستطيع الصبر على هوان وضيم . وحرى بنا أن  
نترجم الآن ليحيى السلاوى السودانى وعثمان هاشم .

#### الشيخ يحيى<sup>(٤)</sup> السلاوى السودانى

ولد الشيخ يحيى السلاوى السودانى بالخرطوم حوالى سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م وهو  
ابن عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة الذى مر فى شعراء المديح أنه كان من شعراء المهدي  
وذكرنا له أبياتا من قصيدة فى مديحه هناك ، وكان ابنه يحيى شاعرا مثله ، ونراه حين  
نشبت ثورة عراقى بمصر سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م يطلب من مدير دنقلة ترحيله إلى  
مصر ، ويرفض طلبه ، فيبرق إلى محمد رءوف باشا حاكم السودان . البيتين التاليين :

مولائى عَزَّ ترحلنى      وغدوتُ مقصوصَ الجناحِ  
فأرِشُ جَنَاحى مثلما      عودتنيه ولا جُنَاحِ

فأبرق رءوف باشا إلى مدير دنقلة بترحيله على نفقة الحكومة إلى مصر ، وبمجرد أن نزلها  
اندمج فى الثورة ، وعرف أحمد عراقى أنه شاعر فطلب إليه أن ينظم قصيدة لطبعها ونشرها

(٣) أكثاده جمع كند : مجتمع الكتفين .  
(٤) انظر فى ترجمة يحيى السلاوى وقصيدته نقات  
اليراع ص ٨٣ وشعراء الوطنية فى السودان ص ٢٨ ،  
٢٩٩ .

(١) شعراء السودان ص ٢٩٣ ونقات اليراع ص ١٣٩  
وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٢٩ وما بعدها وانظر  
ديوانه .  
(٢) الغر : المشاهير . الميامين : المباركين .

في أرجاء مصر - ويقول محمد عبد الرحيم في ترجمته له بكتابه نفاث اليراع إنه نظم - تلبية لعرابي - قصيدة يائية من تسعة وتسعين بيتا عثرنا على طائفة من أبياتها ، وبلغ من اهتمام عرابي والشعب المصري بها أن طبعت بماء الذهب وبيعت في شوارع القاهرة ، وكان ثمن النسخة منها جنيها ذهبا ، وبلغ ما عثر عليه محمد عبد الرحيم منها خمسة وأربعين بيتا وهي أشبه بمنشور ثوري وهو يستهلها بقوله :

شُغِلَ العِدَا بتشتتِ الأحزابِ	واللهُ ناصرُنَا بسيفِ عرابي
والقطرُ فيه من الرجال كفاءة	للحادثات فهمُ أولو الألبابِ
وحمةُ الإسلام تقضى بالوفا	حتمًا على كل امرئٍ أوَّابٍ <sup>(١)</sup>
ومحبةُ الوطن العزيز تحثهم	والفلجُ إذنٌ باتباعِ صوابِ
والمشركون خواسرٌ في سعيهم	هزُموا وقد نكصوا على الأعقابِ <sup>(٢)</sup>

والشيخ يحيى يقول إن الإنجليز شغلوا بتشتت جندهم ، وسماههم الأحزاب أسوة بغزوة كفار قريش والعرب المسماة غزوة الأحزاب ، ويقول إن الله ناصرنا بسيف الحق : سيف أحمد عرابي ، والقطر مليء برجال أكفاء لهؤلاء الأعداء ، وهم مملوءون حمية للإسلام ، تأمر كل مسلم أوَّاب متبتل لربه بالوفاء لدينه الحنيف والدفاع عنه بالروح ، وأيضاً مملوءون محبة للوطن تحثهم على الدفاع عنه وهو دفاع سينتهي إلى النصر المين ، وقد نصرنا فعلاً في بعض المواقع ، وهو إذنٌ ويشري بالنصر التام وإن الإنجليز لخاسرون في حربهم إذ هزُموا ورجعوا ناكسين على أعقابهم . ويمضى قائلاً :

هيا بنا يا أهل مصرَ إلى الرضا	والفوزِ في العُقْبَى بغير حسابِ
أنتم أولو الهمم التي بسهامها	كم من عدوٍّ أبَ شرَّ إيابِ
لا تشغلنكم الحياةُ فإنها	ذل لمن يرضى بهتك جنابِ
ولقد نرى إخواننا في حالةٍ	تحتاجُ للأعوان والأصحابِ

وهو يهيب بأهل مصر أن يؤيدوا عرابي ويشتركوا في حرب الإنجليز طلباً للفوز في الآخرة ويقول إنكم أولو الهمم المصممة ، وما أكثر ما نكلتم بأعداء بلدكم حتى آبوا شر مآب ، ولا تشغلنكم الحياة عن واجبكم في الدفاع المستميت عن بلدكم ، وإنه لذل لأي أمة ما مثله ذل أن ترضى بهتك العدو لأي ناحية من نواحيها ، وإن إخواننا من الجنود وقادتهم لفي حاجة إلى العون المادي والحربي ، ويذكر بعض الشخصيات التي ناصرنا عرابي وأمدته بعون قيم .

(٢) نكصوا على الأعقاب : رجعوا عما كانوا اعتزموه .

(١) أوَّاب هنا : متبتل إلى ربه .

والقصيدة وثيقة مهمة في موقف الشعب من ثورة عرابي وتأيدته له في حربه ضد الإنجليز الغاشمين . ويقول محمد عبد الرحيم : لما دخل اللورد ولسلي بجيشه الإنجليزي إلى القاهرة وأخذت الحكومة تقبض على دعاة الثورة لجأ الشاعر يحيى إلى السيد محمد سر الختم الميرغني ، فساعده على السفر إلى الآستانة ، وهناك عُيِّن مفتشا للغة العربية في وزارة المعارف التركية .

### عثمان<sup>(١)</sup> هاشم

ولد في مدينة بربر أواخر سنة ١٨٩٨ للميلاد ، وهو من الأسرة الهاشمية السودانية التي شاركت بقوة في العلوم الإسلامية ، وهي تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب ، ومن أعلامها أبو القاسم هاشم شيخ علماء السودان ومؤسس المعهد العلمي الديني بأم درمان سنة ١٩١٢ والطبيب أحمد هاشم مفتي السودان . بدأ حياته الدراسية بالاختلاف إلى كتاب لحفظ القرآن الكريم ، وتركه قبل أن يتمه للالتحاق بمدرسة مدينة بربر الابتدائية ، ومنها تحول إلى القسم الابتدائي في كلية غوردون وتخرج فيه وعمل في الحكومة السودانية موظفا منذ سنة ١٩١٥ . وشغف بالشعر العربي مبكرا فأكبَّ على دواوينه واستيقظت فيه الموهبة الشعرية سريعا ، ونظم في موضوعات مختلفة جمع منها سعد ميخائيل باقة بديعة حين ألف كتابه شعراء السودان سنة ١٩٢٣ منها قصيدة حماسية في بطل الأناضول مصطفى كمال أتاتورك ، وكان الحلفاء بعد الحرب العظمى الأولى في هذا القرن أغروا اليونان باحتلال أزمير وشرط كبير من الأناضول ، واستحال الشعب التركي إلى عصابات مسلحة تقاوم هذا الاحتلال وانضمت إليها قوات نظامية ، وقاد المقاومة سنة ١٩٢١ مصطفى كمال ، وأخذ الترك يسحقون اليونان سحقا ، حتى اضطر من بقي منهم إلى خروجهم من الأناضول جميعه في سبتمبر سنة ١٩٢٢ وعادت تركيا - بفضل مصطفى كمال - إلى الظهور ببطولتها الحربية القديمة ، وحيَّاه عثمان هاشم بقصيدة رائعة ، يقول له في مطلعها :

ضربت بسيف الحق فاندك باطل	وجئت بما لم تستطعه الأوائل
ودافعت عن دين النبي محمد	ولم تثن منك العزم تلك القنابل
غضبت لدين الله لما رأيت	تمد له من كل حذب غوائل <sup>(١)</sup>
فلما توسطت الأناضول صحت في	بنيه ألا هبوا دفاعا وناضلوا
فلبتك من أبناء عثمان عصبه	لها في صميم الترك مجد ونائل
وهاجوا غضابا كالأسود وأقسموا	بأن يصدقوا بالفعل ما أنت قائل

وهو يقول لمصطفى كمال : ضربت جند اليونان بسيف الحق فاندك حصن باطلهم واحتلالهم الأثيم ، ودافعت عن دين سيد الخلق محمد ، لا تثنيك قنابل الأعداء ، إذ غضبت للدين الخفيف

(١) انظر في ترجمة عثمان هاشم وشعره شعراء السودان ص ٢١٤ .



غضبة ضارية ، فقد رأيت دواهي كثيرة تحيط به من كل حَدَبٍ وطريق . ولما توسطت الأناضول صرخت في أهله : هُبُوا وناضلوا عن حماكم ، ولَبَّكُ من أبناء الترك عصابة ذات مجد وعطاء عظيم ، وهاجت هياج الأسود تدافع عن عرينها . ويخاطب مصطفى كمال مصورا بلاء الترك في الحرب إلى أن أحرزوا النصر النهائي العظيم قائلا :

أحاطَ بك الأعداءُ حتى كأنهم • خِصَمٌ عَظِيمٌ لم يَبِينْ منه ساحلُ  
وكم سفكوا منكم دماءَ بريئةً • وكم سفحتُ للدَّمعِ منكم أرامِلُ  
وما هدُّ هذا منك حزمًا عزمته • وكيف تهذُّ الراسياتُ المعاولُ  
فَسَقِيًا لأقوامٍ سَقُوا بِدمائهم • تَرَى وَطَنِي مُدَّتْ إليه الحبالُ (١)  
وذاذوا عن الدين الحنيفِ بغيره • كأن صدور القوم منها مَراجِلُ (٢)  
هنيئًا لك النَّصْرُ المبين وليتني • بجيشك جندي تطوَّع بأسل

ويقول عثمان هاشم إن جنود اليونان كانوا كثيرين حتى كأنهم بحر زاخر لا تين له سواحل ، وكم أراقوا من دماء الترك الطاهرة ، وكم بكت منهم أرامل فقدن أزواجهن ، وما هدُّ ذلك منك شيئاً من حزمك وعزمك ، وحقا لا تهذُّ المعاول الراسيات الشامخة . ويدعو الله لهم بالسقيا والرعاية جزاء لدمائهم التي سقوا بها ترى وطنهم المقدس ، وقد مُدَّتْ إليهم مصايد المكر والغدر ، ودافعوا عن الدين الحنيف بغيره وحمية ، حتى كأن صدورهم مواقد مشتعلة من شدة الغضب . ويمضي عثمان هاشم في قصيدته ويختمها بتهنئة حارة لمصطفى كمال بنصره المبين ، ويتمنى لو كان جنديا باسلا في جيشه ، ونال حظا من شرف هذا النصر العظيم . ويقول مفاخرها بقومه :

إني لمن معشرٍ طابت أصولهم • فطاب فرعهم والنسل والنسبُ  
إن نابك الدهرُ فاستنجدتهم نجدوا • أو مسك الضرُّ فاستنهضتهم وثبوا  
عُرَّ جحاجة شَمِّ غَطَارِفِسةً • صيدٌ جهابذة بل سادة نُجُبُ (٤)

يشير إلى أنه من معشر شريف - إذ هو سليل العباس بن عبد المطلب - معشر طابت أصولهم فطابت فروعهم وطاب نسلهم وذريتهم ، وطاب النسب والانتماء إليهم ، إن أصابك الدهر بنائبة أو كارثة واستنجدتهم نجدوك بكل ما يستطيعون ، وإن مسك ضر واستنهضتهم

(٤) غر : مشهورون . جحاجة جمع جحاجح : السيد السمح الكريم . شم جمع أشم : الترفع . غطارفة جمع غطريف : السيد . صيد جمع أصيد : الزهو بنفسه . جهابذة جمع جهيد : المحرب . نجب جمع نجيب : فاضل .

(١) الحدب : ما ارتفع وغلظ من الأرض . غوائل جمع غائلة : الداهية .  
(٢) الحبال جمع حبال : المصيدة .  
(٣) مارجل جمع مرجل : القدر . يريد أنها تفل غليان القدر .

للدفاع عنك وثبوا إليك سراعا ، وهم مشهورون سمحاء كرام مترفعون سادة مزهونون بأمجادهم أصحاب فراسة ، بل هم سادة فضلاء . وللشاعر مقطوعة ثانية فى الفخر يقول فيها عن قومه :  
 قومٌ لقد طابت سرائرهم فلم ترَ غيرَ بذلٍ نَدَى وبَسَطِ كُفوفِ  
 هم أفضلُ العربِ الكرامِ عشيرةٌ وأعزُّ أنساباً وشُمُّ أنسوفِ<sup>(١)</sup>  
 وهمُ الشموسُ إذا الحوادثُ أظلمتُ وهمُ البدورُ بنورها المعروفِ  
 وهو يقول إن قومه قد طابت سرائرهم ودخائلهم ، وهم غيوث مدرارة فى الجود والكرم .  
 وهم أفضل العرب عشيرة ، إذ هم من عشيرة الرسول ﷺ ، لذلك كانوا أعزَّ أنساباً وشُمُّ  
 أنوف مترفعين ، وإذا أظلمت الدنيا كانوا شمسها المنيرة وبدورها المضيئة .

#### ٤

### شعراء الرثاء ( أ ) رثاء الأفراد

بأخذ رثاء الأفراد فى الشعر العربى أشكالا ثلاثة هى الندب والتأين والعزاء ، والندب عادة للأقارب وخاصة الأبناء ويمتلئ بالتفجع عليهم والتحسر والحزن الممض ، والتأين لشخصيات القبيلة والأمة لبيان فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم ، والعزاء لبيان أن الموت من سنن الحياة وأنه لا يبقى على أحد سيدٍ ومسود . وقد يجمع الشاعر بين هذه الأشكال الثلاثة أو يفرد مرثيته لشكل أو شكلين ، ولكل أمة عربية مراثيها ، وخاصة لرجالها المهمين ، وقد مرت بنا دعوة المهدي ، وهو أهم الشخصيات السودانية فى القرن الماضى ، وقد حقق للسودان استقلاله فى سنوات معدودات ، وليئى سريعا نداء ربه وهو فى الحادية والأربعين من عمره ، وبكته السودان وبكاه شعراؤها وفى مقدمتهم الشيخ إبراهيم شريف الدولابى الكردفانى ، ويستهل مرثيته بقوله<sup>(٢)</sup> :

ورُقوءُ دَمَعِ محاجرى المفجورِ <sup>(٣)</sup>	كيف التئامُ فؤادى المفطورِ
أحشاؤها تصلى على التَّنُورِ <sup>(٤)</sup>	أم كيف ينفكُّ الضنا عن مُهَجَّةِ
قد كان معصوماً عن المحظورِ	أسفٌ على المهديِّ من مَهْدِ الصُّبا
كلُّ البلادِ بجيشه المنصورِ	فَتَحَ الفتوحَ ودمَّرَ الكُفَّارَ فى
طامٍ وبحرِ حقيقتِهِ مَسْجورِ <sup>(٥)</sup>	هو مجمعُ البحرينِ : بحرِ شريعةِ

وهو يقول إن فؤاده انفطر وانشق حزنا لموت المهدي ولن يرقأ أو يجف دمه المتفجر ،

(٣) المفطور : المنشق . رقوء : انقطاع .

(٤) التَّنُورُ : الموقد .

(٥) مسجور : مملوء .

(١) شم أنوف : متعالون مترفعون .

(٢) انظر القصيدة فى شعراء السودان ص ٢٧ وشعراء

الوطنية ص ٣٣٦ .

ولن ينفك الضنا عن مهجته ، وكأنما تصلى أحشاؤها وتتحرق على تنور مشتعل ، ويأسف على المهدي ويقول إنه كان معصوماً عن المحظور المحرم منذ صغره ، ودمر جيشه الجيوش التي لقيته . وينعته بأنه كان مجمعا لبحر الشريعة الطامى الزاخر وبحر الحقيقة الإلهية المملوء نسكا . ويمضى الشاعر في مرثيته منشدا :

قد كان قوام الدجى متبلا متواصل الإحسان غير فخور  
 طلق المحيا خاشعا متواضعا كهف الفقير وجابر المكسور  
 لا يتغنى جاهاً ولا مالا ولا عز الملوك ولا ارتقاع الدور  
 تبكى المساجد والمخارب فقهه ومواطن الأذكار والتذكير  
 يا طيب أرض ضم جسمك ترثها تزرى بعرف المسك والكافور

وهو يصف المهدي بأنه كان قوام الليل مصليا متبلا لربه ، مواصلا الإحسان للفقراء والمساكين دون أى فخر أو من ، طلق المحيا بشوشا خاشعا متواضعا ، كهفا للفقير وملجأ وجابرا للمكسور ، لا يفكر فى جاه ولا فى مال ولا فى عز الملوك وحياتهم المترفة ولا فى القصور المشيدة ، وبكته المساجد والمخارب وبقاع أذكاره وتذكيره ، وما أطيبت الأرض التي ضمت جسده ، إن شذاها يزرى بشذا الطيب من المسك والكافور . ويكى المهدي الشيخ محمد الطاهر المجذوب بمرثية يفتحها بقوله<sup>(١)</sup> :

دهتنا دواه يضرس القلب نابها ويوقد فى الأحشاء نارا منابها<sup>(٢)</sup>  
 غداة نعى الناعون مهدينا الذى به ملة الإسلام جل مصابها  
 إمام الهدى المهدي أفضل من دعنا إلى الله مفتاح النجاة وبابها  
 ألا قد أصينا إذ عدنا حيينا وضائق بنا الأرض الواسع رحابها  
 ليك له الدين الحنيف وملة أبان هداها حين تم خرابها

والشيخ المجذوب يقول إنه نزلت بهم دواه يعرض نابها القلب ويوقد منابها فى الأحشاء نارا غداة نعى الناعون المهدي الذى جل مصاب الدين الحنيف فيه ، إنه إمام الهدى ومفتاح النجاة من النار وبابها ، ولقد أصينا فى حيينا وضائق بنا الأرض الفسيحة الواسعة الرحاب ، ألا فليكن الإسلام وملة أوضح هداها بعد أن خربت خرابا لا آخر له . ويكثر رثاء الشعراء لآبائهم فى السودان ، من ذلك قول القاضي أحمد المرضي المولود سنة ١٨٨٤ للميلاد فى رثاء أبيه<sup>(٣)</sup> :

(١) نغاث البراع ص ٩٤ وشعراء السودان ص ٣١١

(٢) يضرس : يعرض .

(٣) نغاث البراع ص ١٥٠ .

شعراء الوطنية ص ٣٣١ .

لقد آن أن أبكى وأغرى البواكيا .  
وأصبغ عَبراتي دماً ليس ناضباً  
أبي ما أبي حرٌّ كريمٌ وذو وفا .  
أمينٌ على سرِّ الأخلاء حافظٌ  
تبوأ مهدَ العزِّ من نشأة الصبأ  
وأنظم من حبِّ الدموع المراثيا  
يخذُ خدودي مُترَعاً والأماقيا<sup>(١)</sup>  
وما كان ذا وجهين وغلاً مداجيا<sup>(٢)</sup>  
وكان لإخوان الصفاءِ مواسيا  
وشبُّ على هام المكارم ساميا

والمرضى يقول إنه حان أن يبكى ويغرى الباقيات بالبكاء وينظم من درر الدموع عقود المراثي ويصبغ عبراته بالدم الذي لا ينضب ولا يجف ، بل يشق الخدود وأماق العيون شقوفا ملأى به . وينوه بأبيه فهو حر كريم وفى ، وما كان يوماً ذا وجهين نذلاً منافقا ، بل كان دائماً أميناً على سر إخواته : إخوان الصفاءِ مواسيا لهم ، نزل مهد العز وأقام به منذ صباه ، وشبُّ على رعوس المكارم ساميا سمو متصلا . ويكفي الشاعر الشيخ عبد الله البنا أباه الشيخ محمد بن عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية الذي ترجمنا له بين شعراء المديح بمرثية مؤثرة ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

عَيْنُ الكَمالِ هُولَ يومِكَ تَذْرِفُ      والمجدُ يَرْعُدُ والشريعةُ تَرْجُفُ  
رَفَاعُ أُلويةِ العلاءِ أرى العُلا      بهجورةً طرقاتها تلهفُ  
كشافَ غَمائِ المظالمِ بالهدى      حارَ الهدى لما تَوَى مَنْ يُنصِفُ  
يا قومُ حامى السُّرحِ أقصده الرَّذى      بكوا له بدم القلوب وتزفوا  
حجبوا السُّنَاءَ عن النواظر حينما      هالوا عليك من الترابِ وأسرفوا

وهو يقول لأبيه إن عين الكمال تذرف الدمع مدرارا لهول يوم موتك ، والمجد يرعد رهبة والشريعة ترجف فزعا لموتك ، ويخاطبه : يا رافع أُلوية العلاء والشرف أرى العلاء هُجرت طرقاتها وتلفت متلهفة لو تراك . ويا كاشف غمة المظالم فى القضاء بنور هداك حار الهدى لما مات من ينصف المظلومين . ويلتفت الشاعر إلى قومه فيقول لهم إن الموت طعن حامى الحمى طعنة نافذة فابكوا له بدم القلوب حتى تنزفوه وتفنوه ، ولقد حجبوا ضياءك عن العيون حين هالوا عليك التراب وأكثروا منه . وكان يعاصر هذا الشاعر محمد سعيد العباسي ، وأنشد له صاحب كتاب الشعراء فى السودان طائفة غير قليلة من المراثي .

(٣) ديوان البنا ١/١٦٥ .

(١) ناضباً : نافلاً . يخذ : يشق .

(٢) وغلاً : نذلاً . مداجيا : منافقا



الشيخ محمد<sup>(١)</sup> سعيد العباسي

ولد بالكوة على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم لأبيه محمد شريف شيخ الطريقة السمانية سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م وعنى بتربيته منذ نعومة أظفاره ، فأقرأه القرآن الكريم على مشايخ مهمين ، وحفظه ، فألحقه بأربعة شيوخ من علماء السودان لتعليمه العربية والعروض ، هم الشيوخ : عيسى الدولابي وإبراهيم الركابي ومحمد بدوي وأحمد العاقب الرطابي ، ولما أصبح ككثير حاكما للسودان أشار على أبيه أن يلحقه بالمدرسة الحربية المصرية ، وسافر إليها سنة ١٨٩٩ للميلاد وظل بها سنتين في تلك المدرسة ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أستاذ اللغة العربية الشيخ عثمان زنتي ، وتفتحت موهبته الشعرية حينئذ وأخذ ينظم بعض أشعار كان يعجب بها أستاذه ويشجعه ، وأحسَّ بحنين شديد لبلاده وبواديه التي كان يرتادها في غربي السودان ، وقطع دراسته وعاد إلى موطنه يجوب بواديه متمتعا بمناظرها ويصفها في شعره مرارا وصف المفتون بها ، وبحق لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه تاريخ الثقافة العربية في السودان - وكذلك الدكتور محمد إبراهيم الشوش في كتابه الشعر الحديث في السودان - تأثيرها العميق في شعره . وقد ظل وفيًا لمصر بارًا ومحبا ، وشعره يكتظ بها وبالعواطف الوطنية والقومية والجوانب الاجتماعية . وجميع هذه الموضوعات عند العباسي اتسعت بعد ثورة سنة ١٩٢٤ التي نجعلها فاتحة العصر الحديث في السودان ونهاية للعصر الذي نؤرخ فيه للشعر السوداني ، وقد انتقلت إلى الشاعر رياسة الطريقة السمانية الصوفية منذ وفاة أبيه سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٨ م وهو جانب صوفي جدير بتبعه ودراسته عنده . ويعد أهم شعراء هذا العصر الذي نؤرخ له من حيث دقة الخيال وجمال الصياغة . ومن قوله في رثاء أبيه :

إن الليالي ذوات الغدْرِ راعيةٌ  
وكان عهدى بها تسطو على مهلي  
بالسيدِّ السَّنَدِ بن السيدِّ السَّنَدِ الـ  
يمحُّضُ الرشدَ للغاوى ويوضح من  
أزالَ عن مشكلات العلم منطِقُه  
وإن تكلم في علم السلوك له  
ختالةٌ ونفوسُ الناس مرعاه<sup>(٢)</sup>  
واليوم صالت يمينها ويُسراها  
رأقى سماءَ فخارٍ عزَّ مرَفاها  
مناهج الحق للقُصَّاد أهداها  
براقع الوهم عن زاهي مُحيّاها  
فيه عبارات ذوقٍ ما أُحَيِّلاها

وهو يقول إن الليالي الغدارة الخادعة دائما ترعى نفوس الناس نفسا بعد نفس ، ويذكر

ص ٤٤ وما بعدها والفصل الثالث في كتاب الشعر الحديث في السودان : الحلقة الأولى : للدكتور محمد إبراهيم الشوش . وللعباسي ديوان ضخم باسم ديوان العباسي مطبوع بمصر .  
(٢) ختالة : غدارة .

(١) انظر الشيخ محمد سعيد العباسي وترجمته وشعره في شعراء السودان ص ٢٨٥ ونفثات اليراع ص ١٣٥ وتاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٩ وكتاب محمد سعيد العباسي للدكتور أحمد عبد الله سامي ( طبع دار الإرشاد بالخرطوم ) وكتاب الشعر والشعراء في السودان لأحمد أبو سعد

أن عهده بها تبطش على مهل ، ويراها اليوم تصول بيسراها ويمناها على أيه الذي كان سندا يعتمد عليه ، والذي صعد إلى سماء فخر يصعب الصعود إليها ، ويقول إنه كان يسدى النصح للضال عن الهدى ويوضح طريق الحق لقصاده الكثيرين الذين يبغون منه الرشاد ، وكان يرفع حجب الوهم عن مشكلات العلم ووجه الصواب الزاهي . أما في التصوف والتقى فكانت له عبارات محكمة حلوة . ويكي طائفة من آبائه منشدا :

أولاك آبائي الذين يطولهم	طالت يدي وسموت من ساماني <sup>(١)</sup>
أولاك هم بصر الكمال وسمعه	وهم لأهل الفضل كالعنوان
بمعارف وعوارف قدسية	كالشمس لا تخفى على إنسان
هم صيروا نهج الهداية واضحا	للطالين قصيهم والداني
نظروا إلى الدنيا بعين بصيرة	فتحولوا عن ذا الوجود الفاني

والعباسي يذكر أن هؤلاء الآباء الذين رثاهم بفضلهم علا شأنه وسما على من ساماه وفاخره ، ويقول إنهم بصر الكمال وسمعه ، وهم كالعنوان لأهل الفضل بمعارفهم العلمية وعوارفهم القدسية وهم كالشمس لا يخفى فضلهم على أحد ، وقد صيروا طريق الهداية واضحا للناس البعيد منهم والقريب وقد نظروا إلى دنياهم بعين بصيرة فازدروها وتحولوا عن دار الفانية إلى دار الخلود . ويقول في رثاء أستاذه الشيخ محمد البدوي مؤثنا :

كشف النقاب عن العلوم فزفها	خودا تفوق على الحسان الخرد <sup>(٢)</sup>
من للعلوم جميعها ولفقه ما	لك والحديث صحيحه والمُسند
وبيانها وبيديها وأصولها	في منطقي وعويصها المتعقد
إني أعزى كل أمة أحمد	بمصيبة الخبر الإمام محمد
وعليك يا دنيا السلام فقد خوت	شمس الكمال وغاب بذر السوود <sup>(٣)</sup>

وهو يوضح مدى الخسارة العلمية في أستاذه فقد رفع الحجاب عن العلوم وزفها إلى تلاميذه كفتاة جميلة تفوق في جمالها الحسان المتلألآت الفاتنات ، ويقول من يحل محله للفقه والحديث النبوي ولعلوم البيان والبديع والأصول وتذليل العويص والمشكل فيها . ويعزى الأمة الإسلامية في مصيبتها به ، ويقول : على الدنيا السلام فقد هوت شمس الكمال وغاب بدر المجد والشرف .

### (ب) رثاء المدن

عرف الشعر العربي رثاء المدن منذ رمى عبد الله بن طاهر قائد المأمون بغداد بالمجانيق

(١) طول: فضل : طالت : علت وارتفعت . ساماه : فاخره .  
(٢) الخود : الفتاة الجميلة . الخرد جمع خريدة :  
(٣) خوى : هوى وسقط . اللؤلؤ والمرأة الفاتنة .

واشتعلت بها النيران والحرائق فقد رثاها غير شاعر ، ورثى ابن الرومي البصرة حين نكل بها الزنج ، وأكثر الأندلسيون من رثاء مدنها حين سقوطها في حجور الإسبان ، ورثى ابن رشيق وابن شرف القيروان حين أغارت عليها قبائل الأعراب من بني هلال وسليم في أواسط القرن الخامس الهجري وخرّبتها . ولم يحدث شيء من ذلك لمدينة في السودان ، إنما حدثت أحيانا أمطار وسيول هدمت مباني بعض المدن وأصبحت كثرة أهلها في العراء سوى من مات منهم وجرفته السيول . ومدينتان حدثت لهما هذه النكبة المروعة هما عطبرة وأم درمان . وكانت نكبة عطبرة سنة ١٩٢١ للميلاد أشد هولا ، فقد انقضت بها كثرة من المنازل ، وعمّ اليوس كثيرا من الأسر ، ومن رثاها مستصرخا للناس أن يمدوا أهلها بالعون والمساعدات عبد الله كردى ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

يا آلَ عطبرة تعهد حيكم	وبلّ بسارية الدموع هطول <sup>(٢)</sup>
جرف المنازل ثم طوح بعضها	فإذا بها فوق الفضاء طول
لَهْفَى على دورِ هوى بنيانها	بالأمس فيه لساكنيه حلول
لَهْفَى على تلك العروش فإنها	طاحت وأقوى ربُّعها المأهول <sup>(٣)</sup>
لَهْفَى على مالٍ غريقٍ ربه	متجلدٌ وفؤاده متبول <sup>(٤)</sup>
يا معشر الكرماء هل من رحمة	إنَّ الضعيف لفضلكم موكل
إن تُنفقوا فالفضل لا يُنسى لكم	أبدا ويحمدكم عليه الجيل
والله يجزيكم ومن يُجزي غدا	عن صالح فصيحُه مقبول

وهو يقول لأهل عطبرة إن منازلكم تعهدا ونزل بها خطب عظيم إذ ظلت ساريات الليل وسحبه تصب عليها سيول المطر التي جرفتها ، وطوّحت بها في الفضاء من حولها ، وأصبحت تلك المنازل طولولا خربة ، بعد أن كانت عامرة بأهلها . واحسرتها على تلك الدور التي خر بنيانها وتلك العروش التي تداعت وأقفرت من سكانها ، والأموال التي غرقت في السيول أمام أعين أصحابها ، وهم متجلدون ذاهلون . ويسترحم الكرام لهؤلاء الضعفاء البؤساء ، ويقول لهم إن كل ماتوا سونهم به وتنفقونه لن يُنسى لكم أبدا ، وسيظل هذا الجيل يحفظه لكم ويحمدكم عليه ، والله يجزيكم خير الجزاء لهذا العمل البار الذي لا شك في أنه عمل صالح ، وسيقبله الله منكم . وتنزل بأم درمان سيول كاسحة ويرثيها مدثر اليوشى ، ومن قوله<sup>(٥)</sup> :

(٣) طاحت : تراست : أقوى : أقفر

(٤) متبول : منهول .

(٥) شعراء السودان ص ٣٣٨

(١) شعراء السودان ص ١٨١ .

(٢) ويل : مطر . سارية السحابة ليلا . هطول : شديد

الانصباب .

هَمَرَ الرُّكَّامُ فِسامَ أَزْهَارِ الرُّبَى      حَسَفًا وَعِاثَ بَرُوضَةٍ وَوَهَادٍ<sup>(١)</sup>  
 تُذْرَى الدَّمَاءَ عَلَى الخُدُودِ أَرَامِلٌ      يَنْدِبْنَ خَشِيَةَ ضَيْعَةِ الأَوْلَادِ<sup>(٢)</sup>  
 عَبَسَ الزَّمَانُ بِوَجْهِهِمْ فَأَذَاقَهُمْ      مَا لَمْ يُذْقَهُ مَكْبَلُ الأَصْفَادِ<sup>(٣)</sup>  
 مَنْ ذَا يُسَرِّي هَمَّهُمْ وَيَرْجِئُهُمْ      مِنْ نَقْمَةٍ طَرَقَتْهُمْ وَعَوَادِي<sup>(٤)</sup>  
 فَالغَيْثُ قَدْ أُخْطَا وَمَا يَدْرِي أبا      لِأَرْضِ السُّوَيْيَةِ سَالِ أُمِّ بالوَادِي  
 لَكِنَّهُ حُمَّ القَضَاءِ لَتَعْلَمُوا      أَنْ الحَيَاةَ مَعُونَةٌ وَأَيَادِي<sup>(٥)</sup>

ومدثر يذكر أن ركام المطر انهمر انهما را شديدا فأنزل بأزهار الربى حسفا وهوانا وعاث  
 فسادا بالرياض والوهاد ، وسالت دموع الأرامل دماء على خدودها يندبن ويكين خوفا من  
 ضيعة الأولاد . ويقول إن الزمان عبس وتجهم في وجوههم فأذاقهم من ضنك العيش ما لم  
 يذقه المكبل بالأغلال ، ويهتف الشاعر في الناس : من ذا يزيل همومهم ويريجهم من عذاب  
 هذه الكارثة التي نزلت بهم ومن عوادي الدهر ونوائبه ، ويذكر أن الغيث أخطأ ، وسقط  
 دون أن يدرى يسقط على أم درمان أو على واد من الوديان ، ويهتف في قومه : لقد حُمَّ  
 القضاء وقدر ، لتعلموا أن الحياة معونة نومن سابغة ، فواجب عليكم أن تسعفوا أهل أم  
 درمان أشقاءكم ، وتعينوهم بالمنن والنعم الوافرة .

(١) ركام المطر : ما تراكم منه . سامه حسفا : أنزل به هوانا .  
 (٢) تدرى : تسيل .  
 (٣) عبس : تجهم . مكبل : من كبله أى قيده .  
 (٤) يسرى : يزيل . عوادي : نوائب الزمن وكوارثه .  
 (٥) حم : قضى وقدر .



## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل العفيف

مر بنا في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي أن الغزل حيثئذ كان نوعين : نوعا ماديا صريحا ونوعا عذريا عفيفا ، وشاع النوع الأول في المدن التي تحضرت على لسان عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ، بينما شاع النوع الثاني في بوادي نجد والحجاز وعلى لسان فقهاء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي . ولم يعرف السودان النوع الأول الصريح الذي يصور جمال المرأة المادى وحب الشاعر الحضري وأحاسيسه وصدوره فيه أحيانا عن الغريزة النوعية ، إنما عرف الغزل العذري النقي الطاهر على لسان بعض شيوخه وألسنة شبابه ، لأن حياتهم كانت تقوم دائما على الخلق الكريم ومثالية الإسلام السامية . ونسوق بعض أمثلة توضح ذلك ، مع ملاحظة أن كثيرا من هذا الغزل كان ينظم في فواتح قصائد المديح وغيره أسوة بالشعراء القدماء ، على نحو ما نجد عند الشيخ عمر الأزهرى المتوفى سنة ١٩١٥ للميلاد في افتتاحه لنبوياته كقوله في مطلع إحداها<sup>(١)</sup> :

بادِ هواهُ وزائِدٌ خفقاَنُهُ      صَبٌّ تفرَّقَ بالنُّوى أخذانُهُ<sup>(٢)</sup>  
قد خانته حسنُ التصبُّ بعدما      بانوا ووفَّتْ بالبُكا أجفانُهُ  
عجبا لربعٍ باللُّوى لعبتْ بهِ      أيدي النُّوى ففرقتْ سَكَّانُهُ  
ياظاعنا يطوى الفَلا رفقاَ فإِنَّ      الرِّكبَ ضلَّ من السُّرى وخدانُهُ<sup>(٣)</sup>  
وقفِ المطىِّ ولو كلمحةَ ناظِرٍ      فعسى المعنى تنطفي نيرانُهُ  
وارحمْ محباً صدرُهُ ضاقتْ بهِ      أسرارُهُ وتزايدتْ أشجانُهُ

وهو يذكر أن علامات الهوى من الشحوب والضنا واضحة عليه وخفقان قلبه مفرط ، إنه محب ، شئتَ النوى والبعاد أصدقاه ، ولم يعد يستطيع صبرا بعد نأيهم وفراقهم وقد انهمرت الدموع من أجفانه ، ويعجب لعبث أيدي الفراق بسكان ربع باللوى : ربع الحبيبة ، ويهتف بالراحل مع ركبهِ يطوى الفيافي أن يرفق به فإن الركب ضل في الليل بسيره السريع ،

(٣) الوخدان : ضرب من سير الابل السريع

(١) شعراء السودان ص ٢٥٢ .

(٢) أخذانه جمع خدن : الصديق .

ويقول له قف المطي ولو لمحة ليتملى بجمال صاحبه ، عسى نيران الحب المشتعلة في فؤاده تنطفئ ، ويسأله الرحمة بمحب ازدحمت في صدره أسرار الهوى وشجونه . وللشيخ محمد عمر البنا في صدر مدحة قوله متغزلاً<sup>(١)</sup> :

أبدًا يورقني غيرُ شذاك      ويزيدني قلقًا دوامُ جفائك  
ويردني من حالة العقلا إلى      حال الخيال تذلي وإياك  
ويزيدنا طربًا وحسنَ مسرة      برقُ تألق من ضياء سنائك  
يا ربَّه الحُسن الذي فتن الورى      أكذا يكون جزاء من يهواك  
عذبتي بالصد والهجران ما      ذنبى سوى أتى أروم لِقائك

والشيخ محمد عمر البنا يقول إنه دائما مؤرق ، يورقه طيب عطر صاحبه وانتشاره ، ويزيده قلقا وحيرة دوام جفائها ، ويكاد يختبل عقله من كثرة تذله لها وشدة إياها ، وإنه ليسر به ويطربه شعاع برق يتألق من ضياء نورها ، ويضرع لها قائلا : ياربُّه الحسن الذى فتننت به الناس أهكذا تجزين من يجبك ، لقد عذبتي بالصد والهجران ولا ذنب لى سوى أتى أريد لقاءك لأروى الظمأ الحار إلى هذا اللقاء . ويلقانا معاصره الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وسنفرد له ترجمة ، ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين المدرس بالقسم الثانوى بكلية غردون متغزلاً<sup>(٢)</sup> :

ملك النهى والملكُ بعضُ صفاته      ريمٌ أغنُ يتيه بين لداته<sup>(٣)</sup>  
رشاً شدا فزعا لأنى رُعته      إذ جتته وفزعُ من لفتاته<sup>(٤)</sup>  
نشوانُ من خمر الدلال حسبته      هاروت كلُّ السحر فى لحظاته  
وسنانُ كاملُ يقظةٍ لكنه      كسر الجفون لكسر قلب دعائه  
كسلانُ أنشط من رأيت إذا أح      س بهائم متعشق لصفاته  
ضممت جوائحه اللطيفة صخرة      هى قلبه هيهات لى صفاته<sup>(٥)</sup>  
يا نرجسا يسقى لروض حدوده      كفكيف لنجنى السورد من ثمراته

والشيخ مجذوب يقول عن صاحبه إنها ظبي فى صوته غنة يتيه دلالا وجمالا بين لداته ، إنها ظبي لايزال صغيرا ، ترنم بصوته فزعا لأنه خاف حين رآنى ، وذعرت من كثرة لفتاته ، وحسبته متشيا من خمر الدلال كأنه هاروت وكل السحر فى لحظاته . ويرى كأنه وسنان لفتور عينية وهو كامل اليقظة ، وكأنما كسر جفونه - كما يقول - لكسر قلوب محبيه ، ويظن أن به كسلا وهو أنشط ما يكون إذار أى صبأ عاشقا له ، وقد ضم بين جوائحه قلبا كأنه

(٤) رشاً : ظبي صغير . شدا : ترنم .

(٥) الصفاة : حجر أملس عريض .

(١) شعراء السودان ص ٢٨١ .

(٢) شعراء السودان ص ٢٦٥ .

(٣) ريم : ظبي . أغن : بصوته غنة . لداته : أترابه .

صخرة أو صفاة أو حجر لا يلين أبدا . ويُذرى الدَّمع كأنما يريد أن يسقى روض خدوده ،  
ويقول له قف الدمع لنجنى الورد من روض الخدود البديع . ويقول صالح<sup>(١)</sup> عبد القادر :

وغزال همتُ فيه أسهرَ العينَ وناما  
ما كفاه الهجرُ حتى حرمَ العينَ الناما  
هو عمدا نكث العَهْدَ لم ولم ترعَ الذمَّاما  
لا تلوموا ذا شجونٍ سنَّ للناس الغراما  
كلما ناح اشتياقا علم النوحَ الحماما

وصالح عبد القادر هام بغزال أسهره ، وكأنما لم يكفه الهجران ، فحرم عينيه النوم ، وقد  
نقض العهد ولم يرع الذمام والميثاق ، ويقول لقومه لا تلوموا محبا شرع للناس سنن الحب  
وكلما ناح اشتياقا وولعا وهياما خيل إلى سامعه كأنما هو الذى علم الحمام النوح والعويل .  
ويقول عثمان هاشم متغزلا<sup>(٢)</sup> :

يا ظبيُّ هل لأسيرٍ لحظيك فادى  
جردت من لحظيك عَضْبًا فاتكا  
نلت المنى فى الحسن أنت ولم أتل  
لولا الحياء لقادنى لك فى الدجى  
أم لافكأك له من الأصفاد<sup>(٣)</sup>  
وهزرتَه ففتكت بالأساد<sup>(٤)</sup>  
من طيب وصلك بُغيتى ومرادى  
شوق أذاب حُشاشتى وفوادى<sup>(٥)</sup>

وهو يسأل صاحبه هل يوجد من يفدى أسيرا لعينيك الجميلتين أم لا خلاص له من أغلال  
هذا الأسر وقيوده ، ويقول : لقد سللت من عينيك سيفًا قاطعا ، وفتكت بالأسد الشجاع ،  
ولقد نلت فى الحسن كل ما تمنيت ، ولم أتل شيئا من طيب وصلك ، ولولا حيائى لقادنى  
إليك فى الليل شوق أذاب منى الحشاشة والفواد . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى<sup>(٦)</sup> :

بالله يا حلَو اللما  
صددت عني ظلما  
هلا ذكرت يا رشا  
رفقا بصب راح يه  
إن شام من نحوكم  
ويكتم الوجد وكم  
مالك تجفو مغرما<sup>(٧)</sup>  
أفديك يا من ظلما  
عيشًا تقضى بالحيمى  
سوى طيفك المسلما  
برقا أقام ماتما<sup>(٨)</sup>  
يغلبه أن يكما

(٥) حشاشنى : بقية روحى .  
(٦) نغثات البراع ص ١٣٦ وشعراء السودان ص ٢٩٥  
وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٩٧ وراجع ديوانه .  
(٧) اللما : سمرة فى الشفة .  
(٨) شام : رأى .

(١) شعراء السودان ص ١٤٩ .  
(٢) شعراء السودان ص ٢٢١ .  
(٣) الأصفاد : الأغلال .  
(٤) جردت : سللت . عضبا : سيفاحادا . فاتكا : قاطعا .

والغزل عذب رقيق رقة مفرطة ، وهو يستهله باستحلافه لحلو اللما أو سمة الشفة ماله  
يجفو صباً مغرماً به . ومع أنه يصد عنه ظلماً يفديه بروحه ، ويذكره بعيش وأيام مرت بالحمى ،  
ويقول له : ارفق بصب ، لم يعد له إلا طيفك في الحلم يهواه ، وإن رأى برقالمع من أفقكم  
ندب وبكى طويلاً ، ويكتم الوجد والهيام وكم يغلبه كتمانها . ويمضى في القصيدة منشداً :

لله محبوبٌ رأى      حبةً قلبي فرمى  
أعيدهُ من جائرٍ      حكمتُهُ فاحتكما<sup>(١)</sup>  
لقينهُ في أربعٍ      يبضُ كأمثال الدُّما  
شابهنَ أزهار الربِّ      مع وحكين الأنجما  
وقفْتُ فاستسقيتهُ      وشدُّ ما بي من ظمأ  
جاء بماءٍ قلت هل      حاجةٌ مثلي منك ما<sup>(٢)</sup>

وهو يشكو محبوبه لربه فقد أبصر سويداء قلبه وفؤاده فرماه ، ويعيده أن يكون ظلماً فقد  
حكّمه فنصرف حسب هواه ومشيتته . ويقول إنه لقيها في أربع جميلات من حولها كأمثال  
الدُّمى البديعة ، شابهنَ أزهار الربيع العاطرة والأنجم الساطعة ، وطلب منها جرعة ماء تشفى  
ظمأه ، وجاءته بالماء ، فقال لها مداعباً : وهل حاجة الصب المغرم مثلي منك إلى ماء ؟ ! . وهو  
يسترسل في القصيدة من هذا الحب للفتاة إلى حبه لمصر التي قضى فيها فترة من شبابه ،  
فملكته عليه ذات نفسه ، وظل يمجدها ويتغنى بها غناء حاراً طوال حياته في أشعاره وقصائده  
الرائعة . وتتوقف قليلاً لترجم للشيخ الجليل أبي القاسم أحمد هاشم ، ونعرض بعض غزلياته  
العفيفة الطاهرة .

### الشيخ أبو القاسم<sup>(٣)</sup> أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف

ولد في « برى » إحدى ضواحي الخرطوم سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٦١ م وهو من بيت شيوخ  
دين وقضاة ينتمون إلى العباس بن عبد المطلب ، وألحقه أبوه الشيخ أحمد هاشم بقرآء حفظوه  
القرآن الكريم ، وحفظه وهو في العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه إلى بربر قاضياً لمديريتها ،  
وألحقه بمدرستها ، حتى إذا اشتد عوده قليلاً أخذ يدرس العلوم الدينية واللغوية على أستاذه  
الشيخ محمد الخير عبد الله ، ثم على أستاذه الحسنى السيد حسين المجدى الأزهرى ، وعليه  
درس النحو وكتاب جمع الجوامع فى الأصول . حتى إذا نضج علمياً عُيِّن مدرساً بجامع بربر  
واستولى عليها المهدي فقرأ به منه واتخذة كاتباً له ، وبالمثل اتخذه خليفته عبدالله التعايشى ،

ص ٣١ وما بعدها والشعر الحديث فى السودان للدكتور  
الشوش ص ١٧ .

(١) احتكم هنا : تصرف كما يشاء .

(٢) ما : ماء .

(٣) انظر فى ترجمة أبى القاسم وشعره شعراء السودان



حتى إذا سقطت الدعوة المهدية وقام الحكم الثنائي المصري الإنجليزى بالسودان عين قاضيا لمدينة سنار سنة ١٨٩٩ للميلاد . وفى سنة ١٩٠٦ نقل إلى مديرية النيل الأزرق قاضيا ، ولمكانته العلمية وسيرته الحميدة عين سنة ١٩١٢ شيخا لعلماء السودان ، وأقنع الحكومة ببناء مسجد جديد فى أم درمان وبناء معهد دينى يلحق به ، وكان المعهد قد أنشئ منذ سنة ١٩٠١ فى جامع أم درمان لتدريس العلوم الدينية ، فجعل له مبنى مستقلا ، وجعل نظام التدريس فيه مثل نظام الأزهر ، فالطلاب يختلفون فيه إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة أربع سنوات ، وفى السنة الأخيرة ينالون شهادة العالمية ، وكان ذلك عملا جليلا للشيخ أبى القاسم ، إذ بدأ به نهضة علمية دينية فى السودان ، وظل يتعهده نحو عشرين عاما إلى وفاته . وكان شاعرا بارعا ، وله غزليات عذرية عفيفة تارة يفردها وتارة يجعلها مقدمة لمدايحه النبوية ، ومن مقدماته لإحدى تلك المدايح قوله :

ليلي بدت لما أضاء الكوكبُ      فمحت ضياءه وزال عنا الغيبُ<sup>(١)</sup>  
 واستقبلت قمرَ الزمان فناله      من حسنها الكلفُ الذى لا يذهب<sup>(٢)</sup>  
 وتفردت فى حُسْنها ودلالها      وحتوت من الأوصاف ما يُستغرب  
 فتزاحمت عشاقُ حسنِ جمالها      كلُّ لحسنِ وصالها يتطلبُ  
 والعشق صعبٌ لا يطيقُ صُروفه      إلا الذى لعذابه يستعذبُ

والشيخ أبو القاسم يقول لما بدا ضياء وجه ليلي محاضيا الكوكب لأنه أشد منه سطوعا ، واستقبلت القمر فناله من حسنها - خفرا وحياء - غضون لا تفارق وجهه أبدا . ويقول إنها انفردت بحسنها ودلالها وحتوت من أوصاف الجمال ما يخال مستغربا ، فتزاحمت عشاقها وكل يتمنى الوصال ، والعشق - بحق - صعب ، ولا يطيق أحواله وآلامه إلا من يجد عذابه مستعذبا حلوا . ويقول متغزلا :

فتورٌ بجفنى من أحب سباني      وتوريدُ خديهِ استطار جناني<sup>(٤)</sup>  
 ورقةٌ خصيرٍ واحتشامٌ شمائلٍ      حكمن بأسرى واستن هواني  
 وإن الهوى العذرى أيسرُ حاله      توقدُ نيرانٍ بغير دخانٍ  
 وإنى مذ علقْتُ ليلي بخاطري      جفيتُ منامى وافتقدتُ الأمانى  
 سلاها فهل قلبى سلاها وهل جرى      حديثٌ سواها فى فمى ولسانى

وهو يذكر أن الفتور بجفنى محبوبته أسره ، وتوريد خديها أذهله وأطار عقله ، وبالمثل رقة الخصر وحسن الخلال ، كل ذلك حكم عليه بالأسر واستن هوانه . وما أشد الهوى العذرى

(١) الغيب : الظلام .  
 (٢) كلف القمر : ما يُرى على سطحه من بعض  
 التغيرات .  
 (٤) استطار : أطار ، أذهل . الجنان : العقل .

إن أيسر أحواله توقد نيرانه في الصدر والفؤاد ، وإنه مذ أحب ليلي جفاه النوم وفقد كل أمانيه  
إلا أمنية وصالها ، وأسألاها هل سلاها قلبي وهل نطق فمي ولساني بحديث سواها ، إنها كل  
شغلي في الحياة . ويقول :

بسمت عن درُّ ثغر مستين      منع البدر ضياه أن بين  
وبدت للورد في خد نضيه      سر فراح الورد مصفر الجبين  
وأملت قدها فالبان في      خجلة يضحك منها الياسين  
ورمت باللحظ منها فأصا      بت به حب قلوب العاشقين  
فتراهم من جراحات اللوا      حظ ما بين قتييل وطعين  
هكذا من يعشق الخود الحسا      ن يذق مر الهوى عذبا معين<sup>(١)</sup>  
وكان الله قد صورها      من هوى الأنفس لا ماء وطين

فصاحبه أو محبوبته بسمت عن لآلىء ثغر واضح منع ضياء البدر أن بين ، وبدا للورد  
خدها الناضر فصار مصفر الجبين حياء وخجلا ، وأملت قدها المشوق فخجل شجر البان  
المشهور بقده الجميل خجلا يضحك منه الياسين ، ورمت بسهام لحظها فأصابت به أفدة  
العاشقين ، فتراهم من جراح السهام ما بين قتييل وجريح طعين . وهكذا من يعشق الفاتنات  
الحسان يذق مر الهوى ، ويصبح في فمه عذبا سائغا ، وكان الله صورها من هوى الأنفس  
ومحبته لا من ماء وطين كغيرها من البشر ، إنها ملاك إنسى . ويقول متغزلا :

تجنني على مقتوله وتجرمما      أشأن غزال الحسن أن يهدر الدما  
وما حيلتي والقلب أسر لحاظها      ومهما رنت مال الضمير مسلما  
فإن أقبلت فالجنة الخلد نزله      وإن أعرضت قد حل نزل جهنما<sup>(٢)</sup>  
فكيف خلاصي يا رفاقي ودأبها الـ      صدود وركن الصبر مني تهدما  
وإن قلت إني صادق الود والوفا      تقول ألا مت في صدودي متيما  
وحجرت لأنى لم أجد من عنا الهوى      خلاصا فأتجو أو إلى الوصل سلما  
وحسبي أن أحظى بطيف خيالها      إذا هي لم تسمح بوصلي تكرما

والشيخ أبو القاسم يذكر أن صاحبه تجنت على قتيلا بسهام عينيها ، وهل ذلك شأن  
الغزال الجميل أن يهدر الدماء ، ويقول ما حيلتي وقد أسرت القلب بلحاظها ، والضمير دائما  
مسلم لها مستسلم ، وإن هي أقبلت أحس القلب كأنه في منزل من منازل الجنة ، وإن هي  
أعرضت أحس كأنه في منزل من منازل الجحيم ، فكيف خلاصه ودأبها دائما الصدود

(١) معين : سائغ .

(٢) نزلا : منزلا .

والهجران وقد تهدم منه ركن الصبر الجميل ؟ . وإن قال لها ضارعا إني صادق الحب والوفا قالت له : مت في هجراني متيما بي عاشقا ، وحازَ لأنه لم يجد خلاصا من شقائه بجبها ولا طريقا إلى وصالها ، ويعود إلى نفسه قائلا : حسبي أن أحظى بطيف خيالها في الحلم ، مادامت لا تسمح بوصولها كرما وعطفا على العاشق الولهان . وغزليات الشيخ أبي القاسم - كما رأينا - سلسلة عذبة . وهي غزليات حب عذرى عفيف نقي سام ، في لغة سهلة وموسيقى وافرة حلوة .

## ٢

### شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن

أخذ الشباب السوداني الطامح في الربع الأول من القرن الحاضر يشعر شعورا عميقا بالآلام التي تعيشها أمته وأثقالها ، واقرن ذلك في نفسه يأس من أن تتحقق آماله ، وبذلك اجتمع عليه الإحساس بمرارة حياته ، والإحساس بمرارة حياة أمته ، أما مرارة حياته فقد عبر عنها الشاعر السوداني بشكوى طويلة من الزمن ، وأما مرارة حياة أمته فقد عبر عنها بنقد صارخ صور فيه قعودها عن المطالبة بحقوقها ، وهو تارة يعرض على الشباب مجد آباءه الأولين لعله يحاكيهم ويسترد شيئا من مجدهم ، وتارة ثانيا يعرض عليه عيوبه الاجتماعية والأخلاقية كي يتخلص منها ويسترد كرامته ومكانته الخليقة به ، ومن يتردد على لسانهم اللونان من النقد والشكوى من الزمن محمود أنيس المولود سنة ١٨٩٣ للميلاد ، إذ ينشد في حفل للمولد النبوي سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قوله في مدحة نبوية<sup>(١)</sup> :

زُرِعَ الجفَاءُ بنا وأثمر غرسه	فتنافر الأبناء والآباء
وتفاخرت بالمويقات صغارنا	وشيوخنا فهزأ بنا الأعداء
وتسايلت منا النفوسُ حزينة	جرّحى ونال جميعنا الإعياء
وأنا على الإسلام ماذا ناب	وهو الشفاء وما سواه شفاء

وهو يقول إن الجفاء غرس بيننا جميعا وتنافرنا حتى لقد تنافر الأبناء والآباء ، وأعجب العجب أن يفاخر الشباب والشيوخ باقتراف المحرمات مما جعل الأعداء تهزأ بنا هزأ شديدا ، وإننا ليشملنا حزن بالغ حتى لكأنا جرحى ، بل لقد نالنا جميعا الإعياء ، فواحسرتنا على الإسلام ماذا أصابه ، وهو الشفاء والبلسم لكل النفوس . وعلى نفس هذه القيثارة يقول عبد الرحمن شوقي في ذكرى الهجرة بالسنة التالية<sup>(٢)</sup> :

وراجع حديث الدكتور الشوش عن الشاعر في كتابه  
الشعر الحديث في السودان .

(١) شعراء السودان ص ٣٢٥ .

(٢) تفتات اليراع ص ١٨٤ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .

تبيتُ على الهمِّ الممضُ نفوسنا  
 ننامُ وملءُ العينُ همُّ وحسرةُ  
 فياليت شعري هل أرى النيلَ جارياً  
 وهل سأرى يوماً عن الغابِ أسدُهُ  
 وهل يُرتجى الإصلاحُ والشعبُ نائمٌ  
 ولمْ لا أرى ما بيننا غيرَ صامتٍ  
 وتمشى على جَمْرٍ من الذلِّ أضرمًا  
 وأعیننا حزنًا تفيض لنا دما  
 طليقًا كدمعي إذ يسيل مُعندما<sup>(١)</sup>  
 تذودُ إذا ما الليلُ في الغابِ أظلما  
 وهل يبلغُ الآمالَ من كان نائمًا  
 وقد آن للأحجار أن تتكلَّمًا

ونفس عبد الرحمن شوقي ونفوس أمثاله من أبناء وطنه تبيت مسهدة على هم مؤلم غاية الألم ، وكأنما إذا مشت تمشى على جمر مشتعل من الذل ، وإذا ناموا ينامون وعيونهم ملامى بالحموم والحسرات على وطنهم مكظلة حزنا لا بالدموع ولكن بدماء القلوب والأفئدة . ويتساءل هل سيرى أهل النيل طلقاء من الأسر ، والنيل يجري محملا بذهب الطمى الأحمر كعادته ، وهل سينود أسد الغاب عن عرينه الذى خيم عليه الظلام . وغمره اليأس ، فالشعب نائم ، والنائم لا يبلغ أملا من أماله ، ويعجب لصمت من حوله من أهل السودان بينما توشك الأحجار الخرساء على النطق بآمال الشعب وأمانيه . ويصرخ فى قصيدة ثانية<sup>(٢)</sup> :

مضى زمانٌ وقلبي ممتلئُ المأ  
 وفى فؤادى أسيٌّ كالنار مضطربا  
 حزنا على أمةٍ بالنيل نائمةٍ  
 تشكو الأوار وأخشى أن تموت ظمًا

فقد مر به زمان طويل وقلبه مكظ بالآلم وفؤاده ملىء بلواعج أسي مشتعل كالنار الحامية حزنا على أمة النائمة فى وديان النيل تشكو حرارة العطش ولهبه المتقد ، ويشفق لها الشاعر شفقة حزينة إذ يخشى عليها من الموت ظمًا والماء مدّ أيديها وتحت أبصارها . ومثل هذا النقد العنيف كثير فى الشعر السودانى وستترجم فيه للشيخ عبدالله محمد عمر البنا بعد قليل . ويقول الشيخ حسيب داعيا عناصر الأمة السودانية إلى وقف ما بينها من تناحر شديد<sup>(٣)</sup> :

الإتحادُ هو الحياةُ وإنما  
 كم أمةٍ نهضتْ به فتمتعت  
 ولكم تَرى من قُوَّةٍ وممالكٍ  
 تلك الشعوبُ ترومُ جمعَ شتاتها  
 إني سئمتُ النصحَ غيرَ مؤثِّرٍ  
 موتُ الشعوبِ تفرِّقُ الأفرادِ  
 بحياتها من بعد ما استعبادِ  
 نزل الشقاقُ بها لشرِّ مهادِ  
 وهنأ نبيعُ الجمعَ بالآحادِ  
 وعتابَ قومٍ فى سيناتِ رقادِ

وهو يدعو قومه السودانين إلى الاتحاد ، ويقول إن الشعوب لا تحيا بدونه إذ بدونه تفقد حياتها وتموت إلى الأبد ، وكم من أمة نهضت بالاتحاد فاستمعت بحياتها لتخلصها من نير

(١) معندما : دما أحر .

(٣) شعراء السودان ص ١٢٣ وانظر ترجمته عند الدكتور الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان ص ١١٥ .

(٢) نقثات البراع ص ١٨٧ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .



الاستعباد ، وكم من ممالك حدث بين أهلها الشقاق فوُجعت في شر أعمالها ، ولذلك تعمل جميع الشعوب على الاتحاد الدائم بين أبنائها ، بينما نحن ننقسم ونتفرق . ولقد سئمت تقديم نصحي لأمتي إذ أراه غير موثر ، وكأني أنصح وأعاتب قومًا نياما . ويقول شاكيا من الزمن وهمومه وتناوبها له همًا من وراء هم<sup>(١)</sup> :

ألفَ الهمومَ برغم - وألفنه  
لا تستقرُّ ركابُهُ في بلدةٍ  
وكأني كرةٌ ودهرى لاعبٌ  
ليصيها بي بل بها ليصيني  
لكنه مهما ارتقى لا يرتقى  
إن شاب رأسي بالخطوب فلم يشبُ  
فغدا بوايٍ والسُرورُ بوايٍ  
حتى ينادي بالرحيل مُنادي  
يرمي بها الحدَّانِ باستبدادٍ  
والدهرُ أرمى لاعبٍ ومُعادي  
لينال من صبري بِذا الإسَادِ<sup>(٢)</sup>  
عزمتُ الفتى ولا ذكى فؤادي

وكان الشيخ حسيب ، قد وُظف كاتباً في المحاكم الشرعية ، وكان رؤسائه ينقلونه من محكمة إلى أخرى في أنحاء السودان . وهو يقول إنه أصبح - منذ توظيف - تريبا للهموم يألفها وتألفه ، وفارقه السرور ، وكأنما غدا بوادٍ والسرور بوادٍ آخر . ويشكو من كثرة تنقلاته في وظيفته ، فلا يكاد يستقر في بلدة حتى يؤمر بمبارحتها إلى بلدة أخرى ، وكأنما أصبح كرة يلعب بها الزمان ، ويرمي بالنواب والأحداث ليصيها بي ، بل ليصيني بها ، والدهر أرمى لاعبٍ ومُعادي ، ولكنه مهما صنع ومهما رماني ليلا أو نهاراً فلن ينال من صبري ، وحتى لو شاب رأسي لما ينزل بي من خطوب فلن يشيب عزمتُ القوي ولا فؤادي الذكي . وله قصيدة يشكو فيها من مرتبه الضئيل ساخرا ، وفيها يقول مخاطبا لمرتبته<sup>(٣)</sup> :

أمرتني مالي أرا  
أشكوك أم أشكو إليـ  
الجيبُ خالٍ أبيضُ  
إن رمتُ صبِراً عزني  
أو رمتُ قرضاً ردني  
أو هكذا حظُّ الألي  
ك قصرتَ عن نيل المراد  
لك نوازلَ المحن الشداد  
وبياضُه عين السواد  
وأمضني طولُ السهاد<sup>(٤)</sup>  
عنه الحياءُ من العباد  
طلبوا المعالي بالمِداد

وهو يذكر لمرتبته أنه لا يكفيه لنيل المراد المطلوب ، ولا يدرى أيشكوه أم يشكو إليه ما ينزل به من المحن الصعاب ، فجيبه خالٍ أبيضٍ ليس فيه أي نقود وهو بياض في الظاهر لكنه في حقيقته أشد من السواد ، وإن طلبت صبِراً عزني ولم أستطعه ، أو فكرت في قرض ردني

(٣) شعراء السودان ص ١١٨ .  
(٤) عزني : قهرني . أمضني : آلتني .

(١) شعراء السودان ص ١٢٤ .  
(٢) الإسَاد : السير ليلا ويريد نزول الهموم به .

الحياء عن طلبه من الناس . وتتوقف لترجم للشيخ عبد الله البنا أحد شعراء النقد العنيف لأمته ،  
ولصالح عبد القادر المشارك في النقد العنيف والشكوى من الزمن .

### الشيخ عبد الله (١) البنا

هو نجل الشاعر الشيخ محمد عمر البنا المترجم له بين شعراء المديح ، رزق به سنة  
١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م وحفظ القرآن الكريم في بيته ، ثم انتظم في مدرسة رفاة الأولية ،  
وتخرج فيها فالتحق بقسم المعلمين في كلية غردون وتخرج فيه سنة ١٩١٢ واشتغل مدرسا  
بالكلية فترة ثم عمل في مدرسة أم درمان . ويقول الأستاذ علي الملك محقق ديوانه : « آخر  
عهده أنه كان رئيس شعبة اللغة العربية في المدارس العليا » . وقد تفتحت ملكته الشعرية  
مبكرة ، وسرعان ما تألق اسمه مع علمين في الشعر هما محمد سعيد العباسي وعبد الله عبد الرحمن  
وهم شعراء أفذاذ وتسئم الثلاثة ذروة الشعر السوداني في النصف الأول من القرن الحالي ،  
ولكل منهم ديوان منشور يدل على شاعرية فذة . وكما تقيدنا في الشاعر الشيخ محمد سعيد  
العباسي بما نشر من شعره قبل نهاية هذا العصر الذي نؤرخ له حتى سنة ١٩٢٤ للميلاد  
كذلك سنصنع بالشيخ عبد الله البنا مع أن له فرائد كثيرة مثل زميله بعد هذا العصر . ومن  
أروع ما أنشده له صاحب شعراء السودان ومحمد عبد الرحيم في كتابه نفثات اليراع قصيدته (٢)  
في ذكرى الهجرة النبوية التي دوّت شهرتها ، وهي في مخاطبة الهلال الذي أهل ليلة رأس  
السنة الهجرية ، وله يقول :

يَا إِذَا الْهَلَالَ عَنِ الدُّنْيَا أَوْ الدِّينِ      حَدَّثُ فَإِنْ حَدِيثًا مِنْكَ يَشْفِينِي  
خَبَّرَ عَنِ الْأَعْصُرِ الْأُولَى لِتُضْحِكُنِي      فَإِنْ أَخْبَارَ هَذَا الْعَصْرِ تُبْكِينِي

وهو يسأل الهلال أن يحدثه عن الدين أو الدنيا حتى يشفى نفسه من آلامها إزاء السودان  
وشعبه وأحواله ، وحتى يدخل السرور على نفسه المكلمة الباكية من أخبار السودان وأبنائه .  
ويرفع أمام أبصار السودانيين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ودمشق وبغداد  
وخلفائهما الذين أتاحوا للإسلام والعروبة مجدا عظيما ، لعل شيئا من سيرتهم يعود ، ويظهر  
من يحقق للأمة السودانية أو للأمة العربية عامة شيئا من هذا المجد ، ويتجه بالخطاب إلى الشعب  
السوداني منشدا :

(١) متعددة ( انظر الفهرس ) . وله ديوان باسم ديوان البنا  
( طبع الخرطوم ) .  
(٢) انظر القصيدة أيضا في كتاب شعراء الوطنية في  
السودان ص ٣٤١ والديوان ٦٤/١ .

(١) انظر في ترجمة الشيخ عبد الله البنا وشعره كتاب  
شعراء السودان ص ١٥٧ وكتاب نفثات اليراع  
ص ١٢٩ وكتاب الشعر الحديث في السودان للدكتور  
محمد إبراهيم الشوش ص ٥١ وفي مواضع مختلفة  
وكتاب تاريخ الثقافة العربية في السودان في مواضع

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبرا ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م - وكان شيخ طريقة وعالما فى الفقه والعربية والبلاغة - راثيا الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلا<sup>(١)</sup> :

سهرت جفونك والمصاب مسهد	يرثى ليلتك السليم الأرمد <sup>(٢)</sup>
ورثت لك الخنساء ، بعد متمم	ورثى لييد يوم فارق أريدا
لمصيبة صدمت فؤادى صدمة	كادت بنات الجوف منها تصعد
وجرى الدموع على الخدود كأنها	نظم جرى من سيلك متبدد
وتصدعت كبدى لها وكأنما	بجوانحى منها حريق موقد
وإذا بكيت شجى عليه فإنه	تبكى وتندبه جموع حقد <sup>(٣)</sup>
ويكى عليه ليله ونهاره	والصوم ييكى والتهجد يرعد
وبكت بقاع كان يعبد ربه	فيها فيركع ما يشاء ويسجد

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأنما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لدغ مرات ، وكان تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نويرة ، وبكاء لييد لأخيه أريد ، كل ذلك كان رثاء حارا للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أمعاؤه منها تصعد ، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حباته ، وتشققت كبده ، وكأنما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهارا وتهجده ليلا ، ويستمر يذكر أن كل شىء ييكى ، تبكىه صلاته ووضوءه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكانا مكانا ، ثم يقول - كما فى البيت الأخير - إنه عبد ربه فيها وركع وسجد له طويلا . والمرثبة بديعة . ولحمود بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشدا<sup>(٤)</sup> :

ما لراجى الخلود نيل الخلود	إن ورد المنون حتم الورود
أطيب الحياة والشيخ أمسى	غيبته مغيبات اللحد
إن مالى من اصطبار تولى	إذ تولى إنسان عين الوجود
طود علم ينحوه كل مرید	من جماه يفر كل مرید <sup>(٥)</sup>
وإذا سد باب علم عويص	كان مفتاح باب المسدود
علم الأصل والفروع إلى أن	ليس فى العلم يتغنى من مزيد

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .

(٥) مرید : شيطان .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .

(٢) السليم : الملدوغ . الأرمد : من أصاب عينه الرمى .

(٣) حقد : حاشدة .

الكريمة من العلاء والشرف والعلم ، وينصرفوا عن الملاحى والمفاسد ، ويؤدوا واجباتهم الدينية من الفروض والسنن ، حتى تصبح حياة الشعب عزيزة كريمة ، وحتى يشعر كل غنى بواجبه من عون أخيه الفقير ، وحتى لا يقعد القوى عن قيامه بواجبه لأمنه ، وحتى لا ينقبض سودانى عن بيان رأيه السيد فى كل ما يعود على الأمة السودانية بالخير . وينشد له صاحب كتاب الشعر فى السودان قصيدة<sup>(١)</sup> طويلة بعنوان : دمعة على اللغة العربية ، وهو فيها يعرض ازدهارها وعلماءها وشعراءها النابهين ورجالاتها فى العصور الماضية ، ويطيل فى بكائها وعويله على ما صارت إليه فى العصر الحاضر من ضيم شديد ، ويرد ذلك إلى ما أصاب أبناءها من النوم والهوان ، يقول :

أطلتُ عَتْبَى على الأيام حين جَنَّتْ      عليكِ فاستلبتُ أبهى مزاياكِ  
ولو أجابتُ لقاتلُ إنهم نفرٌ      ناموا فجالتُ بما ناموا سجاياكِ  
ولو أجابتُ لقاتلُ إن قومكُ قد      رضوا الهوان فطالتُ فيه سُكناكِ  
لو قَدَّروكِ لعادتُ فيكِ ناضرةً      روحُ الحياة وسرُّ الكونِ محياكِ

وهو يقول للغة العربية التى يبكيها فى قصيدته إنه أطال عتابه على الأيام لما جنت عليها وسلبتها بلاغتها الرائعة ، ويقول إن الأيام لو أجابت على هذه التهمة لتعلت بأن أبناءها ناموا على النهوض بها فتغيرت روعتها البيانية ، بل لتعلت بأنهم رضوا الهوان ، فطال سكناها له معهم ، ولو قَدَّروها فى عصرنا حق قدرها لعادت روح الحياة فى أعطاف جسمها ناضرة ، وسرُّ الكونِ عودتها إلى الحياة . والشاعر بذلك يستثير قومه للنهوض بالعربية ، فينعتهم بالنوم والهوان كى يثوروا غضبا ويحققوا للعربية كل ما يمكن من ازدهار ورونق وبهاء . وللشاعر نبويات متعددة منها نبوية طويلة شطر فيها بردة البوصيرى ، وله أيضا شعر اجتماعى كثير .

صالح<sup>(٢)</sup> عبد القادر

لا نعرف شيئا عن نشأته ، غير أنه درس فى كلية غردون ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين له ، وعكف فيها على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعر واستيقظت فيه ملكة الشعر ، وتخرج فيها وعمل موظفا بالبريد . وتغلب على أشعاره مسحة الحزن والشكوى ، ويقول محمد عبد الرحيم إنه كان دائما فى صراع مع الأيام ، يعانى من نكد العيش . ويقول الأستاذ مصطفى طيب الأسماء إنه ممن سُردوا وسُجنوا فى سبيل الوطنية، واعتُقل بمصر متهما بالاشتراك فى قتل

(١) انظر القصيدة فى ديوان البنا ٩٦/١ .

(٢) انظر فى ترجمة صالح عبد القادر وشعره نقثات اليراع ص ١٥٣ ، وشعراء السودان ص ١٤٧ ، والشعر

الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ١١٠ وكتاب دور الأدب فى النضال الوطنى فى السودان لمصطفى طيب الأسماء ص ٣١ .



السيرلى ستاك : حاكم السودان وسردار الجيش المصرى هناك ، وثبتت براءته فُرِدَّتْ إليه حرته .  
 وشعره يتوزع بين نقد عنيف لأمته وشكوى صارخة من الزمن ، ومن النوع الأول قوله فى  
 قومه : أهل السودان :

قومٌ قيامُ الفضل بين صدورهم      كقيام هودٍ بين أمةٍ هودٍ  
 لا يشعرون بما ألمَّ بشعبهم      فكأتما قُدُوا من الجُمود<sup>(١)</sup>  
 ومن الحجارة ما يلين وإنهم      لا يعبأون بقارص التنديد<sup>(٢)</sup>  
 يا أمةً غفلت وطال جُمودها      ماذا كسبت بغفلةٍ وجمودٍ

وهو يبالغ فى استنارته لأمته فيقول إن قومه لا يمكن أن يوتى الفضل ثماره بينهم فمثله  
 فيهم كمثله هود فى قومه لا يشعرون أى شعور بما حل بهم من هوان ، وكأتما خلقوا من  
 صخر ، ومن الصخر والحجارة ما يلين أما هم فلا يلينون ولا يخفون بأى تنديد مهما كان  
 شديدا عنيفا ، ويقول إنهم أحالوا دنيانا شقاءً وأغلالا ، ويهتف بأمتة ضَجِرًا غاضبا ناعتا لما  
 بالغفلة والجمود . ودائما كان يشكو من الزمن وما ينزل به من الكوارث والخطوب ، وإنه  
 ليصرخ :

ألا هل معينٌ أو مواسٍ فأشتكى      إليه همومًا بتُ عفوا لها مُلقى  
 إلى الدهر أشكو وهو عنى معرضٌ      أصمٌ فلم يسمع ولم يحسن النطقا  
 صموتٌ ويقضى كل ما لا أريده      فيا بئس ما يقضى ويا شر ما ألقى  
 وأسأله سلما فيشهر سيفه      فيا دهر ما أقسى ويا بوئس ما أبقى  
 تحملتُ طفلا منك كل عظيمه      وما العدل أنى بعد ذا علقما أسقى  
 وتطلب منى أن أغير مبدئى      فيا بُعدَ مطلوبٍ به طارت العنقا<sup>(٣)</sup>

وهو يتمنى معينا له أو مواسيا ليشتكى إليه هموما ثقلا باتت جائمة على صدره ، ويقول  
 إنه يشكو إلى الدهر ، والدهر معرض عنه كأنه أصم لا يسمع ولا ينطق ، صامت ويقضى  
 بكل ما لا أريده ، فذمما لما يقضى به ويا شر ما ألقى من الآلام الطوال ، وأضرع إليه أن يسألنى  
 فيشهر سيفه ويسله لحرى ، فما أقساه ويا بوئس ما أبقاه منى وقد تحملت كوارثه فى طفولتى  
 وليس عدلا أن يظل ينهكنى ويسقيني علقما مرا . ويطلب إليه الدهر أن يغير مبادئه حتى يجد  
 عوننا من بعض أصحاب الأمر والجاه ، فيقول إن ذلك مستحيل ، ويا بُعدَ هذا الطلب الذى  
 طارت به العنقاء إلى غير مآب . ويعود إلى الشكوى من الدهر منشدا :

(٣) العنقا : العنقاء : طائر أسطورى .

(١) قدوا : خلقوا .

(٢) قارص : لادغ .

لا تُلْمَنِي فَتَكُنْ مَتَّهِمِي      إن عَقْلِي لَمْ يَكُنْ مَتَّهِمًا  
وَلَمْ الدَّهْرَ عَلَي تَقْصِيرِهِ      أخطأ الدهرُ وعمداً ظلماً  
أبداً والله لا أعذره      طالما جارٍ وحقى هضماً<sup>(١)</sup>  
وطوانى فى زواياه التى      ضيَّعتُ ناساً ووارثاً أما  
ولكم أزعجنى منتقماً      ولكم وجهٌ نحوى تُهَمَّا

وهو يخاطب صاحبه وقد رأى ما عليه من بؤس قائلاً : لا تلمنى ولا تتهمنى فإن عقلي كما عهدته لا يأتى ما يتهم به ، ولم الدهر على تقصيره فى حقى ، فقد أخطأ فى ظلمى عمداً ولا أعذره فطالما ظلمنى وطالما نقصنى حتى وطوانى فى زواياه المظلمة التى طالما طوى فيها ناساً وأخفى أما ، ولكم أزعجنى بما يصب على من انتقامه الشديد ، ولكم وجهٌ إلى تهما ظالمة . ويتجه إلى قومه يريد أن يدفعهم إلى تلافى ما حدث لهم. منشدا :

مَنْ لِقَوْمِي ؟ إِنَّهُمْ قَدْ أَهْمَلُوا      ما بنى آباؤهم فانهلما  
غلب اليأسُ عليهم إنهم      ضعُفوا رأياً فزلوا قدماً  
يا بنى قومي أفيقوا إنكم      ما خلقتم لتعيشوا غنما  
ولقد يحزننى أنى أرى      رأيكم مختلفاً منقسماً  
فأفيقوا - يغفر الله لكم -      واطلبوا العليا وجاروا الأما

وهو يتساءل من يئبه قومي إنهم أهملوا ما شاده آباؤهم فانهدم ، وغلب عليهم اليأس من تحقيق آمالهم ، إذ ضعفوا رأياً فزلت بهم الأقدام ، ويقول يا بنى قومي أفيقوا من غفلتكم فإنكم ما خلقتم لتعيشوا غنما تتحكم فيكم الأمم ، وإنه لتحزننى فرقتكم وانقسامكم شيعاً ، فأفيقوا من هذا الهم الثقيل واتحدوا واطلبوا العليا والمجد ، وجاروا الأمم الناهضة فى حياتها العاملة الشيطنة .

### شعراء التصوف

كان التصوف شائعاً منتشراً فى العالم العربى منذ أن ظهرت طرق التصوف السنى فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وأخذت تتكاثر تلك الطرق بعد ذلك ، وكان طبيعياً أن يعم التصوف فى السودان منذ القرن العاشر الهجرى ، إذ كثر فيه بناء الخلايا الخاصة بالصوفية وكثر دعاة التصوف وخاصة دعاة الطريقتين : القادرية التى أسسها بيغداد عبد القادر

(١) هضم : نقص .

الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م والشاذلية لأبي الحسن الشاذلي التونسي المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقال - كما أسلفنا - إن الذي أدخل الطريقة القادرية إلى السودان الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي . إذ نزل السودان في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ودعا إلى تلك الطريقة وكثر أتباعه ، وشاعت بجانب الطريقة الصوفية القادرية الطريقة الشاذلية ، ويبدو أنها سبقت الطريقة القادرية في النزول بالسودان عن طريق بعض المغاربة النازلين فيه وطريق برنو وأيضا عن طريق مصر لأنها كانت شائعة بها شيوعا شديدا ، وألفت أسرة المجاذيب لها فرعا مهما في مدينة الدامر . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن في السودان أحد طوال عصر الفونج إلا يتسبب إلى إحدى الطريقتين . وقد أفضنا في الحديث عن تلك الطريقتين في صدر عرضنا للمجتمع السوداني . وأيضا عن اتساع النزعة الصوفية فيه ، وقد دعا شعراؤهم دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض متاع الدنيا انتظارا لمتاع الآخرة ، ويقول الشيخ فرح تكتوك المار ذكره والمتوفى بعصر الفونج كما أسلفنا<sup>(١)</sup> :

كم دودة في عميق الأرض في جُحْرِ	يأتي لها رزقها في الوقت والحين
ألا الزم العلم والتقوى وما نتجت	من الثمار تفر بالخرد العين
من باع دينا بدنيا واستعز بها	كأما باع فردوسا بسجين <sup>(٢)</sup>
ولقمة من طعام البر تُشبعني	وجرعة من قليل الماء ترويني
وقطعة من قليل الثوب تُسترني	إن مت تكفنتي أو عشت تكسوني

فإنه يرزق كل خلقه حتى الدود في أعماق الأرض فلا تحمل ما لجلب رزق والزم التقوى وعبادة ربك تظفر في الآخرة بالبحور جميلات العيون ، وما أشقى من يبيع متاع الآخرة بمتاع الدنيا إنه يبيع فردوسا بواد من وديان جهنم وما متاع الدنيا ؟ إن لقمة من خبز القمح تشبع الشاعر وترويه جرعة من قليل الماء ، وتكفيه قطعة من قماش تستر جسمه ، إن مات كفتته ، وإن عاش كسته . ومررنا في كتاب الأندلس أن للزاهد أبي إسحق الإلييري قصيدة ختم أبياتها بلفظ الجلالة . ويبدو أن صوفيا سودانيا رأى أن يحاكيه في هذا الصنيع ، فنظم مقطوعة ختمها بلفظ الجلالة أنشدها ودّ ضيف الله في طبقاته من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

الله لي عُدَّة في كل نائبة	أقول في كل حال حَسْبِيَ اللهُ
إلى متى أنت في لُهو وفي لعب	فما مقالك فيما يعلم الله
إن الذنوب التي قدمتها كُتبت	إن كنت ناسيتها لم ينسها الله

(٣) طبقات رد ضيف الله ص ١٥٨ -

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .

(٢) سجين : واد في جهنم .

وهو يتخذ الله عدة في كل زئبقة . وكلما نزلت به كارثة قال حسبي الله ، ويخاطب نفسه إلى متى هو في لعب وهو منصرفا عن تقوى الله الذى يعلم كل ذنوبه إذ كتبها الملكان الرقيبان عليه ، وكأنه يستحث نفسه على الرجوع إلى تقوى ربه والانصراف عن اللهو واللعب إلى النسك والعبادة . وتكثر عند المتصوفة في عصر الفونج مثل هذه المعارضات لقصائد النساك ، وقد عارضوا ابن الفارض المصرى فى بعض قصائده الصوفية ، من ذلك معارضة الشيخ الصوفى موسى لتأنيته المشهورة قائلا<sup>(١)</sup> :

سلامٌ على قومٍ إذا ذكر اسمهم تهتِكُ أستارَ إليهم بِرَجْفَةٍ  
تلاآتِ الأنوارِ من نحو خالقي بوقتِ قيامي أو جلوسى بخلوة

وهى لا تلحق تأنية ابن الفارض فى روعة الصياغة والمعانى الصوفية ، ولكنها على كل حال تدل على نزعة صوفية قوية عند الشيخ موسى وإن لم يغمسها فى نور الشهود والفناء فى الذات العلية مثل ابن الفارض . واستمر تشطير الأبيات لأئمة الصوفية طويلا ، من ذلك ما أنشده صاحب كتاب الشعراء فى السودان من تشطير على الشامى السودانى لبعض أبيات لابن الفارض ، منها قوله :

( إن كان منزلتى فى الحب عندكم ) نحولُ جسمى وآلامى وإيلامى  
أو أن يكون جزا روحى التى زهقتُ ( ما قد رأيتُ فقد ضيَّعتُ أيامى )  
( أمنيةٌ ظفرتُ روحى بها زمناً ) حتى تركتُ مقامى بين أقوامى  
كانت بأيامِ صفوٍ إذ حلتُ فخلتُ ( واليومَ أحسبها أضغاثُ أحلامِ )

وهو يقول إن كانت منزلتى فى الحب الإلهى لا تزيد عن نحول وآلام متصلة ، أو يكون هكذا جزاء روحى التى بلغت الحلقوم فقد ضيعت أيامى . وإنها لأمنية فازت بها روحى زمنا حتى نسيت قومى ، وهو زمن كانت أيامه أيام صفو وهناءة ، أياما حلوة مضت واليوم أحسبها أضغاث أحلام . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى متبتلا لربه<sup>(٢)</sup> :

يا ربُّ أنت حمايتى فتولنى يا ربُّ أنت من النوائبِ مفرعى  
جُدْ لى - وزينْ ظاهرى - بعوارفِ وباطنى نورَ المعارفِ أودع  
واقبلْ شكايَةَ فاقتى وتطلبى لنداك وارحمْ ذلتى وتوجع  
أنا عبدٌ سوءٍ أوثقته ذنوبه أنا لائدٌ بِجِمي الرَّحابِ الأوسعِ  
إن لم تكن لى من ذنوبِ أثقلتُ ظهري فما أقوى ، وأفقرَ مرتعى<sup>(٣)</sup>

(١) طبقات رد ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .  
(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى ص ٥٣ وديوان العباسى .  
(٣) مرتعى : معيشتى .

(١) طبقات رد ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .  
(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى ص ٥٣ وديوان العباسى .  
(٣) مرتعى : معيشتى .



وهو يضرع إلى ربه قائلاً أنت حمايتي فاحمني ، وأنت ملجئى من النوائب فأغثنى وجد لي  
 بإحسان منك أزيّن به ظاهرى ، وأودع بدخائلى نور المعارف ، وأقبل شكوى حاجتى لكرمك  
 الفياض ، وارحم ذلى وتوجعى لرأفتك ، إني عبد سوء من عبادك المذنبين وأنا لاأذ بحمى  
 ساحتك الواسعة ، وإن لم تكن لي وملجئى من هذه الذنوب الثقيلة فما أفقر مرتعى ومعيشتى .  
 وعارض الشيخ محمد الطاهر المجذوب يائية ابن الفارض المشهورة بقصيدة استهلها بقوله<sup>(١)</sup> :

زائرى فى الطيف هل من عودةٍ      تحى منها مهجتى بل أصغرى

والأصغرآن : القلب واللسان . وللشيخ محمد سعيد العباسى تخميس لبيتين للشبلى الصوفى  
 على هذا النمط :

هوائى أنت وهمل فى ذاك من حرج      أتم ملاذى وأتم فى الدجى سرجى

يا سادة قويت فى حبكم حجبى

( لا أبرح الباب حتى تصلحوا عوجى      وتقبلونى على عيبى ونقصانى )  
 قلبى بكم يا سراة الحى فى شغفٍ      دمعى بعهد ربوع الظاعين وفى

بالله عطفنا على صب لكم دنفٍ

( فإن رضيتم فىا عزى ويا شرفى      وإن أيتم فمن أرجو لعصيانى )

والتخميس محكم ، وشطور العباسى الستة متداخلة فى بيتى الشبلى بدقة ، إذ كان بارعا  
 فى صوغ شعره وأبياته .

#### ٤

### شعراء المدائح النبوية

تغنى كثيرون من شعراء السودان بمدائح الرسول ﷺ ، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى  
 جميع بلدان الوطن العربى ، إذ هو المثل الرفيع لكل مسلم فى تقواه وعبادته لربه وورعه . وقد  
 أخذت هذه المدائح تتكاثر بالسودان منذ القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى حتى  
 لينظم بعض الشعراء دواوين كاملة فى المديح النبوى مثل محمد عثمان الميرغنى وديوانه : « النور  
 البراق فى مدح النبى المصداق » والسيد أحمد بن إدريس وديوانه : « رياض المديح » والشيخ  
 أبى القاسم أحمد هاشم وديوانه : « روض الصفا فى مدح المصطفى » . وملتقى عند الشيخ  
 الأمين الضرير المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م بمدحة نبوية ورى فيها بسور القرآن الكريم

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

على غرار مدحة نبوية لابن جابر الأندلسي ، أنشدنا منها قطعة في ترجمته بكتابنا عن الأندلس ، ويقول الشيخ الأمين الضريير في فواتح مدحته<sup>(١)</sup> :

ما للنساء كمثل المصطفى ولدٌ	إذ منه مائدةُ الأنعام والعُقلا
أعرافه المسك والأنفال وافرّة	لمن به توبةٌ كي تُذهبَ الوجلا <sup>(٢)</sup>
به ليونسَ أنسٌ ثم هودٌ هدى	ويوسفٌ حسنه من أجله كمالا

والآيات تذكر بالترتيب سور النساء والمائدة والأنعام في البيت الأول وسور الأعراف والأنفال والتوبة في البيت الثاني وسور يونس وهود ويوسف في البيت الثالث ، واسم السورة يلتحم بمعناه في البيت ، والأعراف جمع عرف بمعنى المعروف والأنفال العطايا ، وهما اسماء السورتين بعد الأنعام ، وتتوالى السور بترتيب المصحف . ويختم القصيدة بالصلاة على الرسول ﷺ . وللشيخ أبي القاسم أحمد هاشم المترجم له في شعراء الغزل العذرى مدحة نبوية بديعة يقول فيها<sup>(٣)</sup> :

أحمدٌ ولأنت أكرمُ مرسلٍ	وأحقُّ من بمدحِهِ يُتَقَرَّبُ
أحمدٌ ما أنت إلا رحمةٌ	وبشارةٌ ، لك كلُّ خيرٍ يُنَسَّبُ
يا بنَ العوالي الشُّمُّ من مُضَرِّ ويا	سِرُّ الوجود لك الفناء الأرحبُ
يا سيدى يا خاتمَ الرسل الكرا	م ومنَّ إليك الملتجا والمهربُ
مدحتك آياتُ الكتابِ ونوّهتُ	بفضائلٍ عن دَرَكِ غيرك تُحجَبُ
كلُّ الكمال فانت غايةُ حدّه	ما نال ما قد نلتَه متقربُ

والشيخ أبو القاسم يخاطب الرسول قائلا إنه أحق مرسل يتقرب المسلم بمدحيه إلى ربه ، وقد أرسله رحمة وبشرى لعباده ، وإليه ينسب كل خير ، إنه ابن السادة العظام من مضر ، وسر الوجود جميعه ، وله المجد الأرحب ، إنه خاتم الرسل الكرام والملجأ لكل خائف فزع ، وقد مدحته آيات القرآن بمثل ( وإنك لعلی خلق عظیم ) ونوّهت له بفضائل دون غيره ، إنه عين الكمال وغايته ومنتهاه ، ولم يتل أحد من ربه ما نال من فضله . والمدحة بديعة ولم يترجم له صاحب نفثات اليراع ولم ينشد له صاحب شعراء السودان سوى هذه المدحة مع أن له ديوانا جميعه مدائح نبوية باسم « روض الصفا في مدح المصطفى » كما أسلفنا . وكان يعاصره

(١) شعراء السودان ص ٢٢ .

(٢) شعراء السودان ص ٣٣ .

(٣) الوجل : الخوف .

الشيخ عمر الأزهرى وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وسنفرده له ترجمة . وللشيخ إبراهيم هاشم مدحتان نبويتان يقول فى إحداهما<sup>(١)</sup> :

هذا محمدٌ الذى      ملأ البلاد هدىً وجاداً  
وهو الموصِّل للطريق المستقيم وللسِّداد  
وهو المبشِّر والمخذِّر والمحرِّض للجهاد  
وهو الموصِّل للسَّلا      مة فى القيامة والمعاد  
والله أعلى ذكره      وأذاعه فى كل ناد

وهو يقول إن هدى محمد ﷺ ملأ البلاد ومازال وجوده وفيضه ، وهو الموصِّل لطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، طريق الرشيد والسداد ، وهو المبشِّر بنعيم الله والمخذِّر من عذابه وجحيمه والمحرِّض للجهاد فى سبيله ، وهو الموصِّل للأمن والسلامة يوم القيامة وفى الحياة الآخرة ، وقد أعلى الله ذكره ، ونشره فى كل ناد بين الناس أجمعين . ويلقانا الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، وستترجم له عما قليل . ويقول عثمان هاشم فى الاحتفال بليلة الميلاد النبوى سنة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ م منشداً<sup>(٢)</sup> :

بجلال ذكرك تفخر الأعوام      وبحسن يومك تزدهى الأيام  
يا ليلة الميلاد حسبك مفخرا      نوراً عليه من النبى تمام  
ضاءت به الدنيا وأزهر نورها      بالمسلمين وأشرق الإسلام  
شرفاً بأحمد خير من وطىء الثرى      وله على السبع الطباق مقام  
لولاك يا بن الأكرميين لما اهتدت      تلك الشعوب ولا استقام نظام

وهو يحى ليلة ميلاد الرسول ﷺ ، ويقول لها إن الأعوام تفخر بذكرك وتنيه بيومك الأيام وحسبك مفخرا وزهوا وعظمة ما رافق الرسول فى مولده من النور العظيم . أضاءت به الدنيا وعظم نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام وتبلج فى الآفاق نوره ، شرفاً لا يماثله شرف بالرسول العظيم خير إنسان وطىء الثرى وقد صعد به ربه وأتاح له فى معراجه مقاما فوق السموات السبع ، ولولاه ما اهتدت الشعوب الإسلامية ولا استقام لها ملك ولا حكم ولا نظام . ويكى فى مدحته الإسلام مقارنا بين ماضيه وحاضره وما أصاب أقوامه وشعوبه من التخاذل . ويعود إلى تحية العام المحجرى فى قصيدة ثانية باكيا الإسلام والمسلمين وما عم بينهم من عداء وأحقاد ، ويهتف<sup>(٣)</sup> :

(٣) شعراء السودان ص ٢٢٦ .

(١) شعراء السودان ص ٥٩ .

(٢) شعراء السودان ص ٢١٧ .

غَدَتْ مَلَّةُ الْإِسْلَامِ تَبْكِي تَأْسُفًا      كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ مُسْلِمٌ  
 تَنُوحُ عَلَى أَيَّامِهَا وَشَبَابِهَا      فَيَكِي لَهَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ وَزَمَزَمٌ  
 لَقَدْ عَجِلَ الْأَعْدَاءُ كَيْدًا لَسَحَقِهَا      فَهِيَ بَيْنَ الْقَوْمِ نَهَبٌ مَقْسَمٌ  
 تَذَكَّرْتَ الصَّدِيقَ إِيَّانَ مَجْدِهَا      فَبَلَّلَهَا سَحٌّ مِنْ الدَّمْعِ مُسْجَمٌ (١)  
 تَنَادَى بِصَوْتٍ يَقَطَعُ الْقَلْبَ حَسْرَةً      دِرَاكُ أَبَا حَفْصٍ فَقَدْ كَدَتْ أُعْدَمُ

وملة الإسلام تبكى متحسرة ، كأن لم يبق فوق الأرض مسلم ، تنوح على أيامها الماضية وشباب مجدها الغابر، ويكى لها المسجد الحرام ويتر زمزم ، فقد اجتمع أعداؤها على الكيد لها، وتلك ديارها نهب مقسم بينهم . وتذكرت أبا بكر الصديق العظيم في أوائل مجدها وعزتها وذرفت الدمع مدرارا، وتغول بصوت محزون منادية الفاروق عمر بن الخطاب أدركنى قبل أن يفتك بى الأعداء. وللشيخ مدثر البوشى المولود سنة ١٩٠٣ للميلاد مدحة نبوية بديعة ، استهلها بنقد عنيف لشعبه السوداني ، يريد أن يدفعه إلى العمل والعلم على هدى الشريعة المحمدية، وينشد (٢) :

اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا يَوْمُ مَوْلَدِهِ      فَالْكَوْنُ مَبْتَهَجٌ مِنْ نَوْرِهِ الْحَسَنِ  
 حَيَّتِ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ مَشْرِقَةً      عَلَى الرَّبُوعِ بِوَجْهِ سَاطِعِ الزُّيْنِ  
 حَيَّتِ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ جَالِبَةً      لِلْبَشْرِ مَذْهَبَةً لِلْهَمِّ وَالْحَزَنِ  
 حَيَّتِ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ كَمْ رَقِصْتُ      فَيْكِ الْنَفُوسُ فَحَاكَتْ مَائِسَ الْغَصَنِ  
 حَيَّتِ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ إِنْ لَنَا      فَخْرًا بِتَجْدِيدِ ذِكْرِي خَيْرِ مُؤْتَمَنِ  
 هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ      كُلُّ الْوُجُودِ كَصَوْبِ الْعَارِضِ الْهَتَنِ

والشيخ مدثر يكبر معظما يوم مولد الرسول الذى عمت الكون بهجته من نوره الوضاء ، ويحيى ليلة ميلاده التى استحالت على الآفاق ليلة مضيئة بوجه مشرق مزدان بالأضواء والأنوار ، وقد جلبت البشر والسرور ومحت الهم والحزن ، ويقول كم رقصت فيها النفوس طربا محاكية الغصون المختالة ، وإن لنا فيها لفخرا عظيما بتمجيد ذكرى خير الرسل ، إنه النبى الذى عمت أفضاله كل الوجود كما يعم مطر السحاب الهاطل أطباق الأرض . وللشيخ مدثر همزية اختصر بها السيرة النبوية فى ١٢٣ بيتا (٣) .

#### الشيخ عمر (٤) الأزهرى

هو الشيخ عمر بن عبد الله الأزهرى ، من ذرية عقيل بن أبى طالب ، ولد سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م وتوفى سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م رُزق به أبوه الصوفى من أعمال القطارف جنوبى

(١) النبوية كتاب الشعراء فى السودان ص ٢٤٩ وراجع نفاثات البراع ص ٩٨ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش فى حديثه عن المديح النبوية وشعراء الوطنية فى السودان ص ٣١٠ وما بعدها .

(١) سح : سيل . مسجَم دائم السيلان .

(٢) شعراء السودان ص ٣٣٦ .

(٣) أنشد هذه الهمزية صاحب نفاثات البراع ص ١٧٥ .

(٤) انظر فى ترجمة الشيخ عمر الأزهرى ومدائحه



نهر عطبرة رافد النيل ، وعنى به أبوه ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه درس على شيوخ مختلفين علوم الفقه واللغة العربية . وفى سن العشرين رحل إلى القاهرة واختلف إلى حلقات شيوخ الأزهر ينهل منها ما شاء ، حتى ثقف العلوم الدينية وعلوم العربية ثقافة جيدة ، وعاد إلى موطنه وفيه عُنَى بتدريس الفقه والنحو وعلوم البلاغة ، وتقلد منصب القضاء فى عهد الدعوة المهدية وأقرته دولة الحكم الثنائى فى منصبه. وكان عالماً جليلاً وشاعراً مجيداً ، وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وفى إحداها يقول عن الرسول منوهاً به ومشيداً :

المنتقى المبعوث من بين الورى      للخلق طراً إنسه أوجاته  
لولا ما كان الوجود ولم يكن      ملكٌ ولا ملكٌ ولا أعوانه  
حتى ولم يكُ آدمٌ كلاً ولا      شيثٌ ولا نوحٌ ولا طوفانه  
ونجاً الخليلُ بجاهه من نار نم      رويد لعمري إذ جفا خلاته

وهو يصف الرسول بأنه المختار المبعوث لهداية الخلق جميعاً من الإنس والجن ، ويستضىء بشعاع ممن نوهوا قبله بالحقيقة المحمدية وأن الرسول علة الوجود ، فيقول لولاه ما كان الوجود ولا دول ولا ملوك ولا كان آدم ولا شيث ولا نوح وطوفانه . وبجاهه نجا إبراهيم الخليل من نار نمرود واستحالت بردا وسلاما . ويمضى فى القصيدة قائلاً : بجاهه نجا كلهم الله موسى من فرعون وهامانه ، وباسمه دعا ذو النون ربه فى ظلمات البحار فاستجاب له ، وبالمثل استجاب لأيوب وكشف عنه ما به من ضرر ، فهو سير الوجود الذى لولاه ما خرجت الدنيا من العدم ، وهو مبدأ الأنبياء والرسل ومنتهاهم وكل ما حدث لهم من معجزات فبفضله الأزلى ، ويقول الشيخ عمر فى نفس القصيدة :

جُمِعَتْ خِصَالُ الْمُرْسَلِينَ لَهُ كَمَا      جَمَعَ الَّذِي فِي كُتُبِهِمْ فُرْقَانَهُ  
كَمْ قَدْ عَفَا عَمَّنْ أَسَاءَ وَكَمْ هَدَى      مِنْ ضَلٍُّ عَنْ طَرُقِ الْهُدَى تَبْيَانَهُ  
يَمْشَى وَيَكْنِسُ دَارَهُ وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ      بَأْ قَدْ عَفَا وَالصَّفْحَ ذَلِكَ شَأْنَهُ  
يَا مَنْ عَلَا فَوْقَ الطَّبَاقِ وَمَنْ عَلَا الـ      رُسُلَ الْكِرَامِ هُوَ الْمَكِينُ مَكَانَهُ  
يَا سَيِّدَ الثَّقَلَيْنِ يَا مُجَلَّى الصِّدَا      يَا عَيْنَ هَذَا الْكَوْنِ بِلِإِنْسَانِهِ

وهو يقول إن كل الخصال الفاضلة للرسل جمعت له كما جمع قرآنه كل ما فى الكتب السماوية قبله . ومن صفاته الكبرى العفو وكَم هدى أناسا كانوا ضالين ببيانه الرائع ، وإنه مثال للتواضع كما حكى كتاب السيرة وقالوا إنه كان أحياناً يكنس داره ويخيط ثوبه ، وكان دأبه الصفح والعفو والغفران ، ويقول إنه علا فى معراجِهِ فوق السموات السبع وعلا الرسل وسما فوقهم ، إنه سيد الإنس من الجن ، وإنه يجلو الصدا وكل غشاوة ، وهو عين الكون

بل إنسانه الذي به يصبر . وهذه المدحة أروع مدحه الثلاث ، وهو في المدحتين الآخرين  
يعنى ببيان معجزات الرسول التي ترددها كتب السيرة .

الشيخ عبد<sup>(١)</sup> الله عبد الرحمن

ولد في جزيرة توتى المواجهة للخرطوم سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م لأبيه القاضي  
عبد الرحمن بن الأمين الضرير شيخ علماء السودان وكان شاعرا مجيدا ومرت بنا مدحة نبوية  
بديعة له ، وعني به أبوه ، فوجهه لحفظ القرآن الكريم وأتمه سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م  
ولزم أباه في تنقله قاضيا شرعيا بأبي حمد ودنقلة والقطينة ، وكان أهم أساتذته إذ درس عليه  
العربية والفقه وعلم التوحيد أو الكلام . والتحق بكلية غوردون سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م  
بقسم المعلمين والقضاة . وتخرج فيه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م وعين مدرسا للغة العربية  
بالمدراس الثانوية في وزارة المعارف السودانية . وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة وما هي  
إلا سنوات حتى اشتهر ، ومن فرائده نونية في وصف الطبيعة السودانية استهلها بقوله :

كم للطبيعة في السودان من فتنٍ وكم لأطيافها من سحرٍ ألحانٍ

وقد نظمها سنة ١٩٣٤ بعد هذا العصر الذي نؤرخ له ، وهو أحد ثلاثة أفداد من الشعراء  
السودانيين تعاصروا في النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لهم شهره مدوية في عالم  
الشعر السوداني هو ومحمد سعيد العباسي وعبد الله البنا ، ولهم جميعا شعر وطني واجتماعي  
كثير ، وكل منهم خليق بدراسة مستقلة . ويقول صاحب كتاب شعراء السودان : « له في  
المدائح النبوية الباع الطويل والقدح المعلي » وأنشد له نبوية ألقاها سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م في  
حفل المولد النبوي ، وفيها يقول :

وذاخرا للعديسم وللغنى	نبي <sup>*</sup> كان للدينا جمالا
إذا ما جئن بالأمسر الفرى <sup>(٢)</sup>	نبي <sup>*</sup> قد يُجير علي الليالي
بمنطلي اللسان على البدي	لعمرك ما النبي <sup>*</sup> - فدتك نفسى -
ولا مُهدى الملامة للمسى	ولا هليغ تززععه خطوب <sup>*</sup>
يرد عوادى الدهر العتى <sup>(٣)</sup>	ولكن قد عرفناه رءوفنا

فالنبي ﷺ كان جمالا لا يماثله جمال وكنا ماديا للفقير ومعنويا للغنى ، وكان يجير على  
الليالي إذا ما جاءت بالخطوب الخطيرة ، وكان عف اللسان حتى مع البديء المذموم ، ولم

(١) انظر في ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره  
تفئات اليراع ص ١١٥ وكتاب الشعراء في السودان ص  
١٨٧ وكتاب الشعر الحديث في السودان للدكتور محمد  
إبراهيم الشوش ص ٦٤ وما بعدها وفي مواضع مختلفة  
وكتاب الشعر والشعراء في السودان لأحمد أبوسعد  
(٢) انظر الفهرس) وله ديوان منشور من قديم .  
(٣) الفرى : المخلوق ويريد الخطير .  
(٤) عوادى الدهر : نوائبه . العتى : الجبار .

(١) انظر في ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره  
تفئات اليراع ص ١١٥ وكتاب الشعراء في السودان ص  
١٨٧ وكتاب الشعر الحديث في السودان للدكتور محمد  
إبراهيم الشوش ص ٦٤ وما بعدها وفي مواضع مختلفة  
وكتاب الشعر والشعراء في السودان لأحمد أبوسعد

يكن جَزَعًا تعصف به الخطوب الخطيرة ، وكان رقيق الحس حتى لا يلوم المسيء على إساءته ، وكانت الرأفة والرحمة ملء فؤاده ، وكان يعرف كيف يرد كوارث الدهر الجبار . ولا يلبث أن يقول في الرسول الكريم :

وهو أصلُ الوجودِ بلا مراءٍ      وهو سرُّ الحياة لكل حَيٍّ  
أتى بالملَّةِ السحابةِ يدعو      إلى الأخلاقِ والشرعِ السَّويِّ  
وأقسمُ ما سحابٌ مكفهرٌ      كأن يريقه قسَماتُ مَيٍّ<sup>(١)</sup>  
يروى الأرض من غورٍ ونجدٍ      بأجودَ من بنانِ الهاشميِّ  
وما أسدُّ له بالغيابِ زارٌ      يُصمِّمُ الأذنَ من فرطِ الدرِيِّ  
بأشجعَ منه في الهيجاءِ قلبًا      إذا برقتُ شباةُ السَّمْهَرِيِّ<sup>(٢)</sup>

والشيخ عبد الله يستلهم في البيت الأول فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ الأصل الأزلُّ للوجود قبل نشأته وكل حياة لموجود في الكون مستمدة منه . ويصف الشاعر الدين الحنيف بأنه دين سمح وأن شرعه شرع سوى عادل لا إفراط فيه ولا تفريط ، ويقسم أن السحاب المعتم لكثرة أمطاره وبريقه الذي يشبه قسَمات وجه « مَيٍّ » في ضيائه ، المرؤى للأرض في وديانها وأنجادها أو مرتفعاتها العالية ليس هذا السحاب أكرم من بنان الرسول الفائزة بالجود ، وليس الأسد الغضنفر الذي يزأر في غابه زئيرا يصمُّ دويه الأذن بأشجع من الرسول إذا حميت الحرب . وللشاعر مدحة نبوية دالية أنشد منها صاحب كتاب الشعراء في السودان مقدمتها الغزلية وقوله في وصف معجزة القرآن الخالدة :

مثنى حارت الشعراء فيها      وردت كلُّ جبارٍ عنيدٍ  
متى ما يتلها أحدٌ بنايدٍ      يقول المتتدي هل من مزيدٍ

والمثنى يريد بها آيات القرآن الكريم لأنها تعاد في السنة حفاظها . ويقول إن الشعراء حارت في روعتها البلاغية وبُهِت كل جبار معاند للرسول ورسائله ، وحين يتلوها أحد بنايدٍ يشدُّ إليها انتباه الناس ويطلبون المزيد منها لبلاغتها الرفيعة المعجزة .

(٢) شباة السمهري : حد السيف .

(١) المكفهر : الأسود المعتم .





# فهرس الكتاب

الصفحة	
١٥-٥	مقدمة
<u>القسم الأول : الجزائر</u>	
٤٩-١٩	الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ
١٩	١ - الجغرافية
٢١	٢ - التاريخ القديم
٢٣	٣ - الفتح والولاة - الأغالبة - الإباضيون - تلمسان
٣٢	٤ - الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد
٣٩	٥ - دولة الموحدين - الدولة الحفصية - بنو عبد الواد
٤٤	٦ - العهد العثماني
٧٥-٥١	الفصل الثاني : المجتمع الجزائري
٥١	١ - عناصر السكان
٥٤	٢ - المعيشة
٦١	٣ - الثراء - الرفه - الموسيقى
٦٥	٤ - الدين - المالكية والحنفية - الإباضية والصفيرية - المعتزلة
٧٣	٥ - الزهد والتصوف
١٠٩-٧٦	الفصل الثالث : الثقافة
	١ - الحركة العلمية : فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون - دور العلم - نمو
٧٦	الحركة العلمية
٨٥	٢ - علوم الأوائل
٨٩	٣ - علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد
٩٦	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
١٠٧	٥ - التاريخ
١٧٠-١١٠	الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء
١١٠	١ - تعرب الجزائر

الصفحة

- ٢ - كثرة الشعراء ..... ١١٦
- ٣ - شعراء المديح : عبد الكريم النهشلي ، عبد الله بن محمد التنوخي ( ابن قاضي ميلة ) ، ابن خميس ، محمد بن يوسف القيسي الثغري التلمساني ، الشهاب بن الخلوف ، محمد القوجيلي ..... ١٢٠
- ٤ - شعراء الفخر والهجاء ..... ١٤٩
- ( أ ) شعراء الفخر : أبو حمو موسى الثاني ..... ١٤٩-١٦٤
- ( ب ) شعراء الهجاء : بكر بن حماد التاهرتي ، سعيد المنداسي ..... ١٥٦
- ٥ - الشعراء والشعر التعليمي : عبد الرحمن الأنحزري ..... ١٦٤
- الفصل الخامس : طوائف من الشعراء ..... ١٧١-٢٢١
- ١ - شعراء الغزل : محمد أحمد الأريسي ، ابن علي ..... ١٧١
- ٢ - شعراء وصف الطبيعة : عبد الله بن محمد الجراوي - إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي التلمساني ..... ١٨٣
- ٣ - شعراء الرثاء : محمد بن علي بن حماد القلعي ..... ١٩١
- ٤ - شعراء الزهد والتصوف ..... ١٩٨
- ( أ ) شعراء الزهد والتصوف ..... ١٩٨-٢٠٩
- ( ب ) شعراء التصوف : أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي ، إبراهيم التازي ..... ٢٠٠
- ٥ - شعراء المدائح النبوية : محمد بن عبد الله العطار ..... ٢٠٩
- الفصل السادس : النثر وكتابه ..... ٢٢٢-٢٥٢
- ١ - الخطب والوصايا ..... ٢٢٢
- ٢ - الرسائل الديوانية ..... ٢٢٧
- ٣ - الرسائل الشخصية ..... ٢٣٢
- ٤ - المقامات ..... ٢٣٧
- ٥ - كبار الكتاب: أبو القاسم عبدالرحمن القالمي، الوهراني ، أبو الفضل بن محشرة ٢٤٢

القسم الثاني : المغرب الأقصى

- الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ ..... ٢٥٥-٢٩٧
- ١ - الجغرافية ..... ٢٥٥
- ٢ - التاريخ القديم ..... ٢٥٨
- ٣ - الفتح والولاء - ثورة الصفيرية - بنومدرار - الأدارسة - بعد الأدارسة والمدرارين ٢٦١

الصفحة	
٢٧٤	٤ - المرابطون - الموحدون - بنو مرين
٢٩١	٥ - السعديون - الطرق الصوفية - العلويون
٣٢٨-٢٩٨	الفصل الثاني : المجتمع المغربي
٢٩٨	١ - عناصر السكان
٣٠٥	٢ - المعيشة
٣١٢	٣ - الثراء - الرفه - الموسيقى - المرأة
٣١٩	٤ - المالكية - الصفرية - المعتزلة - الظاهرية
٣٢٨-٣٢٥	٥ - الزهاد - المتصوفة
٣٢٥	(أ) الزهاد
٣٢٦	(ب) المتصوفة
٣٧١-٣٢٩	الفصل الثالث : الثقافة
	١ - الحركة العلمية : فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون - دور العلم - نمو
٣٢٩	الحركة العلمية
٣٣٧	٢ - علوم الأوائل
٣٤٣	٣ - علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة
٣٥٤	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
٣٦٧	٥ - التاريخ
٤٣٣-٣٧٢	الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء
٣٧٢	١ - تعرب المغرب الأقصى - كثرة الشعراء
٣٩٣-٣٨١	٢ - شعراء الموشحات والأزجال
٣٨١	(أ) شعراء الموشحات : ابن غرلة ، ابن الصباغ ، ابن زاكور
٣٨٩	(ب) شعراء الأزجال : ابن عمير ، ابن شجاع التازي
	٣ - شعراء المديح : ابن زنياع ، ابن حبوس ، الجراوي ، ابن عبد المنان ، الهوزالي ،
٣٩٣	أحمد بن القاضي ، الدغوشي ، البوعناني
٤٢٨-٤٢١	٤ - شعراء الفخر والهجاء
٤٢١	(أ) شعراء الفخر : الشاذلي
٤٢٦	(ب) شعراء الهجاء
٤٢٩	٥ - الشعراء والشعر التعليمي : عبد العزيز الملزوزي ، ابن الونان

الصفحة

٤٨٤-٤٣٤	الفصل الخامس : طوائف من الشعراء
٤٣٤	١ - شعراء الغزل : أبو الربيع الموحدي ، عمر السلمى
٤٤٣	٢ - شعراء الوصف : عبد العزيز الفشتالى
٤٥٢	٣ - شعراء الرثاء : ابن شعيب الجزائى ، أبو على اليوسى : الحسن بن مسعود
٤٧٥-٤٦٢	٤ - شعراء الزهد والتصوف
٤٦٢	(أ) شعراء الزهد
٤٦٨	(ب) شعراء التصوف : ابن المحلى
٤٧٥	٥ - شعراء المدائح النبوية : ميمون بن خبازة ، مالك بن المرحل
٥٣٩-٤٨٥	الفصل السادس : النثر وكتابه
٤٨٥	١ - الخطب والمواظ
٤٩٠	٢ - الرسائل الديوانية
٤٩٩	٣ - الرسائل الشخصية
٥١٨-٥٠٣	٤ - المقامات والرحلات
٥٠٣	(أ) المقامات
	(ب) الرحلات : رحلة ابن رشيد ، رحلة العبدري ، رحلة العياشى ، رحلة ابن ناصر ، رحلة الوزير الغسانى ، رحلة محمد بن عثمان المكناسى
٥١٠	٥ - كبار الكتاب : القاضى عياض ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، ابن بطوطة ، محمد بن على الفشتالى ، محمد بن الطيب العلمى

القسم الثالث : موريتانيا

٥٥٢-٥٤٣	الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ
٥٤٣	١ - الجغرافية
٥٤٥	٢ - التاريخ
٥٦٦-٥٥٣	الفصل الثانى : المجتمع والثقافة
٥٥٥-٥٥٣	١ - المجتمع
٥٥٣	(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية
٥٥٤	(ب) الزروع والمراعى
٥٥٤	(ج) التجارة
٥٥٥	(د) حياة بدوية

٥٦٦-٥٥٦	٢ - الثقافة
٥٥٦	(أ) نشاط ديني تعليمي كبير
٥٥٧	(ب) التعليم والطلاب والشيوخ
٥٥٩	(ج) أمهات الكتب والمتون والشروح المتداولة
٥٦٠	(د) أعلام العلماء
٥٦١	(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء
٥٦٤	(و) أعلام النحاة والمتكلمين
٥٩٠-٥٦٧	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٥٦٧	١ - تعرب موريتانيا
٥٦٩	٢ - شعراء المديح : ابن رازكه، محمد اليدالي الديرمانى، حرم بن عبد الجليل العلوى
٥٨٤-٥٧٧	٣ - شعراء الفخر والهجاء
٥٧٧	(أ) شعراء الفخر : المختار بن بون ، محمد بن سيدى الايبرى
٥٨٣	(ب) شعراء الهجاء
٥٨٥	٤ - شعراء الرثاء : باب بن أحمد ييب العلوى
٦١١-٥٩١	الفصل الرابع : طوائف من الشعراء
٥٩١	١ - شعراء الغزل : الأحول الحسنى ، محمد بن الطلبة اليعقوبى ، يقوى الفاضلى
٥٩٨	٢ - شعراء التصوف : المختار الكنتى ، الشيخ سيدياً
	٣ - شعراء المدائح النبوية : مولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ، محمد بن محمد العلوى ، محمد بن حنبل
٦٠٢	
٦٠٩	٤ - الشعراء والشعر التعليمى

### القسم الرابع : السودان

٦٣٣-٦١٥	الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ
٦١٥	١ - الجغرافية
٦١٨-٦١٧	٢ - التاريخ
٦١٧	(أ) السودان فى العصور القديمة
٦١٨	(ب) السودان فى العصور الإسلامية
٦٢١	٣ - دولة الفونج
٦٢٤	٤ - محمد على والسودان - عهد إسماعيل

الصفحة	
٦٢٨	٥ - حركة المهدي - خليفته عبد الله التعايشي
٦٣٢	٦ - الحكم الثنائي المصري الإنجليزي في السودان
٦٥٣-٦٣٤	الفصل الثاني : المجتمع والثقافة
٦٤٣-٦٣٤	١ - المجتمع السوداني
٦٣٤	(أ) نزعة صوفية عامة
٦٣٨	(ب) المرأة ومكاتها في التصوف
٦٣٩	(ج) التصوف والتربية الخلقية والدينية
٦٤٠	(د) طرق صوفية جديدة
٦٤١	(هـ) دعوة المهدي ومبادئها الستة
٦٥٣-٦٤٤	٢ - الثقافة
٦٤٤	(أ) كتيب - زوايا - مساجد
٦٤٥	(ب) حركة علمية نشيطة في عهد الفونج
٦٤٦	(ج) سودانيون آزهريون وعلماء مصريون
٦٥٠	(د) التعليم المدني الحديث وتوقفه
٦٥٢	(هـ) إنشاء معهد ديني وعودة التعليم المدني الحديث
٦٧٦-٦٥٤	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٦٥٤	١ - تعرب السودان
٦٥٧	٢ - شعراء المديح : الشيخ حسين زهراء ، الشيخ محمد عمر البنا
٦٦٣	٣ - شعراء الفخر والحماسة : الشيخ يحيى السلاوي السوداني ، عثمان هاشم
٦٧٦-٦٧٠	٤ - شعراء الرثاء
٦٧٠	(أ) رثاء الأفراد : الشيخ محمد سعيد العباسي
٦٧٤	(ب) رثاء المدن
٦٩٩-٦٧٧	الفصل الرابع : طوائف من الشعراء
٦٧٧	١ - شعراء الغزل العفيف : الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وغزله العذري العفيف
٦٨٣	٢ - شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن : الشيخ عبدالله البنا ، صالح عبدالقادر
٦٩٠	٣ - شعراء التصوف
٦٩٣	٤ - شعراء المدائح النبوية : الشيخ عمر الأزهرى ، الشيخ عبد الله عبد الرحمن



## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- في الدراسات القرآنية
  - الوجيز في تفسير القرآن الكريم
    - الطبعة الأولى ١٠٥٢ صفحة
  - سورة الرحمن وسور قصار
    - عرض ودراسة الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
  - العصر الجاهلي
    - الطبعة السابعة عشرة ٤٣٦ صفحة
  - العصر الإسلامي
    - الطبعة الرابعة عشرة ٤٦١ صفحة
  - العصر العباسي الأول
    - الطبعة الثالثة عشرة ٥٧٦ صفحة
  - العصر العباسي الثاني
    - الطبعة التاسعة ٦٥٧ صفحة
  - عصر الدول والإمارات
    - الجزيرة العربية - العراق - إيران
    - الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
  - عصر الدول والإمارات
    - الشام
    - الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
  - عصر الدول والإمارات
    - مصر
    - الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة
  - عصر الدول والإمارات
    - الأندلس
    - الطبعة الثانية ٥٥٢ صفحة
  - عصر الدول والإمارات
    - ليبيا - تونس - صقلية
    - الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة
  - عصر الدول والإمارات
    - الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان
    - الطبعة الأولى
- في مكتبة الدراسات الأدبية
  - الفن ومذاهبه في الشعر العربي
    - الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة
  - الفن ومذاهبه في النثر العربي
    - الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة
  - التطور والتجديد في الشعر الأموي
    - الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
  - دراسات في الشعر العربي المعاصر
    - الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
  - شوقي شاعر العصر الحديث
    - الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
  - الأدب العربي المعاصر في مصر
    - الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
  - البارودي رائد الشعر الحديث
    - الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
  - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
    - الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
  - البحث الأدبي :
    - طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
    - الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
  - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
    - الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
  - في التراث والشعر واللغة
    - الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
  - في النقد الأدبي
    - الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

- فصول في الشعر ونقده  
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية  
● البلاغة : تطور وتاريخ  
الطبعة التاسعة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية  
الطبعة السابعة ٣٧٦ صفحة
- تجديد النحو  
الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة
- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده  
الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة
- تيسيرات لغوية  
الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة
- تحريفات العامية للفصحى  
الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة
- في مجموعة نوابغ الفكر العربي  
● ابن زيدون  
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة
- في مجموعة فنون الأدب العربي
- الرثاء  
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- المقامة  
الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات
- النقد  
الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة
- الترجمة الشخصية  
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- الرحلات  
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- في التراث المحقق
- المغرب في حلي المغرب لابن سعيد  
الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة  
الجزء الثاني - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد  
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
- كتاب الرد على النحاة  
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
- الدرر في اختصار المغازي والسير  
لابن عبد البر  
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

### في سلسلة « اقرأ »

- العقاد  
الطبعة الخامسة
- البطولة في الشعر العربي  
الطبعة الثانية
- الفكاهة في مصر  
الطبعة الثانية
- معي (١)  
الطبعة الثانية
- معي (٢)  
الطبعة الأولى





**Tārīkh Al-Adab Al-‘Arabī**

10

**Dr. SHAWQĪ DAYF**

‘Asr  
Al Dewal wa’l Imārāt



DAR AL-MAAREF